الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

المجلد السابع

الاجزاء من ١١٤ الى ١٣٣

الحَاوِي فِي التَّفْسِيرِ

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ

الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ *

محتويات الكتاب

الجزء	الموضوع	الموضوع الفرعي	الصفحة
114	سورة آل عمران	الآية 17 الى الآية 20	2
115	=	الآية 21 الى الآية 27	384
116	=	الآية 28 الى الآية 32	751
117	=	الآية 33 الى الآية 41	1088
118	=	الآية 42 الى الآية 49	1497
119	=	الآية 50 الى الآية 51	1802
120	=	الآية 52 الى الآية 61	2131
121	=	الآية 62 الى الآية 74	2506
122	=	الآية 75 الى الآية 80	2929
123	=	الآية 81 الى الآية 91	3224
124	=	الآية 92	3576
125	=	الآية 93 الى الآية 97	3871
126	=	الآية 98 الى الآية 108	4204
127	=	الآية 109 الى الآية 115	4634
128	=	الآية 116 الى الآية 120	4990
129	=	الآية 121 الى الآية 132	5297
130	=	الآية 133 الى الآية 141	5701
131	=	الآية 142 الى الآية 148	6052
132	=	الآية 149 الى الآية 152	6418
133	=	الآية 153 الى الآية	6794

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع عشر بعد المائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الرابع عشر بعد المائة

من الآية ﴿ 17 ﴾ من سورة آل عمران

وحتى الآية ﴿ 20 ﴾ من نفس السورة

(4/114)

قوله تعالى ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (17) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

قال الحرالي : ولما وصف تقوى قلوبهم باطناً وأدب مقالهم ظاهراً وصف لهم أحوال أنفسهم ليتطابق ظاهر أمرهم بمتوسطه وباطنه فقال : ﴿ الصابرين ﴾ فوصفهم بالصبر إشعاراً بما ينالهم من سجن الدنيا وشدائدها ، والصبر أمدح أوصاف النفس ، به تتحبس عن هواها وعما زين من الشهوات المذكورة بما تحقق من الإيمان بالغيب الموجب لترك الدنيا للآخرة فصبروا عن الشهوات ؛ أما النساء فبالاقتصار على ما ملكوه وأما البنون فبمراعاة أن ما تقدم خير مما تأخر ، قال صلى الله عليه وسلم - يعني فيما رواه ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه " لسقط أقدمه بين يدي أحب إليّ من فارس أخلفه خلفي " (1)

وأما الذهب والفضة فبالنظر إليها أصناماً يضر موجودها ، وبالحري أن ينال منها السلامة بنفقة لا يكاد يصل إنفاقها إلى أن يكون كفارة كسبها وجمعها ، فكان الصبر عنها أهون من التخلص منها ؛ وأما الخيل فلما يصحبها من التعزز الممد لخيلاء النفس الذي هو أشد ما على النفس أن تخرج عن زهوها وخيلائها إلى احتمال الضيم والسكون بجب الذل ، يقال : إنه آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرئاسة ؛ وأما الأنعام فبالاقتصار منها على قدر الكفاف ، لأن كل مستزيد تمولاً من الدنيا زائداً على كفاف منه من مسكن أو ملبس أو مركب أو مال فهو محجر على من سواه من عباد الله ذلك الفضل الذي هم أحق به منه ، قال صلى الله عليه وسلم : " لنا غنم مائة لا نريد أن تزيد " الحديث ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنة وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ [الحجر : 21] ؛ وأما الحرث فبالاقتصار منه على قدر الكفاية لما يكون راتباً للإلزام ومرصداً للنوائب ومخرجاً للبذر ، فإن أعطاه الله فضلاً أخرجه بوجه من وجوه الإخراج ولو بالبيع ، ولا يمسكه متمولاً لقلبه إلى غيره من الأعيان فيكون محتكراً ، قال عليه الصلاة والسلام كما أخرجه أحمد وأبو يعلى عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما " من احتكر أربعين يوماً فقد بريء من الله وبريء الله منه "

---

(1) ﴿ منكر أخرجه ابن ماجة 1607 وابن عدى فى الكامل 7 / 261 كلاهما من حديث أبى هريرة

قال البوصيرى فى الزوائد : قال المزى فى التهذيب والأطراف : يزيد لم يدرك أبا هريرة ،

ويزيد بن عبد الملك ، وإن وثقه ابن سعد فقد ضعفه أحمد وابن معين وخلف . أ هـ

وأعله ابن عدى بيزيد بن عبد الملك ، وأسند تضعيفه عن ابن معين والبخارى ، وقال أحمد : عنده مناكير ﴾

(5/114)

فبذلك يتحقق الصبر بحبس النفس عما زين للناس من التمولات من الدنيا الزائدة على الكفاف التي هي حظ من لا خلاق له في الآخرة ، ولذلك يحق أن تكون هذه الكلمات معربة بالنصب مدحاً ، لأن الصفات المتبعة للمدح حليتها النصب في لسان العرب ، وإنما يتبع في الإعراب ما كان لرفع لبس أو تخصيص - انتهى .

ولما كان سن التقوى فوق سن الإيمان عطف أمداحهم كلها بالواو إيذاناً بكمالهم في كل وصف منها وتمكنهم فيءه بخلاف ما في آية براءة على ما سيأتي إن شاء الله تعالى فقال : ﴿ والصادقين ﴾ قال الحرالي : في عطف الصفات ما يؤذن بكمال الوصف لأن العرب تعطفها إذا كملت وتتبع بعضها بعضاً إذا تركبت والتأمت ، يعني مثل : الرمان حلو حامض - إذا كان غير صادق الحلاوة ولا الحموضة ، ففي العطف إشعار بكمال صبرهم عن العاجلة على ما عينه حكم النظم ، في الآية السابقة ، ومن شأن الصابر عن الدنيا الصدق

، لأن أكثر المداهنة والمراءاة إنما ألجأ إليها التسبب إلى كسب الدنيا ، فإذا رغب عنها لم يحمله على ترك الصدق حامل فيتحقق به فيصدق في جميع أموره والصدق مطابقة أقواله وأفعاله لباطن حاله في نفسه وعرفان قلبه - انتهى ﴿ والقانتين ﴾ أي المخلصين لله في جميع أمورهم الدائمين عليه .

ولما ذكر سبحانه وتعالى العمل الحامل عليه خوف الحق ورجاؤه أتبعه ما الحامل عليه ذلك مع الشفقة على الخلق ، لأن من أكرم المنتمي إليك فقد بالغ في إكرامك فقال :

﴿ والمنفقين ﴾ أي ما رزقهم الله سبحانه وتعالى في كل ما يرضيه ، فإنه لا قوام لشيء من الطاعات إلا بالنفقة .

قال الحرالي : فيه إشعار بأن من صبر نوّل ، ومن صدق أعلى ، ومن قنت جل وعظم قدره ، فنوله الله ما يكون له منفقاً ، والمنفق أعلى حالاً من المزكي ، لأن المزكي يخرج ما وجب عليه فرضاً ، والمنفق يجود بما في يده فضلاً - انتهى .

(6/114)

ولما ذكر هذه الأعمال الزاكية الجامعة العالية أتبعها الإشارة إلى أن الاعتراف بالعجز عن الوفاء بالواجب هو العمدة في الخلاص : ﴿ والمستغفرين ﴾ أي من نقائصهم مع هذه

الأفعال والأحوال التي هي نهاية ما يصل إليه الخلق من الكمال ﴿ بالأسحار ﴾ التي هي أشق الأوقات استيقاظاً عليهم ، وأحبها راحة لديهم ، وأولاها بصفات القلوب ، وأقربها إلى الإجابة المعبر عنها في الأحاديث بالنزول كما يأتي بيانه في آية التهجد في سورة الإسراء .

قال الحرالي : وهو جمع سحر ، وأصل معناه التعلل عن الشيء بما يقاربه ويدانيه ويكون منه بوجه ما ، فالوقت من الليل الذي يتعلل فيه بدنو الصباح هو السحر ، ومنه السحور ، تعلل عن الغداء ؛ ثم قال : وفي إفهامه تهجدهم في الليل كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ كانوا قليلاً من الّيل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ [الذاريات : 17 ، 18] فهم يستغفرون من حسناتهم كما يستغفر أهل السيئات من سيئاتهم تبرؤاً من دعوى الأفعال ورؤية الأعمال التاماً بصدق قولهم في الابتداء : ﴿ ربنا إننا آمنا ﴾ وكمال الإيمان بالقدر خيره وشره ، فباجتماع هذه الأوصاف السبعة من التقوى والإيمان والصبر والصدق والقنوت والإنفاق والاستغفار كانت الآخرة خيراً لهم من الدنيا وما فيها ، وقد بان بهذا محكم آيات الخلق من متشابهها بعد الإعلام بمحكم آيات الأمر ومتشابهها ، فتم بذلك منزل الفرقان في آيات الوحي المسموع والكون المشهود - انتهى .

ولعله سبحانه وتعالى أشار بهذه الصفات الخمس المتعاطفة إلى دعائم الإسلام الخمس ، فأشار بالصبر إلى الإيمان ، وبالصدق إلى الزكاة المصدقة لدعواه ، وبالقنوت الذي مدار مادته على الإخلاص إلى الصلاة التي هي محل المراقبة ، وبالإنفاق إلى الحج الذي أعظم مقوماته المال ، وبالاستغفار إلى الصيام الذي مبناه التخلي من أحوال البشر والتحلي بحلية الملك لا سيما في القيام ولا سيما في السحر ؛ وسر ترتيبها أنه لما ذكر ما بين العبد والخالق في التوحيد الذي هو العدول أتبعه ما بينه وبين الخلائق في الإحسان ، ولما ذكر عبادة القلب والمال ذكر عبادة البدن الدالة على الإخلاص في الإيمان ، ولما ذكر عبادة البدن مجرداً بعد عبادة المال مجرداً ذكر عبادة ظاهرة مركبة منهما ، شعارها تعرية الظاهر ، ثم أتبعه عبادة بدنية خفية ، عمادها تعرية الباطن ، فختم بمثل ما بدأ به ، وهو ما لا يطلع عليه حق الاطلاع إلا الله سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 39 . 41 ﴾

وقال أبو حيان :

لما ذكر الإيمان بالقول ، أخبر بالوصف الدّال على حبس النفس على ما هو شاق عليها من التكاليف ، فصبروا على أداء الطاعة ، وعن اجتناب المحارم ، ثم بالوصف الدال على مطابقة الاعتقاد في القلب للفظ الناطق به اللسان ، فهم صادقون فيما أخبروا به من قولهم : ﴿ ربنا إننا آمنا ﴾ وفي جميع ما يخبرون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى ذكر ههنا صفات خمسة :

(8/114)

الصفة الأولى : كونهم صابرين ، والمراد كونهم صابرين في أداء الواجبات والمندوبات ، وفي ترك المحظورات وكونهم صابرين في كل ما ينزل بهم من المحن والشدائد ، وذلك بأن لا يجزعوا بل يكونوا راضين في قلوبهم عن الله تعالى ، كما قال : ﴿ الذين إِذَا أصابتهم مُّصِيبَةٌ قالوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجعون ﴾ [البقرة : 156] قال سفيان بن عيينة في قوله ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ [السجدة : 24] إن هذه الآية تدل على أنهم إنما استحقوا تلك الدرجات العالية من الله تعالى بسبب الصبر ، ويروى أنه وقف رجل على الشبلي ، فقال : أي صبر أشد على الصابرين ؟ فقال الصبر في الله تعالى ، فقال لا ، فقال : الصبر لله تعالى فقال لا فقال : الصبر مع الله تعالى ، قال : لا .

قال : فإيش ؟ قال : الصبر عن الله تعالى ، فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف .

وقد كثر مدح الله تعالى للصابرين ، فقال : ﴿ والصابرين فِى البأساء والضراء وَحِينَ البأس ﴾ [البقرة : 177] .

الصفة الثانية : كونهم صادقين ، اعلم أن لفظ الصدق قد يجري على القول والفعل والنيّة ، فالصدق في القول مشهور ، وهو مجانبة الكذب والصدق في الفعل الإتيان به وترك الانصراف عنه قبل تمامه ، يقال : صدق فلان في القتال وصدق في الحملة ، ويقال في ضده : كذب في القتال ، وكذب في الحملة ، والصدق في النيّة إمضاء العزم والإقامة عليه حتى يبلغ الفعل .

الصفة الثالثة : كونهم قانتين ، وقد فسرناه في قوله تعالى : ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قانتين ﴾ [البقرة : 238] وبالجملة فهو عبارة عن الدوام على العبادة والمواظبة عليها .

الصفة الرابعة : كونهم منفقين ويدخل فيه إنفاق المرء على نفسه وأهله وأقاربه وصلة رحمه وفي الزكاة والجهاد وسائر وجوه البر .

الصفة الخامسة : كونهم مستغفرين بالأسحار ، والسحر الوقت الذي قبل طلوع الفجر ، وتسحر إذا أكل في ذلك الوقت ، واعلم أن المراد منه من يصلي بالليل ثم يتبعه بالاستغفار

والدعاء لأن الإنسان لا يشتغل بالدعاء والاستغفار إلا أن يكون قد صلّى قبل ذلك فقوله ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ يدل على أنهم كانوا قد صلوا بالليل واعلم أن الاستغفار بالسحر له مزيد أثر في قوة الإيمان وفي كمال العبودية من وجوه الأول : أن في وقت السحر يطلع نور الصبح بعد أن كانت الظلمة شاملة للكل ، وبسبب طلوع نور الصبح كأن الأموات يصيرون أحياء ، فهناك وقت الجود العام والفيض التام ، فلا يبعد أن يكون عند طلوع صبح العالم الكبير يطلع صبح العالم الصغير ، وهو ظهور نور جلال الله تعالى في القلب والثاني : أن وقت السحر أطيب أوقات النوم ، فإذا أعرض العبد عن تلك اللذة ، وأقبل على العبودية ، كانت الطاعة أكمل والثالث : نقل عن ابن عباس ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ يريد المصلين صلاة الصبح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 175. 176 ﴾

فصل

قال القرطبى :

واختلف في معنى قوله تعالى : ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ فقال أنس بن مالك : هم السائلون المغفرة.

قتادة : المصَلّون.

قلت : ولا تناقض ، فإنهم يصلون ويستغفرون .

وخص السّحَر بالذكر لأنه مظانّ القبول ووقت إجابة الدعاء .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسير قوله تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام لبنيه : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ ربي ﴾ [يوسف : 98] : "إنه أخّر ذلك إلى السحر" خرّجه الترمذيّ وسيأتي .

وسأل النبيّ صلى الله عليه وسلم جبريل "أيّ الليل أسمع" ؟ فقال : "لا أدري غير أنّ العرش يهتزّ عند السحر" .

يقال سحر وسحر ، بفتح الحاء وسكونها ، وقال الزجاج : السحر من حين يدبر الليل إلى أن يطلع الفجر الثاني ، وقال ابن زيد : السحر هو سدس الليل الآخر .

(10/114)

قلت : أصح من هذا ما روى الأئمة عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ينزِل الله عز وجل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأوّل فيقول أنا المِلك أنا المِلك من ذا الذي يدعوني فأستجيب له من ذا الذي يسألني فأعطيه من ذا الذي يستغفرني فأغفِر له فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر " في رواية " حتى ينفجر الصبح " لفظ مسلم .

وقد اختلف في تأويله ؛ وأُولى ما قيل فيه ما جاء في كتاب النّسائيّ مفسّراً عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ الله عز وجل

يمهِل حتى يمضي شطرُ الليل الأوّل ثم يأمر مناديًا فيقول هل من داعٍ يُستجاب له هل من مستغفِرٍ يغفر له هل من سائل يُعطى " صححه أبو محمد عبد الحق ، وهو يرفع الإشكال ويوضح كل احتمال ، وأنّ الأوّل من باب حذف المضاف ، أي ينزل ملَكُ ربنا فيقول .

وقد روي "يُنزَل" بضم الياء ، وهو يبيّن ما ذكرنا ، وبالله توفيقنا .

وقد أتينا على ذكره في "الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلى" .

مسألة : الاستغفار مندوبٌ إليه ، وقد أثنى الله تعالى على المستغفرين في هذه الآية وغيرها فقال : ﴿ وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : 18] .

وقال أنس بن مالك : أُمِرنا أن نستغفر بالسحر سبعين استغفارة .

وقال سفيان الثوريّ : بلغني أنه إذا كان أوّل الليل نادى منادٍ لِيقم القانتون فيقومون كذلك يُصلّون إلى السحر ، فإذا كان عند السحر نادى مناد : أين المستغفرون فيستغفر أُولئك ، ويقوم آخرون فيصلون فيلحقون بهم .

فإذا طلع الفجر نادى منادٍ : ألا ليقم الغافلون فيقومون من فرِشهم كالموتى نُشِروا من قبورهم .

وروى عن أنس سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله يقول إني لأهمّ بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى عُمّار بيوتي وإلى المتحابّين فيّ وإلى المتهجدين والمستغفرين بالأسحار صرفت عنهم العذاب بهم " قال مكحول : إذا كان في أُمّة خمسة عشر رجلاً يستغفرون الله كل يوم خمساً وعشرين مرة لم يؤاخذ الله تلك الأُمة بعذاب العامّة .

ذكره أبو نعيم في كتاب الحِلية له .

وقال نافع : كان ابن عمر يحيي الليل ثم يقول : يا نافع أسحرنا ؟ فأقول لا .

فيعاود الصلاة ثم يسأل ، فإذا قلت نعم قعد يستغفر .

وروى إبراهيم بن حاطِب عن أبيه قال : سمعت رجلاً في السحر في ناحية المسجد يقول : يا ربّ ، أمرتني فأطعتك ، وهذا سحرٌ فاغفر لي .

فنظرت فإذا (هو) ابن مسعود .

قلت : فهذا كله يدل على أنه استغفار باللسان مع حضور القلب ، لا ما قال ابن زيد أن المراد بالمستغفرين الذين يصلون صلاة الصبح في جماعة . والله أعلم .

وقال لقمان لابنه : "يا بنيّ لا يكنِ الديك أكيسَ منك ، ينادِي بالأسحار وأنت نائم" .

والمختار من لفظ الاستغفار ما رواه البخاري عن شدّاد بن أوس ، وليس له في الجامع غيره ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "سيد الاستغفار أن تقول اللهم أنت ربّي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدِك ما استطعت أعوذ بك من شر ما

صنعتُ أَبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت قال ومَنْ قالها من النهار مُوقِنا بها فمات من يومه قبل أن يمسِي فهو من أهل الجنة ومن قالها من الليل وهو مُوقن بها فمات من ليلة قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة" .

(12/114)

وروى أبو محمد عبد الغنيّ بن سعيد من حديث ابن لَهِيعَة عن أبي صخر عن أبي معاوية عن سعيد بن جُبَيْر عن أبي الصَّهْباء البكريّ عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثم قال : "ألا أُعَلِّمك كلماتٍ تقولهنّ لو كانت ذنوبك كمَدبِّ النمل أو كمَدبِّ الذّرّ لغفرها الله لك على أنه مغفور لك : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 38 . 40 ﴾

قال الطبرى :

وأولى هذه الأقوال بتأويل قوله : "والمستغفرين بالأسحار" ، قول من قال : هم السائلون ربهم أن يستر عليهم فضيحتهم بها .

"بالأسحار" وهي جمع "سَحَر" .

وأظهر معاني ذلك أن تكون مسألتهم إياه بالدعاء . وقد يحتمل أن يكون معناه : تعرّضهم لمغفرته بالعمل والصلاة ، غيرَ أنّ أظهر معانيه ما ذكرنا من الدعاء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 267 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قوله ﴿ والصابرين والصادقين ﴾ أكمل من قوله : الذين يصبرون ويصدقون ، لأن قوله ﴿ الصابرين ﴾ يدل على أن هذا المعنى عادتهم وخلقهم ، وأنهم لا ينفكون عنها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 176 ﴾

فائدة

قال أبو حيان :

قال المفسرون في الصابرين : صبروا عن المعاصي .

وقيل : عن المصائب .

وقيل : ثبتوا على العهد الأول .

وقيل : هم الصائمون .

وقالوا في الصادقين : في الأقوال .

وقيل : في القول والفعل والنية .

وقيل : في السر والعلانية .

وقالوا في القانتين : الحافظين للغيب .

وقال الزجاج : القائمين على العبادة .

وقيل : القائمين بالحق .

وقيل : الداعين المتضرعين .

وقيل : الخاشعين .

وقيل : المصلين .

وقالوا في المنفقين : المخرجين المال على وجه مشروع .

وقيل : في الجهاد .

وقيل : في جميع أنواع البر .

وقال ابن قتيبة : في الصدقات .

وقالوا في المستغفرين : السائلين المغفرة ، قاله ابن عباس وقال ابن مسعود وابن عمر ، وأنس ، وقتادة السائلين المغفرة وقت فراغ البال وخفة الأشغال ، وقال قتادة أيضاً : المصلين

بالأسحار .

وقال زيد بن أسلم : المصلين الصبح في جماعة .

وهذا الذي فسروه كله متقارب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 418 . 419 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن الله تعالى على عباده أنواعاً من التكليف ، والصابر هو من يصبر على أداء جميع أنواعها ، ثم إن العبد قد يلتزم من عند نفسه أنواعاً أُخر من الطاعات ، وإما بسبب الشروع فيه ، وكمال هذه المرتبة أنه إذا التزم طاعة أن يصدق نفسه في التزامه ، وذلك بأن يأتي بذلك للملتزم من غير خلل ألبتة ، ولما كانت هذه المرتبة متأخرة عن الأولى ، لا جرم ذكر سبحانه الصابرين أولاً ثم قال : ﴿ الصادقين ﴾ ثانياً ، ثم إنه تعالى ندب إلى المواظبة على هذين النوعين من الطاعة ، فقال : ﴿ والقانتين ﴾ فهذه الألفاظ الثلاثة للترغيب في المواظبة على جميع أنواع الطاعات ، ثم بعد ذلك ذكر الطاعات المعينة ، وكان أعظم الطاعات قدراً أمران أحدهما : الخدمة بالمال ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام : " والشفقة على خلق الله " فذكر هنا بقوله ﴿ والمنافقين ﴾ والثانية : الخدمة بالنفس وإليه الإشارة بقوله " التعظيم لأمر الله " فذكره هنا بقوله ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ .

فإن قيل : فلم قدم ههنا ذكر المنفقين على ذكر المستغفرين ، وأخر في قوله " التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله "

قلنا : لأن هذه الآية في شرح عروج العبد من الأدنى إلى الأشرف ، فلا جرم وقع الختم بذكر المستغفرين بالأسحار ، وقوله " التعظيم لأمر الله " في شرح نزول العبد من الأشرف إلى الأدنى ، فلا جرم كان الترتيب بالعكس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 177.176 ﴾

فائدة

قال الفخر :

(14/114)

هذه الخمسة إشارة إلى تعديد الصفات لموصوف واحد ، فكان الواجب حذف واو العطف عنها كما في قوله ﴿ هُوَ الله الخالق البارىء المصور ﴾ [الحشر : 24] إلا أنه ذكر ههنا واو العطف وأظن - والعلم عند الله - أن كل من كان معه واحدة من هذه الخصال دخل تحت المدح العظيم واستوجب هذا الثواب الجزيل ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 177 ﴾

لطيفة

قال البيضاوى :

﴿ الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴾ حصر لمقامات السالك على أحسن ترتيب ، فإن معاملته مع الله تعالى إما توسل وإما طلب ، والتوسل إما بالنفس وهو منعها عن الرذائل وحبسها على الفضائل والصبر يشملهما ، وإما بالبدن ، وهو إما قولي وهو الصدق وإما فعلي وهو القنوت الذي هو ملازمة الطاعة ، وإما بالمال وهو الإنفاق في سبل الخير ، وإما الطلب فبالاستغفار لأن المغفرة أعظم المطالب بل الجامع لها وتوسيط الواو بينهما للدلالة على استقلال كل واحد منها وكمالهم فيها أو لتغاير الموصوفين بها ، وتخصيص الأسحار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة ، لأن العبادة حينئذ أشق والنفس أصفى والروع أجمع للمجتهدين . قيل إنهم كانوا يصلون إلى السحر ثم يستغفرون ويدعون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 16 ﴾

(15/114)

وقال ابن عاشور :

وقوله ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ ﴾ الآية صفات للذين اتقوا ، أو صفات للذين يقولون ،

والظاهر الأول. وذكر هنا أصول فضائل صفات المتدينين: وهي الصبر الذي هو ملاك فعل الطاعات وترك المعاصي. والصدق الذي هو ملاك الاستقامة وبث الثقة بين أفراد الأمة. والقنوت، وهو ملازمة العبادات في أوقاتها وإتقانها وهو عبادة نفسية جسدية. والإنفاق وهو أصل إقامة أود الأمة بكفاية حاج المحتاجين، وهو قربة مالية والمال شقيق النفس. وزاد الاستغفار بالأسحار وهو الدعاء والصلاة المشتملة عليه في أواخر الليل، والسحر سدس الليل الأخير؛ لأن العبادة فيد أشد إخلاصا، لما في ذلك الوقت من هدوء النفوس، ولدلالته على اهتمام صاحبه بأمر آخرته، فاختار له هؤلاء الصادقون آخر الليل لأنه وقت صفاء السرائر، والتجرد عن الشواغل.

(16/114)

وعطف الصفات في قوله: ﴿الصَّابِرِينَ﴾، وما بعده: سواء كان قوله ﴿الصَّابِرِينَ﴾ صفة ثانية، بعد قوله ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾، أم كان ابتداء الصفات بعد البيان طريقة ثانية من طريقتي تعداد الصفات في الذكر في كلامهم، فيكون، بالعطف وبدونه، مثل تعدد الأخبار والأحوال؛ إذ ليست حروف العطف بمقصورة على تشريك الذوات. وفي الكشاف؛ أن في عطف الصفات نكتة زائدة على ذكرها بدون العطف وهي الإشارة إلى

كمال الموصوف في كل صفة منها ، وأحال تفصيله على ما تقدم له في قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [البقرة : 4] مع أنه لم يبين هنالك شيئًا من هذا ، وسكت الكاتبون عن بيان ذلك هنا وهناك ، وكلامه يقتضي أن الأصل عنده في تعدد الصفات والأخبار ترك العطف فلذلك يكون عطفها مؤذنا بمعنى خصوصي ، يقصده البليغ ، ولعل وجهه أن شأن حرف العطف أن يستغنى به عن تكرير العامل فيناسب المعمولات ، وليس كذلك الصفات ، فإذا عطفت فقد نزلت كل صفة منزلة ذات مستقلة ، وما ذلك إلا لقوة الموصوف في تلك الصفة ، حتى كأن الواحد صار عددا ، كقولهم واحد كألف ، ولا أحسب لهذا الكلام تسليما . وقد تقدم عطف الصفات عند قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ في سورة البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 43 ﴾

(17/114)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ ﴾

لِاتِّصَالِ هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا قَبْلَهَا وُجُوهٌ : أَحَدُهَا مَبْنِيٌّ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ بِضْعًا وَثَمَانِينَ آيَةً مِنْ أَوَّلِ

هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ فِي وَفْدِ نَصَارَى نَجْرَانَ . وَرَوَى أَصْحَابُ السِّيَرِ أَنَّ هَذَا الْوَفْدَ كَانَ سِتِّينَ رَاكِبًا ، وَأَنَّهُمْ دَخَلُوا الْمَسْجِدَ النَّبَوِيَّ وَعَلَيْهِمْ ثِيَابُ الْحِبَرَاتِ وَأَرْدِيَةُ الْحَرِيرِ ، وَفِي أَصَابِعِهِمْ خَوَاتِمُ الذَّهَبِ ، وَطَفِقُوا يُصَلُّونَ صَلَاتَهُمْ ، فَأَرَادَ النَّاسُ مَنْعَهُمْ ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : دَعُوهُمْ ثُمَّ عَرَضُوا هَدِيَّتَهُمْ عَلَيْهِ وَهِيَ بُسُطٌ فِيهَا تَصَاوِيرُ وَمُسُوحٌ فَقَبِلَ الْمُسُوحَ دُونَ الْبُسُطِ .

وَلَمَّا رَأَى فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ مَا عَلَى هَؤُلَاءِ مِنَ الزِّينَةِ تَشَوَّفَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَى الدُّنْيَا فَنَزَلَتِ الْآيَةُ .

(18/114)

كَذَا قَالَ بَعْضُهُمْ ، وَهُوَ مَا يَذْكُرُهُ أَهْلُ السِّيَرِ وَلَا يَخْفَى ضَعْفُهُ . وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنَّ رَئِيسَ وَفْدِ نَجْرَانَ ذَكَرَ فِي حَدِيثِهِ مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ يَمْنَعُهُ مِنَ الِاعْتِرَافِ بِأَنَّهُ هُوَ النَّبِيُّ الْمُبَشَّرُ بِهِ وَبِصِدْقِهِ أَنَّ هِرَقْلَ مَلِكَ الرُّومِ أَكْرَمَ مَثْوَاهُ وَمَتَّعَهُ وَأَنَّهُ يَسْلُبُهُ مَا أَعْطَاهُ مِنْ مَالٍ وَجَاهٍ إِذَا هُوَ آمَنَ . فَبَيَّنَ - تَعَالَى - أَنَّ مَا زُيِّنَ لِلنَّاسِ مِنْ حُبِّ الشَّهَوَاتِ حَتَّى صَرَفَهُمْ عَنِ الْحَقِّ لَا خَيْرَ فِيهِ . وَقَالَ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ : إِنَّا رُوِّينَا أَنَّ أَبَا حَارِثَةَ بْنَ عَلْقَمَةَ النَّصْرَانِيَّ اعْتَرَفَ لِأَخِيهِ بِأَنَّهُ يَعْرِفُ صِدْقَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي قَوْلِهِ إِلَّا أَنَّهُ لَا يُقِرُّ بِذَلِكَ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ مُلُوكُ الرُّومِ الْمَالَ وَالْجَاهَ . (قَالَ) وَرُوِّينَا أَنَّهُ - عَلَيْهِ

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لَمَّا دَعَا الْيَهُودَ إِلَى الْإِسْلَامِ بَعْدَ غَزْوَةِ بَدْرٍ أَظْهَرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمُ الْقُوَّةَ وَالشِّدَّةَ وَالِاسْتِظْهَارَ بِالْمَالِ وَالسِّلَاحِ، فَبَيَّنَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ وَغَيْرَهَا مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا بَاطِلَةٌ وَأَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى . اهـ .

(19/114)

وَمِنْهَا مَا هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي تَقْرِيرِ أَمْرِ التَّوْحِيدِ وَمَا يَتْبَعُهُ، وَالِاتِّصَالُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ أَظْهَرُ ; فَإِنَّهُ بَعْدَمَا بَيَّنَ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمُ الَّتِي أَعْرَضُوا عَنِ الْحَقِّ لِأَجْلِهَا بَيَّنَ وَجْهَ غُرُورِهِمْ بِهَا لِلتَّحْذِيرِ مِنْ جَعْلِهَا آلَةً لِلْغُرُورِ وَتَرْكِ الْحَقِّ ، وَلِلتَّذْكِيرِ بِأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَشْغَلَ الْإِنْسَانَ عَنِ الْآخِرَةِ .

وَمِنْهَا - وَهُوَ الْمُخْتَارُ عِنْدَ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ - إِنَّهُ لَمَّا كَانَ الْكَلَامُ السَّابِقُ يَتَضَمَّنُ وَعِيدَ الْكَافِرِينَ جَاءَ بَعْدَهُ بِوَعْدِ الْمُتَّقِينَ، وَجَعَلَ لَهُ مُقَدِّمَةً بَيَّنَ فِيهَا جَمِيعَ أُصُولِ اللَّذَّاتِ الَّتِي يَتَمَتَّعُ بِهَا النَّاسُ بِحَسَبِ غَرَائِزِهِمْ تَمْهِيدًا لِتَعْظِيمِ شَأْنِ مَا بَعْدَهَا مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ . أَقُولُ : يَعْنِي أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ ذَمَّهَا وَالتَّنْفِيرَ عَنْهَا ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ التَّحْذِيرُ مِنْ أَنْ تُجْعَلَ هِيَ غَايَةَ الْحَيَاةِ .

وَالنَّاسُ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - : زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ هُمُ الْمُكَلَّفُونَ ; لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي إِرْشَادِهِمْ، فَلَا مَعْنَى لِلْبَحْثِ فِي الْأَطْفَالِ هُنَا .

وَالشَّهَوَاتُ: جَمْعُ شَهْوَةٍ وَهِيَ انْفِعَالُ النَّفْسِ بِالشُّعُورِ بِالْحَاجَةِ إِلَى مَا تَسْتَلِذُّهُ، وَالْمُرَادُ بِهَا هُنَا الْمُشْتَهَيَاتُ عَلَى طَرِيقِ الْمُبَالَغَةِ، وَهِيَ شَائِعَةُ الِاسْتِعْمَالِ، يُقَالُ: هَذَا الطَّعَامُ شَهْوَةُ فُلَانٍ، أَيْ مُشْتَهَاهُ. وَمَعْنَى تَزْيِينِ حُبِّهَا لَهُمْ: أَنَّ حُبَّهَا مُسْتَحْسَنٌ عِنْدَهُمْ لَا يَرَوْنَ فِيهِ شَيْئًا (قُبْحًا) وَلَا غَضَاضَةً، وَقَدْ يُحِبُّ الْإِنْسَانُ الشَّيْءَ وَهُوَ يَرَاهُ مِنَ الشَّيْنِ لَا مِنَ الزَّيْنِ وَمِنَ الضَّارِّ لَا مِنَ النَّافِعِ، وَيَوَدُّ لِذَلِكَ لَوْ لَمْ يَكُنْ يُحِبُّهُ، وَمَثَّلَ لِذَلِكَ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ بِحُبِّ الْمُسْلِمِ لِبَعْضِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَمَثَّلَ لَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ بِحُبِّ بَعْضِ النَّاسِ لِلدُّخَانِ عَلَى تَأَذِّيهِ مِنْهُ، فَكُلٌّ مِنْ هَذَيْنِ الْمُحِبَّيْنِ يَوَدُّ لَوِ انْقَلَبَ حُبُّهُ كُرْهًا وَبُغْضًا، وَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا وَلَمْ يُزَيَّنْ لَهُ يُوشِكُ أَنْ يَرْجِعَ عَنْ حُبِّهِ يَوْمًا، وَأَمَّا مَنْ زُيِّنَ لَهُ حُبُّهُ الشَّيْءَ فَلَا يَكَادُ يَرْجِعُ عَنْهُ ; لِأَنَّ ذَلِكَ مُنْتَهَى الْحُبِّ، وَصَاحِبُهُ لَا يَكَادُ يَفْطِنُ لِقُبْحِهِ وَضَرَرِهِ إِنْ كَانَ قَبِيحًا أَوْ ضَارًّا، وَلَا يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ وَإِنْ تَأَذَّى بِهِ. قَالَ الْمَجْنُونُ:

وَقَالُوا لَوْ تَشَاءُ سَلَوْتَ عَنْهَا . . . فَقُلْتُ لَهُمْ: وَإِنِّي لَا أَشَاءُ

وَلِذَلِكَ قَالَ - تَعَالَى -: أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ [47 : 14] وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي إِسْنَادِ التَّزْيِينِ فِي هَذَا الْمَقَامِ

فَأَسْنَدَهُ بَعْضُهُمْ إِلَى الشَّيْطَانِ ; لِأَنَّ حُبَّ الشَّهَوَاتِ مَذْمُومٌ لَا سِيَّمَا وَقَدْ أُطْلِقَتْ هُنَا فَدَخَلَ فِيهَا الْمُحَرَّمَاتُ فِي رَأْيِهِمْ ; وَلِأَنَّ حُبَّ كَثْرَةِ الْمَالِ مَذْمُومٌ فِي الدِّينِ بِحَسَبِ فَهْمِهِمْ لَهُ ; وَلِأَنَّهُ سَمَّى ذَلِكَ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهِيَ مَذْمُومَةٌ عِنْدَهُمْ ; وَلِأَنَّهُ فَضَّلَ عَلَيْهِ مَا أَعَدَّهُ لِلْمُتَّقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيُؤْثَرُ هَذَا الْإِسْنَادُ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ . وَأَسْنَدَهُ بَعْضُهُمْ إِلَى اللهِ - تَعَالَى - ; لِأَنَّهُ - تَعَالَى - أَبَاحَ الزِّينَةَ وَالطَّيِّبَاتِ وَأَنْكَرَ عَلَى مَنْ حَرَّمَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ [7 : 32] فَجَعَلَ إِبَاحَتَهَا فِي الدُّنْيَا غَيْرَ مُنَافِيَةٍ لِنَيْلِهَا فِي الْآخِرَةِ ; وَلِأَنَّهَا قَدْ تَكُونُ وَسَائِلَ لِلْآخِرَةِ بِتَكْثِيرِ النَّسْلِ وَكَثْرَةِ الصَّدَقَاتِ وَالْمَبَرَّاتِ وَالْجِهَادِ ، وَعُزِيَ هَذَا الْقَوْلُ إِلَى الْمُعْتَزِلَةِ . وَقَالَ بَعْضُ الْمُعْتَزِلَةِ بِالتَّفْصِيلِ ، فَقَسَّمَ الشَّهَوَاتِ إِلَى مَحْمُودَةٍ وَمَذْمُومَةٍ أَوْ مُبَاحَةٍ وَمُحَرَّمَةٍ . وَقَالَ : إِنَّ اللهَ زَيَّنَ الْقِسْمَ الْأَوَّلَ ، وَالشَّيْطَانَ زَيَّنَ الْقِسْمَ الثَّانِي . أَقُولُ : وَغَفَلَ الْجَمِيعُ عَنْ كَوْنِ الْكَلَامِ فِي طَبِيعَةِ الْبَشَرِ وَبَيَانِ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ فِي نَفْسِهِ لَا فِي جُزْئِيَّاتِهِ وَأَفْرَادِ وَقَائِعِهِ . فَالْمُرَادُ أَنَّ اللهَ - تَعَالَى - أَنْشَأَ النَّاسَ عَلَى هَذَا وَفَطَرَهُمْ عَلَيْهِ ،

وَمِثْلُ هَذَا لَا يَجُوزُ إِسْنَادُهُ إِلَى الشَّيْطَانِ بِحَالٍ وَإِنَّمَا يُسْنَدُ إِلَيْهِ مَا قَدْ يُعَدُّ هُوَ مِنْ أَسْبَابِهِ كَالْوَسْوَسَةِ الَّتِي تُزَيِّنُ لِلْإِنْسَانِ عَمَلًا قَبِيحًا ; وَلِذَلِكَ لَمْ يُسْنِدْ إِلَيْهِ الْقُرْآنُ إِلَّا تَزْيِينَ الْأَعْمَالِ . قَالَ - تَعَالَى - : وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ [8 : 48] الْآيَةَ ، وَقَالَ : وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [6 : 43] وَأَمَّا الْحَقَائِقُ وَطَبَائِعُ الْأَشْيَاءِ فَلَا تُسْنَدُ إِلَّا إِلَى الْخَالِقِ الْحَكِيمِ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ . قَالَ - عَزَّ وَجَلَّ - : إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا [18 : 7] وَقَالَ : كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ [6 : 108] فَالْكَلَامُ فِي الْأُمَمِ كَلَامٌ فِي طَبَائِعِ الِاجْتِمَاعِ وَفِي هَذَا الْمَعْنَى آيَاتٌ أُخْرَى .

ثُمَّ بَيَّنَ الْمُشْتَهَيَاتِ الَّتِي يُحِبُّهَا النَّاسُ وَحُبُّهَا مُزَيَّنٌ لَهُمْ وَلَهُ مَكَانَةٌ مِنْ نُفُوسِهِمْ بِقَوْلِهِ : مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ فَهَذِهِ سِتَّةُ أَنْوَاعٍ : (أَوَّلُهَا) النِّسَاءُ وَحُبُّهُنَّ لَا يَعْلُوهُ حُبٌّ لِشَيْءٍ آخَرَ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا فَهُنَّ مَطْمَحُ النَّظَرِ وَمَوْضِعُ الرَّغْبَةِ وَسَكَنُ النَّفْسِ وَمُنْتَهَى الْأُنْسِ ، وَعَلَيْهِنَّ يُنْفَقُ أَكْثَرُ مَا يَكْسِبُ الرِّجَالُ فِي كَدِّهِمْ وَكَدْحِهِمْ ، فَكَمِ افْتَقَرَ فِي

حُبِّهِنَّ غَنِيٌّ ! وَكَمِ اسْتَغْنَى بِالسَّعْيِ لِلْحُظْوَةِ عِنْدَهُمْ فَقِيرٌ ! وَكَمْ ذَلَّ بِعِشْقِهِنَّ عَزِيزٌ ! وَكَمُ ارْتَفَعَ فِي طَلَبِ قُرْبِهِنَّ وَضِيعٌ ! ! وَلَعَلَّ فِي الْقَارِئِينَ مَنْ يُحِبُّ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ يَغْنَى الْفَقِيرُ وَيَرْتَفِعُ الْوَضِيعُ بِسَبَبِ حُبِّ النِّسَاءِ - إِذَا كَانَ لَا يُوجَدُ فِيهِمْ مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ كَيْفَ يَذِلُّ الْعَاشِقُ وَيَفْتَقِرُ - فَنَقُولُ : إِنَّ مَنْ يُحِبُّ ذَاتَ شَرَفٍ وَرِفْعَةٍ وَيَرَى أَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى الِاقْتِرَانِ بِهَا إِلَّا بِتَحْصِيلِ الْمَالِ وَتَسَنُّمِ غَارِبِ الْمَعَالِي يُوَجِّهُ جَمِيعَ قُوَاهُ إِلَى ذَلِكَ ، وَلَا يَزَالُ بِهِ حَتَّى يَنَالَهُ ، وَلَمْ يَذْكُرْ حُبَّ النِّسَاءِ لِلرِّجَالِ عَلَى أَنَّ حُبَّهُنَّ لَهُمْ مِنْ نَوْعِ حُبِّهِمْ لَهُنَّ ، وَلَكِنَّ الْحُبَّ لَا يُبَرِّحُ بِالنِّسَاءِ تَبْرِيحَهُ بِالرِّجَالِ ; فَالْمَرْأَةُ أَقْدَرُ عَلَى ضَبْطِ حُبِّهَا وَكِتْمَانِهِ وَضَبْطِ نَفْسِهَا وَحِفْظِ مَالِهَا وَإِنَّكَ لَتَسْمَعُ بِأَخْبَارِ الْمِئِينَ وَالْأُلُوفِ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ افْتَقَرُوا أَوِ احْتُقِرُوا أَوْ جُنُّوا فِي حُبِّ النِّسَاءِ ، وَلَا تَجِدُ فِي مُقَابِلَتِهِمْ عَشْرَ نِسْوَةٍ قَدْ مُنِينَ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي حُبِّ الرِّجَالِ . ثُمَّ إِنَّ الرِّجَالَ هُمُ الْقَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ لِقُوَّتِهِمْ وَقُدْرَتِهِمْ عَلَى الْحِمَايَةِ وَالْكَسْبِ ، فَإِسْرَافُهُمْ فِي الْحُبِّ وَاسْتِهْتَارُهُمْ فِي الْعِشْقِ لَهُ الْأَثَرُ الْعَظِيمُ فِي شُئُونِ الْأُمَّةِ وَفِي إِضَاعَةِ الْحَقِّ أَوْ حِفْظِهِ . فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ حُبَّ الْوَلَدِ أَشَدُّ مِنْ حُبِّ الْمَرْأَةِ فَلِمَاذَا قَدَّمَ ذِكْرَ النِّسَاءِ ؟ أَقُولُ : إِنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ

كَذَلِكَ ، فَإِنَّ حُبَّ الْوَلَدِ – وَإِنْ كَانَ لَا يَزُولُ وَحُبُّ الْمَرْأَةِ قَدْ يَزُولُ – لَا يَعْظُمُ فِيهِ الْغُلُوُّ وَالْإِسْرَافُ كَحُبِّهَا ، وَكَمْ مِنْ رَجُلٍ جَنَى عِشْقُهُ لِلْمَرْأَةِ عَلَى أَوْلَادِهِ حَتَّى إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ تَزَوَّجُوا بِأَكْثَرَ مِنَ امْرَأَةٍ ، فَعَشِقُوا وَاحِدَةً وَمَلُّوا أُخْرَى قَدْ أَهْمَلُوا تَرْبِيَةَ أَوْلَادِ الْمَمْلُولَةِ ، وَحَرَمُوهُمُ الرِّزْقَ مِنْ حَيْثُ أَفَاضُوا نَصِيبَهُمْ عَلَى أَوْلَادِ الْمَحْبُوبَةِ ، وَهَذَا مِنْ أَسْبَابِ تَحْرِيمِ التَّزَوُّجِ بِأَكْثَرَ مِنْ وَاحِدَةٍ عَلَى مَنْ يَخَافُ أَلَّا يَعْدِلَ ، فَكَيْفَ بِمَنْ يُوقِنُ بِذَلِكَ وَيَعْزِمُ عَلَيْهِ ؟ وَكَمْ مِنْ غَنِيٍّ عَزِيزٍ يَعِيشُ أَوْلَادُهُ عِيشَةَ الْفُقَرَاءِ الْأَذِلَّاءِ لِعِشْقِ وَالِدِهِمْ لِغَيْرِ أُمِّهِمْ مِنْ نِسَائِهِ وَإِنْ مَاتَتْ أُمُّهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لِلْمَعْشُوقَةِ وَلَدٌ ، وَمَا هُوَ إِلَّا مَحْضُ التَّقَرُّبِ وَابْتِغَاءُ الزُّلْفَى إِلَى الْمَرْأَةِ .

أَمَّا السَّبَبُ فِي كَوْنِ حُبِّ الرَّجُلِ لِلْمَرْأَةِ أَقْوَى مِنْ حُبِّهَا لَهُ فَهُوَ أَنَّ السَّبَبَ الطَّبِيعِيَّ لِهَذَا الْحُبِّ هُوَ دَاعِيَةُ النَّسْلِ لَا قَصْدُهُ ، وَالدَّاعِيَةُ فِي الرَّجُلِ أَقْوَى وَأَشَدُّ ; وَلِذَلِكَ تَرَاهُ يُشْغَلُ بِهَا إِذَا بَلَغَ سِنًّا أَكْثَرَ مِنَ الْمَرْأَةِ عَلَى كَثْرَةِ شَوَاغِلِهِ الصَّارِفَةِ لَهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ الَّذِي يَطْلُبُ الْمَرْأَةَ وَيَبْذُلُ جُهْدَهُ وَمَالَهُ فِي سَبِيلِهَا مُوَطِّنًا نَفْسَهُ عَلَى أَنْ يُمَوِّنَهَا وَيَصُونَهَا

وَيَتَحَمَّلَ أَثْقَالَهَا طُولَ الْحَيَاةِ وَمَا عَلَيْهَا هِيَ إِلَّا الْقَبُولُ ، فَإِنْ طَلَبَتْ أَجْمَلَتْ فِي الطَّلَبِ ، وَإِنْ شِئْتَ دَلِيلًا آخَرَ عَلَى أَنَّ دَاعِيَةَ النَّسْلِ فِيهِ أَقْوَى ، فَتَأَمَّلْ تَجِدْهُ مُسْتَعِدًّا لَهَا فِي كُلِّ حَالٍ طُولَ عُمْرِهِ ، وَالْمَرْأَةُ تَفْقِدُ هَذَا الِاسْتِعْدَادَ فِي زَمَنِ الْحَيْضِ وَبَعْدَ سِنِّ الْيَأْسِ مِنَ الْحَيْضِ الَّذِي يَكُونُ غَالِبًا مِنْ سِنِّ الْخَمْسِينَ إِلَى الْخَامِسَةِ وَالْخَمْسِينَ .

فَإِذَا قَبِلَتِ الْمَرْأَةُ الرَّجُلَ بَعْدَ هَذَا كَانَ قَبُولُهَا إِيَّاهُ مِنْ بَابِ التَّوَدُّدِ وَالْعُتْبَى أَوْ إِثَارَةِ الذِّكْرَى ، وَلَا يَدْخُلُ فِي السَّبَبِ مَا هُوَ مُسَلَّمٌ عِنْدَ أَكْثَرِ الرِّجَالِ مِنْ كَوْنِ النِّسَاءِ أَوْفَرَ نَصِيبًا مِنَ الْحُسْنِ وَقِسْمًا مِنَ الْقَسَامَةِ وَالْجَمَالِ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ الْمُسَلَّمَةَ غَيْرُ صَحِيحَةٍ ، فَإِنَّ الرِّجَالَ أَكْمَلُ وَأَجْمَلُ خَلْقًا كَمَا هِيَ الْقَاعِدَةُ فِي سَائِرِ الْحَيَوَانِ ، إِذْ نَرَى أَنَّ خِلْقَةَ الذَّكَرِ مِنْهَا أَجْمَلُ وَأَكْمَلُ مِنْ خِلْقَةِ الْأُنْثَى ، كَمَا نَرَاهُ فِي الشُّيُوخِ وَالْعَجَائِزِ مِنَ النَّاسِ ، بَلْ نَرَى الْأَبْيَضَ الْقُوقَاسِيَّ يُفَضِّلُ خِلْقَةَ رِجَالِ الزُّنُوجِ عَلَى نِسَائِهِمْ ; لِأَنَّهُ قَلَّمَا يَشْتَهِي الزِّنْجِيَّاتِ فِي حَالِ الِاعْتِدَالِ ، فَمُعْظَمُ حُسْنِ الْمَرْأَةِ وَجَمَالِهَا إِنَّمَا جَاءَ مِنْ زِيَادَةِ حُبِّ الرَّجُلِ إِيَّاهَا .

فَمَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ الْمَعَانِيَ وَالْفُرُوقَ فِي حُبِّ كُلٍّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ لِلْآخَرِ يَسْهُلْ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِحُبِّ النِّسَاءِ حُبُّ الزَّوْجِيَّةِ الَّذِي يَكُونُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَالرَّجُلِ فَذَكَرَ أَقْوَى طَرَفَيْهِ لِأَنَّ

قَصْدَ التَّمَتُّعِ فِيهِ أَظْهَرُ، وَأَثَرُهُ فِي الصَّرْفِ عَنِ الْحَقِّ أَوْ الِاشْتِغَالِ عَنِ الْآخِرَةِ أَقْوَى، وَطَوَى الطَّرَفَ الثَّانِي، وَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي النَّوْعِ الثَّانِي مِنَ الْحُبِّ الْمُزَيَّنِ لِلنَّاسِ وَهُوَ حُبُّ الْوَلَدِ، فَكَأَنَّ فِي الْآيَةِ احْتِبَاكًا، وَلَيْسَ عِنْدِي فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بَلْ وَلَا فِي الْآيَةِ شَيْءٌ عَنِ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - إِلَّا مَا سَيَأْتِي فِي حُبِّ الْوَلَدِ.

(27/114)

(النَّوْعُ الثَّانِي حُبُّ الْبَنِينَ) أَيِ الْأَوْلَادِ، فَاكْتَفَى بِذِكْرِ مَا كَانَ حُبُّهُ أَقْوَى وَالْفِتْنَةُ بِهِ أَعْظَمَ عَلَى طَرِيقِ التَّغْلِيبِ أَوْ لِدَلَالَةِ مَا حُذِفَ فِيمَا قَبْلَهُ عَلَيْهِ كَدَلَالَتِهِ هُوَ عَلَى مَا حُذِفَ مِمَّا قَبْلَهُ عَلَى طَرِيقِ الِاحْتِبَاكِ أَوْ شِبْهِ الِاحْتِبَاكِ، وَأَخَّرَ فِي الذِّكْرِ عَنْ حُبِّ النِّسَاءِ لِمَا تَقَدَّمَ وَلِتَأَخُّرِهِ فِي الْوُجُودِ إِذِ الْأَوْلَادُ مِنَ النِّسَاءِ. قُلْنَا: إِنَّ الْعِلَّةَ الطَّبِيعِيَّةَ لِحُبِّ النِّسَاءِ أَوِ الْأَزْوَاجِ هِيَ دَاعِيَةُ النَّسْلِ، فَهَذِهِ الدَّاعِيَةُ تُحْدِثُ فِي النَّفْسِ انْفِعَالًا يُحَفِّزُ صَاحِبَهُ إِلَى الزَّوَاجِ. وَأَمَّا حُبُّ الْأَوْلَادِ فَيَكَادُ يَكُونُ كَحُبِّ النَّفْسِ لَا عِلَّةَ لَهُ غَيْرُ ذَاتِهِ إِلَّا أَنْ نَقُولَ: إِنَّ عَاطِفَةَ رَحْمَةِ الْوَالِدَيْنِ بِالْوَلَدِ - مُنْذُ يُولَدُ - هِيَ غَيْرُ عَاطِفَةِ حُبِّهِمَا لَهُ وَهِيَ عِلَّتُهُ، وَلَكِنَّ حِكْمَةَ الْخَالِقِ فِي حُبِّ الزَّوْجِيَّةِ وَحُبِّ الْوَلَدِ وَاحِدَةٌ،

وهِيَ تَسَلْسُلُ النّسْلِ وبَقَاءُ النّوْعِ وهِيَ حِكْمَةٌ مُطّرِدَةٌ فِي غَيْرِ النّاسِ مِنَ الْأَحْيَاءِ . هَذَا هُوَ حُبُّ الْوَلَدِ مِنْ حَيْثُ هُوَ وَلَدٌ ، وقَدْ يكُونُ لِلْوَلَدِ مَحبّاتٌ أُخْرَى فِي قُلُوبِ الْوَالِدَيْنِ كَحُبِّ الْأَمَلِ فِي نُصْرَتِهِ ومَعُونَتِهِ وحُبِّ الِاعْتِزَازِ بِهِ ، وهَذَا مِمّا يُشَارِكُ الْأَوْلَادَ فِيهِ غَيْرُهُمْ وإِنْ كَانَ يَكُونُ فِيهِمْ أَقْوَى ; لِأَنّ وُجُوهَ الْمَحَبّةِ إذَا تَعَدّدَتْ يُغَذّي بَعْضُهَا بَعْضًا ، وحُبُّ الْوَلَدِ مِنْ حَيْثُ هُوَ وَلَدٌ يَظْهَرُ فِي وَقْتِ ذَهَابِ الْأَمَلِ فِي فَائِدَتِهِ بِأَشَدّ مِمّا يَظْهَرُ مَعَ الْأَمَلِ فِيهَا كَحَالِ الصّغَرِ والْمَرَضِ ، وقَدْ قِيلَ لِبَعْضِ أَصْحَابِ الْفِطْرَةِ السّلِيمَةِ : أَيُّ وَلَدِكَ أَحَبُّ إلَيْك ؟ فَقَالَ : صَغِيرُهُمْ حَتّى يَكْبُرَ ، وغَائِبُهُمْ حَتّى يَحْضُرَ ، ومَرِيضُهُمْ حَتّى يَبْرَأَ .

أَمّا كَوْنُ حُبّ الْبَنِينَ أَقْوَى والتّمَتّعِ بِهِ أَعْظَمَ فَلَهُ أَسْبَابٌ :

(مِنْهَا) : الْأَمَلُ فِي نُصْرَةِ الذّكَرِ وكَفَالَتِهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إلَيْهِ فِي الضّعْفِ والْكِبَرِ ، وقَدْ قُلْنَا آنِفًا : إنّ الْحُبّ أَنْوَاعٌ يُغَذّي بَعْضُهَا بَعْضًا .

(ومِنْهَا) : كَوْنُهُ فِي عُرْفِ النّاسِ عَمُودُ النّسَبِ الّذِي تَتّصِلُ بِهِ سِلْسِلَةُ النّسْلِ ، ويَبْقَى بِهِ مَا يَحْرِصُونَ عَلَيْهِ مِنَ الذّكْرِ .

(وَمِنْهَا) : أَنَّهُ يُرْجَى بِهِ مِنَ الشَّرَفِ مَا لَا يُرْجَى مِنَ الْأُنْثَى، كَقِيَادَةِ الْجَيْشِ وَزَعَامَةِ الْقَوْمِ وَالنُّبُوغِ فِي الْعُلُومِ وَالْأَعْمَالِ.

(29/114)

(وَمِنْهَا) : مَا مَضَى بِهِ الْعُرْفُ مِنَ اعْتِبَارِ نَقْصِ الْأُنْثَى وَخُرُوجِهَا عَنِ الصِّيَانَةِ مُجْلِبَةً لِأَكْبَرِ الْعَارِ، وَتَوَقُّعُ ذَلِكَ أَوْ تَصَوُّرُ احْتِمَالِهِ يُذْهِبُ بِشَيْءٍ مِنْ غَضَاضَةِ الْحُبِّ فَيَلْحَقُهُ الذُّبُولُ أَوِ الذُّوِيُّ.

(وَمِنْهَا) : الشُّعُورُ بِأَنَّ الْأُنْثَى إِنَّمَا تُرَبَّى لِتَنْفَصِلَ مِنْ بَيْتِهَا وَعَشِيرَتِهَا وَتَتَّصِلَ بِبَيْتٍ آخَرَ تَكُونُ عُضْوًا مِنْ عَشِيرَتِهِ، فَمَا يُنْفَقُ عَلَيْهَا وَمَا تُعْطَاهُ يُشْبِهُ الْغُرْمَ وَخِدْمَةَ الْغُرَبَاءِ، فَمَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ الْفُرُوقَ الْوُجُودِيَّةَ - وَإِنْ لَمْ تَكُنْ كُلُّهَا طَبِيعِيَّةً - ظَهَرَ لَهُ وَجْهُ تَخْصِيصِ الْبَنِينَ بِالذِّكْرِ، وَوَجْهُ كَمَالِ التَّمَتُّعِ بِهِمْ وَكَوْنُهُمْ هُمُ الَّذِينَ قَدْ يَغْتَرُّ بِهِمُ الْوَالِدُ حَتَّى يَسْتَغْنِيَ بِهِمْ أَوْ يَشْتَغِلَ بِهِمْ وَبِالْجَمْعِ لَهُمْ عَنِ الْحَقِّ وَيَنْسَى الْآخِرَةَ ; عَلَى أَنَّ حُبَّ الْوَالِدِيَّةِ الْخَالِصَ لِلْبَنَاتِ قَدْ يَكُونُ مُسَاوِيًا أَوْ أَقْوَى مِنْ حُبِّ الْبَنِينَ، وَلَكِنْ مَا يُغَذِّيهِ وَيُقَوِّيهِ أَقَلُّ فَهُوَ مُثَارٌ لِلْفِتْنَةِ، كَمَا قَالَ - تَعَالَى - : إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ [64 : 15] ، فَذَكَرَ الْأَوْلَادَ عَامَّةً وَلِذَلِكَ قُلْنَا بِأَنَّ

تَخْصِيصَ الْبَنِينَ بِالذِّكْرِ لَيْسَ لِلْحَصْرِ .

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : لِمَحَبَّةِ الْوَلَدِ طَوْرَانِ : طَوْرُ الصِّغَرِ وَهُوَ حُبٌّ ذَاتِيٌّ لَهُمْ لَا

عِلَّةَ لَهُ وَلَا فِكْرَ فِيهِ وَلَا عَقْلَ وَلَا رَأْيَ ، بَلْ هُوَ جُنُونٌ فِطْرِيٌّ وَرَحْمَةٌ رَبَّانِيَّةٌ عَامَّةٌ لِجَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ لَا فَرْقَ فِيهَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْهِرَّةِ ، وَالطَّوْرُ الثَّانِي حُبٌّ مَعْلُولٌ مَعَهُ فِكْرٌ وَهُوَ الْمُرَادُ بِالْآيَةِ ، وَهُوَ حُبُّ الْأَمَلِ وَالرَّجَاءِ بِالْوَلَدِ ; وَلِذَلِكَ كَانَ خَاصًّا بِالْبَنِينَ ، وَإِنَّمَا الْحُبُّ عَلَى قَدْرِ الْأَمَلِ ، فَإِذَا خَابَ يَضْعُفُ الْحُبُّ وَيَرِثُّ ، وَرُبَّمَا انْقَلَبَ إِلَى عَدَاوَةٍ تَسْتَتْبِعُ التَّقَاضِيَ وَطَلَبَ الْعِقَابِ أَوِ الْغَرَامَةِ

كَمَا يَقَعُ كَثِيرًا . فَرَأْيُهُ أَنَّ لَفْظَ " الْبَنِينَ " لَا تَغْلِيبَ فِيهِ وَلَا احْتِبَاكَ فِي مُقَابَلَةِ مَا قَبْلُ ، وَكَأَنَّهُ رَأَى أَنَّ فِي هَذَا تَكَلُّفًا لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ فِي الْعِبْرَةِ .

(النَّوْعُ الثَّالِثُ - الْقَنَاطِيرُ الْمُقَنْطَرَةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ) : أَيْ كَثْرَةُ الْمَالِ وَهُوَ مِمَّا أُودِعَ فِي الْغَرَائِزِ ، وَعِلَّتُهُ أَنَّ الْمَالَ وَسِيلَةٌ إِلَى الرَّغَائِبِ وَمُوَصِّلٌ إِلَى الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَائِذِ ، وَرَغَائِبُ الْإِنْسَانِ غَيْرُ مَحْدُودَةٍ ، وَأَفْرَادُ لَذَائِذِهِ غَيْرُ مَعْدُودَةٍ ، فَهُوَ لِاسْتِعْدَادِهِ الَّذِي لَا مُنْتَهَى لَهُ

يَطْلُبُ الْوَسَائِلَ إِلَى رَغَائِبَ لَا مُنْتَهَى لَهَا ، وَهَذِهِ الرَّغَائِبُ يَتَوَلَّدُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ .

فَمَا قَضَى أَحَدٌ مِنْهَا لُبَانَتَهُ . . . وَلَا انْتَهَى أَرَبٌ إِلَّا إِلَى أَرَبِ

(31/114)

فَلَا جَرَمَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْتَكْثِرُ الْمَالَ مَهْمَا كَثُرَ ، بَلْ إِنَّ كَثْرَتَهُ هِيَ الَّتِي تَزِيدُ فِيهِ نَهْمَتَهُ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَنْسَى أَنَّهُ وَسِيلَةٌ إِلَى غَيْرِهِ فَيَجْعَلُ جَمْعَهُ مَقْصِدًا يَتَفَنَّنُ فِي طُرُقِهِ كُلَّمَا سَلَكَ طَرِيقًا عَنَّ لَهُ مِنَ السُّلُوكِ فِيهِ طُرُقٌ أُخْرَى . قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ لَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ لَهُ ثَالِثٌ ، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا .

(32/114)

وَالتَّعْبِيرُ بِالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ يُشْعِرُ بِأَنَّ الْكَثْرَةَ هِيَ الَّتِي تَكُونُ مَظِنَّةَ الِافْتِتَانِ لِأَنَّهَا تُشْغِلُ بِالتَّمَتُّعِ بِهَا الْقَلْبَ ، وَتَسْتَغْرِقُ فِي تَدْبِيرِهَا الْوَقْتَ ، حَتَّى لَا يَكَادُ يُبْقِي فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا مَنْفَذًا لِلشُّعُورِ بِالْحَاجَةِ إِلَى غَيْرِهَا مِنْ طَلَبِ الْحَقِّ وَنُصْرَتِهِ فِي الدُّنْيَا ، وَالِاسْتِعْدَادِ لِمَا

أَعَدَّهُ اللهُ لِلْمُتَّقِينَ فِي الْأُخْرَى ، وَمَا بَعَثَ اللهُ رَسُولًا فِي أُمَّةٍ وَلَا مُصْلِحًا فِي قَوْمٍ إِلَّا وَكَانَ الْأَغْنِيَاءُ أَوَّلَ مَنْ كَفَرَ وَعَانَدَ وَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ ، وَإِنَّ مُؤْمِنِي الْأَغْنِيَاءِ أَقَلُّهُمْ عَمَلًا وَأَكْثَرُهُمْ زَلَلًا . قَالَ – تَعَالَى – : سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا [48 :11] . وَقَالَ : وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ [8 :28] . فَقَدَّمَ الْفِتْنَةَ بِالْأَمْوَالِ عَلَى الْفِتْنَةِ بِالْأَهْلِينَ ، وَكَأَنَّهُ إِنَّمَا أَخَّرَ ذِكْرَ الْأَمْوَالِ هُنَا عَنْ ذِكْرِ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ ؛

(33/114)

لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي طَبِيعَةِ الْحُبِّ لَا فِي الِاشْتِغَالِ وَالْفِتْنَةِ بِهِ خَاصٌّ ، وَحُبُّ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ مَقْصِدٌ ، وَحُبُّ الْمَالِ وَسِيلَةٌ لَا يَجْعَلُهُ مَقْصِدًا إِلَّا مَنْ أَعْمَتْهُ الْفِتْنَةُ عَنِ الْحَقِيقَةِ . وَلَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَخُوضَ فِي شَرْحِ فِتْنَةِ النَّاسِ بِالْمَالِ وَكَيْفَ تَشْغَلُهُمْ عَنْ حُقُوقِ اللهِ وَحُقُوقِ الْأُمَّةِ وَالْوَطَنِ وَحُقُوقِ مَنْ يُعَامِلُهُمْ ، بَلْ وَعَنْ حُقُوقِ بُيُوتِهِمْ وَعِيَالِهِمْ ، بَلْ وَعَنْ حُقُوقِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِمَا يَثْلِمُونَ شَرَفَهُمْ أَوْ يُقَصِّرُونَ فِي النَّفَقَةِ الَّتِي تَلِيقُ بِهِمْ لَأَطَلْنَا وَخَرَجْنَا عَنْ حَدِّ الْوُقُوفِ عِنْدَ بَيَانِ كَوْنِ الْمَالِ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِمِقْدَارِ مَا نَفْهَمُ الْعِبْرَةَ مِنَ الْآيِ ، وَنَكُونُ قَدْ جَعَلْنَا الْكَلَامَ فِي الْمَالِ مَقْصِدًا كَمَا جَعَلَهُ الْأَشِحَّةُ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ مَقْصِدًا ، أَمَّا لَفْظُ " الْقِنْطَارِ " فَمَعْنَاهُ الْعُقْدَةُ الْمُحْكَمَةُ مِنَ الْمَالِ ، وَهُوَ مَا يُعَبِّرُ عَنْهُ التُّجَّارُ الْآنَ بِالصَّرِّ أَوِ الصُّرَّةِ . هَذَا هُوَ

الْأَصْلُ فِيهِ عِنْدِي وَسَائِرُ الْأَقْوَالِ فِي مَعْنَاهُ تَرْجِعُ إِلَيْهِ ، فَمِنْهَا أَنَّهُ الْمَالُ الْكَثِيرُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، وَمِنْهَا أَنَّهُ وَزْنُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَلْفَ أُوقِيَّةٍ . وَرُوِيَ مَرْفُوعًا

عِنْدَ ابْنِ جَرِيرٍ أَوْ أَلْفٌ وَمِائَتَا أُوقِيَّةٍ . وَرُوِيَ عَنْ مُعَاذٍ أَوْ أَلْفُ دِينَارٍ وَمِائَتَا دِينَارٍ ، وَرُوِيَ عَنْ أُبَيٍّ مَرْفُوعًا . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ثَمَانُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ كَذَا فِي الْمُخَصَّصِ ، وَرُوِيَ عَنْهُ غَيْرُ ذَلِكَ . وَقَالَ السُّدِّيُّ مِائَةُ رِطْلٍ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ ، وَعَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ مِائَةُ رِطْلٍ مِنَ الذَّهَبِ أَوْ ثَمَانُونَ أَلْفًا مِنَ الْوَرِقِ . وَكَأَنَّ كُلَّ هَذَا مِمَّا يُطْلَقُ عَلَيْهِ لَفْظُ الْقِنْطَارِ بِاخْتِلَافِ الْعُرْفِ .

وَيَشْهَدُ لَهُ مَا قَالَهُ ابْنُ سِيدَهْ فِي الْمُخَصَّصِ فِي بَعْضِ الْأَقْوَالِ فِيهِ إِذْ عَزَا الْقَوْلَ بِأَنَّهُ أَلْفُ مِثْقَالٍ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ إِلَى الْبَرْبَرِ ، قَالَ : وَهُوَ بِالسُّرْيَانِيَّةِ مِلْءُ مَسْكِ ثَوْرٍ (أَيْ جِلْدِهِ) ذَهَبًا أَوْ فِضَّةً . وَلَكِنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ أَبَا عُبَيْدٍ لَمْ يُقَيِّدْهُ بِالسُّرْيَانِيَّةِ . وَنَقَلَ عَنْ سِيبَوَيْهِ : الْقِنْطَارُ عَرَبِيٌّ وَهُوَ رُبَاعِيٌّ ، وَقِنْطَارٌ مُقَنْطَرٌ مُكَمَّلٌ عَلَى الْمُبَالَغَةِ . اهـ . وَقِيلَ : الْمُقَنْطَرَةُ الْمُحْكَمَةُ الْعَقْدِ ، وَقِيلَ : الْمَضْرُوبَةُ مِنْ دَنَانِيرَ أَوْ دَرَاهِمَ ، وَقِيلَ : الْمُنَضَّدَةُ فِي وَضْعِهَا ، وَقِيلَ : الْمَكْنُوزَةُ ، وَلَا يَزَالُ النَّاسُ يَخْتَلِفُونَ فِي الْقِنْطَارِ فَهُوَ فِي الشَّامِ مِائَةُ رِطْلٍ بِرِطْلِهِمْ ، وَرِطْلُهُمْ ثَمَانِمِائَةِ دِرْهَمٍ فِي أَكْثَرِ الْبِلَادِ ، وَفِي مِصْرَ مِائَةُ رِطْلٍ بِرِطْلِهِمْ وَرِطْلُهُمْ 144 دِرْهَمًا .

(النَّوْعُ الرَّابِعُ الْخَيْلُ الْمُسَوَّمَةُ) : ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ الْخَيْلَ الْمُسَوَّمَةَ هِيَ الرَّاعِيَةُ . وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالرَّبِيعِ وَغَيْرِهِمْ ، وَقِيلَ : هِيَ الْمُطَهَّمَةُ الْحِسَانُ أَوِ الْمُعَلَّمَةُ بِالْأَلْوَانِ وَالشِّيَاتِ ، وَقِيلَ : الْمُرْسَلَةُ عَلَى الْقَوْمِ . فَالْأَوَّلُ مِنْ مَادَّةِ السَّوْمِ ، يُقَالُ : سَامَ الدَّابَّةَ : رَعَاهَا ، وَأَسَامَهَا : أَرْعَاهَا وَأَخْرَجَهَا إِلَى الْمَرَاعِي . وَمِثْلُهَا سَوَّمَهَا عِنْدَ هَؤُلَاءِ ، وَفِي سُورَةِ النَّحْلِ : وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ [16 :10] قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : إِنَّ سَوَّمَ بِالتَّشْدِيدِ غَيْرُ مُسْتَفِيضٍ فِي كَلَامِهِمْ . وَرَجَّحَ أَنَّ الْمُسَوَّمَةَ بِمَعْنَى الْمُعَلَّمَةِ .

وَاسْتَشْهَدَ لَهُ بِقَوْلِ النَّابِغَةِ :

بِسُمْرٍ كَالْقِدَاحِ مُسَوَّمَاتٍ . . . عَلَيْهَا مَعْشَرٌ أَشْبَاهُ جِنِّ

وَقَالَ : إِنَّ مَعْنَى الْمُطَهَّمَةِ وَالْمُعَلَّمَةِ وَالرَّائِعَةِ وَاحِدٌ ، أَقُولُ : وَكُلٌّ مِنَ الْخَيْلِ الرَّاعِيَةِ الَّتِي تُقْتَنَى لِلتِّجَارَةِ وَالْمُطَهَّمَةِ الَّتِي يَقْتَنِيهَا الْكُبَرَاءُ وَالْأَغْنِيَاءُ لِلْمُفَاخَرَةِ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا الَّذِي يُتَنَافَسُ فِيهِ . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَغْلُو فِي حُبِّ الْخَيْلِ حَتَّى يَفُوقَ عِنْدَهُ كُلَّ حُبٍّ ، وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّ الْمُسَوَّمَةَ هُنَا هِيَ الَّتِي تُرْصَدُ لِلْجِهَادِ وَهُوَ قَوْلٌ لَا يُفِيدُهُ اللَّفْظُ وَلَا يَرْضَاهُ السِّيَاقُ .

(النَّوْعُ الْخَامِسُ الْأَنْعَامُ) : وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرَةُ ، عِرَابُهَا وَجَوَامِيسُهَا وَالْغَنَمُ ضَأْنُهَا وَمَعْزُهَا وَالْأَنْعَامُ مَالُ أَهْلِ الْبَادِيَةِ بِهَا ثَرْوَتُهُمْ ، وَفِيهَا تَكَاثُرُهُمْ وَتَفَاخُرُهُمْ ، وَمِنْهَا مَعَايِشُهُمْ وَمَرَافِقُهُمْ ، وَلَعَلَّهُ أَخَّرَهَا عَنْ ذِكْرِ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ لِأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى اقْتِنَاءِ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ يَكُونُ أَوْغَلَ فِي التَّمَتُّعِ ، لِأَنَّهَا مِنْ مَتَاعِ الْفَضْلِ وَالزِّيَادَةِ وَمَا كُلُّ ذِي أَنْعَامٍ يَقْدِرُ عَلَى اقْتِنَاءِ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَيُضَاهِيهِ فِي التَّمَتُّعِ فِي الدُّنْيَا ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْأَنْعَامَ أَكْثَرُ نَفْعًا ، قَالَ - تَعَالَى - فِي السُّورَةِ الَّتِي يُعَدِّدُ بِهَا النِّعَمَ عَلَى عِبَادِهِ بَعْدَ ذِكْرِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ : وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ [16 : 5 - 8] .

(النَّوْعُ السَّادِسُ الْحَرْثُ) : أَيِ الزَّرْعِ وَالنَّبَاتِ نَجْمِهِ وَشَجَرِهِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ ، وَهُوَ قِوَامُ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ فِي الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ . وَإِنَّمَا جَعَلَهُ آخِرَ الْأَنْوَاعِ فِي الذِّكْرِ عَلَى أَنَّهُ أَوَّلُهَا فِي شِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ الِارْتِفَاقُ بِهِ أَعَمَّ كَانَتْ زِينَتُهُ فِي الْقُلُوبِ أَقَلَّ ، فَهُوَ قَلَّمَا يَكُونُ مَانِعًا لِلْإِنْسَانِ عَنِ الْبَحْثِ عَنِ الْحَقِّ وَنَصْرِهِ ، أَوْ صَادًّا عَنِ الِاسْتِعْدَادِ لِلْآخِرَةِ .

وَإِنَّ مِنَ النِّعَمِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ نِعْمَةِ الْحَرْثِ وَأَعَمُّ وَأَشْمَلُ ، وَهُوَ الْهَوَاءُ الَّذِي لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ الْأَحْيَاءُ لَحْظَةً وَاحِدَةً سَوَاءٌ مِنْهَا النَّبَاتُ

وَالْحَيَوَانُ ; وَهُوَ لِذَلِكَ لَا فِتْنَةَ مِنَ التَّمَتُّعِ بِهِ ، وَقَلَّمَا يُفَكِّرُ الْإِنْسَانُ بِغِبْطَتِهِ بِهِ أَوْ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ .

ثُمَّ قَالَ - تَعَالَى - : ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ أَيْ ذَلِكَ الَّذِي ذُكِرَ مِنَ الْأَنْوَاعِ السِّتَّةِ هُوَ مَا يَسْتَمْتِعُ بِهِ النَّاسُ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا - أَيِ الْأُولَى - وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَرْجِعِ فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ الَّتِي تَكُونُ بَعْدَ مَوْتِ النَّاسِ وَبَعْثِهِمْ ، فَلَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا كُلَّ هَمِّهِمْ فِي هَذَا الْمَتَاعِ الْقَرِيبِ الْعَاجِلِ بِحَيْثُ يَشْغَلُهُمْ عَنِ الِاسْتِعْدَادِ لِمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ فِي الْآجِلِ ، كَمَا سَيَأْتِي التَّصْرِيحُ بِهِ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ لِهَذِهِ الْآيَةِ .

فَقَدْ عُلِمَ مِمَّا شَرَحْتُهُ أَنَّ الْكَلَامَ فِي هَذِهِ الشَّهَوَاتِ بَيَانٌ لِمَا فَطَرَ عَلَيْهِ النَّاسَ مِنْ حُبِّهَا وَزَيَّنَهُ فِي نُفُوسِهِمْ، وَتَمْهِيدٌ لِتَذْكِيرِهِمْ بِمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا لَا لِبَيَانِ قُبْحِهَا فِي نَفْسِهَا كَمَا يَتَوَهَّمُ الْجَاهِلُ، فَإِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - مَا فَطَرَ النَّاسَ عَلَى شَيْءٍ قَبِيحٍ بَلْ خَلَقَهُمْ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَلَا جَعَلَ دِينَهُ مُخَالِفًا لِفِطْرَتِهِ بَلْ مُوَافِقًا لَهَا كَمَا قَالَ: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [30 : 30] وَكَيْفَ يَكُونُ حُبُّ النِّسَاءِ فِي أَصْلِ الْفِطْرَةِ مَذْمُومًا، وَهُوَ وَسِيلَةُ إِتْمَامِ حِكْمَتِهِ - تَعَالَى - فِي بَقَاءِ النَّوْعِ إِلَى الْأَجَلِ الْمُسَمَّى، وَهُوَ مِنْ آيَاتِهِ - تَعَالَى - الدَّالَّةِ عَلَى حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، كَمَا قَالَ: لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [30 : 21] وَكَانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُحِبُّهُنَّ، وَكَيْفَ يَكُونُ حُبُّ الْمَالِ مَذْمُومًا لِذَاتِهِ وَاللَّهُ - تَعَالَى - قَدْ جَعَلَ بَذْلَ الْمَالِ مِنْ آيَاتِ الْإِيمَانِ وَهُوَ - تَعَالَى - يَنْهَى عَنِ الْإِسْرَافِ وَالتَّبْذِيرِ فِي إِنْفَاقِهِ كَمَا يَنْهَى عَنِ الْبُخْلِ بِهِ، وَقَدِ امْتَنَّ عَلَى نَبِيِّهِ بِأَنَّهُ وَجَدَهُ عَائِلًا أَيْ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ، وَجَعَلَ الْمَالَ قِوَامًا لِلْأُمَمِ وَمُعِزًّا لِلدِّينِ وَوَسِيلَةً لِإِقَامَةِ رُكْنَيْنِ مِنْ أَرْكَانِهِ وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ التَّقَرُّبِ

إِلَيْهِ - تَعَالَى - ، وَقَدْ قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ ، وَلَا أَرَانِي فِي حَاجَةٍ إِلَى الْكَلَامِ فِي حُبِّ الْبَنِينَ وَالْخَيْلِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ; فَإِنَّ الشُّبْهَةَ فِيهَا لِلْغَالِينَ فِي الزُّهْدِ أَضْعَفُ ، فَعَلَى الْمُؤْمِنِ الْمُتَّقِي أَلَّا يُفْتَنَ بِهَذِهِ الشَّهَوَاتِ وَيَجْعَلَهَا

أَكْبَرَ هَمِّهِ وَالشَّاغِلَ لَهُ عَنْ آخِرَتِهِ ، فَإِذَا اتَّقَى ذَلِكَ وَاسْتَمْتَعَ بِهَا بِالْقَصْدِ وَالِاعْتِدَالِ وَالْوُقُوفِ عِنْدَ حُدُودِ اللهِ - تَعَالَى - فَهُوَ السَّعِيدُ فِي الدَّارَيْنِ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [2 : 201] .

قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ

(الْقِرَاءَاتُ) لِلْعَرَبِ فِي مِثْلِ هَمْزَتَيْ (أَؤُنَبِّئُكُمْ) أَيْ مَا كَانَتْ أُولَاهُمَا مَفْتُوحَةً وَالثَّانِيَةُ مَضْمُومَةً أَرْبَعُ لُغَاتٍ ، قُرِئَ بِهَا الْقُرْآنُ بِإِذْنِ اللهِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ تَسْهِيلًا عَلَيْهِمْ هُنَا .

وَفِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - : (أَأُنْزِلَ) فِي سُورَةِ "ص" وَقَوْلِهِ : (أَأُلْقِيَ) فِي سُورَةِ الْقَمَرِ ، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ سِوَاهَا .

(إِحْدَاهَا) : تَحْقِيقُ الْهَمْزَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ مَدٍّ بَيْنَهُمَا وَعَلَيْهِ الْقُرَّاءُ الْكُوفِيُّونَ وَابْنُ ذَكْوَانَ عَنِ ابْنِ عَامِرٍ وَهِشَامٍ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ فِي السُّوَرِ الثَّلَاثِ .

(الثَّانِيَةُ) : تَحْقِيقُ الْهَمْزَتَيْنِ مَعَ الْمَدِّ بَيْنَهُمَا وَهِيَ رِوَايَةٌ عَنْ هِشَامٍ فِي السُّوَرِ الثَّلَاثِ .

(الثَّالِثَةُ) : تَحْقِيقُ الْأُولَى وَتَسْهِيلُ الثَّانِيَةِ مَعَ الْمَدِّ بَيْنَهُمَا ، وَالتَّسْهِيلُ قِرَاءَةُ الْهَمْزَةِ بَيْنَ نَفْسِهَا وَبَيْنَ حَرْفِ حَرَكَتِهَا ، وَهُوَ أَنْ تَجْعَلَ هُنَا بَيْنَ الْهَمْزَةِ وَالْوَاوِ ، وَيُعَبِّرُ بَعْضُهُمْ عَنِ الْمَدِّ بِإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَ الْهَمْزَتَيْنِ وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ وَهِيَ قِرَاءَةُ قَالُونَ .

(الرَّابِعَةُ) : تَحْقِيقُ الْأُولَى وَتَسْهِيلُ الثَّانِيَةِ مِنْ غَيْرِ مَدٍّ ، وَهِيَ قِرَاءَةُ وَرْشٍ وَابْنِ كَثِيرٍ .

وَهُنَاكَ قِرَاءَةٌ مُرَكَّبَةٌ مِنْ لُغَتَيْنِ ، وَهِيَ الْمَدُّ وَعَدَمُهُ مَعَ التَّسْهِيلِ وَهِيَ قِرَاءَةُ أَبِي عَمْرٍو ، وَعَنْ هِشَامٍ تَفْرِيقٌ بَيْنَ مَا هُنَا وَمَا فِي " الْقَمَرِ " وَ " ص " وَهُوَ أَنَّهُ الْمَدُّ هُنَا مَعَ التَّحْقِيقِ ، وَالْقَصْرُ هُنَاكَ مَعَهُ . وَفِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - : (وَرِضْوَانٌ) لُغَتَانِ ضَمُّ الرَّاءِ وَهِيَ قِرَاءَةُ عَاصِمٍ فِيمَا عَدَا قَوْلَهُ

-

تَعَالَى - : يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ [5 : 16] وَكَسْرُهَا وَهِيَ قِرَاءَةُ الْبَاقِينَ فِي جَمِيعِ الْقُرْآنِ .

(41/114)

قَوْلُهُ - تَعَالَى - : قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ الْآيَةَ . بَيَانٌ وَتَفْصِيلٌ لِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ وَبَدَأَهُ بِالِاسْتِفْهَامِ لِأَجْلِ تَوْجِيهِ النُّفُوسِ إِلَى الْجَوَابِ وَتَشْوِيقِهَا إِلَيْهِ ، وَالتَّنْبِئَةُ بِالشَّيْءِ : التَّخْبِيرُ بِهِ كَالْإِنْبَاءِ بِمَعْنَى الْإِخْبَارِ ، وَقَالَ فِي الْكُلِّيَّاتِ : " النَّبَأُ وَالْإِنْبَاءُ لَمْ يَرِدَا فِي الْقُرْآنِ إِلَّا لِمَا لَهُ وَقْعٌ وَشَأْنٌ عَظِيمٌ " وَعَلَى هَذَا يَكُونُ التَّعْبِيرُ

(42/114)

بِمَادَّةِ النَّبَأِ تَشْوِيقًا آخَرَ . وَقَوْلُهُ : (لَكُمْ) إِشَارَةٌ إِلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَسَائِرِ الشَّهَوَاتِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ ، وَكَوْنُ مَا سَيَأْتِي فِي جَوَابِ الِاسْتِفْهَامِ خَيْرًا مِنْ تِلْكَ الشَّهَوَاتِ يُشْعِرُ بِأَنَّ تِلْكَ الشَّهَوَاتِ خَيْرٌ فِي نَفْسِهَا أَوْ لَيْسَتْ بِشَرٍّ ، وَالصَّوَابُ أَنَّهَا خَيْرٌ وَمِنْ أَجَلِّ نِعَمِ اللَّهِ - تَعَالَى - عَلَى النَّاسِ ، وَإِنَّمَا يَعْرِضُ الشَّرُّ فِيهَا كَمَا يَعْرِضُ فِي سَائِرِ نِعَمِهِ - تَعَالَى - عَلَى النَّاسِ فِي أَنْفُسِهِمْ كَحَوَاسِّهِمْ وَعُقُولِهِمْ وَفِي غَيْرِهَا حَتَّى فِي الشَّرِيعَةِ .

فَالَّذِي يُسْرِفُ فِي حُبِّ النِّسَاءِ حَتَّى يُعْطِيَ امْرَأَةً أَوْ وَلَدَهَا حَقَّ غَيْرِهِمَا أَوْ يُهْمِلُ لِأَجْلِهَا

تَرْبِيَةَ وَلَدِهِ مِنْ غَيْرِهَا أَوْ يَتْرُكَ حَقَّ اللهِ وَطَاعَتَهُ تَقَرُّبًا إِلَيْهَا أَوْ يَعْتَدِيَ فِي ذَلِكَ بِأَنْ يُحِبَّ امْرَأَةَ غَيْرِهِ ، هُوَ كَمَنْ يَسْتَعْمِلُ عَقْلَهُ فِي اسْتِنْبَاطِ الْحِيَلِ لِهَضْمِ حُقُوقِ النَّاسِ وَإِيذَائِهِمْ ، أَوْ يَحْتَالُ فِي نُصُوصِ الشَّرِيعَةِ وَيُؤَوِّلُهَا حَتَّى يُفَوِّتَ الْغَرَضَ مِنَ الْأَحْكَامِ ، وَتُتْرَكَ الْفَرَائِضُ وَتُهْدَمَ الْأَرْكَانُ ، فَسُوءُ سُلُوكِ النَّاسِ فِي الِانْتِفَاعِ بِالنِّعَمِ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النِّعَمَ شَرٌّ فِي ذَاتِهَا وَلَا كَوْنَ حُبِّهَا شَرًّا مَعَ الْقَصْدِ وَالْوُقُوفِ عِنْدَ حُدُودِ الشَّرِيعَةِ وَالْفِطْرَةِ فِي ذَلِكَ .

(43/114)

أَمَّا الْجَوَابُ عَنْ الِاسْتِفْهَامِ فَهُوَ قَوْلُهُ : لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ جَعَلَ مَا أَعَدَّهُ لِلْمُتَّقِينَ مِنَ الْجَزَاءِ عَلَى التَّقْوَى نَوْعَيْنِ : نَوْعًا جُسْمَانِيًّا نَفْسِيًّا وَهُوَ الْجَنَّاتُ وَمَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرَاتِ ، وَالْأَزْوَاجِ الْمُطَهَّرَاتِ مِمَّا يُعْهَدُ فِي نِسَاءِ الدُّنْيَا مِنَ الشَّوَائِبِ ، وَنَوْعًا رُوحَانِيًّا عَقْلِيًّا وَهُوَ رِضْوَانُ اللهِ - تَعَالَى - وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ التَّقْوَى وَالْجَنَّاتِ وَالْأَزْوَاجِ الْمُطَهَّرَةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ - وَلَا يَخْفَى مَا فِي إِضَافَةِ لَفْظِ " رَبِّ " إِلَى ضَمِيرِ الْمُتَّقِينَ مِنَ الْإِشْعَارِ بِفَضْلِهِمْ وَعِنَايَةِ مَنْ رَبَّاهُمْ بِعِنَايَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ بِشَأْنِهِمْ ، وَأَمَّا الرِّضْوَانُ فَهُوَ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الرِّضَا مَعَ مَا فِي زِيَادَةِ الْمَبْنَى مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي الْمَعْنَى فَكَأَنَّهُ قَالَ : وَرِضْوَانٌ عَظِيمٌ مِنَ اللهِ لَا يَشُوبُهُ وَلَا يَعْقُبُهُ سُخْطٌ ، وَفِي سُورَةِ

التَّوْبَةِ : وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [9 : 72] وَفِي هَذَا مِنْ تَفْضِيلِ الرِّضْوَانِ عَلَى نَعِيمِ الْجَنَّاتِ وَمَا فِيهَا مَا لَا غَايَةَ وَرَاءَهُ وَفِي سُورَةِ الْحَدِيدِ : اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ

(44/114)

كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ [57 : 20] وَهَذِهِ الْآيَةُ أَوْجَزُ مِنَ الْآيَةِ الَّتِي نُفَسِّرُهَا عَلَى أَنَّهَا فِي مَوْضُوعِهَا ، وَفِيهَا مِنْ زِيَادَةِ الْفَائِدَةِ بَيَانُ جَزَاءِ الْمُسْرِفِينَ وَالْمُعْتَدِينَ فِي هَذِهِ الشَّهَوَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ الَّتِي تَشْغَلُهُمْ عَنْ حُقُوقِ اللَّهِ وَتَحْمِلُهُمْ عَلَى هَضْمِ حُقُوقِ خَلْقِهِ ، وَجَزَاءِ الْمُقْتَصِدِينَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ اللَّهَ فِي تَمَتُّعِهِمْ وَلَا يَنْسَوْنَ اللَّهَ وَلَا الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَعَلَّنَا إِذَا أَمْهَلَ الزَّمَانُ وَبَلَغْنَا سُورَةَ الْحَدِيدِ نُبَيِّنُ مَا فِي الْآيَةِ .

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي تَفْسِيرِ الرِّضْوَانِ فِي الْآيَةِ : وَأَكْبَرُ مِنْ هَذِهِ اللَّذَّاتِ كُلِّهَا رِضْوَانُ اللَّهِ - تَعَالَى - ، وَهَذَا يَدُلُّنَا عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ طَبَقَاتٌ وَمَرَاتِبُ كَمَا نَرَاهُمْ فِي الدُّنْيَا ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَفْهَمُ مَعْنَى رِضْوَانِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَلَا يَكُونُ بَاعِثًا لَهُ عَلَى تَرْكِ الشَّرِّ وَلَا عَلَى

فِعْلِ الْخَيْرِ ، وَإِنَّمَا يَفْهَمُونَ مَعْنَى اللَّذَّاتِ الْحِسِّيَّةِ الَّتِي جَرَّبُوهَا فَكَانَتْ أَحْسَنَ الْأَشْيَاءِ مَوْقِعًا مِنْ نُفُوسِهِمْ فَهُمْ فِيهَا يَرْغَبُونَ وَلِأَجْلِهَا يَعْمَلُونَ ، وَلَكِنَّ جَمِيعَ الْمُتَّقِينَ يَعْرِفُونَ فِي الْآخِرَةِ هَذِهِ اللَّذَّةَ الَّتِي لَمْ يَكُونُوا يَعْقِلُونَ لَهَا مَعْنًى فِي الدُّنْيَا .

(45/114)

وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ – رَحِمَهُ اللَّهُ – : خَتَمَ الْآيَةَ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَنِ ادَّعَى التَّقْوَى فِي نَفْسِهِ أَوْ بِلِسَانِهِ يَكُونُ مُتَّقِيًا ، وَإِنَّمَا الْمُتَّقِي عِنْدَ اللَّهِ هُوَ مَنْ يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْهُ التَّقْوَى ، وَفِي هَذَا تَنْبِيهٌ لِلنَّاسِ وَإِيقَاظٌ لِمُحَاسَبَةِ نُفُوسِهِمْ عَلَى التَّقْوَى لِئَلَّا يَغُشَّهُمُ الْعُجْبُ بِأَنْفُسِهِمْ فَيَحْسَبُوهَا مُتَّقِيَةً وَمَا هِيَ بِمُتَّقِيَةٍ .

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَصَفَ أَهْلَ التَّقْوَى بِشَأْنٍ مِنْ شُئُونِهِمْ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ لِتَأَثُّرِ قُلُوبِهِمْ بِالتَّقْوَى الَّتِي هِيَ ثَمَرَةُ الْإِيمَانِ تَفِيضُ أَلْسِنَتُهُمْ بِالِاعْتِرَافِ بِهَذَا الْإِيمَانِ فِي مَقَامِ الِابْتِهَالِ وَالدُّعَاءِ ، وَهَذَا اخْتِيَارٌ مِنْهُ لِلْقَوْلِ بِأَنَّ الْكَلَامَ وَصْفٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَلَا يَضُرُّهُ الْفَصْلُ بَيْنَ الصِّفَةِ وَالْمَوْصُوفِ وَإِنْ كَانَ طَوِيلًا لِظُهُورِ الْمُرَادِ وَعَدَمِ الِالْتِبَاسِ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُ الْوَصْفَ فِي الْمَعْنَى لَا فِي عُرْفِ النُّحَاةِ وَهُوَ يَصْدُقُ عَلَى قَوْلِ بَعْضِهِمْ : إِنَّ الْكَلَامَ مَدْحٌ أَوِ اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ ، كَأَنَّهُ قِيلَ : مَنْ أُولَئِكَ الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ لَهُمْ هَذَا الْجَزَاءُ الْحَسَنُ ؟

فَقِيلَ: هُمُ الَّذِينَ

يَقُولُونَ . . . إلَخْ .

(46/114)

وَقَالُوا فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى -: فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ إنَّهُمْ رَتَّبُوا طَلَبَ الْمَغْفِرَةِ وَالْوِقَايَةِ مِنَ النَّارِ عَلَى الْإِيمَانِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ وَحْدَهُ كَافٍ فِي اسْتِحْقَاقِهِمَا مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ . وَأَقُولُ: قَدْ يَصِحُّ هَذَا إذَا أُرِيدَ مَغْفِرَةُ الشِّرْكِ السَّابِقِ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَا تَبِعَهُ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْوِقَايَةِ مِنَ الْخُلُودِ فِي النَّارِ بِذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ كَمَا وَرَدَ . وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَصِحَّ إذَا أُرِيدَ بِهِ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَكُونُ مُؤْمِنًا وَلَا يَعْمَلُ صَالِحًا بَلْ يَكُونُ مُنْغَمِسًا فِي الْمَعَاصِي وَالْخَطَايَا ثُمَّ يَكُونُ مُسْتَحِقًّا لِلْمَغْفِرَةِ وَالْوِقَايَةِ مِنَ الْعَذَابِ، فَإِنَّ الْعَقْلَ وَالنَّقْلَ يُحِيلَانِ هَذَا الْفَرْضَ، ذَلِكَ أَنَّ الْمَعْرُوفَ مِنْ سُنَّةِ اللهِ - تَعَالَى - فِي الْإِنْسَانِ أَنَّ عَقَائِدَهُ الرَّاسِخَةَ الْيَقِينِيَّةَ لَهَا السُّلْطَانُ الْأَعْلَى عَلَى أَعْمَالِهِ الْبَدَنِيَّةِ، وَمَا الْإِيمَانُ إلَّا الِاعْتِقَادُ الْيَقِينِيُّ الرَّاسِخُ فِي الْعَقْلِ الْمُهَيْمِنُ عَلَى الْقَلْبِ، وَلَا عَمَلَ إلَّا عَنْ فِكْرٍ مِنَ الْعَقْلِ أَوْ وِجْدَانٍ مِنَ الْقَلْبِ، فَأَعْمَالُ الْمُؤْمِنِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ تَابِعَةً لِإِيمَانِهِ، لَا تَسْتَبِدُّ دُونَهُ وَلَا تَتَحَوَّلُ عَنْ

طَاعَتِهِ إِلَّا لِنِسْيَانٍ أَوْ جَهَالَةٍ، كَغَلَبَةِ انْفِعَالِهِ يَعْرِضُ وَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَزُولَ وَتُقْفَى التَّوْبَةُ عَلَى أَثَرِهِ فَتَمْحُوهُ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ

(47/114)

قَرِيبٍ [4 :17] فَهَذَا دَلِيلُ الْعَقْلِ . وَأَمَّا النَّقْلُ فَالْآيَاتُ الَّتِي يَعْسُرُ إِحْصَاؤُهَا وَمِنْهَا فِي الْمَغْفِرَةِ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى [20 :82] وَقَوْلُهُ فِي حِكَايَةِ دُعَاءِ الْمَلَائِكَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ : رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ إِلَى قَوْلِهِ : وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ [40 :7 - 9] وَالْفَرْقُ بَيْنَ وَعْدِهِ بِالْمَغْفِرَةِ وَبَيْنَ حِكَايَتِهِ أَنَّ دُعَاءَ الْمُسْتَغْفِرِينَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ، عَلَى أَنَّ الْآيَةَ الَّتِي نُفَسِّرُهَا لَا تُعَارِضُ هَذِهِ الْآيَاتِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا بَلْ تُؤَيِّدُهَا ; لِأَنَّ الدُّعَاءَ فِيهَا لَمْ يُرَدْ بِهِ أَنَّ كُلَّ مُتَّقٍ يَنْطِقُ بِهِ نُطْقًا بِلِسَانِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ بَيَانٌ لِشَأْنِ الْمُتَّقِينَ الْمَوْصُوفِينَ بِمَا يَأْتِي فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ مِنْ أَكْمَلِ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، عَلَى أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنِ الْكَلَامُ فِي الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ وَلَوْ لَمْ يُوصَفُوا بَعْدَ الدُّعَاءِ بِمَا يَأْتِي مِنَ الصِّفَاتِ بِأَنْ قِيلَ : لِلَّذِينَ آمَنُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ . . . إِلَى آخِرِ الدُّعَاءِ فَقَطْ، لَكَانَ لَنَا أَنْ نَقُولَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالْإِيمَانِ

الْإِيمَانُ الصَّحِيحُ الَّذِي تَصْدُرُ عَنْهُ آثَارُهُ مِنْ تَرْكِ الْمَعَاصِي وَعَمَلِ الصَّالِحَاتِ لِتَتَّفِقَ الْآيَةُ مَعَ سَائِرِ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْمُوَافِقَةِ لِلْعَقْلِ وَالْعِلْمِ

(48/114)

بِطَبِيعَةِ الْبَشَرِ ، وَالْإِجْمَاعُ وَالسَّلَفُ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَاعْتِقَادٌ وَعَمَلٌ ، وَلَكِنَّ الْقَوْمَ غَفَلُوا عَنْ هَذَا وَحُجِبُوا عَنْهُ بِالْتِمَاسِ مَا يُؤَيِّدُونَ بِهِ مَذَاهِبَهُمْ وَيُفَنِّدُونَ بِهِ مَا خَالَفَهَا ، وَقَدْ قَرَّرْنَا هَذِهِ الْحَقِيقَةَ فِي الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ مِنْ قَبْلُ ، وَلَا نَزَالُ نُبْدِئُ الْقَوْلَ فِيهَا وَنُعِيدُهُ لَعَلَّ التَّكْرَارَ فِي الْمَقَامَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ يُؤَثِّرُ فِي صَخْرَةِ التَّقْلِيدِ الصَّمَّاءِ فَيُفَتِّتُهَا أَوْ يَنْسِفُهَا نَسْفًا فَيَعُودُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى إِيمَانِ الْقُرْآنِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ وَصَفْوَةُ عُلَمَاءِ الْخَلَفِ كَحُجَّةِ الْإِسْلَامِ الْغَزَالِيِّ فِي الْمَشْرِقِ ، وَشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَةَ فِي الْوَسَطِ ، وَالْعَلَّامَةِ الشَّاطِبِيِّ صَاحِبِ الْمُوَافَقَاتِ فِي الْمَغْرِبِ - كُلُّ هَؤُلَاءِ مِنَ الْقُرُونِ الْوُسْطَى وَحَسْبُكَ بِالْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ .

الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ :

وَصَفَ اللهُ الْمُتَّقِينَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الَّتِي اسْتَحَقُّوا بِهَا تِلْكَ الدَّرَجَاتِ وَهُوَ الظَّاهِرُ عَلَى الْقَوْلِ

بِأَنَّ قَوْلَهُ : الَّذِينَ يَقُولُونَ وَصْفٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَكَذَا عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهُ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَدْحِ ، أَمَّا عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهُ اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ فَالْمُرَادُ بِالْوَصْفِ الْوَصْفُ بِالْمَعْنَى (وَالصَّابِرِينَ) مَنْصُوبٌ

(49/114)

عَلَى الْمَدْحِ ، وَالْمَنْصُوبُ عَلَى الْمَدْحِ أَوِ الِاخْتِصَاصِ لَيْسَ كَلَامًا مَقْطُوعًا مَفْصُولًا مِمَّا قَبْلَهُ كَمَا يُوهِمُهُ تَقْدِيرُ الْفِعْلِ لَهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ أُسْلُوبٌ بَلِيغٌ فِي إِيرَادِ الصِّفَةِ مُعْرَبَةً بِغَيْرِ إِعْرَابِ الْمَوْصُوفِ . وَوَجْهُ الْبَلَاغَةِ فِيهِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : أَحَدُهُمَا لَفْظِيٌّ ، وَالْآخَرَانِ مَعْنَوِيَّانِ ، أَمَّا اللَّفْظِيُّ : فَهُوَ أَنَّ اخْتِلَافَ الْإِعْرَابِ يُحْدِثُ فِي الذِّهْنِ حَرَكَةً جَدِيدَةً فَيَنْتَبِهُ فَضْلَ انْتِبَاهٍ إِلَى الْكَلَامِ الْجَدِيدِ . وَأَمَّا الْمَعْنَوِيَّانِ : فَأَحَدُهُمَا بَيَانُ مَزِيَّةٍ خَاصَّةٍ فِي الْمَقَامِ لِمَا بِهِ الْمَدْحُ ، كَأَنْ يُقَالَ هُنَا فِي التَّقْدِيرِ : وَأَمْدَحُ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا . . . الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ . . . إِلَخْ ; كَأَنَّهُ يَشْهَدُ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ امْتَازُوا عَلَى سَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ وَصَارُوا أَحَقَّ بِذَلِكَ الْوَعْدِ . وَثَانِيهِمَا : تَقْرِيرُ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ مَمْدُوحَةٌ فِي ذَاتِهَا .

(50/114)

تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مَعْنَى الصَّبْرِ وَكَيْفِيَّةِ اكْتِسَابِهِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ . وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ هُنَا : مَجْمُوعُ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي الصَّبْرِ تَدُلُّنَا عَلَى أَنَّ الصَّبْرَ هُوَ حَبْسُ النَّفْسِ عِنْدَ كُلِّ مَكْرُوهٍ وَيَشُقُّ عَلَى النَّفْسِ احْتِمَالُهُ ، وَأَكْمَلُ أَنْوَاعِهِ الصَّبْرُ عَلَى مُلَازَمَةِ الشَّرِيعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ . فَعِنْدَمَا تَهُبُّ زَوَابِعُ الشَّهَوَاتِ فَتُزَلْزِلُ الِاعْتِقَادَ بِقُبْحِ الْمَعَاصِي وَسُوءِ عَاقِبَتِهَا يَكُونُ الصَّبْرُ هُوَ الَّذِي يُثَبِّتُ الْإِيمَانَ وَيَقِفُ بِالنَّفْسِ عِنْدَ الْحُدُودِ الْمَشْرُوعَةِ ;

لِذَلِكَ قَرَنَ الْأَمْرَ بِالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ بِالْأَمْرِ بِالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ فِي سُورَةِ الْعَصْرِ ، وَالْحَقُّ هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَوَّلُ مِنَ الدِّينِ ، وَهُوَ لَا يَقُومُ إِلَّا بِالصَّبْرِ . وَكَمَا يَحْفَظُ النَّفْسَ عِنْدَ حُدُودِ الشَّرْعِ يَحْفَظُ شَرَفَ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا عِنْدَ الْمَكَارِهِ ، وَيَحْفَظُ حُقُوقَ النَّاسِ أَنْ تَغْتَالَهَا أَيْدِي الْمَطَامِعِ . وَكَتَبَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْعَصْرِ : " الصَّبْرُ مَلَكَةٌ فِي النَّفْسِ يَتَيَسَّرُ مَعَهَا احْتِمَالُ مَا يَشُقُّ احْتِمَالُهُ وَالرِّضَا بِمَا يُكْرَهُ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ ، وَهُوَ خُلُقٌ يَتَعَلَّقُ بِهِ بَلْ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ كَمَالُ كُلِّ خُلُقٍ ، وَمَا أُتِيَ النَّاسُ مِنْ شَيْءٍ مِثْلَ مَا أُتُوا مِنْ فَقْدِ الصَّبْرِ أَوْ ضَعْفِهِ ، كُلُّ أُمَّةٍ ضَعُفَ الصَّبْرُ فِي نُفُوسِ أَفْرَادِهَا ضَعُفَ فِيهَا كُلُّ شَيْءٍ وَذَهَبَتْ مِنْهَا كُلُّ قُوَّةٍ " : وَأَتَى بِأَمْثِلَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ عَلَى ذَلِكَ .

وَيُعْلَمُ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ تَقْدِيمَ ذِكْرِ الصَّابِرِينَ عَلَى مَا بَعْدَهُ لِأَنَّهُ كَالشَّرْطِ إِذْ لَا يَتِمُّ بِدُونِهِ الصِّدْقُ وَالْقُنُوتُ وَالْإِنْفَاقُ وَالِاسْتِغْفَارُ فِي الْأَسْحَارِ، وَهُوَ الْوَقْتُ الَّذِي يَطِيبُ فِيهِ النَّوْمُ وَيَشُقُّ الْقِيَامُ. قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: وَالصِّدْقُ يَكُونُ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَالْوَصْفِ، يُقَالُ: فُلَانٌ صَادِقٌ فِي عَمَلِهِ، صَادِقٌ فِي جِهَادِهِ، صَادِقٌ فِي حُبِّهِ، كَمَا يُقَالُ صَادِقٌ فِي قَوْلِهِ. أَقُولُ: وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْإِيمَانُ وَالنِّيَّةُ. وَالصِّدْقُ مُنْتَهَى الْكَمَالِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَحَسْبُكَ فِي بَيَانِ فَضْلِ الصِّدْقِ وَجَزَائِهِ قَوْلُهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ [39: 33 - 35] فَقَدْ جَعَلَ الصِّدْقَ مِلَاكَ الدِّينِ كُلِّهِ وَجَاءَ مَعَ حَقِيقَتِهِ، وَجَعَلَ أَسْوَأَ الذُّنُوبِ مَعَهُ مُسْتَحِقًّا لِأَنْ يُكَفَّرَ وَيُغْفَرَ، وَأَيُّ ذَنْبٍ يُدَنِّسُ

(52/114)

نَفْسَ الصَّادِقِ فِي إِيمَانِهِ وَأَخْلَاقِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ فَيَمْنَعُهَا اسْتِحْقَاقَ الْمَغْفِرَةِ؟ أَلَيْسَ أَسْوَأُ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُلِمَّ بِهِ الصَّادِقُ مِنَ الذَّنْبِ بَادِرَةُ غَضَبٍ لَا تَلْبَثُ أَنْ تَفِيءَ، أَوْ نَزْوَةُ شَهْوَةٍ لَا تَمْكُثُ أَنْ تَسْكُنَ فَيَكُونُ مَسُّ طَائِفِ الشَّيْطَانِ ضَعِيفًا قَصِيرَ الْأَمَدِ لَا يَقْوَى عَلَى إِضْعَافِ فَضِيلَةِ تِلْكَ النَّفْسِ الْقَوِيَّةِ بِالصِّدْقِ وَلَا عَلَى إِطْفَاءِ نُورِهَا؟ وَقَدْ فَسَّرُوا الْقَانِتِينَ بِالْمُطِيعِينَ

وَبِالْمُدَاوِمِينَ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ ، وَتَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ أَنَّ الْقُنُوتَ : هُوَ الْمُدَاوَمَةُ عَلَى الْخُشُوعِ وَالضَّرَاعَةِ ، أَيْ عَلَى رُوحِ الْعِبَادَةِ وَلُبَابِهَا [لَا] عَلَى صُوَرِهَا وَرُسُومِهَا فَقَطْ : وَالْمُنْفِقُونَ مَعْرُوفُونَ ، وَلَمْ يُعَيِّنِ النَّفَقَةَ وَلَا الْمُنْفَقَ عَلَيْهِ ، فَعُلِمَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِمُ الْمُنْفِقُونَ لِلْمَالِ فِي جَمِيعِ الطُّرُقِ الْمَشْرُوعَةِ مِنْ وَاجِبَةٍ وَمُسْتَحَبَّةٍ ، وَلَا يَمْنَعُونَ حَقًّا

(53/114)

وَلَا يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ ، وَفَسَّرَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ الْمُسْتَغْفِرِينَ هُنَا بِالْمُصَلِّينَ ، لِأَنَّ أَهْلَ التَّهَجُّدِ فِي آخِرِ اللَّيْلِ يَطْلُبُونَ بِتَهَجُّدِهِمْ مَغْفِرَةَ اللهِ وَرِضْوَانَهُ ، فَهَؤُلَاءِ الْمُفَسِّرُونَ يَرَوْنَ أَنَّ الِاسْتِغْفَارَ هُوَ طَلَبُ الْمَغْفِرَةِ بِالْفِعْلِ لَا بِمُجَرَّدِ حَرَكَةِ اللِّسَانِ ، وَمَنْ يَقُولُ : إِنَّهُ الطَّلَبُ بِاللِّسَانِ فَإِنَّهُ يَجْعَلُ مِنْ شُرُوطِهِ حُضُورَ الْقَلْبِ ، وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ يُعْتَدُّ بِقَوْلِهِ أَنَّ اسْتِغْفَارَ اللِّسَانِ وَحْدَهُ نَافِعٌ ، بَلْ قَالُوا : إِنَّ الْمُسْتَغْفِرَ مِنَ الذَّنْبِ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَيْهِ كَالْمُسْتَهْزِئِ بِرَبِّهِ . وَفِي مِثْلِ هَذَا الِاسْتِغْفَارِ الَّذِي يَغْتَرُّ بِهِ الْجَهَلَةُ الْأَغْرَارُ قَالَتْ رَابِعَةُ الْعَدَوِيَّةُ : اسْتِغْفَارُنَا يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِغْفَارٍ كَثِيرٍ . وَرُوِيَ تَفْسِيرُ الِاسْتِغْفَارِ هُنَا بِالصَّلَاةِ فِي وَقْتِ السَّحَرِ وَبِصَلَاةِ الصُّبْحِ ; أَيْ لِأَوَّلِ وَقْتِهَا وَقَيَّدَهُ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ بِصَلَاةِ الْجَمَاعَةِ ، وَحِكْمَةُ تَخْصِيصِ وَقْتِ السَّحَرِ : أَنَّ الْعِبَادَةَ تَكُونُ حِينَئِذٍ أَشَقَّ عَلَى أَهْلِ الْبِدَايَةِ ; لِأَنَّهُ الْوَقْتُ الَّذِي

يَطِيبُ فِيهِ النَّوْمُ وَيَعْزُبُ الرِّيَاءُ ، وَأَرْوَحُ لِأَهْلِ النِّهَايَةِ ; لِأَنَّ النَّفْسَ تَكُونُ أَصْفَى وَالْقَلْبَ أَفْرَغُ مِنَ الشَّوَاغِلِ .

(54/114)

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ النُّكْتَةُ فِي نَسَقِ هَذِهِ الْأَوْصَافِ بِالْعَطْفِ مَعَ أَنَّ الْأَوْصَافَ الْمَعْدُودَةَ تُسْرَدُ غَيْرَ مَعْطُوفَةٍ . ذَكَرَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ عَنِ الزَّمَخْشَرِيِّ : أَنَّ الْعَطْفَ يُفِيدُ كَمَالَ الْمَوْصُوفِينَ بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ ، وَقَالَ غَيْرُهُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّنَا لَا نَعْهَدُ مِنْ مَعَانِي الْوَاوِ الْكَمَالَ فِي مَعْطُوفَاتِهَا ، وَمَنْ عِنْدَهُ ذَوْقٌ فِي اللِّسَانِ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ فَرْقًا بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَغَيْرِهِ ، وَذَكَرَ أَمْثِلَةً مِنْهَا قَوْلُ الشَّاعِرِ :

وَلَوْ كَانَ رُمْحًا وَاحِدًا لَاتَّقَيْتُهُ . . . وَلَكِنَّهُ رُمْحٌ وَثَانٍ وَثَالِثُ

وَذَكَرَ الْفَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ثَلَاثَةِ رِمَاحٍ ، أَوْ رُمْحٍ اثْنَانِ ثَلَاثَةٍ ، وَقَالَ : إِنَّ بَيَانَ الْفَرْقِ رُبَّمَا لَا تَفِي بِهِ الْعِبَارَةُ إِلَّا مَعَ الِاسْتِعَانَةِ بِالسَّلِيقَةِ ، وَيُمْكِنُ تَقْرِيبُ ذَلِكَ بِأَنْ يُقَالَ : إِنَّ الْأَوْصَافَ الْمَسْرُودَةَ بِغَيْرِ عَطْفٍ كَالْوَصْفِ الْوَاحِدِ وَأَمَّا عَطْفُهَا فَيُفِيدُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَصْفٌ مُسْتَقِلٌّ . أَقُولُ : وَعِبَارَةُ الْبَيْضَاوِيِّ " وَتَوْسِيطُ الْوَاوِ بَيْنَهَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى اسْتِقْلَالِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا وَكَمَالِهِمْ

فِيهَا ، أَوْ لِتَغَايُرِ الْمَوْصُوفِينَ بِهَا " وَهِيَ مُبْهَمَةٌ ، وَإِيضَاحُ الِاسْتِقْلَالِ مَا قَرَأْتَ آنِفًا . وَأَمَّا تَغَايُرُ الْمَوْصُوفِينَ

(55/114)

بِهَا فَمَعْنَاهُ هُنَا أَنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا أَصْنَافٌ فَمِنْهُمُ الصَّابِرُونَ وَمِنْهُمُ الصَّادِقُونَ إلَخْ . وَالْمُرَادُ : الْمُمْتَازُونَ بِالْكَمَالِ فِي الصَّبْرِ وَالصِّدْقِ إلَخْ ، وَذَلِكَ لَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ كُلُّ صِنْفٍ عَارِيًا مِنْ صِفَاتِ الْآخَرِ ، وَهَذَا مَا ذَهَبَ إلَيْهِ الرَّازِيُّ إذْ قَالَ : " وَأَظُنُّ -

(56/114)

وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ - أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَعَهُ وَاحِدَةٌ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ دَخَلَ تَحْتَ الْمَدْحِ الْعَظِيمِ وَاسْتَوْجَبَ هَذَا الثَّوَابَ الْجَزِيلَ " وَعِبَارَتُهُ لَا تُفِيدُ اعْتِبَارَ كَمَالِ كُلِّ صِنْفٍ فِي وَصْفِهِ وَهُوَ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ . وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الْأَلْفَاظَ الْمُفْرَدَةَ يَمْتَنِعُ عَطْفُهَا فِي مَقَامِ سَرْدِهَا مُطْلَقًا ; لِأَنَّهَا عِنْدَ ذَلِكَ تَكُونُ بِمَثَابَةِ الْأَعْدَادِ الَّتِي تُسْرَدُ : وَاحِدٌ ، اثْنَانِ ، ثَلَاثَةٌ ، أَرْبَعَةٌ إلَخْ . وَلَكِنَّهَا إذَا لَمْ يُرِدْ سَرْدُهَا كَأَنْ ذُكِرَتْ لِلْحُكْمِ عَلَى مَدْلُولَاتِهَا ابْتِدَاءً فَلَا بُدَّ أَنْ تُجْمَعَ بِالْعَطْفِ . مِثَالُ

الْأَوَّلِ قَوْلُهُ – تَعَالَى – : التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ [9 : 112] الْآيَةَ . وَقَوْلُهُ – تَعَالَى – فِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ : أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ [66 : 5] إِلَخْ . فَإِنَّ هَذِهِ أَوْصَافٌ سُرِدَتْ لِلتَّعْرِيفِ بِهَا بَعْدَ الْحُكْمِ عَلَى الْمَوْصُوفِ ، وَمِثَالُ الثَّانِي : الْآيَةُ الَّتِي نُفَسِّرُهَا وَالْحُكْمُ فِيهَا عَلَى الْمَوْصُوفِينَ ابْتِدَاءً ، وَيَتَعَيَّنُ إِذَنْ أَنْ تَكُونَ مَنْصُوبَةً عَلَى الِاخْتِصَاصِ ، وَمِثْلُهَا : إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ [9 : 60] إِلَخْ . فَإِنَّ الْمُرَادَ الْحُكْمُ عَلَى مَدْلُولَاتِ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ ابْتِدَاءً . وَمِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ هَذَا الْقَوْلِ وَمَا قَبْلَهُ : أَنَّهُ يَمْتَنِعُ عَلَى هَذَا أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ نُعُوتًا (نَحْوِيَّةً) لِلَّذِينَ اتَّقَوْا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 3 صـ 195 . 209 ﴾

(57/114)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾

وهذه كلها صفات للذين اتقوا الله ، وأعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، والأزواج المطهرة ، ورضوان من الله أكبر ، وهم صابرون وصادقون وقانتون ومنفقون في سبيل الله ،

ومستغفرون بالأسحار .

وصابرون على ماذا ؟ إنهم صابرون على تنفيذ تكاليف الله ، لأننا أول ما نسمع عن التكليف فلنعلم أن فيه كلفة ومشقة, والتكاليف الشرعية فيها مشقة لأنها قيدت حرية العبد .

لقد خلقك الحق خلقا صالحا لأن تفعل كذا أو لا تفعل . فساعة يقول لك : افعل . . فإنه قد سد عليك باب " لا تفعل " وساعة يقول لك الحق : لا تفعل فإنه يكون قد سد عليك باب " افعل " ، وهكذا يكون تقييد حركتك وتقييد المخلوق على هيئة الإختيار فيه مشقة ، فإذا ما جاء أمر الله بـ " افعل " فقد يكون الفعل في ذاته شاقا ، فإن صبرت على مشقة الفعل الذي جاء بوساطة " افعل " فأنت صابر ، لأنك صبرت على الطاعة . . وقد تصبر عن المعصية ، عندما يلح عليك شيء فيه غضب الله فترفض أن ترتكب الذنب ، فتكون قد صبرت عن ارتكاب الذنب .

إذن ففي " افعل " صبر على مشقتها ، وفي " لا تفعل " صبر عنها ، فالصابرون لهم اتجاهان اثنان ، لأن التكليف إما أن يكون بافعل ، وإما أن يكون بلا تفعل . فساعة يأتي التكليف بافعل فقد تأتي المشقة . . وعندما تنفذ التكليف بافعل فأنت قد صبرت على المشقة . . وعندما يأتي التكليف بـ " لا تفعل " كأمر الحق بعدم شرب الخمر ، أو " لا تسرق " فأنت قد صبرت عنها . . إذن فـ " افعل " ولا " تفعل " قد استوعبت نَوْعَيْ التكليف ، وبقيت بعد

ذلك أحداث لا تدخل في نطاق افعل ولا تفعل ، وهي ما ينزل عليك نزولا قدريا بدون اختيار منك بل هي القهرية والقسرية .

(58/114)

فساعة أن يطلب منك أن تفعل ، أي إنه قد خلقك صالحا ألا تفعل كما قلنا من قبل . إلاّ إن كنت مجبرا على الفعل فقط . وكذلك إذا قال لك الحق : " لا تفعل " . والشيء القدرى الذي لا صلاحية فيه للاختيار ماذا يفعل فيه المؤمن ؟ إنه يصبر على الآلام والمتاعب لأنه آمن بالله ربا ، والرب هو الذي يتولى تربية المربي لبلوغه حد الكمال المنشود له فإذا جاء لك الحق بأمر لا خيار لك فيه ، كالمرض أو الكوارث الطارئة ، كوقوع حجر من أعلى أو إصابة برصاصة طائشة ، فكل ذلك هي أمور لا دخل لـ " افعل " ولا " تفعل " فيها . وهناك يكون الصبر على مثل هذه الأمور هو الإيمان بحكمة من أجراها عليك . لأن الذي أجراها رب ، وهو الذي خلقني فأنا صنعته .

وما رأينا أحدا يفسد صنعته أبدا . فإذا ما جاء أمر على الإنسان بدون اختيار منه ، فالذي أجراه له فيه حكمة, فإن صبر الإنسان على هذه الآلام فإنه يدخل في باب

الصابرين .

إذن فالصابرون أنواع هم : صابر على الطاعة ومشاقها ، صابر على المعاصي ومغرياتها ، وصابر على الأحداث القدرية التي تنزل عليه بدون اختيار منه . وإذا رأيت إنسانا قد صبر على أمر الطاعة وصبر عن شهوة المعصية وصبر على الأقدار النازلة به ، فاعرف حبه لربه ورضاه عنه .

ونأتي بعد ذلك لوصف آخر يقول الله فيه : ﴿ الصَّابِرِينَ ﴾ ﴿ وَالصَّادِقِينَ ﴾ .

والصدق كما نعلم يقابله الكذب ، والصدق كما نعرف حقيقته : يأتي حين توافق النسبة الكلامية التي يتكلم بها الإنسان ، النسبة الأخرى الخارجية الواقعة في الكون .

فإن قلت : " حصل كذا وكذا " فتلك نسبة كلامية صدرت من متكلم ، فإن وافقها الواقع بأنه حصل كذا وكذا فعلا يكون المتكلم صادقا . وإن لم يكن الواقع موافقا لحدوث ما أخبر به يكون المتكلم كاذبا . لماذا ؟ لأن كلام المتكلم العاقل لا بد له من نسب ثلاث :

الأولى وهي النسبة الذهنية : فقبل أن أتكلم أعرض الأمر على ذهني ، وذهني هو الذي يعطي الإشارة للساني ليتكلم ، هذه هي النسبة الأولى واسمها " نسبة الذهن " . وقد يعن

لي أن تأتي النسبة الذهنية ثم أعدل عنها فلا أتكلم ، فتكون النسبة الذهنية قد وُجِدت ، والنسبة الكلامية لم توجد .

وقد أصر على أن أبرز إشارة ذهني على لساني فأقول النسبة الكلامية . ونأتي بعد النسبة الكلامية لنرى : هل الواقع أن ما حدث وتحدثت به وقع أم لم يقع ؟ فإن كان قد وقع ، يكون الكلام مني صدقا . وإن لن يكن قد وقع ، وكانت النسبة الخارجية على عكس ما أخبرت به . فإننا نقول : " هذا كلام كذب " إذن : فالصدق : هو أن تطابق النسبة الكلامية الواقع . والكذب : هو ألا تطابق النسبة الكلامية الواقع وكثيرا ما يخطىء الناس في فهم الواقع فيجدون تناقضا في بعض الأساليب .

مثال ذلك ، حينما تعرض بعض المستشرقين لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا جَآءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾

[المنافقون : 1] تلك نسبة كلامية صدرت منهم ، فهل هي مطابقة للواقع أم هي مخالفة له ؟

إنها مطابقة للواقع . ويؤكد الحق ذلك بقوله :

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾

[المنافقون : 1] .

بعد ذلك يقول الحق سبحانة :

﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾

[المنافقون : 1] .

فقيم كذب المنافقون ؟ هل كذبوا في قولهم : ﴿ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ ؟ لا . إن الحق لم يكذبهم في قولهم : ﴿ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ ؛ لأن الله قد أيد هذه الحقيقة بقوله ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ .

(60/114)

ولكن كذبهم الله فيما سها عنه المستشرق الناقد عندما قالوا : ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ . لقد كذبهم الله في شهادتهم ، لا في المشهود به ، وهو أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول من الله ، إن الله يعلم أن محمدا رسوله المبعوث منه رحمة للعالمين ، لكن الكذب كان في شهادتهم هم .

إن كلام المنافقين مردود من الله . لماذا ؟ لأن الشهادة تعني أن يواطئ اللسان القلب ويوافقه . وقولهم : شهادة لا توافق قلوبهم وتعنى كذبهم .

إذن ، فالتكذيب هو لشهادتهم ، فلو قالوا : ﴿ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ دون " نشهد " لكان قولهم : قضية " سليمة " . ولذلك كان تكذيب الله لشهادتهم ، ومن هنا ندرك السر في قول الله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ . إن الحق يؤكد الأمر المشهود به وهو بعث محمد رسولا

من عند الحق ، وبعد ذلك يأتي لنا الحق بشهادته إن المنافقين كاذبون في قولهم : " نشهد " . فالصدق أن تطابق النسبة الكلامية الواقع . والصدق - كما قلنا من قبل - حق ، والحق لا يتعدد ، وضربت من قبل المثل بأن الإنسان الذي نطلب منه أن يروي واقعة شهدها بعينيه ، وأن يحكيها بصدق لن يتغير كلامه أبدا ، مهما تكرر القول ؛ أو عدد مرات الشهادة . لكن إن كانت الواقعة كذبا ، فالراوي تختلط عليه أكاذيبه ، فيروي الواقعة بألوان متعددة لا اتساق فيها ، وقد ينسي الراوي الكاذب ماذا قال في المرة الأولى ، وهكذا ينكشف سر الكذب . لكن الراوي عن واقع مشهود وبصدق ، هو الذي يحكى ، وهو الذي لا تختلف رواياته في كل مرة عن سابقتها بل تتطابق .

فعندما نقول : " إن زيدا مجتهد " ، فهذا يعني أن اجتهاد زيد قد حدث أولا ، ثم يأتي في ذهن من رأى اجتهاد زيد أن يخبر بأمر اجتهاده ، ثم يخبر بالكلام عن اجتهاد زيد . إن الأمر الخارج وهو اجتهاد زيد قد حدث أولا ، وبعد ذلك تأتي النسبة الذهنية ، وبعد ذلك تأتي النسبة الكلامية .

ولكن الإنشاء وهو ضد الخبر، هو أن نطلب من واحد أن ينشئ أمرا لا واقع له، كأن نقول لواحد: اجتهد. إننا قبل أن نقول لإنسان ما: "اجتهد" فمعنى ذلك أن الإجتهاد كان أمرا في ذهن القائل، وعندما ينطقها تصبح "نسبة كلامية". وبعد ذلك يحدث الواقع، بعد النسبة الذهنية، والنسبة كلامية، وهذا هو الإنشاء.

إن الإنشاء الطلبي يعني أن تحدث النسبة الخارجية بعد النسبة الكلامية. والصادقون هم الذين أراد الله أن يمدحهم، لماذا؟ وأين هو مجال صدقهم؟ إنهم الذين تتطابق حركتهم مع منهج الله، لأنهم حين قالوا: "لا إله إلا الله"، وآمنوا به، فهم قد التزموا بكل مطلوبات الإيمان قدر الطاقة. ومعنى "لا إله إلا الله" أي لا معبود إلا الله. ومعنى إلا الله أي أنه لا طاعة إلا لله.

والطاعة - كما نعرف - هي امتثال أمر، وامتثال نهي.

إذن فمجال "لا إله إلا الله" يشمل أنه لا معبود بحق إلا الله، ولا مُطاع في تكليفه إلا الله، ولا امتثال لأمر أو لنهي إلا للآمر القادم من الله؛ فإن امتثال إنسان الأمر من الله بعد قوله: "لا إله إلا الله" كان هذا الإنسان صادقا في قوله: "لا إله إلا الله".

وهذا هو صدق القمة ، أن تكون كل تصرفات قائل : "لا إله إلا الله" متطابقة مع هذا القول . والمؤمن الحق هو من يبني كل تصرفاته موافقة لمنهج الله . هذا هو الإنسان الصادق .

أما الذي يقول بلسانه : "لا إله إلا الله ، لا معبود بحق إلا الله" ثم يخالف ربه بعصيانه له ، لنا أن نقول له : أنت كاذب في قولك "لا إله إلا الله" لماذا ؟ لأنه لم يطابق النسبة التي قالها . إن هذا الإنسان إذا آمن بأي تكليف ثم فعل ما يناقضه قلنا له : أنت منافق ، لماذا ؟ لأننا عندما تكلمنا في أول سورة البقرة عن المنافقين قلنا : إن المؤمن حين يؤمن بالله يكون صادقا مع نفسه ؛ لأنه قال : "لا إله إلا الله" وهو مؤمن بها ، والكافر حين ينكر الألوهية يكون صادقا مع نفسه أيضا .

أما المنافق فهو لا يصدق مع نفسه ، ولا يصدق مع الناس ، إنه مذبذب بين هؤلاء وهؤلاء .

إن المنافق بلا صدق مع النفس ، ولذلك يصفهم الحق :

﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾

[النساء : 143] .

إن الكافر له صدق مع النفس فهو لا يقول : "لا إله إلا الله" لأنه لا يعتقدها . أما المنافق فقد قال : "لا إله إلا الله" وهي غير مطابقة لسلوكه ، لذلك يكون غير صادق مع نفسه ، وغير صادق مع ربه . إذن ، فقول الحق : ﴿ وَالصَّادِقِينَ ﴾ مقصود به هؤلاء الناس الذين يأتون في كل حركاتهم صادرين عن منهج الله ، فلا يؤمنون بقضية ، ويفعلون أخرى . ولذلك يقول

الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : 2-3] .

(63/114)

أي أنه حين يكون القول شيئا مختلفا عن الفعل ، لا تتطابق النسبة . فالصادقون هم الذين يصدقون في سلوكهم مع كلمة التوحيد في كل ما تتطلبه هذه الكلمة من هذه السلسة : " لا إله إلا الله لا معبود بحق إلا الله " أي لا مطاع في أمر أو نهي إلا الله ، فإن جئت وطاوعت أحدا في غير ما شرع الله يحق للمؤمنين أن يقولوا لك : أنت كاذب في قولك : " لا إله إلا الله " .

" فعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن " .

هذا هو سمو الإيمان عند المؤمن ، إن المؤمن لا يمكن أن يكذب أو يخالف مقتضيات عقيدته ؛ لأن المؤمن في كل تصرفاته خاضع لإيمانه بأنه لا إله إلا الله .

ثم يقول الحق : ﴿ وَالْقَانِتِينَ ﴾ والقانت : هو العابد بخشوع وباطمئنان وباستدامة .

والقانت صادق مع نفسه ، لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى حين يكلف عباده تكليفا ، فقد يكلفهم بشيء يعز على أفهامهم أن تدرك حكمته .

وأقبل القانتون من العباد على هذا التكليف ؛ لأن الذي أمرهم به إله قادر ، فهم يثقون في حكمته فأدُّوا الأمر الصادر إليهم لأنهم خاضعون لحكمة الله .

إنهم منفذون للأمر القادم من الآمر لا لعلة الأمر . وبعد أن يصنعوا ذلك ؛ يريهم الله نورانية هذا الحكم بأن يعطيهم فرقانا في أنفسهم :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

[الأنفال : 29] .

فيقول المؤمن منهم لنفسه بعد أن يرى هذا الفرقان : إن الله قد أراد لي بهذا الأمر أن أدرك حلاوة طاعة هذا الأمر ، لذلك قال أحد العارفين بالله :

إن كنت تريد أن تعلم عن الله حكما كلفك الله به دون أن تعلم علته فاتق الله فيه ، وحين تتقي الله في هذا الأمر ، فإنك تجد الحكمة مستنيرة في ذهنك ، ولذلك يقول الله :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[البقرة : 282] .

فكأنك قبل التقوى لم يعلمك الله ، أما بعد التقوى فإن الله يعلمك ، فتقبل على تنفيذ التكليف لتلمس إشارة في نورانية نفسك ، وهذا هو الفارق بين الأمر من المساوى ، والأمر من الأعلى . وعندما ترتقي كلمة " الأعلى " ، فإنها لا تنطبق إلا على الأعلى المطلق وهو الله ، لأنه الأعلى في الحكمة ، والأعلى في المنزلة ، والأعلى في المكانة ، والأعلى في الربوبية .

إذن ، فالإنسان لا يطلب علة حكم إلا من مساو له ، فإن قال لك أحد من البشر : افعل الشيء الفلاني . فإنك تسأله : لماذا ؟ فإن أقنعك ، فأنت تقوم بالفعل . وتكون قد قمت بتنفيذ هذا الفعل ؛ لأن المساوى لك قد أقنعك بالحكمة لا بالطاعة له .

ولكن عندما يصدر الأمر من الأعلى وهو الحق سبحانه وتعالى ، فإنك أيها العبد المؤمن تنفذ الأمر فورا عشقا في طاعته . والمثال الذي أضربه للتقريب لا للتشبيه ، فالله الأعلى ، وهو منزه عن كل شبيه ، إن الأب يقول للابن في حياتنا اليومية : إن نجحت في المدرسة فسأحضر لك هدية هي الدّراجة . فهل معنى ذلك أن علة الذهاب إلى المدرسة هي

الحصول على الدراجة كهدية ؟ لا ، ليست هذه هي العلة ، إن العلة عند الأب هي أن يتعلم الابن ويتفوق في حياته ، ويكبر ، وعند ذلك يدرك العلة ، ويقول لنفسه : لقد كان أبي على حق .

إذا كان هذا يحدث في الحياة بيننا نحن البشر ، فكيف لنا بطاعة الأمر الصادر من الله ؟ إن الحق سبحانه وتعالى حين يكلف العبد تكليفاً ، فإن العبد قد يجد مشقة في فهم العلة . والعبد المؤمن يعرف أن الرضوخ لتكليف الحق إنما هو خضوع للأمر الأعلى .

(65/114)

إن العبد المؤمن يعرف أنه آمن بمن هو أعلى منه وأعلى من كل كائن ، ولا يساويه أحد ، إن العبد المؤمن يعرف أنه آمن أولا بأن الله هو الإله الواحد – سبحانه – له مطلق الحكمة ، وله القوة وله كل شيء في الكون ، وسبق أن ضربت المثل – ولله المثل الأعلى .

إن الإنسان قد يمرض ، وصحة الإنسان أثمن شيء عنده ، فيفكر في الذهاب إلى طبيب ، ويقول له : إنني أتعب من معدتي ، أو من قلبي أو من أمعائي . إنه يحدد ما يشكو منه . وعقل الإنسان هو الذي هداه إلى الطبيب الذي يشخص العلة ، وبعد ذلك يأخذ المريض من الطبيب ورقة مكتوباً فيها الأدوية اللازمة . إن الإنسان يتناول كل دواء من هذه الأدوية

دون أن يسأل الطبيب عن حكمة كل دواء ؛ لأنه لو سأل عن ذلك فهذا معناه الدخول في متاهة كيماوية ، فإن سأل أي إنسان ذلك المريض : لماذا تأخذ هذا الدواء ؟ فيجيب المريض : لأن الذي كتب لي هذا الدواء هو الطبيب المختص بعلاج المعدة ، أو القلب ، أو الأمعاء أو أي عضو يشكو منه الإنسان .

والطبيب قد يخطىء ، إنما حكم الله لا يخطئ أبدا ، فهو جل شأنه منزه عن الخطأ تماما .

إن الحكمة تكون عند الحق سبحانه وتعالى ، وعندما ينفذ المؤمن مطلوب الله فإنه يدرك آثار الحكمة الربانية في نفسه . وكلمة " قانتين "كما عرفنا هي وصف لمن يعيشون القنوت ، والقنوت هو عباده مع خضوع ، وخشوع واستدامة . لماذا الخضوع ، والخشوع ؟

(66/114)

لأن الله جل وعلا لم يشرع العبادة لينفذها الإنسان ، وينقذ نفسه من عذاب النار ، لا ؛ إننا نرى كثيرا من الناس – إذا ما لاحظنا واقع الحياة – إذا وجدوا رئيسا قوى الشكيمة وقوانينه صارمة في أن الموظفين تحت يده يجب أن يحضروا صباحا في الميعاد المحدد ، وأن ينصرفوا في الميعاد المحدد ، ولا يسمح لهم بالاشتغال بغير العمل ، فلا يشربون الشاي ، ولا يقرأون الصحف ولا يقابلون الأصدقاء ، وغير ذلك من الأعمال . ويأتي واحد من

الموظفين فيقول عن هذا الرئيس " إنه شديد المراس ، ولذلك فليس له عندي إلا أن أحضر في الثامنة إلا خمس دقائق ، ولن أنصرف إلا في الثانية وخمس دقائق ، ولن أقرأ الصحف ولن أفعل أي شيء مما يمنعه " . إن هذا الموظف يفعل ذلك بجبروت واستعلاء على رئيسه حتى لا يسمح له بنقد أو تجريح ، فهذا الموظف ممتثل ولكن باستعلاء .

إنها طاعة بلا حب ، ولكنها باستعلاء . وقد يحاول عبد أن يقول : ماذا يطلب الله مني ؟ ألا يطلب مني الصلاة والزكاة وإقامة العبادات ؟ سوف أفعل ذلك . لمثل هذا العبد نقول : لا ، إن الله يطلب العبادة بحب منك وخشوع واطمئنان ، لأن التكليف من الحق صدقة أخرى أجراها الله على العبد . إن الحق سبحانه وتعالى قد كلف العبد بالتكاليف الإيمانية ، حتى يكون الإنسان سويا وله قيمة في الحياة .

إن معنى " قانت " هو العبد الذي يؤدي عبادة ربه بخشوع ، وباطمئنان ، وباستدامة .

لماذا ؟ لأن الذي يقبل على الطاعة ثم ينصرف عنها كأنه قد جرب وده لله فلم يجد الله أهلا للود . أما العبد الطائع فهو لا ينصرف عن العبادة ، لأنه ذاق حلاوة استدامة العبادة لله ، وما دام قد أدرك حلاوة العبادة فهو يقبل عليها بخشوع ، واطمئنان ، واستدامة ، ويدخل في دائرة القانتين .

وبعد " القانتين " يقول الله سبحانه : ﴿ وَالْمُنْفِقِينَ ﴾ وكلمة أنفق و " نفق " ، مأخوذة من كلمة " نفق الحمار " أي مات ، و " ونفقت السوق " أي انتهت بضائعها واشتراها الناس ولم يبق منها شيء . و " نفقة " مأخوذة من هذا المعنى لتشعرنا بأن الإنسان حين ينفق فهو يُميت ما أنفقه من نفسه ، فلا يتذكر أنه أنفق على فلان كذا ، وعلى علان كذا ، أي يعلم يقينا أن ما أنفقه هو رزق من أنفقه عليهم وليس له إلا أجر إيصاله إليهم فلا مَنّ ، ولا إذلال . إن الله يريد من كل إنسان يُخرج شيئًا من ماله أن ينهي من ذهنه هذا الشيء الذي خرج من المال فلا يذكره ولا يَمُنّ به على أحد . " والنفقة " ، تقتضي وجود منفق ، ومنفقا عليه ، ومنفقاً به ، المنفق كما نعرف هو المؤمن الذي عنده فضل مالٍ ، والمنفق عليه هو الفقير ، والمنفَق به هو الخيرات .

ومن أين تأتي هذه الخيرات ؟ إنها تأتي نتيجة الحركة في الحياة ، وحركة المتحرك في الحياة تقتضي قدرة ، فإذا كان الإنسان عاجزا ، ولا يجد القدرة على الحركة ، فمن أين يعيش ، إن الله لا بد أن يضمن له في حركة القادر ما يعوله .

لقد جعل الله القدرة عرضا من أعراض الحياة ، فالقادر اليوم قد يصير عاجزا غدا .

وما دامت القدرة عرضا من أعراض الحياة ، فالقادر الآن عندما يسمع الأمر من الله بأن ينفق على غير القادر ، فلابد أن يُقدر في نفسه أن قدرته هي عرض من أعراض الحياة ،

والقادر الآن من الأغيار ، لذلك فهو عرضة لأن يصير غدا من العاجزين ، ويقول القادر لنفسه : " عندما أصبح عاجزا سوف أجد من يعطيني " . أليس ذلك هو التأمين الحق ؟ إنه تأمين المؤمن . إن المؤمن يعطي عند قدرته ، وذلك حتى يجنبه الله مشقة السؤال إن جاءت الأغيار ، لأن الأغيار إن جاءت سوف يجد من يعطيه .

(68/114)

إننا يجب أن نلحظ في الحكم ، لا ساعة أن تطالب أنت بأداء مطلوب الحكم ، ولكن ساعة أن يؤدي الغير إليك مطلوب الحكم . فالذي يطلب منه أن ينفق ، عليه أن يقدر أنه قد يصبح عاجزا ، ولنا أن نسأله : لو كنت عاجزا ألم تكن تحب أن يعطيك الناس دون مَنٍّ أو أذى ؟ إن هذا هو التأمين الحق ، لأن التأمين في يد الله ، ومادامت الأغيار عرضة لأن يصير القادر عاجزا ويصير العاجز قادرا ، فساعة ينفق المنفق يجب عليه أن يميت أنه أنفق فلا يتذكر وجه من أنفق عليه ، ولا يخبر أحدا بما أنفق .

عد الرسول صلى الله عليه وسلم الرجل الذي أنفق حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه من السبعة الذين يظلهم الله في ظله فقال : " سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المسجد إذا خرج منه حتى يعود

إليه ، ورجلان تحابا في الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه " .

(69/114)

وبعد ذلك على المؤمن المنفق أن يُقدر ساعة عطائه أنه ادّخر ليأخذ ، إما أن يأخذ إن طرأت له الأغيار في الدنيا ، وإما أن يأخذ من يد الله في الآخرة أضعافا مضاعفة . إذن ، فالمنفق هو الذي يُؤَمِّنُ لغير القادر حركته في الحياة ضمانا لنفسه حين لا يقدر ؛ أو استثمارا مضاعفا عند الله ، وهؤلاء المنفقون الذين يَسعَوْنَ العاجزين بفضل ما لديهم ، يظهرون حكمة الله في الوجود ، لأن الله ما دام قد خلقنا ، وفينا القادر ، وفينا العاجز ، فقد أراد الله لنا أن نعرف أن القدرة ليست لازمة في الخلق . فإن قدرت الآن فقد تُسلب – بضم التاء – منك هذه القدرة ، وما دامت القدرة يتم سلبها ، فلابد أن يتمسك المؤمن بالقيوم الذي يقيم القدرة لك أيها المؤمن دائما ، وذلك حتى يعرف الواحد منا أنه لم ينفلت من ربه ، خلقنا قادرين وانتهت المسألة . لا . إنّ القدرة أغيار تذهب وتجيء . وما دامت الأغيار تذهب وتجيء فلا بد أن يضع المؤمن نصب عينيه عطاء القادر الأعلى .

وقلنا سابقا : إن الله جعل المنفقين وصفا من أوصاف الذين اتقوا ، والذين أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، وذلك حتى يحمى الله الضعيف الذي خلقه الله لحكمة في الوجود . إن الإنفاق ليس أخذا من العبد ، إنما هو مناولة ، هذه المناولة تتضح في أنه ما كان لك ما يزيد عن حاجتك ، إلا بحركتك في الحياة .

وهذه الحركة في الحياة تتطلب عقلا يخطط للحركة وجوارح تنفذ المخطط الفكري ، ومادة يتم الفعل فيها سواء كانت أرضا تتم زراعتها , أو آلة يتم الصنع بها ، ولا شيء للإنسان من هذا في الكون . إن المخ الذي يدبر هو عطاء من الله ، والطاقة التي تنفذ هي عطاء من الله . ونحن نرى في الحياة إنسانا قد نزع الله عنه المخ الذي يفكر ويدبر ، ونجد إنسانا آخر قد نزع الله منه الطاقة التي تنفذ ، فقد يمنع الله عن عبدٍ المادة التي يتفاعل معها .

(70/114)

إذن فلا شيء من هذه الأشياء ذاتي للإنسان ، إنها كلها عطاء من الله . فليعمل المؤمن مضاربا عند الله ، وليعط المؤمن للعاجز حق الله . إن الله لا يأخذ هذا الحق لنفسه إنما يريده الله لأخيك العاجز ، وسوف يطلب الله هذا الحق لك إذا عنَّت لك حاجة بسبب الأغيار .

هكذا تكون ﴿ وَالْمُنْفِقِينَ ﴾ صفة من صفات الذين اتقوا ربهم . والحق سبحانه وتعالى قد جعل في الصبر ، صلابة اليقين الإيماني في النفس البشرية . وفي الصدق انسجاما مع واقع لا إله إلا الله ، وفي النفقة حماية العاجز الذي لا يقدر .

وبعد ذلك يعود إلى نفس المؤمن عودة أخرى فيقول : ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ إننا يجب أن نأخذ هذا الوصف بعد مجيء الأوصاف الأخرى في النفس البشرية . البداية هي إقرارهم بالإيمان ، ودعاؤهم الحق – سبحانه – أن يغفر لهم وقد طلبوا الوقاية من عذاب النار ، وصبروا ، وصدقوا ، وقنتوا في العبادة ، وأنفقوا في سبيل الله ، إن كل هذه الأوصاف تبرئ ذمتهم من أنهم مقصرون أيضا في حقوق إلههم لذلك فهم يأتون حال السكون بالليل ، ويستغفرون الله .

إما أن يستغفر العبد لأنه قد فرطت منه هفوة في ذنب ، وإما أن يستغفر لأنه لم يَزد فيما يفعله من أمور الطاعة . وكلمة ﴿ بِالأَسْحَارِ ﴾ توضح لنا لحظات من اليوم يكون الإنسان فيها محل الكسل والراحة ، إن الذي سوف يصحو في السحر لا بد أن يكون قد اكتفى من الراحة ، ولم يكن قد أخذ منه كد الحياة كل النهار ، ثم إن بعضهم يأخذه لهو الحياة ليلا .

وهذا هو وجه الخيبة لما يحدث في زماننا . إن كد الحياة - إن أخذ - يأخذ نهارا ، وبعد ذلك يأخذنا لهو الحياة ليلا ، مما نشاهده من لهو الحديث ، ولهو السهرات ، وبعد ذلك يأتي الإنسان لينام متأخرا ، فكيف نطلب من هذا الإنسان أن يصحو في السحر ؟ إن الذي يصحو في السحر هو من أخذ حظه في الراحة ، فبعد أن جاء من كد العمل نام نوما هادئا ، ويصحو من بعد ذلك في السحر ليذكر ربه ، في الوقت الذي نام فيه غيره من الناس ، لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى في لحظة سكون الليل يوزع رحمته ، وعندما يصحو إنسان في السحر ويدعو الله ، ويستغفره فإنه يأخذ من رحمة الله النازلة .

وعندما يأخذ هذا العبد من رحمة الله النازلة في ذلك الوقت ، فمعنى هذا أنه سيأخذ الكثير من رحمة الله . وإياك أن تقول : لو صحونا جميعا في الأسحار لنفدت الرحمة والعطاء "لا" لأن الله قد قال :

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾

[النحل : 96] .

إن قدرته جل وعلا تتسع لعطائنا جميعا دون أن ينقص شيء من عنده . إن كل هذه الأشياء من التقوى ، والإقرار بالإيمان ، وطلب المغفرة للذنوب ، وطلب الوقاية من عذاب النار ، والصبر ، والصدق ، والقنوت ، والإنفاق في سبيل الله ، والاستغفار بالأسحار ، كل ذلك نتيجة للتقوى الأولى .

إنها الثمرة من " لا إله إلا الله " . وما دامت هذه هي الثمرة من " لا إله إلا الله " فليعلم كل إنسان ، أن الله لم يدعك لتستنبطها أنت من مفقود ، بل اعلم أن الله قد شهد أنه لا إله إلا الله ، وكفى بالله شهيدا . ولذلك يقول الحق : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1344.1331 ﴾

(72/114)

فصل

قال ابن القيم :

ومن أركان المحاسبة : ما ذكره صاحب المنازل فقال :

"الثالث أن تعرف أن كل طاعة رضيتها منك فهي عليك وكل معصية عيرت بها أخاك فهي إليك" .

رضاء العبد بطاعته دليل على حسن ظنه بنفسه وجهله بحقوق العبودية وعدم عمله بما يستحقه الرب جل جلاله ويليق أن يعامل به .

وحاصل ذلك : أن جهله بنفسه وصفاتها وآفاتها وعيوب عمله وجهله بربه وحقوقه وما ينبغي أن يعامل به يتولد منهما رضاه بطاعته وإحسان ظنه بها ويتولد من ذلك : من

العجب والكبر والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة من الزنا وشرب الخمر والفرار من الزحف ونحوها .

فالرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها .

وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفارا عقيب الطاعات لشهودهم تقصيرهم فيها وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية ولا رضيها لسيده .

وقد أمر الله تعالى وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات وهو أجل المواقف وأفضلها فقال ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ، ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾

قال الحسن : "مدوا الصلاة إلى السحر ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل" وفي الصحيح "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثا ثم قال : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام" وأمره الله تعالى بالإستغفار بعد أداء

الرسالة والقيام بما عليه من أعبائها وقضاء فرض الحج واقتراب أجله فقال في آخر سورة أنزلت عليه ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾ .

ومن ههنا فهم عمر وابن عباس رضي الله عنهم أن هذا أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه به فأمره أن يستغفره عقيب أداء ما كان عليه فكأنه إعلام بأنك قد أديت ما عليك ولم يبق عليك شيء فاجعل خاتمته الإستغفار كما كان خاتمة الصلاة والحج وقيام الليل وخاتمة الوضوء أيضا أن يقول بعد فراغه "سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين" .

فهذا شأن من عرف ما ينبغي لله ويليق بجلاله من حقوق العبودية وشرائطها لا جهل أصحاب الدعاوى وشطحاتهم .

وقال بعض العارفين : متى رضيت نفسك وعملك لله فاعلم أنه غير راض به ومن عرف أن نفسه مأوى كل عيب وشر وعمله عرضة لكل آفة ونقص كيف يرضى لله نفسه وعمله ؟

.

ولله در الشيخ أبي مدين حيث يقول : "من تحقق بالعبودية نظر أفعاله بعين الرياء وأحواله بعين الدعوى وأقواله بعين الإفتراء وكلما عظم المطلوب في قلبك صغرت نفسك عندك وتضاءلت القيمة التي تبذلها في تحصيله وكلما شهدت حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية

وعرفت الله وعرفت النفس وتبين لك أن ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق ولاو جئت بعمل الثقلين خشيت عاقبته وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضله ويثيبك عليه أيضا بكرمه وجوده وتفضله" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مدارج السالكين جـ 1 صـ 175 . 176 ﴾

(74/114)

" فصل "

قال السيوطى :

الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (17)

أخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله ﴿ الصابرين . . . ﴾ الآية . قال : (الصابرون) قوم صبروا على طاعة الله ، وصبروا عن محارمه (والصادقون) قوم صدقت نياتهم ، واستقامت قلوبهم وألسنتهم ، وصدقوا في السر والعلانية (والقانتون) هم المطيعون (والمستغفرون بالأسحار) هم أهل الصلاة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في الآية قال ﴿ الصابرين ﴾ على ما أمر الله ﴿ والصادقين ﴾ في إيمانهم ﴿ والقانتين ﴾ يعني المطيعين ﴿ والمنفقين ﴾ يعني من أموالهم

في حق الله ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ يعني المصلين .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ قال : هم الذين يشهدون صلاة الصبح .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عمر أنه كان يحيي الليل صلاة ثم يقول : يا نافع أسحرنا فيقول : لا . فيعاود الصلاة فإذا قال : نعم . قعد يستغفر الله ويدعو حتى يصبح .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أنس بن مالك قال " أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستغفر بالأسحار سبعين استغفارة " .

وأخرج ابن جرير عن جعفر بن محمد قال : من صلى من الليل ثم استغفر في آخر الليل سبعين مرة كتب من المستغفرين .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن أبي سعيد الخدري قال : بلغنا أن داود عليه السلام سأل جبريل عليه السلام فقال : يا جبريل أي الليل أفضل ؟ قال : يا داود ما أدري إلا أن العرش يهتز في السحر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 164 ﴾

لطائف ومواعظ

قال حجة الإسلام رحمه الله :

قال قتادة رحمه الله :

القرآن يدلكم عن دائكم ودوائكم

أما داؤكم فالذنوب ، وأما دواؤكم فالاستغفار وقال علي كرم الله وجهه :

العجب ممن يهلك ومعه النجاة قيل : وما هي ؟ قال الاستغفار وكان يقول : ما ألهم الله سبحانه عبدا الاستغفار وهو يريد أن يعذبه

وقال الفضيل قول العبد أستغفر الله تفسيرها أقلني

وقال بعض العلماء : العبد بين ذنب ونعمة لا يصلحهما إلا الحمد والاستغفار

وقال الربيع بن خيثم رحمه الله :

لا يقولن أحدكم أستغفر الله وأتوب إليه فيكون ذنبا وكذبا إن لم يفعل ولكن ليقل اللهم اغفر لي وتب علي (1)

قال الفضيل رحمه الله الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين

وقالت رابعة العدوية رحمها الله :

استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير

قال بعض الحكماء من قدم الاستغفار على الندم كان مستهزئا بالله عز وجل وهو لا يعلم

وسمع أعرابي وهو متعلق بأستار الكعبة يقول : اللهم إن استغفاري مع إصراري للؤم وإن تركي استغفارك مع علمي بسعة عفوك لعجز فكم تتحبب إلي بالنعم مع غناك عني وكم أتبغض إليك بالمعاصي مع فقري إليك يا من إذا وعد وفى وإذا أوعد عفا أدخل عظيم جرمي في عظيم عفوك يا أرحم الراحمين

وقال أبو عبد الله الوراق لو كان عليك مثل عدد القطر وزبد البحر ذنوبا لمحيت عنك إذا دعوت ربك بهذا الدعاء مخلصا إن شاء الله تعالى

اللهم إني أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه وأستغفرك من كل ما وعدتك به من نفسي ولم أوف لك به وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها علي فاستعنت بها على معصيتك وأستغفرك يا عالم الغيب والشهادة من كل ذنب أتيته في ضياء النهار وسواد الليل في ملأ أو خلاء وسر وعلانية يا حليم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الإحياء جـ 1 صـ 313 ﴾

---

(1) هذا الكلام فيه نظر . فقد ثبت مثله عن رسول الله. صلى الله عليه وسلم. ومن ذلك ما جاء فى صحيح مسلم

حدثني محمد بن المثنى حدثني عبد الأعلى حدثنا داود عن عامر عن مسروق عن عائشة قالت

: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله

وأتوب إليه

قالت فقلت يا رسول الله أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه ؟

فقال خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه فقد رأيتها إذا جاء نصر الله والفتح فتح مكة ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا .

وعند أبى داود

3265 - حدثنا محمد بن عبد العزيز بن أبي رزمة أخبرني زيد بن حباب أخبرني محمد بن هلال حدثني أبي أنه سمع أبا هريرة يقول

: كانت يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حلف يقول " لا وأستغفر الله " .

وعند أحمد

22461 - حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا أبو إسحاق الطالقاني ثنا عبد الله بن المبارك عن الأوزاعي حدثني أبو عمار حدثني أبو أسماء الرحبي حدثني ثوبان قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن ينصرف من صلاته قال أستغفر الله ثلاثا ثم يقول اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ذا الجلال والإكرام . والله أعلم .

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

الصبرُ حبسُ النّفْس ، وذلك على ثلاث مراتب :

صبر على ما أُمِرَ به العبد ، وصبر عما نُهي عنه وصبر هو الوقوف تحت جريان حكمه على ما يريد ؛ إمَّا في فوات محبوبك أو هجومَ ما لا تستطيعه .

فإذا ترقيتَ عن هذه الصفة - بألا تصيبك مشقةٌ أو تنال راحةً - فذلك رضاً لا صبر

ويقال الصابرين على أمر الله ، والصادقين ، فيما عاهدوا الله .

و ﴿ القَانِتِينَ ﴾ ، بنفوسهم بالاستقامة في محبة الله .

و ﴿ المُسْتَغْفِرِينَ ﴾ عن جميع ما فعلوه لرؤية تقصيرهم في الله .

ويقال : ﴿ الصّابِرِينَ ﴾ بقلوبهم و ﴿ وَالصَّادِقِينَ ﴾ بأرواحهم و ﴿ وَالقَانِتِينَ ﴾ بنفوسهم ، و ﴿ المُسْتَغْفِرِينَ ﴾ بألسنتهم .

ويقال " الصابرين " على صدق القصود " الصادقين " في العهود " القانتين " بحفظ الحدود و " المستغفرين " عن أعمالهم وأحوالهم عند استيلاء سلطان التوحيد .

ويقال " الصابرين " الذين صبروا على الطلب ولم يتعللوا بالهرب ولم يحتشموا من التعب ، وهجروا كل راحة وطلب . وصبروا على البلوى ، ورفضوا الشكوى ، حتى وصلوا إلى المولى ، ولم يقطعهم شيء من الدنيا والعقبى .

و" الصادقين " الذين صدقوا في الطلب فقصدوا ، ثم صدقوا حتى وردوا ، ثم صدقوا حتى شهدوا ، ثم صدقوا حتى وجدوا ، ثم صدقوا حتى فقدوا . . فترتيبهم قصود ثم ورود ثم شهود ثم وجود ثم خمود .

و" القانتين " الذين لازموا الباب ، وداوموا على تجرّع الاكتئاب ، وتركوا المحاب ، ورفضوا الأصحاب إلى أن تحققوا بالاقتراب .

و ﴿ وَالْمُنفِقِينَ ﴾ الذين جادوا بنفوسهم من حيث الأعمال ، (ثم جادوا بميسورهم من الأموال) ، ثم جادوا بقلوبهم بصدق الأحوال ، ثم جادوا بترك كل حظٍ لهم في العاجل والآجل ، استهلاكاً عند القرب والوصال بما لقوا من الاصطلام والاستئصال .

و ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ ﴾ عن جميع ذلك إذا رجعوا إلى الصحو عند الأسحار يعني ظهور الإسفار ، وهو فجر القلوب لا فجر يظهر في الأقطار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 224. 225 ﴾ .

(77/114)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (12) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (13) زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (15) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (16) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (17) ﴾

التفسير: عن ابن عباس في رواية أبي صالح عنه قال: لما هزم الله المشركين يوم بدر قالت يهود المدينة: هذا والله النبي الأمي الذي بشرنا به موسى ونجده في كتابنا بنعته وصفته وأنه لا ترد له راية وأرادوا تصديقه واتباعه. ثم

قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى ننظر إلى وقعة أخرى. فلما كان يوم أحد ونكب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شكوا فقالوا: لا والله ما هو به. وغلب عليهم

الشقاء فلم يسلموا . وكان بينهم وبين رسول الله عهد إلى مدة فنقضوا ذلك العهد .

وانطلق كعب بن الأشرف في ستين راكباً إلى أهل مكة أبي سفيان وأصحا به فوافقوهم وأجمعوا أمرهم وقالوا : لتكونن كلمتنا واحدة . ثم رجعوا إلى المدينة فأنزل الله فيهم هذه الآية . وقال محمد بن إسحق بن يسار في رواية عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس : لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً ببدر وقدم المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع فقال : يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر ، وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم ، فقد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم .

(79/114)

فقالوا : يا محمد ، لا يغرّنك أنك لقيت قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فأصبت فيهم فرصة . أما والله لو قاتلناك لعرفت أنا نحن الناس فأنزل الله ﴿ قل للذين كفروا ﴾ يعني اليهود ﴿ ستغلبون ﴾ تهزمون ﴿ وتحشرون إلى جهنم ﴾ في الآخرة . ومعنى جهنم قد مر في البقرة في قوله : ﴿ فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾ [البقرة : 206] وقيل : هم مشركو مكة ﴿ ستغلبون ﴾ يعني يوم بدر من قرأ بتاء الخطاب فمعناه الأمر بأن يخبرهم بما سيجري عليهم من الغلبة والحشر بأي لفظ أراد صلى الله عليه وسلم ، ومن قرأ بالياء

فالأمر متوجه إلى حكاية هذا اللفظ أي قل لهم قولي لك : ﴿ سيغلبون ﴾ . وفي الآية حجاج للقائل بتكليف ما لا يطاق ، فإنه تعالى أخبر عنهم بأنهم يحشرون إلى جهنم ، فلو آمنوا وأطاعوا لانقلب الخبر

(80/114)

كذباً . وفيها دليل على صحة البعث والحشر بإخبار الصادق وفي قوله ﴿ ستغلبون ﴾ وقد وقع كما أخبر إخبار عن الغيب فيكون معجزاً دالاً على صدق النبي صلى الله عليه وسلم . نظيره في حق عيسى عليه السلام ﴿ وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ﴾ [آل عمران : 49] ثم إنه تعالى ذكر ما يجري مجرى الدلالة على صحة ذلك الحكم فقال ﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتا ﴾ يوم بدر ﴿ فئة ﴾ إحداهما جماعة ﴿ تقاتل في سبيل الله ﴾ وهم المسلمون لأنهم يقاتلون لنصرة دين الله وإعلاء كلمته ﴿ وفئة ﴾ أخرى ﴿ كافرة ﴾ هم كفار قريش . وبيان كون تلك الواقعة آية من وجوه : أحدها أن المسلمين كان قد اجتمع فيهم من أسباب الضعف أمور منها : قلة العدد والعدد ، كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً مع كل أربع منهم بعير ، ومعهم من الدروع ستة ومن الخيل فرسان .

ومنها أنهم خرجوا غير قاصدين للحرب فلم يتأهبوا . ومنها أن ذلك ابتداء غارة في الحرب لأنها من أول غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان قد حصل في المشركين أضداد هذه المعاني . كانوا تسعمائة وخمسين رجلاً وفيهم أبو سفيان وأبو جهل ، ومعهم مائة فرس وسبعمائة بعير ، وأهل الخيل كلهم دارعون ، وكان معهم دروع سوى ذلك ، وكانوا قد مرنوا على الحرب والغارات . وإذا كان كذلك كانت غلبة المسلمين خارقة للعادة فكانت معجزة . وثانيها أنه صلى الله عليه وسلم كان قد أخبر عن ذلك بإخبار الله في قوله تعالى ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين ﴾ [الأنفال : 7] يعني جمع قريش أو عير أبي سفيان . وكان أخبر قبل الحرب بأن هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان والإخبار عن الغيب معجز . وثالثها إمداد الملائكة كما سيجيء في هذه السورة . ورابعها قوله ﴿ يرونهم مثليهم ﴾ وفيه أربعة احتمالات لأن الضمير في " يرون " إما أن يعود إلى الفئة الكافرة أو إلى الفئة المسلمة ، وعلى كلا التقديرين يجوز عود الضمير في ﴿ مثليهم ﴾ إلى كل منهما فهذه أربعة : الأول أن الفئة الكافرة رأت المسلمين مثلي عدد المشركين قريباً من ألفين . الثاني أنها رأت المسلمين مثلي عدد المسلمين ستمائة ونيفاً وعشرين ، ودليل هذا

الاحتمال قراءة من قرأ ﴿ ترونهم ﴾ بتاء الخطاب أي ترون يا مشركي قريش المسلمين مثلي أنفسهم . ودليل الاحتمالين جميعاً أن عود الضمير في " يرون " إلى الأقرب وهو الفئة الكافرة أولى ، ولأنه سبحانه جعل هذه الحالة آية للكفار حيث خاطبهم بقوله ﴿ قد كان لكم آية ﴾ فوجب أن يكون الراؤون هم الكفار حتى تكون حجة عليهم ، ولو كانت الآية مما شاهدها المؤمنون لم يصلح جعلها حجة على الكفرة . والحكمة في ذلك أن يهابهم المشركون ويجبنوا عن قتالهم وهذا لا يناقض قوله في سورة الأنفال ﴿ ويقللكم في أعينهم ﴾ [الآية : 44] لاختلاف الوقتين فكأنهم قللوا أوّلاً في أعينهم حتى اجترؤا عليهم

(82/114)

، فلما لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا . على أن تقليلهم تارة في أعينهم وتكثيرهم أخرى أبلغ في القدرة وإظهار الآية . الاحتمال الثالث أن الرائين هم المسلمون والمرئيين هم المشركون . فالمسلمون رأوا المشركين مثلي المسلمين والسبب فيه ما قرر عليه أمرهم من مقاومة الواحد الاثنين في قوله تعالى : ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾ [الأنفال : 65] والكافرون كانوا قريباً من ثلاثة أمثالهم ، فلو رأوهم كما هم لجبنوا وضعفوا . الاحتمال الرابع أن يكون الراؤون هم المسلمين ، ثم إنهم رأوا المشركين على

الضعف من عدد المشركين وهذا قول لا يمكن أن يقول به أحد لأن هذا يوجب نصرة الكفار وإيقاع الخوف في قلوب المؤمنين ، والآية تنافي ذلك .

وفي الآية احتمال خامس وهو أن أول الآية قد بينا أنه خطاب مع اليهود فيكون المراد : ترون أيها اليهود المشركين مثلي المؤمنين في القوة . وههنا بحث وهو أن الاحتمال الأول والثاني يقتضي أن المعدوم صار مرئياً ، والاحتمال الثالث يوجب أن يكون الموجود والحاضر غير مرئي . أما الأول فهو محال عقلاً والقول به سفسطة فلهذا قيل : لعل الله تعالى أنزل الملائكة حتى صار عسكر المسلمين كثيراً . وعلى هذا تكون الرؤية البصر ، ويكون ﴿ مثليهم ﴾ نصباً على الحال ، أو تحمل الرؤية على الظن والحسبان فإن من اشتد خوفه قد يظن في الجمع القليل أنه في غاية الكثرة ، لكن قوله : ﴿ رأى العين ﴾ لا يجاوب ذلك إذ معناه رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها معاينة كسائر المعاينات . وأما الثاني فهو جائز عند الأشاعرة إذ عند حصول الشرائط وصحة الحاسة لا يكون الإدراك واجب الحصول بل يكون عندهم جائزاً لا واجباً والزمان زمان خوارق العادات . وأما المعتزلة فعندهم الإدراك واجب الحصول عند استجماع الشروط وسلامة الحس ، فاعتذروا عن ذلك بأن الإنسان

عند الخوف لا يتفرغ للتأمل البالغ ، فقد يرى البعض دون البعض . أو لعل الغبار صار مانعاً عن إدراك البعض ، أو خلق الله تعالى في الهواء ما صار مانعاً عن رؤية ثلث العسكر ، أو يحدث في عيونهم ما يستقل به الكثير كما أحدث في أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين وكل ذلك محتمل . ﴿ والله يؤيد بنصره من يشاء ﴾ إما بالغلبة كيوم بدر ، وإما بالحجة والعاقبة كيوم أحد . ﴿ إن في ذلك ﴾ الذي ذكره من الآية ﴿ لعبرة ﴾ نوع عبور وهو المجاوزة من منزل الجهل إلى مقام العلم ﴿ لأولي الأبصار ﴾ ذوي العقول التي تصير القضايا معها كالمشاهد المعاين . ثم ذكر ما هو كالشرح والبيان لمعتبر الإنسان وهو أنه ﴿ زين للناس ﴾ اللذات الجسمانية والآخرة . وهي عالم الروحانيات – خير وأبقى ، وأنها معدة لمن واظب على العبودية واتصف بالخصال الحميدة . وأما ما يتعلق

(84/114)

بالقصة فإنا روينا أن أبا حارثة بن علقمة النصراني اعترف لأخيه بأنه يعرف صدق محمد صلى الله عليه وسلم إلا أنه يمنعه من اتباعه حب المال والجاه . وروينا أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم لما دعا اليهود إلى الإسلام بعد غزوة بدر أظهروا من أنفسهم القوة والشدة والاستظهار بالعدة والعدد ، فبيّن الله تعالى في هذه الآية أن تلك الأشياء متاع الدنيا

وزينتها ، والآخرة خير . والمزين هو الله تعالى . أما عند الأشاعرة فلأنه خالق أفعال العباد كلها ، ولو كان المزين هو الشيطان فمن الذي زين الكفر والبدعة للشيطان ؟ وأما عند جمهور المعتزلة فلحكمة الابتلاء ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ [الكهف : 7] ولأنها وسائل إلى منافع الآخرة وهو أن يتصدق بها أو يتقوى بها على طاعة الله أو يشتغل بشكرها .

(85/114)

كان الصاحب بن عباد يقول : شرب الماء البارد في الصيف يستخرج الحمد لله من أقصى القلب . ولأن القادر على وجوه اللذات إذا تركها وأقبل على أداء وظائف الخدمة كان أشق له وأكثر ثواباً . وعن الجبائي واختاره القاضي ، أن كل ما كان واجباً أو مندوباً أو مباحاً فالتزيين فيه من الله تعالى ، وكل ما كان حراماً فالتزيين فيه من الشيطان . وحكي عن الحسن أنه قال : الشيطان زينها لهم وكان يحلف بالله على ذلك . واحتجاجه في الآية بأنه أطلق الشهوات فيدخل فيها المحرمات ، وإن تزيينها وظيفة الشيطان . وذكر القناطير المقنطرة وحب المال الكثير إلى هذه الغاية لا يليق إلا بمن جعل الدنيا قبلة طلبه ومنتهى مقصوده . وقال في معرض الذم ﴿ ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ والذام للشيء لا يكون مزيناً

له . وقال ﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ﴾ والغرض تقبيح الدنيا فكيف يكون مزيناً لها ؟

. ثم إنه تعالى جعل الأعيان المشتهاة شهوات مبالغة في كونها مشتهاة محروصاً على الاستمتاع بها وذلك للتعلق والاتصال كما يقال للمقدور " قدرة " وللمرجو " رجاء " . وفيه فائدة أخرى هي أن الشهوة صفة مسترذلة عند الحكماء ، مذموم من اتبعها ، شاهد على نفسه بالبهيمية . فكان المقصود من ذكر هذا اللفظ تخسيسها والتنفير عنها . قال المتكلمون : في الآية دليل على أن الحب غير الشهوة لأن المضاف يجب أن يكون مغايراً للمضاف إليه . فالشهوة من فعل الله تعالى ، والمحبة من أفعال العباد ، وهي أن يجعل الإنسان كل همته مصروفة إلى اللذات والطيبات . واعلم أن الإنسان قد يحب شيئاً ولكنه يحب أن لا يحبه ، وقد يحبه ويحب أن يحبه ويعتقد مع ذلك أن تلك المحبة حسنة وفضيلة وهذا هو كمال المحبة ، ومنه قوله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام ﴿ إني أحببت حب الخير ﴾ [ص : 32] ومعناه أحب الخير وأحب أن أكون محباً للخير . فقوله : ﴿ حب الشهوات ﴾ قريب من ذلك لأن الشهوة نوع محبة . ولفظ ﴿ الناس ﴾ عام فظاهره

يقتضي أن هذا المعنى عام لجميع الناس ولا شك أنه موجود في الأغلب وفي أكثر الأوقات فلا يبعد التعميم ، فطالما أعطى للأغلب حكم الكل . على أن من همته بجوامعها مقصورة على طلب اللذات الروحانية في غاية الندرة ، وبقاء ذلك النادر في جميع الأحيان على ذلك الخاطر أعز وأمنع . ثم شرع في بيان تلك الأعيان المشتهيات فذكر منها ما هي الأمهات ورتبها في سبع مراتب : الأولى النساء لأن الالتذاذ بهن أكثر والاستئناس بهن أتم ﴿ خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة ﴾ [الروم : 21] وقال صلى الله عليه وسلم : " إن أخوف ما أخاف على متي النساء " الثانية الأولاد ولا سيما البنين ولهذا خصوا بالذكر ، ومحبة النساء والأولاد كأنها حالة غريزية ولولاها لم يتصور بقاء النسل للحيوانات .

الثالثة والرابعة القناطير المقنطرة من الذهب والفضة . قال الزجاج : القنطار مأخوذ من عقد الشيء وإحكامه ومنه القنطرة . والمال الكثير قنطار لأن الإنسان يتوثق بها في دفع النوائب . أبو عبيد : إنه وزن لا يحد . روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : " القنطار اثنا عشر ألف أوقية " وروى أنس عنه هو ألف دينار . وروى أبي بن كعب عنه هو ألف ومائتا أوقية . وقال ابن عباس : ألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم وهو مقدار الدية . وبه قال الحسن . وزعم الكلبي أن القنطار بلسان الروم ملء مسك ثور من ذهب أو فضة . وعن سعيد بن جبير أنه مائة ألف دينار . والمقنطرة مبنية من لفظ القنطار للتوكيد

كقولهم " ألف مؤلفة وبدرة مبدّرة وإبل مؤبلة " . قال الكلبي : القناطير ثلاثة والمقنطرة المضاعفة فكان المجموع ستة . وإنما كان الذهب والفضة محبوبين لأنهما جعلا ثمن جميع الأشياء فمالكهما كالمالك لجميع الأشياء .

وكل الصيد يوجد في الفرا . . . ولولا التقى لقلت جلت قدرته

(87/114)

وصفة المالكية هي القدرة ، وأنها صفة كمال والكمال محبوب لذاته . والخامسة الخيل المسوّمة قال الواحدي : الخيل جمع لا واحد له من لفظه كالقوم والنساء والرهط ، وسميت الأفراس خيلاً لاختيالها وهو جولانها في مشيتها . ويسمى الخيال خيالاً لجولان هذه القوة في استحضار الصور . والمسومة قيل المرعية . أسمت الدابة وسوّمتها إذا أرسلتها في مرجها للرعي . ولا شك أنها إذا رعت ازدادت حسناً وبهاء . وقيل : هي المعلمة من السومة العلامة . ثم اختلفوا في تلك العلامة فعن أبي مسلم : الغرة والتحجيل ، وقال الأصم : هي البلق . وقال قتادة : الشية - وقيل : الكي . وقال مجاهد وعكرمة : المسومة المطهمة أي الحسان . قال الأصمعي : رجل مطهم وفرس مطهم أي تام ، كل شيء على حدته فهو بارع الجمال . السادسة الأنعام وهو جمع نعم وهي الإبل

والبقر والغنم . ولا يقال للجنس الواحد منها نعم إلا للإبل خاصة فإنها غلبت عليها .

السابعة الحرث وهو الزراعة ذلك الذي ذكر متاع الحياة الدنيا لأن وجوه الانتفاعات الدنيوية للإنسان إما أن تكون من بني نوعه أو من غيره . والأول أصل وهو المرأة وفرع وهو الولد ، وإنما فرض الكلام في الذكور لشرفهم . والثاني إما أن تكون من المعدنيات وأكثرها فائدة وأعمها عائدة الجوهران الثمينان فخصا بالذكر ، وإما أن تكون من الحيوانات للركوب والكر والفر وهو الخيل ، أو للحمل واللحم وهو الأنعام ، وإما أن تكون من النباتات وهو الحاصل من الزراعة وإنما لم يتعرض للدور والقصور لأنها لم تكن معتادة عند العرب ، والقرآن يخاطب أولاً معهم . ﴿ والله عنده حسن المآب ﴾ أي المرجع . وإنما لم يذكر المآب القبيح وهو النار لأنها غير مقصودة بالذات لأنه سبحانه خلق الخلق للرحمة لا للعذاب ولهذا قال :

" سبقت رحمتي غضبي " ثم بيّن أن ذلك المرجع كما أنه حسن في نفسه فهو أحسن وأفضل من هذه الدنيا . والمقصود أن يعلم العبد أنه كما أن الدنيا أطيب وأفسح من بطن الأم فكذلك الآخرة أفسح وأوسع من الدنيا ، أو لأنه لما عدد نعم الدنيا بين أن منافع الآخرة خير

منها فقال مستفهماً على سبيل التقرير ﴿ قل أؤنبئكم بخير ﴾ أي بشيء هو خير ﴿ من ذلكم ﴾ الذي عددنا . ثم استأنف بيانه وتقريره فقال : ﴿ للذين اتقوا عند ربهم جنات ﴾ كما تقول : هل أدلكم على حبر خير من فلان ؟ عندي رجل من صفته كيت وكيت . وبيان الخيرية ظاهر من وصف الجنات والأزواج مع قيد الخلود ، فإن النعمة وإن عظمت ، فتوهم الانقطاع والزوال ينغص صفوها وينقص لذتها ، وبعد زوال هذا الوهم لن يتكامل طيبها إلا بالنساء فبهن يحصل الأنس . ثم وصف الأزواج بصفة واحدة جامعة فقال : ﴿ مطهرة ﴾ أي من الأقذار والمنفرات . وبعد ذكر تمام النعمة ذكر ما هو فوق التمام فقال : ﴿ ورضوان من الله ﴾ ويندرج فيه جميع المطالب والمقاصد لأن العبد إذا رضي عنه المولى لم يتصور منصب أجل منه وأعلى ، وكأن المولى وما يملكه للعبد ، كما أن العبد وما يملكه للمولى ﴿ ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ [التوبة : 72] ويحتمل أن يكون اللام في قوله : ﴿ للذين اتقوا ﴾ متعلقاً بخير . واختص المتقين لأنهم هم المنتفعون به ويرتفع ﴿ جنات ﴾ على الخبر أي هو جنات ويعضده قراءة بعضهم ﴿ جنات ﴾ بالجر على البدل من ﴿ خير ﴾ وذلك أن اللام في هذه القراءة يتعين أن يكون متعلقاً بخير . وقوله : ﴿ عند ربهم ﴾ يحتمل أن يتعلق بما يتعلق به قوله : ﴿ للذين ﴾ أي ثبت لهم عند ربهم . ويحتمل أن يكون صفة لخير ، ويحتمل أن يكون من تمام قوله : ﴿ اتقوا ﴾

فيكون إشارة إلى أن هذا الثواب لا يحصل إلا لمن كان متقياً عند الله تعالى فلا يدخل فيه إلا من كان مؤمناً في علم الله ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ عالم بمصالحهم فيجب أن يرضوا

(89/114)

لأنفسهم ما اختار لهم من نعيم الآخرة ، وأن يزهدوا فيما زهدهم فيه من أمور الدنيا ، أو بصير بهم يثيب ويعاقب بحسب الاستحقاق ، أو بصير بالذين اتقوا ربهم وبأحوالهم فلذلك أعدّ لهم الجنات ﴿ الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا ﴾ توسلوا بمجرد الإيمان إلى طلب المغفرة . وقد حكى الله تعالى ذلك عنهم في معرض المدح لهم والثناء عليهم فقيل : دل ذلك على أن الإيمان هو التصديق فقط ، فإن العمل الصالح لو كان داخلاً فيه كما زعموا كان إدخاله في النار قبيحاً عندهم فيكون ممتنع الوقوع من الله تعالى ، وضده واجب الوقوع ، وسؤال الواجب وقوعه عبث فلا يصلح للمدح . ويمكن أن يجاب عنه بأن العبد قد يدعو بما يعلم أنه حاصل له إظهار الذل العبودية وإبداء للاستكانة والخشوع .

(90/114)

وأيضاً صورة العمل الصالح لا تفيد ما لم تقع في حيز القبول . فعلى المتقي أن لا يتكل عليها ويبتهل إلى الله في مواجب الغفران . ثم عدد من أوصاف عباده خمسة ووسط العاطف بينها دلالة على كمالهم في كل واحد منها ، أو إشارة إلى أن كل واحد منها يكفي في استحقاق المدح والثواب فقال : ﴿ الصابرين ﴾ أي في أداء الطاعات وعلى ترك المحظورات وعند المحن والشدائد . وقف رجل على الشبلي فقال : أيّ صبر أشد على الصابرين ؟ فقال : الصبر في الله تعالى . فقال : لا . فقال : الصبر لله . فقال : لا . فقال : الصبر مع الله . قال : لا . قال : فأي شيء ؟ قال : الصبر عن الله . فصرخ الشبلي صرخة كاد يتلف روحه . ﴿ والصادقين ﴾ أي في الأقوال وفي الأفعال بأن لا ينصرف عنها قبل تمامها ، وفي النيات بأن يمضي العزم على الخيرات . ﴿ والقانتين ﴾ والمقيمين على الطاعات والمواظبين عليها ﴿ والمنفقين ﴾ ما تيسر على من تيسر بشروطه ومصارفه وجوباً وندباً ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ أي فيها . والسحر قبل طلوع الفجر . وخص هذا الوقت لأنهم كانوا يقدمون قيام الليل حتى إذا كان السحر أخذوا في الدعاء والاستغفار هذا ليلهم وذلك نهارهم . وللاستغفار بالأسحار مزيد آثار وأنوار لأن السحر وقت النوم والغفلة ، فإذا أعرض العبد عن تلك اللذة عرض الذلة على حضرة العزة لا يبعد أن يفيض عليه سجال المغفرة وأن يطلع صبح العالم الصغير عند طلوع صبح العالم الكبير فيستنير قلب المؤمن بأنوار المعارف وآثار اللطائف . أما بيان ترتيب الأوصاف ، فالصبر

يشمل أداء جميل التكاليف . ثم الإنسان قد يلتزم من نفسه ما هو غير واجب عليه ، فالصادق من يخرج عن عهدة ذلك ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ [الأحزاب : 23] ثم المواظبة على سلوك سبيل الخيرات أمر محمود فأشير إلى ذلك بقوله : ﴿ والقانتين ﴾ ثم إن ههنا أمرين يعينان على الطاعة : الخدمة بالمال والابتهال والتضرع إلى حضرة القدس والجلال وذلك قوله :

﴿ والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴾ فقوله : ﴿ والمنفقين ﴾ معناه الشفقة على خلق الله وباقي الأوصاف حاصلها التعظيم لأمر الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 2 صـ 119.126 ﴾

(91/114)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ﴾ يا معشر السالكين إلى مقصد الكل ﴿ ءايَةً ﴾ دالة على كمالكم وبلوغكم إلى ذروة التوحيد ﴿ فِي فِئَتَيْنِ التقتا ﴾ للحرب ﴿ فِئَةٌ ﴾ منهما وهي فئة القوى الروحانية التي هي جند الله تعالى ﴿ تقاتل فِى سَبِيلِ الله

﴾ وطريق الوصول إليه ﴿ وأخرى ﴾ منهما وهي جنود النفس وأعوان الشيطان ﴿ كَافِرَةٌ ﴾ سا ترة للحق محجوبة عن حظائر الصدق ترى الفئة الأخيرة الفئة الأولى لحول عين بصيرتها ﴿ مِّثْلَيْهِمْ ﴾ عند الالتقاء في معركة البدن رؤية مكشوفة ظاهرة لا خفاء فيها مثل رؤية العين ، وذلك لتأييد الفئة المؤمنة بالأنوار الإلهية والإشراقات الجبروتية ، وخذلان الفئة الكافرة بما استولى عليها من تراكم ظلمات الطبيعة وذل البعد عن الحضرة ﴿ والله تعالى ﴿ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ تأييده لقبول استعداده لذلك ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ التأييد

﴿ لَعِبْرَةً ﴾ [آل عمران : 13] أي اعتبارا أو أمراً يعتبر به في الوصول إلى حيث المأمول للمستبصرين الفاتحين أعين بصائرهم لمشاهدة الأنوار الأزلية في آفاق المظاهر الإلهية ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشهوات ﴾ بسبب ما فيهم من العالم السفلي والغشاوة الطبيعية والغواشي البدنية ﴿ مِنَ النساء ﴾ وهي النفوس ﴿ والبنين ﴾ وهي الخيالات المتولدة منها الناشئة عنها ﴿ والقناطير المقنطرة مِنَ الذهب والفضة ﴾ وهي العلوم المتداولة وغير المتداولة ، أو الأصول والفروع ﴿ والخيل المسومة ﴾ وهي مراكب الهوى وأفراس اللهو ﴿ والانعام ﴾ وهي رواحل جمع الحطام وأسباب جلب المنافع الدنيوية ﴿ والحرث ﴾ وهو زرع الحرص وطول الأمل ﴿ ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ [آل عمران : 14] الزائل عما قليل بالرجوع إلى المبدأ الأصلي والموطن القديم .

ولك أن تبقي هذه المذكورات على ظواهرها فإن النفوس المنغمسة في أوحال الطبيعة لها ميل كلي إلى ذلك أيضاً ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ﴾ المذكور ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ النظر إلى الأغيار ﴿ جَنَّاتٌ ﴾ جنة يقين وجنة مكاشفة وجنة مشاهدة وجنة رضا وجنة لا أقولها وهي التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وليس في تلك الجنة عند العارفين إلا الله عز وجل ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ﴾ أنهار التجليات المترعة بماء الغيوب ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ببقائهم بعد فنائهم ﴿ وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ وهي الأرواح المقدسة عن أدناس الطبيعة المقصورة في خيام الصفات الإلهية ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ لا يقدر قدره ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: 15] في تقلب أرواحهم في عالم الملكوت محترقات من سطوات أنوار الجبروت حباً لجواره وشوقاً إلى لقائه يجازيها بقدر همومها في طلب وجهه الأزلي وجماله الأبدي ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا ﴾ بأنوار أفعالك وصفاتك ﴿ فَاغْفِرْ لَنَا ﴾ ذنوب وجوداتنا بذاتك ﴿ وَقِنَا عَذَابَ ﴾ [آل عمران: 16] نار الحرمان ووجود البقية ﴿ الصَّابِرِينَ ﴾ على مضض المجاهدة

والرياضة ﴿ والصادقين ﴾ في المحبة والإرادة ﴿ والقانتين ﴾ في السلوك إليه ﴿ والمنافقين ﴾ ما عداه فيه

(93/114)

﴿ والمستغفرين ﴾ [آل عمران : 17] من ذنوب تلوناتهم وتعيناتهم في أسحار التجليات ، ويقال : (الصابرين) الذين صبروا على الطلب ولم يحتشموا من التعب وهجروا كل راحة وطرب فصبروا على البلوى ورفضوا الشكوى حتى وصلوا إلى المولى ولم يقطعهم شيء من الدنيا والعقبى (والصادقين) الذين صدقوا في الطلب فوردوا ، ثم صدقوا فشهدوا ، ثم صدقوا فوجدوا ، ثم صدقوا ففقدوا فحالهم قصد ثم ورود ثم شهود ثم وجود ثم خمود (والقانتين) الذين لازموا الباب وداوموا على تجرع الاكتئاب وترك المحاب إلى أن تحققوا بالاقتراب (والمنفقين) الذين جادوا بنفوسهم من حيث الأعمال ثم جادوا بميسورهم من الأموال ثم جادوا بقلوبهم لصدق الأحوال ثم جادوا بكل حظ لهم في العاجل والآجل استهلاكاً في أنوار الوصال (والمستغفرين) هم الذين يستغفرون عن جميع ذلك إذا رجعوا إلى الصحو وقت نزول الرب إلى السماء الدنيا وإشراق أنوار جماله على آفاق النفس وندائه «هل من سائل هل من مستغفر هل من كذا هل من كذا» ثم لما مدح سبحانه أحبابه أرباب

الدين وذم أعداءه الكفارين عقب ذلك ببيان الدين الحق والعروة الوثقى على أتم وجه وآكدة. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 3 صـ 104.103﴾

(94/114)

قوله تعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18)﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أخبر سبحانه وتعالى بوحدانيته في أول السورة واستدل عليها وأخبر عما أعد للكافرين واستدل عليه بما دل على الوحدانية وختم بالإخبار بما أعد للمتقين مما جر إلى ذكره تعالى بما يقتضي الوحدانية أيضاً من الأوصاف المبنية على الإيمان أنتج ذلك ثبوتها ثبوتاً لا مرية فيه، فكرر تعالى هذه النتيجة على وجه أضخم من الماضي كما اقتضته الأدلة فقال : ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾

وقال الحرالي : لما أنهى تعالى الفرقان نهايته ببيان المحكمين والمتشابهين في الوحي والكون انتظمت هذه الشهادة التي هي أعظم شهادة في كتاب الله بآية القيومية التي هي أعظم آية

الوجود لينتظم آية الشهود بآية الوجود ، انتهى .

فقال سبحانه وتعالى : ﴿ شهد الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا كفوء له ﴿ أنه ﴾ قال الحرالي : فأعاد بالإضمار ليكون الشاهد والمشهود له ﴿ لا إله إلا هو ﴾ فأعاد بالهوية لمعنى الوحدانية في الشهادة ولم يقل : إلا الله ، لما يشعر به تكرار الاسم في محل الإضمار من التنزل العلي – انتهى .

والمعنى أنه سبحانه وتعالى فعل فعل الشاهد في إخباره عما يعلم حقيقته بلفظ الشهادة جرياً على عادة الكبراء إذا رأوا تقاعس أتباعهم عما يأمرون به من المهمات في تعاطيهم له بأنفسهم تنبيهاً على أن الخطب قد فدح والأمر قد تفاقم ، فيتساقط حينئذ إليه الأتباع ولو أن فيه الهلاك تساقط الذباب في أحلى الشراب ، وإلى ذلك ينظر قول وفد ثقيف : ما لمحمد يأمرنا بأن نشهد له بالرسالة ولا يشهد هو لنفسه ! فكان صلى الله عليه وسلم بعد لا يخطب خطبة إلا شهد لنفسه الشريفة صلى الله عليه وسلم الشهادة لله فيها بالرسالة ، فكأنه قيل : إن ربكم الذي أسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة قد نصب لكم الأدلة بخلق ما خلق على تفرده بحيث انتفى كل ريب فكان ذلك أعظم شهادة منه سبحانه لنفسه ، وإليه

أوما من قال :

ولله في كل تحريكة . . .

وتسكينة أبداً شاهد

وفي كل شيء له آية . . .

تدل على أنه واحد

ثم شهد بذلك لنفسه بكلامه جمعاً بين آيتي السمع والبصر فلم يبق لكم عذراً .

قال الحرالي : وهذه الشهادة التي هي من الله لله هي الشهادة التي إليها قصد القاصدون وسلك السالكون وإليه انتهت الإشارة ، وعندها وقفت العبارة ، وهي أنهى المقامات وأعظم الشهادات ، فمن شهد بها فقد شهد شهادة ليس وراءها مرمى ، ومن شهد بما دونها كانت شهادته مشهوداً عليها لا شهادة ، يؤثر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يوم الجمعة وهو قائم بعرفة منذ كان وقت العصر إلى أن غربت الشمس في حجته التي كمل بها الدين وتمت بها النعمة يقول هذه الآية لا يزيد عليها ، فأي عبد شهد لله بهذه الشهادة التي هي شهادة الله لله سبحانه وتعالى بالوحدانية فقد كملت شهادته ، وأتم الله سبحانه وتعالى النعمة عليه ، وهي سر كل شهادة من دونها ، وهي آية علن التوحيد الذي هو منتهى المقامات وغاية الدرجات في الوصول إلى محل الشهود الذي منه النفوذ إلى الموجود بمقتضى الأعظمية التي في الآية الفاتحة – انتهى .

ولما أخبر سبحانه وتعالى عن نفسه المقدسة أخبر عمن يعتد به من خلقه فقال مقدماً لأن المقام للعلم لمن هم أعلم به سبحانه وتعالى ممن أطلعهم من الملك والملكوت على ما لم يطلع عليه الإنسان ولا شاغل لهم من شهوة ولا حظ ولا فتور : ﴿ والملائكة ﴾ أي العباد المقربون المصفون من أدناس البشر ، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

ولما خص أهل السماوات عم فقال : ﴿ وأولوا العلم ﴾ وهم الذين عرفوه بالأدلة القاطعة ففعلوا ما فعل العظيم من الشهادات ليكون ذلك أدعى لغيرهم إليه وأحث عليه ، ولما كانت الشهادة قد تكون على غير وجه العدل نفى ذلك بقوله : ﴿ قائماً ﴾ وأفرد ليفهم أنه حال كل من المذكورين لا المجموع بقيد الجمع ، ويجوز - وهو الأقرب - أن يكون حالاً من الاسم الشريف إشارة إلى أنه ما وحد الله سبحانه وتعالى حق توحيده غيره ، لأنه لا يحيط به أحد علماً .

وقال الحرالي : أفرد القيام فاندرج من ذكر من الملائكة وأولي العلم في هذا القيام إفهاماً ، كما اندرجوا في الشهادة إفصاحاً ، فكان في إشعاره أن الملائكة وأولي العلم لا يقاد منهم فيما يجريه الله سبحانه وتعالى على أيديهم ، لأن أمرهم قائم بالقسط من الله ، يذكر أن عظيم

عاد لما كشف له عن الملائكة في يوم النقمة قال لهود عليه الصلاة والسلام : يا هود ! ما هذا الذي أراهم في السحاب كأنهم البخاتي ؟ فقال : ملائكة ربي ، فقال له : أرأيت إن آمنت بالهك أيقيدني منهم بمن قتلوا من قومي ؟ قال : ويحك ! وهل رأيت ملكاً يقيد من جنده - انتهى .

(97/114)

﴿ بالقسط ﴾ أي العدل السواء الذي لا حيف فيه أصلاً بوجه من الوجوه ، وقد ثبت بهذه الشهادة على هذا الوجه أن التوحيد في نفس الأمر على ما وقعت به الشهادة ، ويجوز أن يراد مع ذلك أن قيامه بالعدل فعله في خلقه فإنه عدل وإن كان من بعضهم إلى بعض ظلماً ، فإنه تصرف منه سبحانه في ملكه الذي لا شائبة لأحد فيه ، فهو إذا نسب إليه كان عدلاً ، لأنه فعله بالحكمة ، وإذا نسب إلى الظالم كان ظلماً ، لأنه فعله لحظه لا للحكمة فلذلك قال على طريق الاستنتاج والتعليل للقيام بالقسط والتلقين للعباد لأن يقولوها بعد ثبوتها بما تقدم وأن يكرروها دائماً أبداً : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ وقال الحرالي : كرر هذا التهليل لأنه في مرتبة القسط الفعلي ، لأن التهليل الأول في مرتبة الشهادة العلمية فاستوفى التهليلان جميع البادي علماً وفعلاً - انتهى .

وأتبعه سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ العزيز الحكيم ﴾ دليلاً على قسطه ، لأنه لا يصح أبداً لذي العزة الكاملة والحكمة الشاملة أن يتصرف بجور ، وعلى وحدانيته ، لأنه لا يصح التفرد بدون الوصفين وليسا على الإطلاق لأحد غيره أصلاً ، ولما كانت الآيات كلها في الإيقاع بالكافرين قدم الوصف الملائم لذلك .

قال الحرالي : وقسط الله هو إخفاء عدله في دار الدنيا من حيث إنه خفض ورفع ، يعادل خفضه رفعه ورفعه خفضه ، فيؤول إلى عدل ، ويراه بذلك في حال تفاوته كل ذي لب بما أنه عزيز يظهر عزته فيما يرفع ، حكيم يخفي معنى حكمه فيما يخفض ، فكل ما هو باد من الخلق جود فهو من الله سبحانه وتعالى قسط ، طيته عدل ، سره سواء ، فيظهر عزته فيما حكم انتقاماً وحكمته في الموازنة بين الأعمال والجزاء عدلاً – انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 41. 44 ﴾

وقال ابن عاشور :

قوله تعالى ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

استئناف وتمهيد لقوله ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأِسْلامُ ﴾ ذلك أن أساس الإسلام هو توحيد الله . وإعلان هذا التوحيد ، وتخليصه من شوائب الإشراك ، وفيه تعريض بالمشركين وبالنصارى واليهود ، وإن تفاوتوا في مراتب الإشراك ، وفيه ضرب من رد العجز على

الصدر : لأنه يؤكد ما افتتحت به السورة من قوله ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ [آل عمران : 2-3] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 43.44 ﴾

(98/114)

اللغة :

[شهد] الشهادة : الاقرار والبيان

[القسط] العدل

[الدين] اصل الدين في اللغة : الجزاء ويطلق على الملة وهو المراد هنا

[الإسلام] الإسلام في اللغة : الاستسلام والانقياد التام ، ومعناه اخلاص الدين والعقيدة لله تعالى

[حاجوك] جادلوك ونازعوك

[غرهم] فتنهم

[يفترون] يكذبون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 191 ﴾

(99/114)

فصل

قال أبو حيان :

قال الزمخشري : شبهت دلالته على وحدانيته بأفعاله الخاصة التي لا يقدر عليها غيره ، وبما أوحى من آياته الناطقة بالتوحيد كسورة الإخلاص ، وآية الكرسي وغيرهما . بشهادة الشاهد في البيان والكشف ، وكذلك إقرار الملائكة وأولي العلم بذلك ، واحتجاجهم عليه . انتهى .

وهو حسن .

وقال المروزي : ذكر شهادته سبحانه على سبيل التعظيم لشهادة من ذكر بعده ، كقوله : ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾ انتهى .

ومشاركة الملائكة وأولي العلم لله تعالى في الشهادة من حيث عطفا عليه لصحة نسبة الإعلام ، أو صحة نسبة الإظهار والبيان ، وإن اختلفت كيفية الإظهار والبيان من حيث أن إظهاره تعالى بخلق الدلائل ، وإظهار الملائكة بتقريرها للرسل ، والرسل لأولي العلم .

وقال الواحدي : شهادة الله بيانه وإظهاره ، والشاهد هو العالم الذي بيّن ما علمه ، والله تعالى بيّن دلالات التوحيد بجميع ما خلق ، وشهادة الملائكة بمعنى الإقرار كقوله : ﴿ قالوا شهدنا على أنفسنا ﴾ أي : أقررنا .

فنسق شهادة الملائكة على شهادة الله ، وإن اختلفت معنىً ، لتماثلهما لفظاً .

كقوله : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ﴾ لأنها من الله الرحمة ، ومن الملائكة الاستغفار والدعاء وشهادة أولي العلم ويحتمل الإقرار ويحتمل التبيين ، لأنهم أقرّوا وبينوا .

انتهى .

(100/114)

وقال المؤرج : شهد الله ، بمعنى : قال الله ، بلغة قيس بن غيلان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 419 ﴾

وقال ابن عاشور :

الشهادة حقيقتها خبر يصدق به خبر مخبر وقد يكذب به خبر آخر كما تقدم عند قوله تعالى ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ في سورة البقرة [282] . وإذ قد كان شأنه أن يكون للتصديق والتكذيب في الحقوق ، كان مظنة اهتمام المخبر به والتثبت فيه ، فلذلك أطلق مجازا على الخبر الذي لا ينبغي أن يشك فيه قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : 1] وذلك على سبيل المجاز المرسل بعلاقة التلازم ، فشهادة الله تحقيقه وحدانيته بالدلائل التي نصبها على ذلك ، وشهادة الملائكة تحقيقهم

ذلك فيما بينهم ، وتبليغ بعضهم ذلك إلى الرسل ، وشهادة أولي العلم تحقيقهم ذلك بالحجج والأدلة .

فإطلاق الشهادة على هذه الأخبار مجاز بعلاقة اللزوم ، أو تشبيه الإخبار بالإخبار أو المخبر بالمخبر ، ولك أن تجعل شهد بمعنى بين وأقام الأدلة ، شبه إقامة الأدلة على وحدانيته : من إيجاد المخلوقات ونصب الأدلة العقيلة ، بشهادة الشاهد بتصديق الدعوى في البيان والكشف على طريق الاستعارة التبعية ، ويبن ذلك الملائكة بما نزلوا به من الوحي على الرسل ، وما نطقوا به من محامد ، ويبن ذلك أولو العلم بما أقاموا من الحجج على الملاحدة ، ولك أن تجعل شهادة الله بمعنى الدلالة ونصب الأدلة ، وشهادة الملائكة وأولي العلم بمعنى آخر وهو الإقرار أو بمعنيين : إقرار الملائكة ، واحتجاج أولي العلم ، ثم تبنيه على استعمال شهد في معان مجازية ، مثل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ ﴾ ، أو على استعمال شهد في مجاز أعم ، وهو الإظهار ، حتى يكون نصب الأدلة والإقرار والاحتجاج من أفراد ذلك العام ، بناء على عموم المجاز . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 44 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن كل ما يتوقف العلم بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم على العلم به ، فإنه لا يمكن إثباته بالدلائل السمعية أما ما يكون كذلك فإنه يجوز إثباته بالدلائل السمعية ، وفي حق الملائكة ، وفي حق أولي العلم ، لكن العلم بصحة نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم لا يتوقف على العلم بكون الله تعالى واحداً فلا جرم يجوز إثبات كون الله تعالى واحداً بمجرد الدلائل السمعية القرآنية .

إذا عرفت هذا فنقول : ذكروا في قوله ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إله إلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم ﴾ قولين : أحدهما : أن الشهادة من الله تعالى ، ومن الملائكة ، ومن أولي العلم بمعنى واحد الثاني : أنه ليس كذلك ، أما القول الأول فيمكن تقريره من وجهين :

الوجه الأول : أن تجعل الشهادة عبارة عن الإخبار المقرون بالعلم ، فهذا المعنى مفهوم واحد وهو حاصل في حق الله تعالى ، وفي حق الملائكة ، وفي حق أولي العلم ، أما من الله تعالى فقد أخبر في القرآن عن كونه واحداً لا إله معه ، وقد بينا أن التمسك بالدلالة السمعية في هذه المسألة جائز ، وأما من الملائكة وأولي العلم فكلهم أخبروا أيضاً أن الله تعالى واحد لا شريك له ، فثبت على هذا التقرير أن المفهوم من الشهادة معنى واحد في حق الله ، وفي حق الملائكة ، وفي حق أولي العلم .

الوجه الثاني : أن نجعل الشهادة عبارة عن الإظهار والبيان ، ثم نقول : إنه تعالى أظهر ذلك وبينه بأن خلق ما يدل على ذلك ، أما الملائكة وأولوا العلم فقد أظهروا ذلك ، وبيّنوه بتقرير الدلائل والبراهين ، أما الملائكة فقد بيّنوا ذلك للرسل عليهم الصلاة والسلام ، والرسل للعلماء ، والعلماء لعامة الخلق ، فالتفاوت إنما وقع في الشيء الذي به حصل الإظهار والبيان ، فالمفهوم الإظهار والبيان فهو مفهوم واحد في حق الله سبحانه وتعالى ، وفي حق أولي العلم ، فظهر أن المفهوم من الشهادة واحد على هذين الوجهين ، والمقصود من ذلك كأنه يقول للرسول صلى الله عليه وسلم : إن وحدانية الله تعالى أمر قد ثبت بشهادة الله تعالى ، وشهادة جميع المعتبرين من خلقه ، ومثل هذا الدين المتين والمنهج القويم ، لا يضعف بخلاف بعض الجهال من النصارى وعبدة الأوثان ، فاثبت أنت وقومك يا محمد على ذلك فإنه هو الإسلام والدين عند الله هو الإسلام .

القول الثاني : قول من يقول : شهادة الله تعالى على توحيده ، عبارة عن أنه خلق الدلائل الدالة على توحيده ، وشهادة الملائكة وأولي العلم عبارة عن إقرارهم بذلك ، ولما كان كل واحد من هذين الأمرين يسمى شهادة ، لم يبعد أن يجمع بين الكل في اللفظ ، ونظيره قوله

تعالى : ﴿ إِنَّ الله وملائكته يُصَلُّونَ عَلَى النبى يا أَيُّهَا الذين ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ [الأحزاب : 56] ومعلوم أن الصلاة من الله غير الصلاة من الملائكة ، ومن الملائكة غير الصلاة من الناس ، مع أنه قد جمعهم في اللفظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 178.177 ﴾

وقال ابن القيم :

وقد فسرت شهادة أولي العلم بالإقرار وفسرت بالتبيين والإظهار

والصحيح أنها تتضمن الأمرين فشهادتهم إقرار وإظهار وإعلام وهم شهداء الله على الناس يوم القيامة قال الله تعالى ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾

وقال تعالى ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾

فأخبر أنه جعلهم عدولا خيارا ونوه بذكرهم قبل أن يوجدهم لما سبق في علمه من اتخاذه لهم شهداء يشهدون على الأمم يوم القيامة فمن لم يقم بهذه الشهادة علما وعملا ومعرفة وإقرارا ودعوة وتعليما وإرشادا فليس من شهداء الله والله المستعان . انتهى . ا هـ ﴿ مدارج السالكين حـ 3 صـ 474.473 ﴾

فصل

قال القرطبى :

قال سعيد بن جبير : كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ، فلما نزلت هذه الآية خَرَرْنَ سُجّداً .

(103/114)

وقال الكلبيّ : " لما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة قدم عليه حِبران من أحبار أهل الشام ؛ فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه : ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبيّ الذي يخرج في آخر الزمان ! .

فلما دخلا على النبيّ صلى الله عليه وسلم عرفاه بالصفة والنعت ، فقالا له : أنت محمد ؟

قال "نعم" .

قالا : وأنت أحمد ؟ قال : "نعم" .

قالا : نسألك عن شهادة ، فإن أنت أخبرتنا بها آمنّا بك وصدّقناك .

فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سَلاَني" .

فقالا : أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله .

فأنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ والملائكة

وَأُوْلُوا العلم قَآئِمَاً بالقسط ﴾ فأسلم الرجلان وصدّقا برسول الله صلى الله عليه وسلم "

وقد قيل : إن المراد بأُولي العلم الأنبياء عليهم السلام .

وقال ابن كيسان : المهاجرون والأنصار .

مقاتِل : مؤمِنوا أهل الكتاب .

السدي والكلبيّ : المؤمنون كلهم ؛ وهو الأظهر لأنه عام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 41 ﴾

سؤال : فإن قيل : المدعي للوحدانية هو الله ، فكيف يكون المدعي شاهداً ؟ .

الجواب : من وجوه الأول : وهو أن الشاهد الحقيقي ليس إلا الله ، وذلك لأنه تعالى هو الذي خلق الأشياء وجعلها دلائل على توحيده ، ولولا تلك الدلائل لما صحت الشهادة ، ثم بعد ذلك نصب تلك الدلائل هو الذي وفق العلماء لمعرفة تلك الدلائل ، ولولا تلك الدلائل التي نصبها الله تعالى وهدى إليها لعجزوا عن التوصل بها إلى معرفة التوحيد ، وإذا كان الأمر كذلك كان الشاهد على الوحدانية ليس إلا الله وحده ، ولهذا قال : ﴿ قُلْ أَيُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شهادة قُلِ الله ﴾ [الأنعام : 19] .

(104/114)

الوجه الثاني : في الجواب أنه هو الموجود أزلاً وأبداً ، وكل ما سواه فقد كان في الأزل عدماً صرفاً ، ونفياً محضاً ، والعدم يشبه الغائب ، والموجود يشبه الحاضر ، فكل ما سواه فقد كان غائباً ، وبشهادة الحق صار شاهداً ، فكان الحق شاهداً عل الكل ، فلهذا قال :

﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ .

الوجه الثالث : أن هذا وإن كان في صورة الشهادة ، إلا أنه في معنى الإقرار ، لأنه لما أخبر أنه لا إله سواه ، كان الكل عبيداً له ، والمولى الكريم لا يليق به أن لا يخل بمصالح العبيد ، فكان هذا الكلام جارياً مجرى الإقرار بأنه يجب وجوب الكريم عليه أن يصلح جهات جميع الخلق .

الوجه الرابع : في الجواب قرأ ابن عباس ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ هُوَ ﴾ بكسر ﴿ إِنَّهُ ﴾ ثم قرأ ﴿ إِنَّ الدّينَ عِندَ اللهِ الإسلام ﴾ [آل عمران : 19] بفتح ﴿ أن ﴾ فعلى هذا يكون المعنى : شهد الله أن الدين عند الله الإسلام ويكون قوله ﴿ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ هُوَ ﴾ اعتراضاً في الكلام ، واعلم أن الجواب لا يعتمد عليه ، لأن هذه القراءة غير مقبولة عند العلماء ، وبتقدير ﴿ أن ﴾ تكون مقبولة لكن القراءة الأولى متفق عليها ، فالإشكال الوارد عليها لا يندفع بسبب القراءة الأخرى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 178 ﴾

فائدة

قال أبو حيان :

قدم الملائكة على أولي العلم من البشر لأنهم الملأ الأعلى ، وعلمهم كله ضروري ، بخلاف البشر ، فإن علمهم ضروري واكتسابي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط جـ 2 صـ 420 ﴾

فائدة

قال الفخر :

المراد من ﴿ أُوْلِى العلم ﴾ في هذه الآية الذين عرفوا وحدانيته بالدلائل القاطعة لأن الشهادة إنما تكون مقبولة ، إذا كان الإخبار مقروناً بالعلم ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : " إذا علمت مثل الشمس فاشهد " وهذا يدل على أن هذه الدرجة العالية والمرتبة الشريفة ليست إلا لعلماء الأصول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب جـ 7 صـ 179 ﴾

(105/114)

فائدة

قال ابن القيم :

شهد الله لنفسه بهذا التوحيد وشهد له به ملائكته وأنبياؤه ورسله قال ﴿ شهد الله أنه لا

إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الإسلام ﴾

فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد والرد على جميع هذه الطوائف والشهادة ببطلان أقوالهم ومذاهبهم وهذا إنما يتبين بعد فهم الآية ببيان ما تضمنته من المعارف الإلهية والحقائق الإيمانية

فتضمنت هذه الآية أجل شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها من أجل شاهد بأجل مشهود به وعبارات السلف في شهد تدور على الحكم والقضاء والإعلام والبيان والإخبار قال مجاهد حكم وقضى وقال الزجاج بين وقالت طائفة أعلم وأخبر وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره وقوله وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه فلها أربع مراتب فأول مراتبها علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته وثانيها تكلمه بذلك ونطقه به وإن لم يعلم به غيره بل يتكلم به مع نفسه ويذكرها وينطق بها أو يكتبها وثالثها أن يعلم غيره بما شهد به ويخبره به ويبينه له ورابعها أن يلزمه بمضمونها ويأمره به

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربعة علم الله سبحانه بذلك وتكلمه به وإعلامه وإخباره لخلقه به وأمرهم وإلزامهم به

أما مرتبة العلم فإن الشهادة بالحق تتضمنها ضرورة وإلا كان الشاهد شاهدا بما لا علم له

به قال الله تعالى إلا من شهد بالحق وهم يعلمون وقال النبي على مثلها فاشهد وأشار إلى الشمس

(106/114)

وأما مرتبة التكلم والخبر فمن تكلم بشيء وأخبر به فقد شهد به وإن لم يتلفظ بالشهادة قال تعالى قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم وقال تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم سنكتب شهادتهم ويسألون فجعل ذلك منهم شهادة وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة ولم يؤدوها عند غيرهم قال النبي عدلت شهادة الزور الإشراك بالله وشهادة الزور هي قول الزور كما قال تعالى ﴿ واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ﴾ وعند نزول هذه الآية قال رسول الله عدلت شهادة الزور الإشراك بالله فسمى قول الزور شهادة وسمى الله تعالى إقرار العبد على نفسه شهادة قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم ﴾ فشهادة المرء على نفسه هي إقراره على نفسه وفي الحديث الصحيح في قصة ماعز الأسلمي فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه رسول الله وقال تعالى ﴿ قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾

وهذا وأضعافه يدل على أن الشاهد عند الحاكم وغيره لا يشترط في قبول شهادته أن يتلفظ بلفظ الشهادة كما هو مذهب مالك وأهل المدينة وظاهر كلام أحمد ولا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين اشتراط ذلك وقد قال ابن عباس شهد عندي رجال مرضيون وأرضاهم عندي عمر أن رسول الله نهى عن الصلاة بعد الصبح حتى تطلع الشمس وبعد العصر حتى تغرب الشمس ومعلوم أنهم لم يتلفظوا بلفظ الشهادة والعشرة الذين شهد لهم رسول الله بالجنة لم يتلفظ في شهادته لهم بلفظ الشهادة بل قال أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة وعثمان في الجنة وعلي في الجنة الحديث

(107/114)

وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله فقد دخل في الإسلام وشهد شهادة الحق ولم يتوقف إسلامه على لفظ الشهادة وأنه قد دخل في قوله حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وفي لفظ آخر حتى يقولوا لا إله إلا الله فدل على أن مجرد قولهم لا إله إلا الله شهادة منهم وهذا أكثر من أن تذكر شواهده من الكتاب والسنة فليس مع من اشترط لفظ الشهادة دليل يعتمد عليه والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مدارج السالكين حـ 3 صـ 452.450 ﴾

سؤال : فإن قيل فلم لم يذكر الله سبحانه شهادة رسله مع الملائكة فيقول شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة والرسل وهم أعظم شهادة من أولي العلم ؟

قيل في ذلك عدة فوائد

إحداها أن أولي العلم أعم من الرسل والأنبياء فيدخلون هم وأتباعهم

وثانيها أن في ذكر أولي العلم في هذه الشهادة وتعليقها بهم ما يدل على أنها من موجبات العلم ومقتضاياته وأن من كان من أولي العلم فإنه يشهد بهذه الشهادة كما يقال إذا طلع الهلال واتضح فإن كل من كان من أهل النظر يراه وإذا فاحت رائحة ظاهرة فكل من كان من أهل الشم يشم هذه الرائحة قال تعالى وبرزت الجحيم لمن يرى أي كل من له رؤية يراها حينئذ عيانا ففي هذا بيان أن من لم يشهد له الله سبحانه بهذه الشهادة فهو من أعظم الجهال وإن علم من أمور الدنيا ما لم يعلمه غيره فهو من أولي الجهل لا من أولي العلم وقد بينا أنه لم يقم بهذه الشهادة ويؤديها على وجهها إلا أتباع الرسل أهل الإثبات فهم أولو العلم وسائر من عداهم أولو الجهل وإن وسعوا القول وأكثروا الجدال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مدارج السالكين جـ 3 صـ 473.472 ﴾

(108/114)

فصل

قال القرطبى :

في هذه الآَية دليل على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم ؛ فإنه لو كان أحدٌ أشرفَ من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء .

وقال في شرف العلم لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِى عِلۡماً ﴾ [طه : 114] فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسأله المزيد منه كما أمر يستزيده من العلم .

وقال صلى الله عليه وسلم .

" إنّ العلماء ورثة الأنبياء " وقال : " العلماء أُمَنَاء الله على خلقه " وهذا شرف للعلماء عظيم ، ومحلٌّ لهم في الدّين خطير .

وخرّج أبو محمد عبد الغني الحافظ من حديث بركَة بن نَشِيط وهو عَنْكَل بن حكارك وتفسيره بركة بن نشيط وكان حافظا ، حدثنا عمر ابن المؤمل حدثنا محمد بن أبي الخصيب حدّثنا محمد بن إسحاق حدّثنا شريك عن أبي إسحاق عن البراء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " العلماء ورثة الأَنبياء يحبهم أهل السماء ويستغفر لهم الحيتان في البحر إذا ماتوا إلى يوم القيامة " وفي هذا الباب (حديث) عن أبي الدرداء خرّجه أبو داود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 41 ﴾

(109/114)

ومن فوائد الإمام ابن تيمية فى الآية

قال رحمه الله :

فَصْلٌ :

فِي قَوْله تَعَالَى ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿ إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ : قَدْ تَنَوَّعَتْ عِبَارَاتُ الْمُفَسِّرِينَ فِي لَفْظِ (شَهِدَ فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مُجَاهِدٌ وَالْفَرَاءُ وَأَبُو عُبَيْدَةَ : أَيْ حَكَمَ وَقَضَى . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ثَعْلَبٌ وَالزَّجَّاجُ : أَيْ بَيَّنَ . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : أَيْ أَعْلَمَ . وَكَذَلِكَ قَالَتْ طَائِفَةٌ مَعْنَى شَهَادَةِ اللَّهِ الْإِخْبَارُ وَالْإِعْلَامُ وَمَعْنَى شَهَادَةِ الْمَلَائِكَةِ وَالْمُؤْمِنِينَ الْإِقْرَارُ وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ شَهِدَ بِنَفْسِهِ لِنَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ حِينَ كَانَ وَلَمْ يَكُنْ سَمَاءٌ وَلَا أَرْضٌ وَلَا بَرٌّ وَلَا بَحْرٌ فَقَالَ : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ ﴾ . وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا صَحِيحَةٌ ؛

وَذَلِكَ أَنَّ الشَّهَادَةَ

(110/114)

تَتَضَمَّنُ كَلَامَ الشَّاهِدِ وَقَوْلَهُ وَخَبَرَهُ عَمَّا شَهِدَ بِهِ وَهَذَا قَدْ يَكُونُ مَعَ أَنَّ الشَّاهِدَ نَفْسَهُ يَتَكَلَّمُ بِذَلِكَ وَيَقُولُهُ وَيَذْكُرُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُعْلِمًا بِهِ لِغَيْرِهِ وَلَا مُخْبِرًا بِهِ لِسِوَاهُ. فَهَذِهِ أَوَّلُ مَرَاتِبِ الشَّهَادَةِ. ثُمَّ قَدْ يُخْبِرُهُ وَيُعْلِمُهُ بِذَلِكَ فَتَكُونُ الشَّهَادَةُ إعْلَامًا لِغَيْرِهِ وَإِخْبَارًا لَهُ وَمَنْ أَخْبَرَ غَيْرَهُ بِشَيْءِ فَقَدْ شَهِدَ بِهِ سَوَاءٌ كَانَ بِلَفْظِ الشَّهَادَةِ أَوْ لَمْ يَكُنْ كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ قَوْله تَعَالَى ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ الْآيَةَ. فَفِي كِلَا الْمَوْضِعَيْنِ إنَّمَا أَخْبَرُوا خَبَرًا مُجَرَّدًا وَقَدْ قَالَ: ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ﴿ عَدَلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ الْإِشْرَاكَ بِاَللَّهِ قَالَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ ﴾ وَهَذَا يَعُمُّ كُلَّ قَوْلٍ زُورٍ بِأَيِّ لَفْظٍ كَانَ وَعَلَى أَيِّ صِفَةٍ وُجِدَ فَلَا يَقُولُهُ الْعَبْدُ وَلَا يَحْضُرُهُ وَلَا يَسْمَعُهُ مِنْ قَوْلِ غَيْرِهِ. و " الزُّورُ " هُوَ الْبَاطِلُ الَّذِي قَدْ ازْوَرَّ عَنْ الْحَقِّ وَالِاسْتِقَامَةِ أَيْ تَحَوَّلَ وَقَدْ سَمَّاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَهَادَةَ الزُّورِ وَقَدْ قَالَ فِي الْمُظَاهِرِينَ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ﴿ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : شَهِدَ عِنْدِي رِجَالٌ مَرْضِيُّونَ - وَأَرْضَاهُمْ عِنْدِي عُمَرُ - أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَجْرِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ وَبَعْدَ الْعَصْرِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ ﴾ وَهَؤُلَاءِ حَدَّثُوهُ أَنَّهُ نَهَى عَنْ ذَلِكَ ؛ وَلَمْ يَقُولُوا : نَشْهَدُ عِنْدَكَ ؛ فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا يَلْتَزِمُونَ هَذَا اللَّفْظَ فِي التَّحْدِيثِ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ قَدْ يَنْطِقُ بِهِ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ فِي مَاعِزٍ : فَلَمَّا شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ رَجَمَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَفْظُهُ كَانَ إقْرَارًا وَلَمْ يَقُلْ : أَشْهَدُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ وَشَهَادَةُ الْمَرْءِ عَلَى نَفْسِهِ هِيَ إقْرَارُهُ وَهَذَا لَا يُشْتَرَطُ فِيهِ لَفْظُ الشَّهَادَةِ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ وَإِنَّمَا تَنَازَعُوا فِي الشَّهَادَةِ عِنْدَ الْحَاكِمِ هَلْ يُشْتَرَطُ فِيهَا لَفْظُ أَشْهَدُ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَد وَكَلَامُ أَحْمَد يَقْتَضِي أَنَّهُ لَا يُعْتَبَرُ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ مَذْهَبُ مَالِكٍ و " الثَّانِي " يُشْتَرَطُ ذَلِكَ كَمَا يُحْكَى عَنْ مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ . و " الْمَقْصُودُ هُنَا " الْآيَةُ . فَالشَّهَادَةُ تَضَمَّنَتْ مَرْتَبَتَيْنِ : " إحْدَاهُمَا " تَكَلُّمُ الشَّاهِدِ وَقَوْلُهُ وَذِكْرُهُ لِمَا شَهِدَ فِي نَفْسِهِ بِهِ . و " الثَّانِي " إخْبَارُهُ وَإِعْلَامُهُ لِغَيْرِهِ بِمَا شَهِدَ بِهِ ؛ فَمَنْ قَالَ :

حكم وقضى فهذا من باب اللازم فإن الحكم والقضاء هو إلزام وأمر . ولا ريب أن الله ألزم الخلق التوحيد وأمرهم به وقضى به وحكم فقال : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ وقال : ﴿ أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ وقال : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ الآية وقال تعالى : ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون ﴾ وقال : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾ وهذا كثير في القرآن يوجب على العباد عبادته وتوحيده ويحرم عليهم عبادة ما سواه فقد حكم وقضى : أنه لا إله إلا هو . ولكن الكلام في دلالة لفظ الشهادة على ذلك ؛ وذلك أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو فقد أخبر وبين وأعلم أن ما سواه ليس بإله فلا يعبد وأنه وحده الإله الذي يستحق العبادة وهذا يتضمن الأمر بعبادته والنهي عن عبادة ما سواه فإن النفي والإثبات في مثل هذا يتضمن الأمر والنهي كما إذا استفتى شخص شخصا فقال له قائل : هذا ليس بمفت هذا هو المفتي ففيه نهي عن استفتاء الأول وأمر وإرشاد إلى استفتاء الثاني .

وَكَذَلِكَ إذَا تَحَاكَمَ إلَى غَيْرِ حَاكِمٍ أَوْ طَلَبَ شَيْئًا مِنْ غَيْرِ وَلِيِّ الْأَمْرِ فَقِيلَ لَهُ: لَيْسَ هَذَا حَاكِمًا وَلَا هَذَا سُلْطَانًا؛ هَذَا هُوَ الْحَاكِمُ وَهَذَا هُوَ السُّلْطَانُ فَهَذَا النَّفْيُ وَالْإِثْبَاتُ يَتَضَمَّنُ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَذَلِكَ أَنَّ الطَّالِبَ إنَّمَا يَطْلُبُ مَنْ عِنْدَهُ مُرَادُهُ وَمَقْصُودُهُ فَإِذَا ظَنَّهُ شَخْصًا فَقِيلَ لَهُ: لَيْسَ مُرَادُك عِنْدَهُ وَإِنَّمَا مُرَادُك عِنْدَ هَذَا كَانَ أَمْرًا لَهُ بِطَلَبِ مُرَادِهِ عِنْدَ هَذَا دُونَ ذَاكَ. وَالْعَابِدُونَ إنَّمَا مَقْصُودُهُمْ أَنْ يَعْبُدُوا مَنْ هُوَ إلَهٌ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ فَإِذَا قِيلَ لَهُمْ كُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ لَيْسَ بِإِلَهِ إنَّمَا الْإِلَهُ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَانَ هَذَا نَهْيًا لَهُمْ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ وَأَمْرًا بِعِبَادَتِهِ. و " أَيْضًا " فَلَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ طَالِبٌ لِلْعِبَادَةِ فَلَفْظُ الْإِلَهِ يَقْتَضِي أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ فَإِذَا أَخْبَرَ أَنَّهُ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ دُونَ مَا سِوَاهُ كَانَ ذَلِكَ أَمْرًا بِمَا يَسْتَحِقُّهُ. وَلَيْسَ الْمُرَادُ هُنَا " بِالْإِلَهِ " مَنْ عَبَدَهُ عَابِدٌ بِلَا اسْتِحْقَاقٍ فَإِنَّ هَذِهِ الْآلِهَةَ كَثِيرَةٌ؛ وَلَكِنَّ تَسْمِيَتَهُمْ آلِهَةً وَالْخَبَرَ عَنْهُمْ بِذَلِكَ وَاِتِّخَاذَهُمْ مَعْبُودِينَ أَمْرٌ بَاطِلٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إنْ هِيَ إلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ وَقَالَ: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾.

فَالْآلِهَةُ الَّتِي جَعَلَهَا عَابِدُوهَا آلِهَةً يَعْبُدُونَهَا كَثِيرَةٌ ؛ لَكِنَّ هِيَ لَا تَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ فَلَيْسَتْ بِآلِهَةٍ كَمَنْ جَعَلَ غَيْرَهُ شَاهِدًا أَوْ حَاكِمًا أَوْ مُفْتِيًا أَوْ أَمِيرًا وَهُوَ لَا يُحْسِنُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ . وَلَا بُدَّ لِكُلِّ إنْسَانٍ مِنْ إلَهٍ يَأْلَهُهُ وَيَعْبُدُهُ ﴿ تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ ﴾ فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ أَلَّهَهُ ذَلِكَ مَحَبَّةً وَذُلًّا وَتَعْظِيمًا كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . فَإِذَا شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ فَقَدْ حَكَمَ وَقَضَى بِأَنْ لَا يُعْبَدَ إلَّا إيَّاهُ . و " أَيْضًا " فَلَفْظُ الْحُكْمِ وَالْقَضَاءِ يُسْتَعْمَلُ فِي الْجُمَلِ الْخَبَرِيَّةِ فَيُقَالُ : لِلْجُمَلِ الْخَبَرِيَّةِ قَضِيَّةٌ وَيُقَالُ : قَدْ حُكِمَ فِيهَا بِثُبُوتِ هَذَا الْمَعْنَى وَانْتِفَاءِ هَذَا الْمَعْنَى وَكُلُّ شَاهِدٍ وَمُخْبِرٍ هُوَ حَاكِمٌ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ قَدْ حَكَمَ بِثُبُوتِ مَا أَثْبَتَهُ وَنَفْيِ مَا نَفَاهُ حُكْمًا خَبَرِيًّا قَدْ يَتَضَمَّنُ حُكْمًا طَلَبِيًّا .

فَصْلٌ :

وَشَهَادَةُ الرَّبِّ وَبَيَانُهُ وَإِعْلَامُهُ يَكُونُ بِقَوْلِهِ تَارَةً وَبِفِعْلِهِ تَارَةً . فَالْقَوْلُ هُوَ مَا أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ وَأَوْحَاهُ إلَى عِبَادِهِ

(115/114)

كَمَا قَالَ : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْآيَاتِ . وَقَدْ عُلِمَ بِالتَّوَاتُرِ وَالِاضْطِرَارِ أَنَّ جَمِيعَ الرُّسُلِ أَخْبَرُوا

عَنْ اللَّهِ أَنَّهُ شَهِدَ وَيَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ بِقَوْلِهِ وَكَلَامِهِ ؛ وَهَذَا مَعْلُومٌ مِنْ جِهَةِ كُلِّ مَنْ بَلَّغَ عَنْهُ كَلَامَهُ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ﴾ وَأَمَّا شَهَادَتُهُ بِفِعْلِهِ فَهُوَ مَا نَصَبَهُ مِنْ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ الَّتِي تُعْلَمُ دَلَالَتُهَا بِالْعَقْلِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ خَبَرٌ عَنْ اللَّهِ وَهَذَا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ لَفْظُ الشَّهَادَةِ وَالدَّلَالَةِ وَالْإِرْشَادِ فَإِنَّ الدَّلِيلَ يُبَيِّنُ الْمَدْلُولَ عَلَيْهِ وَيُظْهِرُهُ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُخْبِرِ بِهِ الشَّاهِدِ بِهِ كَمَا قِيلَ : سَلْ الْأَرْضَ مَنْ فَجَّرَ أَنْهَارَهَا وَغَرَسَ أَشْجَارَهَا وَأَخْرَجَ ثِمَارَهَا وَأَحْيَا نَبَاتَهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَوْضَحَ نَهَارَهَا ؛ فَإِنْ لَمْ تُجِبْك حِوَارًا أَجَابَتْك اعْتِبَارًا . وَهُوَ سُبْحَانَهُ شَهِدَ بِمَا جَعَلَهَا دَالَّةً عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّ دَلَالَتَهَا إنَّمَا هِيَ بِخَلْقِهِ لَهَا فَإِذَا كَانَتْ الْمَخْلُوقَاتُ دَالَّةً عَلَى أَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ وَهُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي جَعَلَهَا دَالَّةً عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّ دَلَالَتَهَا إنَّمَا هِيَ بِخَلْقِهِ وَبَيَّنَ ذَلِكَ ؛ فَهُوَ الشَّاهِدُ الْمُبَيِّنُ بِهَا أَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ وَهَذِهِ الشَّهَادَةُ الْفِعْلِيَّةُ

(116/114)

ذَكَرَهَا طَائِفَةٌ . قَالَ ابْنُ كيسان : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ ﴾ بِتَدْبِيرِهِ الْعَجِيبِ وَأُمُورِهِ الْمُحْكَمَةِ عِنْدَ خَلْقِهِ أَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ .

فَصْلٌ :

وقوله : ﴿ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ هُوَ نصبٌ عَلَى الْحَالِ وفِيهِ وجْهَانِ : قِيلَ : هُوَ حَالٌ مِنْ (شَهِدَ) : أيْ شَهِدَ قَائِمًا بِالْقِسْطِ . وقِيلَ : مِنْ (هُوَ أيْ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ قَائِمًا بِالْقِسْطِ كَمَا يُقَالُ : لَا إلَهَ إلَّا هُوَ وحْدَهُ وكِلَا الْمَعْنَيَيْنِ صَحِيحٌ . وقَوْلُهُ : ﴿ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ يَجُوزُ أَنْ يَعْمَلَ فِيهِ كِلَا الْعَامِلَيْنِ عَلَى مَذْهَبِ الْكُوفِيِّينَ فِي أَنَّ الْمَعْمُولَ الْوَاحِدَ يَعْمَلُ فِيهِ عَامِلَانِ كَمَا قَالُوا فِي قَوْلِهِ : ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ ﴿ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ و ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَسِيبَوَيْهِ وَأَصْحَابُهُ يَجْعَلُونَ لِكُلِّ عَامِلٍ مَعْمُولًا وَيَقُولُونَ حُذِفَ مَعْمُولُ أَحَدِهِمَا لِدَلَالَةِ الْآخَرِ عَلَيْهِ وقَوْلُ الْكُوفِيِّينَ أَرْجَحُ كَمَا قَدْ بَسَطْته فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَعَلَى الْمَذْهَبَيْنِ فقَوْلُهُ : ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ يَخْرُجُ عَلَى هَذَا إمَّا كَوْنُهُ يَشْهَدُ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ؛ فَإِنَّ الْقَائِمَ بِالْقِسْطِ هُوَ الْقَائِمُ بِالْعَدْلِ كَمَا فِي قَوْلِهِ

(117/114)

﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ﴾ فَالْقِيَامُ بِالْقِسْطِ يَكُونُ فِي الْقَوْلِ وَهُوَ الْقَوْلُ الْعَدْلُ وَيَكُونُ فِي الْفِعْلِ . فَإِذَا قِيلَ : شَهِدَ ﴿ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ أَيْ : مُتَكَلِّمًا بِالْعَدْلِ مُخْبِرًا بِهِ آمِرًا بِهِ : كَانَ هَذَا تَحْقِيقًا لِكَوْنِ الشَّهَادَةِ شَهَادَةَ عَدْلٍ وَقِسْطٍ وَهِيَ أَعْدَلُ مِنْ كُلِّ شَهَادَةٍ كَمَا أَنَّ الشِّرْكَ أَظْلَمُ مِنْ كُلِّ ظُلْمٍ وَهَذِهِ الشَّهَادَةُ أَعْظَمُ الشَّهَادَاتِ . وَقَدْ ذَكَرُوا فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا

يُوَافِقُ ذَلِكَ فَذَكَرَ ابْنُ السَّائِبِ : ﴿ أَنَّ حَبْرَيْنِ مِنْ أَحْبَارِ الشَّامِ قَدِمَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا أَبْصَرَا الْمَدِينَةَ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : مَا أَشْبَهَ هَذِهِ الْمَدِينَةَ بِصِفَةِ مَدِينَةِ النَّبِيِّ الَّذِي يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ فَلَمَّا دَخَلَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرَفَاهُ بِالصِّفَةِ فَقَالَا : أَنْتَ مُحَمَّدٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ قَالَا : وَأَحْمَد ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَا : نَسْأَلُك عَنْ شَهَادَةٍ فَإِنْ أَخْبَرْتنَا بِهَا آمَنَّا بِك . فَقَالَ : سَلَانِي . فَقَالَا : أَخْبِرْنَا عَنْ أَعْظَمِ شَهَادَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴾ . وَلَفْظُ " الْقِيَامِ بِالْقِسْطِ " كَمَا يَتَنَاوَلُ الْقَوْلَ يَتَنَاوَلُ الْعَمَلَ فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ : يشهد وَهُوَ قَائِلٌ بِالْقِسْطِ عَامِلٌ بِهِ لَا بِالظُّلْمِ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الشَّهَادَةَ تَضَمَّنَتْ قَوْلًا وَعَمَلًا فَإِنَّهَا تَضَمَّنَتْ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَحْدَهُ فَيُعْبَدُ وَأَنَّ غَيْرَهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَأَنَّ الَّذِينَ عَبَدُوهُ وَحْدَهُ هُمْ

(118/114)

الْمُفْلِحُونَ السُّعَدَاءُ وَأَنَّ الْمُشْرِكِينَ بِهِ فِي النَّارِ فَإِذَا شَهِدَ قَائِمًا بِالْعَدْلِ الْمُتَضَمِّنِ جَزَاءَ الْمُخْلِصِينَ بِالْجَنَّةِ وَجَزَاءَ

(119/114)

الْمُشْرِكِينَ بِالنَّارِ كَانَ هَذَا مِنْ تَمَامِ تَحْقِيقِ مُوجِبِ هَذِهِ الشَّهَادَةِ وَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ تَنْبِيهًا عَلَى جَزَاءِ الْمُخْلِصِينَ وَالْمُشْرِكِينَ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ قَالَ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ مِنْهُمْ البغوي نَظْمُ الْآيَةِ شَهِدَ اللَّهُ قَائِمًا بِالْقِسْطِ وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ أَيْ بِتَدْبِيرِ الْخَلْقِ كَمَا يُقَالُ: فُلَانٌ قَائِمٌ بِأَمْرِ فُلَانٍ أَيْ يُدَبِّرُهُ وَيَتَعَاهَدُ أَسْبَابَهُ وَقَائِمٌ بِحَقِّ فُلَانٍ أَيْ مُجَازٍ لَهُ فَاَللَّهُ تَعَالَى مُدَبِّرٌ رَزَّاقٌ مُجَازٍ بِالْأَعْمَالِ. وَإِذَا اُعْتُبِرَ الْقِسْطُ فِي الْإِلَهِيَّةِ كَانَ الْمَعْنَى: "لَا إلَهَ إلَّا هُوَ قَائِمًا بِالْقِسْطِ " أَيْ هُوَ وَحْدَهُ الْإِلَهُ قَائِمًا بِالْقِسْطِ فَيَكُونُ وَحْدَهُ مُسْتَحِقًّا لِلْعِبَادَةِ مَعَ كَوْنِهِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ كَمَا يُقَالُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ إلَهًا وَاحِدًا أَحَدًا صَمَدًا وَهَذَا الْوَجْهُ أَرْجَحُ؛ فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَأُولِي الْعِلْمِ يَشْهَدُونَ لَهُ مَعَ أَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ وَأَنَّهُ قَائِمٌ بِالْقِسْطِ. و " الْوَجْهُ الْأَوَّلُ " لَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا؛ لِأَنَّ كَوْنَهُ قَائِمًا بِالْقِسْطِ كَمَا شَهِدَ بِهِ أَبْلَغُ مِنْ كَوْنِهِ حَالَ الشَّاهِدِ وَقِيَامُهُ بِالْقِسْطِ يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ يَقُولُ الصِّدْقَ وَيَعْمَلُ بِالْعَدْلِ كَمَا قَالَ: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ وَقَالَ هُودٌ: ﴿ إنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَهُوَ الْعَدْلُ الَّذِي لَا عِوَجَ فِيهِ.

وَقَالَ: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وَهُوَ مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ وَلِمَا يُشْرَكُ بِهِ مِنَ الْأَوْثَانِ كَمَا ذُكِرَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ الْآيَةَ. وَقَالَ: ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ الْآيَاتِ. إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ خَالِقٌ مُنْعِمٌ عَالِمٌ وَمَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا تَخْلُقُ شَيْئًا وَلَا تُنْعِمُ بِشَيْءٍ وَلَا تَعْلَمُ شَيْئًا وَأَخْبَرَ أَنَّهَا مَيْتَةٌ فَهَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا ؟ فَكَيْفَ يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَعَ هَذَا الْفَرْقِ الَّذِي لَا فَرْقَ أَعْظَمَ مِنْهُ ؟ وَلِهَذَا كَانَ هَذَا أَعْظَمَ الظُّلْمِ وَالْإِفْكِ. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمْ مَا يُشْرِكُونَ ﴾ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ كِلَاهُمَا مَثَلٌ بَيَّنَ اللَّهُ فِيهِ أَنَّهُ لَا يَسْتَوِي هُوَ وَمَا يُشْرِكُونَ بِهِ كَمَا ذُكِرَ نَظِيرُ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ وَإِنْ كَانَ هَذَا الْفَرْقُ

مَعْلُومًا بِالضَّرُورَةِ لِكُلِّ أَحَدٍ ؛ لَكِنْ الْمُشْرِكُونَ مَعَ اعْتِرَافِهِمْ بِأَنَّ آلِهَتَهُمْ مَخْلُوقَةٌ مَمْلُوكَةٌ لَهُ يُسَوُّونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا فِي الْمَحَبَّةِ وَالدُّعَاءِ وَالْعِبَادَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ . و " الْمَقْصُودُ هُنَا " أَنَّ الرَّبَّ سُبْحَانَهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ : ﴿ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ فَإِنَّ الِاسْتِقَامَةَ وَالِاعْتِدَالَ مُتَلَازِمَانِ فَمَنْ كَانَ قَوْلُهُ وَعَمَلُهُ بِالْقِسْطِ كَانَ مُسْتَقِيمًا وَمَنْ كَانَ قَوْلُهُ وَعَمَلُهُ مُسْتَقِيمًا كَانَ قَائِمًا بِالْقِسْطِ . وَلِهَذَا أَمَرَنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ نَسْأَلَهُ أَنْ يَهْدِيَنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ؛ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ : مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَصِرَاطُهُمْ هُوَ الْعَدْلُ وَالْمِيزَانُ ؛ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الْعَمَلُ بِطَاعَتِهِ وَتَرْكُ مَعَاصِيهِ فَالْمَعَاصِي كُلُّهَا ظُلْمٌ مُنَاقِضٌ لِلْعَدْلِ مُخَالِفٌ لِلْقِيَامِ بِالْقِسْطِ وَالْعَدْلِ . وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ .

فَصْلٌ :

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . ذُكِرَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ أَنَّهُ قَالَ : الْأُولَى وَصْفٌ وَتَوْحِيدٌ وَالثَّانِيَةُ رَسْمٌ وَتَعْلِيمٌ . أَيْ قَوْلُهُ : ﴿ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الْأُولَى هُوَ

ذَكَرَ أَنَّ اللَّهَ شَهِدَ بِهَا فَقَالَ : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وَالتَّالِي لِلْقُرْآنِ إِنَّمَا يَذْكُرُ أَنَّ اللَّهَ شَهِدَ بِهَا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ شَهَادَةٌ مِنْ التَّالِي نَفْسِهِ بِهَا فَذَكَرَهَا اللَّهُ مُجَرَّدَةً لِيَقُولَهَا التَّالِي فَيَكُونُ التَّالِي قَدْ شَهِدَ بِهَا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . فَالْأُولَى خَبَرٌ عَنْ اللَّهِ بِالتَّوْحِيدِ لِنَفْسِهِ بِشَهَادَتِهِ لِنَفْسِهِ وَهَذِهِ خَبَرٌ عَنْ اللَّهِ بِالتَّوْحِيدِ . وَخَتَمَهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وَالْعِزَّةُ تَتَضَمَّنُ الْقُدْرَةَ وَالشِّدَّةَ وَالِامْتِنَاعَ وَالْغَلَبَةَ . تَقُولُ الْعَرَبُ : عَزَّ يَعَزُّ بِفَتْحِ الْعَيْنِ إذَا صَلُبَ وَعَزَّ يَعِزُّ بِكَسْرِهَا إذَا امْتَنَعَ وَعَزَّ يَعُزُّ بِضَمِّهَا إذَا غَلَبَ . فَهُوَ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ قَوِيٌّ مَتِينٌ وَهُوَ مَنِيعٌ لَا يُنَالُ وَهُوَ غَالِبٌ لَا يُغْلَبُ . وَالْحَكِيمُ يَتَضَمَّنُ حُكْمَهُ وَعِلْمَهُ وَحِكْمَتَهُ فِيمَا يَقُولُهُ وَيَفْعَلُهُ فَإِذَا أَمَرَ بِأَمْرِ كَانَ حَسَنًا وَإِذَا أَخْبَرَ بِخَبَرِ كَانَ صِدْقًا وَإِذَا أَرَادَ خَلْقَ شَيْءٍ كَانَ صَوَابًا فَهُوَ حَكِيمٌ فِي إرَادَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ .

فَصْلٌ :

وَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ثَلَاثَةَ أُصُولٍ : شَهَادَةَ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّهُ قَائِمٌ بِالْقِسْطِ وَأَنَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ؛ فَتَضَمَّنَتْ وَحْدَانِيَّتَهُ الْمُنَافِيَةَ

لِلشِّرْكِ وَتَضَمَّنَتْ عَدْلَهُ الْمُنَافِي لِلظُّلْمِ وَتَضَمَّنَتْ عِزَّتَهُ وَحِكْمَتَهُ الْمُنَافِيَةَ لِلذُّلِّ وَالسَّفَهِ وَتَضَمَّنَتْ تَنْزِيهَهُ عَنْ الشِّرْكِ وَالظُّلْمِ وَالسَّفَهِ فَفِيهَا إثْبَاتُ التَّوْحِيدِ وَإِثْبَاتُ الْعَدْلِ وَإِثْبَاتُ الْحِكْمَةِ وَإِثْبَاتُ الْقُدْرَةِ. وَالْمُعْتَزِلَةُ قَدْ تَحْتَجُّ بِهَا عَلَى مَا يَدْعُونَهُ مِنْ التَّوْحِيدِ وَالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ وَلَا حُجَّةَ فِيهَا لَهُمْ؛ لَكِنَّ فِيهَا حُجَّةً عَلَيْهِمْ وَعَلَى خُصُومِهِمْ الْجَبْرِيَّةِ أَتْبَاعِ الْجَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ؛ الَّذِينَ يَقُولُونَ: كُلُّ مَا يُمْكِنُ فِعْلُهُ فَهُوَ عَدْلٌ وَيَنْفُونَ الْحِكْمَةَ. فَيَقُولُونَ: يَفْعَلُ لَا لِحِكْمَةِ فَلَا حُجَّةَ فِيهَا لَهُمْ؛ فَإِنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ نَفْيُ الصِّفَاتِ وَهُمْ يُسَمُّونَ نَفْيَ الصِّفَاتِ تَوْحِيدًا؛ بَلْ الْإِلَهُ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَالْعِبَادَةُ لَا تَكُونُ إلَّا مَعَ مَحَبَّةِ الْمَعْبُودِ. وَالْمُشْرِكُونَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ؛ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُحِبُّونَ اللَّهَ أَعْظَمَ مِنْ مَحَبَّةِ الْمُشْرِكِينَ لِأَنْدَادِهِمْ؛ فَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ مَحْبُوبٌ لِذَاتِهِ وَمَنْ لَمْ يَقُلْ بِذَلِكَ لَمْ يَشْهَدْ فِي الْحَقِيقَةِ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ. وَالْجَهْمِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ يَقُولُونَ: إنَّ ذَاتَهُ لَا تُحَبُّ فَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ مُنْكِرُونَ إلَهِيَّتَهُ وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

وَقِيَامُهُ بِالْقِسْطِ مَقْرُونٌ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؛ فَذَكَرَ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَا يُمَاثِلُهُ أَحَدٌ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِهِ وَالْمُعْتَزِلَةُ تَجْعَلُ الْقِسْطَ مِنْهُ مِثْلَ الْقِسْطِ مِنْ الْمَخْلُوقِينَ؛ فَمَا كَانَ عَدْلًا مِنْ الْمَخْلُوقِينَ كَانَ عَدْلًا مِنْ الْخَالِقِ وَهَذَا تَسْوِيَةٌ مِنْهُمْ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ؛ وَذَلِكَ قَدْحٌ فِي أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. وَالْجَهْمِيَّةُ عِنْدَهُمْ أَيُّ شَيْءٍ أَمْكَنَ وُقُوعُهُ كَانَ قِسْطًا فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ كَلَامًا لَا فَائِدَةَ فِيهِ وَلَا مَدْحَ؛ فَإِنَّهُ إذَا كَانَ كُلُّ مَقْدُورٍ قِسْطًا كَانَ الْمَعْنَى أَنَّهُ قَائِمٌ بِمَا يَفْعَلُهُ وَالْمَعْنَى أَنَّهُ فَاعِلٌ لِمَا يَفْعَلُهُ وَلَيْسَ فِي هَذَا مَدْحٌ وَلَا هُوَ الْمَفْهُومُ مِنْ كَوْنِهِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ؛ بَلْ الْمَفْهُومُ مِنْهُ أَنَّهُ يَقُومُ بِالْقِسْطِ لَا بِالظُّلْمِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ؛ لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ مُقَدَّسٌ مُنَزَّهٌ أَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا كَمَا قَالَ: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ وَقَدْ أَمَرَ عِبَادَهُ أَنْ يَكُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ وَقَالَ: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ فَهُوَ يَقُومُ عَلَيْهَا بِكَسْبِهَا لَا بِكَسْبِ غَيْرِهَا وَهَذَا مِنْ قِيَامِهِ بِالْقِسْطِ. وَقَالَ: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ الْآيَةَ. وَأَيْضًا فَمِنْ قِيَامِهِ بِالْقِسْطِ وَقِيَامِهِ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ: أَنَّهُ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ كَمَا قَالَ: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ إلَى آخِرِهَا.

وَالْمُعْتَزِلَةُ تُحْبِطُ الْحَسَنَاتِ الْعَظِيمَةَ الْكَثِيرَةَ بِكَبِيرَةٍ وَاحِدَةٍ وَتُحْبِطُ إيمَانَهُ وَتَوْحِيدَهُ بِمَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ مِنْ الذُّنُوبِ وَهَذَا مِمَّا تَفَرَّدُوا بِهِ مِنْ الظُّلْمِ الَّذِي نَزَّهَ اللَّهُ نَفْسَهُ عَنْهُ فَهُمْ يَنْسُبُونَ اللَّهَ إلَى الظُّلْمِ لَا إلَى الْعَدْلِ. وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.

فَصْلٌ:

وَقَوْلُهُ: ﴿ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ إثْبَاتٌ لِعِزَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَفِيهَا رَدٌّ عَلَى الطَّائِفَتَيْنِ الْجَبْرِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ؛ فَإِنَّ الْجَبْرِيَّةَ - أَتْبَاعَ جَهْمٍ - لَيْسَ لَهُ عِنْدَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ حِكْمَةٌ؛ وَلِهَذَا لَمَّا أَرَادَتْ الْأَشْعَرِيَّةُ أَنْ تُفَسِّرَ حِكْمَتَهُ فَسَّرُوهَا إمَّا بِالْقُدْرَةِ وَإِمَّا بِالْعِلْمِ وَإِمَّا بِالْإِرَادَةِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إثْبَاتٌ لِحِكْمَتِهِ فَإِنَّ الْقَادِرَ وَالْعَالِمَ وَالْمُرِيدَ قَدْ يَكُونُ حَكِيمًا وَقَدْ لَا يَكُونُ وَالْحِكْمَةُ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى ذَلِكَ وَهُمْ يَقُولُونَ: إنَّ اللَّهَ لَا يَفْعَلُ لِحِكْمَةِ وَيَقُولُونَ أَيْضًا: الْفِعْلُ لِغَرَضِ إنَّمَا يَكُونُ مِمَّنْ يَنْتَفِعُ وَيَتَضَرَّرُ وَيَتَأَلَّمُ وَيَلْتَذُّ؛ وَذَلِكَ يَنْفِي عَنْ اللَّهِ. وَالْمُعْتَزِلَةُ أَثْبَتُوا أَنَّهُ يَفْعَلُ لِحِكْمَةِ. وَسَمَّوْا ذَلِكَ غَرَضًا: هُمْ وَطَائِفَةٌ

(126/114)

مِنْ الْمُثْبِتَةِ؛ لَكِنْ قَالُوا: الْحِكْمَةُ أَمْرٌ مُنْفَصِلٌ عَنْهُ لَا يَقُومُ بِهِ كَمَا قَالُوا فِي كَلَامِهِ وَإِرَادَتِهِ؛ فَاسْتَطَالَ عَلَيْهِمْ الْمُجْبِرَةُ بِذَلِكَ فَقَالُوا: الْحَكِيمُ مَنْ يَفْعَلُ لِحِكْمَةِ تَعُودُ إلَى نَفْسِهِ فَإِنْ لَمْ تَعُدْ

إِلَى نَفْسِهِ لَمْ يَكُنْ حَكِيمًا ؛ بَلْ كَانَ سَفِيهًا . فَيُقَالُ لِلْمُجْبِرَةِ : مَا نَفَيْتُمْ بِهِ الْحِكْمَةَ هُوَ بِعَيْنِهِ حُجَّةُ مَنْ نَفَى الْإِرَادَةَ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَنَحْوِهِمْ قَالُوا : الْإِرَادَةُ لَا تَكُونُ إلَّا لِمَنْ يَنْتَفِعُ وَيَتَضَرَّرُ وَيَتَأَلَّمُ وَيَلْتَذُّ وَإِثْبَاتُ إرَادَةٍ بِدُونِ هَذَا لَا يُعْقَلُ وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ : نَحْنُ مُوَافِقُونَ لِلسَّلَفِ وَسَائِرِ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى إثْبَاتِ الْإِرَادَةِ فَمَا كَانَ جَوَابًا لَكُمْ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ فَهُوَ جَوَابُ سَائِرِ أَهْلِ السُّنَّةِ لَكُمْ حَيْثُ أَثْبَتُّمْ إرَادَةً بِلَا حِكْمَةٍ يُرَادُ الْفِعْلُ لَهَا . وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَبَيَّنَ مَا فِي لَفْظِ هَذِهِ الْحُجَّةِ مِنْ الْكَلِمَاتِ الْمُجْمَلَةِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

فَصْلٌ :

وَإِثْبَاتُ شَهَادَةِ أُولِي الْعِلْمِ يَتَضَمَّنُ أَنَّ الشَّهَادَةَ لَهُ بالوحدانية يَشْهَدُ بِهَا لَهُ غَيْرُهُ مِنْ الْمَخْلُوقِينَ الْمَلَائِكَةِ وَالْبَشَرِ . وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَيَشْهَدُونَ بِمَا شَهِدَ بِهِ لِنَفْسِهِ .

وَزَعَمَ طَائِفَةٌ مِنْ الِاتِّحَادِيَّةِ أَنَّهُ لَا يُوَحِّدُ أَحَدٌ اللَّهَ وَأَنْشَدُوا :

مَا وَحَّدَ الْوَاحِدُ مِنْ وَاحِدٍ ** إذْ كُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَاحِدٌ

وَهَؤُلَاءِ حَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ يَدَّعُونَ أَنَّ حَقِيقَةَ التَّوْحِيدِ أَنْ يَكُونَ الْمُوَحِّدُ هُوَ الْمُوَحَّدَ؛ فَيَكُونُ الْحَقُّ هُوَ النَّاطِقُ عَلَى لِسَانِ الْعَبْدِ وَاَللَّهُ الْمُوَحِّدُ لِنَفْسِهِ لَا الْعَبْدُ. وَهَذَا فِي زَعْمِهِمْ هُوَ السِّرُّ الَّذِي كَانَ الْحَلَّاجُ يَعْتَقِدُهُ وَهُوَ بِزَعْمِهِمْ قَوْلُ خَوَاصِّ الْعَارِفِينَ؛ لَكِنْ لَا يُصَرِّحُونَ بِهِ. وَحَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ: أَنَّهُمْ اعْتَقَدُوا فِي عُمُومِ الصَّالِحِينَ مَا اعْتَقَدَتْهُ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ؛ لَكِنْ لَمْ يُمْكِنْهُمْ إظْهَارُهُ؛ فَإِنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ يُنَاقِضُ ذَلِكَ مُنَاقَضَةً ظَاهِرَةً فَصَارُوا يُشِيرُونَ إلَيْهِ وَيَقُولُونَ: إنَّهُ مِنْ السِّرِّ الْمَكْتُومِ وَمِنْ عِلْمِ الْأَسْرَارِ الْغَيْبِيَّةِ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُبَاحَ بِهِ وَإِنَّمَا هُوَ قَوْلُ مُلْحِدٍ وَهُوَ شَرٌّ مِنْ قَوْلِ النَّصَارَى فَإِنَّ النَّصَارَى إنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ فِي الْمَسِيحِ لَمْ يَقُولُوهُ فِي جَمِيعِ الصَّالِحِينَ. وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ؛ إذْ الْمَقْصُودُ التَّنْبِيهُ عَلَى مَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ أُصُولِ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ وَإِبْطَالُ قَوْلِ الْمُبْتَدِعِينَ.

فَصْلٌ:

وَإِذَا كَانَتْ شَهَادَةُ اللَّهِ تَتَضَمَّنُ بَيَانَهُ لِلْعِبَادِ وَدَلَالَتَهُ لَهُمْ وَتَعْرِيفَهُمْ بِمَا شَهِدَ بِهِ لِنَفْسِهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يُعَرِّفَهُمْ أَنَّهُ شَهِدَ فَإِنَّ هَذِهِ الشَّهَادَةَ أَعْظَمُ الشَّهَادَاتِ وَإِلَّا فَلَوْ شَهِدَ شَهَادَةً لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ الْعِلْمِ

بِهَا لَمْ يَنْتَفِعْ بِذَلِكَ وَلَمْ تَقُمْ عَلَيْهِمْ حُجَّةٌ بِتِلْكَ الشَّهَادَةِ كَمَا أَنَّ الْمَخْلُوقَ إذَا كَانَتْ عِنْدَهُ شَهَادَةٌ لَمْ يُبَيِّنْهَا بَلْ كَتَمَهَا لَمْ يَنْتَفِعْ أَحَدٌ بِهَا وَلَمْ تَقُمْ بِهَا حُجَّةٌ. وَلِهَذَا ذَمَّ سُبْحَانَهُ مَنْ كَتَمَ الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَهُ وَمَا فِيهِ مِنْ الشَّهَادَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أَيْ عِنْدَهُ شَهَادَةٌ مِنْ اللَّهِ وَكَتَمَهَا وَهُوَ الْعِلْمُ الَّذِي بَيَّنَهُ اللَّهُ فَإِنَّهُ خَبَرٌ مِنْ اللَّهِ وَشَهَادَةٌ مِنْهُ بِمَا فِيهِ. وَقَدْ ذَمَّ مَنْ كَتَمَهُ كَمَا كَتَمَ بَعْضُ أَهْلِ الْكِتَابِ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ الْخَبَرِ وَالشَّهَادَةِ لِإِبْرَاهِيمَ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَكَتَمُوا إسْلَامَهُمْ وَمَا عِنْدَهُمْ مِنْ الْأَخْبَارِ بِمِثْلِ مَا أَخْبَرَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِصِفَتِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾. وَقَالَ

(129/114)

تَعَالَى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ وَالشَّهَادَةُ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ عِلْمِ الشَّاهِدِ وَصِدْقِهِ وَبَيَانِهِ لَا يَحْصُلُ مَقْصُودُ الشَّهَادَةِ إلَّا بِهَذِهِ الْأُمُورِ؛ وَلِهَذَا ذَمَّ مَنْ يَكْتُمُ وَيُحَرِّفُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ

خَبِيرًا ﴾ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا ﴾ .

فَصْلٌ :

وَإِذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنْ بَيَانِ شَهَادَتِهِ لِلْعِبَادِ ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ شَهِدَ فَهُوَ قَدْ بَيَّنَهَا بِالطَّرِيقَيْنِ : بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ . فَالسَّمِيعُ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ الْمَتْلُوَّةَ الْمُنَزَّلَةَ وَالْبَصِيرُ يُعَايِنُ آيَاتِهِ الْمَخْلُوقَةَ الْفِعْلِيَّةَ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ شَهَادَتَهُ تَتَضَمَّنُ

بَيَانَهُ وَدَلَالَتَهُ لِلْعِبَادِ وَتَعْرِيفَهُمْ ذَلِكَ وَذَلِكَ حَاصِلٌ بِآيَاتِهِ فَإِنَّ آيَاتِهِ هِيَ دَلَالَاتُهُ وَبَرَاهِينُهُ الَّتِي بِهَا يَعْرِفُ الْعِبَادُ خَبَرَهُ وَشَهَادَتَهُ كَمَا عَرَّفَهُمْ بِهَا أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ وَهُوَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ؛ فَخَبَرُهُ يَتَضَمَّنُ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ وَفِعْلُهُ يُبَيِّنُ حِكْمَتَهُ . فَالْأَنْبِيَاءُ إذَا أَخْبَرُوا عَنْهُ بِكَلَامِهِ عُرِفَ بِذَلِكَ شَهَادَتُهُ وَآيَاتُهُ الْقَوْلِيَّةُ وَلَا بُدَّ أَنْ يُعَرِّفَ صِدْقَ الْأَنْبِيَاءِ فِيمَا أَخْبَرُوا عَنْهُ ؛ وَذَلِكَ قَدْ عَرَفَهُ بِآيَاتِهِ الَّتِي أَيَّدَ بِهَا الْأَنْبِيَاءَ وَدَلَّ بِهَا عَلَى صِدْقِهِمْ فَإِنَّهُ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إلَّا بِآيَةٍ تُبَيِّنُ صِدْقَهُ إذْ تَصْدِيقُهُ بِمَا لَا يَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ غَيْرُ جَائِزٍ كَمَا قَالَ : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أَيْ بِالْآيَاتِ

الْبَيِّنَاتِ. وَقَالَ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . وَقَالَ: ﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ ﴾ وَقَالَ: ﴿ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ إلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مِنْ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيته

(131/114)

وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إلَيَّ

(132/114)

فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ . فَالْآيَاتُ وَالْبَرَاهِينُ الَّتِي أُرْسِلَ بِهَا الرُّسُلُ دَلَالَاتُ اللَّهِ عَلَى صِدْقِهِمْ دَلَّ بِهَا الْعِبَادَ وَهِيَ شَهَادَةُ اللَّهِ بِصِدْقِهِمْ فِيمَا بَلَّغُوا عَنْهُ وَالَّذِي بَلَّغُوهُ فِيهِ شَهَادَتُهُ لِنَفْسِهِ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ النُّظَّارِ: إنَّ الْمُعْجِزَةَ تَصْدِيقُ

الرَّسُولِ وَهِيَ تَجْرِي مَجْرَى الْمُرْسَلِ صُدِّقَتْ فَهِيَ تَصْدِيقٌ بِالْفِعْلِ تَجْرِي مَجْرَى التَّصْدِيقِ بِالْقَوْلِ ؛ إذْ كَانَ النَّاسُ لَا يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ الْمُرْسَلِ مِنْهُ وَتَصْدِيقُهُ إخْبَارٌ بِصِدْقِهِ وَشَهَادَةٌ لَهُ بِالصِّدْقِ وَشَهَادَةٌ لَهُ بِأَنَّهُ أَرْسَلَهُ وَشَهَادَةٌ لَهُ بِأَنَّ كُلَّ مَا يُبَلِّغُهُ عَنْهُ كَلَامُهُ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ اسْمُهُ الْمُؤْمِنُ وَهُوَ فِي أَحَدِ التَّفْسِيرَيْنِ الْمُصَدِّقُ الَّذِي يُصَدِّقُ أَنْبِيَاءَهُ فِيمَا أَخْبَرُوا عَنْهُ بِالدَّلَائِلِ الَّتِي دَلَّ بِهَا عَلَى صِدْقِهِ . وَأَمَّا الطَّرِيقُ العياني فَهُوَ أَنْ يَرَى الْعِبَادُ مِنْ الْآيَاتِ الْأُفُقِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ مَا يُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ الْوَحْيَ الَّذِي بَلَّغَتْهُ الرُّسُلُ عَنْ اللَّهِ حَقٌّ ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أَيْ أَوَلَمْ يَكْفِ بِشَهَادَتِهِ الْمُخْبِرَةِ بِمَا عَلِمَهُ وَهُوَ الْوَحْيُ الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ وَعَلِيمٌ بِهِ فَإِذَا أَخْبَرَ بِهِ وَشَهِدَ كَانَ ذَلِكَ كَافِيًا وَإِنْ لَمْ يَرَ

(133/114)

الْمَشْهُودَ بِهِ وَشَهَادَتُهُ قَدْ عُلِمَتْ بِالْآيَاتِ الَّتِي دَلَّ بِهَا عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ فَالْعَالِمُ بِهَذِهِ الطَّرِيقِ لَا يَحْتَاجُ أَنْ يَنْظُرَ الْآيَاتِ الْمُشَاهَدَةَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ بَلْ قَدْ يَعْلَمُ ذَلِكَ بِمَا عَلِمَ بِهِ أَنَّ الرَّسُولَ صَادِقٌ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ شَهَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَلَامِهِ . وَكَذَلِكَ ذَكَرَ الْكِتَابَ

الْمُنَزَّلِ فَقَالَ: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ الْآيَاتِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ فَبَيَّنَ أَنَّ الْقُرْآنَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ فَإِنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَةِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِ مَنْ جَاءَ بِهِ وَقَدْ اجْتَمَعَ فِيهِ مِنْ الْآيَاتِ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ فِي غَيْرِهِ فَإِنَّهُ هُوَ الدَّعْوَةُ وَالْحُجَّةُ وَهُوَ الدَّلِيلُ وَالْمَدْلُولُ عَلَيْهِ وَالْحُكْمُ وَهُوَ الدَّعْوَى وَهُوَ الْبَيِّنَةُ عَلَى الدَّعْوَى وَهُوَ الشَّاهِدُ وَالْمَشْهُودُ بِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ سَوَاءٌ أُرِيدَ بِهِ أَنَّهُ بَيِّنٌ فِي صُدُورِهِمْ أَوْ أَنَّهُ مَحْفُوظٌ فِي صُدُورِهِمْ أَوْ أُرِيدَ بِهِ الْأَمْرَانِ وَهُوَ الصَّوَابُ فَإِنَّهُ مَحْفُوظٌ فِي صُدُورِ الْعُلَمَاءِ بَيِّنٌ فِي صُدُورِهِمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ حَقٌّ كَمَا قَالَ: ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ وَقَالَ: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ

فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ . فِيهَا بَيَانُ مَا يُوجِبُ السَّعَادَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَيُنْجِيهِمْ مِنْ الْعَذَابِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فَإِنَّهُ إذَا كَانَ عَالِمًا بِالْأَشْيَاءِ كَانَتْ شَهَادَتُهُ بِعِلْمِ وَقَدْ بَيَّنَ شَهَادَتَهُ بِالْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ وَمِنْهَا الْقُرْآنُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

فَصْلٌ :

وَأَمَّا كَوْنُهُ سُبْحَانَهُ صَادِقًا فَهَذَا مَعْلُومٌ بِالْفِطْرَةِ الضَّرُورِيَّةِ لِكُلِّ أَحَدٍ ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ مِنْ أَبْغَضِ الصِّفَاتِ عِنْدَ بَنِي آدَمَ فَهُوَ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنْ

(135/114)

ذَلِكَ وَكُلُّ إنْسَانٍ مَحْمُودٍ يَتَنَزَّهُ عَنْ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَذُمُّ الْكَذِبَ فَهُوَ وَصْفُ ذَمٍّ عَلَى الْإِطْلَاقِ . وَأَمَّا عَدَمُ عِلْمِ الْإِنْسَانِ بِبَعْضِ الْأَشْيَاءِ فَهَذَا مِنْ لَوَازِمِ الْمَخْلُوقِ وَلَا يُحِيطُ عِلْمًا بِكُلِّ شَيْءٍ إلَّا اللَّهُ فَلَمْ يَكُنْ عَدَمُ الْعِلْمِ عِنْدَ النَّاسِ نَقْصًا كَالْكَذِبِ ؛ فَلِهَذَا يُبَيِّنُ الرَّبُّ عِلْمَهُ بِمَا يَشْهَدُ بِهِ وَأَنَّهُ أَصْدَقُ حَدِيثًا مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَأَحْسَنُ حُكْمًا وَأَصْدَقُ قِيلًا ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَحَقُّ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وَهُوَ

يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَتَكَلَّمُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ. و ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ وَهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَهُمْ يَشْهَدُونَ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ؛ فَيَشْهَدُونَ أَنَّهُمْ أَتَوْا بِمِثْلِ مَا أَتَى بِهِ كَالْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَالنَّهْيِ عَنْ الشِّرْكِ وَالْإِخْبَارِ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالشَّرَائِعِ الْكُلِّيَّةِ وَيَشْهَدُونَ أَيْضًا بِمَا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ ذِكْرِ صِفَاتِهِ وَرِسَالَتِهِ وَكِتَابِهِ. وَهَذَانِ الطَّرِيقَانِ بِهِمَا تَثْبُتُ نُبُوَّةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهِيَ الْآيَاتُ وَالْبَرَاهِينُ الدَّالَّةُ عَلَى صِدْقِهِ أَوْ شَهَادَةُ نَبِيٍّ آخَرَ قَدْ عَلِمَ صِدْقَهُ لَهُ بِالنُّبُوَّةِ. فَذَكَرَ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ بِقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ

(136/114)

وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ فَتِلْكَ يُعْلَمُ بِهَا صِدْقُهُ بِالنَّظَرِ الْعَقْلِيِّ فِي آيَاتِهِ وَبَرَاهِينِهِ وَهَذِهِ يُعْلَمُ بِهَا صِدْقُهُ بِالْخَبَرِ السَّمْعِيِّ الْمَنْقُولِ عَنْ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ فَقَوْلُهُ : ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ فِيهَا وَجْهَانِ : قِيلَ : هُوَ جَوَابُ السَّائِلِ وَقَوْلُهُ ﴿ شَهِيدٌ ﴾ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ : أَيْ هُوَ شَهِيدٌ. وَقِيلَ : هُوَ مُبْتَدَأٌ وَقَوْلُهُ : ﴿ شَهِيدٌ ﴾ خَبَرُهُ ؛ فَأَغْنَى ذَلِكَ عَنْ جَوَابِ الِاسْتِفْهَامِ. و " الْأَوَّلُ " عَلَى قِرَاءَةِ مَنْ يَقِفُ عَلَى قَوْلِهِ ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ و " الثَّانِي " عَلَى قِرَاءَةِ مَنْ لَا يَقِفُ وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ ؛ لَكِنَّ الثَّانِي

أَحْسَنُ وهُوَ أَتَمُّ . وكُلُّ أَحَدٍ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ أَكْبَرُ شَهَادَةً فلَمَّا قَالَ : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾ عُلِمَ أَنَّ اللَّهَ أَكْبَرُ شَهَادَةً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَقِيلَ لَهُ : ﴿ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ ولَمَّا قَالَ : ﴿ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ كَانَ فِي هَذَا مَا يُغْنِي عَنْ قَوْلِهِ : إنَّ اللَّهَ أَكْبَرُ شَهَادَةً . وَذَلِكَ أَنَّ كَوْنَ اللَّهِ أَكْبَرَ شَهَادَةً هُوَ مَعْلُومٌ وَلَا يَثْبُتُ بِمُجَرَّدِ قَوْلِهِ ﴿ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾

(137/114)

بِخِلَافِ كَوْنِهِ شَهِيدًا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ ؛ فَإِنَّ هَذَا مِمَّا يُعْلَمُ بِالنَّصِّ وَالِاسْتِدْلَالِ فَيُنْظَرُ هَلْ شَهِدَ اللَّهُ بِصِدْقِهِ وكَذِبِهِمْ فِي تَكْذِيبِهِ ؟ أَمْ شَهِدَ بِكَذِبِهِ وَصِدْقِهِمْ فِي تَكْذِيبِهِ ؟ وَإِذَا نَظَرَ فِي ذَلِكَ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ شَهِدَ بِصِدْقِهِ وكَذِبِهِمْ بِالنَّوْعَيْنِ مِنْ الْآيَاتِ : بِكَلَامِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ وبِمَا بَيَّنَ أَنَّهُ رَسُولٌ صَادِقٌ . ولِهَذَا أَعْقَبَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ فِيهِ الْإِنْذَارُ وَهُوَ آيَةٌ شَهِدَ بِهَا أَنَّهُ صَادِقٌ وَبِالْآيَاتِ الَّتِي يُظْهِرُهَا فِي الْآفَاقِ وَفِي الْأَنْفُسِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ . وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ وكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ وكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ وكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ . فَذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ شَهِيدٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ وَلَمْ يَقُلْ : شَاهِدٌ عَلَيْنَا وَلَا

شَاهِدٌ لِي ؛ لِأَنَّهُ ضَمَّنَ الشَّهَادَةَ الْحُكْمَ فَهُوَ شَهِيدٌ يَحْكُمُ بِشَهَادَتِهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَالْحُكْمُ قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَى مُجَرَّدِ الشَّهَادَةِ ؛ فَإِنَّ الشَّاهِدَ قَدْ يُؤَدِّي الشَّهَادَةَ . وَأَمَّا الْحَاكِمُ فَإِنَّهُ يَحْكُمُ بِالْحَقِّ لِلْمُحِقِّ عَلَى الْمُبْطِلِ وَيَأْخُذُ حَقَّهُ مِنْهُ وَيُعَامِلُ الْمُحِقَّ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ وَالْمُبْطِلَ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ .

وَهَكَذَا شَهَادَةُ اللَّهِ بَيْنَ الرَّسُولِ وَمُتَّبِعِيهِ وَبَيْنَ مُكَذِّبِيهِ فَإِنَّهَا تَتَضَمَّنُ حُكْمَ اللَّهِ لِلرَّسُولِ وَأَتْبَاعِهِ يَحْكُمُ بِمَا يُظْهِرُهُ مِنْ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ عَلَى أَنَّهَا الْحَقُّ وَتِلْكَ الْآيَاتُ أَنْوَاعٌ مُتَعَدِّدَةٌ وَيَحْكُمُ لَهُ أَيْضًا بِالنَّجَاةِ وَالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ وَسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلِمُكَذِّبِيهِ بِالْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ وَشَقَاءِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ فَيُظْهِرُهُ بِالدَّلَائِلِ وَالْآيَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي تُبَيِّنُ أَنَّهُ حَقٌّ وَيُظْهِرُهُ أَيْضًا بِنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ عَلَى مُخَالِفِيهِ وَيَكُونُ مَنْصُورًا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ فَهَذِهِ شَهَادَةُ حُكْمٍ كَمَا قَدَّمْنَا ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ ﴾ . قَالَ مُجَاهِدٌ وَالْفَرَّاءُ وَأَبُو عُبَيْدَةَ : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ ﴾ أَيْ حَكَمَ وَقَضَى ؛ لَكِنَّ الْحُكْمَ فِي قَوْلِهِ ﴿ بَيْنِي

وَبَيْنَكُمْ ﴾ أَظْهَرُ وَقَدْ يَقُولُ الْإِنْسَانُ لِآخَرَ : فُلَانٌ شَاهِدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيْ يَتَحَمَّلُ الشَّهَادَةَ بِمَا بَيْنَنَا فَاَللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَهُ وَيَقُولُهُ وَهَذَا مِثْلُ الشَّهَادَةِ عَلَى أَعْمَالِ الْعِبَادِ ؛ وَلَكِنَّ الْمُكَذِّبُونَ مَا كَانُوا يُنْكِرُونَ التَّكْذِيبَ وَلَا كَانُوا يَتَّهِمُونَ الرَّسُولَ بِأَنَّهُ يُنْكِرُ دَعْوَى الرِّسَالَةِ فَيَكُونُ الشَّهِيدُ بِتَضَمُّنِ

(139/114)

الْحُكْمِ أَثْبَتَ وَأَشْبَهَ بِالْقُرْآنِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

فَصْلٌ :

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ فَإِنَّ شَهَادَتَهُ بِمَا أَنْزَلَ إلَيْهِ هِيَ شَهَادَتُهُ بِأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهُ مِنْهُ وَأَنَّهُ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ فَمَا فِيهِ مِنْ الْخَبَرِ هُوَ خَبَرٌ عَنْ عِلْمِ اللَّهِ لَيْسَ خَبَرًا عَمَّنْ دُونَهُ وَهَذَا كَقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ وَلَيْسَ مَعْنَى مُجَرَّدِ كَوْنِهِ أَنْزَلَهُ أَنَّهُ هُوَ مَعْلُومٌ لَهُ فَإِنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ مَعْلُومَةٌ لَهُ وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا حَقٌّ ؛ لَكِنَّ الْمَعْنَى أَنْزَلَهُ فِيهِ عِلْمُهُ كَمَا يُقَالُ فُلَانٌ يَتَكَلَّمُ بِعِلْمِ وَيَقُولُ بِعِلْمِ فَهُوَ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ كَمَا قَالَ : ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ تَكَلَّمَ بِهِ بِعِلْمِهِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَتَضَمَّنُ نُزُولَهُ إلَى

الْأَرْض . فَإِذَا قَالَ : ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ تَضَمَّنَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْمُنَزَّلَ إلَى الْأَرْضِ فِيهِ عِلْمُ اللَّهِ كَمَا قَالَ : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ نَفْسِهِ مِنْهُ نَزَلَ وَلَمْ يَنْزِلْ مِنْ عِنْدِ غَيْرِهِ ؛ لِأَنَّ غَيْرَ اللَّهِ لَا يَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِ اللَّهِ مِنْ الْعِلْمِ - وَنَفْسُهُ هِيَ ذَاتُهُ

(140/114)

الْمُقَدَّسَةُ - إلَّا أَنْ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ كَمَا قَالَ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ وَقَالَتْ الْمَلَائِكَةُ : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ ﴿ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ فَغَيْبُهُ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ لَا يُظْهِرُ عَلَيْهِ أَحَدًا إلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ وَالْمَلَائِكَةُ لَا يَعْلَمُونَ غَيْبَ الرَّبِّ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ . وَأَمَّا مَا أَظْهَرَهُ لِعِبَادِهِ فَإِنَّهُ يُعَلِّمُهُ مَنْ شَاءَ وَمَا تَتَحَدَّثُ بِهِ الْمَلَائِكَةُ فَقَدْ تَسْتَرِقُ الشَّيَاطِينُ بَعْضَهُ ؛ لَكِنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ غَيْبِهِ وَعِلْمِ نَفْسِهِ الَّذِي يَخْتَصُّ بِهِ بَلْ هَذَا قَدْ أَظْهَرَ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَالَ : ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ فَشَهِدَ أَنَّهُ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ بِالْآيَاتِ وَالْبَرَاهِينِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَلَامُهُ وَأَنَّ الرَّسُولَ صَادِقٌ . وَكَذَلِكَ قَالَ فِي هُودٍ : ﴿ فَأْتُوا

بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ لَمَّا تَحَدَّاهُمْ بِالْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾ ثُمَّ تَحَدَّاهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ فَعَجَزُوا عَنْ ذَا وَذَاكَ ثُمَّ تَحَدَّاهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ فَعَجَزُوا فَإِنَّ الْخَلَائِقَ لَا يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَا بِسُورَةٍ

(141/114)

مِثْلِهِ؛ وَإِذَا كَانَ

(142/114)

الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عَاجِزِينَ عَنْ الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَمُحَمَّدٌ مِنْهُمْ عَلِمَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ اللَّهِ نَزَّلَهُ بِعِلْمِهِ لَمْ يُنَزِّلْهُ بِعِلْمِ مَخْلُوقٍ فَمَا فِيهِ مِنْ الْخَبَرِ فَهُوَ خَبَرٌ عَنْ عِلْمِ اللَّهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لِأَنَّ فِيهِ مِنْ الْأَسْرَارِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إلَّا اللَّهُ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهُ فَذِكْرُهُ ذَلِكَ يُسْتَدَلُّ بِهِ تَارَةً عَلَى أَنَّهُ حَقٌّ مُنَزَّلٌ مِنْ اللَّهِ لَكِنْ تَضَمَّنَ مِنْ الْأَخْبَارِ عَنْ أَسْرَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالدُّنْيَا وَالْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَسِرِّ الْغَيْبِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ. فَمَنْ

هُنَا نَسْتَدِلُّ بِعِلْمِنَا بِصِدْقِ أَخْبَارِهِ أَنَّهُ مِنْ اللَّهِ . وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ تَعَالَى اسْتَدْلَلْنَا بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ خَبَرَهُ حَقٌّ وَإِذَا كَانَ خَبَرًا بِعِلْمِ اللَّهِ فَمَا فِيهِ مِنْ الْخَبَرِ يَسْتَدِلُّ بِهِ عَنْ الْأَنْبِيَاءِ وَأُمَمِهِمْ وَتَارَةً عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَا فِيهَا وَالْخَبَرُ الَّذِي يُسْتَدَلُّ بِهِ لَا بُدَّ أَنْ نَعْلَمَ صِحَّتَهُ مِنْ غَيْرِ جِهَتِهِ وَذَلِكَ كَإِخْبَارِهِ بِالمستقبلات فَوَقَعَتْ كَمَا أَخْبَرَ وَكَإِخْبَارِهِ بِالْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ بِمَا يُوَافِقُ مَا عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ غَيْرِ تَعَلُّمٍ مِنْهُمْ وَإِخْبَارِهِ بِأُمُورٍ هِيَ سِرٌّ عِنْدَ أَصْحَابِهَا كَمَا قَالَ : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ فَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(143/114)

اسْتِدْلَالٌ بِأَخْبَارِهِ ؛ وَلِهَذَا ذَكَرَهُ تَكْذِيبًا لِمَنْ قَالَ هُوَ ﴿ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنْزَلَهُ ﴾ اسْتِدْلَالٌ عَلَى أَنَّهُ حَقٌّ وَأَنَّ الْخَبَرَ الَّذِي فِيهِ عَنْ اللَّهِ حَقٌّ ؛ وَلِهَذَا ذَكَرَ ذَلِكَ بَعْدَ ثُبُوتِ التَّحَدِّي وَظُهُورِ عَجْزِ الْخَلْقِ عَنْ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ .

فَصْلٌ :

وَمِنْ شَهَادَتِهِ مَا يَجْعَلُهُ فِي الْقُلُوبِ مِنْ الْعِلْمِ وَمَا تَنْطِقُ بِهِ الْأَلْسُنُ مِنْ ذَلِكَ كَمَا فِي الصَّحِيحِ أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا فَقَالَ : وَجَبَتْ

وَجَبَتْ وَمُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا فَقَالَ : وَجَبَتْ وَجَبَتْ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا قَوْلُك : وَجَبَتْ وَجَبَتْ ؟ قَالَ : هَذِهِ الْجِنَازَةُ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهَا خَيْرًا فَقُلْت وَجَبَتْ لَهَا الْجَنَّةُ وَهَذِهِ الْجِنَازَةُ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهَا شَرًّا فَقُلْت وَجَبَتْ لَهَا النَّارُ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ ﴾ فَقَوْلُهُ : " شُهَدَاءُ اللَّهِ " أَضَافَهُمْ إلَى اللَّهِ تَعَالَى . وَالشَّهَادَةُ تُضَافُ تَارَةً إلَى مَنْ يَشْهَدُ لَهُ . وَإِلَى مَنْ يَشْهَدُ عِنْدَهُ فَتُقْبَلُ شَهَادَتُهُ كَمَا يُقَالُ : شُهُودُ الْقَاضِي وَشُهُودُ السُّلْطَانِ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ الَّذِينَ تُقْبَلُ شَهَادَتُهُمْ وَقَدْ يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مَنْ يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِمَا تَحَمَّلَهُ

(144/114)

مِنْ الشَّهَادَةِ لِيُؤَدِّيَهَا عِنْدَ غَيْرِهِ كَالَّذِينَ يَشْهَدُ النَّاسُ عَلَيْهِمْ بِعُقُودِهِمْ أَوْ أَقَارِيرِهِم . فَشُهَدَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ لَهُ بِمَا جَعَلَهُ وَفَعَلَهُ وَيُؤَدُّونَ الشَّهَادَةَ عَنْهُ فَإِنَّهُمْ إذَا رَأَوْا مَنْ جَعَلَهُ اللَّهُ بَرًّا تَقِيًّا يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ كَذَلِكَ وَيُؤَدُّونَ عَنْهُ الشَّهَادَةَ فَهُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي أَشْهَدَهُمْ بِأَنْ جَعَلَهُمْ يَعْلَمُونَ مَا يَشْهَدُونَ بِهِ وَيَنْطِقُونَ بِهِ وَإِعْلَامُهُ لَهُمْ بِذَلِكَ هُوَ شَهَادَةٌ مِنْهُ بِذَلِكَ فَهَذَا أَيْضًا مِنْ شَهَادَتِهِ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ وَفَسَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْبُشْرَى بِالرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ وَفَسَّرَهَا بِثَنَاءِ النَّاسِ وَحَمْدِهِمْ وَالْبُشْرَى خَبَرٌ بِمَا يَسُرُّ وَالْخَبَرُ شَهَادَةٌ بِالْبُشْرَى مِنْ شَهَادَةِ اللَّهِ

تَعَالَى . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 14 صـ 168 . 200 ﴾

(145/114)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

ولنأخذ الجملة الأولى من الآية الكريمة بمعناها : لقد شهد الله أنه لا إله إلا هو ، أي أنّ الحق قد أخبر بما رآه ، وشاهده ، أو ما يقوم مقام ذلك . إن " شهد " بمعنى علم .

إنه الحق الذي نصب الأدلة في الوجود على قيوميته ، وعلى أنه إله واحد ، أليس في ذلك إقامة للحجة على أنه إله واحد ؟ ومن الذي خلق الأدلة وجاء بها ؟ إنه الله .

إذن ، فقد شهد الله أنه لا إله إلا هو . وقلنا : إن شهادة الله أنه لا إله إلا هو هي شهادة الذات للذات ، وشهادة الذات للذات تعني أنها كلمة مُمكّنٌ منها . فعندما يقول الحق :

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

[البقرة: 117].

بالله لو لم يكن قد شهد لنفسه بأنه لا إله إلا هو، وليس هناك من يعارض مبتغاه، أكان يجازف فيقولها؟ إنه الحق الأعلى الذي شهد أن لا إله إلا هو، فساعة أن يقول: "كن" فإنه قد علم، أنه لا يوجد إله آخر يقول: "لا تكن". إن الحق لا بد أن يطمَئننا أنه لا إله إلا هو، لذلك فلزم أن يشهد لنفسه أنه مؤمن بأنه لا إله إلا هو ويلقى الأمر، ويلقى الحكم التسخيري، ويعلم أنه لا إله يعارضه.

وأليس من مطلوبات الرسول صلى الله عليه وسلم أن يشهد أنه رسول الله؟ لقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال في صلاته: "أشهد أن محمدا رسول الله". ولو لم يشهد بهذه لنفسه فكيف يجازف بالأشياء التي يقولها؟ ولذلك فسيدنا أبو بكر عندما بلغه أمر بعث محمد رسولا، قال ما معناه: أقالها محمد؟ إنه صادق، وما دام قد قالها فهي حق.

(146/114)

إن أبا بكر الصديق واثق من الرصيد الذي سبق بعث محمد بالرسالة. ونحن نرى في التاريخ امرأة كان السبب في إسلامها لمحة من سيرته صلى الله عليه وسلم. قرأت هذه

المرأة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان له حراس من المؤمنين يقومون بحراسته من الكافرين . وبعد ذلك جاء يوم وصرف الرسول صلى الله عليه وسلم هؤلاء الحراس ، وقال لهم ما معناه : إن الله عصمني من الناس فاذهبوا أنتم .

وقد قرأنا هذه الواقعة كثيرا جدا ، ولكن الفتح جاء من الحق لامرأة ، فشغلتها هذه المسألة ، وتساءلت : ألم يكن هؤلاء الحراس يحرسونه خوفا على حياته ؟ فلماذا قال لهم : "لا تحرسوني" لأن الله هو الذي يحرسني ؟ فلو أن رسول الله قد غش الدنيا كلها ؛ أكان من الممكن أن يغش نفسه في حياته ؟

وأجابت المرأة على نفسها : لا يمكن ، لا بد أن رسول الله قد وثق تمام الثقة في أن الله قد أبلغه أمر حمايته بدليل أنه قام بصرف الحراس ، وإلا فكيف يأمن أن يأتي أحد ليقتله ؟

قالت المرأة : والله لو خَدع الناس جميعا ما خَدع نفسه في حياته ، أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

حدث إسلام هذه المرأة من نفحة يسيرة من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن ، ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ هي شهادة الذات للذات ، وكفى بالله شهيدا .

وشهدت الملائكة أيضا ، والملائكة هم الغيب الخفي عنا ، وتتلقى الأوامر من الحق . إن الملائكة لم يروا أحدا آخر يعطي لهم الأوامر ، إنه الإله الواحد القادر . وهذه هي شهادة المشهد . ويضاف إلى الملائكة ﴿ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ ﴾ الأدلة وجلسوا يستنبطون من كون الله

أدلة على أنه لا إله إلا الله .

إن هذه أعظم شهادة لأعظم مشهود به من أعظم شهود ، الله في القمة ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، والملائكة وأولوا العلم . ولقد أخذ أولوا العلم منزلة كبيرة لأن الله قد قرنهم بالملائكة .

إن الحق سبحانه وتعالى يبلغنا أنه قد نثر في كونه الآيات العجيبة العديدة, والذي يجلس ، ويتفكر ويتدبر ، ويتفطن وينظر ، فإنه يستخرج الأدلة على أنه لا إله إلا هو ، وكما قلنا من قبل : إن أبسط الطرق للتدليل على هذه الحقيقة . إن كانت " لا إله إلا الله " صدقا فقد كُفينا ، وإن كانت غير صدق فأين الإله الذي أخذ منه الله هذا الكون ، ولم يخبرنا ذلك الإله أنه صاحب الكون ؟ فإما أن هذا الإله الآخر لم يَدرْ ، أو أنه قد علم ، ولا يستطيع فعل شيء ، إذن فلا يصح أن يكون إلها يزاحم الحق الذي أبلغنا أنه لا إله إلا هو .

وتظل " لا إله إلا الله " لصاحبها – جل شأنه – " شهد الله أنه لا إله إلا هو " وفي كل حركة من حركات الحياة نجد أن الانفراد بصدور الحركة قد يعطي علوا ، وقد يعطي استكبارا . . لذلك نقول : ها هو ذا الخالق الأعلى الذي " لا إله إلا هو " يخبرنا أنه قائم

بالقسط . ورغم أنه لا أحد في استطاعته أن يتدارك على الله ، إلا أنه يطمئننا أنه قائم بالقسط .

ولنلحظ هنا ملحظاً جميلا في الأداء ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ ﴾ لماذا لم يقل الله إن " الملائكة " و " أولوا العلم " ، الذين شهدوا أنه لا إله إلا هو " قائمين " بالقسط ؟ لقد شهد الله أنه لا إله إلا هو قائما بالقسط ، والملائكة شهدوا هذه القضية والعلماء شهدوا أيضا بهذه القضية . . لماذا ؟ لأن الله لو قال : " قائمين بالقسط " لكان الله مشهودا عليه من هؤلاء ، والشهادة هي له وحده أنه قائم بالقسط والعدل .

لأنه سبحانه خلق الملائكة بالقسط ، فلو كانوا معه في ذلك لما استقام الأمر ، وأولوا العلم أيضا مخلوقون بالقسط ؛ لأن الله قد وزع حركة الحياة على الناس ، فَنَاسٌ يعملون بعقولهم ، وآخرون يعملون بقلوبهم ، وقوم غيرهم يعملون بجوارحهم ، فهذا هو

لون من عدل الله ، وإلا ، فهل يدعي أحد أن إنسانا تتجمع فيه كل المواهب التي تتطلبها الحياة . لا ، وهذه من عدالة الرحمن .

إن من عدالة الحق أنه وزع المواهب بين البشر ، فبدلا من أن يعتمد الإنسان على نفسه في صناعة الملبس والمأكل ، والمشرب ، جعل الله المهارات موزعة بين البشر . فأتقنت مجموعة من البشر حرفة الزراعة لإنتاج الطعام الذي يكفيهم ، ويسد حاجة غيرهم ، وكذلك تبادلوا مع غيرهم المنافع ، فالإنسان – بمفرد – لا يستطيع أن يزرع القطن ويجمعه ويغزله وينسجه ؛ ليلبس ، والإنسان لا يستطيع أن يزرع القمح ويحصده ثم يطحنه ثم يخبزه .

إن الله لم يخلق الناس ليقوم كل فرد بإشباع حاجات نفسه المتنوعة ، إنما وزع الله المواهب ، لتتداخل هذه المواهب ، ويتكامل المجتمع البشري ، فواحد يزرع الأرض ، وثانٍ يغزل القطن ، وثالث ينسج القماش ، ورابع يصنع الأدوات . وهذا عدل عظيم ؛ لأن الطاقة البشرية لا تقوى على أن تقوم بكل متطلبات الحياة ، لذلك جعل الحق هذا التنوع في المواهب ليربط الناس بالناس قهرا عن الناس ، فلم يجعل لأحد تفضيلا على أحد ، فما دام واحد يعرف في مجال ، وآخر لا يعرف في هذا المجال ، فالذي لا يعرف محتاج للآخر ، وهكذا يتبادل الناس المنافع رغما عنهم .

ولذلك نجد الكون متكاملا . ولينظر كل منا إلى حياته وليعدد كمْ زاوية من زوايا العلم ، وكم زاوية من زوايا القدرات ، وكم زاوية من زوايا المواهب تلزم حتى تخدم حركة الحياة ؟ إن هذه الزوايا موزعة على الناس جميعا ليخدموا جميعاً حركة الحياة . وهذا قمة العدل .

وحتى يوضح لنا الحق قيمة العدل وكيفية العدالة في إقامة المحبة والاحترام بين البشر ، فلينظر الواحد منا إلى الإنسان الآخر البعيد عنه ، ويتساءل بينه وبين نفسه : أهذا الرجل البعيد عني يعمل من أجلي ؟ وتكون الإجابة : نعم .

(149/114)

إذن ، فعلى الإنسان عندما يرى إنسانا متفوقا في صنعة ما ، فليقل : إن تفوقه في صنعته عائد إليّ وتفوقه في موهبته عائد إليّ ، وهكذا منع الله بالعدل الحقد والحسد ، وجعل الناس متكاتفين قهرا عنهم ، لا تفضيلا منهم ، إذن ، فكل إنسان يسعى بحركة الحياة إنما يقيم نفسه في زاوية من زوايا الحياة ، ومن العجيب أن الزاوية التي يُحسنها الإنسان تكون حاجته فيها أقل الحاجات ، لذلك نجد المثل الريفي الذي يقول : " باب النجار مخلع " ، وذلك حتى يعلم الإنسان أن موهبة ما تكون عند غيره سوف تنفعه هو ، بدليل أن الموهبة التي عندك لم تنتفع أنت بها إلاّ قليلا .

(150/114)

وبذلك يشيع في الناس اقتناع بأن موهبة كل فرد فيهم ، إنما تعود عليهم جميعا ، وبذلك تحل المحبة والاحترام بدلا من الحسد والحقد . وعندما سأل أحد الظرفاء : ولماذا يكون باب النجار هو " المخلع " ؟ قال أحد الظرفاء ردا عليه : لأنه الباب الوحيد الذي لن يأخذ النجار أجرا لإصلاحه ، ونلتفت إلى العجائب في الحكمة الشائعة ، فنجد أطباء اخصائيين في ألوان من المرض ، وصاروا أعلاما في مجالات تخصصاتهم ، ويشاء الحق سبحانه وتعالى ألا يصابوا إلا بما برعوا فيه ، كأن الذي برعوا فيه لم يفدهم هم بشيء ، إنما أفاد الآخرين . ولننظر إلى الآية في مجملها : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ لقد استهلها الله بقوله : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ ثم قال بعد ذلك : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فكأن الآية تقول لنا : إذا ثبتت شهادة الذات للذات ، وشهادة المشهد من الملائكة ، وشهادة الاستدلال من العلماء ، فإن القاعدة تكون قد استقرت استقرارا نهائيا لا شك فيه ، فخذوها مسلمة : " لا إله إلا هو " .

وما دام " لا إله إلا هو " فليكن اعتمادك عليه وحده ، واعلم أنك إن اعتمدت عليه وحده إلها فأنت قد اعتمدت على عزيز لا يُغْلب على أمره .

قال صلى الله عليه وسلم : " إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو

اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رُفعت الأقلام ، وجفت الصحف " .

(151/114)

فلا يستطيع أحد أن يدخل مع الله في جدال . إنما يدخل خلق الله مع خلق الله في خلاف أو نضال ، لكن لا أحد يجرؤ على أن يدخل في نضال مع الله لأنه عزيز لا يغلب . فإن آمنت به وحده ، فلك الفوز . وكلمة " وحده " قد تبدو في ظاهرها تقليلا للسند الذي تستند إليه في القياس البشرى ، فيقال : " أنا لاجئ إلى فلان وحده " وعندما تكون لاجئًا إلى عشرين ألا تكون أكثر قوة ؟ لكن هنا لا يكون قياس بين اللجوء إلى الله وحده ، بقياس اللجوء إلى مخلوق . إنك هنا تلجأ إلى خالق أعلى بيده مقاليد كل شيء وهو على كل شيء قدير ، فكلمة " وحده " هنا تغنيك وتكفيك عن الكل . اعمل لوجه واحد . يكفك كل الأوجه ، واعلم أنه لا يوجد من يغلبه على أمره .

وعظمة الحق أنه واحد أحد فرد متفرد صمد ، وهو عزيز لا يُغْلب على أمره, وهو صاحب كل الحكمة في وضع الأشياء في مواضعها بحيث إذا ما عرفت حكمة ما يجريه الله سبحانه وتعالى على خلقه فأنت تتعجب من عظمة قدرة الله ، لأن الحكمة هي وضع

الشيء في موضعه، وما دمت قد وضعت الشيء في موضعه فإنه لا يكون هناك قلقٌ، وما دام الشيء موضوعا في مكانه فهو مستقر، وما دام الشيء مستقراً فإنه لا يتلون وتزداد الثقة فيه، وهذه مأخوذة من "الحَكمة" التي توُضع في فم الفرس، والتي نسميها "اللجام" وهي كما نعرف تتكون من قطعة من الجلد تدخل على اللسان وفيها قطعة من الحديد، فإن مال إلى غير الاتجاه الذي تريد، يكون من السهل جذبه إلى الاتجاه الصحيح.

(152/114)

إن وجود الحكمة يعني وجود شيء يحكمه فلا ينحرف يمينا ولا يسارا، وما دام الله قد شهد أنه لا إله إلا هو، وشهدت الملائكة وشهد أولوا العلم، وانتهت القضية بعد هذه الشهادات إلى أنه لا إله إلا هو، وأنه العزيز الحكيم، فكل منهج منه يجب أن يُسلم إليه، وأن ينقاد له. وما دام الله قد شهد لنفسه بأنه إله واحد، أي لا يوجد له شريك ينازعه فيما يريد من خلقه، وليس لله شريك في الخلق، وليس لله شريك في الرزق، وليس له شريك في التشريع.

إذن.. فالجهة التي نستمد منها مقومات منهجنا هي جهة واحدة، وكان من الممكن أن تظلم وتجور هذه الجهة الواحدة الخالقة على ما خلقت لأنه ليس لأحد من خلق الله حق

على الله ، لكن الله سبحانه عادل ، إنه سبحانه يطمئننا ، فهذه الوحدانية بقدرتها وجبروتها وعلمها وحكمتها عادلة لا تظلم ، لأنه قال : مع أني إله واحد ، لا يُرد لي حكم ولا أمر فأنا قائم بالقسط .

والقيام بالقسط يجب أن نتوقف عنده لنفهمه جيدا ، إن الحق يقول عن نفسه : " قائما بالقسط " وكلمة قائم تعني أن الله قد خلقهم الخلق الأول ، وهذا الخلق إنما قام على العدل والقسط . وتكليف الحق للخلق قام على العدل والقسط . والعدل والقسط يقتضي ميزانا لا ترجح فيه كفة على كفة ، وهذا الميزان ممسوك بيد القدرة القاهرة التي لا توجد قوة أعلى منها تميل في الحكم ، والحق سبحانه قائم بالقسط في الخلق ، فقبل أن يخلقنا أعدّ لنا ما تتطلبه حياتنا بالقسط أيضا ، فلم يجعل أمر الحياة قائما على الأسباب التي يكلفنا بها لنعيش ، بل حكم بالقسط ، لقد جعل الحق بعضا من الأمور لا دخل لنا نحن العباد فيها ، ولم يقض الحق بذلك على حركتنا ولا على حريتنا في الحركة ، لذلك خلق لنا أسبابا إن شئنا أن نفعل بها وصلنا إلى المسببات ، وإن شئنا ألا نفعل فنترك الأسباب والمسببات .

إذن . . فالحق سبحانه لم يحكمنا في قضية الخلق الأولى بشيء واحد ، بأن يجبرنا على كل شيء ، بل جبرنا بأنه – سبحانه – لم يدخل أسبابنا ولا حركتنا في كثير من الحركات التي تترتب عليها الحياة ، فلم يجعل الشمس بأيدينا ، ولا القمر ، ولا الريح ، ولا المطر . كل هذه الأسباب جعلها بيده هو ، لماذا ؟ لأن هذه الأسباب ستفعل للمخلوق قبل أن تكون له قدرة . هذه الأسباب تفعل للإنسان قبل أن توجد له حياة ؛ لتمهد للحياة التي يهبك الله إياها ، فلو ترك الله كل هذه الأشياء لأسباب الإنسان لتأخرت هذه الأشياء إلى أن يوجد للإنسان إرادة ، وتوجد له قدرة وعلم .

لقد جعل الله أسباب الحياة بيده ، كالتنفس مثلا ، إن التنفس لا يخضع لإرادة القدرة على الحركة في الحياة ، ولكنه قال لك : أيها الإنسان – وهو سبحانه الإله القادر – تحرك التنفس إلى أن توجد له إرادة . ولا توجد الإرادة إلا إن وجُد عند الإنسان علم بأنه يريد إدخال الأوكسجين إلى الرئتين حتى يتغذى الدم والمخ وينقى الدم والجسم من الأشياء التي تضره ، هذا يقتضي العلم ، فإن كان هذا الأمر يقتضي العلم . فماذا يصنع الطفل الذي ليس له علم ؟ كيف يتنفس ؟

لذلك فمن رحمة الله وعدالته أن جعل أمر التنفس – على سبيل المثال – بيده هو سبحانه ، ولكن الحق سبحانه لم يقض على مخلوقه بأن يجعله في الكون بلا حرية أو اختيار ، لا ، لقد ترك الحق سبحانه بعضا من الأشياء لحرية الإنسان واختياره .

إذن ، فالحق لم يلزم العبد تسخيرا ، ولم يمنع تخييرا . وذلك هو العدل المطلق . لقد احترم الحق كينونة الإنسان ، وحياة الإنسان ، ومشيئة الإنسان ، واختيار الإنسان ، فقال : أنا سأعطيك أسباب الحياة الضرورية ولا أجعل لك دخلا فيها ؛ لأنك إن تدخلت فيها أفسدتها ، وتأخر وصول خدمتها لك إلى أن تعرف وتعلم ، وأنا - الحق - أريدها لك ، وأنت أيها الإنسان عاجز قبل أن توجد لك ، وأنت قادر بوجودها الذي أمنحه لك ؛ لذلك جعلتها بيدي أنا الخالق المأمون على خلقي . ولكن لن أقضي على حريتك ، فإن أردت ارتقاءً في الحياة فتحرك في الحياة ، إن شئت أيها الإنسان أن تفعل فافعل . وإن شئت أيها الإنسان ألا تفعل فلا تفعل . وهذا مطلق العدل .

ثم جاء الحق سبحانه وتعالى وجعل قوله : ﴿ قَآئِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ مشتملا على التكليف أيضا ، أي إن عدالته في التكليف مطلقة . فأناس يقولون : "لا إله" وأناس آخرون عددوا الآلهة ، فقام الحق بالقسط بين الأمرين . هو إله موجود يا من تقول : "لا إله" . وهو إله غير متعدد يا من تشرك معه غيره . وهذا قيام بالقسط وجاء الحق سبحانه في الأحكام . ونحن نجد أحكاما شرعية طلبها الحق سبحانه من العبد طلبا باتا ، ولم يتركها لاختيار الإنسان

ونجد أشياء تركها الحق سبحانه ليجتهد فيها الإنسان، فلم يجعل الحق سبحانه العبد حراً طليقا يعربد في الكون كما يشاء، ولم يجعل الحق سبحانه عبده مقهورا أو مقسورا بحيث لا توجد له إرادة أو اختيار.

لقد جعل الله للإنسان مجالا في القسر ومجالا في الاختيار، أوجد في الإنسان القدرة على الحركة في الحياة، ولكنه قال لك: أيها الإنسان - وهو الإله القادر - تحرك في الحياة وأنا أحمي نتيجة ما تتحرك فيه، ولكن لي في مالك الذي جعلتك فيه خليفة حق عليك أن تعطي بعضا منه لأخيك المحتاج.

(155/114)

لقد أعطى الحق للنفس البشرية أن تكد، وأعطى لها أن تكدح، وحفظ لها ما تملك، ولكنه هو الحق لم يُطلق للنفس البشرية عنانها، بل قال: لي حق في ذلك. وهكذا نجده سبحانه قد عدل في هذا الأمر.

إذن فقول الحق إنه قائم بالقسط.. نجده واضحا في كل شيء؛ ففي الخلق والرزق والتكليف نجد أنه قائم بالقسط، وما دام هو إلها واحدا وقائما بالقسط، فما الذي يمنعك

أيها الإنسان أن تخضع لمراده منك ؟ يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ . . . ﴾ . انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1344 . 1352 ﴾

(156/114)

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

[من الله] فيه إيجاز بالحذف أى من عذاب الله

[شيئا] التنكير للتقليل أى لن تنفعهم أي نفع ولو قليلا

[واولئك هم وقود النار] الجملة اسمية للدلالة على ثبوت الامر وتحققه

[كذبوا بآياتنا فاخذهم الله] فيه التفات من الغيبة الى الحاضر ، والاصل فاخذناهم

[لكم آية] الاصل " اية لكم " وقدم للاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر ، والتنكير في اية للتفخيم والتهويل أى اية عظيمة ومثله التنكير في [رضوان من الله] وقوله تعالى : [ترونهم] و[راي العين] بينهما جناس الاشتقاق

[حب الشهوات] يراد به المشتهيات ، عبر بالشهوات مبالغة كانها نفس الشهوات ، وتنبيها

على خستها لان الشهوة مسترذلة عند الحكماء

[بخير من ذلكم] إبهام الخير لتفخيم شانه والتشويق لمعرفته

[للذين اتقوا عند ربهم] التعرض لعنوان الربوبية لاظهار مزيد اللطف بهم

[القناطير المقنطرة] بينهما من المحسنات البديعية ما يسمى بالجناس الناقص ، أو جناس الاشتقاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 190 ﴾

(157/114)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

العامة على " شَهِدَ " فعلاً ماضياً ، مبنيًّا للفاعل ، ولفظ الجلالة رَفْع به .

وقرأ أبو الشعثاء : " شُهِدَ " مبنيًّا للمفعول ، ولفظ الجلالة قائِم مقام الفاعل ، وعلى هذه القراءة يكون " أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ " في محل رفع ؛ بدلاً من اسم " اللهُ " - بدل اشتمال ، تقديره : شُهِدَ وحدانية الله - تعالى - وألوهيتُه .

ولما كان المعنى على هذه القراءة كذلك أشكل عطف الملائكة ، وأولي العلم على لفظ الجلالة ، فخُرِّج ذلك على عدم العطف ، بل إما على الابتداء ، والخبر محذوف ؛ لدلالة

الكلام عليه، تقديره: والملائكة، وأولوا العلم يشهدون بذلك، يدل عليه قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللهُ ﴾، وإما على الفاعلية بإضمار محذوف، تقديره: وشَهِدَ الملائكةُ، وأولو العلم بذلك، وهو قريب من قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال ﴾ [النور: 36]، في قراءة مَنْ بناه للمفعول.

وقوله: [الطويل]

1367 - لِيُبْكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِخُصُومَةٍ . . . وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِحُ

وقرأ أبو المهلَّب: "شُهَدَاءَ اللهِ" جمعاً على فُعَلاَء - كظُرفاءَ - منصوباً، ورُوِيَ عنه وعن أبي نُهَيْك كذلك إلا أنه مرفوع، وفي كلتا القراءتين مضاف للفظ الجلالة، فأما النصب فعلى الحال، وصاحبها هو الضمير المستتر في "الْمُسْتَغْفِرِينَ".

قال ابن جني، وتبعه الزمخشريُّ، وأبو البقاء: وأما الرفع فعلى إضمار مبتدأ، أي: هم شهداءُ اللهِ.

وشهداء: يُحْتَمل أن يكون جمع شاهد - كشاعر وشُعَراء - وأن يكون جمع شهيد كظريف وظُرفاء. وقرأ أبو المهلب - أيضاً -: "شُهُداً اللهَ" - بضم الشين والهاء والتنوين ونصب لفظ الجلالة وهو منصوب على الحال؛ جمع شهيد - كنذير ونُذُر - واسم "الله" منصوب على التعظيم أي يشهدون الله، أي: وحدانيته.

وروى النقاش أنه قرأ كذلك، إلاّ أنه قال: برَفْع الدال ونصبها، والإضافة للَفْظ الجلالة،

فالرفع والنصب على ما تقدم في " شُهَدَاءَ " ، وأما الإضافة ، فيحتمل أن تكون محضة ، بمعنى أنك عرفتهم إضافتهم إليه من غير تعرض لحدوث فعل ، كقولك : عباد الله ، وأن يكون من نصب كالقراءة قبلها فتكون غير محضة .

(158/114)

ونقل الزمخشريُّ أنه قُرِئ " شُهَدَاء لله " جمعاً على فُعَلاَء ، وزيادة لام جر داخلة على اسم الله ، وفي الهمزة النصب والرفع ، وخرجهما على ما تقدم من الحال والخبر ، وعلى هذه القراءات كلها ففي رفع " الْمَلاَئِكَةِ " وما بعدها ثلاثة أوجه :

أحدها : الابتداء ، والخبر محذوف .

والثاني : أنه فاعل بفعل مقدر .

الثالث : – ذكره الزمخشريُّ – وهو النسق على الضمير المستكن في " شَهِدَ اللهُ " ، قال : " وجاز ذلك لوقوع الفاصل بينهما " .

قوله : " أَنَّهُ " العامة على فَتح الهمزة ، وإنما فُتِحَت ؛ لأنها على حذف حرف الجر ، أي : شهد الله بأنه لا إله إلا هو ، فلما حذف الحرف جاز أن يكون محلها نصباً ، وأن يكون محلها جرًّا .

وقرأ ابن عباس " إنَّهُ " – بكسر الهمزة – وفيها تخريجان :

أحدهما : إجراء " شَهِدَ " مُجْرَى القول لأنه بمعناه ، وكذا وقع في التفسير : شهد الله اي : قال الله ، ويؤيده ما نقله المؤرِّجُ من أن " شَهِد " بمعنى " قال " لغة قيس بن عيلان .

الثاني : أنها جملة اعتراض – بين العامل – وهو شَهِد – وبين معموله – وهو قوله : إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ " ، وجاز ذلك لما في هذه الجملةِ من التأكيد ، وتقوية المعنى وهذا إنما يتجه على قراءة فتح " أنَّ " من " أنَّ الدِّينَ " ، وأما على قراءة الكسر فلا يجوز ، فتعيَّنَ الوجهُ الأول .

والضمير في " أنَّهُ " يحتمل العود على الباري ؛ لتقدم ذكره ، ويحتمل أن يكون ضميرَ الأمر ، ويؤيِّدُ ذلك قراءةُ عبد الله : ﴿ شَهِدَ اللهُ أنَّهُ لاَ إله إلاَّ هُوَ ﴾ ف " أنْ " مخفَّفة في هذه القراءة ، والمخففة لا تعمل إلا في ضمير الشأن – ويُحْذَف حينئذ – ولا تعمل في غيره إلا ضرورة [وأدغم أبو عمرو بخلاف عنه واو هُوَ في واو النسق بعدها ، وقد تقدم تحقيق هذه المسألة عند قوله : " هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَه "] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 93.91 ﴾

فصل نفيس للعلامة ابن القيم

قال رحمه الله :

استشهد سبحانه بأولى العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده فقال ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ﴾

وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه

أحدها استشهادهم دون غيرهم من البشر

والثاني اقتران شهادتهم بشهادته

والثالث اقترانها بشهادة ملائكته

والرابع أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول ومنه الأثر المعروف عن النبي صلى الله عليه وسلم يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين وقال محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبة رأيت رجلا قدم رجلا إلى إسماعيل بن إسحاق القاضي فادعى عليه دعوى فسأل المدعى عليه فأنكر فقال للمدعى ألك بينة قال نعم فلان وفلان قال أما فلان فمن شهودي وأما فلان فليس من شهودي قال فيعرفه القاضي قال نعم قال بماذا قال أعرفه بكتب الحديث قال فكيف تعرفه في كتبه الحديث قال ما علمت إلا خيرا قال فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله فمن عدله رسول الله صلى الله عليه

وسلم أولى ممن عدلته أنت فقال قم فهاته فقد قبلت شهادته وسيأتي إن شاء الله الكلام على هذا الحديث في موضعه

الخامس أنه وصفهم بكونهم أولى العلم وهذا يدل على اختصاصهم به وانهم اهله واصحابه ليس بمستعار لهم السادس أنه سبحانه استشهد بنفسه وهو أجل شاهد ثم بخيار خلقه وهم ملائكته والعلماء من عباده ويكفيهم بهذا فضلا وشرفا

السابع أنه استشهد بهم على أجل مشهود به وأعظمه وأكبره وهو شهادة أن لا إله إلا الله والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم

الثامن أنه سبحانه جعل شهادتهم حجة على المنكرين فهم بمنزلة آدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده

التاسع أنه سبحانه أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة لصادرة منه ومن ملائكته ومنهم ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته فكأنه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم وأنطقهم بهذه الشهادة فكان هو الشاهد بها لنفسه إقامة وإنطاقا وتعليما وهم الشاهدون بها له إقرارا واعترافا وتصديقا

وإيمانا

العاشر أنه سبحانه جعلهم مؤدين لحقه عند عباده بهذه الشهادة فإذا أدوها فقد أدوا الحق المشهود به فثبت الحق المشهود به فوجب على الخلق الإقرار به وكان ذلك غاية سعادتهم في معاشهم ومعادهم وكل من ناله الهدى بشهادتهم وأقر بهذا الحق بسبب شهادتهم فلهم من الأجر مثل أجره وهذا فضل عظيم لا يدرى قدره إلا الله وكذلك كل من شهد بها عن شهادتهم فلهم من الأجر مثل أجره أيضا فهذه عشرة أوجه في هذه الاية

الحادي عشر في تفضيل العلم وأهله أنه سبحانه نفي التسوية بين أهله وبين غيرهم كما نفى التسوية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار فقال تعالى ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ كما قال تعالى ﴿ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾ وهذا يدل على غاية فضلهم وشرفهم الوجه

الثاني عشر أنه سبحانه جعل أهل الجهل بمنزلة العميان الذين لا يبصرون فقال ﴿ أفمن يعلم إنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾ فما ثم إلا عالم أو أعمى وقد وصف سبحانه أهل الجهل بأنهم صم بكم عمي في غير موضع من كتابه

الوجه الثالث عشر أنه سبحانه أخبر عن أولى العلم بأنهم يرون أن ما أنزل إليه من ربه حقا وجعل هذا ثناء عليهم واستشهادا بهم فقال تعالى ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ﴾

الوجه الرابع عشر أنه سبحانه أمر بسؤالهم والرجوع إلى أقوالهم وجعل ذلك كالشهادة منهم فقال ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ وأهل الذكر هم أهل العلم بما أنزل على الأنبياء

(161/114)

الوجه الخامس عشر أنه سبحانه شهد لأهل العلم شهادة في ضمنها الاستشهاد بهم على صحة ما أنزل الله على رسوله فقال تعالى ﴿ أفغير الله أبتغى حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين ﴾

الوجه السادس عشر أنه سبحانه سلى نبيه بإيمان أهل العلم به وأمره أن لا يعبأ بالجاهلين شيئا فقال تعالى ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ﴾

وهذا شرف عظيم لأهل العلم وتحته أن أهله العالمون قد عرفوه وآمنوا به وصدقوا فسواء آمن به غيرهم أو لا

الوجه السابع عشر أنه سبحانه مدح أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات في صدورهم وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم فقال تعالى ﴿ وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ وسواء كان المعنى أن القرآن مستقر في صدور الذين أوتوا العلم ثابت فيها محفوظ وهو في نفسه آيات بينات فيكون أخبر عنه بخبرين

أحدهما أنه آيات بينات

الثاني أنه محفوظ مستقر ثابت في صدور الذين أوتوا العلم أو كان المعنى أنه آيات بينات في صدورهم أي كونه آيات بينات معلوم لهم ثابت في صدورهم والقولان متلازمان ليسا بمختلفين وعلى التقديرين فهو مدح لهم وثناء عليهم في ضمنه الاستشهاد بهم فتأمله

الوجه الثامن عشر أنه سبحانه أمر نبيه أن يسأله مزيد العلم فقال تعالى ﴿ فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علما ﴾

وكفى بهذا شرفا للعلم أن أمر نبيه أن يسأله المزيد منه الوجه التاسع عشر أنه سبحانه أخبر عن رفعة درجات أهل العلم والإيمان خاصة فقال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾ وقد أخبر سبحانه في كتابه برفع الدرجات في أربعة مواضع

أحدها هذا

والثاني قوله ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾

والثالث قوله تعالى ﴿ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى﴾

والرابع قوله تعالى ﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة﴾

فهذه أربعة مواضع في ثلاثة منها الرفعة بالدرجات لأهل الإيمان الذي هو العلم النافع والعمل الصالح والرابع الرفعة بالجهاد فعادت رفعة الدرجات كلها إلى العلم والجهاد اللذين بهما قوام الدين

الوجه العشرون أنه سبحانه استشهد بأهل العلم والإيمان يوم القيامة على بطلان قول

الكفار فقال تعالى ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾

الوجه الحادي والعشرون أنه سبحانه أخبر أنهم أهل خشيته بل خصهم من بين الناس بذلك فقال تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾ وهذا حصر لخشيته في أولى العلم وقال تعالى ﴿ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه ﴾

(163/114)

وقد أخبر أن أهل خشيته هم العلماء فدل على أن هذا الجزاء المذكور للعلماء بمجموع النصين وقال ابن مسعود رضى الله عنه كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا

الوجه

الثاني والعشرون أنه سبحانه أخبر عن أمثاله التي يضربها لعباده يدلهم على صحة ما أخبر به أن أهل العلم هم المنتفعون بها المختصون بعلمها فقال تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾

وفي القرآن بضعة وأربعون مثلا وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه يبكي ويقول لست من العالمين

الوجه الثالث والعشرون أنه سبحانه ذكر مناظرة إبراهيم لأبيه وقومه وغلبته لهم بالحجة وأخبر عن تفضيله بذلك ورفعه درجته بعلم الحجة فقال تعالى عقيب مناظرته لأبيه وقومه في سورة الأنعام ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾

قال زيد بن أسلم رضى الله عنه نرفع درجات من نشاء بعلم الحجة

الوجه الرابع والعشرون أنه سبحانه أخبر أنه خلق الخلق ووضع بيته الحرام والشهر الحرام والهدى والقلائد ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير فقال تعالى ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ﴾ فدل على أن علم العباد بربهم وصفاته وعبادته وحده هو الغاية المطلوبة من الخلق والأمر

الوجه الخامس والعشرون أن الله سبحانه أمر أهل العلم بالفرح بما آتاهم وأخبر أنه خير مما يجمع الناس فقال تعالى ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ وفسر فضل الله بالإيمان ورحمته بالقرآن والإيمان والقرآن هما العلم النافع والعمل الصالح والهدى ودين الحق وهما أفضل علم وأفضل عمل

الوجه السادس والعشرون أنه سبحانه شهد لمن آتاه العلم بانه قد آتاه خيرا كثيرا فقال تعالى

﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾

(164/114)

قال ابن قتيبة والجمهور الحكمة إصابة الحق والعمل به وهي العلم النافع والعمل الصالح

الوجه السابع والعشرون أنه سبحانه عدد نعمه وفضله على رسوله وجعل من أجلها أن آتاه الكتاب والحكمة وعلمه ما لم يكن يعلم فقال تعالى ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ الوجه الثامن والعشرون أنه سبحانه ذكر عباده المؤمنين بهذه النعمة وأمرهم بشكرها وأن يذكروه على إسدائها إليهم فقال تعالى ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ الوجه التاسع والعشرون أنه سبحانه لما أخبر ملائكته بأنه يريد أن يجعل في الأرض خليفة قالوا له ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم مالا تعلمون وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ إلى

آخر قصة آدم وأمر الملائكة بالسجود لآدم فأبى ابليس فلعنه وأخرجه من السماء وبيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه

أحدها أنه سبحانه رد على الملائكة لما سألوه كيف يجعل في الأرض من هم أطوع له منه فقال ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها ما لا يعلمونه وهو العليم الحكيم فظهر من هذا الخليفة من خيار خلقه ورسله وأنبيائه وصالحي عباده والشهداء والصديقين والعلماء وطبقات أهل العلم والإيمان من هو خير من الملائكة وظهر من إبليس من هو شر العالمين فأخرج سبحانه هذا وهذا والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا ولا بهذا ولا بما في خلق آدم وإسكانه الأرض من الحكم الباهرة

(165/114)

الثاني أنه سبحانه لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله ميزه عليهم بالعلم فعلمه الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين جاء في التفسير إنهم قالوا لن يخلق ربنا خلقا هو أكرم عليه منا فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة الذي يجعله الله في الأرض فلما امتحنهم بعلم ما علمه لهذا الخليفة أقروا بالعجز وجهل ما لم يعلموه فقالوا ﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم

الحكيم ﴾ فحينئذ أظهر لهم فضل آدم بما خصه به من العلم فقال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم أقروا له بالفضل

الثالث أنه سبحانه لما أن عرفهم فضل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة ما علمه قال لهم ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ فعرفهم سبحانه نفسه بالعلم وأنه أحاط علما بظاهرهم وباطنهم وبغيب السموات والأرض فتعرف إليهم بصفة العلم وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم وعجزهم عما آتاه آدم من العلم وكفى بهذا شرفا للعلم

الرابع أنه سبحانه جعل في آدم

من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات وأراد سبحانه أن يظهر لملائكته فضله وشرفه فأظهر لهم أحسن ما فيه وهو علمه فدل على أن العلم أشرف ما في الإنسان وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم ونظير هذا ما فعله بنبيه يوسف عليه السلام لما أراد إظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم أظهر للملك وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير فحينئذ قدمه ومكنه وسلم إليه خزائن الأرض وكان قبل ذلك قد حبسه على ما رآه من حسن وجهه وجمال صورته ولما ظهر له حسن صورة علمه وجمال معرفته أطلقه من الحبس ومكنه في الأرض فدل على أن صورة العلم عند بني آدم

أبهى وأحسن من الصورة الحسية ولو كانت أجمل صورة وهذا وجه مستقل في تفضيل العلم مضاف إلى ما تقدم فتم به ثلاثون وجها

(166/114)

الوجه الحادي والثلاثون أنه سبحانه ذم أهل الجهل في مواضع كثيرة من كتابه فقال تعالى ﴿ ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ وقال ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ فلم يقتصر سبحانه على تشبيه الجهال بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلا منهم وقال ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾ أخبر أن الجهال شر الدواب عنده على اختلاف أصنافها من الحمير والسباع والكلاب والحشرات وسائر الدواب فالجهال شر منهم وليس علي دين الرسل أضر من الجهال بل أعداؤهم على الحقيقة وقال تعالى لنبيه وقد أعاذه ﴿ فلا تكونن من الجاهلين ﴾ وقال كليمه موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ وقال لأول رسله نوح عليه السلام ﴿ إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ فهذه حال الجاهلين عنده والأول حال أهل العلم عنده وأخبر سبحانه عن عقوبته لأعدائه أنه منعهم علم كتابه ومعرفته وفقهه فقال تعالى ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا

يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ﴾ وأمر نبيه بالإعراض عنهم

فقال ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ وأثنى على عباده بالإعراض عنهم ومتاركتهم كما في قوله ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ وقال تعالى ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ وكل هذا يدل على قبح الجهل عنده وبغضه للجهل وأهله وهو كذلك عند الناس فإن كل أحد يتبرأ منه وإن كان فيه

(167/114)

الوجه الثاني والثلاثون أن العلم حياة ونور والجهل موت وظلمة والشر كله سببه عدم الحياة والنور والخير كله سببه النور والحياة فإن النور يكشف عن حقائق الأشياء ويبين مراتبها والحياة هي المصححة لصفات الكمال الموجبة لتسديد الأقوال والأعمال فكلما تصرف من الحياة فهو خير كله كالحياء الذي سببه كمال حياة القلب وتصوره حقيقة القبح ونفرته منه وضده الوقاحة

والفحش وسببه موت القلب وعدم نفرته من القبيح وكالحياء الذي هو المطر الذي به حياة

كل شيء قال تعالى ﴿أو من كان ميتا فاحييناه وجعلنا له نورا يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ كان ميتا بالجهل قلبه فأحياه بالعلم وجعل له من الإيمان نورا يمشى به في الناس وقال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ وقال تعالى ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أؤلئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ وقال تعالى ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ فأخبر أنه روح تحصل به الحياة ونور يحصل به الإضاءة والإشراق فجمع بين الأصلين الحياة والنور وقال تعالى ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ وقال تعالى ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير﴾ وقال تعالى ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا﴾

وقال تعالى ﴿ قد أنزل الله إليكم ذكرا رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ﴾ وقال تعالى ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ فضرب سبحانه مثلا لنوره الذي قذفه في

قلب المؤمن كما قال أبي بن كعب رضى الله عنه مثل نوره في قلب عبده المؤمن وهو نور القرآن والإيمان الذي أعطاه إياه كما قال في آخر الآية ﴿ نور على نور ﴾ يعنى نور الإيمان على نور القرآن كما قال بعض السلف يكاد المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بالأثر فإذا سمع فيها بالأثر كان نورا على نور وقد جمع الله سبحانه بين ذكر هذين النورين وهما الكتاب والإيمان في غير موضع من كتابه كقوله ﴿ ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ وقوله تعالى ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ ففضل الله الإيمان ورحمته القرآن وقوله تعالى ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ وقد تقدمت هذه الآيات وقال في آية النور ﴿ نور على نور ﴾

وهو نور الإيمان على نور القرآن وفي حديث النواس بن سمعان رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله ضرب مثلا صراطا مستقيما وعلى كتفي الصراط داران لهما أبواب مفتحة على الأبواب ستور وداع يدعو على الصراط وداع يدعو فوقه ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ والأبواب التي على كتفي الصراط حدود الله فلا يقع أحد في حدود الله حتى يكشف الستر والذي يدعو من فوقه واعظ ربه رواه الترمذي وهذا لفظه والإمام أحمد ولفظه والداعي على رأس الصراط كتاب الله والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن فذكر الأصلين وهما داعي القرآن وداعي الإيمان وقال حذيفة حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من الإيمان ثم علموا من القرآن وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها . فجعل

الناس أربعة اقسام أهل الايمان والقرآن وهم خيار الناس

الثاني أهل الايمان الذين لا يقرءون القرآن وهم دونهم فهؤلاء هم السعداء والأشقياء

قسمان

أحدهما من أوتى قرآنا بلا إيمان فهو منافق والثاني من لا أوتى قرآنا ولا إيمانا والمقصود أن القرآن والإيمان هما نور يجعله الله في قلب من يشاء من عباده وأنهما أصل كل خير في الدنيا والآخرة وعلمهما أجل العلوم وأفضلها بل لا علم في الحقيقة ينفع صاحبه إلا علمهما

﴿ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾

(170/114)

الوجه الثالث والثلاثون أن الله سبحانه جعل صيد الكلب الجاهل ميتة يحرم أكلها وأباح صيد الكلب المعلم وهذا أيضا من شرف العلم أنه لا يباح إلا صيد الكلب العالم وأما الكلب الجاهل فلا يحل أكل صيده فدل على شرف العلم وفضله قال الله تعالى

﴿ يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب ﴾

ولولا مزية العلم والتعليم وشرفهما كان صيد الكلب المعلم والجاهل سواء

الوجه الرابع والثلاثون أن الله سبحانه أخبرنا عن صفيه وكليمه الذي كتب له التوارة بيده وكلمه منه إليه أنه رحل إلى رجل عالم يتعلم منه ويزداد علما إلى علمه فقال ﴿ وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا ﴾ حرصا منه على لقاء هذا العالم وعلى التعلم منه فلما لقيه سلك معه مسلك المتعلم مع معلمه وقال له ﴿ هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا ﴾ فبدأه بعد السلام بالاستئذان على متابعته وأنه لا يتبعه إلا بإذنه وقال على أن تعلمن مما علمت رشدا فلم يجيء ممتحنا ولا معلما وإنما جاء متعلما مستزيدا علما إلى علمه وكفى بهذا فضلا وشرفا للعلم فإن نبي الله وكليمه سافر ورحل حتى لقي النصب من سفره في تعلم ثلاث مسائل من رجل عالم ولما سمع به لم يقر له قرار حتى لقيه وطلب منه متابعته وتعليمه وفي قصتهما عبر وآيات وحكم ليس هذا موضع ذكرها

الوجه الخامس والثلاثون قوله تعالى ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ ندب تعالى المؤمنين إلى التفقه في الدين وهو تعلمه وإنذار قومهم إذا رجعوا إليهم وهو التعليم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مفتاح دار السعادة حـ 1 صـ 56.48 ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَائِمَاً بالقسط ﴾

قال الفخر :

﴿ قَائِمَاً بالقسط ﴾ منتصب ، وفيه وجوه :

الوجه الأول : نصب على الحال ، ثم فيه وجوه

أحدها : التقدير : شهد الله قائماً بالقسط

وثانيها : يجوز أن يكون حالا من هو تقديره : لا إله إلا هو قائماً بالقسط ، ويسمى هذا حالاً مؤكدة كقولك : أتانا عبد الله شجاعاً ، وكقولك : لا رجل إلا عبد الله شجاعاً .

الوجه الثاني : أن يكون صفة المنفي ، كأنه قيل : لا إله قائماً بالقسط إلا هو ، وهذا غير بعيد لأنهم يفصلون بين الصفة والموصوف .

والوجه الثالث : أن يكون نصباً على المدح.

فإن قيل : أليس من حق المدح أن يكون معرفة ، كقولك ، الحمد لله الحميد .

قلنا : وقد جاء نكرة أيضاً ، وأنشد سيبويه :

ويأوي إلى نسوة عطل . . وشعثاً مراضع مثل السعالي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 179 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قوله ﴿ قَائِمَاً بالقسط ﴾ فيه وجهان الأول : أنه حال من المؤمنين والتقدير : وأولوا العلم حال كون كل واحد منهم قائماً بالقسط في أداء هذه الشهادة

والثاني : وهو قول جمهور المفسرين أنه حال من ﴿ شَهِدَ اللهُ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 179 ﴾

وقال الآلوسى :

وفي انتصاب ﴿ قَائِمَاً ﴾ وجوه :

الأول : أن يكون حالاً لازمة من فاعل ﴿ شَهِدَ ﴾ ويجوز إفراد المعطوف عليه بالحال دون المعطوف إذا قامت قرينة تعينه معنوية أو لفظية ، ومنه ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسحاق وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ [الأنبياء : 72] وأخرت الحال عن المعطوفين للدلالة على علو مرتبتهما وقرب منزلتهما ، والمسارعة إلى إقامة شهود التوحيد اعتناءاً بشأنه ولعله السر في تقديمه على المعطوفين مع الإيذان بأصالته تعالى في الشهادة به ،

والثاني : أن يكون منصوباً على المدح وهو وإن كان معروفاً في المعرفة لكنه ثابت في غيرها أيضاً ،

والثالث : أن يكون وصفاً لاسم لا المبني ، واستبعد بأنهم إنما يتسعون بالفصل بين الموصوف والصفة بفاصل ليس أجنبياً من كل وجه ، والمعطوف على فاعل ﴿ شَهِدَ ﴾ أجنبي مما هو في صلة أن لفظاً ومعنى ، وبأنه متلبس بالحال فينبغي على هذا أن يرفع حملاً على محل اسم لا رفعاً للالتباس .

والرابع : أن يكون مفعول العلم أي : أولوا المعرفة قائماً بالقسط ولا يخفى بعده ،

الخامس : ولعله الأوجه أن يكون حالاً من الضمير والعامل فيها معنى الجملة أي تفرد أو أحقه لأنها حال مؤكدة ولا يضر تخلل المعطوفين هنا بخلافه في الصفة لأن الحال المؤكدة في هذا القسم جارية مجرى جملة مفسرة نوع تفسير فناسب أن يقدم المعطوفان لأن المشهود به واحد فهو نوع من تأكيده تمم بالحال المفسرة وعلى تقدير الحالية من الفاعل والمفعولية للعلم لا يندرج في المشهود به وعلى تقدير النصب على المدح يحتمل الاندراج وعدمه ، وعلى التقديرين الأخيرين يندرج لا محالة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 105 . 106 ﴾

فصل

قال ابن القيم :

وقوله تعالى ﴿ قائما بالقسط ﴾

القسط هو العدل فشهد الله سبحانه أنه

قائم بالعدل في توحيده وبالوحدانية في عدله والتوحيد والعدل هما جماع صفات الكمال فإن التوحيد يتضمن تفرده سبحانه بالكمال والجلال والمجد والتعظيم الذي لا ينبغي لأحد سواه والعدل يتضمن وقوع أفعاله كلها على السداد والصواب وموافقة الحكمة

فهذا توحيد الرسل وعدلهم إثبات الصفات والأمر بعبادة الله وحده لا شريك له وإثبات القدر والحكم والغايات المطلوبة المحمودة بفعله وأمره لا توحيد الجهمية والمعتزلة والقدرية الذي هو إنكار الصفات وحقائق الأسماء الحسنى وعدلهم الذي هو التكذيب بالقدر أو نفي الحكم والغايات والعواقب الحميدة التي يفعل الله لأجلها ويأمر وقيامه سبحانه بالقسط في شهادته يتضمن أمورا

أحدها أنه قائم بالقسط في هذه الشهادة التي هي أعدل شهادة على الإطلاق وإنكارها وجحودها أعظم الظلم على الإطلاق فلا أعدل من التوحيد ولا أظلم من الشرك فهو سبحانه قائم بالعدل في هذه الشهادة قولا وفعلا حيث شهد بها وأخبر وأعلم عباده وبين لهم تحقيقها وصحتها وألزمهم بمقتضاها وحكم به وجعل الثواب والعقاب عليها وجعل

الأمر والنهي من حقوقها وواجباتها فالدين كله من حقوقها والثواب كله عليها والعقاب كله على تركها

(174/114)

وهذا هو العدل الذي قام به الرب تعالى في هذه الشهادة فأوامره كلها تكميل لها وأمر بأداء حقوقها ونواهيه كلها صيانة لها عما يهضمها ويضادها وثوابه كله عليها وعقابه كله على تركها وترك حقوقها وخلقه السموات والأرض وما بينهما كان بها ولأجلها وهي الحق الذي خلقت به وضدها هو الباطل والعبث الذي نزه نفسه عنه وأخبر أنه لم يخلق به السموات والأرض قال تعالى ردا على المشركين المنكرين لهذه الشهادة ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾ وقال تعالى ﴿ حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون ﴾ وقال ﴿ وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ وقال ﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾

وقال ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ﴾

وهذا كثير في القرآن والحق الذي خلقت به السموات والأرض ولأجله هو التوحيد وحقوقه

من الأمر والنهي والثواب والعقاب فالشرع والقدر والخلق والأمر والثواب والعقاب قائم

بالعدل والتوحيد صادر عنهما وهذا هو الصراط المستقيم الذي عليه الرب سبحانه

وتعالى قال تعالى حكاية عن نبيه هود ﴿ إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو

آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ﴾ فهو سبحانه على صراط مستقيم في قوله

وفعله فهو يقول الحق ويفعل العدل وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل

لكلماته وهو السميع العليم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

(175/114)

فالصراط المستقيم الذي عليه ربنا تبارك وتعالى هو مقتضى التوحيد والعدل قال تعالى

﴿ وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما

يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴾

فهذا مثل ضربه الله لنفسه وللصنم فهو سبحانه الذي يأمر بالعدل وهو على صراط

مستقيم والصنم مثل العبد الذي هو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير

والمقصود أن قوله تعالى ﴿ قائما بالقسط ﴾ هو كقوله ﴿ إن ربي على صراط مستقيم ﴾ وقوله ﴿ قائما بالقسط ﴾ نصب على الحال وفيه وجهان أحدهما أنه حال من الفاعل في شهد الله والعامل فيها الفعل والمعنى على هذا شهد الله حال قيامه بالقسط أنه لا إله إلا هو

(176/114)

والثاني أنه حال من قوله هو والعامل فيها معنى النفي أي لا إله إلا هو حال كونه قائمة بالقسط وبين التقديرين فرق ظاهر فإن التقدير الأول يتضمن أن المعنى شهد الله متكلما بالعدل مخبرا به آمرا به فاعلا له مجازيا به أنه لا إله إلا هو فإن العدل يكون في القول والفعل والمقسط هو العادل في قوله وفعله فشهد الله قائما بالعدل قولا وفعلا أنه لا إله إلا هو وفي ذلك تحقيق لكون هذه الشهادة شهادة عدل وقسط وهي أعدل شهادة كما أن المشهود به أعدل شيء وأصحه وأحقه وذكر ابن السائب وغيره في سبب نزول الآية ما يشهد بذلك وهو أن حبرين من أحبار الشأم قدما على النبي فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه ما أشبه هذه المدينة بمدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان فلما دخلا على النبي قالا له أنت محمد قال نعم وأحمد قال نعم قالا نسألك عن شهادة فإن أخبرتنا بها آمنا بك قال سلاني قالا أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله فنزلت شهد الله أنه لا إله إلا هو الآية وإذا كان

القيام بالقسط يكون في القول والفعل كان المعنى أنه كان سبحانه يشهد وهو قائم بالعدل عالم به لا بالظلم فإن هذه الشهادة تضمنت قولا وعملا فإنها تضمنت أنه هو الذي يستحق العبادة وحده دون غيره وأن الذين عبدوه وحده هم المفلحون السعداء وأن الذين أشركوا به غيره هم الضالون الأشقياء فإذا شهد قائما بالعدل المتضمن جزاء المخلصين بالجنة وجزاء المشركين بالنار كان هذا من تمام موجب الشهادة وتحقيقها وكان قوله قائما بالقسط تنبيها على جزاء الشاهد بها والجاحد لها والله أعلم.

فصل وأما التقدير الثاني وهو أن يكون قوله قائما حالا مما بعد إلا

فالمعنى أنه لا إله إلا هو قائما بالعدل فهو وحده المستحق الإلهية مع كونه قائما بالقسط قال شيخنا وهذا التقدير أرجح فإنه يتضمن أن الملائكة وأولي العلم يشهدون له بأنه لا إله إلا هو وأنه قائم بالقسط

قلت مراده أنه إذا كان قوله قائما بالقسط حالا من المشهود به فهو كالصفة له فإن الحال صفة في المعنى لصاحبها فإذا وقعت الشهادة على ذي الحال وصاحبها كان كلاهما مشهودا به فيكون الملائكة وأولوا العلم قد شهدوا بأنه قائم بالقسط كما شهدوا بأنه لا إله

إلا هو والتقدير الأول لا يتضمن ذلك فإنه إذا كان التقدير شهد الله قائما بالقسط أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم يشهدون أنه لا إله إلا هو كان القيام بالقسط حالا من اسم الله وحده

وأيضا فكونه قائما بالقسط فيما شهد به أبلغ من كونه حالا من مجرد الشهادة

فإن قيل فإذا كان حالا من هو فهلا اقترن به ولم فصل بين صاحب الحال وبينها بالمعطوف فجاء متوسطا بين صاحب الحال وبينها

قلت فائدته ظاهرة فإنه لو قال شهد الله أنه لا إله إلا هو قائما بالقسط والملائكة وأولو العلم لأوهم عطف الملائكة وأولي العلم على الضمير في قوله قائما بالقسط ولا يحسن العطف لأجل الفصل وليس المعنى على ذلك قطعا وإنما المعنى على خلافه وهو أن قيامه بالقسط مختص به كما أنه مختص بالإلهية فهو وحده الإله المعبود المستحق العبادة وهو وحده المجازي المثيب المعاقب بالعدل

قوله لا إله إلا هو ذكر محمد بن جعفر أنه قال الأولى وصف وتوحيد والثانية رسم وتعليم أي قولوا لا إله إلا هو ومعنى هذا أن الأولى تضمنت أن الله سبحانه شهد بها وأخبر بها والتالي للقرآن إنما يخبر عن شهادته هو وليس في ذلك شهادة من التالي نفسه فأعاد سبحانه ذكرها مجردة ليقولها التالي فيكون شاهدا هو أيضا

وأيضا فالأولى خبر عن الشهادة بالتوحيد والثانية خبر عن نفس التوحيد وختم بقوله العزيز الحكيم فتضمنت الآية توحيده وعدله وعزته وحكمته فالتوحيد يتضمن ثبوت صفات كماله ونعوت جلاله وعدم المماثل له فيها وعبادته وحده لا شريك له والعدل يتضمن وضعه الأشياء موضعها وتنزيلها منازلها وأنه لم يخص شيئا منها إلا بمخصص اقتضى ذلك وأنه لا يعاقب من لا يستحق العقوبة ولا يمنع من يستحق العطاء وإن كان هو الذي جعله مستحقا والعزة تتضمن كمال قدرته وقوته وقهره والحكمة تتضمن كمال علمه وخبرته وأنه أمر ونهى وخلق وقدر لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة التي يستحق عليها كمال الحمد

فاسمه العزيز يتضمن الملك واسمه الحكيم يتضمن الحمد وأول الآية يتضمن التوحيد وذلك حقيقة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وذلك أفضل ما قاله رسول الله والنبيون من قبله والحكيم الذي إذا أمر بأمر كان حسنا في نفسه وإذا نهى عن شيء كان قبيحا في نفسه وإذا أخبر بخبر كان صدقا وإذا فعل فعلا كان صوابا وإذا أراد شيئا كان أولى بالإرادة من غيره وهذا الوصف على الكمال لا يكون إلا لله وحده

فتضمنت هذه الآية وهذه الشهادة الدلالة على وحدانيته المنافية للشرك وعدله المنافي

للظلم وعزته المنافية للعجز وحكمته المنافية للجهل والعيب ففيها الشهادة له بالتوحيد والعدل والقدرة والعلم والحكمة ولهذا كانت أعظم شهادة. انتهى. اهـ ﴿ مدارج السالكين حـ 3 صـ 455.460 ﴾

(179/114)

فصل

قال الفخر :

معنى كونه ﴿ قَائِمَاً بالقسط ﴾ قائماً بالعدل، كما يقال : فلان قائم بالتدبير، أي يجريه على الاستقامة.

واعلم أن هذا العدل منه ما هو متصل بباب الدنيا ، ومنه ما هو متصل بباب الدين ، أما المتصل بالدين ، فانظر أولاً في كيفية خلقة أعضاء الإنسان ، حتى تعرف عدل الله تعالى فيها ، ثم انظر إلى اختلاف أحوال الخلق في الحسن والقبح ، والغنى والفقر والصحة والسقم ، وطول العمر وقصره واللذة والآلام واقطع بأن كل ذلك عدل من الله وحكمة وصواب ثم انظر في كيفية خلقة العناصر وأجرام الأفلاك ، وتقدير كل واحد منها بقدر معين وخاصية معينة ، واقطع بأن كل ذلك حكمة وصواب ، أما ما يتصل بأمر الدين ، فانظر إلى اختلاف

الخلق في العلم والجهل ، والفطانة والبلادة والهداية والغواية ، واقطع بأن كل ذلك عدل وقسط ، ولقد خاض صاحب "الكشاف" ههنا في التعصب للاعتزال وزعم أن الآية دالة على أن الإسلام هو العدل والتوحيد ، وكان ذلك المسكين بعيداً عن معرفة هذه الأشياء إلا أنه فضولي كثير الخوض فيما لا يعرف ، وزعم أن الآية دلّت على أن من أجاز الرؤية ، أو ذهب إلى الجبر لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام ، والعجب أن أكابر المعتزلة وعظماءهم أفنوا أعمارهم في طلب الدليل على أنه لو كان مرئياً لكان جسماً ، وما وجدوا فيه سوى الرجوع إلى الشاهد من غير جامع عقلي قاطع ، فهذا المسكين الذي ما شم رائحة العلم من أين وجد ذلك ، وأما حديث الجبر فالخوض فيه من ذلك المسكين خوض فيما لا يعنيه ، لأنه لما اعترف بأن الله تعالى عالم بجميع الجزئيات ، واعترف بأن العبد لا يمكنه أن يقلب علم الله جهلاً ، فقد اعترف بهذا الجبر ، فمن أين هو والخوض في أمثال هذه المباحث . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 179. 180﴾

(180/114)

وقال النيسابورى فى غرائب القرآن :

إن الإنسان بل كل ما سوى الله تعالى لم يخلق مستعداً لإدراك تفاصيل كلمات الله . فالخوض

في ذلك خوض فيما لا يعنيه بل لا يسعه ولا ينفعه إلا العلم الإجمالي بأنه تعالى واحد في ملكه ، وملكه لا منازع له فيه ولا مضاد ولا مانع لقضائه ولا راد ، وأن الكل بقضائه وقدره ، وفي كل واحد من مصنوعاته ولكل شيء من أفعاله حكم ومصالح لا يحيط بذلك علماً إلا موجده وخالقه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . هذا هو الدين القويم والاعتقاد المستقيم ، والعدول عنه مراء ، والجدال فيه هراء . فمن نسبه إلى الجور في فعل من الأفعال فهو الجائر لا على غيره بل على نفسه إذ لا يعترف بجهله وقصوره ، ولكن ينسب ذلك إلى علام الخفيات والمطلع على الكليات والجزئيات من أزل الآزال إلى أبد الآباد . ومن زعم أن شيئاً من الأشياء خيراً أو شراً في اعتقاده حسناً أو قبيحاً بحسب نظره خارج عن مشيئته وإرادته فقد كذب ابن أخت خالته ، لأنه يدعي التوحيد ثم يثبت قادراً آخر أو خالقاً غير الله تعالى ، ولا خالق إلا هو. انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن جـ 2 صـ 128 ﴾

فصل

قال القرطبي :

روى غالب القطان قال : أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريباً من الأعمش فكنت أختلف إليه .

فلما كان ليلة أردت أن أنحدر إلى البصرة قام فتهجد من الليل فقرأ بهذه الآية ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم قَآئِمَاً بالقسط لاَ إله إِلاَّ هُوَ العزيز الحكيم إِنَّ الدِّينَ عِندَ

الله الإسلام ﴾ ، قال الأعمش : وأنا أشهد بما شهِد الله به ، وأستودع الله هذه الشهادة ، وهي لى (عند الله) وديعة ، وأن الدين عند الله الإسلام قالها مرارا فغدوت إليه وودّعته ثم قلت : إني سمعتك تقرأ هذه الآية فما بلغك فيها ؟ أنا عندك منذ سنة لم تحدثني به .

قال : والله لا حدثتك به سنة .

قال : فأقمت وكتبت على بابه ذلك اليوم ، فلما مضت السنة قلت : يا أبا محمد قد مضت السنة .

قال : حدّثني أبو وائل .

(181/114)

عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يُجَاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله تعالى عبدي عهِد إلي وأنا أحَقّ من وَفي أدخِلوا عبدي الجنة" .

قال أبو الفرج الجوزي : غالب القطّان هو غالب بن خُطّاف القطّان ، يروي عن الأعمش حديث "شهد الله" وهو حديث مُعْضَل .

قال ابن عدىّ الضعف على حديثه بيِّن .

وقال أحمد بن حنبل : غالب بن خُطّاف القَطّان ثِقة ثقة .

وقال ابن معين : ثِقة .

وقال أبو حاتم : صدوق صالح .

قلت : يكفيك من عدالته وثقته أن خرّج له البخاري ومسلم في كتابيهما ، وحسبك ،

وروي من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَنْ قرأ ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ عند منامه خلق الله له سبعين ألف ملك يستغفرون له إلى يوم القيامة " ويقال من أقرّ بهذه الشهادة عن عقْد من قلبه فقد قام بالعدل .

وروى عن سعيد بن جبير أنه قال : كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً لكل حَيّ من أحْيَاء العرب صنمٌ أو صنمان .

فلما نزلت هذه الآية أصبحت الأصنام قد خرت ساجدة لله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 41. 42 ﴾

قوله تعالى : ﴿ لا إله إلَّا هُوَ ﴾

فائدة

قال الفخر :

والفائدة في إعادته وجوه

الأول : أن تقدير الآية : شهد الله أنه لا إله إلا هو ، وإذا شهد بذلك فقد صح أنه لا إله إلا هو

، ونظيره قول من يقول : الدليل دلّ على وحدانية الله تعالى ، ومتى كان كذلك صح القول بوحدانية الله تعالى

الثاني : أنه تعالى لما أخبر أن الله شهد أنه لا إله إلا هو وشهدت الملائكة وأولوا العلم بذلك صار التقدير ، كأنه قال : يا أمة محمد فقولوا أنتم على وفق شهادة الله وشهادة الملائكة وأولي العلم لا إله إِلا هو فكان الغرض من الإعادة الأمر بذكر هذه الكلمة على وفق تلك الشهادات

(182/114)

الثالث : فائدة هذا التكرير الإعلام بأن المسلم يجب أن يكون أبداً في تكرير هذه الكلمة فإن أشرف كلمة يذكرها الإنسان هي هذه الكلمة ، فإذا كان في أكثر الأوقات مشتغلاً بذكرها وبتكريرها كان مشتغلاً بأعظم أنواع العبادات ، فكان الغرض من التكرير في هذه الآية حث العباد على تكريرها

الرابع : ذكر قوله ﴿ لاَ إِلهِ إِلاَّ هُوَ ﴾ أولاً : ليعلم أنه لا تحق العبادة إلا لله تعالى ، وذكرها ثانيا : ليعلم أنه القائم بالقسط لا يجور ولا يظلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 180 ﴾

وقال القرطبى :

﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ كرّر لأن الأولى حَلّتْ محلّ الدعوى ، والشهادة الثانية حلّت محل الحكُم .

وقال جعفر الصادق : الأولى وصفٌ وتوحيدٌ ، والثّانية رَسْمٌ وتعليمٌ ؛ يعني قولوا لا إله إلا الله العزيز الحكيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 43 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ كرر التهليل توكيداً وقيل : الأول شهادة الله ، والثاني شهادة الملائكة وأولي العلم ، وهذا بعيد جدّاً لأنه يؤدّي إلى قطع الملائكة عن العطف على الله تعالى ، وعلى إضمار فعل رافع ، أو على جعلهم مبتدأ ، وعلى الفصل بين ما يتعلق بهم وبين التهليل بأجنبي ، وهو قوله : ﴿ قائماً بالقسط ﴾ .

وقيل : الأول جار مجرى الشهادة ، والثاني جار مجرى الحكم وقيل : هذا الكلام ينطوي على مقدّمتين ، وهذا هو نتيجتهما ، فكأنه قال : شهد الله والملائكة وأولو العلم وما شهدوا به حق فلا إله إلا هو حق ، فحذف إحدى المقدّمتين للدّلالة عليها ، وهذا التقدير كله لا يساعد عليه اللفظ .

وقال الراغب : إنما كرر ﴿ لا إله إلا هو ﴾ لأن صفات التنزيه أشرف من صفات التمجيد لأن أكثرها مشارك في ألفاظها العبيد ، فيصح وصفهم بها ، وكذلك وردت ألفاظ التنزيه في حقه أكثر ، وأبلغ ما وصف به من التنزيه : لا إله إلا الله ، فتكريره هنا لأمرين : أحدهما : لكون الثاني قطعاً للحكم ، كقولك : أشهد أن زيداً خارج ، وهو خارج.

والثاني : لئلا يسبق بذكر العزيز الحكيم إلى قلب السامع تشبيه ، إذ قد يوصف بهما المخلوق انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 423 . 424 ﴾

وقال ابن عادل :

قال الزمخشريُّ : " فإن قلت : لِمَ كَرَّر قولَه : ﴿ لآ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ ؟ قلت : ذكره – أولاً – للدلالة على اختصاصه بالوحدانية ، وأنه لا إله إلا تلك الذات المتميزة ، ثم ذكره – ثانياً – بعدما قَرَن بإثبات الوحدانية إثبات العدل ؛ للدلالة على اختصاصه بالأمرين ، كأنه قال : لا إله إلا هذا الموصوف بالصفتين ، ولذلك قرن به قوله تعالى : ﴿ العزيز الحكيم ﴾ ؛ لتضمنها معنى الوحدانيةِ والعدلِ " .

وقال بعضهم : ليس بتكرير ؛ لأن الأول شهادة الله – تعالى – وحده . والثاني : شهادة الملائكة وأولي العلم ، وهذا عند من يرفع " الْمَلاَئِكَةُ " بفعل آخر مضمر – كما ذكرنا – من أنه لا يرى إعمال المشترك ، وأن الشهادتين متغايرتان ، وهو مذهب مرجوح.

وقال الراغبُ : "إنما كرَّر ﴿ لاَ إِلهِ إلاَّ هُوَ ﴾ ؛ لأن صفات التنزيه أشرف من صفات التمجيد ؛ لأن أكثرها مشارك – في ألفاظها – العبيد ، فيصح وصفُهم بها ، ولذلك وردت ألفاظ في حقه أكثر وأبلغ" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 100 ﴾

قوله تعالى ﴿ العزيز الحكيم ﴾

فصل

قال الفخر :

(184/114)

أما قوله ﴿ العزيز الحكيم ﴾ فالعزيز إشارة إلى كمال القدرة ، والحكيم إشارة إلى كمال العلم ، وهما الصفتان اللتان يمتنع حصول الإلهية إلا معهما لأن كونه قائماً بالقسط لا يتم إلا إذا كان عالماً بمقادير الحاجات ، وكان قادراً على تحصيل المهمات ، وقدم العزيز على الحكيم في الذكر ، لأن العلم بكونه تعالى قادراً متقدم على العلم بكونه عالماً في طريق المعرفة الإستدلالية ، فلما كان مقدماً في المعرفة الإستدلالية ، وكان هذا الخطاب مع المستدلين ، لا جرم قدم تعالى ذكر العزيز على الحكيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 180 ﴾

قال البيضاوى :

قدم العزيز لتقديم العلم بقدرته على العلم بحكمته ، ورفعهما على البدل من الضمير أو الصفة لفاعل شهد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 18 ﴾

فصل

قال ابن كثير فى معنى الآية وفضلها :

شهد تعالى –وكفى به شهيدا ، وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم ، وأصدق القائلين– ﴿ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ ﴾ أي : المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق ، وأن الجميع عبيده وخلقه ، والفقراء إليه ، وهو الغني عما سواه كما قال تعالى : ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزلَ إِلَيْكَ أَنزلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ الآية [النساء : 166] .

ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته فقال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام .

﴿ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ منصوب على الحال ، وهو في جميع الأحوال كذلك .

﴿ لا إِلَهَ إِلا هُوَ ﴾ تأكيد لما سبق ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ العزيز : الذي لا يرام جنابه عظمة وكبرياء ، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا بَقِيَّة بن الوليد ، حدثني جبير بن عَمْرو القرشي ، حدثنا أبو سَعِيد الأنصاري ، عن أبي يحيى مولى آل الزبير بن العوام ، عن الزبير بن العوام ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بعرفة يقرأ هذه الآية : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ "وأَنَا عَلَى ذِلكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ يا رَبِّ" . (1)

وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر ، فقال : حدثنا علي بن حسين ، حدثنا محمد بن المتوكل العسقلاني ، حدثنا عُمَر بن حفص بن ثابت أبو سعيد الأنصاري ، حدثنا عبد الملك بن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه ، عن جده ، عن الزبير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قرأ هذه الآية : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ ﴾ قال : "وأَنَا أَشْهَدُ أي رَبِّ" . (2) انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن كثير جـ 2 صـ 24 ﴾

---

(1) المسند (166/1) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (325/6) : "في إسناده مجاهيل" .

(2) تفسير ابن أبي حاتم (146/2) وفي إسناده مجاهيل" .

(186/114)

من فوائد العلامة أبى السعود فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ ﴾ بفتح الهمزة أي بأنه أو على أنه ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أي بيّنَ وحدانيتَه بنصب الدلائل التكوينية في الآفاق والأنفس وإنزالِ الآيات التشريعية الناطقة بذلك. عبر عنه بالشهادة على طريقة الاستعارة إيذاناً بقوته في إثبات المطلوبِ وإشعاراً بإنكار المنكر، وقرىء إنه بكسر الهمزة إما بإجراء ﴿ شَهِدَ ﴾ مُجرى قال، وإما بجعل الجملة اعتراضاً وإيقاعِ الفعل على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدّينَ ﴾ الخ على قراءة أن بفتح الهمزة كما سيأتي وقرىء شهداءُ لله بالنصب على أنه حال من المذكورين أو على المدح وبالرفع على أنه خبر مبتدإٍ محذوف ومآله الرفع على المدح أي هم شهداء لله وهو إما جمع شهيد كظرفاء في جمع ظريف أو جمع شاهد كشعراء في جمع شاعر.

(187/114)

﴿ والملئكة ﴾ عطف على الاسم الجليل بحمل الشهادة على معنىً مجازيّ شامل للإقرار والإيمان بطريق عموم المجاز أي أقروا بذلك ﴿ وَأُوْلُو العلم ﴾ أي آمنوا به واحتجوا عليه بما ذكر من الأدلة التكوينية والتشريعية ، قيل : المرادُ بهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقيل : المهاجرون والأنصار وقيل : علماء مؤمني أهلِ الكتاب كعبد اللَّه بن سلام وأضرابه وقيل : جميعُ علماء المؤمنين الذين عرفوا وحدانيته تعالى بالدلائل القاطعة ، وارتفاعُهما على القراءتين الأخيرتين قيل : بالعطف على الضمير في شهداء لوقوع الفصل بينهما وأنت خبير بأن ذلك على قراءة النصبِ على الحالية يؤدي إلى تقييد حالِ المذكورين بشهادة الملائكة وأولي العلم ، وليس فيه كثيرُ فائدةٍ فالوجه حينئذٍ كونُ ارتفاعِهما بالابتداء والخبرُ محذوفٌ لدلالة الكلام عليه أي والملائكة وأولو العلم شهداء ولك أن تحمل القراءتين على المدح نصباً ورفعاً فحينئذ يحسُن العطفُ على المستتر على كل حال وقوله تعالى : ﴿ قَائِمَاً بالقسط ﴾ أي مقيماً للعدل في جميع أمورِه بيان لكماله تعالى في أفعاله إثرَ بيانِ كماله في ذاته وانتصابُه على الحالية من ﴿ الله ﴾ كما في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الحق مُصَدّقًا ﴾ وإنما جاز إفرادُه مع عدم جواز جاء زيد وعمرو راكباً لعدم اللَّبس كقوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ ولعل تأخيرَه عن المعطوفين للدلالة على علو رتبتهما وقُرب منزلتهما والمسارعةِ إلى إقامة شهودِ التوحيد اعتناءً بشأنه ورفعاً لمحله ، والسرُّ في تقديمه على المعطوفين مع ما فيه من الإيذان بأصالته تعالى في الشهادة به كما مر في قوله تعالى : ﴿

الرسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ والمؤمنون ﴾ أو مِنْ ﴿ هُوَ ﴾ وهو الأوجه ، والعامل فيها معنى الجملة أي تفرّد ، أو أُحِقّه لأنها حال مؤكدة أو على المدح وقبل على أنه صفة للمنفي أي لا إله قائماً الخ والفصل

(188/114)

بينهما من قبيل توسعاتهم وهو مندرج في المشهود به إذا جعل صفة أو حالاً من الضمير أو نصباً على المدح منه وقرىء القائمُ بالقسط على البدلية من ﴿ هُوَ ﴾ فيلزم الفصل بينهما كما في الصفة أو على أنه خبر لمبتدإ محذوف وقرىء قيّماً بالقسط .

﴿ لا إله إلاَّ هُوَ ﴾ تكريرٌ للتأكيد ومزيدِ الاعتناء بمعرفة أدلةِ التوحيد والحُكم به بعد إقامة الحجةِ وليجريَ عليه قوله تعالى : ﴿ العزيز الحكيم ﴾ فيُعلمَ أنه المنعوتُ بهما ، ووجهُ الترتيب إذن تقدمُ العلمِ بقدرته على العلم بحكمته تعالى ورفعُهما على البدلية من الضمير أو الوصفية لفاعل شهد ، أو الخبرية لمبتدأ مُضمَر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود جـ 2 صـ 16.17 ﴾

وقال ابن عجيبة :

يقول الحقّ جل جلاله : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ أي : بيّن وحدانيتَه بنصب الدلائل

الدالة عليها وإنزال الآيات الناطقة بها ، أو بتدبيره العجيب وصنعته المتقنة وأموره المحكمة ، وفي ذلك يقول القائل :

يَا عَجَباً كيف يُعْصَى الإلهُ . . . أم كيف يَجْحَدُهُ الجاحدُ ؟ !

ولله في كل تحريكةٍ . . . وتسكينةٍ أبداً شاهدُ

وفي كُلِّ شَيءٍ له آيَةٌ . . . تَدُلُّ على أنَّه واحِدُ

وقيل لبعض العرب : ما الدليل على أن للعالم صانعاً ؟ فقال : البعرة تدل على البعير ، وآثار القدم تدل على المسير ، فهيكل علوي بهذه اللطافة ، ومركز سفلي بهذه الكثافة ، أمَا يدلان على الصانع الخبير ؟ !

﴿ و ﴾ شهدت ﴿ الملائكة ﴾ أيضاً بالإقرار بالوحدانية والإخبار بها ، ﴿ وأولوا العلم ﴾ وهم : الأنبياء والعلماء بالله ، بالإيمان بها والاحتجاج عليها ، شبه ذلك في البيان والكشف بشهادة الشاهد . وفيه دليل شرف أهل العلم وفضلهم ، حيث قرن شهادتهم بشهادته ؛ لأن العلم صفة الله العليا ونعمته العظمى ، والعلماء أعلام الإسلام ، والسابقون إلى دار السلام ، وسُرج الأمكنة وحجج الأزمنة .

وعن جابر قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " سَاعَةٌ مِنْ عَالِمٍ يَتَّكِئ على فِرَاشِهِ ، ينظرُ في علمهِ ، خيرٌ مِنْ عِبَادَةِ العَابِد سَبعينَ عاماً " وعن معاذ قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشيةٌ ، ومدارستَه تسبيحٌ ، والبحث فيه جهادٌ ، وتعليمه مَنْ لا يعلمه صدقةٌ ، وتذكُّره في أهله قُرْبَة " ثم قال في آخر الحديث في فضل أهل العلم : " وتَرْغَبُ الملائكة في خُلتهم ، وبأجنحتها تمسحُهم ، وفي صلاتها تستغفر لهم ، وكلُّ رطب ويابس يستغفر لهم . حتى حيتان البحر وهوامه ، وسباع الأرضين وأنعامها ، والسماء ونجومها ، ألا وإن العلم حياةُ القلوب من العمى ، ونورُ الأبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ بالعبد منزل الأحرار ومجالسة الملوك ، والفكر فيه يُعْدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام ، وبه يُعرف الحلال والحرام ، وبه تُوصلَ الأرحام ، العلم إمام والعمل تابعه ، يُلْهَمُه بالسعداء ، ويُحْرَمه الأشقياء " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المديد جـ 1 ص 333 ﴾

(190/114)

وقال السعدى :

هذا تقرير من الله تعالى للتوحيد بأعظم الطرق الموجبة له ، وهي شهادته تعالى وشهادة

خواص الخلق وهم الملائكة وأهل العلم ، أما شهادته تعالى فيما أقامه من الحجج والبراهين القاطعة على توحيده ، وأنه لا إله إلا هو ، فنوع الأدلة في الآفاق والأنفس على هذا الأصل العظيم ، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه ما قام أحد بتوحيده إلا ونصره على المشرك الجاحد المنكر للتوحيد ، وكذلك إنعامه العظيم الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه ، ولا يدفع النقم إلا هو ، والخلق كلهم عاجزون عن المنافع والمضار لأنفسهم ولغيرهم ، ففي هذا برهان قاطع على وجوب التوحيد وبطلان الشرك ، وأما شهادة الملائكة بذلك فنستفيدها بإخبار الله لنا بذلك وإخبار رسله ، وأما شهادة أهل العلم فلأنهم هم [ص 125] المرجع في جميع الأمور الدينية خصوصا في أعظم الأمور وأجلها وأشرفها وهو التوحيد ، فكلهم من أولهم إلى آخرهم قد اتفقوا على ذلك ودعوا إليه وبينوا للناس الطرق الموصلة إليه ، فوجب على الخلق التزام هذا الأمر المشهود عليه والعمل به ، وفي هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأن الله شهد به بنفسه وأشهد عليه خواص خلقه ، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين ، بمنزلة المشاهدة للبصر ، ففيه دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم . وفي هذه الآية دليل على شرف العلم من وجوه كثيرة ، منها : أن الله خصهم بالشهادة على أعظم مشهود عليه دون الناس ، ومنها : أن الله قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته ، وكفى بذلك فضلا ومنها : أنه جعلهم أولي العلم ، فأضافهم إلى العلم ، إذ هم القائمون به المتصفون بصفته ، ومنها : أنه تعالى جعلهم شهداء وحجة على

الناس ، وألزم الناس العمل بالأمر المشهود به ، فيكونون هم السبب في ذلك ، فيكون كل من عمل بذلك نالهم من أجره ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، ومنها : أن إشهاده تعالى أهل العلم يتضمن ذلك تزكيتهم وتعديلهم وأنهم أمناء على ما استرعاهم

(191/114)

عليه ، ولما قرر توحيده قرر عدله ، فقال : ﴿ قائمًا بالقسط ﴾ أي : لم يزل متصفا بالقسط في أفعاله وتدبيره بين عباده ، فهو على صراط مستقيم في ما أمر به ونهى عنه ، وفيما خلقه وقدره ، ثم أعاد تقرير توحيده فقال ﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ واعلم أن هذا الأصل الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبودية قد دلت عليه الأدلة النقلية والأدلة العقلية ، حتى صار لذوي البصائر أجلى من الشمس ، فأما الأدلة النقلية فكل ما في كتاب الله وسنة رسوله ، من الأمر به وتقريره ، ومحبة أهله وبغض من لم يقم به وعقوباتهم ، وذم الشرك وأهله ، فهو من الأدلة النقلية على ذلك ، حتى كاد القرآن أن يكون كله أدلة عليه ، وأما الأدلة العقلية التي تدرك بمجرد فكر العقل وتصوره للأمور فقد أرشد القرآن إليها ونبه على كثير منها ، فمن أعظمها : الاعتراف بربوبية الله ، فإن من عرف أنه هو الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور أنتج له ذلك أنه هو المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له ، ولما كان هذا من

أوضح الأشياء وأعظمها أكثر الله تعالى من الاستدلال به في كتابه . ومن الأدلة العقلية على أن الله هو الذي يؤله دون غيره انفراده بالنعم ودفع النقم ، فإن من عرف أن النعم الظاهرة والباطنة القليلة والكثيرة كلها من الله ، وأنه ما من نقمة ولا شدة ولا كربة إلا وهو الذي ينفرد بدفعها وإن أحدا من الخلق لا يملك لنفسه - فضلا عن غيره - جلب نعمة ولا دفع نقمة ، تيقن أن عبودية ما سوى الله من أبطل الباطل وأن العبودية لا تنبغي إلا لمن انفرد بجلب المصالح ودفع المضار ، فلهذا أكثر الله في كتابه من التنبيه على هذا الدليل جدا ، ومن الأدلة العقلية أيضا على ذلك : ما أخبر به تعالى عن المعبودات التي عبدت من دونه ، بأنها لا تملك نفعا ولا ضرا ، ولا تنصر غيرها ولا تنصر نفسها ، وسلبها الأسماع والأبصار ، وأنها على فرض سماعها لا تغني شيئا ، وغير ذلك من الصفات الدالة على نقصها غاية النقص ، وما أخبر به عن نفسه

العظيمة من الصفات الجليلة والأفعال الجميلة ، والقدرة والقهر ، وغير ذلك من الصفات التي تعرف بالأدلة السمعية والعقلية ، فمن عرف ذلك حق المعرفة عرف أن العبادة لا تليق ولا تحسن إلا بالرب العظيم الذي له الكمال كله ، والمجد كله ، والحمد كله ، والقدرة كلها ،

والكبرياء كلها ، لا بالمخلوقات المدبرات الناقصات الصم البكم الذين لا يعقلون ، ومن الأدلة العقلية على ذلك ما شاهده العباد بأبصارهم من قديم الزمان وحديثه ، من الإكرام لأهل التوحيد ، والإهانة والعقوبة لأهل الشرك ، وما ذاك إلا لأن التوحيد جعله الله موصلا إلى كل خير دافعا لكل شر ديني ودنيوي ، وجعل الشرك به والكفر سببا للعقوبات الدينية والدنيوية ، ولهذا إذا ذكر تعالى قصص الرسل مع أمم المطيعين والعاصين ، وأخبر عن عقوبات العاصين ونجاة الرسل ومن تبعهم ، قال عقب كل قصة : ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ أي : لعبرة يعتبر بها المعتبرون فيعلمون أن توحيده هو الموجب للنجاة ، وتركه هو الموجب للهلاك ، فهذه من الأدلة الكبار العقلية النقلية الدالة على هذا الأصل العظيم ، وقد أكثر الله منها في كتابه وصرفها ونوعها ليحيى من حي عن بينة ، ويهلك من هلك عن بينة فله الحمد والشكر والثناء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير السعدى صـ 124 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قوله جلّ ذكره : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ .

(193/114)

أي عَلِمَ اللهُ وأخبر اللهُ وحَكَمَ اللهُ بأنه لا إله إلا هو ، فهو شهادة الحق للحق بأنه الحق ، وأوّلُ مَنْ شهد بأنه اللهُ – اللهُ ، فشهد في آزاله بقوله وكلامه وخطابه الأزلي ، وأخبر عن وجوده الأحدي ، وكونه الصمدي ، وعونه القيومي ، وذاته الديمومي ، وجلاله السرمدي ، وجماله الأبدي. فقال : ﴿ شَهِدَ اللهُ ﴾ ثم في آباده ، " شهد الله " أي بيّنَ اللهُ بما نَصَبَ من البراهين ، وأثبت من دلائل اليقين ، وأوضح من الآيات ، وأبدى من البينات . فكلُّ جزءٍ من جميع ما خلق وفطر ، ومن كتم العدم أظهر ، وعلى ما شاء من الصفة الذاتية حصل ، من أعيان مستقلة ، وآثار في (ثاني) وجودها مضمحلة ، وذوات للملاقاة قابلة ، وصفات في المَحَالّ متعاقبة – فهو لوجوده مُفْصِح ، ولربوبيته موضَّح ، وعلى قِدَمِه شاهد ، وللعقول مُخْبِر بأنه واحد ، عزيز ماجد ، شهد سبحانه بجلال قَدْره ، وكمال عزه ، حين لا جحد ولا جهود ولا عرفان لمخلوق ولا عقل ، ولا وفاق ، ولا كفر ، ولا حدثان ، ولا غير ، ولا إلحاد ، ولا شِرْك ، ولا فهم ولا فكر ، ولا سماء ولا فضاء ، ولا ظلام ولا ضياء ، ولا وصول للمزدوجات ، ولا فضول باختلاف الآفات .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالمَلائِكَةِ ﴾ .

لم يؤيِّد شهادته بوحدانيته بشهادة الملائكة بل أسعدهم وأيّدُهم ، حين وفَّقَهم بشهادة وسدَّدهم ، وإلى معرفة وحدانيته أرشدهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأُولوا العِلْمِ ﴾ .

وهم أولياء بني آدم إذ علموا قدرته ، وعرفوا نعت عزته فأكرمهم حيث قرن شهادته بشهادتهم ، فشهدوا عن شهود وتعيين ، لا عن ظن وتخمين ، إن لم يدركوه – اليوم – ضرورة وحِسًّا ، لم يعتقدوه ظنّاً وحَدْساً ؛ تعرَّف إليهم فعرفوه ، وأشهدهم فلذلك شهدوا ، ولو لم يقُلْ لهم إنه مَنْ هو لَمَا عرفوا مَنْ هو .

ولكنَّ العلماء يشهدون بصحو عقولهم ، والمُوَحِّدُون يشهدون بعد خمودهم ؛ فهم كما قيل :

(194/114)

مُسْتَهْلَكُون بقهر الحق قد هَمَدُوا . . . واستُنْطِقوا بعد افتنائهم بتوحيد

فالمُجْرِي عليهم ما يبدو منهم – سواهم ، والقائمُ عنهم بما هم عليه وبه – غيرُهم ، ولقد كانوا لكنهم بانوا ، قال قائلهم :

كتابي إليكم بعد موتي بليلة . . . ولم أدرِ أنِّي بعد موتي أكتب

وأولو العلم على مراتب : فَمِنْ عالِم نَعْتُه وفاق ورهبانية ، ومن عالم وصفه فناء وربانية ، وعالم يعرف أحكام حلاله وحرامه ، وعالم يعلم أخباره وسننه وآثاره ، وعالم يعلم كتابه ويعرف تفسيره وتأويله ، ومحكمه وتنزيله ، وعالم يعلم صفاته ونعوته ويستقوي حججه

وتوحيده بحديث يخرجه (. . . .) ، وعالم لاطفه حتى أحضره ثم كاشفه فقهره ، فالاسم باقٍ ، والعين محو ، والحكم طارق والعبد محق ، قال قائلهم :

بنو حق غدوا بالحق صِرفاً . . . فنعت الخْلق فيهمو مستورُ

وليست الإشارة من هذا إلا إلى فنائهم عن إحساسهم ، وعند عِلْمِهم بأنفسهم ، فأما أعمالهم أعيانهم فمخلوقة ، وما يفهم بذواتهم من أحوالهم فمسبوقة ، وذات الحق لا توصف بقبول حدثان ، وصفات ذاته لا تقبل اتصالاً بالغير ولا انفصالاً عن الذات ، تقدّس الحق عن كل ضدّ ونِدّ ، ووصل وفصل ، وجمع وفرق ، وعين وخلق ، وملك وفلك ، ورسم وأثر ، وعبد وبشر ، وشمس وقمر ، وشخص وغَبَر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 226 . 227 ﴾

(195/114)

" فصل في فضائل العلم والعمل "

قال ابن الجوزى :

المجلس الأول في فضائل العلم والعمل

الحمد لله الذي بيده الإيجاد والإنشاء والإماتة والإحياء والإعادة والإبداء والإنعام والآلاء

والرخص والغلاء والحظ والعلاء والعافية والبلاء والداء والدواء خلق آدم وخلقت لأجله

الأشياء فمن جراه كانت الأرض والسماء والظلمات والأضواء والصباح والمساء والريح

والماء وعلمه العلم فانجلت عنه الظلماء وعرفه خط الخط فجاء الهجاء الألف والباء

والتاء والثاء والجيم والحاء والخاء والدال والذال والراء والزاي والسين والشين والصاد

والضاد والطاء والظاء والعين والغين والفاء والقاف والكاف واللام والميم والنون والهاء

والواو ولام الألف والياء وبث من نسله الرجال والنساء فمنهم العالم الذاكر ومنهم الجاهل

النساء وأكثرهم الغافلون وأقلهم الألباء وليست زرقاء اليمامة كالأعشى ولا النهار كالليل

إذا يغشى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) أحمده له بتوفيقي لحمده الآلاء وأقر بأنه

مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء وأصلي على رسوله محمد أشرف

راكب حوته البيداء وعلى صاحبه أبي بكر الصديق مصاحبه إن وقعت الشدة أو الرخاء

وعلى عمر الفاروق الذي دوخ الكفر فذلت له الأعداء وعلى عثمان الصابر وقد اشتد به

البلاء وعلى علي الذي حصل له دون الكل الإخاء وعلى عمه العباس الذي سألت

الصحابة به الغيث فسالت السماء قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ إن مثل

العلماء في الأرض كمثل النجوم

في السماء يهتدى بها في ظلمات البر والبحر فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة وهذا المثل من أوقع المثال لأن طرق التوحيد والعلم بالآخرة لا يدرك بالحس وإنما يعرف بالدليل والعلماء هم الأدلاء فإذا فقدوا ضل السالك وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال إن الله عز وجل لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ العباد رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا أخبرنا ابن الحصين بسنده عن صفوان بن عسال أن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ قال إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضي بما يطلب وذكر أبو سليمان الخطابي في معنى وضعها أجنحتها ثلاثة أقوال أحدها بسط الاجنحة والثاني أن المراد به التواضع لطالب العلم والثالث النزول عند مجالس العلم وترك الطيران لقوله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ ما من قوم يذكرون الله تعالى إلا حفت بهم الملائكة وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد رضي الله عنهم أن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ قال لعلي عليه السلام والله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم

وروى أبو الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في الماء وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء فإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قربة وهو الأنس في الوحدة والصاحب في الخلوة وقال كعب أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن تعلم يا موسى الخير وعلمه للناس فإني منور لمعلم الخير ومتعلمه في قبورهم حتى لا يستوحشوا في مكانهم وقال عيسى عليه السلام من تعلم وعلم وعمل فذلك يدعى عظيما في ملكوت السماء وقال ابن عباس رضي الله عنهما خير سليمان بن داود عليه السلام بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطي المال والملك معه وقال بعض الحكماء ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم وأي شيء فات من أدرك العلم ولا يخفى فضل العلم ببديهة العقل لأنه الوسيلة إلى معرفة الخالق وسبب الخلود في النعيم الدائم ولا يعرف التقرب إلى المعبود إلا به فهو سبب لمصالح الدارين قال الحسن لولا

العلماء لصار الناس مثل البهائم وقال المعافى بن عمران كتابة حديث واحد أحب إلي من قيام ليلة

وكيف لا يقول هذا وقد قال النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ يوزن مداد العلماء مع دم الشهداء فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء ومن آداب العالم أن يترك فضول الدنيا ليتبعه الناس فإن الاستدلال بالفعل أقوى من الاستدلال بالقول فإن الطبيب إذا أمر الحمية ثم خلط لم يلتفت إلى قوله أخبرنا علي بن عبد الله بسنده عن أبي همام الكلاعي عن الحسن أنه مر ببعض القراء على بعض أبواب السلاطين فقال أقرحتم جباهكم وفرطحتم نعالكم وجئتم بالعلم تحملونه على رقابكم إلى أبوابهم فزهدوا فيكم أما إنكم لو جلستم في بيوتكم حتى يكونوا هم الذين يرسلون إليكم لكان أعظم لكم في أعينهم تفرقوا فرق الله بين أعضائكم وقال الحسن إن الزبانية إلى فسقة حملة القرآن أسرع منهم إلى عبدة الأوثان فيقولون ربنا ما بالنا يتقدمون إلينا فيقول الله تعالى ليس من يعلم كمن لا يعلم أخبرنا يحيى بن علي بسنده عن الربيع بن سليمان قال سمعت الشافعي يقول من قرأ القرآن عظمت قيمته ومن تفقه نبل قدره ومن كتب الحديث قويت حجته ومن تعلم اللغة رق طبعه ومن تعلم

الحساب جزل رأيه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه سمعت إسماعيل بن أحمد يقول سمعت عبد الله بن عطاء يقول سمعت أبا نصر الحواري يقول سمعت أبا حاتم الرازي يقول بسنده عن يونس بن عبد الأعلى يقول سمعت الشافعي يقول كتب حكيم إلى حكيم يا أخي قد أوتيت علما فلا تدنس علمك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم

(199/114)

والمأخوذ على العلم أن يطلب العلم للعمل به ففي الحديث من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو ليصرف وجوه الناس إليه لم يرح رائحة الجنة وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه أنه قال إن أول الناس يقضي فيه يوم القيامة ثلاثة فذكر منهم وجلا تعلم العلم وعلمهه وقرأ القرآن فيقال له ما عملت فيقول تعلت فيك العلم وعلمته وقرأت القرآن فيقال كذبت ولكنك تعلمت ليقال هو عالم فقد قيل وقرأت القرآن ليقال هو قارئ وقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار أخبرنا أبو منصور وعبد الرحمن بن محمد بسندهما عن أبي جعفر عبد الله بن إسماعيل ابن توبة يقول رأيت أبا بكر الأدمي القارئ في النوم بعد موته بمد يده فقلت له تلك

الليالي والمواقف والقرآن فقاليلي ما كان شيء أضر على منها لأنها كانت للدنيا فقلت له فإلى اي شيء انتهى أمرك قال قال لي تعالى آليت على نفسي أن لا أعذب أبناء الثمانين

الكلام على البسملة

(تبنى وتجمع والآثار تندرس

ونأمل اللبث والأرواح تختلس

(ذا اللب فكر فما في الخلد من طبع

لا بد ما ينتهي أمر وينعكس

(أين الملوك وابناء الملوك ومن

كانوا إذا الناس قاموا هيبة جلسوا

(ومن سيوفهم في كل معركة

تخشى ودونهم الحجاب والحرس

(أضحوا بمهلكة في وسط معركة

صرعي وماشي الورى من فوقهم يطس

(وعمهم حدث وضمهم جدث

باتوا وهم جثث في الرمس قد حبسوا

(كأنهم قط ما كانوا وما خلقوا

ومات ذكرهم بين الورى ونسوا

(والله لو أبصرت عيناك ما صنعت

يد البلى بهم والدود يفترس

(لعاينت منظرا تشجى النفوس به

وأبصرت نكرا من دونه النكس

(من أوجه ناظرات حار ناظرها

في رونق الحسن كيف تنطمس

(وأعظم باليات ما بها رمق

وليس تبقى وهذا وهي تنتهس

(وألسن ناطقات زانها أدب

ما شأنها شانها بالآفة الخرس

(نكسهم ألسن للدهر فاغرة

فاها فآها لهم إذ بالردى وكسوا

(عروا عن الوشي لما ألبسوا حللا

من الرغام على أجسادهم وكسوا

(وصار لبس الصفايا من خلائلهم

جون الثياب وقدما زانه الورس

(حتام يا ذا النهى لا ترعوى سفها

ودمع عينيك لا يهمي وينبجس

يا غافلا عن نفسه أمرك عجيب يا قتيل الهوى داؤك غريب يا طويل الأمل ستدعى فتجيب وهذا عن قليل وكل آت قريب هلا تذكرت لحدك كيف تبيت وحدك ويباشر الثرى خدك وتقتسم الديدان جلدك ويضحك المحب بعدك ناسياً عنه بعدك والأهل مذ وجدوا المال ما ما وجدوا فقدك إلى متى وحتى متى تترك رشدك أما تحسن أن تحسن إلينا قصدك الأمر جد مجد فلازم جدك (ذهب الأحبة بعد طول تودد

ونأى المزار فأسلموك وأقشعوا

(خذلوك أفقر ما تكون لغربة

لم يؤنسوك وكربة لم يدفعوا

(قضي القضاء وصرت صاحب حفرة

عنك الأحبة أعرضوا وتصدعوا

ووجد على قبر مكتوب (سيعرض عن ذكري وتنسى مودتي

ويحدث بعدي للخليل خليل

(إذا انقطعت يوماً من العيش مدتي

فإن غناء الباكيات قليل

إلى متى هذا التخليط والموت بكم محيط أين الأخ والخليط بادرهما موت نشيط كيف يلهوا هذا الشميط وله أسد مستشيط عليه وسخ وما يميط لا بل دم عبيط يا ربما انقبض النشيط تيقظ فكم هذا الغطيط اقبل نصحي واسمع من الوسيط يا ذا التحرك في الهوى لا بد له من سكون على هذا كانت الدنيا وعليه تكون لا يغرنك سهلها فبعد السهل حزون لا تنظر إلى فرحها فكل فرح محزون تأمل فعلها بغيرك فبغض المقبح يهون إن روحك دين الممات وستقضى الديون ما فرحها مستتم ولا ترحها مأمون ما أضحكت السن إلا وأبكت العيون إياك وإيا المومس الخئون إنها لدار الغرور ومنزل للمنون كم نلوم على الغبن وما يعقل المغبون مهلا أضعتم المواعظ قلب هذا مفتون يا لائما لي في الهوى ماذا هوى هذا جنون أيها الغافل عما بين يديه لا يذكر الموت ولا يلتفت إليه شغله عن العواقب ما لديه وألهاه ما له عما عليه (يا لقومي للآمل المغرور

ولجاج لا ينقضي في الصدور

(ولنفس مخدوعة بالأماني

ولهم موكل بسرور

) وانقباض الحياة عما يرجيه

(201/114)

الفتى وامتداد حبل الغرور

) يلتحيه الزمان في كل يوم

دائبا كالتحاء غصن نضير

) يتمنى في العيش ما ليس يلقاه

وينسى حزم الزمان الغيور

) ولعين غفت عن الأجل اليقظان

أمسى بها قريب المسير

) كل يوم يهيض للمرء عظما

وهو يسطو فيه بعظم كسير

) يحمل الموت بين جنبيه إذ يغدو

ويخشاه من وراء الثغور

(كل نفس في مستقر عليها

والح من حمامها المقدور

يا من يجوب شرق الهوى ثم يقطع غربه فكم له من طلعة في طلبه وغربة كأنه بسيف الأسف قد سل من جفنه فأسال من جفنه غربه قال بعض أصحاب الحسن ليت ابن آدم لم يخلق فقال حبيب العجمي فقد وقعتم فاحتالوا تالله ما اهتم بالخلاص إلا أهل التقى والإخلاص أيامهم بالصلاح زاهرة ودولتهم للعدو قاهرة وأعينهم في الدجى ساهرة يخافون العرض على أرض الساهرة والعقول للنفوس ناهية آمرة وأخلاق الثياب على أخلاق طاهرة والدنيا عليهم والقلوب صابرة وفي الجملة باعوا الدنيا فاشتروا بها الآخرة قال أبو يزيد جمعت أسباب الدنيا فربطتها بحبل القنوع ووضعتها في منجنيق الصدق ورميت بها في جبل اليأس فاسترحت (قرب الحرص مركبا لشقي

إنما الحرص مركب الأشقياء

(مرحبا بالكفاف يأتي عفيا

وعلى المتعبات ذيل العفاء

(ضلة لامرئ يشمر في الجمع

لعيش مشمر للفناء

(دائبا يكثر القناطير للوارث

والعمر دائبا لانقضاء

(حبذا كثرة القناطير لو كان

لرب الكنوز كنز بقاء

(يغتدى يرحم الأسير أسيرا

جاهلا أنه من الأسراء

يحسب الحظ كله في يديه

وهو منه على مدى الجوزاء

(ذلك الخائب الشقي وإن كان

يرى أنه من السعداء

الكلام على قوله تعالى

(فاليوم لا تظلم نفس شيئا

(202/114)

ميزان العدل يوم القيامة مستقيم اللسان تبين فيه الذرة فيجزى العبد على الكلمة قالها في الخير والنظرة نظرها في الشر فيا من زاده من الخير طفيف احذر ميزان عدل لا يحيف

أخبرنا ابن المذهب بسنده عن أبي عبد الرحمن الحبلي قال سمعت عبد الله بن عمرو ابن العاص يقول قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ إن الله عز وجل يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مد البصر ثم يقول له أتنكر من هذا شيئا أظلمتك كتبتي الحافظون قال لا يا رب فيقول ألك عذر أو حسنة فيبهت الرجل فيقول لا يا رب فيقول بلى إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم اليوم عليك فيخرج لها بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله فيقول أحضروه فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال إنك لا تظلم قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة قال فطاشت السجلات وثقلت البطاقة البطاقة القطعة

(203/114)

أخبرنا محمد بن أبي طاهر بسنده عن يونس بن عبيد عن الحسن قال بينا عائشة رضي الله عنها عند رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ بكت فقال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ ما يبكيك قالت يا رسول الله هل تذكرون أهليكم يوم القيامة فقال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً عند الميزان حين يوضع حتى يعلم أتثقل موازينه أم تخف وعند الكتاب حين يقال (هاؤم اقرءوا كتابيه)

حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه أو في شماله أو وراء ظهره وعند الصراط حين يوضع بين ظهري جهنم حتى يعلم أينجو أم لا ينجو (أخبرنا) الكروخي بسنده عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه وعن أبي سعيد رضي الله عنهما قالا قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول له ألم أجعل لك سمعا وبصرا ومالا وولدا وسخرت لك الانعام والحرث وتركتك ترأس وترتع أكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا فيقول لا فيقول اليوم أنساك كما نسيتني أخبرنا ابن الحصين بسنده عن شعبة عن قتادة عن أبي سعيد الخدري عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ يخلص المؤمنون يوم القيامة من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة

(204/114)

قوله تعالى (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) أتراك بأي عمل تجزى أتراك تهنى أو تعزى قلبك عند الصلاة في غيبة ولسانك في الصوم في غيبة وما صفت لك في العمر ركعة وقد مر أكثر الأجل بسرعة فانتبه قبل أن يفوت التدارك وفرغ قلبك قبل أن تفرغ دارك (أنبأنا) أحمد بن

الحسين بن عثمان العطار بسنده عن جعفر بن الحسن عن أبيه عن الحسن بن علي عن علي رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ يقول إن في الجنة لشجرة يخرج من أعلاها ومن أسفلها خيل من ذهب مسرجة ملجمة بلجم من در وياقوت لا تروث ولا تبول لها أجنحة خطوها مد بصرها فيركبها أهل الجنة فتطير بهم حيث شاؤوا فيقول الذين أسفل منهم درجة يا رب بم بلغ عبادك هذه الكرامة كلها قال فيقال لهم إنهم كانوا يصلون الليل وأنتم تنامون وكانوا يصومون وكنتم تأكلون وكانوا ينفقون وكنتم تبخلون وكانوا يقاتلون وكنتم تجبنون قوله تعالى (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون) وقرأ نافع وأبو عمرو في شغل بإسكان الغين وقرأ ابن يعمر في شغل بفتح الشين وإسكان الغين وقرأ أبو هريرة في شغل بفتحهما وللمفسرين في المراد بذلك الشغل قولان أحدهما أنه افتضاض الأبكار أخبرنا موهوب بن أحمد بسنده عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل) قال في افتضاض الأبكار والثاني النعمة قاله مجاهد وقال الحسن شغلهم نعيمهم عما فيه أهل النار من العذاب وفي قوله تعالى فاكهون أربعة أقوال أحدها فرحون قاله ابن عباس

والثاني معجبون قاله الحسن والثالث ناعمون قاله مقاتل والرابع ذوو فاكهة كما يقال لابن تامر قاله أبو عبيدة وقرأ أبو جعفر فكهون وهل هي بمعنى القراءة الأولى فيه قولان أحدهما أنهما بمعنى واحد كما يقال حاذر وحذر قاله الفراء والثاني أن الفكه الذي يتفكه يقال فلان يتفكه بالطعام قاله أبو عبيدة قوله تعالى (هم وأزواجهم في ظلال) الأزواج الحلائل والظلال جمع ظل وقرأ حمزة والكسائي في ظلل قاله الفراء وهي جمع ظل وقد تكون الظلال جمع ظلة أيضا قال المفسرون المراد بالظلال كنا القصور والمقصود أن بناء الجنة محكم عال فلو كان هناك شمس كان في ظلهم ما يرد أخبرنا عبد الأول أخبرنا الداودي أنبأنا ابن أعين حدثنا الفربري حدثنا البخاري عن معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوطون آنيتهم فيها الذهب وأمشاطهم من الذهب والفضة ومجامرهم الألوه ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشيا (وقال كعب) لو أن امرأة من نساء أهل الجنة بدا معصمها لذهب ضوء الشمس

أخبرنا محمد بن منصور عن عباد بن راشد عن ثابت البناني قال كنت عند أنس بن مالك فقدم عليه ابن له من غزاة فسائله ثم قال ألا أخبرك عن صاحبنا فلان قال بينما نحن في غزاتنا قافلين إذ ثار وهو يقول واأهلاه واأهلاه فثرنا إليه فظننا أن عارضا عرض له فقلنا له ما شأنك فقال إني كنت أحدث نفسي أن لا أتزوج حتى أستشهد فيزوجني الله تعالى الحور العين فلما – طالت علي الشهادة حدثت نفسي في سفري هذا إن أنا رجعت تزوجت فأتاني آت في منامي فقال أنت القائل إن أنا رجعت تزوجت قم فقد زوجك الله العيناء فانطلق بي إلى روضة خضراء معشبة فيها عشر جوار في يد كل جارية صنعة تصنعها لم أر مثلهن في الحسن والجمال قلت لهن فيكن العيناء قلن لا نحن من خدمها وهي أمامك فانطلقت فإذا أنا بروضة أعشب من الأولى وأحسن فيها عشرون جارية في يد كل جارية صنعة تصنعها ليس العشر إليهن بشيء من الحسن والجمال قلت فيكن العيناء قلن لا ونحن من خدمها وهي أمامك فمضيت فإذا أنا بروضة أخرى أعشب من الأولى والثانية وأحسن فيها أربعون جارية في يد كل جارية صنعة تصنعها ليس العشر والعشرون إليهن بشيء في الحسن والجمال فقلت فيكن العيناء قلن لا نحن من خدمها وهي أمامك فانطلقت فإذا أنا بياقوتة مجوفة فيها سرير عليها امرأة قد فضلت السرير قلت أنت العيناء قالت نعم مرحبا فذهبت أضع يدي عليها فقالت مه إن فيك شيئا من الروح بعد ولكن

فطرك عندنا الليلة قال فما فرغ الرجل من حديثه حتى نادى مناد يا خيل الله اركبي وأبشري بالجنة قال فجعلت أنظر إلى الرجل وأنظر إلى الشمس ونحن مصافون العدو وأذكر حديثه فما أدري أيهما رأيته بدر أول هو أو الشمس سقطت أول فقال أنس رحمه الله تعالى (سجع

(207/114)

يا هذا لقد بلغ القوم الآمال ونالوا ملكا عظيما لا يزال فأين ذاك التعب وتلك الأثقال وبقي المدح والترحزال (هم وأزواجهم في ظلال) طالما نصبوا في خدمة ذي الجلال فشغلتهم عن اللذات أشغال وأزعجتهم عن الشهوات أوجال وقلقهم الموت إذا خطر بالقلب وجال فإذا وردوا تلقوا بالنوال (هم وأزواجهم في ظلال) بالغ القوم في التحقيق وأخذوا بالأمر الوثيق وأنذرهم الموت فما أبلغهم الرفيق فجدوا حتى خرجوا من المضيق فأما البطال فإنه لما تلمح الطريق رآه قد طال صام القوم عن الشهوات وقاموا لله في الخلوات وحبسوا الألسن عن فضول الكلمات وتركوا في الجملة جملة اللذات فانقضى رمضان صومهم وجاء شوال (هم وأزواجهم في ظلال) كم بينك وبينهم أسخن الشر عينك وأقر الخير أعينهم نالوا الحظ ونلت الحضيض أين أنت وأين هم وإنما يكال للعبد كما كال سبحان من أصلحهم وسامحهم

وعاملهم فأربحهم وأثنى عليهم ومدحهم وأقال مجترحهم وقال (هم وأزواجهم في ظلال) قطعوا المهامة ففازوا وعبروا قناطر الخوف وجازوا ونالوا غاية المنى وحازوا فسلم الربح ورأس المال (هم وأزواجهم في ظلال) قوله تعالى (على الأرائك متكئون) قال ثعلب لا تكون الأريكة إلا سريرا في قبة عليه شواره ومتاعه والشوار متاع البيت تعبوا فأريحوا وزهدوا فأبيحوا زال نصبهم وارتفع تعبهم وحصل مقصودهم ورضى معبودهم

(208/114)

قوله تعالى (ولهم ما يدعون) أي ما يتمنون قال ابن قتيبة العرب تقول ادع ما شئت أي تمن ما شئت وقال الزجاج هو مأخوذ من الدعاء والمعنى كل ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم وقوله (سلام) بدل من ما والمعنى لهم ما يتمنون سلام أي هذا منى أهل الجنة أن يسلم الله عز وجل عليهم و (قولا) منصوب على معنى لهم سلام يقوله الله قولا وفي حديث جابر رضي الله عنه عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أن الله عز وجل يقول السلام عليكم يا أهل الجنة فذلك قوله عز وجل (سلام قولا من رب رحيم) فينظر إليهم وينظرون إليه ولا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم

(سجع

أين المستعدون لهذا الأمر الجسيم أين المخاطر في طلب ذا الفضل العظيم أين المتأهب لخلع الفوز والتقديم (سلام قولا من رب رحيم) لو رأيتهم في دار الإقامة على غاية الفوز والسلامة وعلى القوم حلل الكرامة والملك يسمعهم كلامه العزيز القديم (سلام قولا من رب رحيم) حلوا في جوار الجبار فحلوا بضائع الأسحار فجوزوا أن قيل لهم جوزوا بلا عثار وأشرف من جنات تجري من تحتها الأنهار أن أشرف عليهم الكريم بكل تكريم (سلام قولا من رب رحيم) طالما تململوا تململ السليم وبكوا في الدجى بكاء اليتيم فانقشع الأمر إلى أن سامح الغريم فأحلهم برضوانه جنات النعيم والعيون تجري من رحيق وتسنيم وواسطة ذلك العقد المثمن النظيم (سلام قولا من رب رحيم) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التبصرة / لابن الجوزى جـ 2 صـ 201. 215 ﴾

(209/114)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (19) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ذلك علم أنه يجب أن تخضع له الرقاب ويخلص له التوحيد جميع الألباب وذلك هو الإسلام فقال معللاً للشهادة منهم بالعدل - وقراءة الكسائي بالفتح أظهر في التعليل : ﴿ إن الدين ﴾ وأصله الجزاء ، أطلق هنا على الشريعة لأنها مسببة ﴿ عند الله ﴾ أي الملك الذي له الأمر كله ﴿ الإسلام ﴾ فاللام للعهد في هذه الشهادة فإنها أس لكل طاعة ، فلأجل أن الدين عنده هذا شهدوا له هذه الشهادة المقتضية لنهاية الإذعان .

ولما كان ذلك مصرحاً بأنه لا دين عنده غيره كان كأن قائلاً قال : فكان يجب أن يعلم بذلك الأنبياء الماضون والأمم السالفون ليلزموه ويلزموه أتباعهم ! فقيل : قد فعل ذلك ، فقيل : فما لهم لم يلزموه ؟ فقيل : قد لزموه مدة مديدة ﴿ وما ﴾ ويجوز وهو أحسن أن يكون التقدير : بين الله سبحانه وتعالى بشهادته ما يرضيه بآياته المرئية ثم أوضحه غاية الإيضاح بآياته المسموعة بكتبه وما ﴿ اختلف الذين أوتوا الكتاب ﴾ هذا الاختلاف الذي ترونه ﴿ إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ بذلك كله ، وما كان اختلافهم لجهلهم بذلك بل ﴿ بغياً ﴾ واقعاً ﴿ بينهم ﴾ لا بينهم وبين غيرهم ، بل من بعضهم على بعض للحسد والتنافس في الدنيا لشبه أبدوها ودعاوٍ ادعوها ، طال بينهم فيها النزاع وعظم الدفاع ، والله سبحانه وتعالى عالم بكشفها ، قادر على صرفها .

قال الحرالي : والبغي السعي بالقول والفعل في إزالة نعم أنعم الله تعالى بها على خلق بما اشتملت عليه ضمائر الباغي من الحسد له - انتهى .

ولما كان التقدير : فمن استمر على الإيمان فإن الله عظيم الثواب ، عطف عليه قوله :

﴿ ومن يكفر ﴾ أي يستمر على كفره ولم يقل حلماً منه : ومن كفر ﴿ بآيات الله ﴾ أي المرئيات والمسموعات الدالة على إحاطته بالكمال وقوفاً مع تلك الشبه وعمى عن الدليل فالله مهلكه عاجلاً ﴿ فإن الله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ولا كفوء له ﴿ سريع ﴾ قال الحرالي : من السرعة وهي وحاء النجاز فيما شأنه الإبطاء - انتهى .

ويحتمل أن يكون كنى بالسرعة عن القرب فالمعنى : قريب ﴿ الحساب ﴾ أي عن قريب يجازيهم على كفرهم في هذه الحياة الدنيا بأيدي بعضهم وبأيدي المؤمنين ، ثم ينقلون إلى حسابه سبحانه وتعالى في الدار الآخرة المقتضي لعذاب الكفرة ، ويحتمل أن تكون السرعة على بابها ، والمراد أنه لا يتهيأ في حسابه ما يتهيأ في حساب غيره من المغالطة المقتضية للنجاة أو المطاولة في مدة الحساب المقتضية لتأخر الجزاء في مدة المراوغة والله تعالى أعلم .

ومن الكفر بالآيات الكفر بعيسى عليه الصلاة والسلام حين انتحلوا فيه الإلهية .

قال الحرالي : كان آية من الله سبحانه وتعالى للهداية ، فوقع عندهم بحال من كفروا به ، فكان سبب كفرهم ما كان مستحقاً أن يكون سبب هداية المهتدي ، وكان ذلك فيه لمحل

اشتباهه لأنه اشتبه عليهم خلقه بما ظهر على يديه من آيات الله سبحانه وتعالى ، وفي التعريض به إلاحة لما يقع لهذه الأمة في نحوه ممن هو مقام الهداية فوقع في طائفة موقع آية كفروا بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 2 صـ 45.44﴾

(211/114)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الدّينَ عِندَ الله الإسلام ﴾ جملة مبتدأة وقعت تأكيداً للأولى ، وتعريف الجزئين للحصر أي لا دين مرضي عند الله تعالى سوى الإسلام وهو على ما أخرج ابن جرير عن قتادة "شهادة أن لا إله إلا الله تعالى والإقرار بما جاء من عند الله تعالى وهو دين الله تعالى الذي شرع لنفسه وبعث به رسله ودل عليه أولياؤه لا يقبل غيره ولا يجزى إلا به" . وروى علي بن إبراهيم عن أمير المؤمنين كرم الله تعالى وجهه أنه قال في خطبة له لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي ، الإسلام هو التسليم ، والتسليم هو اليقين ، واليقين هو التصديق ، والتصديق هو الإقرار ، والإقرار هو الأداء ، والأداء هو العمل ثم قال : إن المؤمن أخذ دينه عن ربه ولم يأخذه عن رأيه إن المؤمن من يعرف إيمانه في عمله وإن الكافر يعرف كفره بإنكاره أيها الناس دينكم دينكم فإن السيئة فيه خير من الحسنة في غيره إن السيئة فيه تغفر

وإن الحسنة في غيره لا تقبل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 106 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأِسْلامُ ﴾ .

قرأ جمهور القراء ﴿ إِنَّ الدِّينَ ﴾ بكسر همزة إن فهو استئناف ابتدائي لبيان فضيلة هذا الدين بأجمع عبارة وأوجزها .

(212/114)

وهذا شروع في أول غرض أنزلت فيه هذه السورة : غرض محاجة نصارى نجران ، فهذا الاستئناف من مناسبات افتتاح السورة بذكر تنزيل القرآن والتوراة والإنجيل ، ثم بتخصيص القرآن بالذكر وتفضيله بأن هديه يفوق هدي ما قبله من الكتب ، إذ هو الفرقان ، فإن ذلك أس الدين القويم ، ولما كان الكلام المتقدم مشتملا على تعريض باليهود والنصارى الذي كذبوا بالقرآن ، وإبطال لقول وفد نجران لما طلب منهم الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام "أسلمنا قبلك" فقال لهم كذبتم روى الواحدي ، ومحمد بن إسحاق : أن وفد نجران لما دخلوا المسجد النبوي تكلم السيد والعاقب فقال لهما رسول الله أسلما قالا : "قد أسلمنا قبلك" قال : "كذبتما ، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدا ، وعبادتكما

الصليب" ، ناسب أن ينوه بعد ذلك بالإسلام الذي جاء به القرآن ، ولذلك عطف على هذه الجملة قوله ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ .

واعلم أن جمل الكلام البليغ لا يخلو انتظامها عن المناسبة ، وإن كان بعضها استئنافا ، وإنما لا تطلب المناسبة في الحادثات والاقتضابات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 46.45 ﴾

فصل

قال الفخر :

في كيفية النظم من قرأ ﴿ أَنَّ الدِّينَ ﴾ بفتح ﴿ أن ﴾ كان التقدير : شهد الله لأجل أنه لا إله إلا هو أن الدين عند الله الإسلام ، فإن الإسلام إذا كان هو الدين المشتمل على التوحيد ، والله تعالى شهد بهذه الوحدانية كان اللازم من ذلك أن يكون الدين عند الله الإسلام ، ومن قرأ ﴿ إِنَّ الدِّينَ ﴾ بكسر الهمزة ، فوجه الاتصال هو أنه تعالى بيّن أن التوحيد أمر شهد الله بصحته ، وشهد به الملائكة وأولوا العلم ، ومتى كان الأمر كذلك لزم أن يقال ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإسلام ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 181 ﴾

فصل

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإسلام ﴾ الدِّين في هذه الآية الطاعة والمِلّة ، والإسلام بمعنى الإيمان والطاعات ؛ قاله أبو العالية ، وعليه جمهور المتكلمين .

والأصل في مسمى الإيمان والإسلام التَّغَايُر ؛ لحديث جبريل .

وقد يكون بمعنى المُرادَفَة .

فيسمى كل واحد منهما باسم الآخر ؛ كما " في حديث وفد عبد القيس وأنه أمرهم بالإيمان (بالله) وحده قال : "هل تدرون ما الإيمان" قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال ؛ "شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تؤدوا خمساً من المغنم" " الحديث .

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " الإيمان بضع وسبعون بابا فأدناها إماطة الأذى وأرفعها قول لا إله إلا الله " أخرجه الترمذي .

وزاد مسلم " والحياء شعبة من الإيمان " ويكون أيضاً بمعنى التداخل ، وهو أن يطلق أحدهما ويراد به مسماه في الأصل ومسمى الآخر ، كما في هذه الآية إذ قد دخل فيها التصديق والأعمال ؛ ومنه قوله عليه السلام : " الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان " أخرجه ابن ماجه ، وقد تقدّم .

والحقيقة هو الأوّل وضعا وشرعا ، وما عداه من باب التوسع . والله أعلم . انتهى ا

هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 43. 44 ﴾

فائدة

قال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن المتدين عند الله بالإِسلام من سلم من النواهي .

والثاني : أن الدين هنا الطاعة ، فصار كأنه قال : إن الطاعة لله هي الإِسلام .

وفي أصل الإسلام قولان :

أحدهما : أن أصله مأخوذ من السلام وهو السلامة ، لأنه يعود إلى السلامة .

والثاني : أن أصله التسليم لأمر الله في العمل بطاعته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 379. 380 ﴾

فصل

قال الفخر :

اتفق القرّاء على كسر ﴿ أن ﴾ إلا الكسائي فإنه فتح ﴿ أن ﴾ وقراءة الجمهور ظاهرة ، لأن الكلام الذي قبله قد تم ، وأما قراءة الكسائي فالنحويون ذكروا فيه ثلاثة أوجه : الأول : أن التقدير : شهد الله أنه لا إله إلا هو أن الدين عند الله الإسلام وذلك لأن كونه تعالى واحداً موجب أن يكون الدين الحق هو الإسلام لأن دين الإسلام هو المشتمل على هذه الوحدانية

والثاني : أن التقدير : شهد الله أنه لا إله إلا هو ، وأن الدين عند الله الإسلام الثالث : وهو قول البصريين أن يجعل الثاني بدلاً من الأول ، ثم إن قلنا بأن دين الإسلام مشتمل على التوحيد نفسه كان هذا من باب قولك : ضربت زيداً نفسه ، وإن قلنا : دين الإسلام مشتمل على التوحيد كان هذا من باب بدل الاشتمال ، كقولك : ضربت زيداً رأسه .

فإن قيل : فعلى هذا الوجه وجب أن لا يحسب إعادة اسم الله تعالى كما يقال : ضربت زيداً رأس زيد .

قلنا : قد يظهرون الاسم في موضع الكناية ، قال الشاعر :

لا أرى الموت يسبق الموت شي . . وأمثاله كثيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 180 . 181 ﴾

وقال ابن عادل :

قرأ الكسائي بفتح الهمزة ، والباقون بكسرها ، فأما قراءة الجماعةِ فعلى الاستئناف ،

وهي مؤكِّدة للجملة الأولى.

قال الزمخشريُّ: "فإن قلتَ: ما فائدة هذا التوكيد؟ قلت: فائدته أن قوله: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ توحيد، وقوله: "قائماً بالقِسْط" تعديلٌ، فإذا أردفه بقوله: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسلام ﴾ فقد آذَنَ أن الإسلام هو العدل والتوحيد، وهو الدين عند الله، وما عداه فليس في شيء من الدين عنده".

وأما قراءة الكسائي ففيها أوجه:

أحدها: أنها بدل من ﴿ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ - على قراءة الجمهورِ - في أن ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فيها وجهان:

أحدهما: أنه من بدل الشيء من الشيء، وذلك أن الدين - الذي هو الإسلام - يتضمن العدلَ، والتوحيد، وهو هو في المعنى.

(215/114)

والثاني: أنه بدل اشتمال؛ لأن الإسلام يشتمل على التوحيدِ والعدل.

والثاني من الأَوْجُهِ السابقةِ: أن يكون "إنَّ الدِّينَ" بدلاً من قوله "بِالْقِسْطِ" ثم لك اعتباران:

أحدهما : أن تجعله بدلاً من لفظه ، فيكون محل " إنَّ الدِّينَ " الجر .

والثاني : أن تجعلَه بدلاً من موضعه ، فيكون محلها نصباً ، وهذا - الثاني - لا حاجة إليه - وإن كان أبو البقاء ذَكَرَه .

وإنما صحَّ البدلُ في المعنى ؛ لأن الدين - الذي هو الإسلامُ - قِسْط وعَدْل ، فيكون - أيضاً - من بدل الشيء من الشيء - وهما لعينٍ واحدة - .

ويجوز أن يكون بدل اشتمال ؛ لأن الدين مشتمل على القسط - وهو العدل - وهذه التخاريج لأبي علي الفارسي ، وتبعه الزمخشريُّ في بعضها .

قال أبو حيّان : " وهو_ أبو علي - معتزليّ ، فلذلك يشتمل كلامُه على لفظ المعتزلة من التوحيد والعدل ، وعلى البدل من أنه خرجه هو وغيره ، وليس بجيد ؛ لأنه يؤدي إلى تركيب بعيد أن يأتي في كلام العرب وهو : عَرَفَ زَيْدٌ أَنَّهُ لاَ شُجَاعَ إلاَّ هُوَ وَبَنُو تَمِيمٍ وَبَنُ دَارِمٍ مُلاَقِياً لِلْحُرُوبِ ، لاَ شُجَاعَ إلاَّ هُوَ الْبَطَلُ الْحَامِي ، إنَّ الخصلةَ الحميدةَ هي البسالةُ ، وتقريب هذا المثال : ضرب زيدٌ عائشة ، والعُمرانِ حَنِقاً أختك ، فحَنقاً ، حال من " زيد " و " أختك " بدل من " عائشة " ففصل بين البدل والمبدل منه بالعطف - وهذا لا يجوز - والحال لغير المبدل منه - وهو لا يجوز - ؛ لأنه فصل بأجنبي بين البدل والمبدل منه " .

قوله عرف زيد هو نظير " شَهِدَ اللهُ " ، وقوله : أنه لا شجاع إلا هو نظير ﴿ أَنَّهُ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وقوله : وبنو دارم نظير قوله : " وَالْمَلَائِكَةُ " وقوله : ملاقياً للحروب نظير قوله : " قَائِماً بِالْقِسْطِ " وقوله : لا شجاع إلا هو نظير قوله : ﴿ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فجاء به مكرَّراً - كما في الآية - وقوله : البطل الحامي نظير قوله " الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " وقوله : إن الخصلةَ الحميدةَ هي البسالةُ نظير قوله : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسلام ﴾ .

قال شهابُ الدين : " ولا يظهر لي منعُ ذلك ولا عدمُ صحةِ تركيبهِ ، حتى يقول : ليس بجيِّد ، وبعيد أن يأتي عن العرب مثلُه ، وما ادَّعاه بقوله - في المثال الثاني - : إن فيه الفصل بأجنبيٍّ فيه نظر ؛ إذْ هذه الجمل صارت كلُّها كالجملةِ الواحدةِ ؛ لما اشتملت عليه من تقويةِ كلمات بعضها ببعض ، وأبو علي وأبو القاسم وغيرُهما لم يكونوا في محل مَنْ يَجْهَل صحةَ تركيبِ بعضِ الكلام وفساده " .

ثم قال أبو حيّان : " قال الزمخشريُّ : وقُرِئَتَا مفتوحتَيْن على أن الثاني بدل من الأول ، كأنه قيل : شهد الله أن الدين عند الله الإسلام ، والمبدَل هو المبدَل منه في المعنى ، فكان بياناً صريحاً ؛ لأن دينَ الإسلام هو التوحيد والعدل " فقال : فَهَذَا نَقْلُ كَلَامِ أبي عَلِيٍّ دُونَ استيفاس .

الثالث – من الأوجه : أن يكون " إنَّ الدِّينَ " معطوفاً على ﴿ أَنَّهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ حذف منه حرف العطف ، قاله ابن جرير ، وضعفه ابن عطية ، ولم يُبَيِّن وَجْهَ ضَعْفه .

(217/114)

قال أبو حيان : " ووجه ضَعْفِه أنه متنافر التركيب مع إضمار حرف العطف ، فيفصل بين المتعاطفَين المرفوعين بالمنصوب المفعول ، وبين المتعاطفين المنصوبين بالمرفوع المشارك الفاعل في الفاعلية وبجملتي الاعتراض ، وصار في التركيب دون مراعاة الفصل ، نحو أكل زيدٌ خُبْزاً ، وعَمْرو سَمَكاً ، يعني فصلت بين زيد وعمرو بـ " خبزاً وسمكاً " .

الرابع : أن يكون معمولاً لقوله : ﴿ شَهِدَ اللهُ ﴾ ، أي : شهد الله بأن الدين ، فلما حذف حرف الجر جاز أن يحكم على موضعه بالنصب ، أو الجر .

فإن قلت : إنما يتجه هذا التخريجُ على قراءة ابن عباس ، وهي كسر " أنّ " الأولى ، وتكون الجملة – حينئذ – اعتراضاً بين طشَهِدَ " وبين معموله كما تقدم ، وأما على قراءة فتح " أن " الأولى – وهي قراءة العامة – فلا يتجه ما ذكرتَ من التخريج ؛ لأن الأولى معمولة له ، استغنى بها .

فالجوابُ : أن ذلك مُتَّجِهٌ – أيضاً – مع فتح الأولى ، وهو أن يُجْعَل الأولى على حذف لام

العلة تقديره : شهد الله أن الدين عند الله الإسلام ؛ لأنه لا إله إلا هو ، وهذا التخريج ذكره الواحديُّ ، وقال : " هذا معنى قول الفراء حيث يقول - في الاحتجاج للكسائي - : إن شئت جعلت " أنه " على الشرط ، وجعلنا الشهادة واقعة على قوله : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإسلام ﴾ ، ويكون " إنَّ " الأولى يصلح فيها الخفض ، كقولك : شهد الله لوحدانية أن الدين عند الله الإسلام " .

وهو كلام مُشْكِلٌ في نفسه ، ومعنى قوله على الشرط ، أي : العلة ، سَمَّى العلةَ شرطاً ؛ لأن المشروطَ متوقفٌ عليه كتوقف المعلول على علته ، فهو علة ، إلا أنه خلاف اصطلاح النحويين .

ثم اعترض الواحدي على هذا التخريج بأنه لو كان كذلك لم يَحْسُن إعادة اسم " الله " ، ولكان التركيب : إن الدين عنده الإسلام ؛ لأن الاسم قد سَبَق ، فالوجه الكناية .

ثم أجاب بأن العربَ رُبَّما أعادت الاسم موضعَ الكناية ، وأنشد : [الخفيف]

(218/114)

1372- لا أرى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيءٌ . . . نَغَّصَ الْمَوْتُ ذَا الغِنَى وَالفَقِيرَا

يعني أنه من باب إيقاع الظاهر موقع المضمر ، ويزيده - هنا - حُسْناً أنه في موضع تعظيم

وتفخيم.

الخامس: أن تكون على حذف حرف الجر معمولة للفظ "الْحَكِيم"، كأنه قيل: الحكيم بأن، أي: الحاكم بأن ف "حَكِيم" مثال مبالغة، مُحَوَّل من فاعل، فهو كالعليم والخبير والبصير، أي: المبالغ في هذه الأوصاف، وإنما عَدَلَ عن لفظ "حاكم" إلى "حكيم" - مع زيادة المبالغة - ؛ لموافقة "الْعَزِيز"، ومعنى المبالغة: تكرار حكمِهِ - بالنسبة إلى الشرائع - أن الدينَ عند الله الإسلام؛ إذْ حَكَمَ في كلّ شريعة بذلك، قاله أبو حيّان، ثم قال: فإن قلتَ: لِمَ حَمَلْتَ "الْحَكِيم" على أنه مُحوّل من "فاعل" إلى فعيل؛ للمبالغة، وهَلاَّ جعلته "فَعِيلا"، بمعنى "مُفْعِل" فيكون معناه "الْمُحكِم" كما قالوا في "أليم": إنه بمعنى "مُؤْلِم" وفي "سميع" من قول الشاعر: [الوافر]

1373- أمِنْ رَيْحَانَة الدَّاعي

السَّميع..............................

أي: المُسْمِع؟

(219/114)

فالجوابُ: أنا لا نسلم أن "فَعِيلا" يأتي بمعنى "مفعل"، وقد يؤول "أليم" و"سميع" على غير "مفعل"، ولئن سلمنا ذلك، فهو من الندور والشذوذ، بحيث لا يَنْقاس، [وأما] "فعيل" محوَّل من "فاعل"؛ للمبالغة فهو منقاس؛ كثير جداً، خارج عن الحصر، كعليم، وسميع، وقدير، وخبير، وحفيظ إلى ألفاظ لا تُحْصَى كَثْرَةً، وأيضاً فإن العربيَّ القُحَّ، الباقي على سجيته لم يفهم من "حكيم" إلا أنه محوّل من "فاعل"؛ للمبالغة، ألا ترى أنه لما سمع قارئاً يقرأ ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أَيدِيَهُمَا جزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ ﴾ [المائدة: 38] والله غفور رحيم أنكر أن تكون فاصلة هذا التركيب السابق ﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، فقيل له: التلاوة: ﴿ والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾، فقال: هكذا يكون، عَزَّ فَحَكَم فقط، ففهم من "حكيم" أنه محوّل - للمبالغة - من "حاكم"، وفَهْم هذا العربيِّ حُجَّةٌ قاطعةٌ بما قلناه، وهذا تخريج سَهْل، سائغ جداً، يزيل تلك التكلفات والتركيبات التي يُنزّه كتابُ الله عنها، وأما على قراءة ابن عباس فكذلك نقول، ولا نجعل ﴿ إِنَّ الدِّينَ ﴾ معمولاً لِ "شَهِدَ" - كما فهموا - وأن ﴿ أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ اعتراض - يعني بين الحال وصاحبها، وبين معموله - بل نقول: معمول "شَهِدَ" هو "إنَّهُ" - بالكسر - على تخريج من خرج أن "شَهِدَ" - لما كان بمعنى القول - كسر ما بعده؛ إجراءً له مُجْرَى القول.

أو نقول: إنه معموله، وعلقت، ولم تدخل اللام في الخبر؛ لأنه منفي، بخلاف ما لو كان مثبتاً فإنك تقول: شهدت إنَّ زيداً لَمُنْطَلِقٌ، فتعلق بـ "إنَّ" مع وجود اللام؛ لأنه لو لم تكن اللام لفتحت "إنَّ"، فقلت: شهدت أنَّ زَيْداً منطلقٌ، فمن قرأ بفتح "أنَّه"، فإنه لم يَنْو التعليقَ، ومن كسر فإنه نوى التعليق، ولم تدخل اللام في الخبر؛ لأنه منفي كما ذكرنا.

قال شهاب الدين: وكان الشيخ - لما ذكر الفصل والاعتراض بين كلمات هذه الآية - قال ما نصه: "وأما قراءة ابن عباس فتخرج على أن ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسلام ﴾ هو معمول "شَهِدَ" ويكون في الكلام اعتراضان:

أحدهما: بين المعطوف عليه والمعطوف وهو ﴿ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وإذا أعربنا ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ خبرَ مبتدأ محذوفٍ كان ذلك ثلاثة اعتراضات، انظر هذه التوجيهات البعيدة، التي لا يقدر أحد على أن يأتي لها بنظيرٍ من كلام العربِ، وإنما حمل على ذلك العُجْمَةُ، وعدمُ الإمعان في تراكيب كلام العربِ، وحِفْظِ أشعارِها".

قال شهاب الدين: "ونسبة كلامِ أعلام الأئمة إلى العجمة، وعدم معرفتهم بكلام العرب، وحملهم كلام الله على ما لا يجوز، وأن هذا - الذي ذكره - هو تخريج سهل واضح، غير مقبول ولا مُسَلَّم، بل المتبادر إلى الذهن ما نقله الناسُ، وتلك الاعتراضات بين أثناء تلك الآيةِ الكريمةِ موجودٌ نظيرُها في كلامِ العربِ، وكيف يجهل الفارسي والزمخشريُّ والفراءُ

وأضرابهم ذلك ؟ وكيف يَتَبَجّحُ باطِّلاعه على ما لم يَطلع عليه مثلُ هؤلاء ؟ وكيف يظن بالزمخشري أنه لا يعرفُ مواقعَ النظم ، وهو المسلَّم له في علم المعاني والبيان والبديع ، ولا يَشُكُ أحد أنه لا بد لمن يتعرض إلى علم التفسير أن يعرفَ جملةً صالحةً من هذه العلوم " .

قوله : ﴿ عِنْدَ اللهِ ﴾ ظرف ، العامل فيه لفظ " الدِّين " ؛ ملا تضمنه من معنى الفعل .

(221/114)

قال أبو البقاء : " ولا يكون حالاً ؛ لأن " إنَّ " لا تعمل في الحال " .

قال شهاب الدين : قد جوز في " ليت " وفي " كأن " أن تعمل في الحال " .

قالوا : لما تضمنته هذه الأحرف من معنى التمني والتشبيه ، ف " إن " للتأكيد ، فلْتَعْمَل في الحال – أيضاً – فليست تتباعد عن " الهاء " التي للتنبيه .

قيل : هي أولى منها ، وذلك أنها عاملة ، و" هاء " ليست بعاملة ، فهي أقرب لشبه الفعل من هاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 101 . 105 ﴾

قال ابن كثير :

قوله : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإسْلامُ ﴾ إخبار من الله تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام ، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين ، حتى ختموا بمحمد صلى

الله عليه وسلم ، الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد صلى الله عليه وسلم ، فمن لقي الله بعد بعثته محمدًا صلى الله عليه وسلم بدين على غير شريعته ، فليس بمتقبل . كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ [وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ] ﴾ [آل عمران : 85] وقال في هذه الآية مخبرًا بانحصار الدين المتقبل عنده في الإسلام : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾

وذكر ابن جرير أن ابن عباس قرأ : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ بكسر إنه وفتح ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ أي : شهد هو وملائكته وأولو العلم من البشر بأن الدين عند الله الإسلام . والجمهور قرأوها بالكسر على الخبر ، وكلا المعنيين صحيح . ولكن هذا على قول الجمهور أظهر والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 25 ﴾

(222/114)

فصل

قال الفخر :

أصل الدين في اللغة الجزاء ، ثم الطاعة تسمى دينا ً لأنها سبب الجزاء ، وأما الإسلام ففي

معناه في أصل اللغة أوجه الأول : أنه عبارة عن الدخول في الإسلام أي في الانقياد والمتابعة ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السلام ﴾ [النساء : 94] أي لمن صار منقاداً لكم ومتابعاً لكم والثاني : من أسلم أي دخل في السلم ، كقولهم : أسنى وأقحط وأصل السلم السلامة الثالث : قال ابن الأنباري : المسلم معناه المخلص لله عبادته من قولهم : سلم الشيء لفلان ، أي خلص له فالإسلام معناه إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى ، هذا ما يتعلق بتفسير لفظ الإسلام في أصل اللغة ، أما في عرف الشرع فالإسلام هو الإيمان ، والدليل عليه وجهان الأول : هذه الآية فإن قوله ﴿ إِنَّ الدّينَ عِندَ الله الإسلام ﴾ يقتضي أن يكون الدين المقبول عند الله ليس إلا الإسلام ، فلو كان الإيمان غير الإسلام وجب أن لا يكون الإيمان ديناً مقبولاً عند الله ، ولا شك في أنه باطل الثاني : قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران : 85] فلو كان الإيمان غير الإسلام لوجب أن لا يكون الإيمان ديناً مقبولاً عند الله تعالى .

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الأعراب ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قُولُواْ أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات : 14] هذا صريح في أن الإسلام مغاير للإيمان .

(223/114)

قلنا : الإسلام عبارة عن الانقياد في أصل اللغة على ما بينا ، والمنافقون انقادوا في الظاهر من خوف السيف ، فلاجرم كان الإسلام حاصلاً في حكم الظاهر ، والإيمان كان أيضاً حاصلاً في حكم الظاهر ، لأنه تعالى قال : ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ المشركات حتى يُؤْمِنَّ ﴾ [البقرة : 221] والإيمان الذي يمكن إدارة الحكم عليه هو الإقرار الظاهر ، فعلى هذا الإسلام والإيمان تارة يعتبران في الظاهر ، وتارة في الحقيقة ، والمنافق حصل له الإسلام الظاهر ، ولم يحصل له الإسلام الباطن ، لأن باطنه غير منقاد لدين الله ، فكان تقدير الآية : لم تسلموا في القلب والباطن ، ولكن قولوا : أسلمنا في الظاهر ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 181 ﴾

وقال ابن عاشور :

والدين : حقيقته في الأصل الجزاء ، ثم صار حقيقة عرفية يطلق على : مجموع عقائد وأعمال يلقنها رسول من عند الله ويعد العاملين بها بالنعيم والمعرضين عنها بالعقاب . ثم أطلق على ما يشبه ذلك مما يضعه بعض زعماء الناس من تلقاء عقله فتلتزمه طائفة من الناس . وسمي الدين دينا لأنه يترقب منه متبعه الجزاء عاجلا أو آجلا ، فما من أهل دين إلا وهم يترقبون جزاء من رب ذلك الدين ، فالمشركون يطمعون في إعانة الآلهة ووساطتهم ورضاهم عنهم ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، وقال أبو سفيان يوم أحد : أعل هبل . وقال يوم فتح مكة لما قال له العباس : أما آن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله : لقد

علمت أن لو كان معه إله غيره لقد أغنى عني شيئا . وأهل الأديان الإلهية يترقبون الجزاء الأوفى في الدنيا والآخرة ، فأول دين إلهي كان حقا وبه كان اهتداء الإنسان ، ثم طرأت الأديان المكذوبة ، وتشبهت بالأديان الصحيحة ، قال الله تعالى تعليما لرسوله ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون : 6] وقال ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ [يوسف : 76] .

(224/114)

وقد عرف العلماء الدين الصحيح بأنه وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير باطنا وظاهرا .

والإسلام علم بالغلبة على مجموع الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، كما أطلق على ذلك الإيمان أيضا ، ولذلك لقب أتباع هذا الدين بالمسلمين وبالمؤمنين ، وهو الإطلاق المراد به هنا ، وهو تسمية بمصدر أسلم إذا أذعن ولم يعاند إذعانا عن اعتراف بحق لا عن عجز ، وهذا اللقب أولى بالإطلاق على هذا الدين من لقب الإيمان ؛ لأن الإسلام هو المظهر البين لمتابعة الرسول فيما جاء به من الحق ، واطراح كل حائل يحول دون ذلك ، بخلاف الإيمان فإنه اعتقاد قلبي ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ ﴾

[الحج : 78] وقال ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ [آل عمران : 20] ولأن الإسلام لا يكون إلا عن اعتقاد لأن الفعل أثر الإدراك ، بخلاف العكس فقد يكون الاعتقاد مع المكابرة .

وربما أطلق الإسلام على خصوص الأعمال ؛ والإيمان على الاعتقاد ، وهو إطلاق مناسب لحالتي التفكيك بين الأمرين في الواقع ، كما في قوله تعالى ، خطابا لقوم أسلموا مترددين ﴿ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : 14] ، أو التفكيك في تصوير الماهية عند التعليم لحقائق المعاني الشرعية أو اللغوية كما وقع في حديث جبريل : من ذكر معنى الإيمان ، والإسلام ، والإحسان .

والتعريف في الدين تعريف الجنس ، إذ لا يستقيم معنى العهد الخارجي هنا وتعريف الإسلام تعريف العلم بالغلبة : لأن الإسلام صار علما بالغلبة على الدين المحمدي .

فقوله : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ صيغة حصر ، وهي تقتضي في اللسان حصر المسند إليه ، وهو الدين ، في المسند ، وهو الإسلام ، على قاعدة الحصر بتعريف جزئي الجملة ، أي لا دين إلا الإسلام ، وقد أكد هذا الانحصار بحرف التوكيد .

وقوله: ﴿عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ وصف للدين، والعندية عندية الاعتبار والاعتناء وليست عندية علم: فأفاد، أن الدين الصحيح هو الإسلام، فيكون قصرا للمسند إليه باعتبار قيد فيه، لا في جميع اعتباراته: نظير قول الخنساء:

إذا قبح البكاء على قتيل . . . رأيت بكاءك الحسن الجميلا

فحصرت الحسن في بكائه قاعدة أن المقصور هو الحسن لأنه هو المعرف باللام، وهذا الحصر باعتبار التقييد بوقت قبح البكاء على القتلى وهو قصر حسن بكائها على ذلك الوقت، ليكون لبكائها على صخر مزية زائدة على بكاء القتلى المتعارف وإن أبى اعتبار القصر في البيت أصلا صاحب المطول.

وإذ قد جاءت أديان صحيحة أمر الله بها فالحصر مؤول: إما باعتبار أن الدين الصحيح عند الله، حين الإخبار، وهو الإسلام، لأن الخبر ينظر إلى وقت الإخبار؛ إذ الأخبار كلها حقائق في الحال، ولا شك أن وقت الإخبار ليس فيه دين صحيح غير الإسلام؛ إذ قد عرض لبقية الأديان الإلهية، من خلط الفاسد بالصحيح، ما اختل لأجله مجموع الدين، وإما باعتبار الكمال عند الله فيكون القصر باعتبار سائر الأزمان والعصور؛ إذ لا أكمل من هذا الدين، وما تقدمه من الأديان لم يكن بالغا غاية المراد من البشر في صلاح شؤونهم، وهذا المعنى أولى محملي الآية، لأن مفاده أعم، وتعبيره عن حاصل صفة دين الإسلام تجاه بقية الأديان الإلهية أتم.

ذلك أن مراد الله تعالى من توجيه الشرائع وإرسال الرسل ، ليس مجرد قرع الأسماع بعبارات التشريع أو التذوق لدقائق تراكيبه ، بل مراد الله تعالى مما شرع للناس هو عملهم بتعاليم رسله وكتبه ، ولما كان المراد من ذلك هو العمل ، فجعل الله الشرائع مناسبة لقابيليات المخاطبين بها ، وجارية على قدر قبول عقولهم ومقدرتهم ، ليتمكنوا من العمل بها بدوام وانتظام ، فلذلك كان المقصود من التدين أن يكون ذلك التعليم الديني دأبا وعادة لمنتحليه ، وحيث النفوس لا تستطيع الانصياع إلى ما لا يتفق مع مدركاتها ، لا جرم تعين مراعاة حال المخاطبين في سائر الأديان ، ليمكن للأمم العمل بتعاليم شرائعها بانتظام ومواظبة .

وقد كانت أحوال الجماعات البشرية ، في أول عهود الحضارة ، حالات عكوف على عوائد وتقاليد بسيطة ، ائتلفت رويدا على حسب دواعي الحاجات ، وما تلك الدواعي ، التي تسببت في ائتلاف تلك العوائد ، إلا دواع غير منتشرة ؛ لأنها تنحصر فيما يعود على الفرد بحفظ حياته ، ودفع الآلام عنه ، ثم بحفظ حياة من يرى له مزيد اتصال به ، وتحسين حاله ، فبذلك ائتلف نظام الفرد ، ثم نظام العائلة ، ثم نظام العشيرة ، وهاته النظم المتقابسة هي نظم متساوية الأشكال ؛ إذ كلها لا يعدو حفظ الحياة ، بالغذاء والدفاع عن النفس ، ودفع

الآلام بالكساء والمسكن والزواج ، والانتصار للعائلة وللقبيلة ؛ لأن بها الاعتزاز ، ثم ما نشأ عن ذلك من تعاون الآحاد على ذلك ، بإعداد المعدات : وهو التعاوض والتعامل ، فلم تكن فكرة الناس تعدو هذه الحالة ، وبذلك لم يكن لأحد الجماعات شعور بما يجري لدى جماعة أخرى ، فضلاعن التفكير في اقتباس إحداهما مما يجري لدى غيرها ، وتلك حالة قناعة العيش ، وقصور الهمة وانعدام الدواعي فإذا حصلت الأسباب الآنفة عد الناس أنفسهم في منتهى السعادة .

(227/114)

وكان التباعد بين الجماعات في المواطن مع مشقة التواصل ، وما يعرض في ذلك من الأخطار والمتاعب ، حائلاعن أن يصادفهم ما يوجب اقتباس الأمم بعضها عن بعض وشعور بعضها بأخلاق بعض ، فصار الصارف عن التعاون في الحضارة الفكرية مجموع حائلين : عدم الداعي ، وانسداد وسائل الصدفة ، اللهم إلا ما يعرض من وفادة وافد ، أو اختلاط في نجعة أو موسم ، على أن ذلك إن حصل فسرعان ما يطرأ عليه النسيان ، فيصبح في خبر كان .

فكيف يرجى من أقوام ، هذه حالهم ، أن يدعوهم الداعي إلى صلاح في أوسع من دوائر

مدركاتهم ، ومتقارب تصور عقولهم ، أليسوا إذا جاءهم مصلح كذلك لبسوا له جلد النمر ، فأحسن من سوء الطاعة حرق الجمر ، لذلك لم تتعلق حكمة الله تعالى ، في قديم العصور ، بتشريع شريعة جامعة صالحة لجميع البشر ، بل كانت الشرائع تأتي إلى أقوام معينين ؛ وفي حديث مسلم ، في صفة عرض الأمم للحساب أن رسول الله قال : "فيجيء النبي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد" وفي رواية البخاري "فجعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط" الحديث . وبقي الحق في خلال ذلك مشاعا بين الأمم ، ففي كل أمة تجد سدادا وأفنا ، وبعض الحق لم يزل مخبوءا لم يسفر عنه البيان .

ثم أخذ البشر يتعارفون بسبب الفتوح والهجرة ، وتقاتلت الأمم المتقاربة المنازل ، فحصل للأمم حظ من الحضارة ، وتقاربت العوائد ، وتوسعت معلوماتهم ، وحضارتهم ، فكانت من الشرائع الإلهية : شريعة إبراهيم عليه السلام ، ومن غيرها شريعة حمورابي في العراق ، وشريعة البراهمة ، وشريعة المصريين ، التي ذكرها الله تعالى في قوله ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ [يوسف : 76] .

ثم أعقبتها شريعة إلهية كبرى وهي شريعة موسى عليه السلام التي اختلط أهلها بأمم كثيرة في مسيرهم في التيه وما بعده ، وجاورتها أو أعقبتها شرائع مثل شريعة زرادشت في الفرس ، وشريعة كنفشيوس في الصين ، وشريعة سولون في اليونان .

وفي هذه العصور كلها لم تكن إحدى الشرائع عامة الدعوة ، وهذه أكبر الشرائع وهي الموسوية لم تدع غير بني إسرائيل ولم تدع الأمم الأخرى التي مرت عليها ، وامتزجت بها ، وصاهرتها ، وكذلك جاءت المسيحية مقصورة على دعوة بني إسرائيل حتى دعا الناس إليها القديس بولس بعد المسيح بنحو ثلاثين سنة .

إلى أن كان في القرن الرابع بعد المسيح حصول تقابس وتمازج بين أصناف البشر في الأخلاق والعائد ، بسببين : اضطراري ، واختياري . أما الاضطراري فذلك أنه قد ترامت الأمم بعضها على بعض ، واتجه أهل الشرق إلى الغرب ، وأهل الغرب إلى الشرق ، بالفتوح العظيمة الواقعة بين الفرس والروم ، وهما يومئذ قطبا العالم ، بما يتبع كل واحدة من أمم تنتمي إلى سلطانها ، فكانت الحرب سجالا بين الفريقين ، وتوالت أزمانا طويلة .

وأما الاختياري فهو ما أبقاه ذلك التمازج من مشاهدة أخلاق وعوائد ، حسنت في أعين رائيها ، فاقتبسوها ، وأشياء قبحت في أعينهم ، فحذروها ، وفي كلتا الحالتين نشأت يقظة جديدة ، وتأسست مدنيات متفننة ، وتهيأت الأفكار إلى قبول التغييرات القوية ، فتهيأت جميع الأمم إلى قبول التعاليم الغريبة عن عوائدها وأحوالها ، وتساوت الأمم وتقاربت في هذا المقدار ، وإن تفاوتت في الحضارة والعلوم تفاوتا ربما كان منه ما زاد بعضها تهيئوا لقبول التعاليم الصحيحة ، وقهقر بعضا عن ذلك بما داخلها من الإعجاب بمبلغ علمها ، أو

العكوف والإلف على حضارتها .

فبلغ الأجل المراد والمعين لمجيء الشريعة الحق الخاتمة العامة .

(229/114)

فأظهر الله دين الإسلام في وقت مناسب لظهوره ، واختار أن يكون ظهوره بين ظهراني أمة لم تسبق لها سابقة سلطان ، ولا كانت ذات سيادة يومئذ على شيء من جهات الأرض ، ولكنها أمة سلمها الله من معظم رعونات الجماعات البشرية ، لتكون أقرب إلى قبول الحق ، وأظهر هذا الدين بواسطة رجل منها ، لم يكن من أهل العلم ، ولا من أهل الدولة ، ولا من ذرية ملوك ، ولا اكتسب خبرة سابقة بهجرة أو مخالطة ، ليكون ظهور هذا الحق الصريح ، والعلم الصحيح ، من مثله آية على أن ذلك وحي من الله نفح به عباده .

ثم جعل أسس هذا الدين متباعدة عن ذميم العوائد في الأمم ، حتى الأمة التي ظهر بينها ، وموافقة للحق ولو كان قد سبق إليه أعداؤها ، وكانت أصوله مبنية على الفطرة بمعنى ألا تكون ناظرة إلا إلى ما فيه الصلاح في حكم العقل السليم ، غير مأسور للعوائد ولا للمذاهب ، قال تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : 30] قال الشيخ أبو علي ابن

سينا : "الفطرة أن يتوهم الإنسان نفسه حصل في الدنيا دفعه وهو عاقل ، لم يسمع رأيا ، ولم يعتقد مذهبا ، ولم يعاشر أمة ، لكنه شاهد المحسوسات ، ثم يعرض على ذهنه الأشياء شيئا فشيئا فإن أمكنه الشك في شيء فالفطرة لا تشهد به ، وإن لم يمكنه الشك فيه فالفطرة توجبه ، وليس كل ما توجبه الفطرة بصادق ، بل الصادق منه ما تشهد به فطرة القوة التي تسمى عقلا ، قبل أن يعترضه الوهم" .

ويدخل في الفطرة الآداب العتيقة التي اصطلح عليها كافة عقلاء البشر ، وارتاضت نفوسهم بها ، إذا كانت تفيدهم كمالا ، ولا تفضي إلى فساد ، وذلك أصول قواعد حفظ النسب والعرض خاص . فبهذا الأصل : أصل الفطرة كان الإسلام دينا صالحا لجميع الأمم في جميع الأعصر .

ثم ظهر هذا الأصل في تسعة مظاهر خادمة له ومهيئة جميع الناس لقبوله .

(230/114)

المظهر الأول : إصلاح العقيدة بحمل الذهن على اعتقاد لا يشوبه تردد ولا تمويه ولا أوهام ولا خرافات ، ثم بكون عقيدته مبنية على الخضوع لواحد عظيم ، وعلى الاعتراف باتصاف هذا الواحد بصفات الكمال التامة التي تجعل الخضوع إليه اختيارا ، ثم لتصير تلك

الكمالات مطمح أنظار المعتقد في التخلق بها ثم بحمل جميع الناس على تطهير عقائدهم حتى يتحد مبدأ التخلق فيهم ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران : 64].

وكان إصلاح الاعتقاد أهم ما ابتدأ به الإسلام ، وأكثر ما تعرض له ؛ وذلك لأن إصلاح الفكرة هو مبدأ كل إصلاح ؛ ولأنه لا يرجى صلاح لقوم تلطخت عقولهم بالعقائد الضالة ، وخسئت نفوسهم بآثار تلك العقائد المثيرة ، خوفا من لا شيء ، وطمعا في غير شيء . وإذا صلح الاعتقاد أمكن صلاح الباقي ؛ لأن المرء إنسان بروحه لا بجسمه .

ثم نشأ عن هذا الاعتقاد الإسلامي : عزة النفس ، وأصالة الرأي ، وحرية العقل ، ومساواة الناس فيما عدا الفضائل .

وقد أكثر الإسلام شرح العقائد إكثارا لا يشبهه فيد دين آخر ، بل إنك تنظر إلى كثير من الأديان الصحيحة ، فلا ترى فيها من شرح صفات الخالق إلا قليلا .

المظهر الثاني : جمعه بين إصلاح النفوس ، بالتزكية ، وبين إصلاح نظام الحياة ، بالتشريع ، في حين كان معظم الأديان لا يتطرق إلى نظام الحياة بشيء ، وبعضها وإن تطرق إليه إلا أنه لم يوفه حقه ، بل كان معظم اهتمامها منصرفا إلى المواعظ والعبادات ، وقد قرن القرآن

المصلحتين في غير ما آية قال تعالى ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: 97].

(231/114)

والمظهر الثالث: اختصاصه بإقامة الحجة، ومجادلة المخاطبين بصنوف المجادلات، وتعليل أحكامه، بالترغيب وبالترهيب، وذلك رعي لمراتب نفوس المخاطبين، فمنهم العالم الحكيم الذي لا يقتنع إلا بالحجة والدليل، ومنهم المكابر الذي لا يرعوي إلا بالجدل والخطابة، ومنهم المترهب الذي اعتاد الرغبة فيما عند الله، ومنهم المكابر المعاند، الذي لا يقلعه عن شغبه إلا القوارع والزواجر.

المظهر الرابع: أنه جاء بعموم الدعوة لسائر البشر، وهذا شيء لم يسبق في دين قبله قط، وفي القرآن ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ [الأعراف: 158] وفي الحديث الصحيح: "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي فذكر وكان الرسول يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة" وقد ذكر الله تعالى الرسل كلهم فذكر أنه أرسلهم إلى أقوامهم.

والاختلاف في كون نوح رسولا إلى جميع أهل الأرض، إنما هو مبني: على أنه بعد الطوفان

انحصر أهل الأرض في أتباع نوح، عند القائلين بعموم الطوفان سائر الأرض، ألا ترى قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ ﴾ [الأعراف: 59] وأياما كان احتمال كون سكان الأرض في عصر نوح هم من ضمهم وطن نوح؛ فإن عموم دعوته حاصل غير مقصود.

المظهر الرابع: الدوام ولم يدع رسول من الرسل أن شريعته دائمة، بل ما من رسول، ولا كتاب، إلا تجد فيه بشارة برسول يأتي من بعده.

المظهر الخامس: الإقلال من التفريع في الأحكام بل تأتي بأصولها ويترك التفريع لاستنباط المجتهدين وقد بين ذلك أبو إسحاق الشاطبي في تفسير قوله تعالى ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: 38] لتكون الأحكام صالحة لكل زمان.

(232/114)

المظهر السادس: أن المقصود من وصايا الأديان إمكان العمل بها، وفي أصول الأخلاق أن التربية الصحيحة هي التي تأتي إلى النفوس بالحيلولة بينها خواطر الشرور؛ لأن الشرور، إذا تسربت إلى النفوس، تعذر أو عسر اقتلاعها منها، وكانت الشرائع تحمل الناس على متابعة وصاياها بالمباشرة، فجاء الإسلام يحمل الناس على الخير بطريقتين: طريقة مباشرة، وطريقة سد الذرائع الموصلة إلى الفساد، وغالب أحكام الإسلام من هذا القبيل

وأحسبها أنها من جملة ما أريد بالمشتبهات في حديث إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس" .

المظهر السابع : الرأفه بالناس حتى في حملهم على مصالحهم بالاقتصار في التشريع على موع المصلحة ، مع تطلب إبراز ذلك التشريع في صورة لينة ، وفي القرآن ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة : 185] وفي الحديث الصحيح : "بعثت بالحنفية السمحة ولن يشاد هذا الدين أحدا إلا غلبه" وكانت الشرائع السابقة تحمل على المتابعة بالشدة ، فلذلك لم تكن صالحة للبقاء ؛ لأنها روعي فيها حال قساوة أمم في عصور خاصة ، ولم تكن بالتي يناسبها ما قدر مصير البشر إليه من رقة الطباع وارتقاء الأفهام .

المظهر الثامن : امتزاج الشريعة بالسلطان في الإسلام ، وذلك من خصائصه ؛ إذ لا معنى للتشريع إلا تأسيس قانون للأمة ، وما قيمة قانون لا تحميه القوة والحكومة . وبامتزاج الحكومة مع الشريعة أمكن تعميم الشريعة ، واتحاد الأمة في العمل والنظام .

المظهر التاسع : صراحة أصول الدين ، بحيث يتكرر في القرآن ما تستقرى منه قواطع الشريعة ، حتى تكون الشريعة معصومة من التأويلات الباطلة ، والتحريفات التي طرأت على أهل الكتب السابقة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 46 . 53 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا اختلف الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ العلم بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا اختلف الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ الآية .

أخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب أنه كان على علمٍ منهم بالحقائق ، وأنه كان بغيا وطلبا للدنيا .

قاله ابن عمر وغيره .

وفي الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : وما اختلف الذين أوتوا الكتاب بغيا بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم ، قاله الأخفش .

قال محمد ابن جعفر بن الزبير : المراد بهذه الآية النصارى ، وهو توبيخ لنصارى نَجْرَانَ .

وقال الربيع بن أنس : المراد بها اليهود .

ولفظ الذين أوتوا الكتاب يعمّ اليهود والنصارى ؛ أي "وما اختلف الذين أوتوا الكتاب" يعني في نبوَّة محمد صلى الله عليه وسلم "إلاّ مِنْ بَعْد مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ" يعني بيان صفته ونبوّته في كتبهم .

وقيل : أي وما اختلف الذين أوتوا الإنجيل في أمر عيسى وفرّقوا فيه القول إلا من بعد ما جاءهم العلم بأن الله إله واحد ، وأن عيسى عبد الله ورسوله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 44 ﴾

قال الماوردى :

وفيما اختلفوا فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : في أديانهم بعد العلم بصحتها .

والثاني : في عيسى وما قالوه فيه من غلو وإسراف .

والثالث : في دين الإِسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 380 ﴾

فصل

قال الفخر :

الغرض من الآية بيان أن الله تعالى أوضح الدلائل ، وأزال الشبهات والقوم ما كفروا إلا لأجل التقصير ، فقوله ﴿ وَمَا اختلف الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ فيه وجوه :

(234/114)

الأول : المراد بهم اليهود ، واختلافهم أن موسى عليه السلام لما قربت وفاته سلم التوراة إلى سبعين حبراً ، وجعلهم أمناء عليها واستخلف يوشع ، فلما مضى قرن بعد قرن اختلف أبناء السبعين من بعد ما جاءهم العلم في التوراة بغياً بينهم ، وتحاسدوا في طلب الدنيا

والثاني : المراد النصارى واختلافهم في أمر عيسى عليه السلام بعد ما جاءهم العلم بأنه عبد الله ورسوله والثالث : المراد اليهود والنصارى واختلافهم هو أنه قالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله وأنكروا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : نحن أحق بالنبوّة من قريش ، لأنهم أميون ونحن أهل الكتاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 182 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ وَمَا اختلف الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ في هذا الدين ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ العلم بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ يعني بيان أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وهم اليهود والنصارى ، فلما بعث الله تعالى محمداً ، كفروا حسداً منهم ، هكذا قال مقاتل .

ويقال : إنهم كانوا مسلمين ، وكانا يسمّون بذلك ، وكان عيسى عليه السلام سمى أصحابه مسلمين ، فحسدتهم اليهود لمشاركتهم في الاسم فغيَّروا ذلك الاسم ، وسُمُّوا يهوداً ، وأما النصارى فغيرهم عن ذلك الاسم بولس ، وسماهم نصارى ، فذلك قوله : ﴿ وَمَا اختلف الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ العلم بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ يعني غَيّروا الاسم حسداً منهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 226 ﴾

قال الفخر :

قوله ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ العلم ﴾ المراد منه إلا من بعد ما جاءتهم الدلائل التي لو نظروا

فيها لحصل لهم العلم ، لأنا لو حملناه على العلم لصاروا معاندين والعناد على الجمع العظيم لا يصح ، وهذه الآية وردت في كل أهل الكتاب وهم جمع عظيم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 182 ﴾

فصل

قال الفخر :

(235/114)

في انتصاب قوله ﴿ بَغْيًا ﴾ وجهان الأول : قول الأخفش إنه انتصب على أنه مفعول له أي للبغي كقولك : جئتك طلب الخير ومنع الشر والثاني : قول الزجاج إنه انتصب على المصدر من طريق المعنى ، فإن قوله ﴿ وَمَا اختلف الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ قائم مقام قوله : وما بغى الذين أوتوا الكتاب فجعل ﴿ بَغِيًا ﴾ مصدراً ، والفرق بين المفعول له وبين المصدر أن المفعول له غرض للفعل ، وأما المصدر فهو المفعول المطلق الذي أحدثه الفاعل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 182 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قال الأخفش قوله ﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ من صلة قوله ﴿ اختلف ﴾ والمعنى : وما اختلفوا بغياً بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، وقال غيره : المعنى وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم إلا للبغي بينهم ، فيكون هذا إخباراً عن أنهم إنما اختلفوا للبغي ، وقال القفال : وهذا أجود من الأول ، لأن الأول : يوهم أنهم اختلفوا بسبب ما جاءهم من العلم ، والثاني : يفيد أنهم إنما اختلفوا لأجل الحسد والبغي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 182 ﴾

قال البيضاوى :

﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ حسداً بينهم وطلباً للرئاسة ، لا لشبهة وخفاء في الأمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 19 ﴾

(236/114)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا اختلف الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ قيل : المراد بهم اليهود واختلفوا فيما عهد إليهم موسى عليه الصلاة والسلام ، أخرج ابن جرير عن الربيع قال : "إن موسى عليه الصلاة والسلام لما حضره الموت دعا سبعين حبراً من أحبار بني إسرائيل فاستودعهم التوراة

وجعلهم أمناء عليها واستخلف يوشع بن نون فلما مضى القرن الأول والثاني والثالث وقعت الفرقة بينهم وهم الذين أوتوا العلم من أبناء السبعين حتى أهراقوا بينهم الدماء ووقع الشر طلباً لسلطان الدنيا وملكها وخزائنها وزخرفها فسلط الله تعالى عليهم جبابرتهم" ، وقيل : النصارى واختلفوا في التوحيد ، وقيل : المراد بالموصول اليهود والنصارى ، وبالكتاب الجنس واختلفوا في التوحيد ، وقيل : في نبوته صلى الله عليه وسلم ، وقيل : في الإيمان بالأنبياء ، والظاهر أن المراد من الموصول ما يعم الفريقين ، والذي اختلفوا فيه الإسلام كما يشعر به السياق والتعبير عنهم بهذا العنوان زيادة تقبيح لهم فإن الاختلاف بعد إتيان الكتاب أقبح .

(237/114)

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ العلم ﴾ زيادة أخرى فإن الاختلاف بعد مجيء العلم أزيد في القباحة والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أو أعم الأوقات ، والمراد من مجيء العلم التمكن منه لسطوع براهينه ، أو المراد منه حصول العلم بحقيقة الأمر لهم بالفعل ولم يقل علموا مع أنه أخصر إشارة إلى أنه علم بسبب الوحي ، وقوله سبحانه : ﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ زيادة تشنيع ، والاسم المنصوب مفعول له لما دل عليه ﴿ مَا ﴾ و ﴿ إِلا ﴾ من ثبوت

الاختلاف بعد مجيء العلم كما تقول ما ضربت إلا ابني تأديباً ، فلا دلالة للكلام على حصر الباعث ، وادعاه بعضهم أي إن الباعث لهم على الاختلاف هو البغي والحسد لا الشبهة وخفاء الأمر ، ولعل انفهام ذلك من المقام أو من الكلام بناءاً على جواز تعدد الاستثناء المفرغ أي ما اختلفوا في وقت لغرض إلا بعد العلم لغرض البغي كما تقول : ما ضرب إلا زيد عمراً أي ما ضرب أحداً إلا زيد عمراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 107 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

عطف ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ على قوله ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ ﴾ للإخبار عن حال أهل الكتاب من سوء تلقيهم لدين الإسلام ، ومن سوء فهمهم في دينهم . وجيء في هذا الإخبار بطريقة مؤذنة بورود سؤال ؛ إذ قد جيء بصيغة الحصر : لبيان سبب اختلافهم ، وكأن اختلافهم أمر معلوم للسامع . وهذا أسلوب عجيب في الإخبار عن حالهم إخبارا يتضمن بيان سببه ، وإبطال ما يتراءى من الأسباب غير ذلك ، مع إظهار المقابلة بين حال الدين الذي هم عليه يومئذ من الاختلاف ، وبين سلامة الإسلام من ذلك .

وذلك أن قوله ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ قد آذن بأن غيره من الأديان لم يبلغ مرتبة الكمال والصلاحية للعموم، والدوام، قبل التغيير، بله ما طرأ عليها من التغيير، وسوء التأويل، إلى يوم مجيء الإسلام، ليعلم السامعون أن ما عليه أهل الكتاب لم يصل إلى أكمل مراد الله من الخلق على أنه وقع فيه التغيير والاختلاف، وأن سبب ذلك الاختلاف هو البغي بعدما جاءهم العلم، مع التنبيه على أن سبب بطلان ما هم عليه يومئذ هو اختلافهم وتغييرهم، ومن جملة ما بدلوه الآيات الدالة على بعثة محمد صلى الله عليه وسلم. وفيه تنبيه على أن الإسلام بعيد عن مثل ما وقعوا فيه من التحريف، كما تقدم في المظهر التاسع، ومن ثم ذم علماؤنا التأويلات البعيدة، والتي لم يدع إليها داع صريح.

وقد جاءت الآية على نظم عجيب يشتمل على معان: منها التحذير من الاختلاف في الدين، أي في أصوله، ووجوب تطلب المعاني التي لا تناقض مقصد الدين، عبرة بما طرأ على أهل الكتاب من الاختلاف.

ومنها للتنبيه على أن اختلاف أهل الكتاب حصل مع قيام أسباب العلم بالحق، فهو تعريض بأنهم أساءوا فهم الدين.

ومنها الإشارة إلى أن الاختلاف الحاصل في أهل الكتاب نوعان: أحدهما اختلاف كل أمة مع الأخرى في صحة دينها كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ

وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ [البقرة: 113]، وثانيهما اختلاف كل أمة منهما فيما بينها وافتراقها فرقا متباينة المنازع. كما جاء في الحديث اختلفت اليهود على اثنتين وسبعين فرقة يحذر المسلمين مما صنعوا.

ومنها أن اختلافهم ناشئ عن بغي بعضهم على بعض.

(239/114)

ومنها أنهم أجمعوا على مخالفة الإسلام والإعراض عنه بغيا منهم وحسدا، مع ظهور أحقيته عند علمائهم وأحبارهم كما قال تعالى ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [البقرة: 146-147] وقال تعالى ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة: 109] أي أعرضوا عن الإسلام، وصمموا على البقاء على دينهم، وودوا لو يردونكم إلى الشرك أو إلى متابعة دينهم، حسدا على ما جاءكم من الهدى بعد أن تبين لهم أنه الحق.

ولأجل أن يسمح نظم الآية بهذه المعاني، حذف متعلق الاختلاف في قوله ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ ليشمل كل اختلاف منهم: من مخالفة بعضهم بعضا في الدين الواحد

، ومخالفة أهل كل دين لأهل الدين الآخر ، ومخالفة جميعهم للمسلمين في صحة الدين .

وحذف متعلق العلم في قوله ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ لذلك .

وجعل بغيا عقب قوله من بعد ما جاءهم العلم ليتنازعه كل من فعل اختلف ومن لفظ العلم .

وأخر بينهم عن جميع ما يصلح للتعليق به : ليتنازعه كل من فعل اختلف وفعل جاءهم ولفظ العلم ولفظ بغيا .

وبذلك تعلم أن معنى هذه الآية أوسع معاني من معاني قوله تعالى ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ في سورة البقرة[213] وقوله ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ في سورة البينة [4] كما ذكرناه في ذينك الموضعين لاختلاف المقامين .

فاختلاف الذين أوتوا الكتاب يشمل اختلافهم فيما بينهم : أي اختلاف أهل كل ملة في أمور دينهم ، وهذا هو الذي تشعر بها صيغة اختلف كاختلاف اليهود بعد موسى غير مرة ، واختلافهم بعد سليمان إلى مملكتين : مملكة إسرائيل ، ومملكة يهوذا ، وكيف صار لكل

مملكة من المملكتين تدين يخالف تدين الأخرى ، وكذلك اختلاف النصارى في شأن المسيح ، وفي رسوم الدين ، ويكون قوله بينهم حالا لبغيا : أي بغيا متفشيا بينهم ، بأن بغى كل فريق على الآخر .

ويشمل أيضا الاختلاف بينهم في أمر الإسلام ؛ إذ قال قائل منهم : هو حق ، وقال فريق : هو مرسل إلى الأميين ، وكفر فريق ، ونافق فريق . وهذا الوجه أوفى مناسبة بقوله تعالى ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ، ويكون قوله ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ على هذا وصفا لبغيا : أي بغيا واقعا بينهم .

ومجيء العلم هو الوحي الذي جاءت به رسلهم وأنبياؤهم ؛ لأن كلمة جاء مؤذنة بعلم متلقى من الله تعالى ، يعني أن العلم الذي جاءهم كان من شأنه أن يصدهم عن الاختلاف في المراد ، إلا أنهم أساءوا فكانوا على خلاف مراد الله من إرسال الهدى .

وانتصب ﴿ بَغْياً ﴾ على أنه مفعول لأجله ، وعامل المفعول لأجله : هو الفعل الذي تفرغ للعمل فيما بعد حرف الاستثناء فالاستثناء كان من أزمان وعلل محذوفة والتقدير : ما اختلفوا إلا في زمن بعد ما جاءهم العلم وما كان إلا بغيا بينهم . ولك أن تجعل بغيا منصوبا على الحال من الذين أوتوا الكتاب ، وهو إن كان العامل فيه فعلا منفيا في اللفظ إلا إن الاستثناء المفرغ جعله في قوة المثبت ، فجاء الحال منه عقب ذلك ، أي حال كون المختلفين

باغين ، فالمصدر مؤول بالمشتق . ويجوز أن تجعله مفعولا لأجله من اختلف باعتبار كونه صار مثبتا كما قررنا .

(241/114)

وقد لمحت الآية إلى أن هذا الاختلاف والبغي كفر ؛ لأنه أفضي بهم إلى نقض قواعد أديانهم ، وإلى نكران دين الإسلام ، ولذلك ذيله بقوله : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 53.56 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بآيات الله فَإِنَّ الله سَرِيعُ الحساب ﴾

قال الفخر :

هذا تهديد ، وفيه وجهان :

الأول : المعنى فإنه سيصير إلى الله تعالى سريعاً فيحاسبه أي يجزيه على كفره

والثاني : أن الله تعالى سيعلمه بأعماله ومعاصيه وأنواع كفره بإحصاء سريع مع كثرة الأعمال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 182 ﴾

وقال السمرقندى :

وقوله : ﴿ سَرِيعُ الحساب ﴾ يعني سريع المجازاة ويقال سريع التعريف للعامل عمله ، لأنه

عالم بجميع ما عملوا ، لا يحتاج إلى إثبات شيء ، وتذكر شيء .

ويقال : إذا حاسب ، فحسابه سريع يحاسب جميع الخلق في وقت واحد ، كل واحد منهم يظن أنه يحاسبه خاصة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 226 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بآيات الله ﴾ قيل : المراد بها حججه ، وقيل : التوراة ، وقيل : هي والإنجيل ، وقيل : القرآن ، وقيل : آياته الناطقة بأن الدين عند الله الإسلام ، والظاهر العموم أي أية آية كانت ، والمراد بمن أيضاً أعم من المختلفين المذكورين وغيرهم ولك أن تخصه بهم ﴿ فَإِنَّ الله سَرِيعُ الحساب ﴾ قائم مقام جواب الشرط علة له أي ومن يكفر يعاقبه الله تعالى ويجازه عن قريب فإنه سريع الحساب أي يأتي حسابه عن قريب أو يتم ذلك بسرعة ، وقيل : إن سرعة الحساب تقتضي إحاطة العلم والقدرة فتفيد الجملة الوعيد ، وباعتباره ينتظم الشرط والجزاء من غير حاجة إلى تقدير ، ولعله أولى وأدق نظراً . وفي إظهار الاسم الجليل تربية للمهابة وإدخال الروعة ، وفي ترتيب العقاب على مطلق الكفر إثر بيان حال أولئك المذكورين إيذان بشدّة عقابهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 107 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

وفي ذكر هذه الأحوال الذميمة من أحوال أهل الكتاب تحذير للمسلمين أن يقعوا في مثل ما وقع فيه أولئك ، والمسلمون وإن اختلفوا في أشياء كثيرة لم يكن اختلافهم إلا اختلافا علميا فرعيا ، ولم يختلفوا اختلافا ينقض أصول دينهم بل غاية الكل الوصول إلى الحق من الدين ، وخدمة مقاصد الشريعة . فبنوا إسرائيل عبدوا العجل والرسول بين ظهرانيهم ، وعبدوا آلهة الأمم غير مرة ، والنصارى عبدوا مريم والمسيح ، ونقضوا أصول التوحيد ، وادعوا حلول الخالق في المخلوق . فأما المسلمون لما قال أحد أهل التصوف منهم كلاما يوهم الحلول حكم علماؤهم بقتله . انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ 56﴾

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ ﴾ .

الدِّينُ الذي يرتضيه ، والذي حكم لصاحبه بأنه يجازيه ويعليه ، وبالفضل يُلَقِّيه – هو الإِسلام .

والإسلام هو الإخلاص والاستسلام ، وما سواه فمردود ، وطريق النجاة على صاحبه مسدود .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ ﴾ .

جاءهم العلم الذي عليهم حجة، لا المعرفة التي لها بيان ومحجة، فأصروا على الجحود، لأنهم حُجِبُوا عن محل الشهود. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 1 صـ 228﴾

(243/114)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾

بعد أن قال لنا : إنه إله واحد، وقائم بالقسط هو نتيجة منطقية لكونه - سبحانه - إلها واحدا فكأن قوله ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ هو نتيجة لقوله : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ ﴾. لماذا ؟ لأنه لا تسليم لأحد إلا الله، وما دام الله إلها واحدا، فلا إله غيره يشاركه، يقول الحق :

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَاهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَاهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

[المؤمنون : 91].

وما دام قد ثبت أنه هو الإله الواحد ، فما الذي يمنعك أيها الإنسان أن تخضع لمراده منك ؟ إذن فقول الحق بعد ذلك : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ هو أمر منطقي جدا يجب أن ينتهي إليه العاقل ، ومع ذلك رحمنا الله سبحانه وتعالى فأرسل لنا رسلا لينبهونا إلى القضية السببية ، والمسببية ، والمقدمة والنتيجة ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ وإذا سألنا : ما هو الدين ؟ تكون الإجابة : إن الدين كلمة لها إطلاقات متعددة فهي من " دان " تقول : دنت لفلان : رجعت له وأسلمت نفسي له ، وائتمرت بأمره . ويُطلق الدين أيضا على الجزاء ، فالحق يقول عن يوم الجزاء : " يوم الدين " وهو يوم الجزاء على الطاعة وعلى المعصية ، وعلى أن الإنسان المؤمن قد دان لأمر الله ، فكلها تلتقي في قول الحق : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ يُشعرنا بأنه قد توجد أديان يخضع لها الناس ، ولكنها ليست أديانا عند الله ؛ ألم يقل الحق :

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾

[الكافرون : 6] .

إن معنى ذلك أن هناك دينا لغير الله فيه خضوع واستسلام ، وفيه تنفيذ لأوامر ، ولكن

ليس دينا لله ، ولا دينا عند الله . إن الدين المعترف به عند الله هو الإسلام . والدين يطلق مرة على الملة ومرة أخرى على الشريعة ، فإن أراد المؤمن الأحكام المطلوبة فلك أن تسميها شريعة ، وإن أراد المؤمن الطاعة ، والخضوع ، وما يترتب عليهما من الجزاء فليسمها المؤمن الدين ، وإن أراد الإنسان كل ما ينتظم ذلك فليسمها الملة .

(245/114)

إذن فقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ تعني أنه لا دين عند الله إلا الإسلام ، وكلمة " الإسلام " مأخوذة من مادة " سين " و " لام " و " ميم " . و " السين " و " اللام " و " الميم " لها معنى يدور في كل اشتقاقاتها ، وينتهي عند السلامة من الفساد . وينتهي المعنى أيضا إلى الصلح بين الإنسان ونفسه ، وبين الإنسان وربه ، وبين الإنسان والكون ، وبين الإنسان وإخوانه ، إنه صلاح وعدم فساد ، كل مادة السين واللام والميم تدل على ذلك ، وما دامت المادة المكونة منها كلمة " إسلام " تدل على ذلك فلماذا لا نتبعها ؟ .

لقد قلنا سابقا : إن الإنسان لا يخضع لمثيله إلا إذا اقتنع بما يقول ، إن الإنسان يقول لمساويه الذي يأمره : لماذا تريدني أن أنفذ أوامرك ؟ إنك لا بد أن تقنعني بالحكمة من ذلك الأمر ، لكن عندما يؤمن الإنسان بإله واحد قائم بالقسط ، ويصدر من هذا الإله أمر ، فعلى

الإنسان الطاعة .

إذن . . فالإسلام معناه الخضوع ، والاستسلام بعزة وفهم ، وعزة وتعقل ؛ لأن هناك عبودية تَعَقّل عندما يقف الإنسان عند المعنى السطحي ، وهناك عزة تعقل عندما يقف الإنسان عند المعنى الذي لا يأتيه الباطل من بين يده أو من خلفه ، إن هذا هو عزة العقل فلا يستهويه أي شيء سوى الخضوع للأمر الثابت الذي لا يتناقض أبدا .

فما دام الله إلها واحدا قائما بالقسط فإني كعبدٍ من عبيده حين أؤمن به وآخذ عنه ، فهذه عزة في الفهم وعزة في التعقل ، وعزة في العبودية أيضا ، لأنني أعبد الله الذي هو فوق كل المخلوقات والكائنات ، ولا أعبد مساويا لي ، وإن الذي يعبد مساويا له لا يملك إلا إنفة وحميّة الذليل ، وما دام الإسلام هو الخضوع والاستسلام لله فهو خضوع لغير مساو ، و " أسلم " أي دخل في السلم ، أي دخل في الصلح ، وعدم التناقض ، وفي الأمان والراحة ، أي خلص نفسه من كل شيء إلا وجه الله ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾

[الزمر : 29] .

كأن الله يريد أن يوضح لنا الفرق بين الخاضع لأمر سيد واحد ، وبين الخاضع لِسَادَةٍ كثيرين . وضرب الله لنا المثل بالأمر المشهور عندنا ، فقال ما معناه : هب أن عبداً له من السادة عشرة ، وكل سيّد له منه طلب ، فماذا يصنع ذلك العبد ؟ وعبد آخر له سيد واحد ، هذا العبد يكون مستريحا لأنّ له سيدا واحدا ، بينما الآخر المملوك لعشرة تتضارب حياته بتضارب أوامر سادته العشرة .

إذن فالعبد المملوك لشركاء تعيس ؛ لأن الشركاء غير متفقين ، إنهم شركاء متشاكسون ، فإذا رآه سيده يفعل أمرا لسيد آخر ، أمره بالعكس ، وبذلك يتبدد جهد هذا العبد ويكثر تعبه ، ولكن الرجل السلم لرجل ، هو مستريح ، وكذلك التوحيد ، لقد جاء الحق سبحانه بمثل من واقعنا ليقرب لنا حلاوة التوحيد . إن العبد المؤمن بإله واحد يحمد الله لأنه خاضع لإله واحد . إذن فما دام الإسلام هو الخضوع والاستسلام ومعناه الدخول في السلم بكسر السين – أو الدخول في السلم – بفتح السين – يقول الحق :

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

[الأنفال : 61] .

هذا الخضوع ليس لمساو ، بل لأعلى . والأعلى الذي نخضع له هو الذي خلق ، وهو الأعلى الذي أمدنا بقيوميته بكل شيء .

إذن فإذا أسلم الإنسان ، فإن هذا الإسلام له ثمن هو المثوبة من الله . إن من مصلحة الإنسان أن يسلم . ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ وما دام الدين المعترف به عند الله هو الإسلام فهو الدين الذي يترتب عليه الثواب والإسلام هو دين الرسل جميعا ، وكلهم قد آمن به ؛ فإبراهيم خليل الرحمن قد قال :

(247/114)

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

[البقرة : 128] .

ويعقوب عليه السلام يخبر الحق عنه في قوله لبنيه وإجابتهم له :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَاهَكَ وَإِلَاهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَاهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

[البقرة : 133] .

ويقول – جل شأنه – :

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾

[الأنعام: 161-163].

إذن فالإسلام دين شائع، والمسلمون كلمة شائعة في الأديان، وبذلك لا يقف الإسلام عند رسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فقط، إنما الإسلام خضوع من مخلوق لإله في منهج جاء به رسل مؤيدون بالمعجزات، إلاّ أن الإسلام بالنسبة لهذه الرسالات كان وصفا، لكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم تميزت بديمومة الوصف لدينها كما كان لأمم الرسل السابقة، وصار الإسلام – أيضا – علما لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، لأن رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم تضمنت منتهى ما يوجد من إسلام في الأرض، فلم يعد هناك مزيد عليها، وانفردت أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن صار الإسلام علما عليها.

(248/114)

إذن فالإسلام في الأمم السابقة كان وصفا، وأما بالنسبة لرسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد صار علما لأنه لم يأت بعدها دين، فإسلامها إسلام عالمي، ولذلك فنحن بهذا

الدين نقول: "نحن مسلمون" أما أصحاب الديانات الأخرى فهم أيضا مسلمون لكن بالوصف فقط. نحن الذين نتبع الدين الخاتم سمانا الله في كتابه المسلمين فهذا من إعجازات التسمية التي وافق فيها خليل الله إبراهيم عليه السلام مراد ربه:

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾

[الحج: 78].

لقد صار الإسلام اسما لأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ولا يُطلق هذا الوصف اسما إلا على من بالغ في التسليم.

(249/114)

كيف؟ نحن نعلم أن لفظ الجلالة "الله" علم لواجب الوجود، ونعلم أن "حي" صفة من صفات الله سبحانه وتعالى. ولكن صارت كلمة "حي" اسما من أسماء الله؛ لأن الله حي حياة كاملة أزلية. إذن لا تكون الصفة اسما إلا إذا أخذ الوصف فيها الديمومة

والإطلاق . وعلى هذا القياس يكون الرسل السابقون على محمد صلى الله عليه وسلم ، والأمم السابقة على أمة الإسلام ، كانوا مسلمين ، وكانوا أمما مسلمة بالوصف ، ولكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم تميزت بالإسلام وصفا وعَلَما ، فصار الأمر بالنسبة إليها اسما ، ونظرا لأنه لن يأتي شيء بعدها ، لذلك صار إسلام أمة رسول الله " علما " . ولقد بشر سيدنا إبراهيم عليه السلام بهذا الأمر : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الحج : 78] إن الحق قد أورد على لسان سيدنا إبراهيم بالوضوح الكامل ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ولم يقل الحق : " هو وصفكم بالمسلمين " . لا ، إنما قال : ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ، لأن الأمم السابقة موصوفة بالإسلام وأما أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي مسماة بالإسلام . وتجد من إعجازات التسمية ، أننا نجد لأتباع الأديان الأخرى أسماء أخرى غير الإسلام ، فاليهود يسمون أنفسهم باليهود نسبة لـ " يوها " . ويقولون عن أنفسهم : " موسويون " نسبة إلى موسى عليه السلام . والمسيحيون يسمون أنفسهم بذلك نسبة إلى المسيح عيسى ابن مريم . ولم نقل نحن أمة رسول الله عن أنفسنا : " إننا محمديون " لقد قلنا عن أنفسنا : " نحن مسلمون " . ولم يأت على لسان أحد قط إلا هذه التسمية لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وصار اسم الإسلام لنا شرفا . إذن ، فقول الله الحق : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ يعني أنه ، إن جاز أن يكون لرسول أو

لأتباع رسول وصف الإسلام فقد يجيء رسول بشيء جديد لم يكن عند الأمم السابقة فنزيده نحن بالتسليم، ويزيادتنا -

(250/114)

نحن المسلمين - بهذا التسليم خُتِمَ التسليم بنا نحن أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذا صار الإسلام لا يُطلق إلا علينا .

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أن الذين أوتوا الكتاب قد اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم . ولماذا اختلفوا ؟ جاءت الإجابة من الحق . الأعلى : ﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ وكلمة الاختلاف هذه توحي أن هناك شيئا متفقا عليه، وما دام الإسلام هو خضوعا لمنهج الله . لأنه إله واحد وقائم بالقسط، فمن أين يوجد الاختلاف ؟ وما الذي زاد حتى يوجد اختلاف ؟ أبرز إلهٌ آخر يناقض الله في ملكه ؟ لا لم يحدث . وما دام الإله واحدا ، وما دام المنهج القادم من عنده منهجا واحدا ، فمن أين جاء هذا الاختلاف ؟

إن الحق يوضح لنا أن الاختلاف قد جاء للذين أوتوا الكتاب من بعد ما جاءهم العلم وتلك هي النكاية، وذلك هو الشر ، فلو كانوا قد اختلفوا من قبل أن يأتي إليهم العلم لقلنا : " إنهم معذورون في الاختلاف " .

ولكن أن يحدث الاختلاف من بعد أن جاء العلم من الإله الواحد القائم بالقسط فلنا أن نقول لهم : ما الذي جَدَّ لتختلفوا ؟ إن الذي جَدَّ هو من عالم الأغيار ، وما دام الجديد قد جاء إليهم من عالم الأغيار ، فمعنى ذلك أن هوى النفس قد دخل ، ونريد أن نعرف أولا معنى الاختلاف ، الاختلاف في حقيقته هو ذهاب نفس إلى غير ما ذهبت إليه نفس أخرى .

(251/114)

ولماذا حدث الاختلاف هنا رغم أن الإله واحد ، وهو قائم بالقسط ؟ لا بد لنا أن نستنتج أن شيئًا جديدا قد نبت ، ما هو هذا الشيء ؟ إنه الهوى المختلف ، وحينما يقال : " اختلفوا " فنحن نعلم أن جماعة قد ذهبت إلى شيء وجماعة أخرى ذهبت إلى شيء آخر . وقد نستنتج أن طرفا قد ذهب إلى حق ، وأن الطرف الآخر قد ذهب إلى باطل ، أو أنهم جميعا قد ذهبوا إلى باطل . والذهاب إلى الباطل قد يختلف ؛ لأن كل باطل له لون مختلف . هل أراد الحق سبحانه وتعالى أن يقول : أنا أنزلت الأديان ، ومن رحمتي بخلقي تركت بعضا من الناس يحتفظون بالحق في ذاته وإن طرأ عليهم أناس يختلفون معهم . وتجد المثال لذلك في اليهود ، عندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد اختلفوا ، وأسلم

منهم أناس وآمنوا برسالة النبي الخاتم ، بينما الآخرون لم يسلموا ، ومن أسلم هم الذين كانوا على الحق ، ومن رحمة الله تعالى أنه جعل الذين علموا برسالة رسول الله أن يعلنوا البشارة في كتبهم ولم يكتموا ذلك العلم بل أعلنوا الإيمان ، بينما أصر البعض الآخر على كتمان ما جاءهم من العلم وأصروا على الإنكار . إن الذين أسلموا هم الذين ينطبق عليهم قول الشاعر : إن الذي جعل الحقيقة علقما لم يخل من أهل الحقيقة جيلا

وإذا كان الله قد عصم الأجيال المتتالية من أمة الإسلام بأن حفظ لنا القرآن . ففي الأديان الأخرى كان هناك أناس من أهل الحقيقة ، وأنصفهم الله :

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

[آل عمران : 113-114] .

(252/114)

لقد أنصفهم الله حق الإنصاف ، والذين آمنوا برسول الله من أتباع تلك الديانات قد اهتدوا إلى الحق ، واختلفوا مع غيرهم وقول الحق : ﴿ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ هذا القول يقتضي أن

نقف عند "أُوتُواْ" أي أن شيئًا قد جاء إليهم من جهة أخرى. إذن فالكتاب ليس من أفكار البشر؛ لأن المنهج لو كان من أفكار البشر لكان من الممكن أن يختلفوا فيه أو حوله، وبناء "أُوتُواْ" للمفعول يجعلنا نسأل: من الذي آتاهم الكتاب؟ إنه الله سبحانه وتعالى، والحق سبحانه وتعالى لا يأتي بمختلف فيه.

وما دام الكتاب من عند الله فلا يمكن أن يوجد فيه خلاف. يقول الحق:

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾

[النساء: 82].

وكأن الله ينبهنا بذلك القول إلى أن كل شيء ينبت من البشر للبشر، فلا بد أن تحدث فيه خلافات. إنما الشيء عندما يأتي من الواحد الأحد لا يمكن أن يحدث فيه خلاف أبدا. لا يمكن أن يحدث خلاف فيما اتحد فيه المصدر والمنبع إلا إن وجدت – بضم الواو وكسر الجيم – أشياء زائدة عن ذلك، وهذه الأشياء الزائدة هي أهواء الذين يقولون: إنهم منسوبون إلى الله.

إذن فالحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أن الكتاب لم يأت إليهم من بشر مثلهم، إنما من إله واحد قادر، وفي هذا تنبيه لأتباع الديانات السابقة. أي إنكم أيها الأتباع لا تتبعون إلا منهج الله، وحين تتبعون منهج الله الذي جاء به الرسل فأنتم لا تتبعون أحدا من الخلق، لأن أي رسول أرسل إليكم إنما جاء ليبلغكم بمنهج قادم من ربكم، ولم يقل لكم أحد من الرسل

إن المنهج قادم من عنده والرسول يحمل نفسه على الطاعة والخضوع للمنهج المنزل عليه قبلكم ، وهذه عزة لكم ، ولينتبه جميع الخلق أن المنهج الحق دائما قد أخذه الرسل من الله .

(253/114)

وحين يقول الحق : " الكتاب " فلنا أن نعرف أن كلمة " الكتاب " قد وردت في القرآن الكريم في أكثر من موضع ، إن الحق سبحانه وتعالى يسمي القرآن مرة " قرآنا " لأنه يقرأ ، ويسميه الحق أيضا " الكتاب " وذلك دليل على أنه يُكتب ، وحين نقول : إن القرآن من " القراءة " فهذا يعني أن نبرز ما في الصدور بالقراءة ولكن ما في الصدور قد تلويه الأهواء ؛ لذلك يحرس الحق قرآنه بما في السطور ولذلك فالقرآن مقروء ومكتوب .

وعندما يقول الحق " من أهل الكتاب " ، فإن ذلك تنبيه لنا أن الكتاب هو منهج مكتوب ، أي لم يتم وضعه في الصدور ونسيته النفوس ، لا ، إنه منهج مكتوب ، هكذا حدد الحق أمر المنهج السابق على القرآن ، إنه مكتوب ، فإن لعبت أهواء النفوس كما لعبت ، فإن ذلك يعني تحريف الكلم عن مواضعه . ولنا أن ننتقل الآن إلى المعرفة " العلم " : ما هو العلم ؟ إن العلم هو أن تدرك قضية وهذه القضية واقعة في الوجود تستطيع أن تقيم الدليل عليها ، وغير ذلك من القضايا لا يصل إلى مرتبة العلم لأنه لا يستطيع أحد أن يدلل عليه .

إذن فوسائل إدراك القضايا هي كالآتي : أولا : علم . ثانيا : تقليد . ثالثا : جهل . رابعا : شك . خامسا : ظن . سادسا : وهم . والعلم هو أعلى المستويات في إدراك القضايا . ولذلك نجد أن الحق يحدد لنا على ماذا اختلف الذين أوتوا الكتاب ، لقد اختلفوا من بعد ما جاءهم من العلم . ولم يقل الحق : إنهم اختلفوا بعد ما جاءهم التقليد أو الظن ، أو الجهل أو الشك ، إنما قال الحق : إنهم قد اختلفوا من بعد ما جاءهم الاستيفاء الكامل ، وهو العلم . وما دام هناك أمر قد جاء من القائم بالقسط والإله الواحد ، فالمسألة القادمة منه وهي الحق قد وصلت إلى مرتبة العلم إذن ، ففيم الاختلاف ؟ لا بد أن أمراً ما قد جدّ . والذي يجد إنما هو قادم من الأغيار ، وهي الأهواء ، ولذلك يحدد لنا الحق هذا الأمر بقوله "بَغْياً بَيْنَهُمْ" . ما البغي ؟ البغي هو طلب الاستعلاء بغير حق . إذن فطلب الاستعلاء ليس ممقوتا في ذاته ؛ لأن طلب الاستعلاء هو قضية الطموح في الكون . وأن يطلب إنسان الرفعة فيجد ويجتهد ، ويبذل العرق ليصل إلى مكانة علمية أو غيرها ، فهذا حق طبيعي ، ونحن نعرف أن العالم قد ارتقى بالطموحات الإنسانية ، إن العالم لو اكتفى وثبت عند الذي وصل إليه في جيل ما ، فإن العالم يحكم على نفسه بالجمود ، ولكن الناس طورت في العالم

الذي تحياه بجهد بذله البعض منهم في قضايا نافعة ، ثم حاولوا أن يرتقوا بها ونالوا حقهم من التقدير ، وارتفعوا بالعلم بجهد حقيقي بذلوه ، وبدراسة لما بذله السابقون عليهم .

(255/114)

إذن فطلب الاستعلاء في حد ذاته غير ممقوت ، بل محمود ما دام قائما على الجهد . ولكن أن يطلب الإنسان الاستعلاء بغير حق ، فهذا هو البغي . لقد أثبت الله لنا في هذه الآية ، أن كل خلاف بين رجال الدين ، أو بين دين ودين ، إنما مرجعه إلى نشوء البغي ، ونشوء البغي هو طلب رجال الدين الاستعلاء بغير الحق . ومظاهر طلب الاستعلاء بغير حق هو إعطاء الفتاوى التي توافق أمزجة القوم ، وتخالف ما أنزله الحق .

إن الواحد من هؤلاء يدعى لنفسه التحضر ، ويعطي من الفتاوى ما يناقض الذي أنزله الله ، ويدعى أنه يأخذ الدين بروح العصر ، ويدعى لنفسه عدم الجمود ، ويذهب إلى حد اتهام المتمسكين بدينهم بأنهم متخلفون ، والهدف الذي يختبئ في صدر مثل هذا الإنسان هو الاستعلاء في قومه بغير الحق ، ويجب أن نفهم أن كل خلاف بين أهل دين واحد ، أو بين دين ودين ، منبعه قول الحق : ﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ . وهذا يعني اتباع البعض للهوى النابع من بينهم ولم ينزله الله .

لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى إمّا أن ينزل الله حكما محكما لا رأى فيه لأحد ، ولا يستطيع أحد أن ينقضه ، وإما أن ينزل الله حكما قابلا للفهم والاجتهاد .

ولم يجعل الله الأحكام كلها من لون واحد ، إنما جعل الأحكام على لونين ، وذلك حتى يحترم الإنسان ما وهبه الخالق له من عقل ، ويجعل له مهمة ، فيأتي بقضية ويبحثها ويرجع سببا على سبب . وفي ذلك استخدام من الإنسان لعقله ، إنها رحمة من الله حتى لا يجمد العقل الإنساني .

إذن فإذا رأيت أي خلاف بين رجال الدين أو بين دين ودين فاعلم أن القول الفصل في هذا الأمر هو ما عبر عنه في القرآن : ﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ فمن البغي يهب الهوى الذي تنشأ منه الأعاصير ، إن من يحب الاستعلاء بغير الحق هو الذي يحاول البغي فيدعي لنفسه أنه أرقى في الفكر ، أو يستعلى عند من يملكون له أمرا ، أو يستعلي عندما يوافق حاكما في رأي من الآراء ، ويبرر للحاكم حكما من الأحكام .

(256/114)

إن كلمة ﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ يدخل في نطاقها كل موجات الخروج عن منهج الله ، والتي نراها في الكون ، والرسول صلى الله عليه وسلم قد أعطانا المناعة ضد الأمراض النفسية

الناشئة عن البغي ، مثلما يعطي المعاصرون المصل ضد أمراض البدن التي تفتك بالإنسان ، وحتى لا تفاجئنا أمراض البغي ، نجد الرسول يعطينا المناعة

فيقول لنا صلى الله عليه وسلم : " البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس " ويحذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك كما في الحديث التالي : فيقول صلى الله عليه وسلم : " البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب وإن أفتاك المفتون " .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم يحذرنا ليوضح لنا أن أهل البغي لهم لجاج في أن يقولوا ويصدروا الفتاوى ، وما معنى الإفتاء الذي يحذرنا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ هل هو مجرد رأي ؟ أم هو رأي يأتي من إنسان معروف عنه أنه مشتغل بعلم الله وبالأحكام ؟ إن الرسول صلى الله عليه وسلم ينبهنا إلى ذلك مناعة لنا . فقد يصبح أصحاب الحق قلة ، وليس لهم نصيب في إيصال رأيهم للناس ، أو أن الذين يملكون الكلمة الإعلامية ليسوا مع أصحاب الحق بل في جانب رجل يساير الباطل أو الركب .

وهنا نرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعطانا المناعة حتى لا ييأس المتمسكون بالحق ، فأمر الدين لن يمر رخاء ، أو بسلام دائم ، بل سنجد قوما يفسرون أحكام الدين بغيا بينهم ، ويلوون الأشياء ؛ لذلك أوضح لنا أن المؤمن حَكَمٌ في نفسه ، ويحذرنا من الذين يفتون بالبغي ، إن الإفتاء يحتاجه الناس من الذي يعلم ، ولذلك جاءت كلمة "يستفتونك" أكثر من مرة في القرآن الكريم ، لأن الذين يطلبون الفتوى هم الذين يحتاجون إلى توضيح لأمر ما ؛ لأنهم مشغولون بقضية الإيمان ، ولذلك فالنبي صلى الله عليه وسلم يحذرنا من الذين يحاولون إلقاء الفتاوى ، ويحذر كل مؤمن من أن يستمع لكل فتوى .

ويقول الحق : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ . إذن فمن هو الذي يكفر بآيات الله ؟ وفي أي مجال ؟ إن الكفر بآيات الله هنا محدد في الاختلاف ، وفي البغي بينهم ، أي طلب الاستعلاء بغير حق ، وسمى الحق كل ذلك "كفرا" والمراد منه هنا التنبيه لنا ألا نستر أحكام الله بالاختلاف أو البغي ، وجاء التحذير في تذييل الآية بقوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ . فإياك أن تستطيل أمر الجزاء وتقول : سأستمتع بنتيجة البغي والاختلاف لخدمة من يهمهم أمر الاختلاف ، ويهمهم أمر البغي ، لأنك تريد أن تتعجل أشياء تظن أنها نافعة لك ، لكن ها هو ذا الحق سبحانه يحذرك أن تستبطئ حسابه ، لماذا ؟ لأنه من الجائز أن يأتي لك الحساب من الله في الدنيا ، وهب أن الله لم يبتل مثل هذا الإنسان ببلاء كبير في الدنيا فإن هذا الإنسان سيكون له الحساب العسير في الآخرة .

وقد يقول قائل : إن الحساب في الدنيا قد يؤجله الله إلى الآخرة ، والعلامات الصغرى للقيامة نحن في مراحلها ، وما زالت العلامات الكبرى ليوم القيامة لم تظهر . لمثل هذا القائل نقول : هناك فرق بين الحدث في ذاته ، وبين الحدث فيمن يُجرى عليه الحدث . هناك فرق بين أن تقوم القيامة على الناس جميعا ، وبين أن تُختصر حياة الإنسان بحادثة ليست في حسبانه ، فقد يفتى الإنسان فتوى اليوم ؟ وتأتي له حادثة فورية تنقله فجأة إلى سريع الحساب ، فإن استبطأ إنسان الحساب ، فعليه أن يعرف أن الآخرة قد تجيء له أسرع من مسائل الدنيا ، لأن الإنسان لا يملك القدرة على أن ينقل إليه من يريد في أي وقت . وهكذا تكون الآخرة بالنسبة للمستبطئ للحساب أسرع من حساب الدنيا ، وكلمة " حساب " كلمة تطمئن المؤمن إلى أن الله قائم بالقسط لا يتخلى حتى عمن كفر به أو عصاه ، إن كل إنسان يأخذ ماله ويدفع ما عليه ، ويقول الحق من بعد ذلك : ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1352 . 1365 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَإنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (20) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تم ذلك كان كأنه قيل : قد جئناك بالأمر الواضح الذي لا يشكون فيه ﴿ فإن حاجّوك ﴾ بعده في شيء مما تضمنه وهدى إليه ودل صريحاً أو تلويحاً عليه فاعلم أن جدالهم عن عناد مع العلم بحقيقة الحال ﴿ فقل ﴾ أي فأعرض عنهم إلى أن آمرك بالقتال ، لأن من الواجبات - كما تقرر في آداب البحث - الإعراض عمن كابر في المحسوس ، وقل أنت عملاً بالآية السالفة : ﴿ أسلمت وجهي ﴾ أي أخلصت قصدي وتوجهي ، وانقدت غاية الانقياد ﴿ لله ﴾ الملك الأعظم الذي له الأمر كله ، فلا كفوء له .

قال الحرالي : ولما أدرج تعالى شهادة الملائكة وأولي العلم في شهادته لقن نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدرج من اتبعه في إسلامه وجهه لله ليكون إسلامهم بإسلام نبيهم صلى الله عليه وسلم لا بإسلام أنفسهم ، لتلحق التابعة من الأمة بالأئمة ، وذلك حال الفرقة الناجية مؤثرة الفرق الاثنين والسبعين التي قال النبي صلى الله عليه وسلم " وما أنا عليه " فيما أوتي من اليقين " وأصحابي " فيما أوتوه من الانقياد وبراءتهم من الرجوع إلى أنفسهم في أمر ، كما

كانوا يقولون عند كل ناشئة علم أو أمر : الله ورسوله أعلم ، فمن دخل برأيه في أمر نقص حظه من الاتباع بحسب استبداده - انتهى .

فقال تعالى عاطفاً على الضمير المرفوع المتصل لأجل الفعل : ﴿ ومن ﴾ أي وأسلم من ﴿ اتبعن ﴾ وجوههم له سبحانه وتعالى .

(260/114)

ولما كان المكمل لنفسه يجب عليه السعي في إكمال غيره أعلمه بذلك في قوله : ﴿ وقل ﴾ تهديداً وتعجيزاً وتبكيتاً وتقريعاً ﴿ للذين أوتوا الكتاب ﴾ أي عامة من هؤلاء النصارى الذين يجادلونك ومن اليهود أيضاً ﴿ والأمّيّن ﴾ الذين لا كتاب لهم ، مشيراً بالاستفهام إلى عنادهم منكراً عليهم موبخاً لهم : ﴿ ءأسلمتم فإن أسلموا ﴾ عند ذلك ﴿ فقد اهتدوا ﴾ فنفعوا أنفسهم في الدنيا والآخرة ، وفي صيغة " افتعلوا " ما يليح إلى أن الأنفس مائلة إلى الضلال زائغة عن طريق الكمال ﴿ وإن تولوا ﴾ أي عن الإسلام فهم معاندون فلا يهمنك أمرهم ﴿ فإنما عليك البلاغ ﴾ أي وعليهم وبال توليهم ، وفي بنية التفعل ما يومىء إلى أن طرق الهدى بعد البيان آخذ محاسنها بمجامع القلوب ، وأن الصادف عنها بعد ذلك قاهر لظاهر عقله وقويم فطرته الأولى برجاسة نفسه واعوجاج طبعه .

ولما كان التقدير : فالله يوفق لقبول البلاغ عنك من علم فيه الخير ، وينكب عنه من علم فيه الشر ، عطف عليه قوله : ﴿ والله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ بصير بالعباد ﴾ أي فهو يوفق من خلقه للخير منهم ويخذل غيره .

لا يقدر على فعل ذلك غيره ، ولا يقدر أحد غيره أن يفعل غير ذلك . انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 46 . 47 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما ذكر من قبل أن أهل الكتاب اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم ، وأنهم أصروا على الكفر مع ذلك بيّن الله تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم ما يقوله في محاجتهم ، فقال : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ اتبعن ﴾ وفي كيفية إيراد هذا الكلام طريقان :

(261/114)

الطريق الأول : أن هذا إعراض عن المحاجة ، وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم كان قد أظهر لهم الحجة على صدقه قبل نزول هذه الآية مراراً وأطواراً ، فإن هذه السورة مدنيّة ،

وكان قد أظهر لهم المعجزات بالقرآن ، ودعاء الشجرة وكلام الذئب وغيرها ، وأيضاً قد ذكر قبل هذه الآية آيات دالة على صحة دينه ، فأولها : أنه تعالى ذكر الحجة بقوله ﴿ الحى القيوم ﴾ على فساد قول النصارى في إلهية عيسى عليه السلام وبقوله ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الكتاب بالحق ﴾ [آل عمران : 3] على صحة النبوّة ، وذكر شبه القوم ، وأجاب عنها بأسرها على ما قررناه فيما تقدم ، ثم ذكر لهم معجزة أخرى ، وهي المعجزات التي شاهدوها يوم بدر على ما بيناه في تفسير قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التقتا ﴾ [آل عمران : 13] ثم بيّن صحة القول بالتوحيد ، ونفى الضد والند والصاحبة والولد بقوله ﴿ شَهِدَ الله أَنَّهُ لا إله إِلاَّ هُوَ ﴾ [آل عمران : 18] ثم بيّن تعالى أن ذهاب هؤلاء اليهود والنصارى عن الحق ، واختلافهم في الدين ، إنما كان لأجل البغي والحسد ، وذلك ما يحملهم على الانقياد للحق والتأمل في الدلائل لو كانوا مخلصين ، فظهر أنه لم يبق من أسباب إقامة الحجة على فرق الكفار شيء إلا وقد حصل ، فبعد هذا قال : ﴿ فَإنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ اتبعن ﴾ يعني إنا بالغنا في تقرير الدلائل ، وإيضاح البينات ، فإن تركتم الأنف والحسد ، وتمسكتم بها كنتم أنتم المهتدين ، وإن أعرضتم فإن الله تعالى من وراء مجازاتكم ، وهذا التأويل طريق معتاد في الكلام ، فإن المحق إذا ابتلى بالمبطل اللجوج ، وأورد عليه الحجة حالاً بعد حال ، فقد يقول في آخر الأمر : أما أنا ومن اتبعني فمنقادون للحق ، مستسلمون له ، مقبلون على عبودية الله تعالى ، فإن وافقتم

واتبعتم الحق الذي أنا عليه بعد هذه الدلائل التي ذكرتها فقد اهتديتم ، وإن أعرضتم فإن الله بالمرصاد

(262/114)

، فهذا الطريق قد يذكره المحتج المحق مع المبطل المصر في آخر كلامه .

الطريق الثاني : وهو أن نقول : إن قوله ﴿ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ ﴾ محاجة ، وإظهار للدليل ، وبيانه من وجوه :

الوجه الأول : أن القوم كانوا مقرين بوجود الصانع ، وكونه مستحقاً للعبادة ، فكأنه عليه الصلاة والسلام قال للقوم : هذا متفق عليه بين الكل فأنا مستمسك بهذا القدر المتفق عليه وداع للخلق إليه ، وإنما الخلاف في أمور وراء ذلك وأنتم المدعون فعليكم الاثبات ، فإن اليهود يدعون التشبيه والجسمية ، والنصارى يدعون إلهية عيسى ، والمشركين يدعون وجوب عبادة الأوثان فهؤلاء هم المدعون لهذه الأشياء فعليهم إثباتها ، وأما أنا فلا أدعي إلا وجوب طاعة الله تعالى وعبوديته ، وهذا القدر متفق عليه ، ونظيره هذه الآية قوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تَعَالَوْاْ إلى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ الله وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ﴾ [آل عمران : 64] .

والوجه الثاني : في كيفية الاستدلال ما ذكره أبو مسلم الأصفهاني ، وهو أن اليهود والنصارى وعبدة الأوثان كانوا مقرين بتعظيم إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، والإقرار بأنه كان محقاً في قوله صادقاً في دينه ، إلا في زيادات من الشرائع والأحكام ، فأمر الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يتبع ملته فقال : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتبع مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفًا ﴾ [النحل : 123] ثم إنه تعالى أمر محمداً صلى الله عليه وسلم في هذا الموضع أن يقول كقول إبراهيم صلى الله عليه وسلم حيث قال : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السموات والأرض ﴾ [الأنعام : 79] فقول محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ ﴾ كقول إبراهيم عليه السلام ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِىَ ﴾ أي اعترضت عن كل معبود سوى الله تعالى ، وقصدته بالعبادة وأخلصت له ، فتقدير الآية كأنه تعالى قال : فإن نازعوك يا محمد في هذه التفاصيل فقل : أنا مستمسك بطريقة إبراهيم ، وأنتم معترفون بأن طريقته حقة ، بعيدة عن كل شبهة وتهمة ، فكان هذا من باب التمسك بالإلزامات ، وداخلاً تحت قوله ﴿ وجادلهم بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : 125] .

والوجه الثالث : في كيفية الاستدلال ما خطر ببالي عند كتابة هذا الموضع ، وهو أنه ادعى

قبل هذه الآية أن الدين عند الله الإسلام لا غير ، ثم قال : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ ﴾ يعني فإن نازعوك في قولك ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإسلام ﴾ [آل عمران : 19] فقل : الدليل عليه أني أسلمت وجهي لله ، وذلك لأن المقصود من الدين إنما هو الوفاء بلوازم الربوبية ، فإذا أسلمت وجهي لله فلا أعبد غيره ولا أتوقع الخير إلا منه ولا أخاف إلا من قهره وسطوته ، ولا أشرك به غيره ، كان هذا هو تمام الوفاء بلوازم الربوبية والعبودية ، فصح أن الدين الكامل هو الإسلام ، وهذا الوجه يناسب الآية .

(264/114)

الوجه الرابع : في كيفية الاستدلال ، ما خطر ببالي أن هذه الآية مناسبة لقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يَبْصِرُ وَلاَ يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً ﴾ [مريم : 42] يعني لا تجوز العبادة إلا لمن يكون نافعاً ضاراً ، ويكون أمري في يديه ، وحكمي في قبضة قدرته ، فإن كان كل واحد يعلم أن عيسى ما كان قادراً على هذه الأشياء امتنع في العقل أن أسلم له ، وأن انقاد له ، وإنما أسلم وجهي للذي منه الخير ، والشر ، والنفع ، والضر ، والتدبير ، والتقدير . الوجه الخامس : يحتمل أيضاً أن يكون هذا الكلام إشارة إلى طريقة إبراهيم عليه الصلاة والسلام في قوله ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبّ

العالمين ﴾ [البقرة : 131] وهذا مروي عن ابن عباس . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 183. 184 ﴾

قال الآلوسى :

ولعل القول بالإعراض أولى لما فيه من الإشارة إلى سوء حالهم وحط مقدارهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 108 ﴾

قوله تعالى ﴿ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ ﴾

قال الفخر :

أما قوله ﴿ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ ﴾ ففيه وجوه

الأول : قال الفرّاء أسلمت وجهي لله ، أي أخلصت عملي لله يقال أسلمت الشيء لفلان أي أخلصته له ، ولم يشاركه غيره قال : ويعني بالوجه ههنا العمل كقوله ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الكهف : 28] أي عبادته ، ويقال : هذا وجه الأمر أي خالص الأمر وإذا قصد الرجل غيره لحاجة يقول : وجهت وجهي إليك ، ويقال للمنهمك في الشيء الذي لا يرجع عنه : مرّ على وجهه

الثاني : أسلمت وجهي لله أي أسلمت وجه عملي لله ، والمعنى أن كل ما يصدر مني من الأعمال فالوجه في الإتيان بها هو عبودية الله تعالى والانقياد لإلهيته وحكمه

الثالث : أسلمت وجهي لله أي أسلمت نفسي لله وليس في العبادة مقام أعلى من إسلام

النفس لله فيصير كأنه موقوف على عبادته، عادل عن كل ما سواه. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 184 ﴾

(265/114)

وقال السمرقندى:

﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ ﴾ أي خاصموك وجادلوك في الدين ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ ﴾ أي أخلصت ديني لله.

وقال الزجاج: إن الله تعالى أمر نبيه أن يحتج على أهل الكتاب والمشركين، بأنه اتبع أمر الله الذي هم أجمعون مقرون.

أنه خالقهم ورازقهم، فأراهم الآيات والدلالات بأنه رسوله. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 227 ﴾

وقال البغوى:

قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ ﴾ أي خاصموك يا محمد في الدين، وذلك أن اليهود والنصارى قالوا لسنا على ما سميتنا به يا محمد إنما اليهودية والنصرانية نسب، والدين هو الإسلام ونحن عليه فقال الله تعالى ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ أي انقدت لله وحده

بقلبي ولساني وجميع جوارحي ، وإنما خص الوجه لأنه أكرم الجوارح من الإنسان وفيه بهاؤه ، فإذا خضع وجهه للشيء خضع له جميع جوارحه ، وقال الفراء : معناه أخلصت عملي لله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البغوى حـ 1 صـ 20 ﴾

وقال أبو السعود :

وإنما عبر عنها بالوجه لأنه أشرفُ الأعضاء الظاهرة ومظهرُ القُوى والمشاعر ومجمعُ معظم ما تقع به العبادةُ من السجودِ والقراءة وبه يحصل التوجُّه إلى كل شيء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 18 ﴾

فائدة

قال الماوردى :

فإن قيل : في أمره تعالى عند حِجَاجِهِمْ بأن يقول : ﴿ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ عدول عن جوابهم وتسليم لِحِجَاجِهِم ، فعنه جوابان :

أحدهما : ليس يقتضي أمره بهذا القول النهي عن جوابهم والتسليم بحِجَاجِهِم ، وإنما أمره أن يخبرهم بما يقتضيه معتقده ، ثم هو في الجواب لهم والاحْتِجَاج على ما يقتضيه السؤال .

والثاني : أنهم ما حاجُّوه طلباً للحق فيلزمه جوابهم ، وإنما حاجُّوه إظهاراً للعناد ، فجاز له الإعراض عنهم بما أمره أن يقول لهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 381 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ أي أخلصت وخضعت بقلبي وقالبي لله لا أشرك به غيره ، وفيه إشارة إلى أن الجدال معهم ليس في موقعه لأنه إنما يكون في أمر خفي والذي جادلوا به أمر مكشوف ، وحكم حاله معروف وهو الدين القويم فلا تكون المحاجة والمجادلة إلا مكابرة ، وحينئذ يكون هذا القول إعراضاً عن مجادلتهم ، وقيل : إنه محاجة وبيانه أن القوم كانوا مقرين بوجود الصانع وكونه مستحقاً للعبادة فكأنه قال : هذا القول متفق عليه بين الكل فأنا مستمسك بهذا القدر المتفق عليه ، وداعي الخلق إليه ، وإنما الخلاف في أمور وراء ذلك فاليهود يدعون التشبيه والجسمية ، والنصارى يدعون إلهية عيسى عليه السلام والمشركون يدعون وجوب عبادة الأوثان فهؤلاء هم المدعون فعليهم الإثبات . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 108 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَمَنِ اتبعن ﴾

فصل

فَتَحَ الياءَ من "وَجْهِيَ" – هنا وفي الأنعام – نافع وابن عامر وجعفر وحفص وسكنها

الباقون.

قوله: ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ في محل "مَنْ" وجوه:

أحدها: الرفع؛ عطفاً على التاء في "أَسْلَمْتُ"، وجاز ذلك؛ لوجود الفصل بالمفعول؛ قاله الزمخشريُّ وابن عطية.

قال أبو حيان: "ولا يمكن حمله على ظاهره؛ لأنه إذا عطف الضمير في نحو: "أكلت رغيفاً وزيدٌ" لزم من ذلك أن يكونا شريكين في أكل الرغيف، وهنا لا يسوغ ذلك؛ لأن المعنى ليس على أنهم أسلموا هم. وهو صلى الله عليه وسلم أسلم وجهه، بل المعنى على أنه صلى الله عليه وسلم أسلم وجهه لله، وأنهم أسلموا وجوههم لله؛ [فالذي يقوى في الإعراب أنه معطوف على ضمير محذوف منه المفعول، لا مشارك في مفعول "أَسْلَمْتُ" والتقدير: ومن اتبعني وجهه، أو أنه مبتدأ محذوف الخبر؛ لدلالة المعنى عليه، والتقدير: ومن اتبعني كذلك، أي: أسلموا وجوههم لله]، كما تقول: قضى زيد نحبه وعمرو، أي: عمرو كذلك، أي: قضى نحبه".

قال شهابُ الدينِ : " إنما صحت المشاركة في نحو : أكلتُ رغيفاً وزيدٌ ؛ لإمكان ذلك ، وأما في الآية الكريمة فلا يُتَوَهَّمُ فيه المشاركة " .

الثاني : أنه مرفوع بالابتداء ، والخبر محذوف – كما تقدم .

الثالث : أنه منصوب على المعية ، والواو بمعنى " مع " أي : أسلمت وجهي لله مع من اتبعني ؛ قاله الزمخشريُّ .

وقال أبو حيّان : " ومن الجهة التي امتنع عطف " مَنْ " على الضمير – إذا حُمِلَ الكلام على ظاهره دون تأويل – يمتنع كون " مَنْ " منصوباً على أنه مفعول معه ؛ لأنك إذا قلتَ : أكلتُ رغيفاً وعمرو أي مع عمرو – دل ذلك على أنه مشاركك في أكل الرغيف ، وقد أجاز الزمخشريُّ هذا الوجهَ ، – وهو لا يجوز – لما ذكرنا – على كل حال ؛ لأنه لا يجوز حذف المفعول مع كون الواو واوَ " مع " ألبتة " .

قال شهابُ الدينِ : " فهم المعنى ، وعدم الإلباس يسوِّغ ما ذكره الزمخشريُّ ، وأي مانع من أن المعنى : فقل : أسلمت وجهي لله مصاحباً لمن أسلم وَجْهَهُ لله أيضاً ، وهذا معنى صحيح مع القول بالمعية " .

الرابع : أن محل " مَنْ " الخفض ، نسقاً على اسم " الله " ، وهذا الإعراب – وإن كان ظاهره مُشْكِلاً – قد يؤول على معنى : جعلت مقصدي لله بالإيمان به والطاعة له ، ولمن اتبعني بالحفظ له .

وقد أثبت الياءَ في "مَنِ اتَّبَعَنِي" نافع، وحذفها أبو عمرو وخلاد – وقفاً – والباقون حذفُوهَا فيهما ؛ موافقةً للرسم ، وحسن ذلك أيضاً كونها فاصلةً ورأس آية ، نحو ﴿ أَكْرَمَنِ ﴾ [الفجر : 15] و﴿ أَهَانَنِ ﴾ [الفجر : 16] وعليه قول الأعشى : [المتقارب]

وَهَلْ يَمْنَعَنِّي ارْتيادِي الْبلاَ . . . دَ مِنْ حَذَرِ الْمَوْتِ أنْ يَأْتِيَنْ

وقول الأعشى – أيضاً – : [المتقارب]

وَمَنْ شَانِىءٍ كَاسِفٍ بَالُهُ . . . إذا مَا انْتَسَبْتُ لَهُ أنْكَرَنْ

(268/114)

قال بعضهم : حذف هذه الياء مع نون الوقاية – خاصّة – فإن لم تكن نونٌ فالكثير إثباتُها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 110.111 ﴾

فائدة

قال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ومن اتبعن ﴾ أثبت الياء في الوصل دون الوقف أهل المدينة والبصرة ، وابن شنبوذ عن قنبل ، ووقف ابن شنبوذ ويعقوب بياء .

قال الزجاج : والأحب إِلَيَّ اتباع المصحف .

وما حذف من الياءات في مثل قوله تعالى : ﴿ ومن اتبعن ﴾ و ﴿ لئن أخرتن ﴾ و ﴿ ربي أكرمن ﴾ و ﴿ ربي أهانن ﴾ .

فهو على ضربين .

أحدهما : ما كان مع النون ، فإن كان رأس آية ، فأهل اللغة يجيزون حذف الياء ، ويسمون أواخر الآي الفواصل ، كما أجازوا ذلك في الشعر .

قال الأعشى :

ومن شانئٍ كاسف باله . . .

إذا ما انتسبت له أنكرن

وهل يمنعني ارتيادي البلا . . .

د من حذر الموت أن يأتين

فأما إذا لم يكن آخر آية أو قافية ، فالأكثر إثبات الياء ، وحذفها جيد أيضاً ، خاصة مع النونات ، لأن أصل "اتبعني" "اتبعي" ولكن "النون" زيدت لتسلم فتحة العين ، فالكسرة مع النون تنوب عن الياء ، فأما إذا لم تكن النون ، نحو غلامي وصاحبي ، فالأجود إثباتها ، وحذفها عند عدم النون جائز على قلته ، تقول : هذا غلام ، قد جاء غلاميَ ، وغلاميْ بفتح الياء وإسكانها ، فجاز الحذف ، لأن الكسرة تدل عليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد

المسير حـ 1 صـ 363. 364 ﴾

سؤال : فإن قيل : لم قال أسلمت ومن اتبعن ، ولم يقل : أسلمت أنا ومن اتبعن ؟ .

قلنا : إن الكلام طال بقوله ﴿ وَجْهِىَ لِلَّهِ ﴾ فصار عوضاً من تأكيد الضمير المتصل ، ولو قيل أسلمت وزيد لم يحسن حتى يقال : أسلمت أنا وزيد ولو قال أسلمت اليوم بانشراح صدر ، ومن جاء معي جاز وحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 185 ﴾

(269/114)

فصل

قال الطبرى :

يعني بذلك جل ثناؤه : فإن حاجّك : يا محمد ، النفرُ من نصارى أهل نجران في أمر عيسى صلوات الله عليه ، فخاصموك فيه بالباطل ، فقل : انقدت لله وحده بلساني وقلبي وجميع جوارحي . وإنما خصّ جل ذكره بأمره بأن يقول : "أسلمت وجهي لله" ، لأن الوجه أكرمُ جوارح ابن آدم عليه ، وفيه بهاؤه وتعظيمه ، فإذا خضع وجهه لشيء ، فقد خضع له الذي هو دونه في الكرامة عليه من جوارح بدنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتبعن ﴾ أي جادلوك بالأقاويل المزوّرة والمغالطات ، فأسْنِدْ أمركَ إلى ما كُلِّفت من الإيمان والتبليغ وعلى الله نصرك .

وقوله "وَجْهِي" بمعنى ذاتي ؛ ومنه الحديث "سجد وجهي للذي خلقه وصوّره" وقيل : الوجه هنا بمعنى القصد ؛ كما تقول : خرج فلان في وجه كذا .

وقد تقدّم هذا المعنى في البقرة مستوفى ؛ والأوّل أولى .

وعبر بالوجه عن سائر الذات إذ هو أشرف أعضاء الشخص وأجمعها للحواس .

وقال :

أسلمتُ وجْهي لمن أسلمتْ . . .

له المُزْنُ تحمل عَذْباً زُلالا

وقد قال حذاق المتكلمين في قوله تعالى : ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن : 27] إنها عبارة عن الذات ، وقيل : العمل الذي يقصد به وجهه .

وقوله : ﴿ ومَنِ اتبعن ﴾ "مَن" في محل رفع عطفا على التاء في قوله "أَسْلَمْتُ" أي ومن اتبعن أسلم أيضا ، وجاز العطف على الضمير المرفوع من غير تأكيد للفصل بينهما .

وأثبت نافع وأبو عمرو ويعقوب ياء "اتبعن" على الأصل ، وحذف الآخرون اتباعا

للمصحف إذ وقعت فيه بغير ياء .

وقال الشاعر :

ليس تُخفى يَسارتي قدرَ يوم . . .

ولقد تُخْفِ شيمتي إعساري . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 45 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الكتاب والاميين أَأَسْلَمْتُمْ ﴾

قال الفخر :

(270/114)

هذه الآية متناولة لجميع المخالفين لدين محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن منهم من كان من أهل الكتاب ، سواء كان محقاً في تلك الدعوى كاليهود والنصارى ، أو كان كاذباً فيه كالمجوس ، ومنهم من لم يكن من أهل الكتاب وهم عبدة الأوثان . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 185 ﴾

وقال الطبرى :

يعني بذلك جل ثناؤه : "وقل" ، يا محمد ، للذين أوتوا الكتاب" من اليهود والنصارى "والأميين" الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب "أأسلمتم" ، يقول : قل لهم : هل أفردتم

التوحيد وأخلصتم العبادة والألوهة لرب العالمين ، دون سائر الأنداد والأشراك التي تشركونها معه في عبادتكم إياهم وإقراركم بربوبيتهم ، وأنتم تعلمون أنه لا ربّ غيره ولا إله سواه "فإن أسلموا" ، يقول : فإن انقادوا لإفراد الوحدانية لله وإخلاص العبادة والألوهة له "فقد اهتدوا" ، يعني : فقد أصابوا سبيل الحق ، وسلكوا مَحَجَّة الرشد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 281 ﴾

فائدة

قال الفخر :

إنما وصف مشركي العرب بأنهم أميون لوجهين

الأول : أنهم لما لم يدعوا الكتاب الإلهي وصفوا بأنهم أُميون تشبيهاً بمن لا يقرأ ولا يكتب

والثاني : أن يكون المراد أنهم ليسوا من أهل القراءة والكتابة فهذه كانت صفة عامتهم وإن كان فيهم من يكتب فنادر من بينهم والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 185 ﴾

فائدة

قال الفخر :

دلّت هذه الآية على أن المراد بقوله ﴿ فَإن حاجوك ﴾ عام في كل الكفار ، لأنه دخل كل من يدعي الكتاب تحت قوله ﴿ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ ودخل من لا كتاب له تحت قوله

﴿ الأمين ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 185 ﴾

قوله تعالى ﴿ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾

قال الطبرى :

فإن قال قائل : وكيف قيل : "فإن أسلموا فقد اهتدوا" عقيب الاستفهام ؟ وهل يجوز على هذا في الكلام أن يقال لرجل : "هل تقوم ؟ فإن تقم أكرمك" ؟

(271/114)

قيل : ذلك جائز ، إذا كان الكلام مرادًا به الأمر ، وإن خرج مخرج الاستفهام ، كما قال جل ثناؤه : (وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) [سورة المائدة : 91] ، يعني : انتهوا ، وكما قال جل ثناؤه مخبرًا عن الحواريين أنهم قالوا لعيسى : (يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ) [سورة المائدة : 112] ، وإنما هو مسألة ، كما يقول الرجل : "هل أنت كافٌّ عنا" ؟ بمعنى : اكفف عنا ، وكما يقول الرجل للرجل : "أينَ ، أين" ؟ بمعنى : أقم فلا تبرح ، ولذلك جُوزي في الاستفهام كما جوزي في الأمر في قراءة عبد الله : (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ آمِنُوا) [سورة الصف : 10 ، 11] ، ففسرها بالأمر ، وهي في قراءتنا على الخبر . فالمجازاة في قراءتنا على قوله

: "هل أدلكم" ، وفي قراءة عبد الله على قوله : "آمنوا" ، على الأمر ، لأنه هو التفسير .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 281.282 ﴾

وقال الفخر :

قوله تعالى ﴿ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾

استفهام في معرض التقرير ، والمقصود منه الأمر قال النحويون : إنما جاء بالأمر في صورة الاستفهام ، لأنه بمنزلته في طلب الفعل والاستدعاء إليه إلا أن في التعبير عن معنى الأمر بلفظ الاستفهام فائدة زائدة ، وهي التعبير بكون المخاطب معانداً بعيداً عن الإنصاف ، لأن المنصف إذا ظهرت له الحجة لم يتوقف بل في الحال يقبل ونظيره قولك لمن لخصت له المسألة في غاية التلخيص والكشف والبيان : هل فهمتها ؟ فإن فيه الإشارة إلى كون المخاطب بليداً قليل الفهم ، وقال الله تعالى في آية الخمر ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : 91] وفيه إشارة إلى التقاعد عن الانتهاء والحرص الشديد على تعاطي المنهي عنه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 185 ﴾ . بتصرف يسير .

وقال القرطبى :

"أَأَسْلَمْتُمْ" استفهام معناه التقرير وفي ضمنه الأمر ، أي أسلموا ؛ كذا قال الطبري وغيره .

وقال الزجاج : "أأسلمتم" تهديد .

وهذا حسن ، لأن المعنى أأسلمتم أم لا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 45 ﴾

وقال البغوى :

﴿ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾ لفظه استفهام ومعناه أمر ، أي أسلموا كما قال " فهل أنتم منتهون "(91 - المائدة) أي انتهوا ، ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقال أهل الكتاب : أسلمنا ، فقال لليهود : أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله قالوا : معاذ الله ، وقال النصارى : أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله ؟ قالوا : معاذ الله أن يكون عيسى عبدا فقال الله عز وجل ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ ﴾ أي تبليغ الرسالة وليس عليك الهداية . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البغوى حـ 1 صـ 20 ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهتدوا ﴾

قال أبو السعود :

﴿ فَإِنْ أَسْلَمُواْ ﴾ أي كما أسلمتم وإنما لم يصرّح به كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ ءامَنُواْ بِمِثْلِ مَا ءامَنتُمْ بِهِ ﴾ حسماً لباب إطلاق اسم الإسلام على شيء آخر بالكلية . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 19 ﴾

وقال ابن عاشور :

والاستفهام مستعمل في الاستبطاء والتحضيض كما في قوله تعالى ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ .

وجيء بصيغة الماضي في قوله ﴿ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾ دون أن يقول أتسلمون على خلاف مقتضى الظاهر ، للتنبيه على أنه يرجو تحقق إسلامهم ، حتى يكون كالحاصل في الماضي . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 58 . 59 ﴾

وقال الفخر :

ثم قال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهتدوا ﴾ وذلك لأن هذا الإسلام تمسك بما هدي إليه ، والمتمسك بهداية الله تعالى يكون مهتدياً ، ويحتمل أن يريد : فقد اهتدوا للفوز والنجاة في الآخرة إن ثبتوا عليه

ثم قال : ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ عن الإسلام واتباع محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ ﴾ والغرض منه تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وتعريفه أن الذي عليه ليس إلا إبلاغ الأدلة وإظهار الحجة فإذا بلغ ما جاء به فقد أدى ما عليه ، وليس عليه قبولهم ثم قال : ﴿ والله بَصِيرٌ بالعباد ﴾ وذلك يفيد الوعد والوعيد ، وهو ظاهر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 185 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

(273/114)

وجاءت العبارة في قوله "فَقَدِ اهتدوا" بالماضي مبالغة في الإخبار بوقوع الهدى لهم وتحصيله .

و"البلاغ" مصدر بلغ بتخفيف عين الفعل ، أي إنما عليك أن تُبلِّغَ .

وقيل : إنه مما نسخ بالجهاد .

وقال ابن عطية : وهذا يحتاج إلى معرفة تاريخ نزولها ؛ وأمّا على ظاهر نزول هذه الآيات في وَفْد نجران فإنما المعنى فإنما عليك أن تبلغ ما أُنزِل إليك بما فيه من قتال وغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 45.46 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ والله بَصِيرٌ بالعباد ﴾ يعني بأعمالهم ، ومعناه ليس عليك من عملهم شيء وإنما عليك التبليغ ، وقد فعلَتَ ما أمرتَ به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 227 ﴾

وقال الطبرى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله : "وإن تولوا" ، وإن أدبروا مُعرضين عما تدعوهم إليه من الإسلام وإخلاص التوحيد لله رب العالمين ، فإنما أنت رسولٌ مبلّغ ، وليس عليك غير إبلاغ الرسالة إلى من أرسلتك إليه من خلقي ، وأداء ما كلَّفتك من طاعتي "والله بصيرٌ بالعباد" ، يعني بذلك : والله ذو علم بمن يقبل من عباده ما أرسلتك به إليه فيطيعك بالإسلام ، وبمن يتولَّى منهم عنه معرضًا فيردّ عليك ما أرسلتك به إليه ، فيعصيك بإبائه الإسلامَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى جـ 6 صـ 283 ﴾

(274/114)

فائدة

قال صاحب الميزان :

وفي قوله تعالى ﴿ وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ دلالة أولا على النهي عن المراء والإلحاح في المحاجة فإن المحاجة مع من ينكر الضروري لا تكون إلا مرائا ولجاجا في البحث

وثانيا على أن الحكم في حق الناس والأمر مطلقا إلى الله سبحانه وليس للنبي (صلى الله

عليه وآله وسلم) إلا أنه رسول مبلغ لا حاكم مسيطر كما قال تعالى ﴿ ليس لك من الأمر شئ ﴾ : آل عمران - 128

وقال تعالى ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ : الغاشية - 23

وثالثا على تهديد أهل الكتاب والمشركين فإن ختم الكلام بقوله ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ بعد قوله ﴿ فإنما عليك البلاغ ﴾ لا يخلو من ذلك ويدل على ذلك ما وقع من التهديد في نظير الآية وهو قوله تعالى ﴿ قولوا آمنا بالله ﴾ إلى أن قال ﴿ ونحن له مسلمون فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ : البقرة - 137

تذكر الآية أن أهل الكتاب إن تولوا عن الإسلام فهم مصرون على الخلاف ثم يهددهم بما يسلي به النبي ويطيب نفسه فالآية أعني قوله ﴿ وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ﴾ كناية عن الأمر بتخلية ما بينهم وبين ربهم وإرجاع أمرهم إليه وهو بصير بعباده يحكم فيهم بما تقتضيه حالهم ويسأله لسان استعدادهم.

ومن هنا يظهر أن ما ذكره بعض المفسرين أن في الآية دليلا على حرية الاعتقاد في أمر الدين وأن لا إكراه فيه ليس بوجيه فإن الآية كما عرفت مسوقه لغير ذلك.

وفي قوله بصير بالعباد حيث أخذ عنوان العبودية ولم يقل بصير بهم أو بصير بالناس ونحو

ذلك إشعار بأن حكمه نافذ فيهم ماض عليهم فإنهم عباده ومربوبون له أسلموا أو تولوا .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الميزان حـ 3 صـ 122.123 ﴾

(275/114)

فصل

قال ابن كثير :

وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته ، صلوات الله وسلامه عليه ، إلى جميع الخلق ، كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : 158] وقال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نزلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : 1] وفي الصحيحين وغيرهما ، مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة ، أنه بعث كتبه صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله ملوك الآفاق ، وطوائف بني آدم من عربهم وعجمهم ، كتابيّهم وأمّيّهم ، امتثالا لأمر الله له بذلك . وقد روى عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن هَمَّام ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لا يَسْمَعُ بِي أحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأمَّةِ يَهُودِيّ ولا نَصْرَانِي ، ومَاتَ ولَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أرْسلتُ بِهِ ، إلا كان

مِنْ أَهْلِ النَّارِ" رواه مسلم. (1)

وقال صلى الله عليه وسلم: "بُعِثْتُ إلى الأَحْمَرِ والأَسْوَدِ"

---

(1) صحيح مسلم برقم (153).

(276/114)

وقال: "كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً". وقال الإمام أحمد: حدثنا مُؤَمّل، حدثنا حَمَّاد، حدثنا ثابت عن أنس، رضي الله عنه: أن غلاما يهوديا كان يَضع للنبي صلى الله عليه وسلم وَضُوءه ويناوله نعليه، فمرض، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "يا فُلانُ، قُلْ: لا إله إلا الله" فَنظَرَ إلى أبيه، فَسَكَتَ أبوه، فأعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ، فقَالَ أَبُوُهُ: أطِعْ أبا الْقَاسِمِ، فَقَالَ الْغُلامُ: أَشْهَدُ أن لا إِلَهَ إلا الله وأَنَّك رَسُولُ الله، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يَقُولُ: "الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَخْرَجَهُ بِي مِنَ النَّارِ" أخرجه البخاري في الصحيح. (1). إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 26. 27 ﴾

لطيفة

قال ابن عجيبة :

لا يليق بالفقير ، إذا توجه إليه الإنكار أو المجادلة والاستظهار ، إلا السكوت والإقرار ، والاستسلام بكليته لأحكام الواحد القهار ، إذ لا يرى فاعلاً إلا الله ، فلا يركن إلى شيء سواه . وفي الحكم : " إنما أجرَى الأذى عليهم لئلا تكون ساكناً إليهم ، أراد أن يزعجك عن كل شيء ، حتى لا تكون ساكناً إلى شيء " . وقال بعض العارفين : لا تشتغل قط بمن يؤذيك ، واشتغل بالله يرده عنك ، وقد غلط في هذا خلق كثير ، اشتغلوا بمن يؤذيهم ، فطال عليهم الأذى مع الإثم ، ولو أنهم رجعوا إلى مولاهم لكفاهم أمرهم . ه . بالمعنى . وبهذا يأمر الشيخ أتباعه ، فإن انقادوا لأحكام الحق ، فقد اهتدوا إلى طريق الوصول ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والهداية بيد السميع البصير . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المديد حـ 1 صـ 336﴾

---

(1) المسند (3/175) والبخاري برقم (1356)

(277/114)

فصل نفيس

قال العلامة ابن عاشور :

اعلم أن قوله ﴿ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ كلمة جامعة لمعاني كنه الإسلام وأصوله ألقيت إلى الناس ليتدبروا مطاويها فيهتدي الضالون ، ويزداد المسلمون يقينا بدينهم ؛ إذ قد علمنا أن مجيء قوله ﴿ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ عقب قوله ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ وقوله ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ ﴾ وتعقيبه بقوله ﴿ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾ أن المقصود منه بيان جامع معاني الإسلام حتى تسهل المجادلة ، وتختصر المقاولة ، ويسهل عرض المتشككين أنفسهم على هذه الحقيقة ، ليعلموا ما هم عليه من الديانة . بينت هذه الكلمة أن هذا الدين يترجم عن حقيقة اسمه ؛ فإن اسمه الإسلام ، وهو مفيد معنى معروفا في لغتهم يرجع إلى الإلقاء والتسليم ، وقد حذف مفعوله ونزل الفعل منزلة اللازم فعلم أن المفعول حذف لدلالة معنى الفاعل عليه ، فكأنه يقول : أسلمتني أي أسلمت نفسي ، فبين هنا هذا المفعول المحذوف من اسم الإسلام لئلا يقع فيه التباس أو تأويل لما لا يطابق المراد ، فعبر عنه بقوله وجهي أي نفسي : لظهور ألا يحسن محمل الوجه هنا على الجزء المعروف من الجسد ، ولا يفيد حمله عليه ما هو المقصود ، بل المعنى البين هو أن يراد بالوجه كامل الذات ، كقوله تعالى ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] .

وإسلام النفس لله معناه إسلامها لأجله وصيرورتها ملكا له ، بحيث يكون جميع أعمال النفس في مرضاة الله ، وتحت هذا معان جمة هي جماع الإسلام : نحصرها في عشرة :

المعنى الأول : تمام العبودية لله تعالى ، وذلك بألا يعبد غير الله ، وهذا إبطال للشرك لأن

المشرك بالله غير الله لم يسلم نفسه بل أسلم بعضها .

المعنى الثاني : إخلاص العمل لله تعالى فلا يلحظ في عمله غير الله تعالى ، فلا يرائي ولا يصانع فيما لا يرضي الله ولا يقدم مرضاة غير الله تعالى على مرضاة الله .

(278/114)

الثالث : إخلاص القول لله تعالى فلا يقول مالا يرضى به الله ، ولا يصدر عنه قول إلا فيما أذن الله فيه أن يقال ، وفي هذا المعنى تجيء الصراحة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، على حسب المقدرة والعلم ، والتصدي للحجة لتأييد مراد الله تعالى ، وهي صفة امتاز بها الإسلام ، ويندفع بهذا المعنى النفاق ، والملق ، قال تعالى في ذكر رسوله :

﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص : 86] .

الرابع : أن يكون ساعيا لتعرف مراد الله تعالى من الناس ، ليجري أعماله على وفقه ، وذلك بالإصغاء إلى دعوة الرسل المخبرين بأنهم مرسلون من الله ، وتلقيها بالتأمل في وجود صدقها ، والتمييز بينها وبين الدعاوى الباطلة ، بدون تحفز للتكذيب ، ولا مكابرة في تلقي الدعوة ، ولا إعراض عنها بداعي الهوى وهو الإفحام ، بحيث يكون علمه بمراد الله من الخلق هو ضالته المنشودة .

الخامس : امتثال ما أمر الله به ، واجتناب ما نهى عنه ، على لسان الرسل الصادقين ، والمحافظة على اتباع ذلك بدون تغيير ولا تحريف ، وأن يذود عنه من يريد تغييره .

السادس : ألا يجعل لنفسه حكما مع الله فيما حكم به ، فلا يتصدى للتحكم في قبول بعض ما أمر الله به ونبذ البعض . كما حكي الله تعالى ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ [النور : 48–49] وقد وصف الله المسلمين بقوله ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : 36] ، فقد أعرض الكفار عن الإيمان بالبعث ؛ لأنهم لم يشاهدوا ميتا بعث .

(279/114)

السابع : أن يكون متطلبا لمراد الله مما أشكل عليه فيه ، واحتاج إلى جريه فيه على مراد الله : يتطلبه من إلحاقه بنظائره التامة التنظير بما علم أنه مراد الله ، كما قال الله تعالى ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : 83] ولهذا أدخل علماء الإسلام حكم التفقه في الدين والاجتهاد ، تحت التقوى المأمور بها في قوله تعالى ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : 16] .

الثامن : الإعراض عن الهوى المذموم في الدين ، وعن القول فيه بغير سلطان ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ [القصص : 50] .

التاسع : أن تكون معاملة أفراد الأمة بعضها بعضا ، وجماعاتها ، ومعاملتها الأمم كذلك ، جارية على مراد الله تعالى من تلك المعاملات .

العاشر : التصديق بما غيب عنا ، مما أنبأنا الله به : من صفاته ، ومن القضاء والقدر : وأن الله هو المتصرف المطلق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 59 . 61 ﴾

وقال ابن عاشور فى قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾ ما نصه : وقوله ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾ إبطال لكونهم حاصلين على هذا المعنى ، فأما المشركون فبعدهم عنه أشد البعد ظاهر ، وأما النصارى فقد ألهوا عيسى ، وجعلوا مريم صاحبة لله تعالى فهذا أصل لبطلان أن يكونوا أسلموا وجوههم لله ؛ لأنهم عبدوا مع الله غيره ، وصانعوا الأمم الحاكمة والملوك ، فأسسوا الدين على حسب ما يلذ لهم ويكسبهم الحظوة عندهم .

وأما اليهود فإنهم وإن لم يشركوا بالله قد نقضوا أصول التقوى ، فسفهوا الأنبياء وقتلوا بعضهم ، واستهزءوا بدعوة الخير إلى الله ، وغيروا الأحكام اتباعا للهوى ، وكذبوا الرسل ، وقتلوا الأحبار ، فأنى يكون هؤلاء قد أسلموا لله ، وأكبر مبطل لذلك هو تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم دون النظر في دلائل صدقه .

(280/114)

ثم إن قوله ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ معناه : فإن التزموا النزول إلى التحقق بمعنى أسلمت وجهي لله فقد اهتدوا ، ولم يبق إلا أن يتبعوك لتلقي ما تبلغهم عن الله ؛ لأن ذلك أول معاني إسلام الوجه لله ، وإن تولوا وأعرضوا عن قولك لهم : أأسلمتم فليس عليك من إعراضهم تبعة ، فإنما عليك البلاغ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 60. 61 ﴾

(281/114)

فائدة

قال السعدى فى معنى الآية :

أمر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عند محاجة النصارى وغيرهم ممن يفضل غير دين الإسلام

عليه أن يقول لهم : قد ﴿ أسلمت وجهي لله ومن اتبعن ﴾ أي : أنا ومن اتبعني قد أقررنا

وشهدنا وأسلمنا وجوهنا لربنا ، وتركنا ما سوى دين الإسلام ، وجزمنا ببطلانه ، ففي هذا تأييس لمن طمع فيكم ، وتجديد لدينكم عند ورود الشبهات ، وحجة على من اشتبه عليه الأمر ، لأنه قد تقدم أن الله استشهد على توحيده بأهل العلم من عباده ليكونوا حجة على غيرهم ، وسيد أهل العلم وأفضلهم وأعلمهم هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم من بعده أتباعه على اختلاف مراتبهم وتفاوت درجاتهم ، فلهم من العلم الصحيح والعقل الرجيح ما ليس لأحد من الخلق ما يساويهم أو يقاربهم ، فإذا ثبت وتقرر توحيد الله ودينه بأدلته الظاهرة ، وقام به أكمل الخلق وأعلمهم ، حصل بذلك اليقين وانتفى كل شك وريب وقادح ، وعرف أن ما سواه من الأديان باطلة ، فلهذا قال ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب ﴾ من النصارى واليهود ﴿ والأميين ﴾ مشركي العرب وغيرهم ﴿ أأسلمتم فإن أسلموا ﴾ أي : بمثل ما أمنتم به ﴿ فقد اهتدوا ﴾ كما اهتديتم وصاروا إخوانكم ، لهم ما لكم ، وعليهم ما عليكم ﴿ وإن تولوا ﴾ عن الإسلام ورضوا بالأديان التي تخالفه ﴿ فإنما عليك البلاغ ﴾ فقد وجب أجرك على ربك ، وقامت عليهم الحجة ، ولم يبق بعد هذا إلا مجازاتهم بالعقاب على جرمهم ، فلهذا قال ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير السعدى صـ 124 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

طالِعْهُم بعين التصريف كيلا يفترق بك الحال في شهود اختلافهم وتباين أطوارهم ؛ فإنَّ مَنْ طالَعَ الكائناتِ بعين القدرة علم أن المُثْبِتَ للكلِّ - على ما اختص به كل واحد من الكل - واحدٌ .

فادْعُهم جهراً بجهر ، واشهد تصريفنا إياهم سِرَّاً بسر ، واشغل لسانك بنصحهم ، وفرِّغ قلبك عن حديثهم ، وأفرد سِرَّك عن شهودهم ، فليس الذي كلفناك من أمورهم إلا البلاغ ، والمُجرِي للأمور والمبدي - نحن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 228 ﴾

(283/114)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾

قَرَأَ نَافِعٌ وَالْبَصْرِيُّ (اتَّبَعَنِي) بِالْيَاءِ فِي الْوَصْلِ خَاصَّةً، وَالْبَاقُونَ بِحَذْفِهَا وَصْلًا وَوَقْفًا .

بَعْدَ مَا بَيَّنَ - تَعَالَى - جَزَاءَ الْمُتَّقِينَ وَبَيَّنَ حَالَهُمْ فِي إِيمَانِهِمْ وَمَدَحَ أَصْنَافَهُمُ الْكَامِلِينَ فِي أَوْصَافِهِمْ بَيَّنَ أَصْلَ الْإِيمَانِ وَأَسَاسَهُ فَقَالَ: شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ صَرَّحَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ بِأَنَّ شَهَادَةَ اللهِ هُنَا مِنْ بَابِ الِاسْتِعَارَةِ ; لِأَنَّ مَا نَصَبَهُ مِنَ الدَّلَائِلِ فِي الْآفَاقِ وَفِي الْأَنْفُسِ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَمَا أَوْحَاهُ إِلَى أَنْبِيَائِهِ فِي ذَلِكَ يُشْبِهُ شَهَادَةَ الشَّاهِدِ بِالشَّيْءِ فِي إِظْهَارِهِ وَإِثْبَاتِهِ، وَكَذَلِكَ شَهَادَةُ الْمَلَائِكَةِ عِبَارَةٌ عَنْ إِقْرَارِهِمْ بِذَلِكَ كَمَا قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ . زَادَ أَبُو السُّعُودِ : وَإِيمَانُهُمْ بِهِ، وَجَعْلُهَا مِنْ بَابِ عُمُومِ الْمَجَازِ، وَشَهَادَةُ أُولِي الْعِلْمِ عِبَارَةٌ عَنْ إِيمَانِهِمْ بِهِ وَاحْتِيَاجِهِمْ عَلَيْهِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ كُلٍّ بِمَعْنًى وَاحِدٍ ، لِأَنَّهَا إِمَّا عِبَارَةٌ عَنِ الْإِخْبَارِ الْمَقْرُونِ بِالْعِلْمِ وَإِمَّا عِبَارَةٌ عَنِ الْإِظْهَارِ وَالْبَيَانِ، وَكُلُّ ذَلِكَ حَاصِلٌ مِنَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَأُولِي الْعِلْمِ، فَاللهُ - تَعَالَى - أَخْبَرَ بِتَوْحِيدِهِ مَلَائِكَتَهُ وَرُسُلَهُ عَنْ عِلْمٍ، وَبَيَّنَهُ لَهُمْ أَتَمَّ الْبَيَانِ، وَالْمَلَائِكَةُ أَخْبَرُوا الرُّسُلَ وَبَيَّنُوا لَهُمْ، وَأُولُو الْعِلْمِ أَخْبَرُوا بِذَلِكَ وَبَيَّنُوهُ عَالِمِينَ بِهِ لَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ . وَأَقُولُ : إِنَّ مَا قَالَهُ الْأَوَّلُونَ

ضَعِيفٌ وَأَقْرَبُ التَّفْسِيرَيْنِ لِلشَّهَادَةِ فِي الْقَوْلِ الْآخَرِ أَوَّلُهُمَا ، يُقَالُ : شَهِدَ الشَّيْءَ إِذَا حَضَرَهُ وَشَاهَدَهُ كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ [2 : 185] وَقَوْلِهِ : مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ [27 : 49] وَيُقَالُ شَهِدَ بِهِ إِذَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ مُشَاهَدَةٍ بِالْبَصَرِ وَهُوَ الْأَكْثَرُ وَالْأَصْلُ ، أَوْ عَنْ مُشَاهَدَةٍ بِالْبَصِيرَةِ وَهِيَ الِاعْتِقَادُ وَالْعِلْمُ ، كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - حِكَايَةً عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ : وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا [12 : 81] وَذَلِكَ أَنَّهُمْ أَخْبَرُوا أَبَاهُمْ يَعْقُوبَ بِأَنَّ ابْنَهُ (شَقِيقَ يُوسُفَ) سَرَقَ عَنِ اعْتِقَادٍ لَا عَنْ مُشَاهَدَةٍ بِالْبَصَرِ ، وَإِنَّمَا سَمَّوُا اعْتِقَادَهُمْ عِلْمًا لِأَنَّهُ لَمْ يَخْطُرْ فِي بَالِهِمْ مَا يُعَارِضُ مَا رَأَوْهُ مِنْ إِخْرَاجِ صُوَاعِ الْمَلِكِ مِنْ رَحْلِ شَقِيقِ يُوسُفَ بَعْدَ مَا نُودِيَ فِيهِمْ بِأَنَّ الصُّوَاعَ قَدْ سُرِقَ . وَالْحَاصِلُ : أَنَّ الشَّهَادَةَ بِالشَّيْءِ هِيَ الْإِخْبَارُ بِهِ عَنْ عِلْمٍ بِالْمُشَاهَدَةِ الْحِسِّيَّةِ أَوِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَهِيَ الْحُجَّةُ وَالدَّلِيلُ وَهُوَ الْمُخْتَارُ هُنَا . وَلَكِنْ يَرِدُ عَلَيْهِ هُنَا أَنَّهُ إِثْبَاتٌ لِلتَّوْحِيدِ بِالنَّقْلِ وَهُوَ فَرْعٌ عَنْهُ ; لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَثْبُتْ تَوْحِيدُ اللَّهِ لَا يَثْبُتِ الْوَحْيُ .

وَيُجَابُ عَنْهُ بِأَنَّ شَهَادَةَ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ مُؤَيَّدَةٌ بِالْبَرَاهِينِ الَّتِي قَرَنَهَا بِهَا وَبِالْآيَاتِ عَلَى صِدْقِ الرُّسُلِ ، وَشَهَادَةُ الْمَلَائِكَةِ لِلْأَنْبِيَاءِ مَقْرُونَةٌ بِعِلْمٍ ضَرُورِيٍّ هُوَ عِنْدَ الْأَنْبِيَاءِ أَقْوَى مِنْ جَمِيعِ الْيَقِينِيَّاتِ الْبَدِيهِيَّةِ ، وَبِتِلْكَ

الدَّلَائِلِ الَّتِي أُمِرُوا بِأَنْ يَحْتَجُّوا بِهَا عَلَى النَّاسِ ، وَشَهَادَةُ أُولِي الْعِلْمِ تُقْرَنُ عَادَةً بِالدَّلَائِلِ وَالْحُجَجِ ; لِأَنَّ الْعَالِمَ بِالشَّيْءِ لَا تَعُوزُهُ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ . عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ فِي وَحْدَانِيَّةِ الْأُلُوهِيَّةِ ، وَالْمُشْرِكُ بِهَا لَا يَكُونُ مُعَطِّلًا حَتَّى يُقَالَ لَا

بُدَّ مِنْ إِقْنَاعِهِ بِوُجُودِ اللهِ إِقْنَاعُهُ بِشَهَادَتِهِ ، بَلْ يَكُونُ مُقِرًّا بِوُجُودِ اللهِ ، وَإِنَّمَا شِرْكُهُ بِاتِّخَاذِ الْوُسَطَاءِ يَكُونُونَ بِزَعْمِهِ وَسَائِلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ يُقَرِّبُونَهُ إِلَيْهِ زُلْفَى ، وَبِالشُّفَعَاءِ يَكُونُونَ فِي وَهْمِهِ سَبَبًا لِقَضَاءِ حَاجَاتِهِ وَتَكْفِيرِ سَيِّئَاتِهِ ، كَمَا كَانَتْ تَدِينُ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ .

وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي أُولِي الْعِلْمِ ، فَقَالَ : هُمُ الصَّحَابَةُ وَقِيلَ : عُلَمَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَذَهَبَ الزَّمَخْشَرِيُّ إِلَى أَنَّهُمُ الْمُعْتَزِلَةُ ، وَالرَّازِيُّ إِلَى أَنَّهُمْ عُلَمَاءُ الْأُصُولِ . وَهَذَا مِنْ عَجِيبِ الْخِلَافِ ، فَإِنَّ أُولِي الْعِلْمِ لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى تَعْرِيفٍ وَلَا تَفْسِيرٍ ، فَهُمْ أَصْحَابُ الْعِلْمِ الْبُرْهَانِيِّ الْقَادِرُونَ عَلَى الْإِقْنَاعِ ، وَهُمْ مَعْرُوفُونَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ وَفِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ .

أَمَّا قَوْلُهُ - تَعَالَى - : قَائِمًا بِالْقِسْطِ فَمَعْنَاهُ : أَنَّهُ - تَعَالَى - شَهِدَ هَذِهِ الشَّهَادَةَ قَائِمًا بِالْقِسْطِ وَهُوَ الْعَدْلُ فِي الدِّينِ وَالشَّرِيعَةِ ، وَفِي الْكَوْنِ وَالطَّبِيعَةِ . فَمِنَ الْأَوَّلِ : تَقْرِيرُ الْعَدْلِ

فِي الِاعْتِقَادِ ، كَالتَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ وَسَطٌ بَيْنَ التَّعْطِيلِ وَالشِّرْكِ ، وَمِنَ الثَّانِي : جَعْلُ سُنَنِ الْخَلِيقَةِ فِي الْأَكْوَانِ وَالْإِنْسَانِ الدَّالَّةِ عَلَى حَقِّيَّةِ الِاعْتِقَادِ قَائِمَةً عَلَى أَسَاسِ الْعَدْلِ ، فَمَنْ نَظَرَ فِي هَذِهِ السُّنَنِ وَنِظَامِهَا الدَّقِيقِ يَتَجَلَّى لَهُ عَدْلُ اللهِ الْعَامِّ ، فَالْقِيَامُ بِالْقِسْطِ عَلَى هَذَا مِنْ قَبِيلِ التَّنْبِيهِ إِلَى الْبُرْهَانِ عَلَى صِدْقِ شَهَادَتِهِ - تَعَالَى - فِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ ; لِأَنَّ وَحْدَةَ النِّظَامِ فِي هَذَا الْعَدْلِ تَدُلُّ عَلَى وَحْدَةِ وَاضِعِهِ ، وَهَذَا مِمَّا يُفَنِّدُ تَفْسِيرَ بَعْضِهِمْ لِلشَّهَادَةِ بِأَنَّهَا عِبَارَةٌ عَنْ خَلْقِ مَا يَدُلُّ عَلَى الْوَحْدَانِيَّةِ مِنَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ ، كَذَلِكَ كَانَتْ أَحْكَامُهُ - تَعَالَى - فِي الْعِبَادَاتِ وَالْآدَابِ وَالْأَعْمَالِ مَبْنِيَّةً عَلَى أَسَاسِ الْعَدْلِ بَيْنَ الْقُوَى الرُّوحِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ وَبَيْنَ النَّاسِ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ ، فَقَدْ أَمَرَ بِذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِ الصَّلَاةِ لِتَرْقِيَةِ الرُّوحِ وَتَزْكِيَتِهِ ، وَأَبَاحَ الطَّيِّبَاتِ وَالزِّينَةَ لِحِفْظِ الْبَدَنِ وَتَرْبِيَتِهِ ، وَنَهَى عَنِ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ وَالْإِسْرَافِ فِي الدُّنْيَا وَذَلِكَ عَيْنُ الْعَدْلِ ، فَهَذَا هُوَ الْقِسْطُ فِي الْعِبَادَاتِ وَالْأَعْمَالِ الدُّنْيَوِيَّةِ . وَأَمَّا الْقِسْطُ فِي

الْآدَابِ وَالْأَخْلَاقِ فَهُوَ صَرِيحٌ فِي الْقُرْآنِ كَصَرَاحَةِ الْأَمْرِ بِالْعَدْلِ فِي الْأَحْكَامِ . قَالَ - تَعَالَى - : إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ [16 : 90] وَقَالَ : وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ

تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ [4 : 58] .

وَإِذْ قَدْ تَجَلَّى لَكَ صِدْقُ الشَّهَادَةِ فَعَلَيْكَ أَنْ تُقِرَّ بِهَا قَائِلًا : لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ تَفَرَّدَ بِالْأُلُوهِيَّةِ وَكَمَالِ الْعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ ، فَلَا يَغْلِبُهُ أَحَدٌ عَلَى مَا قَامَ بِهِ مِنْ سُنَنِ الْقِسْطِ وَلَا يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنْهَا عَنْ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ .

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ قَرَأَ الْجُمْهُورُ (إِنَّ) بِالْكَسْرِ عَلَى أَنَّ الْجُمْلَةَ مُسْتَأْنَفَةٌ ، وَقَرَأَهَا الْكِسَائِيُّ بِالْفَتْحِ عَلَى أَنَّهَا تَعْلِيلٌ لِلشَّهَادَةِ بِالتَّوْحِيدِ ، أَيْ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ; لِأَنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ هُوَ الْإِسْلَامُ لَهُ وَحْدَهُ ، أَوْ عَطْفٌ عَلَى (أَنَّهُ) أَوْ بَدَلٌ مِنْهُ .

(289/114)

أَقُولُ : الدِّينُ فِي اللُّغَةِ : الْجَزَاءُ وَالطَّاعَةُ وَالْخُضُوعُ ، أَيْ سَبَبُ الْجَزَاءِ ، وَيُطْلَقُ عَلَى مَجْمُوعِ التَّكَالِيفِ الَّتِي يَدِينُ بِهَا الْعِبَادُ لِلَّهِ فَيَكُونُ بِمَعْنَى الْمِلَّةِ وَالشَّرْعِ . وَقَالُوا : إِنَّ مَا يُكَلِّفُ اللهُ بِهِ الْعِبَادَ يُسَمَّى شَرْعًا بِاعْتِبَارِ وَضْعِهِ وَبَيَانِهِ ، وَيُسَمَّى دِينًا بِاعْتِبَارِ الْخُضُوعِ وَطَاعَةِ الشَّارِعِ بِهِ ، وَيُسَمَّى مِلَّةً بِاعْتِبَارِ جُمْلَةِ التَّكَالِيفِ ، وَالْإِسْلَامُ مَصْدَرُ أَسْلَمَ وَهُوَ بِيَانٌ يَأْتِي بِمَعْنَى خَضَعَ وَاسْتَسْلَمَ ، وَبِمَعْنَى أَدَّى ، يُقَالُ أَسْلَمْتُ الشَّيْءَ إِلَى فُلَانٍ إِذَا أَدَّيْتَهُ إِلَيْهِ ، وَبِمَعْنَى دَخَلَ

فِي السِّلْمِ وَهُوَ بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ بِمَعْنَى الصُّلْحِ وَالسَّلَامَةِ ، وَبِالتَّحْرِيكِ [بِمَعْنَى] الْخَالِصِ مِنَ الشَّيْءِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ [39 : 29] أَيْ خَالِصًا لَهُ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ مَنْ يُشَاكِسُهُ ، وَتَسْمِيَةُ دِينِ الْحَقِّ إِسْلَامًا يُنَاسِبُ كُلَّ مَعْنًى مِنْ مَعَانِي الْكَلِمَةِ فِي اللُّغَةِ ، وَأَظْهَرُهَا آخِرُهَا فِي الذِّكْرِ لَا سِيَّمَا فِي هَذَا الْمَقَامِ ، وَيُؤَيِّدُهُ الْآيَةُ الْآتِيَةُ وَقَوْلُهُ - تَعَالَى - : وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا [4 : 125] وَقَدْ وُصِفَ إِبْرَاهِيمُ بِالْإِسْلَامِ فِي عِدَّةِ سُوَرٍ ، وَوُصِفَ غَيْرُهُ مِنَ النَّبِيِّينَ بِذَلِكَ ، فَعُلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ الْحَصْرَ فِي قَوْلِهِ : إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ يَتَنَاوَلُ جَمِيعَ الْمِلَلِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ ; لِأَنَّهُ هُوَ رُوحُهَا الْكُلِّيُّ الَّذِي اتَّفَقَتْ فِيهِ عَلَى اخْتِلَافِ بَعْضِ التَّكَالِيفِ وَصُوَرِ الْأَعْمَالِ فِيهَا ; وَبِهِ كَانُوا يُوصُونَ . رَاجِعْ تَفْسِيرَ (2 : 128 و 131 - 133) وَالْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ لَمْ يَقُلْ هُنَا إِلَّا بَعْضَ مَا قَالَهُ هُنَاكَ ، وَبِذَلِكَ كُلِّهِ تَعْلَمُ أَنَّ الْمُسْلِمَ الْحَقِيقِيَّ فِي حُكْمِ الْقُرْآنِ مَنْ كَانَ خَالِصًا مِنْ شَوَائِبِ الشِّرْكِ بِالرَّحْمَنِ ، مُخْلِصًا فِي أَعْمَالِهِ مَعَ الْإِيمَانِ ، مِنْ أَيِّ مِلَّةٍ كَانَ ، وَفِي أَيِّ زَمَانٍ وُجِدَ وَمَكَانٍ ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ - عَزَّ وَجَلَّ - : وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ

(291/114)

يُقْبَلَ مِنْهُ [3 : 85] الْآيَةَ وَسَتَأْتِي ، ذَلِكَ أَنَّ اللهَ - تَعَالَى - شَرَعَ الدِّينَ لِأَمْرَيْنِ أَصْلِيَّيْنِ :

(أَحَدُهُمَا) : تَصْفِيَةُ الْأَرْوَاحِ وَتَخْلِيصُ الْعُقُولِ مِنْ شَوَائِبِ الِاعْتِقَادِ بِالسُّلْطَةِ الْغَيْبِيَّةِ لِلْمَخْلُوقَاتِ ، وَقُدْرَتِهَا عَلَى التَّصَرُّفِ فِي الْكَائِنَاتِ ; لِتَسْلَمَ مِنَ الْخُضُوعِ وَالْعُبُودِيَّةِ لِمَنْ هُوَ مِنْ

أَمْثَالِهَا ، أَوْ لِمَا دُونَهَا فِي اسْتِعْدَادِهَا وَكَمَالِهَا .

(وَثَانِيهِمَا) : إِصْلَاحُ الْقُلُوبِ بِحُسْنِ الْقَصْدِ فِي جَمِيعِ الْأَعْمَالِ ، وَإِخْلَاصُ النِّيَّةِ لِلَّهِ وَلِلنَّاسِ ، فَمَتَى حَصَلَ هَذَانِ الْأَمْرَانِ انْطَلَقَتِ الْفِطْرَةُ مِنْ قُيُودِهَا الْعَائِقَةِ لَهَا عَنْ بُلُوغِ كَمَالِهَا فِي أَفْرَادِهَا وَجَمْعِيَّاتِهَا ، وَهَذَانِ الْأَمْرَانِ هُمَا رُوحُ الْمُرَادِ مِنْ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ ، وَأَمَّا أَعْمَالُ الْعِبَادَاتِ فَإِنَّمَا شُرِعَتْ لِتَرْبِيَةِ هَذَا الرُّوحِ الْأَمْرِيِّ فِي الرُّوحِ الْخَلْقِيِّ ; وَلِذَلِكَ شَرَطَ فِيهَا النِّيَّةَ وَالْإِخْلَاصَ وَمَتَى تَرَبَّى سَهُلَ عَلَى صَاحِبِهِ الْقِيَامُ بِسَائِرِ التَّكَالِيفِ الْأَدَبِيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ الَّتِي يَصِلُ بِهَا إِلَى الْمَدِينَةِ الْفَاضِلَةِ وَتَحْقِيقُ أُمْنِيَةِ الْحُكَمَاءِ .

(292/114)

آهٍ ما أشدَّ غفلةَ النّاسِ عَنْ حقيقةِ الإِسْلامِ ؟ ! أيُّ سعادةٍ للنّاس تَعْلو عِرْفانَ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرادِهِمْ أَنَّهُ أُوتيَ مِنَ الاسْتِعْدادِ ما أُوتيهُ مَنْ يُوصفُونَ بِالْوِلايَةِ وَالْقَداسَةِ وَيُدْلُونَ بِالزَّعامَةِ وَالرِّياسَةِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعْبِدُ بِها النّاسَ اسْتِعْبادًا رُوحانِيًّا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعْبِدُهُمْ بِها اسْتِعْبادًا سِياسِيًّا ، وَإِخْلاصُ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرادِهِمْ فِي عَمَلِهِ الدِّينِيِّ وَعَمَلِهِ الدُّنْيَوِيِّ لِلنّاسِ ، هذِهِ السَّعادةُ هِيَ رُوحُ الْإِسْلامِ وَحَقِيقَتُهُ حَجَبَتْها عَنْ بَعْضِهِمُ الرُّسُومُ الْعِلْمِيَّةُ وَالتَّقالِيدُ الْمَذْهَبِيَّةُ ، وَعَنْ آخَرِينَ النَّزَعاتُ النَّظَرِيَّةُ وَالتَّقالِيدُ الْوَضْعِيَّةُ ، فَالْأَوَّلُونَ يَرْمُونَ بِالْكُفْرِ أَوِ الْبِدْعَةِ كُلَّ مَنْ خالَفَ مَذاهِبَهُمْ ، وَالْآخَرُونَ يَنْبِذُونَ بِالْغَباوَةِ وَالتَّعَصُّبِ كُلَّ مَنْ لَمْ يَسْتَعْذِبْ مَشْرَبَهُمْ ، فَمَتَى يَكْثُرُ الْمُسْلِمُونَ

(293/114)

الْخالِصُونَ الْمُخْلِصُونَ لِلْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، فَيَكُونُوا حُجَّةَ اللهِ عَلَيْهِمْ وَعَلَى جَمِيعِ الْعالَمِينَ ، وَآيَةَ الْوَحْدَةِ الْفاضِحَةِ لِلْمُخْتَلِفِينَ ؟ وَما اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ قِيلَ : إِنَّ الْمُرادَ بِأَهْلِ الْكِتابِ هُنا الْيَهُودُ خاصَّةً ، وَقِيلَ النَّصارى خاصَّةً ، وَيُدَعِّمُ هذا الْقَوْلَ : أَنَّ الْآياتِ نَزَلَتْ فِي نَصارى نَجْرانَ كَما تَقَدَّمَ . وَالصَّوابُ : أَنَّها عامَّةٌ لا تَخُصُّ فَرِيقًا دُونَ آخَرَ ، وَالْجُمْلَةُ بَيانٌ لِسَبَبِ خُرُوجِ أَهْلِ الْكِتابِ عَنِ الْإِسْلامِ الَّذِي جاءَ بِهِ

أَنبياؤُهمْ علَى مَا تَقَدَّمَ فِي الْجُمْلَةِ الْأُولَى ، فَصَارُوا مَذَاهِبَ وَشِيَعًا يَقْتَتِلُونَ فِي الدِّينِ ، وَالدِّينُ وَاحِدٌ لَا تَفَرُّقَ فِيهِ وَلَا مَثَارَ لِلاخْتِلَافِ بَلْهَ الِاقْتِتَالُ ، وَهَذَا السَّبَبُ هُوَ الْبَغْيُ وَتَجَاوُزُ الْحُدُودِ مِنَ الرُّؤَسَاءِ كَمَا فَصَّلَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ تَفْصِيلًا فِي تَفْسِيرِ :

(294/114)

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً [2 : 213] فَلْيُرَاجِعْهُ مَنْ لَمْ يَقْرَأْهُ ، وَمَنْ كَانَ عَلَى عِلْمٍ بِالتَّارِيخِ وَخَاصَّةً نَشْأَةَ الْمَذَاهِبِ فِي كُلِّ أُمَّةٍ ، وَفُشُوِّ الْبِدَعِ فِي كُلِّ مِلَّةٍ ، فَهُوَ الَّذِي يَفْهَمُ كُنْهَ الْمُرَادِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ ، فَلَوْلَا بَغْيُ رُؤَسَاءِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَنَصْرُ مَذْهَبٍ عَلَى مَذْهَبٍ لَمَا تَعَصَّبَ لِكُلِّ مَذْهَبٍ يُشْتَقُّ مِنَ الدِّينِ شِيعَةٌ تَنْصُرُهُ وَتُؤَيِّدُهُ فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ ، وَتُقَاوِمُ كُلَّ مَنْ يُقَاوِمُهُ وَتُضَلِّلُهُمْ مُتَوَكِّئَةً عَلَى عِلْمِ الدِّينِ ، وَمُسْتَنِدَةً إِلَى نُصُوصِهِ بِتَفْسِيرِ بَعْضِهَا بِالرَّأْيِ وَالْهَوَى ، وَتَأْوِيلِ بَعْضِهَا وَتَحْرِيفِهِ ، أَوْ يُوَافِقُ الْمَذْهَبَ الْمُنْتَحَلَ .

(295/114)

وَيَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَلَّا يَنْظِمَ الْآيَةَ فِي سِمْطِ أَخْبَارِ التَّارِيخِ ، وَلَا فِي سِلْكِ عِلْمِ الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ ، أَوْ عِلْمِ الْمُنَاظَرَةِ وَالْجَدَلِ ، بَلْ يَتْلُوهَا مُتَذَكِّرًا أَنَّهَا مَا أُنْزِلَتْ إِلَّا هِدَايَةً وَعِبْرَةً لِمَنْ يُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ ؛ لِيَتَّقُوا الْخِلَافَ فِي الدِّينِ وَالتَّفَرُّقَ فِيهِ إِلَى شِيَعٍ وَمَذَاهِبَ اتِّبَاعًا لِسُنَنِ مَنْ قَبْلَهُمْ . نَحْنُ الْمُسْلِمُونَ نَعْتَقِدُ أَنَّ دِينَ الْمَسِيحِ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – هُوَ الْإِسْلَامُ الَّذِي بَيَّنَّا مَعْنَاهُ آنِفًا ، وَأَنَّ أَسَاسَهُ التَّوْحِيدُ وَالتَّنْزِيهُ ، وَأَنَّ الرُّؤَسَاءَ الرُّوحِيِّينَ وَغَيْرَ الرُّوحِيِّينَ لَا سِيَّمَا الْمُلُوكُ وَالْأَحْبَارُ الرُّومَانِيِّينَ هُمُ الَّذِينَ بِتَفَرُّقِهِمْ جَعَلُوا ذَلِكَ الدِّينَ الْإِلَهِيَّ الْوَاحِدَ مَذَاهِبَ يَنْقُضُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَأَهْلَهُ شِيَعًا يَفْتِكُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، وَأَنَّهُ لَوْلَا بَغْيُهُمْ لَمَا تَمَزَّقَ شَمْلُ آرْيُوسَ وَأَتْبَاعِهِ الَّذِينَ دَعَوْا إِلَى التَّوْحِيدِ وَالتَّنْزِيهِ بَعْدَ فُشُوِّ الشِّرْكِ وَالتَّشْبِيهِ ، إِذْ حَكَمَ الْمَجْمَعُ الَّذِي أَلَّفَهُ الْمَلِكُ قُسْطَنْطِينُ سَنَةَ 325 م بِمُقَاوَمَةِ آرْيُوسَ وَإِحْرَاقِ كُتُبِهِ وَتَحْرِيمِ اقْتِنَائِهَا ، وَلَمَّا انْتَشَرَ تَعْلِيمُهُ مِنْ بَعْدِهِ قَضَى تِيُودُوسِيُوسَ الثَّانِي بِاسْتِئْصَالِ مَذْهَبِهِ وَإِبَادَةِ الْآرْيُوسِيَّةِ بِقَانُونٍ رُومَانِيٍّ صَدَرَ فِي سَنَةِ 628م ، وَبَقِيَتْ مَذَاهِبُ التَّثْلِيثِ يُكَافِحُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، [نَحْنُ] نَعِيبُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَيْنَا أَلَّا نَنْسَى أَنْفُسَنَا وَلَا يَغِيبُ عَنَّا مَا أَصَبْنَا بِهِ مِنَ الْخِلَافِ

وَالتَّفَرُّقِ عَسَى أَنْ يَسْعَى أَهْلُ الْإِيمَانِ الصَّادِقِ وَالْغَيْرَةِ فِي نَبْذِ الِاخْتِلَافِ وَالشِّقَاقِ، وَالْعَوْدِ إِلَى الْوَحْدَةِ وَالِاتِّفَاقِ، كَمَا كُنَّا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وَخُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ عَلَيْهِمُ الرِّضْوَانُ.

وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَةِ الدِّينِ وَوُجُوبِ الِاعْتِصَامِ بِهِ وَحُرْمَةِ الِاخْتِلَافِ وَالتَّفَرُّقِ فِيهِ، وَهِيَ الْمُرَادُ بِالْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ: إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ يُحَاسِبُ مَنْ كَفَرَ فَيُجَازِيهِ بِمَا يَسْتَحِقُّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ سَرِيعُ الْحِسَابِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ (2 : 202) فَلْيُرَاجَعْ.

أَمَّا هَذَا الْكُفْرُ فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَرْكِ الْإِذْعَانِ لِهَذِهِ الْآيَاتِ وَالِامْتِثَالِ لَهَا، وَمِنْ لَوَازِمِهِ تَأْوِيلُهَا بِمَا يَصْرِفُهَا عَنْ مَعْنَاهَا لِتُوَافِقَ مَذَاهِبَ أَهْلِ التَّأْوِيلِ.

(297/114)

كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَدْعُو الْيَهُودَ فِي الْمَدِينَةِ إِلَى تَرْكِ مَا أَحْدَثُوهُ فِي دِينِهِمْ وَمَا اعْتَادُوهُ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلِ، وَإِلَى الرُّجُوعِ إِلَى حَقِيقَتِهِ وَهِيَ إِسْلَامُ الْوَجْهِ لِلَّهِ وَالْإِخْلَاصُ لَهُ فِي كُلِّ عَمَلٍ كَمَا نَطَقَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الَّتِي وَرَدَ أَنَّهَا نَزَلَتْ عِنْدَ مَجِيءِ وَفْدِ نَصَارَى نَجْرَانَ. فَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: (فَإِنْ حَاجُّوكَ) يَعْنِي بِهِ أَهْلَ الْكِتَابِ أَوْ عَامًّا، أَيْ فَإِنْ

جَادَلُوكَ بَعْدَ أَنْ جِئْتَهُمْ بِالْحَقِّ الْيَقِينِ ، وَأَقَمْتَ عَلَيْهِ الْبَيِّنَاتِ وَالْبَرَاهِينَ ، وَدَمَغْتَ الْبَاطِلَ بِالْآيَاتِ وَالدَّلَائِلِ ، فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ أَيْ أَقْبَلْتُ عَلَيْهِ بِعِبَادَتِي مُخْلِصًا لَهُ مُعْرِضًا عَمَّا سِوَاهُ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : كَأَنَّهُ يَقُولُ : إِنَّ مَنْ يَقْصِدُ إِلَى الْحِجَاجِ بَعْدَ تَأْيِيدِ الْحَقِّ وَتَفْنِيدِ الْبَاطِلِ لَا يَقْصِدُ إِلَّا إِلَى الْمُجَادَلَةِ وَالْمُشَاغَبَةِ لِمَحْضِ الْعِنَادِ وَالْمُشَاكَسَةِ وَذَلِكَ شَأْنُ الْمُبْطِلِينَ ، وَأَمَّا طَالِبُ الْحَقِّ فَإِنَّهُ يَبْخَلُ بِالْوَقْتِ أَنْ يَضِيعَ سُدًى وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَيْ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَمُشْرِكِي الْعَرَبِ وَكَانُوا يُنْسَبُونَ إِلَى الْأُمِّ لِجَهْلِهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَخَصَّ هَؤُلَاءِ بِالذِّكْرِ - وَالْبَعْثَةُ عَامَّةٌ - لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ خَاطَبَهُمُ الرَّسُولُ بِالدَّعْوَةِ بِلَا وَاسِطَةٍ أَأَسْلَمْتُمْ كَمَا أَسْلَمْتُ لَمَّا وَضَحَتْ لَكُمُ الْحُجَّةُ

(298/114)

أَمْ لَا ؟ قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ : وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ : فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ [5 : 91] وَفِيهِ تَعْبِيرٌ لَهُمْ بِالْبَلَادَةِ أَوِ الْمُعَانَدَةِ اهـ . قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : الِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ ، وَالْمُرَادُ بِالْإِسْلَامِ رُوحُ الدِّينِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ الْكِتَابُ وَمَقْصِدُهُ ، يَعْنِي أَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ إِلَّا الرُّسُومُ مِنْهُ فَإِنْ أَسْلَمُوا هَذَا الْإِسْلَامَ فَقَدِ اهْتَدَوْا قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : لِأَنَّ هَذَا هُوَ رُوحُ الدِّينِ ، فَمَنْ أَصَابَهُ فَهُوَ عَلَى هِدَايَةٍ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ،

فَإِنْ غَشِيَهُ مَعَ ذَلِكَ شَيْءٌ مِنَ الْبَاطِلِ الصُّورِيِّ فَهُوَ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَزُولَ مَتَى ظَهَرَ لَهُ الدَّلِيلُ عَلَى بُطْلَانِهِ ; وَلِذَلِكَ كَانَ إِسْلَامُهُمْ هَذَا لَا بُدَّ أَنْ يَسْتَتْبِعَ اتِّبَاعَكَ فِيمَا جِئْتَ بِهِ ; لِأَنَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ نَيِّرُ الْقَلْبِ مُتَوَجِّهٌ دَائِمًا إِلَى طَلَبِ الْحَقِّ ، فَهُوَ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَى

(299/114)

قَبُولِهِ مَتَى جَاءَهُ وَظَهَرَ لَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا مُعْرِضِينَ عَنْ الِاعْتِرَافِ بِمَا سَأَلْتَ عَنْهُ لِعِلْمِهِمْ أَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ لِحَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ ، وَمَا أُمِرْتَ بِهِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ فَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ طُمِسَ قَلْبُهُ فَارْتَكَسَ فِي شَقَائِهِ وَوَقَعَ الْيَأْسُ مِنَ اهْتِدَائِهِ ، وَمَنْ يُرْجَى لَهُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ مِنْ بَعْدُ مَا لَا يُرْجَى لَهُ الْيَوْمَ ، أَقُولُ : وَمِثْلُ هَذِهِ الْآيَةِ نَصٌّ قَاطِعٌ فِي حَصْرِ وَظِيفَةِ الرَّسُولِ بِالْبَلَاغِ عَنِ اللَّهِ وَأَنَّهُ لَيْسَ مُسَيْطِرًا عَلَى النَّاسِ وَلَا جَبَّارًا وَلَا مُكْرِهًا لَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَقَدْ صَرَّحَتْ آيَاتٌ أُخْرَى بِمَفْهُومِ الْحَصْرِ فِي التَّبْلِيغِ يَعْرِفُ مَوَاقِعَهَا حُفَّاظُ الْقُرْآنِ وَالْمُكْثِرُونَ مِنْ تِلَاوَتِهِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 3 صـ 210 . 215 ﴾

(300/114)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ ﴾ هذا هو القول يدل على أن الحق سبحانه وتعالى يلقى منهجه على الرسول الخاتم ، ويعطيه الواقع الذي يحيا فيه ، لقد جابه الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة معسكرات . المعسكر الأول : هم مشركو قريش ، وكان كفرهم في القمة . والمعسكر الثاني : هو معسكر اليهود والنصارى ويجمعهم معا لأنهم أهل كتاب . والمعسكر الثالث : هو معسكر المنافقين . والمحاجّة قد أتت من المعسكر الثاني ، لأن كفار قريش لم يدعوا أن عندهم دينا قد نزل من السماء ، أما أهل الكتاب فهم يدعون أن عندهم دينا منزلا من السماء ، وعندما يناطح الشرك دينا فهذا أمر معقول ، أما أن يناطح أهل دين نزل من السماء رسولا جاء بدين خاتم من السماء فهذا أمر يستحق أن نتوقف عنده .

(301/114)

ومعنى ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ ﴾ أي أنهم يحاجون الرسول صلى الله عليه وسلم وتم إدغام الحرفين المتشابهين وهما حرفا " الجيم " حتى لا تصبح ثقيلة على اللسان . ومعنى المحاجة

: أن يدلي كل واحد من الخصمين بحجته . وهذا يعني النقاش ، وما دام هناك نقاش بين حق وبين باطل ، فإن الله لا يترك الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل يقول له : ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ ﴾ أي إن ناقشوك في أمر الإسلام الذي جئت به كدين خاتم مناقض لوثنية أو شرك قريش ومناقض لما قام أهل الكتاب بتغييره من مراد الله فقل يا محمد : ﴿ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ وقد قلنا من قبل : إننا عندما نسمع قول الحق ﴿ فَقُلْ ﴾ كان من الجائز أن يكتفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقول القول, وضربنا مثلا على ذلك ، حين يقول الأب لابنه : اذهب إلى عمك وقل له : كذا وكذا . وساعة أن يذهب الابن إلى العم فيقول له : الأمر كذا ، وكذا . إن الابن لا يقول لعمه : قل لعمك كذا وكذا . . لكن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حافظ على النص الذي جاءه من ربه لأن النص واضح . ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ فهل هذا رد بالحجة ؟ نعم هذا هو الرد ، لأن أهل الكتاب وكفار قريش يأتي فيهم القول :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾

[الزخرف : 9] .

ويأتي فيهم القول الحكيم :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾

[الزخرف : 87] .

والكون كما نعرف " مكان " و " مكين " فالمكان : هو السماء والأرض . والمكين وهو الإنسان . والمكان مخلوق لله ، والمكين مخلوق لله . وكان من المنطق أن نسلم وجهنا لمن خلق .

إذن فقول الحق : ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ أي اتبعوا أيها الناس ، إنني لم أخرج عن دائرة الإيمان بالإله الواحد ، والذي تؤمنون به . إنه هو الذي خلق وهو الذي أوجد الكون .

(302/114)

وبعد ذلك إذا كان في الإسلام خضوع ، فإن الحق يأتي بأشرف شيء في الإنسان ليجعله مظهر الخضوع . لأن الوجه هو السمة العالية المميزة ، وهو الذي يظهر عليه انفعالات الأحداث في الكون من سرور أو حزن ، ويظهر عليه أنك قد تكون قد سجدت وأنت كاره للسجود ، أو سجدت وأنت مقرب لله سبحانه وتعالى فيمتلئ الوجه بالبشر والبشاشة .

وقول الحق : ﴿ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ . تعني أن الوجه المسلم لله وهو أشرف شيء في الإنسان قد خضع للحق ، وكأن القول الكريم لم ينسب الخضوع للبدن ولكن لأشرف شيء في الإنسان وهو الوجه ، والوجه يطلق مرة ويراد به الذات كلها ، فعندما يقول إنسان : ﴿

أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ ﴾ فهو يعني " أسلمت ذاتي " بكل ما أوتيت الذات من جوارح ومن أعضاء . ولنقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

[القصص : 88] .

أي كل شيء هالك إلا ذاته سبحانه وتعالى ، وهذا هو المقصود بـ ﴿ إلا وجهه ﴾ وإلا إن أخذنا الوجه على أنه الوجه فقط فقد يقول قائل : أليس لله يد مثلا ؟ ونقول إن له يدا في نطاق ليس كمثله شيء ، ولذلك فلا يد الله تهلك ولا أي شيء فيه يهلك ، ووجهه يعْني ذاته في نطاق ليس كمثله شيء . وأطلق الوجه على الذات ، لأن الوجه هو المشخص للذات ، فلا يستطيع أحد أن يميز أعضاء بدن عن أعضاء بدن ، إنما التمييز يأتي بسمة الوجه ، لأنها السمة المميزة ، وقول الحق في تلقينه لرسول الله : ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ . تدل على أن الرسول قد أسلم وجهه لله ؛ لأن الله خاطبه بوساطة الوحي ، والوحي باشره صلى الله عليه وسلم ، ولكن حين يقول : ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ فقد قام الليل لمن اتبعني ، وإن لم يكن مخاطبا من الله مباشرة .

إذن فلا مجال لأن يقول قائل للرسول صلى الله عليه وسلم : أنت أسلمت وجهك لله لأنه خاطبك وحدك ، وكأن صاحب هذا القول يريد خطابا لكل مؤمن ، قال سبحانه : ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ فمن اتبع الرسول فقد آمن بأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو رسول صدق مبلغ عن الله منهج حق ، فلا مجال لطلب البلاغ لكل فرد ؛ لأن البلاغ قد وصل إليهم بالإيمان بما أنزله الله على رسوله الكريم ويأمر الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾ .

وساعة تقرأ أو تسمع أسلوبا فيه " همزة الاستفهام " فلك أن تعرف أن الاستفهام يطلب منه أن تُعرف الحقيقة ، كقول إنسان لآخر : أعندك محمد ؟ أو أزارك فلان ؟ إن هذا استفهام المراد به فهم الحقيقة ، ومرة يريد الاستفهام مجرد الأمر بشيء ، كأن يأتيك ضيف وتجلس معه ويدخل عليك والدك فيقول لك : أصنعت قهوة لضيفك ؟ إن ذلك توجيه لك إن كنت لم تقم بواجب الضيافة فعليك أن تسرع في القيام بهذا الواجب .

وعلى ذلك نفهم قول الحق : ﴿ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾ ولذلك نقرأ قول الحق سبحانه بعد الكلام عن الخمر :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾

[المائدة : 91] .

إن قول الحق : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ يتضمن استفهاما ، والاستفهام هنا يعني الأمر بالانتهاء . وفي مجال الآية التي تتعرض لها بالخواطر نجد قول الحق : ﴿ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾ تعني الدعوة للإسلام ، أي " أسلموا " وجاء بعد ذلك قول الحق الكريم : ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ ومعنى " اهتدوا " أنهم عرفوا الطريق الموصل للغاية التي خلق الله من أجلها الإنسان . وهنا يجب أن نعلم أن كلمة " الإسلام " هنا جاءت لتدل على الخضوع, و الخضوع لا يلمح إلا من خاضع ، وعملية الخضوع تعرف بالحركة والسلوك ، ولا تعرف فقط بالاعتقاد ، ولذلك فالإمام علي كرم الله وجهه الذي أوتي شيئًا من نفح النبوة في الأداء الإيماني بالأسلوب البياني الجميل قال الإمام عليّ لإخوانه : سأنسب الإسلام نسبا لم ينسبه قبلى أحد : الإسلام هو اليقين ، واليقين هو التصديق ، والتصديق هو الإقرار, والإقرار هو الأداء ، والأداء هو العمل ، والمؤمن يُعرف إيمانه بالعمل . ونحن في حياتنا العادية نسأل : ما نسب فلان ؟

أي أننا نسأل " هو ابن مَن " ؟ ومعنى كلمة " نسابة " عند العرب هو الرجل الذي يعرف سلسلة النسب ، ومَن ابن مَن ، ففلان ابن فلان ابن فلان ، ابن فلان . والإمام عليّ كرم الله

وجهه ، حين ينسب الإسلام ينسبه بالفعل إلى نسب لم ينسبه قبله أحد . وحين ينتهي الإمام علي كرم الله وجهه إلى أن نسب الإسلام إلى العمل

قال :

(305/114)

المؤمن يعرف إيمانه بالعمل ، فالدليل الصحيح على إيمان المؤمن هو عمله . ويضيف الإمام علي كرم الله وجهه : والكافر يُعرف كفره بالإنكار ، وإن المؤمن قد أخذ دينه من ربه ، ولم يأخذه برأيه . والسيئة في الإسلام خير من الحسنة في غيره ؛ لأن السيئة في الإسلام تغفر ، والحسنة في غيره لا تُقبل ؛ لأن الكفر يصاحبها بالله, هل هناك نسب للإسلام أروع من هذا ؟ وهكذا نجد القول الكريم : ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَوا ﴾ . والمقابل للإسلام يأتي بعد ذلك : ﴿ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ ﴾ إن المقابل هو " تولوا " أي لم يسلموا ، إنه الحق ينبه رسوله ألا يحزن, وألا يأسف إن تولوا, كما جاء في قوله الكريم :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَاذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾

[الكهف : 6] .

لماذا ؟ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم عليه البلاغ فقط ، وما دام قد جاء في صدر الآية

: ﴿ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ فإن البلاغ أيضا يشمل النبي صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه ، ولذلك تأتي آية أخرى لتشرح هذه القضية الإيمانية ، ولتبقى الرسالة في أمته صلى الله عليه وسلم ، ولتخبرنا أيضا لماذا لم يعد هناك داع لوجود أنبياء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمناء على أن يعدلوا فساد السلوك في الكون ، فلم يعد العالم في حاجة إلى أنبياء جدد ، ولهذا السبب قال الرسول : صلى الله عليه وسلم :

" العلماء ورثة الأنبياء " .

إذن ﴿ فعليك البلاغ ﴾ نأخذ منها الفهم الواضح أن البلاغ لا تنتهي مهمته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما يشمل كل عالم بالبلاغ الذي وصل إلى رسول الله وآمن به ، فقد كان لهم في رسول الله أسوة حسنة ، ويوضح الحق ذلك في آية أخرى :

(306/114)

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

[آل عمران : 110] .

ويقول الحق في آية أخرى :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ. . . ﴾

[الحج : 78] ومعنى ذلك أنكم تشهدون على الناس أنكم أبلغتموهم رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن لم يقم بإبلاغ الناس برسالة رسول الله فهو لم يأخذ ميراث النبوة ، وميراث النبوة كما يكون شرف تبليغ ، فهو أيضا تجلّد وتحمل ، إن ميراث النبوة يكون مرة هو نيل شرف التبليغ لرسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومرة أخرى يكون ميراث النبوة هو جلادة التحمل ، في سبيل أداء الرسالة ، وجلادة التحمل هي التي يجب أن يتصف بها أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، فكلما ورثناه نحن المسلمين في شرف النبوة فإننا نرثه في جلادة التحمل ، وهذا هو معنى القول الحق :

﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ ﴾

[الحج : 78] .

فما معنى الأسوة إذن ؟ إن الأسوة في رسول الله صلى الله عليه وسلم تقتضي أنه ما دام قد تحمل بجلادة بلاغ الناس في رسالته ، فعلينا ايضا أن نقتدي به . لقد ناضل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى أتباع رسول الله أن يناضلوا في سبيل نشر الدعوة ، فإن رأيت أهل الدين في استرخاء وترهل وعدم قدرة على النضال في سبيل البلاغ عن الله فلتعلم أن هؤلاء القوم لن يأخذوا ميراث النبوة . ولذلك إذا رأيت عالما من علماء الإسلام ليس له أعداء فأعلم أنه قد نقص ميراثه من ميراث الأنبياء .

لماذا ؟ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان له أعداء وكان يواجههم ، فساعة أن ترى رجل دين وله أعداء فاعرف أنه قد أخذ حظه من ميراث الأنبياء ولننظر الآن إلى قول الحق سبحانه تذييلا للآية يوضح لنا ما الإسلام : ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ لم يقل الله : إنه عليم بالعباد ، لأن " عليم " تكون للأمور العقدية ، لقد قال الحق في وصف ذاته هنا : " إنه بصير بالعباد " ، والبصر لا يأتي إلا ليدرك حركة وسلوكا .

فماذا يرى الله من العباد ؟ إنه – سبحانه – يرى العباد المتحركين في الكون ، وهل حركة العبد منهم تطابق الإسلام أولا ؟ ومتابعة الحركة تحتاج إلى البصر ، ولا تحتاج إلى البصر ، ولا تحتاج إلى العلم ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : إن كنتم تعتقدون أني لا أراكم ، فالخلل في إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أني أراكم فلم جعلتموني أهون الناظرين إليكم ؟ إذن فقول الحق : ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ نفهم منها أن الإسلام سلوك لا اعتقاد فقط ، لأن الذي يُرى هو الفعل لا المعتقدات الداخلية . وما دام الله بصيرا بكل سكنات الإنسان وحركاته فإن الإنسان يستحي أن يراه ربه على غير ما يحب ، وأضرب هذا المثل للتقريب لا للتشبيه فالحق سبحانه له المثل الأعلى وليس كمثله شيء ، ونحن في حياتنا العادية نجد

أن الشاب الذي يدخن يستحي أن يظهر أمام كبار عائلته كمدخن ، فيمتنع عن التدخين أثناء تواجده مع الكبار ، فما بالنا بالعبد وهو يعتقد أن الله يراه ؟ وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1371.1365 ﴾

(308/114)

" فصل "

قال السيوطى :

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (19) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (20)

أخرج ابن السني في عمل يوم وليلة وأبو منصور الشجامي في الأربعين عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن فاتحة الكتاب ، وآية الكرسي ، والآيتين من آل

عمران ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، إن الدين عند الله الإسلام ﴾ و ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ﴾ [آل عمران : 26] إلى قوله ﴿ بغير حساب ﴾ هن معلقات بالعرش . ما بينهن وبين الله حجاب يقلن : يا رب تهبطنا إلى أرضك وإلى من يعصيك . قال الله : إني حلفت لا يقرأكن أحد من عبادي دبر كل صلاة يعني المكتوبة إلا جعلت الجنة مأواه على ما كان فيه ، وإلا أسكنته حظيرة الفردوس ، وإلا نظرت إليه كل يوم سبعين نظرة ، وإلا قضيت له كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة ، وإلا أعذته من كل عدوّ ونصرته منه " .

(309/114)

وأخرج الديلمي في مسند الفردوس عن أبي أيوب الأنصاري مرفوعاً " لما نزلت ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ [الفاتحة : 1] ، وآية الكرسي ، و ﴿ شهد الله ﴾ ، و ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾ [آل عمران : 26] إلى ﴿ بغير حساب ﴾ [آل عمران : 27] تعلقن بالعرش وقلن : أنزلتنا على قوم يعملون بمعاصيك فقال : وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني ، لا يتلوكن عبد عند دبر كل صلاة مكتوبة إلا غفرت له ما كان فيه ، وأسكنته جنة الفردوس

، ونظرت له كل يوم سبعين مرة ، وقضيت له سبعين حاجة أدناها المغفرة " .

وأخرج أحمد والطبراني وابن السني في عمل يوم وليلة وابن أبي حاتم عن الزبير بن العوّام قال "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بعرفة يقرأ هذه الآية ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ إلى قوله ﴿ العزيز الحكيم ﴾ فقال : وأنا على ذلك من الشاهدين يا رب . ولفظ الطبراني فقال : وأنا أشهد أنك لا إله إلا أنت العزيز الحكيم " .

وأخرج ابن عدي والطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان وضعفه والخطيب في تاريخه وابن النجار عن غالب القطان قال : أتيت الكوفة في تجارة ، فنزلت قريباً من الأعمش ، فلما كان ليلة أردت أن أنحدر قام فتهجد من الليل ، فمر بهذه الآية ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ إلى قوله ﴿ إن الدين عند الله الإِسلام ﴾ فقال : وأنا أشهد بما شهد الله به ، واستودع الله هذه الشهادة ، وهي لي وديعة عند الله . قالها مراراً فقلت : لقد سمع فيها شيئاً ، فسألته فقال : حدثني أبو وائل ، عن عبد الله قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يُجاءُ بصاحبها يوم القيامة فيقول الله : عبدي عهد إلي وأنا أحق من وفى بالعهد ، أدخلوا عبدي الجنة " .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن حمزة الزيات قال : خرجت ذات ليلة أريد الكوفة ، فآواني الليل إلى خربة فدخلتها ، فبينا أنا فيها دخل علي عفريتان من الجن فقال أحدهما لصاحبه : هذا حمزة بن حبيب الزيات الذي يقرىء الناس بالكوفة قال : نعم والله لأقتلنَّه قال : دعه . المسكين يعيش قال : لأقتلنه . فلما أزمع على قتلي قلت : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ وأنا على ذلك من الشاهدين فقال له صاحبه : دونك الآن فاحفظه راغماً إلى الصباح.

وأخرج ابن أبي داود في المصاحف عن الأعمش قال : في قراءة عبد الله " شهد الله أن لا إله إلا هو " وفي قراءته ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ قائماً بالقسط ﴾ قال : ربنا قائماً بالعدل .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس ﴿ بالقسط ﴾ قال : بالعدل .

وأخرج ابن جرير عن السدي في الآية قال : فإن الله شهد هو ، والملائكة ، والعلماء من الناس ﴿ إن الدين عند الله الإِسلام ﴾ .

وأخرج عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم ﴾ بخلاف ما قال نصارى نجران .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ إن الدين عند الله الإِسلام ﴾ قال :

الإِسلام شهادة أن لا إله إلا الله، والإِقرار بما جاء به من عند الله. وهو دين الله الذي شرع لنفسه، وبعث به رسله، ودل عليه أولياءه. لا يقبل غيره، ولا يجزي إلا به.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ إن الدين عند الله الإِسلام ﴾ قال: " لم أبعث رسولاً إلا بالإِسلام.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سعيد بن جبير قال: كان حول البيت ستون وثلاثمائة صنم، لكل قبيلة من قبائل العرب صنم أو صنمان. فأنزل الله ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو... ﴾ الآية. قال: فأصبحت الأصنام كلها قد خرت سجداً للكعبة.

(311/114)

قوله تعالى: ﴿ وما اختلف ﴾ الآية.

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب ﴾ قال: بنو إسرائيل.

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله ﴿ إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ ويقول: بغيا على الدنيا، وطلب ملكها وسلطانها، فقتل بعضهم بعضاً على الدنيا من بعدما كانوا علماء الناس.

وأخرج ابن جرير عن الربيع قال : إن موسى عليه السلام لما حضره الموت دعا سبعين حبراً من أحبار بني إسرائيل ، فاستودعهم التوراة ، وجعلهم أمناء عليه .

كل حبر جزء منه ، واستخلف موسى عليه السلام يوشع بن نون ، فلما مضى القرن الأول ، ومضى الثاني ، ومضى الثالث ، وقعت الفرقة بينهم . وهم الذين أوتوا العلم من أبناء أولئك السبعين حتى أهرقوا بينهم الدماء ، ووقع الشر والاختلاف . وكان ذلك كله من قبل الذين أوتوا العلم بغيا بينهم على الدنيا ، طلباً لسلطانها وملكها وخزائنها وزخرفها ، فسلط الله عليهم جبابرتهم .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب ﴾ يعني النصارى ﴿ إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ الذي جاءك أي أن الله الواحد الذي ليس له شريك .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ فإن الله سريع الحساب ﴾ قال إحصاؤه عليهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ فإن حَاجُّوك ﴾ قال : إن حاجّكَ اليهود والنصارى .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ فإن حاجُّوك ﴾ قال : اليهود والنصارى فقالوا : إن الدين اليهودية والنصرانية فقل يا محمد ﴿ أسلمت وجهي لله ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿ فإن حاجُّوك ﴾ أي بما يأتون به من

الباطل من قولهم : خلقنا ، وفعلنا ، وجعلنا ، وأمرنا ، فإنما هي شبهة باطل قد عرفوا ما فيها من الحق ﴿ فقل أسلمت وجهي لله ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ ومن اتبعن ﴾ قال : ليقل من اتبعك مثل ذلك .

(312/114)

وأخرج الحاكم وصححه عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال " أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : يا نبي الله إني أسألك بوجه الله بم بعثك ربنا ؟ قال : بالإسلام . . . قلت : وما آيته ؟ قال : أن تقول ﴿ أسلمت وجهي لله ﴾ وتخليت ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة . كل مسلم على مسلم محرم أخوان نصيران ، لا يقبل الله من مسلم أشرك بعدما أسلم عملاً حتى يفارق المشركين إلى المسلمين ، ما لي آخذ بحجزكم عن النار . ألا إن ربي داعيّ ، ألا وإنه سائلي هل بلغت عبادي ؟ وإني قائل : رب قد أبلغتهم ، فليبلغ شاهدكم غائبكم . ثم أنه تدعون مقدمة أفواهكم بالفدام ، ثم أوّل ما يبين عن أحدكم لفخذه وكفه . قلت : يا رسول الله هذا ديننا ؟ قال : هذا دينكم وأينما تحسن يَكْفِكَ " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب ﴾ قال : اليهود والنصارى ﴿ والأميين ﴾ قال : هم الذين لا يكتبون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع ﴿ فإن أسلموا فقد اهتدوا ﴾ قال : من تكلم بهذا صدقاً من قلبه يعني الإِيمان فقد اهتدى ﴿ وإن تولوا ﴾ يعني عن الإِيمان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 165. 168 ﴾

(313/114)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس عشر بعد المائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/115)

الجزء الخامس عشر بعد المائة

من الآية ﴿ 21 ﴾ من سورة آل عمران

وحتى الآية ﴿ 27 ﴾ من نفس السورة

(4/115)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (21) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أشرك اليهود في هذا الخطاب وأفهم شرط التولي بأداة الشك وقوعه ، فتشوفت النفس

إلى معرفة جزائهم أشار إليه واصفاً لهم ببعض ما اشتد فحشه من أفعالهم فقال : قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾

وقال الحرالي : ولما كانت هذه السورة منزلة لتبيين ما اشتبه على أهل الإنجيل جرى ذكر أهل التوراة فيها مجملاً بجوامع من ذكرهم ، لأن تفاصيل أمرهم قد استقرأته سورة البقرة ، فكان أمر أهل التوراة في سورة البقرة بياناً وأهل الإنجيل إجمالاً ، وكان أمر أهل الإنجيل في سورة آل عمران بياناً وذكر أهل التوراة إجمالاً ، لما كان لبس أهل التوراة في الكتاب فوقع تفصيل ذكرهم في سورة ﴿ الم ذلك الكتاب ﴾ [البقرة : 1 ، 2] ، ولما كان اشتباه أمر أهل الإنجيل في شأن الإلهية كان بيان ما تشابه عليهم في سورة ﴿ الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ [آل عمران : 1 ، 2] فجاء هذا الذكر لأهل التوراة معادلة بينهم وبين أهل الإنجيل بما كفروا بالآيات من المعنى الذي اشتركوا فيه في أمر الإلهية في عزير واختصوا بقتل الأنبياء وقتل أهل الخير الآمرين بالقسط ؛ انتهى .

فقال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون ﴾ وهم الذين خذلهم الله ﴿ بآيات الله ﴾ في إبراز الاسم الأعظم إشارة إلى عظيم كفرهم بكونه مما أضيف إليه سبحانه وتعالى .

(5/115)

قال الحرالي : وفي ذكره بصيغة الدوام ما يقع منهم من الكفر بآيات الله في ختم اليوم المحمدي مع الدجال فإنهم أتباعه ﴿ ويقتلون النبيين ﴾ في إشعاره ما تمادوا عليه من البغي على الأنبياء حتى كان لهم مدخل في شهادة النبي صلى الله عليه وسلم التي رزقه الله فيما كان يدعو به حيث كان يقول صلى الله عليه وسلم : " اللهم ارزقني شهادة في يسر منك وعافية ".

ولما كان قتلهم إياهم بدون شبهة أصلاً بل لمحض والكفر والعناد ، لأن الأنبياء مبرؤون من أن يكون لأحد قبلهم حق دنيوي أو أخروي قال : ﴿ بغير حق ﴾ أي لا صغير ولا كبير في نفس الأمر ولا في اعتقادهم ، فهو أبلغ مما في البقرة على عادة أفعال الحكماء في الابتداء بالأخف فالأخف .

ولما خص ذكر أكمل الخلق عبر بما يعم أتباعهم فقال معيداً للفعل زيادة في لومهم وتقريعهم : ﴿ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط ﴾ أي العدل ، ولما كان ذلك شاملاً لمن لا قدرة لهم على قتله من الملائكة قال : ﴿ من الناس ﴾ أي كلهم ، سواء كانوا أنبياء أو لا ، ويجوز أن يكون المراد بهذا القيد زيادة توبيخهم بأنهم يقتلون جنسهم الذي من حقهم أن يألفوه ويسعوا في بقائه ، وهذا تحقيق لأن قتلهم لمجرد العدوان قال الحرالي : فيه إعلام بتمادي تسلطهم على أهل الخير من الملوك والرؤساء ، فكان في طيه الإلاحة لما استعملوا فيه من علم التطبب ومخالطتهم رؤساء الناس بالطب الذي توسل كثير منهم إلى قتلهم به عمداً وخطأً ، ليجري

ذلك على أيديهم خفية في هذه الأمة نظير ما جرى على أيدي أسلافهم في قتل الأنبياء جهرة - انتهى .

ويجوز أن يكون الخبر عنهم محذوفاً والتقدير : أنهم مطبوع على قلوبهم ، أو : لا يؤمنون ، أو : لا يزالون يجادلونك وينازعونك ويبغون لك الغوائل ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ أي اجعل إخبارهم بأنه لهم موضع البشارة ، فهو من وادي : تحيتهم بينهم ضرب وجيع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 47 . 48 ﴾

وقال ابن عاشور :

(6/115)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ .

استئناف لبيان بعض أحوال اليهود ، المنافية إسلام الوجه لله ، فالمراد بأصحاب هذه الصلات خصوص اليهود ، وهم قد عرفوا بمضمون هذه الصلات في مواضع كثيرة من القرآن . والمناسبة : جريان الجدال مع النصارى وأن جعلوا جميعا في قرن قوله : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾ [آل عمران : 20] .

وجيء في هاته الصلات بالأفعال المضارعة لتدل على استحضار الحالة الفظيعة ، وليس

المراد إفادة التجدد ؛ لأن ذلك وإن تأتى في قوله ﴿ يَكْفُرُونَ ﴾ لا يتأتى في قوله ﴿ وَيَقْتُلُونَ ﴾ لأنهم قتلوا الأنبياء والذين يأمرون بالقسط في زمن مضى . والمراد من أصحاب هذه الصلات يهود العصر النبوي : لأنهم الذين توعدهم بعذاب أليم ، وإنما حمل هؤلاء تبعة أسلافهم لأنهم معتقدون سداد ما فعله أسلافهم ، الذين قتلوا زكريا لأنه حاول تخليص ابنه يحيى من القتل ، وقتلوا يحيى لإيمانه بعيسى ، وقتلوا النبي إرمياء بمصر ، وقتلوا حزقيال النبي لأجل توبيخه لهم على سوء أفعالهم ، وزعموا أنهم قتلوا عيسى عليه السلام ، فهو معدود عليهم بإقرارهم وإن كانوا كاذبين فيه ، وقتل منشا ابن حزقيال ، ملك إسرائيل ، النبي أشعياء : نشره بالمنشار لأنه نهاه عن المنكر ، بمرأى ومسمع من بني إسرائيل ، ولم يحموه ، فكان هذا القتل معدودا عليهم ، وكم قتلوا ممن يأمرون بالقسط ، وكل تلك الجرائم معدودة عليهم ؛ لأنهم رضوا بها ، وألحوا في وقوعها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 62.61 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما ذكر من قبل حال من يعرض ويتولى بقوله ﴿ وإن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ ﴾ أردفه بصفة هذا المتولي فذكر ثلاثة أنواع من الصفات :

الصفة الأولى : قوله ﴿ إِنَّ الذين يَكْفُرُونَ بآيات الله ﴾ .

فإن قيل : ظاهر الآية يقتضي كونهم كافرين بجميع آيات الله واليهود والنصارى ما كانوا كذلك لأنهم كانوا مقرين بالصانع وعلمه وقدرته والمعاد .

قلنا : الجواب من وجهين الأول : أن نصرف آيات الله إلى المعهود السابق وهو القرآن ، ومحمد صلى الله عليه وسلم الثاني : أن نحمله على العموم ، ونقول إن من كذب بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم يلزمه أن يكذب بجميع آيات الله تعالى لأن من تناقض لا يكون مؤمناً بشيء من الآيات إذ لو كان مؤمناً بشيء منها لآمن بالجميع . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 186﴾

فائدة

قال ابن عطية :

قال محمد بن جعفر بن الزبير وغيره : إن هذه الآية في اليهود والنصارى . أهـ

ثم قال رحمه الله :

وتعم كل من كان بهذه الحال ، والآية توبيخ للمعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمساوىء أسلافهم وببقائهم أنفسهم على فعل ما أمكنهم من تلك المساوىء لأنهم كانوا

حرصى على قتل محمد عليه السلام. انتهى انتهى. ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 1 صـ 414 .415﴾. بتصرف يسير.

قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ حَقّ﴾

فصل

قال القرطبى:

قال أبو العباس المبرد: كان ناس من بني إسرائيل جاءهم النبيون يدعونهم إلى الله عز وجل فقتلوهم، فقام أناس من بعدهم من المؤمنين فأمروهم بالإسلام فقتلوهم؛ ففيهم نزلت هذه الآية.

وكذلك قال معقل بن أبي مسكين: كانت الأنبياء صلوات الله عليهم تجيء إلى بني إسرائيل بغير كتاب فيقتلونهم، فيقوم قوم ممن اتبعهم فيأمرون بالقِسط، أي بالعدل، فيُقتَلون.

وقد روي عن ابن مسعود قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " بئس القوم قوم يقتلون الذين يأمرون بالقِسط من الناس، بئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، بئس القوم قوم يمشي المؤمن بينهم بالتِّقيّة" وروى أبو عبيدة بن الجرّاح أن النبي صلى الله

عليه وسلم قال : " قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أوّل النهار في ساعةٍ واحدة فقام مائة رجل واثنا عشر رجلاً من عُبّاد بني إسرائيل فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر فقتلوا جميعاً في آخر النهار من ذلك اليوم وهم الذين ذكرهم الله في هذه الآية " ذكره المهدوي وغيره .

وروى شعبة عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله قال : كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم سبعين نبياً ثم تقوم سُوق بَقْلِهم من آخر النهار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 46 ﴾

وقال الفخر :

روي عن أبي عبيدة بن الجراح أنه قال : قلت يا رسول الله أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة ؟ قال : " رجل قتل نبياً أو رجلاً أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وقرأ هذه الآية ثم قال : يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيّاً من أول النهار في ساعة واحدة ، فقام مائة رجل واثنا عشر رجلاً من عباد بني إسرائيل ، فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعاً من آخر النهار في ذلك اليوم فهم الذين ذكرهم الله تعالى ، وأيضاً القوم قتلوا يحيى بن زكريا ، وزعموا أنهم قتلوا عيسى بن مريم فعلى قولهم ثبت أنهم كانوا يقتلون الأنبياء .

" وفي الآية سؤالات :

السؤال الأول : إذا كان قوله ﴿ إِنَّ الذين يَكْفُرُونَ بآيات الله ﴾ في حكم المستقبل ، لأنه وعيد لمن كان في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يقع منهم قتل الأنبياء ولا القائمين بالقسط فكيف يصح ذلك ؟ .

والجواب من وجهين

(9/115)

الأول : أن هذه الطريقة لما كانت طريقة أسلافهم صحت هذه الإضافة إليهم ، إذ كانوا مصوبين وبطريقتهم راضين ، فإن صنع الأب قد يضاف إلى الابن إذا كان راضياً به وجارياً على طريقته

الثاني : إن القوم كانوا يريدون قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتل والمؤمنين إلا أنه تعالى عصمه منهم ، فلما كانوا في غاية الرغبة في ذلك صح إطلاق هذا الاسم عليهم على سبيل المجاز ، كما يقال : النار محرقة ، والسم قاتل ، أي ذلك من شأنهما إذا وجد القابل ، فكذا ههنا لا يصح أن يكون إلا كذلك .

السؤال الثاني : ما الفائدة في قوله ﴿ وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ حَقّ ﴾ وقتل الأنبياء لا يكون إلا كذلك .

والجواب : ذكرنا وجوه ذلك في سورة البقرة ، والمراد منه شرح عظم ذنبهم ، وأيضاً يجوز أن يكون المراد أنهم قصدوا بطريقة الظلم في قتلهم طريقة العدل .

السؤال الثالث : قوله ﴿ وَيَقْتُلُونَ النبيين ﴾ ظاهره مشعر بأنهم قتلوا الكل ، ومعلوم أنهم ما قتلوا الكل ولا الأكثر ولا النصف .

والجواب : الألف واللام محمولان على المعهود لا على الاستغراق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 187.186 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ قرأ الحسن هذه والتي بعدها بالتشديد ومعناه : التكثير ، وجاء - هنا - ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ منكَّراً ، وفي البقرة [بِغَيْرِ الحَقّ ﴾ معرَّفاً قيل : لأن الجملة - هنا - أخرجت مخرَجَ الشرط - وهو عام لا يتخصَّص - فلذلك ناسبَ أن تذكر في سياق النفي ؛ لتعمَّ .

وأما في البقرة فجاءت الآية في ناسٍ معهودين ، مختصين بأعيانهم ، وكان الحق الذي يُقْتَل به الإنسان معروفاً عندهم ، فلم يقصد هذا العموم الذي هنا ن فجِيء في كل مكان بما يناسبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 113 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

(10/115)

وقوله ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ ظرف مستقر في موضع الحال المؤكدة لمضمون جملة ﴿ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ ﴾ إذ لا يكون قتل النبيين إلا بغير حق ، وليس له مفهوم لظهور عدم إرادة التقييد والاحتراز ؛ فإنه لا يقتل نبي بحق ، فذكر القيد في مثله لا إشكال عليه ، وإنما يجيء الإشكال في القيد الواقع في حيز النفي ، إذا لم يكن المقصود تسلط النفي عليه مثل قوله تعالى ﴿ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ﴾ [البقرة : 273] وقوله ﴿ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ وقد تقدم في سورة البقرة[41] .

والمقصود من هذه الحال زيادة تشويه فعلهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 62 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَيَقْتُلُونَ الذين يَأْمُرُونَ بالقسط مِنَ الناس ﴾

قال الآلوسى :

﴿ وَيَقْتُلُونَ الذين يَأْمُرُونَ بالقسط مِنَ الناس ﴾ أي بالعدل ، ولعل تكرير الفعل للإشعار بما

بين القتلين من التفاوت أو باختلافهما في الوقت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 109 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَيَقْتُلُونَ الذين ﴾ قرأ حمزة " وُيقَاتِلُونَ " – من المقاتلة – والباقون " وَيَقْتُلُونَ " – كالأول .

فأما قراءةُ حمزةَ فإنه غاير فيها بين الفعلين ، وهي موافقة لقراءة عبد الله " وَقَاتَلُوا " – من المقاتلة – إلا أنه أتى بصيغة الماضي ، وحمزة يحتمل أن يكون المضارع – في قراءته – لحكاية الحال ، ومعناه : المُضِيّ .

وأما الباقون فقيل – في قراءتهم – : إنما كرر الفعل ؛ لاختلاف متعلَّقه ، أو كُرِّرَ ؛ تأكيداً ، وقيل : المراد بأحد القتلَيْن إزهاق الروح ، وبالآخر الإهانة ، وإماتة الذكر ، فلذلك ذكر كل واحد على حدته ، ولولا ذلك لكان التركيبُ : ويقتلون النَّبِيّينَ والذين يأمرون ، وبهذا التركيب قرأ أبَيّ .

قوله : ﴿ مِنَ النَّاسِ ﴾ إما بيان ، وإما للتبعيض ، وكلاهما معلوم أنهم من الناس ، فهو جَارٍ مَجْرَى التأكيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 114.115 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قال الحسن : هذه الآية تدل على أن القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند الخوف ، تلي منزلته في العظم منزلة الأنبياء ، وروي أن رجلاً قام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أي الجهاد أفضل ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : " أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 187 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

قال الفخر :

هذا محمول على الاستعارة ، وهو أن إنذار هؤلاء بالعذاب قائم مقام بشرى المحسنين بالنعيم ، والكلام في حقيقة البشارة تقدم في قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [البقرة : 25] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 187 ﴾

وقال الماوردى :

﴿ فَبَشِّرْهُم ﴾ أي فأخبرهم ، والأغلب في البشارة إطلاقها على الإخبار بالخير ، وقد تستعمل في الإخبار بالشر كما استعملت في هذا الموضع وفي تسميتها بذلك وجهان :

أحدهما : لأنها تغير بَشْرَةَ الوجه بالسرور في الخير ، وبالغم في الشر .

والثاني : لأنها خبر يستقبل به البشرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 382 ﴾

وقال ابن عاشور :

واستعمل بشرهم في معنى أنذرهم تهكما .

وحقيقة التبشير : الإخبار بما يظهر سرور المخبر بفتح الباء وهو هنا مستعمل في ضد حقيقته ، إذ أريد به الإخبار بحصول العذاب ، وهو موجب لحزن المخبرين ، فهذا الاستعمال في الضد معدود عند علماء البيان من الاستعارة ، ويسمونها تهكمية لأن تشبيه الضد بضده لا يروج في عقل أحد إلا على معنى التهكم ، أو التمليح ، كما أطلق عمرو ابن كلثوم . اسم الأضياف على الأعداء ، وأطلق القرى على قتل الأعداء ، في قوله :

نزلتم منزل الأضياف منا . . . فعجلنا القرى أن تشتمونا

قريناكم فعجلنا قراكم . . . قبيل الصبح مرداة طحونا

قال السكاكي : وذلك بواسطة انتزاع شبه التضاد وإلحاقه بشبه التناسب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 62.63 ﴾

سؤال : فإن قلت : لم دخلت الفاء في خبر إن ؟

قلت : لتضمن اسمها معنى الجزاء ، كأنه قيل : الذين يكفرون فبشرهم بمعنى من يكفر فبشرهم ، و"إنّ" لا تغير معنى الابتداء فكأنّ دخولها كلا دخول ، ولو كان مكانها "ليت" أو "لعل" لامتنع إدخال الفاء لتغير معنى الابتداء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 1 صـ 348 ﴾

وقال البيضاوى :

وقد منع سيبويه إدخال الفاء في خبر إن كليت ولعل ولذلك قيل : الخبر ﴿ أُولَئِكَ الذين حَبِطَتْ أعمالهم فِي الدنيا والآخرة ﴾ كقولك زيد فافهم رجل صالح ، والفرق أنه لا يغير معنى الابتداء بخلافهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 20 ﴾

فصل

قال ابن كثير فى معنى الآية :

هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب فيما ارتكبوه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله قديما وحديثا ، التي بلغتهم إياها الرسل ، استكبارًا عليهم وعنادًا لهم ، وتعاظما على الحق واستنكافا عن اتباعه ، ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه ، بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم ، إلا لكونهم دعوهم إلى الحق ﴿ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ

بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ﴾ وهذا هو غاية الكبر، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الْكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ". انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 27 ﴾

من فوائد العلامة القرطبى فى الآية

قال عليه الرحمة:

دلت هذه الآية على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان واجباً في الأمم المتقدّمة، وهو فائدة الرسالة وخلافة النبوة.

(13/115)

قال الحسن قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه" وعن درّة بنت أبي لهبٍ قالت: "جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر فقال: مَن خيرُ الناس يا رسول الله؟ قال: "آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم لرحمه"" وفي التنزيل: ﴿ المنافقون والمنافقات بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بالمنكر وَيَنْهَوْنَ عَنِ المعروف ﴾ [التوبة: 67] ثم قال: ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ﴾ [التوبة: 71] فجعل تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقا بين

المؤمنين والمنافقين ؛ فدل على أن أخص أوصاف المؤمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ورأسها الدعاء إلى الإسلام والقتال عليه .

ثم إن الأمر بالمعروف لا يليق بكل أحد ، وإنما يقوم به السلطان إذْ كانت إقامة الحدود إليه ، والتعْزيز إلى رأيه ، والحبس والإطلاق له ، والنفي والتغريب ؛ فينصب في كل بلدة رجلا صالحا قويا عالما أمينا ويأمره بذلك ، ويمضي الحدود على وجهها من غير زيادة .

قال الله تعالى : ﴿ الذين إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض أَقَامُواْ الصلاة وَآتَوُاْ الزكاة وَأَمَرُواْ بالمعروف وَنَهَوْاْ عَنِ المنكر ﴾ [الحج : 41] . أ هـ

فصل آخر

وليس من شرط الناهي أن يكون عدلا عند أهل السنة ، خلافا للمبتدعة حيث تقول : لا يغيره إلا عَدْل .

وهذا ساقط ؛ فإن العدالة محصورة في القليل من الخلق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عام في جميع الناس .

(14/115)

فإن تشبثوا بقوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [البقرة : 44]

وقوله : ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : 3] ونحوه ، قيل لهم : إنما وقع الذمّ ها هنا على ارتكاب ما نهي عنه لا على نهيه عن المنكر .

ولا شك في أن النهي عنه ممن يأتيه أقبح ممن لا يأتيه ، ولذلك يدور في جهنم كما يدور الحمار بالرّحى ، كما بيناه في البقرة عند قوله تعالى ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ﴾ [البقرة : 44] . أ هـ

فصل ثالث

أجمع المسلمون فيما ذكر ابن عبد البر أَنّ المنكر واجب تغييره على كل من قدر عليه ، وأنه إذا لم يلحقه بتغييره إلا اللوم الذي لا يتعدى إلى الأذى فإن ذلك لا يجب أن يمنعه من تغييره ؛ فإن لم يقدر فبلسانه ، فإن لم يقدر فبقلبه ليس عليه أكثر من ذلك .

وإذا أنكر بقلبه فقد أدّى ما عليه إذا لم يستطع سوى ذلك .

قال : والأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في تأكيد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جدا ولكنها مقيدة بالاستطاعة .

قال الحسن : إنما يُكلَّم مؤمن يُرجى أو جاهل يُعلَّم ؛ فأما من وضع سيفه أو سوطه فقال : اتقني آتقِني فما لك وله .

وقال ابن مسعود : بحسب المرء إذا رأى منكراً لا يستطيع تغييره أن يعلم الله من قلبه أنه له

كاره .

وروى ابن لَهِيعَة عن الأعرج عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " "لا يحل لمؤمن أن يُذِلّ نفسه" .

قالوا : يا رسول الله وما إذلاله نفسه ؟ قال : "يتعرّض من البلاء لِما لا يقوم له" " .

قلت : وخرّجه ابن ماجه عن علي بن زيد بن جدعان عن الحسن بن جندب عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلاهما قد تُكُلِّمَ فيه .

(15/115)

وروي عن بعض الصحابة أنه قال : " إن الرجل إذا رأى منكراً لا يستطيع النكير عليه فليقل ثلاث مرات "اللهم إنّ هذا منكر" فإذا قال ذلك فقد فعل ما عليه " ، وزعم ابن العربي أن من رجا زواله وخاف على نفسه من تغييره الضربَ أو القتل جاز له عند أكثر العلماء الاقتحامُ عند هذا الغرر ، وإن لم يرجُ زواله فأي فائدة عنده .

قال : والذي عندي أن النية إذا خلصت فليقتحم كيف ما كان ولا يبالي

قلت : هذا خلاف ما ذكره أبو عمر من الإجماع .

وهذه الآية تدل على جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع خوف القتل .

وقال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ بالمعروف وانه عَنِ المنكر واصبر على مَآ أَصَابَكَ ﴾ [لقمان : 17].

وهذا إشارة إلى الإذاية . أ هـ

روى الأئمة عن أبي سعيد الخدري قال ؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان " قال العلماء : الأمر بالمعروف باليد على الأمراء ، وباللسان على العلماء ، وبالقلب على الضعفاء ، يعني عوامّ الناس .

فالمنكر إذا أمكنت إزالته باللسان للناهي فليفعله ، وإن لم يمكنه إلا بالعقوبة أو بالقتل فليفعل ، فإن زال بدون القتل لم يجز القتل ؛ وهذا تُلُقِّي من قول الله تعالى : ﴿ فَقَاتِلُواْ الَّتِي تَبْغِي حتى تفياء إلى أَمْرِ الله ﴾ [الحجرات : 9] .

وعليه بنى العلماء أنه إذا دفع الصائل على النفس أو على المال عن نفسه أو عن ماله أو نفسِ غيره فله ذلك ولا شيء عليه .

ولو رأى زيد عمرًا وقد قصد مال بكر فيجب عليه أن يدفعه عنه إذا لم يكن صاحب المال قادرا عليه ولا راضيا به ؛ حتى لقد قال العلماء : لو فرضنا (قودا) .

وقيل : كل بلدة يكون فيها أربعة فأهلها معصومون من البلاء : إمامٌ عادلٌ لا يظلِم ، وعالِم على سبيل الهُدى ، ومشايخ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويُحرّضون على طلب العلم والقرآن ، ونساؤهم مستورات لا يتبرّجن تبرّج الجاهلية الأولى . أ هـ

روى أنس بن مالك قال " قيل : يا رسول الله ، متى نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قال : "إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأُمم قبلكم" .

قلنا : يا رسول الله ، وما ظهر في الأُمم قبلنا ؟

قال : "الملك في صِغاركم والفاحشة في كِباركم والعلم في رُذَالتكم" " قال زيد : تفسير معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم "والعلم في رذالتكم" إذا كان العلم في الفساق . خرّجه ابن ماجه .

وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في "المائدة" وغيرها إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 47 . 49 ﴾ . بتصرف يسير .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

إن الذين ربطناهم بالخذلان ووسمناهم بوصف الحرمان – أَخْبِرْهم بأن إعراضنا عنهم مؤبد ، وأن حكمنا سبق بنقلهم عن دار الجنان إلى دار الهوان ، من الخذلان والحرمان إلى العقوبة والنيران . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 229 ﴾

لطيفة بلاغية

قال أبو حيان :

قيل وجمعت هذه الآيات ضروباً من الفصاحة والبلاغة .

أحدهما : التقديم والتأخير في : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ قال ابن عباس التقدير : شهد الله أن الدين عند الله الإسلام ، أنه لا إله إلا هو ، ولذلك قرأ إنه ، بالكسر : وأن الدين ، بالفتح .

وأطلق اسم السبب على المسبب في قوله ﴿ من بعد ما جاءهم العلم ﴾ عبر بالعلم عن التوراة والإنجيل أو النبي صلى الله عليه وسلم ، على الخلاف الذي سبق .

وإسناد الفعل إلى غير فاعله في : ﴿ حبطت أعمالهم ﴾ وأصحاب النار .

والإيماء في قوله : ﴿ بغياً بينهم ﴾ فيه إيماء إلى أن النفي دائر شائع فيهم ، وكل فرقة منهم تجاذب طرفاً منه .

والتعبير ببعض عن كل في : ﴿ أسلمت وجهي ﴾ .

والاستفهام الذي يراد به التقرير أو التوبيخ والتقريع في قوله ﴿ أأسلمتم ﴾ .

والطباق المقدر في قوله : ﴿ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ﴾

ووجهه : أن الإسلام الانقياد إلى الإسلام ، والإقبال عليه ، والتولي ضد الإقبال .

والتقدير : وإن تولوا فقد ضلوا ، والضلالة ضد الهداية .

والحشو الحسن في قوله ﴿ بغير حق ﴾ فإنه لم يقتل قط نبي بحق ، وإنما أتى بهذه الحشوة ليتأكد قبح قتل الأنبياء ، ويعظم أمره في قلب العازم عليه .

والتكرار في ﴿ ويقتلون الذين ﴾ تأكيداً لقبح ذلك الفعل .

والزيادة في ﴿ فبشرهم ﴾ زاد الفاء إيذاناً بأن الموصول ضمن معنى الشرط . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 2 صـ 432.431 ﴾

(18/115)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

وقلنا إن الحق حين يقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ هم الذين يكفرون بآيات الله على إطلاقها، وهناك فرق بين الكفر بآيات الله وبين الكفر بالله. لماذا؟ لأن الإيمان بالله يتطلب البينات التي تدل على الله، والبينات الدالة على وجود الله موجودة في الكون. إذن فالبينات واضحة، إن الذي يكفر بالله يكون قبل ذلك كافرا بالأدلة التي تدل على وجود الخالق. إن الحق لم يقل هنا: إن الذين يكفرون بالله، وذلك حتى يوضح لنا أنّ الحق غيب، ولكن الآيات البينات ظاهرة في الكون، لذلك قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ ﴾. ولنا أن نلاحظ هنا، أن كلمة القتل تأتي دائما للنبيين، أي أنها لا تأتي للذين أخذوا صفة تزيد على مهمة النبي، وهو الرسول، فليس من المعقول أن يرسل الله رسولا ليبلغ منهجا لله، فيُقدر الله خلقه على أن يقتلوا الرسول. ولكن الأنبياء يرسلهم الله ليكونوا أسوة سلوكية للمؤمنين، ولا يأتي الواحد منهم بتشريعات جديدة، أما الرسول فإن الله يبعثه حاملا لمنهج من الله. وليس من المعقول أن يصطفي الله عبدا من عباده ويستخلصه ليبلغ منهجه، ويُمكّن الله بعد ذلك بعضا من خلقه أن يقتلوا هذا الرسول.

(19/115)

إن الخلق لا يقدرون على رسول أرسله الله ، لكنهم قد يقدرون على الأنبياء ، وكل واحد من الأنبياء هو أسوة سلوكية ، ولذلك نجد ان كل نبيّ يتعبد على دين الرسول السابق عليه ، فلماذا يقتل الخلق الأسوة السلوكية مادام النبيّ من هؤلاء قد جاء ليكون مجرد أسوة ، ولم يأت بدين جديد ؟ فلو كان النبي من هؤلاء قد جاء بدين جديد ، لقلنا : إن التعصب للدين السابق عليه هو الذي جعلهم يقتلونه ، لكن النبيّ أسوة في السلوك ، فلماذا القتل ؟ إن النبي من هؤلاء يؤدي من العبادة ما يجعل القوم يتنبهون إلى أن السلوك الذي يفعله النبيّ لا يأتي وفق أهوائهم .

إن القوم الذين يقتلون النبيين هم القوم الذين لا يوافقون على أن يسلكوا السلوك الإسلامي الذي يعني إخضاع الجوارح ، والحركة لمنطق الدين ولمنطق الإسلام ، لماذا ؟ لأن النبيّ وهو ملتزم بشرع الرسول السابق عليه ، حينما يلتزم بدين الله بين جماعة من غير الملتزمين يكون سلوكه قد طعن غير الملتزمين .

إن وجود النبيّ الذي يتمسك بشرع الله ، ويخضع جوارحه ، وسلوكه لمنهج الله بين جماعة تدّعي أنها تدين الله ، ولكنها لا تتمسك بمنهج الله تحملهم إلى أن يقولوا : لماذا يفعل النبي هذا السلوك القويم ، ولماذا يخضع جوارحه لمنطق الإيمان ، ونحن غير ملتزمين مثله ؟ وهذا السؤال يثير الغيظ والحقد على النبيّ بين هذه الجماعة غير الملتزمة بدين الله ، وإن أعْلنت في ظاهر الأمر التزامها بالدين .

إنهم يحقدون على النبيّ لأنه يرتفع بسلوكه المسلم ، وهم لا يستطيعون أن يرتفعوا ليكونوا مثله .

(20/115)

إن النبيّ بسلوكه الخاضع لمنهج الله يكون أسوة واضحة جلية يظهر بها الفرق بين مجرد إعلان الإيمان بمنهج الله ، وبين الالتزام السلوكي بمنهج الله ، وتكون أسوة النبيّ مُحقرة لفعلهم .

ولذلك حين نجد إنسانا ملتزما بدين الله ومنهجه ، فإننا نجد غير الملتزم ينال الملتزم بالسخرية والاستهزاء ، لماذا ؟ لأن غير الملتزم يمتلئ بالغيظ والحقد على الملتزم القادر على إخضاع نفسه لمنهج الله ، ويسأل غير الملتزم نفسه :

لماذا يكون هذا الإنسان قادرا على نفسه مخضعا لها لمنهج الله وأنا غير قادر على ذلك ؟

إن غير الملتزم يحاول إزاحة الملتزم وإبعاده من أمامه . لماذا ؟ لأن غير الملتزم يتضاءل في نظر نفسه ونظر الآخرين إذا ما قارن نفسه بالملتزم بمنهج الله ، وعندما يقارن الآخرون بين سلوك الملتزم بمنهج الله وسلوك غير الملتزم بمنهج الله فهم لا يحترمون غير الملتزم فيشعر بالصغار النفسى أمام الملتزم وأمام الناس فيحاول غير الملتزم أن يزيح الملتزم وينحيه عن طريقه ، إن غير الملتزمين بمنهج الله يسخرون ويتغامزون على الملتزمين بمنهج الله ، كما يقول

الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَاؤُلَاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾

[المطففين : 29-33] .

ألا توضح لنا تلك الآيات البينات ما يقوله غير الملتزمين في بعض مجتمعاتنا للملتزمين بمنهج الله ؟ ألا نسمع قول غير الملتزمين للملتزم بمنهج الله : " خذنا على جناحك " ؟ إن هؤلاء غير الملتزمين ينطبق عليهم قول الحق :

(21/115)

﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَاؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾

[المطففين : 30-32] .

إن غير الملتزمين قد يفرح الواحد منهم ، لأنه استطاع السخرية من مؤمن ملتزم بالله . وقد يتهم غيرُ الملتزمين إنسانا ملتزما بأن الالتزام ضلال . والحق سبحانه وتعالى يرد على هذا

الاتهام بالقول الكريم :

﴿ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾

[المطففين : 33] .

الحق يرد على الساخرين من الملتزمين بمنهج الله ، فيضحك الذين آمنوا يوم القيامة من الكفار ، ويتساءل الحق بجلال قدرته وتمام جبروته :

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾

[المطففين : 34-36] .

هكذا ينال غير الملتزمين عقابهم ، فماذا عن الذين يقتلون النبيين بغير حق ؟ إن لنا أن نسأل : لماذا وصف الله قتل النبيين بأنه " بغير حق " ، وهل هناك قتل لنبيّ بحق ؟ لا يمكن أن يكون هناك قتل لنبي بحق ، وإذا كان الله قد قال : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ هذا القول الكريم قد أتى ليوضح واقعا ، إنه سبحانه يقول بعد ذلك في سلسلة أعمال هؤلاء الذين يقتلون النبيين بغير حق : ﴿ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ﴾ إنهم لم يكتفوا بقتل النبيين ، بل يقتلون أيضا من يدافع من المؤمنين عن هذا النبيّ كيف ؟ لأنه ساعة يُقتل نبيّ ، فالذين التزموا بمنهج النبيّ ، وكانوا معه لابد لهم أن يغضبوا ويحزنوا .

إن أتباع النبيّ ينفعلون بحدث قتل النبيّ فإن استطاعوا منع ذلك القتل لفعلوا وإن لم يستطع أتباع النبي منع قتل النبيّ فلا أقل من أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، لكن القتلة يتجاوز طغيانهم فلا يقتلون النبيين فقط فإذا قال لهم منكر لتصرفهم : ولماذا تقتلون النبيين ؟ فإنهم يقتلونه أيضا ، وبالنسبة لرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ونحن نعرف أن أعداءه قد صنعوا معه أشياء أرادوا بها اغتياله ، وذلك يدل على غباء الذين فكروا في ذلك الاغتيال .

لماذا ؟ لأنهم لم ينظروا إلى وضعه صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن نبيا فقط ، ولكنه رسول أيضا . وما دام رسولا فهو أسوة وحامل لمنهج في آن واحد ، فلو كان محمد صلى الله عليه وسلم نبيا فقط لكان في استطاعتهم أن يقتلوه كما قتلوا النبيين من قبل ، لكنه رسول من عند الله ، ولقد رأوه يحمل منهجا جديدا ، وهذا المنهج يسفه أحلامهم ، ويوضح أكاذيبهم ، من تبديلهم للكتب المنزلة عليهم .

إذن ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا يحمل رسالة ومنهجا ، وحينما أرادوا أن يقتلوه كنبيّ ، غفلوا عن كونه رسولا . ولذلك قال الحق مطمئنا لنا ومحدثا رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ

النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

[المائدة: 67].

الرسول الكريم إذن حامل رسالة ومعصوم بالله من أعدائه، والحق سبحانه وتعالى قد حكى عن الذين يقتلون الأنبياء، وأراد أن يطمئن المؤمنين، ويطمئن الرسول على نفسه، وأن يعرف خصوم رسول الله أنه لا سبيل إلى قتله، فيقول الحق:

﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

[البقرة: 91].

(23/115)

ولماذا يأتي الله بـ "من قبل" هذه؟ إنه يوضح لنا وللرسول ولأعداء محمد صلى الله عليه وسلم أن مسألة قتل الأنبياء كان من الممكن حدوثها قبل رسول الله، لكن هذه المسألة صارت منتهية، ولا يجرؤ أحد أن يمارسها مع محمد رسول الله، وبذلك طمأن الحق المؤمنين، وطمأن رسول الله بأن أحدا لن يناله بأذى، ولذلك قال الحق:

﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾

[المائدة: 67].

وأيأس الحق الذين يريدون قتل رسول الله فقد قال لهم :

﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾

[البقرة : 91] .

ولو أن المسألة مسألة نبوة ، ورسالة رسول الله غير داخلة في مواجيدهم ، وكان إنكارهم لرسالته عنادا ، لكانوا قد قالوا : " إن مسألة قتل الأنبياء لا تتوقف عند " من قبل " لأننا سنجعلها " من بعد " أيضا ، لكانوا قد كذلوا قواهم وقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن الله سبحانه أيأسهم وقنطهم من ذلك ، وذلك من مناط قدرة الله .

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يحكي عن أمر في قتل الأنبياء ، وقتل الذين يأمرون بالقسط ، أكان ذلك معاصر لقول الرسول هذا ؟ أو كان هذا الكلام لمن ؟ إنه موجه لبعض من أهل الكتاب ، إنه موجه لمن آمنوا باتباع الذين قتلوا النبيين من قبل ، وقتلوا الذين يأمرون بالقسط ، لقد آمنوا كإيمان السابقين لهم من قتلة الأنبياء ، وقتلهم للذين يأمرون بالقسط .

وهذا تقريع لهؤلاء الذين اتبعوا في الإيمان قوما قتلوا الأنبياء من قبل ، وقتلوا الذين يأمرون بالقسط ، إنه تقريع وتساؤل . كيف تؤمنون كإيمان الذين قتلوا الأنبياء ؟ وكيف تتبعون من فعل مثل ذلك ؟ وقد قص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن بني إسرائيل قد قتلوا ثلاثة وأربعين نبيا دفعة واحدة ، فقام مائة وسبعون من أتباع الأنبياء لينكروا عليهم ذلك ، فقتلوهم ، وهذا هو معنى هذه الآية الكريمة :

﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران : 21]

لماذا يبشرهم الحق بعذاب أليم ؟ أليس معنى التبشير هو إخبار بما يسر في أمد يمكن أن يؤتى فيه الفعل الذي يسر ؟ إن التبشير دائما يكون للفعل الذي يسر ، كتبشير الحق للمؤمنين بالجنة ، ومعنى التبشير بالجنة أن الله يخبر المؤمن بأمر يُسر له المؤمن ، ويعطي الحقّ الفرصة للمؤمن لينفذ منهج الله ليأخذ الجائزة والبشارة .

لماذا يكون الحديث بالبشارة موجها لأبناء الذين فعلوا ذلك ؟ لأننا نعرف أن الذين قتلوا النبيين وقتلوا الذين أمروا بالقسط من الناس لم يكونوا معاصرين لنزول هذا الآية ، إن المعاصرين من أهل الكتاب لنزول هذه الآية هم أبناء الذين قتلوا الأنبياء وقتلوا الذين أمروا بالقسط ، ويبشرهم الحق بالعذاب الأليم ؛ لأنهم ربما رأوا أن ما فعله السابقون لهم كان صوابا . فإن كانوا قد رأوا أن ما فعله السابقون لهم كان صوابا فلهم أيضا البشارة بالعذاب .

وتتسع دائرة العذاب لهم أيضا , ولكن لماذا يكون العذاب بشارة لهم ، رغم أن البشارة غالبا

ما تكون إخبارا بالخير، وعملية العذاب الأليم ليست خيرا ؟ إن علينا أن نعرف أنه ساعة نسمع كلمة "أبشر" فإن النفس تتفتح لاستقبال خبر يسر, وعندما تستعد النفس بالسرور وانبساط الأسارير إلى أن تسمع شيئًا حسنا يأتي قول: أبشر بعذاب أليم، ماذا يحدث ؟ الذي يحدث هو انقباض مفاجئ أليم, ابتداء مطمع "فبشرهم" وانتهاء مُيْئِس (بعذاب أليم) وهنا يكون الإحساس بالمصيبة أشد، لأن الحق لو أنذرهم وأوعدهم من أول الأمر بدون أن يقول: "فبشرهم" لكان وقوع الخبر المؤلم هينا.

لكن الحق يريد للخبر أن يقع وقوعاً صاعقا، ومثال لذلك قول الحق:

(25/115)

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ [الكهف: 29].

إنهم يستغيثون في الآخرة، ويغاثون بالفعل، ولكن بماذا يغيثهم الله ؟ إنه يغيثهم بماء كالمهل يشوي الوجوه. إننا ساعة أن نسمع "يغاثوا" قد نظن أن هناك فرجا قادما، ولكن الذي يأتي هو ماء كالمهل يشوي الوجوه. وهكذا تكون البشارة بالنسبة لمن قتلوا الأنبياء أو لأتباع القتلة الذين آمنوا بمثل ما آمن به هؤلاء القتلة. ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وكلمة "

عذاب " تعني إيلام حيّ يحس بالألم . والعذاب هو للحيّ الذي يظل متألما ، أما القتل فهو ينهي النفس الواعية وهذا ليس بعذاب ، بل العذاب أن يبقى الشخص حيًّا حتى يتألم ويشعر بالعذاب ، وقول الحق : ﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يلفتنا إلى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

[النساء : 56] .

أي أن الحق يديم عليهم الحياة ليديم عليهم التعذيب . وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1372 . 1378 ﴾

(26/115)

من فوائد العلامة الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ جَوَازُ إنْكَارِ الْمُنْكَرِ مَعَ خَوْفِ الْقَتْلِ ، وَأَنَّهُ مَنْزِلَةٌ شَرِيفَةٌ يَسْتَحِقُّ بِهَا الثَّوَابَ الْجَزِيلَ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ مَدَحَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قُتِلُوا حِينَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ .

وروى أبو سعيد الخدري وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿ أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر وفي بعض الروايات: يقتل عليه ﴾.

وروى أبو حنيفة عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿ أفضل الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل تكلم بكلمة حق عند سلطان جائر فقتل ﴾.

قال عمرو بن عبيد: لا نعلم عملا من أعمال البر أفضل من القيام بالقسط يقتل عليه.

وإنما قال الله تعالى: ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ وإن كان الإخبار عن أسلافهم، من قبل أن المخاطبين من الكفار كانوا راضين بأفعالهم، فأجملوا معهم في الإخبار بالوعيد لهم.

(27/115)

وهذا كقوله تعالى: ﴿ قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ﴾ وقوله تعالى: ﴿ الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ﴾ فنسب القتل إلى المخاطبين؛ لأنهم رضوا بأفعال أسلافهم وتولوهم عليها، فكانوا مشاركين لهم في استحقاق العذاب كما شاركوهم في الرضا بقتل الأنبياء عليهم السلام. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ أحكام القرآن

للجصاص حـ 2 صـ 286. 287

وقال ابن العربى :

قَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا : هَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ ، وَإِنْ أَدَّى إلَى قَتْلِ الْآمِرِ بِهِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا فِي كِتَابِ " الْمُشْكِلَيْنِ " الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ وَآيَاتُهُ وَأَخْبَارُهُ وَشُرُوطُهُ وَفَائِدَتُهُ .

وَسَنُشِيرُ إلَى بَعْضِهِ هَاهُنَا فَنَقُولُ : الْمُسْلِمُ الْبَالِغُ الْقَادِرُ يَلْزَمُهُ تَغْيِيرُ الْمُنْكَرِ ؛ وَالْآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ ، وَالْأَخْبَارُ مُتَظَاهِرَةٌ ، وَهِيَ فَائِدَةُ الرِّسَالَةِ وَخِلَافَةِ النُّبُوَّةِ ، وَهِيَ وِلَايَةُ الْإِلَهِيَّةِ لِمَنْ اجْتَمَعَتْ فِيهِ الشُّرُوطُ الْمُتَقَدِّمَةُ .

وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يَكُونَ عَدْلًا عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ .

وَقَالَتْ الْمُبْتَدِعَةُ : لَا يُغَيِّرُ الْمُنْكَرَ إلَّا عَدْلٌ ، وَهَذَا سَاقِطٌ ؛ فَإِنَّ الْعَدَالَةَ مَحْصُورَةٌ فِي قَلِيلٍ مِنْ الْخَلْقِ ، وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ عَامٌّ فِي جَمِيعِ النَّاسِ .

فَإِنْ اسْتَدَلُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ﴾ وقَوْله تعَالَى ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ وَنَحْوِهِ .

قُلْنَا : إنَّمَا وَقَعَ الذَّمُّ هَاهُنَا عَلَى ارْتِكَابِ مَا نُهِيَ عَنْهُ ، لَا عَنْ نَهْيِهِ عَنْ الْمُنْكَرِ وَكَذَلِكَ مَا رُوِيَ فِي الْحَدِيثِ مِنْ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى قَوْمًا تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ ، فَقِيلَ لَهُ : هُمْ الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَيَأْتُونَهُ ، إنَّمَا عُوقِبُوا عَلَى إتْيَانِهِمْ ﴾ .

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ النَّهْيَ عَنْهُ مِمَّنْ يَأْتِيهِ أَقْبَحُ مِمَّنْ لَا يَأْتِيهِ عِنْدَ فَاعِلِهِ فَيَبْعُدُ قَبُولُهُ مِنْهُ .

وَأَمَّا الْقُدْرَةُ فَهِيَ أَصْلٌ ، وَتَكُونُ مِنْهُ فِي النَّفْسِ وَتَكُونُ فِي الْبَدَنِ إنْ احْتَاجَ إلَى النَّهْيِ عَنْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ تَغْيِيرِهِ الضَّرْبَ أَوْ الْقَتْلَ ، فَإِنْ رَجَا زَوَالَهُ جَازَ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ الِاقْتِحَامُ عِنْدَ هَذَا الْغَرَرِ ، وَإِنْ لَمْ يَرْجُ زَوَالَهُ فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِيهِ ؟ وَاَلَّذِي عِنْدَهُ : أَنَّ النِّيَّةَ إذَا خَلَصَتْ فَلْيَقْتَحِمْ كَيْفَمَا كَانَ وَلَا يُبَالِي .

فَإِنْ قِيلَ : هَذَا إلْقَاءٌ بِيَدِهِ إلَى التَّهْلُكَةِ .

قُلْنَا : قَدْ بَيَّنَّا مَعْنَى الْآيَةِ فِي مَوْضِعِهَا ، وَتَمَامُهَا فِي شَرْحِ الْمُشْكِلَيْنِ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

فَإِنْ قِيلَ : فَهَلْ يَسْتَوِي فِي ذَلِكَ الْمُنْكَرُ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِهِ حَقُّ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِهِ حَقُّ الْآدَمِيِّ ؟ قُلْنَا : لَمْ نَرَ لِعُلَمَائِنَا فِي ذَلِكَ نَصًّا .

وَعِنْدِي أَنَّ تَخْلِيصَ الْآدَمِيِّ أَوْجَبُ مِنْ تَخْلِيصِ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى ؛ وَذَلِكَ مُمَهَّدٌ فِي مَوْضِعِهِ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 1 صـ 349 . 350﴾

(29/115)

قوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (22) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان الحال ربما اقتضى أن يقال من بعض أهل الضلال : إن لهؤلاء أعمالاً حساناً واجتهادات في الطاعة عظيمة ، بيّن تعالى أن تلك الأفعال مجرد صور لا معاني لها لتضييع القواعد ، كما أنهم هم أيضاً ذوات بغير قلوب ، لتقع المناسبة بين الأعمال والعاملين فقال : ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ الذين حبطت ﴾ أي فسدت فسقطت ، وأشار بتأنيث الفعل إلى ضعفها من أصلها ﴿ أعمالهم ﴾ أي كلها الدنياوية والدينية ، وأنبأ تعالى بقوله : ﴿ في الدنيا ﴾ كما قال الحرالي - أنهم يتعقبون أعمال خيرهم ببغي يمحوها فلا يطمعون بجزائها في عاجل ولا آجل ، وبذلك تمادى عليهم الذل وقل منهم المهتدي - انتهى

﴿ والآخرة ﴾ فلا يقيم لهم الله في يوم الدين وزناً ، وأسقط ذكر الحياة إشارة إلى أنه لا حياة لهم في واحدة من الدارين .

ولما كان التقدير : فلا ينتصرون بأنفسهم أصلاً ، فإنهم لا يدبرون تديبراً إلا كان فيه تدميرهم ، عطف عليه قوله : ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ قال الحرالي : فيه إعلام بوقوع الغلبة عليهم غلبة لا نصرة لهم فيها في يوم النصر الموعود في سورة الروم التي هي تفصيل من معنى هذه السورة في قوله تعالى : ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء ﴾ [الروم : 4 ، 5] فهم غير داخلين فيمن ينصر بما قد ورد أنهم " يقتلون في آخر الزمان حتى يقول الحجر : يا مسلم ! خلفي يهودي فاقتله ، حتى لا يبقى منهم إلا من يستره شجر الفرقد " كما قال صلى الله عليه وسلم : " إنه من شجرهم " وفي إفهامه أن طائفة من أهل الإنجيل يقومون بحقه ، فيكونون ممن تشملهم نصرة الله سبحانه وتعالى مع المسلمين ، فتنتسق الملة واحدة مما يقع من الاجتماع حين تضع الحرب أوزارها - انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 48.49 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى بيّن بهذا أن محاسن أعمال الكفار محبطة في الدنيا والآخرة ، أما الدنيا فإبدال المدح بالذم والثناء باللعن ، ويدخل فيه ما ينزل بهم من القتل والسبي ، وأخذ الأموال منهم غنيمة والاسترقاق لهم إلى غير ذلك من الذل الظاهر فيهم ، وأما حبوطها في الآخرة فبإزالة الثواب إلى العقاب .

النوع الثالث من وعيدهم : قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُم مِّن ناصرين ﴾ .

اعلم أنه تعالى بيّن بالنوع الأول من الوعيد اجتماع أسباب الآلام والمكروهات في حقهم وبيّن بالنوع الثاني زوال أسباب المنافع عنهم بالكلية وبيّن بهذا الوجه الثالث لزوم ذلك في حقهم على وجه لا يكون لهم ناصر ولا دافع والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 187 ﴾

وقال الطبرى فى معنى الآية :

وأما قوله : "أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة" ، فإنه يعني بقوله : "أولئك" ، الذين يكفرون بآيات الله . ومعنى ذلك : أنّ الذين ذكرناهم ، هم "الذين حبطت أعمالهم" ، يعني : بطلت أعمالهم "في الدنيا والآخرة" . فأما في الدنيا ، فلم ينالوا بها محمدةً ولا ثناء من الناس ، لأنهم كانوا على ضلال وباطل ، ولم يرفع الله لهم بها ذكرًا ، بل لعنهم وهتك أستارهم ، وأبدى ما كانوا يخفون من قبائح أعمالهم على ألسن أنبيائه ورسله في كتبه التي

أنزلها عليهم ، فأبقى لهم ما بقيت الدنيا مذمّةً ، فذلك حبوطها في الدنيا . وأما في الآخرة ، فإنه أعدّ لهم فيها من العقاب ما وصف في كتابه ، وأعلم عباده أن أعمالهم تصير بُورًا لا ثوابَ لها ، لأنها كانت كفرًا بالله ، فجزاءُ أهلها الخلودُ في الجحيم .

وأما قوله : "وما لهم من ناصرين" ، فإنه يعني : وما لهؤلاء القوم من ناصر ينصرهم من الله ، إذا هو انتقم منهم بما سلف من إجرامهم واجترائهم عليه ، فيستنقذُهم منه . انتهى .

ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 287 ﴾

من فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

وجيء باسم الإشارة في قوله : ﴿ أولئك الذين حبطت أعمالهم ﴾ لأنّهم تميّزوا بهذه الأفعال التي دلت عليها صِلاتُ الموصول أكملَ تمييز ، وللتنبيه على أنّهم أحِقَّاءِ بما سيخبر به عنهم بعدَ اسم الإشارة .

واسم الإشارة مبتدأ ، وخبره ﴿ الذين حَبِطتْ أعمالهم ﴾ ، وقيل هو خبر (إنّ) وجملة ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ وهو الجاري على مذهب سيبويه لأنّه يمنع دخول الفاء في

الخبر مطلقاً .

وحَبَط الأعمالِ إزالةِ آثارها النافعة من ثوابٍ ونعيم في الآخرة ، وحياةٍ طيّبة في الدنيا ،

وإطلاق الحَبَط على ذلك تمثيل بحال الإبل التي يصيبها الحَبَط وهو انتفاخ في بطونها من كثرة

الأكل ، يكون سبب موتها ، في حين أكلت ما أكلت للالتذاذ به .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيَمُت وهو كافر فأولئك حبطت

أعمالهم في الدنيا والآخرة ﴾ في سورة البقرة (217 .

(والمعنى هنا أنّ اليهود لما كانوا متديّنين يَرجون من أعمالهم الصالحة النفعَ بها في الآخرة

بالنجاة من العقاب ، والنفع في الدنيا بآثار رضا الله على عباده الصالحين ، فلمّا كفروا بآيات

الله ، وجحدوا نبوءة محمد ، وصوّبوا الذين قَتَلوا الأنبياء والذين يأمرون بالقسط ، فقد

ارتدُّوا عن دينهم فاستحقّوا العذاب الأليم ، ولذلك ابتُدىء به بقوله : فبشرهم بعذاب أليم

﴾ .

فلا جرم تَحْبَط أُعمالهم فلا ينتفعون بثوابها في الآخرة ، ولا بآثارها الطيّبة في الدنيا ،

ومعنى ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ ما لهم من ينقذهم من العذاب الذي أنذروا به .

وجيء بمن الدالة على تنصيص العموم لئلاّ يترك لهم مدخل إلى التأويل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 64.63 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ مجيء الجمع هنا أحسن من مجيء الإفراد ، لأنه رأس آية ، ولأنه بإزاء من للمؤمنين من الشفعاء الذين هم الملائكة والأنبياء وصالحو المؤمنين ، أي : ليس لهم كأمثال هؤلاء ، والمعنى : بانتفاء الناصرين انتفاء ما يترتب على النصر من المنافع والفوائد ، وإذا انتفت من جمع فانتفاؤها من واحد أَولى ، وإذا كان جمع لا ينصر فأحرى أن لا ينصر واحد ، ولما تقدم ذكر معصيتهم بثلاثة أوصاف ناسب أن يكون جزاؤهم بثلاثة ، ليقابل كل وصف بمناسبه ، ولما كان الكفر بآيات الله أعظم ، كان التبشير بالعذاب الأليم أعظم ، وقابل قتل الأنبياء بحبوط العمل في الدنيا والأخرة ، ففي الدنيا بالقتل والسبي وأخذ المال والاسترقاق ، وفي الآخرة بالعقاب الدائم ، وقابل قتل الآمرين بالقسط ، بانتفاء الناصرين عنهم إذا حل بهم العذاب ، كما لم يكن للآمرين بالقسط من ينصرهم حين حل بهم قتل المعتدين ، كذلك المعتدون لا ناصر لهم إذا حل بهم العذاب .

وفي قوله : أولئك ، إشارة إلى من تقدم موصوفاً بتلك الأوصاف الذميمة ، وأخبر عنه : بالذين ، إذ هو أبلغ من الخبر بالفعل ، ولأن فيه نوع انحصار ، ولأن جعل الفعل صلة يدل على كونها معلومة للسامع ، معهودة عنده ، فإذا أخبرت بالموصول عن اسم استفاد المخاطب

أن ذلك الفعل المعهود المعلوم عنده المعهود هو منسوب للمخبر عنه بالموصول ، بخلاف الإخبار بالفعل ، فإنك تخبر المخاطب بصدوده عن من أخبرت به عنه ، ولا يكون ذلك الفعل معلوماً عنده ، فإن كان معلوماً عنده جعلته صلة ، وأخبرت بالموصول عن الاسم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 431 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

أولئك الذين ليس لهم – اليومَ – توفيق بأعمالهم ، ولا غداً تحقيق لآمالهم ، وما ذلك إلا لأنهم فقدوا في الدارين نصرتنا ، ولم يشهدوا عِزّنا وقدرتنا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 229 ﴾

(33/115)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾

إنهم الذين كفروا بآيات الله ، وقتلوا النبيين بغير حق ، وقتلوا الذين أمروا بالقسط بين الناس ، هؤلاء لهم العذاب ، ولهم أيضا حبط العمل في الدنيا والآخرة ، وكذلك من نهج نهجهم ،

ومعنى " حبطت " أي لا ثمرة مرجوة من العمل ، إن كل عمل يعمله العاقل لا بد أن يكون لهدف يقصده ، فأي عمل لا يكون له مقصد يكون كضربة المجنون ليس لها هدف . إن العاقل قبل أن يفعل أي عمل ينبغي أن يعرف الغاية منه ، وما الذي يحققه من النفع ؟ وهل هذا النفع الذي سوف يحققه هو خير النفع وأدومه ، أو هو أقل من ذلك ؟

وعلى ضوء هذه المقاييس يحدد العاقل عمله ، وحينما يقول الحق : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ فهو سبحانه يريد أن يخبرنا أن إنسانا قد يفعل عملا هو في ظاهره خير ، فإياك أن تغتر أيها المؤمن بأنه عَمِلَ خيرا . لماذا ؟ لأن عمل الخير لا يحسب للإنسان إلا بنية إيمانه بمن يجازى فالإنسان إن عمل عملا قد تصلح به دنياه فهو عمل حسن ، فلماذا يكون عمل هؤلاء حابطا في الدنيا ، وفي الآخرة ؟ إنه حابط بموازين الإيمان ويكون العمل حابطا لأنه لم يصدر من مؤمن ، لأن ذلك الإنسان قد عمل العمل ثقة بنتيجة العمل ، لا ثقة بالأمر الأعلى .

(34/115)

إن الإنسان المؤمن حين يقوم بالعمل يقوم بالعمل ثقة في الأمر الأعلى . وبعض من الناس في عصرنا يأخذون على الإسلام أنه لا يجازي الجزاء الحسن للكفرة الذين قاموا بأعمال مفيدة

للبشرية . يقوم الواحد منهم : هل يعقل أحد أن " باستير " الذي اكتشف الميكروبات ، والعالم الآخر الذي اكتشف الأشعة ، وكل هؤلاء العلماء يذهبون إلى النار ؟ ولهؤلاء نقول : نعم ، إن الحق بعدالته أراد ذلك ، ولنتقاض نحن وأنتم إلى أعراف الناس . إن الذي يطلب أجرا على عمل يطلبه ممن ؟ إنه يطلب الأجر ممن عمل له . فهل كان الله في بال هؤلاء العلماء وهم يفعلون هذه الأعمال ؟ إن بالهم كان مشغولا بالإنسانية ، وقد أعطتهم الإنسانية التخليد ، وغير ذلك من مكاسب الدنيا ، وينطبق عليهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " إن أول الناس يُقْضَى يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال ؛ قاتلت فيك حتى استشهدت قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ، حتى ألقي في النار ، ورجل تعلّم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ، ليقال : هو قارئ فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب على وجهه ، حتى ألقي في النار ، ورجل وسّع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به ، فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ، ثم ألقي في النار " .

إذن فإذا كان الجزاء من الله ، فلنا أن نسأل : هل كان الله في بال هؤلاء العلماء حينما أنتجوا مخترعاتهم ؟ لم يكن في بالهم الله . والذي يطلب أجرا ، فهو يطلبه ممن عمل له . ولم يُضع الله ثمرة عملهم ، بل درت عليهم أعمالهم الذكر والجاه والرفعة . لم يضع الله أجر من أحسن عملا .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾

[الشورى : 20] .

وقد قلت لكم قديما : تذكروا المفاجأة التي تحدث لمن عمل عملا هو في ظاهره خير ، ولكن لم يكن ربه في باله ، هذا ينطبق عليه قول الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

[النور : 39] .

إنه يفاجأ بوجود الله ، ولم يكن هذا الإله في باله ساعة أن قام بهذا العمل الذي هو في ظاهره

خير ، كأن الله يقول لصاحب مثل هذا العمل : أنا لم أكن في بالك ساعة أن قمت بهذا العمل ، فخذ جزاءك ممن كان في بالك . ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ إن أعمالهم حبطت في الدنيا ، لأنهم قد يعملون عملا يراد به الكيد للإسلام ، لذلك لا يمكنهم الله من ذلك ، بل يخذلهم جميعا . وانتصر دين الله رغم قلة العُدّة . وليس لهؤلاء ناصرون . أي ليس لهم من يأتي ويراهم مهزومين أمام خصم لهم وينجدهم إنهم لن يجدوا ناصرا إذا هزمهم الله ، فليس مع الله أحد غيره . وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1378 . 1381 ﴾

(36/115)

" فصل "

قال السيوطى :

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (21) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (22)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي عبيدة بن الجراح قال " قلت يا رسول الله أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة ؟ قال : رجل قتل نبياً ، أو رجل أمر بالمنكر ونهى عن المعروف . ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ﴾ إلى قوله ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً أول النهار في ساعة واحدة ، فقام مائة رجل وسبعون رجلاً من عباد بني إسرائيل ، فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر ، فقتلوا جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم ، فهم الذين ذكر الله " . وأخرج ابن أبي الدنيا فيمن عاش بعد الموت وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : بعث عيسى يحيى في اثني عشر رجلاً من الحواريين يعلمون الناس ، فكان ينهى عن نكاح بنت الأخ ، وكان ملك له بنت أخ تعجبه ، فأرادها وجعل يقضي لها كل يوم حاجة فقالت لها أمها : إذا سألك عن حاجتك ، فقولي : حاجتي أن تقتل يحيى بن زكريا فقال الملك : حاجتك . . . ؟ قالت حاجتي أن تقتل يحيى بن زكريا . فقال سلي غير هذا . قالت : لا أسألك غير هذا . فلما أبت أمر به فذبح في طست ، فبدرت قطرة من دمه فلم تزل تغلي حتى بعث الله بختنصر ، فدلت عجوز عليه فألقى في نفسه أن لا يزال يقتل حتى يسكن هذا الدم ، فقتل في يوم واحد ، من ضرب واحد ، وسن واحد ، سبعين ألفاً فسكن .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن معقل بن أبي مسكين في الآية قال: كان الوحي يأتي بني إسرائيل فيذكرون قومهم ولم يكن يأتيهم كتاب فيقتلون، فيقوم رجال ممن اتبعهم وصدقهم فيذكرون قومهم فيقتلون. فهم الذين يأمرون بالقسط من الناس.

وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ﴾ قال: هؤلاء أهل الكتاب. كان أتباع الأنبياء ينهونهم ويذكرونهم بالله فيقتلونهم.

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال: أقحط الناس في زمان ملك من ملوك بني إسرائيل فقال الملك: ليرسلن علينا السماء أو لنؤذينه فقال له جلساؤه: كيف تقدر على أن تؤذيه أو تغيظه وهو في السماء ؟ قال: اقتل أولياءه من أهل الأرض، فيكون ذلك أذى له. قال: فأرسل الله عليهم السماء.

وأخرج ابن عساكر من طريق زيد بن أسلم عن ابن عباس في قول الله ﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم ﴾ قال: الذين يأمرون بالقسط من الناس ولاة العدل، عثمان وأضرابه.

وأخرج ابن أبي داود في المصاحف عن الأعمش قال: في قراءة عبد الله " إن الذين

يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق وقاتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 170.168 ﴾

(38/115)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان من المعلوم أن ثبات الأعمال وزكاءها إنما هو باتباع أمر الله سبحانه وتعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم وأمر الذين ورثوا العلم عنه دل على ما أخبر به من الحبوط وعدم النصر بما يشاهد من أحوالهم في منابذة الدين فقال : ﴿ ألم تر ﴾ وكان الموضع لأن يقال : إليهم ، ولكنه قال : ﴿ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ﴾ ليدل على أن ضلالهم على علم ، وأن الذي أوتوه منه قراءتهم له بألسنتهم وادعاء الإيمان به .

وقال الحرالي : كتابهم الخاص بهم نصيب من الكتاب الجامع ، وما أخذوا من كتابهم نصيب من اختصاصه ، فإنهم لو استوفوا حظهم منه لما عدلوا في الحكم عنه ولرضوا به ، وكان في

هذا التعجيب أن يكون غيرهم يرضى بحكم كتابهم ثم لا يرضون هم به - انتهى .

﴿ يدعون إلى كتاب الله ﴾ أظهر الاسم الشريف ولم يقل : إلى كتابهم ، احترازاً عما غيروا وبدلوا ولأنهم إنما دعوا إلى كتاب الله الذي أنزل على موسى عليه الصلاة والسلام ، لا إلى ما عساه أن يكون بأيديهم مما غيروا - نبه عليه الحرالي .

وفيه أيضاً إشارة إلى عظيم اجترائهم بتوليهم عمن له الإحاطة الكاملة ﴿ ليحكم بينهم ﴾ قال الحرالي : في إشعاره أن طائفة منهم على حق منه ، أي وهم المذعنون لذلك الحكم الذي دعي إليه - انتهى .

(39/115)

ولما كان اتباعه واجباً واضحاً نفعه لمن جرد نفسه عن الهوى عبر عن مخالفته بأداة البعد فقال : ﴿ ثم ﴾ وقال الحرالي : في إمهاله ما يدل على تلددهم وتبلدهم في ذلك بما يوقعه الله من المقت والتحير على من دعي إلى حق فأباه ، وفي صيغة يتفعل في قوله : ﴿ يتولى ﴾ ما يناسب معنى ذلك في تكلف التولي على انجذاب من بواطنهم لما عرفوه وكتموه ، وصرح قوله : ﴿ فريق منهم ﴾ بما أفهمه ما تقدم من قوله : ﴿ ليحكم بينهم ﴾ فأفهم أن طائفة منهم ثابتون قائلون لحكم كتاب الله تعالى ، وأنبأ قوله المشير إلى كثرة أفراد هذا الفريق

﴿ وهم معرضون ﴾ بما سلبوه من ذلك التردد والتكلف ، فصار وصفاً لهم بعد أن كان تعملاً ، ما أنكر منكر حقاً وهو يعلمه إلا سلبه الله تعالى علمه حتى يصير إنكاره له بصورة وبوصف من لم يكن قط علمه - انتهى .

وفي هذا تحذير لهذه الأمة من الوقوع في مثل ذلك ولو بأن يدعى أحدهم من حسن إلى أحسن منه - نبه عليه الحرالي وقال : إذ ليس المقصود حكاية ما مضى فقط ولا ما هو كائن فحسب ، بل خطاب القرآن قائم دائم ماض كلية خطابه في غابر اليوم المحمدي مع من يناسب أحوال من تقدم منهم ، وفي حق المرء مع نفسه في أوقات مختلفة - انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 52.49 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما نبّه على عناد القوم بقوله ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران : 20] بيّن في هذه الآية غاية عنادهم ، وهو أنهم يدعون إلى الكتاب الذي يزعمون أنهم يؤمنون به ، وهو التوراة ثم إنهم يتمردون ، ويتولون ، وذلك يدل على غاية عنادهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 188 ﴾

قال ابن عاشور :

فائدة

والرؤية بصرية بدليل تعديتها بحرف إلى : الذي يتعدى به فعل النظر ، وجوز صاحب الكشاف في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ ﴾ في سورة النساء [44] : أن تكون الرؤية قلبية ، وتكون إلى داخلة على المفعول الأول لتأكيد اتصال العلم بالمعلوم وانتهائه المجازي إليه ، فتكون مثل قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إبراهيم ﴾ [البقرة : 258] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 64 ﴾

فائدة

قال الفخر :

ظاهر قوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين أُوتُواْ نَصِيبًا مّنَ الكتاب ﴾ يتناول كلهم ، ولا شك أن هذا مذكور في معرض الذم ، إلا أنه قد دلّ دليل آخر ، على أنه ليس كل أهل الكتاب كذلك لأنه تعالى يقول ﴿ مّنْ أَهْلِ الكتاب أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءايات الله ءَانَاء الليل وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران : 113] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 188 ﴾

قوله تعالى : ﴿ أوتوا نصيباً من الكتاب ﴾

قال الفخر :

المراد به غير القرآن لأنه أضاف الكتاب إلى الكفار ، وهم اليهود والنصارى ، وإذا كان

كذلك وجب حمله على الكتاب الذي كانوا مقرين بأنه حق ، ومن عند الله . انتهى .

اهـ ﴿ مفاتيح الغيب جـ 7 صـ 188 ﴾

فصل في سبب النزول

قال الفخر :

ذكروا في سبب النزول وجوهاً

أحدها : روي عن ابن عباس أن رجلاً وامرأة من اليهود زنيا ، وكانا ذوي شرف ، وكان في كتابهم الرجم ، فكرهوا رجمهما لشرفهما ، فرجعوا في أمرهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، رجاء أن يكون عنده رخصة في ترك الرجم فحكم الرسول صلى الله عليه وسلم بالرجم فأنكروا ذلك فقال عليه الصلاة والسلام : " بيني وبينكم التوراة فإن فيها الرجم فمن أعلمكم ؟ " قالوا : عبد الله بن صوريا الفدكي فأتوا به وأحضروا التوراة ، فلما أتى على آية الرجم وضع يده عليها ، فقال ابن سلام : قد جاوز موضعها يا رسول الله فرفع كفه عنها فوجدوا آية الرجم ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بهما فرجما ، فغضبت اليهود لعنهم الله لذلك غضباً شديداً ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

والرواية الثانية : أنه صلى الله عليه وسلم دخل مدرسة اليهود ، وكان فيها جماعة منهم فدعاهم إلى الإسلام فقالوا : على أي دين أنت ؟ فقال : على ملة إبراهيم ، فقالوا : إن إبراهيم كان يهودياً فقال صلى الله عليه وسلم : " هلموا إلى التوراة ، " فأبوا ذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية .

والرواية الثالثة : أن علامات بعثة محمد صلى الله عليه وسلم مذكورة في التوراة ، والدلائل الدالة على صحة نبوّته موجودة فيها ، فدعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى التوراة ، وإلى تلك الآيات الدالة على نبوّته فأبوا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، والمعنى أنهم إذا أبوا أن يجيبوا إلى التحاكم إلى كتابهم ، فلا تعجب من مخالفتهم كتابك فلذلك قال الله تعالى : ﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ [آل عمران : 93] وهذه الآية على هذه الرواية دلّت على أنه وجد في التوراة دلائل صحة نبوّته ، إذ لو علموا أنه ليس في التوراة ما يدل على صحة نبوّته لسارعوا إلى بيان ما فيها ولكنهم أسروا ذلك .

والرواية الرابعة : أن هذا الحكم عام في اليهود والنصارى ، وذلك لأن دلائل نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم كانت موجودة في التوراة والإنجيل ، وكانوا يدعون إلى حكم التوراة والإنجيل

وكانوا يأبون. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 188. 189 ﴾

وقال السمرقندى :

قال مقاتل : نزلت في كعب بن الأشرف ، وجماعة منهم حين قالوا ؛ نحن أَهْدَى سبيلاً ، وما بعث الله رسولاً بعد موسى عليه السلام فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : " أَتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي أَقُولُ لَكُمْ حَقٌّ فَأَخْرِجُوا التَّورَاةَ " ، فأَبَوا .

فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين أُوتُواْ نَصِيبًا مّنَ الكتاب ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 228 ﴾

وقال ابن الجوزى :

إن النبي صلى الله عليه وسلم دعا اليهود إلى الإسلام ، فقال : نعمان بن أبي أوفى : هلم نحاكمك إلى الأحبار .

فقال : بل إلى كتاب الله ، فقال : بل إلى الأحبار ، فنزلت هذه الآية ، قاله السدي. انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 366. 367 ﴾

قال الطبرى :

ولا دلالة في الآية على أيّ ذلك كان من أيٍّ ، فيجوز أن يقال : هو هذا دون هذا . ولا حاجة بنا إلى معرفة ذلك ، لأن المعنى الذي دُعوا إلى حكمه ، هو مما كان فرضًا عليهم الإجابة إليه في دينهم ، فامتنعوا منه ، فأخبر الله جل ثناؤه عنهم بردّتهم ، وتكذيبهم بما في كتابهم ،

وجحودهم ما قد أخذ عليهم عهودَهم ومواثيقهم بإقامته والعمل به . فلن يعدُوا أن يكونوا في تكذيبهم محمدًا وما جاء به من الحق ، مثلهم في تكذيبهم موسى وما جاء به وهم يتولونه ويقرّون به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 291 ﴾

قوله تعالى ﴿ نَصِيباً مِّنَ الكتاب ﴾

قال الفخر :

المراد منه نصيباً من علم الكتاب ، لأنا لو أجريناه على ظاهره فهم أنهم قد أوتوا كل الكتاب والمراد بذلك العلماء منهم وهم الذين يدعون إلى الكتاب ، لأن من لا علم له بذلك لا يدعي إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 189 ﴾

(43/115)

فائدة

قال ابن عطية :

وخص الله تعالى بالتولي فريقاً دون الكل لأن منهم من لم يتول كابن سلام وغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 416 ﴾

قوله تعالى : ﴿ يُدْعَوْنَ إلى كتاب الله ﴾

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ يُدْعَوْنَ إلى كتاب الله ﴾ ففيه قولان :

القول الأول : وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما والحسن أنه القرآن .

فإن قيل : كيف دعوا إلى حكم كتاب لا يؤمنون به ؟ .

قلنا : إنهم إنما دعوا إليه بعد قيام الحجج الدالة على أنه كتاب من عند الله .

والقول الثاني : وهو قول أكثر المفسرين : إنه التوراة واحتج القائلون به بوجوه

الأول : أن الروايات المذكورة في سبب النزول دالة على أن القوم كانوا يدعون إلى التوراة فكانوا يأبون

والثاني : أنه تعالى عجب رسوله صلى الله عليه وسلم من تمردهم وإعراضهم ، والتعجب إنما يحصل إذا تمردوا عن حكم الكتاب الذي يعتقدون في صحته ، ويقرون بحقيته

الثالث : أن هذا هو المناسب لما قبل الآية ، وذلك لأنه تعالى لما بيّن أنه ليس عليه إلا البلاغ ، وصبره على ما قالوه في تكذيبه مع ظهور الحجة بيّن أنهم إنما استعملوا طريق المكابرة في نفس كتابهم الذي أقروا بصحته فستروا ما فيه من الدلائل الدالة على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم فهذا يدل على أنهم في غاية التعصب والبعد عن قبول الحق . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 189 ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ الكتاب ﴾ في قوله : ﴿ إلى كتاب الله ﴾ هو التوراة ، وقال قتادة وابن جريج : ﴿ الكتاب ﴾ في قوله ﴿ إلى كتاب الله ﴾ هو القرآن ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم إليه فكانوا يعرضون ، ورجح الطبري القول الأول ، وقال مكي : الكتاب الأول اللوح المحفوظ والثاني التوراة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 416 ﴾

(44/115)

وقال ابن عاشور :

و ﴿ كِتَابِ اللَّهِ ﴾ : القرآن كما في قوله ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ [البقرة : 101] فهو غير الكتاب المراد في قوله ﴿ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ كما ينبئ به تغيير الأسلوب . والمعنى : يدعون إلى اتباع القرآن والنظر في معانيه ليحكم بينهم فيأبون . ويجوز أن يكون كتاب الله عين المراد من الكتاب ، وإنما غير اللفظ تفننا وتنويها بالمدعو إليه ، أي يدعون إلى كتابهم ليتأملوا منه ، فيعلموا تبشيره برسول يأتي من بعد ، وتلميحه إلى صفاته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 65 ﴾

ورجح الطبرى بأن المراد من الكتاب التوراة وقال :

وإنما قلنا إن ذلك "الكتاب" هو التوراة ، لأنهم كانوا بالقرآن مكذبين ، وبالتوراة بزعمهم

مصدّقين، فكانت الحجة عليهم بتكذيبهم بما هم به في زعمهم مقرُّون، أبلغَ، وللعذر أقطعَ. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 292 ﴾

قوله تعالى ﴿ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾

قال الفخر:

المعنى: ليحكم الكتاب بينهم، وإضافة الحكم إلى الكتاب مجاز مشهور، وقرىء ﴿ لِيَحْكُمَ ﴾ على البناء للمفعول،

قال صاحب "الكشاف": وقوله ﴿ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ يقتضي أن يكون الاختلاف واقعاً فيما بينهم، لا فيما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بيّن الله أنهم عند الدعاء يتولى فريق منهم وهم الرؤساء الذين يزعمون أنهم هم العلماء. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 189 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

قال الفخر:

فيه وجهان:

الأول: المتولون هم الرؤساء والعلماء والمعرضون الباقون منهم، كأنه قيل: ثم يتولى العلماء والأتباع معرضون عن القبول من النبي صلى الله عليه وسلم لأجل تولي علمائهم.

والثاني : أن المتولي والمعرض هو ذلك الفريق ، والمعنى أنه متولي عن استماع الحجة في ذلك المقام ومعرض عن استماع سائر الحجج في سائر المسائل والمطالب ، كأنه قيل : لا تظن أنه تولى عن هذه المسألة بل هو معرض عن الكل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 189 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ عطف على (يدعون) ، و﴿ ثم ﴾ للتراخي الرتبي ، وفيه استبعاد توليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع إليه ، و﴿ منهم ﴾ صفة لفريق ، ولعل المراد بهذا الفريق أكثرهم علماً ليعلم تولي سائرهم من باب الأولى قيل : وهذا سبب العدول عن –ثم يتولون– وقيل : الذين لم يسلموا ، ووجه العدول عليه ظاهر فتدبر .

﴿ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ جوز أن يكون صفة معطوفة على الصفة قبلها فالواو للعطف ، وأن تكون في محل نصب على الحال من الضمير المستكن في ﴿ منهم ﴾ أو من ﴿ فريق ﴾ لتخصيصه بالصفة فالواو حينئذ للحال وهي إما مؤكدة لأن التولي والإعراض بمعنى ، وإما مبينة لاختلاف متعلقيهما بناءاً على ما قبل : إن التولي عن الداعي والإعراض عن المدعو إليه أو التولي بالبدن والإعراض بالقلب ، أو الأول كان من العلماء . والثاني من أتباعهم ، وجوز أن لا يكون لها محل من الإعراب بأن تكون تذييلاً أو معترضة ، والمراد وهم قوم

ديدنهم الإعراض ، وبعضهم فسر الجملة بهذا مع اعتبار الحالية ولعله رأى أنه لا يمنع عنها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 111 ﴾

سؤال : فإن قيل : التوِلّي عن الشيء هو الإعراض عنه ،

قيل : معناه يتولَّى عن الداعي ويعرض عما دُعِيَ إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 383 ﴾

وقال ابن الجوزى :

فإن قيل : التولي هو الإعراض ، فما فائدة تكريره ؟

فالجواب من أربعة أوجه .

أحدها : التأكيد .

والثاني : أن يكون المعنى : يتولون عن الداعي ، ويعرضون عما دعا إليه .

والثالث : يتولون بأبدانهم ، ويعرضون عن الحق بقلوبهم .

(46/115)

والرابع : أن يكون الذين تولوا علماءهم ، والذين أعرضوا أتباعهم ، قاله ابن الأنباري .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 367 ﴾

فصل

قال القرطبى :

في هذه الآية دليل على وجوب ارتفاع المدعو إلى الحاكم لأنه دعي إلى كتاب الله ؛ فإن لم يفعل كان مخالفا يتعين عليه الزجر بالأدب على قدر المخالِف والمخالَف .

وهذا الحكم جار عندنا بالأندلس وبلاد المغرب وليس بالديار المصرية .

وهذا الحكم الذي ذكرناه مبيّن في التنزيل في سورة "النور" في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا دعوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ بَلْ أُولئك هُمُ الظالمون ﴾ [النور : 48 ، 49 ، 50] وأسند الزهرّي عن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من دعاه خصمه إلى حاكم من حكام المسلمين فلم يجب فهو ظالم ولا حق له "

قال ابن العربي : وهذا حديث باطل .

أمّا قوله "فهو ظالم" فكلام صحيح .

وأمّا قوله "فلا حق له" فلا يصح ، ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق .

قال ابن خُوَيْزِ مَندَاد المالكي : واجب على كل من دُعي إلى مجلس الحاكم أن يجيب ما لم يُعلم أنّ الحاكم فاسق ، أو يُعلم عداوة من المدعي والمدعى عليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 50 ﴾

فصل

قال القرطبى :

في هذه الآية دليل على أن شرائع من قبلنا شريعة لنا إلا ما عِلمنا نسخه ، وأنه يجب علينا الحكم بشرائع الأنبياء قبلنا ، على ما يأتي بيانه .

وإنما لا نقرأ التوراة ولا نعمل بما فيها لأن من هي في يده غير أمين عليها وقد غيرها وبدّلها ، ولو علمنا أن شيئاً منها لم يتغير ولم يتبدل جاز لنا قراءته .

ونحو ذلك روي عن عمر حيث قال لكعب : إن كنت تعلم أنها التوراة التي أنزلها الله على موسى بن عمران فاقرأها .

وكان عليه السلام عالما بما لم يغيِّر منها فلذلك دعاهم إليها وإلى الحكم بها .

وسيأتي بيان هذا في "المائدة" والأخبار الواردة في ذلك إن شاء الله تعالى .

وقد قيل : إن هذه الآية نزلت في ذلك . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 50. 51 ﴾ . بصرف يسير .

(47/115)

من فوائد العلامة أبى السعود فى الآية :

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تعجيبٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يتأتى منه الرؤيةُ من حال

أهل الكتاب وسوءِ صنيعِهم ، وتقرير لما سبق من أن اختلافهم في الإسلام إنما كان بعد ما جاءهم العلم بحقّيته أي ألم تنظرُ ﴿ إِلَى الذين أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الكتاب ﴾ أي التوراةِ على أن اللامَ للعَهدْ وحملُه على جنس الكتبِ الإلهية تطويلٌ للمسافة إذ تمامُ التقريب حينئذ بكون التوراة من جملتها لأن مدار التشنيع والتعجيب إنما هو إعراضُهم عن المحاكمة إلى ما دُعوا إليه وهم لم يُدْعَوا إلا إلى التوراة ، والمرادُ بما أوتوه منها ما بُيّن لهم فيها من العلوم والأحكام التي من جملتها ما عِلموه من نعوت النبي صلى الله عليه وسلم وحقّية الإسلام ، والتعبيرُ عنه بالنصيب للإشعار بكمال اختصاصِه بهم وكونِه حقاً من حقوقهم التي يجبُ مراعاتُها والعملُ بموجبها وما فيه من التنكير للتفخيم ، وحملُه على التحقير لا يساعده مقامُ المبالغة في تقبيح حالِهم ﴿ يُدْعَوْنَ إلى كتاب الله ﴾ الذي أوتوا نصيباً منه وهو التوراة ، والإظهارُ في مقام الإضمار لإيجاب الإجابة ، وإضافتُه إلى الاسم الجليلِ لتشريفه وتأكيدِ وجوب المراجعةِ إليه ، والجملةُ استئنافٌ مبيّنٌ لمحل التعجيب مبنيّ على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل : ماذا يصنعون حتى ينظُرَ إليهم ؟ فقيل : يُدعون إلى كتاب الله تعالى ، وقيل : حال من الموصول ﴿ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مِدراسَهم فدعاهم إلى الإيمان فقال له نعيمُ بن عمرو ، والحارث بن زيد : على أيّ دين أنت ؟ قال عليه الصلاة والسلام : " على ملة إبراهيم " قالا : إن إبراهيمَ كان يهودياً فقال صلى الله عليه وسلم لهما : " إن بيننا وبينكم التوراةَ فهلُمّوا إليها " فأبيا . وقيل : نزلت في

الرجم وقد اختلفوا فيه وقيل : ﴿ كتاب الله ﴾ القرآنُ فإنهم قد علموا أنه كتابُ الله ولم يشكوا فيه ، وقرىء لِيُحكَم

(48/115)

على بناء المجهول فيكون الاختلافُ بينهم بأن أسلم بعضُهم كعبد اللَّه بن سلام وأضرابه وعاداهم الآخرون ﴿ ثُمَّ يتولى فَرِيقٌ مّنْهُمْ ﴾ استبعاد لتولّيهم بعد علمِهم بوجوب الرجوع إليه ﴿ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ إما حال من ﴿ فَرِيقٌ ﴾ لتخصصه بالصفة أي يتولون من المجلس وهم معرضون بقلوبهم ، أو اعتراضٌ أي وهم قوم ديدنُهم الإعراضُ عن الحق والإصرارُ على الباطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 20 ﴾

فائدة

قال السعدى فى معنى الآية :

يخبر تعالى عن حال أهل الكتاب الذين أنعم الله عليهم بكتابه ، فكان يجب أن يكونوا أقوم الناس به وأسرعهم انقيادا لأحكامه ، فأخبر الله عنهم أنهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب تولى فريق منهم وهم يعرضون ، تولوا بأبدانهم ، وأعرضوا بقلوبهم ، وهذا غاية الذم ، وفي ضمنها التحذير لنا أن نفعل كفعلهم ، فيصيبنا من الذم والعقاب ما أصابهم ، بل الواجب

على كل أحد إذا دعي إلى كتاب الله أن يسمع ويطيع وينقاد ، كما قال تعالى ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير السعدى صـ 126 ﴾

من فوائد العلامة الجصاص فى الآية :

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إلَى كِتَابِ اللَّهِ ﴾ الْآيَةَ .

(49/115)

رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ أَرَادَ الْيَهُودَ حِينَ دُعُوا إلَى التَّوْرَاةِ وَهِيَ كِتَابُ اللَّهِ وَسَائِرِ الْكُتُبِ الَّتِي فِيهَا الْبِشَارَةُ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَعَاهُمْ إلَى الْمُوَافَقَةِ عَلَى مَا فِي هَذِهِ الْكُتُبِ مِنْ صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ عَنْ ذَلِكَ لِعِلْمِهِمْ بِمَا فِيهِ مِنْ ذِكْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصِحَّةِ نُبُوَّتِهِ .

وَلَوْلَا أَنَّهُمْ عَلِمُوا ذَلِكَ لَمَا أَعْرَضُوا عِنْدَ الدُّعَاءِ إلَى مَا فِي كُتُبِهِمْ ، وَفَرِيقٌ مِنْهُمْ آمَنُوا " وَصَدَّقُوا لِعِلْمِهِمْ بِصِحَّةِ نُبُوَّتِهِ وَلِمَا عَرَفُوهُ مِنْ التَّوْرَاةِ وَكُتُبِ اللَّهِ مِنْ نَعْتِهِ وَصِفَتِهِ .

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْلَا أَنَّهُمْ كَانُوا عَالِمِينَ بِمَا ادَّعَاهُ مِمَّا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ نَعْتِهِ وَصِفَتِهِ وَصِحَّةِ نُبُوَّتِهِ لَمَا أَعْرَضُوا عَنْ ذَلِكَ بَلْ كَانُوا يُسَارِعُونَ إِلَى الْمُوَافَقَةِ عَلَى مَا فِي كُتُبِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنُوا بُطْلَانَ دَعْوَاهُ، فَلَمَّا أَعْرَضُوا، وَلَمْ يُجِيبُوا إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا عَالِمِينَ بِمَا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ ذَلِكَ.

(50/115)

وَهُوَ نَظِيرُ مَا تَحَدَّى اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الْعَرَبَ مِنْ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِ سُورَةٍ مِنْ الْقُرْآنِ فَأَعْرَضُوا عَنْ ذَلِكَ وَعَدَلُوا إِلَى الْقِتَالِ وَالْمُحَارَبَةِ، لِعِلْمِهِمْ بِالْعَجْزِ عَنْ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهَا؛ وَكَمَا دَعَاهُمْ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ لَوْ حَضَرُوا وَبَاهَلُوا لَأَضْرَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ الْوَادِيَ نَارًا، وَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَى أَهْلٍ، وَلَا وَلَدٍ ﴾.
وَهَذِهِ الْأُمُورُ كُلُّهَا مِنْ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ وَصِحَّةِ الرِّسَالَةِ.
وَرُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ أَنَّمَا أَرَادَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ ﴾ إِلَى الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ مَا فِيهِ يُوَافِقُ مَا فِي التَّوْرَاةِ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَالشَّرْعِ وَالصِّفَاتِ الَّتِي قَدْ تَقَدَّمَتْ بِهَا الْبِشَارَةُ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ.

وَالدُّعَاءُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَحْتَمِلُ مَعَانِيَ : جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ نُبُوَّةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَا بَيَّنَّا ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَمْرَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنَّ دِينَهُ الْإِسْلَامُ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ بَعْضَ أَحْكَامِ الشَّرْعِ مِنْ حَدٍّ أَوْ غَيْرِهِ ، كَمَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى بَعْضِ مَدَارِسِهِمْ ، فَسَأَلَهُمْ عَنْ حَدِّ الزَّانِي ، فَذَكَرُوا الْجَلْدَ وَالتَّحْمِيمَ وَكَتَمُوا الرَّجْمَ ، حَتَّى وَقَفَهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ بِحَضْرَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ ﴾ وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْوُجُوهُ مُحْتَمَلَةً لَمْ يَمْتَنِعْ أَنْ يَكُونَ الدُّعَاءُ قَدْ وَقَعَ إِلَى جَمِيعِ ذَلِكَ ؛ وَفِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ مَنْ دَعَا خَصْمَهُ إِلَى الْحُكْمِ لَزِمَتْهُ إجَابَتُهُ ؛ لِأَنَّهُ دَعَاهُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَنَظِيرُهُ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 2 صـ 287 . 288 ﴾

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

امتحناك بدعوة من سبق علمنا بأنهم لا يستجيبون ، فاصبر على ما أُمِرْتَ فيهم ، واعلم

سوء أحوالهم ، فإنهم أهل التولِّي عن الإجابة ، لأنهم فقدوا منا حسن التجلي بسابق الإرادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 229 ﴾

(52/115)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾

ونعرف أننا ساعة نسمع قول الحق : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ . فهنا همزة استفهام ، وهنا أداة نفي هي " لم " ، وهنا " تر " ومعناها أن يستخدم الإنسان آلة الإبصار وهي العين . فإذا ما قال الله لرسوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ . إن هذه دعوة لأمر واضح . لكن في بعض الأحيان تأتي ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ في حادث كان زمانه قبل بعثته صلى الله عليه وسلم فلم يره رسول الله كقول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾

[الفيل : 1] .

إن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير أصحاب الفيل ، إذن فساعة تسمع ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ إن كان حدثها من المعاصر ، فمن الممكن أن تكون رؤية ، والرؤية تؤدي إلى علم يقين ، لأنها رؤية لمشهود, وإن جاءت ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ في أمر قد حدث من قبل ، أو أمر لما يحدث بعد فهي تعني " ألم تعلم " ؛ لأن الرؤية سيدة الأدلة ، فكأن الله سبحانه وتعالى ساعة يقول لرسوله في حدث لم يشهده الرسول : ألم تر ؟ فهذا معناه : ألم تعلم ؟

(53/115)

وقد يقول قائل : ولماذا لم يأت بـ " تعلم " وجاء ب " تر " ؟ لأن سيادة الأدلة هو الدليل المرئي ، فكأن الله يريد أن يخبرنا بـ ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أن نأخذ المعلومة من الله على أنها مرئية ، وليكن ربك أوثق عندك من عينك ، إنك قد لا ترى بالفعل هذا الأمر الذي يخبرك به الله ، ولكن لأن القائل هو الله ، ولا توجد قدرة تُخرج ما يقوله الله على غير ما يقوله الله . لذلك فقد قلنا ساعة يعبر الله عن الأمر المستقبل الذي سيأتي بعد ، فإنه قد يعبر عنه بالماضي ، فالحق قد قال :

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

[النحل : 1] .

فهل ينسجم قوله : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ مع ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ ؟ إن الأمر الذي يخبرنا به الله قد أتى ، فكيف يمكن عدم استعجاله ؟ إن " أتى " معناها أن الأمر قد حصل قبل أن يتكلم . يجب علينا إذن أن نعرف أن الذي قال : " أتى " قادر على الإتيان به ، فكأنه أمر واقع ، إنها مسألة لا تحتاج إلى جدال ؛ لأنه لا توجد قوة تستطيع أن تنازع الله لتبرز أمرا أراده في غير مراده . فكأن قوله الحق : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ إن كانت تحكى عن حدث فات زمنه فالذي يأتي منها هو العلم ، لأنه إخبار الله ، وإن كانت تحكى عن حدث معاصر فالذي يأتي منه أيضا هو العلم ؛ لأنه صادر عن رؤية ومشاهدة .

وعندما يقول الحق : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ .

" وأوتوا " تلفتنا إلى قوم قد نزل إليهم منهج من أعلى . ولذلك يأتي في القرآن ذكر المنهج بـ " نزل " و " أنزل " ، وذلك حتى نشعر بعلو المكانة التي نزل منها المنهج . وما هو النصيب ؟ إننا نسمي النصيب " الحظ " ، أو خارج القسمة ، كأن يكون عندنا عشرون دينارا ، ونقسمها على أربعة فيكون لكل واحد خمسة ، هذه الخمسة الدنانير هي التي تسمى " نصيبا " أو " حظا " ، والنصيب : " حظ " أو " قسمة " يضاف لمن أخذه .

إذن ، فلماذا يقول الحق : ﴿ الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ إنها لفتة جميلة ، فالكتاب كله لم يبق لهم ، إنما الذي وصل وانتهى إليهم جزء بسيط من الكتاب ، فكأن هذه الكلمة تنبه الرسول والسامعين له أن يعذروا هؤلاء القوم حيث لم يصلهم من الكتاب إلا جزء يسير منه ، إن نصيبا من الكتاب فقط هو الذي وصلهم .

ويشرح الحق ذلك في آيات أخرى :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ ﴾

[المائدة : 13] .

إن الجزء المنسي من الكتاب لم يأخذه المعاصرون لرسول الله . وقلنا أيضا : إن الحق قد أوضح أن بعضهم كتم بعضا من الكتاب .

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

[البقرة : 146] .

وما دام هناك من كتم بعضا من الكتاب فمعنى ذلك كتمانه عن المعاصرين له ، وهناك أناس منهم مخدوعون ، فشيء من الكتاب قد نسي ، وبالتالي مسح من الذاكرة ، وهناك شيء

من الكتاب قد كتم، فصار معلوما عند البعض، وغير معلوم عند البعض الآخر، وحتى الذي لم يكتموه، جاء فيه القول الحكيم:

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: 78].

(55/115)

إذن فالكتاب الذي أنزل إليهم من الله قد تعرض لأكثر من عدوان منهم، ولم يبق إلا حظ من الكتاب، وهذا الحظ من الكتاب هو الذي يجادل القرآن به هؤلاء الناس، إن القرآن لا يجادلهم فيما تبدل عندهم بفعل أحبارهم ورهبانهم السابقين، ولكنه يجادلهم بالنصيب الذي أوتوه.

يقول الحق: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾. وعن أي كتاب لله تتحدث هذه الآية؟ هل تتحدث عن القرآن؟ لو كان الحديث عن القرآن فلا بد أنه حُكِّمَ في أمر بينهم وبين رسول الله، لكن الذين أوتوا نصيبا من الكتاب قد اختلفوا فيما بينهم، ولماذا يختلفون فيما بينهم

؟ السبب هو أيضا لون من البغي فيما بينهم .

وإذا كان الكتاب هو القرآن ، أليس القرآن مصدقا لما معهم ؟

إذن فعندما يدعون ليتم التصديق على ما جاء في كتبهم ، فالدعوة هنا لأن يسود حكم القرآن . وما معنى ﴿ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ ﴾ ، إن الداعي هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم المدعون ، وما دام الحق قد قال : ﴿ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ فهل كان خلافهم في النصيب الذي بين أيديهم أم النصيب المحذوف ؟ إنه خلاف بينهم في النصيب الذي بين أيديهم ، ليكون ذلك حجة على أنهم غير مأمونين حتى على ما وصل إليهم وما هو مكتوب عندهم . وعندما تكلم العلماء عن هذه المسألة أوردوا لذلك الأمر حادثة . لقد اختلفوا في أمر سيدنا إبراهيم وقالوا : إن سيدنا إبراهيم يهودي وقال بعضهم : إنه نصراني . وجاء القرآن حاسما :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران : 67] .

(56/115)

لماذا . . لأن كلمة يهودي ونصراني قد جاءت بعد إبراهيم ، وكان لا بد لهم أن يخرجوا من قلة الفطنة وأن يرتبوا الأحداث حسب زمنها ، إذن ففي إي أمر اختلفوا ؟ هل اختلفوا في أمر النبي محمد صلى الله عليه وسلم ؟ هل اختلفوا في حكم موجود عندهم في التوراة ؟ لقد كانت الدعوة موجهة إليهم في ماذا ؟ إنهم ﴿ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ وذلك يدل على أن كلمة :

﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾

[آل عمران : 19] .

هي حالة شائعة بينهم ، لماذا ؟ لأن العلماء حينما ذكروا الحادثة التي دعوا للحكم فيها بكتاب الله ، قال العلماء : إن اثنين من يهود خيبر – امرأة – خيبرية ورجل من خيبر ، قد زنيا ، وكان الاثنان من أشراف القوم ، ويريد الذي يحكمون في هذا الأمر بكتاب التوراة ألا يبرزوا حكم الله الذي جاء بالتوراة ، وهو الرجم ، فاحتالوا حيلة ، وهي أن يذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولماذا يذهبوا في هذه الجزئية إلى رسول الله عليه وسلم ؟ إننا نأخذ مجرد الذهاب إلى رسول الله ارتضاء لحكمه .

لكن لماذا لم يرتضوا من البداية بكل ما جاء به رسول الله ؟ لقد أرادوا أن يذهبوا لعلهم يجدون نفعا في مسألة يبغونها ، أما في غير ذلك فهم لا يذهبون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن مجرد ذهابهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطينا فكرة عنهم ، لقد كانوا

يريدون حكما مخففا غير الرجم . إن الزاني وهو من خيبر والخيبرية الزانية أرادا أن يستنقذا أنفسهما من حكم التوراة بالرجم ، إنهما من أشراف خيبر ، ولأن اليهود قد صنعوا لأنفسهم في ذلك الوقت سلطة زمنية ، فذهب الزاني والزانية ومعهما الأحبار الذين الذين يريدون أن يلووا حكم الله السابق نزوله في التوارة وهو الرجم .

(57/115)

وعندما دخلوا على رسول الله كان هناك واحد اسمه " النعمان بن أوفى " ، وواحد اسمه " بحرى بن عمرو " فقالوا : يا رسول اقض بين هؤلاء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه : أوَليس عندكم حكم ؟ وأضاف رسول الله ما معناه : أنا احتكم إلى التوراة وهي كتابكم ، فماذا قالوا : ؟قالوا : أنصفتنا .

وكان رسول الله قد بين لهم حكم الإسلام في الزنا بأنه الرجم ، وجيء بالجزء الباقي عندهم من التوراة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يتضمن الحكم الملزم دليلا على أن الله أطلعه على أشياء لم تكن في بال أحد . فدعا بقسم من التوراة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه : أيكم أعلم بالتوراة ؟ فقالوا شخص اسمه عبد الله بن صورية فأحضروه ، وأعطاه التوراة ، وقال : اقرأ مجلس عبد الله بن صورية يقرأ ، فلما مر على آية

الرجم وضع كفه عليها ليخفيها ، وقرأ غيرها وكان عبد الله بن سلام حاضرا ، فقال : يا رسول الله أما رأيته قد ستر بكفه آية وقرأ ما بعدها ؟ وزحزح ابن سلام كف الرجل ، وقرأ هو فإذا هي آيةُ الرجم .

هذه المسألة تعطينا أن الحكم في القرآن الكريم هو الحكم في التوراة في أمر الزنا ، وتعطينا أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفاض الله عليه من إلهاماته فجاء بالجزء من التوراة الذي يحمل هذا النص . وجاء بعد ذلك جندي من جنود الله هو عبد الله بن سلام وكان يهوديا قد أسلم ليظهر به رغبة القوم في التزييف والتزوير .

وإسلام عبد الله بن سلام له قصة عجيبة ، فبعد أن اختمر الإيمان في قلبه ، جاء إلى رسول الله قائلا : لقد شرح الله صدري إلى الإسلام ونطق بكلمة " لا إله إلا الله محمد رسول الله " ولكني أحب قبل أن أعلن إسلامي أن تحضر رؤساء اليهود لتسألهم رأيهم في شخصى ، لأن اليهود " قوم بهت " فيهم افتراء وفيهم الكذب وفيهم التضليل ، فلما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤساء اليهود عن رأيهم في عبد الله بن سلام قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا . . إلخ . وأفاضوا في صفات المدح والإطراء والتقدير . فقال عبد الله بن

سلام أمامهم : الآن أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فانقلب رؤساء اليهود ، وقالوا في عبد الله بن سلام : عكس ما قالوه أولا ، قالوا : إنه خبيثنا وابن خبيثنا . . إلخ. لقد غيروا المديح إلى ذم . فقال عبد الله بن سلام : يا رسول الله أما قلت لك : إنهم قوم بهت ؟ والله لقد أردت أن أعلمك برأيهم في قبل أن أسلم . ذلك هو عبد الله بن سلام الذي زحزح كف عبد الله بن صورية عن النص الذي فيه آية الرجم في التوراة ، وفي ذلك جاء القول الحق : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ إنهم الذين أعرض فريق منهم عن قبول الحق .

(59/115)

ما سبب هذا الإعراض ؟ أهو قضية عامة ؟ أو أنّ سبب هذا الإعراض هو السلطة الزمنية التي أراد اليهود أن يتخذوها لأنفسهم ؟ ومعنى السلطة الزمنية أن يجيء أشخاص فيأخذوا من قداسة الدين ما يفيض عليهم هم قداسة ، ويستمتعوا بهذه القداسة ثم يستخدموها في غير قضية الدين ، هذا هو معنى السلطة الزمنية . وقلنا سابقا : إن كل تحوير في منهج الله سببه البغي ، والمفروض أن أهل الكتاب من أصحاب التوراة كانوا يستفتحون على العرب ويقولون : سيأتي نبي من العرب نتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم ،

فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عرفوه سابقا في كتبهم كفروا به ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في مثل هذه القضية موضحا موقفهم من قضية الإيمان العليا :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾

[الرعد : 43].

فكأن من عنده علم بالكتاب كان مفروضا فيه أن يشهد لصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلا فلا يقول الله : ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ لن يقول الحق ذلك إلا إذا كان عند علماء أهل الكتاب ما يتفق مع ما جاء به الله في صدق رسوله صلى الله عليه وسلم في البلاغ عنه ، وكان السبب في محاولة بعض اليهود لإنكار رسالة رسول الله هو السلطة الزمنية ، وأرادوا أن ييسروا لأتباعهم أمور الدين .

إن كل دعي – أي مزيف – في مبدأ من المبادئ يحاول أن يأخذ لنفسه سلطة زمنية ، فيأتي إلى تكاليف ، الدين التي قد يكون فيها مشقة على النفس ، ويحاول أن يخفف من هذه التكاليف ، أو يأتي بدين فيه تخفيف مخل بالعبادات ، فإذا نظرنا إلى مسيلمة الكذاب نجده

قد خفف الصلاة حتى يُرغب في دينه من تشق عليه الصلاة ، وينضم إلى دين مسيلمة ، وحذف مسيلمة جزءا من الزكاة ، وهذا يعطي فرصة التحلل من تكاليف الدين ، ولذلك فالذي أفسد الأديان السابقة على الإسلام أن بعضا من رجال الدين فيها كلما رأوا قوما على دين فيه تيسيرات أخذوا من هذه التيسيرات ووضعوها في الدين ؛ لأن تكاليف الدين شاقة ولا يحمل إنسان نفسه عليها إلا من آمن بها إيمان صدق وإيمان حق ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في عمدة العبادات وهي الصلاة :

﴿ وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾

[البقرة : 45] .

ويقول في موقع آخر في القرآن الكريم عن الصلاة :

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾

[طه : 132] .

إن الحق عليم حكيم بمن خلق وهو الإنسان ، ويعلم أن الضعف قد يصيب روح الإنسان فلا يصطبر على الصلاة ، أو يراها تكليفا صعبا ، لكن الذي يقيم الصلاة ويحافظ عليها فهو الخاشع لربه .

ولذلك فإننا نجد أن كل منحرف يأتي ويحاول أن يخفف من تكاليف الدين ، ويحاول أن يحلل أشياء محرمة في الدين ، ولم نر منحرفا يزيد في الأشياء المحرمة . إن المنحرفين يريدون إنقاص الأمور الحرام . إذا سألنا هؤلاء المنحرفين : لماذا تفعلون ذلك ؟ فإننا نجد أنهم يفعلون ذلك لجذب الناس إلى أمور محرمة يحللها هؤلاء المنحرفون . ولذلك أراد أراد بعض اليهود أن يسهلوا على أتباعهم الدين ، وقال بعض من أحبارهم : لا تخافوا من أمر يوم القيامة . وجاء القول الحق يحكي عنهم وكأنهم حاولوا أن يفهموا الأمر بأن الله يحلل لهم أمورا , لا ، إن الله لم يحلل إلا الحلال ، ولم يحرم إلا الحرام . وإذا كان الحق قد قال :

﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

[التحريم : 2] .

فهذا القول الحكيم جاء في مناسبة محددة وينطبق فقط في مجال ما حلل الله فلا تحرمه ، أما ما حرم الله فلا تقربه ، لقد أرادوا أن يبيحوا للأتباع ارتكاب الآثام ، لأن النار لن تصيبهم إلا أيام معدودة ، وإذا دققنا التأمل في القول الحق الذي جاء على لسانهم ، فإننا نجد الآتي : إننا نعرف أن لكل حدث زمان ، ولكل حدث قوة يحدث عليها ، فمن ناحية الزمان . قال هؤلاء المزوّرون لأحكام الله عن يوم القيامة إنها أيام معدودة ، فلا خلود في النار ، وحتى لو كان العذاب شديدا فإنه أيام معدودة ، فالإنسان يستطيع أن يتحمل ، ومن ناحية قوة

الحدث أرادوا أن يخففوا منه ، فقالوا : إنه عذاب ليس بشديد إنما هو مجرد مس . إنهم يحاولون إغراء الناس لإفسادهم وقال هؤلاء الأحبار : نحن أبناء الله وأحباءه أرأيتم أحدا يعذب أبناءه وأحباءه ؟ لقد أعطى الله يعقوب النبوة ، ولا يمكن أن يعاقب ذريته أبدا ، إلا بمقدار تحلة القسم .

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾

(62/115)

[ص : 44] .

إن أيوب عليه السلام قد حلف أن يضرب امرأته إذا برئ من مرضه مائة سوط ، وأراد الله أن يحله في هذا القسم فأمره أن يأخذ حزمة من حشيش أو عشب فيها مائة عود ويضربها بها ضربة خفيفة ليبرّ في قسمه ، وكان ذلك رحمة من الله به وبزوجه التي قامت على رعايته وقت المرض ، وكان أيوب عبدا شاكراً لله ، كأن الضربة الواحدة هي مائة ضربة ، وهذا تحليل للقسم ، وقال بعض من بني إسرائيل : إن ذرية بني يعقوب لن تُعذب من الله إلا بمقدار تحلة القسم ، وكل ذلك ليزينوا للناس بقاءهم على هذا الدين الذي سوف تكون الآخرة فيه بعذابها مجرد مس من النار ، وأيام معدودة ، بادعاء أن بني يعقوب هم أبناء الله

وأحباؤه ، وأن الله قد أعطى وعداً ليعقوب بأنه لن يعذب أبناءه إلا بمقدار تحلة القسم ، وهذا بطبيعة الحال هو تزييف لدين الله ومنهجه لقد تولوا عن منهج الله ، وأعرضوا عنه بعصيان ، يوضح لنا هذا المعنى القول الكريم : ﴿ ذِلكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ. . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1381.1389 ﴾

(63/115)

قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ثم علل اجترائهم على الله تعالى فقال : ﴿ ذلك ﴾ أي الإعراض البعيد عن أفعال أهل الكرم المبعد من الله ﴿ بأنهم قالوا ﴾ كذباً على الله - كما تقدم بيانه في سورة البقرة ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً ﴾ ولما كان المقام هنا لتناهي اجترائهم على العظائم لاستهانتهم بالعذاب لاستقصارهم لمدته والتصريح بقتل الآمرين بالقسط عامة وبحبوط الأعمال ، وكان جمع القلة قد يستعار للكثرة أكدت إرادتهم حقيقة القلة بجمع آخر للقلة ، فقيل على

ما هو الأولى من وصف جمع القلة لما لا يعقل بجمع جبراً له : ﴿ معدودات ﴾ وتطاول الزمان وهم على هذا الباطل حتى آنسوا به واطمأنوا إليه لأنه ما كذب أحد بحق إلا عوقب بتصديقه بباطل ، وما ترك قوم سنة إلا أحيوا بدعة ، على أن كذبهم أيضاً جرهم إلى الاستهانة بعذاب الله الذي لا يستهان بشيء منه ولو قل .

ولما نسبوا ذلك إلى الكتاب فجعلوه ديناً قال : ﴿ وغرَّهم ﴾ قال الحرالي : من الغرور وهو إخفاء الخدعة في صورة النصيحة - انتهى ﴿ في دينهم ما كانوا ﴾ أي بما هيؤوا له وجبلوا عليه ﴿ يفترون ﴾ أي يتعمدون كذبة ، قال الحرالي : فتقابل التعجيبات في ردهم حق الله سبحانه وتعالى وسكونهم إلى باطلهم - انتهى . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 50 ﴾

وقال الفخر :

وجه النظم أنه تعالى لما قال في الآية الأولى ﴿ ثُمَّ يتولى فَرِيقٌ مّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ قال في هذه الآية : ذلك التولي والإعراض إنما حصل بسبب أنهم قالوا : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ، قال الجبائي : وفيها دلالة على بطلان قول من يقول : إن أهل النار يخرجون من

النار ، قال : لأنه لو صحّ ذلك في هذه الأمة لصح في سائر الأمم ، ولو ثبت ذلك في سائر الأمم لما كان المخبر بذلك كاذباً ، ولما استحق الذم ، فلما ذكر الله تعالى ذلك في معرض الذم علمنا أن القول بخروج أهل النار قول باطل .

وأقول : كان من حقه أن لا يذكر مثل هذا الكلام ، وذلك لأن مذهبه أن العفو حسن جائز من الله تعالى ، وإذا كان كذلك لم يلزم من حصول العفو في هذه الأمة حصوله في سائر الأمم .

سلمنا أنه يلزم ذلك ، لكن لم قلتم : إن القوم إنما استحقوا الذم على مجرد الإخبار بأن الفاسق يخرج من النار بل ههنا وجوه أُخر

الأول : لعلهم استوجبوا الذم على أنهم قطعوا بأن مدة عذاب الفاسق قصيرة قليلة ، فإنه روي أنهم كانوا يقولون : مدة عذابنا سبعة أيام ، ومنهم من قال : بل أربعون ليلة على قدر مدة عبادة العجل

والثاني : أنهم كانوا يتساهلون في أصول الدين ويقولون بتقدير وقوع الخطأ منا فإن عذابنا قليل وهذا خطأ ، لأن عندنا المخطىء في التوحيد والنبوّة والمعاد عذابه دائم ، لأنه كافر ، والكافر عذابه دائم

والثالث : أنهم لما قالوا ﴿ لَن تَمَسَّنَا النار إِلا أَيَّامًا معدودات ﴾ فقد استحقروا تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم واعتقدوا أنه لا تأثير له في تغليظ العقاب فكان ذلك تصريحاً بتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وذلك كفر والكافر المصر على كفره لا شك أن عذابه

مخلد ، وإذا كان الأمر على ما ذكرناه ثبت أن احتجاج الجبائي بهذه الآية ضعيف وتمام الكلام على سبيل الاستقصاء مذكور في سورة البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7صـ 190 ﴾

(65/115)

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

1 - [إن الدين عند الله الإسلام] الجملة معرفة الطرفين فتفيد الحصر أى لا دين يقبله الله الا الاسلام .

2 - [الذين اوتوا الكتاب] التعبير عن اليهود والنصارى بقوله (أوتوا الكتاب) لزيادة التشنيع والتقبيح عليهم ، فإن اختلافهم مع علمهم بالكتاب في غاية القبح والشناعة .

3 - [بآيات الله فأن الله] اظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وادخال الروعة في النفس .

4 - [أسلمت وجهي] اطلق الوجه واراد الكل فهو (مجاز مرسل) من إطلاق الجزء لارادة الكل ، اي استسلمت بنفسى وكليتي لحكم الله وقضائه .

5 - [فبشرهم بعذاب أليم] الأصل في البشارة ان تكون في الخير واستعمالها في الشر للتهكم ويسمى (الأسلوب التهكمى) حيث نزل الإنذار منزلة البشارة السارة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 193 ﴾

(66/115)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " ذَلِكَ " فيها وجهان :

أصحهما : أنها مبتدأ ، والجار بعده خبره ، أي : ذلك التوَلِّي بسبب هذه الأقوال الباطلةِ ، التي لا حقيقةَ لها .

والثاني : أن " ذَلِكَ " خبرُ مبتدأ محذوفٍ ، أي : الأمر ذلك ، وهو قول الزَّجَّاج وعلى هذا قوله : " بأَنَّهُمْ " متعلق بذلك المقدَّر - وهو الأمر ونحوه - .

وقال أبو البقاء : فعلى هذا يكون قوله " بأَنَّهُمْ " في موضع نَصْب على الحال بما في " ذَا " من معنى الإشارة ، أي : ذلك الأمر مستحقاً بقولهم ، ثم قال : " وهذا ضعيفٌ " .

قلت : بل لا يجوز ألبتة .

وجاء – هنا – " مَعْدُودَاتٍ " ، بصيغة الجمع – وفي البقرة " مَعْدُودَةً " ، تفنُّناً في البلاغة ، وذلك أن جمع التكسير – غير العاقل – يجوز أن يعامَل معاملةَ الواحدةِ المؤنثة تارةً ، ومعاملةَ جمع الإناث أخْرَى ، فيقال : هذه جبال راسيةٌ – وإن شئْت : راسياتٌ – ، وجمال ماشية ، وإن شئْت : ماشيات .

وخص الجمع بهذا الموضع ؛ لأنه مكان تشنيع عليهم بما فعلوا وقالوا : فأتى بلفظ الجمع مبالغةً في زجرهم ، وزجر من يعمل بعملهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 119.118 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِمْ ﴾ الغرور : الخِدَاع ، يقال منه : غرَّهُ ، يَغُرُّهُ ، غُرُوراً ، فهو غَارٌّ ، ومغرور .

والغَرُور : – بالفتح – مثال مبالغة كالضَّرُوب .

والغِرُّ : الصغير ، والغِرِّيرَة : الصغيرة ؛ لأنهما يُخ
عان ، والغِرَّة : مأخوذة من هذا ، قال : أخذه على غِرَّة ، أي : تغفُّل وخداعٍ ، والغُرَّة : بياض في الوجه ، يقال منه : وَجْهٌ أغَرٌّ ، ورجل أغَرّ وامرأة غَرّاء .

والجمع القياسي : غُرٌّ ، وغير القياسي غُرّانُ .

قال : [الطويل]

1377 - ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ . . . وَأَوْجُهُهُمْ عِنْدَ الْمَشَاهِدِ غُرَّانُ

(67/115)

والغرة من كل شيء أنفسه ، وفي الحديث : " وَجَعَلَ فِي الْجَنِينِ غُرَّةً ، عَبْداً أَوْ أَمَةً " .

قيل : الغُرَّة : الخِيار ، وقال أبو عمرو بن العلاء - في تفسير هذا الحديث - إنه لا يكون إلا الأبيض من الرقيق ، كأنه أخَذَه من الغُرَّة ، وهو البياض في الوَجْه .

قوله : ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ " ما " يجوز أن تكون مصدرية ، أو بمعنى " الذي " ، والعائد محذوف أي : الذي كانوا يفترونه .

قيل هو قولهم : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة : 18] .

وقيل : هو قولهم : نحن على الحق وأنت على الباطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 120 ﴾

قال الفخر :

اعلم أنهم اختلفوا في المراد بقوله ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ فقيل : هو قولهم ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة : 18] وقيل : هو قولهم ﴿ لَن تَمَسَّنَا النار إِلا أَيَّامًا معدودات ﴾

وقيل : غرهم قولهم : نحن على الحق وأنت على الباطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 190 ﴾

فائدة

قال الطبرى فى معنى الآية :

يعني جل ثناؤه بقوله : "بأنهم قالوا" ، بأنّ هؤلاء الذين دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم بالحق فيما نازعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما أبوا الإجابة إلى حكم التوراة وما فيها من الحق : من أجل قولهم : "لن تمسنا النارُ إلا أيامًا معدودات" وهي أربعون يومًا ، وهن الأيام التي عبدوا فيها العجل ثم يخرجنا منها ربنا ، اغترارًا منهم "بما كانوا يفترون" ، يعني : بما كانوا يختلقون من الأكاذيب والأباطيل ، في ادعائهم أنهم أبناء الله وأحِبّاؤه ، وأن الله قد وعد أباهم يعقوبَ أن لا يُدْخل أحَدًا من ولده النار إلا تَحِلَّةَ القسم .

فأكذبهم الله على ذلك كله من أقوالهم ، وأخبر نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أنهم هم أهل النار هم فيها خالدون ، دون المؤمنين بالله ورُسله وما جاءوا به من عنده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 292 ﴾

سؤالان

الأول : أيمكن للإنسان أن يختلق كذباً أو إفتراءاً وينسبه إلى الله ، ثمّ يتأثّر به هو ويعتوره الغرور إلى تلك الدرجة التي أشار إليها القرآن في الآيات السابقة بالنسبة لليهود ؟

ليس من العسير الردّ على هذا السؤال ، وذلك لأنّ قضية خداع النفس من القضايا التي يعترف بها علم النفس المعاصر . إنّ العقل الإنساني يسعى أحياناً إلى استغفال الضمير بأن يغيّر وجه الحقيقة في عين ضميره . كثيراً ما نشاهد أُناساً ملوّثين بالذنوب الكبيرة ، كالقتل والسرقة وأمثالها ، على الرغم من إدراكهم تماماً قبح تلك الأعمال يسعون لإظهار ضحاياهم بأنّهم كانوا يستحقّون ما أصابهم لكي يسبغوا هدوءاً كاذباً على ضمائرهم ، وكثيراً ما نرى المدمنين على المخدّرات يبرّرون فعالهم بأنّهم يستهدفون الفرار من مصائب الدنيا ومشاكلها .

ثمّ إنّ هذه الأكاذيب والإفتراءات عن تفوّقهم العنصري التي حاكتها الأجيال السابقة من أهل الكتاب وصلت بالتدريج إلى الأجيال التالية التي لم تكن تعرف الكثير عن هذا الموضوع.ولم تعن بالبحث عن الحقيقة.بصورة عقائد مسلّم بها .

السؤال الثانى : يمكن أن يقال إنّ الاعتقاد "بالعذاب لأيام معدودات" منتشر بيننا نحن المسلمين أيضاً ، لأنّنا نعتقد أنّ المسلمين لا يخلّدون في العذاب الإلهي ، إذ أنّ إيمانهم سوف ينجيهم أخيراً من العذاب .

ولكن ينبغي التوكيد هنا أنّنا لا يمكن أن نعتقد بأنّ المسلم المذنب والملوّث بأنواع الآثام يعذّب بضعة أيّام فقط ، بل أنّنا نعتقد أنّ عذاب هؤلاء يطول لسنوات وسنوات لا يعرف مداها إلاّ الله ، إلاّ أنّ عذابهم لا يكون أبدياً خالداً . وإذا وجد حقّاً بين المسلمين من يحسبون أنّهم بالاحتماء بالإسلام والإيمان والنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)

يجوز لهم أن يرتكبوا ما يشاؤون من الذنوب ، ثمّ لا يصيبهم من العقاب سوى بضعة أيّام من العذاب ، فإنّهم على خطأ كبير ويجهلون تعاليم الإسلام وروح تشريعاته .

ثمّ إنّنا لا نعترف بأيّ امتياز خاصّ للمسلمين ، بل نعتقد أنّ كلّ أُمّة اتّبعت نبيّها في زمانها ثمّ أذنبت مشمولة بهذا القانون أيضاً ، بغضّ النظر عن عنصرها . أمّا اليهود فيخصّون أنفسهم بهذا الامتياز دون غيرهم بزعم تفوّقهم العنصري . وقد ردّ عليهم القرآن زعمهم الكاذب هذا في الآية 18 من سورة المائدة : (بل أنتم بشر ممّن خلق) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الأمثل حـ 2 صـ 443 . 444 ﴾ . بتصرف يسير .

من فوائد العلامة الآلوسي في الآية

قال رحمه الله:

﴿ ذلك ﴾ أي المذكور من التولي والإعراض وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النار إلا أَيَّامًا معدودات ﴾ أي حاصل لهم بسبب هذا القول الذي رسخ اعتقادهم له وهونوا به الخطوب ولم يبالوا معه بارتكاب المعاصي والذنوب، والمراد بالأيام المعدودات أيام عبادتهم العجل، وجاء هنا ﴿ معدودات ﴾ بصيغة الجمع دون ما في البقرة (80) فإنه ﴿ مَّعْدُودَةً ﴾ بصيغة المفرد تفنناً في التعبير، وذلك لأن جمع التكسير لغير العاقل يجوز أن يعامل معاملة الواحدة المؤنثة تارة ومعاملة جمع الإناث أخرى فيقال: هذه جبال راسية، وإن شئت قلت راسيات، وجمال ماشية وإن شئت ماشيات، وخص الجمع هنا لما فيه من الدلالة على القلة كموصوفه وذلك أليق بمقام التعجيب والتشنيع ﴿ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم ﴾ أي أطمعهم في غير مطمع وخدعهم ﴿ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي افتراؤهم وكذبهم أو الذي كانوا يفترونه من قولهم: ﴿ لَن تَمَسَّنَا النار ﴾ الخ قاله مجاهد أو من قولهم: ﴿ نَحْنُ أَبْنَاء الله وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة: 18] قاله قتادة أو مما يشمل ذلك ونحوه من قولهم: "إن آباءنا الأنبياء يشفعون لنا وإن الله تعالى وعد يعقوب أن لا يعذب أبناءه إلا تحلة القسم" والظرف متعلق بما عنده أو بيفترون واعترضه الخطيب بأن ما

بعد الموصول لا يعمل فيما قبله ؛ وأجيب بالتوسع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 111 ﴾

(71/115)

وقال ابن عاشور :

وقوله ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ ﴾ الإشارة إلى توليهم وإعراضهم ، والباء للسببية : أي إنهم فعلوا ما فعلوا بسبب زعمهم أنهم في أمان من العذاب إلا أياما قليلة ، فانعدم اكتراثهم باتباع الحق ؛ لأن اعتقادهم النجاة من عذاب الله على كل حال جرأهم على ارتكاب مثل هذا الإعراض . وهذا الاعتقاد مع بطلانه مؤذن أيضا بسفالة همتهم الدينية ، فكانوا لا ينافسون في تزكية الأنفس . وعبر عن الاعتقاد بالقول دلالة على أن هذا الاعتقاد لا دليل عليه وأنه مفترى مدلس ، وهذه العقيدة عقيدة اليهود ، كما تقدم في البقرة .

وقوله ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي ما تقولوه على الدين وأدخلوه فيه ، فلذلك أتي بفي الدالة على الظرفية المجازية ، ومن جملة ما كانوا يفترونه قولهم ﴿ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴾ [البقرة : 80] ، وكانوا أيضا يزعمون أن الله وعد يعقوب ألا يعذب أبناءه .

وقد أخبر الله تعالى عن مفاسد هذا الغرور والافتراء بإيقاعها في الضلال الدائم ، لأن المخالفة إذا لم تكن عن غرور فالإقلاع عنها مرجو ، أما المغرور فلا يترقب منه إقلاع . وقد ابتلى المسلمون بغرور كثير في تفاريع دينهم وافتراءات من الموضوعات عادت على مقاصد الدين وقواعد الشريعة بالإبطال ، وتفصيل ذلك في غير هذا المجال . انتهى انتهى . ا هـ

﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ 66﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قوله جلّ ذكره : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ .

عاقبناهم في الدنيا بالاستدراج حتى حكموا لأنفسهم بالنجاة وتخفيف العقاب ، وسوف يعلمون تضاعف البلاء عليهم ، ويحسبون أنهم على شيء ألا أنهم هم الكاذبون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 1 صـ 229﴾

(72/115)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

لقد تولوا وهم معرضون عن حكم الله لقد ظنوا أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات . ولنا أن نعرف معنى "غرهم" ولنا أن نسأل ما الغرور ؟ إن الغرور هو الأطماع فيما لا يصح ولا يحصل ، فعندما تقول لواحد والعياذ بالله : "أنت مغرور" فأنت تقصد أنه يسلك سبيلا لا يوصله إلى الهدف المنشود . إذن فالغرور هو الإطماع فيما لا يصح ولا يحصل ، ولذلك يسمى الله الشيطان "الغرور" .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ * إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

[فاطر : 5-6] .

إنه الشيطان الذي يزين للناس بعض الأمور ويحث الخلق ليطمعوا في حدوثها ، وعندما تحدث فإن هذه الأمور لا صواب فيها ، فهي مما زينه الشيطان ، لذلك فحصيلتها لا تتناسب مع الطمع فيها . والحق سبحانه يقول عن الدنيا :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾

[الحديد : 20] .

ويقال عن الرجل الذي ليس له تجربة: إنه "غِرٌّ" فيأتي بأشياء بدون تجربة؛ فلا ينتفع منها ، ولا تصح. إذن، فكل مادة "الغرور" مأخوذة من إطماع فيما لا يصح ولا يحصل. لذلك سمى الله الشيطان "الغرور" لأنه يطمعنا نحن البشر بأشياء لا تصح ولا تحدث، ولهذا سوف يأتي الشيطان يوم القيامة ليتبرأ من الذين اتبعوه ويتهمهم بالبلاهة:

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

[إبراهيم: 22].

ما معنى ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ ؟ السلطان أي القوة التي تقنع الإنسان بعمل فعل ما، وهو إما أن يكون سلطان الحجة فيقنعك بفعل ما، فتفعله، وإما أن يكون سلطان القوة، فيرغمك أن تفعل، السلطان – إذن – نوعان: سلطان حجة، وسلطان قوة، والفرق بين سلطان الحجة و سلطان القوة القاهرة على الفعل، هو أن سلطان الحجة

يقنعك أن تفعل وأنت مقتنع ، أما سلطان القوة القاهرة فهو لا يُقنع الإنسان ، ولكنه يُرغم الإنسان على فعل ما ، ولذلك فالشيطان يعلن لأتباعه يوم القيامة : لم يكن لي سلطان عليكم ، لا حجة عندي لأقنعكم بعمل المعاصي ، ولا عندي قوة ترغمكم على الفعل ، لكنكم أنتم كنتم على حرف إتيان المعاصي ودعوتكم فاستجبتم لي .

ويضيف الشيطان مخاطبا أتباعه :

﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ ﴾

[إبراهيم : 22] .

(74/115)

أي أن الشيطان يؤكد أنه لن يفزع لأحد من الذين اتبعوه لينجده ، إن كلمة " يصرخ " تعني أن هناك مَنْ يفزع لأحد تلبية لنداء أو استغاثة . الشيطان إذن لن ينجد أحدا من عذاب الله ، ولن ينجد أحد الشيطان من عذاب الله ، وهكذا ذهب بعض من أهل الكتاب إلى الغرور في دين الله ، فافتروا أقوالا على الله ، لم تصدر عنه ، وصدقوا افتراءاتهم ، ويا ليت غرورهم لم يكن في الدين لأن الغرور في غير الدين تكون المصيبة فيه سهلة لكن الغرور في الدين هو المصيبة الكبرى ، لماذا ؟ لأن الغرور في أي أمر يخضع لقانون واضح ، وهو أن

ميعاد كل حدث موقوت بماهيته ، لكن الغرور في امر الدين مختلف لماذا ؟ لأن حدث الدين غير موقوت بماهية الزمان ، إنه مستمر ، لأن منهج قيم صدر من الحق إلى الخلق ، إن الغرور في أي جزئية من جزئيات الدنيا ، فإن فشلت فالفشل يقف عند هذه الجزئية وحدها ، ولا يتعدى الفشل إلى بقية الزمن ، لكن الغرور في الدين يجعل العمر كُله يضيع ، لأن الإنسان لم يتبع المنهج الحق بل يمتد الضياع والعذاب إلى العمر الثاني وهو الحياة في الآخرة يقول الحق :

﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

[آل عمران : 24] .

والإفتراء هو تعمد الكذب ، إن الحق سبحانه يوضح لهم المعنى فيقول : إن حصل ذلك منكم وأعرضتم عن حكم الله الذي دعيتم إليه في كتاب الله ، وعللتم ذلك بأن النار لن تمسكم إلا أياما معدودة ، وادعيتم كذبا أن الأيام المعدودات هي أيام عبادتكم للعجل ، وادعيتم أنكم أبناء الله وأحباءه ، إن ذلك كله غرور وافتراءات ، ويا ليتهم كانوا يعلمون صدق هذه الافتراءات ، لكنهم هم الذين قالوها ويعرفون أنها كذب ، فإذا جاز ذلك لهم في هذه الدنيا فكيف يكون موقفهم وحالهم عندما يجمعهم الله في يوم لا ريب فيه ؟ وفي هذا يقول الحق : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ . . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 1389 . 1392 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (25) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تسبب عن اجترائهم بالكذب على الله أن يسأل عن حالهم معه قال صارفاً القول إلى مظهر العظمة المقتضي للمجازاة والمناقشة : ﴿ فكيف ﴾ أي يكون حالهم ﴿ إذا جمعناهم ﴾ أي وقد رفعنا حجاب العظمة وشهرنا سيف العزة والسطوة .

ولما كان المقصود بالجمع الجزاء قال : ﴿ ليوم ﴾ ووصفُه بقوله : ﴿ لا ريب فيه ﴾ مشعر - كما قال الحرالي - بأنهم ليسوا على طمأنينة في باطلهم بمنزلة الذي لم يكن له أصل كتاب ، فهم في ريبهم يترددون إلى أن يأتي ذلك اليوم .

ولما كان الجزاء أمراً متحققاً لا بد منه أشار إليه بصيغة الماضي في قوله : ﴿ ووفيت ﴾ والبناء للمفعول للإفهام بسهولة ذلك عليه وإن كان يفوت الحصر وتأنيث الفعل للإشارة إلى دناءة النفوس وضعفها وقوله : ﴿ كل نفس ﴾ قال الحرالي : الفصل الموقع للجزاء مخصوص بوجود النفس التي دأبها أن تنفس فتريد وتختار وتحب وتكره ، فهي التي توفي ، فمن سلب الاختيار والإرادة والكراهة بتحقق الإسلام الذي تقدم ارتفع عنه التوفية ، إذ لا وجود

نفس له بما أسلم وجهه لله ، فلذلك اختص وعيد القرآن كله بالنفس في نفاستها بإرادتها وما تنشأ لها عليه من أحوالها وأفعالها ودعواها في ملكها ومُلكها ، فمتى نفست فتملكت ملكاً أو تشرفت مُلكاً خرجت عن إسلامها حتى ينالها سلب القهر منه وإلزام الذل عنه ، وبلمح من هذا المعنى اتصلت الآية التي بعدها بختم هذه الآية وناظرت رأس آية ذكر الإسلام ، فإنما هو مسلم لله وذو نفس متملك على الله حتى يسلبه الله في العقبى أو يذله في الدنيا ، فشمل هذا الوفاء لكل نفس أهل الكتاب وغيرهم ، وعم الوفاء لكل من يعمه الجمع ، كذلك خطاب القرآن يبدأ بخصوص فيختم بعموم ، ويبدأ بعموم فيثنيه تفصيل - انتهى .

(76/115)

ولما كان هذا الجزاء شاملاً للخير والشر قال : ﴿ ما ﴾ أي جزاء ما ﴿ كسبت ﴾ فأتى به مخففاً ليشمل المباشرة بكسب أو اكتساب ، وأنث الفعل مع جواز التذكير مراعاة للفظ كل إشارة إلى الإحاطة بالأفعال ولو كانت في غاية الحقارة ، وراعى معنى "كل" للوفاء بالمعنى مع موافقة الفواصل ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي لا يقع عليهم ظلم بزيادة ولا نقص ، ولا يتوقعونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 50 . 51 ﴾

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جمعناهم لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾

فالمعنى أنه تعالى لما حكى عنهم اغترارهم بما هم عليه من الجهل بيّن أنه سيجيء يوم يزول فيه ذلك الجهل ، ويكشف فيه ذلك الغرور فقال ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جمعناهم لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ ﴾ وفي الكلام حذف ، والتقدير : فكيف صورتهم وحالهم ويحذف الحال كثيراً مع كيف لدلالته عليها تقول : كنت أكرمه وهو لم يزرني ، فكيف لو زارني أي كيف حاله إذا زارني ، واعلم أن هذا الحذف يوجب مزيد البلاغة لما فيه من تحريك النفس على استحضار كل نوع من أنواع الكرامة في قول القائل : لو زارني وكل نوع من أنواع العذاب في هذه الآية .

أما قوله تعالى : ﴿ إِذَا جمعناهم لِيَوْمٍ ﴾ ولم يقل في يوم ، لأن المراد : لجزاء يوم أو لحساب يوم فحذف المضاف ودلّت اللام عليه ، قال الفرّاء : اللام لفعل مضمر إذا قلت : جمعوا ليوم الخميس ، كان المعنى جمعوا لفعل يوجد في يوم الخميس وإذا قلت : جمعوا في يوم الخميس لم تضمر فعلاً وأيضاً فمن المعلوم أن ذلك اليوم لا فائدة فيه إلا المجازاة وإظهار الفرق بين المثاب والمعاقب ، وقوله ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي لا شك فيه .

ثم قال : ﴿ وَوُفّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ فإن حملت ما كسبت على عمل العبد جعل

في الكلام حذف ، والتقدير : ووفيت كل نفس جزاء ما كسبت من ثواب أو عقاب ، وإن حملت ما كسبت على الثواب والعقاب استغنيت عن هذا الإضمار .

(77/115)

ثم قال : ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ فلا ينقص من ثواب الطاعات ، ولا يزاد على عقاب السيئات .

واعلم أن قوله ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ يستدل به القائلون بالوعيد ، ويستدل به أصحابنا القائلون بأن صاحب الكبيرة من أهل الصلاة لا يخلد في النار ، أما الأولون قالوا : لأن صاحب الكبيرة لا شك أنه مستحق العقاب بتلك الكبيرة ، والآية دلّت على أن كل نفس توفى عملها وما كسبت ، وذلك يقتضي وصول العقاب إلى صاحب الكبيرة .

وجوابنا : أن هذا من العمومات ، وقد تكلمنا في تمسك المعتزلة بالعمومات .

وأما أصحابنا فإنهم يقولون : إن المؤمن استحق ثواب الإيمان فلا بد وأن يوفي عليه ذلك الثواب لقوله ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ فإما أن يثاب في الجنة ثم ينقل إلى دار العقاب وذلك باطل بالإجماع ، وإما أن يقال : يعاقب بالنار ثم ينقل إلى دار الثواب أبداً مخلداً وهو المطلوب .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يقال : إن ثواب إيمانهم يحبط بعقاب معصيتهم ؟ .

قلنا : هذا باطل لأنا بينا أن القول بالمحابطة محال في سورة البقرة ، وأيضاً فإنا نعلم بالضرورة أن ثواب توحيد سبعين سنة أزيد من عقاب شرب جرعة من الخمر ، والمنازع فيه مكابر ، فبتقدير القول بصحة المحابطة يمتنع سقوط كل ثواب الإيمان بعقاب شرب جرعة من الخمر ، وكان يحيى بن معاذ رحمة الله عليه يقول : ثواب إيمان لحظة ، يسقط كفر سبعين سنة ، فثواب إيمان سبعين سنة كيف يعقل أن يحبط بعقاب ذنب لحظة ، ولا شك أنه كلام ظاهر .

انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 7 صـ 190﴾

وقال القرطبى :

خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأُمّتِه على جهة التوقيف والتعجُّب ، أي فكيف يكون حالهم أو كيف يصنعون إذا حشروا يوم القيامة واضمحلت عنهم تلك الزخارف التي ادعوها في الدنيا ، وجوزوا بما اكتسبوه من كفرهم واجترائهم وقبيح أعمالهم .

واللام في قوله "ليوم" بمعنى "في" ؛ قاله الكسائي .

وقال البصريون : المعنى لحساب يوم .

الطبريّ : لما يحدث في يوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 51 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ﴾ تفريع عن قوله : ﴿ وغرهم في دينهم ﴾ أي إذا كان ذلك غروراً فكيف حالهم أو جزاؤهم إذا جمعناهم ووفيناهم جزاءهم والاستفهام هنا مستعمل في التعجيب والتفظيع مجازاً .

"وكيف" هنا خبر لمحذوف دل على نوعه السياق ، و﴿ إذا ﴾ ظرف منتصب بالذي عمِلَ في مظروفه : وهو ما في كيف من معنى الاستفهام التفظيعي كقولك : كيف أنت إذا لقيت العدوّ ، وسيجيء زيادة بيان لمثل هذا التركيب عند قوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ في سورة [النساء : 41] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 66 ﴾

وقال الطبرى :

يعني بقوله جل ثناؤه : "فكيف إذا جمعناهم" ، فأيُّ حال يكون حالُ هؤلاء القوم الذين قالوا هذا القول ، وفعلوا ما فعلوا من إعراضهم عن كتاب الله ، واغترارهم بربهم ، وافترائهم الكذب ؟ وذلك من الله عز وجل وعيدٌ لهم شديد ، وتهديدٌ غليظٌ .

وإنما يعني بقوله : "فكيف إذا جمعناهم" الآية : فما أعظم ما يلقوْن من عقوبة الله وتنكيله بهم ، إذا جمعهم ليوم يُوفَّى كلّ عامل جزاءَ عمله على قدر استحقاقه ، غير مظلوم فيه ، لأنه

لا يعاقب فيه إلا على ما اجترم، ولا يؤاخذُ إلا بما عمل، يُجزَي المحسنُ بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا يخاف أحدٌ من خلقه منه يومئذ ظلمًا ولا هضمًا.

فإن قال قائل: وكيف قيل: "فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه"، ولم يقل: في يوم لا رَيب فيه؟

(79/115)

قيل: لمخالفة معنى "اللام" في هذا الموضع معنى "في". وذلك أنه لو كان مكان "اللام" "في"، لكان معنى الكلام: فكيف إذا جمعناهم في يوم القيامة، ماذا يكون لهم من العذاب والعقاب؟ وليس ذلك المعنى في دخول "اللام"، ولكن معناه مع "اللام": فكيف إذا جمعناهم لما يحدُث في يوم لا ريب فيه، ولما يكون في ذلك اليوم من فَصْل الله القضاءَ بين خلقه، ماذا لهم حينئذ من العقاب وأليم العذاب؟ فمع "اللام" في "ليوم لا ريب فيه" نيّة فِعْل، وخبرٌ مطلوب قد ترك ذكره، أجزأت دلالةُ دخول "اللام" في "اليوم" عليه، منه، وليس ذلك مع "في"، فلذلك اختيرت "اللام" فأدخلت في "اليوم"، دون "في".

وأما تأويل قوله: "لا ريب فيه"، فإنه: لا شك في مجيئه. وقد دللنا على أنه كذلك بالأدلة الكافية، مع ذكر من قال ذلك في تأويله فيما مضى، بما أغنى عن إعادته.

وعنى بقوله : "ووُفِّيت" ، ووَفَّى الله "كلُّ نفس ما كسبت" ، يعني : ما عملت من خير وشر "وهم لا يظلمون" ، يعني أنه لا يبخس المحسن جزاءَ إحسانه ، ولا يعاقب مسيئًا بغير جرمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبري حـ 6 صـ 294 . 295 ﴾

(80/115)

وقال الآلوسى :

﴿ فَكَيْفَ ﴾ استعظام وتهويل وهدم لما استندوا إليه ، وكلمة الاستفهام في موضع نصب على الحال والعامل فيه محذوف أي كيف تكون حالهم أو كيف يصنعون أو كيف يكونون ، وجوز أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف أي كيف حالهم ، وقولهم تعالى : ﴿ إِذَا جمعناهم ﴾ ظرف محض من غير تضمين شرط والعامل فيه العامل في (كيف) إن قدر أنها منصوبة بفعل مقدر ، وإن قلنا : إنها خبر لمبتدأ مضمر كان العامل في (إذا) ذلك المقدر أي كيف حالهم في وقت جمعهم ﴿ لِيَوْمٍ ﴾ أي في يوم أو لجزاء يوم . ﴿ لاَّ رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي في وقوعه ووقوع ما فيه ، روي أنه أول راية ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار راية اليهود فيفضحهم الله تعالى على رءوس الأشهاد ثم يأمر بهم إلى النار ﴿ وَوُفّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ أي ما عملت من خير أو شر ، والمراد جزاء ذلك إلا أنه أقيم المكسوب مقام جزائه إيذاناً

بكمال الاتصال والتلازم بينهما حتى كأنهما شيء واحد ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ شيئاً فلا ينقصون من ثوابهم ولا يزادون في عذابهم بل يعطي كل منهم مقدار ما كسبه ، والضمير راجع إلى كل إنسان المشعر به كل نفس ، وكل يجوز مراعاة معناه فيجمع ضميره ووجه التذكير ظاهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 3 صـ 111.112 ﴾

وقال ابن عطية :

قال تعالى خطاباً لمحمد وأمته على جهة التوقيف والتعجيب فكيف حال هؤلاء المغترين بالأباطيل إذا حشروا يوما القيامة واضمحلت تلك الزخارف التي ادعوها في الدنيا وجوزوا بما اكتسبوه من كفرهم وأعمالهم القبيحة ؟ قال النقاش : واليوم الوقت ، وكذلك قوله : ﴿ في ستة أيام ﴾ [الأعراف : 54] [السجدة : 4] إنما هي عبارة عن أوقات فإنها الأيام والليالي والصحيح في يوم القيامة أنه يوم لأن قبله ليلة وفيه شمس ، واللام في قوله تعالى : ﴿ ليوم ﴾ طالبة لمحذوف ، قال الطبري تقديره لما يحدث في يوم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿المحرر الوجيز حـ 1 صـ 416 ﴾

وقال العلامة أبو حيان :

﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ﴾ هذا تعجيب من حالهم ، واستعظام لعظم مقالتهم حين اختلفت مطامعهم ، وظهر كذب دعواهم ، إذ صاروا إلى عذاب ما لهم حيلة في دفعه ، كما قال تعالى : ﴿ تلك أمانيهم ﴾ هذا الكلام يقال عند التعظيم لحال الشيء ، فكيف إذا توفتهم الملائكة ؟ وقال الشاعر :

فكيف بنفس ، كلما قلت : أشرفت . . .

على البرء من دهماء ، هيض اندمالها

وقال :

فكيف ؟ وكلٌّ ليس يعدو حمامه . . .

وما لامرئ عما قضى الله مرحلُ

وانتصاب : فكيف ، قيل على الحال ، والتقدير : كيف يصنعون ؟ وقدره الحوفي : كيف يكون حالهم ؟ فإن أراد كان التامة كانت في موضع نصب على الحال ، وإن كانت الناقصة كانت في موضع نصب على خبر كان ، والأجود أن تكون في موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف يدل عليه المعنى : التقدير : كيف حالهم ؟ والعامل في : إذا ، ذلك الفعل الذي قدره ، والعامل في : كيف ، إذا كانت خبراً عن المبتدأ إن قلنا إن انتصابها انتصاب الظروف ، وإن قلنا إنها اسم غير ظرف ، فيكون العامل في : إذا ، المبتدأ الذي قدرناه ، أي : فكيف

حالهم في ذلك الوقت ؟ وهذا الاستفهام لا يحتاج إلى جواب ، وكذا أكثر استفهامات القرآن ، لأنها من عالم الشهادة ، وإنما استفهامه تعالى تقريع .

واللام ، تتعلق : بجمعناهم ، والمعنى : لقضاء يوم وجزائه كقوله :

﴿ إنك جامع الناس ليوم ﴾ قال النقاش : اليوم ، هنا الوقت ، وكذلك : ﴿ أياماً معدودات ﴾ و﴿ في يومين ﴾ و﴿ في أربعة أيام ﴾ إنما هي عبارة عن أوقات ، فإنما الأيام والليالي عندنا في الدنيا .

وقال ابن عطية : الصحيح في يوم القيامة أنه يوم ، لأنه قبله ليلة وفيه شمس .

ومعنى : ﴿ لا ريب فيه ﴾ أي في نفس الأمر ، أو عند المؤمن ، أو عند المخبر عنه ، أو حين يجمعهم فيه ، أو معناه : الأمر خمسة أقوال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 435 ﴾

(82/115)

فائدة

قال البيضاوى :

﴿ وَوُفّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ جزاء ما كسبت . وفيه دليل على أن العبادة لا تحبط

وأن المؤمن لا يخلد في النار ، لأن توفية إيمانه وعمله لا تكون في النار ولا قبل دخولها ، فإذن هي بعد الخلاص منها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 22 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

هذه كلمة تعجب لما أخبر به عن تعظيم الأمر ، وتفخيم الشأن عند بهتة عقولهم ودهشة أسرارهم ، وانقطاع دواعيهم ، وانخلاع قلوبهم من مكامنها ، وتراقيها إلى تراقيهم ، ثم ما يلقونه من الحساب والعتاب ، والعذاب والعقاب ، وعدم الإكرام والإيجاب ، وما في هذا الباب .

وقيامةُ الكفار يومَ الحشر ، وقيامة الأحباب في الوقت ، ولِشَرْحِ هذا تفسير طويل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 230 ﴾

موعظة

قال فى روح البيان :

الواجب على من كان مؤمنا وليس من أهل البدع إن يحمد الله على ما هداه وجعله مسلما من الأمة الشريفة .

ولذا قيل من علامات سوء العاقبة أن لا يشكر العبد على ما هدى به من الإيمان والتوحيد .

وأهل الغرور فى الدنيا مخدوع بهم فى الآخرة فليس لهم عناية رحمانية وإنما يقبل رجاء

العبد إذا قارنه العمل والكاملون بعد أن بالغوا فى تزكية النفس ما زالوا يخافون من سوء العاقبة ويرجون رحمة الله فكيف بنا ونحن متورطون فى آبار الأوزار لا توبة لنا ولا استغفار غير العناد والإصرار

قال الإمام الهمام محمد الغزالى رحمه الله فى منهاج العابدين مقدمات التوبة ثلاث .

أحدها ذكر غاية قبح الذنوب .

والثانية ذكر غاية عقوبة الله تعالى وأليم سخطه وغضبه الذى لا طاقة لك به .

والثالثة ذكر ضعفك وقلة حيلتك فإن من لا يحتمل حر الشمس ولطمة شرطى وقرص نملة كيف يحتمل حر نار جهنم وضرب مقامع الزبانية ولسع حيات كأعناق البخت وعقارب كالبغال خلقت من النار فى دار الغضب والبوار نعوذ بالله من سخطه وعذابه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿روح البيان حـ 2 صـ 22. 23﴾

(83/115)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ

زُيِّنَ لِلنَّاسِ المزين هو اللَّه سبحانه وتعالى «1» للابتلاء، كقوله: (إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ) ويدل عليه قراءة مجاهد: زين للناس، على تسمية الفاعل. وعن الحسن: الشيطان.

واللَّه زينها لهم، لأنا لا نعلم أحداً أذم لها من خالقها حُبُّ الشَّهَواتِ جعل الأعيان التي ذكرها شهوات «2» مبالغة في كونها مشتهاة محروصاً على الاستمتاع بها. والوجه أن يقصد تخسيسها فيسميها شهوات، لأن الشهوة مسترذلة عند الحكماء مذموم من اتبعها شاهد على نفسه بالهيمية، وقال: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ) ثم جاء بالتفسير، ليقرر أوّلا في النفوس أن المزين لهم حبه ما هو إلا شهوات لا غير، ثم يفسره بهذه الأجناس، فيكون أقوى لتخسيسها، وأدلّ على ذم من يستعظمها ويتهالك عليها ويرجح طلبها على طلب ما عند اللَّه. والقنطار: المال الكثير. قيل: ملء مسك ثور. وعن سعيد بن جبير: مائة ألف دينار. ولقد جاء الإسلام يوم جاء وبمكة مائة رجل قد قنطروا.

---

(1). قال محمود: «المزين هو اللَّه تعالى... الخ» قال أحمد: التزيين للشهوات يطلق ويراد به خلق حبها في القلوب، وهو بهذا المعنى مضاف إلى اللَّه تعالى حقيقة، لأنه لا خالق إلا هو خالق كل شيء، من جوهر، ومن عرض قائم بالجوهر، حب أو غيره. محمود في الشرع أولا. ويطلق التزيين ويراد به الحض على تعاطى الشهوات والأمر بها، فهو

بهذا الاعتبار لا يضاف إلى اللَّه تعالى منه إلا الحض على بعض الشهوات المنصوص عليها شرعا كالنكاح المقترن بقصد التناسل واتباع السنة فيه وما يجرى مجراه. وأما الشهوات المحظورة فتزيينها بهذا المعنى الثاني مضاف إلى الشيطان، تنزيلا لوسوسته وتحسينه منزلة الأمر بها والحض على تعاطيها. وكلام الحسن رضى اللَّه عنه محمول على التزيين بالمعنى الثاني لا بالمعنى الأول، فانه يحاشى أن ينسب خلق اللَّه إلى غير اللَّه. وإنما الزمخشري كثيراً ما يورد أمثال هذه العبارة الملتبسة تنزيلا لها على قواعد القدرية الفاسدة، فتفطن لها وبريء قائلها من السلف الصالح عما يزعم الزمخشري النقل عنه، واللَّه الموفق.

(2). (عاد كلامه) قال: «جعل الأعيان التي ذكرها شهوات... الخ» قال أحمد: يريد إلحاقها بباب: رجل صوم وفطر، مما يوضع فيه المعنى موضع الاسم مبالغة.

(84/115)

و ﴿ المقنطرة ﴾ مبنية من لفظ القنطار للتوكيد كقولهم: ألف مؤلفة، وبدرة مبدرة.

و ﴿ المسومة ﴾ المعلمة، من السومة وهي العلامة.

أو المطهمة أو المرعية من أسام الدابة وسوّمها ﴿ والانعام ﴾ الأزواج الثمانية ﴿ ذلك ﴾ المذكور ﴿ مَتَاعُ الحياة ﴾.

﴿ لِلَّذِينَ اتقوا عِندَ رَبِّهِمْ جنات ﴾ كلام مستأنف فيه دلالة على بيان ما هو خير من ذلكم ، كما تقول : هل أدلك على رجل عالم ؟

عندي رجل صفته كيت وكيت .

ويجوز أن يتعلق اللام بخير .

واختص المتقين ، لأنهم هم المنتفعون به .

وترتفع ﴿ جنات ﴾ على : هو جنات .

وتنصره قراءة من قرأ «جنات» بالجرّ على البدل من خير ﴿ والله بَصِيرٌ بالعباد ﴾ يثيب ويعاقب على الاستحقاق ، أو بصير بالذين اتقوا وبأحوالهم ، فلذلك أعدّ لهم الجنات .

﴿ الذين يَقُولُونَ ﴾ نصب على المدح ، أو رفع .

ويجوز الجرّ صفة للمتقين أو للعباد .

والواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كما لهم في كل واحدة منها .

وقد مرّ الكلام في ذلك .

وخص الأسحار لأنهم كانوا يقدّمون قيام الليل فيحسن طلب الحاجة بعده ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر : 10] وعن الحسن : كانوا يصلون في أوّل الليل حتى إذا كان السحر أخذوا في الدعاء والاستغفار ، هذا نهارهم ، وهذا ليلهم .

شبهت دلالته على وحدانيته بأفعاله الخاصة التي لا يقدر عليها غيره ، وبما أوحى من آياته

الناطقة بالتوحيد كسورة الإخلاص وآية الكرسي وغيرهما بشهادة الشاهد في البيان والكشف، وكذلك إقرار الملائكة وأولي العلم بذلك واحتجاجهم عليه ﴿ قَائِمًا بالقسط ﴾ مقيماً للعدل فيما يقسم من الأرزاق والآجال، ويثيب ويعاقب، وما يأمر به عباده من إنصاف بعضهم لبعض والعمل على السوية فيما بينهم.

وانتصابه على أنه حال مؤكدة منه كقوله: ﴿ وَهُوَ الحق مُصَدِّقًا ﴾ [البقرة: 91].

فإن قلت: لم جاز إفراده بنصب الحال دون المعطوفين عليه؟

ولو قلت جاءني زيد وعمرو راكباً لم يجز؟

قلت: إنما جاز هذا لعدم الإلباس كما جاز في قوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ [الأنبياء: 72] إن انتصب نافلة حالا عن يعقوب.

(85/115)

عن يعقوب. ولو قلت: جاءني زيد وهند راكباً جاز لتميزه بالذكورة، أو على المدح. فإن قلت: أليس من حق المنتصب على المدح أن يكون معرفة كقولك: الحمد للّه الحميد. "إنا معشر الأنبياء لا نورث" "1". إنا بنى نهشل لا ندعى لأب؟ قلت: قد جاء نكرة كما جاء معرفة. وأنشد سيبويه فيما جاء منه نكرة قول الهذلي:

وَيَأْوِى إِلَى نِسْوَةٍ عُطْلٍ وَشُعْثاً مَرَاضِيعَ مِثْلَ السَّعَالِى "2"

فإن قلت : هل يجوز أن يكون صفة للمنفي كأنه قيل : لا إله قائماً بالقسط إلا هو ؟ قلت : لا يبعد ، فقد رأيناهم يتسعون في الفصل بين الصفة والموصوف . فإن قلت : قد جعلته حالا من فاعل شهد ، فهل يصح أن ينتصب حالا عن "هو" في : (لا إِلهَ إِلَّا هُوَ) ؟ قلت : نعم ، لأنها حال مؤكدة والحال المؤكدة لا تستدعى أن يكون في الجملة التي هي زيادة في فائدتها عامل فيها ، كقولك : أنا عبد اللَّه شجاعاً . وكذلك لو قلت : لا رجل إلا عبد اللَّه شجاعاً . وهو أوجه من انتصابه عن فاعل شهد ، وكذلك انتصابه على المدح. فإن قلت : هل دخل قيامه بالقسط في حكم شهادة اللَّه والملائكة وأولى العلم كما دخلت الوحدانية ؟ قلت : نعم إذا جعلته حالا من هو ، أو نصباً على المدح منه ، أو صفة للمنفي ، كأنه قيل : شهد اللَّه والملائكة وأولو العلم أنه لا إله إلا هو ، وأنه قائم بالقسط .

وقرأ عبد اللَّه : القائم بالقسط ، على أنه بدل من هو ، أو خبر مبتدإ محذوف . وقرأ أبو حنيفة :

قيما بالقسط الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ صفتان مقرّرتان لما وصف به ذاته من الوحدانية والعدل ، يعنى أنه العزيز الذي لا يغالبه إله آخر ، الحكيم الذي لا يعدل عن العدل في أفعاله . فإن قلت : ما المراد بأولى العلم الذين عظمهم هذا التعظيم حيث جمعهم معه ومع الملائكة في الشهادة على وحدانيته وعدله ؟ قلت : هم الذين يثبتون وحدانيته وعدله بالحجج الساطعة

والبراهين القاطعة وهم علماء العدل "3" والتوحيد . وقرئ (أنه) بالفتح ، و(إِنَّ الدِّينَ) بالكسر على أنّ الفعل واقع على أنه

---

(1) . أخرجه أحمد ، حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة مرفوعا بهذا . ورواه النسائي في الكبرى ، من رواية ابن عيينة عن الزهري عن مالك بن أوس بن الحدثان ، قال : قال عمر لعبد الرحمن وسعد وعثمان وطلحة والزبير "أنشدكم باللَّه الذي قامت له السموات والأرض ، أسمعتم النبي صلى اللَّه عليه وسلم يقول - فذكره ، وفيه قالوا : اللهم نعم" وأخرجه في الكنى في ترجمة أبى إدريس تلميذ أبى سليمان من رواية عن عبد الملك بن عمر عن أبى هريرة مثله . وأصله متفق عليه من حديث عائشة بلفظ "لا نورث ما تركنا صدقة"

(2) . للهذلى يصف رجلا يصيد ويرجع إلى زوجته وبناته عطل عاريات من الحلي والثياب . وشعثا نصب على الذم ، أى وأذم شعثا أى مغبرات الوجوه من الجوع . والعطل : جمع عاطلة . والشعث . جمع شعثاء ، كسود وسوداء .

ومراضيع : جمع مرضاع قياسا ، أو مرضع سماعا ، أى ترضع أولادها مثل السعالى جمع سعلاة وهي أنثى الشياطين ، أى كريهات المنظر مثل الأغوال . وهي أقبح شيء عند العرب .

(3) . قوله "والبراهين القاطعة وهم علماء العدل" تلميح بالمعتزلة حيث سموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، لكن الانصاف التعميم حتى يشمل أهل السنة والجماعة . (ع)

(86/115)

بمعنى شهد اللَّه على أنه ، أو بأنه . وقوله إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى . فإن قلت : ما فائدة هذا التوكيد ؟ قلت : فائدته أن قوله : (لا إِلهَ إِلَّا هُوَ) توحيد ، وقوله : (قائِماً بِالْقِسْطِ) تعديل ، فإذا أردفه قوله : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ) فقد آذن أن الإسلام هو العدل "1" والتوحيد ، وهو الدين عند اللَّه ، وما عداه فليس عنده في شيء من الدين . وفيه أن من ذهب إلى تشبيه أو ما يؤدّى إليه كإجازة الرؤية أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الجور ، لم يكن على دين اللَّه الذي هو الإسلام ، وهذا بين جلى كما ترى . وقرئا مفتوحين ، على أن الثاني "2" بدل من الأوّل ، كأنه قيل : شهد اللَّه أن الدين عند اللَّه الإسلام ، والبدل هو المبدل منه في المعنى ، فكان بيانا صريحاً ، لأن دين اللَّه هو التوحيد والعدل . وقرئ الأوّل بالكسر والثاني بالفتح ، على أن الفعل واقع على إنّ "3" ، وما بينهما اعتراض مؤكد . وهذا أيضا شاهد على أن دين الإسلام هو العدل والتوحيد ، فترى القراءات كلها متعاضدة على ذلك . وقرأ عبد اللَّه : أن لا إله إلا هو .

وقرأ أبيّ : إن الدين عند اللَّه للإسلام ، وهي مقوية لقراءة من فتح الأولى وكسر الثانية .

وقرئ : شهداء للَّه ، بالنصب على أنه حال من المذكورين قبله ، وبالرفع على هم شهداء اللَّه . فإن قلت : فعلام عطف على هذه القراءة (وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ) ؟

قلت : على الضمير في شهداء ، وجاز لوقوع الفاصل بينهما . فإن قلت : لم كرر قوله : (لا إِلهَ إِلَّا هُوَ) ؟ "4" قلت : ذكره أوّلا للدلالة على اختصاصه بالوحدانية ، وأنه لا إله إلا تلك الذات

---

(1) . قوله "فقد آذن أن الإسلام هو العدل" تعسف لا يقتضيه النظم الكريم ، لكن دعى إليه التعصب . وقوله "وفيه أن من ذهب" الخ تورك على أهل السنة مبنى على ذلك ، وتحقيقه في علم التوحيد . وبالجملة فالعدل والتوحيد لم ينحصرا في مذهب المعتزلة . (ع)

(2) . قوله "وقرئا مفتوحتين على أن الثاني" الضمير عائد إلى قوله تعالى : (أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ) وقوله : (إِنَّ الدِّينَ) اه . (ع) [. . . . .]

(3) . قوله "واقع على إن" أى على إن الدين . . . الخ . (ع)

(4) . قال محمود رحمه اللَّه : "إن قلت ما فائدة تكرار لا إله إلا هو . . . الخ" ؟ قال أحمد رحمه اللَّه : وهذا التكرار لما قدمته في نظيره مما صدر الكلام به إذا طال عهده . وذلك أن الكلام مصدر بالتوحيد ، ثم أعقب التوحيد تعداد الشاهدين به ، ثم قوله : (قائِماً بِالْقِسْطِ) وهو التنزيه ، فطال الكلام بذلك ، فجدد التوحيد تلو التنزيه ليلي قوله : (إِنَّ

الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) ولولا هذا التجديد لكان التوحيد المتقدم كالمنقطع في الفهم مما أريد إيصاله به والله أعلم. قال: "وفيه أن من ذهب إلى تشبيه . . . الخ". قال أحمد: هذا تعريض بخروج أهل السنة من ربقة الإسلام بل تصريح، وما ينقم منهم إلا أن صدقوا وعد الله عباده المكرمين على لسان نبيهم الكريم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم بأنهم يرون ربهم كالقمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته، ولأنهم وحدوا الله حق توحيده فشهدوا أن لا اله إلا هو ولا خالق لهم ولأفعالهم إلا هو، واقتصروا على أن نسبوا لأنفسهم قدرة تقارن فعلهم لا خلق لها ولا تأثير غير التمييز بين أفعالهم الاختيارية والاضطرارية، وتلك المعبر عنها شرعا بالكسب في مثل قوله تعالى: (فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) هذا إيمان القوم وتوحيدهم، لا كقوم يغيرون في وجه النصوص فيجحدون الرؤية التي يظهر أن جحدهم لها سبب في حرمانهم إياها. ويجعلون أنفسهم الخسيسة شريكة لله في مخلوقاته، فيزعمون أنهم يخلقون لأنفسهم ما شاءوا من الأفعال على خلاف مشيئة ربهم محادة ومعاندة لله في ملكه، ثم بعد ذلك يتسترون بتسمية أنفسهم أهل العدل والتوحيد، والله أعلم بمن اتقى. ولجبر خير من إشراك، إن كان أهل السنة مجبرة فأنا أول المجبرين.

ولو نظرت أيها الزمخشري بعين الانصاف إلى جهالة القدرية وضلالها، لانبعثت إلى حدائق السنة وظلالها، ولخرجت عن مزالق البدع ومزالها، ولكن كره الله انبعاثهم، ولعلمت أي الفريقين أحق بالأمن وأولى بالدخول في أولى العلم المقرونين في التوحيد بالملائكة المشرفين

بعطفهم على اسم اللَّه عز وجل . اللهم ألهمنا على اقتفاء السنة شكرك . ولا تؤمنا مكرك إنه لا يأمن من مكر اللَّه إلا القوم الخاسرون ، فليس ينجى من الخوف إلا الخوف . واللَّه ولى التوفيق .

(87/115)

المتميزة ، ثم ذكره ثانيا بعد ما قرن بإثبات الوحدانية إثبات العدل ، للدلالة على اختصاصه بالأمرين ، كأنه قال : لا إله إلا هذا الموصوف بالصفتين ، ولذلك قرن به قوله : (الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) لتضمنهما معنى الوحدانية والعدل الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ أهل الكتاب من اليهود والنصارى .

واختلافهم أنهم تركوا الإسلام وهو التوحيد والعدل "1" مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ أنه الحق الذي لا محيد عنه ، فثلثت النصارى ، وقالت اليهود عزير ابن اللَّه ، وقالوا : كنا أحق بأن تكون النبوّة فينا من قريش لأنهم أمّيون ونحن أهل كتاب ، وهذا تجويز للَّه بَغْياً بَيْنَهُمْ أى ما كان ذلك الاختلاف وتظاهر هؤلاء بمذهب وهؤلاء بمذهب إلا حسداً بينهم وطلبا منهم للرئاسة وحظوظ الدنيا ، واستتباع كل فريق ناسا يطؤن أعقابهم ، لا شبهة في الإسلام .

وقيل : هو اختلافهم في نبوّة محمد صلى اللَّه عليه وسلم ، حيث آمن به بعض وكفر به

بعض . وقيل : هو اختلافهم في الإيمان بالأنبياء ، فمنهم من آمن بموسى ، ومنهم من آمن بعيسى . وقيل هم اليهود ، واختلافهم أن موسى عليه السلام حين احتضر استودع التوراة سبعين حبراً من بنى إسرائيل ، وجعلهم أمناء عليها ، واستخلف يوشع ، فلما مضى قرن بعد قرن واختلف أبناء السبعين بعد ما جاءهم علم التوراة بغيا بينهم وتحاسداً على حظوظ الدنيا والرياسة . وقيل : هم النصارى واختلافهم في أمر عيسى بعد ما جاءهم العلم أنه عبد اللَّه ورسوله

[سورة آل عمران (3) : آية 20]

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (20)

فَإِنْ حَاجُّوكَ فإن جادلوك في الدين فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ أى أخلصت نفسي وجملتي

---

(1) . قوله "تركوا الإسلام وهو التوحيد والعدل" مبنى على ما قاله آنفا . (ع)

للَّه وحده لم أجعل فيها لغيره شركا بأن أعبده وأدعوه إلها معه يعنى أن ديني التوحيد وهو الدين القديم الذي ثبتت عندكم صحته كما ثبتت عندي ، وما جئت بشيء بديع حتى

تجادلوني فيه. ونحوه (قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً) فهو دفع للمحاجة بأن ما هو عليه ومن معه من المؤمنين هو حق اليقين الذي لا لبس فيه فما معنى المحاجة فيه؟ وَمَنِ اتَّبَعَنِ عطف على التاء في أسلمت وحسن للفاصل. ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع فيكون مفعولا معه وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ من اليهود والنصارى وَالْأُمِّيِّينَ والذين لا كتاب لهم من مشركي العرب أَأَسْلَمْتُمْ يعنى أنه قد أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام ويقتضى حصوله لا محالة فهل أسلمتم أم أنتم بعد على كفركم؟ وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة ولم تبق من طرق البيان والكشف طريقا إلا سلكته: هل فهمتها لا أم لك، ومنه قوله عزّ وعلا (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) بعد ما ذكر الصوارف عن الخمر والميسر. وفي هذا الاستفهام استقصار "1" وتعيير بالمعاندة وقلة الإنصاف، لأن المنصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف إذعانه للحق، وللمعاندة بعد تجلى الحجة ما يضرب أسداداً بينه وبين الإذعان "2"، وكذلك في: هل فهمتها؟ توبيخ بالبلادة وكلة القريحة. وفي: (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) بالتقاعد عن الانتهاء والحرص الشديد على تعاطى المنهي عنه فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا فقد نفعوا أنفسهم حيث خرجوا من الضلال إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور وَإِنْ تَوَلَّوْا لم يضروك فإنك رسول منبه عليك أن تبلغ الرسالة وتنبه على طريق الهدى.

[سورة آل عمران (3): الآيات 21 إلى 22]

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (21) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (22)

قرأ الحسن: يقتلون النبيين. وقرأ حمزة: ويقاتلون الذين يأمرون. وقرأ عبد اللَّه: وقاتلوا وقرأ أبىّ. يقتلون النبيين، والذين يأمرون. وهم أهل الكتاب. قتل أولوهم الأنبياء وقتلوا أتباعهم وهم راضون بما فعلوا، وكانوا حول قتل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم والمؤمنين لولا عصمة اللَّه. وعن أبى عبيدة بن الجراح: قلت يا رسول اللَّه، أى الناس أشدّ عذابا يوم القيامة؟ قال:

"رجل قتل نبيا أو رجلا أمر بمعروف ونهى عن منكر" ثم قرأها ثم قال: "يا أبا عبيدة، قتلت

---

(1). قوله "وفي هذا الاستفهام استقصار" أى عد المخاطب قاصراً. (ع)

(2). قوله "يضرب أسداد بينه وبين الإذعان" لعله أسدادا، أى حجبا. (ع)

بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة واثنا عشر رجلا من عباد بنى إسرائيل فأمروا قتلتهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعا من آخر النهار "1"" فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ لأنّ لهم اللعنة والخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة. فإن قلت: لم دخلت الفاء في خبر إن؟ قلت: لتضمن اسمها معنى الجزاء، كأنه قيل: الذين يكفرون فبشرهم بمعنى من يكفر فبشرهم، و"إنّ" لا تغير معنى الابتداء "فكأنّ دخولها كلا دخول، ولو كان مكانها "ليت" أو "لعل" لامتنع إدخال الفاء لتغير معنى الابتداء.

[سورة آل عمران (3): الآيات 23 إلى 25]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلى كِتابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (24) فَكَيْفَ إِذا جَمَعْناهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (25)

أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يريد أحبار اليهود، وأنهم حصلوا نصيبا وافراً من التوراة.

و"من" إما للتبعيض وإما للبيان، أو حصلوا من جنس الكتب المنزلة أو من اللوح التوراة وهي نصيب عظيم يُدْعَوْنَ إِلى كِتابِ اللَّهِ وهو التوراة لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ وذلك أنّ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم دخل مدارسهم فدعاهم فقال له نعيم بن عمرو والحرث بن زيد: على أى دين أنت؟

قال : على ملة إبراهيم . قالا : إنّ إبراهيم كان يهوديا . قال لهما : إنّ بيننا وبينكم التوراة ، فهلموا إليها " "2" فأبيا . وقيل نزلت في الرجم ، وقد اختلفوا فيه . وعن الحسن وقتادة : كتاب اللَّه القرآن لأنهم قد علموا أنه كتاب اللَّه لم يشكوا فيه ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ استبعاد لتوليهم بعد علمهم بأن الرجوع إلى كتاب اللَّه واجب وَهُمْ مُعْرِضُونَ وهم قوم لا يزال الإعراض ديدنهم . وقرئ (ليحكم) على البناء للمفعول . والوجه أن يراد ما وقع من الاختلاف والتعادي بين من أسلم من أحبارهم وبين من لم يسلم : وأنهم دعوا إلى كتاب اللَّه الذي لا اختلاف بينهم في صحته وهو التوراة ليحكم بين المحق والمبطل منهم ، ثم يتولى فريق منهم وهم الذين لم يسلموا . وذلك أنّ قوله : (لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ) يقتضى أن يكون اختلافا واقعا فيما بينهم ، لا فيما بينهم وبين رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم

---

(1) . أخرجه البزار والطبراني وابن أبى حاتم والثعلبي والبغوي من حديثه ، وفيه أبو الحسن مولى بنى أسد ، وهو مجهول .

(2) . أخرجه الطبري من رواية إسحاق عن محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس رضى اللَّه عنهما به .

ذِلكَ التولي والإعراض بسبب تسهيلهم «1» على أنفسهم أمر العقاب وطمعهم في الخروج من النار بعد أيام قلائل كما طمعت المجبرة والحشوية «2» وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ من أنّ آباءهم هم الأنبياء يشفعون لهم كما غرت أولئك شفاعة رسول اللَّه صلى اللّه عليه وسلم في كبائرهم فَكَيْفَ إِذا جَمَعْناهُمْ فكيف يصنعون فكيف «3» تكون حالهم، وهو استعظام لما أعدّ لهم وتهويل لهم، وأنهم يقعون فيما لا حيلة لهم في دفعه والمخلص منه، وأن ما حدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها تعلل بباطل وتطمع بما لا يكون. وروى أنّ أوّل راية ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار راية اليهود، فيفضحهم اللَّه على رؤس الأشهاد، ثم يأمر بهم إلى النار وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ يرجع إلى كل نفس على المعنى، لأنه في معنى كل الناس كما تقول: ثلاثة أنفس، تريد ثلاثة أناسى. انتهى انتهى. اهـ ﴿الكشاف حـ 1 صـ 342. 349﴾

---

(1). قال محمود: ذلك التولي والاعراض بسبب طمعهم في الخروج من النار بعد أيام قلائل كما طمعت الحشوية والمجبرة وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون» قال أحمد رحمه اللَّه: هذا أيضا تعريض بأهل السنة في اعتقادهم تفويض العفو عن كبائر المؤمن الموحد إلى مشيئة اللَّه تعالى وإن مات مصرا عليها ايمانا بقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ) وتصديقا بالشفاعة لأهل الكبائر وينقم عليهم ذلك حتى يجعلهم أصلا يقيس عليهم اليهود القائلين: (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ) فانظر اليه كيف أشحن

قلبه بغضا لأهل السنة وشقاقا ، وكيف ملأ الأرض من هذه النزغات نفاقا ، فالحمد للّٰه الذي أهل عبيده الفقير إلى التورك عليه ، لأن آخذ من أهل البدعة بثأر السنة ، فأصمى أفئدتهم من قواطع البراهين بمقومات الأسنة .

(2) . قوله «كما طمعت المجبرة والحشوية» تورك على أهل السنة ، حيث ذهبوا إلى أن من دخل النار من أهل الكبائر المؤمنين يخرج بالشفاعة أو بعفو اللّٰه ، كما نطقت به الأحاديث . (ع)

(3) . قوله «فكيف تكون» لعله أو فكيف . (ع)

(91/115)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾

قِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْآيَةِ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ الْيَهُودُ خَاصَّةً ، وَقَدْ نُسِبَ إِلَيْهِمْ قَتْلُ النَّبِيِّينَ الَّذِي كَانَ مِنْ سَابِقِهِمْ لِاعْتِبَارِ الْأُمَّةِ فِي تَكَافُلِهَا وَجَرْيِ لَاحِقِهَا عَلَى أَثَرِ سَابِقِهَا ، كَالشَّخْصِ الْوَاحِدِ - عَلَى مَا مَرَّ بَيَانُهُ عَنِ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ غَيْرَ مَرَّةٍ - عَلَى

أَنَّ الْيَهُودَ هَمَّتْ بِقَتْلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي زَمَنِ نُزُولِ الْآيَةِ ، وَالسُّورَةُ مَدَنِيَّةٌ - كَمَا عَلِمْتَ - وَهُمْ بِذَلِكَ قَوْمُهُ الْأُمِّيُّونَ

(92/115)

مِنْ قَبْلُ فِي مَكَّةَ ، ثُمَّ كَانَ كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ حَرْبًا لَهُ وَهُمُ الْمُعْتَدُونَ ; وَلِذَلِكَ قَالَ آخَرُونَ : إِنَّ الْآيَةَ فِيمَنْ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْأُمِّيِّينَ ، فَكُلٌّ قَاتَلَهُ وَقَاتَلَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، وَالظَّاهِرُ الْأَوَّلُ حَتَّى عَلَى قِرَاءَةِ حَمْزَةَ (وَيُقَاتِلُونَ الَّذِينَ) لِأَنَّ مُحَاوَلَةَ قَتْلِ نَبِيٍّ لَا يُعَبَّرُ عَنْهُ بِـ "يَقْتُلُونَ" النَّبِيِّينَ ، وَالْقِتَالُ غَيْرُ الْقَتْلِ وَلِمَا فِي آيَاتٍ أُخْرَى مِنْ إِطْلَاقِ مِثْلِ هَذَا التَّعْبِيرِ عَلَى الْيَهُودِ خَاصَّةً ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْمُرَادَ مَجْمُوعُ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَقْتُلُ بَعْضُهُمُ النَّبِيِّينَ وَبَعْضُهُمُ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ ، فَالْآيَةُ وَمَا بَعْدَهَا انْتِقَالٌ إِلَى خِطَابِ الْيَهُودِ خَاصَّةً ، فَالْيَهُودُ هُمُ الَّذِينَ جَرَوْا عَلَى الْكُفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ مِنْ عَهْدِ مُوسَى إِلَى عَهْدِ مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ، وَبِذَلِكَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ كُتُبُهُمْ قَبْلَ الْقُرْآنِ ، وَعَلَى قَتْلِ النَّبِيِّينَ كَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ، وَلَكِنَّ الْأُسْتَاذَ الْإِمَامَ وَجَّهَ الْقَوْلَ بِالْعُمُومِ وَجَعَلَهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ الَّذِينَ حَاوَلُوا قَتْلَ نَبِيٍّ وَاحِدٍ عَلَى حَدِّ كَوْنِ قَتْلِ النَّفْسِ

الْوَاحِدَةِ كَقَتْلِ جَمِيعِ النَّاسِ . وَقَوْلُهُ – تَعَالَى – : بِغَيْرِ حَقٍّ بَيَانٌ لِلْوَاقِعِ بِمَا يُقَرِّرُ بَشَاعَتَهُ وَانْقِطَاعَ

(93/115)

عِرْقِ الْعُذْرِ دُونَهُ ، وَإِلَّا فَإِنَّ قَتْلَ النَّبِيِّينَ لَا يَكُونُ بِحَقٍّ مُطْلَقًا كَمَا قَالَ الْمُفَسِّرُونَ . وَأَقُولُ : إِنَّ هَذَا الْقَيْدَ يُقَرِّرُ لَنَا أَنَّ الْعِبْرَةَ فِي ذَمِّ الشَّيْءِ وَمَدْحِهِ تَدُورُ مَعَ الْحَقِّ وُجُودًا وَعَدَمًا لَا مَعَ الْأَشْخَاصِ وَالْأَصْنَافِ . وَإِذَا قُلْنَا : إِنَّ كَلِمَةَ (حَقٍّ) هُنَا الْمَنْفِيَّةَ تَشْمَلُ الْحَقَّ الْعُرْفِيَّ بِقَاعِدَةِ أَنَّ النَّكِرَةَ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ تُفِيدُ الْعُمُومَ يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مِثْلُ قَتْلِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – لِلْمِصْرِيِّ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُتَعَمِّدًا لِقَتْلِهِ ، فَإِذَا كَانَتِ الشَّرِيعَةُ الْمِصْرِيَّةُ تَقْضِي بِقَتْلِ مِثْلِهِ وَقَتْلُوهُ فِي عُرْفِهِمْ لَا يَذُمُّونَ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا تُذَمُّ شَرِيعَتُهُمْ إِذَا لَمْ تَكُنْ عَادِلَةً ، وَالْيَهُودُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَقٌّ مَا فِي قَتْلِ مَنْ قَتَلُوا مِنَ النَّبِيِّينَ لَا حَقِيقَةً وَلَا عُرْفًا .

(94/115)

وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ أَيِ الْحُكَمَاءِ الَّذِينَ يُرْشِدُونَ النَّاسَ إِلَى الْعَدَالَةِ الْعَامَّةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَيَجْعَلُونَهَا رُوحَ الْفَضَائِلِ وَقِوَامَهَا ، وَمَرْتَبَتُهُمْ فِي الْهِدَايَةِ وَالْإِرْشَادِ تَلِي مَرْتَبَةَ الْأَنْبِيَاءِ وَأَثَرُهُمْ فِي ذَلِكَ يَلِي أَثَرَهُمْ ; ذَلِكَ أَنَّ جَمِيعَ طَبَقَاتِ النَّاسِ تَنْتَفِعُ بِهَدْيِ الْأَنْبِيَاءِ ، كُلُّ صِنْفٍ بِقَدْرِ اسْتِعْدَادِهِ ، وَأَمَّا الْحُكَمَاءُ فَلَا يَنْتَفِعُ بِهِمْ إِلَّا بَعْضُ الْخَوَاصِّ الْمُسْتَعِدِّينَ لِتَلَقِّي الْفَلْسَفَةِ ، أَلَمْ تَرَ كَيْفَ اصْطَلَمَ التَّوْحِيدُ وَثَنِيَّةَ الْعَرَبِ فِي مُدَّةٍ قَلِيلَةٍ بِدَعْوَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَيْفَ عَجَزَتْ دَعْوَةُ فَلَاسِفَةِ الْيُونَانِ إِلَى

(95/115)

التَّوْحِيدِ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ أَوْ مَا يُقَارِبُهُ فَلَمْ يَسْتَجِبْ لَهُمْ فِيهَا فِي الزَّمَنِ الطَّوِيلِ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْ طُلَّابِ الْفَلْسَفَةِ ؟ ذَلِكَ بِأَنَّ دَعْوَةَ النَّبِيِّ عَلَى مَا تَخْتَصُّ بِهِ مِنَ التَّأْيِيدِ الْإِلَهِيِّ وَتَأْثِيرِ رُوحِ الْوَحْيِ لَهَا ثَلَاثَةُ مَظَاهِرَ بَيَّنَهَا اللَّهُ - تَعَالَى - فِي قَوْلِهِ : ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [16 : 125] فَالْحِكْمَةُ مَا يُدْعَى بِهِ الْعُقَلَاءُ وَأَهْلُ النَّظَرِ مِنَ الْبَرَاهِينِ وَالْحُجَجِ ، وَالْمَوْعِظَةُ مَا يُدْعَى بِهِ الْعَوَامُّ السُّذَّجُ ، وَالْجَدَلُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ لِلْمُتَوَسِّطِينَ الَّذِينَ لَمْ يَرْتَقُوا إِلَى الِاسْتِعْدَادِ لِطَلَبِ الْحِكْمَةِ وَلَا يَنْقَادُونَ إِلَى الْمَوْعِظَةِ بِسُهُولَةٍ ، بَلْ يَبْحَثُونَ بَحْثًا نَاقِصًا ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْحُسْنَى فِي مُجَادَلَتِهِمْ وَمُخَاطَبَتِهِمْ عَلَى قَدْرِ

عُقُولِهِمْ ، وَأَمَّا الْحُكَمَاءُ فَإِنَّ لَهُمْ طَرِيقَةً وَاحِدَةً فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الْحَقِّ ، وَالْفَضِيلَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى طَلَبِ الْعَدْلِ فِي الْأَفْكَارِ وَالْأَخْلَاقِ ، وَقَدْ يَكُونُ الْحَكِيمُ الَّذِي يَدْعُو إِلَى ذَلِكَ مُتَدَيِّنًا وَيَجْرِي فِي الْإِقْنَاعِ بِالدِّينِ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمَذْكُورَةِ آنِفًا ، وَقَدْ يَكُونُ غَيْرَ مُتَدَيِّنٍ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَدْعُو إِلَى الْقِسْطِ وَالْعَدْلِ مِنَ الْعَقْلِ بِحَسَبِ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ عِلْمُهُ مَعَ الصِّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ ، وَالْإِقْدَامُ عَلَى قَتْلِ هَؤُلَاءِ دَلِيلٌ عَلَى غَمْطِ الْعَقْلِ وَمَقْتِ الْعَدْلِ ، وَأَقْبِحْ بِذَلِكَ جُرْمًا وَكَفَى بِهِ إِثْمًا . وَلَمْ يُفَسِّرِ الْأُسْتَاذُ

(96/115)

الْإِمَامُ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ بِالْحُكَمَاءِ ، بَلْ قَالَ : إِنَّ مَرْتَبَةَ هَؤُلَاءِ تَلِي مَرْتَبَةَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَقَالَ : إِنَّ قَوْلَهُ - تَعَالَى - : مِنَ النَّاسِ يُشْعِرُ بِقِلَّتِهِمْ . وَأَقُولُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الِاخْتِيَارِ : إِنَّهُ يُشْعِرُ بِشُمُولِ قَوْلِهِ : الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ لِمَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَةُ نَبِيٍّ عَلَى وَجْهِهَا فَآمَنَ بِهِ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ ، وَإِلَّا لَقَالَ : وَالَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَفِي هَذَا تَعْظِيمُ شَأْنِ الْحِكْمَةِ وَالْعَدَالَةِ مَا فِيهِ مِنْ شَرَفِ الْإِسْلَامِ وَإِرْشَادِ

أَهْلِهِ إِلَى أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ الَّتِي تَلِي مَرْتَبَةَ النُّبُوَّةِ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ [2 : 269] .

وَقَوْلُهُ : فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَحْمِلُونَ مِثْلَهُ عَلَى التَّهَكُّمِ ، وَعَدُّوهُ مِنَ الْمَجَازِ بِالِاسْتِعَارَةِ عَلَى مَا فِي مُفْرَدَاتِ الرَّاغِبِ ; لِأَنَّ التَّبْشِيرَ مِنَ الْبِشَارَةِ وَالْبُشْرَى وَهِيَ الْخَبَرُ السَّارُّ تَنْبَسِطُ لَهُ بَشَرَةُ الْوَجْهِ . وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّهُ مَا ظَهَرَ أَثَرُهُ فِي الْبَشَرَةِ بِانْبِسَاطٍ أَوِ انْقِبَاضٍ وَكَآبَةٍ ، وَلَكِنَّهُ غَلَبَ فِي الْأَوَّلِ ، وَهَذَا الْعَذَابُ يُصِيبُ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ فِي زَمَنِ الْبَعْثَةِ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ يُشَارِكُونَ مَنْ سَبَقَهُمْ بِمِثْلِ ذُنُوبِهِمْ فِي عَذَابِ الْآخِرَةِ ، وَأَيُّ النَّاسِ

(97/115)

أَحَقُّ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْقُسَاةِ الطُّغَاةِ الْمُسْرِفِينَ فِي الشَّرِّ إِسْرَافًا جَعَلَهُمْ عَلَى مُنْتَهَى الْبُعْدِ عَنِ النَّبِيِّينَ وَالْآمِرِينَ بِالْقِسْطِ حَتَّى كَانَ مِنْهُمُ الَّذِينَ قَتَلُوهُمْ بِالْفِعْلِ ، وَمِنْهُمُ الَّذِينَ نُفُوسُهُمْ كَنُفُوسِ مَنْ قَتَلُوا وَمَا يَمْنَعُهُمْ عَنِ الْفِعْلِ إِلَّا الْعَجْزُ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ [8 : 30] فَهَذِهِ النُّفُوسُ قَدْ أَحَاطَتْ بِهَا خَطَايَاهَا حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهَا مَنْفَذٌ لِنُورِ آيَاتِ اللَّهِ الَّتِي بِهَا يُبْصِرُ الْحَقَّ وَيَهْتَدِي إِلَى إِقَامَةِ الْقِسْطِ ; وَلِذَلِكَ قَالَ فِيهِمْ : أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلَا يَنْتَفِعُونَ بِشَيْءٍ مِنْهُ ، لِأَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ إِنَّمَا يَنْفَعُ بِحُسْنِ أَثَرِهِ فِي النَّفْسِ ، وَنُفُوسُ هَؤُلَاءِ قَدْ أَوْغَلَ فِيهَا الْفَسَادُ - كَمَا تَقَدَّمَ - فَفَقَدَتِ الِاسْتِعْدَادَ وَالْقَبُولَ لِكُلِّ خَيْرٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ بِالتَّفْصِيلِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ (2 :

217) وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنَ اللهِ وَقَدْ أَبْسَلَتْهُمْ ذُنُوبُهُمْ بِمَا لَهَا مِنَ التَّأْثِيرِ فِي إِفْسَادِ نُفُوسِهِمْ ، فَأَيُّ نَاصِرٍ يَدْفَعُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ وَهُوَ مِمَّا اقْتَضَتْهُ طَبِيعَتُهُمْ ؟
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ

(98/115)

وَهُمْ مُعْرِضُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

(99/115)

كَانَ سَابِقُ الْكَلَامِ فِي تَقْرِيرِ التَّوْحِيدِ وَإِقَامَةِ الدَّلَائِلِ عَلَيْهِ وَعَلَى الْحَشْرِ وَبَيَانِ ثَوَابِ الْعَامِلِينَ ، وَقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَى الْمُعَانِدِينَ ; لِأَنَّ الْبَلَاغَ قَدْ أَوْضَحَ الْمَحَجَّةَ لِلنَّاسِ ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ - تَعَالَى - ثُمَّ ذَكَرَ أَشَدَّ مَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ تَوَلَّوْا عَنِ الدَّعْوَةِ مِنْ قَبْلُ إِذْ كَانُوا يَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ وَالْآمِرِينَ بِالْقِسْطِ ، وَفِي ذَلِكَ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ -

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَانَ يُحْزِنُهُ إِعْرَاضُهُمْ ; وَلِذَلِكَ الْتَفَتَ إِلَى خِطَابِهِ بِأَعْجَبِ شَأْنِهِمْ فِي الدِّينِ لِذَلِكَ الْعَهْدِ فَقَالَ : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَيْتَ الْمِدْرَاسِ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ يَهُودَ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ ، فَقَالَ لَهُ نُعَيْمُ بْنُ عَمْرٍو وَالْحَارِثُ بْنُ زَيْدٍ : عَلَى أَيِّ دِينٍ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ ؟ قَالَ : عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَدِينِهِ ، قَالَا : فَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَهُودِيًّا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : فَهَلُمَّا إِلَى التَّوْرَاةِ فَهِيَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ إِلَى قَوْلِهِ : يَفْتَرُونَ ذَكَرَ هَذَا التَّخْرِيجَ السُّيُوطِيُّ فِي لُبَابِ

(100/115)

النُّقُولِ وَأَخْرَجَهُ أَيْضًا ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ . فَكِتَابُ اللَّهِ الَّذِي يَدْعُونَ إِلَيْهِ هُوَ التَّوْرَاةُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَقِيلَ بَلْ ذَلِكَ كِتَابُ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَإِنَّمَا دُعِيَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ فَأَبَتْ . رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ قَتَادَةَ وَابْنِ جُرَيْجٍ وَرَجَّحَ الْأَوَّلَ ، وَمَعْنَاهُ : أَلَمْ تَرَ يَا مُحَمَّدُ إِلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَعْجَبُ لِعَدَمِ إِيمَانِهِمْ بِكَ عَلَى وُضُوحِ مَا جِئْتَ بِهِ كَيْفَ يُعْرِضُونَ عَنِ الْعَمَلِ بِالْكِتَابِ الَّذِي يُؤْمِنُونَ بِهِ

إِذَا لَمْ يُوَافِقْ أَهْوَاءَهُمْ ؟ وَوَقَائِعُ الْأَحْوَالِ فِي عَصْرِ التَّنْزِيلِ تَتَّفِقُ مَعَ كُلٍّ مِنَ الْقَوْلَيْنِ ، فَقَدْ كَانُوا يَتَوَلَّوْنَ عَنْ حُكْمِ التَّوْرَاةِ إِذَا خَالَفَ أَهْوَاءَهُمْ كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ كُلِّ دِينٍ فِي طَوْرِ انْحِلَالِ الدِّينِ وَضَعْفِهِ ، وَكَانُوا رُبَّمَا تَحَاكَمُوا إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَازِمِينَ عَلَى قَبُولِ حُكْمِهِ ، حَتَّى إِذَا كَانَ عَلَى غَيْرِ مَا أَحَبُّوا خَالَفُوهُ ، كَمَا فَعَلُوا يَوْمَ زَنَا بَعْضُ أَشْرَافِهِمْ وَحَكَّمُوهُ فَحَكَمَ بَيْنَهُمْ بِمِثْلِ حُكْمِ كِتَابِهِمْ فَتَوَلَّوْا وَأَعْرَضُوا عَنْ قَبُولِ حُكْمِهِ ; لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا فَزِعُوا إِلَيْهِ لِيُخَفِّفَ عَنْهُمْ .

(101/115)

أَمَّا قَوْلُهُ : أُوتُوا نَصِيبًا فَقَدْ عُلِمَ مَا هُوَ تَفْسِيرُهُ الْمُخْتَارُ عِنْدَنَا فِيمَا تَقَدَّمَ أَوَّلَ السُّورَةِ مِنْ تَفْسِيرِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ . وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : إِنَّهُ مُبَيِّنٌ لِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : أُوتُوا الْكِتَابَ وَهُوَ بِمَعْنَى : لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ [2 : 78] فَالنَّصِيبُ عِبَارَةٌ عَنْ تَمَسُّكِهِمْ بِالْأَلْفَاظِ بِتَعْظِيمِهَا وَتَعْظِيمِ مَا تُكْتَبُ فِيهِ مَعَ عَدَمِ الْعِنَايَةِ بِالْمَعَانِي بِفِقْهِهَا وَالْعَمَلِ بِهَا .

قَالَ : وَلَكَ أَنْ تَقُولَ : إِنَّ مَا يَحْفَظُونَهُ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ جُزْءٌ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ (أَوْ قَالَ الْكُتُبِ) وَقَدْ فَقَدُوا سَائِرَهُ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يُقِيمُونَهُ بِحُسْنِ الْفَهْمِ لَهُ وَالْتِزَامِ الْعَمَلِ بِهِ ،

وَلَا غَرَابَةَ فِي فَقْدِ بَعْضِ الْكِتَابِ ; فَالْكُتُبُ الْخَمْسَةُ الْمَنْسُوبَةُ إِلَى مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - الَّتِي

(102/115)

يُسَمُّونَهَا التَّوْرَاةَ لَا دَلِيلَ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي كَتَبَهَا وَلَا هِيَ مَحْفُوظَةٌ عَنْهُ، بَلْ قَامَ الدَّلِيلُ عِنْدَ الْبَاحِثِينَ مِنَ الْأُورُبِّيِّينَ عَلَى أَنَّهَا كُتِبَتْ بَعْدَهُ بِمِئَاتٍ مِنَ السِّنِينَ (أَرَاهُ قَالَ خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ) وَكَذَلِكَ يُقَالُ فِي سَائِرِ الْكُتُبِ الْمَنْسُوبَةِ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ فِي الْمَجْمُوعِ الَّذِي يُسَمُّونَهُ (الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ) أَقُولُ: وَلَا تُعْرَفُ اللُّغَةُ الَّتِي كُتِبَتْ بِهَا التَّوْرَاةُ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَلَا دَلِيلَ عَلَى أَنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ يَعْرِفُ اللُّغَةَ الْعِبْرَانِيَّةَ وَإِنَّمَا كَانَتْ لُغَتُهُ مِصْرِيَّةً، فَأَيْنَ هِيَ التَّوْرَاةُ الَّتِي كَتَبَهَا بِتِلْكَ اللُّغَةِ وَمَنْ تَرْجَمَهَا عَنْهَا ؟

(103/115)

أَمَّا قَوْلُهُ - تَعَالَى - : ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَلِلتَّرَاخِي فِيهِ وَجْهَانِ (أَحَدُهُمَا) اسْتِبْعَادُ تَوَلِّيهِمْ لِأَنَّهُ خِلَافُ الْأَصْلِ الَّذِي يَكُونُ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُ . (ثَانِيهِمَا) أَنَّهُمْ إِذَا دُعُوا إِلَى

حُكْمِ الْكِتَابِ يَتَوَلَّى ذَلِكَ الْفَرِيقُ بَعْدَ تَرَدُّدٍ وَتَرَوٍّ فِي الْقَبُولِ وَعَدَمِهِ ، وَكَانَ مِنْ مُقْتَضَى الْإِيمَانِ أَلَّا يَتَرَدَّدَ الْمُؤْمِنُ فِي إِجَابَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى حُكْمِ كِتَابِهِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ دِينِهِ ، أَوْرَدَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ وَقَالَ : عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَكْتَفُوا بِالتَّرَدُّدِ حَتَّى تَوَلَّوْا بِالْفِعْلِ ، وَلَمْ يَكُنِ التَّوَلِّي عَرَضًا حَدَثَ لَهُمْ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مُقْبِلِينَ عَلَى الْكِتَابِ خَاضِعِينَ لِحُكْمِهِ فِي كُلِّ حَالٍ وَآنٍ ، بَلْ هُوَ وَصْفٌ لَهُمْ لَازِمٌ ، بَلِ اللَّازِمُ لَهُمْ مَا هُوَ شَرٌّ مِنْهُ وَهُوَ الْإِعْرَاضُ عَنْ كِتَابِ اللهِ فِي عَامَّةِ أَحْوَالِهِمْ ، فَجُمْلَةُ وَهُمْ مُعْرِضُونَ لَيْسَتْ مُؤَكِّدَةً لِلتَّوَلِّي - كَمَا قِيلَ - بَلْ هِيَ مُؤَسِّسَةٌ لِوَصْفِ الْإِعْرَاضِ الَّذِي هُوَ أَبْلَغُ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا قَالَ : فَرِيقٌ مِنْهُمْ لِأَنَّ هَذَا الْوَصْفَ لَيْسَ عَامًّا لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ ، بَلْ كَانَ مِنْهُمْ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ . وَمِنْهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

(104/115)

أَقُولُ : وَهَذَا مِمَّا عَهِدْنَا فِي أُسْلُوبِ الْقُرْآنِ مِنْ تَحْدِيدِ الْحَقَائِقِ وَالِاحْتِرَاسِ فِي الْحُكْمِ عَلَى الْأُمَمِ ، فَتَارَةً يَحْكُمُ عَلَى فَرِيقٍ مِنْهُمْ فِي مَقَامِ بَيَانِ شُئُونِهِمْ وَتَارَةً يَحْكُمُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ ، وَإِذَا أَطْلَقَ الْحُكْمَ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ يُتْبِعُهُ بِالِاسْتِثْنَاءِ الْأَقَلِّ كَقَوْلِهِ : تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ [2 : 246] .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ رَوَى جَرِيرٌ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ بَعْضَ الْيَهُودِ قَالُوا ذَلِكَ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَيَّامَ الْمَعْدُودَاتِ هِيَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا مُدَّةَ عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ، وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: إِنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ فِي عَدَدِ هَذِهِ الْأَيَّامِ شَيْءٌ، وَلَيْسَ فِي كُتُبِ الْيَهُودِ الَّتِي فِي أَيْدِيهِمْ وَعْدٌ بِالْآخِرَةِ وَلَا وَعِيدٌ، فَكُلُّ

(105/115)

مَا وَعَدَتْ بِهِ عَلَى الْعَمَلِ بِالْكِتَابِ هُوَ الْخَيْرُ وَالْخِصْبُ وَالسُّلْطَةُ فِي الْأَرْضِ، وَمَا أَوْعَدَتْ بِهِ هُوَ سَلْبُ هَذِهِ النِّعَمِ وَتَسْلِيطُ الْأُمَمِ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنَّ الْإِسْلَامَ بَيَّنَ لَنَا أَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ أَمَرَ بِالْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَوَعَدَ وَأَوْعَدَ، فَهَذَا هُوَ الْحَقُّ سَوَاءٌ أُوجِدَ فِي كُتُبِهِمْ أَمْ لَمْ يُوجَدْ، يَعْنِي أَنَّنَا نَعُدُّ هَذَا مِمَّا أَضَاعُوهُ وَنَسُوهُ عَلَى مَا بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ. قَالَ وَالْجُمْلَةُ عِبَارَةٌ عَنِ اسْتِسْهَالِ الْعُقُوبَةِ وَالِاسْتِخْفَافِ بِهَا اتِّكَالًا عَلَى اتِّصَالِ نَسَبِهِمْ بِالْأَنْبِيَاءِ وَاعْتِمَادًا عَلَى مُجَرَّدِ الِانْتِسَابِ إِلَى الدِّينِ، وَكَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ كَافٍ فِي نَجَاتِهِمْ، وَمَنِ اسْتَخَفَّ بِوَعِيدِ الدِّينِ زَاعِمًا أَنَّهُ خَفِيفٌ فِي نَفْسِهِ أَوْ أَنَّهُ غَيْرُ وَاقِعٍ بِمَنْ يَسْتَحِقُّهُ حَتْمًا تَزُولُ حُرْمَةُ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي مِنْ نَفْسِهِ فَيُقْدِمُ عَلَى ارْتِكَابِ الْمَحَارِمِ بِلَا مُبَالَاةٍ وَيَتَهَاوَنُ فِي الطَّاعَاتِ

الْمُحتَّمَةِ ، وهكَذَا شَأْنُ الْأُمَمِ عِنْدَمَا تَفْسُقُ عَنْ دِينِهَا وَتَنْتَهِكُ حُرُمَاتِه ، ظَهَرَ فِي الْيَهُودِ ثُمَّ فِي النَّصَارَى ثمَّ فِي الْمُسْلِمِينَ .

(106/115)

وَأَقُولُ : لعَلَّ الْمُرَادَ بِعِبَارَةِ الْآيَةِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْإِسْرَائِيلِيَّ إِذَا عُوقِبَ فَإِنَّ عُقُوبَتَهُ لَا تَكُونُ إِلَّا قَلِيلَةً كَمَا هُوَ اعْتِقَادُ أَكْثَرِ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ ، إِذْ يَقُولُونَ : إِنَّ الْمُسْلِمَ الْمُرْتَكِبَ لِكَبَائِرِ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِمَّا أَنْ تُدْرِكَهُ الشَّفَاعَاتُ ، وَإِمَّا تُنْجِيهِ الْكَفَّارَاتُ ، وَإِمَّا أَنْ يُمْنَحَ الْعَفْوَ وَالْمَغْفِرَةَ بِمَحْضِ الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ ، فَإِنْ فَاتَهُ كُلُّ ذَلِكَ عُذِّبَ عَلَى قَدْرِ خَطِيئَتِهِ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ ، وَأَمَّا الْمُنْتَسِبُونَ إِلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ فَهُمْ خَالِدُونَ فِي النَّارِ كَيْفَمَا كَانَتْ حَالُهُمْ وَمَهْمَا كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ ، وَالْقُرْآنُ لَا يُقِيمُ لِلِانْتِسَابِ إِلَى دِينٍ مَا وَزْنًا ، وَإِنَّمَا يَنُوطُ أَمْرَ النَّجَاةِ مِنَ النَّارِ وَالْفَوْزِ بِالنَّعِيمِ الدَّائِمِ فِي دَارِ الْقَرَارِ بِالْإِيمَانِ الَّذِي وَصَفَهُ وَذَكَرَ عَلَامَاتِ أَهْلِهِ وَصِفَاتِهِمْ ، وَبِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ مَعَ التَّقْوَى وَتَرْكِ الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَأَمَّا الْمَغْفِرَةُ فَهِيَ خَاصَّةٌ فِي حُكْمِ الْقُرْآنِ بِمَنْ لَمْ تُحِطْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ، وَأَمَّا مَنْ أَحَاطَتْ بِهِ حَتَّى اسْتَغْرَقَتْ شُعُورَهُ وَرَانَتْ عَلَى قَلْبِهِ فَصَارَ هَمُّهُ مَحْصُورًا فِي إِرْضَاءِ

شَهْوَتِهِ وَلَمْ يَبْقَ لِلدِّينِ سُلْطَانٌ عَلَى نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ; وَلِهَذَا يَحْكُمُ هَذَا الْكِتَابُ الْحَكِيمُ بِأَنَّ مَنْ يَجْعَلِ الدِّينَ جِنْسِيَّةً وَيَنُوطُ النَّجَاةَ مِنَ النَّارِ بِالِانْتِسَابِ

(107/115)

إِلَيْهِ أَوْ الِاتِّكَالِ عَلَى مَنْ أَقَامَهُ مِنَ السَّلَفِ فَهُوَ مُغْتَرٌّ بِالْوَهْمِ مُفْتَرٍ يَقُولُ عَلَى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَمَا قَالَ هُنَا : وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ أَيْ بِمَا زَعَمُوا مِنْ تَحْدِيدِ مُدَّةِ الْعُقُوبَةِ لِلْأُمَّةِ فِي مَجْمُوعِهَا ، وَهَذَا مِنَ الِافْتِرَاءِ الَّذِي كَانَ مَنْشَأَ غُرُورِهِمْ فِي دِينِهِمْ ، وَمِثْلُهُ لَا يُعْرَفُ بِالرَّأْيِ وَلَا بِالْفِكْرِ ; لِأَنَّهُ مِنْ أَمْرِ عَالَمِ الْغَيْبِ فَلَا يُعْرَفُ إِلَّا بِوَحْيٍ مِنَ اللهِ ، وَلَيْسَ فِي الْوَحْيِ مَا يُؤَيِّدُهُ وَلَا يُوثَقُ بِهِ إِلَّا بِعَهْدٍ مِنَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ، وَلَا عَهْدَ بِهَذَا وَإِنَّمَا عَهْدُ اللهِ هُوَ مَا سَبَقَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [2 : 80 - 82] .

(108/115)

ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ - تَعَالَى - عَلَى هَذَا الِافْتِرَاءِ بِقَوْلِهِ: فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ أَيْ فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُهُمْ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِجَزَاءِ يَوْمٍ لَا رَيْبَ فِي مَجِيئِهِ، وَهُوَ يَوْمُ الدِّينِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ بِأَنْ رَأَتْ مَا عَمِلَتْهُ مُحْضَرًا مُوَفًّى لَا نَقْصَ فِيهِ، فَكَانَ مَنْشَأَ الْجَزَاءِ وَمَنَاطَ السَّعَادَةِ أَوِ الشَّقَاءِ، دُونَ الِانْتِمَاءِ إِلَى دِينِ كَذَا وَمَذْهَبِ كَذَا أَوِ الِانْتِسَابِ إِلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّالِحِينَ، أَلَا إِنَّهُمْ يَرَوْنَ يَوْمَئِذٍ أَنَّ الْجَزَاءَ يَكُونُ بِشَيْءٍ مِنْ دَاخِلِ نُفُوسِهِمْ لَا مِنْ شَيْءٍ خَارِجٍ عَنْهَا، يَكُونُ بِمَا أَحْدَثَتْهُ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا مِنَ الصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ أَوِ الْقَبِيحَةِ وَمُقَدَّرَةٌ بِقَدْرِ ذَلِكَ، وَيَرَوْنَ أَنَّ النَّاسَ سَوَاءٌ فِي هَذَا الْجَزَاءِ لَا امْتِيَازَ فِيهِ بَيْنَ الشُّعُوبِ وَإِنْ سُمِّيَ بَعْضُهَا بِشَعْبِ اللهِ، وَلَا بَيْنَ الْأَفْرَادِ وَإِنْ لَقَّبُوا أَنْفُسَهُمْ بِأَبْنَاءِ اللهِ، بَلْ يَرَوْنَ هُنَالِكَ الْعَدْلَ الْأَكْمَلَ; وَلِذَلِكَ قَالَ: وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ أَيِ النَّاسُ الْمُشَارُ إِلَيْهِمْ بِلَفْظِ كُلُّ نَفْسٍ أَيْ لَا يُنْقَصُ مِنْ جَزَاءِ أَحَدٍ بِمَا كَسَبَ شَيْءٌ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ.

(109/115)

وَقَدْ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ كَلِمَةً أُحِبُّ التَّنْبِيهَ عَلَى مَا فِيهَا، قَالُوا: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تُحْبَطُ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ; لِأَنَّ تَوْفِيَةَ جَزَاءِ إِيمَانِهِ وَعَمَلِهِ لَا تَكُونُ

فِي النَّارِ وَلَا قَبْلَ دُخُولِهَا ، فَإِذَنْ هِيَ بَعْدَ الْخَلَاصِ مِنْهَا ، وَالْعِبَارَةُ لِلْبَيْضَاوِيِّ وَنَقَلَهَا أَبُو السُّعُودِ كَعَادَتِهِ . وَأَقُولُ : إِنَّ الْكَسْبَ هُنَا لَيْسَ خَاصًّا بِالْعِبَادَةِ وَالْإِيمَانِ ، بَلْ هُوَ عَامٌّ شَامِلٌ لِكُلِّ مَا عَمِلَهُ الْعَبْدُ مِنْ خَيْرٍ ، فَإِذَا أَرَادُوا أَنَّ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْجَزَاءِ عَلَى الْكَسْبِ - كَمَا هُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ - لَزِمَهُمْ أَنَّ الْكَافِرَ إِذَا أَحْسَنَ فِي بَعْضِ الْأَعْمَالِ - وَلَا يُوجَدُ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ لَا يُحْسِنُ عَمَلًا قَطُّ - وَجَبَ

(110/115)

أَنْ يُجَازَى عَلَيْهِ وَهُمْ لَا يَقُولُونَ بِذَلِكَ ; وَلِذَلِكَ خَصَّصُوا وَأَخْرَجُوا الْآيَةَ عَنْ ظَاهِرِهَا ، وَإِذَا نَحْنُ جَمَعْنَا بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي وَرَدَتْ رَدًّا لِقَوْلِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمْ لَنْ تَمَسَّهُمُ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً وَآيَةِ الْبَقَرَةِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي ذَلِكَ أَيْضًا عَلِمْنَا أَنَّ مُرَادَ اللهِ فِي الْجَزَاءِ عَلَى كَسْبِ الْإِنْسَانِ بِحَسَبِهِ ، وَهُوَ أَنَّ الْعِبْرَةَ بِتَأْثِيرِ الْعَمَلِ فِي النَّفْسِ ، فَإِذَا كَانَ أَثَرُهُ السَّيِّئُ قَدْ أَحَاطَ بِعِلْمِهَا وَشُعُورِهَا وَاسْتَغْرَقَ وِجْدَانَهَا كَانَتْ خَالِدَةً فِي النَّارِ ; لِأَنَّ الْعَمَلَ السَّيِّئَ لَمْ يَدَعْ لِلْإِيمَانِ أَثَرًا صَالِحًا فِيهَا يُعِدُّهَا لِدَارِ الْكَرَامَةِ ، بَلْ جَعَلَهَا مِنْ أَهْلِ دَارِ الْهَوَانِ بِطَبْعِهَا ، وَإِذَا لَمْ يَصِلْ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ بِأَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا تَأْثِيرُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ أَوِ اسْتَوَى الْأَمْرَانِ ، فَكَانَتْ بَيْنَ بَيْنَ جُوزِيَتْ عَلَى كُلٍّ بِحَسَبِ دَرَجَتِهِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ آنِفًا . وَلَيْسَ عِنْدَنَا شَيْءٌ عَنِ الْأُسْتَاذِ

الْإِمَامِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَلَكِنْ مَا قُلْنَاهُ مُوَافِقٌ لِمَا قَرَّرَهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ تفسير المنار حـ 3 صـ 215. 221 ﴾

(111/115)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

إن كذبهم سينكشف في هذا اليوم ، فالفاضحة قد جاءت ، والفاضحة هي القيامة ، إنها تفضح كل كذاب وكل غشاش وكل داعية بغير الحق . إن الحق يتساءل : كيف يصنعون ذلك كله في الحياة التي جعلنا لهم فيها اختيارا ، فيفعلون ما يريدون ، ولا يفعلون ما لا يريدون ، يحدث منهم كل ذلك وهم يعلمون أن الحق قد جعل الثواب لمن اتبع تكاليف الله ، وجعل العقاب لمن يخرج عن مراد الله ، كيف يتصرفون عندما يسلب الحق منهم الاختيار ويجئ يوم القيامة . لقد كانوا في الدنيا يملكون عطاء الله من قدرة الاختيار بين البديلات ، وركز الله لهم في بنائهم أن كل جوارحهم خاضعة لارادتهم كبشر من خلق الله ، فمنهم من يستطيع ان يستخدم جوارحه فيما يرضى الله ، وفيهم من يستخدم جوارحه المسخرة له

- بفضل الله - فيما لا يرضى الله ، إن الجوارح كما نعلم جميعا خاضعة لإرادة الإنسان ، وإرادة الإنسان هي التي تختار بين البديلات ، لكن ماذا يفعل هؤلاء يوم القيامة ؟ إن الجوارح التي كانت تطيع الخارجين عن منهج الله في الفعل لا تطيعهم في هذا اليوم العظيم ؛ لأن الطاعة اختيار أن تفعل وتطيع ، والجوارح يوم القيامة لا تكون مقهورة لإرادة الإنسان ، إن الجوارح يوم القيامة تنحل عنها صفة القهر والتسخير لمراد الإنسان ، وتصير الجوارح على طبيعتها :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾

[النور : 24-25] .

(112/115)

إن اللسان كان أداة إعلان الكفر ، وهو يوم القيامة يشهد على الكافر ، واليد كانت أداة معصية الله ، وهي يوم القيامة تشهد على صاحبها ، والجلود تشهد أيضا ، لقد كانت الجوارح خاضعة لإرادة أصحابها ، وتفعل ما يريدونها أن تفعل ، ولكنها كانت تفعل الفعل العاصي لله وهي كارهة لهذا الفعل ؛ لذلك يقول الحق :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

[آل عمران : 25] .

كيف يكون حالهم يوم يجمعهم الله للجزاء في يوم لا ريب فيه ولا شك في مجيئه . . وهذا اليوم قادم لا محالة لقيام الأدلة على وجوده ، رغم خصومتهم لله فإن الله العادل الحق لا يظلمهم بل سيأخذهم بمقاييس العدل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1392 . 1393 ﴾

(113/115)

" فصل "

قال السيوطى :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (25)

أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال " دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدراس على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله فقال له

النعمان بن عمرو ، والحرث بن زيد : على أي دين أنت يا محمد ؟ قال : على ملة إبراهيم ودينه قالا : فإن إبراهيم كان يهودياً فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهلُّما إلى التوراة فهي بيننا وبينكم ، فأبيا عليه ، فأنزل الله ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ﴾ إلى قوله ﴿ وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا . . . ﴾ الآية . قال : هم اليهود دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، وإلى نبيه وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة ثم تولوا عنه وهم معرضون .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج في الآية قال : كان أهل الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم بالحق وفي الحدود ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى الإسلام فيتولون عن ذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله ﴿ نصيباً ﴾ قال : حظاً ﴿ من الكتاب ﴾ قال : التوراة .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ﴾ قال : يعنون الأيام التي خلق الله فيها آدم عليه السلام .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴾ حين قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴾ قال : غرهم قولهم ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ ووُفِّيَتْ ﴾ يعني توَفَّى كلُّ نفس برٍ وفاجرٍ ﴿ ما كسبت ﴾ ما عملت من خير أو شر ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ يعني من أعمالهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المنثور حـ 2 صـ 170. 171﴾

(115/115)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابوري فى الآيات السابقة :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (19) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ

أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا

وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (20) إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (21) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (22) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (25) ﴾

(116/115)

قال الكلبي : لما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام ، فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه : ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي صلى الله عليه وسلم الذي يخرج في آخر الزمان ! فلما دخلا على النبي صلى الله عليه وسلم عرفاه بالصفة والنعت فقالا : أنت محمد ؟ قال : نعم . قالا : وأنت أحمد ؟

قال : نعم . قالا : إنا نسألك عن شهادة فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك . فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : سلاني . قالا : أخبرنا من أعظم شهادة في كتاب الله فأنزل الله على نبيه ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ فأسلم الرجلان وصدقا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ووجه النظم أنه مدح المؤمنين وأثنى عليهم بقوله : ﴿ ربنا إننا آمنا ﴾ ثم بين أن دلائل الإيمان ظاهرة جلية .

واعلم أن الشهادة من الله تعالى ومن الملائكة ومن أولي العلم يحتمل أن تكون بمعنى واحد ، ويحتمل أن لا تكون كذلك . أما الأول فتقريره من وجهين : أحدهما أن الشهادة عبارة عن الإخبار المقرون بالعلم ، فهذا المعنى مفهوم واحد وهو حاصل في حق الله تعالى وفي حق الملائكة وفي حق أولي العلم . أما من الله فذلك أنه أخبر في القرآن أنه إله واحد لا إله إلا هو وذلك في مواضع كثيرة كالإخلاص وآية الكرسي وغيرهما ، التمسك بالدلائل السمعية في هذه المسألة جائز لأن العلم بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم لا يتوقف على العلم بها .

وأما من الملائكة وأولي العلم وهم الذين عرفوا وحدانية الله تعالى بالدلائل القاطعة ، فكلهم

أخبروا أيضاً أن الله واحد لا شريك له . وثاني الوجهين أن تجعل الشهادة عبارة عن الإظهار والبيان . فالله تعالى أظهر ذلك وبيّن بأن خلق ما يدل على ذلك ، والملائكة وأولو العلم أظهروا ذلك وبينوه . أيضاً الملائكة للرسل والرسل للعلماء والعلماء لعامة الخلق . فالتفاوت إنما وقع في الشيء الذي به حصل الإظهار والبيان . فأما مفهوم الإظهار والبيان فشيء واحد في حق الكل ، فكأنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : إن وحدانية الله تعالى أمر قد ثبت بشهادة الله وشهادة جميع المعتبرين من خلقه ، ومثل هذا الدين المبين والمنهج القويم لا يضعف بمخالفة بعض الجهال من النصارى وعبدة الأوثان ، فاثبت أنت وقومك يا محمد على ذلك ، فإنه هو الإسلام والدين عند الله هو الإسلام . وأما الثاني فهو قول من يقول شهادة الله تعالى على توحيده عبارة عن أنه خلق الدلائل الدالة على توحيده ، وشهادة الملائكة وأولي العلم عبارة عن إقرارهم بذلك ونظيره قوله تعالى : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ﴾ [الأحزاب : 56] فالصلاة من الله غير الصلاة من الملائكة . فإن قيل : المدعي للوحدانية هو الله . فكيف يكون المدعي شاهداً ؟ فالجواب أنه ليس الشاهد بالحقيقة إلا الله

لأنه خلق الأشياء وجعلها دلائل على توحيده، ثم وفق العلماء لمعرفة تلك الدلائل والتوصل بها إلى معرفة الوحدانية، ثم وفقهم حتى أرشدوا غيرهم إلى ذلك ولهذا قال: ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة قل الله ﴾ [الأنعام: 19] وفي انتصاب ﴿ قائماً بالقسط ﴾ وجوه: الأول أنه حال مؤكدة والتقدير: شهد الله قائماً بالقسط، أو لا إله إلا هو قائماً بالقسط. وهذا أوجه لكون الإلهية والتفرد بها مقتضياً للعدالة مثل: هذا أبوك عطوفاً. أو لا رجل إلا عبد الله شجاعاً. ويحتمل أن يكون حالاً من "أولي العلم" أي حال كون كل واحد منهم قائماً بالقسط في أداء هذه الشهادة.

الثاني أن يكون صفة للمنفي كأنه قيل: لا إله قائماً بالقسط إلا هو. وقد رأيناهم يتسعون في الفصل بين الصفة والموصوف. الثالث أن يكون نصباً على المدح وإن كان نكرة كقوله:

ويأوي إلى نسوة عطل . . . وشعثاً مراضيع مثل السعالى

(119/115)

ومعنى كونه قائماً بالقسط قائماً بالعدل كما يقال: فلان قائم بالتدبير أي يجريه على سنن الاستقامة، أو مقيماً للعدل فيما يقسم من الأرزاق والآجال، ويثيب ويعاقب وفيما يأمر به عباده من إنصاف بعضهم لبعض والعمل على السوية فيما بينهم. واعلم أن وجوب

الوجود يلزمه الغنى المطلق والعلم التام والفيض العام والحكمة الكاملة والرحمة الشاملة وعدم الانقسام بجهة من الجهات وعدم الافتقار بوجه من الوجوه إلى شيء من الأشياء وعدم النقص والنقض في شيء من الأفعال والأحكام إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى والصفات العليا . ومركوز في العقل السليم أن من هذا شأنه لا يصدر منه شيء إلا على وفق العدالة وقضية التسوية ورعاية الأصلح عموماً أو خصوصاً . فكل ما يخيل إلى المكلف أنه خارج عن قانون العدالة أو يشبه الجور أو القبح ، وجب أن ينسب ذلك إلى قصور فهمه وعدم إحاطته التامة بسلسلة الأسباب والمسببات والمبادىء والغايات ، فانظر في كيفية خلقه أعضاء الإنسان حتى تعرف عدل الله وحكمته فيها ، ثم انظر إلى اختلاف أحوال الخلق في الحسن والقبح والغنى والفقر والصحة والسقم وطول العمر وقصره واللذة والألم ، واقطع بأن كل ذلك عدل وصواب . ثم انظر في كيفية خلقه العناصر وأجرام الأفلاك والكواكب وتقدير كل منها بقدر معين وخاصية معينة ، فكلها حكمة وعدالة . وانظر إلى تفاوت الخلائق في العلم والجهل والفطانة والبلادة والهداية والغواية واقطع بأن كل ذلك عدل وقسط ، فإن الإنسان بل كل ما سوى الله تعالى لم يخلق مستعداً لإدراك تفاصيل كلمات الله . فالخوض في ذلك خوض فيما لا يعنيه بل لا يسعه ولا ينفعه إلا العلم الإجمالي بأنه تعالى واحد في ملكه ، وملكه لا منازع له فيه ولا مضاد ولا مانع لقضائه ولا راد ، وأن الكل بقضائه وقدره ، وفي كل واحد من مصنوعاته ولكل شيء من أفعاله

حكم ومصالح لا يحيط بذلك علماً إلا موجده وخالقه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . هذا هو الدين

(120/115)

القويم والاعتقاد المستقيم ، والعدول عنه مراء ، والجدال فيه هراء . فمن نسبه إلى الجور في فعل من الأفعال فهو الجائر لا على غيره بل على نفسه إذ لا يعترف بجهله وقصوره ، ولكن ينسب ذلك إلى علام الخفيات والمطلع على الكليات والجزئيات من أزل الآزال إلى أبد الآباد . ومن زعم أن شيئاً من الأشياء خيراً أو شراً في اعتقاده حسناً أو قبيحاً بحسب نظره خارج عن مشيئته وإرادته فقد كذب ابن أخت خالته ، لأنه يدعي التوحيد ثم يثبت قادراً آخر أو خالقاً غير الله تعالى ، ولا خالق إلا هو ، فلهذا كرر مضمون الشهادة وقال : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ والتقدير : شهد الله أنه لا إله إلا هو .

وإذا شهد بذلك فقد صح أنه لا إله إلا هو كقولك : الدليل دل على وحدانية الله ، ومتى كان كذلك فقد صح القول بوحدانية الله . وفيه إيقاظ لأمة محمد أن يقولوا على وفق شهادة الله والملائكة وأولي العلم ﴿ لا إله إلا هو ﴾ وإعلام بأن هذه الكلمة يجب أن يكررها المسلم ما أمكنه

هو المسك ما كررته يتضوّع . . . ثم أكد كونه منفرداً بالألوهية وقائماً بالعدل بقوله : ﴿ الغزيز الحكيم ﴾ فالعزيز إشارة إلى كمال القدرة ، والحكيم إشارة إلى كمال العلم . ولا تتم القدرة إلا بالتفرد والاستقلال ، ولا العدالة إلا بالاطلاع على المصالح والأحوال ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ جملة مستأنفة مؤكدة للأولى . والدين في اللغة الجزاء ثم الطاعة . سميت ديناً لأنها سبب الجزاء . والإسلام في اللغة الانقياد والدخول في السلم أو في السلامة أو في إخلاص العبادة من قولهم : " سلم له الشيء " أي خلص له . والإسلام في عرف الشرع يطلق تارة على الإقرار باللسان في الظاهر ومنه قوله تعالى : ﴿ قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾ [الحجرات : 17] ويطلق أخرى على الانقياد الكلي وهو المراد ههنا . وفيه إيذان بأن الدين هو العدل والتوحيد . أما التوحيد فأن يعلم أن الله تعالى لا شريك له ولا نظير في الذات ولا في صفة من الصفات كما شهد هو به ، وأما العدل فهو أن يعلم أن كل ما خلق وأمر المكلف به ونهاه عنه فإنه عدل وصواب وفيه حكم ومصالح ، فيأتمر بذلك وينتهي عنه ليكون عبداً منقاداً معترفاً بأنه تعالى قائم بالقسط . ومن قرأ بفتح

" أن " فتقديره عند البصريين ذلك بدل من الأول ، بدل الكل فكأنه قيل : شهد الله أن الدين عند الله الإسلام فيكون من باب وضع الظاهر موضع المضمر كقوله :

(122/115)

لا أرى الموت يسبق الموت شيء . . . وقيل : تقديره شهد الله أنه لا إله إلا هو وأن الدين عند الله الإسلام . وقيل : شهد الله أنه لا إله إلا هو أن الدين عند الله الإسلام . لأن كونه تعالى واحداً يوجب أن يكون الدين الحق هو الإسلام ، لأن دين الإسلام مشتمل على هذه الواحدانية . وقرىء الأول بالكسر والثاني بالفتح على أن الفعل واقع على الثاني وما بينهما اعتراض . ثم ذكر أنه أوضح الدلائل وأزل الشبهات ، والقوم ما كفروا إلا لقصورهم وتقصيرهم فقال : ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب ﴾ قيل : هم اليهود واختلافهم أن موسى عليه موسى عليه السلام لما قرب وفاته سلم التوراة إلى سبعين رجلاً من الأحبار وجعلهم أمناء عليها واستخلف يوشع ، فلما مضى قرن بعد قرن اختلف أبناء السبعين بعد ما جاءهم التوراة بغياً بينهم وتحاسداً على طلب الدنيا .

(123/115)

وقيل : المراد النصارى واختلافهم في أمر عيسى عليه السلام بعد ما جاءهم العلم أنه عبد الله ورسوله . وقيل : المراد اليهود والنصارى واختلافهم هو أنه قالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله . وأنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا : نحن أحق بالنبوة من قريش لأنهم أميون ونحن أهل كتاب . ﴿ إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ أي الدلائل التي لو نظروا فيها لحصل لهم العلم . لأنا لو حملناه على العلم لزم نسبة العناد إلى جمع عظيم وهو بعيد قاله في التفسير الكبير . ﴿ ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ﴾ لا يصعب عليه عدة أفعاله ومعاصيه وإن كانت كثيرة ، أو المراد أنه سيصل إلى الله سريعاً فيحاسبه أي يجازيه على كفره . ثم بين للرسول صلى الله عليه وسلم ما يقوله في محاجتهم فقال : ﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ﴾ قال الفراء : أي أخلصت عملي لله . فعلى هذا " الوجه " في معنى العمل . وقيل : أي أسلمت وجه عملي لله . فحذف المضاف والمعنى كل ما يصدر مني من الأعمال . فالوجه في الإتيان بها هو عبودية الله والانقياد لإلهيته وحكمه . وقيل : الوجه مقحم ، والتقدير : أسلمت نفسي لله ، وليس في العبادة مقام أعلى من إسلام النفس كأنه موقوف على عبادته معرض عن كل ما سواه ، وقوله : ﴿ ومن اتبعن ﴾ معطوف على الضمير المرفوع في ﴿ أسلمت ﴾ وحسن للفصل . أو مفعول معه والواو بمعنى " مع " . ثم في كيفية إيراد هذا الكلام

طريقان : أحدهما أن هذا إعراض عن المحاجة لأنه صلى الله عليه وسلم كان قد أظهر المعجزات كالقرآن ودعاء الشجرة وكلام الذئب وغيرها ، وقد مر في هذه السورة إبطال إلهية عيسى وإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . ثم بيّن نفي الضد والند والصاحبة والولد بقوله : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ وذكر أن اختلاف هؤلاء اليهود والنصارى إنما هو لأجل البغي والحسد فلم يبق إلا أن يقول : أما أنا ومن اتبعن فمنقادون للحق

(124/115)

مستسلمون له مقبلون على عبودية الله تعالى . وهذا طريق قد يذكره المحتج المحق مع المبطل المصر في آخر كلامه . وثانيهما أن قوله : ﴿ أسلمت ﴾ محاجة وبيانه أن القوم كانوا مقرين بوجود الصانع وكونه مستحقاً للعبادة ، فكأنه صلى الله عليه وسلم قال هذا القول متفق عليه بين الكل فأنا متمسك بهذا القدر المتفق عليه وداعي الخلق إليه ، وإنما الخلاف في أمور وراء ذلك . فاليهود يدعون التشبيه والجسمية ، والنصارى يدعون إلهية عيسى ، والمشركون يدعون وجوب عبادة الأوثان . فهؤلاء هم المدعون لهذه الأشياء فعليهم إثباتها ونظير هذه الآية ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴾

[آل عمران : 64] وعن أبي مسلم أن الآية في هذا الموضع كقول إبراهيم عليه السلام ﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض ﴾ [الأنعام : 79] كأنه قيل : فإن نازعوك يا محمد في هذه التفاصيل فقل : أنا متمسك بطريقة إبراهيم وأنتم معترفون بأنه كان محقاً في قوله صادقاً في دينه ، فيكون من باب التمسك بالإلزامات وداخلاً تحت قوله : ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ [النحل : 125] ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ والأميين ﴾ وهم مشركو العرب الذين لا كتاب لهم ﴿ أأسلمتم ﴾ ومعناه الأمر وفائدته التعيير بالعناد وقلة الإنصاف كقولك لمن لخصت له المسئلة ولم تأل جهداً في سلوك طريقة الكشف والبيان له : هل فهمتها ؟ فإنه يكون توبيخاً له بالبلادة وكلال الذهن ومثله في آية تحريم الخمر ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ [المائدة : 91] إشارة إلى التقاعد عن الانتهاء . ﴿ فإن أسلموا فقد اهتدوا ﴾ إلى ما يهدي الله إليه أو إلى الفوز والنجاة في الآخرة ﴿ وإن تولوا ﴾ أعرضوا عن الإسلام لي والاتباع لك ﴿ فإنما عليك البلاغ ﴾ . ما عليك إلا أن تبلغ الرسالة وتنبه على طريق الرشاد ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ يوفق للصلاح من شاء ويترك على الضلالة من أراد . ثم وصف المتولي بصفات ثلاث

وأردفه بوعيده فقال : ﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ﴾ أي ببعضها المعهود لأن اليهود كانوا مقرين ببعض الآيات الدالة على وجود الصانع وقدرته وعلمه وشيء من المعاد أو بكلها كما هو ظاهر الجمع المضاف ، وتوجيهه أن المكذب ببعض آيات الله كالكافر بجميعها ﴿ ويقتلون النبيين ﴾ أي المعهودين لأنهم ما قتلوا كلهم ولا أكثرهم ﴿ بغير حق ﴾ من غير ما شبهة عندهم ﴿ ويقتلون ﴾ أو يقاتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس . عن الحسن أن في الآية دلالة على أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر تلي منزلته عند الله منزل الأنبياء فلهذا ذكرهم عقيبهم . " وروي أن رجلاً قام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

(126/115)

فقال : أيّ الجهاد أفضل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : أفضل الجهاد كلمة حق عند سطان جائر " فإن قيل : إذا كان قوله : ﴿ إن الذين يكفرون ﴾ في حكم المستقبل لا أقل من الحال لأنه وعيد لمن هو في زمن رسول الله ، ولم يقع منهم قتل الأنبياء ولا القائمين بالقسط ، فكيف يصح الكلام ؟ قلنا : إن القوم كانوا يريدون قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين جميعاً ، إلا أنه تعالى عصمهم منهم فصح إطلاق القاتل عليهم كما يقال : السم قاتل أي ذلك

من شأنه إن وجد القابل . أو نقول : وصفوا بسيرة أسلافهم لأنهم راضون بذلك . عن أبي عبيدة بن الجراح قلت : يا رسول الله أيّ الناس أشد عذاباً يوم القيامة ؟ قال : رجل قتل نبياً أو رجلاً أمر بمعروف ونهى عن منكر ثم قرأ هذه الآية .

ثم قال : يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة . فقام مائة واثنا عشر رجلاً من عباد بني إسرائيل فأمروا قتلتهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعاً من آخر النهار ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ إنما دخلت الفاء لتضمن اسم " إن " معنى الشرط ، فإن لا يغير معنى الابتداء بخلاف " ليت " و " لعل " .

(127/115)

واعلم أنه تعالى قسم وعيدهم إلى ثلاثة أقسام : الأول اجتماع أسباب الآلام والمكاره عليهم وهو العذاب الأليم ، واستعارة البشارة ههنا للتهكم . الثاني زوال أسباب المنافع عنهم بالكلية وهو قوله : ﴿ أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ﴾ أما في الدنيا فإبدال المدح بالذم والثناء باللعن وأسباب الاحترام والاحتشام بأصناف الذل والهوان من السبي والقتل والجزية ، وأما في الآخرة فكما قال عز من قائل ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ [الفرقان : 23] الثالث لزوم ذلك في حقهم وهو قوله : ﴿ وما

لهم من ناصرين ﴾ ثم ذكر غاية عناد أهل الكتاب فقال : ﴿ ألم تر إلى الذين ﴾ عن ابن عباس قال : " دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدراس على جماعة من اليهود فدعاهم إلى الله فقال له نعيم بن عمرو والحرث بن زيد : على أي دين أنت يا محمد ؟ فقال : على ملة إبراهيم . فقالا : إن إبراهيم كان يهودياً . فقال رسول الله : فهلموا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم فأبيا " فنزلت . وقال الكلبي : نزلت في اللذين زنيا من خيبر وحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهما بالرجم وأنكر اليهود عليه صلى الله عليه وسلم وسوف تجيء القصة في سورة المائدة مفصلة . وقيل : دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم أو إياهم والنصارى إلى الآيات الدالة على صحة نبوته من التوراة أو منها ومن الإنجيل فأبوا فنزلت . ومعنى قوله : ﴿ أوتوا نصيباً ﴾ أي حظاً وافراً من علم الكتاب يريد أحبار اليهود . و " من " إما للتبعيض وإما للبيان . والكتاب يراد به غير القرآن من الكتب التي كانوا مقرين بحقيتها . وقيل : أي حصلوا من جنس الكتب المنزلة أو من اللوح التوراة وهي نصيب عظيم . ثم بين سبب التعجيب بقوله : ﴿ يدعون إلى كتاب الله ﴾ وهو التوراة كما مر في أسباب النزول ، ولأنه تعالى عجب رسوله من تمردهم وإعراضهم ، وإنما يتوده التعجيب إذا تمردوا عن حكم الكتاب الذي يعتقدون صحته .

وعن ابن عباس أنه القرآن وليس ببعيد لأنهم دعوا إليه بعد قيام الحجج على أنه كتاب من عند الله ليحكم أي الكتاب بينهم أي بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحذف الثاني للعلم به . أو يراد الحكم في الاختلاف الواقع بينهم كما في قصة الزانيين ، ولهذا راجعوا في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء أن يكون عنده رخصة في ترك الرجم ، قال في الكشاف : والوجه أن يراد ما وقع من الاختلاف والتعادي بين من أسلم من أحبارهم وبين من لم يسلم وأنهم دعوا إلى كتاب الله الذي لا اختلاف بينهم في صحته وهو التوراة ليحكم بين المحق والمبطل منهم ﴿ ثم يتولى فريق منهم ﴾ وهم الرؤساء والأحبار أو الذين لم يسلموا من أحبارهم ومعنى " ثم " استبعاد ما بين رتبتي الدعاء والتولي ﴿ وهم معرضون ﴾ قوم لا يزال الإعراض ديدنهم وهجيراهم .

والضمير في " هم " إما أن يرجع إلى الفريق أي هم جامعون بين التولي والإعراض لا عن استماعهم الحجة في ذلك المقام فقط ، بل عنه وعن سائر المقامات . وإما أن يرجع إلى الباقين منهم فيكون قد وصف العلماء والرؤساء بالتولي والباقين بالإعراض لأجل إعراض

علمائهم ومتقدميهم . وإما أن يرجع إلى كل أهل الكتاب أي هم قوم عادتهم الإعراض عن قبول الحق ذلك التولي والإعراض ، أو ذلك العقاب أو الوعيد بسبب أنهم كانوا يتساهلون في أمر العقاب ولا يفرقون بين ما يتعلق بأصول الدين وبين ما يتعلق بفروعها فقالوا : ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ﴾ [البقرة : 8] هي أيام عبادة العجل فاستوجبوا الذم من وجوه : أحدها استقصار مدة العذاب ومن أين لهم العلم بذلك ؟ وثانيها أن عبادة العجل كفر والكفر يستحق به الكافر عذاباً دائماً . وثالثها أن استثناء الأيام المعدودات فقط فيه دليل على أنهم استحقروا تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وذلك كفر صريح . ﴿ وغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴾ من قولهم : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ [المائدة : 18] أو من قولهم : ﴿ لن تمسنا النار إلا إياماً ﴾ [البقرة : 8] أو من قولهم " نحن أولى بالنبوة من قريش " أو من زعمهم أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم . ﴿ فكيف ﴾ يصنعون ؟ أو فكيف حالهم ؟ وفي هذا الحذف فخامة لما فيه من تحريك النفس على استحضار كل نوع من العذاب ﴿ إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ﴾ قال الفراء : إذا قلت جمعوا اليوم الخميس معناه جمعوا لفعل يوجد في يوم الخميس . أما إذا قلت : جمعوا في يوم الخميس فلا تضمر فعلاً . وأيضاً من المعلوم أن ذلك اليوم لا فائدة فيه إلا المجازاة والفرق بين المثاب والمعاقب . ﴿ ووفيت كل نفس ما كسبت ﴾ من ثواب أو عقاب أو جزاء ما عملت ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ يرجع إلى كل نفس على المعنى لأنه في معنى كل الناس كما

تقول : ثلاثة أنفس تريد ثلاثة أناسي . روي أن أول راية ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار راية اليهود فيفضحهم الله على رؤوس الإشهاد ثم يأمر بهم إلى النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 2 صـ 126 . 133 ﴾

(130/115)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ ستغلبون ﴾ إشارة إلى أن المبتلى بالكفر مغلوب الحكم الأزلي بالشقاوة ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا ﴾ [المؤمنون : 106] ثم مغلوب الهوى والنفس والشيطان ولذات الدنيا . فبغلبات النفس والهوى يرد إلى أسفل سافلي الطبيعة فيعيش فيها ثم يموت على ما عاش فيه ويحشر على ما مات عليه في قعر جهنم وبئس المهاد ، مهاد مهده في معاشه . ﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتا ﴾ إن لله تعالى فئتين في الظاهر من المؤمن والكافر ، وفئتين في الباطن من القلب وصفاته والنفس وصفاتها الذميمة ، ولهما الحرب والالتقاء على الدوام وهو الجهاد الأكبر ﴿ والله يؤيد بنصره من يشاء ﴾ من القلب وجنوده وهم الروح والسر والأوصاف الحميدة والملائكة ، ومن النفس وأعوانها وهم

الهوى والدنيا والأوصاف الذميمة والشياطين ثم أخبر عن جنود الفئتين وأعوان الفرقتين بقوله : ﴿ زين للناس ﴾ . واعلم أن الله خلق الخلق على طبقات ثلاث : العوام ويعبر عنهم بلفظ الناس والغالب عليهم الهوى وهم أصحاب النفوس ، والخواص ويعبر عنهم بلفظ المؤمن وهم أرباب الأرواح والغالب عليهم التقوى ، وخواص الخواص ويذكرهم بلفظ الولي ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [يونس : 62] والغالب فهيم المحبة والشوق . ثم إن لجهنم سبع دركات محفوفة بالشهوات . فأشار بالنساء إلى شهوة الفرج ، وبالبنين إلى شهوة الطبيعة الحيوانية المائلة إلى الولد ، وبالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة إلى شهوة الحرص على المال ، وبالخيل المسوّمة إلى شهوة الجاه والخيلاء بالركوب عليها ، وبالأنعام إلى شهوة الجمال والاقتناء ﴿ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴾ [النحل : 6] وبالحرث إلى شهوة الحكم والرياسة على الرعايا وأهل القرى . ثم ذكر درجات الجنات الثمانية للخواص منها التقوى للذين اتقوا والرضا بالقضاء ﴿ ورضوان من الله ﴾ والإيمان ﴿ ربنا إننا آمنا ﴾ والصبر والصدق والقنوت والإنفاق والاستغفار بالأسحار هذه جنات عاجلة تجري من تحتها الأنهار الألطاف والواردات . والأزواج المطهرة الأخلاق الفاضلة التي

تتولد منها ، فإذا عاش في الجنات مات وحشر كذلك . ثم أشار إلى أحوال خواص الخواص مستورة من نظر الخواص محفوظة عن فهم العوام بقوله : ﴿ والله عنده حسن المآب ﴾ ما احلولى لهم الدنيا يا دنيا مري على أوليائي ولا وقفوا عند جنة المأوى ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ [النجم : 17] وإنما طلبوا قرب المولى ﴿ للذين أحسنوا الحسنى ﴾ [يونس : 26] ﴿ شهد الله ﴾ بكلامه الأزلي عن عمله السرمدي على ذاته الأحدي وكونه الصمدي ﴿ أنه لا إله إلا هو ﴾ وهي شهادة الحق للحق بالحق أنه الحق ، وهو متفرد بهذه الشهادة الأزلية الأبدية لا يشاركه فيها أحد ، فكما أن ذاته لا تشبه الذوات وصفاته لا تشبه الصفات ، فشهادته لا تشبه الشهادات . شهد بجلال قدره على كمال عزه حين لا حين ولا أين ولا عقل ولا جهل ولا غير ولا شرك ولا عرش ولا فرش ولا الجنة ولا النار ولا الليل ولا النهار ولا الجن ولا الإنس ولا الملائكة ولا أولو العلم ولا الإنكار ولا الإقرار ، فأخبر الذي كان عما كان كما كان وهو أنه لا إله إلا هو ، ثم أبدع الموجودات كما شاء على ما شاء لما شاء .

فكل جزء من أجزائها ، وكل ذرة من ذراتها ، بوجوده مفصح ، ولربوبيته موضح ، وعلى قدمه شاهد ، ولكن ينبوع ماء التوحيد هو القدم فجرى في مجاري أنهار المحدثات إلى أن ظهر من عيون الملائكة وأولي العلم . ثم الملائكة وإن كانوا مظهر ماء التوحيد كما كان أولو

العلم ، ولكن اختص أولو العلم منهم بمشربية ﴿ وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ [الفتح : 26] .

لي سكرتان وللندمان واحدة . . . شيء خصصت به من بينهم وحدي

(132/115)

فحقيقة معنى الآية : شهد الله أنه لا إله إلا هو وهو قائم بالقسط على أمور عباده حتى يشهد على شهادته الملائكة وأولو العلم . ثم فائدة التكرار بقوله ﴿ لا إله إلا هو ﴾ عائدة إلى أولي العلم الذين لهم شركة مع الملائكة في مظهرية ماء التوحيد بالشهادة ، ولهم اختصاص بالمشربية لماء التوحيد فشاهدوا حقيقة ﴿ لا إله إلا هو العزيز ﴾ الذي لا يشاهد عزته إلا أعزته من بين البرية ﴿ الحكيم ﴾ الذي بحكمته اختارهم لهذه العزة من جملة الخليقة . ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب ﴾ الاختلاف في الصورة من نتائج تناكر الأرواح في عالم المعنى والأرواح فما تعارف منها في الميثاق لتقاربهم في الصف أو لتقابلهم في المنزل ائتلف ، وما تناكر منها لتباعدهم في الصف أو لتدابرهم في المنزل اختلف . ﴿ إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ فيه أن العلم مظنة الحسد ، ولكن المحمود منه ما يخص باسم الغبطة . ﴿ ويقتلون النبيين ﴾ الإنسان خلق مستعداً لقبول فيض صفات

لطف الحق وقهره ، فكما أن كمال الإنسان في قبول فيض اللطف أن يفدي نفسه في متابعة الأنبياء حتى يكون خير البرية ، فنقصانه في قبول فيض القهر أن يقتل الأنبياء حتى يكون شر البرية ، فلهذا تحبط أعماله ولا ترجى توبته وترجى توبة إبليس ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ﴾ فيه إشارة إلى أن من أوتي حظاً من العلم فعليه إذا دعي إلى حكم من أحكام الله أو إلى ترك الدنيا ومخالفة الهوى أن يمتثل وينقاد وإلا كان مغرورا بالدنيا مفترياً في الدعوى ، وهذه حال أكثر من أوتي نصيبا من علم الظاهر ولم يؤت حظاً من علم الباطن ، فهم أهل العزة بالله فكيف حال المغرورين إذا جمعهم الله ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 2 صـ 133.135 ﴾

(133/115)

قوله تعالى ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أخبر تعالى أن الكفار سيغلبون وأنه ليس لهم من ناصرين كان حالهم مقتضياً لأن يقولوا

: كيف ونحن أكثر من الحصى وأشد شكائم من ليوث الشرى ، فكيف نغلب ؟ أم كيف لا ينصر بعضنا بعضاً وفينا الملوك والأمراء والأكابر والرؤساء ومناوونا القليل الضعفاء ، أهل الأرض الغبراء ، وأولو البأساء والضراء ، فقال تعالى لينتبه الراقدون من فرش الغفلات المتقلبون في فلوات البلادات من تلهيهم بما رأوا وسمعوا من نزع الملك من أقوى الناس وإعطائه لأضعفهم فيعلموا أن الذي من شأنه أن يفعل ذلك مع بعض أعدائه جدير بأن يفعل أضعافه لأوليائه : ﴿ قل اللهم ﴾ قال الحرالي : ولما كان هذا الأمر نبوة ثم خلافة ثم ملكاً فانتظم بما تقدم من أول السورة أمر النبوة في التنزيل والإنزال ، وأمر الخلافة في ذكر الراسخين في العلم الذين يقولون :

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ﴾ [آل عمران : 8] ، وكانت من هجيري أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، يقنت بها في وتر صلاة النهار في آخر ركعة من المغرب - انتظم برؤوس تلك المعاني ذكر الملك الذي آتى الله هذه الأمة ، وخص به من لاق به الملك ، كما خص بالخلافة من صلحت له الخلافة ، كما تعين للنبوة الخاتمة من لا يحملها سواه - انتهى ؛ فقال : ﴿ قل ﴾ أي يا محمد أو يا من آمن بنا مخاطباً لإلهك مسمعاً لهم ومعرضاً عنهم ومنبهاً لهم من سكرات غفلاتهم في إقبالهم على ملوك لا شيء في أيديهم ، وإعراضهم عن هذا الملك الأعظم الذي بيده كل شيء .

قال الحرالي : لعلو منزل هذه السورة كثر الإقبال فيها بالخطاب على النبي صلى الله عليه وسلم وجعل القائل لما كانت المجاورة معه ، لأن منزل القرآن ما كان منه لإصلاح ما بين الخلق وربهم يجيء الخطاب فيه من الله سبحانه وتعالى إليهم مواجهة حتى ينتهي إلى الإعراض عند إباء من يأبى منهم ، وما كان لإصلاح ما بين الأمة ونبيها يجري الله الخطاب فيه على لسانه من حيث توجههم بالمجاورة إليه ، فإذا قالوا قولاً يقصدونه به قال الله عز وجل : قل لهم ، ولكون القرآن متلواً ثبتت فيه كلمة قل - انتهى .

﴿ اللهم مالك الملك ﴾ أي لا يملك شيئاً منه غيرك .

(135/115)

قال الحرالي : فأقنعه صلى الله عليه وسلم ملك ربه ، فمن كان منه ومن آله وخلفائه وصحابته يكون من إسلامه وجهه لربه إسلام الملك كله الذي منه شرف الدنيا لله ، فلذلك لم يكن صلى الله عليه وسلم يتظاهر بالملك ولا يأخذه مآخذه ، لأنه كان نبياً عبداً ، لا نبياً ملكاً ، فأسلم الملك لله ، كذلك خلفاؤه أسلموا الملك لله فلبسوا الخلقان والمرقعات واقتصروا على شظف العيش ، ولانوا في الحق ، وحملوا جفاء الغريب ، واتبعوا اثره في

العبودية ، فأسلموا الملك لله سبحانه وتعالى ، ولم ينازعوه شيئاً منه ، حمل عمر رضي الله تعالى عنه قربة على ظهره في زمن خلافته حتى سكبها في دار امرأة من الأنصار في أقصى المدينة ، فلما جاء الله بزمن الملك واستوفيت أيام الخلافة عقب وفاء زمان النبوة أظهر الله سبحانه وتعالى الملك في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكما خصص بالنبوة والإمامة بيت محمد وآل محمد صلى الله عليه وسلم وخصص بالخلافة فقراء المهاجرين خصص بالملك الطلقاء الذين كانوا عتقاء الله ورسوله ، لينال كل من رحمة الله وفضله ، التي ولى جميعها نبيه صلى الله عليه وسلم كلّ طائفة على قدر قربهم منه ، حتى اختص بالتقدم قريشاً ما كانت ، ثم العرب ما كانت إلى ما صار له الأمر بعد الملك من سلطنة وتجبر إلى ما يصير إليه من دجل كل ذلك مخول لمن يخوله بحسب القرب والبعد منه ﴿ تؤتي الملك من تشآء ﴾ في الإيتاء إشعار بأنه تنويل من الله من غير قوة وغلبة ولا مطاولة فيه وفي التعبير بمن العامة للعقلاء إشعار بمنال الملك من لم يكن من أهله وأخص الناس بالبعد منه العرب ، ففيه إشعار بأن الله ينول ملك فارس والروم العرب كما وقع منه ما وقع ، وينتهي منه ما بقي إلى من نال الملك بسببها وعن الاستناد إليها من سائر الأمم الذين دخلوا في هذه الأمة من قبائل الأعاجم وصنوف أهل الأقطار حتى ينتهي الأمر إلى أن يسلب الله الملك جميع أهل الأرض ، فيعيده إلى إمام العرب الخاتم

للهداية من ذريته ختمه صلى الله عليه وسلم للنبوة من ذرية آدم ، ويؤتيهم من المكنة ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " لو شاء أحدهم أن يسير من المشرق إلى المغرب في خطوة لفعل " ومع ذلك فليسوا من الدنيا وليست الدنيا منهم ، فيؤتيهم الله ملكاً من ملكه – ظاهر هداية من هداه ، شافة عن سره الذي يستعلن به في خاتمة يوم الدنيا ليتصل بظهوره ملك يوم الدين ، والملك التلبس بشرف الدنيا والاستئثار بخيرها ؛ قال أبو بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما في وصيته : إذا جنيت فلتهجر يدك فاك حتى يشبع من جنيت له ، فإن نازعتك نفسك في مشاركتهم فشاركهم غير مستأثر عليهم ، وإياك والذخيرة ! فإن الذخيرة تهلك دين الإمام وتسفك دمه ، فالملك التباس بشرف الدنيا واستئثار بخيرها واتخاذ ذخيرة منها .

لما أرادوا أن يغيروا على عمر رضي الله تعالى عنه زيه عند إقباله على بيت المقدس نبذ زيهم وقال : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام ! فلن نلتمس العزة بغيره .

فمن التمس الشرف بجاه الدنيا فهو ملك بقدر ما يلتمس من شرفها قل ذلك الحظ أو جل ، وهو به من أتباع ملوك الدنيا ، وكذلك من التمس الاستئثار بخيرها واتخذ الذخيرة منها ، كل ينال من الملك ويكون من شيعة الملوك بحسب ما ينال ويحب من ذلك حتى ينتهي إلى حشره مع الصنف الذي يميل إليه ، فمن تذلل وتقلل وتوكل بعث مع الأنبياء والمرسلين والخلفاء ، كما أن من تشرف بالدنيا واستأثر وادخر منها حشر مع الملوك والسلاطين ؛ جلس عمر رضي الله تعالى عنه يوماً وسلمان وكعب وجماعة رضي الله تعالى عنهم فقال : أخبروني أخليفة أنا أم ملك ؟ فقال له سلمان رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين ! إن جبيت درهماً من هذا المال فوضعته في غيره حقه فأنت ملك ، وإن لم تضعه إلا في حقه فأنت خليفة ، فقال كعب : رحم الله تعالى ! ما ظننت أن أحداً يعرف الفرق بين الخليفة والملك غيري ، فالتزام مرارة العدل وإيثار الغير خلافة وتشيع في سبيلها ، ومنال حلاوة الاستئثار بالعاجلة شرفها ومالها ملك وتحيز لتباعه - انتهى .

وفي تقديم الإيتاء على النزع إشارة إلى أن الداعي ينبغي أن يبدأ بالترغيب ﴿ وتنزع ﴾ قال الحرالي : من النزع ، وهو الأخذ بشدة وبطش - انتهى .

﴿ الملك ممن تشآء ﴾ وفيه إشارة إلى إن الدعاء باللين إن لم يجدِ ثني بالترهيب ، وعلى هذا المنوال أبرز قوله : ﴿ وتعز من تشآء ﴾ أي إعزازه ﴿ وتذل من تشآء ﴾ أي إذلاله ، وهو كما قال : " إن رحمتي سبقت غضبي " قال الحرالي : وفي كلمة النزع بما ينبىء عنه من البطش والقوة ما يناسب معنى الإيتاء ، فهو إيتاء للعرب ونزع من العجم ، كما ورد أن كسرى رأى في منامه أنه يقال له : سلم ما بيدك لصاحب الهراوة ، فنزع مُلكَ الملوك من الأكاسرة والقياصرة وخوله قريشاً ومن قام بأمرها وانتحل الملك باسمها من صنوف الأمم غرباً وشرقاً وجنوباً وشمالاً ، إلى ما يتم به الأمر في الختم ، والعز - والله سبحانه وتعالى أعلم - عزة الله سبحانه وتعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ [المنافقون : 8] ليكون في الخطاب إنباء بشرى لهم أنه أتاهم من العز بالدين ما هو خير من الشرف بملك الدنيا ﴿ من كان يريد العزة فللّه العزة جميعاً ﴾ [فاطر : 10] فالملوك وإن تشرفوا بملك الدنيا فليس لهم من عزة الدين شيء ، أعزهم الله سبحانه وتعالى بالدين ، تخدمهم الأحرار وتتوطد لهم الأمصار ، لا يجدون وحشة ، ولا يحصرون في محل ، ولا تسقط لهم حرمة حيث ما حلوا وحيث ما كانوا استتروا أو اشتهروا ، والمتلبسون بالملك لا يخدمهم إلا من استرقوه قهراً ، يملكون تصنع الخلق ولا يملكون محاب قلوبهم ، محصورون في أقطار ممالكهم ، لا يخرجون عنها ولا ينتقلون منها حتى يمنعهم من كمال الدين ، فلا ينصرفون في الأرض ولا يضربون فيها ، حتى يمتنع ملوك من الحج مخافة نيل الذل في غير موطن الملك ،

والله عز وجل يقول : " إن عبداً أصححت له جسمه ، وأوسعت عليه في رزقه ، يقيم خمسة أعوام لا يفد على المحروم " فالملوك مملوكون بما ملكوا ، وأعزاء الله ممكنون فيما إليه وجهوا ، لا يصدهم عن تكملة أمر الدين وإصلاح أمر الآخرة صادّ ، ولا يردهم عنه راد لخروجهم من سجن الملك إلى سعة العز بعزة الله سبحان وتعالى

(139/115)

، فقارض الله أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم ، ولم يرضه للملك بعز الإمامة ورفعة الولاية والاستيلاء على محاب القلوب فاسترعاهم الله قلوب العالمين بما استرعى الملوك بعض حواس المستخدمين والمستتبعين ، والذل مقابل ذلك العزة ، فإذا كان ذلك العز عزاً دينياً ربانياً عوضاً عن سلب الملك كان هذا الذل – والله تعالى أعلم – ذل أهل الدنيا في دنياهم الذي ألزمهم سبحانه وتعالى إياه بما أذلتهم أنفسهم ، فاستعملتهم في شواتها وأذلهم أتباعهم فتوسلوا بهم إلى قضاء أغراضهم في أهوائهم ، ويستذلهم من يظلمونه بما ينتصفون منهم ، وينالهم من ذل تضييع الدين ، ويبدو على وجوههم من ظلمة الظلم ما يشهد ذلهم فيه أبصار العارفين – انتهى .

ولعل نصارى نجران أشد قصداً بهذا الخطاب ، فإنهم خافوا أن ينزع منه ملوك الروم ما

خولوهم فيه من الدنيا إن أخبروا بما يعلمون من أمر هذا النبي الأمي صلى الله عليه وسلم .

ولما تقرر أنه مالك لما تقدم أنتج أن له التصرف المطلق فعبر عنه بقوله : ﴿ بيدك ﴾ أي وحدك ﴿ الخير ﴾ ولم يذكر الشر تعليماً لعباده الأدب في خطابه ، وترغيباً لهم في الإقبال عليه والإعراض عما سواه ، لأن العادة جارية بأن الناس أسرع شيء إلى معطي النوال وباذل الأموال ، وتنبيهاً على أن الشر أهل للإعراض عن كل شيء من أمره حتى عن مجرد ذكره وإخطاره بالبال ، مع أن الاقتصار على الخير يملك الخير كله مستلزم لمثل ذلك في الشر ، لأنهما ضدان ، كل منهما مساوٍ لنقيض الآخر ، فإثبات أحدهما نفي للآخر ونفيه إثبات للآخر ، فلا يعطى الخير إلا وقد نفي الشر ، ولا ينزع الخير إلا وقد وضع الشر - والله سبحانه وتعالى أعلم .

ولما أفهم أن الشر بيده كما أعلم أن الخير بيده وخاص به قرر ذلك على وجه أعم بقوله معللاً : ﴿ إنك على كل شيء قدير ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 51 . 55 ﴾

(140/115)

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل التوحيد والنبوّة ، وصحة دين الإسلام ، ثم قال لرسوله ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ اتبعن ﴾ [آل عمران : 20] ثم ذكر من صفات المخالفين كفرهم بالله ، وقتلهم الأنبياء والصالحين بغير حق ، وذكر شدة عنادهم وتمردهم في قوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين أُوتُواْ نَصِيبًا مّنَ الكتاب ﴾ [آل عمران : 23] ثم ذكر شدة غرورهم بقوله ﴿ لَن تَمَسَّنَا النار إِلا أَيَّامًا معدودات ﴾ [آل عمران : 24] ثم ذكر وعيدهم بقوله ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جمعناهم لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [آل عمران : 25] أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعاء وتمجيد يدل على مباينة طريقه وطريق أتباعه ، لطريقة هؤلاء الكافرين المعاندين المعرضين ، فقال معلماً نبيّه كيف يمجّد ويعظم ويدعو ويطلب ﴿ قُلِ اللهم مالك الملك ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 3 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾

استئناف ابتدائي المقصود منه التعريض بأهل الكتاب بأن أعراضهم إنما هو حسد على زوال النبوة منهم ، وانقراض الملك منهم ، بتهديدهم وبإقامة الحجة عليهم في أنه لا عجب أنت تنتقل النبوة من بني إسرائيل إلى العرب ، مع الإيماء إلى أن الشريعة الإسلامية شريعة مقارنة للسلطان والملك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 67 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قُلِ اللهم مالك الملك ﴾ تأكيد لما تشعر به الآية السابقة من مزيد عظمته تعالى وعظيم قدرته ؛ وفيه أيضاً إفحام لمن كذب النبي صلى الله عليه وسلم ورد عليه لاسيما المنافقين الذين هم أسوأ حالاً من اليهود والنصارى ، وبشارة له صلى الله عليه وسلم بالغلبة الحسية على من خالفه كغلبته بالحجة على من جادله ، وبهذا تنتظم هذه الآية الكريمة بما قبلها .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 112 ﴾

(141/115)

اللغة :

[اللهم] أصله يا الله حذفت اداة النداء واستعيض عنها بالميم المشددة ، هكذا قال الخليل وسيبويه

[تنزع] تسلب ويعبر به عن الزوال يقال : نزع الله عنه الشر أى أزاله

[تولج] الايلاج : الادخال ، يقال : ولج يلج ولوجا ومنه [حتى يلج الجمل في سم الخياط]

[أمدا] الامد : غاية الشيء ومنتهاه وجمعه اماد

[تقاة] تقية وهي مداراة الإنسان مخافة شره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 194 ﴾

(142/115)

فصل

قال الفخر :

اختلف النحويون في قوله ﴿ اللهم ﴾ فقال الخليل وسيبويه ﴿ اللهم ﴾ معناه : يا الله ، والميم المشددة عوض من يا ، وقال الفرّاء : كان أصلها ، يا الله أم بخير : فلما كثر في الكلام حذفوا حرف النداء ، وحذفوا الهمزة من : أم ، فصار ﴿ اللهم ﴾ ونظيره قول العرب : هلم ، والأصل : هل ، فضم : أم إليها ، حجة الأولين على فساد قول الفرّاء وجوه

الأول : لو كان الأمر على ما قاله الفراء لما صحّ أن يقال : اللّهم افعل كذا إلا بحرف العطف ، لأن التقدير : يا الله أمنا واغفر لنا ، ولم نجد أحداً يذكر هذا الحرف العاطف

والثاني : وهو حجة الزجاج أنه لو كان الأمر كما قال ، لجاز أن يتكلم به على أصله ، فيقال (الله أم) كما يقال (ويلم) ثم يتكلم به على الأصل فيقال (وَيْل أُمِّهُ)

الثالث : لو كان الأمر على ما قاله الفراء لكان حرف النداء محذوفاً ، فكان يجوز أن يقال :

يا اللّهم ، فلما لم يكن هذا جائزاً علمنا فساد قول الفراء بل نقول : كان يجب أن يكون حرف النداء لازماً ، كما يقال : يا الله اغفر لي ،

وأجاب الفراء عن هذه الوجوه ، فقال : أما الأول فضعيف ، لأن قوله (يا الله أم) معناه : يا الله اقصد ، فلو قال : واغفر لكان المعطوف مغايراً للمعطوف عليه فحينئذ يصير السؤال سؤالين أحدهما : قوله ﴿ أمنا ﴾

والثاني : قوله ﴿ واغفر لَنَا ﴾ [البقرة : 286] أما إذا حذفنا العطف صار قوله : اغفر لنا تفسيراً لقوله : أمنا .

فكان المطلوب في الحالين شيئاً واحداً فكان ذلك آكد ، ونظائره كثيرة في القرآن ،

وأما الثاني فضعيف أيضاً ، لأن أصله عندنا أن يقال : يا الله أمنا .

(143/115)

ومن الذي ينكر جواز التكلم بذلك ، وأيضاً فلأن كثيراً من الألفاظ لا يجوز فيها إقامة الفرع مقام الأصل ، ألا ترى أن مذهب الخليل وسيبويه أن قوله : ما أكرمه ، معناه أي شيء أكرمه ثم إنه قط لا يستعمل هذا الكلام الذي زعموا أنه الأصل في معرض التعجب فكذا ههنا ،

وأما الثالث : فمن الذي سلم لكم أنه لا يجوز أن يقالّ : يا اللّهم وأنشد الفرّاء :

وأما عليك أن تقولي كلما . . سبحت أو صليت يا اللّهما

وقول البصريين : إن هذا الشعر غير معروف ، فحاصله تكذيب النقل ، ولو فتحنا هذا الباب لم يبق شيء من اللغة والنحو سليماً عن الطعن ، وأما قوله : كان يلزم أن يكون ذكر حرف النداء لازماً فجوابه أنه قد يحذف حرف النداء كقوله ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصديق أَفْتِنَا ﴾ [يوسف : 46] فلا يبعد أن يختص هذا الاسم بإلزام هذا الحذف ، ثم احتج الفراء على فساد قول البصريين من وجوه

الأول : أنا لو جعلنا الميم قائماً مقام حرف النداء لكنا قد أخرنا النداء عن ذكر المنادى ، وهذا غير جائز ألبتة ، فإنه لا يقال ألبتة (الله يا) وعلى قولكم يكون الأمر كذلك

الثاني : لو كان هذا الحرف قائماً مقام النداء لجاز مثله في سائر الأسماء ، حتى يقال : زيدم وبكرم ، كما يجوز أن يقال : يا زيد ويا بكر

والثالث : لو كان الميم بدلاً عن حرف النداء لما اجتمعا ، لكنهما اجتمعا في الشعر الذي رويناه

الرابع : لم نجد العرب يزيدون هذه المييم في الأسماء التامة لإفادة معنى بعض الحروف المباينة للكلمة الداخلة عليها ، فكان المصير إليه في هذه اللفظة الواحدة حكماً على خلاف الاستقراء العام في اللغة وأنه غير جائز ، فهذا جملة الكلام في هذا الموضع . انتهى ا . هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 4.3 ﴾

وقال ابن عادل :

قوله : " اللَّهُمَّ " اختلف البصريون والكوفيون في هذه اللفظةِ .

(144/115)

قال البصريون : الأصل : يا الله ، فحُذِفَ حَرْفُ النداءِ ، وعُوِّضَ عنه هذه الميمُ المشددة ، وهذا خاصٌّ بهذا الاسم الشريف ، فلايجوز تعويضُ الميم من حرف النداء في غيره ، واستدلوا على أنها عِوَضٌ من " يا " بأنهم لم يجمعوا بينهما إلا في ضرورة الشعر ، كقوله : [الرجز]

وَمَا عَلَيْكِ أنْ تَقُولِي كُلَّمَا . . . سَبَّحْتِ أوْ هَلَّلْتِ يَا اللَّهُمَّ مَا

أُرْدُدْ عَلَيْنَا شَيْخَنَا مُسَلَّمَا . . . فَإنَّنَا مِنْ خَيْرِهِ لَنْ نُعْدَمَا

وقَوْلِ الآخر : [الرجز]

إنِّي إذَا مَا حَدَثٌ ألَمَّا . . . أقُولُ : يَا اللَّهُمَّ ، يَا اللَّهُمَّا

وقال الكوفيون : الميم المشددة بَقِيَّةُ فِعْلٍ محذوفٍ ، تقديره : أمَّنَا بخير ، أي : اقْصِدنا به ، من قولك : أمَمْتُ زيداً ، أي : قصدته ، ومنه : ﴿ ولا آمِّينَ البيت الحرام ﴾ [المائدة : 2] أي : قاصديه ، وعلى هذا فالجمع بين " يا " والميم ليس بضرورةٍ عندهم ، وليست عوضاً

منها .

وقد رَدَّ عليهمُ البصريون هذا بأنه قد سُمِعَ : اللهمَّ أمَّنا بخير ، وقال تعالى : ﴿ اللهمإِن كَانَ هذا هُوَالحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً ﴾ [الأنفال : 32] فقد صرَّح بالمدعُوِّ به ، فلو كانت الميمُ بقيةَ " أمَّنَا " لفسد المعنى ، فبان بُطْلانهُ .

وهذا من الأسماء التي لزمت النداءَ ، فلايجوز أن يقع في غيره ، وقد وقع في ضرورة الشعر كونه فاعلاً ، أنشد الفرّاء : [مخلّع البسيط]

كَحَلْقَةٍ مِنْ أَبِي دِثَارٍ . . . يَسْمَعُهَا اللَّهُمَ الْكُبَارُ

استعمله – هاهنا – فاعلاً بقوله : يسمعها .

ولا يجوز تخفيفُ الميم ، وجوّزه الفراء ، وأنشد البيت : بتخفيف الميم ؛ إذ لا يمكن استقامةُ الوزن إلا بذلك .

قال بعضهم : هذا خطأ فاحشٌ ، وذلك لأن الميم بقية " أمَّنَا " – على رأي الفراء – فكيف يجوزه الفراء ؟ وأجاب عن البيت بأن الرواية ليست كذلك ، بل الرواية : [مخلّع البسيط]

. . . . يَسْمَعُهَا لاَهُمُ

الْكُبَارُ

قال شهابُ الدينِ : " وهذا لا يعارِض الرواية الأخرى ؛ فإنه كما صحّت هذه صحت تلك " .

ورد الزّجّاج مذهب الفراء بأنه لو كان الأصل : يا اللهُ آمّنا للفْظِ به مُنَبِّهاً على الأصل ، كما قالوا – في وَيلمّهِ – : وَيْلُ لأُمِّهِ .

وردوا مذهب الفراءِ – أيضاً – بأنه يلزم منه جواز أن تقول : يا اللهم ، ولما لم يَجُزْ ذلك علمنا فساد قولِ الفراءِ ، بل نقول : كان يجب أن يكون حرف النداء لازماً ، كما يقال : يا اللهُ اغفر لي ، وأجاب الفراء عن قول الزَّجَّاجِ بأن أصله – عندنا – أن يقال : يا اللهُ أمَّنا – ومن يُنْكِر جوازَ التكلم بذلك – ؟ وأيضاً فلأن كثيراً من الألفاظ لا يجوز فيها إقامةُ الفرع مُقامَ الأصل ، ألا ترى أنَّ مذهب الخليل وسيبويه أن " ما أكرمه " معناه : شيء أكرمه ، ثم إنه – قط – لا يُسْتَعْمَل هذا الكلام – الذي زعموا أنه هو الأصل – في معرض التعجُّب ، فكذا هنا .

وأجاب عن الرد الثاني بقوله : مَن الذي يُسَلِّم لكم أنه لا يجوز أن يقال : يا اللهمَّ ، وأنشد قول الراجز المتقدم يا اللّهمّ ، وقول البصريين : هذا الشعر غير معروف ، فحاصله تكذيب النقل ، ولو فتحنا هذا البابَ لم يَبْقَ من اللغة والنحو شيءٌ سَلِيماً من الطعن .

وقولهم : كان يلزم ذكر حرف النداء ، فقد يُحْذَف حرف النداءِ ، كقوله : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا

الصديق ﴾ [يوسف : 46] فلا يبعد أن يُخصَّ هذا الاسم بالتزام الحذف .

واحتج الفراء على فساد قول البصريين بوجوه :

أحدها : أنا لو جعلنا الميم قائماً مقام حرف النداء ، لكنا قد أجزنا تأخير حرف النداء عن ذكر المنادى فيقال : الله يا ، وهذا لا يجوز ألبتة .

ثانيها : لو كان هذا الحرف قائماً مقام النداء لجاز مثلُه في سائر الأسماءِ ، فيقال : زيدُمَّ ، وبكرُمّ كما يجوز يا زيد ، يا بَكر .

(146/115)

ثالثها : لو كانت الميم بدلاً عن حرف النداء لما اجتمعا ، لكنهما اجتمعا في الشعر الذي رويناه .

ومن أحكام هذه اللفظة أنها كثر دورها ، حتى حذفت منها الألف واللام – في قولهم : لا هُمَّ – أي : اللهم .

قال الشاعرُ : [الراجز]

لاهُمَّ إنّ عَامِرَ بْنَ جَهْمِ . . . أحْرَمَ حَجّاً فِي ثِيَابٍ دُسْمِ

وقال آخرُ : [الرجز]

لاهُمَّ إنَّ جُرْهُماً عِبَادُكَا . . . النَّاسُ طُرْفٌ وَهُمْ بِلادُكَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 122 . 124 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ مالك الملك ﴾ في نصبه وجهان

الأول : وهو قول سيبويه أنه منصوب على النداء ، وكذلك قوله ﴿ قُلِ اللهم فَاطِرَ السموات والأرض ﴾ [الزمر : 46] ولا يجوز أن يكون نعتاً لقوله ﴿ اللهم ﴾ لأن قولنا ﴿ اللهم ﴾ مجموع الاسم والحرف ، وهذا المجموع لا يمكن وصفه

والثاني : وهو قول المبرد والزجاج أن ﴿ مالك ﴾ وصف للمنادى المفرد ، لأن هذا الاسم ومعه الميم بمنزلته ومعه (يا) ولا يمتنع الصفة مع الميم ، كما لا يمتنع مع الياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 4 ﴾

وقال ابن عادل :

قوله : ﴿ مَالِكَ المُلك ﴾ فيه أوجه :

أحدها : أنه بدل من " اللَّهُمَّ " .

الثاني : أنه عطف بيان .

الثالث : أنه منادًى ثانٍ ، حُذِف منه حرف النداء ، أي : يا مالكَ المُلك ، وهذا هو البدل

في الحقيقة ؛ إذ البدل على نية تكرار العامل ؛ إلا أن الفرق أن هذا ليس بتابعٍ .

الرابع : أنه نعت لـ " اللَّهُمَّ " على الموضع ، فلذلك نُصِبَ ، وهذا ليس مذهبَ سيبويه ؛ لأنه لا يُجيز نعتَ هذه اللفظة ؛ لوجود الميم في آخرها ؛ لأنها أخرجتها عن نظائِرها من الأسماء ، وأجاز المبرّدُ ذلك ، واختارَه الزّجّاج ، قالا : لأن الميم بدل من " يا " والمنادى مع " يا " لا يمتنع وصفه ، فكذا مع ما هو عوضٌ منها ، وأيضاً فإن الاسمَ لم يتغير عن حكمه ؛ ألا ترى إلى بقائه مبنيًّا على الضم كما كان مبنيًّا مع " يا " .

(147/115)

وانتصر الفارسيّ لسيبويه ، بأنه ليس في الأسماء الموصوفة شيء على حد " اللَّهُمَّ " ، فإذا خالف ما عليه الأسماء الموصوفة ، ودخل في حيِّز ما لا يوصَف من الأصوات ، وجب أن لا يُوصف . والأسماء المناداة ، المفردة ، المعرفة ، القياس أن لا تُوصَف - كما ذهب إليه بعضُ الناسِ ؛ لأنها واقعة موقع ما لا يوصف وكما أنه لما وقع موقع ما لا ذهب إليه بعضُ الناسِ ؛ لأنها واقعة موضع ما لا يوصف وكما أنه لما موقع ما لا يعرب لم يعرب ، كذلك لما وقع موقع ما لا يوصف لم يوصف ، فأما قوله : [الرجز]

يا حَكَمَ الْوَارِثُ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكْ . . . [وقوله] : [الرجز]

يَا حَكَمُ بْنَ الْمُنْذِرِ بْنِ الْجَارُودْ . . . سُرَادِقُ الْمَجْدِ عَلَيْكَ مَمْدُودْ

وقوله : [الوافر]

فَمَا كَعْبُ بْنُ مَامَةَ وَابْنُ سُعْدَى . . . بِأَجْوَدَ مِنْكَ يَا عُمَرَ الجَوَادَا

فإن الأول على أنت .

والثاني على نداء ثانٍ

والثالث : على إضمار أعني .

فلما كان هذا الاسم الأصل فيه أن لا يوصَف ؛ لما ذكرنا ، كان " اللهم " أولى أن لا يوصَف ، لأنه قبل ضَمِّ الميم إليه واقعٌ موقع ما لا يوصف ، فلما ضُمَّت إليه الميم صِيغ معها صياغةً مخصوصةً فصال حكمه حكم الأصواب ، وحكم الأصوات أن لا توصف نحو غاقٍ ، وهذا - مع ما ضُمَّ إليه من الميم - بمنزلة صوت مضمومٍ إلى صوتٍ نحو حَيَّهَلْ ، فحقه أن لا يوصَف ، كما لا يوصَف حيّهَلْ .

قال شهابُ الدين : " هذا ما انتصر به أبو علي لسيبويه ، وإن كان لا ينتهض مانعاً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 124.126 ﴾

فصل فى سبب نزول الآية

قال الآلوسى :

روى الواحدي عن ابن عباس وأنس بن مالك أنه لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وعد أمته ملك فارس والروم قالت المنافقون واليهود : هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم هم أعز وأمنع من ذلك ألم يكف محمداً مكة والمدينة حتى يطمع في ملك فارس والروم ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية . وروى أبو الحسن الثعالبي عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف قال : حدثني أبي عن أبيه قال : خط رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق عام الأحزاب ثم قطع لكل عشرة أربعين ذراعاً قال عمرو بن عوف : كنت أنا وسلمان الفارسي وحذيفة والنعمان بن مقرن المزني ، وستة من الأنصار في أربعين ذراعاً فحفرنا فأخرج الله تعالى من بطن الخندق صخرة مدورة كسرت حديدنا وشقت علينا فقلنا : يا سلمان إرق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره خبر هذه الصخرة فإما أن نعدل عنها أو يأمرنا فيها بأمره فإنا لا نحب أن نجاوز خطه قال : فرقى سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ضارب عليه قبة تركية فقال : يا رسول الله خرجت صخرة بيضاء مدورة من بطن الخندق وكسرت حديدنا وشقت علينا حتى يحتك فيها قليل ولا كثير فمرنا فيها بأمر فإنا لا نحب أن نجاوز خطك فهبط رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سلمان الخندق والتسعة على شفير الخندق فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم المعول من سلمان فضربها ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحاً

في جوف بيت مظلم وكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح فكبر المسلمون ثم ضربها صلى الله عليه وسلم الثانية فبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحاً في جوف بيت مظلم وكبر صلى الله عليه وسلم تكبير فتح وكبر المسلمون ثم ضربها عليه الصلاة والسلام الثالثة فكسرها وبرق منها برق كذلك فكبر صلى الله عليه وسلم تكبير فتح وكبر المسلمون وأخذ بيد سلمان ورقي فقال : سلمان بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد رأيت شيئاً ما

(149/115)

رأيت مثله قط فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القوم فقال : رأيتم ما يقول سلمان ؟ قالوا نعم يا رسول الله قال : ضربت ضربتي الأولى فبرق لي الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ثم ضربت الثانية فبرق لي الذي رأيتم أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروح كأنها أنياب الكلاب وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ثم ضربت ضربتي الثالثة فبرق لي الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلام وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها فأبشروا فاستبشر المسلمون وقالوا : الحمد لله موعد صدق وعدنا النصر

بعد الحفر فقال المنافقون : ألا تعجبون ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا للقتال فأنزل الله تعالى القرآن : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ المنافقون والذين فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا الله وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾ [الأحزاب : 12] وأنزل هذه الآية ﴿ قُلِ اللهم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 113 ﴾

(150/115)

وقال الفخر :

روي أن النبي صلى الله عليه وسلم حين افتتح مكة وعد أمته ملك فارس والروم ، فقال المنافقون واليهود : هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم ، وهم أعز وأمنع من ذلك ، وروي أنه عليه الصلاة والسلام لما خط الخندق عام الأحزاب ، وقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً ، وأخذوا يحفرون خرج من بطن الخندق صخرة كالتل العظيم لم تعمل فيها المعاول ، فوجهوا سلمان إلى النبي صلى الله عليه وسلم فخبره ، فأخذ المعول من سلمان فلما ضربها ضرب صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها كأنه مصباح في جوف ليل مظلم ، فكبّر وكبر المسلمون ، وقال عليه الصلاة والسلام : " أضاءت لي منها قصور الحيرة

كأنها أنياب الكلاب " ثم ضرب الثانية ، فقال : " أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم "

ثم ضرب الثالثة فقال : " أضاءت لي منها قصور صنعاء وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة على كلها فأبشروا " فقال المنافقون : ألا تعجبون من نبيّكم يعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومداين كسرى ، وأنها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق من الخوف لا تستطيعون أن تخرجوا فنزلت هذه الآية والله أعلم ، وقال الحسن إن الله تعالى أمر نبيّه أن يسأله أن يعطيه ملك فارس والروم ويرد ذل العرب عليهما ، وأمره بذلك دليل على أنه يستجيب له هذا الدعاء ، وهكذا منازل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا أمروا بدعاء استجيب دعاءهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 5.4 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ قُلِ اللهم مالك الملك ﴾ قال ابن عباس في رواية أبي صالح : نزلت في شأن المنافقين ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة قال عبد الله بن أبي رأس المنافقين : إن محمداً يتمنى أن ينال ملك فارس والروم وأَنَّى له ذلك ؟ فنزلت هذه الآية .

وقال بعضهم سأل النبي صلى الله عليه وسلم ربه ، أن يجعل له ملك فارس والروم في أمته ، فعلمه الله بأن يدعو بهذا الدعاء ، وهو قول مقاتل وقال بعضهم : إن النبي صلى الله عليه وسلم لما أمر بحفر الخندق ، فظهر في الخندق صخرة عجزوا عن حفرها ، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم المعول ، وضرب ضربة ، فظهر من تلك الصخرة نور فقال له سلمان : رأيت شيئاً عجيباً .

فقال له النبي : " هَلْ رَأَيتَ ذلك " ؟ قال : نعم .

فقال : رأيت في ذلك النور قصور أهل الشام ، ثم ضرب ضربة أخرى ، فظهر أيضاً كذلك .

فقال : رأيت قصور أهل فارس .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سَيَظْهَرُ لأُمَّتِي مُلْكُ الشَّامِ ، وَمُلْكُ فَارِسَ " فقال المنافقون : إن محمداً لا يأمن على نفسه ، واضطر إلى حفر الخندق ، فكيف يتمنى ملك الشام وفارس ، فنزلت هذه الآية .

وقال بعضهم إن مشركي مكة قالوا : إن فارس والروم يبيتان في الحرير والديباج ، فلو كان هو نبياً ، كيف ينام على الحصير ؟ فنزلت هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 229 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ الملك ﴾ هو القدرة ، والمالك هو القادر ، فقوله ﴿ مالك الملك ﴾ معناه القادر على القدرة ، والمعنى إن قدرة الخلق على كل ما يقدرون عليه ليست إلا بإقدار الله تعالى فهو الذي يقدر كل قادر على مقدوره ، ويملك كل مالك مملوكه ، قال صاحب "الكشاف" ﴿ مالك الملك ﴾ أي يملك جنس الملك فيتصرف فيه تصرف الملاك فيما يملكون ، واعلم أنه تعالى لما بيّن كونه ﴿ مالك الملك ﴾ على الإطلاق ، فصل بعد ذلك وذكر أنواعاً خمسة :

(152/115)

النوع الأول : قوله تعالى : ﴿ تُؤْتِى الملك مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الملك مِمَّن تَشَاءُ ﴾ وذكروا فيه وجوهاً الأول : المراد منه : ملك النبوّة والرسالة ، كما قال تعالى : ﴿ فَقَدْ ءاتَيْنَا ءالَ إبراهيم الكتاب والحكمة وءاتيناهم مُّلْكاً عَظِيماً ﴾ [النساء : 54] والنبوّة أعظم مراتب الملك لأن العلماء لهم أمر عظيم على بواطن الخلق والجبابرة لهم أمر على ظواهر الخلق والأنبياء أمرهم نافذ في البواطن والظواهر ، فأما على البواطن فلأنه يجب على كل أحد أن يقبل دينهم وشريعتهم ، وأن يعتقد أنه هو الحق ، وأما على الظواهر فلأنهم لو تمردوا

واستكبروا لاستوجبوا القتل ، ومما يؤكد هذا التأويل أن بعضهم كان يستبعد أن يجعل الله تعالى بشراً رسولاً فحكى الله عنهم قولهم ﴿أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء : 94] وقال الله تعالى : ﴿وَلَوْ جعلناه مَلَكاً لجعلناه رَجُلاً﴾ [الأنعام : 9] وقوم آخرون جوزوا من الله تعالى أن يرسل رسولاً من البشر ، إلا أنهم كانوا يقولون : إن محمداً فقير يتيم ، فكيف يليق به هذا المنصب العظيم على ما حكى الله عنهم أنهم قالوا ﴿لَوْلا نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مّنَ القريتين عَظِيمٍ﴾ [الزخرف : 31] وأما اليهود فكانوا يقولون النبوّة كانت في آبائنا وأسلافنا ، وأما قريش فهم ما كانوا أهل النبوّة والكتاب فكيف يليق النبوّة بمحمد صلى الله عليه وسلم ؟ وأما المنافقون فكانوا يحسدونه على النبوّة ، على ما حكى الله ذلك عنهم في قوله ﴿أم يحْسُدونَ الناس على مَا ءاتاهم الله مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء : 37].

(153/115)

وأيضاً فقد ذكرنا في تفسير قوله تعالى : ﴿قُل لّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المهاد﴾ [آل عمران : 12] أن اليهود تكبروا على النبي صلى الله عليه وسلم بكثرة عددهم وسلاحهم وشدتهم ، ثم إنه تعالى رد على جميع هؤلاء الطوائف بأن بيّن أنه

سبحانه هو مالك الملك فيؤتي ملكه من يشاء ، فقال ﴿ تُؤْتِى الملك مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّن تَشَاءُ ﴾ .

فإن قيل : فإذا حملتم قوله ﴿ تُؤْتِى الملك مَن تَشَاءُ ﴾ على إيتاء ملك النبوّة ، وجب أن تحملوا قوله ﴿ وَتَنزِعُ الملك مِمَّن تَشَاءُ ﴾ على أنه قد يعزل عن النبوّة من جعله نبياً ، ومعلوم أن ذلك لا يجوز .

قلنا : الجواب من وجهين

الأول : أن الله تعالى إذا جعل النبوّة في نسل رجل ، فإذا أخرجها الله من نسله ، وشرّف بها إنساناً آخر من غير ذلك النسل ، صح أن يقال إنه تعالى نزعها منهم ، واليهود كانوا معتقدين أن النبوّة لا بد وأن تكون في بني إسرائيل ، فلما شرف الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم بها ، صح أن يقال : إنه ينزع ملك النبوّة من بني إسرائيل إلى العرب .

والجواب الثاني : أن يكون المراد من قوله ﴿ وَتَنزِعُ الملك مِمَّن تَشَاءُ ﴾ أي تحرمهم ولا تعطيهم هذا الملك لا على معنى أنه يسلبه ذلك بعد أن أعطاه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ الله وَلِيُّ الذين ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مّنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ [البقرة : 257] مع أن هذا الكلام يتناول من لم يكن في ظلمة الكفر قط ، وقال الله تعالى مخبراً عن الكفار أنهم قالوا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف : 88] وأولئك الأنبياء قالوا ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلا أَن يَشَاءَ الله ﴾ [الأعراف : 89] مع أنهم ما كانوا فيها

قط ، فهذا جملة الكلام في تقرير قول من فسّر قوله تعالى : ﴿ تُؤْتِى الملك مَن تَشَاءُ ﴾ بملك النبوة .

(154/115)

القول الثاني : أن يكون المراد من الملك ، ما يسمى ملكاً في العرف ، وهو عبارة عن مجموع أشياء أحدها : تكثير المال والجاه ، أما تكثير المال فيدخل فيه ملك الصامت والناطق والدور والضياع ، والحرث ، والنسل ، وأما تكثير الجاه فهو أن يكون مهيباً عند الناس ، مقبول القول ، مطاعاً في الخلق والثاني : أن يكون بحيث يجب على غيره أن يكون في طاعته ، وتحت أمره ونهيه

والثالث : أن يكون بحيث لو نازعه في ملكه أحد ، قدر على قهر ذلك المنازع ، وعلى غلبته ، ومعلوم أن كل ذلك لا يحصل إلا من الله تعالى ، أما تكثير المال فقد نرى جمعاً في غاية الكياسة لا يحصل لهم مع الكد الشديد ، والعناء العظيم قليل من المال ، ونرى الأبله الغافل قد يحصل له من الأموال ما لا يعلم كميته ، وأما الجاه فالأمر أظهر ، فإنا رأينا كثيراً من الملوك بذلوا الأموال العظيمة لأجل الجاه ، وكانوا كل يوم أكثر حقارة ومهانة في أعين الرعية ، وقد يكون على العكس من ذلك وهو أن يكون الإنسان معظماً في العقائد مهيباً في القلوب ، ينقاد

له الصغير والكبير ، ويتواضع له القاصي والداني ،

وأما القسم الثاني وهو كونه واجب الطاعة ، فمعلوم أن هذا تشريف يشرف الله تعالى به بعض عباده ، وأما القسم الثالث ، وهو حصول النصرة والظفر فمعلوم أن ذلك مما لا يحصل إلا من الله تعالى ، فكم شاهدنا من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، وعند هذا يظهر بالبرهان العقلي صحة ما ذكره الله تعالى من قوله ﴿ تُؤْتِى الملك مَن تَشَاءُ ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 6.5 ﴾

(155/115)

وقال الآلوسى :

وأل في الملك للجنس أو الاستغراق ، و(الملك) بالضم على ما ذكره بعض أئمة التحقيق نسبة بين من قام به ومن تعلق ، وإن شئت قلت : صفة قائمة بذاته متعلقة بالغير تعلق التصرف التام المقتضي استغناء المتصرف وافتقار المتصرف فيه ولهذا لم يصح على الإطلاق إلا لله تعالى جده وهو أخص من الملك بالكسر لأنه تعلق باستيلاء مع ضبط وتمكن من التصرف في الموضوع اللغوي وبزيادة كونه حقاً في الشرع من غير نظر إلى استغناء وافتقار فمالك الملك هو الملك الحقيقي المتصرف بما شاء كيف شاء إيجاداً وإعداماً

إحياءاً وإماتة وتعذيباً وإثابة من غير مشارك ولا ممانع ، ولهذا لا يقال : ملك الملك إلا على ضرب من التجوز ، وحمل (الملك) على هذا المعنى أوفق بمقام المدح. انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 113 ﴾

وقال القرطبى :

و﴿ الملك ﴾ هنا النبوّة؛ عن مجاهد .

وقيل ، الغلَبة .

وقيل : المال والعبيد .

الزجاج : المعنى مالك العباد وما ملكوا .

وقيل : المعنى مالك الدنيا والآخرة .

ومعنى ﴿ تُؤْتِي الملك ﴾ أي الإيمان والإسلام .

﴿ مَن تَشَآءُ ﴾ أي من تشاء أن تؤتيه إياه ، وكذلك ما بعده ، ولا بدّ فيه من تقدير الحذف ، أي وتنزع الملك ممن تشاء أن تنزعه منه ، ثم حذف هذا ، وأنشد سيبويه :

ألا هل لهذا الدّهر من مُتَعَلّل . . .

على الناس مهما شاء بالناس يَفْعَلِ

قال الزجاج : مهما شاء أن يفعل بالناس يفعل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 55 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ﴾ الظاهر أن الملك هو السلطان والغلبة ، كما أن ظاهر الملك الأوّل كذلك ، فيكون الأوّل عاماً ، وهذان خاصين .

والمعنى : إنك تعطي من شئت قسماً من الملك ، وتنزع ممن شئت قسماً من الملك وقد فسر الملك هنا بالنبوّة أيضاً ، ولا يتأتى هذا التفسير في : تنزع الملك ، لأن الله لم يؤت النبوّة لأحد ثم نزعها منه إلاّ أن يكون تنزع مجازاً بمعنى : تمنع النبوّة ممن تشاء ، فيمكن .

(156/115)

وقال أبو بكر الوراق : هو ملك النفس ومنعها من اتباع الهوى .

وقيل : العافية ، وقيل : القناعة .

وقيل : الغلبة بالدين والطاعة .

وقيل : قيام الليل .

وقال الشبلي : هو الاستغناء بالمكون عن الكونين .

وقال عبد العزيز بن يحيى : هو قهر إبليس كما كان يفرّ من ظل عمر ، وعكسه من كان يجري الشيطان منه مجرى الدم .

وقيل : ملك المعرفة بلا علة ، كما أتى سحرة فرعون ، ونزع من بلعام .

وقال أبو عثمان : هو توفيق الإيمان .

وإذا حملناه على الأظهر : وهو السلطنة والغلبة ، وكون المؤتَى هو الآمر المتبع ، فالذي آتاه الملك هو محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ، والمنزوع منهم فارس والروم .

وقيل : المنزوع منه أبو جهل وصناديد قريش .

وقيل : العرب وخلفاء الإسلام وملوكه ، والمنزوع فارس والروم .

وقال السدي : الأنبياء أمر الناس بطاعتهم ، والمنزوع منه الجبارون أمر الناس بخلافهم .

وقيل : آدم وولده ، والمنزوع منه إبليس وجنوده .

وقيل : داود عليه السلام ، والمنزوع منه طالوت .

وقيل : صخر ، والمنزوع منه سليمان أيام محنته .

وقيل : المعنى تؤتي الملك في الجنة من تشاء وتنزع الملك من ملوك الدنيا في الآخرة ممن تشاء .

وقيل : الملك العزلة والانقطاع ، وسموه الملك المجهول .

وهذه أقوال مضطربة ، وتخصيصات ليس في الكلام ما يدل عليها ، والأولى أن يحمل على جهة التمثيل لا الحصر في المراد .

﴿ وتعز من تشاء وتذل من تشاء ﴾ قيل : محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، حين

دخلوا مكة في اثني عشر ألفاً ظاهرين عليها ، وأذل أبا جهل وصناديد قريش حتى حزت رؤوسهم وألقوا في القليب .

وقيل : بالتوفيق والعرفان ، وتذل بالخذلان .

وقال عطاء : المهاجرين والأنصار وتذل فارس والروم .

وقيل : بالطاعة وتذل بالمعصية .

وقيل : بالظفر والغنيمة وتذل بالقتل والجزية .

وقيل : بالإخلاص وتذل بالرياء .

وقيل بالغنى وتذل بالفقر .

وقيل : بالجنة والرؤية وتذل بالحجاب والنار ، قاله الحسن بن الفضل .

(157/115)

وقيل : بقهر النفس وتذل باتباع الخزي ، قاله الوراق .

وقيل : بقهر الشيطان وتذل بقهر الشيطان اياه ، قاله الكتاني .

وقيل : بالقناعة والرضا وتذل بالحرص والطمع .

وينبغي حمل هذه الأقاويل على التمثيل لأنه لا مخصص في الآية ، بل الذي يقع به العز والذل

مسكوت عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 437 ﴾

فائدة لغوية

قال ابن عادل :

قوله : تُؤتِي " هذه الجملة ، وما عُطِفَ عليها يجوز أن تكون مستأنفةً ، مبينة لقوله : ﴿ مَالِكَ المُلك ﴾ ويجوز أن تكون حالاً من المنادى .

وفي انتصاب الحال من المنادى خلاف ، الصحيح جوازه ؛ لأنه مفعول به ، والحال - كما يكون لبيان هيئة الفاعل - يكون لبيان هيئةِ المفعول ، ولذلك أعرب الْحُذَّاق قولَ النابغة : [البسيط]

يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ فَالسَّنَدِ . . . أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الأبدِ

" بالعلياء " حالاً من " دار مية " ، وكذلك " أقوت " .

والثالث من وجوه " تُؤتِي " : أن تكون خبرَ مُبتدأ مضمر ، أي : أنت تؤتي ، لتكون الجملة اسمية وحينئذ يجوز أن تكون مستأنفةً ، وأن تكون حالية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 126 ﴾

فصل

قال الفخر :

واعلم أن للمعتزلة ههنا بحثا قال الكعبي قوله ﴿ تُؤْتِى الملك مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّن تَشَاءُ ﴾ ليس على سبيل المختارية ، ولكن بالاستحقاق فيؤتيه من يقوم به ، ولا ينزعه إلا ممن فسق عن أمر ربه ويدل عليه قوله ﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ [البقرة : 124] وقال في حق العبد الصالح ﴿ إِنَّ الله اصطفاه عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العلم والجسم ﴾ [البقرة : 247] فجعله سبباً للملك ، وقال الجبائي : هذا الحكم مختص بملوك العدل ، فأما ملوك الظلم فلا يجوز أن يكون ملكهم بإيتاء الله ، وكيف يصح أن يكون ذلك بإيتاء الله ، وقد ألزمهم أن لا يتملكوه ، ومنعهم من ذلك فصح بما ذكرنا أن الملوك العادلين هم المختصون بأن الله تعالى آتاهم ذلك الملك ، فأما الظالمون فلا ، قالوا : ونظير هذا ما قلناه في الرزق أنه لا يدخل تحته الحرام الذي زجره الله عن الانتفاع به ، وأمره بأن يرده على مالكه فكذا ههنا ، قالوا : وأما النزع فبخلاف ذلك لأنه كما ينزع الملك من الملوك العادلين لمصلحة تقتضي ذلك فقد ينزع الملك عن الملوك الظالمين ونزع الملك يكون بوجوه : منها بالموت ، وإزالة العقل ، وإزالة القوى ، والقدر والحواس ، ومنها بورود الهلاك والتلف عن الأموال ، ومنها أن يأمر الله تعالى المحق بأن يسلب الملك الذي في يد المتغلب المبطل ويؤتيه القوة والنصرة ، فإذا حاربه المحق وقهره وسلب ملكه جاز أن يضاف هذا السلب والنزع إليه تعالى ، لأنه وقع

عن أمره ، وعلى هذا الوجه نزع الله تعالى ملك فارس على يد الرسول ، هذا جملة كلام المعتزلة في هذا الباب .

(159/115)

واعلم أن هذا الموضع مقام بحث مهم وذلك لأن حصول الملك للظالم ، إما أن يقال : إنه وقع لا عن فاعل وإنما حصل بفعل ذلك المتغلب ، أو إنما حصل بالأسباب الربانية ، والأول : نفي للصانع والثاني : باطل لأن كل أحد يريد تحصيل الملك والدولة لنفسه ، ولا يتيسر له ألبتة فلم يبق إلا أن يقال بأن ملك الظالمين إنما حصل بإيتاء الله تعالى ، وهذا الكلام ظاهر ومما يؤكد ذلك أن الرجل قد يكون بحيث تهابه النفوس ، وتميل إليه القلوب ، ويكون النصر قريناً له والظفر جليساً معه فأينما توجه حصل مقصوده ، وقد يكون على الضد من ذلك ، ومن تأمل في كيفية أحوال الملوك اضطر إلى العلم بأن ذلك ليس إلا بتقدير الله تعالى ، ولذلك قال حكيم الشعراء :

لو كان بالحيل الغنى لوجدتني . . بأجل أسباب السماء تعلقي

لكن من رزق الحجا حرم الغنى . . ضدان مفترقان أي تفرق

ومن الدليل على القضاء وكونه . . بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

والقول الثاني : أن قوله ﴿ تُؤْتِى الملك مَن تَشَاء ﴾ محمول على جميع أنواع الملك فيدخل فيه ملك النبوّة ، وملك العلم ، وملك العقل ، والصحة والأخلاق الحسنة ، وملك النفاذ والقدرة وملك المحبة ، وملك الأموال ، وذلك لأن اللفظ عام فالتخصيص من غير دليل لا يجوز . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 7.6 ﴾

فصل

قال الفخر :

(160/115)

وأما قوله تعالى : ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء ﴾ فاعلم أن العزة قد تكون في الدين ، وقد تكون في الدنيا ، أما في الدين فأشرف أنواع العزة الإيمان قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : 8] إذا ثبت هذا فنقول : لما كان أعز الأشياء الموجبة للعزة هو الإيمان ، وأذل الأشياء الموجبة للمذلة هو الكفر ، فلو كان حصول الإيمان والكفر بمجرد مشيئة العبد ، لكان إعزاز العبد نفسه بالإيمان وإذلاله نفسه بالكفر أعظم من إعزاز الله عبده بكل ما أعزه به ، ومن إذلال الله عبده بكل ما أذله به ولو كان الأمر كذلك لكان حظ العبد من هذا الوصف أتم وأكمل من حظ الله تعالى منه ، ومعلوم أن ذلك باطل قطعاً

، فعلمنا أن الإعزاز بالإيمان والحق ليس إلا من الله ، والإذلال بالكفر والباطل ليس إلا من الله ، وهذا وجه قوي في المسألة ، قال القاضي : الإعزاز المضاف إليه تعالى قد يكون في الدين ، وقد يكون في الدنيا أما الذي في الدين فهو أن الثواب لا بد وأن يكون مشتملاً على التعظيم والمدح والكرامة في الدنيا والآخرة ، وأيضاً فإنه تعالى يمدهم بمزيد الألطاف ويعليهم على الأعداء بحسب المصلحة ، وأما ما يتعلق بالدنيا فبإعطاء الأموال الكثيرة من الناطق والصامت وتكثير الحرث وتكثير النتاج في الدواب ، وإلقاء الهيبة في قلوب الخلق. واعلم أن كلامنا يأبى ذلك لأن كل ما يفعله الله تعالى من التعظيم في باب الثواب فهو حق واجب على الله تعالى ولو لم يفعله لانعزل عن الإلهية ولخرج عن كونه إلها للخلق فهو تعالى بإعطاء هذه التعظيمات يحفظ إلهية نفسه عن الزوال فأما العبد ، فلما خص نفسه بالإيمان الذي يوجب هذه التعظيمات فهو الذي أعز نفسه فكان إعزازه لنفسه أعظم من إعزاز الله تعالى إياه ، فعلمنا أن هذا الكلام المذكور لازم على القوم.

أما قوله ﴿ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ﴾ فقال الجبائي في "تفسيره" : إنه تعالى إنما يذل أعداءه في الدنيا والآخرة ولا يذل أحداً من أوليائه وإن أفقرهم وأمرضهم وأحوجهم إلى غيرهم ، لأنه

تعالى إنما يفعل هذه الأشياء ليعزهم في الآخرة، إما بالثواب، وإما بالعوض فصار ذلك كالفصد والحجامة فإنهما وإن كانا يؤلمان في الحال إلا أنهما لما كانا يستعقبان نفعاً عظيماً لا جرم لا يقال فيهما: إنهما تعذيب، قال وإذا وصف الفقر بأنه ذل فعلى وجه المجاز كما سمى الله تعالى لين المؤمنين ذلا بقوله ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين﴾ [المائدة: 54].

إذا عرفت هذا فنقول: إذلال الله تعالى عبده المبطل إنما يكون بوجوه منها بالذم واللعن ومنها بأن يخذلهم بالحجة والنصرة، ومنها بأن يجعلهم خولاً لأهل دينه، ويجعل مالهم غنيمة لهم ومنها بالعقوبة لهم في الآخرة هذا جملة كلام المعتزلة، ومذهبنا أنه تعالى يعز البعض بالإيمان والمعرفة، ويذل البعض بالكفر والضلالة، وأعظم أنواع الإعزاز والإذلال هو هذا والذي يدل عليه وجوه

الأول: وهو أن عز الإسلام وذل الكفر لا بد فيه من فاعل وذلك الفاعل إما أن يكون هو العبد أو الله تعالى والأول باطل، لأن أحداً لا يختار الكفر لنفسه، بل إنما يريد الإيمان والمعرفة والهداية فلما أراد العبد الإيمان ولم يحصل له بل حصل له الجهل، علمنا أن حصوله من الله تعالى لا من العبد

الثاني: وهو أن الجهل الذي يحصل للعبد إما أن يكون بواسطة شبهة وإما أن يقال: يفعله العبد ابتداء، والأول باطل إذ لو كان كل جهل إنما يحصل بجهل آخر يسبقه ويتقدمه لزم التسلسل وهو محال، فبقي أن يقال: تلك الجهات تنتهي إلى جهل يفعله العبد ابتداء من غير

سبق موجب ألبتة لكنا نجد من أنفسنا أن العاقل لا يرضى لنفسه أن يصير على الجهل ابتداء من غير موجب فعلمنا أن ذلك بإذلال الله عبده وبخذلانه إياه

الثالث : ما بينا أن الفعل لا بد فيه من الداعي والمرجح ، وذلك المرجح يكون من الله تعالى فإن كان في طرف الخير كان إعزازاً ، وإن كان في طرف الجهل والشر والضلالة كان إذلالاً ، فثبت أن المعز والمذل هو الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 7 . 8 ﴾

(162/115)

فائدة

قال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ﴾ قِيلَ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ إنَّهُ صِفَةٌ لَا يَسْتَحِقُّهَا إلَّا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَنَّهُ مَالِكُ كُلِّ مُلْكٍ ، وَقِيلَ مَالِكُ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَقِيلَ مَالِكُ الْعِبَادِ وَمَا مَلَكُوا ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ أَرَادَ بِالْمُلْكِ هَهُنَا النُّبُوَّةَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : مُلْكُ الْأَمْوَالِ وَالْعَبِيدِ ،

وَذَلِكَ مِمَّا يَجُوزُ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُسْلِمِ وَالْكَافِرِ .

وَالْآخَرُ أَمْرُ التَّدْبِيرِ وَسِيَاسَةُ الْأُمَّةِ ، فَهَذَا مَخْصُوصٌ بِهِ الْمُسْلِمُ الْعَدْلُ دُونَ الْكَافِرِ وَدُونَ الْفَاسِقِ ، وَسِيَاسَةُ الْأُمَّةِ وَتَدْبِيرُهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِأَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى وَنَوَاهِيهِ ، وَذَلِكَ لَا يُؤْتَمَنُ الْكَافِرُ عَلَيْهِ ، وَلَا الْفَاسِقُ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تُجْعَلَ إلَى مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ سِيَاسَةُ الْمُؤْمِنِينَ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ .

فَإِنْ قِيلَ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلَى الَّذِي حَاجَّ إبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ آتَى الْكَافِرَ الْمُلْكَ .

قِيلَ لَهُ : يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ الْمَالَ إنْ كَانَ الْمُرَادُ إيتَاءَ الْكَافِرِ الْمُلْكَ ، وَقَدْ قِيلَ : إنَّهُ أَرَادَ بِهِ : آتَى إبْرَاهِيمَ الْمُلْكَ ، يَعْنِي النُّبُوَّةَ وَجَوَازَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فِي طَرِيقِ الْحِكْمَةِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 2 صـ 288 ﴾

(163/115)

قوله تعالى : ﴿ بيدك الخير ﴾

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ بيدك الخير ﴾ .

فاعلم أن المراد من اليد هو القدرة ، والمعنى بقدرتك الخير والألف واللام في الخير يوجبان العموم ، فالمعنى بقدرتك تحصل كل البركات والخيرات ، وأيضاً فقوله ﴿ بِيَدِكَ الخَيرُ ﴾ يفيد الحصر كأنه قال بيدك الخير لا بيد غيرك ، كما أن قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرين : 6] أي لكم دينكم أي لا لغيركم وذلك الحصر ينافي حصول الخير بيد غيره ، فثبت دلالة هذه الآية من هذين الوجهين على أن جميع الخيرات منه ، وبتكوينه وتخليقه وإيجاده وإبداعه ، إذا عرفت هذا فنقول : أفضل الخيرات هو الإيمان بالله تعالى ومعرفته ، فوجب أن يكون الخير من تخليق الله تعالى لا من تخليق العبد ، وهذا استدلال ظاهر ومن الأصحاب من زاد في هذا التقدير فقال : كل فاعلين فعل أحدهما أشرف وأفضل من فعل الآخر كان ذلك الفاعل أشرف وأكمل من الآخر ، ولا شك أن الإيمان أفضل من الخير ، ومن كل ما سوى الإيمان فلو كان الإيمان بخلق العبد لا بخلق الله لوجب كون العبد زائداً في الخيرية على الله تعالى ، وفي الفضيلة والكمال ، وذلك كفر قبيح فدلت هذه الآية من هذين الوجهين على أن الإيمان بخلق الله تعالى .

فإن قيل : فهذه الآية حجة عليكم من وجه آخر لأنه تعالى لما قال : ﴿ بِيَدِكَ الخَيرُ ﴾ كان معناه أنه ليس بيدك إلا الخير ، وهذا يقتضي أن لا يكون الكفر والمعصية واقعين بتخليق الله .

والجواب : أن قوله ﴿ بِيَدِكَ الخير ﴾ يفيد أن بيده الخير لا بيد غيره ، وهذا ينافي أن يكون بيد غيره ولكن لا ينافي أن يكون بيده الخير وبيده ما سوى الخير إلا أنه خص الخير بالذكر لأنه الأمر المنتفع به فوقع التنصيص عليه لهذا المعنى قال القاضي : كل خير حصل من جهة العباد فلولا أنه تعالى أقدرهم عليه وهداهم إليه لما تمكنوا منه ، فلهذا السبب كان مضافاً إلى الله تعالى إلا أن هذا ضعيف لأن على هذا التقدير يصير بعض الخير مضافاً إلى الله تعالى ، ويصير أشرف الخيرات مضافاً إلى العبد ، وذلك على خلاف هذا النص . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 9.8 ﴾

وقال القرطبى :

﴿ بِيدِكَ الخير ﴾ أي بيدك الخير والشر فحذف ؛ كما قال : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 81] .

وقيل : خص الخير لأنه موضع دعاء ورغبة في فضله .

قال النقاش : بيدك الخير ، أي النصر والغنيمة .

وقال أهْل الإشارات .

كان أبو جهل يملك المال الكثير ، ووقع في الرس يوم بدر ، والفقراء صُهَيب وبلال وخَبّاب لم يكن لهم مال ، وكان ملكهم الإيمان ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤتِي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ تقيم

الرسولَ يتيمَ أبي طالب على رأس الرسِّ حتى ينادِي أبدانا قد انقلبت إلى القِليب : يا عُتْبَة ، يا شَيْبَة تعِز من تشاء وتُذِلّ من تشاء .

أي صُهَيْب ، أي بِلال ، لا تعتقدوا أنا منعناكم من الدنيا ببغضكم .

بيدك الخير ما مَنْعُكم مِن عَجْز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 55. 56 ﴾

فائدة

قال ابن القيم

وأخطأ من قال المعنى بيدك الخير والشر لثلاثة أوجه :

أحدها أنه ليس في اللفظ ما يدل على إرادة هذا المحذوف بل ترك ذكره قصدا أو بيانا أنه ليس بمراد ،

الثاني أن الذي بيد الله تعالى نوعان فضل وعدل كما في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : "يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق فإنه لم يغض ما في يمينه وبيده الأخرى القسط يخفض ويرفع" فالفضل لإحدى اليدين والعدل للأخرى وكلاهما خير لا شر فيه بوجه ،

الثالث أن قول النبي صلى الله عليه وسلم لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك كالتفسير للآية ففرق بين الخير والشر وجعل أحدهما في يدي الرب سبحانه وقطع إضافة

الآخر إليه مع إثبات عموم خلقه لكل شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ شفاء العليل صـ 271 ﴾

وقال الماوردى :

وإنما خَصَّ الخير بالذكر وإن كان قادراً على الخير والشر ، لأنه المرغوب في فعله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 384 ﴾

وقال البيضاوى :

ذكر الخير وحده لأنه المقضي بالذات ، والشر مقضي بالعرض ، إذ لا يوجد شر جزئي ما لم يتضمن خيرًا كلياً ، أو لمراعاة الأدب في الخطاب ، أو لأن الكلام وقع فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 24 ﴾

وقال أبو حيان :

قال الزمخشري .

(165/115)

فإن قلت : كيف قال ﴿ بيدك الخير ﴾ فذكر الخير دون الشر ؟

قلت لأن الكلام إنما وقع في الخير الذي يسوقه إلى المؤمنين ، وهو الذي أنكرته الكفرة ، فقال

: ﴿ بيدك الخير ﴾ تؤتيه أولياءك على رغم أعدائك ، ولأن كل أفعال الله من نافع وضار صادر عن الحكمة والمصلحة فهو خير كله .

انتهى كلامه ، وهو يدافع آخرهُ أولَه ، لأنه ذكر في السؤال : لم اقتصر على ذكر الخير دون الشر ؟

وأجاب بالجواب الأول ، وذلك يدل على أن بيده تعالى الخير والشر ، وإنما كان اقتصاره على الخير لأن الكلام إنما وقع فيما يسوقه تعالى من الخير للمؤمنين ، فناسب الاقتصار على ذكر الخير فقط .

وأجاب بالجواب الثاني : وذلك يدل على أنه تعالى جميع أفعاله خير ليس فيها شر ، وهذا الجواب يناقض الأول .

وقال ابن عطية : خص الخير بالذكر ، وهو تعالى بيده كل شيء ، إذ الآية في معنى دعاء ورغبة ، فكان المعنى : ﴿ بيدك الخير ﴾ فأجزل حظي منه .

وقال الراغب : لما كانت في الحمد والشكر لا للحكم ، ذكر الخير إذ هو المشكور عليه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 2 صـ 138 ﴾

فائدة

قال فى الميزان :

هناك خير وشر تكوينيان كالملك والعزة ونزع الملك والذلة

والخير التكويني أمر وجودي من إيتاء الله تعالى والشر التكويني إنما هو عدم إيتاء الخير ولا ضير في انتسابه إلى الله سبحانه فإنه هو المالك للخير لا يملكه غيره فإذا أعطى غيره شيئًا من الخير فله الأمر وله الحمد وإن لم يعط أو منع فلا حق لغيره عليه حتى يلزمه عليه فيكون امتناعه من الإعطاء ظلما على أن إعطائه ومنعه كليهما مقارنان للمصالح العامة الدخيلة في صلاح النظام الدائر بين أجزاء العالم.

وهناك خير وشر تشريعيان وهما أقسام الطاعات والمعاصي وهما الأفعال الصادرة عن الإنسان من حيث انتسابها إلى اختياره ولا تستند من هذه الجهة إلى غير الإنسان قطعا وهذه النسبة هي الملاك لحسنها وقبحها ولولا فرض اختيار في صدورها لم تتصف بحسن ولا قبح وهي من هذه الجهة لا تنتسب إليه تعالى إلا من حيث توفيقه تعالى وعدم توفيقه لمصالح تقتضي ذلك.

فقد تبين أن الخير كله بيد الله وبذلك ينتظم أمر العالم في اشتماله على كل وجدان وحرمان وخير وشر. انتهى انتهى. ا هـ ﴿الميزان حـ 3 صـ 134.135﴾

وقال الآلوسي :

﴿ بِيَدِكَ الخير ﴾ جملة مستأنفة ، وأجراها بعضهم على طرز ما قبلها ، وتعريف الخير للتعميم وتقديم الخبر للتخصيص أي : بيدك التي لا يكتنه كنهما ، وبقدرتك التي لا يقدر قدرها الخير كله تتصرف به أنت وحدك حسب مشيئتك لا يتصرف به أحد غيرك ولا يملكه أحد سواك ، وإنما خص الخير بالذكر تعليماً لمراعاة الأدب وإلا فذكر الإعزاز والإذلال يدل على أن الخير والشر كلاهما بيده سبحانه ، وكذا قوله تعالى المسوق لتعليل ما سبق وتحقيقه ﴿ إِنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فلا يبعد أن تكون الآية من باب الاكتفاء ، وقيل : إنما اقتصر عليه لما أن سبب نزول الآية ما آتى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم من البشارة بالفتوح وترادف الخيرات ، وقيل : لما أن الأشياء باعتبار الشر وعدمه تنقسم إلى خمسة أقسام .

الأول : ما لا شر فيه أصلاً .

والثاني : ما يغلب خيره على شره .

والثالث : ما يكون شراً محضاً .

والرابع : ما يكون شره غالباً على خيره .

والخامس : ما يتساوى الخير والشر فيه ، والموجود من هذه الأقسام في العالم القسم الأول

والثاني والشر الذي فيه غير مقصود بالذات بل إنما قضاه الله تعالى لحكمة بالغة وهو وسيلة إلى خير أعظم وأعم نفعاً ؛ والشر اليسير متى كان وسيلة إلى الخير الكثير كان ارتكابه مصلحة تقتضيها الحكمة ولا يأباها الكرم المطلق ، ألا ترى أن الفصد والحجامة وشرب الدواء الكريه وقطع السلعة ونحوها من الأمور المؤلمة لكونه وسيلة إلى حصول الصحة يحسن ارتكابه في مقتضى الحكمة ويعد خيراً لا شراً وصحة لا مرضاً وكل قضاء الله تعالى بما نراه شراً من هذا القبيل ، ولهذا ورد في الحديث " لا تتهم الله تعالى على نفسك " وورد " لا تكرهوا الفتن فإن فيها حصاد المنافقين " وجاء " لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجب " ومن هنا قيل : يا من إفساده صلاح فما قدر من المفاسد لتضمنه المصالح العظيمة اغتفر ذلك القدر اليسير في جنبها لكونه

(168/115)

وسيلة إليها وما أدى إلى الخير فهو خير فكل شر قدره الله تعالى لكونه لم يقصد بالذات لأن أحكام القضاء والقدر كما قالوا : جارية على سنن ما اتفقت عليه الشرائع كلها من النظر إلى جلب المصالح وذبّ المفاسد بل بالعرض لما يستلزمه من الخير الأعظم والنفع الأتم يصدق عليه بهذا الاعتبار أنه خير فدخل في قوله سبحانه : ﴿ بِيَدِكَ الخير ﴾ فلذا

اقتصر على الخير على وجه أنه شامل لما قصد أصلاً ولما وقع استلزاماً ، وهذا من باب ليس في الإمكان أبدع مما كان وقد درج حكماء الإسلام عليه ولا يعبأ بمن وجه سهام الطعن إليه ، وفي "شرح الهياكل" أن الشر مقضي بالعرض وصادر بالتبع لما أن بعض ما يتضمن الخيرات الكثيرة قد يستلزم الشر القليل فكان ترك الخيرات الكثيرة لأجل ذلك الشر القليل شراً كثيراً فصدر عنك ذلك الخير فلزمه حصول ذلك الشر وهو من حيث صدوره عنك خير إذ عدم صدوره شر لتضمنه فوات ذلك الخير فأنت المنزه عن الفحشاء مع أنه لا يجري في ملكك إلا ما تشاء وليس هذا من القول بوجوب الأصلح ، ولا ينافيه ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ [الأنبياء : 23] إذ لا يفعل ما يسئل عنه كرماً وحكمة وجوداً ومنة "لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 115 ﴾

قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قال الفخر :

أما قوله ﴿ إِنَّكَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فهذا كالتأكيد لما تقدم من كونه مالكاً لإيتاء الملك ونزعه والإعزاز والإذلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 9 ﴾

فائدة

قال ابن كثير فى معنى الآية :

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ، معظما لربك ومتوكلا عليه ، وشاكرًا له ومفوضًا إليه :

﴿ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ أي: لك الملك كله ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾ أي: أنت المعطي، وأنت المانع، وأنت الذي ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن.

(169/115)

وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وهذه الأمة؛ لأن الله حول النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي المكي الأمي خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول الله إلى جميع الثقلين الإنس والجن، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله، وخصه بخصائص لم يُعْطها نبيًا من الأنبياء ولا رسولا من الرسل، في العلم بالله وشريعته وإطلاعه على الغيوب الماضية والآتية، وكشفه عن حقائق الآخرة ونشر أمته في الآفاق، في مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان، والشرائع، فصلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين، ما تعاقب الليل والنهار. ولهذا قال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ[تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] ﴾ أي: أنت المتصرف في خلقك، الفعال لما تريد، كما رد تبارك وتعالى على من يتحكم عليه في

أمره ، حيث قال : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] .

(170/115)

قال الله تعالى ردًا عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ [نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ] ﴾ الآية [الزخرف : 32] أي : نحن نتصرف في خلقنا كما نريد ، بلا ممانع ولا مدافع ، ولنا الحكمة والحجة في ذلك ، وهكذا نعطي النبوة لمن نريد ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : 124] وقال تعالى : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ [وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا] ﴾ [الإسراء : 21] وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة "إسحاق بن أحمد" من تاريخه عن المأمون الخليفة : أنه رأى في قَصْرٍ ببلاد الروم مكتوبا بالحميرية ، فعرب له ، فإذا هو : باسم الله ما اختلف الليل والنهار ، ولا دارت نجوم السماء في الفلك إلا بنقل النعيم عن مَلِك قد زال سلطانه إلى ملك . ومُلْكُ ذي العرش دائم أبدًا ليس بفَانٍ ولا بمشترك . ﴿ تاريخ دمشق لابن عساكر (706/2 المخطوط) ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور (264/4) ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 29 ﴾

وقال السعدى :

يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾ أي : أنت الملك المالك لجميع الممالك ، فصفة الملك المطلق لك ، والمملكة كلها علويها وسفليها لك والتصريف والتدبير كله لك ، ثم فصل بعض التصاريف التي انفرد الباري تعالى بها ، فقال : ﴿ تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ﴾ وفيه الإشارة إلى أن الله تعالى سينزع الملك من الأكاسرة والقياصرة ومن تبعهم ويؤتيه أمة محمد ، وقد فعل ولله الحمد ، فحصول الملك ونزعه تبع لمشيئة الله تعالى ، ولا ينافي ذلك ما أجرى الله به سنته من الأسباب الكونية والدينية التي هي سبب بقاء الملك وحصوله وسبب زواله ، فإنها كلها بمشيئة الله لا يوجد سبب يستقل بشيء ، بل الأسباب كلها تابعة للقضاء والقدر ، ومن الأسباب التي جعلها الله سببا لحصول الملك الإيمان والعمل الصالح ، التي منها اجتماع المسلمين واتفاقهم ، وإعدادهم الآلات التي يقدروا عليها والصبر وعدم التنازع ، قال الله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ الآية فأخبر أن الإيمان والعمل الصالح سبب للاستخلاف المذكور ، وقال تعالى : ﴿ هو

الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم ﴾ الآية وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ فأخبر أن ائتلاف قلوب المؤمنين وثباتهم وعدم تنازعهم سبب للنصر على الأعداء ، وأنت إذا استقرأت الدول الإسلامية وجدت السبب الأعظم في زوال ملكها ترك الدين والتفرق الذي أطمع فيهم الأعداء وجعل بأسهم بينهم ، ثم قال تعالى : ﴿ وتعز من تشاء ﴾ بطاعتك ﴿ وتذل من تشاء ﴾ بمعصيتك ﴿ إنك على كل شيء قدير ﴾ لا يمتنع عليك أمر من الأمور بل الأشياء كلها طوع مشيئتك وقدرتك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير السعدى صـ 127 ﴾

(172/115)

لطيفة

قال ابن عجيبة :

من ملك نفسه وهواه فقد ملكه الله ملك الدارين ، ومن ملكته نفسه وهواه فقد أذلّه الله في الدراين ومن ملك نفسه لله فقد مكنه الله من التصرف في الكون بأسره ، وكان حرّاً حقيقة ، وفي ذلك يقول الشاعر :

دَعَوْني لمُلْكِهم ، فلمّا أجبتُهم . . . قالُوا : دَعَوْنَاكَ للمُلْك لا للمِلْكِ

ومن أذلَّ نفسه لله فقد أعزّه الله ، قال الشاعر :

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهوَى لِتَكْسِبَ عِزَّةً . . . فكَمْ عِزَّةٍ قَدْ نَالَهَا المَرْء بالذُّلِّ

إذَا كَانَ مَنْ تَهْوَى عَزِيزاً وَلَم تَكُنْ . . . ذَلِيلاً لَهُ ، فَاقْرِ السَّلامَ عَلَى الْوَصْلِ

قال ابن المبارك : (قلت لسفيان الثوري : من الناس ؟ قال : الفقهاء ، قلت : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد قلت : فمن الأشراف ؟ قال : الأتقياء ، قلت : فمن الغوغاء ؟ قال : الذين يكتبون الحديث ليستأكلوا به أموال الناس ، قلت : أخبرني ما السفلة ؟ قال : الظلمة) .

وقال الشبلي : (المُلك هو الاستغناء بالمكون عن الكونين) . وقال الوراق : (تُعز من تشاء بقهر النفس ومخالفة الهوى ، وتذل من تشاء باتباع الهوى) . قلت : وفي ذلك يقول البرعي رضي الله عنه :

لا تَتْبَعِ النَّفْسَ في هوَاهَا . . . إنَّ اتّبَاعَ الْهَوَى هَوَانُ .

وقال وهب : " خرج الغِنَى والعز يجولان ، فلقيا القناعة فاستقرا " .

قال الشافعي رضي الله عنه :

أَلاَ يا نفسُ إن ترضَيْ بقُوتٍ . . . فأنت عزيزةٌ أبداً غنيهْ

دَعِي عنكِ المطامعَ والأماني . . . فكمْ أُمْنِيَّةٍ جلبَتْ مَنِيهْ

وقال آخر :

أَفَادتني القناعة كُلَّ عزٍّ . . . وهَلْ عِزٌّ أعزُّ مِنْ القَنَاعَهْ

فَصَيِّرْها لنفسِكَ رأسَ مالٍ . . . وصَيِّرْ بعدها التَّقْوى بِضَاعَهْ

تَنَل عِزّاً وتَغْنَى عَنْ لَئِيمٍ . . . وتَرْحَلْ للجِنَان بصبْرِ ساعَهْ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ البحر المديد حـ 1 صـ 340 ﴾. بتصرف يسير.

(173/115)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قوله جلّ ذكره: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾.

" اللهم " معناها يا الله والميم في آخرها بدل عن حرف النداء وهو يا. فهذا تعليم الحق كيفية الثناء على الحق، أي صِفْني بما أسْتَحِقُّه من جلال القَدْرِ فَقُلْ: يا مالكَ المُلْكِ لا شريكَ لك ولا مُعينَ، ولا ظهير ولا قرين، ولا مُقاسِمَ لكَ في الذات، ولا مُساهِمَ في المُلْك، ولا مُعارِضَ في الإبداع.

﴿ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ﴾.

حتى نعلم أن الملك لك، والمَلِكُ من المخلوقين مَنْ تَذَلَّلَ له، ومنزوعُ المُلْكِ مُمن تكبَّر عليه؛ فَتَجمُّلُ الخَلْقِ في تذللهم للحق، وعِزُّهم في محوهم فيه، وبقاؤهم في فنائهم به.

﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ ﴾ .

بعز ذاتك .

﴿ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾ .

بخذلانك .

وتعز من تشاء بأن تهديه ليشهدك ويوحدك ، وتذل من تشاء بأن يجحدك ويفقدك وتعزُّ من تشاء بيُمْنِ إقبالك ، وتذل من تشاء بوحشة إعراضك . وتعزُّ من تشاء بأن تؤنسه بك ، وتذل من تشاء بأن توحشه عنك . وتعز من تشاء بأن تشغله بك ، وتذل من تشاء بأن تشغله عنك . وتعز من تشاء بسقوط أحكام نفسه ، وتذل من تشاء بغلبة غاغة نفسه . وتعز من تشاء بطوالع أُنسه وتذل من تشاء بطوارق نفسه . وتعز من تشاء ببسطه بك ، وتذل من تشاء بقبضه عنك .

و﴿ تُؤتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ بشد نطاق خدمتك ، ﴿ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ﴾ بنفيه عن بساط عبادتك . تؤتي الملك من تشاء بإفراد سِرّه لك وتنزع الملك ممن تشاء بأن تربط قلبه بمخلوق ، ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ ﴾ بإقامته بالإرادة ، ﴿ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ﴾ يردُّه إلى ما عليه أهل العادة .

﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ .

ولم يذكر الشر حفظاً لآداب الخطاب ، وتفاؤلاً بذكر الجميل ، وتطيراً من ذكر السوء .

﴿ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

من الحجب والجذب ، (والنصرة) والخذلان ، والأخذ والرد ، والفرق والجمع ، والقبض والبسط . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 230 . 231 ﴾

(174/115)

بحث نفيس في تنزيه القضاء الإلهي عن الشر للعلامة ابن القيم

قال عليه الرحمة :

قال الله تعالى : ﴿ قل اللهم قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فصدر الآية سبحانه بتفرده بالملك كله وأنه هو سبحانه هو الذي يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء لا غيره فالأول تفرده بالملك والثاني تفرده بالتصرف فيه وأنه سبحانه هو الذي يعز من يشاء بما يشاء من أنواع العز ويذل من يشاء بسلب ذلك العز عنه وأن الخير كله بيديه ليس لأحد معه منه شيء ثم ختمها بقوله : ﴿ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فتناولت الآية ملكه وحده وتصرفه وعموم قدرته وتضمنت أن هذه التصرفات كلها بيده وأنها كلها خير فسلبه الملك عمن يشاء وإذلاله من يشاء خير وإن كان شرا بالنسبة إلى المسلوب الذليل فإن هذا

التصرف دائر بين العدل والفضل والحكمة والمصلحة لا تخرج عن ذلك وهذا كله خير يحمد عليه الرب ويثنى عليه به كما يحمد ويثنى عليه بتنزيهه عن الشر وأنه ليس إليه كما ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يثني على ربه بذلك في دعاء الاستفتاح في قوله : "لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك أنا بك وإليك تباركت وتعاليت" فتبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه بل كل ما نسب إليه فهو خير والشر إنما صار شرا لانقطاع نسبته وإضافته إليه فلو أضيف إليه لم يكن شرا كما سيأتي بيانه وهو سبحانه خالق الخير والشر فالشر في بعض مخلوقاته لا في خلقه وفعله وخلقه وفعله وقضاؤه وقدره خير كله ولهذا تنزه سبحانه عن الظلم الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه كما تقدم فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها وذلك خير كله والشر وضع الشيء في غير محله فإذا وضع في محله لم يكن شرا فعلم أن الشر ليس إليه وأسماؤه الحسنى تشهد بذلك فإن منها القدوس السلام العزيز الجبار المتكبر فالقدوس المنزه من كل

شر ونقص وعيب كما قال أهل التفسير هو الطاهر من كل عيب المنزه عما لا يليق به وهذا قول أهل اللغة وأصل الكلمة من الطهارة والنزاهة ومنه بيت المقدس لأنه مكان يتطهر فيه

من الذنوب ومن أمه لا يريد إلا الصلاة فيه رجع من خطيئته كيوم ولدته أمه ومنه سميت الجنة حظيرة القدس لطهارتها من آفات الدنيا ومنه سمي جبريل روح القدس لأنه طاهر من كل عيب ومنه قول الملائكة ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك فقيل المعنى ونقدس أنفسنا لك فعدى باللام وهذا ليس شيء والصواب أن المعنى نقدسك وننزهك عما لا يليق بك هذا قول جمهور أهل التفسير ،

(176/115)

وقال ابن جرير : "ونقدس لك ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس ومما أضاف إليك أهل الكفر بك" قال وقال بعضهم : "نعظمك ونمجدك" قاله أبو صالح ، وقال مجاهد : "نعظمك ونكبرك" انتهى وقال بعضهم ننزهك عن السوء فلا ننسبه إليك واللام فيه على حدها في قوله : ﴿ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ لأن المعنى تنزيه الله لا تنزيه نفوسهم لأجله قلت ولهذا قرن هذا اللفظ بقولهم نسبح بحمدك فإن التسبيح تنزيه الله سبحانه عن كل سوء ، قال ميمون بن مهران : "سبحان الله كلمة يعظم بها الرب ويحاشى بها من السوء" وقال ابن عباس : "هي تنزيه لله من كل سوء" وأصل اللفظة من المباعدة من قولهم سبحت في الأرض إذا تباعدت فيها ومنه كل في فلك يسبحون فمن أثنى على الله ونزهه عن السوء

فقد سبحه ويقال سبح الله وسبح له وقدسه وقدس له وكذلك اسمه السلام فإنه الذي سلم من العيوب والنقائص ووصفه بالسلام أبلغ في ذلك من وصفه بالسالم ومن موجبات وصفه بذلك سلامة خلقه من ظلمه لهم فسلم سبحانه من إرادة الظلم والشر ومن التسمية به ومن فعله ومن نسبته إليه فهو السلام من صفات النقص وأفعال النقص وأسماء النقص المسلم لخلقه من الظلم ولهذا وصف سبحانه ليلة القدر بأنها سلام والجنة بأنها دار السلام وتحية أهلها السلام وأثنى على أوليائه بالقول السلام كل ذلك السالم من العيوب وكذلك الكبير من أسمائه والمتكبر، قال قتادة: "وغيره هو الذي تكبر عن السوء" وقال أيضا: "الذي تكبر عن السيئات" وقال مقاتل: "المتعظم عن كل سوء"، وقال أبو إسحاق: "الذي يكبر عن ظلم عباده" وكذلك اسمه العزيز الذي له العزة التامة ومن تمام عزته براءته عن كل سوء وشر وعيب فإن ذلك ينافي العزة التامة وكذلك اسمه العلي الذي علا عن كل عيب وسوء ونقص ومن كمال علوه أن لا يكون فوقه شيء بل يكون فوق كل شيء وكذلك اسمه الحميد وهو الذي له الحمد كله فكمال حمده يوجب أن لا ينسب إليه شر ولا سوء ولا نقص لا في أسمائه ولا في أفعاله ولا

في صفاته فأسماؤه الحسنى تمنع نسبة الشر والسوء والظلم إليه مع أنه سبحانه الخالق لكل شيء فهو الخالق للعباد وأفعالهم وحركاتهم وأقوالهم والعبد إذا فعل القبيح المنهي عنه كان قد فعل الشر والسوء والرب سبحانه هو الذي جعله فاعلا لذلك وهذا الجعل منه عدل وحكمة وصواب فجعله فاعلا خير والمفعول شر قبيح فهو سبحانه بهذا الجعل قد وضع الشيء موضعه لما له في ذلك من الحكمة البالغة التي يحمد عليها فهو خير وحكمة ومصلحة وإن كان وقوعه من العبد عيبا ونقصا وشرا وهذا أمر معقول في الشاهد فإن الصانع الخبير إذا أخذ الخشبة العوجاء والحجر المكسور واللبنة الناقصة فوضع ذلك في موضع يليق به ويناسبه كان ذلك منه عدلا وصوابا يمدح به وإن كان في المحل عوج ونقص وعيب يذم به المحل ومن وضع الخبائث في موضعها ومحلها اللائق بها كان ذلك حكمة وعدلا وصوابا وإنما السفه والظلم أن يضعها في غير موضعها فمن وضع العمامة على الرأس والنعل في الرجل والكحل في العين والزبالة في الكناسة فقد وضع الشيء موضعه ولم يظلم النعل والزبالة إذ هذا محلهما ومن أسمائه سبحانه العدل والحكيم الذي لا يضع الشيء إلا في موضعه فهو المحسن الجواد الحكيم العدل في كل ما خلقه وفي كل ما وضعه في محله وهيأه له وهو سبحانه له الخلق والأمر فكما أنه في أمره لا يأمر إلا بأرجح الأمرين ويأمر بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها وإذا تعارض أمران رجح أحسنهما وأصلحهما وليس في الشريعة أمر يفعل إلا ووجوده للمأمور خير من عدمه ولا نهي عن فعل

إلا وعدمه خير من وجوده فإن قلت فإذا كان وجوده خيرا من عدمه فكيف لا يشاء وجوده فإذا كان عدمه خيرا من وجوده فكيف يشاء وجوده فالمشيئة العامة تنقض عليك هذه القاعدة الكلية قلت لا تنقضها لأن وجوده وإن كان خيرا من عدمه فقد يستلزم وجوده فوات محبوب له هو أحب إليه من وقوع هذا المأمور من هذا المعنى وعدم المنهي وإن كان خيرا من وجوده فقد يكون

وجوده وسيلة وسببا إلى ما هو أحب إليه من عدمه وسيأتي تمام تقرير ذلك في باب اجتماع القدر والشرع وافتراقهما إن شاء الله والرب سبحانه إذا أمر بشيء فقد أحبه ورضيه وأراده وبينه وهو لا يحب شيئا إلا ووجوده خير من عدمه وما نهى عنه فقد أبغضه وكرهه وهو لا يبغض شيئا إلا وعدمه خير من وجوده هذا بالنظر إلى ذات هذا وهذا وأما باعتبار إفضائه إلى ما يحب ويكره فله حكم آخر ولهذا أمر سبحانه عباده أن يأخذوا بأحسن ما أنزل إليهم فالأحسن هو المأمور به وهو خير من المنهي عنه وإذا كانت هذه سنته في أمره وشرعه فهكذا سنته في خلقه وقضائه وقدره فما أراد أن يخلقه أو يفعله كان أن يخلقه ويفعله خيرا من أن لا يخلقه ولا يفعله وبالعكس وما كان عدمه خيرا من

وجوده فوجوده شر وهو لا يفعله بل هو منزه عنه والشر ليس إليه ، فإن قلت فلم خلقه وهو شر ، قلت خلقه له وفعله خير لا شر فإن الخلق والفعل قائم به سبحانه والشر يستحيل قيامه به واتصافه به وما كان في المخلوق من شر فلعدم إضافته ونسبته إليه والفعل والخلق يضاف إليه فكان خيرا والذي شاءه كله خير والذي لم يشأ وجوده بقي على العدم الأصلي وهو الشر فإن الشر كله عدم وأن سببه جهل وهو عدم العلم أو ظلم وهو عدم العدل وما يترتب على ذلك من الآلام فهو من عدم استعداد المحل وقبوله لأسباب الخيرات واللذات ، فإن قلت كثير من الناس يطلق القول بأن الخير كله من الوجود ولوازمه والشر كله من العدم ولوازمه والوجود خير والشر المحض لا يكون إلا عدما ، قلت هذا اللفظ فيه إجمال فإن أريد به أن كل ما خلقه الله وأوجده ففيه الخير ووجوده خير من عدمه وما لم يخلقه ولم يشأه فهو المعدوم الباقي على عدمه ولا خير فيه إذ لو كان فيه خير لفعله فإنه بيده الخير فهذا صحيح فالشر العدمي هو عدم الخير وإن أريد أن كل ما يلزم الوجود فهو خير وكل ما يلزم العدم فهو شر فليس بصحيح فإن الوجود قد يلزمه شر مرجوح والعدم قد يلزمه خير راجح مثال

الأول النار والمطر والحر والبرد والثلج ووجود الحيوانات فإن هذا موجود ويلزمه شر جزئي مغمور بالنسبة إلى ما في وجود ذلك من الخير وكذلك المأمور به قد يلزمه من الألم والمشقة ما هو شر جزئي مغمور بالنسبة إلى ما فيه من الخير.

فصل: وتحقيق الأمر أن الشر نوعان

شر محض حقيقي من كل وجه وشر نسبي إضافي من وجه دون وجه

فالأول لا يدخل في الوجود إذ لو دخل في الوجود لم يكن شرا محضا والثاني هو الذي يدخل في الوجود فالأمور التي يقال هي شرور إما أن تكون أمورا عدمية أو أمورا وجودية فإن كانت عدمية فإنها إما أن تكون عدما لأمور ضرورية للشيء في وجوده أو ضرورية له في دوام وجوده وبقائه أو ضرورية له في كماله وإما أن تكون غير ضرورية له في وجوده ولا بقائه ولا كماله وإن كان وجودها خيرا من عدمها فهذه أربعة أقسام فالأول كالإحساس والحركة والنفس للحيوان

والثاني كقوة الاغتذاء والنمو للحيوان المغتذي النامي

والثالث كصحته وسمعه وبصره وقوته

والرابع كالعلم بدقائق المعلومات التي العلم بها خير من الجهل وليست ضرورية له وأما الأمور الوجودية فوجود كل ما يضاد الحياة والبقاء والكمال كالأمراض وأسبابها والآلام وأسبابها والموانع الوجودية التي تمنع حصول الخير ووصوله إلى المحل القابل له المستعد لحصوله كالمواد الردية المانعة من وصول الغذاء إلى أعضاء البدن وانتفاعها به وكالعقائد الباطلة والإرادات الفاسدة المانعة لحصول أضدادها للقلب إذا عرف هذا فالشر بالذات هو عدم ما هو ضروري للشيء في وجوده أو بقائه أو كماله ولهذا العدم لوازم من شر أيضا فإن عدم العلم والعدل يلزمهما من الجهل والظلم ما هو شرور وجودية وعدم الصحة والاعتدال يلزمهما من الألم والضرر ما هو شر وجودي وأما عدم الأمور المستغنى عنها كعدم الغنى المفرط والعلوم التي لا يضر الجهل بها فليس بشر في الحقيقة ولا وجودها سببا للشر فإن العلم منه حيث هو علم والغنى منه حيث هو غنى لم يوضع سببا للشر وإنما يترتب الشر من عدم صفة تقتضي الخير كعدم العفة والصبر والعدل في حق الغنى فيحصل الشر له في غناه بعدم هذه الصفات وكذلك عدم الحكمة ووضع الشيء موضعه وعدم إرادة الحكمة في حق صاحب العلم يوجب ترتب الشر له على ذلك فظهر أن الشر لم يترتب إلا على عدم وإلا فالموجود من حيث وجوده لا يكون شرا ولا سببا للشر فالأمور الوجودية ليست شرورا بالذات بل بالعرض من حيث أنها تتضمن عدم أمور ضرورية أو نافعة فإنك لا تجد شيئًا من الأفعال التي هي شر إلا وهي كمال بالنسبة إلى أمور وجهة الشر فيه بالنسبة إلى أمور أخر مثال

ذلك أن الظلم يصدر عن قوة تطلب الغلبة والقهر وهي القوة الغضبية التي كمالها بالغلبة ولهذا خلقت فليس في ترتب أثرها عليها شر من حيث وجوده بل الشر عدم ترتب أثرها عليها البتة فتكون ضعيفة عاجزة مقهورة وإنما الشر الوجودي الحاصل شر إضافي بالنسبة إلى المظلوم بفوات نفسه أو ماله أو تصرفه وبالنسبة إلى الظالم لا من حيث

(181/115)

الغلبة والاستيلاء ولكن من حيث وضع الغلبة والقهر والاستيلاء في غير موضعه فعدل به من محله إلى غير محله ولو استعمل قوة الغضب في قهر المؤذي الباغي من الحيوانات الناطقة والبهيمة لكان خيرا ولكن عدل به إلى غير محله فوضع القهر والغلبة موضع العدل والنصفة ووضع الغلظة موضع الرحمة فلم يكن الشر في وجود هذه القوة ولا في ترتب أثرها عليها من حيث هما كذلك بل في إجرائها في غير مجراها ومثال ذلك ماء جار في نهر إلى أرض يسقيها وينفعها فكماله في جريانه حتى يصل إليها فإذا عدل به عن مجراه وطريقه إلى أرض يضرها ويخرب دورها كان الشر في العدول به عما أعدله وعدم وصوله إليه فهكذا الإرادة والغضب أعين بهما العبد ليتوصل بهما إلى حصول ما ينفعه وقهر ما يؤذيه ويهلكه فإذا استعملا في ذلك فهو كمالها وهو خير وإذا صرفا عن ذلك إلى استعمال هذه القوة في غير

محلها وهذه في غير محلها صار ذلك شرا إضافيا نسبيا وكذلك النار كما لها في إحراقها فإذا أحرقت ما ينبغي إحراقه فهو خير وإن صادفت ما لا ينبغي إحراقه فأفسدته فهو شر إضافي بالنسبة إلى المحل المعين وكذلك القتل مثلا هو استعمال الآلة القطاعة في تفريق اتصال البدن فقوة الإنسان على استعمال الآلة خير وكون الآلة قابلة للتأثير خير وكون المحل قابلا لذلك خير وإنما الشر نسبي إضافي وهو وضع هذا التأثير في غير موضعه والعدول به عن المحل المؤدي إلى غيره وهذا بالنسبة إلى الفاعل وأما بالنسبة إلى المفعول فهو شر إضافي أيضا وهو ما حصل له من التألم وفاته من الحياة وقد يكون ذلك خيرا له من جهة أخرى وخير لغيرة وكذلك الوطء فإن قوة الفاعل وقبول المحل كمال ولكن الشر في العدول به عن المحل الذي يليق به إلى محل لا يحسن ولا يليق وهكذا حركة اللسان وحركات الجوارح كلها جارية على هذا المجرى فظهر أن دخول الشر في الأمور الوجودية إنما هو بالنسبة والإضافة لا أنها من حيث وجودها وذواتها شر وكذلك السجود ليس هو شرا

(182/115)

من حيث ذاته ووجوده فإذا أضيف إلى غير الله كان شرا بهذه النسبة والإضافة وكذلك كل ما وجوده كفر وشرك إنما كان شرا بإضافته إلى ما جعله كذلك كتعظيم الأصنام

فالتعظيم من حيث هو تعظيم لا يمدح ولا يذم إلا باعتبار متعلقه فإذا كان تعظيما لله وكتابه ودينه ورسوله كان خيرا محضا وإن كان تعظيما للصنم وللشيطان فإضافته إلى هذا المحل جعلته شرا كما أن إضافة السجود إلى غير الله جعلته كذلك .

فصل : ومما ينبغي أن يعلم أن الأشياء المكونة من موادها شيئًا فشيئًا كالنبات والحيوان أما إن يعرض لها النقص الذي هو شر في ابتدائها أو بعد تكونها فالأول هو بأن يعرض لمادتها من الأسباب ما يجعلها ردية المزاج ناقصة الاستعداد فيقع الشر فيها والنقص في خلقها بذلك السبب وليس ذلك بأن الفاعل حرمه وأذهب عنه أمرا وجوديا به كماله بل لأن المنفعل لم يقبل الكمال والتمام وعدم قبوله أمر عدمي ليس بالفاعل وأما الذي بالفاعل فهو الخير الوجودي الذي يتقبل به كماله وتمامه ونقصه والشر الذي حصل فيه هو من عدم إمداده بسبب الكمال فبقي على العدم الأصلي وبهذا يفهم سر قوله تعالى : ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ فإن ما خلقه فهو أمر وجودي به كمال المخلوق وتمامه وأما عيبه ونقصه فمن عدم قبوله وعدم القبول ليس أمرا مخلوقا يتعلق بفعل الفاعل فالخلق الوجودي ليس فيه تفاوت والتفاوت إنما حصل بسبب هذا الخلق فإن الخالق سبحانه لم يخلق له استعدادا فحصل التفاوت فيه من عدم الخلق لا من نفس الخلق فتأمله والذي إلى الرب سبحانه هو الخلق وأما العدم فليس هو بفاعل له فإذا لم يكمل في مادة الجنين في الرحم ما

يقتضي كماله وسلامة أعضائه واعتدالها حصل فيه التفاوت وكذلك النبات .

فصل : وأما الثاني وهو أن الشر الحاصل بعد تكونه وإيجاده فهو نوعان أيضا

أحدهما أن يقطع عنه الإمداد الذي به كماله بعد وجوده كما يقطع عن النبات إمداده بالسقي وعن الحيوان إمداده بالغذاء فهو شر مضاف إلى العدم أيضا وهو عدم ما يكمل به

الثاني : حصول مضاد مناف وهو نوعان

أحدهما قيام مانع في المحل يمنع تأثير الأسباب الصالحة فيه كما تقوم بالبدن أخلاط ردية تمنع تأثير الغذاء فيه وانتفاعه به وكما تقوم بالقلب إرادات واعتقادات فاسدة تمنع انتفاعه بالهدى والعلم فهذا الشر وإن كان وجوديا وأسبابه وجودية فهو أيضا من عدم القوة والإرادة التي يدفع بها ذلك المانع فلو وجدت قوة وإرادة تدفعه لم يتأثر المحل به مثاله أن غلبة الأخلاط واستيلائها من عدم القوة المنضجة لها أو القوة الدافعة لما يحتاج إلى خروج وكذلك استيلاء الإرادات الفاسدة لضعف قوة العفة والصبر واستيلاء الاعتقادات الباطلة لعدم العلم المطابق لمعلومه فكل شر ونقص فإنما حصل لعدم سبب ضده وعدم سبب ضده ليس فاعلا له بل يكفي فيه بقاؤه على العدم الأصلي

الثاني: مانع من خارج كالبرد الشديد والحرق والغرق ونحو ذلك مما يصيب الحيوان والنبات فيحدث فيه الفساد فهذا لا ريب أنه شر وجودي مستند إلى سبب وجودي ولكنه شر نسبي إضافي وهو خير من وجه آخر فإن وجود ذلك الحر والبرد والماء يترتب عليه مصالح وخيرات كلية هذا الشر بالنسبة إليها جزئي فتعطيل تلك الأسباب لتفويت هذا الشر الجزئي يتضمن شرا أكثر منه وهو فوات تلك الخيرات الحاصلة بها فإن ما يحصل بالشمس والريح والمطر والثلج والحر والبرد من مصالح الخلق أضعاف أضعاف ما يحصل بذلك من مفاسد جزئية هي في جنب تلك المصالح كقطرة في بحر هذا لو كان شرها حقيقيا فكيف وهي خير من وجه وشر من وجه وإن لم يعلم جهة الخير فيها كثير من الناس فما قدرها الرب سبحانه سدى ولا خلقها باطلا وعند هذا فيقال الوجود إما أن يكون خيرا من كل وجه أو شرا من كل وجه أو خيرا من وجه شرا من وجه وهذا على ثلاثة أقسام قسم خيره راجح على شره وعكسه وقسم مستو خيره وشره وأما أن لا يكون فيه خير ولا شر فهذه ستة أقسام ولا مزيد عليها فبعضها واقع وبعضها غير واقع فأما القسم الأول وهو الخير المحض من كل وجه الذي لا شر فيه بوجه ما فهو أشرف الموجودات على الإطلاق وأكملها

وأجلها وكل كمال وخير فيها فهو مستفاد من خيره وكماله في نفسه وهي تستمد منه وهو لا يستمد منها وهي فقيرة إليه وهو غني عنها كل منها يسأله كماله فالملائكة تسأله ما لا حياة لها إلا به وإعانته على ذكره وشكره وحسن عبادته وتنفيذ أوامره والقيام بما جعل إليهم من مصالح العالم العلوي والسفلي وتسأله أن يغفر لبني آدم والرسل تسأله أن يعينهم على أداء رسالاته وتبليغها وأن ينصرهم على أعدائهم وغير ذلك من مصالحهم في معاشهم ومعادهم وبنو آدم كلهم يسألونه مصالحهم على تنوعها واختلافها والحيوان كله يسأله رزقه وغذاءه وقوته وما يقيمه ويسأله الدفع عنه والشجر والنبات يسأله غذاءه وما يكمل به والكون كله يسأله إمداده

(185/115)

بقاله وحاله : ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ فأكف جميع العالم ممتدة إليه بالطلب والسؤال ويده مبسوطة لهم بالعطاء والنوال يمينه ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار وعطاؤه وخيره مبذول للأبرار والفجار له كل كمال ومنه كل خير له الحمد كله وله الثناء كله وبيده الخير كله وإليه يرجع الأمر كله تبارك اسمه وتباركت أوصافه وتباركت أفعاله وتباركت ذاته فالبركة كلها له ومنه لا يتعاظمه خير سئله ولا

تنقص خزائنه على كثرة عطائه وبذله فلو صور كل كمال في العالم صورة واحدة ثم كان العالم كله على تلك الصورة لكان نسبة ذلك إلى كماله وجلاله وجماله دون نسبة سراج ضعيف إلى عين الشمس .

فصل : وأما الأقسام الخمسة الباقية فلا يدخل منها في الوجود إلا ما كانت المصلحة والحكمة والخير في إيجاده أكثر من المفسدة والأقسام الأربعة لا تدخل في الوجود أما الشر المحض الذي لا خير فيه فذاك ليس له حقيقة بل هو العدم المحض ، فإن قيل فإبليس شر محض والكفر والشرك كذلك وقد دخلوا في الوجود فأي خير في إبليس وفي وجود الكفر ، قيل في خلق إبليس من الحكم والمصالح والخيرات التي ترتبت على وجوده ما لا يعلمه إلا الله كما سننبه على بعضه فالله سبحانه لم يخلقه عبثًا ولا قصد بخلقه إضرار عباده وهلاكهم فكم لله في خلقه من حكمة باهرة وحجة قاهرة وآية ظاهرة ونعمة سابغة وهو وإن كان للأديان والإيمان كالسموم للأبدان ففي إيجاد السموم من المصالح والحكم ما هو خير من تفويتها .

وأما الذي لا خير فيه ولا شر فلا يدخل أيضا في الوجود فإنه عبث فتعالى الله عنه وإذا امتنع وجود هذا القسم في الوجود فدخول ما الشر في إيجاده أغلب من الخير أولى بالامتناع ومن تأمل هذا الوجود علم أن الخير فيه غالب وأن الأمراض وإن كثرت فالصحة أكثر منها واللذات أكثر من الآلام والعافية أعظم من البلاء والغرق والحرق والهدم ونحوها وإن كثرت فالسلامة أكثر ولو لم يوجد هذا القسم الذي خيره غالب لأجل ما يعرض فيه من الشر لفات الخير الغالب وفوات الخير الغالب شر غالب ومثال ذلك النار فإن في وجودها منافع كثيرة وفيها مفاسد لكن إذا قابلنا بين مصالحها ومفاسدها لم تكن لمفاسدها نسبة إلى مصالحها وكذلك المطر والرياح والحر والبرد وبالجملة فعناصر هذا العالم السفلي خيرها ممتزج بشرها ولكن خيرها غالب وأما العالم العلوي فبريء من ذلك،

فإن قيل فهلا خلق الخلاق الحكيم هذه خالية من الشر بحيث تكون خيرات محضة فإن قلتم اقتضت الحكمة خلق هذا العالم ممتزجا فيه اللذة بالألم والخير بالشر فقد كان يمكن خلقه على حالة لا يكون فيه شر كالعالم العلوي سلمنا أن وجود ما الخير فيه أغلب من الشر أولى من عدمه فأي خير ومصلحة في وجود رأس الشر كله ومنبعه وقدوة أهله فيه إبليس وأي خير في إبقائه إلى آخر الدهر وأي خير يغلب في نشأة يكون فيها تسعة وتسعون إلى النار وواحد في الجنة وأي خير غالب حصل بإخراج الأبوين من الجنة حتى جرى على الأولاد ما جرى ولو داما في الجنة لارتفع

الشر بالكلية وإذا كان قد خلقهم لعبادته فكيف اقتضت حكمته أن صرف إليهم عنا ووفق لها الأقل من الناس وأي خير يغلب في خلق الكفر والفسوق والعصيان والظلم والبغي وأي خير في إيلام غير المكلفين كالأطفال والمجانين فإن قلتم فائدته التعويض أنقض عليكم بإيلام البهائم ثم وأي خير في خلق الدجال وتمكينه من الظهور والافتتان به وإذ قد اقتضت الحكمة ذلك فأي خير حصل في تمكينه من إظهار تلك الخوارق والعجائب وأي خير في السحر وما يترتب عليه من المفاسد والمضار وأي خير في إلباس الخلق شيعا وإذاقة بعضهم بأس بعض وأي خير في خلق السموم وذات السموم والحيوانات العادية المؤذية بطبعها وأي خير في خراب هذه البنية بعد خلقها في أحسن تقويم وردها إلى أرذل العمر بعد استقامتها وصلاحها وكذلك خراب هذا الدار ومحو أثرها فإن كان وجود ذلك خيرا غالبا فإبطاله إبطال للخير الغالب دع هذا كله فأي خير راجح أو مرجوح في النار وهي دار الشر الأعظم والبلاء الأكبر ولا خلاص لكم عن هذه الأسئلة إلا بسد باب الحكم والتعليل وإسناد الكون إلى محض المشيئة أو القول بالإيجاب الذاتي وأن الرب لا يفعل باختياره ومشيئته وهذه الأسئلة إنما ترد على من يقول بالفاعل المختار فلهذا لجأ القائلون إلى إنكار التعليل جملة

فاختاروا أحد المذهبين وتحيزوا إلى إحدى الفئتين وإلا فكيف تجمعون بين القول بالحكمة والتعليل وبين هذه الأمور ؟

(188/115)

فالجواب بعد أن نقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر بل في تحقيق هذه الكلمات الجواب الشافي : ﴿ ربَّنا ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النّار ﴾ : ﴿ وما خلقنا السّماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ ﴿ ما خلقناهما إلاّ بالحقّ ﴾ : ﴿ وما خلقنا السّماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظنُّ الّذين كفروا فويلٌ للّذين كفروا من النّار ﴾ : ﴿ أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً وأنّكم إلينا لا ترجعون فتعالى اللّه الملك الحقّ لا إله إلاّ هو ربّ العرش الكريم ﴾ : ﴿ اللّه الّذي خلق سبع سماواتٍ ومن الأرض مثلهنّ يتنزّل الأمر بينهنّ لتعلموا أنّ اللّه على كلّ شيءٍ قديرٌ وأنّ اللّه قد أحاط بكلّ شيءٍ علماً ﴾ : ﴿ جعل اللّه الكعبة البيت الحرام قياماً للنّاس والشّهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أنّ اللّه يعلم ما في السّماوات وما في الأرض وأنّ اللّه بكلّ شيءٍ عليمٌ ﴾ : ﴿ صنع اللّه الّذي أتقن كلّ شيءٍ ﴾ : ﴿ وأحسن كل الّذي أحسن كلّ شيءٍ خلقه ﴾ : ﴿ ما ترى في خلق الرّحمن من تفاوتٍ ﴾ بل هو في غاية التناسب واقع على أكمل الوجوه وأقربها إلى

حصول الغايات المحمودة والحكم المطلوبة فلم يكن تحصل تلك الحكم والغايات التي انفرد الله سبحانه بعلمها على التفصيل وأطلع من شاء من عباده على أيسر اليسير منها إلا بهذه الأسباب والبدايات وقد سأله الملائكة المقربون عن جنس هذه الأسئلة وأصلها فقال : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وأقروا له بكمال العلم والحكمة وأنه في جميع أفعاله على صراط مستقيم وقالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ولما ظهر لهم ببعض حكمته فيما سألوا عنه وأنهم لم يكونوا يعلمون قال : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

(189/115)

فصل : ونحن نذكر أصولا مهمة نبين بها جواب هذه الأسئلة وقد اعترف كثير من المتكلمين ممن له نظر في الفلسفة والكلام أنه لا يمكن الجواب عنها إلا بالتزام القول بالموجب بالذات أو القول بإبطال الحكمة والتعليل وأنه سبحانه لا يفعل شيئا لشيء ولا يأمر بشيء لحكمة ولا جعل شيئا من الأشياء سببا لغيره وما ثم إلا مشيئة محضة وقدرة ترجح مثلا على مثل بلا سبب ولا على وأنه لا يقال في فعله لم ولا كيف ولا لأي سبب وحكمة ولا هو معلل بالمصالح

(190/115)

قال الرازي في مباحثه : "فإن قيل فلم لم يخلق الخالق هذه الأشياء عرية عن كل الشرور فنقول لأنه لو جعلها كذلك لكان هذا هو القسم الأول وذلك مما خرج عنه" يعني كان ذلك هو القسم الذي هو خير محض لا شر فيه قال : "وبقي في الفعل قسم آخر وهو الذي يكون خيره غالبا على شره" وقد بينا أن الأولى بهذا القسم أن يكون موجودا قال وهذا الجواب لا يعجبني لأن لقائل أن يقول أن جميع هذه الخيرات والشرور إنما توجد باختيار الله سبحانه وإرادته فالاحتراق الحاصل عقيب النار ليس موجبا عن النار بل الله اختار خلقه عقيب مماسة النار وإذا كان حصول الاحتراق عقيب مماسة النار باختيار الله وإرادته فكان يمكنه أن يختار خلق الإحراق عندما يكون خيرا ولا يختار خلقه عندما يكون شرا ولا خلاص عن هذه المطالبة إلا ببيان كونه فاعلا بالذات لا بالقصد والاختيار ويرجع حاصل الكلام في هذه المسألة إلى مسألة القدم والحدوث فانظر كيف اعترف بأنه لا خلاص عن هذه الأسئلة إلا بتكذيب جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم وإبطال جميع الكتب المنزلة من عند الله ومخالفة صريح العقل في أن خالق العالم سبحانه مريد مختار ما شاء كان بمشيئته وما لم يشأ لم يكن لعدم مشيئته وأنه ليس في الكون شيء حاصل بدون مشيئته ألبتة فأقر على نفسه أنه لا خلاص له في تلك الأسئلة إلا بالتزام طريقة أعداء الرسل والملل القائلين بأن الله لم يخلق السماوات والأرض في ستة أيام ولا أوجد العالم بعد عدمه ولا يفنيه بعد إيجاده

وصدور ما صدر عنه بغير اختياره ومشيئته فلم يكن مختارا مريدا للعالم وليس عنده إلا هذا القول أو قول الجبرية منكري الأسباب والحكم والتعليل أو قول المعتزلة الذين أثبتوا حكمة لا ترجع إلى الفاعل وأوجبوا رعاية مصالح شبهوا فيها الخالق بالمخلوق وجعلوا له بعقولهم شريعة أوجبوا عليه فيها وحرموا وحجروا عليه فالأقوال الثلاثة تتردد في صدره وتتقاذف به أمواجها تقاذف السفينة إذا لعبت بها الرياح (1)

---

(1) هذا الاتهام فيه نظر وفيه تجن واضح، وكلام الفخر ـ رحمه الله ـ لم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى شيء من ذلك بل هو على نقيضه. وكان الأليق بابن القيم ـ رحمه الله ـ أن ينصفه. والله أعلم.

(191/115)

الشديدة والعاقل لا يرضى لنفسه بواحد من هذه الأقوال لمنافاتها العقل والنقل والفطرة والقول الحق في هذه الأقوال كيوم الجمعة في الأيام أضل الله عنه أهل الكتابين قبل هذه الأمة وهداهم إليه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الجمعة: "أضل الله عنها من كان قبلنا فاليوم لنا وغدا لليهود وبعد غد للنصارى" ونحن هكذا نقول بحمد الله ومنه القول الوسط الصواب لنا وإنكار الفاعل بالمشيئة والاختيار لأعداء الرسول وإنكار الحكمة والمصلحة

والتعليل والأسباب للجهمية والجبرية وإنكار عموم القدرة والمشيئة العائدة إلى الرب سبحانه من محبته وكراهته وموجب حمده ومقتضى أسمائه وصفاته ومعانيها وآثارها للقدرية المجوسية ونحن نبرأ إلى الله من هذه الأقوال وقائلها إلا من حق تتضمنه مقالة كل فرقة منهم فنحن به قائلون وإليه منقادون وله ذاهبون.

(192/115)

فصل: الأصل الأول: إثبات عموم علمه سبحانه وإحاطته بكل معلوم وأنه لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض بل قد أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا والخلاف في هذا الأصل مع فرقتين إحداهما أعداء الرسل كلهم وهم الذين ينفون علمه بالجزئيات وحاصل قولهم أنه لا يعلم موجودا البتة فإن كل موجود جزئي معين فإذا لم يعلم الجزئيات لم يكن عالما بشيء من العالم العلوي والسفلي والفرقة الثانية غلاة القدرية الذين اتفق السلف على كفرهم وحكموا بقتلهم الذين يقولون لا يعلم أعمال العباد حتى يعلموها ولم يعلمها قبل ذلك ولا كتبها ولا قدرها فضلا عن أن يكون شاءها وكونها وقول هؤلاء معلوم البطلان بالضرورة من أديان جميع المرسلين وكتب الله المنزلة وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم مملوءة بتكذيبهم وإبطال قولهم وإثبات عموم علمه الذي

لا يشاركه فيه خلقه ولا يحيطون بشيء منه إلا بما شاء أن يطلعهم عليه ويعلمهم به وما أخفاه عنهم ولم يطلعهم عليه لا نسبة لما عرفوه إليه إلا دون نسبة قطرة واحدة إلى البحار كلها كما قال الخضر لموسى وهما أعلم أهل الأرض حينئذ ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من البحر ويكفي أن ما يتكلم به من علمه لو قدر أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر مداد وأشجار الأرض كلها من أول الدهر إلى آخره أقلام يكتب به ما يتكلم به مما يعلمه لنفدت البحار وفنيت الأقلام ولم تنفذ كلماته فنسبة علوم الخلائق إلى علمه سبحانه كنسبة قدرتهم إلى قدرته وغناهم إلى غناه وحكمتهم إلى حكمته وإذا كان أعلم الخلق به على الإطلاق يقول: "لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك" ويقول في دعاء الاستخارة: "فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب" ويقول سبحانه للملائكة: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ ويقول سبحانه لأعلم الأمم وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ

وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ ويقول لأهل الكتاب: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾

وتقول رسله يوم القيامة حين يسألهم: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ وهذا هو الأدب المطابق للحق في نفس الأمر فإن علومهم وعلوم الخلائق تضمحل وتتلاشى في علمه سبحانه كما يضمحل ضوء السراج الضعيف في عين الشمس فمن أظلم الظلم وأبين الجهل وأقبح القبيح وأعظم القحة والجراءة أن يعترض من لا نسبة لعلمه إلى علوم الناس التي لا نسبة لها إلى علوم الرسل التي لا نسبة لها إلى علم رب العالمين عليه ويقدح في حكمته ويظن أن الصواب والأولى أن يكون غير ما جرى به قلمه وسبق به علمه وأن يكون الأمر بخلاف ذلك فسبحان الله رب العالمين تنزيها لربوبيته وإلهيته وعظمته وجلاله عما لا يليق به من كل ما نسبه إليه الجاهلون الظالمون فسبحان الله كلمة يحاشى الله بها عن كل ما يخالف كماله من سوء ونقص وعيب فهو المنزه التنزيه التام من كل وجه وبكل اعتبار عن كل نقص متوهم وإثبات عموم حمده وكماله وتمامه ينفي ذلك واتصافه بصفات الإلهية التي لا تكون لغيره وكونه أكبر من كل شيء في ذاته وأوصافه وأفعاله ينفي ذلك لمن رسخت معرفته في معنى سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وسافر قلبه في منازلها وتلقى معانيها من مشكاة النبوة لا من مشكاة الفلسفة والكلام الباطل وآراء المتكلمين فهذا أصل يجب التمسك به في هذا المقام وأن يعلم أن عقول العالمين ومعارفهم وعلومهم وحكمهم تقصر عن الإحاطة بتفاصيل حكمة الرب سبحانه في أصغر مخلوقاته،

الأصل الثاني : أنه سبحانه حي حقيقة وحياته أكمل الحياة وأتمها وهي حياة تستلزم جميع صفات الكمال ونفي أضدادها من جميع الوجوه ومن لوازم الحياة الفعل الاختياري فإن كل حي فعال وصدور الفعل عن الحي بحسب كمال حياته ونقصها وكل من كانت حياته أكمل من غيره كان فعله أقوى وأكمل وكذلك قدرته ولذلك كان الرب سبحانه على كل شيء قدير وهو فعال لما يريد وقد ذكر البخاري في كتاب خلق الأفعال عن نعيم بن حماد أنه قال : "الحي هو الفعال" وكل حي فعال فلا فرق بين الحي والميت إلا بالفعل والشعور وإذا كانت الحياة مستلزمة للفعل وهو الأصل الثالث فالفعل الذي لا يعقل الناس سواه هو الفعل الاختياري الإرادي الحاصل بقدرة الفاعل وإرادته ومشيئته وما يصدر عن الذات من غير سفير قدرة منها ولا إرادة لا يسميه أحد من العقلاء فعلا وإن كان أثرا من آثارها ومتولدا عنها كتأثير النار في الإحراق والماء في الإغراق والشمس في الحرارة فهذه آثار صادرة عن هذه الأجسام وليست أفعالا لها وإن كانت بقوى وطبائع جعلها الله فيها فالفعل والعمل من الحي العالم لا يقع إلا بمشيئته وقدرته وكون الرب سبحانه حيا فاعلا مختارا مريدا مما اتفقت عليه الرسل والكتب ودل عليه العقل والفطرة وشهدت به الموجودات ناطقها وصامتها

جمادها وحيوانها علويها وسفليها فمن أنكر فعل الرب الواقع بمشيئته واختياره وفعله فقد جحد ربه وفاطره وأنكر أن يكون للعامل رب ، الأصل الرابع : أنه سبحانه ربط الأسباب بمسبباتها شرعا وقدرا وجعل الأسباب محل حكمته في أمره الديني والشرعي وأمره الكوني القدري ومحل ملكه وتصرفه فإنكار الأسباب والقوى والطبائع جحد للضروريات وقدح في العقول والفطر ومكابرة للحس وجحد للشرع والجزاء فقد جعل سبحانه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم والثواب والعقاب والحدود والكفارات والأوامر والنواهي والحل والحرمة كل ذلك مرتبطا بالأسباب قائما بها بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سبب لما يصدر عنه

(195/115)

بل الموجودات كلها أسباب ومسببات والشرع كله أسباب ومسببات والمقادير أسباب ومسببات والقدر جار عليها متصرف فيها فالأسباب محل الشرع والقدر والقرآن مملوء من إثبات الأسباب كقوله : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ : ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ : ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ

أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ وقوله : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ وقوله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ﴾ وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ وقوله : ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾ وقوله : ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾ : ﴿ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ

فَسَوَّاهَا ﴾ وقوله : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴾ وقوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ وقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ

الثَّمَرَاتِ ﴾ وقوله : ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ وقوله : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ ﴾ الآية وقوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ وكل موضع رتب فيه الحكم الشرعي أو الجزائي على الوصف أفاد كونه سببا له كقوله : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ ﴾ وقوله : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ وقوله : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ وهذا أكثر من أن يستوعب وكل موضع تضمن الشرط والجزاء أفاد سببية الشرط والجزاء وهو أكثر من أن يستوعب كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ وقوله : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ وكل موضع رتب فيه الحكم على ما قبله بحرف أفاد التسبب وقد تقدم وكل موضع تقدم ذكرت فيه الباء تعليلا لما قبلها بما بعدها أفاد التسبب وكل موضع صرح فيه بأن كذا جزاء لكذا أفاد التسبيب فإن العلة الغائية علة للعلة الفاعلية ولو تتبعنا ما يفيد إثبات الأسباب من القرآن والسنة لزاد على عشرة آلاف موضع ولم نقل ذلك مبالغة بل حقيقة ويكفي شهادة الحس والعقل والفطر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ شفاء العليل صـ 178 . 189 ﴾

من فوائد العلامة تقى الدين السبكى :

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ :

قَوْله تَعَالَى مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى جَوَازِ تَسْمِيَةِ الْمِلْكِ فِي الْمَخْلُوقِ ، بِخِلَافِ مَا نَقَلَهُ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ . وَإِنَّمَا تَمْتَنِعُ التَّسْمِيَةُ بِمَلِكِ الْأَمْلَاكِ لِأَنَّهُ يَخْتَصُّ بِاَللَّهِ تَعَالَى ، وَإِنَّمَا قُلْنَا أَنَّهُ يُسْتَدَلُّ بِذَلِكَ لِأَنَّ الْأَصْلَ أَنَّهُ إذَا ثَبَتَ الْمَعْنَى صَحَّ الِاشْتِقَاقُ ، فَإِنْ تَحَقَّقَ النَّقْلُ الَّذِي قَالَهُ أَبُو بَكْرٍ كَانَ ذَلِكَ مُسْتَثْنًى مِنْ هَذَا الْأَصْلِ مَانِعًا مِنْ الِاسْتِدْلَالِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 27 ﴾

(198/115)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَآءُ ﴾

وساعة تسمع كلمة " ملك " ، فلنا أن نعرف أن هناك كلمة هي " مُلك " بضم الميم ، وكلمة أخرى هي " مِلك " بكسر الميم . إن كلمة " مِلك " تعني أن للإنسان ملكية بعض من

الأشياء ، كملكية إنسان لملابسه وكتبه وأشيائه ، لكن الذي يملك مالك هذا الملك فهذا تسميه " مُلك " ، فإذا كانت هذه الملكية في الأمر الظاهر لنا ، فإننا نسميه " عالم الملك " ، وهو العالم المُشاهد ، وإذا كانت هذه الملكية في الأمر الخفي فإننا نسميه " عالم الملكوت " .

إذن ، فنحن هنا أمام " مِلك " ، و " مُلك " و " ملكوت " . ولذلك فعندما تجلى الحق سبحانه وتعالى على سيدنا إبراهيم خليل الرحمن وكشف له ما خفي عن العيون وما ظهر ، قال سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾

[الأنعام : 75] .

(199/115)

أي أن الله سبحانه وتعالى أراد لسيدنا إبراهيم أن يشاهد الملكوت في السماوات والأرض ، أي كل الأشياء الظاهرة والخافية المخفية عن عيون العباد . وهكذا نرى مراحل الحيازة كالآتي : ملك ، أي أن يملك الإنسان شيئًا ما ، وهذا نسميه مالكا للأشياء فهو مالك لاشيائه ، ومالك لمتاعه أما الذي يملك الانسان الذي يملك الاشياء فإننا نسميه " مُلك " ، أي أنه يملك من يملك الأشياء ، والظاهرة في الأولى نسميها " مِلْك " فكل إنسان له ملكية

بعض من الاشياء ، وبعد ذلك تنحاز الى الأقل ، اي ان تنسب ملكية أصحاب الأملاك إلى ملك واحد . فالملكية بالنسبة للإنسان تتلخص في أن يملك الإنسان شيئًا فيصير مالكا ، وإنسان آخر يوليه الله على جماعة من البشر فيصير مَلِكاً ، هذا في المجال البشرى .

أما في المجال الإلهي ، فإننا نُصعد لنرى من يملك كل مالك وملك ، إنه الله سبحانه وتعالى .

ولا يظن أحد أن هناك إنسانا قد ملك شيئًا ؛ أو جاها في هذه الدنيا بغير مراد الله فيه, فكل إنسان يملك بما يريده الله له من رسالة, فإذا انحرف العباد, فلا بد أن يولى الله عليهم ملكا ظالما ، لماذا ؟ لأن الأخيار قد لا يحسنون تربية الناس .

﴿ وَكَذَالِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾

[الأنعام : 129] .

وكأن الحق سبحانه يقول : يأيها الخيِّر – بتشديد الياء – ضع قدما على قدم ولا تلوث يدك بأن تنتقم من الظالم ، فسوف أضع ولاية ظالم أكبر على هذا الظالم الصغير ، إنني أربأ بك أن تفعل ذلك ، وسأنتقم لك ، وأنت أيها الخيِّر منزه عندي عن ارتكاب المظالم, ولذلك نجد قول الحق :

﴿ وَكَذَالِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾

[الأنعام : 129] .

ونحن جميعا نعرف القول الشائع : " الله يسلط الظالمين على الظالمين " .

ولو أن الذين ظلموا مُكِّن منهم من ظلموهم ما صنعوا فيهم ما يصنعه الظالمون في بعضهم بعضا . إن الحق يسلط الظالمين على الظالمين ، وينجى أهل الخير من موقف الانتقام ممن ظلموهم .

إذن فنحن في هذه الحياة نجد " مالك " , و " ملك " وهناك فوق كل ذلك " مالك الملك " ، ولم يقل الله : إنه " ملك الملك " ؛ لأننا إذا دققنا جيدا في أمر الملكية فإننا لن نجد مالكا إلا الله . ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ إنه المتصرف في ملكه ، وإياكم أن تظنوا أن أحدا قد حكم في خلق الله بدون مراد الله ، ولكن الناس حين تخرج عن طاعة الله فإن الله يسلط عليهم الحاكم الظالم ، ولذلك فالحق سبحانه يقول في حديثه القدسي :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يطوى الله – عز وجل – السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرض بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ " .

إياك أيها المؤمن أن تظن أن أحدا قد أخذ الملك غضبا من الله . إنما الملك يريده الله لمن يؤدب به العباد . وإن ظلم الملك في التأديب فإن الله يبعث له من يظلمه ، ومن رأى ظلم هذا

الملك أو ذاك الحاكم فمن الجائز أن يريه الله هذا الملك أو ذلك الحاكم مظلوما . إنه القول الحكيم يؤكد لنا أنه سبحانه وتعالى مالك الملك وحده .

إن الحق سبحانه يأمر رسوله الكريم : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ إن كلمة " اللهم " وحدها فيها عجب من العجائب اللغوية ، إن القرآن قد نزل باللسان العربي, وأمة العرب فصيحة اللسان والبيان والبلاغة ، وشاء الحق أن يكون للفظ الجلالة " الله " خصوصية فريدة في اللغة العربية .

(201/115)

إن اللغة العربية تضع قاعدة واضحة وهي ألا يُنادي ما فيه ، أداة التعريف ، مثل " الرجل " بـ " يا " فلا يقال : " يا رجل " بل يقال : " يأيها الرجل " لكن اللغة التي يسرها الله لعباده تخص لفظ الجلالة بالتقديس ، فيكون من حق العباد أن يقولوا : " يا الله " . وهذا اللفظ بجلاله له تميز حتى في نطقه .

ولنا أن نلحظ أن العرب من كفار قريش وهم أهل فصاحة لم يفطنوا إلى ذلك ، فكأن الله يرغم حتى الكافرين بأن يجعل للفظ الجلالة تميزا حتى في أفواه الكافرين فيقولون مع المؤمنين : " يا الله " . أما بقية الأسماء التي تسبقها أداة التعريف فلا يمكن أن تقول : " يا الرجل " أو "

يا العباس " لكن لا بد أن تقول " يأيها الرجل " ، أو " يأيها العباس " ، ولا تقول حتى في نداء النبي : " يا النبي " ، وإنما تقول : " يأيها النبي " .

لكن عند التوجه بالنداء إلى الله فإننا نقول : " يا الله " ، إنها خصوصية يلفتنا لها الحق سبحانه بأنه وحده المخصوص بها ، وأيضا ما رأينا في لغة العرب عَلَماً دخلت عليه " التاء " كحرف القسم إلا الله ، فإننا نقول " تالله " ، ولم نجد أبدا من يقول " تزيد " أو " تعمرو " . إننا لا نجد التاء كحرف قسم إلا في لفظ الجلاله ، ولا نجد أيضا علما من الأعلام في اللغة العربية تحذف منه " يا " في النداء وتستبدل بالميم إلا في لفظ الجلالة فنقول : " اللهم " كل ذلك ليدل على أن اللفظ في ذاته له خصوصية المسمى . " قل اللهم " وكأن حذف حرف النداء هنا يُعلمنا أن الله هو وحده المستدعى بدون حرف نداء . " اللهم " وفي بعض الألسنة يجمعون الياء والميم ، مثل قول الشاعر : إني إذا ما حادث ألَمَّا أقول يا للهم يا اللهمَّا

(202/115)

إنها خصوصية لصاحب الخصوصية الأعلى . ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ وقد يسأل إنسان لماذا لم يقل الحق : " ملك الملك " ؟ هنا لا بد أن نعرف أنه سيأتي يوم لا تكون فيه أي ملكية لأي أحد إلا الله ، وهو المالك الوحيد ، فهو سبحانه يقول :

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ * يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر : 15-16].

إن قول الحق هنا : " مالك الملك " توضح لنا أن ملكية الله وهي الدائمة والقادرة واضحة ، وجلية ، ومؤكدة ، ولو قال الله في وصف ذاته : " ملك الملك " لكان معنى ذلك أن هناك بشرا يملكون بجانب الله ، لا ، إنه الحق وحده مالك الملك . وما دام الله هو مالك الملك ، فإنه يهبه لمن يشاء ، وينزعه ممن يشاء . وهنا نلاحظ أن قول الحق : إنه مالك الملك يعطي الملك لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء تأتي بعد عملية المحاجّة ، وبعد أن تهرب بعض من أهل الكتاب من تطبيق حكم الله بعد أن دعوا إليه ، فتولى فريق منهم وأعرض عن حكم الله ، وعللوا ذلك بادعاء أنهم أبناء الله وأحباؤه وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات.

كل هذه خيارات من لطف الله وضعها أمام هؤلاء العباد ، خيارات بين اتباع حكم الله أو اتباع حكم الهوى ، لكنهم لم يختاروا إلا الاختيار السيء ، حكم الهوى . ولذلك يأتي الله بخبر اليوم الذي سوف يجيء ، ولن يكون لأحد أي قدرة ، أو اختيار .

إن حق الاختيار موجود لنا في هذه الدنيا ، وعلينا أن نحسن الاختيار في ضوء منهج الله .

ولنتأمل هذا المثل الذي حدثتنا عنه السيرة النبوية الطاهرة ، حينما جاءت غزوة الأحزاب التي اجتمع فيها كل خصوم الدعوة ، واشتغل اليهود بالدس والوقيعة ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحفر بمشورة سلمان الفارسي خندقا حول المدينة المنورة .

ومعنى " الخندق " ، أي مساحة من الأرض يتم حفرها بما يعوق التقدم . وكان المقاتلون يعرفون أن الفرس يستطيع أن يقفز مسافة ما من الأمتار .

لقد حاول المؤمنون أثناء حفر الخندق أن يكون اتساع أكبر من قدرة الخيل ، ولننظر إلى دقة الإدارة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن سلمان الفارسي قد اقترح أن يتم حفر الخندق ، وفيما يبدو أنه قد أخذ الفكرة من بيئته وقبل الرسول صلى الله عليه وسلم الفكرة وأقرها ، وفعلها المسلمون .

إذن فليس كل ما فعله الكفار كان مرفوضا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل تطبيق كل الأعمال النافعة ، سواء أكان قد فعلها الكفار من قبل أم لا ، ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن عملية الحفر مرهقة بسبب جمود الأرض وصخريتها في بعض المواقع ، لذلك وضع حصة قدرها أربعون ذراعا لكل عشرة من الصحابة ، وبذلك وزع الرسول الكريم العمل والمسئولية ، ولم يترك الأمر لكل جماعة خشية أن يتواكلوا على غيرهم .

وتوزيع المسئولية يعني أن كل جماعة تعرف القدر الواضح من العمل الذي تشارك به مع بقية الجماعات وقد يسأل سائل : ولماذا لم يوزع الرسول صلى الله عليه وسلم التكليف لكل واحد بمفرده ؟ ونقول : إنها حكمة الإدارة والحزم هي التي جعلت الرسول صلى الله عليه وسلم يتعرف على حقيقة واضحة ، وهي أن الذين يحفرون من الصحابة ليسوا متساوون في القدرة والمجهود ، لذلك أراد لكل ضعيف أن يكون مسنودا بتسعة من الصحابة .

(204/115)

إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجعل الأمر مشاعا ، بل كان هناك تحديد للمسئولية ، لكنه لم يجعل المسئولية مشخصة تشخيصا أوليا ومحددا بكل فرد ، وذلك حتى يساعد الأقوياء الضعيف من بينهم . لقد ستر رسول الله صلى الله عليه وسلم الضعيف بقوة إخوانه ، وساعة أن يوجد ضعيف بين عشرة من الإخوان يحملون عنه ويحفرون ، فإن موقفه من أصحابه يكون المحبة والألفة ، ويكون القوي قد أفاض على الضعيف .

وكان عمرو بن عوف ضمن عشرة منهم سلمان الفارسي رضي الله عنه ، فلما جاءوا ليحفروا صادفتهم منطقة يقال عنها : " الكئود " ، ومعنى " الكئود " هي المنطقة التي تكون صلبة أثناء الحفر ، فالحافر إذا ما حفر الأرض قد يجد الأرض سهلة ويواصل الحفر ،

أما إذا صادفته قطعة صلبة في الأرض فإنه لا يقدر عليها بمعوله لأنها صخرية صماء ، فيقال له : "أكدى الحافر" .

وعندما صادف عمرو بن عوف وسلمان الفارسي والمغيرة وغيرهم هذه الصخرة الكؤود ، قالوا لسلمان : "اذهب فارفع أمرنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم" . ومن هذا نتعلم درسا وهو أن المُكَلّفَ مِنْ قِبَل مَنْ يكلفه بأمر إذا وجد شيئًا يعوقه عن أداء المهمة فلا بد أن يعود إلى من كلفه بها .

وذهب سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سلمان إلى الموقع وأخذ المعول وجاء على الصخرة الكؤود وضربها ، فحدث شرر أضاء من فرط قوة الاصطدام بين الحديد والصخرة ، فهتف رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر فُتِحَتْ قصور بصرى بالشام ، ثم ضرب ضربة أخرى ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : الله أكبر فُتِحَتْ قصور الحمراء بالروم . وضرب ضربة ثالثة وقال : الله أكبر فُتِحَتْ قصور صنعاء في اليمن ، فكأنه حين ضرب الضربة أوضح الله له معالم الأماكن التي سوف يدخلها الإسلام فاتحا ومنتصرا ، فلما بلغ ذلك القول أعداء رسول الله

صلى الله عليه قال الأعداء للصحابة : يمنيكم محمد بفتح قصور صنعاء في اليمين ، والحمراء في الروم ، وفتح قصور بصرى ، وأنتم لا تستطيعون أن تبرزوا لنا للقتال فأنزل الله قوله : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ . . . ﴾ .

إن المسألة ليست عزما من هؤلاء المؤمنين ، إنما هي نية على قدر الوسع ، فإن فعلت أي فعل على النية بقدر الوسع فانتظر المدد من المدد الأعلى سبحانه وتعالى .

إن الله سبحانه هو الذي يعطي الملك ، وهو الإله الحق الذي ينزع ملك الكفر في كسرى والروم وصنعاء ، ويعطي سبحانه الملك لمحمد رسول الله وأصحابه ، وينزعه من قريش ، وينزع الملك من يهود المدينة حيث كانوا يريدون الملك .

(206/115)

إن قول الحق : ﴿ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ ﴾ تجعلنا نتساءل : ما النزع ؟ إنه القلع بشدة ، لأن الملك عادة ما يكون متمسكا بكرسي الملك ، متشبثا به ، لماذا ؟ لأن بعضا ممن يجلسون على كراسي السلطان ينظرون إليه كمغنم بلا تبعات فلا عرق ولا سهر ولا مشقة أو حرص على حقوق الناس ، إنهم يتناسون سؤال النفس " وماذا فعلت للناس " ؟ إن الواحد من هؤلاء لا يلتفت إلى ضرورة رعاية حق الله في الخلق فيسهر على مصالح الناس

ويتعب ويكد ويشقى ويحرص على حقوق الناس .

إننا ساعة نرى حاكما متكالبا على الحكم ، فلنعلم أن الحكم عنده مغنم ، لا مغرم . ولنر ماذا قال سيدنا عمر بن الخطاب عندما قالوا له : إن فقدناك – لا نفقدك – نولي عبد الله بن عمر ، وهو رجل قرقره الورع .

. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : بحسب آل الخطاب أن يُسأل منهم عن أمة محمد رجل واحد ، لماذا ؟ لأن الحكم في الإسلام مشقة وتعب .

لقد جاء الحق بالقول الحكيم : ﴿ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ وذلك لينبهنا إلى هؤلاء المتشبثين بكراسي الحكم وينزعهم الله منها ، إن المؤمن عندما ينظر إلى الدول في عنفوانها وحضاراتها وقوتها ونجد أن الملك فيها يسلب من الملك فيها على أهون سبب . لماذا ؟ إنها إرادة الخالق الأعلى ، فعندما يريد فلا راد لقضائه .

إن الحق إما أن يأخذ الحكم من مثل هذا النوع من الحكام ، وإما أن يأخذه هو من الحكم ، ونحن نرى كل ملك وهو يوطن نفسه توطينا في الحكم ، بحيث يصعب على من يريد أن يخلعه منه أن يخلعه بسهولة ، لكن الله يقتلع هذا الملك حين يريد سبحانه .

وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ لأن ظواهر الكون لا تقتصر على من يملك فقط ، ولكن كل ملك حوله أناس هم " ملوك ظل " . ومعنى " ملوك الظل " أي هؤلاء الذين يتمتعون بنفوذ الملوك وإن لم يكونوا ظاهرين أمام الناس ، ومن هؤلاء يأتي معظم الشر . إنهم يستظلون ويستترون بسلطان الملك ، ويفعلون ما يشاءون ، أو يفعل الآخرون لهم ما يأمرون به ، وحين يُنزع الملك فلا شك أن المغلوب بالظالمين يعزه الله ، وأما الظالمون لأنفسهم فيذلهم الله ؛ لذلك كان لا بد أن يجيء بعد ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَآءُ ﴾ هذا القول الحق : ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ . لماذا ؟ لأن كل ملك يعيش حوله من يتمتع بجاهه ونفوذه ، فإذا ما انتهى سلطان هذا الملك ، ظهر هؤلاء المستمعون على السطح . وهذا نشاهده كل يوم وكل عصر . ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ .

ونلاحظ هنا : أن إيتاء الملك في أعراف الناس خير . ونزع الملك في أعراف الناس شر . ولهؤلاء نقول : إن نزع الملك شر على من خُلِعَ منه ، ولكنه خير لمن أوتي الملك . وقد يكون خيرا لمن نزع منه الملك أيضا . لأن الله حين ينزع منه الملك ، أو ينزعه من الملك يخفف عليه مؤونة ظلمه فلو كان ذلك الملك المخلوع عاقلا ، لتقبل ذلك وقال : إن الله يريد أن يخلصني لنفسه لعلي أتوب . .

إذن فلو نظرت إلى الجزئيات في الأشخاص ، ونظرت إلى الكليات في العموم لوجدت أن ما يجري في كون الله من إيتاء الملك وما يتبعه من إعزاز ، ثم نزع الملك وما يتبعه من إذلال ، كل ذلك ظاهرة خير في الوجود ، لذلك قال الحق هنا : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ ولو دقق كل منا النظر إلى مجريات الأمور ، لوجد أن : الله هو الذي يؤتي ، والله هو الذي ينزع ، والله هو الذي يعز ، والله هو الذي يذل ، ولا بد أن يكون في كل ذلك صور للخير في الوجود ، فيقول : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

إن إيتاء الملك عملية تحتاج إلى تحضير بشرى وبأسباب بشرية ، وأحيانا يكون الوصول إلى الحكم عن طريق الانقلابات العسكرية ، أو السياسية ، وكذلك نزع الملك يحتاج إلى نفس الجهد .

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا المعنى فيقول : ليس ذلك بأمر صعب على قدرتي اللانهائية ، لأنني لا أتناول الأفعال بعلاج ، أو بعمل ، إنما أنا أقول : "كن" فتنفعل الأشياء لإرادتي ، ويأتي الحق بعد ذلك ليدلل بنواميس الكون وآيات الله في الوجود على صدق قضية ﴿ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيقول وقوله الحق : ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1393 .

﴿ 1401

قوله تعالى ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (27) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

لما ثبتت خصوصيته سبحانه وتعالى بصفة القدرة على الوجه الأعم ذكر بعض ما تحت ذلك مما لم يدخل شيء منه تحت قدرة غيره فقال : ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾

وقال الحرالي : ولما كانت هذه الآية متضمنة تقلبات نفسانية في العالم القائم الآدمي اتصل بها ذكر تقلبات في العالم الدائر ليؤخذ لكل منها اعتبار من الآخر .

ولما ظهر في هذه الآية افتراق النزع والإيتاء والإعزاز والإذلال أبدى في الآية التالية توالج بعضها في بعض ليؤذن بولوج العز في الذل والذل في العز ، والإيتاء في النزع والنزع في الإيتاء ، وتوالج المفترقات والمتقابلات بعضها في بعض ، ولما كانت هذه السورة متضمنة لبيان الإحكام والتشابه في منزل الكتاب بحكم الفرقان أظهر تعالى في آياتها ما أحكم وبين في خلقه وأمره وما التبس وأولج في خلقه وأمره ، فكان من محكم آية في الكائن القائم الآدمي ما تضمنه إيتاء الملك ونزعه والإعزاز والإذلال ، وكان من الاشتباه إيلاج العز في الذل وإيلاج الذل في العز ، فلما صرح بالإحكام ببيان الطرفين في الكائن القائم الآدمي ، وضمن الخطاب اشتباهه في ذكر العز والذل صرح به في آية الكون الدائر ، فذكر آية الآفاق وهو الليل والنهار بما يعاين فيها من التوالج حيث ظهر ذلك فيها وخفي في توالج أحوال الكائن القائم ، لأن الإحكام والاشتباه مترادين الآيتين : آية الكائن القائم الآدمي وآية الكون الدائر العرشي ، فما وقع اشتباهه في أحدهما ظهر إحكامه في الآخر فقال سبحانه وتعالى : ﴿ تولج ﴾ من الولوج ، وهو الدخول في الشيء الساتر لجملة الداخل ﴿ الليل في النهار ﴾ فيه تفصيل من مضاء قدرته ، فهو سبحانه وتعالى يجعل كل واحد من المتقابلين بطانة للآخر والجاً فيه على وجه لا يصل إليه منال العقول لما في المعقول من افتراق المتقابلات ، فكان في القدرة إيلاج المتقابلات بعضها في بعض وإيداع بعضها في بعض على وجه لا يتكيف بمعقول ولا ينال بفكر – انتهى .

﴿ وتولج النهار في الليل ﴾ أي تدخل كلاًّ منهما في الآخر بعد ظهوره حتى يذهب فيه فيخفى ولا يبقى له أثر .

قال الحرالي : ولما جعل المتعاقبين من الليل والنهار متوالجين جعل المتباطنين من الحي والميت مخرجين ، فما ظهر فيه الموت بطنت فيه الحياة ، وما ظهرت فيه الحياة بطن فيه الموت ؛ انتهى .

(211/115)

فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وتخرج الحي ﴾ أي من النبات والحيوان ﴿ من الميت ﴾ منهما ﴿ وتخرج الميت ﴾ منهما ﴿ من الحي ﴾ منهما كذلك .

قال الحرالي : فهذه سنة الله وتعالى وحكمته في الكائن القائم وفي الكون الدائر ، فأما في الكون الدائر فبإخراج حي الشجر والنجم من موات البذر والعجم ، وبظهوره في العيان كان أحكم في البيان مما يقع في الكائن القائم ، كذلك الكائن القائم يخرج الحي المؤمن الموقن من الميت الكافر الجاهل ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعده وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ [التوبة : 14] ويخرج الكافر الآبي من المؤمن الراحم ﴿ يا نوح إنه ليس من أهلك ﴾ [هود : 46] أظهر سبحانه وتعالى بذلك وجوه الإحكام

والاشتباه في آيتي خلقه ليكون ذلك آية على ما في أمره ، وليشف ذلك عما يظهر من أمر علمه وقدرته على من شاء من عباده كما أظهر في ملائكته وأنبيائه ، وكما خصص بما شاء من إظهار عظيم أمره في المثلين الأعظمين : مثل آدم وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، فأنزلت هذه السورة لبيان الأمر فيما اشتبه على من التبس عليه أمر عيسى عليه الصلاة والسلام ، فهو تعالى أظهر من موات الإنسانية ما شاء من الإحياء بإذنه ، وأظهر في آدم عليه الصلاة والسلام ما شاء من علمه حين علم آدم الأسماء كلها كذلك أظهر في عيسى عليه الصلاة والسلام ما شاء من قدرته كما أظهر في الخلق ما شاء من ملكه ، فملك من شاء ونزع الملك ممن شاء ، وأعز من شاء وأذل من شاء ، وأظهر بالنهار ما شاء وطمس بالليل ما شاء ، وأولج المتقابلين بعضهما في بعض وأخرج المتباطنين بعضهما من بعض - انتهى .

(212/115)

ولما بدأ الآية سبحانه وتعالى مما يقتضي الترغيب بما هو محط أحوال الأنفس من الملك وأنواع الخير ختمها بمثل ذلك مما لا يقوم الملك ولا يطيب العيش إلا به فقال : ﴿ وترزق من تشاء ﴾ قوياً كان أو ضعيفاً ﴿ بغير حساب ﴾ أي تعطيه عطاء واسعاً جداً متصلاً من غير تضييق ولا عسر ، كما فعل بأول هذه الأمة على ما كانوا فيه من القلة والضعف حيث

أباد بهم الأكاسرة والقياصرة وآتاهم كنوزهم وأخدمهم أبناءهم وأحلهم ديارهم .

وقال الحرالي : ولما ذكر سبحانه وتعالى هذا الإحكام والاشتباه في أمر العلية من الخلق وفيه من الإحكام والاشتباه نحو ما في الإيتاء والنزع ولما فيه من الوزن والإيتاء بقدر ختم بأعزيه وهو الإرزاق الذي لا يقع على وزن ولا يكون بحساب ، وفيه إشعار بالإرزاق الختمي الذي يكون في آخر اليوم المحمدي للذين يؤتيهم الله سبحانه وتعالى ما شاء من ملكه وعزه وسعة رزقه بغير حساب ، فكما ختم الملك لبني إسرائيل بملك سليمان عليه الصلاة والسلام في قوله سبحانه وتعالى ﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾ [ص : 39] كذلك يختم لهذه الأمة بأن يرزقهم بغير حساب حين تلقي الأرض بركاتها وتتطهر من فتنتها ، فتقع المكنة في ختم اليوم المحمدي بالهداية والهدنة كما انقضت لبني إسرائيل بالملك والقوة - انتهى . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 55 . 57 ﴾

(213/115)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ الحي من الميت والميت من الحي ﴾ بالتشديد على " فيعل " حيث كان :

أبو جعفر ونافع وحمزة وعلي وخلف وسهل ويعقوب وعاصم غير أبي بكر وحماد .

الباقون بالتخفيف على "فيل" . ﴿ منهم تقية ﴾ بكسر القاف وفتح الياء وتشديدها : أبو زيد عن المفضل وسهل ويعقوب . الباقون ﴿ تقاة ﴾ بضم التاء . وقرأ حمزة وعلي وخلف بالإمالة .

الوقوف : ﴿ ممن تشاء ﴾ ط لتناهي الجملتين المتضايفتين معنى إلى جملتين مثلهما ﴿ وتذل من تشاء ﴾ ط ﴿ الخير ﴾ ط ﴿ قدير ﴾ ه ، ﴿ في الليل ﴾ ز للفصل بين الجملتين المتضادتين ﴿ من الحي ﴾ ز لعطف المتفقتين ﴿ حساب ﴾ ه ، ﴿ المؤمنين ﴾ ج ﴿ تقاة ﴾ ط ﴿ نفسه ﴾ ط ﴿ المصير ﴾ ه ، ﴿ يعلمه الله ﴾ ط ﴿ وما في الأرض ﴾ ط ﴿ قدير ﴾ ه ، ﴿ محضرا ﴾ ج والأجوز أن يوقف على ﴿ سوء ﴾ تقديره وما عملت من سوء كذلك . ﴿ بعيداً ﴾ ط ﴿ نفسه ﴾ ط ﴿ بالعباد ﴾ ه ﴿ ذنوبكم ﴾ ط ﴿ رحيم ﴾ ه ﴿ والرسول ﴾ ج لابتداء الشرط مع فاء التعقيب . ﴿ الكافرين ﴾ ه ، ﴿ العالمين ﴾ (لا) لأن ﴿ ذرّية ﴾ بدل . ﴿ من بعض ﴾ ج ﴿ عليم ﴾ (لا) لاحتمال أن "إذ" متعلق بالوصفين أي سمع دعاءها وعلم رجاءها حين قالت ، أو اصطفى آل عمران وقت قولها ولاحتمال نصب "إذ" بإضمار "اذكر" . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 2 صـ 135 ﴾

(214/115)

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ تُولِجُ الليل فِى النهار وَتُولِجُ النهار فِى الليل ﴾ فيه وجهان

الأول : أن يجعل الليل قصيراً ويجعل ذلك القدر الزائد داخلاً في النهار وتارة على العكس من ذلك وإنما فعل سبحانه وتعالى ذلك لأنه علق قوام العالم ونظامه بذلك

والثاني : أن المراد هو أنه تعالى يأتي بالليل عقيب النهار ، فيلبس الدنيا ظلمة بعد أن كان فيها ضوء النهار ، ثم يأتي بالنهار عقيب الليل فيلبس الدنيا ضوءه فكان المراد من إيلاج أحدهما في الآخر إيجاد كل واحد منهما عقيب الآخر ، والأول أقرب إلى اللفظ ، لأنه إذا كان النهار طويلاً فجعل ما نقص منه زيادة في الليل كان ما نقص منه داخلاً في الليل . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 9 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

وحقيقة تولج تدخل وهو هنا استعارة لتعاقب ضوء النهار وظلمة الليل ، فكأن أحدهما يدخل في الآخر ، ولازدياد مدة النهار على مدة الليل وعكسه في الأيام والفصول عدا أيام الاعتدال وهي في الحقيقة لحظات قليلة ثم يزيد أحدهما لكن الزيادة لا تدرك في أولها فلا

يعرفها إلا العلماء ، وفي الظاهر هي يومان في كل نصف سنة شمسية قال ابن عرفة : كان بعضهم يقول : القرآن يشتمل على ألفاظ يفهمها العوام وألفاظ يفهمها الخواص وما يفهمه الفريقان ومنه هذه الآية ؛ فإن الإيلاج يشمل الأيام التي لا يفهمها إلا الخواص والفصول التي يدركها سائر العوام .

وفي هذا رمز إلى ما حدث في العالم من ظلمات الجهالة والإشراك ، بعد أن كان الناس على دين صحيح كدين موسى ، وإلى ما حدث بظهور الإسلام من إبطال الضلالات ، ولذلك ابتدئ بقوله ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ ، ليكون الانتهاء بقوله ﴿ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ ، فهو نظير التعريض الذي بينته في قوله ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ الآية . والذي دل على هذا الرمز افتتاح الكلام بقوله ﴿ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 69 ﴾

(215/115)

فصل

قال الآلوسى :

﴿ تُولِجُ الليل فِى النهار وَتُولِجُ النهار فِى الليل ﴾ الولوج في الأصل الدخول والإيلاج

الإدخال واستعير لزيادة زمان النهار في الليل وعكسه بحسب المطالع والمغارب في أكثر البلدان وروي ذلك عن ابن عباس والحسن ومجاهد ولا يضر تساوي الليل والنهار دائماً عند خط الاستواء لأنه يكفي الزيادة والنقصان فيهما في الأغلب ، وقال الجبائي : المراد بإيلاج أحدهما في الآخر إيجاد كل واحد منهما عقيب الآخر والأول أقرب إلى اللفظ ، وعلى التقديرين الظاهر من الليل والنهار ليل التكوير ونهاره وهما المشهوران أن عند العامة الذين يفهمون ظاهر القول ، ووراء ذلك أيام السلخ التي يعرفها العارفون وأيام الإيلاج الثانية التي يعقلها العلماء الحكماء . وبيان ذلك على وجه الاختصار أن اليوم على ما ذكره القوم الإلهيون عبارة عن دورة واحدة من دورات فلك الكواكب وهو من النطح إلى النطح ومن الشرطين إلى الشرطين ومن البطين إلى البطين وهكذا إلى آخر المنازل ، ومن درجة المنزلة ودقيقتها إلى درجة المنزلة ودقيقتها ، وأخفى من ذلك إلى أقصى ما يمكن الوقوف عنده وما من يوم من الأيام المعروفة عند العامة وهي من طلوع الشمس إلى طلوع الشمس أو من غروبها إلى غروبها أو من استوائها إلى استوائها أو ما بين ذلك إلى ما بين ذلك إلا وفيه نهاية ثلثمائة وستين يوماً فاليوم طوله ثلاثمائة وستون درجة لأنه يظهر فيه الفلك كله وتعمه الحركة وهذا هو اليوم الجسماني ، وفيه اليوم الروحاني فيه تأخذ العقول معارفها والبصائر مشاهدها والأرواح أسرارها كما تأخذ الأجسام في هذا اليوم الجسماني أغذيتها وزيادتها ونموها وصحتها وسقمها وحياتها وموتها فالأيام من جهة أحكامها الظاهرة في

العالم المنبعثة من القوة الفعالة للنفس الكلية سبعة من يوم الأحد إلى آخره ولهذه الأيام أيام روحانية لها أحكام في الأرواح والعقول تنبعث من القوة العلامة للحق الذي قامت به السموات والأرض وهو الكلمة الإلهية ،

(216/115)

وعلى هذه السبعة الدوارة يدور فلك البحث فنقول : قال الله تعالى في المشهود من الأيام المحسوسة : ﴿ يُكَوِّرُ الليل عَلَى النهار وَيُكَوِّرُ النهار عَلَى الليل ﴾ [الزمر : 5] وأبان عن حقيقتين من طريق الحكم بعد هذا فقال في آية : ﴿ وَءايَةٌ لَّهُمُ اليل نَسْلَخُ مِنْهُ النهار ﴾ [ياس : 37] فهذه أنبأت أن الليل أصل والنهار كان غيباً فيه ثم سلخ ، وليس معنى السلخ معنى التكوير فلا بد أن يعرف ليل كل نهار من غيره حتى ينسب كل ثوب إلى لابسه ويرد كل فرع إلى أصله ، ويلحق كل ابن بأبيه ، وقال في الآية الكريمة كاشفاً عن حقيقة أخرى : ﴿ يُولِجُ الليل فِى النهار وَيُولِجُ النهار فِى الليل ﴾ فجعل بين الليل والنهار نكاحاً معنوياً لما كانت الأشياء تتولد منهما معاً وأكد هذا المعنى بقوله عز قائلاً :

(217/115)

﴿ يغشى الليل النهار ﴾ [الأعراف : 54] ولهذا كان كل منهما مولجاً ومولجاً فيه فكل واحد منهما لصاحبه أصل وبعل فكلما تولد في النهار فأمه النهار وأبوه الليل وكلما تولد في الليل فأمه الليل وأبوه النهار فليس إذاً حكم الايلاج حكم السلخ فإن السلخ إنما هو في وقت أن يرجع النهار من كونه مولجاً ومولجاً فيه والليل كذلك إلا أنه ذكر السلخ الواحد ولم يذكر السلخ الآخر من أجل الظاهر والباطن والغيب والشهادة . والروح والجسم والحرف والمعنى وشبه ذلك فالإيلاج روح كله والتكوير جسم هذا الروح الإيلاجي ولهذا كرر الليل والنهار في الإيلاج كما كررهما في التكوير هذا في عالم الجسم وهذا في عالم الروح ، فتكوير النهار لإيلاج الليل وتكوير الليل لإيلاج النهار ، وجاء السلخ واحداً للظاهر لأربابه ، وقد اختلف العجم والعرب في أصالة أي المكورين على الآخر ، فالعجم يقدمون النهار على الليل وزمانهم شمسي فليلة السبت عندهم مثلا الليلة التي تكون صبيحتها يوم الأحد وهكذا ، والعرب يقدمون الليل على النهار وزمانهم قمري ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ﴾ [المجادلة : 22] فليلة الجمعة عندهم مثلا هي الليلة التي يكون صبيحتها يوم الجمعة وهم أقرب من العجم إلى العلم فإنه يعضدهم السلخ في هذا النظر غير أنهم لم يعرفوا الحكم فنسبوا الليلة إلى غير يومها كما فعل أصحاب الشمس وذلك لأن عوامهم لا يعرفون إلا أيام التكوير والعارفون من أهل هذه الدولة ، وورثة الأنبياء يعلمون ما وراء ذلك من أيام

السلخ وأيام الإيلاج الثاني ، ولما كانت الأيام شيئاً وكل شيء عندهم ظاهر وباطن وغيب وشهادة وروح وجسم وملك . وملكوت ولطيف وكثيف قالوا : إن اليوم نهار وليل في مقابلة باطن وظاهر ، والأيام سبعة ولكل يوم نهار وليل من جنسه ، والنهار ظل ذلك الليل وعلى صورته لأنه أصله المدرج هو فيه المنسلخ هو منه بالنفخة الآلهية ، وقد أطلق سبحانه في آية السلخ ولم يبين أي نهار سلخ من أية

(218/115)

ليلة ولم يقل ليلة كذا سلخ منها نهار كذا ليعقلها من ألهمه الله تعالى رشده فينال فصل الخطاب ، فعلى المفهوم من اللسان العربي بالحساب القمري أي ليلة الأحد سلخ الله تعالى منها نهار الأربعاء وسلخ من ليلة الاثنين نهار الخميس ، ومن ليلة الثلاثاء نهار الجمعة ، ومن ليلة الأربعاء نهار السبت ، ومن ليلة الخميس نهار الأحد ، ومن ليلة الجمعة نهار الاثنين ومن ليلة السبت نهار الثلاثاء فجعل سبحانه بين كل ليلة ونهارها المسلوخ منها ثلاث ليال وثلاثة نهارات فكانت ستة وهي نشأتك ذاك الجهات ، فالليالي منها للتحت والشمال والخلف ، والنهارات منها للفوق واليمين والأمام فلا يكون الإنسان نهاراً ونوراً تشرق شمسه وتشرق به أرضه حتى ينسلخ من ليل شهوته ولا يقبل على من لا يقبل الجهات حتى يبعد

عن جهات هيكله ، وإنما نسبوا هذه النسبة من جهة الاشتراك في الشأن الظاهر لستر الحكمة الإلهية على يد الموكلين بالساعات ، وفي اليوم الإيلاجي الشاني يعتبرون ليلاً ونهاراً أيضاً وهو عندهم أربع وعشرون ساعة قد اتحد فيها الشأن فلم ينبعث فيها إلا معنى واحد ويتنوع في الموجودات بحسب استعداداتها ولهذا قال سبحانه :

(219/115)

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : 29] ولم يقل في شؤون وتنوينه للتعظيم الظاهر باختلاف القوابل وتكثر الأشخاص فإذا ساعات ذلك اليوم تحت حكم واحد ونظر وال واحد قد ولاه من لا يكون في ملكه إلا ما يشاء وتولاه وخصه بتلك الحركة وجعله أميراً في ذلك ، والمتصرف الحقيقي هو الله تعالى لا هو من حيث هو ، فاليوم الشاني ما كانت ساعاته كلها سواء ومتى اختلفت فليس بيوم واحد ولا يوجد هذا في أيام التكوير وكذا في أيام السلخ إلا قليلاً فطلبنا ذلك في الأيام الإيلاجية فوجدناه مستوفى فيه ، وقد أرسل سبحانه آية الإيلاج ولم يقل : ﴿ يُولِجُ الليل ﴾ الذي صبيحته الأحد في الأحد ولا النهار الذي مساؤه ليلة الاثنين في الاثنين فإذا لا يلتزم أن ليلة الأحد هي ليلة الكور ولا ليلة السلخ وإنما يطلب وحدانية اليوم من أجل أحدية الشأن فلا ينظر إلا إلى اتحاد الساعات ، والحكم

المولى من قبل المولى فليلة الأحد الإيلاجي مركبة من الساعة الأولى من ليلة الخميس ، والثانية منها ، والثالثة من يوم الخميس ، والعاشرة منها ، والخامسة من ليلة الجمعة ، والثانية عشرة منها ، والسابعة من يوم الجمعة ، والثامنة من ليلة السبت ، والتاسعة منها ، والرابعة من يوم السبت ، والحادية عشرة منه ، والسادسة من ليلة الأحد فهذه ساعات ليله .

(220/115)

وأما ساعات نهاره من أيام التكوير فالأولى من يوم الأحد ، والثامنة والثالثة من يوم الإثنين والعاشرة منه ، والخامسة من يوم الاثنين والثانية عشرة منه والسابعة من ليلة الثلاثة والثانية من يوم الثلاثاء والتاسعة منه ، والرابعة من ليلة الأربعاء والحادية عشرة منها والسادسة من يوم الأربعاء فهذه أربعة وعشرون ساعة ظاهرة كالشمس ليوم الأحد الإيلاجي الشاني كلها كنفس واحدة لأنها من معدن واحد ، وهكذا تقول في سائر الأيام حتى تكمل سبعة أيام متميزة بعضها من بعض مولجة بعضها في بعض نهارها في ليلها وليلها في نهارها لحكمة التوالد والتناسل وذلك كسريان الحكم الواحد في الأيام ، ويظهر ذلك من أيام التكوير . وقد ذكر مولانا الشيخ الأكبر قدس سره الشأن في كل يوم في رسالته "المسماة بالشأن الإلهي" ، ولعلِّي إن شاء الله تعالى أذكر ذلك عند قوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمن :

29] وهذه الأيام أيضاً غير يوم المثل وهو عمر الدنيا ويوم الرب ويوم المعارج ويوم القمر ويوم الشمس ويوم زحل ويوم الحمل ولكل كوكب من السيارات والبروج يوم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 117.115 ﴾

(221/115)

بحث علمى

قال فى الأمثل :

"الولوج" بمعنى الدخول . والقصد من الآية هو هذا التغيير التدريجي الذي نراه بين الليل والنهار طوال السنة . هذا التغيير ناشىء عن انحراف محور الأرض عن مدارها بنحو 23 درجة واختلاف زاوية سقوط أشعّة الشمس عليها . لذلك نرى الشتاء في النصف الشمالي من خطّ الاستواء تطول أيّامه تدريجيا ، وتقصر لياليه تدريجياً ، حتّى أوائل الصيف ، حيث ينعكس التغيير فتقصر أيّامه وتطول لياليه حتّى أوائل الشتاء .

أمّا في جنوب خطّ الاستواء فالتناظر يكون معكوساً .

وبناءاً على ذلك فإنّ الله يدخل الليل في النهار ، ويدخل النهار في الليل ، دائماً ، أي أنّه ينقص هذا ليزيد ذاك وبالعكس .

قد يقول قائل إنّ الليل والنهار في خطّ الاستواء الحقيقي وفي نقطتي القطبين في الشمال والجنوب متساويان وليس ثمّة أيّ تغيير فيهما ، فالليل والنهار في خطّ الاستواء متساويان ويمتدّ كلّ منهما اثنتي عشرة ساعة على امتداد السنة ، وفي القطبين يمتدّ الليل ستة أشهر ومثله النهار ، لذلك فإنّ الآية ليست عامّة .

في الجواب على هذا التساؤل نقول : إنّ خطّ الاستواء الحقيقي خطّ وهمي ، والناس عادةً يعيشون على طرفي الخط . كذلك الحال في القطبين فهما نقطتان وهميّتان ، وسكّان القطبين .إن كان فيهما سكّان. يعيشون في مناطق أوسع طبعاً من نقطة القطب الحقيقية ، وعليه فالاختلاف موجود في كلّ الحالات .

وقد يكون للآية معنى آخر بالإضافة إلى ما ذكر ، وهو أنّ الليل والنهار لا يحدثان فجأةً في الكرة الأرضية بسبب وجود طبقات "الجو" حولها .

فالنهار يبدأ بالتدريج من الفجر وينتشر ، ويبدأ الليل من حمرة الأُفق الغربي والغسق ، ثمّ ينتشر الظلام حتّى يعمّ جميع الأرجاء .

(222/115)

إنّ للتدرّج في تغيير الليل والنهار ـ بأيّ معنى كان ـ آثاراً مفيدة في حياة الإنسان والكائنات الأُخرى على الأرض . لأنّ نموّ النباتات وكثير من الحيوانات يتمّ في إطار نور الشمس وحرارتها التدريجيّة . فمن بداية الربيع حيث يزداد بالتدريج نور الشمس وحرارتها ، تطوي النباتات وكثير من الحيوانات كلّ يوم مرحلة جديدة من تكاملها . ولمّا كانت هذه الموجودات تحتاج بمرور الأيام إلى مزيد من النور والحرارة ، فإنّ حاجتها هذه تلّبى عن طريق التغييرات التدريجيّة للّيل والنهار ، لتصل إلى نقطة تكاملها النهائيّة .

فلو كان الليل والنهار كما هو دائماً ، لاختلّ نموّ كثير من النباتات والحيوانات ، ولاختفت الفصول الأربعة التي تنشأ من اختلاف الليل والنهار ومن مقدار زاوية سقوط نور الشمس ، ولخسر الإنسان فوائد ذلك .

كذلك هي الحال إذا أخذنا بنظر الاعتبار المعنى الثاني في تفسير الآية أي أنّ حلول الليل والنهار تدريجي ، لا فجائي ، وأنّ هناك فترة بين الطلوعين تفصل بينهما ، فمن ذلك يتّضح أنّ هذا التدرّج في حلول الليل والنهار نعمة كبرى لسكنة الأرض ، لأنّهم يتعرّفون بالتدرج على الظلام أو الضياء ، وبذلك تتطابق قِواهم الجسمية وحياتهم الاجتماعية مع هذا التغيير ، وإلاّ حدثت حتماً مشاكل لهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿الأمثل حـ 2 صـ 450 .

قوله تعالى ﴿ وَتُخْرِجُ الحى مِنَ الميت وتُخْرِجُ الميت مِنَ الحى ﴾

فصل

قال الفخر :

ذكر المفسرون فيه وجوهاً

أحدها : يخرج المؤمن من الكافر كإبراهيم من آزر ، والكافر من المؤمن مثل كنعان من نوح عليه السلام

والثاني : يخرج الطيب من الخبيث وبالعكس

والثالث : يخرج الحيوان من النطفة ، والطير من البيضة وبالعكس

والرابع : يخرج السنبلة من الحبة وبالعكس ، والنخلة من النواة وبالعكس ، قال القفّال رحمه الله : والكلمة محتملة للكل

أما الكفر والإيمان فقال تعالى :

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فأحييناه ﴾ [الأنعام : 122] يريد كان كافراً فهديناه فجعل الموت كفراً والحياة إيماناً ، وسمى إخراج النبات من الأرض إحياء ، وجعل قبل ذلك ميتة فقال ﴿ يحيي الأرض بعد موتها ﴾ [الروم : 19] وقال : ﴿ فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [فاطر : 9] وقال : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وَكُنتُمْ أمواتا فأحياكم ثُمَّ

يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة : 28] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 9 ﴾

وقال القرطبى :

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى : ﴿ وَتُخْرِجُ الحي مِنَ الميت ﴾ فقال الحسن : معناه تُخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، ورُوي نحوه عن سَلْمَان الفارسي .

وروى مَعْمر عن الزهري " أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على نسائه فإذا بامرأة حسنة الهيئة قال : "من هذه" ؟ قلن إحدى خالاتك .

قال : "ومن هي" ؟ قلن : هي خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث .

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "سبحان الذي يخرج الحيّ من الميت" " وكانت امرأة صالحة وكان أبوها كافراً .

فالمراد على هذا القول موت قلب الكافر وحياة قلب المؤمن ؛ فالموت والحياة مستعاران .

وذهب كثير من العلماء إلى أن الحياة والموت في الآية حقيقتان ؛ فقال عِكرمة : هي إخراج الدَّجاجة وهي حية من البيضة وهي ميتة ، وإخراج البيضة وهي ميتة من الدجاجة وهي حية .

وقال ابن مسعود : هي النطفة تخرج من الرجل وهي ميتة وهو حي ، ويخرج الرجل منها حياً وهي ميتة .

وقال عِكرمة والسّدي : هي الحبة تخرج من السنبلة والسنبلة تخرج من الحبة ، والنواة من النخلة والنخلة تخرج من النواة ؛ والحياة في النخلة والسنبلة تشبيه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 57.56 ﴾

(224/115)

قال ابن عطية :

ولفظ الإخراج في تنقل النطفة حتى تكون رجلاً إنما هو عبارة عن تغير الحال كما تقول في صبي جيد البنية : يخرج من هذا رجل قوي ، وهذا المعنى يسميه ابن جني : التجريد أي تجرد الشيء من حال إلى حال هو خروج ، وقد يحتمل قوله تعالى : ﴿ ويخرج الميت من الحي ﴾ أن يراد به أن الحيوان كله يميته فهذا هو معنى التجريد بعينه وأنشد ابن جني على ذلك :

أَفَاءَتْ بَنُوا مَرْوانَ ظُلْماً دِمَاءَنَا . . . وفي اللَّهِ -إنْ لَمْ يُنْصِفُوا- حَكَمٌ عَدْلُ . انتهى . ا . هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 418 ﴾

فائدة

قال الآلوسى :

ولا يلزم من الآية أن يكون إخراج كل حي من ميت وكل ميت من حي ليلزم التسلسل في جانب المبدىء إذ غاية ما تفهمه الآية أن لله تعالى هذه الصفة وأما أنه لا يخلق شيئاً إلا من شيء فلا كما لا يخفى. انتهى انتهى. ا هـ ﴿روح المعانى حـ 3 صـ 118﴾

لطيفة

قال الماوردى :

قال قتادة : وإنما سَمَّى الله يحيى بن زكريا بيحيى لأن الله عز وجل أحياه بالإيمان. انتهى انتهى. ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 1 صـ 385﴾

فائدة

قال أبو حيان :

والأظهر في قوله ﴿الحي من الميت﴾ تصور اثنين وقيل : عنى بذلك شيئاً واحداً يتغير به الحال، فيكون ميتاً ثم يحيا، وحياً ثم يموت. انتهى انتهى. ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 2 صـ 439﴾

فائدة

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَتُخْرِجُ الحي مِنَ الميت ﴾ اختلف القراء في لفظة " الْمَيِّتِ " فقرأ ابن كثير وأبو عَمْرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم لفظ " الْمَيْتِ " من غير تاء تأنيث - مُخَفَّفاً ، في جميع القرآن ، سواء وصف به الحيوان نحو : ﴿ وَتُخْرِجُ الحي مِنَ الميت ﴾ [آل عمران : 27] أو الجماد نحو : ﴿ فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ [فاطر : 9] - مُنَكَّراً أو معرفاً كما تقدم ذكره - إلا قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : 30] ، وقوله : ﴿ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ [إبراهيم : 17] - في إبراهيم - مما لم يمت بعد ، فإن الكل ثقلوه ، وكذلك لفظ " الميتة " في قوله : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأرض الميتة ﴾ [يس : 33] دون الميتة المذكورة مع الدم - فإن تلك لم يشدِّدْها إلا بعض قُرَّاء الشواذ - وكذلك قوله : ﴿ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً ﴾ [الأنعام : 139] ، وقوله : ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ [الزخرف : 11] ، وقوله : ﴿ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ [الأنعام : 145] فإنها مخَفَّفاتٌ عند الجميع ، وثَقَّل نافعٌ جميعَ ذلك ، والأخوان وحفص - عن نافع - وافقوا ابن كثير ومن معه في الأنعام في قوله : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاه ﴾ [الأنعام : 122] ، وفي الحجرات : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ﴾ [الحجرات : 12] ، وفي يس : ﴿ الأرض الميتة ﴾ [يس : 33] ، ووافقوا نافعاً فيما عدا ذلك ، فجمعوا بين اللغتين ؛ إيذاناً بأن كلاًّ من القراءتين صحيح ، وهما بمعنًى ؛ لأن " فَيْعِل " يجوز تخفيفه في المعتل بحَذْف إحْدى ياءَيْه ، فيقال :

هَيْن وهيّن ، لَيْن وليّن ، ميْت وميّت ، وقد جمع الشاعر بين اللغتين في قوله : [الخفيف]

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ . . . إِنَّمَا الْمَيْتُ مَيّتُ الأَحْيَاءِ

(226/115)

إِنَّمَا الْمَيْتُ مَنْ يَعِيشُ كَئِيباً . . . كَاسِفاً بَالُهُ قَلِيلَ الرَّجَاءِ

وزعم بعضهم أن " ميتاً " بالتخفيف – لمن وقع به الموت ، وأن المشدّد يُستعمَل فيمن مات ومن لم يَمُتْ ، كقولهَ – تعالى – : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [الزمر : 30] .

وقسم لا خلاف في تخفيفه – وهو ما تقدم في قوله : ﴿ الميتة والدم ﴾ ﴿ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً ﴾ [الأنعام : 139] ﴿ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ ، وقوله : ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ [الزخرف : 11] .

وقسم فيه الخلاف – وهو ما عدا ذلك – وتقدم تفصيله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 133 . 134 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

قال الفخر :

فيه وجوه

الأول : أنه يعطي من يشاء ما يشاء لا يحاسبه على ذلك أحد ، إذ ليس فوقه ملك يحاسبه بل هو الملك يعطي من يشاء بغير حساب

والثاني : ترزق من تشاء غير مقدور ولا محدود ، بل تبسطه له وتوسعه عليه كما يقال : فلان ينفق بغير حساب إذا وصف عطاؤه بالكثرة ، ونظيره قولهم في تكثير مال الإنسان : عنده مال لا يحصى

والثالث : ترزق من تشاء بغير حساب ، يعني على سبيل التفضل من غير استحقاق لأن من أعطى على قدر الاستحقاق فقد أعطى بحساب ، وقال بعض من ذهب إلى هذا المعنى : إنك لا ترزق عبادك على مقادير أعمالهم ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 9 ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي بغير تضييق ولا تقتير ؛ كما تقول : فلان يعطِي بغير حساب ؛ كأنه لا يحسب ما يعطي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 57 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

الرزق ما ينتفع به الإنسان فيطلق على الطعام والثمار كقوله : ﴿ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً ﴾ [آل عمران : 37] وقوله : ﴿ فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ ﴾ [الكهف : 19] ، ويطلق على أعم من ذلك مما ينتفع به كما في قوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾ ثم قال : ﴿ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ [ص : 51-54] وقوله : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ﴾ ومن ثم سميت الدراهم والدنانير رزقا : لأن بها يعوض ما هو رزق ، وفي هذا إيماء إلى بشارة للمسلمين بما أخبئ لهم من كنوز الممالك الفارسية والقيصرية وغيرها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 70 ﴾

لطيفة

قال الزمخشري :

ذكر قدرته الباهرة ، فذكر حال الليل والنهار في المعاقبة بينهما ، وحال الحي والميت في إخراج أحدهما من الآخر ، وعطف عليه رزقه بغير حساب دلالة على أن من قدر على تلك الأفعال العظيمة المحيرة للأفهام ، ثم قدر أن يرزق بغير حساب من يشاء من عباده ، فهو قادر على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم ، ويؤتيه العرب ويعزهم . انتهى . اهـ

﴿ الكشاف حـ 1 صـ 350 ﴾

سؤال

قال فى الأمثل :

إننا نعلم أنّ الإنسان حرّ في كسب رزقه بغير إجبار ، وذلك بموجب قانون الخلق وحكم العقل ودعوة الأنبياء ، فكيف تقول هذه الآية إنّ كلّ هذه الأُمور بيد الله ؟

في الجواب نقول : إن المصدر الأوّل لعالم الخلق وجميع العطايا والإمكانات الموجودة عند الناس هو الله ، فهو الذي وضع جميع الوسائل في متناول الناس لبلوغ العزّة والسعادة . وهو الذي وضع في الكون تلك القوانين التي إذا لم يلتزمها الناس انحدروا إلى الذلّ والتعاسة .

وعلى هذا الأساس يمكن إرجاع كلّ تلك الأُمور إليه ، وليس في ذلك أيّ تعارض مع حرّية إرادة البشر ، لأنّ الإنسان هو الذي يتصرّف بهذه القوانين والمواهب والقوى والطاقات تصرّفاً صحيحاً أو خاطئاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الأمثل حـ 2 صـ 453.454 ﴾

فوائد بلاغية

قال أبو حيان :

قيل : وتضمنت هذه الآيات أنواعاً من : الفصاحة ، والبلاغة ، والبديع .

الاستفهام الذي معناه التعجب في ﴿ ألم تر إلى الذين ﴾ .

والإشارة في ﴿ نصيباً من الكتاب ﴾ فإدخال : من ، يدل على أنهم لم يحيطوا بالتوراة علماً ولا حفظاً ، وذلك إشارة إلى الإزراء بهم ، وتنقيص قدرهم وذمهم ، اذ يزعمون أنهم

أخيار وهم بخلاف ذلك ، وفي قوله ﴿ ذلك بأنهم ﴾ إشارة إلى توليهم وإعراضهم اللذين سببهما افتراؤهم ، وفي ﴿ ووفيت كل نفس ﴾ إشارة إلى أن جزاء أعمالهم لا ينقص منه شيء .

والتكرار في ﴿ نصيباً من الكتاب ﴾ ﴿ يدعون إلى كتاب الله ﴾ إما في اللفظ والمعنى إن كان المدلول واحداً ، وإما في اللفظ إن كان مختلفاً .

(228/115)

وفي التولي والإعراض إن كانا بمعنى واحد .

وفي : ﴿ مالك الملك ﴾ ﴿ تؤتي الملك ﴾ ﴿ وتنزع الملك ﴾ وتكراره في جمل للتفخيم والتعظيم إن كان المراد واحداً ، وإن اختلف كان من تكرار اللفظ فقط ، وتكرار ﴿ من تشاء ﴾ وفي ﴿ تولج ﴾ وفي ﴿ تخرج ﴾ وفي متعلقيهما .

والاتساع في جعل : في ، بمعنى : على ، على قول من زعم ذلك في قوله ﴿ تولج الليل في النهار ﴾ أي على النهار ، ﴿ وتولج النهار في الليل ﴾ أي على الليل .

وعبر بالإيلاج عن العلو والتغشية .

والنفي المتضمن الأمر في ﴿ لا ريب فيه ﴾ على قول الزجاج ، أي لا ترتابوا فيه ،

والتجنيس المماثل في ﴿ مالك الملك ﴾ والطباق : في : تؤتي وتنزع ، وتعز وتذل ، وفي الليل والنهار ، وفي الحي والميت .

ورد العجز على الصدر في : تولج ، وما بعده ، والحذف وهو في مواضع مما يتوقف فهم الكلام على تقديرها .

كقوله ﴿ تؤتي الملك من تشاء ﴾ أي من تشاء أن تؤتيه .

والإسناد المجازي في ﴿ ليحكم بينهم ﴾ أسند الحكم إلى الكتاب لأنه يبين الأحكام فهو سبب الحكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 439 . 440 ﴾

وقال ابن عادل :

اشتملت هذه الآيةُ على أنواع من البديع :

منها : التجنيس المماثل في قوله تعالى : ﴿ مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك ﴾ .

ومنها : الطباق ، وهو الجمع بين متضادين أو شبههما – في قوله : " تُؤتي " وتَنْزِعُ " وتعزُّ وتُذِلُّ وفي قوله : ﴿ بِيَدِكَ الخير ﴾ أي : والشَّرُّ – عند بعضهم – ، وفي قوله : " اللَّيْل " و " النَّهار " و " الحيّ " و " الميّت " .

ومنها رَدُّ الأعجازِ على الصدورِ ، والصدورِ على الأعجازِ في قوله : ﴿ تُولِجُ الليل فِي النهار وَتُولِجُ النهار فِي الليل ﴾ ، وفي قوله : ﴿ وَتُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَتُخْرِجُ الميت مِنَ

الحي ﴾ ونحوه عادات الشاذات شاذات العاداتِ .

وتضمنت من المعاني التوكيد بإيقاع الظاهر موقع المُضْمَر في قوله : ﴿ تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ ﴾ وفي تجوُّزه بإيقاع الحرف مكان ما هو بمعناه ، والحذف لفهم المعنى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 135. 136 ﴾

لطيفة

قال ابن عادل :

قال أبو العبَّاس المقرئ : ورد لفظ الحساب في القرآن على ثلاثة أوجهٍ :

الأول : بمعنى التعبِ ، قال تعالى : ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

الثاني : بمعنى العدد ، كقوله : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : 10] أي : بغير عَدَدٍ .

الثالث : بمعنى المطالبة ، قال تعالى : ﴿ فامنن أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص : 39][أي : بغير مطالبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 136 ﴾

(229/115)

فائدة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى" ، وكذلك فى سورة يونس : "أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى" ، وكذا فى سورة الروم وحيث وقع ورود فى سورة الأنعام : "إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى" فوقع هنا اسم الفاعل موقع الفعل وعاقبه فقال "ومخرج" فيسأل عن هذا ؟

ووجه ذلك والله أعلم : أن بناء آية الأنعام على آية بنيت على اسم الفاعل وان كان خبرا وهو قوله تعالى : "إن الله فالق الحب والنوى" ثم أعقب ذلك بقوله "فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا" ، فلما اكتنفت الآية أسماء فاعلين جئ فيها باسم الفاعل فى قوله "ومخرج الميت من الحى" ليناسب ذلك فعطف "ومخرج" على "فالق" إذ هو معطوف على ما عطف عليه فهو معطوف عليه ثم جئ بعد باسم فاعل وهو قوله تعالى : "فالق الإصباح" فتناسب هذا ولم يقع فى الأخر المتضمنة إخراج الحى من الميت والميت من الحى مثل هذا فلذلك لم يعدل إلى اسم الفعل والله سبحانه أعلم .

فإن قلت فما بال قوله يخرج الحى من الميت فى هذا الموضع ورد بالفعل وقد اكتنفه قوله : "فالق الحب والنوى ومخرج الميت من الحى" . وهما اسما فاعلين ؟

فالجواب عن ذلك ما قاله الزمخشرى قال : "موقع قوله "يخرج الحى من الميت" موقع الجملة المبينة لقوله "فالق الحب والنوى" لأن فلق الحب والنوى بالنبات والثمر اليابس من جنس إخراج الحى من الميت لأن اليابس فى حكم الحيوان ألا ترى قوله "يحيى الأرض بعد موتها" ، انتهى قوله ، ذكر هذا عقب قوله "ومخرج الميت من الحى" أنه معطوف على فالق الحب والنوى كما تقدم وهذا من حسناته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ ملاك التأويل صـ 80 ﴾

(230/115)

وقال العلامة الفيروزابادى :

وقد ورد الحساب فى التنزيل على عشرة أَوجهٍ :

الأَوّل : بمعنى الكثرة ﴿ عَطَآءً حِسَاباً ﴾ أَى كثِيرا .

الثانى : بمعنى الأَجر والثواب ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي ﴾ أَى أَجرهم .

الثالث : بمعنى العقوبة والعذاب ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً ﴾ أَى لا يخافون عذاباً .

الرّابع : الحَسِيب بمعنى الحفيظ ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً ﴾ أَى حفيظاً .

الخامس : الحسِيب بمعنى الشاهد الحاضر ﴿ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ أَى شهيداً .

السّادس : الحساب بمعنى العَرْض على الملِك الأَكبر ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ أَى الْعَرْض على الرّحمن .

السّابع : بمعنى العدد ﴿ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ أَى عدد الأَيام .

الثامن : بمعنى المنَّة ﴿ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أَى بغير مِنَّة عليهم ولا تقتير .

التَّاسع : الحُسْبان بمعنى دوران الكواكب فى الفَلَك ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ أَى يدوران حول القُطْب كدوران الرّحى .

العاشر : الحِسْبان بالكسر بمعنى الظن ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً ﴾ ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً ﴾ وله نظائر .

وأَمّا قوله تعالى ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَآءِ ﴾ فقيل معناه ناراً وعذاباً ، وإِنما هو فى الحقيقة ما يحاسب عليه فيجازى بحَسَبه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 460 . 461 ﴾

(231/115)

فصل نفيس

قال فى الميزان :

قوله تعالى ﴿ وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ المقابلة المذكورة آنفا تعطي أن يكون قوله ﴿ وترزق ﴾ الخ بيانا لما سبقه من إيتاء الملك والعز والإيلاج وغيره فالعطف عطف تفسير فيكون من قبيل بيان الخاص من الحكم بما هو أعم منه كما أن قوله ﴿ بيدك الخير ﴾ بالنسبة إلى ما سبقه من هذا القبيل والمعنى إنك متصرف في خلقك بهذه التصرفات لأنك ترزق من تشاء بغير حساب .

معنى الرزق في القرآن

الرزق معروف والذي يتحصل من موارد استعماله أن فيه شوبا من معنى العطاء كرزق الملك الجندي ويقال لما قرره الملك لجنديه مما يؤتاه جملة رزقة وكان يختص بما يتغذى به لا غير كما قال تعالى ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف : البقرة – 233 ﴾ فلم يعد الكسوة رزقا .

ثم توسع في معناه فعد كل ما يصل الإنسان من الغذاء رزقا كأنه عطية بحسب الحظ والجد وإن لم يعلم معطيه ثم عمم فسمى كل ما يصل إلى الشئ مما ينتفع به رزقا وإن لم يكن غذائا كسائر مزايا الحياة من مال وجاه وعشيرة وأعضاد وجمال وعلم وغير ذلك قال تعالى ﴿ أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين " المؤمنون – 72 ﴾ وقال فيما يحكى عن شعيب ﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا : هود – 88 ﴾ والمراد به النبوة والعلم إلى غير ذلك من الآيات .

والمتحصل من قوله تعالى ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين " الذاريات - 58 ﴾ والمقام مقام الحصر

أولا أن الرزق بحسب الحقيقة لا ينتسب إلا إليه فما ينسب إلى غيره تعالى من الرزق كما يصدقه أمثال قوله تعالى ﴿ والله خير الرازقين : الجمعة - 11 ﴾ حيث أثبت رازقين وعده تعالى خيرهم وقوله ﴿ وارزقوهم فيها واكسوهم : النساء - 5 ﴾ كل ذلك من قبيل النسبة بالغير كما أن الملك والعزة لله تعالى لذاته ولغيره بإعطائه وإذنه فهو الرزاق لا غير.

(232/115)

وثانيا أن ما ينتفع به الخلق في وجودهم مما ينالونه من خير فهو رزقهم والله رازقه ويدل على ذلك مضافا إلى آيات الرزق على كثرتها آيات كثيرة أخر كالآيات الدالة على أن الخلق والأمر والحكم والملك بكسر الميم والمشيئة والتدبير والخير لله محضا عز سلطانه.

وثالثا أن ما ينتفع به الإنسان انتفاعا محرما لكونه سببا للمعصية لا ينسب إليه تعالى لأنه تعالى نفي نسبة المعصية إلى نفسه من جهة التشريع قال تعالى ﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون : الاعراف - 28 ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الله يأمر بالعدل

والإحسان ﴾ إلى أن قال ﴿ وينهي عن الفحشاء والمنكر : النحل – 90 ﴾ وحاشاه سبحانه أن ينهي عن شئ ثم يأمر به أو ينهي عنه ثم يحصر رزقه فيه .

ولا منافاة بين عدم كون نفع محرم رزقا بحسب التشريع وكونه رزقا بحسب التكوين إذ لا تكليف في التكوين حتى يستتبع ذلك قبحا وما بينه القرآن من عموم الرزق إنما هو بحسب حال التكوين وليس البيان الالهي بموقوف على الافهام الساذجة العامية حتى يضرب صفحا عن التعرض للمعارف الحقيقية وفي القرآن شفاء لجميع القلوب لا يستضر به إلا الخاسرون قال تعالى ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا " الإسراء – 82 ﴾ .

على أن الآيات تنسب الملك الذي لامثال نمرود وفرعون والأموال والزخارف التي بيد أمثال قارون إلى إيتاء الله سبحانه فليس إلا أن ذلك كله بإذن الله آتاهم ذلك امتحانا وإتماما للحجة وخذلانا واستدراجا ونحو ذلك وهذا كله نسب تشريعية وإذا صحت النسبة التشريعية من غير محذور لزوم القبح فصحة النسبة التكوينية التي لا مجال للحسن والقبح العقلائيين فيها أوضح .

ثم إنه تعالى ذكر أن كل شئ فهو مخلوق له منزل من عنده من خزائن رحمته كما قال ﴿ وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم " الحجر - 21 ﴾ وذكر أيضا أن ما عنده فهو خير قال تعالى ﴿ وما عند الله خير : القصص - 60 ﴾ وانضمام الآيتين وما في معناهما من الآيات يعطي أن كل ما يناله شئ في العالم ويتلبس به مدى وجوده فهو من الله سبحانه وهو خير له ينتفع به ويتنعم بسببه كما يفيده أيضا قوله تعالى ﴿ الذي أحسن كل شئ خلقه " الم السجدة - 7 ﴾ مع قوله تعالى ﴿ ذلكم الله ربكم خالق كل شئ لا إله إلا هو : المؤمن - 64 ﴾ .

وأما كون بعض ما ينال الأشياء من المواهب الإلهية شرا يستضر به فإنما شريته وإضراره نسبي متحقق بالنسبة إلى ما يصيبه خاصة مع كونه خيرا نافعا بالنسبة إلى آخرين وبالنسبة إلى علله وأسبابه في نظام الكون كما مر يشير إليه قوله تعالى ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك " النساء - 79 ﴾ وقد مر البحث عن هذا المعنى فيما مر .

وبالجملة جميع ما يفيضه الله على خلقه من الخير وكله خير ينتفع به يكون رزقا بحسب انطباق المعنى إذ ليس الرزق إلا العطية التي ينتفع بها الشئ المرزوق وربما أشار إليه قوله تعالى ﴿ ورزق ربك خير : طه - 131 ﴾ .

ومن هنا يظهر أن الرزق والخير والخلق بحسب المصداق على ما يبينه القرآن أمور متساوية فكل رزق خير ومخلوق وكل خلق رزق وخير ، وإنما الفرق أن الرزق يحتاج إلى فرض

مرزوق يرتزق به فالغذاء رزق للقوة الغاذية لاحتياجها إليه والغاذية رزق للواحد من الإنسان لاحتياجه إليها والواحد من الإنسان رزق لوالديه لانتفاعهما به وكذا وجود الإنسان خير للإنسان بفرضه عاريا عن هذه النعمة الإلهية قال تعالى ﴿ الذي أعطى كل شئ خلقه : طه - 50 ﴾ .

(234/115)

والخير يحتاج إلى فرض محتاج طالب يختار من بين ما يواجهه ما هو مطلوبه فالغذاء خير للقوة الغاذية بفرضها محتاجة إليه طالبة له تنتخبه وتختاره إذا أصابته والقوه الغاذية خير للإنسان ووجود الإنسان خير له بفرضه محتاجا طالبا وأما الخلق والإيجاد فلا يحتاج من حيث تحقق معناه إلى شئ ثابت أو مفروض فالغذاء مثلا مخلوق موجد في نفسه وكذا القوة الغاذية مخلوقة والإنسان مخلوق .

ولما كان كل رزق لله وكل خير لله محضا فما يعطيه تعالى من عطية وما أفاضه من خير وما يرزقه من رزق فهو واقع من غير عوض وبلا شئ مأخوذ في مقابله إذ كل ما فرضنا من شئ فهو له تعالى حقا ولا استحقاق هناك إذ لا حق لأحد عليه تعالى إلا ما جعل هو على نفسه من الحق كما جعله في مورد الرزق قال تعالى ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها :

هود – 6 ﴾

وقال تعالى فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون : الذاريات – 23 ﴾ .

فالرزق مع كونه حقا على الله لكونه حقا مجعولا من قبله عطية منه من غير استحقاق للمرزوق من جهة نفسه بل من جهة ما جعله على نفسه من الحق .

ومن هنا يظهر أن للإنسان المرتزق بالمحرمات رزقا مقدرا من الحلال بنظر التشريع فإن ساحته تعالى منزهة من أن يجعل رزق إنسان حقا ثابتا على نفسه ثم يرزقه من وجه الحرام ثم ينهاه عن التصرف فيه ويعاقبه عليه .

وتوضيحه ببيان آخر أن الرزق لما كان هو العطية الإلهية بالخير كان هو الرحمة التي له على خلقه وكما أن الرحمة رحمتان رحمة عامة تشمل جميع الخلق من مؤمن وكافر ومتق وفاجر وإنسان وغير إنسان ورحمة خاصة وهي الرحمة الواقعة في طريق السعادة كالإيمان والتقوى والجنة كذلك الرزق منه ما هو رزق عام وهو العطية الإلهية العامة الممدة لكل موجود في بقاء وجوده ومنه ما هو رزق خاص وهو الواقع في مجرى الحل .

وكما أن الرحمة العامة والرزق العام مكتوبان مقدران قال تعالى ﴿ وخلق كل شئ فقدره تقديرا : الفرقان – 2 ﴾ كذلك الرحمة الخاصة والرزق الخاص مكتوبان مقدران وكما أن الهدى وهو رحمة خاصة مكتوب مقدر تقديرا تشريعيا لكل إنسان مؤمنا كان أو كافرا ولذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين : الذاريات – 58 ﴾

وقال تعالى ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه : الإسراء – 23 ﴾ فالعبادة وهى تستلزم الهدى وتتوقف عليه مقضية مقدرة تشريعا كذلك الرزق الخاص هو الذى عن مجرى الحل مقضى مقدر قال تعالى ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين : الأنعام – 140 ﴾

وقال تعالى ﴿ والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء : النحل – 71 ﴾

والآيتان كما ترى ذواتا إطلاق قطعي يشمل الكافر والمؤمن ومن يرتزق بالحلال ومن يرتزق بالحرام.

ومن الواجب أن يعلم أن الرزق كما مر من معناه هو الذي ينتفع به من العطية على قدر ما ينتفع فمن أوتي الكثير من المال وهو لا يأكل إلا القليل منه فإنما رزقه هو الذي أكله والزائد

الباقي ليس من الرزق إلا من جهة الإيتاء دون الأكل فسعة الرزق وضيقه غير كثرة المال مثلا وقلته وللكلام في الرزق تتمة ستمر بك في قوله تعالى ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين : هود – 6 ﴾ .

ولنرجع إلى ما كنا فيه من الكلام في قوله تعالى ﴿ وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ فنقول توصيف الرزق بكونه بغير حساب إنما هو لكون الرزق منه تعالى بالنظر إلى حال المرزوقين بلا عوض ولا استحقاق لكون ما عندهم من استدعاء أو طلب أو غير ذلك مملوكا له تعالى محضا فلا يقابل عطيته منهم شئ فلا حساب لرزقه تعالى .

(236/115)

وأما كون نفى الحساب راجعا إلى التقدير بمعنى كونه غير محدود ولا مقدر فيدفعه آيات القدر كقوله تعالى ﴿ إنا كل شئ خلقناه بقدر : القمر – 49 ﴾

وقوله ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شئ قدرا " الطلاق – 3 ﴾

فالرزق منه تعالى عطية بلا عوض لكنه مقدر على ما يريده تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الميزان حـ 3 صـ 137 . 141 ﴾

وقال صاحب الأمثل

(وترزق من تشاء بغير حساب) .

هذه الآية تعتبر من باب ذكر "العام" بعد "الخاص" ، إذ الآيات السابقة قد ذكرت نماذج من الرزق الإلهي ، أمّا هنا فالآية تشير إلى جميع النِعم على وجه العموم ، أي أنّ العزّة والحكم والحياة والموت ليست هي وحدها بيد الله ، بل بيده كلّ أنواع الرزق والنِعم أيضاً .

وتعبير (بغير حساب) يشير إلى أنّ بحر النِعم الإلهية من السعة والكبر بحيث إنّه مهما اعطى منه فلن ينقص منه شيء ولا حاجة به لضبط الحسابات . فالتسجيل في دفاتر الحساب من عادة ذوي الثروات الصغيرة المحدودة التي يخشى عليها من النفاذ والنقصان . فهؤلاء هم الذين يحسبون حسابهم قبل أن يهبوا لأحد شيئاً ، لئلاّ تتبدّد ثرواتهم . أمّا الله فلا يخشى النقص فيما عنده ، ولا أحد يحاسبه ، ولا حاجه له بالحساب .

يتّضح ممّا قلنا أنّ هذه الآية لا تعارض مع الآيات التي تبيّن التقدير الإلهي وتطرح موضوع لياقة الأفراد وقابليّتهم ومسألة التدبير في الخلقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الأمثل حـ 2 صـ 453﴾

لطيفة

قال فى روح البيان :

قال الحجاج بن يوسف حين قيل له : لم لا تعدل مثل عمر رضى الله عنه وأنت قد أدركت خلافته أفلم ترعد له وصلاحه ؟

فقال فى جوابهم : تبذوروا أتعمر لكم أى كونوا كأبى ذر فى الزهد والتقوى أعاملكم معاملة عمر فى العدل والإنصاف وفيه إشارة إلى أن الولاة إنما يكونون على حسب أعمال الرعايا وأحوالهم صلاحا وفسادا فعلى كل واحد من المسلمين التضرع لله تعالى والإنابة إليه بالتوبة والاستغفار عند فشوّ الظلم وشمول الجور ويظهر جور الوالى وعدله فى الضرع والزرع والأشجار والأثمار والمكاسب والحرف يعنى يقل لبن الضرع وتنزع بركة الزرع وتنقص ثمار الأشجار وتكسد معاملة التجار وأهل الحرف فى الأمصار التي ملك فيها ذلك الملك الجائر بشؤم ظلمه وسوء فعله ويكون الأمر على العكس إذا عدل ولما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه طاووس إن أردت أن يكون عملك خيرا كله فاستعمل أهل الخير فقال كفى بها موعظة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح البيان حـ 2 صـ 25 ﴾

(239/115)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيتين :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ﴾

رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَجْعَلَ مُلْكَ فَارِسَ وَالرُّومِ فِي أُمَّتِهِ فَنَزَلَ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مَا مَعْنَاهُ : إِنَّ الْكَلَامَ مُتَّصِلٌ بِمَا قَبْلَهُ - صَحَّ مَا قِيلَ فِي سَبَبِ النُّزُولِ أَمْ لَمْ يَصِحَّ - وَالْكَلَامُ فِي حَالِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعَ مَنْ خُوطِبُوا بِالدَّعْوَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ ، فَالْمُشْرِكُونَ كَانُوا يُنْكِرُونَ النُّبُوَّةَ لِرَجُلٍ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ، كَمَا أَنْكَرَ أَمْثَالُهُمْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ كَانُوا يُنْكِرُونَ أَنْ يَكُونَ نَبِيٌّ مِنْ غَيْرِ آلِ إِسْرَائِيلَ ، وَقَدْ عُهِدَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي مَقَامِ بَيَانِ عِنَادِ الْمُنْكِرِينَ وَمُكَابَرَةِ الْجَاحِدِينَ

(240/115)

وَتَذْكِيرُهُ بِقُدْرَتِهِ - تَعَالَى - عَلَى نَصْرِهِ وَإِعْلَاءِ كَلِمَةِ دِينِهِ ، فَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ كَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُ : إِذَا تَوَلَّى هَؤُلَاءِ الْجَاحِدُونَ عَنْ بَيَانِكَ وَلَمْ يَنْظُرُوا فِي بُرْهَانِكَ وَظَلَّ الْمُشْرِكُونَ مِنْهُمْ عَلَى جَهْلِهِمْ وَأَهْلُ الْكِتَابِ فِي غُرُورِهِمْ فَعَلَيْكَ أَنْ تَلْجَأَ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى - وَتَرْجِعَ إِلَيْهِ بِالدُّعَاءِ وَالثَّنَاءِ ، وَتَتَذَكَّرَ أَنَّهُ بِيَدِهِ الْأَمْرُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، وَهَذَا يُنَاسِبُ مَا تَقَدَّمَ فِي الرَّدِّ عَلَى نَصَارَى نَجْرَانَ مِنْ أَمْرِهِ بِالِالْتِجَاءِ إِلَيْهِ - سُبْحَانَهُ - بِقَوْلِهِ : فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ .

(241/115)

قَالَ : وَعَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْمُلْكُ بِمَعْنَى النُّبُوَّةِ أَوْ لَازِمِهَا ، وَلَا شَكَّ أَنَّ النُّبُوَّةَ مُلْكٌ كَبِيرٌ لِأَنَّ سُلْطَانَهَا عَلَى الْأَجْسَادِ وَالْأَرْوَاحِ عَلَى الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ ، قَالَ - تَعَالَى - : فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا [4 : 54] فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا الْمُلْكُ عَيْنَ النُّبُوَّةِ فَهُوَ لَازِمُهَا ، وَنَزْعُ الْمُلْكِ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ عِبَارَةٌ عَنْ نَزْعِهِ مِنَ الْأُمَّةِ الَّتِي كَانَ يُبْعَثُ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ كَأُمَّةِ إِسْرَائِيلَ فَقَدْ نُزِعَتْ مِنْهَا النُّبُوَّةُ بِبَعْثَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُفَسَّرَ النَّزْعُ هُنَا بِالْحِرْمَانِ ; فَإِنَّهُ - تَعَالَى - يُعْطِي النُّبُوَّةَ مَنْ يَشَاءُ وَيَحْرِمُ مِنْهَا مَنْ يَشَاءُ ، فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ النَّزْعَ إِنَّمَا يَكُونُ لِشَيْءٍ قَدْ وُجِدَ ، صَحَّ أَنْ يُجَابَ عَنْهُ بِأَنَّ هَذَا

عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ - تَعَالَى - حِكَايَةً عَنْ لِسَانِ الرُّسُلِ : قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا [7 : 89] فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا فِي مِلَّتِهِمْ ، إِذْ يَسْتَحِيلُ الْكُفْرُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ - هَذَا سِيَاقُهُ - وَقَدْ تَبِعَ فِيهِ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ إِلَّا أَنَّهُ زَادَ عَلَيْهِ كَلِمَةَ " أَوْ لَازِمِهَا " وَالتَّمْثِيلُ غَيْرُ ظَاهِرٍ عَلَى الْمَعْنَى الثَّانِي ، وَالْآيَةُ حِكَايَةٌ عَنْ شُعَيْبٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهِيَ جَوَابٌ عَنْ قَوْلِ قَوْمِهِ : لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي

(242/115)

مِلَّتِنَا [7 : 88] فَهُمْ قَدْ طَلَبُوا مِنْهُ وَمِمَّنْ آمَنَ مَعَهُ أَنْ يَعُودُوا فِي مِلَّتِهِمْ وَكَانَ أُولَئِكَ الْمُؤْمِنُونَ فِي مِلَّتِهِمْ ، فَفِي جَوَابِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - تَغْلِيبٌ لِلْأَكْثَرِ وَهُوَ مُتَعَيِّنٌ .

وَمَثَّلَ الرَّازِيُّ أَيْضًا بِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ [2 : 257] وَفِيهِ مَا فِيهِ .

أَقُولُ : وَالظَّاهِرُ الْمُتَبَادِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُلْكِ السُّلْطَةُ وَالتَّصَرُّفُ فِي الْأُمُورِ ، وَاللَّهُ - سُبْحَانَهُ

(243/115)

وَتَعَالَى - صَاحِبُ السُّلْطَانِ الْأَعْلَى وَالتَّصَرُّفِ الْمُطْلَقِ فِي تَدْبِيرِ الْأَمْرِ وَإِقَامَةِ مِيزَانِ النِّظَامِ الْعَامِّ فِي الْكَائِنَاتِ، فَهُوَ يُؤْتِي الْمُلْكَ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ

(244/115)

عِبَادِهِ، إِمَّا بِالتَّبَعِ لِمَا يَخْتَصُّهُمْ بِهِ مِنَ النُّبُوَّةِ كَمَا وَقَعَ لِآلِ إِبْرَاهِيمَ، وَإِمَّا بِسَيْرِهِمْ عَلَى سُنَنِهِ الْحَكِيمَةِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَى ذَلِكَ بِأَسْبَابِهِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ كَتَكْوِينِ الْعَصَبِيَّاتِ كَمَا وَقَعَ لِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ مِنَ الْأَفْرَادِ وَمِنَ الْأُسَرِ وَالْعَشَائِرِ وَالْفَصَائِلِ وَالشُّعُوبِ بِتَنَكُّبِهِمْ سُنَنَهُ الْحَافِظَةَ لِلْمُلْكِ، كَالْعَدْلِ وَحُسْنِ السِّيَاسَةِ وَإِعْدَادِ الْمُسْتَطَاعِ مِنَ الْقُوَّةِ كَمَا نَزَعَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمِنْ غَيْرِهِمْ بِالظُّلْمِ وَالْفَسَادِ، ذَلِكَ أَنَّنَا لَا نَعْرِفُ مَا قَضَتْ بِهِ مَشِيئَتُهُ - عَزَّ وَجَلَّ - إِلَّا مِنَ الْوَاقِعِ ; لِأَنَّهُ لَا يَقَعُ فِي الْوُجُودِ إِلَّا مَا يَشَاءُ، وَقَدْ نَظَرْنَا فِيمَا وَقَعَ لِلْغَابِرِينَ وَالْحَاضِرِينَ وَمَحَّصْنَا أَسْبَابَهُ فَأَلْفَيْنَاهَا تَرْجِعُ إِلَى سُنَنٍ مُطَّرِدَةٍ كَمَا قَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ: قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا [3 : 137] الْآيَةَ. وَبَيَّنَ بَعْضَ هَذِهِ السُّنَنِ فِي نَزْعِ الْمُلْكِ مِمَّنْ يَشَاءُ وَإِيتَائِهِ مَنْ يَشَاءُ بِمِثْلِ قَوْلِهِ - تَعَالَى - مِنْ سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ [14 : 13، 14] وَقَدْ فَصَّلْنَا هَذَا

الْمَعْنَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ أَفْضَلَ تَفْصِيلٍ فَلْيُرَاجِعِ الْآيَةَ (247) مَنْ شَاءَ ، وَبِهَذَا يَظْهَرُ وَجْهُ اتِّصَالِ الْآيَةِ بِمَا قَبْلَهَا

(245/115)

وَكَوْنُهَا بِمَثَابَةِ الدَّلِيلِ لِقَوْلِهِ السَّابِقِ : قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ فَهِيَ تَتَضَمَّنُ تَأْكِيدَ الْوَعْدِ بِنَصْرِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَغَلْبِ أَعْدَائِهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ .

وَقَدْ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ لِلْعَبَّاسِ يَوْمَ رَأَى جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ زَاحِفًا إِلَى مَكَّةَ : لَقَدْ أَصْبَحَ مُلْكُ ابْنِ أَخِيكَ عَظِيمًا ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - : كَلَّا إِنَّهَا النُّبُوَّةُ ، وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ يَعْنِي أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ تَأْسِيسُ مُلْكٍ وَمَا كَانَ الْمُلْكُ مَقْصُودًا ، وَلَكِنَّهُ جَاءَ مَعْنَاهُ ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ تَابِعًا لَا أَصْلًا ، وَالْفَرْقُ عَظِيمٌ ، وَالْغَرَضُ مِنَ النُّبُوَّةِ غَيْرُ الْغَرَضِ مِنَ الْمُلْكِ ; وَلِذَلِكَ لَمْ يُسَمِّ الصَّحَابَةُ مَنْ جَعَلُوهُ رَئِيسَ مُلْكِهِمْ وَمَرْجِعَ سِيَاسَتِهِمْ مَلِكًا ، بَلْ سَمَّوْهُ خَلِيفَةً .

وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ الْعِزُّ وَالذُّلُّ مَعْرُوفَانِ ، وَمِنْ آثَارِ الْأَوَّلِ : حِمَايَةُ الْحَقِيقَةِ وَنَفَاذُ الْكَلِمَةِ ، وَمِنْ أَسْبَابِهِ كَثْرَةُ الْأَعْوَانِ وَمِلْكُ الْقُلُوبِ بِالْجَاهِ وَالْعِلْمِ النَّافِعِ لِلنَّاسِ وَسَعَةُ الرِّزْقِ مَعَ التَّوْفِيقِ لِلْإِحْسَانِ ، وَمِنْ آثَارِ الثَّانِي : الضَّعْفُ عَنِ الْحِمَايَةِ ، وَالرِّضَى بِالضَّيْمِ وَالْمَهَانَةِ -

كَذَا قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ - وَقَدْ يَكُونُ الضَّعْفُ سَبَبًا وَعِلَّةً لِلذُّلِّ لَا أَثَرًا مَعْلُولًا وَهُوَ غَالِبٌ، وَلَا تَلَازُمَ بَيْنَ الْعِزِّ وَالْمُلْكِ، فَقَدْ يَكُونُ الْمَلِكُ ذَلِيلًا إِذَا ضَعُفَ

اسْتِقْلَالُهُ بِسُوءِ السِّيَاسَةِ وَفَسَادِ التَّدْبِيرِ، حَتَّى صَارَتِ الدُّوَلُ الْأُخْرَى تَفْتَاتُ عَلَيْهِ كَمَا هُوَ مُشَاهَدٌ، وَكَمْ مِنْ ذَلِيلٍ فِي مَظْهَرِ عَزِيزٍ، وَكَمْ مِنْ أَمِيرٍ أَوْ مَلِكٍ يَغُرُّ الْأَغْرَارَ مَا يَرَوْنَهُ فِيهِ مِنَ الْأُبَّهَةِ وَالْفَخْفَخَةِ فَيَحْسَبُونَ أَنَّهُ عَزِيزٌ كَرِيمٌ وَهُوَ فِي نَفْسِهِ ذَلِيلٌ مَهِينٌ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ مُلُوكِ مَلَاهِي التَّمْثِيلِ (التِّيَاتْرَاتِ) وَالتَّشْبِيهُ لِلْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ.

هَذَا وَلَا عِزَّ أَعْلَى مِنْ عِزِّ الِاجْتِمَاعِ وَالتَّعَاوُنِ عَلَى نَشْرِ دَعْوَةِ الْحَقِّ وَمُقَاوَمَةِ الْبَاطِلِ إِذَا اتَّبَعَ الْمُجْتَمِعُونَ سُنَّةَ اللَّهِ - تَعَالَى - فَأَعَدُّوا لِكُلِّ أَمْرٍ عُدَّتَهُ، وَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ فِي مَكَّةَ وَالْيَهُودُ وَمُنَافِقُو الْعَرَبِ فِي الْمَدِينَةِ يَعْتَزُّونَ بِكَثْرَتِهِمْ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُؤْمِنِينَ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ [63 : 8] فَعَسَى أَنْ يَعْتَبِرَ الْمُسْلِمُونَ فِي هَذَا الزَّمَانِ بِهَذَا وَيَفْقَهُوا مَعْنَى كَوْنِ الْعِزَّةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، وَيُحَاسِبُوا أَنْفُسَهُمْ وَيُنْصِفُوا مِنْهَا لِيَعْلَمُوا مَكَانَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ الَّذِي حَكَمَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ بِالْعِزَّةِ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا [47 : 24].

(247/115)

بِيَدِكَ الْخَيْرُ قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: قَدَّرَ الْمُفَسِّرُ (الْجَلَالُ) هُنَا كَلِمَةَ " وَالشَّرُّ " هَرَبًا مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْعِبَارَةِ نَفْيٌ لِكَوْنِ الشَّرِّ بِيَدِهِ كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ فِيهَا إِثْبَاتٌ لَهُ فَلَا مَعْنًى لِتَصَادُمِ الْمَذَاهِبِ فِيهَا وَحَسْبُنَا قَوْلُهُ: إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَيْ فِي إِثْبَاتِ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِيَدِهِ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَالْبَلَاغَةُ قَاضِيَةٌ بِذِكْرِ الْخَيْرِ فَقَطْ سَوَاءٌ كَانَ السَّبَبُ فِي نُزُولِ الْآيَةِ خَاصًّا وَهُوَ مَا كَانَ فِي وَاقِعَةِ الْخَنْدَقِ مِنْ بِشَارَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّ مُلْكَ أُمَّتِهِ سَيَبْلُغُ كَذَا وَكَذَا أَوْ عَامًّا وَهُوَ حَالُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعَ الْمُنْكِرِينَ فَإِنَّهُ مَا أَغْرَى أُولَئِكَ الْمُجَاحِدِينَ بِإِنْكَارِ النُّبُوَّةِ وَالِاسْتِهَانَةِ بِدَعْوَةِ الْحَقِّ إِلَّا فَقْرُ الدَّاعِي وَضَعْفُ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَقِلَّتُهُمْ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - أَنْ يَلْجَأَ هُوَ وَمَنِ اتَّبَعَهُ إِلَى مَالِكِ الْمُلْكِ وَالْمُتَصَرِّفِ التَّصَرُّفَ الْمُطْلَقَ فِي الْإِعْزَازِ وَالْإِذْلَالِ، وَذَكَّرَهُمْ فِي هَذَا الْمَقَامِ بِأَنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ بِيَدِهِ فَلَا يُعْجِزُهُ أَنْ يُؤْتِيَ نَبِيَّهُ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنَ السِّيَادَةِ وَالسُّلْطَانِ مَا وَعَدَهُمْ، وَأَنْ يُعِزَّهُمْ وَيُعْطِيَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ مَا لَا يَخْطُرُ بِبَالِ الَّذِينَ يَسْتَضْعِفُونَهُمْ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ [28 : 5] عَلَى هَذَا الْأَصْلِ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ

(248/115)

بِأَنْ يَدْعُوهُ – وَالْمُؤْمِنُونَ تَبَعٌ لَهُ – بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَيَلْجَئُوا إِلَيْهِ بِهَذِهِ الرَّغْبَةِ ، فَكَانَ الْمُنَاسِبُ ذِكْرَ الْخَيْرِ الَّذِي وُعِدُوا بِهِ فَقَطْ ، وَأَنَّهُ بِيَدِهِ وَحْدَهُ . وَأَقُولُ : إِنَّهُ لَا يُسْنَدُ إِلَى يَدِهِ – تَعَالَى – أَوْ يَدَيْهِ إِلَّا النِّعَمُ الْجَلِيلَةُ وَالْمَخْلُوقَاتُ الشَّرِيفَةُ ، فَلَا يُقَالُ : إِنَّ الشَّرَّ بِيَدِ اللهِ – تَعَالَى – ، عَلَى أَنَّ جَمِيعَ مَا خَلَقَهُ اللهُ – تَعَالَى – وَدَبَّرَهُ هُوَ خَيْرٌ فِي نَفْسِهِ ، وَالشَّرُّ أَمْرٌ عَارِضٌ مِنَ الْأُمُورِ الْإِضَافِيَّةِ ; فَلَا تُوجَدُ حَقِيقَةٌ هِيَ شَرٌّ فِي ذَاتِهَا وَإِنَّمَا يُطْلَقُ لَفْظُ الشَّرِّ عَلَى مَا يَأْتِي غَيْرَ مُلَائِمٍ لِلْأَحْيَاءِ ذَاتِ الْإِدْرَاكِ ، وَلَا مُنْطَبِقٍ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ ، وَسَبَبُ ذَلِكَ فِي الْغَالِبِ سُوءُ عَمَلِهِمُ الِاخْتِيَارِيِّ ، وَمِنْ غَيْرِ الْغَالِبِ أَنْ تُقَوِّضَ الرِّيحُ لَهُمْ بِنَاءً أَوْ يَجْرُفَ السَّيْلُ لَهُمْ رِزْقًا ، وَكُلٌّ مِنَ الرِّيحِ وَالسَّيْلِ مِنْ أَعْظَمِ الْخَيْرَاتِ فِي ذَاتِهِمَا ، وَمِنَ الْخَيْرِ وَالنِّعَمِ مَا قَدَّرَتْهُ السُّنَنُ الْإِلَهِيَّةُ وَأَخْبَرَ بِهِ الْوَحْيُ مِنْ تَرْتِيبِ الْعِقَابِ عَلَى الْعَمَلِ السَّيِّئِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ مُرَبٍّ لِلنَّاسِ وَعَوْنٌ لَهُمْ عَلَى الِارْتِقَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالسَّعَادَةِ فِي الْآخِرَةِ ، وَمَنْ تَدَبَّرَ سُورَةَ الرَّحْمَنِ فَقِهَ مَا نَقُولُ . وَلِلْإِمَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ كَلَامٌ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لَا بَأْسَ بِإِيرَادِهِ هُنَا .

قَالَ فِي كِتَابِ (شَرْحِ مَنَازِلِ السَّائِرِينَ) وَنَقَلَهُ السَّفَارِينِيُّ فِي شَرْحِ عَقِيدَتِهِ مَا نَصُّهُ :

"

إِنَّ الشَّرَّ كُلَّهُ يَرْجِعُ إِلَى الْعَدَمِ ، أَعْنِي عَدَمَ الْخَيْرِ وَأَسْبَابَهُ الْمُفْضِيَةَ إِلَيْهِ ، وَهُوَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ شَرٌّ ، وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ وُجُودِهِ الْمَحْضِ فَلَا شَرَّ فِيهِ ، مِثَالُهُ أَنَّ النُّفُوسَ الشِّرِّيرَةَ وُجُودُهَا خَيْرٌ مِنْ حَيْثُ هِيَ مَوْجُودَةٌ ، وَإِنَّمَا حَصَلَ لَهَا الشَّرُّ بِقَطْعِ مَادَّةِ الْخَيْرِ عَنْهَا ، فَإِنَّهَا خُلِقَتْ فِي الْأَصْلِ مُتَحَرِّكَةً لَا تَسْكُنُ ، فَإِنْ أُعِينَتْ بِالْعِلْمِ وَإِلْهَامِ الْخَيْرِ تَحَرَّكَتْ بِطَبْعِهَا إِلَى خِلَافِهِ ، وَحَرَكَتُهَا مِنْ حَيْثُ هِيَ حَرَكَةٌ خَيْرٌ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ شَرًّا بِالْإِضَافَةِ لَا مِنْ حَيْثُ هِيَ حَرَكَةٌ ، وَالشَّرُّ كُلُّهُ ظُلْمٌ وَهُوَ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، فَلَوْ وُضِعَ فِي مَوْضِعِهِ لَمْ يَكُنْ شَرًّا . فَعُلِمَ أَنَّ جِهَةَ الشَّرِّ فِيهِ نِسْبَةٌ إِضَافِيَّةٌ ، وَلِهَذَا كَانَتِ الْعُقُوبَاتُ الْمَوْضُوعَةُ فِي مَحَالِّهَا خَيْرًا فِي نَفْسِهَا وَإِنْ كَانَتْ شَرًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَحَلِّ الَّذِي حَلَّتْ بِهِ لِمَا أَحْدَثَتْ فِيهِ مِنَ الْأَلَمِ الَّذِي كَانَتِ الطَّبِيعَةُ قَابِلَةً لِضِدِّهِ مِنَ اللَّذَّةِ مُسْتَعِدَّةً لَهُ ، فَصَارَ ذَلِكَ الْأَلَمُ شَرًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا ، وَهُوَ خَيْرٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْفَاعِلِ حَيْثُ وَضَعَهُ مَوْضِعَهُ ; فَإِنَّهُ - سُبْحَانَهُ - لَا يَخْلُقُ شَرًّا مَحْضًا مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ وَالِاعْتِبَارَاتِ ، فَإِنَّ حِكْمَتَهُ تَأْبَى ذَلِكَ . بَلْ قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ الْمَخْلُوقُ شَرًّا وَمَفْسَدَةً بِبَعْضِ الِاعْتِبَارَاتِ وَفِي خَلْقِهِ مَصَالِحُ وَحِكَمٌ بِاعْتِبَارَاتٍ أُخَرَ أَرْجَحَ مِنِ اعْتِبَارَاتِ مَفَاسِدِهِ ، بَلِ الْوَاقِعُ مُنْحَصِرٌ فِي

ذَلِكَ، فَلَا يُمْكِنُ فِي جَنَابِ

الْحَقِّ - جَلَّ جَلَالُهُ - أَنْ يُرِيدَ شَيْئًا يَكُونُ فَسَادًا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَبِكُلِّ اعْتِبَارٍ لَا مَصْلَحَةَ فِي خَلْقِهِ بِوَجْهٍ مَا . هَذَا مِنْ أَبْيَنِ الْمُحَالِ، فَإِنَّهُ - سُبْحَانَهُ - بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْهِ، بَلْ كُلُّ مَا إِلَيْهِ فَخَيْرٌ، وَالشَّرُّ إِنَّمَا حَصَلَ لِعَدَمِ هَذِهِ الْإِضَافَةِ وَالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، فَلَوْ كَانَ إِلَيْهِ لَمْ يَكُنْ شَرًّا فَتَأَمَّلْهُ . فَانْقِطَاعُ نِسْبَتِهِ إِلَيْهِ هُوَ الَّذِي صَيَّرَهُ شَرًّا .

"فَإِنْ قُلْتَ: لَمْ تَنْقَطِعْ نِسْبَتُهُ إِلَيْهِ خَلْقًا وَمَشِيئَةً ؟ قُلْتُ: هُوَ مِنَ الْجِهَةِ لَيْسَ بِشَرٍّ، وَالشَّرُّ الَّذِي فِيهِ مِنْ عَدَمِ إِمْدَادِهِ بِالْخَيْرِ وَأَسْبَابِهِ، وَالْعَدَمُ لَيْسَ بِشَيْءٍ حَتَّى يُنْسَبَ إِلَى مَنْ بِيَدِهِ الْخَيْرُ، فَإِنْ أَرَدْتَ مَزِيدَ إِيضَاحٍ فِي ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ أَسْبَابَ الْخَيْرِ ثَلَاثَةٌ: الْإِيجَادُ، وَالْإِعْدَادُ، وَالْإِمْدَادُ، فَهَذِهِ هِيَ الْخَيْرَاتُ وَأَسْبَابُهَا، فَإِيجَادُ هَذَا السَّبَبِ خَيْرٌ وَهُوَ إِلَى اللهِ، وَإِعْدَادُهُ خَيْرٌ وَهُوَ إِلَيْهِ أَيْضًا . فَإِذَا لَمْ يَحْدُثْ فِيهِ إِعْدَادٌ وَلَا إِمْدَادٌ حَصَلَ فِيهِ الشَّرُّ بِسَبَبِ هَذَا الْعَدَمِ الَّذِي لَيْسَ إِلَى الْفَاعِلِ، وَإِنَّمَا إِلَيْهِ ضِدُّهُ فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلَّا أَمَدَّهُ إِذَا وَجَدَهُ ؟ قُلْتُ: مَا اقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ إِيجَادَهُ وَإِمْدَادَهُ فَإِنَّهُ - سُبْحَانَهُ - يُوجِدُهُ وَيُمِدُّهُ، وَمَا اقْتَضَتِ

الْحِكْمَةُ إِيجَادُهُ وَتَرْكُ إِمْدَادِهِ أَوْجَدَهُ بِحِكْمَتِهِ وَلَمْ يُمِدَّهُ بِحِكْمَتِهِ ، فَإِيجَادُهُ خَيْرٌ وَالشَّرُّ وَقَعَ مِنْ عَدَمِ إِمْدَادِهِ .

(251/115)

" فَإِنْ قُلْتَ : فَهَلَّا أَمَدَّ الْمَوْجُودَاتِ كُلَّهَا ؟ فَالْجَوَابُ : هَذَا سُؤَالٌ فَاسِدٌ يَظُنُّ مُورِدُهُ أَنَّ تَسَاوِيَ الْمَوْجُودَاتِ أَبْلَغُ فِي الْحِكْمَةِ وَهَذَا عَيْنُ الْجَهْلِ ، بَلْ الْحِكْمَةُ كُلُّ الْحِكْمَةِ فِي هَذَا التَّفَاوُتِ الْعَظِيمِ الْوَاقِعِ بَيْنَهَا ، وَلَيْسَ فِي خَلْقِ كُلِّ نَوْعٍ مِنْهَا تَفَاوُتٌ ، فَكُلُّ نَوْعٍ مِنْهَا لَيْسَ فِي خَلْقِهِ مِنْ تَفَاوُتٍ ، وَالتَّفَاوُتُ إِنَّمَا وَقَعَ بِأُمُورٍ عَدَمِيَّةٍ لَمْ يَتَعَلَّقْ بِهَا الْخَلْقُ وَإِلَّا فَلَيْسَ فِي الْخَلْقِ مِنْ تَفَاوُتٍ (قَالَ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -) : فَإِنْ اعْتَاصَ ذَلِكَ عَلَيْكَ وَلَمْ تَفْهَمْهُ حَقَّ الْفَهْمِ فَرَاجِعْ قَوْلَ الْقَائِلِ :

إذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعْهُ . . . وَجَاوِزْهُ إلَى مَا تَسْتَطِيعُ

تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ أَيْ تُدْخِلُ طَائِفَةً مِنَ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ فَيَقْصُرَ اللَّيْلُ مِنْ حَيْثُ يَطُولُ النَّهَارُ ، وَتُدْخِلُ طَائِفَةً مِنَ النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ فَيَطُولُ هَذَا مِنْ حَيْثُ يَقْصُرُ ذَاكَ ، أَيْ إِنَّكَ بِحِكْمَتِكَ فِي تَدْبِيرِ الْأَرْضِ وَتَكْوِيرِهَا وَجَعْلِ الشَّمْسِ بِحُسْبَانٍ تَزِيدُ فِي أَحَدِ

الْجَدِيدَيْنِ مَا يَكُونُ سَبَبًا لِنَقْصِ الْآخَرِ ، فَلَا يُنْكَرُ عَلَى قُدْرَتِكَ وَحِكْمَتِكَ أَنْ تُؤْتِيَ النُّبُوَّةَ وَالْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ كَمُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ ، وَتَنْزِعُهُمَا مِمَّنْ

تَشَاءُ كَبَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَإِنَّكَ تَتَصَرَّفُ فِي شُئُونِ النَّاسِ كَمَا تَتَصَرَّفُ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ كَالْعَالِمِ مِنَ الْجَاهِلِ ، وَالصَّالِحِ مِنَ الطَّالِحِ ، وَالْمُؤْمِنِ مِنَ الْكَافِرِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ كَالْكَافِرِ مِنَ الْمُؤْمِنِ ، وَالْجَاهِلِ مِنَ الْعَالِمِ ، وَالشِّرِّيرِ مِنَ الْخَيِّرِ ، وَقَدْ مَثَّلَ الْمُفَسِّرُونَ لِلْحَيَاةِ الْحِسِّيَّةِ بِخُرُوجِ النَّخْلَةِ مِنَ النَّوَاةِ وَالْعَكْسِ ، وَخُرُوجِ الْإِنْسَانِ مِنَ النُّطْفَةِ ، وَالطَّائِرِ وَنَحْوِهِ مِنَ الْبَيْضَةِ وَبِالْعَكْسِ . وَالتَّمْثِيلُ صَحِيحٌ وَإِنْ أَثْبَتَ عُلَمَاءُ هَذَا الشَّأْنِ أَنَّ فِي النُّطْفَةِ حَيَاةً ، وَكَذَا فِي الْبَيْضَةِ وَالنَّوَاةِ ; لِأَنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ اصْطِلَاحِيَّةٌ لِأَهْلِ الْفَنِّ فِي عُرْفِهِمْ دُونَ الْعُرْفِ الْعَامِّ الَّذِي جَاءَ التَّنْزِيلُ بِهِ ، وَمِنَ الْأَمْثِلَةِ الصَّحِيحَةِ فِي الْعُرْفَيْنِ خُرُوجُ النَّبَاتِ مِنَ التُّرَابِ ، وَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ بِتَسْمِيَةِ مَا يُقَابِلُ الْحَيَّ مَيِّتًا سَوَاءٌ كَانَتِ الْحَيَاةُ حِسِّيَّةً أَوْ مَعْنَوِيَّةً ، وَسَوَاءٌ كَانَ مَا أُطْلِقَ عَلَيْهِ لَفْظُ الْمَيِّتِ مِمَّا يَعِيشُ وَيَحْيَا مِثْلُهُ أَمْ لَا وَهُوَ اسْتِعْمَالٌ عَرَبِيٌّ صَحِيحٌ فَصِيحٌ ، وَالْجُمْلَةُ كَسَابِقَتِهَا مِثَالٌ ظَاهِرٌ لِكَوْنِهِ - تَعَالَى - مَالِكَ الْمُلْكِ يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ إِلَى آخِرِ مَا فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ فَقَدْ أَخْرَجَ مِنَ

الْعَرَبِ الْأُمِّيِّينَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ كَمَا أَخْرَجَ مِنْ سَلَائِلِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ أُولَئِكَ الْأَشْرَارَ

(253/115)

الْمُفْسِدِينَ ; ذَلِكَ أَنَّ سُنَنَهُ - تَعَالَى - فِي الِاجْتِمَاعِ قَدْ أَعَدَّتِ الْأُمَّةَ الْعَرَبِيَّةَ لِأَنْ يَظْهَرَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ مِنْهَا - أَعَدَّتْهَا لِذَلِكَ بِارْتِقَاءِ الْفِكْرِ وَاسْتِقْلَالِهِ وَبِقُوَّةِ الْإِرَادَةِ وَاسْتِقْلَالِهَا ، حَتَّى صَارَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ أَقْوَى أُمَمِ الْأَرْضِ اسْتِعْدَادًا لِقَبُولِ الدِّينِ الَّذِي هَدَمَ بِنَاءَ التَّقْلِيدِ وَالِاسْتِعْبَادِ ، وَاسْتَبْدَلَ بِهِ بِنَاءَ الِاسْتِدْلَالِ وَالِاسْتِقْلَالِ ، مِنْ حَيْثُ كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ كَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ يَرْسُفُونَ فِي قُيُودِ التَّقْلِيدِ لِلْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ ، مُرْتَكِسِينَ فِي أَغْلَالِ الِاسْتِبْدَادِ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ ، فَمَا أَعْطَى - سُبْحَانَهُ - مَا أَعْطَى وَنَزَعَ مَا نَزَعَ إِلَّا بِإِقَامَةِ السُّنَنِ الَّتِي هِيَ قِوَامُ النِّظَامِ وَمَنَاطُ الْإِبْدَاعِ وَالْإِحْكَامِ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ يُطْلَبُ مِنْهُ ; لِأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ بِيَدِهِ ، وَلَيْسَ فَوْقَهُ أَحَدٌ يُحَاسِبُهُ ، أَوْ بِغَيْرِ تَضْيِيقٍ وَلَا تَقْتِيرٍ ، أَوْ بِغَيْرِ حِسَابٍ مِنْ هَذَا الْمَرْزُوقِ وَلَا تَقْدِيرٍ ، وَلَكِنَّهُ بِقَدَرٍ وَحِسَابٍ مِمَّنْ وَضَعَ السُّنَنَ وَالْأَسْبَابَ . انتهى ا . هـ ﴿ تفسير المنار حـ 3 صـ 221 . 226 ﴾

(254/115)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾

إن الحق يقول لنا : عندكم ظاهرة تختلف عليكم ، وهي الليل والنهار ، وظاهرة أخرى ، هي الحياة والموت . إن ظاهرة الليل والنهار كلنا نعرفها لأنها آية من الآيات العجيبة ، والحق يقول عنها : ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ إن الحق لم يصنع النهار بكمية محدودة من الوقت متشابهة في كل مرة ، لا ، إنه سبحانه شاء لليل أن ينقص أحيانا عن النهار خمس ساعات ، وأحيانا يزيد النهار على الليل خمس ساعات .

ولنا أن نتساءل . . هل تنقص الخمس الساعات من الليل أو النهار مرة واحدة وفجأة هل يفاجئنا النهار بعد أن يكون اثنتي عشرة ساعة ليصبح سبع عشرة ساعة ؟ هل يكون الليل مفاجئًا لنا في الطول أو القصر ؟ لا ، إن المسألة تأتي تباعا ، بالدورة ، بحيث لا تحس ذلك ، إن هناك نوعا من الحركة اسمها الحركة الترسية . إننا عندما ننظر إلى الساعة في كل الزمن ؟ لا ، إن كل ترس له زمن يتوقف فيه ، وعندما يتوقف فإننا ندفع به ليعيد دورته ، ويعمل ، وإذا دققنا النظر في عقرب الدقائق فإننا نستطيع أن نلحظ ذلك .

إذن هناك فترة توقف وسكون بين انتقال عقرب الدقائق من دقيقة إلى أخرى ، وهذا اللون

من الحركة نسميه " حركة ترسية " ، وهناك حركة أخرى ثانية نسميها " حركة انسيابية " ، بحيث يكون كل جزء من الزمن له حركة ، كما يحدث الأمر في ظاهرة النمو بالنسبة للإنسان والنبات والحيوان .

(255/115)

إن الطفل الوليد لا يكبر من الصباح إلى المساء بشكل جزئي ، أو محسوس ، إنه يكبر بالفعل دون أن نلحظ ذلك ، وقد يزيد بمقدار ملليمتر في الطول ، وهذا الملليمتر شائع في كل ذرات الثواني من النهار ، إن الطفل لا يظل على وزنه وطوله أربعا وعشرين ساعة من النهار ، ثم يكبر فجأة عند انتهاء اليوم ، لا ، إن نمو الطفل كل يوم يتم بطريقة تشيع فيها قدرة النمو في كل ذرات الثواني من النهار ، وهذه العملية تحتاج إلى الدقة المتناهية في توزيع جزيئات الحدث على جزيئات الزمان ، وهذه هي العظمة للقدرة الخالقة التي يظل الإنسان عاجزا عنها إلى الأبد .

وقد قلت لكم مرة : إن الواحد منكم إن نظر إلى ابنه الوليد ، وظل ناظراً له طوال العمر فلن يلحظ الإنسان منكم كبر ابنه على الإطلاق ، لكن عندما يغيب الإنسان عن ابنه شهرا أو شهورا ، ثم يعود ، هنا يرى في ابنه مجموع نمو الشهور التي غاب فيها عنه وقد أصبح

واضحا . ولو زرع الإنسان نباتا ما ، وجلس ينظر إلى هذا النبات ، فهو لن يرى أبدا نمو هذا النبات لماذا ؟ لأن الجزئيات تكبر دون قدرة على أن يلمس الإنسان طريقة نموها .

ولنا أن نعرف أن كل ما يكبر إنما يصغر أيضا ، ولا توجد عند الإنسان قدرة للملاحظة المباشرة لذلك ، وفي الحياة أمثلة أخرى ، نأخذ منها هذا المثل ، فعندما قام العلماء بتصوير الأرض من الأقمار الصناعية ، كانت الصور الأولى لمدينة نيويورك هي صورة لنقطة بسيطة ، وعندما قام العلماء بتكبير هذه الصورة ظهرت الجزئيات ، كالشوارع وغيرها ، أين كانت الشوارع في هذه النقطة الصغيرة ؟ لقد صغرت الشوارع أثناء التصوير بصورة تستحيل معها على آلات الإدراك عند الإنسان أن تراها ، ولذلك فلا بد من التكبير لهذه الصورة حتى يمكن للإنسان أن يراها ، ونحن نرى الشيء البعيد صغيرا ، ولكما قربناه كبر في نظرنا .

(256/115)

إذن فقول الله : ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ هو لفت للانتباه البشرى إلى أن الليل والنهار لا يفصل بينهما حد قاطع بنسبة متساوية لكل منهما ، لا ، إنه الحق بقدرته يدخل الليل في النهار ، ويدخل النهار في الليل . إن معنى " تُولج " هو " تُدخل " ،

ومثال ذلك أن يؤذن المؤذن لصلاة المغرب في يوم ما عند الساعة الخامسة، ويؤذن المؤذن لصلاة المغرب في أيام أخرى في الساعة السابعة. إن ذلك لا يحدث فجأة، ولا يقفز المغرب من الخامسة إلى السابعة، إنما يحدث ذلك بانسيابية، ورتابة. ومن ذلك تتلقى الدرس والمثل.

إنك أيها العبد إن رأيت ملكا قائما على حضارة مؤصلة، فاعلم أن هناك عوامل دقيقة لا تراها بالعين تنخر في هذا الملك إلى أن يأتي يوم ينتهي فيه هذا الملك. وهكذا تنهار الحضارات بعد أن تبلغ أوج الارتقاءات، ويصل الناس فيها إلى استعدادات ضخمة وإمكانات هائلة، وذلك لأن عوامل الانهيار تنخر داخل هذه الحضارات.

إن الحق بلفتنا إلى جلال قدرته وعظمة دقة صنعه، بمثل الليل والنهار: ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾. ثم يأتي لنا الحق الأعلى بمثل آخر، فيقول: ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾، إنها القدرة المطلقة بدون أسباب.

(257/115)

والوقفة هنا تجعلنا نرى كيف اهتدينا بما أفاض الله على بعض خلقه من اكتشاف لبعض أسراره في كونه، لقد وصل العلم لمعرفة أن لكل شيء حياة خاصة، فنرى أن ورقة النبات

تحدث فيها تفاعلات ولها حياة خاصة ، ونرى أن الذرة فيها تفاعلات ولها حياة خاصة ، والتفاعل معناه الحركة ، والحياة كما تعرف مظهرها الحركة ، وغاية ما هناك أنه يوجد فرق في رؤية الحياة عند العامة ، ورؤية الحياة عند الخاصة . إن الإنسان العامى لا يعرف أن النطفة فيها حياة ، وأن الحبة فيها حياة ، ولا يعرف ذلك إلا الخاصة من أهل العلم .

إن العامة من الناس لا يعرفون أن الحبة توجد لها حياة مرئية ، ويكمن فيها نمو غير ظاهر ، ولا يعرف العامة أن هناك فرقا بين شيء حي ، وشيء قابل لأن يحيا .

ومثال ذلك نواة البلح التي نأخذها ونزرعها لتخرج منها النخلة ، إنها كنواة تظل مجرد نواة إلى أن يأخذها الإنسان ، ويضعها في بيئتها ؛ لتخرج منها النخلة .

إذن فالنواة قابلة للحياة ، وعندما ننظر إلى ذرات التراب فإننا لا نستطيع أن نضعها في بيئة لنصنع منها شيئًا ، ورغم ذلك فإن لذرة التراب حركة . ويقول العلماء : إن الحركة الموجودة في ذرات رأس عيدان علبة كبريت واحدة تكفي لإدارة قطار كهربائي بإمكانه أن يلف حول الكرة الأرضية عددا من السنوات .

إن هذه أمور يعرفها الخاصة ، ولا يعرفها العامة . فإن نظرنا إلى العامة عندما يسمعون القول الحق : ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ كانوا يقولون : إن المثل على ذلك نواة البلح ، وكانوا يعرفون أن النخلة تنمو من النواة . ولكن الخاصة بحثوا واكتشفوا أن في داخل النواة حياة وعرفوا كيفية النمو . . وعرف العلماء أن لكل شيء في

الوجود حياة مناسبة لمهمته . . فليست الحياة هي الحركة الظاهرة والنمو الواضح أمام العين فقط ، لا ، بل إن هناك حياة في كل شيء .

(258/115)

إن العامة يمكنهم أن يجدوا المثال الواضح على أن الحق يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، أما الخاصة فيعرفون قدرة الله عن طريق معرفتهم أن كل شيء فيه حياة ، فالتراب الذي نضع فيه البذر لو أخذنا بعضا منه في مكان معزول ، فلن يخرج منه شيء ، هذا التراب هو ما يصفه العلماء بوصف " الميت في الدرجة الأولى " وأما النواة التي يمكن أن تأخذها وتضعها في هذا التراب ، فيصفها العلماء بأنها " الميت من الدرجة الثانية " . وعندما ننقل الميت في الدرجة الأولى ليكون وسطا بيئيا للميت في الدرجة الثانية تظهر لنا نتائج تدلل على حياة كل من التراب والنواة معا ، وقد مس القرآن ذلك مسا دقيقا ، لأن القرآن حين يخاطب بأشياء قد تقف فيها العقول فإنه يتناولها التناول الذي تتقبلها به كل العقول ، فعقل الصفوة يتقبلها وعقل العامة يتقبلها أيضا ، لأن القرآن عندما يلمس أي أمر إنما يلمسه بلفظ جامع راق يتقبله الجميع ، ثم يكتشف العقل البشري تفاصيل جديدة في هذا الأمر .

إن القرآن على سبيل المثال لم يقل لنا : إن الذرة فيها حركة وحياة وفيها شحنات من لون معين من الطاقة ، ولكن القرآن تناول الذرة وغيرها من الأشياء بالبيان الإلهي القادر ، وخصوصا أن هذه الأشياء لم يترتب عليها خلاف في الحكم أو المنهج . فلو عرف الإنسان وقت نزول القرآن أن الذرة بها حياة فماذا الذي يزيد من الأحكام ؟ ولو أن أحدا أثبت أن الذرة ليس بها حياة فما الذي ينقص من أحكام المنهج الإيماني ؟ لم يكن الأمر من ناحية الأحكام ليزيد أو لينقص ، وعندما نأخذ القرآن مأخذ الواعين به ، ونفهم معطيات الألفاظ فإننا نجد أن كلمة " الحياة " لها ضد هو " الموت " ، وقد ترك الحق سبحانه كلمة " الموت " في بعض المواقع من الكتاب الكريم وأورد لنا كلمة أخرى هي " الهلاك " قال الحق سبحانه :
6

(259/115)

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

[الأنفال : 42] .

إن " الهلاك " هنا هو مقابل الحياة ، لماذا لم يورد الحق كلمة " الموت " هنا ؟ لأنه الخالق الأعلم بعباده ، يعلم أن العباد قد يختلفون في مسألة " الموت " فبعض منهم يقول تعريفا للميت

: إنه الذي لا توجد به حركة أو حس أو نمو، ولكن هذا الميت له حياة مناسبة له، كحياة الذرة أو حياة حبة الرمل، أو حياة أي شيء ميت، وهكذا عرفنا من الآية السابقة أن الحياة يقابلها الهلاك. ويقول الحق سبحانه عن الآخرة ليوضح لنا ما الذي سوف يحدث يوم القيامة:

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾

[القصص: 88].

لقد استثنى الحق الوجه أو الذات الإلهية، وكل ما عداها هالك. وما دام كل شيء هالك فمعنى ذلك أن كل شيء كان حيا وإن لم ندرك له حياة. اذن فالحياة الحقيقية توجد في كل شيء بما يناسبه، مرة تدركها أنت، ومرة لا تدركها.

إذن فقوله الكريم: ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ يجوز أن تأخذه مرة بالعرف العام، أو تأخذه بالعرف الخاص، أي عرف العلماء، وما دام ذلك أمرا ظاهرا في الوجود كولوج الليل في النهار وولوج النهار في الليل، أي أن الحق يدخل النهار في الليل، ويدخل الليل في النهار. وفي اللغة يسمون بطانة الرجل - أي خاصة أصدقائه - " الوليجة" لماذا؟ لأنها تتداخل فيه، لأنك إن أردت أن تعرف سر واحد من البشر فاجلس مع صديق له أو عددٍ من أصدقائه الذين يتداخلون معه.

لذلك جاء أمر إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل بالوضوح الكامل ، وجاءت مسألة الحياة والموت بألفاظ يمكن أن يفهمها كل من العامة والخاصة . وإذا كانت تلك الظواهر هي بعض من قدرات الله فمن إذن يستكثر على الله قدرته في أنه يؤتي الملك من يشاء ، ويعز من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويذل من يشاء ؟ لقد جاء الدليل من الآيات الكونية ، ونراه كل يوم رأي العين . ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ . . تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . إنك أنت يا الله ، الذي أجريت في كونك كل هذه المسائل وهي كلها أمور من الخير ، وإن بدا للبعض أن الخير فيها غير ظاهر .

إن الإنسان عندما يرى في ابنه شيئا يحتاج إلى علاج فإنه يسرع به إلى الطبيب ويرجوه أن يقوم بكل ما يلزم لشفاء الابن ، حتى ولو كان الأمر يتطلب التدخل الجراحي . إن الأب هنا يفعل الخير للابن ، والابن قد يتألم من العلاج ، فإذا كان هذا أمر المخلوق في علاقته بالمخلوق ، فما بالنا بالخالق الأكرم الذي يجري في ملكه ما يشاء ، إيتاء ملك أو نزعه ، وإعزازا أو إذلالا ، فكل ذلك لا بد أن يكون من الخير ، وآيات الله تشهد بأن الله على كل شيء قدير لذلك يأتي بعد الآية السابقة قوله :

﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : 27]

(261/115)

فإذا كان هناك إنسان لم يفطن أبدا لمسألة إيلاج الليل في النهار أو إخراج الحي من الميت ، فإنه لا بد أن يلتفت إلى رزقه ، فكل واحد منا يتصل برزقه قهرا عنه ، ولذلك جاء الحق سبحانه بهذا الأمر الواضح : ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ وساعة تسمع كلمة " حساب " فإنك تعرف أن الحساب هو كما قلنا سابقا : يبين لك مالك وما عليك .

وعندما نتأمل قول الحق : ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ . فإننا نعلم أن " الحساب " يقتضي " محاسبا " - بكسر السين ويقتضي " محاسبا " - بفتح السين ويقتضي " محاسبا عليه " ، إن الحساب يقتضي تلك العناصر السابقة . فعندما يقول الحق : ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فلنا أن نقول : ممن ؟ ولمن ؟ من أين يأتي الرزق ؟ وإلى أين ؟ إنه يأتي من الله ، ويذهب إلى ما يقدره الله لأن الله هو الرزّاق ، وهو الحق وحده ، وهو الذي لا يستطيع ولا يجرؤ أحد على حسابه ، فهو سبحانه الذي يحاسبنا جميعا ، لا شريك له ، وهو الفعال لما يريد .

إن الحساب يجريه الله على الناس ، وهو سبحانه لا يعطي الناس فقط على قدر حركتهم في الوجود ، بل يرزقهم أحيانا بما هو فوق حركتهم . وقد يرزقك الله من شيء لم يكن محسوبا عندك ؛ لأن معنى الحساب هو ذلك الأمر التقديري الذي يخطط له الإنسان ، كالفلاح الذي يحسب عندما يزرع الفدان ويتوقع منه نتاجا يساوي كذا إردبا أو قنطارا ، أو الصانع الذي يقدر لنفسه دخلا محددا من صنعته . هذا هو الحساب ، لكن الإنسان قد يلتفت فيجد أن عطاء الله له من غير حساب . وقد يحسب الإنسان مرة ولا يأتي له الرزق .

مثال ذلك : قالوا : إن دولة أعلنت أنها زرعت قمحا يكفي الدنيا كلها ، ولكن عندما نضج المحصول هبت عاصفة أهلكت الزرع ، وأكلت هذه الدولة قمحها من الخارج . فمن قالوا عن أنفسهم : إنهم سيطعمون الناس أطعمهم الناس .

(262/115)

أليس ذلك مصداقا لقول الحق : " من غير حساب " ؟ إنه الحق سبحانه لا يحسب حركتك إيها الإنسان ليعطيك قدرها ، ولكنه قد يعطيك أحيانا فوق حركتك .

ونحن نرى إخوتنا الذين أفاض الله عليهم بثروة البترول ، لقد تفجر البترول من تحت أرجلهم دون جهد منهم إنه الله يريد أن يلفت الناس إلى قدرته جل وعلا ، وأن الأرزاق في يده هو .

وننظر إلى الناس الذين يشيرون إلى منطقة البترول فيتهمون أهلها بالكسل ، ونجد ان الحق سبحانه وتعالى قد سخر لهم غير الكسالى ليخدموهم ، وعندما أفاء على المنطقة العربية بالبترول احتاجت لهم الدول التي تقول عن نفسها : أنها متقدمة ، إنه رزق بغير حساب .

إن هذه اللفتات إنما تؤكد للمؤمن طلاقة القدرة ، إن الحق قد خلق الأسباب ، ولم يترك الأسباب تتحكم وحدها ، وقد يترك الحق الأسباب للإنسان ليعمل بها ، وقد لا يعطيه منها ، ويعطي الحق الإنسان من جهة أخرى لم يحسب لها حسابا . والإنسان الذي يتأمل تقدير أموره أو أمور من يعرف يجد أن تلك القضية منتشرة في كل الخلق ، إنه سبحانه يرزق بغير حساب ، ولا يقول : "لقد فعلت على قدر يساوي كذا" ، والحق سبحانه يعطي بغير حساب من الإنسان ، لأن الموازنة التي قد يقوم بها الإنسان قد يأتي لها من الأسباب ما يخرقها .

(263/115)

إذن ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ تعني قدرة الحق المطلقة على الرزق بغير حساب ولا توجد سلطة أعلى منه تقول له : لماذا فعلت ؟ أو ماذا أعطيت ؟ أو من غير حساب منه سبحانه لخلقه ، فيأتي الرزق على ما هو فوق أسباب الخلق ، أو من غير

حساب للناس المرزوقين فيأتي رزقهم من حيث لم يقدروا ، فإذا كانت كل هذه الأمور لله ، وهو مالك الملك ويعطي من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويولج الليل في النهار ، ويرزق من يشاء بغير حساب ، أليس من الحمق أن يذهب إنسان ليوالي من لا سلطان له ويترك هذا السلطان ، إن من يوالي غير الله هو الذي استبد به الغباء . ولنفطن لتلك القضية الإيمانية : إي فما دامت كل الأمور عندي فإياكم أن توالوا خصومى ، لأنني أنا الذي بيده كل شيء ، ها هوذا القول الحق :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران : 118] .

إنه الحق يأمرنا ألا نوالي إلا الله ، فإن كنت تجري حسابا لكل شيء وبتقدير مؤمن فلا توال إلا صاحب هذه الأشياء ، وإياك أن تعمد إلى عدو لهذه القوة القاهرة القادرة المستبدة في كل امور الكون ونواميسه ، إياك أن تعمد الى أعداء الله لتتخذ منهم أولياء ؛ لأنك لو فعلت تكون غير صائب التفكير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1401 . 1409 ﴾

بحث علمى للدكتور زغلول النجار. حفظه الله.

"إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي في القرآن الكريم"

جاء هذا المعني في أربعة مواضع من القرآن الكريم علي النحو التالي:

(1).. تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب (آل عمران: 27).

(2) إن الله فالق الحب والنوي يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأني تؤفكون (الأنعام: 95).

(3) قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون (يونس: 31).

(4) يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون (الروم: 19).

الدلالة العلمية للآية الكريمة

تشير هذه الآية الكريمة إلي قدرة الله علي خلق الأحياء من المواد الأولية التي أوجدها مع بدء خلقه للكون , وهي مواد ميتة لا روح فيها ولا حياة , وبعد انتزاع الروح من الكائن الحي يعود جسده إلي تلك المواد الأولية التي بدأ خلقه منها , وبذلك فالله (تعالي) وحده هو الذي يملك إخراج الحي من الميت , وإخراج الميت من الحي ; وينطبق ذلك علي الخلق الأول للحياة , وعلي البعث في الآخرة , كما ينطبق علي العمليات الوسطي بينهما من الميلاد , والنمو , والتكاثر , والوفاة ; وهي عمليات مستمرة إلي قيام الساعة , ومنضبطة بسنن كونية , وقوانين ربانية ثابتة لا تتوقف ولا تتخلف إلي أن يشاء الله , وهذه السنن والقوانين لم يدركها علم الإنسان الكسبي إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين , وورود الإشارة إلي حقيقتها في كتاب الله الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة بهذه الدقة البالغة لمما يجزم بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق , ومما يؤكد نبوة هذا النبي الخاتم (صلي الله عليه وسلم) ويشهد بصدق رسالته , وبأنه (صلي الله عليه وسلم) كان موصولا بالوحي , ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض .

وقبل الدخول في شرح الدلالة العلمية للآية الكريمة لابد لنا من التفريق بين تعبيري الحي والميت .

الحي والميت في اللغة العربية :

(الحياة) في العربية ضد الموت ; و(الحي) ضد الميت , و(المحيا) من الحياة ; يقال : (أحياه) الله (فحيي) و(حي) , وللجمع (حيوا) , و(الحيوان) ضد الموتان .

(266/115)

وفي المقابل فإننا نجد أن (الموات) بالفتح هو كل ما لا روح فيه , وهو أيضا الأرض التي لا مالك لها , والتي لا ينتفع أحد بها ; و(الموت) ضد الحياة ; يقال للحي إذا فارق الحياة أنه قد (مات) (يموت) , و(يمات) , فهو (ميت) [بالتشديد والتخفيف] , وجمعه (موتي) و(أموات) و(ميتون) [بالتشديد والتخفيف] , ويستوي في ذلك المذكر والمؤنث ; و(الميتة) ما لم تلحقه الذكاة , و(الموات) بالضم هو (الموت) ; يقال : (أماته) الله (موتة) ; و(المستميت) المتعرض للمخاطر إلي حد الموت ; و(المتماوت) المتظاهر بالموت من قبيل الرياء ; ويقال للنوم أنه (موت خفيف أو مؤقت) و(للموت) أنه نوم ثقيل ودائم إلي يوم البعث .

الموات في كوننا :

(267/115)

يتكون الجزء المدرك لنا من الكون في غالبيته من غاز الأيدروجين الذي يشكل أكثر من 74% من مادة الكون المنظور ; وغاز الأيدروجين هو أخف العناصر وزنا , وأقلها تعقيدا أي أبسطها بناء , وهو مادة غير حية . ويلي غاز الأيدروجين كثرة في الجزء المدرك لنا من الكون غاز الهيليوم الذي يشكل 24% من مادة الكون المنظور , وهو ثاني العناصر المعروفة لنا , ويتكون في داخل الشمس باتحاد أربع من نوي ذرات الأيدروجين وتنطلق الطاقة , ومعني ذلك أن باقي العناصر المعروفة لنا التي يزيد عددها علي مائة عنصر تشكل أقل من 2% من مادة الكون المنظور , وهي كلها غير حية , وقد أدت هذه الملاحظة إلي الاستنتاج الصحيح بأن جميع العناصر قد تخلقت باتحاذ نوي ذرات الأيدروجين بعملية تعرف باسم الاندماج النووي , وهذه العملية تتم في داخل نجوم السماء التي ينظر إليها علي أنها أفران ذرية كونية تتخلق فيها العناصر بالتدريج من أخفها وهو غاز الأيدروجين بعملية الاندماج النووي حتي تصل سلسلة هذه العمليات إلي إنتاج عنصر الحديد الذي لا يتم إنتاجه إلا في داخل النجوم العملاقة وفي مراحل توهجها الشديد المسماة باسم (المستعرات العظام) , وحينما يتحول قلب المستعر الأعظم إلي الحديد يكون قد استهلك طاقته فينفجر هذا النجم الأعظم , وتتناثر أشلاؤه في صفحة السماء , لتدخل في نطاق جاذبية عدد من الأجرام بتقدير من الله (تعالي) علي هيئة النيازك ورماد الشهب , وقد

تتعرض بعض نوي ذرات الحديد في أثناء هذه الرحلة في صفحة السماء لاصطياد عدد من الجسيمات الأولية للمادة بتقدير من الخالق سبحانه وتعالي فيتكون من العناصر ما هو أعلي وزنا, وأعقد بناء من الحديد .

وباتحاد نوي ذرات العناصر مع الإليكترونات تكونت الذرات, وباتحاد الذرات تكونت الجزيئات, وباتحادها تكونت المركبات .

(268/115)

وعندما انفصلت أرضنا عن الشمس (أو عن السديم الذي تكونت منه الشمس), لم تكن سوي كومة من الرماد ليس بها من العناصر ما هو أعلي وزنا من (السيليكون), ثم رجمت بوابل من النيازك والشهب الحديدية التي بها بعض العناصر الأعلي وزنا من الحديد , فاندفعت تلك المواد العالية الكثافة إلي قلب الأرض الأولية (كومة الرماد) فانصهرت وصهرتها ومايزتها إلي سبع أراضين : لب صلب داخلي أغلبه الحديد والنيكل, يليه إلي الخارج لب سائل أغلبه كذلك الحديد والنيكل, ثم أربعة أوشحة متتالية تتناقص فيها نسبة الحديد من الداخل إلي الخارج, ثم الغلاف الصخري للأرض وبه 5.6% من الحديد , وفي أثناء عملية التمايز تلك تكونت مركبات المعادن التي كونت الصخور الأولية (النارية),

والتي بدأت بها دورة الصخور . ومن الصخور النارية تكونت كل من الصخور الرسوبية والمتحولة , ومع تكون الصخور النارية , عبر المتداخلات النارية , والثورات البركانية أخرج الله (تعالي) من داخل الأرض ماءها , وغلافها الغازي , وهذه النطق الثلاث : الغلاف الصخري , والمائي , والغازي كلها مواد ميتة لا روح فيها ولا حياة .

ويقدر عمر الأرض بنحو 4600 مليون سنة , بينما يقدر عمر أقدم أثر للحياة علي سطحها بنحو 3800 مليون سنة , أي أن الأرض أخذت ثمانمائة مليون سنة علي الأقل من أجل إعدادها لاستقبال الحياة , والله (تعالي) قادر علي أن يقول للشيء كن فيكون , ولكن هذا التدرج قصد به أن يفهم الإنسان سنن الله في الخلق , وأن يحسن توظيفها في عمارة الأرض , وفي حسن القيام بواجبات الاستخلاف فيها .

الأحياء علي أرضنا :

يحيا علي يابسة أرضنا اليوم , وفي مياهها , وتحت هوائها من صور الحياة المدركة بلايين البلايين من الأفراد التي تنطوي في نحو المليوني نوع من أنواع الحياة , تجمع في ست ممالك هي : البدائيات , الطلائعيات , الفطريات , النبات , الحيوان , والإنسان . . التي ينقسم كل منها

إلي عدد من القبائل , والفصائل , والرتب , والأجناس , والأنواع .

وبمعدل الاكتشافات الحالية يتوقع العلماء أن عدد الأنواع التي عاشت علي الأرض واندثرت , والتي تعيش اليوم سوف يصل إلي نحو خمسة ملايين نوع من أنواع الحياة , يمثل كل نوع منها ببلايين الأفراد , ويتراوح متوسط عمر كل نوع من أنواع هذه الحياة بين نصف مليون سنة وخمسة ملايين من السنين .

وكل نوع من أنواع هذه الحياة أعطاه الله (تعالي) القدرة علي القيام بجميع العمليات الحيوية من أمثال التغذية , والقدرة علي القيام بالتمثيل الغذائي (الأيض) , وعلي الإخراج , والتنفس , والنمو , والتكاثر , والتكيف , والحركة . (باستثناء النبات) , والإحساس , إلي غير ذلك من الميزات التي تستخدم للتفريق بين الأحياء والأموات (الموات) في كوننا المدرك .

إخراج الحي من الميت :

إن قضية الخلق بأبعادها الثلاثة : خلق الكون , خلق الحياة , وخلق الإنسان هي من القضايا الغيبية التي لا تخضع لإدراك الإنسان , وفي ذلك يقول الحق (تبارك وتعالي) :

ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض , ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا (الكهف 51) .

ولكن القرآن الكريم الذي أنزل فيه ربنا (تبارك وتعالي) قراره هذا يقول لنا أيضا فيه :

قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله علي كل شيء قدير (العنكبوت: 20).

(270/115)

وبالجمع بين هاتين الآيتين الكريمتين يتضح لنا بجلاء أنه علي الرغم من كون عملية الخلق عملية غيبية غيبة كاملة, لم يشهدها أحد من المخلوقين إلا أن الله (تعالي) من رحمته بنا أبقي لنا في صخور الأرض وفي صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يمكن أن يعين الإنسان علي وضع تصور ما عن كيفية الخلق, ويبقي هذا التصور متأثرا بخلفية واضعه, فتتعدد النظريات في قضية الخلق تعددا كبيرا, ويبقي للمسلم نور من الله (تعالي) في آية قرآنية كريمة, أو في حديث نبوي صحيح السند عن رسول الله (صلي الله عليه وسلم) يمكن أن يعينه علي أن يختار من بين هذه التصورات أو النظريات واحدة تتفق مع النص القرآني أو مع الحديث النبوي الصحيح أو معهما معا فيرتقي بهذه النظرية إلي مستوي الحقيقة انتصارا للعلم بالقرآن الكريم أو بالحديث النبوي الشريف وليس العكس, وهذه منزلة من منازل العلم لا يرقاها إلا المسلم.

وتحدث الدهريون عن التطور الكيميائي, ومن بعده عن التطور العضوي, ونحن معشر

المسلمين لا اعتراض لنا علي ذلك لأن الحكمة ضالة المؤمن أني وجدها فهو أولي الناس بها كما علمنا المصطفي (صلي الله عليه وسلم), فإذا كان المقصود بالتطور هو تدرج عمارة الأرض بأنماط من الخلق تزداد تدريجيا في العدد وفي تعقيد البناء, فهذا حق يقوم عليه الدليل وتؤكده الملاحظة, وتدعمه الحجة, ولكن أعداء الدين انطلقوا بهذه الملاحظة الصحيحة إلي ثلاثة استنتاجات خاطئة تماما هي:

(1) الإدعاء بعشوائية الخلق الأول:

والملاحظة العلمية الدقيقة تشجب ذلك وترفضه, لأن هذا الفرض يقتضي عشوائية بناء الحمض الأميني (وهو لبنة بناء الجزيء البروتيني الذي هو لبنة بناء الخلية الحية), وعشوائية تجمع هذه الأحماض الأمينية لبناء مائتي ألف نوع من الجزيئات البروتينية, والتي تجمعت عشوائيا لبناء أول خلية حية, التي تشعبت من بعد إلي ملايين الأنواع من أنواع الحياة التي مثل كل نوع منها ببلايين الأفراد, بطريقة عشوائية محضة والحقيقة العلمية المؤكدة هي أن كلا من الحمض الأميني والجزيء البروتيني علي قدر من التعقيد في البناء, والدقة في ترابط الذرات والجزيئات لا يمكن للصدفة أن تصنعه أبدا....!!

(2) الإدعاء بعشوائية التدرج في الخلق :

وهذا الافتراض ترفضه أيضا الملاحظة العلمية الدقيقة لأن لكل نوع من أنواع الحياة عددا محددا من الصبغيات التي تحمل شفرته الوراثية وتتحكم في صفاته ونشاطاته ومنها الانقسام والتكاثر , وهذه الشفرة الوراثية علي قدر من الدقة والتعقيد لا يمكن للصدفة أن تكون قادرة علي إبداعه أبدا .

ثم إن عملية تدرج عمارة الأرض بأنماط الحياة تمت بإتقان معجز , لعب فيه كل طور من أطوار الحياة دورا في إعداد الأرض للطور التالي , ولا يمكن للصدفة أبدا أن ترتب ذلك . ثم إن هناك انقطاعات في سجلات الحياة الأحفورية تؤكد حقيقة الخلق , وتنفي عشوائية التدرج .

(3) الإدعاء بعشوائية ظهور الإنسان عن هذه السلسلة الطويلة من الخلق :

وهذا أيضا هروب مقصود من الاعتراف بالخالق (سبحانه وتعالي) والملاحظات العلمية الدقيقة ترفضه ولا تؤيده . فتمايز الشفرة الوراثية للإنسان , وتحديد عدد الصبغيات التي تحملها , وما ميز الله (تعالي) به الإنسان من صفات تشريحية ونفسية , وقدرات عقلية

تنفي ذلك الزعم وتدحضه , وتمايز الهيكل العظمي للإنسان فوق أعلي مخلوق قبله كصفة وحيدة تنفي تخرص المتخرصين , وتزييف المزيفين , لأن هذا القدر من التمايز لا يمكن أن يتم في الفترة الزمنية القصيرة التي عاشها نوع الإنسان علي الأرض , أضف إلي ذلك ذكاء الإنسان , وقدرته علي الكلام , ومهاراته المختلفة , وقدرته علي الشعور , والانفعال , والتعبير عن ذلك , وقدراته علي كسب المعارف والمهارات وتعليمها , كل ذلك يؤكد الخلق الخاص للإنسان وفصله عن كل صور الحياة من قبله .

وإن قدرة الشفرة الوراثية في الإنسان علي الانقسام وتكرار نفسها ترد الجنس البشري كله إلي أب واحد هو آدم (عليه السلام) وفوق ذلك كله فإن دقة بناء الخلية الحية , وإحكام عملها , وانضباط كل نشاطاتها علي الرغم من ضآلة حجمها (أقل من جزء من عشرة ملايين جزء من المليمتر المكعب) , تنفي ذلك فلها جدارها الذي يبدو كالسور العظيم الذي تتخلله بوابات تفتح وتغلق بانتظام معجز , ولها جيوش دفاعية , وأخري هجومية , وثالثة احتياطية , ولها قوي وأجهزة كهرومغناطيسية , ولها مسئولون عن التموين , وقدرة علي تصنيع أكثر من مائتي ألف نوع من أنواع البروتينات , ولها علاقات داخلية منضبطة , وأخري خارجية مع غيرها من الخلايا الموجودة حولها , ولها شفرة وراثية معجزة , وغير ذلك من الصفات التي لا يتسع المقام لسردها , وهذا كله لا يمكن أن يكون للصدفة دور فيه

.

وخلق الخلية الحية من عناصر الأرض الميتة هو أعظم صور إخراج الحي من الميت التي أشارت إليها الآية الكريمة , وكذلك إعادة بعثها في يوم القيامة .

(273/115)

ومن صور ذلك أيضا قدرة الخالق المبدعة التي أعطاها لكل كائن حي لتحويل عناصر الأرض وجزيئات الماء والهواء (وكلها من المواد الميتة) بتقدير من الله (تعالي) إلي مواد حية كما يحدث في عملية التمثيل الضوئي التي تقوم بها النباتات الخضراء فتأخذ عناصر الأرض والماء من التربة , وتأخذ ثاني أوكسيد الكربون من الجو والطاقة من الشمس , في وجود صبغة خضراء تعرف باسم (اليخضور) أو غيرها من الصبغات النباتية وبعض الإنزيمات التي يفرزها النبات لتكوين الكربوهيدرات من مثل السكر , والنشا , والسيليلوز وهي مواد في غاية الأهمية لأنها تعد مكونات أساسية في بناء مختلف أجزاء النبات وفي طعام كل من الإنسان والحيوان .

وفي كل من الإنسان والحيوان وفي بعض النباتات تتحول المواد الغذائية من الكربوهيدرات وغيرها إلي البروتينات وهي مركبات عضوية تتكون من جزيئات معقدة باتحاد ذرات الكربون والأيدروجين بذرات كل من الأوكسجين والنيتروجين , بالإضافة أحيانا إلي

ذرات الكبريت أو الفوسفور . وتتكون كل الأنسجة الحية في الإنسان والحيوان من البروتينات التي تعد الوحدات الأساسية في بناء مختلف الخلايا الحية , وتقوم بالعديد من الدعم والحركة في كل من العضلات والعظام , وفي عمليات نقل الدم ورسائل الأعصاب , وفي حفز مختلف التفاعلات الحية في الخلايا من مثل ما تقوم به بعض الإنزيمات والهرمونات وكلها من البروتينات .

وأجساد الكائنات الحية تتجدد باستمرار ماعدا الخلايا العصبية , فجسم الإنسان يفقد من خلاياه في كل ثانية حوالي 125 مليون خلية في المتوسط تتهدم وتموت , ويتكون غيرها في الحال .

(274/115)

هذه صورة من صور إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي حيث تتحرك المواد الميتة بين الأرض , ومائها , وهوائها , والطاقة القادمة إليها من الشمس لتخليق المواد اللازمة لبناء الخلية الحية من الكربوهيدرات والبروتينات وغيرها من المواد التي تنبني منها الخلايا الحية الجديدة في كل من عمليات النمو والتكاثر , فإذا ما ماتت هذه الكائنات الحية عادت مكوناتها إلي كل من الأرض , ومائها , وهوائها ليخرج الله (تعالي) الميت من الحي

وهذه حقائق لم يدركها الإنسان إلا في أواخر القرن العشرين . . فسبحان الذي أنزل القرآن بعلمه , علي خاتم أنبيائه ورسله , ليكون حجة علي أهل عصرنا الذين فتنوا بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة , حجة قائمة علي الذين ينكرون ربانية القرآن , ونبوة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) وهي حجة بالغة علي كل كافر ومشرك ومتشكك . . . والله غالب علي أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون (يوسف : 21) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإعجاز العلمى فى القرآن للدكتور زغلول النجار ﴾

(275/115)

" فصل "

قال السيوطى :

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (27)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال " ذكر لنا أن نبي الله صلى الله

عليه وسلم سأل ربه أن يجعل له ملك فارس والروم في أمته . فأنزل الله ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء . . . . ﴾ الآية " .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال " جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد سل ربك ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ﴾ إلى قوله ﴿ وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ ثم جاءه جبريل فقال : يا محمد فسل ربك ﴿ قل رب أدخلني مدخل صدق . . . ﴾ [الإسراء : 8] الآية . فسأل ربه بقول الله تعالى فأعطاه ذلك " .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في هذه الآية من آل عمران ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء . . . ﴾ إلى آخر الآية " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : اسم الله الأعظم ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾ إلى قوله ﴿ بغير حساب ﴾ .

(276/115)

وأخرج ابن أبي الدنيا في الدعاء عن معاذ بن جبل قال : " شكوت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ديناً كان عليّ فقال : يا معاذ أتحب أن يقضى دينك ؟ قلت : نعم . قال ﴿ قل اللهم

مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾ رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، تعطي منهما ما تشاء ، وتمنع منهما ما تشاء ، اقض عني ديني فلو كان عليك ملء الأرض ذهباً أدي عنك " .

وأخرج الطبراني عن معاذ بن جبل " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم افتقده يوم الجمعة ، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى معاذاً فقال : يا معاذ ما لي لم أرك ؟ فقال اليهودي عليَّ وقية من تبر ، فخرجت إليك فحسبني عنك فقال : ألا أعلمك دعاء تدعو به فلو كان عليك من الدين مثل صبير أداه الله عنك ، فادع الله يا معاذ ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزُّ من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ، تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، تعطي من تشاء منهما وتمنع من تشاء منهما ، ارحمني رحمة تغنني بها عن رحمة من سواك ، اللهم أغنني من الفقر ، واقض عني الدين ، وتوفني في عبادتك وجهاد في سبيلك " .

وأخرج الطبراني في الصغير بسند جيد عن أنس بن مالك قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ : ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك مثل جبل أحد ديناً لأداه الله عنك ؟ قل يا معاذ ﴿ اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾ رحمن الدنيا والآخرة

ورحيمهما ، تعطيهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك " .

(277/115)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ تؤتي الملك من تشاء ﴾ قال : النبوة .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾ أي رب العباد الملك لا يقضي فيهم غيرك ﴿ تؤتي الملك من تشاء ﴾ أي أن ذلك بيدك لا إلى غيرك ﴿ إنك على كل شيء قدير ﴾ أي لا يقدر على هذا غيرك بسلطانك وقدرتك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود في قوله ﴿ تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ﴾ قال : يأخذ الصيف من الشتاء ويأخذ الشتاء من الصيف ﴿ وتخرج الحي من الميت ﴾ يخرج الرجل الحي من النطفة الميتة ﴿ وتخرج الميت من الحي ﴾ يخرج النطفة الميتة من الرجل الحي .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن مسعود في قوله ﴿ تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ﴾ قال : قصر أيام الشتاء في طول ليله ، وقصر ليل الصيف في طول نهاره .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ تولج الليل في النهار وتولج

النهار في الليل ﴾ قال : ما نقص من الليل يجعله في النهار وما نقص من النهار يجعله في الليل .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي ﴿ تولج الليل في النهار ﴾ حتى يكون الليل خمس عشرة ساعة والنهار تسع ساعات ﴿ وتولج النهار في الليل ﴾ حتى يكون النهار خمس عشرة ساعة والليل تسع ساعات .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ﴾ قال : أخذ أحدهما من صاحبه .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك في قوله ﴿ تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ﴾ قال : يأخذ النهار من الليل حتى يكون أطول منه ويأخذ الليل من النهار حتى يكون أطول منه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ تخرج الحي من الميت ﴾ قال : يخرج النطفة الميتة من الحي ، ثم يخرج من النطفة بشراً حياً .

(278/115)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ تخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ﴾ قال : الناس الأحياء من النطف والنطف ميتة تخرج من

الناس الأحياء ، ومن الأنعام والنبات كذلك .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة ﴿ تخرج الحي من الميت ﴾ قال : هي البيضة تخرج من الحي وهي ميتة ثم يخرج منها الحي .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة ﴿ تخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ﴾ قال : النخلة من النواة والنواة من النخلة ، والحبة من السنبلة والسنبلة من الحبة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي مالك . مثله .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن ﴿ تخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ﴾ يعني المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، والمؤمن عبد حي الفؤاد والكافر عبد ميت الفؤاد .

وأخرج سعد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات وأبو الشيخ في العظمة عن سلمان قال : خمر الله طينة آدم أربعين يوماً ، ثم وضع يده فيه فارتفع على هذه كل طيب ، وعلى هذه كل خبيث ، ثم خلط بعضه ببعض ، ثم خلق منها آدم . فمن ثم ﴿ تخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ﴾ يخرج المؤمن من الكافر ويخرج الكافر من المؤمن .

وأخرج ابن مردويه من طريق أبي عثمان النهدي عن سلمان الفارسي قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما خلق الله آدم عليه السلام أخرج ذريته فقبض قبضة بيمينه فقال

: هؤلاء أهل الجنة ولا أبالي ، وقبض بالأخرى قبضة فجاء فيها كل رديء فقال : هؤلاء أهل النار ولا أبالي ، فخلط بعضهم ببعض فيخرج الكافر من المؤمن ويخرج المؤمن من الكافر فذلك قوله ﴿ تخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ﴾ ".

(279/115)

وأخرج ابن مردويه من طريق أبي عثمان النهدي " عن ابن مسعود أو عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ تخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ﴾ قال : المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن " .

وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق الزهري في قوله ﴿ تخرج الحي من الميت ﴾ عن عبد الله بن عبد الله " أن خالدة ابنة الأسود بن عبد يغوث دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من هذه ؟ قيل : خالدة بنت الأسود قال : سبحان الله الذي يخرج الحي من الميت " وكانت امرأة صالحة وكان أبوها كافراً

. وأخرج ابن مسعود من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم . مثله .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس، أنه كان يقرأ " يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي " خفيفة.

وأخرج عبد بن حميد عن يحيى بن وثاب، أنه قرأ " يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي " وقرأ ﴿ إلى بلد ميت ﴾ [فاطر : 9] مثقلات كلهن.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع في قوله ﴿ وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ قال : لا يخرجه بحساب يخاف أن ينقص ما عنده. أن الله لا ينقص ما عنده.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران ﴿ بغير حساب ﴾ قال : غدقاً.

(280/115)

وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿ تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ﴾ أي بتلك القدرة التي تؤتي الملك بها من تشاء وتنزعها ممن تشاء ﴿ وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ لا يقدر على ذلك غيرك، ولا يصنعه إلا أنت. أي وإن كنت سلطت عيسى عليه السلام على الأشياء التي تزعمونه إنه إله. من إحياء الموتى، وإبراء الأسقام، وخلق الطير من الطين، والخبر عن الغيوب لأجعله به آية للناس، وتصديقاً له في نبوته التي بعثته بها إلى قومه، فإن من سلطاني وقدرتي

ما لم أعطه . تمليك الملوك بأمر النبوّة ووضعها حيث شئت ، وإِيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل ، وإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي ، ورزق من شئت من بر وفاجر بغير حساب ، وكل ذلك لم أسلط عيسى عليه ولم أملكه إياه ، أفلم يكن لهم في ذلك عبرة وبينة أن لو كان له إلهاً كان ذلك كله إليه ، وهو في علمهم يهرب من الملوك ، وينتقل منهم في البلاد من بلد إلى بلد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 171. 175 ﴾

(281/115)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إلهِ إلاَّ هُوَ ﴾ أي أبان بدلائل الآفاق والأنفس أنه لا إله في الوجود سواه ، أو شهد بذاته في مقام الجمع على وحدانيته حيث لا شاهد ولا مشهود غيره ، وشهد الملائكة وأولو العلم بذلك وهي شهادة مظاهره سبحانه في مقام التفصيل ، ومن القوم من فرق بين الشهادتين بأن شهادة الملائكة من حيث اليقين وشهادة أولي العلم من حيث المشاهدة ، وأيضاً قالوا : شهادة الملائكة من رؤية الأفعال

وشهادة أولي العلم من رؤية الصفات ، وقيل : شهادة الملائكة من رؤية العظمة ولذا يغلب عليهم الخوف ، وشهادة العلماء من رؤية الجمال ولذا يغلب عليهم الرجاء .

(282/115)

وشهادة العلماء متفاوتة فشهادتهم بعض من الحالات ، وشهادة آخرين من المقامات ، وشهادة طائفة من المكاشفات ، وشهادة فرقة من المشاهدات ؛ وخواص أهل العلم يشهدون به له بنعت إدراك القدم وبروز نور التوحيد من جمال الوحدانية ، فشادتهم مستغرقة في شهادة الحق لأنهم في محل المحو ﴿ قَائِمًا بالقسط ﴾ أي مقيماً للعدل بإعطاء كل من الظهور ما هو له بحسب الاستعداد فيتجلى عليه على قدر دعائه ﴿ لا إله إلاَّ هُوَ العزيز ﴾ فلا يصل أحد إلى معرفة كنهه وكنه معرفته ﴿ الحكيم ﴾ [آل عمران : 18] الذي يدبر كل شيء فيعطيه من مراتب التوحيد ما يطيق ﴿ إِنَّ الدّينَ ﴾ المرضي ﴿ عِندَ الله الإسلام ﴾ [آل عمران : 19] وهو المقام الإبراهيمي المشار إليه بقوله : ﴿ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ ﴾ [آل عمران : 20] أي نفسي وجملتي وانخلعت عن آنيتي لله تعالى ففنيت فيه ﴿ إِنَّ الذين يَكْفُرُونَ بآيات الله ﴾ وهم المحجوبون عن الدين والساترون للحق بالميل مع الشهوات ﴿ وَيَقْتُلُونَ النبيين ﴾ الداعين إلى التوحيد وهم العباد والواصلون

الكاملون ﴿ وَيَقْتُلُونَ الذين يَأْمُرُونَ بالقسط ﴾ وهو نفي الأغيار وقصر الوجود الحق على الله تعالى ﴿ مِنَ الناس ﴾ ، ويحتمل أن يشار بالذين كفروا إلى قوى النفس الأمارة وبالنبيين إلى أنبياء القلوب المشرفة بوحي إلهام الغيوب ، وبالآمرين بالقسط القوى الروحانية التي هي من جنود أولئك الأنبياء وأتباعهم ، فبشر أولئك الكافرين ﴿ بعذاب أليم ﴾ [آل عمران : 21] وهو عذاب الحجاب والبعد عن حضرة رب الأرباب ﴿ أُولَئِكَ الذين حَبِطَتْ ﴾ أي بطلت وانحطت عن حيز الاعتبار ﴿ أعمالهم ﴾ لعدم شرطها وهو التوحيد ﴿ فِى الدنيا ﴾ وهي عالم الشهادة ﴿ والاخرة ﴾ وهي عالم الغيب ﴿ وَمَا لَهُم مّن ناصرين ﴾ [آل عمران : 22] لسوء حظهم وقلة استعدادهم ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين أُوتُواْ نَصِيبًا مّنَ الكتاب ﴾ كعلماء السوء وأحبار الضلال ﴿ يُدْعَوْنَ إلى

(283/115)

كتاب الله ﴾ الناطق بمقام الجمع والفرق ﴿ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ وبين الموحدين ﴿ ثُمَّ يتولى فَرِيقٌ مّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [آل عمران : 23] عن قبول الحق لفرط حجابهم واغترارهم بما أوتوا ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النار ﴾ نار البعد ﴿ إِلاَّ أَيَّامًا معدودات ﴾ أي قليلة يسيرة ﴿ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم ﴾ الذي هم عليه ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ

﴾ [آل عمران : 24] من القضايا والأقيسة التي جاءت بها عقولهم المشوبة بظلمات الوهم والخيال ﴿ فَكَيْفَ ﴾ يكون حالهم ﴿ إِذَا جمعناهم ﴾ بعد تفرقهم في صحراء الشكوك وتمزيق سباع الأوهام لهم ﴿ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وهو يوم القيامة الكبرى الذي يظهر فيه الحق لمنكره ، ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ صالحة وطالحة ﴿ مَّا كَسَبَتْ ﴾ بواسطة استعدادها ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : 25] جزاء ذلك ﴿ قُلِ اللهم مالك الملك ﴾ أي الملك المتصرف في مظاهرك من غير معارض ولا مدافع حسبما تقتضيه الحكمة ﴿ تُؤْتِى الملك مَن تَشَاء ﴾ وهو من اخترته للرياسة الباطنة وجعلته متصرفاً بإرادتك وقدرتك ﴿ وَتَنزِعُ الملك مِمَّن تَشَاء ﴾ بأن تنقله إلى غيره باستيفاء مدة إقامته في عالم الأجسام وتكميل النشأة ، أو تحرم من تشاء عن إيتاء ذلك الملك لظلمه المانع له من أن ينال عهدك أو يمنح رفدك ﴿ مَن تَشَاء ﴾ بإلقاء نور من أنوار عزتك عليه فإن العزة لله جميعاً ﴿ وَتُذِلُّ مَن تَشَاء ﴾ بسلب لباس عزتك عنه فيبقى ذليلاً ﴿ بِيَدِكَ الخير ﴾ [آل عمران : 26] كله وأنت القادر مطلقاً تعطي على حسب مشيئتك وتتجلى طبق إرادتك وتمنح بقدر قابلية مظاهرك ﴿ تُولِجُ اليل فِى النهار ﴾ تدخل ظلمة النفس في نور القلب فيظلم ﴿ وَتُولِجُ النهار فِى اليل ﴾ وتدخل نور القلب في ظلمة النفس فتستنير وتخلطهما معاً مع بعد المناسبة بينهما ﴿ وَتُخْرِجُ ﴾ حي القلب من ميت النفس وميت

النفس من حي القلب ، أو تخرج حي العلم من ميت الجهل وميت الجهل من حي العلم ﴿ وَتَرْزُقُ مَن

(284/115)

تَشَاء ﴾ من النعم الظاهرة والباطنة ، أو من إحداهما فقط ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : 27] إذ لا حجر عليك .

هذا ولما بين سبحانه أن إعطاء الملك والإعزاز من الله تعالى وأنه على كل شيء قدير نبه المؤمنين على أنه لا ينبغى أن يوالوا أعداء الله تعالى لقرابة أو صداقة جاهلية أو نحوهما أو أن لا يستظهروا بهم لأنه تعالى هو المعز والقادر المطلق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 118.119 ﴾

(285/115)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس عشر بعد المائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السادس عشر بعد المائة

من الآية ﴿ 28 ﴾ من سورة آل عمران

وحتى الآية ﴿ 32 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (28) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بان بهذه الآية أن لا شيء في يد غيره ، واقتضى ذلك قصر الهمم عليه ، وكان نصارى نجران إنما داموا على موالاة ملوك الروم لمحض الدنيا مع العلم ببطلان ما هم عليه حذر المؤمنين من مداناة مثل ذلك مع كونهم مؤمنين كما وقع لحاطب بن أبي بلتعة رضي الله تعالى عنه مما قص في سورة الممتحنة إشارة إلى أنه لا تجتمع موالاة المؤمنين وموالاة الكافرين في قلب إلا أوشكت إحداهما أن تغلب على الأخرى فتنزعها ، فقال تعالى منبهاً على ذلك كله سائقاً مساق النتيجة لما قبله ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(5/116)

وقال الحرالي : ولما كان مضمون هاتين الآيتين بشرى لخصوص هذه الأمة وعمومها بالعز والملك وختم الرزق الذي لا حساب فيه كان من الحق أن تظهر على المبشرين عزة البشرى

فلا يتولوا غيره ، ولما قبض ما بأيدي الخلق إليه في إيتاء الملك ونزعه والإعزاز والإذلال ، وأظهر إحاطة قدرته على كل شيء وإقامة امتحانه بما أولج وأخرج ، وأنبأ عن إطلاق حد العد عن أرزاقه فسد على النفس الأبواب التي منها تتوهم الحاجة إلى الخلق ؛ نهي المؤمنين الذين كانت لهم عادة بمباطنة بعض كفرة أهل الكتاب وغيرهم من المشركين ومن شمله وصف الكفر أن يجروا على عادتهم في موالاتهم ومصافاتهم والحديث معهم ، لأن المؤمنين يفاوضونهم بصفاء ، والكافرون يتسمعون ويأخذون منهم بدغل ونفاق عليهم كما قال تعالى ﴿ هاأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ﴾ [آل عمران : 119] فنهاهم الله سبحانه وتعالى عما غاب عنهم خبرته وطيته فقال تعالى : ﴿ لا يتخذ المؤمنون ﴾ أي الراسخون في الإيمان وعبر في أضدادهم بالوصف لئلا يتوهم ذلك في كل من تلبس بكفر في وقت ما فقال : ﴿ الكافرين أولياء ﴾ ونبه بقوله : ﴿ من دون المؤمنين ﴾ على أن ولاية أوليائه من ولايته ، وأن المنهي عنه إنما هو الولاية التي قد توهن الركون إلى المؤمنين لأن في ذلك - كما قال الحرالي - تبعيد القريب وتقريب البعيد ، والمؤمن أولى بالمؤمن كما قال عليه الصلاة والسلام : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً " فأقواهم له ركن ، وضعيفهم مستند لذلك الركن القوي ، فإذا والاه قوى به مما يباطنه ويصافيه ، وإذا اتخذ الكافر ولياً من دون مؤمنه القوي ربما تداعى ضعفه في إيمانهم إلى ما ينازعه فيه من ملابسة أحوال الكافرين ، كما أنهم لما أصاخوا إليهم إصاخة أوقعوا بينهم سباب الجاهلية كما في قوله تعالى ﴿ يا أيها

الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ [آل عمران : 100] وكما قال سبحانه وتعالى : ﴿ يا أيها

(6/116)

الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ﴾ [آل عمران : 149] ، ولم يمنع سبحانه وتعالى من صلة أرحام من لهم من الكافرين ، ولا من خلطتهم في أمر الدنيا فيما يجري مجرى المعاملة من البيع والشرى والأخذ والعطاء وغير ذلك ليوالوا في الدين أهل الدين ، ولا يضرهم أن يباروا من لم يحاربهم من الكافرين - انتهى .

ولما كان التقدير : فمن تولاهم وكل إليهم وكان في عدادهم ، لأنه ليس من الراسخين في صفة الإيمان عطف عليه ترهيباً لمن قد تتقاصر همته فيرضى بمنزلة ما دون الرسوخ قوله :

﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ أي هذا الأمر البعيد من أفعال ذوي الهمم الذي يكون به في عداد الأعداء بعد هذا البيان ومع رفع هذا الحجاب الذي كان مسدولاً على أكثر الخلق ﴿ فليس من الله ﴾ أي الذي بيده كل شيء فلا كفوء له ﴿ في شيء ﴾ قال الحرالي : ففي إفهامه أن من تمسك بولاية المؤمنين فهو من الله في شيء بما هو متمسك بعنان من هو له وسيلة إلى الله سبحانه وتعالى من الذين إذا رؤوا ذكر الله - انتهى .

ولما كان من الناس القوي والضعيف والشديد واللين نظر إلى أهل الضعف سبحانه وتعالى فوسع لهم بقوله : ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ أي إلا أن تخافوا منهم أمراً خطراً مجزوماً به ، لا كما خافه نصارى نجران وتوهمه حاطب ، فحينئذ يباح إظهار الموالاة وإن كانت درجة من تصلب في مكاشرتهم وتعزز لمكابرتهم ومكاثرتهم ، وإن قطع أعظم فإياكم أن تركنوا إليهم ! فإن الله سبحانه وتعالى يحذركم إقبالكم على عدوه ، فإن ذلك موجب لإعراضه عنكم ﴿ ويحذركم الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ نفسه ﴾ فإنه عالم بما تفعلونه .

وهو الحكم في الدنيا كما ترون من إذلاله العزيز وإعزازه الذليل ، وهذا المحذر منه وهو نفسه سبحانه وتعالى - كما قال الحرالي - مجموع أسماء تعاليه المقابلة بأسماء أوصافهم التي مجموعها أنفسهم .

(7/116)

وموجود النفس ما تنفس ، وإن كانت أنفس الخلق تنفس على ما دونها إلى حد مستطاعها ، فكان ما حذره الله من نفسه أولى وأحق بالنفاسة في تعالي أوصافه وأسمائه أن تنفس على من يغنيه فلا يستغني ، ويكفيه فلا يكتفي ويريه مصارف سد خلاته وحاجاته فلا ينصرف إليها ولا يتوجه نحوها ، فهو سبحانه وتعالى يعذب من تعرف له

بنفسه فلم يعرفه أشد من عذاب من يتعرف له بآياته فلا يعتبر بها ، بما أن كل ما أبداه من نفسه بلا واسطة فهو أعظم مما أبداه بالواسطة من نعيم وعذاب ، فلا أعظم من نعيم من تعرف له بنفسه فعرفه ، ولا أشد من عذاب من تعرف له بنفسه فأنكره - انتهى .

ولما كانت مصائب الدنيا قد تستهان قال سبحانه وتعالى عاطفاً على نحو ما تقديره : فمن الله المبدأ : - وقال الحرالي : ولما كان الزائل أبداً مؤذناً بترك الاعتماد عليه أقام تعالى على المتمسك بما دونه حجة بزواله ، فلا يستطيع الثبات عليه عند ما تناله الإزالة والإذهاب ، ويصير الأمر كله لله ، فأعلم أن المصير المطلق إلى الله سبحانه وتعالى ، فنم تعرف إليه فعرفه نال أعظم النعيم ، ومن تعرف إليه فأنكره نال أشد الجحيم - انتهى ؛ فقال - : ﴿ وإلى الله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ المصير ﴾ أي وإن طال إملاؤه لمن أعرض عنه فيوشك أن ينتقم منه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 57 . 59 ﴾

فصل

قال الفخر :

في كيفية النظم وجهان

الأول : أنه تعالى لما ذكر ما يجب أن يكون المؤمن عليه في تعظيم الله تعالى ، ثم ذكر بعده ما يجب أن يكون المؤمن عليه في المعاملة مع الناس ، لأن كمال الأمر ليس إلا في شيئين : التعظيم لأمر الله تعالى ، والشفقة على خلق الله قال : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ المؤمنون الكافرين أَوْلِيَاء مِن دُونِ

المؤمنين ﴾ الثاني : لما بيّن أنه تعالى مالك الدنيا والآخرة بين أنه ينبغي أن تكون الرغبة فيما عنده ، وعند أوليائه دون أعدائه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 10 ﴾

فصل فى سبب النزول

قال الفخر :

(8/116)

في سبب النزول وجوه

الأول : جاء قوم من اليهود إلى قوم المسلمين ليفتنوهم عن دينهم فقال رفاعة بن المنذر ، وعبد الرحمن بن جبير ، وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر من المسلمين : اجتنبوا هؤلاء اليهود ، واحذروا أن يفتنوكم عن دينكم فنزلت هذه الآية

والثاني : قال مقاتل : نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره ، وكانوا يتولون اليهود والمشركين ويخبرونهم بالأخبار ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية

الثالث : أنها نزلت في عبادة بن الصامت وكان له حلفاء من اليهود ، ففي يوم الأحزاب قال يا نبي الله إن معي خمسمائة من اليهود وقد رأيت أن يخرجوا معي فنزلت هذه الآية . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 10 ﴾

سؤال : فإن قيل : إنه تعالى قال : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك فَلَيْسَ مِنَ الله فِي شَيْء ﴾ وهذه صفة الكافر .

قلنا : معنى الآية فليس من ولاية الله في شيء ، وهذا لا يوجب الكفر في تحريم موالاة الكافرين .

واعلم أنه تعالى أنزل آيات كثيرة في هذا المعنى منها قوله تعالى : ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مّن دُونِكُمْ ﴾ [آل عمران : 118] وقوله ﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ الله وَرَسُولَهُ ﴾ [المجادلة : 22] وقوله ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ اليهود والنصارى أَوْلِيَاء ﴾ وقوله ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء ﴾ [الممتحنة : 1] وقال : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ﴾ [التوبة : 71] .

واعلم أن كون المؤمن موالياً للكافر يحتمل ثلاثة أوجه

أحدها : أن يكون راضياً بكفره ويتولاه لأجله ، وهذا ممنوع منه لأن كل من فعل ذلك كان مصوباً له في ذلك الدين ، وتصويب الكفر كفر والرضا بالكفر كفر ، فيستحيل أن يبقى مؤمناً مع كونه بهذه الصفة .

فإن قيل : أليس أنه تعالى قال : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ ﴾ وهذا لا يوجب الكفر فلا يكون داخلاً تحت هذه الآية ، لأنه تعالى قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فلا بد وأن يكون خطاباً في شيء يبقى المؤمن معه مؤمناً

وثانيها : المعاشرة الجميلة في الدنيا بحسب الظاهر ، وذلك غير ممنوع منه .

والقسم الثالث : وهو كالمتوسط بين القسمين الأولين هو أن موالاة الكفار بمعنى الركون إليهم والمعونة ، والمظاهرة ، والنصرة إما بسبب القرابة ، أو بسبب المحبة مع اعتقاد أن دينه باطل فهذا لا يوجب الكفر إلا أنه منهي عنه ، لأن الموالاة بهذا المعنى قد تجره إلى استحسان طريقته والرضا بدينه ، وذلك يخرجه عن الإسلام فلا جرم هدد الله تعالى فيه فقال :

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ ﴾ .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يكون المراد من الآية النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء بمعنى أن يتولوهم دون المؤمنين ، فأما إذا تولوهم وتولوا المؤمنين معهم فذلك ليس بمنهي عنه ، وأيضاً فقوله ﴿ لاَّ يَتَّخِذِ المؤمنون الكافرين أَوْلِيَاء ﴾ فيه زيادة مزية ، لأن الرجل قد يوالي غيره ولا يتخذه موالياً فالنهي عن اتخاذه موالياً لا يوجب النهي عن أصل موالاته .

قلنا : هذان الاحتمالان وإن قاما في الآية إلا أن سائر الآيات الدالة على أنه لا تجوز موالاتهم دلّت على سقوط هذين الاحتمالين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 10 .

11 ﴿

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

العامة على قراءة " لا يَتَّخِذْ " نَهْياً ، وقرأ الضَّبِّيُّ " لا يَتَّخِذُ " برفع الذال - نفياً - بمعنى لا ينبغي ، أو هو خبر بمعنى النهي نحو ﴿ لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ ﴾ [البقرة : 233] و ﴿ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ ﴾ [البقرة : 282] - فيمن رفع الراء .

قال أبو البقاء وغيره : " وأجاز الكسائيُّ فيه [رفع الراء] على الخبر ، والمعنى : لا ينبغي ."

(10/116)

وهذا موافق لما قاله الفرَّاء ، فإنه قال : " ولو رَفَع على الخبر - كقراءة مَنْ قرأ : ﴿ لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ ﴾ جاز " .

قال أبو إسحاق : ويكون المعنى - على الرفع - أنه مَنْ كان مؤمناً ، فلا ينبغي أن يتخذ الكافرَ ولياً ؛ [لأن ولي الكافر راضٍ بكُفْره ، فهو كافر] .

كأنهما لم يَطَّلِعَا على قراءة الضبي ، أو لم تثبت عندهما .

و" يتخذ " يجوز أن يكون متعدياً لواحد ، فيكون " أَوْلِيَاءَ " حالاً ، وأن يكون متعدياً لاثنين ، وأولياء هو الثاني .

قوله : ﴿ مِن دُونِ المؤمنين ﴾ فيه وجهان :

أظهرهما : أن " مِن " لابتداء الغايةِ ، وهي متعلقة بفعل الاتخاذ .

قال علي بن عيسى : " أي : لا تجعلوا ابتداءَ الولايةِ من مكانٍ دون مكان المؤمنين " .

وقد تقدم تحقيقُ هذا ، عند قوله تعالى : ﴿ وادعوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ الله ﴾ في البقرة [الآية 23] .

والثاني - أجاز أبو البقاء - أن يكون في موضع نصب ، صفةً لِ " أَوْلِيَاءَ " فعلى هذا يتعلق بمحذوف .

قوله : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك ﴾ أدغم الكسائيُّ اللام في الذال هنا ، وفي مواضع أُخَر تقدم التنبيه عليها في البقرة .

قوله : ﴿ مِنَ الله ﴾ الظاهر أنه في محل نصب على الحال من " شَيْءٍ " ؛ لأنه لو تأخر لكان صفةً له .

" فِي شَيْءٍ " هو خبر " لَيْسَ " ؛ لأن به تستقل فائدةُ الإسنادِ ، والتقدير : فليس في شيء كائن من الله ، ولا بد من حذف مضافٍ ، أي : فليس من ولاية الله .

وقيل : من دين الله ، ونظَّر بعضُهم الآيةَ الكريمةَ ببيت النابغةِ : [الوافر]

إِذَا حَاوَلْتَ مِنْ أَسَدٍ فُجُوراً . . . فَإِنِّي لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتَ مِنِي

قال ابو حيّان : " والتنظير ليس بجيّدٍ ؛ لأن " منك " و" مني " خبر " لَيْسَ " وتستقل به الفائدةُ ، وفي الآية الخبر قوله : " فِي شَيءٍ " فليس البيتُ كالآيةِ " .

(11/116)

وقد نحا ابن عطية هذا المنحى المذكورَ عن بعضهم ، فقال : فليس من الله في شيء مَرْضِيِّ على الكمالِ والصوابِ ، وهذا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم " مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا " وفي الكلامِ حذفُ مضافٍ ، تقديره : فليس من التقرب إلى الله والثواب ، وقوله : " فِي شَيءٍ " هو في موضع نصبٍ على الحالِ من الضمير الذي في قوله : ﴿ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ ﴾ .

قال أبو حيّان : " وهو كلام مضطرب ؛ لأن تقديره : " فليس من التقرُّب إلى الله " يقتضي أن لا يكون " مِنَ اللَّهِ " خبراً لِ " لَيْسَ " ؛ إذْ لا يستقل ، وقوله : " فِي شَيءٍ " هو في موضع نصبٍ على الحال يقتضي أن لا يكون خبراً ، فيبقى " ليس " - على قوله - ليس لها خبر ، وذلك لا يجوز ، وتشبيهه الآية الكريمة بقوله صلى الله عليه وسلم : " من غشنا فليس منا " ليس بجيِّد ؛ لما بيَّنَّا من الفرق بين بيت النابغة ، وبين الآية الكريمةِ " .

(12/116)

قال شهاب الدين : " وقد يجاب عن قوله : إن " مِنَ اللهِ " لا يكون خبراً ؛ لعدم الاستقلال بأن في الكلام حذفَ مضافٍ ، تقديره : فليس من أولياء اللهِ " لا يكون خبراً ؛ لعدم الاستقلال بأن في الكلام حذفَ مضافٍ ، تقديره : فليس من أولياء اللهِ ؛ لأن اتخاذَ الكفار أولياء ينافي ولاية الله – تعالى – ، وكذا قول ابن عطية : فليس من التقرُّب ، أي : من أهل التقرب ، وحينئذٍ يكون التنظير بين الآية ، والحديث ، وبيت النابغة مستقيماً بالنسبة إلى ما ذكر ، ونظير تقديرِ المضافِ هنا – قوله : ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ [إبراهيم : 36] ، أي : من أشياعي وأتباعي ، وكذا قوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مني ﴾ [البقرة : 249] أي : من أشياعي وقول العرب : أنت مني فرسخين ، أي : من أشياعي ما سرنا فرسخين ، ويجوز أن يكون " مِنَ اللهِ " هو خبر " ليس " و " فِي شيءٍ " يكون حالاً منا لضمير في " لَيْسَ " – كما ذهب إليه ابن عطية تصريحاً ، وغيره إيماءً ، وتقدم الاعتراض عليهما والجواب " .

قوله : ﴿ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ ﴾ هذا استثناء مُفَرَّغ من المفعول من أجله ، والعامل فيه " لا يَتَّخِذْ " أي : لا يتخذ المؤمنُ الكافرَ وليًا لشيء من الأشياء إلا للتقيةِ ظاهراً ، أي : يكون مواليه في الظاهر ، ومعاديه في الباطن ، وعلى هذا فقوله : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك ﴾ وجوابه معترضٌ بين العلةِ ومعلولِها وفي قوله : ﴿ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ ﴾ التفات من غيبةٍ إلى خطابٍ ، ولو جرى على سنن الكلامِ الأول لجاء الكلام غيبة ، وذكروا للالتفات – هنا – معنى حسناً ، وذلك

أن موالاةَ الكفارِ لما كانت مستقبحةً لم يواجه الله – تعالى – عباده بخطاب النهي ، بل جاء به في كلام أُسْنِدَ الفعل المنهي عنه لغيب ، ولما كانت المجاملة – في الظاهر – والمحاسنة جائزة لعذرٍ – وهو اتقاء شرهم – حَسُنَ الإقبال إليهم ، وخطابهم برفع الحرج عنهم في ذلك .

(13/116)

قوله : ﴿ تُقَاةً ﴾ في نصبها ثلاثة أوجهٍ ، وذلك مَبْنِيٌّ على تفسير " تُقَاةً " ما هي ؟

أحدها : أنها منصوبةٌ على المصدرِ ، والتقدير : تتقوا منهم اتِّقَاءً ، ف " تُقَاة " واقعة موقع الاتقاء ، والعرب تأتي بالمصادر نائبة عن بعضها ، والأصل : أن تتقوا اتقاءً – نحو تقتدر اقتداراً – ولكنهم أتوا بالمصدر على حذف الزوائدِ ، كقوله :

﴿ أَنبَتَكُم مِّنَ الأرض نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] والأصل إنباتاً .

ومثله قول الشاعر : [الوافر]

. . . . وَبَعْدَ عَطَائِكَ الْمَائَةَ

الرِّتَاعَا

أي : اعطائك ، ومن ذلك – أيضاً – قوله : [الوافر]

. . . . وَلَيْس بِأَنْ تَتَبَّعَ اتِّبَاعَا

وقول الآخر : [الوافر]

وَلَاحَ بِجَانِبِ الْجَبَلَيْنِ مِنْهُ . . . رُكَامٌ يَحْفِرُ الأَرْضَ احْتِفَارَا

وهذا عكس الآية ؛ إذ جاء المصدرُ مُزَاداً فيه ، والفعل الناصب له مُجَرَّد من تلك الزوائدِ ، ومن مجيء المصدر على غير المصدر قوله تعالى : ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ [المزمل : 8] .

وقول الآخر : [الرجز أو السريع]

وَقَدْ تَطَوَّيْتُ انْطِوَاءَ الحِضْبِ . . . والأصل : تَطَوِّيًا ، والأصل في " تُقَاةً " وقية مصدر على فُعَل من الوقاية . وقد تقدم تفسير هذه المادة ، ثم أبدلت الواوُ تاءً مثل تخمة وتكأة وتجاه ، فتحركت الواو وانفتح ما قبلها ، فقُلِبَتْ ألفاً ، فصار اللفظ " تقاة " كما ترى بوزن " فعلة " ومجيء المصدر على " فُعَل " و" فُعَلَة " قليل ، نحو : التخمة ، والتؤدة ، والتهمة والتكأة ، وانضم إلى ذلك كونها جاءت على غير المصدر ، والكثير مجيء المصادرِ جارية على أفعالها .

قيل : وحسَّن مجيءَ هذا المصدر ثلاثياً كونُ فعله قد حُذِفت زوائده في كثيرٍ من كلامهم ، نحو : تقى يتقى .

ومنه قوله : [الطويل]

. . . . تَقِ اللهَ فِينَا وَالْكِتَابَ

الَّذِي تَتْلُو

(14/116)

وقد تقدم تحقيق ذلك أول البقرة .

الثاني : أنها منصوبة على المفعول به ، وذلك على أن " تَتَّقُوا " بمعنى تخافوا ، وتكون " تُقَاةً " مصدراً واقعاً موقعَ المفعول به ، وهو ظاهر قول الزمخشريِّ ، فإنه قال : " إلا أن تَخَافُوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه " .

وقُرِئَ " تَقِيَّةً " وقيل – للمتقى – : تُقَاة ، وتقية ، كقولهم : ضَرْب الأمير – لمضروبه فصار تقديرُ الكلامِ : إلا أن تخافوا منهم أمْراً مُتَّقًى .

الثالث : أنها منصوبة على الحال ، وصاحب الحال فاعل " تَتَّقُوا " وعلى هذا تكون حالاً مؤكدةً لأن معناه مفهوم من عاملها ، كقوله : ﴿ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ [مريم : 33] ، وقوله : ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة : 60] وهو – على هذا – جمع فاعل ، – وإن لم يُلْفَظْ بـ " فاعل " من هذه المادة – فيكون فاعلاً وفُعَلَة ، نحو : رَامٍ ورُمَاة ، وغَازٍ وغُزَاة ، لأن " فُعَلَة " يطَّرد جمعاً لِ " فاعل " الوصف ، المعتل اللام .

وقيل : بل لعله جمع لـ " فَعِيل " أجاز ذلك كلَّه أبو علي الفارسي .

قال شهاب الدينِ : " جمع فعيل على " فُعَلَة " لا يجوز ، فإن " فَعِيلاً " الوصف المعتل اللام يجمع على " أفعلاء " نحو : غَنِيّ وأغنياء ، وتَقِيّ وأتقياء ، وصَفِيّ وأصفياء .

فإن قيل : قد جاء " فعيل " الوصف مجموعاً على " فُعَلَة " قالوا : كَمِيّ وكُمَاة .

فالجواب : أنه من النادر ، بحيث لا يُقاس عليه " .

(15/116)

وقرأ ابنُ عباس ومجاهدٌ ، وأبو رجاء وقتادةُ وأبو حَيْوَةَ ويعقوبُ وسهلٌ وعاصمٌ - في رواية المعتل عينه - تتقوا منهم تقيَّة - بوزن مَطِيَّة - وهي مصدر - أيضاً - بمعنى تقاة ، يقال : اتَّقَى يتقي اتقاءً وتَقْوًى وتُقَاةً وتَقِيَّة وتُقًى ، فيجيء مصدر " افْتَعَل " من هذه المادة على الافتعال ، وعلى ما ذكر معه من هذه الأوزانِ ، ويقال - أيضاً - : تقيت أتقي - ثلاثياً - تَقِيَّةً وتقوًى وتُقَاةً وتُقًى ، والياء في جميع هذه الألفاظ بدل من الواو لما عرفته من الاشتقاق .

وأمال الأخوانِ " تُقَاةً " هنا ؛ لأن ألفها منقلبةٌ عن ياءٍ ، ولم يؤثّرْ حرفُ الاستعلاء في منع الإمالة ؛ لأن السبب غيرُ ظاهر ، ألا ترى أن سبب الياء الإمالة المقدرة - بخلاف غالب ،

وطالب، وقادم فإن حرف الاستعلاء – هنا – مؤثِّر؛ لكن سبب الإمالة ظاهر، وهو الكسرة، وعلى هذا يقال: كيف يؤثر مع السبب الظاهر، ولم يؤثر مع المقدَّر وكان العكس أولى.

والجوابُ: أن الكسرة سببٌ منفصلٌ عن الحرف المُمَال – ليس موجوداً فيه – بخلاف الألف المنقلبة عن ياء، فإنها – نفسها – مقتضية للإمالة، فلذلك لم يقاوِمها حرفُ الاستعلاء.

وأمال الكسائي – وحده – ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [آل عمران: 102] فخرج حمزة عن أصله، وكأن الفرق أن " تُقَاةً " – هذه – رُسِمَتْ بالياء، فلذلك وافق حمزةُ الكسائيَّ عليه، ولذلك قال بعضهم: " تَقِيَّة " – بوزن مطيّة – كما تقدم؛ لظاهر الرسم، بخلاف " تُقَاتِهِ ".

قال شهاب الدين: [وإنما أمعنت في سبب الإمالة هنا؛ لأن بعضهم زعم أن إمالة هذا شاذٌّ؛ لأجل حرف الاستعلاء، وأن سيبويه حكى عن قوم أنَّهم يُميلُون شَيْئاً لا تجوز إمالتُه، نحو: رَأَيتُ عِرْقَى بالإمالة، وليس هذا من ذلك؛ لما تقدم لك من أن سبب الإمالة في كسْرِه ظاهرٌ.

وقوله : " مِنْهُمْ " متعلق بـ " تَتَّقُوا " أو بمحذوف على أنه حال من " تُقَاةً " ؛ لأنه – في الأصل – يجوز أن يكون صفة لها ، فلما قُدِّم نُصِبَ حالاً ، هذا إذا لم نجعل " تُقَاةً " حالاً ، فأما إذا جعلناها حالاً تعيَّن أن يَتَعَلَّق " مِنْهُمْ " بالفعل قبله ، ولا يجوز أن يكون حالاً من " تُقَاةً " لفساد المعنى ؛ لأن المخاطبين ليسوا من الكافرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 137 . 142 ﴾

فائدة

قال الفخر :

إنما كسرت الذال من يتخذ لأنها مجزوم للنهي ، وحركت لاجتماع الساكنين قال الزجاج : ولو رفع على الخبر لجاز ، ويكون المعنى على الرفع أن من كان مؤمناً فلا ينبغي أن يتخذ الكافر ولياً .

واعلم أن معنى النهي ومعنى الخبر يتقاربان لأنه متى كانت صفة المؤمن أن لا يوالي الكافر كان لا محالة منهياً عن موالاة الكافر ، ومتى كان منهياً عن ذلك ، كان لا محالة من شأنه وطريقته أن لا يفعل ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 11 ﴾

فائدة

قال ابن عطية :

هذا النهي عن الاتخاذ إنما هو فيما يظهره المرء فأما أن يتخذه بقلبه ونيته فلا يفعل ذلك مؤمن ، والمنهيون هنا قد قرر لهم الإيمان ، فالنهي إنما هو عبارة عن إظهار اللطف للكافر والميل إليهم ، ولفظ الآية عام في جميع الأعصار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 1 صـ 419﴾

(17/116)

فصل

قال الآلوسى :

﴿ لاَّ يَتَّخِذِ المؤمنون الكافرين أَوْلِيَاء ﴾ قال ابن عباس : كان الحجاج بن عمرو . وكهمس بن أبي الحقيق وقيس بن زيد والكل من اليهود يباطنون نفراً من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر : اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا لزومهم ومباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم وملازمتهم فأنزل الله هذه الآية ، وقال الكلبي : نزلت في المنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه كانوا يتولون اليهود والمشركين ويأتونهم بالأخبار ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى الآية ونهى المؤمنين عن فعلهم . وروى الضحاك عن

ابن عباس أنها نزلت في عبادة بن الصامت الأنصاري وكان بدرياً نقيباً وكان له حلفاء من اليهود فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب قال عبادة : يا نبي الله معي خمسمائة من اليهود وقد رأيت أن يخرجوا معي فاستظهر بهم على العدو فأنزل الله تعالى ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ﴾ الخ ، والفعل مجزوم بلا النهاية ، وأجاز الكسائي فيه الرفع على الخبر والمعنى على النهي أيضاً وهو متعد لمفعولين ، وجوز أن يكون متعدياً لواحد فأولياء مفعول ثان ، أو حال وهو جمع ولي بمعنى الموالي من الولي وهو القرب ، والمراد لا يراعوا أموراً كانت بينهم في الجاهلية بل ينبغي أن يراعوا ما هم عليه الآن مما يقتضيه الإسلام من بغض وحب شرعيين يصح التكليف بهما وإنما قيدنا بذلك لما قالوا : إن المحبة لقرابة أو صداقة قديمة أو جديدة خارجة عن الاختيار معفوة ساقطة عن درجة الاعتبار ، وحمل الموالاة على ما يعم الاستعانة بهم في الغزو مما ذهب إليه البعض ومذهبنا وعليه الجمهور أنه يجوز ويرضخ لهم لكن إنما يستعان بهم على قتال المشركين لا البغاة على ما صرحوا به ، وما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لبدر فتبعه

رجل مشرك كان ذا جراءة ونجدة ففرح أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حين رأوه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " ارجع فلن أستعين بمشرك " فمنسوخ بأن النبي صلى الله عليه وسلم استعان بيهود بني قينقاع ورضخ لهم واستعان بصفوان بن أمية في هوازن ، وذكر بعضهم جواز الاستعانة بشرط الحاجة والوثوق أما بدونهما فلا تجوز وعلى ذلك يحمل خبر عائشة ، وكذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس في سبب النزول وبه يحصل الجمع بين أدلة المنع وأدلة الجواز على أن بعض المحققين ذكر أن الاستعانة المنهي عنها إنما هي استعانة الذليل بالعزيز وأما إذا كانت من باب استعانة العزيز بالذليل فقد أذن لنا بها ، ومن ذلك اتخاذ الكفار عبيداً وخدماً ونكاح الكتابيات منهم وهو كلام حسن كما لا يخفى .

ومن الناس من استدل بالآية على أنه لا يجوز جعلهم عمالاً ولا استخدامهم في أمور الديوان وغيره وكذا أدخلوا في الموالاة المنهى عنها السلام والتعظيم والدعاء بالكنية والتوقير بالمجالس ، وفي "فتاوى العلامة ابن حجر" جواز القيام في المجلس لأهل الذمة وعد ذلك من باب البر والإحسان المأذون به في قوله تعالى : ﴿ لَّا ينهاكم الله عَنِ الذين لَمْ يقاتلوكم فِى الدين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مّن دياركم أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُواْ إِلَيْهِمْ إِنَّ الله يحب المقسطين ﴾ [الممتحنة : 8] ولعل الصحيح أن كل ما عده العرف تعظيماً وحسبه المسلمون موالاة فهو منهي عنه ولو مع أهل الذمة لا سيما إذا أوقع شيئاً في قلوب ضعفاء المؤمنين ولا أرى القيام لأهل الذمة في المجلس إلا من الأمور المحظورة لأن دلالته على التعظيم قوية وجعله من

الإحسان لا أراه من الإحسان كما لا يخفي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 120.119 ﴾

(19/116)

قوله تعالى ﴿ مِن دُونِ المؤمنين ﴾

قال الفخر :

قوله ﴿ مِن دُونِ المؤمنين ﴾ أي من غير المؤمنين كقوله ﴿ وادعوا شُهَدَاءكُم مّن دُونِ الله ﴾ [البقرة : 23] أي من غير الله ، وذلك لأن لفظ دون مختص بالمكان ، تقول : زيد جلس دون عمرو أي في مكان أسفل منه ، ثم إن من كان مبايناً لغيره في المكان فهو مغاير له فجعل لفظ دون مستعملاً في معنى غير ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك فَلَيْسَ مِنَ الله فِي شَيْء ﴾ وفيه حذف ، والمعنى فليس من ولاية الله في شيء يقع عليه اسم الولاية يعني أنه منسلخ من ولاية الله تعالى رأساً ، وهذا أمر معقول فإن موالاة الولي ، وموالاة عدوه ضدان

قال الشاعر :

تود عدوي ثم تزعم أنني . . صديقك ليس النوك عنك بعازب

ويحتمل أن يكون المعنى : فليس من دين الله في شيء وهذا أبلغ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 11 ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية, هذه الآية الكريمة توهم أن اتخاذ الكفار أولياء إذا لم يكن من دون المؤمنين لا بأس به بدليل قوله ﴿ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ , وقد جاءت آيات أخر تدل على منع اتخاذهم أولياء مطلقا كقوله تعالى : ﴿ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً ﴾ , وكقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ . . ﴾ الآية,

والجواب عن هذا : أن قوله ﴿ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ لا مفهوم له, وقد تقرر في علم الأصول أن دليل الخطاب الذي هو مفهوم المخالفة له موانع تمنع اعتباره, منها كون تخصيص المنطوق بالذكر لأجل موافقته للواقع كما في هذه الآية ؛ لأنها نزلت في قوم والَوْا اليهود دون المؤمنين, فنزلت ناهية عن الصورة الواقعة من غير قصد التخصيص بها , بل موالاة الكفار حرام مطلقا , والعلم عند الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 48.49 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

ومعنى ﴿ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ أي فليس من حزب الله ولا من أوليائه في شيء ؛

مثل ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : 82] .

وحكى سيبويه "هو مِني فرسخين" أي من أصحابي ومعي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 57 ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تقاة ﴾

فصل

قال الفخر :

قال الحسن أخذ مسيلمة الكذاب رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لأحدهما : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم نعم نعم ، فقال : أفتشهد أني رسول الله ؟ قال : نعم ، وكان مسيلمة يزعم أنه رسول بني حنيفة ، ومحمد رسول قريش ، فتركه ودعا الآخر فقال أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم ، قال : أفتشهد أني رسول الله ؟ فقال : إني أصم ثلاثا ، فقدمه وقتله فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : "أما هذا المقتول فمضى على يقينه وصدقه فهنيئاً له ، وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه .

"واعلم أن نظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان ﴾ [النحل : 106] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 12 ﴾

قال القرطبى :

﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ قال معاذ بن جبل ومجاهد : كانت التقِية في جِدّة الإسلام قبل قوّة المسلمين ؛ فأما اليوم فقد أعز الله الإسلام أن يتقوا من عدوّهم .

قال ابن عباس : هو أن يتكلم بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولا يُقتل ولا يأتي مَأْثَما .

وقال الحسن : التقية جائزة للإنسان إلى يوم القيامة ، ولا تقية في القتل .

وقرأ جابر بن زيد ومجاهد والضحاك : "إلاّ أن تتّقُوا منهم تَقِيَّةً" وقيل : إن المؤمن إذا كان قائماً بين الكفار فله أن يداريهم باللسان إذا كان خائفاً على نفسه وقلبُه مطمئن بالإيمان .

والتقِية لا تحِل إلا مع خوف القتل أو القطع أو الإيذاء العظيم .

ومن أكره على الكفر فالصحيح أن له أن يتصلّب ولا يجيب إلى التلفظ بكلمة الكفر ؛ بل يجوز له ذلك على ما يأتي بيانه في "النحل" إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 57 ﴾

وقال ابن عطية :

واختلف العلماء في التقية ممن تكون ؟ وبأي شيء تكون ؟ وأي شيء تبيح ؟ فأما الذي تكون منه التقية فكل قادر غالب مكره يخاف منه ، فيدخل في ذلك الكفار إذا غلبوا وجورة الرؤساء والسلابة وأهل الجاه في الحواضر ، قال مالك رحمه الله : وزوج المرأة قد يكره ، وأما بأي شيء تكون التقية ويترتب حكمها فذلك بخوف القتل وبالخوف على الجوارح وبالضرب بالسوط وبسائر التعذيب ، فإذا فعل بالإنسان شيء من هذا أو خافه خوفاً متمكناً فهو مكره وله حكم التقية ، والسجن إكراه والتقييد إكراه والتهديد والوعيد إكراه وعداوة أهل الجاه الجورة تقية ، وهذه كلها بحسب حال المكره وبحسب الشيء الذي يكره عليه ، فكم من الناس ليس السجن فيهم بإكراه ، وكذلك الرجل العظيم يكره بالسجن والضرب غير المتلف ليكفر فهذا لا تتصور تقيته من جهة عظم الشيء الذي طلب منه ، ومسائل الإكراه هي من النوع الذي يدخله فقه الحال ، وأما أي شيء تبيح فاتفق العلماء على إباحتها للأقوال باللسان من الكفر وما دونه ومن بيع وهبة وطلاق ، وإطلاق القول بهذا كله ، ومن مداراة ومصانعة ، وقال ابن مسعود : ما من كلام يدرأ عني سوطين من ذي سلطان ، إلا كنت متكلماً به . واختلف الناس في الأفعال ، فقال جماعة من أهل العلم منهم الحسن ومكحول ومسروق : يفعل المكره كل ما حمل عليه مما حرم الله فعله وينجي نفسه بذلك ، وقال مسروق : فإن لم يفعل حتى مات دخل النار ، وقال كثير من أهل العلم منهم

سحنون : بل إن لم يفعل حتى مات فهو مأجور وتركه ذلك المباح أفضل من استعماله ، وروي أن عمر بن الخطاب قال في رجل يقال له ، نهيت بن الحارث ، أخذته الفرس أسيراً ، فعرض عليه شرب الخمر وأكل الخنزير وهدد بالنار ، فلم يفعل فقذفوه فيها فبلغ ذلك عمر ، فقال : وأما كان عليّ نهيت أن يأكل ، وقال جمع كثير من العلماء التقية إنما هي مبيحة للأقوال ، فأما الأفعال فلا ، روي ذلك عن ابن عباس والربيع والضحاك ، وروي ذلك عن سحنون وقال

(22/116)

الحسن في الرجل يقال له : اسجد لصنم وإلا قتلناك ، قال ، إن كان الصنم مقابل القبلة فليسجد يجعل نيته لله ، فإن كان إلى غير القبلة فلا وإن قتلوه ، قال ابن حبيب : وهذا قول حسن .

قال القاضي : وما يمنعه أن يجعل نيته لله وإن كان لغير قبله ، وفي كتاب الله ﴿ فأين ما تولوا فثم وجه الله ﴾ [البقرة : 115] وفي الشرع إباحة التنفل للمسافر إلى غير القبلة ، هذه قواعد مسألة التقية ، وأما تشعب مسائلها فكثير لا يقتضي الإيجاز جمعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 1 صـ 420 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن للتقية أحكاماً كثيرة ونحن نذكر بعضها .

الحكم الأول : أن التقية إنما تكون إذا كان الرجل في قوم كفار ، ويخاف منهم على نفسه وماله فيداريهم باللسان ، وذلك بأن لا يظهر العداوة باللسان ، بل يجوز أيضاً أن يظهر الكلام الموهم للمحبة والموالاة ، ولكن بشرط أن يضمر خلافه ، وأن يعرض في كل ما يقول ، فإن التقية تأثيرها في الظاهر لا في أحوال القلوب .

الحكم الثاني للتقية : هو أنه لو أفصح بالإيمان والحق حيث يجوز له التقية كان ذلك أفضل ، ودليله ما ذكرناه في قصة مسيلمة .

الحكم الثالث للتقية : أنها إنما تجوز فيما يتعلق بإظهار الموالاة والمعاداة ، وقد تجوز أيضاً فيما يتعلق بإظهار الدين فأما ما يرجع ضرره إلى الغير كالقتل والزنا وغصب الأموال والشهادة بالزور وقذف المحصنات واطلاع الكفار على عورات المسلمين ، فذلك غير جائز ألبتة .

الحكم الرابع : ظاهر الآية يدل أن التقية إنما تحل مع الكفار الغالبين إلا أن مذهب الشافعي رضي الله عنه أن الحالة بين المسلمين إذا شاكلت الحالة بين المسلمين والمشركين حلت التقية محاماة على النفس .

الحكم الخامس : التقية جائزة لصون النفس ، وهل هي جائزة لصون المال يحتمل أن يحكم فيها بالجواز ، لقوله صلى الله عليه وسلم : " حرمة مال المسلم كحرمة دمه " ولقوله صلى الله عليه وسلم : " من قتل دون ماله فهو شهيد " ولأن الحاجة إلى المال شديدة والماء إذا بيع بالغبن سقط فرض الوضوء ، وجاز الاقتصار على التيمم دفعاً لذلك القدر من نقصان المال ، فكيف لا يجوز ههنا ، والله أعلم .

الحكم السادس : قال مجاهد : هذا الحكم كان ثابتاً في أول الإسلام لأجل ضعف المؤمنين فأما بعد قوة دولة الإسلام فلا ، وروى عوف عن الحسن : أنه قال التقية جائزة للمؤمنين إلى يوم القيامة ، وهذا القول أولى ، لأن دفع الضرر عن النفس واجب بقدر الإمكان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 12 ﴾

فصل

قال ابن الجوزى :

والتقية رخصة ، وليست بعزيمة .

قال الإمام أحمد : وقد قيل : إن عرضت على السيف تجيب ؟ قال : لا .

وقال إذا أجاب العالم تقية ، والجاهل بجهل ، فمتى يتبين الحق ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 372 ﴾

(24/116)

فصل

قال الجصاص :

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ لَا يَتَّخِذْ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الْآيَةَ .

فِيهِ نَهْيٌ عَنْ اتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ ؛ لِأَنَّهُ جَزْمَ الْفِعْلِ ، فَهُوَ إذًا نَهْيٌ وَلَيْسَ بِخَبَرٍ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنْ يُلَاطِفُوا الْكُفَّارَ ؛ وَنَظِيرُهَا مِنْ الْآيِ قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ الْآيَةَ . وَقَالَ تَعَالَى ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إنَّكُمْ إذًا مِثْلُهُمْ ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ﴾ فنهى بعد النهي عن مجالستهم وملاطفتهم عن النظر إلى أموالهم ، وأحوالهم في الدنيا .

وروي ﴿ أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بإبل لبني المصطلق ، وقد عبست بأبوالها من السمن ، فتقنع بثوبه ومضى لقوله تعالى : ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ﴾ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ﴾ .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ﴿ أنا بريء من كل مسلم مع مشرك فقيل : لم يا رسول الله ؟ فقال : لا تراءى ناراهما ﴾ .

وقال : ﴿ أنا بريء من كل مسلم أقام بين المشركين ﴾ .

فَهَذِهِ الْآيُ وَالْآثَارُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُعَامَلَ الْكُفَّارُ بِالْغِلْظَةِ وَالْجَفْوَةِ دُونَ الْمُلَاطَفَةِ وَالْمُلَايَنَةِ ، مَا لَمْ تَكُنْ حَالٌ يَخَافُ فِيهَا عَلَى تَلَفِ نَفْسِهِ أَوْ تَلَفِ بَعْضِ أَعْضَائِهِ أَوْ ضَرَرًا كَبِيرًا يَلْحَقُهُ فِي نَفْسِهِ ، فَإِنَّهُ إذَا خَافَ ذَلِكَ جَازَ لَهُ إظْهَارُ الْمُلَاطَفَةِ وَالْمُوَالَاةِ مِنْ غَيْرِ صِحَّةِ اعْتِقَادٍ .

وَالْوَلَاءُ يَنْصَرِفُ عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : مَنْ يَلِي أُمُورَ مَنْ يَرْتَضِي فِعْلَهُ بِالنُّصْرَةِ وَالْمَعُونَةِ وَالْحِيَاطَةِ ، وَقَدْ يُسَمَّى بِذَلِكَ الْمُعَانُ الْمَنْصُورُ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يَعْنِي أَنَّهُ يَتَوَلَّى نَصْرَهُمْ وَمَعُونَتَهُمْ .

وَالْمُؤْمِنُونَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ بِمَعْنَى أَنَّهُمْ مُعَانُونَ بِنُصْرَةِ اللَّهِ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَا إنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 2 صـ 288. 289 ﴾

(27/116)

فصل نفيس

قال العلامة الآلوسى :

وفي الآية دليل على مشروعية التقية وعرفوها بمحافظة النفس أو العرض أو المال من شر

الأعداء ، والعدو قسمان : الأول : من كانت عداوته مبنية على اختلاف الدين كالكافر والمسلم ، والثاني : من كانت عداوته مبنية على أغراض دنيوية كالمال والمتاع والملك والإمارة ، ومن هنا صارت التقية قسمين : أما القسم الأول : فالحكم الشرعي فيه أن كل مؤمن وقع في محل لا يمكن له أن يظهر دينه لتعرض المخالفين وجب عليه الهجرة إلى محل يقدر فيه على إظهار دينه ولا يجوز له أصلاً أن يبقى هناك ويخفي دينه ويتشبث بعذر الاستضعاف فإن أرض الله تعالى واسعة ، نعم إن كان ممن لهم عذر شرعي في ترك الهجرة كالصبيان والنساء والعميان والمحبوسين والذين يخوفهم المخالفون بالقتل أو قتل الأولاد أو الآباء أو الأمهات تخويفاً يظن معه إيقاع ما خوفوا به غالباً سواء كان هذا القتل بضرب العنق أو بحبس القوت أو بنحو ذلك فإنه يجوز له المكث مع المخالف والموافقة بقدر الضرورة ويجب عليه أن يسعى في الحيلة للخروج والفرار بدينه ولو كان التخويف بفوات المنفعة أو بلحوق المشقة التي يمكنه تحملها كالحبس مع القوت والضرب القليل الغير المهلك لا يجوز له موافقتهم ، وفي صورة الجواز أيضاً موافقتهم رخصة وإظهار مذهبه عزيمة فلو تلفت نفسه لذلك فإنه شهيد قطعاً ، ومما يدل على أنها رخصة ما روي عن الحسن أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لأحدهما : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم فقال : أتشهد أني رسول الله ؟ قال : نعم ثم دعا بالآخر فقال له : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم فقال : أتشهد أني رسول الله ؟ قال : إني

أصمّ قالها ثلاثاً ، وفي كل يجيبه بأني أصم فضرب عنقه فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أما هذا المقتول فقد مضى على صدقه ويقينه وأخذ بفضله فهنيئاً له .

(28/116)

وأما الآخر فقد رخصه الله تعالى فلا تبعة عليه وأما القسم الثاني : فقد اختلف العلماء في وجوب الهجرة وعدمه فيه فقال بعضهم : تجب لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة ﴾ [البقرة : 195] وبدليل النهي عن إضاعة المال ، وقال قوم : لا تجب إذ الهجرة عن ذلك المقام مصلحة من المصالح الدنيوية ولا يعود من تركها نقصان في الدين لاتحاد الملة وعدوه القوي المؤمن لا يتعرض له بالسوء من حيث هو مؤمن ، وقال بعضهم : الحق أن الهجرة هنا قد تجب أيضاً إذا خاف هلاك نفسه أو أقاربه أو هتك حرمته بالإفراط ولكن ليست عبادة وقربة حتى يترتب عليها الثواب فإن وجوبها لمحض مصلحة دنيوية لذلك المهاجر لا لإصلاح الدين ليترتب عليها الثواب وليس كل واجب يثاب عليه لأن التحقيق أن كل واجب لا يكون عبادة بل كثير من الواجبات ما لا يترتب عليه ثواب كالأكل عند شدة المجاعة والاحتراز عن المضرات المعلومة أو المظنونة في المرض ، وعن تناول السموم في حال

الصحة وغير ذلك ، وهذه الهجرة أيضاً من هذا القبيل وليست هي كالهجرة إلى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم لتكون مستوجبة بفضل الله تعالى لثواب الآخرة

(29/116)

وعد قوم من باب التقية مداراة الكفار والفسقة والظلمة وإلانة الكلام لهم والتبسم في وجوههم والانبساط معهم وإعطائهم لكفّ إذاهم وقطع لسانهم وصيانة العرض منهم ولا يعد ذلك من باب الموالاة المنهي عنها بل هي سنة وأمر مشروع . فقد روى الديلمي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ﴿ إن الله تعالى أمرني بمداراة الناس كما أمرني بإقامة الفرائض ﴾ وفي رواية "بعثت بالمداراة" وفي "الجامع" "سيأتيكم ركب مبغضون فإذا جاءوكم فرحبوا بهم" وروى ابن أبي الدنيا "رأس العقل بعد الإيمان بالله تعالى مداراة الناس" وفي رواية البيهقي "رأس العقل المداراة" وأخرج الطبراني "مداراة الناس صدقة" وفي رواية له "ما وقى به المؤمن عرضه فهو صدقة" . وأخرج ابن عدي وابن عساكر "من عاش مدارياً مات شهيداً قوا بأموالكم أعراضكم وليصانع أحدكم بلسانه عن دينه" وعن بردة عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : "استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عنده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بئس ابن الشعيرة أو أخو

العشيرة ثم أذن له فألان له القول فلما خرج قلت : يا رسول الله قلت ما قلت ثم ألنت له القول ؟ فقال : يا عائشة إن من أشر الناس من يتركه الناس أو يدعه الناس اتقاء فحشه" وفي "البخاري" عن أبي الدرداء "إنا لنكشر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم" وفي رواية الكشميهني "وإن قلوبنا لتقليهم" وفي رواية ابن أبي الدنيا وإبراهيم الحرمي بزيادة "ونضحك إليهم" إلى غير ذلك من الأحاديث لكن لا تنبغي المداراة إلى حيث يخدش الدين ويرتكب المنكر وتسيء الظنون .

(30/116)

ووراء هذا التحقيق قولان لفئتين متباينتين من الناس وهم الخوارج والشيعة . أما الخوارج فذهبوا إلى أنه لا تجوز التقية بحال ولا يراعى المال وحفظ النفس والعرض في مقابلة الدين أصلاً ولهم تشديدات في هذا الباب عجيبة منها أن أحداً لو كان يصلي وجاء سارق أو غاصب ليسرق أو يغصب ماله الخطير لا يقطع الصلاة بل يحرم عليه قطعها وطعنوا على بريدة الأسلمي صحابي رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب أنه كان يحافظ فرسه في صلاته كي لا يهرب ، ولا يخفى أن هذا المذهب من التفريط بمكان ، وأما الشيعة فكلامهم مضطرب في هذا المقام فقال بعضهم : إنها جائزة في الأقوال كلها عند الضرورة وربما

وجبت فيها لضرب من اللطف والاستصلاح ولا تجوز في الأفعال كقتل المؤمن ولا فيما يعلم أو يغلب على الظن أنه إفساد في الدين ؛ وقال المفيد : إنها قد تجب أحياناً وقد يكون فعلها في وقت أفضل من تركها وقد يكون تركها أفضل من فعلها ، وقال أبو جعفر الطوسي : إن ظاهر الروايات يدل على أنها واجبة عند الخوف على النفس ، وقال غيره : إنها واجبة عند الخوف على المال أيضاً ومستحبة لصيانة العرض حتى يسن لمن اجتمع مع أهل السنة أن يوافقهم في صلاتهم وصيامهم وسائر ما يدينون به ، ورووا عن بعض أئمة أهل البيت "من صلى وراء سني تقية فكأنما صلى وراء نبي" ، وفي وجوب قضاء تلك الصلاة عندهم خلاف ، وكذا في وجوب قضاء الصوم على من أفطر تقية حيث لا يحل الإفطار قولان أيضاً ، وفي أفضلية التقية من سني واحد صيانة لمذهب الشيعة عن الطعن خلاف أيضاً ، وأفتى كثير منهم بالأفضلية . ومنهم من ذهب إلى جواز بل وجوب إظهار الكفر لأدنى مخافة أو طمع ، ولا يخفى أنه من الإفراط بمكان ، وحملوا أكثر أفعال الأئمة مما يوافق مذهب أهل السنة ويقوم به الدليل على رد مذهب الشيعة على التقية وجعلوا هذا أصلاً أصيلاً عندهم وأسسوا عليه دينهم وهو الشائع الآن فيما بينهم حتى نسبوا ذلك للأنبياء عليهم السلام ؛ وجل

غرضهم من ذلك إبطال خلافة الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم ويأبى الله تعالى ذلك .

ففي كتبهم ما يبطل كون أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه وبنيه رضي الله تعالى عنهم ذوي تقية بل ويبطل أيضاً فضلها الذي زعموه ففي كتاب "نهج البلاغة" الذي هو أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى في زعمهم أن الأمير كرم الله تعالى وجهه قال : علامة الإيمان إيثارك الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك ، وأين هذا من تفسيرهم قوله تعالى :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتقاكم ﴾ [الحجرات : 13] بأكثركم تقية ؟ ! وفيه أيضاً أنه كرم الله تعالى وجهه قال : إني والله لو لقيتهم واحداً وهم طلاع الأرض كلها ما باليت ولا استوحشت وإني من ضلالتهم التي هم فيها والهدى الذي أنا عليه لعلى بصيرة من نفسي ويقين من ربي وإلى لقاء الله تعالى وحسن ثوابه لمنتظر راج. وفي هذا دلالة على أن الأمير لم يخف وهو منفرد من حرب الأعداء وهم جموع ، ومثله لا يتصور أن يتأتى فيما فيه هدم الدين ، وروى العياشي عن زرارة بن أعين عن أبي بكر بن حزم أنه قال : توضأ رجل ومسح على خفيه فدخل المسجد فجاء علي كرم الله تعالى وجهه فوجأ على رقبته فقال : ويلك تصلي وأنت على غير وضوء فقال : أمرني عمر فأخذ بيده فانتهى إليه ثم قال : انظر

ما يقول هذا عنك ورفع صوته على عمر رضي الله تعالى عنه فقال عمر : أنا أمرته بذلك فانظر كيف رفع الصوت وأنكر ولم يتأق .

(32/116)

وروى الراوندي شارح "نهج البلاغة" ومعتقد الشيعة عن سلمان الفارسي أن علياً بلغه عن عمر أنه ذكر شيعته فاستقبله في بعض طرقات بساتين المدينة وفي يد عليّ قوس فقال : يا عمر بلغني عنك ذكرك لشيعتي فقال : أربع على صلعتك فقال عليّ إنك ههنا ثم رمى بالقوس على الأرض فإذا هي ثعبان كالبعير فاغراً فاه وقد أقبل نحو عمر ليبتلعه فقال عمر : اللَّهَ اللَّهَ يا أبا الحسن لأعدت بعدها في شيء فجعل يتضرع فضرب بيده على الثعبان فعادت القوس كما كانت فمضى عمر إلى بيته قال سلمان : فلما كان الليل دعاني عليّ فقال : سر إلى عمر فإنه حمل إليه مال من ناحية المشرق وقد عزم أن يخبئه فقل له يقول لك علي : أخرج ما حمل إليك من المشرق ففرقه على من هو لهم ولا تخبه فأفضحك قال سلمان : فمضيت إليه وأديت الرسالة فقال : أخبرني عن أمر صاحبك من أين علم به ؟ فقلت وهل يخفى عليه مثل هذا ؟ فقال : يا سلمان أقبل عني ما أقول لك ما عليّ إلا ساحر وإني لمستيقن بك والصواب أن تفارقه وتصير من جملتنا قلت : ليس كما قلت لكنه ورث من

أسرار النبوة ما قد رأيت منه وعنده أكثر من هذا ، قال : ارجع إليه فقل : السمع والطاعة لأمرك فرجعت إلى عليّ فقال : أحدثك عما جرى بينكما فقلت : أنت أعلم مني فتكلم بما جرى بيننا ثم قال : إن رعب الثعبان في قلبه إلى أن يموت ، وفي هذه الرواية ضرب عنق التقية أيضاً إذ صاحب هذه القوس تغنيه قوسه عنها ولا تحوجه أن يزوج ابنته أم كلثوم من عمر خوفاً منه وتقية .

وروى الكليني عن معاذ بن كثير عن أبي عبد الله أنه قال : إن الله عز وجل أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم كتاباً فقال جبريل : يا محمد هذه وصيتك إلى النجباء فقال : ومن النجباء يا جبريل ؟ فقال : عليّ بن أبي طالب وولده وكان على الكتاب خواتم من ذهب فدفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علي وأمره أن يفك خاتماً منه فيعمل بما فيه ، ثم دفعه إلى الحسن ففك منه خاتماً فعمل بما فيه ثم دفعه إلى الحسين ففك خاتماً فوجد فيه أن اخرج بقومك إلى الشهادة فلا شهادة لهم إلا معك واشتر نفسك لله تعالى ففعل ، ثم دفعه إلى علي بن الحسين ففك خاتماً فوجد فيه أن اطرق واصمت والزم منزلك واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ففعل ، ثم دفعه إلى ابنه محمد بن علي ففك خاتماً فوجد فيه حدث الناس

وأفتهم وانشر علوم أهل بيتك وصدق آباءك الصالحين ولا تخافن أحداً إلا الله تعالى فإنه لا سبيل لأحد عليك ، ثم دفعه إلى جعفر الصادق ففك خاتماً فوجد فيه حدث الناس وافتهم ولا تخافن إلا الله تعالى وانشر علوم أهل بيتك وصدق آباءك الصالحين فإنك في حرز وأمان ففعل ، ثم دفعه إلى موسى وهكذا إلى المهدي . ورواه من طريق آخر عن معاذ أيضاً عن أبي عبد الله ، وفي الخاتم الخامس وقل الحق في الأمن والخوف ولا تخش إلا الله تعالى وهذه الرواية أيضاً صريحة بأن أولئك الكرام ليس دينهم التقية كما تزعمه الشيعة ، وروى سليم بن قيس الهلالي الشيعي من خبر طويل أن أمير المؤمنين قال : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومال الناس إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه فبايعوه حملت فاطمة وأخذت بيد الحسن والحسين ولم تدع أحداً من أهل بدر وأهل السابقة من المهاجرين والأنصار إلا ناشدتهم الله تعالى حقي ودعوتهم إلى نصرتي فلم يستجب لي من جميع الناس إلى أربعة : الزبير وسلمان وأبو ذر والمقداد ، وهذه تدل على أن التقية لم تكن واجبة على الإمام لأن هذا الفعل عند من بايع أبا بكر رضي الله تعالى عنه

فيه ما فيه .

وفي "كتاب أبان بن عياش" أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه بعث إلى علي قنفذاً حين بايعه الناس ولم يبايعه علي وقال : انطلق إلى علي وقل له أجب خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق فبلغه فقال له : ما أسرع ما كذبتم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتددتم والله ما استخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم غيري ، وفيه أيضاً أنه لما يجب على غضب عمر وأضرم النار بباب علي وأحرقه ودخل فاستقبلته فاطمة وصاحت يا أبتاه ويا رسول الله فرفع عمر السيف وهو في غمده فوجأ به جنبها المبارك ورفع السوط فضرب به ضرعها فصاحت يا أبتاه فأخذ علي بتلابيب عمر وهزه ووجأ أنفه ورقبته ، وفيه أيضاً أن عمر قال لعلي : بايع أبا بكر رضي الله تعالى عنه قال : إن لم أفعل ذلك ؟ قال : إذاً والله تعالى لأضربن عنقك قال : كذبت والله يا ابن صهاك لا تقدر على ذلك أنت ألأم وأضعف من ذلك ، فهذه الروايات تدل صريحاً أن التقية بمراحل عن ذلك الإمام إذ لا معنى لهذه المناقشة والمسابة مع وجوب التقية ، وروى محمد بن سنان أن أمير المؤمنين قال لعمر : يا مغرور إني أراك في الدنيا قتيلاً بجراحة من عند أم معمر تحكم عليه جوراً فيقتلك ويدخل بذلك الجنان على رغم منك .

وروي أيضاً أنه قال لعمر مرة : إن لك ولصاحبك الذي قمت مقامه هتكاً وصلباً تخرجان من جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم فتصلبان على شجرة يابسة فتورق فيفتتن بذلك من والاكما ثم يؤتى بالنار التي أضرمت لإبراهيم ويأتي جرجيس ودانيال وكل نبي وصديق فتصلبان فيها فتحرقان وتصيران رماداً ثم تأتي ريح فتنسفكما في اليم نسفاً فانظر بالله تعالى عليك من يروي هذه الأكاذيب عن الإمام كرم الله تعالى وجهه هل ينبغي له أن يقول بنسبة التقية إليه سبحان الله تعالى ، هذا العجب العجاب والداء العضال ، ومما يرد قولهم أيضاً : إن التقية لا تكون إلا لخوف ، والخوف قسمان : الأول : الخوف على النفس وهو منتف في حق حضرات الأئمة بوجهين : أحدهما : أن موتهم الطبيعي باختيارهم كما أثبت هذه المسألة الكليني في "الكافي" ، وعقد لها باباً وأجمع عليها سائر الإمامية ، وثانيهما : أن الأئمة يكون لهم علم بما كان وما يكون فهم يعلمون آجالهم وكيفيات موتهم وأوقاته بالتفصيل والتخصيص فقبل وقته لا يخافون على أنفسهم ويتأقون في دينهم ويغرون عوام المؤمنين ، القسم الثاني : خوف المشقة والإيذاء البدني والسب والشتم وهتك الحرمة ولا شك أن تحمل هذه الأمور والصبر عليها وظيفة الصلحاء فقد كانوا يتحملون البلاء دائماً في امتثال أوامر الله تعالى وربما قابلوا السلاطين الجبابرة وأهل البيت النبوي أولى بتحمل الشدائد في نصرة دين جدهم صلى الله عليه وسلم . وأيضاً لو كانت التقية واجبة لم يتوقف إمام الأئمة

عن بيعة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة أشهر وماذا منعه من أداء الواجب أول وهلة ، ومما يرد قولهم في نسبة التقية إلى الأنبياء عليهم السلام بالمعنى الذي أراده قوله تعالى في حقهم : ﴿ الذين يُبَلِّغُونَ رسالات الله وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ الله وكفى بالله حَسِيباً ﴾ [الأحزاب : 39] وقوله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم :

(36/116)

﴿ يا أيها الرسول بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس ﴾ [المائدة : 67] إلى غير ذلك من الآيات ، نعم لو أرادوا بالتقية المداراة التي أشرنا إليها لكان لنسبتها إلى الأنبياء والأئمة وجه ، وهذا أحد محملين لما أخرجه عبد بن حميد عن الحسن أنه قال : التقية جائزة إلى يوم القيامة ، والثاني : حمل التقية على ظاهرها وكونها جائزة إنما هو على التفصيل الذي ذكرناه .

ومن الناس من أوجب نوعاً من التقية خاصاً بخواص المؤمنين وهو حفظ الأسرار الإلهية عن الإفشاء للأغيار الموجب لمفاسد كلية فتراهم متى سئلوا عن سر أبهموه وتكلموا بكلام لو عرض على العامة بل وعلى علمائهم ما فهموه ، وأفرغوه بقوالب لا يفهم المراد منها إلا من حسى من كأسهم أو تعطرت أرجاء فؤاده من عبير عنبر أنفاسهم ، وهذا وإن ترتب

عليه ضلال كثير من الناس وانجر إلى الطعن بأولئك السادة الأكياس حتى رمي الكثير منهم بالزندقة وأفتى بقتلهم من سمع كلامهم وما حققه إلا أنهم رأوا هذا دون ما يترتب على الإفشاء من المفاسد التي تعم الأرض .

وحنانيك بعض الشر أهون من بعض . . . وكتم الأسرار عن أهلها فيه فوات خير عظيم وموجب لعذاب أليم وقد يقال : ليس هذا من باب التقية في شيء إلا أن القوم تكلموا بما طفح على ألسنتهم وظهر على علانيتهم وكانت المعاني المرادة لهم بحيث تضيق عنها العبارة ولا يحوم حول حماها سوى الإشارة ، ومن حذا حذوهم واقتفى في التجرد إثرهم فهم ما قالوا وتحقق ما إليه مالوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 3 صـ 121 . 125﴾

وقال ابن عاشور :

والآية نهي عن موالاة الكافرين دون المؤمنين باعتبار القيد أو مطلقا ، والموالاة تكون بالظاهر والباطن وبالظاهر فقط ، وتعتورها أحوال تتبعها أحكام ، وقد استخلصت من ذلك ثمانية أحوال .

الحالة الأولى : أن يتخذ المسلم جماعة الكفر ، أو طائفته ، أولياء له في باطن أمره ، ميلا إلى كفرهم ، ونواء لأهل الإسلام ، وهذه الحالة كفر ، وهي حال المنافقين ، وفي حديث عتبان بن مالك : أن قائلا قال في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم أين مالك بن الدخشن فقال آخر ذلك منافق لا يحب الله ورسوله فقال النبي صلى الله عليه وسلم "ا تقل ذلك أما سمعته يقول لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله" فقال القائل الله ورسوله أعلم فإنا نرى وجهه ونصيحته إلى المنافقين . فجعل هذا الرجل الانحياز إلى المنافقين علامة على النفاق لولا شهادة الرسول لمالك بالإيمان أي في قلبه مع إظهاره بشهادة لا إله إلا الله .

الحالة الثانية : الركون إلى طوائف الكفر ومظاهرتهم لأجل قرابة ومحبة دون الميل إلى دينهم ، في وقت يكون فيه الكفار متجاهرين بعداوة المسلمين ، والاستهزاء بهم ، وإذاهم كما كان معظم أحوال الكفار ، عند ظهور الإسلام مع عدم الانقطاع عن مودة المسلمين ، وهذه حالة لا توجب كفر صاحبها ، إلا أن ارتكابها إثم عظيم ، لأن صاحبها يوشك أن يواليهم على مضرة الإسلام ، على أنه من الواجب إظهار الحمية للإسلام ، والغيرة عليه ، كما قال العتابي :

تود عدوي ثم تزعم أنني . . . صديقك إن الرأي عنك لعازب

وفي مثلها نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ﴾ [المائدة : 57] قال ابن عطية : كانت قريش من المستهزئين وفي مثل ذلك ورد قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ [الممتحنة : 9] الآية وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ [آل عمران : 118] الآية نزلت في قوم كان ، بينهم وبين اليهود ، جوار وحلف في الجاهلية ، فداموا عليه في الإسلام فكانوا يأنسون بهم ويستنيمون إليهم ، ومنهم أصحاب كعب بن الأشرف ، وأبي رافع ابن أبي الحقيق ، وكانا يؤذيان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الحالة الثالثة : كذلك ، بدون أن يكون طوائف الكفار متجاهرين ببغض المسلمين ولا بأذاهم ، كما كان نصارى العرب عند ظهور الإسلام قال تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ﴾ [المائدة : 82] وكذلك كان حال الحبشة فإنهم حموا المؤمنين ، وآووهم ، قال الفخر : وهذه واسطة ، وهي لا توجب الكفر ، إلا أنه منهي عنه ، إذ قد يجر إلى استحسان ما هم عليه وانطلاء مكائدهم على المسلمين .

(39/116)

الحالة الرابعة : موالاة طائفة من الكفار لأجل الإضرار بطائفة معينة من المسلمين مثل الانتصار بالكفار على جماعة من المسلمين ، وهذه الحالة أحكامها متفاوتة ، فقد قال مالك ، في الجاسوس يتجسس للكفار على المسلمين : إنه يوكل إلى اجتهاد الإمام ، وهو الصواب لأن التجسس يختلف المقصد منه إذ قد يفعله المسلم غرورا ، ويفعله طمعا ، وقد يكون على سبيل الفلتة ، وقد يكون له دأبا وعادة ، وقال ابن القاسم : ذلك زندقة لا توبة فيه ، أي لا يستتاب ويقتل كالزنديق ، وهو الذي يظهر الإسلام ويسر الكفار ، إذا اطلع عليه ، وقال ابن وهب ردة ويستتاب ، وهما قولان ضعيفان من جهة النظر .

وقد استعان المعتمد ابن عباد صاحب أشبيلية بالجلالقة على المرابطين اللمتونيين ، فيقال : إن فقهاء الأندلس أفتوا أمير المسلمين عليا بن يوسف بن تاشفين ، بكفر ابن عباد ، فكانت سبب اعتقاله ولم يقتله ولم ينقل أنه استتابه .

(40/116)

الحالة الخامسة : أن يتخذ المؤمنون طائفة من الكفار أولياء لنصر المسلمين على أعدائهم ، في حين إظهار أولئك الكفار محبة المسلمين وعرضهم النصرة لهم ، وهذه قد اختلف العلماء في حكمها : ففي المدونة قال ابن القاسم : لا يستعان بالمشركين في القتال لقوله عليه السلام لكافر تبعه يوم خروجه إلى بدر "ارجع فلن أستعين بمشرك" وروى أبو الفرج ، وعبد الملك بن حبيب : أن مالكا قال : لا بأس بالاستعانة بهم عند الحاجة ، قال ابن عبد البر : وحديث لن أستعين بمشرك مختلف في سنده ، وقال جماعة : هو منسوخ ، قال عياض : حمله بعض علمائنا على أنه كان في وقت خاص واحتج هؤلاء بغزو صفوان بن أمية مع النبي صلى الله عليه وسلم ، في حنين ، وفي غزوة الطائف ، وهو يومئذ غير مسلم ، واحتجوا أيضا بأن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن أبا سفيان يجمع الجموع ليوم أحد قال لبني النضير من اليهود : "إنا وأنتم أهل كتاب وإن لأهل الكتاب على أهل الكتاب النصر فإما قاتلتم معنا وإلا أعرتمونا السلاح" وإلى هذا ذهب أبو حنيفة ، والشافعي ، والليث ، والأوزاعي ، ومن أصحابنا من قال : لا نطلب منهم المعونة ، وإذا استأذنونا لا نأذن لهم : لأن الإذن كالطلب ، ولكن إذا خرجوا معنا من تلقاء أنفسهم لم نمنعهم ، ورام بهذا الوجه التوفيق بين قول ابن القاسم ورواية أبي الفرج ، قاله ابن رشد في البيان من كتاب الجهاد ، ونقل ابن رشد عن الطحاوي عن أبي حنيفة : أنه أجاز الاستعانة بأهل الكتاب دون المشركين ، قال ابن رشد : وهذا لا وجه له ، وعن أصبغ المنع مطلقا بلا تأويل .

الحالة السادسة : أن يتخذ واحد من المسلمين واحدا من الكافرين بعينه وليا له ، في حسن المعاشرة أو لقرابة ، لكمال فيه أو نحو ذلك ، من غير أن يكون في ذلك إضرار بالمسلمين ، وذلك غير ممنوع ، فقد قال تعالى في الأبوين ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ﴾ [لقمان : 15] واستأذنت أسماء النبي صلى الله عليه وسلم في بر والدتها وصلتها ، وهي كافرة ، فقال لها صلي أمك وفي هذا المعنى نزل قوله تعالى ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ [الممتحنة : 8] قيل نزلت في والدة أسماء ، وقيل في طوائف من مشركي مكة : وهم كنانة ، وخزاعة ، ومزينة ، وبنو الحرث ابن كعب ، كانوا يودون انتصار المسلمين على أهل مكة . وعن مالك تجوز تعزية الكافر بمن يموت له . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرتاح للأخنس بن شريق الثقفي ، لما يبديه من محبة النبيء ، والتردد عليه ، وقد نفعهم يوم الطائف إذ صرف بني زهرة ، وكانوا ثلاثمائة فارس ، عن قتال المسلمين ، وخنس بهم كما تقدم في قوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الآية .

الحالة السابعة : حالة المعاملات الدنيوية : كالتجارات ، والعهود ، والمصالحات ، أحكامها مختلفة باختلاف الأحوال وتفاصيلها في الفقه .

الحالة الثامنة : حالة إظهار الموالاة لهم لاتقاء الضر وهذه هي المشار إليها بقوله تعالى ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ .

والاستثناء في ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا ﴾ منقطع ناشئ عن جملة ﴿ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ لأن الاتقاء ليس مما تضمنه اسم الإشارة ، لكنه أشبه الولاية في المعاملة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 72 . 74 ﴾

(42/116)

فائدة

قال الجصاص :

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ يَعْنِي أَنْ تَخَافُوا تَلَفَ النَّفْسِ وَبَعْضِ الْأَعْضَاءِ فَتَتَّقُوهُمْ بِإِظْهَارِ الْمُوَالَاةِ مِنْ غَيْرِ اعْتِقَادٍ لَهَا .

وَهَذَا هُوَ ظَاهِرُ مَا يَقْتَضِيهِ اللَّفْظُ وَعَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَقَدْ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ الْمَرْوَزِيِّ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ الْجُرْجَانِيُّ قَالَ : أَخْبَرَنَا

عَبْدُ الرَّزَّاقِ قَالَ : أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا يَتَّخِذْ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قَالَ : لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَتَّخِذَ كَافِرًا وَلِيًّا فِي دِينِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ : إلَّا أَنْ تَكُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ قَرَابَةٌ فَيَصِلَهُ لِذَلِكَ ؛ فَجَعَلَ التَّقِيَّةَ صِلَةً لِقَرَابَةِ الْكَافِرِ .

وَقَدْ اقْتَضَتْ الْآيَةُ جَوَازَ إظْهَارِ الْكُفْرِ عِنْدَ التَّقِيَّةِ ، وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاَللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ وَإِعْطَاءُ التَّقِيَّةِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ إنَّمَا هُوَ رُخْصَةٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى وَلَيْسَ بِوَاجِبٍ ، بَلْ تَرْكُ التَّقِيَّةِ أَفْضَلُ ، قَالَ أَصْحَابُنَا فِيمَنْ أُكْرِهَ عَلَى الْكُفْرِ فَلَمْ يَفْعَلْ حَتَّى قُتِلَ : إنَّهُ أَفْضَلُ مِمَّنْ أَظْهَرَ .

(43/116)

وَقَدْ أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ خُبَيْبَ بْنَ عَدِيٍّ ، فَلَمْ يُعْطِ التَّقِيَّةَ حَتَّى قُتِلَ ، فَكَانَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ أَفْضَلَ مِنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ حِينَ أَعْطَى التَّقِيَّةَ ، وَأَظْهَرَ الْكُفْرَ فَسَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ كَيْفَ وَجَدْتَ قَلْبَكَ ؟ قَالَ : مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَإِنْ عَادُوا فَعُدْ ﴾ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّرْخِيصِ .

وَرُوِيَ ﴿ أَنَّ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابَ أَخَذَ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ

لِأَحَدِهِمَا : أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ قَالَ : أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ فَخَلَّاهُ ، ثُمَّ دَعَا بِالْآخَرِ وَقَالَ : أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ قَالَ : أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ؟ قَالَ : إنِّي أَصَمُّ ، قَالَهَا ثَلَاثًا ؛ فَضَرَبَ عُنُقَهُ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : أَمَّا هَذَا الْمَقْتُولُ فَمَضَى عَلَى صِدْقِهِ وَيَقِينِهِ ، وَأَخَذَ بِفَضِيلَةٍ فَهَنِيئًا لَهُ ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَقَبِلَ رُخْصَةَ اللَّهِ فَلَا تَبِعَةَ عَلَيْهِ ﴾ .

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ إعْطَاءَ التَّقِيَّةِ رُخْصَةٌ ، وَأَنَّ الْأَفْضَلَ تَرْكُ إظْهَارِهَا .

(44/116)

وَكَذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا فِي كُلِّ أَمْرٍ كَانَ فِيهِ إعْزَازُ الدِّينِ ، فَالْإِقْدَامُ عَلَيْهِ حَتَّى يُقْتَلَ أَفْضَلُ مِنْ الْأَخْذِ بِالرُّخْصَةِ فِي الْعُدُولِ عَنْهُ ، أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ بَذَلَ نَفْسَهُ لِجِهَادِ الْعَدُوِّ فَقُتِلَ كَانَ أَفْضَلَ مِمَّنْ انْحَازَ ؟ وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ أَحْوَالَ الشُّهَدَاءِ بَعْدَ الْقَتْلِ وَجَعَلَهُمْ أَحْيَاءً مَرْزُوقِينَ ، فَكَذَلِكَ بَذْلُ النَّفْسِ فِي إظْهَارِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَرْكُ إظْهَارِ الْكُفْرِ أَفْضَلُ مِنْ إظْهَارِ التَّقِيَّةِ فِيهِ .

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وَنَظَائِرِهَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنْ لَا وِلَايَةَ لِلْكَافِرِ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي شَيْءٍ ، وَأَنَّهُ إذَا كَانَ لَهُ ابْنٌ صَغِيرٌ مُسْلِمٌ بِإِسْلَامِ أُمِّهِ فَلَا وِلَايَةَ لَهُ عَلَيْهِ فِي تَصَرُّفٍ ، وَلَا تَزْوِيجٍ ، وَلَا غَيْرِهِ .

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الذِّمِّيَّ لَا يَعْقِلُ جِنَايَةَ الْمُسْلِمِ ، وَكَذَلِكَ الْمُسْلِمُ لَا يَعْقِلُ جِنَايَتَهُ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ الْوِلَايَةِ وَالنُّصْرَةِ وَالْمَعُونَةِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 2 صـ 289 . 290 ﴾

(45/116)

قوله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ ﴾

قال الفخر :

فيه قولان

الأول : أن فيه محذوفاً ، والتقدير : ويحذركم الله عقاب نفسه ، وقال أبو مسلم المعنى ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ ﴾ أن تعصوه فتستحقوا عقابه والفائدة في ذكر النفس أنه لو قال : ويحذركم الله فهذا لا يفيد أن الذي أريد التحذير منه هو عقاب يصدر من الله أو من غيره ، فلما ذكر النفس زال هذا الاشتباه ، ومعلوم أن العقاب الصادر عنه يكون أعظم أنواع العقاب لكونه قادراً على ما لا نهاية له ، وأنه لا قدرة لأحد على دفعه ومنعه مما أراد .

والقول الثاني : أن النفس ههنا تعود إلى اتخاذ الأولياء من الكفار ، أي ينهاهم الله عن نفس هذا الفعل . انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 13 ﴾

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ ويحذركم الله ﴾ إلى آخر الآية وعيد وتنبيه ووعظ وتذكير بالآخرة ،

وقوله : ﴿ نفسه ﴾ نائبه عن إياه ، وهذه مخاطبة على معهود ما يفهمه البشر ، والنفس في مثل هذا راجع إلى الذات ، وفي الكلام حذف مضاف لأن التحذير إنما هو من عقاب وتنكيل ونحوه ، فقال ابن عباس والحسن ، ويحذركم الله عقابه . انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 420 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ تحذير من المخالفة ومن التساهل في دعوى التقية واستمرارها أو طول زمانها .

(46/116)

وانتصاب ﴿ نَفْسَهُ ﴾ على نزع الخافض وأصله ويحذركم الله من نفسه ، وهذا النزع هو أصل انتصاب الاسمين في باب التحذير في قولهم إياك الأسد ، وأصله أحذرك من الأسد . وقد جعل التحذير هنا من نفس الله أي ذاته ليكون أعم في الأحوال ، لأنه لو قيل يحذركم الله غضبه لتوهم أن لله رضا لا يضر معه تعمد مخالفة أوامره ، والعرب إذا أردت تعميم

أحوال الذات علقت الحكم بالذات : كقولهم لولا فلان لهلك فلان ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [الفتح : 25] ومن هذا القبيل تعليق شرط لولا على الوجود المطلق الذي سوغ حذف الخبر بعد لولا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 75 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وإلى الله المصير ﴾

قال الفخر :

المعنى : إن الله يحذركم عقابه عند مصيركم إلى الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 13 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وإلى الله المصير ﴾ أي المرجع ، والإظهار في مقام الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة . قيل : والكلام على حذف مضاف أي إلى حكمه أو جزائه وليس باللازم ، والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله ومحقق لوقوعه حتماً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 126 ﴾

لطيفة

قال ابن عادل :

قال أبو العباس المُقْرِئُ : ورد لفظ " النفس " في القرآن على أربعة أضربٍ :

الأول : بمعنى العلم بالشيء ، والشهادة ، كقوله : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ﴾ ، يعني علمه فيكم ، وشهادته عليكم .

الثاني : بمعنى البدن ، قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت ﴾ [آل عمران : 185] .

الثالث : بمعنى الهَوَى ، كقوله : ﴿ إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ بالسوء ﴾ [يوسف : 53] يعني الهَوَى .

الرابع : بمعنى الروحِ ، قال تعالى : ﴿ أخرجوا أَنْفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام : 93] ، أي : أرواحكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 146 ﴾

(47/116)

فائدة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير" ثم قال فى الآية الأخرى بعد : "ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد" . للسائل أن يسأل عن وجه تعقيب الأولى بقوله : "والى الله المصير" وتعقيب الثانية بقوله : "والله رؤوف بالعباد" .

(48/116)

والجواب عن ذلك والله أعلم أنه لما تقدم قبل الأولى قوله تعالى : "لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين" فنهاهم سبحانه عن ذلك ثم أردف بالتحذير بقوله : "ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شئ" ثم استثنى سبحانه من ذلك حال التقاة فقال : "إلا أن تتقوا منهم تقاة" ثم قال : "ويحذركم الله نفسه- أى عذابه - وإلى الله المصير -أى ومرجعكم إليه فلا يفوته هارب فهذا كلام ملتحم جليل النظم والتنضيد ثم أتبع هذا بإعلامه أنه سبحانه لا يخفى عليه شئ مما أكنوه أو أظهروه فقال : "قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السماوات وما فى الأرض والله على كل شئ قدير" ، فأعلم فيها بعلمه المحيط بالأشياء والعلم والقدرة هما القاطعان بمنكرى العودة وعلى إنكارهما بنى المنكرون حشر الأجساد شنيع مقالهم وبثباتهما اضمحل باطلهم وقد أشارت هذه الآية العظيمة إلى علمه سبحانه بالجزئيات وقدرته عليها وفى ذلك الشأن كله ولعل الكلام يعود بنا إلى مقصود هذه الآية العظيمة فنبسط من ذلك ما يشفى صدر المؤمن ويقطع بالملحدين وإن كان أئمتنا من أهل الفن الكلامى قد شفوا فى ذلك رضى الله عنهم فعرف سبحانه بالرجوع الأخروى إليه ثم أخبر بأنه لا يغادر من أفعال عباده صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فقال : "يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا" الآية ثم قال معيدا ومحذرا : "ويحذركم الله نفسه" وأعقب بقوله : "والله رؤوف بالعباد" ، لما تقدم من التذكير والوعظ

والبيان والتحذير المبنى على واضح الأمر والتبيان وذلك إنعام منه سبحانه وإحسان يستجر خوف المؤمنين العابدين ، فناسبه التعقيب بذكر رأفته بعباده رفقا بهم وإنعاما وتلطفا فقال : "والله رؤوف بالعباد" ، ولم يتقدم قبل الأولى ما تقدم قبل هذه متصلا بها وإنما تقدمها النهى عن موالاة الكفار والتبرى من مواليهم بالكلية فناسبه ما أعقب به وناسب هذه ما أعقبت به والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ ملاك التأويل صـ 80 . 81 ﴾

(49/116)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء ﴾

جمع ولي ، ومعانيه كثيرة ، منه المحب والصديق والنصير . قال الزمخشري : نهوا أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم أو صداقة قبل الإسلام ، أو غير ذلك من الأسباب التي يتصادق بها ويتعاشر . وقد كرر ذلك في القرآن : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة : 51] : ﴿ لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ﴾ [المائدة : 51] : ﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

﴾ [المجادلة : 22] الآية ، والمحبة في الله ، والبغض في الله باب عظيم وأصل من أصول الإيمان . وقوله تعالى : ﴿ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ حال . أي : متجاوزين المؤمنين إليهم استقلالاً أو اشتراكاً ، وفيه إشارة إلى أنهم الأحقاء بالموالاة ، وأن في موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ أي : ومن يوال الكفرة فليس من ولاية الله في شيء يقع عليه اسم الولاية ، يعني : أنه منسلخ من ولاية الله رأساً . وهذا أمر معقول ، فإن موالاة الولي وموالاة عدوه متنافيان ، قال :

~تود عدوّي ثم تزعم أنني صديقك . ليس النوك عنك بعازب

(50/116)

أفاده الزمخشري ﴿ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ أي : تخافوا منهم محذوراً . فأظهروا معهم الموالاة باللسان دون القلب لدفعه ، كما قال البخاري عن أبي الدرداء أنه قال : إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم . وأصل : تقاة وقية ، ثم أبدلت الواو تاء ، كتخمة وتهمة ، وقلبت الياء ألفاً . وفي المحكم : تقاة : يجوز أن يكون مصدراً وأن يكون جمعاً ، والمصدر أجود ، لأن في القراءة الأخرى : تقية .

تنبيه :

قال بعض مفسري الزيدية : ثمرة الآية الكريمة تحريم موالاة الكفار ، لأن الله تعالى نهى عنها بقوله : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ ، ثم استثنى تعالى التقية فرخص في موالاتهم لأجلها ، فتجوز معاشرة ظاهرة ، والقلب مطمئن بالعداوة لهم والبغضاء وانتظار زوال المانع . وقد قال الحاكم : في الآية دلالة على جواز إظهار تعظيم الظلمة اتقاء لشرهم . قال : وإنما يحسن بالمعاريض التي ليست بكذب ، وقال الصادق : التقية واجبة ، وإني لأسمع الرجل في المسجد يشتمني فأستتر عنه بالسارية لئلا يراني . وعن الحسن : تقية باللسان ، والقلب مطمئن بالإيمان .

(51/116)

واعلم أن الموالاة ، التي هي المباطنة والمشاورة وإفضاء الأسرار للكفار ، لا تجوز . فإن قيل : قد جوز كثير من العلماء نكاح الكافرة ، وفي ذلك من الخلطة والمباطنة بالمرأة ما ليس يخاف ، فجواب ذلك : أن المراد موالاتهم في أمر الدين ، وفيما فيه تعظيم لهم . فإن قيل . في سبب نزول الآية أنه صلى الله عليه وسلم منع عُبَادَةَ بن الصامت عن الاستعانة باليهود على قريش ! وقد حالف رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود على حرب قريش ، وفي هذا دلالة على جواز الاستعانة بهم . وقد ذكر الراضي بالله أنه يجوز الاستعانة بالفساق

على حرب المبطلين . قال : وقد حالف رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود على حرب قريش وغيرها ، إلى أن نقضوه يوم الأحزاب . وحدَّ صلى الله عليه وسلم الحلف بينه وبين خزاعة . قال الراضي بالله : وهو ظاهر عن آبائنا عليهم السلام ، وقد استعان علي عليه السلام بقتلة عثمان . ولعل الجواب – والله اعلم – أن الاستعانة جائزة مع الحاجة إليها . ويحمل على هذا استعانة الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود . وممنوعة مع عدم الحاجة ، أو خشية مضرة منهم . وعليه يحمل حديث عُبَادْة بن الصامت . فصارت الموالاة المحظورة تكون بالمعاداة بالقلب للمؤمنين ، والمودة للكفار على كفرهم ، ولا لبس في تحريم ذلك ، ولا يدخله استثناء والموالاة بإظهار التعظيم وحسن المخاللة والمصادقة بإظهار الأسرار ونحو ذلك ، فلا لبس في تحريم ذلك ولا يدخله استثناء ، والموالاة بإظهار التعظيم وحسن المخاللة والمشاورة فيما لا يضر المسلمين ، فظاهر كلام الزمخشري أنه لا يجوز إلا للتقية . فحصل من هذا أن الموالي للكافر والفاسق عاصٍ ، ولكن أين تبلغ معصيته ؟ يحتاج إلى تفصيل : إن كانت الموالاة بمعنى الموادة ، وهي أن يوده لمعصيته كان ذلك كالرضا بالمعصية . وإن كانت الموالاة كفراً ، كفر . وإن كانت فسقاً ، فسق . وإن كانت لا توجب كفراً ولا فسقاً ، لم يكفر ولم يفسق ،

وإن كانت الموالاة بمعنى المحالفة والمناصرة ، فإن كانت محالفة على أمر مباح أو واجب ، كأن يدفع المؤمنون عن أهل الذمة من يتعرض لهم ، ويحالفونهم على ذلك ، فهذا لا حرج فيه ، بل هو واجب . وإن كانت على أمر محظور كأن يحالفوهم على أخذ أموال المسلمين والتحكم عليهم ، فهذه معصية بلا إشكال ، وكذلك إذا كانت بمعنى أنه يظهر سر المسلمين ويحبّ سلامة الكافرين لا لكفرهم ، بل ليدٍ لهم عليه أو لقرابة أو نحو ذلك ، فهذا معصية بلا إشكال . لكن لا تبلغ حدها الكفر ، لأنه لم يُروَ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حكم بكفر حاطب بن أبي بلتعة .

وقال الراضي بالله : إن مناصرة الكفار على المسلمين توجب الكفر ، لأنه صلى الله عليه وسلم قال للعباس : < ظاهرك علينا > . وقد اعتذر بأنه خرج مكرهاً . وأما مجرد الإحسان إلى الكافر فجائز لا ليستعين به على المسلمين ، ولا لإيناسه . وكذلك أن يضيق لضيقه في قضية معينة لأمر مباح فجائز ، كما كان من ضيق المسلمين من غلب فارس الروم ، فصار تحقيق المذهب أن الذي يوجب الكفر من الموالاة أن يحصل من الموالي الرضا بالكفر . والذي يوجب الفسق أن يحصل الرضا بالفسق . إن قيل : فما حكم من يجند مع الظلمة ليستعينوا به على الجبايات وأنواع الظلم ؟ قلنا : عاص بلا إشكال ، وفاسق بلا إشكال ، لأنه صار من جملتهم . وفسقهم معلوم . فإن قيل : فإن تجند معهم لحرب إمام

المسلمين ؟ قلنا : صار باغياً ، وحصل فسقه من جهة البغي والظلم . فإن قيل : حكي عن المهدي علي بن محمد عليه السلام أنه كفّر من تجند مع سلطان اليمن وقضى بردته, قلنا : هذا يحتاج إلى بيان وجه التكفير بدليل قطعي . وإن ساغ أن تقول ذلك اصطلاح لأمر الإمام كما رد الهادي عليه السلام شهادة من امتنع من بيعة الإمام كان ذلك محتملاً – انتهى كلامه رحمه الله .

(53/116)

ومن هذه الآية استنبط الأئمة مشروعية التقية عند الخوف . وقد نقل الإجماع على جوازها عند ذلك الإمام مرتضى اليماني في كتابه : " إيثار الحق على الخلق " فقال ما نصه :

وزاد الحق غموضاً وخفاءً أمران :

أحدهما : خوف العارفين ، مع قلتهم ، من علماء السوء وسلاطين الجور ، وشياطين الخلق ، مع جواز التقية عند ذلك بنص القرآن وإجماع أهل الإسلام . وما زال الخوف مانعاً من إظهار الحق ، ولا برح المحق عدوّاً لأكثر الخلق . وقد صح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال في ذلك العصر الأول : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين ، فأما

أحدهما : فبثته في الناس ، وأما الآخر : فلو بثثته لقطع هذا البلعوم . وما زال الأمر في ذلك يتفاحش . وقد صرح الغزالي بذلك في خطبة " المقصد الأسنى " ولوّح بمخالفته أصحابه فيها كما صرح بذلك في شرح " الرحمن الرحيم " فأثبت حكمة الله ورحمته ، وجود الكلام في ذلك ، وظن أنهم لا يفهمون المخالفة ، لأن شرح هذين الاسمين ليس هو موضع هذه المسألة ، ولذلك طوى ذلك ، وأضرب عنه في موضعه ، وهو اسم الضار كما يعرف ذلك أذكياء النظار .

وأشار إلى التقية الجويني في مقدمات " البرهان " في مسألة قدم القرآن . والرازي في كتابه المسمى بـ " الأربعين في أصول الدين " إلى آخر ما ساقه المرتضي فانظره .

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ ﴾ أي : ذاته المقدسة ، فلا تتعرضوا لسخطه بمخالفة أحكامه ، وموالاة أعدائه . وهو تهديد عظيم مشعر بتناهي المنهي في القبح ، وذكر النفس ، ليعلم أن المحذر منه عقاب يصدر منه تعالى ، فلا يؤبه دونه بما يحذر من الكفرة : ﴿ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أي : المنقلب والمرجع ليجازي كل عامل بعمله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 4 صـ 248 . 251 ﴾

فائدة

قال السعدي في معنى الآية :

هذا نهي من الله تعالى للمؤمنين عن موالاة الكافرين بالمحبة والنصرة والاستعانة بهم على أمر من أمور المسلمين ، وتوعد على ذلك فقال : ﴿ ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ﴾ أي : فقد انقطع عن الله ، وليس له في دين الله نصيب ، لأن موالاة الكافرين لا تجتمع مع الإيمان ، لأن الإيمان يأمر بموالاة الله وموالاة أوليائه المؤمنين المتعاونين على إقامة دين الله وجهاد أعدائه ، قال تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ فمن والى -الكافرين من دون المؤمنين الذين يريدون أن يطفؤا نور الله ويفتنوا أولياءه خرج من حزب المؤمنين ، وصار من حزب الكافرين ، قال تعالى : ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ وفي هذه الآية دليل على الابتعاد عن الكفار وعن معاشرتهم وصداقتهم ، والميل إليهم [ص 128] والركون إليهم ، وأنه لا يجوز أن يولى كافر ولاية من ولايات المسلمين ، ولا يستعان به على الأمور التي هي مصالح لعموم المسلمين . قال الله تعالى : ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ أي : تخافوهم على أنفسكم فيحل لكم أن تفعلوا ما تعصمون به دماءكم من التقية باللسان وإظهار ما به تحصل التقية . ثم قال تعالى : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ أي : فلا تتعرضوا لسخطه بارتكاب معاصيه فيعاقبكم على ذلك ﴿ وإلى الله المصير ﴾ أي : مرجع العباد ليوم التناد ، فيحصي أعمالهم ويحاسبهم عليها ويجازيهم ، فإياكم أن تفعلوا من الأعمال

القباح ما تستحقون به العقوبة ، واعملوا ما به يحصل الأجر والمثوبة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير السعدى صـ 127 ﴾

(55/116)

كلام نفيس لشيخ الإسلام ابن تيمية فى الآية

قال عليه الرحمة والرضوان :

رأس مال الرافضة التقية وهي أن يظهر خلاف ما يبطن كما يفعل المنافق وقد كان المسلمون في أول الإسلام في غاية الضعف والقلة وهم يظهرون دينهم لا يكتمونه والرافضة يزعمون أنهم يعملون بهذه الآية قوله تعالى لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه (سورة آل عمران) . ويزعمون أنهم هم المؤمنون وسائر أهل القبلة كفار مع أن لهم في تكفير الجمهور قولين لكن قد رأيت غير واحد من أئمتهم يصرح في كتبه وفتاويه بكفر الجمهور وأنهم مرتدون ودارهم دار ردة يحكم بنجاسة مائعها وأن من أنتقل إلى قول الجمهور منهم ثم تاب لم تقبل توبته لأن المرتد الذي يولد على الفطرة لا يقبل منه الرجوع إلى الإسلام وهذا في المرتد عن الإسلام قول لبعض السلف وهو رواية عن الإمام أحمد قالوا لأن المرتد من كان كافرا

فأسلم ثم رجع إلى الكفر بخلاف من يولد مسلما فجعل هؤلاء هذا في سائر الأمة فهم عندهم كفار فمن صار منهم إلى مذهبهم كان مرتدا وهذه الآية حجة عليهم فإن هذه الآية خوطب بها أولا من كان مع النبي صلى الله عليه وسلم من المؤمنين فقيل لهم ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ (سورة آل عمران) . وهذه الآية مدنية باتفاق العلماء فإن (سورة آل عمران) . كلها مدنية وكذلك البقرة والنساء والمائدة ومعلوم أن المؤمنين بالمدينة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن أحد منهم يكتم إيمانه ولا يظهر للكفار أنه منهم كما يفعله الرافضة مع الجمهور وقد اتفق المفسرون على أنها نزلت بسبب أن بعض المسلمين أراد إظهار مودة الكفار فنهوا عن ذلك وهم لا يظهرون المودة للجمهور وفي رواية الضحاك عن ابن عباس أن عبادة بن الصامت كان له حلفاء من اليهود فقال يا رسول الله إن معي خمسمائة من اليهود وقد رأيت أن أستظهر بهم على العدو فنزلت هذه الآية وفي رواية أبي صالح أن عبد الله بن أبي وأصحابه

من المنافقين كانوا يتولون اليهود ويأتونهم بالأخبار يرجون لهم الظفر على النبي صلى الله عليه وسلم فنهى الله المؤمنين عن مثل فعلهم وروى عن ابن عباس أن قوما من اليهود كانوا

يباطنون قوما من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم فنهاهم قوم من المسلمين عن ذلك وقال اجتنبوا هؤلاء فأبوا فنزلت هذه الآية وعن مقاتل بن حيان ومقاتل بن سليمان أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره كانوا يظهرون المودة لكفار مكة فنهاهم الله عن ذلك والرافضة من أعظم الناس إظهارا لمودة أهل السنة ولا يظهر أحدهم دينه حتى إنهم يحفظون من فضائل الصحابة والقصائد التي في مدحهم وهجاء الرافضة ما يتوددون به إلى أهل السنة ولا يظهر أحدهم دينه كما كان المؤمنون يظهرون دينهم للمشركين وأهل الكتاب فعلم أنهم من أبعد الناس عن العمل بهذه الآية وأما قوله تعالى ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ (سورة آل عمران) . قال مجاهد إلا مصانعة والتقاة ليست بأن أكذب وأقول بلساني ما ليس في قلبي فإن هذا نفاق ولكن أفعل ما أقدر عليه كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان فالمؤمن إذا كان بين الكفار والفجار لم يكن عليه أن يجاهدهم بيده مع عجزه ولكن إن أمكنه بلسانه وإلا فبقلبه مع أنه لا يكذب ويقول بلسانه ما ليس في قلبه إما أن يظهر دينه وإما أن يكتمه وهو مع هذا لا يوافقهم على دينهم كله بل غايته أن يكون كمؤمن آل فرعون وامرأة فرعون وهو لم يكن موافقا لهم على جميع دينهم ولا كان يكذب ولا يقول بلسانه ما ليس في قلبه بل كان يكتم إيمانه وكتمان الدين شيء وإظهار الدين الباطل

شيء آخر فهذا لم يبحه الله قط إلا لمن أكره بحيث أبيح له النطق بكلمة الكفر والله تعالى قد فرق بين المنافق والمكره

(57/116)

والرافضة حالهم من جنس حال المنافقين لا من جنس حال المكره الذي أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان فإن هذا الإكراه لا يكون عاما من جمهور بني آدم بل المسلم يكون أسيرا أو منفردا في بلاد الكفر ولا أحد يكرهه على كلمه الكفر ولا يقولها ولا يقول بلسانه ما ليس في قلبه وقد يحتاج إلى أن يلين لناس من الكفار ليظنوه منهم وهو مع هذا لا يقول بلسانه ما ليس في قلبه بل يكتم ما في قلبه وفرق بين الكذب وبين الكتمان فكتمان ما في النفس يستعمله المؤمن حيث يعذره الله في الإظهار كمؤمن آل فرعون وأما الذي يتكلم بالكفر فلا يعذره إلا إذا أكره والمنافق الكذاب لا يعذر بحال ولكن في المعاريض مندوحة عن الكذب ثم ذلك المؤمن الذي يكتم إيمانه يكون بين الكفار الذين لا يعلمون دينه وهو مع هذا مؤمن عندهم يحبونه ويكرمونه لأن الإيمان الذي في قلبه يوجب أن يعاملهم بالصدق والأمانة والنصح وإرادة الخير بهم وإن لم يكن موافقا لهم على دينهم كما كان يوسف الصديق يسير في أهل مصر وكانوا كفارا وكما كان مؤمن آل فرعون يكتم إيمانه ومع هذا كان

يعظم موسى ويقول ﴿ أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ﴾ (سورة غافر) . وأما الرافضي فلا يعاشر أحدا إلا استعمل معه النفاق فإن دينه الذي في قلبه دين فاسد يحمله على الكذب والخيانة وغش الناس وإرادة السوء بهم فهو لا يألوهم خبالا ولا يترك شرا يقدر عليه إلا فعله بهم وهو ممقوت عند من لا يعرفه وإن لم يعرف أنه رافضي تظهر على وجهه سيما النفاق وفي لحن القول ولهذا تجده ينافق ضعفاء الناس ومن لا حاجة به إليه لما في قلبه من النفاق الذي يضعف قلبه والمؤمن معه عزة الإيمان فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ثم هم يدعون الإيمان دون الناس والذلة فيهم أكثر منها في سائر الطوائف من المسلمين وقد قال تعالى ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ (سورة غافر) . وهم أبعد طوائف أهل الإسلام عن النصرة وأولاهم

بالخذلان فعلم أنهم أقرب طوائف أهل الإسلام إلى النفاق وأبعدهم عن الإيمان وآية ذلك أن المنافقين حقيقة الذين ليس فيهم إيمان من الملاحدة يميلون إلى الرافضة والرافضة تميل إليهم أكثر من سائر الطوائف وقد قال صلى الله عليه وسلم الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وقال ابن مسعود رضي الله عنه اعتبروا الناس بأخدانهم

فعلم أن بين أرواح الرافضة وأرواح المنافقين اتفاقا محضا قدرا مشتركا وتشابها وهذا لما في الرافضة فإن النفاق شعب كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه شعبة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا اؤتمن خان وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان وفي رواية لمسلم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم والقرآن يشهد لهذا فإن الله وصف المنافقين في غير موضع بالكذب والغدر والخيانة وهذه الخصال لا توجد في طائفة أكثر منها في الرافضة ولا أبعد منها عن أهل السنة المحضة المتبعين للصحابة فهؤلاء أولى الناس بشعب الإيمان وأبعدهم عن شعب النفاق

والرافضة أولى الناس بشعب النفاق وأبعدهم عن شعب الإيمان وسائر الطوائف قربهم إلى الإيمان وبعدهم عن النفاق بحسب سنتهم وبدعتهم وهذا كله مما يبين أن القوم أبعد الطوائف عن اتباع المعصوم الذي لا شك في عصمته وهو خاتم المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وما يذكرونه من خلاف السنة في دعوى الإمام المعصوم وغير ذلك فإنما هو في الأصل من ابتداع منافق زنديق كما قد ذكر ذلك أهل العلم

ذكر غير واحد منهم أن أول من ابتدع الرفض والقول بالنص على علي وعصمته كان منافقا زنديقا أراد فساد دين الإسلام وأراد أن يصنع بالمسلمين ما صنع بولس بالنصارى لكن لم يتأت له ما تأتى لبولس لضعف دين النصارى وعقلهم فإن المسيح صلى الله عليه وسلم رفع ولم يتبعه خلق كثير يعلمون دينه ويقومون به علما وعملا فلما ابتدع بولس ما ابتدعه من الغو في المسيح اتبعه على ذلك طوائف وأحبوا الغلو في المسيح ودخلت معهم ملوك فقام أهل الحق خالفوهم وأنكروا عليهم فقتلت الملوك بعضهم وداهن الملوك بعضهم وبعضهم اعتزلوا في الصوامع والديارات وهذه الأمة ولله الحمد لا يزال فيها طائفة ظاهرة على الحق فلا يتمكن ملحد ولا مبتدع من إفساده بغلو أو انتصار على أهل الحق ولكن يضل من يتبعه على ضلاله وأيضا فنواب المعصوم الذي يدعونه غير معصومين في الجزئيات وإذا كان كذلك فيقال إذا كانت العصمة في الجزئيات غير واقعة وإنما الممكن العصمة في الكليات فالله تعالى قادر أن ينص على الكليات بحيث لا يحتاج في معرفتها إلى الإمام ولا غيره وقادر أيضا أن يجعل نص النبي أكمل من نص الإمام وحينئذ فلا يحتاج إلى عصمة الإمام لا في الكليات ولا في الجزئيات. انتهى انتهى. اهـ ﴿منهاج أهل السنة جـ 6 صـ 295. 302﴾

إن التقية رخصة من الله ، روى : أن مسيلمة الكذاب جاء برجلين من المسلمين وقال لواحد منهما : " أتشهد أن محمدا رسول الله " ؟ قال المؤمن " نعم " : قال مسيلمة : " وتشهد أني رسول الله ؟ " قال المؤمن : " نعم " . وأحضر مسيلمة المسلم الآخر وقال له : " أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ " قال المؤمن : " نعم " . قال مسيلمة : " أتشهد أني رسول الله ؟ " قال المؤمن الثاني : " إني أصم "كيف رد عليه المؤمن بدعوى الصمم ؟ لقد علم مسيلمة أنه يدعي الصمم ، لذلك أخذه وقلته ، فرفع الأمر إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فماذا قال ؟ قال صلى الله عليه وسلم : " أما المقتول . .فقد صدع بالحق فهنيئا له ، وأما الآخر فقد أخذ برخصة الله " . فالتقية رخصة ، والإفصاح بالحق فضيلة . .

وعمار بن ياسر أخذ بالرخصة وبلال بن رباح تمسك بالقرعة .

ولننظر إلى حكمة التشريع في هذا الأمر . إن كل مبدأ من مبادئ الخير جاء ليواجه ظاهرة من ظواهر الشر في الوجود ، وهذا المبدأ يحتاج إلى منهج يأتي من حكيم أعلى منه ، ويريد صلابة يقين ، وقوة عزيمة ، كما يريد تحمل منهج ، فالتحمل إنما يكون من أجل أن يبقى المنهج للناس ، والعزيمة من أجل أن يواجه المؤمن الخصوم ، فلو لم يشرع الله التقية بقوله :

﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾

[النحل: 106].

(61/116)

لكنا حقيقة سنحقق الفدائية التي تفدي مناهج الحق بالتضحية بالحياة رخيصة في سبيل الله، ولكن هب ان كل مؤمن وقف هذا الموقف فمن يحمل علم الله إلى الآخرين؟ لذلك يشرع الحق سبحانه وتعالى التقية من أجل أن يبقى من يحمل المنهج، إنه يقرر لنا الفداء للعقيدة، ويشرع لنا التقية من أجل بقاء العقيدة. لقد جاء الحق بالأمرين: أمر الوقوف في وجه الباطل بالاستشهاد في سبيل الحق، وأمر التقية حماية لبعض الخلق حتى لا يضيع المنهج الحق لو جاء جبار، واستأصل المؤمنين جميعا، لذلك يشرع الحق ما يبقى للفداء قوما، ويبقى للبقاء قوما ليحملوا منهج الله، هل عرفنا الآن لماذا جاءت التقية؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد منهجا يعمر الأرض، ويورث للأجيال المتتالية، فلو أن الحق لم يشرع التقية بقوله:

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

[النحل : 106] .

لثبتت الفدائية في العقيدة ، ولو ثبتت الفدائية وحدها لكان أمر المنهج عرضه لأن يزول ، ولا يرثه قوم آخرون ، لذلك شرع الله التقية ليظل أناس حول شمعة الإيمان ، يحتفظون بضوئها ؛ لعل واحدا يأخذ بقبسها ، فيضيء بها نورا وهاجا . ولذلك ، فلا ولاية من مؤمن لقوم كافرين إلا أن يتقى منهم تقاة ، لماذا ؟ لأن الله يحذرنا نفسه بقوله : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ .

(62/116)

فإياك أن تقبل على السلوك الذي يضعه أمامك الكفار بانشراح صدر وتقول : أنا أقوم بالتقية ، بل لا بد أن تكون المسألة واضحة في نفسك ، وأن تعرف لماذا فعلت التقية ، هل فعلتها لتبقى منهج الخير في الوجود ، أو لغير ذلك ؟ هل فعلتها حتى لا تجعل جنود الخير كلهم إلى فناء أو غير ذلك ؟ إنك إن فعلت التقية بوعي واستبقيت نفسك لمهمة استبقاء المنهج الإيماني ، فأنت أهل الإيمان ، وعليك أن تعرف جيدا أن الحق قد قال : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ . إنه الحق يقول للمؤمنين : إياكم أن تخلعوا على التقية أمرا هو مرغوب لنفوسكم ، لماذا ؟ لأن الحق قد حددها :

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

[النحل : 106] .

فلا غاية إلا الله ، فإياكم أن تغشوا أنفسكم ؛ لأنه لا غاية عند غيره ؛ فالغاية كلها عنده

وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ . . . ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1409.1415 ﴾

(63/116)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قوله جلّ ذكره : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

من حقائق الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله .

وأوْلى مَنْ تسومه الهجرانَ والإعراضَ عن الكفار - نَفْسُك ؛ فإنها مجبولةٌ على المجوسية

حيث تقول : لي ومني وبي (1) ، وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ ﴾ [التوبة : 123] .

وإن الإيمان في هذه الطريقة عزيز ، ومن لا إيمان له بهذه الطريقة من العوام - وإن كانوا قد

بلغوا من الزهد والجهد مبلغاً عظيماً – فليسوا بأهل لموالاتك ، والشكل بالشكل أليق .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِى شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ .

صحبة الحق سبحانه وقربته لا تكون مقرونة بصحبة الأضداد وقربتهم – ألبتة .

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ : هذا خطاب للخواص من أهل المعرفة ، فأمّا الذين نزلت رُتْبَتُهم عن هذا فقال لهم : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى ﴾ [آل عمران : 131] وقال : ﴿ واتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ . . ﴾ [البقرة : 281] . إلى غير ذلك من الآيات .

ويقال : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ أن يكون عندكم أنكم وصلتم ؛ فإن خفايا المكر تعتري الأكابر ، قال قائلهم :

وأمِنْتُه فأتاح لي من مأمني . . . مكراً ، كذا مَنْ يأمن الأحبابا

ويقال : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ لأن يجري في وهم أحد أنه يصل إليه مخلوق ، أو يطأ بساطَ العِزّ قَدَمُ همة بشر ، جلّتْ الأحدية وعزّت !

وإنّ من ظن أنه أقربهم إليه ففي الحقيقة أنه أبعدهم عنه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 233 ﴾

---

(1) وإلى هذا يشيرون حين يقولون (التوحيد إسقاط الياءات) الرسالة ص 149 . لأن

التوحيد الحق لا يقتضى شعورك بما سوى الموحّد ، ولكن النفس مجبولة على الدعوى .

وهذا شرك خفى .

(64/116)

" فصل "

قال السيوطى :

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (28)

أخرج ابن إسحق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان الحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف ، وابن أبي الحقيق ، وقيس بن زيد ، قد بطنوا بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم فقال رفاعة بن المنذر ، وعبدالله بن جبير ، وسعد بن خيثمة ، لأولئك النفر : اجتنبوا هؤلاء النفر من يهود واحذروا مباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم . فأبى أولئك النفر ، فأنزل الله فيهم ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين ﴾ إلى قوله ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ .

وأخرج ابن جرير وأبي المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس قال : نهى الله

المؤمنين أن يلاطفوا الكفار ويتخذوهم وليجة من دون المؤمنين ، إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين أولياء ، فيظهرون لهم اللطف ، ويخالفونهم في الدين . وذلك قوله ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي ﴿ ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ﴾ فقد برىء الله منه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ فالتقية باللسان من حمل على أمر يتكلم به وهو معصية لله فيتكلم به مخافة الناس وقلبه مطمئن بالإيمان ، فإن ذلك لا يضره إنما التقية باللسان .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في سننه من طريق عطاء عن ابن عباس ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ قال ﴿ التقاة ﴾ التكلم باللسان والقلب مطمئن بالإيمان ، ولا يبسط يده فيقتل ولا إلى إثم فإنه لا عذر له .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ قال : إلا مصانعة في الدنيا ومخالقة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية في الآية قال ﴿ التقية ﴾ باللسان وليس بالعمل .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ قال : إلا أن يكون بينك وبينه قرابة فتصله لذلك .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : ﴿ التقية ﴾ جائزة إلى يوم القيامة .

وأخرج عبد عن أبي رجاء أنه كان يقرأ " إلا تتقوا منهم تقية " .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه كان يقرؤها ﴿ إلا أن تتقوا منه تقية ﴾ بالياء .

وأخرج عبد بن حميد من طريق أبي بكر بن عياش عن عاصم ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ بالألف ورفع التاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 176 . 177 ﴾

(66/116)

قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (29) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانت الموالاة بالباطن المنهي عنها مطلقاً ودائماً قد تفعل ويدعى نفيها لخفائها أمره صلى الله عليه وسلم بتحذيرهم من موالاة أعدائه على وجه النفاق أو غيره فقال: ﴿ قُلْ إِنْ تُخْفُوا ﴾

وقال الحرالي: ولما كان حقيقة ما نهى عنه في الولاية والتقاة أمراً باطناً يترتب عليه فعل ظاهر فوقع التحذير فيه على الفعل كرر فيه التحذير على ما وراء الفعل مما في الصدور ونبه فيه على منال العلم خفية، فإنه قد يترك الشيء فعلاً ولا تترك النفس الغية صغواً ونزوعاً إليه في أوقات، وكرر في ختمه التحذير ليتثنى التحذيران ترقياً من الظاهر في الفعل إلى باطن الحماية في العلم خفية، فإنه قد يترك الشيء فعلاً ولا تترك النفس الغية صغواً ونزوعاً إليه في أوقات، وكرر في ختمه التحذير ليتثنى التحذيران ترقياً من الظاهر في الفعل إلى باطن الحماية في العلم كما تثنى الأمران في الظاهر والباطن، وكان في إجراء هذا الخطاب على لسان النبي صلى الله عليه وسلم حجة عليهم بما أنه بشر مثلهم يلزمهم الاقتداء به فيما لم يبادروا إلى أخذه من الله في خطابه الذي عرض به نحوهم؛ انتهى.

فقال تعالى -: ﴿ قل إن تخفوا ﴾ أي يا أيها المؤمنون ﴿ ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ﴾ أي المحيط قدرة وعلماً، ثم قال عاطفاً على جملة الشرط التي هي مقول القول إرادة التعميم: ﴿ ويعلم ما ﴾ أي جميع ما ﴿ في السموات ﴾ ولما كان الإنسان مطبوعاً على

ظن أنه إذا أخفي شيئاً في نفسه لا يعلمه غيره أكد بإعادة الموصول فقال : ﴿ وما ﴾ أي وجميع ما ﴿ في الأرض ﴾ ظاهراً كان أو باطناً .

(67/116)

ولما كان ذو العلم لا يكمل إلا بالقدرة ، وكان يلزم من تمام العلم شمول القدرة – كما سيأتي إن شاء الله تعالى برهانه في سورة طه – كان التقدير : فالله بكل شيء عليم ، فعطف عليه قوله : ﴿ والله ﴾ أي بما له من صفات الكمال ﴿ على كل شيء قدير ﴾ ومن نمط ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ [آل عمران : 5] مع ذكر التصوير كيف يشاء والختم بوصفي العزة والحكمة ، وقد دل سبحانه وتعالى بالتفرد بصفتي العلم والقدرة على التفرد بالألوهية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 59. 60 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما نهى المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء ظاهراً وباطناً واستثنى عنه التقية في الظاهر أتبع ذلك بالوعيد على أن يصير الباطن موافقاً للظاهر في وقت التقية ، وذلك لأن من أقدم عند التقية على إظهار الموالاة ، فقد يصير إقدامه على ذلك الفعل بحسب الظاهر

سبباً لحصول تلك الموالاة في الباطن ، فلا جرم بيّن تعالى أنه عالم بالبواطن كعلمه بالظواهر ، فيعلم العبد أنه لا بد أن يجازيه على كل ما عزم عليه في قلبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 13 ﴾

قال أبو حيان :

المفهوم أن الباري تعالى مطلع على ما في الضمائر ، لا يتفاوت علمه تعالى بخفاياها ، وهو مرتب على ما فيها الثواب والعقاب إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وفي ذلك تأكيد لعدم الموالاة ، وتحذير من ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 444 ﴾

أسئلة وأجوبة

السؤال الأول : هذه الآية جملة شرطية فقوله ﴿ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ ﴾ شرط وقوله ﴿ يَعْلَمْهُ الله ﴾ جزاء ولا شك أن الجزاء مترتب على الشرط متأخر عنه ، فهذا يقتضي حدوث علم الله تعالى .

والجواب : أن تعلق علم الله تعالى بأنه حصل الآن لا يحصل إلا عند حصوله الآن ، ثم أن هذه التبدل والتجدد إنما وقع في النسب والإضافات والتعليقات لا في حقيقة العلم ، وهذه المسألة لها غور عظيم وهي مذكورة في علم الكلام .

السؤال الثاني : محل البواعث والضمائر هو القلب ، فلم قال : ﴿ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ ﴾ ولم يقل إن تخفوا ما في قلوبكم ؟ .

الجواب : لأن القلب في الصدر ، فجاز إقامة الصدر مقام القلب كما قال : ﴿ يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ الناس ﴾ [الناس : 5] وقال : ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فِى الصدور ﴾ [الحج : 46] .

السؤال الثالث : إن كانت هذه الآية وعيداً على كل ما يخطر بالبال فهو تكليف ما لا يطاق .

الجواب : ذكرنا تفصيل هذه الكلام في آخر سورة البقرة في قوله ﴿ للَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ الله ﴾ [البقرة : 284] .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 14.13 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾

قال أبو حيان :

﴿ ويعلم ما في السموات وما في الأرض ﴾ هذا دليل على سعة علمه ، وذكر عموم بعد

خصوص ، فصار علمه بما في صدورهم مذكوراً مرتين على سبيل التوكيد ، أحدهما : بالخصوص ، والآخر : بالعموم ، إذ هم ممن في الأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 444 ﴾

فائدة

قال الفخر :

اعلم أنه رفع على الاستئناف ، وهو كقوله ﴿ قاتلوهم يُعَذِّبْهُمُ الله ﴾ [التوبة : 14] جزم الأفاعيل ، ثم قال : ﴿ وَيَتُوبَ الله ﴾ فرفع ، ومثله قوله ﴿ فَإِن يَشَإِ الله يَخْتِمْ على قَلْبِكَ وَيَمْحُ الله الباطل ﴾ [الشورى : 24] رفعاً ، وفي قوله ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ غاية التحذير لأنه إذا كان لا يخفى عليه شيء فيهما فكيف يخفى عليه الضمير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 14 ﴾

قال ابن عادل :

(69/116)

قوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ من باب ذكر العام بعد الخاص . ﴿ مَا فِى صُدُورِكُمْ ﴾ ، وقدَّم - هنا - الإخْفَاءَ على الإبداء وجعل محلهما الصدور ،

بخلاف آية البقرةِ – فإنه قدَّم فيها الإبداء على الإخفاء ، وجعل محلهما النفس ، وجعل جواب الشرطِ المحاسبة ؛ تفنُّناً في البلاغة ، وذكر ذلك للتحذير ؛ لأنه إذا كان لا يخفى عليه شيء فكيف يَخْفَى عليه الضميرُ ؟ انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 147 ﴾

قوله تعالى : ﴿ والله على كُلّ شَيْء قَدِيرٌ ﴾

قال الفخر :

قال تعالى : ﴿ والله على كُلّ شَيْء قَدِيرٌ ﴾ إتماماً للتحذير ، وذلك لأنه لما بيّن أنه تعالى عالم بكل المعلومات كان عالماً بما في قلبه ، وكان عالماً بمقادير استحقاقه من الثواب والعقاب ، ثم بيّن أنه قادر على جميع المقدورات ، فكان لا محالة قادراً على إيصال حق كل أحد إليه ، فيكون في هذا تمام الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 14 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ والله على كُلّ شَيْء قَدِيرٌ ﴾ إثبات لصفة القدرة بعد إثبات صفة العلم وبذلك يكمل وجه التحذير ، فكأنه سبحانه قال : ويحذركم الله نفسه لأنه متصف بعلم ذاتي محيط بالمعلومات كلها وقدرة ذاتية شاملة للمقدورات بأسرها فلا تجسروا على عصيانه وموالاة أعدائه إذ ما من معصية خفية كانت أو ظاهرة إلا وهو مطلع عليها وقادر على العقاب

بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 126 ﴾

فائدة

قال أبو السعود :

وإظهارُ الاسم الجليل في موضع الإضمارِ لتربية المهابة وتهويلِ الخطب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 23 ﴾

(70/116)

فائدة

قال الطبرى فى معنى الآية :

يعني بذلك جل ثناؤه : "قل" يا محمد ، للذين أمرتهم أن لا يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين "إن تخفوا ما في صدوركم" من موالاة الكفار فتُسِرُّوه ، أو تبدوا ذلكم من نفوسكم بألسنتكم وأفعالكم فتظهروه "يعلمه الله" ، فلا يخفى عليه . يقول : فلا تُضمروا لهم مودّةً ولا تظهروا لهم موالاة ، فينالكم من عقوبة ربكم ما لا طاقة لكم به ، لأنه يعلم سرّكم وعلانيتكم ، فلا يخفى عليه شيء منه ، وهو مُحصيه عليكم حتى يجازَيكم عليه بالإحسان إحسانًا ، وبالسيئة مثلها .

وأما قوله : "ويعلم ما في السموات وما في الأرض" ، فإنه يعني أنه إذ كان لا يخفى عليه شيء هو في سماء أو أرض أو حيث كان ، فكيف يخفى عليه - أيها القوم الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين - ما في صدوركم من الميْل إليهم بالمودة والمحبة ، أو ما تبدونه لهم بالمعونة فعلا وقولا .

وأما قوله : "والله على كل شيء قدير" ، فإنه يعني : والله قديرٌ على معاجلتكم بالعقوبة على مُوالاتكم إياهم ومظاهرتكموهم على المؤمنين ، وعلى ما يشاء من الأمور كلها ، لا يتعذَّر عليه شيء أراده ، ولا يمتنع عليه شيء طلبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 318 ﴾ . بتصرف يسير .

(71/116)

وقال الزمخشرى :

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى السماوات وَمَا فِى الارض ﴾ لا يخفى عليه منه شيء قط . فلا يخفى عليه سركم وعلنكم ﴿ والله على كُلّ شَيْء قَدِيرٌ ﴾ فهو قادر على عقوبتكم . وهذا بيان لقوله : ﴿ وَيُحَذّرُكُمُ الله نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : 28] لأنّ نفسه وهي ذاته المميزة من سائر الذوات ، متصفة بعلم ذاتي لا يختص بمعلوم دون معلوم ، فهي متعلقة بالمعلومات كلها

وبقدرة ذاتية لا تختص بمقدور دون مقدور ، فهي قادرة على المقدورات كلها ، فكان حقها أن تحذر وتتقى فلا يجسر أحد على قبيح ولا يقصر عن واجب ، فإن ذلك مطلع عليه لا محالة فلاحق به العقاب ، ولو علم بعض عبيد السلطان أنه أراد الإطلاع على أحواله ، فوكل همه بما يورد ويصدر ، ونصب عليه عيوناً ، وبث من يتجسس عن بواطن أموره ، لأخذ حذره وتيقظ في أمره ، واتقى كل ما يتوقع فيه الاسترابة به ، فما بال من علم أنّ العالم الذات الذي علم السر وأخفى مهيمن عليه وهو آمن . اللهم إنا نعوذ بك من اغترارنا بسترك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشاف حـ 1 صـ 352 ﴾

وقال ابن كثير :

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر ، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية ، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والآنات واللحظات وجميع الأوقات ، وبجميع ما في السموات والأرض ، لا يغيب عنه مثقال ذرة ، ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال ، وهو ﴿ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي : قدرته نافذة في جميع ذلك .

وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته ، وألا يرتكبوا ما نهى عنه وما يَبْغضه منهم ، فإنه عالم بجميع أمورهم ، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة ، وإنْ أنظر من أنظر منهم ، فإنه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر ؛ ولهذا قال بعد هذا : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ

خَيْرٍ مُحْضَرًا [وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا] ﴾ . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 31 ﴾

(72/116)

من فوائد ابن عاشور فى الآية :

﴿ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [29] .

انتقال من التحذير المجمل إلى ضرب من ضروب تفصيله ، وهو إشعار لمحذر باطلاع الله على ما يخفونه من الأمر .

وذكر الصدور هنا والمراد البواطن والضمائر : جريا على معروف اللغة من إضافة الخواطر النفسية إلى الصدر والقلب ، لأن الانفعالات النفسانية وترددات التفكر ونوايا النفوس كلها يشعر لها بحركات في الصدور .

وزاد أو تبدوه فأفاد تعميم العلم تعليما لهم بسعة علم الله تعالى لأن مقام إثبات صفات الله تعالى يقتضي الإيضاح.

وجملة : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ معطوفة على جملة الشرط فهي

معمولة لفعل قل ، وليست معطوفة على جواب الشرط : لأن علم الله بما في السماوات وما في الأرض ثابت مطلقا غير معلق على إخفاء ما في نفوسهم وإبدائه وما في الجملة من التعميم يجعلها في قوة التذييل .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ إعلام بأنه مع العلم ذو قدرة على كل شيء ، وهذا من التهديد ؛ إذ المهدد لا يحول بينه وبين تحقيق وعيده إلا أحد أمرين : الجهل بجريمة المجرم ، أو العجز عنه ، فلما أعلمهم بعموم علمه ، وعموم قدرته ، علموا أن الله لا يفلتهم من عقابه .

وإظهار اسم الله دون ضميره فلم يقل وهو على كل شيء قدير : لتكون الجملة مستقلة فتجري مجرى المثل ، والجملة لها معنى التذييل . والخطاب للمؤمنين تبعا لقوله : ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : 28] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 76 ﴾

لطيفة

قال القشيري :

لا يَعْزُبُ معلوم عن علمه ، فلا تحتشم من نازلة بك تسوءك ، فعن قريب سيأتيك الغوث والإجابة ، وعن قريب سيزول البلاء والمحنة ، ويُعَجِّلُ المددَ والكفاية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 234 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾

لأن الإنسان قد يقوم بالتقية كظاهرة شكلية ، أما المؤمن فلا يفعل ذلك أبدا . لماذا ؟ لأن التحذير واضح في هذه الآية . هنا قد يقول قائل : إن إخفاء ما في الصدر هو الذي يعلمه الله أما إبداء ما في الصدر فإنه قد علمه أحد غير الله ، فلماذا جاء هذا القول ؟ لقد جاء هذا القول الحكيم ، لأنه قد يطرأ على بالك أن الله غيب فهو يعلم الغيب فقط ولا يعلم المشهد . لكن الله لا يحجبه مكان عن مكان أو زمان عن زمان . فإياك أن تعتقد ان الله غيب فلا يعرف إلا الغيب . إن الحق يعلم الغيب ويعلم ما برز إلى الوجود . وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 1416.1415 ﴾

"من روائع الشيخ الصابونى فى الآيتين"

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (28) قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (29) ﴾

[1] النهي عن موالاة الكافرين

التحليل اللفظي

﴿ أَوْلِيَآءَ ﴾ : جمع ولي ، وهو في اللغة بمعنى الناصر والمعين .

قال الراغب : وكلّ من ولي أمراً الآخر فهو وليه ومنه قوله تعالى : ﴿ الله وَلِيُّ الذين آمَنُواْ ﴾ [البقرة : 257] .

﴿ تقاة ﴾ : مصدر بمعنى التقيّة وهي أن يداري الإنسان مخافة شرّه .

قال ابن عباس : " التقيّة مداراة ظاهرة ، وقد يكون الإنسان مع الكفار أو بين أظهرهم ، فيتقيهم بلسانه ولا مودة لهم في قلبه " .

قال القرطبي : وأصل تُقَاة (وُقَية) على وزن فُعَلَة مثل : تُؤَدة وتُهَمَة ، قلبت الواو تاء والياء ألفاً .

وقال أبو حيان : والمصدر على فُعَلة جاء قليلاً ولو جاء على المقيس لكان اتقاءً ونظيره

قوله تعالى : ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ [المزمل : 8] .

والمعنى : إلا أن تخافوا منهم خوفاً فلا بأس بإظهار مودتهم باللسان تقية ومداراة دفعاً لشرهم وأذاهم من غير اعتقاد بالقلب .

﴿ المصير ﴾ : المرجع والمآب ، والمعنى : رجوعكم ومآبكم إلى الله فيجازيكم على أعمالكم .

"وجه المناسبة"

(75/116)

لما بيّن تعالى في الآيات السابقة أنه مالك الملك ، المعز المذل ، المتصرف في الكون حسب مشيئته وإرادته ، وأنه القادر على إعطاء الملك لمن شاء ، ونزعه ممن شاء ، وأن العزة والذلة بيده ، نهى المؤمنين في هذه الآيات عن موالاة أعدائه لتكون الرغبة فيما عنده دون أعدائه الكافرين .

سبب النزول

1 - نزلت هذه الآية الكريمة في شأن قوم من المؤمنين كان لهم أصحاب من اليهود كانوا يوالونهم فقال لهم بعض الصحابة : اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا مصاحبتهم لئلا يفتنوكم

عن دينكم ويضلوكم بعد إيمانكم فأبى أولئك النصيحة ، وبقوا على صداقتهم ومصاحبتهم لهم فنزلت الآية الكريمة ﴿ لَّا يَتَّخِذِ المؤمنون الكافرين أَوْلِيَآءَ . . . ﴾ الآية .

2 – وروى القرطبي في " تفسيره " عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في (عُبَادة بن الصامت) الأنصاري البدري ، كان له حلفاء من اليهود فلّما خرج النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب قال له عُبادة : يا نبيّ الله إن معي خمسمائة من اليهود ، وقد رأيت أن يخرجوا معي فأستظهر بهم على العدو ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ المؤمنون الكافرين أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ المؤمنين ﴾ الآية .

المعنى الإجمالي

نهى الله عزّ وجلّ عباده المؤمنين عن موالاة الكافرين أو التقرب إليهم بالمودة والمحبّة ، أو مصادقتهم لقرابة أو معرفةٍ ، لأنه لا ينبغي للمؤمنين أن يوالوا أعداء الله إذ من غير المعقول أن يجمع الإنسان بين محبة الله عز وجل وبين محبة أعدائه لأنه جمع بين النقيضين فمن أحبّ الله أبغض أعداءه .

فلا يجوز للمسلم أن يوالي غير المؤمنين فيتخذ من الكفّار الذين يتربصون بالمؤمنين السوء أولياء يصادقهم ويتودّد إليهم أو يستعين بهم ويترك إخوانه المؤمنين فليس بين الإيمان والكفر نسب وصلة ، فالآية الكريمة تحذّر من موالاة الكافرين إلا في حال الضرورة وهو حال اتقاء شرهم وتجنب ضررهم أو الخوف منهم فتجوز موالاتهم بشرط أن يقتصر ذلك على الظاهر مع إضمار الكراهية والبغض لهم في الباطن ، ثم ختمت الآية الكريمة بالوعيد الشديد الذي يدل على عظم الذنب الذي يرتكبه من يخالف أوامر الله ويوالي أعداءه .

وجوه القراءات

1 - قرأ الجمهور ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تقاة ﴾ وقرأ يعقوب وأبو الرجاء والمفضّل (تقيّه) بالياء المشدّدة ووزنها فعيلة والتاء بدل من الواو .

وجوه الإعراب

أولاً : قوله تعالى : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ المؤمنون الكافرين أَوۡلِيَآءَ ﴾ لا ناهية جازمة والفعل بعدها مجزوم وحرك بالكسر للتخلص من التقاء الساكنين و (يتخذ) ينصب مفعولين (الكافرين) مفعول أول و (أولياء) مفعول ثان .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تقاة ﴾ الاستثناء مفرغ من عموم الأحوال أي لا تتخذوهم أولياء في حالٍ من الأحوال إلاّ في حال اتقاء شرهم وضررهم ، و (تقاة) مفعول مطلق لـ (تتقوا) وجوّز بعضهم أن يكون مفعولاً به أي إلا أن تتقوا شيئاً حاصلاً من جهتهم

.

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : التعبير بقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك ﴾ بدل قوله : (ومن يتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين) للاختصار ، واستهجاناً بذكره ، وتقبيحاً لهذا الصنيع ، فموالاة الكافرين من أقبح القبائح عند الله .

(77/116)

اللطيفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ ﴾ ليس من الله ، أي ليس من دين الله أو شرع الله ، فهو على حذف مضاف ، والتنكير في شيء للتحقير أي ليس هذا في قليل أو كثير من دين الله ، لأنه جمع بين المتناقضين ، وقد قال الشاعر :

تودّ عدّوي ثم تزعم أنني . . . صديقك ليس النوك عند بعازب

اللطيفة الثالثة : في قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تقاة ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب ، ولو جاء على النظم الأول لكان (إلا أن يتقوا) .

اللطيفة الرابعة : إظهار اسم الجلالة مكان الإضمار في قوله تعالى : ﴿ وإلى الله المصير ﴾ لتربية المهابة والروعة في النفس وتقديم الخبر على المبتدأ يفيد الحصر .

" الآيات الدالة على تحريم موالاة الكافرين " .

وفي هذا المعنى الذي ذكرناه وهو حرمة موالاة الكافرين نزلت آيات كثيرة منها ما هو خاص بأهل الكتاب ومنها ما هو عام للمشركين نكتفي بذكر بعض هذه الآيات الكريمة .

1 – قال تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ اليهود والنصارى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [المائدة : 51] .

2 – وقال تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمودة . . . ﴾ [الممتحنة : 1] .

3 – وقال تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الذين اتخذوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلِكُمْ والكفار أَوْلِيَاءَ واتقوا الله إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : 57] .

4 – وقال تعالى :

﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً . . . ﴾ [آل عمران : 118] .

5 – وقال تعالى : ﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ الله وَرَسُولَهُ . . . ﴾ [المجادلة : 22] .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول: ما هو حكم الاستعانة بالكفار في الحرب ؟

اختلف الفقهاء في جواز الاستعانة بالكفار في الحرب على مذهبين :

1 – مذهب المالكية : أنه لا يجوز الاستعانة بالكفار في الغزو أخذاً بظاهر الآية الكريمة واستدلوا بما ورد في قصة (عبادة بن الصامت) كما وضّحها سبب النزول . واستدلوا كذلك بما روته عائشة رضي الله عنها أن رجلاً من المشركين كان ذا جرأة ونجدة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر يستأذنه في أن يحارب معه فقال صلى الله عليه وسلم له : "ارجع فلن استعين بمشرك" .

ب – مذهب الجمهور (الشافعية والحنابلة والأحناف) : قالوا يجوز الاستعانة بالكفار في الحرب بشرطين : أولاً : الحاجة إليهم . وثانياً : الوثوق من جهتهم ، واستدلوا على مذهبهم بفعل النبي صلى الله عليه وسلم فقد استعان بيهود فينقاع وقَسَمَ لهم ، واستعان بصفوان بن أمية في هوازن ، فدلّ ذلك على الجواز ، وقالوا في الردّ على أدلة المالكية إنها منسوخة بفعله صلى الله عليه وسلم وعمله ، وقال بعضهم : إن ما ذكره المالكية يحمل على عدم الحاجة أو عدم الوثوق حيث أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يثق من جهته ، وبذلك يحصل الجمع بين أدلة المنع وأدلة الجواز .

الحكم الثاني: ما معنى التقية وما هو حكمها ؟

قال ابن عباس: التقية أن يتكلم بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا يقتل ولا يأتي مأثماً .

وعرّف بعضهم التقيّة بأنها المحافظة على النفس والمال من شرّ الأعداء فيتقيهم الإنسان بإظهار الموالاة من غير اعتقادٍ لها .

(79/116)

قال "الجصاص" في "أحكام القرآن": "وقد اقتضت الآية جواز اظهار الكفر عند التقية وهو نظير قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ [النحل: 106] وإعطاء التقية في مثل ذلك إنما هو رخصة من الله تعالى وليس بواجب، بل ترك التقيّة أفضل . قال أصحابنا فيمن أكره على الكفر فلم يفعل حتى قُتل إنه أفضل ممن أظهر، وقد أخذ المشركون (خُبَيْب بن عدي) فلم يعط التقية حتى قتل فكان عند المسلمين أفضل من (عمار بن ياسر) حين أعطى التقية وأظهر الكفر، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فقال كيف وجدت قلبك ؟ قال: مطمئناً بالإيمان، فقال صلى الله عليه وسلم "وإن عادوا فعد . . . " . وكان ذلك على وجه الترخيص .

" قصة مسيلمة الكذاب مع بعض الصحابة "

روي أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال لأحدهما أتشهد أنّ محمداً رسول الله ؟ قال : نعم ، قال : أتشهد أني رسول الله ؟ قال : نعم ، فترك سبيله ، ثم دعا بالآخر ، وقال : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم ، قال أتشهد أني رسول الله ؟ قال : إني أصم ، قالها ثلاثاً ، فضرب عنقه ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " أمّا هذا المقتول فمضى على صدقه ويقينه وأخذ بفضيلة فهنيئاً له ، وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه " .

الحكم الثالث : هل تجوز تولية الكافر واستعماله في شؤون المسلمين ؟

استدل بعض العلماء بهذه الآية الكريمة على أنه لا يجوز تولية الكافر شيئاً من أمور المسلمين ولا جعلهم عمالاً ولا خدماً ، كما لا يجوز تعظيمهم وتوقيرهم في المجلس والقيام عند قدومهم فإن دلالته على التعظيم واضحة ، وقد أُمِرْنا باحتقارهم ﴿ إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ ﴾ [التوبة : 28] .

قال (ابن العربي) : وقد نهى عمر بن الخطاب أبا موسى الأشعري بذمي كان استكتبه باليمن وأمره بعزله .

قال (الجصاص) : (وفي هذه الآية ونظائرها دلالة على أن لا ولاية للكافر على المسلم في شيء ، وأنه إذا كان الكافر ابن صغير مسلم بإسلام أمه ، فلا ولاية له عليه في تصرف ولا تزويج ولا غيره ، ويدل على أنّ الذمي لا يعقل جناية المسلم ، وكذلك المسلم لا يعقل جنايته ، لأن ذلك من الولاية والنصرة والمعونة) .

ومما يؤيد هذا الرأي ويرجحه قوله تعالى : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى المؤمنين سَبِيلاً ﴾ [النساء : 141] .

الحكم الرابع : حكم المداراة لأهل الشر والفجور :

تجوز مداراة أهل الشر والفجور ، ولا يدخل هذا في الموالاة المحرمة فقد كان عليه الصلاة والسلام يداري الفسّاق والفجّار وكان يقول : "إنا لنَبشُّ في وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم" أو كما قال ، قال بعض العلماء : إن كانت فيما لا يؤدي إلى ضرر الغير كما أنها لا تخالف أصول الدين فذلك جائز ، وإن كانت تؤدي إلى ضرر الغير كالقتل والسرقة وشهادة الزور فلا تجوز البتة ، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

1 - موالاة الكافرين ، ومحبتهم ، والتودّد إليهم محرمة في شريعة الله .

2 - التقية عند الخوف على النفس أو المال ، أو التعرض للأذى الشديد .

3 - الإكراه يبيح للإنسان التلفظ الكفر بشرط أن يبقى القلب مطمئناً بالإيمان .

4 – لا صلة بين المؤمن والكفر بولاية ، أو نصرة ، أو توارث ، لأن الإيمان يناقض الكفر .

5 – الله تعالى مطلع على خفايا النفوس لا تخفى عليه خافية من أمور عباده . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روائع البيان فى أحكام القرآن حـ 1 صـ 397.404 ﴾

(81/116)

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (30) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تم الوصف بالعلم والقدرة بعد التحذير من سطواته ذكر يوم المصير المحذر منه ، المحصى فيه كل كبير وصغير ، المعامل فيه كل عامل بما يليق به ، الذي يتم فيه انكشاف الأوصاف لكل ذكي وغبي فقال تعالى : ﴿ يوم ﴾ وهو معمول لعامل من معنى " يحذر " ﴿ تجد كل نفس ﴾ والذي يرشد إلى تعيين تقدير هذا العامل – إذا جعل العامل مقدراً – قوله سبحانه وتعالى ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ [آل عمران : 28] سابقاً لها ولاحقاً ، ويجوز أن يكون بدلاً من يوم في قوله ﴿ ليوم لا ريب فيه ﴾ [آل عمران : 9] وتكون فتحته للبناء لإضافته

إلى الجملة - والله سبحانه وتعالى أعلم، والمراد بالنفس - والله سبحانه وتعالى أعلم - المكلفة ﴿ ما عملت من خير محضراً ﴾ أي لا نقص فيه ولا زيادة، بأمر القاهر القادر على كل شيء ﴿ وما عملت من سوء ﴾ حاضراً ملازماً، فما عملت من خير تود أنها لا تفارقه ولا ينقص منه شيء [وما عملت من سوء ﴿ تود ﴾ أي تحب حباً شديداً ﴿ ولو أن بينها وبينه ﴾ أي ذلك العمل السوء ﴿ أمداً ﴾ أي زماناً.

قال الحرالي: وأصله مقدار ما يستوفي جهد الفرس من الجري، فهو مقدار ما يستوفي ظهور ما في التقدير إلى وفاء كيانه ﴿ بعيداً ﴾ من البعد، وهو منقطع الوصلة في حس أو معنى - انتهى.

فالآية من الاحتباك: ذكر إحضار الخير دلالة على حضور السوء، وود بعد السوء دلالة على ود لزوم الخير.

(82/116)

ولما ذكر هول ذلك اليوم كان كأنه قال: فاتقوه فإن الله يحذركموه ﴿ ويحذركم الله ﴾ أي الذي له العظمة التي لا يحاط بها ﴿ نفسه ﴾ فالله سبحانه وتعالى منتقم ممن تعدى طوره ونسي أنه عبد، قال الحرالي: أن تكون لكم أنفس فتجد ما عملت، ويلزمها وطأة هذه

المؤاخذة ، بل الذي ينبغي أن يبرىء العبد من نفسه تبرئته من أن يكون له إرادة ، وأن يلاحظ علم الله وقدرته في كلية ظاهره وباطنه وظاهر الكون وباطنه – انتهى .

ولما كان تكرير التحذير قد ينفر بين أن تحذيره للاستعطاف ، فإنه بنصب الأدلة وبعث الدعاة والترغيب في الطاعة والترهيب من المعصية المسبب عنه سعادة الدارين ، فهو من رأفته بالمحذرين فقال بانياً على ما تقديره : ويعدكم الله سبحانه وتعالى فضله ويبشركم به لرأفته بكم : ﴿ والله ﴾ أي والحال أن الذي له وحده الجلال والإكرام ﴿ رؤوف بالعباد ﴾ قال الحرالي : فكان هذا التحذير الخاتم ابتدائياً ، والتحذير السابق انتهائياً ، فكان هذا رأفة سابقة ، وكان الأول الذي ترتب على الفعل تحذيراً لاحقاً متصلاً بالمصير إلى الله ، وهذا الخاتم مبتدأً بالرأفة من الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 60 .

61 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن العمل لا يبقى ، ولا يمكن وجدانه يوم القيامة ، فلا بد فيه من التأويل وهو من وجهين الأول : أنه يجد صحائف الأعمال ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية : 29] وقال : ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة : 6]

الثاني : أنه يجد جزاء الأعمال وقوله تعالى : ﴿ مُّحْضَرًا ﴾ يحتمل أن يكون المراد أن تلك الصحائف تكون محضرة يوم القيامة ، ويحتمل أن يكون المعنى : أن جزاء العمل يكون محضراً ، كقوله ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ﴾ [الكهف : 49] وعلى كلا الوجهين ، فالترغيب والترهيب حاصلان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 14 . 15 ﴾

(83/116)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾

قال ابن عادل :

المعنى : ﴿ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ ﴾ يعني : لو أن بين النفس وبين السوء أمداً بعيداً .

قال السُّدّيّ : مكاناً بعيداً .

وقال مقاتلٌ : كما بين المَشرق والمَغْرِب ؛ لقوله تعالى : ﴿ ياليت بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المشرقين ﴾ [الزخرف : 38] .

قال الحسنُ : يسر أحدهم أن لا يلقى عمله أبداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 155 . 156 ﴾

قال الفخر :

الأمد ، الغاية التي ينتهي إليها ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ ياليت بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المشرقين فَبِئْسَ القرين ﴾ [الزخرف : 38] .

واعلم أن المراد من هذا التمني معلوم ، سواء حملنا لفظ الأمد على الزمان أو على المكان ، إذ المقصود تمني بعده ، ثم قال : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ ﴾ وهو لتأكيد الوعيد . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 15 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

فى ناصب "يوم" أوجه :

أحدها : أنه منصوب بـ " قَدِيرٌ " ، أي : قدير في ذلك اليوم العظيم ، لا يقال : يلزم من ذلك تقييد قدرته بزمان ؛ لأنه إذا قدر في ذلك اليوم الذي يُسْلَب فيه كلُّ أحدٍ قدرته ، فلأنْ يقدرَ في غيره بطريق الأولى . وإلى هذا ذهب ابو بكر ابن الأنباري .

الثاني : أنه منصوب بـ "يُحَذِّرُكُمْ " ، أي : يخوفكم عقابه في ذلك اليوم ، وإلى هذا نحا أبو إسحاق ، ورجحه .

ولا يجوز أن ينتصب بـ "يُحَذِّرُكُمْ " المتأخرة .

قال ابن الأنباري : لا يجوز أن يكون اليوم منصوباً بـ "يُحَذِّرُكُمْ" المذكور في هذه الآية ؛ لأن واو النسق لا يعمل ما بعدها فيما قبلها " .

(84/116)

وعلى ما ذكره أبو إسحاق يكون ما بين الظرفِ وناصبه معترضاً ، وهو كلامٌ طويلٌ ، والفصل بمثله مستبعد ، هذا من جهة الصناعة ، وأما من جهة المعنى ، فلا يصح ؛ لأن التخويف لم يقع في ذلك اليوم ؛ لأنه ليس زمانَ تكليف ؛ لأن التخويف موجود ، واليوم موعود ، فكيف يتلاقيان ؟

قال : أن يكون منصوباً بالمصير ، والتقدير : وإلى الله المصير يومَ تجِدُ ، وإليه نحا الزّجّاجُ – أيضاً – وابن الأنباري ومكيٌّ ، وغيرُهم ، وهذا ضعيف على قواعد البصريين ؛ للزوم الفصل بين المصدر ومعموله بكلامٍ طويلٍ .

وقد يقال : إن جُمَلَ الاعتراض لا يُبَالَى بها في الفصل ، وهذا من ذاك .

الرابع : أن يكون منصوباً بـ " اذكر " مقدراً ، فيكون مفعولاً به لا ظرفاً ، وقدر الطبريُّ الناصب له " اتَّقُوا " ، وفي التقدير ما فيه من كونه على خلاف الأصلِ ، مع الاستغناء عنه .

الخامس : أن العامل فيه ذلك المضاف المقدر قبل " نفسه " ، أي : يحذركم اللهُ عقاب نفسه

يوم تجد ، فالعامل فيه " عقاب " لا " يحذركم " قاله أبو البقاء ، وفي قوله : " لا يُحَذِّرُكُمْ " فرار عما أورد على أبي إسحاق كما تقدم .

السادس : أنه منصوب بـ " تَوَدُّ " .

قال الزمخشريُّ : " يَوْمَ تَجِدُ " منصوب بـ " تَوَدُّ " والضمير في " بينه " لليوم ، أي : يوم القيامة حين تجد كل نفس خيرها وشرها تتمنى لو أن بينها ، وبين ذلك اليوم ، وهَوْله أمداً بعيداً " .

وهذا ظاهر حسنٌ ، ولكن في هذه المسألة خلافٌ ضعيف ؛ جمهور البصريين والكوفيين على جوازها ، وذهب الأخفشُ الفرّاءُ إلى مَنْعِهَا .

(85/116)

وضابط هذه المسألة أنه إذا كان الفاعلُ ضميراً عائداً إلى شيء مُتَّصِلٍ بمعمولِ الفعلِ نحو : ثَوْبَيْ أخَوْيك يلبسان ، فالفاعل هو الألف ، وهو ضمير عائد على " أخويك " المتصلين بمفعول " يلبسان " ومثله : غلام هندٍ ضرَبَتْ ، ففاعل " ضربت " ضمير عائد على " هند " المتصلة بـ " غلام " المنصوب بـ " ضربت " والآية من هذا القبيل ؛ فإن فاعل " تَوَدُّ " ضميرٌ عائدٌ على " نَفْس " المتصلة بـ " يَوْمَ " لأنها في جملة أضِيفَ الظرفُ إلى تلك الجملةِ ، والظرف منصوب بـ طتَوَدُّ " ، والتقدير : يوم وُجدان كل نفس خيرها وشرها مُحْضَرَيْنِ تَوَدُّ

كذا .

احتج الجمهور على الجواز بالسماع .

وهو قول الشاعر : [الخفيف]

أَجَلَ الْمَرْءِ يَسْتَحِثُّ وَلَا يَدْ . . . رِي إِذَا يَبْتَغِي حُصُولَ الأَمَانِي

ففاعل " يستحثَ " ضمير عائد على " المرء " المتصل بـ " أجل " المنصوب بـ " يستحث " .

واحتج المانعون بأن المعمول فضلة ، يجوز الاستغناء عنه ، وعَوْد الضمير عليه في هذه المسائل يقتضي لزوم ذكره ، فيتنافى هذان السببان ، ولذلك أجمع على منع زيداً ضرب ، وزيداً ظن قائماً ، أي : ضرب نفسه ، وظنها ، وهو دليلٌ واضح للمانع لولا ما يرده من السماع كالبيت المتقدم وفي الفرق عُسْر بين : غلامَ زيدٍ ضَرَبَ ، وبين : زيداً ضَرَبَ ، حيث جاز الأول ، وامتنع الثاني ، بمقتضى العلة المذكورة .

قوله : " تجد " يجوز أن تكون [المتعدية لواحد بمعنى " تصيب " ، ويكون " محضراً " على هذا منصوباً على الحال ، وهذا هو الظاهر ، ويجوز أن تكون علمية] ، فتتعدى لاثنين ، أولهما " مَا عَمِلَتْ " ، والثاني " مُحْضَراً " وليس بالقويّ في المعنى ، و" ما " يجوز فيها وجهان :

أظهرهما : أنها بمعنى " الذي " فالعائد – على هذا – مقدّر ، أي : ما عملته ، وقوله : ﴿

مِنْ خَيْرٍ ﴾ حال ، إما من الموصول ، وإما من عائده ، ويجوز أن تكون " مِنْ " لبيان الجنسِ .

(86/116)

ويجوز أن تكون " ما " مصدرية ، ويكون المصدر – حينئذ – واقعاً موقع مفعول ، تقديره : يوم تجد كلُّ نفس عملها – أي : معمولها – فلا عائد حينئذ [عند الجمهور] .

قوله : ﴿ وَمَا عَمِلَتْ مِن سواء تَوَدُّ ﴾ يجوز في " ما " هذه أن تكون منسوقة على " ما " التي قبلها بالاعتبارين المذكورَيْن فيها – أي : وتجد الذي عملته ، أو وتجد عملها – أي : معمولها – من سوء . فإن جعلنا " تَجِدُ " متعدياً لاثنين ، فالثاني محذوف ، أي : وتجد الذي عملته من سوء محضراً ، أو وتجد عملها مُحْضَراً ، نحو علمت زيداً ذاهباً وبكراً – أي : وبكراً ذاهباً – فحذفت مفعوله الثاني ؛ للدلالة عليه بذكره مع الأول . وإن جعلناها متعدية لواحد ، فالحال من الموصول أيضاً – محذوفة ، أي : تجده محضراً – أى : في هذه الحال – وهذا كقولك : أكرمت زيداً ضاحكاً وعمراً – أي : وعمراً ضاحكاً – حذفت حال الثاني ؛ لدلالة حال الأول عليه – ، وعلى هذا فيكون في الجملة من قوله : " تَوَدُّ " وجهان :

أحدهما : أن تكون في محل نصب على الحال من فاعل " عَمِلَتْ " ، أي : وما عملته حال كونها وَادَّةً ، أي : متمنّيَ ًالبعد من السوءِ .

والثاني : أن تكون مستأنفةً ، أخبر الله تعالى عنها بذلك ، وعلى هذا لا تكونُ الآية دليلاً على القطع بوعيد المذنبين .

ووضع الكرم ، واللطف هذا ؛ لأنه نَصَّ في جانب الثوابِ على كونه مُحْضَرَاً ، وأما في جانب العقاب فلم ينصّ على الحضورِ ، بل ذكر أنهم يودون الفرار منه ، والبعد عنه ، وذلك بَيِّنٌ على أن جانب الوعد أولى بالوقوع من جانب الوعيدِ .

ويجوز أن تكون " ما " مرفوعة بالابتداء ، والخبر الجملة في قوله : " تَوَدُّ " ، أي : والذي عملته وعملها تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً .

والضمير في " بَيْنَهُ " فيه وجهان :

أحدهما – وهو الظاهر – عوده على " مَا عَمِلَتْ " ، وأعاده الزمخشري على " الْيَوْم " .

قال أبو حيّان : " وأبعد الزمخشري في عوده على " اليوم " ؛ لأن أحد القسمين اللذين أحْضِروا له في ذلك اليوم هو الخير الذي عمله ، ولا يطلب تباعد وقت إحضار الخير ، إلا

بتجوُّز إذا كان يشتمل على الخير والشر ، فتود تباعده ؛ لتسلم من الشرِّ ، ودعه لا يحصل له الخير. والأولى عوده على ﴿ وَمَا عَمِلَتْ مِن سواء ﴾ ؛ لأنه أقربُ مذكورٍ ؛ ولأن المعنى أن السوء تَتَمَنَّى في ذلك اليوم التباعُدَ منه " .

فإن قيل : هل يجوز أن تكون " ما " هذه شرطية ؟

فالجواب : أن الزمخشريَّ ، وابن عطية مَنَعَا من ذلك ، وَجَعَلا علة المنع عدم جزم الفعل الواقع جواباً ، وهو " تَوَدُّ " .

قال شهاب الدينِ : " وهذا ليس بشيءٍ ؛ لأنهم نَصُّوا على أنه إذا وقع فعلُ الشرطِ ماضياً ، والجزاء مضارعاً جاز في ذلك المضارع وجهان - الجزم والرفع - وقد سُمِعَا من لسان العرب ، ومنه بيت زُهَيْر : [البسيط]

وَإنْ أتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْألَةٍ . . . يَقُولُ : لاَ غَائِبٌ مَالِي وَلاَ حَرِمُ

ومن الجزم قوله تعالى ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ ﴾ [هود : 15] ، وقوله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ ﴾ [الشورى : 20] ، وقوله : ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ [الشورى : 20] فدل ذلك على أن المانع من شرطيتها ليس هو رفْعَ تودُّ " .

وأجاب ابو حيّان بأنها ليست شرطية – لا لما ذكر الزمخشريُّ وابن عطيّة – بل لعلّةٍ أخرى ، قال : كنت سُئِلت عن قول الزمخشريِّ : فذكره ثم قال : ولنذكر هاهنا ما تمس إليه الحاجة بعد أن تقدم ما ينبغي تقديمه ، فنقول : إذا كان فعل الشرط ماضياً ، وبعده مضارع تتم به جملة الشرط والجزاء جاز في ذلك المضارع ، الجَزْمُ ، وجاز فيه الرفعُ ، مثال ذلك : إن قام زيد يَقُمْ – ويقوم عمرو ، فأما الجزم فعلى جواب الشرط ولا نعلم في جواز ذلك خلافاً ، وأنه فصيح ، إلا ما ذكره صاحب كتاب "الإعراب" عن بعض النحويين أنه لا يجيء في الكلام الفصيح ، وإنما يجيء مع "كان" كقوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ ﴾ [هود : 15] ، لأنها أصل الأفعال ، ولا يجوز ذلك مع غيرها ، وظاهر كلام سيبويه ، وكلام الجماعة ، أنه لا يختص ذلك بـ "كان" بل سائر الأفعال في ذلك مثل "كان" .

وأنشد سيبويه للفرزدق : [البسيط]

دَسَّتْ رَسُولاً بِأَنَّ الْقَوْمَ إِنْ قَدَرُوا . . . عَلَيْكَ يَشْفُوا صُدُوراً ذَاتَ تَوْغِيرِ

وقال أيضاً : [الطويل]

تَعَالَ فَإِنْ عَاهَدتَنِي لا تَخُونُنِي . . . نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَا ذِئْبُ يَصْطَحِبَانِ

وأما الرفع فإنه مسموع من لسان العرب كثيراً .

قال بعض أصحابنا : هو أحسن من الجزم ، ومنه بيت زهير السابق . ومثله – أيضاً – قوله

: [الطويل]

وَإِنْ شُلَّ رَيْعَانُ الْجَمِيعِ مَخَافَةً . . . نَقُولُ - جِهَارًا - وَيْلَكُمْ لا تُنَفِّرُوا

وقال أبو صخر : [الطويل]

وَلَا بِالَّذِي إِنْ بَانَ عَنْهُ حَبِيبُهُ . . . يَقُولُ - وَيُخْفِي - الصَّبْرَ - إِنِّي لَجَازِعُ

وقال الآخر : [الطويل]

وَإِنْ بَعُدُوا لا يَأْمَنُونَ اقْتِرَابَهُ . . . تَشَوُّفَ أَهْلِ الْغَائِبِ الْمُتَنَظَّرِ

وقال الآخر : [الطويل]

فَإِنْ كَانَ لَا يُرْضِيكَ حَتَّى تَرُدَّنِي . . . إِلَى قَطَرِيٍّ لا إِخَالُكَ رَاضِيَا

(89/116)

وقال الآخر : [البسيط]

إِنْ يُسْأَلُوا الْخَيْرَ يُعْطُوهُ وَإِنْ خُبِرُوا . . . فِي الْجَهْدِ أُدْرِكَ مِنْهُمْ طِيبُ أَخْبَارِ

قال شهاب الدين : " هكذا ساق هذا البيت في جملة الأبيات الدالة على رفع المضارع ، ويدل على ذلك أنه قال - بعد إنشاده هذه الأبيات كلّها - : فهذا الرفع - كما رأيت - كثير ".

وهذا البيتُ ليس من ذلك ؛ لأن المضارع فيه مجزوم – وهو يُعْطُوه – وعلامة جزمِه سقوط النون فكان ينبغي أن ينشده حين أنشد : دَسَّتْ رَسُولاً ، وقوله : " تعال فإن عاهدتني " .

وقال : فهذا الرفع كثير – كما رأيت – ونصوص الأئمة على جوازه في الكلام – وإن اختلفت تأويلاتُهم كما سنذكره – وقال صاحبنا أبو جعفر أحمد بن عبد النور بن رشيد المالقي – وهو مصنف كتاب رصف المباني – رحمه الله – : لا أعلم منه شيئاً جاء في الكلام ، وإذا جاء فقياسه الجزم ؛ لأنه أصل العمل في المضارع – تقدم الماضي أو تأخّر – وتأوّل هذا المسموعَ على إضْمَار الفاء ، وجملة مثل قول الشاعر : [الرجز]

. . . . إنَّكَ إنْ يُصرَعْ أخُوكَ تُصْرَعُ

على مذهب من جعل الفاءَ منه محذوفة .

وأما المتقدمون فاختلفوا في تخريج الرَّفعِ .

فذهب سيبويه إلى أن ذلك على سبيل التقديم ، وأنَّ جوابَ الشرط ليس مذكوراً عِنْدَه ، وذهب المبردُ والكوفيون إلى أنه هو الجواب ، وإنما حُذِفَ منه الفاءُ ، والفاء يُرْفَع ما بعدها ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ﴾ [المائدة : 95] فأعْطِيَتْ – في الإضمار – حكمَها في الإظهار .

وذهب غيرهما إلى أن المضارعَ هو الجوابُ بنفسه - أيضاً - كالقول قبله ، إلا أنه ليس معه فاء مقدرة قالوا : لكن لما كان فعلُ الشرط ماضياً ، لا يظهر لأداة الشرط فيه عملٌ ظاهرٌ استضعفوا أداةَ الشرط ، فلم يُعْمِلُوها في الجواب ؛ لضَعْفِها ، فالمضارع المرفوع - عند هذا القائل - جواب بنفسه من غير نية تقديم ، ولا على إضمار الفاء ، وإنما لم يُجْزَم لما ذُكِر ، وهذا المذهب والذي قبله ضعيفان .

وتلخص من هذا الذي قلناه - أن رَفْعَ المضارع لا يمنع أن يكون ما قبله شرطاً ، لكن امتنع أن يكون " وما عملت " شرطاً لعلة أخرى - لا لكون " تَوَدُّ " مرفوعاً ، وذلك على ما تقرَّر من مذهب سيبويه أن النية بالمرفوع التقديم ، وأنه - إذ ذاك - دليل على الجواب لا نفس الجواب ، فنقول : لما كان " تَوَدُّ " مَنوياً به التقديم أدَّى إلى تقديم المُضْمَر على ظاهره في غير الأبوابِ المستثناة في العربية ، ألا ترى أن الضمير في قوله : " وَبَيْنَه " عائد على اسم الشرط - الذي هو " ما " - فيصير التقدير : تَوَدُّ كلُّ نفسٍ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ما عملت من سوء ، فلزم هذا التقدير تقديم المضمر على الظاهر ، وذلك لا يجوز .

فإن قلت : لم لا يجوز ذلك والضمير قد تأخَّر عن اسم الشرط وإن كانت نيتُه التقديمَ فقد حصل عَوْدُ الضمير على الاسم الظاهر قَبْلَه ، وذلك نظير : ضرب زيداً غلامُه ، فالفاعل رُتْبته التقديمُ ، ووجب تأخيره لصحة عود الضمير ؟

فالجواب : أن اشتمال الدليل على ضمير اسم الشرط يوجب تأخيره عنه ؛ لعود الضمير ، فيلزم من ذلك اقتضاء جملة الشرط لجملة الدليل ، وجملة الشرط إنما تقتضي جملة الجزاء - لا دليله - ألا ترى أنها ليست بعاملة في جملة الدليل ؟ بل إنها تعمل في جملة الجزاء ، وجملة الدليل لا موضع لها من الإعراب ، وإذا كان كذلك تدافَع الأمر ؛ لأنها من حيث هي جملة دليل لا يقتضيها فعل شرط ، ومن حيث عَوْد الضمير على اسم الشرط اقتضاها ، فتدافَعَا ، وهذا بخلاف : ضرب زيد أخاه ؛ فإنها جملة واحدة ، والفعل عامل في الفاعل والمفعول معاً ، فكل واحد منهما يقتضي صاحبه ، ومن ذلك جاز - عند بعضهم - ضرب غلامُها هنداً ، لاشتراك الفاعل - المضاف إلى الضمير - والمفعول الذي عاد عليه الضمير - في العامل ، وامتنع ضرب غلامُها جارَ عنده ؛ لعدم الاشتراك في العامل ، ففرق ما بين المسألتين ، ولا يُحفَظ من لسان العرب : أوَدُّ لو أني أُكْرِمه أبا ضربتُ هِندٍ ؛ لأنه يلزم منه تقديم المُضْمَر على مفسِّره - في غير المواضع التي ذكرها النحويون - فلذلك لا يجوز تأخيره " انتهى .

وقد جوَّز أبو البقاء كونَها شرطية ، ولم يلتفت لما مَنَعُوا به ذلك ، فقال : " والثاني - أنها

شرط وارتفع " تَوَدُّ " على إرادة الفاء ، أي : فهو تود " .

ويجوز أن يرتفع من غير تقدير حذف ؛ لأن الشرط – هنا – ماضٍ ، وإذا لم يظهر في الشرط لفظ الجزم جاز في الجزاء الوجهان : الجزم والرفع .

[وقد تقدم تحقيق القول في ذلك ، فالظاهر موافقته للقول الثالث من تخريج الرفع في المضارع كما تقدم تحقيقه وقرأ . . .] عبد الله وابن أبي عبلة : " ودت " – بلفظ الماضي – وعلى هذه القراءة يجوز في " ما " وجهان :

أحدهما : أن تكون شرطية ، وفي محلها – حينئذ – احتمالان .

الأول : النصب بالفعل بعدها ، والتقدير : أيَّ شيء عملت من سوء ودت ، ف " وَدَّتْ " جواب الشرط .

(92/116)

الثاني : الرفع على الابتداء ، والعائد على المبتدأ محذوف ، تقديره : وما عملته ، وهذا جائز في اسم الشرط خاصة عند افرّاء في فصيح الكلام ، أعني حذف عائد المبتدأ إذا كان منصوباً بفعل نحو : " أَيُّهُمْ ضرب أكرمه " – برفع " أيُّهم " وإذا كان المبتدأ غير ذلك ضَعُفَ نحو : زيدٌ ضربت ، [وسيأتي لهذه المسألة مزيد بيان في قراءة من قرأ : " أفحكمُ

الجاهلية يبغون " ، وفي قوله : " وكل وعد الله الحسنى " في الحديد] .

الوجه الثاني من وجهي " ما " : أن تكون موصولة ، بمعنى : الذي عملته من سوء ودت لو أن بينها وبينه أمدا بعيداً ، ومحلها - على هذا - رفع بالابتداءِ ، و" وَدَّتْ " الخبر ، وهو اختيار الزمخشريِّ ؛ لأنه قال : " لكن الحمل على الابتداء والخبر أوْقَعُ في المعنى : لأنه حكاية الكائن في ذلك اليوم ، وأثبت ؛ لموافقة قراءة العامة " انتهى .

فإن قيل : لِمَ لَمْ يمتنع أن تكون " ما " شرطية على هذه القراءة ، كما امتنع ذلك فيها على قراءة العامة ؟

فالجواب : أن العلة إن كانت رفعَ الفعل ، وعدم جَزْمه - كما قال به الزمخشريّ وابن عطية - فهي مفقودة في هذه القراءة ؛ لأن الماضيَ مبني اللفظ ، لا يظهر فيه لأداة الشرط عملٌ وإن كانت العلة أن النية به التقديم ، فيلزم عَوْدُ الضميرِ على متأخِّرٍ لفظاً ورُتْبةً فهي أيضاً مفقودة فيها ؛ إذ لا داعِيَ يدعو إلى ذلك .

قوله - هنا - على بابها ، من كونها حرفاً لما كان سيقع لوقوعِ غيره ، وعلى هذا ففي الكلام حذفان :

أحدهما : حذف مفعول " تَوَدُّ " .

والثاني : حذف جواب " لَوْ " ، والتقدير فيها : تود تباعُدَ ما بينها وبينه لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً لسُرَّت بذلك ، أو لفرحت ونحوه . والخلاف في " لو " بعد فعل الودادة وما بمعناه

أنها تكون مصدرية كما تقدم تحريره في البقرة ، يبعد مجيئه هنا ؛ لأن بعدها حرفاً مصدرياً وهو " أن " .

(93/116)

قال أبو حيان : ولا يباشر حرف مصدري حرفاً مصدرياً إلا قليلاً كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات : 23] ، قال شهاب الدين : إلا قليلاً يشعر بجوازه ، وهو لا يجوز ألبتة ، وأما الآية التي أوردها فقد مضى النحاة على أن ما زائدة .

وقد تقدم الكلام في " أَنَّ " الواقعة بعد " لَوْ " هذه ، هل محلها الرفع على الابتداء ، والخبر محذوفٌ - كما ذهب إليه سيبويه - أو أنها في محل رفع بالفاعلية بفعل مقدَّر ، أي : لو ثبت أن بينها وما قال الناس في ذلك وقد زعم بعضهم أن " لو " - هنا - مصدرية ، هي وما في حيزها من معنى المفعول ِ " تَوَدُّ " ، أي تود تباعد ما بينها وبينه ، وفي ذلك إشكال ، وهو دخول حرف مصدري على مثله ، لكن المعنى على تسلط الوداد على " لو " وما في حيِّزها لولا المانع الصناعي . والأمد : غاية الشيء ومنتهاه ، وجمعه آماد - نحو أجل وآجال - فأبدِلَت الهمزةُ ألفاً ، لوقوعها ساكنةً بعد همزة " أفعال " .

قال الراغب : " الأَمَد والأبد متقاربان ، لكن الأبد عبارة عن مدة الزمانِ التي ليس لها حَدٌّ

محدود ، ولا يتقيد فلا يقال : أبدَ كذا والأمد مدة لها حَدٌّ مجهول إذا أطلق ، وقد ينحصر إذا قيل : أمَد كذا ، كما يقال : زمان كذا ، والفرق بين الأمد والزمان ، أن الأمد يقال لاعتبار الغايةِ ، والزمان عام في المبدأ والغاية ولذلك قال بعضهم : المدى والأمد يتقاربان ". انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 147.155 ﴾

قوله تعالى : ﴿ والله رَءوفٌ بالعباد ﴾

قال الفخر :

فيه وجوه

الأول : أنه رؤوف بهم حيث حذرهم من نفسه ، وعرفهم كمال علمه وقدرته ، وأنه يمهل ولا يهمل ، ورغبهم في استيجاب رحمته ، وحذرهم من استحقاق غضبه ، قال الحسن : ومن رأفته بهم أن حذرهم نفسه

الثاني : أنه رؤوف بالعباد حيث أمهلهم للتوبة والتدارك والتلافي

(94/116)

الثالث : أنه لما قال : ﴿ وَيُحَذّرُكُمُ الله نَفْسَهُ ﴾ وهو للوعيد أتبعه بقوله ﴿ والله رَءوفٌ بالعباد ﴾ وهو الموعد ليعلم العبد أن وعده ورحمته ، غالب على وعيده وسخطه

والرابع : وهو أن لفظ العباد في القرآن مختص ، قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْنًا ﴾ [الفرقان : 63] وقال تعالى : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله ﴾ [الإنسان : 6] فكان المعنى أنه لما ذكر وعيد الكفار والفساق ذكر وعد أهل الطاعة فقال : ﴿ والله رَءوفٌ بالعباد ﴾ أي كما هو منتقم من الفساق ، فهو رؤوف بالمطيعين والمحسنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 16.15 ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ والله رؤوف بالعباد ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى التحذير لأن تحذيره وتنبيهه على النجاة رأفة منه بعباده ، ويحتمل أن يكون ابتداء إعلام بهذه الصفة فمقتضى ذلك التأنيس لئلا يفرط الوعيد على نفس مؤمن ، وتجيء الآية على نحو قوله تعالى : ﴿ إن ربك لشديد العقاب ، وإنه لغفور رحيم ﴾ [الأعراف : 167] لأن قوله : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ [آل عمران : 28] والله محذور العقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 421 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ والله رؤوف بالعباد ﴾ لما ذكر صفة التخويف وكررها ، كان ذلك مزعجاً للقلوب ، ومنبهاً على إيقاع المحذور مع ما قرن بذلك من اطلاعه على خفايا الأعمال واحضاره لها يوم الحساب ، وهذا هو الاتصاف بالعلم والقدرة اللذين يجب أن يحذر لأجلهما ، فذكر صفة الرحمة ليطمع في إحسانه ، وليبسط الرجاء في أفضاله ، فيكون ذلك من باب ما إذا ذكر ما يدل على شدّة الأمر ، ذكر ما يدل على سعة الرحمة ، كقوله تعالى : ﴿ إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ وتكون هذه الجملة أبلغ في الوصف من جملة التخويف ، لأن جملة التخويف جاءت بالفعل الذي يقتضي المطلق ولم يتكرر فيها اسم الله ، وجاء المحذر مخصوصاً بالمخاطب فقط ، وهذه الجملة جاءت اسمية ، فتكرر فيها اسم الله ، إذ الوصف محتمل ضميره تعالى ، وجاء المحكوم به على وزن فعول المقتضي للمبالغة والتكثير ، وجاء بأخص ألفاظ الرحمة وهو : رؤوف ، وجاء متعلقه عاماً ليشمل المخاطب وغيره ، وبلفظ العباد ليدل على الإحسان التام ، لأن المالك محسن لعبده وناظر له أحسن نظر ، إذ هو ملكه .

قالوا : ويحتمل أن يكون إشارة إلى التحذير ، أي : إن تحذيره نفسه وتعريفه حالها من العلم والقدرة من الرأفة العظيمة بالعباد ، لأنهم إذا عرفوه حق المعرفة وحذروا دعاهم ذلك إلى طلب رضاه واجتناب سخطه .

وعن الحسن : من رأفته بهم أن حذرهم نفسه ، وقال الحوفي : جعل تحذيرهم نفسه إياه ، وتخويفهم عقابه رأفة بهم ، ولم يجعلهم في عمىً من أمرهم .

وروي عن ابن عباس هذا المعنى أيضاً ، والكلام محتمل لذلك ، لكن الأظهر الأول ، وهو أن يكون ابتداء إعلامه بهذه الصفة على سبيل التأنيس والإطماع لئلا يفرط الوعيد على قلب المؤمن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 2 صـ 448﴾

(96/116)

فائدة

قال البقاعى :

والرأفة - يقول أهل المعاني - هي أرق الرحمة ، والذي يفصح عن المعنى - والله سبحانه وتعالى أعلم - أنها عطف العاطف على من يجد عنده منه وصلة ، فهي رحمة ذي الصلة بالراحم ، فمن تحقق أن الأمر لله سبحانه وتعالى وجد رفقه وفضله ورحمته عليه لما برىء من دعوى شيء من نسبة الخير إلى نفسه ، فأحبه لذلك ، قيل لأعرابي : إنك تموت وتبعث وترجع إلى الله ؟ فقال : أتهددونني بمن لم أر الخير قط إلا منه فلذلك إذا تحقق العبد ذلك من ربه أحبه بما وحّده وبما وجده في العاجلة فحماه أن يجد عمل نفسه في الآجلة - انتهى .

وقد علم أن الآية من الاحتباك : التحذير أولاً دال على الوعد بالخير ثانياً ، والرأفة ثانياً دالة على الانتقام أولاً – والله سبحانه وتعالى الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 2 صـ 61 ﴾

لطيفة

قال السمرقندى :

ذكر في أول هذه الآية عدله عز وجل في قوله : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ ، وفي وسطها تخويف وتهديد وهو قوله ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ﴾ وفي آخرها ذكر رأفته ورحمته وهو قوله ﴿ والله رَءوفُ بالعباد ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿بحر العلوم حـ 1 صـ 331 ﴾

(97/116)

من فوائد العلامة أبى السعود فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ أي من النفوس المكلفة ﴿ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ عندها بأمر الله تعالى وفيه من التهويل ما ليس في حاضراً ﴿ وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوء ﴾

عطف على ﴿ مَّا عَمِلَتْ ﴾ والإحضار معتبرٌ فيه أيضاً إلا أنه خُص بالذكر في الخير للإشعار بكون الخير مراداً بالذات وكونِ إحضارِ الشر من مقتضيات الحكمة التشريعية ﴿ تَوَدُّ ﴾ عامل في الظرف والمعنى تود وتتمنى يوم تجد صحائفَ أعمالها من الخير والشر أن أجزيتَها محْضَرة ﴿ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ ﴾ أي بين ذلك اليوم ﴿ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ لشدة هوله وفي إسناد الود إلى كل نفس سواءٌ كان لها عملٌ سيء أو لا بل كانت متمحّضةً في الخير من الدلالة على كمال فظاعةِ ذلك اليوم وهول مطلعِه ما لا يخفى، اللهم إنا نعوذ بك من ذلك ويجوز أن يكون انتصابُ يومَ على المفعولية بإضمار اذكروا وتودّ إما حال من كل نفس أو استئنافٌ مبني على السؤال أي اذكروا يوم تجد كل نفس ما عملت من خير وشر محضراً وادّةً أن بينها وبينه أمداً بعيداً أو كأن سائلاً قال حين أمروا بذكر ذلك اليوم: فماذا يكون إذ ذاك؟ قيل: تود لو أن بينها الخ أو ﴿ تَجِدُ ﴾ مقصورٌ على ما عملت من خير، وتود خبرُ ما عملت من سوء ولا تكون ما شرطية لارتفاع تود وقرىء ودّت فحينئذ يجوز كونُها شرطيةً لكن الحمل على الخبر أوقعُ معنىً لأنها حكايةُ حالٍ ماضية وأوفقُ للقراءة المشهورة ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ﴾ تكرير لما سبق وإعادة له لكن لا للتأكيد فقط بل لإفادة ما يفيده قوله عز وجل: ﴿ واللهُ رَءوفٌ بالعباد ﴾ من أن تحذيرَه تعالى من رأفته بهم ورحمتِه الواسعةِ أو أن رأفته بهم لا تمنعُ تحقيقَ ما حذّرهُموه من عقابه وأن تحذيرَه ليس مبنياً على

تناسي صفةِ الرأفة بل هو متحقق مع تحققها أيضاً كما في قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّها الإنسان مَا غَرَّكَ بِربِّكَ الكريم ﴾ فالجملة على الأول اعتراضٌ ،

(98/116)

وعلى الثاني حال وتكرير الاسم الجليل لتربية المهابة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 24 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾

جملة مستأنفة ، أصل نظم الكلام فيها : تود كل نفس لو أن بينها وبين ما عملت من سوء أمدا بعيدا يوم تجد ما عملت من خير محضرا . فقدم ظرفها على عامله على طريقة عربية مشهورة الاستعمال في أسماء الزمان ، إذ كانت هي المقصود من الكلام ، قضاء لحق الإيجاز بنسخ بديع . ذلك أنه إذا كان اسم الزمان هو الأهم في الغرض المسوق له الكلام ، وكان مع ذلك ظرفا لشيء من علائقه ، جيء به منصوبا على الظرفية ، وجعل معنى بعض ما يحصل منه مصوغا في صيغة فعل عامل في ذلك الظرف . أو أصل الكلام : يحضر لكل نفس يوم الإحضار ما عملت من خير وما عملت من سوء ، فتود في ذلك اليوم لو أن بينها وبين ما

عملت من سوء أمدا بعيدا ، أي زمانا متأخرا ، وأنه لم يحضر ذلك اليوم . فالضمير في قوله وبينه على هذا يعود إلى ما عملت من سوء ، فحول التركيب ، وجعل تود هو الناصب ليوم ، ليستغني بكون ظرفا عن كونه فاعلا . أو يكون أصل الكلام : يوم تجد كل نفس ما عملت من خير ومن شر محضرا ، تود لو أن بينها وبين ذلك اليوم أمدا بعيدا ؛ ليكون ضمير بينه عائدا إلى يوم أي تود أنه تأخر ولم يحضر كقوله : ﴿ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ ﴾ [المنافقون : 10] وهذا التحويل من قبيل قول امرئ القيس :

يوما على ظهر الكثيب تعذرت . . . علي وآلت حلفة لم تحلل

(99/116)

فإن مقصده ما حصل في اليوم ، ولكنه جعل الاهتمام بنفس اليوم ، لأنه ظرفه . ومنه ما يجيء في القرآن غير مرة ، ويكثر مثل هذا في الجمل المفصول بعضها عن بعض بدون عطف لأن الظرف والمجرور يشبهان الروابط ، فالجملة المفصولة إذا صدرت بواحد منها أكسبها ذلك نوع ارتباط بما قبلها : كما في هذه الآية ، وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ ﴾ [آل عمران : 35] ونحوهما ، وهذا أحسن الوجوه في نظم هذه الآية وأومأ إليه في الكشاف .

وقيل منصوب باذكر .

وقيل متعلق بقوله : ﴿ الْمَصِيرُ ﴾ وفيه بعد لطول الفصل ، وقيل بقوله يحذركم وهو بعيد ، لأن التحذير حاصل من وقت نزول الآية ، ولا يحسن أن يجعل عامل الظرف في الآية التي قبل هذه لعدم التئام الكلام حق الالتئام .

فعل الوجه الأول قوله تود هو مبدأ الاستئناف ، وعلى الوجوه الأخرى هو جملة حالية من قوله وما عملت من سوء .

وقوله : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ يجوز أن يكون تكريرا للتحذير الأول لزيادة التأكيد لقول لبيد :

فتنازعا سبطا يطير ظلاله . . . كدخان مشعلة يشب ضرامها

مشمولة غلثت بنابت عرفج . . . كدخان نار ساطع أسنامها

ويجوز أن يكون الأول تحذيرا من موالاة الكافرين ، والثاني تحذيرا من أن يجدوا يوم القيامة ما عملوا من سوء محضرا .

والخطاب للمؤمنين ولذلك سمى الموعظة تحذيرا : لأن المحذر لا يكون متلبسا بالوقوع في الخطر ، فإن التحذير تبعيد من الوقوع وليس انتشالا بعد الوقوع وذيله هنا بقوله : ﴿ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ للتذكير بأن هذا التحذير لمصلحة المحذرين .

والتعريف في العباد للاستغراق : لأن رأفة الله شاملة لكل الناس مسلمهم وكافرهم ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ [فاطر : 45] ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ [الشورى : 19] وما وعيدهم إلا لجلب صلاحهم ، وما تنفيذه بعد فوات المقصود منه إلا لصدق كلماته ، وانتظام حكمته سبحانه . ولك أن تجعل أل عوضا عن المضاف إليه أي بعباده فيكون بشارة للمؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 78.77 ﴾

موعظة

قال فى روح البيان :

اعلم ما يعمله الإنسان أو يقوله ينتقش فى صحائف النفوس السماوية وإذا تكرر صار ملكة راسخة لكنه مشغول عن تلك الهيآت الثابتة فى نفسه ونقوشها بالشواغل الحسية والوهمية والفكرية فإذا فارقت النفس الجسد وقامت قيامتها وجدت ما عملت من خير وشر محضرا لارتفاع الشواغل المانعة كقوله تعالى ﴿ أحصاه الله ونسوه ﴾ فإن كان شرا تمنى البعد فيما بينها وما بين ذلك اليوم أو ذلك العمل لتعذبها به فتصير تلك الهيآت صورتها إن كانت راسخة والأصورة تعذبها وتعذبت بحسبها ومن الله العصمة

فعلى العاقل أن يزكى نفسه عن الأخلاق الذميمة ويطهر قلبه عن لوث العلائق الدنيوية

ويجتهد فى تحصيل مرضاة الله بالأعمال الصالحة والأقوال الحقة كى يجدها عند ربه يوم احتياجه ويفوز بالسعادة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط وأظمأ ما كانوا قط وأعرى من كانوا قط وأنصب ما كانوا قط فمن أطعم الله أطعمه ومن سقى الله سقاه ومن كسا الله كساه ومن عمل لله كفاه " . ﴿ أخرجه الديلمى فى "مسند الفردوس" (5 / 468) ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 2 صـ 28. 29 ﴾

لطيفة

قال الثعالبى :

عن مَنْصُورِ بْنِ عَمَّار ؛ أنه قال : أعقل النَّاسِ مُحْسِنٌ خَائِفٌ ، وأَجْهَلُ النَّاسِ مُسِيءٌ آمِنٌ ، فلما سمع عَبْدُ المَلِكِ بْنُ مَرْوَان منه هذا الكلامَ ؛ بكى حتى بَلَّ ثيابه ، ثم قال له : اتل عَلَيَّ ، يا مَنْصُورُ ، شَيْئاً من كتاب اللهِ ، فتلا عليه : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً . . . ﴾ الآيَة ، فَقَالَ عَبْدُ المَلِكِ : قَتَلْتَنِي ، يَا مَنْصُورُ ، ثُمَّ غُشِيَ عَلَيْهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ 257 ﴾

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مَا مِثَالُهُ : جَاءَ قَوْلُهُ – تَعَالَى – : لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ تِلْكَ الْآيَةِ الَّتِي نَبَّهَ اللَّهُ فِيهَا النَّبِيَّ وَالْمُؤْمِنِينَ إِلَى الِالْتِجَاءِ إِلَيْهِ مُعْتَرِفِينَ أَنَّ بِيَدِهِ الْمُلْكَ وَالْعِزَّ وَمَجَامِعَ الْخَيْرِ وَالسُّلْطَانَ الْمُطْلَقَ فِي تَصْرِيفِ الْكَوْنِ يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ ، فَإِذَا كَانَتِ الْعِزَّةُ وَالْقُوَّةُ لَهُ – عَزَّ شَأْنُهُ – فَمِنَ الْجَهْلِ وَالْغُرُورِ أَنْ يُعْتَزَّ بِغَيْرِهِ مِنْ دُونِهِ ، وَأَنْ يُلْتَجَأَ إِلَى غَيْرِ جَنَابِهِ ، أَوْ يَذِلَّ الْمُؤْمِنُ فِي غَيْرِ بَابِهِ ، وَقَدْ نَطَقَتِ السِّيَرُ بِأَنَّ بَعْضَ الَّذِينَ كَانُوا يَدْخُلُونَ فِي الْإِسْلَامِ كَانَ يَقَعُ مِنْهُمْ قَبْلَ الِاطْمِئْنَانِ بِالْإِيمَانِ اغْتِرَارٌ بِعِزَّةِ الْكَافِرِينَ وَقُوَّتِهِمْ وَشَوْكَتِهِمْ ، فَيُوَالُونَهُمْ وَيَرْكَنُونَ إِلَيْهِمْ ، وَهَذَا أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ فِي الْبَشَرِ .

(102/116)

قَالَ : وَذَكَرُوا فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ . وَقِصَّتُهُ مَعْرُوفَةٌ وَقِيلَ : إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي ابْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ (زَعِيمِ الْمُنَافِقِينَ) وَقِيلَ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ كَانُوا يُوَالُونَ بَعْضَ الْيَهُودِ ، وَمَهْمَا كَانَ السَّبَبُ فِي نُزُولِهَا فَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ مِنْ طَبِيعَةِ الِاجْتِمَاعِ فِي

كُلِّ دَعْوَةٍ أَنْ يُوجَدَ فِي الْمُسْتَجِيبِينَ لَهَا الْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ ، عَلَى أَنَّ مَظَاهِرَ الْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ تَغُرُّ بَعْضَ الصَّادِقِينَ ، وَتُؤَثِّرُ فِي نُفُوسِ بَعْضِ الْمُخْلِصِينَ فَمَا بَالُكَ بِغَيْرِهِمْ ! وَلِذَلِكَ نَهَى اللهُ - تَعَالَى - الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَوْلِيَاءِ مِنَ الْكَافِرِينَ ، وَقَدْ وَرَدَ بِمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ آيَاتٌ أُخْرَى فَلَا بُدَّ مِنْ تَفْسِيرِهَا تَفْسِيرًا تَتَّفِقُ بِهِ مَعَانِيهَا .

أَقُولُ : قِصَّةُ حَاطِبٍ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا مُسْنَدَةٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا ، وَمُلَخَّصُهَا : " أَنَّ حَاطِبًا كَتَبَ كِتَابًا لِقُرَيْشٍ يُخْبِرُهُمْ فِيهِ بِاسْتِعْدَادِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلزَّحْفِ عَلَى مَكَّةَ

إِذْ كَانَ يَتَجَهَّزُ لِفَتْحِهَا وَكَانَ يَكْتُمُ ذَلِكَ لِيَبْغَتَ قُرَيْشًا عَلَى غَيْرِ اسْتِعْدَادٍ مِنْهَا فَتُضْطَرَّ إِلَى

(103/116)

قَبُولِ الصُّلْحِ - وَمَا كَانَ يُرِيدُ حَرْبًا - وَأَرْسَلَ حَاطِبٌ كِتَابَهُ مَعَ جَارِيَةٍ وَضَعَتْهُ فِي عِقَاصِ شَعْرِهَا فَأَعْلَمَ اللهُ نَبِيَّهُ بِذَلِكَ ، فَأَرْسَلَ فِي أَثَرِهَا عَلِيًّا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ وَقَالَ : انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا فَلَمَّا أُتِيَ بِهِ قَالَ : يَا حَاطِبُ مَا هَذَا ؟ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ ! إِنِّي كُنْتُ حَلِيفًا لِقُرَيْشٍ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ

مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي ، وَلَمْ أَفْعَلْهُ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَقَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - : أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ وَاسْتَأْذَنَ عُمَرُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي قَتْلِهِ فَلَمْ يَأْذَنْ لَهُ ، قَالُوا : وَفِي ذَلِكَ نَزَلَ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ [60 : 1] إِلَخْ .
وَلَمْ أَرَ أَحَدًا قَالَ إِنَّ الْآيَةَ الَّتِي نُفَسِّرُهَا نَزَلَتْ فِي قِصَّةِ حَاطِبٍ ، فَلَعَلَّ مَا قَالَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ سَهْوٌ ; سَبَبُهُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ وَمَا نَزَلَ فِي قِصَّةِ حَاطِبٍ يَشْتَرِكَانِ فِي النَّهْيِ عَنْ مُوَالَاةِ الْكَافِرِينَ ، وَمَا نَزَلَ فِي قِصَّةِ

(104/116)

حَاطِبٍ - وَهُوَ مُعْظَمُ سُورَةِ الْمُمْتَحِنَةِ - يُفَسِّرُ لَنَا أَوْ يُفَصِّلُ جَمِيعَ الْآيَاتِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي النَّهْيِ عَنِ اتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ ; لِأَنَّ مَا فِي سُورَةِ الْمُمْتَحِنَةِ مُفَصَّلٌ ، وَهُوَ مِنْ آخِرِهَا أَوْ آخِرِهَا نُزُولًا ، وَمَا عَدَاهُ مُجْمَلٌ يُبَيِّنُهُ الْمُفَصَّلُ .
يَزْعُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ فِي الدِّينِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَيُفَسِّرُونَ الْقُرْآنَ بِالْهَوَى فِي الرَّأْيِ أَنَّ آيَةَ آلِ عِمْرَانَ وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنَ النَّهْيِ الْعَامِّ أَوِ الْخَاصِّ كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا

الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ [5 : 51] يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يُخَالِفُوا أَوْ يَتَّفِقُوا مَعَ غَيْرِهِمْ، وَإِنْ كَانَ الْخِلَافُ أَوْ الِاتِّفَاقُ لِمَصْلَحَتِهِمْ، وَفَاتَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ مُحَالِفًا لِخُزَاعَةَ وَهُمْ عَلَى شِرْكِهِمْ، بَلْ يَزْعُمُ بَعْضُ الْمُتَحَمِّسِينَ فِي الدِّينِ - عَلَى جَهْلٍ - أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُحْسِنَ مُعَامَلَةَ غَيْرِ الْمُسْلِمِ أَوْ مُعَاشَرَتَهُ أَوْ يَثِقُ بِهِ فِي أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ، وَقَدْ جَاءَتْنَا وَنَحْنُ نَكْتُبُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ إِحْدَى الصُّحُفِ فَرَأَيْنَا فِي أَخْبَارِهَا الْبَرْقِيَّةِ أَنَّ الْأَفْغَانِيِّينَ الْمُتَعَصِّبِينَ سَاخِطُونَ عَلَى أَمِيرِهِمْ أَنْ عَاشَرَ الْإِنْكِلِيزَ فِي الْهِنْدِ وَوَاكَلَهُمْ وَلَبِسَ زِيَّ الْإِفْرِنْجِ، وَأَنَّهُمْ عَقَدُوا اجْتِمَاعًا حَكَمُوا فِيهِ

(105/116)

بِكُفْرِهِ وَوُجُوبِ خَلْعِهِ مِنَ الْإِمَارَةِ، فَأُرْسِلَتِ الْجُنُودُ لِتَفْرِيقِ شَمْلِهِمْ، فَأَمْثَالُ هَؤُلَاءِ الْمُتَحَمِّسِينَ الْجَاهِلِينَ أَضَرُّ الْخَلْقِ بِالْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، بَلْ أَبْعَدُ عَنْ حَقِيقَتِهِ مِنْ سَائِرِ الْعَالَمِينَ، وَمَاذَا فَهِمَ أَمْثَالُ أُولَئِكَ الْأَفْغَانِيِّينَ مِنَ الْقُرْآنِ، عَلَى عُجْمَتِهِمْ وَجَهْلِهِمْ بِأَسَالِيبِهِ وَبِعَمَلِ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ بِهِ!

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ مَا مِثَالُهُ مَبْسُوطًا: الْأَوْلِيَاءُ: الْأَنْصَارُ، وَالِاتِّخَاذُ يُفِيدُ مَعْنَى

(106/116)

الِاصْطِنَاعِ . وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ مُكَاشَفَتِهِمْ بِالْأَسْرَارِ الْخَاصَّةِ بِمَصْلَحَةِ الدِّينِ ، وَقَوْلُهُ : مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَيْدٌ فِي الِاتِّخَاذِ ، أَيْ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ وَأَنْصَارًا فِي شَيْءٍ تُقَدَّمُ فِيهِ مَصْلَحَتُهُمْ عَلَى مَصْلَحَةِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَيْ كَمَا فَعَلَ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) لِأَنَّ فِي هَذَا اخْتِيَارًا لَهُمْ وَتَفْضِيلًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، بَلْ فِيهِ إِعَانَةٌ لِلْكُفْرِ عَلَى الْإِيمَانِ وَلَوْ بِطَرِيقِ اللُّزُومِ ، مِنْ شَأْنِ هَذَا أَلَّا يَصْدُرَ مِنْ مُؤْمِنٍ وَلَوْ كَانَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ خَاصَّةٌ لَهُ ; لِذَلِكَ هَمَّ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِقَتْلِ حَاطِبٍ وَسَمَّاهُ مُنَافِقًا لَوْلَا أَنْ نَهَاهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ ذَلِكَ وَذَكَّرَهُ بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ . أَقُولُ : وَإِذَا كَانَ الشَّارِعُ لَمْ يَحْكُمْ بِكُفْرِ حَاطِبٍ فِي مُوَالَاةِ الْمُشْرِكِينَ الَّتِي هِيَ مَوْضِعُ النَّهْيِ فَكَيْفَ نُكَفِّرُ بِاسْمِ الْإِسْلَامِ مِثْلَ أَمِيرِ الْأَفْغَانِ الَّذِي لَمْ يَفْعَلْ إِلَّا مَا أَبَاحَهُ اللَّهُ لَهُ . مِنْ أَكْلٍ وَلِبَاسٍ وَمُجَامَلَةٍ لِحُكُومَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ - وَهُمْ أَقْرَبُ إِلَيْنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ - وَمُجَامَلَتُهُ لَهَا لَيْسَتْ مُوَالَاةً لَهَا مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ (أَيْ : ضِدَّهُمْ كَمَا يَقُولُ أَهْلُ الْعَصْرِ) وَإِنَّمَا هِيَ مُوَالَاةٌ لِمَصْلَحَتِهِمُ الَّتِي تَتَّفِقُ مَعَ مَصْلَحَتِهَا ، وَهُمْ أَحْوَجُ إِلَيْهَا مِنْهَا إِلَيْهِمْ .

(107/116)

عَوْدٌ إِلَى كَلَامِ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ: وَقَالَ - تَعَالَى - فِي آيَةٍ أُخْرَى: لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ [58 : 22] الْآيَةَ، فَالْمُوَادَّةُ مُشَارَكَةٌ فِي الْأَعْمَالِ، فَإِنْ كَانَتْ فِي شَأْنٍ مِنْ شُئُونِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ هُمْ مُؤْمِنُونَ، وَالْكَافِرِينَ مِنْ حَيْثُ هُمْ كَافِرُونَ فَالْمَمْنُوعُ مِنْهَا مَا يَكُونُ فِيهِ خِذْلَانٌ لِدِينِكَ وَإِيذَاءٌ لِأَهْلِهِ أَوْ إِضَاعَةٌ لِمَصَالِحِهِمْ، وَأَمَّا مَا عَدَا ذَلِكَ كَالتِّجَارَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ ضُرُوبِ الْمُعَامَلَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ فَلَا تَدْخُلُ فِي ذَلِكَ النَّفْيِ; لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مُعَامَلَةً فِي مُحَادَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ، أَيْ فِي مُعَادَاتِهِمَا وَمُقَاوَمَةِ دِينِهِمَا.

أَقُولُ: وَإِذَا رَجَعَ الْمُؤْمِنُ إِلَى سُورَةِ الْمُمْتَحِنَةِ (60) الَّتِي فُصِّلَتْ فِيهَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ

مَا لَمْ تُفَصَّلْ فِي غَيْرِهَا يَجِدُ الْآيَةَ الْأُولَى - وَقَدْ تَقَدَّمَ صَدْرُهَا فِي قِصَّةِ حَاطِبٍ - تُقَيِّدُ النَّهْيَ عَنْ مُوَالَاةِ أَعْدَاءِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِلْقَاءِ الْمَوَدَّةِ إِلَيْهِمْ بِكَوْنِهِمْ كَفَرُوا كُفْرًا حَمَلَهُمْ عَلَى إِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ وَطَنِهِمْ; لِأَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ بِاللهِ، فَكُلُّ شَعْبٍ حَرْبِيٍّ يُعَامِلُ الْمُؤْمِنِينَ مِثْلَ هَذِهِ الْمُعَامَلَةِ تَحْرُمُ مُوَالَاتُهُ قَطْعًا، ثُمَّ وَصَفَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَهَى عَنْ مُوَالَاتِهِمْ

بِأَنَّهُمْ إِنْ يَثْقَفُوا الْمُؤْمِنِينَ يُعَادُوهُمْ وَيُؤْذُوهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ ثُمَّ قَالَ : عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [60 : 7 – 9] فَالْبَصِيرُ يَرَى أَنَّ الْقُرْآنَ يَجْعَلُ الْمَوَدَّةَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأُولَئِكَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ آذَوُا الرَّسُولَ وَمَنْ آمَنَ بِهِ أَشَدَّ الْإِيذَاءِ وَأَخْرَجُوهُمْ

(109/116)

مِنْ دِيَارِهِمْ وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ مَرْجُوَّةً . وَقَالَ : إِنَّهُ لَا يَنْهَاهُمْ عَنِ الْبِرِّ وَالْقِسْطِ إِلَى مَنْ لَيْسُوا كَذَلِكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَشَدُّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلْمُؤْمِنِينَ أَيْضًا ، وَأَبْعَدُ عَنْهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ . ثُمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ بِحَصْرِ النَّهْيِ فِي الَّذِينَ قَاتَلُوهُمْ فِي الدِّينِ ; أَيْ لِأَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَسَاعَدُوا عَلَى إِخْرَاجِهِمْ مِنْهَا ، وَلَكِنَّهُ خَصَّ هَذَا النَّهْيَ بِتَوَلِّيهِمْ وَنَصْرِهِمْ لَا بِمُجَامَلَتِهِمْ وَحُسْنِ مُعَامَلَتِهِمْ بِالْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ وَالْعَدْلِ ، وَهَذَا مُنْتَهَى الْحِلْمِ وَالسَّمَاحِ بَلِ الْفَضْلِ وَالْكَمَالِ .

وَلَا تَنْسَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ فِي عُنْفُوَانِ طُغْيَانِهِمْ وَاعْتِدَائِهِمْ ، وَقَدْ عَمِلَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - يَوْمَ الْفَتْحِ بِهَذِهِ الْوَصَايَا فَعَفَا عَنْ قُدْرَةٍ ، وَحَلُمَ عَنْ عِزَّةٍ وَسُلْطَةٍ . وَقَالَ : أَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ وَأَحْسَنَ إِلَى الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ وَالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ، وَمِثْلُهُ أَهْلٌ لِلْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ ، وَلَقَدْ كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ فِيهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ وَلَكِنْ بَعُدَ مُتَحَمِّسُو الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ عَنْ سُنَّتِهِ وَعَنْ كِتَابِ اللهِ الَّذِي تَأَدَّبَ هُوَ بِهِ . اللَّهُمَّ اهْدِ هَؤُلَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِهِدَايَةِ كِتَابِكَ لِيَكُونُوا بِحُسْنِ عَمَلِهِمْ حُجَّةً لَهُ بَعْدَ مَا صَارَ أَكْثَرُهُمْ بِسُوءِ الْعَمَلِ حُجَّةً عَلَيْهِ .

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَيَتَّخِذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ وَأَنْصَارًا مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا يُخَالِفُ مَصْلَحَتَهُمْ مِنْ حَيْثُ هُمْ مُؤْمِنُونَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ أَيْ فَلَيْسَ

مِنْ وِلَايَةِ اللهِ فِي شَيْءٍ قَالَهُ الْبَيْضَاوِيُّ وَغَيْرُهُ . وَوِلَايَةُ اللهِ مِنَ الْعَبْدِ طَاعَتُهُ وَنَصْرُ دِينِهِ ، وَمِنَ اللهِ مَثُوبَتُهُ وَرِضْوَانُهُ . وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : مَعْنَى الْعِبَارَةِ أَنَّهُ يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ غَايَةُ الْبُعْدِ ; أَيْ تَنْقَطِعُ صِلَةُ الْإِيمَانِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ - تَعَالَى - ; أَيْ فَيَكُونُ مِنَ الْكَافِرِينَ كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ [5 : 51] أَوْ مَعْنَاهُ فَيَكُونُ عَدُوًّا لِلَّهِ ، وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ الْأُسْتَاذُ . وَقَوْلُهُ : إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً اسْتِثْنَاءٌ مِنْ أَعَمِّ الْأَحْوَالِ ; أَيْ إِنَّ تَرْكَ مُوَالَاةِ الْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَتْمٌ فِي كُلِّ حَالٍ إِلَّا فِي حَالِ الْخَوْفِ مِنْ شَيْءٍ تَتَّقُونَهُ مِنْهُ ، فَلَكُمْ حِينَئِذٍ أَنْ تُوَالُوهُمْ بِقَدْرِ مَا يُتَّقَى بِهِ ذَلِكَ الشَّيْءُ ; لِأَنَّ دَرْءَ الْمَفَاسِدِ مُقَدَّمٌ عَلَى جَلْبِ الْمَصَالِحِ ، وَهَذِهِ الْمُوَالَاةُ تَكُونُ صُورِيَّةً ; لِأَنَّهَا لِلْمُؤْمِنِينَ لَا عَلَيْهِمْ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ مُنْقَطِعٌ ، وَالْمَعْنَى لَيْسَ لَكُمْ أَنْ تُوَالُوهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنْ لَكُمْ أَنْ تَتَّقُوا ضَرَرَهُمْ بِمُوَالَاتِهِمْ ، وَإِذَا جَازَتْ مُوَالَاتُهُمْ لِاتِّقَاءِ الضَّرَرِ فَجَوَازُهَا لِأَجْلِ مَنْفَعَةِ الْمُسْلِمِينَ يَكُونُ أَوْلَى ; وَعَلَى هَذَا يَجُوزُ لِحُكَّامِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُحَالِفُوا الدُّوَلَ غَيْرَ الْمُسْلِمَةِ لِأَجْلِ فَائِدَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِدَفْعِ الضُّرِّ أَوْ جَلْبِ الْمَنْفَعَةِ ، وَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يُوَالُوهُمْ فِي شَيْءٍ يَضُرُّ بِالْمُسْلِمِينَ وَإِنْ لَمْ

يَكُونُوا مِنْ رَعِيَّتِهِمْ ، وَهَذِهِ الْمُوَالَاةُ لَا تَخْتَصُّ بِوَقْتِ الضَّعْفِ ، بَلْ هِيَ جَائِزَةٌ فِي كُلِّ وَقْتٍ

أَقُولُ : وَقَدِ اسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ بِالْآيَةِ عَلَى جَوَازِ التَّقِيَّةِ وَهِيَ مَا يُقَالُ أَوْ يُفْعَلُ مُخَالِفًا لِلْحَقِّ لِأَجْلِ تَوَقِّي الضَّرَرِ ، وَلَهُمْ فِيهَا تَعْرِيفَاتٌ وَشُرُوطٌ وَأَحْكَامٌ ، فَقِيلَ : إِنَّهَا مَشْرُوعَةٌ لِلْمُحَافَظَةِ عَلَى النَّفْسِ وَالْعِرْضِ وَالْمَالِ . وَقِيلَ : لَا تَجُوزُ التَّقِيَّةُ لِأَجْلِ الْمُحَافَظَةِ عَلَى الْمَالِ . وَقِيلَ : إِنَّهَا خَاصَّةٌ بِحَالِ الضَّعْفِ . وَقِيلَ : بَلْ عَامَّةٌ ، وَيُنْقَلُ عَنِ الْخَوَارِجِ أَنَّهُمْ مَنَعُوا التَّقِيَّةَ فِي الدِّينِ مُطْلَقًا – وَإِنْ أُكْرِهَ الْمُؤْمِنُ وَخَافَ الْقَتْلَ – لِأَنَّ الدِّينَ لَا يُقَدَّمُ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، وَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ – تَعَالَى – : مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ [16 : 106 ، 107] فَمَنْ نَطَقَ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ مُكْرَهًا وِقَايَةً لِنَفْسِهِ مِنَ الْهَلَاكِ لَا شَارِحًا بِالْكُفْرِ صَدْرًا وَلَا

مُسْتَحْسِنًا لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ لَا يَكُونُ كَافِرًا ، بَلْ يُعْذَرُ كَمَا عُذِرَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ وَفِيهِ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (16 : 106) وَكَمَا عُذِرَ الصَّحَابِيُّ الَّذِي سَأَلَهُ هَذَا السُّؤَالَ فَقَالَ : " إِنِّي أَصَمُّ " ثَلَاثًا . وَيُنْقَلُ عَنِ الشِّيعَةِ أَنَّ التَّقِيَّةَ عِنْدَهُمْ أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ جَرَى عَلَيْهِ الْأَنْبِيَاءُ

وَالْأَئِمَّةُ ، وَيُنْقَلُ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ أُمُورٌ مُتَنَاقِضَةٌ مُضْطَرِبَةٌ وَخُرَافَاتٌ مُسْتَغْرَبَةٌ ، وَقَلَّمَا يَسْلَمُ نَقْلُ الْمُخَالِفِ مِنَ الظِّنَّةِ لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ نَقْلُهُ بِالْمَعْنَى ، وَلَيْسَ فِي تَفْسِيرِنَا هَذَا مَوْضِعٌ لِلْمُنَاقَشَاتِ وَالْجَدَلِ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ . وَقُصَارَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ أَنَّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَتَّقِيَ مِنْ مَضَرَّةِ الْكَافِرِينَ ، وَقُصَارَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ آيَةُ سُورَةِ النَّحْلِ (16 : 106) مَا تَقَدَّمَ آنِفًا . وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ بَابِ الرُّخَصِ لِأَجْلِ الضَّرُورَاتِ الْعَارِضَةِ لَا مِنْ أُصُولِ الدِّينِ الْمُتَّبَعَةِ دَائِمًا ; وَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ مَسَائِلِ الْإِجْمَاعِ وُجُوبُ الْهِجْرَةِ عَلَى الْمُسْلِمِ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي يُخَافُ فِيهِ مِنْ إِظْهَارِ دِينِهِ وَيُضْطَرُّ فِيهِ إِلَى التَّقِيَّةِ ، وَمِنْ عَلَامَةِ الْمُؤْمِنِ الْكَامِلِ أَلَّا يَخَافَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ . قَالَ - تَعَالَى - : فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ [5 : 44] وَقَالَ : فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [3 : 175] وَكَانَ النَّبِيُّ وَأَصْحَابُهُ يَتَحَمَّلُونَ الْأَذَى فِي ذَاتِ اللهِ وَيَصْبِرُونَ .

(114/116)

وَأَمَّا الْمُدَارَةُ فِيمَا لَا يَهْدِمُ حَقًّا وَلَا يَبْنِي بَاطِلًا فَهِيَ كِيَاسَةٌ مُسْتَحَبَّةٌ ، يَقْتَضِيهَا أَدَبُ الْمُجَالَسَةِ مَا لَمْ تَنْتَهِ إِلَى حَدِّ النِّفَاقِ وَيُسْتَجَزْ فِيهَا الدِّهَانُ وَالِاخْتِلَاقُ ، وَتَكُونُ مُؤَكَّدَةً فِي خِطَابِ السُّفَهَاءِ تَصَوُّنًا مِنْ سَفَهِهِمْ ، وَاتِّقَاءً لِفُحْشِهِمْ ، وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ

اللَّهُ عَنْهَا – قَالَتْ : اسْتَأْذَنَ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَنَا عِنْدَهُ – فَقَالَ : بِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ أَوْ أَخُو الْعَشِيرَةِ . ثُمَّ أَذِنَ لَهُ فَأَلَانَ لَهُ الْقَوْلَ ، فَلَمَّا خَرَجَ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْتَ مَا قُلْتَ ، ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ الْقَوْلَ ، فَقَالَ : يَا عَائِشَةُ إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ مَنْ يَتْرُكُهُ النَّاسُ أَوْ يَدَعُهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ . وَفِيهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ : " إِنَّا لَنُكْشِرُ فِي وُجُوهِ

قَوْمٍ وَإِنَّ قُلُوبَنَا لَتَلْعَنُهُمْ " وَفِي رِوَايَةِ الْكُشْمِيهَنِيِّ : " وَإِنَّ قُلُوبَنَا لَتَقْلِيهِمْ " أَيْ تُبْغِضُهُمْ . وَلَا يَجْهَلُ أَحَدٌ أَنَّ إِلَانَةَ الْقَوْلِ أَوِ الْكَشْرَ فِي الْوُجُوهِ ، أَيِ التَّبَسُّمَ هُمَا مِنْ أَدَبِ الْمَجْلِسِ يَنْبَغِي بَذْلُهُمَا لِكُلِّ جَلِيسٍ ، وَلَا يُعَدَّانِ مِنَ النِّفَاقِ وَلَا مِنَ الدِّهَانِ ، وَلَا يُنَافِيَانِ أَمْرَ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ بِالْإِغْلَاظِ عَلَى

الْكَافِرِينَ ; لِأَنَّهُ وَرَدَ فِي مَقَامِ الْأَمْرِ بِالْجِهَادِ لِدَفْعِ إِيذَائِهِمْ وَحِمَايَةِ الدَّعْوَةِ وَبَيَانِ حَقِيقَتِهَا ، وَقَدْ كَانَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَحْسَنَ النَّاسِ أَدَبًا فِي مَجْلِسِهِ وَحَدِيثِهِ .

(115/116)

وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ مَعْنَاهُ عِقَابَ نَفْسِهِ ، وَذَكَرَ النَّفْسَ لِيُعْلَمَ أَنَّ الْوَعِيدَ صَادِرٌ مِنْهُ ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى إِنْفَاذِهِ إِذْ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ، وَسَيَأْتِي فِي تَفْسِيرِ الْجُمْلَةِ

كَلَامٌ آخَرُ فِي الْآيَةِ الَّتِي تَلِي مَا بَعْدَ هَذِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ فَلَا مَهْرَبَ مِنْهُ . قَالُوا : وَفِيهِ تَهْدِيدٌ عَظِيمٌ يُشْعِرُ بِتَنَاهِي الْمَنْهِيِّ عَنْهُ مِنَ الْمُوَالَاةِ فِي الْقُبْحِ .

(116/116)

ثُمَّ قَالَ : قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمُرَادُ بِمَا فِي الصُّدُورِ : مَا فِي الْقُلُوبِ مِنَ الِانْشِرَاحِ وَالْمَيْلِ لِلْكُفْرِ أَوِ الْكُرْهِ لَهُ وَالنُّفُورِ مِنْهُ ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - فِي الْآيَةِ الَّتِي ذَكَرْتُ آنِفًا : إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا [16 : 106] إِلَخْ ، أَيْ أَنَّهُ - سُبْحَانَهُ - يَعْلَمُ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ نُفُوسُكُمْ وَمَا تَخْتَلِجُ بِهِ قُلُوبُكُمْ إِذْ تُوَالُونَ الْكَافِرِينَ أَوْ تُوَادُّونَهُمْ وَإِذْ تَتَّقُونَ مِنْهُمْ مَا تَتَّقُونَ ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ بِمَيْلٍ إِلَى الْكُفْرِ جَازَاكُمْ عَلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ قُلُوبُكُمْ مُطْمَئِنَّةً بِالْإِيمَانِ غَفَرَ لَكُمْ وَلَمْ يُؤَاخِذْكُمْ عَلَى عَمَلٍ لَا جِنَايَةَ فِيهِ عَلَى دِينِكُمْ وَلَا إِيذَاءَ لِأَهْلِهِ ، فَهُوَ يُجَازِيكُمْ عَلَى حَسَبِ عِلْمِهِ الْمُحِيطِ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ; لِأَنَّهُ الْخَالِقُ لِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ [67 : 14] وَهَذَا كَالدَّلِيلِ عَلَى عِلْمِهِ بِمَا فِي صُدُورِهِمْ ; لِأَنَّهُ عَامٌّ وَدَلِيلُهُ ظَاهِرٌ فِي النِّظَامِ الْعَامِّ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَفَلَّتَ مِنْ قُدْرَتِهِ أَحَدٌ وَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ، وَهَذَا كَالشَّرْحِ لِقَوْلِهِ : وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ .

(117/116)

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مَا مَعْنَاهُ: الْكَلَامُ تَتِمَّةٌ لِوَعِيدِ مَنْ يُوَالِي الْكَافِرِينَ نَاصِرًا إِيَّاهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَالْمَعْنَى: اتَّقُوا وَاحْذَرُوا أَوْ لِتَحْذَرُوا يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ عَمَلَهَا مِنَ الْخَيْرِ مَهْمَا قَلَّ مُحْضَرًا، وَلَا يَجُوزُ تَقْدِيرُ " اذْكُرْ " مُتَعَلَّقًا لِقَوْلِهِ: يَوْمَ تَجِدُ كَمَا فَعَلَ (الْجَلَالُ) . وَمَعْنَى كَوْنِهِ مُحْضَرًا أَنَّ فَائِدَتَهُ وَمَنْفَعَتَهُ تَكُونُ حَاضِرَةً لَدَيْهِ، وَأَمَّا عَمَلُ السُّوءِ فَتَوَدُّ كُلُّ نَفْسٍ اقْتَرَفَتْهُ لَوْ بَعُدَ عَنْهَا وَلَمْ تَرَهُ وَتُؤْخَذْ بِجَزَائِهِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَمَلَ الشَّرِّ يَكُونُ مُحْضَرًا أَيْضًا، وَلَكِنَّهُ عَبَّرَ عَنْهُ بِمَا ذَكَرَ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ إِحْضَارَهُ مُؤْذٍ لِصَاحِبِهِ يَوَدُّ لَوْ لَمْ يَكُنْ؛ أَيْ وَمِنْهُ يُعْلَمُ أَنَّ إِحْضَارَ عَمَلِ

الْخَيْرِ يَكُونُ غِبْطَةً لِصَاحِبِهِ وَسُرُورًا . وَقَالَ الْأُسْتَاذُ: إِنَّ هَذَا التَّعْبِيرَ ضَرْبٌ مِنَ التَّمْثِيلِ كَالْآيَاتِ الَّتِي فِيهَا ذِكْرُ كُتُبِ الْأَعْمَالِ وَأَخْذِهَا بِالْأَيْمَانِ وَالشَّمَائِلِ، فَإِنَّ الْغَرَضَ مِنَ التَّعْبِيرِ بِأَخْذِهَا بِالْيَمِينِ أَخْذُهَا بِالْقَبُولِ الْحَسَنِ، وَمِنْ أَخْذِهَا بِالشِّمَالِ أَوْ مِنْ وَرَاءِ الظَّهْرِ أَخْذُهَا مَعَ الْكَرَاهَةِ وَالِامْتِعَاضِ .

(118/116)

أَقُولُ : وَكَيْفَ لَا تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مُحْضَرًا فَتُسَرُّ الْمُحْسِنَةُ وَتَنْعَمُ بِمَا أَحْسَنَتْ ، وَتَبْتَئِسُ الْمُسِيئَةُ وَتَغْتَمُّ بِمَا أَسَاءَتْ ، وَتَوَدُّ لَوْ كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ، وَهَذِهِ الْأَعْمَالُ مَرْسُومَةٌ فِي صَحَائِفِ هَذِهِ الْأَنْفُسِ وَهِيَ صِفَاتٌ لَهَا ، وَعَنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ صَدَرَتْ تِلْكَ الْحَرَكَاتُ فَزَادَتِ الصِّفَاتُ رُسُوخًا وَالنُّقُوشُ فِي النَّفْسِ تَمَكُّنًا ، حَتَّى ارْتَقَتْ بِالْمُحْسِنِ إِلَى عِلِّيِّينَ ، حَيْثُ كِتَابُ الْأَبْرَارِ ، وَهَبَطَتْ بِالْمُسِيءِ إِلَى سِجِّينَ ، حَيْثُ كِتَابُ الْفُجَّارِ .

وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ فَإِنَّهُ مِنْ وَرَائِكُمْ مُحِيطٌ ، وَسُنَّتُهُ فِي تَأْثِيرِ الْأَعْمَالِ فِي النُّفُوسِ وَجَعْلِ آثَارِ أَعْمَالِهَا مَصْدَرًا لِجَزَائِهَا حَاكِمَةً عَلَيْكُمْ ، أَفَلَا يَجِبُ عَلَيْكُمْ - وَالْأَمْرُ كَذَلِكَ - أَنْ تَحْذَرُوهُ بِمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْخَيْرِ وَالْمَيْلِ إِلَيْهِ بِتَرْجِيحِهِ عَلَى مَا يَعْرِضُ عَلَى الْفِطْرَةِ مِنْ تَزْيِينِ عَمَلِ السُّوءِ وَالتَّوْبَةِ إِلَيْهِ - سُبْحَانَهُ - مِمَّا غُلِبْتُمْ عَلَيْهِ فِي الْمَاضِي وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ وَمِنْ رَأْفَتِهِ أَنْ جَعَلَ الْفِطْرَةَ سَلِيمَةً مَيَّالَةً بِطَبْعِهَا إِلَى الْخَيْرِ ، وَتَتَأَلَّمُ مِمَّا يَعْرِضُ لَهَا مِنَ الشَّرِّ ، وَأَنْ جَعَلَ لِلْإِنْسَانِ أَنْوَاعًا مِنَ الْهِدَايَاتِ يَرْجَحُ بِهَا الْخَيْرُ عَلَى الشَّرِّ كَالْعَقْلِ وَالدِّينِ ، وَأَنْ جَعَلَ جَزَاءَ الْخَيْرِ مُضَاعَفًا ، وَأَنْ جَعَلَ أَثَرَ الشَّرِّ فِي النَّفْسِ قَابِلًا لِلْمَحْوِ بِالتَّوْبَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَأَنْ أَكْثَرَ التَّحْذِيرَ مِنْ عَاقِبَةِ

السُّوءِ لِيَذْكُرَ الْإِنْسَانُ وَلَا يَنْسَى ، لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى .

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ فِي الْآيَةِ : دُخُولُ الْحَرْفِ الْمَصْدَرِيِّ عَلَى مِثْلِهِ فِي قَوْلِهِ – تَعَالَى – : (لَوْ أَنَّ) قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَهُوَ مَعْرُوفٌ فِي الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ الْفَصِيحِ ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى جَعْلِ الْأَصْلِ فِيهِ الْمَنْعَ وَتَأْوِيلِ مَا سُمِعَ مِنْهُ . وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي تَفْسِيرِ الْأَمَدِ فَقِيلَ : الْغَايَةُ ، وَقِيلَ : الْأَجَلُ ، وَقِيلَ : الْمَكَانُ . وَقَالَ الرَّاغِبُ : الْأَمَدُ وَالْأَبَدُ يَتَقَارَبَانِ ، لَكِنَّ الْأَبَدَ عِبَارَةٌ عَنْ مُدَّةٍ مِنَ الزَّمَانِ لَيْسَ لَهَا حَدٌّ مَحْدُودٌ وَلَا يَتَقَيَّدُ ، لَا يُقَالُ : أَبَدَ كَذَا ، وَالْأَمَدُ مُدَّةٌ لَهَا حَدٌّ مَجْهُولٌ إِذَا أُطْلِقَ وَقَدْ يَنْحَصِرُ نَحْوَ أَنْ يُقَالَ : أَمَدُ كَذَا كَمَا يُقَالُ : زَمَانُ كَذَا . وَالْفَرْقُ بَيْنَ الزَّمَانِ وَالْأَمَدِ أَنَّ الْأَمَدَ يُقَالُ بِاعْتِبَارِ الْغَايَةِ ، وَالزَّمَانُ

عَامٌّ فِي الْمَبْدَأِ وَالْغَايَةِ ; وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُهُمْ : الْمَدَى وَالْأَمَدُ يَتَقَارَبَانِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المنار حـ 3 صـ 227 . 233 ﴾

(120/116)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً ﴾

إن العمل في ذاته ظاهرة تحدث وتنتهي ، فكيف يأتي الإنسان يوم القيامة ، ويجد عمله ؟ إنه لا شك سوف يجد جزاء عمله ، إننا حتى الآن نقول ذلك ، لكن حين يفتح الله على بعض العقول فتكتشف أسرارا من أسرار الكون فقد يكون تفسير هذه الآية فوق ما نقول ، إنهم الآن يستطيعون تصوير شريط لعمل ما وبعد مدة يقول الإنسان للآخر : انظر ماذا فعلت وماذا قلت إن العمل المسجل بالشريط يكون حاضرا ومصورا ، فإذا كنا نحن البشر نستطيع أن نفعل ذلك بوسائلنا فماذا عن وسائل الحق سبحانه وتعالى ؟ لا بد أنها تفوقنا قدرة ، إنه الحق يعلم كل شيء ، في الصدر ، أو في السماوات أو في الأرض : إن الحكم الإلهي يشمل الكون كله مصداقا لقول الحق :

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾

[الأنعام : 59] .

ويختم الحق هذه الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ إنه القادر الذي يعلم عنا الغفلة ، فينبهنا دائما إلى كمال قدرته ، كما قال في آية قبلها : ﴿ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ونحن مخلوقون لله ، وهو القادر الأعلى ، القادر على كل شيء ويأتي لكل منا بكتاب حسابه يوم الحساب :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ ﴾

[الحاقة : 19] .

(121/116)

إذن فمن تقف في عقله هذه المسألة ، فليقل : ﴿ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً ﴾ يعني أنه يجد جزاء عمله . أما ما عملته النفس من السوء فهي تود أن يكون بينه وبينها أمد بعيد ، أي غاية بعيدة ، ويقول الإنسان لنفسه : " يا ليتها ما جاءت " . والحق سبحانه يقول : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ إن الحق سبحانه يكرر التحذير لنستحضر قوته المطلقة ، ولكنه أيضا رءوف بنا رحيم ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1416.1417 ﴾

(122/116)

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ .

وَدَّ أهل الطاعات أَنْ لو استكثروا منها ، ووَدَّ أهل المخالفات أَنْ لو كبحوا لجامهم عن الركض في ميادينهم ، قال قائلهم :

ولو إنني أُعْطِيتُ من دهري المُنَى . . . وما كلُّ مَنْ يُعْطَى المنى بِمُسَدَّدِ

لَقُلْتَ لأيامٍ مَضَيْن : ألا ارجعي . . . وقلتُ لأيام أتيْن ألا ابعدي

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ .

الإشارة من قوله : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَه ﴾ للعارفين ، ومن قوله ﴿ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ للمستأنفين ، فهؤلاء أصحاب العنف والعنوة ، وهؤلاء أصحاب التخفيف والسهولة .

ويقال لمَّا قال : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَه ﴾ اقتضى أسماع هذا الخطاب تحويلهم فقال مقروناً به ﴿ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ لتحقيق تأميلهم ، وكذلك سُنَّتُه يطمعهم في عين ما يروعهم .

ويقال أفناهم بقوله ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ ثم أحياهم وأبقاهم بقوله ﴿ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 234 ﴾

(123/116)

" فصل "

قال السيوطى :

قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (29) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (30)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : أخبرهم أنه يعلم ما أسروا من ذلك وما أعلنوا فقال ﴿ إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ يقول : موفراً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ وما عملت من سوء تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾ قال : يسر أحدهم أن لا يلقى عمله ذلك أبداً يكون ذلك مناة ، وأما في الدنيا فقد كانت خطيئة يستلذها .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي ﴿ أمداً بعيداً ﴾ قال : مكاناً بعيداً .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج ﴿ أمداً ﴾ قال : أجلاً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ ويحذركم الله نفسه

والله رؤوف بالعباد ﴾ قال : من رأفته بهم حذرهم نفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 177 ﴾

(124/116)

قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما فطمهم سبحانه وتعالى عن موالاة الكفار ظاهراً وباطناً بما اقتضى القصر على موالاة أهل الله لنفيه من تولي الكفر عن أن يكون في شيء من الله ، وكان الإنسان ربما والى الكافر وهو يدعي محبة الله سبحانه وتعالى ، وختم برأفته سبحانه وتعالى بعباده ، وكانت الرأفة قد تكون عن المحبة الموجبة للقرب ، فكان الإخبار بها ربما دعا إلى الاتكال ، ووقع لأجله الاشتباه في الحزبين ، جعل لذلك سبحانه وتعالى علامه فقال : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي ﴾

(125/116)

وقال الحرالي : لما كان أعظم ما يترامى إليه مقامات السالكين إلى الله سبحانه وتعالى القاصدين إليه من مبدإ حال الذكر الذي هو منتهى المقامات العشر المترتبة في قوله سبحانه وتعالى ﴿ إن المسلمين ﴾ محبة الله سبحانه وتعالى بما أن المحبة وصلة خفية يعرف الحاس بها كنهها ، أقام سبحانه وتعالى الحجة على المترامين لدعوى القرب من الله والادعاء في أصل ما يصل إليه القول من محبته بما أنبأنهم أن من انتهى إلى أن يحب الله سبحانه وتعالى فليتبع هذا النبي الذي أحبه الله سبحانه وتعالى فمن اتبعه أحبه الله ، فقامت بذلك الحجة على كل قاصد وسالك ومتقرب ، فإن نهاية الخلق أن يحبوا الله ، وعناية الحق أن يحب العبد ، فرد سبحانه وتعالى جميع من أحاط به الاصطفاء والاجتباء والاختصاص ، ووجههم إلى وجهة الاتباع لحبيبه الذي أحبه ، كما قال صلى الله عليه وسلم " لو أن موسى بين أظهركم ما وسعه إلا اتباعي " وإذا كان ذلك في موسى عليه الصلاة والسلام كان في المنتحلين لملته ألزم بما هم متبعون لمتبعه عندهم ، وأصل ذلك أنه صلى الله عليه وسلم لما كان في الأبد وجب أن يكون النهاية في المعاد ، فألزم الله سبحانه وتعالى على الخليقة ممن أحب الله سبحانه وتعالى أن يتبعوه ، وأجرى ذلك على لسان إشعاراً بما فيه من الخير والوصول إلى الله سبحانه وتعالى من حيث إنه نبي البشرى ، وليكون ذلك أكظم لمن أبى اتباعه - انتهى ، فقال سبحانه وتعالى - : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله ﴾ أي المحيط بصفات

الكمال مخلصين في حبه لاعتقاد أنه على غاية الكمال ، فإن الكمال محبوب لذاته

﴿ فاتبعوني ﴾ قال الحرالي : قد فسر صلى الله عليه وسلم ظاهر اتباعه فقال " في البر" وأصل حقيقته الإيمان بالله والإيثار لعباده ، والتقوى وهي ملاك الأمر وأصل الخير ، وهي إطراح استغناء العبد بشيء من شأنه ، لا من مِلك ولا من مُلك ولا من فعل ولا من وصف ولا من ذات حتى يكون عنده كما هو عند ربه في أزله قبل أن

(126/116)

يكون موجوداً لنفسه ليكون أمره كله بربه في وجوده كما كان أمره بربه قبل وجوده لنفسه ، وقد فسر حق التقاة التي هي غاية التقوى بأن يكون العبد يشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسى ، ويطيع فلا يعصى - انتهى .

قال الإمام : المحبة توجب إقبال بالكلية على المحبوب والإعراض عن غيره - انتهى .

فمن ادعى محبته وخالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كذاب ، وكتاب الله سبحانه وتعالى يكذبه ﴿ يحببكم الله ﴾ أي الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى حباً ظهرت أماراته بما أعلم به الفك ، فإن الأمر المنجي غاية النجاة إنما هو محبة الله سبحانه وتعالى للعبد ، لا محبة العبد لله ، فإنه ربما كانت له حالة يظن بها أنه يحب الله

والواقع أنه ليس كما ظن لكونه يعمل بما يسخطه سبحانه وتعالى ، والأمارة الصحيحة لذلك رد الأمر كله إلى الله ، وحينئذ يفعل الله مع العبد فعل المحب من حسن الثناء والإكرام بالثواب .

قال الحرالي : فإن من رد الأمانة إلى الله سبحانه وتعالى أحبه الله فكان سمعه وبصره ويده ورجله ، وإذا أحب الله عبداً أراحه وأنقذه من مناله في أن يكون هو يحب الله ، فمن أحب الله وله ، ومن أحبه الله سكن ي ابتداء عنايته وثبته الله سبحانه وتعالى – انتهى .

فقد أشار سبحانه وتعالى إلى أن الدلالة الناشئة عن الرافة من الإكرام بالنعم من الهداية بالبيان والإبلاغ في الإحسان عامة للمحبوب وغيره ، وأن الدليل على المحبة الإلهية هو الاتباع الداعي " اعملوا فكل ميسر لما خلق له فأما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فييسر لعمل أهل الشقاوة " " ما تقرب المتقربون إليّ بمثل أداء ما افترضته عليهم ، ولا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه " .

(127/116)

ولما كان الدين شديداً لن يشاده أحد إلا غلبه ، لما عليه العبد من العجز والمعبود من عظيم الأمر أتبع ذلك الإعلام بأنه مع إيصال الثواب برفع العقاب فقال – وقال الحرالي : ولما كان من

آية حب الله له صلى الله عليه وسلم ما أنزل عليه من قوله : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ [الفتح : 21] أجرى لمن أحبه الله باتباعه حظ منه في قوله – : ﴿ ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ أي مطلقاً ، وذنب كل عبد بحسبه ، لأن أصل معنى الذنب أدنى مقام العبد ، فكل ذي مقام أعلاه حسنته وأدناه ذنبه ، ولذلك في كل مقام توبة ، حتى تقع التوبة من التوبة فيكمل الوجود والشهود .

ولما كان هذا الأمر من أخص ما يقع ، وكان مما دونه مقامات خواص الخلق فيما بين إسلامهم إلى محبتهم لله سبحانه وتعالى ختم تعالى بما يفهم أحوال ما يرجع إلى من دون هذا الكمال فقال : ﴿ والله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ غفور رحيم ﴾ أي لمن لم ينته لرتبة حب الله له بما يقع في أثناء أحواله من موجب المغفرة واستدعاء الرحمة حيث لم يصل إلى المحبة ، فمرحوم بعد مغفرة وهو القاصد ، ومغفور بعد محبة وهو الواصل – انتهى . انتهى .

اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 64.61 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

[31].ا

انتقال إلى الترغيب بعد الترهيب على عادة القرآن . والمناسبة أن الترهيب المتقدم ختم بقوله ﴿ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : 30] والرأفة تستلزم محبة المرؤوف به الرؤف ، فجعل محبة الله فعلا للشرط في مقام تعليق الأمر باتباع الرسول عليه مبني على كون الرأفة تستلزم المحبة ، أو هو مبني على أن محبة الله أمر مقطوع به من جانب المخاطبين ، فالتعليق عليه تعليق شرط محقق ، ثم رتب على الجزاء مشروط آخر وهو قوله :

﴿ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ لكونه أيضا مقطوع الرغبة من المخاطبين ، لأن الخطاب للمؤمنين ، والمؤمن غاية قصده تحصيل رضا الله عنه ومحبته إياه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 78 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما دعا القوم إلى الإيمان به ، والإيمان برسله على سبيل التهديد والوعيد ، دعاهم إلى ذلك من طريق آخر وهو أن اليهود كانوا يقولون ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة : 18] فنزلت هذه الآية ، ويروى أنه صلى الله عليه وسلم وقف على قريش وهم في المسجد الحرام يسجدون للأصنام فقال : "يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملة إبراهيم " فقالت قريش : إنما نعبد هذه حباً لله تعالى ليقربونا إلى الله زلفى ، فنزلت هذه الآية ،

ويروى أن النصارى قالوا : إنما نعظم المسيح حباً لله ، فنزلت هذه الآية ، وبالجملة فكل واحد من فرق العقلاء يدعي أنه يحب الله ، ويطلب رضاه وطاعته فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم : قل إن كنتم صادقين في ادعاء محبة الله تعالى فكونوا منقادين لأوامره محترزين عن مخالفته ، وتقدير الكلام : أن من كان محباً لله تعالى لا بد وأن يكون في غاية الحذر مما يوجب سخطه ، وإذا قامت الدلالة القاطعة على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وجبت متابعته ، فإن لم تحصل هذه المتابعة دلّ ذلك على أن تلك المحبة ما حصلت . انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 16 ﴾

وقال القرطبى :

(129/116)

الآية نزلت في وفد نَجران إذْ زعموا أن ما ادعوه في عيسى حُبٌّ لله عز وجل ؛ قاله محمد بن جعفر بن الزبير.

وقال الحسن وابن جُريج : نزلت في قوم من أهل الكتاب قالوا : نحن الذين نُحِبّ ربنا .

وروي أن المسلمين قالوا : يا رسول الله ، واللَّهِ إنا لَنُحِب ربنا ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي ﴾ .

قال ابن عرفة : المحبّة عند العرب إرادةُ الشيء على قصد له .

وقال الأزهري : محبة العبد لله ورسوله طاعته لهما واتباعه أمرهما ؛ قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتبعوني ﴾ .

ومحبة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الكافرين ﴾ [آل عمران : 32] أي لا يغفر لهم .

وقال سهل بن عبد الله : علامة حُبِّ الله حب القرآن ، وعلامة حب القرآن حب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وعلامة حب النبيّ صلى الله عليه وسلم حب السنة ، وعلامة حب الله وحب القرآن وحب النبيّ وحب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة أن يحب نفسه ، وعلامة حب نفسِه أن يبغض الدنيا ، وعلامة بغض الدنيا ألا يأخذ منها إلا الزّاد والبُلْغَة .

وروى أبو الدرْداء .

" عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتبعوني يُحْبِبْكُمُ الله ﴾ قال : "على البِر والتقوى والتواضع وذلة النفس" " خرّجه أبو عبد الله الترمَذِيّ .

ورُوي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من أراد أن يحِبه الله فعليه بصدق الحديث وأداء الأمانة وألاّ يؤذي جاره "

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال إني أُحِبُّ فلانا ً فأحِبه قال فيحِبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول إنّ الله يحب فلانا ً فأحِبوه فيحِبه أهل السماء قال ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول إني أبغض فلانا ً فأبغِضه قال فيبغِضه جبريل ثم ينادِي في أهل السماء إن الله يُبغِض فلانا ً فأبغضوه قال فيبغِضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 61.60 ﴾

قال الطبرى :

قال أبو جعفر : وأولى القولين بتأويل الآية ، قولُ محمد بن جعفر بن الزبير . لأنه لم يجر لغير وفد نجرانَ في هذه السورة ولا قبل هذه الآية ، ذكرُ قوم ادّعوا أنهم يحبُّون الله ، ولا أنهم يعظمونه ، فيكون قوله . "إن كنتم تحبون الله فاتبعوني" جوابًا لقولهم ، على ما قاله الحسن .

وأمّا ما روى الحسن في ذلك مما قد ذكرناه ، فلا خبر به عندنا يصحّ ، فيجوز أن يقال إنّ ذلك كذلك ، وإن لم يكن في السورة دلالة على أنه كما قال . إلا أن يكون الحسن أرادَ بالقوم الذين ذكر أنهم قالوا ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفدَ نَجران من النصارى ،

فيكون ذلك من قوله نظير اختيارنا فيه .

فإذْ لم يكن بذلك خبر على ما قلنا ، ولا في الآية دليلٌ على ما وصفنا ، فأولى الأمور بنا أن نُلحق تأويله بالذي عليه الدّلالة من آي السورة ، وذلك هو ما وصفنا . لأن ما قبل هذه الآية من مبتدأ هذه السورة وما بعدها ، خبرٌ عنهم ، واحتجاجٌ من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ودليل على بُطول قولهم في المسيح . فالواجب أن تكون هي أيضًا مصروفةَ المعنى إلى نحو ما قبلها ومعنى ما بعدها .

(131/116)

قال أبو جعفر : فإذْ كان الأمر على ما وصفنا ، فتأويلُ الآية : قل ، يا محمد ، للوفد من نصارى نجران : إن كنتم كما تزعمون أنكم تحبون الله ، وأنكم تعظمون المسيح وتقولون فيه ما تقولون ، حبًّا منكم ربّكم فحققوا قولكم الذي تقولونه ، إن كنتم صادقين ، باتباعكم إياي ، فإنكم تعلمون أني لله رسولٌ إليكم ، كما كان عيسى رسولا إلى من أرسل إليه ، فإنه إن اتبعتموني وصدّقتموني على ما أتيتكم به من عند الله يغفرُ لكم ذنوبكم ، فيصفح لكم عن العقوبة عليها ، ويعفو لكم عما مضى منها ، فإنه غفور لذنوب عباده المؤمنين ، رحيمٌ بهم وبغيرهم من خلقه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 324 . 325 ﴾

فائدة

قال السمرقندى :

ويقال : الحب من الله عصمته وتوفيقه ، والحب من العباد طاعة كما قال القائل :

تَعْصي الإله وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّه .

. . هَذَا لَعَمْرِي فِي القِيَاسِ بَدِيعُ

لَوْكَانَ حُبُّكَ صَادِقاً لأَطَعْتَه .

. . إِنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطيعُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 232 ﴾

فصل

قال الفخر :

المتكلمون مصرون على أن محبة الله تعالى عبارة عن محبة إعظامه وإجلاله ، أو محبة طاعته ، أو محبة ثوابه ، قالوا : لأن المحبة من جنس الإرادة ، والإرادة لا تعلق لها إلا بالحوادث وإلا بالمنافع .

واعلم أن هذا القول ضعيف ، وذلك لأنه لا يمكن أن يقال في كل شيء إنه إنما كان محبوباً لأجل معنى آخر وإلا لزم التسلسل والدور ، فلا بد من الانتهاء إلى شيء يكون محبوباً بالذات ، كما أنا نعلم أن اللذة محبوبة لذاتها ، فكذلك نعلم أن الكمال محبوب لذاته ، وكذلك أنا إذا سمعنا أخبار رستم واسفنديار في شجاعتهما مال القلب إليهما مع أنا نقطع بأنه لا فائدة لنا في ذلك الميل ، بل ربما نعتقد أن تلك المحبة معصية لا يجوز لنا أن نصر عليها ، فعلمنا أن الكمال محبوب لذاته ، كما أن اللذة محبوبة لذاتها ، وكمال الكمال لله سبحانه وتعالى ، فكان ذلك يقتضي كونه محبوباً لذاته من ذاته ومن المقربين عنده الذين تجلى لهم أثر من آثار كماله وجلاله قال المتكلمون : وأما محبة الله تعالى للعبد فهي عبارة عن إرادته تعالى إيصال الخيرات والمنافع في الدين والدنيا إليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 16 ﴾

فائدة

قال ابن عطية :

ومحبة الله للعبد أمارتها للمتأمل أن يرى العبد مهدياً مسدداً ذا قبول في الأرض ، فلطف الله بالعبد ورحمته إياه هي ثمرة محبته ، وبهذا النظر يتفسر لفظ المحبة حيث وقعت من كتاب الله عز وجل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 422 ﴾

فصل

قال ابن عاشور :

المحبة : انفعال نفساني ينشأ عند الشعور بحسن شيء : من صفات ذاتية . أو إحسان ، أو اعتقاد أنه يحب المستحسن ويجر إليه الخير . فإذا حصل ذلك الانفعال عقبه ميل وانجذاب إلى الشيء المشعور بمحاسنه ، فيكون المنفعل محبا ، ويكون المشعور بمحاسنه محبوبا ، وتعد الصفات التي أوجبت هذا الانفعال جمالا عند المحب ، فإذا قوي هذا الانفعال صار تهيجا نفسانيا ، فسمي عشقا للذوات ، وافتنانا بغيرها .

(133/116)

والشعور بالحسن الموجب للمحبة يستمد من الحواس في إدراك المحاسن الذاتية المعروفة بالجمال ، ويستمد أيضا من التفكر في الكمالات المستدل عليها بالعقل وهي المدعوة بالفضيلة ، ولذلك يحب المؤمنون الله تعالى ، ويحبون النبي صلى الله عليه وسلم ، تعظيما للكمالات ، واعتقادا بأنهما يدعوانهم إلى الخير ، ويحب الناس أهل الفضل الأولين كالأنبياء والحكماء والفاضلين ، ويحبون سعاة الخير من الحاضرين وهم لم يلقوهم ولا رأوهم .

ويرجع الجمال والفضيلة إلى إدراك النفس ما يلائمها : من الأشكال ، والأنغام ، والمحسوسات ، والخلال . وهذه الملاءمة تكون حسية لأجل مناسبة الطبع كملاءمة

البرودة في الصيف ، والحر في الشتاء ، وملاءمة اللين لسليم الجلد ، والخشن لمن به داعي حكة ، أو إلى حصول منافع كملاءمة الإحسان والإغاثة . وتكون فكرية لأجل غايات نافعة كملاءمة الدواء للمريض ، والتعب لجاني الثمرة ، والسهر للمتفكر في العلم ، وتكون لأجل الإلف ، وتكون لأجل الاعتقاد المحض ، كتلقي الناس أن العلم فضيلة ، ويدخل في هذين محبة الأقوام عوائدهم من غير تأمل في صلاحها ، وقد تكون مجهولة السبب كملاءمة الأشكال المنتظمة للنفوس وملاءمة الألوان اللطيفة .

وفي جميع ذلك تستطيع أن تزيد اتضاحا بأضدادها كالأشكال الفاسدة ، والأصوات المنكرة ، والألوان الكريهة ، دائما ، أو في بعض الأحوال ، كاللون الأحمر يراه المحموم .

ولم يستطع الفلاسفة توضيح علة ملاءمة بعض ما يعبر عنه بالجمال للنفوس : ككون الذات جميلة أو قبيحة الشكل ، وكون المربع أو الدائرة حسنا لجئ النفس ، والشكل المختل قبيحا ، ومع الاعتراف باختلاف الناس في بعض ما يعبر عنه بالجمال والقبح كما قال أبو الطيب :

ضروب الناس عشاق ضروبا

وأن بعض الناس يستجيد من الملابس ما لا يرضى به الآخر ويستحسن من الألوان ما يستقبحه الآخر ، ومع ذلك كله فالمشاهد أن معظم الأحوال لا يختلف فيها الناس السالم والأذواق .

فأما المتقدمون فقال سقراط : سبب الجمال حب النفع ، وقال أفلاطون : الجمل أمر إلهي أزلي موجود في عالم العقل غير قابل للتغير قد تمتعت الأرواح به قبل هبوطها إلى الأجسام فلما نزلت إلى الأجسام صارت مهما رأت شيئًا على مثال ما عهدته في العوالم العقلية وهي عالم المثال مالت إليه لأنه مألوفها من قبل هبوطها . وذهب الطبائعيون : إلى أن الجمال شيء ينشأ عندنا الإحساس بالحواس . ورأيت في كتاب "جامع أسرار الطب" للحكيم عبد الملك ابن زهر القرطبي العشق الحسي إنما هو ميل النفس إلى الشيء الذي تستحسنه وتستلذه ، وذلك أن الروح النفساني الذي مسكنه الدماغ قريب من النور البصري الذي يحيط بالعين ومتصل بمؤخر الدماغ وهو الذكر فإذا نظرت العين إلى الشيء المستحسن انضم النوري البصري وارتعد فبذلك الانضمام والارتعاد يتصل بالروح النفساني فيقلبه قبولا حسنا ثم يودعه الذكر فيوجب ذلك المحبة . ويشترك أيضا بالروح الحيواني الذي مسكنه القلب لاتصاله بأفعاله في الجسد كله فحينئذ تكون الفكرة والهم والسهر .

والحق أن منشأ الشعور بالجمال قد يكون عن الملائم ، وعن التأثر العصبي ، وهو يرجع إلى الملائم أيضا كتأثر المحموم باللون الأحمر ، وعن الإلف والعادة بكثرة الممارسة ، وهو يرجع إلى الملائم كما قال ابن الرومي :

وحبب أوطان الرجال إليهم . . . مآرب قضاها الشباب هنالك

إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم . . . عهود الصبا فيها فحنوا لذلك

وعن ترقب الخير والمنفعة وهو يرجع إلى الملائم ، وعن اعتقاد الكمال والفضيلة وهو يرجع إلى المألوف الراجع إلى الممارسة بسبب ترقب الخير من صاحب الكمال والفضيلة .

ووراء ذلك كله شيء من الجمال ومن المحبة لا يمكن تعليله وهو استحسان الذوات الحسنة واستقباح الأشياء الموحشة فنرى الطفل الذي لا إلف له بشيء ينفر من الأشياء التي نراها وحشة .

(135/116)

وقد اختلف المتقدمون في أن المحبة والجمال هل يقصران على المحسوسات : فالذين قصروهما على المحسوسات لم يثبتوا غير المحبة المادية ، والذين لم يقصروهما عليها أثبتوا المحبة الرمزية ، أعني المتعلقة بالأكوان غير المحسوسة كمحبة العبد لله تعالى ، وهذا هو الحق ، وقال به من المتقدمين أفلاطون ، ومن المسلمين الغزالي وفخر الدين وقد أضيفت هذه المحبة إلى أفلاطون ، فقيل محبة أفلاطونية : لأنه بحث عنها وعللها فإننا نسمع بصفات مشاهير الرجال مثل الرسل وأهل الخير والذين نفعوا الناس ، والذين اتصفوا بمحامد الصفات كالعلم والكرم والعدل ، فنجد من أنفسنا ميلا إلى ذكرهم ثم يقوى ذلك الميل حتى

يصير محبة منا إياهم مع أننا ما عرفناهم ، ألا ترى أن مزاولة كتب الحديث والسيرة مما يقوي محبة المزاول في الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكذلك صفات الخالق تعالى ، لما كانت كلها كمالات وإحسانا إلينا وإصلاحا لفاسدنا ، أكسبنا اعتقادها إجلالا لموصوفها ، ثم يذهب ذلك الإجلال يقوى إلى أن يصير محبة وفي الحديث ثلاث من كن فيه وجد حلاوة لإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار فكانت هذه الثلاثة من قبيل المحبة ولذلك جعل عندها وجدان حلاة الإيمان أي وجدانه جميلا عند معتقده .

فأصحاب الرأي الأول يرون تعليق المحبة بذات الله في هذه الآية ونحوها مجازا بتشبيه الرغبة في مرضاته بالمحبة ، وأصحاب الرأي الثاني يرونه حقيقة وهو الصحيح .

ومن آثار المحبة تطلب القرب من المحبوب والاتصال به واجتناب فراقه . ومن آثارها محبة ما يسره ويرضيه ، واجتناب ما يغضبه ، فتعليق لزوم اتباع الرسول على محبة الله تعالى لأن الرسول دعا إلى ما يأمر الله به وإلى إفراد الوجهة إليه ، وذلك كمال المحبة .

وأما إطلاق المحبة في قوله : ﴿ يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ فهو مجاز لا محالة أريد به لازم المحبة وهو الرضى وسوق المنفعة ونحو ذلك من تجليات الله يعلمها سبحانه . وهما المعبر عنهما بقوله : ﴿ يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ ﴾ فإن ذلك دليل المحبة وفي القرآن ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ ﴾ [المائدة : 18] .

وتعليق محبة الله إياهم على ﴿ فَٱتَّبِعُونِي ﴾ المعلق على قوله : ﴿ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ ﴾ ينتظم منه قياس شرطي اقتراني . ويدل على الحب المزعوم إذا لم يكن معه اتباع الرسول فهو حب كاذب ، لأن المحب لمن يحب مطيع ، ولأن ارتكاب ما يكرهه المحبوب إغاضة له وتلبس بعدوه وقد قال أبو الطيب :

أأحبه وأحب فيه ملامة . . . إن الملامة فيه من أعدائه

فعلم أن حب العدو لا يجامع الحب وقد قال العتابي :

تود عدوي ثم تزعم أنني . . . صديقك ليس النوك عنك بعازب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 82.78 ﴾

(137/116)

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

1 - الطباق في مواضع مثل " تؤتي وتنزع " و " تعز وتذل " و " الليل والنهار " و " الحي والميت " و " تخفوا وتبدوا " وفي " خير وسوء " و " محضرا وبعيدا .

2 - والجناس الناقص في " مالك الملك " وفي " تحبون ويحببكم " وجناس الاشتقاق بين " تتقوا وتقاة " وبين " يغفر وغفور " .

3-رد العجز على الصدر في [تولج الليل في النهار] و[تولج النهار في الليل] .

4 - التكرار في جمل للتفخيم والتعظيم كقوله [تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء] .

5 - الايجاز بالحذف في مواطن عديدة كقوله [تؤتي الملك من تشاء] أى من تشاء ان تؤتيه ومثلها وتنزع ، وتعز ، وتذل .

6 - [تولج الليل في النهار] قال في تلخيص البيان : وهذه استعارة عجيبة وهي عبارة عن ادخال هذا على هذا ، وهذا على هذا ، فما ينقصه من الليل يزيده في النهار والعكس ، ولفظ الايلاج ابلغ لانه يفيد ادخال كل واحد منهما في الاخر بلطيف الممازجة وشديد الملابسة .

7 - [تخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي] الحى والميت مجاز عن المؤمن والكافر فقد شبه المؤمن بالحي والكافر بالميت (هذا على رأى من فسر الأية بالوجه الاخر ، وهو أن المراد يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، ويدل عليه قوله تعالى " أو من كان ميتا فأحييناه " وهو قول الحسن البصرى) والله اعلم) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 196 .197 ﴾

(138/116)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قرأ العامة " تُحِبُّونَ " - بضم حرف المضارعة ، من " أحَبَّ " وكذلك ﴿ يُحْبِبْكُمُ الله ﴾ .

وقرأ أبو رجاء العُطَارِديّ " تَحِبُّون ، يَحْبِبْكم " بفتح حرف المضارعة - من حَبَّ - وهما لغتان ، يقال حَبَّه يَحُبُّه - بضم الحاء وكسرها في المضارع - وأحَبَّهُ يُحبُّه .

وحكى أبو زيد : حَبَبْتُهُ ، أحِبُّه .

وأنشد :

فَوَاللهِ لَوْلاَ تَمْرُهُ مَا حَبَبْتُهُ . . . وَلاَ كَانَ أَدْنَى مِنْ عُوَيفٍ وَمُشْرِقِ

ونقل الزمخشريُّ : قراءة يحبكم - بفتح الياء والإدغام - وهو ظاهر ، لأنه متى سكن المثلين جزْماً ، أو وقْفاً جاز فيه لغتان : الفك والإدغام . وسيأتي تحقيق ذلك إن شاء الله في المائدة .

والحُبّ : الخَابِيَة - فارسيّ مُعَرَّب - والجمع : حِباب وحِبَبَة ، حكاه الجوهريُّ .

وقرأ الجمهور " فَاتَّبِعُونِي " بتخفيف النون ، وهي للوقاية .

وقرأ الزُّهري بتشديدها ، وخُرِّجَتُ على أنه ألحق الفعل نون التأكيد ، وأدغمها في نون الوقاية وكان ينبغي له أن يحذف واوَ الضمير ؛ لالتقاء الساكنين ، إلا أنه شبَّه ذلك بقوله : ﴿ أتحاجوني ﴾ وهو توجيه ضعيف ولكن هو يصلح لتخريج هذا الشذوذ .

وطعن الزجاجُ على من روى عن أبي عمرو إدغام الراء من " يغفر " في لام " لكم " .

وقال : هو خطأ وغلط على أبي عمرو . وقد تقدم تحقيقه ، وأنه لا خطأ ولا غلط ، بل هو لغة للعرب ، نقلها الناس ، وإن كان البصريون لا يُجيزون ذلك كما يقول الزجاج . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل جـ 5 صـ 156 . 157 ﴾

فصل

قال الفخر :

القوم كانوا يدعون أنهم كانوا محبين لله تعالى ، وكانوا يظهرون الرغبة في أن يحبهم الله تعالى ،

والآية مشتملة على أن الإلزام من وجهين

أحدهما : إن كنتم تحبون الله فاتبعوني ، لأن المعجزات دلّت على أنه تعالى أوجب عليكم متابعتي

الثاني : إن كنتم تحبون أن يحبكم الله فاتبعوني لأنكم إذا اتبعتموني فقد أطعتم الله ، والله تعالى يحب كل من أطاعه ، وأيضاً فليس في متابعتي إلا أني دعوتكم إلى طاعة الله تعالى وتعظيمه وترك تعظيم غيره ، ومن أحب الله كان راغباً فيه ، لأن المحبة توجب الإقبال بالكلية على المحبوب ، والإعراض بالكلية عن غير المحبوب . انتهى . ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 16. 17﴾

فصل

قال الفخر :

خاض صاحب "الكشاف" في هذا المقام في الطعن في أولياء الله تعالى وكتب ههنا ما لا يليق بالعاقل أن يكتب مثله في كتب الفحش فهب أنه اجترأ على الطعن في أولياء الله تعالى فكيف اجترأ على كتبه مثل ذلك الكلام الفاحش في تفسير كلام الله تعالى ، نسأل الله

العصمة والهداية ، ثم قال تعالى : ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ والمراد من محبة الله تعالى له إعطاؤه الثواب ، ومن غفران ذنبه إزالة العقاب ، وهذا غاية ما يطلبه كل عاقل ، ثم قال : ﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يعني غفور في الدنيا يستر على العبد أنواع المعاصي رحيم في الآخرة بفضله وكرمه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب جـ 8 صـ 17 ﴾

فائدة

قال الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فاتبعوني يُحْبِبْكُمُ الله ﴾ الآية .

صرح تعالى : في هذه الآية الكريمة أن اتباع نبيه موجب لمحبته جلا وعلا ذلك المتبع ، وذلك يدل على أن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي عين طاعته تعالى ، وصرح بهذا المدلول في قوله تعالى : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾ [النساء : 80] وقال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] .

تنبيه : يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن علامة المحبة الصادقة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم هي اتباعه صلى الله عليه وسلم ، فالذي يخالفه ويدعي أنه يحبه فهو كاذب مفتر .

إذ لو كان محباً له لأطاعه ، ومن المعلوم عند العامة أن المحبة تستجلب الطاعة ومنه قول الشاعر :

لو كان حبك صادقاً لأطعته . . . إن المحب لمن يحب مطيع

وقول ابن أبي ربيعة المخزومي :

ومن لو نهاني من حبه . . . عن الماء عطشان لم أشرب

وقد أجاد من قال :

قالت : وقد سألت عن حال عاشقها . . . بالله صفه ولا تنقص ولا تزد

فقلت : لو كان رهن الموت من ظمأ . . . وقلت : قف عن ورود الماء لم يرد . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ 199 ﴾

(140/116)

من فوائد البيضاوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فاتبعوني ﴾ المحبة ميل النفس إلى الشيء لكمال أدركته فيه ، بحيث يحملها على ما يقربها إليه ، والعبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا لله ، وأن كل ما يراه كمالاً من نفسه أو غيره فهو من الله وبالله وإلى الله لم يكن حبه إلا لله وفي الله وذلك يقتضي إرادة طاعته والرغبة فيما يقربه إليه ، فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول في عبادته والحرص على مطاوعته . ﴿ يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ

ذُنُوبَكُمْ ﴾ جواب للأمر أي يرضَ عنكم ويكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم فيقربكم من جناب عزه ويبوئكم في جوار قدسه ، عبر عن ذلك بالمحبة على طريق الاستعارة أو المقابلة . ﴿ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لمن تحبب إليه بطاعته واتباع نبيه صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 27 . 28 ﴾

(141/116)

ومن فوائد الآلوسى :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فاتبعونى ﴾ ذهب عامة المتكلمين إلى أن المحبة نوع من الإرادة وهي لا تتعلق حقيقة إلا بالمعاني والمنافع فيستحيل تعلقها بذاته تعالى وصفاته فهي هنا بمعنى إرادة العبد اختصاصه تعالى بالعبادة وذلك إما من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم أو من باب الاستعارة التبعية بأن شبه إرادة العبد ذلك ورغبته فيه بميل قلب المحب إلى المحبوب ميلاً لا يلتفت معه إلا إليه أو من باب مجاز النقص أي إن كنتم تحبون طاعة الله تعالى أو ثوابه فاتبعوني فيما آمركم به وأنهاكم عنه كذا قيل ، وهو خلاف مذهب العارفين من أهل السنة والجماعة فإنهم قالوا : المحبة تتعلق حقيقة بذات الله تعالى وينبغي للكامل أن يحب الله سبحانه لذاته وأما محبة ثوابه فدرجة نازلة ، قال الغزالي عليه الرحمة في

"الإحياء" : الحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء الملذ فإن تأكد ذلك الميل وقوي يسمى عشقاً ، والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب فإذا قوي سمي مقتاً ، ولا يظن أن الحب مقصور على مدركات الحواس الخمس حتى يقال : إنه سبحانه لا يدرك بالحواس ولا يتمثل بالخيال فلا يحب لأنه صلى الله عليه وسلم سمى الصلاة قرة عين وجعلها أبلغ المحبوبات ، ومعلوم أنه ليس للحواس الخمس فيها حظ بل حس سادس مظنته القلب والبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر والقلب أشد إدراكاً من العين وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار فتكون لا محالة لذة القلوب بما تدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل أن تدركها الحواس أتم وأبلغ فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى ، ولا معنى للحب إلا الميل إلى ما في إدراكه لذة فلا ينكر إذاً حب الله تعالى إلا من قعد به القصور في درج البهائم فلم يجز إدراكه الحواس أصلاً ، نعم هذا الحب يستلزم الطاعة كما قال الوراق :

تعصي الإله وأنت تظهر حبه . . . هذا لعمري في القياس بديع

(142/116)

لو كان حبك صادقاً لأطعته . . . إن المحب لمن يحب مطيع

والقول بأن المحبة تقتضي الجنسية بين المحب والمحبوب فلا يمكن أن تتعلق بالله تعالى ساقط من القول لأنها قد تتعلق بالأعراض بلا شبهة ولا جنسية بين العرض والجوهر .

﴿ يُحْبِبْكُمُ الله ﴾ جواب الأمر وهو رأي الخليل . وأكثر المتأخرين على أن مثل ذلك جواب شرط مقدر أي إن تتبعوني يحببكم أي يقربكم رواه ابن أبي حاتم عن سفيان بن عيينة ، وقيل : يرض عنكم وعبر عن ذلك بالمحبة على طريق المجاز المرسل أو الاستعارة أو المشاكلة ، وجعل بعضهم نسبة المحبة لله تعالى من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله تعالى .

﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ أي يتجاوز لكم عنها ﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي لمن تحبب إليه بطاعته وتقرب إليه باتباعه نبيه صلى الله عليه وسلم ، والجملة تذييل مقرر لما سبق مع زيادة وعد الرحمة ، ووضع الاسم الجليل مع الإضمار لما مر وللاشعار باستتباع وصف الألوهية للمغفرة والرحمة ، وقرىء تحبوني ، ويحبكم ، ويحببكم من حبه ، ومنه قوله :

أحب أبا ثروان من حب تمره . . . وأعلم أن الرفق بالجار أرفق

ووالله لولا تمره ما حببته . . . ولا كان أدنى من عبيد ومشرق

ومناسبة الآية لما قبلها كما قال الطيبي : أنه سبحانه لما عظم ذاته وبين جلالة سلطانه بقوله جل وعلا : ﴿ قُلِ اللهم مالك الملك ﴾ [آل عمران : 26] الخ تعلق قلب العبد المؤمن بمولى عظيم الشأن ذي الملك والملكوت والجلال والجبروت ، ثم لما ثنى بنهي المؤمنين عن موالاة أعدائه وحذر عن ذلك غاية التحذير بقوله عز قائلاً : ﴿ لا يَتَّخِذِ المؤمنون الكافرين أَوْلِيَاء ﴾ [آل عمران : 28] الخ ؛ ونبه على استئصال تلك الموالاة بقوله عز شأنه : ﴿ إِن تُخْفُوا مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ ﴾ [آل عمران : 29] الآية وأكد ذلك بالوعيد الشديد زاد ذلك التعلق أقصى غايته فاستأنف قوله جل جلاله : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله ﴾ ليشير إلى طريق الوصول إلى هذا المولى جل وعلا فكأن قائلاً يقول : بأي شيء ينال كمال المحبة وموالاة الرب ؟ فقيل : بعد قطع موالاة أعدائنا تنال تلك الدرجة بالتوجه إلى متابعة حبيبنا إذ كل طريق سوى طريقه مسدود وكل عمل سوى ما أذن به مردود . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 129 . 130 ﴾

وقال ابن كثير :

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله ، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر ، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله ، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَنْ عَمِلَ عَمَلا لَيْسَ عليه أمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ" ولهذا قال : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ

﴿ أي : يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه ، وهو محبته إياكم ، وهو أعظم من الأول ، كما قال بعض الحكماء العلماء : ليس الشأن أن تُحِبّ ، إنما الشأن أن تُحَبّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 32 ﴾

(144/116)

وقال السعدى :

هذه الآية فيها وجوب محبة الله ، وعلاماتها ، ونتيجتها ، وثمراتها ، فقال ﴿ قل إن كنتم تحبون الله ﴾ أي : ادعيتم هذه المرتبة العالية ، والرتبة التي ليس فوقها رتبة فلا يكفي فيها مجرد الدعوى ، بل لا بد من الصدق فيها ، وعلامة الصدق اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم في جميع أحواله ، في أقواله وأفعاله ، في أصول الدين وفروعه ، في الظاهر والباطن ، فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة الله تعالى ، وأحبه الله وغفر له ذنبه ، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته ، ومن لم يتبع الرسول فليس محبا لله تعالى ، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله ، فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن ادعاها ، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها ، وبهذه الآية يوزن جميع الخلق ، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول يكون إيمانهم وحبهم لله ، وما نقص من ذلك نقص . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 128 ﴾

لطيفة

قال الثعالبى :

: قال الشيخُ العارفُ باللَّه ابْنُ أبي جَمْرَةَ (رضي اللَّه عنه) : مِنْ علامةِ السعادةِ للشْخْصِ : أنْ يكون مُعْتَنِياً بمعرفة السُّنَّة في جميعِ تصرُّفاته ، والذي يكونُ كذلك هو دائمٌ في عبادة ؛ في كلِّ حركاته وسكناته ، وهذا هو طريقُ أهل الفَضْلِ ؛ حتى حُكِيَ عن بعضهم ؛ أنه لم يأْكُلِ البِطِّيخَ سنين ؛ لَمَّا لَمْ يبلُغْه كيفيَّةُ السُّنَّة في أَكْله ، وكيف لاَ ، واللَّه سبحانه يَقُولُ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فاتبعوني يُحْبِبْكُمُ الله ﴾ والاِتباعية الكاملةُ إنما تصحُّ بأَنْ تكون عامَّة في كلِّ الأشياء ، يعني : إلا ما خصَّصه به الدليلُ ، جعلنا اللَّه من أهْلها في الدَّارَيْن . انتهى .

(145/116)

قال عِياضٌ : اعلم أنَّ مَنْ أَحبَّ شيئاً ، آثره ، وآثر موافقته ، وإلا لم يكن صادقاً في حُبِّه ، وكان مدَّعياً ، فالصادقُ في حبِّ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، مَنْ تظهر علاماتُ ذلك عليه ، وأولُها الاِقتداءُ به ، واتباع سنَّته ، واتباع أقوالِه وأفعالِه ، والتأدُّبُ بآدابه في عُسره ويُسْره ؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فاتبعوني .

. . ﴾ الآية، قال عِياضٌ: رُوِيَ في الحديثِ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم؛ أَنَّهُ قَالَ: " مَن استمسك بِحَدِيثي، وَفَهِمَهُ وحَفِظَهُ، جاءَ مَعَ القُرْآنِ، وَمَنْ تَهَاوَنَ بالقُرْآنِ، وَحَدِيثي، خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ. . . " الحديثَ، وعن أبي هريرةَ (رضي اللَّه عنه)، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: " المُسْتَمْسِكُ بسُنَّتِي عِنْدَ فَسَادِ أُمَّتِي، لَهُ أَجْرُ مِائَةِ شَهِيدٍ "، وَقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْب: " عليكُمْ بالسبيلِ والسُّنَّةِ، فإِنه ما على الأرضِ مِنْ عَبْدٍ على السبيل والسُّنَّة، ذَكَرَ اللَّه في نَفْسِهِ، ففاضَتْ عيناه مِنْ خَشْيَةِ ربه، فيعذِّبه اللَّه أبداً، وما على الأرضِ مِنْ عبدٍ على السبيلِ والسُّنَّةِ، ذَكَرَ اللَّه في نَفْسه، فاقشعر جِلْدُهُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّه، إِلا كان مَثَلُهُ كَمَثَلِ شجرة، قَدْ يَبِسَ ورقُهَا، فهي كَذَلِكَ؛ إِذ أصابتها رِيحٌ شديدةٌ فتحاتَّ عنها ورقُها إِلاَّ حَطَّ اللَّه عنه خَطَايَاهُ؛ كما تَحَاتَّ عن الشجرة وَرَقُهَا " الحديث.

(146/116)

قال عِياضٌ: ومن علامات مَحبَّته صلى الله عليه وسلم: زُهْدُ مدَّعيها في الدُّنْيا، وإِيثاره الفَقْر، واتصافه به؛ ففي حديثِ أبي سَعِيدٍ: " إِنَّ الفَقْرَ إِلى مَنْ يُحِبُّنِي مِنْكُمْ أَسْرَعُ مِنَ السَّيْلِ مِنْ أَعْلَى الوَادِي، أَوِ الجَبَلِ إِلى أَسْفَلِهِ "، وفي حديثِ عبدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ: " قال رجُلٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُحِبُّكَ، فَقَالَ: انظر مَا تَقُولُ؟ قَالَ: وَاللَّهِ

لأُحِبُّكَ" ؛ ثَلَاثَ مَرَّات ؛ قَالَ : "إِنْ كُنْتَ تُحِبُّنِي ، فَأَعِدَّ لِلفَقْرِ تِجْفَافاً" " ، ثم ذكر نَحْوَ حديثِ أَبي سَعِيدٍ بمعناه. انتهى انتهى . ا هـ من "الشِّفَا" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ 258 ﴾ . بتصرف يسير .

فوائد بلاغية

قال أبو حيان :

قيل : وفي هذه الآيات من ضروب الفصاحة وفنون البلاغة الخطاب العام الذي سببه خاص .

وفي قوله ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين ﴾ والتكرار ، في قوله : المؤمنون من دون المؤمنين ، وفي قوله : من الله ، ويحذركم الله نفسه ، وإلى الله ، وفي : يعلمه الله ، ويعلم ، وفي قوله : يعلمه الله ، والله على ، وفي قوله : ما عملت ، وما عملت ، وفي قوله : الله نفسه ، والله ، وفي قوله : ويحذركم الله ، والله رؤوف ، وفي قوله : تحبون الله ، يحببكم الله ، والله غفور ، قل أطيعوا الله ، فإن الله .

والتجنيس المماثل في : تحبون ويحببكم ، والتجنيس المغاير ، في : تتقوا منهم تقاه ، وفي يغفر لكم وغفور .

والطباق في : تخفوا وتبدوه ، وفي : من خير ومن سوء ، وفي : محضراً وبعيداً .

والتعبير بالمحل عن الشيء في قوله : ما في صدوركم ، عبر بها عن القلوب ، قال تعالى : ﴿

فإنها لا تعمى الأبصار ﴾ الآية .

والإشارة في قوله : ومن يفعل ذلك ، الآية .

أشار إلى انسلاخهم من ولاية الله .

والاختصاص في قوله : ما في صدوركم ، وفي قوله : ما في السموات وما في الأرض .

والتأنيس بعد الإيحاش في قوله : والله رؤوف بالعباد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط

حـ 2 صـ 449 ﴾

(147/116)

فصل في معنى المحبة للنبى صلى الله عليه وسلم وحقيقتها

قال القاضى عياض رحمه الله :

اختلف الناس في تفسير محبة الله ومحبة النبي صلى الله عليه وسلم وكثرت عباراتهم في ذلك وليست ترجع بالحقيقة إلى اختلاف مقال ولكنها اختلاف أحوال فقال سفيان المحبة اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم كأنه التفت إلى قوله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني) الآية ، وقال بعضهم محبة الرسول اعتقاد نصرته والذب عن سنته والانقياد لها وهيبة مخالفته ، وقال بعضهم المحبة دوام الذكر للمحبوب ، وقال آخر : إيثار المحبوب ، وقال

بعضهم المحبة الشوق إلى المحبوب ، وقال بعضهم المحبة مواطأة القلب لمراد الرب يحب ما أحب ويكره ما كره ، وقال آخر : المحبة ميل القلب إلى موافق له وأكثر العبارات المتقدمة إشارة إلى ثمرات المحبة دون حقيقتها وحقيقة المحبة الميل إلى ما يوافق الإنسان وتكون موافقته له إما لاستلذاذه بإدراكه كحب الصور الجميلة والأصوات الحسنة والأطعمة والأشربة الذيذة وأشباهها مما كل طبع سليم مائل إليها لموافقتها له ، أو لاستلذاذه بإدراكه بحاسة عقله وقلبه معاني باطنة شريفة كحب الصالحين والعلماء وأهل المعروف المأثور عنهم السير الجميلة والأفعال الحسنة فإن طبع الإنسان مائل إلى الشغف بأمثال هؤلاء حتى يبلغ التعصب بقوم لقوم والتشيع من أمة في آخرين ما يؤدى إلى الجلاء عن الأوطان وهتك الحرم واخترام النفوس أو يكون حبه إياه لموافقته له من جهة إحسانه له وإنعامه عليه فقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها ، فإذا تقرر لك هذا نظرت هذه الأسباب كلها في حقه صلى الله عليه وسلم فعلمت أنه صلى الله عليه وسلم جامع لهذه المعاني الثلاثة الموجبة للمحبة .

أما جمال الصورة والظاهر وكمال الأخلاق والباطن فقد قررنا منها قبل فيما مر من الكتاب مالا يحتاج إلى زيادة .

وأما إحسانه وإنعامه على أمته فكذلك قد مر منه في أوصاف الله تعالى له من رأفته بهم ورحمته لهم وهدايته إياهم وشفقته عليهم واستنقاذهم به من النار وأنه بالمؤمنين رؤف رحيم ورحمة للعالمين ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه ويتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويهديهم إلى صراط مستقيم ، فأى إحسان أجل قدرا وأعظم خطرا من إحسانه إلى جميع المؤمنين ، وأى إفضال أعم منفعة وأكثر فائدة من إنعامه على كافة المسلمين ؟ إذ كان ذريعتهم إلى الهداية ومنقذهم من العماية وداعيهم إلى الفلاح والكرامة ووسيلتهم إلى ربهم وشفيعهم والمتكلم عنهم والشاهد لهم والموجب لهم البقاء الدائم والنعيم السرمد فقد استبان لك أنه صلى الله عليه وسلم مستوجب للمحبة الحقيقة شرعا بما قدمناه من صحيح الآثار وعادة وجبلة بما ذكرناه آنفا لإفاضته الإحسان وعمومه الإجمال ، فإذا كان الإنسان يحب من منحه في دنياه مرة أو مرتين معروفا أو استنقذه من هلكة أو مضرة مدة التأذى بها قليل منقطع فمن منحه ما لا يبيد من النعيم ووقاه ما لا يفنى من عذاب الجحيم أولى بالحب ، وإذا كان يحب بالطبع ملك لحسن سيرته أو حاكم لما يؤثر من قوام طريقته أو قاص بعيد الدار لما يشاد من علمه أو كرم شيمته فمن جمع هذه الخصال على غاية مراتب الكمال أحق بالحب وأولى بالميل ، وقد قال على رضى الله عنه في صفته صلى الله عليه وسلم من رآه

بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه وذكرنا عن بعض الصحابة أنه كان لا يصرف بصره عنه محبة فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الشفا حـ 2 صـ 29 . 31 ﴾

(149/116)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

﴿ تُحِبُّونَ اللَّهَ ﴾ فرق ، و ﴿ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ جمع .

﴿ تُحِبُّونَ اللَّهَ ﴾ مشوب بالعلة ، و ﴿ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ بلا عِلّة ، بل هو حقيقة الوصلة .

ومحبة العبد لله حالة لطيفة يجدها من نفسه ، وتحمله تلك الحالة على موافقة أمره على الرضا دون الكراهية ، وتقتضي منه تلك الحالة إيثاره – سبحانه – على كل شيء وعلى كل أحد .

وشرطُ المحبةِ ألا يكون فيها حظٌّ بحال ، فمَنْ لم يَفْنَ عن حظوظه بالكلّية فليس له من المحبة شظيّة .

ومحبة الحق للعبد إرادته إحسانَه إليه ولطفَه به ، وهي إرادةُ فضلٍ مخصوص ، وتكون بمعنى ثنائه سبحانه عليه ومدحه له ، وتكون بمعنى فضله المخصوص معه ، فعلى هذا تكون من صفات فعله .

ويقال شرط المحبة امتحاء كليتك عنك لاستهلاكك في محبوبك ، قال قائلهم :

وما الحبُّ حتى تنزف العين بالبكا . . . وتخرس حتى لا تجيب المناديا

وهذا فرق بين الحبيب والخليل ؛ قال الخليل : ﴿ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ﴾ [إبراهيم : 36] .

وقال الحبيبُ : ﴿ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ .

فإن كان مُتَّبعُ الخليل " منه " إفضالاً فإن متابعَ الحبيبِ محبوبُ الحقِّ سبحانه ، وكفى بذلك قربة وحالاً .

ويقال قطع أطماع الكافة أن يسلم لأحدٍ نفس إلا ومقتداهم وإمامهم سيد الأولين والآخرين محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقال في هذه الآية إشارة إلى أن المحبة غير معلولة وليست باجتلاب طاعة ، أو التجرد عن آفة لأنه قال : ﴿ يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ بيَّن أنه يجوز أن يكون عبد له فنون كثيرة ثم يحبُّ اللهَ ويحبُّه الله .

ويقال قال أولاً : ﴿ يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ ثم قال : ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ والواو تقتضي الترتيب ليُعْلَمَ أَنَّ المحبةَ سابقةٌ على الغفران ؛ أولاً يحبهم ويحبونه (وبعده) يغفر لهم ويستغفرونه ، فالمحبة توجب الغفران لأن العفو يوجب المحبة .

والمحبة تشير إلى صفاء الأحوال ومنه حَبَبُ الأسنان وهو صفاؤها .

والمحبة توجب الاعتكاف بحضرة المحبوب في السر .

ويقال أحب البعير إذا استناخ فلا يبرح بالضرب .

والحبُّ حرفان حاء وباء ، والإشارة من الحاء إلى الروح ومن الباء إلى البَدَن ، فالمُحِبُّ لا يَدَّخِر عن محبوبه لا قلبَه ولا بَدَنَه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 236.235 ﴾

(151/116)

لطيفة

قال ابن رجب :

قول " لا إله إلا الله " تقتضي أن لا يحب سواه فإن الإله هو الذي يطاع فلا يعصي محبة وخوفا ورجاء ومن تمام محبته محبة ما يحبه وكراهة ما يكرهه فمن أحب شيئًا مما يكرهه الله أو كره

شيئاً مما يحبه الله لم يكمل توحيده وصدقه في قول لا إله إلا الله وكان فيه من الشرك الخفي بحسب ما كرهه مما يحبه الله وما أحبه مما يكرهه الله

قال الله تعالى ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾

قال الليث عن مجاهد في قوله ﴿ لا يشركون بي شيئًا ﴾ قال لا يحبون غيري

وفي صحيح الحاكم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء وأدناه أن تحب على شيء من الجور أو تبغض على شيء من العدل

وهل الدين إلا الحب والبغض

قال الله عز وجل ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾

وهذا نص في أن محبة ما يكرهه الله وبغض ما يحبه متابعة للهوى والموالاة على ذلك والمعاداة فيه من الشرك الخفي

وقال الحسن : اعلم أنك لن تحب الله حتى تحب طاعته ، وسئل ذو النون متى أحب ربي ؟

قال إذا كان ما يبغضه عندك أمر من الصبر

وقال بشر بن السري ليس من أعلام الحب أن تحب ما يبغض حبيبك

وقال أبو يعقوب النهرجوري كل من ادعى محبة الله ولم يوافق الله في أمره فدعواه باطلة

وقال يحيى بن معاذ : ليس بصادق من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده

وقال رويم المحبة الموافقة في جميع الأحوال وأنشد . . . ولو قلت لي مت قلت سمعا طاعة

. . . وقلت لداعي الموت أهلا ومرحبا . . .

ويشهد لهذا المعنى أيضا قوله تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾

قال الحسن قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا نحب ربنا حبا شديدا

فأحب الله أن يجعل لحبه علما فأنزل الله تعالى هذه الآية

(152/116)

ومن ها هنا يعلم أنه لا تتم شهادة أن لا إله إلا الله إلا بشهادة أن محمدا رسول الله فإنه إذا علم أنه لا تتم محبة الله إلا بمحبة ما يحبه وكراهة ما يكرهه فلا طريق إلى معرفة ما يحبه وما يكرهه إلا من جهة محمد المبلغ عن الله ما يحبه وما يكرهه باتباع ما أمر به واجتناب ما نهى عنه فصارت محبة الله مستلزمة لمحبة رسوله صلى الله عليه وسلم وتصديقه ومتابعته

ولهذا قرن الله بين محبته ومحبة رسوله في قوله تعالى ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم ﴾ إلى قوله ﴿ أحب إليكم من الله ورسوله ﴾ كما قرن طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم في مواضع كثيرة

وقال صلى الله عليه وسلم : ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما وأن يحب الرجل لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقده منه كما يكره أن يلقى في النار

هذه حال السحرة لما سكنت المحبة قلوبهم سمحوا ببذل النفوس وقالوا لفرعون ﴿ اقض ما أنت قاض ﴾

ومتى تمكنت المحبة في القلب لم تنبعث الجوارح إلا إلى طاعة الرب وهذا هو معنى الحديث الآلهي الذي خرجه البخاري في صحيحه وفيه : ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها

وقد قيل إن في بعض الروايات فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي

والمعنى أن محبة الله إذا استغرق بها القلب واستولت عليه لم تنبعث الجوارح إلا إلى مراضي الرب وصارت النفس حينئذ مطمئنة بارادة مولاها عن مرادها وهواها

يا هذا اعبد الله لمراده منك لا لمرادك منه فمن عبده لمراده منه فهو ممن يعبد الله على حرف إن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ومتى قويت المعرفة والمحبة لم يرد صاحبها إلا ما يريد مولاه

وفي بعض الكتب السالفة : من أحب الله لم يكن شيء عنده آثر من رضاه ومن أحب الدنيا لم يكن شيء عنده آثر من هوى نفسه

وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن الحسن قال : ما نظرت ببصري ولا نطقت بلساني ولا بطشت بيدي ولا نهضت على قدمي حتى أنظر على طاعة الله أو على معصيته فإن كانت طاعة تقدمت وإن كانت معصية تأخرت

هذا حال خواص المحبين الصادقين فافهموا رحمكم الله هذا فإنه من دقائق أسرار التوحيد الغامضة . انتهى . اهـ ﴿كلمة الإخلاص صـ 29. 36﴾

(154/116)

فصل

المحبة من أعلى مقامات العارفين ، وهي إيثار من اللّه تعالى لعباده المخلصين ومعها نهاية الفضل العظيم ، قال اللّه جلت قدرته : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) المائدة : 54 ثم قال تعالى : (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ) الحديد : 21 وهذا الخبر متصل بالابتداء في المعنى لأنّ اللّه تعالى وصف المؤمنين المحبين بفضله عليهم ، وما اعترض بينهما من الكلام فهو نعت

المحبوبين ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم : ما كان الّله ليعذب حبيبه بالنار ، وقال الّله عزّ وجلّ مصداق قول نبيه عليه السلام ، ردّاً على من ادعى محبته واحتجاجاً عليهم : (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ) المائدة : 18 وقال زيد بن أسلم : إنّ الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول : اصنع ما شئت فقد غفرت لك ، وروينا عن إسماعيل بن أبان عن أنس قال : قال رسول الّله صلى الله عليه وسلم : إذا أحب الّله عبداً لم يضره ذنب ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ثم تلا : إنّ الّله يحب التوّابين ويحب المتطهرين ، وقد اشترط الّله للمحبة غفران الذنوب بقوله تعالى : (يُحْبِبْكُمُ الّلهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) آل عمران : 31 فكل مؤمن بالّله فهو محب لّله ، ولكن محبته على قدر إيمانه ، وكشف مشاهدته وتجلي المحبوب له على وصف من أوصافه ، دليل ذلك استجابتهم له بالتوحيد والتزام أمره وتسليم حكمه ، ثم تفاوتهم في مشاهدات التوحيد ، وفي دوام الالتزام للأوامر وفي تسليم الأحكام ، فليس ذلك يكون إلا عن محبة ، وإنّ تفاوت المحبون على حسب أقسامهم من المحبوب ، وليس يقصر عن المحبة صغير كما لا يصغر عن المعرفة من عرف ، ولا يكبر عن التوبة كبير ولو كان على كل العلوم قد أوقف ، لأنّ الّله تعالى وصف المؤمنين بشدة الحبّ له فقال تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لّله) البقرة : 165 وفي قوله أشدّ دليل على تفاوتهم في المحبة لأنّ المعنى أشدّ فأشدّ ولم يقل

شديد ، والحب لله ، فأشبه هذا الخطاب قوله تعالى : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) الحجرات : 13 فدلّ على تفاوتهم في الإكرام على قدر تفاضلهم في التقوى ولم يقل : إنّ الكرام المتقون .

وروينا عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أنّ اللّه يعطي الدنيا من يحبّ ومن لا يحبّ ، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب ، فالمؤمنون متزايدون في الحبّ للّه عزّ وجلّ عن تزايدهم في المعرفة به والمشاهدة له ، وقد جعل رسول اللّه صلى الله عليه وسلم الحبّ للّه من شرط الإيمان قال : أن يكون اللّه ورسوله أحبّ إليه مما سواهما ، وفي حديث : لا يؤمن أحدكم حتى يكون اللّه ورسوله أحبّ إليه مما سواهما ، وفي خبر آخر أشدّ توكيداً وأبلغ من هذين قوله : واللّه ، لا يؤمن العبد حتى أكون أحبّ إليه من أهله وماله والناس أجمعين ، وفي خبر آخر : ومن نفسك ، وقد أمر صلى الله عليه وسلم بالمحبة للّه فيما شرعه من الأحكام فقال أحبّوا اللّه لما أسدى إليكم من نعمه ، وأحبّوني لحبّ اللّه ، فدلّ ذلك على فرض الحبّ للّه وإنّ تفاضل المؤمنون في نهايات فضائله ، ومن أفضل ما أسدى إلينا من نعمه المعرفة به ، فأفضل الحبّ له ما كان عن المشاهدة ، والمحبون للّه على مراتب من المحبة ؛ بعضها أعلى من بعض ، فأشدهم حبّاً للّه أحسنهم تخلقاً بأخلاقه مثل العلم والحلم والعفو وحسن الخلق ، والستر على الخلق ، وأعرفهم بمعاني صفاته وأتركهم منازعة له في معاني الصفات كي لا

يشركوه فيها ، مثل الكبر والحمد وحب المدح وحب الغنى والعز وطلب الذكر ، ثم أشدهم حبّاً لرسوله إذ كان حبيب الحبيب وأتبعهم لآثاره أشبعهم هدياً لشمائله ، وقد روي أنّ رجلاً قال : يا رسول اللّه إني أحبك فقال : استعد للفقر فقال : إني أحبّ اللّه فقال : استعد للبلاء ، والفرق بينهما أن البلاء من أخلاق المبلي وهو اللّه تعالى المبتلي ، فلما ذكر محبته أخبره بالبلاء ليصبر على أخلاقه ، كما قال تعالى : (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) المدثر : 7 فدل على أحكامه وبلائه ، والفقر من أوصاف رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ، فلما ذكر محبته دله على اتباع أوصافه ليقتفي آثاره

(156/116)

ومن علامة المحبة كثرة ذكر الحبيب ، وهو دليل محبة المولى لعبده وهو من أفضل مننه على خلقه ، وفي الخبر أنّ للّه في كل يوم صدقة يمنّ بها على خلقه ، وما تصدق على عبد بصدقة أفضل من أن يلهمه ذكره .

وفي حديث سفيان عن مالك بن معول قيل : يا رسول اللّه ، أي الأعمال أفضل ؟ قال : اجتناب المحارم ، ولا يزال فوك رطباً من ذكر اللّه ، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بكثرة الذكر للّه كما أمر بمحبة اللّه ، لأن الذكر مقتضى المحبة فقال : أكثر من ذكر اللّه حتى

يقول الناس إنك مجنون ، وقد روينا : أكثروا من ذكر اللّه حتى يقول المنافقون إنكم مراؤون ، وفي حديث أبي سلمة المدني عن أبيه عن جده : أتانا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ذات يوم إلى مسجد قباء ، فذكر حديثاً فيه طول قال في آخر : من تواضع للّه رفعه ومن تكبر وضعه ، ومن أكثر ذكر اللّه أحبه اللّه ، وقد أخبر أنّ الذاكرين هم السابقون المفردون ، ورفعهم إلى مقام النبوّة في وضع الوزر ، ورفع الذكر إن كان الذكر موجب الحبّ في قوله : سيروا سبق المفردون ، قيل : مَنْ المفردون ؟ قال : المستهترون بذكر اللّه ، وضع الذكر عنهم أوزارهم يردون القيامة خفافاً ، ومن أعلام المحبة : حبّ لقاء الحبيب على العيان ، والكشف في دار السلام ومحل القرب وهو الاشتياق إلى الموت ، لأنه مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى المعاينة ، وفي الحديث : من أحبّ لقاء اللّه أحبّ اللّه لقاءه ، وقال حذيفة عند الموت : حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم ، وقال بعض السلف ما من خصلة أحبّ إلى اللّه تكون في لعبد بعد حبّ لقائه من كثرة السجود ، فقدم حبّ لقاء اللّه وقد شرط اللّه لحقيقة الصدق القتل في سبيله ، وأخبر أنه يحب قتل محبوبه في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ الصف : 4 ، بعد قوله تقريراً لهم : لِمَ تقولون ما لا تفعلون ؟ حيث قالوا : إنّا نحبّ اللّه ، فجعل القتل محنة محبته وعلامة أخذ مال محبوبه ونفسه ، إذ يقول تعالى : ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ التوبة : 111 ، وفي وصية أبي بكر لعمر رضي اللّه عنهما : الحق ثقيل وهو مع ثقله مريء ، والباطل خفيف

وهو مع خفته وبيء ؛ فإن حفظت وصيتي لم يكن غائب أحبّ إليك من الموت وهو مدرك ، وإن ضيعت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه ، وكان الثوري وبشر بن الحرث يقولان : لا يكره الموت إلا مريب ، وهو كما قالا : لأن الحبيب على كل حال لا يكره لقاء الحبيب ، وهذا لا يجده إلا عبد يحبّ اللّه بكل قلبه ، عندها يشتاق إليه مولاه فينزعج القلب لشوق الغيب ، فيحبّ لقاءه ، وروي أنّ أبا حذيفة بن عتبة بن زمعة لما تبنى سالماً مولاه ، عاتبه قريش في ذلك وقالوا : أنكحت عقيلة من عقائل قريش بمولى فقال : واللّه ، لقد أنكحته إياها وأني لأعلم أنه خير منها ، فكان قوله أشد عليهم قالوا : وكيف ؟ وهي أختك وهو مولاك فقال : سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول : من أراد أن ينظر إلى رجل يحب اللّه بكل قلبه فلينظر إلى سالم ، فمن الدليل أنّ من المؤمنين من يحبّ اللّه ببعض قلبه فيؤثره بعض الإيثار ، ويوجد فيه محبة الاعتبار ، ومنهم من يحبه بكل قلبه فيؤثره على ما سواه ، فهذا عابده ومألوهه الذي لا معبود له ولا إله إياه ، وفيه دليل على أنهم على مقامات المحبة عن معاني مشاهدات الصفات ما بين البعض في القلوب والكلية ، وقد كان نعيمان يؤتي به رسوله اللّه صلى الله عليه وسلم فيجده في معصية يرتكبها إلى أن أتى به يوماً

فحده فلعنه رجل وقال : ما أكثر ما يؤتى به رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : لا تفتعل فإنّه يحب اللّه ورسوله ، فلم يخرجه من المحبة مع المخالفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ قوت القلوب صـ 447.445 ﴾

(158/116)

لطيفة :

سئل الحارث المحاسبى رحمه الله :

ما علامة محبة الله للعبد ؟ – فقال للسائل : ما الذي كشف لك عن طلب علم هذا ؟

فقال : قوله تعالى : " إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله " . " آل عمران 31 " .

فعلمت أن علامة محبة الله اتباع رسوله . ثم قال : " يحببكم الله " . فما علامة محبة الله للعبد ؟ فقال : لقد سألت عن شيء غاب عن أكثر القلوب ، إن علامة محبة الله للعبد أن يتولى الله سياسة همومه فيكون في جميع أموره هو المختار لها ، ففي الهموم التي لا تعترض عليها حوادث القواطع ، ولا تشير إلى التوقف لأن الله هو المتولي لها ، فأخلاقه على السماحة ، وجوارحه على الموافقة ، يصرخ به ويحثه بالتهدد والزجر ، فقال السائل : وما الدليل على ذلك ؟ فقال : خبر النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا أحب الله عبداً جعل له

واعظاً من نفسه وزاجراً من قلبه ، يأمره وينهاه " ، فقال السائل : زدني من علامة محبة الله للعبد . قال : ليس شيء أحب إلى الله من أداء الفرائض بما دعة من القلب والجوارح ، والمحافظة عليها ، ثم بعد ذلك كثرة النوافل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى : ما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي من أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ، إن دعاني أجبته ، وإن سألني أعطيته " فقال السائل : رحمك الله ، صف لي من علامات وجود قلبه . قال : محبوسة يا فتى في سر الملاطفة ، مخصوصة بعلم المكاشفة ، مقلبة بتنعم النظر في مشاهدة الغيب ، وحجاب العز ، ورفعة المنعة ، فهي القلوب التي أسرت أوهامها بعجب نفاذ اتقان الصنع ، فعندها تصاعدت المنى ، وتواترت على جوارحها فوائد الغنى ، فانقطعت النفوس عن كل ميل إلى راحة ، وانزعجت الهموم وفرت من الرفاهة ، فنعمت بسرائر الهداية وعلمت طرق الولاية ، وغذيت من لطيف الكفاية وأرسلت في روضة البصيرة ، وأحلت القلوب محلاً نظرت فيه بلا عيان ، وجالت بلا مشاهدة ، وخوطبت بلا مشافهة . فهذا يا فتى صفة أهل

محبة الله من أهل المراقبة والحياء والرضا والتوكل . فهم الأبرار من العمال ، وهم الزهاد من العلماء ، وهم الحكماء من النجباء ، وهم المسارعون من الأبرار ، وهم دعاة الليل والنهار ، وهم أصحاب صفاء التذكار وأصحاب الفكر والاعتبار ، وأصحاب المحن والاختبار . هم قوم أسعدهم الله بطاعته وحفظهم برعايته ، وتولاهم بسياسته ، فلم تشتد لهم همة ، ولم تسقط لهم إرادة . هومهم في الجد والطلب ، وأرواحهم في النجاة والهرب ، يستقلون الكثير من أعمالهم ، ويستكثرون القليل من نعم الله عليهم ، إن أنعم عليهم شكروا ، وإن منعوا صبروا ، يكاد يهيج منهم صراخ إلى مواطن الخلوات ، ومعابر العبر والآيات ، فالحسرات في قلوبهم تتردد ، وخوف الفراق في قلوبهم يتوقد ، نعم يا فتى ، هؤلاء قوم أذاقهم الله طعم محبته ، ونعمهم بدوام العذوبة في مناجاته ، فقطعهم ذلك عن الشهوات ، وجانبوا اللذات ، وداموا في خدمة من له الأرض والسموات ، فقد اعتقدوا الرضا قبل وقوع البلا ، ومنقطعين عن إشارة النفوس ، منكرين للجهل المأسوس ، طاب عيشهم ودام نعيمهم ، فعيشهم سليم ، وغناهم في قلوبهم مقيم ، كأنهم نظروا بأبصار القلوب إلى حجب الغيوب ، فقطعوا وكان الله المنى والمطلوب ، دعاهم إليه فأجابوه بالحث والجد ودوام السير ، فلم تقم لهم أشغال إذ استبقوا دعوة الجبار ، فعندها يا فتى غابت عن قلوبهم أسباب الفتنة بدواهيها ، وظهرت أسباب المعرفة بما فيها ، فصار مطيتهم إليه الرغبة ، وسائقهم الرهبة ، وحاديهم الشوق ، حتى أدخلهم في رق عبوديته ، فليس تلحقهم

فترة في نية ، ولا وهن في عزم ، ولا ضعف في حزم ، ولا تأويل في رخصة ، ولا ميل إلى دواعي غرة . قال السائل : أرى هذا مراداً بالمحبة . قال : نعم يا فتى ، هذه صفة المرادين بالمحبة . فقال : كيف المحن على هؤلاء ؟ فقال : سهلة في علمها ، صعبة في اختبارها ، فمنحهم على قدر قوة إيمانهم . قال : فمن أشدهم محناً ؟ قال : أكثرهم معرفة وأقواهم يقيناً وأكملهم إيماناً . كما جاء في الخبر : " أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل " .

انتهى انتهى . اهـ ﴿حلية الأولياء حـ 10 صـ 99 . 101﴾

(160/116)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

ولنا أن نعرف أن كل " قل " إنما جاءت في القرآن كدليل على أن ما سيأتي من بعدها هو بلاغ من الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه ، بلاغ للأمر وللمأمور به ، إن البعض ممن في قلوبهم زيغ يقولون : كان من الممكن أن يقول الرسول : ﴿ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ لهؤلاء نقول : لو فعل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك لكان قد أدى "

المأمور به " ولم يؤد الأمر بتمامه . لماذا ؟ لأن الأمر في " قل " . . والمأمور به ﴿ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ ﴾ وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم في كل بلاغ عن الله بدأ بـ " قل " إنما يبلغ " الأمر " ويبلغ " المأمور به " مما يدل على أنه مبلغ عن الله في كل ما بلغه من الله .

إن الذين يقولون : يجب أن تحذف " قل " من القرآن ، وبدلا من أن نقول : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فلننطقها : " الله أحد " . لهؤلاء نقول : إنكم تريدون أن يكون الرسول قد أدى " المأمور به " ولم يؤد " الأمر " .

إن الحق يقول : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ هذه الآية تدل على ماذا ؟ إنهم لا بد قد ادعوا أنهم يحبون الله ، ولكنهم لم يتبعوا الله فيما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكأنهم جعلوا الحب لله شيئا ، واتباع التكليف شيئا آخر ، والله سبحانه وتعالى له على خلقه إيجاد ، وإمداد ، وتلك نعمة ، ولله على خلقه فضل التكليف ؛ لأن التكليف إن عاد على المُكَلَّف " بفتح الكاف وتشديد اللام " ولم يعد منه شيء على المُكَلِّف بكسر الكاف فهذه نعمة من المكلِّف .

إن الحق سبحانه لا يحتاج إلى أحد ولا من أحد . إن الحق سبحانه عندما كلفنا إنما يريد لنا أن نتبع قانون صيانة حياة الإنسان . وقد ضربنا المثل – ولله المثل الاعلى ، بالآلة المصنوعة بأيدي البشر ، إن المهندس الذي صممها يضع لها قانون صيانة ما ، ويضع قائمة تعليمات عن كيفية استعمالها ؛ وهي تتلخص في " افعل كذا " و " لا تفعل كذا " ، ويختار لهذه الآلة مكانا محددا ، وأسلوبا منظما للاستخدام .

إذن فوضع قائمة بالقوانين الخاصة بصيانه واستعمال آلة ما وطبعها في كراسة صغيرة ، هي لفائدة المنتفع بالصنعة . هذا في مجال الصنعة البشرية فما بالنا بصنعة الله عز وجل ؟ إن لله إيجادا للإنسان ، ولله إمدادا للإنسان ، ولله تكليفا للإنسان ، والحق قد جعل التكليف في خدمة الإيجاد والإمداد . إن الحق لو لم يعطنا نظام حركة الحياة في " افعل " و " لا تفعل " لفسد علينا الإيجاد والإمداد ، إن من تمام نعمة الحق على الخلق أن أوجد التكليف ، وإن كان العبد قد عرف قدر الله فأحبه للإيجاد والإمداد فليعرف العبد فضل ربه عليه أيضا من ناحية قبول التكليف ، وأن يحب العبد ربه لأنه كلفة بالتكاليف الإيمانية .

إنك قد تحب الله ، ولكن عليك أن تلاحظ الفرق بين أن تحب أنت الله ، وأن يحبك الله .

إن التكليف قد يبدو شاقا عليك فتهمل التكليف ؛ لذلك نقول لك : لا يكفي أن تحب الله لنعمة إيجاده وإمداده ؛ لأنك بذلك تكون أهملت نعمة تكلفيه التي تعود عليك بالخير ، إن نعمة التكليف تعود عليك بكل الخير عندما تؤديها أيها الإنسان ، فلا تهملها ، ومن الجائز أن

تجد عبادا يحبون الله لأنه أوجدهم وأمدهم بكل أسباب الحياة ، ولكن حب الله لعبده يتوقف على أن يعرف العبد نعمته – سبحانه – في التكليف ، إن الله يحب العبد الذي يعرف قيمة النعمة في التكليف .

(162/116)

ونحن في مجالنا البشري نرى إنسانا يحب إنسان آخر ، لا يبادله العاطفة ، والمتنبي قال : أنت الحبيب ولكني أعوذ به من أن أكون حبيبا غير محبوب

إن المتنبي يستعيذ أن يحب واحدا لا يبادله الحب . فكأن الذين يدعون أنهم يحبون الله ، لأنهم عبيد إحسانه إيجادا وإمدادا ، ثم بعد ذلك يستنكفون ، أولا يقدرون على حمل نفوسهم على أداء التكليف لهؤلاء نقول : أنتم قد منعتم شطر الحب لله ، لأن الله لن يكلفكم لصالحه ولكنه كلفكم لصالحكم ؛ لأن التكليف لا يقل عن الإيجاد والإمداد .

لماذا ؟ لأن التكليف فيه صلاح الإيجاد والإمداد ، والحب – كما نعرف – هو ودادة القلب وعندما تقيس ودادة القلب بالنسبة لله ، فإننا نرى آثارها ، وعملها ، من عفو ، ورحمة ، ورضا .

وعندما تقيس ودادة القلب من العبد إلى الله فإنها تكون في الطاعة . إن الحب الذي هو

ودادة القلب يقدر عليه كل إنسان ، ولكن الحق يطلب من ودادة القلب ودادة القالب ، وعلى الإنسان أن يبحث عن تكاليف الله ليقوم بها ، طاعة منه وحبا لله ، ليتلقى محبة الله له بآثارها ، من عفو ، ورحمة ، ورضا .

والحب المطلوب شرعا يختلف عن الحب بمفهومه الضيق ، أقول ذلك لنعلم جميعا ، أنه الحق سبحانه قائم بالقسط ، فلا يكلف شططا , ولا يكلف فوق الوسع أو فوق الطاقة . إن الحب المراد لله في التكليف هو الحب العقلي ، ولا بد أن نفرق بين الحب العقلي والحب العاطفي ، العاطفي لا يقنن له . لا أقول لك : " عليك أن تحب فلانا حبا عاطفيا " لأن ذلك الحب العاطفي لا قانون له . إن الإنسان يحب ابنه حتى ولو كان قليل الذكاء أو صاحب عاهة ، يحبه بعاطفته ، ويكره قليل الذكاء بعقله .

(163/116)

والإنسان حينما يرى ابن جاره أو حتى ابن عدوه ، وهو متفوق ، فإنه يحب ابن الجار أو ابن العدو بعقله ، لكنه لا يحب ابن الجار أو العدو بعاطفته ، ودليل ذلك أن الإنسان عندما توجد لديه أشياء جميلة فإنه يعطيها لابنه لا لابن الجيران ، هناك – إذن – فرق بن حب العقل ، وحب العاطفة .

والتكليف دائما يقع في إطار المقدور عليه وهو حب العقل ، ومع حب العقل قد يسأل الإنسان نفسه : ماذا تكون حياتي وكيف . . لو لم أعتنق هذا الدين ؟ وماذا تكون الدنيا وكيف ، لولا رحمة الله بنا عندما أكرمنا بهذا الدين ؟ وأرسل لنا هذا الرسول الكريم ؟ إن هذا حديث العقل وحب العقل .

وقد يتسامى الحب فيصير بالعاطفة أيضا ، لكن المكلف به هو حب العقل ، وليس الحب العاطفي ، ولذلك يجب أن نفطن إلى ما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه – حينما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين " .

وقف سيدنا عمر عند هذه النقطة فقال : أمعقول أن يكون الحب لك أكثر من النفس ؟ إنني أحبك أكثر من مالي ، أو من ولدي ، إنما من نفسي ؟ ففي النفس منها شيء . وهكذا نرى صدق الأداء الإيماني من عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكررها النبي صلى الله عليه وسلم ثانيا ، وثالثا ، فعرف سيدنا عمر أنه قد أصبحت تكليفا وعرف أنها لا بد أن تكون من الحب المقدور عليه ، وهو حب العقل ، وليس حب العاطفة . وهنا قال عمر : " الآن يا رسول الله ؟ " فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : " الآن يا عمر ، أي كمل إيمانك الآن ، أي أن سيدنا عمر قد فهم المراد بهذا الحب وهو الحب العقلي .

ونريد هنا أن نضرب مثلا حتى لا تقف هذه المسألة عقبة في القلوب أو العقول – نقول –

ولله المثل الأعلى : إن الإنسان ينظر إلى الدواء المر طعما ويسأل نفسه هل أحبه أو لا ؟ إن الإنسان يحب هذا الدواء بعقله ، لا بعاطفته .

(164/116)

إذن فحب العقل هو ودادة من تعلم أنه صالح لك ونافع لديك وإن كانت نفسك تعافه ، وعندما تتضح لك حدود نفع بالشيء فأنت تحبه بعاطفتك إذاً فالمطلوب للتكليف الإيماني " الحب العقلي " ، وبعد ذلك يتسامى ليكون " حبا عاطفيا " وهكذا يكون قول الحق : ﴿ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ وهذا الحب ليس دعوى . إن الإنسان منا عندما يدعى أنه يحب إنسانا آخر ، فكل ما يتصل به يكون محبوبا ، ألم يقل الشاعر : " وكل ما يفعل المحبوب محبوب " ؟ فإن كنتم تحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاتبعوه بتنفيذ التكاليف الإيمانية ، ولنلتفت إلى الفرق بين " اتبعني " و " استمع لي " .

إن الاتباع لا يكون إلا في السلوك ، فإن كانت تحب رسول الله فعليك أن ترى ماذا كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن تفعل مثله ، أما إذا كنت تدعى هذا الحب ، ولا تفعل مثلما فعل رسول الله صلى فهذا عدم صدق في الحب ، إن دليل صدقكم في الحب

المدعى منكم أن تتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن اتبعنا رسول الله نكون قد أخذنا التكليف من الله على أنه نعمة ، ونقلبها من الله مع ما فيها من مشقة علينا ، فيحبنا الله ؛ لأننا آثرنا تكليفه على المشقة في التكليف .

إن فهم هذه الآية يقتضي أن نعرف أن الحق ينبهنا فكأنه يقول لنا : أنتم أحببتم الله للإيجاد والإمداد ، وبعد ذلك وقفتم في التكليف لأنه ثقيل عليكم ، وهنا نقول : " انظروا إلى التكليف أهو لصالح من كلف أم هو لصالح من تلقى التكليف ؟ " . إنه لصالح المكلَّف أي الذي تلقى التكاليف .

(165/116)

وهكذا يجب أن نضم التكليف للنعم ، فتصبح النعم هي " نعم الإيجاد " ، و " الإمداد " ، و " التكليف " ، فإن أحببت الله للإيجاد والإمداد ، فهذا يقتضي أن تحبه أيضا للتكليف ، ودليل صدق الحب هو قيام العبد بالتكليف ، وما دمت أنت قد عبرت عن صدق عواطفك بحبك لله ، فلا بد أن يحبك الله ، وكل منا يعرف أن حبه لله لا يقدم ولا يؤخر ، لكن حب الله لك يقدم ويؤخر .

إن قول الحق سبحانه وتعالى فيما يعلّمه لرسول الله ليقول لهم : ﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ

﴾ أي أن الرسول صلى الله عليه وسلم المرسل من عند الله جاء بكل ما أنزله الله ولم يكتم شيئاً مما أُمِرَ بتبليغه، فلا يستقيم أن يضع أحد تفريقا بين رسول الله وبين الله، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم مبلغ عن الله كل ما أنزل عليه.

وبعد ذلك يقول الحق: ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ إن مسألة ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ هذه تتضمن ما تسميه القوانين البشرية بالأثر الرجعي، فمن لم يكن في باله هذا الأمر؛ وهو حب الله، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، فعليه أن يعرف أن عليه مسئولية أن يبدأ في هذه المسألة فورا ويتبع الرسول صلى الله عليه وسلم وينفذ التكليف الإيماني، وسيغفر له الله ما قد سبق، وأي ذنوب يغفرها الله هنا؟ إنها الذنوب التي فر منها بعض العباد عن اتباع الرسول، فجاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالحكم فيها.

(166/116)

وهكذا نعرف ونتيقن أن عدالة الله أنه سبحانه لن يعاقب أحدا على ذنب سابق ما دام قد قبل العبد أن ينفذ التكليف الإيماني، إن الذين أبلغهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجب عليهم أن يفطنوا بعقولهم إلى ما أعلنه الرسول لهم، إن هذا الأمر لا يكون حجة إلا بعد أن صار بلاغا، وقد جاء البلاغ، ولذلك يغفر الله الذنوب السابقة على البلاغ، وبعد

ذلك يقول الحق : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ إننا نعلم أن المغفرة من الله والرحمة منه أيضا ، وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1422.1417 ﴾

(167/116)

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (32) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما نفى عمن تولى أن يحبه كان في إشعارة أن هذا الكفر عموم كفر يداخل رتباً من الإيمان من حيث نفي عنه الحب فنفي منه ما يناله العفو أو المغفرة والرحمة ونحو ذلك بحسب رتب تناقص الكفر ، لأنه كفر دون كفر ، ومن فيه كفر فهو غير مستوفي اتباع الرسول بما أنه الماحي الذي يمحو الله به الكفر ، وإنما يحب الله من اتبع رسوله ، فعاد الختم في الخطاب إلى إشعار من معنى أوله وفي إلاحته أن حب الله للعبد بحسب توحيده ، فكلما كان أكمل توحيداً كان أحب ، وما سقط عن رتبة أدنى التوحيد الذي هو محل الأمر بطاعة الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم كان كفراً بحسب ما يغطى على تلك الرتبة

من التوحيد ، لأن هذه السورة سورة إلهية إيمانية حبية توحيدية ، فخطابها مخصوص بما يجري في حكم ذلك من الإيمان والكفر والمحكم والمتشابه وكشف غطاء الأعين ورفع حجب القلوب – انتهى .

وقد وضح أن الآية من الاحتباك – فأصل نظمها : فإن تولوا فإن الله لا يحبهم لكفرانهم ، وإن أقبلوا فإن الله يحبهم لإيمانهم ، فإن الله لا يحب الكافرين والله يحب المؤمنين – إثبات التولية في الأول يدل على حذف الإقبال من الثاني ، إثبات الكراهة في الثاني يدل على حذف مثلها في الأول .

(168/116)

ولما كان الأصفياء أخص من مطلق الأحباب بين بعض الأصفياء وما أكرمهم به تصديقاً لقوله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي الشريف " فإذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها " تنبيهاً لوفد نصارى نجران وغيرهم على أنه مثل ما اصطفى لنفسه ديناً اصطفى للتخلق به ناساً يحبونه ويطيعونه ويوالون أولياءه ويعادون أعداءه ، وليسوا من صفات الكافرين في شيء فقال – أو يقال : إنه سبحانه وتعالى لما شبه أفعاله في التشابه وغيره بأقواله وعرف أن

الطريق الأقوم رد المتشابه منها إلى الواضح المحكم والالتجاء في كشف المشكل إليه مع الاعتقاد الجازم المستقيم، وبين أن الموقف عن هذا الطريق الأقوم الوقوف مع العرض الدنيوي مع الرئاسة وغيرها وألف الدين مع التعلل فيه بالتمني الفارغ، وأنهى ذلك وتوابعه إلى أن ختم بتهديد من تولى عن الحق أخذ في تصوير تصويره في الأرحام كيف شاء بما شوهد من ذلك ولم يشك فيه من أحوال أناس هم من خلص عباده المقبلين على ما يرضيه فقال: أو يقال ولعله أحسن: ولما أخبر سبحانه وتعالى أن أهل الكتاب ما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم فكفروا بذلك، وألحق به ما تبعه إلى أن ختم بالأمر باتباع الرسول وبأنه لا يحب الكافرين بالتولي عن رسله اشتد تشوف النفس إلى معرفة الرسل الآتين بالعلم الذين توجب مخالفتهم الكفر فبينهم بقوله: وقال الحرالي: لما كان منزل هذه السورة لإظهار المحكم والمتشابه في الخلق والأمر قدم سبحانه وتعالى بين يدي إبانة متشابه خلق عيسى عليه الصلاة والسلام وجه الاصطفاء المتقدم للآدمية ومن منها من الذرية لتظهر معادلة خلق عيسى عليه الصلاة والسلام آخراً لمتقدم خلق آدم عليه الصلاة والسلام أولاً، حتى يكونا مثلين محيطين بطرفي الكون في علو ورحه ودنو أديم تربته وأنه سبحانه وتعالى نزل الروح إلى الخلق الآدمي كما قال ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً

وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ [الأنعام : 9] وظهر أثر ذلك اللبس بما وقع لأهل الزيغ في عيسى كما أنه رقى الخلق الطيني رتبة رتبة إلى كمال التسوية إلى أن نفخ فيه من روحه ، فكان ترقي الآدمي إلى النفخة لتنزل الروح إلى الطينة الإنسانية التي تم بها وجود عيسى عليه الصلاة والسلام كما كمل وجود آدم عليه الصلاة والسلام بالنفخة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 64 . 66 ﴾

فصل

قال الفخر :

يروى أنه لما نزل قوله ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ ﴾ الآية قال عبد الله بن أُبي : إن محمداً يجعل طاعته كطاعة الله ، ويأمرنا أن نحبه كما أحبت النصارى عيسى ، فنزلت هذه الآية ، وتحقيق الكلام أن الآية الأولى لما اقتضت وجوب متابعته ، ثم إن المنافق ألقى شبهة في الدين ، وهي أن محمداً يدعي لنفسه ما يقوله النصارى في عيسى ، ذكر الله تعالى هذه الآية إزالة لتلك الشبهة ، فقال : ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ اللهَ والرسول ﴾ يعني إنما أوجب الله عليكم متابعتي لا كما تقول النصارى في عيسى بل لكوني رسولاً من عند الله ، ولما كان مبلغ التكاليف عن الله هو الرسول لزم أن تكون طاعته واجبة فكان إيجاب المتابعة لهذا المعنى لا لأجل الشبهة التي ألقاها المنافق في الدين .

ثم قال تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الكافرين ﴾ يعني إن أعرضوا فإنه لا يحصل لهم محبة الله ، لأنه تعالى إنما أوجب الثناء والمدح لمن أطاعه ، ومن كفر استوجب الذلة والإهانة ، وذلك ضد المحبة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 17 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون مضارعاً ، والأصل " تَتَوَلَّوْا " فحذف إحدى التاءين كما تقدم ، وعلى هذا ، فالكلام جارٍ على نسق واحدٍ ، وهو الخطاب .

(170/116)

والثاني : أن يكون فعلاً ماضيا مسنداً لضمير غيب ، فيجوز أن يكون من باب الالتفاتِ ، ويكون المراد بالغُيَّبِ المخاطبين في المعنى ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ [يونس : 22] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 158 ﴾

فائدة أخرى

قال البيضاوى :

﴿ فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الكافرين ﴾ لا يرضى عنهم ولا يثني عليهم ، وإنما لم يقل لا يحبهم لقصد العموم والدلالة على أن التولي كفر ، وإنه من هذه الحيثية ينفي محبة الله وأن محبته مخصوصة بالمؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 28 ﴾

من فوائد الآلوسى فى الآية :

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ اللهَ والرسول ﴾ أي في جميع الأوامر والنواهي ويدخل في ذلك الأمر السابق دخولاً أولياً ، وإيثار الإظهار على الإضمار بطريق الالتفات لتعيين حيثية الإطاعة والاشعار بعلتها ، وفيه إشارة إلى ردّ شبهة المنافق كأنه يقول : إنما أوجب الله تعالى عليكم متابعتي لا لما يقول النصارى في عيسى بل لكوني رسول الله ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي أعرضوا أو تعرضوا على أن تكون إحدى التائين محذوفة فيكون حينئذ داخلاً في حيز المقول وفي ترك ذكر احتمال الإطاعة تلويح إلى أنها غير محتملة منهم ﴿ فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الكافرين ﴾ أي لا يقربهم أو لا يرضى عنهم بل يبعدهم عن جوار قدسه وحظائر عزه ويسخط عليهم يوم رضاه عن المؤمنين . والمراد من الكافرين من تولى ولم يعبر بضميرهم للإيذان بأن التوالي عن الطاعة كفر وبأن محبته عز وجل مخصوصة بالمؤمنين لأن نفيها عن هؤلاء الكفار المستلزم لنفيها عن سائرهم لاشتراك العلة يقتضي الحصر في ضدهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح

المعانى حـ 3 صـ 130 ﴾

وقال ابن عاشور :

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (32)

(171/116)

عودة إلى الموعظة بطريق الإجمال البحت : فَذْلَكَةً للكلام ، وحرصاً على الإجابة ، فابتدأ الموعظة أولاً بمقدمة وهي قوله : ﴿ إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴾ [آل عمران : 10] ثم شرع في الموعظة بقوله : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون ﴾ [آل عمران : 12] الآية .

وهو ترهيب ثم بذكر مقابله في الترغيب بقوله : ﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ﴾ [آل عمران : 15] الآية ثم بتأييد ما عليه المسلمون بقوله : ﴿ شهد اللَّه أنه لا إله إلا هو ﴾ [آل عمران : 18] الآية وفي ذلك تفصيل كثير .

ثم جاء بطريق المجادلة بقوله : ﴿ فإن حاجّوك ﴾ [آل عمران : 20] الآية ثم بترهيب بغير استدلال صريح ولكن بالإيماء إلى الدليل وذلك قوله : ﴿ إن الذين يكفرون بآيات اللَّه ويقتلون النبيين بغير حق ﴾ [آل عمران : 21] ثم بطريق التهديد والإنذار التعريضي بقوله

: ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾ [آل عمران : 26] الآيات .

ثم أمر بالقطيعة في قوله : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء ﴾ [آل عمران : 28] .

وختم بذكر عدم محبة الكافرين ردّاً للعجز على الصدر المتقدم في قوله : ﴿ إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ﴾ [آل عمران : 10] الآية ليكون نفي المحبة عن جميع الكافرين ، نفياً عن هؤلاء الكافرين المعيَّنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 82 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ الله والرسول ﴾ فقرن طاعته بطاعة رسوله رغماً لهم ، ويقال : أطيعوا الله فيما أنزل ، والرسول فيما بيّن ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ يعني إن أعرضوا عن طاعتهما ﴿ فَإِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الكافرين ﴾ أي لا يغفر لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 232 ﴾

(172/116)

فصل

روى البغوى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى" قالوا ومن يأبى ؟ قال "من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى" . ﴿ أخرجه البخاري في الاعتصام – باب : الاقتداء بسنن رسول الله صلى

الله عليه وسلم 13 / 249 . والمصنف في شرح السنة : 1 / 192 ﴾ .

أخبرنا عبد الواحد المليحي ، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي ، أنا محمد بن يوسف ، أنا محمد بن إسماعيل ، أنا محمد بن عبادة ، أنا يزيد نا سُليم بن حيان [وأثنى عليه] ، أنا سعيد بن ميناء قال : حدثنا أو سمعت جابر بن عبد الله يقول : جاءت ملائكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم . فقال بعضهم : إنه نائم وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا : إن لصاحبكم هذا مثلا فاضربوا له مثلا فقالوا : مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدبة وبعث داعيا ، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة ، فقالوا : أوِّلوها له يفقهها ، فقالوا : أما الدار الجنة والداعي محمد صلى الله عليه وسلم فمن أطاع محمدا فقد أطاع الله ومن عصى محمدا فقد عصى الله ومحمد صلى الله عليه وسلم فرق بين الناس" . ﴿ أخرجه البخاري في الاعتصام – باب : الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم 13 / 249 . والمصنف في شرح السنة : 1 / 192 – 193 ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البغوى حـ 2 صـ 27 . 28 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ .

أمرهم بالطاعة ثم قال : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي قصَّرُوا في الطاعة بأن خالفوا ، ثم قال : ﴿

فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الكَافِرِينَ ﴾ لم يَقُلْ العاصين بل قال الكافرين ، ودليل الخطاب أنه يحب المؤمنين وإن كانوا عُصَاة. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 236 ﴾

(173/116)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ ﴾

الميم في اللَّهُمَّ عوض من يا ، ولذلك لا يجتمعان . وهذا بعض خصائص هذا الاسم كما اختص بالتاء في القسم ، وبدخول حرف النداء عليه ، وفيه لام التعريف ، وبقطع همزته في يا اللَّه ، وبغير ذلك مالِكَ الْمُلْكِ أى تملك جنس الملك فتتصرف فيه تصرّف الملاك فيما يملكون تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ تعطى من تشاء النصيب الذي قسمت له واقتضته حكمتك من الملك وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ النصيب الذي أعطيته منه ، فالملك الأوّل عام شامل ، والملكان

(174/116)

الآخران خاصان بعضان من الكل : روى أنّ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حين افتتح مكة وعد أمته ملك فارس والروم ، فقال المنافقون واليهود : هيهات هيهات ، من أين لمحمد ملك فارس والروم ؟ «1» هم أعز وأمنع من ذلك . وروى أنّ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لما خط الخندق «2» عام الأحزاب وقطع لكل عشرة أربعين ذراعا وأخذوا يحفرون ، خرج من بطن الخندق صخرة كالتل العظيم لم تعمل فيها المعاول ، فوجهوا سلمان إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يخبره ، فأخذ المعول من سلمان فضربها ضربة صدّعتها «و برق منها برق أضاء ما بين لابتيها ، لكأن مصباحا في جوف بيت مظلم ، وكبر وكبر المسلمون وقال : أضاءت لي منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب ، ثم ضرب الثانية فقال : أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم ، ثم ضرب الثالثة فقال : أضاءت لي قصور صنعاء ، وأخبرنى جبريل عليه السلام أن أمّتى ظاهرة على كلها ، فأبشروا . فقال المنافقون : ألا تعجبون ، يمنيكم ويعدكم الباطل ، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم ، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا ، فنزلت . فإن قلت : كيف قال بِيَدِكَ الْخَيْرُ فذكر الخير دون الشر ؟ قلت : لأنّ الكلام إنما وقع في الخير الذي يسوقه إلى المؤمنين وهو الذي أنكرته الكفرة ، فقال بيدك الخير تؤتيه أولياءك على رغم من أعدائك ، ولأن كل أفعال اللَّه تعالى من نافع وضارّ

صادر عن الحكمة والمصلحة ، فهو خير كله كإيتاء الملك ونزعه .

ثم ذكر قدرته الباهرة بذكر حال الليل والنهار في المعاقبة بينهما ، وحال الحيّ والميت في إخراج أحدهما من الآخر ، وعطف عليه رزقه بغير حساب على أنّ من قدر على تلك الأفعال العظيمة المحيرة للأفهام ثم قدر أن يرزق بغير حساب من يشاء من عباده ، فهو قادر على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم ويؤتيه العرب ويعزهم وفي بعض الكتب : أنا اللَّه ملك الملوك ، قلوب الملوك ونواصيهم بيدي ، فإن العباد أطاعوني جعلتهم لهم رحمة ، وإن العباد عصوني جعلتهم عليهم عقوبة ، فلا تشتغلوا بسب الملوك ولكن

---

(1) . ذكره الواحدي في أسبابه عن ابن عباس وأنس رضى اللَّه عنهم ، ولم أجد له إسناداً .

(2) . أخرجه البيهقي . وأبو نعيم في دلائل النبوة لهما من طريق كثير بن عبد اللَّه بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده . قال «خط رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم الخندق عام الأحزاب ، ثم قطع أربعين ذراعا بين كل عشرة» قال عمرو بن عوف ، فكنت أنا وسليمان وحذيفة والنعمان بن مقرن وستة نفر من الأنصار في أربعين ذراعا فذكره مطولا من هذا الوجه . ذكره الواحدي في أسباب النزول والطبري والثعلبي والبغوي . ورواه ابن سعد في الطبقات في ترجمة سلمان . قال : أخبرنا ابن أبى فديك عن كثير بن عبد اللَّه به . وقال الواقدي في المغازي : حدثني عاصم ابن عبد اللَّه الحكمي عن عمر بن الحكم قال «كان

عمر بن الخطاب يومئذ يضرب بالمعول، إذ صادف حجراً أصلد فضرب ضربة - فذكره بنحوه» ورواه النسائي وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى كلهم من رواية ميمون أبى عبد اللَّه عن البراء بن عازب رضى اللَّه عنهما مختصرا وإسناده حسن.

(175/116)

توبوا إلىّ أعطفهم عليكم» وهو معنى قوله عليه السلام «كما تكونوا يولى عليكم» «1».

[سورة آل عمران (3) : آية 28]

لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (28)

نهوا أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم أو صداقة قبل الإسلام أو غير ذلك من الأسباب التي يتصادق بها ويتعاشر، وقد كرّر ذلك في القرآن. (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) ، (لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ) ، (لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) ... الآية. والمحبة في اللَّه والبغض في اللَّه باب عظيم وأصل من أصول الإيمان مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ يعنى أن لكم في موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكافرين فلا تؤثروهم عليهم وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ومن يوالى الكفرة فليس من ولاية اللَّه في شيء يقع عليه اسم الولاية، يعنى أنه منسلخ

من ولاية اللّه رأساً ، وهذا أمر معقول فإنّ موالاة الولىّ وموالاة عدوّه متنافيان ، قال :

تَوَدُّ عَدُوِّى ثمّ تزْعُمُ أَنَّنِى صدِيقكَ لَيْسَ النَّوْكُ عَنْكَ بِعَازِبِ «2»

إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً إلا أن تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه . وقرئ : تقية . قيل للمتقى تقاة وتقية ، كقولهم : ضرب الأمير لمضروبه . رخص لهم في موالاتهم إذا خافوهم ، والمراد بتلك الموالاة مخالفة ومعاشرة ظاهرة والقلب مطمئن بالعداوة والبغضاء ، وانتظار زوال المانع من قشر العصا ، كقول عيسى صلوات اللّه عليه «كن وسطا وامش جانبا»

وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه ، وهذا وعيد شديد . ويجوز أن يضمن (تَتَّقُوا) معنى تحذروا وتخافوا ، فيعدى بمن وينتصب (تُقاةً) أو تقية على المصدر ، كقوله تعالى : (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ) .

---

(1) . رواه القضاعي في مسند الشهاب من رواية المبارك بن فضالة عن الحسن عن أبى بكرة ، وفي إسناده إلى مبارك مجاهيل .

(2) تود عدوى ثم تزعم أننى صديقك ليس النوك عنك بعازب

فليس أخى من ودنى رأى عينه ولكن أخى من ودنى في المغايب

النوك : الحمق . والعازب : البعيد . يقول : إن الصديق من لا يصادق بغيض صديقه ، ومن يراعى الأخوة بظهر الغيب ، لا برأى العين . ويجوز أن تود على تقدير الاستفهام التوبيخي ،

وأبرزه في صورة الخبر للتشنيع. ورأى عينه: نصب على الظرف أى حين رأى عينه:

والمغايب: أزمان العياب. [.....]

(176/116)

[سورة آل عمران (3) : آية 29]

قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (29)

إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ من ولاية الكفار أو غيرها مما لا يرضى اللَّه يَعْلَمْهُ ولم يخف عليه وهو الذي يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لا يخفى عليه منه شيء قط، فلا يخفى عليه سركم وعلنكم وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فهو قادر على عقوبتكم. وهذا بيان لقوله (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ) لأنّ نفسه وهي ذاته المميزة من سائر الذوات، متصفة بعلم ذاتى لا يختص بمعلوم دون معلوم، فهي متعلقة بالمعلومات كلها وبقدرة ذاتية لا تختص بمقدور دون مقدور، فهي قادرة على المقدورات كلها، فكان حقها أن تحذر وتتقى فلا يجسر أحد على قبيح ولا يقصر عن واجب، فإن ذلك مطلع عليه لا محالة فلاحق به العقاب، ولو علم بعض عبيد السلطان أنه أراد الاطلاع على أحواله، فوكل همه بما يورد

ويصدر، ونصب عليه عيونا، وبث من يتجسس عن بواطن أموره: لأخذ حذره وتيقظ في أمره، واتقى كل ما يتوقع فيه الاسترابة به، فما بال من علم أنّ العالم الذات «1» الذي يعلم السر وأخفى مهيمن عليه وهو آمن. اللهم إنا نعوذ بك من اغترارنا بسترك.

[سورة آل عمران (3) : آية 30]

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ (30)

يَوْمَ تَجِدُ منصوب بتودّ. والضمير في بينه لليوم، أى يوم القيامة حين تجد كل نفس خيرها وشرها حاضرين، تتمنى لو أنّ بينها وبين ذلك اليوم وهو له أمداً بعيداً. ويجوز أن ينتصب (يَوْمَ تَجِدُ) بمضمر نحو: اذكر، ويقع على ما عملت وحده «2»، ويرتفع (وَما عَمِلَتْ) على على الابتداء، و(تَوَدُّ) خبره، أى: والذي عملته من سوء تودّ هي لو تباعد ما بينها وبينه.

ولا يصح أن تكون ما شرطية لارتفاع تودّ. فإن قلت: فهل يصح أن تكون شرطية على قراءة عبد اللَّه ودّت؟ قلت: لا كلام في صحته، ولكن الحمل على الابتداء والخبر أوقع في المعنى لأنه حكاية الكائن في ذلك اليوم وأثبت لموافقة قراءة العامّة. ويجوز أن يعطف (وَما عَمِلَتْ) على: (ما عَمِلَتْ) ويكون (تَوَدُّ) حالا، أى يوم تجد عملها محضراً وادّة تباعد ما بينها وبين اليوم

(1) . قوله «فما بال من علم أن العالم الذات» من اضافة الوصف إلى مرفوعه كالحسن الوجه، يعنى أن علمه بذاته، لا يعلم زائد على ذاته كعلم الحوادث، وهذا عند المعتزلة. (ع)

(2) . قوله «ويقع على ما عملت وحده» أى يقع فعل الوجدان على ما عملت من خير وحده. (ع)

(177/116)

أو عمل السوء محضراً، كقوله تعالى: (وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً) يعنى مكتوبا في صحفهم يقرءونه ونحوه (فَيُنَبِّئُهُمْ بما عَمِلُوا أَحْصاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ) . والأمد المسافة كقوله تعالى: (يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ) وكرّر قوله وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ليكون على بال منهم لا يغفلون عنه وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ يعنى أن تحذيره نفسه وتعريفه حالها من العلم والقدرة من الرأفة العظيمة بالعباد لأنهم إذا عرفوه حق المعرفة وحذروه دعاهم ذلك إلى طلب رضاه واجتناب سخطه. وعن الحسن من رأفته بهم أن حذرهم نفسه. ويجوز أن يريد أنه مع كونه محذوراً لعلمه وقدرته، مرجوّ لسعة رحمته كقوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ) .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 31 إلى 32]

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (32)

محبة العباد للَّه مجاز عن إرادة نفوسهم اختصاصه بالعبادة دون غيره ورغبتهم فيها. ومحبة اللَّه عباده أن يرضى عنهم ويحمد فعلهم. والمعنى: إن كنتم مريدين لعبادة اللَّه على الحقيقة فَاتَّبِعُونِي حتى يصحّ ما تدعونه من إرادة عبادته، يرض عنكم ويغفر لكم. وعن الحسن: زعم أقوام على عهد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنهم يحبون اللَّه فأراد أن يجعل لقولهم تصديقا من عمل، فمن ادعى محبته وخالف سنة رسوله فهو كذاب وكتاب اللَّه يكذبه. وإذا رأيت من يذكر محبة اللَّه ويصفق بيديه مع ذكرها ويطرب وينعر ويصعق «1» فلا تشك في أنه لا يعرف ما اللَّه ولا يدرى ما محبة اللَّه. وما تصفيقه وطربه ونعرته وصعقته إلا أنه تصوّر في نفسه الخبيثة صورة مستملحة معشقة فسماها اللَّه بجهله ودعارته، ثم صفق وطرب ونعر وصعق على تصوّرها، وربما رأيت المنىّ قد ملأ إزار ذلك المحب عند صعقته، وحمقى العامة على حواليه قد ملؤوا أدرانهم بالدموع لما رققهم من حاله. وقرئ: تحبون. ويحببكم. ويحبكم، من حبه يحبه. قال:

أُحِبُّ أَبَا ثَرْوَانَ مِنْ حُبِّ تَمْرِهِ ... وَأَعْلَمُ أَنَّ الرِّفْقَ بِالْجَارِ أَرْفَقُ

وَوَاللَّهِ لَوْلَا تَمْرُهُ مَا حَبَبْتُهُ ... وَلَا كَانَ أَدْنَى مِنْ عُبَيْدٍ وَمُشْرِقِ «2»

---

(1) . قوله «وينعر ويصعق» في الصحاح : النعرة صوت في الخيشوم . ويقال : ما كانت فتنة إلا نعر فيها فلان ، أى نهض . (ع)

(2) . لغيلان بن شجاع النهشلي . يقول : أحب هذا الرجل من أجل حب تمره . ويروى : أبا مروان ، وأعلم أن الرفق بالجار أرفق منه بغيره ، أى أشد رفقاً ، وأسند الرفق إلى نفسه مبالغة كجد جده . ويجوز أن المعنى أن الرفق بالجار أحق أو أكمل منه بغيره . وأما لو قرئ «أوفق» بالواو فظاهر . وفيه استعطاف لأبى مروان ، وطلب الرفق منه بالشاعر . واللغة الغالبة أحب الرباعي . وحبه يحبه بكسر فاء المضارع من باب ضرب نادر من جهة مجيئه ثلاثيا ومن جهة كسر فاء مضارعه . وقياس مضارع الثلاثي المضاعف المتعدي ضم فائه كيشد ويرد . وقد يجيء حب يحب من باب علم يعلم . ولا كان أدنى ، أى أقرب إلى من عبيد ومشرق ، وهما ابناه . وفي القافية الاقواء . وروى أبو العباس المبرد بدل الشطر الأخير : وكان عياض منه أدنى ومشرق ، أى أقرب إلى من أبى مروان . وعليه فلا إقواء فيها .

فَإِنْ تَوَلَّوْا يحتمل أن يكون ماضياً ، وأن يكون مضارعاً بمعنى : فإن تتولوا ، ويدخل في جملة ما يقول الرسول لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 1 صـ 349 . 354 ﴾

(179/116)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيتين :

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾

فَإِنَّ مَا جِئْتُ بِهِ مِنْ عِنْدِهِ مُبَيِّنٌ لِصِفَاتِهِ وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ ، وَالْمُحِبُّ حَرِيصٌ عَلَى مَعْرِفَةِ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ ; لِيَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِمَعْرِفَةِ قَدْرِهِ وَامْتِثَالِ أَمْرِهِ مَعَ اجْتِنَابِ نَهْيِهِ ، وَيَكُونَ بِذَلِكَ أَهْلًا لِمَحَبَّتِهِ - سُبْحَانَهُ - وَمُسْتَحِقًّا لِأَنْ يَغْفِرَ لَهُ ذُنُوبَهُ .

قِيلَ : إِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ كَالْجَوَابِ لِقَوْمٍ ادَّعَوْا أَمَامَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ رَبَّهُمْ ، وَمَا مِنْ أَحَدٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَلَوْ بِطَرِيقِ التَّقْلِيدِ وَالِاتِّبَاعِ لِغَيْرِهِ إِلَّا وَهُوَ يَدَّعِي حُبَّهُ . وَقِيلَ : إِنَّهَا نَزَلَتْ لِيُخَاطِبَ بِهَا نَصَارَى نَجْرَانَ الَّذِينَ ادَّعَوْا - كَمَا يَدَّعِي أَهْلُ مِلَّتِهِمْ - أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ . نَعَمْ إِنَّ أَوَائِلَ هَذِهِ السُّورَةِ نَزَلَتْ إِذْ كَانَ وَفْدُ نَجْرَانَ فِي الْمَدِينَةِ ، وَيَصِحُّ أَنْ تَكُونَ مِمَّا يُحْتَجُّ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَلَكِنَّ الْخِطَابَ فِيهَا عَامٌّ وَحُجَّةٌ عَلَى أَهْلِ الدَّعْوَى فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، وَمَا قِيمَةُ الدَّعْوَى يُكَذِّبُهَا الْعَمَلُ ، وَكَيْفَ يَجْتَمِعُ الْحُبُّ مَعَ الْجَهْلِ بِالْمَحْبُوبِ

وَعدمِ الْعِنايةِ بأمْرِه ونَهْيِه ؟

تَعْصِي الْإِلَهَ وأَنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ . . . هَذا لَعَمْرِي فِي الْقِياسِ بَدِيعُ

لَوْ كَانَ حُبُّكَ صادِقًا لَأَطعْتَهُ . . . إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

(180/116)

ويَغفِرْ لكُمْ ذنوبَكمْ السَّابقةَ مِنَ الاعْتقادِ الْباطِلِ والْأَعْمالِ السَّيِّئَةِ ; لِأَنَّ هذا الاتِّباعَ هُوَ الاعْتِقادُ الْحقُّ والْعملُ الصَّالِحُ ، وهُما يمْحُوانِ مِنَ النَّفسِ ظُلْمَةَ الْباطِلِ ، ويُزِيلانِ مِنْها آثارَ الْمَعاصِي والرَّذائِلِ وهَذا هُو عَيْنُ الْمَغْفِرة ، فَالْمَغْفِرةُ أَثَرٌ فِطْرِيٌّ لِلْإِيمانِ والْعملِ الصَّالِحِ بَعْدَ تَرْكِ الذنُوبِ كمَا أَنَّ الْعِقابَ أَثَرٌ طبيعِيٌّ لِلْكُفْرِ والْمَعاصِي . واللهُ غفُورٌ رحِيمٌ جعَلَ لِلْمَغْفِرَةِ سُنَّةً عادِلَةً وبَيَّنَها برحْمَتِه وإِحسانِه لعِبادِه ; وهِي تزْكِيَةُ النَّفْسِ بِالاتِّباعِ الَّذِي أَكَّدَ الْأَمْرَ بِه ، وبَيَّنَ أَنَّ عاقِبَةَ الْإِعْراضِ عَنْهُ الْحِرْمانُ مِنْ حُبِّ اللهِ - تعالَى - ، فقَالَ :

قُلْ أَطِيعُوا اللهَ باتِّباعِ كِتابِه والرَّسُولَ باتِّباعِ سُنَّتِه والاهْتِداءِ بهَدْيِه فإِنْ تولَّوْا وأَعْرضُوا ولَمْ يُجيبُوا دعْوتَكَ غُرُورًا مِنْهُمْ بدعْواهُمْ أَنَّهمْ مُحِبُّونَ لِلَّهِ وأَنَّهُمْ أَبْناؤُهُ وأَحِبَّاؤُهُ فإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ الَّذِينَ تَصْرِفُهُمْ أَهْواؤُهُمْ عَنِ النَّظَرِ الصَّحِيحِ فِي آياتِ اللهِ ومَا أَنْزَلَهُ علَى رَسُولِه ، وتَرْكِ الشِّرْكِ والضَّلالِ الَّذِي نَهَيْتُ عَنْهُ واتِّباعِ الْحقِّ فِي الاعْتِقادِ الَّذِي بيَّنْتُهُ ، والْعملِ

الصَّالِح الَّذِي أَرْشَدتُ إِلَيْهِ . هَؤُلَاءِ هُمُ الْكَافِرُونَ وَإِن ادَّعَوْا أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ وَأَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللهَ وَاللهُ يُحِبُّهُمْ .

(181/116)

هَذَا مَا نَرَاهُ كَافِيًا فِي فَهْمِ الْآيَاتِ ، وَلَيْسَ عِنْدَنَا فِيهَا عَنِ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ شَيْءٌ . وَإِنَّ مِنَ الْبَاحِثِينَ مَنْ يَخْفَى عَلَيْهِ مَعْنَى حُبِّ اللهِ لِلنَّاسِ وَحُبِّهِمْ إِيَّاهُ . فَنُوضِّحُ ذَلِكَ بَعْضَ الْإِيضَاحِ : حُبُّ النَّاسِ لِلَّهِ يَجْهَلُهُ مَنْ يَعِيشُ كَمَا تَعِيشُ الدِّيدَانُ وَالْبَهَائِمُ لَا يَشْغَلُهُ إِلَّا هَمُّ قَبْقَبِهِ وَذَبْذَبِهِ ، وَيَعْرِفُهُ الْحُكَمَاءُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْمُؤْمِنُونَ الصَّالِحُونَ ، وَيُمْكِنُ تَقْرِيبُهُ مِنْ فَهْمِ الْجَاهِلِ الْمُسْتَعِدِّ لِلْعِلْمِ وَتَشْوِيقُهُ إِلَيْهِ بِإِرْشَادِهِ إِلَى مُرَاجَعَةِ فِطْرَتِهِ ، وَالْبَحْثِ فِي أَسْبَابِ حُبِّ النَّاسِ لِكَثِيرٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا يُحِبُّهَا حَيَوَانٌ آخَرُ .

يَجِدُ كُلُّ حَيٍّ مِنَ الْأَحْيَاءِ مَيْلًا مِنْ نَفْسِهِ إِلَى مَا بِهِ كَمَالُ فِطْرَتِهِ عَلَى حَسَبِ اسْتِعْدَادِهَا .

(182/116)

فَالْأَنْعَامُ الَّتِي يَنْحَصِرُ اسْتِعْدَادُهَا فِيمَا بِهِ حِفْظُ وُجُودِهَا الشَّخْصِيِّ وَالنَّوْعِيِّ لَا تَمِيلُ إِلَّا إِلَى الْغِذَاءِ لِحِفْظِ الْأَوَّلِ وَالنَّزَوَانِ لِحِفْظِ الثَّانِي ، وَأَمَّا الْإِنْسَانُ فَلَهُ اسْتِعْدَادٌ لَا يُعْرَفُ لَهُ حَدٌّ وَلَا نِهَايَةٌ وَمَيْلُهُ أَوْ حُبُّهُ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ وَلَا نِهَايَةٌ أَيْضًا ، وَإِنَّمَا تَقِفُ الْأَمْرَاضُ الرُّوحِيَّةُ بِبَعْضِ أَفْرَادِهِ أَوْ جَمْعِيَّاتِهِ عِنْدَ حُدُودٍ مُعَيَّنَةٍ لِفَسَادٍ فِي التَّرْبِيَةِ وَمَرَضٍ فِي مِزَاجِ الِاجْتِمَاعِ ، وَهَذَا الِاسْتِعْدَادُ وَمَا يَتْبَعُهُ أَنْصَعُ الدَّلَائِلِ عِنْدَ الْعَالِمِينَ بِنِظَامِ الْأَكْوَانِ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ لِلْبَقَاءِ لَا لِلْفَنَاءِ وَأَنَّ لَهُ حَيَاةً أُخْرَى يَنَالُ بِهَا كُلَّ مَا خُلِقَ مُسْتَعِدًّا لَهُ مِنَ الْعِرْفَانِ ، وَأَعْلَاهُ الْكَمَالُ فِي مَعْرِفَةِ اللهِ .

يُحِبُّ الْإِنْسَانُ جَمَالَ الطَّبِيعَةِ ، وَيُطْرِبُهُ خَرِيرُ الْمِيَاهِ وَحَفِيفُ الرِّيَاحِ ، وَتَغْرِيدُ الْأَطْيَارِ عَلَى أَفْنَانِ الْأَشْجَارِ ، فَيَبْذُلُ الْمَالَ الْكَثِيرَ لِإِنْشَاءِ الْحَدَائِقِ وَالْجَنَّاتِ وَاجْتِلَابِ مَا لَمْ يُوجَدْ فِي بِلَادِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الطَّيْرِ وَالنَّبَاتِ ، يَعْشَقُ جَمَالَ الصَّنْعَةِ فَيُنْفِقُ الْقَنَاطِيرَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فِي اقْتِنَاءِ الصُّوَرِ الْبَدِيعَةِ وَالنُّقُوشِ الدَّقِيقَةِ ، يَهْوَى

الْوُقُوفَ عَلَى مَجَاهِلِ الْأَرْضِ وَالِاطِّلَاعَ عَلَى أَحْوَالِ الْعَالَمِينَ فَيَرْكَبُ الْأَخْطَارَ وَيَقْتَحِمُ الْبِحَارَ ، وَيَسْمَحُ بِالْوَقْتِ وَالدِّينَارِ يَهِيمُ بِالرِّيَاسَةِ فَيَسْتَهِينُ لِأَجْلِهَا بِاللَّذَّاتِ وَيَزْدَرِي الشَّهَوَاتِ

وينافح في سبيلها الأقران ، ويكافح في طلبها السلطان ، يفتتن بحب أهل النجدة والشجاعة وقواد الجيوش فيبذل حياته لحفظ حياتهم ويتحمس في التحزب لهم بعد مماتهم ، يولع بكبار العلماء فيتخذهم أئمة متبعين وإن حرم في اتباعهم من حقيقة العلم والدين ، ويتعصب لهم على من خالفهم ، وإن كان الحق يؤيده من دونهم – يهيم بالمعقولات السامية ، والحكمة العالية ، فيحتقر دونها المال والحياة والرياسة والإمارة ، وينزوي في كسر بيته يعمل الفكر ، ويروض النفس ، ويصقل الروح معتقدا أن من سار سيرته فهو المغبوط ، وأن الغافل عن ذلك هو المغبون كل حزب بما لديهم فرحون [23 : 53]

(184/116)

ألا إن استعداد الإنسان أعلى من كل ذلك ; فهو لا يقف عند حد اكتشاف المجهولات ، ومعرفة ما في الأرض والسماوات ، ومجالدة جليد القطب الشمالي . ومواثبة أسود أفريقية وأفاعي الهند ، ومناصبة أمواج القاموس الأعظم ، ومراقبة نجوم السماء في الليالي الليلاء ، بل هو يبحث عن الماضي ليتعرف مبدأ الخلق والتكوين ، ويبحث عن المستقبل ليعلم الغاية والمصير ، بل هو يبحث عن حقيقة الخالق البارئ قبل أن يعرف شيئا من حقائق المخلوقات ، وقبل أن يعرف نفسه واستعدادها وغرضها من بحثها

وَاسْتِقْصَائِهَا ، تَرَى هَذَا الْإِنْسَانَ الَّذِي يُحِبُّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الَّتِي لَا تَتَنَاهَى ; لِأَنَّهُ خُلِقَ مُسْتَعِدًّا لِمَعْرِفَةٍ لَا تَتَنَاهَى ، قَدْ يَهِيمُ حُبًّا فِي بَعْضِهَا حَتَّى يَشْغَلَهُ عَنْ سَائِرِهَا ، وَكُلَّمَا كَانَ مَوْضُوعُ حُبِّهِ أَعْلَى كَانَ هُوَ فِي نَفْسِهِ أَرْقَى وَأَسْمَى ، وَمُنْتَهَى الرُّقِيِّ وَالسُّمُوِّ أَنْ يُحِبَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَعْنَى الْجَمَالِ الْمُودَعِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ الْإِبْدَاعُ الْإِلَهِيُّ وَالنِّظَامُ الرَّبَّانِيُّ فَلَا تَحْجُبُهُ الْمَبَانِي عَنِ الْمَعَانِي ، وَلَا تَشْغَلُهُ الْأَشْبَاحُ عَنِ الْأَرْوَاحِ ، فَيُلَاحِظُ فِي كُلِّ جَمِيلٍ أَحَبَّهُ مَنْشَأَ جَمَالِهِ ، وَفِي كُلِّ كَامِلٍ أَجَلَّهُ مَصْدَرَ كَمَالِهِ ، وَفِي كُلِّ بَدِيعٍ مَالَ إِلَيْهِ عِلَّةَ إِبْدَاعِهِ ، وَفِي كُلِّ مُخْتَرَعٍ أُعْجِبَ بِهِ الْحِكْمَةَ الْعَامَّةَ فِي الْإِقْدَارِ عَلَى

(185/116)

اخْتِرَاعِهِ :

إِذَا لَمْ تُشَاهِدْ غَيْرَ حُسْنِ شِيَاتِهَا . . . وَأَعْضَائِهَا فَالْحُسْنُ عَنْكَ مُغَيَّبُ

فَهَذَا هُوَ حُبُّ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ; حُبُّهُ فِي كُلِّ مَحْبُوبٍ لِمُشَاهَدَةِ جَمَالِهِ فِي كُلِّ جَمِيلٍ ، وَرُؤْيَةِ إِبْدَاعِهِ فِي كُلِّ بَدِيعٍ ، وَمَعْرِفَةِ كَمَالِهِ فِي كُلِّ كَامِلٍ ; لِأَنَّهُ مَصْدَرُ كُلِّ شَيْءٍ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ [32 : 7] هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [57 : 3] وَأَمَّا حُبُّهُ - تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ - لِعِبَادِهِ الَّذِينَ يُحِبُّونَهُ وَيَتَّبِعُونَ رَسُولَهُ الَّذِي

هَداهُمْ إِلَى مَعْرِفَتِهِ ، وَدَلَّهُمْ عَلَى سَبِيلِ حُبِّهِ وَعِبادَتِهِ ، فَهُوَ شَأْنٌ مِنْ شُئُونِهِ الْإِلَهِيَّةِ فِي عِبادِهِ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ ذَاقَهُ ، وَعَرَفَ وَصْلَ الْحَبِيبِ وَفِرَاقَهُ ، وَصارَ مَظْهَرًا مِنْ مَظَاهِرِ حِكْمَتِهِ ، وَمَجْلًى مِنْ مَجالِي إِبْداعِهِ ، وَمَصْدَرًا مِنْ مَصادِرِ الْخَيْرِ فِي عِبادِهِ ، وَرُوحًا مِنْ أَرْوَاحِ النِّظَامِ فِي خَلْقِهِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ كَذَلِكَ إِذَا تَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِ اللهِ ، وَتَحَقَّقَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ - جَلَّ عُلَاهُ - ، حَتَّى صَارَ فِي نَفْسِهِ مِنْ خُلَفَاءِ اللهِ ، كَمَا أَرْشَدَهُ كِتَابُ اللهِ ، وَلَا يُمْكِنُ الْإِفْصاحُ عَنْ هَذَا الْمَقَامِ ; لِأَنَّهُ يُعْرَفُ بِالذَّوْقِ لَا بِالْكَلَامِ ، وَإِنَّمَا يَذُوقُهُ مَنْ أَحَبَّ اللهَ ، وَعَرَفَ كَيْفَ يُعَامِلُ مَنْ أَحَبَّهُ وَاصْطَفَاهُ ، فَاعْمَلْ لِذَلِكَ لِتَعْرِفَ مَا هُنَالِكَ .

تَحَبَّبْ فَإِنَّ الْحُبَّ دَاعِيَةُ الْحُبِّ . . . وَكَمْ مِنْ بَعِيدِ الدَّارِ مُسْتَوْجِبُ الْقُرْبِ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 3 صـ 234 . 236 ﴾

(186/116)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾

وقد قلت من قبل في مسألة الأمر بالطاعة ، إنها جاءت في القرآن الكريم على ثلاثة ألوان :

فمرة يقول الحق : ﴿ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ . كما جاء بهذه الآية التي نحن بصدد تناولها بخواطرنا الإيمانية . ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه لم يكرر أمر الطاعة ، بل جعل الأمر واحدا ، هو " أطيعوا " ، فإذا سألنا من المطاع ؟ تكون الإجابة . الله والرسول معا .

إذن فقول الرسول صلى الله عليه وسلم بلاغا عن الله ﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ يعني أن طاعة المؤمنين للرسول من طاعة الله . إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأمرنا بطاعته ، ولكنه يأمرنا بطاعة الله ، ولذلك لم يكرر الحق أمر الطاعة ، إنّ الحق هنا يوحد أمر الطاعة فيجعلها لله وللرسول معا ، إنه يعطف على المطاع الأول وهو الله بمطاع ثانٍ هو الرسول صلى الله عليه وسلم . ويقول الحق في كتابه العزيز :

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾

[النور : 54] .

إن الحق يورد أمر الطاعة ثلاث مرات ، فمرة يكون أمر الطاعة لله ، ومرة ثانية يكون أمر الطاعة للرسول صلى الله عليه وسلم ، ومرة ثالثة يقول الحق :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾

[النساء : 59] .

فما مسألة هذه الأوامر بالطاعة ؟ إنها طاعة بألوان التكليف وأنواعها ، إن الأحكام المطلوب من المؤمنين أن يطيعوا فيها ، مرة يكون الأمر من الله قد جاء بها وأن يكون الرسول قد أكدها بقوله وسلوكه ، إن المؤمن حين يطيع في هذا الأمر الواحد ، فهو يطيع الله والرسول معاً ، ومرة يأتي حكم من الله إجمالا ، ويأتي الرسول ليفصله .

﴿ وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

[النور : 56] .

إن الواحد منا لم يكن يعرف كم صلاة في اليوم ، ولا عدد الركعات في كل صلاة ، ولا نعرف كيفيتها لكن الرسول صلى الله عليه وسلم قد فصل لنا الأمر في كل صلاة ، إذن ، فالمؤمن يطيع الله في الإجمال ، ويطيع الرسول في التفصيل . إن علينا أن نلتفت إلى أن هنا طاعتين : الأولى : طاعة الله ، والثانية : طاعة الرسول ، أما في الأمر المتحد ، فتكون الطاعة لله والرسول ؛ لأنه أمر واحد . وأما الأمر الذي جاء من الله فيه تكليف إجمالي فقد ترك الله للرسول صلى الله عليه وسلم بيانه ، فالمؤمن يطيع الله في الأمر الإجمالي كأمر الصلاة ، وإقامتها ، ويطيع الرسول في تفصيل أمر الصلاة ؛ وكيفيتها ، وأحيانا يجيء الحكم بالتفويض

الأعلى من الله للرسول ، فيقول الله لرسوله ما معناه إنك أنت الذي تقرر في هذه الأمور ، كما قال الحق :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾

[الحشر : 7] .

(188/116)

لقد ترك الحق سبحانه للرسول أن يصدر التشريعات اللازمة " لاستقامة حياة المؤمنين " لقد أعطاه الحق سبحانه التفويض العام ، وما دام سبحانه قد أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم التفويض العام فإن طاعة المؤمن تكون للرسول فيما يقوله الرسول وإن لم يقل الله به . إننا على سبيل المثال لا نجد في القرآن دليلا على أن صلاة الفجر ركعتان ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي فصل لنا الصلاة فعرفنا أن الفجر ركعتان ، والظهر أربع ركعات ، والعصر مثل الظهر ، والمغرب ثلاث ركعات ، والعشاء أربع ركعات . إن الدليل هو تفصيل الرسول ، وقول الحق :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾

[الحشر : 7] .

إنه دليل من القرآن الكريم . هكذا نعرف أن الأمر بالطاعة جاء بالقرآن على ألوان ثلاثة :

اللون الأول : إن اتحد المطاع " الله والرسول " إن عطف الرسول هنا يكون على لفظ الجلالة الأعلى . اللون الثاني : هو طاعة الله في الأمر الإجمالي وطاعة الرسول في تفصيل هذا الأمر ، فإن الحق يقول ﴿ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ ﴾ اللون الثالث : وهو الذي لم يكن لله فيه حكم ، ولكنه بالتفويض العام للرسول ، بحكم قوله الحق : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ ﴾ هذه طاعة للرسول ، ثم يأتي في أمر طاعة أولى الأمر فيقول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾

[النساء : 59] .

(189/116)

إن الحق لم يورد طاعة أولي الأمر مندمجة في طاعة الله والرسول ، لتكون طاعة واحدة .

لا . إن الحق أورد طاعة أولي الأمر في الآية التي يفرق فيها بين طاعة الله وطاعة الرسول ، ثم من بطن طاعة الرسول تكون طاعة أولي الأمر . لماذا ؟ لأنه لا توجد طاعة ذاتية لأولي الأمر ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم له الطاعة الذاتية . أما طاعة أولي الأمر فهي

مستمدة من طاعة أولي الأمر لله ورسوله ، ولا طاعة لأولي الأمر فيما لم يكن فيه طاعة لله وللرسول صلى الله عليه وسلم .

إن الحق يقول : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ . إن الله يبلغ الرسول أن يبلغ هؤلاء الذين قالوا : إنهم يحبون الله ، بالشروط التي يمكن أن يبادل بها الحق عباده الحب ، وذلك حتى تتحقق الفائدة للبشر ، لأن محبة الله تفوق ما يقدمه البشر من حب . إن اتباع الرسول وتنفيذ التكليف بالطاعة لله والرسول .

ذلك هو أسلوب تعبير العباد عن حبهم لله وللرسول صلى الله عليه وسلم ، أما إن تولوا ، أي لم يستمعوا إليك يا محمد ، ولم يتبعوك ، فإن موقفهم – والعياذ بالله – ينتقل إلى الكفر ؛ لأن الحق يقول عن الذين يتولون عن الله والرسول : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ .

وليس هناك تفظيع أكثر من هذا .

إن كلمة " تولوا " توحي بأن الذين استمعوا إلى أوامر الحق قد نفروا وأعرضوا ، فهم لم يأخذوا حكم الله ، ثم منعهم الكسل من تنفيذه . لا . إنهم أعرضوا عن حكم الله – والعياذ بالله – ولذلك فقد قلت وما زلت أقول : فليحذر الذين يخالفون عن أوامر الله ألا يفرقوا بين أمر متقبل على أنه الحكم الحق وبين حمل النفس على اتباع الحكم وتنفيذه .

إياك أيها المسلم أن تنكر حكما لا تستطيع أن تحمل نفسك عليه أو لا تقدر عليه . إنك إن أنكرت تنقل نفسك من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر والعياذ بالله . ولكن عليك أن تؤمن بالحكم ، وقل : " إنه حكم الله وهو صواب ولكني لا أستطيع أن أقدر على نفسي " إن ذلك يجعل عدم تنفيذ الحكم معصية فقط . ويأتي الحق – سبحانه – بعد أن بيّن لنا أصول العقائد في قوله :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

[آل عمران : 18] .

وبعد أن بشر الحق المؤمنين بأنه سبحانه وتعالى يعطيهم الملك الإيماني وأنه الإله القادر ، وطلاقة قدرته تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ، وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ، وبعد أن رسم سبحانه طريق محبته ، فإن كنتم قد أحببتم الله للإيجاد والإمداد ، وتريدون أن يحبكم فعليكم بطاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم في تنفيذ التكاليف .

وبعد أن وضع الله سبحانه وتعالى المبادئ الإيمانية عقدية وتشريعية ، بعد هذا و ذاك يعطي لنا نماذج تطبيقية من سلوك الخلق ، ذلك أن هناك فرقا بين أن توضع نظريات ويأتي

الأمر للتطبيق فلا تجد من يطبق ، إن الحق لم يكلف شططا ولا عبثا ، إن الله يقول لنا : أنا كلفت بالتكاليف الإيمانية ومن الخلق أمثالكم من استطاع أن يسير عليها وأن ينفذها ، لذلك يعرض الحق لنا النماذج التي توضح ذلك .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى أمة أمية ، وكان الإسلام جدّيدا عليهم ، ولذلك يعرض الحق نماذج قديمة ، وهذه النماذج تؤكد لنا أننا في دين الإسلام لا نجد تعصبا ، لأن الدين الذي جاء من الله على آدم عليه السلام هو الدين الذي جاء به إبراهيم عليه السلام من عند الله وهو الدين الذي نزل إلى آل عمران وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام .

(191/116)

إن الحق يعطي صفات التكريم لأهل أديان منسوبين إلى ما أنزله الله عليهم من منهج . وجاء الإسلام لينسخ بعضا مما جاء في تلك الرسالات السابقة ويضعها في منهج واحد باق إلى يوم القيامة ، هو منهج الإسلام ، إنه مطلق العظمة . ها هو ذا الحق يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى ءَادَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1422 . 1427 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (32)

أخرج ابن جرير من طريق بكر بن الأسوف عن الحسن قال " قال قوم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم : يا محمد إنا نحب ربنا . فأنزل الله ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ فجعل أتباع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم علماً لحبه ، وعذاب من خالفه " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر من طريق أبي عبيدة الناجي عن الحسن قال " قال أقوام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله يا محمد إنا لنحب ربنا ، فأنزل الله ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير من طريق عباد بن منصور قال " إن أقواماً كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يزعمون أنهم يحبون الله ، فأراد الله أن يجعل لقولهم

تصديقاً من عمل فقال ﴿ إن كنتم تحبون الله . . . ﴾ الآية . فكان اتباع محمد صلى الله عليه وسلم تصديقاً لقولهم " .

وأخرج الحكيم الترمذي عن يحيى بن أبي كثير قال : قالوا إنا لنحب ربنا ، فامتحنوا . فأنزل الله ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال : كان أقوام يزعمون أنهم يحبون الله ، يقولون : إنا نحب ربنا . فأمرهم الله أن يتبعوا محمداً ، وجعل أتباع محمد صلى الله عليه وسلم علماً لحبه .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رغب عن سنتي فليس مني ، ثم تلا هذه الآية ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله . . . ﴾ إلى آخر الآية " .

(193/116)

وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿ قل إن كنتم تحبون الله ﴾ أي إن كان هذا من قولكم في عيسى حباً لله وتعظيماً له ﴿ فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ أي ما مضى من كفركم ﴿ والله غفور رحيم ﴾ .

وأخرج الأصبهاني في الترغيب عن ابن عمر قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لن يستكمل مؤمن إيمانه حتى يكون هواه تبعاً لما جئتكم به " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء في قوله ﴿ إن كنتم تحبون الله فاتبعوني ﴾ قال : على البر والتقوى ، والتواضع ، وذلة النفس .

وأخرج الحكيم الترمذي وأبو نعيم والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ قال : على البر ، والتقوى ، والتواضع ، وذلة النفس .

وأخرج ابن عساكر عن عائشة في هذه الآية ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني ﴾ قالت : على التواضع ، والتقوى ، والبر ، وذلة النفس .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية والحاكم عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الشرك أخفى من دبيب الذر على الصفا في الليلة الظلماء ، وأدناه أن يحب على شيء من الجور ، ويبغض على شيء من العدل . وهل الدين إلا الحب والبغض في الله " ؟ قال الله تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق حوشب عن الحسن في قوله ﴿ فاتبعوني يحببكم الله ﴾ قال : فكان علامة حبهم إياه اتباع سنة رسوله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان بن عيينة ، أنه سئل عن قوله " المرء مع من أحب فقال : ألم

تسمع قول الله ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ يقول : بقربكم . والحب هو القرب ، والله لا يحب الكافرين ، لا يقرب الكافرين " .

(194/116)

وأخرج أبي جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿ قل أطيعوا الله والرسول ﴾ فإنهم يعرفونه . يعني الوفد من نصارى نجران ، ويجدونه في كتابهم ﴿ فإن تولوا ﴾ على كفرهم ﴿ فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ .

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان والحاكم عن أبي رافع عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته ، يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : لا ندري . . . ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 177. 179 ﴾

(195/116)

"فصل"

قال الإمام نظام الدين النيسابوري فى الآيات السابقة :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (27) لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (28) قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (29) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (30) قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (32) ﴾

التفسير : إنه سبحانه لما ذكر من طريقة المعاندين ما ذكر ، علم نبيه صلى الله عليه وسلم طريقة مباينة لطريقتهم من كيفية التمجيد والتعظيم فقال : ﴿ قل اللهم ﴾ ومعناه عند سيبويه يا الله والميم المشددة عوض عن الياء . وإنما أخرت تبركاً باسم الله تعالى

وهذا من خصائص اسم الله . كما اختص بدخول تاء القسم ، وبدخول حرف النداء عليه مع لام التعريف ، وبقطع همزته في يا الله . وعند الكوفيين أصله يا الله أمنا بخير أي أقصدنا ، فلما كثر في الكلام حذفوا حرف النداء . وخففت الهمزة من أمّ . وزيف بأن التقدير لو كان كذلك لزم أن يذكر الدعاء بعده بالعطف مثل : اللهم واغفر لنا . ولجاز أن يتكلم به على أصله من غير تخفيف الهمزة وبإثبات حرف النداء وأجيب بأنه إنما لم يوسط العاطف لئلا يصير السؤال سؤالين ضرورة مغايرة المعطوف للمعطوف عليه بخلاف ما لو جعل الثاني تفسيراً للأول فيكون آكد . وبأن الأصل كثيراً ما يصير متروكاً مثل : ما أكرمه فإنه لا يقال : شيء ما أكرمه في التعجب . ﴿ ومالك الملك ﴾ نداء مستأنف عند سيبويه . فإن النداء باللهم لا يوصف كما لا توصف أخواته من الأسماء المختصة بالنداء نحو : يا هناه ويا نومان ويا ملكعان وفل . وأجاز المبرد نصبه على النعت كما جاز في "يا ألله" . عن ابن عباس وأنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح مكة وعد أمته ملك فارس والروم فقال المنافقون واليهود : هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم ؟ هم أعز وأمنع من ذلك فنزلت الآية .

وعن عمرو بن عون " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خط الخندق عام الأحزاب وقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً وأخذوا يحفرون ، خرج من بطن الخندق صخرة كالتل العظيم لم تعمل فيها المعاول ، فوجهوا سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يخبره صلى الله عليه وسلم ، فأخذ المعول من سلمان فضربها صلى الله عليه وسلم ضربة صدعتها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها كالمصباح في جوف بيت مظلم ، وكبر صلى الله عليه وسلم وكبر المسلمون وقال صلى الله عليه وسلم : أضاءت لي منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب ، ثم ضرب الثانية فقال صلى الله عليه وسلم : أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم ، ثم ضرب صلى الله عليه وسلم الثالثة فقال : أضاءت لي قصور صنعاء ، وأخبرني جبرائيل أن أمتي ظاهرة على كلها فأبشروا . فقال المنافقون : ألا تعجبون يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا " فنزلت .

وقال الحسن : إن الله تعالى أمر نبيه أن يسأله أن يعطيه ملك فارس والروم ويرد ذل العرب عليهما . وأمره بذلك دليل على أن يستجيب له صلى الله عليه وسلم هذا الدعاء وهكذا منازل الأنبياء إذا أمروا بدعاء استجيب دعاؤهم . ﴿ مالك الملك ﴾ أي تملك جنس الملاك فيتصرف فيه تصرف الملاك فيما يملكون ، وفيه أن قدرة الخلق في كل ما

يقدرون عليه ليست إلا بأقدار الله تعالى . ثم لما بين كونه مالك الملك وأنه هو الذي يقدر كل قادر على مقدوره ويملك كل مالك على مملوكه فصل ذلك بقوله : ﴿ تؤتى الملك من تشاء ﴾ أي النصيب الذي قسمت له واقتضته حكمتك . فالأول عام شامل والآخر بعض من الكل . وهذا الملك قيل : ملك النبوة لأنها أعظم مراتب الملك لأن العلماء لهم أمر على بواطن الخلق ، والجبابرة لهم أمر على ظواهر الخلق . والأنبياء أمرهم نافذ في البواطن والظواهر ، فعلى كل أحد أن يقبل

(198/116)

شريعتهم ولهم أن يقتلوا من أرادوا من المتمردين . ولهذا استبعد بعض الجهلة أن يكون النبي بشراً ﴿ أبعث الله بشراً رسولاً ﴾ [الإسراء : 94] ومن المجوّزين من كان يقول إن محمداً صلى الله عليه وسلم فقير يتيم فكيف يليق به هذا المنصب العظيم ؟ ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] وكانت اليهود تقول : النبوة في أسلافنا فنحن أحق بها . وقد روينا في تفسير قوله : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون ﴾ [آل عمران : 12] أن اليهود تكبروا على النبي صلى الله عليه وسلم بكثرة عددهم وعددهم فرد الله تعالى على جميع هؤلاء الطوائف بأنه سبحانه مالك الملك يؤتي الملك -

وهو النبوة – من يشاء ، وينزع الملك – النبوة – ممن يشاء لا بمعنى أنه يعزله عن النبوة فإن ذلك غير جائز بالإجماع بل بمعنى أنه ينقلها من نسل إلى نسل كما نزع عن بني إسرائيل ووضع في العرب ، أو بمعنى أنه لا يعطيه النبوة ابتداء كقوله :

(199/116)

﴿ الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ [البقرة : 257] فإنه يتناول من لم يكن في ظلمة الكفر قط . ومثله ﴿ أو لتعودنّ في ملتنا ﴾ [الأعراف : 88] مع أن الأنبياء لم يكونوا في ملتهم قط حتى يتصور العود إليها . وقيل : المراد من الملك التسلط الظاهر وهو الاقتدار على المال بأنواعه وعلى الجاه ، وهو أن يكون مهيباً عند الناس وجيهاً غالباً مظفراً مطاعاً . ومن المعلوم أن كل ذلك بإيتاء الله تعالى . فكم من عاقل قليل المال ، ورب جاهل غافل رخي البال ، وقد رأينا كثيراً من الملوك بذلوا الأموال لتحصيل الحشمة والجاه وما ازدادوا إلا حقارة وخمولاً ، فعلمنا أن الكل بإيتاء الله تعالى سواء في ذلك ملوك العدل وملوك الجور ، لأن حصول الملك للجائر إن لم يقع بفاعل ففيه سد باب إثبات الصانع ، وإن حصل بفعل المتغلب فكل أحد يتمنى حصول الملك والدولة لنفسه ولا يتيسر له . فلم يبق إلا أن يكون من مسبب الأسباب وفاعل الكل ومدبر الأمور وناظم

مصالح الجمهور .

لو كان بالحيل الغنى لوجدتني . . . بنجوم أقطار السماء تعلقي

لكن من رزق الحجى حرم الغنى . . . ضدان مفترقان أيّ تفرق

ومن الدليل على القضاء وكونه . . . بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

(200/116)

وكذا الكلام في نزع الملك فإنه كما ينزع الملك من الظالم فقد ينزعه من العادل لمصلحة تقتضي ذلك . والنزع يكون بالموت وبإزالة العقل والقوى والقدرة والحواس وبتلف الأموال وغير ذلك . في بعض الكتب " أنا الله ملك الملوك ، قلوب الملوك ونواصيهم بيدي ، فإن العباد أطاعوني جعلتهم عليهم رحمة . وإن العباد عصوني جعلتهم عليهم عقوبة ، فلا تشتغلوا بسب الملوك ولكن توبوا إليّ أعطفهم عليكم " وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم " كما تكونوا يولى عليكم " والصحيح أن الملك عام يدخل فيه النبوة والولاية والعلم والعقل والصحة والأخلاق الحسنة وملك النفاذ والقدرة وملك محبة القلوب وملك الأموال والأولاد إلى غير ذلك ، فإن اللفظ عام ولا دليل على التخصيص ﴿ وتعز من تشاء وتذل من تشاء ﴾ كل من الإعزاز والإذلال في الدين أو في الدنيا ، ولا عزة في الدين كعزة الإيمان

﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ [المنافقون : 8] وفي ضده لا ذلة كذلة الكفر وعزة الدنيا كإعطاء الأموال الكثيرة من الناطق والصامت ، وتكثير الحرث وتكثير النتاج في الدواب وإلقاء الهيبة في قلوب الخلق ، وكل ذلك بتيسير الله تعالى وتقديره ﴿ بيدك الخير ﴾ أي بقدرتك يحصل كل الخيرات وليس في يد غيرك منها شيء .

(201/116)

وإنما خص الخير بالذكر وإن كان بيده الخير والشر والنفع والضرّ ، لأن الكلام إنما وقع في الخير الذي يسوقه إلى المؤمنين وهو الذي أنكرته الكفرة ، أي بيدك الخير تؤتيه أولياءك على رغم من أعدائك ، أو لأن جميع أفعاله من نافع وضار لا يخلو عن حكمة ومصلحة وإن كنا لا نعلم تفصيلها فكلها خير ، أو لأن القادر على إيصال الخير أقدر على إيصال الشر فاكتفى بالأول عن الثاني . وللاحتراز عن لفظ الشر مع أن ذلك صار مذكورا بالتضمن في قوله : ﴿ إنك على كل شيء قدير ﴾ ولأن الخير يصدر عن الحكم بالذات والشر بالعرض فاقتصر على الخير . ﴿ تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ﴾ وذلك بأن يجعل الليل قصيراً ويدخل ذلك القدر في النهار وبالعكس . ففي كل منهما قوام العالم ونظامه . أو يأتي بالليل عقيب النهار فيلبس الدنيا ظلمته بعد أن كان فيها ضوء النهار ، ثم يأتي بالنهار

عقيب الليل فيلبس الدنيا ضوأه . فالمراد بالإيلاج إيجاد كل منهما عقيب الآخر والأول أقرب إلى اللفظ ، فإن الإيلاج الإدخال فإذا زاد من هذا في ذلك فقد أدخله فيه ﴿ وتخرج الحي من الميت ﴾ المؤمن من الكافر ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾ [الأنعام : 22] أي كافراً فهديناه ، أو الطيب من الخبيث ، أو الحيوان من النطفة ، أو الطير من البيضة وبالعكس . والنطفة تسمى ميتاً ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ [البقرة : 28] أو يخرج السنبلة من الحبة ، والنخلة من النواة وبالعكس . فإخراج النبات من الأرض يسمى إحياء ﴿ يحيي الأرض بعد موتها ﴾ [الحديد : 17] ﴿ وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ تقدم مثله في البقرة . وإذا كان كذلك فهو قادر على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم ويؤتيه العرب ويعزهم . ثم لما علم كيفية التعظيم لأمر الله أردفه بشريطة الشفقة على خلق الله ، أو نقول : لما ذكر أنه مالك الملك وبيده العزة والذلة والخير كله . بيّن أنه ينبغي أن تكون الرغبة فيما عنده وعند

(202/116)

أوليائه دون أعدائه فقال : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين ﴾ بالجزم ، ولكن كسر الذال للساكنين . قال الزجاج : ولو رفع على الخبر جاز ، ولكنه لم يقرأ . والخبر والطلب يقام كل

منهما مقام الآخر . وقوله : ﴿ من دون المؤمنين ﴾ يعني أن لكم في موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكافرين فلا تؤثروهم على المؤمنين . عن ابن عباس قال : كان الحجاج بن عمرو وابن أبي الحقيق وقيس بن زيد وهؤلا كانوا من اليهود يباطنون نفراً من الأنصار يفتنونهم عن دينهم . فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعد بن خيثمة لأولئك النفر : اجتنبوا هؤلاء اليهود . فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم فنزلت هذه الآية . وعن ابن عباس أيضاً في رواية الضحاك : نزلت في عبادة بن الصامت الأنصاري وكان بدرياً نقيباً ، وكان له حلفاء من اليهود .

فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب قال عبادة : يا نبي الله ، إن معي خمسمائة رجل من اليهود وقد رأيت أن يخرجوا معي فأستظهر بهم على العدو فنزلت . وقال الكلبي : نزلت في المنافقين – عبد الله بن أبيّ وأصحابه – كانوا يتولون اليهود والمشركين ويأتونهم بالأخبار ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية ، ونهى المؤمنين عن مثل فعلهم . وقد كرر ذلك في آيات أخر كثيرة ﴿ لا تتخذوا بطانة من دونكم ﴾ [آل عمران : 118] ﴿ لا تتخذوا اليهود

والنصارى أولياء ﴾ [المائدة : 51] ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ﴾ [المجادلة : 22] وكون المؤمن موالياً للكافر يحتمل ثلاثة أوجه : أحدها أن يكون راضياً بكفره والرضا بالكفر كفر فيستحيل أن يصدر عن المؤمن فلا يدخل تحت الآية لقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ وثانيها المعاشرة الجميلة في الدنيا بحسب الظاهر وذلك غير ممنوع منه والثالث كالمتوسط بين القسمين وهو الركون إليهم والمعونة والمظاهرة لقرابة أو صداقة قبل الإسلام أو غير ذلك ، ولهذا قال مقاتل : نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره ، وكانوا يظهرون المودّة لكفار مكة مع اعتقاد أن دينهم باطل ، فهذا لا يوجب الكفر إلا أنه منهي عنه حذراً من أن يجره إلى استحسان طريقته والرضا بدينه حتى يخصه بالموالاة دون المؤمنين ، فلا جرم هدد فقال : ﴿ من يفعل ذلك فليس من الله ﴾ أي من ولايته أو من دينه ﴿ في شيء ﴾ يقع عليه اسم الولاية يعني أنه منسلخ عن ولاية الله رأساً ، وهذا كالبيان لقوله : ﴿ من دون المؤمنين ﴾ ليعلم أن الاشتراك بينهم وبين المؤمنين في الموالاة غير متصوّر وهذا أمر معقول ، فإن موالاة الولي وموالاة عدوه ضدان قال :

تود عدوّي ثم تزعم أنني . . . صديقك ليس النوك عنك بعازب

قال بعض الحكماء : هذا ليس بكلي فإنه قد يكون المشفق على العدوّ مشفقاً على العدو الآخر كالملك العادل فإنه محب لهما ، فإن أراد أحد أن يعم الحكم لا بد له أن يزيد عليه إذا كانوا في مرتبة واحدة ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ قال الجوهري : يقال اتقى تقية وتقاة مثل اتخم تخمة ، وفاؤها واو كتراث . فالتقاة اسم وضع موضع المصدر . قال الواحدي : ويجوز أن يجعل " تقاة " ههنا مثل " دعاة " و " رماة " فيكون حالاً مؤكدة ، وعلى هذين الوجهين يكون تتقوا مضمناً معنى تحذروا أو تخافوا ولذا عدي ب " من " . ويحتمل أن يكون التقاة أو التقية بمعنى المتقي مثل : ضرب الأمير لمضروبه ، فالمعنى إلا أن تخافوا من جهتهم أمرا يجب اتقاؤه . رخص لهم في موالاتهم إذا خافوهم ، والمراد بتلك الموالاة مخالفة ومعاشرة ظاهرة والقلب مطمئن بالعداوة والبغضاء وانتظار زوال المانع من قشر العصا وإظهار الطوية كقول عيسى عليه السلام : كن وسطاً وامش جانباً أي ليكن جسدك بين الناس وقلبك مع الله .

وللتقية عند العلماء أحكام منها : إذا كان الرجل في قوم كفار يخاف منهم على نفسه جاز له أن يظهر المحبة والموالاة ولكن بشرط أن يضمر خلافه ويعرّض في كل ما يقول ما أمكن ، فإن التقية تأثيرها في الظاهر لا في أحوال القلب . ومنه أنها رخصة فلو تركها كان أفضل لما " روى الحسن أنه أخذ مسيلمة الكذاب رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لأحدهما : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتشهد أني رسول الله ؟ قال : نعم . –وكان مسيلمة يزعم أنه رسول بني حنيفة ومحمد رسول قريش – فتركه ودعا الآخر وقال : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فقال : نعم نعم نعم . فقال : أتشهد أني رسول الله ؟ فقال : إني أصم ثلاثاً ، فقدمه وقتله . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال : أما هذا المقتول فمضى على يقينه وصدقه فهنيأ له ، وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه " ونظير هذه الآية ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ [النحل : 106] ومنها أنها إنما تجوز فيما يتعلق بإظهار الموالاة والمعاداة . وقد يجوز أن تكون أيضاً فيما يتعلق بإظهار الدين ، فأما الذي يرجع ضرره إلى الغير كالقتل والزنا وغصب الأموال وشهادة الزور وقذف المحصنات وإطلاع الكفار على عورات المسلمين فذلك غير جائز ألبتة . ومنها أن الشافعي جوز التقية بين المسلمين كما جوّزها بين الكافر محاماة على النفس . ومنها أنها جائزة لصون المال على الأصح كما أنها جائزة لصون النفس لقوله صلى الله عليه وسلم : " حرمة مال المسلم كحرمة دمه " و " من قتل دون ماله

فهو شهيد " ولأن الحاجة إلى المال شديدة ولهذا يسقط فرض الوضوء ويجوز الاقتصار على التيمم إذا بيع الماء بالغبن . قال مجاهد : كان هذا في أول الإسلام فقط لضعف المؤمنين . وروى عوف عن الحسن أنه قال : التقية جائزة إلى يوم القيامة . وهذا أرجح عند الأئمة . ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ قيل : أي عقاب نفسه . وفيه تهديد عظيم

لمن تعرّض لسخطه بموالاة أعدائه لأن شدة العقاب على حسب قدرة المعاقب . وفائدة ذكر النفس تصريح بأن الذي حذر منه هو عقاب يصدر من الله لا من غيره . وقيل : الضمير يعود إلى اتخاذ الأولياء أي ينهاكم الله عن نفس هذا الفعل . ثم حذر عن جعل الباطن موافقاً للظاهر في وقت التقية فقال : ﴿ قل إن تخفوا ما في صدوركم ﴾ أي قلوبكم وضمائركم لأن القلب في الصدر فجاز إقامة الظرف مقام المظروف ﴿ أو تبدوه يعلمه الله ﴾ يتعلق به علمه الأزلي .

ثم استأنف بياناً أشفى وتحذيراً أوفى فقال : ﴿ ويعلم ما في السموات وما في الأرض ﴾ ثم قال إتماماً للتحذير ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ ثم خلط الوعيد بالوعد والترهيب بالترغيب فقال : ﴿ يوم تجد ﴾ وفي عامله وجوه قال ابن الأنباري : وإلى الله المصير يوم

تجد . وقيل : والله على كل شيء قدير يوم تجد ، وخص ذلك اليوم بالذكر وإن كان غيره من الأيام بمنزلته في قدرة الله تعالى تعظيماً لشأنه مثل ﴿ مالك يوم الدين ﴾ [الفاتحة : 3] وقيل : انتصابه بمضمر أي اذكر . والأظهر أن العامل فيه ﴿ تود ﴾ والضمير في ﴿ بينه ﴾ لليوم أي تود كل نفس يوم تجد ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء محضراً أيضاً لو أن بينها وبين ذلك اليوم وهوله أمداً بعيداً . والأمد الغاية التي ينتهي إليها مكاناً كانت أو زماناً . والمقصود تمني بعده كقوله : ﴿ يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين ﴾ [الزخرف : 38] ومعنى كون العمل محضراً هو أن يكون ما كتب فيه العمل من الصحائف حاضراً ، أو يكون جزاؤه حاضراً إذ العمل عرض لا يبقى . ثم إن لم يكن يوم متعلقاً ب ﴿ تود ﴾ احتمل أن يكون ﴿ تود ﴾ صفة ﴿ سوء ﴾ والضمير في ﴿ بينه ﴾ يعود إليه ، واحتمل أن يكون حالاً ، واحتمل أن يكون ﴿ ما عملت ﴾ مبتدأ من الصلة والموصول و ﴿ تود ﴾ خبره وهو الأكثر ، واحتمل أن يكون " ما " شرطية و ﴿ تود ﴾ جزاء له وهو قليل كقوله :

وإن أتاه خليل يوم مسغبة . . . يقول لا غائب ما لي ولا حرم

وقراءة عبد الله ﴿ ودت ﴾ يحتملها على السواء إلا أن الحمل على الابتداء والخبر أوقع في المعنى لأنه حكاية الكائن في ذلك اليوم ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ تأكيد للوعيد ﴿ والله رؤوف بالعباد ﴾ قال الحسن : ومن رأفته أن حذرهم نفسه وعرّفهم كمال علمه وقدرته ، وأنه يمهل ولا يهمل ، ورغبهم في استيجاب رحمته ، وحذرهم من استحقاق غضبه . ويجوز أن يراد أنه رؤوف بهم حيث أمهلهم للتوبة والتلافي ، أو هو وعد كما أن التحذير وعيد ، أو المراد بالعباد عباده المخلصون كقوله : ﴿ عيناً يشرب بها عباد الله ﴾ [الدهر : 6] كما هو منتقم من الفساق ومحذرهم نفسه فهو رؤوف بالعباد المطيعين والمحسنين . ثم إنه تعالى دعا القوم إلى الإيمان به ورسوله من طريق آخر سوى طريق التهديد والتحذير فقال : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله ﴾ قال الحسن وابن جريج : زعم أقوام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يحبون الله فقالوا : يا محمد إنا نحب ربنا فأنزل الله هذه الآية . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : " وقف النبي صلى الله عليه وسلم على قريش وهم في المسجد الحرام وقد نصبوا أصنامهم وعلقوا عليها بيض النعام وجعلوا في آذانها الشنوف وهم يسجدون لها فقال : يا معشر قريش ، لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم وإسماعيل ولقد كانا على الإسلام . فقالت قريش : يا محمد إنا نعبد هذه حباً لله ليقربونا إلى الله زلفى "

فأنزل الله ﴿ قل إن كنتم تحبون الله ﴾ وتعبدون الأصنام لتقربكم إليه ﴿ فاتبعوني يحببكم الله ﴾ فأنا رسوله إليكم وحجته عليكم وأنا أولى بالتعظيم من أصنامكم . وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنها نزلت حين زعمت اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه . وقيل : نزلت في نصارى نجران زعموا أنهم يعظمون المسيح ويعبدونه حباً لله وتعظيماً له . والحاصل أن كل من يدعي محبة الله تعالى من فرق العقلاء فلا بد أن يكون في غاية الحذر مما يوجب سخطه ، فإذا قامت الدلائل العقلية والمعجزات الحسية على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وجبت متابعته . فليس في متابعته إلا أنه يدعوهم إلى طاعة الله وتعظيمه وترك تعظيم غيره . فمن أحب الله كان راغباً فيه لأن المحبة توجب الإقبال بالكلية على المحبوب والإعراض بالكلية عن غيره ، وقد مر في تفسير قوله : ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ [البقرة : 165] تحقيق المحبة وأنها من الله تعالى عبارة عن إعطاء الثواب . وقال : ﴿ ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ ليدل مع إيفاء الثواب على إزالة العقاب وهذه غاية ما يطلبه كل عاقل . ﴿ والله غفور ﴾ في الدنيا يستر على عبده أنواع المعاصي ﴿ رحيم ﴾ في الآخرة يثيبه على مثقال الذرة من الطاعة والحسنة . يروى أنه لما نزل ﴿ قل

إن كنتم تحبون الله فاتبعوني ﴾ قال عبد الله بن أبيّ إن محمداً يجعل طاعته كطاعة الله ويأمرنا أن نحبه كما أحب النصارى عيسى فنزلت ﴿ قل أطيعوا الله والرسول ﴾ وذلك أن الآية الأولى لما اقتضت وجوب متابعته ثم إن المنافق ألقى شبهة في البين أمره الله تعالى أن يقول : إنما أوجب الله عليكم متابعتي لا لما يقوله النصارى في عيسى بل لكوني رسولاً من عند الله ومبلغ تكاليفه ﴿ فإن تولوا ﴾ أعرضوا أو تعرضوا على أن يكون التاء الأولى محذوفة ويدخل في جملة ما يقوله الرسول لهم ، فإنه لا يحصل للكافرين محبة الله لأنها عبارة عن الثناء لهم وإيصال الثواب إليهم ، والكافر يستحق الذم

واللعن وهذا ضد المحبة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن جـ 2 صـ 136. 142 ﴾

(209/116)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ الم (1) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (2) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (3) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ . . .

إلى قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (32) ﴾

إذا أخذنا بالروايات التي تقول : إن الآيات الأولى من هذه السورة إلى بضع وثمانين آية منها قد نزلت في مناسبة قدوم الوفد من نصارى نجران اليمن ، ومناظرته للرسول - صلى الله عليه وسلم - في أمر عيسى عليه السلام ، فإن هذا الدرس بجملته يكون داخلا في إطار هذه المناسبة . لولا أن هذه الروايات توقت مجيء ذلك الوفد بالسنة التاسعة للهجرة ، وهي السنة المعروفة في السيرة باسم " عام الوفود " حيث كان الإسلام قد انتهى إلى درجة من القوة والشهرة في الجزيرة العربية كلها - وفيما وراءها كذلك - جعل الوفود من شتى بقاع الجزيرة تفد على النبي - صلى الله عليه وسلم - تخطب وده ، أو تعرض التعاهد معه ، أو تستجلي حقيقة أمره .

ونحن كما أشرنا فيما تقدم نحس أن الموضوع الذي تعالجه هذه الآيات ، وطريقة علاجها له ، كلاهما يرجح أن هذه الآيات نزلت مبكرة في السنوات الأولى للهجرة . . ومن ثم فنحن أميل إلى اعتبار ما ورد في هذه السورة من حجاج وجدل مع أهل الكتاب ، ونفي للشبهات التي تضمنتها معتقداتهم المنحرفة ، أو التي تعمدوا نثرها حول صحة رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - وحقيقة عقيدة التوحيد الإسلامية ، وكذلك ما اقتضاه كيد أهل الكتاب من تحذير للجماعة المسلمة وتثبيت . . نحن أميل إلى اعتبار هذا كله غير مقيد

بحادث وفد نجران في السنة التاسعة ؛ وأنه كانت هناك مناسبات أخرى مبكرة هي التي نزل فيها هذا القرآن من هذه السورة .

(210/116)

ومن ثم سنمضي في استعراض هذه النصوص بوصفها مواجهة لأهل الكتاب غير مقيد بهذا الحادث الخاص المتأخر في التاريخ .

على أن هذه النصوص - كما قلنا في التمهيد للسورة - تكشف عن الصراع الأصيل الدائم بين الجماعة المسلمة وعقيدتها ، وبين أهل الكتاب والمشركين وعقائدهم . . هذا الصراع الذي لم يفتر منذ ظهور الإسلام - وبخاصة منذ مقدمه إلى المدينة وقيام دولته فيها - والذي اشترك فيه المشركون واليهود اشتراكاً عنيفاً يسجله القرآن تسجيلاً رائعاً دقيقاً . ولا عجب أن يشاركهم بعض رجال الكنيسة في أطراف الجزيرة العربية في صورة من الصور . ليس بعيداً عن الواقع أن يفد أفراد منهم أو جماعات لمناظرة النبي - صلى الله عليه وسلم - ومجادلته في المواضع التي يظهر فيها الاختلاف بين عقائدهم المنحرفة والعقيدة الجديدة القائمة على التوحيد الخالص الناصع - وبخاصة فيما يتعلق بصفة عيسى عليه السلام .

وفي هذا الدرس منذ ابتدائه تحديد لمفرق الطريق بين عقيدة التوحيد الخالصة الناصعة والشبهات والانحرافات. وتهديد لمن يكفر بالفرقان وآيات الله فيه، واعتبارهم كفاراً ولو كانوا من أهل الكتاب! وبيان لحال المؤمنين مع ربهم وموقفهم مما ينزل على رسله.

وهو بيان يحدد الموقف ويحسمه: فللإيمان علاماته التي لا تخطئ وللكفر علاماته التي لا شبهة فيها كذلك!

﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم. نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان. إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد. والله عزيز ذو انتقام ﴾..

﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأُخر متشابهات. فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا، ما يذكر إلا أولو الألباب ﴾.

(211/116)

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو – والملائكة وأولو العلم – قائماً بالقسط. لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾..

﴿ إن الدين عند الله الإسلام . وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم . بغياً بينهم . ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ﴾ . .

كما أن هذا الدرس يحمل تهديداً ، لا خفاء في أنه يتضمن تعريضاً باليهود . وذلك في قوله تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم ﴾ . . فحين يذكر قتل الأنبياء يتجه الذهن مباشرة إلى اليهود !

وكذلك النهي الوارد في قوله تعالى : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . . ﴾ إلخ . فالغالب أن المقصود به هم اليهود . وإن كان من الجائز أن يشمل المشركين أيضاً . فحتى هذا التاريخ كان بعض المسلمين لا يزالون يوالون أقاربهم من المشركين كما يوالون اليهود ، فنهوا عن ذلك كله وحذروا هذا التحذير العنيف . سواء كان الأولياء من اليهود أو من المشركين . فكلهم سماهم ﴿ الكافرين ﴾ !

وظاهر أن قوله تعالى : ﴿ قل للذين كفروا : ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية في فئتين التقتا : فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأي

العين . . . ﴾ إلخ . تتضمن الإشارة إلى أحداث غزوة بدر ، وأن الخطاب فيها موجه إلى اليهود . وقد وردت في هذا رواية عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : " لما أصاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قريشاً يوم بدر ، وقدم المدينة وجمع اليهود ، وقال : أسلموا قبل أن يصيبكم ما أصاب قريشاً ، قالوا : يا محمد : لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش أغماراً لا يعرفون القتال . إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا . فأنزل الله تعالى في ذلك : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم . . – إلى قوله : – ﴿ فئة تقاتل في سبيل الله – أي ببدر – وأخرى كافرة ﴾ "

. (أخرجه أبو داود) .

كذلك يبدو من التلقين الموجه للرسول – صلى الله عليه وسلم – في آية : ﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله – ومن اتبعن – وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين : ﴿ أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد ﴾ . . أنه وإن كان هذا التلقين في صدد مناقشة حاضرة ، إلا أنه تلقين عام شامل ، ليواجه به النبي – صلى الله عليه وسلم – كل المخالفين له في العقيدة .

وظاهر من قوله تعالى : ﴿ وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – حتى ذلك الحين لم يكن مأموراً بقتال أهل الكتاب ، ولا بأخذ الجزية منهم ، مما يرجح ما ذهبنا إليه من نزول هذه الآيات في وقت مبكر .

وهكذا نرى من طبيعة النصوص أنها مواجهة عامة غير مقيدة بمناسبة واحدة ، هي مناسبة وفد نجران . وقد تكون هذه إحدى المناسبات التي نزلت هذه النصوص لمواجهتها ، وهي المناسبات الكثيرة المكررة في الصراع بين الإسلام وخصومه المتعددين في الجزيرة . . وبخاصة اليهود في المدينة . .

ثم يتضمن هذا الدرس الأول إيضاحات قوية لأسس التصور الإسلامي من ناحية العقيدة ، وإلى جانبها إيضاحات قوية كذلك في طبيعة هذه العقيدة وآثارها في الحياة الواقعية . هذه الآثار الملازمة للإيمان بها . فهي عقيدة التوحيد لله . ومن ثم تجعل الدين هو الإسلام لله . ولا دين سواه . . الإسلام بمعنى الاستسلام والطاعة والاتباع . الاستسلام لأمره ، والطاعة لشرعه ، والاتباع لرسوله ومنهجه . فمن لم يستسلم ويطع ويتبع فليس بمسلم ، ومن ثم فليس بصاحب دين يرضاه الله . فالله لا يرضى إلا الإسلام . والإسلام - كما قلنا - الاستسلام والطاعة والاتباع . . ومن ثم يرد التعجيب والتشهير بأهل الكتاب الذين يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ﴿ ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ﴾ . . ويعتبر الإعراض عن تحكيم كتاب الله علامة الكفر التي تنفي دعوى الإيمان . الإيمان بالله على الإطلاق !

والمقطع الثاني في هذا الدرس يدور كله حول هذه الحقيقة الكبيرة . .

فلنأخذ الآن في الاستعراض التفصيلي لنصوص هذا الدرس من السورة :

﴿ ألم ﴾ . .

هذه الأحرف المقطعة : ألفْ . لام . ميم . نختار في تفسيرها – على سبيل الترجيح لا الجزم – ما اخترنا في مثلها في أول سورة البقرة : " إنها إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف ؛ وهي في متناول المخاطبين به من العرب . ولكنه – مع هذا – هو ذلك الكتاب المعجز ، الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله . . . إلخ " . .

(214/116)

وهذا الوجه الذي اخترناه في تفسير هذه الأحرف في أوائل السور – على سبيل الترجيح لا الجزم – يتمشى معنا بيسر في إدراك مناسبات هذه " الإشارة " في شتى السور . ففي سورة البقرة كانت الإشارة تتضمن التحدي الذي ورد في السورة بعد ذلك : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين .

. . إلخ ﴾ . .

فأما هنا في سورة "آل عمران" فتبدو مناسبة أخرى لهذه "الإشارة" . . هي أن هذا الكتاب منزل من الله الذي لا إله إلا هو . وهو مؤلف من أحرف وكلمات شأنه في هذا شأن ما سبقه من الكتب السماوية التي يعترف بها أهل الكتاب - المخاطبون في السورة - فليس هناك غرابة في أن ينزل الله هذا الكتاب على رسوله بهذه الصورة .

﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس ، وأنزل الفرقان . إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد ، والله عزيز ذو انتقام . إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم . هو الذي أنزل عليك الكتاب : منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله - وما يعلم تأويله إلا الله - والراسخون في العلم يقولون : آمنا به ، كل من عند ربنا - وما يذكر إلا أولو الألباب - ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ . .

هكذا تبدأ السورة في مواجهة أهل الكتاب المنكرين لرسالة النبي - صلى الله عليه وسلم

- وهم بحكم معرفتهم بالنبوات والرسالات والكتب المنزلة والوحي من الله ، كانوا أولى الناس بأن يكونوا أول المصدقين المسلمين . لو أن الأمر أمر اقتناع بحجة ودليل !

(215/116)

هكذا تبدأ السورة في مواجهتهم بهذا الشوط القاطع ، الفاصل في أكبر الشبهات التي تحيك في صدورهم ، أو التي يتعمدون نثرها في صدور المسلمين تعمداً . والكاشف لمداخل هذه الشبهات في القلوب ومساربها . والمحدد لموقف المؤمنين الحقيقيين من آيات الله وموقف أهل الزيغ والانحراف ! والمصور لحال المؤمنين من ربهم والتجائهم إليه ، وتضرعهم له ، ومعرفتهم بصفاته تعالى :

﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ . .

وهذا التوحيد الخالص الناصع هو مفرق الطريق بين عقيدة المسلم وسائر العقائد ، سواء منها عقائد الملحدين والمشركين ، وعقائد أهل الكتاب المنحرفين : يهوداً أو نصارى . على اختلاف مللهم ونحلهم جميعاً . كما أنه هو مفرق الطريق بين حياة المسلم وحياة سائر أهل العقائد في الأرض . فالعقيدة هنا تحدد منهج الحياة ونظامها تحديداً كاملاً دقيقاً .

﴿ الله لا إله إلا هو ﴾ . .

فلا شريك له في الألوهية . . ﴿ الحي ﴾ .

. الذي يتصف بحقيقة الحياة الذاتية المطلقة من كل قيد فلا شبيه له في صفته . . ﴿ القيوم ﴾ . . الذي به تقوم كل حياة وبه يقوم كل وجود ؛ والذي يقوم كذلك على كل حياة وعلى كل وجود . فلا قيام لحياة في هذا الكون ولا وجود إلا به سبحانه .

وهذا مفرق الطريق في التصور والاعتقاد . ومفرق الطريق في الحياة والسلوك .

مفرق الطريق في التصور والاعتقاد . بين تفرد الله – سبحانه – بصفة الألوهية وذلك الركام من التصورات الجاهلية : سواء في ذلك تصورات المشركين – وقتها في الجزيرة – وتصورات اليهود والنصارى – وبخاصة تصورات النصارى .

ولقد حكى القرآن عن اليهود أنهم كانوا يقولون : عزير ابن الله . كما أن الانحراف الذي سجله ما يعتبره اليهود اليوم " الكتاب المقدس " يتضمن شيئاً كهذا . كما جاء في سفر التكوين : الإصحاح السادس .

(216/116)

فأما انحرافات التصورات المسيحية فقد حكى القرآن منها قولهم : إن الله ثالث ثلاثة .

وقولهم : إن الله هو المسيح بن مريم . واتخاذهم المسيح وأمه إلهين من دون الله . واتخاذهم

أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله . .

وقد جاء في كتاب " الدعوة إلى الإسلام " تأليف أرنولد ، شيء عن هذه التصورات . .

(217/116)

" ولقد أفلح جستنيان قبل الفتح الإسلامي بمائة عام في أن يكسب الإمبراطورية الرومانية مظهراً من مظاهر الوحدة . ولكن سرعان ما تصدعت بعد موته ، وأصبحت في حاجة ماسة إلى شعور قومي مشترك ، يربط بين الولايات وحاضرة الدولة . أما هرقل فقد بذل جهوداً لم تصادف نجاحاً كاملاً في إعادة ربط الشام بالحكومة المركزية . ولكن ما اتخذه من وسائل عامة في سبيل التوفيق قد أدى لسوء الحظ إلى زيادة الانقسام بدلاً من القضاء عليه . ولم يكن ثمة ما يقوم مقام الشعور بالقومية سوى العواطف الدينية . فحاول بتفسيره العقيدة تفسيراً يستعين به على تهدئة النفوس أن يقف ما يمكن أن يشجر بعد ذلك بين الطوائف المتناحرة من خصومات ؛ وأن يوحد بين الخارجين على الدين وبين الكنيسة الأرثوذكسية ، وبينهم وبين الحكومة المركزية . . وكان مجمع خلقيدونية قد أعلن في سنة 451 ميلادية أن المسيح ينبغي أن يعترف بأنه يتمثل في طبيعتين لا اختلاط بينهما ، ولا تغير ، ولا تجزؤ ، ولا انفصال . ولا يمكن أن ينتفي خلافهما بسبب اتحادهما . بل الأحرى

أن تحتفظ كل طبيعة منهما بخصائصها ؛ وتجتمع في أقنوم واحد ، وجسد واحد . لا كما لو كانت متجزئة أو منفصلة في أقنومين . بل متجمعة في أقنوم واحد هو ذلك الابن والله والكلمة . . وقد رفض اليعاقبة هذا المجمع ، وكانوا لا يعترفون في المسيح إلا بطبيعة واحدة . وقالوا : إنه مركب الأقانيم . . له كل الصفات الإلهية والبشرية ولكن المادة التي تحمل هذه الصفات لم تعد ثنائية بل أصبحت وحدة مركبة الأقانيم وكان الجدل قد احتدم قرابة قرنين من الزمان بين طائفة الأرثوذكس وبين اليعاقبة الذين ازدهروا بوجه خاص في مصر والشام والبلاد الخارجة عن نطاق الإمبراطورية البيزنطية ، في الوقت الذي سعى فيه هرقل في إصلاح ذات البين عن طريق المذهب القائل بأن للمسيح مشيئة واحدة .

ففي الوقت الذي نجد فيه هذا المذهب يعترف بوجود الطبيعتين ، إذا به يتمسك بوحدة الأقنوم في حياة المسيح البشرية . وذلك بإنكاره وجود نوعين من الحياة في أقنوم واحد . فالمسيح الواحد ، الذي هو ابن الله ، يحقق الجانب الإنساني والجانب الإلهي بقوة إلهية إنسانية واحدة ومعنى هذا أنه لا يوجد سوى إرادة واحدة في الكلمة المتجسدة . . لكن هرقل قد لقي المصير الذي انتهى إليه كثيرون جداً ممن كانوا يأملون أن يقيموا دعائم السلام .

ذلك بأن الجدل لم يحتدم مرة أخرى كأعنف ما يكون فحسب ، بل إن هرقل نفسه قد وصم بالإلحاد ، وجر على نفسه سخط الطائفتين على السواء "

كذلك يقول باحث مسيحي آخر هو "كانون تايلور " عن الحالة بين نصارى الشرق عند البعثة المحمدية : " وكان الناس في الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة " .

أما انحرافات عقائد المشركين فقد حكى القرآن عنها : عبادتهم للجن والملائكة والشمس والقمر والأصنام . وكان أقل عقائدهم انحرافاً عقيدة من يقولون عن هذه الآلهة : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ فأمام هذا الركام من التصورات الفاسدة والمنحرفة التي أشرنا إليها هذه الإشارات الخاطفة جاء الإسلام في هذه السورة – ليعلنها ناصعة واضحة صريحة حاسمة :

﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ .

فكانت مفرق الطريق في التصور والاعتقاد . . كذلك كانت مفرق الطريق في الحياة والسلوك . .

إن الذي يمتلئ شعوره بوجود الله الواحد الذي لا إله إلا هو . الحي الواحد الذي لا حي غيره . القيوم الواحد الذي به تقوم كل حياة أخرى وكل وجود ، كما أنه هو الذي يقوم على كل حي وكل موجود . .

إن الذي يمتلئ شعوره بوجود الله الواحد الذي هذه صفته ، لا بد أن يختلف منهج حياته ونظامها من الأساس عن الذي تغيم في حسه تلك التصورات التائهة المهوشة . فلا يجد في ضميره أثراً لحقيقة الألوهية الفاعلة المتصرفة في حياته !

(219/116)

إنه مع التوحيد الواضح الخالص لا مكان لعبودية إلا لله . ولا مكان للاستمداد والتلقي إلا من الله . لا في شريعة أو نظام ، ولا في أدب أو خلق . ولا في اقتصاد أو اجتماع . ولا مكان كذلك للتوجه لغير الله في شأن من شؤون الحياة ، وما بعد الحياة . . أما في تلك التصورات الزائغة المنحرفة المهزوزة الغامضة فلا متجه ولا قرار ، ولا حدود لحرام أو حلال ، ولا لخطإ أو صواب : في شرع أو نظام ، في أدب أو خلق ، وفي معاملة أو سلوك . . فكلها . . كلها . . إنما تتحدد وتتضح عندما تتحدد الجهة التي منها التلقي ، وإليها التوجه ، ولها الطاعة والعبودية والاستسلام .

ومن ثم كانت هذه المواجهة بذلك الحسم في مفرق الطريق :

﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ . .

ومن ثم كان التميز والتفرد لطبيعة الحياة الإسلامية - لا لطبيعة الاعتقاد وحده - فالحياة

الإسلامية بكل مقوماتها إنما تنبثق انبثاقاً من حقيقة هذا التصور الإسلامي عن التوحيد الخالص الجازم. التوحيد الذي لا يستقيم عقيدة في الضمير ما لم تتبعه آثاره العملية في الحياة. من تلقي الشريعة والتوحيد من الله في كل شأن من شؤون الحياة. والتوجه كذلك إلى الله في كل نشاط وكل اتجاه.

وعقب هذا الإيضاح الحاسم في مفرق الطريق، بإعلان الوحدانية المطلقة لذات الله وصفاته، يجيء الحديث عن وحدانية الجهة التي تتنزل منها الأديان والكتب والرسالات. أي التي يتنزل منها المنهج الذي يصرف حياة البشر في جميع الأجيال:

﴿ نزل عليك الكتاب بالحق – مصدقاً لما بين يديه – وأنزل التوراة والإنجيل من قبل – هدى للناس – وأنزل الفرقان. إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد. والله عزيز ذو انتقام ﴾.

وتتضمن هذه الآية في شطرها الأول جملة حقائق أساسية في التصور الاعتقادي، وفي الرد كذلك على أهل الكتاب وغيرهم من المنكرين لرسالة محمد – صلى الله عليه وسلم – وصحة ما جاء به من عند الله.

فهي تقرر وحدة الجهة التي تتنزل منها الكتب على الرسل . فالله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم ، هو الذي نزل هذا القرآن - عليك - كما أنه أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى من قبل . وإذن فلا اختلاط ولا امتزاج بين الألوهية والعبودية . إنما هناك إله واحد ينزل الكتب على المختارين من عباده . وهناك عبيد يتلقون . وهم عبيد لله ولو كانوا أنبياء مرسلين .

وهي تقرر وحدة الدين ووحدة الحق الذي تتضمنه الكتب المنزلة من عند الله . فهذا الكتاب نزله - عليك - ﴿ بالحق ﴾ . . ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ . . من التوراة والإنجيل . . وكلها تستهدف غاية واحدة : ﴿ هدى للناس ﴾ . . وهذا الكتاب الجديد " فرقان " بين الحق الذي تضمنته الكتب المنزلة ، والانحرافات والشبهات التي لحقت بها بفعل الأهواء والتيارات الفكرية والسياسية (التي رأينا نموذجاً منها فيما نقلناه عن الكاتب المسيحي سيرت . و . آرنولد في كتاب " الدعوة إلى الإسلام ") .

وهي تقرر - ضمناً - أنه لا وجه لتكذيب أهل الكتاب للرسالة الجديدة . فهي سائرة على نمط الرسالات قبلها . وكتابها نزل بالحق كالكتب المنزلة . ونزل على رسول من البشر كما نزلت الكتب على رسل من البشر . وهو مصدق لما بين يديه من كتب الله ، يضم جناحيه على " الحق " الذي تضم جوانحها عليه . وقد نزله من يملك تنزيل الكتب .

. فهو منزل من الجهة التي لها " الحق " في وضع منهاج الحياة للبشر ، وبناء تصوراتهم الاعتقادية ، وشرائعهم وأخلاقهم وآدابهم في الكتاب الذي ينزله على رسوله .

(221/116)

ثم تتضمن الآية في شطرها الثاني التهديد الرعيب للذين كفروا بآيات الله ، وتلوح لهم بعزة الله وقوته وشدة عذابه وانتقامه . . والذين كفروا بآيات الله هم الذين كذبوا بهذا الدين الواحد بإطلاقه . . وأهل الكتاب الذين انحرفوا عن كتاب الله الصحيح المنزل إليهم من قبل ، فقادهم هذا الانحراف إلى التكذيب بالكتاب الجديد - وهو فرقان واضح مبين - هم أول المعنيين هنا بصفة الكفر ، وهم أول من يتوجه إليهم التهديد الرعيب بعذاب الله الشديد وانتقامه الأكيد . .

وفي صدد التهديد بالعذاب والانتقام يؤكد لهم علم الله الذي لا يند عنه شيء ، فلا خفاء عليه ولا إفلات منه :

﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ . .

وتوكيد العلم المطلق الذي لا يخفى عليه شيء ، وإثبات هذه الصفة لله - سبحانه - في هذا المقام . . هذا التوكيد يتفق أولاً مع وحدانية الألوهية والقوامة التي افتتح بها السياق .

كما يتفق مع التهديد الرعيب في الآية السابقة . . فلن يفلت ﴿ شيء ﴾ من علم الله ﴿ في الأرض ولا في السماء ﴾ بهذا الشمول والإطلاق . ولن يمكن إذن ستر النوايا عليه ، ولا إخفاء الكيد عنه . ولن يمكن كذلك التفلت من الجزاء الدقيق ، ولا التهرب من العلم اللطيف العميق .

وفي ظلال العلم اللطيف الشامل الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء يلمس المشاعر الإنسانية لمسة رفيقة عميقة ، تتعلق بالنشأة الإنسانية . النشأة المجهولة في ظلام الغيب وظلام الأرحام ، حيث لا علم للإنسان ولا قدرة ولا إدراك :

﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء . لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ . . . .

(222/116)

هكذا ﴿ يصوركم ﴾ . . يمنحكم الصورة التي يشاء ؛ ويمنحكم الخصائص المميزة لهذه الصورة . وهو وحده الذي يتولى التصوير ، بمحض إرادته ، ومطلق مشيئته : ﴿ كيف يشاء ﴾ . . ﴿ لا إله إلا هو ﴾ . . ﴿ العزيز ﴾ . . ذو القدرة والقوة على الصنع والتصوير ﴿ الحكيم ﴾ . . الذي يدبر الأمر بحكمته فيما يصور ويخلق بلا معقب ولا شريك .

وفي هذه اللمسة تجلية لشبهات النصارى في عيسى عليه السلام ونشأته ومولده . فالله هو الذي صور عيسى . . ﴿ كيف يشاء ﴾ لا أن عيسى هو الرب . أو هو الله . أو هو الابن . أو هو الأقنوم اللاهوتي الناسوتي . إلى آخر ما انتهت إليه التصوارت المنحرفة الغامضة المجانبة لفكرة التوحيد الناصعة الواضحة اليسيرة التصور القريبة الإدراك !

بعدئذ يكشف الذين في قلوبهم زيغ ، الذين يتركون الحقائق القاطعة في آيات القرآن المحكمة ، ويتبعون النصوص التي تحتمل التأويل ، ليصوغوا حولها الشبهات ؛ ويصور سمات المؤمنين حقاً وإيمانهم الخالص وتسليمهم لله في كل ما يأتيهم من عنده بلا جدال :

﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب .

منه آيات محكمات هن أم الكتاب . وأخر متشابهات . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون في العلم يقولون : آمنا به . كل من عند ربنا - وما يذكر إلا أولو الألباب - ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة . إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه . إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ . .

وقد روى أن نصارى نجران قالوا للرسول – صلى الله عليه وسلم – ألست تقول عن المسيح : إنه كلمة الله وروحه ؟ يريدون أن يتخذوا من هذا التعبير أداة لتثبيت معتقداتهم عن عيسى – عليه السلام – وأنه ليس من البشر ، إنما هو روح الله – على ما يفهمون هم من هذا التعبير – بينما هم يتركون الآيات القاطعة المحكمة التي تقرر وحدانية الله المطلقة ، وتنفي عنه الشريك والولد في كل صورة من الصور . فنزلت فيهم هذه الآية ، تكشف محاولتهم هذه في استغلال النصوص المجازية المصورة ، وترك النصوص التجريدية القاطعة . على أن نص الآية أعم من هذه المناسبة ؛ فهي تصور موقف الناس على اختلافهم من هذا الكتاب الذي أنزله الله على نبيه – صلى الله عليه وسلم – متضمناً حقائق التصور الإيماني ، ومنهاج الحياة الإسلامية ؛ ومتضمناً كذلك أموراً غيبية لا سبيل للعقل البشري أن يدركها بوسائله الخاصة ، ولا مجال له لأن يدرك منها أكثر مما تعطيه النصوص بذاتها .

فأما الأصول الدقيقة للعقيدة والشريعة فهي مفهومة المدلولات قاطعة الدلالة ، مدركة المقاصد – وهي أصل هذا الكتاب – وأما السمعيات والغيبيات – ومنها نشأة عيسى عليه السلام ومولده – فقد جاءت للوقوف عند مدلولاتها القريبة والتصديق بها لأنها صادرة من هذا المصدر " الحق " ويصعب إدراك ماهياتها وكيفياتها ، لأنها بطبيعتها فوق وسائل الإدراك الإنساني المحدود .

وهنا يختلف الناس - حسب استقامة فطرتهم أو زيغها - في استقبال هذه الآيات وتلك .

فأما الذين في قلوبهم زيغ وانحراف وضلال عن سواء الفطرة ، فيتركون الأصول الواضحة الدقيقة التي تقوم عليها العقيدة والشريعة والمنهاج العملي للحياة ، ويجرون وراء المتشابه الذي يعوّل في تصديقه على الإيمان بصدق مصدره ، والتسليم بأنه هو الذي يعلم " الحق " كله ، بينما الإدراك البشري نسبي محدود المجال . كما يعول فيه على استقامة الفطرة التي تدرك بالإلهام المباشر صدق هذا الكتاب كله ، وأنه نزل بالحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . يجرون وراء المتشابه لأنهم يجدون فيه مجالاً لإيقاع الفتنة بالتأويلات المزلزلة للعقيدة ، والاختلافات التي تنشأ عن بلبلة الفكر ، نتيجة إقحامه فيما لا مجال للفكر في تأويله . . ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ . .

وأما الراسخون في العلم ، الذين بلغ من علمهم أن يعرفوا مجال العقل وطبيعة التفكير البشري ، وحدود المجال الذي يملك العمل فيه بوسائله الممنوحة له .

. أما هؤلاء فيقولون في طمأنينة وثقة :

﴿ آمنا به ، كل من عند ربنا ﴾ . .

يدفعهم إلى هذه الطمأنينة ، أنه من عند ربهم . فهو إذن حق وصدق . وما يقرره الله صادق بذاته . وليس من وظيفة العقل البشري ولا في طوقه أن يبحث عن أسبابه وعلله ،

كما أنه ليس في طوقه أن يدرك ماهيته وطبيعة العلل الكامنة وراءه.

والراسخون في العلم يطمئنون ابتداء إلى صدق ما يأتيهم من عند الله. يطمئنون إليه بفطرتهم الصادقة الواصلة.. ثم لا يجدون من عقولهم شكاً فيه كذلك؛ لأنهم يدركون أن من العلم ألا يخوض العقل فيما لا مجال فيه للعلم، وفيما لا تؤهله وسائله وأدواته الإنسانية لعلمه..

(225/116)

وهذا تصوير صحيح للراسخين في العلم.. فما يتبجح وينكر إلا السطحيون الذين تخدعهم قشور العلم، فيتوهمون أنهم أدركوا كل شيء، وأن ما لم يدركوه لا وجود له؛ أو يفرضون إدراكهم على الحقائق، فلا يسمحون لها بالوجود إلا على الصورة التي أدركوها. ومن ثم يقابلون كلام الله المطلق بمقررات عقلية لهم! صاغتها عقولهم المحدودة! أما العلماء حقاً فهم أكثر تواضعاً، وأقرب إلى التسليم بعجز العقل البشري عن إدراك حقائق كثيرة تكبر طاقته وترتفع عليها. كما أنهم أصدق فطرة فما تلبث فطرتهم الصادقة أن تتصل بالحق وتطمئن إليه.

﴿ وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾..

وكأنه ليس بين أولي الألباب وإدراك الحق إلا أن يتذكروا . . فإذا الحق المستقر في فطرتهم الموصولة بالله ، ينبض ويبرز ويتقرر في الألباب .

عندئذ تنطلق ألسنتهم وقلوبهم في دعاء خاشع وفي ابتهال منيب : أن يثبتهم على الحق ، وألا يزيغ قلوبهم بعد الهدى ، وأن يسبغ عليهم رحمته وفضله . . ويتذكرون يوم الجمع الذي لا ريب فيه ، والميعاد الذي لا خلف له :

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا . وهب لنا من لدنك رحمة . إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه . إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ . .

هذا هو حال الراسخين في العلم مع ربهم ؛ وهو الحال اللائق بالإيمان ؛ المنبثق من الطمأنينة لقول الله ووعده ؛ والثقة بكلمته وعهده ؛ والمعرفة برحمته وفضله ؛ والإشفاق مع هذا من قضائه المحكم وقدره المغيب ؛ والتقوى والحساسية واليقظة التي يفرضها الإيمان على قلوب أهله ، فلا تغفل ولا تغتر ولا تنسى في ليل أو نهار . .

(226/116)

والقلب المؤمن يدرك قيمة الاهتداء بعد الضلال . قيمة الرؤية الواضحة بعد الغبش . قيمة الاستقامة على الدرب بعد الحيرة . قيمة الطمأنينة للحق بعد الأرجحة . قيمة التحرر من

العبودية للعبيد بالعبودية لله وحده . قيمة الاهتمامات الرفيعة الكبيرة بعد اللهو بالاهتمامات الصغيرة الحقيرة . . ويدرك أن الله منحه بالإيمان كل هذا الزاد . . ومن ثم يشفق من العودة إلى الضلال ، كما يشفق السائر في الدرب المستقيم المنير أن يعود إلى التخبط في المنعرجات المظلمة .

وكما يشفق من ذاق نداوة الظلال أن يعود إلى الهجير القائظ والشواظ ! وفي بشاشة الإيمان حلاوة لا يدركها إلا من ذاق جفاف الإلحاد وشقاوته المريرة . وفي طمأنينة الإيمان حلاوة لا يدركها إلا من ذاق شقوة الشرود والضلال !

ومن ثم يتجه المؤمنون إلى ربهم بذلك الدعاء الخاشع :

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ﴾ . .

وينادون رحمة الله التي أدركتهم مرة بالهدى بعد الضلال ، ووهبتهم هذا العطاء الذي لا يعدله عطاء :

﴿ وهب لنا من لدنك رحمة . إنك أنت الوهّاب ﴾ . .

وهم بوحي إيمانهم يعرفون أنهم لا يقدرون على شيء إلا بفضل الله ورحمته . . وأنهم لا يملكون قلوبهم فهي في يد الله . . فيتجهون إليه بالدعاء أن يمدهم بالعون والنجاة .

عن عائشة – رضي الله – عنها قالت : "كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كثيراً ما يدعو : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قلت : يا رسول الله ، ما أكثر ما تدعو بهذا

الدعاء . فقال : ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن . إذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه " .

ومتى استشعر القلب المؤمن وقع المشيئة على هذا النحو لم يكن أمامه إلا أن يلتصق بركن الله في حرارة . وأن يتشبث بحماه في إصرار ، وأن يتجه إليه يناشده رحمته وفضله ، لاستبقاء الكنز الذي وهبه ، والعطاء الذي أولاه !

(227/116)

بعد هذا البيان يتجه إلى تقرير مصير الذين كفروا ، وسنة الله التي لا تتخلف في أخذهم بذنوبهم ، وإلى تهديد الذين يكفرون من أهل الكتاب ، ويقفون لهذا الدين ، ويلقن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن ينذرهم ، ويذكرهم ما رأوه بأعينهم في غزوة بدر من نصر القلة المؤمنة على حشود الكافرين :

﴿ إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ، وأولئك هم وقود النار . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا : فأخذهم الله بذنوبهم ، والله شديد العقاب . قل للذين كفروا . ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية في فئتين التقتا : فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأي العين ، والله يؤيد

بنصره من يشاء ، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ . .

إن هذه الآيات واردة في صدد خطاب بني إسرائيل ، وتهديدهم بمصير الكفار قبلهم وبعدهم . وفيها لفتة لطيفة عميقة الدلالة كذلك . . فهو يذكرهم فيها بمصير آل فرعون . . وكان الله سبحانه قد أهلك آل فرعون وأنجى بني إسرائيل . ولكن هذا لا يمنحهم حقاً خاصاً إذا هم ضلوا وكفروا ، ولا يعصمهم أن يوصموا بالكفر إذا هم انحرفوا ، وأن ينالوا جزاء الكافرين في الدنيا والآخرة كما نال آل فرعون الذين أنجاهم الله منهم !

كذلك يذكرهم مصارع قريش في بدر – وهم كفار – ليقول لهم : إن سنة الله لا تتخلف . وإنه لا يعصمهم عاصم من أن يحق عليهم ما حق على قريش . فالعلة هي الكفر . وليس لأحد على الله دالة ، ولا له شفاعة إلا بالإيمان الصحيح !

﴿ إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ، وأولئك هم وقود النار ﴾ . .

(228/116)

والأموال والأولاد مظنة حماية ووقاية ؛ ولكنهما لا يغنيان شيئاً في ذلك اليوم الذي لا ريب فيه ، لأنه لا إخلاف لميعاد الله . وهم فيه : ﴿ وقود النار ﴾ . . بهذا التعبير الذي

يسلبهم كل خصائص " الإنسان " ومميزاته ، ويصورهم في صورة الحطب والخشب وسائر " وقود النار " . .

لا بل إن الأموال والأولاد ، ومعهما الجاه والسلطان ، لا تغني شياً في الدنيا :

﴿ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا ، فأخذهم الله بذنوبهم ، والله شديد العقاب ﴾ . .

وهو مثل مضى في التاريخ مكروراً ، وقصة الله في هذا الكتاب تفصيلاً : وهو يمثل سنة الله في المكذبين بآياته ، يجريها حيث يشاء . فلا أمان إذن ولا ضمان لمكذب بآيات الله .

وإذن فالذين كفروا وكذبوا بدعوة محمد – صلى الله عليه وسلم – وآيات الكتاب الذي نزله عليه بالحق ، معرضون لهذا المصير في الدنيا والآخرة سواء . . ومن ثم يلقن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن ينذرهم هذا المصير في الدارين ، وأن يضرب لهم المثل بيوم بدر القريب ، فلعلهم نسوا مثل فرعون والذين من قبله في التكذيب والأخذ الشديد :

﴿ قل للذين كفروا : ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية في فئتين التقتا : فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأي العين . والله يؤيد بنصره من يشاء . إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ . .

وقوله تعالى : ﴿ يرونهم مثليهم رأي العين ﴾ يحتمل تفسيرين : فإما أن يكون ضمير " يرون " راجعاً إلى الكفار ، وضمير " هم " راجعاً إلى المسلمين ، ويكون المعنى أن الكفار على

كثرتهم كانوا يرون المسلمين القليلين ﴿ مثليهم ﴾ . . وكان هذا من تدبير الله حيث خيل للمشركين أن المسلمين كثرة وهم قلة ، فتزلزلت قلوبهم وأقدامهم .

وإما أن يكون العكس ، ويكون المعنى أن المسلمين كانوا يرون المشركين ﴿ مثليهم ﴾ هم - في حين أن المشركين كانوا ثلاثة أمثالهم - ومع هذا ثبتوا وانتصروا .

(229/116)

والمهم هو رجع النصر إلى تأييد الله وتدبيره . . وفي هذا تخذيل للذين كفروا وتهديد . كما أن فيه تثبيتا للذين آمنوا وتهوينا من شأن أعدائهم فلا يرهبونهم . . وكان الموقف - كما ذكرنا في التمهيد للسورة - يقتضي هذا وذاك . . وكان القرآن يعمل هنا وهناك . .

وما يزال القرآن يعمل بحقيقته الكبيرة . وبما يتضمنه من مثل هذه الحقيقة . . إن وعد الله بهزيمة الذين يكفرون ويكذبون وينحرفون عن منهج الله ، قائم في كل لحظة .

ووعد الله بنصر الفئة المؤمنة - ولو قل عددها - قائم كذلك في كل لحظة . وتوقف النصر على تأييد الله الذي يعطيه من يشاء حقيقة قائمة لم تنسخ ، وسنة ماضية لم تتوقف .

وليس على الفئة المؤمنة إلا أن تطمئن إلى هذه الحقيقة ؛ وتثق في ذلك الوعد ؛ وتأخذ للأمر عدته التي في طوقها كاملة ؛ وتصبر حتى يأذن الله ؛ ولا تستعجل ولا تقنط إذا طال عليها

الأمد المغيب في علم الله، المدبر بحكمته، المؤجل لموعده الذي يحقق هذه الحكمة.

﴿ إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ . .

ولا بد من بصر ينظر وبصير تدبر، لتبرز العبرة، وتعيها القلوب. وإلا فالعبرة تمر في كل لحظة في الليل والنهار!

وفي مجال التربية للجماعة المسلمة يكشف لها عن البواعث الفطرية الخفية التي من عندها يبدأ الانحراف؛ إذا لم تضبط باليقظة الدائمة؛ وإذا لم تتطلع النفس إلى آفاق أعلى؛ وإذا لم تتعلق بما عند الله وهو خير وأزكى.

إن الاستغراق في شهوات الدنيا، ورغائب النفوس، ودوافع الميول الفطرية هو الذي يشغل القلب عن التبصر والاعتبار؛ ويدفع بالناس إلى الغرق في لجة اللذائذ القريبة المحسوسة؛ ويحجب عنهم ما هو أرفع وأعلى؛ ويغلظ الحس فيحرمه متعة التطلع إلى ما وراء اللذة القريبة؛ ومتعة الاهتمامات الكبيرة اللائقة بدور الإنسان العظيم في هذه الأرض؛ واللائقة كذلك بمخلوق يستخلفه الله في هذا الملك العريض.

(230/116)

ولما كانت هذه الرغائب والدوافع – مع هذا – طبيعية وفطرية ، ومكلفة من قبل البارئ – جل وعلا – أن تؤدي للبشرية دوراً أساسياً في حفظ الحياة وامتدادها ، فإن الإسلام لا يشير بكبتها وقتلها ، ولكن إلى ضبطها وتنظيمها ، وتخفيف حدتها واندفاعها ؛ وإلى أن يكون الإنسان مالكاً لها متصرفاً فيها ، لا أن تكون مالكة له متصرفة فيه ؛ وإلى تقوية روح التسامي فيه والتطلع إلى ما هو أعلى .

ومن ثم يعرض النص القرآني الذي يتولى هذا التوجيه التربوي . . هذه الرغائب والدافع ، ويعرض إلى جوارها على امتداد البصر ألواناً من لذائذ الحس والنفس في العالم الآخر ، ينالها من يضبطون أنفسهم في هذه الحياة الدنيا عن الاستغراق في لذائذها المحببة ، ويحتفظون بإنسانيتهم الرفيعة .

وفي آية واحدة يجمع السياق القرآني أحب شهوات الأرض إلى نفس الإنسان : النساء والبنين والأموال المكدسة والخيل والأرض المخصبة والأنعام . . وهي خلاصة للرغائب الأرضية . إما بذاتها ، وإما بما تستطيع أن توفره لأصحابها من لذائذ أخرى . . وفي الآية التالية يعرض لذائذ أخرى في العالم الآخر : جنات تجري من تحتها الأنهار . وأزواج مطهرة . وفوقها رضوان من الله . . وذلك كله لمن يمد ببصره إلى أبعد من لذائذ الأرض ، ويصل قلبه بالله على النحو الذي تعرضه آيتان تاليتان :

﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ،

والخيل المسومة ، والأنعام ، والحرث .

. ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب . قل : أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار - خالدين فيها - وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله . والله بصير بالعباد . الذين يقولون : ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴾ . .

(231/116)

﴿ زين للناس ﴾ . وصياغة الفعل للمجهول هنا تشير إلى أن تركيبهم الفطري قد تضمن هذا الميل ؛ فهو محبب ومزين . . وهذا تقرير للواقع من أحد جانبيه . ففي الإنسان هذا الميل إلى هذه " الشهوات " ، وهو جزء من تكوينه الأصيل ، لا حاجة إلى إنكاره ، ولا إلى استنكاره في ذاته . فهو ضروري للحياة البشرية كي تتأصل وتنمو وتطرد - كما أسلفنا - ولكن الواقع يشهد كذلك بأن في فطرة الإنسان جانباً آخر يوازن ذلك الميل ، ويحرس الإنسان أن يستغرق في ذلك الجانب وحده ؛ وأن يفقد قوة النفخة العلوية أو مدلولها وإيحاءها . هذا الجانب الآخر هو جانب الاستعداد للتسامي ، والاستعداد لضبط النفس ووقفها عند الحد السليم من مزاولة هذه " الشهوات " . الحد الباني للنفس وللحياة

؛ مع التطلع المستمر إلى ترقية الحياة ورفعها إلى الأفق الذي تهفف إليه النفحة العلوية ، وربط القلب البشري بالملإ الأعلى والدار الآخرة ورضوان الله . . هذا الاستعداد الثاني يهذب الاستعداد الأول ، وينقيه من الشوائب ، ويجعله في الحدود المأمونة التي لا يطغى فيها جانب اللذة الحسية ونزعاتها القريبة ، على الروح الإنسانية وأشواقها البعيدة . . والاتجاه إلى الله ، وتقواه ، هو خيط الصعود والتسامي إلى تلك الأشواق البعيدة .

﴿ زين للناس حب الشهوات ﴾ . . فهي شهوات مستحبة مستلذة ؛ وليست مستقذرة ولا كريهة . والتعبير لا يدعو إلى استقذارها وكراهيتها ؛ إنما يدعو فقط إلى معرفة طبيعتها وبواعثها ، ووضعها في مكانها لا تتعداه ، ولا تطغى على ما هو أكرم في الحياة وأعلى . والتطلع إلى آفاق أخرى بعد أخذ الضروري من تلك " الشهوات " في غير استغراق ولا إغراق !

(232/116)

وهنا يمتاز الإسلام بمراعاته للفطرة البشرية وقبولها بواقعها ، ومحاولة تهذيبها ورفعها ، لا كبتها وقمعها . . والذين يتحدثون في هذه الأيام عن " الكبت " وأضراره ، وعن " العقد النفسية " التي ينشئها الكبت والقمع ، يقررون أن السبب الرئيسي للعقد هو " الكبت "

وليس هو "الضبط" . . وهو استقذار دوافع الفطرة واستنكارها من الأساس، مما يوقع الفرد تحت ضغطين متعارضين: ضغط من شعوره - الذي كونه الإيحاء أو كونه الدين أو كونه العرف - بأن دوافع الفطرة دوافع قذرة لا يجوز وجودها أصلاً، فهي خطيئة ودافع شيطاني! وضغط هذه الدوافع التي لا تغلب لأنها عميقة في الفطرة، ولأنها ذات وظيفة أصيلة في كيان الحياة البشرية، لا تتم إلا بها، ولم يخلقها الله في الفطرة عبثاً.

. وعندئذ وفي ظل هذا الصراع تتكون "العقد النفسية" . . فحتى إذا سلمنا جدلاً بصحة هذه النظريات النفسية، فإننا نرى الإسلام قد ضمن سلامة الكائن الإنساني من هذا الصراع بين شطري النفس البشرية. بين نوازع الشهوة واللذة، وأشواق الارتقاع والتسامي . . وحقق لهذه وتلك نشاطها المستمر في حدود التوسط والاعتدال.

﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . . . ﴾ . .

والنساء والبنون شهوة من شهوات النفس الإنسانية قوية . . وقد قرن اليهما ﴿ القناطير المقنطرة ﴾ من الذهب والفضة . . ونهم المال هو الذي ترسمه ﴿ القناطير المقنطرة ﴾ ولو كان يريد مجرد الميل إلى المال لقال: والأموال. أو والذهب والفضة. ولكن القناطير المقنطرة تلقي ظلاً خاصاً هو المقصود. ظل النهم الشديد لتكديس الذهب والفضة.

ذلك أن التكديس ذاته شهوة. بغض النظر عما يستطيع المال توفيره لصاحبه من الشهوات الأخرى!

(233/116)

ثم قرن إلى النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة.. الخيل المسومة. والخيل كانت - وما تزال حتى في عصر الآلة المادي اليوم - زينة محببة مشتهاة. ففي الخيل جمال وفتوة وانطلاق وقوة. وفيها ذكاء وألفة ومودة. وحتى الذين لا يركبونها فروسية، يعجبهم مشهدها، ما دام في كيانهم حيوية تجيش لمشهد الخيل الفتية!

وقرن إلى تلك الشهوات الأنعامَ والحرث. وهما يقترنان عادة في الذهن وفي الواقع.. الأنعام والحقول المخصبة.. والحرث شهوة بما فيه من مشهد الإنبات والنماء. وإن تفتح الحياة في ذاته لمشهد حبيب فإذا أضيفت إليه شهوة الملك، كان الحرث والأنعام شهوة.

وهذه الشهوات التي ذكرت هنا هي نموذج لشهوات النفوس، يمثل شهوات البيئة التي كانت مخاطبة بهذا القرآن؛ ومنها ما هو شهوة كل نفس على مدار الزمان. والقرآن يعرضها ثم يقرر قيمتها الحقيقية، لتبقى في مكانها هذا لا تتعداه، ولا تطغى على ما سواه:

﴿ ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾..

ذلك كله الذي عرضه من اللذائذ المحببة – وسائر ما يماثله من اللذائذ والشهوات – متاع الحياة الدنيا . لا الحياة الرفيعة ، ولا الآفاق البعيدة . . متاع هذه الأرض القريب . . فأما من أراد الذي هو خير . . خير من ذلك كله . خير لأنه أرفع في ذاته . وخير لأنه يرفع النفس ويصونها من الاستغراق في الشهوات ، والانكباب على الأرض دون التطلع إلى السماء . . من أراد الذي هو خير فعند الله من المتاع ما هو خير . وفيه عوض كذلك عن تلك الشهوات :

﴿ قل : أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار – خالدين فيها – وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد ﴾ . .

وهذا المتاع الأخروي الذي تذكره الآية هنا ، ويؤمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يبشر به المتقين ، هو نعيم حسي في عمومه .

(234/116)

. ولكن هنالك فارقاً أساسياً بينه وبين متاع الدنيا . . إنه متاع لا يناله إلا الذين اتقوا . الذين كان خوف الله وذكره في قلوبهم . وشعور التقوى شعور مهذب للروح والحس جميعاً . شعور ضابط للنفس أن تستغرقها الشهوات ، وأن تنساق فيها كالبهيمة . فالذين اتقوا ربهم

حين يتطلعون إلى هذا المتاع الحسي الذي يبشرون به يتطلعون إليه في شفافية مبرأة من غلظة الحس ! وفي حساسية مبرأة من بهيمية الشهوة ! ويرتفعون بالتطلع إليه – وهم في هذه الأرض – قبل أن ينتهي بهم المطاف إلى قرب الله . .

وفي هذا المتاع النظيف العفيف عوض كامل عن متاع الدنيا . . وفيه زيادة . .

فإذا كان متاعهم في الدنيا حرثاً مُعطياً مخصباً ، ففي الآخرة جنات كاملة تجري من تحتها الأنهار . وهي فوق هذا خالدة وهم خالدون فيها ، لا كالحرث المحدود الميقات !

وإذا كان متاعهم في الدنيا نساء وبنين ، ففي الآخرة أزواج مطهرة . وفي طهارتها فضل وارتفاع على شهوات الأرض في الحياة !

فأما الخيل المسومة والأنعام . وأما القناطير المقنطرة من الذهب والفضة . فقد كانت في الدنيا وسائل لتحقيق متاع . فأما في نعيم الآخرة فلا حاجة إلى الوسائل لبلوغ الغايات !

ثم . . هنالك ما هو أكبر من كل متاع . . هنالك ﴿ رضوان من الله ﴾ . رضوان يعدل الحياة الدنيا والحياة الأخرى كليهما . . ويرجح . . رضوان . بكل ما في لفظه من نداوة . وبكل ما في ظله من حنان .

﴿ والله بصير بالعباد ﴾ . .

بصير بحقيقة فطرتهم وما ركب فيها من ميول ونوازع . بصير بما يصلح لهذه الفطرة من توجيهات وإيحاءات . بصير بتصريفها في الحياة وما بعد الحياة .

ثم وصف لهؤلاء العباد ، يصور حال المتقين مع ربهم ، الحال التي استحقوا عليها هذا الرضوان :

﴿ الذين يقولون : ربنا إننا آمنا ، فاغفر لنا ذنوبنا ، وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين . والقانتين . والمنفقين . والمستغفرين بالأسحار ﴾ . .

(235/116)

وفي دعائهم ما ينم عن تقواهم . فهو إعلان للإيمان ، وشفاعة به عند الله ، وطلب للغفران ، وتوقٍ من النيران .

وفي كل صفة من صفاتهم تتحقق سمة ذات قيمة في حياة الإنسانية وفي حياة الجماعة المسلمة :

في الصبر ترفع على الألم واستعلاء على الشكوى ، وثبات على تكاليف الدعوة ، وأداء لتكاليف الحق ، وتسليم لله واستسلام لما يريد بهم من الأمر ، وقبول لحكمه ورضاء . .

وفي الصدق اعتزاز بالحق الذي هو قوام الوجود ، وترفع عن الضعف ؛ فما الكذب إلا ضعف عن كلمة الحق ، اتقاء لضرر أو اجتلابا لمنفعة .

وفي القنوت لله أداء لحق الألوهية وواجب العبودية ؛ وتحقيق لكرامة النفس بالقنوت لله

الواحد الذي لا قنوت لسواه .

وفي الإنفاق تحرر من استذلال المال ؛ وانفلات من ربقة الشح ؛ وإعلاء لحقيقة الأخوة الإنسانية على شهوة اللذة الشخصية ؛ وتكافل بين الناس يليق بعالم يسكنه الناس !

والاستغفار بالأسحار بعد هذا كله يلقي ظلالاً رفافة ندية عميقة .

. ولفظة " الأسحار " بذاتها ترسم ظلال هذه الفترة من الليل قبيل الفجر . الفترة التي يصفو فيها الجو ويرق ويسكن ؛ وتترقرق فيها خواطر النفس وخوالجها الحبيسة ! فإذا انضمت إليها صورة الاستغفار ألقت تلك الظلال المنسابة في عالم النفس وفي ضمير الوجود سواء .

وتلاقت روح الإنسان وروح الكون في الاتجاه لبارئ الكون وبارئ الإنسان .

هؤلاء الصابرون ، الصادقون ، القانتون ، المنفقون ، المستغفرون بالأسحار . . لهم ﴿ رضوان من الله ﴾ . . وهم أهل لهذا الرضوان : ظله الندي ومعناه الحاني . وهو خير من كل شهوة وخير من كل متاع . .

(236/116)

وهكذا يبدأ القرآن بالنفس البشرية من موضعها على الأرض . . وشيئاً فشيئاً يرف بها في آفاق وأضواء ، حتى ينتهي بها إلى الملإ الأعلى في يسر وهينة ، وفي رفق ورحمة . وفي

اعتبار لكامل فطرتها وكامل نوازعها . وفي مراعاة لضعفها وعجزها ، وفي استجاشة لطاقاتها وأشواقها ، ودون ما كبت ولا إكراه . ودون ما وقف لجريان الحياة . . فطرة الله . ومنهج الله لهذه الفطرة . . ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ . .

وإلى هنا كان سياق السورة يستهدف تقرير حقيقة التوحيد : توحيد الألوهية والقوامة ، وتوحيد الكتاب والرسالة . . ويصور موقف المؤمنين حقاً والمنحرفين الذين في قلوبهم زيغ ، من آيات الله وكتابه . . ويهدد المنحرفين بمصير كمصير الذين كفروا في الماضي وفي الحاضر . . ثم يكشف عن الدوافع الفطرية التي تلهي عن الاعتبار ؛ ويصور حال المتقين مع ربهم والتجاءهم إلى الله . .

فالآن – وإلى نهاية هذا الدرس – نجدنا أمام حقيقة أخرى . . هي مقتضى الحقيقة الأولى . . فحقيقة التوحيد تستلزم مصداقاً لها في واقع الحياة البشرية ، هو الذي يقرره الشطر الثاني من هذا الدرس .

ومن ثم يبدأ بإعادة تقرير الحقيقة الأولى ليرتب عليها آثارها الملازمة لها . . يبدأ بشهادة الله – سبحانه – ﴿ أنه لا إله إلا هو ﴾ وشهادة الملائكة وأولي العلم بهذه الحقيقة . ويقرر معها صفة الله المتعلقة بالقوامة ، وهي قيامه بالقسط في أمر الناس وفي أمر الكون .

وما دام الله متفرداً بالألوهية وبالقوامة فإن أول مستلزمات الإقرار بهذه الحقيقة ، هو

الإقرار بالعبودية لله وحده وتحكيمه في شأن العبيد كله ؛ واستسلام العبيد لإلههم ، وطاعتهم للقيوم عليهم ، واتباعهم لكتابه ولرسوله - صلى الله عليه وسلم - .

(237/116)

ويضمن هذه الحقيقة قوله تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ . . فهو لا يقبل ديناً سواه من أحد . . الإسلام الذي هو الاستسلام والطاعة والاتباع . . وإذن فليس الدين الذي يقبله الله من الناس هو مجرد تصور في العقل ؛ ولا مجرد تصديق في القلب . إنما هو القيام بحق هذا التصديق وذلك التصور . . هو تحكيم منهج الله في أمر العباد كله ، وطاعتهم لما يحكم به ، واتباعهم لرسوله في منهجه .

وهكذا . . يعجب من أهل الكتاب ويشهر بأمرهم . . إذ يدعون أنهم على دين الله . ثم ﴿ يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ﴾ ! ! ! مما ينقض دعوى التدين من الأساس .

فلا دين يقبله الله إلا الإسلام . ولا إسلام بغير استسلام لله وطاعة لرسوله ، واتباع لمنهجه ، وتحكيم لكتابه في أمور الحياة . .

ويكشف عن علة هذا الإعراض - الذي هو التعبير الواقعي عن عدم الإيمان بدين الله -

فإذا هي عدم الاعتقاد بجدية "القسط" في الجزاء يوم الحساب: ﴿ ذلك بأنهم قالوا: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ﴾.. معتمدين على أنهم أهل كتاب ﴿ وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴾.. وهو غرور خادع. فما هم بأهل كتاب، وما هم بمؤمنين أصلاً. وما هم على دين الله إطلاقاً؛ وهم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون.

وبهذا الجزم القاطع يقرر الله سبحانه في القرآن الكريم معنى الدين وحقيقة التدين.. فلا يقبل من العباد إلا صورة واحدة ناصعة قاطعة.. الدين: الإسلام. والإسلام: التحاكم إلى كتاب الله وطاعته واتباعه.. فمن لم يفعل فليس له دين، وليس مسلماً؛ وإن ادعى الإسلام وادعى أنه على دين الله. فدين الله يحدده ويقرره ويفسره الله، وليس خاضعاً في تعريفه وتحديده لأهواء البشر.. كل يحدده أو يعرّفه كما يشاء!

(238/116)

لا. بل إن الذي يتخذ الكفار أولياء – والكفار كما يقرر السياق هم الذين لا يقبلون التحاكم إلى كتاب الله – ﴿ فليس من الله في شيء ﴾.. ولا علاقة له بالله في شيء ولا صلة بينه وبين الله في شيء.. مجرد من يتولى وينصر أو يستنصر أولئك الكفار الذين

يرفضون أن يتحاكموا إلى كتاب الله . ولو ادعوا أنهم على دين الله !

ويشتد التحذير من هذه الولاية التي تذهب بالدين من أساسه . ويضيف السياق إلى التحذير التبصير . تبصير الجماعة المسلمة بحقيقة القوى التي تعمل في هذا الوجود . فالله وحده هو السيد المتصرف ، مالك الملك ، يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء . . وهذا التصريف لأمر الناس ليس إلا طرفاً من التصريف لأمر الكون كله . فهو كذلك يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي . . وهذا هو القيام بالقسط في أمر الناس وفي أمر الكون ، فلا داعي إذن لولاية غيره من العباد ، مهما يكن لهم من قوة ومن مال وأولاد .

ويشي هذا التحذير المؤكد المكرر بما كان واقعاً في الجماعة المسلمة يومذاك من عدم وضوح الأمر تماماً ؛ ومن تشبث بعضهم بصلاته العائلية والقومية والاقتصادية مع المشركين في مكة ومع اليهود في المدينة ، مما اقتضى هذا التفسير والتحذير . كما أنه يشي بطبيعة ميل النفس البشرية إلى التأثر بالقوى البشرية الظاهرة ، وضرورة تذكيرها بحقيقة الأمر وحقيقة القوى ، إلى جانب إيضاح أصل العقيدة ومقتضياتها في واقع الحياة .

(239/116)

ويختم الدرس بكلمة حاسمة قاطعة: إن الإسلام هو طاعة الله والرسول. وإن الطريق إلى الله هو طريق الاتباع للرسول. وليس مجرد الاعتقاد بالقلب، ولا الشهادة باللسان: ﴿ قل: إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله... ﴾ ﴿ قل: أطيعوا الله والرسول. فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾.. فإما طاعة واتباع يحبه الله، وإما كفر يكرهه الله.. وهذا هو مفرق الطريق الواضح المبين..

فلنأخذ في التفصيل بعد هذا الإجمال..

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو - والملائكة وأولو العلم - قائماً بالقسط. لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾..

هذه هي الحقيقة الأولى التي يقوم عليها التصور الاعتقادي في الإسلام. حقيقة التوحيد: توحيد الألوهية، وتوحيد القوامة.. القوامة بالقسط.. وهي الحقيقة التي بدأت بها السورة: ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾.. وهي تستهدف إقرار حقيقة العقيدة الإسلامية من جهة، وجلاء الشبهات التي يلقيها أهل الكتاب من جهة. جلاءها عن أهل الكتاب أنفسهم، وجلاءها عن المسلمين الذين قد تؤثر هذه الشبهات في عقيدتهم.

وشهادة الله - سبحانه - أنه لا إله إلا هو.. هي حسب كل من يؤمن بالله.. وقد يقال: إنه لا يكتفي بشهادة الله إلا من يؤمن بالله وأن من يؤمن بالله. ليس في حاجة إلى هذه الشهادة.. ولكن واقع الأمر أن أهل الكتاب كانوا يؤمنون بالله ولكنهم في نفس الوقت

يجعلون له ابناً وشريكاً . بل إن المشركين أنفسهم كانوا يؤمنون بالله ، ولكن الضلال كان يجيئهم من ناحية الشركاء والأنداد والأبناء والبنات ! فإذا قرر لهؤلاء وهؤلاء أن الله - سبحانه - شهد أنه لا إله إلا هو ، فهذا مؤثر قوي في تصحيح تصوراتهم .

(240/116)

على أن الأمر - كما يبدو من متابعة السياق كما تابعناه فيما تقدم - أعمق من هذا وأدق . فإن شهادة الله - سبحانه - بأنه لا إله إلا هو ، مسوقة هنا ليساق بعدها ما هو من مستلزماتها ؛ وهو أنه لا يقبل إذن من العباد إلا العبودية الخالصة له ، الممثلة في الإسلام بمعنى الاستسلام - لا اعتقاداً وشعوراً فحسب - ولكن كذلك عملاً وطاعة واتباعاً للمنهج العملي الواقعي المتمثل في أحكام الكتاب . . ومن هذه الناحية نجد كثيرين في كل زمان يقولون : إنهم يؤمنون بالله ، ولكنهم يشركون معه غيره في الألوهية ، حين يتحاكمون إلى شريعة من صنع غيره ، وحين يطيعون من لا يتبع رسوله وكتابه ؛ وحين يتلقون التصورات والقيم والموازين والأخلاق والآداب من غيره . . فهذه كلها تناقض القول بأنهم يؤمنون بالله . ولا تستقيم مع شهادة الله - سبحانه - بأنه لا إله إلا هو .

وأما شهادة الملائكة وشهادة أولي العلم ، فهي متمثلة في طاعتهم لأوامر الله وحدها ،

والتلقي عن الله وحده ، والتسليم بكل ما يجيئهم من عنده بدون تشكك ولا جدال ، متى ثبت لهم أنها من عنده .

وقد سبق في السورة بيان حال أولي العلم هؤلاء في قوله : ﴿ والراسخون في العلم يقولون : آمنا به ، كل من عند ربنا ﴾ . . فهذه شهادة أولي العلم وشهادة الملائكة : تصديق . وطاعة . واتباع . واستسلام .

وشهادة الله سبحانه وشهادة الملائكة وأولي العلم بوحدانية الله يصاحبها شهادتهم بأنه – تعالى – قائم بالقسط . بوصفها حالة ملازمة للألوهية .

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو – والملائكة وأولو العلم – قائماً بالقسط ﴾ . .

فهي حالة ملازمة للألوهية كما تفيد صياغة العبارة . وهذا إيضاح للقوامة التي وردت في مطلع السورة :

﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ . . فهي قوامة بالقسط .

(241/116)

وتدبير الله لهذا الكون ولحياة الناس متلبس دائماً بالقسط – وهو العدل – فلا يتحقق العدل المطلق في حياة الناس ، ولا تستقيم أمورهم استقامة أمور الكون ، التي يؤدي كل كائن

معها دوره في تناسق مطلق مع دور كل كائن آخر . . لا يتحقق هذا إلا بتحكيم منهج الله الذي اختاره لحياة الناس ، وبينه في كتابه . وإلا فلا قسط ولا عدل ، ولا استقامة ولا تناسق ، ولا تلاؤم بين دورة الكون ودورة الإنسان . وهو الظلم إذن والتصادم والتشتت والضياع !

وها نحن أولاء نرى على مدار التاريخ أن الفترات التي حكم فيها كتاب الله وحدها هي التي ذاق فيها الناس طعم القسط ، واستقامت حياتهم استقامة دورة الفلك – بقدر ما تطيق طبيعة البشر المتميزة بالجنوح إلى الطاعة والجنوح إلى المعصية ، والتأرجح بين هذا وذاك ؛ والقرب من الطاعة كلما قام منهج الله ، وحُكم في حياة الناس كتاب الله . وأنه حيثما حكم في حياة الناس منهج آخر من صنع البشر ، لازمه جهل البشر وقصور البشر . كما لازمه الظلم والتناقض في صورة من الصور . ظلم الفرد للجماعة . أو ظلم الجماعة للفرد . أو ظلم طبقة لطبقة . أو ظلم أمة لأمة . أو ظلم جيل لجيل . . وعدل الله وحده هو المبرأ من الميل لأي من هؤلاء . وهو إله جميع العباد . وهو الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ . .

يؤكد حقيقة وحدة الألوهية مرة أخرى في الآية الواحدة ، مصحوبة بصفة العزة وصفة الحكمة . والقدرة والحكمة لازمتان كلتاهما للقوامة بالقسط . فالقسط يقوم على وضع

الأمور في مواضعها مع القدرة على إنفاذها . وصفات الله سبحانه تصور وتوحي بالفاعلية الإيجابية . . فلا سلبية في التصور الإسلامي لله . وهو أكمل تصور وأصدقه لأنه وصف الله لنفسه سبحانه . وقيمة هذه الفاعلية الإيجابية أنها تعلق القلب بالله وإرادته وفعله ، فتصبح العقيدة مؤثراً حياً دافعاً لا مجرد تصور فكري بارد !

(242/116)

ويرتب على هذه الحقيقة التي عاد لتوكيدها مرتين في الآية الواحدة ، نتيجتها الطبيعية . .

ألوهية واحدة . فلا عبودية إلا لهذه الألوهية الواحدة :

﴿ إن الدين عند الله الإسلام .

وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم . بغياً بينهم . ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب . فإن حاجوك فقل : أسلمت وجهي لله ومن اتبعن . وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين : أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا . وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد ﴾ . .

ألوهية واحدة . . وإذن فدينونة واحدة . . واستسلام لهذه الألوهية لا يبقى معه شيء في نفوس العباد ولا في حياتهم خارجا عن سلطان الله .

ألوهية واحدة . . وإذن فجهة واحدة هي صاحبة الحق في تعبيد الناس لها ؛ وفي تطويعهم لأمرها ؛ وفي إنفاذ شريعتها فيهم وحكمها ؛ وفي وضع القيم والموازين لهم وأمرهم باتباعها ؛ وفي إقامة حياتهم كلها وفق التعليمات التي ترضاها . .

ألوهية واحدة . . وإذن فعقيدة واحدة هي التي يرضاها الله من عباده . عقيدة التوحيد الخالص الناصع . . ومقتضيات التوحيد هذه التي أسلفنا :

﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ . .

الإسلام الذي هو ليس مجرد دعوى ، وليس مجرد راية ، وليس مجرد كلمة تقال باللسان ؛ ولا حتى تصوراً يشتمل عليه القلب في سكون ؛ ولا شعائر فردية يؤديها الأفراد في الصلاة والحج والصيام . . لا . فهذا ليس بالإسلام الذي لا يرضى الله من الناس ديناً سواه . إنما الإسلام الاستسلام . الإسلام الطاعة والاتباع . الإسلام تحكيم كتاب الله في أمور العباد . . كما سيجيء في السياق القرآني ذاته بعد قليل .

(243/116)

والإسلام توحيد الألوهية والقوامة . . بينما كان أهل الكتاب يخلطون بين ذات الله - سبحانه - وذات المسيح - عليه السلام - كما يخلطون بين إرادة الله وإرادة المسيح

أيضاً . . ويختلفون فيما بينهم على هذه التصورات اختلافاً عنيفاً يصل في أحيان كثيرة إلى حد القتل والقتال . . هنا يبين الله لأهل الكتاب وللجماعة المسلمة علة هذا الاختلاف :

﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم . بغياً بينهم ﴾ .

إنه ليس اختلافاً عن جهل بحقيقة الأمر . فقد جاءهم العلم القاطع بوحدانية الله ، وتفرد الألوهية . وبطبيعة البشرية ، وحقيقة العبودية . . ولكنهم إنما اختلفوا ﴿ بغياً بينهم ﴾ واعتداء وظلماً ؛ حينما تخلوا عن قسط الله وعدله الذي تتضمنه عقيدته وشريعته وكتبه .

وقد رأينا فيما نقلناه عن المؤلف المسيحي الحديث كيف كانت التيارات السياسية تخلق هذه الاختلافات المذهبية . وليس هذا إلا نموذجاً مما تكرر وقوعه في حياة اليهودية والمسيحية . وقد رأينا كيف كانت كراهية مصر والشام وما إليهما للحكم الروماني سبباً في رفض المذهب الروماني الرسمي والتمذهب بمذهب آخر ! كما كان حرص بعض القياصرة على التوفيق بين أجزاء مملكته سبباً في ابتداع مذهب وسط ، يظن أنه يوفق بين الأغراض جميعاً ! ! كأنما العقيدة لعبة تستخدم في المناورات السياسية والوطنية ! وهذا هو البغي أشنع البغي . عن قصد وعن علم !

ومن ثم يجيء التهديد القاصم في موضعه المناسب :

﴿ ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ﴾ .

.

وقد عد الاختلاف على حقيقة التوحيد كفراً ؛ وهدد الكافرين بسرعة الحساب ؛ كي لا يكون الإمهال - إلى أجل - مدعاة للجاجة في الكفر والإنكار والاختلاف . .

ثم لقن نبيه - صلى الله عليه وسلم - فصل الخطاب في موقفه من أهل الكتاب والمشركين جميعاً . ليحسم الأمر معهم عن بينة ، ويدع أمرهم بعد ذلك لله ، ويمضي في طريقه الواضح متميزاً متفرداً :

(244/116)

﴿ فإن حاجوك فقل : أسلمت وجهي لله ومن اتبعن . وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا . وأن تولوا فإنما عليك البلاغ . والله بصير بالعباد ﴾ . .

إنه لا سبيل إلى مزيد من الإيضاح بعد ما تقدم . فإما اعتراف بوحدة الألوهية والقوامة ، وإذن فلا بد من الإسلام والاتباع . وإما مماحكة ومداورة . وإذن فلا توحيد ولا إسلام .

ومن ثم يلقن الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - كلمة واحدة تبين عقيدته كما تبين منهج حياته :

﴿ فإن حاجوك ﴾ –أي في التوحيد وفي الدين– ﴿ فقل : أسلمت وجهي لله ﴾ أنا ﴿ ومن اتبعن ﴾ . . والتعبير بالاتباع ذو مغزى هنا . فليس هو مجرد التصديق . إنما هو الاتباع . كما أن التعبير بالإسلام الوجه ذو مغزى كذلك . فليس هو مجرد النطق باللسان أو الاعتقاد بالجنان . إنما هو كذلك الاستسلام . استسلام الطاعة والاتباع . . وإسلام الوجه كناية عن هذا الاستسلام . والوجه أعلى وأكرم ما في الإنسان . فهي صورة الانقياد الطائع الخاضع المتبع المستجيب .

هذا اعتقاد محمد –صلى الله عليه وسلم– ومنهج حياته . والمسلمون متبعوه ومقلدوه في اعتقاده ومنهج حياته . . فليسأل إذن أهل الكتاب والأميين سؤال التبين والتمييز ووضع الشارة المميزة للمعسكرين على وضوح لا اختلاط فيه ولا اشتباه :

﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين : أأسلمتم ؟ ﴾ . .

فهم سواء . هؤلاء وهؤلاء . المشركون وأهل الكتاب هم مدعوون إلى الإسلام بمعناه الذي شرحناه . مدعوون للإقرار بتوحيد ذات الله ، ووحدة الألوهية ووحدة القوامة .

مدعوون بعد هذا الإقرار إلى الخضوع لمقتضاه . وهو تحكيم كتاب الله ونهجه في الحياة .

﴿ فإن أسلموا فقد اهتدوا ﴾ . .

فالهدى يتمثل في صورة واحدة . هي صورة الإسلام بحقيقته تلك وطبيعته . وليس هنالك

صورة أخرى، ولا تصور آخر، ولا وضع آخر، ولا منهج آخر يتمثل فيه الاهتداء . . إنما هو الضلال والجاهلية والحيرة والزيغ والالتواء . .

(245/116)

﴿ وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ﴾ . .

فعند البلاغ تنتهي تبعة الرسول وينتهي عمله . وكان هذا قبل أن يأمره الله بقتال من لا يقبلون الإسلام حتى ينتهوا : إما إلى اعتناق الدين والخضوع للنظام الذي يتمثل فيه . وإما إلى التعهد فقط بالطاعة للنظام في صورة أداء الجزية . . حيث لا إكراه على الاعتقاد . .

﴿ والله بصير بالعباد ﴾ . .

يتصرف في أمرهم وفق بصره وعلمه . وأمرهم إليه على كل حال .

ولكنه لا يدعهم حتى يبين لهم مصيرهم الذي ينتظرهم وينتظر أمثالهم وفق سنة الله الماضية أبداً في المكذبين والبغاة :

﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، فبشرهم بعذاب أليم .

أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة . وما لهم من ناصرين ﴾ . .

فهذا هو المصير المحتوم: عذاب أليم لا يحدده بالدنيا أو بالآخرة. فهو متوقع هنا وهناك. وبطلان لأعمالهم في الدنيا والآخرة في تعبير مصور. فالحبوط هو انتفاخ الدابة التي ترعى نبتاً مسموماً، توطئة لهلاكها.. وهكذا أعمال هؤلاء قد تنتفخ وتتضخم في الأعين. ولكنه الانتفاخ المؤدي إلى البطلان والهلاك! حيث لا ينصرهم ناصر ولا يدفع عنهم حام!

وذكر الكفر بآيات الله مصحوباً بقتل النبيين بغير حق - وما يمكن أن يقتل نبي ثم يكون هناك حق - وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس - أي الذين يأمرون باتباع منهج الله القائم بالقسط المحقق وحده للقسط.. ذكر هذه الصفات يوحي بأن التهديد كان موجهاً لليهود، فهذه سمتهم في تاريخهم يعرفون بها متى ذكرت! ولكن هذا لا يمنع أن يكون الكلام موجهاً للنصارى كذلك. فقد كانوا حتى ذلك التاريخ قتلوا الألوف من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهب الدولة الرومانية المسيحية - بما فيهم من جاهروا بتوحيد الله تعالى وبشرية المسيح عليه السلام - وهؤلاء ممن يأمرون بالقسط.. كما أنه تهديد دائم لكل من يقع منه مثل هذا الصنيع البشع.. وكثيراً ما هم في كل زمان..

ويحسن أن نتذكر دائماً ماذا يعني القرآن بوصف ﴿ الذين يكفرون بآيات الله ﴾ . . فليس المقصود فقط من يعلن كلمة الكفر . إنما يدخل في مدلول هذا الوصف من لا يقر بوحدة الألوهية ، وقصر العبودية عليها . وهذا يتضمن بصراحة وحدة الجهة التي تصرّف حياة العباد بالتشريع والتوجيه والقيم والموازين . . فمن جعل لغير الله شيئاً من هذا ابتداء فهو مشرك به أو كافر بألوهيته . ولو قالها ألف مرة باللسان ! وسنرى في الآيات التالية في السياق مصداق هذا الكلام . .

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ؟ ذلك بأنهم قالوا : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ، وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون . فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ، ووفيت كل نفس ما كسبت ؟ وهم لا يظلمون ﴾ . .

إنه سؤال التعجيب والتشهير من هذا الموقف المتناقض الغريب . موقف الذين أوتوا نصيباً من الكتاب . وهو التوراة لليهود ومعها الإنجيل للنصارى . وكل منهما " نصيب " من الكتاب باعتبار أن كتاب الله هو كل ما أنزل على رسله ، وقرر فيه وحدة ألوهيته ووحدة قوامته . فهو كتاب واحد في حقيقته ، أوتي اليهود نصيباً منه ، وأوتي النصارى نصيباً منه ، وأوتي المسلمون الكتاب كله باعتبار القرآن جامعاً لأصول الدين كله ، ومصدقاً لما بين يديه من الكتاب .

. سؤال التعجيب من هؤلاء ﴿ الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ﴾ . . ثم هم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم في خلافاتهم ، وليحكم بينهم في شؤون حياتهم ومعاشهم ، فلا يستجيبون جميعاً لهذه الدعوة ، إنما يتخلف فريق منهم ويعرض عن تحكيم كتاب الله وشريعته . الأمر الذي يتناقض مع الإيمان بأي نصيب من كتاب الله ؛ والذي لا يستقيم مع دعوى أنهم أهل كتاب :

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ؟ ﴾ . .

(247/116)

هكذا يعجب الله من أهل الكتاب حين يعرض بعضهم - لا كلهم - عن الاحتكام إلى كتاب الله في أمور الاعتقاد وأمور الحياة . فكيف بمن يقولون : إنهم مسلمون ، ثم يخرجون شريعة الله من حياتهم كلها . ثم يظلون يزعمون أنهم مسلمون ! إنه مثل يضربه الله للمسلمين أيضاً كي يعلموا حقيقة الدين وطبيعة الإسلام ؛ ويحذروا أن يكونوا موضعاً لتعجيب الله وتشهيره بهم . فإذا كان هذا هو استنكار موقف أهل الكتاب الذين لم يدعوا الإسلام ، حين يعرض فريق منهم عن التحاكم إلى كتاب الله ، فكيف يكون الاستنكار إذا كان "

المسلمون " هم الذين يعرضون هذا الإعراض . . إنه العجب الذي لا ينقضي ، والبلاء الذي لا يقدر ، والغضب الذي ينتهي إلى الشقوة والطرد من رحمة الله ! والعياذ بالله !

ثم يكشف عن علة هذا الموقف المستنكر المتناقض :

﴿ ذلك بأنهم قالوا : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ، وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴾ . .

هذا هو السبب في الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله ؛ والتناقض مع دعوى الإيمان ودعوى أنهم أهل كتاب . . إنه عدم الاعتقاد بجدية الحساب يوم القيامة ، وجدية القسط الإلهي الذي لا يحابي ولا يميل . يتجلى هذا في قولهم :

﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ﴾ . .

وإلا فلماذا لا تمسهم النار إلا أياماً معدودات ؟ لماذا وهم ينحرفون أصلاً عن حقيقة الدين وهي الاحتكام في كل شيء إلى كتاب الله ؟ لماذا إذا كانوا يعتقدون حقاً بعدل الله ؟ بل إذا كانوا يحسون أصلاً بجدية لقاء الله ؟ إنهم لا يقولون إلا افتراء ، ثم يغرهم هذا الافتراء :

﴿ وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴾ . .

وحقاً إنه لا يجتمع في قلب واحد جدية الاعتقاد بلقاء الله ، والشعور بحقيقة هذا اللقاء ، مع هذا التميع في تصور جزائه وعدله . .

وحقاً إنه لا يجتمع في قلب واحد الخوف من الآخرة والحياء من الله ، مع الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله ، وتحكيمه في كل شأن من شؤون الحياة . .

(248/116)

ومثل أهل الكتاب هؤلاء مثل من يزعمون اليوم أنهم مسلمون . ثم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيتولون ويعرضون . وفيهم من يتبجحون ويتوقحون ، ويزعمون أن حياة الناس دنيا لا دين ! وأن لا ضرورة لإقحام الدين في حياة الناس العملية وارتباطاتهم الاقتصادية والاجتماعية ، بل العائلية ، ثم يظلون بعد ذلك يزعمون أنهم مسلمون ! ثم يعتقد بعضهم في غرارة بلهاء أن الله لن يعذبهم إلا تطهيراً من المعاصي ، ثم يساقون إلى الجنة ! أليسوا مسلمين ؟ إنه نفس الظن الذي كان يظنه أهل الكتاب هؤلاء ، ونفس الغرور بما افتروه ولا أصل له في الدين .

. وهؤلاء وأولئك سواء في تنصلهم من أصل الدين ، وتملصهم من حقيقته التي يرضاها الله : الإسلام : الاستسلام والطاعة والاتباع . والتلقي من الله وحده في كل شأن من شؤون الحياة :

﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ، ووفيت كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون

﴾ ؟

كيف ؟ إنه التهديد الرعيب الذي يشفق القلب المؤمن أن يتعرض له وهو يستشعر جدية هذا اليوم وجدية لقاء الله ، وجدية عدل الله ؛ ولا يتميع تصوره وشعوره مع الأماني الباطلة والمفتريات الخادعة . . وهو بعد تهديد قائم للجميع . . مشركين وملحدين ، وأهل كتاب ومدعي إسلام ، فهم سواء في أنهم لا يحققون في حياتهم الإسلام !

﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ﴾ . . وجرى العدل الإلهي مجراه ؟ ﴿ ووفيت كل نفس ما كسبت ﴾ . . بلا ظلم ولا محاباة ؟ ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ . . كما أنهم لا يحابون في حساب الله ؟

سؤال يلقى ويترك بلا جواب . . وقد اهتز القلب وارتجف وهو يستحضر الجواب !

بعدئذ يلقن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكل مؤمن ، أن يتجه إلى الله ، مقرراً حقيقة الألوهية الواحدة ، وحقيقة القوامة الواحدة ، في حياة البشر ، وفي تدبير الكون . فهذه وتلك كلتاهما مظهر للألوهية وللحاكمية التي لا شريك لله فيها ولا شبيه :

(249/116)

﴿ قل : اللهم مالك الملك : تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء . وتعز من تشاء وتذل من تشاء . بيدك الخير . إنك على كل شيء قدير . تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل . وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي . وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ . .

نداء خاشع . . في تركيبه اللفظي إيقاع الدعاء . وفي ظلاله المعنوية روح الابتهال . وفي التفاتاته إلى كتاب الكون المفتوح استجاشة للمشاعر في رفق وإيناس . وفي جمعه بين تدبير الله وتصريفه لأمور الناس ولأمور الكون إشارة إلى الحقيقة الكبيرة : حقيقة الألوهية الواحدة القوامة على الكون والناس ؛ وحقيقة أن شأن الإنسان ليس إلا طرفاً من شأن الكون الكبير الذي يصرفه الله ؛ وأن الدينونة لله وحده هي شأن الكون كله كما هي شأن الناس ؛ وأن الانحراف عن هذه القاعدة شذوذ وسفه وانحراف !

﴿ قل : اللهم مالك الملك . تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء . وتعز من تشاء وتذل من تشاء ﴾ . .

إنها الحقيقة الناشئة من حقيقة الألوهية الواحدة . . إله واحد فهو المالك الواحد . . هو ﴿ مالك الملك ﴾ بلا شريك . . ثم هو من جانبه يملك من يشاء ما يشاء من ملكه . يملكه إياه تمليك العارية يستردها صاحبها ممن يشاء عندما يشاء . فليس لأحد ملكية أصيلة يتصرف فيها على هواه . إنما هي ملكية معارة له خاضعة لشروط المملك الأصلي

وتعليماته ؛ فإذا تصرف المستعير فيها تصرفاً مخالفاً لشرط المالك وقع هذا التصرف باطلاً. وتحتم على المؤمنين رده في الدنيا . أما في الآخرة فهو محاسب على باطله ومخالفته لشرط المملك صاحب الملك الأصيل . .

وكذلك هو يعز من يشاء ويذل من يشاء بلا معقب على حكمه ، وبلا مجير عليه ، وبلا راد لقضائه ، فهو صاحب الأمر كله بما أنه - سبحانه - هو الله . . وما يجوز أن يتولى هذا الاختصاص أحد من دون الله .

(250/116)

وفي قوامة الله هذه الخير كل الخير . فهو يتولاها سبحانه بالقسط والعدل . يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء بالقسط والعدل . ويعز من يشاء ويذل من يشاء بالقسط والعدل . فهو الخير الحقيقي في جميع الحالات ؛ وهي المشيئة المطلقة والقدرة المطلقة على تحقيق هذا الخير في كل حال : ﴿ بيدك الخير ﴾ . . ﴿ إنك على كل شيء قدير ﴾ . .

وهذه القوامة على شؤون البشر ، وهذا التدبير لأمرهم بالخير ، ليس إلا طرفاً من القوامة الكبرى على شؤون الكون والحياة على الإطلاق :

﴿ تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ؛ وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ؛

وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ . .

والتعبير التصويري لهذه الحقيقة الكبيرة ، يملأ بها القلب والمشاعر والبصر والحواس : هذه الحركة الخفية المتداخلة . حركة إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل ؛ وإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي . . الحركة التي تدل على يد الله بلا شبهة ولا جدال ، متى ألقى القلب إليها انتباهه ، واستمع فيها إلى صوت الفطرة الصادق العميق .

وسواء كان معنى إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل هو أخذ هذا من ذاك وأخذ ذاك من هذا عند دورة الفصول . . أو كان هو دخول هذا في هذا عند دبيب الظلمة ودبيب الضياء في الأمساء والأصباح . . سواء كان هذا أو ذاك فإن القلب يكاد يبصر يد الله وهي تحرك الأفلاك ، وتلف هذه الكرة المعتمة أمام تلك الكرة المضيئة ، وتقلب مواضع الظلمة ومواضع الضياء . . شيئاً فشيئاً يتسرب غبش الليل إلى وضاءة النهار . وشيئاً فشيئاً يتنفس الصبح في غيابة الظلام . . شيئاً فشيئاً يطول الليل وهو يأكل من النهار في مقدم الشتاء . وشيئاً فشيئاً يطول النهار وهو يسحب من الليل في مقدم الصيف . . وهذه أو تلك حركة لا يدعي الإنسان أنه هو الذي يمسك بخيوطها الخفية الدقيقة ؛ ولا يدعي كذلك عاقل أنها تمضي هكذا مصادفة بلا تدبير !

كذلك الحياة والموت، يدب أحدهما في الآخر في بطء وتدرج. كل لحظة تمر على الحي يدب فيه الموت إلى جانب الحياة، ويأكل منه الموت وتبنى فيه الحياة! خلايا حية منه تموت وتذهب، وخلايا جديدة فيه تنشأ وتعمل.

وما ذهب منه ميتاً يعود في دورة أخرى إلى الحياة. وما نشأ فيه حياً يعود في دورة أخرى إلى الموت.. هذا في كيان الحي الواحد.. ثم تتسع الدائرة فيموت الحي كله، ولكن خلاياه تتحول إلى ذرات تدخل في تركيب آخر ثم تدخل في جسم حي فتدب فيها الحياة.. وهكذا دورة دائبة في كل لحظة من لحظات الليل والنهار.. ولا يدعي الإنسان أنه هو الذي يصنع من هذا كله شيئاً. ولا يزعم عاقل كذلك أنها تتم هكذا مصادفة بلا تدبير!

حركة في كيان الكون كله وفي كيان كل حي كذلك. حركة خفية عميقة لطيفة هائلة. تبرزها هذه الإشارة القرآنية القصيرة للقلب البشري والعقل البشري؛ وهي تشي بيد القادر المبدع اللطيف المدبر.. فأنى يحاول البشر أن ينعزلوا بتدبير شأنهم عن اللطيف المدّبر؟ وأنى يختارون لأنفسهم أنظمة من صنع أهوائهم وهم قطاع من هذا الكون الذي ينظمه الحكيم الخبير؟

ثم أنى يتخذ بعضهم بعضاً عبيداً، ويتخذ بعضهم بعضاً أرباباً، ورزق الجميع بيد الله وكلهم عليه عيال: ﴿ وترزق من تشاء بغير حساب ﴾..

إنها اللمسة التي ترد القلب البشري إلى الحقيقة الكبرى . حقيقة الألوهية الواحدة . حقيقة القوامة الواحدة . وحقيقة الفاعلية الواحدة وحقيقة التدبير الواحد . وحقيقة المالكية الواحدة وحقيقة العطاء الواحد . ثم حقيقة أن الدينونة لا تكون إلا لله القيوم ، مالك الملك ، المعز المذل ، المحيي المميت ، المانح المانع ، المدبر لأمر الكون والناس بالقسط والخير على كل حال .

(252/116)

هذه اللمسة تؤكد الاستنكار الذي سبق في الفقرة الماضية لموقف الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ، ثم هم يتولون ويعرضون عن التحاكم إلى كتاب الله ، المتضمن لمنهج الله للبشر ، بينما منهج الله يدبر أمر الكون كله وأمر البشر . . وفي الوقت ذاته تمهد للتحذير الوارد في الفقرة التالية من تولي المؤمنين الكافرين من دون المؤمنين . ما دام أن لا حول للكافرين في هذا الكون ولا طول . والأمر كله بيد الله . وهو ولي المؤمنين دون سواه :

﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء - إلا أن تتقوا منهم تقاة - ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير . قل : إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ، ويعلم ما في السماوات وما في الأرض ، والله على كل شيء

قدير . يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً . ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ﴾ . .

لقد استجاش السياق القرآني في الفقرة الماضية الشعور بأن الأمر كله لله ، والقوة كلها لله ، والتدبير كله لله ، والرزق كله بيد الله . . فما ولاء المؤمن إذن لأعداء الله ؟ إنه لا يجتمع في قلب واحد حقيقة الإيمان بالله وموالاة أعدائه الذين يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيتولون ويعرضون .

. ومن ثم جاء هذا التحذير الشديد ، وهذا التقرير الحاسم بخروج المسلم من إسلامه إذا هو والى من لا يرتضي أن يحكم كتاب الله في الحياة ، سواء كانت الموالاة بمودة القلب ، أو بنصره ، أو باستنصاره سواء :

﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ﴾ . .

هكذا . . ليس من الله في شيء . لا في صلة ولا نسبة ، ولا دين ولا عقيدة ، ولا رابطة ولا ولاية . . فهو بعيد عن الله ، منقطع الصلة تماماً في كل شيء تكون فيه الصلات .

(253/116)

ويرخص فقط بالتقية لمن خاف في بعض البلدان والأوقات . . ولكنها تقية اللسان لا ولاء القلب ولا ولاء العمل . قال ابن عباس – رضي الله عنهما – "ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان" . . فليس من التقية المرخص فيها أن تقوم المودة بين المؤمن وبين الكافر – والكافر هو الذي لا يرضى بتحكيم كتاب الله في الحياة على الإطلاق ، كما يدل السياق هنا ضمناً وفي موضع آخر من السورة تصريحاً – كما أنه ليس من التقية المرخص بها أن يعاون المؤمن الكافر بالعمل في صورة من الصور باسم التقية . فما يجوز هذا الخداع على الله !

ولما كان الأمر في هذه الحالة متروكاً للضمائر ولتقوى القلوب وخشيتها من علام الغيوب ، فقد تضمن التهديد تحذير المؤمنين من نقمة الله وغضبه في صورة عجيبة من التعبير حقاً :

﴿ ويحذركم الله نفسه . وإلى الله المصير ﴾ . .

ثم يتابع السياق التحذير ولمس القلوب ، وإشعارها أن عين الله عليها ، وأن علم الله يتابعها :

﴿ قل : إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ، ويعلم ما في السماوات وما في الأرض والله على كل شيء قدير ﴾ . .

وهو إمعان في التحذير والتهديد ، واستجاشة الخشية واتقاء التعرض للنقمة التي يساندها العلم والقدرة ، فلا ملجأ منها ولا نصرة !

ثم يتابع السياق التحذير ولمس القلوب خطوة أخرى كذلك باستحضار اليوم المرهوب ،

الذي لا يند فيه عمل ولا نية ؛ والذي تواجه فيه كل نفس برصيدها كله :

﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾ . .

وهي مواجهة تأخذ المسالك على القلب البشري ، وتحاصره برصيده من الخير والسوء .

وتصور له نفسه وهو يواجه هذا الرصيد ، ويود - ولكن لات حين مودة ! - لو أن بينه وبين السوء الذي عمله أمداً بعيداً . أو أن بينه وبين هذا اليوم كله أمداً بعيداً . بينما هو في مواجهته ، آخذ بخناقه ، ولات حين خلاص ، ولات حين فرار !

(254/116)

ثم يتابع السياق الحملة على القلب البشري ، فيكرر تحذير الله للناس من نفسه - سبحانه -:

﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ .

.

ويذكرهم رحمته في هذا التحذير والفرصة متاحة قبل فوات الأوان :

﴿ والله رؤوف بالعباد ﴾ . .

ومن رأفته هذا التحذير وهذا التذكير. وهو دليل على إرادته الخير والرحمة بالعباد . .

وتشي هذه الحملة الضخمة المنوعة الإيماءات والإيحاءات والأساليب والإشارات، بما كان واقعاً في حياة الجماعة المسلمة من خطورة تميع العلاقات بين أفراد من المعسكر المسلم وأقربائهم وأصدقائهم وعملائهم في مكة مع المشركين وفي المدينة مع اليهود. تحت دوافع القرابة أو التجارة. . على حين يريد الإسلام أن يقيم أساس المجتمع المسلم الجديد على قاعدة العقيدة وحدها، وعلى قاعدة المنهج المنبثق من هذه العقيدة. . الأمر الذي لا يسمح الإسلام فيه بالتميع والأرجحة إطلاقاً . .

كذلك يشي بحاجة القلب البشري في كل حين إلى الجهد الناصب للتخلص من هذه الأوهاق، والتحرر من تلك القيود، والفرار إلى الله والارتباط بمنهجه دون سواه.

والإسلام لا يمنع أن يعامل المسلم بالحسنى من لا يحاربه في دينه، ولو كان على غير دينه. . ولكن الولاء شيء آخر غير المعاملة بالحسنى. الولاء ارتباط وتناصر وتواد. وهذا لا يكون - في قلب يؤمن بالله حقاً - إلا للمؤمنين الذين يرتبطون معه في الله؛ ويخضعون معه لمنهجه في الحياة؛ ويتحاكمون إلى كتابه في طاعة واتباع واستسلام.

وأخيراً يجيء ختام هذا الدرس قوياً حازما، حاسماً في القضية التي يعالجها، والتي تمثل أكبر الخطوط العريضة الأساسية في السورة. يجيء ليقرر في كلمات قصيرة حقيقة الإيمان، وحقيقة الدين. ويفرق تفريق حاسماً بين الإيمان والكفر في جلاء لا يحتمل الشبهات:

﴿ قل : إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل : أطيعوا الله والرسول : فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ . .

(255/116)

إن حب الله ليس دعوى باللسان ، ولا هياماً بالوجدان ، إلا أن يصاحبه الأتباع لرسول الله ، والسير على هداه ، وتحقيق منهجه في الحياة . . وإن الإيمان ليس كلمات تقال ، ولا مشاعر تجيش ، ولا شعائر تقام . ولكنه طاعة لله والرسول ، وعمل بمنهج الله الذي يحمله الرسول . .

يقول الإمام ابن كثير في التفسير عن الآية الأولى : " هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية . فإنه كاذب في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأعماله ، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " .

ويقول عن الآية الثانية : ﴿ قل أطيعوا الله والرسول . فإن تولوا ﴾ . . أي تخالفوا عن أمره - ﴿ فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ . . فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر ، والله لا يحب من اتصف بذلك ، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله .

.

ويقول الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية في كتابه : " زاد المعاد في هدى خير العباد " :

" ومن تأمل في السير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له – صلى الله عليه وسلم – بالرسالة وأنه صادق ، فلم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام . . علم أن الإسلام أمر وراء ذلك ، وأنه ليس مجرد المعرفة فقط . ولا المعرفة والإقرار فقط . بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهراً وباطناً . . "

(256/116)

إن هذا الدين له حقيقة مميزة لا يوجد إلا بوجودها . . حقيقة الطاعة لشريعة الله ، والاتباع لرسول الله ، والتحاكم إلى كتاب الله . . وهي الحقيقة المنبثقة من عقيدة التوحيد كما جاء بها الإسلام . توحيد الألوهية التي لها وحدها الحق في أن تعبد الناس لها ، وتطوّعهم لأمرها ، وتنفذ فيهم شرعها ، وتضع لهم القيم والموازين التي يتحاكمون إليها ويرتضون حكمها . ومن ثم توحيد القوامة التي تجعل الحاكمية لله وحده في حياة البشر وارتباطاتها جميعاً ، كما أن الحاكمية لله وحده في تدبير أمر الكون كله . وما الإنسان إلا قطاع من هذا

الكون الكبير .

وهذا الدرس الأول من السورة يقرر هذه الحقيقة – كما رأينا – في صورة ناصعة كاملة شاملة ، لا مهرب من مواجهتها والتسليم بها لمن شاء أن يكون مسلماً . إن الدين عند الله الإسلام . . وهذا – وحده – هو الإسلام كما شرعه الله ، لا كما تصوره المفتريات والأوهام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الظلال حـ 1 صـ 348. 388﴾

(257/116)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

ويُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع عشر بعد المائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/117)

الجزء السابع عشر بعد المائة

من الآية ﴿ 33 ﴾ من سورة آل عمران

وحتى الآية ﴿ 41 ﴾ من نفس السورة

(4/117)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (34) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان أصل الإبداء نوراً علياً نزله الحق سبحانه وتعالى في رتب التطوير والتصيير والجعل إلى أن بدأ عالماً دنياوياً محتوياً على الأركان الأربعة والمواليد الثلاثة ، وخفيت نورانيته في موجود أصنافه صفي الله سبحانه وتعالى من وجود كلية ذلك هذا الخلق الآدمي فكان صفي الله ، فأنبأ الخطاب عن تصييره إلى الصفاء بالافتعال ؛ انتهى - فقال سبحانه وتعالى : ﴿ إن الله ﴾ أي بجلاله وعظمته وكماله في إحاطته وقدرته ﴿ اصطفى ﴾ أي للعلم والرسالة عنه سبحانه وتعالى إلى خلقه والخلافة له في ملكه ﴿ آدم ﴾ أباكم الأول الذي لا تشكون في أنه خلقه من تراب ، وهو تنبيه لمن غلط في أمر عيسى عليه الصلاة والسلام على أن أعظم ما استغربوا من عيسى كونه من غير ذكر ، وآدم أغرب حالاً منه بأنه ليس من ذكر ولا أنثى ولا من جنس الأحياء - كما سيأتي ذلك صريحاً بعد هذا التلويح لذي الفهم الصحيح .

قال الحرالي : فاصطفاه من كلية مخلوقه الذي أبداه ملكاً وملكوتاً خلقاً وأمراً ، وأجرى اسمه من أظهر ظاهره الأرضي وأدنى أدناه ، فسماه آدم من أديم الأرض ، على صيغة أفعل ، التي هي نهاية كمال الآدمية والأديمية .

فكان مما أظهر تعالى في اصطفاء آدم ما ذكر جوامعه علي رضي الله عنه في قوله : لما خلق الله سبحانه وتعالى أبان فضله للملائكة وأراهم ما اختصه به من سابق العلم من حيث علمه عند استنبائه إياه أسماء الأشياء فجعل الله سبحانه وتعالى آدم محراباً وكعبة وباباً وقبلة ، أسجد له الأبرار والروحانيين الأنوار ، ثم نبه آدم على مستودعه وكشف له خطر ما ائتمنه عليه بعد أن سماه عند الملائكة إماماً ، فكان تنبيهه على خطر أمانته ثمرة اصطفائه - انتهى ﴿ ونوحاً ﴾ أباكم الثاني الذي أخرجه من بين أبوين شابين على عادتكم المستمرة فيكم .

وقال الحرالي : أنبأ تعالى أنه عطف لنوح عليه الصلاة والسلام اصطفاء على اصطفاء آدم ترقياً إلى كمال الوجود الآدمي وتعالياً إلى الوجود الروحي العيسوي ، فاصطفى نوحاً عليه الصلاة والسلام بما جعله أول رسول بتوحيده من حيث دحض الشرك وأقام كلمة الإيمان بقول "لا إله إلا الله" ، لما تقدم بين آدم ونوح من عبادة الأصنام والأوثان ، فكان هذا الاصطفاء اصطفاء باطناً لذلك الاصطفاء الظاهر فتأكد الاصطفاء وجرى من أهلكته طامة الطوفان مع نوح عليه الصلاة والسلام من الذر الآدمي مجرى تخليص الصفاوات من خثارتها ، وكما صفي آدم من الكون كله صفي نوحاً عليه السلام وولده الناجين معه من مطرح الخلق الآدمي الكافرين الذين لا يلدون إلا فاجراً كفاراً ، فلم يكن فيهم ولا في مستودع ذراريهم صفاوة تصلح لمزية الإخلاص الذي اختص بصفوته نوح عليه الصلاة والسلام

﴿ وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ﴾ [الأحزاب : 7] فكان ميثاق نوح عليه السلام ما قام به من كلمة التوحيد ورفض الأصنام والطاغوت التي اتخذها الظلمانيون من ذر آدم ، فتصفى بكلمة التوحيد النورانيون منه ، فكان نوح عليه الصلاة والسلام ومن نجا معه صفوة زمانه ، كما كان آدم صفوة حينه – انتهى .

(6/117)

ولما كان أكثر الأنبياء من نسل إبراهيم عليه الصلاة والسلام زاد في تعظيمه بقوله : ﴿ وآل إبراهيم ﴾ أي الذين أود فيهم الخوارق ولا سيما في إخراج الولد من بين شيخين كبيرين لا يولد لمثلهما ، وفي ذلك إشارة إلى أن عيسى عليه الصلاة والسلام مثلهم لأنه أحدهم ، وكذا قوله : ﴿ وآل عمران ﴾ في قوله : ﴿ على العالمين ﴾ إشارة إلى أنه كسائر أقاربه منهم ، وأفصح بذلك إفصاحاً جلياً في قوله : ﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾ أي فهم كلهم من بني آدم ، لا مزية لبعضهم على بعض في ذلك ، لا مزية في شيء من ذلك ، وأنتم لا تشكون فيه من شيء من الخصائص مما دون أمد عيسى عليه الصلاة والسلام ، فما لكم لما خص سبحانه وتعالى آل عمران من بين العالمين بخرق العادة فيهم بإخراج ولد من أنثى فقط من غير ذكر لم تردوا ما لم تعرفوا منه إلى ما تعرفون من الخوارق حتى انجلى لكم واتضح لديكم ؟ بل

أشكل لعيكم وقامت فيكم قيامتكم بما يفضي إلى الشك في قدرة الإله الذي لا تشكون أن من شك في تمام قدرته كفر .

وقال الحرالي : فإثبات هذه الجملة بتشابه وتماثل تعالى عن نحوه الإلهية ، فأبان هذا الخطاب في عيسى عليه الصلاة والسلام اصطفاء من جملة هذا الاصطفاء ، فكما لم يقع فيمن سواه لبس من أمر ألإلهية فكذلك ينبغي أن لا يقع فيه هو أيضاً لبس لمن يتلقن بيان الإحكام والتشابه من الذي أنزل الكتاب محكماً ومتشابهاً وأظهر الخلق بادياً وملتبساً انتهى .

وقد عاد سبحانه وتعالى بهذا الخطاب على أحسن وجه إلى قصة عيسى عليه الصلاة والسلام الذي نزلت هذه الآيات كلها في المجادلة في أمره والإخبار عن حمله وولادته وغير ذلك من صفاته التي يتنزه الإله عنها ، وكراماته التي لا تكون إلا للقرب ، فأخبر أولاً عن حال أمه وأمها وأختها وما اتفق لهن من الخوارق التي تمسك بوقوع مثلها من عيسى عليه السلام من كفر برفعه فوق طوره ، ثم شرع في قص أمره حتى لم يدع فيه لبساً بوجه .

وقال الحرالي : في التعبير عن اصطفاء إبراهيم ومن بعده عليهم الصلاة والسلام في إشعار الخطاب اختصاص إبراهيم عليه الصلاة والسلام بما هو أخص من هذا الاصطفاء من حيث انتظم في سلكه آله لاختصاصه هو بالخلة التي لم يشركه فيها أهل هذا الاصطفاء ، فاختص نمط هذا الاصطفاء بآله ، وهم - والله سبحانه وتعالى أعلم - إسحاق ويعقوب والعيص عليهم الصلاة والسلام ومن هو منهم من ذريتهم لأن إسماعيل عليه السلام اختص بالوصلة بين إبراهيم الخليل ومحمد الحبيب صلوات الله وسلامه عليهم ، فكان مترقى ما هو لهم من وراء هذا الاصطفاء ، ولأن إنزال هذا الخطاب لخلق عيسى عليه الصلاة والسلام ، وهو من ولد داود عليه الصلاة والسلام فيما يذكر ، وداود من سبط لاوي بن إسرائيل عليهم الصلاة والسلام فيما ينسب ، فلذلك - والله سبحانه وتعالى أعلم - جرى هذا الاصطفاء على آله ، فظهر من مزية هذا الاصطفاء لآله ما كان من اصطفاء موسى عليه السلام بالتكليم وإنزال الكتاب السابق ﴿ يا موسى إني اصطفيتك على الناس ﴾ [الأعراف : 144] فكان هذا الاصطفاء استخلاص صفاوة من صفاوة نوح عليه الصلاة والسلام المستخلصين من صفاوة آدم عليه الصلاة والسلام ، وآل عمران - والله سبحانه وتعالى أعلم - مريم وعيسى عليهما الصلاة والسلام ليقع الاصطفاء في نمط يتصل من آدم إلى عيسى عليهما الصلاة والسلام ليحوزوا طرفي الكون روحاً وسلالة ، والعالمون علم الله الذي له الملك ، فكما أن الملك لا بد له من علم يعلم به بدوه وظهوره جعل الله ما أبداه من

خلقه علماً على ظهور ملكه بين يدي ظهور خلقه في غاية يوم الدين عاماً ، وفي يوم الدنيا لمن شاء من أهل اليقين والعيان خاصاً ، وأعلى معناه بما ظهر في لفظه من الألف الزائدة على لفظ العلم ، فاصطفى سبحانه وتعالى آدم عليه الصلاة والسلام على الموجودين في وقته ، وكذلك نوحاً وآل إبراهيم وآل عمران كلاًّ على عالم زمانه ، ومن هو بعد في غيب لم تبد صورته في

العالم العياني لم يلحقه بعد عند أهل النظر اسم العالم وأشار سبحانه وتعالى بذكر الذرية من معنى الذرء الذي هو مخصوص بالخلق ليظهر انتظام عيسى عليه الصلاة والسلام في سلك الجميع ذرءاً ، وأنه لا يكون مع الذرء لبس الإلهية ، لأن الله سبحانه وتعالى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فكان نصب لفظ الذرية تكييفاً لهذا الاصطفاء المستخلص على وجه الذر ، وهو الذي يسميه النحاة حالاً - انتهى .

ولما ذكر سبحانه وتعالى هؤلاء الذين اصطفاهم ، وكان مدار أمر الاصطفاء على العلم ، ومدار ما يقال لهم وفيهم مما يكون كفراً أو إيماناً على السمع ختم سبحانه وتعالى الآية بقوله عاطفاً على ما تقديره : فالله سبحانه وتعالى يفعل بإحاطته ما يريد : ﴿ والله ﴾ أي

المحيط قدرة وعلماً ﴿ سميع عليم ﴾ إشارة إلى أنه اصطفاهم على تمام العلم بهم ترغيباً في أحوالهم والاقتداء بأفعالهم وأقوالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 66. 69 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إبراهيم وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [33] ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [34] .

انتقال من تمهيدات سبب السورة إلى واسطة التمهيد والمقصد ، كطريقة التخلص ، فهذا تخلص لمحاجة وفد نجران وقد ذكرناه في أول السورة ، فابتدئ هنا بذكر آدم ونوح وهما أبو البشر أو أحدهما وذكر إبراهيم وهو أبو المقصودين بالتفضيل وبالخطاب . فأما آدم فهو أبو البشر باتفاق الأمم كلها إلا شذوذا من أصحاب النزعات الإلحادية الذين ظهروا في أوروبا واخترعوا نظيرة تسلسل أنواع الحيوان بعضها من بعض وهي نظيرة فائلة .

وآدم اسم أبس البشر عند جميع أهل الأديان ، وهو علم عليه وضعه لنفسه بإلهام من الله تعالى كما وضع مبدأ اللغة . ولا شك أن من أول ما يحتاج إليه هو وزوجه أن يعبر أحدهما

للآخر ، وظاهر القرآن أن الله أسماه بهذا الاسم من قبل خروجه من جنة عدن ولا يجوز أن يكون اسمه مشتقا من الأدمة ، وهي اللون المخصوص لأن تسمية ذلك اللون بالأدمة خاص بكلام العرب فلعل العرب وضعوا اسم ذلك اللون أخذا من وصف لون آدم أبي البشر .

وقد جاء في سفر التكوين من كتاب العهد عند اليهود ما يقتضي : أن آدم وجد على الأرض في وقت يوافق سنة 3942 اثنين وأربعين وتسعمائة وثلاثة آلاف قبل ميلاد عيسى وأنه عاش تسعمائة وثلاثين سنة فتكون وفاته في سنة 3012 اثنتي عشرة وثلاثة آلاف قبل ميلاد عيسى هذا ما تقبله المؤرخون المتبعون لضبط السنين . والمظنون عند المحققين الناظرين في شواهد حضارة البشرية أن هذا الضبط لا يعتمد ، وأن وجود آدم متقادم في أزمنة مترامية البعد هي أكثر بكثير مما حدده سفر التكوين .

وأما نوح فتقول التوراة : إنه ابن لامك وسمي عند العرب لمك بن متوشالخ بن أخنوخ وهو إدريس عند العرب ابن يارد بتحتية في أوله بن مهلئيل بميم مفتوحة فهاء ساكنة فلام مفتوحة بن قينان بن أنوش بن شيت بن آدم . وعلى تقديرها وتقدير سني أعمارهم يكون قد ولد سنة ست وثمانين وثمانمائة وألفين قبل ميلاد عيسى وتوفي سنة ست وثلاثين وتسعمائة وألف قبل ميلاد عيسى والقول فيه كما تقدم في ضبط تاريخ وجود آدم .

وفي زمن نوح وقع الطوفان على جميع الأرض ونجاه الله وأولاده وأزواجهم في الفلك فيكون أبا ثانيا للبشر . ومن الناس من يدعي أن الطوفان لم يعم الأرض وعلى هذا الرأي ذهب مؤرخو الصين وزعموا أن الطوفان لم يشمل قطرهم فلا يكون نوح عندهم أبا ثانيا للبشر . وعلى رأي الجمهور فالبشر كلهم يرجعون إلى أبناء نوح الثلاثة سام ، وحام ، ويافث ، وهو أول رسول بعثه الله إلى الناس حسب الحديث الصحيح . وعمر نوح تسعمائة وخمسين سنة على ما في التوراة فهو ظاهر قوله تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت : 14] وفي التوراة : أن الطوفان حدث وعمر نوح ستمائة سنة وأن نوحا صار بعد الطوفان فلاحا وغرس الكرم واتخذ الخمر . وذكر الآلوسي صفته بدون سند فقال : كان نوح دقيق الوجه في رأسه طول عظيم العينين غليظ العضدين كثير لحم الفخذين ضحم السرة طويل القامة جسيما طويل اللحية . قيل : إن مدفنه بالعراق في نواحي الكوفة ، وقيل في ذيل جبل لبنان ، وقيل بمدينة الكرك . وسيأتي ذكر الطوفان : في سورة الأعراف ، وفي سورة العنكبوت ، وذكر شريعته في سورة الشورى ، وفي سورة نوح .

والآل : الرهط ، وآل إبراهيم : أبناؤه وحفيده وأسباطه ، والمقصود تفضيل فريق منهم . وشمل آل إبراهيم الأنبياء من عقبه كموسى ، ومن قبله ، ومن بعده ، وكمحمد عليه الصلاة والسلام ، وإسماعيل ، وحنظلة بن صفوان ، وخالد بن سنان .

(11/117)

وأما آل عمران : فهم مريم ، وعيسى ، فمريم بنت عمران بن ماتان كذا سماه المفسرون ، وكان من أحبار اليهود ، وصالحيهم ، وأصله بالعبرانية عمرام بميم في آخره فهو أبو مريم ، قال المفسرون : هو من نسل سليمان بن داود ، وهو خطأ ، والحق أنه من نسل هارون أخي موسى كما سيأتي قريبا . وفي كتب النصارى : أن اسمه يوهاقيم ، فلعله كان له اسمان ومثله كثير . وليس المراد هنا عمران والد موسى وهارون ؛ إذ المقصود هنا التمهيد لذكر مريم وابنها عيسى بدليل قوله : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 82.84 ﴾

(12/117)

اللغة :

[اصطفى] اختار وأصله من الصفوة أى جعلهم صفوة خلقه

[محررا] ماخوذ من الحرية وهو الذي يجعل حرا خالصا لله عز وجل ، الذي لا يشوبه

شيء من امر الدنيا

[اعيذها] عاذ بكذا : اعتصم به

[وكفلها] الكفالة : الضمان يقال كفل يكفل فهو كافل ، وهو الذي ينفق على انسان ويهتم بمصالحه وفي الحديث " انا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين "

[المحراب] الموضع العالي الشريف ، قال ابو عبيدة : سيد المجالس واشرفها ومقدمها وكذلك هو من المسجد

[حصورا] من الحصر وهو الحبس ، وهو الذي يحبس نفسه عن الشهوات ، ولا ياتي النساء للعفة

[عاقر] عقيم لا تلد ، والعاقر : من لا يولد له من رجل او امراة

[رمزا] الرمز : الاشارة باليد او بالراس او بغيرهما

[العشي] من حين زوال الشمس الى غروبها

[الابكار] من طلوع الشمس الى وقت الضحى ، قال الشاعر : فلا الظل من برد الضحى تستطيعه ولا الفيء من برد العشى تذوق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿صفوة التفاسير حـ 1 صـ 198.197﴾

فصل

قال الآلوسي :

﴿ إِنَّ اللهَ اصطفى ءادَمَ وَنُوحًا وَءالَ إبراهيم وَءالَ عمران عَلَى العالمين ﴾ روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أن اليهود قالوا : نحن أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام ونحن على دينهم فنزلت ، وقيل : إن نصارى نجران لما غلوا في عيسى عليه الصلاة والسلام وجعلوه ابن الله سبحانه واتخذوه إلهاً نزلت رداً عليهم وإعلاماً لهم بأنه من ذرية البشر المنتقلين في الأطوار المستحيلة على الإله وهذا وجه مناسبة الآية لما قبلها .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في وجه المناسبة : إنه سبحانه لما بين ﴿ إِنَّ الدّينَ عِندَ اللهِ الإسلام ﴾ وإن اختلاف أهل الكتابين فيه إنما هو للبغي والحسد وأن الفوز برضوانه ومغفرته ورحمته منوط باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم شرع في تحقيق رسالته وأنه من أهل بيت النبوة القديمة فبدأ ببيان جلالة أقدار الرسل عليهم الصلاة والسلام وأتبعه ذكر مبدأ عيسى وأمه وكيفية دعوته الناس إلى الإيمان تحقيقاً للحق وإبطالاً لما عليه أهل الكتابين من الإفراط والتفريط في شأنهما ثم بين محاجتهم في إبراهيم وادعائهم الانتماء إلى ملته ونزه ساحته العلية عما عم عليه من اليهودية والنصرانية ثم نص على أن جميع الرسل دعاة إلى عبادة الله تعالى وتوحيده وأن أممهم قاطبة مأمورون بالإيمان بمن جاءهم من رسول

مصدق لما معهم تحقيقاً لوجوب الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم وتحتم الطاعة له حسبما يأتي تفصيله انتهى وهو وجه وجيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 3 صـ 131﴾

(14/117)

فصل

قال الفخر :

اعلم أن المخلوقات على قسمين :

المكلف وغير المكلف واتفقوا على أن المكلف أفضل من غير المكلف ، واتفقوا على أن أصناف المكلف أربعة : الملائكة ، والإنس والجن ، والشياطين ، أما الملائكة ، فقد روي في الأخبار أن الله تعالى خلقهم من الريح ومنهم من احتج بوجوه عقلية على صحة ذلك فالأول : أنهم لهذا السبب قدروا على الطيران على أسرع الوجوه والثاني : لهذا السبب قدروا على حمل العرش ، لأن الريح تقوم بحمل الأشياء الثالث : لهذا السبب سموا روحانيين ، وجاء في رواية أخرى أنهم خلقوا من النور ، ولهذا صفت وأخلصت لله تعالى والأولى أن يجمع بين القولين فنقول : أبدانهم من الريح وأرواحهم من النور فهؤلاء هم سكان

عالم السموات ، أما الشياطين فهم كفرة أما إبليس فكفره ظاهر لقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنَ الكافرين ﴾ [البقرة : 34] وأما سائر الشياطين فهم أيضاً كفرة بدليل قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَائِهِمْ ليجادلوكم وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : 121] ومن خواص الشياطين أنهم بأسرها أعداء للبشر قال تعالى : ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ [الكهف : 50] وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِىٍّ عَدُوّاً شياطين الإنس والجن ﴾ [الأنعام : 112] ومن خواص الشياطين كونهم مخلوقين من النار قال الله تعالى حكاية عن إبليس ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : 12] وقال : ﴿ والجآن خلقناه مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السموم ﴾ [الحجر : 27] فأما الجن فمنهم كافر ومنهم مؤمن ، قال تعالى : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا المسلمون وَمِنَّا القاسطون فَمَنْ أَسْلَمَ فأولئك تَحَرَّوْاْ رَشَداً ﴾ [الجن : 14] أما الإنس فلا شك أن لهم والداً هو والدهم الأول ، وإلا لذهب إلى ما لا نهاية والقرآن دلّ على أن ذلك الأول هو آدم صلى الله عليه وسلم على

ما قال تعالى في هذه السورة ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : 59] وقال : ﴿ يا أَيُّهَا الناس اتقوا رَبَّكُمُ الذى خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ واحدة وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء : 1] .

إذا عرفت هذا فنقول : اتفق العلماء على أن البشر أفضل من الجن والشياطين ، واختلفوا في أن البشر أفضل أم الملائكة ، وقد استقصينا هذه المسألة في تفسير قوله تعالى : ﴿ اسجدوا لأَدَمَ فَسَجَدُواْ ﴾ [الأعراف : 11] والقائلون بأن البشر أفضل تمسكوا بهذه الآية ، وذلك لأن الاصطفاء يدل على مزيد الكرامة وعلو الدرجة ، فلما بيّن تعالى أنه اصطفى آدم وأولاده من الأنبياء على كل العالمين وجب أن يكونوا أفضل من الملائكة لكونهم من العالمين .

فإن قيل : إن حملنا هذه الآية على تفضيل المذكورين فيها على كل العالمين أدى إلى التناقض لأن الجمع الكثير إذا وصفوا بأن كل واحد منهم أفضل من كل العالمين يلزم كون كل واحد منهم أفضل من كل العالمين يلزم كون كل واحد منهم أفضل من الآخر وذلك محال ، ولو حملناه على كونه أفضل عالمي زمانه أو عالمي جنسه لم يلزم التناقض ، فوجب حمله على هذا المعنى دفعاً للتناقض وأيضاً قال تعالى في صفة بني إسرائيل ﴿ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالمين ﴾ [البقرة : 47] ولا يلزم كونهم أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم بل قلنا المراد به عالمو زمان كل واحد منهم ، والجواب ظاهر في قوله : اصطفى آدم على العالمين ،

يتناول كل من يصح إطلاق لفظ العالم عليه فيندرج فيه الملك ، غاية ما في هذا الباب أنه ترك العمل بعمومه في بعض الصور لدليل قام عليه ، فلا يجوز أن نتركه في سائر الصور من غير دليل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 19.18 ﴾

فصل

قال البغوى :

(16/117)

قال ابن عباس رضي الله عنهما : قالت اليهود نحن من أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ونحن على دينهم فأنزل الله تعالى هذه الآية . يعني : إن الله اصطفى هؤلاء بالإسلام وأنتم على غير دين الإسلام ﴿ اصْطَفَى ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البغوى حـ 2 صـ 28 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ اصطفى ﴾ في اللغة اختار ، فمعنى : اصطفاهم ، أي جعلهم صفوة خلقه ، تمثيلاً بما يشاهد من الشيء الذي يصفى وينقى من الكدورة ، ويقال على ثلاثة أوجه : صفوة ،

وصفوة وصفوة، ونظير هذه الآية قوله لموسى ﴿إِنْي اصطفيتك عَلَى الناس برسالاتي﴾ [الأعراف: 144] وقال في إبراهيم ﴿وإسحاق ويَعْقُوبَ وإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ المصطفين الاخيار﴾ [ص: 47].

إذا عرفت هذا فنقول.

في الآية قولان

الأول: المعنى أن الله اصطفى دين آدم ودين نوح فيكون الاصطفاء راجعاً إلى دينهم وشرعهم وملتهم، ويكون هذا المعنى على تقدير حذف المضاف والثاني: أن يكون المعنى: إن الله اصطفاهم، أي صفاهم من الصفات الذميمة، وزينهم بالخصال الحميدة، وهذا القول أولى لوجهين أحدهما: أنا لا نحتاج فيه إلى الإضمار

والثاني: أنه موافق لقوله تعالى: ﴿الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رسالته﴾ [الأنعام: 124]

وذكر الحليمي في كتاب "المنهاج" أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا بد وأن يكونوا مخالفين لغيرهم في القوى الجسمانية، والقوى الروحانية، أما القوى الجسمانية، فهي إما مدركة، وإما محركة.

أما المدركة: فهي إما الحواس الظاهرة، وإما الحواس الباطنة، أما الحواس الظاهرة فهي خمسة

أحدها: القوة الباصرة، ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم مخصوصاً بكمال هذه

الصفة ويدل عليه وجهان

الأول : قوله صلى الله عليه وسلم : " زويت لي الأرض فأريت مشارقها مغاربها "

والثاني : قوله صلى الله عليه وسلم : " أقيموا صفوفكم وتراصوا فإني أراكم من وراء ظهري " ونظير هذه القوة ما حصل لإبراهيم صلى الله عليه وسلم وهو قوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى إبراهيم مَلَكُوتَ السموات والأرض ﴾ [الأنعام : 75] ذكروا في تفسيره أنه تعالى قوّى بصره حتى شاهد جميع الملكوت من الأعلى والأسفل

قال الحليمي رحمه الله : وهذا غير مستبعد لأن البصراء يتفاوتون فروي أن زرقاء اليمامة كانت تبصر الشيء من مسيرة ثلاثة أيام ، فلا يبعد أن يكون بصر النبي صلى الله عليه وسلم أقوى من بصرها

وثانيها : القوة السامعة ، وكان صلى الله عليه وسلم أقوى الناس في هذه القوة ، ويدل عليه وجهان

أحدهما : قوله صلى الله عليه وسلم : " أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد لله تعالى " فسمع أطيط السماء

والثاني : أنه سمع دوياً وذكر أنه هوي صخرة قذفت في جهنم فلم تبلغ قعرها إلى الآن ، قال الحليمي : ولا سبيل للفلاسفة إلى استبعاد هذا ، فإنهم زعموا أن فيثاغورث راض نفسه حتى سمع خفيف الفلك ، ونظير هذه القوة لسليمان عليه السلام في قصة النمل ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ [النمل : 18] فالله تعالى أسمع سليمان كلام النمل وأوقفه على معناه وهذا داخل أيضاً في باب تقوية الفهم ، وكان ذلك حاصلاً لمحمد صلى الله عليه وسلم حين تكلم مع الذئب ومع البعير ثالثها : تقوية قوة الشم ، كما في حق يعقوب عليه السلام ، فإن يوسف عليه السلام لما أمر بحمل قميصه إليه وإلقائه على وجهه ، فلما فصلت العير قال يعقوب ﴿ إِنّى لأجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ [يوسف : 94] فأحس بها من مسيرة أيام ورابعها : تقوية قوة الذوق ، كما في حق رسولنا صلى الله عليه وسلم حين قال : " إن هذا الذراع يخبرني أنه مسموم " وخامسها : تقوية القوة اللامسة كما في حق الخليل حيث جعل الله تعالى النار برداً وسلاماً عليه ، فكيف يستبعد هذا ويشاهد مثله في السمندل والنعامة ، وأما الحواس الباطنة فمنها قوة الحفظ ، قال تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [الأعلى : 6] ومنها قوة الذكاء قال علي عليه السلام : " علمني رسول الله

صلى الله عليه وسلم ألف باب من العلم واستنبطت من كل باب ألف باب " فإذا كان حال الولي هكذا ، فكيف حال النبي صلى الله عليه وسلم .

وأما القوى المحركة : فمثل عروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المعراج ، وعروج عيسى حياً إلى السماء ، ورفع إدريس وإلياس على ما وردت به الأخبار ، وقال الله تعالى :

﴿ قَالَ الذى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكتاب أَنَاْ ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل : 40] .

وأما القوى الروحانية العقلية : فلا بد وأن تكون في غاية الكمال ، ونهاية الصفاء .

(19/117)

واعلم أن تمام الكلام في هذا الباب أن النفس القدسية النبوية مخالفة بماهيتها لسائر النفوس ، ومن لوازم تلك النفس الكمال في الذكاء ، والفطنة ، والحرية ، والاستعلاء ، والترفع عن الجسمانيات والشهوات ، فإذا كانت الروح في غاية الصفاء والشرف ، وكان البدن في غاية النقاء والطهارة كانت هذه القوى المحركة المدركة في غاية الكمال لأنها جارية مجرى أنوار فائضة من جوهر الروح واصلة إلى البدن ، ومتى كان الفاعل والقابل في غاية الكمال كانت الآثار في غاية القوة والشرف والصفاء .

إذا عرفت هذا فقوله ﴿ إِنَّ اللهَ اصطفى آدَمَ وَنُوحًا ﴾ معناه : إن الله تعالى اصطفى آدم إما من سكان العالم السفلي على قول من يقول : الملك أفضل من البشر ، أو من سكان العالم العلوي على قول من يقول : البشر أشرف المخلوقات ، ثم وضع كمال القوة الروحانية في شعبة معينة من أولاد آدم عليه السلام ، هم شيث وأولاده ، إلى إدريس ، ثم إلى نوح ، ثم إلى إبراهيم ، ثم حصل من إبراهيم شعبتان : إسماعيل وإسحاق ، فجعل إسماعيل مبدأ لظهور الروح القدسية لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وجعل إسحاق مبدأ لشعبتين : يعقوب وعيصو ، فوضع النبوّة في نسل يعقوب ، ووضع الملك في نسل عيصو ، واستمر ذلك إلى زمان محمد صلى الله عليه وسلم ، فلما ظهر محمد صلى الله عليه وسلم نقل نور النبوّة ونور الملك إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وبقيا أعني الدين والملك لأتباعه إلى قيام القيامة ، ومن تأمل في هذا الباب وصل إلى أسرار عجيبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب جـ 8 صـ 19 . 20 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

وخص هؤلاء بالذكر من بين الأنبياء لأن الأنبياء والرسل بقضِّهم وقَضِيضهم من نسلهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى جـ 4 صـ 63 ﴾

فصل

قال الفخر :

(20/117)

من الناس من قال : المراد بآل إبراهيم المؤمنون ، كما في قوله ﴿ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ [غافر : 46] والصحيح أن المراد بهم الأولاد ، وهم المراد بقوله تعالى : ﴿ إِنّى جاعلك لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرّيَّتِى قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ [البقرة : 124] وأما آل عمران فقد اختلفوا فيه ، فمنهم من قال المراد عمران ولد موسى وهارون ، وهو عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، فيكون المراد من آل عمران موسى وهارون وأتباعهما من الأنبياء ، ومنهم من قال : بل المراد : عمران بن ماثان والد مريم ، وكان هو من نسل سليمان بن داود بن إيشا ، وكانوا من نسل يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام ، قالوا وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة ، واحتج من قال بهذا القول على صحته بأمور أحدها : أن المذكور عقيب قوله ﴿ وآل عمران على العالمين ﴾ هو عمران بن ماثان جد عيسى عليه السلام من قبل الأم ، فكان صرف الكلام إليه أولى

وثانيها : أن المقصود من الكلام أن النصارى كانوا يحتجون على إلهية عيسى بالخوارق التي ظهرت على يديه ، فالله تعالى يقول : إنما ظهرت على يده إكراماً من الله تعالى إياه بها ، وذلك لأنه تعالى اصطفاه على العالمين وخصه بالكرامات العظيمة ، فكان حمل هذا الكلام على عمران بن ماثان أولى في هذا المقام من حمله على عمران والد موسى وهارون وثالثها : أن هذا اللفظ شديد المطابقة لقوله تعالى : ﴿ وجعلناها وابنها ءَايَةً للعالمين ﴾ [الأنبياء : 91] واعلم أن هذه الوجوه ليست دلائل قوية ، بل هي أمور ظنية ، وأصل الاحتمال قائم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 20 . 21 ﴾

(21/117)

فائدة

قال الآلوسى :

وبدأ بآدم عليه الصلاة والسلام لأنه أول النوع ، وثنى بنوح عليه الصلاة والسلام لأنه آدم الأصغر والأب الثاني وليس أحد على وجه البسيطة إلا من نسله لقوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ [الصافات : 77] وذكر آل إبراهيم لترغيب المعترفين باصطفائهم في الإيمان بنبوة واسطة قلادتهم واستمالتهم نحو الاعتراف باصطفائه بواسطة

كونه من زمرتهم وذكر آل عمران مع اندراجهم في الآل الأول لإظهار مزيد الاعتناء بأمر عيسى عليه الصلاة والسلام لكمال رسوخ الاختلاف في شأنه وهذا هو الداعي إلى إضافة الآل في الأخيرين دون الأولين. وقيل: المراد بالآل في الموضعين بمعنى النفس أي اصطفى آدم ونوحاً وإبراهيم وعمران، وذكر الآل فيهما اعتناءاً بشأنهما وليس بشيء، والمراد بآل إبراهيم كما قال مقاتل: إسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وروي عن ابن عباس والحسن رضي الله تعالى عنهم أنهم من كان على دينه كآل محمد صلى الله عليه وسلم في أحد الإطلاقات، والمراد بآل عمران عيسى عليه الصلاة والسلام وأمه مريم بنت عمران بن ماثان من ولد سليمان بن داود عليهما السلام قاله الحسن ووهب، وقيل: المراد بهم موسى وهارون عليهما السلام، فعمران حينئذ هو عمران بن يصهر أبو موسى قاله مقاتل وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة والظاهر هو القول الأول لأن السورة تسمى آل عمران ولم تشرح قصة عيسى ومريم في سورة أبسط من شرحها في هذه السورة، وأما موسى وهارون فلم يذكر من قصتهما فيها طرف فدل ذلك على أن عمران المذكور هو أبو مريم، وأيضاً يرجح كون المراد به أبا مريم أن الله تعالى ذكر اصطفاءها بعد ونص عليه وأنه قال سبحانه: ﴿ إِذْ قَالَتِ امرأت عمران ﴾ [آل عمران: 35] الخ، والظاهر أنه شرح لكيفية الاصطفاء المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الله ﴾ فيكون من قبيل تكرار الاسم في جملتين فيسبق الذهن إلى أن الثاني هو الأول نحو أكرم زيداً إن زيداً رجل فاضل

، وإذا كان المراد بالثاني غير الأول كان في ذلك إلباس على السامع ، وترجيح القول الأخير بأن موسى يقرن بإبراهيم في الذكر ليس في القوة كمرجح الأول كما لا يخفى ، والاصطفاء الاختيار ، وأصله أخذ صفوة الشيء كالاستصفاء ، ولتضمينه معنى التفضيل عدي بعلى ، والمراد بالعالمين أهل زمان كل واحد منهم أي اصطفى كل واحد منهم على عالمي زمامه ، ويدخل الملك في ذلك ، والتأويل خلاف الأصل .

ومن هنا استدل بعضهم بالآية على أفضلية الأنبياء على الملائكة ، ووجه الاصطفاء في جميع الرسل أنه سبحانه خصهم بالنفوس القدسية وما يليق بها من الملكات الروحانية والكمالات الجسمانية حتى إنهم امتازوا كما قيل على سائر الخلق خلقاً وخلقاً وجعلوا خائن أسرار الله تعالى ومظهر أسمائه وصفاته ومحل تجليه الخاص من عباده ومهبط وحيه ومبلغ أمره ونهيه ، وهذا ظاهر في المصطفين المذكورين في الآية من الرسل ، وأما مريم فلها الحظ الأوفر من بعض ذلك ، وقيل : اصطفى آدم بأن خلقه بيديه وعلمه الأسماء وأسجد له الملائكة وأسكنه جواره ، واصطفى نوحاً بأنه أول رسول بعث بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات وسائر ذوي المحارم وأنه أب الناس بعد آدم وباستجابة

دعوته في حق الكفرة والمؤمنين ، واصطفى آل إبراهيم بأن جعل فيهم النبوة والكتاب ، ويكفيهم فخراً أن سيد الأصفياء منهم ، واصطفى عيسى وأمه بأن جعلهما آية للعالمين .

(23/117)

وإن أريد بآل عمران موسى وهارون فوجه اصطفاء موسى عليه الصلاة والسلام تكليم الله تعالى إياه وكتابة التوراة له بيده ، ووجه اصطفاء هارون جعله وزيراً لأخيه ، وأما اصطفاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام فمفهوم بطريق الأولى وعدم التصريح به للإيذان بالغنى عنه لكمال شهرة أمره بالخلة وكونه شيخ الأنبياء وقدوة المرسلين ، وأما اصطفاء نبينا صلى الله عليه وسلم فيفهم من دخوله في آل إبراهيم كما أشرنا إليه وينضم إليه أن سياق هذا المبحث لأجله كما يدل عليه بيان وجه المناسبة في كلام شيخ الإسلام ، وروي عن أئمة أهل البيت أنهم يقرءون وآل محمد على العالمين وعلى ذلك لا سؤال ، ومن الناس من قال : المراد بآل إبراهيم محمد صلى الله عليه وسلم جعل كأنه كل الآل مبالغة في مدحه ، وفيه أن نبينا وإن كان في نفس الأمر بمنزلة الأنبياء كلهم فضلاً عن آل إبراهيم فقط إلا أن هذه الإرادة هنا بعيدة ، ويشبه ذلك في البعد بل يزيد عليه ما ذكره بعضهم في الآية أنه لما أمرهم بمتابعته صلى الله عليه وسلم وإطاعته ، وجعل إطاعته ومتابعته سبباً لمحبة الله

تعالى إياهم وعدم إطاعته سبباً لسخط الله تعالى عليهم وسلب محبته عنهم أكد ذلك بتعقيبه بما هو عادة الله تعالى من اصطفاء أنبيائه على مخالفيهم وقمعهم وتذليلهم وإعدامهم لهم تخويفاً لهؤلاء المتمردين عن متابعته صلى الله عليه وسلم فذكر اصطفاء آدم على العالم الأعلى فإنه رجحه على سائر الملائكة وجعلهم ساجدين له وجعل الشيطان في لعنة لتمرده ، واصطفاء نوح على العالم مع نهاية كثرتهم فأهلكهم بالطوفان وحفظ نوحاً وأتباعه ، واصطفاء آل إبراهيم على العالم مع أن العالم كانوا كافرين فجعل دينهم شائعاً وذلل مخالفيهم ، واصطفاء موسى وهارون على العلم فجعل السحرة مع كثرتهم مغلوبين لهما وفرعون مع عظمته وغلبة جنوده مغلوباً وأهلكهم ، ولذا خص آدم بالذكر ونوحاً والآلين ، ولم يذكر إبراهيم ونبينا صلى الله تعالى عليهما

(24/117)

وسلم إذ إبراهيم لم يغلب ، وهذا الكلام لبيان أن نبينا صلى الله عليه وسلم سيغلب وليس المراد الاصطفاء بالنبوة حتى يخفى وجه التخصيص وبهذا ظهر ضعف الاستدلال به على فضلهم على الملائكة انتهى .

وفيه أن المتبادر من الاصطفاء الاجتباء والاختيار لا النصر على الأعداء على أن المقام

بمراحل عن هذا الحمل ، وقد أخرج ابن عساكر وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه فسر الاصطفاء هنا بالاختيار للرسالة ومثله فيما أخرجه ابن جرير عن الحسن وأيضاً حمل آل عمران على موسى وهارون مما لا ينساق إليه الذهن كما علمت ، وكأن القائل لما لم يتيسر له إجراء الاصطفاء بالمعنى الذي أراده في عيسى عليه الصلاة والسلام وأمه اضطر إلى الحمل على خلاف الظاهر ، وأنت تعلم أن الآية غنية عن الولوج في مثل هذه المضايق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 131.132 ﴾

لطيفة

قال القرطبى :

ومعنى قوله : "عَلَى الْعَالَمِينَ" أي على عالمي زمانهم ، في قول أهل التفسير .

وقال الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله محمد بن عليّ : جميع الخلق كلهم .

وقيل "عَلَى الْعَالَمِينَ" : على جميع الخلق كلهم إلى يوم الصور ، وذلك أن هؤلاء رُسُلٌ وأنبياء فهم صفوة الخلق ؛ فأما محمد صلى الله عليه وسلم فقد جازت مرتبته الاصطفاء لأنه حبيب ورحمة .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : 107] فالرسل خلقوا للرحمة ، ومحمد صلى الله عليه وسلم خُلق بنفسه رحمةً ، فلذلك صار أماناً للخلق ، لمّا بعثه الله أَمِنَ الخلقُ العذاب إلى نفخة الصور .

وسائر الأنبياء لم يحلّوا هذا المحل ؛ ولذلك قال عليه السلام : " أنا رحمة مهداة " يخبر أنه بنفسه رحمة للخلق من الله .

وقوله "مهداة" أي هدية من الله للخلق .

(25/117)

ويقال : اختار آدم بخمسة أشياء : أوّلها أنه خلقه بيده في أحسن صورة بقدرته ، والثاني أنه علّمه الأسماء كلها ، والثالث أمر الملائكة بأن يسجدوا له ، والرابع أسكنه الجنة ، والخامس جعله أبا البشر .

واختار نوحاً بخمسة أشياء :

أوّلها أنه جعله أبا البشر ؛ لأن الناس كلهم غرِقوا وصار ذريته هم الباقين ،

والثاني أنه أطال عمره ؛ ويقال : طوبى لمن طال عمره وحسن عمله ،

والثالث أنه استجاب دعاءه على الكافرين والمؤمنين ،

والرابع أنه حمله على السفينة ،

والخامس أنه كان أوّل من نسخ الشرائع ؛ وكان قبل ذلك لم يحرم تزويج الخالات والعمات .

واختار إبراهيم بخمسة أشياء :

أوّلها أنه جعله أبا الأنبياء ؛ لأنه روي أنه خرج من صلبه ألف نبيّ من زمانه إلى زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم ،

والثاني أنه اتخذه خليلاً ،

والثالث أنه أنجاه من النار ،

والرابع أنه جعله إماماً للناس ،

والخامس أنه ابتلاه بالكلمات فوَفّقَه حتى أتمهن .

ثم قال : "وَآلَ عِمْرَانَ" فإن كان عمران أبا موسى وهارون فإنما اختارهما على العالمين حيث بعث على قومه المَنّ والسلْوَى وذلك لم يكن لأحد من الأنبياء في العالم .

وإن كان أبا مريم فإنه أصطفى له مريم بولادة عيسى بغير أب ولم يكن ذلك لأحد في العالم .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 63.64 ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ﴾

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ ذُرِّيَّةً ﴾ في نَصْبها وجهان :

أحدهما : أنها منصوبة على البدل مما قبلها ، وفي المُبْدَل منه – على هذا – ثلاثة أوجه :

أحدها : أنها بدل من "آدَمَ" وما عُطِفَ عليه وهذا إنَّمَا يتأَّتى على قول من يُطْلِق "الذُّرِّيَة" على الآباء وعلى الأبناء وإليه ذَهَب جماعةٌ .

قال الجرجاني : " الآية توجب أن تكون الآباء ذرية للأبناء والأبناء ذرية للآباء . وجاز ذلك ؛ لأنه من ذرأ الخلق ، فالأب ذُرِئ منه الولد ، والولد ذرئ من الأب " .

(26/117)

قال الراغبُ : " الذرية يقال للواحد والجمع والأصل والنسل ، لقوله تعالى : ﴿ حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [يس : 40] أي : آباءهم ، ويقال للنساء : الذراريّ " . فعلى هذين القولين صَحَّ جَعْل " ذُرِّيَّةً " بدلاً من " آدم " بما عطف عليه .

قال أبو البقاء : " ولا يجوز أن يكون بدلاً من " آدم " ؛ لأنه ليس بذريته " ، وهذا ظاهر إن أراد آدَمَ وحده دون مَنْ عُطِف عليه ، وإن أراد " آدم " ومَنْ ذُكِرَ معه فيكون المانع عنده عدم جواز إطلاق الذُّرِّيَّة على الآباء .

الثاني - من وجهي البدل - أنها بدل من " نُوح " ومَنْ عطف عليه ، وإليه نحا أبو البقاء .

الثالث : أنها بدل من الآلين - أعني آل إبراهيمَ وآل عمرانَ - وإليه نحا الزمخشريُّ . يريد أن الأولين ذرية واحدة .

الوجه الثاني - من وجهي نصب " ذُرِّيَّةً " - النصب على الحال ، تقديره : اصطفاهم حال كونهم بعضهم من بعض ، فالعامل فيها اصطفى . وقد تقدم القول في اشتقاق هذه اللفظة .

قوله : ﴿ بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ﴾ هذه الجملة في موضع نصب ، نعتاً لـ " ذُرِّيَّةً " . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 166 ﴾

فصل

قال الفخر :

في تأويل الآية وجوه

الأول : ذرية بعضها من بعض في التوحيد والإخلاص والطاعة ، ونظيره قوله تعالى :

﴿ المنافقون والمنافقات بَعْضُهُمْ مّن بَعْضٍ ﴾ [التوبة : 67] وذلك بسبب اشتراكهم في النفاق

والثاني : ذرية بعضها من بعض بمعنى أن غير آدم عليه السلام كانوا متولدين من آدم عليه السلام ، ويكون المراد بالذرية من سوى آدم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 21 ﴾

لطيفة

قال ابن الجوزى :

قال أبو بكر النقاش : ومعنى قوله : ﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾ أن الأبناء ذرية للآباء ، والآباء ذرية للأبناء ، كقوله تعالى : ﴿ حملنا ذريتهم في الفلك المشحون ﴾ [يس : 41].

فجعل الآباء ذرية للأبناء ، وإنما جاز ذلك ، لأن الذرية مأخوذة من : ذرأ الله الخلق ، فسمي الولد للوالد ذرية ، لأنه ذرئ منه ، وكذلك يجوز أن يقال للأب : ذرية للابن ، لأن ابنه ذرئ منه ، فالفعل يتصل به من الوجهين .

ومثله ﴿ يحبونهم كحُب الله ﴾ [البقرة : 165] .

فأضاف الحب إلى الله ، والمعنى : كحب المؤمن لله ، ومثله ﴿ ويطعمون الطعام على حبّه ﴾ [الدهر : 8] .

فأضاف الحب للطعام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 375 ﴾

قوله تعالى : ﴿ والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

قال الفخر :

قال القفال : المعنى والله سميع لأقوال العباد ، عليم بضمائرهم وأفعالهم ، وإنما يصطفي من خلقه من يعلم استقامته قولاً وفعلاً ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رسالته ﴾ [الأنعام : 124] وقوله ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِى الخيرات وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُواْ لَنَا خاشعين ﴾ [الأنبياء : 90] وفيه وجه آخر : وهو أن اليهود كانوا

يقولون : نحن من ولد إبراهيم ومن آل عمران ، فنحن أبناء الله وأحباؤه ، والنصارى كانوا يقولون : المسيح ابن الله ، وكان بعضهم عالماً بأن هذا الكلام باطل ، إلا أنه لتطييب قلوب العوام بقي مصراً عليه ، فالله تعالى كأنه يقول : والله سميع لهذه الأقوال الباطلة منكم ، عليم بأغراضكم الفاسدة من هذه الأقوال فيجازيكم عليها ، فكان أول الآية بياناً لشرف الأنبياء والرسل ، وآخرها تهديداً لهؤلاء الكاذبين الذين يزعمون أنهم مستقرون على أديانهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 21 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ والله سميع عليم ﴾ أي سميع لما يقوله الخلق ، عليم بما بضمرونه .

أو : سميع لما تقوله امرأة عمران ، عليم بما تقصد .

أو : سميع لما تقوله الذرية ، عليم بما تضمره .

ثلاثة أقوال .

وقال الزمخشري : عليم بمن يصلح للاصطفاء ، أو : يعلم أن بعضهم من بعض في الدين .

انتهى .

والذي يظهر أن ختم هذه الآية بقوله ﴿ والله سميع عليم ﴾ مناسب لقوله ﴿ آل إبراهيم وآل عمران ﴾ لأن إبراهيم عليه السلام دعا لآله في قوله : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع ﴾ بقوله : ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات ﴾ وحمد ربه تعالى فقال : ﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق ﴾ وقال مخبراً عن ربه : ﴿ إن ربي لسميع الدعاء ﴾ ثم دعا ربه بأن يجعله مقيم الصلاة وذريته ، وقال حين بنى هو وإسماعيل الكعبة ﴿ ربنا تقبل منا ﴾ إلى سائر ما دعا به حتى قوله : ﴿ وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ﴾ ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنا دعوة إبراهيم " فلما تقدمت من إبراهيم تضرعات وأدعية لربه تعالى في آله وذريته ، ناسب أن يختم بقوله : ﴿ والله سميع عليم ﴾ وكذلك آل عمران ، دعت امرأة عمران بقبول ما كانت نذرته لله تعالى ، فناسب أيضاً ذكر الوصفين ، ولذلك حين ذكرت النذر ودعت بتقبله ، أخبرت عن ربها بأنه ﴿ السميع العليم ﴾ أي : السميع لدعائها ، العليم بصدق نيتها بنذرها ما في بطنها الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 454 . 455 ﴾

لطيفة

قال القشيري :

اتفق آدم وذريته في الطينة ، وإنما الخصوصية بالاصطفاء الذي هو من قِبَله ، لا بالنَّسَب ولا

بالسبب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 1 صـ 236 ﴾

لطيفة

قال ابن عجيبة :

إنما اصطفى الحق تعالى هؤلاء الرسل ؛ لكونهم قد أظهروا الدين بعد انطماس أنواره ، وجددوه بعد خمود أسراره ، هم أئمة الهدى ومقتبس أنوار الاقتداء ، فكل من كان على قدمهم من هذه الأمة المحمدية ، بحيث يجدد للناس دينهم ، ويُبين للناس معالم الطريق وطريق السلوك إلى عين التحقيق ، فهو ممن اصطفاه الله على عالمي زمانه . انتهى . ا هـ

﴿البحر المديد حـ 1 صـ 348 ﴾

(29/117)

فصل

قال ابن كثير فى معنى الآية :

يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض ، فاصطفى آدم ، عليه السلام ، خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شيء ، وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها ، لما له في ذلك من الحكمة .

واصطفى نوحا ، عليه السلام ، وجعله أول رسول [بعثه] إلى أهل الأرض ، لما عبد الناس الأوثان ، وأشركوا في دين الله ما لم ينزل به سلطانا ، وانتقم له لما طالت مدته بين ظَهْرَاني قومه ، يدعوهم إلى الله ليلا ونهارًا ، سرا وجهارًا ، فلم يزدهم ذلك إلا فرارًا ، فدعا عليهم ، فأغرقهم الله عن آخرهم ، ولم يَنْجُ منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به .

واصطفى آل إبراهيم ، ومنهم : سيد البشر وخاتم الأنبياء على الإطلاق محمد صلى الله عليه وسلم ، وآل عمران ، والمراد بعمران هذا : هو والد مريم بنت عمران ، أم عيسى ابن مريم ، عليهم السلام . قال محمد بن إسحاق بن يَسار رحمه الله : هو عمران بن ياشم بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحريق بن يوثم بن عزاريا ابن أمصيا بن ياوش بن أجريهو بن يازم بن يهفاشاط بن إنشا بن أبيان بن رخيعم بن سليمان بن داود ، عليهما السلام . فعيسى ، عليه السلام ، من ذرية إبراهيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 33 ﴾

(30/117)

وقال الثعالبي :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ اصطفى آدَمَ وَنُوحاً . . . ﴾ الآية : لما مضى صدْرٌ مِنْ مُحَاجَّةِ نصارى نَجْرَانَ ، والردُّ عليهم وبيانُ فسادِ ما هُمْ عليه ، جاءَتْ هذه الآياتُ مُعْلِمَةً بصورةِ

الأمر الذي قد ضَلُّوا فيه ، ومُنْبِئَةً عن حقيقته ، كيف كانَتْ ، فبدأ تعالى بذكْرِ فضل آدم ومَنْ ذُكِرَ بعده ، ثم خصَّ امرأة عِمْرَانَ بالذكْرِ ؛ لأنَّ القصْدَ وصْفُ قصَّة القَوْمِ إلى أنْ يبيِّن أمر عيسى (عليه السلام) ، وكيف كان ، وانصرف "نُوحٌ" ، مع عُجْمَتِهِ وتعريفِه ؛ لخفَّة الِاسم ؛ كَهُودٍ ولُوطٍ ، قال الفَخْرُ هنا : اعلم أنَّ المخلوقاتِ على قسمَيْن : مكلَّفٍ ، وغيْرِ مكلَّفٍ ، واتفقوا على أنَّ المكلَّف أفْضَلُ من غير المكلَّفِ ، واتفقوا على أنَّ أصنافَ المكلَّفين أربعةٌ : الملائكة ، والإِنْسُ ، والْجِنُّ ، والشَّيَاطِين .

* ت * : تأمَّلْه جَعَلَ الشياطين قسيماً للجِنِّ . اه .

والآلُ ؛ في اللغة : الأَهْلُ ، والقَرَابَة ، ويقال للأَتْبَاعِ ، وأهل الطَّاعة : آل ، والآلُ ؛ في الآيةِ : يحتملُ الوجهَيْنِ ، فَإِنْ أُرِيدَ بالآلِ : القَرَابَةُ ، فالتقديرُ أنَّ اللَّهَ اصطفى هؤلاءِ على عَالِمِي زمانِهِمْ ، أو على العَالَمِينَ جميعاً ؛ بأنْ يقدَّر نبيُّنا محمَّد صلى الله عليه وسلم من آل إبراهيم ، وإن أُرِيدَ بالآلِ : الأَتْبَاعُ ، فيستقيمُ دُخُول أمَّة نبيِّنا محمَّد صلى الله عليه وسلم في الآلِ ؛ لأنها على ملَّةِ إبراهيم .

وقوله تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ﴾ ، أي : متشابهِينَ في الدِّين ، والحال ، وعِمْرَانُ هو رجلٌ من بني إسرائيل ، وامرأة عِمْرَانَ اسمها حَنَّةُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ 259 ﴾

وقال ابن الجوزى :

قال الزجاج : ومعنى اصطفاهم في اللغة : اختارهم ، فجعلهم صفوة خلقه ، وهذا تمثيل بما يرى ، لأن العرب تمثل المعلوم بالشيء المرئي ، فاذا سمع السامع ذلك المعلوم كان عنده بمنزلة ما يشاهد عياناً ، فنحن نُعاين الشيء الصافي أنه النقي من الكدر ، فكذلك صفوة الله من خلقه .

وفيه ثلاث لغات : صَفوة ، وصِفوة ، وصُفوة ، وأما آدم فعربي ، وقد ذكرنا اشتقاقه في "البقرة" وأما نوح ، فأعجمي مُعربّ ، قال أبو سليمان الدمشقي : اسم نوح : السكن ، وإنما سمي نوحاً لكثرة نوحه .

وفي سبب نوحه خمسة أقوال .

أحدها : أنه كان ينوح على نفسه ، قاله يزيد الرقاشي ، والثاني : أنه كان ينوح لمعاصي أهله ، وقومه .

والثالث : لمراجعته ربه في ولده .

والرابع : لدعائه على قومه بالهلاك .

والخامس : أنه مر بكلب مجذوم ، فقال : اخسأ يا قبيح ، فأوحى الله إليه : أعِبتني يا نوح ، أم عبت الكلب ؟ (1)

وفي آل إبراهيم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه من كان على دينه ، قاله ابن عباس ، والحسن .

والثاني : أنهم إسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، والأسباط ، قاله مقاتل .

والثالث : أن المراد "آل إبراهيم" هو نفسه ، كقوله : ﴿ وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ﴾ [البقرة : 248] ، ذكره بعض أهل التفسير .

وفي "عمران" قولان .

أحدهما : أنه والد مريم ، قاله الحسن ، ووهب .

والثاني : أنه والد موسى ، وهارون ، قاله مقاتل .

وفي "آله" ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه عيسى عليه السلام ، قاله الحسن .

والثاني : أن آله موسى وهارون ، قاله مقاتل .

والثالث : أن المراد بـ "آله" نفسه ، ذكره بعض المفسرين ، وإنما خصّ هؤلاء بالذكر ، لأن الأنبياء كلهم من نسلهم .

وفي معنى اصطفاء هؤلاء المذكورين ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المراد اصطفى دينهم على سائر الأديان ، قاله ابن عباس ، واختاره الفراء ، والدمشقي .

والثاني : اصطفاهم بالنبوة ، قاله الحسن ، ومجاهد ، ومقاتل .

والثالث : اصطفاهم بتفضيلهم في الأمور التي ميزهم بها على أهل زمانهم .

والمراد بـ "العالمين" : عالمو زمانهم ، كما ذكرنا في "البقرة" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 375 ﴾

---

(1) لا يخفى ما فى هذه الأقوال من بعد بعيد لا يخفى على العلماء المحققين . والله أعلم .

(32/117)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآيتين

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى ءَادَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

إنها عدالة القرآن الكريم ، إنه الحق العادل الذي ينزل على الرسول بلاغا يذكر الأبناء بطهارة أصول الآباء ، ومن الخسارة أن يصير الأبناء إلى ما هم عليه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى ءَادَمَ ﴾ وكلمة ﴿ اصْطَفَى ﴾ تدل على اختيار مُرضٍ . ولنا أن نسأل : هل اصطفى الحق هؤلاء الرسل ، آدم ونوحاً ، وآل إبراهيم ، وآل عمران فكانوا طائعين ، أم علم الحق أزلا أنهم يكونون طائعين فاصطفاهم ؟ إن الحق علمه أزلى ، وعلمه ليس مرتبا على كل شيء .

وساعة أن تأتي أنت بقانونك البشرى وتتفرس في إنسان ما ، وتوليه أمرا ، وينجح فيه ، هنا تهنئ نفسك بأن فراستك كانت في محلها ، بعلم الله واقتداره ؟

إن الذين اصطفاهم الله هم الذين علم الله أزلا أنهم سيكونون طائعين ، وقد يقول قائل : إنهم طائعون لله بالاصطفاء ، لمثل هذا القائل نرد : إنهم طائعون بالنفس العامة ويكونون في مزيد من الطاعة بعد أن يأخذوا التكليف بالنفس الخاصة ، إنهم طائعون من قبل أن يأخذوا أمور التكليف ، ولو تركهم الحق للأمور العقلية لاهتدوا إلى طاعته ، وعندما جاءهم الأمر التكليفي ويصطفيهم الله يكونون رسلا وحملة منهج سماوي .

عندما يسمع الإنسان قول الحق : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى ءَادَمَ ﴾ فقد يتساءل عن معناها ، ذلك أن من اصطفاء الله لآدم تأتي إلى الذهن بمعنى " خصه " بنفسه أو أخذه صفوة من غيره ، فكيف كان اصطفاء آدم ، ولم يكن هناك أحد من قبله ، أو معه لأنه الخلق الأول ؟ إننا يمكن أن نعرف بالعقل العادي أن اصطفاء الله لنوح عليه السلام ؛ كان اصطفاء من بشر موجودين ، وكذلك اصطفاء إبراهيم خليل الرحمن وبقية الأنبياء .

إذن ، فكيف كان اصطفاء آدم ؟ إن معنى ﴿ اصْطَفَى ءَادَمَ ﴾ – كما قلنا – تعني أن الله قد اختاره أو أن " المصطفى عليه " يأتي منه ومن ذريته . نعم وقد جاء المصطفى عليه من ذريته ، وهذا المعنى يصلح ، والمعنى السابق عليه يصلح أيضا . إن الحق يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى ءَادَمَ وَنُوحاً ﴾ ونحن نعلم أن سيدنا نوحاً عليه السلام واجه جماعة من الكافرين به ، فأغرقهم الله في الطوفان ، ونجا نوح ومن معه بأمر الله .

﴿ حَتَّى إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾

[هود : 40] .

إن الذين بقوا من بعد نوح عليه السلام كانوا مؤمنين ، ثم تعرضوا للأغيار . وجاءت هذه الأغيار في أعقابهم ، فنشأ كفر وإيمان ، لماذا ؟ لأن آدم عليه السلام حين خلقه الله وضع له التجربة التكليفية في الجنة ، كان من الواجب أن ينقل ما علمه له الله لأبنائه .

لقد نقل آدم لهم مسائل صيانة مادتهم وعلمهم كيف يأكلون ، وكيف يشربون ، وغير ذلك . وكان يجب أن تكون معهم القيم . إن آدم عليه السلام قد أدى ذلك ، وعلم أبناءه كيفية صيانة مادتهم وعلمهم القيم أيضا ، ولكن بمرور الزمان ، ظل بعض من أبناء آدم يتخففون من التكاليف حتى اندثرت وذهبت . ومن رحمة الله بخلقه يجدد سبحانه وتعالى الرسالة ببعث رسول جديد .

والرسالة الجديدة تعطي ما كان موجودا أولا ، فيما يتعلق بالعقائد والأخبار ، والأشياء التي لا تتغير ، وتأتي الرسالة الجديدة بالأحكام المناسبة لزمن الرسالة . فإذا ما أمكن للبشر أن يعدلوا من سياسة البشر ، يظل الأمر كما هو ، فإن ارتكب واحد منكرا وضرب قومه على يده ، استقام أمر الرسالة وبقيت هذه الأمة على الخير . لماذا ؟ لأن مصافى اليقين في النفس الإنسانية موجودة ، ونحن نراها ونلمسها . إن هناك واحدا تجد مصافي اليقين في ذاته ، وقد لا يقدر على نفسه ، فيرتكب المعصية ، وتلومه نفسه ، فيرجع عن المعصية . ومرة أخرى نجد إنسانا آخر لا يجد في نفسه مصافى اليقين ، ولكنها موجودة في غيره ، فنجد من يأمره بالمعروف ، وينهاه عن المنكر ، فإذا امتنعت المصافي الذاتية للإيمان ، وكذلك امتنعت المصافي الإيمانية في المجتمع ، فلا أمل هنالك ، لذلك يجب أن يأتي رسول جديد ، وينبه الناس بمعجزة ما .

لقد شاءت إرادة الحق سبحانه ألا يأتي رسول آخر بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي ذلك شهادة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بأن الله أمنها على منهج الله ، فإذا مُنِعت من أي نفس مصافيها الذاتية فستبقى مصافيها الاجتماعية ، ولا بد أن يكون في أمة

محمد ذلك ؛ لأن امتناع ذلك كان يستدعي وجود نبيّ جديد .

إن الله أمن أمة محمد على منهجه ، ولذلك لم يأت نبيّ بعد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد أمن الحق أمة محمد فلم يمنع فيها أبدا المصافي الذاتية أو الاجتماعية ، ولذلك يأتي القول الحق :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : 110] .

(35/117)

إن هذا توجيه لنا من الحق لنعرف أن المصافي الاجتماعية ستظل موجودة في أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، إذن فبعد حدوث الغفلة من بعد نوح عليه السلام جاء الله باصطفاءات أخرى رحمة منه بالعالمين ، ويقول الحق : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى ءَادَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ . ونحن نقول على إبراهيم عليه السلام : " أبو الأنبياء " وأورد الحق نبأ بعض من أبناء آل إبراهيم ، وهم آل عمران وأعطاهم ميزة .

وكلمة " عمران " هذه حين ترد في الإسلام فلنا أن نعرف أن هناك اثنين لهما الاسم نفسه ، هناك " عمران " والد موسى وهارون عليهما السلام . وهناك " عمران " آخر . إن عمران

والد موسى وهارون كان اسم أبيه " يصهر " وجده اسمه " فاهاث " , ومن بعده " لاوى "

ومن بعده " يعقوب " ، ومن بعده " إسحق " ، وبعده " إبراهيم " ، أما عمران الآخر ، فهو

والد مريم عليها السلام .

3

وقد حدث إشكال عند عدد من الدارسين هو " أي العمرانين يقصده الله هنا ؟ " والذي

زاد من حيرة هؤلاء العلماء هو وجود أخت لموسى وهارون عليهما السلام اسمها مريم ،

وكانت ابنة عمران والد موسى وهارون فكلتاهما اسمها مريم بنت عمران . وكانوا في ذلك

الزمن يتفاءلون باسم " مريم " لأن معناه " العابدة " ، ولما اختلفوا لم يفطنوا إلى أن القرآن قد

أبان وأوضح المعنى ، وكان يجب أن يفهموا أن المقصود هنا ليس عمران والد موسى

وهارون عليهما السلام ، بل عمران والد مريم ، ومنها عيسى عليه السلام ، وعمران والد

مريم هو ابن ماثان ، وهو من نسل سليمان ، وسليمان من داود ، وداود من أوشى ،

وأوشى من يهوذا ، ويهوذا من يعقوب ، ويعقوب من إسحق .

وكنا قديما أيام طلب العلم نضع لها ضبطا بالحرف، فنقول " عمعم سدئيّا " ومعناها . .
عيسى ابن مريم، ومريم بنت عمران، وعمران ابن ماثان، وماثان من سليمان، من داود
من أوشى وأوشى من يهوذا ويهوذا من يعقوب ويعقوب من إسحاق . لقد التبس الأمر على
الكثير وقالوا : أي العمرانين الذي يقول الله في حقه هذا القول الكريم ؟ ولهؤلاء نقول : إن
مجيء اسم مريم عليها السلام من بعد ذلك يعني أنه عمران والد مريم، وأيضا يجب أن نفطن
إلى أن الحق قد قال عن مريم :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

[آل عمران : 37] .

وزكريا عليه السلام هو ابن آذن، وآذن كان معاصرا لماثان . إن المراد هنا هو عمران والد مريم . هكذا حددنا أي العمرانين يقصد الحق بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى ءَادَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ . وعندما تقول : اصطفيت كذا على كذا، فمعنى ذلك أنه كان من الممكن أن تصطفى واحدا من مجموعة على الآخرين، ولذلك نفهم المقصود بـ " على العالمين " أي على عالمي زمانهم، إنهم قوم موجودون وقد اصطفى منهم

واحدا ، أما الذي سيولد من بعد ذلك فلا اصطفاء عليه ، فلا اصطفاء على محمد صلى الله عليه وسلم . ويقول الحق بعد ذلك : ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

(37/117)

وحين يقول : ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ﴾ فلنا أن نسأل : هل المقصود بذلك الأنساب أم الدين والقيم ؟ ولنا أن نلتفت أن الحق قد علمنا في مسألة إبراهيم عليه السلام أن الأنساب بالدم واللحم عند الأنبياء لا اعتبار لها ، وإنما الأنساب المعترف بها بالنسبة للأنبياء هي أنساب القيم والدين . وكنا قد عرضنا من قبل لما قاله الحق :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾

[البقرة : 124] .

فردها الله عليه قائلا :

﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾

[البقرة : 124] .

لماذا ؟ لأن الإمام هو المقتدى في الهدايات . إذن فالمسألة ليست وراثة بالدم . وهكذا علم سيدنا إبراهيم ذلك بأن النسب للأنبياء ليس بوراثة الدم ، إذن فنحن نفهم قول الحق :

﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ﴾ على أنها ذرية في توارثها للقيم . ونحن نسمع في القرآن :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

[التوبة : 67] .

إن هذا النفاق ليس أمرا يتعلق بالنسب وإنما يتعلق بالقيم ، إنها كلها أمور قيمية ، وحين يقال : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي أن الله يعرف الأقوال وكذلك الأفعال والخبايا . وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1427ـ1432 ﴾

(38/117)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيتين :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (34) ﴾

ثم إنه تعالى لما بين أن محبته لا تتم إلا بمتابعة الرسل بيّن علو درجات الرسل وسموّ طبقاتهم

فقال : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً ﴾ الآية أي جعلهم صفوة خلقه والمختارين من بينهم تمثيلاً بما يشاهد من الشيء الذي يصفى وينقى من الكدورة ، وذلك باستخلاصهم من الصفات الذميمة وتحليتهم بالخصال الحميدة كقوله : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾ [الأنعام : 124] وقيل : المعنى أن الله اصطفى دين آدم ودين نوح ولكن الأصل عدم الإضمار . وذكر الحليمي في كتاب المنهاج أن الأنبياء عليهم السلام مخالفون لغيرهم في القوى الجسمانية والقوى الروحانية . أما القوى الجسمانية فهي إما مدركة أو محركة .

(39/117)

أما المدركة فهي الحواس الظاهرة أو الباطنة أما الظاهرة فقوله صلى الله عليه وسلم " زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها " وقوله : " أقيموا صفوفكم وتراصوا فإني أراكم من وراء ظهري " وهذا يدل على كمال القوة الباصرة ونظيرها ما حصل لإبراهيم عليه السلام ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ [الأنعام : 75] ذكروا في تفسيره أن الله تعالى قوّى بصره حتى شاهد جميع الملكوت وليس بمستبعد ، فإنه يروى أن زرقاء اليمامة كانت تبصر من مسيرة ثلاثة أيام . ويقال : إن النسر وغيره من عظام الجوارح يرتفع فيرى صيده من مائة فرسخ . وقال صلى الله عليه وسلم : " أطت السماء

وحق لها أن تئط " فسمع أطيط السماء . ومثله ما زعمت الفلاسفة أن فيثاغورس راض نفسه حتى سمع حفيف الفلك . وقد سمع سليمان كلام النمل وفهمه . ومثله ما يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم تكلم مع الذئب ومع البعير ، وقد وجد يعقوب صلى الله عليه وسلم ريح يوسف من مسيرة أيام . وقال صلى الله عليه وسلم " إن هذا الذراع يخبرني أنه مسموم " وهو دليل كمال قوة الذوق . وجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم ، قيل : وهو دليل قوة اللمس كما في النعامة والسمندل وفيه نظر ، إذ لا إدراك ههنا فكيف يستدل به على قوة الإدراك ؟ بل يجب أن يحمل هذا على معنى آخر وهو أنه تعالى لا يبعد أن يجعل المنافي ملائماً للإعجاز أو لخاصية أودعها في المنافي حتى يصير ملائماً . وأما الحواس الباطنة فمنها قوة الحفظ قال تعالى : ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ [الأعلى : 6] ومنها قوة الذكاء قال علي رضي الله عنه : علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف باب من العلم فاستنبطت من كل باب ألف باب . وإذا كان حال الولي هكذا فكيف حال النبي ؟ وأما القوة المحركة فكعروج النبي صلى الله عليه وسلم وعروج عيسى عليه السلام إلى السماء ، وكرفع إدريس وإلياس على ما ورد في الأخبار . وأما القوة الروحانية العقلية فنقول : إن النفس

القدسية النبوية مخالفة بماهيتها لسائر النفوس ، أو كالمخالفة صفاء ونورية وانجذاباً إلى عالم الأرواح ، فلا جرم تجري عليها الأنوار الفائضة من المبادىء العالية أتم من سائر النفوس وأكمل ، ولهذا بعثت مكملة للناقصين ومعلمة للجاهلين ومرشدة للطالبين مصطفاة على العالمين من جميع سكان الأرضين عند من يقول الملك أفضل من البشر ، أو من سكان السموات أيضاً عند من يرى البشر أفضل المخلوقات . ثم إن القرآن دل على أن أول الأنبياء اصفطاء آدم صفي الله وخليفته . ثم إنه وضع كمال القوة الروحانية في شعبة معينة من أولاد آدم وهم : شيث وأولاده إلى إدريس ، ثم إلى نوح ثم إلى إبرهيم ثم انشعب من إبراهيم صلى الله عليه وسلم شعبتان : إسماعيل وإسحق .

(41/117)

فجعل إسماعيل مبدأ لظهور الروح القدسية لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وجعل إسحق مبدأ لشعبتين يعقوب وعيص . فوضع النبوة في نسل يعقوب ، ووضع الملك في نسل عيص ، واستمر ذلك إلى زمان محمد صلى الله عليه وسلم . فلما ظهر محمد صلى الله عليه وسلم نقل نور النبوة ونور الملك إليه صلى الله عليه وسلم وبقي الدين والملك في أمته صلى الله

عليه وسلم إلى يوم القيامة ، فالمراد بآل إبراهيم أولاده عليهم الصلاة والسلام وهو المطلوب بقوله : ﴿ ومن ذريتي ﴾ [البقرة : 124] بعد قوله : ﴿ إني جاعلك للناس إماماً ﴾ [البقرة : 124] وأما آل عمران فقيل : أولاد عمران بن يصهر والد موسي وهارون . وقيل : المراد بعمران والد مريم وهو عمران بن ماثان بدليل قوله عقيبه ﴿ إذ قالت امرأة عمران ﴾ [آل عمران : 35] ولا شك أنه عمران بن ماثان جد عيسى من قبل الأم ، ولأن الكلام سيق للناصرى الذين يحتجون على إلهية عيسى عليه السلام بالخوارق التي ظهرت على يده . فالله تعالى يقول : إن ذلك باصطفاء الله إياه لا لكونه شريكاً للإله ولأن هذا اللفظ شديد المطابقة لقوله تعالى : ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ [الأنبياء : 91] . ﴿ ذرية ﴾ بدل ممن سوى آدم ﴿ بعضها من بعض ﴾ قيل : أي في التوحيد والإخلاص والطاعة كقوله : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ﴾ [التوبة : 67] وذلك لاشتراكهم في النفاق . وقيل : معناه أن غير آدم كانوا متوالدين من آدم . وقيل : يعني أن الآلين ذرية واحدة متسلسلة بعضها متشعب من بعض ، موسى وهارون من عمران ، وعمران من يصهر ، ويصهر من قاهث ، وقاهث من لاوي ، ولاوي من يعقوب ، ويعقوب من إسحق . وكذلك عيسى من مريم ، ومريم بنت عمران بن ماثان . ثم قال في الكشاف : ماثان بن سليمان بن داود بن ايشا بن يهوذا بن يعقوب بن إسحق وفيه نظر ، لأن بين ماثان

وسليمان قوماً آخرين ، وكذلك يين ايشا ويهوذا . ﴿ والله سميع ﴾ لأقوال العباد ﴿ عليم ﴾ بضمائرهم

وأفعالهم فيصطفي من خلقه من يعلم استقامته قولاً وفعلاً . ويحتمل أن يكون الكلام مع اليهود والنصارى الذين كانوا يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه تغريراً للعوام مع علمهم ببطلان هذا الكلام ، فيكون أول الكلام تشريفاً للمرسلين وآخره تهديداً للمبطلين كأنه قيل : والله سميع لأقوالهم الباطلة ، عليم بأغراضهم الفاسدة فيجازيهم بحسب ذلك . ويحتمل أن يتعلق بما بعده كما في الوقوف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 2 صـ 142 . 145 ﴾

لطائف ونفائس

قال العلامة ابن القيم رحمه الله :

فصل في ذكر نكتة حسنة في هذا الحديث المطلوب فيه الصلاة عليه وعلى آله كما صلى على إبراهيم وعلى آله

وهي أن أكثر الأحاديث الصحاح والحسان ، بل كلها مصرحة بذكر النبي صلى الله عليه وسلم وبذكر آله ، وأما في حق المشبه به وهو إبراهيم وآله ، فإنما جاءت بذكر آل إبراهيم فقط دون ذكر إبراهيم ، أو بذكره فقط دون ذكر آله ، ولم يجئ حديث صحيح فيه لفظ إبراهيم وآل إبراهيم ، كما تظاهرت على لفظ : محمد وآل محمد .

ونحن نسوق الأحاديث الواردة في ذلك ، ثم نذكر ما يسره الله تعالى في سر ذلك . فنقول : هذا الحديث في الصحيح من أربعة أوجه : أشهرها ؟ حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : لقيني كعب بن عجرة فقال : ألا أهدي لك هدية ؟ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا : قد عرفنا كيف نسلم عليك ، فكيف نصلي عليك ؟ فقال : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك وفي لفظ : وبارك على محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

رواه البخاري ومسلم وأبو دود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد ابن حنبل في المسند ، وهذا لفظهم إلا الترمذي فإنه قال : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم فقط ، وكذا في البركة ، ولم يذكر الآل ، وهي رواية لأبي داود .

وفي رواية : كما صليت على آل إبراهيم بذكر الآل فقط ، وكما باركت على إبراهيم بذكره

فقط .

وفي الصحيحين من حديث أبي حميد الساعدي, قالوا : يا رسول الله كيف نصلي عليك ؟ قال : قولوا : "اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد" هذا هو اللفظ المشهور .

وقد روي فيه : كما صليت على إبراهيم, وكما باركت على إبراهيم بدون لفظ الآل في الموضعين .

(44/117)

وفي البخاري : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : قلنا يا رسول الله ، هذا السلام عليك فكيف الصلاة عليك ؟ قال : " قولوا اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم" .

وفي صحيح مسلم : عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه, قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في مجلس سعد بن عبادة ، فقال له بشير أبن سعد : أمرنا الله أن

نصلي عليك ، فكيف نصلي عليك ؟ قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد ، والسلام كما قد علمتم" .

وقد روي هذا الحديث بلفظ آخر : كما صليت على إبراهيم وكما باركت على إبراهيم لم يذكر الآل فيهما .

وفي رواية أخرى : كما صليت على إبراهيم وكما باركت على آل إبراهيم بذكر إبراهيم وحده في الأول والآل فقط في الثانية .

هذه هي الألفاظ المشهورة في هذه الأحاديث المشهورة ، في أكثرها لفظ : آل إبراهيم في الموضعين ، وفي بعضها لفظ : إبراهيم فيهما ، وفي بعضها لفظ : إبراهيم في الأول والآل في الثاني, وفي بعضها عكسه .

وأما الجمع بين إبراهيم وآل إبراهيم ، فرواه البيهقي في سننه : من حديث يحيى بن السباق عن رجل من بني الحارث ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : إذا تشهد أحدكم في الصلاة فليقل : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد وارحم محمداً وآل محمد ، كما صليت وباركت وترحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . وهذا إسناد ضعيف .

ورواه الدارقطني : من حديث ابن إسحاق ، حدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي ، عن محمد بن عبد الله بن يزيد بن عبد ربه ، عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه ، فذكر الحديث وفيه : اللهم صل على محمد النبي الأمي وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد النبي الأمي ، وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ثم قال : هذا إسناد حسن متصل .

وفي النسائي : من حديث موسى بن طلحة ، عن أبيه, قال : قلنا يا رسول الله كيف الصلاة عليك ؟ قال : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد ولكن رواه هكذا ، ورواه مقتصراً فيه على ذكر إبراهيم في الموضعين .

وقد روى ابن ماجه حديثاً آخر موقوفاً على ابن مسعود فيه ، إبراهيم وآل إبراهيم قال في السنن : حدثنا الحسين بن بيان ، حدثنا زياد بن عبد الله ، حدثنا المسعودي, عن عون بن عبد الله ، عن أبي فاخته ، عن الأسود بن يزيد ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ،

قال : "إذا صليتم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسنوا الصلاة عليه ، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه" ، قال : فقالوا له : فعلمنا ؟ قال : قولوا : "اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وخاتم النبيين ، محمد عبدك ورسولك إمام الخير ، وقائد الخير ، ورسول الرحمة ، اللهم أبعثه مقاماً محموداً يغبطه به الأولون والآخرون ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد" وهذا موقوف .

(46/117)

وعامة الأحاديث في الصحاح والسنن كما ذكرنا أولاً بالاقتصار على الآل ، أو إبراهيم في الموضعين ، أو الآل في أحدهما وإبراهيم في الآخر ، وكذلك في حديث أبي هريرة المتقدم في أول الكتاب وغيره من الأحاديث ، فحيث جاء ذكر إبراهيم وحده في الموضعين فلأنه الأصل في الصلاة المخبر بها ، وآله تبع له فيها ، فدل ذكر المتبوع على التابع ، واندرج فيه ، وأغنى عن ذكره . وحيث جاء ذكر آله فقط فلأنه داخل في آله كما تقدم تقريره ، فيكون ذكر آل إبراهيم مغنياً عن ذكره ، وذكر آله بلفظين ، وحيث جاء في أحدهما ذكره فقط وفي

الآخر ذكر آله فقط كان ذلك جمعاً بين الأمرين ، فيكون قد ذكر المتبوع الذي هو الأصل ، وذكر أتباعه بلفظ يدخل هو فيهم .

يبقى أن يقال ، فلم جاء ذكر محمد وآل محمد بالاقتران دون الاقتصار على أحدهما في عامة الأحاديث ، وجاء الاقتصار على إبراهيم وآله في عامتها ؟ .

(47/117)

وجواب ذلك : أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله ذكرت في مقام الطلب والدعاء ، وأما الصلاة على إبراهيم فإنما جاءت في مقام الخبر وذكر الواقع ، لأن قوله صلى الله عليه وسلم : "اللهم صل على محمد وعلى آل محمد" جملة طلبية ، وقوله : "كما صليت على آل إبراهيم" جملة خبرية ، والجملة الطلبية إذا وقعت موقع الدعاء والسؤال ، كان بسطها وتطويلها أنسب من اختصارها وحذفه ، ولهذا يشرع تكرارها ، وإبداؤها وإعادتها ، فإنها دعاء والله يحب الملحين في الدعاء ، ولهذا تجد كثيراً من أدعية النبي صلى الله عليه وسلم فيها من بسط الألفاظ ، وذكر كل معنى بصريح لفظه ، دون الاكتفاء بدلالة اللفظ الآخر عليه ، ما يشهد لذلك ، كقوله صلى الله عليه وسلم في حديث علي الذي رواه مسلم في صحيح : اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت, وما أسررت وما أعلنت

، وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ومعلوم أنه لو قيل : اغفر لي كل ما صنعت كان أوجز ، ولكن ألفاظ الحديث في مقام الدعاء والتضرع ، وإظهار العبودية والافتقار ، واستحضار الأنواع التي يتوب العبد منها تفصيلاً أحسن وأبلغ من الإيجاز والاختصار .

وكذلك قوله في الحديث الآخر : اللهم اغفر لي ذنبي كله ، دقه وجله سره وعلانيته ، وأوله وآخره, وفي الحديث : "اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني ، اللهم اغفر لي جدي وهزلي وخطئي وعمدي ، وكل ذلك عندي" .

(48/117)

وهذا كثير في الأدعية المأثورة ، فإن الدعاء عبودية لله ، وافتقار إليه ، وتذلل بين يديه ، فكلما كثره العبد وطوله وأعاده وأبداه ونوع جمله ، كان ذلك أبلغ في عبوديته وإظهار فقره وتذلله وحاجته ، وكان ذلك أقرب له من ربه ، وأعظم لثوابه ، وهذا بخلاف المخلوق ، فإنك كلما كثرت سؤاله وكررت حوائجك إليه أبرمته ، وثقلت عليه ، وهنت عليه ، وكلما تركت سؤاله كان أعظم عنده وأحب إليه . والله سبحانه كلما سألته كنت أقرب إليه وأحب إليه ، وكلما ألححت عليه في الدعاء أحبك ، ومن لم يسأله يغضب عليه :

فالله يغضب إن تركت سؤاله . . . وبني آدم حين يسأل يغضب

فالمطلوب يزيد بزيادة الطلب وينقص بنقصانه .

وأما الخبر فهو خبر عن أمر قد وقع وانقضى ، لا يحتمل الزيادة والنقصان ، فلم يكن في زيادة اللفظ فيه كبير فائدة ، ولا سيما ليس المقام مقام إيضاح وتفهيم للمخاطب ليحسن معه البسط والإطناب ، فكان الإيجاز فيه والاختصار أكمل وأحسن ، فلهذا جاء فيه بلفظ : إبراهيم تارة وبلفظ : آله أخرى ، لأن كلا اللفظين يدل على ما يدل عليه الآخر من الوجه الذي قدمناه ، فكان المراد باللفظين واحداً مع الإيجاز والاختصار . وأما في الطلب فلو قيل : صل على محمد لم يكن في هذا ما يدل على الصلاة على آله ، إذ هو طلب ودعاء ينشأ بهذا اللفظ ، ليس خبراً عن أمر قد وقع واستقر . ولو قيل : صل على آل محمد لكان النبي صلى الله عليه وسلم إنما يصلى عليه في العموم ، فقيل : على محمد وعلى آل محمد فإنه يحصل له بذلك الصلاة عليه بخصوصه ، والصلاة عليه بدخوله في آله .

(49/117)

وهنا للناس طريقتان في مثل هذا : أن يقال : هو داخل في آله مع اقترانه بذكره ، فيكون قد ذكر مرتين : مرة بخصوص ، ومرة في اللفظ العام ، وعلى هذا فيكون قد صلى عليه مرتين

خصوصاً وعموماً ، وهذا على أصل من يقول : إن العام إذا ذكر بعد الخاص كان متناولاً له أيضا ، ويكون الخاص قد ذكر مرتين ، مرة بخصوصه ، ومرة بدخوله في اللفظ العام ، وكذلك في ذكر الخاص بعد العام ، كقوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ البقرة : 98 ، وكقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ الأحزاب : 7

الطريقة الثانية : أن ذكره بلفظ الخاص يدل على أنه غير داخل في اللفظ العام ، فيكون ذكره بخصوصه مغنياً عن دخوله في اللفظ العام ، وعلى هذه الطريقة, فيكون في ذلك فوائد :

منها أنه لما كان من أشرف النوع العام ، أفرد بلفظ دال عليه بخصوصه ، كأنه باين النوع ، وتميز عنهم بما أوجب أن يتميز بلفظ يخصه ، فيكون ذلك تنبيهاً على اختصاصه ومزيته عن النوع الداخل في اللفظ العام .

الثانية : أنه يكون فيه تنبيه على أن الصلاة عليه أصل ، والصلاة على آله تبع له إنما نالوها بتبعيتهم له .

الثالثة : أن إفراده بالذكر يرفع عنه توهم التخصيص ، وأنه لا يجوز أن يكون مخصوصاً من اللفظ العام بل هو مراد قطعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ جلاء الأفهام صـ 225.232 ﴾ .

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : مالك هو ملك الوجود فلا وجود بالحقيقة إلا له ، تؤتي الوجود من تشاء وتنزع الوجود ممن تشاء ، فتخلق بعض الموجودات مستعداً للبقاء كالملائكة والإنسان ، توجد بعضها قابلاً للفناء كالنبات والحيوان غير الإنسان . ﴿ وتعز من تشاء ﴾ بعزة الوجود النوري ، ﴿ وتذل من تشاء ﴾ بذل القبض القهري ، بيدك الخير . ﴿ إنك على كل شيء قدير ﴾ تضمين للدعاء بذكر السبب كما يقال للجواد إنك الذي يقدر على إعطاء كل خير فأتنا وأعزنا يا مفيض كل خير ، ويا كاشف كل ضير .

(51/117)

تولج ليل ظلمات الصفات البشرية النفسانية في نهار أنوار الصفات الروحانية وبالعكس ، تخرج القلب الحي بالحياة الحقيقية من النفس الميتة ، وتخرج القلب الميت عن الحياة الحقيقية من النفس الحية بالحياة المجازية الحيوانية . لا يتخذ القلب المؤمن والروح والسر وصفاتها الكافرين من النفس الأمّارة والشيطان والهوى والدنيا أولياء من دون المؤمنين من القلب

والروح والسر ، ومن يفعل ذلك من القلوب فليس من أنوار الله وألطافه في شيء إلا أن تخافوا من هلاك النفوس . فالنفس مركب الروح فتواسوها كيلا تعجز عن السير في الرجوع وتهلك في الطريق من شدة الرياضات وكثرة المجاهدات . ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ أي من صفات قهره ﴿ قل إن تخفوا ما في صدوركم ﴾ من معاداة الحق في ضمن موالاة النفس ﴿ ويعلم ما في السموات ﴾ قلوبكم ﴿ وما في الأرض ﴾ نفوسكم ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت ﴾ أثر الخير والشر ظاهر في ذات المرء وصفاته ، وبحسب ذلك يبيض وجه قلبه أو يسود ولكنه في غفلة من هذا محجوب عنه بحجاب النفس والجسم كمثل نائم لدغته حية كحية الكفر والخصال الذميمة فلا يحس بها ما دام نائماً نوم الغفلة ، فإذا مات انتبه وأحس ، ثم أخبر عن طريق الوصول أنه في متابعة الرسول . واعلم أن للاتباع ثلاث درجات ، ولمحبة المحب ثلاث درجات ، ولمحبة الله للمحب التابع على حسب الاتباع ثلاث درجات . أما درجات الاتباع فالأولى درجة عوام المؤمنين وهي متابعة أعماله صلى الله عليه وسلم ، والثانية درجة الخواص وهي متابعة أخلاقه ، والثالثة درجة أخص الخواص وهي متابعة أحواله . وأما درجات محبة المحب فالأولى محبة العوام وهي مطالعة المنة من رؤية إحسان المحسن « جبلت القلوب على حب من أحسن إليها » وهذا حب يتغير بتغير الإحسان وهو لمتابعي الأعمال الذين يطمعون في الأجر على ما يعملون وفيه قال أبو الطيب

:

وما أنا بالباغي على الحب رشوة . . . ضعيف هوى يرجى عليه ثواب

(52/117)

والثانية محبة الخواص المتبعين للأخلاق الذين يحبونه إعظاماً وإجلالاً له ، ولأنه أهل لذلك كما قالت رابعة :

أحبك حبين حب الهوى . . . وحب لأنك أهل لذاكا

ويضطر هذا المحب في هذه الدرجة إلى إيثار الحق على غيره ، وهذا الحب يبقى على الأبد بقاء الكمال والجلال على السرمد وفيه قال :

سأعبد الله لا أرجو مثوبته . . . لكن تعبد إعظام وإجلال

والثالثة محبة أخص الخواص المتبعين للأحوال وهي الناشئة من الجذبة الإلهية في مكان من « كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف » وأهل هذه المحبة هم المستعدون لكمال المعرفة بسبق العناية ،

غذينا بالمحبة يوم قالت . . . له الدنيا أتينا طائعينا

وحقيقة هذه المحبة أن يفنى المحب بسطوتها وتبقى المحبة فيه بلا هو كما أن النار تفني الحطب بسطوتها وتبقى النار منه بلا هو .

(53/117)

وحقيقة هذه المحبة نار لا تبقي ولا تذر . وأما درجات محبة الله للعبد فاعلم أن كل صفة من صفات الله تعالى من العلم والقدرة والإرادة وغيرها فإنها لا تشبه في الحقيقة صفات المخلوقين ، حتى الوجود فإنه وإن عم الخالق والمخلوق إلا أن وجوده واجب بنفسه ووجود غيره ممكن في ذاته واجب به ، فليس في الكون إلا الله وأفعاله . قرأ القارى بين يدي الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير رحمه الله قوله : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ [المائدة : 54] فقال : بحق يحبهم لأنه لا يحب إلا نفسه فليس في الوجود إلا هو ، وما سواه فهو من صنعه . والصانع إذا مدح صنعه فقد مدح نفسه . والغرض أن محبة الله للخلق عائدة إليه حقيقة إلا أنه لما كان مرورها على الخلق فبحسب ذلك اختلفت مراتبها ، مع أنها صدرت عن محل واحد هو محل « كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف » فما تعلقت إلا بأهل المعرفة وذلك قوله : « فخلقت الخلق لأعرف » لكنها تعلقت بالعوام من أهل المعرفة بالرحمة ومشربهم الأعمال فقيل لهم ﴿ فاتبعوني ﴾ بالأعمال الصالحة ﴿ يحببكم الله ﴾ يخصكم بالرحمة

﴿ ويغفر لكم ﴾ ذنوبكم التي صدرت منكم على خلاف المتابعة . وتعلقت بالخاص من أهل المعرفة بالفضل ومشربهم الأخلاق فقيل لهم : ﴿ فاتبعوني ﴾ بمكارم الأخلاق يحببكم بالفضل يخصكم بتجلي صفات الجمال ﴿ ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ بستر ظلمة صفاتكم بأنوار صفاته . وتعلقت بالأخص من أهل المعرفة بالجذبات ومشربهم الأحوال فقيل لهم ﴿ فاتبعوني ﴾ ببذل الوجود ﴿ يحببكم الله ﴾ يخصكم بجذبكم إلى نفسه ﴿ ويغفر لكم ﴾ ذنوب وجودكم فيمحوكم عنكم ويثبتكم به كما قال : « فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً » فهم بين روضة المحو وغدير الإثبات أحياء غير أموات ، ويكون في هذا المقام المحب والمحبوب والمحبة واحداً كما أن الرائي في المرآة يشاهد ذاته بذاته وصفاته بصفاته فيكون الرائي والمرئي والرؤية واحداً . ﴿ قل أطيعوا الله والرسول ﴾ فإن متابعته صورة

جذبة الحق وصدف درّة محبته لكم . ﴿ إن الله اصطفى آدم ﴾ وذلك أن الله تعالى خلق العالمين سبعة أنواع : الجماد والمعدن والنبات والحيوان والنفوس والعقول والأرواح ، وجمع في آدم جميع الأنواع وخصه بتشريف ثامن هو تشريف ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ [ص

: 72] فهو المظهر لجميع آياته وصفاته وذاته وهو معنى جعله خليفة ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم « وإن الله خلق آدم على صورته » ثم ذكر خواص أولاد آدم نوحاً وآل إبراهيم وآل عمران والمراد بالآل كل مؤمن تقي ﴿ بعضها من بعض ﴾ بالوراثة الدينية « العلماء ورثة الأنبياء » فالعالم كشجرة وثمرتها أهل المعرفة ﴿ والله سميع ﴾ لدعائهم ﴿ عليم ﴾ بأحوالهم وخصالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 2 صـ 145 . 147﴾

(55/117)

قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان جل المقصود هنا بيان الكرامات في آل عمران لا سيما في الولادة ، وكان آدم الممثل به عليه الصلاة والسلام قد تقدم بيان أمره في سورة البقرة سورة الكتاب المثمر للعلم ، وكذا بيان كثير مما اصطفى به إبراهيم وآله عليهم الصلاة والسلام إذ كان معظم القصد بالكلام

لذريته ، وكان معظم المقصود من ذكر نوح عليه الصلاة والسلام كونه في عمود النسب ، وليس في أمر ولادته ما هو خارج عن العادة قال طاوياً لمن قبل : ﴿ إذ ﴾ أي اذكر جواباً لمن يجادلك في أمرهم ويسألك عن حالهم حين ﴿ قالت امرأة عمران ﴾ وهي حامل .

(56/117)

وقال الحرالي : لما كان من ذكر في الاصطفاء إنما ذكر توطئة لأمر عيسى عليه الصلاة والسلام اختص التفضيل بأمر عيسى عليه الصلاة والسلام دون سائر من ذكر معه ، وكان في هذه المناظرة بين الصورتين حظ من التكافؤ من حيث ذكر أمر خلق آدم عليه الصلاة والسلام في سورة البقرة ، فذكر خلق المثل المناظر له في السورة المناظرة لسورة البقرة وهي هذه السورة ، فعاد توقيت هذا القول إلى غاية هذا الاصطفاء ، فأنبأ عن ابتداء ما اختص منه بعيسى عليه الصلاة والسلام من قول أم مريم امرأة عمران حين أجرى على لسانها وأخطر بقلبها أن تجعل ما في بطنها نذراً ، ففصل ما به ختم من اصطفاء آل عمران ، ولذلك عرفت أم مريم في هذا الخطاب بأنها امرأة عمران ليلتئم التفصيل بجملته السابقة ﴿ رب إني نذرت لك ما في بطني ﴾ وكان نذر الولد شائعاً في بني إسرائيل إلا أنه كان عندهم معهوداً في الذكور لصلاحهم لسدانة بيت الله والقيام به ، فأكمل الله سبحانه وتعالى مريم لما كمل له

الرجال - كما قال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام "كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع " فذكر مريم بنت عمران عليها السلام ، فكان من كمالها خروج والدتها عنها ، وكان أصله من الأم التي لها الإشفاق ، فكان خروجها أكمل من خروج الولد لأنها لها في زمن الحمل والرضاع والتربية إلى أن يعقل الولد أباه فحينئذ يترقى إلى حزب أبيه ، ولذلك - والله سبحانه وتعالى أعلم - أري إبراهيم عليه الصلاة والسلاح ذبح ولده عند تمييزه ، وخرجت امرأة عمران عن حملها وهو في بطنها حين ما هو أعلق بها - انتهى .

ونذرته لله تعالى حال كونه ﴿ محرراً ﴾ أي لا اعتراض ولا حكم لأحد من الخلق عليه ، قال الحرالي : والتحرير طلب الحرية ، والحرية رفع اليد عن الشيء من كل وجه ، وفي الإتيان بصيغة التكثير والتكرير إشعار بمضي العزيمة في قطع الولاية عنه بالكلية لتسلم ولايته لله تعالى - انتهى .

﴿ فتقبل مني ﴾ ولما كان حسن إجابة المهتوف به الملتجأ إليه على حسب إحاطة سمعه وعلمه عللت سؤالها في التقبل بأن قصرت السمع والعلم عليه سبحانه فقالت : ﴿ إنك أنت ﴾ أي وحدك ﴿ السميع العليم ﴾ فقالت كما قال سلفها إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام ﴿ ربنا تقبل منا ﴾ [البقرة : 127] ، أي فلا يسمع أحد قولي مثل سمعك ، ولا يعلم أحد نيتي مثل علمك ولا أنا ، فإن كان فيهما شيء لا يصلح فتجاوز عنه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 69 . 70 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ مني إنك ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو . ﴿ بما وضعت ﴾ على الحكاية : ابن عامر ويعقوب وأبو بكر وحماد . الباقون ﴿ وضعت ﴾ على الغيبة . ﴿ وإني أعيذها ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع . ﴿ وكفلها ﴾ مشددة : عاصم وحمزة وعلي وخلف . الباقون خفيفاً ﴿ زكريا ﴾ مقصوراً كل القرآن : حمزة وعلي وخلف وعاصم غير أبي بكر وحماد . وقرأ أبو بكر وحماد بالمد والنصب ههنا . الباقون بالمد والرفع . ﴿ فناديه ﴾ بالياء والإمالة : علي وحمزة وخلف . الباقون ﴿ فنادته ﴾ بتاء التأنيث ﴿ في المحراب ﴾ بالإمالة حيث كان مخفوضاً . قتيبة وابن ذكوان ﴿ إن الله ﴾ بكسر " إن " : ابن عامر وحمزة . الباقون بالفتح . ﴿ يبشرك ﴾ وما بعده من البشارة خفيفاً : حمزة وعلي . الباقون بالتشديد ﴿ لي آية ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو وابن شنبوذ عن ابن كثير .

الوقوف : ﴿ مني ﴾ ج للابتداء ولاحتمال لأنك ﴿ العليم ﴾ ه ﴿ أنثى ﴾ ط لمن قرأ

﴿ بما وضعت ﴾ بتاء التأنيث الساكنة ، ومن قرأ على الحكاية لم يقف لأنه يجعلها من كلامها . ﴿ بما وضعت ﴾ ط ﴿ كالأنثى ﴾ ج للابتداء بأن ، ولاحتمال أن المجموع كلام واحد من قولها على قراءة من قرأ ﴿ وضعت ﴾ بالضم ﴿ الرجيم ﴾ ه ﴿ حسناً ﴾ ص لمن قرأ ﴿ وكفلها ﴾ مخففاً لتبدل فاعله ، فإن فاعل المخفف ﴿ زكريا ﴾ وفاعل المشدد الرب . وقد يعدى إلى مفعولين كقوله : ﴿ أكفلنيها ﴾ [ص : 23] ﴿ المحراب ﴾ (لا) لأن ﴿ وجد ﴾ جواب ﴿ كلما ﴾ ﴿ رزقاً ﴾ ج لاتحاد فاعل الفعلين مع عدم العاطف ﴿ هذا ﴾ ط ﴿ من عند الله ﴾ ط ﴿ حساب ﴾ ه ﴿ ربه ﴾ ج لما قلنا في ﴿ رزقاً ﴾ ﴿ طيبة ﴾ ج للابتداء ولجواز لأنك ﴿ الدعاء ﴾ ه ﴿ في المحراب ﴾ (لا) وإن كسر "إن" لأن من كسر جعل النداء في معنى القول ﴿ الصالحين ﴾ ه ﴿ عاقر ﴾ ط ﴿ ما يشاء ﴾ ه ﴿ آية ﴾ ط ﴿ والإبكار ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 2 صـ 148 ﴾

(58/117)

فصل

قال ابن عادل :

في الناصب لِ " إذْ " أوجه :

أحدها : أنه " اذكر " مقدَّرا ، فيكون مفعولاً به لا ظرفاً ، أي : اذكر لهم وقت قول امرأة عمران كيت وكيت وإليه ذهب ابو الحسن وأبو العباس .

الثاني : أن الناصب له معنى الاصطفاء ، أي : " اصْطَفَى " مقدَّرا مدلولاً عليه بـ " اصْطَفَى " الأوّل والتقدير : واصطفى آل عمران - إذ قالت امرأة عمران . وعلى هذا يكون قوله : ﴿ وَآلَ عِمْرَانَ ﴾ [آل عمران : 33] من باب عطف الجمل لا من باب عطف المفردات ؛ إذ لو جُعِل من عطف المفردات لزم أن يكون وقتُ اصطفاءِ آدمَ وقول امرأةِ عمران كيت وكيت ، وليس كذلك ؛ لتغاير الزمانيْن ، فلذلك اضطررنا إلى تقدير عامل غير هذا الملفوظِ به ، وإلى هذا ذَهَبَ الزَّجّاجُ وغيره .

الثالث : أنه منصوب بـ " سميع " وبه صرح ابن جرير الطبري ، وإليه نحا الزمخشري ؛ فإنه قال : سميع عليم لقول امرأة عمران ونِيَّتها ، و" إذْ " منصوب به .

قال أبو حيّان : ولا يَصِحُّ ذَلِكَ ؛ لأن قوله : ﴿ عَلِيمٌ ﴾ إمّا أن يكون خبراً بعد خبر ، أو وصفاً لقوله : " سميع " فإن كان خبراً فلا يجوز الفصل به بين العامل والمعمول ؛ لأنه أجنبيٌّ

عنهما ، وإن كان وَصْفاً فلا يجوز أن يَعْمَل ﴿ سَمِيعٌ ﴾ في الظرف ؛ لأنه قَدْ وُصِفَ ، واسم الفاعل وما جرى مجراه إذا وُصِفَ قَبْلَ معموله لا يجوز له – إذ ذاك – أن يعمل ، على خلاف لبعض الكوفيين في ذلك ؛ لأن اتصافه تعالى بـ ﴿ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ لا يتقيد بذلك الوقت .

قال شهابُ الدين : " وهذا القدر غيرُ مانع ؛ لأنه يُتَّسع في الظرف وعديله ما لا يُتَّسَع في غيره ، ولذلك تقدم على ما في خبر " أل " الموصولة وما في خبر " أن " المصدرية " .

وأما كونه – تعالى – سميعاً عليماً لا يتقيد بذلك الوقت ، فإن سَمْعَه لذلك الكلام مقيّد بوجود ذلك الكلام ، وعلمه – تعالى – بأنها تذكر مقيّد بذكرها لذلك ، والتغيُّر في السمع والعلم ، إنما هو في النسب والتعلُّقات .

الرابع : أن تكون " إذْ " زائدةً ، وهو قول أبي عُبَيْدَةَ ، والتقدير : قالت امرأة عمرانَ ، وهذا غلط من النحويين ، قال الزّجّاج لم يصنع أبو عبيدة في هذا شيئاً ؛ لأن إلغاء حرفٍ من كتاب الله تعالى – من غير ضرورةٍ لا يجوز ، وكان أبو عبيدة يُضَعَّفُ في النحو .

الخامس : قال الأخفش والمُبَرِّد : التقدير : " ألم تر إذْ قالت امرأة عمران ، ومثله في كتاب الله كثير " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 167 . 168 ﴾

سؤال : فإن قيل : إن الله سميع عليم قبل أن قالت المرأة هذا القول ، فما معنى هذا التقييد ؟

قلنا : إن سمعه تعالى لذلك الكلام مقيد بوجود ذلك الكلام وعلمه تعالى بأنها تذكر ذلك مقيد بذكرها لذلك والتغير في العلم والسمع إنما يقع في النسب والمتعلقات . انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 22 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

(60/117)

امرأة عمران هي حَنَّة بنت فاقوذا أم مريم ، وهي حنة - بالحاء المهملة والنون - وجدة عيسى - عليه السلام - وليس باسم عربي .

قال القرطبيُّ : " ولا يُعْرَف في العربية " حنة " : اسم امرأة - وفي العرب أبو حنة البدريّ ، ويقال فيه أبو حبة - بالباء الموحَّدة - وهو أصح ، واسمه عامر ، ودير حنة بالشام ، ودير آخر أيضاً يقال له كذلك .

قال أبو نواس :

يَا دير حَنَّةَ مِنْ ذَاتِ الأُكَيْرَاحِ . . . مَنْ يَصْحُ عَنْكِ فَإِنِّي لَسْتُ بِالصَّاحِي

وفي العرب كثير ، منهم أبو حبة الأنصاريّ وأبو السنا بل بن بعْكك - المذكور في حديث

سبيعة الأسلمية ، ولا يعرف " خَنَّة " - بالخاء المعجمة - إلا بنت يحيى بن أكثم ، وهي أم محمد بن نصر ، ولا يُعْرَف "جَنَّة" - بالجيم - إلاَّ أبو جنة وهو خال ذي الرمة الشاعر ، نقل هذا كله ابن ُماكولا " .

وعمران بن ماثان ، وليس بعمران أبي موسى ، وبينهما ألف وثمانمائة سنة ، وكان بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم وملوكهم .

وقيل : عمران بن أشهم ، وكان زكريا قد تزوَّج إيشاع بنت فاقوذ ، وهي أخت حنة أم مريم ، فكان يحيى بن زكريا ومريم عليهما السلام ولدي خالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 168. 169 ﴾

فصل

قال الفخر :

في كيفية هذا النذر روايات :

الرواية الأولى : قال عكرمة .

إنها كانت عاقراً لا تلد ، وكانت تغبط النساء بالأولاد ، ثم قالت : اللّهم إن لك علي نذراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس ليكون من سدنته .

والرواية الثانية : قال محمد بن إسحاق : إن أم مريم ما كان يحصل لها ولد حتى شاخت ، وكانت يوماً في ظل شجرة فرأت طائراً يطعم فرخاً له فتحركت نفسها للولد ، فدعت ربها أن يهب لها ولداً فحملت بمريم ، وهلك عمران ، فلما عرفت جعلته لله محرراً ، أي خادماً للمسجد ، قال الحسن البصري : إنها إنما فعلت ذلك بإلهام من الله ولولاه ما فعلت كما رأى إبراهيم ذبح ابنه في المنام فعلم أن ذلك أمر من الله وإن لم يكن عن وحي ، وكما ألهم الله أم موسى فقذفته في اليم وليس بوحي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 22 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ مَا فِي بَطْنِي ﴾ أتى بـ " ما " التي لغير العاقلِ ؛ لأن ما في بطنها مُبْهَمٌ أمرُه ، والمُبْهَم أمره يجوز أن يُعَبَّر عنه بـ " ما " .

ومثاله أن تقول إذا رأيتَ شبحاً من بعيد لا تدري إنسان هو أم غيره : ما هذا ؟ ولو عرفته إنساناً وجهلت كونه ذكراً أو أنثى ، قلت : ما هو أيضاً ؟ والآية من هذا القبيل ، هذا عند مَنْ يرى أن " ما " مخصوصة بغير العاقل ، وأما من يرى وقوعها على العقلاء ، فلا يتأوَّل شيئاً .

وقيل : إنه لما كان ما في البطن لا تمييز له ولا عقل عبر عنه بـ " ما " التي لغير العُقَلاء . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 171 ﴾

فصل

قال الفخر :

(62/117)

المحرر الذي جعل حراً خالصاً ، يقال : حررت العبد إذا خلصته عن الرق ، وحررت الكتاب إذا أصلحته ، وخلصته فلم تبق فيه شيئاً من وجوه الغلط ، ورجل حر إذا كان خالصاً لنفسه ليس لأحد عليه تعلق ، والطين الحر الخالص عن الرمل والحجارة والحمأة والعيوب أما التفسير فقيل مخلصاً للعبادة عن الشعبي ، وقيل : خادماً للبيعة ، وقيل : عتيقاً من أمر الدنيا لطاعة الله ، وقيل : خادماً لمن يدرس الكتاب ، ويعلم في البيع ، والمعنى أنها نذرت أن تجعل ذلك الولد وقفاً على طاعة الله ، قال الأصم : لم يكن لبني إسرائيل غنيمة ولا سبي ، فكان تحريرهم جعلهم أولادهم على الصفة التي ذكرنا ، وذلك لأنه كان الأمر في دينهم أن الولد إذا صار بحيث يمكن استخدامه كان يجب عليه خدمة الأبوين ، فكانوا بالنذر يتركون ذلك النوع من الانتفاع ، ويجعلونهم محررين لخدمة المسجد وطاعة الله تعالى ، وقيل : كان المحرر يجعل في الكنيسة يقوم بخدمتها حتى يبلغ الحلم ، ثم يخير بين المقام

والذهاب ، فإن أبى المقام وأراد أن يذهب ذهب ، وإن اختار المقام فليس له بعد ذلك خيار ، ولم يكن نبي إلا ومن نسله محرر في بيت المقدس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 23 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

قوله : " مُحَرَّراً " في نَصبه أوجه :

أحدها : أنها حال من الموصول - وهو ﴿ مَا فِي بَطْنِي ﴾ - فالعامل فيها " نذرت " .

الثاني : أنه حال من الضمير المرفوع بالجار ؛ لوقوعه صلة " ما " وهو قريب من الأول ، فالعامل الاستقرار الذي تضمنه الجار والمجرور .

(63/117)

الثالث : أن ينتصب على المصدر ؛ لأن المصدر يَأتي على زِنَةِ اسم المفعول من الفعل الزَّائد على ثلاثة أحرف ، وعلى هذا ، فيجوز أن يكون في الكلام حذف مُضاف ، تقديره : نذرت لُك ما في بطني نَذْرَ تحرير ، ويجوز أن يكون " ما " انتصب على المعنى ؛ لأن معنى ﴿ نَذَرْتُ لَكَ ﴾ : حرَّرتُ لك ما في بطني تحريراً ، ومن مجيء المصدر بزنة المفعول مما زاد

على الثلاثي قوله : ﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ [سبأ : 19] وقوله : ﴿ وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج : 18] - في قراءة من فتح الراء - أي : كلَّ تمزيق ، فما له من إكرام .

ومثله قول : [الوافر]

أَلَمْ تَعْلَمْ مُسَرَّحِيَ الْقَوَافِي . . . فَلاَ عِيًّا بِهِنَّ وَلاَ اجْتِلاَبَا

أي تسريحي القوافي .

الرابع : أن يكون نعتاً لمفعول محذوفٍ ، تقديره : غلاماً مُحَرَّراً ، قاله مكيٌّ بن أبي طالب - وجعل ابنُ عطية ، في هذا القول نظراً .

قال شهاب الدين : " وجه النظر فيه أن " نذر " قد أخذ مفعوله - وهو قوله : ﴿ مَا فِي بَطْنِي ﴾ فلم يتعد إلى مفعول آخرَ ، وهو نظر صحيح " .

وعلى القول بأنها حال يجوز أن تكون حالاً مقارنة إن أريد بالتحرير معنى العِتْق ومقدرة معنى خدمة الكنيسة - كما جاء في التفسير ، ووقف أبو عمرو والكسائي على " امرأة " بالهاء - دون التاء - وقد كتبوا " امرأة " بالتاء وقياسها الهاء هاهنا وفي يوسف " امرأة العزيز " موضعين - وامرأة نوح ، وامرأة لوط ، وامرأة فرعون ، وأهل المدينة يقفون بالتاء ؛ إتباعاً لرسم المصحف ، وهي لغة للعرب يقولون في حمزة : حمزت .

وأنشدوا :

وَاللهُ نَجَّاكَ بِكَفَّيْ مَسْلَمَتْ . . . مِنْ بَعْدِمَا وَبَعْدِمَا وَبَعْدِمَتْ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

ابن عادل حـ 5 صـ 170.169 ﴾

فائدة

قال الفخر :

(64/117)

هذا التحرير لم يكن جائزاً إلا في الغلمان أما الجارية فكانت لا تصلح لذلك لما يصيبها من الحيض ، والأذى ، ثم إن حنة نذرت مطلقاً إما لأنها بنت الأمر على التقدير ، أو لأنها جعلت ذلك النذر وسيلة إلى طلب الذكر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 23 ﴾

فصل فى حقيقة النذر

قال ابن العربى :

هُوَ الْتِزَامُ الْفِعْلِ بِالْقَوْلِ مِمَّا يَكُونُ طَاعَةً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، مِنْ الْأَعْمَالِ قُرْبَةً .

وَلَا يَلْزَمُ نَذْرُ الْمُبَاحِ .

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ مَا رُوِيَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى أَبَا إسْرَائِيلَ قَائِمًا : فَسَأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا : نَذَرَ أَنْ يَقُومَ وَلَا يَقْعُدَ وَلَا يَسْتَظِلَّ وَيَصُومَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ : ﴿ مُرُوهُ فَلْيَصُمْ وَلْيَقْعُدْ وَلْيَسْتَظِلَّ ﴾ ؛ فَأَخْبَرَهُ بِإِتْمَامِ الْعِبَادَةِ وَنَهَاهُ عَنْ فِعْلِ الْمُبَاحِ.

وَأَمَّا الْمَعْصِيَةُ فَهِيَ سَاقِطَةٌ إجْمَاعًا ؛ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 1 صـ 352 ﴾

وقال ابن عادل :

والنذر ما يوجبه الإنسان على نفسه وهذا النوع من النَّذْر كان في بني إسرائيل ، ولم يوجَد في شرعنا .

قال ابن العربي : " لا خلاف أن امرأة عمران لا يتطرق إلى حَمْلِها نذرٌ ؛ لكونها حُرَّةً ، فلو كانت امرأته أَمَةً فلا خلاف أن المرء لا يصح له نذر في ولده . وكيفما تصرفت حاله فإنه إن كان الناذرُ عبداً فلم يتقرر وله في ذلك ، وإن كان حُرًّا ، فلا يصح أن يكون ، مملوكاً له ، وكذلك المرأة مثله ، فأي وجه للنذر فيه ؟ وإنما معناه - والله أعلم - أن المرء إنما يريدُ وَلَده للأنس به والتسلّي ، والاستنصار ، فطلبت هذه المرأة أنساً به ، وسُكوناً إليه ، فلمّا مَنَّ الله - تعالى - عليها به نذرَتْ أن حظها من الأنس متروك فيه ، وهو على خدمة الله - تعالى - موقوفٌ ، وهذا نَذْر الأحرار من الأبرار ، وأرادت به مُحَرَّراً من جهتي رق الدنيا وأشغالها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 170 . 171 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنّي إِنَّكَ أَنتَ السميع العليم ﴾

قال الفخر :

التقبل : أخذ الشيء على الرضا ، قال الواحدي : وأصله من المقابلة لأنه يقبل بالجزاء ، وهذا كلام من لا يريد بما فعله إلا الطلب لرضا الله تعالى والإخلاص في عبادته ، ثم قالت ﴿ إِنَّكَ أَنتَ السميع العليم ﴾ والمعنى : أنك أنت السميع لتضرعي ودعائي وندائي ، العليم بما في ضميري وقلبي ونيتي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 23 ﴾

(65/117)

من فوائد العلامة الآلوسى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِذْ قَالَتِ امرأت عمران ﴾ تقرير للاصطفاء وبيان لكيفيته ، والظرف في حيز النصب على المفعولية بفعل محذوف أي اذكر لهم وقت قولها ، وقيل : هو منصوب على الظرفية لما قبله ، وهو ﴿ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : 34] على سبيل التنازل أو السميع ولا يضر الفصل بينهما بالأجنبي لتوسعهم في الظروف ، وقيل : هو ظرف لمعنى الاصطفاء المدلول عليه باصطفى المذكور كأنه قيل : واصطفى آل عمران . ﴿ إِذْ قَالَتِ ﴾ الخ فكان من

عطف الجمل لا المفردات على المفردات ليلزم كون اصطفاء الكل في ذلك الوقت ، وامرأة عمران هي حنة بنت فاقوذا كما رواه إسحق بن بشر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه ، والحاكم عن أبي هريرة وهي جدة عيسى عليه الصلاة والسلام وكان لها أخت اسمها إيشاع تزوجها زكريا عليه الصلاة والسلام هي أم يحيى فعيسى ابن خالة يحيى كما ذكر ذلك غير واحد من الإخباريين ويشكل عليه ما أخرجه الشيخان في حديث المعراج من قوله صلى الله عليه وسلم : " فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ، ويحيى بن زكريا " وأجاب صاحب "التقريب" بأن الحديث مخرج على المجاز فإنه كثيراً ما يطلق الرجل اسم الخالة على بنت خالته لكرامتها عليه ، والغرض أن بينهما عليهما الصلاة والسلام هذه الجهة من القرابة وهي جهة الخؤلة ، وقيل : كانت إيشاع أخت حنة من الأم وأخت مريم من الأب على أن عمران نكح أولاً أم حنة فولدت له إيشاع ثم نكح حنة بناءاً على حل نكاح الربائب في شريعتهم فولدت مريم فكانت إيشاع أخت مريم من الأب وخالتها من الأم لأنها أخت حنة من الأم ، وفيه أنه مخالف لما ذكره محيي السنة من أن إيشاع وحنة بنتا فاقوذا على أنه بعيد لعدم الرواية في الأمرين . أخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن حنة امرأة عمران كانت حبست عن الولد والمحيض فبينا هي ذات يوم في ظل شجرة إذ نظرت إلى طير يزق فرخاً له فتحركت نفسها للولد فدعت الله تعالى أن يهب لها ذكراً فحاضت من

ساعتها فلما طهرت أتاها زوجها فلما أيقنت بالولد قالت : لئن نجاني الله تعالى ووضعت ما في بطني لأجعلنه محرراً ولم يكن يحرر في ذلك الزمان إلا الغلمان فقال لها زوجها : أرأيت إن كان ما في بطنك أنثى والأنثى عورة فكيف تصنعين ؟ فاغتمت لذلك فقالت عند ذلك :

﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ﴾ وهذا في الحقيقة استدعاء للولد الذكر لعدم قبول الأنثى فيكون المعنى رب إني نذرت لك ما في بطني فاجعله ذكراً على حد أعتق عبدك عني وجعله بعض الأئمة تأكيداً لنذرها وإخراجاً له عن صورة التعليق إلى هيئة التنجيز واللام من ﴿ لَكَ ﴾ للتعليل ، والمراد لخدمة بيتك والمحرر من لا يعمل للدنيا ولا يتزوج ويتفرغ لعمل الآخرة ويعبد الله تعالى ويكون في خدمة الكنيسة قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقال مجاهد : المحرر الخادم للبيعة ، وفي رواية عند الخالص الذي لا يخالطه شيء من أمر الدنيا ، وقال محمد بن جعفر بن الزبير : أرادت عتيقاً خالصاً لطاعتك لا أصرفه في حوائجي ، وعلى كل هو من الحرية وهي ضربان أن لا يجري عليه حكم السبي وأن لا تتملكه الأخلاق الرديئة والرذائل الدنيوية .

وانتصابه على الحالية من ﴿ مَا ﴾ والعامل فيه ﴿ نَذَرْتُ ﴾ ؛ وقيل : من الضمير الذي في الجار والمجرور ، والعامل فيه حينئذ الاستقرار ولا يخفى رجحان الوجه الأول والحال إما مقدرة أو مصاحبة ، وجوز أبو حيان أن ينصب على المصدر أي تحريراً لأنه بمعنى النذر ، وتأكيد الجملة للإيذان بوفور الرغبة في مضمونها وتقديم الجار والمجرور لكمال الاعتناء به والتعبير عن الولد بما لإبهام أمره وقصوره عن درجة العقلاء ، والتقبل أخذ الشيء على وجه الرضا وأصله المقابلة بالجزاء وتقبل هنا بمعنى اقبل .

﴿ إِنَّكَ أَنتَ السميع ﴾ لسائر المسموعات فتسمع دعائي ﴿ العليم ﴾ بما كان ويكون فتعلم نيتي وهو تعليل لاستدعاء القبول من حيث إن علمه تعالى بصحة نيتها وإخلاصها مستدع لذلك تفضلاً وإحساناً ، وتأكيد الجملة لغرض قوة يقينها بمضمونها وقصر صفتي السمع والعلم عليه تعالى لغرض اختصاص دعائها وانقطاع حبل رجائها عما عداه سبحانه بالكلية مبالغة في الضراعة والابتهال قاله شيخ الإسلام وتقديم صفة السمع لأن متعلقاتها وإن كانت غير متناهية إلا أنها ليست كمتعلقات صفة العلم في الكثرة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 133.134 ﴾

(67/117)

فائدة

قال الجصاص :

قَوْلُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ رُوِيَ عَنْ الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ قَالَ : " مُخْلَصًا لِلْعِبَادَةِ " ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : " خَادِمًا لِلْبِيعَةِ " .

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ : " عَتِيقًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا لِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى " .

وَالتَّحْرِيرُ يَنْصَرِفُ عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : الْعِتْقُ ، مِنْ الْحُرِّيَّةِ .

وَالْآخَرُ : تَحْرِيرُ الْكِتَابِ ، وَهُوَ إخْلَاصُهُ مِنْ الْفَسَادِ وَالِاضْطِرَابِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ إذَا أَرَادَتْ مُخْلَصًا لِلْعِبَادَةِ أَنَّهَا تُنْشِئُهُ عَلَى ذَلِكَ وَتَشْغَلُهُ بِهَا دُونَ غَيْرِهَا ، وَإِذَا أَرَادَتْ بِهِ أَنَّهَا تَجْعَلُهُ خَادِمًا لِلْبِيعَةِ أَوْ عَتِيقًا لِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّ مَعَانِيَ جَمِيعِ ذَلِكَ مُتَقَارِبَةٌ ، كَانَ نَذْرًا مِنْ قِبَلِهَا نَذَرَتْهُ لِلَّهِ تَعَالَى بِقَوْلِهَا : نَذَرْتُهُ ثُمَّ قَالَتْ : ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّي إنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وَالنَّذْرُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ صَحِيحٌ فِي شَرِيعَتِنَا أَيْضًا بِأَنْ يَنْذِرَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُنَشِّئَ ابْنَهُ الصَّغِيرَ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ ، وَأَنْ لَا يَشْغَلَهُ بِغَيْرِهِمَا ، وَأَنْ يُعَلِّمَهُ الْقُرْآنَ وَالْفِقْهَ وَعُلُومَ الدِّينِ .

وَجَمِيعُ ذَلِكَ نُذُورٌ صَحِيحَةٌ ؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ قُرْبَةً إلَى اللَّهِ تَعَالَى .

وَقَوْلُهَا : ﴿ نَذَرْتُ لَكَ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَقْتَضِي الْإِيجَابَ ، وَأَنَّ مَنْ نَذَرَ لِلَّهِ تَعَالَى قُرْبَةً يَلْزَمُهُ الْوَفَاءُ بِهَا .

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ النُّذُورَ تَتَعَلَّقُ عَلَى الْأَخْطَارِ وَعَلَى أَوْقَاتٍ مُسْتَقْبَلَةٍ ؛ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ قَوْلَهَا : ﴿ نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ أَرَادَتْ بِهِ بَعْدَ الْوِلَادَةِ وَبُلُوغِ الْوَقْتِ الَّذِي يَجُوزُ فِي مِثْلِهِ أَنْ يَخْلُصَ لِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى .

وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَى جَوَازِ النَّذْرِ بِالْمَجْهُولِ ؛ لِأَنَّهَا نَذَرَتْهُ وَهِيَ لَا تَدْرِي ذَكَرٌ هُوَ أَمْ أُنْثَى .

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِلْأُمِّ ضَرْبًا

مِنْ الْوِلَايَةِ عَلَى الْوَلَدِ فِي تَأْدِيبِهِ وَتَعْلِيمِهِ وَإِمْسَاكِهِ وَتَرْبِيَتِهِ ، لَوْلَا أَنَّهَا تَمْلِكُ ذَلِكَ لَمَا نَذَرَتْهُ فِي وَلَدِهَا .

وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ لِلْأُمِّ تَسْمِيَةَ وَلَدِهَا وَتَكُونُ تَسْمِيَةً صَحِيحَةً ، وَإِنْ لَمْ يُسَمِّهِ الْأَبُ ؛ لِأَنَّهَا قَالَتْ : ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ وَأَثْبَتَ اللَّهُ تَعَالَى لِوَلَدِهَا هَذَا الِاسْمَ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 2 صـ 291 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

وعندما تقرأ " إذ " فلتعلم أنها ظرف ويُقدر لها في اللغة " اذكر " ، ويقال " إذ جئتك " أي " اذكر أني جئتك " . وعندما يقول الحق : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ ﴾ فبعض الناس من أهل الفتح والفهم يرون أن الحق سبحانه سميع عليم وقت أن قالت امرأة عمران : " رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي " ، وهم يحاولون أن يربطوا هذه الآية بما جاء قبلها ، بأن الله سميع وعليم . ونقف عند قول امرأة عمران : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ . إننا عندما نسمع كلمة " مُحَرَّرًا " فمعناها أنه غير مملوك لأحد فإذا قلنا : " حررت العبد " يعني ينصرف دون قيد عليه . أو " حررت الكتاب " أصلحت ما فيه . إن تحرير أي أمر ، هو إصلاح ما فيه من فساد أو إطلاقه من أي ارتباط أو قيد . أما قولها : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ هو مناجاة لله ، فما الدافع إلى هذه المناجاة لله ؟

إن امرأة عمران موجودة في بيئة ترى الناس تعتز بأولادها ، وأولاد الناس – كما نعلم – يحكمون حركة الناس ، والناس تحكم حركة أولادهم ، ويكد الناس من أجل أن يكون الأبناء عزوة ، وقرة عين ، ويتقدم المجتمع بذلك التواصل المادي ، ولم تعجب امرأة عمران

بذلك ، لقد أرادت ما في بطنها محررا من كل ذلك ، إنها تريده محررا منها ، وهي محررة منه . وهذا يعني أنها ترغب في أن يكون ما في بطنها غير مرتبط بشيء أو بحب أو برعاية .

(70/117)

لماذا ؟ لأن الإنسان مهما وصل إلى مرتبة اليقين ، فإن المسائل التي تتصل بالناس وبه ، تمر عليه ، وتشغله ، لذلك أرادت امرأة عمران أن يكون ما في بطنها محررا من كل ذلك ، وقد يقال : إن امرأة عمران إنما تتحكم بهذا النذر في ذات إنسانية كذاتها ، ونرد على ذلك بما يلي :

لقد كانوا قديما عندما ينذرون ابنا للبيت المقدس فهذا النذر يستمر ما دامت لهم الولاية عليه ، ويظل كما أرادوا إلى أن يبلغ سن الرشد ، وعند بلوغ سن الرشد فإن للابن أن يختار بين أن يظل كما أراد والداه أو أن يحيا حياته كما يريد .

إن بلوغ سن الرشد هو اعتراف بذاتية الإنسان في اتخاذ القرار المناسب لحياته . كانت امرأة عمران لا تريد مما في بطنها أن يكون قرة عين ، أو أن يكون معها ، إنها تريده محررا لخدمة البيت المقدس ، وكان يستلزم ذلك في التصور البشري أن يكون المولود ذكرا ؛ لأن الذي كان يقوم بخدمة البيت هم الذكران .

ونحن نعرف أن كلمة " الولد " يطلق أيضا على البنت ، ولكن الاستعمال الشائع ، هو أن يطلق الناس كلمة " ولد " على الذكر .

لكن معنى الولد لغويا هو المولود سواء أكان ذكرا أم أنثى . وعندما نسمع كلمة " نذر " فلنفهم أنها أمر أريد به الطاعة فوق تكليف المكلف من جنس ما كلّفه به الله .

إن الله قد فرض علينا خمس صلوات ، فإذا نذر إنسان أن يصلي عددا من الركعات فوق ذلك ، فإن الإنسان يكون قد ألزم نفسه بأمر أكثر مما ألزمه به الله ، وهو من جنس ما كلف الله وهو الصلاة . والله قد فرض صيام شهر رمضان ، فإذا ما نذر إنسان أن يصوم يومي الاثنين والخميس أو صيام شهرين فالإنسان حر ، ولكنه يختار نذرا من جنس ما فرض الله من تكاليف ، وهو الصيام . والله فرض زكاة قدرها باثنين ونصف بالمائة ، ولكن الإنسان قد ينذر فوق ذلك ، كمقدار عشرة بالمائة أو حتى خمسين بالمائة .

(71/117)

إن الإنسان حر ، ولكنه يختار نذرا من جنس ما فرض الله من تكاليف ، إن النذر هو زيادة عما كلف المكلف من جنس ما كلف سبحانه . وكلمة " نذرت " من ضمن معانيها هو أن امرأة عمران سيدة تقية وورعة ولم تكن مجبرة على النذر ، ولكنها فعلت ذلك ، وهو أمر

زائد من أجل خدمة بيت الله .

والنذر كما نعلم يعبر عن عشق العبد لتكاليف الله ، فيلزم نفسه بالكثير من بعضها .

ودعت امرأة عمران الله من بعد ذلك بقبول ذلك النذر فقالت : " فتقبل مني " . " والتقبل " هو أخذ الشيء برضا ، لأنك قد تأخذ بكره ، أو تأخذ على مضض ، أما أن " تتقبل " فذلك يعني الأخذ بقبول وبرضا . واستجابة لهذا الدعاء جاء قول الحق :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾

[آل عمران : 37] .

ونلاحظ أن امرأة عمران قالت في أول ما قالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ، ولم تقل : " يا الله " وهذا لنعلم أن الرب هو المتولي التربية ، فساعة ينادي " ربي " فالمفهوم فيها التربية . وساعة يُنادي بـ " الله " فالمفهوم فيها التكليف . إن " الله " نداء للمعبود الذي يطاع فيما يكلف به ، أما " رب " فهو المتولي التربية .

قالت امرأة عمران : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ . هذا هو الدعاء ، وهكذا كانت الاستجابة : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ وبعد ذلك تكلم الحق عن الأشياء التي تكون من جهة التربية . ﴿ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا . . وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ . كل ذلك متعلق بالتربية وبالربوبية ، فساعة نادت امرأة

عمران عرفت كيف تنادي ونذرت ما في بطنها . وبعد ذلك جاء الجواب من جنس ما دعت بقمة القبول وهو الأخذ برضا .

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ .

(72/117)

فالحسن هنا هو زيادة في الرضا ، لأن كلمة " قبول " تعطينا معنى الأخذ بالرضا ، وكلمة " حسن " توضح أن هناك زيادة في الرضا ، وذلك مما يدل على أن الله قد أخذ ما قدمته امرأة عمران برضا ، وبشيء حسن ، وهذا دليل على أن الناس ستلمح في تربيتها شيئا فوق الرضا ، إنه ليس قبولا عاديا ، إنه قبول حسن . ﴿ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً ﴾ . مما يدل على أن امرأة عمران كانت تقصد حين نذرت ما في بطنها ، ألا تربي ما في بطنها إلى العمر الذي يستطيع فيه المولود أن يخدم في بيت الله . ولكنها نذرت ما في بطنها من اللحظة الأولى للميلاد . إنها لن تتنعم بالمولود ، ولذلك قال الحق : ﴿ وكفلها زكريا ﴾ ، وزكريا هو زوج خالة السيدة مريم . وبعد دعاء امرأة عمران ، يجيء القول الحكيم : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى ص 1435.1432 ﴾

(73/117)

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (36) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أخبر بما اقتضى مضى عزمها قبل الوضع أخبر بتحقيقه بعده فقال : ﴿ فلما وضعتها قالت ﴾ أي تحسراً ذاكرة وصف الإحسان استمطاراً للامتنان ﴿ رب إني وضعتها ﴾ قال الحرالي : من الوضع وهو إلقاء الشيء المستثقل ﴿ أنثى ﴾ هي أدنى زوجي الحيوان المتناكح - انتهى .

ولما كان الإخبار عادة إنما هو لمن لا يعلم الخبر بينت أن أمر الله سبحانه وتعالى ليس كذلك ، لأن المقصود بإخباره ليس مضمون الخبر وإنما هو شيء من لوازمه وهنا التحسر فقالت :

﴿ والله ﴾ أي الذي له صفات الكمال .

(74/117)

ولما كان المراد التعجيب من هذه المولودة بأنها من خوارق العادات عبرت عنها بما فقالت : ﴿ أعلم بما وضعت ﴾ وعبرت بالاسم الأعظم موضع ضمير الخطاب إشارة إلى السؤال في أن يهبها من كماله ويرزقها من هيبته وجلاله ، وفي قراءة إسكان التاء الذي هو إخبار من الله سبحانه وتعالى عنها - كما قال الحرالي - إلاحة معنى أن مريم عليها الصلاة والسلام وإن كان ظاهرها الأنوثة ففيها حقيقة المعنى الذي ألحقها بالرجال في الكمال ، حتى كانت ممن كمل من النساء لما لا يصل إليه كثير من رجال عالمها ، فكان في إشعاره أن الموضوع كان ظاهره ذكراً وحقيقته أنثى .

ولما كان مقصودها مع إمضاء نذرها بعد تحقق كونها أنثى التحسر على ما فاتها من الأجر في خدمة البيت المقدس بما يقابل فضل قوة الذكر على الأنثى وصلاحيته للخدمة في كل أحواله قالت : ﴿ وليس الذكر ﴾ أي الذي هو معتاد للنذر وكنت أحب أن تهبه لي لأفوز بمثل أجره في هذا الفرض في قوته وسلامته من العوارض المانعة من المكث في المسجد ومخالطة القومة ﴿ كالأنثى ﴾ التي وضعتها ، وهي داخلة في عموم النذر بحكم الإطلاق في الضعف وعارض الحيض ونحوه فلا ينقص يا رب أجري بسبب ذلك ، ولو قالت : وليست الأنثى كالذكر ، لفهم أن مرادها أن نذرها لم يشملها فلاحق للمسجد فيها من جهة الخدمة .

قال الحرالي : وفي إشعار هذا القول تفصل مما تتخوفه أن لا يكون ما وضعته كفافاً لنذرها ،

لما شهدت من ظاهر أنوثة ما وضعت ، فجعلها الله سبحانه وتعالى لها أكمل مما اشتملت عليه عزيمتها من رتبة الذكورة التي كانت تعهدها ، فكانت مريم عليها السلام أتم من معهود نذرها مزيد فضل من ربها عليها بعد وفاء حقيقة مقصودها في نذرها - انتهى .

(75/117)

ويجوز أن يكون هذا من كلام الله سبحانه وتعالى كالحالية التي قبله إذا أسكنت التاء ، والتقدير : قالت كذا والحال أن الله أعلم منها بما وضعت ، والحال أيضاً أنه ليس الذكر الذي أرادته بحكم معتاد النذر كالأنثى التي وهبت لها فدخلت فيه بحكم إطلاقه ، بل هي أعلى ، لأن غاية ما تعرفه من المنذورين أن يكون كأنبيائهم المقررين لحكم التوراة ، وهذه الأنثى مع ما لها من العلو في نفسها ستكون سبباً في السؤال في نبي هو أعظم أنبيائهم ، وتلد صاحب شريعة مستقلة ، ثم يكون مقرراً لأعظم الشرائع .

ولما تم ما قالته عند الوضع او قاله الله في تلك الحالة أتم سبحانه وتعالى الخبر عن بقية كلامها وأنها عدلت عن مظهر الجلالة إلى الخطاب على طريق أهل الحضرة ، وأكدت إعلاماً بشدة رغبتها في مضمون كلامها فقال حاكيا : ﴿ وإني سميتها مريم ﴾ ومعنى هذا الاسم بلسانهم : العابدة .

قال الحرالي : فيه إشعار بأن من جاء بشيء أو قربه فحقه أن يجعل له اسماً ، ورد أن السقط إذا لم يسم يطالب من حقه أن يسميه فيقول : يا رب ! أضاعوني ، فكان من تمام أن وضعتها أن تسميها ، فيكون إبداؤها لها وضع عين وإظهار اسم ، لما في وجود الاسم من كمال الوجود في السمع كما هو في العين ، ليقع التقرب والنذر بما هو كامل الوجود عيناً واسماً .

ولما كانت محررة لله سبحانه وتعالى كان حقاً أن يجري الله سبحانه وتعالى إعاذتها قولاً كما هو جاعلها معاذة كوناً من حيث هي له ، وما كان في حمى الملك لا يتطرق إليه طريدة فقالت : ﴿ وإني أعيذها بك ﴾ وفي قوله : ﴿ وذريتها ﴾ إشعار بما أوتيته من علم بأنها ذات ذرية ، فكأنها نطقت عن غيب من أمر الله سبحانه وتعالى مما لا يعلمه إلا الله ، فهو معلمه لمن شاء .

(76/117)

ولما كان من في حصن الملك وحرزه بجواره بعيداً ممن أحرقه بنار البعد وأهانه بالرجم حققت الإعاذة بقولها : ﴿ من الشيطان الرجيم ﴾ وفي هذا التخليص لمريم عليها السلام بالإعاذة ولذريتها حظ من التخليص المحمدي لما شق صدره ونبذ حظ الشيطان منه

وغسل قلبه بالماء والثلج في البداية الكونية ، وبماء زمزم في البداية النبوية عند الانتهاء الكوني ، فلذلك كان لمريم ولذريتها بمحمد صلى الله عليه وسلم اتصال واصل ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم ، من أجل أنه ليس بيني وبينه نبي ، وبما هو حكم أمامه في خاتمة يومه وقائم من قومه دينه " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 72.71 ﴾

(77/117)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا ﴾ الضمير لما ولما علم المتكلم أن مدلولها مؤنث جاز له تأنيث الضمير العائد إليه وإن كان اللفظ مذكراً ، وأما التأنيث في قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أنثى ﴾ فليس باعتبار العلم بل باعتبار أن كل ضمير وقع بين مذكر ومؤنث هما عبارتان عن مدلول واحد جاز فيه التذكير والتأنيث نحو الكلام يسمى جملة ، و﴿ أنثى ﴾ حال بمنزلة الخبر فأنث العائد إلى (ما) نظراً إلى الحال من غير أن يعتبر فيه معنى الأنوثة ليلزم اللغو أو باعتبار التأويل بمؤنث لفظي يصلح للمذكر والمؤنث كالنفس ، والحبلة ، والنسمة فلا يشكل التأنيث ولا يلغو ﴿ أنثى ﴾ بل هي حالة مبينة كذا قيل ولا يخلو عن نظر ، فالحق

أن الضمير لما في بطني والتأنيث في الأول لما أن المقام يستدعي ظهور أنوثته واعتباره في حيز الشرط إذ عليه يترتب جواب (لما) لا على وضع ولد مّا ، والتأنيث في الثاني للمسارعة إلى عرض ما دهمها من خيبة الرجاء وانقطاع حبل الأمل ، و﴿ أنثى ﴾ حال مؤكدة من الضمير أو بدل منه ، وليس الغرض من هذا الكلام الإخبار لأنه إما للفائدة أو للازمها ، وعلم الله تعالى محيط بهما بل لمجرد التجسر والتحزن ، وقد قال الإمام المرزوقي : إنه قد يرد الخبر صورة لأغراض سوى الإخبار كما في قوله :

قومي هم قتلوا أميم أخي . . . فإذا رميت (يصيبني سهمي)

(78/117)

فإن هذا الكلام تحزن وتفجع وليس بإخبار ، وحاصل المعنى هنا على ما قرر فلما وضعت بنتاً تحسرت إلى مولاها وتفجعت إذ خاب منها رجاها وعلى هذا لا إشكال أصلاً في التأنيث ولا في الجزاء نفسه ، ولا في ترتبه على الشرط ، وما قيل : إنه يحتمل أن يكون فائدة هذا الكلام التحقير للمحرر استجلاباً للقبول لأنه من تواضع لله تعالى رفعه الله سبحانه فمستحقر من القول بالنسبة إلى ما ذكرنا ؛ والتأكيد هنا قيل : للرد على اعتقادها الباطل وربما أنه يعود إلى الاعتناء والمبالغة في التحسر الذي قصدته والرمز إلى أنه صادر

عن قلب كسير وفؤاد بقيود الحرمان أسير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 134 ﴾

قال الفخر :

اعلم أن الفائدة في هذا الكلام أنه تقدم منها النذر في تحرير ما في بطنها ، وكان الغالب على ظنها أنه ذكر فلم تشترط ذلك في كلامها ، وكانت العادة عندهم أن الذي يحرر ويفرغ لخدمة المسجد وطاعة الله هو الذكر دون الأنثى فقالت ﴿ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أنثى ﴾ خائفة أن نذرها لم يقع الموقع الذي يعتمد به ومعتذرة من إطلاقها النذر المتقدم فذكرت ذلك لا على سبيل الإعلام لله تعالى ، تعالى الله عن أن يحتاج إلى إعلامها ، بل ذكرت ذلك على سبيل الاعتذار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 23.24 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا ﴾ الضمير في " وضعتها " يعود على " ما " – من حيث المعنى – ؛ لأن الذي في بطنها أُنْثَى – في علم الله – فعاد الضمير على معناها دون لفظها .

وقيل : إنما أنث ؛ حَمْلاً على مضيّ النسمة أو الْجِبِلَّة أو النفس ، قاله الزمخشريُّ .

وقال ابنُ عطية : حملاً على الموجودة ، ورفعاً للفظ " ما " في قوله ﴿ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً ﴾ .

قوله: ﴿ أنثى ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنها منصوبة على الحال، وهي حال مؤكِّدَة؛ لأن التأنيث مفهوم من تأنيث الضمير، فجاءت "أنثى" مؤكدة.

(79/117)

قال الزمخشريُّ: "فإن قلت: كيف جاز انتصاب "أنثى" حالاً من الضمير في "وَضَعْتُهَا" وهو كذلك كقولك: وضعت الأنثى أنثى؟

قلت: الأصل وضعته أنثى، وإنما أنث لتأنيث الحال؛ لأن الحالَ وذا الحال لشيء واحد، كما أنث الاسم في من كانت أمك؛ لتأنيث الخبر، ونظيره قوله تعالى: ﴿ فَإِن كَانَتَا اثنتين ﴾ [النساء: 176].

وأما على تأويل النسمة والجبلة فهو ظاهرٌ، كأنه قيل: إني وَضَعْتُ النسمةَ أنثى".

يعني أن الحال على الجواب الثاني - تكون مبيِّنة لا مؤكّدة؛ وذلك لأن النسمة والجبلة تصدق على الذكر وعلى الأنثى، فلما حصل الاشتراكُ جاءت الحال مبيّنةً لها، إلا أن أبا حيّان ناقشة في الجواب الأول، فقال: وآل قوله - يعني الزمخشري - إلى أن "أنثى" تكون حالاً مؤكِّدة، ولا يخرجه تأنيثه لتأنيث الحال عن أن يكون حالاً مؤكِدة، وأما تشبيهه ذلك

بقوله : من كانت أمّك – حيث عاد الضمير على معنى " ما " – فليس ذلك نظير ﴿ وَضَعَتْهَا أنثى ﴾ ؛ لأن ذلك حَمْلٌ على معنى " ما " إذ المعنى : اية امرأة كانت أمك ، أي كانت هي أي أمُّك ، فالتأنيث ليس لتأنيث الخبرِ ، وإنما هو من باب الحملِ على معنى " ما " ولو فرضنا أنه من تأنيث الاسم لتأنيث الخبر لم يكن نظير ﴿ وَضَعَتْهَا أنثى ﴾ ؛ لأن الخبر تخصَّصَ بالإضافة غلى الضمير فاستفيد من الخبر ما لا يُستفاد من الاسم ، بخلاف " أُنْثَى " فإنه لمجرَّد التأكيد ، وأما تنظيره بقوله : ﴿ فَإِن كَانَتَا اثنتين ﴾ . فيعني أنه ثنَّى الاسمَ ؛ لتثنية الخبر . والكلام يأتي عليه في مكانه إن شاء الله تعالى فإنها من المشكلات ، فالأحسن أن يُجعل الضمير – في ﴿ وَضَعَتْهَا أنثى ﴾ – عائداً على النسمة أو النفس ، فتكون الحال مبيِّنة مؤكِّدة .

(80/117)

قال شهاب الدين : قوله : " ليس نظيرها ؛ لأن من كانت أمك " حُمل فيه على معنى من ، وهذا أنث لتأنيث الخبر " ليس كما قال ، بل هو نظيره ، وذلك أنه في الآية الكريمة حُمل على معنى " ما " كما حمل هناك على معنى " من " ، وقول الزمخشري : " لتأنيث الخبر " أي لأن المرادَ بـ " من " : التأنيث ، بدليل تأنيث الخبر ، فتأنيث الخبر بَيَّنَ لنا أن المراد بـ " من " المؤنث

كذلك تأنيث الحال وهو أنثى ، بيّن لنا أن المراد بـ " ما " في قوله : ﴿ مَا فِي بَطْنِي ﴾ أنه شيءٌ مؤنث ، وهذا واضح لا يحتاج إلى فكر ، وأما قوله : " فقد استفيد من الخبر ما لا يستفاد من الاسم بخلاف ﴿ وَضَعْتُهَا أنثى ﴾ ، فإنه لمجرد التوكيد " ليس بظاهر أيضاً ؛ وذلك لأن الزمخشري إنما أراد بكونه نظيره من حيث إن التأكيد في كلّ من المثالين مفهوم قبل مجيء الحال في الآية وقَبْل مجيء الخبر في النظير المأما كونه يفارقه في شيء آخر لعارض ، فلا يضر ذلك في التنظير ، ولا يخرجه عن كونه يشبهه من هذه الجهة ، وقد تحصل لك في هذه الحالة وجهان :

أحدهما : أنها مؤكِّدة إن قلنا : إن الضمير في ﴿ وَضَعَتْهَا ﴾ عائد على معنى " ما " .

الثاني : أنها مبيِّنة إن قلنا : إن الضمير عائد على الجبلة والنسمة أو النفس أو الجِبلَّة لصدق كل من هذه الألفاظِ الثلاثةِ على الذكر والأنثى .

الوجه الثاني من وجهي " أنثى " : أنها بدل من " ها " في ﴿ وَضَعَتْهَا ﴾ بدل كل من كل – قاله أبو البقاء .

ويكون في هذا البدلِ بيان ما المراد بهذا الضميرِ ، وهذا من المواضع التي يُفَسَّر فيها الضميرُ بما بعدَه لفظاً ورتبة ، فإن كان الضمير مرفوعاً نحو : ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى الذين ظَلَمُوا ﴾ [الأنبياء : 3] – على أحد الأوجهِ – فالكل يجيزون فيه البدلَ ، وإن كان غير مرفوعٍ نحو ضربته زيداً ومررت به زيدٍ فاختلِفَ فيه ، والصحيح جوازه كقول الشاعر : [الطويل]

عَلَى حَالَةٍ لَوْ أنَّ فِي الْقَوْمِ حَاتِماً . . . عَلَى جُودِهِ لَضَنَّ بِالْمَاءِ حَاتِمِ

بجر حاتم الأخير بدلاً من الهاء في "جُودِهِ" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 172.173 ﴾

قوله تعالى : ﴿ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾

قال الآلوسى :

﴿ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ ليس المراد الرد عليها في إخبارها بما هو سبحانه أعلم به كما يتراءى من السياق بل الجملة اعتراضية سيقت لتعظيم المولود الذي وضعته وتفخيم شأنه والتجهيل لها بقدره أي والله أعلم بالشيء الذي وضعته وما علق به من عظائم الأمور ودقائق الأسرار وواضح الآيات ، وهي غافلة عن ذلك كله ، و(ما) على هذه عبارة عن الموضوعة ، قيل : والاتيان بها دون من يلائم التجهيل فإنها كثيراً ما يؤتى بها لما يجهل به وجعلها عبارة عن الواضعة أي والله تعالى أعلم بشأن أم مريم حين تحسرها وتحزنها من توهم خيبة رجاها وأنها ليست من الولي إلى الله تعالى في شيء إذ لها مرتبة عظمى وتحريرها تحرير لا يوجد منه مما لا وجه له وجزالة النظم تأباه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح

المعانى حـ 3 صـ 135 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر " وَضَعْتُ " بتاء المتكلم - وهو من كلام أمِّ مَرْيَمَ خاطبت بذلك نفسَها ؛ تَسَلِّياً لها واعتذاراً لله تعالى ؛ حيث أتت بمولود لا يصلح لما نذرته من سدانة بيت المقدس .

قال الزمخشريُّ - وقد ذكر هذه القراءة - : " تعني ولعل الله - تعالى - فيه سِرًّا وحكمةً ، ولعل هذه الأنثى خير من الذكر ؛ تَسلِيَةً لنفسها " .

وقيل : قالت ذلك ؛ خوفاً أن يُظَنَّ بها أنها تُخْبِر الله - تعالى - فأزالت الشبهةَ بقولها هذا وبينت أنها إنما قالتْ ذلك للاعتذارِ لا للإعلام - وفي قولها : ﴿ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة ؛ إذ لو جَرَتْ على مقتضَى قولها : " رَبِّ " لقالت : وأنت أعلم .

(82/117)

وقرأ الباقون : " وَضَعَتْ " بتاء التأنيث الساكنة - على إسناد الفعل لضمير أم مريم ، وهو من كلام الباري تعالى ، وفيه تنبيه على عِظَم قَدْر هذا المولود ، وأنَّ له شأناً لم تعرفيه ، ولم تعرفي إلا كونه أنثى لا غير ، دون ما يئول إليه من أمور عِظَامٍ ، وآيات واضحةٍ .

قال الزمخشريُّ : " ولتكلُّمها بذلك على وجه التحسُّر والتحزُّن قال الله - تعالى - : ﴿ والله أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ تعظيماً لموضوعها ، وتجهيلاً لها بقدر ما وُهِبَ لها منه ، ومعناه : والله أعلم بالشيء الذي وضعت ، وما علق به من عظائم الأمور ، وأن يجعله وولده آيةً للعالمين ، وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئاً فلذلك تحسرت " .

وقد رجح بعضهم القراءة الثانية على الأولى بقوله : ﴿ والله أَعْلَمُ ﴾ قال : " ولو كان من كلامِ مريم لكان التركيب : وأنت أعلم " . وقد تقدم جوابُه بأنه التفات .

وقرأ ابن عباس " والله أعلم بِمَا وَضَعَتِ " - بكسر التاء - خاطبها الله - تعالى - بذلك ، بمعنى : أنك لا تعلمين قدرَ هذه المولودة ، ولا قدر ما علم الله فيها من عظائم الأمورِ .

قوله : ﴿ وَلَيْسَ الذكر كالأنثى ﴾ ؛ هذه الجملة - يحتمل أن تكون معترضةً ، وأن يكون لها محل ، وذلك بحسب القراءات المذكورة في " وَضَعَتْ " - كما يأتي تفصيله - والألف واللام في " الذكَر " يحتمل أن تكون للعهدِ ، والمعنى : ليس الذكر الذي طلبَتْ كالأنثى التي وَهِبَتْ لها .

قال الزمخشريُّ : " فإن قلتَ : فما معنى قولها : ﴿ وَلَيْسَ الذكر كالأنثى ﴾ ؟

قلت : هو بيان لما في قوله : ﴿ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ من التعظيم للموضوع ، والرفع منه ، ومعناه : ليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وُهِبَتْ لها ، والألف واللام فيهما يحتمل أن تكون للعهد وأن تكون للجنس ، على أن المراد : أن الذكر ليس كالأنثى في الفضل والمزية ؛ إذ هو صالح لخدمة المتعبدات والتحرير ولمخالطة الأجانب ، بخلاف الأنثى ؛ لِما يعتريها من الحيض ، وعوارض النسوان .

وكان سياقُ الكلام – على هذا – يقتضي أن يدخل النفي على ما استقر ، وحصل عندَها ، وانتفت عنه صفاتُ الكمال للغرض المقصود منه ، فكان التركيبُ : وليس الأنثى كالذكر ، وإنما عدل عن ذلك ؛ لأنها بدأت بالأهم لما كانت تريده ، وهو المُتَلَجلِج في صدرها ، والحائل في نفسها ، فلم يَجْرِ لسانُها في ابتداء النطق إلا به ، فصار التقديرُ : وليس جنسُ الذكرِ مثل جنس الأنثى ، لما بينهما من التفاوتِ فيما ذكر ، ولولا هذه المعاني التي استنبطها العلماء ، وفهموها عن الله – تعالى – لم يكن لمجرد الإخبار بالجملة الليسية معنًى ؛ إذ كلُّ أحدٍ يعلمُ أن الذكر لَيسَ كالأنثى .

وقوله : ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ هذه الجملة معطوفة على قوله ﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَآ ﴾ على

قراءة مَنْ ضَمَّ التاء في قوله وضعت فتكون هي وما قبلها في محل نصب بالقول، والتقدير: قالت: إني وضعتُها، وقالت: والله أعلم بما وَضَعْتُ، وقالت: وليس الذكر كالأنثى، وقالت: إنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَم.

وأما على قراءة من سكن التاء أو كسرها فتكون ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا ﴾ أيضاً معطوفاً على ﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَآ ﴾ ويكون قد فصل بين المتعاطفَيْن بجملتي اعتراض، كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة: 76] قاله الزمخشريُّ.

(84/117)

قال أبو حيّان: " ولا يتعين ما ذكر من أنهما جملتان معترضتان؛ لأنه يحتمل أن يكون: ﴿ وَلَيْسَ الذكر كالأنثى ﴾ من كلامها في هذه القراءة " ويكون المعترض جملة واحدة - كما كان من كلامها في قراءة من قرأ " وَضَعْتُ " بضم التاء - بل ينبغي أن يكون هذا المتعيّن؛ لثبوت كونه من كلامها في هذه القراءة، ولأن في اعتراض جملتين خلافاً لمذهب أبي علي الفارسي من أنه لا يعترض جملتان.

وأيضاً تشبيهه هاتين الجملتين اللتين اعترض بهما - على زعمه - بين المعطوف والمعطوفِ عليه، بقوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة: 76] ليس تشبيهاً مطابقاً

للآية ؛ لأنه لم يعترض جملتان بين طالب ومطلوب ، بل اعترض بين القسم - الذي هو ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم ﴾ [الواقعة : 75] - وبين جوابه - الذي هو ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة : 77] - بجملة واحدة - وهي قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ - لكنه جاء في جملة الاعتراض - بين بعض أجزائها ، وبعض اعتراض بجملة - وهي قوله : ﴿ لَّوْ تَعْلَمُونَ ﴾ اعتراضٌ بها بين المنعوتِ الذي هو " لَقَسَمٌ " - وبين نعته - الذي هو " عَظِيمٌ " - فهذا اعتراضٌ ، فليس فصلاً بجملتي اعتراض كقوله : ﴿ والله أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذكر كالأنثى ﴾ .

قال شهابُ الدين : والمشاحَّة بمثل هذه الأشياء ليست طائلة ، وقوله : " ليس فصلاً بجملتي اعتراض " ممنوع ، بل هو فَصْلٌ بجملتي اعتراض ، وكونه جاء اعتراضاً في اعتراض لا يضر ولا يقدَح في قوله : فصل بجملتين " ف " سمى " يتعدى لاثنين ، أحدهما بنفسه ، وإلى الآخر بحرف الجر ، ويجوز حذفه ، تقول : سميت زيداً ، والأصل : بزيدٍ ، وجمع الشاعرُ بين الأصل والفرع في قوله : [المتقارب]

وَسُمِّيْتَ كَعباً بِشَرِّ الْعِظَامِ . . . وَكَانَ أَبُوكَ يُسَمَّى الْجُعَل

(85/117)

أي يسمى بالجُعَل – وقد تقدم الكلامَ في مريمَ واشتقاقها ومعناها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 174.176 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَيْسَ الذكر كالأنثى ﴾

قال الفخر :

فيه قولان الأول : أن مرادها تفضيل الولد الذكر على الأنثى ، وسبب هذا التفضيل من وجوه

أحدها : أن شرعهم أنه لا يجوز تحرير الذكور دون الإناث

والثاني : أن الذكر يصح أن يستمر على خدمة موضع العبادة ، ولا يصح ذلك في الأنثى لمكان الحيض وسائر عوارض النسوان

والثالث : الذكر يصلح لقوته وشدته للخدمة دون الأنثى فإنها ضعيفة لا تقوى على الخدمة

والرابع : أن الذكر لا يلحقه عيب في الخدمة والاختلاط بالناس وليس كذلك الأنثى

والخامس : أن الذكر لا يلحقه من التهمة عند الاختلاط ما يلحق الأنثى فهذه الوجوه تقتضي فضل الذكر على الأنثى في هذا المعنى .

والقول الثاني : أن المقصود من هذا الكلام ترجيح هذه الأنثى على الذكر ، كأنها قالت الذكر مطلوبي وهذه الأنثى موهوبة الله تعالى ، وليس الذكر الذي يكون مطلوبي كالأنثى التي هي موهوبة لله ، وهذا الكلام يدل على أن تلك المرأة كانت مستغرقة في معرفة جلال

الله عالمة بأن ما يفعله الرب بالعبد خير مما يريده العبد لنفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 24 ﴾

(86/117)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَيْسَ الذكر كالأنثى ﴾ اعتراض آخر مبين لما اشتمل عليه الأول من التعظيم وليس بياناً لمنطوقه حتى يلحق بعطف البيان الممتنع فيه العطف . واللام في الذكر والأنثى للعهد ، أما التي في الأنثى فلسبق ذكرها صريحاً في قوله سبحانه حكاية : ﴿ إِنّى وَضَعْتُهَا أنثى ﴾ وأما التي في الذكر فلقولها : ﴿ إِنّي نَذَرْتُ ﴾ [آل عمران : 35] الخ إذ هو الذي طلبته والتحرير لا يكون إلا للذكر وسمي هذا العهد التقديري وهو غير الذهني لأن قولها : ﴿ مَا فِي بَطْنِي ﴾ [آل عمران : 35] صالح للصنفين ، وقولها : ﴿ مُحَرَّرًا ﴾ [آل عمران : 35] تمن لأن يكون ذكراً فأشير إلى ما في البطن حسب رجائها ، وجوز أن تكون الجملة من قولها فيكون مرادها نفي مماثلة الذكر للأنثى ، فاللام للجنس كما هو الظاهر لأنه لم يقصد خصوص ذكر وأنثى بل إن المراد أن هذا الجنس ليس كهذا الجنس ، وأورد عليه أن قياس كون ذلك من قولها أن يكون وليست الأنثى كالذكر فإن مقصودها تنقيص الأنثى بالنسبة

إلى الذكر والعادة في مثله أن ينفى عن الناقص شبهه بالكامل لا العكس ، وأجيب بأنه جار على ما هو العادة في مثله أيضاً لأن مراد أمّ مريم ليس تفضيل الذكر على الأنثى بل العكس تعظيماً لعطية الله تعالى على مطلوبها أي وليس الذكر الذي هو مطلوبي كالأنثى التي وهبها الله تعالى لي علماً منها بأن ما يفعله الرب خير مما يريده العبد وفيه نظر أما أولاً : فلأن اللام في الذكر والأنثى على هذا يكون للعهد وهو خلال الظاهر الذي ذهب إليه أكثر المفسرين ، وأما ثانياً : فلأنه ينافي التحسر والتحزن المستفاد من قولها : ﴿ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنثَى ﴾ فإن تحزنها ذلك إنما هو لترجيحها الذكر على الأنثى ، والمفهوم من هذا الجواب ترجيحها الأنثى على الذكر اللهم إلا أن يحمل قولها ذلك على تسلية نفسها بعد ما تحزنت على هبة الأنثى بدل الذكر الذي كانت طلبته إلا أنه تبقى مخالفة الظاهر على ما هي ، فالأولى

(87/117)

في الجواب عدم الخروج عما هو الظاهر والبحث فيما اقتضته العادة فقد قال في "الانتصاف" بعد نقل الإيراد وذكر القاعدة : وقد وجدت الأمر في ذلك مختلفاً فلم يثبت لي تعين ما قالوه ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النساء ﴾ [الأحزاب : 32] فنفى عن الكامل شبه الناقص لأن الكمال لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ثابت

بالنسبة إلى عموم النساء وعلى ذلك جاءت عبارة امرأة عمران ومنه أيضاً ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل : 17] انتهى .

وتمام الكلام في هذا المقام ما ذكره بعض المحققين أنه إذا دخل نفي بلا أو غيرها ، أو ما في معناه على تشبيه مصرح بأركانه ، أو ببعضها احتمل معنيين تفضيل المشبه بأن يكون المعنى أنه لا يشبه بكذا لأن وجه الشبه فيه أولى وأقوى كقولك ليس زيد كحاتم في الجود ويحتمل عكسه بأن يكون المعنى أنه لا يشبه به لبعد المسافة بينهما كقول العرب ماء ولا كصداء ، ومرعى ولا كالسعدان ، وفتى ولا كمالك وقوله :

طرف الخيال ولا كليلة مدلج . . . ووقع في شروح "المقامات" وغيرها أن العرب لم تستعمل النفي بلا على هذا الوجه إلا للمعنى الثاني وأن استعماله لتفضيل المشبه من كلام المولدين حتى اعترضوا على قول الحريري في قوله :

غدوت ولا اغتداء الغراب . . . وعِيب قول صاحب "التلويح" في خطبته : نال حظاً من الاشتهار ولا اشتهار الشمس نصف النهار ، ومبنى الاعتراض على هذا ، ولعله ليس بلازم كما أشار إليه صاحب "الانتصاف" بما أورد منه الآيات ، ومما أورده الثعالبي من خلافه أيضاً في كتابه "المنتخب" فلا حسن ولا القمر ، وجواد ولا المطر على أنه لو سلم ما ذكروه فالمعاني لا حجر فيها على أن ما ورد في النفي بلا المعترضة بين الطرفين لا في كل نفي

انتهى . وهو كما قال : من نفائس المعاني التي ينبغي حفظها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى جـ 3 صـ 135 ﴾

(88/117)

بحث علمى

" وليس الذكر كالأنثى "

بقلم الدكتور / محمد علي البار

تقديم لفضيلة الشيخ / محمد عبد الله الخطيب

هذه بحوث علمية ودراسات نفسية عن تكوين المرأة وقدراتها الحقيقية ، من عالم متميز في هذه الدراسات ومجرب من خلال المعامل في هذه الأشياء ، فهو يدلي برأيه المؤمن الخبير المحايد الذي يقول الحق دائماً ، والموقع على استعداد بقبول من يعترض على هذه الأشياء بصدر رحب ، وهذا البحث الأول ويليه مجموعة بحوث في نفس الموضوع

إن الفروق الفسيولوجية "الوظيفية" والتشريحية بين الذكر والأنثى أكثر من أن تحصى وتعد . . فهي تبتدأ بالفروق على مستوى الصبغيات "الجسيمات الملونة أو الكروموسومات" التي تتحكم بالوراثة . . والتي تدق وتدق حتى أن ثخانتها تقاس

بالأنجستروم. واحد على بليون من المليمتر. ثم ترتفع إلى مستوى الخلايا ، وكل خلية في جسم الإنسان توضح لك تلك الحقيقة الفاصلة بين الذكورة والأنوثة . . تتجلى الفروق بأوضح ما يكون في نطفة الذكر (الحيوانات المنوية) ونطفة المرأة (البويضة) . . ثم ترتفع الفروق بعد ذلك في أجهزة الجسم المختلفة من العظام إلى العضلات . . وتتجلى كأوضح ما يكون في اختلاف الأجهزة التناسلية بين الذكر والأنثى ، ولا تقتصر الفروق على الجهاز التناسلي وإنما تشمل جميع أجهزة الجسم . . ولكنها تدق وتدق في بعض الأجهزة وتتضح في أخرى. وجهاز الغدد الصماء هو أحد الأجهزة التي تتجلى فيها الفروق كأوضح ما يكون . . فهرمونات الذكورة تختلف عن هرمونات الأنوثة في تأثيرها اختلافا كبيراً رغم أن الفرق الكيماوى بسيط ، ويتمثل في زيادة ذرة من الكربون وثلاثة ذرات من الهيدروجين إلى التركيب الجزئى في هرمون الأنوثة .

وهذه ملاحظة أخرى هامة أشار إليها القرآن الكريم ? وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ? سورة البقرة الآية 228 ، فهرمون الذكورة يساوي هرمون الأنوثة + مجموعة مثيلية ، وكذلك الجهاز التناسلي للرجل يساوى الجهاز التناسلي للمرأة + أعضاء اضافية .

وفي أثناء تكوين الجنين في مراحله الأولى يكون جنين الذكر مشابهاً في أول الأمر لجنين الأنثى ، ويصعب التفريق بينهما إلا على مستوى الصبغيات الكروموسومات . . ولكن سرعان ما تتميز منطقة في المخ تدعي تحت المهاد لدى الجنين الذكر على مثيله الجنين الأنثوي . . وهذه الاضافة والزيادة في مخ جنين الذكر تؤدى إلى الفروق الهائلة فيما بعد بين الجهاز التناسلي للذكر والجهاز التناسلي للأنثى . . كما يؤدي إلى الفروق الهائلة بين غدد الذكر الصماء وغدد الأنثى . . وتؤثر هذه الغدد على مختلف أنشطة الجسم وعلى هيكله أيضا . . ومن ثم يختلف بناء هيكل الذكر عن بناء هيكل الأنثى ، كما تختلف الوظائف تبعاً لذلك . . والسبب في تمايز منطقة تحت المهاد من المخ بين جنين الذكر وجنين الأنثى هو هرمون التسترون الذي تفرزه مشيمة الجنين الذكر . . ثم تنمو الغدة التناسلية وتؤثر بالتالى على المنطقة المخية ـ تحت المهاد . .

ومن الغريب حقا أن هيكل البناء يصمم أساسا على هيكل الأنثى ، فإن وجد صبغ الذكورة ـ كروموسوم الذكورة ـ فإنه يضيف إلى ذلك الكيان اضافات تجعل النهاية ذكراً . أما إذا اختفى هذا الكروموسوم الهام من تركيب البويضة الملقحة كما يحصل في بعض الحالات النادرة حتى تُرينا قدرة المولى عز وجل فإن النتيجة النهائية هي جسم امرأة ، وإن كانت ناقصة التكوين ، ففي حالة (ترنر) فإن البويضة الملقحة تحتوى فقط على كروموسوم X O فلا هي أنثى محتوية على X X ولا هي ذكر محتوية على X Y . . فماذا تكون النتيجة ؟

تكون النتيجة أنثى غير أنها لا تحيض ولا تحبل ولا تلد ، أما إذا كانت نتيجة التلقيح مثلا X X Y كما يحصل في حالة (كلينفلتر) فإن الطفل المولود يكون ذكراً رغم وجود صبغيات الأنوثة بصورة كاملة . . وإن كان ذكر ضعيف الهمة بارد الشهوة خائر العزيمة . . وذلك لتراكم صبغ الأنوثة فيه .

(90/117)

أما إذا زاد صبغ الذكورة في البويضة الملقحة وصار حاصلها الكروموسومين Y Y X أي أن بها صبغين كروموسومين كاملين من اصباغ الذكورة ، فإن النتيجة تكون ذكراً قوي الشكيمة شديد البأس كثير العدوان . . حتى أن الفحوصات التي أجريت لاعتى المجرمين في السجون وأشدهم بأساً وأقداماً أظهرت أن كثيراً منهم كانوا ممن لديهم زيادة في صبغ كروموسوم" الذكورة ! !

ولعله لو فحص الرجال المشهورون في التاريخ بزيادة الشجاعة والاقدام والرجولة والخشونة . . لربما وجدنا أن ذلك مرجعه في كثير من الحالات إلى زيادة صبغ الذكورة Y لدي هؤلاء الموصوفين بزيادة جرأتهم واقدامهم ، سواء كان ذلك في مجال الخير أو في مجال الشر .

والفرق بين رجل وآخر من حيث الإقدام وصفات الرجولة يرجع في بعض الأحيان إلى زيادة هرمون الرجولة لدى هذا وقلته النسبية لدي ذلك .

ونظرة إلى المخصيين الذين تم اخصاؤهم قبل البلوغ ترينا كيف تتحول رجولتهم إلى الأنوثة . . ولا ينبت شعر عذارى المخصي وذقنه وشاربه . . ويتوزع الدهن بنفس الطريقة التي يتوزع فيها في الأنثى . . أي في الارداف والعجز . . وتلين عظامه وترق . . ويبقى صوته رخيماً على نبرة الطفولة دون أن تصيبه غلظة الرجولة وأجشها .

أما أولئك الذين اخصوا بعد البلوغ فإن علامات الرجولة سرعان ما تندثر ، ويسقط شعر الذقن والشارب ، ولا يعود إلى النمو ثانية ، وتبدأ العضلات في الترهل . . كما تبدأ الصفات الأنثوية البدنية والنفسية في الظهور لأول مرة .

هذه الفروق كلها تؤكد إعجاز الآية ? وللرجال عليهن درجة ? وليست المرحلة مقتصرة فقط على التركيب البيولوجي ولكنها أيضاً تشمل تركيب النفس والقدرات العقلية الكلامية قال تعالى ? أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ? سورة الزخرف الآية 18 ، فإذا نظرت في التاريخ وجدت النابغين في كل فرع من فروع المعرفة والاختراع

والحياة من الرجال ، بينما النابغات من النساء في أي مجال من مجالات المعرفة أو الاختراع محدودات ومعدودات ، ونستطيع أن نذكر المئات من الرجال في كل فن من فنون المعرفة . . وفي قيادة الجيوش وفي الاختراعات وفي الصناعة وفي المال والاقتصاد . . وإنه يسير عليك أن تعد العشرات من النساء في أي فن من هذه الفنون العامة من المعارف الإنسانية والصناعات والاختراعات ، وتستطيع أن تعدل عشرات الأنبياء والمرسلين وهم صفوة البشر ، ولكنك لا تستطيع أن تعد واحدة تتصف بصفات النبوة والرسالة رغم عظم هؤلاء النساء وهن أمهات الأنبياء وزوجاتهم وبناتهم .

إن العذراء مَريم سيدة النساء في زمانها ، وفاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين ، لا يضارعهن أحد من النساء وفعال الواحدة منهن خير من آلاف الرجال ، لكن الحقيقة تبقى كما هي أنه لم ترقى واحدة منهن إلى مستوى النبوة .

وليس هذا قدحاً بالمرأة فإن أعظم العباقرة يتصاغر أمام أبسط الأمهات ولا يستطيع أعظم قادة الدنيا من الرجال أن يفعل ما تفعله أبسط النساء وأجهلهن ، أنه لا يستطيع أن ينجب طفلاً ويحمله في بطنه تسعة أشهر ، كما أنه لا يمكنه رضاعته وتربيته مهما كان له من معرفة

ونبوغ ، ووظيفة الأمومة لا يستطيع أن يقوم بها أي رجل مهما كان حظه عظيماً من النبوة ، ووظيفة الأمومة تتصاغر أمامها كل الوظائف الأخرى حتى جعل الرسول الكريم الجنة تحت أقدامها "الجنة تحت أقدام الأمهات" ويوصي أصحابه وأمته برعاية الأم بأضعاف أضعاف ما يوجبه للأب ، فعندما سئل المصطفى صلوات الله عليه من أحد أصحابه : من أحق الناس بحسن صحبتي وبري ؟ قال المصطفى : "أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك . ثم أدناك فأدناك" .

وركز القرآن الكريم على بر الوالدين وحث عليهما أيما حث ، وخص الأم بزيادة ذكر ليبين مزيد فضلها ، قال تعالى : ? وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ? سورة لقمان الآية 14 ، وقال عز من قائل ? وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا ? سورة الأحقاف الآية15" .

? وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ? سورة الإسراء الآية 23 ، 24 .

والفروق بين الذكر والأنثى تتجلى في الجنين من الشهر الرابع حيث تتميز أعضاء الذكورة وأعضاء الأنوثة . . وحيث يكون المخ ومنطقة تحت المهاد قد تميزت تميزاً كاملاً بين الجنين الذكر والجنين الأنثى .

وقد لاحظ العلماء والأطباء والمربون الاختلاف الشاسع في سلوك الأنثى ، ولو كانا توأمين . . فالصبي عادة أكثر عنفا ونشاطاً وإدراكاً من اخته .

وتشكو الأمهات في العادة من نشاط أولادهن الزائد وما يسببونه لهن من متاعب وتحطيم في أثاث المنزل ، بينما البنات في العادة هادئات ، وتميل الصغيرات إلى اللعب بالعرائس وإلى تسريحهن والعناية بهن ، ويقمن تلقائياً بدور الأم ، بينما يصعب على الصبي فعل ذلك ، وسرعان ما يلوي رقبة العروسة أن أعطيت له ويمزقها لينظر ماذا في أحشائها .

ويعرف الآباء والأمهات الذين رزقهم الله بذرية من الأولاد والبنات الفروق الشاسعة بين أطفالهم . . وتقف البنت الصغيرة أمام المرآة وتتدلل تلقائياً . . وكثيراً ما كنت أسمع من إحدى بناتي وهن لم يجاوزن بعد سن الثالثة عند لبسها ثوباً جديداً واستعدادها للخروج مع أمها : يا بابا شوف الجمال ! ! . . أو يا بابا ايه رأيك في الفستان الجميل ده . . أو يا بابا شوف التسريحة الحلوة دي . .

ولم يخطر ببال الصبي أن يفعل مثل ذلك بل هو مشغول منذ طفولته الباكرة باللعب بالكرة أو بتفكيك الألعاب التي تهدى له ليعرف ما بداخلها .

(94/117)

وتستمر الفروق تنمو يوما بعد يوم حتى تبلغ أوج اختلافها عند البلوغ ، عندما تستيقظ الغدد التناسلية من هجعتها الطويلة وتنشط ، فترسل هرمونات الذكورة إلى الصبي ليصبح رجلا ، فينمو شعر عذاريه وذقنه وشاربه ، ويصبح صوته أجش غليظاً . . وتنمو عضلاته وعظامه وتقوى . . ويتوزع الدهن في جسمه توزيعاً عادلاً . . ويكون عريض المنكبين قوي الساعدين مفتول الذراعين . . أما الفتاة فتنهمر عليها هرمونات الأنوثة ، فتنمو أثداؤها وأجهزتها التناسلية وتبدأ الحيض . . ويتوزع الدهن في جسمها بحيث يخفي أي نتوء أو حفرة لا ترتاح لها العين . . ويزداد الدهن في أردافها وعجزها . . وينعم صوتها ويصير رخيما . . ليس هذا فحسب ولكن الهرمونات تؤثر في السلوك كما تؤثر في القوام والمشية ، فتجعل الفتى مقداماً محباً للمغامرة ، وتجعل الفتاة شديدة الخفر والحياء ، ميالة إلى الدلال والتغنج .

وهي فروق تظهر في الحيوان المنوى والبويضة كما تظهر في الفتاة اليافعة والشاب الذي طر

شاربه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ بحث علمى

"وليس الذكر كالأنثى" بقلم الدكتور / محمد علي البار ﴾

(95/117)

بحث علمى آخر فى قوله تعالى

﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾

للأستاذ / عبد الرازق نوفل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يصعب في جميع الكائنات الحية التمييز بين الذكر والأنثى بالشكل الظاهر، فغالباً ما تتشابه الذكور مع الإناث تشابها يكاد يكون تاماً بحيث لا يمكن التفريق بينها إلا عن طريق الفحص الدقيق، فيما عدا الإنسان إذ يختلف الذكر عن الأنثى في الشكل الظاهري اختلافاً كبيراً بحيث يتبين الإنسان الذكر وتعرف الأنثى من النظرة العابرة السريعة.. ولا يختلف الرجل عن المرأة في الشكل الخارجي فقط ولا في التركيب الداخلي علاوة على المظهر الخارجي فقط وإنما أثبتت الدراسات العلمية اختلاف الرجل عن المرأة اختلافاً كبيراً في كل ناحية من النواحي وفي مختلف المناشط وذلك بالرغم من أن النطفة التي يتكون منها جنين الذكر

تشابه وتماثل النطفة التي يتكون منها جنين الأنثى في سبعة وأربعين كروموزم أو صبغي ولا تختلف النطفتان إلا في كرومزوم واحد أو صبغية واحدة . . . هذا الجزء من ثمانية وأربعين جزءاً الذي يختلف فيه الذكر عن الأنثى يسبب اختلافاً كبيراً وشاسعاً وعميقاً بين الذكر والأنثى في الشكل الظاهري والتركيب الداخلي والعوامل السيكولوجية .

(96/117)

فلقد أثبت الدراسات التشريحية في علم وظائف الأعضاء التناسلية أنها لا تقتصر وظيفتها على التناسل وإنما هي تفرز افرازات خاصة بكل جنس وتؤثر تأثيراً مباشراً على كافة أوجه النشاط الفسيولوجي والروحي ، ولقد أثبتت التجارب العلمية أن إزالة الخصى من ذكور أي صنف من الكائنات الحية يقلل من نشاط الكائن ويزيل من صفاته كل ما يتميز به كذكر . . فالثور الذي يخصى تتولد فيه صفات البلادة بدل النشاط والهدوء بدلاً من العنف والاستكانة بدلاً من الوحشية ، كما أثبتت أن المبيض للأنثى له أثر مماثل لتأثير الخصى في الذكر فإن إيقاف عمليه يغير من صفات الأنثى تغييراً كاملاً لتأثير فكلا الجهازين يؤثران تأثيرا مباشراً في حياة الغدد . . وأثبت العلم أن المبيض لا يعمل إلا خلال جزء من حياة الأنثى فإذا وصلت إلى سن اليأس بطل عمل المبيض بينما الخصية تظل

عاملة إلى مدة طويلة . . وبذلك فإن المرأة تحرم من إفرازاتها قبل الرجل بمدة أطول وهذا من أوجه الاختلاف بين الذكر والأنثى . .

(97/117)

ويزيد العلامة الدكتور الكسيس كاريل على ذلك إذ يقول (ولا ترجع الفوارق القائمة بين الرجل والمرأة إلى اختلاف شكل الأعضاء التناسلية عند كل منهما كشكل الرحم ونمو الثديين وغير ذلك فحسب ، وإنما ترجع إلى سبب أعمق كثيراً وهو غمر الكيان العضوي كله بمواد كيمائية تنتجها الغدد التناسلية التي تختلف طبيعتها وتركيبها وخواصها في الذكر عن الأنثى . والواقع أن المرأة تختلف عن الرجل جد الاختلاف ، فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها وهذا أيضاً شأن أجهزتها العضوية وعلى الأخص جهازها العصبي . . . وأن دور الرجل في علمية التكاثر دور قصير الأجل ومحدود جداً بينما دور المرأة يطول إلى تسعة أشهر تخضع فيها المرأة إلى هذا الكائن الجيني فتظل حالتها الفسيولوجية دائمة التأثر به والإناث لا تبلغ تمام نموها إلا بعد أن تحمل مرة أو أكثر فإذا لم تلد تصبح أقل اتزانا وأكثر عصبية) .

ويقول الدكتور تيودر وايك (لقد مارست التحليل النفسي خمساً وأربعين سنة وأظن أنني

يمكنني أن أقرر فيم يختلف الرجل والنساء . . . إن عواطف الغيرة في المرأة أكبر مما هي في الرجل ، وقد يعتقد البعض أن الغيرة قد لا تكون شيئاً هاماً بحيث يلتفت إليه ، ولكن ثبت أن الغيرة تصحبها انفعالات قاسية وتغييرات نفسية وجسدية معاً مما يؤدي تأثيراً مباشراً على اتزان الفكر ودقة الحكم ، وفي حالة التكاثر يستمر الأمر بالنسبة للمرأة لمدة طويلة تبلغ تسعة أشهر في أثنائها تكون عواطفها موزعة بين جنينها وبين باقي الأفراد الذين تمارس معهم شؤون الحياة . . . كما اثبت التحليل النفسي أن الرجال أكثر استعداداً للاعتراف بالأخطاء من النساء . . . والاعتراف بالخطأ له تأثيره الكبير في خطة العمل في الحياة .

(98/117)

ولا يقتصر الاختلاف بين الذكر والأنثى في ذلك فقط بل إنه يتعدى ذلك إلى السلوك في العمل فقد أثبتت التجربة لاسيما أخيراً بعد أن شاركت المرأة بنصيب كبير في العمل أن هناك من الأعمال ما تجيده المرأة عن الرجل خصوصاً تلك التي تحتاج إلى صبر ووقت طويل وهناك من الأعمال مالا تستطيع المرأة وإن قامت بها كان إنتاجها فيها أقل من الرجل .

أما الشكل الخارجي فاعتقد أن المرأة تختلف فيه عن الرجل اختلافاً كبيراً وواضحاً وجلياً بالرغم من أن الأجهزة الظاهرة للرجل هي التي للأنثى . فأجهزة السمع والبصر والأذن

واليد والأرجل بالرغم من اتفاقها في الرجل مع الأنثى فما ابعد الفرق ظاهرياً بينهما . . بل والشعر وطبيعته يختلفان في المرأة عن الرجل . .

وهكذا مهما توغلنا في البحث وجدنا الاختلاف الشديد بين الرجل والمرأة في الشكل الظاهري والتركيب الداخلي العملي والطاقة الإنتاجية . . وكل ما وصل إليه العلم أخيراً في ذلك سبق به القرآن الكريم إذ تقول الآية الشريفة (وليس الذكر كالأنثى) صدق الله العظيم سورة آل عمران : 36 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الآيات العلمية الأستاذ عبد الرزاق نوفل صـ 56 57 58 ﴾

(99/117)

بحث ثالث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إذا كان مطلب بعض السياسيين والاجتماعيين بمعاملة النساء والرجال بالتساوي باعتبارهما متساويين في الخلق ؛ على حين أثبتت الحقائق العلمية العكس : وإذا تجاهلنا الثوابت العلمية في هذا الخصوص ، فيصبح المطلب إذن بمثابة كذبة بيولوجية ، أي صرف النظر عن ثوابت علمية تتصل بخلق الجسد والدماغ لكل من الجنسين . فإلى متى التظاهر

بتساوي النساء مع الرجال رغم اختلافهما بيولوجياً ؟ فالوقت حان لمراجعة الموقف التقليدي القديم حول مساواة المرأة بالرجل الذي عمّ أرجاء من العالم . وحان الوقت لتصفية الخرافة الاجتماعية القائلة : الرجال والنساء متعاوضون ، أي يمكن قيام أحدهم بدور الآخر . ولكن اعلم أن الرجل يختلف عن المرأة ، مهما تحمست الدعوة إلى المساواة بينهما .

في حين هما متساويان فقط باعتبارهما من نفس الجنس ، الجنس البشري . فكل من يدعو إلى تساوي المرأة والرجل في المدركات ، المهارات ، الاستعدادات ، السلوك ، فهو يدعو دون أن يدرك إلى بناء مجتمع على أساس كذب بيولوجي (أحيائي) وعلمي . وبتعبير بسيط : الجنسان متباينان لأن دماغ كل منهما متباينان : فكما للمرآة جسد أنثوي فلها دماغ أنثوي ، وكما للرجل جسد ذكري فله دماغ ذكري . فيُصاغ دماغ الجنين الذكر إلى بنية ذكريه لتعرضه في الرحم إلى جرعات كبيرة من هرمونات منشطة الذكورة ، التستوسترون ، حيث تقدر عموماً كمية تلك الهرمونات عند الذكر في سن البلوغ عشرة أضعاف الكمية عند الأُنثى ، أو 1000% مما في المرأة . فمن أُنثى تتصرف تصرف الرجال ، كان دماغها تعرض في الرحم إلى كميات غير اعتيادية من هرمونات الذكورة .

والدماغ هو الجهاز الإداري والعاطفي المركزي لحياة الإنسان ، وتختلف بنيته في الرجال عن النساء من الفطرة ، فتنتج اختلافات بين الجنسين في العمليات العقلية والقدرات الفكرية وفي المهارات والاستعدادات ؛ ويتعامل الدماغ مع المعارف المستلمة بطريقة مختلفة بين الجنسين ، مما يؤدي إلى اختلاف في المدركات ، ترتيب الأسبقيات ، السلوك ، ونحو ذلك . فدعوى المساواة بين الجنسين تتعارض مع الفطرة ومع العلم .

وتأمل في حالة متعارف عليها تفرّق الرجال عن النساء : فأبرز خصال سلوكية تميز الرجال عن النساء العدوانية والمغامرة ، المخاطرة ، المنافسة ، الجزم والإصرار والزعم ، الولوع إلى السلطوية ، هي خصال جُبلية غير مكتسبة : وإلى هذه الخصال تُعلّل هيمنة الرجال بدرجة كبيرة على مدار التاريخ . فالرجال لم يكتسبوا سلوكية المغامرة مثلاً عن طريق التعليم أو الممارسة أو نتيجة مؤثرات اجتماعية أو بيئية ؛ وليس في مدرسة درس يعلم المغامرة وتكتيكها ؛ بل حتى العلماء المختصين في مجال الفوارق بين الجنسين ، يقرون بأن هذه الخصال متميزة عند الرجال لأن نسبة هرمون التستوستيرون عندهم عشرة أضعاف ما عند النساء 15 Moir

فحتى هذه المرحلة من البحث العلمي في فوارق بنية الدماغ بين الذكر والأنثى ، ذلك يدعو إلى التفكير والتأمل في مسألة إعادة النظر في الأنظمة والسياسات التربوية المعتمدة في

المدارس في الوقت الحاضر وفي أوصاف الأعمال التي تليق لكل من الجنسين وبطريقة تقر وتعتمد تلك الفوارق البيولوجية. أو بعبارة صريحة، هل نترك أنظمة الدراسة المختلطة بين الجنسين وتوفير فرص عمل متساوية للجنسين على حالها الحاضر من دون تغيير رغم ظهور ثوابت علمية عن الفوارق بينهما ؟

(101/117)

رأي بعض علماء الأعصاب أن يوماً سيأتي لمراجعة الأنظمة والسياسات التربوية الحالية، حتى لو اقتضى الأمر مثلاً التخلي عن المدارس المختلطة وإنشاء مدارس خاصة بالذكور وأخرى خاصة بالإناث على ضوء الفوارق الفطرية في دماغ كل منهما، بجانب تحديد أعمال تليق بالذكر وأعمال تليق بالأنثى على ضوء الفوارق العقلية والبدنية بينهما

وإليك دراسة حديثة في المملكة المتحدة مما يعزز خيار التعليم في مدارس لجنس منفرد وأفضليته على مدارس تعليم مختلط: أُجريت الدراسة على 100 مدرسة نموذجية ذات 12 درجة، 10 منها فقط ذات تعليم مختلط و90 ذات تعليم منفرد (منها للذكور وأخرى للإناث). وبعد تفحص نتائج الاختبار السنوي، ظهر أن النتائج لمدارس جنس منفرد للبنين 20% أفضل من نتائج بنين في مدارس مختلطة، وذات الحال بالنسبة لإناث في

مدارس للإناث مقارنة بنظيراتهن في مدارس مختلطة . وفي سنة 1996 أجريت مراجعة لنتائج اختبار سنوية لمدارس ثانوية للبنات ، فأظهرت تفوقهن على نظيراتهن لمدارس ثانوية مختلطة !

لعلك أدركت أن المرأة بيولوجياً تتميز على الرجل في نواحي تعدها لأداء الدور اللائق بها : فهي مثلاً تتميز في الإبصار المحيطي ، في الأبصار ليلاً ، السمع والتذوق واللمس ، الحدس ، مهارات اللغة واللباقة ، المقدرة على أداء أعمال متعددة ، التفاعل مع أفراد أعلى عن التفاعل مع أشياء ، النزعة نحو مجالات ذات طابع اجتماعي وشخصي ، أقل تقيداً بالقواعد من الرجل ، ونحو ذلك : كل ذلك ضروري لأداء متطلبات البيت المتشابكة من ضمنها التربية والرعاية المباشرة للأطفال بخاصة تعلقهم الفطري الحاسم بالأم أكثر من الأب ، بالإضافة إلى ممارسة نشاطات ذات طابع اجتماعي أو شخصي ، أو ذات طابع إنساني وخيري خارج قيود القواعد ، أو القيام بأعمال مكتبية رتيبة .

(102/117)

إن الإنسان بجنسيه يجني فوائد عُظمى من حياته إذا أدرك العالم كما هو مخلوق ؛ وليس بمحاولة منه إنشاء عالم حسب مشيئته ورغباته من أسس ومفاهيم يجهلها . فالرجال

والنساء بإمكانهم العيش معاً بسعادة أكثر ، بتفهم وحب بعضهم البعض بدرجة أعلا ، بتنظيم العالم إلى مصير أفضل ، إذا أقر كل من الجنسين فوارقه عن الجنس الآخر . وبذلك يتمكن الجنس البشري من بناء حياته على دعامتين ثنائيتين متميزتين من حيث الهوية الجنسية . لقد آن الأوان لإيقاف الجدلية العقيمة غير المجدية بأن الرجال والنساء خُلقوا متماثلان ؛ فهم لم يُخلقوا هكذا ، ولا يمكن لأي مثالي أو مناد بإصلاح أن يغير هذه الحقيقة الفطرية الناصعة التي قضاها سبحانه لعباده الذكور والإناث . وعلينا أن نقر ونتقبل بأن الرجال أقوياء وضعفاء في مجالات ، حيثما النساء قويات وضعيفات في مجالات : فتمكنت آن موا مثلاً من جمع إحصاءات من مختلف المصادر حول نسبة الرجال والنساء في ممارسة أعمال مختلفة ، حيث تبين أن مقابل امرأة واحدة تسعة رجال في مناصب سلطوية عليا ! . والأمل هو النهاية لشعارات مصطنعة زائفة لمساواة المرأة بالرجل في كافة المجالات ، والبديل الصائب الحكيم هو الإقرار بالفوارق البيولوجية بينهما ثم قيامهما بالدور اللائق لكل منهما من أجل أداء متكامل لمختلف نشاطات الحياة . فدعنا نسلّم بحقيقة بيولوجية هي أن الرجل والمرأة لم يُخلقا متساويان ؛ إنما خُلقا متكاملان ، فنستمر على الحياة على هذا المنوال . مايكل لِفِن Michael Levin بروفيسور فلسفة في جامعة المدينة بنيويورك كتب يقول Moir 190 :

"أدركت أن معظم النساء يجدن في الأمومة رضاء تاماً ، ومعظمهن كأمهات لا يتمتعن بالوالدية أكثر من الآباء حسب ؛ إنما بالأحرى هن أفضل في أدائها ، أي هن أكثر ملائمة للوالدية من الآباء . فوقوف المرأة الأم على إطعام الجيل الخَلَف وكساءهم وتربيتهم وتعليمهم هي مهمة رفيعة نبيلة ترقى على مهمة كسب المال من خلال العمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ من بحوث الدكتور : عبد الوهاب الراوي ﴾

(104/117)

قوله تعالى ﴿ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشيطان الرجيم ﴾

فصل

قال الفخر :

فيه أبحاث :

البحث الأول : أن ظاهر هذا الكلام يدل على ما حكينا من أن عمران كان قد مات في حال حمل حنة بمريم ، فلذلك تولت الأم تسميتها ، لأن العادة أن ذلك يتولاه الآباء .

البحث الثاني : أن مريم في لغتهم : العابدة ، فأرادت بهذه التسمية أن تطلب من الله تعالى

أن يعصمها من آفات الدين والدنيا ، والذي يؤكد هذا قولها بعد ذلك ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشيطان الرجيم ﴾ .

البحث الثالث : أن قوله ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ معناه : وإني سميتها بهذا اللفظ أي جعلت هذا اللفظ اسماً لها ، وهذا يدل على أن الاسم والمسمى والتسمية أمور ثلاثة متغايرة .

ثم حكى الله تعالى عنها كلاماً ثالثاً وهو قولها ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشيطان الرجيم ﴾ وذلك لأنه لما فاتها ما كانت تريد من أن يكون رجلاً خادماً للمسجد تضرعت إلى الله تعالى في أن يحفظها من الشيطان الرجيم ، وأن يجعلها من الصالحات القانتات ، وتفسير الشيطان الرجيم قد تقدم في أول الكتاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 24. 25 ﴾

لطيفة

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وإِنِّي أُعِيذُهَا ﴾ عطف على ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا ﴾ وأتى - هنا - بخبر "إنَّ" فعلاً مضارعاً ؛ دلالة على طلبها استمرار الاستعاذة دون انقطاعها ، بخلاف قوله : ﴿ وَضَعْتُهَا ﴾ و﴿ سَمَّيْتُهَا ﴾ حيث أتى بالخبرين ماضيَيْن ؛ لانقطاعهما ، وقدم المُعَاذَ به على المعطوف ؛ اهتماماً به . انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 176 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ يعني خادم الربّ في لغتهم .

﴿ وإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ ﴾ يعني مريم .

﴿ وَذُرِّيَّتَهَا ﴾ يعني عيسى .

وهذا يدلّ على أن الذريَّة قد تقع على الولد خاصّة .

(105/117)

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود يولد إلا نَخَسه الشيطان فيستهلّ صارخاً من نخسه (الشيطان) إلا ابن مريم وأُمّه " ثم قال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم ﴿ وإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشيطان الرجيم ﴾ .

قال علماؤنا : فأفاد هذا الحديثُ أن الله تعالى استجاب دعاء أُمّ مريم ، فإن الشيطان ينخَس جميع ولد آدم حتى الأنبياء والأولياء إلا مريم وابنها .

قال قتادة : كل مولود يطعن الشيطان في جنبه حين يولد غير عيسى وأُمّه جُعل بينهما حجاب فأصابت الطعنة الحجاب ولم ينفذ لهما منه شيء ، قال علماؤنا : وإن لم يكن

كذلك بطلت الخصوصية بهما ، ولا يلزم من هذا أن نخس الشيطان يلزم منه إضلال الممسوس وإغواؤه فإن ذلك ظنّ فاسد ؛ فكم تعرّض الشيطان للأنبياء والأولياء بأنواع الإفساد والإغواء ومع ذلك فعصمهم الله مما يَرُومه الشيطان ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر : 42] .

هذا مع أن كل واحد من بني آدم قد وُكِّل به قَرِينه من الشياطين ؛ كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فَمَرْيُمُ وابنها وإن عُصِما من نخسه فلم يُعْصما من ملازمته لهما ومقارنته .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 68 ﴾

(106/117)

وقال الآلوسى :

أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل من مسه صارخاً إلا مريم وابنها " وفي بعض طرقه أنه ضرب بينه وبينها حجاب وأن الشيطان أراد أن يطعن بإصبعه فوقعت الطعنة في الحجاب ، وفي رواية إسحق بن بشر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل ولد آدم ينال منه الشيطان

يطعنه حين يقع بالأرض بإصبعه ولهذا يستهل إلا ما كان من مريم وابنها فإنه لم يصل إبليس إليهما " وطعن القاضي عبد الجبار بإصبع فكره في هذه الأخبار بأنها خبر واحد على خلاف الدليل ، وذلك أن الشيطان إنما يدعو إلى الشر من له تمييز ولأنه لو تمكن من هذا الفعل لجاز أن يهلك الصالحين ، وأيضاً لم خص عيسى وأمه دون سائر الأنبياء ؟ وأنه لو وجد المس أو النخس لدام أثره وليس فليس ، والزمخشري زعم أن المعنى على تقدير الصحة أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها فإنهما كانا معصومين ، وكذلك كل من كان في صفتهما كقوله تعالى : ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [ص : 82 ، 83] واستهلاله صارخاً من مسه تخييل وتصوير لطمعه فيه كأنه يمسه ويضرب بيده عليه ونحوه من التخييل قول ابن الرومي :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها . . . يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وأما حقيقة النخس والمس كما يتوهم أهل الحشو فكلا ولو سلط إبليس على الناس ينخسهم لامتلأت الدنيا صراخاً وعياطاً مما يبلون به من نخسه انتهى .

ولا يخفى أن الأخبار في هذا الباب كثيرة وأكثرها مدون في "الصحاح" والأمر لا امتناع فيه ، وقد أخبر به الصادق عليه الصلاة والسلام فليتلق بالقبول ، والتخييل الذي ركن إليه الزمخشري ليس بشيء لأن المس باليد ربما يصلح لذلك أما الاستهلال صارخاً فلا على أن أكثر الروايات لا يجري فيها مثل ذلك ، وقوله : لامتلأت الدنيا عياطاً قلنا : هي مليئة فما من مولود إلا يصرخ ، ولا يلزم من تمكنه من تلك النخسة تمكنه منها في جميع الأوقات كيف وفي "الصحيح" : "لولا أن الملائكة يحفظونكم لاحتوشتكم الشياطين كما يحتوش الذباب العسل" وفي رواية "لاختطفتكم الجن" وقسر قوله تعالى : ﴿ لَهُ معقبات مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ [الرعد : 11] في أحد الوجوه به ، وبهذا يندفع أيضاً قول القاضي من أنه لو تمكن من هذا الفعل لجاز أن يهلك الصالحين وبقاء الأثر بل وحصوله أيضاً ليس أمراً ضرورياً للمس ولا للنخس والحصر باعتبار الأغلب والاقتصار على عيسى عليه السلام وأمه إيذاناً باستجابة دعاء امرأة عمران على أتم وجه ليتوجه أرباب الحاج إلى الله تعالى بشراشرهم ، أو يقدر له ما يخصصه ، وعلى التقديرين يخرج النبي صلى الله عليه وسلم من العموم فلا يلزم تفضيل عيسى عليه الصلاة والسلام في هذا المعنى ، ويؤيده خروج المتكلم من عموم كلامه ، وقد قال به جمع ويشهد له ما روى الجلال في "البهجة السنية" عن عكرمة قال : لما ولد النبي صلى الله عليه وسلم أشرقت الأرض نوراً فقال إبليس : لقد ولد الليلة ولد يفسد علينا أمرنا فقالت له جنوده : لو ذهبت إليه فجاءه فركضه جبريل عليه السلام فوقع بعدن ،

وهذا أولى من إبقاء العام على عمومه ، والقول بأنه لا يبعد اختصاص عيسى وأمه بهذه الفضيلة دون الأنبياء عليهم السلام ولا يلزم منه تفضيله عليهم عليهم السلام إذ قد يوجد في الفاضل ما لا يوجد في الأفضل ، وعلى كلا الأمرين الفاضل والمفضول لا إشكال في الإخبار من تلك الحيثية ، نعم قد يشكل على

ظاهرها أن إعاذة أم مريم كانت بعد الوضع فلا يصح حملها على الإعاذة من المسِّ الذي يكون حين الولادة ، وأجيب بأن المس ليس إلا بالانفصال وهو الوضع ومعه الإعاذة ، غايته أنه عبر عنه بالمضارع كما أشرنا إليه لقصد الاستمرار فليتأمل ، والعجب من بعض أهل السنة كيف يتبع المعتزلة في تأويل مثل هذه الأحاديث الصحيحة لمجرد الميل إلى ترهات الفلاسفة مع أن إبقاءها على ظاهرها مما لا يرنق لهم شرباً ولا يضيق عليهم سرباً ، نسأل الله تعالى أن يوفقنا لمراضيه ويجعل مستقبل حالنا خيراً من ماضيه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 137. 138 ﴾

(108/117)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾

لقد جاء هذا القول منها ، لأنها كانت قد قالت إنها نذرت ما في بطنها محررا لخدمة البيت ، وقولها : " محررا " تعني أنها أرادت ذكرا لخدمة البيت ، لكن المولود جاء أنثى . فكأنها قد قالت : ان لم أُمَكّنْ من الوفاء بالنذر ، فلأن قدرك سبق ، لقد جاءت المولودة أنثى .

لكن الحق يقول بعد ذلك : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ . وهذا يعني أنها لا تريد إخبار الله ، ولكنها تريد أن تظهر التحسر ، لأن الغاية من نذرها لم تتحقق وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى ﴾ . فهل هذا من كلامها ، أم من كلام الله ؟

قد قالت : ﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى ﴾ وقال الله : ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ .

إن الحق يقول لها : لا تظني أن الذكر الذي كنت تتمنينه سيصل إلى مرتبة هذه الأنثى ، إن هذه الأنثى لها شأن عظيم . أو أن القول من تمام كلامها : ﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى ﴾ ويكون قول الحق : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ هو جملة اعتراضية ويكون تمام كلامها ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ . أي أنها قالت : يارب إن الذكر ليس كالأنثى ، إنها لا تصلح لخدمة البيت .

وليأخذ المؤمن المعنى الذي يحبه ، وسنجد أن المعنى الأول فيه إشراق أكثر ، إنه تصور أن الحق قد قال : أنت تريدين ذكرا بمفهومك في الوفاء بالنذر ، وليكون في خدمة البيت ، ولقد

وهبت لك المولود أنثى ، ولكني سأعطي فيها آية أكبر من خدمة البيت ، وأنا أريد بالآية التي سأعطيها لهذه الأنثى مساندة عقائد ، لا مجرد خدمة رقعة تقام فيها شعائر .

(109/117)

إنني سأجعل من هذه الآية مواصلة لمسيرة العقائد في الدنيا إلى أن تقوم الساعة . ولأنني أنا الخالق ، سأوجد في هذه الأنثى آية لا توجد في غيرها ، وهي آية تثبت طلاقة قدرة الحق ، ولقد قلت من قبل : إن طلاقة القدرة تختلف عن القدرة العادية ، إن القدرة تخلق بأسباب ، ولكن من أين الأسباب ؟ إن الحق هو خالق الأسباب أيضا .

إذن فما دام الخالق للأسباب أراد خلقا بالأسباب فهذه إرادته . ولذلك أعطانا الحق القدرة على رؤية طلاقة قدرته ؛ لأنها عقائد إيمانية ، يجب أن تظل في بؤرة الشعور الإيماني ، وعلى بال المؤمن دائما . لقد خلق الله بعضا من الخلق بالأسباب كما خلقنا نحن ، وجمهرة الخلق عن طريق التناسل بين أب وأم ، أما خلق الحق لآدم عليه السلام فقد خلقه بلا أسباب . ونحن نعلم أن الشيء الدائر بين اثنين له قسمة عقلية ومنطقية ، فما دام هناك أب وأم ، ذكر وأنثى ، فسيجيء منهما تكاثر . . إن الحق يقول :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

[الذاريات : 49] .

وعندما يجتمع الزوجان ، فهذه هي الصورة الكاملة ، وهذه الأولى في القسمة المنطقية والتصور العقلي ، وإما أن ينعدم الزوجان فهذه هي الثانية في القسمة المنطقية والتصور العقلي .

أو أن ينعدم الزوج الأول ويبقى الطرف الثاني ، وهذه هي الثالثة في القسمة المنطقية والتصور العقلي ، أو أن ينعدم الزوج الثاني ويبقى الطرف الأول ، وهذه هي الرابعة في القسمة المنطقية والتصور العقلي .

(110/117)

تلك إذن أربعة تصورات للقسمة العقلية . وجميعنا جاء من اجتماع العنصرين ، الرجل والمرأة . أما آدم فقد خلقه الله بطلاقة قدرته ليكون السبب . وكذلك تم خلق حواء من آدم . وأخرج الحق من لقاء آدم وحواء نسلا . وهناك أنثى وهي مريم ويأتي منها المسيح عيسى ابن مريم بلا ذكر . وهذه هي الآية في العالمين ، وتثبت قمة عقدية . فلا يقولن أحد : ذكراً ، أو أنثى ، لأن نية امرأة عمران في الطاعة أن يكون المولود ذكرا ، وشاء قدر ربكم أن يكون أسمى من تقدير امرأة عمران في الطاعة ، لذلك قال : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى ﴾ .

أي أن الذكر لن يصل إلى مرتبة هذه الأنثى .

وقالت امرأة عمران : ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ . إن امرأة عمران قالت ما يدل على شعورها ، فحينما فات المولودة بأنوثتها أن تكون في خدمة بيت الله فقد تمنت امرأة عمران أن تكون المولودة طائعة ، عابدة ، فسمتها " مريم " لأن مريم في لغتهم – كما قلنا – معناها " العابدة " .

(111/117)

وأول ما يعترض العبودية هو الشيطان . إنه هو الذي يجعل الإنسان يتمرد على العبودية . إن الإنسان يريد أن يصير عابدا ، فيجيء الشيطان ليزين له المعصية . وأرادت إمرأة عمران أن تحمي ابنتها من نزغ الشيطان لأنها عرفت بتجربتها أن المعاصي كلها تأتي من نزغ الشيطان ، وقد سمتها " مريم " حتى تصبح " عابدة لله " ، ولأن إمرأة عمران كانت تمتلك عقلية إيمانية حاضرة وتحمل المنهج التعبدي كله لذلك قالت : ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .إن المستعاذ به هو الله ، والمستعاذ منه هو الشيطان ، وحينما يدخل الشيطان مع خلق الله في تزيين المعاصي ، فهو يدخل مع المخلوق في عراك ، ولكن الشيطان لا يستطيع أن يدخل مع ربه في عراك ، ولذلك يقال عن الشيطان إنه إذا سمع

ذكر الله فإنه يخنس أي يتراجع، ووصفه القرآن الكريم بأنه " الخنّاس "، إن الشيطان إنما ينفرد بالإنسان حين يكون الإنسان بعيدا عن الله، ولذلك فالحق يُعلّمُ الإنسان:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

[الأعراف: 200].

إن الشيطان يرتعد فرقا ورعشة من الإستعاذة بالله. وعندما يتكرر ارتعاد الشيطان بهذه الكلمة؛ فإنه يعرف أن هذا الإنسان العابد لن يحيد عن طاعة الله إلى المعاصي. وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يجيء الرجل امرأته، ومجيء الأهل هو مظنة لمولود قد يجيء، فيقول العبد: " اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني " (من دعاء الرسول).

(112/117)

إن من يقول هذا القول قبل أن يحدث التخلق " فلن يكون للشيطان ولاية أو قدرة على المولود الذي يأتي بإذن الله. ولذلك قالت إمرأة عمران: ﴿ وإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾. والذرية قد يفهمها الناس على أنها النسل المتكاثر، ولكن كلمة " ذرية " تطلق على الواحد وعلى الاثنين، وعلى الثلاثة أو أكثر. والذرية هنا بالنسبة لمريم

عليها السلام هي عيسى عليه السلام ، وتنتهي المسألة . وبعد دعاء إمرأة عمران ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ يجيء القول الحق : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1435.1438 ﴾

(113/117)

" فصل "

قال السيوطى :

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (34) إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (36)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس في قوله ﴿ وآل إبراهيم وآل عمران ﴾ قال : هم المؤمنون من آل إبراهيم ، وآل عمران ، وآل ياسين ، وآل

محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : ذكر الله أهل بيتين صالحين ، ورجلين صالحين ، ففضلهم على العالمين ، فكان محمد صلى الله عليه وسلم من آل إبراهيم .

وأخرج ابن جرير وأبي أبي حاتم عن الحسن في الآية قال : فضلهم الله على العالمين بالنبوّة على الناس كلهم ، كانوا هم الأنبياء الأتقياء المطيعين لربهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾ قال : في النية ، والعمل ، والإخلاص ، والتوحيد .

وأخرج ابن سعد وابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده ، أن علياً قال للحسن قم فاخطب الناس قال : إني أهابك أن أخطب وأنا أراك . فتغيب عنه حيث يسمع كلامه ولا يراه ، فقام الحسن فحمد الله وأثنى عليه وتكلم . ثم نزل فقال علي رضي الله عنه ﴿ ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ﴾ .

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس في قوله ﴿ إن الله اصطفى ﴾ يعني اختار من الناس لرسالته ﴿ آدم ونوحاً وآل إبراهيم ﴾ يعني إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ﴿ وآل عمران على العالمين ﴾ يعني اختارهم للنبوّة والرسالة على عالمي ذلك الزمان. فهم ذرية بعضها من بعض، فكل هؤلاء من ذرية آدم، ثم ذرية نوح، ثم من ذرية إبراهيم ﴿ إذ قالت امرأة عمران ﴾ بن ماثان واسمها حنة بنت فاقوذ. وهي أم مريم ﴿ رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً ﴾ وذلك أن أم مريم حنة كانت جلست عن الولد والمحيض، فبينما هي ذات يوم في ظل شجرة إذ نظرت إلى طير يزق فرخاً له، فتحركت نفسها للولد، فدعت الله أن يهب لها ولداً، فحاضت من ساعتها، فلما طهرت أتاها زوجها، فلما أيقنت بالود قالت: لئن نجاني الله ووضعت ما في بطني لأجعلنه محرراً. وبنو ماثان من ملوك بني إسرائيل من نسل داود. والمحرر لا يعمل للدنيا، ولا يتزوّج، ويتفرغ لعمل الآخرة. يعبد الله تعالى، ويكون في خدمة الكنيسة، ولم يكن محرراً في ذلك الزمان إلا الغلمان. فقالت لزوجها: ليس جنس من جنس الأنبياء إلا وفيهم محرر غيرنا، وإني جعلت ما في بطني نذيرة تقول: نذرت أن أجعله لله فهو المحرر. فقال زوجها: أرأيت أن كان الذي في بطنك أنثى والأنثى عورة – فكيف تصنعين؟ فاغتمت لذلك فقالت عند ذلك ﴿ رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك السميع العليم ﴾ يعني تقبل مني ما نذرت لك.

﴿ فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى ﴾ والأنثى عورة ، ثم قالت ﴿ وإني سميتها مريم ﴾ وكذلك كان اسمها عند الله ﴿ وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ يعني الملعون ، فاستجاب الله لها ، فلم يقربها الشيطان ولا ذريتها عيسى .

(115/117)

قال ابن عباس " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل ولد آدم ينال منه الشيطان يطعنه حين يقع بالأرض بأصبعه لما يستهل ، إلا ما كان من مريم وابنها لم يصل إبليس إليهما " قال ابن عباس : لما وضعتها خشيت حنة أم مريم أن لا تقبل الأنثى محررة ، فلفتها في الخرقة ووضعتها في بيت المقدس عند القراء ، فتساهم القراء عليها لأنها كانت بنت إمامهم ، وكان إمام القراء من ولد هرون . أيهم يأخذها فقال زكريا وهو رأس الأحبار أنا آخذها وأنا أحقهم بها لأن خالتها عندي يعني أم يحيى فقال القراء : وإن كان القوم من هو أفقر إليها منك ؟ ولو تركت لأحق الناس بها تركت لأبيها ولكنها محررة ، غير أنا نتساهم عليها فمن خرج سهمه فهو أحق بها ، فقرعوا ثلاث مرات بأقلامهم التي كانوا يكتبون بها الوحي ﴿ أيهم يكفل مريم ﴾ يعني أيهم يقبضها فقرعهم زكريا .

وكانت قرعة أقلامهم أنهم جمعوها في موضع ثم غطوها فقالوا لبعض خدم بيت المقدس من الغلمان الذين لم يبلغوا الحلم : أدخل يدك فأخرج قلماً منها ، فأدخل يده فأخرج قلم زكريا فقالوا : لا نرضى ولكن نلقي الأقلام في الماء فمن خرج قلمه في جرية الماء ثم ارتفع فهو يكلفها . فألقوا أقلامهم في نهر الأردن ، فارتفع قلم زكريا في جرية الماء فقالوا : نقترع الثالثة فمن جرى قلمه مع الماء فهو يكلفها . فألقوا أقلامهم ، فجرى قلم زكريا مع الماء ، وارتفعت أقلامهم في جرية الماء وقبضها عند ذلك زكريا . فذلك قوله ﴿ وكفلها زكريا ﴾ يعني قبضها ثم قال ﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً ﴾ يعني رباها تربية حسنة في عبادة وطاعة لربها حتى ترعرعت ، وبنى لها زكريا محراباً في بيت المقدس ، وجعل له بابه في وسط الحائط لا يصعد إليها إلا بسلم .

وكان استأجر لها ظِئْراً ، فلما تم لها حولان فطمت وتحركت ، فكان يغلق عليها الباب والمفتاح معه لا يأمن عليه أحداً ، لا يأتيها بما يصلحها أحد غيره حتى بلغت " .

(116/117)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن عساكر عن عكرمة قال : اسم أم مريم حنة .

وأخرج الحاكم عن أبي هريرة قال : حنة ولدت مريم أم عيسى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ نذرت لك ما في بطني محرراً ﴾ قال : كانت نذرت أي تجعله في الكنيسة يتعبد بها ، وكانت ترجو أن يكون ذكراً .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال : نذرت أي تجعله محرراً للعبادة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ محرراً ﴾ قال : خادماً للبيعة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من وجه آخر عن مجاهد في قوله ﴿ محرراً ﴾ قال : خالصاً لا يخالطه شيء من أمر الدنيا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في الآية قال : كانت امرأة عمران حررت لله ما في بطنها ، وكانوا إنما يحررون الذكور ، وكان المحرر إذا حرر جعل في الكنيسة لا يبرحها ، يقوم عليها ويكنسها ، وكانت المرأة لا تستطيع أن تصنع بها ذلك لما يصيبها من الأذى ، فعند ذلك قالت ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ﴿ محرراً ﴾ قال : جعلته لله والكنيسة فلا يحال بينه وبين العبادة .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك قال : كانت المرأة في زمان بني إسرائيل إذا ولدت غلاماً أرضعته حتى إذا أطاق الخدمة دفعته إلى الذين يدرسون الكتب ، فقالت : هذا محرر لكم يخدمكم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال : إن امرأة عمران كانت عجوزاً عاقراً تسمى ، حنة ، وكانت لا تلد ، فجعلت تغبط النساء لأولادهن فقالت : اللهم إن عليَّ نذراً شكراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس ، فيكون من سدنته وخدامه ﴿ فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى . . . وليس الذكر كالأنثى ﴾ يعني في المحيض ولا ينبغي لامرأة أن تكون مع الرجال ، ثم خرجت أم مريم تحملها في خرقتها إلى بني الكاهن ابن هارون أخي موسى قال : وهم يومئذ يلون من بيت المقدس ما يلي الحجبة من الكعبة فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة فإني حررتها وهي ابنتي ولا يدخل الكنيسة حائض ، وأنا لا أردها إلى بيتي فقالوا : هذه ابنة إمامنا وكان عمران يؤمهم في الصلاة فقال زكريا : ادفعوها إليَّ فإن خالتها تحتي فقالوا : لا تطيب أنفسنا بذلك . فذلك حين اقترعوا عليها بالأقلام التي يكتبون بها التوراة ، فقرعهم زكريا فكفلها .

وأخرج سعيد بن منصور عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك أنه قرأ ﴿ بما وضعت ﴾ برفع التاء .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم بن أبي النجود أنه كان يقرؤها برفع التاء .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن سفيان بن حسين ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ قال: على وجه الشكاية إلى الرب تبارك وتعالى.

وأخرج عبد بن حميد عن الأسود أنه كان يقرؤها ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ بنصب العين.

وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم أنه كان يقرؤها ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ بنصب العين.

أما قوله تعالى: ﴿ وإني أعيذها ﴾ الآية.

(118/117)

أخرج عبد الرزاق وأحمد والبخاري ومسلم وابن جرير وأبي المنذر وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه، إلا مريم وابنها " ثم قال أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم ﴿ وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل مولود من ولد آدم له طعنة من الشيطان وبها يستهل الصبي، إلا

ما كان من مريم بنت عمران وولدها ، فإن أمها قالت حين وضعتها ﴿ وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ فضرب بينهما حجاب ، فطعن في الحجاب "

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من مولود يولد إلا وقد عصره الشيطان عصرة أو عصرتين إلا عيسى ابن مريم ومريم . ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ " .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : ما ولد مولود إلا قد استهل غير المسيح ابن مريم لم يسلط عليه الشيطان ولم ينهزه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن عساكر عن وهب بن منبه قال : لما ولد عيسى عليه السلام أتت الشياطين إبليس فقالوا : أصبحت الأصنام قد نكست رؤوسها فقال : هذا حدث مكانكم . فطار حتى جاب خافقي الأرض فلم يجد شيئًا ، ثم جاء البحار فلم يقدر على شيء ، ثم طار أيضاً فوجد عيسى عليه السلام قد ولد عند مدود حمار ، وإذا الملائكة قد حفَّت حوله ، فرجع إليهم فقال إليهم فقال : إن نبياً قد ولد البارحة ما حملت أنثى قط ولا وضعت إلا وأنا بحضرتها إلا هذا . فأيسوا أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ولكن ائتوا بني آدم من قبل الخفة والعجلة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ قال : " ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : كل بني آدم طعن الشيطان في جنبه إلا عيسى ابن مريم وأمه ، جعل بينهما وبينه حجاب فأصابت الطعنة الحجاب ولم ينفذ إليهما شيء . وذكر لنا أنهما كانا لا يصيبان الذنوب كما يصيبه سائر بني آدم .

وذكر لنا أن عيسى عليه السلام كان يمشي على البحر كما يمشي على البر ، مما أعطاه الله من اليقين والإخلاص " .

وأخرج ابن جرير عن الربيع ﴿ وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ قال : " إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : كل آدمي طعن الشيطان في جنبه غير عيسى وأمه كانا لا يصيبان الذنوب كما يصيبها بنو آدم قال : وقال عيسى عليه السلام فيما يثني على ربه : وأعاذني وأمي من الشيطان الرجيم فلم يكن له علينا سبيل " .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال : لولا أنها قالت ﴿ وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ إذن لم تكن لها ذرية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 ص 184.179 ﴾

بحث نفيس بعنوان :

وليس الذكر كالأنثى

.قد يعجب كثير من الأزواج رجالاً ونساءً عندما يسمعون أن هناك فروقًا هامة بين الرجل والمرأة ، وأن فهم طبيعة هذه الفروق بين الجنسين من شأنه أن يغير حياتهم ، ويزيد من قدرتهم على التعايش الزوجي ، ويجنبهم الكثير من المشكلات والصعوبات ، والتي يمكن أن يؤدي عدم فهمها إلى تفكك هذه العلاقة الزوجية المقدسة .

قد تستطيع المحبة وحدها حفظ الزواج لبعض الوقت ، وإن كان زواجًا فيه الكثير من الخلافات والمشكلات ، وإنما لا بد مع الحب من الفهم العميق والصحيح للفروق بين الرجل والمرأة ، ومعرفة الطريقة الأنسب للتعامل مع الجنس الآخر .

.وكثير من الناس يقرون ويعرفون نظريًا أن هناك فروقًا بين الجنسين ، إلا أن طبيعة هذه الفروق قد لا تكون واضحة ، إلا إذا كانت الفروق جسدية أو ربما انفعالية وعاطفية .

ودراسة الفروق بين الجنسين تكون لدينا فهمًا عميقًا عن الآخر ، وهذا الفهم العميق يولد المحبة والمودة والاحترام أيضًا ، وهذا الفهم سيولد نوعية من الاقتراحات والبدائل لحل كثير من المشكلات على ضوء هذا الفهم .

كيف تبدأ المشكلات ؟ تبدأ المشكلات بداية عندما ينسى الرجل أو تنسى المرأة أن كلاً

منهما مختلف عن الآخر وأن لكل منهما طبيعة خاصة به جبله الله عليها ، فيتوقع من الآخر فعلاً أو رد فعل معينًا يتناسب مع طبيعته هو ، ثم يكون الفعل غير ما توقع لاختلاف الطبيعة ، فالرجل يريد من المرأة أن تطلب ما يود هو الحصول عليه ، وتتوقع المرأة منه أن يشعر بما تشعر هي به تمامًا .

إن كلاً منهما يفترض خطأ ، أنه إن كان الآخر يحبه فسوق يتصرف بنفس الطريقة التي يتصرف فيها هو ما يعبر عن حبه وتقديره ، وهذا الافتراض الخاطئ سيكون عند صاحبه خيبات الأمل المتكررة ، وسيضع الحواجز الكثيرة بين الزوجين .

ولذلك كان من الواجب على كل طرف منهما التعرف على معالم الفروق بينه وبين الآخر لتلافى كثير من المشكلات ولخلق جو من الحوار المثمر والفهم المتبادل بين الطرفين يثمر عن حياه هادئة وسعيدة .

معالم الفروق بين الذكر والأنثى:

وهذه المعالم كما ذكرها د/ مأمون مبيض في كتابه التفاهم بين الزوجين نذكرها مختصرة .

1 .اختلاف القيم والنظرة إلى الأمور:

فالرجل يخطئ عندما يبادر إلى تقديم الحلول العملية للمشكلات ، ولا يرى أهمية لشعور المرأة بالانزعاج أو الألم ، وهذا ما يزعج المرأة من حيث لا يدري .

والمرأة تبادر إلى تقديم النصائح والتوجيهات للرجل ، وهذا ما يزعجه كثيرًا من حيث لا تدري .

فالمرأة عندما ينتابها أمر أو تحل عليها مشكلة ، تحب أن تتكلم وتحب من يستمع إليها فإن ذلك يشعرها بالحب والرعاية ، ولا تطرح المشكلة للبحث عن حل وخصوصًا في بداية الطرح ولكن لتحس أن هناك من يهتم بها ويرعاها ويقدر ما هي فيه من البلاء .

في حين أن الرجل عندما تنتابه مشكلة فهو يرى أن عليه المسئولية في حلها وأن أي نصح للمرأة في هذه الحالة دون طلب ذلك منه فإنه يشعره أنها ترى أنه عاجز وأنه غير قادر على حلها وهو بدوره يبحث عن الحل بنفسه أو يسأل من يظن أنه خبير ويستطيع الحل .

2 . اختلاف الوسائل في التعامل مع المشاكل:

فالرجل عندما يواجه مشكلة ما ، فإنه يميل بطبعه إلى الانعزال بنفسه والتفكير بهدوء في مخرج من هذه المشكلة التي تواجهه ، بينما تميل المرأة إلى الرغبة في الجلوس مع الآخرين ، والحديث فيما يشغل بالها ، والمرأة كلما كانت المشكلة كبيرة ، شغلت بالها كثيرًا وكانت في حاجة إلى الكلام كثيرًا والعكس من ذلك الرجل .

3 . اختلاف المحفزات والدوافع للعمل والعطاء :

فالرجل يقوم ويعمل ويعطي ما عنده عندما يشعر أن هناك من يحتاج إليه . بينما تميل المرأة للعمل والتقديم والعطاء عندما تشعر أن هناك من يرعاها .

4 . القرب من الطرف الآخر :

فعندما يقترب الرجل من المرأة يشعر بالحاجة الملحة للابتعاد لبعض الوقت ، وليعواد للاقتراب من جديد ، مما يشعره باستقلاليته المتجددة ، بينما تميل المرأة في علاقتها ومشاعرها إلى الصعود والهبوط كموح البحر ، وفهم هذه الفروق يساعد المرأة على التعامل الأمثل مع الأوقات التي يميل فيها الرجل لبعض الابتعاد ، ويعين الرجل على التعامل الأفضل مع المرأة عندما تتغير فجأة طبيعة مشاعرها ، وكيف يقدم لها ما تحتاج في هذه الأوقات .

5 . تقدير أعمال الآخر :

حيث تقوم المرأة باعتبار تقدير كل العطايا وما يقدمه الرجل بنفس الدرجة تقريبًا ، فمثلاً إذا اشترى لها مجوهرات بمبلغ كبير فقدره عندها كخاتم صغير من الذهب ، بينما يميل الرجل إلى التركيز على عمل واحد كبير ، أو تضحية عظيمة ، ويهمل الأعمال الأخرى

الصغيرة.

وأخيرًا فالرجل يتصرف دائمًا وكأنه دومًا على حق ، مما يشعر المرأة بعدم صحة مشاعرها وعواطفها .

6. اختلاف الحاجات العاطفية:

فالرجل يحتاج إلى الحب الذي يحمل معه الثقة به وقبوله كما هو ، والحب الذي يعبر عن تقدير جهوده وما يقدمه .

بينما تحتاج المرأة إلى الحب الذي يحمل معه رعايتها وأنه يستمع إليها ، وأن مشاعرها تفهم وتقدر وتحترم .

وبالطبع فهذه المعالم ليست كل الفروق بين الرجل والمرأة ولكنها أهمها ، وبداية حل أي مشكلة هي تفهم دوافع الطرف الآخر [ما حملك على هذا ؟] وفهم طبيعة وجبلة الطرف الآخر يعين على التفاهم معه .

الأنوثة في نصوص الوحيين

أ . د . عبدالله بن إبراهيم الطريقي

الأستاذ بالمعهد العالي للقضاء

اقتضت حكمة الخالق جل شأنه أن تكون الخلائق مركبة من زوجين ، والزوجية تقتضي

الاختلاف بينهما ، إما اختلاف تضاد أو اختلاف تشابه وتنوع .

ولذا قال الحق تعالى: "وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" [الذاريات: 49] .

(123/117)

قال مجاهد بن جبر فيما رواه عنه الطبري: "وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ" الكفر والإيمان ، والشقاوة والسعادة ، والهدى والضلالة ، والليل والنهار ، والسماء والأرض ، والإنس والجن .

والزوجية هنا تشمل المعنويات كالهدى والضلال ، والخير والشر ، والمحسوسات كالليل والنهار ، والذكورة والأنوثة .

وقد أوضح ذلك الراغب الأصفهاني بقوله: "الزوج: يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجه زوج ، ولكل قرينين فيها وفي غيرها زوج كالخف والنعل ، ولكل ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاد زوج . . وقوله: "خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ" فبين أن كل من في العالم زوج من حيث إن له ضداً أو مثلاً ما أو تركيباً ما ، بل لا ينفك بوجه من تركيب ، وإنما ذكر هاهنا زوجين تنبيهاً أن الشيء وإن لم يكن له ضد ولا مثل فإنه لا ينفك من تركيب جوهر وعرض وذلك زوجان" [المفردات/ صـ216] .

والذكورة والأنوثة هما صورة من صور الزوجية المشار إليها ؛ فما علاقة الأنوثة بالذكورة ؟

هذا هو محور الحديث هنا ، ونقصر الحديث على جنس البشر .

وذلك في النقاط التالية:

أولاً : أصل الخلقة:

جاءت نصوص الوحيين بإشارات كثيرة لا يخلو أكثرها من التفصيلات في شأن (بدء الخلق) .

قال سبحانه: "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ 4 يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ 5 ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ 6 الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ 7 ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ 8 ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ" [السجدة:4-9] .

هكذا خلق آدم عليه السلام ، ثم إن الله تعالى قدر أن يوجد له مخلوقاً يأنس به ويسكن إليه

، فخلق منه زوجه حواء ، كما أشارت إلى ذلك الآية الأخرى "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ" [الأعراف:189] .

وجاء توكيد ذلك في أول سورة النساء "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً" .

وجاء في الأحاديث الصحيحة أن حواء خلقت من ضلع آدم ، كما في حديث: (استوصوا بالنساء ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه) [البخاري برقم 3331] .

وهذا يفيد أمرين:

الأول: أن المرأة إنسان كالرجل:

الثاني: أنها جزء من الرجل وفرع منه .

(125/117)

ولعل ما يؤكد هذه الحقيقة قوله عليه السلام: (إنما النساء شقائق الرجال) [رواه أبو داود / 236] .

قال الخطابي في معالم السنن 79/1: "أي نظائرهم وأمثالهم في الخلق والطباع ، فكأنهن شققن من الرجال" .

وعلى هذا لا فرق في القيمة الإنسانية بين الرجل والمرأة ، بل هما متساويان فيها ، مما يجعلهما مشتركان في جملة الفضائل الإنسانية ، التي أشارت إليها نصوص القرآن الكريم .

كقوله تعالى: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً" [الإسراء: 70] .

وقوله تعالى: "لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ" [البينة:4] .

ثانياً : خصائص الأنوثة:

وبرغم تلك المساواة في القيمة الإنسانية أو أصل التكوين إلا أنه مما تقتضيه الحكمة الإلهية ، والخلقة الطبيعية أن يكون الزوجان ـ الذكر والأنثى ـ مختلفين في بعض الخصائص والمكونات ، كما تقتضيه الحال في كل زوجين من النبات والحيوان ، فضلاً عن المتضادات كالخير والشر ، والنفع والضر ، والحب والبغض . . إلخ .

ولو كان الرجل والأنثى سواء في كل شيء لم يكن في التعددية فائدة ، لذلك لابد أن يقول العقل ومنطق الأشياء : إن بينهما اختلافاً في مجالي: الخلق والتكوين والخُلق والطبع .

وقد يكون من غير الممكن هنا تفصيل ذلك عند علماء الطب والتشريح ، أو عند علماء النفس والأخلاق ، لكنني أشير إلى ماله صلة وثيقة بالتشريع ، وهو علم اللغة الذي عني

أصحابه بالموضوع عناية واضحة وبالغة .

فابن سيده في (المخصص) بدأ بخلق الإنسان ، وذكر اسم كل جزء فيه ، ثم كل نعت فيه ، بما يشمل الذكر والأنثى ، ثم جاء بعنوان آخر هو: كتاب النساء ، حيث أورد ما فيهن من خصائص وسمات ، ثم نعوت وصفات ، مما يحمد أو يذم .

(126/117)

وسبق ابن سيده علماء آخرون من أهل اللغة والأدب مثل الجاحظ وابن قتيبة ، كما يلحظ ذلك في كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة ، حيث خص النساء بكتاب مستقل سماه (كتاب النساء) .

بل إن الأصل اللغوي لكل من لفظتي (الذكر ، والأنثى) تعطي أبعاداً للمفاهيم ، فالذكر: مأخوذ من الذكرة ، وهي القطعة من الفولاذ ، ويقال: حديد ذكر: أي يابس شديد ، ورجل ذكر: قوي شجاع .

أما الأنثى ، فمأخوذ من الأنوثة وهي الليونة ، يقال: أنّث في الأمر: لان ولم يتشدد ، وأرض أنيثة: سهلة منبات . ينظر: المعجم الوسيط . مادتا : أنث وذكر .

ولعل من المناسب أن نتوقف عند بعض الخصائص التي وردت في الوحيين ، والتي لا يختلف

عليها مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر ؛ لإيمانه وتسليمه بالوحي أولاً ، ثم لكون الخصائص هذه حقائق أكيدة ثانياً .

1 .أن المرأة محل الزينة والجمال: "زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ" [آل عمران: 14] .

وفي الحديث: (حبب إلي من الدنيا النساء والطيب) [رواه النسائي/ 3941] ، وهو ما عبرت عنه تلك الشاعرة بقولها :

إن النساء رياحين خلقن لكم وكلكم يشتهي شم الرياحين

2 .والمرأة محل الحرث: "نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ" [البقرة: 223] .

والجنين منذ مرحلة النطفة حتى ساعة الميلاد وهو يعيش في رحم أمه ، وهو معنى الحرث .

(127/117)

3– وهي عرضة للطمث ، والحمل والولادة والرضاع: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ" [البقرة: 222] . "وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ" [لقمان: 14] . "وَوَصَّيْنَا

الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا" [الأحقاف: 15].

4. وفي جنس النساء نقص أكثر منه في جنس الذكور: ففي الحديث الصحيح أن النبي – صلى الله عليه وسلم – خرج في يوم العيد إلى المصلى فمر على النساء فوعظهن وقال: (يا معشر النساء تصدقن فإني أريتكن أكثر أهل النار) فقلن: وبم يا رسول الله، قال: (تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن) قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: (أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟) قلن: بلى، قال: (فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟) قلن: بلى، قال: (فذلك من نقصان دينها) [رواه البخاري/304، ومسلم برقم 132].

وهذا النقص أمر نسبي، في كل من الرجل والمرأة، ولكن في المرأة أكبر نسبة.

ومما يؤكد وجود النقص في الرجل، قوله عليه الصلاة والسلام: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وأن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام) [رواه البخاري/3411، ومسلم/2431].

فإذا كان كثير من الرجال قد كمل، فإنه يقابلهم كثير آخرون ناقصون.

5. ومما يؤكد وجود خصائص في كل من الذكر والأنثى: قول الحق تعالى في سياق قصة مريم عليها السلام: "إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ" [آل عمران: 35–36].

والشاهد هنا هو قوله تعالى: "وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى" وهو من تتمة كلام امرأة عمران، بعد الجملة الاعتراضية "وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ" وهي من كلام الرب تعالى.

قال الطبري: "فتأويل الكلام إذاً والله أعلم من كل خلقه بما وضعت، ثم رجع جل ذكره إلى الخبر عن قولها، وأنها قالت ـ اعتذاراً إلى ربها مما كانت نذرت في حملها فحررته لخدمة ربها (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى)، لأن الذكر أقوى على الخدمة وأقوم بها، وأن الأنثى لا تصلح في بعض الأحوال لدخول القدس والقيام بخدمة الكنيسة، لما يعتريها من الحيض والنفاس".

6- والنساء لهن خصيصة في اللباس تختلف عن الرجال: "وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ" [النور: 31].

ثالثاً: المسؤولية والتكليف: خلق الله الإنس والجن لعبادته، والقيام بالأمانة والعدل. "إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا" الأحزاب: 72. "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" [الذاريات: 56].

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" [البقرة: 21].

والإنس، والناس، والإنسان، كلها أسماء جنس يدخل فيها جميع عقلاء البشر من الذكور والإناث ممن يفهم الخطاب.

وجاءت نداءات متكررة ومتنوعة في القرآن الكريم تتضمن تكليفات إلهية. مثل: يا أيها الذين آمنوا، يا أيها الناس، يا بني آدم، يا أيها الإنسان. وهي خطابات للذكور والإناث، والقاعدة الشرعية في الخطاب أنه عام للذكور والإناث إلا ما جاء مستثنى.

لكن هل يدخل النساء في الخطاب بأصل الوضع ، أم يدخلن بالتغليب ؟ خلاف بين الأصوليين .

قال ابن القيم في رده على نفاة القياس عندما قالوا : "إن الإسلام سوَّى بين الرجل والمرأة في العبادات البدنية والمالية كالوضوء والصلاة والصوم والزكاة والحج ، وفي العقوبات كالحدود ، ثم جعلها على النصف من الرجل في الدية والشهادة والميراث والعقيقة" .

فعلق ابن القيم على هذه المقولة بقوله: "هذا من كمال شريعته وحكمتها ، ولطفها ؛ فإن مصلحة العبادات البدنية ومصلحة العقوبات ، الرجال والنساء مشتركون فيها ، وحاجة أحد الصنفين إليها كحاجة الصنف الآخر ، فلا يليق التفريق بينهما ، نعم فرقت بينهما في أليق المواضع بالتفريق ، وهو الجمعة والجماعة . . وكذلك فرقت بينهما في عبادة الجهاد التي ليس الإناث من أهلها ، وسوت بينهما في وجوب الحج لاحتياج النوعين إلى مصلحته ، وفي وجوب الزكاة والصيام والطهارة . . " [أعلام الموقعين 145/2] .

وابن القيم يفصل هنا مواطن التسوية والتفرقة بين الجنسين .

والنصوص الشرعية واضحة وقاضية في كلا الأمرين والمقام لا يتسع لإيراد التفصيلات ،

لكن نشير إلى أهم مواطن الاختلاف بين الجنسين مما لا نزاع فيه بين أهل العلم في الجملة .

ففي نظري أن القضايا والأحكام ذات العلاقة لها أنواع:

1 . تخفيف الحكم على المرأة من الوجوب إلى ما دونه ، مثل : صلاة الجمعة ، والجماعة ، والجهاد .

2 .إسقاط الحكم التكليفي عنها ، مثل : عدم قضاء الصلاة بسبب الحيض والنفاس ، وعدم النفقة على الزوج والأولاد .

3 . تأجيل الحكم التكليفي وتأخيره ، مثل : صيام رمضان بسبب الحيض والنفاس .

4 .تمييز المرأة بأحكام تتعلق بأنوثتها : كالحجاب ، وإباحة التحلي بالذهب والحرير ، وعدم حلق شعر الرأس ، وإرضاع الأطفال وتربيتهم .

5 .وضع أحكام احتياطية لصالح المرأة ، مثل : عدم السفر إلا مع ذي محرم ، وعدم الخلوة بالرجل الأجنبي إلا مع ذي محرم ، وعدم التبرج ، وعدم الاختلاط في غير مواطن الحاجة .

---

6 .إسناد الأعمال القيادية للرجل دون المرأة ، مثل:

أ– قوامة الرجل على المرأة ، ولزوم طاعة الزوج بالمعروف .

ب- ولاية النكاح.

ج- الولايات العامة للمجتمع (كالإمامة ، والإمارة ، والوزارة) .

7. تحديد أنصبة أقل من الرجل ، في الميراث ، والديات والشهادة .

8. منحها حقوقاً مادية مثل: المهر ، والنفقة .

وكل هذه الأحكام الخاصة بالمرأة ، والتي تميزت بها عن الرجل هي عند التدقيق عين الحكمة ومقتضى العقل الصحيح ومساحة هذه المقالة لا تتسع للتفصيل .

رابعاً : الجزاء:

لا تكاد تختلف المرأة عن الرجل في مجال (الجزاء) دنيوياً كان أو أخروياً .

فالثواب والعقاب يستوي فيه الجنسان .

قال سبحانه: "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" [النحل: 97] .

يقول الطاهر بن عاشور: قوله: "مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى" تبيين للعموم الذي دلت عليه (من) الموصولة ، وفي هذا البيان دلالة على أن أحكام الإسلام يستوي فيها الذكور والنساء ، عدا ما خصصه الدين بأحد الصنفين" .

وقد ثبت أن جبريل عليه السلام قال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: (اقرأ على خديجة

السلام من ربها ومني ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب)

[البخاري رقم/3820] .

(132/117)

ولما قالت أم سلمة رضي الله عنها : يا نبي الله ، مالي أسمع الرجال يذكرون في القرآن ،

والنساء لا يُذكرن أنزل الله: "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ

وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ

وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ

وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" [الأحزاب: 35] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحث بعنوان : وليس الذكر كالأنثى ﴾

(133/117)

قوله تعالى ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا

زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ

يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (37) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أخبر بدعائها أخبر بإجابتها فيه فقال : ﴿ فتقبلها ﴾ فجاء بصيغة التفعل مطابقة لقولها ﴿ فتقبل ﴾ ، ففيه إشعار بتدرج وتطور وتكثر ، كأنه يشعر بأنها مزيد لها في كل طور تتطور إليه ، من حيث لم يكن فاقبل مني فلم تكن إجابته ﴿ فقبلها ﴾ ، فيكون إعطاء واحداً منقطعاً عن التواصل والتتابع ، فلا تزال بركة تحريرها متجدداً لها في نفسها وعائداً بركته على أمها حتى تترقى لى العلو المحمدي فيتكون في أزواجه ومن يتصل به - انتهى .

وجاء بالوصف المشعر بالإحسان مضافاً إليها إبلاغاً في المعنى فقال : ﴿ ربها ﴾ قال الحرالي : وظهر سر الإجابة في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ بقبول حسن ﴾ حيث لم يكن " بتقبل " - جرياً على الأول .

(134/117)

ولما أنبأ القبول عن معنى ما أوليته باطناً أنبأ الإنبات عما أوليته ظاهراً في جسمانيتها ، وفي ذكر الفعل من " أفعل " في قوله : ﴿ وأنبتها ﴾ والاسم من " فعل " في قوله : ﴿ نباتاً

حسناً ﴾ إعلام بكمال الأمرين من إمدادها في النمو الذي هو غيب عن العيون وكمالها في ذاتية النبات الذي هو ظاهر للعين ، فكمل في الإنباء والوقوع حسن التأثير وحسن الأثر ، فأعرب عن إنباتها ونباتها معنى حسناً - انتهى .

فوقع الجواب لأنها عناية من الله سبحانه وتعالى بها على ما وقع سؤالها فيه ، فلقد ضل وافترى من قذفها وبهتها ، وكفر وغلا من ادعى في ولدها من الإطراء ما ادعى .

وقال الحرالي : وقد أنبأ سبحانه وتعالى في هذه السورة الخاصة بقصة مريم عليها الصلاة والسلام من تقبلها وإنباتها وحسن سيرتها بما نفي اللبس في أمرها وأمر ولدها ، لأن المخصوص بمنزل هذه السورة ما هو في بيان رفع اللبس الذي ضل به النصارى ، فيذكر في كل سورة ما هو الأليق والأولى بمخصوص منزلها ، فلذلك ينقص الخطاب في القصة الواحدة في سورة ما يستوفيه في سورة أخرى لاختلاف مخصوص منزلها ، كذلك الحال في القصص المتكررة في القرآن من قصص الأنبياء وما ذكر فيه لمقصد الترغيب والتثبيت والتحذير وغير ذلك من وجوه التنبيه - انتهى ، وفيه تصرف .

ولما كان الصغير لا بد له فيما جرت به العادة من كبير يتولى أمره قال : ﴿ وكفلها ﴾ قال الحرالي : من الكفل وهو حياطة الشيء من جميع جهاته حتى يصير عليه كالفلك الدائر ﴿ زكريا ﴾ وفي قراءة التشديد إنباء بأن الله سبحانه وتعالى هو في الحقيقة كفيلها بما هو تقبلها ، وفي استخلاص لزكريا من حيث جعله يد وكالة له فيها - انتهى .

ولما كان من شأن الكفيل القيام بما يعجز عنه المكفول بين سبحانه وتعالى أن تلك الكفالة إنما كانت جرياً على العوائد وأنه تبين أن تقبل الله لها أغناها عن سواه فقال في جواب من لعله يقول : ما فعل في كفالتها ؟ : ﴿ كلما ﴾ أي كان كلما ﴿ دخل عليها زكريا المحراب ﴾ أي موضع العبادة .

(135/117)

وقال الحرالي : هو صدر البيت ومقدمه الذي لا يكاد يوصل إليه إلا بفضل منه وقوة وجهد حرب ﴿ وجد عندها رزقاً ﴾ وذلك كما وجد عند خبيب بن عدي الأنصاري رضي الله تعالى عنه قطف العنب - كما سيأتي في آخر المائدة ، ومثل ذلك كثير في هذه الأمة ، وفي هذه العبارة أي من أولها إلاحة لمعنى حسن كفالته وأنه كان يتفقدها عند تقدير حاجتها إلى الطعام بما تفيده كلمة ﴿ كلما ﴾ من التكرار ، فيجد الكفيل الحق قد عاجلها برزق من غيب بما هو سبحانه وتعالى المتولي لإنباتها ليكون نباتها من غيب رزقه فتصلح لنفخ روحه ومستودع كلمته ، ولا يلحقها بعد الإعاذة ما فيه مس من الشيطان الرجيم الذي أعاذها الله سبحانه وتعالى منه بكثرة الاختلاط في موجودات الأرزاق ، فكان من حفظها أن تولى الله سبحانه وتعالى أرزاقها من غيب إلا ما يطيبه من باد ، وليكون حسن

نباتها من أحسن رزق الله سبحانه وتعالى كما يقال : من غذي بطعام قوم غذي بقلوبهم ومن غذي بقلوبهم آل إلى منقلبهم ، وكانت هي مثل ما كفلها كافلها ظاهراً كفلته باطناً حين أبدى الله سبحانه وتعالى له من أمره ما لم يكن قبل بداً له ، فكان لمريم عليها الصلاة والسلام توطئة في رزقها لما يكون كماله في حملها فيكون رزقها بالكلمة ابتداء ليكون حملها بالكلمة ، فعند ذلك طلب زكريا عليه السلام نحو ما عاين لها من أن يرزقه الولد في غير إبّانه كما رزق مريم الرزق في غير أوانه ، وفي تعيين محلها بالمحراب ما يليح معنى ما ذكر من رجوليتها باطناً من حيث إن محل النساء أن يتأخرن فأبدى الله سبحانه وتعالى في محلها ذكر المحراب إشارة بكمالها ، والمحراب صدر البيت المتخذ للعبادة ، ويف لزومها لمحرابها في وقت تناول الرزق إعلام بأن الحبيس والمعتكف بيته محرابه ومحرابه بيته ، بخلاف من له متسع في الأرض ومحل من غير بيت الله ، إنما المساجد بيوت أهل الله المنقطعين إليه ، فهو محلهم في صلاتهم ومحلهم في تناول أرزاقهم ، ففيه إشعار

بحضورها ، وحضور أهل العكوف حضور سواء في صلاتهم وطعامهم ، ولذلك أنمى حال العبد عند ربه بما هو عليه في حال تناول طعامه وشرابه ، فأهل الله سواء محياهم ومماتهم

وأكلهم وصلاتهم ، من غفل عند طعامه قلبه لم يستطع أن يحضر في صلاته قلبه ، ومن حضر عند طعامه قلبه لم يغب في صلاته قلبه ، وفي ذكر الرزق شائعاً إشعار بأنها أنواع من أرزاق من حيث إنه لو اختص يخض به ما هو أخص من هذا الاسم – انتهى .

(137/117)

ولما كان كأنه قيل : فما كان يقول لها إذا رأى ذلك ؟ قيل : كان كلما وجد ذلك ، أو : لما تكرر وجدانه لذلك ﴿ قال يا مريم أنّى ﴾ أي من أين ﴿ لك هذا ﴾ قال الحرالي : كلمة أنى تشعر باستغرابه وجود ذلك الرزق من وجوه مختلفة : من جهة الزمان أنه ليس زمانه ، ومن جهة المكان أنه ليس مكانه ، ومن جهة الكيف ووصوله إليها أنه ليس حاله ، وفي ذكر الضمير في قوله : ﴿ قالت هو من عند الله ﴾ إيذان بنظرها إلى مجموع حقيقة ذلك الرزق لا إلى أعيانه ، فهو إنباء عن رؤية قلب ، لا عن نظر عين لأن هو كلمة إضمار جامعة لكل ما تفصلت صورة مما اتحد مضمره ، ولما لم يكن من معهود ما أظهرته حكمته سبحانه مما يجريه على معالجات أيدي الخلق قالت ﴿ من عند الله ﴾ ذي الجلال والإكرام ، لأن ما خرج من معهود معالجة الحكمة فهو من عنده ، وما كان مستغرباً فيما هو من عنده فهو من لدنه ، فهي ثلاث رتب : رتبة لدنية ، ورتبة عندية ، ورتبة حكمية عادية ؛ فكان هذا وسط الثلاث

- كما قال تعالى : ﴿ آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنه علماً ﴾ [الكهف : 65] حيث كان مستغرباً عند أهل الخصوص كما قال : ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً ﴾ [الكهف : 71] والإمر العجب ، ولعلو رتبته عن الرتبة العادية جرى النبأ عنه مضافاً إلى الاسم العظيم الذي هو مسمى الأسماء كلها من حيث لم يكن ﴿ من عند ربي ﴾ لما في ذكر اسم الربوبية من إشعار بمادة أو قريب منها أو ما كان من نحوها كما قال ﴿ هذا من فضل ربي ﴾ [النمل : 40] لما كان من عادته المكنة على الملوك ، وكان ممكناً فيما أحاط به موجود الأركان الأربعة - انتهى .

ولما أخبرت بخرقه سبحانه وتعالى لها العادة عللت ذلك بقولها مؤكدة تنبيهاً على أن ذلك ليس في قدرة ملوك الدنيا : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكلية .

(138/117)

قال الحرالي : في تجديد الاسم العظيم في النبأ إشعار باتساع النبأ وإيذان والإلاحة بأن ذلك يكون لك ولمن شاء الله كما هو لي بما شاء الله ، من حيث لم يكن أنه فيكون مليحاً لاختصاص ما بها ، ويؤيده عموم قولها : ﴿ يرزق من يشاء ﴾ وقولها : ﴿ بغير حساب ﴾ يشعر بأنه عطاء متصل ، فلا يتحدد ولا يتعدد ، فهو رزق لا متعقب عليه ، لأن

كل محسوب في الإبداء محاسب عليه في الإعادة ، فكان في الرزق بغير حساب من علاج الحكمة بشرى برفع الحساب عنهم في المعاد وكفالة بالشكر عنه ، لأن أعظم الشكر لرزق الله سبحانه وتعالى معرفة العبد بأنه من الله تعالى ، إنما يشكر رزق الله من أخذه من الله سبحانه وتعالى - انتهى . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 72 . 75 ﴾

فائدة

قال الفخر :

إنما قال ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ ولم يقل : فتقبلها ربها بتقبل لأن القبول والتقبل متقاربان قال تعالى : ﴿ والله أَنبَتَكُمْ مّنَ الأرض نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] أي إنباتاً ، والقبول مصدر قولهم : قبل فلان الشيء قبولاً إذا رضيه ، قال سيبويه : خمسة مصادر جاءت على فعول : قبول وطهور ووضوء ووقود وولوغ ، إلا أن الأكثر في الوقود إذا كان مصدرا الضم ، وأجاز الفراء والزجاج : قبولاً بالضم ، وروى ثعلب عن ابن الأعرابي يقال : قبلته قبولاً وقبولا ، وفي الآية وجه آخر وهو أن ما كان من باب التفعل فإنه يدل على شدة اعتناء ذلك الفاعل بإظهار ذلك الفعل كالتصبر والتجلد ونحوهما فإنهما يفيدان الجد في إظهار الصبر والجلادة ، فكذا ههنا التقبل يفيد المبالغة في إظهار القبول .

فإن قيل : فلم لم يقل : فتقبلها ربها بتقبل حسن حتى صارت المبالغة أكمل ؟

والجواب : أن لفظ التقبل وإن أفاد ما ذكرنا إلا أنه يفيد نوع تكلف على خلاف الطبع ، أما القبول فإنه يفيد معنى القبول على وفق الطبع فذكر التقبل ليفيد الجد والمبالغة ، ثم ذكر القبول ليفيد أن ذلك ليس على خلاف الطبع ، بل على وفق الطبع ، وهذه الوجوه وإن كانت ممتنعة في حق الله تعالى ، إلا أنها تدل من حيث الاستعارة على حصول العناية العظيمة في تربيتها ، وهذا الوجه مناسب معقول . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 25 ﴾

وقال ابن عادل :

قوله : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا ﴾ الجمهور على ﴿ فَتَقَبَّلَهَا ﴾ فعلاً ماضياً على " تَفَعَّل " بتشديد العينِ – و﴿ رَبُّهَا ﴾ فاعل به ، وتفعل يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون بمعنى المجرَّد – أي فقبلها – بمعنى رَضِيها مكان الذَّكر المنذورِ ، ولم يقبل أنثى منذورة – قبل مريم – كذا ورد في التفسير ، و– " تَفَعَّل " يأتي بمعنى " فَعَل " مُجَرَّداً ، نحو تعجب وعَجب من كذا ، وتَبَرَّأ وبَرِئَ منه .

والثاني : أن " تفعل " بمعنى : استفعل ، أي : فاستقبلها رَبُّها ، يقال : استقبلت الشيءَ أي : أخذته أول مرة .

والمعنى : أن الله تولاَّها من أول أمرها وحين ولادتها .

ومنه قول الشاعر : [الوافر]

وَخَيْرُ الأَمْرِ مَا اسْتَقْبَلْتَ مِنْهُ . . . ولَيْسَ بِأَنْ تَتَبَّعَهُ اتِّبَاعا

ومنه المثل : خذ الأمر بقوابله . و" تَفَعَّل " بمعنى " استفعل " كثير، نحو : تعظم، واستعظم ، وتكبر، واستكبر، وتعجَّل واستعجل .

قال بعضُ العلماء : " إن ما كان من باب التفعُّل ، فإنه يدل على شدة اعتناء ذلك الفاعل بإظهار ذلك الفعل ، كالتصبُّر والتجلُّد ، ونحوهما ، فإنهما يُفيد أن الجِدّ في إظهار الصَّبْرِ والجَلَدِ ، فكذا هنا التقبل يفيد المبالغة في إظهار القبولِ " .

والباء - في قوله : " بِقَبُولٍ " - فيها وجهانِ :

(140/117)

أحدهما : أنها زائدة ، أي : قبولاً ، وعلى هذا فينتصب " قبولاً " على المصدر الذي جاء على حذف الزوائد ؛ إذْ لو جاء على " تَقَبَّل " لقيل : تَقَبُّلاً ، نحو تَكَبَّرَ تَكَبُّراً .

وَقَبُول : من المصادر التي جاءت على " فَعُول " - بفتح الفاء - قال سيبويه : خمسة مصادر جاءت على " فَعُول " قَبُول ، وطَهُور ، ووَقُود ، ووَضُوء ، ووُلُوع ، إلا أن الأكثر في الوقود - إذا كان مصدراً - الضَّمّ ، يقال : قَبلتُ الشيءَ قَبُولاً ، وأجاز الفرّاءُ والزَّجَّاجُ ضم القافِ

من قَبُول وهو القياس ، كالدخولِ والخروجِ ، وحكاها ابنُ الأعرابي عن الأعراب : قبلت قَبُولاً - بفتح القافِ وضمها - سماعاً ، وعلى وجهه قُبُول - لا غير - يعني لم يُقَل هنا إلا بالضم ، وأنشدوا : [السريع]

قَدْ يُحْمَد الْمَرْءُ وَإِنْ لَمْ يُبَلْ . . . بالشّرّ وَالْوَجْهُ عَلَيْهِ الْقُبُولْ

بضم القاف - كذا حكاه بعضهم .

قال الزّجّاجُ : إن " قَبُولاً " هذا ليس منصوباً بهذا الْفِعْلِ حتى يكونَ مصدراً على غير المصدر ، بل هو منصوب بفعل موافقٍ له ، - أي : مجرداً - قال : والتقدير : فتقبلها بتقبُّلٍ حسَنٍ ، وقَبِلَها قبولاً حَسَناً ، أي : رضيها ، وفيه بُعَدٌ .

والوجه الثاني : أن الياء ليست بزائدة ، بل هي على حالها ، ويكون المرادُ بالقبول - هنا - اسماً لما يقبل به الشيءُ ، نحو اللدود ، لما يُلَدُّ به . والمعنى بذلك اختصاصه لها بإقامتها مقام الذكرِ في النذر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 177.178 ﴾

فصل

قال الفخر :

ذكر المفسرون في تفسير ذلك القبول الحسن وجوهاً :

الوجه الأول : أنه تعالى عصمها وعصم ولدها عيسى عليه السلام من مس الشيطان روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إلا مريم وابنها " ثم قال أبو هريرة : اقرؤا إن شئتم ﴿ وإِنّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشيطان ﴾ طعن القاضي في هذا الخبر وقال : إنه خبر واحد على خلاف الدليل فوجب رده ، وإنما قلنا : إنه على خلاف الدليل لوجوه أحدها : أن الشيطان إنما يدعو إلى الشر من يعرف الخير والشر والصبي ليس كذلك

والثاني : أن الشيطان لو تمكن من هذا النخس لفعل أكثر من ذلك من إهلاك الصالحين وإفساد أحوالهم

والثالث : لم خص بهذا الاستثناء مريم وعيسى عليهما السلام دون سائر الأنبياء عليهم السلام

الرابع : أن ذلك النخس لو وجد بقي أثره ، ولو بقي أثره لدام الصراخ والبكاء ، فلما لم يكن كذلك علمنا بطلانه ، واعلم أن هذه الوجوه محتملة ، وبأمثالها لا يجوز دفع الخبر والله أعلم .

الوجه الثاني : في تفسير أن الله تعالى تقبلها بقبول حسن ، ما روي أن حنة حين ولدت مريم لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار أبناء هارون ، وهم في بيت

المقدس كالحجبة في الكعبة ، وقالت : خذوا هذه النذيرة ، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم ، وكانت بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم وملوكهم فقال لهم زكريا : أنا أحق بها عندي خالتها فقالوا لا حتى نقترع عليها ، فانطلقوا وكانوا سبعة وعشرين إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم التي كانوا يكتبون الوحي بها على أن كل من ارتفع قلمه فهو الراجح ، ثم ألقوا أقلامهم ثلاث مرات ، ففي كل مرة كان يرتفع قلم زكريا فوق الماء وترسب أقلامهم فأخذها زكريا .

الوجه الثالث : روى القفال عن الحسن أنه قال : إن مريم تكلمت في صباها كما تكلم المسيح ولم تلتقم ثدياً قط ، وإن رزقها كان يأتيها من الجنة .

(142/117)

الوجه الرابع : في تفسير القبول الحسن أن المعتاد في تلك الشريعة أن التحرير لا يجوز إلا في حق الغلام حين يصير عاقلاً قادراً على خدمة المسجد ، وههنا لما علم الله تعالى تضرع تلك المرأة قبل تلك الجارية حال صغرها وعدم قدرتها على خدمة المسجد ، فهذا كله هو الوجوه المذكورة في تفسير القبول الحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 26.25 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾

قال الفخر :

قال ابن الأنباري : التقدير أنبتها فنبتت هي نباتاً حسناً ثم منهم من صرف هذا النبات الحسن إلى ما يتعلق بالدنيا ، ومنهم من صرفه إلى ما يتعلق بالدين ، أما الأول فقالوا : المعنى أنها كانت تنبت في اليوم مثل ما ينبت المولود في عام واحد ، وأما في الدين فلأنها نبتت في الصلاح والسداد والعفة والطاعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 26 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ أي رباها الرب تربية حسنة في عبادة وطاعة لربها قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وفي رواية عنه أنه سوى خلقها فكانت تشب في يوم ما يشب غيرها في عام ، وقيل : تعهدها بما يصلحها في سائر أحوالها ، ففي الكلام استعارة تمثيلية أو مجاز مرسل بعلاقة اللزوم فإن الزارع يتعهد زرعه بسقيه عند الاحتياج وحمايته عن الآفات وقلع ما يخنقه من النبات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 139 ﴾

وقال ابن كثير :

﴿ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ أي : جعلها شكلا مليحا ومنظرا بهيجا ، ويَسر لها أسباب القبول ، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم الخير والعلم والدين . ولهذا قال : ﴿

وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير جـ 2 صـ 35 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ عاصم وحمزة والكسائي (وكفلها) بالتشديد ، ثم اختلفوا في زكريا فقرأ عاصم بالمد ، وقرأ حمزة والكسائي بالقصر على معنى ضمها الله تعالى إلى زكريا ، فمن قرأ (زكرياء) بالمد أظهر النصب ومن قرأ بالقصر كان في محل النصب والباقون قرأوا بالمد والرفع على معنى ضمها زكرياء إلى نفسه ، وهو الاختيار ، لأن هذا مناسب لقوله تعالى : ﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ وعليه الأكثر ، وعن ابن كثير في رواية ﴿ كفلها ﴾ بكسر الفاء ، وأما القصر والمد في زكريا فهما لغتان ، كالهيجاء والهيجا ، وقرأ مجاهد ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا وَأَنبَتَهَا وَكَفَّلَهَا ﴾ على لفظ الأمر في الأفعال الثلاثة ، ونصب ﴿ رَبَّهَا ﴾ كأنها كانت تدعو الله فقالت : اقبلها يا ربها ، وأنبتها يا ربها ، واجعل زكريا كافلاً لها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب جـ 8 صـ 26 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾

عد هذا في فضائل مريم ، لأنه من جملة ما يزيد فضلها لأن أبا التربة يكسب خلقه وصلاحه مرباه .

وزكريا كاهن إسرائيلي اسمه زكريا من بني أبيا بن باكر بن بنيامين من كهنة اليهود ، جاءته النبوءة في كبره وهو ثاني من اسمه زكريا من أنبياء بني إسرائيل وكان متزوجا امرأة من ذرية هارون اسمها اليصابات وكانت امرأته نسيبة مريم كما في إنجيل لوقا قيل : كانت أختها والصحيح أنها كانت خالتها ، أو من قرابة أمها ، ولما ولدت مريم كان أبوها قد مات فتنازع كفالتها جماعة من أحبار بني إسرائيل حرصا على كفالة بنت حبرهم الكبير ، واقترعوا على ذلك كما يأتي ، فطارت القرعة لزكريا ، والظاهر أن جعل كفالتها للأحبار لأنها محررة لخدمة المسجد فيلزم أن تربى تربية صالحة لذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 88 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المحراب ﴾ " المحراب " فيه وجهان :

أحدهما : وهو مذهب سيبويه أنه منصوب على الظرف ، وشذ عن سائر أخواته بعد " دَخَلَ " خاصَّةً ، يعني أن كل ظرف مكان مختص لا يصل إليه الفعل إلا بواسطة " في " نحو صليت في المحراب – ولا تقول : صليت المحرابَ – ونِمْتُ في السوقِ – ولا تقول : السوقَ – إلا مع دخل خاصة ، نحو دخلت السوق والبيت . . . الخ . وإلا ألفاظاً أخر مذكورة في كتب النحو .

والثاني مذهب الأخفش وهو نَصب ما بعد " دَخَلَ " على المفعول به لا على الظرف فقولك : دخلت البيت ، كقولك : هدمت البيت ، في نصب كل منهما على المفعول به – وهو قول مرجوح ؛ بدليل أن " دَخَلَ " لو سُلِّطَ على غير الظَّرْفِ المختص وجب وصوله بواسطة " في " تقول : دخلتُ في الأمر – ولا تقول : دخلت الأمر – فدل ذلك على عدم تَعَدِّيه للمفعول به بنفسه .

والجواب : قال أبو عبيدة : هو سَيِّدُ المجالس ومقدَّمها وأشرفها ، وكذلك هو من المسجد .

وقال أبو عمرو بن العلاء : هو القصر ؛ لِعُلُوِّه وشَرَفِه .

وقال الأصمعيُّ : هو الغُرْفَة .

وأنشد لامرئ القيس : [الطويل]

وَمَاذا عَلَيْهِ أنّ ذَكَرْتَ أوانِسَا . . . كغِزْلانِ رَمْلٍ فِي مَحَارِيبِ أقْيَالِ

قالوا معناه : في غرف أقيال . وأنشد غيره - لعُمَرَ بن أبي ربيعة : [السريع]

رَبَّةُ مِحْرَابٍ إذَا ما جئْتُهَا . . . لَمْ أدْنُ حَتَّى أرْتَقِي سُلَّما

وقيل : هو المحراب من المسجد المعهود ، وهو الأليق بالآية .

وقد ذكرناه عمن تقدم فإنما يَعْنُونَ به : المحراب من حيث هو ، وأما في هذه الآية فلا يظهر بينهم خلاف في أنه المحراب المتعارف عليه . واستدل الأصمعيّ على أن المحراب هو الغرفة بقوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسَوَّرُواْ المحراب ﴾ [ص : 21] فوجه الإمالة تقدم الكسرة ، ووجه التَّفْخِيم أنه الأصل .

قوله : ﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً ﴾ " وجد " هذه بمعنى أصاب ولَقِيَ وصَادَفَ ، فيتعدى لِواحِدٍ وهو " رِزْقاً " و " عندها " الظاهر أنه ظرف للوجدان .

(145/117)

وأجاز أبو البقاء أن يكون حالاً من " رِزْقاً " ؛ لأنه يصلح أن يكون صفة له في الأصل ، وعلى هذا فيتعلق بمحذوف ، ف " وجد " هو الناصب لِ " كُلَّمَا " لأنها ظرفية ، وأبو البقاء

سمّاه جوابها ؛ لأنها عنده الشرط كما سيأتي .

قوله : ﴿ قَالَ يا مريم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه مستأنف ، قال ابو البقاء : " ولا يجوز أن يكون بدلاً من " وَجَدَ " ؛ لأنه ليس بمعناه " .

الثاني : أنه معطوف بالفاء ، فحذف العاطف ، قال أبو البقاء : "كما حذفت في جواب الشرط في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : 121] ، وكذلك قول الشاعر : [البسيط]

مَنْ يَفْعَلِ الْحَسَنَاتِ اللهُ

يَشْكُرُهَا . . . .

وهذا الموضع يشبه جوابَ الشرط ، لأن "كُلَّمَا " تشبه الشرط في اقتضائها الجواب .

قال شهاب الدين : وهذا - الذي قاله - فيه نظر من حيث إنه تخيَّل أن قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ أن جوابَ الشرط هو نفس ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ حُذِفَتْ منه الفاء ، وليس كذلك ، بل جواب الشرط محذوف ، و- ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ جواب قسم مقدر قبل الشرط وقد تقدم تحقيق هذه المسألة ، وليس هذا مما حُذِفَتْ منه فاء الجزاء ألبتة ، وكيف يَدَّعِي ذلك ، ويُشَبّهه بالبيت المذكور ، وهو لا يجوز إلا في ضرورة ؟

ثم الذي يظهر أن الجملةَ من قوله : " وَجَدَ " في محل نصب على الحال من فاعل " دَخَلَ "

ويكون جواب "كُلَّمَا " هو نفس "قَالَ" والتقدير : كلما دخل عليها زكريا المحراب واجداً عندَها الرزق.

قال : وهذا بَيّن.

ونكر " رِزْقاً " تعظيماً ، أو ليدل به على نوع " ما ".

قوله : ﴿ أنى لَكِ هذا ﴾ "أنى" خبر مقدم ، و"هَذَا" مبتدأ مؤخر ومعنى أنى هذا : من أين ؟ كذا فسَّره أبو عبيدة.

قيل : ويجوز أن يكون سؤالاً عن الكيفية ، أي : كيف تَهَيأ لكِ هذا ؟

قال الكميت : [المنسرح]

(146/117)

أَنَّى وَمِنْ أيْنَ هَزَّكَ الطَّرَبُ... مِنْ حَيْثُ لاَ صَبْوَةٌ وَلاَ رِيَبُ

وجوَّز أبو البقاء في "أَنَّى" أن ينتصب على الظرف بالاستقرار الذي في "ذلك". و"لك" رافع لـ"هذا" يعني بالفاعلية.

ولا حاجة إلى ذلك ، وتقدم الكلام على "أنى" في "البقرة". انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 182.184 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

والمحراب بناء يتخذه أحد ليخلو فيه بتعبده وصلاته ، وأكثر ما يتخذ في علو يرتقي إليه بسلم أو درج ، وهو غير المسجد ، وأطلق على غير ذلك إطلاقات ، على وجه التشبيه أو التوسع كقول عمر بن أبي ربيعة :

دمية عند راهب قسيس . . . صوروها في مذبح المحراب

أرادا في مذبح البيعة ، لأن المحراب لا يجعل فيه مذبح . وقد قيل : إن المحراب مشتق من الحرب لأن المتعبد كأنه يحارب الشيطان فيه ، فكأنهم جعلوا ذلك المكان آلة لحرب الشيطان .

ثم أطلق المحراب عند المسلمين على موضع كشكل نصف قبة في طول قامة ونصف يجعل بموضع القبلة ليقف فيه الإمام للصلاة . وهو إطلاق مولد وأول محراب في الإسلام محراب مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم صنع في خلافة الوليد بن عبد الملك ، مدة إمارة عمر بن عبد العزيز على المدينة . والتعريف في ﴿ الْمِحْرَابَ ﴾ تعريف الجنس ويعلم أن المراد محراب جعلته مريم للتعبد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 89 ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في كفالة زكريا عليه السلام إياها متى كانت ، فقال الأكثرون : كان ذلك حال طفوليتها ، وبه جاءت الروايات ، وقال بعضهم : بل إنما كفلها بعد أن فطمت ، واحتجوا عليه بوجهين الأول : أنه تعالى قال : ﴿ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ ثم قال : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ وهذا يوهم أن تلك الكفالة بعد ذلك النبات الحسن والثاني : أنه تعالى قال : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المحراب وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يا مريم أنى لَكِ هذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ الله ﴾ وهذا يدل على أنها كانت قد فارقت الرضاع وقت تلك الكفالة ، وأصحاب القول الأول أجابوا بأن الواو لا توجب الترتيب ، فلعل الانبات الحسن وكفالة زكرياء حصلا معاً .

وأما الحجة الثانية : فلعل دخوله عليها وسؤاله منها هذا السؤال إنما وقع في آخر زمان الكفالة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 26 . 27 ﴾

فائدة

قال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وجد عندها رزقاً ﴾ قال ابن عباس : ثمار الجنة ، فاكهة الصيف في

الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف ، وهذا قول الجماعة .

قوله تعالى : ﴿ أنى لكِ هذا ﴾ أي : من أين ؟ قال الربيع بن أنس : كان زكريا إذا خرج ، أغلق عليها سبعة أبواب ، فإذا دخل وجد عندها رزقاً .

وقال الحسن : لم ترتضع ثدياً قط ، وكان يأتيها رزقها من الجنة (1) ، فيقول زكريا : أنى لك هذا ؟ فتقول : هو من عند الله ، فتكلمت وهي صغيرة .

وزعم مقاتل أن زكريا استأجر لها ظئراً ، وعلى ما ذكرنا عن ابن إسحاق يكون قوله لها : أنى لك هذا ؟ لاستكثار ما يرى عندها . وما عليه الجمهور أصح . انتهى انتهى . اهـ

﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 380 ﴾

---

(1) لا يخفى ما فى هذا القول من البعد فهذا لم يتحقق لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقصة قطف العنب مشهورة فى البخارى

4901 عن عبد الله بن عباس أنه قال :

خسفت الشمس عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس معه فقام قياما طويلا نحوا من سورة البقرة ثم ركع ركوعا طويلا ثم رفع فقام قياما طويلا وهو دون القيام الأول ثم ركع ركوعا طويلا وهو دون الركوع الأول ثم سجد ثم قام فقام قياما طويلا وهو دون القيام الأول ثم ركع ركوعا طويلا وهو دون الركوع الأول ثم رفع فقام قياما طويلا وهو دون القيام الأول ثم ركع ركوعا طويلا وهو دون الركوع الأول ثم

رفع ثم سجد ثم انصرف وقد تجلت الشمس فقال (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله) . قالوا يا رسول الله رأيناك تناولت شيئا في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت ؟ فقال (إني رأيت الجنة أو أريت الجنة فتناولت منها عنقودا ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ورأيت النار فلم أر كاليوم منظر قط ورأيت أكثر أهلها النساء) . قالوا لم يا رسول الله ؟ قال (بكفرهن) . قيل يكفرن بالله ؟ قال (يكفرن العشير ويكفرن الإحسان لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت ما رأيت منك خيرا قط)

ومعلوم أن نعيم الجنة محله فى الآخرة ولبو حظى به أحد فى الدنيا لكان رسول الله . صلى الله عليه وسلم .

وقد منح الله بعض صحابة رسول الله . صلى الله عليه وسلم . مثل مريم . عليها السلام .

ففى البخارى 2880

أن بنت الحارث أخبرت أنهم حين اجتمعوا لقتل خبيب استعار منها موسى يستحد بها فأعارته فأخذ ابنا لي وأنا غافلة حين أتاه قالت فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده ففزعت فزعة عرفها خبيب في وجهي فقال تخشين أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل ذلك . والله ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب والله لقد وجدته يوما يأكل من قطف عنب في يده وإنه لموثق في الحديد وما بمكة من ثمر وكانت تقول إنه لرزق من الله رزقه خبيبا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المحراب وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾

قال أبو حيان :

﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ﴾ .

قال مجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي : وجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء .

وقال الحسن : تكلمت في المهد ولم تلقم ثدياً قط ، وإنما كانت يأتيها رزقها من الجنة .

والذي ورد في الصحيح أن الذي تكلم في المهد ثلاثة : عيسى ، وصاحب جريج ، وابن المرأة وورد من طريق شاذ : صاحب الأخدود .

والأغرب أن مريم منهم .

وقيل : كان جريج النجار ، واسمه يوسف بن يعقوب ، وكان ابن عم مريم حين كفلها بالقرعة وقد ضعف زكريا عن القيام بها ، يأتيها من كسبه بشيء لطيف على قدر وسعه ، فيزكو ذلك الطعام ويكثر ، فيدخل زكريا عليها فيتحقق أنه ليس من وسع جريج ، فيسألها .

وهذا يدل على أن ذلك كان بعد أن كبرت وهو الأقرب للصواب .

وقيل : كانت ترزق من غير رزق بلادهم .

قال ابن عباس : كان عنباً في مكتل ولم يكن في تلك البلاد عنب ، وقاله ابن جبير ، ومجاهد

وقيل : كان بعض الصالحين يأتيها بالرزق .

والذي يدل عليه ظاهر الآية أن الذي كفلها بالتربية هو زكريا لا غيره ، فإن الله تعالى كفاه لما كفلها مؤونة رزقها ، ووضع عنه بحسن التكفل مشقة التكلف .

و : كلما ، تقتضي التكرار ، فيدل على كثرة تعهده وتفقده لأحوالها .

ودلت الآية على وجود الرزق عندها كل وقت يدخل عليها ، والمعنى : أنه غذاء يتغذى به لم يعهده عندها ، ولم يوجهه هو .

وأَبْعَدَ من فسر الرزق هنا بأنه فيض كان يأتيها من الله من العلم والحكمة من غير تعليم آدمي ، فسماه رزقاً قال الراغب : واللفظ محتمل ، انتهى ، وهذا شبيه بتفسير الباطنية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 2 صـ 461﴾

فائدة

قال الماوردى :

واختلف في السبب الذي يأتيها هذا الرزق لأجله على قولين :

أحدهما : أنه كان يأتيها بدعوة زكريا لها .

والثاني : أنه كان ذلك يأتيها لنبوة المسيح عليه السلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون جـ 1 صـ 388 ﴾

فصل

قال الفخر :

احتج أصحابنا على صحة القول بكرامة الأولياء بهذه الآية ، ووجه الاستدلال أنه تعالى أخبر أن زكرياء كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم : أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله ، فحصول ذلك الرزق عندها إما أن يكون خارقاً للعادة ، أو لا يكون ، فإن قلنا : إنه غير خارق للعادة فهو باطل من خمسة أوجه

الأول : أن على هذا التقدير لا يكون حصول ذلك الرزق عند مريم دليلاً على علو شأنها وشرف درجتها وامتيازها عن سائر الناس بتلك الخاصية ومعلوم أن المراد من الآية هذا المعنى

والثاني : أنه تعالى قال بعد هذه الآية ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ والقرآن دل على أنه كان آيساً من الولد بسبب شيخوخته وشيخوخة زوجته ، فلما رأى انخراق العادة في حق مريم طمع في حصول الولد فيستقيم قوله ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ أما لو كان الذي شاهده في حق مريم لم يكن خارقاً للعادة لم تكن مشاهدة

ذلك سبباً لطمعه في انخراق العادة بحصول الولد من المرأة الشيخة العاقر

الثالث: أن التنكر في قوله ﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ يدل على تعظيم حال ذلك الرزق، كأنه قيل: رزقاً.

أي رزق غريب عجيب، وذلك إنما يفيد الغرض اللائق لسياق هذه الآية لو كان خارقاً للعادة الرابع: هو أنه تعالى قال: ﴿ وجعلناها وابنها ءَايَةً للعالمين ﴾ [الأنبياء: 91] ولولا أنه ظهر عليهما من الخوارق، وإلا لم يصح ذلك.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: المراد من ذلك هو أن الله تعالى خلق لها ولداً من غير ذكر؟

(150/117)

قلنا: ليس هذا بآية، بل يحتاج تصحيحه إلى آية، فكيف نحمل الآية على ذلك، بل المراد من الآية ما يدل على صدقها وطهارتها، وذلك لا يكون إلا بظهور خوارق العادات على يدها كما ظهرت على يد ولدها عيسى عليه السلام الخامس: ما تواترت الروايات به أن زكريا عليه السلام كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، فثبت أن الذي ظهر في حق مريم عليها السلام كان فعلاً خارقاً للعادة، فنقول: إما أن يقال: إنه كان معجزة لبعض الأنبياء أو ما كان كذلك، والأول باطل لأن النبي الموجود في ذلك

الزمان هو زكريا عليه السلام ، ولو كان ذلك معجزة له لكان هو عالماً بحاله وشأنه ، فكان يجب أن لا يشتبه أمره عليه وأن لا يقول لمريم ﴿ أنى لَكِ هذا ﴾ وأيضاً فقوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ مشعر بأنه لما سألها عن أمر تلك الأشياء ثم إنها ذكرت له أن ذلك من عند الله فهنالك طمع في انخراق العادة في حصول الولد من المرأة العقيمة الشيخة العاقر وذلك يدل على أنه ما وقف على تلك الأحوال إلا بأخبار مريم ، ومتى كان الأمر كذلك ثبت أن تلك الخوارق ما كانت معجزة لزكريا عليه السلام فلم يبق إلا أن يقال : إنها كانت كرامة لعيسى عليه السلام ، أو كانت كرامة لمريم عليها السلام ، وعلى التقديرين فالمقصود حاصل ، فهذا هو وجه الاستدلال بهذه الآية على وقوع كرامات الأولياء .

اعترض أبو علي الجبائي وقال : لم لا يجوز أن يقال إن تلك الخوارق كانت من معجزات زكريا عليه السلام ، وبيانه من وجهين

(151/117)

الأول : أن زكريا عليه السلام دعا لها على الإجمال أن يوصل الله إليها رزقاً ، وأنه ربما كان غافلاً عن تفاصيل ما يأتيها من الأرزاق من عند الله تعالى ، فإذا رأى شيئاً بعينه في وقت معين قال لها ﴿ أنى لَكِ هذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ الله ﴾ فعند ذلك يعلم أن الله تعالى أظهر

بدعائه تلك المعجزة والثاني : يحتمل أن يكون زكريا يشاهد عند مريم رزقاً معتاداً إلا أنه كان يأتيها من السماء ، وكان زكريا يسألها عن ذلك حذراً من أن يكون يأتيها من عند إنسان يبعثه إليها ، فقالت هو من عند الله لا من عند غيره .

المقام الثاني : أنا لا نسلم أنه كان قد ظهر على مريم شيء من خوارق العادات ، بل معنى الآية أن الله تعالى كان قد سبب لها رزقاً على أيدي المؤمنين الذين كانوا يرغبون في الإنفاق على الزاهدات العابدات ، فكان زكريا عليه السلام إذا رأى شيئاً من ذلك خاف أنه ربما أتاها ذلك الرزق من وجه لا ينبغي ، فكان يسألها عن كيفية الحال ، هذا مجموع ما قاله الجبائي في "تفسيره" وهو في غاية الضعف ، لأنه لو كان ذلك معجزاً لزكريا عليه السلام كان مأذوناً له من عند الله تعالى في طلب ذلك ، ومتى كان مأذوناً في ذلك الطلب كان عالماً قطعاً بأن يحصل ، وإذا علم ذلك امتنع أن يطلب منها كيفية الحال ، ولم يبق أيضاً لقوله ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ فائدة ، وهذا هو الجواب بعينه عن الوجه الثاني .

وأما سؤاله الثالث ففي غاية الركاكة لأن هذا التقدير لا يبقى فيه وجه اختصاص لمريم بمثل هذه الواقعة ، وأيضاً فإن كان في قلبه احتمال أنه ربما أتاها هذا الرزق من الوجه الذي لا ينبغي فبمجرد إخبارها كيف يعقل زوال تلك التهمة فعلمنا سقوط هذه الأسئلة وبالله التوفيق .

أما المعتزلة فقد احتجوا على امتناع الكرامات بأنها دلالات صدق الأنبياء ، ودليل النبوّة لا يوجد مع غير الأنبياء ، كما أن الفعل المحكم لما كان دليلاً على العلم لا جرم لا يوجد في حق غير العالم.

والجواب من وجوه

الأول : وهو أن ظهور الفعل الخارق للعادة دليل على صدق المدعي ، فإن ادعى صاحب النبوّة فذاك الفعل الخارق للعادة يدل على كونه نبياً ، وإن ادعى الولاية فذلك يدل على كونه ولياً والثاني : قال بعضهم : الأنبياء مأمورون بإظهارها ، والأولياء مأمورون بإخفائها والثالث : وهو أن النبي يدعي المعجز ويقطع به ، والولي لا يمكنه أن يقطع به والرابع : أن المعجزة يجب انفكاكها عن المعارضة ، والكرامة لا يجب انفكاكها عن المعارضة ، فهذا جملة الكلام في هذا الباب وبالله التوفيق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 28.27 ﴾

فائدة

قال أبو حيان :

﴿ قال يا مريم أنّى لك هذا قالت هو من عند الله ﴾ استغرب زكريا وجود الرزق عندها وهو لم يكن أتى به ، وتكرر وجوده عندها كلما دخل عليها ، فسأل على سبيل التعجب

من وصول الرزق إليها ، وكيف أتى هذا الرزق ؟ و : أَنَّى ، سؤال عن الكيفية وعن المكان وعن الزمان ، والأظهر أنه سؤال عن الجهة ، فكأنه قال : من أي جهة لك هذا الرزق ؟ ولذلك قال أبو عبيدة : معناه من أين ؟ ولا يبعد أن يكون سؤالاً عن الكيفية ، أي كيف تهيأ وصول هذا الرزق إليك ؟ وقال الكميت :

أَنَّى ومن أين أتاك الطرب . . .

من حيث لا صبوة ولا طرب

وجوابها سؤاله بأنه ﴿ من عند الله ﴾ ظاهره أنه لم : يأت به آدمي ألبتة ، بل هو رزق يتعهدني به الله تعالى .

(153/117)

وظاهره أنه كان يسأل كلما وجد عندها رزقاً ، لأن من الجائز في الفعل أن يكون هذا الثاني من جهة غير الجهة التي تقدّمت ، فتجيبه بأنه من عند الله ، وتحيله على مسبب الأسباب ، ومبرز الأشياء من العدم الصرف إلى الوجود المحض ، فعند ذلك يستريح قلب زكريا بكونه لم يسبقه أحد إلى تعهد مريم ، وبكونه يشهد مقاماً شريفاً ، واعتناءً لطيفاً بمن اختارها الله تعالى بأن جعلها في كفالته .

وهذا الخارق العظيم قيل : هو بدعوة زكريا لها بالرزق ، فيكون من خصائص زكريا وقيل : كان تأسيساً لنبوّة ولدها عيسى .

وهذان القولان شبيهان بأقوال المعتزلة حيث ينفون وجود الخارق على غير النبي ، إلا إن كان ذلك في زمان نبي ، فيكون ذلك معجزة لذلك النبي .

والظاهر أنها كرامة خص الله بها مريم ، ولو كان خارقاً لأجل زكريا لم يسأل عنه زكريا ، وأما كون ذلك لأجل نبوة عيسى ، فهو كان لم يخلق بعد .

قال الزجاج : وهذا الخارق من الآية التي قال تعالى : ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾

وقال الجبائي : يجوز أن يكون من معجزات زكريا ، دعا لها على الإجمال .

لأن يوصل لها رزقها ، وربما غفل عن تفاصيل ذلك ، فلما رأى شيئاً معيناً في وقت معين ، سأل عنه ، فعلم أنه معجزة ، فدعا به أو سأل عن ذلك خشية أن يكون الآتي به إنساناً ، فأخبرته أنه ﴿ من عند الله ﴾ ويحتمل أن يكون على أيدي المؤمنين ، وسأل لئلا يكون على وجه لا ينبغي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 461 . 462 ﴾

فائدة

قال الماوردى :

﴿ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن الله تعالى كان يأتيها بالرزق .

والثاني : أن بعض الصالحين من عباده سخره الله تعالى لها لطفاً منه بها حتى يأتيها رزقها .

والأول أشبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 388 ﴾

(154/117)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

قال الفخر :

هذا يحتمل أن يكون من جملة كلام مريم ، وأن يكون من كلام الله سبحانه وتعالى ، وقوله ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي بغير تقدير لكثرته ، أو من غير مسألة سألها على سبيل يناسب حصولها ، وهذا كقوله ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : 3] وههنا آخر الكلام في قصة حنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 28 ﴾

وقال ابن عطية :

وقولها : ﴿ إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ تقرير لكون ذلك الرزق من عند الله ، وذهب الطبري إلى أن ذلك ليس من قول مريم وأنه خبر من الله تعالى لمحمد عليه السلام ، والله تعالى لا تنتقص خزائنه ، فليس يحسب ما يخرج منها ، وقد يعبر بهذا العبارة عن المكثرين من الناس أنهم ينفقون بغير حساب ، وذلك مجاز وتشبيه ، والحقيقة هي فيما

ينتفق من خزائن الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 1 صـ 427﴾

وقال الطبرى :

وأما قوله : "إنّ الله يَرْزُقُ مَن يشاء بغير حساب" ، فخبرٌ من الله أنه يسوق إلى من يشاء من خلقه رزقَه ، بغير إحصاء ولا عدد يحاسب عليه عبدَه . لأنه جل ثناؤه لا ينقص سَوْقُه ذلك إليه كذلك خزائنَه ، ولا يزيدُ إعطاؤه إياه ، ومحاسَبته عليه في مُلكه ، وفيما لديه شيئًا ، ولا يعزب عنه علمُ ما يرزقه ، وإنما يُحاسب مَنْ يعطي مَا يعطيه ، مَنْ يخشى النقصانَ من ملكه ، ودخولَ النفاد عليه بخروج ما خرج من عنده بغير حساب معروف ، ومن كان جاهلا بما يعطى على غير حساب . انتهى انتهى . اهـ ﴿تفسير الطبرى حـ 6 صـ 359﴾

(155/117)

لطيفة

قال الآلوسى :

أخرج أبو يعلى عن جابر : "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام أياماً لم يطعم طعاماً حتى شق ذلك عليه فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئًا فأتى

فاطمة فقال : يا بنية هل عندك شيء آكله فإني جائع ؟ فقالت : لا والله فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم فأخذته منها فوضعته في جفنة لها وقالت : لأوثرن بهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسي ومن عندي وكانوا جميعاً محتاجين إلى شبعة طعام فبعثت حسناً أو حسيناً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع إليها فقالت له : بي أنت وأمي قد أتى الله تعالى بشيء قد خبأته لك قال : هلمي يا بنية بالجفنة فكشفت عن الجفنة فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً فلما نظرت إليها بهتت وعرفت أنها بركة من الله تعالى فحمدت الله تعالى وقدمته إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلما رآه حمد الله تعالى ، وقال : من أين لك هذا يا بنية ؟ قالت : يا أبتي هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب فحمد الله سبحانه ثم قال : الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل فإنها كانت إذا رزقها الله تعالى رزقاً فسئلت عنه قالت : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ثم جمع علياً والحسن والحسين وجمع أهل بيته حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو فأوسعت فاطمة رضي الله تعالى عنها على جيرانها .

﴿ مسند أبي يعلى كما في المطالب العالية لابن حجر (74/4) ، وفي إسناده عبد الله بن صالح متكلم فيه ، وابن لهيعة ضعفه الجمهور ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 142 ﴾

فوائد بلاغية

قال أبو حيان :

قيل : وفي هذه الآيات أنواع من الفصاحة .

العموم الذي يراد به الخصوص في قوله : على العالمين ، والإختصاص في قوله : آدم ، ونوحاً ، وآل إبراهيم ، وآل عمران .

وإطلاق اسم الفرع على الأصل .

(156/117)

والمسبب على السبب ، في قوله : ذرية ، فيمن قال المراد الأباء ، والإبهام في قوله : ما في بطني ، لما تعذر عليها الإطلاع على ما في بطنها أتت بلفظ : ما ، الذي يصدق على الذكر والأنثى ، والتأكيد في قوله : ﴿ إنك أنت السميع العليم ﴾ والخبر الذي يراد به الاعتذار في قولها : وضعتها أنثى ، والاعتراض في قوله : ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ ، في قراءة من سكن التاء أو كسرها وتلوين الخطاب ومعدوله في قوله : والله أعلم بما وضعت ، في قراءة من كسر التاء ، خرج من خطاب الغيبة في قولها : فلما وضعتها ، إلى خطاب المواجهة في قوله : بما وضعت والتكرار في : وأنى ، وفي : زكريا ، وزكريا ، وفي : من عند الله ، إن الله والتجنيس المغاير في : فتقبلها ربها بقبول ، وأنبتها نباتاً ، وفي : رزقاً ويرزق والإشارة ، وهو

أن يعبر باللفظ الظاهر عن المعنى الخفي ، في قوله : هو من عند الله ، أي هو رزق لا يقدر على الإتيان به في ذلك الوقت إلاَّ الله .

وفي قوله : رزقاً ، أتى به منكّراً مشيراً إلى أنه ليس من جنس واحد ، بل من أجناس كثيرة ، لأن النكرة تقتضي الشيوع والكثرة .

والحذف في عدة مواضع لا يصح المعنى إلا باعتبارها . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 2 صـ 462 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيات

قال رحمه الله :

المُحَرَّرُ الذي ليس في رِقّ شيء من المخلوقات ، حرَّرَه الحق سبحانه في سابق حكمه عن رق الاشتغال بجميع الوجوه والأحوال . فلمّا نذرت أُمُّ مريم ذلك ، ووضعتها أنثى خَجِلت ، فلمّا رأتها قالت ﴿ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى ﴾ وهي لا تصلح أن تكون محرراً فقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ ولعمري ليس الذكر كالأنثى في الظاهر ، ولكن إذا تقبّلها الحقُّ - سبحانه وتعالى - طلع عنها كل أعجوبة .

ولما قالت ﴿ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ﴾ قالت ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّى ﴾ فاستجاب ، وظهرت آثار القبول عليها وعلى ابنها ، ونجا بحديثها عَالَمٌ وهَلَكَ بسببها عَالَمٌ ، ووقعت الفتنة لأجلهما في عَالَم .

قالت : ﴿ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾

استجارت بالله من أن يكون للشيطان في حديثها شيء بما هو الأسهل ، لتمام ما هم به من أحكام القلوب .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ .

حيث بَلَّغَها فوق ما تَمَنَّتْ أمها ، ويقال تقبّلها بقبول حسنٍ حتى أفردها لطاعته ، وتولاّهَا بما تَوَلَّى به أولياءه ، حتى أفضى جمع مَنْ في عصرها العَجَبَ من حُسْنِ توليه أمرها ، وإن كانت بنتاً .

ويقال القبولُ الحَسَنُ حُسْنُ تربيته لها مع علمه – سبحانه – بأنه يُقال فيه بسببها ما يُقال ، فلم يُبالِ بقُبْح مقال الأعداء :

أجد الملامة في هواكِ لذيذةً . . . حُبّاً لذكرك فليلمني اللُّوَمُ

وكما قيل :

ليقل من شاء ما . . . شاء فإني لا أُبالي

ويقال القبول الحسن أنْ ربّاها على نعت العصمة حتى كانت تقول : ﴿ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ

مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً ﴾ [مريم : 18] .

﴿ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ حتى استقامت على الطاعة ، وآثرت رضاه – سبحانه – في جميع الأوقات ، وحتى كانت الثمرة منها مثل عيسى عليه السلام ، وهذا هو النبات الحسن ، وكفلها زكريا . ومن القبول الحسن والنبات الحسن أَنْ جعل كافلَها والقيِّمَ بأمرها وحفظها نبياً من الأنبياء مثل زكريا عليه السلام ، وقد أوحى الله إلى داود عليه السلام : إنْ رأيتَ لي طالبا ًفكُنْ له خادماً .

(158/117)

قوله جلّ ذكره : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يرزق مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

مِنْ إمارات القبول الحسن أنها لم تكن توجد إلا في المحراب ، ومن كان مسكنه وموضعه الذي يتعبَّدُ فيه وهناك يوجد المحراب – فذلك عَبْدٌ عزيز .

ويقال مِنَ القبول الحسن أنه لم يطرح أمرها كلَّه وشُغْلها على زكريا عليه السلام : فكان إذا دخل عليها زكريا ليتعهدها بطعام وجَدَ عندها رزقاً لِيَعْلَمَ العاملون أن الله – سبحانه – لا يُلْقِي شُغْلَ أوليائه على غير ، ومن خدم ولياً من أوليائه كان هو في رفق الولي لا إنه تكون

عليه مشقة لأجل الأولياء . وفي هذا إشارة لمن يخدم الفقراء أن يعلم أنه في رفق الفقراء .

ثم كان زكريا عليه السلام يقول : ﴿ أَنَّى لَكِ هَذَا ﴾ ؟ لأنه لم يكن يعتقد فيها استحقاق تلك المنزلة ، وكان يخاف أن غيره يغلبه وينتهز فرصة تعهدها ويسبقه بكفاية شُغْلها ، فكان يسأل ويقول : ﴿ أَنَّى لَكِ هَذَا ﴾ ومن أتاكِ به ؟

(159/117)

وكانت مريم تقول : هو من عند الله لا من عند مخلوق ، فيكون لزكريا فيه راحتان :

إحداهما شهود مقامها وكرامتها عند الله تعالى ، والثانية أنه لم يغلبه أحد على تعهدها ، ولم يسبق به . قوله : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ ﴾ فلفظة كلَّما للتكرار وفي هذا إشارة : وهو أن زكريا عليه السلام لم يَذَرْ تَعَهُّدَها - وإنْ وجد عندها رزقًا - بل كل يومٍ وكل وقتٍ كان يتفقد حالها لأن كراماتِ الأولياء ليست مما يجب أن يدوم ذلك قطعاً ؛ فيجوز أن يُظهِرَ الله ذلك عليهم دائماً ، ويجوز ألا يظهر ، فما كان زكريا عليه السلام يعتمد على ذلك فيترك تفقد حالها ، ثم كان يُجدِّدُ السؤال عنها بقوله : ﴿ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ﴾ ؟ لجواز أن يكون الذي هو اليوم لا على الوجه الذي كان بالأمس ، فإنه لا واجب على الله سبحانه .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ إيضاح عن عين التوحيد ، وأن رزقه للعباد ، وإحسانه إليهم بمقتضى مشيئته ، دون أن يكون مُعَلَّلاً بطاعاتهم ووسيلة عباداتهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات جـ 1 صـ 238 . 239 ﴾

(160/117)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

أَقُولُ : لَمَّا بَيَّنَ - سُبْحَانَهُ - وَتَعَالَى أَنَّ مَحَبَّتَهُ مَنُوطَةٌ بِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ ، فَمَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ صَادِقًا

(161/117)

فِي دَعْوَى حُبِّهِ لِلَّهِ ، وَجَدِيرًا بِأَنْ يَكُونَ مَحْبُوبًا مِنْهُ - جَلَّ عُلَاهُ - ، أَتْبَعَ ذَلِكَ ذِكْرَ مَنْ أَحَبَّهُمْ وَاصْطَفَاهُمْ ، وَجَعَلَ مِنْهُمُ الرُّسُلَ الَّذِينَ يُبَيِّنُونَ طَرِيقَ مَحَبَّتِهِ ، وَهِيَ الْإِيمَانُ بِهِ مَعَ طَاعَتِهِ ، فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ أَيِ اخْتَارَهُمْ

وَجَعَلَهُمْ صَفْوَةَ الْعَالَمِينَ وَخِيَارَهُمْ بِجَعْلِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ فِيهِمْ، فَآدَمُ أَوَّلُ الْبَشَرِ ارْتِقَاءً إِلَى هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ فَإِنَّهُ بَعْدَمَا تَنَقَّلَ فِي الْأَطْوَارِ إِلَى مَرْتَبَةِ التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ اصْطَفَاهُ - تَعَالَى - وَاجْتَبَاهُ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ طه: ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى [20: 122] فَكَانَ هَادِيًا مَهْدِيًّا، وَكَانَ فِي ذُرِّيَّتِهِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ مَنْ شَاءَ اللَّهُ - تَعَالَى -، وَأَمَّا نُوحٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَقَدْ حَدَثَ عَلَى عَهْدِهِ ذَلِكَ الطُّوفَانُ الْعَظِيمُ فَانْقَرَضَ مِنَ السَّلَائِلِ الْبَشَرِيَّةِ مَنِ انْقَرَضَ وَنَجَا هُوَ وَأَهْلُهُ فِي الْفُلْكِ، فَكَانَ بِذَلِكَ أَبًا ثَانِيًا لِلْجَمِّ الْغَفِيرِ مِنَ الْبَشَرِ، وَكَانَ هُوَ نَبِيًّا مُرْسَلًا وَجَاءَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، ثُمَّ تَفَرَّقَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَانْتَشَرَتْ وَفَشَتْ فِيهِمُ الْوَثَنِيَّةُ حَتَّى ظَهَرَ فِيهِمْ إِبْرَاهِيمُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَبِيًّا مُرْسَلًا وَخَلِيلًا مُصْطَفًى، وَتَتَابَعَ النَّبِيُّونَ وَالْمُرْسَلُونَ مِنْ آلِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، وَكَانَ أَرْفَعُهُمْ قَدْرًا وَأَنْبَهُهُمْ ذِكْرًا آلَ عِمْرَانَ قَبْلَ أَنْ

(162/117)

تُخْتَمَ النُّبُوَّةُ بِوَلَدِ إِسْمَاعِيلَ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - .

ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ قِيلَ: إِنَّ الذُّرِّيَّةَ مِنْ مَادَّةِ ذَرَأَ الْمَهْمُوزَةِ؛ أَيْ خَلَقَ، كَمَا أَنَّ الْبَرِيَّةَ مِنْ مَادَّةِ بَرَأَ، وَقِيلَ: مِنْ مَادَّةِ ذَرَوَ، فَأَصْلُهَا ذُرُوِيَّةٌ، وَقِيلَ: هِيَ مِنَ الذَّرِّ وَأَصْلُهَا فُعْلِيَّةٌ كَقُمْرِيَّةٍ

. قَالَ الرَّاغِبُ : وَالذُّرِّيَّةُ أَصْلُهَا الصِّغَارُ مِنَ الْأَوْلَادِ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ يَقَعُ عَلَى الصِّغَارِ وَالْكِبَارِ مَعًا فِي التَّعَارُفِ ، وَيُسْتَعْمَلُ لِلْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ ، وَأَصْلُهُ الْجَمْعُ . وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : يُقَالُ : إِنَّ لَفْظَ الذُّرِّيَّةِ قَدْ يُطْلَقُ عَلَى الْوَالِدَيْنِ وَالْأَوْلَادِ خِلَافًا لِعُرْفِ الْفُقَهَاءِ وَهُوَ قَلِيلٌ ، وَالْمَشْهُورُ مَا جَرَى عَلَيْهِ الْفُقَهَاءُ وَهُوَ أَنَّ الذُّرِّيَّةَ الْأَوْلَادُ فَقَطْ ، فَقَوْلُهُ : بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ظَاهِرٌ عَلَى الْأَوَّلِ ، وَيُخَصُّ عَلَى الثَّانِي بِآلِ إِبْرَاهِيمَ وَآلِ عِمْرَانَ ، وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى أَنَّهُمْ أَشْبَاهٌ وَأَمْثَالٌ فِي الْخَيْرِيَّةِ وَالْفَضِيلَةِ الَّتِي هِيَ أَصْلُ اصْطِفَائِهِمْ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ [9 : 67] وَهُوَ اسْتِعْمَالٌ مَعْرُوفٌ . أَقُولُ : وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُشْبِهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مِنْ هَذِهِ الذُّرِّيَّةِ هُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ ، قَالَ - تَعَالَى - فِي سِيَاقِ الْكَلَامِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ

(163/117)

وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [6 :

84 – 87] وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أَيْ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَانَ سَمِيعًا لِقَوْلِ امْرَأَةِ عِمْرَانَ، عَلِيمًا بِنِيَّتِهَا فِي وَقْتِ مُنَاجَاتِهَا إِيَّاهُ – وَهِيَ حَامِلٌ – بِنَذْرِ مَا فِي بَطْنِهَا لَهُ حَالَ كَوْنِهِ مُحَرَّرًا، أَيْ مُعْتَقًا مِنْ رِقِّ الْأَغْيَارِ لِعِبَادَتِهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – وَخِدْمَةِ بَيْتِهِ، أَوْ مُخْلَصًا لِهَذِهِ الْعِبَادَةِ وَالْخِدْمَةِ لَا يَشْتَغِلُ بِشَيْءٍ آخَرَ، وَثَنَاؤُهَا عَلَيْهِ – تَعَالَى – عِنْدَ هَذِهِ الْمُنَاجَاةِ بِأَنَّهُ السَّمِيعُ لِلدُّعَاءِ، الْعَلِيمُ بِمَا فِي أَنْفُسِ الدَّاعِينَ وَالدَّاعِيَاتِ.

(164/117)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: وَرَدَ ذِكْرُ عِمْرَانَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مَرَّتَيْنِ، فَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: إِنَّهُمَا وَاحِدٌ وَهُوَ أَبُو مَرْيَمَ، وَيُسْتَدَلُّ عَلَى ذَلِكَ بِوُرُودِهِمَا فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ، وَأَكْثَرُهُمْ يَقُولُ: إِنَّ الْأَوَّلَ أَبُو مُوسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَالثَّانِي أَبُو مَرْيَمَ (عَلَيْهَا الرِّضْوَانُ) وَبَيْنَهُمَا نَحْوُ أَلْفٍ وَثَمَانِمِائَةِ سَنَةٍ تَقْرِيبًا، وَذَكَرُ تَفْصِيلِ ذَلِكَ عَلَى مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْيَهُودِ. وَقَالَ: وَالْمَسِيحِيُّونَ لَا يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ أَبَا مَرْيَمَ يُدْعَى عِمْرَانَ وَلَا ضَيْرَ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَلْزَمُ أَنْ تَكُونَ كُلُّ حَقِيقَةٍ مَعْرُوفَةً عِنْدَهُمْ، وَلَيْسَ لَهُمْ سَنَدٌ لِنَسَبِ الْمَسِيحِ يُحْتَجُّ بِهِ، فَهُوَ كَسِلْسِلَةِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الْمُتَصَوِّفَةِ يَزْعُمُونَ أَنَّهَا مُتَّصِلَةٌ بِعَلِيٍّ أَوْ بِالصِّدِّيقِ وَلَيْسَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ سَنَدٌ مُتَّصِلٌ يُحْتَجُّ بِمِثْلِهِ

. وَأَقُولُ: إِنَّ نَسَبَ الْمَسِيحِ فِي إِنْجِيلَيْ مَتَّى وَلُوقَا مُخْتَلٌّ، وَلَوْ كُتِبَ عَنْ عِلْمٍ لَمَا وَقَعَ فِيهِ الْخِلَافُ .

(165/117)

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى قَالُوا: إِنَّ هَذَا خَبَرٌ لَا يُقْصَدُ بِهِ الْإِخْبَارُ، بَلِ التَّحَسُّرُ وَالتَّحَزُّنُ وَالِاعْتِذَارُ. فَهُوَ بِمَعْنَى الْإِنْشَاءِ وَذَلِكَ أَنَّهَا نَذَرَتْ تَحْرِيرَ مَا فِي بَطْنِهَا لِخِدْمَةِ بَيْتِ اللهِ وَالِانْقِطَاعِ لِعِبَادَتِهِ فِيهِ، وَالْأُنْثَى لَا تَصْلُحُ لِذَلِكَ عَادَةً لَا سِيَّمَا فِي أَيَّامِ الْحَيْضِ. قَالَ - تَعَالَى -: وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ أَيْ بِمَكَانَةِ الْأُنْثَى الَّتِي وَضَعَتْهَا وَأَنَّهَا خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الذُّكُورِ; فَفِيهِ دَفْعٌ لِمَا يُوهِمُهُ قَوْلُهَا مِنْ خِسَّةِ الْمَوْلُودَةِ وَانْحِطَاطِهَا عَنْ مَرْتَبَةِ الذُّكُورِ وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: وَلَيْسَ الذَّكَرُ الَّذِي طَلَبَتْ أَوْ تَمَنَّتْ كَالْأُنْثَى الَّتِي وَضَعَتْ، بَلْ هَذِهِ الْأُنْثَى خَيْرٌ مِمَّا كَانَتْ تَرْجُو مِنَ الذَّكَرِ .

وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَأَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ وَيَعْقُوبُ (وَضَعْتُ) عَلَى أَنَّهُ مِنْ كَلَامِهَا، وَعَلَيْهِ يَكُونُ الْمَعْنَى: وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى فِيمَا يَصْلُحُ لَهُ كُلٌّ مِنْهُمَا .

(166/117)

وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ الْعَوْذُ : الِالْتِجَاءُ إِلَى الْغَيْرِ وَالتَّعَلُّقُ بِهِ ، فَمَعْنَى أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ، أَلْجَأُ إِلَيْهِ وَأَعْتَصِمُ بِهِ مِنْهُ ، وَأَعَاذَهُ بِهِ مِنْهُ جَعَلَهُ مُعَاذًا لَهُ يَمْنَعُهُ وَيَعْصِمُهُ مِنْهُ ، وَالْإِعَاذَةُ بِاللَّهِ تَكُونُ بِالدُّعَاءِ وَالرَّجَاءِ ، وَالرَّجِيمُ : الْمَطْرُودُ عَنِ الْخَيْرِ . وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ الشَّيْخَيْنِ وَغَيْرِهِمَا وَاللَّفْظُ هُنَا لِمُسْلِمٍ كُلُّ بَنِي آدَمَ يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا وَفَسَّرَ الْبَيْضَاوِيُّ الْمَسَّ هُنَا : بِالطَّمَعِ فِي الْإِغْوَاءِ ، وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِذَا صَحَّ الْحَدِيثُ فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ التَّمْثِيلِ لَا مِنْ بَابِ الْحَقِيقَةِ . وَلَعَلَّ الْبَيْضَاوِيَّ يَرْمِي إِلَى ذَلِكَ . وَالْحَدِيثُ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ بِغَيْرِ خِلَافٍ ، وَيَشْهَدُ لَهُ مِنْ وَجْهٍ حَدِيثُ شَقِّ الصَّدْرِ وَغَسْلِ الْقَلْبِ بَعْدَ اسْتِخْرَاجِ حَظِّ الشَّيْطَانِ مِنْهُ ، وَهُوَ أَظْهَرُ فِي التَّمْثِيلِ ، وَلَعَلَّ

مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ لِلشَّيْطَانِ نَصِيبٌ مِنْ قَلْبِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَا بِالْوَسْوَسَةِ ، كَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي شَيْطَانِهِ: إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ رَوَاهُ مُسْلِمٌ . وَفِي رِوَايَةٍ زِيَادَةُ فَلَا يَأْمُرُ إِلَّا بِخَيْرٍ .

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ حَدِيثَ اسْتِخْرَاجِ حَظِّ الشَّيْطَانِ مِنْهُ وَنَحْوَهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ لَهُ حَظٌّ مِنْهُ قَبْلَ ذَلِكَ ، وَهَذَا يُنَافِي قَوْلَهُ - تَعَالَى - : إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ [15 : 42] وَهُوَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صَفْوَةُ عِبَادِهِ وَخَاتَمُ رُسُلِهِ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ، فَإِنَّ الْآيَةَ تَنْفِي سُلْطَةَ الشَّيْطَانِ عَنْ عِبَادِ الرَّحْمَنِ فِي كُلِّ آنٍ . فَالْجَوَابُ : أَنَّ الْآيَةَ تَنْفِي السُّلْطَانَ عَلَيْهِمْ لَا أَصْلَ الْوَسْوَسَةِ ، فَإِذَا وَسْوَسَ الشَّيْطَانُ وَلَمْ تُطَعْ وَسْوَسَتُهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ سُلْطَانٌ ، وَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ لَهُ طَرِيقٌ إِلَى الْوَسْوَسَةِ وَلَا إِلَى الْأَمْرِ بِالشَّرِّ قَطُّ ، وَهَذِهِ مَرْتَبَةٌ عُلْيَا لَا يَرْتَقِي إِلَيْهَا كُلُّ عِبَادِ اللهِ ، وَقَدْ ذَكَرَ أَهْلُ الْحَدِيثِ مِنْ خَصَائِصِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِسْلَامُ شَيْطَانِهِ ، وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ مَا ، وَلَكِنْ كَانَ لَهُ حَظٌّ وَطَمَعٌ ، فَزَالَ وَغَلَبَهُ نُورُ النُّبُوَّةِ حَتَّى يَئِسَ وَزَالَ حَظُّهُ فَلَمْ يَعُدْ يَأْمُرُ إِلَّا بِخَيْرٍ أَوْ أَسْلَمَ كَمَا وَرَدَ .

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ مَا فَسَّرَ بِهِ الْبَيْضَاوِيُّ حَدِيثَ مَرْيَمَ وَعِيسَى يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَا أَفْضَلَ مِنَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَوْ مُمْتَازَيْنِ عَلَيْهِ إِذْ كَانَ يَطْمَعُ فِيهِ وَلَمْ يَطْمَعْ

فِيهِمَا ، وَهَذَا مَا يُشَاغِبُ بِهِ دُعَاةُ النَّصْرَانِيَّةِ عَوَامَّ الْمُسْلِمِينَ مُسْتَدِلِّينَ بِالْحَدِيثِ عَلَى تَفْضِيلِ عِيسَى عَلَى مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ، أَوْ عَلَى أَنَّهُ فَوْقَ الْبَشَرِ .

فَالْجَوَابُ أَنَّ كِتَابَ هَؤُلَاءِ الدُّعَاةِ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ ، فَفِي الْإِصْحَاحِ الرَّابِعِ مِنْ إِنْجِيلِ لُوقَا مَا نَصُّهُ:

(169/117)

" [1] أَمَّا يَسُوعُ فَرَجَعَ مِنَ الْأُرْدُنِّ مُمْتَلِئًا مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ وَكَانَ يَقْتَادُ بِالرُّوحِ فِي الْبَرِّيَّةِ [2] أَرْبَعِينَ يَوْمًا يُجَرَّبُ مِنْ إِبْلِيسَ ، وَلَمْ يَأْكُلْ شَيْئًا فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ وَلَمَّا تَمَّتْ جَاعَ أَخِيرًا [3] وَقَالَ لَهُ إِبْلِيسُ إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَقُلْ لِهَذَا الْحَجَرِ أَنْ يَصِيرَ خُبْزًا [4] فَأَجَابَهُ يَسُوعُ قَائِلًا مَكْتُوبٌ أَنْ لَيْسَ بِالْخُبْزِ وَحْدَهُ يَحْيَا الْإِنْسَانُ ، بَلْ بِكُلِّ كَلِمَةٍ مِنَ اللهِ [5] ثُمَّ أَصْعَدَهُ إِبْلِيسُ إِلَى جَبَلٍ عَالٍ وَأَرَاهُ جَمِيعَ مَمَالِكِ الْمَسْكُونَةِ فِي لَحْظَةٍ مِنَ الزَّمَانِ [6] وَقَالَ لَهُ إِبْلِيسُ لَكَ أُعْطِي هَذَا السُّلْطَانَ كُلَّهُ وَمَجْدَهُنَّ لِأَنَّهُ إِلَيَّ قَدْ دُفِعَ وَأَنَا أُعْطِيهِ لِمَنْ أُرِيدُ [7] فَإِنْ سَجَدْتَ أَمَامِي يَكُونُ لَكَ الْجَمِيعُ [8] فَأَجَابَهُ يَسُوعُ وَقَالَ اذْهَبْ يَا شَيْطَانُ إِنَّهُ مَكْتُوبٌ لِلرَّبِّ إِلَهِكَ تَسْجُدُ ، وَإِيَّاهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ [9] ثُمَّ جَاءَ بِهِ إِلَى أُورْشَلِيمَ وَأَقَامَهُ عَلَى جَنَاحِ الْهَيْكَلِ وَقَالَ لَهُ إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَاطْرَحْ نَفْسَكَ مِنْ هُنَا إِلَى أَسْفَلَ [10] لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ أَنَّهُ يُوصِي مَلَائِكَتَهُ بِكَ لِكَي

يَحْفَظُوكَ [11] وَأَنَّهُمْ عَلَى أَيَادِيهِمْ يَحْمِلُونَكَ لِكَيْ لَا تَصْدِمَ بِحَجَرٍ رِجْلَكَ [12] فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ إِنَّهُ قِيلَ لَا تُجَرِّبِ الرَّبَّ إِلَهَكَ [13] وَلَمَّا أَكْمَلَ إِبْلِيسُ كُلَّ تَجْرِبَةٍ فَارَقَهُ إِلَى حِينٍ " . اهـ .

فَهَذَا صَرِيحٌ كَانَ يُوَسْوِسُ لِلْمَسِيحِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَتَّى يَحْمِلَهُ وَيَأْخُذَهُ

(170/117)

مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ، وَقُصَارَى الْأَمْرِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُطِيعُهُ فِيمَا أَمَرَ بِهِ مِنَ السُّجُودِ لَهُ ، وَمِنَ امْتِحَانِ الرَّبِّ إِلَهِهِ (أَيْ إِلَهِ الْمَسِيحِ) وَقَوْلُهُ : (لَا تُجَرِّبِ الرَّبَّ إِلَهَكَ) يُرَادُ بِهِ مَا وَرَدَ فِي سِفْرِ التَّثْنِيَةِ آخِرِ أَسْفَارِ التَّوْرَاةِ (6 : 16) وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ : (لَيْسَ بِالْخُبْزِ وَحْدَهُ يَحْيَا الْإِنْسَانُ) وَقَوْلُهُ : (لِلرَّبِّ إِلَهِكَ تَسْجُدُ) إِلَخْ . وَذَلِكَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مُتَّبِعًا لِلتَّوْرَاةِ .

هَذَا وَقَدْ تَقَدَّمَ تَحْقِيقُ الْقَوْلِ فِي الشَّيْطَانِ وَوَسْوَسَتِهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَالْمُحَقَّقُ عِنْدَنَا أَنَّهُ لَيْسَ لِلشَّيْطَانِ سُلْطَانٌ عَلَى عِبَادِ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ، وَخَيْرُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ

(171/117)

وَالْمُرْسَلُونَ ، وَأَمَّا مَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ مَرْيَمَ وَعِيسَى مِنْ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَمْ يَمَسَّهُمَا وَحَدِيثِ إِسْلَامِ شَيْطَانِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَحَدِيثِ إِزَالَةِ حَظِّ الشَّيْطَانِ مِنْ قَلْبِهِ فَهُوَ مِنَ الْأَخْبَارِ الظَّنِّيَّةِ لِأَنَّهُ مِنْ رِوَايَةِ الْآحَادِ . وَلَمَّا كَانَ مَوْضُوعُهَا عَالَمَ الْغَيْبِ ، وَالْإِيمَانُ بِالْغَيْبِ مِنْ قِسْمِ الْعَقَائِدِ ، وَهِيَ لَا يُؤْخَذُ فِيهَا بِالظَّنِّ لِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا [53 : 28] كُنَّا غَيْرَ مُكَلَّفِينَ الْإِيمَانَ بِمَضْمُونِ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ فِي عَقَائِدِنَا . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : يُؤْخَذُ فِيهَا بِأَحَادِيثِ الْآحَادِ لِمَنْ صَحَّتْ عِنْدَهُ ، وَمَذْهَبُ السَّلَفِ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ تَفْوِيضُ الْعِلْمِ بِكَيْفِيَّتِهَا إِلَى اللهِ - تَعَالَى - فَلَا نَتَكَلَّمُ فِي كَيْفِيَّةِ مَسِّ الشَّيْطَانِ وَلَا فِي كَيْفِيَّةِ إِخْرَاجِ حَظِّهِ مِنَ الْقَلْبِ ، وَإِنَّمَا نَقُولُ : إِنَّ مَا قَالَهُ الرَّسُولُ حَقٌّ وَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى مَزِيَّةٍ لِمَرْيَمَ وَابْنِهَا وَلِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا سِوَاهُمْ مِنْ عِبَادِ اللهِ الَّذِينَ لَيْسَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، وَهَذِهِ الْمَزِيَّةُ لَا تَقْتَضِي وَحْدَهَا أَنْ يَكُونَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَفْضَلَ مِنْ سَائِرِ عِبَادِ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ; إِذْ قَدْ يُوجَدُ فِي الْمَفْضُولِ مِنَ الْمَزَايَا مَا لَا يُوجَدُ فِي الْفَاضِلِ ، فَلَيْسَتْ مَرْيَمُ أَفْضَلَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ; لِأَنَّ اخْتِصَاصَ اللهِ إِيَّاهُمَا بِالنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ

(172/117)

وَالْخِلَّةِ وَالتَّكْلِيمِ يَعْلُو كَوْنَ الشَّيْطَانِ لَمْ يَمَسَّهُمَا عِنْدَ الْوِلَادَةِ ; عَلَى أَنَّ الْحَدِيثَ وَرَدَ فِي تَفْسِيرِ كَوْنِهِ - تَعَالَى - تَقَبَّلَ مِنْ أُمِّهَا إِعَاذَتَهَا وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَهَذِهِ الْإِعَاذَةُ قَدْ كَانَتْ بَعْدَ وِلَادَتِهَا وَالْعِلْمِ بِأَنَّهَا أُنْثَى ، وَظَاهِرُ الْحَدِيثِ أَنَّ الْمَسَّ يَكُونُ عِنْدَ الْوَضْعِ ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِمَا .

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ أَيْ تَقَبَّلَ مَرْيَمَ مِنْ أُمِّهَا وَرَضِيَ أَنْ تَكُونَ مُحَرَّرَةً لِلِانْقِطَاعِ لِعِبَادَتِهِ وَخِدْمَةِ بَيْتِهِ وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ (قَبِلَهَا) وَزَادَهُ مُبَالَغَةً وَتَأْكِيدًا وَصْفُهُ بِالْحُسْنِ كَأَنَّهُ قَالَ : فَقَبِلَهَا رَبُّهَا أَبْلَغَ قَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا أَيْ رَبَّاهَا وَنَمَّاهَا فِي خَيْرِهِ وَرِزْقِهِ وَعِنَايَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ تَرْبِيَةً حَسَنَةً شَامِلَةً لِلرُّوحِ وَالْجَسَدِ كَمَا تُرَبَّى الشَّجَرَةُ فِي الْأَرْضِ الصَّالِحَةِ حَتَّى تَنْمُوَ وَتُثْمِرَ الثَّمَرَةَ الصَّالِحَةَ لَا يُفْسِدُ طَبِيعَتَهَا شَيْءٌ ; وَلَعَلَّهُ عَبَّرَ عَنِ التَّرْبِيَةِ بِالْإِنْبَاتِ لِبَيَانِ أَنَّ التَّرْبِيَةَ فِطْرِيَّةٌ لَا شَائِبَةَ فِيهَا ، وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ أَنَّ الْقَبُولَ مَصْدَرُ " قَبِلَ " لَا " تَقَبَّلَ " وَالنَّبَاتُ مَصْدَرٌ لِـ " نَبَتَ " لَا لِـ " أَنْبَتَ " وَلَكِنَّ الْعَرَبَ تُخْرِجُ الْمَصْدَرَ أَحْيَانًا عَلَى غَيْرِ صِيغَةِ الْفِعْلِ ، وَالشَّوَاهِدُ عَلَى هَذَا كَثِيرَةٌ . (وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا) شَدَّدَ الْكُوفِيُّونَ مِنَ الْقُرَّاءِ الْفَاءَ ، وَخَفَّفَهَا الْبَاقُونَ ، وَالْمَعْنَى عَلَى الْأُولَى وَجَعَلَ زَكَرِيَّا

كَافِلًا لَهَا ، وَعَلَى الثَّانِيَةِ ظَاهِرٌ ، وَقَرَءُوا (زَكَرِيَّا) بِالْقَصْرِ وَبِالْمَدِّ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَهُوَ مُقَدَّمُ الْمُصَلَّى ، وَيُطْلَقُ عَلَى مُقَدَّمِ الْمَجْلِسِ ، كَمَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ . وَقِيلَ : لَا يُسَمَّى مِحْرَابًا إِلَّا إِذَا كَانَ يُصْعَدُ إِلَيْهِ بِالسَّلَالِيمِ . وَأَقُولُ : الْمِحْرَابُ هُنَا هُوَ مَا يُعَبِّرُ عَنْهُ أَهْلُ الْكِتَابِ بِالْمَذْبَحِ ، وَهُوَ مَقْصُورَةٌ فِي مُقَدَّمِ الْمَعْبَدِ لَهَا بَابٌ يُصْعَدُ إِلَيْهِ بِسُلَّمٍ ذِي دَرَجَاتٍ قَلِيلَةٍ وَيَكُونُ مَنْ فِيهِ مَحْجُوبًا عَمَّنْ فِي الْمَعْبَدِ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالُوا : كَانَ يَجِدُ عِنْدَهَا فَاكِهَةَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ وَفَاكِهَةَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ . وَاللهُ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ وَلَا قَالَهُ رَسُولُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَلَا هُوَ مِمَّا يُعْرَفُ بِالرَّأْيِ وَلَمْ يُثْبِتْهُ تَارِيخٌ يُعْتَدُّ بِهِ ، وَالرِّوَايَاتُ عَنْ مُفَسِّرِي السَّلَفِ مُتَعَارِضَةٌ ، وَفِي أَسَانِيدِهَا مَا فِيهَا ، وَمِمَّا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي ذَلِكَ : إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَصَابَتْهُمْ أَزْمَةٌ حَتَّى ضَعُفَ زَكَرِيَّا عَنْ حَمْلِهَا وَإِنَّهُمُ اقْتَرَعُوا عَلَى حَمْلِهَا فَخَرَجَ السَّهْمُ عَلَى نَجَّارٍ مِنْهُمْ ، فَكَانَ يَأْتِيهَا كُلَّ يَوْمٍ مِنْ كَسْبِهِ بِمَا يُصْلِحُهَا فَيُنَمِّيهِ اللهُ وَيُكَثِّرُهُ ، فَيَدْخُلُ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا فَيَجِدُ عِنْدَهَا فَضْلًا مِنَ الرِّزْقِ فَإِذَا وَجَدَ ذَلِكَ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ؟ أَيْ مِنْ أَيْنَ هَذَا ؟ الْأَيَّامُ أَيَّامُ قَحْطٍ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَازِقِ النَّاسِ بِتَسْخِيرِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ

يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا تَوَقُّعٍ مِنَ الْمَرْزُوقِ، أَوْ رِزْقًا وَاسِعًا (رَاجِعْ آيَةَ 27) وَأَنْتَ تَرَى أَنَّهُ لَا دَلِيلَ فِي الْآيَةِ عَلَى أَنَّ الرِّزْقَ كَانَ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ، وَإِسْنَادُ الْمُؤْمِنِينَ الْأَمْرَ إِلَى اللهِ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ مَعْهُودٌ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ. قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مَا مِثَالُهُ مَبْسُوطًا: إِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ سَائِغًا يَسْهُلُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ فَهْمُهُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى عَنَاءٍ وَلَا ذَهَابٍ فِي الدِّفَاعِ عَنْ شَيْءٍ خِلَافَ الظَّاهِرِ، فَعَلَيْنَا أَلَّا نَخْرُجَ عَنْ سُنَّتِهِ وَلَا نُضِيفَ إِلَيْهِ حِكَايَاتٍ إِسْرَائِيلِيَّةً أَوْ غَيْرَ إِسْرَائِيلِيَّةٍ لِجَعْلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ، وَالْبَحْثُ عَنْ ذَلِكَ الرِّزْقِ مَا هُوَ، وَمِنْ أَيْنَ جَاءَ فُضُولٌ لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ لِفَهْمِ الْمَعْنَى وَلَا لِمَزِيدِ الْعِبْرَةِ، وَلَوْ عَلِمَ اللهُ أَنَّ فِي بَيَانِهِ خَيْرًا لَنَا لَبَيَّنَهُ.

أَمَّا مَا سِيقَتِ الْقِصَّةُ لِأَجْلِهِ وَهُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ نَبْحَثَ فِيهِ، وَنَسْتَخْرِجَ الْعِبَرَ مِنْ قَوَادِمِهِ وَخَوَافِيهِ، فَهُوَ تَقْرِيرُ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَدَحْضُ شُبَهِ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ احْتَكَرُوا فَضْلَ اللهِ وَجَعَلُوهُ خَاصًّا بِشَعْبِ إِسْرَائِيلَ، وَشُبْهَةِ الْمُشْرِكِينَ

الَّذِينَ كَانُوا يُنْكِرُونَ نُبُوَّتَهُ لِأَنَّهُ بَشَرٌ . وَبَيَانُ ذَلِكَ : أَنَّ الْمَقْصِدَ الْأَوَّلَ مِنْ مَقَاصِدِ الْوَحْيِ هُوَ تَقْرِيرُ عَقِيدَةِ الْأُلُوهِيَّةِ وَأَهَمُّ مَسَائِلِهَا مَسْأَلَةُ الْوَحْدَانِيَّةِ وَتَقْرِيرِ عَقِيدَةِ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ وَعَقِيدَةِ الْوَحْيِ وَالْأَنْبِيَاءِ .

وَقَدِ افْتُتِحَتِ السُّورَةُ بِذِكْرِ التَّوْحِيدِ وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ ، ثُمَّ كَانَتِ الْآيَاتُ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ أَوْ قُبَيْلَ هَذِهِ الْقِصَّةِ فِي الْأُلُوهِيَّةِ وَالْجَزَاءِ بَعْدَ الْبَعْثِ بِالتَّفْصِيلِ وَإِزَالَةِ الشُّبُهَاتِ وَالْأَوْهَامِ فِي ذَلِكَ ، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللهِ وَادِّعَاءَ حُبِّهِ وَرَجَاءَ النَّجَاةِ فِي الْآخِرَةِ وَالْفَوْزِ بِالسَّعَادَةِ فِيهَا إِنَّمَا تَكُونُ بِاتِّبَاعِ رَسُولِهِ ، وَقَفَّى عَلَى ذَلِكَ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ الَّتِي تُزِيلُ شُبَهَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ فِي رِسَالَتِهِ وَتَرُدُّهَا عَلَى وُجُوهِهِمْ .

(176/117)

رَدَّ عَلَيْهِمْ بِمَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ أَنَّ آدَمَ أَبُو الْبَشَرِ وَأَنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ بِجَعْلِهِ أَفْضَلَ مِنْ كُلِّ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ ، وَتَمْكِينِهِ هُوَ وَذُرِّيَّتِهِ مِنْ تَسْخِيرِهَا ، وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ ، وَمِنَ اصْطِفَاءِ نُوحٍ وَجَعْلِهِ أَبَا الْبَشَرِ الثَّانِي وَجَعْلِ ذُرِّيَّتِهِ هُمُ الْبَاقِينَ ، وَمِنَ اصْطِفَاءِ إِبْرَاهِيمَ وَآلِهِ عَلَى الْبَشَرِ ، فَإِنَّ الْعَرَبَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ كَانُوا يَعْرِفُونَ ذَلِكَ ، فَالْأَوَّلُونَ يَفْخَرُونَ بِأَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَعَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ كَمَا يَفْخَرُ الْآخَرُونَ بِاصْطِفَاءِ آلِ عِمْرَانَ

مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَفِيدِ إِبْرَاهِيمَ ، فَاللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يُرْشِدُ هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ وَجَمِيعَ الْبَشَرِ إِلَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي اصْطَفَى هَؤُلَاءِ بِغَيْرِ مَزِيَّةٍ سَبَقَتْ مِنْهُمْ تَقْتَضِي ذَلِكَ وَتُوجِبُهُ عَلَيْهِ ، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ لَهُ فِي اصْطِفَاءِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَبِذَلِكَ اصْطَفَى هَؤُلَاءِ عَلَى عَالَمِي زَمَانِهِمْ ، فَمَا الْمَانِعُ بِهِ مِنَ اصْطِفَاءِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى الْعَالَمِينَ كَمَا اصْطَفَى أُولَئِكَ ؟ لَا مَانِعَ يَمْنَعُ ذَلِكَ عِنْدَ مَنْ يَعْقِلُ . فَإِنْ قِيلَ : إِنَّهُ لَمْ يُعْهَدْ أَنْ بَعَثَ نَبِيًّا مِنْ غَيْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ وُجُودِهِمْ . قُلْنَا وَلِمَ اصْطَفَى بَنِي إِسْرَائِيلَ عِنْدَ وُجُودِهِمْ ؟ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِمَحْضِ مَشِيئَتِهِ ؟ بَلَى وَبِمَحْضِ مَشِيئَتِهِ اصْطَفَى مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَهَذِهِ الْمُثُلُ مَسْبُوقَةٌ لِبَيَانِ أَنَّهُ - تَعَالَى -

(177/117)

يَصْطَفِي مِنْ خَلْقِهِ مَنْ يَشَاءُ ، أَمَّا الدَّلِيلُ عَلَى كَوْنِهِ شَاءَ اصْطِفَاءَهُ فَاصْطَفَاهُ بِالْفِعْلِ فَهُوَ أَنَّهُ اصْطَفَاهُ بِالْفِعْلِ ; إِذْ جَعَلَهُ هَادِيًا لِلنَّاسِ مُخْرِجًا لَهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ وَالْجَهْلِ وَالْفَسَادِ إِلَى نُورِ الْحَقِّ الْجَامِعِ لِلتَّوْحِيدِ وَالْعِلْمِ وَالصَّلَاحِ ، وَلَمْ يَكُنْ أَثَرُ غَيْرِهِ مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ وَآلِ عِمْرَانَ فِي الْهِدَايَةِ بِأَظْهَرَ مِنْ أَثَرِهِ ، بَلْ أَثَرُهُ أَظْهَرُ وَنُورُهُ أَسْطَعُ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى كُلِّ عَبْدٍ مُصْطَفًى - وَهَذَا بَيَانٌ لِوَجْهِ اتِّصَالِ الْقِصَّةِ بِمَا قَبْلَهَا مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ .

وَمِنْ هَذِهِ الْمُثُلِ قِصَّةُ مَرْيَمَ فَإِنَّ أُمَّهَا إِذَا كَانَتْ قَدْ وَلَدَتْ وَهِيَ عَاقِرٌ عَلَى خِلَافِ الْمَعْهُودِ كَمَا نُقِلَ، أَوْ يُقَالُ: إِذَا كَانَ قَبُولُ الْأُنْثَى مُحَرَّرَةً لِخِدْمَةِ بَيْتِ اللهِ عَلَى خِلَافِ الْمَعْهُودِ عِنْدَهُمْ وَقَدْ تَقَبَّلَهُ اللهُ فَلِمَاذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُرْسِلَ اللهُ مُحَمَّدًا مِنْ غَيْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى خِلَافِ الْمَعْهُودِ عِنْدَهُمْ؟ وَمِثْلُ هَذَا يُقَالُ فِي قِصَّةِ زَكَرِيَّا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - الْآتِيَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ يُعْلَمُ أَنَّ أَعْمَالَهُ - تَعَالَى - لَا تَأْتِي دَائِمًا عَلَى مَا يَعْهَدُ النَّاسُ وَيَأْلَفُونَ. انتهى انتهى.

اهـ ﴿تفسير المنار حـ 3 صـ 236. 243﴾

(178/117)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله:

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾

وقد عرفنا القبول الحسن والإنبات الحسن، أما قوله الحق: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ فهذا يعني أن المسألة جاءت من أعلى، إنه الرب الذي تقبل بقبول حسن، وهو الذي أنبتها نباتا حسنا. إذن، فرعاية زكريا لها إنما جاءت بأمر من الله. والدليل على ما حدث عند كفالة مريم. لقد اجتمع كبار القوم رغبة في كفالتها وأجروا بينهم قرعة من أجل ذلك.

وساعة تجد قرعة ، أو إسهاما . فالناس تكون قد خرجت من مراداتها المختلفة إلى مراد الله . فعندما نختلف على شيء فإننا نجري قرعة ، ويخصص سهم لكل مشترك فيها ، ونرى بعد ذلك من الذي يخرج سهمه ، ويلجأ الناس لهذا الأمر ؛ ليمنعوا هوى البشر عن التدخل في الاختيار ، ويصبح الأمر خارجا عن مراد البشر إلى مراد الله سبحانه وتعالى ، وهذا ما حدث عند كفالة زكريا لمريم . ولذلك فالحق يقول لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

[آل عمران : 44] .

إذن فالكفالة لمريم أخذت لها ضجة ، وهذا دليل على أنهم اتفقوا على إجراء قرعة بالنسبة لكفالتها ، ولا يمكن أن يكونوا قد ذهبوا إلى هذه القرعة إلا إذا كان قد حدث تنازع بينهم ، عن أيهم يكفل مريم ، ومن فضل الله أن زكريا عليه السلام كان متزوجا من " إشاع " أخت " " حنة " وهي أم مريم ، فهو زوج خالتها .

وكلمة " أقلامهم " قال فيها المفسرون : إنها القداح التي كانوا يصنعونها قديما ، أو الأقلام التي كتبوا بها التوراة ، فرموها في البحر ، فمن طفا قلمه لم يأخذ رعاية مريم ، ومن غرق قلمه في البحر فهو الذي فاز بكفالة مريم . إذن فهم قد خرجوا عن مراداتهم إلى مراد الله .

والخروج عن المرادات ، والخروج عن الأهواء بجسم ليس له اختيار – كقداح القرعة – لا يوجد في النفس غضاضة . لكن لو كان هناك من سيأخذ رعاية مريم بالقوة والغضب فلا بد أن يجد نفوس الآخرين وقد امتلأت بالمرارة أو الغضب . ولذلك فقد كان سائدا في ذلك العصر عملية إجراء السهام إذا ما خافوا أن يقع الظلم على أحد أو أن يساء الظن بأحد ، وهناك قصة سيدنا يونس عندما قاربت السفينة على الغرق ، وكان لا بد لإنقاذها أن ينزل واحد إلى البحر ، وجاء القول الحكيم :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

[الصافات : 139-144] .

كان لا بد أن ينزل واحد من تلك السفينة ، لذلك تم إجراء قرعة بالسهام حتى لا تقوم معركة بين الموجودين على ظهر السفينة ، وحتى لا تكون الغلبة للأقوياء ، ولكن القرعة حمت الناس من ظلم بعضهم بعضا .

قالوا : لنجر قرعة السهام ، فمن يخرج سهمه فهو الذي يلقى به ، وكان على يونس عليه السلام أن ينزل إلى اليم فيلتقمه الحوت . ولأنه من المسبحين فإن الله ينقذه . لقد قبل يونس عليه السلام اختيار الله ولم ينس تسبيح الله فكان في ذلك الإنقاذ له . وهكذا نقرأ قول الله لنفهم أن كفالة زكريا كانت باختيار الله . ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ .

(180/117)

وكلمة "كفلها " أي تولى كل مهمة تربيتها ، هذه هي الكفالة ، ونحن نعرف أن الكفيل في عرفنا هو الضامن ، والضامن هو من يسد القرض عندما يعجز الإنسان عن السداد ، وقوله الحق : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ يعطينا المعنى الواضح بأن زكريا عليه السلام هو الذي قام برعاية شئون مريم .

ويتابع الحق الكريم قوله : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً ﴾ إنه لم يدخل مرة واحدة ، بل دخل عليها المحراب مرات متعددة . وكان زكريا عليه السلام كلما دخل على مريم يجد عندها الرزق ، ولذلك كان لا بد أن يتساءل عن مصدر هذا الرزق ، ولا بد أن يكون تساؤله معبرا عن الدهشة ، لذلك يجيء القول الحق على لسان زكريا : ﴿

أَنَّى لَكِ هَذَا ﴾ .

وساعة أن تسمع ﴿ أَنَّى لَكِ هَاذَا ؟ ﴾ فهذا يدل على أنه قام بعمل محابس على المكان الذي توجد به مريم ، وإلا لظن أن هناك أحدا قد دخل على مريم ، وكما يقولون : فإن زكريا كان يقفل على مريم الأبواب . وإلا لو كانت الأبواب غير مغلقة لظن أن هناك من دخل وأحضر لها تلك الألوان المتعددة من الرزق .

والرزق هو ما ينتفع به – بالبناء للمجهول – وعندما يقول زكريا عليه السلام : ﴿ أَنَّى لَكِ هَذَا ﴾ . فلنا أن نتذكر ما قلناه سابقا من أن أي إنسان وكله الله على جماعة ويرى عندهم ما هو أزيد من الطاقة أو حدود الداخل ، فلا بد أن يسأل كُلاًّ منهم : من أين لك هذا ؟ ذلك أن فساد البيوت والمجتمعات إنما يأتي من عدم الإهتمام بالسؤال وضرورة الحصول على إجابة على السؤال المحدد : من أين لك هذا ؟

(181/117)

إن الذي يدخل بيته ويجد ابنته ترتدي فستانا مرتفع الثمن ويفوق طاقة الأسرة ، أو يجد ابنه قد اشترى شيئا ليس في طاقة الأسرة أن تشتريه ، هنا يجب أن يتوقف الأب أو الولي ليسأل : من أين لك هذا ؟ إن في ذلك حماية لأخلاق الأسرة من الإنهيار أو التحلل . فلو فطن كل

واحد أن يسأل أهله ومن يدخلون في كفالته – " من أين لك هذا ؟ " لعرف كل تفاصيل حركتهم ، لكن لو ترك الحبل على الغارب لفسد الأمر .

وقول زكريا : " أنّى لك هذا ؟ " هو سؤال محدد عن مصدر هذا الرزق ، ولننظر إلى إجابتها : ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ ثم لا تدع البديهة الإيمانية عند سيدنا زكريا دون أن تذكره أنها لا تنسى حقيقة واضحة في بؤرة شعور كل مؤمن : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ وأثارت هذه المسألة في نفس زكريا نوازع شتى ؛ إنها مسألة غير عادية ، لقد أخبرته مريم أن الرزق الذي عندها هو من عند الله الذي يرزق من يشاء بغير حساب ، إنه الإله هو القادر على أن يقول : "كن " فيكون .

وهنا ذكر زكريا نفسه ، وكأن نفسه قد حدثته : " إذا كانت للقدرة طلاقة في أن تفعل بلا أسباب ، وتعطي من غير حساب ، فأنا أريد ولدا يخلفني ، رغم أنني على كبر ورغم بلوغي من السن عتيّا ، وامرأتي عاقر . إن مسألة الرزق الذي وجده زكريا كلما دخل على مريم هي التي نبهت زكريا إلى ما يتمنى ويرغب .

ونحن نعلم أن المعلومات التي تمر على خاطر النفس البشرية كثيرة ، ولكن لا يستقر في بؤرة الشعور . ومعلومات في حاشية الشعور يتم استدعاؤها عند اللزوم ، فلما وجد زكريا الرزق المنوع عند مريم وقالت له عن مصدره : ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ . هنا تساءل زكريا : كيف فاتني هذا الأمر ؟ ولذلك يقول الحق عن

زكريا : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1442.1439 ﴾

(182/117)

" فصل "

قال السيوطى :

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (37)

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن ﴾ قال : تقبل من أمها ما أرادت بها الكنيسة فأجرها فيه ﴿ وأنبتها نباتاً حسناً ﴾ قال : نبتت في غذاء الله .

وأخرج ابن جرير عن الربيع وكفلها زكريا قال : ضمها إليه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : كفلها زكريا فدخل عليها المحراب فوجد عندها رزقاً عنباً في مكتل في غير حينه ﴿ قال أني لك

هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ قال : إن الذي يرزقك العنب في غير حينه لقادر أن يرزقني من العاقر الكبير العقيم ولداً ﴿ هنالك دعا زكريا ربه ﴾ فلما بشر بيحيى قال ﴿ رب اجعل لي آية قال آيتك ألاَّ تكلم الناس ﴾ قال : يعتقل لسانك من غير مرض وأنت سوي .

وأخرج عبد بن حميد وآدم وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن مجاهد في قوله ﴿ وكفلها زكريا ﴾ قال : سهمهم بقلمه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : كانت مريم ابنة سيدهم وإمامهم فتشاح عليها أحبارهم ، فاقترعوا فيها بسهامهم أيهم يكفلها ، وكان زكريا زوج خالتها . فكفلها وكانت عنده وحضنتها .

وأخرج البيهقي في سننه عن ابن مسعود وابن عباس وناس مق الصحابة ، إن الذين كانوا يكتبون التوراة إذا جاؤوا إليهم بإنسان محرر واقترعوا عليه أيهم يأخذه فيعلمه ، وكان زكريا أفضلهم يومئذ ، وكان معهم ، وكانت أخت أم مريم تحته ، فلما أتوا بها قال لهم زكريا : أنا أحقكم بها ، تحتي أختها . قال : فخرجوا إلى نهر الأردن ، فألقوا أقلامهم التي يكتبون بها

أيهم يقوم قلمه فيكفلها ، فجرت الأقلام ، وقام قلم زكريا على قرنيه كأنه في طين فأخذ الجارية .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ وكفلها زكريا ﴾ قال : جعلها معه في محرابه .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم بن أبي النجود أنه قرأها ﴿ وكفلها ﴾ مشددة ﴿ زكرياء ﴾ ممدودة مهموز منصوب .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ﴿ وجد عندها رزقاً ﴾ قال : مكتلاً فيه عنب في غير حينه .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن جرير عن مجاهد ﴿ وجد عندها رزقاً ﴾ قال : عنباً في غير زمانه .

وأخرج ابن جرير من وجه آخر عن مجاهد ﴿ وجد عندها رزقاً ﴾ قال : فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف .

وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر عن مجاهد ﴿ وجد عندها رزقاً ﴾ قال : علماً .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ وجد عندها رزقاً ﴾ قال : وجد عندها ثمار الجنة . فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وجد عندها رزقاً ﴾ قال : الفاكهة الغضة حين لا توجد الفاكهة عند أحد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك ﴿ أَنَّى ﴾ يعني من أين .

وأخرج عن الضحاك ﴿ أنى لك هذا ﴾ يقول من أتاك بهذا .

(184/117)

وأخرج أبو يعلى عن جابر " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام أياماً لم يطعم طعاماً حتى شق ذلك عليه ، فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً ، فأتى فاطمة فقال يا بنية هل عندك شيء آكله فإني جائع ؟ فقالت : لا والله . فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم ، فأخذته منها فوضعته في جفنة لها وقالت : والله لأوثرن بهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسي ومن عندي ، وكانوا جميعاً محتاجين إلى شبعة طعام ، فبعثت حسناً أو حسيناً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع إليها فقالت له : بأبي أنت وأمي قد أتى الله بشيء قد خبأته لك فقال : هلمي يا بنية بالجفنة . فكشفت عن الجفنة فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً ، فلما نظرت إليها بهتت وعرفت أنها بركة من الله . فحمدت الله تعالى وقدمته إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه حمد الله وقال : من أين لك هذا يا بنية ؟ قالت : يا أبت ﴿ هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ فحمد الله ثم قال : الحمد لله الذي جعلك

شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل فإنها كانت إذا رزقها الله رزقاً فَسُئِلَتْ عنه ﴿ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 186.185 ﴾

(185/117)

قوله تعالى ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (38) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان كأنه قيل : فما قال زكريا حينئذ ؟ قيل : ﴿ هنالك ﴾ أي في ذلك الوقت وذلك المكان العظيمي المقدار ﴿ دعا زكريا ربه ﴾ تذكراً لما عودهم الله سبحانه وتعالى به من الإكرام ، فظهرت عليه كرامات هذه الكفالة ، قال الحرالي : لما أشهده الله سبحانه وتعالى أنه يخرق عادته لمن شاء بكلمته في حق كفيلته في الظاهر ، الكافلة له في هذا المعنى ، دعا ربه الذي عوده بالإحسان أن يرزقه ولداً في غير إبانه كما رزق مريم رزقاً في غير زمانه فوجب دعاؤه - انتهى .

﴿ قال رب ﴾ أي الذي عودني بإحسانه ﴿ هب لي من لدنك ﴾ قال الحرالي : طلب عليه من باطن الأمر كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وعلمناه من لدنا علماً ﴾ [الكهف : 65] ، وكما قال فيه ﴿ وحناناً من لدنا ﴾ [مريم : 13] ، لأن كل ما كان من لدن فهو أبطن من عند ﴿ ذرية ﴾ فيه إشعار بكثرة ونسل باق ، فأجيب بولد فرد لما كان زمان انتهاء في ظهور كلمة الروح وبأنه لا ينسل فكان يحيي حصوراً لغلبة الروحانية على إنسانيته - انتهى .

﴿ طيبة ﴾ أي مطيعة لك لأن ذلك طلبة أهل الخصوص ، ثم علل إدلاله على المقام الأعظم بالسؤال بقوله : ﴿ إنك سميع الدعاء ﴾ أي مريده ومجيبه لأن من شأن من يسمع - ولم يمنع - أن يجب إذا كان قادراً كاملاً ، وقد ثبتت القدرة بالربوبية الكاملة التي لا تحصل إلا من الحي القيوم ، بخلاف الأصنام ونحوها مما عبد فإنها لا تسمع ، ولو سمعت لم تقدر على الإجابة إلى ما تسأل فيه لأنها مربوبة .

قال الحرالي : أعلم الداعي بما لله سبحانه وتعالى من الإجابة ، والقرب " وسيلة في قبول دعائه - انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 76.75 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن قولنا : ثم ، وهناك ، وهنالك ، يستعمل في المكان ، ولفظة : عند ، وحين يستعملان في الزمان ، قال تعالى : ﴿ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وانقلبوا صاغرين ﴾ [الأعراف : 119] وهو إشارة إلى المكان الذي كانوا فيه ، وقال تعالى : ﴿ إِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً ﴾ [الفرقان : 13] أي في ذلك المكان الضيق ، ثم قد يستعمل لفظة ﴿ هُنَالِكَ ﴾ في الزمان أيضاً ، قال تعالى : ﴿ هُنَالِكَ الولاية لِلَّهِ الحق ﴾ [الكهف : 44] فهذا إشارة إلى الحال والزمان .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ إن حملناه على المكان فهو جائز ، أي في ذلك المكان الذي كان قاعداً فيه عند مريم عليها السلام ، وشاهد تلك الكرامات دعا ربه ، وإن حملناه على الزمان فهو أيضاً جائز ، يعني في ذلك الوقت دعا ربه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 29 ﴾

وقال ابن عادل :

" هنا " هو الاسم ، واللام للبعد ، والكاف حرف خطاب ، وهو منصوب على الظرف المكاني بـ " دَعَا " وزان " ذلك " ، وهو منصوب على الظرف المكاني ، بـ " دعا " أي : في ذلك المكان الذي راى فيه ما رأى من أمر مريمَ ، وهو ظرف لا يتصرف بل يلزم النصبَ على الظرفية بـ " مِنْ " وَ " إلَى " .

قال الشاعر : [الرجز]

قَدْ وَرِدَتْ مِنْ أَمكِنَهْ . . . مِنْ هَاهُنَا وَمِنْ هُنَهْ

(187/117)

وحكمه حكم " ذَا " من كونه يُجَرَّد من حرف التنبيه ، ومن الكاف واللام ، نحو " هُنَا " وقد يَصْحَبه " ها " التنبيه ، نحو هاهنا ، ومع الكاف قليلاً ، نحو ها هناك ، ويمتنع الجمع بينها وبين اللام . وأخوات " هنا " بتشديد النون مع فتح الهاء وكسرها – و" ثَمَّ " بفتح الثاء – وقد يقال : " هَنَّت " . ولا يشار بـ " هُنَالِكَ " وما ذُكِرَ مَعَهُ إلا للأمكنة ، كقوله : ﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وانقلبوا صَاغِرِينَ ﴾ [الأعراف : 119] وقوله : ﴿ هُنَالِكَ الوِلاَيَةُ لِلَّهِ الحق ﴾ [الكهف : 44] وقوله : ﴿ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً ﴾ [الفرقان : 13] .

وقد زعم بعضهم أن " هُنا " و" هناك " و" هنالك " للزمان ، فمن ورود " هنالك " بمعنى الزمان عند بعضهم – هذه الآية أي : في ذلك الزمان دعا زكريا ربه ، ومثله : ﴿ هُنَالِكَ ابتلي المؤمنون ﴾ [الأحزاب : 11] ، وقوله : ﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ ﴾ ومنه قول زهير : [الطويل]

هُنَالِكَ إنْ يُسْتَخْبَلُوا المَالَ

يُخْبِلُوا . . . .

ومن " هنّا " قوله : [الكامل]

حَنَّتْ نُوَارُ وَلَاتَ هَنَّا حَنَّتِ . . . وَبَدَا الَّذِي كَانَتْ نُوَارُ أَجَنَّتِ

لأن " لات " لا تعمل إلا في الأحيان .

وفي عبارة السجاوندي أن " هناك " في المكان ، و" هنالك " في الزمان ، وهو سهو ؛ لأنها للمكان سواء تجردت ، أو اتصلت بالكاف واللام معاً ، أم بالكاف من دون اللام . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 187.188 ﴾

وقال أبو حيان :

قيل : واللام في : هنالك ، دلالة على بعد المسافة بين الدعاء والإجابة ، فإنه نقل المفسرون أنه كان بين دعائه وإجابته أربعون سنة .

وقيل : دخلت اللام لبعد منال هذا الأمر لكونه خارقاً للعادة ، كما أدخل اللام في قوله : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ لبعد مناله وعظم ارتفاعه وشرفه .

وقال الماتريدي : كانت نفسه تحدثه بأن يهب الله له ولداً يبقى به الذكر إلى يوم القيامة ، لكنه لم يكن يدعو مراعاة للأدب ، إذ الأدب أن لا يدعو لمراد إلاَّ فيما هو معتاد الوجود وإن كان الله قادراً على كل شيء ، فلما رأى عندها ما هو ناقض للعادة حمله ذلك على الدعاء في طلب الولد غير المعتاد . انتهى .

وقوله : كانت تحدثه نفسه بذلك ، يحتاج إلى نقل .

وفي قوله : ﴿ هنالك دعا ﴾ دلالة على أن يتوخى العبد بدعائه الأمكنة المباركة والأزمنة المشرفة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 463 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن قوله ﴿ هُنَالِكَ دَعَا ﴾ يقتضي أنه دعا بهذا الدعاء عند أمر عرفه في ذلك الوقت له تعلق بهذا الدعاء ، وقد اختلفوا فيه ، والجمهور الأعظم من العلماء المحققين والمفسرين قالوا : هو أن زكريا عليه السلام رأى عند مريم من فاكهة الصيف في الشتاء ، ومن فاكهة الشتاء في الصيف ، فلما رأى خوارق العادات عندها ، طمع في أن يخرقها الله تعالى في حقه أيضاً فيرزقه الولد من الزوجة الشيخة العاقر .

والقول الثاني : وهو قول المعتزلة الذين ينكرون كرامات الأولياء ، وإرهاصات الأنبياء قالوا : إن زكريا عليه السلام لما رأى آثار الصلاح والعفاف والتقوى مجتمعة في حق مريم عليها

السلام اشتهى الولد وتمناه فدعا عند ذلك ، واعلم أن القول الأول أولى ، وذلك لأن حصول الزهد والعفاف والسيرة المرضية لا يدل على انخراق العادات ، فرؤية ذلك لا يحمل الإنسان على طلب ما يخرق العادة ، وأما رؤية ما يخرق العادة قد يطمعه في أن يطلب أيضاً فعلاً خارقاً للعادة ومعلوم أن حدوث الولد من الشيخ الهرم ، والزوجة العاقر من خوارق العادات ، فكان حمل الكلام على هذا الوجه أولى .

فإن قيل : إن قلتم إن زكريا عليه السلام ما كان يعلم قدرة الله تعالى على خرق العادات إلا عندما شاهد تلك الكرامات عند مريم عليها السلام كان في هذا نسبة الشك في قدرة الله تعالى إلى زكريا عليه السلام .

(189/117)

فإن قلنا : إنه كان عالماً بقدرة الله على ذلك لم تكن مشاهدة تلك الأشياء سبباً لزيادة علمه بقدرة الله تعالى ، فلم يكن لمشاهدة تلك الكرامات أثر في ذلك ، فلا يبقى لقوله هنالك أثر .

والجواب : أنه كان قبل ذلك عالماً بالجواز ، فأما أنه هل يقع أم لا فلم يكن عالماً به ، فلما شاهد علم أنه إذا وقع كرامة لولي ، فبأن يجوز وقوع معجزة لنبي كان أولى ، فلا جرم قوي

طمعه عند مشاهدة تلك الكرامات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 29 . 30 ﴾

فائدة

قال الفخر :

إن دعاء الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام لا يكون إلا بعد الإذن ، لاحتمال أن لا تكون الإجابة مصلحة ، فحينئذ تصير دعوته مردودة ، وذلك نقصان في منصب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، هكذا قاله المتكلمون ، وعندي فيه بحث ، وذلك لأنه تعالى لما أذن في الدعاء مطلقاً ، وبين أنه تارة يجيب وأخرى لا يجيب ، فللرسول أن يدعو كلما شاء وأراد مما لا يكون معصية ، ثم إنه تعالى تارة يجيب وأخرى لا يجيب ، وذلك لا يكون نقصاناً بمنصب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأنهم على باب رحمة الله تعالى سائلون فإن أجابهم فبفضله وإحسانه وإن لم يجبهم فمن المخلوق حتى يكون له منصب على باب الخالق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 30 ﴾

فائدة

قال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ اختلف في سبب دعائه على قولين :

أحدهما : أن الله تعالى أذن له في المسألة لأن سؤال ما خالف العادة يُمْنَع منه إلا عن إذن

لتكون الإجابة إعجازاً .

والثاني : أنه لما رآى فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف طمع في رزق الولد من عاقر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 1 صـ 389﴾

(190/117)

قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام : ﴿هَبْ لِى مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾

فصل

قال الفخر :

أما الكلام في لفظة ﴿لَّدُنْ﴾ فسيأتي في سورة الكهف والفائدة في ذكره ههنا أن حصول الولد في العرف والعادة له أسباب مخصوصة فلما طلب الولد مع فقدان تلك الأسباب كان المعنى : أُريد منك إلهي أن تعزل الأسباب في هذه الواقعة وأن تحدث هذا الولد بمحض قدرتك من غير توسط شيء من هذه الأسباب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 30﴾

وقال ابن عادل :

قوله : ﴿مِن لَّدُنْكَ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه يتعلق بـ " هَبْ " وتكون " مِنْ " لابتداء الغاية مجازاً ، أي : يا رب هَبْ لي من عندك . ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه في الأصل صفة لِ " ذُرِّيَة " فلما قُدِّمَ عليها انتَصَبَ حالاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 188 . 189 ﴾

فائدة

قال أبو حيان :

﴿ قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة ﴾ هذه الجملة شرح للدعاء وتفسير له ، وناداه بلفظ : رب ، إذ هو مربيه ومصلح حاله ، وجاء الطلب بلفظ : هب ، لأن الهبة إحسان محض ليس في مقابلتها شيء يكون عوضاً للواهب ، ولما كان ذلك يكاد يكون على سبيل ما لا تسبب فيه : لا من الوالد لكبر سنه ، ولا من الوالدة لكونها عاقراً لا تلد ، فكان وجوده كالوجود بغير سبب ، أتى هبة محضة منسوبة إلى الله تعالى بقوله : من لدنك ، أي من جهة محض قدرتك من غير توسط سبب .

وتقدّم أن : لدن ، لما قرب ، و : عند ، لما قرب ولما بعد ، وهي أقل إبهاماً من : لدن ، ألا ترى أن : عند ، تقع جواباً لأين ، ولا تقع له جواباً : لدن ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 463 ﴾

فصل

قال الفخر :

الذرية النسل ، وهو لفظ يقع على الواحد ، والجمع ، والذكر والأنثى ، والمراد منه ههنا : ولد واحد ، وهو مثل قوله ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ [مريم : 5] قال الفراء : وأنث ﴿ طَيِّبَةً ﴾ لتأنيث الذرية في الظاهر ، فالتأنيث والتذكير تارة يجيء على اللفظ ، وتارة على المعنى ، وهذا إنما نقوله في أسماء الأجناس ، أما في أسماء الأعلام فلا ، لأنه لا يجوز أن يقال جاءت طلحة ، لأن أسماء الأعلام لا تفيد إلا ذلك الشخص ، فإذا كان ذلك الشخص مذكراً لم يجز فيها إلا التذكير . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 30 ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدعاء ﴾

قال الفخر :

ليس المراد منه أن يسمع صوت الدعاء فذلك معلوم ، بل المراد منه أن يجيب دعاءه ولا يخيب رجاءه ، وهو كقول المصلين : سمع الله لمن حمده ، يريدون قبل حمد من حمد من المؤمنين ، وهذا متأكد بما قال تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام في سورة مريم ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ [مريم : 4] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 30 ﴾

وقال ابن عادل :

قوله ﴿ سَمِيعُ الدعآء ﴾ مثال مبالغة ، مُحَوَّل من سامع ، وليس بمعنى مُسْمِع ؛ لفساد المعنى ؛ لأن معناه إنك سامعه ، وقيل : مُجيبه ، كقوله : ﴿ إني آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فاسمعون ﴾ [يس : 25] أي : فأجيبوني ، وكقول المصلي : سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ، يريد قبل اللهُ حَمْدَ مَنْ حَمِدَهُ من المؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 189 ﴾

(192/117)

من فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ قصة مستقلة سيقت في أثناء قصة مريم لكمال الارتباط مع ما في إيرادها من تقرير ما سيقت له ، و(هنا) ظرف مكان ، واللام للبعد ، والكاف للخطاب أي في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب ، وهي ظرف ملازم للظرفية وقد تجر بمن وإلى ؛ وجوز أن يراد بها الزمان مجازاً فإن (هنا) وثم وحيث كثيراً ما تستعار له وهي متعلقة بدعا وتقديم الظرف للإيذان بأنه أقبل على الدعاء من غير تأخير ، وقال الزجاج : إن (هنا) هنا مستعارة للجهة والحال أي من تلك الحال دعا زكريا كما تقول

: من ههنا قلت كذا ، ومن هنالك قلت كذا أي من ذلك الوجه وتلك الجهة .

أخرج ابن بشر وابن عساكر عن الحسن قال : لما وجد زكريا عند مريم ثمر الشتاء في الصيف وثمر الصيف في الشتاء يأتيها به جبريل قال لها : أنى لك هذا في غير حينه . قالت : هو رزق من عند الله يأتيني به الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب فطمع زكريا في الولد فقال : إن الذي أتى مريم بهذه الفاكهة في غير حينها لقادر على أن يصلح لي زوجتي ويهب لي منها ولداً فعند ذلك دعا ربه وذلك لثلاث ليال بقين من المحرم قام زكريا فاغتسل ثم ابتهل في الدعاء إلى الله تعالى ، وقيل : أطمعه في الولد فدعا مع أنه كان شيخاً فانياً وكانت امرأته عاقراً لما أن الحال نبهته على جواز ولادة العاقر من الشيخ من وجوه .

الأول : ما أشار إليه الأثر من حيث إن الولد بمنزلة الثمر والعقر بمنزلة غير أوانه ،

والثاني : أنه لما رأى تقبل أنثى مكان الذكر تنبه لأنه يجوز أن يقوم الشيخ مقام الشاب والعاقر مقام الناتج ،

والثالث : أنه لما رأى تقبل الطفل مقام الكبير للتحرير تنبه لذلك .

والرابع : أنه لما رأى تكلم مريم في غير أوانه تنبه لجواز أن تلد امرأته في غير أوانه ، والخامس : أنه لما سمع من مريم ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : 37] تنبه لجواز أن تلد من غير استعداد ؛ ولا يخفى ما في بعض هذه الوجوه من الخدش ، وعلى العلات ليس ما رأى فقط علة موجبة للإقبال على الدعاء بل كان جزءاً من العلة التامة التي من جملتها كبر سنه عليه السلام وضعف قواه وخوف مواليه حسبما فصل في سورة مريم ﴿ قَالَ ﴾ شرح للدعاء وبيان لكيفيته ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنْكَ ﴾ الجاران متعلقان بما قبلهما وجاز لاختلاف المعنى ، و﴿ مِنْ ﴾ لابتداء الغاية مجازاً أي أعطني من عندك ﴿ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ أي مباركة كما قال السدي ، وقيل : صالحة تقية نقية العمل ، ويجوز أن يتعلق الجار الأخير بمحذوف وقع حالاً من ذرية ، وجاء الطلب بلفظ الهبة لأن الهبة إحسان محض ليس في مقابلة شيء وهو يناسب ما لا دخل فيه للوالد لكبر سنه ولا للوالدة لكونها عاقرة لا تلد فكأنه قال : أعطني ذرية من غير وسط معتاد ، والذرية في المشهور النسل تقع على الواحد والجمع والذكر والأنثى .

والمراد ههنا ولد واحد ؛ قال الفراء : وأنث الطيبة لتأنيث لفظ الذرية والتأنيث والتذكير تارة يجيئان على اللفظ وأخرى على المعنى وهذا في أسماء الأجناس كما في قوله :

أبوك خليفة ولدته أخرى . . . وأنت خليفة ذاك الكمال

بخلاف الأعلام فإنه لا يجوز أن يقال : جاءت طلحة لأن اسم العلم لا يفيد إلا ذلك الشخص فإذا كان مذكراً لم يجز فيه إلا التذكير . ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدعاء ﴾ أراد كثير الإجابة لمن يدعوك من خلقك وهو تعليل لما قبله وتحريك لسلسلة الإجابة ، وفي ذلك اقتداء بجده الأعلى إبراهيم عليه السلام إذ قال : ﴿ الحمد للَّهِ الذى وَهَبَ لِى عَلَى الكبر إسماعيل وإسحاق إِنَّ رَبّى لَسَمِيعُ الدعاء ﴾ [إبراهيم : 39] قيل : قد ذكر الله تعالى في كيفية دعائه ثلاث صيغ . إحداها : هذه والثانية : ﴿ إِنّى وَهَنَ العظم مِنّى ﴾ [مريم : 4] الخ ، والثالثة : ﴿ رَبّ لاَ تَذَرْنِى فَرْداً ﴾ [الأنبياء : 89] الخ ، فدل على أن الدعاء تكرر منه ثلاث مرات كل مرة بصيغة ، ويدل على أن بين الدعاء والإجابة زماناً ، ويصرح به ما نقل في بعض الآثار أن بينهما أربعين سنة ، وفيه منع ظاهر لجواز أن تكون الصيغ الثلاث حكاية لدعاء واحد مرة على سبيل الإيجاز ، وتارة على سبيل الإسهاب ، وأخرى على سبيل التوسط ، وهذه الحكاية في هذه الضيع إنما هي بالمعنى إذ لم يكن لسانهم عربياً ؛ ولهذا ورد عن الحسن أنه عليه السلام حين دعا قال : يا رازق مريم ثمار الصيف في الشتاء وثمار الشتاء في الصيف ﴿ هَبْ لِى مِن لَّدُنْكَ ذُرّيَّةً ﴾ ولم يذكر في الدعاء يا رب قيل : ويدل على أنه دعاء واحد متعقب بالتبشير العطف بالفاء في

قوله تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الملائكة ﴾ وفي قوله سبحانه : ﴿ فاستجبنا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى

﴿ [الأنبياء : 90] وظاهر قوله جل شأنه في مريم : ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ [مريم : 7] اعقاب التبشير الدعاء لا تأخره عنه ، وأثر إن بين الدعاء والإجابة أربعين سنة لم نجد له أثراً في الصحاح ، نعم ربما يشعر بعض الأخبار الموقوفة أن بين الولادة والتبشير مدة كما سنشير إلى ذلك قريباً إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 145.144 ﴾

(195/117)

وقال ابن عطية :

هناك في كلام العرب إشارة إلى مكان فيه بعد أو زمان ، و ﴿ هنالك ﴾ باللام أبلغ في الدلالة على البعد ، ولا يعرب ﴿ هنالك ﴾ لأنه إشارة فأشبه الحروف التي جاءت لمعنى ، ومعنى هذه الآية : أن في الوقت الذي رأى زكرياء رزق الله لمريم ومكانتها منه وفكر في أنها جاءت أمها بعد أن أسنت وأن الله تقبلها وجعلها من الصاحلات تحرك أمله لطلب الولد وقوي رجاؤه وذلك منه على حال سن ووهن عظم واشتعال شيب وذلك لخوفه الموالي من ورائه حسبما يتفسر في سورة مريم إن شاء الله فدعا ربه أن يهب له ذرية طيبة ، و" الذرية " اسم جنس يقع على واحد فصاعداً كما الولي يقع على اسم جنس كذلك ،

وقال الطبري : إنما أراد هنا بالذرية واحداً ودليل ذلك طلبه ولياً ولم يطلب أولياء ، وأنث " الطيبة " حملاً على لفظ الذرية كما قال الشاعر : [الوافر]

أبوكَ خليفةٌ وَلَدَتْهُ أُخْرى . . . وأَنْتَ خَلِيفَةٌ ذاكَ الْكَمَالُ

وكما قال الآخر :

فما تزدري مِنْ حَيَّةٍ جَبليَّة ؟ . . . سِكَاتَ إذا ما عضَّ لَيْسَ بأَدْرَدَا

وفيما قال الطبري تعقب وإنما الذرية والولي اسما جنس يقعان للواحد فما زاد ، وهكذا كان طلب زكرياء عليه السلام ، و﴿ طيبة ﴾ معناه سليمة في الخلق والدين نقية ، و﴿ سميع ﴾ في هذه الآية بناء اسم فاعل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 1 صـ 427﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [38].

(196/117)

أي في ذلك المكان ، قبل أن يخرج ، وقد نبهه إلى الدعاء مشاهدة خوارق العادة مع قول مريم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : 37] والحكمة ضالة المؤمن ، وأهل النفوس الزكية يعتبرون بما يرون ويسمعون ، فلذلك عمد إلى الدعاء بطلب الولد في غير إبانه ، وقد كان في حسرة من عدم الولد كما حكى الله عند في سورة مريم . وأيضا فقد كان حينئذ في مكان شهد فيه فيضا إلهيا . ولم يزل أهل الخير يتوخون الأمكنة بما حدث فيها من خير ، والأزمنة الصالحة كذلك ، وما هي إلا كالذوات الصالحة في أنها محال تجليات رضا الله .

وسأل الذرية الطيبة لأنها التي يرجى منها خير الدنيا والآخرة بحصول الآثار الصالحة النافعة . ومشاهدة خوارق العادات خولت لزكريا الدعاء بما هو من الخوارق ، أو من المستبعدات ، لأنه رأى نفسه غير بعيد عن عناية الله تعالى ، لا سيما في زمن الفيض أو مكانه ، فلا يعد دعاؤه بذلك تجاوزا لحدود الأدب مع الله على نحو ما قرره القرافي في الفرق بين ما يجوز من الدعاء وما لا يجوز . وسميع هنا بمعنى مجيب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 90 ﴾

فصل

قال القرطبى :

دلّت هذه الآية على طلب الولد ، وهي سُنّة المرسلين والصدّيقين ، قال الله تعالى : ﴿

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد : 38] وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقّاص قال : أراد عثمان أن يتبتّل فنهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو أجاز له ذلك لاختصينا .

(197/117)

وخرّج ابن ماجه عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " النكاح من سُنّتي فمن لم يعمل بُسنّتي فليس منّي وتزوّجوا فإني مكاثِرٌ بكم الأمم ومن كان ذا طَول فَلْيَنْكِح ومن لم يجد فعليه بالصوم فإنه له وجاء " وفي هذا رَدٌّ على بعض جُهّال المتصوّفة حيث قال : الذي يطلب الولدَ أحمق ، وما عَرَفَ أنه (هو) الغبيُّ الأخرق ؛ قال الله تعالى مخبرا عن إبراهيم الخليل : ﴿ واجعل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين ﴾ [الشعراء : 84] وقال : ﴿ والذين يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان : 74] .

وقد ترجم البخاري على هذا "باب طلب الولد" .

" وقال صلى الله عليه وسلم لأبى طَلْحة حين مات ابنه .

"أَعْرَسْتم الليلة" ؟ قال نعم .

قال : "بارك الله لكما في غابر ليلتكما" " قال فحملت .

في البخاري : قال سفيان فقال رجل من الأنصار : فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرأوا القرآن .

وترجم أيضا "باب الدعاء بكثرة الولد مع البركة" وساق حديث أنس بن مالك قال قالت " أم سُليم : يا رسول الله ، خادمك أنس أدع الله له .

فقال : "اللّهُمّ أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته" " وقال صلى الله عليه وسلم : " اللّهُمّ اغفر لأبي سَلَمة وارفع درجته في المهدّيين فيما واخلفه في عَقِبه في الغابرين " أخرّجه البخاري ومسلم .

وقال صلى الله عليه وسلم : " تزوجوا الوَلود الوَدود فإني مكاثر بكم الأمم " أخرجه أبو داود .

والأخبار في هذا المعنى كثيرة تحث على طلب الولد وتندب إليه ؛ لما يرجوه الإنسان من نفعه في حياته وبعد موته .

قال صلى الله عليه وسلم : " "إذا مات أحدكم انقطع عمله إلا من ثلاث" فذكر "أو ولد صالح يدعو له" " ولو لم يكن إلا هذا الحديث لكان فيه كفاية .

فإذا ثبت هذا فالواجب على الإنسان أن يتضرّع إلى خالقه في هداية ولده وزوجه بالتوفيق لهما والهداية والصلاح والعفاف والرعاية ، وأن يكونا مُعينين له على دينه ودنياه حتى تعظم منفعته بهما في أولاه وأخراه ؛ ألا ترى قول زكريا ﴿ واجعله رَبّ رَضِيّاً ﴾ [مريم : 6] وقال : ﴿ ذُرِيَّةً طَيبةً ﴾ .

وقال : ﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنا وَذُرِيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ .

" ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنس فقال : "اللّهُمّ أكثر ماله وولده وبارك له فيه" " خرّجه البخاري ومسلم ، وحسْبُك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 73.72 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (38)

أي لما رأى كرامة الله سبحانه معها ازداد يقيناً على يقين ، ورجاء على رجاء ؛ فسأل الوَلَدَ على كبر سِنّه ، وإجابتُه إلى ذلك كان نقضاً للعادة .

ويقال إن زكريا عليه السلام سأل الوَلَدَ ليكونَ عوناً له على الطاعة ، ووارثاً من نَسْلِه في النبوة ، ليكون قائماً بحقِّ الله ، فلذلك استحق الإجابة ؛ فإن السؤال إذا كان لحقِ الحقِّ - لا لحظِّ النَّفْسِ - لا يكون له الرد .

وكان زكريا عليه السلام يرى الفاكهة الصيفية عند مريم في الشتاء ، وفاكهة الشتاء عندها في الصيف ، فسأل الولد في حال الكِبَر ليكون آية ومعجزة. انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 1 صـ 239. 240﴾

(199/117)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ ﴾

إنها ساعة أن قالت له : إن الرزق من عند الله ، وأنه الحق الذي يرزق من يشاء بغير حساب ، هنا أيقظت فيه القضية الإيمانية فجاءت أمنيته إلى بؤرة الشعور ، فقال زكريا لنفسه : فلنطلب من ربنا أن يرزقنا ما نرجوه لأنفسنا ، وما دام قد قال هذا القول فلا بد أنه قد صدق مريم في قضيتها ، بأن هذا الرزق الذي يأتيها هو من عند الله ، ودليل آخر في التصديق, هو أنه لا بد وقد رأى أن الألوان المتعددة من الرزق التي توجد عند مريم ليست في بيئته ، أو ليست في أوانها ؛ وكل ذلك في المحراب.

ونحن نعرف أن المحراب كلمة يراد بها بيت العبادة. يقول الحق :

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾

[سبأ : 13] .

أو " المحراب " وهو مكان الإمام في المسجد ، أو هو حجرة يصعد إليها بسلم ، كالمبلغات التي تقام في بعض المساجد . وما دامت مريم قد أخبرت زكريا وهي في المحراب بأن الرزق من عند الله ، وأيقظت بذلك تلك القضية الإيمانية في بؤرة شعوره ، فماذا يكون تصرفه ؟ هنا دعا زكريا أثناء وجوده في المحراب . ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ إنه هنا يطلب الولد . ولكن لا بد لنا أن نلاحظ ما يلي :

- هل كان طلبه للولد لما يطلبه الناس العاديون من أن يكون زينة للحياة أو " عزوة " أو ذكرا ؟ لا ، إنه يطلب الذرية الطيبة ، وذكر زكريا الذرية الطيبة تفيد معرفته أن هنالك ذرية غير طيبة . وفي قول زكريا الذي أورده الحق :

﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾

[مريم : 6] .

أي أن يكون دعاء لإرث النبوة وإرث المناهج وإرث القيم ، هكذا طلب زكريا الولد . لقد طلبه لمهام كبيرة ، وقول زكريا : " رب هب " تعني أنه استعطاء شيء بلا مقابل ، إنه يعترف . أنا ليس لي المؤهلات التي تجعل لي ولدا ؛ لأني كبير السن وامرأتي عاقر ، إذن فعطاؤك يا رب لي هو هبة وليس حقا ، وحتى الذي يملك الاستعداد لا يكون هذا الأمر حقا له ، فلا بد أن يعرف أن عطاء الله له يظل هبة ، فإياك أن تظن أن اكتمال الأسباب والشباب هي التي تعطي الذرية ، إن الحق سبحانه ينبهنا ألاّ نقع في خديعة وغش أنفسنا بالأسباب .

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

[الشورى : 49-50] .

إن في ذلك لفتا واضحا وتحذيراً محدداً ألا نفتتن بالأسباب ، إذن فلكل عطاء من الله هو هبة ، والأسباب لا تعطي أحدا ما يريد .

إن زكريا يقول : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ﴾ وساعة أن تقول من : " لدنك " فهو يعني " هب لي من وراء أسبابك " . لماذا ؟ لأن الكل من الله .

ولكن هناك فرقا بين عطاء الله بسبب ، كأن يذهب إنسان ليتعلم العلم ويمكث عشرين عاما ليتعلم ، وهناك إنسان يفيض الله عليه بموهبة ما ، ولذلك يقول أهل الإشراقات : إنه

علم لدنى ، أي من غير تعب ، وساعة أن نسمع " من لدن " أي انعزلت الأسباب ، كان دعاء زكريا هو ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ﴾ وكلمة " هب " توضح ما جاء في سورة مريم من قول زكريا :

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾

[مريم : 8] .

(201/117)

إن " هب " هي التي توضح لنا هذه المعاني ؛ هذا كان دعاء زكريا : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ فهل المراد أن يسمع الله الدعاء ؟ أم أن يجيب الله الدعاء ؟ إنه يضع كل أمله في الله ، وكأنه يقول : إنك يارب من فور أن تسمعني ستجيبني إلى طلبي بطلاقة قدرتك . لماذا ؟ لأنك يارب تعلم صدق نيتي في أنني أريد الغلام لا لشيء من أمور كقرة العين ، والذكر ، والعز ، وغيرها ، إنما أريد الولد ليكون وارثا لي في حمل منهجك في الأرض ، وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1444.1442 ﴾

(202/117)

قوله تعالى ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (39)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان الله سبحانه وتعالى عند ظن عبده به سمع دعاءه كما قال ﴿ فنادته ﴾ أي فتسبب عن دعائه وحسن رجائه أن نادته ﴿ الملائكة ﴾ يعني هذا النوع ، لا كلهم بل ناداه البعض ، وكان متهيئاً بما آتاه الله سبحانه وتعالى من المفضل لمناداة الكل ، كما هو شأن أهل الكمال من الرسل ﴿ وهو قائم يصلي في المحراب ﴾ وهو موضع محاربة العابد للشيطان ، وهو أشرف الأماكن لذلك .

قال الحرالي : فيه إشعار بسرعة إجابته ولزومه معتكفه وقنوته في قيامه وأن الغالب على صلاته القيام لأن الصلاة قيام ، وسجود يقابله ، وركوع متوسط ، فذكرت صلاته بالقيام إشعاراً بأن حكم القيام غالب عليها - انتهى .

ثم استأنف في قراءة حمزة وابن عامر بالكسر لجواب من كأنه قال : بأي شيء نادته الملائكة ؟ قوله : ﴿ أن الله يبشرك ﴾ قال الحرالي : فذكر الاسم الأعظم المحيط معناه بجميع معاني الأسماء ، ولم يقل إن ربك لما كان أمر إجابته من وراء الحكمة العادية ؛ وفي قوله :

﴿ بيحيى ﴾ مسمى بصيغة الدوام – مع أنه كما قيل : قتل – إشعار بوفاء حقيقة الروحانية الحياتية فيه دائماً ، لا يطرقه طارق موت الظاهر حيث قتل شهيداً – انتهى .

﴿ مصدقاً بكلمة ﴾ أي نبي خلق بالكلمة لا بالمعالجة العادية ، يرسله الله سبحانه وتعالى إلى عباده فيكذ به أكثرهم ويصدقه هو ، وإطلاق الكلمة عليه من إطلاق السبب على المسبب .

قال الحرالي : فكان عيسى عليه الصلاة والسلام كلمة الله سبحانه وتعالى ، ويحيى مصدقه بما هو منه كمال كلمته حتى أنهما في سماء واحدة ، ففي قوله : ﴿ من الله ﴾ إشعار بإحاطته في ذات الكلمة – انتهى .

(203/117)

﴿ وسيداً وحصوراً ﴾ أي فلا يتزين بزينة لأنه بالغ الحبس لنفسه والتضييق لعيها في المنع من النكاح.

قال في القاموس : والحصور من لا يأتي النساء وهو قادر على ذلك ، أو الممنوع منهن ، أو من لا يشتهيهن ولا يقربهن ، والمجبوب – والهَيوب المحجم عن الشيء .

وقال الحرالي : وهو من الحصر وهو المنع عما شأن الشيء أن يكون مستعملاً فيه – انتهى

﴿ ونبياً ﴾ ولما كان النبي لا يكون إلا صالحاً لم يعطف بل قال : ﴿ من الصالحين ﴾ إعلاماً بمزية رتبة الصلاح واحترازاً من المتنبيين ، فكأنه قيل : فما قال حين أجابه ربه سبحانه وتعالى ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ يستثبت بذلك ما يزيده طمأنينة ويقيناً وسكينة ﴿ رب ﴾ أي أيها المحسن إلي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 76 . 77 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ فَنَادَتْهُ الملائكة ﴾ قرأ الأخوان " فَنَادَاهُ المَلاَئِكَةُ " - من غير تأنيث - والباقون " فَنَادَتْهُ " بتاء التأنيث - باعتبار الجمع المُكَسَّر ، فيجوز في الفعل المسند إليه التذكير باعتبار الجمع ، والتأنيث باعتبار الجماعة ، ولتأنيث لفظ " الملائكة " مع أن المذكور إذا تقدَّم فعلُهم - وهم جماعة - كان التأنيث فيه أحسن ؛ كقوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الأعراب ﴾ [الحجرات : 14] . ومثل هذا ﴿ إِذْ يَتَوَفَّى الذين كَفَرُواْ الملائكة ﴾ [الأنفال : 50] تُقْرأ بالتاء والياء ، وكذا قوله : ﴿ تَعْرُجُ الملائكة ﴾ [المعارج : 4] .

قال الزجاج : يلحقها التأنيث للفظ الجماعة ، ويجوز أن يُعَبَّر عنها بلفظ التذكير ؛ لأنه - تعالى جمع الملائكة ، وهكذا قوله : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾ [يوسف : 30] .

وإنما حَسُنَ الحذفُ - هنا - للفصل بين الفعل وفاعله .

وقد تجرأ بعضُهم على قراءة العامة ، فقال : " أكره التأنيثَ ؛ لما فيه من موافقة دَعْوَى

الجاهلية ؛ لأن الجاهلية زعمت أن الملائكة إناث " .

روى إبراهيم قال : كان عبد الله بن مسعود يُذَكِّر الملائكةَ في كُلِّ القرآنِ .

(204/117)

قال أبو عُبَيْد : " نراه اختار ذلك ؛ خلافاً على المشركين ؛ لأنهم قالوا : الملائكة بناتُ اللهِ ."

وروى الشعبيُّ أن ابن مسعود قال : " إذا اختلفتم في الياء والتاء فاجعلوها ياءً " .

وتجرأ أبو البقاء على قراءة الأخوين ، فقال : وكره قوم قراءة التأنيث لموافقة الجاهلية ، ولذلك قرأ " فناداه " بغير تاء - والقراءة غير جيّدة ؛ لأن الملائكة جمع ، وما اعتلوا ليس بشيءٍ ؛ لأن الإجماع على إثبات التاء في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الملائكة يا مريم ﴾ [آل عمران : 42] .

وهذان القولان - الصادران من أبي البقاء وغيره - ليسا بجيّدَيْن ؛ لأنهما قراءتان متواترتان ، فلا ينبغي أن ترد إحداهما ألبتة .

والأخوان على أصلهما من إمالة " فَنَادَاهُ " . والرسم يحتمل القراءتين معاً - أعني : التذكير والتأنيث والجمهور على أن الملائكة المراد بهم واحد - وهو جبريل .

قال الزَّجَّاج : أتاه النداء من هذا الجنس الذين هم الملائكة ، كقولك : فلان يركب السُّفُنَ - أي : هذا الجنس كقوله تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ الملائكة ﴾ [النحل : 2] يعني جبريل " بِالرُّوحِ " يعني الوحي . ومثله قوله : ﴿ الذين قَالَ لَهُمُ الناس ﴾ [آل عمران : 173] وهو نعيم بن مسعود ، وقوله : ﴿ إِنَّ الناس قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ ﴾ [آل عمران : 173] يعني أبا سفيان .

ولما كان جبريل - عليه السلام - رئيسَ الملائكة أخبر عنه إخبار الجماعة ؛ تعظيماً له .

قيل : الرئيس لا بدّ له من أتباع ، فلذلك أخبر عنه وعنهم ، وإن كان النداء قد صدر منه - قاله الفضل بن سلمة - ويؤيد كون المنادي جبريل وحده قراءةُ عبد الله - وكذا في مصحفه - فناداه جبريل .

والعطف بالفاء - في قوله " فَنَادَتْهُ " - مُؤذِنٌ بأن الدعاء مُتَعقب بالتبشير .

والنداء : رفع الصوت ، يقال : نادَى نداَء - بضم النون وكسرها - والأكثر في الأصوات مجيئُها على الضم ، نحو البُكَاء ، والصُّراخ ، والدُّعاء ، والرُّغاء .

(205/117)

وقيل : المكسور مصدر ، والمصموم اسم . ولو عُكِسَ هذا لكان أبْيَنَ ؛ لموافقته نظائره من المصادر .

قال يعقوب بن السكيت : إن ضمّيت نونه قصرته ، وإن كسرتها مددته .

وأصل المادة يدل على الرفع ، ومنه المُنْتَدَى والنادي ؛ لاجتماع القوم فيهما وارتفاع أصواتهم . وقالت قريش : دار الندوة ، لارتفاع أصواتهم عند المشاورة والمحاورة فيها ، وفلان أَنْدَى صَوْتاً من فلان - أي : أرفع - هذا أصله في اللغة ، وفي العرف : صار ذلك لأحسنها نَغَماً وصوتاً ، والنَّدَى : المَطَر ، ومنه : نَدِيَ ، يَنْدَى ، ويُعَبَّر به عن الجود ، كما يُعَبَّر بالمطر والغيث عنه استعارةً .

قوله : ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ ﴾ جملة حالية من مفعول النداء ، و" يُصَلِّي " يحتمل أوجهاً :

أحدها : أن يكون خبراً ثانياً - عند مَنْ يرى تَعَدُّدَه مطلقاً - نحو : زيدٌ شاعرٌ فقيهٌ .

الثاني : أنه حال من مفعول النداء ، وذلك - أيضاً - عند مَنْ يجوّز تعدُّدَ الحال .

الثالث : أنه حال من الضمير المستتر في " قَائِمٌ " فيكون حالاً من حال .

الرابع : أن يكون صفة لِ " قَائِمٌ " .

قوله : ﴿ فِي المحراب ﴾ متعلق بـ " يُصَلِّي ، ويجوز أن يتعلق بـ " قَائِمٌ " إذا جعلنا يُصَلِّي حالاً من الضمير في " قَائِمٌ " ؛ لأن العامل فيه - حينئذ - وفي الحال شيء واحد ، فلا يلزم فيه فَصْل ، أما إذا جعلناه خبراً ثانياً أو صفة لِ " قَائِمٌ " أو حالاً من المفعول لزم الفصلُ بين العاملِ ومعمولِه بأجنبيٍّ . هذا معنى كلام أبي حيّان .

قال شِهَابُ الدِّينِ : والذي يظهر أنه يجوز أن تكون المسألة من باب التنازع ؛ فإن كُلاًّ من "

قَائِمٌ " و " يصلِّي " يصح أن يتسلَّط على " فِي الْمِحْرَابِ " وذلك على أي وجهٍ تقدم من وجوه الإعراب .

والمحراب – هنا – : المسجد .

(206/117)

قوله : ﴿ إِنَّ اللَّه ﴾ قرأ نافع وحمزة وابن عامر بكسر " إنَّ " والباقون بفتحها ، فالكسر عند الكوفيين ؛ لإجراء النداء مُجْرَى القولِ ، فيُكْسر معه ، وند البصريين ، على إضْمار القول – أي : فنادته ، فقالت . والفتح والحذف – على حذف حرف الجر ، تقديره : فنادته بأن الله ، فلما حُذِفَ الخافض جرَى الوجهان المشهوران في مَحَلِّها .

وفي قراءة عبد الله : " فنادته الملائكة يا زكريا " فقوله : " يا زكريا " هو مفعول النداء ، وعلى هذه القراءة يتعين كسر " إن " ولا يجوز فتحُها ؛ لاستيفاء الفعلِ معموليه ، وهما الضمير وما نُودي به زكريا .

قوله : ﴿ يُبَشّرُكَ ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم الخمسة في هذه السورة ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُبَشّرُكَ ﴾ – في موضعين – وفي سورة الإسراء : ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمؤمنين ﴾ [الإسراء : 9] وفي سورة الكهف : ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمؤمنين ﴾ – بضم الياء ، وفتح الباء ،

وكسر الشين مشددة – من بَشَّرَه ، يُبَشِّرُه .

وقرأ نافع وابن عامر وعاصم – ثلاثتهم – كذلك في سورة الشورى ، وهو قوله : ﴿ ذَٰلِكَ الذي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الذين آمَنُوا ﴾ [الشورى : 23] .

وقرأ الجميع – دون حمزة – – كذلك في سورة براءة : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ ﴾ [التوبة : 21] وفي الحجر – في قوله : ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر : 53] – ولا خلاف في الثاني – وهو قوله : ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر : 54] – أنه بالتثقيل .

وكذلك قرأ الجميع – دون حمزة – في سورة مريم – في موضعين ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ [مريم : 7] وقوله : ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ المتقين ﴾ [مريم : 97] . وكل من لم يذكر من قرأ بالتقييد المذكور فإنه يقرأ بفتح حرف المضارعة ، وسكون الياء وضم الشين .

(207/117)

وإذا أردت معرفة ضبط هذا الفَصل ، فاعلم أن المواضع التي وقع فيها الخلاف المذكور تسع كلماتٍ ، والقُرَّاء فيه على أربع مراتبٍ :

فنافع وابن عامر وعاصم ثَقَّلُوا الجميعَ .

وحمزة خفّف الجميع إلا قوله : ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر : 54] .

وابن كثير وأبو عمرو ثقلا الجميعَ إلا التي في سورة الشورَى فإنهما وافقَا فيها حمزة .

والكسائي خفَّف خمساً منها ، وثقَّل أربعاً ، فخفَّفَ كلمتي هذه السورةِ ، وكلمات الإسراء والكهفِ والشورَى . وقد تقدم أن في هذا الفعل ثلاث لغاتٍ : بشَّر - بالتشديد - وبَشَرَ - بالتخفيف - .

وعليه ما أنشده الفراء قوله : [الطويل]

بَشَرْتَ عِيَالِي إذْ رَأَيتَ صَحِيفَةً . . . أَتَتْكَ مِنَ الْحَجَّاجِ يُتْلَى كِتَابُهَا

الثالثة : أَبْشَرَ - رباعياً - وعليه قراءة بعضهم "يُبَشِرُكَ" - بضم الياء .

ومن التبشير قول الآخر : [الكامل]

يَا بِشْرُ حُقَّ لِوَجْهِكَ التَّبْشِيرُ . . . هَلاَّ غَضِبْتَ لَنَا وَأَنْتَ أَمِيرُ ؟

وقد أجمع على مواضع من هذه اللغات نحو "فَبَشّرْهُمْ" . ﴿ وَأَبْشِرُوا ﴾ [فصلت : 30] ، ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ﴾ [هود : 71] . قالوا : ﴿ بَشَّرْنَاكَ بالحق ﴾ [الحجر : 55] . فلم يرد الخلاف إلا في المضارع دونَ الماضي .

وقد تقدم معنى البشارة واشتقاقها في سورة البقرة .

قوله : ﴿ بيحيى ﴾ متعلق بـ ﴿ يُبَشّرُكَ ﴾ ولا بد من حذف مضاف ، أي : بولادة يحيى ؛ لأن الذوات ليست متعلقة للبشارة ، ولا بد في الكلام من حذف معمول قاد إليه السياقُ ، تقديره : بولادة يحيى منك ومن امرأتك ، دلَّ على ذلك قرينةُ الحالِ وسياقُ الكلامِ .

و" يحيى " فيه قولان :

أحدهما – وهو المشهور عند المفسِّرين – : أنه منقول من الفعل المضارع وقد سَمَّوا بالأفعالِ كثيراً ، نحو يعيش ويعمر ويموت .

قال قتادة : " سُمِّي ﴿ بيحيى ﴾ لأن الله أحياه بالإيمان " .

(208/117)

وقال الزَّجَّاج : " حيي بالعلم " وعلى هذا فهو ممنوع من الصرف للعلميَّة ووزن الفعل ، نحو يزيد ويشكر وتغلب .

والثاني : أنه أعجميّ لا اشتقاق له – وهو الظاهر – فامتناعه للعلمية والعُجْمَة الشخصية .

وعلى كلا القولين يُجمَع على " يَحْيَوْنَ " بحَذْف الألف وبقاء الفتحةِ تدلّ عليها .

وقال الكوفيون : إن كان عربيّاً منقولاً من الفعل فالأمر كذلك ، وإن كان أعجمياً ضُمَّ ما قبل الواو ، وكسر ما قبل الياء ؛ إجراءً له مُجْرَى المنقوص ، نحو جاء القاضُون ، ورأيت القاضِين ، نقل هذا أبو حيّان نهم . ونقل ابنُ مالك عنم أن الاسم إن كانت ألفه زائدةً ضُمَّ ما قبلَ الواو ، وكُسِرَ ما قبلَ الياءِ ، نحو : جاء حبلون ورأيت حُبلِين ، وإن كانت أصليةً نحو

دُجَوْن وجب فتح ما قبل الحرفين.

قالوا: فإن كان أعجمياً جاز الوجهان؛ لاحتمال أن تكون ألفهُ أصليةً أو زائدة؛ إذْ لا يُعْرَف له اشتقاق. ويصغر يحيى على "يُحَيِّي" وأنشد للشيخ أبي عمرو بن الحاجب في ذلك: [مجزوء الرمل]

أَيُّها الْعَالِمُ بِالتَّصْرِ . . . يفِ لا زِلْتَ تُحَيَّا

قَالَ قَوْمٌ: إنَّ يَحْيَى . . . إنْ يُصَغَّرْ فَيُحَيَّا

وَأَبَى قَوْمٌ فَقَالُوا . . . لَيْسَ هَذَا الرَّأْيُ حَيَّا

إنَّمَا كَانَ صَوَاباً . . . لَوْ أَجَابُوا بِيُحَيَّا

كَيْفَ قَدْ رَدُّوا يُحَيَّا . . . أَمْ تَرَى وَجْهاً يُحَيَّا ؟

وهذا جارٍ مَجْرَى الألغاز في تصغير هذه اللفظة، وذلك يختلف بالتصريف والعمل، وهو أنه لما اجتمع في آخر الاسم المصغَّر ثلاثُ ياءاتٍ جرى فيه خلافٌ بين النحاة بالنسبةِ إلى الحَذْف والإثبات، وأصل المسألة تصغير "أحْوَى" ويُنْسَب إلى "يَحْيَى" "يَحْيَى" - بحذف الألف، تشبيها لها بالزائد - نحو حُبُلِيّ - في حُبْلَى - و"يَحْيَوِيّ" - بالقلب؛ لأنها أصل كألف مَلْهَوِيّ، أو شبيهة بالأصل إن كان أعجمياً - و"يَحْيَاوِيّ" - بزيادة ألف قبل قَلْبِ ألفِهِ واواً.

وقرأ حمزة والكسائي "يَحْيَى" بالإمالة؛ لأجل الياء والباقون بالتفخيم.

قال ابن عباس: "سُمِّيَ "يَحْيَى؛ لأن الله َأحيا به عَقْرَ أمِّهِ.

وقال قتادة: لأن الله أحيا قلبه بالإيمان.

وقيل: لأن الله أحياه بالطاعة حتى إنه لم يَعْصِ اللهَ، ولم يَهِمّ بمعصيةٍ.

قال القرطبي: "كان اسمه - في الكتاب الأول - حَيَا، وكان اسم سارة - زوجة إبراهيم - يسارة، وتفسيره بالعربية: لا تلد، فلما بُشِّرَت بإسحاق قيل لها: سارة، سمَّاها بذلك جبريل - عليه السلام - فقالت: يا إبراهيم، لم نقص من اسمي حرف؟ فقال إبراهيم ذلك لجبريل - عليه السلام - فقال: إن ذلك حرف زيد في اسمِ ابنٍ لها من أفضل الأنبياء، اسمه حيا، فسُمِّي بيَحْيَى".

قوله: ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ حال من "يَحْيَى" وهذه حال مقدرة.

وقال ابن عطية: "هي حال مؤكدة بحسب حال هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام".

و"بِكَلِمةٍ" متعلق بـ"مُصَدِّقًا".

وقرأ أبو السَّمال "بِكِلْمَةٍ" - بكسر الكاف وسكون اللام - وهي لغة صحيحة؛ وذلك أنه أتبع الفاء للعين في حركتها، فالتقى بذلك كسرتان، فحذف الثانيةَ؛ لأجل الاستثقال.

انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 190. 196﴾

فصل

قال الفخر :

ظاهر اللفظ يدل على أن النداء كان من الملائكة ، ولا شك أن هذا في التشريف أعظم ، فإن دل دليل منفصل أن المنادي كان جبريل عليه السلام فقط صرنا إليه .

(210/117)

وحملنا هذ اللفظ على التأويل ، فإنه يقال : فلان يأكل الأطعمة الطيبة ، ويلبس الثياب النفيسة ، أي يأكل من هذا الجنس ، ويلبس من هذا الجنس ، مع أن المعلوم أنه لم يأكل جميع الأطعمة ، ولم يلبس جميع الأثواب ، فكذا ههنا ، ومثله في القرآن ﴿ الذين قَالَ لَهُمُ الناس ﴾ [آل عمران : 173] وهم نعيم بن مسعود إن الناس : يعني أبا سفيان ، قال المفضل بن سلمة : إذا كان القائل رئيساً جاز الإخبار عنه بالجمع لاجتماع أصحابه معه ، فلما كان جبريل رئيس الملائكة ، وقلما يبعث إلا ومعه جمع صح ذلك .

أما قوله ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلّى فِى المحراب ﴾ فهو يدل على أن الصلاة كانت مشروعة في دينهم ، والمحراب قد ذكرنا معناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 31 ﴾

قوله تعالى ﴿ أَنَّ الله يُبَشّرُكَ بيحيى ﴾

قال الفخر :

في قوله ﴿يُبَشِّرُكَ بيحيى﴾ وجهان

الأول : أنه تعالى كان قد عرف زكريا أنه سيكون في الأنبياء رجل اسمه يحيى وله ذرية عالية ، فإذا قيل : إن ذلك النبي المسمى بيحيى هو ولدك كان ذلك بشارة له بيحيى عليه السلام

والثاني : أن الله يبشرك بولد اسمه يحيى . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 31﴾

(211/117)

لطيفة

قال الآلوسى :

والعدول عن إسناد التبشير بنون العظمة حسبما وقع في سورة مريم للجري على سنن الكبرياء كما في قول الخلفاء : أمير المؤمنين يرسم لك كذا وللإيذان بأن ما حكى هناك من النداء والتبشير وما يترتب عليه من المحاورة كان كل ذلك بواسطة الملك بطريق الحكاية منه سبحانه لا بالذات كما هو المتبادر وبهذا يتضح اتحاد المعنى في السورتين الكريمتين فتأمل انتهى ، وكان الداعي إلى اعتبار ما هنا محكياً بعبارة من الله تعالى ظهور عدم صحة كون

ما في سورة مريم من عبارة الملك غير محكي من الله تعالى ، وأن الظاهر اتحاد الدعاءين وإلا فما هنا مما لا يجب حمله على ما ذكر لولا ذلك ، والملوح غير موجب كما لا يخفى ولا بد في الموضعين من تقدير مضاف كالولادة إذ التبشير لا يتعلق بالأعيان ، ويؤل في المعنى إلى ما هناك أي إن الله يبشرك بولادة غلام اسمه يحيى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 146 ﴾

قوله تعالى ﴿ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾

قال الفخر :

في المراد ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ قولان

الأول : وهو قول أبي عبيدة : أنها كتاب من الله ، واستشهد بقولهم : أنشد فلان كلمة ، والمراد به القصيدة الطويلة .

والقول الثاني : وهو اختيار الجمهور : أن المراد من قوله ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ هو عيسى عليه السلام ، قال السدي : لقيت أم عيسى أم يحيى عليهما السلام ، وهذه حامل بيحيى وتلك بعيسى ، فقالت : يا مريم أشعرت أني حبلى ؟ فقالت مريم : وأنا أيضاً حبلى ، قالت امرأة زكريا فإني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك فذلك قوله ﴿ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ وقال ابن عباس : إن يحيى كان أكبر سناً من عيسى بستة أشهر ، وكان يحيى أول من آمن وصدق بأنه كلمة الله وروحه ، ثم قتل يحيى قبل رفع عيسى عليهما

السلام ، فإن قيل : لم سمي عيسى كلمة في هذه الآية ، وفي قوله ﴿ إِنَّمَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ ﴾ [النساء : 171] قلنا : فيه وجوه

(212/117)

الأول : أنه خلق بكلمة الله ، وهو قوله ﴿ كُنَّ ﴾ من غير واسطة الأب ، فلما كان تكوينه بمحض قول الله ﴿ كُنَّ ﴾ وبمحض تكوينه وتخليقه من غير واسطة الأب والبذر ، لا جرم سمي : كلمة ، كما يسمى المخلوق خلقاً ، والمقدور قدرة ، والمرجو رجاء ، والمشتهي شهوة ، وهذا باب مشهور في اللغة

والثاني : أنه تكلم في الطفولية ، وآتاه الله الكتاب في زمان الطفولية ، فكان في كونه متكلماً بالغاً مبلغاً عظيماً ، فسمي كلمة بهذا التأويل وهو مثل ما يقال : فلان جود وإقبال إذا كان كاملاً فيهما

والثالث : أن الكلمة كما أنها تفيد المعاني والحقائق ، كذلك عيسى كان يرشد إلى الحقائق والأسرار الإلهية ، فسمى : كلمة ، بهذا التأويل ، وهو مثل تسميته روحاً من حيث إن الله تعالى أحيا به من الضلالة كما يحيا الإنسان بالروح ، وقد سمى الله القرآن روحاً فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : 52]

والرابع : أنه قد وردت البشارة به في كتب الأنبياء الذين كانوا قبله ، فلما جاء قيل : هذا هو تلك الكلمة ، فسمى كلمة بهذا التأويل قالوا : ووجه المجاز فيه أن من أخبر عن حدوث أمر فإذا حدث ذلك الأمر قال : قد جاء قولي وجاء كلامي ، أي ما كنت أقول وأتكلم به ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وكذلك حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبّكَ عَلَى الذين كَفَرُواْ أَنَّهُمْ أصحاب النار ﴾ [غافر : 6] وقال : ﴿ ولكن حَقَّتْ كَلِمَةُ العذاب عَلَى الكافرين ﴾ [الزمر : 71]

(213/117)

الخامس : أن الإنسان قد يسمى بفضل الله ولطف الله ، فكذا عيسى عليه السلام كان اسمه العلم : كلمة الله ، وروح الله ، واعلم أن كلمة الله هي كلامه ، وكلامه على قول أهل السنة صفة قديمة قائمة بذاته ، وعلى قول المعتزلة أصوات يخلقها الله تعالى في جسم مخصوص دالة بالوضع على معان مخصوصة ، والعلم الضروري حاصل بأن الصفة القديمة أو الأصوات التي هي أعراض غير باقية يستحيل أن يقال : أنها هي ذات عيسى عليه السلام ، ولما كان ذلك باطلاً في بداهة العقول لم يبق إلا التأويل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 31.32 ﴾

(214/117)

وقال الآلوسي :

﴿ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ نصب على الحال المقدرة من (يحيى) ، والمراد بالكلمة عيسى عليه السلام وهو المروي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وعليه أجلة المفسرين وإنما سمي عيسى عليه السلام بذلك لأنه وجد بكلمة كن من دون توسط سبب عادي فشابه البديعيات التي هي عالم الأمر ، و﴿ مِنْ ﴾ لابتداء الغاية مجازاً متعلقة بمحذوف وقع صفة لكلمة أي بكلمة كائنة منه تعالى وأريد بهذا التصديق الإيمان وهو أول من آمن بعيسى عليه السلام وصدق أنه كلمة الله تعالى وروح منه في المشهور . أخرج أحمد عن مجاهد قال : "قالت امرأة زكريا لمريم : إني أجد الذي في بطني يتحرك للذي في بطنك" . وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس قال : "كان يحيى وعيسى ابني خالة وكانت أم يحيى تقول لمريم إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك" فذلك تصديقه له وكان أكبر من عيسى بستة أشهر كما قال الضحاك وغيره ، وقيل : بثلاث سنين ، قيل : وعلى كل تقدير يكون بين ولادة يحيى وبين البشارة بها زمان مديد لأن مريم ولدت وهي بنت ثلاث عشرة سنة أو بنت عشر سنين ، واعترض بأن هذا إنما يتم لو كان دعاء زكريا عليه السلام زمن طفولية مريم قبل العشر أو الثلاث عشرة ، وليس في الآية سوى ما يشعر بأن زكريا عليه السلام لما تكرر منه الدخول على مريم ومشاهدته الرزق لديها وسؤاله لها وسماعه منها

ذلك الجواب اشتاق إلى الولد فدعا بما دعا ، وهذا الدعاء كما يمكن أن يكون في مبادىء الأمر يمكن أن يكون في أواخره قبيل حمل مريم وكونه في الأواخر غير بعيد لما أن الرغبة حينئذ أوفر حيث شاهد عليه السلام دوام الأمر وثباته زمن الطفولية وبعدها ، وهذا قلما يوجد في الأطفال إذ الكثير منهم قد يلقي الله تعالى على لسانه في صغره ما قد يكون عنه بمراحل في كبره فليس عندنا ما يدل صريحاً على أن بين الولادة والتبشير مدة مديدة ولا بين الدعاء والتبشير أيضاً ، نعم عندنا ما يدل على أن يحيى أكبر من عيسى

(215/117)

عليهما السلام وهو مما اتفق عليه المسلمون وغيرهم ، ففي "إنجيل متى" ما يصرح بأنه ولد قبله وقتله هيردوس قبل رفعه وأنه عمد المسيح والله تعالى أعلم بحقيقة الحال .

وحكي عن أبي عبيدة أن معنى ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ ﴾ بكتاب منه ، والمراد به الإنجيل وإطلاق الكلمة عليه كإطلاقها على القصيدة في قولهم كلمة الحويدرة للعينية المعروفة بالبلاغة . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 3 صـ 147 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَسَيِّدًا ﴾

قال ابن عادل :

السيد : فَيْعِل ، والأصل سَيْود ، ففُعِلَ به ما فعل بـ " ميت " ، كما تقدم ، واشتقاقه من سَادَ ، يَسُودُ ، سِيَادَةً ، وسُؤدُداً - أي فاق نظراءه في الشرف والسؤدد .

ومنه قوله : [الرجز]

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَاما . . . وَعَلَّمَتْهُ الْكَرَّ والإقْدَامَا

وَصَيَّرَتْهُ بطلاً هُمَامَا

وجمعه على " فَعَلَة " شاذ قياساً ، فصيح استعمالاً ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا ﴾ [الأحزاب : 67] .

وقال بعضهم : سُمي سَيِّداً ؛ لأنه يسود سَوَاد الناس أي : مُعْظَمهم وجُلَّهم . والأصل سَوَدَة ، و " فَعَلَة " لِـ " فاعِل " نحو كافِر وكفرة ، وفاجِر وفَجَرَة ، وبارّ وبررة .

وقال ابن عباس : السَّيِّد : الحليم .

قال الجبائي : إنه كان سيداً للمؤمنين ، ورئيساً لهم في الدين - أعني : في العلم والحلم والعبادة والورع .

قال مجاهدٌ : السَّيِّد : الكريم على الله تعالى .

وقال ابن المُسَيِّب : السيِّد : الفقيه العالم .

وقال عكرمة : السيد : الذي لا يغلبه الغضبُ .

وقيل : هو الرئيس الذي يتبع ، ويُنتَهى إلى قولِه .

وقال المفضل : السيد في الدين .

وقال الضحاك : الحسن الخلق .

وقال سعيد بن جبير : هو الذي يُطيع ربَّه .

ويقول عن الضَّحَّاكِ : السيد : التقِيّ .

وقال سفيان : الذي لا يحسد .

وقيل : هو الذي يفوق قومَه في جميع خصال الخيرِ .

وقيل : هو القانع بما قسم الله له .

وقيل : هو السَّخِيّ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مَنْ سَيدُكُمْ يا بَنِي سَلمةَ " ؟ قالوا : جَد بن قَيْس على بُخْلِه ، فقال : " وأي دواء أدوى من البخل ، لكن سَيِّدكم عمرو بن الجموح " وفي الآية بذلك دليل على جواز تسمية الإنسان سيداً كما تجوز تسميته عزيزاً وكريماً . وقال صلى الله عليه وسلم لبني قريظة : " قوموا إلى سيِّدكم " .

وقال – في الحسن – : " إن ابني هذا سَيِّدٌ ، فلعلَّ الله يُصْلِحُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْن عَظِيْمَتين من المسلمين " .

قال الكسائي : السيّد من المَعْز : [الْمُسِّن] . وفي الحديث : " الثَّنِيُّ من الضَّأن خير من السَّيِّد مِن الْمَعْزِ الْمُسِنّ " .

وقال الشاعر : [الطويل]

سَوَاءٌ عَلَيْهِ شَاةُ عَامٍ دَنَت لَهُ . . . لِيَذْبَحهَا لِلضَّيْفِ أَمْ شَاةُ سَيِّد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 197 . 199 ﴾

(216/117)

فائدة

قال الجصاص :

وَقَوْلُه تَعَالَى : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى بِهَذَا الِاسْمِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَمَّى يَحْيَى سَيِّدًا ، وَالسَّيِّدُ هُوَ الَّذِي تَجِبُ طَاعَتُهُ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ ﴿ قَالَ لِلْأَنْصَارِ حِينَ أَقْبَلَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ لِلْحُكْمِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَنِي قُرَيْظَةَ : قُومُوا إلَى سَيِّدِكُمْ ﴾ ؛ وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْحَسَنِ : ﴿ إنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ ﴾ ؛ ﴿ وَقَالَ لِبَنِي سَلِمَةَ : مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلِمَةَ ؟ قَالُوا : الْحُرُّ بْنُ قَيْسٍ عَلَى بُخْلٍ فِيهِ ، قَالَ : وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنْ الْبُخْلِ وَلَكِنْ سَيِّدُكُمْ الْجَعْدُ الْأَبْيَضُ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ ﴾ فَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ تَجِبُ طَاعَتُهُ يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى سَيِّدًا .

وَلَيْسَ السَّيِّدُ هُوَ الْمَالِكُ فَحَسْبُ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَجَازَ أَنْ يُقَالَ سَيِّدُ الدَّابَّةِ " وَسَيِّدُ الثَّوْبِ " كَمَا يُقَالُ سَيِّدُ الْعَبْدِ " وَقَدْ رُوِيَ ﴿ أَنَّ وَفْدَ بَنِي عَامِرٍ قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا : أَنْتَ سَيِّدُنَا وَذُو الطَّوْلِ عَلَيْنَا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : السَّيِّدُ هُوَ اللَّهُ تَكَلَّمُوا بِكَلَامِكُمْ ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ ﴾ .

(217/117)

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْضَلَ السَّادَةِ مِنْ بَنِي آدَمَ ، وَلَكِنَّهُ رَآهُمْ مُتَكَلِّفِينَ لِهَذَا الْقَوْلِ ، فَأَنْكَرَهُ عَلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ إنَّ أَبْغَضَكُمْ إلَيَّ الثَّرْثَارُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ ﴾ ، فَكَرِهَ لَهُمْ تَكَلُّفَ الْكَلَامِ عَلَى وَجْهِ التَّصَنُّعِ .

، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدًا فَإِنَّهُ إنْ يَكُ سَيِّدًا فَقَدْ هَلَكْتُمْ ﴾ ، فَنَهَى أَنْ يُسَمَّى الْمُنَافِقُ سَيِّدًا ؛ لِأَنَّهُ لَا تَجِبُ طَاعَتُهُ .

فَإِنْ قِيلَ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ رَبَّنَا إنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ فَسَمُّوهُمْ سَادَاتٍ وَهُمْ ضُلَّالٌ .

قِيلَ لَهُ : لِأَنَّهُمْ أَنْزَلُوهُمْ مَنْزِلَةَ مَنْ تَجِبُ طَاعَتُهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَحِقًّا لَهَا ، فَكَانُوا عِنْدَهُمْ وَفِي اعْتِقَادِهِمْ سَادَاتُهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ ﴾ وَلَمْ يَكُونُوا آلِهَةً ،

وَلَكِنَّهُمْ سَمَّوْهُمْ آلِهَةً فَأَجْرَى الْكَلَامَ عَلَى مَا كَانَ فِي زَعْمِهِمْ وَاعْتِقَادِهِمْ. انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 2 صـ 292 ﴾

(218/117)

قوله تعالى ﴿ وَحَصُورًا ﴾

قال الفخر :

الحصر في اللغة الحبس ، يقال حصره يحصره حصراً وحصر الرجل : أي اعتقل بطنه ، والحصور الذي يكتم السر ويحبسه ، والحصور الضيق البخيل ، وأما المفسرون : فلهم قولان

أحدهما : أنه كان عاجزاً عن إتيان النساء ، ثم منهم من قال كان ذلك لصغر الآلة ، ومنهم من قال : كان ذلك لتعذر الإنزال ، ومنهم من قال : كان ذلك لعدم القدرة ، فعلى هذا الحصور فعول بمعنى مفعول ، كأنه قال محصور عنهن ، أي محبوس ، ومثله ركوب بمعنى مركوب وحلوب بمعنى محلوب ، وهذا القول عندنا فاسد لأن هذا من صفات النقصان وذكر صفة النقصان في معرض المدح لا يجوز ، ولأن على هذا التقدير لا يستحق به ثواباً ولا تعظيماً .

والقول الثاني : وهو اختيار المحققين أنه الذي لا يأتي النساء لا للعجز بل للعفة والزهد ، وذلك لأن الحصور هو الذي يكثر منه حصر النفس ومنعها كالأكول الذي يكثر منه الأكل وكذا الشروب ، والظلوم ، والغشوم ، والمنع إنما يحصل أن لو كان المقتضي قائماً ، فلولا أن القدرة والداعية كانتا موجودتين ، وإلا لما كان حاصراً لنفسه فضلاً عن أن يكون حصوراً ، لأن الحاجة إلى تكثير الحصر والدفع إنما تحصل عند قوة الرغبة والداعية والقدرة ، وعلى هذا الحصور بمعنى الحاصر فعول بمعنى فاعل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 32.33 ﴾

وقال البغوى ولله دره :

واختار قوم هذا القول لوجهين ﴿ أحدهما ﴾ : لأن الكلام خرج مخرج الثناء ، وهذا أقرب إلى استحقاق الثناء ، و﴿ الثاني ﴾ : أنه أبعد من إلحاق الآفة بالأنبياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البغوى حـ 2 صـ 35 ﴾

وقال الخازن :

وفيه قول آخر : وهو أن الحصور هو الممتنع عن الوطء مع القدرة عليه ، وإنما تركه للعفة

والزهد فيه وهذا القول هو الصحيح وهو قول جماعة من المحققين وهو أليق بمنصب الأنبياء لأن الكلام إنما خرج مخرج المدح والثناء وذكر صفة النقص في معرض المدح لا يجوز ، وأيضاً فإن منصب النبوة يجل من أن يضاف إلى أحد منهم نقص أو آفة ، فحمل الكلام على منع النفس من الوطء مع القدرة عليه أولى من حمله على ترك الوطء مع العجز عنه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 344 ﴾

(220/117)

فائدة

قال ابن عاشور :

وذكر هذه الصفة في أثناء صفات المدح إما أن يكون مدحا له ، لما تستلزمه هذه الصفة من البعد عن الشهوات المحرمة ، بأصل الخلقة ، ولعل ذلك لمراعاة براءته مما يلصقه أهل البهتان ببعض أهل الزهد من التهم ، وقد كان اليهود في عصره في أشد البهتان والاختلاق ، وإما ألا يكون المقصود بذكر هذه الصفة مدحا له لأن من هو أفضل من يحيى من الأنبياء والرسل كانوا مستكملين المقدرة على قربان النساء فتعين أن يكون ذكر هذه الصفة ليحيى إعلاما لزكريا بأن الله وهبه ولدا إجابة لدعوته ، إذ قال : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي ﴾

[مريم : 5 ، 6] وأنه قد أتم مراده تعالى من انقطاع عقب زكريا لحكمة علمها ، وذلك إظهار لكرامة زكريا عند الله تعالى .

ووسطت هذه الصفة بين صفات الكمال تأنيسا لزكريا وتخفيفا من وحشته لانقطاع نسله بعد يحيى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 93 ﴾

فائدة

قال القاضى عياض :

اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى بأنه حصور ليس كما قال بعضهم إنه كان هيوبا أو لا ذكر له بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ونقاد العلماء وقالوا هذه نقيصة وعيب ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام وإنما معناه أنه

معصوم من الذنوب أي لا يأتيها كأنه حصر عنها ، وقيل مانعا نفسه من الشهوات ، وقيل ليست له شهوة في النساء .

فقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص وإنما الفضل في كونها موجودة ثم قمعها إما بمجاهدة كعيسى عليه السلام أو بكفاية من الله تعالى كيحيى عليه السلام .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الشفا حـ 1 صـ 88.89 ﴾

وقال ابن عادل :

الحصور : فعول للمبالغة ، مُحوَّل من حاصر ، كضروب .

وفي قوله : [الطويل]

ضَرُوبٌ بِنَصْلِ السَّيْفِ سُوقَ سِمَانِهَا . . . إِذَا عَدِمُوا زاداً فَإِنَّكَ حَاصِرُ

وقيل : بل هو فَعُول بمعنى : مفعول ، أي : محصور ، ومثله ركوب بمعنى : مركوب ، وحلوب بمعنى : محلوب .

والحصور : الذي يكتم سره .

قال جرير : [الكامل]

وَلَقَدْ تَسَقَّطَنِي الْوُشَاةُ فَصَادَفُوا . . . حَصِراً بِسِرِّكِ يَا أُمَيْمَ ضَنِينَا

وهو البخيل - أيضاً - قال : [البسيط]

. . . . لاَ بِالْحَصُورِ وَلاَ فِيهَا بِسَئَّارِ

وقد تقدم اشتقاق هذه المادة وهو مأخوذ من المنع ؛ وذلك لأن الحصور هو الذي لا يأتي النساء - إما لطبعه على ذلك ، وإما لمغالبته نفسه - قال ابنُ مسعودٍ وابن عبَّاس وسعيد بن جبير وقتادة وعطاء والحسن : الحصور : الذي لا يأتي النساء ولا يقربُهُنَّ ، وهو - على هذا - بمعنى فاعل ، يعني أنه يحصر نفسه عن الشهوات .

قال سعيد بن المُسيِّبِ هو العِنِّين الذي لا ماء له ، فيكون بمعنى " مفعول " كأنه ممنوع من النساء .

واختيار المحققين أنه الذي لا يأتي النساء لا للعجز بل للعفة والزهد – مثل الشروب والظلوم والغشوم – والمنع إنما يحصل إذا كان المقتضي قائماً ، والدفع إنما يحصل عند قوة الداعية والرغبة والغِلْمَة . والكلام إنما خرج مخرج الثناء وأيضاً فإنه أبعد من إلحاق الآفة بالأنبياء – والصفة التي ذكروها صفة نقص ، وذكر صفة النقصان في معرِض المدحِ ، لا يجوز ، ولا يستحق به ثواباً ولا تعظيماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 199 . 200 ﴾

فصل

قال الفخر :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أن ترك النكاح أفضل وذلك لأنه تعالى مدحه بترك النكاح ، وذلك يدل على أن ترك النكاح أفضل في تلك الشريعة ، وإذا ثبت أن الترك في تلك الشريعة أفضل ، وجب أن يكون الأمر كذلك في هذه الشريعة بالنص والمعقول ، أما النص فقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام : 90] وأما المعقول فهو أن الأصل في الثابت بقاؤه على ما كان والنسخ على خلاف الأصل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 33 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَنَبِيّا ﴾

قال الفخر :

(222/117)

اعلم أن السيادة إشارة إلى أمرين أحدهما : قدرته على ضبط مصالح الخلق فيما يرجع إلى تعليم الدين والثاني : ضبط مصالحهم فيما يرجع إلى التأديب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأما الحصور فهو إشارة إلى الزهد التام فلما اجتمعا حصلت النبوة بعد ذلك ، لأنه ليس بعدهما إلا النبوة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 33 ﴾

قوله ﴿ مِّنَ الصالحين ﴾

قال الفخر :

فيه ثلاثة أوجه الأول : معناه أنه من أولاد الصالحين

والثاني : أنه خير كما يقال في الرجل الخير (أنه من الصالحين)

والثالث : أن صلاحه كان أتم من صلاح سائر الأنبياء ، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام : " ما من نبي إلا وقد عصى ، أو هم بمعصية غير يحيى فإنه لم يعص ولم يهم " .

فإن قيل : لما كان منصب النبوة أعلى من منصب الصلاح فلما وصفه بالنبوة فما الفائدة في

وصفه بعد ذلك بالصلاح ؟

قلنا : أليس أن سليمان عليه السلام بعد حصول النبوة قال : ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصالحين ﴾ [النمل : 19] وتحقيق القول فيه : أن للأنبياء قدراً من الصلاح لو انتقص لانتفت النبوة ، فذلك القدر بالنسبة إليهم يجري مجرى حفظ الواجبات بالنسبة إلينا ، ثم بعد اشتراكهم في ذلك القدر تتفاوت درجاتهم في الزيادة على ذلك القدر ، وكل من كان أكثر نصيباً منه كان أعلى قدراً والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 33 ﴾

فائدة جليلة

قال فى روح البيان :

والصلاح صفة تنتظم الخير كله والمراد به هنا ما فوق الصلاح الذى لابد منه فى منصب النبوة ألبتة من أقاصى مراتبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 2 صـ 39 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَنَادَتْهُ المَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى فِى المِحْرَابِ ﴾ .

لما سأل السؤال ، ولازم البال أَتَتْهُ الإجابة .

وفيه إشارة إلى أن من له إلى الملوك حاجة فعليه بملازمة الباب إلى وقت الإجابة .

ويقال حكم الله – سبحانه – أنه إنما يقبل بالإجابة على من هو مُعَانِقٌ لخدمته ، فأمَّا مَنْ أعرض عن الطاعة ألقاه في ذُلِّ الوحشة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

قيل سمّاه يحيى لحياة قلبه بالله ، ولسان التفسير أنه حي به عقر أمه .

ويقال إنه سبب حياة من آمن به بقلبه .

قوله : مصدقاً بكلمة من الله : أن تصديقه بكلمة " الله " فيما تعبده به أو هو مكوّن بكلمة الله .

وقوله ﴿ وَسَيِّدًا ﴾ : السيدُ من ليس في رق مخلوق ، تحرَّر عن أسر هواه وعن كل مخلوق ، ويقال السيد من تحقق بعلويته سبحانه ، ويقال السيد من فاق أهل عصره ، وكذلك كان يحيى عليه السلام .

ويقال سيد لأنه لم يطلب لنفسه مقامًا ، ولا شاهَدَ لنفسه قَدْرًا . ولما أخلص في تواضعه لله بكل وجهٍ رقّاه على الجملة وجعله سيداً للجميع .

وقوله ﴿ وَحَصُورًا ﴾ أي مُعْتَقاً من الشهوات ، مكفياً أحكام البشرية مع كونه من جملة البشر . ويقال متوقياً عن المطالبات ، مانعاً نفسه عن ذلك تعززاً وتقرباً ، وقيل منعته

استئصالات بواده الحقائق عليه فلم يبق فيه فضل لحظ .

﴿ وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي مستحقاً لبلوغ رتبتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 240.241 ﴾

(224/117)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى ﴾

هل كل الملائكة اجتمعوا أو نادوا زكريا ؟ لا ، لأن جبريل عليه السلام الذي ناداه . ولماذا جاء القول الحق هنا بأن الملائكة هي التي نادته ؟ لقد جاء هذا القول الحق لنفطن إلى شيء هو ، أن الصوت في الحدث – كالإنسان – له جهة يأتي منها ، أما الصوت القادم من الملأ الأعلى فلا يعرف الإنسان من أين يأتيه ، إن الإنسان يسمعه وكأنه يأتي من كل الجهات ، وكأن هناك ملكا في كل مكان .

والعصر الحديث الذي نعيشه قد ارتقى في الصوتيات ووصل لدرجة أن الإنسان أصبح قادرا على جعل المؤثر الصوتي يحيط بالإنسان من جهات متعددة ، إذن فقوله الحق : ﴿

فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ ﴾ فهذا يعني أن الصوت قد جاء لزكريا من جميع الجهات .

﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران : 39]

لقد نادته الملائكة في أورع لقاءاته مع ربه, أو هو حينما دعا أخذ ما علمه الله للأنبياء إذا حزبهم أمر قاموا إلى الصلاة . أليس طلبه من الله ؟ إذن فليقف بين يدي الله . وليجربها كل واحد منا عندما يصعب عليك أي شيء ، وتتأزم الأمور ، وتمتنع الأسباب ، فليقم ويتوضأ وضوءا جديدا ويبدأه بالنية حتى ولو كان متوضئًا . وليقف بين يدي الله ، وليقل –إنه أمر يا رب عزّ عليّ في أسبابك ، وليصل بخشوع ، وأنا أجزم بأن الإنسان ما إن يسلم من هذه الصلاة إلاّ ويكون الفرج قد جاء . ألم تتلق عن رسول الله هذا السلوك البديع ؟ إنه كلما حزبه أمر قام إلى الصلاة ؟

(225/117)

ومعنى حزبه أمر ، أي أن أسبابه ضاقت ، لذلك يذهب إلى الصلاة لخالق الأسباب ، إنها ذهاب إلى المسبب . وبدلا من أن تلف وتدور حول نفسك ، اذهب إلى الله من أقصر الطرق وهو الصلاة ، لماذا تتعب نفسك أيها العبد ولك رب حكيم ؟ وقديما قلنا : إن من له

أب لا يحمل هما ، والذي له رب أليس أولى بالإطمئنان ؟

إن زكريا قد دعا الله في الأمر الذي حزبه ، وبمجرد أن دعا في الأمر الذي حزبه ، قام إلى الصلاة ، فنادته الملائكة ، وهو قائم يصلي ، إن الملائكة لم تنتظر إلى أن ينتهي من صلاته ، ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ ﴾ .

والبشارة هي إخبار بخير زمنه لم يأت ، فإذا كانت البشارة بخير زمنه لم يأت فلنر من الذي يخبر بالبشارة ؟ أمن يقدر على إيجاده أم من لا يقدر ؟ فإذا كان الله هو الذي يبشر ، فهو الذي يقدر ، لذلك فالمبشر به قادم لا محالة ، ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى ﴾ لقد قال له الله : سأعطيك . وزيادة على العطاء سماه الله بـ ﴿ يَحْيَى ﴾ وفوق كل ذلك : ﴿ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ .

ولننظر إلى دقة الحق حين يقول : ﴿ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً ﴾ . هذا دليل على أنه سيعيش بمنهج الله وما يعرفه من الطاعات سيسير في هذا الطريق وهو مصدق ، وهو سيأتي بكلمة من الله ، أو هو يأتي ليصدق بكلمة من الله ، لأن سيدنا يحيى هو أول من آمن برسالة عيسى عليه السلام . وهو موصوف بالقول الحق : ﴿ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ . أي ممنوعا عن كل ما حُرم عليه ، أو ممنوعا عن قمة الغرائز وهي الشهوة ، وهو نبيّ ، أي قدوة في اتباع الرسول الذي يجيء في عصره ، لقد دعا زكريا ، وقام ليصلي ، وتلقى البشارة بيحيى ، وهنا ارتجت الأمور على بشرية زكريا ، ويصوره الحق بقوله : ﴿

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1446.1445 ﴾

(226/117)

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (40) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان مطلوبه ولداً يقوم مقامه فيما هو فيه من النبوة التي لا يطيقها إلا الذكور الأقويا الكلمة ، وكانت العادة قاضية بأن ولد الشيخ يكون ضعيفاً لا سيما إن كان حرثه مع الطعن في السن في أصله غير قابل للزرع أحب أن يصرح له بمطلوبه فقال : ﴿ أنّى ﴾ أي كيف ومن أين ﴿ يكون لي ﴾ وعبر بما تدور مادته على الغلبة والقوة زيادة في الكشف فقال : ﴿ غلام ﴾ وفي تعبيره به في سياق الحصور دليل على أنه في غاية ما يكون من صحة الجسم وقوته اللازم منه شدة الداعية إلى النكاح ، وهو مع ذلك يمنع نفسه منه منعاً زائداً على الحد ، لما عنده من غلبة لاشهود اللازم منه الإقبال على العبادة بكليته والإعراض عن كل ما

يشغل عنها جملة لا سيما النكاح، بحيث يظن أنه لا إرب له فيه، وهذا الموافق للتعبير الأول للحصور في القاموس، وهو الذي ينبغي ألا يعرج على غيره لأنه بناء مبالغة من متعد ، ولأنه أمدح له صلى الله عليه وسلم، ومهما دار الشيء على صفة الكمال في الأنبياء عليهم السلام وجب أن لا يعدل عنه، وما ورد - كما يأتي إن شاء الله تعالى في سورة مريم عليها السلام - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " ذكره مثل هذه القذاة " (1) فقد ضعفوه، وعلى تقدير صحته فيكون ذلك إخباراً عن أنه لما أعرض عنه رأساً ضعف ما معه لذلك ، فهو إخبار عن آخر أمره الذي أدت إليه عزيمته، والآية مشيرة إلى ما اقتضته خلقته وغريزته وإن كان الجمع لكمال الوجود الإنساني بالنكاح أكمل كما وقع لنبينا صلى الله عليه وسلم ويقع لعيسى عليه السلام بعد نزوله ﴿ وقد ﴾ أي والحال أنه قد ﴿ بلغني الكبر ﴾ إلى حد لا يولد فيه عادة ﴿ وامرأتى عاقر ﴾ قال الحرالي: من العقر وهو البلوغ إلى حد انقطاع النسل هرماً - انتهى؛ كذا قال، وآية سورة مريم تدل على أن المعنى أنها لم تزل عقيماً، وعليه يدل كلام أهل اللغة، قال في القاموس في الراء: العقرة وتضم: العقم، وقد عُقرت كعُنى فهي عاقر، ورجل عاقر وعقير:

---

(1) باطل لا أصل له. يأتى فى سورة مريم إن شاء الله تعالى.

لا يولد له ولد ، والعُقَرة كهمزة : خرزة تحملها المرأة لئلا تلد ، وقال في الميم : العقم بالضم : هزمة تقع في الرحم فلا تقبل الولد ، عقمت كفرح ونصر وكرم وعُنى ، ورحم عقيم وامرأة عقيم ورجل عقيم : لا يولد له ، وقال الإمامان أبو عبد الله القزاز في ديوانه وعبد الحق في واعيه : والعقر بضم العين وسكون القاف مصدر العاقر من النساء وهي التي لا تحمل من غير داء ولا كبر ، يقال : الإمام أبو غالب " ابن التياني " في كتابه الموعب صاحب [تلقيح] العين : العقر مصدر العاقر من النساء وهي التي لا تحمل من غير داء ولا كبر ، لكن خلقة ، ثم قال وتعقرت : إذا ولدت ثم أمسكت - والله الموفق .

ثم وصل به قوله : ﴿ قال كذلك ﴾ أي مثل هذا الفعل الجليل البعيد الرتبة .

ولما كان استنباؤه عن القوة والكمال لا عن الخلق عبر سبحانه في تعليل ذلك بالفعل بخلاف ما يأتي في قصة مريم عليها السلام فقال : ﴿ الله يفعل ما يشاء ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 77 . 78 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

قيل : الرب هنا جبريل ، أي قال لجبريل : ربَّ أي يا سيدي أَنَّي يكون لي غلام ؟ يعني ولدا ؛ وهذا قول الكلبي . (1)

وقال بعضهم: قوله "رب" يعني الله تعالى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 79 ﴾

أسئلة وأجوبة للإمام فخر الدين الرازى:

السؤال الأول: قوله ﴿ رَبِّ ﴾ خطاب مع الله أو مع الملائكة، لأنه جائز أن يكون خطاباً مع الله، لأن الآية المتقدمة دلت على أن الذين نادوه هم الملائكة، وهذا الكلام لا بد أن يكون خطاباً مع ذلك المنادي لا مع غيره، ولا جائز أن يكون خطاباً مع الملك، لأنه لا يجوز للإنسان أن يقول للملك: يا رب.

والجواب: للمفسرين فيه قولان

---

(1) هذا قول ظاهر الفساد والبطلان وفيه عدول عن الظاهر ولا حاجة إليه. والله أعلم.

(228/117)

الأول: أن الملائكة لما نادوه بذلك وبشروه به تعجب زكريا عليه السلام ورجع في إزالة ذلك التعجب إلى الله تعالى والثاني: أنه خطاب مع الملائكة والرب إشارة إلى المربي، ويجوز وصف المخلوق به، فإنه يقال: فلان يربيني ويحسن إلي.

السؤال الثاني : لما كان زكريا عليه السلام هو الذي سأل الولد ، ثم أجابه الله تعالى إليه فلم تعجب منه ولم استبعده ؟

الجواب : لم يكن هذا الكلام لأجل أنه كان شاكاً في قدرة الله تعالى على ذلك والدليل عليه وجهان

الأول : أن كل أحد يعلم أن خلق الولد من النطفة إنما كان على سبيل العادة لأنه لو كان لا نطفة إلا من خلق ، ولا خلق إلا من نطفة ، لزم التسلسل ولزم حدوث الحوادث في الأزل وهو محال ، فعلمنا أنه لا بد من الانتهاء إلى مخلوق خلقه الله تعالى لا من نطفة أو من نطفة خلقها الله تعالى لا من إنسان .

والوجه الثاني : أن زكريا عليه السلام طلب ذلك من الله تعالى ، فلو كان ذلك محالاً ممتنعاً لما طلبه من الله تعالى ، فثبت بهذين الوجهين أن قوله ﴿ أنى يَكُونُ لِي غلام ﴾ ليس للاستبعاد ، بل ذكر العلماء فيه وجوهاً

الأول : أنه قوله ﴿ أَنَّى ﴾ معناه : من أين .

ويحتمل أن يكون معناه : كيف تعطي ولداً على القسم الأول أم على القسم الثاني ، وذلك لأن حدوث الولد يحتمل وجهين

أحدهما : أن يعيد الله شبابه ثم يعطيه الولد مع شيخوخته ، فقوله ﴿ أنى يَكُونُ لِي

غلام ﴾ معناه : كيف تعطي الولد على القسم الأول أم على القسم الثاني ؟ فقيل له كذلك ، أي على هذا الحال والله يفعل ما يشاء ، وهذا القول ذكره الحسن والأصم

(229/117)

والثاني : أن من كان آيساً من الشيء مستبعداً لحصوله ووقوعه إذا اتفق أن حصل له ذلك المقصود فربما صار كالمدهوش من شدة الفرح فيقول : كيف حصل هذا ، ومن أين وقع هذا كمن يرى إنساناً وهبه أموالاً عظيمة ، يقول كيف وهبت هذه الأموال ، ومن أين سمحت نفسك بهبتها ؟ فكذا ههنا لما كان زكريا عليه السلام مستبعداً لذلك ، ثم اتفق إجابة الله تعالى إليه ، صار من عظم فرحه وسروره قال ذلك الكلام

الثالث : أن الملائكة لما بشّروه بيحيى لم يعلم أنه يرزق الولد من جهة أنثى أو من صلبه ، فذكر هذا الكلام لذلك الاحتمال

الرابع : أن العبد إذا كان في غاية الاشتياق إلى شيء فطلبه من السيد ، ثم إن السيد يعده بأنه سيعطيه بعد ذلك ، فالتذ السائل بسماع ذلك الكلام ، فربما أعاد السؤال ليعيد ذلك الجواب فحينئذ يلتذ بسماع تلك الإجابة مرة أخرى ، فالسبب في إعادة زكريا هذا الكلام يحتمل أن يكون من هذا الباب

الخامس : نقل سفيان بن عيينة أنه قال : كان دعاؤه قبل البشارة بستين سنة حتى كان قد نسي ذلك السؤال وقت البشارة فلما سمع البشارة زمان الشيخوخة لا جرم استبعد ذلك على مجرى العادة لا شكا في قدرة الله تعالى

(230/117)

فقال ما قال (1)

السادس : نقل عن السدي أن زكريا عليه السلام جاءه الشيطان عند سماع البشارة فقال إن هذا الصوت من الشيطان ، وقد سخر منك فاشتبه الأمر على زكريا عليه السلام فقال : ﴿ رَبِّ أنى يَكُونُ لِي غلام ﴾ وكان مقصوده من هذا الكلام أن يريه الله تعالى آية تدل على أن ذلك الكلام من الوحي والملائكة لا من إلقاء الشيطان قال القاضي : لا يجوز أن يشتبه كلام الملائكة بكلام الشيطان عند الوحي على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذ لو جوزنا ذلك لارتفع الوثوق عن كل الشرائع ويمكن أن يقال : لما قامت المعجزات على صدق الوحي في كل ما يتعلق بالدين لا جرم حصل الوثوق هناك بأن الوحي من الله تعالى بواسطة الملائكة ولا مدخل للشيطان فيه ، أما ما يتعلق بمصالح الدنيا وبالولد فربما لم يتأكد ذلك المعجز فلا جرم بقي احتمال كون ذلك من الشيطان فلا جرم رجع إلى الله تعالى في أن يزيل عن خاطره

ذلك الاحتمال . (2) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 34. 35 ﴾

---

(1) لا يخفى ما فى هذا الوجه من البعد وبعض هذه الأوجه يحتاج إلى سند . والله أعلم .

(2) هذا الوجه فيه نظر والأولى عدم التعويل عليه لافتقاره إلى السند الصحيح .

وقد علق الآلوسى على هذا الاعتراض وجوابه بقوله :

وأنت تعلم أن الاعتراض ذكر والجواب أنثى .

ولعل هذا المبحث يأتيك إن شاء الله تعالى مستوفى عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشيطان فِى أُمْنِيَّتِهِ ﴾ [الحج : 52] الآية . وبالجملة القول باشتباه الأمر على زكريا عليه السلام في غاية البعد لا سيما وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة أنه قال : إن الملائكة شافهته عليه السلام بذلك مشافهة فبشرته بيحيى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 131 ﴾ . والله أعلم .

(231/117)

وقال الماوردى :

فإن قيل : فَلِمَ راجع بهذا القول بعد أن بُشِّرَ بالولد ، ففيه جوابان :

أحدهما : أنه راجع ليعلم على أي حال يكون منه الولد ، بأن يُرّدّ هو وامرأته إلى حال الشباب ، أم على حال الكبر ، فقيل له : كذلك الله يفعل ما يشاء ، أي على هذه الحال ، وهذا قول الحسن .

والثاني : أنه قال ذلك استعظاماً لمقدور الله وتعجباً . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 391 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِي الكبر ﴾

قال الفخر :

قال أهل المعاني : كل شيء صادفته وبلغته فقد صادفك وبلغك ، وكلما جاز أن يقول : بلغت الكبر جاز أن يقول بلغني الكبر يدل عليه قول العرب : لقيت الحائط ، وتلقاني الحائط .

فإن قيل : يجوز بلغني البلد في موضع بلغت البلد ، قلنا : هذا لا يجوز ، والفرق بين الموضعين أن الكبر كالشيء الطالب للإنسان فهو يأتيه بحدوثه فيه ، والإنسان أيضاً يأتيه بمرور السنين عليه ، أما البلد فليس كالطالب للإنسان الذاهب ، فظهر الفرق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 35 ﴾

فائدة

قال ابن الجوزى :

وفي سنة يومئذ ستة أقوال .

أحدها : أنه كان ابن مائة وعشرين سنة ، امرأته بنت ثمان وتسعين سنة ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه كان ابن بضع وسبعين سنة ، قاله قتادة .

والثالث : ابن خمس وسبعين ، قاله مقاتل .

والرابع : ابن سبعين .

حكاه فضيل بن غزوان .

والخامس : ابن خمس وستين .

والسادس : ابن ستين ، حكاهما الزجاج. (2) انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 385 ﴾

قوله تعالى ﴿ وامرأتى عَاقِرٌ ﴾

قال الفخر :

اعلم أن العاقر من النساء التي لا تلد ، يقال : عقر يعقر عقراً ، ويقال أيضاً عقر الرجل ، وعقر بالحركات الثلاثة في القاف إذا لم يحمل له ، ورمل عاقر : لا ينبت شيئاً ، واعلم أن زكريا عليه السلام ذكر كبر نفسه مع كون زوجته عاقراً لتأكيد حال الاستبعاد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 35 ﴾

---

(1) هذا قول فى غاية الحسن . والله أعلم .

(2) هذه الأقوال تفتقر إلى سند صحيح .

(232/117)

وقال ابن عادل :

قوله : ﴿ وامرأتي عَاقِرٌ ﴾ جملة حالية ، إما من الياء في "لِي" فيتعدد الحال - عند مَنْ يراه - وإما من الياء في "بَلَغَنِي" ، والعاقر : مَنْ لا يولد له رجلاً كان أو امرأة ، مشتقاً من العَقْر ، وهو القتل ، كأنهم تخيلوا فيه قتل أولاده ، والفعل - بهذا المعنى - لازم ، وأما عَقَرْتُ - بمعنى "نَحَرْت" فمُتَعَدٍّ .

قال تعالى : ﴿ فعَقَرُوا الناقة ﴾ [الأعراف : 77] .

وقال الشاعر : [الطويل]

. . . . عَقَرْتَ بَعِيرِي يَا امْرَأَ الْقَيْسِ فَانْزِلِ

وقيل : عاقر - على النسب - أي : ذات عقر ، وهي بمعنى مفعول ، أي : معقورة ، ولذلك لم تلحق تاء التأنيث ، والعَقْر بفتح العين وضمها - أصل الشيء ، ومنه عقر الدار ، وعقر الحوض ، وفي الحديث : "ما غزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إلاَّ ذلُّوا " وعقرته ، أي : أصبت

عقره ، أي : أصله – نحو رأسته ، أي أصبت رأسه ، والعقر – أيضاً – آخر الولد ، وكذلك بيضة العَقر ، والعقار : الخمر لأنها تعقر العقل – مجازاً – وفي كلامهم رفع فلان عقيرته ، أي : صوته ، وذلك أن رَجلاً عُقِرَ رجله فرفع صوته ، فاستُعِير ذلك لكلّ من رفع صوته . وقال : وأنشد الفراء : [الرجز]

أرْزَامُ بَابٍ عَقُرَتْ أعْوامَا . . . فَعَلَّقَتْ بُنَيَّهَا تَسْمَامَا

وقال بعضهم : يقال : عَقُرت المرأةُ تعقر عَقْراً وعَقَاراً ويقال : عَقُر الرجل وعَقَر وعَقِرَ إذا لم تَحْبَل زوجته ، فجعل الفعل المسند إلى الرجل أوسع من المسند إلى المرأة .

(233/117)

قال الزّجّاج : عاقر بمعنى ذات عُقر قال : لأن فَعُلت أسماء الفاعلين منه على فعيل نحو ظريفة ، وكريمة ، وإنما عاقر على ذات عُقْر ، قلت : وهذا نص في أن الفعل المسند للمرأة لا يقال فيه إلا عَقُرَتْ – بضم القاف ؛ إذ لَوْ جاز فَتْحها ، أو كسرها لجاء منهما فَاعِل – من غير تأويل على النسب ، ومن ورود عاقر وصفاً للرجل قول عامر بن الطفيل : [الطويل]

لَبِئْسَ الْفَتَى إنْ كُنْتُ أعْوَرَ عَاقِراً . . . جَبَاناً فَمَا عُذْرِي لَدَى كُلِّ مَحْضَرِ

قال القرطبيُّ : " والعاقر : العظيم من الرمل ، لا يُنْبِت شيئًا ، والعُقْر – أيضاً – مهر المرأة إذا

وطئت بِشُبْهَةٍ وبَيْضَةُ العُقْر : زعموا أنها بيضة الديك ، لأنه يبيض في عمره بيضةً واحدةً إلى الطول ، وعقر النار – أيضاً – وسطها ومعظمها وعقر الحوض : مُؤخِره – حيث تقف الإبل إذا وردت " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 207.206 ﴾

قوله ﴿ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾

قال الفخر :

قال صاحب "الكشاف" ﴿ كذلك الله ﴾ مبتدأ وخبر أي على نحو هذه الصفة الله ، ويفعل ما يشاء بيان له ، أي يفعل ما يريد من الأفاعيل الخارقة للعادة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 35 ﴾

وقال ابن عادل :

قوله : ﴿ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ في الكاف وجهان :

أحدهما : أنها في محل نصب ، وفيه التخريجان المشهوران :

الأول – وعليه أكثر المعربين – : أنها نعت لمصدر محذوف ، وتقديره يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة ، مثل ذاك الفعل ، وهو خلق الولد بين شيخ فَانٍ وعجوز عاقرٍ .

والثاني أنها في محل نصب على الحال من ضمير ذلك المصدرِ ، أي : يفعل الفعل حال كونه مثل ذلك وهو مذهب سيبويه ، وقد تقدم إيضاحه .

الثاني – من وجهي الكاف – : أنها في محل رفع خبر مقدَّم ، ولفظ الجلالة مبتدأ مؤخر ، فقدره الزمخشري على نحو هذه الصفة لله ، ويفعل ما يشاء بيان له ، وقدره ابن عطية : " كهذه القدرة المستغربة هي قدرة الله " .

وقدّره أبو حيّان ، فقال : " وذلك على حذف مضاف ، أي : صنع الله الغريب مثل ذلك الصنع ، فيكون ﴿ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ شرحاً للإبهام الذي في اسم الإشارة " .

فالكلام – على الأول – جملة واحدة ، وعلى الثاني جملتان .

وقال ابن عطية : " ويحتمل أن تكون الإشارة بذلك إلى حال زكريا وحال امرأته ، كأنه قال : رَبِّ على أيّ وجه يكون لنا غلام ونحن بحال كذا ؟ فقال لهما : كما أنتما يكون لكما الغلام ، والكلام تام ، على هذا التأويل – في قوله " كذلك " ، وقوله : ﴿ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ جملة مبيِّنة مقررة في النفس وقوع هذا الأمر المستغرب " .

وعلى هذا الذي ذكره يكون "كَذَلِكَ" متعلقاً بمحذوف ، و"اللهُ يَفْعَلُ" جملة منعقدة مع مبتدأ وخبر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 207 . 208 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

قدم في هذه السورة حال نفسه ، وأخَّر حال امرأته ، وفي سورة مريم عكس .

فقيل : لأن ضَرْبَ الآيات – في مريم – مطابق لهذا التركيب ؛ لأنه قدّم وَهْنَ عَظْمِه ، واشتعالَ شيْبه ، وخوفه مواليه ممن ورائه ، وقال : " وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً " فلما أعاد ذِكْرَهما في استفهامه أخر ذِكْر الكِبَر ، ليوافق رؤوس الآي – وهي باب مقصود في الفصاحة – والعطف بالواو لا يقتضي ترتيباً زمانيًّا فلذلك لم يبال بتقديم ولا تأخير . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 202 . 203 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

الغلام : الفَتِيُّ السِّنِّ من الناس – وهو الذي بَقَلَ شَارِبُه – وإطلاقه على الطفل وعلى الكهل مجاز ؛ أما الطفل فللتفاؤل بما يؤول إليه ، وأما الكهل ، فباعتبار ما كان عليه .

قالت ليلى الأخيليّة : [الطويل]

شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ الْعُضَالِ الَّذِي بِهَا . . . غُلاَمٌ إذا هَزَّ القَنَاةَ سَقَاهَا

وقال بعضهم : ما دام الولد في بطن أمّه سُمِّي جَنِيناً ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ [النجم : 32] سمي بذلك لاجتنانه في الرحم ، فإذا وُلِدَ سُمِّي صَبِيًّا ،

فإذا فُطِمَ سمي غُلاماً إلى سبع سنين ، ثم يُسَمَّى يافعاً إلى أن يبلغ عشر سنين ، ثم يُطْلَق عليه حَزَوَّر إلى خمس عشرة سنة ، ثم يصير قمراً إلى خمس وعشرين سنةً ، ثم عنطْنَطاً إلى ثلاثين .

قال الشاعر : [الطويل]

وَبِالْمَحْضِ حَتَّى صَارَ جَعْداً عَنَطْنَطاً . . . إذَا قَامَ سَاوَى غَارِبَ الْفَحْلِ غَارِبُهْ

ثم حَلْحَلاً إلى أربعين ، ثم كَهْلاً إلى خمسين - وقيل : إلى ستين - ثم شيخاً إلى ثمانين ، وسيأتي له مزيد بيان إن شاء الله تعالى عند قوله : ﴿ فِي المهد وكَهْلاً ﴾ [آل عمران : 46] ثم هو راغم بعد ذلك .

واشتقاق " الغلام " من الغِلْمَة والاغتلام ، وهو طلب النكاح ، لما كان مسبباً عنه أخذ منه لفظه .

ويقال : اغتلم الفَحْلُ : أي : اشتدت شهوتُه إلى طلب النكاح ، واغتلم البحر ، أي : هاج وتلاطمت أمواجه ، مستعار منه .

وجمعه - في القلة - أغْلِمَةٌ ، وفي الكثرة : غِلْمان ، وقد جمع - شذوذاً - على غِلْمَة ، وهل هذه الصيغة جمع تكسير أو اسم جمع ؟

قال الفراء : " يقال : غلام بيِّن الغلومة والغلومِيَّة والغُلامية ، قال : والعرب تجعل مصدر كل اسم ليس له فعل معروف على هذا المثال فيقولون : عبد بَيِّنُ العبودية والعُبَادِيَّة - يعني لم

تتكلم العرب من هذا بفعل– " .

قال القرطبي : والغَيْلم : ذكر السلحفاة ، والغَيْلم : موضع .

وهي مصدر كَبِر يَكْبَر كِبَراً أي : طعن في السّنّ ، قال : [الطويل]

صَغِيرَيْنِ نَرْعَى الْبَهْمَ يَا لَيْتَ أَنَّنَا . . . إلَى الْيَوْمِ لَمْ نَكْبَرْ وَلَمْ تَكْبَرِ البَهْمُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 203. 204 ﴾

(236/117)

فائدة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى فى قصة زكريا عليه السلام : "أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر" وفى سورة مريم : "أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا" للسائل أن يسأل عن اختلاف السياق فى الآيتين مع اتحاد معناهما .

والجواب عن ذلك والله أعلم : أن المعنى وإن كان فى السورتين واحدا وفى قضية واحدة فإن مقاطع آى وسورة مريم وفواصلها استدعت ما يجرى على حكمها ويناسبها من لدن قوله تعالى فى افتتاح السورة : "ذكر رحمة ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفيا" إلى قوله

فى قصة عيسى عليه السلام : "والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا" ، لم تخرج فاصلة منها عن هذا المقطع ولا عدل بها إلى غيره ثم عادت إلى ذلك من لدن قوله تعالى : "واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا" إلى آخر السورة فاقتضت مناسبة آى هذه السورة وورود قصة زكريا عليه السلام على ما تقدم ولم يكن غير ذلك ليناسب أما آية آل عمران فلم يتقيد ما قبلها من الآى وما بعدها بمقطع مخصوص فجرت هى على مثل ذلك والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 82.81 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قيل كان بين سؤاله وبين الإجابة مدة طويلة ولذلك قال : أَنَّى يكون لي غلام ؟

ويحتمل أنه قال : بأي استحقاقٍ مني تكون له هذه الإجابة لولا فضلك ؟

ويحتمل أنه قال أَنَّى يكون هذا : أَعَلَى وَجهِ التبني أم على وجه التناسل ؟

ويحتمل أنه يكون من امرأة أخرى سوى هذه التي طعنت في السن أو من جهة التَّسرِّي بمملوكة ؟ أمْ مِنْ هذه ؟

فقيل له : لا بَل مِنْ هذه ؛ فإنكما قاسيتما وحشة الانفراد معاً ، فكذلك تكون بشارة الولد لكما جميعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 241 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾

إن زكريا – وهو الطالب – يصيبه التعجب من الاستجابة فيتساءل . كيف يكون ذلك ؟

والحق يورد ذلك ليعلمنا أن النفس البشرية دائما تكون في دائرات التلوين ، وليست في دائرات التمكين ، وذلك ليعطي الله لخلقه الذين لا يهتدون إلى الصراط المستقيم الأسوة في أنه إذا ما حدث له ابتلاء فعليه الرجوع إلى الله ، فيقول زكريا : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ .

إن بلوغ الكبر ليس دليلا على أنه عاجز عن الإنجاب لأنه يكون كبير العمر ، وقادرا على إخصاب امرأة ، ذلك أن الإخصاب بالنسبة لبعض الرجال ليس أمرا عسيرا مهما بلغ من العمر إن لم يكن عاقرا ، ولكن المرأة هي العنصر المهم ، فإن كانت عاقرا ، فذلك قمة العجز في الأسباب . ولو أن زكريا قال فقط : ﴿ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ لكان أمرا غير مستحب بالنسبة لزوجته ، ولكان معنى ذلك أنه نسب لنفسه الصلاحية وهي غير القادرة .

إنه أدب النبوة وهو أدب عال ؛ لذلك أوردها من أولها : ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي

عَاقِرٌ ﴾ ولنر دقة القول في : ﴿ بَلَغَنِي الْكِبَرُ ﴾ 'إنه لم يقل : "بلغت الكبر" بل يقول : إن الكبر هو الذي جاءني ولم أجيء أنا إلى الكبر ؛ لأن بلوغ الشيء يعني أن هناك إحساسا ورغبة في أن تذهب إليه ، وذكر زكريا ﴿ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ هو تضخيم لطلاقة القدرة عند من يستمع للقصة ، لقد أورد كل الخوالج البشرية ، وبعد ذلك يأتي القول الفصل : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ إنها طلاقة القدرة التي فوق الأسباب لأنها خالقة الأسباب . ويقول زكريا : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً . . . ﴾

. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1447.1446 ﴾

(238/117)

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (41) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

﴿ الله يفعل ما يشاء ﴾ لأنه المحيط بكل شيء قدرة وعلماً فكأنه قيل : قد قرت عينه فما قال ؟ قيل ﴿ قال ﴾ إرادة تعجيل البشرى وتحقيق السراء : ﴿ رب اجعل لي آية ﴾ أي

علامة أعلم بها ذلك ﴿ قال آيتك ألا تكلم الناس ﴾ أي لا تقدر على أن تكلمهم بكلام دنيوي ﴿ ثلاثة أيام ﴾ .

ولما كان الكلام يطلق على الفعل مجازاً استثنى منه قوله : ﴿ إلا رمزاً ﴾ لتخلص هذه المدة للذكر شكراً على النعمة فاحمد ربك على ذلك .

قال الحرالي : والرمز تلطف في الإفهام بإشارة تحرك طرف كاليد واللحظ والشفتين ونحوها ، والغمز أشد منه باليد ونحوها - انتهى .

(239/117)

فعدم الكلام مع صحة آلته دليل إيجاد المتكلم مع ضعف آلته إلى حد لا يتكون عنها عادة ، ولما كان الأتم في القدرة أن يحبس عن كلام دون آخر قال : ﴿ واذكر ربك ﴾ أي بالحمد وهو أن تثبت له الإحاطة بكل كمال ﴿ كثيراً ﴾ في الأيام التي منعت فيها من كلام الناس خصوصاً ، وفي سائر أوقاتك عموماً ﴿ وسبح ﴾ أي أوقع التسبيح لمطلق الخليل ربك بأن تنفي عنه كل نقص ﴿ بالعشي ﴾ وقال الحرالي : من العشو وأصل معناه : إيقاد نار على علم لمقصد هدى أو قرى ومأوى على حال وهن ، فسمي به عشي النهار لأنه وقت فعل ذلك ، ويتأكد معناه في العشاء ، ومنه سمي الطعام : العشاء ﴿ والإبكار ﴾ وأصله

المبادرة لأول الشيء ، ومنه التبكير وهو السرعة ، والباكورة وهو أول ما يبدو من الثمر ، فالإبكار اقتطاف زهرة النهار وهو أوله – انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 78 ـ 79 ﴾.

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ اجعل لي آيَةً ﴾ يجوز أن يكون الجعل بمعنى التصيير ، فيتعدى لاثنين : أولهما " آية " ، الثاني : الجار قبله ، والتقديم – هنا – واجب ؛ لأنه لا مسوغ للابتداء بهذه النكرة – وهي آية – أي : لو انحلت إلى مبتدأ وخبر إلا تقدم هذا الجار ، وحكمها بعد دخول الناسخ حكمها قبله ، والتقدير : صير آية من الآيات لي ، ويجوز أن يكون بمعنى الخلق والإيجاد – أي : أوجد لي آية – فيتعدى لواحد ، وفي "لِي " – على هذا – وجهان :

أحدهما : أن يتعلق بالجَعْل .

والثاني : أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من " آيَةً " ؛ لأنه لو تأخَّر لجاز أن يقع صفة لها .

ويجوز أن يكون للبيان .

وحرك الياء – بالفتح – نافع وأبو عمرو ، وسكنها الباقون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 208 ﴾

فائدة

قال البيضاوى :

﴿ قَالَ رَبِّ اجعل لِّي ءايَةً ﴾ علامة أعرف بها الحبل لاستقبله بالبشاشة والشكر وتزيح مشقة الانتظار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 37 ﴾

(240/117)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ رَبِّ اجعل لِّى ءايَةً ﴾ أي علامة تدلني على العلوق وإنما سألها استعجالاً للسرور قاله الحسن ، وقيل ليتلقى تلك النعمة بالشكر حين حصولها ولا يؤخر حتى تظهر ظهوراً معتاداً ، ولعل هذا هو الأنسب بحال أمثاله عليه السلام ، وقول السدي : إنه سأل الآية ليتحقق أن تلك البشارة منه تعالى لا من الشيطان ليس بشيء كما أشرنا إليه آنفاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 150 ﴾

وقال ابن عاشور :

وعن السدي والربيع : آية تحقق كون الخطاب الوارد عليه وإرادا من قبل الله تعالى ، وهو ما في إنجيل لوقا . وعندي في هذا نظر ، لأن الأنبياء لا يلتبس عليهم الخطاب الوارد عليهم من الله ويعلمونه بعلم ضروري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 94 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن زكريا عليه السلام لفرط سروره بما بشّر به وثقته بكرم ربه ، وإنعامه عليه أحب أن يجعل له علامة تدل على حصول العلوق ، وذلك لأن العلوق لا يظهر في أول الأمر فقال : ﴿ رَبِّ اجعل لِّى ءَايَةً ﴾ فقال الله تعالى : ﴿ ءَايَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ الناس ثلاثة أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 36.35 ﴾

فصل

قال الفخر :

ذكروا في تفسير هذه الآية وجوهاً

أحدها : أنه تعالى حبس لسانه ثلاثة أيام فلم يقدر أن يكلم الناس إلا رمزاً ، وفيه فائدتان

إحداهما : أن يكون ذلك آية على علوق الولد

والثانية : أنه تعالى حبس لسانه عن أمور الدنيا ، وأقدره على الذكر والتسبيح والتهليل ، ليكون في تلك المدة مشتغلاً بذكر الله تعالى ، وبالطاعة والشكر على تلك النعمة الجسيمة وعلى هذا التقدير يصير الشيء الواحد علامة على المقصود ، وأداء لشكر تلك النعمة ، فيكون جامعاً لكل المقاصد .

ثم اعلم أن تلك الواقعة كانت مشتملة على المعجز من وجوه

أحدها : أن قدرته على التكلم بالتسبيح والذكر ، وعجزه عن التكلم بأمور الدنيا من

أعظم المعجزات

وثانيها : أن حصول ذلك المعجز في تلك الأيام المقدورة مع سلامة البنية واعتدال المزاج من جملة المعجزات

وثالثها : أن إخباره بأنه متى حصلت هذه الحالة فقد حصل الولد ، ثم إن الأمر خرج على وفق هذا الخبر يكون أيضاً من المعجزات .

(241/117)

القول الثاني في تفسير هذه الآية : وهو قول أبي مسلم : أن المعنى أن زكريا عليه السلام لما طلب من الله تعالى آية تدله على حصول العلوق ، قال آيتك أن لا تكلم ، أي تصير مأموراً بأن لا تتكلم ثلاثة أيام بلياليها مع الخلق ، أي تكون مشتغلاً بالذكر والتسبيح والتهليل معرضاً عن الخلق والدنيا شاكراً لله تعالى على إعطاء مثل هذه الموهبة ، فإن كانت لك حاجة دل عليها بالرمز فإذا أمرت بهذه الطاعة فاعلم أنه قد حصل المطلوب ، وهذا القول عندي حسن معقول ، وأبو مسلم حسن الكلام في التفسير كثير الغوص على الدقائق واللطائف .

القول الثالث : روي عن قتادة أنه عليه الصلاة والسلام عوقب بذلك من حيث سأل الآية

بعد بشارة الملائكة فأخذ لسانه وصير بحيث لا يقدر على الكلام . (1) انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 36 ﴾

وقال السمرقندى وقد أجاد :

وقال بعضهم : لم يكن عقوبة ، ولكن كانت كرامة له ، حين جعلت له علامة لظهور الحبل ، ومعجزة له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 237 ﴾

وقال القرطبى :

المعنى : تمّم النعمة بأن تجعل لي آية ، وتكون تلك الآية زيادة نعمة وكرامة ؛ فقيل له : ﴿ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ الناس ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ﴾ أي تمنع من الكلام ثلاث ليال ؛ دليل هذا القول قوله تعالى بعد بشرى الملائكة له : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ [مريم : 9] أي أوجدتك بقدرتي فكذلك أوجد لك الولد .

واختار هذا القول النحاس وقال : قول قتادة إن زكريا عوقب بترك الكلام قول مرغوب عنه ؛ لأن الله عز وجل لم يخبرنا أنه أذنب ولا أنه نهاه عن هذا ؛ والقول فيه أن المعنى اجعل لي علامة تدل على كون الولد ، إذ كان ذلك مغيباً عني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 81 ﴾

---

(1) لا يخفى ما فى هذا القول من الفساد والبطلان وسيأتى الرد على هذا الوجه . والله أعلم .

قال السمرقندى :

روى أسباط عن السدي أنه قال : لما بُشِّر بيحيى قال له الشيطان : إن النداء الذي سمعت بالبشارة من الشيطان ، ولو كان من الله ، لأوحى إليك ، كما أوحى إلى سائر الأنبياء .

فقال عند ذلك : اجْعَل لي آية ، حتى أعلم أن هذه البشارة منك . (1) انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 237 ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلاَّ تُكَلِّمَ النّاس ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ﴾

قال ابن عادل :

وقوله : ﴿ أَلاَّ تُكَلِّمَ ﴾ "أن" وما في حَيِّزها في محل رفع ؛ خبراً لقوله : ﴿ آيَتُكَ ﴾ أي آيتك عدم كلامك الناس . والجمهور على نصب "تُكَلِّمَ" بأن المصدرية .

وقرأ ابن أبي عبلة برفعه ، وفيه وجهان :

أحدهما : أن تكون "أن" مخففة من الثقيلة ، واسمها - حينئذ - ضمير الشأن محذوف والجملة المنفيَّة بعدها في محل رفع ، خبراً لِ "أن" ومثله : ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ ﴾ [طه : 89] وقوله : ﴿ وحسبوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ [المائدة : 71] ووقع الفاصل بين "أن"

والفعل الواقع خبرها حرف نفي ، ولكن يُضعف كونَها مخففةً عدمُ وقوعها بعد فعل يقين .

والثاني : أن تكون "أن" الناصبة حُمِلَتْ على "ما" أختها ، ومثله : ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرضاعة ﴾ [البقرة : 233] و"أن" وما في حيزها - أيضاً - في محل رفع ، خبراً لـ "آيتك" .

قوله : ﴿ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ﴾ الصحيح أن هذا النحو - وهو ما كان من الأزمنة يستغرق جميع الحدث الواقع فيه - منصوب على الظرف ، خلافاً للكوفيين ، فإنهم ينصبونه نصب المفعول به .

---

(1) لا يخفى ما في هذه الرواية من الضعف والوهن لمكانة العصمة من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقيل : وثم معطوف محذوف تقديره ثلاثة أيام ولياليها ، فحذف ، كقوله تعالى : ﴿ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 81] ونظائره ؛ يدل على ذلك قوله - في سورة مريم - ﴿ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيّاً ﴾ [مريم : 10] وقد يقال : إنه يؤخذ المجموع من الآيتين ، فلا حاجة إلى ادعاء حذف ؛ فإنه على هذا التقدير الذي ذكرتموه - يحتاج إلى تقدير معطوف في الآية الأخرى

ثلاث ليال وأيامها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 209 ﴾

فائدة

قال السمرقندى :

قال : ﴿ أَلاَّ تُكَلّمَ الناس ثلاثة أَيَّامٍ إِلاَّ ﴾ .

وقال في آية أخرى : ﴿ قَالَ رَبّ اجعل لِى ءايَةً قَالَ ءايَتُكَ أَلاَّ تُكَلّمَ الناس ثلاث لَيَالٍ سَوِيّاً ﴾ [مريم : 10] ، يعني أنك مستوي الخَلْق ، ولا علة بك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 237 ﴾

(244/117)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ ءايَتُكَ أَلاَّ تُكَلّمَ الناس ﴾ أي أن لا تقدر على تكليمهم من غير آفة وهو الأنسب بكونه آية والأوفق لما في سورة مريم ، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن جبير بن معتمر قال : ربا لسانه في فيه حتى ملأه فمنعه الكلام ، والآية فيه عدم منعه من الذكر والتسبيح ، وعلى كلا التقديرين عدم التكليم اضطراري ، وقال أبو مسلم : إنه اختياري ، والمعنى آيتك أن تصير مأموراً بعدم التكلم إلا بالذكر والتسبيح ولا يخفى بعده هنا ، وعليه وعلى

القولين قبله يحتمل أن يراد من عدم التكليم ظاهره فقط وهو الظاهر ، ويحتمل أن يكون كناية عن الصيام لأنهم كانوا إذ ذاك إذا صاموا لم يكلموا أحداً وإلى ذلك ذهب عطاء وهو خلاف الظاهر ، ومع هذا يتوقف قبوله على توقيف ، وإنما خص تكليم الناس للإشارة إلى أنه غير ممنوع من التكلم بذكر الله تعالى ﴿ ثلاثة أَيَّامٍ ﴾ أي متوالية ، وقال بعضهم المراد ثلاثة أيام ولياليها ، وقيل : الكلام على حذف مضاف أي ليالي ثلاثة أيام لقوله سبحانه في سورة [مريم : 10] ﴿ ثلاث لَيَالٍ ﴾ والحق أن الآية كانت عدم التكليم ستة أفراد إلا أنه اقتصر تارة على ذكر ﴿ ثلاث أَيَّامٍ ﴾ منها وأخرى على ﴿ ثلاث لَيَالٍ ﴾ وجعل ما لم يذكر في كل تبعاً لما ذكر ، قيل : وإنما قدم التعبير بالأيام لأن يوم كل ليلة قبلها في حساب الناس يومئذ ، وكونه بعدها إنما هو عند العرب خاصة كما تقدمت الإشارة إليه ، واعترض بأن آية الليالي متقدمة نزولاً لأن السورة التي هي فيها مكية والسورة التي فيها آية الأيام مدنية ، وعليه يكون أول ظهور هذه الآية ليلاً ويكون اليوم تبعاً لليلة التي قبلها على ما يقتضيه حساب العرب فتدبر .

فالبحث محتاج إلى تحرير بعد ، وإنما جعل عقل اللسان آية العلوق لتخلص المدة لذكر الله تعالى وشكره قضاءاً لحق النعمة كأنه قيل له : آية حصول النعمة أن تمنع عن الكلام إلا بشكرها ، وأحسن الجواب على ما قيل ما أخذ من السؤال كما قيل لأبي تمام لم تقول ما لا نفهم ؟ فقال : لم لا نفهم ما يقال ؟ وهذا مبني على أن سؤال الآية منه عليه السلام إنما كان لتلقي النعمة بالشكر ، ولعل دلالة كلامه على ذلك بواسطة المقام وإلا ففي ذلك خفاء كما لا يخفى . وأخرج عبد الرزاق وغيره عن قتادة أن حبس لسانه عليه السلام كان من باب العقوبة حيث طلب الآية بعد مشافهة الملائكة له بالبشارة ولعل الجناية حينئذ من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ومع هذا حسن الظن يميل إلى الأول ، ومذهب قتادة لا آمن على الأقدام الضعيفة قتادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 150 . 151 ﴾

فائدة

قال الجصاص :

قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ بِعَيْنِهَا : ﴿ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ عَبَّرَ تَارَةً بِذِكْرِ الْأَيَّامِ وَتَارَةً بِذِكْرِ اللَّيَالِي ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَحَدَ الْعَدَدَيْنِ مِنْ الْجَمِيعِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ يُعْقَلُ بِهِ مِقْدَارُهُ مِنْ الْوَقْتِ الْآخَرِ ، فَيُعْقَلُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ثَلَاثُ لَيَالٍ مَعَهَا وَمِنْ ثَلَاثِ لَيَالٍ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَمَّا أَرَادَ التَّفْرِقَةَ بَيْنَهُمَا أَفْرَدَ كُلَّ

وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالذِّكْرِ فَقَالَ : ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ لِأَنَّهُ لَوْ اقْتَصَرَ عَلَى الْعَدَدِ الْأَوَّلِ عَقَلَ الْمَلَائِكَةُ مِثْلَهُ مِنْ الْوَقْتِ الْآخَرِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 2 صـ 293 ﴾

قوله تعالى ﴿ إِلَّا رَمْزًا ﴾

قال الفخر :

أصل الرمز الحركة ، يقال : ارتمز إذا تحرك ، ومنه قيل للبحر : الراموز ، ثم اختلفوا في المراد بالرمز ههنا على أقوال

أحدها : أنه عبارة عن الإشارة كيف كانت باليد ، أو الرأس ، أو الحاجب ، أو العين ، أو الشفة

والثاني : أنه عبارة عن تحريك الشفتين باللفظ من غير نطق وصوت قالوا : وحمل الرمز على هذا المعنى أولى ، لأن الإشارة بالشفتين يمكن وقوعها بحيث تكون حركات الشفتين وقت الرمز مطابقة لحركاتهما عند النطق فيكون الاستدلال بتلك الحركات على المعاني الذهنية أسهل

والثالث : وهو أنه كان يمكنه أن يتكلم بالكلام الخفي ، وأما رفع الصوت بالكلام فكان ممنوعاً منه .

فإن قيل : الرمز ليس من جنس الكلام فكيف استثنى منه ؟ .

قلنا : لما أدى ما هو المقصود من الكلام سمي كلاماً ، ويجوز أيضاً أن يكون استثناءً منقطعاً فأما إن حملنا الرمز على الكلام الخفي فإن الإشكال زائل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 36 . 37 ﴾

(246/117)

وقال ابن عادل :

قوله : ﴿ إِلَّا رَمْزًا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه استثناء منقطع ؛ لأن الرمز ليس من جنس الكلام ، إذ الرمز الإشارة بعَيْن ، أو حاجب أو نحوهما ، ولم يذكر أبو البقاء غيره .

وبه بدأ ابن عطية مختاراً له ، فإنه قال : " والمراد بالكلام - في الآية - إنما هو النطق باللسان لا الإعلام بما في النفس ، فحقيقة هذا الاستثناء ، منقطع ، ثم قال : وذهب الفقهاءُ إلى أن الإشارة ونحوها في حكم الكلام في الأيمان ونحوها ؛ فعلى هذا يجيء الاستثناء متصلاً " .

والوجه الثاني : أنه متصل ؛ لأن الكلام لغة يطلق بإزاء معانٍ : الرمز والإشارة من جملتها .

أنشدوا : [الطويل]

إِذَا كَلَّمَتْنِي بِالْعُيُونِ الْفَوَاتِرِ . . . رَدَدتُ عَلَيْهَا بِالدُّمُوعِ الْبَوَادِرِ

وقال آخر : [الطويل]

أَرَادَتْ كَلامًا فَاتَّقَتْ مِنْ رَقِيبِهَا . . . فَلَمْ يَكُ إِلَّا وَمْؤُهَا بِالْحَوَاجِبِ

وهو مستعمل ، قال حبيب : [البسيط]

كَلَّمْتُهُ بِجُفُونٍ غَيْرِ نَاطِقَةٍ . . . فَكَانَ مِنْ رَدِّهِ مَا قَالَ حَاجِبُهُ

وبهذا الوجه بدأ الزمخشريُّ مختاراً له ، قال : " لما أدى مؤدَّى الكلام ، وفُهِم منه ما يُفْهَم سُمِّي كلاماً ، ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً " .

والرمز : الإشارة والإيماء بعين ، أو حاجب أو يَدٍ - ذكر بعض المفسّرين أن إشارته كانت بالمُسَبِّحة ومنه قيل للفاجرة : الرَّمَّازة ، والرمَّازة ، وفي الحديث : " نَهَى عَنْ كَسْبِ الرَّمَّازَةِ " ، يقال منه : رمزت ترمُز وترمِز - بضم العين وكسرها في المضارع .

وأصل الرمز : التحرك ، يقال : رمز وارْتمز أي : تحرَّك ، ومنه قيل للبحر : الراموز ، لتحركه واضطرابه .

وقال الراغب : " الرمز : الإشارة بالشفة والصوت الخفي ، والغمز بالحاجب . وما ارمازَّ : أي ما تكلم رمزاً ، وكتيبه رمَّازة : أي : لم يُسْمَع منها إلا رمزاً ؛ لكثرتها " .

ويؤيد كونه الصوت الخفي - على ما قاله الراغب - أنه كان ممنوعاً من رفع الصوت .

قال الفراء : " قد يكون الرمز باللسان من غير أن يتبيَّن ، وهو الصوت الخفي ، شبه الهَمْس ".

وقال عطاء : أراد صوم ثلاثة أيامٍ ؛ لأنهم كانوا إذا صاموا لم يتكلموا إلا رمزاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 209 . 211 ﴾

قوله تعالى : ﴿ واذكر ربَّكَ كَثِيرًا ﴾

قال الفخر :

فيه قولان

أحدهما : أنه تعالى حبس لسانه عن أمور الدنيا ﴿ إِلاَّ رَمْزًا ﴾ فأما في الذكر والتسبيح ، فقد كان لسانه جيداً ، وكان ذلك من المعجزات الباهرة

والثاني : إن المراد منه الذكر بالقلب وذلك لأن المستغرقين في بحار معرفة الله تعالى عادتهم في الأول أن يواظبوا على الذكر اللساني مدة فإذا امتلأ القلب من نور ذكر الله سكت اللسان وبقي الذكر في القلب ، ولذلك قالوا : من عرف الله كل لسانه ، فكأن زكريا عليه السلام أمر بالسكوت واستحضار معاني الذكر والمعرفة واستدامتها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 37 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ واذكر رَّبَّكَ ﴾ أي في أيام الحبسة شكراً لتلك النعمة كما يشعر به التعرض لعنوان الربوبية ، وقيل : يحتمل أن يكون الأمر بالذكر شكراً للنعمة مطلقاً لا في خصوص تلك الأيام ، وأن يكون في جميع أيام الحمل لتعود بركاته إليه ، والمنساق إلى الذهن هو الأول ، والجملة مؤكدة لما قبلها مبينة للغرض منها ، واستشكل العطف من وجهين : الأول عطف الإنشاء على الإخبار ، والثاني : عطف المؤكد على المؤكد ، وأجيب بأنه معطوف على محذوف أي اشكر واذكر ، وقيل : لا يبعد أن يجعل الأمر بمعنى الخبر عطفاً على (لا تكلم) فيكون في تقدير : أن لا تكلم وتذكر ربك ، ولا يخفى ما فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 152.151 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بالعشى والإبكار ﴾

قال الفخر :

في قوله ﴿ وَسَبِّحْ ﴾ قولان

(248/117)

أحدهما : المراد منه : وصل لأن الصلاة تسمى تسبيحاً قال الله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ ﴾ وأيضاً الصلاة مشتملة على التسبيح ، فجاز تسمية الصلاة بالتسبيح ،

وههنا الدليل دل على وقوع هذا المحتمل وهو من وجهين

الأول : أنا لو حملناه على التسبيح والتهليل لم يبق بين هذه الآية وبين ما قبلها وهو قوله ﴿ واذكر ربَّكَ ﴾ فرق ، وحينئذ يبطل لأن عطف الشيء على نفسه غير جائز والثاني : وهو أنه شديد الموافقة لقوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار ﴾

وثانيهما : أن قوله ﴿ واذكر ربَّكَ ﴾ محمول على الذكر باللسان . انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 37 ﴾

(249/117)

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

1 - [والله أعلم بما وضعت] [وليس الذكر كالأنثى] جملتان معترضتان لتعظيم الموضوع ورفع منزلة المولود .

2 - [وإني أعيذها] صيغة المضارع للدلالة على الاستمرار والتجدد .

3 - [وانبتها نباتا حسنا] شبهها في نموها وترعرعها بالزرع ، الذي ينمو شيئًا فشيئًا ،

والكلام استعارة عن تربيتها بما يصلحها في جميع احوالها بطريق الاستعارة التبعية ، وهو من بديع علم البيان .

4 - [فنادته الملائكة] المنادي جبريل وعبر عنه باسم الجماعة ، تعظيما له لأنه رئيسهم

5 - [بالعشي والإبكار] بين كلمتي " العشي " والإبكار " طباق وهو من المحسنات البديعية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 200 ﴾

(250/117)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : "كَثِيراً " نعت لمصدر محذوف ، أو حال من ضمير ذلك المصدر ، أو نعت لزمان محذوف تقديره : ذِكْراً كثيراً ، أو زماناً كثيراً ، والباء في قوله : " بِالْعَشِيّ " بمعنى " فِي " أي : في العشي والإبكار .

والعشي : يقال من وقت زوال الشمس إلى مَغيبها ، كذا قال الزمخشريُّ .

وقال الراغب : " العشيُّ من زوال الشمسِ إلى الصباحِ " . والأول هو المعروف .

قال الشاعر : [الطويل]

فَلاَ الظِّلُّ مِنْ بَرْدِ الضُّحَى تَسْتَطِيعُهُ . . . وَلاَ الْفَيْءُ مِنْ بَرْدِ العَشِيِّ تَذُوقُ

وقال الواحديُّ : " العَشِيّ : جمع عشية ، وهي آخر النهار " .

والعامة قرءوا : " والإبكَار " بكسر الهمزة ، وهو مصدر أبكر يُبْكِر إبكاراً – أي : خرج بُكْرَةً ، ومثله : بَكَرَ – بالتخفيف – وابتكر .

قال عمر بن أبي ربيعة : [الطويل]

أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبْكِر . . . .

وقال : [الخفيف]

أَيُّهَا الرَّائِحُ الْمُجِدُّ ابْتِكَاراً . . . .

وقال أيضاً : [الطويل]

بَكَرْنَ بُكُوراً وَاسْتَحَرْنَ بِسُحْرَةٍ . . . فَهُنَّ لِوَادِي الرَّسِّ كَالْيَدِ لِلْفَمِ

(251/117)

وقرئ شاذاً " والأَبكَار " – بفتح الهمزة – وهو جمع بَكَرَ – بفتح الفاء والعين – ومتى أريد به هذا الوقت من يوم بعينه امتنع من الصرف والتصرُّف ، فلا يُستعمَل غير ظرف ، تقول : أتيتك يوم الجمعة بَكَر . وسبب منْع صَرْفه التعريفُ والعدل عن " أل " . فلو أرِيدَ به وقت

مُبْهَم انصرف نحو أتيتك بكراً من الأبكار ونظيره سحر وأسْحار – في جميع ما تقدم .

وهذه القراءة تناسب قوله : ﴿ بالعشي ﴾ عند من يجعلها جمع عَشِيَّة ؛ ليتقابل الجَمْعَان .

ووقت الإبكار من طلوع الفجر إلى وقت الضحى .

وقال الراغب : أصل الكلمة هي البكرة – أول النهار – فاشتقّ من لفظه لفظُ الفعل ، فقيل : بكر فلان بُكُوراً – إذا خرج بُكْرَةً . والبَكور : المبالغ في البكور ، وبَكَّر في حاجته ، وابتكر وبَاكَر . [وتصور فيها] معنى التعجيل ؛ لتقدُّمِها على سائر أوقاتِ النهار فقيل لكل مُتَعَجِّل : بَكَّر .

وظاهر هذه العبارة أن البَكَر مختص بطلوع الشمس إلى الضُّحَى ، فإن أريد به من أول طلوع الفجر إلى الضحى فإنه على خلاف الأصلِ .

وقد صرح الواحديُّ بذلك ، فقال : " هذا معنى الإبكارِ ، ثم يُسَمَّى ما بين طلوعِ الفجر إلى الضُّحَى إبكاراً كما يسمى إصْبَاحاً " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 213.211 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

في هذه الآية دليل على أن الإشارة تنزل منزلة الكلام وذلك موجود في كثير من السنة ، وآكد

الإشارات ما حكم به النبيّ صلى الله عليه وسلم من أمر السوداء حين قال لها : " "أين الله" ؟ فأشارت برأسها إلى السماء فقال : "أعتقها فإنها مؤمنة" " فأجاز الإسلام بالإشارة الذي هو أصل الديانة الذي يحرز الدم والمال وتستحق به الجنة وينجي به من النار ، وحكم بإيمانها كما يحكم بنطق من يقول ذلك ؛ فيجب أن تكون الإشارة عاملة في سائر الديانة ، وهو قول عامة الفقهاء .

وروى ابن القاسم عن مالك أن الأخرس إذا أشار بالطلاق إنه يلزمه .

(252/117)

وقال الشافعيّ في الرجل يمرض فيختل لسانه فهو كالأخرس في الرجعة والطلاق .

وقال أبو حنيفة : ذلك جائز إذا كانت إشارته تعرف ، وإن شك فيها فهي باطل ، وليس ذلك بقياس وإنما هو استحسان .

والقياس في هذا كله أنه باطل ؛ لأنه لا يتكلم ولا تعقل إشارته .

قال أبو الحسن بن بطّال : وإنما حمل أبا حنيفة على قوله هذا أنه لم يعلم السنن التي جاءت بجواز الإشارات في أحكام مختلفة في الديانة .

ولعل البخاري حاول بترجمته "باب الإشارة في الطلاق والأُمور" الردَّ عليه .

وقال عطاء : أراد بقوله ﴿ أَلاَّ تُكَلِّمَ الناس ﴾ صوم ثلاثة أيام .

وكانوا إذا صاموا لا يتكلمون إلا رمزاً . وهذا فيه بُعْدٌ . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 81 ﴾

لطيفة

قال القرطبى :

قال محمد بن كعب القرظيّ : لو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لزكريا بقول الله عز وجل ﴿ أَلاَّ تُكَلِّمَ الناس ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً واذكر رَّبَّكَ كَثِيراً ﴾ ولرخص للرجل يكون في الحرب بقول الله عز وجل : ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فاثبتوا واذكروا الله كَثِيراً ﴾ [الأنفال : 45] .

وذكره الطبري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 82 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِى آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا ﴾ .

طلب الآية ليعلم الوقت الذي هو وقت الإجابة على التعيين لا لِشك له في أصل الإجابة .

وجعل آية ولايته في إمساك لسانه عن المخلوقين مع انطلاقها مع الله بالتسبيح ، أي لا تمتنع عن خطابي فإني لا أمنع أوليائي من مناجاتي .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَاذْكُرْ رَّبَّكَ كَثِيرًا ﴾ .

بقلبك ولسانك في جميع أوقاتك .

﴿ وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ .

في الصلاة الدائبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 241 . 242 ﴾

(253/117)

فائدة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "قال ربك اجعل لى آية" يريد والله أعلم آية على الحمل ليستعجل البشارة فقيل له : "آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا" وفى سورة مريم : "آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا" مع اتحاد القصة فيسأل عن ذلك .

والجواب والله أعلم : أنه لما كان الإخبار مقصودا به التعريف بمنعه الكلام ثلاثة أيام بلياليهن منصوصا على ذلك حتى لا يقع احتمال أن يكون المنع فى الليالى دون الأيام أو الأيام دون الليالى ، وهذا كما فى قوله تعالى : "سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما" فوقع التنصيص على الوقتين ليرتفع توهم أفراد أحد الوقتين دون الآخر وكذا فى آية آل عمران بذكر الأيام ليناسب قوله "إلا رمزا" إذ الرمز ما يفهم المقصود دون نطق كالإشارة بالعين وباليد وقال مجاهد بالشفتين وكيفما كان فإنما يدرك بالعين ولما لم يذكر الرمز فى آية مريم

ذكر فيها الليل . وحصل التعريف باستيفاء الوقت الممنوع فيه الكلام وما جعل له عوضا منه وهو الرمز وزيد فى آية مريم التعريف باستواء الليالى فى ذلك فالمراد مستويات فسويا من صفة ليال انتصب على الحال أو يكون المراد لا خرس بك ولا مرض فيكون سويا حالا من الضمير فى تكلم فورد هنا سويا مناسبا للفواصل ومقاطع الآى وليس فى آية آل عمران ما يستدعى ذلك فورد كل على ما يجب ويناسب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 82 ﴾

(254/117)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ (33) ﴾

آلَ إِبْراهِيمَ إسماعيل وإسحاق وأولادهما . وآلَ عِمْرانَ موسى وهرون «1» ابنا عمران ابن يصهر . وقيل عيسى ومريم بنت عمران بن ماثان ، وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة . وذُرِّيَّةً بدل من آل إبراهيم وآل عمران بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ يعنى أنّ الآلين ذرّية واحدة متسلسلة بعضها متشعب من بعض : موسى وهرون من عمران ، وعمران من يصهر ، ويصهر من

فاهث، وفاهث من لاوى، ولاوى من يعقوب، ويعقوب من إسحاق. وكذلك عيسى ابن مريم

---

(1). قال محمود رحمه اللَّه «آل عمران موسى وهرون . . . الخ» قال أحمد رحمه اللَّه: ومما يرجح هذا القول الثاني أن السورة تسمي آل عمران ولم تشرح قصة عيسى ومريم في سورة أبسط من شرحها في هذه السورة. وأما موسى وهارون فلم يذكر قصتهما في هذه السورة، فدل ذلك على أن عمران المذكور هاهنا هو أبو مريم واللَّه أعلم.

(255/117)

بنت عمران بن ماثان بن سليمان بن داود «1» بن ايشا بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق.

وقد دخل في آل إبراهيم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم. وقيل بعضها من بعض في الدين، كقوله تعالى (الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ). وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ يعلم من يصلح للاصطفاء، أو يعلم أنّ بعضهم من بعض في الدين. أو سميع عليم لقول امرأة عمران ونيتها.

وإِذْ منصوب به.

وقيل: بإضمار اذكر. وامرأة عمران هي امرأة عمران بن ماثان، أمّ مريم البتول، جدّة عيسى عليه السلام، وهي حنة بنت فاقوذ. وقوله إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ على أثر قوله:

(وَآلَ عِمْرانَ) مما يرجح أنّ عمران هو عمران بن ماثان جدّ عيسى، والقول الآخر يرجحه أن موسى يقرن بإبراهيم كثيراً في الذكر. فإن قلت: كانت لعمران بن يصهر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهرون، ولعمران بن ماثان مريم البتول، فما أدراك أن عمران هذا هو أبو مريم البتول دون عمران أبى مريم التي هي أخت موسى وهرون؟ قلت: كفى بكفالة زكريا دليلا على أنه عمران أبو البتول، لأن زكريا بن آذن وعمران بن ماثان كانا في عصر واحد، وقد تزوّج زكريا بنته إيشاع أخت مريم فكان يحيى وعيسى ابني خالة. روى أنها كانت عاقراً لم تلد إلى أن عجزت، فبينا هي في ظل شجرة بصرت بطائر يطعم فرخاً له فتحرّكت نفسها للولد وتمنته، فقالت: اللهم إن لك علىّ نذراً شكراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وخدمه، فحملت بمريم وهلك عمران وهي حامل مُحَرَّراً معتقاً لخدمة بيت المقدس لا يدَ لي عليه ولا أستخدمه ولا أشغله بشيء، وكان هذا النوع من النذر مشروعا عندهم. وروى أنهم كانوا ينذرون هذا النذر، فإذا بلغ الغلام خير بين أن يفعل وبين أن لا يفعل. وعن الشعبي (مُحَرَّراً) مخلصاً للعبادة، وما كان التحرير إلا للغلمان، وإنما بنت الأمر على التقدير، أو طلبت أن ترزق ذكراً فَلَمَّا وَضَعَتْها الضمير لما في بطني «2»، وإنما أنث على المعنى لأن ما في بطنها كان أنثى في علم اللَّه، أو على تأويل الحبلة أو النفس أو النسمة. فإن قلت: كيف جاز انتصاب أُنْثى حالا من الضمير في وضعتها وهو كقولك وضعت الأنثى أنثى؟ قلت: الأصل: وضعته أنثى، وإنما

أنث لتأنيث الحال لأن الحال وذا الحال لشيء واحد ، كما أنث الاسم في ما كانت أمّك لتأنيث الخبر .

ونظيره قوله تعالى : (فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ) وأمّا على تأويل الحبلة أو النسمة فهو ظاهر ، كأنه قيل : إني وضعت الحبلة أو النسمة

---

(1) . قوله «ابن ماثان بن سليمان بن داود» قوله : ابن سليمان ، أى من نسله . وقوله : ابن يهوذا ، أى من نسله ، كما صرح به الفخر الرازي . وذكر أبو السعود بين ماثان وسليمان نحو خمسة عشر جداً ، وبين إيشا ويهوذا تسعة جدود . (ع)

(2) . قال محمود : «الضمير عائد إلى ما في بطني . . . الخ» قال أحمد : الضمير في قوله «وضعتها» يتناول إذا ما نسب إليها الوضع والأنوثة ، فالحال واقعة عليها من حيث الجهة العامة وتلك الجهة كونها شيئا وضع لا لخصوص نسبة الأنوثة إليها . وقد مر هذا البحث بعينه عند قوله تعالى : (فَإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ) .

(256/117)

أنثى . فإن قلت : فلم قالت : إني وضعتها أنثى وما أرادت إلى هذا القول ؟ قلت : قالته تحسراً «1» على ما رأت من خيبة رجائها وعكس تقديرها ، فتحزنت إلى ربها لأنها

كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكراً ، ولذلك نذرته محرّراً للسدانة . ولتكلمها بذلك على وجه التحسر والتحزن قال اللّه تعالى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ تعظيما لموضوعها وتجهيلا لها بقدر ما وهب لها منه . ومعناه : واللّه أعلم بالشيء الذي وضعت وما علق به من عظائم الأمور ، وأن يجعله وولده آية للعالمين وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئًا ، فلذلك تحسرت . وفي قراءة ابن عباس : (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ) على خطاب اللّه تعالى لها أى أنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب وما علم اللّه من عظم شأنه وعلوّ قدره . وقرئ :

وضعت . بمعنى : ولعلّ للّه تعالى فيه سراً وحكمة ، ولعلّ هذه الأنثى خير من الذكر تسلية لنفسها .

فإن قلت : فما معنى قوله وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى ؟ قلت : هو بيان لما في قوله : (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ) من التعظيم للموضوع والرفع منه ، ومعناه : وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت لها ، واللام فيهما للعهد . فإن قلت : علام عطف قوله وَإِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ ؟ قلت : هو عطف على إنى وضعتها أنثى ، وما بينهما جملتان معترضتان ، كقوله تعالى : وإنه لقسم لو تعلمون عظيم . فإن قلت : فلم ذكرت تسميتها مريم لربها ؟ قلت : لأن مريم في لغتهم بمعنى العابدة «2» ، فأرادت بذلك التقرب والطلب إليه أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها ، وأن يصدق فيها ظنها بها . ألا ترى كيف أتبعته طلب الإعاذة لها ولولدها من الشيطان وإغوائه . وما يروى من الحديث «ما من مولود يولد

(1) . (عاد كلامه) قال: «وإنما أرادت بقولها: وضعتها أنثى التحسر والتأسف . . . الخ» قال أحمد: هذا التأويل على أنه من كلام اللَّه تعالى لا حكاية عنها . وقد ذكر أهل التفسير تأويلا آخر، وهو أن يكون هذا القول قولها حكاه اللَّه تعالى عنها، أعنى قوله: (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى) ويرشد إليه عطف كلامها عليه وهو قوله: (وَإِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ . . .) الخ ويوردون على هذا الوجه أن قياس كونه من قولها أن يكون: وليست الأنثى كالذكر، فان مقصودها تنقيص الأنثى بالنسبة إلى الذكر، والعادة في مثله أن ينفى عن الناقص شبهه بالكامل لا العكس، وقد وجد الأمر في ذلك مختلفاً فلم يثبت لي عين ما قالوه. ألا ترى إلى قوله تعالى: (لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ) فنفى عن الكامل شبه الناقص، مع أن الكمال لأزواج النبي عليه الصلاة والسلام ثابت بالنسبة إلى عموم النساء . وعلى ذلك جاءت عبارة امرأة عمران واللَّه أعلم . ومنه أيضا (أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ) .

(2) . (عاد كلامه) قال: «وفائدة قولها (وَإِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ) أن مريم في لغتهم العابدة . . . الخ» قال أحمد:

أما الحديث فمذكور في الصحاح متفق على صحته، فلا محيص له إذاً عن تعطيل كلامه عليه السلام بتحميله ما لا يحتمله جنوحا إلى اعتزال منتزع في فلسفة منتزع في إلحاد ظلمات بعضها فوق بعض . وقد قدمت عند قوله تعالى: (لا يَقُومُونَ إِلَّا كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ) ما فيه كفاية، وما أرى الشيطان إلا طعن في خواصر القدرية حتى

بقرها ، ووكر في قلوبهم حتى حمل الزمخشري وأمثاله أن يقول في كتاب اللَّه تعالى وكلام رسوله عليه السلام بما يتخيل ، كما قال في هذا الحديث ، ثم نظره بتخييل ابن الرومي في شعره ، جراءة وسوء أدب . ولو كان معنى ما قاله صحيحاً لكانت هذه العبارة واجبا أن تجتنب ، ولو كان الصراخ غير واقع من المولود لأمكن على بعد أن يكون تمثيلا . وما هو واقع مشاهد فلا وجه لحمله على التخييل إلا الاعتقاد الضئيل وارتكاب الهوى الوبيل .

(257/117)

إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهلّ صارخاً من مس الشيطان إياه ، إلا مريم وابنها » « 1 » فاللَّه أعلم بصحته . فإن صح فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها ، فإنهما كانا معصومين ، وكذلك كل من كان في صفتهما كقوله تعالى : (لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) واستهلاله صارخاً من مسه تخييل وتصوير لطمعه فيه ، كأنه يمسه ويضرب بيده عليه ويقول : هذا ممن أغويه ، ونحوه من التخييل قول ابن الرومي :

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ «2»

وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلا ، ولو سلط إبليس على الناس ينخسهم لامتلأت الدنيا صراخا وعياطا مما يبلونا به من نخسه فَتَقَبَّلَها رَبُّها فرضي بها في

النذر مكان الذكر بِقَبُولٍ حَسَنٍ فيه وجهان : أحدهما أن يكون القبول اسم ما تقبل به الشيء كالسعوط واللدود ، لما يسعط به ويلد ، وهو اختصاصه لها بإقامتها مقام الذكر في النذر ، ولم يقبل قبلها أنثى في ذلك ، أو بأن تسلمها من أمّها عقيب الولادة قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة . وروى أن حنة حين ولدت مريم ، لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ، ووضعتها عند الأحبار أبناء هرون ، وهم في بيت المقدس كالحجبة في الكعبة ، فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم ، وكانت بنو ماثان رءوس بنى إسرائيل وأحبارهم وملوكهم ، فقال لهم زكريا : أنا أحق بها ، عندي خالتها «3» . فقالوا : لا حتى نقترع عليها ، فانطلقوا - وكانوا سبعة وعشرين - إلى نهر ، فألقوا فيه أقلامهم ، فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم ، فتكفلها . والثاني : أن يكون مصدراً على تقدير حذف المضاف بمعنى : فتقبلها بذي قبول حسن ،

---

(1) . قال المصنف : اللّه أعلم بصحته هكذا قال . والحديث في الصحيحين من حديث أبى هريرة في آخره : قال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم : (وَإِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ) .

(2) لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وإلا فما يبكيه منها وإنها لأفسح مما كان فيه وأرغد

إذا أبصر الدنيا استهل كأنه بما سوف يلقى من أذاها يهدد

لابن الرومي ، يقول : إن بكاء الطفل حين ولادته لأجل ما تشعر به الدنيا من حوادثها فقط ، وإن لا يكن بكاؤه لذلك ، فأى شيء منها يبكيه ، أو فأى شيء يبكيه منها ، وإنها أى الدنيا . وروى : وإنه ، أى الطفل لأفسح موضعا مما كان فيه من ضيق الرحم وأرغد منه . وعوده على ما يبكيه بعيد ، أو غير سديد . ويجوز أنه عائد على فضاء الدنيا المعلوم من المقام ، ثم قال : إذا أبصرها صرخ ، كأنه يخوف بما سوف يناله من أذاها قبل حصوله .

(3) . قوله «أنا أحق بها عندي خالتها» قوله خالتها : يعنى زوجته ايشاع أخت حنة لكن تقدم أنها أخت مريم وقال صلى اللّه عليه وسلم في يحيى وعيسى هما ابنا خالة وفي أبى السعود قيل في تأويل ذلك أن الأخت كثيراً ما تطلق على بنت الأخت فجرى الحديث على ذلك وقيل إن ايشاع أخت حنة من الأم وأخت مريم من الأب بأن نكح عمران أم حنة فولدت إيشاع ثم نكح حنة ربيبته فولدت مريم بناء على حل نكاح الربائب عندهم . (ع)

(258/117)

أى بأمر ذى قبول حسن وهو الاختصاص . ويجوز أن يكون معنى (فتقبلها) فاستقبلها ، كقولك :

تعجله بمعنى استعجله ، وتقصاه بمعنى استقصاه ، وهو كثير في كلامهم ، من استقبل الأمر

إذا أخذه بأوّله وعنفوانه . قال القطامي :

وَخَيْرُ الْأَمْرِ مَا اسْتَقْبَلْتَ مِنْهُ وَلَيْسَ بِأَنْ تَتَبَّعَهُ اتِّبَاعَا «1»

ومنه المثل «خذ الأمر بقوابله» أى فأخذها في أوّل أمرها حين ولدت بقبول حسن وَأَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها . وقرئ : وكفلها زكرياء ، بوزن وعملها وَكَفَّلَها زَكَرِيَّا بتشديد الفاء ونصب زكرياء ، «2» الفعل للَّه تعالى بمعنى :

وضمها إليه وجعله كافلا لها وضامناً لمصالحها . ويؤيدها قراءة أبىّ : وأكفلها ، من قوله تعالى (فَقالَ أَكْفِلْنِيها) وقرأ مجاهد : فتقبلها ربها ، وأنبتها ، وكفلها ، على لفظ الأمر في الأفعال الثلاثة ، ونصب ربها ، تدعو بذلك ، أى فاقبلها يا ربها وربها ، واجعل زكريا كافلا لها . قيل بنى لها زكريا محرابا في المسجد ، أى غرفة يصعد إليها بسلم . وقيل المحراب أشرف المجالس ومقدّمها ، كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس . وقيل : كانت مساجدهم تسمى المحاريب . وروى أنه كان لا يدخل عليها إلا هو وحده ، وكان إذا خرج غلق عليها سبعة أبواب وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً كان رزقها ينزل عليها من الجنة ولم ترضع ثديا قط ، فكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء أَنَّى لَكِ هذا من أين لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا وهو آت في غير حينه والأبواب مغلقة عليك لا سبيل للداخل به إليك ؟ قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فلا تستبعد . قيل تكلمت

وهي صغيرة كما تكلم عيسى وهو في المهد . وعن النبي صلى اللَّه عليه وسلم : أنه جاع في زمن قحط «3» فأهدت له فاطمة رضى اللَّه عنها رغيفين وبضعة لحم آثرته بها ، فرجع بها إليها وقال : هلمى يا بنية فكشفت عن الطبق فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً ، فبهتت وعلمت أنها نزلت من عند اللَّه ، فقال لها صلى اللَّه عليه وسلم : أنى لك هذا ؟ فقالت : هو من عند اللَّه ، إن اللَّه يرزق من يشاء بغير حساب . فقال عليه الصلاة والسلام : الحمد للَّه الذي

---

(1) . يقول : خير الأمور هو الذي تستقبله وتنتظره فتأخذه أول إتيانه ، وليس خبرها ما تصبر عنه حتى يفوتك ويمضى ثم تتبعه وتذهب وراءه لتدركه ، فالباء زائدة في خبر ليس ، وهو على تقدير مضاف ، أى ذى التتبع .

وتتبعه : أصله تتبعه حذفت منه تاء المضارعة أو تاء التفعل أو التاء التي هي فاء الفعل وهو أولاها ، لأن كل من الأوليين جاء لمعنى . وقال الجوهري : وضع الاتباع موضع التتبع اه ، فهو اسم مصدر ، أو مصدر حذف منه بعض الزوائد ، والتفعل أبلغ من الافتعال ، فيتعين إرادته هنا لأنه مؤكد .

(2) . قوله «ونصب زكريا الفعل للَّه تعالى» لعله والفعل . (ع) [. . . . .]

(3) . رواه أبو يعلي من حديث جابر ، وهو من رواية ابن لهيعة عن ابن المنكدر عنه . والمتن ظاهر النكارة .

جعلك شبيهة سيدة نساء بنى إسرائيل، ثم جمع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عليّ بن أبى طالب والحسن والحسين وجميع أهل بيته، فأكلوا عليه حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو، فأوسعت فاطمة على جيرانها. إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ من جملة كلام مريم عليها السلام، أو من كلام رب العزّة عزّ من قائل بِغَيْرِ حِسابٍ بغير تقدير لكثرته، أو تفضلا بغير محاسبة ومجازاة على عمل بحسب الاستحقاق.

[سورة آل عمران (3) : الآيات 38 إلى 41]

هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ (38) فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (39) قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عاقِرٌ قالَ كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (40) قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ (41)

هُنالِكَ في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب أو في ذلك الوقت، فقد يستعار هنا «1» وثم وحيث للزمان. لما رأى حال مريم في كرامتها على اللَّه ومنزلتها،

رغب في أن يكون له من ايشاع ولد مثل ولد أختها حنة في النجابة والكرامة على اللَّه ، وإن كانت عاقراً عجوزاً فقد كانت أختها كذلك . وقيل لما رأى الفاكهة في غير وقتها انتبه على جواز ولادة العاقر ذُرِّيَّةً ولداً . والذرية يقع على الواحد والجمع سَمِيعُ الدُّعاءِ مجيبه . قرئ : فناداه الملائكة . وقيل : ناداه جبريل عليه السلام ، وإنما قيل الملائكة على قولهم : فلان يركب الخيل أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بالفتح على بأن الله ، وبالكسر على إرادة القول . أو لأن النداء نوع من القول .

وقرئ : يبشرك ، ويبشرك ، من بشره وأبشره . ويبشرك»

، بفتح الياء من بشره . ويحيى إن كان أعجمياً وهو الظاهر فمنع صرفه للتعريف والعجمة كموسى وعيسى ، وإن كان عربياً فللتعريف

---

(1) . قال محمود : فقد يستعار هنا وثم وحيث للزمان . . . الخ» قال أحمد : لا يليق بالنبي أن يقف علمه بجواز ولادة العاقر على مشاهدة مثله ، فان العقل يقضى بجواز ذلك في قدرة الله تعالى وإن لم يقع نظيره . وأحسن من هذه العبارة وأسلم أن يقال : لما شاهد وقوع هذا الحادث كرامة لمريم امتد أمله إلى حادث يناسبه كرامة له ، واللَّه أعلم .

(2) . قوله «و يبشرك» لعل هذه بدون ضمير الخطاب ، وإن كانت السابقة من بشره بفتح الباء أيضاً . (ع)

ووزن الفعل كيعمر مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ مصدّقا بعيسى مؤمناً به. قيل هو أول من آمن به ، وسمى عيسى «كلمة» لأنه لم يوجد إلا بكلمة اللَّه وحدها ، وهي قوله : (كُنْ) من غير سبب آخر.

وقيل : مصدّقا بكلمة من اللَّه ، مؤمناً بكتاب منه. وسمى الكتاب كلمة ، كما قيل كلمة الحويدرة لقصيدته. والسيد : الذي يسود قومه ، أى يفوقهم في الشرف. وكان يحيى فائقا لقومه وفائقا للناس كلهم في أنه لم يركب سيئة قط ، ويا لها من سيادة. والحصور : الذي لا يقرب النساء حصراً لنفسه أى منعا لها من الشهوات. وقيل هو الذي لا يدخل مع القوم في الميسر. قال الأخطل :

وَشَارِبٍ مُرْبِحٍ بِالكَأْسِ نَادَمَنِى لَا بِالْحَصُورِ وَلَا فِيهَا بِسَئَّارِ «1»

فاستعير لمن لا يدخل في اللعب واللهو. وقد روى أنه مرّ وهو طفل بصبيان فدعوه إلى اللعب فقال : ما للعب خلقت مِنَ الصَّالِحِينَ ناشئا من الصالحين ، لأنه كان من أصلاب الأنبياء ، أو كائنا من جملة الصالحين كقوله : (وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ). أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ استبعاد من حيث العادة كما قالت مريم وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ كقولهم : أدركته السنّ

العالية . والمعنى أثر فيّ الكبر فأضعفني ، وكانت له تسع وتسعون سنة ، ولامرأته ثمان وتسعون كَذٰلِكَ أي يفعل اللَّه ما يشاء من الأفعال العجيبة مثل ذلك الفعل ، وهو خلق الولد بين الشيخ الفاني والعجوز العاقر ، أو كذلك اللَّه مبتدأ وخبر ، أى على نحو هذه الصفة اللَّه ، ويفعل ما يشاء بيان له ، أي يفعل ما يريد من الأفاعيل الخارقة للعادات آيَةً علامة أعرف بها الحبل لأتلقى النعمة إذا جاءت بالشكر قال آيَتُكَ أَلَّا تقدر على تكليم الناس ثَلاثَةَ أَيَّامٍ وإنما خص تكليم الناس ليعلمه أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة ، مع إبقاء قدرته على التكلم بذكر اللَّه ، ولذلك قال : (وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ) يعني في أيام عجزك عن تكليم الناس ، وهي من الآيات الباهرة . فإن قلت : لم حبس لسانه عن كلام الناس ؟ قلت :

ليخلص المدّة لذكر اللَّه لا يشتغل لسانه بغيره ، توفرا منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة ،

---

(1) . للأخطل ، يقول : رب شارب مشتر للخمر بالثمن الربيح الزائد ، نادمني بالكأس . ويجوز تعلقه بما قبله ، ليس حصورا مانعا نفسه من الدخول على القوم في لعب الميسر ، ولا سآر على صيغة «فعال» للمبالغة ، أي مبقيا في الكأس سؤرا ، أي بقية ، من أسأر إذا أبقى ، وهو شاذ كجبار من أجبر . ويروى بسوار من السورة وهي الوثبة والعربدة ، ففي

سببية، أي ولا متغير العقل بسببها، ولا عاطفة على مربح، والثانية توكيد، والباء زائدة بعد كل، ونادمنى خبر، فيجوز الرجوع إلى الوصف بعد الاخبار.

(261/117)

وشكرها الذي طلب الآية من أجله، كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له: آيتك أن تحبس لسانك «1» إلا عن الشكر. وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقا من السؤال. ومنتزعا منه إِلَّا رَمْزاً إلا إشارة بيد أو رأس أو غيرهما وأصله التحرّك. يقال ارتمز: إذا تحرّك. ومنه قيل للبحر الراموز. وقرأ يحيى بن وثاب (إلا رمزاً) بضمتين، جمع رموز كرسول ورسل. وقرئ (رمزا) بفتحتين جمع رامز كخادم وخدم، وهو حال منه ومن الناس دفعة كقوله:

مَتَى مَا تَلْقَنِى فَرْدَيْنِ تَرْجُفْ رَوَانِفُ أَلْيَتَيْكَ وَتُسْتَطَارَا «2»

بمعنى إلا مترامزين، كما يكلم الناس الأخرس بالإشارة ويكلمهم. والعشىّ: من حين تزول الشمس إلى أن تغيب. والْإِبْكارِ من طلوع الفجر إلى وقت الضحى. وقرئ: والأبكار، بفتح الهمزة جمع بكر، كسحر وأسحار. يقال: أتيته بكراً بفتحتين. فإن قلت: الرمز ليس من جنس الكلام فكيف استثنى منه؟ قلت: لما أدّى مؤدّى الكلام وفهم منه ما يفهم

منه سمى كلاما ويجوز أن يكون استثناء منقطعا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 1 صـ 361.354﴾

---

(1) . قوله «أن تحبس لسانك» لعله : يحبس . (ع)

(2) أحولى تنفض استك مذرويها لتقتلني فها أنا ذا عمارا

متى ما تلقني فردين ترجف روانف أليتيك وتستطارا

وسيفي صارم قبضت عليه أصابع لا ترى فيها انتشارا

لعنترة يخاطب عمارة بن زياد العبسي ، لما قال لقومه : ليتني لقيته فأرحتكم منه وأعلمتكم أنه عبد ، والاست : الدبر ، وهي فاعل . ومذرويها : مفعول ، وكان قياسه : مذريان بالياء لأنه مقصور زائد على ثلاثة أحرف ، وقياس تثنيته كذلك ، فمجيئه بالواو شاذ ، وسهله أن تثنيته تقديرية لأنه لم يسمع له مفرد . وحكى عن أبى عمرو «مذرى» مفردا ، فيكون مثنى حقيقة ، وبه قيل . وحكى عن أبى عبيدة مذرى مفردا ، ومذريان مثنى بالياء على القياس ، وإن نصب الاست كان مفعولا ، ومذرويها بدلا منه . والمذروان بالكسر فرعا الأليتين وقرنا الرأس . يقال : جاء ينفض مذرويه يختال ويتبختر ، وقوس هتافة المذروين ، وهما موقعا الوتر من أعلى وأسفل . أى رنانتهما ، وها أنا ذا أصله أنا هذا ، فقدمت الهاء مبادرة إلى التنبيه ، ثم قال : متى تلاقنى حال كوننا منفردين عن غيرنا ، تخف متى فترتعد أطراف أليتيك ، فارتعادها كناية عن الخوف . وتستطارا مؤكد بالنون

الخفيفة المنقلبة ألفا ، والفاعل ضمير المخاطب كأن الخوف يطيره . ويجوز أن الضمير للروانف ، أى تنتفض وتنتشر كالطائر . ويروى : روادف ، والمراد واحد .

(262/117)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾

قَوْلُهُ - تَعَالَى - : هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ مَعْنَاهُ أَنَّهُ عِنْدَمَا رَأَى زَكَرِيَّا حُسْنَ حَالِ مَرْيَمَ وَمَعْرِفَتَهَا وَإِضَافَتَهَا الْأَشْيَاءَ إِلَيْهِ دَعَا رَبَّهُ مُتَمَنِّيًا لَوْ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ صَالِحٌ مِثْلُهَا هِبَةً مِنْ لَدُنْهُ - تَعَالَى - وَمِنْ مَحْضِ فَضْلِهِ (وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي تَفْسِيرِ لَدُنْ وَلَدَى) وَقَدْ فَسَّرَ بَعْضُهُمْ (هُنَالِكَ) بِالزَّمَانِ قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَهُوَ ضَعِيفٌ وَالِاسْتِعْمَالُ الْفَصِيحُ فِيهَا أَنَّهَا لِلْمَكَانِ ; أَيْ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الَّذِي خَاطَبَتْهُ فِيهِ مَرْيَمُ بِمَا ذُكِرَ ، دَعَا رَبَّهُ ، وَرُؤْيَةُ الْأَوْلَادِ النُّجَبَاءِ تُشَوِّقُ نَفْسَ الْقَارِئِ وَتُهَيِّجُ تَمَنِّيَهُ لَوْ يَكُونُ لَهُ مِثْلُهُمْ ، وَذَهَبَ الْمُفَسِّرُ (الْجَلَالُ) كَغَيْرِهِ إِلَى أَنَّ الَّذِي بَعَثَ زَكَرِيَّا إِلَى الدُّعَاءِ هُوَ رُؤْيَةُ

فَاكِهَةَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ وعَكْسُهُ فَإِنَّ ذَلِكَ قَبْلَ مَجِيءِ الْوَلَدِ مِنَ الشَّيْخِ الْكَبِيرِ والْمَرْأَةِ الْعَاقِرِ ، ولَيْسَ فِي الآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ، وقَدْ

(263/117)

يُعْتَرَضُ عَلَيْهِ بِأَنَّ فِيهِ إِشْعَارًا بِأَنَّ زَكَرِيَّا لَمْ يَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ عَالِمًا بِإِمْكَانِ الْخَوَارِقِ ولَا يَقُولُ بِهَذَا مُؤْمِنٌ بِنُبُوَّتِهِ . فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ تَعَجُّبَهُ بَعْدَ قَوْلِهِ : رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ قَدْ يُشْعِرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، فَالْجَوَابُ : أَنَّ هَذَا يُؤَيِّدُ امْتِنَاعَ أَنْ تَكُونَ رِوَايَةُ الْخَوَارِقِ هِيَ الَّتِي أَثَارَتْ فِي نَفْسِهِ هَذَا الدُّعَاءَ ، ثُمَّ قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي مَعْنَى هَذَا الدُّعَاءِ وهَذَا التَّعَجُّبِ مِنَ اسْتِجَابَتِهِ أَحْسَنَ قَوْلٍ . وهَاكَهُ بِالْمَعْنَى مَعَ شَيْءٍ مِنَ التَّصَرُّفِ : إِنَّ زَكَرِيَّا لَمَّا رَأَى مَا رَآهُ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَلَى مَرْيَمَ فِي كَمَالِ إِيمَانِهَا وحُسْنِ حَالِهَا ولَا سِيَّمَا اخْتِرَاقُ شُعَاعِ بَصِيرَتِهَا لِحُجُبِ الْأَسْبَابِ ، ورُؤْيَتُهَا أَنَّ الْمُسَخِّرَ لَهَا هُوَ الَّذِي يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، أَخَذَ عَنْ نَفْسِهِ ، وغَابَ عَنْ حِسِّهِ ، وانْصَرَفَ عَنِ الْعَالَمِ ومَا فِيهِ ، واسْتَغْرَقَ قَلْبُهُ فِي مُلَاحَظَةِ فَضْلِ اللهِ ورَحْمَتِهِ . فَنَطَقَ بِهَذَا الدُّعَاءِ فِي حَالِ غَيْبَتِهِ . وإِنَّمَا يَكُونُ الدُّعَاءُ جَدِيرًا بِأَنْ يُسْتَجَابَ إِذَا جَرَى بِهِ اللِّسَانُ بِتَلْقِينِ الْقَلْبِ فِي حَالِ اسْتِغْرَاقِهِ فِي الشُّعُورِ بِكَمَالِ الرَّبِّ ، ولَمَّا عَادَ مِنْ سَفَرِهِ فِي عَالَمِ الْوَحْدَةِ إِلَى عَالَمِ الْأَسْبَابِ ومَقَامِ التَّفْرِقَةِ ، وقَدْ أُوذِنَ بِسَمَاعِ نِدَائِهِ ،

وَاسْتِجَابَةِ دُعَائِهِ ، سَأَلَ رَبَّهُ عَنْ كَيْفِيَّةِ تِلْكَ الِاسْتِجَابَةِ – وَهِيَ عَلَى غَيْرِ السُّنَّةِ الْكَوْنِيَّةِ – فَأَجَابَهُ بِمَا أَجَابَهُ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ

وَجَلَّ :

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ قَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ (فَنَادَاهُ الْمَلَائِكَةُ) بِالتَّذْكِيرِ وَالْإِمَالَةِ ، وَالْبَاقُونَ (فَنَادَتْهُ) بِتَاءِ التَّأْنِيثِ ، أَيْ جَمَاعَةُ الْمَلَائِكَةِ ، وَالْعَرَبُ تُؤَنِّثُ وَتُذَكِّرُ الْمُسْنَدَ إِلَى جَمْعِ الذُّكُورِ الظَّاهِرِ لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ فِي لَفْظِهِ تَاءٌ كَالطَّلْحَاتِ ، وَرَسْمُ الْمُصْحَفِ يَتَّفِقُ مَعَ الْقِرَاءَتَيْنِ ، لِأَنَّهُ رُسِمَ فِيهِ بِالْيَاءِ غَيْرِ مَنْقُوطَةٍ هَكَذَا " فَنَادَهُ " وَمِنْ سُنَّتِهِ رَسْمُ الْأَلِفِ الْمُمَالَةِ يَاءً لِأَنَّهَا مُنْقَلِبَةٌ عَنْهَا ، وَجُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ يَقُولُونَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالْمَلَائِكَةِ جِبْرِيلُ مَلَكُ الْوَحْيِ ، وَقَالُوا : إِنَّ الْعَرَبَ تُخْبِرُ عَنِ الْوَاحِدِ بِلَفْظِ الْجَمْعِ تُرِيدُ بِهِ الْجِنْسَ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ يُقَالُ : خَرَجَ فُلَانٌ عَلَى بِغَالِ الْبَرِيدِ ، وَإِنَّمَا رَكِبَ بَغْلًا وَاحِدًا ، وَرَكِبَ السُّفُنَ وَإِنَّمَا رَكِبَ سَفِينَةً وَاحِدَةً ، وَكَمَا يُقَالُ : مِمَّنْ سَمِعْتَ هَذَا الْخَبَرَ ؟ فَيُقَالُ : مِنَ النَّاسِ ، وَإِنَّمَا سَمِعَهُ مِنْ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ مِنْهُ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ [3 : 173]

وَالْقَائِلُ كَانَ فِيمَا ذَكَرُوا وَاحِدًا ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ : وَأَمَّا الصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي تَأْوِيلِهِ فَأَنْ يُقَالَ : إِنَّ اللهَ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – أَخْبَرَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ نَادَتْهُ ، وَالظَّاهِرُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا

(265/117)

جَمَاعَةٌ دُونَ الْوَاحِدِ وَجِبْرِيلُ وَاحِدٌ . فَلَنْ يَجُوزَ أَنْ يُحْمَلَ تَأْوِيلُ الْقُرْآنِ إِلَّا عَلَى الْأَظْهَرِ الْأَكْثَرِ مِنَ الْكَلَامِ الْمُسْتَعْمَلِ فِي أَلْسُنِ الْعَرَبِ دُونَ الْأَقَلِّ مَا وُجِدَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلٌ ، وَلَمْ تَضْطَرَّنَا حَاجَةٌ إِلَى صَرْفِ ذَلِكَ إِلَى أَنَّهُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ فَيُحْتَاجُ لَهُ إِلَى طَلَبِ الْمَخْرَجِ بِالْخَفِيِّ مِنَ الْكَلَامِ وَالْمَعَانِي ، وَبِمَا قُلْنَا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّأْوِيلِ ، قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْهُمْ قَتَادَةُ ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَعِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَجَمَاعَةٌ غَيْرُهُمْ . اهـ .

(266/117)

أَمَّا قَوْلُهُ : وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ فَالظَّاهِرُ مِنْ مَعْنَاهُ الْمُتَبَادِرِ عِنْدِي أَنَّهُ نُودِيَ وَهُوَ قَائِمٌ يَدْعُو بِذَلِكَ الدُّعَاءِ الَّذِي ذُكِرَ هُنَا مُخْتَصَرًا ، وَذُكِرَ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ بِأَطْوَلَ مِمَّا هُنَا ، فَالصَّلَاةُ دُعَاءٌ وَالدُّعَاءُ صَلَاةٌ ، وَقَدْ عَطَفَ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى مَا قَبْلَهُ بِالْفَاءِ وَحِكَايَةُ مَا

قَبْلَهُ صَرِيحَةٌ فِي كَوْنِ الدُّعَاءِ وَقَعَ فِي الْمِحْرَابِ الَّذِي كَانَتْ مَرْيَمُ فِيهِ ، فَقَوْلُ الرَّازِيِّ : إِنَّ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الصَّلَاةَ مَشْرُوعَةٌ عِنْدَهُمْ غَرِيبٌ جِدًّا ، وَأَيُّ دِينٍ لَا صَلَاةَ فِيهِ وَلَا دُعَاءَ ؟ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى أَيْ بِوَلَدٍ اسْمُهُ يَحْيَى كَمَا فِي سُورَةِ مَرْيَمَ : إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى [19 : 7] قَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَحَمْزَةُ " إِنَّ " بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ لِأَنَّ النِّدَاءَ قَوْلٌ ، وَالْبَاقُونَ بِفَتْحِهَا عَلَى تَقْدِيرِ الْبَاءِ ، أَيْ نَادَتْهُ بِأَنَّ اللهَ يُبَشِّرُهُ ، وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ الْبِشَارَةَ مَحْكِيَّةٌ بِالْمَعْنَى لَا بِاللَّفْظِ ، فَمَا هُنَا لَا يُنَافِي مَا فِي سُورَةِ مَرْيَمَ مِنَ التَّفْصِيلِ ، قَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ (يُبْشِرُكَ) كَ "يَنْصُرُكَ" وَالْبَاقُونَ بِالتَّشْدِيدِ ، وَ "يَحْيَى" تَعْرِيبٌ لِكَلِمَةِ "يُوحَنَّا" فِي لُغَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَهِيَ مِنْ مَادَّةِ الْحَيَاةِ ، فَالِاسْمُ يُشْعِرُ بِأَنَّهُ يَحْيَا حَيَاةً طَيِّبَةً بِأَنْ يَكُونَ وَارِثًا لِوَالِدِهِ وَمِنْ آلِ يَعْقُوبَ مَا كَانَ فِيهِمْ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْفَضْلِ ، وَقَدْ وَصَفَ - تَعَالَى - هَذَا الْمُبَشَّرَ بِهِ بِعِدَّةِ صِفَاتٍ وَرَدَتْ حَالًا مِنْهُ

(267/117)

وَهِيَ قَوْلُهُ :

مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ أَمَّا تَصْدِيقُهُ بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ فَهُوَ تَصْدِيقُهُ بِعِيسَى الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ بِهِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ أَوِ الَّذِي يُولَدُ بِكَلِمَةِ اللهِ كُنْ فَيَكُونُ [36 :

82] أَيْ بِغَيْرِ السُّنَّةِ الْعَامَّةِ فِي تَوَالُدِ الْبَشَرِ ، وَهِيَ أَنْ يُولَدَ الْوَلَدُ بَيْنَ أَبٍ وَأُمٍّ . وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالْكَلِمَةِ هُنَا الْكِتَابُ أَوِ الْوَحْيُ ; لِأَنَّ الْكَلِمَةَ تُطْلَقُ عَلَى الْكَلَامِ وَإِنْ كَانَ كَثِيرًا ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ . وَأَمَّا السَّيِّدُ : فَهُوَ مَنْ يَسُودُ فِي قَوْمِهِ بِالْعِلْمِ أَوِ الْكَرَمِ أَوِ الصَّلَاحِ وَعَمَلِ الْخَيْرِ . وَالْحَصُورُ وَصْفُ مُبَالَغَةٍ مِنْ مَادَّةِ الْحَصْرِ ، وَمَعْنَاهَا : الْحَبْسُ ، فَهُوَ مَنْ يَحْبِسُ نَفْسَهُ وَيَمْنَعُهَا مِمَّا يُنَافِي الْفَضْلَ وَالْكَمَالَ اللَّائِقَ بِهَا ، وَيُطْلَقُ عَلَى

(268/117)

الْكَتُومِ لِلْأَسْرَارِ وَعَلَى مَنْ يَمْتَنِعُ مِنَ النِّسَاءِ لِلْعُنَّةِ أَوْ لِلْعِفَّةِ . وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ هَذَا الْأَخِيرَ هُوَ الْمُرَادُ هُنَا ; وَلِذَلِكَ بَحَثُوا فِي كَوْنِ تَرْكِ التَّزَوُّجِ أَفْضَلَ مِنْ فِعْلِهِ أَمْ لَا ؟ وَقَالَ الرَّازِيُّ : احْتَجَّ أَصْحَابُنَا بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ تَرْكَ النِّكَاحِ أَفْضَلُ ، وَنَقُولُ : إِنَّ الْآيَةَ لَيْسَتْ نَصًّا وَلَا ظَاهِرَةً فِي ذَلِكَ ، وَإِذَا سَلَّمْنَا أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَيْهِ فَلَا نُسَلِّمُ أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَرْكَ التَّزَوُّجِ أَفْضَلُ مُطْلَقًا ، وَلَيْسَ يَحْيَى بِأَفْضَلَ مِنْ أَبِيهِ وَلَا مِنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ وَلَا مِنْ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَسُنَّةُ النِّكَاحِ أَفْضَلُ سُنَنِ الْفِطْرَةِ لِأَنَّهَا قِوَامُ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَسَبَبُ بَقَاءِ الْإِنْسَانِ الَّذِي كَرَّمَهُ اللهُ وَخَلَقَهُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ وَجَعَلَهُ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ إِلَى الْأَجَلِ

الْمُسَمَّى فِي عِلْمِ اللهِ . وَمَعْنَى كَوْنِهِ نَبِيًّا مَعْرُوفٌ ، وَأَمَّا كَوْنُهُ مِنَ الصَّالِحِينَ فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الصَّالِحِينَ أَوْ مِنَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ وَهُمْ أَهْلُ بَيْتِهِ .

(269/117)

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالُوا : إِنَّ السُّؤَالَ لِلتَّعَجُّبِ ، وَأَكْثَرُوا فِي ذَلِكَ السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ ، وَتَقَدَّمَ قَوْلُ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ فِي ذَلِكَ ، وَهُوَ أَفْضَلُ مَا قِيلَ فِيهِ . وَلِبَعْضِهِمْ كَلَامٌ فِي الْمَسْأَلَةِ لَا يَلِيقُ بِمَقَامِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - ، وَلَا يَمْنَعُ مَانِعٌ مَا أَنْ يَكُونَ الِاسْتِفْهَامُ عَلَى ظَاهِرِهِ ، وَأَنْ يَكُونَ قَدْ قَالَهُ تَشَوُّقًا إِلَى مَعْرِفَةِ الْكَيْفِيَّةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْإِنْتَاجُ مَعَ عَدَمِ تَوَفُّرِ الْأَسْبَابِ الْعَادِيَّةِ لَهُ بِكِبَرِ سِنِّهِ وَعُقْرِ زَوْجِهِ (قَالَ) - تَعَالَى - وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ بِوَاسِطَةِ الْمَلَائِكَةِ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ فَإِنَّهُ مَتَى شَاءَ أَمْرًا أَوْجَدَ لَهُ سَبَبَهُ ، أَوْ خَلَقَهُ بِغَيْرِ الْأَسْبَابِ الْمَعْرُوفَةِ لَا يَحُولُ دُونَ مَشِيئَتِهِ شَيْءٌ ، فَعَلَيْكَ أَنْ تُفَوِّضَ الْأَمْرَ إِلَيْهِ فِي هَذِهِ الْكَيْفِيَّةِ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً أَيْ عَلَامَةً تَتَقَدَّمُ هَذِهِ الْعِنَايَةَ وَتُؤْذِنُ بِهَا ، وَمِنْ سَخَافَاتِ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ الَّتِي أَوْمَأْنَا إِلَيْهَا آنِفًا زَعْمُهُمْ أَنَّ زَكَرِيَّا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - اشْتَبَهَ عَلَيْهِ وَحْيُ الْمَلَائِكَةِ وَنِدَاؤُهُمْ بِوَحْيِ الشَّيَاطِينِ ; وَلِذَلِكَ سَأَلَ سُؤَالَ التَّعَجُّبِ ، ثُمَّ طَلَبَ آيَةً لِلتَّثَبُّتِ ، وَرَوَى ابْنُ

جَرِيرٍ عَنِ السُّدِّيِّ وَعِكْرِمَةَ : أَنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الَّذِي شَكَّكَهُ فِي نِدَاءِ الْمَلَائِكَةِ وَقَالَ لَهُ : إِنَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ . وَلَوْلَا الْجُنُونُ بِالرِّوَايَاتِ مَهْمَا هَزُلَتْ وَسَمُجَتْ لَمَا كَانَ

(270/117)

لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَكْتُبَ مِثْلَ هَذَا الْهُزْءِ وَالسُّخْفِ الَّذِي يَنْبِذُهُ الْعَقْلُ وَلَيْسَ فِي الْكِتَابِ مَا يُشِيرُ إِلَيْهِ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِمَنْ يَرْوِي مِثْلَ هَذَا إِلَّا هَذَا لَكَفَى فِي جَرْحِهِ ،

(271/117)

وَأَنْ يُضْرَبَ بِرِوَايَتِهِ عَلَى وَجْهِهِ ، فَعَفَا اللهُ عَنِ ابْنِ جَرِيرٍ إِذْ جَعَلَ هَذِهِ الرِّوَايَةَ مِمَّا يُنْشَرُ . قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا قِيلَ مَعْنَاهُ : أَنْ تَعْجِزَ عَنْ خِطَابِ النَّاسِ بِحَصْرٍ يَعْتَرِي لِسَانَكَ إِذَا أَرَدْتَهُ ، وَيُرَجِّحُهُ أَنَّ الْآيَةَ تَكُونُ بِغَيْرِ الْمُعْتَادِ ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ أَنْ تَتْرُكَ ذَلِكَ مُخْتَارًا لِتَفْرُغَ لِعِبَادَةِ اللهِ ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ : وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ وَالْمَشْهُورُ الْأَوَّلُ ، وَلِلْمُفَسِّرِينَ رِوَايَاتٌ سَقِيمَةٌ فِيهِ ، مِنْهَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عُقُوبَةٌ عَاقَبَهُ اللهُ - تَعَالَى - بِهَا أَنْ طَلَبَ الْآيَةَ بَعْدَ تَبْشِيرِ الْمَلَائِكَةِ ، وَمِنْهَا أَنَّ لِسَانَهُ رَبَا فِي فِيهِ حَتَّى مَلَأَهُ ،

وَمِثْلُ هَذَا السَّخَفِ لَا يَجُوزُ ذِكْرُهُ إِلَّا لِأَجْلِ رَدِّهِ عَلَى قَائِلِهِ وَضَرْبِ وَجْهِهِ بِهِ . وَفِي إِنْجِيلِ لُوقَا أَنَّ جِبْرِيلَ قَالَ لِزَكَرِيَّا " (1 : 20) وَهَا أَنْتَ تَكُونُ صَامِتًا وَلَا تَقْدِرُ أَنْ تَتَكَلَّمَ إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي يَكُونُ هَذَا لِأَنَّكَ لَمْ تُصَدِّقْ كَلَامِي الَّذِي سَيَتِمُّ فِي وَقْتِهِ " وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : الصَّوَابُ أَنَّ زَكَرِيَّا أَحَبَّ بِمُقْتَضَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ أَنْ يَتَعَيَّنَ لَدَيْهِ الزَّمَنُ الَّذِي يَنَالُ بِهِ تِلْكَ الْمِنْحَةَ الْإِلَهِيَّةَ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ ، وَيُبَشِّرَ أَهْلَهُ . فَسَأَلَ عَنِ الْكَيْفِيَّةِ ، وَلَمَّا أُجِيبَ بِهِ سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَخُصَّهُ بِعِبَادَةٍ يَتَعَجَّلُ بِهَا شُكْرَهُ وَيَكُونُ إِتْمَامُهُ إِيَّاهَا آيَةً وَعَلَامَةً عَلَى حُصُولِ

(272/117)

الْمَقْصُودِ . فَأُمِرَ بِأَلَّا يُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، بَلْ يَنْقَطِعُ لِلذِّكْرِ وَالتَّسْبِيحِ مَسَاءً صَبَاحًا مُدَّةَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، فَإِذَا احْتَاجَ إِلَى خِطَابِ النَّاسِ أَوْمَأَ إِلَيْهِمْ إِيمَاءً ، وَعَلَى هَذَا تَكُونُ بِشَارَتُهُ لِأَهْلِهِ بَعْدَ مُضِيِّ الثَّلَاثِ اللَّيَالِي . وَاخْتَلَفُوا فِي الرَّمْزِ هَلْ كَانَ بِالْقَوْلِ الْخَفِيِّ وَتَحْرِيكِ الشَّفَتَيْنِ أَمْ بِغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَعْضَاءِ كَالْعَيْنَيْنِ وَالْحَاجِبَيْنِ وَالرَّأْسِ وَالْيَدَيْنِ ؟ لِأَنَّ الرَّمْزَ وَالْإِيمَاءَ يَكُونُ بِكُلِّ ذَلِكَ . وَالْعَشِيُّ مِنَ الزَّوَالِ إِلَى الْغُرُوبِ . وَقِيلَ : مِنَ الْغُرُوبِ إِلَى ذَهَابِ صَدْرٍ مِنَ اللَّيْلِ . قَالَ الرَّاغِبُ : مِنْ زَوَالِ الشَّمْسِ إِلَى الصَّبَاحِ . وَالْإِبْكَارُ مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى الضُّحَى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 3 صـ 243 . 246 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ﴾

إن زكريا يطلب علامة على أن القول قد انتقل إلى فعل .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَالِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾

[مريم : 8 – 9] .

لقد كان هذا القول تأكيدا لا شك فيه ، فبمجرد أن قال الرب فقد انتهى الأمر . فماذا يريد زكريا من بعد ذلك ؟ إنه يطلب آية ، أي علامة على أن يحيى قد تم إيجاده في رحم أمه ، وما دامت المرأة قد كبرت فهي قد انقطع عنها الحيض ، ولا بد أنه عرف الآية لأنه يعرف مسبقا أنها عاقر . لكن زكريا لم يرغب أن يفوت على نفسه لحظة من لحظات هبات الله عليه ، وما دام الحمل قد حدث فهنا كانت استغاثة زكريا ، لا تتركني يا رب إلى أن أفهم بالعلامات الظاهرة المحسة ، لأنني أريد أن أعيش من أول نعمتك عليّ في إطار الشكر لك على النعمة

، فبمجرد أن يحدث الإخصاب لا بد أن أحيا في نطاق الشكر ؛ لأن النعمة قد تأتي وأنا غير شاكر .

إنه يطلب آية ليعيش في نطاق الشكر ، إنه لم يطلب آية لأنه يشك - معاذ الله - في قدرة الله ، ولكن لأنه لا يريد أن يفوت على نفسه لحظة النعمة من أول وجودها إلا ومعها الشكر عليها ، والذي يعطينا هذا المعنى هو القول الحق : ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ . لا بد أن معناها أنه يرغب في الكلام فلا يستطيع .

(274/117)

إن هناك فارقا بين أن يقدر على الكلام ولا يتكلم ، وبين ألا يقدر على الكلام . وما دامت الآية هبة من الله . فالحق هو الذي قال له : سأمنعك من أن تتكلم ، فساعة أن تجد نفسك غير قادر على الكلام فاعرف أنها العلامة ، وستعرف أن تتكلم مع الناس رمزا ، أي بالإشارة ، وحتى تعرف أن الآية قادمة من الله ، وأن الله علم عن عبده أنه لا يريد أن تمر عليه لحظة مع نعمة الله بدون شكر الله عليها ، فإننا نعلم أن الله سينطقه . . ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ .

لقد أراد زكريا أن يعيش من أول لحظة مع نعمة المنعم شكرا ، وجعل كل وقته ذكرا ، فلم ينشغل بالناس أو بكلام الناس ، وذكر الرب كثيرا هو ما علمه - سبحانه - عن زكريا عندما طلب الآية ليصحبها دائما بشكر الله عليها ، إن قوله : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً ﴾ تفيد أن زكريا قادر على الذكر وغير قادر على كلام الناس ، لذلك لا يريد الله أن يشغله بكلام الناس ، وكأن الله يريد أن يقول له : ما دمت قد أردت أن تعيش مع النعمة شكرا فسأجعلك غير قادر على الكلام مع الناس لكنك قادر على الذكر .

والذكر مطلقا هو ذكر الله بآلائه وعظمته وقدرته وصفات الكمال له ، والتسبيح هو التنزيه لله ، لأن ما فعله الله لا يمكن أن يحدث من سواه ، فسبحان الله ، معناها تنزيه لله ، لأنه القادر على أن يفعل ما لا تفعله الأسباب ولا يقدر أحد أن يصنعه . . إنه يريد أن يشكر الحق الذي يرزق من يشاء بغير حساب . تلك اللفتة . . التي جاءت من قبل من مريم لزكريا .

(275/117)

وزكريا كما نعلم هو الكفيل لها ، فكونها تنطق بهذه العبارة دلالة على أن الله مهد لها بالرزق ، يجيئها من غير زكريا ، بأنها ستأتي بشيء من غير أسباب . وكأن التجربة قد

أراد الله أن تكون من ذاتها لذاتها ؛ لأنها ستتعرض لشيء يتعلق بعرض المرأة ، فلا بد أن تعلم مسبقا أن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، وبدون أسباب . فإن جاءت بولد بدون سبب من أبوة فلتعلم أن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

فلما سمع زكريا منها ذلك قال : ما دام الله يرزق من غير حساب ويأتي بالأشياء بلا أسباب فأنا قد بلغت من الكبر عتيا ، وامرأتي عاقر ، فلماذا لا أطلب من ربي أن يهبني غلاما ؟ إذن فمقولة مريم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قد لفتت زكريا ، ونبهت إيمانا موجودا في أعماقه وحاشية شعوره ، ولا نقول أوجدت إيمانا جديدا لزكريا بأن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، ولكنها أخرجت القضية الإيمانية من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور ، فقال زكريا : ما دام الأمر كذلك فأنا أسأل الله أن يهبني غلاما . . وقول زكريا : ﴿ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ دل على أنه وزوجته لا يملكان اكتساب الأبوة والأمومة ولذلك طلب الهبة من الله . والهبة شيء بدون مقابل .

فلما سأل الله ذلك استجاب الله له ، وقال له سبحانه : سأهبك غلاما بدون أسباب من خصوبتك في التلقيح أو خصوبة الزوجة في الحمل ، وما دامت المسألة ستكون بلا أسباب وأنا - الخالق - سأتولى الإيجاب بـ "كن" ولمعنى سام شريف سأمنحكم شيئا آخر تقومون به أنتم معشر الآباء والأمهات - عادة - إنه تسمية المولود ، فأفاض الحق عليهم نعمة أخرى وهي تسمية المولود بعد أن وهبه لهما . . هنا وقفة عند الهبة بالاسم .

﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾

[آل عمران: 39].

حين يولد للناس ولد فهم يسمونه، فالتسمية أمر شائع في عادات الناس. ولكن من يهمهم أمر الوليد حينما يقبلون على تسميته؛ فهم يحاولون أن يتفاءلوا؛ فيسموه اسما يرجون أن يتحقق في المسمى، فيسمونه "سعيدا" أملا في أن يكون سعيدا، أو يسمونه "فضلا" أو يسمونه "كريما".

إنهم يأتون بالاسم الذي يحبون أن يجدوا وليدهم على صفته, وذلك هو الأمل منهم ولكن أتأتي المقادير على وفق الآمال؟

قد يسمونه سعيدا، ولا يكون سعيدا. ويسمونه فضلا، ولا يكون فضلا. ويسمونه عزا، ولا يكون عزا. ولكن ماذا يحدث حين يسمى الله سبحانه وتعالى؟ لا بد أن يختلف الموقف تماما، فإذا قال اسمه ﴿ يَحْيَى ﴾ دل على أنه سيعيش. وقديما قال الشاعر حينما تفاءل بتسمية ابنه يحيى: فسميته يحيا ليحيا فلم يكن لرد قضاء الله فيه سبيل

كان الشاعر قد سمى ابنه يحيى أملا أن يحيا ، ولكن الله لم يرد ذلك ، فمات الابن . لماذا ؟ لأن المسمىِّ من البشر ليس هو الذي يُحْيِي ، إن المسمى إنسان قدرته عاجزة ، ولكن " المحيى " له طلاقة القدرة ، فحين يسمى من له طلاقة القدرة على إرادة أن يحيا فلا بد من أن يحيا حياة متميزة ؟ وحتى لا تفهم أن الحياة التي أشار الله إليها بقوله : " اسمه يحيى " بأنها الحياة المعروفة للبشر عادة – لأن الرجل حينما يسمى ابنه " يحيى " يأمل أن يحيا الابن متوسط الأعمار ، كما يحيا الناس ستين عاما ، أو سبعين ، أو أي عدد من السنوات مكتوبة له في الأزل .

(277/117)

لكن الله حينما يسمى " يحيى " فانه لا يأخذ " يحيى " على قدر ما يأخذه الناس ، بل لا بد أن يعطيه أطول من حدود أعمار الناس ، ويهيء له الحق من خصومه ومن أعدائه من يقتله ليكون شهيدا ، وهو بالشهادة يصير حيا ، فكأنه يحيا دائما ، فالشهداء أحياء عند ربهم يرزقون .

وهكذا أراد الله ليحيى عليه السلام أن يحيا كحياة الناس ، ويحيا أطول من حياة الناس إلى أن تقوم الساعة ، وأيضا نأخذ ملحظا في أن زكريا حينما بُشِّر بأن الله سيهبه غلاما

ويسميه يحيى، نجده قد استقبلها بالعجب. كيف يستقبل زكريا مسألة الرزق بالولد متعجبا مع أنه رآها في الرزق الذي كان يجده عند مريم؟ ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

ولنا أن نقول: أكنت تحب أن يمر مثل هذا الأمر الخارق للعادة والخارق للناموس على سيدنا زكريا كأنه أمر عادي لا يندهش له ولا يتعجب؟ لا، لا بد أن يندهش ويتعجب لذلك قال: ﴿ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾. فكأن الدهشة لفتته إلى أنه ستأتي آية عجيبة، ولو لم تكن تلك الدهشة لكانت المسألة رتيبة وكأنها أمر عادي. إذن، فهو يلفتنا إلى الأمر العجيب الذي خصه الله به. وأيضا جاءت المسألة على خلاف ناموس التكاثر والإنجاب والنسل: ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾.

إن المسألة كلها تفضل وهبة من الله.

فلما جاءته البشارة، لم يقل الله له: إنني سأهبك الغلام واسمه يحيى من امرأتك هذه، أو وأنت على حالتك هذه. فيتشكك ويتردد ويقول: أترى يأتي الغلام الذي اسمه "يحيى" مني وأنا على هذه الحالة، امرأتي عاقر وأنا قد بلغت هذا الكبر، أو ربما ردنا الله شبابا حتى نستطيع الإنجاب، أو تأتي امرأة أخرى فأتزوجها وأنجب.

إذن فالعجب في الهيئة التي سيصير عليها الإنجاب فقوله : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ * وَقد بلغني الكبر وامْرَأَتِي عَاقِراً ﴾ هذا التساؤل من زكريا يهدف به إلى معرفة الهيئة أو الحالة التي سيأتي بها الإنجاب ، لأن الإنجاب يأتي على حالات متعددة . فلما أكد الله ذلك قال : "كذلك" ماذا تعني كذلك ؟ إنها تعني أن الإنجاب سيأتي منك ومن زوجك وأنتما على حالكما ، أنت قد بلغت من الكبر عتيا ، وامرأتك عاقر . لأن العجيبة تتحقق بذلك ، أكان من المعقول أن يردهما الله شبابا حتى يساعداه أن يهبهما الولد ؟ لا . لذلك قال الحق : ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ . أي كما أنتما ، وعلى حالتكما .

لقد جعل الحق الآية ألا يكلم زكريا الناس ثلاثة أيام إلا بالإشارة ، وقد يكون عدم الكلام في نظر الناس مرضا لا ، إنه ليس كذلك ، لأن الحق يقول له : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ إن الحق يجعل زكريا قادرا على التسبيح ، وغير قادر على الكلام . وهذه قدرة أخرى من طلاقة قدرة الله ، إنه اللسان الواحد ، غير القادر على الكلام ، ولو حاول أن يتكلم لما استطاع ، ولكن هذا اللسان نفسه – أيضا – يصبح قادرا فقط على التسبيح ، وذكر الله بالعشيّ والإبكار ، ذكر الله باللسان وسيسمعه الناس ، وذلك بيان لطلاقة القدرة .

وبعد ذلك ينتقل بنا الحق إلى مسألة أخرى تتعلق بمريم ، لأن مريم هي الأصل في الكلام ،

فالرزق الذي كان يأتيها من الله بغير حساب هو الذي نبه سيدنا زكريا إلى طلب الولد ، وجاء الحق لنا بقصة زكريا والولد ، ثم عاد إلى قصة مريم : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1447 . 1452 ﴾

(279/117)

" فصل "

قال السيوطى :

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (38)

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما رأى ذلك زكريا يعني فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف عند مريم قال : إن الذي يأتي بهذا مريم في غير زمانه قادر أن يرزقني ولداً فذلك حين دعا ربه .

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر عن الحسن قال : لما وجد زكريا عند مريم ثمر الشتاء في الصيف وثمر الصيف في الشتاء يأتيها به جبريل قال لها : أنى لك هذا في غيره حينه ؟ فقالت : هذا رزق من عند الله يأتي به الله ﴿ أن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾

فطمع زكريا في الولد فقال : أن الذي أتى مريم بهذه الفاكهة في غير حينها لقادر أن يصلح لي زوجتي ، ويهب لي منها ولداً ، فعند ذلك ﴿ دعا زكريا ربه ﴾ وذلك لثلاث ليال بقين من المحرم . قام زكريا فاغتسل ثم ابتهل في الدعاء إلى الله قال : يا رازق مريم ثمار الصيف في الشتاء وثمار الشتاء في الصيف هب لي من لدنك يعني من عندك ذرية طيبة يعني تقيا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿ ذرية طيبة ﴾ يقول : مباركة .

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (39)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي ﴿ فنادته الملائكة ﴾ قال : جبريل .

وأخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن أبي حماد قال : في قراءة ابن مسعود " فناداه جبريل وهو قائم يصلي في المحراب " .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود قال : ذكروا الملائكة ثم تلا ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ﴾ [النجم : 27] وكان يقرأها " فناداه الملائكة " .

وأخرج الخطيب في تاريخه عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ " فناداه الملائكة " بالتاء .

وأخرج ابن المنذر عن إبراهيم قال : كان عبد الله يذكر الملائكة في القرآن .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم بن أبي النجود أنه قرأ ﴿ فنادته الملائكة ﴾ بالتاء ﴿ أن الله ﴾ بنصب الألف ﴿ يبشرك ﴾ مثقلة .

قوله تعالى : ﴿ وهو قائم يصلي ﴾ .

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ثابت قال : الصلاة خدمة الله في الأرض ، ولو علم الله شيئاً أفضل من الصلاة ما قال ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ في المحراب ﴾ .

أخرج ابن المنذر عن السدي . المحراب المصلى .

وأخرج الطبراني والبيهقي في سننه عن ابن عمرو " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اتقوا هذه المذابح . يعني المحاريب " .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن موسى الجهني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تزال أمتي بخير ما لم يتخذوا في مساجدهم مذابح كمذابح النصارى " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : اتقوا هذه المحاريب .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبيد بن أبي الجعد قال : كان أصحاب محمد صلى الله عليه

وسلم يقولون : أن من أشراط الساعة أن تتخذ المذابح في المساجد . يعني الطاقات .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي ذر قال : أن من أشراط الساعة أن تتخذ المذابح في المساجد .

وأخرج ابن أبي شيبة عن علي . أنه كره الصلاة في الطاق .

وأخرج ابن أبي شيبة عن إبراهيم . أنه كان يكره الصلاة في الطاق .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سالم بن أبي الجعد . أنه يكره المذابح في المساجد .

وأخرج ابن أبي شيبة عن كعب . أنه كره المذابح في المسجد .

وأخرج ابن جرير عن معاذ الكوفي قال : من قرأ ﴿ يبشر ﴾ مثقلة فإنه من البشارة ، ومن قرأ ﴿ يبشر ﴾ مخففة بنصب الباء فإنه من السرور .

وأخرج ابي جرير وابن المنذر عن قتادة قال : أن الملائكة شافهته بذلك مشافهة فبشرته بيحيى .

(281/117)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ أن الله يبشرك بيحيى ﴾ قال : إنما سمي يحيى لأن الله أحياه بالإيمان .

وأخرج ابن عدي والدارقطني في الافراد والبيهقي وابن عساكر عن ابن مسعود مرفوعاً " خلق الله فرعون في بطن أمه كافراً ، وخلق يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمناً " .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ مصدقاً بكلمة من الله ﴾ قال : عيسى ابن مريم ، والكلمة يعني تكوّن بكلمة من الله .

وأخرج أحمد في الزهد وابن جرير عن مجاهد قال : قالت امرأة زكريا لمريم : إني أجد الذي في بطني يتحرك للذي في بطنك ، فوضعت امرأة زكريا يحيى عليه السلام ، ومريم عيسى عليه السلام . وذلك قوله ﴿ مصدقاً بكلمة من الله ﴾ قال : يحيى مصدق بعيسى .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك في قوله ﴿ مصدقاً بكلمة من الله ﴾ قال : كان يحيى أول من صدق بعيسى ، وشهد أنه كلمة من الله . قال : وكان يحيى ابن خالة عيسى ، وكان أكبر من عيسى .

وأخرج ابن جرير عن قتادة ﴿ مصدقاً بكلمة من الله ﴾ يقول : مصدق بعيسى ، وعلى سنته ومنهاجه .

وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس ﴿ مصدقاً بكلمة من الله ﴾ قال : كان عيسى ويحيى ابني خالة ، وكانت أم يحيى تقول لمريم : إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك ، فذلك تصديقه بعيسى سجوده في بطن أمه وهو أول من صدق بعيسى ، وكلمة عيسى . ويحيى أكبر من عيسى .

وأخرج ابن جرير عن السدي قال : لقيت أم يحيى أم عيسى وهذه حامل بيحيى ، وهذه حامل بعيسى فقالت امرأة زكريا : إني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك . فذلك قوله تعالى ﴿ مصدقاً بكلمة من الله ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وسيداً ﴾ قال : حليماً تقياً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : " السيد " الكريم على الله .

(282/117)

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الغضب وابن جرير عن عكرمة قال : " السيد " الذي لا يغلبه الغضب .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن المسيب قال : " السيد " الفقيه العالم .

وأخرج أحمد في الزهد والخرائطي في مكارم الأخلاق عن الضحاك قال : " السيد " الحسن الخلق ﴿ والحصور ﴾ الذي حصر عن النساء .

وأخرج أحمد في البيهقي في سننه عن مجاهد قال : (الحصور) الذي لا يأتي النساء .

وأخرج أحمد في الزهد عن وهب بن منبه قال : نادى منادٍ من السماء أن يحيى بن زكريا سيد من ولدت النساء ، وأن جورجيس سيد الشهداء .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن سعيد بن جبير قال : " السيد " الحليم " والحصور " الذي لا يأتي النساء .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر عن ابن عباس في قوله ﴿ وسيداً وحصوراً ﴾ قال : " السيد " الحليم و " الحصور " الذي لا يأتي النساء .

وأخرج أحمد في الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : " الحصور " الذي لا ينزل الماء .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي في سننه عن ابن مسعود قال : " الحصور " الذي لا يقرب النساء . ولفظ ابن المنذر : العنين .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر عن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ما من عبد يلقى الله إلاّ ذا ذنب إلاّ يحيى بن زكريا ، فإن الله يقول : ﴿ وسيداً وحصوراً ﴾ قال : وإنما كان ذكره مثل هدبة الثوب ، وأشار بأنملته " .

وخرجه ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن أبي حاتم وابن عساكر عن أبي هريرة من وجه آخر عن ابن عمرو . موقوفاً وهو أقوى إسناداً من المرفوع .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن أبي هريرة : " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : كل ابن آدم يلقى الله بذنب قد أذنبه يعذبه عليه إن شاء أو يرحمه إلاّ يحيى بن زكريا ، فإنه كان ﴿ سيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين ﴾ ثم أهوى النبي صلى الله عليه وسلم إلى قذاة من الأرض فأخذها وقال : كان ذكره مثل هذه القذاة " .

وأخرج الطبراني عن أبي أمامة قال : قال رسول الله : " أربعة لعنوا في الدنيا والآخرة ، وأمنت الملائكة : رجل جعله الله ذكراً فأنث نفسه وتشبه بالنساء ، وامرأة جعلها الله أنثى فتذكرت وتشبهت بالرجال ، والذي يضل الأعمى ، ورجل حصور ، ولم يجعل الله حصوراً إلا يحيى بن زكريا " .

وأخرج ابن عساكر عن معاوية بن صالح عن بعضهم رفع الحديث " لعن الله والملائكة رجلاً تحصر بعد يحيى بن زكريا " .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن المسيب في قوله ﴿ وحصوراً ﴾ قال : لا يشتهي النساء ، ثم ضرب بيده إلى الأرض فأخذ نواة فقال : ما كان معه مثل هذه .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ وحصوراً ﴾ قال : ألذي لا يأتي النساء . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول الشاعر :

وحصور عن الخنا يأمر النا . . . س بفعل الحراب والتشمير .

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (40) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (41)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : لما سمع زكريا النداء جاءه الشيطان فقال له : يا زكريا إن الصوت الذي سمعت ليس هو من الله إنما هو من الشيطان ليسخر بك ، ولو كان من الله أوحى إليك كما يوحي إليك في غيره من الأمر . فشك مكانه وقال ﴿ أَنى يكون لي غلام ﴾ .

(284/117)

وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال : أتاه الشيطان فأراد أن يكدر عليه نعمة ربه قال : هل تدري من ناداك ؟ قال : نعم . ناداني ملائكة ربي قال : بل ذلك الشيطان لو كان هذا من ربك لأخفاه إليك كما أخفيت نداءك فقال ﴿ رب اجعل لي آية ﴾ .

أما قوله تعالى : ﴿ وامرأتي عاقر ﴾ .

أخرج ابن جرير وابن حاتم عن شعيب الجبائي قال اسم أم يحيى أشيع .

قوله تعالى : ﴿ قال كذلك يفعل الله ما يشاء ﴾ .

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ كذلك ﴾ يعني هكذا . وفي قوله ﴿ ربي اجعل لي آية ﴾ قال : قال زكريا : رب فإن كان هذا الصوت منك فاجعل لي آية .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ رب اجعل لي آية ﴾ قال بالحمل له .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام ﴾ قال : إنما عوقب بذلك لأن الملائكة شافهته بذلك مشافهة فبشرته بيحيى ، فسأل الآية بعد كلام الملائكة إياه فأخذ عليه بلسانه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي الرحمن السلمي قال : اعتقل لسانه من غير مرض .

وأخرج عن السدي قال : اعتقل لسانه ثلاثة أيام ، وثلاث ليال .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن جبير بن نفير قال : رب لسانه في فيه حتى ملأه فمنعه الكلام ، ثم أطلقه الله بعد ثلاث .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ إلاَّ رمزاً ﴾ قال : " الرمز " بالشفتين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ إلاَّ رمزاً ﴾ قال : إيماؤه بشفتيه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ إلاَّ رمزاً ﴾ قال : الاشارة .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : " الرمز " أن يشير بيده أو رأسه ولا يتكلم .

وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال : الرمز أن أخذ بلسانه فجعل يكلم الناس بيده .

(285/117)

وأخرج الطستي في مسائله وابن الأنباري في الوقف والابتداء عن ابن عباس ، أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ إلاَّ رمزاً ﴾ قال : الاشارة باليد ، والوحي بالرأس قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول الشاعر :

ما في السماء من الرحمن مرتمز . . . إلا إليه وما في الأرض من وزر

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم عن محمد بن كعب القرظي قال : لو رخص الله لأحد في ترك الذكر لرخص لزكريا عليه السلام حيث قال ﴿ آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً ﴾ ولو رخص في ترك الذكر لرخص للذين يقاتلون في سبيل الله قال الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً ﴾ [الأنفال : 45] .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وسبِّح بالعشي والإِبكار ﴾ قال ﴿ العشي ﴾ ميل الشمس إلى أن تغيب ﴿ والإبكار ﴾ أول الفجر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 2 صـ 187. 193﴾

(286/117)

"فصل"

قال الإمام نظام الدين النيسابوري في الآيات السابقة:

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (36) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (37) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (38) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (39) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (40) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (41) ﴾

التفسير: إنه سبحانه ذكر في هذا المقام قصصاً.

القصة الأولى حنة أم مريم البتول زوجة ابن عمران بن ماثان بنت فاقوذ أخت إيشاع التي كانت تحت زكريا بن أذن . روي أن حنة كانت عاقراً لم تلد إلى أن كبرت وعجزت .

(287/117)

فبينما هي في ظل شجرة بصرت بطائر يطعم فرخاً له ، فتحركت نفسها للولد وتمنته فقالت : اللهم إن لك عليّ نذراً شكراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وخدمته . فحملت بمريم وهلك عمران وهي حامل . قال الحسن : إنما فعلت ذلك بإلهام الله تعالى كما ألهم أم موسى فقذفته في أليم . عن الشعبي : محرراً مخلصاً للعبادة . وتحرير العبد تخليصه من الرق ، وحررت الكتاب إذا أصلحته وخلص من الغلط ، ورجل حر إذا كان خالصاً لنفسه ليس لأحد عليه يد وتصرف . قال الأصم : لم يكن لبني إسرائيل غنيمة ولا سبي ، وكان في دينهم أن الولد إذا صار بحيث يمكن استخدامه كان يجب عليه خدمة الأبوين .

(288/117)

فكانوا بالنذر يتركون ذلك النوع عن الانتفاع ويجعلون الأولاد محررين لخدمة المسجد وطاعة الله تعالى ، حتى إذا بلغ الحلم كان مخيراً . فإن أبى المقام وأراد أن يذهب ذهب ، وإن اختار المقام فلا خيار له بعد ذلك . ولم يكن نبي إلا ومن نسله محرر في بيت المقدس ، وما كان هذا التحرير إلا في الغلمان . لأن الجارية يصيبها الحيض والقذر ، ثم إنها نذرت مطلقاً إما لبناء الأمر على الفرض والتقدير ، وإما لأنها جعلت النذر وسيلة إلى طلب الولد الذكر . ﴿ محرراً ﴾ حال من " ما " . وعن ابن قتيبة : المعنى نذرت لك أن أجعل ما في بطني محرراً . فلما وضعتها يعني ما في بطنها لأنها كانت أنثى في علم الله ، أو على تأويل النفس أو النسمة أو الحبلة . والحبل بفتح الباء مصدر بمعنى المحبول ، كما سمي بالحمل ، ثم أدخلت عليه التاء للإشعار بمعنى الأنوثة فيه ، ومنه الحديث " نهى عن حبل الحبلة " ومعناه أن يبيع ما سوف يحمله الجنين الذي في بطن الناقة على تقدير أنه يكون أنثى . ﴿ قالت رب إني وضعتها ﴾ حال كونها ﴿ أنثى ﴾ ثم من قرأ ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ على الحكاية فمجموع الكلام إلى آخر الآية من قولها ، ويكون فائدة قولها ﴿ إني وضعتها أنثى ﴾ الاعتذار عن إطلاق النذر الذي تقدم منها ، والخوف من أنها لا تقع الموقع الذي يعتد به والتحزن إلى ربها والتحسر على ما رأت من خيبة رجائها وعكس تقديرها . ثم خافت أن يظن بها أنها قالت ذلك لإعلام الله تعالى فقالت : ﴿ والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى ﴾ ليس جنس الذكور كجنس الإناث لا سيما في باب

السدانة ، فإن تحرير غير الذكور لم يكن جائزاً في شرعهم ، والذكر يمكن له الاستمرار على الخدمة دون الأنثى لعوارض النسوان ، ولأن الأنثى لا تقوى على الخدمة لأنها محل التهمة عند الاختلاط ، ويحتمل أن تكون عارفة بالله واثقة بأن كل ما صدر عنه فإنه يكون خيراً وصواباً فقالت : ﴿ رب إني وضعتها أنثى ﴾ ولكنك أعرف وأعلم بحال

(289/117)

ما وضعت فلعل لك فيه سراً ﴿ وليس الذكر ﴾ الذي طلبت ﴿ كالأنثى ﴾ التي وهبت لي لأنك لا تفعل إلا ما فيه حكمة ومصلحة ، فعلى هذا اللام في الذكر وفي الأنثى لمعهود حاضر ذهني لكنها في الذكر لحاضر ذهني تقديراً لدلالة ما في بطني عليه ضمناً ، وفي الأنثى لحاضر ذهني حقيقة لتقدم لفظة أنثى . ومن قرأ ﴿ بما وضعت ﴾ بسكون التاء للتأنيث فالجملتان أعني قوله ﴿ والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى ﴾ معترضتان . ومعناه والله أعلم بالشيء الذي وضعت لما علق به من عظائم الأمور وجعلها وولدها آية للعالمين وهي جاهلة بذلك . ثم زاده بياناً وإيضاحاً فقال : ﴿ وليس الذكر ﴾ الذي طلبت ﴿ كالأنثى ﴾ التي وهبت لها .

(290/117)

﴿ وإني سميتها مريم ﴾ وذلك أن أباها قد مات عند وضعها فلهذا تولت الأم تسميتها . ومريم في لغتهم العابدة . فأرادت بقولها ذلك التقرب والطلب إلى الله أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها ، ولهذا أردف ذلك بطلب الإعاذة لها ولولدها من الشيطان ﴿ فتقبلها ربها ﴾ الضمير يعود إلى امرأة عمران ظاهراً بدليل أنها التي خاطبت ونادت بقولها ﴿ رب إني وضعتها ﴾ ويحتمل أن يعود إلى مريم فيكون فيه إشارة إلى أنه كما رباها في بطن أمها فسيربيها بعد ذلك ﴿ بقبول حسن ﴾ تقبلت الشيء وقبلته إذا رضيته لنفسك . قبولاً بفتح القاف وهو مصدر شاذ حتى حكي أنه لم يسمع غيره . وأجاز الفراء والزجاج قبولاً بالضم . والباء في قوله ﴿ بقبول ﴾ بمنزلة الباء في قولك "كتب بالقلم وضربته بالسوط" . وفي التقبل نوع تكلف فكأنه إنما حكم بالتقبل بواسطة القبول الحسن . قال في الكشاف : معناه فتقبلها بذي قبول حسن أي بأمر ذي قبول وهو اختصاصها بإقامتها مقام الذكر في النذر ولم يقبل قبلها أنثى في النذر ، أو بأن تسلمها من أمها عقيب الولادة قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة . قال : ويجوز أن يكون القبول اسم ما يقبل به الشيء كالسعوط واللدود لما يسعط به ويلدّ وهو الاختصاص ، ويجوز أن يكون معناه فاستقبلها مثل تعجل بمعنى استعجل وذلك من قولهم "استقبل الأمر" إذا أخذه بأوله أي فأخذها من أول أمرها حين ولدت بقبول حسن . ﴿ وأنبتها نباتاً حسناً ﴾ قيل : كانت تنبت في

اليوم مثل ما ينبت المولود في عام . وقيل : المراد نماؤها في الطاعة والعفة والصلاح والسداد

﴿ وكفلها زكريا ﴾ روي أن حنة حين ولدت مريم لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد

ووضعتها عند الأحبار أبناء هارون وهم في بيت المقدس كالحجبة في الكعبة . فقالت

لهم : دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم ،

وكانت بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم وملوكهم . فقال لهم زكريا : أنا أحق بها ،

عندي

(291/117)

خالتها ، فقالوا : لا حتى نقترع عليها . فانطلقوا وكانوا سبعة وعشرين إلى نهر فألقوا فيه

أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة والوحي ، على أن كل من ارتفع قلمه فهو الراجح .

فألقوا ثلاث مرات وفي كل مرة كان يرتفع قلم زكريا وترسب أقلامهم ، فأخذها زكريا .

فعلى هذه الرواية تكون كفالة زكريا إياها من أول أمرها وهو قول الأكثرين . وزعم بعضهم

أنه كفلها بعد أن فطمت ونبتت النبات الحسن على ترتيب الذكور . والأرجح أنها لم ترضع

ثدياً قط ، وكانت تتكلم في الصغر ، وكان رزقها من الجنة ، وأن زكريا بنى لها محراباً وهي

غرفة يصعد إليها بسلم . وقيل : هو أشرف المجالس ومقدّمها كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس .

(292/117)

وقيل : كانت مساجدهم تسمى المحاريب . والتركيب يدل على الطلب فكان صدر المجلس يسمى محراباً لطلب الناس إياه . وكان إذا خرج غلق عليها سبعة أبواب فكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء ، وذلك قوله عز من قائل ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا ﴾ من أين لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا وهو آتٍ في غير حينه والأبواب مغلقة ؟ قالت ﴿ هو من عند الله ﴾ فلا تستبعد ﴿ إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ يحتمل أن يكون من تمام كلام مريم ، وأن يكون معترضاً من كلام الله تعالى . واعلم أن الأمور الخارقة للعادة في حق مريم كثيرة فمنها : أنه روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم " ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها " قلت : وذلك لدعاء حنة ﴿ وإني أعيذها ﴾ ومنه تكلمها في الصغر . ومنها حصول الرزق لها من عند الله كما " روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه صلى الله عليه وسلم جاع

في زمن قحط فأهدت له صلى الله عليه وسلم فاطمة رضي الله عنها رغيفين وبضعة لحم آثرته بها فرجع صلى الله عليه وسلم بها إليها وقال : هلمي يا بنية . فكشفت عن الطبق فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً فبهتت وعلمت أنها نزلت من عند الله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم لها : أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله . إن الله يرزق من يشاء بغير حساب . فقال صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل . ثم جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب والحسن والحسين وجميع أهل بيته صلى الله عليه وسلم حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو ، فأوسعت فاطمة رضي الله عنها على جيرانها " وفي أمثال هذه الخوارق من غير الأنبياء دليل على صحة الكرامات من الأولياء . والفرق بين المعجزة والكرامة أن صاحب الفعل الخارق في الأول يدعي النبوة ، وفي

الثاني يدعي الولاية ، والنبي صلى الله عليه وسلم يدعي المعجز ويقطع به ، والولي لا يمكنه أن يقطع به ، والمعجزة يجب انفكاكها عن المعارضة ، والكرامة بخلافها . وقال بعضهم : الأنبياء مأمورون بإظهار المعجزة ، والأولياء مأمورون بإخفاء الكرامات أما المعتزلة فقد

احتجوا على امتناع الكرامات . بأنها دلالات صدق الأنبياء ، ودليل النبوة لا يوجد مع غير النبي كما أن الفعل المحكم لما كان دليلاً على أن فاعله عالم فلا جرم لا يوجد في غير العالم . وأجابوا عن حديث أبي هريرة بعد تسليم صحته أن استهلال المولود صارخاً من مس الشيطان تخييل وتصوير لطمعه فيه ، كأنه يمسه ويضرب بيده عليه ويقول : هذا ممن أغويه .

(294/117)

فمعنى الحديث أن كل مولود فإنه يطمع الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها . وهذا المعنى يعم جميع من كان في صفتهما من عباد الله المخلصين . قال في الكشاف : وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلا ولو سلط إبليس على الناس ينخسهم لامتلأت الدنيا صراخاً وعياطاً مما يبلون به من نخسه . قلت : وعجيب من مثله مثل هذا الكلام فإنه لا يلزم من الإحساس بمس الشيطان والصراخ منه في وقت الولادة وإنه قريب العهد بعالم الأرواح وبزمان المكاشفة بعيد العهد من عالم الغفلة والإلف بالمحسوسات أن يحس به في وقت آخر ويصرخ على أن أثر مس الشيطان ونخسه يظهر في هيئات النفس وأحوالها ، وأنها أمور لا يحس بها إلا بعد المفارقة أو قطع العلائق البدنية ، والكلام فيه يستدعي فهماً استعداداً آخر غير العلوم الظاهرية . قال الجبائي : لم لا يجوز أن تكون تلك الخوارق من

معجزات زكريا ؟ وبيانه أن زكريا دعا لها على الإجمال أن يوصل الله إليها رزقها ، وربما كان غافلاً عن تفاصيل ما يأتيها من الأرزاق من عند الله . فإذا رأى شيئاً بعينه في وقت معين قال لها : أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله لا من عند غيره . فعند ذلك يعلم أن الله تعالى أظهر بدعائه تلك المعجزة . ويحتمل أن يكون زكريا يشاهد عند مريم رزقاً معتاداً لأنه كان يأتيها من السماء وكان زكريا يسألها عن ذلك حذراً من أن يكون من عند إنسان يبعثه إليها فقالت : هو من عند الله ، لا من عند غيره . على أنا لا نسلم أنه قد ظهر لها شيء من الخوارق ، بل كانوا يرغبون في الإنفاق على الزاهدات العابدات . فكان زكريا إذا رأى شيئاً من ذلك خاف أن ذلك الرزق أتاها من حيث لا ينبغي ، وكان يسألها عن كيفية الحال . قلت : أمثال هذه الشبهات يوجبها الشك في القرآن وفي الحديث أو العصبية المحضة . على أنا نقول : لو كان معجزاً لزكريا لكان مأذوناً من عند الله في طلبه فكان عالماً بحصوله ، وإذا علم امتنع أن يطلب كيفية

الحال . وأيضاً كيف قنع بمجرد إخبارها في زوال الشبهة ؟ وكيف مدح الله تعالى مريم بحصول هذا الرزق عندها ؟ وكيف يستبعد هذا القدر ممن أخبر الله تعالى بأنه اصطفاها

على نساء العالمين وقال : ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ [الأنبياء : 91] .

القصة الثانية : واقعة زكريا عليه السلام وذلك قوله سبحانه ﴿ هنالك ﴾ أي في ذلك المكان الذي كانا فيه في المحراب ، أو في ذلك الوقت ذلك الوقت الذي شاهد تلك الكرامات فقد يستعار " هنا " و " ثمة " و " حيث " للزمان ﴿ دعا زكريا ربه ﴾ وهذا يقتضي أن يكون قد عرف في ذلك الزمان أو المكان أمراً له تعلق بهذا الدعاء ، فالجمهور من العلماء المحققين على أن زكريا رأى عند مريم من فاكهة الصيف في الشتاء وبالعكس وأن ذلك خارق للعادة ، فطمع هو أيضاً في أمر خارق هو حصول الولد من شيخ كبير ومن امرأة عاقر .

وهذا لا يقتضي أن يكون زكريا قبل ذلك شاكاً في قدرة الله تعالى غير مجوّز وقوع الخوارق ، فإن من حسن الأدب رعاية الوقت الأنسب في الطلب . وأما المعتزلة فحين أنكروا كرامات الأولياء وإرهاص الأنبياء قالوا : إن زكريا لما رأى آثار الصلاح والعفاف والتقوى مجتمعة في حق مريم تمنى أن يكون له ولد مثلها . قال المتكلمون : إن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لا يكون إلا بعد الإذن لاحتمال أن لا تكون الإجابة مصلحة فحينئذٍ تصير دعوته مردودة

وذلك نقص في منصبه . وقول إن دعا النبي صلى الله عليه وسلم لا يكون بمجرد التشهي فلا حاجة له في كل دعاء إلى إذن مخصوص ، بل يكفي له الإذن في الدعاء على الاطلاق والغالب في دعوته الإجابة ، ثم إن وقع الأمر بالندرة على خلاف دعوته فذلك بالحقيقة مطلوبه لأنه يريد الأصلح ، ويضمر في دعائه أنه لو لم يكن أصلح لم يبعثه الله عليه ويصرفه عنه . ومعنى قوله : ﴿ من لدنك ﴾ أن حصول الولد في العرف والعادة له أسباب مخصوصة وكانت مفقودة في حقه . فكأنه قال : أريد منك يا رب أن تعزل الأسباب في هذه الواقعة وتخلق هذا الولد بمحض قدرتك من غير توسيط الأسباب . والذرية النسل يقع على الواحد والجمع والذكر والأنثى والمراد ههنا ولد واحد كما قال : ﴿ فهب لي من لدنك وليا ً ﴾ [مريم : 5] قال الفراء : وأنث الطيبة لتأنيث لفظ الذرية في الظاهر . فالتذكير والتأنيث تارة يجيء على اللفظ وأخرى على المعنى ، وهذا في أسماء الأجناس بخلاف الأسماء الأعلام فإنه لا يجوز أن يقال : جاءت طلحة ، لأن اسم العلم لا يفيد إلا ذلك الشخص ، فإذا كان مذكراً لم يجز فيه إلا التذكير . ﴿ إنك سميع الدعاء ﴾ يعني سماع إجابة . وذلك لما عهد من الإجابة في غير هذه الواقعة كما قال في سورة مريم ﴿ ولم أكن بدعائك رب شقيا ً ﴾ [مريم : 4] . ﴿ فنادته الملائكة ﴾ ظاهر اللفظ للجمع وهذا في باب التشريف أعظم . ثم ما روي أن المنادي كان جبريل فالوجه فيه أنه

كقولهم " فلان يركب الخيل ويأكل الأطعمة النفيسة " أي يركب من هذا الجنس ويأكل منه . أو لأن جبريل كان رئيس الملائكة وقلما يبعث إلا ومعه آخرون . ﴿ يبشرك بيحيى ﴾ يحتمل أن يكون زكريا قد عرف أنه سيكون في الأنبياء رجل اسمه يحيى وله درجة عالية . فإذا قيل له : إن ذلك النبي المسمى بيحيى هو ولدك كان بشارة له ، ويحتمل أن يكون المعنى يبشرك بولد اسمه يحيى كما يجيء في سورة مريم

(298/117)

﴿ إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ﴾ [مريم : 7] وإنه اسم أعجمي كموسى وعيسى ، ومن جوز أن يكون عربياً فمنع صرفه للعلمية ووزن الفعل كيعمر . ثم إنه تعالى وصف يحيى بصفات منها : قوله ﴿ مصدقاً بكلمة من الله ﴾ وهو نصب على الحال لأنه نكرة و " يحيى " معرفة . قال أبو عبيدة : أي مؤمناً بكتاب الله . وسمي الكتاب كلمة كما قيل : " كلمة الحويدرة " لقصيدته . والجمهور على أن المراد بكلمة من الله هو عيسى . قال السدي : لقيت أم يحيى أم عيسى وهما حاملان بهما . فقالت : يا مريم أشعرت أني حبلى ؟ فقالت مريم : وأنا أيضاً حبلى . قالت امرأة زكريا : فإني وجدت ما في بطني

يسجد لما في بطنك فذاك قوله : ﴿ مصدقاً بكلمة من الله ﴾ وقال ابن عباس : إن يحيى أكبر سناً من عيسى بستة أشهر ، وكان يحيى أول من آمن به وصدّق بأنه كلمة الله وروحه ، ثم قتل يحيى قبل رفع عيسى . وسمي عيسى كلمة الله لأنه لم يوجد إلا بكلمة الله وهي " كن " من غير واسطة أب وزرع كما يسمى المخلوق خلقاً والمرجو رجاء ، أو لكونه متكلماً في أوان الطفولية ، أو لأنه منشأ الحاقئق والأسرار كالكلمة ، ولهذا سمي روحاً أيضاً لأنه سبب حياة الأرواح . وقد يقال للسلطان العادل ظل الله ونور الله لأنه سبب ظهور ظل العدل ونور الإحسان ، أو لأنه وردت البشارة به في كلمات الأنبياء وكتبهم كما لو أخبرت عن حدوث أمر ، ثم إذا حدث قلت قد جاء قولي أو كلامي أي ما كنت أقول أو أتكلم به . ومنها قوله : ﴿ وسيداً ﴾ والسيد الذي يفوق قومه في الشرف . وكان يحيى فائقاً لقومه بل للناس كلهم في الخصال الحميدة . وقال ابن عباس : السيد الحليم . وقال ابن المسيب : الفقيه العالم . وقال عكرمة : الذي لا يغلبه الغضب . ومنها قوله : ﴿ وحصوراً ﴾ قيل : أي محصوراً عن النساء لضعف في الآلة ، وزيف بأنه من صفات النقص فلا يليق في معرض المدح . والمحققون على أنه فعول بمعنى فاعل وهو الذي لا يأتي النسوان لا للعجز بل للعفة

والزهد وحبس النفس عنهن ، وفيه دليل على أن ترك النكاح كان أفضل من تلك الشريعة ، فلولا أن الأمر بالنكاح والحث عليه وارد في شرعنا كان الأصل بقاء الأمر على ما كان .

ومنها قوله : ﴿ ونبياً ﴾ واعلم أن السيادة لا تتم إلا بالقدرة على ضبط مصالح الخلق فيما يرجع إلى الدين والدنيا . والحصور إشارة إلى الزهد التام وهو منع النفس عما لا يعنيه . روي أنه مر وهو طفل بصبيان يلعبون فدعوه إلى اللعب فقال : ما للعب خلقت . فقوله : ﴿ ونبياً ﴾ أشار به إلى ما عدا مجموع الأمرين فإنه ليس بعدهما إلا النبوة .

(300/117)

ثم قال : ﴿ ومن الصالحين ﴾ أي من أولادهم لأنه كان من أصلاب الأنبياء أو كائناً من جملة الصالحين كقوله : ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ [البقرة : 130] أو لأن صلاحه كان أتم بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : " ما من نبي إلا وقد عصى أو هم بمعصية غير يحيى بن زكريا فإنه لم يعص ولم يهم " وفيه أن الختم على الصلاح هو الغرض الأعظم والغاية القصوى وإن كان نبياً ، ولهذا قال سليمان بعد حصول النبوة ﴿ وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ [النمل : 19] وقال يوسف : ﴿ توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ [يوسف : 101] . ثم إن الملائكة لما نادوه بما نادوه قال زكريا مخاطباً لله

تعالى ومناجياً إياه ﴿ رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر ﴾ أدركتني السنون العالية وأثرّ فيّ طول العمر وأضعفني . قال أهل اللغة : كل شيء صادفته وبلغته فقد صادفك وبلغك وذلك إذا أمكن تصور الطلب من الجانبين . فيجوز بلغت الكبر وبلغني الكبر لأن الكبر كالشيء الطالب للإنسان فهو يأتيه بحدوثه فيه . والإنسان أيضاً يأتيه بمرور العمر عليه . ولا يجوز بلغني البلد في موضع بلغت البلد لأن البلد ليس كالطالب للإنسان الذاهب . ﴿ وامرأتي عاقر ﴾ هي من الصفات الخاصة بالنساء . ويقال : رمل عاقر لا ينبت شيئاً . فإن قيل : لما كان زكريا هو الذي سأل الولد ثم أجابه الله تعالى إلى ذلك فما وجه تعجبه واستبعاده بقوله : ﴿ أنى يكون ﴾ من أين يحصل لي غلام ؟ فالجواب على ما في الكشاف أن الاستبعاد إنما جاء من حيث العادة . وقيل : إنه دهش من شدة الفرح فسبق لسانه . ونقل عن سفيان بن عيينة أن دعاءه كان قبل البشارة بستين سنة ، فكان قد نسي ذلك السؤال وقت البشارة ، فلما سمع البشارة في زمان الشيخوخة استغرب وكان له يؤمئذٍ مائة وعشرون سنة أو تسع وتسعون ولامرأته ثمان وتسعون ، وعن السدي أن الشيطان جاءه عند سماع البشارة قال : إن هذا النداء من الشيطان وقد سخر منك فاشتبه عليه الأمر

ولا سيما أنه كان من مصالح الدنيا ولم يتأكد بالمعجزة فرجع إلى إزالة ذلك الخاطر فسأل ما سأل . والجواب المعتمد أن زكريا لم يسأل عما سأل استبعاداً وتشككاً في قدرة الله تعالى ، وإنما أراد تعيين الجهة التي بها يحصل الولد ، فإن الجهة المعتادة كانت متعذرة عادة لكبره وعقارتها فأجيب بقوله : ﴿ كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ وهو إما جملة واحدة أي الله يفعل ما يشاء من الأفعال العجيبة مثل ذلك الفعل وهو خلق الولد بين الشيخ الفاني والعجوز العاقر ، أو جملتان فيكون ﴿ كذلك الله ﴾ مبتدأ وخبراً أي على نحو هذه الصفة الله و ﴿ يفعل ما يشاء ﴾ بياناً له أي يفعل ما يريد من الأفاعيل الخارقة للعادات . ثم إنه صلى الله عليه وسلم لفرط سروره وثقته بكرم ربه وإنعامه سأل عن تعيين الوقت فقال : ﴿ رب اجعل لي آية ﴾ علامة أعرف بها العلوق فإن ذلك لا يظهر من أوّل الأمر فقال تعالى : ﴿ آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام ﴾ أي بلياليها ولهذا ذكر في سورة مريم

(302/117)

﴿ ثلاث ليال ﴾ [مريم : 10] ومعنى قوله : ﴿ ألا تكلم الناس ﴾ قال المفسرون : أي لا تقدر على التكلم . حبس لسانه عن أمور الدنيا وأقدره على الذكر والتسبيح ليكون في

تلك المدة مشتغلاً بذكر الله وبالطاعة وبالشكر على تلك النعمة الجسمية، فيصير الشيء الواحد علامة على المقصود وأداء لشكر النعمة فيكون جامعاً للمقاصد. وفي هذه الآية إعجاز من وجوه منها: القدر على التكلم بالتسبيح والذكر مع العجز عن التكلم بكلام البشر. ومنها العجز مع سلامة البنية واعتدال المزاج. ومنها الإخبار بأنه متى حصلت هذه الحالة فقد حصل الولد. ثم إن الأمر وقع على وفق هذا الخبر. وعن قتادة أنه صلى الله عليه وسلم عوتب بذلك حيث سأل بعد بشارة الملائكة فأخذ لسانه وصبر بحيث لا يقدر على الكلام. قلت: وأحسن العتاب ما كانت منتزعاً من نفس الواقعة ومناسباً لها. وفيه لطيفة أخرى وهي أنه طلب الآية على الإطلاق فاحتمل أن يكون قد طلب علامة للعلوق، واحتمل أن يكون قد طلب دلالة على إحداث الخوارق ليصير علم اليقين عين اليقين، فصار حبس لسانه آية العلوق ودلالة على الفعل الخارق جميعاً مع مناسبته للواقعة حيث سأل ما كان من حقه أن لا يسأل. وزعم أبو مسلم أن المعنى: آيتك أن تصير مأموراً بعدم التكلم ولكن بالاشتغال بالذكر والتسبيح ﴿ إلا رمزاً ﴾ إشارة بيد أو رأس أو بالشفتين ونحوها. وأصل التركيب للتحرك يقال: ارتمز إذا تحرك ومنه الراموز للبحر، وهو استثناء من قوله: ﴿ ألا تكلم ﴾ وجاز وإن لم يكن الرمز من جنس الكلام لأن مؤدّاه مؤدى الكلام، ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً. وقيل: الرمز الكلام الخفي. وعلى هذا فالاستثناء متصل من غير تكلف. وقرأ يحيى بن وثاب ﴿ إلا رمزاً ﴾ بضمتين جميع

رموز كرسول ورسل وقرىء ﴿ رمزاً ﴾ بفتحتين جمع رامز كخادم وخدم وهو حال منه ومن الناس دفعة بمعنى إلا مترامزين كما يكلم الناس الأخرس بالإشارة ويكلمهم ﴿ واذكر ربك كثيراً

(303/117)

﴿ قيل : إنه لم يكن عاجزاً إلا عن تكليم البشر . وقيل : المراد الذكر بالقلب وإنه كان عاجزاً عن التكلم مطلقاً ﴿ وسبح ﴾ حمله بعضهم على صل كيلا يكون تكراراً للذكر . وقد تسمى الصلاة تسبيحاً ﴿ فسبحان الله حين تمسون ﴾ [الروم : 17] لاشتمالها عليه . والعشيّ مصدر على " فعيل " وهو من وقت زوال الشمس إلى غروبها . والإبكار من طلوع الفجر إلى الضحى وهو مصدر أبكر يبكر إذا خرج للأمر من أول النهار ، ومنه الباكورة لأول الثمار . وقرىء بفتح الهمزة جمع بكر كسحر وأسحار . انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 2 صـ 148.156 ﴾

(304/117)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : إن لله تعالى في كل ذرة من ذرات الموجودات وحركة من حركاتها أسراراً لا يعلمها إلا الله .

فانظر ماذا أخرج الله من الأسرار عن إطعام طائر فرخه ، وماذا أظهر من الآيات والمعجزات من تلك الساعة إلى يوم القيامة بواسطة مريم وعيسى ﴿ فتقبل مني ﴾ راجع إلى المحرر لا إلى التحرير أي تقبلها مني أن تتكفلها وتربيها تربية المحررين ﴿ فتقبلها ربها ﴾ أي تقبلها ربها أن يربيها ﴿ بقبول حسن ﴾ كقبول ذكر أو قبولاً أخرج منها مثل عيسى ﴿ وكفلها زكريا ﴾ من كمال رأفته أنه جعل كفالتها إلى زكريا حيث أراد أن يخرج عيسى منها بلا أب لئلا يدخل عليها غيره فتكون أبعد من التهمة . ﴿ وجد عندها رزقاً ﴾ أي من فتوحات الغيب الذي يطعم الله به خواص عباده الذين يبيتون عنده لا عند أنفسهم ولا عند الخلق كقوله صلى الله عليه وسلم : « أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني » ﴿ إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ ما لم يكن في حسابها من الولد بلا أب ، ومن الفاكهة بلا شجرة ، ومن المعجزات بلا نبوة ، ومن العلوم اللدنية بلا واسطة ﴿ هنالك دعا زكريا ربه ﴾ كما أنه تعالى جعل إطعام الطائر فرخه سبب تحريك قلب حنة لطلب الولد ، فكذلك جعل حالة مريم وما كان يأتيها من الرزق خارقاً للعادة سبب تحريك قلب زكريا ﴿ قال رب

هب لي من لدنك ذرية طيبة ﴾ أي ولداً يكون روحه من الصف الأول من صفوف الأرواح المجندة ، وهو المطهر من لوث الحجاب والوسط الصالح للنبوة والولاية بخلاف الصف الثاني الذي هو لأرواح الأولياء وبينه وبين الله تعالى حجاب الصف الأول ، وبخلاف الصف الثالث الذي هو لأرواح المؤمنين ، وبخلاف الصف الرابع الذي هو لأرواح المنافقين والمشركين ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم ﴾ بالله ﴿ يصلي ﴾ بسائر سره في الملكوت يحارب نفسه وهواه ﴿ في المحراب إن الله يبشرك بغلام اسمه يحيى ﴾ لأنه منذ خلق ما ابتلى بالموت لا بموت القلب بالمعاصي ولا بموت الصورة لأنه استشهد والشهداء لا يموتون بل أحياء عند ربهم يرزقون . ﴿ مصدقاً بكلمة من الله ﴾ وهي قوله : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ [مريم

: 12] ﴿ وسيداً ﴾ أي حراً من رق الكونين بل سيداً لرقيقي الكونين ﴿ وحصوراً ﴾ نفسه عن التعليق بالكونين ﴿ ونبياً من الصالحين ﴾ من أهل الصف الأول ﴿ رب أنى يكون لي غلام ﴾ لم يكن استبعاده من قبل القدرة الإلهية ولكن من جهة استحقاقه لهذه الكرامة ﴿ آيتك ألا تكلم الناس ﴾ لغلبات الصفات الروحانية عليك واستيلاء سلطان

الحقيقة على قلبك ، فإن النفس الناطقة تكون مغلوبة في تلك الحالة بشواهد الحق في الغيب ، فلا تفرغ لإجراء عادتها في الشهادة بالكلام ﴿ إلا رمزاً ﴾ ولهذا يقوى الروح الحيواني وتستمد منه القوة البشرية فيحيى الله تعالى به الشهوة الميتة فسمى ما تولد من الشهوة الميتة التي أحياها الله يحيى . ولاستمرار هذه الحالة في الأيام الثلاثة أمر بالمراقبة ليلاً ونهاراً وعشياً وإبكاراً حسبي الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 2 صـ 156. 157﴾

(306/117)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن عشر بعد المائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/118)

الجزء الثامن عشر بعد المائة

من الآية ﴿ 42 ﴾ من سورة آل عمران

وحتى الآية ﴿ 49 ﴾ من نفس السورة

(4/118)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (42) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما فرغ مما للكافل بعد ما نوه بأمر المكفولة بياناً لاستجابة الدعاء من أمها لها أعاد الإشارة بذكرها والإعلام بعلي قدرها فقال عاطفاً على ما تقديره : هذا ما للكافل فاذكره لهم فإنهم لا يشكون معه في نبوتك : ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ إذ قالت الملائكة ﴾ وعبر بالجمع والمراد جبريل وحده عليه الصلاة والسلام كما في سورة مريم عليها السلام لتهيئها لخطاب كل منهم كما مضى ﴿ يا مريم إن الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ اصطفاك ﴾ أي اختارك في نفسك ، لا بالنظر إلى شيء آخر عما يشين بعض من هو في نفسه خيار ﴿ وطهرك ﴾ أي عن كل دنس ﴿ واصطفاك ﴾ أي اصطفاء خاصاً ﴿ على نساء العالمين ﴾ فمن هذا الاصطفاء والله سبحانه وتعالى أعلم كما قال الحرالي : أن خلصت من الاصطفاء الأول العبراني إلى اصطفاء على عربي حتى أنكحت من محمد صلى الله عليه وسلم النبي العربي ؛ قال صلى الله عليه وسلم لخديجة رضي الله عنها : " أما شعرت أن الله سبحانه وتعالى زوجني معك مريم بنت عمران " - انتهى . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 79 ﴾

فصل

قال الفخر :

قالوا المراد بالملائكة ههنا جبريل وحده ، وهذا كقوله ﴿ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح مِنْ أَمْرِهِ ﴾ [

النحل : 2] يعني جبريل ، وهذا وإن كان عدولاً عن الظاهر إلا أنه يجب المصير إليه ، لأن سورة مريم دلت على أن المتكلم مع مريم عليها السلام هو جبريل عليه السلام ، وهو قوله ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم : 17] . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 38 ﴾

فصل

قال الفخر :

(5/118)

اعلم أن مريم عليها السلام ما كانت من الأنبياء لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِى إِلَيْهِمْ مّنْ أَهْلِ القرى ﴾ [يوسف : 109] وإذا كان كذلك كان إرسال جبريل عليه السلام إليها إما أن يكون كرامة لها ، وهو مذهب من يجوز كرامات الأولياء ، أو إرهاصاً لعيسى عليه السلام ، وذلك جائز عندنا ، وعند الكعبي من المعتزلة ، أو معجزة لزكرياء عليه السلام ، وهو قول جمهور المعتزلة ، ومن الناس من قال : إن ذلك كان على سبيل النفث في الروع والإلهام والإلقاء في القلب ، كما كان في حق أم موسى عليه السلام في قوله ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمّ موسى ﴾ [القصص : 7] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح

الغيب حـ 8 صـ 38 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن المذكور في هذه الآية أولاً : هو الاصطفاء ، وثانياً : التطهير ، وثالثاً : الاصطفاء على نساء العالمين ، ولا يجوز أن يكون الاصطفاء أولاً من الاصطفاء الثاني ، لما أن التصريح بالتكرير غير لائق ، فلا بد من صرف الاصطفاء الأول إلى ما اتفق لها من الأمور الحسنة في أول عمرها ، والاصطفاء الثاني إلى ما اتفق لها في آخر عمرها .

النوع الأول من الاصطفاء : فهو أمور

أحدها : أنه تعالى قبل تحريرها مع أنها كانت أنثى ولم يحصل مثل هذا المعنى لغيرها من الإناث

وثانيها : قال الحسن : إن أمها لما وضعتها ما غذتها طرفة عين ، بل ألقتها إلى زكريا ، وكان رزقها يأتيها من الجنة

وثالثها : أنه تعالى فرغها لعبادته ، وخصها في هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية والعصمة

ورابعها : أنه كفاها أمر معيشتها ، فكان يأتيها رزقها من عند الله تعالى على ما قال الله تعالى : ﴿أنى لَكِ هذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ الله﴾

وخامسها : أنه تعالى أسمعها كلام الملائكة شفاها ، ولم يتفق ذلك لأنثى غيرها ، فهذا هو المراد من الاصطفاء الأول ، وأما التطهير ففيه وجوه

(6/118)

أحدها : أنه تعالى طهرها عن الكفر والمعصية ، فهو كقوله تعالى في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب : 33]

وثانيها : أنه تعالى طهرها عن مسيس الرجال

وثالثها : طهرها عن الحيض ، قالوا : كانت مريم لا تحيض

ورابعها : وطهرك من الأفعال الذميمة ، والعادات القبيحة

وخامسها : وطهرك عن مقالة اليهود وتهمتهم وكذبهم .

وأما الاصطفاء الثاني : فالمراد أنه تعالى وهب لها عيسى عليه السلام من غير أب ، وأنطق عيسى حال انفصاله منها حتى شهد بما يدل على براءتها عن التهمة ، وجعلها وابنها آية للعالمين ، فهذا هو المراد من هذه الألفاظ الثلاثة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 38 ﴾

وقال ابن الجوزى :

وفي هذا الاصطفاء الثاني : أربعة أقوال .

أحدها : أنه تأكيد للأول .

والثاني : أن الأول للعبادة ، والثاني : لولادة عيسى عليه السلام .

والثالث : أن الاصطفاء الأول اختيار مبهمَ ، وعموم يدخل فيه صوالح من النساء ، فأعاد الاصطفاء لتفضيلها على نساء العالمين .

والرابع : أنه لما أطلق الاصطفاء الأول ، أبان بالثاني أنها مصطفاة على النساء دون الرجال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 387 ﴾

فائدة

قال الآلوسى ولله دره :

المراد من نساء العالمين قيل : جميع النساء في سائر الأعصار ، واستدل به على أفضليتها على فاطمة ، وخديجة ، وعائشة رضي الله تعالى عنهن ، وأيد ذلك بما أخرجه ابن عساكر في أحد الطرق عن ابن عباس أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران ، ثم فاطمة ، ثم خديجة ، ثم آسية امرأة فرعون " وبما أخرجه ابن أبي شيبة عن مكحول ، وقريب منه ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خير نساء ركبن الإبل نساء قريش أحناه على

ولد في صغره وأرعاه على بعل في ذات يده ولو علمت أن مريم ابنة عمران ركبت بعيراً ما فضلت عليها أحداً "

(7/118)

وبما أخرجه ابن جرير عن فاطمة صلى الله عليه وسلم على أبيها وعليها أنها قالت : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أنت سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم البتول " وقيل : المراد نساء عالمها فلا يلزم منه أفضليتها على فاطمة رضي الله تعالى عنها ، ويؤيده ما أخرجه ابن عساكر من طريق مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أربع نسوة سادات عالمهن ، مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم ، وخدجية بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم وأفضلهن عالماً فاطمة" وما رواه الحرث بن أسامة في "مسنده" بسند صحيح لكنه مرسل "مريم خير نساء عالمها" وإلى هذا ذهب أبو جعفر رضي الله تعالى عنه وهو المشهور عن أئمة أهل البيت والذي أميل إليه أن فاطمة البتول أفضل النساء المتقدمات والمتأخرات من حيث إنها بضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل ومن حيثيات أخر أيضاً ، ولا يعكر على ذلك الأخبار السابقة لجواز أن يراد بها أفضلية غيرها عليها من بعض الجهات وبحيثية من الحيثيات وبه

يجمع بين الآثار وهذا سائغ على القول بنبوة مريم أيضاً إذ البضعية من روح الوجود وسيد كل موجود لا أراها تقابل بشيء

وأين الثريا من يد المتناول . . . ومن هنا يعلم أفضليتها على عائشة رضي الله تعالى عنها الذاهب إلى خلافها الكثير محتجين بقوله صلى الله عليه وسلم : " خذوا ثلثي دينكم عن الحميراء " وقوله عليه الصلاة والسلام : " فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام " وبأن عائشة يوم القيامة في الجنة مع زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاطمة يومئذ فيها مع زوجها علي كرم الله تعالى وجهه ، وفرق عظيم بين مقام النبي صلى الله عليه وسلم ومقام علي كرم الله تعالى وجهه .

(8/118)

وأنت تعلم ما في هذا الاستدلال وأنه ليس بنص على أفضلية الحميراء على الزهراء ، أما أولاً : فلأن قصارى ما في الحديث الأول على تقدير ثبوته إثبات أنها عالمة إلى حيث يؤخذ منها ثلثا الدين ، وهذا لا يدل على نفي العلم المماثل لعلمها عن بضعته عليه الصلاة والسلام ، ولعلمه صلى الله عليه وسلم أنها لا تبقى بعده زمناً معتداً به يمكن أخذ الدين منها فيه لم يقل فيها ذلك ، ولو علم لربما قال : خذوا كل دينكم عن الزهراء ، وعدم هذا القول في حق

من دل العقل والنقل على علمه لا يدل على مفضوليته وإلا لكانت عائشة أفضل من أبيها رضي الله تعالى عنه لأنه لم يرو عنه في الدين إلا قليل لقلة لبثه وكثرة غائلته بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن قوله عليه الصلاة والسلام : " إني تركت فيكم الثقلين كتاب الله تعالى وعترتي لا يفترقان حتى يردا على الحوض " يقوم مقام ذلك الخبر وزيادة كما لا يخفى كيف لا وفاطمة رضي الله تعالى عنها سيدة تلك العترة ؟! . وأما ثانياً : فلأن الحديث الثاني معارض بما يدل على أفضلية غيرها رضي الله تعالى عنها عليها ، فقد أخرج ابن جرير عن عمار بن سعد أنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فضلت خديجة على نساء أمتي كما فضلت مريم على نساء العالمين " بل هذا الحديث أظهر في الأفضلية وأكمل في المدح عند من انجاب عن عين بصيرته عين التعصب والتعسف لأن ذلك الخبر وإن كان ظاهراً في الأفضلية لكنه قيل ولو على بعد : إن أل في النساء فيه للعهد ؛ والمراد بها الأزواج الطاهرات الموجودات حين الإخبار ولم يقل مثل ذلك في هذا الحديث . وأما ثالثاً : فلأن الدليل الثالث يستدعي أن يكون سائر زوجات النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام لأن مقامهم بلا ريب ليس كمقام صاحب المقام المحمود صلى الله عليه وسلم فلو كانت الشركة في المنزل مستدعية للأفضلية لزم ذلك قطعاً ولا قائل به .

وبعد هذا كله الذي يدور في خلدي أن أفضل النساء فاطمة ، ثم أمها ، ثم عائشة بل لو قال قائل إن سائر بنات النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من عائشة لا أرى عليه بأساً ؛ وعندي بين مريم وفاطمة توقف نظراً للأفضلية المطلقة ، وأما بالنظر إلى الحيثية فقد علمت ما أميل إليه ، وقد سئل الإمام السبكي عن هذه المسألة فقال : الذي نختاره وندين الله تعالى به أن فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم أفضل ، ثم أمها ، ثم عائشة ووافقه في ذلك البلقيني وقد صحح ابن العماد أن خديجة أيضاً أفضل من عائشة لما ثبت أنه عليه الصلاة والسلام قال لعائشة حين قالت : قد رزقك الله تعالى خيراً منها ، فقال لها : لا والله ما رزقني الله تعالى خيراً منها آمنت بي حين كذبني الناس وأعطتني مالها حين حرمني الناس ؛ وأيد هذا بأن عائشة أقرأها السلام النبي صلى الله عليه وسلم من جبريل ، وخديجة أقرأها السلام جبريل من ربها ، وبعضهم لما رأى تعارض الأدلة في هذه المسألة توقف فيها وإلى التوقف مال القاضي أبو جعفر الاستروشني منا وذهب ابن جماعة إلى أنه المذهب الأسلم . وأشكل ما في هذا الباب حديث الثريد ولعل كثرة الأخبار الناطقة بخلافه تهون تأويله ، وتأويل واحد لكثير أهون من تأويل كثير لواحد ، والله تعالى هو الهادي إلى سواء السبيل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 155 . 156 ﴾

فائدة

قال الفخر :

روي أنه عليه الصلاة والسلام قال : " حسبك من نساء العالمين أربع : مريم وآسية امرأة فرعون ، وخديجة ، وفاطمة عليهن السلام " فقيل هذا الحديث دل على أن هؤلاء الأربع أفضل من النساء ، وهذه الآي دلت على أن مريم عليها السلام أفضل من الكل ، وقول من قال المراد إنها مصطفاة على عالمي زمانها ، فهذا ترك الظاهر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 39 ﴾

(10/118)

فصل

قال الخازن :

عن علي بن أبي طالب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد " ﴿ أخرجه البخاري في الأنبياء . باب : وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين 6 / 470 . ومسلم في فضائل الصحابة . باب : فضائل خديجة أم المؤمنين برقم (2430) 4 / 1886 . والبغوى في شرح السنة : 14 / 156 ﴾ .

قال أبو كريب : وأشار وكيع إلى السماء والأرض قيل : أراد وكيع بهذه الإشارة تفسير الضمير في قوله خير نسائها ومعناه إنهما خير كل النساء بين السماء والأرض قال الشيخ محيي الدين النووي : والأظهر أن معناه أن كل واحد مهما خير نساء الأرض في عصرها ، وأما التفضيل بينهما فمسكوت عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 227 346. ﴾

فصل

قال القرطبى :

روى مسلم عن أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غير مريم بنتِ عمران وآسية امرأة فرعون وإنّ فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام " قال علماؤنا رحمة الله عليهم : الكمال هو التناهي والتمام ؛ ويقال في ماضيه "كمل" بفتح الميم وضمها ، ويكمل في مضارعه بالضم ، وكمال كل شيء بحسبِه .

والكمال المطلق إنما هو لله تعالى خاصة .

ولا شك أن أكمل نوع الإنسان الأنبياء ثم يليهم الأولياء من الصدّيقين والشهداء والصالحين .

وإذا تقرّر هذا فقد قيل : إن الكمال المذكور في الحديث يعني به النبوّة فيلزم عليه أن تكون مريم عليها السلام وآسية نبيّتين ، وقد قيل بذلك .

والصحيح أن مريم نبيّة ؛ لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة الملك كما أوحى إلى سائر النبيين حسب ما تقدّم ويأتي بيانه أيضاً في "مريم" . (1)

وأما آسية فلم يرِد ما يدل على نبوّتها دلالة واضحة بل على صدّيقيتها وفضلها ، على ما يأتي بيانه في "التحريم" .

---

(1) هذا الكلام محل نظر والصحيح خلافه كما ذكر الفخر الرازى لقوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ القرى ﴾ [يوسف : 109] وإذا كان كذلك كان إرسال جبريل عليه السلام إليها إما أن يكون كرامة لها ، وهو مذهب من يجوز كرامات الأولياء ، أو إرهاصاً لعيسى عليه السلام ، وذلك جائز عندنا . انتهى كلام الفخر رحمه الله وهو فى غاية القوة .

وقال ابن عطية : جمهور الناس على أنه لم تنبأ امرأة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 434 ﴾ والله أعلم .

(11/118)

وروي من طرق صحيحة أنه عليه السلام قال فيما رواه عنه أبو هريرة : " خير نساء العالمين أربع مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد

وفاطمة بنت محمد " ومن حديث ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون " وفي طريق آخر عنه : " سيدة نساء أهل الجنة بعد مريم فاطمة وخديجة " فظاهر القرآن والأحاديث يقتضي أن مريم أفضل من جميع نساء العالم من حوّاء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة ؛ فإن الملائكة قد بلغتها الوحي عن الله عز وجل بالتكليف والإخبار والبشارة كما بلغت سائر الأنبياء ؛ فهي إذاً نبيّة والنبيّ أفضل من الوليّ فهي أفضل من كل النساء : الأوّلين والآخرين مطلقاً .

ثم بعدها في الفضيلة فاطمة ثم خديجة ثم آسِية .

وكذلك رواه موسى بن عقبة عن كُرَيْب عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سيدة نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسِية "

وهذا حديث حسن يرفع الإشكال .

وقد خصّ الله مريم بما لم يؤته أحداً من النساء ؛ وذلك أن روح القدس كلمها وظهر لها ونفخ في دِرعها ودنا منها للنفخة ؛ فليس هذا لأحد من النساء .

وصدّقت بكلمات ربها ولم تسأل آية عندما بُشِّرت كما سأل زكريا صلى الله عليه وسلم من الآية ؛ ولذلك سماها الله في تنزيله صِدِّيقة فقال : ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة : 75] .

وقال : ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ [التحريم : 12] فشهد لها بالصدّيقية وشهد لها بالتصديق لكلمات البشرى وشهد لها بالقُنُوت .

وإنما بشر زكريا بغلام فلحظ إلى كبر سنه وعقامة رحم امرأته فقال : أنى يكون لي غلام وامرأتي عاقر ؛ فسأل آية ؛ وبشرت مريم بالغلام فلحظت أنها بِكْرٌ ولم يمسسها بشر فقيل لها : ﴿ كذلك قَالَ رَبُّكَ ﴾ [مريم : 21] فاقتصرت على ذلك ، وصدقت بكلمات ربها ولم تسأل آية ممن يعلم كُنْه هذا الأمر (1) ، ومن لامرأة في جميع نساء العالمين من بنات آدم ما لها من هذه المناقب ! .

ولذلك روي أنها سبقت السابقين مع الرسل إلى الجنة ؛ جاء في الخبر عنه صلى الله عليه وسلم : " لو أقسمتُ لبرَرْتُ لا يدخل الجنة قبل سابقي أمتي إلا بضعة عشر رجلاً منهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى ومريم ابنة عمران " (2) وقد كان يحق على من انتحل علم الظاهر

---

(1) يفهم من هذا الكلام أنها أفضل من زكريا ـ عليه السلام ـ وليس الأمر كذلك فنبوتها محل اختلاف بين العلماء وإن كنا نرجح القول بعدم نبوتها بخلاف زكريا ـ عيه السلام ـ فنبوته محل

اتفاق فكيف تفضله مريم ؟ ؟ ! ! !

وقد تقدم أنه طلب من الله آية وعلامة ليتعجل شكر النعمة وهذا شأن المصطفين الأخيار . والله أعلم .

(2) كيف تسبق السابقين من الرسل ؟ ؟ ! ! !

وأبو بكر رضى الله عنه أفضل منها " ما طلعت الشمس ولا غربت على رجل بعد النبيين أفضل من أبى بكر .

(13/118)

واستدل بالأشياء الظاهرة على الأشياء الباطنة أن يعرف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " وقوله حيث يقول : "لِواء الحمد يوم القيامة بيدي ومفاتيح الكرم بيدي وأنا أوّل خطيب وأوّل شفيع وأوّل مُبشِّر وأوّل وأوّل " فلم ينْل هذا السّؤدد في الدنيا على الرسل إلا لأمر عظيم في الباطن .

وكذلك شأن مريم لم تنل شهادة الله في التنزيل بالصدّيقية والتصديق بالكلمات إلا لمرتبة قريبة دانية .

ومن قال لم تكن نبية قال : إن رؤيتها للملك كما رؤي جبريل عليه السلام في صفة دِحية

الكلبي حين سؤاله عن الإسلام والإيمان ولم تكن الصحابة بذلك أنبياء والأوّل أظهر وعليه الأكثر. والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 82.84 ﴾

(14/118)

من فوائد العلامة الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الملائكة ﴾ تتمة لشرح أحكام اصطفاء آل عمران، ووقعت قصة زكريا، ويحيى عليهما السلام في البين لما فيها مما يؤكد ذلك الاصطفاء، و﴿ إِذْ ﴾ في المشهور منصوب بالذكر، والجملة معطوفة على الجملة السابقة عطف القصة على القصة وبينهما كمال المناسبة لأن تلك مسوقة أولاً وبالذات لشرح حال الأم وهذه لشرح حال البنت، والمراد من الملائكة رئيسهم جبريل عليه السلام، والكلام هنا كالكلام فيما تقدم، وجوز أبو البقاء كون الظرف معطوفاً على الظرف السابق وناصبه ناصبه والأول أولى، والمراد : اذكر أيضاً من شواهد اصطفاء أولئك الكرام وقت قول الملائكة عليهم السلام ﴿ الملائكة يامريم إِنَّ الله اصطفاك ﴾ أي اختارك من أول الأمر ولطف بك وميزك على كل محرر وخصك بالكرامات السنية، والتأكيد اعتناءاً بشأن الخبر وقول الملائكة لها ذلك كان

شفاها على ما دلت عليه الأخبار ونطقت به الظواهر ، وفي بعض الآثار ما يقتضي تكرر هذا القول من الملائكة لها ، فقد أخرج ابن جرير عن ابن إسحاق أنه قال : كانت مريم حبيساً في الكنيسة ومعها فيها غلام اسمه يوسف وقد كان أمه وأبوه جعلاه نذيراً حبيساً فكانا في الكنيسة جميعاً وكانت مريم إذا نفد ماؤها وماء يوسف أخذا قلتيهما فانطلقا إلى المغارة التي فيها الماء فيملآن ثم يرجعان والملائكة في ذلك مقبلة على مريم بالبشارة يا مريم إن الله اصطفاك الآية فإذا سمع ذلك زكريا عليه السلام قال : إن لابنة عمران لشأناً ، وقيل : إن الملائكة عليهم السلام ألهموها ذلك ، ولا يخفى أن تفسير القول بالإلهام وإسناده للملائكة خلاف الظاهر وإن كان لا مانع من أن يكون بواسطتهم أيضاً على أنه قول لا يعضده خبر أصلاً ، وعلى القول الأولى يكون التكليم من باب الكرامة التي يمنّ بها الله سبحانه على خواص عباده ، ومن أنكرها زعم أن ذلك إرهاص وتأسيس لنبوة عيسى عليه السلام أو معجزة لزكريا عليه السلام ، وأورد على الأول أن

(15/118)

الإرهاص في المشهور أن يتقدم على دعوى النبوة ما يشبه المعجزة كإظلال الغمام لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتكلم الحجر معه ، وهذا بظاهره يقتضي وقوع الخارق على يد النبي

صلى الله عليه وسلم لكن قبل أن ينبأ لا على يد غيره كما فيما نحن فيه ، ويمكن أن يدفع بالعناية ؛ وأورد على الثاني بأنه بعيد جداً إذ لم يقع الكلام مع زكريا عليه السلام ولم يقترن ذلك بالتحدي أيضاً فكيف يكون معجزة له ، واستدل بهذه الآية من ذهب إلى نبوة مريم لأن تكليم الملائكة يقتضيها ، ومنعه اللقاني بأن الملائكة قد كلموا من ليس بنبي إجماعاً فقد روي أنهم كلموا رجلاً خرج لزيارة أخ له في الله تعالى وأخبروه أن الله سبحانه يحبه كحبه لأخيه فيه ولم يقل أحد بنبوته ، وادعى أن من توهم أن النبوة مجرد الوحي ومكالمة الملك فقد حاد عن الصواب .

ومن الناس من استدل على عدم استنباء النساء بالإجماع وبقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً ﴾ [الأنبياء : 7] ولا يخفى ما فيه ، أما أولاً : فلأن حكاية الإجماع في غاية الغرابة فإن الخلاف في نبوة نسوة كحواء ، وآسية ، وأم موسى ، وسارة ، وهاجر ، ومريم موجود خصوصاً مريم فإن القول بنبوتها شهير ، بل مال الشيخ تقي الدين السبكي في "الحلبيات" ، وابن السيد إلى ترجيحه ، وذكر أن ذكرها مع الأنبياء في سورتهم قرينة قوية لذلك . وأما ثانياً : فلأن الاستدلال بالآية لا يصح لأن المذكور فيها الإرسال وهو أخص من الاستنباء على الصحيح المشهور ، ولا يلزم من نفي الأخص نفي الأعم فافهم .

﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ أي من الأدناس والأقذار التي تعرض للنساء مثل الحيض والنفاس حتى صرت صالحة لخدمة المسجد قاله الزجاج وروي عن الحسن وابن جبير أن المراد طهرك بالإيمان عن الكفر وبالطاعة عن المعصية ، وقيل : نزهك عن الأخلاق الذميمة والطباع الرديئة ، والأولى الحمل على العموم أي طهرك من الأقذار الحسية والمعنوية والقلبية والقالبية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 3 صـ 155.154 ﴾

لطيفة

قال ابن عجيبة :

لا يصطفي الله العبدَ لحضرته إلا بعد تطهيره من الرذائل ، وتحليته بأنواع الفضائل ، وقطعه عن قلبه الشواغل ، والقيام بوظائف العبودية ، وبالآداب مع عظمة الربوبية ، والخضوع تحت مجاري الأقدار ، والتسليم لأحكام الواحد القهار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المديد حـ 1 صـ 352 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَآءِ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ ﴾ المراد بها جبريل عليه السلام ، والسبب في أن الحق يورد ذلك بـ ﴿ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ ﴾ لأن كلام المتكلم - أي الإنسان - له - كما قلنا - زاوية انطلاق يأتي من جهتها الصوت . وتستطيع أن تتأكد من ذلك عندما يجيء لك صوت ، فأنت تجد ميل أذنك لجهة مصدر الصوت ، فإن جاء الصوت من ناحية أذنك اليمنى فأنت تلتفت وتميل إلى يمينك ، وإذا جاءك الصوت من شمالك تلتفت إلى الشمال . لكن المتكلم هنا هو جبريل عليه السلام ، ويأتي صوته من كل جهة حتى يصير الأمر عجيبا ، لهذا جاء الكلام منسوبا إلى الملائكة .

فماذا قال جبريل ؟ قال جبريل مبلغا عن رب العزة : ﴿ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَآءِ الْعَالَمِينَ ﴾ وما الاصطفاء ؟ إن الاصطفاء اختيار واجتباء ، وهو مأخوذ من الصفو أو الصافي ، أي الشيء الخالص من الكدر . وعادة تؤخذ المعاني من المحسات ، وعندما تقول الماء الصافي أي الماء غير المكدر ، أو كما يقول الحق :

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾

[محمد : 15] .

وعندما يقول الحق : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَآءِ الْعَالَمِينَ ﴾ نحن هنا أمام اصطفاءين ، الاصطفاء الأول ورد دون أن تسبقه كلمة "على" والإصطفاء الثاني تسبقه كلمة "على" والمقصود بالإصطفاء الأول هو إبلاغ مريم أن الله ميزها بالإيمان ، والصلاح والخلق الطيب ، ولكن هذا الاصطفاء الأول جاء مجردا عن "على" أي أن هذا الاصطفاء الأول لا يمنع أن يوجد معها في مجال هذا الإصطفاء آخرون ، بدليل قول الحق :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى ءَادَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

[آل عمران : 33] .

ثم أورد الحق سبحانه أنه طهرها ، وجاء من بعد ذلك بالاصطفاء الثاني المسبوق بـ "على" فقال ﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَآءِ الْعَالَمِينَ ﴾ إذن فهذا خروج للرجال عن دائرة هذا الاصطفاء ، ولن يكون مجال الاصطفاء موضوعا يتعلق بالرجولة ؛ فهي مصطفاة على نساء العالمين ، فكأنه لا توجد أنثى في العالمين تشاركها هذا الاصطفاء . لماذا ؟ لأنها الوحيدة التي ستلد دون ذكر ، وهذه مسألة لن يشاركها فيها أحد .

وقوله الحق : ﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَآءِ الْعَالَمِينَ ﴾ هذا القول يجب أن ينبه في نفسها سؤالا هو : ما الذي تمتاز هي به عن نساء العالمين ؟ إن الذهن ينشغل بهذا الأمر ، وينشغل على أمر من وظيفة الأنثى ، ولنضم هذه إلى قول الحق على لسانها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ونجد أن هذه كلها إيناسات للحدث الذي سيأتي من بعد ذلك ، وهو حدث يتعلق بعرضها وعفافها ، فلا بد أن يمهد الله له تمهيدا مناسبا حتى تتأكد من أن هذه المسألة ليس فيها شيء يخدش الكرامة .

﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَآءِ الْعَالَمِينَ ﴾ ولنا أن نسأل : ما نتيجة الاصطفاء ؟

لقد عرفنا أن الاصطفاء هو الاجتباء والآختيار ، ويقتضي " مصطَفى " بفتح الفاء .

ويقتضي " مصطِفى " بكسر الفاء . والمصطفى هو الله ، لكن ما علة الاصطفاء ؟ إن الذي يصطفيه الله إنما يصطفيه لمهمة ، وتكون مهمة صعبة . إذن هو يصطفيه حتى يشيع اصطفاؤه في الناس . كأن الله قد خصه بالاصطفاء من أجل الناس ومصلحتهم ، سواء أكان هذا الاصطفاء لمكان أم لإنسان أم لزمان ليشيع صفاؤه في كل ما اصطفى عليه . لقد اصطفى الله الكعبة من أجل ماذا ؟ حتى يتجه كل إنسان إلى الكعبة . إذن فقد اصطفاها من أجل البشر وليشيع اصطفاؤها في كل مكان آخر ، ولذلك قال الحق عن الكعبة :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾

[آل عمران : 96] .

وإذا اصطفى الحق سبحانه زمانا ، كاصطفائه لرمضان ، فلماذا اصطفاه ؟ ليشيع صفاؤه ، وصفاء ما أنزل فيه في كل زمان . إذن فاصطفاء الحق للشخص أو للمكان أو للزمان هو لمصلحة بقية الناس أو الأمكنة أو الأزمنة ، لماذا ؟ لأن أحدا من الخلق ليس ابنا لله ، وليس هناك مكان أولى بمكان عند الله . ولكن الله يصطفي زمانا على زمان ، ومكانا على مكان ، وإنسانا على إنسان ليشيع اصطفاء المُصطفى في كل ما اصطُفِىَ عليه . إذن فهل يجب على الناس أن يفرحوا بالمصطفى ، أو لا يفرحوا به ؟ إن عليهم أن يفرحوا به ؛ لأنه جاء لمصلحتهم ، والحق سبحانه يقول : ﴿ يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ . . . ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1452.1454 ﴾

(20/118)

قوله تعالى ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (43) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أخبرها سبحانه وتعالى بما اختصها به أمرها بالشكر فقال : ﴿ يا مريم اقنتي ﴾ أي أخلصي أفعالك للعبادة ﴿ لربك ﴾ الذي عودك الإحسان بأن رباك هذه التربية .

ولما قدم الإخلاص الذي هو روح العبادة أتبعه أشرفها فقال : ﴿ واسجدي ﴾ فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد .

قال الحرالي : وكان من اختصاص هذا الاصطفاء العلي – أي الثاني – ما اختصها من الخطاب بالركوع الذي لحقت به بهذه الأمة الراكعة التي أطلعها الله سبحانه وتعالى من سر عظمته التي هي إزاره على ما لم يطلع عليه أحداً ممن سواها في قوله : ﴿ واركعي مع الراكعين ﴾ كما قال لبني إسرائيل عند الأمر بالملة المحمدية ﴿ واركعوا مع الراكعين ﴾ [البقرة : 43] – إلى ما يقع من كمال ما بشرت به حيث يكلم الناس كهلاً في خاتمة اليوم المحمدي ، ويكمل له الوجود الإنساني حيث يتزوج ويولد له – كما ذكر ، ولك كله فيما يشعر به ميم التمام في ابتداء الاسم وانتهائه ، وفيما بين التمامين من كريم التربية لها ما يشعر به الراء من تولي الحق لها في تربيتها ورزقها ، وما تشعر به الياء من كمالها الذي اختصت على عالمها – انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 79 . 80 ﴾

فصل

قال الفخر :

وفي الآية سؤالات :

السؤال الأول : لم قدم ذكر السجود على ذكر الركوع ؟ .

والجواب من وجوه

الأول : أن الواو تفيد الاشتراك ولا تفيد الترتيب

الثاني : أن غاية قرب العبد من الله أن يكون ساجداً قال عليه الصلاة والسلام : " أقرب ما يكون العبد من ربه إذا سجد " فلما كان السجود مختصاً بهذا النوع من الرتبة والفضيلة لا جرم قدمه على سائر الطاعات .

(21/118)

ثم قال : ﴿ واركعى مَعَ الركعين ﴾ وهو إشارة إلى الأمر بالصلاة ، فكأنه تعالى يأمرها بالمواظبة على السجود في أكثر الأوقات ، وأما الصلاة فإنها تأتي بها في أوقاتها المعينة لها

والثالث : قال ابن الأنباري : قوله تعالى : ﴿ اقنتى ﴾ أمر بالعبادة على العموم ، ثم قال بعد ذلك ﴿ واسجدى واركعى ﴾ يعني استعملي السجود في وقته اللائق به ، واستعملي الركوع في وقته اللائق به ، وليس المراد أن يجمع بينهما ، ثم يقدم السجود على الركوع والله أعلم

الرابع : أن الصلاة تسمى سجوداً كما قيل في قوله ﴿ وأدبار السجود ﴾ [ق : 40] وفي الحديث " إذا دخل أحدكم المسجد فليسجد سجدتين " وأيضاً المسجد سمي باسم مشتق من السجود والمراد منه موضع الصلاة ، وأيضاً أشرف أجزاء الصلاة السجود وتسمية الشيء باسم أشرف أجزائه نوع مشهور في المجاز .

إذا ثبت هذا فنقول قوله ﴿ يا مريم اقنتى ﴾ معناه : يا مريم قومي ، وقوله ﴿ واسجدى ﴾ أي صلي فكان المراد من هذا السجود الصلاة ، ثم قال : ﴿ واركعى مَعَ الراكعين ﴾ إما أن يكون أمراً لها بالصلاة بالجماعة فيكون قوله ﴿ واسجدى ﴾ أمراً بالصلاة حال الانفراد ، وقوله ﴿ واركعى مَعَ الراكعين ﴾ أمراً بالصلاة في الجماعة ، أو يكون المراد من الركوع التواضع ويكون قوله ﴿ واسجدى ﴾ أمراً ظاهراً بالصلاة ، وقوله ﴿ واركعى مَعَ الراكعين ﴾ أمراً بالخضوع والخشوع بالقلب .

الوجه الخامس في الجواب : لعلّه كان السجود في ذلك الدين متقدماً على الركوع .

السؤال الثاني : أما المراد من قوله ﴿ واركعى مَعَ الركعين ﴾ .

والجواب : قيل معناه : افعلي كفعلهم ، وقيل المراد به الصلاة في الجماعة كانت مأمورة بأن تصلي في بيت المقدس مع المجاورين فيه ، وإن كانت لا تختلط بهم .

السؤال الثالث : لم لم يقل واركعي مع الراكعات ؟

والجواب لأن الاقتداء بالرجال حال الاختفاء من الرجال أفضل من الاقتداء بالنساء .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 39 ﴾

فائدة

قال الفخر :

اعلم أن المفسرين قالوا : لما ذكرت الملائكة هذه الكلمات مع مريم عليها السلام شفاها ، قامت مريم في الصلاة حتى ورمت قدماها وسال الدم والقيح من قدميها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 40 ﴾

(22/118)

من فوائد الآلوسى فى الآية

﴿ يا مريم اقنتى لِرَبّكِ ﴾ الظاهر أنه من مقول الملائكة أيضاً وصوها بالمحافظة على الصلاة بعد أن أخبروها بعلو درجتها وكمال قربها إلى الله تعالى لئلا تفتر ولا تغفل عن العبادة ، وتكرير النداء للإشارة إلى الاعتناء بما يرد بعد كأنه هو المقصود بالذات وما قبله تمهيد له . والقنوت إطالة القيام في الصلاة قاله مجاهد أو إدامة الطاعة قاله قتادة وإليه ذهب الراغب ، أو الإخلاص في العبادة قاله سعيد بن جبير أو أصل القيام في الصلاة قاله بعضهم والتعرض لعنوان الربوبية للإشعار بعلة وجوب امتثال الأوامر ﴿ واسجدى واركعى مَعَ الركعين ﴾

يحتمل أن يكون المراد من ذلك كله الأمر بالصلاة إلا أنه أمر سبحانه بها بذكر أركانها مبالغة في إيجاب المحافظة عليها لما أن في ذكر الشيء تفصيلاً تقريراً ليس في الإجمال ، ولعل تقديم السجود على الركوع لأنه كذلك في صلاتهم ، وقيل : لأنه أفضل أركان الصلاة وأقصى مراتب الخضوع ، وفي الخبر "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد" أو للتنبيه على أن الواو لا توجب الترتيب أو ليقترن ﴿ اركعي ﴾ بالراكعين للإيذان بأنّ مَن ليس في صلاتهم ركوع ليسوا مصلين ، وكل من هذه الأوجه لا يخلو عن دغدغة ، أما أولاً : فلأنه إنما يتم على القول بأن القيام ليس أفضل من السجود كما نقل عن الإمام الشافعي ، وأما الثاني : فلأن خطاب القرآن مع من يعلم لغة العرب لا مع من يتعلم منه اللغة ، وأما الثالث : فلأن تماميته تتوقف على بيان وجه أنه لم يعبر بالساجدين تنبيهاً على أن من لا سجدة في صلاته ليس من المصلين ؟ وكان وجه ذلك ما يستفاد من كلام الزمخشري حيث قال : "ويحتمل أن يكون في زمانها من كان يقوم ويسجد في صلاته ولا يركع" ، وفيه من يركع فأمرت بأن تركع مع الراكعين ولا تكون مع من لا يركع ، فالنكتة في التعبير ما جعلت نكتة في ذكر ﴿ واسجدى واركعى مَعَ الركعين ﴾ واعترضه أيضاً بعضهم بأنه إذا قدم الركوع ، وقيل : (واركعي مع الراكعين

(23/118)

واسجدي) يحصل ذلك المقصود ، ولا مدخل للتقديم والتأخير في إفادة ذلك ، وقيل : المراد بالسجود وحده الصلاة كما في قوله تعالى : ﴿ وأدبار السجود ﴾ [ق : 40] والتعبير عن الصلاة بذلك من التعبير بالجزء عن الكل ويراد بالركوع الخشوع والتواضع وكأن أمرها بذلك حفظاً لها من الوقوع في مهاوي التكبر والاستعلاء بما لها من علو الدرجة ، والاحتمال الأول هو الظاهر ، ويؤيده ما أخرجه ابن جرير عن الأوزاعي قال : "كانت تقوم حتى يسيل القيح من قدميها" وما أخرجه ابن عساكر في الآية عن أبي سعيد قال : "كانت مريم تصلي حتى تورم قدماها" والأكثرون على أن فائدة قوله سبحانه : ﴿ مَعَ الراكعين ﴾ الإرشاد إلى صلاة الجماعة ، وإليه ذهب الجبائي ، وذكر بعض المحققين على أن نكتة التعبير بذلك في المقام دون واسجدي مع الساجدين الإشارة إلى أن من أدرك الركوع مع الإمام فقد أدرك ركعة من الصلاة ، وعورض بأنه لو قيل : واسجدي مع الساجدين لربما كان فيه إشارة إلى أن من أدرك السجود مع الإمام فقد أدرك الجماعة ، ولعل هذه الإشارة أولى من الأولى في هذا المقام ، واستلزام ذلك أن من أدرك ما بعد السجود معه لا يدرك الجماعة في حيز المنع ، ولا يخفى أن المعارض والمعارض ليسا بشيء عند المنصفين ، وأحسن منهما ما أشار إليه صاحب "الكشاف" ، وزعم بعضهم أن ﴿ مَّعَ ﴾ مجاز عن الموافقة في الفعل فقط دون اجتماع أي افعلي كفعل الراكعين وإن لم توقعي الصلاة معهم قال : لأنها كانت تصلي في محرابها ، وأيضاً إنها كانت شابة وصلاة الشواب في الجماعة مكروهة

، واعترض بأنه ارتكاب للتجوز الذي هو خلاف الأصل من غير داع ، وكونها كانت تصلي في محرابها أحياناً مسلم لكن لا يدل على المدعى ، ودائماً مما لا دليل عليه وبفرضه لا يدل على المدعي أيضاً لجواز اقتدائها وهي في المحراب ، وكراهة صلاة الشابة في الجماعة لم يتحقق عندنا ثبوتها في شرع من قبلنا ، على أن الماتريدي نفى كراهة صلاة مريم

(24/118)

في الجماعة وإن كانت شابة ، وقلنا : بكراهة صلاة الشواب في شرعهم أيضاً ، وعلله بكون القوم الذين كانت تصلي معهم كانوا ذوي قرابة منها ورحم ، ولذلك اختصموا في ضمها وإمساكها ، وربما يعلل بعدم خشية الفتنة وإن كانوا أجانب ، ويستأنس لهذا بذهابها مع يوسف لملء القلة في المغارة ، ولعل أولئك الذين تركع معهم من هذا القبيل ، وإن قلنا : إنها تقتدي وهي في محرابها إما وحدها أو مع نسوة زال الإشكال ، وجاء ﴿ مَعَ الراكعين ﴾ دون الراكعات لأن هذا الجمع أعم إذ يشمل الرجال والنساء على سبيل التغليب ، ولمناسبة رؤوس الآي ، ولأن الاقتداء بالرجال أفضل إن قلنا : إنها مأمورة بصلاة الجماعة .

وادعى بعضهم أن في التعبير بذلك مدحاً ضمنياً لمريم عليها السلام ولم يقيد الأمرين

الأخيرين بما قيد به الأمر الأول اكتفاءاً بالتقييد من أول وهلة ، وقال شيخ الإسلام : إن تجريد الأمر بالركنين الأخيرين عما قيد به الأول لما أن المراد تقييد الأمر بالصلاة بذلك ، وقد فعل حيث قيد به الركن الأول منها ، ولعل ما ذكرناه أولى لأنه مطرد على سائر الأقوال في القنوت ، وأهرج ابن أبي داود في "المصاحف" عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه كان يقرأ (واركعي واسجدي في الساجدين) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 156.157 ﴾

(25/118)

من فوائد ابن القيم فى الآية :

قوله تعالى ﴿ اركعي مع الراكعين ﴾ ولم يقل اسجدي مع الساجدين فإنما عبر بالسجود عن الصلاة وأراد صلاتها في بيتها لأن صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها مع قومها ثم قال لها اركعي مع الراكعين أي صلي مع المصلين في بيت المقدس ولم يرد أيضا الركوع وحده دون أجزاء الصلاة ولكنه عبر بالركوع عن الصلاة كما تقول ركعت ركعتين وأربع ركعات يريد الصلاة لا الركوع بمجرده فصارت الآية متضمنة لصلاتين صلاتها وحدها عبر عنها بالسجود لأن السجود أفضل حالات العبد وكذلك صلاة المرأة في بيتها أفضل لها ثم

صلاتها في المسجد عبر عنها بالركوع لأنه في الفضل دون السجود وكذلك صلاتها مع المصلين دون صلاتها وحدها في بيتها ومحرابها وهذا نظم بديع وفقه دقيق وهذه نبذ تسير بك إلى ما وراءها ترشدك وأنت صحيح ﴿ وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركوع السجود ﴾

﴿ وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ الحج 26

بدأ بالطائفين للرتبة والقرب من البيت المأمور بتطهيره من أجل الطوافين وجمعهم جمع السلامة لأن جمع السلامة أدل على لفظ الفعل الذي هو علة تعلق بها حكم التطهير ولو كان مكان الطائفين الطواف لم يكن في هذا اللفظ من بيان قصد الفعل ما في قوله للطائفين ألا ترى أنك تقول تطوفون كما تقول طائفون فاللفظان متشابهان. انتهى انتهى. اهـ ﴿ بدائع الفوائد حـ63 ﴾

(26/118)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾

فكأن ما تقدم من حيثيات الاصطفاء الأول ، والاصطفاء الثاني ، يستحق منها القنوت ، أي العبادة الخالصة الخاضعة الخاشعة . وقد يقول قائل : ولماذا يصطفى الله واحدا ، ليشيع اصطفاؤه في الناس ؟ لأن الاصطفاء من الحق لا بد أن يبرئه من كل ما يمكن أن يقع فيه نظيره من الاختيارات غير المرضية ، والحق سبحانه يريده نموذجاً لا يقع منه الا الخير ، والمثال الكامل على ذلك اصطفاء الحق سبحانه لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم من أول الأمر وجعله لا يفعل إلا السلوك الطيب من أول الأمر ، وذلك حتى يعطينا الرسول القدوة الإيمانية في ثلاث وعشرين سنة هي مدة الرسالة المحمدية .

والحق يقول لمريم على لسان الملائكة : ﴿ يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ ﴾ إنه أمر بالعبادة الخاشعة المستديمة لربها ، وكلمة ﴿ لِرَبِّكِ ﴾ تعني التربية ، فكأن الاصطفاءات هي من نعم الله عليك يا مريم ، وتستحق منك القنوت ﴿ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ و ﴿ وَاسْجُدِي ﴾ أي بَالِغِي في الخشوع ، والخضوع ، بوضع الجبهة التي هي أشرف شيء في الإنسان على الأرض ، لأن السجود هو أعلى مرتبة من الخضوع .

لكن أيعفيها هذا اللون من الخضوع مما يكون من الركوع لله مع الناس ؟ لا ، إنه الأمر الحق يصدر لمريم ﴿ وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ ولا يعفيك من الركوع أنك فعلت الأمر الأعلى منه في الخضوع وهو السجود ، بل عليك أن تركعي مع الراكعين ، فلا يحق لك يا مريم أن تقولي : " لقد أمرني الله بأمر " أعلى ولم أنفذ الأمر الأدنى "

إن الحق يأمرها أن تكون أيضا في ركب الراكعين مثلما نقرأ قوله الحق عن الكفار :

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾

[المدثر : 42-43] .

(27/118)

إنهم كفار ، فكيف يصلون ؟ إنه اعتراف منهم بأنهم كفار ، ولم يكونوا مسلوكين في سلك من يصل ، واعتراف بانهم لم يكونوا مسلمين أو مؤمنين بالله . وهنا يسأل سائل كريم : لماذا قال سبحانه وتعالى في خطابه لمريم : ﴿ يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ ولم يقل الحق : " مع الراكعات " ؟ هذا هو السؤال .

وإجابة على هذا السؤال نحب أن نمهد تمهيدا بسيطا إلى فلسفة الأسماء في وضعها على مسمياتها . إن الأسماء ألفاظ من اللغة تعين مسماها . والمسميات مختلفة ، فمنها الجماد ، ومنها النبات, ومنها الحيوان ، ومنها الأسماء التي تدل على عالم الغيب كالجن ، والملائكة ، وكل ما غيب الله . هذه الأسماء تدل على معانيها .

وهدى الله سبحانه البشر إليها بما علم آدم من الأسماء ، فكيف كان باستطاعة آدم التعبير عن معطيات الأسماء بمسمياتها ؟ إذن لا بد أن يوجد لكل شيء اسم حتى نستطيع حين

تتفاهم على الشيء أو الكائن بأن نذكر لفظا واحدا موجزاً يشير إليه.

ولو لم يكن يذكر هذا فكيف كان باستطاعة إنسان أن يتكلم مع إنسان آخر عن الجبل مثلا ؟. أكان على المتكلم أن يأخذ السامع إلى الجبل ويشير إليه ؟ أم يكفي أن يقول له لفظ " جبل " حتى يستحضر السامع في ذهنه صورة لهذا المسمى ؟

إذن.. ففلسفة تعليم الحق للأسماء لنا أزاحت عنا عبئًا كبيرا من صعوبة التفاهم. ولولا ذلك لما استطعنا أن نتفاهم على شيء إلا إذا واجهنا الشيء وأشرنا إليه. فكلمة " جبل " وكلمة " صخر " وغيرها من الكلمات هي أسماء لمسميات.. وعندما أتكلم على سبيل المثال عن أمريكا فإنني لن آخذ السامع إليها وأشير إليه قائلا " إن هذه هي أمريكا "، لكن كلمة واحدة هي " أمريكا " تعطي السامع معنى للمسمى، فتلحق الأحكام على مسمياتها. وما دامت المسألة هكذا فلا بد من وجود أسماء لمسميات، هذه الأسماء علمها الله للإنسان حتى يتفاهم بها والإنسان أصله من آدم.

(28/118)

وكلمة " آدم " حينما تتكلم بها تجدها في النحو مذكرة، والمذكر يقابله المؤنث. وقد خلق الحق الأعلى: الذكورة والأنوثة؛ لأن من تزاوجهما سيخرج النسل. إذن فكان لا بد من

التمييز بين النوعين للجنس الواحد . فالذكر والأنثى ، هما بنو آدم ، ومنها ينشأ التكاثر ، لكن العجيب أن الله حين سمى آدم ونطقناه اسما مذكرا وسمى " حواء " ونطقناه اسما مؤنثا ، وجعل سبحانه الاسم الأصيل الذي وجدَ منه الخلق هو " نفس " . لقد قال الحق :

﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾

[النساء : 1] .

لقد سمى الحق آدم بكلمة نفس ، وهي مؤنثة ، إذن فليس معنى التأنيث أنه أقل من معنى التذكير ، ولكن " التذكير " هو فقط علامة لتضع الأشياء في مسمياتها الحقيقية وكذلك التأنيث . إن الحق سبحانه يطلق على كل إنسان منا " نفس " وهي كلمة مؤنثة ، وحينما تكلم الحق سبحانه كلاما آخر عن الخلق قال :

﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

[الحجرات : 13] .

وكلمة " ناس " تعني مجموع الإنسان . وهكذا نعرف أن كلمة : " إنسان " تُطلق مرة على المذكر ، ومرة أخرى على المؤنث . إذن فالحق قد أورد مرة لفظا مذكرا ، ومرة أخرى أطلق لفظا مؤنثا ، وذلك حتى لا نقول : أن المذكر أفضل وأحسن من المؤنث ، ولكن ذلك وسيلة

للتفاهم فقط ، ولذلك يؤكد لنا الحق سبحانه أنه قد وضع الأسماء لمسمياتها لنتعارف بها .

﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾

[الحجرات : 13] .

(29/118)

ومعنى " لنتعارف " أي أن يكون لكل منا اسمٌ يعرف به عند الآخرين .

وفي حياتنا العادية – ولله المثل الأعلى – نجد رجلا عنده أولاد كثيرون ، لذلك يُطلق على كل ابن اسما ليعرفه المجتمع به ، والعجيب في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ . أننا نجد كلمة " شعوبا " مذكرة وكلمة " قبائل " مؤنثة . إذن فلا تمايز بالأحسن ، ولكن الكلمات هنا مسميات للتعارف . والحق الأعلى يقول :

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾

[العصر : 1-3] .

إذن فما وضع النساء اللائي آمنّ ؟ إنهن يدخلن ضمن ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ . ولماذا أدخل

الله المؤنث في الذكر ؟ لأن المذكر هو الأصل ، والمؤنث جاء منه فرعا . إذن فالمؤنث هو الذي يدخل مع المذكر في الأمور المشتركة في الجنس .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

[البقرة : 21] .

وهذا يعني أن " المؤنث " عليه أن يدخل في تكليف العبودية لله .

والمعنى العام يحدد أن المطلوب منه العبادة هو الإنسان كجنس . وبنوعية الذكر والأنثى .

وفي الأمر الخاص بالمرأة ، ويحدد الله المرأة بذاتيتها . فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً ﴾

[الأحزاب : 36] .

لماذا ؟ إن المسألة هنا تشمل النوعين من الجنس الواحد : الرجل والمرأة ، زوج وزوجة ، فمثلا نجد زوجا يريد تطليق زوجته ، فيأتي الحق بتفصيل يوضح ذلك . وإذا كان هناك أمر خاص بالمرأة فالحق سبحانه وتعالى يحدد الأمر فها هو ذا قوله الحكيم :

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾

[الأحزاب: 32-33].

إن كل ما جاء في الآية السابقة يحدد المهام بالنسبة لنساء النبي صلى الله عليه وسلم، فالخطاب الموجه يحدد الأمر بدقة "لستن" و "اتقيتن"، و "لا تخضعن"، و "قرن"، و "لا تبرجن". الحديث في هذه الآية الكريمة يتعلق بالمرأة لذلك يأتي لها بضميرها مؤنثا.

ولكن إذا جاء أمر يتعلق بالإنسان بوجه عام فإن الحق يأتي بالأمر شاملا للرجل والمرأة ويكون مذكرا، ولذلك فعندما قالت النساء لماذا يكون الرجل أحسن من المرأة، جاء قول الحق:

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾

[الأحزاب: 35].

هكذا حسم الحق الأمر .

قال سبحانه تأكيدا لذلك ؛

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴾

[النساء : 124] .

(31/118)

إن الذكر والأنثى هنا يدخلان في وصف واحد هو ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ إذن فعندما يأتي الأمر في المعنى العام الذي يُطلب من الرجل والمرأة فهو يُضمر المرأة في الرجل لأنها مبنية على الستر والحجاب ، مطمورة فيه . داخله معه . . فإذا قال الحق سبحانه لمريم : ﴿ وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ فالركوع ليس خاصا بالمرأة حتى يقول " مع الراكعات " ولكنه أمر عام يشمل الرجل والمرأة ، لذلك جاء الأمر لمريم بأن تركع مع الراكعين . (1) انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 1454 . 1460 ﴾

---

(1) " وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ " وقد علمت قبل ذلك أن الله تعالى اصطفاها دون غيرها من نساء العالمين لخدمة بيت المقدس . والله أعلم .

فصل

قال البقاعى :

والمراد باتباع قصتها لما مضى التنبيه على انخراطها في سلك ما مضى من أمر آدم ويحيى إفصاحاً ، وإبراهيم في ابنيه إلاحة في خرق العادة فيهم ، وأن تخصيصها بالإنكار أو التعجب والتنازع مع الإقرار بأمرهم ليس من أفعال العقلاء ؛ والظاهر أن المراد بالسجود في هذا المقام ظاهره وبالركوع الصلاة نفسها ، فكأنه قيل : واسجدي مصلية ولتكن صلاتك مع المصلين أي في جماعة ، فإنك في عداد الرجال لما خصصت به من الكمال ، ولم يقل : مع الراكعات ، لأن الاقتداء بالرجال أفضل وأشرف وأكمل ، وإنما قلت هذا لأني تتبعت التوراة فلم أره ذكر فيها الركوع في صلاة إبراهيم عليه السلام ولا من بعده من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا أتباعهم إلا في موضع واحد لا يحسن جعله فيه على ظاهره ، ورأيته ذكر الصلاة فيها على ثلاثة أنحاء : الأول إطلاق لفظها من غير بيان كيفية ، والثاني إطلاق لفظ السجود مجرداً ، والثالث إطلاقه مقروناً بركوع أو جثو أو خرور على الوجه ونحو ذلك ؛ ففي السفر الأول منها في قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين ماتت زوجته سارة

رضي الله تعالى وسأل بني حاث أهل تلك الأرض أن يعطوه مكاناً يدفنها فيه فأجابوه : فقام إبراهيم فسجد لشعب الأرض بني حاث وكلمهم ؛ وفيه في قصة ربانية قال : وسجد على الأرض وقال : يا رب – فذكر دعاء ثم قال : وصلى إبراهيم بين يدي الرب ؛ وفيه في قصة عبد لإبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه ذهب إلى بلاد حران يخطب لإسحاق عليه السلام امرأة فظفر بقصده : فجثا الرجل – أي عبد إبراهيم – على الأرض فسجد للرب وقال : تبارك الله رب سيدي إبراهيم ؛ وفيه لما أجابه أهل المرأة : فلما سمع غلام إبراهيم كلامهم سجد على الأرض قدام المرأة ، وفيه عند لقاء عيصو لأخيه يعقوب عليه الصلاة والسلام : فدنت الأمان وأولادهما فسجدوا – أي لعيصوا ، ودنت ليا وولدها فسجدوا ؛ فلما كان أخيراً دنت راحيل ويوسف فسجدوا ؛ وفيه في قصة يوسف عليه السلام : ودنا

إخوته فخروا له سجداً وقالوا له : ها نحن لك عبيد ؛ وفي السفر الثاني عند قدوم موسى عليه الصلاة والسلام إلى بني إسرائيل وإخباره لهم بإرسال الله سبحانه وتعالى له وإظهاره لهم الآيات : فآمن الشعب وسمعوا أن الرب قد ذكر بني إسرائيل وأبصر إلى خضوعهم وجثا الشعب وسجدوا للرب ؛ وفيه في خروجهم من مصر : فركع الشعب كله ساجداً لله

سبحانه وتعالى ؛ وفيه : فاستعجل موسى فخر على وجهه على الأرض ساجداً ؛ وفيه في تلقي موسى عليه السلام لختنه شعيب عليهما السلام إذ جاءه يهنئه بما أنعم الله عليه بعد غرق فرعون : فخرج موسى يتلقى ختنه وسجد له وقبله وسأل كل منهما عن سلامة صاحبه ؛ وفيه : وقال الله سبحانه وتعالى لموسى عليه الصلاة والسلام عند ما بشره بقتل الكنعانيين وغيرهم من سكان بلاد القدس : لا تسجدوا لآلهتهم ولا تعبدوها ولا تفعلوا كأفعالهم - بل كبهم كباً على وجوههم وكسر أصنامهم - واعبدوا الرب إلهكم ، وفي أوائل السفر الثالث في ذكر ظهور مجد الرب لهم في قبة الزمان التي كانوا يصلون إليها على حياة موسى عليه الصلاة والسلام : وعاين ذلك جميع الشعب وحمدوا الله سبحانه وتعالى وخر الشعب كله على وجهه ، وفي الرابع عندما هم بنو إسرائيل بالرجوع إلى مصر تضجراً من حالهم : فخر موسى وهارون عليهما السلام على وجوههما ساجدين بين يدي جماعة بني إسرائيل كلها ؛ وفيه : وكلم الرب موسى وهارون وقال لهما : تنحيا عن هذه الجماعة لأني مهلكها ، فخرا ساجدين على وجوههما ؛ وفيه عندما تذمروا عليه من أجل العطش : فجاء موسى وهارون من عند الجماعة إلى باب قبة الزمان فخرا على وجوههما فظهر لهما مجد الرب - فذكر قصة ضرب الحجر بالعصا وانفجار الماء ؛ وفيه في قصة بلعام بن باعور حين رأى ملكاً في طريقه فجثا على وجهه ساجداً .

وأما إطلاق لفظ الصلاة فقال في آخر السفر الثاني : وكان إذا خرج موسى عليه الصلاة والسلام إلى قبة الزمان كان جميع الشعب يقفون ويستعد كل امرىء منهم على باب خيمته ، وينظرون إلى موسى عليه الصلاة والسلام من خلفه حتى يدخل إلى القبة ، وإذا دخل موسى القبة كان ينزل عمود السحاب فيقف على باب القبة ، ويكلم موسى وكان جميع الشعب ينظرون إلى عمود السحاب واقفاً على باب القبة وكان يقف جميع الشعب ويصلي كل امرىء منهم على باب خيمته ؛ وفيه : وعمل سطلاً من نحاس فنصبه عند منظر النسوة اللاتي يأتين فيصلين على باب قبة الأمد .

(35/118)

وكل ما فيها من ذكر الصلاة فهكذا يطلق لفظه غير مقرون بما يرشد إلى كيفية ، فلا فائدة في سرده ؛ وهذا القبة أمر الله سبحانه وتعالى موسى عليه الصلاة والسلام باتخاذها مظهر المجد وأن يجعلها كهيئة الغمام الذي ظهر له مجده تعالى فيه في جبل طور سيناء ، وهي من غرائب الدهر في الارتفاع والسعة والهيئة ، ففيها من الخشب والبيوت والتوابيت والأعمدة والجواهر وصفائح الذهب والفضة والنحاس والسرداقات والستور من الحرير والأرجوان

والكتاب والأطناب وغير ذلك مما يكل عنه الوصف ، وكله بنص من الله سبحانه وتعالى على الطول والعرض والوزن والمحل بحيث إنه كان فيها من صفائح الذهب ومساميره ونحوها تسعة وعشرون قنطاراً وأربعمائة وثلاثون مثقالاً بمثقال القدس ، ومن الفضة مائة قنطار وألف وسبعمائة وسبعون مثقالاً ، ومن النحاس سبعون قنطاراً وألفان وأربعمائة مثقال ؛ وكانت هذه القبة تنصب في مكان من الأرض وينزل بنو لاوي سبط موسى عليه الصلاة والسلام وهارون حولها يخدمونها بين يدي هارون عليه الصلاة والسلام وبنيه ، ومن دنا منها من غيرهم احترق ، وينزل أسباط بني إسرائيل حول بني لاوي ، لكل سبط منزلة لا يتعداها من شرقها وغربها وجنوبها وشمالها ، كل ذلك بأمر من الله سبحانه وتعالى لموسى عليه الصلاة والسلام ؛ وكان السحاب يغشاها بالنهار ، وكان النار تضيء عليها بالليل وتزهر ، فما دام السحاب مجللاً لها فهم مقيمون ، فإذا ارتفع عنها كان إذناً في سفرهم .

(36/118)

فالذي فهمته من هذه الأماكن وغيرها أن الصلاة عندهم تطلق على الدعاء وعلى فعل هو مجرد السجود ، فإن ذكر معه ما يدل على وضع الوجه على الأرض فذاك حينئذٍ يسمى

صلاة ، وإلاّ كان المراد به مطلق الانحناء للتعظيم ، وذلك موافق للغة ، قال في القاموس : سجد : خضع ؛ والخضوع التطأمن ، وأما المكان الذي فيه ذكر الركوع فالظاهر أن معناه : فصلى الشعب كله ساجداً لله سبحانه وتعالى ، لأن الركوع في اللغة يطلق على معان منها الصلاة ، يقال : ركع - أي صلى ، وركع - إذا انحنى كبواً ، والراكع من يكبو على وجهه ، ولا يصح حمل الركوع على ظاهره ، لأنه لا يمكن في حال السجود ، وإن ارتكب فيه تأويل لم يكن بأولى مما ذكرته في الركوع - والله سبحانه وتعالى أعلم ، واحتججت باللغة لأن مترجم النسخة التي وقعت لي في عداد البلغاء ، يعرف ذلك من تأمل مواقع ترجمته لها ، على أني سألت عن صلاة اليهود الآن فأخبرت أنه ليس فيها ركوع ، ثم رأيت البغوي صرح في تفسير قوله سبحانه وتعالى : ﴿ واركعوا مع الراكعين ﴾ [البقرة : 43] بأن صلاتهم لا ركوع فيها ، وكذا ابن عطية وغيرهما .

(37/118)

ولما كان المقصود من ذكر هذه الآيات بيان الخوارق التي كانت لآل عمران من زكريا ويحيى وعيسى وأمه عليهم الصلاة والسلام للمجادلة بالحق في أمر عيسى عليه الصلاة والسلام ، وبيان أن ما أشكل عليهم من أمره ليس خارجاً عن إشكال الخوارق في آله ، وكان الرد على

كل طائفة بما تعتقد أولى وجب ذكر ذلك من الأناجيل الأربعة الموجودة الآن بين أظهر النصارى : ذكر قصة يحيى عليه الصلاة والسلام في حمله وولادته ونبوته وما اتفق في ذلك من الخوارق من الأناجيل وقد مزجت بين ألفاظها فجعلتها شيئاً واحداً على وجه ألم بعضه بأول أمر المسيح عليه الصلاة والسلام ؛ قال مترجمها في أول إنجيل لوقا : كان في أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن ، أي حبر إمام ، اسمه زكريا من خدمة آل أبيا ، وامرأته من بنات هارون واسمها اليصابات ، وكانا كلاهما تقيين قدام الله سائرين ي جميع وصاياه وحقوق الرب بغير عيب ، ولم يكن لهما ولد لأن اليصابات كانت عاقراً ، وكانا كلاهما قد طعنا في أيامهما ، فبينما هو يكهن في أيام ترتيب خدمته أمام الله كعادة الكهنوت إذ بلغته نوبة وضع البخور فجاء ليبخر ، فدخل إلى هيكل الله وجميع الشعب يصلون خارجاً في وقت البخور ، فتراءى له ملاك الرب قائماً عن يمين مذبح البخور ، فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف فقال له الملاك : لا تخف يا زكريا ! قد سمعت طلبتك ، وأمرأتك اليصابات تلد ابناً ، ويدعي اسمه يوحنا ، ويكون لك فرح وتهلل ، وكثير يفرحون بمولده ، يكون عظيماً قدام الرب ، لا يشرب خمراً ولا سكراً ، ويمتلىء من روح القدس وهو في بطن أمه ، ويعيد كثيراً من بني إسرائيل إلى إلههم ، وهو يتقدم أمامه بالروح وبقوة ألياء ، ويقبل بقلوب الآباء على الأبناء والعصاة إلى علم الأبرار ، ويُعد للرب شعباً مستقيماً ، فقال زكريا للملاك : كيف أعلم هذا وأنا شيخ وامرأتي قد طعنت في أيامها ؟ فأجاب الملاك وقال :

أنا جبريل الواقف قدام الله ، أرسلت أكلمك بهذا

وأبشرك ، ومن الآن تكون صامتاً ، لا تستطيع أن تتكلم إلى اليوم الذي يكون هذا .

(38/118)

وكان الشعب منتظرين زكريا متعجبين من إبطائه في الهيكل ، فلما خرج لم يقدر يكلمهم ، فعلموا أنه قد رأى رؤيا في الهيكل ، فكان يشير إليهم ، وأقام صامتاً ، فلما كملت أيام خدمته مضى إلى بيته ، ومن بعد تلك الأيام حملت اليصابات امرأته ، وكتمت حملها خمسة أشهر قائلة : هذا ما صنع بي الرب في الأيام التي نظر إليّ فيها لينزع عني العار بين الناس ، ولما كانت في الشهر السادس أرسل جبريل عليه الصلاة والسلام الملاك من عند الله سبحانه وتعالى إلى مدينة في الجليل تسمى ناصرة إلى عذراء خطيبة لرجل اسمه يوسف من بيت داود ، واسم العذراء مريم ، فلما دخل إليها الملاك قال لها : افرحي يا ممتلئة نعمة الرب معك ! مباركة أنت في النساء ، فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت قائلة ما هذا السلام ؟ فقال لها الملاك : لا تخافي يا مريم ! فقد ظفرت بنعمة من عند الله سبحانه وتعالى وأنت تقبلين حبلاً وتلدين ابناً ، ويدعى اسمه يسوع ، هذا يكون عظيماً ، وابن العذراء يدعى ، ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه ، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ، ولا يكون لملكه

انقضاء ، فقالت مريم للملاك : كيف يكون هذا ولا أعرف رجلاً ؟ فأجاب الملاك وقال لها : روح القدس يحل عليك وقوة العلي تقبلك ، فإنه ليس عند الله سبحانه وتعالى أمر عسير ، فقالت مريم : هاءنذا عبدة الرب فيكون فيّ كقولك ، وانصرف عنها الملاك ، فقامت مريم في تلك الأيام ومضت مسرعة إلى عين كرم إلى مدينة يهودا ، ودخلت إلى بيت زكريا فسلمت على اليصابات ، فلما سمعت اليصابات صوت سلام مريم تحرك الطفل في بطنها ، فامتلأت اليصابات من روح القدس وصرخت بصوت عظيم وقالت : مباركة أنت في النساء ! ومباركة ثمرة بطنك ! من أين لي هذا أن يأتي أمر ربي إليّ ، منذ وقع صوت سلامك في أذني تحرك الطفل بتهليل في بطني ، فطوبى للتي آمنت أن يتم لها ما قيل من الرب ! فقالت مريم : تعظم نفسي بالرب ويتهلل روحي بالله مخلصي لأنه نظر إلى تواضع

عبدته ، وقدوس اسمه ، ورحمته لخائفيه ، صنع القوة بذراعه وفرق المستكبرين بفكر قلوبهم ، أنزل القادرين عن الكراسي ورفع المتواضعين ، أشبع الجياع من الخيرات ، فأقامت مريم عليها السلام عندها نحواً من ثلاثة أشهر وعادت إلى بيتها .

ولما تم زمان اليصابات لتلد ولدت ابناً ، فسمع جيرانها وأقاربها أن الرب قد أعظم رحمته

معها ، ففرحوا لها ، فلما كانت في اليوم الثامن جاؤوا ليختنوا الصبي ودعوه باسم أبيه زكريا فأجاب أمه قائلة : لا ولكن ادعوه يوحنا ، فقالوا لها : ليس أحد في جنسك يدعى بهذا الاسم ، فأشاروا إلى أبيه : ما تريد أن تسميه ؟ فاستدعى لوحاً وكتب قائلاً : يوحنا ، فتعجب جميعهم ، وانفتح فوه قائلاً من ساعته ولسانه ، وتكلم وبارك ، ووقع خوف عظيم على جميع جيرانهم ، وتُحدث بهذا الكلام في جميع تخوم يهودا ، وفكر جميع السامعين في قلوبهم قائلين : ماذا ترى يكون من هذا الصبي ! ويد الرب كانت معه ، فامتلأ زكريا أبوه من روح القدس وبدأ قائلاً : تبارك الرب إله إسرائيل الذي اطلع وصنع نجاة لشعبه وأقام لنا قرن خلاص من بيت داود فتاه كالذي تكلم على أفواه أنبيائه القديسين من الأبد ، خلاص من أعدائنا ومن يدي كل مبغضاً ، صنع رحمة مع آبائنا ، وذكر عهدة القديس : القسم الذي عهد به لإبراهيم أبينا ليعطينا الخلاص بلا خوف من يدي أعدائنا لنخدمه بالبر والعدل قدامه في كل أيام حياتنا ، وأنت ايها الصبي نبي العلاء تدعى ، وتنطلق قدام وجه الرب لتصلح طريقة ليعطي علم الخلاص لشعبه لمغفرة الخطايا بتحنن ورحمة ، إلهنا الذي افتقدنا شرق من العلو ليضيء للجالس في الظلمة وظلال الموت لتستقيم سبل أرجلنا للسلامة .

فأما الصبي فكان يشب ويتقوى بالروح وأقام في البرية إلى يوم ظهوره لإسرائيل ، وفي سنة خمس عشرة من ولاية طيباريوس قيصر وفيلاطوس النبطي على اليهودية وهيرودس رئيس الجليل ، وفيلفوس أخوه على ربع الصورية وكورة أبطرحيون وأوساسوس رئيس على ربع الإيليا ، وحنان وقيافا رؤساء الكهنة ، حلت كلمة الله سبحانه وتعالى على يوحنا بن زكريا في البرية فجاء إلى كل البلاد المحيطة بالأردن يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا – كما هو مكتوب في سفر كلام أشعيا النبي – قائلاً : صوت صارخ في البرية : أعدوا طريق الرب فاصنعوا سبله مستقيمة ، جميع الأودية تمتلىء وجميع الجبال والآكام تتضع ، ويصير الوعر سهلاً والخشنة إلى طريق سهلة ، ويعاين كل ذي جسد خلاص الله سبحانه وتعالى ؛ وفي إنجيل متّى : وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية يهودا ويقول : توبوا فقد اقترب ملكوت السماوات – هذا هو الذي في أشعيا النبي : إذ يقول صوت صارخ ، وقال مرقس : مكتوب في أشعيا النبي : هوذا أنا مرسل ملاكي أمام وجهك ليسهل طريقك قدامك ، ثم استنعى صوت صارخ في البرية : أعدوا طريق الرب وسهلوا سبله ، وكان لباس يوحنا وبر الإبل ، ومنطقته جلداً على حقويه ، وكان طعامه الجراد وعسل البر ، حينئذٍ خرجوا إليه من يروشليم ، وكل اليهودية وجميع كور الأردن ، وكان يعمدهم في نهر الأردن معترفين بخطاياهم ؛ وفي مرقس : كان يوحنا يعمد في القفر ويكرز بمعمودية التوبة لغفران الخطايا ، وكان يخرج إليه جميع كور يهودا وكل يروشليم فيعمدهم في نهر الأردن

معترفين بخطاياهم فقال للجمع الذين يأتون إليه ويعتمدون منه : يا ثمرة الأفاعي ! وفي متى : فلما رأى كثيراً من الفريسيين والزنادقة يأتون إلى معموديته قال لهم : يا أولاد الأفاعي – ثم اتفق هو ولوقا – من دلكم على الهرب من الغضب الآتي ؟ اعملوا الآن ثماراً تليق بالتوبة ولا تقولوا في نفوسكم : إن أبانا إبراهيم ، أقول لكم : إن الله سبحانه

وتعالى قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم ها هوذا الفأس موضوع على أصول الشجر ، وكل شجرة لا تثمر ثمرة طيبة تقطع وتلقى في النار ، فسأله الجموع ، ماذا نصنع ؟ أجاب وقال لهم : من له ثوبان فليعط من ليس له ، ومن له طعام فليصنع مثل ذلك ، فأتى العشارون ليعتمدوا منه فقالوا : ماذا نصنع يا معلم ؟ فقال لهم : لا تفعلوا أكثر مما أمرتم به ، وسأله أيضاً الجند قائلين : ماذان نصنع نحن أيضاً ؟ فقال لهم : لا تعيبوا أحداً ولا تظلموا أحداً ، واكتفوا بأرزاقكم .

وإن جميع الشعب فكروا في قلوبهم وظنوا أن يوحنا المسيح ، أجابهم يوحنا أجمعين وقال لهم : أما أنا فأعمدكم بالماء للتوبة ، وسيأتي الذي هو أقوى من الذي لا أستحق أن أحل سيور حذائه ؛ وقال متى : لا أستحق أن أحمل حذاءه ؛ وقال مرقس : وكان يبشر قائلاً :

الذي يأتي بعدي أوقى مني ، لست أهلاً – أعني لحل سيور حذائه ، أنا أعمدكم بالماء وهو يعمدكم بروح القدس والنار ، الذي بيده المرفش ، ينقي به الذرة ، ويجمع القمح إلى أهرائه ، ويحرق التبن بناء لا تطفأ ، ولا يخبز الشعب ، ويبشرهم بأشياء كثيرة ؛ وفي إنجيل يوحنا : كان إنسان أرسل من الله ، اسمه يوحنا ، جاء للشهادة للنور الذي هو نور الحق الذي يضيء لكل إنسان ، الآتي إلى العالم ، إلى خاصته ، جاء وخاصته لم تقبله ، فأما الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً ، والكلمة صارت جسداً ، وحل فينا ، ورأينا مجده مجداً مثل الوحيد الممتلىء نعمة ، وحقاً يوحنا شهد من أجله وصرخ وقال : هذا الذي قلت إنه يأتي بعدي كان قبلي ، لأنه أقدم مني ، ومن امتلائه نحن بأجمعنا أخذنا نعمة من أجل أن الناموس بموسى أعطى ، والنعمة والحق أوحيا بيسوع المسيح الذي لم يره أحد قط ، الابن الوحيد .

(42/118)

هذه شهادة يوحنا إذا أرسل إليه اليهود من يروشليم كهنة ولاويين – أي ناساً من أولاد لاوي – ليسألوه : من أنت ، فاعترف وأقر أني لست المسيح ، فسألوه : فمن أيلياء ؟ فقال : لست أنا النبي ، قال : كلا ! فقالوا له : فمن أنت لنرد الجواب إلى الذين أرسلونا ، ماذا تقول عن نفسك ؟ قال : أنا الصوت الصارخ في البرية : سهلوا طريق الرب – كما قال أشعيا

النبي .

فأما أولئك الذين أرسلوا فكانوا من الفريسيين فقالوا : ما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا ألياء ولا النبي ؟ أجابهم يوحنا : أنا أعمدكم بالماء ، وفي وسطكم قائم ذاك الذي ليستم تعرفونه ، الذي يأتي بعدي وهو أقوى مني ، وهو قبلي كان ، ذاك الذي لست مستحقاً أن أحل سيور حذائه .

هذا كان في بيت عنيا في عبر الأردن حيث كان يوحنا يعمد .

(43/118)

قال لوقا : فأما هيرودس رئيس الربع فكان يوحنا يبكته من أجل هيروديا امرأة أخيه فيلفوس ولأجل الشر الذي كان هيرودس يفعله ، وزاد على ذلك أنه طرح يوحنا في السجن ؛ وقال مرقس وقد ذكر آيات أظهرها المسيح : وسمع هيرودس الملك وقال : إن يوحنا المعمدان قام من الأموات ، ومن أجل تلك القوات يعمل ، وقال آخرون : إنه ألياء ، وآخرون : إنه نبي كواحد من الأنبياء ، فلما سمع هيرودس قال : أنا قطعت رأس يوحنا ؛ وفي متى : وفي ذلك الزمان سمع هيرودس رئيس الربع خبر يسوع فقال لغلمانه : هذا هو يوحنا المعمدان ، وهو قام من الأموات ، من أجل هذه القوات يعمل ، وكان هيرودس قد أمسك

يوحنا وشده وجعله في السجن ، وقال مرقس : وحبسه من أجل هيروديا امرأة فيلفوس ، لأنه كان قد تزوجها وقال له يوحنا : ما يحل لك أن تأخذ امرأة أخيك ، وكانت هيروديا حنقة عليه تريد قتله ، ولم تقتله لأن هيرودس كان يخاف من يوحنا ، لأنه يعلم أنه رجل صديق قديس ويحفظه ويسمع منه كثيراً بشهوة ، وكان في يوم من الزمان وافى هيرودس مولود ، فصنع وليمة لعظمائه ورؤسائه ومقدمي الجليل ، ودخلت ابنة هيروديا فرقصت ، فوافق ذلك هيرودس وجلساءه ، فقال الملك للصبية : سلي ما أردت فأعطيك ! وحلف لها أني أعطيك ما سألت ولو كان نصف ملكي ، فخرجت وقالت لأمها : أي شيء أسأله ؟ فقالت : رأس يوحنا المعمدان ، فرجعت للوقت بسرعة إلى الملك وسألت رأس يوحنا على طبق ، فحزن الملك ، ومن أجل اليمين والمتكئين لم ير منعها ، فأنفذ سيافاً من ساعته وأمر أن يؤتى برأسه في طبق ، فمضى وقطع رأسه في الحبس وجاء به في طبق وأعطاه للصبية ، فأخذته الصبية ودفعته لأمها ؛ وسمع تلاميذه فجاؤوا ورفعوا جثته وجعلوها في قبر ؛ قال متى : وجاء تلاميذه فأخذوا جسده ودفنوه وأتوا فأخبروا يسوع فلما سمع يسوع مضى من هناك في سفينة إلى البرية مفرداً ، فسمع الجمع فتبعوه ماشين من المدن ، فلما خرج أبصر جمعاً كثيراً فتحنن عليهم وأبرأ

اعلاّءهم ومرضاهم انتهى . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 87.80 ﴾

قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (44) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أتى نبينا صلى الله عليه وسلم بهذه الأخبار الغريبة المحررة العجيبة التي لا يعرفها على وجهها إلا الحذاق من علماء بني إسرائيل كان من حق سامعها أن يتنبه من غفلته ويستيقظ من رقدته ، لأنها منبهة بنفسها للمنصف الفطن على أن الآتي بها - والسامع خبير بأنه لم يخالط عالماً قط - صادقاً لا مرية في صدقه في كل ما يدعيه عن الله سبحانه وتعالى ، وكان من حق من يتنبه أن يبادر إلى الإذعان فيصرح بالإيمان ، فلما لم يفعلوا التفت إلى تنبيه الغبي وتبكيت العتي فقال : ﴿ ذلك ﴾ أي الخطاب العلي المقام الصادق المرام البديع النظام ﴿ من أنباء الغيب نوحيه ﴾ أي نجدد إيحاءه في أمثاله ﴿ إليك ﴾ في كل حين فما كنت لديهم في هذا الذي ذكرناه لك يوماً على هذا التحرير مع الإعجاز في البلاغة ويجوز أن تكون الجملة حالاً تقديرها : ﴿ و ﴾ الحال أنك ﴿ ما كنت ﴾ ولما كان هذا مع كونه من أبطن السر هو من أخفى العلم عبر فيه بلدي لما هو في أعلى رتب الغرابة كما تقدم في قوله : ﴿ هو من عند الله ﴾ وكررها زيادة في تعظيمه وتنبيهاً على أنه مما يستغرب جداً حتى عند أهل

الاصطفاء فقال : ﴿ لديهم ﴾ قال الحرالي : لدى هي عند حاضرة لرفعة ذلك الشيء الذي ينبأ به عنه - انتهى .

(45/118)

﴿ إذ يلقون ﴾ لأجل القرعة - ﴿ أقلامهم ﴾ قال الحرالي : جمع قلم ، وهو مظهر الآثار المنبئة عما وراءها من الاعتبار - انتهى ﴿ أيهم ﴾ أي يستهمون أيهم ﴿ يكفل مريم ﴾ أي يحضنها ويربيها تنافساً في أمرها لما شرفها الله تعالى به ﴿ وما كنت لديهم إذ ﴾ أي حين ﴿ يختصمون ﴾ أي في ذلك حتى تقصّ مثل هذه الأخبار على هذا الوجه السديد - يعني أنه لا وجه لك إلى علم ذلك إلا بالكون معهم إذ ذاك ، أو أخذ ذلك عن أهل الكتاب ، أو بوحي منا ؛ ومن الواضح الجلي أن بعد نسبتك إلى التعلم من البشر كبعد نسبتك إلى الحضور بينهم في ذلك الوقت ، لشهرتك بالنشأة أمياً مباعداً للعلم والعلماء حتى ما يتفاخر به قومك من السجع ومعاناة الصوغ لفنون الكلام على الوجوه الفائقة ، فانحصر إخبارك بذلك في الوحي منا ، وجعل هذا التنبيه في نحو وسط هذا القصص ليكون السامع على ذكر مما مضى ويلقي السمع وهو شهيد لما بقي ، وجعله بعد الافتتاح بقصة مريم عليها السلام تنبيهاً على عظم شأنها وأنها المقصودة بالذات للرد على وفد نصارى نجران ،

وكأنه أتبع التنبيه ما كان في أول القصة من اقتراعهم بالأقلام واختصامهم في كفالتها لخفائه إلا على خواص أهل الكتاب ، هذا مع ما في مناسبة الأقلام للبشارة بمن يعلمه الكتاب ، واستمر في إكمال المقال على ذلك الأسلوب الحكيم حتى تمت الحجة واستقامت المحجة فقال تعالى مبدلاً من إذ الأولى إيذاناً بأن ما بينهما اعتراض لما نبه عليه من شريف الأغراض : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 2 صـ 87. 88﴾

(46/118)

اللغة :

[أنباء] جمع نبأ وهو الخبر الهام

[نوحيه] الوحي : القاء المعنى في النفس في خفاء

[أقلامهم] القلم معروف وهو الذي يكتب به وقد يطلق على السهم الذي يقترع به وهو المراد هنا

[المسيح] لقب من الالقاب المشرفة كالصديق والفاروق ، وأصله مشيحا بالعبرانية ومعناه : المبارك

[وجيها] شريفا ذا جاه وقدر ، والوجاهة الشرف والقدر

[المهد] فراش الطفل

[كهلا] الكهل : ما بين الشاب والشيخ والمراة كهلة ، قال في الوسيط : الكهل ما بين الثلاثين الى الخمسين

[الأكمه] الذي يولد اعمى

[الأبرص] المصاب بالبرص ، وهو بياض يعتري الجلد ، وداء عضال يصعب شفاؤه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 201 ﴾

(47/118)

فصل

قال الفخر :

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما تقدم ، والمعنى أن الذي مضى ذكره من حديث حنة وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم ، إنما هو من إخبار الغيب فلا يمكنك أن تعلمه إلا بالوحي .

فإن قيل : لم نفيت هذه المشاهدة ، وانتفاؤها معلوم بغير شبهة ، وترك نفي استماع هذه الأشياء من حفاظها وهو موهوم ؟ .

قلنا : كان معلوماً عندهم علماً يقينياً أنه ليس من أهل السماع والقراءة ، وكانوا منكرين للوحي ، فلم يبق إلا المشاهدة ، وهي وإن كانت في غاية الاستبعاد إلا أنها نفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحي مع علمهم بأنه لا سماع ولا قراءة ، ونظيره ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربى ﴾ [القصص : 44] ، ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطور ﴾ [القصص : 46] ﴿ وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم ﴾ [يوسف : 102] ﴿ وَمَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنت وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هذا ﴾ [هود : 49] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 40 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ ذلك مِنْ أَنبَآءِ الغيب نُوحِيهِ ﴾ يجوز فيه أوجه :

أحدها : أن يكون " ذَلِكَ " خبرَ مبتدأ محذوفٍ ، وتقديره : الأمر ذلك . و ﴿ ذلك مِنْ أَنبَآءِ الغيب ﴾ متعلقاً بما بعدَه ، وتكون الجملة من " نُوحِيهِ " - إذ ذاك - إما مُبَيِّنَة وشارحة للجملة قبلها ، وإما حالاً .

الثاني : أن يكون " ذَلِكَ " مبتدأ ، و ﴿ مِنْ أَنبَآءِ الغيب ﴾ خبره ، والجملة من " نُوحِيهِ " مستأنفة ، والضميرُ من " نوحِيهِ " عائد على الغيب ، أي : الأمر والشأن أنا نوحي إليك الغيب ونعلمك به ونُظهرك على قصص مَنْ تقدمك مع عدم مدارستك لأهل العلم

والأخبار ، ولذلك أتى بالمضارع في " نُوحِيهِ " . وهذا أحسن من عَوْده على " ذَلِكَ " ؛ لأن عَوده على الغيب يشمل ما تقدم من القصص ، وما لم يتقدم منها ، ولو أعدته على " ذَلِكَ " اختص بما مَضَى وتقدم .

الثالث : أن يكون " نُوحِيه " هو الخبر و ﴿ مِنْ أَنبَآءِ الغيب ﴾ على وجهَيْه المتقدمَيْن من كونه حالاً من ذلك ، أو متعلقاً بـ " نُوحِيه " .

ويجوز فيه وجه ثالثٌ - على هذا - وهو أن يُجْعَل حالاً من مفعول " نُوحِيهِ " أي : نوحيه حال كونه بعض أنباءِ الغيبِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 217 ﴾

فائدة

قال الفخر :

(48/118)

الأنباء : الإخبار عما غاب عنك ، وأما الإيحاء فقد ورد الكتاب به على معان مختلفة ، يجمعها تعريف الموحى إليه بأمر خفي من إشارة أو كتابة أو غيرهما ، وبهذا التفسير يعد الإلهام وحياً كقوله تعالى : ﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل ﴾ [النحل : 68] وقال في الشياطين ﴿ لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ [الأنعام : 121] وقال : ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ أَن

سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم : 11] فلما كان الله سبحانه ألقى هذه الأشياء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل عليه السلام بحيث يخفى ذلك على غيره سماه وحياً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 40 ﴾

وقال ابن عادل :

فصل

الإنباء هو الإخبار عما غاب عنك - والإيحاء ، ورد بإزاء معانٍ مختلفةٍ ، وأصله إعلام في خفاء يكون بالرمز والإشارة ويتضمن السرعة .

كما في قوله : [الطويل]

. . . . فَأَوْحَتْ إِلَيْنَا وَالأَنَامِلُ رُسْلُهَا

وقال تعالى : ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم : 11] . ويكون بالكتابة ، قال زهير : [الطويل]

أَتَى الْعُجْمَ وَالآفَاقَ مِنْهُ قَصَائِدٌ . . . بَقِينَ بَقَاءَ الْوَحْيِ فِي الْحَجَرِ الأَصَمْ

ويطلق الوحي على الشيء المكتوب ، قال : [الكامل]

فَمَدَافِعُ الرَّيَانِ عُرِّيَ رَسْمُهَا . . . خَلَقاً كَمَا ضَمِنَ الْوُحِيَّ سِلاَمُهَا

قيل : الوُحِيّ : جمع وَحْي - كفلس وفلوس - كُسِرَت الحاءُ إتباعاً .

قال القرطبيُّ : " وأصل الوحي في اللغة : إعلام في خفاءٍ " .

وتعريفُ الوحي بأمر خفي من إشارة، أو كتابة، أو غيرها، وبهذا التفسير يُعَدُّ الإلهامُ وَحياً، كقوله تعالى: ﴿ وأوحى ربُّكَ إلى النحل ﴾ [النحل: 68] وقال - في الشياطين -: ﴿ لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾ [الأنعام: 121] وقال: ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [مريم: 11]، فلما ألقى الله - تعالى - هذه الأنباء إلى الرسول عليه السلام - بواسطة جبريل عليه السلام - بحيث يخفى ذلك على غيره - سمَّاه وحياً. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 217. 218﴾

فائدة

قال القرطبى:

﴿ نُوحِيهِ إِلَيكَ ﴾ فيه دلالة على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم حيث أخبر عن قصة زكريا ومريم ولم يكن قرأ الكتب؛ وأخبر عن ذلك وصدّقه أهل الكتاب بذلك؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ نُوحِيهِ إِلَيكَ ﴾ فردّ الكناية إلى "ذلك" فلذلك ذُكِّر. انتهى انتهى. اهـ

﴿تفسير القرطبى حـ 4 صـ 85﴾

وقال الآلوسي :

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره من تلك الأخبار البديعة الشأن المرتقية من الغرابة إلى أعلى مكان ، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَنبَاء الغيب ﴾ أي من أخبار ما غاب عنك وعن قومك مما لا يعرف إلا بالوحي على ما يشير إليه المقام ، والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب ، وقوله تعالى : ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ جملة مستقلة مبينة للأولى ، والإيحاء إلقاء المعنى إلى الغير على وجه خفي ، ويكون بمعنى إرسال الملك إلى الأنبياء ، وبمعنى الإلهام ، والضمير في ﴿ نُوحِيهِ ﴾ عائد إلى ذلك في المشهور ، واستحسن عوده إلى الغيب لأنه حينئذ يشمل ما تقدم من القصص وما لم يتقدم منها بخلاف ما إذا عاد إلى ذلك فإنه حينئذ يوهم الاختصاص بما مضى ، وجوز أن تكون هذه الجملة خبراً عن المبتدأ قبلها ، و ﴿ مِنْ أَنبَاء الغيب ﴾ إما متعلق بنوحيه أو حال من مفعوله أي : نوحيه حال كونه بعض أنباء الغيب وجعله حالاً من المبتدأ رأي البعض ، وجوز أبو البقاء أن يكون التقدير : الأمر ذلك فيكون ﴿ ذلك ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف والجار والمجرور حال منه ، وهو وجه مرذول لا ينبغي أن يخرج عليه كلام الملك الجليل . وصيغة الاستقبال عند قوم للإيذان بأن الوحي لم ينقطع بعد ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أي عند المتنازعين فالضمير عائد إلى غير مذكور دل عليه المعنى ، والمقصود من هذه الجملة تحقيق كون الأخبار بما ذكر عن وحي

على سبيل التهكم بمنكريه كأنه قيل : إن رسولنا أخبركم بما لا سبيل إلى معرفته بالعقل مع اعترافكم بأنه لم يسمعه ولم يقرأه في كتاب ، وتنكرون أنه وحي فلم يبق مع هذا ما يحتاج إلى النفي سوى المشاهدة التي هي أظهر الأمور انتفاءاً لاستحالتها المعلومة عند جميع العقلاء ، ونبه على ثبوت قصة مريم مع أن ما علم بالوحي قصة زكريا عليه السلام أيضاً لما أن ﴿ تِلْكَ ﴾ هي المقصودة بالأخبار أولاً ، وإنما جاءت القصة الأخرى على سبيل الاستطراد ولاندراج بعض قصة زكريا في

(51/118)

ذكر من تكفل فما خلت الجملة عن تنبيه على قصته في الجملة ، وروي عن قتادة أن المقصود من هذه الجملة تعجيب الله سبحانه نبيه عليه الصلاة والسلام من شدة حرص القوم على كفالة مريم والقيام بأمرها ، وسيق ذلك تأكيداً لاصطفائها عليها السلام وببعد هذا الفصل بين المؤكد والمؤكد ، ومع هذا هو أولى مما قيل : إن المقصود منها التعجيب من تدافعهم لكفالتها لشدة الحال ومزيد الحاجة التي لحقتهم حتى وفق لها خير الكفلاء زكريا عليه السلام ، بل يكاد يكون هذا غير صحيح دراية ورواية ، وعلى كل تقدير لا يشكل نفي المشاهدة مع ظهور انتفائها عند كل أحد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ

فصل

قال الطبري في معنى الآية :

يعني جل ثناؤه بقوله ذلك : الأخبارَ التي أخبرَ بها عبادَه عن امرأة عمران وابنتها مريم ، وزكريا وابنه يحيى ، وسائر ما قصَّ في الآيات من قوله : "إن الله اصطفى آدم ونوحًا" ، ثم جمعَ جميعَ ذلك تعالى ذكره بقوله : "ذلك" ، فقال : هذه الأنباء من "أنباء الغيب" ، أي : من أخبار الغيب .

ويعني ب"الغيب" ، أنها من خفيّ أخبار القوم التي لم تطَّلع أنت ، يا محمد ، عليها ولا قومك ، ولم يعلمها إلا قليلٌ من أحبار أهل الكتابين ورهبانهم .

ثم أخبر تعالى ذكره نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أنه أوحى ذلك إليه ، حجةً على نبوته ، وتحقيقًا لصدقه ، وقطعًا منه به عذرَ منكري رسالته من كفار أهل الكتابين ، الذين يعلمون أنّ محمدًا لم يصل إلى علم هذه الأنباء مع خفائها ، ولم يدرك معرفتها مع خُمولها عند أهلها ، إلا بإعلام الله ذلك إياه . إذ كان معلومًا عندهم أنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم أميٌّ لا يكتب فيقرأ الكتب ، فيصل إلى علم ذلك من قِبَل الكتب ، ولا صاحبَ أهل الكتُب فيأخذ علمه من قِبَلهم .

وأما "الغيْب" فمصدر من قول القائل : "غاب فلان عن كذا فهو يَغيب عنه غيْبًا وَغيبةً" .

وأما قوله : "نُوحيه إليك" ، فإن تأويله : نُنَزِّله إليك .

وأصل "الإيحاء" ، إلقاء الموحِي إلى الموحَى إليه .

(52/118)

وذلك قد يكون بكتاب وإشارة وإيماء ، وبإلهام ، وبرسالة ، كما قال جل ثناؤه : (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) [سورة النحل : 68] ، بمعنى : ألقى ذلك إليها فألهمها ، وكما قال : (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ) [سورة المائدة : 111] ، بمعنى : ألقيت إليهم علمَ ذلك إلهامًا ، وكما قال الراجز :

* أَوْحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتِ *

بمعنى ألقى إليها ذلك أمرًا ، وكما قال جل ثناؤه : (فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) [سورة مريم : 11] ، بمعنى : فألقى ذلك إليهم إيماء .

والأصل فيه ما وصفتُ ، من إلقاء ذلك إليهم . وقد يكون إلقاؤه ذلك إليهم إيماءً ، ويكون بكتاب . ومن ذلك قوله : (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ) [سورة الأنعام : 121] ، يلقون إليهم ذلك وسوسةً ، وقوله : (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) [سورة الأنعام : 19] ، ألقي إلي بمجيء جبريل عليه السلام به إليّ من عند الله عز وجل .

وأما "الوحْي" ، فهو الواقع من الموحِي إلى الموحَى إليه ، ولذلك سمت العرب الخط

والكتاب "وحيًا" ، لأنه واقع فيما كُتِب ثابتٌ فيه ، كما قال كعب بن زهير :

أَتَى العُجْمَ والآفَاقَ مِنْهُ قَصَائِدٌ . . . بَقِينَ بَقَاءَ الوَحْيِ فِي الحَجَرِ الأَصَمّ

يعني به : الكتابَ الثابت في الحجر . وقد يقال في الكتاب خاصةً ، إذا كتبه الكاتب :

"وحَى" بغير ألف ، ومنه قول رؤبة :

كَأَنَّهُ بَعْدَ رِيَاحٍ تَدْهَمُهْ . . . وَمُرْثَعِنَّاتِ الدُّجُونِ تَثِمُهْ إِنْجِيلُ أَحْبَارٍ وَحَى مُنَمْنِمُهْ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 404.406 ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُلْقُون أقلامهم أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾

قال ابن عادل :

﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ ﴾ .

أقلام : جمع قَلَم ، وهو فَعَل بمعنى مفعول ، أي : مَقْلُوم .

(53/118)

والقَلْمُ : القَطْع ، ومثله : القبض بمعنى المقبوض ، والنقض بمعنى المنقوض ، وجمع القلم على

أقلام – وهو جمع قِلَّة – وحكى ابنُ سيدَه أنه يُجْمَع على قلام – بوزن رِماح – في الكثرة .

وقيل له : قَلَم ؛ لأنه يُقْلَم ، ومنه قلمت ظفري – أي : قطعته وسويته .

قال زهير : [الطويل]

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السلاحِ مُقَذَّفٍ . . . لَهُ لِبَدٌ أظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ

وقيل : سمي القَلَمُ قَلَماً ، تشبيهاً بالقُلامةِ – وهو نَبْتٌ ضعيفٌ – وذلك لأنه يُرقق فيَضْعف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 219 ﴾

فائدة

قال الماوردى :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنهم تشاجروا عليها وتنازعوا فيها طلباً لكفالتها ، فقال زكريا : أنا أحق بها لأن خالتها عندي ، وقال القوم : نحن أحق بها لأنها بنت إمامنا وعالمنا ، فاقترعوا عليها بإلقاء أقلامهم وهي القداح مستقبلة لجرية الماء ، فاستقبلت عصا زكريا لجرية الماء مصعدة ، وانحدرت أقلامهم فقرعهم زكريا ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا ﴾ وهذا قول ابن عباس ، وعكرمة ، والحسن ، والربيع .

والقول الثاني : أنهم تدافعوا كفالتها لأن زكريا قد كان كفل بها من غير اقتراع ، ثم لحقهم أزمة ضعف بها عن حمل مؤونتها ، فقال للقوم : ليأخذها أحدكم فتدافعوا كفالتها وتمانعوا منها ، فأقرع بينهم وبين نفسه فخرجت القرعة له ، وهذا قول سعيد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 393 ﴾

قال الفخر :

ذكروا في تلك الأقلام وجوهاً

الأول : المراد بالأقلام التي كانوا يكتبون بها التوراة وسائر كتب الله تعالى ، وكان القراع على أن كل من جرى قلمه على عكس جري الماء فالحق معه ، فلما فعلوا ذلك صار قلم زكريا كذلك فسلموا الأمر له وهذا قول الأكثرين

والثاني : أنهم ألقوا عصيهم في الماء الجاري جرت عصا زكريا على ضد جرية الماء فغلبهم ، هذا قول الربيع

(54/118)

والثالث : قال أبو مسلم : معنى يلقون أقلامهم مما كانت الأمم تفعله من المساهمة عند التنازع فيطرحون منها ما يكتبون عليها أسماءهم فمن خرج له السهم سلم له الأمر ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فساهم فَكَانَ مِنَ المدحضين ﴾ [الصافات : 141] وهو شبيه بأمر القداح التي تتقاسم بها العرب لحم الجزور ، وإنما سميت هذه السهام أقلاماً لأنها تقلم وتبرى ، وكل ما قطعت منه شيئاً بعد شيء فقد قلمته ، ولهذا السبب يسمى ما يكتب به قلماً .

قال القاضي : وقوع لفظ القلم على هذه الأشياء وإن كان صحيحاً نظراً إلى أصل الاشتقاق ، إلا أن العرف أوجب اختصاص القلم بهذا الذي يكتب به ، فوجب حمل لفظ القلم عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 40 . 41 ﴾

سؤال : فإن قلت : لم نفيت المشاهدة وانتفاؤها معلوم بغير شبهة ؟ وترك نفي استماع الأنباء من حفاظها وهو موهوم ؟

قلت : كان معلوماً عندهم علماً يقيناً أنه ليس من أهل السماع والقراءة وكانوا منكرين للوحي ، فلم يبق إلا المشاهدة وهي في غاية الاستبعاد والاستحالة ، فنفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحي مع علمهم بأنه لا سماع له ولا قراءة . ونحوه ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربى ﴾ [القصص : 44] ، ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطور ﴾ [القصص : 46] ، ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ ﴾ [يوسف : 102] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 1 صـ 362 ﴾

فصل

قال الفخر :

ظاهر الآية يدل على أنهم كانوا يلقون أقلامهم في شيء على وجه يظهر به امتياز بعضهم عن البعض في استحقاق ذلك المطلوب ، وإما ليس فيه دلالة على كيفية ذلك الإلقاء ، إلا أنه روي في الخبر أنهم كانوا يلقونها في الماء بشرط أن من جرى قلمه على خلاف جري الماء

فاليد له ، ثم إنه حصل هذا المعنى لزكريا عليه السلام ، فلا جرم صار هو أولى بكفالتها والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 41 ﴾

(55/118)

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في السبب الذي لأجله رغبوا في كفالتها حتى أدتهم تلك الرغبة إلى المنازعة ، فقال بعضهم : إن عمران أباها كان رئيساً لهم ومقدماً عليهم ، فلأجل حق أبيها رغبوا في كفالتها ، وقال بعضهم : إن أمها حررتها لعبادة الله تعالى ولخدمة بيت الله تعالى ، ولأجل ذلك حرصوا على التكفل بها ، وقال آخرون : بل لأن في الكتب الإلهية كان بيان أمرها وأمر عيسى عليه السلام حاصلاً فتقربوا لهذا السبب حتى اختصموا . انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 41 ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في أن أولئك المختصمين من كانوا ؟ فمنهم من قال : كانوا هم خدمة البيت ، ومنهم

من قال : بل العلماء والأحبار وكتاب الوحي ، ولا شبهة في أنهم كانوا من الخواص وأهل الفضل في الدين والرغبة في الطريق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 41 ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾

قال الطبرى :

وإنما قيل : "أيهم يكفل مريم" ، لأن إلقاء المستهمين أقلامَهم على مريم ، إنما كان لينظروا أيهم أولى بكفالتها وأحقّ . ففي قوله عز وجل : "إذ يلقون أقلامهم" ، دلالة على محذوف من الكلام ، وهو : "لينظروا أيهم يكفل ، وليتبيَّنوا ذلك ويعلموه" .

فإن ظن ظانّ أنّ الواجب في "أيهم" النصبُ ، إذ كان ذلك معناه ، فقد ظن خطأ . وذلك أن "النظر" و"التبين" و"العلم" مع "أيّ" يقتضي استفهامًا واستخبارًا ، وحظ "أيّ" في الاستخبار ، الابتداءُ وبطولُ عمل المسألة والاستخبار عنه . وذلك أن معنى قول القائل : "لأنظُرَنّ أيهم قام" ، لأستخبرنَ الناس : أيهم قام ، وكذلك قولهم : "لأعلمن" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 409 ﴾

وقال الفخر :

أما قوله : ﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ ففيه حذف والتقدير : يلقون أقلامهم لينظروا أيهم يكفل مريم وإنما حسن لكونه معلوماً .

أما قوله ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ فالمعنى وما كنت هناك إذ يتقارعون على التكفل بها وإذ يختصمون بسببها فيحتمل أن يكون المراد بهذا الاختصام ما كان قبل الإقراع، ويحتمل أن يكون اختصاماً آخر حصل بعد الإقراع، وبالجملة فالمقصود من الآية شدة رغبتهم في التكفل بشأنها، والقيام بإصلاح مهماتها، وما ذاك إلا لدعاء أمها حيث قالت ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السميع العليم ﴾ [آل عمران: 35] وقالت ﴿ إِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشيطان الرجيم ﴾ [آل عمران: 36]. انتهى انتهى. اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 41 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ في شأنها تنافساً على كفالتها وكان هذا الاختصام بعد الاقتراع في رأي، وقبله في آخر، وتكرير ﴿ مَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ مع تحقق المقصود بعطف ﴿ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ على ﴿ إِذْ يُلْقُون ﴾ للإيذان بأن كل واحد من عدم الحضور عند الإلقاء، وعدم الحضور عند الاختصام مستقل بالشهادة على نبوته صلى الله عليه وسلم لا سيما على الرأي الثاني في وقت الاختصام لأن تغيير الترتيب في الذكر مؤكد لذلك قاله شيخ الإسلام. واختلف في وقت هذا الاقتراع والتشاح على قولين: أحدهما: وهو المشهور المعول عليه أنه كان حين ولادتها وحمل أمها لها إلى الكنيسة على ما أشرنا إليه من

قبل ، وثانيهما : أنه كان وقت كبرها وعجز زكريا عليه السلام عن تربيتها ، وهو قول مرجوح ، وأوهن منه قول من زعم أن الاقتراع وقع مرتين مرة في الصغر وأخرى في الكبر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 159 ﴾

وقال الطبرى :

﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه : وما كنتَ ، يا محمد ، عند قوم مريم ، إذ يختصمون فيها أيُّهم أحقّ بها وأولى .

(57/118)

وذلك من الله عز وجل ، وإن كان خطاًبا لنبيه صلى الله عليه وسلم ، فتوبيخٌ منه عز وجل للمكذبين به من أهل الكتابين . يقول : كيف يشكّ أهل الكفر بك منهم وأنت تنبئُهم هذه الأنباءَ ولم تشهدْها ، ولم تكن معهم يوم فعلوا هذه الأمورَ ، ولست ممن قرأ الكتب فعَلِم نبأهم ، ولا جالَس أهلها فسمع خبرَهم ؟ انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 410 ﴾

فصل

قال القرطبى :

استدل بعض علمائنا بهذه الآية على إثبات القُرْعة ، وهي أصل في شرعنا لكل من أراد العدل في القسمة ، وهي سنة عند جمهور الفقهاء في المستويين في الحجة ليعدل بينهم وتطمئن قلوبهم وترتفع الظِّنة عمن يتولى قسمتهم ، ولا يفضل أحد منهم على صاحبه إذا كان المقسوم من جنس واحد اتباعا للكتاب والسنَّة .

وردّ العملَ بالقُرْعة أبو حنيفة وأصحابه ، وردّوا الأحاديث الواردة فيها ، وزعموا أنها لا معنى لها وأنها تشبه الأزلام التي نهى الله عنها .

وحكى ابن المنذر عن أبي حنيفة أنه جوّزها وقال : القرعة في القياس لا تستقيم ، ولكنا تركنا القياس في ذلك وأخذنا بالآثار والسنّة .

قال أبو عبيد : وقد عمِل بالقرعة ثلاثة من الأنبياء : يونس وزكريا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

قال ابن المنذر .

واستعمال القرعة كالإجماع من أهل العلم فيما يقسم بين الشركاء ، فلا معنى لقول من ردّها .

وقد ترجم البخاريّ في آخر كتاب الشهادات (باب القُرْعةِ في المشكِلات وقولِ الله عز

وجل ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ ﴾) وساق حديث النعمان بن بشير : " مثل القائم على حدود الله والمُدْهِن فيها مثل قوم استهموا على سفينة " الحديثَ .

(58/118)

وسيأتي في "الأنفال" إن شاء الله تعالى ، وفي سورة "الزخرف" أيضاً بجول الله سبحانه ، وحديث أمِّ العلاء ، وأن عثمان بن مَظْعُون طار لهم سَهمُه في السُّكْنى حين اقترعت الأنصار سُكْنَى المهاجرين ، الحديث ، وحديث عائشة قالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهنّ خرج سهمها خرج بها " ؛ وذكر الحديث .

وقد اختلفت الرواية عن مالك في ذلك ؛ فقال مرّةً : يقرع للحديث .

وقال مَرّة : يسافر بأوفقهنّ له في السفر .

وحديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو يعلم الناس ما في النّداءِ والصّفّ الأوّل ثم لم يجدوا إلا أن يستهِموا عليه لاستهموا " والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .

وكيفية القُرْعة مذكورة في كتب الفقه والخلاف .

واحتج أبو حنيفة بأن قال : إن القرعة في شأن زكريا وأزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم

كانت مما لو تراضوا عليه دون قرعة لجاز .

قال ابن العربيّ : "وهذا ضعيف ، لأن القرعة إنما فائدتها استخراج الحكم الخفي عند التشاحّ؛ فأما ما يخرجه التراضي فيه فباب آخر ، ولا يصح لأحد أن يقول : إن القرعة تجري مع موضِع التراضي ، فإنها لا تكون أبداً مع التراضي" وإنما تكون فيما يتَشَاحّ الناس فيه ويُضَنّ به .

وصفة القرعة عند الشافعيّ ومن قال بها : أن تُقطع رِقاع صغار مستوية فيكتب في كل رقعة اسم ذي السهم ثم تجعل في بنادق طين مستوية لا تفاوت فيها ثم تجفف قليلاً ثم تلقى في ثوب رجل لم يحضر ذلك ويغطي عليها ثوبه ثم يدخل يده ويخرج ، فإذا أخرج اسم رجل أعطي الجزء الذي أقرع عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 86 .

87 ﴾

فائدة أخرى :

قال القرطبى :

دلت الآية أيضاً على أن الخالة أحق بالحضانة من سائر القرابات ما عدا الجدّة ، وقد قضى النبيّ صلى الله عليه وسلم في ابنة حمزة واسمها أمة الله لجعفر وكانت عنده خالتها ، وقال : "إنما الخالة بمنزلة الأم" وقد تقدّمت في البقرة هذه المسألة .

وخرّج أبو داود عن عليّ قال : " خرج زيد بن حارثة إلى مكة فقدِم بابنة حمزة فقال جعفر : أنا آخذها أنا أحق بها ابنة عمي وخالتها عندي ، وإنما الخالة أم .

فقال عليّ : أنا أحق بها ابنة عمي وعندي ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي أحق بها .

وقال زيد : أنا أحق بها ، أنا خرجت إليها وسافرت وقدِمت بها ؛ فخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكر حديثاً قال : "وأما الجارية فأقضي بها لجعفر تكون مع خالتها وإنما الخالة أمٌّ " وذكر ابن أبي خيثمة أن زيد بن حارثة كان وصِيّ حمزة ، فتكون الخالة على هذا أحقّ من الوصِيّ ويكون ابن العمّ إذا كان زوجاً غير قاطع بالخالة في الحضانة وإن لم يكن مَحْرَماً لها . انتهى . اهـ ﴿تفسير القرطبى حـ 4 صـ 88﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

أي هذه القصص نحن عرفناكها وخاطبناك بمعانيها ، وإنْ قَصَصْنَا نحن عليك هذا – فعزيزٌ خطابُنا ، وأعزُّ وأتم مِنْ أَنْ لو كنتَ مشاهداً لها . انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 1 صـ 243﴾

من فوائد ابن القيم فى الآية :

قوله تعالى ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾

قال قتادة كانت مريم ابنة إمامهم وسيدهم فتشاح عليها بنو إسرائيل فاقترعوا عليها بسهامهم أيهم يكفلها فقرع زكريا وكان زوج أختها فضمها إليه

وروى نحوه عن مجاهد وقال ابن عباس لما وضعت مريم في المسجد اقترع عليها أهل المصلى وهم يكتبون الوحي فاقترعوا بأقلامهم أيهم يكفلها وهذا متفق عليه بين أهل التفسير

وقال تعالى ﴿ وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين يقول تعالى فقارع فكان من المغلوبين فهذان نبيان كريمان استعملا القرعة وقد احتج الأئمة الأربعة بشرع من قبلنا إن صح ذلك عنهم

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا

وفي الصحيحين أيضا عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد سفرا أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه

وفي صحيح مسلم عن عمران بن حصين أن رجلا أعتق ستة مملوكين له عند موته لم يكن له مال غيرهم فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجزأهم أثلاثا ثم أقرع بينهم فأعتق اثنين وأرق أربعة وقال له قولا شديدا

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عرض على قوم اليمين فسارعوا إليه فأمر أن يسهم بينهم في اليمين أيهم يحلف وفي سنن أبي داود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إذا أكره اثنان على اليمين أو استحباها فليستهما عليها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الطرق الحكمية صـ365 ـ صـ366 ﴾

(61/118)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ذِلكَ مِنْ أَنبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِليكَ ﴾

وقد قلنا من قبل : إن كلمة " نبأ " ، لا تأتي إلاّ في الخبر العظيم . والغيب هو ما غاب عن الحس . وهناك " غياب عن الحس " من الممكن أن يدركه مثلك . وهناك غياب عن الحس لا يدركه مثلك . وقلنا من قبل : إن حجب الغيب ثلاثة : مرة يكون الحجاب في الزمن

ماضيا ، ومرة مستقبلا ، ومرة ثالثة يكون الحجاب في المكان . لماذا ؟ لأن ظروف الأحداث زمان ومكان . فإذا أنبأني منبئ بخبر مضى زمنه فهذا اختراق للحجاب الزمن الماضي ، فالحدث يكون قد وقع من سنوات وصار ماضيا , وإذا أخبرني به الآن فهذا يعني أنه اخترق حجاب الزمن الماضي ، وإذا قال لي عن أمر سيحدث بعد سنتين من الآن فهذا اختراق حجاب الزمن المستقبل ، وهب أنه أخبرك بنبأ معاصر لزمنك الآن نقول : هنا يوجد حجاب المكان ، فعندما أكون معكم الآن لا أعرف ما الحادث في مدينة أخرى غير التي نحن بها ، ورغم أن الزمن واحد .

لذلك فعلينا أن نعرف ، أنه مرة يكون الحجاب زمان . . أي قد يكون الزمن ماضيا ، أو يكون الزمن مستقبلا ، وقد يكون حجاب مكان . فإذا كان الله ينبئ رسوله بهذا النبأ , فوسائل علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث ؛ لأن وسيلة العلم بالنبأ أحد ثلاثة أمور : مشاهدة ؛ أو سماع ؛ أو قراءة .

والوسيلة الأولى وهي مشاهدة النبأ يشترط أن يوجد في زمن هذا النبأ ، والنبأ الذي أخبر الله به رسوله حدث من قبل بعث الرسول بما لا يقل عن ستة قرون . إذن فالمشاهدة

كوسيلة علم بهذا النبأ لا تصلح، لأن النبأ قد حدث في الماضي. قد يقول قائل: لعل الرسول صلى الله عليه وسلم قد قرأها، أو سمعها وبإقرار خصوم محمد صلى الله عليه وسلم أنه ليس بقارئ، فامتنعت هذه الوسيلة أيضا، وبإقرار خصومة صلى الله عليه وسلم أنه لم يجلس إلى معلم فلم يستمع من معلم. إذن فلم يكن من سبيل لمعرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا النبأ إلا بالوحي، لذلك قال الحق سبحانه:

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: 44]

وقلنا قديما إن الوحي، هو إعلام بخفاء؛ لأن الإعلام العادي هو أن يقول إنسان لإنسان خبراً ما، أو يقرأ الإنسان الخبر، أما الإعلام بخفاء فاسمه "وحي". والوحي يقتضي "موحي" وهو الله، "وموحى إليه" وهو الرسول الله صلى الله عليه وسلم، و"موحى به" وهو القرآن الكريم.

وإذا نظرنا إلى الإعلام بخفاء لوجدنا له وسائل كثيرة.

إن الله يوحي. لكن الموحي إليه يختلف. الله سبحانه وتعالى يوحي للأرض:

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾

[الزلزلة: 1-5].

إنه إعلام بخفاء ، لأن أحدا منا لم يسمع الله وهو يوحي للأرض ، والحق سبحانه يوحي للنحل ، ويوحي للملائكة ، ويوحي للأنبياء ، وهناك وحي من غير الله ، كوحي الشياطين .

(63/118)

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الانعام : 121] .

وهناك وحي من البشر للبشر :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : 112] .

لكن الوحي إذا أُطلق ، ينصرف إلى الوحي من الله إلى من اختاره لرسالة ، وما عدا ذلك من أنواع الوحي يسمونه " وحيا لغويا " إنما الوحي الاصطلاحي وحي من الله لرسول ، إذن فوحى الله للأرض ليس وحيا اصطلاحيا ، ووحى الله للنحل ليس وحيا اصطلاحيا ، ووحي الله لأم موسى ليس وحيا اصطلاحيا ، ووحي الله للحواريين ليس وحيا

اصطلاحيا ، إن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾

[المائدة : 111] .

إن هذا لون من الوحي غير اصطلاحي ، بل هو وحي لغوي ، أي أعلمهم بخفاء . لكن الوحي الحقيقي أن يُعلم الله من اختاره لرسالة ، وهذا هو الوحي الذي جاء للرسول صلى الله عليه وسلم . يقول الحق : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ .

هكذا يخبرنا الحق ان الرسول تلقى هذا النبأ بالوحي ، فلم يقرأه ، ولم يشاهده ، ونحن نعرف أن خصوم رسول الله شهدوا انه لم يقرأ ولم يستمع من معلم . وهكذا يخبرنا الحق أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن موجودا مع قوم مريم حين ألقوا أقلامهم .

(64/118)

والقلم يُطلق على القلم الذي نكتب به ، أو يطلق القلم على القداح التي كانوا يقترعون بها إذا اختلفوا على شيء . وكانوا عندما يختلفون يحضرون قداحا ، ليعفروا من يظفر بالشيء المختلف عليه ونسميها نحن القرعة ، والقرعة يقومون بإجرائها لإخراج الهوى من قسمة

شائعة بين أفراد ، وذلك حتى لا يميل الهوى إلى هذا أو إلى ذاك مفضلا له على الآخرين ، ولذلك فنحن أيضا نجري القرعة فنضع لكل واحد ورقة .

إذن فلا هوى لأحد في إجراء قسمة عن طريق القرعة ، وبذلك نكون قد تركنا المسألة إلى قدر الله لأن الورقة لا هوى لها ، ولما اختلف قوم مريم على كفالتها ، واختصموا حول مَن الذي له الحق في أن يكفلها . هنا أرادوا أن يعزلوا الهوى عن هذه المسألة ، وأرادوا أن تكون قدرية ، ويكون القول فيها عن طريق قدح لا هوى له .

وهذا القدح سيجري على وفق المقادير . أما " أقلامهم " فقد تكون هي القداح التي يقتسمون بها القرعة ، أو الأقلام التي كتبوا بها التوراة تبركا .

وتساؤل البعض ، ما المقصود بقول الحق : " إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ " وأين تم إلقاء هذه الأقلام ؟ قيل : إنها ألقيت في البحر وإذا ألقيت الأقلام في البحر فمن الذي يتميز في ذلك ؟ قيل : إنه إذا ما أطل قلم بسنه إلى أعلى فصاحبه الفائز ، أو إذا غرقت كل الأقلام وطفا قلم واحد يكون صاحبه هو الفائز . ولا بد أنهم اتفقوا على علامة أو سمة ما تميز القلم الذي كان لصاحبه فضل كفالة مريم . ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ .

وكلمة ﴿ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ تدل على حرارة المنافسة بين القوم شوقا إلى كفالة مريم ، لدرجة أن أمر كفالتها دخل في خصومة ، وحتى تنتهي الخصومة لجئوا إلى الاقتراع بالأقلام .

وننتقل الآن إلى مرحلة أخرى. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1460 . 1463 ﴾

(65/118)

قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (45) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانت هذه السورة سورة التوحيد المقتضي للتفرد بالعظمة عبر بما صدرت به من اسم الذات الجامع لجميع الصفات فقال : ﴿ إن الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا كفوء له ، فلا راد لأمره ﴿ يبشرك ﴾ وكرر هذا الاسم الشريف في هذا المقام زيادة في إيضاح هذا المرام بخلاف ما يأتي في سورة مريم عليها السلام ، وقوله : ﴿ بكلمة ﴾ أي مبتدئة ﴿ منه ﴾ من غير واسطة أب هو من تسمية المسبب باسم السبب ، والتعبير بها أوفق لمقصود السورة وأنفى لما يدعيه المجادلون في أمره ، ثم بين أنه ليس المراد بالكلمة حقيقتها ، بل ما يكون عنها ويكون فعالاً بها فقال مذكراً للضمير : ﴿ اسمه ﴾ أي الذي يتميز به عمن سواه مجموع ثلاثة

أشياء : ﴿ المسيح ﴾ أصل هذا الوصف أنه كان في شريعتهم : من مسحه الإمام بدهن القدس كان طاهراً متأهلاً للملك والعلم والمزايا الفاضلة مباركاً ، فدل سبحانه وتعالى على أن عيسى عليه الصلاة والسلام ملازم للبركة الناشئة عن المسح وإن لم يُمسَح ؛ وأما وصف الدجال بذلك فإما أن يكون لما كان هلاكه على يد عيسى عليه الصلاة والسلام وصف بوصفه – من باب التسمية بالضد ، وإما أن يكون إشارة إلى أنه ملازم للنجاسة فهو بحيث لا ينفك – ولو مسح – عن الاحتياج إلى التطهير بالمسح من الدهن الذي يمسح به المذنبون ومن كان به برص ونحوه فيبرأ – والله سبحانه وتعالى أعلم .

(66/118)

ولما وصفه بهذا الوصف الشريف ذكر اسمه فقال ﴿ عيسى ﴾ وبين أنه يكون منها وحدها من غير ذكر بقوله موضع ابنك : ﴿ ابن مريم ﴾ وذلك أنفى لما ضل به من ضل في أمره ، وأوضح في تقرير مقصود السورة وفي تفخيم هذا الذكر بجعله نفس الكلمة وبإبهامه أولاً ثم تفسيره ، وقوله : ﴿ اسمه ﴾ تعظيم لقدره وبيان لفضله على يحيى عليهما السلام حيث لم يجعل له في البشارة به مثل هذا الذكر ، ثم أتم لها البشارة بأوصاف جعلها أحوالاً دالة على أنه يظهر اتصافه بها حال الولادة تحقيقاً لظهور أثر الكلمة عليه فقال :

﴿ وجيهاً ﴾ قال الحرالي : صيغة مبالغة مما منه الوجاهة ، وأصل معناه الوجه وهو الملاحظ المحترم بعلو ظاهر فيه – انتهى .

﴿ في الدنيا ﴾ ولما كان ذلك قد لا يلازم الوجاهة بعد الموت قال : ﴿ والآخرة ﴾ ولما كانت الوجاهة ثمَّ مختلفة ذكر أعلاها عاطفاً بالواو إشارة إلى تمكنه في الصفات فقال : ﴿ ومن المقربين ﴾ أي عند الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 88 . 89 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الملائكة ﴾ في هذا الظرف أوجهٌ :

أحدها : أن يكون منتصباً بـ " يَخْتَصِمُونَ " .

الثاني : أنه بدل من " إِذْ يَخْتَصِمُونَ " وهو قول الزجاج .

وفي هذين الوجهين بُعْدٌ ؛ حيث يلزم اتحاد زمان الاختصام ، وزمانِ قَوْل الكلام ، ولم يكن ذلك ؛ لأن وقت الاختصام كان صغيراً جداً ، ووقت قولِ الملائكةِ بعد ذلك بأَحْيَانٍ .

قال الحسنُ : إنها كانت عاقلة في حال الصِّغَرِ ، وإن ذلك كان من كراماتها . فإن صحَّ ذلك صحَّ الاتحاد ، وقد استشعر الزمخشريُّ هذا السؤال ، فأجاب بأن الاختصام والبشارة وقَعَا في زمان واسعٍ ، كما تقول : لقيته سنة كذا ، يعني أن اللقاءَ إنما يقع في بعض السنة فكذا هذا .

الثالث: أن يكون بدلاً من ﴿ إِذْ قَالَتِ الملائكة ﴾ - أولاً - وبه بدأ الزمخشريُّ - كالمختار له - وفيه بعد لكثرة الفاصل بين البدلَ والمبدل منه.

الرابع: نصبه بإضمار فعل.

(67/118)

الخامس: قال أبو عبيدة: "إذْ - هنا - صلة زائدة". والمراد بالملائكة هنا: جبريل عليه السلام لما قررناه وقد تقدم الكلام في البشارة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 221 ﴾

قوله تعالى: ﴿ بِكَلِمَةٍ مّنْهُ ﴾

قال الفخر:

وأما قوله تعالى: ﴿ بِكَلِمَةٍ مّنْهُ ﴾ فقد ذكرنا تفسير الكلمة من وجوه وأليقها بهذا الموضع وجهان

الأول: أن كل علوق وإن كان مخلوقاً بواسطة الكلمة وهي قوله ﴿كُنّ﴾ إلا أن ما هو السبب المتعارف كان مفقوداً في حق عيسى عليه السلام وهو الأب، فلا جرم كان إضافة حدوثه إلى الكلمة أكل وأتم فجعل بهذا التأويل كأنه نفس الكلمة كما أن من غلب عليه

الجود والكرم والإقبال يقال فيه على سبيل المبالغة إنه نفس الجود ، ومحض الكرم ، وصريح الإقبال ، فكذا ههنا .

والوجه الثاني : أن السلطان العادل قد يوصف بأنه ظل الله في أرضه ، وبأنه نور الله لما أنه سبب لظهور ظل العدل ، ونور الإحسان ، فكذلك كان عيسى عليه السلام سبباً لظهور كلام الله عزّ وجلّ بسبب كثرة بياناته وإزالة الشبهات والتحريفات عنه فلا يبعد أن يسمى بكلمة الله تعالى على هذا التأويل .

فإن قيل : ولم قلتم إن حدوث الشخص من غير نطفة الأب ممكن قلنا : أما على أصول المسلمين فالأمر فيه ظاهر ويدل عليه وجهان

الأول : أن تركيب الأجسام وتأليفها على وجه يحصل فيها الحياة والفهم ، والنطق أمر ممكن ، وثبت أنه تعالى قادر على الممكنات بأسرها ، وكان سبحانه وتعالى قادراً على إيجاد الشخص ، لا من نطفة الأب ، وإذا ثبت الإمكان ، ثم إن المعجز قام على صدق النبي ، فوجب أن يكون صادقاً ، ثم أخبر عن وقوع ذلك الممكن ، والصادق إذا أخبر عن وقوع الممكن وجب القطع بكونه كذلك ، فثبت صحة ما ذكرناه

الثاني : ما ذكره الله تعالى في قوله ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ ءادَمَ ﴾ [آل عمران : 59] فلما لم يبعد تخليق آدم من غير أب فلأن لا يبعد تخليق عيسى من غير أب كان أولى وهذه حجة ظاهرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 42 ﴾

قال الآلوسى :

كلمة من لابتداء الغاية مجازاً وهي متعلقة بمحذوف وقع صفة لكلمة وإطلاق الكلمة على من أطلقت عليه باعتبار أنه خلق من غير واسطة أب بل بواسطة كن فقط على خلاف أفراد بني آدم فكان تأثير الكلمة في حقه أظهر وأكمل فهو كقولك لمن غلب عليه الجود مثلاً : محض الجود وعلى ذلك أكثر المفسرين وأيدوا ذلك بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ ءادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : 59] ، وقيل : أطلق عليه ذلك لأن الله تعالى بشر به في الكتب السالفة ، ففي "التوارة" في الفصل العشرين من السفر الخامس أقبل الله تعالى من سينا وتجلى من ساعير وظهر من جبال فاران وسينا جبل التجلي لموسى وساعير جبل بيت المقدس وكان عيسى يتعبد فيه وفاران جبل مكة ، وكان متحنث سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وهذا كقول من يخبر بالأمر إذا خرج موافقاً لما أخبر به : قد جاء كلامي ، وقيل : لأن الله تعالى يهدي به كما يهدي بكلمته . ابن مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلقاها إلى مَرْيَمَ ﴾ [النساء : 171] ولعله يرجح أول الأقوال كما يرجحه عدم اطراد الأقوال الأخر وإن لم يكن لازماً في مثل ذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 160 ﴾

وقال ابن عاشور :

والكلمة مراد بها كلمة التكوين وهي تعلق القدرة التنجيزي كما في حديث خلق الإنسان من قوله "ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله" الخ.

ووصف عيسى بكلمة مراد به كلمة خاصة مخالفة للمعتاد في تكوين الجنين أي بدون الأسباب المعتادة.

(69/118)

وقوله : ﴿ منه ﴾ من للابتداء المجازي أي بدون واسطة أسباب النسل المعتادة وقد دل على ذلك قوله : ﴿ إِذَا قَضَى أَمْراً ﴾ [البقرة : 117]. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 96 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ بِكَلِمَةٍ مّنْهُ ﴾ فلفظة ﴿ مِنْ ﴾ ليست للتبعيض ههنا إذ لو كان كذلك لكان الله تعالى متجزئاً متبعضاً متحملاً للاجتماع والافتراق وكل من كان كذلك فهو محدث

وتعالى الله عنه ، بل المراد من كلمة ﴿ مِنْ ﴾ ههنا ابتداء الغاية وذلك لأن في حق عيسى عليه السلام لما لم تكن واسطة الأب موجودة صار تأثير كلمة الله تعالى في تكوينه وتخليقه أكمل وأظهر فكان كونه كلمة ﴿ الله ﴾ مبدأ لظهوره ولحدوثه أكمل فكان المعنى لفظ ما ذكرناه لا ما يتوهمه النصارى والحلولية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 43 ﴾

قوله تعالى : ﴿ اسمه المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ اسمه المسيح عِيسَى ﴾ اسمه مبتدأ ، والمسيح خبره ، وعيسى بدل منه ، أو عطف بيان .

قال أبو البقاء : " ولا يجوز أن يكون خبراً آخرَ ؛ لأن تعدد الأخبار يوجب تعدد المبتدأ ، والمبتدأ مفرد - وهو قوله : اسمه - ولو كان " عِيسَى " خبراً آخر لكان أسماؤه أو أسماؤها - على تأنيث الكلمة " وأما من يجيز ذلك فقد أعرب " عِيسَى " خبراً ثانياً ، وأعربه بعضهم خبرَ مبتدأ محذوفٍ - أي : هو عيسى .

ويجوز على هذا الوجه وَجْهٌ رابعٌ ، وهو النَّصْب بإضمار أعني ؛ لأن كل ما جاز قطعه رفعاص جاز قطعه نصباً ، والألف واللام في المسيح للغلبة كهي في الصعق والعيُّوق وفيه وجهان :

أحدهما : أنه فَعِيل بمعنى فاعل ، فحُوِّلَ منه مبالغةً .

قيل : لأنه يمسح الأرض بالسياحة ، أي : يقطعها ومنه : مسح القسام الأرض وعلى هذا المعنى يجوز أن يقالَ لعيسى : مِسِّيح – بالتشديد – على المبالغة ، كما يقال : رجل شريب .

وقيل : لأنه يمسح ذا العاهةِ فَيَبْرَأُ – قاله ابن عباس .

وقيل : كان يمسح رأسَ اليتيم .

(70/118)

وقيل : يلبس المسح فسمي بما يئوب إليه .

وقيل : إنه فَعِيل بمعنى مفعول ؛ لأنه مُسِحَ بالبركة .

وقيل لأنه مُسِح من الأوزار والآثام ، أو لأنه مَشِيح القَدَمِ لا أَخْمَصَ له .

قال الشاعر : [الرجز]

بَاتَ يُقَاسِيهَا غُلاَمٌ كَالزَّلَمْ . . . مُدَمْلَجُ السَّاقَيْنِ مَمْسُوحُ الْقَدَمْ

أو لمسح وَجْهِهِ بالمَلاحة ، قال : [الطويل]

عَلَى وَجْهِ مَيٍّ مِسْحَةٌ مِنْ مَلاَحَةٍ . . . .

أو لأنه كان ممسوحاً بدُهْنٍ طاهرٍ مباركٍ ، تُمْسَح به الأنبياء ، ولا يُمْسَح به غيرُهم ، قالوا : وهذا الدهن من مسح به وقتَ الولادة فإنه يكون نبيًّا ، أو لأنه مَسَحَهُ جبريلُ بجَنَاحه وقت الولادة ؛ صوناً له عن مَسِّ الشيطان . أو لأنه خرج من بطن أمه مَمْسُوحاً بالدُّهْن .

والثاني : أنّ وزنه مَفْعِل – من السياحة – وعلى هذا تكون الميمُ فيه زائدة ، وعلى هذا كلِّه ، فهو منقول من الصفة .

وقال أبو عمرو بن العلاء : المَسِيح : الملك .

وقال النَّخَعِيُّ : المسيح : الصديق . ويكون المسيح بمعنى : الكذَّاب ، وبه سُمِّي الدجال ، والحرف من الأضداد .

وسمي الدجَّال مَسِيحاً لوجهَيْن .

أحدهما : أنه ممسوح إحدى العينَيْن .

الثاني : أنه يَمْسَح الأرضَ – أي يقطعها – في المدةِ القليلةِ ، قالوا : ولهذا قيل له : دجَّال ؛ لضَرْبه الأرضَ ، وقَطْعِه أكثر نواحيها . يقال : قد دجَلَ الرجلُ – إذا فعل ذلك .

وقيل : سُمِّي دجَّالاً من دجَّل الرجل إذا موَّه ولبَّس .

قال أبو عبيدٍ والليْث : أصله – بالعبرانية – مَشِيحَا ، فغُيِّر .

قال أبو حيان : " فعلى هذا يكون اسماً مرتجلاً ، ليس مُشْتَقاً من المَسْح ، ولا من السياحة " .

قال شهاب الدينِ : " قوله : ليس مشتقاً صحيح ، ولكن لا يلزم من ذلك أن يكون مُرْتَجَلاً ولا بد ، لاحتمال أن يكون في لغتهم مَنْقُولاً من شيء عندهم " .

وعيسى أصله : يسوع ، كما قالوا في موسى : أصله موشى ، أو ميشا - بالعبرانية .

(71/118)

فيكون من الاشتقاق الأوسط لأنه يُشْتَرط فيه وجود الحروف لا ترتيبها ، والأكبر يُشترط فيه أن يكون في الفرع حرفان ، والأصغر يُشْتَرط فيه أن يكون في الفرع حروف الأصل مرتَّبَةً .

وعيسى اسم أعجمي ، فلذلك لم يَنْصَرف - في معرفة ولا نكرة - لأنَّ فيه ألف تأنيث ، ويكون مُشْتَقاً من عاسه يعوسه ، إذا سَاسَه وقام عليه .

وأتى الضمير مذكَّراً في قوله : " اسْمُهُ " وإن كان عائداً على الكلمة ؛ مراعاةً للمعنى ؛ إذ المراد بها مذكَّر .

وقيل - في الدَّجّال - : مِسِّيح - بكسر الميم وشد السين ، وبعضهم يقوله كذا بالخاء المعجمة ، وبعضهم يقوله بفتح الميم والخاء المعجمة - مُخَفَّفاً - والأول هو المشهور ؛ لأنه يمسح الأرض - أي : يطوفها - ويدخل جميعَ بلدانِها إلا مكةَ والمدينةَ وبيتَ المقدسِ ، فهو

فعيل بمعنى فاعل . والدَّجَّال يمسح الأرضَ محنة وابنُ مريمَ يمسحها مِنْحَةً . وإن كان سُمِّي مسيحاً ؛ لأنه ممسوح العين فهو فعيل بمعنى مفعول .

قال الشاعر : [الرجز]

. . . . إذَا الْمَسِيحُ يَقْتُلُ الْمَسِيحَا . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 222 . 225 ﴾

(72/118)

وقال الآلوسى :

وهذه الأقوال تشعر بأن اللفظ عربي لا عبري ، وكثير من المحققين على الثاني ، واختاره أبو عبيدة ، وعليه لا اشتقاق لأنه لا يجري على الحقيقة في الأسماء الأعجمية ، وفي "الكشف" أن الظاهر فيه الاشتقاق لأنه عربي دخل عليه خواص كلامهم جعل لقب تشريف له عليه السلام كالخليل لإبراهيم ، وجعله معربا ً ثم إجراؤه مجرى الصفات في إدخال اللام لأنه في كلامهم بمعنى الوصف خلاف الظاهر . ومن الناس من ادعى أن دخول اللام لا ينافي العجمة فإن التوراة والإنجيل والإسكندر لم تسمع إلا مقرونة بها مع أنها أعجمية ، ولعل ذلك لا ينافي أظهرية كون محل النزاع عربياً ، نعم قيل في عيسى : إنه مشتق من العيس وأنه

إنما سمي به عليه السلام لأنه كان في لونه عيس أي بياض تعلوه حمرة كما يشير إليه خبر "كأنما خرج من ديماس" إلا أن المعول عليه فيه أنه لا اشتقاق له ، وأن القائل به كالراقم على الماء .

وهذا الخلاف إنما هو في هذا المسيح وأما المسيح الدجال فعربي إجماعاً وسمي به لأنه مسحت إحدى عينيه ، أو لأنه يمسح الأرض أي يقطعها في المدة القليلة ، وفرق النخعي بين لقب روح الله وعدوّه بأن الأول : بفتح الميم والتخفيف ، والثاني : بكسر الميم وتشديد السين كشرير وأنكره غيره وهو المعروف . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 3 صـ 161﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ عبر عن العلم واللقب والوصف بالاسم ، لأن لثلاثتها أثرا في تمييز المسمى . فأما اللقب والعلم فظاهر . وأما الوصف المفيد للنسب فلأن السامعين تعارفوا ذكر اسم الأب في ذكر الأعلام للتمييز وهو المتعارف ، وتذكر الأم في النسب إما للجهل بالأب كقول بعضهم : زياد بن سمية قبل أن يلحق بأبي سفيان في زمن معاوية بن أبي سفيان ، وإما لأن لأمه مفخرا عظيما كقولهم : عمرو ابن هند ، وهو عمرو بن المنذر ملك العرب .

والمسيح كلمة عبرانية بمعنى الوصف ، ونقلت إلى العربية بالغلبة على عيسى وقد سمى متنصرة العرب بعض أبنائهم عبد السميح وأصلها مسيح بميم مفتوحة ثم سين مهملة مكسورة مشددة ثم ياء مثناة مكسورة مشددة ثم حاء مهملة ساكنة ونطق به بعض العرب بوزن سكين .

ومعنى مسيح ممسوح بدهن المسحة وهو الزيت المعطر الذي أمر الله موسى أن يتخذه ليسكبه على رأس أخيه هارون حينما جعله كاهنا لبني إسرائيل ، وصارت كهنة بني إسرائيل يمسحون بمثله من يملكونهم عليهم من عهد شاول الملك ، فصار المسيح عندهم بمعنى الملك : ففي أول سفر صمويل الثاني من كتب العهد القديم قال داود للذي أتاه بتاج شاول الملك المعروف عند العرب بطالوت كيف لم تخف أن تمد يدك لتهلك مسيح الرب . فيحتمل أن عيسى سمي بهذا الوصف كما يسمون بملك ويحتمل أنه لقب لقبه به اليهود تهكما عليه إذ اتهموه بأنه يحاول أن يصير ملكا على إسرائيل ثم غلب عليه إطلاق هذا الوصف بينهم واشتهر بعد ذلك ، فلذلك سمي به في القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير جـ 3 صـ 97﴾

أسئلة وأجوبة :

السؤال الأول : المسيح : هل هو اسم مشتق ، أو موضوع ؟ .

والجواب : فيه قولان

الأول : قال أبو عبيدة والليث : أصله بالعبرانية مشيحا ، فعربته العرب وغيروا لفظه ، وعيسى : أصله يشوع كما قالوا في موسى : أصله موشى ، أو ميشا بالعبرانية ، وعلى هذا القول لا يكون له اشتقاق .

والقول الثاني : أنه مشتق وعليه الأكثرون ، ثم ذكروا فيه وجوهاً

الأول : قال ابن عباس : إنما سمي عيسى عليه السلام مسيحاً ، لأنه ما كان يمسح بيده ذا عاهة ، إلا برىء من مرضه

الثاني : قال أحمد بن يحيى : سمي مسيحاً لأنه كان يمسح الأرض أي يقطعها ، ومنه مساحة أقسام الأرض ، وعلى هذا المعنى يجوز أن يقال : لعيسى مسيح بالتشديد على المبالغة كما يقال للرجل فسيق وشريب

(74/118)

الثالث : أنه كان مسيحاً ، لأنه كان يمسح رأس اليتامى لله تعالى ، فعلى هذه الأقوال : هو فعيل بمعنى : فاعل ، كرحيم بمعنى : راحم

الرابع : أنه مسح من الأوزار والآثام

والخامس : سمي مسيحاً لأنه ما كان في قدمه خمص ، فكان ممسوح القدمين

والسادس : سمي مسيحاً لأنه كان ممسوحاً بدهن طاهر مبارك يمسح به الأنبياء ، ولا يمسح به غيرهم ، ثم قالوا : وهذا الدهن يجوز أن يكون الله تعالى جعله علامة حتى تعرف الملائكة أن كل من مسح به وقت الولادة فإنه يكون نبياً

السابع : سمي مسيحاً لأنه مسحه جبريل صلى الله عليه وسلم بجناحه وقت ولادته ليكون ذلك صوناً له عن مس الشيطان

الثامن : سمي مسيحاً لأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن ، وعلى هذه الأقوال يكون المسيح ، بمعنى : الممسوح ، فعيل بمعنى : مفعول .

قال أبو عمرو بن العلاء المسيح : الملك .

وقال النخعي : المسيح الصديق والله أعلم .

ولعلّهما قالا ذلك من جهة كونه مدحاً لا لدلالة اللغة عليه ، وأما المسيح الدجال فإنما سمي مسيحاً لأحد وجهين أحدهما : لأنه ممسوح أحد العينين

والثاني : أنه يمسح الأرض أي : يقطعها في المدة القليلة ، قالوا : ولهذا قيل له : دجال لضربه في الأرض ، وقطعه أكثر نواحيها ، يقال : قد دجل الدجال إذا فعل ذلك ، وقيل : سمي دجالاً من قوله : دجل الرجل إذا موه ولبس .

السؤال الثاني : المسيح كان كاللقب له ، وعيسى كالاسم فلم قدم اللقب على الاسم ؟ .

الجواب : أن المسيح كاللقب الذي يفيد كونه شريفاً رفيع الدرجة ، مثل الصديق والفاروق فذكره الله تعالى أولاً بلقبه ليفيد علو درجته ، ثم ذكره باسمه الخاص .

السؤال الثالث : لم قال عيسى بن مريم والخطاب مع مريم ؟ .

الجواب : لأن الأنبياء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات ، فلما نسبه الله تعالى إلى الأم دون الأب ، كان ذلك إعلاماً لها بأنه محدث بغير الأب ، فكان ذلك سبباً لزيادة فضله وعلو درجته .

(75/118)

السؤال الرابع : الضمير في قوله : اسمه عائد إلى الكلمة وهي مؤنثة فلم ذكر الضمير ؟ .

الجواب : لأن المسمى بها مذكر .

السؤال الخامس : لم قال اسمه المسيح عيسى بن مريم ؟ والاسم ليس إلا عيسى ، وأما المسيح فهو لقب ، وأما ابن مريم فهو صفة .

الجواب : الاسم علامة المسمى ومعرف له ، فكأنه قيل : الذي يعرف به هو مجموع هذه الثلاثة . انتهى . ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 43 ـ 44﴾

لطيفة

قال الآلوسى :

اعلم أن لفظ ﴿ ابن ﴾ في الآية يكتب بغير همزة بناءاً على وقوعه صفة بين علمين إذ القاعدة أنه متى وقع كذلك لم تكتب همزته بل تحذف في الخط تبعاً لحذفها في اللفظ لكثرة استعماله كذلك ومتى تقدمه علم لكن أضيف إلى غير علم كزيد ابن السلطان أو تقدمه غير علم ، وأضيف إلى علم كالسلطان ابن زيد أو وقع بين ما ليسا علمين كزيد العاقل ابن الأمير عمرو كتبت الألف ولم تحذف في الخط في جميع تلك الصور ، والكتاب كثيراً ما يخطئون في ذلك فيحذفون الهمزة منه في الكتابة أينما وقع ، وقد نص على خطئهم في ذلك ابن قتيبة وغيره . ومن هنا قيل : إن الرسم يرجح التبعية ، نعم في كون ذلك مطرداً فيما إذا كان المضاف إليه علم الأم خلاف ، والذي أختاره الحذف أيضاً إذا كان ذلك مشهوراً .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 162 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجِيهًا فِي الدنيا والأخرة ﴾

قال ابن عادل :

وقوله : ﴿ وَجِيهًا ﴾ حال ، وكذلك قوله : ﴿ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ وقوله : ﴿ وَيُكَلِّمُ ﴾ وقوله : ﴿ مِّنَ الصالحين ﴾ هذه أربعة أحوالٍ انتصبت عن قوله : " بِكَلِمَةٍ " . وإنما ذَكَّرَ الحالَ ؛ حملاً على المعنى ؛ إذ المعنى المرادُ بها : الولد والمُكَوِّن ، كما ذَكَّر الضميرَ في " اسْمُهُ " .

فالحال الأولى جِيءَ بها على الأصل – اسماً صريحاً – والباقية في تأويله . والثانيةُ : جار ومجرور ، وأتى بِهَا هكذا ؛ لوقوعها فاصلةً في الكلام ، ولو جِيءَ بها اسماً صريحاً ، لفات مناسبة الفواصل . والثالثة جملة فعليّة ، وعطف الفعل على الاسم ؛ لتأويلِه به ، وهو كقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ [الملك : 19] ، أي : وقَابضات ، ومثله في عطفِ الاسمِ على الفعل ؛ لأنه في تأويله ، قولُ النابغة : [الطويل]

1466- فَأَلْفَيْتُهُ يَوْماً يُبِيرُ عَدُوَّهُ . . . ومُجْرٍ عَطَاءً يَسْتَحِقُّ المَعَابِرَا

وقال الآخر : [الرجز]

1467- بَاتَ يُغَشِّيهَا بِعَضْبٍ بَاتِرِ . . . يَقْصِدُ في أَسْوُقِهَا وَجَائِرِ

والمعنى : مُبِيراً عدوه ، وقاصداً .

وجاء بالثالثة جملة فعلية ؛ لأنها في رُتْبتها ، إذ الحالُ وَصْفٌ في المعنى ، وقد تقدم أنه إذا اجتمعَ صفات مختلفة في الصراحةِ والتأويل قُدِّمَ الاسمُ ، ثمَّ الظرفُ – أو عديلهُ – ثم الجملةُ . فكذا فعل هنا ، فقدم الاسم – وهو ﴿ وَجِيهًا ﴾ – ثم الجار والمجرور ، ثم الفعل ، وأتى به مضارعاً ؛ لدلالته على التجدُّد وقتاً مؤقتاً ، بخلاف الوجاهةِ ، فإنَّ المرادَ ثبوتها

واستقرارها ، والاسمُ مُتَكَفّلٌ بذلِك ، والجار قريبٌ من المفرد ، فلذلك ثَنّى به ، إذ المقصودُ ثبوتُ تقْرِيبه .

والتضعيف في " الْمُقَرَّبِينَ " للتعدية ، لا للمبالغةِ ؛ ملا تقدم من أن التضعِيفَ للمبالغة لا يُكْسِبُ الفعلَ مفعولاً ، وهذا قد أكسبه مفعولاً - كما ترى - بخلاف : قَطَّعْتُ الأثوابَ ، فإنَّ التعدي حاصل قبل ذلك .

وجيء بالرابعة - بقوله : ﴿ مِّنَ الصالحين ﴾ مراعاةً للفاصلةِ ، كما تقدم في " الْمُقَرَّبِينَ " .

والمعنى : إنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بهذه الكلمةِ موصوفةً بهذه الصفاتِ الجميلةِ .

(77/118)

ومنع أبو البقاء أن تكونَ أحوالاً من " الْمَسِيحِ " أو من " عِيسَى " أو من " ابْن مرْيَمَ " قال : " لأنها أخبارٌ ، والعامل فيها الابتداءُ ، أو المبتدأ ، أو هما ، وليس شيءٌ من ذلك يعملُ في الحال " .

ومنع أيضاً - كونَهَا حالاً من الهاء في " اسْمُهُ " قال : " للفصل الواقعِ بينهما ، ولعدمِ العاملِ في الحال " .

قال شهابُ الدينِ : " ومذهبُه - أيضاً - أنَّ الحالَ لا يجيءُ مِنَ الْمُضَافِ إليه ، وهو مرادُهُ

بقولِه : ولعدم العامل . وجاءت الحالُ من النكرةِ ؛ لتخصُّصِها بالصفة بعدها . وظاهرُ كلام الواحديِّ – فيما نقَلَهُ عن الفرَّاء – أنَّها يجوز أن تكون أحوالاً من " عِيسَى " فإنَّه قال :

والفرَّاء تسمِّي هذا قَطْعاً ، كأنه قال : عيسى ابن مريم الوجيه ، قطعَ منه التعريف . فظاهرُ هذا يُؤذِنُ بأنَّ ﴿ وَجِيهًا ﴾ من صفةِ " عِيسَى " في الأصلِ ، فقطع عنه ، والحالُ وصفٌ في المعنى " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 226 . 228 ﴾

فصل

قال الفخر :

معنى الوجيه : ذو الجاه والشرف والقدر ، يقال : وجه الرجل ، يوجه وجاهة هو وجيه ، إذا صارت له منزلة رفيعة عند الناس والسلطان ، وقال بعض أهل اللغة : الوجيه : هو الكريم ، لأن أشرف أعضاء الإنسان وجهه فجعل الوجه استعارة عن الكرم والكمال .

واعلم أن الله تعالى وصف موسى صلى الله عليه وسلم بأنه كان وجيهاً قال الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كالذين ءَاذَوْاْ موسى فَبرَّأَهُ الله مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ الله وَجِيهاً ﴾ [الأحزاب : 69] ثم للمفسرين أقوال :

الأول : قال الحسن : كان وجيهاً في الدنيا بسبب النبوة ، وفي الآخرة بسبب علو المنزلة عند الله تعالى

والثاني : أنه وجيه عند الله تعالى ، وأما عيسى عليه السلام ، فهو وجيه في الدنيا بسبب أنه يستجاب دعاؤه ويحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص بسبب دعائه ، ووجيه في الآخرة بسبب أنه يجعله شفيع أمته المحقين ويقبل شفاعتهم فيهم كما يقبل شفاعة أكابر الأنبياء عليهم السلام

والثالث : أنه وجهه في الدنيا بسبب أنه كان مبرأ من العيوب التي وصفه اليهود بها ، ووجيه في الآخرة بسبب كثرة ثوابه وعلو درجته عند الله تعالى .

فإن قيل : كيف كان وجيهاً في الدنيا واليهود عاملوه بما عاملوه ، قلنا : قد ذكرنا أنه تعالى سمى موسى عليه السلام بالوجيه مع أن اليهود طعنوا فيه ، وآذوه إلى أن برأه الله تعالى مما قالوا ، وذلك لم يقدح في وجاهة موسى عليه السلام ، فكذا ههنا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 44 . 45 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وجيهاً في الدنيا والآخرة ﴾ قال ابن قتيبة : الوجيه ذو الجاه ، يقال : وجه الرجل يوجه وجاهة .

وقال ابن دريد : الوجيه المحب المقبول .

وقال الأخفش : الشريف ذو القدر والجاه .

وقيل : الكريم على من يسأله ، لأنه لا يرده لكرم وجهه .

ومعناه في حق عيسى أن وجاهته في الدنيا بنبوته ، وفي الآخرة بعلو درجته .

وقيل : في بالدنيا بالطاعة ، وفي الآخرة بالشفاعة .

وقيل : في الدنيا بإحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص ، وفي الآخرة بالشفاعة .

وقيل : في الدنيا كريماً لا يرد وجهه ، وفي الآخرة في علية المرسلين .

وقال الزمخشرى : الوجاهة في الدنيا النبوة والتقدم على الناس ، وفي الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة في الجنة .

وقال ابن عطية : وجاهة عيسى في الدنيا نبوته وذكره ورفعه ، وفي الآخرة مكانته ونعميه وشفاعته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 482 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَمِنَ المقربين ﴾

قال البيضاوى :

﴿ وَمِنَ المقربين ﴾ من الله ، وقيل إشارة إلى علو درجته في الجنة أو رفعه إلى السماء وصحبة الملائكة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 40 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ وَمِنَ المقربين ﴾ فيه وجوه

أحدها : أنه تعالى جعل ذلك كالمدح العظيم للملائكة فألحقه بمثل منزلتهم ودرجتهم بواسطة هذه الصفة

وثانيها : أن هذا الوصف كالتنبيه على أنه عليه السلام سيرفع إلى السماء وتصاحبه الملائكة

وثالثها : أنه ليس كل وجيه في الآخرة يكون مقرباً لأن أهل الجنة على منازل ودرجات ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثلاثة ﴾ [الواقعة : 7] إلى قوله ﴿ والسابقون السابقون * أُوْلَئِكَ المقربون ﴾ [الواقعة : 10-11] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 45 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

لم يُبَشرها بنصيب لها في الدنيا ولا في الآخرة من حيث الحظوظ ، ولكن بَشَّرها بما أثبت في ذلك من عظيم الآية ، وكونه نبياً لله مؤيَّداً بالمعجزة .

ويقال عرَّفها أن مَنْ وقع في تغليب القدرة ، وانتهى عند حكمه يَلْقَى من عجائب القدرة ما لا عهد به لأحد . ولقد عاشت مريم مدةً بجميل الصيت ، والاشتهار بالعفة ، فشوَّش

عليها ظاهر تلك الحال بما كان عند الناس بسبب استحقاق ملام ، ولكن – في التحقيق – ليس كما ظَنَّهُ الأغبياء الذين سكرت أبصارهم من شهود جريان التقدير .

وقيل إنه (. . . .) عَرَّفها ذلك بالتدريج والتفصيل ، فأخبرها أن ذلك الولَدَ يعيش حتى يُكَلِّمَ الناس صبيًّا وكهلا ، وأن كيد الأعداء لا يؤثر فيه .

وقيل كهلاً بعد نزوله من السماء .

ويقال ربط على قلبها بما عرَّفها أنه إذا لم ينطق لسانها بذكر براءة سَاحتها يُنْطِقُ اللهُ عيسى عليه السلام بما يكون دلالة على صدقها وجلالتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 1 صـ 243﴾

(80/118)

" فصل "

قال السيوطى :

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (42) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (43) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (44) إِذْ

قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (45)

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب في قوله ﴿ إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ قال "كان أبو هريرة يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " خير نساء ركبن الإبل نساء قريش . أحناه على ولد في صغره ، وأرعاه على زوج في ذات يده " قال أبو هريرة : ولم تركب مريم بنت عمران بعيراً قط " أخرجه الشيخان بدون الآية .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن مردويه عن علي " سمعت رسول الله يقول : خير نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد " .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أفضل نساء العالمين خديجة ، وفاطمة ، ومريم ، وآسية امرأة فرعون " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله اصطفى على نساء العالمين أربعاً : آسية بنت مزاحم ، ومريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم " .

وأخرج أحمد والترمذي وصححه وابن المنذر وابن حبان والحاكم عن أنس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ، وآسية ارمأة فرعون " وأخرجه ابن أبي شيبة عن الحسن . مرسلاً .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير عن أبي موسى قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء : " إلا مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن فاطمة رضي الله عنها قالت : " قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم البتول " .

وأخرج ابن جرير عن عمار بن سعد قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فضلت خديجة على نساء أمتي كما فضلت مريم على نساء العالمين " .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران ، ثم فاطمة ، ثم خديجة ، ثم آسية امرأة فرعون " .

وأخرج ابن عساكر من طريق مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه

وسلم قال " أربع نسوة سيدات عالمهن : مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ، وأفضلهن عالماً فاطمة " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فاطمة سيدة نساء العالمين بعد مريم ابنة عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة ابنة خويلد " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مكحول قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خير نساء ركبن الإبل نساء قريش . أحناه على ولد في صغره ، وأرعاه على بعل في ذات يده ، ولو علمت أن مريم ابنة عمران ركبت بعيراً ما فضلت عليها أحداً " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ إن الله اصطفاك وطهرك ﴾ قال : جعلك طيبة ايماناً .

وأخرج ابن حاتم عن السدي ﴿ وطهرك ﴾ قال : من الحيض ﴿ واصطفاك على نساء العالمين ﴾ قال : على نساء ذلك الزمان الذي هم فيه .

وأخرج ابن جرير عن ابن إسحق قال : كانت مريم حبيساً في الكنيسة ومعها في الكنيسة

غلام اسمه يوسف ، وقد كان أمه وأبوه جعلاه نذيراً حبيساً فكانا في الكنيسة جميعاً ، وكانت مريم إذا نفذ ماؤها وماء يوسف أخذا قلتيهما فانطلقا إلى المفازة التي فيها الماء ، فيملآن ثم يرجعان والملائكة في ذلك مقبلة على مريم ﴿ يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ فإذا سمع ذلك زكريا قال : إن لابنة عمران لشأنا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ يا مريم اقنتي لربك ﴾ قال : اطيلي الركود يعني القيام .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : لما قيل لها ﴿ اقنتي لربك ﴾ قامت حتى ورمت قدماها .

وأخرج ابن جرير عن الأوزاعي قال : كانت مريم تقوم حتى يسيل القيح من قدميها .

وأخرج ابن عساكر عن ابن سعيد قال : كانت مريم تصلي حتى ترم قدماها .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير ﴿ اقنتي لربك ﴾ قال : اخلصي .

وأخرج عن قتادة قال ﴿ اقنتي لربك ﴾ قال : أطيعي ربك .

وأخرج ابن أبي داود في المصاحف عن ابن مسعود أنه كان يقرأ " واركعي واسجدي في الساجدين " .

وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ وما كنت لديهم ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ﴾ قال : إن مريم عليها السلام لما وضعت في المسجد اقترع عليها أهل المصلى وهم يكتبون الوحي ، فاقترعوا بأقلامهم أيهم يكفلها فقال الله لمحمد : ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ .

(83/118)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿ إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ﴾ قال : ألقوا أقلامهم في الماء فذهبت مع الجرية ، وصعد قلم زكريا فكفلها زكريا .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع قال : ألقوا أقلامهم يقال : عصيهم تلقاء جرية الماء ، فاستقبلت عصا زكريا عليه السلام جرية الماء فقرعهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج قال ﴿ أقلامهم ﴾ قال : التي يكتبون بها التوراة.

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد . مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عطاء ﴿ أقلامهم ﴾ يعني قداحهم .

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس قال " لما وهب الله لزكريا يحيى ، وبلغ ثلاث سنين بشر الله مريم بعيسى . فبينما هي في المحراب إذ قالت الملائكة – وهو جبريل

وحده - ﴿ يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك ﴾ من الفاحشة ﴿ واصطفاك ﴾ يعني اختارك ﴿ على نساء العالمين ﴾ عالم امتها ﴿ يا مريم اقنتي لربك ﴾ يعني صلي لربك يقول : اركدي لربك في الصلاة بطول القيام ، فكانت تقوم حتى ورمت قدماها ﴿ واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ يعني مع المصلين مع قراء بيت المقدس.

يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾ يعني بالخبر ﴿ الغيب ﴾ في قصة زكريا ويحيى ومريم ﴿ وما كنت لديهم ﴾ يعني عندهم ﴿ إذ يلقون أقلامهم ﴾ في كفالة مريم ثم قال يا محمد يخبر بقصة عيسى ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا ﴾ يعني مكيناً عند الله في الدنيا من المقربين في الآخرة ﴿ ويكلم الناس في المهد ﴾ يعني في الخرق ﴿ وكهلاً ﴾ ويكلمهم كهلاً إذا اجتمع قبل أن يرفع إلى السماء ﴿ ومن الصالحين ﴾ يعني من المرسلين ".

(84/118)

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر عن وهب قال : لما استقر حمل مريم وبشرها جبريل . وثقت بكرامة الله واطمأنت ، فطابت نفساً واشتد ازرها ، وكان معها في المحررين ابن

خال لها يقال له يوسف ، وكان يخدمها من وراء الحجاب ، ويكلمها ويناولها الشيء من وراء الحجاب وكان أول من اطلع على حملها هو ، واهتم لذلك واحزنه ، وخاف منه البلية التي لا قبل بها ، ولم يشعر من اين اتيت مريم ، وشغله عن النظر في أمر نفسه وعمله لأنه كان رجلاً متعبداً حكيماً ، وكان من قبل أن تضرب مريم الحجاب على نفسها تكون معه ، ونشأ معها .

وكانت مريم إذا نفد ماؤها وماء يوسف أخذا قلتيهما ثم انطلقا إلى المفازة التي فيها الماء ، فيملآن قلتيهما ثم يرجعان إلى الكنيسة والملائكة مقبلة على مريم بالبشارة ﴿ يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك ﴾ فكان يعجب يوسف ما يسمع . فلما استبان ليوسف حمل مريم وقع في نفسه من أمرها حتى كاد أن يفتتن ، فلما أراد أن يتهمها في نفسه ذكر ما طهرها الله واصطفاها ، وما وعد الله أمها أنه يعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم ، وما سمع من قول الملائكة ﴿ يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك ﴾ فذكر الفضائل التي فضلها الله تعالى بها وقال : إن زكريا قد أحرزها في المحراب فلا يدخل عليها أحد وليس للشيطان عليها سبيل فمن أين هذا ؟

فلما رأى من تغير لونها ، وظهور بطنها ، عظم ذلك عليه ، فعرض لها فقال : يا مريم هل يكون زرع من غير بذر ؟ قالت : نعم .

قال : وكيف ذلك ؟ ! قالت : إن الله خلق البذر الأول من غير نبات ، وأنبت الزرع الأول من غير بذر ، ولعلك تقول : لولا أنه استعان عليه بالبذر لغلبه حتى لا يقدر على أنه يخلقه ولا ينبته . قال يوسف : أعوذ بالله أن أقول ذلك . قد صدقت وقلت بالنور والحكمة ، وكما قدر أن يخلق الزرع الأول وينبته من غير بذر ، يقدر على أن يجعل زرعاً من غير بذر ، فاخبريني هل ينبت الشجر من غير ماء ولا مطر ؟ قالت : ألم تعلم أن للبذور والزرع والماء والمطر والشجر خالقاً واحداً ! فلعلك تقول لولا الماء والمطر لم يقدر على أن ينبت الشجر . قال : أعوذ بالله أن أقول ذلك ! قد صدقت . فاخبريني هل يكون ولد أو رجل من غير ذكر ؟ قالت : نعم . قال : وكيف ذلك ؟ قالت : ألم تعلم أن الله خلق آدم وحواء امرأته من غير حبل ولا أنثى ولا ذكر قال : بلى . فاخبريني خبرك ؟ قالت : بشرني الله ﴿ بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم ﴾ إلى قوله ﴿ ومن الصالحين ﴾ فعلم يوسف أن ذلك أمر من الله لسبب خير أراده بمريم ، فسكت عنها .

فلم تزل على ذلك حتى ضربها الطلق ، فنوديت أن أخرجي من المحراب فخرجت .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك ﴾ قال : شافهتها الملائكة بذلك .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ يبشرك بكلمة منه

﴿ قال : عيسى هو الكلمة من الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لم يكن من الأنبياء من له اسمان إلا عيسى ومحمد عليهما السلام .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن إبراهيم قال : المسيح الصديق .

وأخرج ابن جرير عن سعيد قال : إنما سمي المسيح لأنه مسح بالبركة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن عبد الرحمن الثقفي . أن عيسى كان سائحاً ولذلك سمي المسيح . كان يمسي بأرض ويصبح بأخرى ، وانه لم يتزوّج حتى رفع .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ ومن المقربين ﴾ يقول : ومن المقربين عند الله يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 193 . 198 ﴾

(86/118)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾

لقد كانت المرحلة الأولى بالنسبة لإعداد مريم هي قوله الحق على لسانها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ

﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ . وبذلك تعرفت على طلاقة قدرة الله ، والمرحلة الثانية هي سماعها لحكاية زكريا ويحيى وتأكيد الحق لها أنه اصطفاها على نساء العالمين ، وفي ذلك أمر يتعلق بالنساء ، وكان ذلك إيناساً من الحق لها ، وتدخل مريم إلى مرحلة جديدة .

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ [آل عمران : 45] .

والبشارة لا تكون إلا بخبر عظيم مفرح ، وقد يتساءل البعض ؟ ماذا يقصد الحق بقوله : ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ ؟ والإجابة هي : أن الحق سبحانه وتعالى يزاول سلطانه في ملكه بالكلمة ، لا بالعلاج ، فالحق سبحانه علمنا ذلك بقوله :

﴿ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : 47] .

وهذا القول هو مجرد إيضاح لنا وتقريب لأنه لا يوجد عندنا أقصر في الأمر من كلمة "كن" إن قدرته قادرة بطلاقتها أن تسبق نطقنا بالكاف وهي الحرف الأول من "كن" ، ولكن الحق يوضح لنا بأقصر أمر على طريقة البشر ، إن الحق سبحانه وتعالى إذا أراد أمرا فإنه يقول له كن فيكون ، وذلك إيضاح أن مجرد الإرادة الإلهية لأمر ما تجعله ينشأ على الفور ، و "كن" هي مجرد إظهار الأمر للخلق ، هكذا نفهم معنى بشارة الحق لمريم بـ ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ ويقول الحق : ﴿ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ . إنها ثلاثة أسماء ، "المسيح" ، "عيسى" ، "ابن مريم" .

ما معنى المسيح ؟ قد يكون الممسوح من الذنوب ، أو أن تكون من آياته أن يمسح على المريض فيبرأ ، أو المسيح المبارك . . أما عيسى . فهذا هو الاسم ، والمسيح هو اللقب ، وابن مريم هي الكنية . . ونحن نعرف أن العَلَمَ في اللغة العربية يأتي على ثلاثة أنواع : اسم أو لقب أو كنية . وابن مالك يقول : " واسما أتى وكنية ولقبا " إن العَلَم على الشخص له ثلاث حالات . إما اسم وهو ما يطلق على المسمى أولا . والاسم الثاني الذي أطلقناه عليه . إن كان يشعر برفعة صاحبه أو بضِعَته نسميه لقبا . أما ما كان فيه أب أو أم فيقال له : "كنية " وجاءت الثلاثة في عيسى ﴿ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ .

" المسيح " هو اللقب ، " عيسى " هو الاسم " و " ابن مريم " وهو الكنية . ومجيء عيسى باللقب والاسم والكنية ستكون لها حكمة تظهر لنا من بعد ذلك . ويقول عنه الحق : ﴿ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ .

ونحن في حياتنا نستعمل كلمة فلان وجيه من وجهاء القوم ، والوجيه هو الذي لا يرده مسئول للكرامة في وجهه ، ونحن نسمع في حياتنا اليومية .

فلان لا يصح أن نسبب له الخجل برفض أي طلب له . وكما يقول العامة : (هو الوجه ده حد

يكسفه) إذن فالوجيه هو الذي يأخذ سمة وتميزا بحيث يستحي الناس أن يردوه إذا كان طالبا ، وهناك إنسان آخر قد يسألك أو يسأل الناس ، فلا يبالي به أحد ، إنه يريق ماء وجهه وتنتهي المسألة .

(88/118)

إذن فقوله الحق في وصف عيسى بن مريم : ﴿ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ أي أن أحدا لا يرده إن سأله . لكرم وجهه ، فالإنسان يخجل أن يرد صاحب مثل هذه الكرامة ، لذلك نجد أن السائل قد يقول : أعطني لوجه الله . أي أنه يقول لك : لا تنظر إلى وجهي ، ولكن انظر إلى وجه الله ؛ لأن الله هو الذي جاء بي إلى الدنيا وخلقني ، وما دام قد جاء بي الخالق إلى الدنيا فهو المتكفل برزقي ، فأنت حينما تعين على رزق من استدعاه الله إلى الوجود تكون قد أعطيت لوجه الله ، إنه الخالق الذي يرزق كل مخلوق له حتى الكافر .

إذن فعطاء الإنسان للسائل ليس عطاء لوجه السائل ، ولكنه عطاء لوجه الله . والحق يقول عن عيسى بن مريم : ﴿ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ وعرفنا كيف يكون الإنسان وجيها في الدنيا ، فلماذا نص الحق على وجاهة عيسى في الآخرة ؟ وخصوصا أن كل وجوه المؤمنين ستكون ناضرة ، لقد نص الحق على وجاهة عيسى في الآخرة لأنه سوف يُسأل

سؤالا يتعلق بالقمة الإيمانية :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَاهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾

[المائدة : 116] .

إياك أن تظن أن هذا السؤال هو تقريع من الله لعيسى بن مريم . لا إن الحق يريد أن يقرّع من قالوا هذا الكلام . ولذلك يقول عنه الحق :

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾

[مريم : 33] .

(89/118)

لأن ميلاده كان له ضجة ، وبعض بني إسرائيل اتهموا والعياذ بالله أمه مريم البتول ، و " يوم الممات " ، كلنا نعرف حكاية الصلب وكان لها ضجة . إنه لم يصلب ولكن صلب من خانه ووشي به فألقى الله شبه عيسى عليه فقتلوه . ويوم البعث حيا يوم يسأله الله :

﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَاهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ

أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾

[المائدة: 116].

إنه عيسى ابن مريم الذي أنعم الله عليه بالسلام في هذه المواقف الثلاثة. ويتابع الحق فيصف عيسى ابن مريم بقوله: ﴿ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ إن كلمة " من المقربين " تدل على تعالى الحق في عظمته، فحين يفتن بعض البشر في واحد منهم قد يغضب بعضهم من الشخص الذي فتن الآخرون فيه مع أنه ليس له ذنب في ذلك.

والحق سبحانه يعلمنا أن للمغالي جزاءه ولكن المغالَى فيه تنجيه رحمة الغفار.

إن الحق يعلمنا أن فتنة بعض الناس بعيسى ابن مريم عليه السلام لا تؤثر في مكانة عيسى عليه السلام عند الحق، إنه مقرب من الله، ولا تؤثر فتنة الآخرين في مكانته عند الله، ويقول الحق: ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ . . . ﴾. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1467.1464 ﴾

(90/118)

قوله تعالى ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (46) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ذلك قد لا يقتضي خرق العادات قال : ﴿ ويكلم الناس ﴾ أي من كلمه من جميع هذا النوع ، بأي لسان كان كلمه ، حال كونه ﴿ في المهد ﴾ قال الحرالي : هو موطن الهدوء والسكون للمتحسس اللطيف الذي يكون بذلك السكون والهدو قوامه - انتهى .

وبشرها بطول حياتها بقوله : ﴿ وكهلاً ﴾ أي بعد نزوله من السماء في خاتمة اليوم المحمدي ، ويكون كلامه في الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت .

قال الحرالي : والكهولة سن من أسنان أرابيع الإنسان ، وتحقيق حده أنه الربع الثالث الموتر لشفع متقدم سنيه من الصبا والشباب فهو خير عمره ، يكون فيمن عمره ألف شهر - بضع وثمانون سنة - من حد نيف وأربعين إلى بضع وستين ، إذا قسم الأرباع لكل ربع إحدى وعشرون سنة صباً ، وإحدى وعشرون شباباً ، وإحدى وعشرون كهولة ، وإحدى وعشرون شيوخة ، فذلك بضع وثمانون سنة - انتهى .

وهذا تحقيق ما اختلف من كلام أهل اللغة ، وقريب منه قول الإمام أبي منصور عبد الملك بن أحمد الثعالبي في الباب الرابع عشر من كتابه فقه اللغة : ثم ما دام بين الثلاثين والأربعين فهو شاب ، ثم كهل إلى أن يستوفي الستين ؛ ويقال : شاب الرجل ، ثم شمط ، ثم شاخ ، ثم كبر - انتهى .

والكهل - قال أهل اللغة - مأخوذ من : اكتهل النبات - إذا تم طوله قبل أن يهيج ، وكلام

الفقهاء لا يخالفه ، فإن مبناه العرف ، فالنص على كهولته إشارة لأمه بأنه ممنوع من أعدائه إذا قصدوه ، وتنبيه على أن دعواهم لصلبه كاذبة .

ولما كانت رتبة الصلاح في غاية العظمة قال مشيراً إلى علو مقدارها : ﴿ ومن الصالحين ﴾ ومعلماً بأنها محيطة بأمره ، شاملة لآخر عمره ، كما كانت مقارنة لأوله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 89 . 90 ﴾

فصل

قال الفخر :

(91/118)

الواو للعطف على قوله ﴿ وَجِيهاً ﴾ والتقدير كأنه قال : وجيهاً ومكلماً للناس وهذا عندي ضعيف ، لأن عطف الجملة الفعلية على الاسمية غير جائز إلا للضرورة ، أو الفائدة والأولى أن يقال تقدير الآية ﴿ إِنَّ اللهَ يُبَشّرُكِ بِكَلِمَةٍ مّنْهُ اسمه المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ الوجيه في الدنيا والآخرة المعدود من المقربين ، وهذا المجموع جملة واحدة ، ثم قال : ﴿ وَيُكَلّمُ الناس ﴾ فقوله ﴿ وَيُكَلّمُ الناس ﴾ عطف على قوله ﴿ إِنَّ اللهَ يُبَشّرُكِ ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 45 ﴾

قال ابن عادل :

وأجيب بأن هذا خطأ ؛ لأنه إن أراد العطف على جملة ﴿ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ ﴾ فهي جملة اسمية فقد عطف الفعلية على الاسمية ، فوقع فيما فَرَّ منه . وإن أراد العطفَ على " يُبَشِّرُكِ " فهو خطأ ؛ لأن المعطوف على الخبر خبر – و" يُبَشِّرُكِ " خبر – فيصير التقدير : إن الله يكلم الناسَ في المهدِ ، والصواب ما قالوه من كونه حالاً ، وأن الجملة الحالية إذا كانت فعلاً فهي مقدرة بالاسم ، فجاز العطف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 130 ﴾

فصل

قال الفخر :

في المهد قولان

أحدهما : أنه حجر أمه

والثاني : هو هذا الشيء المعروف الذي هو مضجع الصبي وقت الرضاع ، وكيف كان المراد منه : فإنه يكلم الناس في الحالة التي يحتاج الصبي فيها إلى المهد ، ولا يختلف هذا المقصود سواء كان في حجر أمه أو كان في المهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 45 ﴾

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ فِي الْمَهْدِ ﴾ يجوز فيه وَجْهَان :

أظهرهما : أنه متعلق بمحذوف ؛ على أنه حال من الضمير في ﴿ وَيُكَلِّمُ ﴾ أي : يكلمهم صَغِيراً ، و"كَهْلاً" على هذا نسق على هذه الحال المؤوَّلة فعلى هذا تكون خمسة أحوال .

والثاني : أنه ظرف لـ "يُكَلِّمُ" كسائر المنفصلات ، و"كَهلاً" على هذا نَسَق على "وَجِيهاً" فعلى هذا يكون خَمْسَةَ أَحْوَالٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 130 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَكَهْلاً ﴾

(92/118)

قال ابن عادل :

و"كَهْلاً" من قولهم : اكتهلت الدوحة ، إذا عَمَّهَا النُّوْرُ – والمرأة كهلة .

وقال الراغب : " والكهل : مَنْ وَخَطَه الشَّيْبُ ، واكتهل النباتُ : إذا شارف اليُبُوسَةَ مشارفةَ الكهل الشَّيْبَ " .

وأنشد قولَ الأعشى – في وَصْف رَوْضَةٍ بأكمل أحوالها – : [البسيط]

1468 – يُضَاحِكُ الشَّمْسَ مِنْهَا كَوْكَبٌ شَرِقٌ . . . مُؤزَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ

وقد تقدم الكلام في تنقُّل أحوالِ الولدِ من لدُنْ كونِهِ في البطن إلى شيخوخته ، عند ذِكْر " غلام " .

وقال بعضهم : " ما دامَ في بطن أمِّه ، فهو جنين ، فإذا وُلِدَ فوليد ، فإذا لم يستتمّ الأسبوع فصديغٌ ؛ وما دام يرضع فهو رضيع ، ثم هو فَطِيمٌ - عند الفِطَام - وإذا لم يرضع ؛ فجَحْوَش ، فإذا دبّ ونما : فدراج ، فإذا سقطت رواضِعهُ فثَغور ومثغور ، [فإذا نبتت أسنانهُ بعد السقوط بمُتَّغِر - بالتاء والثاء] ، فإذا جاوز العشر : فمترعرع ، وناشئ . فإذا رَاهَق الحُلم : فيافع ، ومُراهق . فإذا احتلم فحَزَوَّر . والغلام يُطْلَق عليه في جميع أحواله بعد الولادة ، فإذا اخضر شارُبه ، وسال عذاره : فباقِل ، فإذا صار ذا لِحْيَةٍ : ففتًى وشارخ ، فإذا اكتملت لحيته ؛ فمُجْتَمِع ، ثم هو من الثلاثين إلى الأربعين شابّ ، ومن الأربعين إلى ستين كهل " ، ولأهل اللغة عبارات مختلفة في ذلك ، وهذا أشهرها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 228 ﴾

قال القرطبى :

و﴿ المهد ﴾ مضجع الصبيّ في رضاعه .

ومهدت الأمر هيأته ووطّأته .

وفي التنزيل ﴿ فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : 44] .

وامتهد الشيء ارتفع كما يمتهد سنام البعير .

﴿ وَكَهْلاً ﴾ الكهل بين حال الغلومة وحال الشيخوخة .

وامرأة كهلة .

واكتهلت الروضة إذا عمها النَّوْر .

يقول : يكلم الناس في المهد آية ، ويكلمهم كهلاً بالوحي والرسالة .

وقال أبو العباس : كلمهم في المهد حين برّأ أمَّه فقال : ﴿ إِنِّي عَبْدُ الله ﴾ [مريم : 30] الآية .

وأما كلامه وهو كهل فإذا أنزله الله تعالى من السماء أنزله على صورة ابن ثلاثٍ وثلاثين سنة وهو الكهل فيقول لهم : ﴿ إني عبد الله ﴾ كما قال في المهد .

فهاتان آيتان وحجتان .

قال المهدوِي : وفائدة الآية أنه أعلمهم أن عيسى عليه السلام يكلمهم في المهد ويعيش إلى أن يكلمهم كهلاً ، إذ كانت العادة أن من تكلم في المهد لم يعش .

قال الزجاج : "وكهلاً" بمعنى ويكلم الناس كهلاً .

وقال الفَرّاء والأخفش : هو معطوف على "وجِيهاً" .

وقيل : المعنى ويكلم الناس صغيراً وكهلاً .

وروى ابن جُرَيج عن مجاهد قال : الكهل الحليم .

قال النحاس : هذا لا يُعرف في اللغة ، وإنما الكهل عند أهل اللغة من ناهز الأربعين .

وقال بعضهم : يقال له حَدَث إلى ستّ عشرة سنة .

ثم شابّ إلى اثنتين وثلاثين .

ثم يَكْتَهل في ثلاثٍ وثلاثين ؛ قاله الأخفش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 91.90 ﴾

أسئلة وأجوبة للإمام الفخر :

السؤال الأول : ما الكهل ؟ .

الجواب : الكهل في اللغة ما اجتمع قوته وكمل شبابه ، وهو مأخوذ من قول العرب اكتهل النبات إذا قوي وتم قال الأعشى :

يضاحك الشمس منها كوكب شرق . . مؤزر بجميم النبت مكتهل

أراد بالمكتهل المتناهي في الحسن والكمال .

السؤال الثاني : أن تكلمه حال كونه في المهد من المعجزات ، فأما تكلمه حال الكهولة فليس من المعجزات ، فما الفائدة في ذكره ؟ .

والجواب : من وجوه

الأول : أن المراد منه بيان كونه متقلباً في الأحوال من الصبا إلى الكهولة والتغير على الإله تعالى محال ، والمراد منه الرد على وفد نجران في قولهم : إن عيسى كان إلها

والثاني : المراد منه أن يكلم الناس مرة واحدة في المهد لإظهار طهارة أمه ، ثم عند الكهولة يتكلم بالوحي والنبوة

(94/118)

والثالث : قال أبو مسلم : معناه أنه يكلم حال كونه في المهد ، وحال كونه كهلاً على حد واحد وصفة واحدة وذلك لا شك أنه غاية في المعجز

الرابع : قال الأصم : المراد منه أنه يبلغ حال الكهولة .

السؤال الثالث : نقل أن عمر عيسى عليه السلام إلى أن رفع كان ثلاثاً وثلاثين سنة وستة أشهر ، وعلى هذا التقدير : فهو ما بلغ الكهولة .

والجواب : من وجهين

الأول : بينا أن الكهل في أصل اللغة عبارة عن الكامل التام ، وأكمل أحوال الإنسان إذا كان بين الثلاثين والأربعين ، فصح وصفه بكونه كهلاً في هذا الوقت

والثاني : هو قول الحسين بن الفضل البجلي : أن المراد بقوله ﴿ وَكَهْلاً ﴾ أن يكون كهلاً بعد

أن ينزل من السماء في آخر الزمان ، ويكلم الناس ، ويقتل الدجال ، قال الحسين بن الفضل : وفي هذه الآية نص في أنه عليه الصلاة والسلام سينزل إلى الأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 45.46 ﴾

وقال السمرقندى :

فإن قيل : ما معنى قوله كهلاً ؟ والكلام من الكهل لا يكون عجباً .

قيل له : المراد منه كلام الحكمة والعبرة .

ويقال : كهلاً بعد نزوله من السماء ، وهو قول الكلبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 238 ﴾

وقال الماوردى :

فيه قولان :

أحدها : أنه يكلمهم كهلاً بالوحي الذي يأتيه من الله تعالى .

والثاني : أنه يتكلم صغيراً في المهد كلام الكهل في السنّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 394 ﴾

فصل

قال الفخر :

أنكرت النصارى كلام المسيح عليه السلام في المهد ، واحتجوا على صحة قولهم بأن كلامه في المهد من أعجب الأمور وأغربها ، ولا شك أن هذه الواقعة لو وقعت لوجب أن يكون وقوعها في حضور الجمع العظيم الذي يحصل القطع واليقين بقولهم ، لأن تخصيص مثل هذا المعجز بالواحد والاثنين لا يجوز ، ومتى حدثت الواقعة العجيبة جداً عند حضور الجمع العظيم فلا بد وأن تتوفر الدواعي على النقل فيصير ذلك بالغاً حد التواتر ، وإخفاء ما يكون بالغاً إلى حد التواتر ممتنع ، وأيضاً فلو كان ذلك لكان ذلك الإخفاء ههنا ممتنعاً لأن النصارى بالغوا في إفراط محبته إلى حيث قالوا إنه كان إلها ، ومن كان كذلك يمتنع أن يسعى في إخفاء مناقبه وفضائله بل ربما يجعل الواحد ألفاً فثبت أن لو كانت هذه الواقعة موجودة لكان أولى الناس بمعرفتها النصارى ، ولما أطبقوا على إنكارها علمنا أنه ما كان موجوداً ألبتة .

أجاب المتكلمون عن هذه الشبهة ، وقالوا : إن كلام عيسى عليه السلام في المهد إنما كان للدلالة على براءة حال مريم عليها السلام من الفاحشة ، وكان الحاضرون جمعاً قليلين ، فالسامعون لذلك الكلام ، كان جمعاً قليلاً ، ولا يبعد في مثله التواطؤ على الإخفاء ، وبتقدير : أن يذكروا ذلك إلا أن اليهود كانوا يكذبونهم في ذلك وينسبونهم إلى البهت ، فهم

أيضاً قد سكتوا لهذه العلة فلأجل هذه الأسباب بقي الأمر مكتوماً مخفياً إلى أن أخبر الله سبحانه وتعالى محمداً صلى الله عليه وسلم بذلك ، وأيضاً فليس كل النصارى ينكرون ذلك ، فإنه نقل عن جعفر بن أبي طالب : لما قرأ على النجاشي سورة مريم ، قال النجاشي : لا تفاوت بين واقعة عيسى ، وبين المذكور في هذا الكلام بذرة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 46. 47 ﴾

فصل

قال القرطبى :

ذكر أبو بكر بن أبي شيبة حدّثنا عبد الله بن إدريس عن حُصين عن هلال بن يسَاف .

قال : لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى وصاحب يوسف وصاحب جريج ، كذا قال : "وصاحب يوسف" .

وهو في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لم يتكلم في المهد إلاَّ ثلاثة عيسى ابن مريم وصاحب جُريج وصاحب الجَبَّار وبيْنا صبيّ يرضع من أمّه " وذكر الحديث بطوله .

وقد جاء من حديث صُهيب في قصة الأخدود .

"أن امرأة جِيء لها لتلقى في النار على إيمانها ومعها صبيّ" .

في غير كتاب مسلم "يرضع فتقاعست أن تقع فيها فقال الغلام يا أمَّه اصبري فإنك على الحق" .

وقال الضحاك : تكلم في المهد ستة : شاهد يوسف وصبيّ ماشِطة امرأة فرعون وعيسى ويحيى وصاحب جُريج وصاحب الجَبّار .

ولم يذكر الأخدود ، فأسقط صاحب الأُخدود وبه يكون المتكلمون سبعة .

ولا معارضة بين هذا وبين قوله عليه السَّلام .

" لم يتكلم في المهد إلاَّ ثلاثة " بالحصر فإنه أخبر بما كان في علمه مما أوحى إليه في تلك الحال ، ثم بعد هذا أعلمه الله تعالى بما شاء من ذلك فأخبر به .

قلت : أما صاحب يوسف فيأتي الكلام فيه ، وأما صاحب جُريج وصاحب الجَبّار وصاحب الأُخدودِ ففي "صحيح مسلم" .

وستأتي قصة الأخدود في سورة "البروج" إن شاء الله تعالى .

وأما صبيّ ماشطةِ (امرأة) فرعون ، فذكر البيهقيّ عن ابن عباس قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لما أُسِري بي سِرْت في رائحة طيبة فقلت ما هذه الرائحة قالوا ماشطة ابنة فرعون وأولادها سقط مشطها من يديها فقالت : بسم الله فقالت ابنة فرعون : أبي ؟

قالت : ربّي وربُّكِ وربُّ أبيك قالت أوَلكِ ربّ غير أبي ؟ قالت : نعم ربّي وربّكِ ورب أبيك اللَّهُ قال فدعاها فرعون فقال : ألكِ ربّ غيري ؟ قالت : نعم ربّي وربّكَ الله قال فأمر بنُقرة من نُحاس فأحميت ثم أمر بها لتلقى فيها قالت : إن لي إليك حاجةً قال : ما هي ؟ قالت : تجمع عظامي وعظامَ ولدي في موضع واحد قال : ذاك لكِ لما لكِ علينا من الحق .

(97/118)

فأمر بهم فألقوا واحداً بعد واحد حتى بلغ رضيعاً فيهم فقال قَعِي يا أمّه ولا تقاعسِي فإنا على الحق " قال وتكلم أربعة وهم صغار : هذا وشاهد يوسف وصاحب جُريج وعيسى ابن مريم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 92.91 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الصالحين ﴾

سؤال : فإن قيل : كون عيسى كلمة من الله تعالى ، وكونه ﴿ وَجِيهًا فِي الدنيا والآخرة ﴾ وكونه من المقربين عند الله تعالى ، وكونه مكلماً للناس في المهد ، وفي الكهولة كل واحد من هذه الصفات أعظم وأشرف من كونه صالحاً فلم ختم الله تعالى أوصاف عيسى بقوله ﴿ وَمِنَ الصالحين ﴾ ؟ .

قلنا : إنه لا رتبة أعظم من كون المرء صالحاً لأنه لا يكون كذلك إلا ويكون في جميع الأفعال

والتروك مواظباً على النهج الأصلح ، والطريق الأكمل ، ومعلوم أن ذلك يتناول جميع المقامات في الدنيا والدين في أفعال القلوب ، وفي أفعال الجوارح ، فلما ذكر الله تعالى بعض التفاصيل أردفه بهذا الكلام الذي يدل على أرفع الدرجات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 47 ﴾

وقال الطبرى :

وأما قوله : "ومن الصالحين" ، فإنه يعني : من عِدَادهم وأوليائهم ، لأنّ أهل الصلاح بعضهم من بعض في الدين والفضل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 419 ﴾

(98/118)

من فوائد الآلوسى فى الآية

﴿ وَيُكَلّمُ الناس فِى المهد وَكَهْلاً ﴾ عطف على الحال الأولى أيضاً وعطف الفعل على الاسم لتأويله به سائغ شائع وهو في القرآن كثير والظرف حال من الضمير المستكن في الفعل ولم يجعل ظرفاً لغواً متعلقاً به مع صحته لعطف ﴿ وَكَهْلاً ﴾ عليه ، والمراد يكلمهم حال كونه طفلاً وكهلاً ، والمقصود التسوية بين الكلام في حال الطفولية وحال الكهولة ، وإلا فالكلام في الثاني ليس مما يختص به عليه السلام وليس فيه غرابة ، وعلى هذا فالمجموع حال

لا كل على الاستقلال ، وقيل : إن كلاًّ منهما حال ، والثاني : تبشير ببلوغ سن الكهولة وتحديد لعمره ، والمهد مقر الصبي في رضاعه وأصله مصدر سمي به وكان كلامه في المهد ساعة واحدة بما قص الله تعالى لنا ، ثم لم يتكلم حتى بلغ أوان الكلام قاله ابن عباس ، وقيل : كان يتكلم دائماً وكان كلامه فيه تأسيساً لنبوته وإرهاصاً لها على ما ذهب إليه ابن الأخشيد وعليه يكون قوله : ﴿ وَجَعَلَنِى نَبِيّاً ﴾ [مريم : 30] إخباراً عما يؤول إليه ، وقال الجبائي : إنه سبحانه أكمل عقله عليه السلام إذ ذاك وأوحى إليه بما تكلم به مقروناً بالنبوة ، وجوز أيضاً أن يكون ذلك كرامة لمريم دالة على طهارتها وبراءة ساحتها مما نسبه أهل الإفك إليها ، والقول : بأنه معجزة لها بعيد وإن قلنا بنبوتها وزعمت النصارى أنه عليه السلام لم يتكلم في المهد ولم ينطق ببراءة أمه صغيراً بل أقام ثلاثين سنة واليهود تقذف أمه بيوسف النجار وهذا من أكبر فضائحهم الصادحة برد ما هم عليه من دعوى الألوهية له عليه السلام وكذا تنقله في الأطوار المختلفة المتنافية لأن من هذا شأنه بمعزل عن الألوهية ، واعترضوا بأن كلامه في المهد من أعجب الأمور فلو كان لنقل ولو نقل لكان النصارى أولى الناس بمعرفته ، وأجيب بأن الحاضرين إذ ذاك لم يبلغوا مبلغ التواتر ، ولما نقلوا كذبوا فسكتوا ، وبقي الأمر مكتوماً إلى أن نطق القرآن به ، وهذا قريب على قول ابن عباس :

إنه لم يتكلم إلا ساعة من نهار وعلى القول الآخر وهو أنه بقي يتكلم يقال : إن الناس اشتغلوا بعد بنقل ما هو أعجب من ذلك من أحواله كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار عن الغيوب والخلق من الطين كهيئة الطير حتى لم يذكر التكلم منهم إلا النزر ولا زال الأمر بقلة حتى لم يبق مخبر عن ذلك وبقي مكتوماً إلى أن أظهره القرآن .

وبعد هذا كله لك أن تقول لا نسلم إجماع النصارى على عدم تكلمه في المهد ، وظاهر الأخبار ، وقد تقدم بعضها يشير إلى أن بعضهم قائل بذلك ، وبفرض إجماعهم نهاية ما يلزم الاستبعاد وهو بعد إخبار الصادق لا يسمن ولا يغني من جوع عند من رسخ إيمانه .

وقوي إيقانه ، وكم أجمع أهل الكتابين على أشياء نطق القرآن الحق بخلافها والحق أحق بالاتباع ، ولعل مرامهم من ذلك أن يطفئوا نور الله بأفواههم ﴿ ويأبى الله إِلآَّ أَن يُتِمَّ نورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ [التوبة : 32] والكهل ما بين الشاب والشيخ ، ومنه اكتهل النبت إذا طال وقوي ، وقد ذكر غير واحد أن ابن آدم ما دام في الرحم فهو جنين ، فإذا ولد فهو وليد ؛ ثم ما دام يرضع فهو رضيع ، ثم إذا قطع اللبن فهو فطيم ، ثم إذا دب ونما فهو دارج ، فإذا بلغ

خمسة أشبار فهو خماسي ، فإذا سقطت رواضعه فهو مثغور ، فإذا نبتت أسنانه فهو متغر بالتاء والثاء كما قال أبو عمرو فإذا قارب عشر سنين أو جاوزها فهو مترعرع وناشىء ؛ فإذا كان يبلغ الحلم أو بلغه فهو يافع ومراهق ، فإذا احتلم واجتمعت قوته فهو حزور ، واسمه في جميع هذه الأحوال غلام فإذا اخضر شاربه وأخذ عذاره يسيل قيل : قد بقل وجهه ، فإذا صار ذا فتاء فهو فتى وشارخ ، فإذا اجتمعت لحيته وبلغ غاية شبابه فهو مجتمع ، ثم ما دام بين الثلاثين والأربعين فهو شاب ، ثم كهل إلى أن يستوفي الستين . ويقال لمن لاحت فيه أمارات الكبر وخطه الشيب ، ثم يقال شاب ، ثم شمط ، ثم شاخ ، ثم كبر ، ثم هرم ، ثم دلف ، ثم خرف ، ثم اهتر ، ومحاظله إذا مات وهذا الترتيب إنما هو في الذكور وأما في الإناث فيقال للأنثى ما دامت صغيرة : طفلة ، ثم وليدة إذا تحركت ، ثم كاعب إذا كعب ثديها ثم ناهد ، ثم معصر إذا أدركت ، ثم عانس إذا ارتفعت عن حد الإعصار ، ثم خود إذا توسطت الشباب ، ثم مسلف إذا جاوزت الأربعين ، ثم نصف إذا كانت بين الشباب والتعجيز ، ثم شهلة كهلة إذا وجدت من الكبر وفيها بقية وجلد ثم شهربة إذا عجزت وفيها تماسك ثم حيزبون إذا صارت عالية السن ناقصة العقل ، ثم قلعم ولطلط إذا انحنى قدّها وسقطت أسنانها .

وعلى ما ذكر في سن الكهولة يراد بتكليمه عليه السلام كهلاً تكليمه لهم كذلك بعد نزوله من السماء وبلوغه ذلك السن بناءاً على ما ذهب إليه سعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وغيرهما "أنه عليه السلام رفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وأنه سينزل إلى الأرض ويبقى حياً فيها أربعاً وعشرين سنة" كما رواه ابن جرير بسند صحيح عن كعب الأحبار ، ويؤيد هذا ما أخرجه ابن جرير عن ابن زيد في الآية قال : قد كلمهم عيسى في المهد وسيكلمهم إذا قتل الدجال وهو يومئذٍ كهل ﴿ وَمِنَ الصالحين ﴾ أي ومعدوداً في عدادهم وهو معطوف على الأحوال السابقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 164.163 ﴾

(102/118)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

الكلام : معناه اللفظ الذي ينقل فكر الناطق إلى السامع ، وقول الحق : ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي

الْمَهْدِ ﴾ ، معناه أن المواجه لعيسى عليه السلام في المهد هم الناس و " المهد " هو ما أعد كفراش للوليد . ولقد أورد الحق ﴿ الْمَهْدِ وَكَهْلاً ﴾ رمزية لشئ ، وهي أن عيسى ابن مريم من الأغيار ، يطرأ عليه مرة أن يكون في المهد ، ويطرأ عليه مرة أخرى أن يكون كهلا ، وما دام في عالم الأغيار فلا يصح أن يفتتن به أحد ليقول إنه " إله " أو " ابن إله " .

ونفهم أيضا من ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ ﴾ سر وجود آية المعجزة التي وهبها له الله وهو طفل في المهد . لأن المسألة تعلقت بعرض أمه وكرامتها وعفتها ، فكان من الواجب أن تأتي آية لتمحو عجبا من الناس حين يرونها تلد بدون أب لهذا الوليد أو زواج لها . وهذه المسألة لم نجد لها وجودا . مع أنها مسألة كان يجب أن تقال لأنهم يمجدون نبيهم ، وكان من الواجب ألا يغفلوا عن هذه العجيبة ، إن كلام طفل في المهد لما كان أمرا عجيبا كان لا بد أنّه سيكون محل حفظ وتداول بين الناس ، ولن يكتفي الناس برواية واقعة كلامه في المهد فقط ، بل سيحفظون ما قاله ، ويرددون قوله .

والكلمة التي قالها عيسى عليه السلام في المهد لا تسعف من يصف عيسى عليه السلام بوصف يناقض بشريته ؛ لأن الكلمة التي نطق بها أول ما نطق : إني عبد الله ، فأخفوا هم هذه المسألة كلها لأن هذه الكلمة تنقض القضية التي يريدون أن يضعوا فيها عيسى عليه السلام ، إن الحق يقول : ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً ﴾ .

ونعرف أن الكلام في المهد أي وهو طفل و "كهلا" أي بعد الثلاثين من العمر, أي في العقد الرابع. والبعض قد قال: إن الكهولة.. بعد الأربعين من العمر. وهو قد حدثت له في روايتهم حكاية الصلب قبل أن يكون كهلا، فإذا كان قد تكلم في المهد فيبقى أن يتكلم وهو كهل، وقالوا إن حادثة الصلب أو عدم الصلب، أو الاختفاء عن حس البشر قد حدثت قبل أن يكون كهلا، إذن فلا بد أن يأتي وقت يتكلم فيه عيسى بن مريم عندما يصير كهلا، وأيضاً قوله الحق: ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً ﴾ أي انه تكلم في المهد طفلاً ويتكلم كهلا أي ناضج التكوين، وبذلك نعرف أن عيسى بن مريم فيه أغيار وفيه أحوال، فإذا كنتم تقولون إنه إله فهل الألوهية في المهد هي الألوهية في الكهولة؟

إن كانت الألوهية في المهد فقط فهي ناقصة لأنه لم يستمر في المهد، وحدثت له أغيار، وما دام قد حدثت له أغيار فهو محدث، وما دام محدثا فلا يكون إلها، وبعد ذلك يقول الحق عن عيسى ابن مريم: ﴿ وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ما حكايتها؟

إن العجيبة التي قال عنها الله: إنه يكلم الناس في المهد لم تكن باختياره، وكلامه وهو كهل سيكون بالوحي، أي ليس له اختيار فيه أيضا، ﴿ وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ مقصود بها عمله، أي الحركة السلوكية.

لماذا؟ لأنه لا يكفي أن يكون مبلغا، ولا يكفي أن يكون حامل آية، بل لا بد أن يؤدي

السلوك الإيماني .

ويقول الحق على لسان مريم البتول : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1467 . 1468 ﴾

(104/118)

قوله تعالى ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (47) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانت رتبة الصلاح في غاية العظمة قال مشيراً إلى علو مقدارها : ﴿ ومن الصالحين ﴾ ومعلماً بأنها محيطة بأمره ، شاملة لآخر عمره ، كما كانت مقارنة لأوله ، وكأنها لما سمعت ذلك امتلأت تعجباً فاستخفها ذلك إلى الاستعجال بالسؤال قبل إكمال المقال بأن ﴿ قالت رب ﴾ أيها المحسن إلى ﴿ أنّى ﴾ أي من أين وكيف ﴿ يكون لي ﴾ ولما كان استبعادها لمطلق الحبل ، لا بقيد كونه ذكراً كما في قصة زكريا عليه السلام قالت ﴿ ولد ﴾ وقالت : ﴿ ولم يمسسني بشر ﴾ لفهمها ذلك من نسبته إليها فقط .

قال الحرالي : والبشر هو اسم المشهود من الآدمي في جملته بمنزلة الوجه في أعلى قامته ، من معنى البشرة ، وهو ظاهر لا جلد انتهى (ولعل هذا الكلام خطر لها ولم تلفظ به فعلم الملك عليه السلام أنه شغل فكرها فأجابها عنه لتفريغ الفهم بأن ﴿ قال كذلك ﴾ أي مثل هذا الفعل العظيم الشأن العالم الرتبة يكون ما بشرتك به) ولما كان استبعادها لمطلق التكوين من غير سبب أصلاً عبر في تعليل ذلك بالخلق فقال : ﴿ الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا اعتراض عليه ﴿ يخلق ﴾ أي يقدر ويصنع ويخترع ﴿ ما يشاء ﴾ فعبر بالخلق إشارة إلى أن العجب فيه لا في مطلق الفعل كما في يحيى عليه السلام من جعل الشيخ كالشاب ، ثم علل ذلك بما بين سهولته فقال : ﴿ إذا قضى أمراً ﴾ أي جل أو قل ﴿ فإنما يقول له كن فيكون ﴾ بياناً للكلمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 90 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال المفسرون : إنها إنما قالت ذلك لأن التبشير به يقتضي التعجب مما وقع على خلاف العادة وقد قررنا مثله في قصة زكريا عليه السلام ، وقوله ﴿ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن

فَيَكُونُ ﴾ تقدم تفسيره في سورة البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 47 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رَبِّ ﴾ أي يا سَيّدي . (1)

تخاطب جبريل عليه السَّلام ؛ لأنه لما تمثل لها قال لها : إنما أنا رسولُ ربِّك ليَهب لكِ غلاماً زكياً .

فلما سمعت ذلك من قوله استفهمت عن طريق الولد فقالت : أَنَّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ؟ أي بنكاح .

(في سورتها) ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ [مريم : 20] ذكرت هذا تأكيداً ؛ لأن قولها ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ يشمل الحرام والحلال .

تقول : العادة الجارية التي أجراها الله في خلقه أن الولد لا يكون إلاَّ عن نكاح أو سِفاح .

وقيل : ما استبعدت من قدرة الله تعالى شيئاً ، ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد : أمِن قِبل زوج في المستقبل أم يخلقه الله ابتداء ؟ فرُوي أن جبريل عليه السَّلام حين قال لها : ﴿ كَذَلِكَ الله يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ ﴿ قَالَ كَذلك قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم : 21] .

نفخ في جَيب درعها وكُمّها ؛ قاله ابن جُريج .

---

(1) قول فى غاية البعد وعدول عن الظاهر بغير دليل والأصل أن كلمة ربى لا تطلق على

غير الله إلا مع وجود القرينة وهى مفقودة هنا ويؤخذ على الإمام القرطبى . رحمه الله . أنه اقتصر على ذكر هذا الوجه فقط كأنه اختاره ورجحه بينما ذكر غيره الوجهين والفريق الثالث قال : إن المراد من قولها ﴿ قالت رب ﴾ رب العالمين

وهذا الكلام شبيه بكلام بعض المفسرين الذين قالوا أن المراد بكلمة ﴿ ربى ﴾ فى قوله تعالى فى سورة يوسف ﴿ إنه ربى أحسن مثواى ﴾ المراد به العزيز وسيأتى الرد على ذلك فى موضعه إن شاء الله .

ورحم الله الإمام الزمخشرى فقد قال فى هذا الموضع : ومن بدع التفاسير أن قولها : رب نداء لجبريل عليه السلام بمعنى يا سيدي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشاف حـ 1 صـ 364 ﴾

(106/118)

قال ابن عباس : أخذ جبريل رُدْن قميصها بأصبعه فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى .

وقيل غير ذلك على ما يأتي بيانه في سورتها إن شاء الله تعالى .

وقال بعضهم : وقع نفخ جبريل في رحمها فعلِقت بذلك .

وقال بعضهم : لا يجوز أن يكون الخلق من نفخ جبريل لأنه يصير الولد بعضه من الملائكة وبعضه من الإنس ، ولكن سبب ذلك أن الله تعالى لما خلق آدم وأخذ الميثاق من ذُرِّيته فجعل بعض الماء في أصلاب الآباء وبعضه في أرحام الأمّهات فإذا اجتمع الماءان صارا ولداً ، وأن الله تعالى جعل الماءين جميعاً في مريم بعضه في رِحمها وبعضه في صُلبها ، فنفخ فيه جبريل لتهيج شهوتها ؛ لأن المرأة ما لم تَهِج شهوتها لا تحبل ، فلما هاجت شهوتها بنفخ جبريل وقع الماء الذي كان في صُلبها في رَحِمها فاختلط الماءان فعلِقت بذلك ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ إِذَا قضى أَمْراً ﴾ يعني إذا أراد أن يخلق خلقاً ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . وقد تقدّم في "البقرة" القول فيه مستوفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 93.92 ﴾

(107/118)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَتْ ﴾ استئناف مبني على السؤال كأنه قيل : فماذا كان منها حين قالت لها الملائكة ذلك ؟ فقيل : ﴿ قَالَتْ رَبّ أنى يَكُونُ لِى وَلَدٌ ﴾ يحتمل أن يكون الاستفهام مجازياً والمراد التعجب من ذلك والاستبعاد العادي ، ويحتمل أن يكون حقيقياً على معنى أنه يكون بتزوج

أو غيره ، وقيل : يحتمل أن يكون استفهاماً عن أنه من أي شخص يكون ، وإعراب هذه الجملة على نحو إعراب الجملة السابقة في قصة زكريا عليه السلام ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ جملة حالية محققة لما مر ومقوية له ، والمسيس هنا كناية عن الوطء وهذا نفي عام للتزوج وغيره ، والبشر يطلق على الواحد والجمع ، والتنكير للعموم ، والمراد عموم النفي لا نفي العموم ، وسمي بشراً لظهور بشرته أو لأن الله تعالى باشر أباه وخلقه بيديه .

﴿ قَالَ ﴾ استئناف كسابقه ، والفاعل ضمير الرب والملك حكى لها المقول وهو قوله سبحانه : ﴿ كذلك الله يَخْلُقُ ﴾ إما بلا تغيير فيكون فيه التفات ، وإما بتغيير ، وقيل : إن الله تعالى قال لها ذلك بلا واسطة ملك ، والأول : مبني على أنه تعالى لم يكلم غير الأنبياء بل غير خاصتهم عليهم الصلاة والسلام ، وقيل : القائل جبريل عليه السلام وليس على سبيل الحكاية والقرينة عليه ذكر الملائكة عليهم السلام قبله ، وحمل ﴿ قَالَتْ رَبّ ﴾ فيما تقدم على ذلك أبعد بعيد ، وقد مر عليك الكلام في مثل هذه الجملة خلا أن التعبير هنا بيخلق وهناك بيفعل لاختلاف القصتين في الغرابة فإن الثانية : أغرب فالخلق المنبىء عن الاختراع أنسب بها ولهذا عقبه ببيان كيفيته فقال سبحانه : ﴿ إِذَا قَضَى أَمْرًا ﴾ أي أراد شيئاً فالأمر واحد الأمور ، والقضاء في الأصل الأحكام ، وأطلق على الإرادة الإلهية القطعية المتعلقة بإيجاد المعدوم وإعدام الموجود وسميت بذلك لإيجابها ما تعلقت به ألبتة ويطلق على الأمر ، ومنه ﴿ وقضى رَبُّكَ ﴾ [الإسراء : 23] .

﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أي فهو يكون أي يحدث وهذا عند الأكثرين تمثيل لتأثير قدرته في مراده بأمر المطاع للمطيع في حصول المأمور من غير امتناع ، وتوقف وافتقار إلى مزاولة عمل واستعمال آلة ، فالممثل الشيء المكون بسرعة من غير عمل وآلة ، والممثل به أمر الآمر المطاع لمأمور به مطيع على الفور ، وهذا اللفظ مستعار لذلك منه . وأنت تعلم أنه يجوز فيه أن يكون حقيقة بأن يراد تعلق الكلام النفسي بالشيء الحادث على أن كيفية الخلق على هذا الوجه ، وعلى كلا التقديرين المراد من هذا الجواب بيان أن الله تعالى لا يعجزه أن يخلق ولداً بلا أب لأنه أمر ممكن في نفسه فيصح أن يكون متعلق الإرادة والقدرة كيف لا وكثيراً ما نشاهد حدوث كثير من الحيوانات على سبيل التولد كحدوث الفأر عن المدر والحيات عن الشعر المتعفن والعقارب عن البادورج والذباب عن الباقلاء إلى غير ذلك غايته الاستبعاد ، وهو لا يوجب ظناً فضلاً عن علم ، وبعد إخبار الصادق عن وجود ذلك الممكن يجب القطع بصحته ، والقول : بأن المادة فيما عد ونحوه موجودة وبعد وجودها لا ريب في الإمكان دون ما نحن فيه لأن مادة الآدمي منيان وليس هناك إلا مني واحد أو لا مني أصلاً فكيف يمكن الخلق ليس بشيء ، أما على مذهبنا فلأن الإيجاد لا

يتوقف على سبق المادة وإلا لتسلسل الأمر ، وأما على مذهب المنكرين فيجوز أن يكون مني الأنثى بنفسه أو بما ينضم إليه مما لا يعلمه إلا الله تعالى بحالة يصلح أن يكون مادة ، وقصارى ما يلزم من ذلك الاستبعاد وهو لا يجدي نفعاً في أمثال هذه المقامات ، ويجوز أيضاً أن يقيم الله تعالى غير المني مقام المني ، وأي محال يلزم من ذلك ألا ترى كيف أقيم التراب مقام المني في أصل النوع ودعوى أن الإقامة مشروطة بكون ذلك الغير خارج الرحم ، وأما الإقامة في الرحم فمما لا إمكان لها غير بينة ولا مبينة بل العقل لا يفرق بين الأمرين في الإمكان وإنما يفرق بينهما في

موافقة العادة وعدمها وهو أمر وراء ما نحن فيه .

ومن الناس من بين هذا المطلب بأن التخيلات الذهنية كثيراً ما تكون أسباباً لحدوث الحوادث كتصور حضور المنافي للغضب وكتصور السقوط بحصول السقوط للماشي على جذع ممدود فوق فضاء بخلافه لو كان على قرار من الأرض وقد جعلت الفلاسفة هذا كالأصل في بيان جواز المعجزات والكرامات فما المانع أن يقال : إنها لما تخيلت صورة جبريل كفى ذلك في علوق الولد في رحمها لأن مني الرجل ليس إلا لأجل العقد فإذا حصل

الانعقاد لمني المرأة بوجه آخر أمكن علوق الولد النتهى . وليس بشيء لأنه يعود بالنقص لحضرة البتول وأنها لتنزه ساحتها عن مثل هذا التخيل كما لا يخفى ، وفي جواب هذه الطاهرة ليوسف النجار ما يؤيد ما قلناه ، فقد أخرج إسحق بن بشر وابن عساكر عن وهب أنه قال : لما استقر حمل مريم وبشرها جبريل وثقت بكرامة الله تعالى واطمأنت وطابت نفساً ، وأول من اطلع على حملها ابن خال لها يقال له يوسف ، واهتم لذلك وأحزنه وخشي البلية منه لأنه كان يخدمها فلما رأى تغير لونها وكبر بطنها عظم عليه ذلك فقال معرضاً لها : هل يكون زرع من غير بذر ؟ ا قالت : نعم قال : وكيف يكون ذلك قالت : إن الله تعالى خلق البذر الأول من غير نبات وأنبت الزرع الأول من غير بذر ، ولعلك تقول : لم يقدر أن يخلق الزرع الأول إلا بالبذر ؟ ولعلك تقول : لولا أن استعان الله تعالى عليه بالبذر لغلبه حتى لا يقدر على أن يخلقه ولا ينبته ؟ قال يوسف : أعوذ بالله أن أقول ذلك قد صدقت وقلت بالنور والحكم ، وكما قدر أن يخلق الزرع الأول وينبته من غير بذر يقدر أن يجعل زرعاً من غير بذر فأخبريني هل ينبت الشجر من غير ماء ولا مطر ؟ قالت : ألم تعلم أن للبذر والماء والمطر والشجر خالقاً واحداً فلعلك تقول : لولا الماء والمطر لم يقدر على أن ينبت الشجر ؟ قال أعوذ بالله تعالى أن أقول ذلك قد صدقت فأخبريني خبرك قالت : بشرني الله تعالى بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم إلى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الصالحين

﴾ [آل عمران : 46] فعلم يوسف أن ذلك أمر من الله تعالى لسبب خير أراده بمريم فسكت عنها فلم تزل على ذلك حتى ضربها الطلق فنوديت أن اخرجي من المحراب فخرجت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 164.166 ﴾

وقال ابن عاشور :

قوله : ﴿ قالت رب ﴾ جملة معترضة ، من كلامها ، بين كلام الملائكة .

والنداء للتحسر وليس للخطاب : لأنّ الذي كلمها هو الملك ، وهي قد توجهت إلى الله .

والاستفهام في قولها ﴿ أنى يكون لي ولد ﴾ للإنكار والتعجّب ولذلك أجيب جوابين أحدهما كذلك الله يخلق ما يشاء فهو لرفع إنكارها ، والثاني إذا قضى أمراً إلخ لرفع تعجّبها .

وجملة ﴿ قال كذلك الله يخلق ﴾ إلخ جواب استفهامها ولم تعطف لأنّها جاءت على طريقة المحاورات كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ قالوا أتجعل فيها ومابعدها ﴾ في سورة البقرة (30) والقائل لها هو الله تعالى بطريق الوحي .

واسم الإشارة في قوله : كذلك ﴾ راجع إلى معنى المذكور في قوله : ﴿ إن الله يبشرك

بكلمة منه إلى قوله وكهلا ﴾ [آل عمران : 45 ، 46] أي مثل ذلك الخلق المذكور يخلق الله ما يشاء .

وتقديم اسم الجلالة على الفعل في قوله : ﴿ الله يخلق ﴾ لإفادة تقوى الحكم وتحقيق الخبر .

وعبر عن تكوين الله لعيسى بفعل يَخْلق : لأنّه إيجاد كائن من غير الأسباب المعتادة لإيجاد مثله ، فهو خلْق أُنُفٌ غيرُ ناشىء عن أسباب إيجاد الناس ، فكان لفعل يخلُق هنا موقعٌ متعين ، فإنّ الصانع إذا صنع شيئاً من موادّ معتادة وصنعة معتادة ، لا يقول خلَقْت وإنما يقول صَنَعت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 99 ﴾

(111/118)

وقال الطبرى فى معنى الآية :

يعني بذلك جل ثناؤه ، قالت مريم إذ قالت لها الملائكة أنّ الله يبشرك بكلمة منه : "ربِّ أَنَّى يكون لي ولد" ، من أيِّ وجه يكون لي ولد ؟ أمِن قبل زوج أتزوجه وبعل أنكحه ، أمْ تبتدئ فيَّ خلقه من غير بعل ولا فحل ، ومن غير أن يمسَّني بشر ؟ فقال الله لها "كذلك الله يخلق ما يشاء" ، يعني : هكذا يخلق الله منك ولدًا لك من غير أن يمسّك بشر ، فيجعله آيةً للناس

وعبرة ، فإنه يخلق ما يشاء ويصنعُ ما يريد ، فيعطي الولد من يشاء من غير فحل ومن فحلٍ ، ويحرِمُ ذلك من يشاءُ من النساء وإن كانت ذات بعلٍ ، لأنه لا يتعذر عليه خلق شيء أراد خلقه ، إنما هو أن يأمر إذا أراد شيئًا ما أراد [خلقه] فيقول له : "كن فيكون" ما شاء ، مما يشاء ، وكيف شاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 420 . 421 ﴾

فائدة

قال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قالت رب أنّى يكون لي ولد ﴾ في علة قولها هذا قولان .

أحدهما : أنها قالت هذا تعجباً واستفهاماً ، لا شكاً وإنكاراً ، على ما أشرنا إليه في قصة زكريا ، وعلى هذا الجمهور ، والثاني : أن الذي خاطبها كان جبريل ، وكانت تظنه آدميا يريد بها سوءاً ، ولهذا قالت : ﴿ أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ [مريم : 18] .

فلما بشرها لم تتيقن صحة قوله ، لأنها لم تعلم أنه ملك ، فلذلك قالت : ﴿ أنى يكون لي ولد ﴾ قاله ابن الأنباري .

قوله تعالى : ﴿ ولم يمسسني بشر ﴾ أي : ولم يقربني زوج .

والمس : الجماع ، قاله ابن فارس .

وسمي البشر بشراً ، لظهورهم ، والبشرة : ظاهر جلد الإنسان ، وأبشرت الأرض : أخرجت نباتها ، وبشرت الأديم : إذا قشرت وجهه ، وتباشير الصبح : أوائله .

قال : يعني جبريل : ﴿ كذلكِ اللهُ يخلق ما يشاء ﴾ أي : بسبب ، وبغير سبب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 390 ﴾

(112/118)

لطيفة

قال ابن عطية :

وجاءت العبارة في أمر زكريا يفعل وجاءت هنا ، ﴿ يخلق ﴾ من حيث أمر زكرياء داخل في الإمكان الذي يتعارف وإن قل وقصة مريم لا تتعارف البتة ، فلفظ الخلق أقرب إلى الاختراع وأدل عليه ، وروي أن عيسى عليه السلام ، ولد لثمانية أشهر (1) فلذلك لا يعيش من يولد من غيره لمثل ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 437 ﴾

وقال ابن كثير :

ولم يقل : "يفعل" كما في قصة زكريا ، بل نص هاهنا على أنه يخلق ؛ لئلا يبقى شبهة ، وأكد ذلك بقوله : ﴿ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أي : فلا يتأخر شيئًا ، بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر : 50] أي : إنما نأمر مرة واحدة لا مثنوية فيها ، فيكون ذلك الشيء سريعًا كلمح بالبصر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير جـ 2 صـ 44 ﴾

لطيفة

قال التسترى :

قوله : ﴿ كَذَلِكَ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [47] قال : إذا كان في علمه السابق الأزلي أمر فأراد إظهاره قال له كن فيكون ، قال القائل شعر : [من الطويل]

قضى قبلَ خلقِ ما هو خالقٌ . . . خلائقَ لا يَخفى عليه أمورُها

هواها ونجواها ومضمر قلبها . . . وقبل الهوى ماذا يكون ضميرُها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير السعدى صـ 76 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالَت رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ .

كما شاهدت ظهور أشياء ناقضة للعادة في رزقنا فكذلك ننقض العادة في خلق ولدٍ من غير مسيس بشر .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِذَا قَضَى أَمْرًا ﴾ .

أي أراد إمضاء حُكْم .

﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

فلا يتعسر عليه إبداء ولا إنشاء .

ولَمّا بسطوا فيها لسان الملامة أنطق الله عيسى عليه السلام وهو ابن يومٍ حتى قال :

﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 244 ﴾

---

(1) هذه الرواية تفتقر إلى سند صحيح . والله أعلم .

(113/118)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

قَوْلُهُ - تَعَالَى - : وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ : إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ

(114/118)

عِمْرَانَ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ قَبْلَهُ : وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ هَذَا الْخِطَابُ لَيْسَ بِشَرْعٍ خُصَّتْ بِهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ إِلْهَامٌ بِمَكَانَتِهَا عِنْدَ اللهِ رُبَّمَا يَجِبُ عَلَيْهَا مِنَ الشُّكْرِ بِدَوَامِ الْقُنُوتِ وَالصَّلَاةِ ، وَمَنِ اعْتَقَدَ أَنَّهُ مُكَرَّمٌ اجْتَهَدَ فِي الْمُحَافَظَةِ عَلَى كَرَامَتِهِ وَتَبَاعَدَ أَشَدَّ التَّبَاعُدِ عَنْ كُلِّ مَا يُنْقِصُ مِنْهَا ، فَقَوْلُ الْمَلَائِكَةِ لَهَا : إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ قَدْ زَادَهَا - بِمُقْتَضَى سُنَّةِ الْفِطْرَةِ - تَعَلُّقًا بِالْكَمَالِ كَمَا زَادَهَا رُوحَانِيَّةً بِتَأْثِيرِ تِلْكَ الْأَرْوَاحِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي أَمَدَّتْ رُوحَهَا الطَّاهِرَةَ ، وَالِاصْطِفَاءُ الْأَوَّلُ هُوَ قَبُولُهَا مُحَرَّرَةً لِخِدْمَةِ اللهِ فِي بَيْتِهِ وَكَانَ ذَلِكَ خَاصًّا بِالرِّجَالِ ، وَالتَّطْهِيرُ قَدْ فُسِّرَ بِعَدَمِ الْحَيْضِ ، وَبِذَلِكَ كَانَتْ أَهْلًا لِمُلَازَمَةِ الْمِحْرَابِ وَهُوَ أَشْرَفُ مَكَانٍ فِي الْمَعْبَدِ . وَرُوِيَ أَنَّ السَّيِّدَةَ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءَ مَا كَانَتْ تَحِيضُ وَأَنَّهَا لِذَلِكَ لُقِّبَتْ بِالزَّهْرَاءِ . وَقَالَ الْجَلَالُ : إِنَّهُ التَّطْهِيرُ مِنْ مَسِيسِ الرِّجَالِ ، وَاخْتَارَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ حَمْلَهُ عَلَى مَا هُوَ أَعَمُّ مِنْ هَذَا وَذَاكَ ، أَيْ طَهَّرَكِ مِمَّا يُسْتَقْبَحُ كَسَفْسَافِ الْأَخْلَاقِ وَذَمِيمِ الصِّفَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَالِاصْطِفَاءُ الثَّانِي مَا اخْتُصَّتْ بِهِ مِنْ خِطَابِ الْمَلَائِكَةِ وَكَمَالِ الْهِدَايَةِ . وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : هُوَ جَعْلُهَا تَلِدُ نَبِيًّا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمَسَّهَا رَجُلٌ ، فَهُوَ عَلَى هَذَا اصْطِفَاءٌ لَمْ يَكُنْ قَدْ تَحَقَّقَ

بالْفِعْلِ بَلْ بالْإعْدَادِ والتَّهْيِئَةِ . وبَحثُوا هُنَا في قَوْلِه : عَلَى نسَاءِ الْعَالَمِينَ هَلِ الْمُرَادُ بِهِ عَالَمُو زَمَانِهَا - كَمَا يُقَالُ أرسْطُو أَعْظَمُ الْفَلَاسِفَةِ ويُفْهَمُ مِنْهُ فَلَاسِفَةُ زَمَانِهِ أَوْ أُمَّتِه - أَمْ جَمِيعُ الْعَالَمِينَ . وفِي الْأَحَادِيثِ إنّ أَفْضَلَ النّسَاءِ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ وفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورَضِيَ عَنْهُنَّ - .

يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبّكِ أَيِ الزَمِي طَاعَتَهُ مَعَ الْخُضُوعِ لَهُ واسْجُدِي وارْكَعِي مَعَ الرّاكِعِينَ السُّجُودُ : التَّطَامُنُ والتَّذَلُّلُ . والرُّكُوعُ : الِانْحِنَاءُ ، ويُسْتَعْمَلُ في لَازِمِه وسَبَبِه ، وهُوَ التَّوَاضُعُ والْخُشُوعُ في الْعِبَادَةِ أَوْ غَيْرِهَا ، ورُكُوعُهَا مَعَ الرّاكِعِينَ عِبَارَةٌ عَنْ صَلَاتِهَا مَعَ الْمُصَلّينَ في الْمَعْبَدِ وقَدْ كَانَتْ مُلَازِمَةً لِمِحْرَابِه كَمَا تَقَدّمَ . وَقَدْ أُطْلِقَ الرُّكُوعُ والسُّجُودُ في صَلَاتِنَا عَلَى الْعَمَلِ الْمَعْلُومِ وهُوَ اسْتِعْمَالٌ لِلَّفْظِ في حَقِيقَتِه ومَجَازِه إذِ الدّينُ يُطَالِبُنَا بالْخُشُوعِ واسْتِشْعَارِ التَّوَاضُعِ في هَذَا الِانْحِنَاءِ والتَّطَامُنِ ، ولَمْ تَكُنْ صَلَاةُ الْيَهُودِ كَصَلَاتِنَا في أَعْمَالِهَا وصُورَتِهَا ، ولَكِنَّهُمْ طُولِبُوا فِيهَا بِمِثْلِ مَا طُولِبْنَا مِنَ الْخُشُوعِ والتَّذَلُّلِ لِلّه - تَعَالَى - .

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ذَلِكَ الَّذِي قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ أَخْبَارِ مَرْيَمَ وَزَكَرِيَّا مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ لَمْ تَشْهَدْهُ أَنْتَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ قَوْمِكَ ، وَلَمْ تَطَّلِعْ عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ فِي الْكِتَابِ وَإِنَّمَا نَحْنُ نُوحِيهِ إِلَيْكَ بِإِنْزَالِ الرُّوحِ الْأَمِينِ الَّذِي خَاطَبَ مَرْيَمَ وَزَكَرِيَّا بِمَا خَاطَبَهُمَا بِهِ عَلَى قَلْبِكَ ، وَإِلْقَائِهِ فِي رَوْعِكَ خَبَرَ مَا وَقَعَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي ذَلِكَ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَضَمِيرُ نُوحِيهِ رَاجِعٌ إِلَى الْغَيْبِ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيْ قِدَاحَهُمُ الْمَبْرِيَّةَ ، فَالسِّهَامُ وَالْأَزْلَامُ الَّتِي يَضْرِبُونَ بِهَا الْقُرْعَةَ وَيُقَامِرُونَ تُسَمَّى أَقْلَامًا أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ أَيْ يَسْتَهِمُونَ بِهَذِهِ الْأَقْلَامِ وَيَقْتَرِعُونَ عَلَى كَفَالَةِ مَرْيَمَ ، حَتَّى قَرَعَهُمْ زَكَرِيَّا فَكَانَ كَافِلَهَا وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَتَّفِقُوا عَلَى كَفَالَتِهَا إِلَّا بَعْدَ الْقُرْعَةِ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : أَعْقَبَ هَذِهِ الْقِصَّةَ بِهَذِهِ الْآيَةِ النَّاطِقَةِ بِأَنَّهَا مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ، وَأَخَّرَ خَبَرَ إِلْقَاءِ الْأَقْلَامِ لِكَفَالَةِ مَرْيَمَ وَذَكَرَهُ فِي سِيَاقِ نَفْيِ حُضُورِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

---

مَجْلِسَ الْقَوْمِ وَشُهُودِ مَا جَرَى مِنْهُمْ ، وَلَا بُدَّ لِهَذِهِ الْعِنَايَةِ مِنْ نُكْتَةٍ ، وَقَدْ قَالُوا فِي بَيَانِهَا : إِنَّ كَوْنَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يَقْرَأْ أَخْبَارَ الْقَوْمِ وَلَمْ يَرْوِهَا سَمَاعًا عَنْ أَحَدٍ مَعْلُومٍ عِنْدَ

مُنْكِرِي نُبُوَّتِهِ ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُ طَرِيقٌ لِلْعِلْمِ بِهَا إِلَّا مُشَاهَدَتُهَا ، فَنَفَاهَا تَهَكُّمًا بِهِمْ ، وَبِذَلِكَ تَعَيَّنَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَهُ طَرِيقٌ لِمَعْرِفَتِهَا إِلَّا وَحْيُ اللهِ – تَعَالَى – إِلَيْهِ بِهَا . وَهَذَا الْجَوَابُ مَنْقُوضٌ وَإِنِ اتَّفَقَ عَلَيْهِ مَنْ نَعْرِفُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ نَطَقَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ [16 : 103] وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا [25 : 5] قَالَ : وَالصَّوَابُ أَنَّ النُّكْتَةَ فِي النَّصِّ عَلَى نَفْيِ حُضُورِ النَّبِيِّ الْقَوْمَ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ – أَيْ بَعْدَ النَّصِّ عَلَى كَوْنِ الْقِصَّةِ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ – هِيَ أَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ لَمْ تَكُنْ مَعْلُومَةً عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ فَيَكُونُ لِلْمُنْكِرِينَ شُبْهَةٌ عَلَى أَنَّهُ أَخَذَهَا عَنْهُمْ . أَقُولُ : يَرُدُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ – تَعَالَى – فِي آخِرِ قِصَّةِ يُوسُفَ : ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ [12 : 102] وَإِذَا كَانَ بَعْضُ الْمُجَاحِدِينَ قَدِ ادَّعَوْا أَنَّهُ يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، فَهَذِهِ الدَّعْوَى قَدْ رَدَّهَا الْقُرْآنُ بِقَوْلِهِ : لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ

وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ [16 : 103] وَرَدَ أَنَّهُمْ قَالُوا هَذَا إِذْ رَأَوْهُ يَقِفُ عَلَى قَيْنٍ (حَدَّادٍ) رُومِيٍّ بِمَكَّةَ ، وَذَلِكَ الْقَيْنُ لَمْ يَكُنْ يُحْسِنُ الْعَرَبِيَّةَ ، وَأَنَّى لِلْقَيْنِ بِمِثْلِ هَذَا الْعِلْمِ عَرَفَ الْعَرَبِيَّةَ أَمْ لَمْ يَعْرِفْهَا ؟ فَالْقُرْآنُ لَا يَعْتَدُّ بِتِلْكَ الشُّبْهَةِ ; إِذِ الْأُمِّيُّ النَّاشِئُ بَيْنَ الْأُمِّيِّينَ لَا

يُمْكِنُ أَنْ يَتَلَقَّى أَخْبَارَ الْأَوَّلِينَ مِنْ حَدَّادٍ وَلَا مِنْ عَالِمٍ كَحَبْرٍ أَوْ رَاهِبٍ بِمُجَرَّدِ وُقُوفِهِ عَلَيْهِ أَوِ اجْتِمَاعِهِ بِهِ ، وَلَوْ أَمْكَنَ ذَلِكَ عَادَةً أَوْ عَقْلًا لَمَا كَانَ لِعَاقِلٍ أَنْ يَثِقَ بِحِفْظِ ذَلِكَ الْقَيْنِ - أَوْ غَيْرِ الْقَيْنِ - وَبِأَمَانَتِهِ وَلَا يَخْتَلِفُ أَحَدٌ مِنَ الْمُنْكِرِينَ لِنُبُوَّتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي كَمَالِ عَقْلِهِ وَسُمُوِّ إِدْرَاكِهِ وَفِطْنَتِهِ ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ إِتْيَانَهُ فِي هَذِهِ الْقَصَصِ بِمَا لَا يَعْرِفُهُ أَهْلُ الْكِتَابِ مِمَّا يُؤَكِّدُ دَفْعَ تِلْكَ الشُّبْهَةِ الْوَاهِيَةِ ، وَيُدَعِّمُ ذَلِكَ الْأَصْلَ الرَّاسِخَ وَهُوَ كَوْنُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أُمِّيًّا نَشَأَ بَيْنَ أُمِّيِّينَ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِأَخْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ مَعَ أُمَمِهِمْ ; كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ هُودٍ بَعْدَ ذِكْرِ قِصَّةِ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا [11 : 49] وَقَدْ سَمِعَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ هَذِهِ الْآيَةَ وَسَائِرَ سُورَتِهَا وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَلْ كُنَّا نَعْلَمُهَا ، وَمِثْلُ هَذَا قَوْلُهُ بَعْدَ ذِكْرِ قِصَّةِ مُوسَى وَشُعَيْبٍ فِي

(119/118)

سُورَةِ الْقَصَصِ : وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ [28 : 44] إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ .

أَمَّا الْمُجَاحِدُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَا سِيَّمَا دُعَاةُ النَّصْرَانِيَّةِ فِي هَذَا الزَّمَانِ ، فَهُمْ يَقُولُونَ فِيمَا وَافَقَ الْقُرْآنُ بِهِ كُتُبَهُمْ إِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْهَا بِدَلِيلِ مُوَافَقَتِهِ لَهَا ، وَفِيمَا خَالَفَهَا إِنَّهُ غَيْرُ صَحِيحٍ

بِدَلِيلِ أَنَّهُ خَالَفَهَا ، وَفِيمَا لَمْ يُوَافِقْهَا وَلَمْ يُخَالِفْهَا بِهِ إِنَّهُ غَيْرُ صَحِيحٍ لِأَنَّهُ لَمْ يُوجَدْ عِنْدَنَا ، وَهَذَا مُنْتَهَى مَا يُكَابِرُ بِهِ مُنَاظِرٌ مُنَاظِرًا ، وَأَبْطَلُ مَا يَرُدُّ بِهِ خَصْمٌ عَلَى خَصْمٍ . وَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ : إِنَّنَا نَحْتَجُّ عَلَى أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ هُوَ الْحَقُّ بِمَا قَامَ مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى نُبُوَّةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعَ حِفْظِ كِتَابِهِ ، وَنَقْلِهِ بِالتَّوَاتُرِ الصَّحِيحِ ، وَمِنْ تِلْكَ الدَّلَائِلِ الَّتِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ مَعْرِفَةُ قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَمِنْ كَوْنِهِ أُمِّيًّا لَمْ يَتَعَلَّمْ شَيْئًا - كَمَا تَقَدَّمَ - فَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ نَفْسِهَا ، وَمَا جَاءَ فِيهَا مُخَالِفًا لِمَا فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ نَعُدُّهُ مُصَحِّحًا لِمَا وَقَعَ فِيهَا مِنَ الْغَلَطِ وَالنِّسْيَانِ بِانْقِطَاعِ أَسَانِيدِهَا حَتَّى أَنَّ أَعْظَمَهَا وَأَشْهَرَهَا كَالْأَسْفَارِ الْمَنْسُوبَةِ إِلَى مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَا يُعْرَفُ كَاتِبُهَا وَلَا زَمَنُ كِتَابَتِهَا وَلَا اللُّغَةُ الَّتِي كُتِبَتْ بِهَا أَوَّلًا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْإِلْمَاعُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ .

(120/118)

إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ

جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ

(121/118)

قَوْلُهُ – تَعَالَى – : إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ شُرُوعٌ فِي خَبَرِ عِيسَى بَعْدَ قِصَّةِ أُمِّهِ وَقِصَّةِ زَكَرِيَّا – عَلَيْهِمُ السَّلَامُ – ، وَهُوَ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ : وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَمَا بَيْنَهُمَا اعْتِرَاضٌ نَاطِقٌ بِحِكْمَةِ نُزُولِ الْآيَاتِ ، مُبَيِّنٌ وَجْهَ دَلَالَتِهَا عَلَى صِدْقِ مَنْ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ . وَالْمَعْنَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَشَّرَتْ مَرْيَمَ بِالْوَلَدِ الصَّالِحِ حِينَ بَشَّرَتْهَا بِاصْطِفَاءِ اللَّهِ إِيَّاهَا وَتَطْهِيرِهِ لَهَا وَأَمَرَتْهَا بِمَزِيدِ عِبَادَتِهِ وَالِاسْتِغْرَاقِ فِي شُكْرِهِ . وَالْمُرَادُ بِالْمَلَائِكَةِ هُنَا الرُّوحُ جِبْرِيلُ لِقَوْلِهِ – تَعَالَى – فِي سُورَةِ مَرْيَمَ : فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا [19 : 17] إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ . وَذَكَرَ

بِلَفْظِ الْجَمْعِ لِمَا تَقَدَّمَ فِي قِصَّةِ زَكَرِيَّا ، أَوْ لِأَنَّهُ كَانَ مَعَهُ غَيْرُهُ . وَفِي لَفْظِ كَلِمَةٍ أَرْبَعَةُ وُجُوهٍ :

(122/118)

(الْوَجْهُ الْأَوَّلُ) أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكَلِمَةِ كَلِمَةُ التَّكْوِينِ لَا كَلِمَةُ الْوَحْيِ ; ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ أَمْرُ الْخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ وَكَيْفِيَّةِ صُدُورِهِ عَنِ الْبَارِي - عَزَّ وَجَلَّ - مِمَّا يَعْلُو عُقُولَ الْبَشَرِ عَبَّرَ عَنْهُ - سُبْحَانَهُ - بِقَوْلِهِ : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [36 : 82] فَكَلِمَةُ (كُنْ) هِيَ كَلِمَةُ التَّكْوِينِ ، وَسَيَأْتِي تَفْسِيرُهَا ، وَهَاهُنَا يُقَالُ : إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ خُلِقَ بِكَلِمَةِ التَّكْوِينِ فَلِمَاذَا خَصَّ الْمَسِيحَ بِإِطْلَاقِ الْكَلِمَةِ عَلَيْهِ ؟ وَأُجِيبَ عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّ الْأَشْيَاءَ تُنْسَبُ فِي الْعَادَةِ وَالْعُرْفِ الْعَامِّ فِي الْبَشَرِ إِلَى أَسْبَابِهَا ، وَلَمَّا فُقِدَ فِي تَكْوِينِ الْمَسِيحِ وَعُلُوقِ أُمِّهِ بِهِ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ سَبَبًا لِلْعُلُوقِ ، وَهُوَ تَلْقِيحُ مَاءِ الرَّجُلِ لِمَا فِي الرَّحِمِ مِنَ الْبُوَيْضَاتِ الَّتِي يَتَكَوَّنُ مِنْهَا الْجَنِينُ أُضِيفَ هَذَا التَّكْوِينُ إِلَى كَلِمَةِ اللَّهِ ، وَأُطْلِقَتِ الْكَلِمَةُ عَلَى الْمُكَوَّنِ إِيذَانًا بِذَلِكَ ، أَوْ جُعِلَ كَأَنَّهُ نَفْسُ الْكَلِمَةِ مُبَالَغَةً ، وَهَذَا هُوَ الْوَجْهُ الْمَشْهُورُ .

(الْوَجْهُ الثَّانِي) أَنَّهُ أُطْلِقَ عَلَى الْمَسِيحِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى بِشَارَةِ الْأَنْبِيَاءِ بِهِ ، فَهُوَ قَدْ عُرِفَ بِكَلِمَةِ

اللهِ ، أَيْ بِوَحْيِهِ لِأَنْبِيَائِهِ . قَالَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ ، وَالْكَلِمَةُ تُطْلَقُ عَلَى الْكَلَامِ كَقَوْلِهِ : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ [37 : 171] إِلَخْ .

(123/118)

(الْوَجْهُ الثَّالِثُ) أَنَّهُ أَطْلَقَ عَلَيْهِ لَفْظَ الْكَلِمَةِ لِمَزِيدِ إِيضَاحِهِ لِكَلَامِ اللهِ الَّذِي حَرَّفَهُ قَوْمُهُ الْيَهُودُ حَتَّى أَخْرَجُوهُ عَنْ وَجْهِهِ ، وَجَعَلُوا الدِّينَ مَادِّيًّا مَحْضًا ، قَالَهُ الرَّازِيُّ وَجَعَلَهُ مِنْ قَبِيلِ وَصْفِ النَّاسِ لِلسُّلْطَانِ الْعَادِلِ بِظِلِّ اللهِ وَنُورِ اللهِ ; لِمَا أَنَّهُ سَبَبٌ لِظُهُورِ ظِلِّ الْعَدْلِ وَنُورِ الْإِحْسَانِ ، قَالَ : فَكَذَلِكَ كَانَ عِيسَى سَبَبًا لِظُهُورِ كَلَامِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بِسَبَبِ كَثْرَةِ بَيَانَاتِهِ لَهُ وَإِزَالَةِ الشُّبُهَاتِ وَالتَّحْرِيفَاتِ عَنْهُ .

(الْوَجْهُ الرَّابِعُ) أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكَلِمَةِ كَلِمَةُ الْبِشَارَةِ لِأُمِّهِ ، فَقَوْلُهُ : بِكَلِمَةٍ مِنْهُ مَعْنَاهُ بِخَيْرٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِشَارَةٍ ، وَهُوَ كَقَوْلِ الْقَائِلِ : أَلْقَى إِلَيَّ فُلَانٌ كَلِمَةً سَرَّنِي بِهَا ، بِمَعْنَى أَخْبَرَنِي خَبَرًا فَرِحْتُ بِهِ ، قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَاسْتَشْهَدَ لَهُ بِقَوْلِهِ : وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ [4 : 171] يَعْنِي بُشْرَى اللهِ مَرْيَمَ بِعِيسَى أَلْقَاهَا إِلَيْهَا ، قَالَ : فَتَأْوِيلُ الْقَوْلِ وَمَا كُنْتَ يَا مُحَمَّدُ عِنْدَ الْقَوْمِ إِذْ قَالَتْ

الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِبُشْرَى مِنْ عِنْدِهِ هِيَ وَلَدٌ لَكِ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ

، ثُمَّ قَالَ مُسْتَدِلًّا عَلَى هَذَا مَا نَصُّهُ : وَلِذَلِكَ قَالَ - عَزَّ وَجَلَّ - : اسْمُهُ الْمَسِيحُ فَذَكَّرَ وَلَمْ يَقُلِ " اسْمُهَا " فَيُؤَنِّثَ وَ " الْكَلِمَةُ " مُؤَنَّثَةٌ ; لِأَنَّ الْكَلِمَةَ غَيْرُ مَقْصُودٍ بِهَا قَصْدَ الِاسْمِ

(124/118)

الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى فُلَانٍ ، وَإِنَّمَا هِيَ بِمَعْنَى الْبِشَارَةِ . فَذُكِرَتْ كِنَايَتُهَا كَمَا تُذَكَّرُ كِنَايَةُ الذُّرِّيَّةِ وَالدَّابَّةِ وَالْأَلْقَابِ إِلَى آخِرِ مَا أَطَالَ بِهِ فِي الْمَسْأَلَةِ مِنْ جِهَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

(125/118)

أَمَّا لَفْظُ " الْمَسِيحِ " فَمُعَرَّبٌ وَأَصْلُهُ الْعِبْرَانِيُّ : " مشيحا " بِالْمُعْجَمَةِ وَمَعْنَاهُ الْمَسِيحُ وَهُوَ لَقَبُ الْمَلِكِ عِنْدَهُمْ ; لِمَا مَضَتْ بِهِ تَقَالِيدُهُمْ مِنْ مَسْحِ الْكَاهِنِ كُلَّ مَنْ يَتَوَلَّى الْمُلْكَ بِالدُّهْنِ الْمُقَدَّسِ ، وَهُمْ يُعَبِّرُونَ عَنْ تَوْلِيَةِ الْمُلْكِ بِالْمَسْحِ وَعَنِ الْمَلِكِ بِالْمَسِيحِ ، وَقَدِ اشْتُهِرَ أَنَّ أَنْبِيَاءَهُمْ بَشَّرُوهُمْ بِمَسِيحٍ يَظْهَرُ فِيهِمْ ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ مَلِكٌ يُعِيدُ إِلَيْهِمْ مَا فَقَدُوا مِنَ السُّلْطَانِ فِي الْأَرْضِ ، فَلَمَّا ظَهَرَ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَسُمِّيَ بِالْمَسِيحِ آمَنَ بِهِ قَوْمٌ وَقَالُوا : إِنَّهُ هُوَ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ ، وَلَا يَزَالُ سَائِرُ الْيَهُودِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْبِشَارَةَ لَمَّا يَأْتِ تَأْوِيلُهَا ،

وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ فِيهِمْ مَلِكٌ ، وَقَدْ بَيَّنَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مَعْنَى صِدْقِ لَفْظِ الْمَسِيحِ عَلَى عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِحَسَبِ عُرْفِهِمْ فَقَالَ : إِنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يُوَلُّونَ الْمَلِكَ عَلَيْهِمْ لِأَجْلِ تَقْرِيرِ الْعَدْلِ فِيهِمْ وَرَفْعِ أَثْقَالِ الظُّلْمِ عَنْهُمْ وَقَدْ فَعَلَ الْمَسِيحُ ذَلِكَ ، فَإِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا عِنْدَ بَعْثَتِهِ فِيهِمْ مُتَمَسِّكِينَ بِظَوَاهِرِ أَلْفَاظِ الْكِتَابِ وَخَاضِعِينَ لِأَفْهَامِ الْكَتَبَةِ وَالْفِرِيسِيِّينَ وَأَوْهَامِهِمْ حَتَّى أَرْهَقَهُمْ ذَلِكَ عُسْرًا وَتَرَكَهُمْ يَئِنُّونَ مِنَ الظُّلْمِ وَأَثْقَالِ التَّكَالِيفِ ، فَرَفَعَ الْمَسِيحُ ذَلِكَ عَنْهُمْ بِإِرْجَاعِهِمْ إِلَى مَقَاصِدِ الدِّينِ وَحَمْلِهِمْ عَلَى الْأُخُوَّةِ الرَّافِعَةِ لِلظُّلْمِ . أَقُولُ : وَقَدْ نَقَلُوا

(126/118)

عَنْهُ مَا يُفِيدُ هَذَا الْمَعْنَى ، وَهُوَ أَنَّ مَمْلَكَتَهُ رُوحَانِيَّةٌ لَا جَسَدِيَّةٌ . وَقَدْ لَاحَ لِي عِنْدَ الْكِتَابَةِ أَنَّ قَوْلَهُ - تَعَالَى - : اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى يُرَادُ بِهِ أَنَّ لَفْظَ الْمَسِيحِ هُنَا أُجْرِيَ مَجْرَى الْعِلْمِ لَا مَجْرَى الْوَصْفِ ، وَالْعِلْمُ الْمُشْتَقُّ لَا يُشْتَرَطُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ مُسَمَّاهُ مُتَّصِفًا بِالْمَعْنَى الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ إِذَا اسْتُعْمِلَ وَصْفًا ، فَإِذَا وَضَعْتَ لَفْظَ "عَلِيٍّ" عَلَمًا عَلَى رَجُلٍ يَصِيرُ مَدْلُولُهُ شَخْصَ ذَلِكَ الرَّجُلِ سَوَاءٌ كَانَ ذَا عِلَّةٍ أَمْ لَا ، وَإِذَا سَمَّيْتَ ابْنَتَكَ "مَلَكَةً" لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ أَنْ يُفَسِّرَ اللَّفْظَ بِالْمَعْنَى الَّذِي وُضِعَ لَهُ اللَّفْظُ قَبْلَ الْعَلَمِيَّةِ . وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يُلْمَحَ الْمَعْنَى الَّذِي يُنْقَلُ لَفْظُهُ إِلَى الْعَلَمِيَّةِ أَحْيَانًا . وَقَدْ ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ بِضْعَةَ وُجُوهٍ لِتَفْسِيرِ لَفْظِ الْمَسِيحِ بِنَاءً

عَلَى أَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْمَسْحِ وَلَا حَاجَةَ إِلَى ذِكْرِ شَيْءٍ مِنْهَا .

وَأَمَّا لَفْظُ " عِيسَى " فَهُوَ مُعَرَّبُ " يَشُوعَ " بِقَلْبِ الْحُرُوفِ بَعْدَ جَعْلِ الْمُعْجَمَةِ مُهْمَلَةً وَهَذَا يَكْثُرُ فِي الْمَنْقُولِ مِنَ الْعِبْرَانِيَّةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ . فَسِينُ الْمَسِيحِ وَمُوسَى شِينٌ فِي الْعِبْرَانِيَّةِ ، وَكَذَلِكَ سِينُ شَمْسٍ فَهِيَ عِنْدَهُمْ بِمُعْجَمَتَيْنِ . وَإِنَّمَا قِيلَ : (ابْنُ مَرْيَمَ) مَعَ كَوْنِ الْخِطَابِ لَهَا ، إِعْلَامًا لَهَا بِأَنَّهُ يُنْسَبُ إِلَيْهَا ; لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ أَبٌ وَلِذَلِكَ قَالَتْ بَعْدَ الْبِشَارَةِ : رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ ؟ إِلَخْ .

(127/118)

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى - فِي وَصْفِهِ : وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَكُونُ ذَا وَجَاهَةٍ وَكَرَامَةٍ فِي الدَّارَيْنِ ، فَالْوَجِيهُ ذُو الْجَاهِ وَالْوَجَاهَةِ . وَالْمَادَّةُ مَأْخُوذَةٌ مِنَ الْوَجْهِ حَتَّى قَالُوا : إِنَّ لَفْظَ الْجَاهِ أَصْلُهُ وَجْهٌ ، فَنُقِلَتِ الْوَاوُ إِلَى مَوْضِعِ الْعَيْنِ ، فَقُلِبَتْ أَلِفًا ثُمَّ اشْتَقُّوا مِنْهُ . فَقَالُوا : جَاهَ فُلَانٌ يَجُوهُ ، كَمَا قَالُوا : وَجَّهَ يُوَجِّهُ ، وَذُو الْجَاهِ يُسَمَّى وَجْهًا كَمَا يُسَمَّى وَجِيهًا ، وَيُقَالُ : إِنَّ لِفُلَانٍ وَجْهًا عِنْدَ السُّلْطَانِ ، كَمَا يُقَالُ : إِنَّ لَهُ جَاهًا وَوَجَاهَةً ، وَكَأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْوَجِيهِ مَنْ يُعَظَّمُ وَيُحْتَرَمُ عِنْدَ الْمُوَاجَهَةِ لِمَا لَهُ مِنَ الْمَكَانَةِ فِي النُّفُوسِ . وَقَالَ الْإِمَامُ الْغَزَالِيُّ : الْجَاهُ مِلْكُ الْقُلُوبِ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: إِنَّ كَوْنَ الْمَسِيحِ ذَا جَاهٍ وَمَكَانَةٍ فِي الْآخِرَةِ ظَاهِرٌ، وَأَمَّا وَجَاهَتُهُ فِي الدُّنْيَا فَهِيَ قَدْ تَكُونُ مَوْضِعَ إِشْكَالٍ؛ لِمَا عُرِفَ مِنِ امْتِهَانِ الْيَهُودِ لَهُ وَمُطَارَدَتِهِمْ إِيَّاهُ عَلَى فَقْرِهِ وَضَعْفِ عَصَبِيَّتِهِ. وَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ سَهْلٌ، وَهُوَ أَنَّ الْوَجِيهَ فِي الْحَقِيقَةِ مَنْ كَانَتْ لَهُ مَكَانَةٌ فِي الْقُلُوبِ وَاحْتِرَامٌ ثَابِتٌ فِي النُّفُوسِ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ كَذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ لَهُ أَثَرٌ حَقِيقِيٌّ ثَابِتٌ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَدُومَ بَعْدَهُ زَمَنًا طَوِيلًا أَوْ غَيْرَ طَوِيلٍ، وَلَا يُنْكِرُ أَحَدٌ أَنَّ مَنْزِلَةَ الْمَسِيحِ فِي نُفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ كَانَتْ عَظِيمَةً جِدًّا، وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْإِصْلَاحِ هُوَ مِنَ الْحَقِّ الثَّابِتِ، وَقَدْ بَقِيَ أَثَرُهُ بَعْدَهُ، فَهَذِهِ الْوَجَاهَةُ أَعْلَى وَأَرْفَعُ مِنْ وَجَاهَةِ الْأُمَرَاءِ وَالْمُلُوكِ الَّذِينَ يُحْتَرَمُونَ فِي الظَّوَاهِرِ لِظُلْمِهِمْ وَاتِّقَاءِ شَرِّهِمْ أَوْ لِدِهَانِهِمْ وَالتَّزَلُّفِ إِلَيْهِمْ، رَجَاءَ الِانْتِفَاعِ بِشَيْءٍ مِمَّا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ عَرَضِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ هَذِهِ وَجَاهَةٌ صُورِيَّةٌ لَا أَثَرَ لَهَا فِي النُّفُوسِ إِلَّا الْكَرَاهَةَ وَالْبُغْضَ وَالِانْتِقَاصَ، وَتِلْكَ وَجَاهَةٌ حَقِيقِيَّةٌ مُسْتَحْوِذَةٌ عَلَى الْقُلُوبِ. وَحَقِيقَةُ الْوَجَاهَةِ فِي الْآخِرَةِ: هِيَ أَنْ يَكُونَ الْوَجِيهُ فِي مَكَانٍ عَلِيٍّ وَمَنْزِلَةٍ رَفِيعَةٍ يَرَاهُ النَّاسُ فِيهَا فَيُجِلُّونَهُ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُقَرَّبٌ مِنَ اللهِ - تَعَالَى -، وَلَا يُمْكِنُنَا أَنْ نُحَدِّدَهَا وَنَعْرِفَ بِمَاذَا تَكُونُ.

قَالَ قَائِلٌ فِي الدَّرْسِ : إِنَّ هَذِهِ الْوَجَاهَةَ تَكُونُ بِالشَّفَاعَةِ ، فَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنَّ الْآيَةَ لَمْ تُبَيِّنْ ذَلِكَ ، عَلَى أَنَّكُمْ تَقُولُونَ : إِنَّ هَذِهِ الشَّفَاعَةَ عَامَّةٌ لِكُلِّ نَبِيٍّ وَعَالِمٍ وَصَالِحٍ ، فَمَا هِيَ مَزِيَّةُ الْمَسِيحِ إِذَنْ ؟ وَلَمَّا كَانَتِ الْوَجَاهَةُ

مُتَعَلِّقَةً بِالنَّاسِ وَمَا يَعُودُ مِنْ مَطَارِحِ أَنْظَارِهِمْ عَلَى شُعُورِ قُلُوبِهِمْ وَخَطِرَاتِ أَفْكَارِهِمْ قَالَ - تَعَالَى - فِيهِ : وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ أَيْ هُوَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ عِبَادِ اللهِ الْمُقَرَّبِينَ إِلَيْهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ، فَمَا يَنْعَكِسُ عَنْ أَنْظَارِ النَّاظِرِينَ إِلَيْهِ هُنَاكَ إِلَى مَرَايَا قُلُوبِهِمْ حَقِيقِيٌّ فِي نَفْسِهِ .

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : الْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَا قَبْلَهَا ، وَلَا يَضُرُّ عَطْفُ الْفِعْلِ عَلَى الِاسْمِ ، وَالْكَهْلُ : الرَّجُلُ التَّامُّ السَّوِيُّ مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِسِنٍّ مُعَيَّنَةٍ ، وَالْكَلَامُ فِي الْمَهْدِ يُصَدَّقُ بِمَا يَكُونُ فِي سِنِّ الْكَلَامِ ، وَهِيَ سَنَةٌ فَأَكْثَرُ ، وَمَا يَكُونُ قَبْلَ ذَلِكَ ، وَهُوَ آيَةٌ عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ ; لِأَنَّ تَعْدِيَتَهُ إِلَى النَّاسِ تُفِيدُ أَنَّهُ يُكَلِّمُهُمْ كَلَامَ التَّفَاهُمِ ، وَكَلَامُ الْأَطْفَالِ فِي الْمَهْدِ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ عَادَةً . وَفِي قَوْلِهِ : وَكَهْلًا بِشَارَةٌ بِأَنَّهُ يَعِيشُ إِلَى أَنْ يَكُونَ رَجُلًا سَوِيًّا كَامِلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَأَصْلَحَ حَالَهُمْ وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ تَعْرِفُ مَرْيَمُ سِيرَتَهُمْ .

قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ؟ أَيْ كَيْفَ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَالْحَالُ أَنِّي لَمْ أَتَزَوَّجْ، فَالْمَسُّ كِنَايَةٌ ظَاهِرَةٌ، وَالِاسْتِفْهَامُ عَلَى حَقِيقَتِهِ فِي وَجْهٍ، وَمَعْنَاهُ هَلْ يَكُونُ ذَلِكَ بِزَوَاجٍ يَطْرَأُ أَمْ بِمَحْضِ الْقُدْرَةِ ؟ ؟ وَفِي وَجْهٍ آخَرَ: لِلتَّعَجُّبِ مِنْ قُدْرَةِ اللهِ وَالِاسْتِعْظَامِ لِشَأْنِهِ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ أَيْ كَمِثْلِ هَذَا الْخَلْقِ الْبَدِيعِ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ، فَإِنَّ مِنْ شَأْنِهِ الِاخْتِرَاعَ وَالْإِبْدَاعَ . أَقُولُ: وَعَبَّرَ هُنَا بِالْخَلْقِ وَفِي بِشَارَةِ زَكَرِيَّا بِيَحْيَى بِالْفِعْلِ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا خَلْقٌ وَفِعْلٌ، لَكِنَّ لَفْظَ الْفِعْلِ يُسْتَعْمَلُ كَثِيرًا فِيمَا يَجْرِي عَلَى قَانُونِ الْأَسْبَابِ الْمَعْرُوفَةِ، وَلَفْظَ الْخَلْقِ يُسْتَعْمَلُ فِي الْإِبْدَاعِ وَالْإِيجَادِ وَلَوْ بِغَيْرِ مَا يُعْرَفُ مِنَ الْأَسْبَابِ، فَيُقَالُ: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يُقَالُ: فَعَلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَلَمَّا كَانَ إِيجَادُ يَحْيَى بَيْنَ زَوْجَيْنِ كَإِيجَادِ سَائِرِ النَّاسِ عَبَّرَ عَنْهُ بِالْفِعْلِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ آيَةٌ لِزَكَرِيَّا أَنَّ هَذَيْنِ الزَّوْجَيْنِ لَا يُولَدُ لِمِثْلِهِمَا عَادَةً، وَأَمَّا إِيجَادُ عِيسَى فَهُوَ عَلَى غَيْرِ الْمَعْهُودِ فِي التَّوَالُدِ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أُمٍّ غَيْرِ زَوْجٍ فِي الظَّاهِرِ، فَكَانَ بِالْأُمُورِ الْمُبْتَدَأَةِ بِمَحْضِ الْقُدْرَةِ أَشْبَهُ، وَالتَّعْبِيرُ عَنْهُ بِالْخَلْقِ أَلْيَقُ، وَإِنْ كَانَ لَهُ سَبَبٌ رُوحَانِيٌّ جَعَلَ أُمَّهُ بِمَعْنَى الزَّوْجِ - كَمَا سَيَأْتِي - وَلَكِنَّ هَذَا السَّبَبَ غَيْرُ مَعْهُودٍ لِلنَّاسِ وَلَا

(131/118)

مَعْرُوفٍ لَهُمْ ، فَمَرْيَمُ لَا تَعْرِفُهُ وَلَكِنَّهَا كَانَتْ مُؤْمِنَةً بِاللهِ مُوقِنَةً بِقُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ; وَلِذَلِكَ أَحَالَهَا فِي الْبِشَارَةِ عَلَى مَشِيئَتِهِ لِتَكُونَ مُوقِنَةً فَقَالَ : إِذَا قَضَى أَمْرًا

أَيْ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا ، كَمَا عَبَّرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى .

فَالْقَضَاءُ بِمَعْنَى الْإِرَادَةِ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ قَالُوا : إِنَّ هَذَا وَرَدَ مَوْرِدَ التَّمْثِيلِ لِكَمَالِ قُدْرَتِهِ وَنُفُوذِ مَشِيئَتِهِ ، وَالتَّصْوِيرِ لِسُرْعَةِ حُصُولِ مَا يُرِيدُ بِغَيْرِ رَيْثٍ وَلَا تَأَخُّرٍ ، بِتَشْبِيهِ حُدُوثِ مَا يُرِيدُهُ عِنْدَ تَعَلُّقِ إِرَادَتِهِ بِهِ حَالًا بِطَاعَةِ الْمَأْمُورِ الْقَادِرِ عَلَى الْعَمَلِ لِلْآمِرِ الْمُطَاعِ ، وَيُسَمُّونَ الْأَمْرَ بِـ (كُنْ) أَمْرَ التَّكْوِينِ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ [41 : 11] أَيْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَا فَكَانَتَا ، وَيُقَابِلُهُ أَمْرُ التَّكْلِيفِ الَّذِي يُعْرَفُ بِوَحْيِ اللهِ لِأَنْبِيَائِهِ ، وَقَدْ مَرَّ الْإِلْمَاعُ لِهَذَا مِنْ قَبْلُ .

(132/118)

وَأَقُولُ : اعْلَمْ أَنَّ الْكَافِرِينَ بِآيَاتِ اللهِ يُنْكِرُونَ الْحَمْلَ بِعِيسَى مِنْ غَيْرِ أَبٍ جُمُودًا عَلَى الْعَادَاتِ ، وَذُهُولًا عَنْ كَيْفِيَّةِ ابْتِدَاءِ خَلْقِ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ عَلَى اسْتِحَالَةِ ذَلِكَ لَكَانُوا مَعْذُورِينَ ، وَلَكِنْ لَا دَلِيلَ لَهُمْ إِلَّا أَنَّ هَذَا غَيْرُ مُعْتَادٍ ، وَهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَرَوْنَ مِنْ شُئُونِ الْكَوْنِ مَا لَمْ يَكُنْ مُعْتَادًا مِنْ قَبْلُ ، فَمِنْهُ مَا يَعْرِفُونَ لَهُ سَبَبًا وَيُعَبِّرُونَ عَنْهُ بِالِاكْتِشَافِ وَالِاخْتِرَاعِ ، وَمِنْهُ مَا لَا يَعْرِفُونَ لَهُ سَبَبًا وَيُعَبِّرُونَ عَنْهُ بِفَلَتَاتِ الطَّبِيعَةِ ، وَنَحْنُ مَعَاشِرَ الْمُؤْمِنِينَ نَقُولُ : إِنَّ تِلْكَ الْأَشْيَاءَ الْمُعَبَّرَ عَنْهَا بِالْفَلَتَاتِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ لَهَا سَبَبٌ خَفِيٌّ وَحِينَئِذٍ يَجِبُ أَنْ تَهْدِيَ هَؤُلَاءِ الْجَامِدِينَ إِلَى أَنَّ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ يَجُوزُ أَنْ يَأْتِيَ مِنْ غَيْرِ طَرِيقِ الْأَسْبَابِ الْمَعْرُوفَةِ فَلَا يُنْكِرُوا كُلَّ مَا يُخَالِفُهَا ; لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ لَهُ سَبَبٌ خَفِيٌّ لَمْ يَقِفُوا عَلَيْهِ ، وَلَا يَنْزِلُ أَمْرُ

(133/118)

عِيسَى فِي الْحَمْلِ بِهِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةِ أَبٍ عَنْ ذَلِكَ ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ قَدْ وُجِدَتْ فِي الْوَاقِعِ وَنَفْسِ الْأَمْرِ خَارِقَةً لِنِظَامِ الْأَسْبَابِ ، وَحِينَئِذٍ يَجِبُ أَنْ يَعْتَرِفُوا بِأَنَّ الْأَسْبَابَ الظَّاهِرَةَ الْمَعْرُوفَةَ لَيْسَتْ وَاجِبَةً وُجُوبًا عَقْلِيًّا مُطَّرِدًا ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ امْتَنَعَ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يُنْكِرَ شَيْئًا مَا وَيَعُدَّهُ مُسْتَحِيلًا لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ لَهُ سَبَبًا . وَلَعَلَّ أَبْنَاءَ الْعُصُورِ السَّابِقَةِ كَانُوا

أَقْرَبَ إِلَى أَنْ يُعْذَرُوا بِإِنْكَارِ غَيْرِ الْمَأْلُوفِ مِنْ أَبْنَاءِ هَذَا الْعَصْرِ الَّذِي ظَهَرَ فِيهِ مِنْ أَعْمَالِ النَّاسِ مَا لَوْ حُدِّثَ بِهِ عُقَلَاءُ الْغَابِرِينَ لَعَدُّوهُ مِنْ خُرَافَاتِ الدَّجَّالِينَ، وَنَحْنُ نَرَى عُلَمَاءَ الْغَرْبِ وَفَلَاسِفَتَهُ مُتَّفِقِينَ عَلَى إِمْكَانِ التَّوَلُّدِ الذَّاتِيِّ، أَيْ تَوَلُّدِ الْحَيَوَانِ مِنْ غَيْرِ حَيَوَانٍ أَوْ مِنَ الْجَمَادِ، وَهُمْ يَبْحَثُونَ وَيُحَاوِلُونَ أَنْ يَصِلُوا إِلَى ذَلِكَ بِتَجَارِبِهِمْ، وَإِذَا كَانَ تَوَلُّدُ الْحَيَوَانِ مِنَ الْجَمَادِ جَائِزًا فَتَوَلُّدُ الْحَيَوَانِ

مِنْ حَيَوَانٍ وَاحِدٍ أَوْلَى بِالْجَوَازِ وَأَقْرَبُ إِلَى الْحُصُولِ. نَعَمْ إِنَّهُ خِلَافُ الْأَصْلِ وَإِنَّ كَوْنَهُ جَائِزًا لَا يَقْتَضِي وُقُوعَهُ بِالْفِعْلِ، وَنَحْنُ نَسْتَدِلُّ عَلَى وُقُوعِهِ بِالْفِعْلِ بِخَبَرِ الْوَحْيِ الَّذِي قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى صِدْقِهِ.

وَيُمْكِنُ تَقْرِيبُ هَذِهِ الْآيَةِ الْإِلَهِيَّةِ مِنَ السُّنَنِ الْمَعْرُوفَةِ فِي نِظَامِ الْكَائِنَاتِ بِوَجْهَيْنِ:

(الْوَجْهُ الْأَوَّلُ): أَنَّ الِاعْتِقَادَ الْقَوِيَّ الَّذِي يَسْتَوْلِي عَلَى الْقَلْبِ وَيَسْتَحْوِذُ عَلَى الْمَجْمُوعِ الْعَصَبِيِّ يُحْدِثُ فِي عَالَمِ الْمَادَّةِ مِنَ الْآثَارِ مَا يَكُونُ عَلَى خِلَافِ الْمُعْتَادِ، فَكَمْ مِنْ سَلِيمٍ اعْتَقَدَ أَنَّهُ مُصَابٌ بِمَرَضِ كَذَا وَلَيْسَ فِي بَدَنِهِ شَيْءٌ مِنْ جَرَاثِيمِ هَذَا الْمَرَضِ، فَوَلَّدَ لَهُ اعْتِقَادُهُ تِلْكَ الْجَرَاثِيمَ الْحَيَّةَ وَصَارَ مَرِيضًا، وَكَمْ مِنَ امْرِئٍ سُقِيَ الْمَاءَ الْقَرَاحَ أَوْ نَحْوَهُ

فَشرِبَهُ مُعْتَقِدًا أَنَّهُ سُمٌّ نَاقِعٌ فَمَاتَ مَسْمُومًا بِهِ ، وَالْحَوادِثُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ أَثْبَتَتْهَا التَّجَارِبُ ، وَإِذَا اعْتَبَرْنَا بِهَا فِي أَمْرِ وِلَادَةِ الْمَسِيحِ نَقُولُ : إِنَّ مَرْيَمَ لَمَّا بُشِّرَتْ بِأَنَّ اللهَ - تَعَالَى - سَيَهَبُ لَهَا وَلَدًا بِمَحْضِ قُدْرَتِهِ ، وَهِيَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ صِحَّةِ الْإِيمَانِ وَقُوَّةِ الْيَقِينِ ، انْفَعَلَ مِزَاجُهَا بِهَذَا الِاعْتِقَادِ انْفِعَالًا فَعَلَ فِي الرَّحِمِ فِعْلَ التَّلْقِيحِ ، كَمَا يَفْعَلُ الِاعْتِقَادُ الْقَوِيُّ فِي مِزَاجِ السَّلِيمِ فَيَمْرَضُ أَوْ يَمُوتُ ، وَفِي مِزَاجِ الْمَرِيضِ فَيَبْرَأُ ، وَكَانَ نَفْخُ الرُّوحِ الَّذِي وَرَدَ فِي سُورَةٍ أُخْرَى مُتَمِّمًا لِهَذَا التَّأْثِيرِ .

(135/118)

(الْوَجْهُ الثَّانِي) : وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَى الْحَقِّ - وَإِنْ كَانَ أَخْفَى وَأَدَقَّ - وَبَيَانُهُ يَتَوَقَّفُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ وَجِيزَةٍ فِي تَأْثِيرِ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَشْبَاحِ ، وَهِيَ أَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ قِسْمَانِ : أَجْسَامٌ كَثِيفَةٌ وَأَرْوَاحٌ لَطِيفَةٌ ، وَأَنَّ اللَّطِيفَ هُوَ الَّذِي يُحْدِثُ فِي الْكَثِيفِ الْحَيِّ مَا نَرَاهُ فِيهِ مِنَ النُّمُوِّ وَالْحَرَكَةِ وَالتَّوَالُدِ الَّذِي يَكُونُ مِنَ النُّمُوِّ أَوْ يَكُونُ النُّمُوُّ مِنْهُ ، فَلَوْلَا الْهَوَاءُ لَمَا عَاشَتْ هَذِهِ الْأَحْيَاءُ ، وَالْهَوَاءُ رُوحٌ وَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ أَسْمَائِهِ إِذَا تَحَرَّكَ الرِّيحُ ، وَأَصْلُهَا " رِوْحٌ " بِكَسْرِ الرَّاءِ ، وَلِأَجْلِ الْكَسْرِ قُلِبَتِ الْوَاوُ يَاءً لِتُنَاسِبَهُ ، وَالْمَاءُ الَّذِي مِنْهُ كُلُّ شَيْءٍ حَيٍّ مُرَكَّبٌ مِنْ رُوحَيْنِ لَطِيفَيْنِ ، وَهُوَ يَكَادُ يَكُونُ فِي حَالِ التَّرْكِيبِ وَسَطًا بَيْنَ الْكَثِيفِ وَاللَّطِيفِ وَلَكِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى الثَّانِي

، والْكَهْرُبَائِيَّة مِنَ الْأَرْوَاحِ وَنَاهِيكَ بِفِعْلِهَا فِي الْأَشْبَاحِ ، فَهَذِهِ الْمَوْجُودَاتُ اللَّطِيفَةُ الَّتِي سَمَّيْنَاهَا أَرْوَاحًا هِيَ الَّتِي تُحْدِثُ مُعْظَمَ التَّغَيُّرِ الَّذِي نُشَاهِدُهُ فِي الْكَوْنِ ، حَتَّى إِنَّنَا قَدْ رَأَيْنَا فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنْ أَسْرَارِهَا مَا لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ عَلَى بَالِ أَحَدٍ مِنْ قُدَمَاءِ فَلَاسِفَتِنَا ، وَيَعْتَقِدُ عُلَمَاؤُنَا الْيَوْمَ أَنَّ مَا سَيَظْهَرُ مِنْهَا

(136/118)

فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَجَلُّ وَأَعْظَمُ . فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فِي الْأَرْوَاحِ الَّتِي لَا دَلِيلَ عِنْدَنَا عَلَى أَنَّهَا تُدْرِكُ وَتُرِيدُ ، فَلِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَأْثِيرُ الْأَرْوَاحِ الْعَاقِلَةِ الْمُرِيدَةِ أَعْظَمَ ! !
إِذَا تَمَهَّدَ هَذَا فَنَقُولُ : إِنَّ اللهَ الْمُسَخِّرَ لِلْأَرْوَاحِ الْمُنْبَثَّةِ فِي الْكَائِنَاتِ قَدْ أَرْسَلَ رُوحًا مِنْ عِنْدِهِ إِلَى مَرْيَمَ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا وَنَفَخَ فِيهَا ، فَأَحْدَثَتْ نَفْخَتُهُ التَّلْقِيحَ فِي رَحِمِهَا ، فَحَمَلَتْ بِعِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَهَلْ حَمَلَتْ إِلَيْهَا تِلْكَ النَّفْخَةُ مَادَّةً أَمْ لَا ؟ اللهُ أَعْلَمُ . أَمَّا الْبَحْثُ فِي تَمَثُّلِ هَذِهِ الْأَرْوَاحِ الَّتِي تُسَمَّى بِلِسَانِ الشَّرْعِ الْمَلَائِكَةَ فَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا [19 : 17] إِذَا أَنْسَأَ اللهُ لَنَا فِي الْأَجَلِ وَوَفَّقَنَا لِلْمُضِيِّ فِي هَذَا الْعَمَلِ (التَّفْسِيرِ) وَالْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ لَمْ يَتَعَرَّضْ لِهَذَا الْبَحْثِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار ح 3 ص 246.255 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾

ونريد أن نقف وقفة ذهنية تدبرية عند قولها : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ فلو أنها سكتت عند قولها : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ ﴾ لكان أمرا معقولا في تساؤلها ، ولكن إضافتها ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ تثير سؤالا ، من أين أتت بهذا القول ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ ؟ هل قال لها أحد : إنك ستلدين ولدا من غير أب ؟ إن الملائكة لم تخبرها بذلك ، لذلك انصرف ذهنها إلى مسألة المس . إنها فطرة وفطنة المهيأة والمعدة للتلقي عن الله ، عندما قال لها : " المسيح عيسى ابن مريم " .

قالت لنفسها : إن نسبته بأمر الله هي لي ، فلا أب له ، لقد قال الحق : إنه " ابن مريم " ولذلك جاء قولها : ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ ذلك أنه لا يمكن أن ينسب الطفل للأم مع وجود الأب . هكذا نرى فطنة التلقي عن الله في مريم البتول . لقد مر بها خوف عندما عرفت أن عيسى منسوب إليها وقالت لنفسها ، إن الحمل بعيسى لن يكون بوساطة أب ،

وكيف يكون الحمل دون أن يمسسني بشر . وقال الخالق الأكرم : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي لن يمسك بشر ، ولم يقل لها : لقد نسبناه لك لأنك منذورة لخدمة البيت ، ولكن الحق قال : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ تأكيدا لما فهمته عن إنجاب عيسى دون أن يمسسها بشر . وتتجلى طلاقة القدرة في قوله سبحانه : ﴿ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ .

(138/118)

إنها طلاقة القدرة ، وطلاقة القدرة في الإنسال أو الإنجاب أو في عدم التكثير بالنسبة للإنسان, وطلاقة القدرة لا تتوقف على إيجاد ذكورة وأنوثة ، ولو كانت طلاقة القدرة في الخلق لا تتوقف على إيجاد ذكورة وأنوثة ، إنه الحق الأعلى القادر على أن يخلق دون ذكورة أو أنوثة ، كخلقه لآدم عليه السلام ، ويخلق الحق سبحانه بواحد منهما ، كخلقه سبحانه لحواء وخلق عيسى عليه السلام ، ويخلق الخالق الأعلى الذكورة والأنوثة يمكن أن يُحقق الخلق ، فقد توجد الذكورة والأنوثة ولا يوجد إنجاب ، ها هو ذا القول الحق :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

[الشورى : 49-50] .

هذه هي إرادة الحق، إذن فلا تقل: إن اكتمال عنصري الذكورة والأنوثة هو الذي يحدث الخلق، لأن الخلق يحدث بإرادة الحق. ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . فأنتم أيها المحدثون تفعلون بالأسباب. لكن الذي خلقكم وخلق الأسباب لكم هو الذي بيده أن يوجد بلا أسباب، لأنه أنشأ العالم أول ما أنشأ بدون أسباب.

ويقول الحق سبحانه عن عيسى عليه السلام: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ . . . ﴾ .

انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير الشعراوى صـ 1469. 1470﴾

(139/118)

قوله تعالى ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (48) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى:

فلما أجابها عما شغل قلبها من العجب فتفرغ الفهم أخذ في إكمال المقال بقوله عطفاً علي ﴿ ويكلم الناس ﴾ بالياء كما قبله في قراءة نافع وعاصم، وبالنون في قراءة الباقين نظراً إلى العظمة إظهاراً لعظمة العلم: ﴿ ويعلمه ﴾ أو يكون مستأنفاً فيعطف على ما تقديره:

فنخلقه كذلك ونعلمه ﴿ الكتاب ﴾ أي الكتابة أو جنس الكتاب فيشمل ذلك معرفة الكتاب وحفظه وفهمه وغير ذلك من أمره ﴿ والحكمة ﴾ أي العلوم الإلهية لتفيده تهذيب الأخلاق فيفيض عليه قول الحق وفعله على أحكم الوجوه بحيث لا يقدر أحد على نقض شيء مما يبرمه .

ولما وصفه بالعلوم النظرية والعملية فصار متأهلاً لأسرار الكتب الإلهية قال :

﴿ والتوراة ﴾ أي التي تعرفينها ﴿ والإنجيل ﴾ بإنزاله عليه تالياً لهما ، وتأخيره في الذكر الشرط فيقتضي اتصاف كل مقضي بهذه الأوصاف كلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 90 ﴾

(140/118)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ ويعلمه ﴾ بياء الغيبة : أبو جعفر ونافع وعاصم وسهل ويعقوب . الباقون بالنون . ﴿ أني أخلق ﴾ بكسر الهمزة بفتح الياء : نافع ﴿ أني أخلق ﴾ بالفتح فيهما : ابن كثير وأبو عمرو ويزيد ﴿ كهيئة ﴾ بتشديد الياء : يزيد وحمزة في الوقف . وكان ابن

مقسم يقول : بلغني أن خلفاً يقول : إن حمزة كان يترك الهمزة ويحرك الياء بحركتها . الباقون بالياء والهمزة . ﴿ الطائر ﴾ يزيد . الباقون ﴿ الطير ﴾ ﴿ فتكون ﴾ بتاء التأنيث . المفضل . الباقون : بياء الغيبة ﴿ طائر ﴾ أبو جعفر ونافع ويعقوب وكذلك في المائدة . الباقون ﴿ طيراً ﴾ ﴿ أنصاري إلى ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع . وقرأ قتيبة وأبو عمرو وطريق أبي الزعراء بالإمالة ﴿ فيوفيهم ﴾ بياء الغيبة : حفص ورويس ، وزاد رويس ضم الهاء . الباقون بالنون .

(141/118)

الوقوف : ﴿ العالمين ﴾ ه ﴿ الراكعين ﴾ ه ﴿ إليك ﴾ ط ﴿ يكفل مريم ﴾ ص لعطف المتفقتين . ﴿ يختصمون ﴾ ه ﴿ منه ﴾ ج قد قي لتذكير الضمير وتأنيث الكلمة في اسمه ، ولكن المراد من الكلمة الولد فلم يكن تأنيثاً حقيقياً . فالوجه أن لا يوقف إلى ﴿ الصالحين ﴾ لأن ﴿ وجيهاً ﴾ حال وما بعده معطوف عليه على تقدير وكائناً من المقربين ومكلماً وكائناً من الصالحين المقربين . ﴿ الصالحين ﴾ ه ﴿ بشر ﴾ (ط) ﴿ يشاء ﴾ ط ﴿ فيكون ﴾ ه ﴿ والإنجيل ﴾ ج لأن ﴿ ورسولاً ﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ ومن الصالحين ﴾ أو منصوباً بمحذوف أي ويجعله رسولاً ، والوقف أجوز لتباعد

العطف . ﴿ من ربكم ﴾ج لمن قرأ ﴿ إني أخلق ﴾ بالكسر ﴿ بإذن الله ﴾ج
والثاني كذلك للتفصيل بين المعجزات . ﴿ في بيوتكم ﴾ ط ﴿ مؤمنين ﴾ج للعطف ﴿
وأطيعون ﴾ ه ﴿ فاعبدوه ﴾ ط ﴿ مستقيم ﴾ ه ﴿ إلى الله ﴾ ط ﴿ أنصار الله ﴾
ج لأن ﴿ آمناً ﴾ في نظم الاستئناف مع إمكان الحال أي وقد آمنا بالله ، كذلك لانقطاع
النظم مع اتحاد مقصود الكلام ﴿ مسلمون ﴾ ه ﴿ الشاهدين ﴾ ه ﴿ ومكر الله ﴾ ط
﴿ الماكرين ﴾ ه ﴿ القيامة ﴾ج لأن " ثم " لترتيب الإخبار . ﴿ والآخرة ﴾ ز
للابتداء بالنفي مع أن النفي تمام المقصود . ﴿ ناصرين ﴾ ه ﴿ أجورهم ﴾ ط ﴿
الظالمين ﴾ ه ﴿ الحكيم ﴾ ه ﴿ آدم ﴾ ط لأن الجملة لا يتصف بها المعرّف . ﴿
فيكون ﴾ ط ﴿ الممترين ﴾ ه . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 2 صـ 158 .
159 ﴾

(142/118)

فصل

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ ويُعَلِّمُهُ الكتاب ﴾ قرأ نافع وعاصم ويعقوب ﴿ ويُعَلِّمُهُ ﴾ – بياء الغيبة –

والباقون بنون المتكلم المعظم نفسه، وعلى كلتا القراءتين ففي محل هذه الجملة أوجهٌ:

أحدها: أنها معطوفة على "يُبَشِّرُكِ" أي: أن الله يبشركِ بكلمةٍ ويعلم ذلك المولود المُعَبَّر عنه بالكلمة.

الثاني: أنها معطوفة على "يَخْلُقُ" أي: كذلك الله يخلق ما يشاء ويعلمه. وإلى هذين الوجهين، ذهب جماعة منهم الزمخشريُّ وأبو علي الفارسيّ، وهذان الوجهان ظاهران على قراءة الياء، وأما قراءة النون، فلا يظهر هذان الوجهان عليها إلا بتأويل الالتفات من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم، إيذاناً بالفخامة والتعظيم.

(143/118)

فأما عطفه على "يُبَشِّرُكِ" فقد استبعده أبو حيَّان جداًّ، قال: "لطول الفصل بين المعطوف، والمعطوف عليه"، وأما عطفه على "يَخْلُقُ" فقال: "هو معطوف عليه سواء كانت - يعني "يَخْلُقُ" خبراً عن الله أم تفسيراً لما قبلها، إذا أعربت لفظ "اللهُ" مبتدأ، وما قبله خبر".

يعني أنه تقدم في إعراب ﴿ كَذَلِكَ اللهُ ﴾ في قصة زكريا أوجهٍ:

أحدها ما ذكره - ف "يُعَلِّمُهُ" معطوف على "يخلُقُ" بالاعتبارين [المذكورين]؛ إذْ لا

مَانِعَ من ذلك ، وعلى هذا الذي ذكره أبو حيّان وغيره ، تكون الجملة الشرطية معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه ، والجملة من " نُعَلِّمُهُ " – في الوجهين المتقدمين – مرفوعة المحل ، لرفع محل ما عُطِفَتْ عليه .

الثالث : أن يعطف على " يُكَلِّمُ " فيكون منصوباً على الحال ، والتقدير : يُبَشِّرُكِ بكلمة مُكَلِّماً ومُعَلِّماً الكتاب ، وهذا الوجه جوزه ابنُ عَطِيَّةَ وغيره .

الرابع : أن يكون معطوفاً على " وَجِيهاً " ؛ لأنه في تأويل اسم منصوبٍ على الحال ، وهذا الوجه جوَّزه الزمخشريُّ .

واستبعد أبو حيّان هذين الوجهين الأخيرين – أعني الثالث والرابع – قال : " الطول الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، ولا يقع مثلُه في لسان العرب " .

الخامس : أن يكون معطوفاً على الجملة المحكية بالقول : – وهي ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ .

قال أبو حيّان : " وعلى كلتا القراءتين هي معطوفة على الجملة المقولة ؛ وذلك أن الضمير في (قال كذلك) لله – تعالى – والجملة بعده هي المقولة ، وسواء كان لفظ (الله) مبتدأ خبره ما قبله ، أم مبتدأ ، وخبره " يَخْلُقُ " – على ما مر إعرابه في ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ – فيكون هذا من القول لمريم على سبيل الاغتباط ، والتبشير بهذا الولد ، الذي

أوجده اللهُ منها " .

السادس : أن يكون مستأنفاً ، لا محلَّ له من الإعراب .

(144/118)

قال الزَّمَخْشريُّ – بعد أن ذكر فيه أنه يجوز أن يكون معطوفاً على "يُبَشِّرُكِ" أو يخلق أو " وَجِيهاً " – : " أو هو كلام مبتدأ " يعني مستأنفاً .

قال أبو حيّان : " فإن عنى أنه استئناف إخبار عن الله ، أو من الله – على اختلاف القراءتين – فمن حيث ثبوت الواو لا بد أن يكون معطوفاً على شيء قبله ، فلا يكون ابتداء كلام إلا أن يُدَّعَى زيادةُ الواو في وتعلمه ، فحينئذٍ يَسِحُّ أن يكون ابتداءَ كلامٍ ، وإن عنى أنه ليس معطوفاً على ما ذكر ، فكان ينبغي أن يبين ما عطف عليه ، وأن يكون الذي عُطِف عليه ابتداء كلام ، حتى يكون المعطوف كذلك " .

قال شهاب الدين : " وهذا الاعتراض غير لازم ؛ لأنه لا يلزم من جعله كلاماً مستأنفاً أن يُدَّعَى زيادة الواو ، ولا أنه لا بد من معطوف عليه ؛ لأن النحويين ، وأهل البيان نَصُّوا على أن الواوَ تكون للاستئناف ، بدليل أن الشعراء يأتُون بها في أوائل أشعارهم ، من غير تقدُّم شيءٍ يكون ما بعدَها معطوفاً عليه ، والأشعار مشحونة بذلك ، ويُسمونها واوَ

الاستئناف، ومَن منع ذلك قدّر أنّ الشاعرَ عطف كلامه على شيء منويٍّ في نفسه، ولكن الأول أشهر القولين".

وقال الطبريُّ: قراءة الياء عطف على قوله: ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾، وقراءة النون، عطف على قوله: ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾.

قال ابن عطيةَ: "وهذا الذي قاله في الوجهين مفسد للمعنى". ولم يبين أبو محمد وجه إفساد المعنى.

(145/118)

قال أبو حيّان: "أما قراءةُ النون، فظاهر فساد عطفه على "نُوحِيهِ" من حيث اللفظ ومن حيث المعنى، أما من حيث اللفظ فمثله لا يقع في لسان العَرَبِ؛ لبُعْدِ الفَصْلِ المُفْرِط، وتعقيد التركيب وتنافي الكلامِ، وأما من حيث المعنى فإنَّ المعطوف بالواو شريك المعطوف عليه في المعنى، فيصير المعنى بقوله: ﴿ ذلك مِنْ أَنبَآءِ الغيب ﴾، أي: إخبارك يا محمد بقصة امرأة عمرانَ وولادتها لمريم، وكَفَالَةِ زكريا، وقصته في ولادة يحيى، وتبشير الملائكة لمريمَ بالاصطفاء والتطهير كل ذلك من أخبار الغيب – نعلمه، أي: نعلم عيسى الكتاب، فهذا كلام لا ينتظم [معناه] مع معنى ما قبله.

أما قراءة الياء وعطف " وَيُعَلِّمُهُ " على "يَخْلُقُ" فليست مُفْسِدَةً للمعنى ، بل هو أَوْلَى وأَصَحّ ما يحمل عطف " وَيُعَلِّمُهُ " لقُرب لفظه وصحة معناه – وقد ذكرنا جوازَه قبل – ويكون الله أخبر مريم بأنه – تعالى – يخلق الأشياءَ الغريبةَ التي لم تَجْرِ العادة بمثلِهَا ، مثلما خلق لك ولداً من غير أبٍ ، وأنه – تعالى – يُعَلِّمُ هذا الولَد الذي يخلقه لك ما لم يُعَلِّمْه مَنْ قَبْلَه من الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، فيكون في هذا الإخبار أعظم تبشيرٍ لها بهذا الولد ، وإظهار بركته ، وأنه ليس مشبهاً أولاد الناس – من بني إسرائيل – بل هو مخالف لهم في أصل النشأة ، وفيما يعلمه – تعالى – من العلم ، وهذا يظهر لي أنه أحسن ما يحمل عليه عطف وَيُعَلِّمُهُ " اه .

قال أبو البقاء : "يُقْرَأ – نعلمه – بالنون ، حملاً على قوله : ﴿ ذلك مِنْ أَنبَآءِ الغيب نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ ويقرأ بالياء ؛ حملاً على "يُبَشِّرُكِ" وموضعه حال معطوفة على " وَجِيهاً " .

قال أبو حيّان : وقال بعضهم : " وَنُعَلِّمُهُ " – بالنون – حملاً على " نُوحِيهِ " – إن عني بالحمل العطف فلا شيء أبعد من هذا التقدير ، وإن عني بالحمل أنه من باب الالتفات فهو صحيح ."

قال شهاب الدين : " يتعين أن يعني بقوله : حَمْلاً ؛ الالتفات ليس إلا ، ولا يجوز أن يعني به العطف لقوله : وموضعه حال معطوفة على " وَجِيهاً " وكيف يستقيم أن يُرِيدَ عطفه على "يُبَشِّرُكِ " أو على توجيهه مع حكمه عليه بأنه معطوف على " وَجيهاً " ؟ هذا ما لا يستقيم أبداً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 233 . 236 ﴾

وقال الطبرى :

والصواب من القول في ذلك عندنا أنهما قراءتان مختلفتان ، غير مختلفتي المعاني ، فبأيتهما قرأ القارئ فهو مصيب الصوابَ في ذلك ، لاتفاق معنى القراءتين ، في أنه خبر عن الله بأنّه يعلم عيسى الكتاب ، وما ذكر أنه يعلمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 422 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَيُعَلّمُهُ الكتاب ﴾ عطف على ﴿ يُبَشّرُكِ ﴾ [آل عمران : 45] أي : إن الله يبشرك بكلمة ويعلم ذلك المولود المعبر عنه بالكلمة الكتاب ولا يرد عليه طول الفصل لأنه اعتراض لا يضر مثله ، أو على ﴿ يَخْلُقُ ﴾ [آل عمران : 47] أي كذلك الله يخلق ما يشاء ويعلمه أو على ﴿ يكلم ﴾ [آل عمران : 46] فتكون في محل نصب على الحال والتقدير يبشرك بكلمة مكلماً الناس ومعلماً الكتاب أو على ﴿ الله وَجِيهاً ﴾ [آل عمران : 45] وجوز أن تكون جملة مستأنفة ليست داخلة في حيز قول الملائكة عليهم

السلام ، والواو تكون للاستئناف وتقع في ابتداء الكلام كما صرح به النحاة فلا حاجة كما قال الشهاب إلى التأويل بأنها معطوفة على جملة مستأنفة سابقة وهي ﴿ إِذْ قَالَتِ ﴾ [آل عمران : 42] الخ ولا إلى مقدرة ، ولا إشكال في العطف كما قال التحرير ، وكذا لا يدعي أن الواو زائدة كما قال أبو حيان ، فهذه أوجه من الإعراب مختلفة بالأولوية ، وأغرب ما رأيته ما نقله الطبرسي عن بعضهم أن العطف على جملة ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ [آل عمران : 44] بل لا يكاد يستطيبه من سلم له ذوقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 166 ﴾

(147/118)

فصل

قال الفخر :

في هذه الآية أمور أربعة معطوف بعضها على بعض بواو العطف ، والأقرب عندي أن يقال : المراد من الكتاب تعليم الخط والكتابة ، ثم المراد بالحكمة تعليم العلوم وتهذيب الأخلاق لأن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ومجموعهما هو المسمى بالحكمة ، ثم بعد أن صار عالماً بالخط والكتابة ، ومحيطاً بالعلوم العقلية والشرعية ، يعلمه

التوراة ، وإنما أخر تعليم التوراة عن تعليم الخط والحكمة ، لأن التوراة كتاب إلهي ، وفيه أسرار عظيمة ، والإنسان ما لم يتعلم العلوم الكثيرة لا يمكنه أن يخوض في البحث على أسرار الكتب الإلهية ، ثم قال في المرتبة الرابعة والإنجيل ، وإنما أخر ذكر الإنجيل عن ذكر التوراة لأن من تعلم الخط ، ثم تعلم علوم الحق ، ثم أحاط بأسرار الكتاب الذي أنزله الله تعالى على من قبله من الأنبياء فقد عظمت درجته في العلم فإذا أنزل الله تعالى عليه بعد ذلك كتابا آخر وأوقفه على أسراره فذلك هو الغاية القصوى ، والمرتبة العليا في العلم ، والفهم والإحاطة بالأسرار العقلية والشرعية ، والاطلاع على الحكم العلوية والسفلية ، فهذا ما عندي في ترتيب هذه الألفاظ الأربعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 47.48 ﴾

(148/118)

قال الآلوسى :

﴿ الكتاب ﴾ مصدر بمعنى الكتابة أي يعلمه الخط باليد قاله ابن عباس وإليه ذهب ابن جريج ، وروي عنه أنه قال : أعطى الله تعالى عيسى عليه السلام تسعة أجزاء من الخط وأعطى سائر الناس جزءاً واحداً ، وذهب أبو علي الجبائي إلى أن المراد بعض الكتب

التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه عليهم السلام سوى التوراة والإنجيل مثل الزبور وغيره ، وذهب كثيرون إلى أن أل فيه للجنس والمراد جنس الكتب الإلهية إلا أن المأثور هو الأول ، والقول بأن المراد بالكتاب الجنس لكن في ضمن فردين هما التوراة والإنجيل ، وتجعل الواو فيما بعد زائدة مقحمة وما بعدها بدلاً أو عطف بيان من الهذيان بمكان . وقرأ أهل المدينة وعاصم ويعقوب وسهل ويعلمه بالياء ، والباقون بالنون قيل : وعلى ذلك لا يحسن بعض تلك الوجوه إلا بتقدير القول أي إن الله يبشرك بعيسى ويقول : نعلمه أو وجيهاً ومقولاً فيه نعلمه الكتاب ﴿ والحكمة ﴾ أي الفقه وعلم الحلال والحرام قاله ابن عباس وقيل : جميع ما علمه من أمور الدين ، وقيل : سنن الأنبياء عليهم السلام ، وقيل : الصواب في القول والعمل ، وقيل : إتقان العلوم العقلية ، وقد تقدم الكلام على ذلك .

﴿ والتوراة ﴾ أفردا بالذكر على تقدير أن يراد بالكتاب ما يشملهما لوفور فضلهما وسمو شأوهما على غيرهما ، وتعليمه ذلك قيل : بالإلهام ، وقيل : بالوحي ، وقيل : بالتوفيق والهداية للتعلم ، وقد صح أنه عليه السلام لما ترعرع وفي رواية الضحاك عن ابن عباس لما بلغ سبع سنين أسلمته أمه إلى المعلم لكن الروايات متضافرة أنه جعل يسأل المعلم كلما ذكر له شيئاً عما هو بمعزل عن أن ينبض فيه ببنت شفة ، وذلك يؤيد أن علمه محض موهبة إلهية وعطية ربانية ، وذكر الإنجيل لكونه كان معلوماً عند الأنبياء والعلماء متحققاً لديهم أنه سينزل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 166 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ الكتاب ﴾ يعني كتب الأنبياء .

وهذا قول الكلبي .

(149/118)

وقال مقاتل : يعني الخط والكتابة ، فعلّمه الله بالوحي والإلهام .

﴿ والحكمة ﴾ يعني الفقه ﴿ والتوراة والإنجيل ﴾ يعني يحفظ التوراة عن ظهر قلبه .

وقال بعضهم : وهو عالم بالتوراة .

وقال بعضهم : ألهمه الله بعدما كبر حتى تعلم في مدة يسيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 239 ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ الكتاب ﴾ هو الخط باليد فهو مصدر كتب يكتب . هذا قول ابن جريج وجماعة المفسرين ، وقال بعضهم : هي إشارة إلى كتاب منزل لم يعين وهذه دعوى لا حجة عليها . ، وأما ﴿ الحكمة ﴾ ، فهي السنة التي يتكلم بها الأنبياء ، في الشرعيات ، والمواعظ ، ونحو ذلك ، مما لم يوح إليهم في كتاب ولا بملك ، لكنهم يلهمون إليه وتقوى غرائزهم عليه ، وقد

عبر بعض العلماء عن ﴿ الحكمة ﴾ بأنها الإصابة في القول والعمل ، فذكر الله تعالى في هذه الآية أنه يعلم عيسى عليه السلام الحكمة ، والتعليم متمكن فيما كان من الحكمة بوحي أو مأثوراً عمن تقدم عيسى من نبي وعالم ، وأما ما كان من حكمة عيسى الخاصة به فإنما يقال فيها يعلمه على معنى يهيىء غريزته لها ويقدره ويجعله يتمرن في استخراجها ويجري ذهنه إلى ذلك ، و ﴿ التوراة ﴾ هي المنزلة على موسى عليه السلام ، ويروى أن عيسى كان يستظهر التوراة وكان أعمل الناس بما فيها ، ويروى أنه لم يحفظها عن ظهر قلب إلا أربعة ، موسى ويوشع بن نون وعزير وعيسى عليهم السلام ، وذكر ﴿ الإنجيل ﴾ لمريم وهو ينزل – بعد – لأنه كان كتاباً مذكوراً عند الأنبياء والعلماء وأنه سيزل . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 438 ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ الكتاب ﴾ الكتبة أو جنس الكتب المنزلة . (1)

وخص الكتابان لفضلهما . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 41 ﴾

---

(1) وما الذى يمنع أن يكون المراد من الكتاب القرآن الكريم ومن الحكمة سنة رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وقد ورد هذا المعنى فى أكثر من موضع عند اقتران الكتاب بالحكمة ، ويؤيد هذا المعنى أن عيسى . عليه السلام . سينزل آخر الزمان قبيل الساعة ويقتل الدجال ولن يأتى بشرع جديد وإنما يحكم بشريعة رسول الله . صلى الله عليه وسلم .

وإذا كان الأمر كذلك فلابد له من معرفة الكتاب ﴿ القرآن ﴾ والحكمة ﴿ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. والله أعلم بمراد كتابه.

(150/118)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله:

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ﴾

وساعة نسمع ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ ﴾ فنحن نفهم أن المقصود بها الكتاب المنزل، ولكن ما دام الحق قد أتبع ذلك بقوله: ﴿ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ﴾ فلا بد لنا أن نسأل. إذن ما المقصود بالكتاب؟ هل كان المقصود بذلك الكتاب الكتب المتقدمة، كالزبور، والصحف الأولى، كصحف إبراهيم عليه السلام؟ إن ذلك قد يكون صحيحا، ومعنى ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ ﴾ أن الحق قد علمه ما نزل قبله من زبور داود، ومن صحف إبراهيم، وبعد ذلك توراة موسى الذي جاء عيسى مكملا لها.

وبعض العلماء قد قال: أُثِرَ عن عيسى عليه السلام أن تسعة أعشار جمال الخط كان في يده. وبذلك يمكن أن نفهم ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ ﴾ أي القدرة على الكتابة. وما المقصود

بقوله : إن عيسى عليه السلام تلقى عن الله بالإضافة إلى ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ ﴾ أنه تعلم أيضا ﴿ الْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ﴾ وكلمة الحكمة عادة تأتي بعد كتاب منزل ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ﴾ [الأحزاب : 34] .

(151/118)

كتاب الله المقصود هنا هو القرآن الكريم ، والحكمة هي كلام الرسول عليه الصلاة والسلام . فالرسول له كلام يتلقاه ويبلغه ، ويعطيه الحق أيضا أن يقول الحكمة ، أما التوراة التي علمها الله لعيسى عليه السلام فقد علمها له الله ، لأننا كما نعلم أن مهمة عيسى عليه السلام جاءت لتكمل التوراة ، ويكمل ما أنقصه اليهود من التوراة ، فالتوراة أصل من أصول التشريع لعصره والمجتمع المبعوث إليه فهو بالنص القرآني : ﴿ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1470 . 1471 ﴾

(152/118)

" فصل "

قال السيوطى :

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (46) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (47)

أخرج ابن جرير وابن المنذر من طريق ابن جريج قال : بلغني عن ابن عباس قال : ﴿ المهد ﴾ مضجع الصبي في رضاعه .

وأخرج البخاري وابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى عليه السلام ، وكان من بني إسرائيل رجل يقال له جريج كان يصلي فجاءته أمه فدعته فقال : أجيبها أو أصلي ؟ فقالت : اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات . وكان جريج في صومعته ، فتعرضت له امرأة وكلمته فأبى ، فأتت راعياً فامكنته من نفسها ، فولدت غلاماً فقالت : من جريج0000 فأتوه فكسروا صومعته ، وانزلوه وسبوه ، فتوضأ وصلى ، ثم أتى الغلام فقال : من أبوك يا غلام ؟ قال : الراعي0000فقالوا له : نبني صومعتك من ذهب قال : لا . إلا من طين .

وكانت امرأة ترضع ابناً لها من بني اسرائيل فمر بها رجل راكب ذو شارة فقالت : اللهم اجعل ابني مثله . فترك ثديها واقبل على الراكب فقال : اللهم لا تجعلني مثله . ثم أقبل على

ثديها يمصه ، ثم مرا بأمة تجزر ويلعب بها فقالت : اللهم لا تجعل ابني مثل هذه . فترك ثديها فقال : اجعلني مثلها فقالت : لم ذاك0000 ؟ ! فقال : الراكب جبار من الجبابرة ، وهذه الأمة يقولون لها زنَيْت وتقول حسبي الله ، ويقولون سرَقْتِ وتقول حسبي الله .

وأخرج أبو الشيخ والحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم يتكلم في المهد إلا عيسى ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وابن ماشطة فرعون " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ ويكلم الناس في المهد وكهلاً ﴾ قال : يكلمهم صغيراً وكبيراً .

(153/118)

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس ﴿ وكهلاً ﴾ قال : في سن كهل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : " الكهل " الحليم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي حبيب قال : " الكهل " منتهى الحلم .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في الآية قال : قد كلمهم عيسى عليه السلام في المهد ،

وسيكلمهم إذا أقبل الدجال ، وهو يومئذ كهل .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير قال ﴿ كذلك الله يخلق ما يشاء ﴾ أي يصنع ما أراد ، ويخلق ما يشاء من بشر ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ مما يشاء ، فيكون كما أراد .

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (48)

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ويعلمه الكتاب ﴾ قال : الخط بالقلم .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج ﴿ ويعلمه الكتاب ﴾ قال : بيده .

وأخرج ابن المنذر بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال : عندما ترعرع عيسى جاءت به أمه إلى الكتاب فدفعته إليه فقال : قل بسم . قال عيسى : الله . فقال المعلم : قل الرحمن . قال عيسى : الرحيم فقال المعلم : قل أبو جاد . قال : هو في كتاب . فقال عيسى : أتدري ما ألف ؟ قال : لا . قال الآء الله . أتدري ما باء ؟ قال : لا . قال : بهاء الله . أتدري ما جيم ؟ قال : لا . قال جلال الله . أتدري ما اللام ؟ قال : لا . قال : آلاء الله . فجعل يفسر على هذا النحو .

فقال المعلم : كيف أعلم من هو أعلم مني ؟ ! قالت : فدعه يقعد مع الصبيان . فكان يخبر الصبيان بما يأكلون ، وما تدخر لهم أمهاتهم في بيوتهم .

وأخرج ابن عدي وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري وابن مسعود مرفوعاً " قال : إن عيسى ابن مريم أسلمته أمه إلى الكتاب ليعلمه فقال له المعلم : اكتب بسم الله قال له عيسى : وما بسم ؟ قال له المعلم : ما أدري ؟ ! قال له عيسى : الباء بهاء الله ، والسين سناؤه ، والميم مملكته ، والله إله الآلهة ، والرحمن رحمن الآخرة والدنيا ، والرحيم رحيم الآخرة . أبو جاد : الألف . الآء الله ، والباء بهاء الله ، جيم جلال الله ، دال الله الدائم . هوَّز : الهاء الهاوية ، واو ويلٌ لأهل النار واد في جهنم ، زاي زين أهل الدنيا ، حطي ، حاء الله الحكيم ، طاء الله الطالب لكل حق يرده ، أي أهل النهار وهو الوجع . كلمن : الكاف الله الكافي ، لام : الله القائم ، ميم ، الله المالك ، نون الله البحر ، سعفص : سين ، السلام ، صاد الله الصادق ، عين الله العالم ، فاء الله ذكر كلمة صاد الله الصمد .

قرشت قاف الجبل المحيط بالدنيا الذي اخضرت منه السماء ، راء رياء الناس بها ، سين ستر الله ، تاء تمت أبداً . قال ابن عدي : هذا الحديث باطل بهذا الإسناد لا يرويه غير اسمعيل بن يحيى .

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر من طريق جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس ، أن عيسى ابن مريم أمسك عن الكلام بعد إذ كلمهم طفلاً حتى بلغ ما يبلغ الغلمان ، ثم أنطقه الله بعد ذلك بالحكمة والبيان ، فأكثر اليهود فيه وفي أمه من قول الزور ، فكان

عيسى يشرب اللبن من أمه ، فلما فطم أكل الطعام ، وشرب الشراب ، حتى بلغ سبع سنين أسلمته أمه لرجل يعلمه كما يعلم الغلمان ، فلا يعلمه شيئاً إلا بدره عيسى إلى عمله قبل أن يعلمه إياه .

فعلمه أبا جاد فقال عيسى : ما أبو جاد ؟ قال المعلم : لا أدري ! فقال عيسى : فكيف تعلمني ما لا تدري ؟ ! فقال المعلم : إذن فعلمني .

(155/118)

قال له عيسى : فقم من مجلسك فقام ، فجلس عيسى مجلسه فقال عيسى :

سلني000فقال المعلم : فما أبو أبجد ؟ فقال عيسى : الألف آلآء الله ، باء بهاء الله ، جيم بهجة وجماله . فعجب المعلم من ذلك ، فكان أول من فسر أبجد عيسى ابن مريم عليه السلام .

قال وسأل عثمان بن عفان رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " يا رسول الله ما تفسير أبي جاد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعلموا تفسير أبي جاد فإن فيه الأعاجيب كلها ، ويل لعالم جهل تفسيره . فقيل يا رسول الله وما تفسير أبي جاد ؟ قال : الألف آلاء الله ، والباء بهجة الله وجلاله ، والجيم مجد الله ، والدال دين الله " .

هوَّز الهاء الهاوية ويل لمن هوى فيها ، والواو ويل لأهل النار ، والزاي الزاوية يعني زوايا جهنم .

حطي : الحاء حط خطايا المستغفرين في ليلة القدر وما نزل به جبريل مع الملائكة إلى مطلع الفجر ، والطاء طوبى لهم وحسن مآب وهي شجرة غرسها الله بيده ، والياء يد الله فوق خلقه . كلمن : الكاف كلام الله لا تبديل لكلماته ، واللام إلمام أهل الجنة بينهم بالزيارة والتحية والسلام وتلاوم أهل النار بينهم ، والميم ملك الله الذي لا يزول ودوام الله الذي لا يفنى ، ونون ﴿ نون والقلم وما يسطرون ﴾ [القلم : 1-2] صعفص : الصاد صاع بصاع ، وقسط بقسط ، وقص بقص ، يعني الجزاء بالجزاء ، وكما تدين تدان ، والله لا يريد ظلماً للعباد .

قرشت : يعني قرشهم فجمعهم يقضي بينهم يوم القيامة وهم لا يظلمون .

ذكر نبذ من حكم عيسى عليه السلام .

أخرج ابن المبارك في الزهد أخبرنا ابن عيينة عن خلف بن حوشب قال : قال عيسى عليه السلام للحواريين : كما ترك لكم الملوك الحكمة فكذلك اتركوا لهم بالدنيا .

وأخرج ابن عساكر عن يونس بن عبيد قال : كان عيسى ابن مريم عليه السلام يقول : لا يصيب أحد حقيقة الإيمان حتى لا يبالي من أكل الدنيا .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وأحمد في الزهد عن ثابت البناني قال : قيل لعيسى عليه السلام لو اتخذت حماراً تركبه لحاجتك ؟ فقال : أنا أكرم على الله من أن يجعل لي شيئاً يشغلني به .

وأخرج ابن عساكر عن مالك بن دينار قال : قال عيسى : معاشر الحواريين إن خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ، ويباعدان من زهرة الدنيا .

وأخرج ابن عساكر عن عتبة بن يزيد قال : قال عيسى ابن مريم : يا ابن آدم الضعيف اتّق الله حيثما كنت ، وكل كسرتك من حلال ، واتخذ المسجد بيتاً ، وكن فيه الدنيا ضعيفاً ، وعوّد نفسك البكاء ، وقلبك التفكر ، وجسدك الصبر ، ولا تهتم برزقك غداً فإنها خطيئة تكتب عليك .

وأخرج ابن أبي الدنيا والأصبهاني في الترغيب عن محمد بن مطرف . أن عيسى قال : فذكره .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن وهيب المكي قال : بلغني أن عيسى عليه السلام قال : أصل كل خطيئة حب الدنيا . ورب شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً .

وأخرج ابن عساكر عن يحيى بن سعيد قال : كان عيسى يقول : اعبروا الدنيا ولا تعمروها ، وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، والنظر يزرع في القلب الشهوة .

وأخرج أحمد والبيهقي في شعب الإيمان عن سفيان بن سعيد قال : كان عيسى عليه السلام يقول : حب الدنيا أصل كل خطيئة ، والمال فيه داء كبير . قالوا : وما داؤه ؟ قال : لا يسلم من الفخر والخيلاء . قالوا : فإن سلم ؟ قال : يشغله اصلاحه عن ذكر الله .

وأخرج ابن المبارك عن عمران الكوفي قال : قال عيسى ابن مريم للحواريين : لا تأخذوا ممن تعلمون الأجر الأمثل الذي أعطيتموني ، ويا ملح الأرض لا تفسدوا فإن كل شيء إذا فسد فإنما يداوى بالملح ، وإن الملح إذا فسد فليس له دواء ، واعلموا أن فيكم خصلتين من الجهل : الضحك من غير عجب ، والصبيحة من غير سهر .

وأخرج الحكيم الترمذي عن يزيد بن ميسرة قال : قال عيسى عليه السلام : بالقلوب الصالحة يعمر الله الأرض ، وبها يخرب الأرض إذا كانت على غير ذلك .

(157/118)

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن مالك بن دينار قال : كان عيسى ابن مريم عليه السلام إذا مر بدار وقد مات أهلها وقف عليها فقال : ويح لأربابك الذين يتوارثونك كيف لم يعتبروا فعلك باخوانهم الماضين ؟ !

وأخرج البيهقي عن مالك بن دينار قال : قالوا لعيسى عليه السلام يا روح الله ألا نبني لغ بيتا

؟ قال : بلى . ابنوه على ساحل البحر قالوا : إذن يجيء الماء فيذهب به قال : أين تريدون ؟ تبنون لي على القنطرة ؟

وأخرج أحمد في الزهد عن بكر بن عبد الله قال : فقد الحواريون عيسى عليه السلام فخرجوا يطلبونه فوجدوه يمشي على الماء فقال بعضهم : يا نبي الله أنمشي إليك ؟ قال : نعم . فوضع رجله ثم ذهب يضع الأخرى فانغمس فقال : هات يدك يا قصير الإيمان . لو أن لابن آدم مثقال حبة أو ذرة من اليقين إذن لمشى على الماء .

وأخرج أحمد عن عبد الله بن نمير قال : سمعت أن عيسى عليه السلام قال : كانت ولم أكن ، وتكون ولا أكون فيها .

وأخرج أحمد عن مالك بن دينار قال : لما بعث عيسى عليه السلام اكب الدنيا على وجهها ، فلما رفع رفعها الناس بعده .

وأخرج عبد الله ابنه في زوائده عن الحسن قال : قال عيسى عليه السلام : إني اكببت الدنيا لوجهها ، وقعدت على ظهرها ، فليس لي ولد يموت ، ولا بيت يخرب . قالوا له : أفلا تتخذ لك بيتاً قال : ابنوا لي على سبيل الطريق بيتاً قالوا : لا يثبت ! قالوا : أفلا تتخذ لك زوجة ؟ قال : ما أصنع بزوجة تموت ؟

وأخرج أحمد عن خيثمة قال : مرت امرأة على عيسى عليه السلام فقالت : طوبى لثدي أرضعك ، وحجر حملك .

فقال عيسى عليه السلام : طوبى لمن قرأ كتاب الله ثم عمل بما فيه .

وأخرج أحمد عن وهب بن منبه قال : أوحى الله إلى عيسى عليه الصلاة والسلام : إني وهبت لك حب المساكين ورحمتهم ، تحبهم ويحبونك ، ويرضون بك إماماً وقائداً ، وترضى بهم صحابة وتبعاً ، وهما خلقان .

اعلم أن من لقيني بهما لقيني بأزكى وأحبها إليّ .

(158/118)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن ميمون بن سياه قال : قال عيسى ابن مريم : يا معشر الحواريين اتخذوا المساجد مساكن ، واجعلوا بيوتكم كمنازل الأضياف . فما لكم في العالم من منزل ، إن أنتم الا عابري سبيل .

وأخرج أحمد عن وهب بن منبه أن عيسى عليه السلام قال : بحق أن أقول لكم أن أكناف السماء لخالية من الأغنياء ، ولدخول جمل في سم الخياط أيسر من دخول غني الجنة .

وأخرج عبد الله في زوائده عن جعفر بن حرفاس أن عيسى ابن مريم قال : رأس الخطيئة حب الدنيا ، والخمر مفتاح كل شر ، والنساء حبالة الشيطان .

وأخرج أحمد عن سفيان قال : قال عيسى عليه السلام : إن للحكمة أهلاً . فإن وضعتها

في غير أهلها أضعتها ، وإن منعتها من أهلها ضيعتها . كن كالطبيب يضع الدواء حيث ينبغي .

وأخرج أحمد عن محمد بن واسع أن عيسى ابن مريم قال يا بني إسرائيل إني أعيذكم بالله أن تكونوا عاراً على أهل الكتاب . يا بني إسرائيل قولكم شفاء يذهب الداء ، وأعمالكم داء لا تقبل الدواء .

وأخرج أحمد عن وهب قال : قال عيسى لاحبار بني إسرائيل : لا تكونوا للناس كالذئب السارق ، وكالثعلب الخدوع ، وكالحدأ الخاطف .

وأخرج أحمد عن مكحول قال : قال عيسى ابن مريم : يا معشر الحواريين أيكم يستطيع أن يبني على موج البحر داراً ؟ قالوا : يا روح الله ومن يقدر على ذلك ! قال : إياكم والدنيا فلا تتخذوها قراراً .

وأخرج أحمد عن زياد أبي عمرو قال : بلغني أن عيسى عليه السلام قال : إنه ليس بنافعك أن تعلم ما لم تعلم ، ولما تعلم بما قد علمت . إن كثرة العلم لا تزيد إلا كبراً إذا لم تعمل به .

وأخرج أحمد عن إبراهيم بن الوليد العبدي قال : بلغني أن عيسى عليه الصلاة والسلام قال : الزهد يدور في ثلاثة أيام : أمس خلا وعظت به ، واليوم زادك فيه ، وغدا لا تدري ما لك فيه . قال والأمر يدور على ثلاثة : أمر بأن لك رشده فاتَّبِعْهُ ، وأمر بان لك غِيَّهُ فاجْتَنِبْهُ ، وأمر أشكل عليك فَكِلْهُ إلى الله عز وجل .

وأخرج أحمد عن قتادة قال : قال عيسى عليه الصلاة والسلام : سلوني فإن قلبي لين ، وإني صغير في نفسي .

وأخرج أحمد عن بشير الدمشقي قال : مر عيسى عليه الصلاة والسلام بقوم فقال : اللهم اغفر لنا ثلاثاً فقالوا : يا روح الله انا نريد أن نسمع منك اليوم موعظة ، ونسمع منك شيئاً لم نسمعه فيما مضى ؟ فأوحى الله إلى عيسى أن قل لهم "إني من أغفر له مغفرة واحدة أصلح له بها دنياه وآخرته " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن خيثمة قال : كان عيسى عليه السلام إذا دعا القراء قام عليهم ثم قال : هكذا اصنعوا بالقراء .

وأخرج أحمد عن يزيد بن ميسرة قال : قال عيسى عليه السلام : إن أحببتم أن تكونوا أصفياء الله ، ونور بني آدم من خلقه فاعفوا عمن ظلمكم ، وعودوا من لا يعودكم ، واحسنوا إلى من لا يحسن إليكم ، وأقرضوا من لا يجزيكم .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن عبيد بن عمير ، أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يلبس الشعر ، ويأكل من ورق الشجر ، ويبيت حيث أمسى ، ولا يرفع غداء ولا عشاء

لغد ، ويقول : يأتي كل يوم برزقه .

وأخرج أحمد عن وهب قال : قال عيسى ابن مريم : يا دار تخربين ويفنى سكانك ، ويا نفس اعملي ترزقي ، ويا جسد انصب تسترح .

وأخرج أحمد عن وهب ابن منبه قال : قال عيسى ابن مريم للحواريين : بحق أقول لكم – وكان عيسى عليه الصلاة والسلام كثيراً ما يقول بحق – أقول لكم : إن أشدكم حباً للدنيا أشدكم جزعاً على المصيبة .

وأخرج أحمد عن عطاء الأزرق قال : بلغنا أن عيسى عليه الصلاة والسلام قال : يا معشر الحواريين كلوا خبز الشعير ، ونبات الأرض ، والماء القراح ، وإياكم وخبر البر ، فإنكم لا تقومون بشكره ، واعلموا أن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة ، واشد مرارة الدنيا حلاوة الآخرة .

وأخرج ابنه في زوائده عن عبد الله بن شوذب قال : قال عيسى ابن مريم : جودة الثياب من خيلاء القلب .

وأخرج أحمد عن سفيان قال : قال عيسى عليه الصلاة والسلام : إني ليس أحدثكم لتعجبوا إنما أحدثكم لتعلموا .

وأخرج ابنه عن أبي حسان قال : قال عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : كن كالطبيب العالم يضع دواءه حيث ينفع .

وأخرج ابنه عن عمران بن سليمان قال : بلغني أن عيسى ابن مريم قال : يا بني إسرائيل تهاونوا بالدنيا تَهُن عليكم ، وأهينوا الدنيا تكرم الآخرة عليكم ، ولا تكرموا الدنيا فتهون الآخرة عليكم ، فإن الدنيا ليست بأهل الكرامة ، وكل يوم تدعو للفتنة والخسارة .

وأخرج ابن المبارك وأحمد عن أبي غالب قال في وصية عيسى عليه الصلاة والسلام : يا معشر الحواريين تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصي ، وتقربوا إليه بالمقت لهم ، والتمسوا رضاه بسخطهم . قالوا : يا نبي الله فمن نجالس ؟ قال : جالسوا من يزيد في علمكم منطقه ، ومن يذكركم الله رؤيته ، ويزهدكم في الدنيا عمله .

وأخرج أحمد عن مالك بن دينار قال : أوحى الله إلى عيسى " عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس ، وإلا فاستحي مني " .

وأخرج أحمد عن وهب قال : قال عيسى للحواريين : بقدر ما تنصبون ههنا تستريحون ههنا ، وبقدر ما تستريحون ههنا تنصبون ههنا .

وأخرج ابن المبارك وأحمد عن سالم بن أبي الجعد قال : قال عيسى عليه الصلاة والسلام :

طوبى لمن خزن لسانه ، ووسعه بيته ، وبكى من ذكر خطيئته .

وأخرج ابن المبارك وابن شيبة وأحمد عن هلال بن يساف قال : كان عيسى يقول : إذا تصدق أحدكم بيمينه فليخفها عن شماله ، وإذا صام فلْيَدَّهِنْ وليمسح شفتيه من دهنه حتى ينظر إليه الناظر فلا يرى أنه صائم ، وإذا صلى فليدن عليه ستر بابه فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق .

(161/118)

وأخرج أحمد وابن أبي الدنيا عن خالد الربعي قال : ثبت أن عيسى عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه : أرأيتم لو أن أحدكم أتى على أخيه المسلم وهو نائم وقد كشفت الريح بعض ثوبه ؟ فقالوا : إذا كنا نرده عليه قال : لا . بل تكشفون ما بقي ، مثل ضربه للقوم يسمعون الرجل بالسيئة فيذكرون أكثر من ذلك .

وأخرج أحمد عن أبي الجلد قال : قال عيسى ابن مريم : فكرت في الخلق فإذا من لم يخلق كان أغبط عندي ممن خلق . وقال : لا تنظروا إلى ذنوب الناس كأنكم أرباب ولكن انظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد . والناس رجلان : مبتلى ، ومعافى ، فارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن أبي الهذيل قال : لقي عيسى يحيى فقال : أوصني قال : لا تغضب قال : لا أستطيع قال : لا تقتن مالا قال : أما هذا لعله .

وأخرج أحمد وابن أبي الدنيا عن مالك بن دينار قال : مر عيسى عليه السلام والحواريون رضي الله تعالى عنهم على جيفة كلب فقالوا : ما أنتن هذا ! فقال : ما أشد بياض أسنانه . يعظهم وينهاهم عن الغيبة .

وأخرج أحمد عن الأوزاعي قال : كان عيسى يحب العبد يتعلم المهنة يستغني بها عن الناس ، ويكره العبد يتعلم العلم يتخذه مهنة .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن أبي الدنيا عن سالم بن أبي الجهد قال : قال عيسى عليه السلام : اعملوا لله ولا تعملوا لبطونكم . انظروا إلى هذا الطير يغدو ويروح لا يحرث ، ولا يحصد ، الله تعالى يرزقها . فإن قلتم نحن أعظم بطوناً من الطير فانظروا إلى هذه الأباقر من الوحش والحمر ، تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد ، الله تعالى يرزقها . اتقوا فضول الدنيا فإن فضول الدنيا عند الله رجز .

وأخرج عن وهب قال: إن إبليس قال لعيسى: زعمت أنك تحيي الموتى فإن كنت كذلك فادع الله أن يرد هذا الجبل خبزاً فقال له عيسى: أوكل الناس يعيشون بالخبز؟ قال: فإن كنت كما تقول فثب من هذا المكان فإن الملائكة ستلقاك قال: إن ربي أمرني لا أجرب نفسي، فلا أدري هل يسلمني أم لا.

وأخرج أحمد عن سالم بن أبي الجعد أن عيسى ابن مريم كان يقول: للسائل حق وإن أتاك على فرس مطوق بالفضة.

وأخرج عن بعضهم قال أوحى الله إلى عيسى: إن لم تطب نفسك أن تصفك الناس بالزاهد فيَّ لم أكتبك عندي راهباً، فما يضرك إذا بغضك الناس وأنا عنك راض، وما ينفعك حب الناس وأنا عليك ساخط؟

وأخرج أحمد عن الحضرمي وابن أبي الدنيا وابن عساكر عن فضيل بن عياض قالا: قيل لعيسى ابن مريم بأي شيء تمشي على الماء؟ قال: بالإيمان واليقين قالوا: فانا آمنا كما آمنت، وأيقنا كما أيقنت. قال: فامشوا اذن. فمشوا معه فجاء الموج فغرقوا، فقال لهم عيسى: ما لكم؟ قالوا: خفنا الموج قال: الا خفتم رب الموج فاخرجهم ثم ضرب بيده إلى الأرض فقبض بها ثم بسطها، فإذا في احدى يديه ذهب وفي الأخرى مدر فقال: أيهما أحلى في قلوبكم؟ قالوا: الذهب قال: فانهما عندي سواء.

وأخرج ابن المبارك وابن أبي شيبة وأحمد وابن عساكر عن الشعبي قال: كان عيسى ابن

مريم إذا ذكر عنده الساعة صاح ويقول : لا ينبغي لابن مريم إذا تذكر عنده الساعة فيسكت .

وأخرج أحمد وابن عساكر عن مجاهد قال : كان عيسى عليه السلام يلبس الشعر ، ويأكل الشجر ، ولا يخبئ اليوم لغد ، ويبيت حيث آواه الليل . ولم يكن له ولد فيموت ، ولا بيتّ فيخرب .

(163/118)

وأخرج ابن عساكر عن الحسن : أن عيسى رأس الزاهدين يوم القيامة ، وأن الفرارين بدينهم يحشرون يوم القيامة مع عيسى ابن مريم ، وأن عيسى مر به إبليس يوماً وهو متوسد حجراً وقد وجد لذة النوم فقال له إبليس : يا عيسى أليس تزعم أنك لا تريد شيئاً من عرض الدنيا فهذا الحجر من عرض الدنيا ؟ فقام عيسى فأخذ الحجر فرمى به وقال : هذا لك في الدنيا .

وأخرج ابن عساكر عن كعب ، أنّ عيسى كان يأكل الشعير ، ويمشي على رجليه ولا يركب الدواب ، ولا يسكن البيوت ، ولا يستصبح بالسراج ، ولا يلبس القطن ، ولا يمس النساء ، ولم يمس الطيب ، ولم يمزج شرابه بشيء قط ، ولم يبرده ، ولم يدهن رأسه قط ، ولم

يقرب رأسه ولحيته غسول قط ، ولم يجعل بين الأرض وبين جلده شيئاً قط إلا لباسه ، ولم يهتم لغداء قط ، ولا لعشاء قط ، ولا يشتهي شيئاً من شهوات الدنيا . وكان يجالس الضعفاء والزمنى والمساكين ، وكان إذا قرب إليه الطعام على شيء وضعه على الأرض ، ولم يأكل مع الطعام اداماً قط ، وكان يجتزئ من الدنيا بالقوت القليل ويقول : هذا لمن يموت ويحاسب عليه كثير .

وأخرج ابن عساكر عن الحسن قال : بلغني أنه قيل لعيسى ابن مريم : تزوج قال : وما أصنع بالتزويج ؟ قالوا : تلد لك الأولاد .

قال : الأولاد إن عاشوا أَفْتَنُوا ، وإن ماتوا أَحْزَنُوا .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب عن شعيب بن إسحق قال : قيل لعيسى : لو اتخذت بيتاً قال : يكفينا خلقان من كان قبلنا .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن مسيرة قال : لعيسى : ألا تبني لك بيتاً ؟ قال : لا أترك بعدي شيئاً من الدنيا أذكر به .

وأخرج ابن عساكر عن أبي سليمان قال : بينا عيسى يمشي في يوم صائف وقد مسه الحر والعطش ، فجلس في ظل خيمة ، فخرج إليه صاحب الخيمة فقال : يا عبد الله قم من ظلنا . فقام عيسى عليه السلام ، فجلس في الشمس وقال : ليس أنت الذي أقمتني إنما أقامني الذي لم يرد أن أصيب من الدنيا شيئاً .

وأخرج أحمد عن سفيان بن عيينة قال : كان عيسى ويحيى عليهما السلام يأتيان القرية فيسأل عيسى عليه السلام عن شرار أهلها ، ويسأل يحيى عليه السلام عن خيار أهلها فقال له : لم تنزل عن شرار الناس ؟ قال : إنما أنا طبيب أداوي المرضى .

وأخرج أحمد عن هشام الدستوائي قال : بلغني أن في حكمة عيسى ابن مريم عليه السلام : تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل ، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل ، ويحكم 000 ! علماء السوء . الأجر تأخذون والعمل تضيعون ، توشكون أن تخرجوا من الدنيا إلى ظلمة القبر وضيقه ، والله عز وجل ينهاكم عن المعاصي كما أمركم بالصوم والصلاة . كيف يكون من أهل العلم من دنياه آثر عنده من آخرته وهو في الدنيا أفضل رغبة ؟ كيف يكون من أهل العلم من مسيره إلى آخرته وهو مقبل على دنياه وما يضره أشهى إليه مما ينفعه ؟ كيف يكون من أهل العلم من سخط واحتقر منزلته وهو يعلم أن ذلك من علم الله وقدرته ؟ كيف يكون من أهل العلم من اتهم الله تعالى في قضائه فليس يرضى بشيء أصابه ؟ كيف يكون من أهل العلم من طلب الكلام ليتحدث ولم يطلبه ليعمل به ؟

وأخرج أحمد عن سعيد بن عبد العزيز عن أشياخه ، أن عيسى عليه السلام مرَّ بعقبة أفيق ومعه رجل من حواريه ، فاعترضهم رجل فمنعهم الطريق وقال : لا أترككما تجوزان حتى ألطم كل واحد منكما لطمة ، فحاولاه فأبى إلا ذاك فقال عيسى عليه السلام : أما خدي فالطمه . فلطمه فخلى سبيله وقال للحواري : لا أدعك تجوز حتى ألطمك فتمنع عليه ، فلما رأى عيسى ذاك أعطاه خده الآخر فلطمه ، فخلى سبيلهما فقال عيسى عليه السلام : اللهم إن كان هذا لك رضا فبلغني رضاك ، وإن كان هذا سخطاً فإنك أولى بالعفو .

(165/118)

وأخرج عبد الله ابنه عن علي بن أبي طالب قال : بينما عيسى عليه السلام جالس مع أصحابه مرت به امرأة ؛ فنظر إليها بعضهم فقال له بعض أصحابه : زنيت فقال له عيسى : أرأيت لو كنت صائماً فمررت بشواء فشممته أكنت مفطراً ؟ قال : لا .

وأخرج أحمد عن عطاء قال : قال عيسى : ما أدخل قرية يشاء أهلها أن يخرجوني منها إلا أخرجوني . يعني ليس لي فيها شيء قال : وكان عيسى عليه السلام يتخذ نعلين من لحى الشجر ، ويجعل شراكهما من ليف .

وأخرج أحمد عن سعيد بن عبد العزيز قال : قال المسيح : ليس كما أريد ولكن كما تريد ، وليس كما أشاء ولكن كما تشاء .

وأخرج أحمد عن سعيد بن عبد العزيز قال : بلغني أنه ما من كلمة كانت تقال لعيسى عليه السلام أحب إليه من أن يقال هذا المسكين .

وأخرج ابنه عن ابن حليس قال : قال عيسى : إن الشيطان مع الدنيا ومكره مع المال ، وتزيينه عند الهوى واستكماله عند الشهوات .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن جعفر بن برقان قال : كان عيسى يقول : اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ، ولا أملك نفع ما ارجو ، وأصبح الأمر بيد غيري ، وأصبحت مرتهنا بعملي ، فلا فقير أفقر مني ، فلا تُشْمِت بي عدوّي ، ولا تسيء بي صديقي ، ولا تجعل مصيبتي في ديني ، ولا تُسَلِّطْ عليَّ من لا يرحمني .

وأخرج أحمد عن وهب بن منبه قال : في كتب الحواريين إذا سلك بك سبيل البلاء فاعلم أنه سلك بك سبيل الأنبياء والصالحين ، وإذا سُلِكَ بك سبيل أهل الرخاء فاعلم أنه سُلِكَ بك غير سبيلهم ، وخُولفَ بك عن طريقهم .

وأخرج أحمد عن مالك بن دينار قال : قال عيسى : إنما أبعثكم كالكبَاش تلتقطون خرفان بني إسرائيل ، فلا تكونوا كالذئاب الضواري التي تختطف الناس وعليكم بالخرفان ما لكم تأتون عليكم ثياب الشعر ، وقلوبكم قلوب الخنازير ، البسوا ثياب الملوك ، ولينوا قلوبكم بالخشية . وقال عيسى : يا ابن آدم اعمل باعمال البّر حتى يبلغ عملك عنان السماء ، فإن لم يكن حباً في الله ما اغنى ذلك عنك شيئًا . وقال عيسى للحواريين : إن إبليس يريد أن يبخلكم فلا تقعوا في بخله .

وأخرج أحمد عن الحسن بن علي الصنعاني قال : بلغنا أن عيسى عليه السلام قال : يا معشر الحواريين ادع الله أن يخفف عني هذه السكرة - يعني الموت - ثم قال عيسى : لقد خفت الموت خوفاً مخافتي من الموت على الموت .

وأخرج أحمد عن وهب بن منبه ، أن عيسى عليه السلام كان واقفاً على قبر ومعه الحواريون وصاحب القبر يدلى فيه ، فذكروا من ظلمة القبر ووحشته وضيقه فقال عيسى : قد كنتم فيما هو أضيق منه في أرحام أمهاتكم ، فإذا أحب الله أن يوسع وسّع .

وأخرج أحمد عن وهب قال : قال المسيح عليه السلام : أكثروا ذكر الله ، وحمده ، وتقديسه ، وأطيعوه ، فإنما يكفي أحدكم من الدعاء إذا كان الله تبارك وتعالى راضياً عليه أن يقول : اللهم اغفر لي خطيئتي ، واصلح لي معيشتي ، وعافني من المكاره يا إلهي .

وأخرج أحمد عن أبي الجلد ، أن عيسى عليه السلام قال للحواريين : بحق أقول لكم : ما

الدنيا تريدون ولا الآخرة قالوا : يا رسول الله فسر لنا هذا فقد كنا نرى أنا نريد إحداهما ! قال : لو أردتم الدنيا لأطعتم رب الدنيا الذي مفاتيح جزائنها بيده فاعطاكم ، ولو أردتم الآخرة أطعتم رب الآخرة الذي يملكها فأعطاكم ، ولكن لا هذه تريدون ولا تلك .

(167/118)

وأخرج أحمد عن أبي عبيدة ، أن الحواريين قالوا لعيسى : ماذا نأكل ؟ قال : تأكلون خبز الشعير ، وبقل البرية . قالوا : فماذا نشرب ؟ قال : تشربون ماء القراح. قالوا : فماذا نتوسد ؟ قال : توسدوا الأرض قالوا : ما نراك تأمرنا من العيش إلا بكل شديد ! قال : بهذا تنجون ولا تَحُلّون ملكوت السموات حتى يفعله أحدكم وهو منه على شهوة قالوا : وكيف يكون ذلك ؟ قال : ألم تروا أن الرجل إذا جاع فما أحب إليه الكسرة وان كانت شعيراً ، وإن عطش فما أحب إليه الماء وإن كان قراحاً ، وإذا أطال القيام فما أحب إليه أن يتوسد الأرض .

وأخرج أحمد عن عطاء ، أنه بلغه أن عيسى عليه السلام قال : تَرَجَّ ببلاغة ، وتيقظ في ساعات الغفلة ، واحكم بلطف الفطنة ، لا تكن حَلْساً مطروحاً وأنت حي تتنفس .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن أبي هريرة قال : كان عيسى عليه السلام يقول : يا معشر

الحواريين اتخذوا بيوتكم منازل ، واتخذوا المساجد مساكن ، وكلوا من بقل البرية ، واخرجوا من الدنيا بسلام .

وأخرج أحمد عن إبراهيم التيمي إن عيسى عليه السلام قال : اجعلوا كنوزكم في السماء فإن قلب المرء عند كنزه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن سعيد الجعفي قال : قال عيسى ابن مريم عليه السلام : بيتي المسجد ، وطيبي الماء ، وادامي الجوع ، وشعاري الخوف ، ودابتي رجلاي ، ومصطلاي في الشتاء مشارق الشمس ، وسراجي بالليل القمر ، وجلسائي الزمنى والمساكين ، وامسي وليس لي شيء ، وأُصبحُ وليس لي شيء ، وأنا بخير فمن أغنى مني .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن الفضيل بن عياض قال : قال عيسى : بطحت لكم الدنيا ، وجلستم على ظهرها ، فلا ينازعكم فيها إلا الملوك والنساء . فاما الملوك فلا تنازعوهم الدنيا فإنهم لم يعرضوا لكم دنياهم . وأما النساء فاتقوهن بالصوم والصلاة .

وأخرج ابن عساكر عن سفيان الثوري قال : قال المسيح عليه السلام : إنما تطلب الدنيا لِتُبرَّ فتركها ابرُّ .

وأخرج ابن عساكر عن شعيب بن صالح قال عيسى ابن مريم : والله ما سكنت الدنيا في قلب عبد إلا التاط قلبه منها بثلاث : شغل لا ينفك عناه ، وفقر لا يدرك غناه ، وأمل لا يدرك منتهاه . الدنيا طالبة ومطلوبة . فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه ، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجيء الموت فيأخذ بعنقه .

وأخرج ابن عساكر عن يزيد بن ميسرة قال : قال عيسى ابن مريم : كما توضعون كذلك ترفعون ، وكما ترحمون كذلك ترحمون ، وكما تقضون من حوائج الناس كذلك يقضي الله من حوائجكم .

وأخرج أحمد وابن عساكر عن الشعبي قال : قال عيسى ابن مريم : ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك تلك مكافأة ، إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك .

وأخرج ابن عساكر عن ابن المبارك قال : بلغني أن عيسى ابن مريم مر بقوم فشتموه فقال خيراً . ومر بآخرين فشتموه وزادوا فزادهم خيراً . فقال رجل من الحواريين : كلما زادوك شراً زدتهم خيراً كأنهم تغريهم بنفسك ! فقال عيسى عليه السلام : كل إنسان يعطي ما عنده .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن مالك بن أنس قال : مر بعيسى ابن مريم خنزير فقال : مر بسلام . فقيل له : يا روح الله لهذا الخنزير تقول ! قال : أكره أن أعود لساني الشر .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن سفيان قال : قالوا لعيسى ابن مريم ، دلنا على عمل ندخل به

الجنة قال : لا تنطقوا أبداً قالوا : لا نستطيع ذلك ! قال : فلا تنطقوا إلا بخير .

وأخرج الخرائطي عن إبراهيم النخعي قال : قال عيسى ابن مريم : خذوا الحق من أهل الباطل ولا تأخذوا الباطل من أهل الحق ، كونوا مُنْتَقِدِي الكلام كي لا يجوز عليكم الزيوف .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في الزهد عن زكريا بن عدي قال : قال عيسى ابن مريم : يا معشر الحواريين ارضوا بدني ء الدنيا مع سلامة الدين ، كما رضي أهل الدنيا بدني ء الدين مع سلامة الدنيا .

(169/118)

وأخرج ابن عساكر عن مالك بن دينار قال : قال عيسى ابن مريم عليه السلام : أكل الشعير مع الرماد ، والنوم على المزابل مع الكلاب . لقليل في طلب الفردوس .

وأخرج ابن عساكر عن أنس بن مالك قال : كان عيسى ابن مريم يقول : لا يطيق عبد أن يكون له ربان . أن أرضى أحدهما أسخط الآخر ، وإن أسخط أحدهما أرضى الآخر . وكذلك لا يطيق عبد أن يكون خادماً للدنيا يعمل عمل الآخرة . لا تهتموا بما تأكلون ولا ما تشربون ، فإن الله لم يخلق نفساً أعظم من رزقها ، ولا جسداً أعظم من كسوته فاعتبروا .

وأخرج ابن عساكر عن المقبري ، أنه بلغه أن عيسى ابن مريم كان يقول : يا ابن آدم إذا عملت الحسنة فاله عنها فإنها عند من لا يضيعها ، وإذا عملت سيئة فاجعلها نصب عينك .

وأخرج ابن عساكر عن سعيد بن أبي هلال أن عيسى ابن مريم كان يقول : من كان يظن أن حرصاً يزيد في رزقه فليزد في طوله ، أو في عرضه ، أو في عدد بنانه ، أو تغير لونه . ألا فإن الله خلق الخلق فهيأ الخلق لما خلق ، ثم قسم الرزق فمضى الرزق لما قسم ، فليست الدنيا بمُعطِيَةٍ أحداً شيئاً ليس له ، ولا بِمَانِعَةٍ أحداً شيئاً هو لكم ، فعليكم بعبادة ربكم فانكم خُلِقْتُمْ لها .

وأخرج ابن عساكر عن عمران بن سليمان قال : بلغني أن عيسى ابن مريم عليه السلام قال لأصحابه : إن كنتم إخواني وأصحابي فوطنوا أنفسكم على العداوة والبغضاء من الناس .

وأخرج أحمد والبيهقي عن عبد العزيز بن ظبيان قال : قال المسيح : من تَعَلَّمَ وعمل وعَلَّمَ فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السماء .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن عيسى ابن مريم قام في بني إسرائيل فقال : يا معشر الحواريين لا تُحَدِّثوا بالحكمة غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، والأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين لكم غِيَّهُ فاجتنبوه ، وأمر اخْتُلِفَ عليكم فيه فَرُدُّوا علمه إلى الله تعالى " .

وأخرج ابن عساكر عن عمرو بن قيس الملائي قال : قال عيسى ابن مريم : إن منعت الحكمة أهلها جهلت ، وإن منحتها غير أهلها جهلت . كن كالطبيب المداوي إن رأى موضعاً للدواء وإلا أمسك .

وأخرج عبد الله بن أحمد في الزهد وابن عساكر عن عكرمة قال : قال عيسى ابن مريم للحواريين : يا معشر الحواريين لا تطرحوا اللؤلؤ إلى الخنزير لا يصنع باللؤلؤة شيئاً ، ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها فإن الحكمة خير من اللؤلؤ ، ومن لا يريدها شر من الخنزير .

وأخرج ابن عساكر عن وهب بن منبه قال : قال عيسى : يا علماء السوء جلستم على أبواب الجنة . فلا أنتم تدخلونها ، ولا تدعون المساكين يدخلونها . أن شرّ الناس عند الله عالم يطلب الدنيا بعلمه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سالم بن أبي الجعد قال : قال عيسى ابن مريم عليه السلام : إن مثل حديث النفس بالخطيئة كمثل الدخان في البيت لا يحرقه ، فإنه ينتن ريحه ويغير لونه .

قوله تعالى : ﴿ والتوراة والإنجيل ﴾ .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال : كان عيسى يقرأ التوراة والإنجيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 198 . 214 ﴾

(171/118)

قوله تعالى ﴿ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآَيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (49) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر الكتاب المنزل عليه حسن ذكر الرسالة فقال بعد ما أفاد عظمتها بجعله ما مضى مقدمات لها : ﴿ ورسولاً ﴾ عطفاً على " تاليا " المقدر ، أو ينصب بتقدير : يجعله ﴿ إلى بني إسراءيل ﴾ أي بالإنجيل .

ولما كان ذكر الرسالة موجباً لتوقع الآية دلالة على صحتها ، وكان من شأن الرسول مخاطبة المرسل إليهم وإقباله بجميع رسالته عليهم اتبعه ببيان الرسالة مقروناً بحرف التوقع فقال :

﴿ أني ﴾ أي ذاكراً أني ﴿ قد جئتكم بآية من ربكم ﴾ أي الذي طال إحسانه إليكم ، ثم أبدل من "آية" ﴿ إني أخلق لكم ﴾ أي لأجل تربيتكم بصنائع الله ﴿ من الطين ﴾ قال الحرالي : هو متخمر الماء والتراب حيث يصير متهيئاً لقبول وقع الصورة فيه ﴿ كهيئة ﴾ وهي كيفية وضع أعضاء الصورة بعضها من بعض التي يدركها ظاهر الحس - انتهى وهي الصورة المتهيئة لما يراد منها ﴿ الطير ﴾ ثم ذكر احتياجه في إحيائه إلى معالجة بقوله معقباً للتصوير : ﴿ فأنفخ ﴾ قال الحرالي : من النفخ ، وهو إرسال الهواء من منبعثه بقوة انتهى .

(172/118)

﴿ فيه ﴾ أي في ذلك الذي هو مثل الهيئة ﴿ فيكون طيراً ﴾ أي طائراً بالفعل - كما في قراءة نافع ، وذكر المعالجة لئلا يتوهم أنه خالق حقيقة ، ثم أكد ذلك إزالة لجميع الشبه بقوله : ﴿ بإذن الله ﴾ أي بتمكين الملك الأعظم الذي له جميع صفات الكمال ، له روح كامل لحمله في الهواء تذكيراً بخلق آدم عليه السلام من تراب ، وإشارة إلى أن هذا أعجب من خلق آدمي من أنثى فقط فلا تهلكوا في ذلك .

ولما ذكر ما يشبه أمر آدم عليه السلام أتبعه علاج أجساد أولاده بما يردها إلى معتادها بما يعجز أهل زمانه ، وكان الغلب عليهم الطب وبدأ بأجزائها فقال : ﴿ وأبرىء ﴾ قال

الحرالي : من الإبراء وهو تمام التخلص من الداء ، والداء ما يوهن القوى ويغير الأفعال العامة للطبع والاختيار – انتهى .

﴿ الأكمه والأبرص ﴾ بإيجاد ما فقد منها من الروح المعنوي ؛ والكمه – قال الحرالي – ذهاب البصر في أصل معناه : تلمع الشيء بلمع خلاف ما هو عليه ، ومنه براص الأرض – لبقع لا نبت فيها ، ومنه البريص في معنى البصيص ، فما تلمع من الجلد على غير حاله فهو لذلك برص وقال الحرالي : البرص عبارة عن سور مزاج يحصل بسببه تكرج ، أي فساد بلغم يضعف القوة المغيرة عن إحالته إلى لون الجسد – انتهى .

(173/118)

ولما فرغ من رد الأرواح إلى جزاء الجسم أتبعه رد الروح الكامل في جميعه المحقق لأمر البعث المصور له بإخراجه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة في بعض الآدميين فقال : ﴿ وأحي الموتى ﴾ أي برد أرواحهم إلى أشباحهم ، بعضهم بالفعل وبعضهم بالقوة ، لأن الذي أقدرني على البعض قادر على ذلك في الكل ، وقد أعطاني قوة ذلك ، وهذا كما نقل القضاعي أن الحسن قال : " أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر أنه طرح بنيّة له في وادي كذا ، فمضى معه إلى الوادي وناداها باسمها : يا فلانة ! أجيبي بإذن الله سبحانه وتعالى !

فخرجت وهي تقول : لبيك وسعديك ! فقال لها : إن أبويك قد أسلما فإن أحببت أردك إليهما ، فقالت : لا حاجة لي بهما ، وجدت الله خيراً لي منهما " وقد تقدم في البقرة عند ﴿ أرني كيف تحيي الموتى ﴾ [البقرة : 260] ما ينفع هنا ، وقصة قتادة ابن دعامة في رده صلى الله عليه وسلم عينه بعد أن أصابها سهم فسالت على خده ، فصارت أحسن من أختها شهيرة ، وقصة أويس القرني رحمه الله تعالى في إبراه الله سبحانه وتعالى له من البرص ببرّه لأمه كذلك .

(174/118)

ولما كان ذلك من أمر الإحياء الذي هو من خواص الإلهية وأبطن آيات الملكوتية ربما أورث لبساً في أمر الإله تبرأ منه ورده إلى من هو له ، مزيلاً للبس وموضحاً للأمر فقال مكرراً لما قدمه في مثله معبراً بما يدل على عظمه : ﴿ بإذن الله ﴾ أي بعلمه وتمكينه ، ثم أتبعه ما هو من جنسه في الإخراج من عالم الغيب إلى عالم الشهادة فقال : ﴿ وأنبئكم ﴾ أي من الأخبار الجليلة من عالم الغيب ﴿ بما تأكلون ﴾ أي مما لم أشاهده ، بل تقطعون بأني كنت غائباً عنه ﴿ وما تدخرون ﴾ ولما كان مسكن الإنسان أعز البيوت عنده وأخفى لما يريد أن يخفيه قال : ﴿ في بيوتكم ﴾ قال الحرالي : من الادخار : افتعال من الدخرة ، قلب

حرفاه الدال لتوسط الدال بين تطرفهما في متقابلي حالهما ؛ والدخرة ما اعتنى بالتمسك به عدة لما شأنه أن يحتاج إليه فيه ، فما كان لصلاح خاصة الماسك فهو ادخار ، وما كانت لتكسب فيما يكون من القوام فهو احتكار – انتهى .

ولما ذكر هذه الخوارق نبه على أمرها بقوله : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الأمر العظيم ﴿ لآية لكم ﴾ أي أيها المشاهدون على أني عبد الله ومصطفاه ، فلا تهلكوا في تكويني من أنثى فقط فتطروني ، فإني لم أعمل شيئاً منها إلا ناسباً له إلى الله سبحانه وتعالى وصانعاً فيه ما يؤذن بالحاجة المنافية للإلهية ولو بالدعاء ، وأفرد كاف الخطاب أولاً لكون ما عده ظاهراً لكل أحد على انفراده أنه آية لجميع المرسل إليهم ، وكذا جمع ثانياً قطعاً لتعنت من قد يقول : إنها لا تدل إلا باجتماع أنظار جميعهم – لو جمع الأول ، وإنها ليست آية لكلهم بل لواحد منهم – لو وحد في الثاني ، ولما كانت الآيات لا تنفع مع المعاندات قال : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي مذعنين بأن الله سبحانه وتعالى قادر على ما يريد ، وأهلاً لتصديق ما ينبغي التصديق به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 90. 93 ﴾

فصل

قال الفخر :

في هذه الآية وجوه

الأول : تقدير الآية : ونعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ونبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل ، قائلاً ﴿ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ والحذف حسن إذا لم يفض إلى الاشتباه

الثاني : قال الزجاج : الاختيار عندي أن تقديره : ويكلم الناس رسولاً ، وإنما أضمرنا ذلك لقوله ﴿ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ ﴾ والمعنى : ويكلمهم رسولاً بأني قد جئتكم ،

الثالث : قال الأخفش : إن شئت جعلت الواو زائدة ، والتقدير : ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة ، والإنجيل رسولاً إلى بني إسرائيل ، قائلاً : أني قد جئتكم بآية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 48 ﴾

وقال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَرَسُولاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن صفة - بمعنى مُرْسَل - على " فَعُول " كالصَّبور والشَّكُور .

والثاني : أنه - في الأصل - مصدر ، ومن مَجِيء " رسول " مصدراً قوله : [الطويل]

لَقَدْ كَذَبَ الْوَاشُونَ مَا بُحتُ عِنْدَهُمْ . . . بِسِرٍّ وَلاَ أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ

وقال آخر : [الوافر]

ألاَ أَبْلِغْ أَبَا عَمْرٍو رَسُولاً . . . بِأَنِّي عَنْ فُتَاحَتِكُمْ غَنِيُّ

أي أبلغه رسالة .

ومنه قوله تعالى : " إِنَّا رسُول رَبِّ العالمين " – على أحد التأويلين – أي : إنا ذوا رسالةِ ربِّ العالمينَ . وعلى الوجهين يترتب الكلامُ في إعراب " رَسُولاً " ، فعلى الأول يكون في نصبه ستة أوجهٍ :

أحدها : أن يكون معطوفاً على "يُعَلِّمُهُ" – إذا أعربناه حالاً معطوفاً على " وَجِيهاً " – إذ التقدير وجيهاً ومُعَلِّماً ومُرْسَلاً .

قاله الزمخشريُّ وابنُ عطيةَ .

وقال أبو حيّان : " وقد بيَّنا ضَعْفَ إعرابِ مَنْ يقول : إن " وُيُعَلِّمُهُ " معطوف على " وَجِيهاً " ؛ للفصل المُفْرِط بين المتعاطفَيْن [وهو مبني على إعراب " ويعلمه "] " .

(176/118)

الثاني : أن يكون نَسَقاً على "كَهْلاً" الذي هو حال من الضمير المستتر في " وُيكَلِّمُ " ، أي : يكلم الناسَ طفلاً وكهلاً ومُرْسَلاً إلى بني إسرائيلَ ، وقد جوَّز ذلك ابنُ عطيةَ ، واستبعده أبو حيّان ؛ لطول الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه .

قال شهاب الدين : " ويظهر أن ذلك لا يجوز – من حيث المعنى – إذْ يصير التقدير : يكلم الناس في حال كونه رسولاً إليهم وهو إنما صار رسولاً بعد ذلك بأزمنةٍ " .

فإن قيل: هي حَالٌ مُقَدَّرة، كقولهم: مررت برجلٍ معه صقرٌ صائداً به غداً، وقوله: ﴿ فادخلوها خَالِدِينَ ﴾ [الزمر: 73].

وقيل: الأصل في الحال أن تكون مقارنة، ولا تكون مقدّرة إلا حيث لا لَبْسَ.

الثالث: أن يكون منصوباً بفعل مُضمَرٍ لائقٍ بالمعنى، تقديره: ويجعله رسولاً، لما رأوه لا يصح عطفه على مفاعيل التعليم أضمروا له عاملاً يناسب. وهذا كما قالوا في قوله: ﴿ والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان ﴾ [الحشر: 9] وقوله: [مجزوء الكامل]

يَا لَيْتَ زَوْجَكِ قَدْ غَدَا . . . مُتَقَلِّداً سيْفاً وَرُمْحَا

وقول الآخر: [الكامل]

فَعَلَفْتُهَا تِبْناً وَمَاءً بَارِداً . . . .

وقول الآخر: [الوافر]

. . . . وَزَجَّجْنَ الْحَوَاجِبَ وَالْعُيُونَا

أي: واعتقدوا الإيمانَ، وحاملاً رُمْحاً، وسيقتها ماءً بارداً، وكَحَّلْنَ العيون.

وهذا على أحد التأويلين في هذه الأمثلة.

الرابع: أن يكون منصوباً بإضمار فعل من لفظ "رسول" ويكون ذلك الفعل معمولاً لقول مُضْمَرٍ - أيضاً - هو من قول عيسى.

الخامس : أن الرسول – فيه بمعنى النطق ، فكأنه قيل : وناطقاً بأني قد جئتكم ، ويوضِّحُ هذين الوجهين الأخيرين ، ما قاله الزمخشريُّ : " فإن قلت : عَلاَمَ تَحْمِل " وَرَسُولاً " و " مُصَدِّقاً " من المنصوبات المتقدمة ، وقوله : ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ ﴾ و ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يأبى حَمله عليها ؟

قلت : هو من المضايق ، وفيه وجهان :

أحدهما : أن يُضمر له " وأرسَلْت " – على إرادة القول – تقديره : ويعلمه الكتاب والحكمة ، ويقول : أرسلت رسولاً بأني قد جئتكم ، ومصدقاً لما بين يديَّ.

الثاني : أن الرسول والمصدِّق فيهما معنى النطق ، فكأنه قيل : وناطقاً بأني قد جئتكم ، ومصدقاً لما بين يدي " . اه .

إنما احتاج إلى إضمار ذلك كُلِّه تصحيحاً للمعنى واللفظ ، وذلك أن ما قبله من المنصوبات ، لا يصح عطفه عليه في الظاهر ؛ لأن الضمائر المتقدمة غُيَّب ، والضميرانِ المصاحبانِ لهذين المنصوبين في حُكْم المتكلم ؛ فاحتاج إلى ذلك التقدير ؛ ليناسب الضمائر .

وقال أبو حيان : " وهذا الوجه ضعيف ؛ إذْ فيه إضمارُ القَوْلِ ومعموله – الذي هو أرسلت – والاستغناء عنهما باسمٍ منصوبٍ على الحال المؤكِّدة ، إذْ يُفْهَم من قوله : وأرسلت ، أنه رسول ، فهي – على هذا – حال مؤكِّدة " .

واختار أبو حيّان الوجه الثالث ، قال : " إذْ ليس فيه إلا إضمار فعل يدل عليه المعنى – ويكون قوله : ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ ﴾ معمولاً لـ " رَسُولاً " أي : ناطقاً بأني قد جئتكم ، على قراءة الجمهور " .

الثالث : أن يكون حالاً من مفعول " ويُعَلِّمُهُ " وذلك على زيادة الواو – كأنه قيل : ويعلمه الكتاب ، حال كونه رسولاً . قاله الأخفشُ ، وهذا على أصل مذهبه من تجويزه زيادة الواو ، وهو مذهب مَرْجُوحٌ.

وعلى الثاني وهو كون " الرسول " مصدراً كالرسالة في نصبه وجهان :

(178/118)

أحدهما : أنه مفعول به – عطفاً على المفعول الثاني لِ "يُعَلِّمُهُ" – أي : ويعلمه الكتاب والرسالة معاً ، أي : يعلمه الرسالة أيضاً .

الثاني : أنه مصدر في موضع الحال ، وفيه التأويلات المشهورة في : رَجُلٌ عَدْلٌ .

وقرأ اليزيديُّ " وَرَسُولٍ " بالجر – وخرجها الزمخشريُّ على أنها منسوقة على قوله : " بِكَلِمَةٍ " أي : يبشرك بكلمة وبرسول .

وفيه بُعْدٌ لكثرة الفصل بين المتعاطفين ، ولكن لا يظهر لهذه القراءة الشاذة غير هذا

التخريج .

قوله : ﴿ إلى بنيِ إسْرَائِيلَ ﴾ فيه وَجْهَانِ :

أحدهما : أن يتعلق بنفس " رسول " إذْ فعله يتعدى بـ " إلَى " .

والثاني : أن يتعلق بمحذوفٍ على أنه صفة لـ " رَسُولاً " فيكون منصوبَ المحلِّ في قراءة الجمهور ، مجرورة في قراءة اليزيديِّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 239.236 ﴾

فائدة

قال الفخر :

هذه الآية تدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان رسولاً إلى كل بني إسرائيل بخلاف قول بعض اليهود إنه كان مبعوثاً إلى قوم مخصوصين منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 48 ﴾

(179/118)

وقال الآلوسى :

وتخصيصهم بالذكر للإيذان بخصوص بعثته ، أو للرد على من زعم من اليهود أنه مبعوث إلى

غيرهم . ولي في نسبة هذا الزعم لبعض اليهود تردد وليس ذلك في الكتب المشهورة والذي رأيناه فيها أنهم في عيسى الذي قص الله تعالى علينا من أمره ما قص فرقتان : فرقة ترميه وحاشاه بأفظع ما رمت به أمة نبيها وهم أكثر اليهود ، وفرقة يقال لهم (العنانية أصحاب عنان بن داود رأس الجالوت يصدقونه في مواعظه وإشاراته ويقولون : إنه لم يخالف التوراة ألبتة بل قررها ودعا الناس إليها ، وإنه من المستجيبين لموسى عليه السلام ، ومن بني إسرائيل المتعبدين وليس برسول ولا نبي ، ويقولون : إن سائر اليهود ظلموه حيث كذبوه أولاً ولم يعرفوا مدعاه وقتلوه آخراً ولم يعرفوا مرامه ومغزاه) نعم من اليهود فرقة يقال لهم العيسوية أصحاب أبي عيسى إسحق بن يعقوب الأصفهاني الذي يسميه بعضهم (بعرقيد الوهيم) يزعمون : أن لله تعالى رسولاً بعد موسى عليه السلام يسمى المسيح إلا أنه لم يأت بعد ويدعون أن له خمسة من الرسل يأتون قبله واحداً بعد واحد وأن صاحبهم هذا أحد رسله وكل من هذه الأقوال بعيد عما ادعاه صاحب القيل بمراحل ولعله وجد ما يوافق دعواه ، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ .

هذا واختلف في زمن رسالته عليه السلام فقيل : في الصبا وهو ابن ثلاث سنين . وفي "البحر" : أن الوحي أتاه بعد البلوغ وهو ابن ثلاثين سنة فكانت نبوته ثلاث سنين قيل : وثلاثة أشهر وثلاثة أيام ثم رفع إلى السماء وهو القول المشهور ، وفيه أن أول أنبياء بني

إسرائيل يوسف وقيل : موسى وآخرهم عيسى على سائرهم أفضل الصلاة وأكمل السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 167 ﴾

(180/118)

سؤال : ما المراد بالآية ؟

الجواب : المراد بالآية الجنس لا الفرد لأنه تعالى عدد ههنا أنواعاً من الآيات ، وهي إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، والإخبار عن المغيبات فكان المراد من قوله ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مّن رَّبّكُمْ ﴾ الجنس لا الفرد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 48 ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنِى أَخْلُقُ لَكُمْ مّنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ الله ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ حمزة ﴿ أني ﴾ بفتح الهمزة ، وقرأ نافع بكسر الهمزة فمن فتح ﴿ أني ﴾ فقد جعلها بدلاً من آية كأنه قال : وجئتكم بأنى أخلق لكم من الطين ، ومن كسر فله وجهان أحدهما : الاستئناف وقطع الكلام مما قبله والثاني : أنه فسّر الآية بقوله ﴿ أَنِى أَخْلُقُ لَكُمْ ﴾ ويجوز

أن يفسر الجملة المتقدمة بما يكون على وجه الابتداء قال الله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [الفتح : 29] ثم فسّر الموعود بقوله ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ [آل عمران : 59] ثم فسّر المثل بقوله .

﴿ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران : 59] وهذا الوجه أحسن لأنه في المعنى كقراءة من فتح ﴿ أني ﴾ على جعله بدلاً من آية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 48 ـ 49 ﴾.

وقال ابن عادل :

قوله : ﴿ أني أَخْلُقُ ﴾ قرأ نافع بكسر الهمزة ، والباقون بفتحها ، فالكسر من ثلاثة أوجهٍ :

أحدها : على إضمار القول ، أي : فقلت : إني أخلق .

الثاني : أنه على الاستئناف .

والثالث : على التفسير ، فسر بهذه الجملة قوله : " بِآيَةْ " ، كأن قائلاً قال : وما الآية ؟ فقال هذا الكلام .

ونظيره قوله : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ [آل عمران : 59] ثم قال : ﴿ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران : 59] ف " خَلَقَهُ " مفسرة للمثل ؛ ونظيره - أيضاً قوله : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [المائدة : 9] ثم فسر الوعد ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : 9] . وهذا الوجه هو الصائر إلى الاستئناف ؛ فإن المستأنَف يؤتى به تفسيراً به لمجرد الإخبار بما تضمنه ، وفي الوجه الثالث نقول : إنه متعلِّق بما تقدمه ، مفسِّر له .

وأما قراءة الجماعة ففيها أربعَةُ أوْجُهٍ :

أحدها : أنها بدل من ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ ﴾ فيجيء ، فيها ما تقدم في تلك ؛ لأن حكمها حكمها .

الثاني : أنها بدل من " بِآيَةٍ " فيكون محلُّها الجَرّ ، أي : وجئتكم بأني أخلق لكم ، وهذا نفسه آية من الآيات .

وهذا البدلُ يحتمل أن يكون كلاًّ من كُلٍّ - إن أريد بالآية شيء خاصٌّ - وأن يكون بدل بعض من كل إن أريد بالآية الجنس .

الثالث : أنها خبر مبتدأ مُضْمَر ، تقديره : هي أني أخلق ، أي : الآية التي جئت بها أني أخلق وهذه الجملة - في الحقيقة - جوابٌ لسؤال مقدر ، كأن قائلاً قال : وما الآية ؟ فقال ذلك .

الرابع : أن تكون منصوبةً بإضمار فعل ، وهو – أيضاً – جواب لذلك السؤال ، كأنه قال :

أعني أني أخلقُ.

وهذان الوجهان يلاقيان – في المعنى – قراءة نافع – على بعض الوجوه – فإنهما

استئناف . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 240. 241 ﴾

قوله تعالى ﴿ أَخْلُقُ لَكُمْ مّنَ الطين ﴾

قال الفخر :

﴿ أَخْلُقُ لَكُمْ مّنَ الطين ﴾ أي أقدر وأصور وقد بينا في تفسير قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا رَبَّكُمُ الذى خَلَقَكُمْ ﴾ [البقرة : 21] أن الخلق هو التقدير ولا بأس بأن نذكره ههنا أيضاً فنقول الذي يدل عليه القرآن والشعر والاستشهاد ، أما القرآن فآيات

(182/118)

أحدها : قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14] أي المقدرين ، وذلك لأنه ثبت أن العبد لا يكون خالقاً بمعنى التكوين والإبداع فوجب تفسير كونه خالقاً بالتقدير والتسوية

وثانيها : أن لفظ الخلق يطلق على الكذب قال تعالى في سورة الشعراء ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ

الاولين ﴾ [الشعراء : 137] وفي العنكبوت ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ [العنكبوت : 17]

وفي سورة ص ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ اختلاق ﴾ [ص : 7] والكاذب إنما سمي خالقاً لأنه يقدر

الكذب في خاطره ويصوره

وثالثها : هذه الآية التي نحن في تفسيرها وهي قوله ﴿ أَنِى أَخْلُقُ لَكُمْ مّنَ الطين ﴾ أي أصور

وأقدر وقال تعالى في المائدة ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير ﴾ [المائدة : 110] وكل

ذلك يدل على أن الخلق هو التصوير والتقدير

ورابعها : قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأرض جَمِيعاً ﴾ [البقرة : 29]

وقوله ﴿ خلق ﴾ إشارة إلى الماضي ، فلو حملنا قوله ﴿ خلق ﴾ على الإيجاد والإبداع ،

لكان المعنى : أن كل ما في الأرض فهو تعالى قد أوجده في الزمان الماضي ، وذلك باطل

بالاتفاق ، فإذن وجب حمل الخلق على التقدير حتى يصح الكلام وهو أنه تعالى قدر في

الماضي كل ما وجد الآن في الأرض ، وأما الشعر فقوله :

ولأنت تفري ما خلقت وبع . . ض القوم يخلق ثم لا يفري

وقوله :

ولا يعطي بأيدي الخالق ولا . . أيدي الخوالق إلا جيد الأدم

وأما الاستشهاد : فهو أنه يقال : خلق النعل إذا قدرها وسواها بالقياس والخلاق المقدار

من الخير ، وفلان خليق بكذا ، أي له هذا المقدار من الاستحقاق ، والصخرة الخلقاء

الملساء ، لأن الملاسة استواء ، وفي الخشونة اختلاف ، فثبت أن الخلق عبارة عن التقدير والتسوية .

(183/118)

إذا عرفت هذا فنقول : اختلف الناس في لفظ ﴿ الخالق ﴾ قال أبو عبد الله البصري : إنه لا يجوز إطلاقه على الله في الحقيقة ، لأن التقدير والتسوية عبارة عن الظن والحسبان وذلك على الله محال ، وقال أصحابنا : الخالق ، ليس إلا الله ، واحتجوا عليه بقوله تعالى : ﴿ الله خالق كُلّ شَىْء ﴾ [الرعد : 16] ومنهم من احتج بقوله ﴿ هَلْ مِنْ خالق غَيْرُ الله يَرْزُقُكُمْ ﴾ [فاطر : 3] وهذا ضعيف ، لأنه تعالى قال : ﴿ هَلْ مِنْ خالق غَيْرُ الله يَرْزُقُكُمْ مّنَ السماء ﴾ [فاطر : 3] فالمعنى هل من خالق غير الله موصوف بوصف كونه رازقاً من السماء ولا يلزم من صدق قولنا الخالق الذي يكون هذا شأنه ، ليس إلا الله ، صدق قولنا أنه لا خالق إلا الله .

وأجابوا عن كلام أبي عبد الله بأن التقدير والتسوية عبارة عن العلم والظن لكن الظن وإن كان محالاً في حق الله تعالى فالعلم ثابت .

إذا عرفت هذا فنقول : ﴿ أَنِى أَخْلُقُ لَكُمْ مّنَ الطين ﴾ معناه : أصور وأقدر . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 49 . 50 ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ الآية, هذه الآية يوهم ظاهرها أن بعض المخلوقين ربما خلق بعضهم, ونظيرها قوله تعالى : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ الآية, وقد جاءت آيات أخر تدل على أن الله خالق كل شيء كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ , وقوله : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات . والجواب ظاهر وهو معنى خلق عيسى كهيئة الطير من الطين : هو أخذه شيئًا من الطين وجعله على هيئة أي صورة الطير, وليس المراد الخلق الحقيقي ؛ لأن الله متفرد به – جل وعلا – . وقوله : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ معناه : تكذبون, فلا منافاة بين الآيات كما هو ظاهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 50 ﴾

قوله تعالى ﴿ كَهَيْئَةِ الطير فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ الله ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ كَهَيْئَةِ ﴾ في موضع هذه الكاف ثلاثة أوجهٍ :

أحدها : أنها نَعْت لمفعول محذوفٍ ، تقديره : أني أخلق لكم هيئة مثلَ هيئة الطير . والهيئة

إما أن تكونَ في الأصل مصدراً ، ثم أطِلقَت على المفعول – أي : المُهَيَّأ – كالخلق بمعنى : المخلوق ، وإما أن تكون اسماً لحال الشيء وليست مصدراً ، والمصدر : التَّهْيِيء – والتَّهَيُّؤ – والتَّهْيِئَة .

ويقال : هاء الشيء يَهِيءُ هَيْئاً وهَيْئَةً – إذا ترتب واستقر على حال مخصوص – ويتعدى بالتضعيف ، قال تعالى : ﴿ وَيُهَيِّىءْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مِّرْفَقاً ﴾ [الكهف : 16] ، والطين معروف ، يقال : طَانَهُ الله على كذا وطَامَهُ – بإبدال النون ميماً – أي : جبله عليه ، والنفخ مَعْرُوفٌ .

(184/118)

الثاني : أن الكاف مفعول به ؛ لأنها اسم كسائر الأسماء – وهذا رأي الأخْفَشِ ، حيث يجعل الكاف اسماً حيث وقعت وغيره من النحاة لا يقول بذلك إلا إذا اضطر إليه – كوقوعها مجرورة بحرف جر ، أو إضافة ، أو وقوعها فاعلةً أو مبتدأ . وقد تقدم ذلك .

الثالث : أنها نعت لمصدر محذوف ، قاله الواحديُّ نقلاً عن أبي عليٍّ بعد كلامٍ طويلٍ : " ويكون الكاف موضع نصب على أنه صفة للمصدر المراد ، تقديره : أنِّي أخلق لكم من الطِّينِ خلقاً مثل هيئة الطَّيْرِ " .

وفيما قاله نظرٌ من حيث المعنى ؛ لأن التحدّي إنما يقع في أثر الخلق - وهو ما ينشأ عنه من المخلوقات - لا في نفس الخلق ، اللهم إلا أن نقول : المراد بهذا المصدر المفعول به فيئول إلى ما تقدم .

قال الزمخشري : أي أقدِّر لكم شيئاً مثل هيئة الطّيرِ . وهذا تصريح منه بأنها صفة لمفعول محذوف وقوله : " أقدر " تفسير للخلق ؛ لأن الخلق هنا - التقدير - كما تقدم - وليس المراد الاختراع ، فإنه مختص بالباري - تعالى - .

وقرأ الزهريُّ : "كَهَيْئَةِ" - بنقل حركة الهمزة إلى الياء .

وقرأ أبو جعفر : "كَهَيْئَةِ الطَّائِر" .

قوله : ﴿ فَأَنْفُخُ فِيهِ ﴾ في هذا الضمير ستة أوجُهٍ :

أحدها : أنه عائد على الكاف ؛ لأنها اسم - عند مَنْ يرى ذلك - أي : فأنفخ في مثل هيئة الطير .

الثاني : أنه عائد على " هَيْئَةِ " ، لأنها في معنى الشيء المُهَيَّأ ، فلذلك عاد الضميرُ عليها مذكَّراً وإن كانت مؤنثةً - اعتباراً بمعناها دون لفظها ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ القسمة ﴾ [النساء : 8] ثم قال ﴿ فارزقوهم مِّنْهُ ﴾ [النساء : 8] فأعاد الضمير في ﴿ مِنْهَا ﴾ على ﴿ القِسْمَةَ ﴾ لما كانت بمعنى المقسوم .

الثالث : أنه عائد على ذلك المفعول المحذوف ، أي : فأنفخ في ذلك الشيء المماثل لهيئة

الطير.

الرابع: أنه عائد على ما وقعت عليه الدلالة في اللفظ. وهو أني أخلق. ويكون الخلق بمنزلة المخلوق.

(185/118)

الخامس: أنه عائد على ما دلَّت عليه الكاف من معنى المثل؛ لأن المعنى: أخلق من الطِّينِ مثلَ هيئة الطَّير وتكون الكاف في موضع نصب على أنه صفة للمصدر المراد تقديره: أني أخلق لكم خلقاً مثل هيئة الطير. قاله الفارسي؛ وقد تقدم الكلام معه في ذلك.

السادس: أنه عائد على الطين، قاله أبو البقاء، وأفسده الواحديُّ، قال: "ولا يجوز أن تعود الكناية على "الطِّينِ" لأن النفخ إنما يكون في طين مخصوص وهو ما كان مهيَّئاً منه - والطين المتقدم ذكرُه عام فلا تعود إليه الكناية، ألا ترى أنه لا ينفخ في جميع الطين".

وفي هذا الرَّد نَظَر؛ إذ لقائلٍ أن يقول: لا نُسَلِّم عمومَ الطين المتقدم، بل المراد بعضه. ولذلك أدخل عليه "مِنْ" التي تقتضي التبعيض، فإذا صار المعنى: أني أخلق بعض الطين، عاد الضَّمِيرُ عليه من غير إشكال، ولكنَّ الواحدي جعل "مِنْ" في الطين لابتداء الغاية، وهو الظَّاهِرُ.

قال أبو حيّان : " وقرأ بعض القرّاء " فأنْفَخَهَا " . أعَاد الضمير على الهيئة المحذوفة ؛ إذ يكون التقدير : هيئة كهيئة الطير ، أو على الكاف - على المعنى - إذ هي بمعنى مماثلة هيئة الطير ، فيكون التأنيث هنا كما هو في آية المائدة : ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا ﴾ [المائدة : 110] ويكون في هذه القراءة قد حذف حرف الجر ، كما حذف في قوله : [البسيط]

مَا شُقَّ جَيْبٌ ولاَ قَامَتْكَ نَائِحَةٌ . . . ولاَ بَكَتْكَ جِيَادٌ عِنْدَ أسْلاَبِ

وقول النابغة : [البسيط]

. . . . كَالْهِبْرِقِيِّ تَنَحَّى يَنْفُخُ الْفَحْما

يريد ولا قامت عليك ، وينفخ في الفَحْمِ . وهي قراءة شائة ، نقلها الفرّاء " .

قال شهابُ الدين : " وعجبت منه ، كيف لم يَعْزُها ، وقد عزاها صاحبُ الكشّاف إلى عبد الله ، قال : وقرأ : " أعبدُ الله " فأنفخها " .

قوله : ﴿ فَيَكُونُ ﴾ في " يكون " وجهان :

(186/118)

أحدهما : أنها تامة ، أي : فيوجد ، ويكون " طيراً " - على هذا - حالاً .

والثاني : أنها ناقصة ، و" طَيْراً " - على هذا - حالاً .

والثاني : أنها ناقصة ، و" طيراً " خبرها . وهذا هو الذي ينبغي أن يكون ؛ لأن في وقوع اسم الجنس حالاً لا حاجة إلى تأويل ، وإنما يظهر ذلك على قراءة نَافِعٍ " طَائِرًا " ؛ لأنه – حينئذٍ – اسم مشتق .

وإذا قيل بنقصانها ، فيجوز أن تكون على بابها ، ويجوز أن تكون بمعنى " صار " الناقصة ، كقوله : [الطويل]

بِتَيْهَاءَ قَفْرٍ وَالْمَطِيُّ كَأَنَّهَا . . . قَطَا الْحَزْنِ قَدْ كَانَتْ فِرَاخاً بُيُوضُهَا

أي صارت .

وقال أبو البقاء : " فيكون – أي فيصير – فيجوز أن يكون "كان " هنا – التامة ؛ لأن معناها " صار " بمعنى : انتقل ، ويجوز أن تكون الناقصة ، و" طَائِرًا " – على الأول – حالٌ ، وعلى الثاني – خَبَرٌ " .

قال شِهَابُ الدِّينِ : " ولا حاجة إلى جعله إياها – في حال تمامها – بمعنى " صار " التامة التي معناها معنى " انتقل " بل النحويون إنما يقدرون التامة بمعنى حدث ، ووجد ، وحصل ، وشبهها وإذا جعلوها بمعنى " صار " فإنما يعنون " صار " الناقصة " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 242 . 245 ﴾

قال الفخر :

قرأ نافع ﴿ فَيَكُونُ طائراً ﴾ بالألف على الواحد ، والباقون ﴿ طَيْراً ﴾ على الجمع ،

وكذلك في المائدة والطير اسم الجنس يقع على الواحد وعلى الجمع .

يروى أن عيسى عليه السلام لما ادعى النبوة ، وأظهر المعجزات أخذوا يتعنتون عليه وطالبوه بخلق خفاش ، فأخذ طيناً وصوره ، ثم نفخ فيه ، فإذا هو يطير بين السماء والأرض ، قال وهب : كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه ، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً ، ثم اختلف الناس فقال قوم : إنه لم يخلق غير الخفاش ، وكانت قراءة نافع عليه .

وقال آخرون : إنه خلق أنواعاً من الطير وكانت قراءة الباقين عليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 50 ﴾

وقال ابن عادل :

(187/118)

وقرأ نافع ويَعْقُوبُ فيكون طائِراً – هنا وفي المائدة – والباقون " طَيْراً " في الموضعين .

فأما قراءة نافع فوجَّهَهَا بعضُهم بأنَّ المعنى على التوحيد ، والتقدير : فيكون ما أنفخ فيه طائراً ولا يعترض عليه بأن الرسمَ الكريمَ إنما هو " طَيْراً " – دون ألف – لأن الرسم يُجوِّز حذف مثل هذه الألف تخفيفاً ويدل على ذلك أنه رسم قوله تعالى : ﴿ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام : 38] ولا طير – دون ألف – ولم يقرأه أحد " طائر " – بالألف –

فالرسم محتمل، لا مُنَافٍ.

قال بعضهم كالشارح لما تقدم -: ذهب نافع إلى نوع واحد من الطير؛ لأنه لم يخلق غير الخفّاش، وزعم آخرون أن معنى قراءته: يكون كل واحد مما أنفخ فيه طائراً، قال: كقوله تعالى: ﴿ فاجلدوهم ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ [النور: 4] أي اجلدوا كل واحد منهم وهو كثير من كلامهم.

وأما قراءة الباقين فمعناها يحتمل أن يُرَاد به اسم الجنس - أي: جنس الطير - ويُحْتَمل أن يُرَاد به الواحد فما فوقه، ويحتمل أن يراد به الجمع، ولا سيما عند من يرى أن طيراً صيغة جمع نحو رَكْب وصَحْب وتَجْر؛ جمع راكب وصاحب وتاجر - وهو الأخفشُ - وأما عند سيبويه فهي عنده أسماء جموع، لا جموع صريحة وتقدم الكلام على ذلك في البقرة.

وحسن قراءة الجماعة لموافقتها لما قبلها - في قوله: ﴿ مِّنَ الطير ﴾ - ولموافقة الرسم لفظاً ومعنى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 245 ﴾

فصل

قال القرطبى:

﴿ فَأَنفُخُ فِيهِ ﴾ أي في الواحد منه أو منها أو في الطين فيكون طائراً.

وطائر وطَيْر مثل تاجر وتَجْر.

قال وَهْب (1): كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً

ليتميز فعل الخلق من فعل الله تعالى .

وقيل : لم يخلق غيرَ الخُفّاش لأنه أكمل الطير خلقاً ليكون أبلغ في القدرة ، لأن لها ثَدْيًا وأسنانا وأُذنا ، وهي تحيض وتطهر وتلد .

---

(1) تقدم أن أخبار وهب بن منبه وكعب الأحبار يجب التوقف فى قبولها . والله أعلم .

(188/118)

ويقال : إنما طلبوا خَلْق خُفّاش لأنه أعجب من سائر الخلق ؛ ومن عجائبه أنه لحم ودم يطير بغير ريش ويلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور ، فيكون له الضرّع يخرج منه اللبن ، ولا يبصر في ضوء النهار ولا في ظلمة الليل ، وإنما يرى في ساعتين : بعد غروب الشمس ساعة وبعد طلوع الفجر ساعة قبل أن يُسفر جداً ، ويضحك كما يضحك الإنسان ، ويحيض كما تحيض المرأة .

ويقال : إن سؤالهم كان له على وجه التعنّت فقالوا : أخلق لنا خُفّاشاً واجعل فيه روحاً إن كنت صادقاً في مقالتك ؛ فأخذ طيناً وجعل منه خفاشاً ثم نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض ؛ وكان تسوية الطين والنفخ من عيسى والخلق من الله ، كما أن النفخ من جبريل والخلق من الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 94 ﴾

سؤال : فإن قال قائل : وكيف قيل : "فأنفخ فيه" ، وقد قيل : "أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير" ؟

قيل : لأن معنى الكلام : فأنفخ في الطير . ولو كان ذلك : "فأنفخ فيها" . كان صحيحًا جائزًا ، كما قال في المائدة ، ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ [سورة المائدة : 110] : يريد : فتنفخ في الهيئة .

وقد ذكر أن ذلك في إحدى القراءتين : "فأنفخها" ، بغير "في" . وقد تفعل العرب مثل ذلك فتقول : "رب ليلة قد بتُّها ، وبتُّ فيها" ، قال الشاعر :

مَا شُقَّ جَيْبٌ وَلا قَامَتْكَ نَائِحَةٌ . . . وَلا بَكَتْكَ جِيَادٌ عِنْدَ أَسْلابِ

بمعنى : ولا قامت عليك ، وكما قال الآخر :

إِحْدَى بَنِي عَيِّذِ اللهِ اسْتَمَرَّ بِهَا . . . حُلْوُ العُصَارَةِ حَتَّى يُنْفَخَ الصُّوَرُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 427.426 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال بعض المتكلمين : الآية تدل على أن الروح جسم رقيق كالريح ، ولذلك وصفها بالفتح ، ثم ههنا بحث ، وهو أنه هل يجوز أن يقال : إنه تعالى أودع في نفس عيسى عليه السلام خاصية ، بحيث متى نفخ في شيء كان نفخه فيه موجباً لصيرورة ذلك الشيء حياً ، أو يقال : ليس الأمر كذلك بل الله تعالى كان يخلق الحياة في ذلك الجسم بقدرته عند نفخة عيسى عليه السلام فيه على سبيل إظهار المعجزات ، وهذا الثاني هو الحق لقوله تعالى : ﴿ الذى خَلَقَ الموت والحياة ﴾ [الملك : 2] وحكي عن إبراهيم عليه السلام أنه قال في مناظرته مع الملك ﴿ رَبّيَ الذى يُحْىِ وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة : 258] فلو حصل لغيره ، هذه الصفة لبطل ذلك الاستدلال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 50 ﴾

فائدة

قال الفخر :

القرآن دلّ على أنه عليه الصلاة والسلام إنما تولد من نفخ جبريل عليه السلام في مريم وجبريل صلى الله عليه وسلم روح محض وروحاني محض فلا جرم كانت نفخة عيسى عليه السلام للحياة والروح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 50 ﴾

قوله تعالى ﴿ بِإِذُنِ الله ﴾

قال الفخر :

قوله ﴿ بِإِذْنِ الله ﴾ معناه بتكوين الله تعالى وتخليقه لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ

تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [آل عمران : 145] أي إلا بأن يوجد الله الموت ، وإنما ذكر عيسى عليه السلام هذا القيد إزالة للشبهة ، وتنبيهاً على إني أعمل هذا التصوير ، فأما خلق الحياة فهو من الله تعالى على سبيل إظهار المعجزات على يد الرسل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 50 ﴾

لطيفة

قال الزمخشرى :

وكرر ﴿ بِإِذُنِ اللهِ ﴾ دفعاً لوهم من توهم فيه اللاهوتية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 1 صـ 364 ﴾

(190/118)

فائدة

قال ابن عطية :

حقيقة الإذن في الشيء هي العلم بأنه يفعل والتمكين من ذلك ، فإن اقترن بذلك قول فذلك أمكن في الإذن وأبلغ ، ويخرج من حد الإذن إلى حد الأمر ولكن تجده أبداً في قسم الإباحة ، وتأمل قوله تعالى : ﴿ فهزموهم بإذن الله ﴾ [البقرة : 251] ، وقول النبي عليه السلام ،

وإذنها صماتها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 439 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

روي أن عيسى – عليه السلام – لما ادَّعَى النبوةَ ، وأظهر المعجزات ، طالبوه بخَلْق خفاش فأخذ طيناً ، فصوَّره ، فنفخ فيه ، فإذا هو يطير بين السماء والأرض .

قال وَهْبٌ : كان يطير ما دام الناسُ ينظرون إليه ، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميِّتاً ، ليتميز فعلُ الخَلْق من فعل الخالق .

قيل : خلق الخُفَّاش ، لأنه أكمل الطير خَلْقاً ، وأبلغ في القدرة ؛ لأن لها ثَدْياً وأسْنَاناً وأذناً ، وهي تحيض وتطهر وتَلِد .

وقيل : إنما طالبوه بخلق خُفَّاش ؛ لأنه أعجب من سائر الخلق ، ومن عجائبه أنه لحم ودم ، يطير بغير ريش ويلد كما يَلِد الحيوان ، ولا يبيض كما يبيض سائر الطُّيور ، ويكون له الضرع يخرج منه اللبن ، ولا يُبصر في ضوء النهار ، ولا في ظلمة الليل ، وإنما يرى في ساعتين : بعد غروب الشمس سَاعةً ، وبعد طلوع الفجر سَاعةً – قبل أن يُسْفِر جداًّ – ويضحك كما يضحك الإنسان ، ويحيض كما تحيض المرأة . قال قوم إنه لم يخلق غير الخفاش . وقال آخرون : إنه خلق أنواعاً من الطَّيْرِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 246 ﴾

فصل

قال القرطبى :

﴿ وَأُحْيِي الموتى بِإِذْنِ الله ﴾ قيل : أحيا أربعة أنفس : العاذر وكان صديقاً له ، وابن العجوز وابنة العاشر وسام بن نوح؛ فالله أعلم ، فأما العاذر فإنه كان قد توفي قبل ذلك بأيام فدعا الله فقام بإذن الله وودكه يقطر فعاش وولد له ، وأما ابن العجوز فإنه مرّ به يُحمل على سريره فدعا الله فقام ولبس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله ، وأما بنت العاشر فكان أتى عليها ليلة فدعا الله فعاشت بعد ذلك وولد لها ؛ فلما رأوا ذلك قالوا : إنك تحيي من كان موته قريباً فلعلهم لم يموتوا فأصابتهم سكتةٌ فأحي لنا سام بن نوح.

فقال لهم : دلّوني على قبره فخرج وخرج القوم معه حتى انتهى إلى قبره فدعا الله فخرج من قبره وقد شاب رأسه.

فقال له عيسى : كيف شاب رأسك ولم يكن في زمانكم شيْبٌ ؟ فقال : يا روح الله ، إنك دعوتني فسمعت صوتاً يقول : أجب روح الله ، فظننت أن القيامة قد قامت ، فمن هول ذلك شاب رأسي.

فسأله عن النزع فقال : يا روح الله ، إن مرارة النزع لم تذهب عن حنجرتي ؛ وقد كان من وقت موته أكثر من أربعة آلاف سنة ، فقال للقوم : صدّقوه فإنه نبيّ ؛ فآمن به بعضهم وكذّبه بعضهم وقالوا : هذا سحر .

وروي من حديث إسمعيل ابن عياش قال : حدّثني محمد بن طلحة عن رجل أن عيسى ابن مريم كان إذا أراد أن يحيي الموتى صلى ركعتين يقرأ في الأولى ﴿ تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ الملك ﴾ .

وفي الثانية "تنزيل السجدة" فإذا فرغ حمِد الله وأثنى عليه ثم دعا بسبعة أسماء : يا قديمُ يا خَفيّ يا دائمُ يا فَرْدُ يا وتْرُ يا أحد يا صمد ؛ ذكره البيهقي وقال : ليس إسناده بالقويّ . (1)

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 94.95 ﴾

---

(1) كيف تصح هذه الرواية والقرآن لم ينزل من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى سماء الدنيا جملة فى ليلة القدر ثم ينزل منجما على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ثلاث وعشرين سنة .

إن هذا لشىء عجاب وكذلك بعض الروايات السابقة تفتقر إلى نقل صحيح والأولى الوقوف عندما أخبر عنه القرآن . والله أعلم .

فائدة

قال ابن كثير :

﴿ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

قال كثير من العلماء : بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى ، عليه السلام ، السحر وتعظيم السحرة . فبعثه الله بمعجزة بَهَرَت الأبصار وحيرت كل سحار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام ، وصاروا من الأبرار . وأما عيسى ، عليه السلام ، فبُعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة ، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه ، إلا أن يكون مؤيدًا من الذي شرع الشريعة . فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ، أو على مداواة الأكمه ، والأبرص ، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد ؟ وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم بعثه [الله] في زمن الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء ، فأتاهم بكتاب من الله ، عز وجل ، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبدًا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، وما ذاك إلا لأن كلام الرب لا يشبهه كلام الخلق أبدًا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 45 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله ﴾

قال ابن عادل :

قوله : " وأبرئ الأكمه " وأبرئ عطف على " أخْلُقُ " فهو داخل في خبر " أنِّي " . يقال :

أبرأت زيد عن العاهة ومن الدَّيْن ، وبَرَّأتك من الدين - بالتضعيف . وبَرَأت من المرض أبْرأ

وبَرِئْتُ - أيضاً - وأما برئت من الدَّيْنِ ومن الذَّنب ، فبَرِئْتُ لا غَيْرُ .

وقال الأصمعيُّ : برئتُ من المرض لغة تَمِيم ، وبَرَأتُ لُغَةُ الحجازِ .

(193/118)

قال الراغبُ : " بَرَأتُ من المرض وبَرِئْتُ ، وبَرَأت من فلان " ، فالظاهرُ من هذا أنه لا يقال

الوجهان - أعني فتح الراء وكسرها - إلا في البراءة من المرض ونحوه . وأما الدَّيْنُ والذَّنبُ

ونحوهما ، فالفتح ليس إلا .

والبراءة : التخلص من الشيء المكروه مجاورته ؛ وكذلك التَّبَري والبراء .

فصل

من وُلِدَ أعْمَى ، يقال : كَمِهَ يَكْمَهُ فهو أكْمَه .

قال رؤبة : [الرجز]

فَارْتَدَّ عَنْهَا كَارْتِدَادِ الأكْمَهِ . . . يقال : كمهتها ، أي : أعميتها .

قال الزمخشريُّ والراغبُ وغيرُهما : " الأكمهُ : من وُلِدَ مطموس العينين " ، وهو قول ابنِ عباس وقتادة .

قال الزمخشري : " ولم يوجد في هذه الأمة أكمه غير قتادة صاحب التفسير " .

قال الراغب : " وقد يُقال لمن ذَهَبَتْ عينُه : أكمه " .

قال سُوَيد : [الرمل]

كَمِهَتْ عَيْنَاهُ حَتَّى ابْيَضَّتَا . . . .

قال الحسنُ والسُّدِّيُّ : هو الأعمى .

وقال عكرمةُ : هو الأعمش .

وقال مجاهد : هو الذي يبصر بالنهار ولا يُبْصر بالليل .

والبرص : داء معروف ، وهو بياض يَعْتَرِي الإنسانَ ، ولم تكن العربُ تنْفر من شيء نُفْرَتَها منه ، ويُقال : برص يبرص بَرَصاً ، أي : أصابه ذلك ، ويقال له : الوَضَح ، وفي الحديث : " وَكَانَ بِهَا وَضَحٌ " . والوضَّاح من ملوك العرب هابوا أن يقولوا له : الأبرص . ويقال للقمر : أبْرَص ؛ لشدة بياضِه .

وقال الراغب " وللنكتة التي عليه " وليس بظَاهِرٍ ، فَإنَّ النُّكْتَةَ التي عليه سوداء ، والوزغ سامٌّ أبرص ، سُمِّيَ بذلك ؛ تشبيهاً بالبرص ، والبريص : الذي يَلْمَع لمعان البرص ويقارب البصيص . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 247 . 248 ﴾

فصل

قال الفخر :

(194/118)

ذهب أكثر أهل اللغة إلى أن الأكمه هو الذي ولد أعمى ، وقال الخليل وغيره هو الذي عمي بعد أن كان بصيراً ، وعن مجاهد هو الذي لا يبصر بالليل ، ويقال : إنه لم يكن في هذه الأمة أكمه غير قتادة بن دعامة السدوسي صاحب "التفسير" ، وروي أنه عليه الصلاة والسلام ربما اجتمع عليه خمسون ألفاً من المرضى من أطاق منهم أتاه ، ومن لم يطق أتاه عيسى عليه السلام ، وما كانت مداواته إلا بالدعاء وحده ، قال الكلبي : كان عيسى عليه السلام يحيي الأموات بيا حي يا قيوم وأحيا عاذر ، وكان صديقاً له ، ودعا سام بن نوح من قبره ، فخرج حياً ، ومرّ على ابن ميت لعجوز فدعا الله ، فنزل عن سريره حياً ، ورجع إلى أهله وولد له ، وقوله ﴿ بِإِذْنِ الله ﴾ رفع لتوهم من اعتقد فيه الإلهية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 51 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

إنما خَصَّ هذين المرضَيْن لأنهما أعْيا الأطباء ، وكان الغالب في زمن عيسى – عليه السلام – الطبَّ ، فأراهم الله المعجزة من جنس ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 248 ﴾

فصل

قال الآلوسى :

كان دعاؤه الذي يدعو للمرضى والزمنى والعميان والمجانين وغيرهم "اللهم أنت إله من في السماء وإله من في الأرض لا إله فيهما غيرك وأنت جبار من في السماء وجبار من في الأرض لا جبار فيهما غيرك وأنت ملك من في السماء وملك من في الأرض لا ملك فيهما غيرك قدرتك في الأرض كقدرتك في السماء وسلطانك في الأرض كسلطانك في السماء أسألك باسمك الكريم ووجهك المنير وملكك القديم إنك على كل شيء قدير" ومن خواص هذا الدعاء كما قال وهب أنه إذا قرىء على الفزع والمجنون وكتب له وسقى منه نفع إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 169 ﴾

فائدة

قال فى ملاك التأويل :

قوله سبحانه : "ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم ما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم" ، وقال فى المائدة : "وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى وتبرئ الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى . .الآية" ، للسائل أن يسأل عن تذكير الضمير وتأنيثه وعن وجه تكرير قوله تعالى : "بإذنى" فى آية المائدة مضافا إلى ضميره سبحانه فى أربعة مواضع مع وجازة الكلام وتقارب ألفاظ الآية وقد جرى هذا الغرض فى آية آل عمران فورد فيها ذلك في موضعين خاصة مضافا من اسمه سبحانه ؟

والجواب عن السؤال الأول بعد تمهيد الجواز فى تذكير الضمير فى قوله"فأنفخ فيه" فى الآية الأولى وتأنيثه فى الآية الثانية"فأنفخ فيها" مع اتحاد ما يعود عليه . فأقول وأسأل الله توفيقه : قال الزمخشرى فى الأولى : "الضمير للكاف أى فى ذلك الشئ المماثل لهيئة الطير فيكون طيرا أى فيصير طائرا كبقية الطيور ، وقال فى قوله : "فتنتفخ فيها" الضمير للكاف لأنها صفة الهيئة التى كان يخلقها عيسى وينفخ فيها ولا يرجع إلى الهيئة المضاف إليها لأنها ليست من خلقه ولا نفخه فى شئ قال وكذلك الضمير فى تكون انتهى نص كلامه وهو

يين .

وبقى السؤال عن وجه تخصيص كل من الموضعين بالوارد فيه وهو مقصودنا فى هذا الكتاب ، وعن وجه التكرار فى قوله تعالى فى سورة المائدة "بإذنى" فى أربعة مواضع مع وجازة الكلام وتقارب ألفاظ الآية ؟

(196/118)

الجواب عن وجه التخصيص والله أعلم : أن الترتيب الذى استقر عليه القرآن فى سوره وآياته أصل مراعى وقد تقدم بعض إشارة إلى ذلك ولعلنا سنزيد فى بيانه إن شاء الله وعودة الضمير على اللفظ وما يرجع إليه أولى وعودته على المعنى ثان عن ذلك وكلا التعبيرين عال فصيح فعاد فى آية آل عمران على الكاف لأنها تعاقب مثل وهو مذكر فهذا لحظ لفظى ثم عاد فى آية المائدة إلى الكاف من حيث هى فى المعنى صفة لأن المثل صفة فى التقدير المعنوى فحصل مراعاة المعنى ثانيا على ما يجب كما ورد فى قوله تعالى : "ومن يقنت منكن لله ورسوله" بعودة الضمير من يقنت مذكرا رعيا للفظ "من" ، ثم قال : وتعمل بالتاء رعيا للمعنى وهو كثير وقد بينا أن رعى اللفظ فى ذلك هو الأولى فجرى فى آية آل عمران على ذلك لأنها متقدمة فى الترتيب وجرى فى آية المائدة على ما هو ثان إذ هى

ثانية فى الترتيب وذلك على ما يجب .

وجواب ثان : وهو أنه قد ورد قبل ضمير آية آل عمران من لدن قوله تعالى : "وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم" إلى قوله : "فأنفخ فيه" نحو من عشرين ضميرا من ضمائر المذكر فورد الضمير فى قوله "فأنفخ فيه" ضمير مذكر ليناسب ما تقدمه ويشاكل الأكثر الوارد قبله .

أما آية العقود فمفتتحة بقوله تعالى : "اذكر نعمتى عليك" وخلقه الطائر ونفخه فيه من أجل نعمه تعالى عليه لتأييده بذلك فناسب ذلك تأنيث الضمير ولم تكثر الضمائر هنا ككثرتها هناك فجاء كل من الآيتين على أتم مناسبة .

(197/118)

والجواب عن السؤال الثانى : وهو تكرر قوله تعالى "بإذنى" فى آية المائدة أربع مرات مع تقارب الألفاظ ؟ ووجه أن آية آل عمران إخبار وبشارة لمريم بما منح لبنها عيسى عليه السلام وبمقاله عليه السلام لبنى اسرائيل تعريفا برسالته وتحديا بمعجزاته وتبرئا من دعوى استبداد أو انفراد بقدرة فى مقاله : " أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله" إلى قوله تعالى "إن فى ذلك

لآية لكم" إلى ما بعده ولم تتضمن هذه الآية غير البشارة والإعلام وأما آية المائدة فقصد بها غير هذا وبنيت على توبيخ النصارى وتعنيفهم فى مقالهم فى عيسى عليه السلام فوردت متضمنة عده سبحانه إنعامه على نبيه عيسى عليه السلام على طريقة تجارى العتب وليس بعتب تقريرا يقطع بمن وقع فى العظيمة ممن عبده ومثل ذلك فيما يجرى بيننا ولكلام الله سبحانه وتعالى المثل الأعلى قول القائل لعبده الأحب إليه المتبرئ من عصيانه : ألم أفعل لك كذا ألم أعطك كذا ويعدد عليه نعما ثم يقول : أفعل لك ذلك غيرى ؟ ، هل أحسنت إلى فلان إلا بما أعطيتك ؟ ، هل قهرت عدوك إلا بمعونتى لك ؟ فيقصد السيد بهذا قطع تخيل من ظن أن ما كان من هذا العبد من إحسان إلى أحد أو إرغام عدو أن ذلك من قبل نفسه مستبدا به وليس من قبل سيده فإذا قرره السيد على هذا واعترف العبد بأن ذلك كما قال السيد انقطعت حجة من ظن خلافه وتوهم استقلال العبد فعلى هذا النحو والله أعلم وردت الآية الكريمة ولذلك تكرر فيها ما تكرر مع الآيات قوله تعالى : "بإذنى" وتكرر ذلك أربع مرات عقب أربع آيات مما خص به عليه السلام من خلق الطير والنفخ فيه فيحيا وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى وهى من الآيات التى ضل بسببها من ضل من النصارى وحملتهم على قولهم بالتليث تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ، "ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله" فأعلم الله سبحانه وتعالى أن تلك الآيات بإذنه

وأكد

ذلك تأكيدا يرفع توهم حول أو قوة لغير الله سبحانه أو استبداد ممن ظنه ونزه نبيه عيسى عليه السلام عن نسبة شئ من ذلك لنفسه مستقلا بإيجاده أو ادعاء فعل شئ إلا بقدرة ربه سبحانه وإذنه وبرأه من شنيع مقالتهم .

ويزيد هذا الغرض بيانا ما أعقبت به هذا الآية من قوله تعالى : "وإذ قال الله يا عيسى بن مريم ءأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله . . .الآيات" فهل هذا للنصارى إلا أعظم توبيخ وتقريع والمقصود منه جواب عيسى عليه السلام بقوله فى إخبار الله سبحانه عنه : "ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق" فافتتح بتنزيه ربه ثم نفى عن نفسه ما نسبوا إليه وأتبع بالتبرى والتسليم لربه فقال : "إن كنت قلته فقد علمته" فآية آل عمران بشارة وإخبار لمريم وآية المائدة واردة فيما يقوله سبحانه لعيسى عليه السلام توبيخا للنصارى كما بينا فلما اختلف القصدان اختلفت العبارتان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ ملاك التأويل صـ 82.85 ﴾

(199/118)

قوله تعالى حكاية عنه ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾

فائدة لغوية

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ بِمَا تَأْكُلُونَ ﴾ يجوز في " ما " أن تكون موصولةً - اسميَّة أو حرفيَّة - ونكرة موصوفة . فعلى الأول والثالث تحتاج إلى عامل بخلاف الثاني - عند الجمهور - وكذلك " ما " في قوله : ﴿ وَمَا تَدَّخِرُونَ ﴾ محتملة لما ذكر . وأتى بهذه الخوارق الأربع بلفظ المضارع ؛ دلالةً على تجدُّد ذلك كلَّ وقتٍ طُلِبَ منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 249 ﴾

قال الفخر :

في هذه الآية قولان

أحدهما : أنه عليه الصلاة والسلام كان من أول مرة يخبر عن الغيوب ، روى السدي : أنه كان يلعب مع الصبيان ، ثم يخبرهم بأفعال آبائهم وأمهاتهم ، وكان يخبر الصبي بأن أمك قد خبأت لك كذا فيرجع الصبي إلى أهله ويبكي إلى أن يأخذ ذلك الشيء ثم قالوا لصبيانهم : لا تلعبوا مع هذا الساحر ، وجمعوهم في بيت ، فجاء عيسى عليه السلام يطلبهم ، فقالوا له ، ليسوا في البيت ، فقال : فمن في هذا البيت ، قالوا : خنازير قال عيسى عليه السلام كذلك يكونون فإذا هم خنازير .

والقول الثاني : إن الإخبار عن الغيوب إنما ظهر وقت نزول المائدة ، وذلك لأن القوم نهوا عن الادخار ، فكانوا يخزنون ويدخرون ، فكان عيسى عليه السلام يخبرهم بذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 51﴾

(200/118)

وقال الآلوسى :

﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ﴾ (ما) في الموضعين موصولة ، أو نكرة موصوفة والعائد محذوف أي تأكلونه وتدخرونه والظرف متعلق بما عنده وليس من باب التنازع ، والادخار الخبء وأصل تدخرون تذتخرون بذال معجمة فتاء فأبدلت التاء ذالاً ثم أبدلت الذال دالاً وأدغمت ، ومن العرب من يقلب التاء دالاً ويدغم ، وقد كان هذا الإخبار بعد النبوة وإحيائه الموتى عليه السلام على ما في بعض الإخبار ، وقيل : قبل ، فقد أخرج ابن عساكر عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : كان عيسى عليه السلام وهو غلام يلعب مع الصبيان يقول لأحدهم : تريد أن أخبرك ما خبأت لك أمك ؟ فيقول : نعم فيقول : خبأت لك كذا وكذا فيذهب الغلام منهم إلى أمه فيقول لها : أطعميني ما خبأت لي فتقول : وأي شيء خبأت لك ؟ فيقول : كذا وكذا فتقول : من أخبرك ؟ ! فيقول : عيسى

ابن مريم فقالوا : والله لأن تركتم هؤلاء الصبيان مع عيسى ليفسدنهم فجمعوهم في بيت وأغلقوه عليهم فخرج عيسى يلتمسهم فلم يجدهم حتى سمع ضوضاهم في بيت فسأل عنهم فقال : ما هؤلاء أكان هؤلاء الصبيان ؟ قالوا : لا إنما هي قردة وخنازير قال : اللهم اجعلهم قردة وخنازير فكانوا كذلك ، وذهب بعضهم أن ذلك كان بعد نزول المائدة وأيد بما أخرجه عبد الرزاق وغيره عن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه في الآية أنه قال : ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ ﴾ من المائدة ﴿ وَمَا تَدَّخِرُونَ ﴾ منها ، وكان أخذ عليهم في المائدة حين نزلت أن يأكلوا ولا يدخروا فادخروا وخانوا فعلوا قردة وخنازير ، ويمكن أن يقال : إن كل ذلك قد وقع وعلى سائر التقادير فالمراد الأخبار بخصوصية هذين الأمرين كما يشعر به الظاهر ، وقيل : المراد الإخبار بالمغيبات إلا أنه قد اقتصر على ذكر أمرين منها ولعل وجه تخصيص الإخبار بأحوالهم لتيقنهم بها فلا يبقى لهم شبهة ، والسر في ذكر هذين الأمرين بخصوصهما أن غالب سعي الإنسان

وصرف ذهنه لتحصيل الأكل الذي به قوامه والادخار الذي يطمئن به أكثر القلوب ويسكن منه غالب النفوس فليفهم. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 170 ﴾

سؤال : فإن قال قائل : وما كان في قوله لهم : "وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم" من الحجة له على صدقه ، وقد رأينا المتنجِّمة والمتكهِّنة تخبرُ بذلك كثيرًا فتصيب ؟

قيل : إن المتنجِّم والمتكهِّن معلوم منهما عند من يخبرانه بذلك ، أنهما ينبئان به عن استخراج له ببعض الأسباب المؤدية إلى علمه . ولم يكن كذلك من عيسى صلوات الله عليه ومن سائر أنبياء الله ورُسله ، وإنما كان عيسى يخبر به عن غير استخراج ، ولا طلب لمعرفته باحتيال ، ولكن ابتداءً بإعلام الله إياه ، من غير أصل تقدّم ذلك احتذاه ، أو بنى عليه ، أو فزع إليه ، كما يفزَع المتنجم إلى حسابه ، والمتكهن إلى رئِيّه . فذلك هو الفصل بين علم الأنبياء بالغيوب وإخبارهم عنها ، وبين علم سائر المتكذِّبة على الله ، أو المدَّعية علم ذلك .

فهكذا فعل الأنبياء وحججها ، إنما تأتي بما أتت به من الحجج بما قد يوصل إليه ببعض الحيل ، على غير الوجه الذي يأتي به غيرها ، بل من الوجه الذي يعلم الخلق أنه لا يوصل إليه من ذلك الوجه بحيلة إلا من قِبَل الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 432 . 434 ﴾ . بتصرف يسير .

وقال الفخر :

الإخبار عن الغيوب على هذا الوجه معجزة ، وذلك لأن المنجمين الذين يدعون استخراج الخبر لا يمكنهم ذلك إلا عن سؤال يتقدم ثم يستعينون عند ذلك بآلة ويتوصلون بها إلى

معرفة أحوال الكواكب ، ثم يعترفون بأنهم يغلطون كثيراً ، فأما الإخبار عن الغيب من غير استعانة بآلة ، ولا تقدم مسألة لا يكون إلا بالوحي من الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 51 ﴾

(202/118)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذلك لَأَيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

قال الفخر :

المعنى إن في هذه الخمسة لمعجزة قاهرة قوية دالة على صدق المدعي لكل من آمن بدلائل المعجزة في الحمل على الصدق ، بلى من أنكر دلالة أصل المعجز على صدق المدعي ، وهم البراهمة ، فإنه لا يكفيه ظهور هذه الآيات ، أما من آمن بدلالة المعجز على الصدق لا يبقى له في هذه المعجزات كلام ألبتة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 50. 51 ﴾

وقال الطبرى :

يعني بذلك جل ثناؤه : إنّ في خلقي من الطين الطيرَ بإذن الله ، وفي إبرائي الأكمهَ والأبرصَ ، وإحيائي الموتى ، وإنبائيَ إياكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ، ابتداءً من غير حساب

وتنجيم ، ولا كهانة وعرافة لعبرةً لكم ومتفكَّرًا ، تتفكرون في ذلك فتعتبرون به أنيّ محق في قولي لكم : "إني رسولٌ من ربكم إليكم" ، وتعلمون به أني فيما أدعوكم إليه من أمر الله ونهيه صادق "إن كنتم مؤمنين" ، يعني : إن كنتم مصدّقين حجج الله وآياته ، مقرّين بتوحيده ، وبنبيه موسى والتوراة التي جاءكم بها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 437 ﴾

(203/118)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أي المذكور من الخوارق الأربعة العظيمة ، وهذا من كلام عيسى عليه السلام حكاه الله تعالى عنه ، وقيل : هو من كلام الله تعالى سيق للتوبيخ ﴿ لآيَةً ﴾ أي جنسها ، وقرىء لآيات ﴿ لَكُمْ ﴾ دالة على صحة الرسالة دلالة واضحة حيث لم يكن ذلك بتخلل آلات وتوسط أسباب عادية كما يفعله الأطباء والمنجمون . ومن هنا يعلم أن علم الجفر وعلم الفلك ونحوهما لما كانت مقرونة بأصول وضوابط لا يقال عنها : إنها علم غيب أبداً إذ علم الغيب شرطه أن يكون مجرداً عن المواد والوسائط الكونية وهذه العلوم ليست كذلك لأنها مرتبة على قواعد معلومة عند أهلها لولاها ما علمت تلك العلوم ،

وليس ذلك كالعلم بالوحي لأنه غير مكتسب بل الله تعالى يختص به من يشاء وكذا العلم بالإلهام فإنه لا مادة له إلا الموهبة الإلهية والمنحة الأزلية ، على أن بعضهم ذهب إلى أن تلك العلوم لا يحصل بها العلم المقابل للظن بل نهاية ما يحصل الظن الغالب وبينه وبين علم الغيب بون بعيد ، وسيأتي لهذا تتمة إن شاء الله تعالى ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فيه مجاز المشارفة أي إن كنتم موفقين للإيمان ، ويحتمل أن يكون المعنى إن كنتم مصدقين ، وجواب الشرط على التقديرين محذوف أي انتفعتم بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 170 ﴾

وقال ابن عطية :

وقوله ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ ، توقيف والمعنى ، لآيات نافعة هادية إن آمنتم وأبصرتم وإلا فليست بنافعة ولا هادية ، فأما كونها آيات فعلى كل حال آمنوا أو كفروا ، هذا كله على أن المخاطبة لمن لم يؤمن – بعد – وهو ظاهر حاله مع بني إسرائيل ، وإن كان خطابه لمؤمنين ، أو كما كانوا مؤمنين بموسى ، فمعنى الآية التثبيت وهز النفس كما تقول لإنسان تقيم نفسه إلى شيء : ما أنت يا فلان يلزمك أن تفعل كذا وكذا إن كنت من الرجال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 441 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ جوابه محذوف ، أي : إن كنتم مؤمنين انتفعتم بهذه الآية ، وتدبَّرتموها . وقدر بعضهم صفة محذوفةً لـ " آية " أي : لآية نافعة . قال ابو حيّان : " حتى يتَّجه التعلُّق بهذا الشرط " وفيه نظر ؛ إذْ يَصِحّ التعلُّق بالشرط دون تقدير هذه الصفة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 251 ﴾

لطيفة

قال ابن عاشور :

وتعرض القرآن لذكر هذه المعجزات تعريض بالنصارى الذي جعلوا منها دليلا على ألوهية عيسى ، بعلة أن هذه الأعمال لا تدخل تحت مقدرة البشر ، فمن قدر عليها فهو الإله ، وهذا دليل سفسطائي أشار الله إلى كشفه بقوله : ﴿ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وقوله : ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ مرتين . وقد روى أهل السير أن نصارى نجران استدلوا بهذه الأعمال لدى النبي صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 102 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

إن كلمة رسول تحتاج إلى علامة ، فليس لأي أحد أن يقول : " أنا رسول من عند الله " بل لا بد أن يقدم بين يدي دعواه معجزة تثبت أنه رسول من الله . والأية كما نعرف هي الأمر العجيب الذي خرج عن القوانين والنواميس لتثبت صدق الرسول في البلاغ ، وما دامت المعجزة خارجة عن نواميس البشر ، فالمخالف نقول له : أنت حين تكذب أن حامل المعجزة رسول ، فكيف تعلل أنه جاء بمعجزة خرجت عن الناموس ؟ إذن فالمعجزة تلزم المنكر الذي يتحدى وتفحمه ، لأنه لا يستطيع أن يأتي بمثلها ، ولذلك قلنا : إن من لزوم التحدي ألا يتحدى الله حين يعطي رسولا معجزة إلا بشيء نبغ فيه القوم المبعوث إليهم ذلك الرسول ؛ لأن الحق لو جاء لهم بشيء لم يدرسوه ولم يعرفوه ، فالرد منهم يكون للرسول بقولهم : إن هذا أمر لم نروّض أنفسنا ولم ندربها عليه ، ولو روّضنا أنفسنا عليه لا ستطعنا أن نفعل مثله ، وأنت قد جئت لنا بشيء لم نعود أنفسنا عليه ، لذلك يرسل الحق الرسول – أي رسول – بمعجزة من جنس ما ينبغ فيه القوم المرسل إليهم . مثال ذلك ، موسى عليه السلام ، أرسله الله إلى قوم كانوا نابغين في السحر ، فكانت معجزته تقرب من السحر .

وإياك أن تقول إن معجزة موسى كانت سحرا ؛ لأن موسى عليه السلام لم ينزل بسحر ولكن بمعجزة. كانوا هم يخيلون للناس أشياء ليست واقعا لذلك تجد القرآن يعطيك الفارق بين ما يكون عليه ما يأتي به الله على يد رسول من الرسل من معجزة وسحر القوم، فيقول القرآن:

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾

[طه: 17-20].

كأن الحق يقول لموسى عليه السلام: إن حدود علمك بما في يدك أنها عصا تتوكأ عليها وتهش بها على غنمك، أما علمي أنا فهو علم آخر. لذلك يأمره أن يلقى العصا ، فلما ألقاها وجدها حية تسعى، فأوجس في نفسه خيفة. . إن "أوجس في نفسه خيفة" هي التي فرقت بين سحر القوم ومعجزة موسى عليه السلام".

لماذا ؟ لأن الساحر يلقى العصا فيراها الناس حية وهو يراها عصا لأنّ الساحر لو رآها حية لخاف مثل الناس، لقد خاف موسى عليه السلام لأنها تغيرت وصارت حية فعلا،

ولذلك قال له الله :

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾

[طه : 21] .

فلو كانت من جنس السحر لما أوجس في نفسه خيفة لأنه سوف يراها عصا وإن رآها غيره حية ، وهذا هو الفارق .

(207/118)

وقوم عيسى أيضا كانوا مشهورين بالحكمة والطب ، إذن فستجيء الآيات من جنس الحكمة والطب ، ثم تتسامى المعجزة ، لأن الذي يطبب جسما ويداويه لا يستطيع أن يعيد الميت إلى الحياة ، لأن الإنسان إذا ما مات فقد خرج الميت عن دائرة علاج الطبيب .

ولذلك رقّى الله آية عيسى ، إنه يشفي المرضى ، ويحيي الموتى أيضا ، وهذا ترق في الإعجاز . قال عيسى : ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ . إن كلمة " أخلق " تحتاج إلى وقفة وكذلك " الطين " و " الهيئة " و " الطير " .

" أخلق " مأخوذة من الخلق ، والخلق هو إيجاد شيء على تقدير ، فأنت تتخيله وتقدره في

ذهنك أولا ثم تأتي به على هذه الحالة . فإن كان قد أتى على غير تقديرك فليس خلقا ، إنما هو شيء جزافي جاء على غير علم وتقدير ، وإنّ من يأخذ قطعة من الطين ويصنع منها أي شيء فهذا ليس خلقا . إن الخلق هو المطلوب على تقدير . مثال ذلك الكوب أو الكأس البلور الذي نشرب فيه حينما صنعه الصانع . هل كانت هناك شجرة تخرج أكوابا ، أم أن الصانع أخذ الرمال وصهرها ووضع عليها مواد كيماوية تخليها من الشوائب ، ثم قام بتشكيلها على هيئة الكوب ؟

إذن فالكوب لم تكن موجودة ، ووجدت على تقدير أن تكون شكل الكوب ، فهي خلق أُوجد على تقدير . فماذا عن خلق الله ؟ إنه يخلق على تقدير ، وفرق بين صنعة البشر حين يخلق ، وبين صنعة الله حين يخلق . إن صنعة البشر حين تخلق ، إنما تخلق من موجود ، وحين يخلق الله فهو يخلق من معدوم ، وهذا هو أول فرق ، إنه سبحانه يخلق من عدم ، أما الإنسان فيضع الأشياء بنظام يحدث فيها تفاعلات أرادها الله فتوجد ، فلا يوجد من يستطيع – على سبيل المثال – من يصنع كوبا من غير المادة التي خلقها الله .

(208/118)

إن هذا أول فرق بين خلق الله ، وخلق الإنسان ، فخلق الله يكون من عدم ، وخلق الإنسان من موجود ، وإن كان الإثنان على تقدير . وأيضا يعطي الله لخلقه سرا لا يستطيع البشر إعطاءه لصنعته ، فالله يعطيه سر الحياة. والحياة فيها نمو ، وفيها تكاثر ، لكن البشر يصنعون الكوب مثلا ، فتظل كوبا ، ولا يوجد تكاثر بين كوب ذكر وكوب أنثى .

إن الإنسان يوجد صنعته فتظل على حالتها ، ولا يستطيع أن يصنعها صغيرة ثم تكبر ، لكن صنعة الله هي صنعة القادر الذي يهب الحياة ، فتكبر مخلوقاته وتتطور وتمر بمراحل ، وتعطي مثلها . إذن ، فالخلق إيجاد على تقدير ، هذا الإيجاد يوجد معدوما ، والمعدوم موجودة مادته ، هذا في خلق الإنسان ، أما في خلق الله ، فالله يخلق من معدوم لا توجد له مادة .

والله يخلق من الشيء ذكرا وأنثى ويعطيهما القدرة على التناسل ، فها هو ذا قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

[المؤمنون : 12-14] .

ولم يمنع الحق خَلْقَه أن يخلقوا أشياء ، ولكن خلق الله أحسن ، لماذا ؟ لأنه يخلق من عدم ،

والبشر يخلقون من موجود . وهو الحق يخلق ويوجد في مخلوقاته حياة وتكاثرا ، والبشر يخلقون بلا نمو ولا حياة ، إنه الحق أحسن الخالقين ، إذن قول عيسى عليه السلام : ﴿ أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ " الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .

يعني أن كل إنسان يستطيع أن يصنع تمثالا كهيئة الطير . لكن الله أوجد معجزة عيسى وجعله يخلق من الطين كهيئة الطير ، وينفخ فيه ، وقد تسأل ، في ماذا ينفخ ؟ أينفخ في الطير ، أم في الطين ، أم في الهيئة ؟ إن قلنا : أن النفخ في الطين بعد ما صار طيرا . يكون النفخ في الطين ، كالنفخ في الطير ، وجاءت في آية أخرى أنها نفخ في الهيئة .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾

[المائدة : 110] .

إن " النفخ فيه " ، تكون للطين أو الطير . و " النفخ فيها " تكون للهيئة ، وهناك آية بالنسبة للسيدة مريم البتول :

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾

[التحريم : 12] .

إن النفخ هنا في الفرج ، وآية أخرى بالنسبة للسيدة مريم البتول :

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

[الأنبياء : 91] .

مرة يقول : " نفخنا فيه " أي في الفرج ، ومرة يقول : " نفخنا فيها " أي فيها هي ، والقولان متساويان ، وهنا في هذه الآية ، نجد أن الإعجاز ليس في أن عيسى صنع من الطين كهيئة الطير ، لأن أي إنسان يستطيع أن يفعل ذلك ، فكأنه حينما قال : ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .

(210/118)

كأنه صار طيرا من النفخة ، أما عن أمر صناعة طير من الطين فأي إنسان يمكن أن يفعلها ، لكن عيسى عليه السلام يفعل ذلك بإذن الله ، ولا بد أن يجيء الأمر مختلفا ، و " بإذن الله " هنا تضم صناعة الطير ، والنفخ فيه .

إن عيسى لم يكن ليجترئ ويصنع ذلك كله إلا بإذن الله ، وجاءت كلمة " بإذن الله " من عيسى وعلى لسانه كاعتراف منه بأن ذلك ليس من صناعته ، وكأنه يقول لقومه : إن كنتم فتنتم بهذه .

فكان يجب أن تفتنوا بإبراهيم من باب أولى ، حينما قطَّع الطير وجعل على كل جبل جزءا منهن ثم دعاهن .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[البقرة : 260] .

إذن كان من الأولى الفتنة بما أعطاه الله إبراهيم عليه السلام من معجزة ، فإن كانت الفتنة من ناحية الإحياء لكان ما صنعه إبراهيم عليه السلام أولى بها ، وإن كانت الفتنة من ناحية أنه جاء إلى الدنيا بدون أب لكانت الفتنة أكثر في خلق آدم ، لأن الله خلقه بلا أب أو أم . إذن فالفتنة لا أصل لها , ولا منطق يبررها . . ويتابع الحق سبحانه على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام ﴿ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .

لماذا تعرض عيسى ابن مريم لهذين المرضين ؟ لأنها كانت الأمراض المستعصية في ذلك العصر ، والأكمه هو الذي ولد أعمى, أي لم يحدث له العمى من بعد ميلاده . والبرص ، هو ابيضاض بقعة في الجلد وإن كان صاحبها آدم أو أسود . وبعد ذلك تنتشر بقع متناثرة في كافة الجسم بلون أبيض ، مما يدل على أن لون الجلد له كيماويات في الجسم تغذى هذا اللون ، فإن مُنعت الكيماويات في الجسم صار أبرص .

وتبين صدق هذا في أن العلم المعاصر قد عرف أن الملونات للجلد هي غدد خاصة توجد في الجسم ، واسمها الغدد الملونة ، فإن امتنعت الغدد الملونة من إعطاء الألوان ، جاء البرص والعياذ بالله . وهو مرض صعب ، لم يكن باستطاعتهم أن يداووه ، فعندما جاء عيسى ابن مريم أعطاه الله الآية من جنس ما نبغوا فيه وهو الطب . وجاء لهم بآية هي إبراء ما كانوا عاجزين عنه .

وبعض القوم الذين يحاولون أن يقربوا بين المعجزة وعقول الناس . يقولون : إن هذه المعجزة إنما هي سبق زمني ، بمعنى أنه من الممكن أن يتوصل الإنسان إلى أن يكتشف علاجا لهذه الأمراض ، لكن لهؤلاء نقول : لا ، إن المعجزة تظل معجزة إلى أن تقوم الساعة . كيف ؟ لنأخذ مثالا من طب العيون ، وعندما قالوا إن هناك علاجاً للعمى . "سنقوم بتركيب قرنية" أو أن نأخذ مثالا من طب الجلد لو قالوا : "سنداوي البرص" واكتشفوا ألوانا

مختلفة من العلاج تحاول أن تجعل الجلد على لون واحد ، لكنه لا يستعيد لونه الأصلي .

ولذلك قال البعض : "إن معجزة عيسى كانت مجرد سبق زمني " . لهؤلاء نقول : لا ، لنأخذ كل أمر بأدواته .

إن عيسى ابن مريم عليه السلام كان يبرئ بالكلمة والدعوة ومهما تقدم العلم فلن يستطيع العلم أن يبرئ المرض بالكلمة والدعوة ، إنما سيأخذون أشياء ويقومون بتحليل تلك الأشياء ، وخلط الكيماويات وإجراء الجراحات ، لذلك تظل المعجزة التي جاء بها عيسى ابن مريم عليه السلام معجزة ؛ لأنه كان يبرئ بالكلمة والدعوة .

(212/118)

ويضيف الحق على لسان عيسى ابن مريم : ﴿ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ ﴾ . ومسألة إحياء الموتى لم يأخذها عيسى هكذا على إطلاقها فيحيي كل ميت ، إنما قام بها وفي وحدات تثبت صدق الآية ولا تعمم مدلول المعجزة كسام بن نوح مثلا ، و " عازر " إنها أشياء لمجرد إثبات المعجزة ، ولكنها ليست مطلقة ، ذلك أنه نبي ورسول من الله فلا يمكن أن يصادم قدر الله في الآجال . ولذلك قالوا إنه عندما أحيا سام بن نوح ، أحياه حتى نطق بكلمة ، ثم عاد سام إلى الموت من بعد ذلك ويضيف الحق على لسان

عيسى ابن مريم عليه السلام :

﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ [آل عمران : 49] .

لماذا ؟ لأن كل إنسان يعلم جزئية من أحداثه الحياتية الخاصة ، يكون هذا العلم خاصا به ، وكل إنسان –مثلا– يأكل طعامه بألوان مختلفة يعرفها هو ، ولا يعرفها الآخرون . إن الأمر الأول كخلق الطير ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، هي أمور عامة للكل . أما الإنباء بألوان الطعام التي يأكلها كل إنسان فهي خاصية أحداث ، لأن كل واحد يأكل أكلا معينا فيقول له عيسى ابن مريم ماذا أكل . وليس من المعقول أن يكون عيسى ابن مريم قد دخل كل بيت أو جاءت له أخبار عن كل بيت .

وكذلك أمر الادخار . وذلك حتى تنتفي شبهة أنه كان يشم رائحة الإنسان فيعرف لون الطعام الذي يأكله ، لذلك كان الإخبار بما يدخر كل واحد في بيته ، فهذه مسألة توضح بالجلاء التام أنها آية من إخبار من يعلم مغيبات الأمور .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : 49] .

إن هذه آية عجيبة تثبت أن هناك قوة أعلى قاهرة هي قوة الله الحق هي التي تعطيه هذه الأشياء ، فإن كنتم مؤمنين بوجود قوة أعلى فعليكم تصديق الرسالة التي جاء بها عيسى ابن مريم ، لأن معنى (رسول) أنه مخلوق اصطفاه الله وأرسله سبحانه إلى الأدنى منه ، فالذي يؤمن الآية هو الذي يؤمن بوجود إله أعلى قادر ومن يريد أن يتثبت – مع إيمانه بالله – من الآية التي بعثها الله مع عيسى ابن مريم ، فالآية واضحة . بالله فلن تفيده الآية في الإيمان .
ويقول الحق متابعا على لسان عيسى ابن مريم : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿تفسير الشعراوى صـ 1478.1471 ﴾

(214/118)

" فصل "

قال السيوطى :

وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (49)

أخرج ابن جرير عن ابن إسحق أن عيسى جلس يوماً مع غلمان من الكتاب ، فأخذ طيناً

ثم قال: أجعل لكم من هذا الطين طائراً؟ قالوا: أو تستطيع ذلك؟ قال: نعم. بإذن ربي. ثم هيأه حتى إذا جعله في هيئة الطائر نفخ فيه ثم قال: كن طائراً بإذن الله فخرج يطير من بين كفيه، وخرج الغلمان بذلك من أمره، فذكروه فأفشوه في الناس.

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج، أن عيسى قال: أي الطير أشد خلقاً؟ قال: الخفاش إنما هو لحم ففعل.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: إنما خلق عيسى طيرا واحداً. وهو الخفاش.

قوله تعالى: ﴿ وأبرئ الأكمه والأبرص ﴾.

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس ﴿ الأكمه ﴾ الذي يولد وهو أعمى.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عطاء عن ابن عباس قال ﴿ الأكمه ﴾ الأعمى الممسوح العين.

وأخرج أبو عبيد والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب الأضداد عن مجاهد قال ﴿ الأكمه ﴾ الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري عن عكرمة قال: ﴿ الأكمه ﴾ الأعمش.

وأخرج ابن عساكر عن وهب بن منبه قال : كان دعاء عيسى الذي يدعو به للمرضى ، والزمنى ، والعميان ، والمجانين ، وغيرهم . اللهم أنت إله من في السماء وإله من في الأرض لا إله فيهما غيرك ، وأنت جبار من في السماء وجبار من في الأرض لا جبار فيهما غيرك ، أنت ملك من في السماء وملك من في الأرض لا ملك فيهما غيرك ، قدرتك في السماء كقدرتك في الأرض ، وسلطانك في الأرض كسلطانك في السماء ، أسألك باسمك الكريم ، ووجهك المنير ، وملكك القديم ، إنك على كل شيء قدير . قال وهب : هذا للفزع والمجنون يقرأ عليه ، ويكتب له ، ويسقى ماؤه إن شاء الله تعالى .

وأخرج ابن جرير من وجه آخر عن وهب قال : لما صار عيسى ابن اثنتي عشر سنة اوحى الله إلى أمه وهي بأرض مصر - وكانت هربت من قومها حين ولدته إلى أرض مصر - أن اطلعي به إلى الشام ففعلت ، فلم تزل بالشام حتى كان ابن ثلاثين سنة ، وكانت نبوّته ثلاث سنين ، ثم رفعه الله إليه . وزعم وهب أنه ربما اجتمع على عيسى من المرضى في الجماعة الواحدة خمسون ألفاً . من أطاق منهم أن يبلغه بلغه ، ومن لم يطق ذلك منهم أتاه فمشى إليه ، وإنما كان يداويهم بالدعاء إلى الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وأحيي الموتى بإذن الله ﴾ .

أخرج البيهقي في الأسماء والصفات وابن عساكر من طريق إسماعيل بن عياش عن محمد

بن طلحة عن رجل ، أن عيسى بن مريم كان إذا أراد أن يحيي الموتى صلى ركعتين يقرأ في الركعة الأولى

(216/118)

﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ [الملك : 1] وفي الثانية ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ [السجدة : 2] فإذا فرغ مدح الله وأثنى عليه ثم دعا بسبعة أسماء . يا قديم ، يا حي ، يا دائم ، يا فرد ، يا وتر ، يا أحد ، يا صمد . قال البيهقي : ليس هذا بالقوي . وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق محمد بن طلحة بن مصرف عن أبي بشر عن أبي الهذيل بلفظه ، وزاد في آخره وكانت إذا أصابته شدة دعا بسبعة أسماء أخرى . يا حي ، يا قيوم ، يا الله ، يا رحمن ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا نور السموات والأرض وما بينهما ورب العرش العظيم ، يا رب .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب من عاش بعد الموت عن معاوية بن قرة قال : سألت بنو إسرائيل عيسى فقالوا : إن سام بن نوح دفن ههنا قريباً فادع الله أن يبعثه لنا . فهتف فخرج أشمط . قالوا : إنه قد مات وهو شاب فما هذا البياض ؟ قال : ظننت أنها الصيحة ففزعت .

وأخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر من طرق عن ابن عباس قال : كانت اليهود يجتمعون

إلى عيسى ويستهزئون به ويقولون له : يا عيسى ما أكل فلان البارحة ، وما ادخر في بيته لغد . فيخبرهم فيسخرون منه حتى طال ذلك به وبهم ، وكان عيسى عليه السلام ليس له قرار ولا موضع يعرف إنما هو سائح في الأرض ، فمر ذات يوم بامرأة قاعدة عند قبر وهي تبكي فسألها . . . ؟ فقالت : ماتت ابنة لي لم يكن لي ولد غيرها . فصلى عيسى ركعتين ثم نادى : يا فلانة قومي بإذن الرحمن فاخرجي فتحرك القبر ، ثم نادى الثانية فانصدع القبر ، ثم نادى الثالثة فخرجت وهي تنفض رأسها من التراب فقالت أماه ما حملك على أن أذوق كرب الموت مرتين ؟ يا أماه اصبري واحتسبي فلا حاجة لي في الدنيا ، يا روح الله سل ربي أن يردني إلى الآخرة ، وأن يهوّن علي كرب الموت . فدعا ربه ، فقبضها إليه فاستوت عليها الأرض .

(217/118)

فبلغ ذلك اليهود فازدادوا عليه غضباً ، وكان ملك منهم في ناحية في مدينة لها نصيبين جباراً عاتياً ، وأمر عيسى بالمسير إليه ليدعوه وأهل تلك المدينة إلى المراجعة ، فمضى حتى شارف المدينة ومعه الحواريون فقال لأصحابه : ألا رجل منكم ينطلق إلى المدينة فينادي فيها فيقول : إن عيسى عبد الله ورسوله . فقام رجل من الحواريين يقال له يعقوب

فقال : أنا يا روح الله . قال : فاذهب فأنت أول من يتبرأ مني ، فقام آخر يقول له توصار وقال له : أنا معه قال : وأنت معه ومشيا ، فقام شمعون فقال : يا روح الله أكون ثالثهم فائذن لي أن أنال منك أن اضطررت إلى ذلك ؟ قال : نعم .

فانطلقوا حتى إذا كانوا قريباً من المدينة قال لهما شمعون : ادخلا المدينة فبَلّغا ما أُمِرْتُمَا ، وأنا مقيم مكاني ، فإن ابتليتما أقبلت لكما . فانطلقا حتى دخلا المدينة وقد تحدث الناس بأمر عيسى ، وهم يقولون فيه أقبح القول وفي أمه . فنادى أحدهما وهو الأول : ألا أن عيسى عبد الله ورسوله ، فوثبوا إليهما من القائل أنْ عيسى عبد الله ورسوله ؟ فتبرأ الذي نادى فقال : ما قلت شيئاً فقال الآخر : قد قلت وأنا أقول : إن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه فآمنوا به يا معشر بني إسرائيل خيراً لكم ، فانطلقوا به إلى ملكهم وكان جباراً طاغياً فقال له : ويلك ما تقول ؟ ! قال : أقول : إن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه . قال : كذبت . فقذفوا عيسى وأمه بالبهتان ثم قال له : تبرأ ويلك من عيسى وقل فيه مقالتنا . قال : لا أفعل . قال : إن لم تفعل قطعت يديك ورجليك ، وسمرت عينيك . فقال : افعل بنا ما أنت فاعل . ففعل به ذلك فألقاه على مزبلة في وسط مدينتهم .

ثم أن الملك هم أن يقطع لسانه إذ دخل شمعون وقد اجتمع الناس فقال لهم : ما بال هذا المسكين ؟ قالوا : يزعم أن عيسى عبد الله ورسوله فقال شمعون : أيها الملك أتأذن لي فادنو منه فاسأله ؟ قال : نعم . قال له شمعون : أيها المبتلى ما تقول ؟ قال : أقول ان عيسى عبد الله ورسوله . قال : فما آية تعرفه ؟ قال ﴿ يبرئ الأكمه والأبرص ﴾ والسقيم . قال : هذا يفعله الأطباء فهل غيره ؟ قال : نعم ﴿ يخبركم بما تأكلون وما تدخرون ﴾ قال : هذا تفعله الكهنة فهل غير هذا ؟ قال : نعم ﴿ يخلق من الطين كهيئة الطير ﴾ قال : هذا قد تفعله السحرة يكون أخذه منهم . فجعل الملك يتعجب منه وسؤاله . قال : هل غير هذا ؟ قال : نعم . ﴿ يحيي الموتى ﴾ .

قال : أيها الملك إنه ذكر أمراً عظيماً وما أظن خلقاً يقدر على ذلك إلا بإذن الله ، ولا يقضي الله ذلك على يد ساحر كذاب ، فإن لم يكن عيسى رسولاً فلا يقدر على ذلك ، وما فعل الله ذلك لأحد إلا لإبراهيم حين سأل ربه ﴿ أرني كيف تحيي الموتى ﴾ [البقرة : 260] ومن مثل إبراهيم خليل الرحمن .

وأخرج ابن جرير عن السدي وابن عساكر من طريق السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس قال : لما بعث الله عيسى عليه السلام وأمره بالدعوة لقيه بنو إسرائيل فأخرجوه ، فخرج هو وأمه يسيحون في الأرض ، فنزلوا في قرية على رجل ، فأضافهم

وأحسن إليهم ، وكان لتلك المدينة ملك جبار ، فجاء ذلك الرجل يوماً حزيناً ، فدخل منزله ومريم عند امرأته فقالت لها : ما شأن زوجك أراه حزيناً ؟ قالت : إن لنا ملكاً يجعل على كل رجل منا يوماً يطعمه هو وجنوده ويسقيهم الخمر ، فإن لم تفعل عاقبه ، وإنه قد بلغت نوبته اليوم وليس عندنا سعة قالت : قولي له فلا يهتم فإني آمر ابني فيدعو له فيكفي ذلك .

(219/118)

قالت مريم لعيسى في ذلك . فقال عيسى : يا أماه إني إنْ فعلت كان في ذلك شر قالت : لا تبال فإنه قد أحسن إلينا وأكرمنا . قال عيسى : قولي له املأ قدورك وخوابيك ماء . فملأهن فدعا الله تعالى ، فتحوّل ما في القدور لحماً ، ومرقاً ، وخبزاً ، وما في الخوابي خمراً لم ير الناس مثله قط . فلما جاءه الملك أكل منه ، فلما شرب الخمر قال : من أين لك هذا الخمر ؟ ! قال : هو من أرض كذا وكذا . . . قال الملك : فإن خمري أوتى به من تلك الأرض فليس هو مثل هذا ! قال : هو من أرض أخرى . فلما خلط على الملك اشتد عليه فقال : إني أخبرك . . . عندي غلام لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه ، وإنه دعا الله تعالى فجعل الماء خمراً فقال له الملك : وكان له ابن يريد أن يستخلفه فمات قبل بأيام ، وكان أحب

الخلق إليه فقال : إن رجلا دعا الله تعالى فجعل الماء خمراً ليستجابن له يحيي ابني .

فدعا عيسى فكلمه وسأله ان يدعو الله أن يحيي ابنه فقال عيسى : لا تفعل فإنه ان عاش كان شراً قال الملك : لست أبالي أراه فلا أبالي ما كان قال عيسى عليه السلام : فإني حييته تتركوني أنا وأمي نذهب حيث نشاء ؟ فقال الملك : نعم . فدعا الله فعاش الغلام . فلما رآه أهل مملكته قد عاش تنادوا بالسلاح وقالوا : أكلنا هذا حتى إذا دنا موته يريد أن يستخلف علينا ابنه فيأكلنا كما أكلنا أبوه . فاقتتلوا وذهب عيسى وأمه وصحبهما يهودي ، وكان مع اليهودي رغيفان ، ومع عيسى رغيف . فقال له عيسى : تشاركني ؟ فقال اليهودي : نعم . فلما رأى أنه ليس مع عيسى عليه السلام إلا رغيف ندم ، فلما ناما جعل اليهودي يريد أن يأكل الرغيف . فيأكل لقمة فيقول له عيسى : ما تصنع ؟ فيقول له : لا شيء . . . حتى فرغ من الرغيف .

فلما أصبحا قال له عيسى : هلم بطعامك ، فجاء برغيف فقال له عيسى : أين الرغيف الآخر ؟ قال : ما كان معي إلا واحد . فسكت عنه وانطلقوا ، فمروا براعي غنم فنادى عيسى : يا صاحب الغنم أجزرنا شاة من غنمك . قال : نعم . فأعطاه شاة فذبحها

وشواها ، ثم قال لليهودي : كل ولا تكسر عظماً . فأكلا فلما شبعوا قذف عيسى العظام في الجلد ثم ضربها بعصاه وقال : قومي بإذن الله . فقامت الشاة تثغو فقال : يا صاحب الغنم خذ شاتك فقال له الراعي : من أنت ؟ ! قال : أنا عيسى ابن مريم قال : أنت الساحر ؟ وفر منه .

قال عيسى لليهودي : بالذي أحيا هذه الشاة بعدما أكلناها كم كان معك من الأرغفة أو – كم رغيف كان معك – فحلف ما كان معه إلا رغيف واحد .

فمر بصاحب بقر فقال : يا صاحب البقر أجزرنا من بقرك هذه عجلاً . فأعطاه فذبحه وشواه وصاحب البقر ينظر فقال له عيسى : كل ولا تكسر عظماً . فلما فرغوا قذف العظام في الجلد ، ثم ضربه بعصاه وقال : قم بإذن الله تعالى ، فقام له خوار فقال : يا صاحب البقر خذ عجلك . قال : من أنت ؟ قال : أنا عيسى قال : أنت عيسى الساحر ؟ ثم فر منه .

(221/118)

قال عيسى لليهودي : بالذي أحيا هذه الشاة بعدما أكلناها ، والعجل بعدما أكلناه كم رغيفاً كان معك ؟ فحلف بذلك ما كان معه إلا رغيف واحد . فانطلقا حتى نزلا قرية ،

فنزل اليهودي في أعلاها ، وعيسى في أسفلها ، وأخذ اليهودي عصا مثل عصا عيسى وقال : أنا اليوم أحيي الموتى . وكان ملك تلك القرية مريضاً شديد المرض . فانطلق اليهودي ينادي : من يبغي طبيباً ؟ فأُخْبِرَ بالملك وبوجعه فقال : ادخلوني عليه فأنا أبرئه ، وإن رأيتموه قد مات فأنا أحييه فقيل له : إن وجع الملك قد أعيا الأطباء قبلك ! قال : ادخلوني عليه ، فأُدْخِلَ عليه ، فأخذ برجل الملك فضربه بعصاه حتى مات ، فجعل يضربه وهو ميت ويقول : قم بإذن الله تعالى . فأخذوه ليصلبوه ، فبلغ عيسى فأقبل إليه وقد رفع على الخشبة فقال : أرأيتم أن أحييت لكم صاحبكم أتتركون لي صاحبي ؟ فقالوا : نعم . فأحيا عيسى الملك فقام . وأنزل اليهودي فقال : يا عيسى أنت أعظم الناس علي منة والله لا أفارقك أبداً .

قال عيسى أنشدك بالذي أحيا الشاة والعجل بعدما أكلناهما ، وأحيا هذا بعد ما مات ، وأنزلك من الجذع بعد رفعك عليه لتصلب . كم رغيفاً كان معك ؟ فحلف بهذا كله ما كان معه إلا رغيف واحد . فانطلقا فمرا بثلاث لبنات ، فدعا الله عيسى فصيرهن من ذهب قال : يا يهودي لبنة لي ، ولبنة لك ، ولبنة لمن أكل الرغيف . قال : أنا أكلت الرغيف .

وأخرج ابن عساكر عن ليث قال : صحب رجل عيسى ابن مريم ، فانطلقا فانتهينا إلى شاطئ نهر ، فجلسا يتغديان ومعهما ثلاثة أرغفة ، فأكلا رغيفين وبقي رغيف . فقام عيسى إلى النهر يشرب ثم رجع فلم يجد الرغيف . فقال للرجل : من أكل الرغيف ؟ قال : لا أدري ! فانطلق معه فرأى ظبية معها خشفان ، فدعا أحدهما ، فأتاه فذبحه وشواه وأكلا ثم قال للخشف : ثم بإذن الله فقال للرجل : أسألك بالذي أراك هذه الآية من أكل الرغيف ؟ قال : لا أدري ! ثم انتهيا إلى البحر ، فأخذ عيسى بيد الرجل ، فمشى على الماء ثم قال : أنشدك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف ؟ فقال : لا أدري .

ثم انتهيا إلى مفازة وأخذ عيسى تراباً وطيناً فقال : كن ذهباً بإذن الله . فصار ذهباً ، فقسمه ثلاثة أثلاث فقال : ثلث لك ، وثلث لي ، وثلث لمن أخذ الرغيف . قال : أنا أخذته . قال : فكله لك وفارقه عيسى ، فانتهى إليه رجلان فأرادا أن يأخذاه ويقتلاه قال : هو بيننا أثلاثاً ، فابعثوا أحدكم إلى القرية يشتري لنا طعاماً .

فبعثوا أحدهم فقال الذي بُعِثَ : لأي شيء أقاسم هؤلاء المال ، ولكن أضع في الطعام سماً فاقتلهما . وقال ذانك : لأي شيء نعطي هذا ثلث المال ، ولَكِن إذا رجع قتلناه . فلما رجع إليهم قتلوه وأكلا الطعام فماتا . فبقي ذلك المال في المفازة ، وأولئك الثلاثة قتلى عنده .

وأخرج أحمد في الزهد عن خالد الحذاء قال : كان عيسى ابن مريم إذا سرح رسله يحيون الموتى يقول لهم : قولوا كذا قولوا كذا ، فإذا وجدتم قشعريرة ودمعة فادعوا عند ذلك .

وأخرج أحمد في الزهد عن ثابت قال: انطلق عيسى عليه الصلاة والسلام يزور أخاً له، فاستقبله إنسان فقال: إن أخاك قد مات. فرجع فسمع بنات أخيه برجوعه عنهن، فاتينه فقلن يا رسول الله رجوعك عنا أشد علينا من موت أبينا قال: فانطلقن فأرينني قبره، فانطلقن حتى أرينه قبره قال: فصوت به فخرج وهو أشيب فقال: ألست فلاناً . . . ؟ قال: بلى. قال: فما الذي أرى بك؟ قال: سمعت صوتك فحسبته الصيحة.

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون ﴾ قال: بما أكلتم الراحة من طعام، وما خبأتم منه.

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: كان عيسى يقول للغلام في الكتاب: إن أهلك قد خبأوا لك كذا وكذا . . . فذلك قوله ﴿ وما تدخرون ﴾.

وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: كان عيسى ابن مريم وهو غلام يلعب مع الصبيان، فكان يقول لأحدهم: تريد أن أخبرك بما خبأت لك أمك؟ فيقول: نعم. فيقول خبأت لك كذا وكذا . . . فيذهب الغلام منهم إلى أمه فيقول لها: اطعميني ما

خبأت لي قالت : وأي شيء خبأت لك ؟ فيقول : كذا وكذا . . . فتقول : من أخبرك ؟ ! فيقول : عيسى ابن مريم فقالوا : والله لئن تركتم هؤلاء الصبيان مع عيسى ليفسدنهم . فجمعوهم في بيت واغلقوا عليهم ، فخرج عيسى يلتمسهم فلم يجدهم حتى سمع ضوضاءهم في بيت ، فسأل عنهم فقال : يا هؤلاء كأن هؤلاء الصبيان ! قالوا : لا . إنما هؤلاء قردة وخنازير قال : اللهم اجعلهم قردة وخنازير . فكانوا كذلك .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عمار بن ياسر قال ﴿ أنبئكم بما تأكلون ﴾ من المائدة ﴿ وما تدخرون ﴾ منها ، وكان أخذ عليهم في المائدة حين نزلت أن يأكلوا ولا يدخروا ، وخافوا فجعلوا قردة وخنازير .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم بن أبي النجود ﴿ وما تدخرون ﴾ مثقلة بالإدغام .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 214. 221 ﴾

(224/118)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وِيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ المَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع عشر بعد المائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التاسع عشر بعد المائة

من الآية ﴿ 50 ﴾ من سورة آل عمران

وحتى الآية ﴿ 51 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (50) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ترجمة ﴿ أني قد جئتكم ﴾ آتياً إليكم بآية كذا ، مصدقاً بها لما أتيت به ، عطف على الحال المقدر منه تأكيداً لأنه عبد الله قوله : ﴿ ومصدقاً لما بين يدي ﴾ أي كان قبل إتياني إليكم ﴿ من التوراة ﴾ أي المنزلة على أخي موسى عليه الصلاة والسلام ، لأن القبلية تقتضي العدم الذي هو صفة المخلوق ؛ أو يعطف على ﴿ بآية ﴾ إذا جعلنا الباء للحال ، لا للتعدية ، أي وجئتكم مصحوباً بآية ومصدقاً .

(5/119)

ولما ذكر التوراة أتبعها ما يدل على أنه ليس كمن بينه وبين موسى من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في إقرارها كلها على ما هي عليه وتحديد أمرها على ما كان زمن موسى عليه الصلاة والسلام بل هو مع تصديقها ينسخ بعضها فقال : ﴿ ولأحل ﴾ أي صدقتها لأحثكم

على العمل بها ولأحل ﴿ لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾ أي فيها تخفيفاً عليكم ﴿ وجئتكم ﴾ اية ليس مكرراً لتأكيد : ﴿ أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين ﴾ على ما توهم ، بل المعنى - والله سبحانه وتعالى أعلم - أن عيسى عليه الصلاة والسلام لما أتاهم بهذه الخوارف التي من جملتها إحياء الموتى ، وكان من المقرر عندهم - كما ورد في الأحاديث الصحيحة - التحذير من الدجال ، وكان من المعلوم من حاله أنه يأتي بخوارق ، منها إحياء ميت ويدعى الإلهية ، كان من الجائز أن يكون ذلك سبباً لشبهة تعرض لبعض الناس ، فختم هذا الدليل على رسالته بما هو البرهان الأعظم على عبوديته ، وذلك مطابقته لما دعا إليه الأنبياء والمرسلون كلهم من إخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى فقال : وجئتكم ﴿ بآية ﴾ أي عظيمة خارقة للعادة ﴿ من ﴾ عند ﴿ ربكم ﴾ أي المحسن إليكم بعد التفرد بخلقكم ، وهي أجل الأمارات وأدلها على صدقي في رسالتي ، هو عدم تهمتي بوقوع شبهة في عبوديتي .

ولما تقرر بذكر الآية مرة بعد مرة مع ما أفادته من تأسيس التفصيل لأنواع الآيات تأكيد رسالته تلطيفاً لطباعهم الكثيفة ، فينقطع منها ما كانت ألفته في الأزمان المتطاولة من العوائد الباطلة سبب عن ذلك ما يصرح بعبوديته أيضاً فقال مبادراً للإشارة إلى أن الأدب مع المحسن آكد والخوف منه أحق وأوجب لئلا يقطع إحسانه ويبدل امتنانه ﴿ فاتقوا الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ وأطيعون ﴾ أي في قبولها فإن التقوى مستلزمة لطاعة

الرسول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 94.93 ﴾

فصل

قال الفخر :

قد ذكرنا في قوله ﴿ وَرَسُولاً إلى بَنِى إسرائيل أَنّى قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ ﴾ [آل عمران : 49] أن تقديره وأبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل قائلاً ﴿ أَنّى قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ ﴾ فقوله ﴿ وَمُصَدّقًا ﴾ معطوف عليه والتقدير : وأبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل قائلاً ﴿ أَنّى قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ ﴾ ، وإني بعثت ﴿ مُّصَدّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التوراة ﴾ وإنما حسن حذف هذه الألفاظ لدلالة الكلام عليها . انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 52 ﴾

(6/119)

" فوائد بلاغية "

قال في صفوة التفاسير :

البلاغة :

1- [وإذ قالت الملائكة] أطلق الملائكة وأريد به جبريل فهو من باب تسمية الخاص بإسم العام تعظيما له ويسمى [المجاز المرسل] .

2- [اصطفاك وطهرك واصطفاك] تكرر لفظ [اصطفاك] كما تكرر لفظ [مريم] وهذا من باب الإطناب .

3- [ولم يمسسنى بشر] كنى عن الجماع بالمس ، كما كنى عنه بالحرث واللباس والمباشرة ، وكل ذلك لتعليمنا الأدب فى التعبير .

4- [ولأحل لكم بعض الذى حرم] بين لفظ [أحل] و[حرم] من المحسنات البديعية الطباق ، كما ورد الحذف فى عدة مواضع ، والإطناب فى عدة مواضع . انتهى ا . هـ ﴿صفوة التفاسير حـ 1 صـ 203. 204﴾

(7/119)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ نَسَقٌ على محل بآيَةٍ ، لأن محل " بآيَةٍ " في محل نصبٍ على الحالِ ؛ إذ التقدير وجئتكم متلبساً بآيةٍ ومصدقاً .

وقال الفراء والزَّجَّاجُ : نصب " مُصَدِّقاً " على الحال ، المعنى : وجئتكم مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ ، وجاز إضمار " جئتكم " ، لدلالة أول الكلام عليه - وهو قوله : ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ

بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ – ومثله في الكلام : جئته بما يُحِبُّ ومُكْرِماً له .

قال الفراء : " ولا يجوز أن يكون " مُصَدِّقاً " معطوفاً على " وَجِيهاً " ؛ لأنه لو كان كذلك لقال : أو مصدقاً لما بين يديه ، يعني : أنه لو كان معطوفاً عليه ؛ لأتى معه بضمير الغيبة ، لا بضمير التكلُّم " . وذكر غير الفرّاء ، ومنع – أيضاً – أن يكون منسوقاً على " رَسُولاً " قال : لأنه لو كان مردوداً عليه لقال : ومصدقاً لما بين يديك ؛ لأنه خاطب بذلك مريم ، أو قال : بين يديه .

يعني أنه لو كان معطوفاً على " رَسُولاً " لكان ينبغي أن يُؤتَى بضمير الخطاب ؛ مراعاةً لمريم ، أو بضمير الخطاب مراعاةً للاسم الظاهر .

قال أبو حيّان : وقد ذكرنا أنه يجوز في " رَسُولاً " أن يكون منصوباً بإضمار فعل – أي : وأرسلت رسولاً – فعلى هذا التقدير يكون " مُصَدِّقاً " معطوفاً على " رَسُولاً " .

قوله : ﴿ مِنَ التوراة ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه حال من " ما " الموصولة ، أي : الذي بين يدي حال كونه من التوراةِ ، فالعامل فيه مصدقاً لأنه عامل في صاحب الحالِ .

الثاني : أنه حال من الضمير المُسْتَتِر في الظرف الواقع صِلَةً . والعامل فيه الاستقرارُ المُضْمَرُ في الظرف أو نفس الظرف ؛ لقيامه مقامَ الفعل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 251 ﴾

فصل

قال الفخر :

إنه يجب على كل نبي أن يكون مصدقاً لجميع الأنبياء عليهم السلام ، لأن الطريق إلى ثبوت نبوتهم هو المعجزة ، فكل من حصل له المعجز ، وجب الاعتراف بنبوته ، فلهذا قلنا : بأن عيسى عليه السلام يجب أن يكون مصدقاً لموسى بالتوراة ، ولعلّ من جملة الأغراض في بعثة عيسى عليه السلام إليهم تقرير التوراة وإزالة شبهات المنكرين وتحريفات الجاهلين .

وأما المقصود الثاني : من بعثة عيسى عليه السلام قوله ﴿ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ .

وفيه سؤال : وهو أنه يقال : هذه الآية الأخيرة مناقضة لما قبلها لأن هذه الآية الأخيرة صريحة في أنه جاء ليحل بعد الذي كان محرماً عليه في التوراة ، وهذا يقتضي أن يكون حكمه بخلاف حكم التوراة ، وهذا يناقض قوله ﴿ وَمُصَدّقًا لّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التوراة ﴾ .

والجواب : إنه لا تناقض بين الكلام ، وذلك لأن التصديق بالتوراة لا معنى له إلا اعتقاد أن كل ما فيها فهو حق وصواب ، وإذا لم يكن الثاني مذكوراً في التوراة لم يكن حكم عيسى بتحليل ما كان محرماً فيها ، مناقضاً لكونه مصدقاً بالتوراة ، وأيضاً إذا كانت البشارة بعيسى عليه السلام موجودة في التوراة لم يكن مجيء عيسى عليه السلام وشرعه مناقضاً للتوراة ، ثم اختلفوا فقال بعضهم : إنه عليه السلام ما غير شيئاً من أحكام التوراة ، قال وهب بن منبه : إن عيسى عليه السلام كان على شريعة موسى عليه السلام كان يقرر السبت ويستقبل بيت المقدس ، ثم إنه فسّر قوله ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ بأمرين أحدهما : إن الأحبار كانوا قد وضعوا من عند أنفسهم شرائع باطلة ونسبوها إلى موسى ، فجاء عيسى عليه السلام ورفعها وأبطلها وأعاد الأمر إلى ما كان في زمن موسى عليه السلام والثاني : أن الله تعالى كان قد حرم بعض الأشياء على اليهود عقوبة لهم على بعض ما صدر عنهم من الجنايات كما قال الله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طيبات أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء : 160] ثم بقي ذلك التحريم مستمراً على اليهود فجاء عيسى عليه السلام ورفع تلك التشديدات عنهم ، وقال آخرون : إن عيسى عليه السلام رفع كثيراً من أحكام التوراة ، ولم يكن ذلك قادحاً في كونه مصدقاً بالتوراة على ما بيناه ورفع

السبت ووضع الأحد قائماً مقامه وكان محقاً في كل ما عمل لما بينا أن الناسخ والمنسوخ كلاهما حق وصدق. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 52.53 ﴾

(10/119)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَلأُحِلَّ ﴾ فيه أوجُهُ :

أحدها : أنه معطوف على معنى " مُصَدّقاً " إذ المعنى : جئتكم لأصَدّقَ ما بين يديَّ ولأحِلَّ لكم، ومثله من الكلام : جئته مُعْتَذِراً إليه ولأجْتَلِبَ رضاهُ - أي : دئت لأعتذر ولأجتلب - كذا قال الواحديُّ، وفيه نظرٌ ؛ لأن المعطوف عليه حال، وهذا تعليلٌ.

قال أبو حيّان : - بعد أن ذكر هذا الوَجْهَ - : " وهذا هو العطف على التوهُّم وليس هذا منه ؛ لأن معقولية الحال مخالفة لمعقوليَّة التعليل، والعطف على التوهُّم لا بُدَّ أن يكون المعنى مُتَّحِداً في المعطوف والمعطوف عليه، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن ﴾ [المنافقون : 10] كيف اتحد المعنى من حيث الصلاحية لجواب التحضيض.

وكذلك قول الشاعر : [الطويل]

تَقيٍّ نَقيٍّ، لَمْ يُكَثِّرْ غَنيمَةً . . . بِنَهْكَةِ ذِي قُرْبَى وَلَا بِحَقَلَّدِ

كيف اتخذ معنى النفي في قوله: لم يُكَثِّرْ، وفي قوله: ولا بِحَقَلَّدٍ، أي: ليس بمكثر ولا بحقلدٍ.

وكذلك ما جاء منه".

قال شهابُ الدِّين: "ويمكن أن يريد هذا القائلُ أنه معطوف على معنى "مُصَدِّقاً" أي: بسبب دلالته على علةٍ محذوفةٍ، هي موافقة له في اللفظ، فنسب العطف على معناه، باعتبار دلالته على العلة المحذوفة لأنها تشاركه في أصل معناه - أعني مدلول المادة - وإن كانت دلالة الحال غير دلالة العقل".

الثاني: إنه معطوف على عِلَّةٍ مقدرة، أي: جئتكم بآية، ولأوسِّعَ عليكم ولأحِلَّ، أو لأخفِّفَ عنكم ولأحِلَّ، ونحو ذلك.

الثالث: أنه معمول لفعلٍ مُضْمَرٍ؛ لدلالة ما تقدم عليه، أي: وجئتكم لأحِلَّ، فحذف العامل بعد الواو.

والرابع: أنه متعلق بقوله: ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ والمعنى اتبعوني لأحِلَّ لكم. وهذا بَعِيدٌ جداً أو مُمتنع.

الخامس : أن يكون ﴿ ولأُحِلَّ لَكُمْ ﴾ رداً على قوله : " بِآيَةٍ " . قال الزمخشريُّ : ﴿ وَلأُحِلَّ ﴾ رَدٌّ على قوله ﴿ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي : جئتكم بآية من ربكم ولأحلَّ .

قال أبو حيان : " ولا يستقيم أن يكون ﴿ وَلأُحِلَّ لَكُم ﴾ رداً على " بِآيَةٍ " ، لأن " بِآيَةٍ " في موضع حال و " لأحل " تعليل ، ولا يَصِحُّ عطف التعليل على الحال ؛ لأن العطف بالحرف المشرك في الحكم يوجب التشريك في جنس المعطوفِ عليه ، فإن عطفت على مصدر ، أو مفعولٍ به ، أو ظرفٍ ، أو حالٍ ، أو تعليل وغير ذلك شاركه في ذلك المعطوف " .

قال شهاب الدين : ويحتمل أن يكون جوابه ما تقدم من أنه أراد رداً على " بآية " من حيث دلالتها على عمل مقدر .

قوله : ﴿ بَعْضَ الذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ المراد بـ " بَعْض " مدلوله في الأصل .

قال أبو عبيدة : إنها – هنا – بمعنى " كل " .

مستدلاًّ بقول لَبِيد : [الكامل]

تَرَّاكُ أَمْكِنَةٍ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا . . . أَوْ يَعْتَلِقْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا

يعني كلّ النفوس .

وقد يرد الناسُ عليه بأنه كان يَلْزَمُ أن يُحِلَّ لهم الزنا ، والسرقةَ ، والقَتْلَ ؛ لأنها كانت محرَّمةً عليهم ، فلو كان المعنى : ولأحِلَّ لكم كُلَّ الذي حُرِّم عليكم لأحلَّ لهم ذلك كلَّه .

واستدل بعضهم على أن "بَعْضاً" بمعنى "كُلّ" بقول الآخر : [الطويل]

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبْقِ بَعْضَنَا . . . حَنَانَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

أي : أهون من كل شر .

واستدل آخرون بقول الشَّاعِر : [البسيط]

إنَّ الأُمُورَ إذَا الأَحْدَاثُ دَبَّرَهَا . . . دُونَ الشُّيُوخِ تَرَى فِي بَعْضِهَا خَلَلاَ

(12/119)

أي : في كلها خللاً ، ولا حاجة إلى إخراج اللفظ عن مدلوله مع إمكان صحة معناه ؛ إذ مراد لبيد بـ "بَعْضَ النُّفُوسِ" نفسه هو والتبعيض في البيت الآخر واضح ؛ فإن الشر بعضه أهون من بعضٍ آخر لا من كلِّه ، وكذلك ليس كل أمر دبره الأحداث كان خَلَلاً ، بل قد يأتي تدبيره خيراً من تدبير الشيخ .

وقرأ العامة : "حُرِّمَ" بالبناء للمفعول ، والفاعل هو الله . وقرأ عكرمة "حَرَّمَ" مبنيًّا للفاعل وهو الله تعالى ، أو الموصول في قوله : { لِّمَا بَيْنَ يَدَيْه } ؛ لأنه كتاب مُنزَّل ، أو موسى ؛ لأنه هو صاحب التوراة ، فأضمر بالدلالة عليه بذكر كتابه .

وقرأ إبراهيم النّخْعِيُّ : "حَرُمَ" - بوزن شَرُفَ وظَرُفَ - ونُسِب الفعل إليه مجازاً للعلم بأن

المُحَرِّم هو الله .

قوله : ﴿ وَجِئْتُكُم ﴾ هذه الجملة يحتمل أن تكون تأكيداً للأولَى ؛ لتقدُّم معناها ولفظها قبل ذلك .

قال أبو البقاء : " هذا تكرير للتوكيد ؛ لأنه قد سبق هذا المعنى في الآية التي قبلها " .

ويحتمل أن تكون للتأسيس ؛ لاختلاف متعلَّقها ومتعلَّق ما قبلها .

قال أبو حيَّانَ : قوله : ﴿ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ للتأسيس ، لا للتوكيد لاختلاف متعلقها لقوله : ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ وتكون هذه الآية هي ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فاعبدوه ﴾ ، لأن هذا القولَ شاهدٌ على صحة رسالتِه ؛ إذ جميعُ الرُّسُلِ كانوا عليه لم يختلفوا فيه ، وجعل هذا القولَ آيةً وعلامةً ؛ لأنه رسول كسائر الرُّسُلِ ؛ حيث هداه للنظر في أدلَّةِ العقل والاستدلال قاله الزمخشريُّ ، [وهو صحيح] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 252 . 255 ﴾ . بتصرف يسير .

فصل

قال القرطبى :

﴿ بَعْضَ الذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ يعني من الأطعمة .

قيل : إنما أحل لهم عيسى عليه السلام ما حُرِّم عليهم بذنوبهم ولم يكن في التوراة ، نحو أكل الشحوم وكل ذي ظفر .

وقيل : إنما أحل لهم أشياء حرّمتها عليهم الأحبار ولم تكن في التوراة محرّمة عليهم .

قال أبو عبيدة : يجوز أن يكون "بعض" بمعنى كل ؛ وأنشد لبيد :

تَرّاكُ أُمْكِنَةٍ إذا لم أرضها . . .

أو يَرْتَبِطْ بعضَ النفوس حِمامُها

وهذا القول غلط عند أهل النظر من أهل اللغة ؛ لأن البعض والجزء لا يكونان بمعنى الكل في هذا الموضع ، لأن عيسى صلى الله عليه وسلم إنما أحل لهم أشياء مما حرّمها عليهم موسى من أكل الشحوم وغيرها ولم يحل لهم القتل ولا السرقة ولا فاحشة .

والدليل على هذا أنه روى عن قتادة أنه قال : جاءهم عيسى بألْيَن مما جاء به موسى صلَّى الله عليهما وعلى نبينا ؛ لأن موسى جاءهم بتحريم الإبل وأشياءَ من الشحوم فجاءهم عيسى بتحليل بعضها .

وقرأ النَّخَعيّ ﴿ بَعْضَ الذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ مثل كرم ، أي صار حراماً .

وقد يوضع البعض بمعنى الكل إذا انضمت إليه قرينة تدل عليه ؛ كما قال الشاعر :

أبا مُنْذِرٍ أفْنَيْتَ فاستبقِ بعضَنا . . .

حَنَانَيْك بعضُ الشر أهْوَنُ من بعض

يريد بعض الشر أهون من كله. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 96 ﴾

(14/119)

وقال الآلوسى :

﴿ بَعْضَ الذي حُرّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي في شريعة موسى عليه السلام. أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع أنه قال : كان الذي جاء به عيسى ألين مما جاء به موسى عليهما السلام وكان قد حرم عليهما فيما جاء به موسى عليه السلام لحوم الإبل والثروب فأحلها لهم على لسان عيسى وحرمت عليهم شحوم الإبل فأحلت لهم فيما جاء به عيسى ، وفي أشياء من السمك ، وفي أشياء من الطير مما لا صيصية له ، وفي أشياء أخر حرمها عليهم وشدد عليهم فيها فجاء عيسى بالتخفيف منه في "الإنجيل". وأخرج عبد بن حميد عن قتادة مثله ، وهذا يدل على أن "الإنجيل" مشتمل على أحكام تغاير ما في "التوراة" وأن شريعة عيسى نسخت بعض شريعة موسى ، ولا يخل ذلك بكونه مصدقاً للتوراة فإن النسخ بيان لانتهاء زمان الحكم الأول لا رفع وإبطال كما تقرر ، وهذا مثل نسخ القرآن بعضه ببعض ، وذهب بعضهم إلى أن "الإنجيل" لم يخص أحكاماً ولا حوى حلالاً وحراماً ولكنه رموز

وأمثال ومواعظ وزواجر ، وما سوى ذلك من الشرائع والأحكام فمحالة على "التوراة" ، وإلى أن عيسى عليه السلام لم ينسخ شيئاً مما في "التوراة" ، وكان يسبت ويصلي نحو البيت المقدس ، ويحرم لحم الخنزير ، ويقول بالختان إلا أن النصارى غيروا ذلك بعد رفعه فاتخذوا يوم الأحد بدل يوم السبت لما أنه أول يوم الأسبوع ومبدأ الفيض ، وصلوا نحو المشرق لما تقدم ، وحملوا الختان على ختان القلب وقطعه عن العلائق الدنيوية والعوائق عن الحضرة الإلهية وأحلوا لحم الخنزير مع أن مرقس حكى في "إنجيله" أن المسيح أتلف الخنزير وغرق منه في البحر قطيعاً كبيراً وقال لتلامذته : لا تعطوا القدس الكلاب ولا تلقوا جواهركم قدام الخنازير فقرنها بالكلاب ، وسبب ذلك زعمهم أن بطرس رأى في النوم صحيفة نزلت من السماء ، وفيها صور الحيوانات وصورة الخنزير وقيل له : يا بطرس كل منها ما أحببت ونسب هذا القول إلى وهب بن منبه ، والذاهبون إليه أولوا الآية بأن المراد ما

(15/119)

حرمه علماؤهم تشهياً أو خطأ في الاجتهاد ، واستدلوا على ذلك بأن المسيح عليه السلام قال في "الإنجيل" : ما جئت لأبطل التوراة بل جئت لأكملها ، ولا يخفى أن تأويل الآية بما أولوه به بعيد في نفسه ، ويزيده بعداً أنه قرىء حرم بالبناء للفاعل وهو ضمير ما ﴿ بَيْنَ

يَدَيَّ ﴾ أو الله تعالى ، وقرىء أيضاً حرم بوزن كرم ، وأن ما ذكروه من كلام المسيح عليه السلام لا ينافي النسخ لما علمت أنه ليس بإبطال وإنما هو بيان لانتهاء الحكم الأول ، ومعنى التكميل ضم السياسة الباطنة التي جاء بها إلى السياسة الظاهرة التي جاء بها موسى عليه السلام على ما قيل أو نسخ بعض أحكام التوراة بأحكام هي أوفق بالحكمة وأولى بالمصلحة وأنسب بالزمان ، وعلى هذا يكون قول المسيح حجة للأولين لا عليهم ، ولعل ما ذهبوا إليه هو المعول عليه كما لا يخفى على ذوي العرفان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 171 . 172 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجِئْتُكُمْ بِأَيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾

فائدة

قال ابن الجوزى :

﴿ وجئتكم بآية ﴾ أي : بآيات تعلمون بها صدقي ، وإنما وحد ، لأن الكل من جنس واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 393 ﴾

قال الفخر :

خوفهم فقال : ﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ لأن طاعة الرسول من لوازم تقوى الله تعالى فبيّن أنه إذا لزمكم أن تتقوا الله لزمكم أن تطيعوني فيما آمركم به عن ربي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 53 ﴾

قال الطبرى :

يعني بذلك : وجئتكم بآية من ربكم تعلمون بها يقينًا صدقي فيما أقول "فاتقوا الله" ، يا معشرَ بني إسرائيل ، فيما أمركم به ونهاكم عنه في كتابه الذي أنزله على موسى ، فأوفوا بعهده الذي عاهدتموه فيه "وأطيعون" ، فيما دعوتكم إليه من تصديقي فيما أرسلني به إليكم ربي وربكم ، فاعبدوه ، فإنه بذلك أرسلني إليكم ، وبإحلال بعض ما كان محرّمًا عليكم في كتابكم ، وذلك هو الطريق القويمُ ، والهدى المتينُ الذي لا اعوجاج فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 441 ﴾

(16/119)

سؤال : فإن قلت : كيف جعل هذا القول آية من ربه ؟

قلت لأنّ الله تعالى جعله له علامة يعرف بها أنه رسول كسائر الرسل ، حيث هداه للنظر في أدلة العقل والاستدلال . ويجوز أن يكون تكريراً لقوله : ﴿ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مّن رَّبّكُمْ ﴾ أي جئتكم بآية بعد أخرى مما ذكرت لكم ، من خلق الطير ، والإبراء ، والإحياء ، والإنباء بالخفايا ، وبغيره من ولادتي بغير أب ، ومن كلامي في المهد ، ومن سائر ذلك . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ الكشاف حـ 1 صـ 365 ﴾

من فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ومصدّقاً ﴾ حال من ضمير المقدّر معه ، وليس عطفاً على قوله : ﴿ ورسولا ﴾ [آل عمران : 49] لأنّ رسولاً من كلام الملائكة ، ﴿ ومصدقاً ﴾ من كلام عيسى بدليل قوله : ﴿ لما بين يدي ﴾ .

والمصدّق : المخبر بصِدق غيره ، وأدخلت اللام على المفعول للتقوية ، للدلالة على تصديقٍ مُثبت محقّق ، أي مصدّقاً تصديقاً لا يشوبُه شك ولا نِسبةٌ إلى خطأ .

وجَعْل التصديق متعدياً إلى التوراة تَوْطئة لقوله : ﴿ ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾ .

ومعنى ما بين يديّ ما تقدم قبلي ، لأنّ المتقدّم السابق يمشي بين يدي الجائي فهو هنا تمثيل لحالة السبق ، وإن كان بينه وبين نزول التوراة أزمنة طويلة ، لأنّها لما اتّصل العمل بها إلى مَجيئه ، فكأنها لم تسبقه بزمن طويل .

ويستعمل بين يديْ كذا فِي معنى المشاهَد الحاضر ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم في سورة البقرة .

وعَطْف قوله ولأحِلّ ﴾ على ﴿ رسولاً ﴾ وما بعده من الأحوال : لأنّ الحال تشبه العلة ؛ إذ هي قيد لعاملها ، فإذا كان التقييد على معنى التعليل شابَه المفعولَ لأجله ، وشابَه

المجرور بلام التعليل، فصح أن يُعطف عليها مجرورٌ بلام التعليل.

ويجوز أن يكون عطفاً على قوله: ﴿ بآية من ربكم ﴾ فيتعلّق بفعلِ جئتكم.

وعقب به قوله: ﴿ مصدّقاً لما بين يديّ ﴾ تنبيهاً على أنّ النسخ لا ينافي التصديق؛ لأنّ النسخ إعلام بتغيُّر الحكم.

(17/119)

وانحصرت شريعة عيسى في إحياء أحكام التوراة وما تركوه فيها وهو في هذا كغيره من أنبياء بني إسرائيل، وفي تحليل بعض ما حرمه الله عليهم رعياً لحالهم في أزمنة مختلفة، وبهذا كان رسولاً.

قيل أحلّ لهم الشحوم، ولحوم الإبل، وبعض السمك، وبعض الطير: الذي كان محرّماً من قبل، وأحلّ لهم السبت، ولم أقف على شيء من ذلك في الإنجيل.

وظاهر هذا أنّه لم يحرّم عليهم ما حلّل لهم، فما قيل: إنّه حرّم عليهم الطلاق فهو تقوُّل عليه وإنّما حذّرهم منه وبيّن لهم سوء عواقبه، وحرّم تزوج المرأة المطلّقة وينضم إلى ذلك ما لا تخلو منه دعوة: من تذكير، ومواعظ، وترغيبات.

﴿ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ ﴿ إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا

صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ وجئتكم بآية من ربكم ﴾ تأكيد لقوله الأولِ : ﴿ أنى قد جئتكم بآية من ربكم ﴾ [آل عمران : 49] .

وإنما عطف بالواو لأنه أريد أن يكون من جملة الأخبار المتقدّمة ويحصل التأكيد بمجرّد تقدم مضمونه ، فتكون لهذه الجملة اعتباران يجعلانها بمنزلة جملتين ، وليبنى عليه التفريع بقوله : ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ 103 ﴾

(18/119)

من اللطائف فى الآيات السابقة

قال ابن عجيبة :

كل من انقطع بكليته إلى مولاه ، وصدف عن حظوظه ، وهواه ، وأفنى شبابه في طاعة ربه ، وجعل يلتمس في حياته دواء قلبه ، تحققت له البشارة في العاجل والآجل ، وحصل له التطهير من درن العيوب والرذائل ، ورزقه من فواكه العلوم ، ما تتضاءل دون إدراكه غاية الفهوم ، هذه مريم البتول أفنت شبابها في طاعة مولاها ، فقربها إليه وتولاها ، وبشرها

بالاصطفائية والتطهير ، وأمرها شكراً بالجد والتشمير ، ثم بشّرها ثانياً بالولد النزيه والسيد النبيه ، روح الله وكلمة الله ، من غير أب ولا سبب ، ولا معالجة ولا تعب ، أمره بأمر الله ، يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ، هذا كله ببركة الانقطاع وسر الاتباع .

قال صلى الله عليه وسلم : " من انقطع إلى اللّهِ كَفَاه الله كلَّ مُؤْنة ، ورزَقه من حيثُ لا يحتسِبُ ، ومن انطقعَ إلى الدنيا وكَلَه الله تعالى إليها " .

وقال بعضهم : صِدْقُ المجاهدة : الانقطاع إليه من كل شيء سواه . فالانقطاع إلى الله في الصغر يخدم على الإنسان في حال الكبر ، ومعاصي الصغر تجر الوبال إلى الكبر ، فكما أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله ، كذلك من انقطع بكُلِّيته إلى الله أبرأ القلوبَ السقيمة بإذن الله ، وأحيا موتى القلوب بذكر الله ، وأخبر بالغيوب وما تدخره ضمائر القلوب ، يدل على طاعة الله ، ويدعو بحاله ومقاله إلى الله ، يهدي الناس إلى الصراط المستقيم ، ويوصل من اتبعه إلى حضرة النعيم . وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 1 صـ 356 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾

وقد قلنا : إن " مصدقا " تعني أن ما جاء به عيسى بن مريم مطابق لما جاء في التوراة .

وقلنا : إن " ما بين يدي " الإنسان هو الذي سبقه ، أي الذي جاء من قبله وصار أمامه .

وما دام عيسى ابن مريم جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة في زمانه ، وكانت التوراة موجودة ، فلماذا جاءت رسالته إذن ؟

لكن القول الحق يتضمن هذا المعنى : إن عيسى سيأتي بأحكام جديدة ، ويتضح ذلك في قوله الحق سبحانه على لسان عبده عيسى ابن مريم : ﴿ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ إذن فليس المهم هو التصديق فقط ، ذلك أن عيسى جاء ليحل بعضا من الذي حرمته التوراة .

وقد يقول قائل : إذا كانت الكتب السماوية تأتي مصدقة بعضها بعضا فما فائدة توالي نزول الكتب السماوية ؟ والإجابة هي : أن فائدة الكتب السماوية اللاحقة أنها تذكر من سها عن الكتب السابقة ، هذا في المرتبة الأولى ، وثانيا : تأتي الكتب السماوية بأشياء ، وأحكام تناسب التوقيتات الزمنية التي تنزل فيها هذه الكتب . هذه هي فوائد الكتب السماوية التي توالت نزولا من الحق على رسله ، إنها تذكر من غفل وتُعَدِّل في بعض

الأحكام.

ومن الطبيعي أننا جميعا نفهم أن العقائد لا تبديل فيها، وكذلك الأخبار والقصص، لكن التبديل يشمل بعضا من الأحكام. ولهذا جاء القول الحق على لسان عبده عيسى ابن مريم: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ ونحن نعرف أن القوم الذي أرسل الله عيسى ابن مريم لهم هم بنو إسرائيل، والتحريم والتحليل يكون بحكمة من الله.

(20/119)

إن لله حكمة فيما يحلل وحكمة فيما يحرم، إنما إياك أن تفهم أن كل شيء يحرمه الله يكون ضارا؛ قد يحرم الله أشياء لتأديب الخلق، فيأمر بالتحريم، ولا يصح أن تسأل عن الضرر فيها، وقد يعيش المؤمن دنياه ولم يثبت له ضرر بعض ما حرم الله. فإن تساءل أحد: لماذا حرم الله ذلك؟ نقول له: من الذي قال لك إن الله حين يحرم فهو يحرم الشيء الضار فقط؟ إنه الحق سبحانه يحرم الضار، ويحرم بعضا مما هو غير ضار، ولذلك قال الحق:

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً ﴾

[النساء: 160].

وتفصيل ذلك في آية أخرى :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [الأنعام : 146] .

إذن التحريم ليس ضروريا أن يكون لما فيه الضرر ، ولهذا جاء قول الحق على لسان عبده ورسوله إلى بني إسرائيل عيسى ابن مريم : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ لقد جاء عيسى ابن مريم ليُحل لهم بأمر من الله ما كان قد حرمه الله عليهم من قبل .

(21/119)

وبعد ذلك يقول الحق على لسان عبده ورسوله عيسى ابن مريم : ﴿ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ ومجموعة هذه الأوامر التي تقدمت هي آية أي شيء عجيب ، بلغت القوم الذين أرسل الله عيسى إليهم ، إنه كرسول وكبشر لا يستطيع أن يجيء بالآية المعجزة بمفرده بل لا بد أن يكون مبعوثا من الله . فيجب أن يلتفتوا إلى أن الله الذي أرسله ، وله طلاقة القدرة في خرق النواميس هو سبحانه الذي أجرى على يدي عيسى هذه الأمور ، ويأمرهم عيسى ابن مريم بتقوى الله نتيجة لذلك ، ويدعو القوم لطاعته في تطبيق

منهج الله .

وبعد ذلك يقول الحق على لسان عيسى ابن مريم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ . . .
﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1480.1478 ﴾

(22/119)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (51) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان كأنه قيل : ما تلك الآية التي سميتها "آية" بعد ما جئت به من الأشياء الباهرة قال : ﴿ إن الله ﴾ الجامع لصفات الكمال ﴿ ربي وربكم ﴾ أي خالقنا ومربينا ، أنا وأنتم في ذلك شرع واحد ، وقراءة من فتح ﴿ إن ﴾ أظهر في المراد ﴿ فاعبدوه هذا ﴾ أي الذي دعوتكم إليه ﴿ صراط مستقيم ﴾ أنا وأنتم فيه سواء ، لا أدعوكم إلى شيء إلا كنت أول فاعل له ، ولا أدعي أني إله ولا أدعو إلى عبادة غير الله تعالى كما يدعي الدجال ويغره من الكذبة الذين تظهر الخوارق على أيديهم امتحاناً من الله سبحانه وتعالى لعباده فيجعلونها سبباً للعلو في الأرض والترفع على الناس ، وجاء بالتحذير منهم وتزييف أحوالهم الأنبياء ،

وإلى هذا يرشد قول عيسى عليه السلام فيما سيأتي عن إنجيل يوحنا أن من يتكلم من عنده إنما يطلب المجد لنفسه ، فأما الذي يطلب مجد الذي أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم ؛ وإلى مثل ذلك أرشدت التوراة فإنه جعل العلامة على صدق الصادق وكذب الكاذب الدعوة ، فمن كانت دعوته إلى الله سبحانه وتعالى وجب تصديقه ، من كذبه هلك ، ومن دعا إلى غيره وجب تكذيبه ، ومن صدقه هلك ؛ قال في السفر الخامس منها : وإذا دخلتم الأرض التي يعطيكم الله ربكم فلا تعملوا مثل أعمال تلك الشعوب ، ولا يوجد فيكم من يقبر ابنه أو ابنته في النار نذراً للأصنام ، ولا من يطلب تعليم العرافين ، ولا من يأخذ بالعين ، ولا يوجد فيكم من يتطير طيرة ، ولا ساحر ، ولا من يرقى رقية ، ولا من ينطلق إلى العرافين والقافة فيطلب إليهم ويسألهم عن الموتى ، لأن كل من يعمل هذه الأعمال هو نجس بين يدي الله ربكم ، ومن أجل هذه النجاسة يهلك الله هذه الشعوب من بين أيديكم ؛ ولكن كونوا متواضعين مخبتين أما الله ربكم ، لأن هذه الشعوب التي ترثونها كانت تطيع العرافين والمنجمين ، فأما أنتم فليس هكذا يعطيكم الله ربكم ، بل يقيم لكم نبياً من إخوتكم مثلي ، فأطيعوا ذلك النبي كما أطعتم الله ربكم في حوريب يوم

الجماعة وقلتم : لا نسمع صوت الله ربنا ولا نعاين هذه النار العظيمة لئلا نموت ، فقال الرب : ما أحسن ما تكلموا ! سأقيم لهم نبياً من إخوتهم مثلك وأجري قولي فيه ويقول لهم ما آمره به ، والرجل الذي لا يقبل قول النبي الذي يتكلم باسمي أنا أنتقم منه ، فأما النبي الذي يتكلم ويتجرأ باسمي ويقول ما لم آمره أن يقوله ويتكلم بأسماء الآلهة الأخرى ليقتل ذلك النبي ، وإن قلتم في قلوبكم : كيف لنا أن نعرف القول الذي لم يقله الرب ، إذا تكلم ذلك النبي باسم الرب فلم يكمل قوله : ولم يتم فلذلك القول لم يقله الرب ولكن تكلم ذلك النبي جراءة وصفاقة وجه ، فلا تخافوه ولا تفزعوا منه ؛ وقال قبل ذلك بقليل : وإذا أهلك الله الشعوب التي تنطلقون إليها وأبادهم من بين أيديكم وورثتموهم وسكنتم أرضهم ، احفظوا ، لا تتبعوا آلهتهم من بعد ما يهلكهم الله من بين أيديكم ، ولا تسألوا عن آلهتهم ولا تقولوا : كيف كانت هذه الشعوب تعبد آلهتها حتى نفعل نحن مثل فعلها ؟ ولا تفعلوا مثل فعالها أمام الله ربكم ، لأنهم عملوا بكل ما أبغض الله وأحرقوا بنيهم وبناتهم لآلهتهم ، ولكن القول الذي آمركم به إياه احفظوا وبه اعملوا ! لا تزيدوا ولا تنقصوا منه شيئاً فإن قام بينكم نبي أو من يفسر أحلاماً وعمل آية أو عجيبة ويقول : اقبلوا بنا نعبد الآلهة الأخرى التي لا تعرفونها ونتبعها – لا يقبل قول ذلك النبي وصاحب الأحلام ، لأنه إنما يريد ، أن يجربكم ليعلم هل تحبون الله ربكم ، احفظوا وصاياه واتقوا واسمعوا قوله واعبدوه والحقوا به ، فأما ذلك النبي وذلك الذي تحلّم الأحلام فليقتل ، لأنه نطق بإثم أمام الله ربكم الذي أخرجكم من أرض مصر

وخلصكم من العبودية فأراد أن يضلكم عن الطريق الذي أمركم الله ربكم أن تسيروا فيه ، واستأصلوا الشر من بينكم ، وإن شوقك أخوك ابن أمك وأبيك أو ابنتك أو حليلتك أو صديقك ويقول لك : هلم بنا نتبع الآلهة الأخرى التي لم تعرفها أنت ولا آباؤك من

آلهة الشعوب التي حولكم – القريبة منكم والبعيدة – ومن أقطار الأرض إلى أقصاها – لا تقبل قوله ولا تطعه ولا تشفق عليه ولا ترحمه ولا تلتمّ عليه ولا تعطف عليه ، ولكن اقتله قتلاً ، وابدأ به أنت قتلاً ، ثم يبدأ به جميع الشعوب ، وارجموه بالحجارة وليمت ، لأنه أراد أن يضلك عن عبادة الله ربك الذي أخرجك من أرض مصر وخلصك من العبودية ، ويسمع بذلك جميع بني إسرائيل ، ويفزعون فلا يعودوا أن يعملوا مثل هذا العمل السوء بينكم ، وإذا سمعتم أن في قرية من القرى التي أعطاكم الله قوماً قد ارتكبوا خطيئة وأضلوا أهل قريتهم وقالوا لهم : ننطلق فنعبد آلهة أخرى لم تعرفوها ، ابحثوا نعماً وسلوا حسناً ، إن كان القول الذي بلغكم يقيناً وفعلت هذه النجاسة في تلك القرية اقتلوا أهل تلك القرية بالسيف ، واقتلوا كل من فيها من النساء والصبيان والبهائم بالسيف ، واجمعوا جميع نهبها خارج القرية وأحرقوا القرية بالنار وأحرقوا كل نهبها أما الله ربكم ، وتصير القرية تلاً خراباً

إلى الأبد ولا تبنى أيضاً ، ولا يلصق بأيديكم من خرابها شيء ليصرف الرب غضبه عنكم ويعطف عليكم ويفيض رحمته عليكم ويحببكم ويرحمكم ويكثركم كما قال لآبائكم ؛ هذا إن أنتم سمعتم قول الله ربكم ، وحفظتم وصاياه التي أمرتكم بها اليوم ، وعملتم الحسنات أمام الله ربكم ، فإذا فعلتم هذا صرتم لله ربكم ، لا تأثموا ولا تصيروا شبه الوحش ولا تخدشوا وجوهكم وبين أعينكم على الميت ، لأنكم شعب طاهر لله ربكم ، وإياكم اختار الله ربكم أن تكونوا له شعباً حبيباً أفضل من جميع شعوب الأمم – انتهى .

(25/119)

فقد تبين من هذا كله أن عيسى عليه الصلاة والسلام مصدق للتوراة في الدعاء إلى توحيد الله سبحانه وتعالى وأن الآية الكبرى على صدق النبي الحق اختصاصه الله تعالى بالدعوة وتسويته بين نفسه وجميع من يدعوه في الإقبال عليه والتعبد له والتخشع لديه ، وأن الآية على كذب الكاذب دعاؤه إلى غير الله ؛ وفي ذلك وأمثاله مما سيأتي عن الإنجيل في سورة النساء تحذير من الدجال وأمثاله ، فثبت أن المراد بالآية في هذه الآية ما قدمته من الإخبار بأن الله سبحانه وتعالى رب الكل والأمر بعبادته ، وهذا كما يأتي من أمر الله سبحانه وتعالى لنبينا صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة

سواء بيننا وبينكم ﴾ [آل عمران : 64] إلى قوله : ﴿ ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ [آل عمران : 64] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 94. 96 ﴾

قال الفخر فى معنى الآية :

ختم كلامه بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ ﴾ ومقصوده إظهار الخضوع والاعتراف بالعبودية لكيلا يتقولوا عليه الباطل فيقولون : إنه إله وابن إله لأن إقراره لله بالعبودية يمنع ما تدعيه جهال النصارى عليه ، ثم قال : ﴿ فاعبدوه ﴾ والمعنى : أنه تعالى لما كان رب الخلائق بأسرهم وجب على الكل أن يعبدوه ، ثم أكد ذلك بقوله ﴿ هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 53 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ ﴾ أي خالقي وخالقكم ، ورازقي ورازقكم ، فاعبدوه ، أي وحدوه ولا تشركوا به شيئاً ﴿ هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ يعني هذا التوحيد الذي أدعوكم إليه طريق مستقيم ، لا عوج فيه ، وهو طريق الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 241 ﴾

وقال ابن عاشور :

قوله : ﴿ إن الله ربي وربكم فاعبدوه ﴾ إنّ مكسورة الهمزة لا محالة ، وهي واقعة موقع

التعليل للأمر بالتقوى والطاعة كشأنها إذا وقعت لِمجرّد الاهتمام كقول بشار

. . .

.

بَكِّرا صاحِبَيّ قَبْلَ الهَجير

إنّ ذاكَ النجاحَ في التبْكِيرِ . . .

ولذلك قال : ﴿ ربي وربكم ﴾ فهو لكونه ربّهم حقيق بالتقوى ، ولكونه ربّ عيسى وأرسله تقتضي تقواه طاعةَ رسوله .

وقوله : فاعبدوه تفريع على الرُّبوبية ، فقد جعل قولَه إنّ الله ربي تعليلاً ثم أصلا للتفريع .

وقوله : ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ الإشارة إلى ما قاله كلِّه أي أنّه الحق الواضح فشبهه بصراط مستقيم لا يضلّ سالكه ولا يتحير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 104 ﴾

وقال الآلوسي :

﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فاعبدوه هذا صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ بيان للآية المأتي بها على معنى : هي قولي : إن الله ربي وربكم . ولما كان هذا القول مما أجمع الرسل على حقيته ودعوا الناس إليه كان آية دالة على رسالته ، وليس المراد بالآية على هذا المعجزة ليرد أن مثل هذا القول قد يصدر عن بعض العوام بل المراد أنه بعد ثبوت النبوة بالمعجزة كان هذا القول لكونه طريقة الأنبياء عليهم السلام علامة لنبوته تطمئن به النفوس ، وجوز أن يراد من الآية المعجزة على طرز ما مر ، ويقال : إن حصول المعرفة والتوحيد والاهتداء للطريق المستقيم في الاعتقادات والعبادات عمن نشأ بين قوم غيروا دينهم وحرفوا كتب الله تعالى المنزلة وقتلوا أنبياءهم ولم يكن ممن تعلم من بقايا أخبارهم من أعظم المعجزات وخوارق العادات . أو يقال من الجائز أن يكون قد ذكر الله تعالى في التوراة إذا جاءكم شخص من نعته كذا وكذا يدعوكم إلى كيت وكيت فاتبعوه فإنه نبي مبعوث إليكم فإذا قال : أنا الذي ذكرت بكذا وكذا من النعوت كان من أعظم الخوارق ، وقرىء أن الله بفتح همزة أن على أن المنسبك بدل من (آية) أو أن المعنى : جئتكم بآية دالة على أن الله الخ ، ومثل هذا محتمل على قراءة الكسر أيضاً لكن بتقدير القول ، وعلى كلا التقديرين يكون قوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ [آل عمران : 50] اعتراضاً ، وقد ذكر غير واحد أن الظاهر أن هذه

الجملة معطوفة على جملة ﴿ جِئْتُكُم ﴾ [آل عمران : 49] الأولى وكررت ليتعلق بها معنى زائد وهو قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ رَبِّى ﴾ أو للاستيعاب كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ [الملك : 4] أي : جئتكم بآية بعد أخرى مما ذكرت لكم من خلق الطير وإبراء الأكمه والأبرص والإحياء والإنباء بالمخفيات ، ومن ولادتي بغير أب ، ومن كلامي في المهد ونحو ذلك والكلام الأول : لتمهيد الحجة عليهم ، والثاني : لتقريبها إلى الحكم

(28/119)

وهو إيجاب حكم تقوى الله تعالى وطاعته ولذلك جيء بالفاء في ﴿ فاتقوا الله ﴾ [آل عمران : 50] كأنه قيل : لما جئتكم بالمعجزات الباهرات والآيات الظاهرات فاتقوا الله الخ ، وعلى هذا يكون قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ ﴾ الخ ابتداء كلام وشروعاً في الدعوة المشار إليها بقول مجمل ، فإن الجملة الاسمية المؤكدة بأن للإشارة إلى استكمال القوة النظرية بالاعتقاد الحق الذي غايته التوحيد ، وقوله تعالى : ﴿ فاعبدوه ﴾ إشارة إلى استكمال القوة العملية فإنه ملازمة الطاعة التي هي الاتيان بالأوامر والانتهاء عن المناهي ، وتعقيب هذين الأمرين بقوله سبحانه : ﴿ هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ تقرير لما سبق ببيان أن الجمع

بين الأمرين الاعتقاد الحق ، والعمل الصالح هو الطريق المشهود له بالاستقامة ، ومعنى قراءة الفتح على ما ذكر لأن الله ربي وربكم فاعبدوه فهو كقوله تعالى : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ [قريش : 1] الخ ، والإشارة إما إلى مجموع الأمرين ، أو إلى الأمر الثاني المعلول للأمر الأول ، والتنوين إما للتعظيم أو للتبعيض ؛ وجملة ﴿ هذا ﴾ الخ على ما قيل : استئناف لبيان المتقضي للدعوة . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 3 صـ 172. 173 ﴾

فائدة

قال الطبرى :

وهذه الآية وإن كان ظاهرُها خبرًا ، ففيه الحجة البالغة من الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم على الوفد الذين حاجُّوه من أهل نجران ، بإخبار الله عزّ وجل عن أن عيسى كان بريئًا مما نسبه إليه مَن نسبه إلى غير الذي وصفَ به نفسه ، من أنه لله عبدٌ كسائر عبيده من أهل الأرض ، إلا ما كان الله جل ثناؤه خصّه به من النبوة والحجج التي آتاه دليلا على صدقه – كما آتى سائرَ المرسلين غيره من الأعلام والأدلة على صدقهم – وحُجةً على نبوته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 442 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ قراءة العامة بكسر همزة " إنّ " على الإخبار المستأنف ؛ وهذا ظاهر على قولنا : إن ﴿ جِئْتُكُمْ ﴾ تأكيد .

أما إذا جعلناه تأسيساً ، وجُعِلَت الآية هي قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ - بالمعنى المذكور أولاً - فلا يصحُ الاستئناف ، بل يكون الكسر على إضمار القول ، وذلك القول بدلٌ من الآية ، كأن التقدير : وجئتكم بآية من ربكم قَوْلي : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ ، ف " قَوْلِي " بدلٌ من آية ، و " إنّ " وما في حَيِّزها معمول " قولي " ، ويكون قوله : ﴿ فاتقوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ اعتراضاً بين البدل والمُبْدَل منه .

وقرئ بفتح الهمزة ، وفيه أوجهٌ :

أحدها : أنه بدل من " آية " ، كأن التقدير : وجئتكم بأن الله ربي وربكم ، أي : جئتكم بالتوحيد .

وقوله : ﴿ فاتقوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ اعتراضٌ أيضاً .

الثاني : أن ذلك على إضمار لام العلة ، ولام العلةِ متعلقة بما بعدها من قوله ﴿ فاعبدوه ﴾ ، والتقدير : فاعبدوه لأن الله ربي وربكم كقوله : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ [قريش : 1] إلى أن قال : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا ﴾ [قريش : 3] إذ التقدير فليعبدوا ، لإيلاف قريش ، وهذا

عند سيبويه وأتباعه – ممنوع ؛ لأنه متى كان المعمول أنّ وصلتها يمتنع تقديمها على عاملها لا يجيزون : أنَّ زيداً منطق عرفت – تريد عرفت أن زيداً منطلقٌ – للفتح اللفظي ، إذْ تَصَدُّرُها – لفظاً يقتضي كسرها .

الثالث : أن يكون على إسقاط الْخَافِض – وهو على – و" على " يتعلق بآية بنفسها ، والتقدير : وجئتكم بآية على أن الله ، كأنه قيل : بعلامة ودلالة على توحيد الله – تعالى – قاله ابنُ عَطِيَّةَ ، وعلى هذا فالجملتان الأمْرِيَّتان اعتراض – أيضاً – وفيه بُعْدٌ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 255.256 ﴾

(30/119)

فوائد بلاغية

قال أبو حيان :

وفي هذه الآيات من ضروب الفصاحة والبديع : إسناد الفعل للآمر به لا لفاعله ، في قوله : إن الله يبشرك ، اذ هم المشافهون بالبشارة ، والله الآمر بها .

ومثله : نادى السلطان في البلد بكذا ، وإطلاق اسم السبب على المسبب في قوله : بكلمة منه ، على الخلاف الذي في تفسير : كلمة .

والاحتراس : في قوله : وكهلاً ، من ما جرت به العادة أن من تكلم في حال الطفولة لا يعيش .

والكناية : في قوله : ولم يمسسني بشر ، كنى بالمسّ عن الوطء ، كما كنى عنه : بالحرث ، واللباس ، والمباشرة .

والسؤال والجواب في : قالت الملائكة وفي أنى يكون ؟ والتكرار : في : جئتكم بآية .

وفي : أنى أخلق لكم .

و ، في : الطير ، وفي : بإذن الله ، وفي : ربي وربكم ، وفي : ما ، في قوله : بما تأكلون وما .

والتعبير عن الجمع بالمفرد في : الآية ، وفي : الأكمة والأبرص ، وفي : إذا قضى أمراً .

والطباق في : وأحيي الموتى ، وفي : لأحل وحرم والالتفات في : ونعلمه فيمن قرأ بالنون

والتفسير بعد الإبهام في : من قال : الكتاب مبهم غير معين ، والتوراة والإنجيل تفسير له

والحذف في عدة مواضع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 2 صـ 492﴾

(31/119)

فائدة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : مخبرا عن قول عيسى عليه السلام : "إن الله ربى وربكم فاعبدوه" ، وفى

سورة مريم : "وإن الله ربى وربكم فاعبدوه" ، فعطف الآية على ما قبلها بواو النسق وفى سورة الزخرف : "إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه" بغير حرف النسق مع زيادة الفصل بالضمير من قوله "هو" ولم يقع ذلك فى الآيتين قبل كما لم يقع العطف فى الأولى والثالثة فانفردت كل آية من الثلاث بما وردت عليه مع اتحاد المقصد فيما أعطته كل واحدة منها فللسائل أن يسأل عن ذلك ؟

والجواب والله أعلم : أن آية مريم لما تضمنت مقالة عيسى عليه السلام وآية كلامه فى المهد مخبرا عن حاله النبوية وما منحه الله من الخصائص الاصطفائية فقال : "إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا" إلى ما أعقب به هذا من الخصائص الجليلة منسوقا بعضها على بعض ليبين تعداد تلك النعم إلى قوله : "والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا" ، فذكر ما حفظ الله عليه من كرامته فى هذه الأحوال الثلاثة البشرية وهى : حال الولادة وحال الموت وحال البعث بعده وهذه أحوال تتنزه الربوبية عنها وتعالى عن تجويزها عليه سبحانه وإذا صحبتها العادة لم تكن نقصا فى البشرية إذ بها امتيازها وهى من حيث الحيوانية الحادثة فصلها . ثم لما كان من تمام إخبار عيسى عليه السلام وتعريفه بما عرف به وتكميل ما قصد به إقراره لله سبحانه بالربوبية للكل فى قوله : "وإن الله ربى وربكم فاعبدوه" وكان متصلا بما تقدم وكأن قد قال : إنى عبد الله ومخصوص منه بكذا وكذا ومعترف بانفراد خالقى بملك الكل وقهرهم وخلقهم فهو ربهم ومالكهم والمعبود الحق

فلما كان الكلام من حيث معناه متصلا وقد ورد أثناءه ما يعطى بظاهره حين أخبر تعالى عنه بقوله عليه السلام : "والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا"

(32/119)

إن كلام عيسى عليه السلام قد تم وانقضى وشرع فى قضية أخرى من التعريف بحقيقة أمر عيسى عليه السلام فقال تعالى : "ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون" فورد هنا مورد الجمل التى كأنها مفصولة مما قبلها مع الحاجة إليها واتصال ما بعدها بما قبلها لك يكن بد من حرف النسق ليحصل منه أنه كلام غير منقطع بعضه من بعض ولا مستأنف بل هو معطوف على ما تقدمه من كلام عيسى عليه السلام فلم يكن بد من حرف النسق لإحراز هذا الالتحام إذ لم يكن ليحصل دون حرف النسق حصوله معه فقيل : "وإن الله ربى وربكم" وهو حكاية قول عيسى

متصلا من حيث معناه بقوله : "والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا" فالوجه عطفه عليه مع الحاجة إلى ما توسط الكلامين فهذا وجه ورود الواو هنا ولم يعرض فى آية

آل عمران فصل بين الآية وما قبلها يوهم انقطاعا فيحتاج إلى الواو فهذا وجه دخولها فى هذه الآية والله أعلم.

(33/119)

وأما زيادة الضمير الفصلى فى سورة الزخرف فيحرز بمفهومه معنى ضروريا دعا إليه ما تقدم فى الآية قبله وذلك ما أشار اليه قوله سبحانه وتعالى: "ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون" إلى ما يتلو هذه ففى التفسير أنه لما نزل قوله تعالى: "إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم" الآية تعلق بها الكفار وقالوا قد عبدت الملائكة وعبد المسيح وأنت يا محمد تزعم أن عيسى نبى مقرب وأن الملائكة عباد مقربون فإذا كان هؤلاء مع آلهتنا فى النار فقد رضينا وجادلوا بهذا فأنزل الله تعالى: "إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون" وهذا مبسوط فى كتب التفسير فلما كان قد تقدم فى سورة الزخرف ذكر آلهتهم وقولهم: "ءآلهتنا خير أم هو" يعنون المسيح ناسبه ما أعقبه به من قوله تعالى حاكيا عن المسيح عليه السلام: "إن الله ربى وربكم" فكأن قد قيل: هؤلاء غيره فأحرز "هو" هذا المعنى ولم يرد فى آية آل عمران وآية مريم من ذكر آلهتهم ما ورد هنا فلم يحتج إلى الضمير المحرز لما ذكرناه وسنورد إن شاء الله فى قوله تعالى فى سورة النجم:

"وأنه أضحك وأبكى وأنه أمات وأحيا" قوله بعد : "وأنه هو أغنى وأقنى وأنه هو رب الشعرى" بإثبات هذا الضمير فى أربعة مواضع وكونه لم يثبت فى قوله : "وأنه خلق الزوجين" ولا فى قوله : "وأن عليه النشأة الأخرى" ولا فى قوله : "وأنه أهلك عادا الأولى" وتوجيه ذلك والفرق بين ما ورد فيه منها الضمير وما لم يرد فيه ما يوضح وجه وروده فى آية الزخرف وسقوطه فى الآيتين قبلها أتم إيضاح وأشفاه ، ومن هذا قوله تعالى : "فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم" فـ"أنت" هنا كـ"هو" فيما ذكر

ومحرزة ذلك المعنى من إفراد المشار اليه بالضمير بما حصله الخبر فتأمله فإنه بين فيما ذكرناه والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ملاك التأويل صـ 87.85﴾

(34/119)

ومن فوائد العلامة الزمخشري فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (42) ﴾

يا مَرْيَمُ روى أنهم كلوها شفاها معجزة لزكريا أو إرهاصا لنبوّة عيسى اصْطَفاكِ

أوّلا حين تقبلك من أمك ورباك واختصك بالكرامة السنية وَطَهَّرَكِ مما يستقذر من الأفعال ومما قرفك به اليهود وَاصْطَفاكِ آخرا عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ بأن وهب لك عيسى من غير أب ولم يكن ذلك لأحد من النساء. أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود لكونهما من هيآت الصلاة وأركانها ثم قيل لها وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ بمعنى: ولتكن صلاتك مع المصلين أى في الجماعة أو انظمى نفسك في جملة المصلين وكوني معهم في عدادهم ولا تكوني في عداد غيرهم. ويحتمل أن يكون في زمانها من كان يقوم ويسجد في صلاته ولا يركع وفيه من يركع، فأمرت بأن تركع مع الراكعين ولا تكون مع من لا يركع.

[سورة آل عمران (3) : آية 44]

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (44)

ذلِكَ إشارة إلى ما سبق من نبإ زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام، يعنى أن ذلك من الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي. فإن قلت: لم نفيت المشاهدة وانتفاؤها معلوم بغير شبهة؟

وترك نفى استماع الأنباء من حفاظها وهو موهوم؟ قلت: كان معلوما عندهم علما يقيناً أنه ليس من أهل السماع والقراءة وكانوا منكرين للوحى، فلم يبق إلا المشاهدة وهي في غاية الاستبعاد والاستحالة، فنفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحى مع علمهم بأنه لا سماع له ولا قراءة. ونحوه (وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ)، (وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ)، (وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ) أَقْلامَهُمْ أزلامهم وهي قداحهم التي طرحوها في النهر مقترعين. وقيل: هي الأقلام التي كانوا يكتبون بها التوراة، اختاروها للقرعة تبركا بها إِذْ يَخْتَصِمُونَ في شأنها تنافسا في التكفل بها.

فإن قلت: (أَيُّهُمْ يَكْفُلُ) بم يتعلق؟ قلت: بمحذوف دلّ عليه يلقون أقلامهم، كأنه قيل: يلقونها ينظرون أيهم يكفل، أو ليعلموا، أو يقولون.

[سورة آل عمران (3): الآيات 45 إلى 51]

إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (45) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (46) قالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قالَ كَذلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (47) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ (48) وَرَسُولاً إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللَّهِ

وَأُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (49) وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (50) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (51)

(36/119)

الْمَسِيحُ لقب من الألقاب المشرفة، كالصدّيق والفاروق، وأصله مشيحا بالعبرانية، ومعناه المبارك، كقوله : (وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ) وكذلك (عيسى) معرب من أيشوع، ومشتقهما من المسح والعيس، كالراقم في الماء. فإن قلت : (إِذْ قالَتِ) بم يتعلق؟ قلت : هو بدل من (وَإِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ) ويجوز أن يبدل من (إِذْ يَخْتَصِمُونَ) على أن الاختصام والبشارة وقعا في زمان واسع، كما تقول : لقيته سنة كذا. فإن قلت : لم قيل : عيسى ابن مريم والخطاب لمريم «1» ؟

قلت : لأنّ الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات، فأعلمت بنسبته إليها أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه، وبذلك فضلت واصطفيت على نساء العالمين. فإن قلت : لم ذكر ضمير الكلمة؟ قلت لأن المسمى بها مذكر. فإن قلت : لم قيل اسمه المسيح عيسى ابن مريم «2»، وهذه ثلاثة أشياء : الاسم منها عيسى، وأما المسيح والابن فلقب

وصفة ؟ قلت : الاسم للمسمى علامة يعرف بها ويتميز من غيره ، فكأنه قيل : الذي يعرف به ويتميز ممن سواه مجموع هذه الثلاثة

---

(1) . قال محمود : «إن قلت لم قيل عيسى ابن مريم والخطاب لمريم . . . الخ» قال أحمد : ويحقق هذا الجواب قولها (أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ) فانه لم يتقدم في وعد اللَّه لها بالولد ما يدل على أنه من غير أب ، إلا أنه لما نسبه إليها دل على أنها فهمت من ذلك كونه من غير أب ، واللَّه أعلم .

(2) . (عاد كلامه) قال : «فان قلت لم قيل اسمه المسيح عيسى ابن مريم . . . الخ» قال أحمد : وفي هذا التقرير خلاص من إشكال يوردونه فيقولون : المسيح في الآية إن أريد به التسمية وهو الظاهر فما موقع قوله عيسى ابن مريم ؟

والتسمية لا توصف بالنبوة ، وإن أريد بالمسيح المسمي بهذه التسمية لم يلتئم مع قوله اسمه ؟ ويجاب عن الاشكال بأن المسيح خبر عن قوله اسمه ، والمراد التسمية ، وأما عيسى ابن مريم فخبر مبتدإ محذوف تقديره : هو عيسى ابن مريم ، ويكون الضمير عائدا إلى المسمى بالتسمية المذكورة ، منقطعاً عن قول المسيح . والذي قرره الزمخشري لا يرد عليه هذا الاشكال ، وهو حسن جداً ، واللَّه أعلم .

وَجِيهاً حال من (بِكَلِمَةٍ) وكذلك قوله : ومن المقربين ، ويكلم ، ومن الصالحين . أى يبشرك به موصوفا بهذه الصفات . وصح انتصاب الحال من النكرة لكونها موصوفة . والوجاهة في الدنيا : النبوّة والتقدم على الناس . وفي الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة في الجنة . وكونه مِنَ الْمُقَرَّبِينَ رفعه إلى السماء وصحبته للملائكة . والمهد : ما يمهد للصبي من مضجعه ، سمى بالمصدر .

وفِي الْمَهْدِ في محل النصب على الحال وَكَهْلًا عطف عليه بمعنى : ويكلم الناس طفلا وكهلا .

ومعناه : يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء ، من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل ويستنبأ فيها الأنبياء . ومن بدع التفاسير أن قولها رَبِّ نداء لجبريل عليه السلام بمعنى يا سيدي (ونعلمه) عطف على يبشرك ، أو على وجيها أو على يخلق ، أو هو كلام مبتدأ . وقرأ عاصم ونافع : ويعلمه ، بالياء . فإن قلت : علام تحمل : ورسولا ، ومصدّقا ، من المنصوبات المتقدّمة ، وقوله : (أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ) و(لِما بَيْنَ يَدَيَّ) يأبى حمله عليها ؟ قلت :

هو من المضايق ، وفيه وجهان : أحدهما أن يضمر له «وأرسلت» على إرادة القول تقديره : ونعلمه الكتاب والحكمة ، ويقول أرسلت رسولا بأنى قد جئتكم . ومصدقا لما بين

يدي. والثاني أن الرسول والمصدّق فيهما معنى النطق، فكأنه قيل: وناطقا بأنى قد جئتكم، وناطقا بأنى أصدق ما بين يدي وقرأ اليزيدي: ورسول: عطفاً على كلمة أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ أصله أرسلت بأنى قد جئتكم، فحذف الجار وانتصب بالفعل، وأَنِّي أَخْلُقُ نصب بدل من أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ أو جرّ بدل من آية، أو رفع على: هي أنى أخلق لكم، وقرئ: إنى، بالكسر على الاستئناف، أى أقدر لكم شيئا مثل صورة الطير فَأَنْفُخُ فِيهِ الضمير للكاف، أى في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير فَيَكُونُ طَيْراً فيصير طيراً كسائر الطيور حياً. وقرأ عبد الله: فأنفخها. قال:

كَالْهَبْرَقِيِّ تَنَحَّى يَنْفُخُ الْفَحَمَا «1»

وقيل: لم يخلق غير الخفاش الْأَكْمَهَ الذي ولد أعمى، وقيل هو الممسوح العين. ويقال: لم يكن في هذه الأمّة أكمه غير قتادة بن دعامة السدوسي صاحب التفسير. وروى أنه ربما اجتمع عليه خمسون ألفا من المرضى، من أطاق منهم أتاه، ومن لم يطق أتاه عيسى، وما كانت مداواته إلا بالدعاء وحده. وكرر بِإِذْنِ اللَّهِ دفعاً لوهم من توهم فيه اللاهوتية.

وروى أنه أحيا

---

(1) مولى الريح قرنيه وجبهته كالهبرقى تنحى ينفخ الفحما

للنابغة يصف ثوراً وحشياً موجها قرنيه وجبهته إلى الريح، فهو مستقبلها برأسه وينفخ في مقابلتها بفمه، فيسمع له صوت، فهو كالهبرقى - وزان جعفري وزبرجى - وهو الحداد

والصائغ. ويروى: كالحرقى، أى الحداد، نسبة لحرق النار، شبهه به سال كونه انحاز إلى ناحية ينفخ الفحم المنقد بالنار، فينفخ: حال متداخلة.

(38/119)

سام بن نوح وهم ينظرون، فقالوا هذا سحر فأرنا آية: فقال يا فلان أكلت كذا، ويا فلان خبئ لك كذا. وقرئ تذخرون، بالذال والتخفيف وَلِأُحِلَّ ردّ على قوله: (بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) أى جئتكم بآية من ربكم، ولأحل لكم ويجوز أن يكون (مُصَدِّقاً) مردودا عليه أيضا، أى جئتكم بآية وجئتكم مصدقا. وما حرم اللَّه عليهم في شريعة موسى: الشحوم والثروب «1» ولحوم الإبل، والسمك، وكل ذى ظفر، فأحل لهم عيسى بعض ذلك. وقيل: أحل لهم من السمك والطير ما لا صيصية «2» له. واختلفوا في إحلاله لهم السبت. وقرئ (حرم عليكم) على تسمية الفاعل، وهو ما بين يدىّ من التوراة، أو اللَّه عزّ وجلّ، أو موسى عليه السلام لأن ذكر التوراة دل عليه، ولأنه كان معلوما عندهم. وقرئ: حرم، بوزن كرم وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ شاهدة على صحة رسالتي وهي قوله إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ لأنّ جميع الرسل كانوا على هذا القول لم يختلفوا فيه: وقرئ بالفتح على البدل من (بِآيَةٍ). وقوله فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ اعتراض، فإن قلت: كيف جعل هذا القول آية من ربه؟ قلت

لأنّ اللَّه تعالى جعله له علامة يعرف منها أنه رسول كسائر الرسل ، حيث هداه للنظر في أدلة العقل والاستدلال . ويجوز أن يكون تكريراً لقوله : ﴿جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أى جئتكم بآية بعد أخرى مما ذكرت لكم ، من خلق الطير ، والإبراء ، والإحياء ، والإنباء بالخفايا ، وبغيره من ولادتي بغير أب ، ومن كلامى في المهد ، ومن سائر ذلك . وقرأ عبد اللَّه . وجئتكم بآيات من ربكم ، فاتقوا اللَّه لما جئتكم به من الآيات ، وأطيعونى فيما أدعوكم إليه . ثم ابتدأ فقال : إن اللَّه ربى وربكم . ومعنى قراءة من فتح :

ولأنّ اللَّه ربى وربكم فاعبدوه ، كقوله : ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ . . . . . لْيَعْبُدُوا﴾

ويجوز أن يكون المعنى : وجئتكم بآية على أن اللَّه ربى وربكم وما بينهما اعتراض . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 1 صـ 361 . 365﴾

---

(1) . قوله «الثروب» الشحوم الرقيقة التي تغشى الكرش والأمعاء . أفاده الصحاح . (ع)

(2) . قوله «ما لا صيصية له» الصيصية شوكة كالتي في رجل الديك . أفاده الصحاح . (ع)

من ردود شيخ الإسلام ابن تيمية على شبه النصارى

قال عليه الرحمة والرضوان ما نصه :

فصل

وقولهم فالإله واحد خالق واحد رب واحد

هو حق في نفسه لكن قد نقضوه بقولهم في عقيدة إيمانهم نؤمن برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد إله حق من إله حق من جوهر أبيه مساو الأب في الجوهر فأثبتوا هنا إلهين ثم أثبتوا روح القدس إلها ثالثا وقالوا إنه مسجود له فصاروا يثبتون ثلاثة آلهة ويقولون إنما نثبت إلها واحدا وهو تناقض ظاهر وجمع بين النقيضين بين الإثبات والنفي

ولهذا قال طائفة من العقلاء إن عامة مقالات الناس يمكن تصورها إلا مقالة النصارى وذلك أن الذين وضعوها لم يتصوروا ما قالوا بل تكلموا بجهل وجمعوا في كلامهم بين النقيضين ولهذا قال بعضهم لو اجتمع عشرة نصارى لتفرقوا عن أحد عشر قولا وقال آخر لو سألت بعض النصارى وامرأته وابنه عن توحيدهم لقال الرجل قولا وامرأته قولا آخر وابنه قولا ثالثا فصل

وقولهم لا يتبعض ولا يتجزأ مناقض لما ذكروه في أمانتهم ولما يمثلونه به

فإنه يمثلونه بشعاع الشمس والشعاع يتبعض ويتجزأ فإن ما يقوم منه بهذا الموضع بعض وجزء منه ويمكن زوال بعضه مع بقاء بعض فإنه إذا وضع على مطرح الشعاع شيء فصل

ما بين جانبيه وصار الشعاع الذي كان بينهما على ذلك الفوقاني فاصلا بين الشعاعين السافلين

يبين ذلك أن الشعاع قائم بالأرض والهواء وكل منهما متجزىء متبعض وما قام بالمتبعض فهو متبعض فإن الحال يتبع المحل وذلك يستلزم التبعض والتجزىء فيما قام به

ويقولون أيضا إنه اتحد بالمسيح وأنه صعد إلى السماء وجلس عن يمين الأب وعندهم أن اللاهوت منذ اتحد بالناسوت لم يفارقه بل لما صعد إلى السماء وجلس عن يمين الأب كان الصاعد عندهم هو المسيح الذي هو ناسوت ولاهوت إله تام وإنسان تام فهم لا يقولون إن الجالس عن يمين الأب هو الناسوت فقط بل اللاهوت المتحد

بالناسوت جلس عن يمين اللاهوت فأي تبعيض وتجزئة أبلغ من هذا

(40/119)

وليس هذا من كلام الأنبياء حتى يقال إن له معنى لا نفهمه بل هو من كلام أكابرهم الذي وضعوه وجعلوه عقيدة إيمانهم فإن كانوا تكلموا بما لا يعقلونه فهم جهال لا يجوز أن يتبعوا وإن كانوا يعقلون ما قالوه فلا يعقل أحد من كون اللاهوت المتحد بالناسوت جلس عن يمين اللاهوت المجرد عن الاتحاد إلا أن هذا اللاهوت المجرد منفصل مباين للاهوت المتحد وليس

هو متصلا به بل غايته أن يكون مماسا له بل يجب أن يكون الذي يماس اللاهوت المجرد هو الناسوت مع اللاهوت المتحد به فهذا حقيقة التبعيض والتجزئة مع انفصال أحد البعضين عن الآخر

وأيضا فيقال لهم المتحد بالمسيح أهو ذات رب العالمين أم صفة من صفاته فإن كان هو الذات فهو الأب نفسه ويكون المسيح هو الأب نفسه وهذا مما اتفق النصارى على بطلانه فإنهم يقولون هو الله وهو ابن الله كما حكى الله عنهم ولا يقولون هو الأب والابن والأب عندهم هو الله وهذا من تناقضهم

وإن قالوا المتحد بالمسيح صفة الرب فصفة الرب لا تفارقه ولا يمكن اتحادها ولا حلولها في شيء دون الذات

وأيضا فالصفة نفسها ليست هي الإله الخالق رب العالمين بل هي صفته ولا يقول عاقل إن كلام الله أو علم الله أو حياة الله هي رب العالمين الذي خلق السماوات والأرض فلو قدر أن المسيح هو صفة الله نفسها لم يكن هو الله ولم يكن هو رب العالمين ولا خالق السماوات والأرض

والنصارى يقولون إن المسيح رب العالمين خالق كل شيء وهو خالق آدم ومريم وإن كان ابن آدم ومريم فإنه خالق ذلك بلاهوته وهو ابن آدم ومريم بناسوته

فلو قدر أن المسيح هو صفة الرب لم تكن الصفة هي الخالق فكيف والمسيح ليس هو صفة

الله نفسها بل هو مخلوق بكلمة الله وسمى كلمة الله لأن الله كونه بكن

وقال تعالى ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾

(41/119)

وسماه روحه لأنه خلقه من نفخ روح القدس في أمه لم يخلقه كما خلق غيره من أب آدمي

قال الله تعالى ﴿ إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾

وإن قالوا المتحد به بعض ذلك دون بعض فقد قالوا بالتبعيض والتجزئة فهم بين أمرين إما بطلان مذهبهم وإما اعترافهم بالتبعيض والتجزئة مع بطلانه

وأيضا فقولهم إله حق من إله حق من جوهر أبيه مولود غير مخلوق مساو للأب في الجوهر ابن الله الوحيد المولود قبل كل الدهور

يقال لهم هذا الابن المولود المساوي للأب في الجوهر الذي هو إله حق من إله حق هل هو صفة قائمة بغيرها أو عين قائمة بنفسها

فإن كان الأول فالصفة ليست إلها ولا هي خالقة ولا يقال لها مولودة من الله ولا أنها مساوية لله في الجوهر ولم يسم قط أحد من الأنبياء ولا أتباع الأنبياء صفات الله لا ابنا له ولا ولدا ولا قال إن صفة الله تولدت منه ولا قال عاقل إن الصفة القديمة تولدت من الذات القديمة

وهم يقولون إن المسيح إله خلق السماوات والأرض لاتحاد ناسوته بهذا الابن المولود قبل كل الدهور المساوي الأب في الجوهر

وهذا كله نعت عين قائمة بنفسها كالجواهر القائمة بنفسها لا نعت صفات قائمة بغيرها

وإذا كان كذلك كان التبعيض والتجزئة

لازمة لقولهم فإن القول بالولادة الطبيعية مستلزم لأن يكون خرج منه جزء قال تعالى

سورة الزخرف الآيات 15.19

وأما هذا المعنى الذي يثبته من يثبته من علماء النصارى ويسمونه ولادة وبنوة فيسمونه الصفة القديمة الأزلية القائمة بالموصوف ابنا ويسمونها تارة النطق وتارة الكلمة وتارة العلم وتارة الحكمة ويقولون هذا مولود من الله وابن الله

فهذا لم يقله أحد من الأنبياء وأتباعهم ولا من سائر العقلاء غير هؤلاء المبتدعة من النصارى ولا يفهم أحد من العقلاء من اسم الولادة والبنوة هذا المعنى

والأنبياء لم يطلقوا لفظ الابن إلا على مخلوق وهم يقولون هو أب للمسيح بالطبع ولغيره بالوضع فلا يعقل جمهور العقلاء

وغيرهم من هذا المعنى إلا البنوة المعقولة بانفصال جزء من الوالد وهذا ينكره من ينكره من علمائهم

لكنهم لم يتبعوا الأنبياء ولم يقولوا ما تعقله العقلاء فضلوا فيما نقوله عن الأنبياء وأضلوا أتباعهم فيما قالوه وعوامهم وإن كانوا لا يقولون إن ولادة الله مثل ولادة الحيوان بانفصال شيء يوجد فيقولون ولادة لاهوتية بانفصال جزء من اللاهوت حل في الناسوت لا يعقل من الولادة غير هذا

وأيضا فقولهم ونؤمن بروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب الذي هو مع الأب مسجود له وممجد ناطق في الأنبياء فقولهم المنبثق من الأب الذي هو مع الأب مسجود له وممجد يمتنع أن يقال هذا في حياة الرب القائمة به فإنها ليست منبثقة منه كسائر الصفات إذ لو كان القائم بنفسه منبثقا لكان علمه وقدرته وسائر صفاته منبثقة منه بل الانبثاق في الكلام أظهر منه في الحياة فإن الكلام يخرج من المتكلم وأما الحياة فلا تخرج من الحي فلو كان في الصفات ما هو منبثق لكان الصفة التي يسمونها الابن ويقولون هي العلم والكلام أو النطق

والحكمة أولى بأن تكون منبثقة من الحياة التي هي أبعد عن ذلك من الكلام

وقد قالوا أيضا إنه مع الأب مسجود له وممجد والصفة القائمة بالرب ليست معه مسجود لها وقالوا هو ناطق في الأنبياء وصفة الرب القائمة به لا تنطق في الأنبياء بل هذا كله صفة روح القدس الذي يجعله الله في قلوب الأنبياء أو صفة ملك من الملائكة كجبريل فإذا كان هذا منبثقا من الأب والانبثاق الخروج فأي تبعيض وتجزئة أبلغ من هذا

وإذا شبهوه بانبثاق الشعاع من الشمس كان هذا باطلا من وجوه

(43/119)

منها أن الشعاع عرض قائم بالهواء والأرض وليس جوهرا قائما بنفسه وهذا عندهم حي مسجود له وهو جوهر

ومنها أن ذلك الشعاع القائم بالهواء والأرض ليس صفة للشمس ولا قائما بها وحياة الرب صفة قائمة به

ومنها أن الانبثاق خصوا به روح القدس ولم يقولوا في الكلمة إنها منبثقة والانبثاق لو كان حقا لكان بالكلمة أشبه منه بالحياة وكلما تدبر العاقل كلامهم في الأمانة وغيرها وجد فيه من التناقض والفساد

ما لا يخفى إلا على أجهل العباد ووجد فيه من مناقضته التوراة والإنجيل وسائر كتب الله

ما لا يخفى من تدبر هذا وهذا

ووجد فيه من مناقضة صريح المعقول ما لا يخفى إلا على معاند أو جهول فقولهم متناقض

في نفسه مخالف لصريح المعقول وصحيح المنقول عن جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله

عليهم وسلامه أجمعين

فصل

قالوا وأما تجسم كلمة الله الخالقة بإنسان مخلوق وولادتهما معا أي الكلمة مع الناسوت فإنه

لم يخاطب الباري أحدا من الأنبياء إلا وحيا أو من وراء حجاب حسب ما جاء في هذا

الكتاب بقوله

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه

ما يشاء ﴾

وإذا كانت اللطائف لا تظهر إلا في الكثائف روح القدس وغيرها فكلمة الله التي بها خلقت

اللطائف والكثائف تظهر في غير كثيف كلا

ولذلك ظهر في عيسى بن مريم إذ الإنسان أجل ما خلقه الله ولهذا خاطب الخلق

وشاهدوا منه ما شاهدوا

والجواب من طرق

أحدها : أنه يقال هذا الذي ذكروه وادعوا أنه تجسم كلمة الله الخالقة بإنسان مخلوق وولادتهما معا أي الكلمة مع الناسوت وهو الذي يعبر عنه باتحاد اللاهوت بالناسوت هو أمر ممتنع في صريح العقل وما علم أنه ممتنع في صريح العقل لم يجز أن يخبر به رسول فإن الرسل إنما تخبر بما لا يعلم بالعقل أنه ممتنع فأما ما يعلم بصريح العقل أنه ممتنع فالرسل منزهون عن الإخبار عنه

الطريق الثاني : أن الأخبار الإلهية صريحة بأن المسيح عبد الله ليس بخالق العالم والنصارى يقولون هو إله تام وإنسان تام

الطريق الثالث : الكلام فيما ذكروه

فأما الطريق الأول فمن وجوه

أحدها : أن يقال المتحد بالمسيح إما أن يكون هو الذات المتصفة بالكلام أو الكلام فقط وإن شئت قلت المتحد به إما الكلام مع الذات وإما الكلام بدون الذات فإن كان المتحد به الكلام مع الذات كان المسيح هو الأب وهو الابن وهو روح القدس وكان المسيح هو الأقانيم الثلاثة

وهذا باطل باتفاق النصارى وسائر أهل الملل وباتفاق الكتب الإلهية وباطل بصريح العقل كما سنذكره إن شاء الله

وإن كان المتحد به هو الكلمة فقط فالكلمة صفة والصفة لا تقوم بغير موصوفها والصفة ليست إلها خالقا والمسيح عندهم إله خالق فبطل قولهم على التقديرين وإن قالوا المتحد به الموصوف بالصفة فالموصوف هو الأب والمسيح عندهم ليس هو الأب وإن قالوا الصفة فقط فالصفة لا تفارق الموصوف ولا تقوم بغير الموصوف والصفة لا تخلق ولا ترزق وليست الإله والصفة لا تقعد عن يمين الموصوف والمسيح عندهم صعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه

وأما كونه هو الأب فقط وهو الذات المجردة عن الصفات فهذا أشد استحالة وليس فيهم من يقول بهذا

الوجه الثاني : أن الذات المتحدة بناسوت المسيح مع ناسوت المسيح إن كانتا بعد الاتحاد ذاتين وهما جوهران كما كانا قبل الاتحاد فليس ذلك باتحاد

وإن قيل صارا جوهرا واحدا كما يقول من يقول منهم إنهما صارا كالنار مع الحديدة أو اللبن مع الماء فهذا يستلزم استحالة كل منهما وانقلاب صفة كل منهما بل حقيقته كما استحال الماء واللبن إذا اختلطا والنار مع الحديدة وحينئذ فيلزم أن يكون اللاهوت استحال

وتبدلت صفته وحقيقته والاستحالة لا تكون إلا بعدم شيء ووجود آخر فيلزم عدم شيء من القديم الواجب الوجود بنفسه

(45/119)

وما وجب قدمه استحال عدمه وما وجب وجوده امتنع عدمه فإن القديم لا يكون قديما إلا لوجوبه بنفسه أو لكونه لازما للواجب بنفسه إذ لو لم يكن لازما له بل كان غير لازم له لم يكن قديما بقدمه والواجب بنفسه يمتنع عدمه ولازمه لا يعدم إلا بعدمه فإنه يلزم من انتفاء اللازم انتفاء الملزوم

الوجه الثالث : أن يقال الناس لهم في كلام الله عز وجل عدة أقوال وقول النصارى باطل على جميع الأقوال التي قالها الناس في كلام الله فثبت بطلانه على كل تقدير وذلك أن كلام الله سبحانه إما أن يكون صفة له قائما به وإما أن يكون مخلوقا له بائنا عنه وإما أن يكون لا هذا ولا هذا بل هو ما يوجد في النفوس وهذا الثالث هو أبعد الأقوال عن أقوال الأنبياء وهو قول من يقول من الفلاسفة والصابئة إن الرب لا تقوم به الصفات وليس هو خالقا باختياره ويقولون مع ذلك إنه ليس عالما بالجزئيات ولا قادرا على تغيير الأفلاك بل كلامه عندهم ما يفيض على النفوس وربما سموه كلاما بلسان الحال

وهؤلاء ينفون الكلام عن الله ويقولون ليس بمتكلم وقد يقولون متكلم مجازا لكن لما نطقت به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أطلقه من دخل في الملل منهم ثم فسره بمثل هذا وهذا أحد قولي الجهمية

والقول الثاني : أنه متكلم حقيقة لكن كلامه مخلوق خلقه في غيره وهو قول المعتزلة وغيرهم والقول الآخر للجهمية

وعلى هذين القولين فليس لله كلام قائم به حتى يتحد بالمسيح أو يحل به والمخلوق عرض من الأعراض ليس بإله خالق وكثير من أهل الكتاب اليهود والنصارى من يقول بهذا وهذا

وأما القول الأول : وهو قول سلف الأئمة وأئمتها وجمهورها وقول كثير من سلف أهل الكتاب وجمهورهم فإما أن يقال الكلام قديم النوع بمعنى أنه لم يزل يتكلم بمشيئته أو قديم العين وإما أن يقال ليس بقديم بل هو حادث والأول هو القول المعروف عن أئمة السنة والحديث

وأما القائلون بقدم العين فهم يقولون الكلام لا يتعلق بمشيئته وقدرته لاعتقادهم أنه لا تحله الحوادث وما كان بمشيئته وقدرته لا يكون إلا حادثا

ولهم قولان منهم قال القديم معنى واحد أو خمسة معان وذلك المعنى يكون أمرا ونهيا وخبرا وهذه صفات له لا أقسام له وإن عبر عنه بالعربية كان قرآنا وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة

ومنهم من قال هو حروف أو حروف وأصوات قديمة الأعيان

والقول الثالث : إنه متكلم بمشيئته وقدرته كلاما قائما بذاته قالوا وهو حادث ويمتنع أن يكون قديما لامتناع كون المقدور

المراد قديما وهذه الطوائف بنوا أقوالهم على أن ما لم يخل عن الحوادث فهو حادث لامتناع وجود ما لا نهاية له عندهم وإذا امتنع ذلك تعين أن يكون لنوع الحوادث ابتداء كما للحادث المعنى ابتداء ولم يسبق الحوادث كان معه أو بعده فيكون حادثا فلهذا منع هؤلاء أن تكون كلمات الله لا نهاية لها في الأزل وإن كان من هؤلاء من يقول بدوام وجودها في الأبد

وأما القول بأن كلمات الله لا نهاية لها مع أنها قائمة بذاته فهو القول المأثور عن أئمة السلف وهو قول أكثر أهل الحديث وكثير من أهل الكلام ومن الفلاسفة وهذه الأقوال قد بسط الكلام عليها في غير موضع

والمقصود هنا أن قول النصارى باطل على كل قول من هذه الأقوال الأربعة كما تقدم بيان بطلانه على ذينك القولين فإنه على قول الجمهور الذين يجعلون لله كلمات كثيرة إما كلمات لا نهاية لها ولم تزل وإما كلمات لها ابتداء وإذا كان له كلمات كثيرة فالمسيح ليس هو الكلمات

التي لا نهاية لها وليس هو كلمات كثيرة بل إنما خلق بكلمة من كلمات الله كما في الكتب

الإلهية القرآن والتوراة إنه يخلق الأشياء بكلماته

قال تعالى في قصة بشارة مريم بالمسيح

﴿ قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا

فإنما يقول له كن فيكون ﴾

وقال أيضا

﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾

وقال ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ما كان لله أن يتخذ من ولد

سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾

وقد أخبر الله في القرآن بخلقه للأشياء بكلماته في غير موضع بقوله

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾

وفي التوراة ليكن يوم الأحد ليكن كذا ليكن كذا

وأيضا فعلى قول هؤلاء وعلى قول من يجعل كلامه إما معنى واحدا وإما خمسة معاني وإما

حروف وأصوات هي شيء واحد فكلهم يقولون إن الكلام صفة قائمة بالموصوف لا يتصور أن يكون جوهرا قائما بنفسه ولا يتصور أن يكون خالقا ولا للكلام مشيئة ولا هو جوهر آخر غير جوهر المتكلم ولا يتحد بغير المتكلم بل جمهورهم يقولون إنه لا يحل أيضا بغير المتكلم

ومن قال بالحلول منهم فلا يقول إن الحال جوهر ولا إله خالق فتبين أن ما قاله النصارى باطل على جميع الأقوال التي قالها الناس

في كلام الله مع أن أكثر هذه الأقوال خطأ ولما كان قول النصارى فساده أظهر للعقلاء كان الخطأ الذي في أكثر هذه الأقوال قد خفي على العقلاء الذين قالوها ولم يخف عليهم فساد قول النصارى

وأيضا فالذين قالوا بالحلول من الغلاة الذين يكفرهم المسلمون كالذين يقولون بحلوله في بعض أهل البيت أو بعض المشايخ هم وإن كانوا كفارا شاركوا النصارى في الحلول ولكن لم يقولوا أن الكلمة التي حلت هي الإله الخالق فيتناقضون تناقضا ظاهرا مثل ما في قول النصارى من التناقض البين ما ليس في قول هؤلاء وإن كانوا في بعض الوجوه قولهم شر من قول النصارى

الوجه الرابع: أن يقال لو كان المسيح نفس كلمة الله فكلمة الله ليست هي الإله الخالق للسماوات والأرض ولا هي تغفر الذنوب وتجزي الناس بأعمالهم سواء كانت كلمته صفة

له أو مخلوقة له كسائر صفاته ومخلوقاته فإن علم الله وقدرته وحياته لم تخلق العالم ولا يقول أحد يا علم الله اغفر لي ويا قدرة الله توبي علي ويا كلام الله ارحمني ولا يقول يا توراة الله

(48/119)

أو يا إنجيله أو يا قرآنه اغفر لي وارحمني وإنما يدعو الله سبحانه وهو سبحانه متصف بصفات الكمال فكيف والمسيح ليس هو نفس الكلام

فإن المسيح جوهر قائم بنفسه والكلام صفة قائمة بالمتكلم وليس هو نفس الرب المتكلم فإن الرب المتكلم هو الذي يسمونه الأب والمسيح ليس هو الأب عندهم بل الابن فضلوا في قولهم من جهات

منها جعل الأقانيم ثلاثة وصفات الله لا تختص بثلاثة

ومنها جعل الصفة خالقة والصفة لا تخلق

ومنها جعلهم المسيح نفس الكلمة والمسيح خلق بالكلمة فقيل له كن فكان كما سيأتي إن شاء الله تعالى تفسير ذلك وإنما خص المسيح بتسمية كلمة الله دون سائر البشر لأن سائر البشر خلقوا على الوجه المعتاد في المخلوقات يخلق الواحد من ذرية آدم من نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم ينفخ فيه الروح وخلقوا من ماء الأبوين الأب والأم

والمسيح عليه السلام لم يخلق من ماء رجل بل لما نفخ روح القدس في أمه حبلت به وقال الله كن فكان ولهذا شبهه الله بآدم في قوله

﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾

فإن آدم عليه السلام خلق من تراب وماء فصار طينا ثم أيبس الطين ثم قال له كن فكان وهو حين نفخ الروح فيه صار بشرا تاما لم يحتج بعد ذلك إلى ما احتاج إليه أولاده بعد نفخ الروح فإن الجنين بعد نفخ الروح يكمل خلق جسده في بطن أمه فيبقى في بطنها نحو خمسة أشهر ثم يخرج طفلا يرتضع ثم يكبر شيئا بعد شيء وآدم عليه السلام حين خلق جسده قيل له كن فكان بشرا تاما بنفخ الروح فيه ولكن لم يسم كلمة الله لأن جسده خلق من التراب والماء وبقي مدة طويلة يقال أربعين سنة فلم يكن خلق جسده إبداعيا في وقت واحد بل خلق شيئا فشيئا وخلق الحيوان من الطين معتاد في الجملة

وأما المسيح عليه السلام فخلق جسده خلقا إبداعيا بنفس نفخ روح القدس في أمه قيل له كن فكان فكان له من الاختصاص بكونه خلق بكلمة الله ما لم يكن لغيره من البشر ومن الأمر المعتاد في لغة العرب وغيرهم أن الاسم العام إذا كان له نوعان خصت أحد النوعين

باسم وأبقت الاسم العام مختصا بالنوع كلفظ الدابة والحيوان فإنه عام في كل ما يدب وكل حيوان ثم لما كان للآدمي اسم يخصه

بقي لفظ الحيوان يختص به البهيم ولفظ الدابة يختص به الخيل أو هي والبغال والحمير ونحو ذلك وكذلك لفظ الجائز والممكن وذوي الأرحام وأمثال ذلك فلما كان لغير المسيح ما يختص به أبقي اسم الكلمة العامة مختصا بالمسيح

الطريق الثاني أن ما ذكروه حجة عليهم فإن الله إذا لم يكلم أحد من الأنبياء إلا وحيا أو من وراء حجاب فالمسيح عيسى بن مريم يجب أن لا يكلمه إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل إليه رسولا

وقوله تعالى

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب ﴾

يعم كل بشر المسيح وغيره

وإذا امتنع أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب فامتناع أن يتحد به أو يحل فيه أولى وأحرى

فإن ما اتحد به وحل فيه كلمة الله من غير حجاب بين اللاهوت والناسوت وهم قد سلموا أن الله لا يكلم بشرا إلا من وراء حجاب

الوجه الثالث أن قوله

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب ﴾

يقتضي أن يكون الحجاب حجابا يحجب البشر كما حجب موسى فيقتضي ذلك أنهم لا يرونه في الدنيا وإن كلمهم كما أنه كلم موسى ولم يره موسى بل سأل الرؤية فقال

﴿ قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾

قيل أنا أول من آمن أنه لا يراك أحد في الدنيا وعندهم في التوراة أن الإنسان لا يمكنه أن يرى الله في الدنيا فيعيش

وكذلك قال عيسى لما سألوه عن رؤية الله فقال إن الله لم يره أحد قط وهذا معروف عندهم وإذا كان كذلك فلا بد أن يكون الحجاب الحاجب للبشر ليس هو من البشر وهذا يبطل قول النصارى فإنهم يقولون إن الرب احتجب بحجاب بشري وهو الجسد الذي ولدته مريم فاتخذه حجابا وكلم الناس من ورائه والقرآن يدل على أن الحجاب ليس من البشر يبين هذا الوجه الرابع وهو أن ذلك الجسد الذي ولدته مريم هو من جنس أجسام بني آدم

فإن جاز أن يتحد به ويحل فيه ويطيق الجسد البشري ذلك في الدنيا بما يجعله الله فيه من القوة جاز أن يتحد بغيره من الأجسام بما يجعله فيها من القوة وإذا جاز أن يتحد بها جاز أن يكلمها بغير حجاب بينه وبينها بطريق الأولى والأحرى وهذا خلاف ما ذكروه وخلاف القرآن

فتبين أن نفي الأنبياء لأن يراه المرء في الدنيا هو نفي لمماسته ببشر بطريق الأولى والأحرى والناسوت المسيحي هو بشر فإذا لم يمكنه أن يرى الله فكيف يمكنه أن يتحد به ويماسه ويصير هو وإياه كاللبن والماء والنار والحديد أو كالروح والبدن

الوجه الخامس: أنه من المعلوم أن رؤية الآدمي له أيسر من

اتحاده به وحلوله فيه وأولى بالإمكان فإذا كانت الرؤية في الدنيا قد نفاها الله ومنعها على ألسن رسله موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه فكيف يجوز اتصاله بالبشر واتحاده به

الوجه السادس أنه لو كان حلوله في البشر مما هو ممكن وواقع لم يكن لاختصاص واحد من البشر بذلك دون من قبله وبعده معنى فإن القدرة شاملة والمقتضى وهو وجود الله وحاجة الخلق موجودة ولهذا لما كانت الرسالة ممكنة أرسل من البشر غير واحد ولما كان سماع كلامه للبشر ممكنا سمع كلامه غير واحد ورؤيته في الدنيا بالأبصار لم تقع لأحد باتفاق

علماء المسلمين لكن لهم في النبي قولان والذي عليه أكابر العلماء وجمهورهم أنه لم يره بعينه كما دل على ذلك الكتاب والسنة

(51/119)

والخلة لما كانت ممكنة اتخذ إبراهيم خليلا واتخذ محمد أيضا خليلا كما في الصحيح من غير وجه عن النبي أنه قال إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا وقال لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا

لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله يعني نفسه

الوجه السابع: قولهم وإذا كانت اللطائف لا تظهر إلا في الكثائف مثل الروح وغيرها فكلمة الله التي بها خلقت الكثائف تظهر في غير كثيف كلا

فيقال لهم ظهور اللطائف في الكثائف كلام مجمل فإن أردتم أن روح الإنسان تظهر في جسده أو الجني يتكلم على لسان المصروع ونحو ذلك فليس هذا مما نحن فيه وإن أردتم أن الله تعالى نفسه يحل في البشر فهذا محل النزاع فأين الدليل عليه وأنتم لم تذكروا إلا ما يدل على نقيض ذلك

الوجه الثامن أن هذا أمر لم يدل عليه عقل ولا نقل ولا نطق نبي من الأنبياء بأن الله يحل في

بشر ولا ادعى صادق قط حلول الرب فيه وإنما يدعي ذلك الكذابون كالمسيح الدجال

الذي يظهر في آخر الزمان ويدعي الإلهية فينزل الله تبارك وتعالى عيسى ابن مريم

مسيح الهدى فيقتل مسيح الهدى الذي ادعيت فيه الإلهية بالباطل المسيح الدجال الذي

ادعى الإلهية بالباطل ويبين أن البشر لا يحل فيه رب العالمين

ولهذا لما أنذر النبي بالمسيح الدجال وقال

ما من نبي إلا وقد أنذر أمته المسيح الدجال حتى نوح أنذر قومه به

وذكر النبي له ثلاث دلائل ظاهرة تظهر لكل مسلم تبين كذبه

أحدها قوله

مكتوب بين عينيه كافر ﴿ك ف ر﴾ يقرأه كل مؤمن قارىء وغير قارىء

الثاني قوله واعلموا أن أحدا منكم لن يرى ربه حتى يموت فبين أن الله لا يراه أحد في الدنيا

بعينيه وكل بشر فإنه يرى في الدنيا بالعين فعلم أن الله لا يتحد ببشر

الثالث قوله أنه أعور وأن ربكم ليس بأعور ودلائل نفي الربوبية عنه كثيرة

لكن لما كان حلول اللاهوت في البشر واتخاذه به مذهبا ضل به طوائف كثيرون من بني آدم النصارى وغيرهم وكان المسيح الدجال يأتي بخوارق عظيمة والنصارى احتجوا على إلهية المسيح بمثل ذلك ذكر النبي من علامات كذبه أمورا ظاهرة لا يحتاج فيها إلى بيان موارد النزاع التي ضل فيها خلق كثير من الآدميين فإن كثيرا من الناس بل أكثرهم تدهشهم الخوارق حتى يصدقوا صاحبها قبل النظر في إمكان دعواه وإذا صدقوه صدقوا النصارى في دعوى إلهية المسيح وصدقوا أيضا من ادعى الحلول

والاتحاد في بعض المشايخ أو بعض أهل البيت أو غيرهم من أهل الإفك والفجور وبهذا يظهر الجواب عما يورده بعض أهل الكلام كالرازي على هذا الحديث حيث قالوا دلائل كون الدجال ليس هو الله ظاهرة فكيف يحتج النبي على ذلك بقوله إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور وهذا السؤال يدل على جهل قائله بما يقع فيه بنو آدم من الضلال وبالأدلة البينة التي تبين فساد الأقوال الباطلة وإلا فإذا كان بنو إسرائيل في عهد موسى ظنوا أن العجل هو إله موسى فقالوا هذا إلهكم وإله موسى وظنوا أن موسى نسيه

والنصارى مع كثرتهم يقولون إن المسيح هو الله وفي المنتسبين إلى القبلة خلق كثير يقولون ذلك في كثير من المشايخ وأهل البيت حتى إن كثيرا من أكابر شيوخ المعرفة والتصوف يجعلون هذا نهاية التحقيق والتوحيد وهو أن يكون الموحد هو الموحد وينشدون . . . ما وحد الواحد من واحد . . . إذ كل من وحده جاحد . . .

. . . توحيد من يخبر عن نعته . . . عارية أبطلها الواحد . . .

. . . توحيده إياه توحيده . . . ونعت من ينعته لاحد . . .

فكيف يستبعد مع إظهار الدجال هذه الخوارق العظيمة أن يعتقد فيه أنه الله وهو يقول أنا الله وقد اعتقد ذلك فيمن لم يظهر فيه مثل خوارقه من الكذابين وفيمن لم يقل أنا الله كالمسيح وسائر الأنبياء والصالحين

(53/119)

الوجه التاسع : قولهم فكلمة الله التي بها خلقت اللطائف تظهر في غير كثيف كلا فيقال لهم كلمة الله التي يدعون ظهورها في المسيح أهي كلام الله الذي هو صفته أو ذات الله المتكلمة أو مجموعها فإن قلتم الظاهر فيه نفس الكلام فهذا يراد به شيئان

إن أريد به أن الله أنزل كلامه على المسيح كما أنزله على غيره من الرسل فهذا حق اتفق عليه أهل الإيمان ونطق به القرآن

وإن أريد به أن كلام الله فارق ذاته وحل في المسيح أو غيره فهو باطل مع أن هذا لا ينفع النصارى فإن المسيح عندهم إله خلق السماوات والأرض وهو عندهم ابن آدم وخالق آدم وابن مريم وخالق مريم ابنها بناسوته وخالقها بلاهوته

وإن أرادوا بظهور الكلمة ظهور ذات الله أو ظهور ذاته وكلامه في الكثيف الذي هو الإنسان فهذا أيضا يراد به ظهور نوره في قلوب المؤمنين كما قال تعالى

الله نور السماوات والأرض إلى قوله كوكب دري الآية

وكما ظهر الله من طور سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران وكما تجلى لإبراهيم كما ذكره في التوراة فهذا لا يختص بالمسيح بل هو لغيره كما هو له

وإن أرادوا أن ذات الرب حلت في المسيح أو في غيره فهذا محل النزاع فأين دليلهم على إمكان ذلك ثم وقوعه مع أن جماهير العقلاء من أهل الملل وغيرهم يقولون هذا غير واقع بل هو ممتنع

الوجه العاشر : قولهم فكلمة الله التي بها خلقت اللطائف تظهر في غير كثيف كلا كلام باطل

فإن ظهور ما يظهر من الأمور الإلهية إذا أمكن ظهوره فظهوره في اللطيف أولى من ظهوره في الكثيف فإن الملائكة تنزل بالوحي على الأنبياء عليهم السلام وتتلقى كلام الله من الله وتنزل به على الأنبياء عليهم السلام فيكون وصول كلام الله إلى ملائكة قبل وصوله إلى البشر وهم الوسائط

كما قال تعالى ﴿ أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾

والله تعالى أيد رسله من البشر حتى أطاقوا التلقي عن الملائكة وكانت الملائكة تأتيهم أحيانا في غير الصورة البشرية وأحيانا في الصورة البشرية فكان ظهور الأمور الإلهية باللطائف ووصولها إليهم أولى منه بالكثائف ولو جاز أن يتحد الرب سبحانه بحي من الأحياء ويحل فيه لكان حلوله في ملك من الملائكة واتحاده به أولى من حلوله واتحاده بواحد من البشر

الوجه الحادي عشر : أن الناسوت المسيحي عندهم الذي اتحد به هو البدن والروح معا فإن المسيح كان له بدن وروح كما لسائر البشر واتحد به عندهم اللاهوت فهو عندهم اسم يقع على بدن وروح آدميين وعلى اللاهوت وحينئذ فاللاهوت على رأيهم إنما اتحد في لطيف وهو الروح وكثيف وهو البدن لم يظهر في كثيف فقط ولولا اللطيف الذي كان مع الكثيف وهو الروح لم يكن للكثيف فضيلة ولا شرف

الوجه الثاني عشر : أنهم يشبهون اتحاد اللاهوت بالناسوت باتحاد الروح بالبدن كما شبهوا هنا ظهوره فيه بظهور الروح في البدن وحينئذ فمن المعلوم أن ما يصيب البدن من الآلام تتألم به الروح وما تتألم به الروح يتألم به البدن فيلزمهم أن يكون الناسوت لما صلب وتألم وتوجع الوجع الشديد كان اللاهوت أيضا متألما متوجعا وقد خاطبت بهذا بعض النصارى فقال

لي الروح بسيطة أي لا يلحقها ألم فقلت له فما تقول في أرواح الكفار بعد الموت أمنعمة أو معذبة فقال هي في العذاب فقلت فعلم أن الروح المفارقة تنعم وتعذب فإذا شبهتم اللاهوت في الناسوت بالروح في البدن لزم أن تتألم إذا تألم الناسوت كما تتألم الروح إذا تألم البدن فاعترف هو وغيره بلزوم ذلك

الوجه الثالث عشر: أن قولهم وإذا كانت اللطائف لاتظهر إلا في الكثائف فكلمة الله لا تظهر إلا في كثيف كلا

(55/119)

تركيب فاسد لا دلالة فيه وإنما يدل إذا بينوا أن كل لطيف يظهر في كثيف ولا يظهر في غيره حتى يقال فلهذا ظهر الله في كثيف ولم يظهر في لطيف وإلا فإذا قيل إنه لا يحل لا في لطيف ولا كثيف أو قيل إنه يحل فيهما بطل قولهم بوجوب حلوله في المسيح الكثيف دون اللطيف وهم لم يؤلفوا الحجة تأليفا منتجا ولا دلوا على مقدماتها بدليل فلا أتوا بصورة الدليل ولا مادته بل مغاليط لا تروج إلا على جاهل يقلدهم

ولا يلزم من حلول الروح في البدن أن يحل كل شيء في البدن بل هذه دعوى مجردة فأرواح بني آدم تظهر في أبدانهم ولا تظهر في أبدان البهائم بل ولا في الجن والملائكة تتصور في صورة

الآدميين وكذلك الجن والإنسان لا يظهر في غير صورة الإنسان فأي دليل من كلامهم على أن الرب يحل في الإنسان الكثيف ولا يحل في اللطيف

والقوم شرعوا يحتجون على تجسيم كلمة الله الخالقة فقالوا وأما تجسيم كلمة الله الخالقة بإنسان مخلوق وولادتهما معا أي الكلمة مع

الناسوت فإن الله لم يكلم أحدا من الأنبياء إلا وحيا أو من وراء حجاب وليس فيما ذكروه قط دلالة لا قطعية ولا ظنية على تجسيم كلمة الله الخالقة وولادتها مع الناسوت

الوجه الرابع عشر : أنهم قالوا وأما تجسيم كلمة الله الخالقة ثم قالوا فكلمة الله التي بها خلقت اللطائف فتارة يجعلونها خالقة وتارة يجعلونها مخلوقا بها ومعلوم أن الخالق ليس هو المخلوق به والمخلوق به ليس هو الخالق فإن كانت الكلمة خالقة فهي خلقت الأشياء ولم تخلق الأشياء بها وإن كانت الأشياء خلقت بها فلم تخلق الأشياء بل خلقت الأشياء بها ولو قالوا إن الأشياء خلق بها بمعنى أن الله إذا أراد أمرا فإنما يقول له كن فيكون لكان هذا حقا لكنهم يجعلونها خالقة مع قولهم بما يناقض ذلك

الوجه الخامس عشر : أن يقال لهم إذا كان الله لم يخاطب بشرا إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء فتكليمه للبشر بالوحي ومن وراء حجاب كما كلم موسى وبإرسال ملك كما أرسل الملائكة إما أن يكون كافيا في حصول مراد الرب من الرسالة إلى عباده أو ليس كافيا بل لا بد من حلوله نفسه في بشر فإن كان ذلك كافيا أمكن أن يكون المسيح مثل غيره فيوحي الله إليه أو يرسل إليه ملكا فيوحي بإذن الله ما يشاء أو يكلمه من وراء حجاب كما كلم

موسى وحينئذ فلا حاجة به إلى اتحاده ببشر مخلوق وإن كان التكلم ليس كافيا وجب أن يتحد بسائر الأنبياء كما اتحد بالمسيح فيتحد بنوح وإبراهيم وموسى وداود وغيرهم يبين هذا

الوجه السادس عشر : وهو أنه من المعلوم أن الأنبياء الذين كانوا قبل المسيح أفضل من عوام النصارى الذين كانوا بعد المسيح وأفضل من اليهود الذين كذبوا المسيح فإذا كان الرب قد يفضل باتحاده في المسيح حتى كلم عباده بنفسه فيتحد بالمسيح محتجبا ببدنه الكثيف وكلم بنفسه اليهود المكذبين للمسيح وعوام النصارى وسائر من كلمه المسيح فكان أن يكلم من هم أفضل من هؤلاء من الأنبياء والصالحين بنفسه أولى وأحرى مثل أن يتحد بإبراهيم الخليل فيكلم إسحاق ويعقوب ولوطا محتجبا ببدن الخليل أو يتحد بيعقوب فيكلم أولاده أو غيرهم محتجبا ببدن يعقوب أو يتحد بموسى بن عمران فيكلم هارون ويوشع بن نون

وغيرهما محتجبا ببدن موسى فإذا كان هو سبحانه لم يفعل ذلك إما لامتناع ذلك وإما لأن عزته وحكمته اعلى من ذلك مع عدم الحاجة إلى ذلك علم أنه لا يفعل ذلك في المسيح بطريق الأولى والأحرى

الوجه السابع عشر : أنه إذا أمكنه أن يتحد ببشر فاتحاده بملك من الملائكة أولى وأحرى وحينئذ فقد كان اتحاده بجبريل الذي أرسله إلى الأنبياء أولى من اتحاده ببشر يخاطب اليهود وعوام النصارى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواب الصحيح حـ 3 صـ 299 . 324 ﴾

(57/119)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾

قَرَأَ نَافِعٌ وَعَاصِمٌ وَيُعَلِّمُهُ بِالْيَاءِ وَالْبَاقُونَ (وَنُعَلِّمُهُ) بِالنُّونِ . وَالْكِتَابُ هُنَا : الْكِتَابَةُ بِالْخَطِّ ، وَالْحِكْمَةُ : الْعِلْمُ الصَّحِيحُ الَّذِي يَبْعَثُ الْإِرَادَةَ إِلَى الْعَمَلِ النَّافِعِ ، وَيَقِفُ بِالْعَامِلِ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْبَصِيرَةِ وَفِقْهِ الْأَحْكَامِ وَأَسْرَارِ الْمَسَائِلِ . (وَالتَّوْرَاةَ) : كِتَابُ

مُوسَى فَقَدْ كَانَ الْمَسِيحُ عَالِمًا بِهِ يُبَيِّنُ أَسْرَارَهُ لِقَوْمِهِ ، وَيُقِيمُ عَلَيْهِمُ الْحُجَجَ بِنُصُوصِهِ ، (وَالْإِنْجِيلَ) : هُوَ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ نَفْسِهِ - وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ أَوَّلِ السُّورَةِ الْكَلَامُ فِيهِمَا - وَالْكَلَامُ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ : وَيُكَلِّمُ النَّاسَ وَآيَةُ قَالَتْ رَبِّ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَهُمَا وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَيْ وَيُرْسِلُهُ أَوْ يَجْعَلُهُ - بِالْيَاءِ أَوِ النُّونِ - رَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَحَذَفَ لَفْظَ يُرْسِلُهُ أَوْ يَجْعَلُهُ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

وَرَأَيْتُ رُوحَكَ فِي الْوَغَى . . . مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحَا

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنَّ الرَّسُولَ هُنَا بِمَعْنَى الرِّسَالَةِ ، وَالتَّقْدِيرُ : وَيُعَلِّمُهُ الرِّسَالَةَ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَاسْتِعْمَالُ لَفْظِ الرَّسُولِ بِمَعْنَى الرِّسَالَةِ شَائِعٌ . قَالَ كُثَيِّرٌ :

لَقَدْ كَذَبَ الْوَاشُونَ مَا بُحْتُ عِنْدَهُمْ . . . بِسِرٍّ وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ

(58/119)

وَفِي رِوَايَةٍ " بِرَسِيلٍ " قَالَ : وَبَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ يَجْعَلُ الرَّسُولَ بِمَعْنَى النَّاطِقِ ; أَيْ نَاطِقًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَقُولُ : وَالْمَعْنَى عَلَى التَّقْدِيرِ الْأَوَّلِ : أَنَّهُ يُرْسِلُهُ مُحْتَجًّا عَلَى صِدْقِ رِسَالَتِهِ بِأَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَفَسَّرَ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ : أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ قَالَ الْأُسْتَاذُ

الْإِمَامُ : الْخَلْقُ : التَّقْدِيرُ وَالتَّرْتِيبُ لَا الْإِنْشَاءُ وَالِاخْتِرَاعُ ، وَيَقْرُبُ أَنْ يَكُونَ هَذَا إِجْمَاعٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَفَسَّرَهُ الْجَلَالُ هُنَا بِالتَّصْوِيرِ لِأَنَّهُ مِنَ التَّقْدِيرِ .

أَقُولُ : وَذَكَرَ الْجَلَالُ كَغَيْرِهِ أَنَّهُ كَانَ يَتَّخِذُ مِنَ الطِّينِ صُورَةَ خُفَّاشٍ فَيَنْفُخُ فِيهَا فَتَحِلُّهَا الْحَيَاةُ وَتَتَحَرَّكُ فِي يَدِهِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلْ تَطِيرُ قَلِيلًا ثُمَّ تَسْقُطُ . قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ :

(59/119)

وَلَا حَاجَةَ إِلَى هَذِهِ التَّفْصِيلَاتِ ، بَلْ نَقِفُ عِنْدَ لَفْظِ الْآيَةِ ، وَغَايَةُ مَا يُفْهَمُ مِنْهَا أَنَّ اللهَ - تَعَالَى - جَعَلَ فِيهِ هَذَا السِّرَّ ، وَلَكِنْ لَمْ يَقُلْ إِنَّهُ خَلَقَ بِالْفِعْلِ ، وَلَمْ يَرِدْ عَنِ الْمَعْصُومِ أَنَّ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ وَقَعَ وَقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ اللهِ - تَعَالَى - أَنْ تُجْرَى الْآيَاتُ عَلَى أَيْدِي الْأَنْبِيَاءِ عِنْدَ طَلَبِ قَوْمِهِمْ لَهَا وَجَعْلِ الْإِيمَانِ مَوْقُوفًا عَلَيْهَا ، فَإِنْ كَانُوا سَأَلُوهُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ جَاءَ بِهِ ، وَكَذَلِكَ يُقَالُ فِي قَوْلِهِ : وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ فَإِنَّ قُصَارَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْعِبَارَةُ أَنَّهُ خُصَّ بِذَلِكَ وَأُمِرَ بِأَنْ يَحْتَجَّ بِهِ ، وَالْحِكْمَةُ فِي إِخْبَارِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِذَلِكَ إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى مُنْكِرِي نُبُوَّتِهِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَأَمَّا وُقُوعُ ذَلِكَ كُلِّهِ أَوْ بَعْضِهِ بِالْفِعْلِ فَهُوَ يَتَوَقَّفُ عَلَى نَقْلٍ يُحْتَجُّ بِهِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ .

هَذَا مَا قَالَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ . وَمِنَ الْغَرِيبِ أَنَّ ابْنَ جَرِيرٍ يَرْوِي عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ " أَنَّ عِيسَى - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ - جَلَسَ يَوْمًا مَعَ غِلْمَانٍ مِنَ الْكُتَّابِ فَأَخَذَ طِينًا ثُمَّ قَالَ : أَجْعَلُ لَكُمْ مِنْ هَذَا الطِّينِ طَائِرًا ، قَالُوا : وَتَسْتَطِيعُ ذَلِكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ بِإِذْنِ رَبِّي ، ثُمَّ هَيَّأَهُ حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ فِي هَيْئَةِ الطَّائِرِ فَنَفَخَ فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ : كُنْ طَائِرًا بِإِذْنِ اللهِ ، فَخَرَجَ يَطِيرُ بَيْنَ كَفَّيْهِ " فَكَأَنَّهُ اتَّخَذَ آيَةَ اللهِ عَلَى رِسَالَتِهِ أُلْعُوبَةً لِلصِّبْيَانِ ، وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَنَا نَقْلٌ صَحِيحٌ بِوُقُوعِ خَلْقِ الطَّيْرِ بَلْ وَلَا عِنْدَ النَّصَارَى الَّذِينَ يَتَنَاقَلُونَ وُقُوعَ سَائِرِ الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ إِلَّا مَا فِي إِنْجِيلِ الصِّبَا أَوِ الطُّفُولَةِ مِنْ نَحْوِ مَا قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ ، وَهُوَ مِنَ الْأَنَاجِيلِ غَيْرِ الْقَانُونِيَّةِ عِنْدَهُمْ وَلَعَلَّ آيَةَ سُورَةِ الْمَائِدَةِ أَدْنَى إِلَى الدَّلَالَةِ عَلَى الْوُقُوعِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ وَهِيَ : إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ

وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ [5 : 110] فَإِنَّ جَعْلَ ذَلِكَ كُلِّهُ مُتَعَلَّقَ النِّعْمَةِ يُؤْذِنُ بِوُقُوعِهِ ، إِلَّا أَنْ يُقَالَ : إِنَّ جَعْلَ هَذِهِ الْآيَاتِ مِمَّا يَجْرِي عَلَى يَدَيْهِ عِنْدَ طَلَبِهِ مِنْهُ وَالْحَاجَةِ إِلَى تَحَدِّيهِ بِهِ مِنْ أَجَلِّ النِّعَمِ وَأَعْظَمِهَا ، وَلَكِنَّ هَذَا خِلَافُ الظَّاهِرِ .

وَمُقْتَضَى مَذْهَبِ الصُّوفِيَّةِ أَنَّ رُوحَانِيَّةَ عِيسَى كَانَتْ غَالِبَةً عَلَى جُثْمَانِيَّتِهِ أَكْثَرَ مِنْ سَائِرِ الرُّوحَانِيِّينَ ; لِأَنَّ أُمَّهُ حَمَلَتْ بِهِ مِنَ الرُّوحِ الَّذِي تَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ، فَكَانَ تَجَرُّدُهُ مِنَ الْمَادَّةِ الْكَثِيفَةِ لِلتَّصَرُّفِ بِسُلْطَانِ الرُّوحِ مِنْ قَبِيلِ الْمَلَكَةِ الرَّاسِخَةِ فِيهِ ، وَبِذَلِكَ كَانَ إِذَا نَفَخَ مِنْ رُوحِهِ فِي صُورَةٍ رَطْبَةٍ مِنَ الطِّينِ تَحُلُّهَا الْحَيَاةُ حَتَّى تَهْتَزَّ وَتَتَحَرَّكَ ، وَإِذَا تَوَجَّهَ بِرُوحَانِيَّتِهِ إِلَى رُوحٍ فَارَقَتْ جَسَدَهَا أَمْكَنَهُ أَنْ يَسْتَحْضِرَهَا وَيُعِيدَ اتِّصَالَهَا بِبَدَنِهَا زَمَنًا مَا ، وَلَكِنَّ رُوحَانِيَّتَهُ الْبَشَرِيَّةَ لَا تَصِلُ إِلَى دَرَجَةِ إِحْيَاءِ مَنْ مَاتَ فَصَارَ رَمِيمًا . وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ مَا يَنْقُلُهُ النَّصَارَى مِنْ إِحْيَاءِ الْمَسِيحِ لِلْمَوْتَى ; فَإِنَّهُمْ قَالُوا إِنَّهُ أَحْيَا بِنْتًا قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ ، وَأَحْيَا الْيَعَازِرَ قَبْلَ أَنْ يَبْلَى ، وَلَمْ يُنْقَلْ أَنَّهُ أَحْيَا مَيِّتًا كَانَ رَمِيمًا ، وَأَمَّا إِبْرَاءُ الْأَكْمَهِ وَالْأَبْرَصِ بِالْقُوَّةِ الرُّوحَانِيَّةِ فَهُوَ أَقْرَبُ

إِلَى مَا يَعْهَدُ النَّاسُ لَا سِيَّمَا مَعَ اعْتِقَادِ الْمَرِيضِ ، وَيَقُولُ مُجَاهِدٌ : إِنَّ الْأَكْمَهَ مَنْ لَا يُبْصِرُ بِاللَّيْلِ وَيُبْصِرُ بِالنَّهَارِ ، وَالْمَشْهُورُ أَنَّهُ مَنْ وُلِدَ أَعْمَى ، وَأَمَّا الْإِخْبَارُ بِبَعْضِ الْمُغَيَّبَاتِ فَقَدْ أُوتِيَهُ كَثِيرُونَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَمِمَّنْ دُونَ الْأَنْبِيَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أَيْ إِنَّ فِيمَا ذَكَرَ لَحُجَّةً لَكُمْ عَلَى صِدْقِ رِسَالَتِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ مُصَدِّقِينَ بِقُدْرَتِهِ الْكَامِلَةِ ، وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ : أَنَّ قَوْلَهُ : فَأَنْفُخُ فِيهِ يَعُودُ إِلَى الطَّيْرِ أَوْ إِلَى مَا ذَكَرَ .

وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ أَيْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ نَاسِخًا لِلتَّوْرَاةِ بَلْ مُصَدِّقًا لَهَا عَامِلًا بِهَا ، وَلَكِنَّهُ نَسَخَ بَعْضَ أَحْكَامِهَا كَمَا قَالَ : وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ فَقَدْ كَانَ حَرَّمَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْضَ الطَّيِّبَاتِ بِظُلْمِهِمْ وَكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ فَأَحَلَّهَا عِيسَى وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : أَعَادَ ذِكْرَ الْآيَةِ لِلتَّفْرِقَةِ بَيْنَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَمَرَهُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ فِيمَا جَاءَ بِهِ عَنْهُ ، وَخَتَمَ ذَلِكَ بِالتَّوْحِيدِ وَالِاعْتِرَافِ بِالْعُبُودِيَّةِ ، وَقَالَ فِي ذَلِكَ : هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ أَيْ أَقْرَبُ مُوَصِّلٍ إِلَى اللَّهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار ج 3 ص 255-257 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

إذن اجتمع الرسول والمرسل إليهم في أنهم جميعا مربوبون إلى إله واحد ، هو الذي يتولَّى تربيتهم والتربية تقتضي إيجادا من عدم ، وتقتضي إمدادا من عدم ، وتقتضي رعاية قيومية ، وعيسى ابن مريم يقر بعبوديته لله وكأنه يقول : وأنا لم أصنع ذلك لأكون سيدا عليكم ، ولكن أنا وأنتم مشتركون في العبودية لله. ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ .

ومعنى ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي أنه صراط غير ملتويا لأن الطريق إذ إلتوى ؛ انحرف عن الهدف ، وحتى تعرف أن الكل يسير على طريق مستقيم واحد ، فلتعلم أنك إذا نظرت على سبيل المثال إلى الدائرة ، فستجد أن لها محيطا ، ولها مركزا ، ومركز الدائرة هو الذي نضع فيه "سن الفرجار" حتى نرسم الدائرة ، وبعد ذلك تصل من المركز إلى المحيط بأنصاف أقطار ، وكلما بعدنا عن المركز زاد الفرق ، وكلما تقرب من المركز تتلاشى الفروق .

فإذا ما كان الخلق جميعا يلتقون عند المركز الواحد فهذا يعني الاتفاق ، لكن الاختلاف يحدث بين البشر كلما بعدوا عن المركز ولذلك لا تجد للناس أهواء ولا نجد الناس شيعا إلا

إذا ابتعدوا عن المركز الجامع لهم والمركز الجامع لهم هو العبودية للإله الواحد ، وما دامت عبوديته لإله واحد ففي هذا جمع للناس بلا هوى أو تفرق .

إنه حتى في الأمر الحسي وهو الدائرة المرسومة ، نجد أن الأقطار المأخوذة من المحيط وتمر بمركز الدائرة ، سنجد أنه في مسافة ما قبل المركز تتداخل الأقطار إلى أن تصير عند نقطة المركز شيئا واحدا لا انفصال بينها أبدا . وهكذا الناس إذا التقوا جميعا عند مركز عبوديتهم للإله الواحد ، فإذا ما اختلفوا ، بعدوا عن العبودية للإله الواحد بمقدار ذلك الاختلاف .

(64/119)

ولذلك دعا المسيح عيسى ابن مريم الناس لعبادة الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ ذلك هو منطق عيسى . كان منطقه الأول حينما كان في المهد

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾

[مريم : 30] .

إن قضية عبوديته لله قد حُسمت من البداية ، وهي قضية القمة ، إنه عبد الله والقضية الثانية هي قضية الرسالة ونقل مراد الله وتكليفه إلى خلق الله حتى يبنوا حركة حياتهم

على مقتضى ما أنزل الله عليهم ، ومن الطبيعي أن أي رسول عندما يأتي بمنهج من عند الله ، فالهدف أن يحمل الناس جميعا على سلوك هذا المنهج ، ويحدد حركة حياتهم بـ " افعل كذا " و " لا تفعل كذا " وعندما يسمع الواحد من الناس الأمر بـ " افعل " فقد يجد في التكليف مشقة ، لماذا ؟ لأنها تلزمه بعمل قد يثقل عليه ، و " لا تفعل كذا " فيها مشقة ؛ لأنها تبعده عن عمل كان يحبه .

والمرء في الأحداث بين اثنين : عمل يشق عليه فيحب أن يجتنبه ، وعمل يستهويه فيحب أن يقترب منه ، والمنهج جاء من السماء ليقول للإنسان " افعل " ولا " تفعل " إذن فهناك مشقة في أن يحمل الإنسان نفسه على أن يقوم بعمل ما من أعمال التكليف ، ومشقة أخرى في أن يبتعد عن عمل نهى عنه التكليف .

ومعظم الناس لا تلتفت إلى الغاية الأصيلة ؛ ولا يفهمونها حق الفهم ، فيأتي أنصار الشر ؛ ولا يعجبهم حمل نفوسهم على مرادات خالقهم . إن أفكار الشر تلح على صاحبها فيتمرد على التكليف الإيماني ، وأفكار الشر تحاول الاقتراب بصاحبها من فعل الأمور التي حرمها التكليف . ولذلك ينقسم الناس لأنهم لم يحددوا هدفهم في الوجود .

إن كل حركة في الوجود يمكننا أن نعرف أنها حركة إيمانية في صالح انسجام الإنسان مع الكون ، أو هي حركة غير إيمانية تفسد انسجام الإنسان مع فطرته ومع الكون ، فإذا كانت الحركة تصل بالإنسان إلى هدفه الإيماني . فستكون حركة طيبة وحسنة بالنسبة للمؤمن ، وإذا كانت تبعده عن هدفه تكون حركة سيئة وباطلة ، وهكذا نرى أن الهدف هو الذي يحدد الحركة .

إن التلميذ الذي يذهب إلى المدرسة له هدف بأن يتخرج في مهنة ما ، وما دام ذلك هو هدفه فنحن نقيس حركة سلوكه ، هل هي حركة تقربه إلى الهدف أن تبعد به عنه ؟ فإن كان مجتهدا . فاجتهاده حركة تقرب له الهدف ، وإن كان كسولا ، خاملا فإنه يبتعد بنفسه عن الهدف . إذن يجب أن نحدد الهدف حتى نعرف هل يكون هذا العمل صالحا . أو غير صالح .

وآفة الناس أنهم عندما يحددون أهدافهم يقعون في اعتبار ما ليس بالهدف هدفا وغاية . وما دام هناك من يعتبر غير الهدف هدفا فلا بد من حدوث اضطراب وضلال ، فالذي يعتبر أن الحياة هي الهدف ، فهو يريد أن يحقق لنفسه أكبر قدر من اللذة فيها . أما الذي يعرف أن الهدف ليس هو الحياة ، إنما الحياة مرحلة ، نسأله . . ما الهدف إذن ، فيقول : إنه لقاء الله والآخرة .

هذا المؤمن سيكون عمله من أجل هذا الهدف . لكن الضال الذي يرى الدنيا وحدها

هدفه ولا يؤمن بالجنة أو النار ، هو غارق في ضلاله ويقبل على ما تشتهيه نفسه ، ويبتعد عما يتعبه وإن كانت فيه سعادته .

ولكن المؤمن يعرف أن الهدف ليس هو الدنيا ، وأن الهدف في مجال آخر ، لذلك يسعى في تطبيق التكاليف الإيمانية ليصل إلى الهدف ، وهو الجنة . إذن ما يفسد سلوك الناس هو جهلهم بالهدف ، وحين يوجد الهدف ، فالإنسان يحاول أن يعرف العمل الذي يقربه من الهدف, فيفعله ، فهذا هو الخير . أما الذي يبعده عن الهدف ويفعل عكس الموصل إليه فهذا هو الشر .

(66/119)

وإذا كان الأمر كذلك والمسألة هي في تحديد الهدف يجب أن تعلم أن الناس يستقبلون الكثير من الأحداث بما يناقض معرفة الهدف ، وما دام الهدف هو أن تذهب إلى الآخرة لتلقى الله فلماذا يغرق في الحزن إنسان لأن له حبيبا قد انتقل إلى رحمة الله ؟

هذا الإنسان يمكننا أن نسأله ، لماذا تحزن وقد قصر الله عليه خطواته إلى الهدف ؟ لا بد أنك حزين على نفسك لأنك مستوحش له ، ولأنك كنت تأنس به ، أما حزنك من أجله هو ، فلا حزن ، لأنه اقترب من الهدف ووصل إليه .

وفي حياتنا اليومية عندما يكون هدف جماعة أن تصل إلى الإسكندرية من القاهرة ، نجد إنسانا ما يذهب إلى الإسكندرية ما شيا ، لأنه لا يجد نقودا أو وسيلة توصله ، وتجد آخر يذهب إليها راكبا حمارا ، وثالثا يذهب إليها راكبا حصانا ، ورابعا يصل إليها راكبا " أتوبيسا " ، وخامسا يصل إليها بركوب الطائرة ، وسادسا يصل إليها بصاروخ ، وكل ما حدث هو أن كل واحد في هذه الجماعة قد اقترب من الهدف بالوسيلة التي توافرت له ، وهكذا نجد إنسانا يذهب إلى الله ماشيا في سبعين عاما ، وآخر يستدعيه الله فورا ، فلماذا تحزن عليه ؟

إن لنا أن نحزن على الإنسان الذي لم يكن موفقا في خدمة الهدف ، أما الموفق في خدمة الهدف فلنا أن نفرح له ، ونقول : إن الله قد قصر عليه المسافة ، وأغلبنا إن كان عنده ولد حبيب إلى قلبه وصغير ويفقده فهو يغرق في الحزن قائلا " إنه لم ير الدنيا " لهذا الإنسان نقول : يا رجل إن الله جعل ابنك يقفز الخطايا ويتجاوزها وأخذه إلى الغاية ، فما الذي يحزنك ؟ إن علينا أن نحسن استقبال ما يقضي به الله في خلقه ، ونعرف أنه حكيم وأنه رحيم وأن كل شيء منه يجب ألا نفهمه خارجا عن الحكمة .

وبعد تلك الآيات الكريمة التي تحدث فيها الحق عن مريم وعيسى عليه السلام. . قال الحق سبحانه: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ. . . ﴾. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير الشعراوى صـ 1480. 1484﴾

(68/119)

" فصل "

قال السيوطى :

وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (50) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (51)

أخرج ابن جرير عن وهب. أن عيسى كان على شريعة موسى عليهما السلام، وكان يسبت، ويستقبل بيت المقدس، وقال لبني إسرائيل: أني لم أدعكم إلى خلاف حرف مما في التوراة الا ﴿ ولأُحل لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾ وأضع عنكم من الآصار.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع في قوله ﴿ ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾ قال: كان الذي جاء به عيسى ألين مما جاء به موسى، وكان حرم عليهم فيما جاء به موسى لحوم الإبل، والثروب، فأحلها لهم على لسان عيسى، وحرمت عليهم الشحوم،

فأحلت لهم فيما جاء به عيسى ، وفي أشياء من السمك ، وفي أشياء من الطير ما لا صيصية له ، وفي أشياء أخر رحمها عليهم وشدد عليهم فيها . فجاءهم عيسى بالتخفيف منه في الإنجيل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة . مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وجئتكم بآية من ربكم ﴾ قال : ما بين لهم عيسى من الأشياء كلها وما أعطاه ربه . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 2 صـ 222﴾

(69/119)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (42) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (43) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (44) إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (45) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ
(46) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا
قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (47) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ
(48) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآَيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ
كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ
وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (49)
وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآَيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (50) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (51) ﴾

التفسير : القصة الثالثة قصة مريم .

والعامل في " إذ " ههنا هو ما ذكر في قوله : ﴿ إذ قالت امرأة عمران ﴾ [آل عمران : 35] لمكان العطف . والمراد بالملائكة ههنا جبريل كما يجيء ، في سورة مريم ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾

[مريم : 17] . واعلم أن مريم ما كانت من الأنبياء لقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم ﴾ [الأنبياء : 7] فإرسال جبريل إليها إما أن يكون كرامة لها عند من يجوّز كرامات الأولياء ، وإما أن يكون إرهاصاً لعيسى وهو جائز عندنا وعند الكعبي من المعتزلة ، أو معجزة لزكريا وهو قول جمهور المعتزلة . ومن الناس من قال : إن ذلك كان على سبيل النفث في الروع والإلهام كما في حق أم موسى

﴿ وأوحينا إلى أم موسى ﴾ [القصص : 7] . ثم إنه تعالى مدحها بالاصطفاء ثم بالتطهير ثم بالاصطفاء ولا يجوز أن يكون الاصطفاآن بمعنى واحد للتكرار والصرف ، فحمل المفسرون الاصطفاء الأول على ما اتفق لها من الأمور في أول عمرها منها قبول تحريرها مع كونها أنثى ، ومنها قال الحسن : ما غذتها أمها طرفة عين بل ألقتها إلى زكريا وكان رزقها من عند الله ، ومنها تفريغها للعبادة ، ومنها إسماعها كلام الملائكة شفاهاً ولم يتفق ذلك لأنثى غيرها إلى غير ذلك من أنواع اللطف والهداية والعصمة في حقها . وأما التطهير فتطهيرها عن الكفر والمعصية كما قال في حق أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ﴿ ويطهركم تطهيراً ﴾ [الأحزاب : 33] . وعن مسيس الرجال وعن

الحيض والنفاس قالوا : كانت لا تحيض وعن الأفعال الذميمة والأقوال القبيحة . وأما الاصطفاء الثاني فهو ما اتفق لها في آخر عمرها من ولادة عيسى بغير أب وشهادته ببراءتها عما قذفها اليهود . قيل : المراد اصطفاؤها على نساء عالمي زمانها لما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "كمل من نساء العالمين أربع : مريم وآسية امرأة فرعون وخديجة وفاطمة" ثم لما بيّن اختصاصها بمزيد المواهب والعطايا أوجب عليها مزيد الطاعة شكراً لتلك النعم . فقوله : ﴿ اقنتي ﴾ أمر بالعبادة على العموم ﴿ واسجدي ﴾ أمر بالصلاة تسمية للشيء بمعظم أركانه كما في قوله ﴿ وأدبار السجود ﴾ [ق : 4] وفي الخبر "إذا دخل أحدكم المسجد فليسجد سجدتين" ولا ريب أن السجود أشرف الأركان لقوله صلى الله عليه وسلم "أقرب ما يكون العبد من الله تعالى وهو ساجد" ثم قال : ﴿ واركعي مع الراكعين ﴾ فالأول أمر بالصلاة مطلقاً ، والثاني أمر بالصلاة في الجماعة . وإنما عبر عن الصلاة ههنا بالركوع إما لتغيير العبارة وقد يسمى الشيء بأحد أركانه ، وإما تسمية للشيء بمعظم أركانه بناء على ما قيل إن الركوع أفضل من السجود ، لأن الراكع حامل نفسه في

الركوع فالمشقة فيه أكثر ، وللتمييز عن صلاة اليهود . وقيل : اركعي مع الراكعين أمر بالخضوع والخشوع بالقلب ، ويحتمل أن يراد بقوله : ﴿ اقنتي ﴾ الأمر بالصلاة لأن القنوت أحد أجزائها ، وأن يراد بقوله : ﴿ واسجدي واركعي ﴾ استعمال كل منهما في وقته اللائق به ، والواو تفيد التشريك لا الترتيب ، أو المراد انظمي نفسك في جملة المصلين وكوني في عدادهم لا في عداد غيرهم . وإنما لم يقل مع الراكعات إما للتغليب وإما لأن الاقتداء بالرجل حال الاختفاء من الرجال أفضل من الاقتداء بالنساء . روي أن مريم بعد ذلك قامت في الصلاة حتى ورمت قدماها وسال الدم والقيح منهما . اللهم لا تؤاخذنا باسم الرجولية ونحن أقل في خدمتك من إحدى النساء ﴿ ذلك ﴾ الذي سبق من أنباء حنة وزكريا ويحيى ومريم من أخبار الغيب ﴿ نوحيه إليك ﴾ قد ورد الكتاب بالإيحاء على معان مختلفة يجمعها تعريف الموحى إليه بأمر خفي من إشارة أو كتابة أو غيرها .

وبهذا التفسير يعد الإلهام وحياً كقوله : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ [النحل : 68] وقال : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ﴾ [الأنعام : 121] وقال : ﴿ فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً ﴾ [مريم : 11] فلما كان الله سبحانه ألقى هذه الأنباء إلى

النبي بواسطة جبريل بحيث تخفى على غيره سماه وحياً ﴿ وما كنت لديهم ﴾ نفيت المشاهدة وانتفاؤها معلوم، وترك نفي استماع الأنباء حفظتها وهو موهوم لأنه كان معلوماً عندهم علماً يقيناً أنه ليس من أهل السماع والقراءة وكانوا منكرين للوحي فلم يبق إلا المشاهدة الممتنعة في حقه صلى الله عليه وسلم فنفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحي، ومثله في القرآن غير عزيز ﴿ وما كنت بجانب الغربي ﴾ [القصص: 44] ﴿ وما كنت بجانب الطور ﴾ [القصص: 46] ﴿ إذ يلقون أقلامهم ﴾ ينظرون أو ليعلموا أو يقولوا ﴿ أيهم يكفل مريم ﴾ حذف متعلق الاستفهام لدلالة الإلقاء عليه. وظاهر الآية يدل على أنهم كانوا يلقون الأقلام في شيء على وجه يظهر به امتياز بعضهم عن البعض في استحقاق ذلك المطلوب، وليس فيها دلالة على كيفية ذلك الإلقاء إلا إنه روي في الخبر أنهم كانوا يلقونها في الماء بشرط أن من جرى قلمه على خلاف جري الماء فاليد له. ثم إنه حصل هذا المعنى لزكريا فصار أولى بكفالتها. وقيل: عرف برسوب الأقلام وارتفاعها كما مر. وعن الربيع أنهم ألقوا عصيهم في الماء الجاري فجرت عصا زكريا على ضد جرية الماء فغلبهم. وقال أبو مسلم: المراد بإلقاء الأقلام ما كانت تفعله الأمم من المساهمة عند التنازع، فيطرحون سهاماً يكتبون عليها أسماءهم. فمن خرج له السهم سلم له الأمر. قال تعالى: ﴿ فساهم فكان من المدحضين ﴾ [الصافات: 141] وهو شبيه بالقداح

التي يتقاسم بها العرب لحم الجزور . وإنما سميت تلك السهام أقلاماً لأنها تقلم وتبرى . قال القاضي : وقوع لفظ القلم على هذه الأشياء وإن كان صحيحاً نظراً إلى أصل

(74/119)

الاشتقاق إلا أن العرف الظاهر يوجب اختصاص القلم بهذا الذي يكتب به فوجب حمل اللفظ عليه . ﴿ وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ يتنازعون على التكفل . قيل : هم خزنة البيت . وقيل : بل العلماء والأحبار وكتاب الوحي . ولا شبهة في أنهم كانوا من الخواص وأهل الفضل في الدين والرغبة في طريق الخير . ثم المراد بهذا الاختصام يحتمل أن يكون ما كان قبل الاقتراع وأن يكون اختصاماً آخر حصل بعد الاقتراع . وبالجملة فالمقصود شدة رغبتهم في التكفل بشأنها والقيام بإصلاح مهامها ، إما لأن عمران كان رئيساً لهم فأرادوا قضاء حقوقه ، وإما لأجل الدين حيث كانت محررة لخدمة بيت العبادة وإما لأنهم وجدوا في الكتب الإلهية أن لها ولابنها شأناً .

القصة الرابعة حكاية ولادة عيسى وذكر طرف من معجزاته ﴿ إذ قالت الملائكة ﴾ يعني جبريل كما مر . ومتعلق "إذ" هو متعلق ﴿ وإذ قالت ﴾ لأن هذا بدل من ذاك ، ويجوز أن يكون بدلاً من قوله : ﴿ إذ يختصمون ﴾ .

قال في الكشاف : هذا على أن الاختصام والبشارة وقعا في زمان واسع كما تقول : لقيته سنة كذا يعني وإنما لقيته في ساعة منها . فيكون الزمان الواسع زماناً لكل منهما ، فيكون الثاني بدل الكل من الأول . ويجوز أن يتعلق ب ﴿ يختصمون ﴾ ولا يحتاج إلى زمان واسع بناء على ما روي عن الحسن أنها كانت عاقلة في حال الصغر ، وأن ذلك كان من كراماتها ، فجاز أن ترد عليها البشرى في حالة الصغر ولا يفتقر إلى أن يؤخر إلى حين العقل . واعلم أن حدوث الشخص من غير نطفة الأب أمر ممكن في نفسه ، وكيف لا وقد يشاهد حدوث كثير من الحيوانات على سبيل التولد كتولد الفأر عن المدر ، والحيات عن الشعر العفن ، والعقارب عن الباذروج غايته الاستبعاد عرفاً وعادة وهذا لا يوجب عند الحكماء ظناً قوياً فضلاً عن العلم . ثم إن الصادق أخبر عن وجود ذلك الممكن فيجب القطع بصحته . ومما يزيده في العقل بياناً أن التخيلات الذهنية كثيراً ما تكون أسباباً لحدوث الحوادث . كتصور حضور المنافي للغضب ، وكتصور السقوط لحصول السقوط للماشي على جذع ممدود فوق فضاء بخلاف ما لو كان على قرار من الأرض . وقد جعلت الفلاسفة هذا كأصل في بيان جواز المعجزات والكرامات . فما المانع أن يقال إنها لما تخيلت صورة جبريل

كفى ذلك في علوق الولد في رحمها ، فإن مني الرجل ليس إلا لأجل العقد ، فإذا حصل الانعقاد لمني المرأة بوجه آخر أمكن علوق الولد . قوله : ﴿ بكلمة منه ﴾ لفظة " من " ههنا ليست للتبعيض كما توهمت النصارى والحلولية لأنه تعالى غير متبعض بوجه من الوجوه ، ولكنها لابتداء الغاية أي بكلمة حاصلة من الله . وذلك أن عيسى لما خلق من غير واسطة أب صار تأثير كلمة " كن " في حقه أظهر وأكمل فكان كأنه نفس الكلمة ، كما أن من غلب عليه الجود والكرم والإقبال يقال إنه محض الجود ونفس الكرم وصريح الإقبال . وللمسيح لقب من الألقاب المشرفة كالصديق والفاروق . وأصله " مشيحا " بالعبرانية ومعناه

(76/119)

المبارك ﴿ وجعلني مباركاً أينما كنت ﴾ [مريم : 31] وكذلك عيسى معرب " إيشوع " . أما احتمال اشتقاق عيسى من العيس البياض الذي تعلوه حمرة فبعيد ، وأما احتمال المسيح من المسح فقريب وعليه الأكثرون . عن ابن عباس : سمي بذلك لأنه ما كان يمسح ذا عاهة إلا برأ . وقال أحمد بن يحيى : لأنه كان يمسح الأرض أي يقطعها . وعلى هذا فيجوز أن يقال له مسيح بالتشديد كشريب . وقيل : لأنه مسح من الأوزار والآثام . وقيل

: لأنه لم يكن في قدمه خمص وكان ممسوح القدمين . وقيل : لأنه ممسوح بدهن طاهر مبارك يمسح به الأنبياء ولا يمسح به غيرهم .

(77/119)

قالوا : ويجوز أن يكون هذا الدهن جعله الله علامة للملائكة يعرفون بها الأنبياء حين يولدون . وقيل : لأن جبريل مسحه بجناحيه وقت ولادته صيانة له عن مس الشيطان . وقيل : لأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن . وأما المسيح الدجال فسمي بذلك لأنه مسح إحدى عينيه ، أو لأنه يمسح الأرض أي يقطعها في المدة القليلة . قالوا : ومثله الدجال دجل في الأرض أي قطعها . وقيل : الدجال من دجل الرجل إذا موّه ولبس . وتقديم المسيح – وهو اللقب – على الاسم – وهو عيسى – للتشريف والتنبيه على علو درجته . وإنما نسب إلى مريم والخطاب لمريم تنبيهاً على أنه لا أب له حتى ينسب إليه كما في سائر الأبناء فلا ينسب إلا إلى أمه . وذلك من جملة ما اصطفيت به . وإنما ذكر ضمير الكلمة في اسمه لأنه المسمى بها مذكر . وإنما قيل : ﴿ اسمه المسيح عيسى ابن مريم ﴾ والاسم من المجموع عيسى والمسيح لقب والابن صفة ، لأن المراد التعريف والتمييز والذي يتميز به عن غيره هو مجموع الثلاثة . ﴿ وجيهاً ﴾ ذا الجاه والشرف والقدر . وقيل :

الكريم لأن أشرف أعضاء الإنسان هو الوجه ﴿ في الدنيا ﴾ بالنبوة والمعجزات الباهرة وبالبراءة عن العيوب ﴿ والآخرة ﴾ بشفاعة الأمة المحقين وعلو الدرجة في الجنة . ونصبه على الحال من النكرة الموصوفة وهي كلمة . وكذا انتصاب ما بعده كما مر في الوقوف أي يبشرك به موصوفاً بهذه الصفات . وكونه من المقربين هو رفعه إلى السماء وصحبته للملائكة . والمهد قيل : حجر أمه . وقيل : الآلة المعروفة لإضجاع الصبي . وكيف كان فالمراد أنه يكلم الناس في الحالة التي يحتاج الصبي فيها إلى المهد ﴿ وكهلاً ﴾ عطف على الظرف أي يكلم الناس في الصغر وفي الكهولة . والكهل في اللغة الذي اجتمع قوته وكمل شبابه من قولهم : " اكتهل النبات " أي قوي . روي أن عمره بلغ ثلاثاً وثلاثين ثم رفع إلى السماء . ولا ريب أن أكمل أحوال الإنسان ما بين الثلاثين والأربعين ، فيكون عيسى قد بلغ

(78/119)

سن الكهولة . وعن الحسين بن الفضل : المراد أن يكون كهلاً بعد نزوله من السماء وأنه حينئذٍ يكلم الناس ويقتل الدجال . فإن قيل : إن تكلمه في المهد من المعجزات ، ولكن تكلمه في حالة الكهولة ليس من المعجزات ، فما الفائدة في ذكره ؟ فالجواب من وجوه . قال أبو مسلم : معناه أنه يتكلم حال كونه في المهد وحال كونه كهلاً على حد واحد وصفة

واحدة ، ولا شك أنه غاية في الإعجاز ، وقيل : المراد الرد على نصارى نجران وبيان كونه متقلباً في الأحوال من الصبا إلى الكهولة ؛ فإن التغير على الإله محال . وقيل : المراد أنه يكلم الناس مرة واحدة في المهد لإظهار طهارة أمه ، ثم عند الكهولة يتكلم بالوحي والنبوة . وقال الأصم : المراد أنه يبلغ حال الكهولة .

ويخرج من قول الحسين بن الفضل جواب آخر . وههنا بحث للنصارى قالوا : إن كلامه في المهد من أعجب الأمور وأغربها ولا شك أن مثل هذه الواقعة يكون بمحضر جمع عظيم وتتوفر الدواعي على نقلها فيبلغ حد التواتر . فلو كانت هذه الواقعة موجودة لكان أولى الناس بمعرفتها النصارى لأنهم أفرطوا في محبته حتى ادّعوا إلهيته ، لكنهم أطبقوا على إنكاره فعلمنا أنها لم توجد أصلاً . والجواب أن إطباق النصارى على إنكاره ممنوع . ولو سلم فإن كلام عيسى في المهد إنما كان للدلالة على براءة مريم مما نسب إليها من السوء وكان الحاضرون حينئذٍ جمعاً قليلاً ولا يبعد في مثلهم التواطؤ على الإخفاء . وبتقدير أن يذكروا ذلك فإن غيرهم كانوا يكذبونهم في ذلك وينسبونهم إلى البهت . فهم أيضاً قد سكتوا لهذه العلة . فلهذه الأسباب بقي الأمر مكتوماً إلى أن نطق القرآن بذلك . ثم ختم أوصاف

عيسى بقوله : ﴿ ومن الصالحين ﴾ كما ختم بذلك أوصاف يحيى . وفيه أن الدخول في زمرة الصالحين والانتظام في سلكهم هو المقصد الأسني والأمر الأقصى . ﴿ قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ﴾ لم تقل ذلك استبعاداً وتشككاً وإنما أرادت تعيين الجهة كما مر في قصة زكريا فأجيبت بقوله : ﴿ كذلك الله يخلق ما يشاء ﴾ وقد سبق نظيره إلا أنه عبر عن الفعل ههنا بالخلق لأن القدرة ههنا أتم وهو تخليق المولود بغير أب ولهذا أكده بقوله : ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ وقد تقدم تفسيره في السورة التي تذكر فيها البقرة ﴿ ويعلمه ﴾ بالياء عطف على ﴿ يبشرك ﴾ أو على ﴿ وجيهاً ﴾ أو على ﴿ يخلق ﴾ لأن قوله : ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ وهو عام يتضمن قوله : "يخلقه" ، ويحتمل أن يكون كلاماً مبتدأ . وكذا من قرأ بالنون لأن المذكورات في قوة ﴿ إنا نبشرك ﴾ ونحن نخلقه . ثم الذي علمه أمور أربعة : أولها الكتاب وكان المراد به الخط . وثانيها الحكمة وهو أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به . وثالثها التوراة

لأن البحث عن أسرار الكتب الإلهية لا يمكن إلا بعد الاطلاع على العلوم الخمسة .

ورابعها الإنجيل وفيه العلوم التي خصه الله تعالى بها وشرفه بإنزالها عليه . وهذه هي الغاية

القصوى والرتبة العليا في العلم والفهم والإحاطة بالحقائق والاطلاع على الدقائق . ثم قال : ﴿ ورسولاً ﴾ عطفاً على ﴿ وجيهاً ﴾ وما بعده . ﴿ إلى بني إسرائيل ﴾ أي إلى كلهم لأنه جمع مضاف . وفيه رد على اليهود القائلين بأنه مبعوث إلى قوم مخصوصين منهم ﴿ أني قد جئتكم ﴾ يتعلق بمحذوف يدل عليه لفظ الرسول أي ناطقاً بأني قد جئتكم . وإنما وجب هذا الإضمار للعدول عن الغيبة إلى التكلم . وأما قوله : ﴿ ومصدقاً لما بين يديّ ﴾ فمعطوف على قوله : ﴿ بآية ﴾ أي مع آية والتقدير : جئتكم مصاحباً لآية من ربكم ومصدقاً لمن بين يديّ ، وجئتكم ﴿ لأحل لكم ﴾ وفي الكشاف تقديره : ويعلمه الكتاب والحكمة ويقول أرسلت رسولاً بأني قد جئتكم ومصدقاً لما بين يدي .

(81/119)

أو الرسول والمصدق فيهما معنى النطق فكأنه قيل : وناطقاً بأني قد جئتكم ، وناطقاً بأني أصدق ما بين يديّ . وعن الزجاج : إن التقدير ويكلم الناس رسولاً بأني قد جئتكم بآية من ربكم . والمراد بالآية الجنس لا الفرد لأنه عدد أنواعاً من الآيات ، ثم أبدل على الآية قوله : ﴿ أني أخلق ﴾ فيمن قرأ بفتح ﴿ أني ﴾ ويحتمل أن يكون "أن" مع ما بعده مرفوعاً أي هي أني أخلق . ومن قرأ ﴿ إني أخلق ﴾ فللاستئناف أو للبيان كقوله : ﴿ إن مثل

عيسى عند الله كمثل آدم ﴾ [آل عمران : 59] ثم فسر المثل بقوله : ﴿ خلقه من تراب ﴾ [آل عمران : 59] وهذا أحسن ليوافق قراءة الفتح . والمعنى أقدّر لكم شيئاً مثل صورة الطير من هيئات الشيء أصلحته . ﴿ فأنفخ فيه ﴾ أي في ذلك الطير المصور أو الشيء المماثل لهيئة الطير ﴿ فيكون طيراً ﴾ وهو اسم الجنس يقع على الواحد وعلى الجمع . يروى أنه خلق أنواعاً من الطير . وقيل : لم يخلق غير الخفاش وعليه قراءة من قرأ ﴿ طائراً ﴾ وذلك أنه لما ادعى النبوة وأظهر المعجزات أخذوا يتعنتون عليه وطالبوه بخلق خفاش ، فأخذ طيناً وصوّره ثم نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض . قال وهب : كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عن عيونهم سقط ميتاً بإذن الله . وبتكوينه وتخليقه قال بعض المتكلمين : دلت الآية على أن الروح جسم رقيق كالريح ولذلك وصفها بالنفخ . وههنا بحث وهو أنه هل يجوز أن يقال إنه تعالى أودع في نفس عيسى خاصية بحيث إنه متى نفخ في شيء كان نفخه موجباً لصيرورة ذلك الشيء حياً ، وذلك أنه تولد من نفخ جبريل في مريم روح محض ، فكانت نفخة عيسى سبباً لحصول الأرواح في الأجساد ؟ أو يقال : ليس الأمر كذلك بل الله تعالى كان يخلق الحياة في ذلك الجسم بقدرته عند نفخ عيسى عليه السلام فيه على سبيل إظهار المعجزات ؟ وهذا هو الحق لقوله تعالى ﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾ [الملك : 2] ولقوله حكاية عن إبراهيم في المناظرة ﴿

ربي الذي يحيي ويميت ﴾ [البقرة : 258] فلو حصل لغيره هذه الصفة بطل ذلك الاستدلال ﴿ وأبرىء الأكمه والأبرص ﴾ ذهب أكثر أهل اللغة إلى أن الأكمه هو الذي يولد أعمى . وقيل : هو الممسوح العين . ويقال : لم يكن في هذه الأمة أكمه غير قتادة بن دعامة السدوسي صاحب التفسير . وقيل : الأكمه من عمي بعد أن كان بصيراً ، رواه الخليل . وعن مجاهد أنه الذي لا يبصر بالليل . وأما البرص فإنه بياض يظهر في ظاهر البدن ، وقد لا يعم البدن . وسببه سوء مزاج العضو إلى البرودة وغلبة البلغم على الدم الذي يغذوه ، فتضعف القوة المغيرة عن تمام التشبيه .

(83/119)

وقد يغلب البرد والرطوبة حتى يصير لحمه كلحم الأصداف فيحيل الدم الصائر إليه إلى مزاجه ولونه . وإن كان ذلك الدم جيداً في جوهره نقياً من البلغم حاراً هو داء عياء عسر البرء لا يكاد يبرأ – وخاصة المزمن – منه . والآخذ في الازدياد والذي يرجى برؤه من البرص ما إذا دلك احمرّ بالدلك ويكون معه خشونة ما . والشعر الذي ينبت عليه لا يكون شديد البياض ، وإذا أخذ جلدة بالإبهام والسبابة وأشيل عن اللحم وغرزت فيه الإبرة

خرج منه دم أو رطوبة مورّدة ، ولا شك إن إبراءه مثل هذه المرض من قبيل الإعجاز .

يروى : ربما اجتمع عليه خمسون ألفاً من المرضى من أطاق منهم أتاه ومن لم يطق أتا عيسى وما كانت مداواته إلا بالدعاء وحده ﴿ وأحيي الموتى ﴾ أحيا عاذراً وكان صديقاً له ، ودعا سام بن نوح من قبره وهم ينظرون فخرج حياً ، ومر على ابن ميت لعجوز فدعا الله عيسى فنزل عن سريره حياً ورجع إلى أهله وبقي وولد له . قال الكلبي : كان عيسى عليه السلام يحيي الموتى ب " يا حي يا قيوم " وكرر قوله : ﴿ بإذن الله ﴾ رفعاً لوهم من توهم فيه الألوهية ﴿ وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ﴾ قيل : إنه كان من أول أمره يخبر بالغيوب . روى السدي أنه كان يلعب مع الصبيان ثم كان عليه السلام يخبرهم بأفعال آبائهم وأمهاتهم . كان عليه السلام يخبرهم بأن أمك خبأت لك كذا فيرجع الصبي إلى أهله ويبكي إلى أن يأخذ ذلك الشيء . فقالوا لصبيانهم : لا تلعبوا مع الساحر وجمعوهم في بيت . فجاء عيسى عليه السلام يطلبهم فقالوا : ليسوا في البيت . فقال عليه السلام : فمن في هذا البيت ؟ فقالوا : خنازير . فقال عيسى عليه السلام : كذلك يكونون فإذا هم خنازير . وقيل : إن الإخبار عن الغيوب إنما ظهر من وقت نزول المائدة . وذلك أن القوم نهوا عن الادّخار فكانوا يخونون ويدخرون وكان عيسى يخبرهم بذلك . والادخار افتعال من اذتخر قلبت كل من التاء والذال " دالاً " ثم أدغم . واعلم أن

الإخبار عما غاب معجز دال على أن ذلك الخبر صار معلوماً بالوحي ما لم يستعن فيه بآلة ولا تقديم مسألة بخلاف ما يقوله المنجمون والكهان فإن ذلك استعانة من أحوال الكواكب أو الجن ، ولهذا يتفق لهم الغلط كثيراً . ثم إنه لما قرر المعجزات الباهرة وبين بها كونه رسولاً من عند الله ذكر أنه لماذا أرسل فقال : ﴿ ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ﴾ وذلك أنه يجب على كل نبي أن يكون مصدقاً لمن تقدمه من الأنبياء لأن الطريق إلى ثبوت نبوتهم هو المعجز ، فكل من حصل على يده المعجز وجب الاعتراف بنبوته .

(85/119)

ولعل من جملة الأغراض في بعثة عيسى عليه السلام تقرير أحكام التوراة وإزالة شبهات المنكرين وتحريفات المعاندين الجاهلين . ثم ذكر غرضاً آخر في بعثته فقال : ﴿ ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾ وهذا لا يناقض تصديقه لما في التوراة إذ المعنى بالتصديق هو اعتقاد أن كل ما فيه حكمة وصواب ، وإذا لم يكن التأبيد مذكوراً فالناسخ والمنسوخ كلاهما حق في وقته ، وإذا كانت البشارة بعيسى موجودة في التوراة فمجيء عيسى يكون تصديقاً لما في التوراة . وعن وهب بن منبه أن عيسى ما غير شيئاً من أحكام التوراة وأنه

ما وضع الأحد بل كان يقرر السبت ويستقبل بيت المقدس . ثم فسر الإحلال بأمرين : أحدهما أن الأحبار كانوا قد وضعوا من عند أنفسهم شرائع باطلة ونسبوها إلى موسى فجاء عيسى ورفعها وأعاد الأمر إلى ما كان . والثاني أن الله تعالى كان قد حرم بعض الأشياء على اليهود عقوبة لهم كما قال : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ﴾ [النساء : 160] واستمر ذلك التحريم فجاء عيسى ورفع تلك التشديدات عنهم . كانوا قد حرم عليهم الشحوم والثروب ولحوم الإبل والسمك وكل ذي ظفر ، فأحل لهم عيسى من السمك والطير ما لا صيصية له . ﴿ وجئتكم بآية من ربكم ﴾ شاهدة على صحة رسالتي وهي قوله : ﴿ إن الله ربي وربكم ﴾ لأن جميع الرسل كانوا على هذا القول لم يختلفوا فيه . وقوله : ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ اعتراض وإنما جعل القول آية من ربه لأن الله تعالى جعله له علامة يعرف بها أنه رسول كسائر الرسل . ويجوز أن يكون تكريراً لقوله : ﴿ إني قد جئتكم بآية من ربكم ﴾ أي جئتكم بآية بعد أخرى مما ذكرت لكم من المعجزات ومن ولادتي بغير أب . ﴿ فاتقوا الله ﴾ لما جئتكم به من الآيات ﴿ وأطيعون ﴾ فإن طاعة الرسول من لوازم تقوى الله . ثم ختم كلامه بقوله : ﴿ إن الله ربي وربكم ﴾ إظهاراً للخضوع واعترافاً بالعبودية ورداً لما يدعيه عليه الجهلة من النصارى الضالين المنحرفين

عن الصراط المستقيم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 2 صـ 159 . 167 ﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ المؤمنون الكافرين أَوْلِيَاء مِن دُونِ المؤمنين ﴾ نهى عن موالاة المؤمنين الكافرين لعدم المناسبة بينهم في الحقيقة ولفرق بين الظلمة والنور والظل والحرور ، والولاية تقتضي المناسبة ومتى لم تحصل كانت الولاية عن محض رياء أو نفاق والله تعالى لا يحب المرائين ولا المنافقين ، ومن هنا نهى أهل الله تعالى المريدين عن موالاة المنكرين لأن ظلمة الإنكار والعياذ بالله تعالى تحاكي ظلمة الكفر وربما تراكمت فسدت طريق الإيمان ، ومن يفعل ذلك فليس من ولاية الله تعالى في شيء معتد به إذ ليس فيه نورية صافية يناسب بها الحضرة الإلهية ﴿ إِلا أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تقاة ﴾ فحينئذٍ تجوز الموالاة ظاهراً ، وهذا بالنسبة للضعفاء وأما من قوي يقينه فلا يخشى إلا الله تعالى ﴿ وَيُحَذّرُكُمُ الله نَفْسَهُ ﴾ أي يدعوكم إلى التوحيد العياني لئلا يكون خوفكم من غيره ﴿ وإلى الله المصير ﴾ [آل عمران : 28] فلا تحذروا إلا إياه ، والأكثرون على أن هذا خطاب للخواص العارفين إذ لا يحذر نفسه من لا يعرفه وقد حذر من دونهم بقوله سبحانه

: ﴿ واتقوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ﴾ [البقرة : 281] قال إبراهيم الخواص : وعلامة الخوف في القلب دوام المراقبة وعلامة المراقبة التفقد للأحوال النازلة ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ ﴾ من الموالاة ﴿ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ ﴾ لأنه مع كل نفس وخطرة ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ﴾ سموات الأرواح وأرض الأجسام ﴿ والله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : 29] فلا يشغله شأن عن شأن ولا يقيده مظهر عن مظهر ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ ﴾ لأن كل ما يعمله الإنسان أو يقوله ينتقش منه أثر في نفسه ويسطر في صحائف النفوس السماوية إلا أنه لاشتغاله بالشواغل الحسية والإدراكات الوهمية والخيالية لا

(87/119)

يرى تلك النقوش ولا يبصر ها تيك السطور فإذا تجرد عن عالم الكثافة بصر ورأى وشاهد ما به قلم الاستعداد جرى فإذا وجد سوءاً ﴿ تَوَدُّ ﴾ نفسه وتتمنى ﴿ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ لتعذبها به ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ﴾ كرره تأكيداً لئلا يعملوا ما يستحقون به عقابه ﴿ والله رَءُوفٌ بالعباد ﴾ [آل عمران : 30] أي بسائرهم فلهذا حذرهم، أو بمن اتصف بمقام العبودية وانقطع إليه بالكلية ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتبعونى ﴾ لأني

سيد المحبين ﴿ يُحْبِبْكُمُ الله ﴾ وحقيقة المحبة عند العارفين احتراق القلب بنيران الشوق ، وروح الروح بلذة العشق ، واستغراق الحواس في بحر الأنس ، وطهارة النفس بمياه القدس ، ورؤية الحبيب بعين الكل ، وغمض عين الكل عن الكونين ، وطيران السر في غيب الغيب ، وتخلق المحل بخلق المحبوب وهذا أصل المحبة وأما فرعها فهو موافقة المحبوب في جميع ما يرضاه وتقبل بلائه بنعت الرضا والتسليم في قضائه وقدره بشرط الوفا ، ومتابعة سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وأما آدابها فالانقطاع عن الشهوات واللذات المباحة والسكون في الخلوات ، والمراقبات ، واستنشاق نفحات الصفات ، والتواضع والذل في الحركات والسكنات .

مساكين أهل العشق حتى قبورهم . . .

عليها تراب الذل بين المقابر

وهذا لا يكون إلا بعد أن ترى الروح بعين السر مشاهدة الحق بنعت الجمال وحسن القدم لا بنعت الآلاء والنعم لأن المحبة متى كانت من تولد رؤية النعماء كانت معلولة وحقيقة المحبة ما لا علة فيها بين المحب والحبيب سوى ذات الحبيب ، ولذا قالوا : لا تصح المحبة ممن يميز بين النار والجنة وبين السرور والمحنة وبين الفرض والسنة وبين الاعتواض والاعتراض ولا تصح إلا ممن نسي الكل واستغرق في مشاهدة المحبوب وفني فيه .

خليلي لو أحببتما لعلمتما . . .

محل الهوى من مغرم القلب صبه

تذكر والذكرى تشوق وذو الهوى . . .

يتوق ومن يعلق به الحب يصبه

(88/119)

غرام على يأس الهوى ورجائه . . .

وشوق على بعد المراد وقربه

وقد يقال : المحبة ثلاثة أقسام ، القسم الأول : محبة العوام وهي مطالعة المنة من رؤية إحسان المحسن جبلت القلوب على محبة من أحسن إليها وهو حب يتغير وهو لمتابعي الأعمال الذين يطلبون أجراً على ما يعملون ، وفيه يقول أبو الطيب :

وما أنا بالباغي على الحب رشوة . . .

ضعيف هوى يرجى عليه ثواب

القسم الثاني : محبة الخواص المتبعين للأخلاق الذين يحبونه إجلالاً وإعظاماً ولأنه أهل لذلك ، وإلى هذا القسم أشار صلى الله عليه وسلم بقوله : " نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه " ، وقالت رابعة رحمها الله تعالى :

أحبك حبين حب الهوى . . .

وحب لأنك أهل لذاكا

وهذا الحب لا يتغير إلى الأبد لبقاء الجمال والجلال إلى السرمد القسم الثالث : محبة خواص الخواص المتبعين للأحوال وهي الناشئة من الجذبة الإلهية في مكامن «كنت كنزاً مخفياً» وأهل هذه المحبة هم المستعدون لكمال المعرفة ، وحقيقتها أن يفنى المحب بسطوتها فيبقى بلاهو وربما بقي صاحبها حيران سكران لا هو حي فيرجى ولا ميت فيبكى ، وفي مثل ذلك قيل :

يقولون إن الحب كالنار في الحشا . . .

ألا كذبوا فالنار تذكو وتخمد

وما هو إلا جذوة مس عودها . . .

ندى فهي لا تذكو ولا تتوقد

ويكفي في شرح الحب لفظه فإنه حاء وباء والحاء من حروف الحلق ، والباء شفوية ، ففيه إشارة إلى أن الهوى ما لم يستول على قلبه ولسانه وباطنه وظاهره وسره وعلنه لا يقال له :

حب ، وشرح ذاك يطول ، وهذه محبة العبد لربه ، وأما محبة ربه سبحانه له فمختلفة أيضاً ، وإن صدرت من محل واحد فتعلقت بالعوام من حيث الرحمة فكأنه قيل لهم : اتبعوني بالأعمال الصالحة يخصكم الله تعالى برحمته ، وتعلقت بالخواص من حيث الفضل فكأنه قيل لهم : اتبعوني بمكارم الأخلاق يخصكم بتجلي صفات الجمال ، وتعلقت بخواص الخواص من حيث الجذبة فكأنه قيل لهم : اتبعوني ببذل الوجود يخصكم بجذبه لكم إلى نفسه ، وهناك يرتفع البون من البين ، ويظهر الصبح لذي عينين والقطرة من هذه المحبة تغني عن الغدير :

وفي سكرة منها ولو عمر ساعة . . .

ترى الدهر عبداً طائعاً وله الحكم

(90/119)

﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ أي معاصيكم التي سلفت منكم على خلاف المتابعة ولا يعاقبكم عليها أو يغفر لكم ذنوبكم بستر ظلمة صفاتكم بأنوار صفاته أو يغفر لكم ذنوب وجودكم ويثيبكم مكانه وجوداً لا يفنى كما قال : «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» الحديث ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴾ يكفر خطاياكم ويمحو ذنوب صفاتكم

ووجودكم ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: 31] يهب لكم عوض ذاك حسنات وصفات ووجوداً حقانية خيراً من ذلك ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ اللهَ والرسول ﴾ فإن المريد يلزمه متابعة المراد ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي فإن أعرضوا فهم كفار منكرون محجوبون ﴿ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الكافرين ﴾ [آل عمران: 32] لقصور استعدادهم عن ظهور جماله فيهم ﴿ إِنَّ اللهَ اصطفى آدَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إبراهيم وَءَالَ عمران عَلَى العالمين ﴾ [آل عمران: 33] الاصطفاء أعم من المحبة والخلة فيشمل الأنبياء كلهم وتتفاضل فيه مراتبهم كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرسل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ﴾ [البقرة: 253] فأخص المراتب هو المحبة، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ درجات ﴾ [البقرة: 253] ثم الخلة، وفي لفظها إشارة إلى ذلك من طريق مخارج الحروف وأعمها الاصطفاء، فاصطفى آدم بتعليم الصفات وجمع اليدين وإسجاد الأكوان له، ونوحاً الذي هو الأب الثاني بتلك الأبوة وبما كان له مع قومه، واصطفى آل إبراهيم وهم الأنبياء من ذريته بظهور أنوار تجليه الخاص على آفاق وجودهم، وآل عمران بجعلهم آية للعالمين ذرية بعضها من بعض في الدين والحقيقة إذ الولادة قسمان: صورية ومعنوية، وكل نبي تبع نبياً في التوحيد والمعرفة وما يتعلق بالباطن من أصول الدين فهو ولده كأولاد المشايخ والولد سر أبيه، ويمكن أن يقال: آدم هو الروح في أول مقامات ظهورها، ونوح هو هي في مقامها الثاني من مقامات التنزل وإبراهيم هو القلب الذي ألقاه

(91/119)

نمرود النفس في نيران الفتن ورماه فيها بمنجنيق الشهوات ، وآله القوى الروحانية ، وعمران هو العقل الإمام في بيت مقدس البدن ، وآله التابعون له في ذلك البيت المقتدون به ، وكل ذلك ذرية بعضها من بعض لوحدة المورد واتفاق المشرب ﴿ إِذْ قَالَتِ امرأت عمران رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾

[آل عمران : 35] عن رق النفس مخلصاً في عبادتك عن الميل إلى السوي ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ قال الواسطي : محفوظ عن إدراك الخلق ﴿ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا ﴾ حيث سقاها من مياه القدرة وأثمرها شجرة النبوة ﴿ حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ لطهارة سره ، وشبيه الشيء منجذب إليه ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المحراب وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ هو ما علمت ، ويجوز أن يراد الرزق الروحاني من المعارف والحقائق والعلوم والحكم الفائضة عليها من عند الله تعالى إذ الاختصاص بالعندية يدل على كونه أشرف من الأرزاق البدنية .

(92/119)

وأخرج ابن أبي حاتم من بعض الطرق عن مجاهد أنه قال: رزقاً أي علماً، وقد يقال على نحو الأول ليتم تطبيق ما في الآفاق على ما في الأنفس ﴿ إِذْ قَالَتِ امرأت عمران ﴾ وهي النفس في أول مراتب طاعتها لعمران العقل ﴿ إِنّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي ﴾ وهو غلام القلب ﴿ مُحَرَّرًا ﴾ ليس في رق شيء من المخلوقات ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبّ إِنّى وَضَعْتُهَا أنثى ﴾ وهي نفس أيضاً إلا أنها أكمل منها في المرتبة، والجنس يلد الجنس ﴿ والله أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ لعلمه أنه سيظهر من هذه الأنثى العجب العجاب، وغيره سبحانه تخفى عليه الأسرار ﴿ وَإِنّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ وهي العابدة ﴿ وإِنّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرّيَّتَهَا مِنَ الشيطان الرجيم ﴾ [آل عمران: 36] وهو الشهوات النفسانية الحاجبة للنفس القدسية عن رياض الملكوت ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ وهو اختصاصه إياها بإفاضة أنواره عليها ﴿ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ ورقاها فيما تكمل به نشأتها ترقياً حسناً غير مشوب بالعوائق والعلائق ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ الاستعداد ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ﴾ وتوجه نحوها في محراب تعبدها المبني لها في بيت مقدس القلب ﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ تتغذى به الأرواح في عالم الملكوت ﴿ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا ﴾ الرزق العظيم قالت: هو مفاض من عند الله منزه عن الحمل بيد الأفكار ﴿ إِنَّ الله ﴾ الجامع لصفات الجمال والجلال ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاء ﴾ ويفيض عليهم من علمه حسب قابليتهم ﴿ بِغَيْرِ

حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: 37] فسبحانه من إله وجواد كريم وهاب. انتهى انتهى. ا هـ

﴿روح المعانى حـ 3 صـ 142. 144﴾

(93/119)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

سورة آل عمران:

من الآية 1 - حتى الآية 192 -

[سورة آل عمران (3) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (1)

، انظر إعرابها في الآية (1) من سورة البقرة.

2 -

[سورة آل عمران (3) : آية 2]

اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (2)

" 1 "

الإعراب:

(اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (لا) نافية للجنس (إله) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب، وخبر لا محذوف تقديره موجود (إلّا) أداة استثناء (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع بدل من

---

(1) انظر الآية (163) من سورة البقرة، وكذلك سورة الكرسيّ من البقرة الآية (255).

الضمير المستكنّ في الخبر "1"، (الحيّ) خبر ثان مرفوع "2"، (القيّوم) خبر ثالث مرفوع.

[سورة آل عمران (3) : آية 3]

نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ (3)

الإعراب:

(نزّل) فعل ماض، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (على) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نزّل)، (الكتاب) مفعول به منصوب (بالحقّ) جارّ ومجرور متعلّق

بمحذوف حال من الكتاب (مصدّقا) حال منصوبة من ضمير عليك، (اللام) زائدة للتقوية (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ بمحله القريب، وفي محلّ نصب مفعول به لاسم الفاعل بمحلّه البعيد " 3 "، (بين) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (يدي) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (أنزل التوراة) مثل نزّل الكتاب (الإنجيل) معطوف على التوراة بالواو منصوب مثله.

جمل الآية 2:

جملة: "الله لا إله." لا محلّ لها ابتدائيّة.

وجملة: "لا إله إلّا هو" في محلّ رفع خبر المبتدأ (الله).

---

(1) أو بدل من محلّ لا مع اسمها، ومحلّه الرفع.

(2) أو هو نعت، أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو، أو هو مبتدأ خبره جملة نزّل عليك الكتاب، أو هو بدل من الضمير المنفصل هو. [.....]

(3) يجوز جعل اللام حرف جرّ أصليّا وتعليق الجارّ والمجرور بـ (مصدّقا) اسم الفاعل.

جمل الآية 3 :

وجملة : " نزّل عليك . . . " في محلّ رفع خبر رابع للمبتدأ (اللّه) .

وجملة : " أنزل التوراة " في محلّ رفع معطوفة على جملة نزل .

الصرف :

(مصدّقا) ، اسم فاعل من صدق الرباعيّ وزنه مفعّل بضمّ الميم وكسر العين (الآية 89 من البقرة) .

(التوراة) ، قيل هو لإن ورى الزند يرى إذا ظهر منه النار ، فكأنّ التوراة ضياء من الضلال وزنه فوعلة ، وفيه إبدال وإعلال : الإبدال قلب الواو تاء ، وأصله وورية ، والإعلال قلب الياء ألفا لتحرّكها وانفتاح ما قبلها . وقيل - قاله الفرّاء - أصلها تورية زنة تفعلة ثمّ فتحت الراء وانقلبت الياء ألفا .

(الإنجيل) ، من النجل وهو الأصل الذي يتفرّع عنه غيره ، وزنه إفعيل ، وقيل هو من السعة من قولهم نجلت الإهاب إذا شققته ، فالإنجيل تضمّن سعة لم تكن لليهود .

البلاغة

1 - المجاز : في قوله " لِما بَيْنَ يَدَيْهِ " والمراد أمامه .

2 - الطباق : بين " الأرض " و " السماء "

[سورة آل عمران (3) : آية 4]

مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (4)

الإعراب :

(من) حرف جرّ (قبل) اسم مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنزل) في الآية السابقة (هدى) مفعول لأجله منصوب

وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف " 1 " ، (للناس) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لهدى ، أو بـ (هدى) لأنه مصدر (الواو) عاطفة (أنزل الفرقان) مثل أنزل التوراة في الآية السابقة . . (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب اسم إنّ (كفروا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (بآيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كفروا) ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (عذاب) مبتدأ مؤخّر مرفوع (شديد) نعت لعذاب مرفوع مثله (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (عزيز) خبر مرفوع (ذو) خبر ثان مرفوع وعلامة الرفع الواو (انتقام) مضاف إليه مجرور .

جملة : أنزل الفرقان في محلّ رفع معطوفة على جملة أنزل التوراة في الآية السابقة .

وجملة : " إنّ الذين . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كفروا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: "لهم عذاب" في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "اللّه عزيز" لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(انتقام)، مصدر قياسيّ لفعل انتقم الخماسيّ، وزنه افتعال.

[سورة آل عمران (3): آية 5]

إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ (5)

---

(1) أو مصدر في موضع الحال أي هادين للناس.

(96/119)

الإعراب:

(إنّ اللّه) حرف مشبّه بالفعل واسمه (لا) نافية (يخفى) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الألف (على) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق ب (يخفى)، (شيء) فاعل مرفوع (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لشيء (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (في السماء) جارّ ومجرور متعلّق بما تعلّق به في الأرض لأنه معطوف عليه.

جملة: "إنّ اللّه لا يخفى" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لا يخفى" في محلّ رفع خبر إنّ.

البلاغة

1 - والمراد من الأرض والسماء العالم بأسره. وجعله الكثير مجازا من إطلاق الجزء وارادة الكل.

[سورة آل عمران (3) : آية 6]

هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (6)

الإعراب:

(هو) ضمير بارز منفصل في محلّ رفع مبتدأ (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع خبر (يصور) مضارع مرفوع و(كم) ضمير مفعول به، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (في الأرحام) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من ضمير المفعول أي: كائنين في الأرحام" 1 "، (كيف) اسم شرط غير جازم مبنيّ على الفتح في محلّ نصب حال عامله يشاء (يشاء) مضارع مرفوع، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو،

---

(1) أو متعلّق بـ (يصوّر).

ومفعوله محذوف أي يشاء تصويركم (لا إله إلّا هو) مرّ إعرابها " 1 " ، (العزيز) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو (الحكيم) خبر ثان مرفوع.

جملة: " هو الذي يصوّركم " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة: " يصوّركم " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة: " يشاء " لا محلّ لها استئنافيّة " 3 " وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : كيف يشاء تصويركم يصوركم في الأرحام.

وجملة: " لا إله إلّا هو " لا محلّ لها استئنافيّة " 4 " .

وجملة: " هو العزيز " لا محلّ لها استئنافيّة.

البلاغة

1 - " هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ " المفعول محذوف تقديره يشاء تصويركم وهذا على سبيل الإيجاز بالحذف وذلك للغرابة وإظهار قدرة اللّه تعالى.

[سورة آل عمران (3) : آية 7]

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبابِ (7)

(1) في الآية (2) من هذه السورة.

(2، 3، 4) يجوز أن تكون في محلّ رفع خبر إن في الآية السابقة.

(98/119)

الإعراب:

(هو الذي) مرّ إعرابها " 1 "، (أنزل) فعل ماض والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (على) حرف جرّ و(الكاف) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنزل)، (الكتاب) مفعول به منصوب (من) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم " 2 "، (آيات) مبتدأ مؤخّر مرفوع (محكمات) نعت لآيات مرفوع مثله (هن) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (أمّ) خبر مرفوع " 3 "، (الكتاب) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (أخر) معطوف على آيات مرفوع مثله " 4 "، وامتنع من التنوين للوصفية والعدل (متشابهات) نعت لأخر مرفوع مثله. (الفاء) استئنافيّة (أمّا) حرف شرط وتفصيل (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (في قلوب) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدّم و(هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه (زيغ) مبتدأ مؤخّر مرفوع (الفاء) رابطة لجواب الشرط أمّا (يتّبعون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون والواو فاعل (ما) اسم

موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (تشابه) فعل ماض والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (منه) مثل الأول متعلّق بمحذوف حال من فاعل تشابه (ابتغاء) مفعول لأجله منصوب (الفتنة) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (ابتغاء تأويل) مثل ابتغاء الفتنة ومعطوف عليه منصوب مثله (الواو) حاليّة (ما) نافية (يعلم) مضارع مرفوع (تأويل)

---

(1) في الآية (6) السابقة.

(2) أو متعلّق بنعت لمبتدأ محذوف والتقدير: القسم الأول منه أو الجزء الأول منه.. وآيات هو الخبر.

(3) أخبر بالمفرد عن الجمع لأنه أراد أن كل آية منه هي أمّ الكتاب، أو أنّ آياته بإحكامها وتماسكها كآية واحدة هي أمّ الكتاب.

(4) هو في الأصل نعت لـ (آيات) مقدّرا، وقد حلّ النعت محلّ المنعوت.)

مفعول به منصوب و(الهاء) هنا وفي السابق ضمير مضاف إليه (إلّا) أداة حصر (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (الراسخون) معطوف على لفظ الجلالة مرفوع وعلامة رفعه الواو " 1 "، (في العلم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (الراسخون)، (يقولون) مثل يتّبعون

(آمنّا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . (ونا) فاعل (به) مثل منه متعلّق بـ (آمنا) ، (كلّ) مبتدأ مرفوع والتنوين للعوض (من عند) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ كلّ (ربّ) مضاف إليه مجرور و(نا) ضمير مضاف إليه (الواو) استئنافيّة (ما) نافية (يذكّر) مضارع مرفوع (إلّا) أداة حصر (أولو) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الواو فهو ملحق بجمع المذكّر السالم (الألباب) مضاف إليه مجرور .

جملة : " هو الذي أنزل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنزل عليك الكتاب " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " منه آيات " في محلّ نصب حال من الكتاب .

وجملة : " هنّ أمّ الكتاب " في محلّ نصب حال من آيات أو في محلّ رفع نعت لآيات .

وجملة : " الذين " في قلوبهم زيغ لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " في قلوبهم زيغ " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يتّبعون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) وهي جواب أمّا .

وجملة : " تشابه منه " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

---

(1) يجوز جعل الواو استئنافيّة و(الراسخون) مبتدأ خبره جملة يقولون آمنّا . . وهذه الآية عوض من تكرار (أمّا) وما بعدها ، وكأنّ الأصل أن يقال : وأمّا غيرهم فيؤمنون به معناه إلى ربّهم .)

وجملة : " يعلم تأويله . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " يقولون " في محلّ نصب حال من (الراسخون) .

وجملة : " آمنّا به " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " كلّ من عند ربّنا " في محلّ نصب بدل من جملة آمنّا به " 1 " .

وجملة : " ما يذّكّر إلّا أولو الألباب " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(محكمات) ، جمع محكمة مؤنث محكم ، اسم مفعول من أحكم الرباعيّ وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين .

(متشابهات) ، جمع متشابه مؤنّث متشابه ، اسم فاعل من تشابه الخماسيّ وزنه متفاعل بضمّ الميم وكسر العين .

(زيغ) ، مصدر سماعيّ لفعل زاغ باب ضرب وزنه فعل بفتح فسكون .

(تأويل) ، مصدر قياسيّ لفعل أوّل الرباعيّ ، وزنه تفعيل بزيادة التاء في أوّل الماضي والياء قبل الآخر .

(الراسخون) ، جمع الراسخ ، اسم فاعل من فعل رسخ يرسخ باب نصر وزنه فاعل .

(يذكّر) ، فيه إبدال ، أصله يتذكر وزنه يتفعّل ، قلبت التاء ذالا لمجيئها قبل الذال - فاء الكلمة - وأدغمت بها للمجانسة .

[سورة آل عمران (3) : آية 8]

رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (8)

---

(1) هذه الجملة داخلة في حيّز القول فهي مقول القول معنى ولا ترتبط مع الجملة السابقة بحرف العطف .

الإعراب :

(رب) منادى مضاف محذوف منه أداة النداء منصوب و(نا) ضمير مضاف إليه (لا) ناهية دعائية جازمة (تزغ) مضارع مجزوم والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (قلوب) مفعول به منصوب و(نا) مضاف إليه (بعد) ظرف زمان منصوب (إذ) اسم ظرفيّ مبنيّ على السكون في محلّ جرّ مضاف إليه وهو بمعنى وقت (هديت) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(التاء) فاعل (نا) ضمير في محلّ نصب مفعول به (الواو) عاطفة (هب) فعل

أمر دعائي والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (اللام) حرف جرّ و(نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (هب) ، (من) حرف جرّ (لدن) اسم مبنيّ على السكون في محلّ جرّ متعلّق بـ (هب) ، (والكاف) ضمير مضاف إليه (رحمة) مفعول به منصوب (إنّ) حرف مشبّه بالفعل و(الكاف) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (أنت) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ " 1 " ، (الوهّاب) خبر المبتدأ أنت مرفوع .

جملة النداء : ربّنا لا تزغ في محلّ نصب مقول القول لفعل محذوف والتقدير قالوا أو قولوا ...

وجملة : " لا تزغ قلوبنا " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " هديتنا " في محلّ جرّ مضاف إليه بإضافة (إذ) .

وجملة : " هب . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تزغ .

وجملة : " إنّك أنت الوهّاب " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " أنت الوهّاب " في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(تزغ) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله تزيغ ، حذفت

---

(1) يجوز أن يكون الضمير فصلا و(الوهّاب) خبر إنّ ، كما يجوز أن يكون في محل نصب توكيد للضمير المتّصل وأستعير هنا لمحلّ النصب .

الياء لمجيئها ساكنة قبل الغين الساكنة لمناسبة الجزم وزنه تفل بضمّ التاء وكسر الفاء.

(هب)، فيه إعلال بالحذف، حذفت الواو - فاء الكلمة - لأنه معتلّ مثال، ماضيه وهب، وزنه عل بفتح العين.

(لدن)، ظرف لأول غاية زمان أو مكان أو ذات من الذوات مثل: من لدن زيد .. وأكثر ما تضاف إلى المفرد، وقد تضاف إلى (أن) وصلتها، وقد تضاف إلى الجملة الاسميّة والفعليّة، وزنه: فعل بفتح الفاء وضمّ العين.

(رحمة)، مصدر سماعيّ لفعل رحم يرحم باب فرح، وزنه فعلة بفتح فسكون.

(الوهّاب)، صفة مشتقّة على وزن فعّال، فهي مبالغة اسم الفاعل لفعل وهب.

[سورة آل عمران (3): آية 9]

رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ (9)

الإعراب:

(ربّنا) مرّ إعرابها - في الآية السابقة - وكذلك (إنّك)، (جامع) خبر إنّ مرفوع (الناس) مضاف إليه مجرور (ليوم) جارّ ومجرور متعلّق باسم الفاعل جامع (لا) نافية للجنس

(ريب) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب (في) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر لا (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (اللّه) لفظ الجلالة اسم إن منصوب (لا) نافية (يخلف) مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الميعاد) مفعول به منصوب.

جملة: "ربّنا ..." لا محلّ لها اعتراضيّة لتأكيد الاسترحام.

وجملة: "إنّك جامع الناس" لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: "لا ريب فيه" في محلّ جرّ نعت ليوم.

وجملة: "إنّ اللّه لا يخلف.." لا محلّ لها استئنافيّة "1".

وجملة: "لا يخلف.." في محلّ رفع خبر إنّ.

الصرف:

(جامع)، اسم فاعل من جمع يجمع باب فتح، وزنه فاعل.

(الميعاد)، اسم زمان أو مكان على غير القياس من وعد يعد، وزنه مفعال، وفيه إعلال بالقلب أصله موعاد بكسر الميم، جاءت الواو ساكنة بعد كسر قلبت ياء، ويجوز أن يدلّ لفظ الميعاد على المصدر بمعنى الوعد.

[سورة آل عمران (3): آية 10]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ

(10)

الإعراب :

(إنّ) مرّ اعرابها (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب اسم إنّ (كفروا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (لن) حرف نفي ونصب واستقبال (تغني) مضارع منصوب (عن) حرف جرّ و(هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (تغني) ، (أموال) فاعل مرفوع

---

(1) أو هي بدل من جملة (انّك جامع الناس) على رأي بعضهم . . وأن في الكلام التفاتا من ضمير الخطاب إلى ذكر لفظ الجلالة .

و (هم) مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (أولاد) معطوف على أموال مرفوع مثله و(هم) مضاف إليه (من اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من شيئا - نعت تقدّم على المنعوت - (شيئا) مفعول به منصوب " 1 " ، (الواو) عاطفة (أولاء) ، اسم اشارة مبنيّ على الكسر في محلّ رفع مبتدأ و(الكاف) حرف خطاب (هم) ضمير فصل لا محلّ له " 2 " ، (وقود) خبر المبتدأ أولئك مرفوع (النار) مضاف إليه مجرور .

جملة : " إنّ الذين كفروا . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: "كفروا" لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "لن تغني عنهم أموالهم" في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "أولئك هم وقود" في محلّ رفع معطوفة على جملة لن تغني "3".

الصرف:

(الوقود)، الاسم من وقد يقد باب ضرب أي ما توقد به النار، وزنه فعول بفتح الفاء، قيل يجوز أن يكون الوقود بفتح الواو مصدرا كالوقود في ضمّها.

[سورة آل عمران (3): آية 11]

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (11)

---

(1) وإذا تعلّق الجارّ والمجرور بالفعل فـ (شيئا) مفعول مطلق نائب عن المصدر، والتقدير: لا تغني الأموال من عذاب اللّه بعض غناء أو شيئا من إغناء. [.....]

(2) أو ضمير منفصل مبتدأ، خبره وقود، وجملة هم وقود خبر أولئك.

(3) يجوز أن تكون استئنافيّة.. لا محلّ لها.

الإعراب :

(كدأب) جارّ ومجرور متعلّق بخبر محذوف لمبتدأ مقدّر تقديره دأبهم " 1 " ، (آل) مضاف إليه مجرور (فرعون) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة فهو ممنوع من الصرف للعلميّة والعجمة (الواو) عاطفة (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ معطوف على آل فرعون " 2 " ، (من قبل) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة الموصول و(هم) ضمير مضاف إليه (كذّبوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (بآيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كذّبوا) و(نا) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة وفيها معنى السببيّة (أخذ) فعل ماض و(هم) ضمير متّصل مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (بذنوب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أخذ) وقد ضمّن معنى أهلك و(هم) ضمير متّصل مضاف إليه (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (شديد) خبر مرفوع (العقاب) مضاف إليه مجرور .

جملة : " دأبهم) كدأب آل فرعون " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كذّبوا " لا محلّ لها تفسيريّة للاستئنافيّة " 3 " .

وجملة : " أخذهم اللّه " لا محلّ لها معطوفة على جملة كذّبوا .

---

(1) أو متعلّق بمصدر مقدّر ، وفي تقديره أقوال : الأول : كفروا كفرا كعادة آل فرعون الثاني : عذّبوا عذابا كدأب آل فرعون ، الثالث : بطل انتفاعهم بالأموال والأولاد كعادة آل فرعون

، الرابع: كذّبوا تكذيبا كدأب آل فرعون (ذكر ذلك أبو البقاء العكبري) .

(2) أو في محلّ رفع مبتدأ خبره جملة كذّبوا بآياتنا . . والجملة لا محلّ لها معطوفة على جملة (دأبهم . . .) .

(3) أو هي استئناف بياني، أو هي خبر إذا أعرب الموصول (الذين) مبتدأ بإتمام الكلام عند قوله آل فرعون . . أو هي في محلّ نصب حال بتقدير قد أي مكذّبين .

(105/119)

وجملة: "للّه شديد العقاب" لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف:

(دأب) مصدر دأب يدأب باب فتح، وزنه فعل بفتح فسكون .

(ذنوب) جمع ذنب اسم مصدر من أذنب الرباعيّ، وزنه فعل بفتح فسكون .

البلاغة

1 - التشبيه التمثيلي: في قوله تعالى إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، وَأُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ، كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ" .

تتضمن الآية التشبيه لحال المشركين في اجتهادهم في كفرهم وتظاهرهم على النبي عليه السلام، وتكذيبهم بآيات اللّه التي جاء بها، بحال آل فرعون في تظاهرهم على موسى عليه السلام وتكذيبهم بآيات الله التي جاء بها، فوجه الشبه مركب من أمور مجتمعة هي: الانغماس في الكفر، وعداوتهم للنبي، والتكذيب بآيات اللّه، وليس من شيء واحد من هذه الأشياء. فالتشبيه تمثيلي.

[سورة آل عمران (3): آية 12]

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهادُ (12)

الإعراب:

(قل) فعل أمر والفاعل أنت (اللام) حرف جرّ (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (قل) (كفروا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ.. والواو فاعل (السين) حرف استقبال (تغلبون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع.. والواو نائب فاعل (الواو) عاطفة (تحشرون) مثل

تغلبون (إلى جهنّم) جارّ ومجرور متعلّق بفعل تحشرون، وعلامة الجرّ الفتحة فهو ممنوع من الصرف للعلميّة والتأنيث (الواو) استئنافيّة (بئس) فعل ماض جامد لإنشاء الذمّ (المهاد) فاعل مرفوع، والمخصوص بالذّم محذوف أي جهنّم.

جملة: "قل.." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : "كفروا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " ستغلبون " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تحشرون " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

(106/119)

وجملة : " بئس المهاد " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

الفوائد

1 - بئس المهاد :

قد تتصل " ما " بنعم مثل نعمّا يعظكم به وهي على ثلاثة أقسام . .

أ- مفرده غير متبوعة بشيء نحو : دققته دقّا نعمّا وهي معرفة تامة فاعل والمخصوص بالمدح محذوف أي نعم الشيء الدقّ .

ب - أن تكون متبوعة بمفرد نحو " فنعمّا هي " وفي هذه الحالة تعرب فاعلا وما بعدها هو المخصوص .

ج - أن تكون متبوعة بجملة فعلية نحو " نعمّا يعظكم به وبئسما اشتروا به أنفسهم ، فتعرب " ما " نكره بموضع نصب على التمييز والمخصوص محذوف أي نعم شيئًا يعظكم به ذلك

القول " .

[سورة آل عمران (3) : آية 13]

قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرى كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ (13)

---

(1) أو في محلّ رفع خبر للمخصوص بالذم المحذوف . . والجملة الاسميّة استئنافيّة .

(107/119)

الإعراب :

(قد) حرف تحقيق (كان) فعل ماض ناقص (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر كان مقدّم (آية) اسم كان مؤخّر مرفوع (في فئتين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لآية، وعلامة الجرّ الياء فهو مثنّى (التقت) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . (والتاء) تاء التأنيث و(الألف) ضمير متّصل مبنيّ في محلّ رفع فاعل (فئة) خبر لمبتدأ محذوف تقديره إحداهما " 1 " (تقاتل) مضارع مرفوع، والفاعل ضمير مستتر تقديره هي (في سبيل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تقاتل) (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (أخرى) مبتدأ مرفوع " 2 "

، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (كافرة) نعت لأخرى مرفوع مثله . . والخبر محذوف تقديره تقاتل في سبيل الطاغوت (يرون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . والواو فاعل و(هم) ضمير متّصل مفعول به (مثلي) حال منصوبة وعلامة النصب الياء و(هم) ضمير متّصل مضاف إليه (رأي) مفعول مطلق منصوب (العين) مضاف إليه مجرور .

(الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (يؤيّد) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (بنصر) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يؤيّد) ،

---

(1) يجوز أن يكون مبتدأ خبره جملة تقاتل ، وجاز البدء بالنكرة لأنها في موضع التفصيل .

(2) يجوز أن يكون معطوفا على لفظ فئة . . فلا ضرورة لتقدير خبر بل لتقدير نعت .)

(108/119)

و (الهاء) مضاف إليه (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (يشاء) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (في) حرف جرّ (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم لـ (إنّ) ، (اللام) للبعد و(الكاف) حرف خطاب (اللام) للابتداء تفيد التوكيد (عبرة) اسم إنّ منصوب مؤخّر (لأولي) جارّ

ومجرور متعلّق بنعت لعبرة، وعلامة الجرّ الياء فهو ملحق بجمع المذكّر السالم (الأبصار) مضاف إليه مجرور.

جملة: "قد كان لكم.." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "التقتا" في محلّ جرّ نعت لفئتين.

وجملة: "تقاتل" في محلّ رفع نعت لفئة "1".

وجملة: "يرونهم..." في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ أخرى "2".

وجملة: "اللّه يؤيّد..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يؤيّد بنصره" في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه).

وجملة: "يشاء" لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: "إنّ في ذلك لعبرة" لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(التقتا)، فيه إعلال بالحذف لالتقاء الساكنين، حذفت الألف - لام الكلمة - لمجيئها ساكنة قبل تاء التأنيث، وزنه افتعتا.

(رأي)، مصدر سماعيّ لفعل رأى، وزنه فعل بفتح فسكون.

(نصر)، مصدر سماعيّ لفعل نصر، وزنه فعل بفتح فسكون (انظر الآية 214 من سورة البقرة).

---

(1) يجوز أن تكون خبرا إذا أعربت (فئة) مبتدأ .

(2) يجوز أن تكون الجملة في محلّ رفع نعتا لأخرى .

(109/119)

(يشاء) ، إعلال بالقلب أصله يشيأ بياء مفتوحة ، ثمّ نقلت حركتها إلى الشين وسكّنت ، ثمّ قلبت الياء ألفا لتحركها في الأصل وانفتاح ما قبلها .

(انظر الآية 247 من سورة البقرة) .

(عبرة) ، مصدر من عبر يعبر باب فتح أو اسم مصدر من فعل اعتبر الخماسيّ ، وزنه فعلة بكسر الفاء وسكون العين .

البلاغة

1 - الاحتباك : وهو الحذف من كلامين متقابلين ، وكل منهما يدل على المحذوف من الآخر وهذا في قوله : "فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرى كافِرَةٌ" فكل منهما مبتدأ محذوف الخبر ، أى فئة مؤمنة تقابل في سبيل اللّه ، وفئة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الشيطان .

2 - الكلام الموجه لأن المعنى إما أن يفهم منه شي ء واحد لا يحتمل غيره وإما أن يحتمل منه الشي ء وغيره ، وتلك الغيرية إمّا أن تكون ضدا أو لا ، وهذه الآية احتملت معنيين

متغايرين ، وتلك الغيرية ضد إذا احتملت رؤية الكثرة أن تكون للمسلمين أو للمشركين في وقت واحد ، وليس هناك ما يرجح واحدا على الآخر لأن كلا منهما يصح إطلاقه في الآية .

[سورة آل عمران (3) : آية 14]

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعامِ وَالْحَرْثِ ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14)

الإعراب :

(زيّن) ، فعل ماض مبنيّ للمجهول (للناس) جارّ ومجرور متعلّق ب (زيّن) ، (حبّ) نائب فاعل مرفوع (الشهوات) مضاف إليه مجرور (من النساء) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من الشهوات (البنين ، القناطير) اسمان معطوفان على النساء بحرفي العطف ، وعلامة

الجرّ في البنين الياء فهو ملحق بجمع المذكّر السالم (المقنطرة) نعت للقناطير مجرور مثله (من الذهب) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من القناطير أو المقنطرة (الواو) عاطفة

(الفضّة) معطوفة على الذهب مجرور مثله (الخيل، الأنعام، الحرث) أسماء معطوفة على النساء بحروف العطف مجرورة (المسوّمة) نعت للخيل مجرور مثله. (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (متاع) خبر مرفوع (الحياة) مضاف إليه مجرور (الدنيا) نعت للحياة مجرور مثله وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (عند) ظرف مكان - أو زمان - منصوب متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (حسن) مبتدأ مرفوع مؤخّر (المآب) مضاف إليه مجرور.

جملة: "زيّن للناس حبّ.." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ذلك متاع." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "اللّه عنده حسن.." لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "عنده حسن المآب" في محلّ رفع خبر.

الصرف:

(حبّ)، مصدر سماعيّ لفعل حب يحب باب ضرب وزنه فعل بضمّ فسكون (انظر 165 من سورة البقرة).

(الشهوات)، جمع شهوة وهو اسم مصدر من فعل اشتهى وزنه فعلة بفتح فسكون، أو هو مصدر سماعيّ لفعل شها يشهو أو شهي يشهي باب فرح.

(البنين)، جمع ملحق بالسالم لأن مفرده ابن حيث تغيّرت صورة المفرد في الجمع، ولكنّه

عومل معاملة جمع السالم رفعا بالواو ونصبا وجرّا بالياء . والألف في ابن زائدة ، وهي عوض من لام الكلمة المحذوفة وهي الواو ، وزنه افع .

(القناطير) ، جمع القنطار ، قيل النون فيه أصليّة فوزنه فعلال بكسر الفاء ، وقيل هي زائدة لأنه من قطر يقطر باب نصر إذا جرى ، فالفضّة والذهب يشبّهان بالماء في الكثرة وسرعة التقلّب ، وعلى هذا فوزنه فنعال . واختلف في وزن القنطار قديما وحديثا ولكنّ الغالب أنه مائة رطل .

(111/119)

(المقنطرة) ، اسم مفعول من قنطر الرباعيّ ، وزنه مفعللة بضمّ الميم وفتح اللامين .

(الخيل) ، اسم جمع لا واحد له من لفظه ، واحده فرس ، وقيل واحده خائل وهو مشتقّ من الخيلاء مثل طير وطائر .

(المسوّمة) ، اسم مفعول من سوّم الرباعيّ ، والتاء للتأنيث المناسب للجمع ، وزنه مفعّلة ، بضمّ الميم وفتح العين المشدّدة .

(الأنعام) ، جمع نعم - بفتح النون والعين - والنعم اسم جمع لا واحد له من لفظه وهو يذكّر ويؤنّث ويطلق على الإبل والبقر والغنم ، والجمع أنعام باعتبار أنواعه الثلاثة .

(حسن) ، مصدر سماعيّ لفعل حسن يحسن باب نصر وباب كرم وزنه فعل بضمّ فسكون (الآية 83 البقرة) .

(المآب) ، وزنه مفعل بفتح العين ، أصله مأوب لأنه من آب يئوب ، ثمّ نقلت حركة الواو وهي الفتح إلى الهمزة وسكّنت ، وقلبت الواو ألفا لتحركها في الأصل وانفتاح ما قبلها فأصبح مآبا ، وهو مصدر ميميّ بمعنى الرجوع ، وقد يكون اسم مكان أو اسم زمان لفعل آب .

البلاغة

1 - في الآية فن مراعاة النظير ، وهو أن يجمع الشاعر أو الناثر بين أمر وما يناسبه مع إلغاء ذكر التضاد لتخرج المقابلة والمطابقة ، وقد جمع سبحانه في هذه الآية معظم وسائل النعيم الآيلة بالمرء إلى الانهماك في الفتنة والانسياق مع دواعي النفوس الجموحة ، وقد زينت للناس واستهوتهم بالتعاجيب والمفاتن .

الفوائد

1 - مراعاة النظير : وذلك بتعداد أنعم الدنيا التي يشتهيها الإنسان ، وتعدّ من المحسنات المعنوية التي جذبت إليها نفوس الشعراء حينا من الدهر . ولا يزال الشعراء الشعبيون يجيدون هذا الفن وأمثاله ويتخذونه وسيلة لمعاجزة أقرانهم من الشعراء .

2 - القناطير " المقنطرة " المقصود من لفظ " المقنطرة " التوكيد كقولهم " ألف مؤلفة ،

وبدرة مبدرة" والمسوّمة" المعلّمة" من أسامها اللّه وسوّمها بمعنى رعاها .

[سورة آل عمران (3) : آية 15]

(112/119)

قُلْ أَأُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَأَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (15)

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (الهمزة) للاستفهام (أنبّئ) فعل مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا و(كم) ضمير متّصل مفعول به (بخير) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنبّئ) (من) حرف جرّ (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق - (خير) و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (اللام) حرف جرّ (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (اتّقوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (عند) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف

حال من جنات " 1 " - صفة تقدّمت على الموصوف - (ربّ) مضاف إليه مجرور

و(هم) ضمير مضاف إليه (جنّات) مبتدأ مؤخّر مرفوع " 2 " (تجري) مضارع مرفوع

وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء (من تحت) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تجري) ، و(ها) مضاف إليه (الأنهار) فاعل مرفوع (خالدين) حل منصوبة من الموصول وعلامة النصب الياء (في) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخالدين (الواو) عاطفة (أزواج) معطوف على جنّات مرفوع مثله (مطهّرة) نعت لأزواج مرفوع مثله (الواو) عاطفة (رضوان) معطوف على جنّات مرفوع مثله (من اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لرضوان (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (بصير) خبر مرفوع (بالعباد) جارّ ومجرور متعلّق ببصير.

جملة: "قل.." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أأنبّئكم" في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "للذين اتّقوا.. جنّات" لا محلّ لها استئناف بيانيّ "3".

وجملة: "تجري من تحتها الأنهار" في محلّ رفع نعت لجنّات.

وجملة: "اللّه بصير" لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(مطهّرة) ، مؤنّث مطهّر، اسم مفعول من الرباعيّ طهّر، وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين المشدّدة (الآية 25 البقرة).

(رضوان) ، مصدر سماعيّ لفعل رضي يرضى باب فرح وزنه فعلان بضمّ الفاء، ويجوز في

المصدر كسرها .

---

(1) أو متعلّق بالخبر المقدّم المحذوف . . أو متعلّق بخير إذا علّق الموصول به وأعرب (جنّات) خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هي .

(2) أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو .

(3) أو في محلّ جرّ بدل من خير .

(113/119)

الفوائد

- المتعدي إلى ثلاثة مفاعيل وهو " اعلم وأرى " وقد أجمع عليهما ، وزاد سيبويه " نبأ وأنبأ " . وزاد الفراء في معانيه " خبر وأخبر " وزاد الكوفيون (حدّث)

[سورة آل عمران (3) : آية 16]

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَقِنا عَذابَ النَّارِ (16)

الإعراب :

(الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم " 1 " ، (يقولون) فعل مضارع مرفوع . . والواو فاعل (ربّ) منادى محذوف منه أداة النداء وهو مضاف

منصوب و(نا) ضمير مضاف إليه (إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد و(نا) ضمير اسم إنّ في محلّ نصب (آمنّا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(نا) فاعل (الفاء) عاطفة سببيّة " 2 " ، (اغفر) فعل أمر دعائيّ ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (اللام) حرف جرّ و(نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (اغفر) (ذنوب) مفعول به منصوب و(نا) مضاف إليه (الواو) عاطفة (قنا) مثل اغفر ، مبنيّ على حذف حرف العلّة . و(نا) مفعول به (عذاب) مفعول به ثان منصوب (النار) مضاف إليه مجرور .

جملة : " (هم) الذين يقولون " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يقولون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " النداء وجوابها " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) أو في محلّ جرّ : إما نعت للموصول السابق في الآية المتقدّمة ، أو بدل منه . . وإمّا نعت للعباد ويجوز أن يكون في محلّ نصب بفعل محذوف على نية المدح . [. . . . .]

(2) أو رابطة لجواب الشرط .

وجملة: " إنّنا آمنا " لا محلّ لها جواب النّداء.

وجملة: " آمنا " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: " اغفر لنا " في محلّ رفع معطوفة على جملة آمنا " 1 ".

وجملة: " قنا " معطوفة على جملة اغفر لنا تأخذ محلّها من الإعراب.

الصرف:

(عذاب)، اسم مصدر من عذّب الرباعي، وقياس مصدره تعذيب، وزنه فعال بفتح الفاء. (البقرة 7).

الفوائد

1 - الفعل المعتل الأول هو " المثال " مثل وقى، وعد، فإذا بني منه فعل الأمر حذفت فاؤه التي هي واو أو ياء وبما أن فعل الأمر يبنى على حذف حرف العلة من آخره فسوف تكون النتيجة أن تحذف فاؤه وتحذف لامه مثل وقى تصبح ق ووعى ع إلخ..

[سورة آل عمران (3): آية 17]

الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ (17)

الإعراب:

(الصابرين) نعت ل (الذين اتّقوا) مجرور " 2 "، وعلامة الجرّ الياء (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (الصادقين، القانتين،

---

(1) قال عباس حسن في كتابه النحو الوافي ج 3 ص 464 : (وتفيد - أي الفاء - كثيرا مع الترتيب والتعقيب، التسبّب أي الدلالة على السببيّة (بأن يكون المعطوف متسبّبا عن المعطوف عليه)، ويغلب هذا في شيئين : عطف الجمل .. وفي المعطوف المشتق " أ ه.

ويجوز أن تكون الجملة جوابا لشرط مقدّر.

(2) في الآية (15) من هذه السورة، أو ل (الذين يقولون) في الآية السابقة) في حالتي الجرّ والنصب.

(115/119)

المنفقين، المستغفرين) ألفاظ معطوفة على الصابرين مجرورة مثله وعلامة الجرّ الياء

(بالأسحار) جارّ ومجرور متعلّق بالمستغفرين فهو اسم فاعل.

الصرف :

(المنفقين) جمع منفق، اسم فاعل من أنفق وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين، وفيه حذف الهمزة تخفيفا وأصله المؤنفقين " 1 ".

(المستغفرين)، جمع مستغفر، اسم فاعل من استغفر وهو على الوزن نفسه لكلمة المنفقين.

(الأسحار) ، جمع سحر بفتحتين ، اسم جامد ، وسمي كذلك لما فيه من الخفاء كالسحر اسم للشيء الخفي وزنة فعل بفتحتين.

البلاغة

1 - توسيط الواو بين الصفات المعدودة للدلالة على استقلال كل منها وكما لهم فيها أو لتغاير الموصوفين بها.

[سورة آل عمران (3) : آية 18]

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18)

الإعراب:

(شهد) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (أنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد و(الهاء) ضمير مبنيّ في محلّ نصب اسم أنّ (لا إله إلّا هو) مرّ إعرابها "2".

والمصدر المؤوّل من (أنّ) واسمها وخبرها في محلّ جرّ بحرف جرّ

---

(1) انظر الآية (3) من سورة البقرة كلمة (ينفقون).

(2) الآية (2) من هذه السورة.

محذوف، والتقدير بأنّه لا إله . . . والجارّ والمجرور متعلّق بـ (شهد) .

(الواو) عاطفة (الملائكة) معطوف على لفظ الجلالة مرفوع مثله و(أولو) معطوف على لفظ الجلالة بالواو مرفوع مثله وعلامة الرفع الواو فهو ملحق بجمع المذكّر السالم (العلم) مضاف إليه مجرور (قائما) حال منصوبة من الضمير المنفصل بعد إلّا " 1 " (بالقسط) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قائما) اسم الفاعل (لا إله إلّا هو) مرّ إعرابها، (العزيز) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو، والجملة بدل من الضمير المنفصل هو " 2 "، (الحكيم) خبر ثان مرفوع " 3 " .

جملة: " شهد اللّه " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " لا إله إلّا هو " في محلّ رفع خبر أنّ.

وجملة: " لا إله إلّا هو (الثانية) " لا محلّ لها استئنافيّة كرّرت للتأكيد .

الصرف:

(قائما)، اسم فاعل من قام - وكلّ فعل أجوف يقلب حرف العلّة فيه إلى همزة في صيغة فاعل - وأصله قاوم.

(القسط)، مصدر سماعيّ لفعل قسط يقسط من بابيّ نصر وضرب، وزنه فعل بكسر فسكون.

البلاغة

1 - في الآية رد العجز على الصدر، فقد رد العزيز إلى قوله تعالى "لا إِلهَ إِلَّا هُوَ" أي إلى تفرده بالوحدانيّة التي تقتضي العزّة، ورد "الحكيم" إلى قوله تعالى "قائِماً بِالْقِسْطِ" فهو تعالى حكيم لا يتحيفه جور أو انحراف.

---

(1) أو حال من لفظ الجلالة فاعل شهد.

(2) أو بدل من الضمير المنفصل هو.

(3) أو بدل من العزيز مرفوع مثله.)

[سورة آل عمران (3) : آية 19]

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (19)

الإعراب:

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل (الدين) اسم إنّ منصوب (عند) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف نعت للدين أي: الدين الثابت أو المرضيّ عند اللّه.. أو بمحذوف حال من الدين والعامل فيه معنى التوكيد (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الإسلام) خبر إنّ

مرفوع (الواو) عاطفة (ما) نافية (اختلف) فعل ماض (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (أوتوا) فعل ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ على الضمّ . . والواو نائب فاعل (الكتاب) مفعول به منصوب (إلّا) أداة حصر (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اختلف) ، (ما) حرف مصدريّ (جاء) فعل ماض و(هم) ضمير مفعول به (العلم) فاعل مرفوع.

والمصدر المؤوّل (ما جاءهم العلم) في محلّ جرّ مضاف إليه.

(بغيا) مفعول لأجله منصوب " 1 " ، (بين) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (بغيا) أو بمحذوف نعت له و(هم) مضاف إليه (الواو) استئنافيّة - أو عاطفة - (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يكفر) مضارع مجزوم فعل الشرط، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (بآيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يكفر) ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّ اللّه) مثل إنّ الدين (سريع) خبر إنّ مرفوع (الحساب) مضاف إليه مجرور.

---

(1) أو مصدر في موضع الحال.

جملة: " إنّ الدين . . الإسلام " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " ما اختلف الذين . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: " أوتوا . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: " جاءهم العلم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (ما).

وجملة: " من يكفر . . " لا محلّ لها استئنافيّة أو معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: " يكفر بآيات اللّه " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 ".

وجملة: " إنّ اللّه سريع " لا محلّ لها تعليل لجواب الشرط المحذوف أي فاللّه محاسبه لأنه سريع الحساب.

الصرف:

(الإسلام)، الاسم من أسلم الرجل أي اتّخذ الإسلام مذهبا ودينا، وهو بلفظ المصدر وزنه إفعال بكسر الهمزة على القياس.

البلاغة

1 - " وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ " التعبير عنهم بالموصول وجعل إيتاء الكتاب صلة له لزيادة تقبيح حالهم فإن الاختلاف ممن أوتي ما يزيله ويقطع شأفته في غاية القبح والسماجة.

2 - " فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ " في إظهار الاسم الجليل تربية للمهابة وإدخال الروعة، وفي ترتيب العقاب على مطلق الكفر إثر بيان حال أولئك المذكورين إيذان بشدة عقابهم.

---

(1) يجوز أن تكون جملتا الشرط والجواب خبرا للمبتدأ (من).

(119/119)

[سورة آل عمران (3) : آية 20]

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (20)

الإعراب:

(الفاء) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (حاجّوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ في محلّ جزم.. والواو فاعل و(الكاف) ضمير في محلّ نصب مفعول به (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قل) فعل أمر، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (أسلمت) فعل ماض وفاعله (وجه) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الهاء و(الياء) ضمير مضاف إليه (للّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أسلمت)، (الواو) عاطفة (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع معطوف على الضمير في (أسلمت) " 1 "، (اتبع) فعل ماض والفاعل ضمير مستتر

تقديره هو يعود على من وهو العائد و(النون) نون الوقاية و(الياء) المحذوفة ضمير مفعول به . (الواو) استئنافيّة (قل) مثل الأول (اللام) حرف جرّ (الذين) اسم موصول مبنيّ على الفتح في محلّ جرّ متعلّق بـ (قل) ، (أوتوا الكتاب) مرّ

---

(1) وجاء العطف من غير ضمير منفصل لوجود الفاصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، هذا وقد رفض أبو حيّان هذا الاعراب كما رفض جعل الواو للمعيّة و(من) مفعولا معه وقد قال بذلك الزمخشري . . ويجوز أيضا جعل (من) مبتدأ خبره محذوف أي ومن اتّبعني أسلموا وجوههم للّه أو أسلم وجهه لله ، وقد اختاره أبو حيّان .

إعرابها في الآية السابقة (الأمّيّين) معطوف على الموصول بالواو وعلامة الجرّ الياء (الهمزة) للاستفهام الدال على الأمر (أسلمتم) فعل ماض مبنيّ على السكون . . وتم ضمير فاعل (الفاء) استئنافيّة (إن أسلموا) مثل إن حاجّوا (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قد) حرف تحقيق (اهتدوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين لا محلّ له . . والواو فاعل (الواو) عاطفة (إن تولّوا) مثل إن حاجّوا . . والبناء في (تولّوا) كالبناء في (اهتدوا) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّما) كافّة ومكفوفة (على) حرف

جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (البلاغ) مبتدأ مؤخّر مرفوع.

(الواو) استئنافيّة (اللّه بصير بالعباد) سبق إعرابها " 1 " .

جملة: "إن حاجّوك" لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة في الآية السابقة " 2 " .

وجملة: "قل.. " في محلّ جزم جواب الشرط الجازم مقترنة بالفاء.

وجملة: "أسلمت وجهي.. " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "اتّبعن" لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: "قل (الثانية) " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أوتوا الكتاب" لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "أأسلمتم" في محلّ نصب مقول القول.

---

(1) في الآية (15) من هذه السورة.

(2) يجوز أن تكون استئنافيّة من غير عطف.

(121/119)

وجملة: "أسلموا" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "قد اهتدوا" في محلّ جزم جواب الشرط الجازم مقترنة بالفاء.

وجملة : " إن تولّوا " لا محلّ لها معطوفة على جملة إن أسلموا .

وجملة : " عليك البلاغ " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " اللّه بصير . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(اتّبعن) ، تحذف ياء المتكلّم من بعض الكلمات في القرآن الكريم ولا سيّما بعد نون الوقاية إما وصلا وإمّا وصلا ووقفا . وقد قرأ نافع وأبو عمر الآية بإثبات الياء وصلا وحذفها وقفا .

(الأميّين) جمع الأميّ ، وهو الذي لا يقرأ ولا يكتب . وجاء في المحيط : " الأميّ والأمان بتشديد الميم من لا يكتب أو من على خلقة الأمة " 1 " لم يتعلّم الكتاب " .

(البلاغ) ، اسم مصدر من الفعل بلّغ الرباعيّ ، وقياس مصدره تبليغ ، ووزن البلاغ فعال بفتح الفاء .

البلاغة

1 - المجاز المرسل : في قوله " فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ " أي أخلصت نفسي وقلبي وجملتي ، وإنما عبر عنها بالوجه لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة ، ومظهر القوى والمشاعر ومجمع معظم ما يقع به العبادة من السجود والقراءة وبه يحصل التوجه إلى كل شيء والعلاقة هنا الكلية .

2 - الاستفهام : في قوله "أَأَسْلَمْتُمْ" معناه التنديد والتعيير، أي فهل أسلمتم وعملتم بما أتاكم من البينات أو أنتم على كفركم بعد، كما يقول من لخص لصاحبه المسألة ولم يدع من طرق التوضيح والبيان مسلكا إلّا سلكه : فهل

---

(1) يقصد الأم، لأن الأمة هي الأم. [. . . . . .]

(122/119)

فهمتها ؟ على منهاج قوله تعالى "فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ" اثر تفصيل الصوارف عن تعاطي الخمر والميسر وفيه استقصارهم وتعبيرهم بالمعاندة وقلة الإنصاف وتوبيخهم بالبلادة.

الفوائد

1 - "فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ" قدم الجار والمجرور على المبتدأ لأنه موضع الاهتمام من جهة وليأخذ التعبير جرسه الموسيقي من جهة أخرى. وكلاهما من خصائص البلاغة والاعجاز القرآني.

2 - "اهتدوا وتولّوا" نلاحظ أن حرف العلة الذي هو الياء قد حذف لالتقاء الساكنين وهما حرف العلة من الفعل، واو الجماعة، وسواء أكان الفعل المعتل ماضيا أو مضارعا يحذف حرف العلة إذا التقى مع واو الجماعة، وللتفرقة بين الواو التي هي حرف علة ومن

أصل الفعل وبين الواو التي هي واو الجماعة اصطلح النحاة على اضافة ألف سمّيت ألف التفريق، مثال ذلك أحمد يغزو، والمنافقون لم يغزوا. وهذا الوجه من الكتابة إحدى مزالق الإملاء إذ الكثير يخلطون بين المثالين فيضعون ألف التفريق للفعل يغزو ويعلو على خلاف القاعدة.

[سورة آل عمران (3) : آية 21]

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (21)

الإعراب:

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد (الذين) اسم موصول اسم إن في محلّ نصب (يكفرون) مضارع مرفوع.. والواو فاعل (بآيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يكفرون)، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (يقتلون) مثل يكفرون (النبيّين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء (بغير) جارّ ومجرور حال مؤكّدة من فاعل يقتلون (حقّ) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (يقتلون) مثل يكفرون (الذين) مثل الأول وهو مفعول به (يأمرون) مثل يكفرون (بالقسط) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يأمرون)، (من الناس) جارّ ومجرور بمتعلّق بمحذوف حال من الواو في فعل يأمرون (الفاء) زائدة لتضمّن الموصول معنى الشرط (بشّر) فعل أمر والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت و(هم) ضمير متّصل مفعول به

(بعذاب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (بشّرهم) ، (أليم) نعت لعذاب مجرور مثله .

جملة : " إنّ الذين يكفرون . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يكفرون بآيات اللّه " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

(123/119)

وجملة : " يقتلون . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " يقتلون الثانية " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " يأمرون . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " بشّرهم " في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(النبيّين) ، جمع النبيّ ، على وزن فعيل ، صفة مشبّهة من فعل نبّأ الرباعيّ على غير القياس ، وقد تخفّف الهمزة فتصبح ياء - كما جاء في هذه الآية - ، وقد تبقى الهمزة على حالها فيلفظ النبيء .

البلاغة

1 - الاستعارة التبعية : في قوله تعالى " فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ " .

فاستعمال البشارة هنا مجازي قصد به التهكم، فالمعنى أنذرهم بعذاب أليم، لأن العذاب لا يبشر به، فاستعار التبشير للانذار بعد أن نزل التضاد منزلة التناسب تهكما. لذا كان التعبير بلفظ بشرهم أبلغ لأنه أشد لذعا وايلاما من لفظ أنذرهم الحقيقي.

2 - كثيرا ما نجد الفاء الرابطة للجواب تأتى بعد ورود الاسم الموصول وفي مثل هذه الحالة قد يكون الاسم الموصول متضمنا معنى اسم الشرط أو يمتّ إليه

بصلة ما كقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ.. إلى قوله فبشرهم فالفاء هنا رابطة للجواب.

[سورة آل عمران (3) : آية 22]

أُولئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (22)

الإعراب:

(أولاء) اسم إشارة مبنيّ على الكسر في محلّ رفع مبتدأ و(الكاف) للخطاب (الذين) اسم موصول في محلّ رفع خبر (حبط) فعل ماض و(التاء) تاء التأنيث (أعمال) فاعل مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه (في الدنيا) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من أعمال، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة (الواو) عاطفة (الآخرة) معطوف على الدنيا مجرور مثله

(الواو) عاطفة (ما) نافية (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (من) حرف جرّ زائد (ناصرين) مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخّر وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " أولئك الذين . . " في محلّ رفع خبر ثان لـ (إنّ) في الآية السابقة " 1 " .

وجملة : " حبطت أعمالهم " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " ما لهم من ناصرين " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

الصرف :

(ناصرين) ، جمع ناصر ، اسم فاعل من نصر وزنه فاعل .

الفوائد

- " وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ " فقد درج النحاة على اعتبار حرف الجرّ الزائد

---

(1) أو لا محلّ لها استئنافيّة .

إنما هو للتوكيد فحسب وقد غاب عن ذهنهم أنّ لهذه الحروف مدلولات أكثر من التوكيد بكثير فعند ما نقول الخبر مجردا من هذا الحرف أو ذاك فهو خبر يصح فيه الصدق والكذب

كما يقول علماء البلاغة، ولكن عند ما يدخل حرف الجرّ الزائد فإن الخبر يصبح في مصاف الواقع واليقين.

[سورة آل عمران (3) : آية 23]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلى كِتابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام (تر) مضارع مجزوم بـ (لم) الجازم وعلامة الجزم حذف حرف العلّة، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (إلى) حرف جرّ (الذين) اسم موصول في محلّ جرّ متعلّق بـ (تر)، (أوتوا) فعل ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ على الضمّ.. والواو نائب فاعل (نصيبا) مفعول به منصوب (من الكتاب) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لـ (نصيبا)، (يدعون) مضارع مرفوع مبنيّ للمجهول ونائب فاعل (إلى كتاب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يدعون)، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (اللام) لام التعليل (يحكم) مضارع منصوب بـ (أن) مضمرة بعد اللام والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (بين) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (يحكم)، و(هم) ضمير مضاف إليه.

والمصدر المؤوّل (أن يحكم) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يدعون).

(ثمّ) حرف عطف (يتولّى) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (فريق)

فاعل مرفوع (من) حرف جرّ و(هم) ضمير لـ (نصيبا) ، (يدعون) مضارع مرفوع مبنيّ للمجهول والواو نائب فاعل (إلى في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف نعت لفريق (الواو) حاليّة (هم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (معرضون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " ألم تر . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أوتوا . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يدعون . . " في محلّ نصب حال من الموصول الذين أوتوا .

وجملة : " يحكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ المضمر (أن) .

وجملة : " يتولّى فريق " في محلّ نصب معطوفة على جملة يدعون .

وجملة : " هم معرضون " في محلّ نصب حال من فريق منهم .

الصرف :

(نصيبا) ، الاسم من أنصبه إذا جعل له نصيبا وحظّا ، وزنه فعيل (البقرة 202) .

(يدعون) ، فيه إعلال بالحذف ، حذفت لام الكلمة الألف لمجيئها ساكنة قبل واو الجماعة الساكنة ، وزنه يفعون بضمّ الياء وفتح العين (انظر البقرة 221) .

الفوائد

1 - لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ : اللام لام التعليل والفرق بينها وبين لام الجحود في أمرين :

الأول انها تأتي في سياق الإيجاب ولام الجحود تأتي في سياق النفي ، الثاني أن كلا منهما تنصب بأن مضمرة بعدها ولكن تضمر جوازا بعد لام التعليل ووجوبا بعد لام الجحود .

2 - دعا الرسول (صلى اللّه عليه وسلم) اليهود إلى الإسلام فسألوه عن دينه فأجابهم بأنه على ملّة إبراهيم فزعم اليهود أن إبراهيم كان يهوديا فطلب إليهم ان يحتكموا إلى التوراة فرفضوا .)

3 - وقوله تعالى " مِنَ الْكِتابِ " فمن هذه للتبعيض وقيل للبيان وفيها اشارة إلى أن اليهود كانوا على نصيب وافر من التوراة .

[سورة آل عمران (3) : آية 24]

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (24)

الإعراب :

(ذلك) ، اسم إشارة مبتدأ والإشارة إلى الإعراض . .

و(اللام) للبعد ، و(الكاف) للخطاب (الباء) حرف جرّ (أنّ) حرف مشبّه بالفعل و(هم) ضمير اسم أنّ (قالوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل .

والمصدر المؤوّل (أنّهم قالوا) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (ذلك) .

(لن) حرف ناصب (تمسّ) مضارع منصوب و(نا) ضمير مفعول به (النار) فاعل مرفوع (إلّا) أداة حصر (أيّاما) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (تمسّنا) ، (معدودات) نعت لأيام منصوب مثله وعلامة النصب الكسرة (الواو) عاطفة (غرّ) فعل ماض و(هم) ضمير مفعول به (في دين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (غرّ) و(هم) ضمير مضاف إليه (ما) اسم موصول في محلّ رفع فاعل - أو حرف مصدريّ - والمصدر المؤوّل فاعل ، (كانوا) فعل ماض ناقص مبنيّ على الضمّ . . والواو اسم كان (يفترون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " ذلك بأنّهم . . " لا محلّ لها استئنافيّة تعليلية .

وجملة : " قالوا . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " لن تمسّنا النار " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " غرّهم . . ما كانوا " في محلّ رفع معطوفة على جملة قالوا .

وجملة : "كانوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الاسميّ أو الحرفيّ (ما) .

وجملة : " يفترون " في محلّ نصب خبر كان .

الصرف :

(معدودات) ، جمع معدود ، اسم مفعول من فعل عدّ على وزن مفعول (البقرة 203) .

(يفترون) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله يفتريون ، استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت بنقل حركتها إلى الراء ، ثمّ حذف الياء لسكونها وسكون الواو بعدها . . وزنه يفتعون .

[سورة آل عمران (3) : آية 25]

فَكَيْفَ إِذا جَمَعْناهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (25)

الإعراب

(الفاء) استئنافيّة (كيف) اسم استفهام مبنيّ على الفتح في محلّ رفع خبر مقدّم لمبتدأ محذوف تقديره صنعهم أو حالهم " 1 " ، (إذا) ظرف مجرّد عن الشرط في محلّ نصب متعلّق بالمبتدأ المقدّر لأنه بتقدير مصدر " 2 " ، (جمعنا) ، فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(نا) فاعل و(هم) ضمير مفعول به ، (ليوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جمعناهم) على حذف مضاف أي لجزاء يوم (لا) نافية للجنس (ريب) اسم لا مبنيّ على

---

(1) يجوز نصبه على الحال بفعل محذوف تقديره يصنعون . . والتقدير الأول أقيس .

(2) أو متعلّق الفعل المقدّر .

الفتح في محلّ نصب (في) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر لا (الواو) عاطفة (وفّيت) فعل ماض مبنيّ للمجهول . .

و(التاء) للتأنيث (كلّ) نائب فاعل مرفوع (نفس) مضاف إليه مجرور (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به (كسبت) فعل ماض . . و(التاء) للتأنيث والفاعل ضمير مستتر تقديره هي (الواو) حاليّة (هم) ضمير منفصل مبتدأ (لا) نافية (يظلمون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع . . و(الواو) نائب فاعل .

جملة : "كيف (حالهم) "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "جمعناهم" في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : "لا ريب فيه" في محلّ جرّ نعت ليوم .

وجملة : "وفّيت كلّ نفس" في محلّ جرّ معطوفة على جملة لا ريب فيه . وفي الجملة رابط مقدّر أي وفّيت فيه كلّ نفس .

وجملة : "كسبت" لا محلّ لها صلة الموصول والعائد محذوف أي كسبته .

وجملة : "هم لا يظلمون" في محلّ نصب حال .

وجملة : "لا يظلمون" في محلّ رفع خبر المبتدأ هم .

البلاغة

1 - لقد خرج بالاستفهام عن معناه الحقيقي بقوله " فكيف " فهي رد لقولهم المذكور وإبطال لما غرهم باستعظام ما سيدهمهم وتهويل ما سيحيق بهم من الأهوال أي فكيف يكون حالهم.

[سورة آل عمران (3) : آية 26]

قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26)

(129/119)

الإعراب:

(قل) فعل أمر والفاعل أنت (اللّه) لفظ الجلالة منادى مفرد علم محذوف منه أداة النداء، مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب و(الميم) المشدّدة زائدة عوض من أداة النداء (مالك) بدل من لفظ الجلالة تبع محلّه في النصب لأنه مضاف " 1 "، (الملك) مضاف إليه مجرور (تؤتي) مضارع مرفوع، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (الملك) مفعول به أوّل منصوب (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به ثان (تشاء) مضارع مرفوع، والفاعل أنت (الواو) عاطفة (تنزع الملك) مثل تؤتي الملك (من) حرف جرّ (من) اسم موصول مبنيّ في

محلّ جرّ متعلّق بـ (تنزع) ، (تشاء) مثل الأول (الواو) عاطفة في الموضعين (تعزّ من تشاء ، تذل من تشاء) مثل تؤتي . . من تشاء (بيد) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (الكاف) ضمير مضاف إليه (الخير) مبتدأ مؤخّر مرفوع (إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد و(الكاف) ضمير اسم إنّ (على كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بقدير (شيء) مضاف إليه مجرور (قدير) خبر إنّ مرفوع.

جملة : " قل . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " النداء وما في حيّزها " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة : " تؤتي الملك " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " تشاء (الأولى) " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول.

---

(1) أو منادى ثان منصوب . . والجملة بدل من جملة النداء الأولى . . وقد اختاره أبو حيّان.

وجملة : " تنزع الملك " لا محلّ لها معطوفة على جملة تؤتي.

وجملة : " تشاء (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني.

وجملة: " تعز " لا محلّ لها معطوفة على جملة تؤتي.

وجملة: " تشاء (الثالثة) " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثالث.

وجملة: " تذلّ " لا محلّ لها معطوفة على جملة تؤتي.

وجملة: " تشاء (الرابعة) " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الرابع.

وجملة: " بيدك الخير " لا محلّ لها بدل من جملة تؤتي الملك " 1 ".

وجملة: " انّك.. قدير " لا محلّ لها تعليليّة.

الصرف:

(مالك)، اسم فاعل من ملك وزنه فاعل (انظر الفاتحة الآية 4).

(الملك)، إمّا اسم بمعنى المملوك أو مصدر سماعيّ من فعل ملك يملك باب ضرب، وزنه فعل بضمّ فسكون.

(الخير)، إمّا اسم بمعنى ما هو حسن أو مصدر قياسيّ من فعل خار يخير باب ضرب، وزنه فعل بفتح فسكون.

البلاغة

1 - الاكتفاء: في قوله " بِيَدِكَ الْخَيْرُ " حيث خص الخير بالذّكر - وإن كان الشرّ أيضا - وقد أراد الخير والشرّ، واكتفي بأحدهما لدلالته على الآخر، كما في قوله تعالى " سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ " أي والبرد. وإنما خص الخير بالذكر لأنه هو المرغوب فيه.

2 - وفي الآية " فن المقابلة " : فقد طابق بين " تؤتي " و " تنزع " وبين " تعز " و " تذل "

---

(1) أو استئنافيّة.

(131/119)

الفوائد

1 - قل اللهمّ : لفظ " اللهم " منادى حذفت منه ياء النداء وعوض عنها بالميم المشددة وهذا الاعتبار مختصّ بلفظ الجلالة. ويمكن أن تلحق الميم المشددة بلفظ الجلالة في حالتين أخريين غير النداء :

الأولى : أن تأتي قبل حرف الجواب تمكينا للجواب كقولك للسائل عن أمر " اللهم نعم " .

الثانية : للدلالة على قلة وقوع الأمر كقولك لمن تشك في قدرته على التجارة : انك رابح اللهم إذا درست شؤون السوق وأحسنت اختيار البضاعة.

2 - لقد استغرق الطباق المركب " المقابلة " الآيتين بكاملهما وقد أشاع في جو الآيتين المذكورتين نوعا من الموسيقا القرآنية المعجزة كما أنه قرّر معاني متقابلة فزادها وضوحا وقرّب للأذهان قدرة الله المطلقة في سائر الأحوال.

[سورة آل عمران (3) : آية 27]

تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَتُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (27)

الإعراب:

(تولج) مضارع مرفوع، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (الليل) مفعول به منصوب (في النهار) جار ومجرور متعلّق بـ (تولج)، (الواو) عاطفة (تولج النهار في الليل) مثل تولج الليل في النهار (الواو) عاطفة (تخرج) مثل تولج (الحيّ) مفعول به منصوب (من الميّت) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تخرج)، (الواو) عاطفة (تخرج الميّت من الحيّ) مثل تخرج الحيّ من الميت (الواو) عاطفة (ترزق) مثل تولج (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (تشاء) مثل تولج (بغير)

جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من فاعل تشاء "1"، (حساب) مضاف إليه مجرور.

جملة: "تولج... (الأولى)" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "تولج... الثانية" لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "تخرج (الأولى)" لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "تخرج (الثانية)" لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "ترزق" لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: " تشاء " لا محلّ لها صلة الموصول (من).

الصرف:

(تولج)، فيه حذف الهمزة للتخفيف مثل تنفق وتكرم، وأصله تؤولج بضمّ التاء وفتح الهمزة.

(الحيّ) صفة مشبّهة من حيي يحيى باب فرح وزنه فعل بفتح فسكون (انظر البقرة 255).

البلاغة

1- الاستعارة التصريحية: إذا أراد بالحي والميت المسلم والكافر.

حيث قيل في تفسير هذه الآية: تخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، فإذا أراد هذا المعنى كان في الآية استعارة تصريحية، وإذا أراد النطفة والبيضة كان الكلام جاريا على جانب الحقيقة، لا على جانب المجاز.

[سورة آل عمران (3): آية 28]

لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (28)

---

(1) أي من تشاء رزقه متكرما.. أو من المفعول أي: من تشاؤه مكرما بفتح الراء..

ويجوز أن يكون متعلّقا بمفعول مطلق والعامل فيه ترزق أي: ترزقه رزقا بغير حساب، أو ترزقه كثيرا بغير حساب..

(132/119)

الإعراب:

(لا) ناهية جازمة (يتّخذ) مضارع مجزوم وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين (المؤمنون) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الواو (الكافرين) مفعول به أوّل منصوب وعلامة النصب الياء (أولياء) مفعول به ثان منصوب وامتنع من التنوين لأنه ملحق بالأسماء المنتهية بألف التأنيث الممدودة على وزن أفعلاء (من دون) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لأولياء " 1 " (المؤمنين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء (الواو) اعتراضية (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يفعل) مضارع مجزوم فعل الشرط، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ نصب مفعول به و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (الفاء) رابطة لجواب الشرط (ليس) فعل ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر تقديره هو يعود على اسم الشرط (من اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من شيء - نعت تقدّم على المنعوت - أي: ليس على شيء من دين اللّه ففي الكلام حذف مضاف (في شيء) جارّ ومجرور

متعلّق بمحذوف خبر ليس (إلا) أداة حصر (أن) حرف مصدريّ ونصب (تتّقوا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل (من) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تتّقوا) ، (تقاة) مفعول مطلق

---

(1) أو بمحذوف حال من المؤمنين أي متجاوزين . . ويجوز أن يتعلّق بفعل يتّخذ و(من) لابتداء الغاية .

(133/119)

منصوب نائب عن المصدر لأنه ملاقيه في الاشتقاق " 1 " .

والمصدر المؤوّل (أن تتّقوا . .) في محلّ نصب مفعول لأجله والعامل فيه لا يتّخذ أي : لا يتّخذ المؤمن الكافر وليّا لشيء من الأشياء إلّا اتقاء ظاهرا " 2 " ، والاستثناء في هذه الحال مفرّغ للمفعول لأجله .

(الواو) عاطفة (يحذّر) فعل مضارع مرفوع و(كم) ضمير مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (نفس) مفعول به منصوب و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) استئنافيّة (إلى اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (المصير) مبتدأ مؤخّر مرفوع .

جملة : " لا يتّخذ المؤمنون " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: " من يفعل (الاسميّة) " لا محلّ لها اعتراضيّة.

وجملة: " يفعل ذلك " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 3 ".

وجملة: " ليس من اللّه " في شيء في محلّ جزم جواب الشرط الجازم مقترنة بالفاء.

وجملة: " تتّقوا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: " يحذركم اللّه.. " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: " إلى اللّه المصير " لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(أولياء)، جمع وليّ زنة فعيل، صفة مشبّهة على غير القياس مأخوذ من الرباعيّ والى، (البقرة 107).

---

(1) يجوز أن يكون منصوبا على أنه مفعول به أي أن تخافوا منهم شيئا أو أمرا يجب اتقاؤه.

(2) وانظر الآية (229) من سورة البقرة، وإعراب (إلّا) فيها، وانظر الحاشية في تقدير الاستثناء.

(3) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا.

(تقاة) ، فيه إبدال واعلال ، الإبدال قلب الواو تاء وأصله وقية مأخوذ من الوقاية والإعلال قلب الياء ألف لتحركها لانفتاح ما قبلها ، وزنه فعلة بضمّ الفاء وسكون العين . وفي المختار : تقى يتقي كقضى يقضي ، والتقوى والتقى واحد والتقاة التقية ، يقال اتّقى تقية وتقاة .

وفي القاموس :

تقيت الشيء أتّقيه من باب ضرب .

البلاغة

1 - " إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا " على صيغة الخطاب بطريق الالتفات من الغيبة استثناء مفرغ من أعم الأحوال والعامل فعل النهي معتبرا فيه الخطاب كأنه قيل لا تتخذوهم أولياء ظاهرا أو باطنا في حال من الأحوال إلا حال اتقائكم .

2 - " وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ " الإظهار في مقام الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة .

الفوائد

1 - لا يسعنا إلا أن ننوه بهذا الضرب من البلاغة وهو هذا الالتفات من الغائب إلى المخاطب وما يحدثه في نفس السامع من بليغ التأثير . وما أكثر خصائص القرآن البلاغية .

2 - درس في التحذير ، كان بعض الأنصار يتخذون من اليهود حلفاء وأنصارا ، وكانوا يعلنون ذلك في حضرة الرسول ولا يخفونه . وكان اللّه ورسوله يعلمان مكر اليهود وما يكنون من عداوة للإسلام والمسلمين فنزلت هذه الآية تحذر المسلمين وتنذرهم أن يتخذوا من

الكافرين أولياء .

[سورة آل عمران (3) : آية 29]

قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (29)

الإعراب :

(قل) فعل أمر والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (إن) حرف شرط جازم (تخفوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم

(135/119)

حذف النون والواو فاعل (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (في صدور) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة ما و(كم) ضمير مضاف إليه (أو) حرف عطف (تبدوا) مضارع مجزوم معطوف على فعل الشرط ويعرب مثله و(الهاء) ضمير مفعول به (يعلم) مضارع مجزوم جواب الشرط و(الهاء) مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الواو) استئنافيّة (يعلم) مضارع مرفوع، والفاعل هو (ما) مثل الأول (في السموات) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة ما (الواو) عاطفة (في الأرض) مثل في السموات ويعطف عليه

(الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (على كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قدير)

(شي ء) مضاف إليه مجرور (قدير) خبر المبتدأ مرفوع.

جملة: " قل.. " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " ان تخفوا.. " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " تبدوه " في محلّ نصب معطوفة على جملة تخفوا.

وجملة: " يعلمه اللّه " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء.

وجملة: " يعلم ما في السموات " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " اللّه على كلّ شي ء قدير " لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(تخفوا)، فيه حذف الهمزة تخفيفا، وأصله تؤخفيوا..

وفيه إعلال بالتسكين وإعلال بالحذف، سكّنت الياء لاستثقال الضمّة عليها ثمّ حذفت لالتقاء الساكنين، سكون الياء وسكون واو الجماعة، وزنه تفعوا بضمّ التاء (انظر البقرة 271).

(تبدوه)، جرى فيه ما جرى في (تخفوا) من حذف الهمزة وإعلال بالتسكين وإعلال بالحذف.

الفوائد

1 - الواو في قوله تعالى : " وَيَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ " واو الاستئناف . وقد جيء بالكلام مستأنفا لا معطوفا لأن علم اللّه تعالى غير متوقف على شرط وهو من باب ذكر العام بعد الخاص . فقد ذكر علمه بما في صدور الناس ثم أردف ذلك فذكر علمه بكل شيء .

[سورة آل عمران (3) : آية 30]

(136/119)

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ (30)

الإعراب :

(يوم) مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر " 1 " ، (تجد) مضارع مرفوع (كلّ) فاعل مرفوع (نفس) مضاف إليه مجرور (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (عملت) فعل ماض . . و(التاء) تاء التأنيث ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هي (من خير) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من مفعول عملت المقدّر (محضرا) حال منصوبة من ما ، والعامل فيه تجد " 2 " ، (الواو) عاطفة (ما عملت من سوء) مثل ما عملت من خير " 3 " ، (تودّ)

مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره هي (لو) حرف شرط غير جازم امتناع لامتناع " 4 " ، (أنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد (بين)

---

(1) أو متعلّق بـ (تودّ) وهو ما اختاره أبو حيّان ، وضعّف تعليقه بـ (قدير) لأن قدرته على كلّ شيء لا تختصّ بيوم دون يوم .

(2) يجوز أن يكون مفعولا ثانيا لفعل تجد إذا قدّر قلبيا .

(3) لا يجوز أن تكون ما شرطيّة جوابها جملة تودّ بتقدير الفاء أي فهي تودّ .

(4) الأصل في (لو) إذا أتت بعد فعل ودّ وما في معناه أن تكون مصدريّة ، ويمتنع ذلك هنا لوجود الحرف المصدريّ (أنّ) . [. . . . .]

(137/119)

ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف خبر مقدّم و(ها) ضمير مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (الواو) عاطفة (بين) مثل الأول ومعطوف عليه و(الهاء) ضمير مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (أمدا) اسم أنّ مؤخّر منصوب (بعيدا) نعت لـ (أمدا) منصوب مثله .

والمصدر المؤوّل من أنّ واسمها وخبرها في محلّ رفع فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت ، أي ثبت حصول الأمد البعيد بينها وبينه .

(الواو) استئنافيّة (يحذّر) مضارع مرفوع و(كم) ضمير متّصل مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (نفس) مفعول به ثان منصوب و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (رؤف) خبر مرفوع (بالعباد) جارّ ومجرور متعلّق برؤوف.

جملة: "تجد كلّ نفس" في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "عملت ..." لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: "عملت (الثانية)" لا محلّ لها معطوفة على الجملة الأولى الصلة.

وجملة: "تودّ ..." في محلّ نصب حال، والعامل تجد.

وجملة: "(ثبت حصول) المقدّرة" في محلّ نصب مفعول به لفعل تودّ" 1 ".

وجملة: "يحذّركم اللّه" لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) قال أبو حيّان في البحر: جواب لو محذوف، ومفعول تودّ محذوف والتقدير: تودّ تباعد ما بينهما لو أنّ بينها وبينه أمدا بعيدا لسرّت بذلك ... والذي يقتضيه المعنى أنّ: لو أنّ وما يليها هو معمول لـ (تودّ) في موضع المفعول به.

وجملة : " اللّه رؤف بالعباد " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(محضرا) ، فيه حذف الهمزة للتخفيف وأصله مؤحضرا ، وهو اسم مفعول من فعل أحضر الرباعيّ ، وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين .

(أمدا) ، اسم لمنتهى الشيء أي غايته ، وزنه فعل بفتحتين .

(بعيدا) ، صفة مشتقّة وزنها فعيل من بعد يبعد باب كرم (انظر الآية 176 من سورة البقرة) .

الفوائد

1 - يمكننا اعتبار فعل " تجد " في هذه الآية على وجهين : الأول أنه متعدّ لمفعول واحد فيكون الاسم الموصول " ما " مفعولا لها و " محضرا " حالا من المفعول .

والثاني : اعتباره متعديا لمفعولين الأول الاسم الموصول والثاني " محضرا " .

2 - قوله : وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ : هذا التعبير يطلق عليه المشاكلة : لأن اللّه يخاطب الناس بما يشابه لغتهم ونفوسهم كقوله تعالى " وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ " فإن اللّه لا يمكر ولكن التعبير مشاكل حالة الكفار ومثل ذلك كثير في القرآن الكريم وهو من الخصائص العربية المألوفة .

[سورة آل عمران (3) : آية 31]

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31)

الإعراب:

(قل إن) مرّ إعرابهما " 1 "، (كنتم) فعل ماض ناقص مبنيّ

---

(1) في الآية (29) من هذه السورة.

(139/119)

على السكون في محلّ جزم فعل الشرط.. و(تم) ضمير اسم كان في محلّ رفع (تحبّون) مضارع مرفوع.. والواو فاعل (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (الفاء) رابطة لجواب الشرط (اتّبعوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون.. والواو فاعل و(النون) للوقاية و(الياء) ضمير مفعول به (يحبب) مضارع مجزوم جواب الطلب و(كم) ضمير مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (يغفر) مضارع مجزوم معطوف على (يحبب)، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يغفر)، (ذنوب) مفعول به منصوب و(كم) ضمير مضاف إليه (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (غفور) خبر مرفوع (رحيم) خبر ثان مرفوع.

جملة: " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " إن كنتم تحبّون . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " تحبّون الله " في محلّ نصب خبر كا ن.

وجملة: " اتّبعوني " في محلّ جزم جواب الشرط الجازم مقترنة بالفاء.

وجملة: " يحببكم " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء أي انّ تتّبعوني يحببكم اللّه.

وجملة: " اللّه غفور . . " لا محلّ لها استئنافيّة فيها معنى التعليل.

البلاغة

1 - " يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ " أي يرضى عنكم، فيقربكم من جناب عزه، ويبوئكم في جوار قدسه. عبر عنه بالمحبّة بطريق الاستعارة أو المشاكلة.

[سورة آل عمران (3) : آية 32]

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (32)

الإعراب:

(قل) فعل أمر والفاعل أنت (أطيعوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل

(اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (الرسول) معطوف على لفظ الجلالة

منصوب مثله (الفاء) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (تولّوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ

في محلّ جزم فعل الشرط . . والواو فاعل " 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّ)

حرف مشبّه بالفعل (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (لا) نافية (يحبّ) مضارع مرفوع ،

والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الكافرين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : " قل . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أطيعوا . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إن تولّوا " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " إنّ اللّه لا يحبّ . . " في محلّ جزم جواب الشرط الجازم مقترنة بالفاء .

جملة : " لا يحبّ . . . " في محلّ رفع خبر إنّ . .

الفوائد

1 - قوله تعالى : " فَإِنْ تَوَلَّوْا " يشكل على المرء إعراب هذا الفعل وذلك لوحدة اللفظ بين

أن يكون فعلا ماضيا من فعل " تولّى " وقد أسند إلى واو الجماعة وبين أن يكون فعلا

مضارعا من الأفعال الخمسة " تتولون " وقد حذفت إحدى التائين لتخفيف اللفظ وجزم

بحرف الشرط " إن " فحذفت نون الرفع فأصبح " تولوا " ويصح معنى الآية على كلا

الاعتبارين، والفرق بينهما محصور في وجود " الالتفات أو عدمه " .

(141/119)

---

(1) يجوز أن يكون مضارعا حذفت منه إحدى التاءين، مجزوم وعلامة الجزم حذف النون.

2 - قوله تعالى " لا يحب " فإن حب اللّه مغاير لحب العباد وهو من المجاز المرسل وللحب أبعاد ومدارك فهو لدى الإنسان العادي ناموس من نواميس الخلق أودعه اللّه في طبيعة الإنسان، لتستمر الخليقة التي اتخذها سبحانه خليفة له في أرضه، وهو لدى الفلاسفة على درجات أعلاها محبة المعبود الحق وهي التي تبعث على حب الطاعات والموافقات. وهو لدى الصوفية سكر المشاهدة والاستغراق لدى الاشراق والفناء في اللّه ساعة التجلّي والاتصال. واللّه أعلم.

[سورة آل عمران (3) : آية 33]

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ (33)

الإعراب:

(إنّ اللّه) مرّ إعرابها " 1 "، (اصطفى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف،

والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (آدم) مفعول به منصوب، وامتنع من التنوين للعلميّة والعجمة (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (نوحا، آل، ال) أسماء معطوفة على آدم منصوبة مثله (إبراهيم) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة فهو ممنوع من الصرف ومثله (عمران)، (على العالمين) جارّ ومجرور متعلّق بفعل اصطفى، وعلامة الجرّ الياء فهو ملحق بجمع المذكّر السالم.

جملة: "إنّ الله اصطفى" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "اصطفى" في محلّ رفع خبر إنّ.

---

(1) في الآية السابقة.

(142/119)

الصرف:

(عمران)، اسم علم قيل أعجميّ، وقيل مشتقّ من العمر والألف والنون فيه مزيدتان.

(نوحا)، اسم أعجميّ لا اشتقاق له عند المحقّقين النحويّين، ويزعم بعضهم أنه مشتقّ من النوح والبكاء، وهو منصرف لأنه ثلاثيّ ساكن الوسط.

البلاغة

1 - في الآية فن التوشيح وهو كما يقول ابن قدامة في نقد الشعر : أن يكون في أول الكلام معنى إذا علم علمت منه القافية فإن معنى اصطفاء المذكورين في الآية يعلم منه الفاصلة ، لأن المذكورين صنف مندرج في العالمين .

[سورة آل عمران (3) : آية 34]

ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (34)

الإعراب :

(ذرّيّة) حال من آدم وما عطف عليه على تأويل مشتق " 1 " منصوبة (بعض) مبتدأ مرفوع و(ها) مضاف إليه (من بعض) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ بعض (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (سميع) خبر مرفوع (عليم) خبر ثان مرفوع .

جملة : " بعضها من بعض " في محلّ نصب نعت لذرّيّة .

وجملة : " اللّه سميع " لا محلّ لها استئنافيّة .

الفوائد

1 - قوله تعالى " ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ " .

---

(1) أي اصطفاهم حال كونهم متشعبا بعضهم من بعض . . ويجوز أن يكون بدلا من نوح أو من آلين . . وبعضهم يجعله بدلا من آدم ، وذلك بحسب اختلاف العلماء في تأويل كلمة ذرّيّة .

لفظ " بعض " يضاف إلى الظاهر والمضمر وفي كلا الحالتين يجرد من أل حسب قاعدة المضاف . إذ لا يجوز تعريف المضاف بأل إذا كان مفردا فلا يصح القول " الكتاب الأستاذ ولا القلم تلميذ " ولكن يجوز دخول " أل " على المثنى كقولك " المكرما سليم " وعلى جمع المذكر السالم كقولك " المكرمو علي " " 1 " .

[سورة آل عمران (3) : آية 35]

إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35)

الإعراب :

(إذ) اسم ظرفيّ مبنيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (قال) فعل ماض و(التاء) للتأنيث (امرأة) فاعل مرفوع (عمران) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة فهو ممنوع من الصرف (ربّ) منادى مضاف منصوب ، حذف منه أداة النداء ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل ياء المتكلّم منع من ظهورها اشتغال المحلّ بالحركة المناسبة و(ياء المتكلّم) المحذوفة ضمير مضاف إليه (إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد

و(الياء) ضمير اسم إنّ (نذرت) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(التاء) فاعل ، (اللام) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نذرت) ، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (في بطن) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة ما ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء و(الياء) ضمير مضاف إليه (محرّرا) حال منصوبة من اسم الموصول (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب - أو رابطة لجواب شرط مقدّر - (تقبّل) فعل أمر دعائيّ ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (من) حرف جرّ و(الياء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تقبّل) ،

---

(1) راجع جامع الدروس العربية ج 3 ص 210

(144/119)

(إنّك) مثل إنّي (أنت) ضمير فصل " 1 " ، (السميع) خبر إنّ مرفوع (العليم) خبر ثان مرفوع.

جملة : " قالت امرأة عمران . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة " النداء وما في حيّزها " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّي نذرت " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة: " نذرت لك. " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: " تقبّل منّي " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّي نذرت، أو في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي: إن رضيت عنّي فتقبّل منّي.

وجملة: " إنّك أنت السميع " لا محلّ لها تعليليّة.

الصرف:

(امرأة)، اسم جامد ذات مؤنّث امرئ، جمعه نساء أو نسوة من غير لفظها، وتدخل (ال التعريف نادرا على امرأة فيقال (المرأة) وزنه افعلة بفتح العين.

(محرّرا)، اسم مفعول من فعل حرّر الرباعيّ وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين المشدّدة.

[سورة آل عمران (3): آية 36]

فَلَمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى وَإِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (36)

---

(1) أو ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ خبره لسميع، والخبر خبر إنّ.

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بـ (قالت) ، (وضعت) فعل ماض . . و(التاء) للتّأنيث (ها) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هي (قالت) مثل وضعت (ربّ إنّى وضعت) مثل ربّ إنّي نذرت في الآية السابقة و(ها) ضمير مفعول به (أنثى) حال منصوبة من ضمير الغائبة (الواو) اعتراضيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (أعلم) خبر مرفوع (الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أعلم) ، (وضعت) مثل الأول (الواو) عاطفة (ليس) فعل ماض ناقص جامد (الذكر) اسم ليس مرفوع (كالأنثى) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر ليس (الواو) عاطفة إنّي سميت) مثل في نذرت و(ها) ضمير مفعول به (مريم) مفعول به ثان منصوب وامتنع لتنوين للعلميّة والتأنيث (الواو) عاطفة (إني أعيذ) مثل إنّي نذرت ، (ها) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (ذرّيّة) معطوف على ضمير النصب في عيذها و(ها) ضمير مضاف إليه (من الشيطان) جارّ ومجرور متعلّق بفعل أعيذ (الرجيم) نعت للشيطان مجرور مثله .

جملة : " وضعتها " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قالت . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " النداء وما في حيّزها " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة: "إنّي وضعتها .. " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: " وضعتها أنثى " في محلّ رفع خبر إنّ.

(146/119)

وجملة: " اللّه أعلم " لا محلّ لها اعتراضيّة.

وجملة: " وضعت لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: " ليس الذكر كالأنثى " لا محلّ لها معطوفة على.

النداء " 1 ".

وجملة: " إنّي سمّيتها .. " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء " 2 ".

وجملة: " سمّيتها مريم " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: " إنّي أعيذها ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء.

وجملة: " أعيذها " في محلّ رفع خبر إنّ.

الصرف:

(أعلم)، صفة مشتقّة على وزن أفعل وليست للتفضيل، وهي بمعنى عالم أو عليم.

(الرجيم)، صفة مشتقّة على وزن فعيل بمعنى مفعول أي المرجوم بمعنى المطرود من رحمة

اللّه .

(الذكر) ، صفة مشتقّة على وزن فعل بفتحتين .

البلاغة

1 - " قالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى " فائدة الخبر للتحسر فليس الغرض من هذا الكلام الإخبار لأنه إما للفائدة أو للازمها ، وعلم اللّه تعالى محيط بهما ، فيكون لمجرد التحسر والتحزن .

2 - المراد بالخبر في قوله تعالى " وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ " لازم الفائدة ، وليس المراد الرد عليها في إخبارها بما هو سبحانه أعلم به كما يتراءى من السياق بل الجملة " اعتراضية " سيقت لتعظيم المولود الذي وضعته وتفخيم شأنه والتجهيل لها بقدرة - أي واللّه أعلم بالشيء الذي وضعته وما علق به من عظائم الأمور ودقائق الأسرار وواضح الآيات ، وهي غافلة عن ذلك كله .

(1 ، 2) أو معطوفة على الاعتراضيّة إذا كانت من تمام قول اللّه المعترض .

3 - " وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ " أتى هنا بخبر إن فعلا مضارعا دلالة على طلبها استمرار الاستفادة دون انقطاعها هذا بخلاف " وضعتها ، وسميتها " حيث أتى بالخبرين ماضيين لانقطاعهما وقدم المعاذ به على المعطوف الآتي اهتماما به .

4 - " وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى " اعتراض آخر مبين لما اشتمل عليه الأول من التعظيم وليس بيانا لمنطوقه حتى يلحق بعطف البيان الممتنع فيه العطف 5 - الإطناب : في قوله تعالى " وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ " .

وغرضها من عرضها على علام الغيوب التقرب إليه تعالى واستدعاء العصمة لها - فإن مريم في لغتهم بمعنى العابدة وقال القرطبي : معناه خادم الرب - وإظهار أنها غير راجعة عن نيتها وإن كان ما وضعته أنثى وأنها وإن لم تكن خليقة بسدانة بيت المقدس فلتكن من العابدات فيه .

6 - قوله " وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ " التفات من الخطاب إلى الغيبة إظهارا لغاية الإجلال .

الفوائد

1 - اسم مريم في لغتهم آنئذ هي " العابدة " وقد سميت بنت عمران بهذا الاسم أملا وطمعا بأن تكون من العابدات . وقولها : إني سميتها مريم هذا الخبر لازم الفائدة وليس المقصود إخبار الله بالتسمية لأنه أعلم بذلك .

2 - في قوله تعالى : " قَالَتْ رَبِّ " . .

إذا كان المضاف إلى ياء المتكلم أبا أو أما جاز فيه ثلاث لغات: إحداها:

يا أب ويا أمّ بحذف الياء، والثانية يا أبي ويا أمي، والثالثة يا أبا ويا أما. ويجوز فيهما أيضا

حذف ياء المتكلم والتعويض عنها بتاء التأنيث: نحو يا أبت ويا أمت ويا أبت ويا أمت

ويجوز إبدال هذه التاء بهاء الوقف نحو يا أبه ويا أمّه. وقريب من ذلك اضافة لفظ "الرب"

إلى ياء المتكلم فتقول: يا ربّ، ويا ربّ، ويجوز حذف ياء النداء فتقول: ربّ وربّ فالأولى

على لغة من لا ينتظر والثانية على من ينتظر،

وإذا قلنا يا ربّ فهي على لغة من ينتظر اضافتها لغير ياء المتكلم. مثل "يا ربّ العباد".

[سورة آل عمران (3): آية 37]

(148/119)

فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً وَكَفَّلَها زَكَرِيَّا كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (37)

الإعراب:

(الفاء) استئنافيّة (تقبّل) فعل ماض و(الهاء) ضمير في محلّ نصب مفعول به، (ربّ) فاعل

مرفوع و(ها) مضاف إليه (الباء) حرف جرّ زائد " 1 " ، (قبول) مجرور لفظا منصوب محلا مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه ملاقيه في الاشتقاق (حسن) نعت لقبول مجرور مثله لفظا (الواو) عاطفة (أنبتها) مثل تقبّلها (نباتا) مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه ملاقيه في الاشتقاق (حسنا) نعت لـ (نباتا) منصوب مثله (الواو) عاطفة (كفّلها) مثل تقبّلها (زكريّا) مفعول به ثان منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (كلّما) ظرف شرطيّ متعلّق بالجواب وجد " 2 " . . وما حرف مصدريّ (دخل) فعل ماض (على) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (دخل) ، (زكريّا) فاعل ومرفوع وعلامة الرفع

---

(1) أو حرف جرّ أصلي ، والجارّ والمجرور متعلّق بـ (تقبّلها) والباء للاستعانة . . قال أبو حيّان : والقبول اسم لما يقبل به الشيء كالسعوط لما يسعط به .

(2) يجوز أن يكون الجواب قال ، وجملة وجد حال .

الضمّة المقدّرة على الألف (المحراب) مفعول به على التوسّع " 1 " ، (وجد) مثل دخل (عند) ظرف مكان متعلّق بـ (وجد) " 2 " ، و(ها) مضاف إليه (رزقا) مفعول به

منصوب.

والمصدر المؤوّل (ما دخل) في محلّ جرّ مضاف إليه أي: كلّ وقت دخول.

(قال) مثل دخل (يا) أداة نداء (مريم) منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (أنّي) اسم استفهام في محلّ نصب على الظرفيّة المكانية متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (اللام) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بالخبر المحذوف (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر (قالت) فعل ماض و(التاء) للتأنيث (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (من عند) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور. (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (يرزق) مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (يشاء) مثل يرزق (بغير) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال "3"، (حساب) مضاف إليه مجرور.

جملة: "تقبّلها ربّها" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أنبتها" لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "كفّلها" لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

---

(1) لأن (دخل) يتعدّى بالحرفين (في) أو (إلى).

(2) يجوز تعليقه بمحذوف حال من (رزقا) .

(3) انظر الآية (27) من هذه السورة واحتمالات تعليق الجارّ والمجرور المختلفة .

(150/119)

وجملة : " دخل عليها " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ .

وجملة : " وجد " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يا مريم . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنّي لك هذا " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " قالت . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " هو من عند اللّه " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّ اللّه يرزق . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : " يرزق من يشاء " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يشاء " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

الصرف :

(قبول) ، هو بلفظ اسم المصدر ، ويصحّ فتح القاف وضمّها . . أو هو مصدر قبل الثلاثيّ ، وزنه فعول بفتح الفاء .

(حسن) ، صفة مشبّهة ، وزنه فعل بفتحتين ، فعله حسن يحسن باب كرم (انظر البقرة - 245) .

(نباتا) ، اسم مصدر من أنبت ، مصدره القياسيّ إنبات ، وزن نبات فعال بفتح الفاء .

(زكريّا) ، هو مقصور زكرياء وهمزته للتأنيث .

(المحراب) ، اسم مكان على غير القياس ، وزنه مفعال بكسر الميم ، وفعله حارب وهو كلّ مكان يحارب فيه الشيطان خاص بالعبادة .

---

(1) يحتمل أن تكون الجملة من تمام قول مريم ، ويحتمل أن تكون من كلام اللّه تعالى .

[. . . . . .]

(151/119)

البلاغة

1 - الجناس المغاير : في قوله " فَتَقَبَّلَهَا رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ " وفي قوله " وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً " وقوله " رزقا " . و " يرزق " .

2 - " فتقبلها " أي رضي بمريم في النذر مكان الذكر .

ففيه تشبيه النذر بالهدية ورضوان اللّه تعالى بالقبول .

3 - " و أنبتها " مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع أحوالها . فهو مجاز مرسل بعلاقة اللزوم فإن الزارع يتعهد زرعه بسقيه عند الاحتياج وحمايته عن الآفات وقلع ما يخنقه من النبات .

4 - الإشارة : وهو التعبير باللفظ الظاهر عن المعنى الخفي في قوله " هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ " أي هو رزق لا يأتي به في ذلك الوقت إلا اللّه .

5 - التنكير : في قوله " رزقا " لإفادة الشيوع والكثرة ، وأنه ليس من جنس واحد بل من أجناس كثيرة .

الفوائد

1 - " كلّما " : إذا اتصلت " ما " بلفظ " كل " تعرب " ما " مصدرية ظرفية وهذا الوصل وارد في قواعد رسم اللغة أثناء الكتابة ومنه وصل " ما الاسمية " بكلمة " سيّ " مثل أحب أصدقائي ولا سيما زهير " إذا كسرت عينها مثل " نعمّا يعظكم به " فإذا سكنت عينها وجب الفصل مثل " نعم ما تفعل " وقد وصلوا " ما " الحرفية الزائدة أيا كان نوعها بما قبلها مثل " طالما نصحت لك " و " أَنَّما إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واحِدٌ " و " أتيت لكنما اسامة لم يأت " و " عند ما تجتهد تنجح " و " عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ " و " مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا " و "

أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ" و "أينما تجلس اجلس" وإمّا تجتهد تنجح" و "إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ" و "اجتهد كيما تنجح" وقد وصلوا ما المصدرية بكلمة "مثل" وكلمة "ريث" وكلمة "حين" وكلمة "كل" وهي بعد كلمة "كل" خصوصا مصدرية ظرفية.

[سورة آل عمران (3) : آية 38]

هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ (38)

الإعراب:

(هنا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ نصب على الظرفيّة الزمانيّة خروجا على حقيقته المكانيّة متعلّق بـ (دعا) وهو فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدر على الألف (زكريّا) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (ربّ) مفعول به منصوب و(الهاء) ضمير مضاف إليه (قال) فعل ماض والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (ربّ) منادى مضاف منصوب، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل ياء المتكلّم المحذوفة و(الياء) المحذوفة ضمير مضاف إليه (هب) فعل أمر دعائيّ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (اللام) حرف جرّ و(الياء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (هب)، (من) حرف جرّ (لدن) اسم مبنيّ على

السكون في محلّ جرّ متعلّق بـ (هب) " 1 " ، و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (ذريّة) مفعول به منصوب (طيّبة) نعت لذريّة منصوب مثله (انّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد و(الكاف) اسم إنّ (سميع) خبر إنّ مرفوع (الدعاء) مضاف إليه مجرور .

جملة : " دعا زكريّا " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة : " قال . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " النداء . . رب " لا محلّ لها اعتراضيّة للاسترحام .

وجملة : " هب لي " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنك سميع " لدعاء لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من ذريّة .

(153/119)

الصرف :

(دعا) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله دعو ، جاءت الواو متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا ، وهو من باب نصر .

(هب) فيه إعلال بالحذف ماضيه وهب معتلّ مثال تحذف فاؤه في المضارع والأمر ، وزنه

على بفتح العين (وانظر الآية 8 من هذه السورة) .

(سميع) ، صفة مشبّهة - من صفات اللّه - أو مبالغة اسم الفاعل لأنه من المتعدّي سمع يسمع باب فرح ، وزنه فعيل (انظر الآية 127 من سورة البقرة) .

(الدعاء) ، فيه إبدال لام الكلمة ، وهي الواو ، همزة لتطرّفها بعد ألف زائدة ساكنة ، أصله الدعاو فهو من فعل دعا يدعو ، وزنه فعال بضمّ الفاء (انظر الآية 171 من سورة البقرة) .

[سورة آل عمران (3) : آية 39]

فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (39)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (نادت) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . و(التاء) تاء التأنيث و(الهاء) ضمير في محلّ نصب مفعول به (الملائكة) فاعل مرفوع (الواو) حاليّة (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (قائم) خبر مرفوع (يصلّي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (في المحراب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يصلّي) أو باسم الفاعل قائم (أنّ) حرف مشبّه بالفعل (اللّه) لفظ الجلالة اسم أنّ منصوب (يبشّر) مضارع مرفوع و(الكاف) ضمير في محلّ نصب مفعول به (بيحيى) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يبشّر) بحذف مضاف أي بولادة يحيى .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه يبشّرك) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (نادته) ، أي : نادته الملائكة بأنّ اللّه يبشّرك .

(مصدّقا) حال منصوبة من يحيى (بكلمة) جارّ ومجرور متعلّق باسم الفاعل (مصدّقا) " 1 " ، (من اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لكلمة (الواو) عاطفة (سيّدا) معطوفة على (مصدّقا) منصوب مثله وكذلك (حصورا ، نبيّا) معطوفان بحرفي العطف منصوبان (من الصالحين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لـ (نبيّا) ، وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " نادته الملائكة " لا محلّ لها معطوفة على الاستئناف الأول في الآية السابقة .

وجملة : " هو قائم . . " في محلّ نصب حال إمّا من الضمير المفعول في نادته ، وإمّا من الملائكة .

وجملة : " يصلّي في المحراب " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ هو " .

وجملة : " يبشّرك " في محلّ رفع خبر أنّ .

الصرف :

(نادته) ، فيه إعلال بالحذف ، حذفت منه الألف لالتقاء الساكنين وهي المنقلبة عن ياء ، وزنه فاعته .

(قائم) ، اسم فاعل من قام يقوم ، وقلب حرف العلّة الواو همزة قياسا في اسم الفاعل

للأجوف حيث يقلب حرف العلّة دائما إلى همزة بعد

---

(1) الكلمة: يعني عيسى عليه السلام أي مصدّقا بعيسى، وكان يحيى أول من صدّق به.

(2) يجوز أن تكون الجملة حالا من الضمير في قائم - وحينئذ يصحّ تعليق (في المحراب) بقائم - كما يجوز أن يكون حالا من الضمير المفعول في نادته.

ألف فاعل (انظر الآية 18 من هذه السورة).

(يحيى)، فيه قولان: الأول أنه منقول من المضارع يحيا لأن العرب تسمّي بالأفعال كثيرا مثل يعيش ويعمر، وقال بعضهم سمّوه يحيى لأن اللّه أحياه بالإيمان.. وعلى ذلك فهو ممنوع من الصرف للعلميّة ووزن الفعل. والقول الثاني أنّه أعجميّ لا اشتقاق له - وهذا هو الظاهر - فامتناعه للعلميّة والعجمة.

(كلمة)، اسم لما ينطق به الإنسان مفردا أو مركّبا، وزنه فعلة بفتح فكسر، وقد يقرأ على وزن فعلة بكسر فسكون (انظر الآية 37 من سورة البقرة).

(سيّدا)، صفة مشبّهة من ساد يسود على وزن فيعل، وأصله سيود، التقت الياء والواو

في الكلمة وجاءت الأولى ساكنة قلبت الواو ياء وأدغمت مع الياء الثانية.

(حصورا) صفة مشتقّة فهي مبالغة اسم الفاعل وزنه فعول بمعنى الفاعل، والحصور هو الذي لا يأتي النساء وهو القادر على ذلك.

[سورة آل عمران (3) : آية 40]

قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عاقِرٌ قالَ كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (40)

الإعراب:

(قال ربّ) مضى إعرابها " 1 "، (أنّى) اسم استفهام بمعنى كيف في محلّ نصب حال، أو ظرف بمعنى من أين متعلّق بـ (يكون) التامّ أو بخبره إن كان ناقصا (يكون) مضارع تامّ مرفوع (اللام) حرف جرّ

---

(1) في الآية (38) من هذه السورة.

و(الياء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يكون) " 1 " ، (غلام) فاعل يكون مرفوع " 2 " ، (الواو) حاليّة (قد) حرف تحقيق (بلغ) فعل ماض و(النون) للوقاية و(الياء) ضمير مفعول به (الكبر) فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (امرأة) مبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء و(الياء) ضمير مضاف إليه (عاقر) خبر مرفوع (قال) فعل ماض والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (كذا) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله يفعل " 3 " ، و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (يفعل) مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (يشاء) مضارع مرفوع والفاعل هو أي اللّه.

جملة: " قال . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " النداء وما في حيّزها " في محلّ نصب مقول القول " 4 " .

وجملة: " أنّى يكون لي غلام " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: " بلغني الكبر " في محلّ نصب حال.

وجملة: " امرأتي عاقر " في محلّ نصب معطوفة على جملة الحال.

وجملة: " قال (الثانية) " لا محلّ لها استئناف بياني.

وجملة: " اللّه يفعل . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "يفعل... " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه).

---

(1) أو بخبر يكون المحذوف إن كان ناقصا.

(2) أو اسم يكون الناقص و(لي) خبره.

(3) أو متعلّق بمحذوف خبر، والمبتدأ مقدّر أي: الأمر كذلك.

(4) أو جملة النداء وحدها دعائية اعتراضيّة لا محلّ لها، وجملة: أنّى يكون هي مقول القول.

(157/119)

وجملة: "يشاء" لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

الصرف:

(عاقر)، اسم فاعل من عقرت تعقر باب ضرب وكرم، وزنه فاعل، وهو على معنى المفعول أي المعقورة.

(غلام)، اسم جامد ذات، وزنه فعال بضمّ الفاء.

[سورة آل عمران (3): آية 41]

قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ

بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ (41)

الإعراب:

(قال ربّ) مرّ إعرابها " 1 "، (اجعل) فعل أمر دعائيّ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (اللام) حرف جرّ و(الياء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (آية) مفعول به أوّل منصوب (قال) فعل ماض والفاعل هو (آية) مبتدأ مرفوع و(الكاف) ضمير مضاف إليه (أن) حرف مصدري ونصب (لا) نافية (تكلّم) مضارع منصوب، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (الناس) مفعول به منصوب.

والمصدر المؤوّل (ألّا تكلّم الناس) في محلّ رفع خبر المبتدأ آيتك.

(ثلاثة) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (تكلّم)، (أيّام) مضاف إليه مجرور (إلّا) أداة استثناء (رمزا) مستثنى منصوب على الاستثناء المنقطع - الإشارة ليست كلاما - أو المتّصل - الإشارة من بعض الكلام - (الواو) عاطفة (اذكر) فعل أمر والفاعل أنت (ربّ) مفعول به منصوب و(الكاف) ضمير مضاف إليه (كثيرا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته

---

(1) في الآية (37) من هذه السورة.

(الواو) عاطفة (سبّح) مثل اذكر (بالعشيّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (سبّح) ، (الواو) عاطفة (الإبكار) معطوف على العشيّ مجرور مثله .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ربّ اجعل (الندائيّة) " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اجعل " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " قال (الثانية) " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " آيتك ألا تكلّم الناس " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اذكر " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول الثانية .

وجملة : " سبّح " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول الثانية .

الصرف :

(رمزا) ، مصدر سماعيّ لفعل رمز يرمز باب ضرب وباب فتح ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(العشيّ) ، مفرد ، أو جمع مفرده عشيّة ، وفيه إعلال بالقلب ، أصله عشيو - لأن فعله عشا يعشو مصدر عشو ، فلمّا التقت الياء والواو متطرفتين في الكلمة والأولى كانت ساكنة قلبت الواو ياء وأدغمت مع الياء الثانية فقيل عشيّ . . وزنه فعيل .

(الإبكار) ، مصدر قياسيّ للفعل الرباعىّ أبكر ، وزنه إفعال .

البلاغة

1 - في قوله تعالى " رمزا " فن الإشارة، لأنه دل على ما في نفس البشر من خلجات ومعان.

الفوائد

- قوله تعالى " إِلَّا رَمْزاً " في هذا اللفظ اشارة إلى فنّ الإيماء والإيحاء بواسطة الهيئة والحركة، وقد ألمح إلى هذا الاتجاه شعراؤنا فيما غبر من الزمن قال أبو تمام!

توحي بأسرارنا حواجبنا وأعين بالوصال ترتشق

وقال أيضا:

كلّمته بجفون غير ناطقة فكان من رده ما قال حاجبه

وقال غيره:

إذا كلمتني بالعيون الفواتر رددت عليها بالدموع البوادر

ومما يجدر ذكره أنه نحا هذا النحو بعض المؤلفين من علماء الغرب فألف في فنّ الإيماء ودوره في التعبير كتبا، لها قيمتها ورواجها

[سورة آل عمران (3): آية 42]

وَإِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ (42)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (إذ) ظرف في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (قال) فعل

ماض و(التاء) للتأنيث (الملائكة) فاعل مرفوع (يا) أداة نداء (مريم) منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد (اللّه) اسم إنّ منصوب

(159/119)

(اصطفى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف و(الكاف) ضمير متّصل في محلّ نصب مفعول به، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الواو) عاطفة في الموضعين (طهّرك) مثل اصطفاك وكذلك اصطفاك الثاني (على نساء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اصطفاك)، (العالمين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء.

جملة: "قالت الملائكة.." في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "النداء وما في حيّزها" في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "إنّ الله اصطفاك" لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: "اصطفاك" في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "طهرك" في محلّ رفع معطوفة على جملة اصطفاك.

وجملة: "اصطفاك" في محلّ رفع معطوفة على جملة اصطفاك (الأولى).

[سورة آل عمران (3) : آية 43]

يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (43)

الإعراب :

(يا مريم) مرّ إعرابها في الآية السابقة (اقنتي) فعل أمر مبنيّ على حذف النون والياء ضمير مبنيّ في محلّ رفع فاعل (لربّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اقنتي) و(الكاف) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة في الموضعين (اسجدي ، اركعي) مثل اقنتي (مع) ظرف مكان منصوب متعلّق بفعل اركعي (الراكعين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

جملة " النداء وما في حيّزها " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اقنتي لربّك " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " اسجدي " لا محلّ لها معطوفة على جملة اقنتي .

وجملة : " اركعي " لا محلّ لها معطوفة على جملة اقنتي .

البلاغة

1 - " يا مَرْيَمُ " تكرير النداء للإيذان بأن المقصود بالخطاب ما يرد بعده وأن ما قبله من تذكير بالنعم كان تمهيدا لذكره وترغيبا في العمل بموجبه .

2 - " وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ " التقديم : فقد قدم السجود على الركوع وذلك إما لكون الترتيب في شريعتهم كذلك وإما لكون السجود أفضل أركان الصلاة وأقصى مراتب الخضوع .

[سورة آل عمران (3) : آية 44]

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (44)

الإعراب:

(ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ و(الكاف) حرف خطاب و(اللام) للبعد (من أنباء) جار ومجرور متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (الغيب) مضاف إليه مجرور (نوحي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة و(الهاء) ضمير مفعول به في محلّ نصب، والفاعل ضمير مستتر تقديره. نحن للتعظيم (إلى) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نوحيه)، (الواو) عاطفة (ما) نافية (كنت) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون.. و(التاء) اسم كان (لدي) ظرف مكان مبنيّ على السكون في محلّ نصب متعلّق بمحذوف خبر كان و(هم) ضمير متّصل مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (إذ) ظرف للزمن الماضي مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بالخبر المحذوف (يلقون) مضارع مرفوع.. والواو فاعل (أقلام) مفعول به منصوب و(هم) مضاف إليه (أيّ) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ

و(هم) مضاف إليه (يكفل) مضارع مرفوع، والفاعل

ضمير مستتر تقديره هو (مريم) مفعول به منصوب ومنع من التنوين للعلميّة والتأنيث (الواو)

عاطفة (ما كنت لديهم إذ) مثل الأولى (يختصمون) مثل يلقون.

جملة: "ذلك من أنباء الغيب" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "نوحيه" في محلّ نصب حال من الغيب.

وجملة: "ما كنت لديهم" لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "يلقون.." في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "أيّهم يكفل.." في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف.

وجملة: "يكفل.." في محلّ رفع خبر المبتدأ أيّهم.

وجملة: "ما كنت لديهم (الثانية)" لا محلّ لها معطوفة على الأولى.

وجملة: "يختصمون" في محلّ جرّ مضاف إليه.

الصرف:

(أنباء) ، جمع نبأ وهو اسم مصدر من أنبأ أو نبّأ ، والقياس في مصدر الفعلين أن يقال إنباء - بكسر الهمزة الأولى - أو تنبئ ، ووزن نبأ فعل بفتحتين.

(يلقون) ، فيه إعلال بالحذف جرى فيه مجرى تلقوا (انظر الآية 195 من سورة البقرة).

(أقلامهم) ، جمع قلم اسم جامد ذات ، وزنه فعل بفتحتين.

البلاغة

1 - " إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ " أي يرمونها ويطرحونها للاقتراع على سبيل الكناية أي كناية عن القرعة.

[سورة آل عمران (3) : آية 45]

إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (45)

الإعراب:

(إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله) سبق إعرابها " 1 " ، (يبشّر) مضارع مرفوع و(الكاف) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (بكلمة) جارّ ومجرور متعلّق ب (يبشّر) ، (من) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف نعت لكلمة (اسم) مبتدأ مرفوع و(الهاء) مضاف إليه ، (المسيح) خبر مرفوع (عيسى) بدل من المسيح مرفوع مثله وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة (ابن) نعت لعيسى أو بدل منه مرفوع مثله " 2 " ، (مريم)

مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة لامتناعه من الصرف للعلميّة والتأنيث (وجيها) حال منصوبة من لفظ كلمة (في الدنيا) جارّ ومجرور متعلّق بـ (وجيها) لأنه صفة مشتقّة، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (الآخرة) معطوف على الدنيا مجرور مثله (الواو) عاطفة (من المقرّبين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال معطوفة على الحال الأولى، وعلامة الجرّ الياء.

جملة: "قالت الملائكة.." في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "يا مريم" في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "إنّ اللّه يبشّرك" لا محلّ لها جواب النداء.

---

(1) في الآية (42) من هذه السورة.

(2) قال العكبري: "ابن مريم خبر مبتدأ محذوف أي هو ابن، ولا يجوز أن يكون بدلا ممّا قبله ولا صفة، لأن ابن مريم ليس باسم..." اه. ولكنّ المعنى في الآية قد يحتمل الإخبار وقد يحتمل الوصفيّة للفظ عيسى، وإنّ إثبات الألف في (ابن) في الرسم القرآنيّ قد يكون المقصود منه اعتبار ابن خبرا لا صفة ولكنّ المبتدأ ليس لفظ عيسى بل الضمير المستتر

هو .

وجملة : " يبشّرك " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " اسمه المسيح " في محلّ جرّ نعت لكلمة .

الصرف :

(المسيح) ، قال بعضهم هو لفظ عبريّ معناه المبارك ، وقال آخرون هو مبالغة اسم الفاعل وزنه فعيل على أحد قولين لأنه مسيح الأرض بالسياحة أو لأنه يمسح ذا العاهة فيبرأ ، أو هو فعيل بمعنى المفعول على قول آخر لأنه مسح بالبركة ، أو لأنه مسيح القدم أو مسيح وجهه بالملاحة ثمّ نقل من الصفة إلى الاسم .

(عيسى) ، قيل هو مأخوذ من العيس وهو بياض تعلوه حمرة (وانظر الآية 87 من سورة البقرة) .

(وجيها) ، صفة مشبّهة وزنه فعيل من فعل وجه يوجه باب كرم .

(المقرّبين) ، جمع المقرّب ، اسم مفعول من قرّب الرباعيّ وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين المشدّدة .

الفوائد

- إذ تكون ظرفا للزمان نحو : " جئت إذ طلعت الشمس " وقد تكون ظرفا للمستقبل كقوله تعالى : " فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ " وقد تقع موقع المضاف إليه فيضاف

اسم زمان كقوله تعالى : رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وهي تلزم الإضافة إلى الجمل ، وقد يحذف جزء من الجملة أو كلها ويعوض عنها بتنوين العوض كقوله تعالى : " فَلَوْلا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ " أي حين بلغت الروح الحلقوم تنظرون .

وقد أضاف بعضهم أنها تكون للتعليل واستشهد بقول الفرزدق :

(163/119)

فأصبحوا قد أعاد اللّه نعمتهم إذ هم قريش وإذ ما مثلهم بشر

وكذلك ورد كونها للمفاجاة وهي الواقعة بعد " بينا وبينما " كقول الشاعر :

استقدر اللّه خيرا وأرضينّ به فبينما العسر إذ دارت مياسير

وفي هذه الحالة يرجح كونها حرفا .

[سورة آل عمران (3) : آية 46]

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (46)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (يكلّم) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (الناس) مفعول به منصوب (في المهد) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من فاعل يكلّم " 1 " ، (الواو) عاطفة (كهلا) معطوف

على الحال المحذوفة منصوب (الواو) عاطفة (من الصالحين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من لفظ كلمة - في الآية السابقة - وعلامة الجرّ الياء ، وهذه الحال معطوفة على (وجيها) .

جملة : " يكلّم الناس . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة اسمه المسيح " 2 " .

[سورة آل عمران (3) : آية 47]

قالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قالَ كَذلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (47)

---

(1) لا يجوز تعليق الجارّ والمجرور بفعل يكلّم لبعد المعنى .

(2) في الآية السابقة ، أو في محلّ نصب حال من لفظ كلمة لأنها وصفت بالجارّ والمجرور وبالجملة .

الإعراب :

(قالت) فعل ماض ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هي أي مريم . . و(التاء) للتأنيث (ربّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل ياء المتكلّم

المحذوفة للتخفيف، والياء المحذوفة ضمير مضاف إليه (أنّى) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب حال عاملها فعل يكون التام " 1 "، (يكون) مضارع تام مرفوع (اللام) حرف جرّ و(الياء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يكون) " 2 "، (ولد) فاعل يكون " 3 " مرفوع (الواو) حاليّة (لم) جازمة نافية (يمسس) مضارع مجزوم و(النون) للوقاية و(الياء) ضمير مفعول به (بشر) فاعل مرفوع (قال) فعل ماض والفاعل هو (الكاف) حرف جرّ و(ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر لمبتدأ مقدّر أي: الأمر كذلك " 4 "، و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (يخلق) مضارع مرفوع، والفاعل هو (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (يشاء) مضارع مرفوع، والفاعل هو (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمّن معنى الشرط متعلّق بمضمون الجواب (قضى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر، والفاعل هو (أمرا) مفعول به منصوب (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّما) كافّة ومكفوفة لا عمل لها (يقول) مثل يخلق (له) مثل لي متعلّق بـ (يقول)، (كن) فعل أمر تام، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (الفاء) عاطفة سببيّة (يكون) مثل الأول.

جملة: " قالت.. " لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) أو هو خبر إذا كان الفعل ناقصا. [.....]

(2) أو بمحذوف حال من ولد.

(3) أو اسمه إذا كان ناقصا .

(4) أو متعلّق بمفعول مطلق محذوف عامله يخلق أي : يخلق اللّه ما يشاء كذلك .

(165/119)

وجملة النداء : " ربّ " لا محلّ لها اعتراضيّة . . أو هي وصلتها مقول القول .

وجملة : " يكون " في محلّ نصب مقول القول . . أو جواب النداء .

وجملة : " لم يمسسني بشر " في محلّ نصب حال .

وجملة : " قال . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة : " (الأمر) كذلك " في محل نصب مقول القول .

وجملة : " اللّه يخلق " في محلّ نصب بدل من جملة (الأمر) كذلك .

وجملة : " يخلق ما يشاء " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " يشاء " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " قضى أمرا " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " إنّما يقول . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " كن " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يكون " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو .

والجملة الاسمية لا محلّ لها معطوفة على جملة يقول .

الصرف :

(بشر) ، اسم جامد بمعنى الإنسان ذكرا أو أنثى واحدا وجمعا ، وزنه فعل بفتحتين .

(قضى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله قضي ، جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا .

[سورة آل عمران (3) : آية 48]

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ (48)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (يعلّم) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو و(الهاء) ضمير مفعول به (الكتاب) مفعول به ثان

منصوب (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (الحكمة ، التوراة ، الإنجيل) ألفاظ معطوفة على الكتاب منصوبة مثله .

جملة : " يعلّمه الكتاب " في محلّ جرّ معطوفة على جملة اسمه المسيح " 1 " .

[سورة آل عمران (3) : آية 49]

وَرَسُولاً إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِما

تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (49)

الإعراب:

(166/119)

(الواو) عاطفة (رسولا) مفعول به لفعل محذوف تقديره يجعله " 2 " ، (إلى بني) جار ومجرور متعلّق بـ (رسولا) لأنه صفة مشتقّة ، وعلامة الجرّ الياء فهو ملحق بجمع المذكّر (إسرائيل) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة فهو ممنوع من الصرف للعلميّة والعجمة (أنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد و(الياء) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (قد) حرف تحقيق (جئت) فعل ماض وفاعله و(كم) ضمير مفعول به (بآية) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من الفاعل أي محتجّا بآية (من ربّ) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لآية و(كم) ضمير مضاف إليه.

---

(1) في الآية (45) من هذه السورة.

(2) يجوز أن يكون (رسولا) مصدرا في موضع الحال.. أو معطوفا على (الكتاب) في الآية السابقة أي ويعلّمه رسالة.

والمصدر المؤوّل (أنّي قد جئتكم . . .) في محلّ جرّ بجارّ محذوف أي بأنّي قد جئتكم . . والجارّ والمجرور متعلّق بمحذوف حال من (رسولا) ، أي يجعله رسولا ناطقا بأنّي قد جئتكم .

(أنّي) مثل الأول (أخلق) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أخلق) ، (من الطين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أخلق) ، (الكاف) حرف جرّ " 1 " ، (هيئة) مجرور بالكاف متعلّق بمحذوف نعت للمفعول المقدّر أي : أخلق شيئا كائنا كهيئة الطير ، (الطير) مضاف إليه مجرور .

والمصدر المؤوّل (أنّي أخلق . . .) في محلّ جرّ بدل من المصدر المؤوّل السابق أو بدل من آية " 2 " .

(الفاء) عاطفة (أنفخ) مثل أخلق (في) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنفخ) ، والضمير يعود على المفعول المقدّر أو على الهيئة أي المهيّأ (الفاء) عاطفة (يكون) مضارع ناقص مرفوع (طيرا) خبر منصوب " 3 " ، (بإذن) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لـ (طيرا) " 4 " ، (الواو) عاطفة (أبرئ) مثل أخلق (الأكمه) مفعول به منصوب

(الواو) عاطفة (الأبرص) معطوف على الأكمه منصوب مثله (الواو) عاطفة (أحيي) مثل أخلق وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء (الموتى) مفعول به

---

(1) أو اسم بمعنى مثل في محلّ نصب نعت لمفعول به محذوف. أي أخلق لكم شيئًا مثل هيئة الطير.

(2) أو في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي.

(3) بعضهم يجعله حالا عامله الفعل التام يكون.. وفيه بعد.

(4) من يجعل (يكون) تاما يجيز تعليق الجارّ والمجرور به.

(168/119)

منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (بإذن اللّه) مثل الأولى والجارّ والمجرور متعلّق بـ (أحيي)، (الواو) عاطفة (أنبئ) مثل أخلق و(كم) ضمير مفعول به (الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنبّئكم)، (تأكلون) مضارع مرفوع.. والواو فاعل (الواو) عاطفة (ما تدّخرون) مثل ما تأكلون (في بيوت) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تدّخرون)، و(كم) ضمير مضاف إليه. (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (في) حرف جرّ (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر إنّ و(اللام) للبعد

و(الكاف) للخطاب (اللام) لام الابتداء للتوكيد (آية) اسم إنّ منصوب (لكم) مثل الأول متعلّق بمحذوف نعت لآية (إن) حرف شرط جازم (كنتم) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . (وتم) ضمير اسم كان (مؤمنين) خبر كان منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : " (يجعله) رسولا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يعلّمه في الآية السابقة .

وجملة : " جئتكم " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " أخلق " في محلّ رفع خبر أنّ الثاني .

وجملة : " أنفخ " في محلّ رفع معطوفة على جملة أخلق .

وجملة : " يكون " في محلّ رفع معطوفة على جملة أنفخ .

وجملة : " أبرئ . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أخلق .

وجملة : " أحيي . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أخلق .

وجملة : " أنبّئكم " في محلّ رفع معطوفة على جملة أخلق .

وجملة : " تأكلون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " تدّخرون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة : " إنّ في ذلك لآية " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إن كنتم " لا محلّ لها استئنافيّة . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي

إن كنتم مؤمنين فهذه الخوارق آيات لكم نافعة هادية.

الصرف:

(هيئة)، مصدر بمعنى المهيّأ، كالخلق بمعنى المخلوق، أو هو اسم لحال الشيء وليس مصدرا.

(الطير)، اسم جمع والطائر مفرده، أو هو اسم جنس يراد به الواحد وما فوقه (البقرة- 260).

(الطين)، اسم جامد ذات، وقد اشتقّ منه فعل طان يطين باب ضرب شذوذا بمعنى طلا بالطين. وزنه فعل بكسر فسكون.

(الأكمه)، صفة مشبّهة من كمه يكمه باب فرح وعمي، وزنه أفعل.

(الأبرص)، صفة مشبّهة من برص يبرص باب فرح وزنه أفعل.

(تدّخرون)، فيه إبدال، أصله تذتخرون، جاءت تاء الافتعال بعد الذال قلبت دالا ثمّ قلبت الذال دالا وأدغمت مع الدال الأولى فأصبح تدّخرون، وزنه تفتعلون.

(بيوتكم)، جمع بيت، اسم جامد ذات وزنه فعل بفتح فسكون.

[سورة آل عمران (3): آية 50]

وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (50)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (مصدّقا) معطوفة على محلّ آية وهو

(169/119)

النصب لأنه حال أي جئتكم بآية من ربّكم ومصدّقا (اللام) حرف جرّ زائد للتقوية (ما) اسم موصول في محلّ جرّ - وهو المحلّ القريب - وفي محلّ نصب مفعول به لاسم الفاعل مصدق (بين) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (يديّ) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء . . و(الياء) ضمير مضاف إليه (من التوراة) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من الاسم الموصول، والعامل فيه (مصدّقا) ، (الواو) عاطفة (اللام) للتعليل (أحلّ) مضارع منصوب بـ (أنّ) مضمرة بعد اللام، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أحلّ) (بعض) مفعول به منصوب (الذي) اسم موصول في محلّ جرّ مضاف إليه (حرّم) ماض مبنيّ للمجهول، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو (على) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (حرّم) .

والمصدر المؤوّل (أن أحلّ) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل محذوف تقديره أرسلت إليكم أو جئتكم " 1 " ، (الواو) عاطفة (جئتكم) فعل ماض وفاعله ومفعوله (بآية) جارّ ومجرور

متعلّق بمحذوف حال تقديره مدعوما أو محمّلا (من ربّ) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لآية و(كم) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب " 2 " ، (اتّقوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (أطيعون) مثل اتّقوا . . والنون للوقاية ، وياء المتكلّم المحذوفة مفعول به .

---

(1) في عطف هذا المصدر المؤوّل وما تعلّق به أقوال كثيرة أسهلها وأقربها للمعنى أن نقدّر معطوفا عليه يناسب المعنى أي : لأخفّف عنكم ولأحلّ لكم . .

(2) أو رابطة لجواب شرط مقدّر . . والجملة بعدها جواب شرط مقدّر أي : إن صدّقتم بذلك فاتّقوا اللّه .

(170/119)

وجملة : " أحلّ لكم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " حرّم عليكم " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " جئتكم بآية " في محلّ رفع معطوفة على جملة قد جئتكم في الآية السابقة تتبعها في المحلّ " 1 " .

وجملة : " اتّقوا اللّه " في محلّ رفع معطوفة على جملة جئتكم برابط السببيّة .

وجملة : " أطيعون " في محلّ رفع معطوفة على جملة اتّقوا اللّه .

الفوائد

1 - قوله تعالى : " و أطيعون " نلاحظ أن الأصل " و أطيعوني " وقد حذفت ياء المتكلم بعد نون الوقاية مراعاة للفواصل بين الآيات ، وتحقيقا للجرس والإيقاع الذي هو إحدى سمات القرآن وإعجازه ، وهذه الخاصة يكثر ورودها في القرآن الكريم كقوله تعالى وَما أَدْراكَ ما هِيَهْ نارٌ حامِيَةٌ .

2 - حيال هذه المعجزات التي خص اللّه بها السيد المسيح ذهب بعض العلماء إلى أن اللّه يؤيد رسله بمعجزات تتناسب وما اشتهر به عصر كل نبي ، فموسى أيده اللّه بمعجزات تكبح جماح السحرة الذين كان لهم الصول والطول في زمانه ، وعيسى جاء إبّان ازدهار الطب فكانت معجزاته تحديا للأطباء . ومحمد صلى اللّه عليه وسلم جاء والفصاحة والبلاغة وبلوغ الشعر أوجه لدى العرب فأيّده اللّه بالقرآن الكريم الذي تحدّى العرب أن يأتوا بمثله أو بمثل سورة من سوره فكرا وفصاحة وإعجازا .

[سورة آل عمران (3) : آية 51]

إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (51)

الإعراب :

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (ربّ) خبر إنّ مرفوع

وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على

---

(1) يجوز جعل الواو استئنافيّة والجملة لا محلّ لها على الاستئناف.

(171/119)

الباء لاشتغال المحلّ بالحركة المناسبة و(الياء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (ربّكم) معطوف على ربّي مرفوع مثله.. و(كم) مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اعبدوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون..

والواو فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (صراط) خبر مرفوع (مستقيم) نعت لصراط مرفوع مثله.

جملة: "إنّ الله ربّي" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "اعبدوه" لا محلّ لها جواب شرط مقدّر.. أي إذا أردتم الفوز والنجاح فاعبدوه.

وجملة: "هذا صراط" لا محلّ لها استئنافيّة في حكم التعليل. انتهى انتهى. ا هـ

﴿الجدول حـ 3 صـ 191.104﴾

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(3) سورة آل عمران

مدنية وآياتها مائتان

[سورة آل عمران (3) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (1) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (2) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ

وَأَنْزَلَ التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ (3) مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ لَهُمْ

عَذابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (4)

إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ (5) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ

كَيْفَ يَشاءُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (6)

(الم) تقدم الكلام على فواتح السّور في أول البقرة.

)

التوراة والإنجيل) : اسمان أعجميان، وقيل عربيان. وعلى القول بعربيتهما فالتوراة مشتقة

من قولهم: ورى الزّند إذا قدح فظهر منه نار. فلما كانت التوراة فيها ضياء يخرج به من الضلال إلى الهدى كما يخرج بالنور من الظلام إلى النور سمي هذا الكتاب بالتوراة.

وقيل: هي مشتقة من وريت في كلامي من التورية. وسميت التوراة لأن فيها تلويحات وإيحاءات ومعاريض. أما الإنجيل فهو على رأي القائلين بعربيته مشتق من النجل وهو التوسعة. ومنه قولهم: عين نجلاء أي واسعة. وسمي الإنجيل بذلك لأن فيه توسعة لم تكن في التوراة.

الإعراب:

(173/119)

(الم) خبر لمبتدأ محذوف وقد تقدم القول فيه مفصّلا (اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ) اللّه مبتدأ ولا نافية للجنس وإله اسمها وإلا أداة حصر وهو بدل من محل لا واسمها على الصحيح أو من الخبر المحذوف أي لا إله موجود إلا هو، والجملة خبر "اللّه" وقد تقدّم الكلام مفصلا في إعراب كلمة الشهادة (الْحَيُّ الْقَيُّومُ) خبر ثان وثالث ل "اللّه" أو خبران لمبتدأ محذوف أي هو الحيّ القيوم (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ) الجملة خبر رابع ل "اللّه" أو خبر ثان إن جعلنا الحي القيوم خبرين لمبتدأ محذوف. ونزل فعل ماض مبني على الفتح وعليك متعلقان بنزل

والكتاب مفعول به وبالحق جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من الكتاب أي متلبسا بالحق (مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ) مصدقا: حال مؤكدة واللام حرف جر وما اسم موصول في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بقوله مصدقا وبين ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الموصول ويديه مضاف إليه مجرور بالياء لأنه مثنى وحذفت النون للإضافة والهاء مضاف إليه (وَأَنْزَلَ التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ) عطف على ما تقدم (مِنْ قَبْلُ) جار ومجرور متعلقان بأنزل (هُدىً لِلنَّاسِ) حال من التوراة والإنجيل ولم يثنّ لأنه مصدر أي هادين.

ويجوز إعراب هدى مفعولا من أجله أي أنزل هذين الكتابين لأجل هداية الناس. وللناس متعلقان بهدى (وَأَنْزَلَ الْفُرْقانَ) الواو حرف عطف وجملة أنزل الفرقان عطف على جملة أنزل التوراة والإنجيل.

من قبيل عطف العام على الخاص أي الكتب التي تفرق بين الحق والباطل (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ) جملة مستأنفة للتحدث عن وفد نجران والتفاصيل مبسوطة في المطوّلات. وإن واسمها. وجملة

كفروا صلة الموصول وبآيات الله متعلقان بكفروا (لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر وشديد صفة والجملة الاسمية في محل رفع خبر إن (وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ) الواو استئنافية والله مبتدأ وعزيز خبر أول وذو انتقام خبر ثان (إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ) إن واسمها، وجملة لا يخفى عليه شيء خبرها وفي الأرض متعلقان بمحذوف صفة لشيء ولا في السماء عطف على ما تقدم (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ) جملة مستأنفة أيضا مسوقة لبيان علمه سبحانه واطلاعه على ما لا يدخل تحت الوجود وهو تصوير عباده في أرحام أمهاتهم وهو مبتدأ والذي خبره وجملة يصوركم صلة الموصول وفي الأرحام متعلقان بيصوركم (كَيْفَ يَشاءُ) كيف هنا أداة شرط في محل نصب على الحال ولم تجزم لعدم اتصال "ما" بها.

ومفعول يشاء محذوف تقديره تصويركم والجملة حالية (لا إِلهَ إِلَّا هُوَ) تقدم إعرابه وكرره لتأكيد الكلام و(الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) خبران لمبتدأ محذوف تقديره هو.

البلاغة:

1- المجاز في قوله: "لما بين يديه" والمراد ما أمامه.

2- الطباق بين "الأرض" و"السماء".

3- الإيجاز بالحذف، فقد حذف مفعول "يشاء" للغرابة وإظهار قدرة الله تعالى.

[سورة آل عمران (3): آية 7]

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (7)

اللغة :

(175/119)

(مُحْكَمَاتٌ) : أحكمت عباراتها ، ووضحت دلالاتها ، وحفظت من الاحتمال والاشتباه .

(مُتَشَابِهَاتٌ) فيها احتمال للتأويل . وفي هذه الكلمة إيهام ، فإن مفردها متشابه ، وكيف يتشابه الشيء مع نفسه ؟ وإنما يقع التشابه بين الاثنين . ومثله يقتتلان ، والمفرد لا يقتتل ، فكيف يقتتل الواحد مع نفسه ؟ وقد وجه هذا الاعتراض إلى تقي الدين بن تيمية الإمام المشهور فقال لمن سأله : "هذا ذهن جيد" . ثم عدل عن الجواب . والذي يبدو للخاطر أن العرب نطقت بألفاظ من هذه الصيغة ولم ترد بها المفاعلة كقولهم : طابقت النّعل ، وعاقبت اللص ، وخامرت الحبّ ، وعاقرت الخمر . ولو فرضنا أن الصيغة على أصل المفاعلة كان الجواب أن التشابه لا يكون إلا بين اثنين فما فوقهما ، وإذا اجتمعت الأشياء

المتشابهة كان كل واحد متشابها للآخر ، فلما لم يصح التشابه إلا في حالة الاجتماع وصف بالجمع لأن كل واحد من مفرداته يشابه الآخر .

الحكمة في المتشابه :

فإذا خطر لك أن تسأل عن السر في الجنوح إلى ذكر المتشابه به في القرآن ، والعدول عن تعميم الحكم ؟ قيل إن القرآن في الأصل نزل على أسلوب العرب وبألفاظهم ووفقا لكلامهم ، وهو على ضربين :

منه المحكم الذي لا يخطئه السامع ، ولا يغرب عن الفهم ، ومنه ما حفل بضروب المجازات ، وأنواع الكنايات والإشارات والتلويحات .

(176/119)

وقد كان هذا الضرب الثاني ، أفعل في نفوسهم ، وأكثر استهواء لهم ، فأنزل القرآن مفرغا في الأسلوبين ، حاويا للنوعين ، ليكون التحدي أعم وأشمل ، ولو نزل كله محكما لما ترددوا في التماس المطاعن ، ولما أحجموا عن المكابرة واللجاج والاعتراض ، ولقالوا : هلّا نزل بالضرب الذي نستحسنه ، ونميل إليه ؟ هذا من جهة ، ومن جهة ثانية لما يتميّز به المتشابه من كدّ القرائح في استخراج المغالق واكتناه المرامي ، وحسر الستار عن الطرائف التي

تعالى على النظرة السطحية البدائية ، حتى إذا فتح الله عليه وتمكن من سبر أغوار المتشابه ، كان إيمانه أرسخ ويقينه أقوى من أن تعصف به الشبهات .

(الزيغ) الميل عن الحق والجنوح إلى الباطل . والزاي والياء إذا وقعتا فاء وعينا للكلمة أفادتا هذا المعنى وسمي الزيت زيتا لأنه سائل يميل بسرعة ، وزاغت الشمس تزيغ مالت ، وقس على ذلك .

الإعراب :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ) كلام مستأنف مسوق لتفصيل آيات الكتاب وأنها قسمان : قسم يفهمه الناس ، وقسم لا يفهمونه لقصورهم وعجزهم . وهو مبتدأ والذي خبره وجملة أنزل عليك الكتاب لا محل لها لأنها صلة الموصول وعليك متعلقان بأنزل والكتاب مفعول به (مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ) الجملة حال من الكتاب والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم وآيات مبتدأ مؤخر ومحكمات صفة لآيات (هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ) الجملة صفة ثانية لآيات وهن ضمير منفصل في محل

رفع مبتدأ وأم الكتاب خبره ، وأخبر عن الجمع بالواحد لأن كل واحدة بمثابة أم واحدة (وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ) عطف على آيات محكمات (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ) الفاء استئنافية مسوقة لتفضيل موقف الناس منه ، وأما حرف شرط وتفصيل والذين مبتدأ وفي قلوبهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم وزيغ مبتدأ مؤخر والجملة صلة الموصول (فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ) الفاء رابطة لجواب أما وجملة يتبعون خبر الذين واستغنى عن الجواب اكتفاء بالفاء وما اسم موصول مفعول به وجملة تشابه صلة الموصول ومنه متعلقان بتشابه وابتغاء مفعول لأجله والفتنة مضاف إليه (وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ) عطف على ابتغاء الفتنة (وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ) الواو حالية وما نافية ويعلم فعل مضارع مرفوع وتأويله مفعول به مقدم والجملة في محل نصب على الحال (إِلَّا اللَّهُ) إلا أداة حصر والله فاعل يعلم مؤخر (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ) تكلم المعربون والمفسرون كثيرا وأطالوا حول هذه الآية ، والقول الفصل فيها أنه يجوز أن تكون الواو عاطفة والراسخون معطوفة على " الله " والمعنى :

لا يهتدي إلى تأويله إلا الله وعباده الذين رسخوا في العلم وتمكنوا منه ، ويجوز أن يتم الوقوف على قوله : " إلا الله " وتكون الواو استئنافية والراسخون مبتدأ خبره جملة يقولون . وعلى القول الاول تكون جملة يقولون : حالية أي قائلين ، وقد نشأ عن هذا الاختلاف في التفسير انقسام العلماء إلى فريقين : أصحاب تأويل وأصحاب ظاهر ، ولسنا في صدد الترجيح

والمفاضلة بين الآراء المتضاربة ولكننا سنورد لمحة عنه في باب الفوائد (آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا) الجملتان مقول القول وآمنا فعل وفاعل وبه متعلقان بآمنا وكل مبتدأ ساغ الابتداء به لما في "كل" من معنى العموم والتنوين عوض عن كلمة ، ومن عند ربنا الجار والمجرور

(178/119)

متعلقان بمحذوف خبر (وَما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ) الواو حالية أو مستأنفة وما نافية ويذكر فعل مضارع مرفوع وإلا أداة حصر وأولو فاعل يذكر مرفوع بالواو لأنه ملحق بجمع المذكر السالم والألباب مضاف إليه .

الفوائد :

1- أفرد بعضهم هذه المسألة بكتاب خاص لسعة الكلام فيها ، وقد استدل القاضي البيضاوي والزمخشري قبله على اختيارهما الوقوف على " العلم " لأن في ذلك حفزا للعقول على التفكير والإبداع ، وقال الحشويّة ما خلاصته : الوقف على قوله تعالى :

" وما يعلم تأويله إلا اللّه " واجب حتى يكون قوله : " والراسخون " كلاما مستأنفا ، فاذا لم يقف عليه بل وقف على قوله " والراسخون في العلم " ليكون عطفا على قوله : " إلا اللّه " كان لا بد أن يبتدىء بقوله :

" يقولون آمنا به " أراد به : قائلين ، وهو حال ، وهو باطل ، لأنه لا يخلو إما أن يكون حالا عن " اللّه " أو عن الراسخين في العلم ، كان كان اللّه سبحانه والراسخين في العلم قالوا : آمنا به كل من عند ربنا .

وذلك في حقه تعالى محال ، أو يكون حالا عن الراسخين في العلم فقط ، وعندئذ يتخصص المعطوف بالحال دون المعطوف عليه ، وهو أيضا غير جائز ، لأنه مناف للقاعدة المقررة في العربية ، وهي أن المعطوف في حكم المعطوف عليه ، فثبت أن الوقف على قوله : " إلا اللّه " واجب . وإذا كان الوقف عليه واجبا فقد خاطبنا اللّه بما لا نفهمه وهو المهمل . قلت : لا يخفى ما في حذلقة الحشويين من براعة مبنية على المغالطة فهم يجيزون الخطاب بالمهمل ، فإنه يجوز تخصيص المعطوف بالحال حيث لا لبس ،

وهو كثير في القرآن . ومنه : " ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة " فإن " نافلة " حال من المعطوف فقط ، وهو " يعقوب " لأن النافلة هو ولد الولد وإنما هو يعقوب دون إسحق .

ما يقوله الرازي :

واستدل الامام فخر الدين الرازي في مفاتيح الغيب على أن الوقف الصحيح على قوله " إلا اللّه " بستة أوجه ، ملخص الثاني منها أن الآية دلت على أن طلب التأويل مذموم لقوله تعالى : " فأما الذين في قلوبهم زيغ " إلى آخر الآية ، ولو كان التأويل جائزا لما ذمّه اللّه . وملخص الرابع : أنه لو كانت الواو في قوله : " والراسخون " عاطفة لصار قوله :

" يقولون آمنا به " ابتداء ، وهو بعيد عند ذوي الفصاحة ، بل كان الأولى أن يقولوا : وهم يقولون آمنا به ، أو يقال : ويقولون : آمنا به ، ولهذا كله أسغنا الوجهين .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 8 إلى 10]

رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (8) رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ (9) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (10)

الإعراب :

)

رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا) الجملة مقول قول محذوف وربنا منادى مضاف ولا ناهية وهي هنا بمعنى الدعاء وتزغ فعل مضارع مجزوم بلا والفاعل أنت وقلوبنا مفعول به والظرف الزماني متعلق بتزغ

وهو مضاف إلى الظرف الذي هو إذ وإذ ظرف لما مضى من الزمن وجملة هديتنا في محل جر بالإضافة وقيل خرجت إذ عن الظرفية فهي بمعنى " أن " ولكن حكمها لم يتغير فهي ملازمة للإضافة إليها ، وهو قول جميل (وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً) الواو عاطفة وهب فعل أمر ولنا جار ومجرور متعلقان بهب ومن لدنك جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ولدن ظرف مبني على السكون في محل جر بمن والكاف مضاف إليه ورحمة مفعول به (إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) الجملة تعليل للدعاء لا محل لها وإن واسمها ، وأنت ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ والوهاب خبر أنت والجملة الاسمية في محل رفع خبر إن ويجوز أن تعرب أنت ضمير فصل لا محل له والوهاب خبر إن (رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ) ربنا منادى مضاف ، وإن واسمها ، وجامع الناس خبرها والجملة داخلة في حيز مقول القول (لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ) الجار والمجرور متعلقان بجامع ولا نافية للجنس وريب اسمها والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبرها . وجملة لا ريب فيه في محل جر صفة ليوم (إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ) الجملة تعليلية للحكم فإنه في مقام التماس الإنعام وإن واسمها ، وجملة لا يخلف الميعاد مفعول به بمعنى المصدر وهو الوعد ، وقد قلبت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً) الجملة مستأنفة وإن واسمها ، وجملة كفروا صلة الموصول ولن حرف نفي ونصب واستقبال وتغني فعل مضارع منصوب بلن والجملة خبر إن

وعنهم متعلقان بتغني وأموالهم فاعل تغني ولا أولادهم عطف على أموالهم ، ومن اللّه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة ل " شيئا " فلما تقدم أعرب حالا على القاعدة المشهورة ، والتقدير لن تدفع عنهم الأموال

(181/119)

و الأولاد شيئا من عذاب اللّه وشيئا مفعول به أو في موضع المصدر تقديره غنى ، فيكون مفعولا مطلقا (وَأُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير عدم الإغناء ، ولك أن تجعل الواو عاطفة والجملة معطوفة على خبر إن وأولئك اسم إشارة في محل رفع مبتدأ وهم مبتدأ ثان ووقود النار خبر " هم " والجملة الاسمية خبر اسم الإشارة ، ويجوز أن يكون هم ضمير فصل ووقود النار خبر أولئك وقد تقدم تقريره كثيرا .

الفوائد :

(لدن ولدى) ظرفان للمكان والزّمان مبنيّان على السكون ، والغالب في لدن أن تجر بمن كما في الآية ، وإذا أضيفت إلى ياء المتكلم لزمتها نون الوقاية نحو لدني ، وقد تترك هذه النون فيقال لدني .

وتضاف إلى المفرد وإلى الجملة . وتقع بعد لدن " غدوة " فيجوز جر غدوة بالإضافة ،

ويجوز نصبها على التمييز، أو على أنها خبر كان المقدرة مع اسمها، أي: لدن كان الوقت غدوة. والفرق بين لدن ولدى أن لدن لا تقع عمدة في الكلام ولدي تقع، فلا يقال: لدنه علم، ولكن يقال لديه علم.

[سورة آل عمران (3) : آية 11]

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (11)

اللغة:

(الدأب) مصدر دأب في العمل من باب قطع إذا كدح فيه، غلب استعماله في العادة والشأن، ومنه قول امرئ القيس:

كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أمّ الرباب بمأسل

الإعراب:

)

(كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ) الكاف اسم بمعنى مثل في محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف والتقدير دأب هؤلاء كدأب من قبلهم. ولك أن تجعل الكاف حرف جر فيكون الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر لذلك المبتدأ المحذوف. ويجوز نصب محل الكاف ومدخولها على المفعولية المطلقة أو الحال وقد تقدم كثيرا. وآل مضاف إليه وفرعون مضاف إليه أيضا مجرور وعلامة جره الفتحة لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة (وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) الواو حرف عطف على آل فرعون والجار والمجرور متعلقان بمحذوف لا محل له لأنه صلة الموصول (كَذَّبُوا بِآياتِنا) فعل وفاعل وبآياتنا جار ومجرور متعلقان بكذبوا والجملة تفسيرية لا محل لها. ولك أن تعرب الواو استئنافية فيكون الذين مبتدأ خبره جملة كذبوا (فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ) الفاء عاطفة وأخذهم الله فعل ومفعول به وفاعل والجار والمجرور متعلقان بأخذهم فتكون الباء للسببية أو بمحذوف حال فتكون الباء للملابسة أي متلبسين بذنوبهم (وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ) جملة مستأنفة مسوقة لتقرير العقاب والواو استئنافية والله مبتدأ وشديد العقاب خبره.

[سورة آل عمران (3): آية 12]

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهادُ (12)

الإعراب:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) جملة مستأنفة مسوقة للرد على اليهود الذين

ركبوا رؤوسهم بعد موقعة بدر وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم الذي حاول حقنا لدمائهم أن يحذرهم من عواقب الغرور والطيش : لا تحسب أنّا أغما رأي غير مجربين على القتال . وقل فعل أمر وفاعله ضمير مستتر يعود على النبي صلى الله عليه وسلم أي أنت . وللذين جار ومجرور متعلقان بقل وجملة كفروا لا محل لها لأنها صلة الموصول (سَتُغْلَبُونَ) السين حرف استقبال وتغلبون فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون والواو نائب فاعل والجملة في محل نصب مقول القول (وَتُحْشَرُونَ) الواو حرف عطف وجملة تحشرون معطوفة على ستغلبون داخلة في حيز القول (إِلى جَهَنَّمَ) الجار والمجرور متعلقان بيحشرون وجرت جهنم بالفتحة لأنها ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث وسيأتي القول عنها في مكان آخر (وَبِئْسَ الْمِهادُ) الواو عاطفة والجملة معطوفة على ما قبلها داخلة في حيز القول ويجوز أن تكون الواو استئنافية والجملة مسوقة لردعهم وتهويل جهنم لهم وبئس فعل ماض جامد لإنشاء الذم والمهاد فاعل بئس والمخصوص بالذّم محذوف تقديره جهنم وإنما حذف لفهم المعنى . وفيه تأييد لمذهب سيبويه وهو إعراب المخصوص بالذّم أو المدح مبتدأ خبره الجملة قبله ، ومذهب غيره أنه خبر لمبتدأ محذوف ، ويرد عليه أنه يلزم

من ذلك حذف الجملة برأسها من غير أن يبقى ما يدل عليها ، وذلك لا يجوز حتما لأن حذف المفرد أهون من حذف الجملة .

[سورة آل عمران (3) : آية 13]

قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرى كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ (13)

اللغة :

(184/119)

الفئة : الجماعة ولا واحد لها من لفظها وجمعها فئات وقد تجمع بالواو والنون جبرا لما نقص ، وإنما سميت الجماعة فئة لأنه يفاء إليها ، أي يرجع في وقت الشدة . وقال الزّجاج : الفئة : الفرقة ، مأخوذ من قولهم : فأوت رأسه بالسيف أي قطعته .

(العبرة) : الاتعاظ ، يقال منه : اعتبر ، وهو الاستدلال بشيء على شيء يشبهه ، واشتقاقها من العبور وهو مجاوزة الشيء إلى الشيء ، ومنه عبر النهر بفتح العين : وهو شطه ، والمعبر السفينة ، والعبارة يعبر بها إلى المخاطب بالمعاني ، وعبرت الرؤيا مخففا ومثقلا نقلت ما عندك من علمها إلى الرّائي أو غيره ممن يجهل ، وكان الاعتبار انتقالا من

منزلة الجهل إلى منزلة العلم ، ومنه العبرة بفتح العين وهي الدمع لأنها تجاوز العين .

الإعراب :

(قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ) الجملة داخلة في حيز القول السابق أي قل لليهود : ستغلبون وقل لهم : قد كان وقيل : هي عامة وإن الخطاب لجميع الكفار فتكون مستأنفة أو لجميع المؤمنين ، والعبرة لا تختص بأحد ، وقد حرف تحقيق وكان فعل ماض ناقص ولكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر كان المقدم وآية اسمها المؤخر (فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لآية وجملة التقتا صفة للفئتين والتاء تاء التأنيث الساكنة وحركت بالفتحة لمناسبة ألف الاثنين التي هي فاعل وقد كان ذلك اللقاء يوم بدر (فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) فئة خبر لمبتدأ

(185/119)

محذوف أي إحداهما فئة ويجوز جر فئة على البدلية من فئتين وهي إحدى القراءات وجملة تقاتل صفة لفئة وفي سبيل اللّه متعلقان بتقاتل (وَأُخْرى كافِرَةٌ) الواو عاطفة وأخرى عطف على فئة وكافرة صفة فمن رفع الأول رفعه ومن جر الأول جرّه (يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ) جملة يرونهم نعت للفئة التي تقاتل في سبيل اللّه وهم النبي وصحابته ، ويرونهم فعل

وفاعل ومفعول به والرؤية بصرية أو بمثابتها لشدة الالتحام ومثليهم حال ورأي العين مفعول مطلق مؤكد لعامله (وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ) الواو استئنافية واللّه مبتدأ وجملة يؤيد خبر وبنصره متعلقان بيؤيد ومن اسم موصول مفعول به وجملة يشاء لا محل لها لأنها صلة الموصول (إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ) الجملة مستأنفة مسوقة للحث على الاعتبار وإن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم واللام المزحلقة وعبرة اسم إن المؤخر ولأولي جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لعبرة وعلامة جره الياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم والأبصار مضاف اليه.

البلاغة:

انطوت هذه الآية على أرفع الخصائص البيانية فمنها:

1- الاحتباك وهو الحذف من كلامين متقابلين وكل منهما يدل على المحذوف من الآخر ففي قوله تعالى: "فئة تقاتل في سبيل اللّه وأخرى كافرة" حذف من الكلامين، وتقديره: فئة مؤمنة تقاتل في سبيل اللّه وفئة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الشيطان. فحذف من الأول ما يفهم من الثاني، وحذف من الثاني ما يفهم من الأول.

2- الكلام الموجه لأن المعنى إما أن يفهم منه شيء واحد لا يحتمل غيره وإما أن يحتمل منه الشيء وغيره ، وتلك الغيرية إما أن تكون ضدا أو لا ، وهذه الآية احتملت معنيين متغايرين ، وتلك الغيرية ضد إذا احتملت رؤية الكثرة أن تكون للمسلمين أو للمشركين في وقت واحد ، وليس هناك ما يرجح واحدا على الآخر لأن كلا منهما يصح إطلاقه في الآية .

وقد ورد في الحديث من التوجيه قول النبي صلى الله عليه وسلم " إذا لم تستح فاصنع ما شئت " وهذا يشتمل على معنيين متضادين أحدهما إن المراد به إذا لم تفعل فعلا تستحي منه فاصنع ما شئت ، والآخر : أن المراد به إذا لم يكن لك حياء يزعك عن فعل ما يستحيا منه فافعل ما شئت . وهذان معنيان ضدان ، أحدهما مدح والآخر ذمّ .

المتنبي والكلام الموجه

وقد رمق أبو الطيب المتنبي هذه السماء العالية واستغلها في مدائحه لكافور ، حاكم الأخشيد في مصر ، فقد كان مضطرا إلى مجاملته لتفادي المكروه إن جابهه بما يكنه من احتقار ، فجنح إليه في أماديح ليكون ظاهرها المديح وباطنها الهجاء ، فمن ذلك قوله فيه :

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا لمن في نعمائه يتقلب

وهذا البيت يحتمل معنيين ضدين أحدهما أن المنعم عليه يحسد المنعم ، فيكون مدحا .

وكذلك أورده ليوهم كافورا أنه يريد ذلك .

وثانيهما أن المنعم يحسد المنعم عليه ليقرر حقيقة رسخت في هذا المخلوق الذي قذفت به المقادير ليكون ملكا فهو ينعم على الآخرين ثم ما يلبث أن يحسدهم على ما نالوه من نعمائه. وهذا من أعجب ما اتفق

في الشعر، وهو من خصائص هذا الشاعر العجيب. وكثيرا ما كان يجنح أبو الطيب إلى هذا اللون من الشعر في أماديحه لكافور، ومن ذلك قوله فيه من قصيدة مطلعها:

عدوّك مذموم بكل لسان ولو كان من أعدائك القمران

ثم قال فيه:

ولِلّه سر في علاك وإنما كلام العدا ضرب من الهذيان

فما لك تعنى بالأسنة والقنا وجدك طعان بغير سنان

(187/119)

أي دع أعداءك يقولوا ما أرادوا ويحدسوا في الأسباب التي جعلت منك ملكا فإن ذلك من أسرار اللّه في خلقه، يرفع الوضيع ويغني البليد ويرزق الفدم الغبي، ثم يقول له مخاطبا: إنك لم تبلغ ما بلغته بسعيك واهتمامك بل بحظك وسعدك، وهذا مما لا فضل فيه، ويستوي فيه الفدم وغير الفدم.

[سورة آل عمران (3) : آية 14]

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعامِ وَالْحَرْثِ ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14)

اللغة:

(القناطير) جمع قنطار، مأخوذ من قنطر الشيء إذا أحكه وهو هنا يعني المال الكثير.

والقنطار يختلف مع الأيام والبلاد، وقد اختلف علماء اللغة في نونه فقال فريق: إنها أصلية، وإن وزنه

فعلال كقرطاس، وقيل: إنها زائدة وإن وزنه على فنعال. وقد خبط فيه صاحب المنجد خبطا عجيبا. (الْمُسَوَّمَةِ) وصف للخيل أي المعلمة بعلامة تعرف بها، والخيل فيه قولان: أحدهما أنه جمع لا واحد له من لفظه بل مفرده فرس، والثاني أن واحده خائل فهو نظير راكب وركب وتاجر وتجر وطائر وطير، وسيبويه يدرجه مع قوم ورهط ونساء، ويجعله اسم جمع، وغيره يجعله جمع تكسير. واشتقاق الخيل إما من الاختيال وهو العجب، سميت بذلك لاختيالها في مشيتها، والثاني من التخيل، لأنها تتخيل في صورة هي أعظم منها.

(الْأَنْعامِ) جمع نعم بفتحتين، والنعم اسم جمع لا واحد له من لفظه، وهو يذكر ويؤنث، ويطلق على الإبل والبقر والغنم. وسيرد المزيد من بحثه في سورة الأنعام.

)

(الْمَآبِ) يصح أن يكون مصدرا صحيحا أو اسما للمكان أو الزمان ، وهو على كل حال مفعل بفتح العين من آب يئوب أي رجع ، وأصله مأوب ، فنقلت حركة الواو إلى الهمزة الساكنة قبلها فقلبت الواو ألفا .

الإعراب :

(188/119)

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ) كلام مستأنف لا محل له مسوق لبيان حقارة أعراض الدنيا . زين فعل ماض مبني للمجهول وللناس جار ومجرور متعلقان ب " زين " وحب الشهوات نائب فاعل (مِنَ النِّساءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ) من بيانية وهي مع مجرورها متعلقان بمحذوف حال والبنين : الواو عاطفة والبنين معطوف على النساء مجرور وعلامة جره الياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم والمقنطرة صفة للقناطير

(مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعامِ وَالْحَرْثِ) من بيانية أيضا وهي ومجرورها متعلقان بمحذوف حال وما بعده عطف عليه (ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا) اسم الإشارة مبتدأ ومتاع الحياة خبر والدنيا صفة والجملة مستأنفة أيضا مسوقة لبيان حقارة ذلك كله

لأنه فان لا يبقى (وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) الواو استئنافية وما بعدها كلام مستأنف مسوق للدلالة على أنه ليس فيما عدد من ظواهر النعمة خير ولا ينفع ، والّله مبتدأ والظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم وحسن المآب مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر " الّله " .

البلاغة :

في الآية فن مراعاة النظير ، وهو أن يجمع الشاعر أو الناثر بين أمر وما يناسبه مع إلغاء ذكر التضاد لتخرج المقابلة والمطابقة ، وقد جمع سبحانه في هذه الآية معظم وسائل النعيم الآيلة بالمرء إلى الانهماك في الفتنة والانسياق مع دواعي النفوس الجموح ، وقد زينت للناس واستهوتهم بالتعاجيب والمفاتن ، ابتلاء لهم . وللمتكلمين مناظرات وجولات حول تزيين هذه الشهوات ، والمزين لها ، ويشتجر الخلاف بين أهل السنة وأهل الاعتزال ، مما لا سبيل إلى ذكره لأنه خارج عن نطاق كتابنا ، ولكننا نجتزي بالإلماع إليه ، ليرجع من يشاء إلى المظان المعروفة .

[سورة آل عمران (3) : آية 15]

قُلْ أَأُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنهارُ خالِدِينَ فِيها وَأَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (15)

الإعراب :

(

قُلْ) : فعل أمر وفاعله أنت ، أي : يا محمد ، والكلام مستأنف مسوق لتقرير وتحقيق الخير لما عند اللّه وأفضليته على شهوات الدنيا (أَأُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذلِكُمْ) الهمزة للاستفهام التقريري وأنبئ فعل مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا والكاف مفعول به وبخير جار ومجرور متعلقان بأنبئكم على أنه ناب مناب المفعول الثاني كما سيأتي في باب الفوائد ، ومن ذلك جار ومجرور متعلقان بخير والإشارة إلى أنواع الشهوات الآنفة الذكر . وجملة الاستفهام في محل نصب مقول القول (لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم وجملة اتقوا لا محل لها لأنها صلة الموصول وعند ربهم ظرف متعلق بمحذوف حال من جنات لأنه كان في الأصل صفة لها فلما تقدم عليها أعرب حالا . وجنات مبتدأ مؤخر . ولك أن تعلق الظرف بما تعلق به " للذين " من الاستقرار لأنه من جملة الخير ، ولك أن تجعل الكلام موصولا فلا تقف عند ذلكم وعندئذ يكون للذين نعتا للخير وجنات خبر لمبتدأ محذوف (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنهارُ) الجملة صفة لجنات والأنهار فاعل تجري ومن تحتها متعلقان بتجري (خالِدِينَ فِيها) حال من الذين اتقوا وفيها جار

ومجرور متعلقان بخالدين (وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ) أزواج عطف على جنات ومطهرة نعت لأزواج (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ) عطف على جنات أيضا (وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) الواو استئنافية والله مبتدأ وبصير خبر وبالعباد متعلقان ببصير.

الفوائد:

(أنبأ ونبأ) فعلان يتعديان إلى ثلاثة مفاعيل إذا كانا بمعنى العلم.

(190/119)

وأما في الآية فهو بمعنى الاخبار، فيتعديان لاثنين فقط. والحقيقة أن الذي يتعدى لثلاثة مفاعيل فعلان، وهما أرى وأعلم، أما الخمسة الباقية وهي أخبر وخبّر وأنبأ ونبأ وحدث فقد ألحقت في بعض استعمالاتها بأعلم المتعدية إلى ثلاثة مفاعيل، ومنه قول الحارث بن حلزة اليشكريّ:

إن منعتم ما تسألون فمن حدّ ثتموه له علينا العلاء

فهو شاهد على أنه متعد لثلاثة مفاعيل، فالتاء هي المفعول الأول والميم علامة جمع الذكور والواو لإشباع ضمة الميم والهاء هي المفعول الثاني وجملة له علينا العلاء جملة اسمية في موضع المفعول الثالث فافهم ذلك جيدا لأنه عزيز المنال. هذا وتستعمل هذه الأفعال

الخمسة متعدية لواحد بأنفسها وإلى مضمون الثاني والثالث بالباء نحو حدثك بأمر .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 16 إلى 18]

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَقِنا عَذابَ النَّارِ (16) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ (17) شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18)

اللغة :

(الأسحار) جمع سحر كفرس وأفراس : أواخر الليل ، وسميت بذلك لما فيها من الخفاء .

والسّحر : وقت إدبار الليل وإقبال النهار فهو متنفّس الصبح . واختلف أهل اللغة في تحديده بالضبط فقال الزّجاج وجماعته : إنه الوقت قبل طلوع الفجر ، وقال الرّاغب في مفرداته :

السحر اختلاط ظلام آخر الليل بضياء النهار ، ثم جعل اسما لذلك الوقت . وأما السّحر بسكونه فهو منتهى قصبة الحلقوم . ومنه قول عائشة رضي اللّه عنها : " قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحري ونحري " . ومن مجاز العرب قولهم : انتفخت مساحره ،

إذا ملّ وجبن .

(

القسط) : العدل . يقال أقسط أي عدل ، وقسط أي جار ، فهو مدح في الرباعي وذم في الثلاثي .

الإعراب :

(الَّذِينَ يَقُولُونَ) اسم الموصول يجوز فيه الرفع على إنه خبر لمبتدأ محذوف أي : هم الذين ، والنصب على المدح بفعل محذوف أي أمدح الذين ، والجرّ على أنه بدل من اسم الموصول في الآية السابقة أو نعت له يقولون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة (رَبَّنا إِنَّنا آمَنَّا) الجملة مقول القول وربنا منادى محذوف منه حرف النداء ، وإن واسمها وجملة آمنا خبرها (فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا) الفاء للتعليل ، لأن الإيمان علة الغفران واغفر فعل أمر للدعاء ولنا متعلقان به وذنوبنا مفعول به (وَقِنا عَذابَ النَّارِ) الواو حرف عطف وق فعل أمر للدعاء مبني على حذف حرف العلة وحذفت واو المثال كما هي القاعدة ، والفاعل أنت ونا ضمير متصل في محل نصب مفعول به أول وعذاب النار مفعول به ثان (الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ) الصابرين منصوب على المدح بفعل محذوف وما بعده عطف عليه ، وهي في الأصل صفات قطعت عن الوصفية

بتوسط واو العطف بينها للدلالة على انفرادهم بأنواع الكمالات كما سيأتي في باب البلاغة والجملة استئنافية (شَهِدَ اللَّهُ) فعل وفاعل والجملة مستأنفة

(192/119)

مسوقة لتعداد أصول الدين وفضائله وقد وردت فيها أحاديث كثيرة (أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) أن وما بعدها في موضع نصب بنزع الخافض أي بأنه ، والجار وما بعده متعلقان بشهد وقد تقدم إعراب كلمة الشهادة فجدد به عهدا (وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ) الواو حرف عطف والملائكة عطف على اللّه وأولو العلم عطف أيضا . ورفع بالواو لأنه ملحق بجمع المذكر السالم (قائِماً بِالْقِسْطِ) حال لازمة من اللّه أو من الضمير المنفصل الواقع بعد إلا ، ولعله أولى . وجاز مجيء الحال بعد معطوفين لأمن الالتباس ، فلو لم يؤمن الالتباس لم يجز مجيء الحال ، نحو جاء عليّ وخالد ضاحكا لعدم العلم بمن هو الضاحك . وواضح أن القيام بالقسط من خصائص اللّه تعالى فيكون بمثابة التتمة لكمال الأفعال بعد كمال الذات . وهنا بحث هام سيأتي في باب الفوائد (لا إِلهَ إِلَّا هُوَ) تقدم إعرابها (الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) خبران لمبتدأ محذوف تقديره هو ولك أن تعربهما بدلين من " هو " .

البلاغة :

1- في دخول الواو على الصفات مع أن الموصوف واحد تفخيم للموصوف لأنه إيذان بأن كل صفة مستقلة بمدح الموصوف ثم إن الموصوف ليس واحدا كما يبدو للنظرة العجلى .

2- وفي الآية الأخيرة رد العجز على الصدر ، فقد رد " العزيز " إلى تفرده بالوحدانية التي تقتضي العزة ، ورد " الحكيم " إلى العدل الذي هو القسط ، فهو تعالى حكيم لا يتحيفه جور أو انحراف .

الفوائد :

1- المثال الذي فاؤه حرف علة إذا بني منه فعل أمر حذفت واوه

أو ياؤه ، فتقول في وعد : عد فإذا كان لفيفا مفروقا أي إذا كانت فاؤه ولامه حرفي علة أصبح على حرف واحد لأن الحرفين يحذفان ، فتقول في وعي : ع ، وفي وقى ق وفي وفى ف وفي وأى إ وعلى هذا يتخرج اللغز المشهور الذي يتندر به صغار المعربين وهو :

إن هند المليحة الحسناء وأي من أضمرت لخل وفاء

(193/119)

وإيضاحه كما يلي : إن : فعل أمر مبني على حذف حرف العلة والنون نون التوكيد الثقيلة ، ومعنى إ : عد ، وفعله وأى ، أي عدي يا هند وعد امرأة أضمرت الوفاء لخلها . وهند

منادى مفرد علم محذوف منه حرف النداء مبني على الضم والمليحة نعت على اللفظ والحسناء نعت ثان لهند على المعنى ووأي مفعول مطلق . وإنما نبهنا إلى إعرابه لنبين أنّ للنحاة المتأخرين أمورا متكلفة يجدر بنا اجتنابها لأنها تفسد الذوق وتعطل الملكة الفنية وهي أشبه بالأعيب .

3- الأصل في الحال أن تكون متنقلة لا ثابته ، وتقع وصفا ثابتا في ثلاث مسائل :

آ- أن تكون مؤكدة لمضمون جملة قبلها ، نحو : زيد أبوك عطوفا ، فإن الأبوة من شأنها العطف ، وذلك مستفاد من مضمون الجملة . أو لعاملها نحو " ويوم أبعث حيا " فإن البعث من لازمه الحياة فمعناها مستفاد من دون ذكرها .

ب- أن يدل عاملها على تجديد ذات صاحبها وحدوثه أو تجدد صفة له ، فالأول نحو قولهم : " خلق اللّه الزرافة يديها أطول من رجليها " فيديها بدل من الزرافة بدل بعض من كل ، وأطول حال ملازمة من يديها ومن رجليها متعلقان بأطول لأنه اسم تفضيل ، وعامل الحال خلق ،

والثاني نحو قوله تعالى " وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا " فالكتاب قديم والإنزال حادث ، أي محدث النزول لا الوجود .

ج- أن يكون مرجعها إلى السماع نحو " قائما بالقسط " . على أن بعضهم أعرب " قائما " بأنه نصب على المدح كما في قول امرئ القيس :

إذا قلت : ها تي نوليني تمايلت عليّ هضيم الكشح ريا المخلخل

فهضيم نصب بتقدير أمدح لا حال ، لأنها صفة لازمة . بقي الاعتذار عن جهة تأخيره عن المعطوفين فقال التفتازاني كأنها للدلالة على علو مرتبتهما ، أي الملائكة وأولي العلم حيث قرنا به تعالى من غير فاصل ، فتنبه لهذا الفصل ، فله على الفصول الفضل .

[سورة آل عمران (3) : آية 19]

(194/119)

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (19)

الإعراب :

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ) الجملة مستأنفة مؤكدة للأولى وإن واسمها ، وعند الله ظرف مكان متعلق بمحذوف حال والإسلام خبر إن . وقد اعترض أبو البقاء على مجيء الحال بعد إن ، وهو اعتراض مردود ، لأنهم جوزوا في " ليت " وفي " كأن " وفي هاء التنبيه أن تعمل في الحال ، لما تضمنت هذه الأحرف من معاني التمني والتشبيه والتنبيه ، وإن للتأكيد فلتعمل في الحال أيضا فلا تتقاعد عن " ها "

التي للتنبيه ، بل هي أولى منها ، وذلك أنها عاملة ، و" ها " التي للتنبيه ليست عاملة فهي أقرب لشبه الفعل من " ها " ، ولك أن تجعلها حالا من الدين أي كائنا وثابتا عند الله .

والإسلام خبر إن (وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لبيان سبب الاختلاف وما نافية واختلف الذين فعل وفاعل وجملة أوتوا صلة الموصول وأوتوا فعل ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل وهو المفعول الأول والكتاب مفعول به ثان (إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ) إلا أداة حصر ومن بعد جار ومجرور متعلقان باختلف وما مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر في محل جر بالإضافة أي من بعد مجيء العلم لهم وجاءهم فعل ومفعول به والعلم فاعله (بَغْياً بَيْنَهُمْ) مفعول لأجله وبينهم ظرف مكان متعلق بمحذوف صفة (وَمَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللَّهِ) الواو استئنافية ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ويكفر فعل الشرط وبآيات الله جار ومجرور متعلقان بيكفر (فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ) الفاء رابطة لجواب الشرط وإن واسمها ، وسريع الحساب خبرها والجملة الاسمية المقترنة بالفاء في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر " من " .

البلاغة :

اشتملت هذه الآية على ضروب من المبالغات في ذم اليهود ، وذلك على النحو التالي :

آ- وصفهم بأنهم أهل الكتاب ، والاختلاف بحد ذاته قبيح ، ولكنه بعد إتيان الكتاب والعلم بنواجمه أقبح .

ب- ثم ترقى في المبالغة فوصفهم بأنهم بعد أن أوتوا كتابا

جاءهم علم آخر يوضح لهم طريق الصواب ، ولكن طبيعة اللجاج المركوزة في نفوسهم أبت إلا التمادي في الضلال وركوب متن الشطط فكان القبح أزيد .

(196/119)

ج- ثم ترقى مرة أخرى في المبالغة فجعل الاختلاف بعد ظهور العلم لديهم مرتين متتاليتين لم يكن إلا بغيا منهم وهذا ما تعالمه الناس منهم واشتهروا به إلى اليوم ، وبذلك استوفت المبالغة غايتها فسبحان المتفرّد بالبيان .

[سورة آل عمران (3) : آية 20]

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (20)

اللغة :

(حَاجُّوكَ) : خاصموك يقال : حاجّه حجاجا ومحاجّة أي خاصمه وجادله .

الإعراب :

(فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ) الفاء استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لتضيق الخناق على اليهود الذين أخذوا يحرجون النبي فيكيدون له وإن شرطية وحاجوك فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والواو فاعل والكاف مفعول به والفاء رابطة وقل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت والجملة المقترنة بالفاء في محل جزم جواب الشرط (أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ)

الجملة في محل نصب مقول القول وأسلمت فعل وفاعل ووجهي مفعول به والجار والمجرور متعلقان بأسلمت (وَمَنِ اتَّبَعَنِ) الواو للعطف أو للمعية ومن اسم موصول معطوف على التاء في أسلمت أو مفعول معه وجملة اتبعن صلة الموصول ، والنون للوقاية وقد حذفت ياء المتكلم وقفا ووصلا موافقة للرسم . والذي حسن ذلك أنها فاصلة ورأس آية . وسيرد أمثالها مثل أكرمن وأهانن . وقال بعض النحاة : حذفت مع نون الوقاية خاصة ، فإن لم تكن هناك نون فالكثير إثباتها .

على أن هذه الياء أثبتت في بعض القراءات السبع .

)

(وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) الواو عاطفة وقل فعل أمر وللذين جار ومجرور متعلقان بقل وجملة أوتوا الكتاب صلة والواو نائب فاعل والكتاب مفعول به ثان (وَالْأُمِّيِّينَ) عطف على الذين أوتوا الكتاب وعلامة جره الياء لأنه جمع مذكر سالم ، والمراد بهم مشركو العرب ، وإن كانوا يكتبون ويقرؤون ، لأنه لم ينزل عليهم كتاب بعد (أَأَسْلَمْتُمْ) الجملة الاستفهامية في محل نصب مقول القول ومعنى الاستفهام التنديد والتعبير كما سيأتي في البلاغة (فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا) الفاء استئنافية وإن شرطية وأسلموا فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والفاء رابطة للجواب وقد حرف تحقيق واهتدوا فعل ماض مبني على الضم المقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين والواو فاعل والجملة المقترنة في محل جزم جواب الشرط (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ) الجملة معطوفة على الجملة الأولى وإنما كافة ومكفوفة وعليك جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم والبلاغ مبتدأ مؤخر والجملة في محل جزم جواب

الشرط (وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ) الواو استئنافية والله مبتدأ بصير خبر وبالعباد متعلقان ببصير .

البلاغة :

1- المجاز المرسل في قوله : أسلمت وجهي تعبيرا عن الكل بأشرف أعضائه وهو الوجه ،

والعلاقة هنا الكلية .

2- الاستفهام في قوله : "أأسلمتم" معناه التنديد والتعبير ، كأنما قد أفرغ جهده في مناصحتهم ، ولم يترك وسيلة إلا تشبث بها لإفهامهم ، ولكنهم لم يفهموا . وفي هذا الضرب من الاستفهام استركاك لعقولهم وامتهان لأفهامهم ، فكأنما أصبحت الحجج عندهم كلا حجج .

وأصبحت البراهين أضيع ما يكون لديهم ، فلم يبق أمامه سوى أن يسألهم منددا : أأسلمتم بعد هذا كله ؟ أم لا يجدي الضرب على الحديد البارد ؟

[سورة آل عمران (3) : الآيات 21 إلى 22]

(198/119)

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (21) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (22)

اللغة :

(حَبِطَتْ) : ذهبت سدى وفسدت ، وهو من مجاز اللغة .

والأصل في الحبوط أو الحبط بالسكون أن تأكل الماشية خضرة فتستوبلها وتهلك . ومنه حبط دم القتيل بكسر الباء أي هدر وبطل .

الإعراب :

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ) كلام مستأنف مسوق للحديث عن اليهود الذين كانوا في زمن النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فقد قتل آباؤهم الأنبياء من قبل ، وهم اليوم يحاولون التشبه بآبائهم الأولين ، ويرضون بفعلهم ، فيتحينون الفرص لقتل النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن اللّه أحبط أعمالهم . وإن واسمها ، وجملة يكفرون صلة الموصول والجار والمجرور متعلقان بيكفرون (وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ) الواو عاطفة ويقتلون فعل مضارع معطوف على يكفرون والنبيين مفعول به منصوب بالياء وبغير حق جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال أي ظالمين ، وإنما قيد القتل . وقتل النبيين لا يكون إلا كذلك ، زيادة في التشنيع عليهم (وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ) عطف على ما تقدم ومن الناس جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال أي كائنين منهم (فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ) الفاء واقعة في جواب الموصول لما فيه من رائحة الشرط ، ودخول إن على الموصول لا يؤثر في خبريته فالجملة خبر إن لأن المعنى لم يتغير بل ازداد تأكيدا وذلك شائع في القرآن وفي الشعر العربي ، قال :

فو الله ما فارقتكم قاليا لكم ولكن ما يقضى فسوف يكون

ولكن إذا دخلت ليت أو لعل على " الذي " امتنع دخول الفاء لنسخ الخبرية ، وتحول الكلام إلى إنشاء لا يحتمل الصدق والكذب كما هو مقرر في علم المعاني ، وسيأتي في باب الفوائد بحث هام في أسرار الحروف . وبشرهم فعل أمر والهاء مفعول به والفاعل أنت وبعذاب متعلقان ببشرهم وأليم صفة والجملة المقترنة بالفاء في محل رفع خبر إن

(أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) الجملة مفسرة للذين يقتلون لا محل لها وأولئك مبتدأ والذين خبر وجملة حبطت أعمالهم صلة الموصول والجار والمجرور متعلقان بحبطت (وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) الواو عاطفة وما نافية ولهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ومن حرف جر زائد لفظا وناصرين مجرور لفظا مرفوع محلا لأنه مبتدأ مؤخر .

الفوائد :

جرى النحاة والمعربون على القول بزيادة بعض الحروف ، ولا يعنون بزيادتها أنها جاءت لغوا أو عبثا وإنما هي عندهم زائدة للتأكيد ولكننا نريد أن نميط اللثام عن شيء غفل عنه هؤلاء جميعا ، ورددوه وهم لا يكتنهون فحواه حتى صار من المقولات البديهية ، وقد مر بك حتى الآن وسيمر معك الكثير من الأحرف التي قالوا بزيادتها ، ومع ذلك قصروا عملها على الشكل دون المعنى ، فقوله : " وما لهم من ناصرين " لا غنى عن إيراد " من " الزائدة لفظا فالخبر بطبيعته وفي أصل وضعه اللغوي يحتمل الصدق والكذب ، و" من " هي التي

نقلته من أصل وضعه الأول إلى دلالة النفي البات والإنكار الحاسم ، وسيطالع القارئ في كتابنا ما يذهله من أسرار هذه الحروف التي يمر النحاة بها مرورا سريعا ، فهم يقولون بزيادتها ويتركون الطالب في مهامة الحيرة ، لأن كتاب اللّه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 23 إلى 24]

(200/119)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلى كِتابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (24)

الإعراب :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ) كلام مستأنف مسوق للتعجب من حالهم وسوء صنيعهم والهمزة للاستفهام التعجبيّ ولم حرف نفي وقلب وجزم وتر فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف العلة والفاعل أنت وإلى الذين متعلقان ب " تر " والرؤية هنا بصرية ، وجملة أوتوا صلة الموصول والواو نائب فاعل ونصيبا مفعول به ثان ومن الكتاب

متعلقان بمحذوف صفة لنصيبا (يُدْعَوْنَ إِلى كِتابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ) جملة يدعون حاليّة ويدعون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل وإلى كتاب اللّه جار ومجرور متعلقان بيدعون وليحكم اللام للتعليل ويحكم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بيدعون وبينهم ظرف مكان متعلق بيحكم (ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي ويتولى فعل مضارع مرفوع والفريق فاعل والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة (وَهُمْ مُعْرِضُونَ) الواو حالية وهم مبتدأ ومعرضون خبر والجملة في محل نصب على الحال (ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا) ذلك مبتدأ والجملة استئنافية والإشارة إلى التولي عن مجلس النبي صلى اللّه عليه وسلم وبأنهم الباء حرف جر وإن مع مدخولها في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر أي ذلك التولّي بسبب قولهم وجملة قالوا خبر إن (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ)

الجملة في محل نصب مقول قولهم ولن حرف نفي ونصب واستقبال وتمسنا فعل مضارع منصوب بلن ونا ضمير متصل في محل نصب مفعول به والنار فاعل تمسنا وإلا أداة حصر وأياما ظرف متعلق بتمسنا ومعدودات صفة وعلامة نصبه الكسرة لأنه جمع مؤنث سالم

(وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ) الواو عاطفة وغرهم فعل ومفعول به وفي دينهم متعلقان بغرهم وما اسم موصول في محل رفع فاعل وجملة كانوا يفترون صلة الموصول وكان واسمها وجملة يفترون خبرها .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 25 إلى 27]

فَكَيْفَ إِذا جَمَعْناهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (25) قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَتُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (27)

اللغة :

(تُولِجُ) تدخل ، من أولج الشيء أدخله . وولج يلج من باب وعد ولوجا ، ولجة : دخل .

الإعراب :

(فَكَيْفَ إِذا جَمَعْناهُمْ) هذا التركيب من المشكلات ويتلخّص من الأوجه التي أوردها المعربون ، وجهان جديران بالاعتبار :

1- كيف اسم استفهام في محل رفع خبر مقدم والمبتدأ محذوف تقديره حالهم ، وتكون جملة قائمة بذاتها ، وكيف عندئذ لا يستغنى عنها ، كما مر في قاعدة كيف .

2- كيف اسم استفهام في محل نصب حال من فعل محذوف هو جواب إذا ، أي استقرت . وإذا على الوجه الأول متعلقة بالاستقرار الذي تعلقت به "كيف " و" إذا " غير متضمنة معنى الشرط ، بل هي للظرفية المحضة ، وعلى الوجه الثاني هي ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط متعلقة بالجواب المحذوف وهو استقرت . وعلى هذا الوجه يتخرج البيت المشهور :

أشوقا ولمّا يمض لي غير ليلة فكيف إذا جد المطي بنا عشرا

وقد رجح ابن هشام وأبو البقاء الحالية . ونحن نرى الوجه الأول أبعد عن التكلف ، لأننا لا نرى أثرا للشرطية في " إذا " بهذا التركيب العجيب ، فتأمل . وجملة جمعناهم في جر بالإضافة والفاء الداخلة على كيف استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لإبطال ما غرهم ولتهويل ما سيحيق بهم من الأهوال (لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ) الجار والمجرور متعلقان بجمعناهم ولا نافية للجنس وريب اسمها مبني على الفتح في محل نصب وفيه متعلقان بمحذوف خبرها وجملة لا ريب فيه في محل جر صفة ليوم (وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ) الواو عاطفة ووفيت فعل ماض مبني للمجهول وكل نفس نائب فاعل وما اسم موصول مفعول به وجملة كسبت

صلة الموصول (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) الواو حالية وهم مبتدأ ولا نافية ويظلمون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل وجملة لا يظلمون في محل رفع خبرهم والجملة الاسمية المقترنة بالواو في محل نصب على الحال (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ) كلام مستأنف مسوق للرد

(203/119)

على المنافقين الذين لم يصدقوا قوله : إن أمتي ظاهرة . وقل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت واللهم : منادى مفرد علم والميم المشددة عوض عن " يا " لا محل لها ومالك الملك منادى ثان حذف منه حرف النداء أي يا مالك الملك ، وإنما لم يجعل نعتا لأن الميم المشددة تمنع التبعية كما قرر سيبويه إذ قال : " إن الميم أخرجت هذه اللفظة عن نظائرها من الأسماء " . قال ابن يعيش : " واعلم أن سيبويه لا يرى نعت " اللهم " لأنه لفظ لا يقع إلا في النداء ، فهو لا ينعت " . وخالفه أبو العباس المبرد واستدل بقوله تعالى : " اللهم فاطر السموات والأرض " . سيبويه يحمل فاطر السموات على أنه نداء ثان لا نعت ، وقال المبرد : إن الميم بدل من " يا " والمنادى مع " يا " لا يمتنع وصفه ، فكذا مع ما هو عوض عنها (تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ) لك أن تجعل هذه الجملة حالية من المنادى لأنه بمثابة المفعول به وتؤتي فعل مضارع فاعله مستتر تقديره أنت والملك مفعول به أول ومن اسم موصول مفعول به ثان

وجملة تشاء صلة الموصول (وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ) عطف على ما تقدم (وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ) عطف أيضا (بِيَدِكَ الْخَيْرُ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم والخير مبتدأ مؤخر والجملة حالية أيضا (إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) جملة مستأنفة بمثابة التعليل لما تقدم (تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ) الجملة حالية أيضا (وَتُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ) عطف على الجملة الآنفة (وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) عطف أيضا (وَتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ) عطف أيضا ومن اسم موصول في محل نصب مفعول به وجملة تشاء صلة والجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال من فاعل ترزق.

البلاغة:

1- الاستعارة التصريحية إذ أراد بالحي والميت المسلم والكافر،

فقد حذف المشبه وأبقى المشبه به. وإذا أراد النطفة والبيضة كان الكلام جاريا على جانب الحقيقة، لا على جانب المجاز.

2- الاكتفاء في قوله: "بيدك الخير" فاقتصر على الخير من باب الاكتفاء بالمقابل أي والشر، كقوله تعالى: "سرابيل تقيكم الحر" أي والبرد، ولأن الخير هو المرغوب فيه.

3- المقابلة فقد طابق بين " تؤتي وتنزع " وبين " تعز وتذل " وبين " الليل والنهار " وبين " الحي والميت " .

4- وخرج بالاستفهام عن معناه الحقيقي بقوله : " فكيف " إلى معنى التهويل واستفظاع ما أعد اللّه لهم في يوم عصيب تحار فيه الأبصار والبصائر ، وتشخص فيه القلوب والضمائر .

الفوائد :

(اللَّهُمَّ) قد تخرج عند النداء المحض فيكون لها معنيان :

آ- أن يذكرها المجيب تمكينا للجواب في نفس السامع ، فإذا حدثك أحد بشيء قلت : اللهم نعم .

ب- أن تستعمل للدلالة على الندرة وقلة وقوع المذكور معها ، كقولك لمن كان متكاسلا : إنك ناجح اللهم ، إن بذلت مجهودا أكبر ، وقد علمت أنه غير باذل أي مجهود ، أو إن ذلك مستبعد منه ، وعلى هذا يخطىء كتابنا في استعمالها قبل إلا .

[سورة آل عمران (3) : آية 28]

لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (28)

اللغة :

(تُقاةً) أصلها وقية بضم الواو ، فأبدلت الواو تاء والياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فهي

مصدر تقية كرمية .

الإعراب :

)

(205/119)

لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) كلام مستأنف مسوق للنهي عن موالاتهم ، كما نشاهد اليوم . ولا ناهية يتخذ فعل مضارع مجزوم بلا ، المؤمنون فاعل والكافرين مفعول به أول وأولياء مفعول به ثان ومن دون المؤمنين متعلقان بمحذوف حال من الفاعل ، أي : حال كون المؤمنين متجاوزين موالاة المؤمنين ، أو من المفعول أي حال كون الكافرين ناصرين من دون المؤمنين (وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ) الواو اعتراضية والجملة كلها اعتراضية ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ويفعل فعل الشرط مجزوم وذلك اسم اشارة في محل نصب مفعول به الفاء رابطة لجواب الشرط وليس فعل ماض ناقص واسمها ضمير مستتر يعود على " من " . ومن اللّه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة الشيء فلما تقدم أعرب حالا ، وفي شيء : متعلقان بمحذوف خبر ليس (إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً) إلا أداة حصر وأن وما في حيزها

مصدر منصوب بنزع الخافض والجار والمجرور في موضع نصب مفعول لأجله ، والمعنى لا يتخذ المؤمن الكافر وليا لأمر من الأمور إلا للتقية ، ومنهم متعلقان بتتقوا ، وتقاة منصوب على المفعولية المطلقة والمعنى تتقوا اتقاء ، والمصادر يتناوب بعضها بعضا ، ويجوز أن يكون مفعولا به على تضمين " تتقوا " معنى الخوف أي إلا أن تخافوا من جهتهم أمرا يجب اتقاؤه (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ) الواو

استئنافية ويحذركم فعل مضارع والكاف مفعول به والله فاعل ونفسه مفعول به ثان ليحذركم لأنه في الأصل يتعدى لواحد فازداد بالتضعيف آخر (وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) الواو استئنافية والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم والمصير مبتدأ مؤخر .

البلاغة :

أ- في هذه الآية التفات بديع من الغيبة إلى الخطاب ، ولو جرى على سنن الكلام لقال : إلا أن يتقوا . ولكنه عدل عن الغيبة والخطاب لسر كأنه أخذة السحر . فإن موالاة الكفار والأعداء وكل من يتآمر على سلامة الأوطان أمر مستسمج مستقبح . ينكره الطبع ولا يليق أن يواجه به الأصفياء والأولياء ، فجاء به غائبا كأنه يرسم لهم خطا بيانيا .

على أن هذا إنما يكون فيما لا ضرر فيه ، ولكن التآمر على الكيان ، وسلامة أرواح المؤمنين ، ولكن التقية لا تجوز مع الأعداء الذين لا هم لهم سوى اغتصاب الأرض وامتصاص الطاقات فهؤلاء لا تسوغ معهم مهادنة ، ولا يجوز بحال عقد أي عهد معهم ، لأنهم لا يعتمون أن ينقضوه . وقد يستغلونه للانقضاض على من اطمأنوا إليهم وركنوا إلى عهودهم ، على حد قولي :

أيّ شأن العهود قطعت ثم أضحت ترهات بعد حين

لا تغرنك قصاصات غدت شركا ينصب للمستضعفين

حذار من العدو - لمحة تاريخية :

وهنا يجدر بنا أن نأتي على ما يرويه التاريخ بصدد نزول هذه الآية ، فقد روي أن جماعة من المسلمين كانوا يوادّون اليهود ، فأنزل اللّه هذه الآية ، ناهيا عن الاسترسال في ذلك . وقيل : إنّ عبادة بن الصامت كان له حلفاء من اليهود ، فقال يوم الأحزاب : يا رسول اللّه إن معي خمسمائة من اليهود ، وقد رأيت أن أستظهر بهم على العدو .

فنزلت هذه الآية ، إذ لا تتفق موالاة الوليّ وموالاة العدو في وقت واحد قال :

تود عدوي ثم تزعم أنني صديقك ليس النّوك عنك بعازب

2- المشاكلة في قوله تعالى : " ويحذركم اللّه نفسه " . وإطلاق ذلك عليه سبحانه وتعالى

جائز في المشاكلة كقوله أيضا : " تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك " . وقيل : الكلام مجاز مرسل معناه :

ويحذركم اللّه عقابه ، مثل " واسأل القرية " مجاز مرسل ، فجعلت النفس في موضع الإضمار ، وفي ذلك تهديد شديد وتخويف عظيم لعباده أن يتعرضوا لعقابه بموالاة أعدائه .

(207/119)

[سورة آل عمران (3) : آية 29]

قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (29)

الإعراب :

(قُلْ : إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ) كلام مستأنف مسوق ليكون بيانا لقوله : " ويحذركم اللّه نفسه " وقل فعل أمر فاعله ضمير مستتر تقديره أنت وإن شرطية وتخفوا فعل الشرط وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل وما اسم موصول في محل نصب مفعول به وفي صدوركم : جار ومجرور متعلقان بمحذوف لا محل له لأنه صلة ما ،

وأو حرف عطف وتبدوه معطوف على تخفوا وجملة الشرط وجوابه الآتي في محل نصب مقول القول (يَعْلَمْهُ اللَّهُ) جواب الشرط والهاء مفعول به والله فاعل (وَيَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ) الواو استئنافية ويعلم فعل مضارع مرفوع وفاعله هو يعود على الله، وإنما جيء به مستأنفا لا معطوفا لأن علم الله تعالى غير متوقف على شرط، فهو من باب ذكر العام بعد الخاص. والأحسن أن يقدر مبتدأ محذوف فتكون جملة "يعلم" خبره والتقدير: وهو يعلم، والجملة بعد الواو مستأنفة لا محل لها، وما مفعول به وفي السموات متعلقان بمحذوف صلة ما، وما في الأرض عطف على "ما في السموات" (وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) الواو استئنافية والله مبتدأ وعلى كل شيء متعلقان بمحذوف بقدير وقدير خبر الله.

[سورة آل عمران (3): آية 30]

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ (30)

اللغة:

)

الأمد) : الغاية والمنتهى ، والفرق بينه وبين الأبد أن الأمد مدة من الزمن محدودة ، وإن يكن الحدّ مجهولا ، أما الأبد فهو مدة من الزمن غير محدودة .

الإعراب :

(يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً) يوم ظرف متعلق تقديره : " اذكر " وجملة تجد في محل جر بالإضافة ، " وتجد " يجوز أن تكون بمعنى تصادف وتصيب فتتعدى لواحد ويجوز أن تكون بمعنى تعلم فتتعدى لاثنين ، وكل نفس فاعل تجد وما اسم موصول مفعول به وجملة عملت صلة والعائد محذوف أي عملته ومن خير متعلقان بمحذوف حال ومحضرا حال على الأول ومفعول به ثان على الثاني ، والجملة كلها مستأنفة لا محل لها (وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ) الواو استئنافية وما اسم موصول مبتدأ وجملة عملت صلة ومن سوء متعلقان بمحذوف حال (تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً) جملة تود خبر ما ولو الواقعة بعد تود مصدرية ، ولكن يشكل هنا دخول الحرف على مثله ، فالأولى أن تبقى شرطية وأن حرف مشبه بالفعل مصدري وبينها ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم لأنّ وبينه عطف على الظرف . ويكون جواب " لو " محذوفا تقديره : لفرحت واطمأنت ، وأن وما بعدها في محل رفع مبتدأ والخبر محذوف تقديره ثابت ، أو فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت . ويلاحظ عندئذ أن المحذوفات كثرت ، فقد حذف مفعول تود

وجواب لو وخبر أن أو فعل الفاعل، ولذلك كان اعتبارها مصدرية أسهل لولا المانع الفني وهو دخول الحرف المصدري على حرف مصدري مماثل (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ) تقدم إعرابها قريبا وكررها ليكون الخوف من اللّه نصب أعينهم (وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ) الواو استئنافية واللّه مبتدأ ورؤوف خبره وبالعباد جار ومجرور متعلقان برؤوف.

[سورة آل عمران (3) : الآيات 31 إلى 32]

(209/119)

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (32)

الإعراب:

(قُلْ: إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي) كلام مستأنف مسوق لبيان معنى محبة اللّه، وقل فعل أمر وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت وإن شرطية وكان فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط والتاء اسمها وجملة تحبون اللّه خبرها والفاء رابطة لجواب الشرط واتبعوني فعل أمر والواو فاعل والنون للوقاية والياء مفعول به والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملة إن كنتم مقول القول (يُحْبِبْكُمُ) جواب الطلب مجزوم والكاف مفعول به (اللَّهَ) فاعل (وَيَغْفِرْ لَكُمْ

ذُنُوبَكُمْ) عطف على يحببكم (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) الواو استئنافية والّله مبتدأ وغفور رحيم خبران للمبتدأ (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ) كلام مستأنف أيضا وجملة أطيعوا في محل نصب مقول القول (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ) الفاء استئنافية وإن شرطية وتولوا فعل مضارع حذفت منه إحدى التاءين وهو فعل الشرط والجملة لا محل لها . ويجوز أن يكون فعلا ماضيا مسندا لضمير الغيبة ، فيكون من باب الالتفات من المخاطب إلى الغائب والجملة في محل جزم فعل الشرط والفاء رابطة لجواب الشرط وإن واسمها ، وجملة لا يحب الكافرين خبرها وجملة فإن اللّه في محل جزم جواب الشرط .

البلاغة :

المجاز المرسل في حب العباد للّه تعالى وحبه لهم والعلاقة ما يكون .

فأما حبهم له فالمراد ما تئول إليه المحبة من اختصاصه بالعبادة دون غيره ، وأما حبه لهم فالمراد منه ما يئول إليه من الرضا عنهم والغفران لذنوبهم . وهذه لمحة لا مندوحة عن إيرادها عن الحب :

الحب عند الفلاسفة : أما الفلاسفة فيقررون كما يتحدث عنهم سويد نبرغ السويدي أن الحب هو حياة الإنسان ، وأن اللّه وحده هو عين الحب ، لأنه هو عين الحياة ، فالمحبة لغة- ميل المتصف بها إلى أمر ملذّ واللذات الباعثة على المحبة منقسمة إلى مدرك بالحس كلذة الذوق في الطّعوم ولذة النظر واللمس في الصور المستحسنة ولذة الشم في الروائح العطرية ولذة السمع في النغمات الحسنة وإلى لذة تدرك بالعقل كلذة الجاه والرياسة والعلوم وما يجري مجراها . وإذا تفاوتت البواعث ، فليس معلوم أكمل ولا أجمل من المعبود الحق ، وإذا حصلت هذه المحبة بعثت على الطاعات والموافقات .

الحب عند المتصوفة : أما المتصوفة فهم يقولون : إن الحب هو سكر المشاهدة وشجاعة الباذل وإيمان الولي والأصل الأصيل للتحقق الخلقي والإدراك الروحي . قال الثوري لرابعة العدوية : ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حبا له وشوقا إليه . وأنشدت :

أحبك حبين : حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا

فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عما سواكا

وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحجب حتى أراكا

والكلام يطول فحسبنا ما تقدم .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 33 إلى 34]

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (34)

اللغة :

)

نوح) علم أعجمي لا اشتقاق له ، وقيل : إنه مشتق من النوح وهو منصرف على كل حال ، لأنه علم أعجمي ثلاثي ساكن الوسط (عمران) علم أعجمي أيضا ممنوع من الصرف وإن قيل إنه عبري مشتق من العمر فهو ممنوع للعلمية وزيادة الألف والنون .

الإعراب :

(211/119)

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا) إن واسمها ، وجملة اصطفى آدم ونوحا خبر (وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ) عطف على آدم (عَلَى الْعَالَمِينَ) الجار والمجرور متعلقان باصطفى والجملة استئنافية (ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ) ذرية : بدل من آدم ومن عطف عليه ، أو من الآلين أي أن الآلين ذرية واحدة ، ويجوز نصبها على الحال والعامل فيه " اصطفى " .

وبعضها مبتدأ ومن بعض جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر والجملة صفة لذرية (وَاللَّهُ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ) الواو استئنافية والله مبتدأ وسميع عليم خبران له.

البلاغة:

1- في الآية فن التوشيح، وهو كما يقول قدامة في نقد الشعر:

أن يكون في أول الكلام معنى إذا علم علمت منه القافية، إن كان شعرا أو السجع إن كان نثرا. فإن معنى اصطفاء المذكورين في الآية يعلم منه الفاصلة، لأن المذكورين صنف مندرج في العالمين.

وفي هذه الآية أيضا فن براعة التخلص، فإنه سبحانه وتعالى وطّأ بهذه الآية إلى سياق خبر ميلاد المسيح عليه السلام، فقد خلص إلى ذكر امرأة عمران ليسوق قصة حملها بمريم وكفالة زكريا لها، وذكر ولده يحيى، وقصة حمل مريم بالمسيح، وما تخلل ذلك من آيات باهرات، وعبر بالغات.

[سورة آل عمران (3): الآيات 35 إلى 36]

إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35) فَلَمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى وَإِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (36)

اللغة:

(مُحَرَّراً) معتقا خالصا لخدمة بيت المقدس. روي أن حنة - وهو اسمها - كانت عاقرا لم تلد إلى أن عجزت، فبينما هي في ظل شجرة وريف بصرت بطائر يطعم فرخا له فتحركت نفسها للولد وتمنته، فقالت:

اللهم إن لك علي نذرا إن رزقتني ولدا لأتصدقن به على بيت المقدس فيكون من سدنته.

فحملت بمريم وهلك عمران وهي حامل بمريم.

الإعراب:

(إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ) إذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق باذكر محذوفا وتكون الجملة مستأنفا مسوقة لتقرير اصطفاء آل عمران، وجملة قالت امرأة عمران في محل جر بإضافة الظرف إليها وعلقه بعضهم بقوله:

سميع عليم وليس ثمة ما يمنع ذلك (رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما فِي بَطْنِي مُحَرَّراً) رب منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة بدليل الكسرة عليها، وإن واسمها، وجملة نذرت خبرها وجملة إني نذرت مقول القول ولك متعلقان بنذرت وما اسم موصول مفعول به وفي بطني

متعلقان بمحذوف لا محل له لأنه صلة ما ومحررا حال من " ما " (فَتَقَبَّلْ مِنّي) الفاء استئنافية وتقبل فعل أمر وفاعله أنت ومني متعلقان بتقبل (إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) إن واسمها ، وأنت مبتدأ أو ضمير فصل لا محل له والسميع العليم خبران لأنت والجملة الاسمية خبر لإن ، أو خبران لان وجملة إن وما في حيزها تعليلية لا محل لها (فَلَمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى) الفاء استئنافية ولما ظرفية حينيه أو حرف للربط ووضعتها فعل وفاعل مستتر ومفعول به وجملة قالت لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ورب منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة وإن واسمها ، وجملة وضعتها خبر إن وأنثى حال مؤكدة أو مبنية وسيأتي الفرق بينهما وجملة النداء مقول القول (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ) الواو اعتراضية والله مبتدأ وأعلم خبر وبما جار ومجرور متعلقان بأعلم وجملة وضعت لا محل لها لأنها صلة ما (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى) الواو عاطفة وليس فعل ماض ناقص والذكر اسمها والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر ، أو الكاف اسمية وهي الخبر والأنثى مضاف إليه (وَإِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ) الواو عاطفة والجملة معطوفة على جملة " اني وضعتها " ، وإن واسمها ، وجملة سميتها خبرها ، والهاء مفعول سميت الأول ومريم مفعوله الثاني (وَإِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ) الواو عاطفة أيضا والجملة معطوفة على جملة " إني سميتها " وإن واسمها ، وجملة أعيذها خبر إن والهاء مفعول به وبك متعلقان

بأعيذها وذريتها عطف على الهاء أو مفعول معه ومن الشيطان متعلقان بأعيذها والرجيم صفة للشيطان .

البلاغة :

1- فائدة الخبر في قوله : " إني وضعتها " للتحسر ، وليس مرادها الإخبار بمفهومه ، لأن اللّه عالم بما وضعت بل المراد إظهار الحسرة لما فاتها من تحقيق وعدها والوفاء بما التزمت به والاعتذار حيث أتت بمولود لا يصلح للقيام بما نذرته .

2- تكررت إن أربع مرات ، وفي الثلاث الأولى كان خبرها فعلا ماضيا ، وفي المرة الرابعة عدلت عن الماضي إلى المضارع ، فقالت :

أعيذها ، لنكتة بلاغية ، وهي ديمومة الاستعاذة وتجددها دون انقطاع بخلاف الأخبار السابقة فإنها انقطعت .

3- المراد بالخبر في قوله تعالى حكاية عن نفسه : " واللّه أعلم بما وضعت " لازم الفائدة ، والقصد منه إفادتها دون التصريح بما سيكون من شأن المولود الذي لم تأبه له بادىء الأمر ، وهي جاهلة مآل أمر هذه المولودة التي ستلد رسول الرأفة والسلام .

4- المراد بالخبر في قوله : " وليس الذكر كالأنثى " نفي الاعتقاد السائد بين الناس بوجود تفاوت بين الأولاد ، وإن هذا التفاوت الذي يبدو للوهلة الأولى ، إنما هو أمر ظاهري لا

يثبت عند الابتلاء والتجربة ، فإن الغيب أعمق غورا من أن يسبروه ، وأبعد منالا من أن يدركوه ، وكم من النساء من فاقت الرجال وأربت عليهم في الدرجات وقد تعلق أبو الطيب المتنبي بأذيال هذا المعنى البديع بقوله :

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

5- الإطناب في قوله تعالى : " وإني سميتها مريم " والغرض من التصريح بالتسمية التقرب إلى اللّه والازدلاف إليه بخدمة بيت المقدس

أولا ، ورجاء عصمتها ثانيا ، فإن مريم في لغتهم العابدة ، وإظهارا لعزمها على الوفاء بوعدها ثالثا أي : إنها وإن لم تكن خليقة بالسدانة فأرجو أن تكون من العابدات المطيعات . وقد أهمل صاحب المنجد الإشارة إلى ذلك في كتابة " المنجد " .

الفوائد :

تنقسم الحال إلى مبينة أو مؤسسة ، وهي التي لا يستفاد معناها من دون ذكرها ، كجاء علي راكبا إذ لا يستفاد معنى الركوب إلا بذكر راكبا .

ومؤكدة وهي التي يستفاد معناها من دون ذكرها ، وهي إما مؤكدة لعاملها لفظا ومعنى نحو " وأرسلناك للناس رسولا " و" فتبسم ضاحكا " وإما مؤكدة لصاحبها نحو " لآمن من في الأرض كلهم جميعا " فجميعا حال من فاعل آمن ، وهو " من " الموصولة ، مؤكدة لها ، وإما مؤكدة لمضمون جملة قبلها معقودة من اسمين معرفتين جامدين نحو : " هو الحق بينا " ، وقول الشاعر :

أنا ابن دارة معروفا بها نسبي وهل بدارة يا للناس من عار

فإن جعلت " أنثى " حالا من الضمير كانت مؤكدة ، وإن جعلتها حالا من " النسمة والنفس " المفهومة من سياق الكلام كانت مبينة .

[سورة آل عمران (3) : آية 37]

فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً وَكَفَّلَها زَكَرِيَّا كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (37)

اللغة :

(كَفَّلَها) بتشديد الفاء أي ضمنه إياها وضمها إليه وجعلها كافلا لها وضامنا لمصالحها .

ويؤيد هذا المعنى قراءة " وأكفلها " بوصفه زوج خالتها وذلك عن طريق الاقتراع .

(الْمِحْرابَ) والمحرب آلة الحرب ، وهذا هو القياس الصّرفي .

ولكن المحراب له معان مستقلة ليست داخلة في القياس الاشتقاقي ، فمن معانيه صدر البيت وأكرم مواضعه ، وصدر المجلس ، ومأوى الأسد ، ومحراب المسجد . ويرى علماء اللغة أن محراب المسجد سمي بذلك لأن المتعبد فيه يحارب الشيطان ، ولذلك يقال : لكل محل من محال العبادة محراب ، والباحث يحار ويدهش في أمر هذه اللغة الشريفة كيف تطورت ؟ ما هي تفاعلات الزمن التي أسهمت في هذا التطور ؟ إن المتتبع لموادها اللغوية يعجب كيف تهيأ لها هذا التطور الحركي الذي يحتاج إلى ما لا يحصى من الزمن ، فالحاء والراء حرفان يدلان في الأصل على الحر والحرق ، ولو تتبعنا جميع الجذور الأخرى لرأينا أنّ كل كلمة تبتدئ بهما تدل على معنى يكاد يكون منتزعا من هذا المعنى ، أو متفرعا عنه .

فلنستعرض الآن مادة الحرب ، إنها احتراق بكل معنى لاهب ، والحرب بفتحتين الهلاك ، وهو مقتفيات الحرق ومستلزماته ، قال أبو تمام :

لما رأى الحرب رأي العين توفلس والحرب مشتقة المعنى من الحرب

وحرث الأرض : شقها بالسكة ، وهذا يمت إلى المعنى الأصلي ، بأوثق الأسباب ، والحرج الضيق ، وحرد الرجل بكسر الراء : غضب ،

فهو حارد وحردان، وهي عاميه فصيحة. وهكذا إلى آخر المادة حيث تنتهي إلى هذا التقرير العجيب.

الإعراب:

)

(217/119)

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ) الفاء عاطفة وتقبل فعل ماض والهاء مفعول به وربها فاعل والجار والمجرور متعلقان بتقبلها وحسن صفة (وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً) الواو عاطفة وأنبتها فعل وفاعل مستتر ومفعول به ونباتا مفعول مطلق وحسنا صفة (وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا) الواو عاطفة وكفل فعل ماض والهاء مفعول به أول وزكريا مفعول به ثان، أي جعل زكريا كافلا لها وضامنا لمصالحها وفي قراءة تخفيف الفاء يكون زكريا هو الفاعل. وقد نسجت أساطير حول هذه الكفالة، يرجع فيها إلى المطولات (كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ) كلما ظرف زمان تقدم إعرابه مرارا وهو متعلق بوجد لأنه جواب الشرط. وجملة دخل عليها في محل جر بإضافة الظرف إليها والمحراب مفعول به على السعة أو منصوب بنزع الخافض (وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً) الجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وعندها

ظرف متعلق بوجد ورزقا مفعول به وجملة الشرط استئنافية (قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا) الجملة مستأنفة، وهذا أصلح ما قيل فيها رغم الاختلاف الشديد الذي لا طائل تحته.

وقال فعل ماض والفاعل هو ويا حرف نداء ومريم منادى مفرد علم مبني على الضم وأنى اسم استفهام بمعنى كيف، كأنه سؤال عن الكيفية، أي: كيف تهيأ لك وصول هذا الرزق إليك؟ قال الكميت:

أنى ومن أين آبك الطرب من حيث لا صبوة ولا طرب

وقيل معناه هنا : : من أين. وعلى الحالين هو منصوب على الظرفية

(218/119)

متعلق بمحذوف خبر مقدم، ولك جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال وهذا مبتدأ مؤخر (قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) الجملة مستأنفة وهو مبتدأ ومن عند اللّه متعلقان بمحذوف خبر (إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ) إن واسمها، وجملة يرزق خبر ومن اسم موصول مفعول به وجملة يشاء لا محل لها لأنها صلة الموصول وبغير حساب جار ومجرور متعلقان بيرزق وجملة إن اللّه مقول القول أيضا إذا كان من كلامها أو مستأنفة.

البلاغة:

في هذه الآية فنون نشير إليها بما يلي :

1- الجناس المغاير في قوله " فتقبلها ربها بقبول حسن " وفي قوله " فأنبتها نباتا حسنا " وفي قوله " رزقا " و" يرزق " .

2- الإشارة ، وهو التعبير باللفظ الظاهر عن المعنى الخفي في قوله " هو من عند اللّه " أي هو رزق لا يأتي به في ذلك الوقت إلا اللّه .

3- التنكير في قوله : " رزقا " لإفادة الشيوع والكثرة ، وأنه ليس من جنس واحد بل من أجناس كثيرة .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 38 إلى 41]

هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ (38) فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (39) قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عاقِرٌ قالَ كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (40) قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ (41)

(العاقر) من لا يولد له ، رجلا كان أو امرأة . مشتق من العقر وهو القطع ، لقطعة النسل .

)

(الحصور) بفتح الحاء فعول محول عن فاعل للمبالغة، وهو الذي لا يأتي النساء، وهو قادر على ذلك والممنوع منهن أو من لا يشتهيهن ولا يقربهن. ثم استعمل لكل من لا يشارك في لعب ولهو ومجانة، قال الأخطل:

وشارب مربح بالكأس نادمني لا بالحصور ولا فيها بسآر

(العشي) من حين تزول الشمس إلى أن تغيب، وهو اسم مفرد لا جمع كما توهم الجلال وأبو حيان.

(الإبكار) بكسر الهمزة مصدر لأبكر بمعنى بكر ثم استعمل اسما، وهو طلوع الشمس إلى وقت الضحى.

الإعراب:

(هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ) هنالك اسم إشارة للمكان في محل نصب على الظرفية المكانية وقد يتجوز به للزمان واللام للبعد والكاف للخطاب والظرف متعلق بدعا وزكريا فاعل دعا وربه مفعوله، والجملة مستأنفة مسوقة للإشارة إلى تحول زكريا عن اعتقاده بشأن الولادة والعقم،

أي : لما رأى زكريا ذلك وعلم أن القادر على الإتيان بالشيء في غير أوانه قادر على الإتيان بالولد في حال الكبر (قالَ : رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً) جملة مستأنفة مسوقة لتحقيق ما خطر له من سوانح بعد التحول الفكري الطارئ عليه ، وقال فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو يعود على زكريا ورب منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة وهب فعل أمر ولي متعلقان بهب ومن لدنك جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال وذرية مفعول به وطيبة صفة ، وأنثت الصفة لتأنيث الموصوف لأنه لم يقصد به معين ، أما إذا قصد به ذلك امتنع اعتبار اللفظ ، نحو طلحة وحمزة وجملة النداء في محل نصب مقول القول (إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ) إن واسمها وخبرها والجملة تعليلية لا محل لها (فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ) الفاء عاطفة ونادته الملائكة فعل ومفعول به وفاعل (وَهُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ) الواو حالية وهو مبتدأ وقائم خبره والجملة نصب على الحال من مفعول النداء وجملة يصلي في المحراب لك أن تجعلها خبرا ثانيا لهو أو تنصبها على الحال من القيام وفي المحراب متعلقان بيصلي (أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى) أن وما في خبرها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بنادته وقرئ بكسر همزة "إن" بتقدير قول محذوف ، فالجملة مقول القول وجملة القول حال ، أي : حال كون الملائكة قائلين . وجملة يبشرك خبرها والجار والمجرور متعلقان بيبشرك ويحيى ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة إن كان أعجميا ، وإن كان عربيا

فللعلمية ووزن الفعل (مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ) مصدقا حال وبكلمة متعلقان بمصدقا والمراد بالكلمة عيسى بن مريم وإنما سمي كلمة لأن اللّه تعالى قال له : كن فكان من غير أب . وهناك أقوال أخرى يرجع

(221/119)

فيها إلى المطولات (وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) الكلمات الثلاث عطف على " مصدقا " ومن الصالحين صفة لنبيا (قالَ : رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ) قال فعل ماض والفاعل مستتر تقديره هو يعود على زكريا ورب منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة وأنّى اسم استفهام في محل نصب على الظرفية والظرف متعلق بمحذوف خبر يكون إذا اعتبرت ناقصة أو حال إذا اعتبرت تامة ، ولي متعلقان بمحذوف حال وغلام اسم يكون أو فاعلها وجملة قال استئنافية وجملة النداء مقول القول (وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ) الواو حالية وقد حرف تحقيق وبلغني فعل ماض والنون للوقاية والياء مفعول به والكبر فاعل والجملة في محل نصب حال (وَامْرَأَتِي عاقِرٌ) الواو حالية أيضا وامرأتي مبتدأ وعاقر خبر والجملة حالية من الياء في " لي " فتكون حالا متعددة ، ولك أن تجعلها حالا من الياء في " بلغني " (قالَ : كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ) اضطرب كلام المعربين والمفسرين في هذه الآية ، وأقرب ما تراءى لنا وجهان

متساويا الرجحان ، أولهما أن الجملة كلها مستأنفة ، والقائل هو الله تعالى ، و"كذلك" جار ومجرور متعلقان بمحذوف في محل نصب مفعول مطلق ، أي يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة مثل ذلك الفعل ، وهو خلق الولد من الشيخ الفاني والعجوز العاقر ، أو على أنهما في موضع الحال من ضمير المصدر المحذوف من "يفعل" وذلك على مذهب سيبويه في هذه المسألة ، وقد تقدم بحثها . والله مبتدأ وجملة يفعل خبر وما اسم موصول في محل نصب مفعول به والجملة مقول القول . والوجه الثاني أن يتعلق كذلك بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف ، أي : الأمر كذلك ، وجملة يفعل ما يشاء في محل رفع خبر الله وجملة يشاء لا محل لها لأنها صلة (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً) قال : فعل ماض والفاعل زكريا ورب

(222/119)

منادى تقدم إعرابه ، واجعل فعل أمر وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت ، ولي متعلقان باجعل وآية مفعول به وجملة النداء وما تلاه مقول القول وجملة القول مستأنفة (قَالَ : آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ) الجملة مستأنفة وآيتك مبتدأ وأن وما في حيزها في تأويل مصدر خبر وتكلم فعل مضارع

منصوب بأن والناس مفعول به والجملة مقول القول (ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا) ثلاثة أيام : ظرف

زمان متعلق بتكلم وإلا أداة استثناء منقطع واجب النصب لأن الرمز ليس من جنس الكلام ، ولك أن تعتبره من جنس الكلام فتكون " رمزا " استثناء من أعم الأحوال أو من أعم المصادر ، أي حالا أو مفعولا مطلقا ، وهذه الأوجه متساوية الرجحان في هذا التركيب العجيب (وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً) الواو استئنافية واذكر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وربك مفعول به وكثيرا مفعول مطلق أو ظرف زمان ، أي ذكرا كثيرا أو وقتا كثيرا (وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ) الواو عاطفة وسبح عطف على اذكر وبالعشي جار ومجرور متعلقان بسبح والإبكار عطف عليه .

البلاغة :

في قوله " رمزا " فن الإشارة ، وقد تقدم بحثه قريبا ، لأنه دل على ما في نفس البشر من خلجات ومعان . وقد تشبث الشعراء بأذيال هذه البلاغة ، قال أبو تمام :

توحي بأسرارنا حواجبنا وأعين بالوصال ترتشق

وقال أيضا :

كلمته بجفون غير ناطقة فكان من ردّه ما قال حاجبه

وقال آخر :

إذا كلمتني بالعيون الفواتر رددت عليها بالدموع البوارد

[سورة آل عمران (3) : الآيات 42 إلى 43]

وَإِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ (42)

يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (43)

اللغة :

(اصْطَفاكِ) : اختارك .

(اقْنُتِي) : أخلصي العبادة وأديمي الطاعة .

الإعراب :

)

(وَإِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ) الواو عاطفة والجملة معطوفة ، فقد عطف قصة البنت على قصة أمها لما بينهما من كمال المناسبة . ولك أن تعطف " إذ " على الظرف السابق وأن تعلقه باذكر محذوفا ، وقالت الملائكة :

فعل وفاعل والجملة في محل جر بإضافة الظرف إليها (يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاكِ) يا حرف نداء ومريم منادى مفرد علم وإن واسمها ، وجملة اصطفاك خبر إن والجملة كلها مقول القول (وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ) الفعلان معطوفان على اصطفاك وعلى نساء

متعلقان باصطفاك والعالمين مضاف إليه (يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ) يا حرف نداء ومريم منادى مفرد علم واقنتي فعل أمر مبني على حذف النون والياء

فاعل والجار والمجرور متعلقان باقنتي (وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ) فعلا الأمر منسوقان على اقنتي ومع ظرف مكان متعلق باركعي والراكعين مضاف إليه.

البلاغة:

1- في هاتين الآيتين التقديم، فقد قدم السجود وهو متأخر في حكم الصلاة للاهتمام به، ولكونه أدل على التذلل والعبادة. وهذا ديدنهم تقديم الأهم على المهم.

2- وفيهما أيضا التكرير، فقد كرر النداء للإيذان بأن كل واحد منهما مسوق لمعنى، فالأول تذكير بالنعمة، وهو بمثابة تمهيد للثاني الذي هو للتكليف والترغيب في العمل.

3- وفيهما أيضا إطلاق الجزء وادارة الكل، وقدم السجود لأنه أفضل أركان الصلاة كما تقدم.

[سورة آل عمران (3): الآيات 44 إلى 46]

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (44) إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (45) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (46)

اللغة:

(أَقْلامَهُمْ) الأقلام: جمع قلم وهو فعل بمعنى مفعول، أي

مقلوم. والقلم: القطع ومثله القبض والنقض بمعنى المقبوض والمنقوض.

(الْمَسِيحُ): لقب من الألقاب الشريفة التي تشعر بالرفعة كالصديق والفاروق وهو بالعبرية المشيح ومعناه المبارك وسمي المسيح قيل: لكثرة سياحته، وقيل: لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما، وقيل: لأنه كان إذا مسح أحدا من ذوي العاهات برىء.

(عِيسَى): معرب من ايشوع، وقيل: مشتق من العيس، وهو بياض تعلوه حمرة.

الإعراب:

(ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ) ذلك اسم إشارة مبتدأ ومن أنباء الغيب خبره والجملة مستأنفة مسوقة للإخبار بأن ذلك كله من نبأ زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام (نُوحِيهِ إِلَيْكَ) فعل مضارع وفاعله نحن والهاء مفعول به والجار والمجرور متعلقان بنوحيه والجملة حالية أو استئنافية أيضا (وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ) الواو حالية أو استئنافية وما نافية وكان

واسمها ، ولديهم ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر كنت أي :

موجودا لديهم (إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ) إذ ظرف لما مضى ودخوله على المضارع لحكاية الحال الماضية ، وهو متعلق بما تعلق به "لديهم" أي بالاستقرار المحذوف .

وقد قال أبو علي الفارسي : العامل في "إذ" هو "كنت" .

(225/119)

و قد اعترض عليه بما قرره هو نفسه إذ قال : إن "كان" الناقصة سلبت الدلالة على الحدث وتجردت للزمان فلا يتعلق بها الظرف ولا الجار والمجرور . وجملة يلقون في محل جر بالإضافة وأقلامهم : مفعول

به (أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ) الجملة في محل نصب حال بتقدير فعل ، أي يتساءلون ، ويبعد جعلها فاعلا لفعل محذوف ، لما في ذلك من التكلف ، كما فعل الجلال وأي مبتدأ والهاء مضاف إليه والميم علامة جمع الذكور وجملة يكفل مريم خبر المبتدأ . (وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) الواو عاطفة وما نافية وكان واسمها ، ولديهم ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر كنت وإذ ظرف لما مضى متعلق بالاستقرار المحذوف وجملة يختصمون في محل جر بالإضافة (إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ) الظرف متعلق بمحذوف ، أي : اذكر ، وقالت الملائكة فعل

وفاعل والجملة في محل جر بالإضافة وجملة الظرف ومتعلقة مستأنفة مسوقة للشروع في قصة عيسى عليه السلام (يا مَرْيَمُ) يا أداة نداء ومريم منادى مفرد علم (إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ) الجملة مقول القول وإن واسمها وجملة يبشرك خبرها (بِكَلِمَةٍ) متعلقان بيبشرك (مِنْهُ) صفة لكلمة (اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ) اسمه مبتدأ والمسيح خبر والجملة صفة ثانية لكلمة وعيسى بدل من المسيح وابن مريم بدل أو نعت .

(226/119)

و ذكرت مريم مع أنها هي المخاطبة للإيذان باختصاص عيسى عليه السلام بأنه ولد من غير أب كما جرت العادة (وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) وجيها حال من كلمة وان كانت نكرة لأنها موصوفة والجار والمجرور متعلقان بوجيها فهما في موضع نصب على الحال (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ) الواو عاطفة ويكلم فعل مضارع والفاعل هو والجملة معطوفة على " وجيها " فهي حال أيضا وعدل إلى الفعلية للتجدد والناس مفعول به وفي المهد متعلقان بمحذوف حال من فاعل " يكلم " (وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ) عطف على قوله " في المهد " أي : صبيا وكهلا ، ومن الصالحين عطف على وجيها فاستتم بذلك الأوصاف الأربعة ل "كلمة " .

البلاغة :

الكناية في قوله : " يلقون أقلامهم " عن القرعة .

الفوائد :

(إِذْ) تكون على ثلاثة أوجه :

2- تكون للتعليل وهذه حرف بمنزلة لام التعليل ، كقول الفرزدق :

بعدها فعل مضارع فهي لحكاية الحال الماضية .

2- تكون للتعليل وهذه حرف بمنزلة لام التعليل ، كقول الفرزدق :

فأصبحوا قد أعاد اللّه نعمتهم إذ هم قريش وإذ ما مثلهم بشر

فالظرفية هنا منسلخة ولا تصح بحال ، لأن المعنى يفسد ، أي أعاد اللّه نعمتهم وقت كونهم قريشا ، فيفيد أن كونهم من قريش أمر طارئ عليهم .

3- أن تكون للمفاجأة ، وهي الواقعة بعد " بينا " و" بينما "كقوله :

استقدر اللّه خيرا وارضين به فبينما العسر إذ دارت مياسير

والأولى عندئذ أن تكون حرفا .

(أي) تأتي على خمسة أوجه :

1- اسم شرط جازم وتعرب بحسب موقعها .

2- اسم موصول وتعرب بحسب موقعها إلا إذا أضيفت وحذف صدر صلتها فتبنى

على الضم : " ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا " .

3- اسم استفهام كما في الآية المتقدمة ، وحكمها حكم الموصولية .

(227/119)

4- أن تقع صفة للنكرة أو حالا بعد المعرفة للدلالة على معنى التمام والكمال ، كقول أبي العتاهية :

إن الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أيّ مفسدة

5- تكون وصلة لنداء ما فيه أل : يا أيها الناس .

(العلم) ينقسم العلم إلى اسم وكنية ولقب ، وإذا اجتمع الاسم واللقب يؤخر اللقب عن الاسم ، وربما قدم عليه كما في الآية . ويطرد هذا إذا كان اللقب أشهر من الاسم ولا ترتيب في الكنية ، ويعرب الثاني بدلا من الأول ، ويجوز أن تضيف اللقب إلى الاسم إذا كانا مفردين كهرون الرشيد ومحمد المهديّ

[سورة آل عمران (3) : الآيات 47 إلى 50]

قالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قالَ كَذلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (47) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ (48) وَرَسُولاً

إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (49) وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (50)

اللغة :

(الأكمه) : الذي ولد أعمى يقال : كمه كمها ، من باب تعب ، فهو أكمه والمرأة كمهاء ، مثل أحمر وحمراء وهو العمى يولد عليه الإنسان وربما كان عارضا .

)

(228/119)

الأبرص) : المصاب بالبرص بفتحتين وهو داء معروف يعتري الإنسان ، ولم تكن العرب تنفر من شيء نفرتها منه ، فكانوا يصفون العظيم إذا أصيب به بالوضّاح فقالوا : جذيمة الوضاح وهو من ملوك العرب المشهورين ويقال للقمر أبرص لشدة بياضه وللوزغ سام أبرص لبياضه .

الإعراب :

(قَالَتْ : رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ) تقدم إعرابها قبل قليل بحروفها فجدد بها عهدا (وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ) الواو للحال ولم حرف نفي وقلب وجزم ويمسسني فعل مضارع مجزوم بلم والنون للوقاية والياء مفعول به وبشر فاعل والجملة حالية (قالَ كَذلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ) الجملة مستأنفة لا محل لها والجار والمجرور متعلقان بمحذوف مفعول مطلق لفعل محذوف ، أو حال وعلقهما بعضهم بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف والله مبتدأ وجملة يخلق خبر وما اسم موصول مفعول به وجملة يشاء لا محل لها لأنها صلة الموصول وجملة الله يخلق مقول القول (إِذا قَضى أَمْراً) إذا ظرف مستقبل وجملة قضى في محل جر بالإضافة وأمرا مفعول به (فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) الفاء رابطة لجواب إذا وجملة إنما يقول لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وله متعلقان بيقول وكن فعل أمر تام والجملة مقول القول والفاء

(229/119)

استئنافية ويكون فعل مضارع تام مرفوع بالضمة والفاعل هو والجملة خبر لمبتدأ محذوف أي فهو يكون والجملة مستأنفة ، وهذا قول سيبويه وهو الصحيح وقرأ ابن عامر بالنصب " فيكون " على أن الفاء للسببية ، ويشكل على هذه القراءة أن الاستقبال مسلوب عنه

عندئذ بها . (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ) الواو استئنافية ولك أن تعطفها على " وجيها " كأنه قال : وجيها ومعلما ، وقرىء ونعلمه فتكون الجملة مقولا لقول محذوف لأنه يكون من كلام الله ويعلمه فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به أول والكتاب مفعول به ثان وما بعده منسوق عليه (وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ) الواو عاطفة ورسولا مفعول به لفعل محذوف أي ويجعله رسولا أي من باب الإخبار بالمغيبات ، وأجاز الزمخشري وغيره أن يعرب رسولا حالا كأنه عطفه على يعلمه بالمعنى وإلى بني إسرائيل متعلقا بمحذوف صفة ل " رسولا " (أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) أن وما في حيزها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض ، أي بأني قد جئتكم ، وقد سبق القول بأن هذا مطرد قبل أنّ وأن ، والجار والمجرور متعلقان ب " رسولا " لأنه تضمن معنى النطق ، أي ورسولا ناطقا بأني قد جئتكم . وقد كثرت التأويلات في هذه التعابير ، ولذلك جعلها الزمخشري من المضائق المعجزة . وقيل الباء للملابسة وهي مع مدخولها في محل نصب على الحال ، والمعنى أني رسول الله إليكم حال كوني متلبسا بمجيئي بالآيات وجملة قد جئتكم خبر أن وبآية متعلقان بجئتكم ومن ربكم متعلقان بمحذوف صفة لآية (أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ) أن وما في حيزها في تأويل مصدر بدل من آية لأن ما يفعله لا يعدو أن يكون من دلائل آياته الباهرة ، ولك أن نجعله

خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هي والمعنى واحد وفي قراءة بكسر همزة إن فتكون إن وما بعدها مستأنفة وجملة أخلق خبر إن ولكم متعلقان بمحذوف في محل نصب على معنى التعليل أي لأجل هدايتكم ، أو معنى الحال أي هاديا لكم ، ومن الطين متعلقان بأخلق وكهيئة الكاف اسم بمعنى مثل فهي في محل نصب مفعول به أو حرف فتكون وما بعدها في محل نصب صفة لمفعول به محذوف أي شيئا مثل هيئة الطير وهيئة مضاف إليه إن كانت اسما والطير مضاف مضاف إلى هيئة (فَأَنفُخُ فِيهِ) الفاء عاطفة ، أنفخ معطوف على أخلق ، والجار والمجرور متعلقان بأنفخ (فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ) الفاء عاطفة ويكون فعل مضارع ناقص معطوف على أخلق وطيرا خبر يكون واسمها مستتر وبإذن الله متعلقان بيكون على رأي من يجيز تعلق الجار والمجرور والظرف بالأفعال الناقصة أو بمحذوف حال ، والأول أقرب إلى المعنى (وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ) عطف على أخلق والأكمه مفعول به (وَأُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللَّهِ) عطف على ما تقدم أيضا وبإذن الله متعلقان بأحيي (وَأُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ) عطف أيضا والجار والمجرور متعلقان بأنبئكم ناب عن المفعولين وجملة تأكلون لا محل لها لأنها صلة الموصول (وَما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) الواو عاطفة وما عطف على " ما " المتقدمة وجملة تدخرون لا محل لها وفي بيوتكم جار ومجرور متعلقان بتدخرون (إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) إن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك جار ومجرور متعلقان

بمحذوف خبر إن

المقدم ، واللام هي المزحلقة وآية اسمها المؤخر ولكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لآية وجملة إن وما في حيزها إما أن تكون من كلام عيسى عليه السلام فتكون داخلة في حيز القول ، ويحتمل أن تكون من كلام اللّه تعالى فتكون مستأنفة .

وإن شرطية وكنتم في محل جزم فعل الشرط وكان فعل ماض ناقص

والتاء اسمها ومؤمنين خبرها وجواب الشرط محذوف والتقدير إن كنتم مؤمنين انتفعتم بهذه الآية وجملة الشرط استئنافية (وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ) الواو عاطفة ومصدقا حال من فعل محذوف أي وجئتكم مصدقا ، أو تعطفه على محل " بآية " ولما اللام حرف جر وما اسم موصول مجرور باللام والجار والمجرور متعلقان " بمصدقا " وبين ظرف متعلق بمحذوف لا محل له لأنه صلة ما ويديّ مضاف إليه وعلامة جره الياء لأنه مثنى والياء مضاف إليه ومن التوراة جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال (وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) الواو حرف عطف واللام للتعليل وأحلّ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازا بعد لام التعليل واللام ومدخولها متعلقان بجئتكم مقدرة ، ولا يجوز عطفه

على " مصدقا " لأنه حال ولأحل تعليل ، ولكم جار ومجرور متعلقان بأحل وبعض مفعول به والذي اسم موصول مضاف إليه ، وجملة حرم عليكم لا محلّ لها لأنها صلة الموصول (وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) الواو حرف عطف وجملة جئتكم عطف على جئتكم السابقة وتكررت للتوكيد وبآية جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال فالباء للملابسة ، والمعنى أني رسول إليكم حال كوني ملتبسا بمجيئي . ولك أن تعلقها بجئتكم ، ومن ربكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لآية (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) الفاء الفصيحة ، أي إذا علمتم أنه لا يسوغ لكم بعد هذه الآلاء الباهرة التي مننت بها عليكم أن تأخذكم هوادة في طاعة اللّه فاتقوا اللّه . واتقوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وأطيعون عطف على اتقوا وحذفت ياء المتكلم لمراعاة الفواصل .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 51 إلى 54]

إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (51)

اللغة :

(الْحَوارِيُّونَ) : جمع حواري ، وهو صفوة الرجل وخالصته ، ومنه قيل للحضريات :

حواريات ، لخلوص ألوانهن وفتنتهن ونعومتهن قال :

فقل للحواريات يبكين غيرنا ولا تبكنا إلا الكلاب النوابح

وتكاد هذه النسبة تكون مطّردة كالحوالي وهو الكثير الحيلة .

وزعم صاحب المنجد أنّ اللفظة حبشية ولكننا نرجح أنها عربية خالصة .

ففي أساس البلاغة : وامرأة حوارية ونساء حواريات : بيض قال الأخطل :

حوارية لا يدخل الذمّ بيتها مطهرة يأوي إليها مطهر

وقد نسجت أساطير جميلة حول الحواريين تحتاج إلى قصاص بارع يصوغ منها أروع القصص .

(المكر) في اللغة : الستر ، يقال : مكر الليل أي أظلم وستر بظلمته ما فيه ، واشتقاقه من المكر ، وهو شجر ملتفّ ، كأنهم تخيلوا أن المكر يلف الممكور به . وامرأة ممكورة البطن : أي ملتفة ثم خصصوه بالخبث والخداع .

الإعراب :

(إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ) كلام مستأنف مسوق لتقدير أصل الديانة المترتبة على الإيمان بما أورده ، وإن واسمها ، وربي خبرها وربكم عطف على ربي . فاعبدوه : الفاء الفصيحة أي إذا شئتم حسن المصير فاعبدوه ، واعبدوه فعل أمر

مبني على حذف النون والواو فاعل والهاء مفعول به وجملة اعبدوه لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم (هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ) يصح أن تكون الجملة مستأنفة أو مفسرة، وعلى الحالين لا محل لها. وهذا مبتدأ وصراط خبر ومستقيم صفة لصراط. انتهى. اهـ

﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 1 صـ 453.518﴾

(233/119)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية

عفا الله عنه وغفر له

الجزء العشرون بعد المائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/120)

الجزء العشرون بعد المائة

من الآية ﴿ 52 ﴾ من سورة آل عمران

وحتى الآية ﴿ 61 ﴾ من نفس السورة

(4/120)

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (52) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ختم سبحانه وتعالى هذه البشارة بالآية القاطعة القويمة الجامعة ، وكان قوله : في أول

السورة ﴿ يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾ وقوله هنا ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ مغنياً عن ذكر حملها ، طواه وأرشد السياق حتماً إلى أن التقدير : فصدق الله فيما قال لها ، فحملت به من غير ذكر فولدته - على ما قال سبحانه وتعالى - وجيهاً وكلم الناس في المهد وبعده ، وعلمه الكتاب والحكمة وأرسله إلى بني إسرائيل ، فأتم لهم الدلائل ونفى الشبه على ما أمره به الذي أرسله سبحانه وتعالى وعلموا أنه ناسخ لا مقرر ، فتابعه قوم وخالفه آخرون فغطوا جميع الآيات وأعرضوا عن الهدى والبينات ، ونصبوا له الأشراك والحبائل وبغوه الدواهي والغوائل ، فضلوا على علم وظهر منهم الكفر البين واعوجوا عن الصراط المستقيم عطف عليه قوله مسلياً لهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم : ﴿ فلما أحس ﴾ قال الحرالي : من الإحساس وهو منال الأمر بادراً إلى العلم والشعور الوجداني - انتهى ﴿ عيسى منهم الكفر ﴾ أي علمه علم من شاهد الشيء بالحس ورأى مكرهم على ذلك يتزايد وعنادهم يتكاثر بعد أن علم كفرهم علماً لا مرية فيه ، فاستغاث بالأنصار وعلم أن منجنون الحرب قد دار ، فعزم على إلحاقهم دار البوار ﴿ قال من أنصاري ﴾ .

ولما كان المقصود ثبات الأنصار معه إلى أن يتم أمره عبر عن ذلك بصلة دلت على تضمين هذه الكلمة كلمة توافق الصلة فقال : ﴿ إلى ﴾ أي سائرين أو واصلين معي بنصرهم إلى ﴿ الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ قال الحواريون ﴾ قال الحرالي : جمع حواري وهو

المستخلص نفسه في نصرة من تحق نصرته بما كان من إيثاره على نفسه بصفاء وإخلاص لا كدر فيه ولا شوب – انتهى .

(5/120)

وهو مصروف لأن ياءه عارضة ﴿ نحن أنصار الله ﴾ أي الذي أرسلك وأقدرك على ما تأتي به من الآيات ، فهو المحيط بكل شيء عزة وعلماً ، ثم صححوا النصرة وحققوا بأن عللوا بقولهم : ﴿ آمنا بالله ﴾ أي على ما له من صفات الكمال ، ثم أكدوا ذلك بقولهم مخاطبين لعيسى عليه الصلاة والسلام رسولهم أكمل الخق إذ ذاك : ﴿ واشهد بأنا مسلمون ﴾ أي منقادون لجميع ما تأمرنا به كما هو حق من آمن لتكون شهادتك علينا أجدر لثباتنا ولتشهد لنا بها يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 96 . 97 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما حكى بشارة مريم بولد مثل عيسى واستقصى في بيان صفاته وشرح معجزاته وترك ههنا قصة ولادته ، وقد ذكرها في سورة مريم على الاستقصاء ، شرع في بيان أن عيسى لما شرح لهم تلك المعجزات ، وأظهر لهم تلك الدلائل فهم بماذا عاملوه فقال

تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 ص 54.53 ﴾

(6/120)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الكفر ﴾ شروع في بيان مآل أحواله عليه السلام ، وقيل : يحتمل أن يكون كله من قبل الملائكة شرحاً لطرف منها داخلاً تحت القول ، ويحتمل أن يكون الكلام قد تم عند قوله تعالى : ﴿ وَرَسُولاً إلى بَنِى إسرائيل ﴾ [آل عمران : 49] ولا يكون ﴿ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ ﴾ [آل عمران : 49] متعلقاً بما قبله ، ولا يكون داخلاً تحت القول ويكون المحذوف هناك فجاء عيسى كما بشر الله تعالى رسولاً إلى بني إسرائيل بأني قد جئتكم بآية من ربكم الآية ، والفاء هنا مفصحة بمثل القدر هناك على التقدير الثاني ، وأصل الإحساس الإدراك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة وقد استعير هنا استعارة تبعية للعلم بلا شبهة ، وقيل : إنه مجاز مرسل عن ذلك من باب ذكر الملزوم وإرادة اللازم والداعي لذلك أن الكفر مما لا يحس ، والقول بأن المراد إحساس آثار الكفر ليس

بشيء ، والمراد من الكفر إصرارهم عليه وعتوهم فيه مع العزيمة على إيقاع مكروه به عليه السلام ، وقد صح أنه عليه السلام لقي من اليهود قاتلهم الله تعالى شدائد كثيرة .

(7/120)

أخرج إسحق بن بشر وابن عساكر من طرق عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : "كان اليهود يجتمعون على عيسى عليه السلام ويستهزءون به ويقولون له : يا عيسى ما أكل فلان البارحة وما ادخر في بيته لغد ؟ ! فيخبرهم ويسخرون منه حتى طال ذلك به وبهم وكان عيسى عليه السلام ليس له قرار ولا موضع يعرف إنما هو سائح في الأرض فمر ذات يوم بامرأة قاعدة عند قبر وهي تبكي فسألها فقالت : ماتت ابنة لي لم يكن لي ولد غيرها فصلى عيسى ركعتين ثم نادى يا فلانة قومي بإذن الرحمن فاخرجي فتحرك القبر ثم نادى الثانية فانصدع القبر . ثم نادى الثالثة فخرجت وهي تنفض رأسها من التراب فقالت : يا أماه ما حملك على أن أذوق كرب الموت مرتين ؟ يا أماه اصبري واحتسبي فلا حاجة لي في الدنيا يا روح الله سل ربي أن يردني إلى الآخرة وأن يهون عليّ كرب الموت فدعا ربه فقبضها إليه فاستوت عليها الأرض فبلغ ذلك اليهود فازدادوا عليه غضباً" وروي عن مجاهد أنهم أرادوا قتله ولذلك استنصر قومه ، ومن لابتداء الغاية متعلق بأحس أي ابتدأ الإحساس

من جهتهم؛ وجوز أبو البقاء أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من الكفر أي لما أحس الكفر حال كونه صادراً منهم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿روح المعانى حـ 3 صـ 147. 175﴾

(8/120)

اللغة:

[أحس] عرف وتحقق وأصله من الإحساس وهو الإدراك ببعض الحواس الخمس

[الحواريون] جمع حوارى وهو صفوة الرجل وخاصته، ومنه قيل للحضريات [حواريات] لخلوص ألوانهن وبياضهن، قال الشاعر:

فقل للحواريات يبكين غيرنا ولا تبكنا إلا الكلاب النوابح

والحواريون أتباع عيسى كالصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم سموا [حواريين] لصفاء قلوبهم ونقاء سرائرهم

[مكروا] المكر: الخداع وأصله السعى بالفساد فى خفية، قال الزجاج: يقال مكر الليل وأمكر إذا أظلم، ومكر الله استدراجه لعباده من حيث لا يعلمون حكى عن الفراء وغيره

[نبتهل] نتضرع فى الدعاء ، وأصل الإبتهال : الاجتهاد فى الدعاء باللعن ، والبهلة اللعنة .
انتهى انتهى . ا هـ ﴿صفوة التفاسير حـ 1 صـ 204﴾

(9/120)

فصل

قال ابن عادل :

الإحساس : الإدراك ببعض الحواسّ الخمس وهي الذوق والشمُّ واللمس والسمع والبصر - يقال : أحسَسْتُ بالشيء وبالشيء وحَسَسْتُه وحَسَسْتُ به ، ويقال : حَسَيْت - بإبدال سينه الثانية ياءً - وأحست بحذف أول سِينيه - .

قال الشاعر : [الوافر]

سِوَى أنَّ الْعِتَاقَ مِنَ الْمَطَايَا . . . أحَسْنَ بِهِ فَهُنَّ إلَيْهِ شُوسُ

قال سيبويه : ومما شَذَّ من المضاعف - يعني في الحَذْف - فشبيه بباب أقمت ، وليس وذلك قولهم أَحَسْتُ وأَحَسْنَ - يريدون : أحسست وأحسَسْنَ ، وكذلك تفعل به في كل بناء يبنى الفعل فيه ولا تصل إليه الحركة ، فإذا قلت : لم أحس ، لم تحذف .

وقيل : الإحساس : الوجود والرؤية ، يقال : هل أحْسَسْتَ صاحبَك - أي : وجدته ، أو

رأيته ؟

قال أبو العباس المقرئ : ورد لفظ " الحِسّ " في القرآن على أربعة أضربٍ :

الأول : بمعنى الرؤية ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عيسى مِنْهُمُ الكفر ﴾ [آل عمران : 52] وقوله تعالى : ﴿ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ ﴾ [الأنبياء : 12] أي رأوه . وقوله ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ ﴾ [مريم : 98] أي : هل ترَى منهم ؟

الثاني : بمعنى القتل ، قال تعالى : ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ [آل عمران : 152] أي : تقتلونهم .

الثالث : بمعنى البحث ، قال تعالى : ﴿ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ [يوسف : 87] .

الرابع : بمعنى الصوت ، قال تعالى : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ [الأنبياء : 102] أي : صَوْتَهَا .

قوله : ﴿ مِّنْهُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن يتعلق بـ " أَحَسَّ " و " مِنْ " لابتداء الغاية أي : ابتداء الإحساس من جهتهم .

الثاني : أنه متعلق بمحذوف ، على أنه حال من الكفر ، أي : أحس الكفر حال كونه صادراً منهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 256 . 257 ﴾

فصل

قال الفخر :

الإحساس عبارة عن وجدان الشيء بالحاسة وههنا وجهان

أحدهما : أن يجري اللفظ على ظاهره ، وهو أنهم تكلموا بالكفر ، فأحس ذلك بإذنه

والثاني : أن نحمله على التأويل ، وهو أن المراد أنه عرف منهم إصرارهم على الكفر ، وعزمهم على قتله ، ولما كان ذلك العلم علماً لا شبهة فيه ، مثل العلم الحاصل من الحواس ، لا جرم عبر عن ذلك العلم بالإحساس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 54﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في السبب الذي به ظهر كفرهم على وجوه

الأول : قال السدي : أنه تعالى لما بعثه رسولاً إلى بني إسرائيل جاءهم ودعاهم إلى دين الله فتمردوا وعصوا فخافهم واختفى عنهم ، وكان أمر عيسى عليه السلام في قومه كأمر محمد صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فكان مستضعفاً ، وكان يختفي من بني إسرائيل كما

اختفى النبي صلى الله عليه وسلم في الغار ، وفي منازل من آمن به لما أرادوا قتله ، ثم إنه عليه الصلاة والسلام خرج مع أمه يسيحان في الأرض ، فاتفق أنه نزل في قرية على رجل فأحسن ذلك الرجل ضيافته وكان في تلك المدينة ملك جبار فجاء ذلك الرجل يوماً حزيناً ، فسأله عيسى عن السبب فقال : ملك هذه المدينة رجل جبار ومن عادته أنه جعل على كل رجل منا يوماً يطعمه ويسقيه هو وجنوده ، وهذا اليوم نوبتي والأمر متعذر علي ، فلما سمعت مريم عليها السلام ذلك ، قالت : يا بني ادع الله ليكفي ذلك ، فقال : يا أماه إن فعلت ذلك كان شر ، فقالت : قد أحسن وأكرم ولا بد من إكرامه فقال عيسى عليه السلام : إذا قرب مجيء الملك فاملأ قدورك وخوابيك ماء ثم أعلمني ، فلما فعل ذلك دعا الله تعالى فتحول ما في القدور طبيخاً ، وما في الخوابي خمراً ، فلما جاءه الملك أكل وشرب وسأله من أين هذا الخمر ؟ فتعلل الرجل في الجواب فلم يزل الملك يطالبه بذلك حتى أخبره بالواقعة فقال : إن من دعا الله حتى جعل الماء خمراً إذا دعا أن يحيي الله تعالى ولدي لا بد وأن يجاب ، وكان ابنه قد مات قبل ذلك بأيام ، فدعا عيسى عليه السلام وطلب منه ذلك ، فقال عيسى : لا نفعل ، فإنه إن عاش كان شراً ، فقال : ما أبالي ما كان إذا رأيته ، وإن أحييته تركتك على ما تفعل ، فدعا الله عيسى ، فعاش الغلام ، فلما رآه أهل مملكته قد عاش تبادروا بالسلاح واقتتلوا ، وصار أمر عيسى عليه السلام مشهوراً في الخلق ، وقصد اليهود قتله ، وأظهروا الطعن فيه والكفر به .

والقول الثاني : إن اليهود كانوا عارفين بأنه هو المسيح المبشر به في التوراة ، وأنه ينسخ دينهم ، فكانوا من أول الأمر طاعنين فيه ، طالبين قتله ، فلما أظهر الدعوة اشتد غضبهم ، وأخذوا في إيذائه وإيحاشه وطلبوا قتله .

والقول الثالث : إن عيسى عليه السلام ظن من قومه الذين دعاهم إلى الإيمان أنهم لا يؤمنون به وأن دعوته لا تنجح فيهم فأحب أن يمتحنهم ليتحقق ما ظنه بهم فقال لهم ﴿ مَنْ أَنصَارِى إِلَى الله ﴾ فما أجابه إلا الحواريون ، فعند ذلك أحس بأن من سوى الحواريين كافرون مصرون على إنكار دينه وطلب قتله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 54 ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَنْ أَنصَارِى إِلَى الله ﴾

فصل

قال الفخر :

في الآية أقوال

الأول : أن عيسى عليه السلام لما دعا بني إسرائيل إلى الدين ، وتمردوا عليه فر منهم وأخذ

يسيح في الأرض فمر بجماعة من صيادي السمك ، وكان فيهم شمعون ويعقوب ويوحنا ابنا زيدي وهم من جملة الحواريين الاثنى عشر فقال عيسى عليه السلام : الآن تصيد السمك ، فإن تبعتني صرت بحيث تصيد الناس لحياة الأبد ، فطلبوا منه المعجزة ، وكان شمعون قد رمى شبكته تلك الليلة في الماء فما اصطاد شيئًا فأمره عيسى بإلقاء شبكته في الماء مرة أخرى ، فاجتمع في تلك الشبكة من السمك ما كادت تتمزق منه ، واستعانوا بأهل سفينة أخرى ، وملؤا السفينتين ، فعند ذلك آمنوا بعيسى عليه السلام .

والقول الثاني : أن قوله ﴿ مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللهِ ﴾ إنما كان في آخر أمره حين اجتمع اليهود عليه طلبًا لقتله ، ثم ههنا احتمالات

الأول : أن اليهود لما طلبوه للقتل وكان هو في الهرب عنهم قال لأولئك الاثنى عشر من الحواريين : أيكم يحب أن يكون رفيقي في الجنة على أن يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ؟ .

فأجابه إلى ذلك بعضهم وفيما تذكره النصارى في إنجيلهم : أن اليهود لما أخذوا عيسى سل شمعون سيفه فضرب به عبدًا كان فيهم لرجل من الأحبار عظيم فرمى باذنه ، فقال له عيسى : حسبك ثم أخذ اذن العبد فردها إلى موضعها ، فصارت كما كانت ، والحاصل

أن الغرض من طلب النصرة إقدامهم على دفع الشر عنه .

والاحتمال الثاني : أنه دعاهم إلى القتال مع القوم لقوله تعالى في سورة أخرى ﴿ فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ [الصف : 14] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 55 ﴾

قوله تعالى ﴿ إِلَى الله ﴾

قال الفخر :

فيه وجوه

الأول : التقدير : من أنصاري حال ذهابي إلى الله أو حال التجائي إلى الله

والثاني : التقدير : من أنصاري إلى أن أبين أمر الله تعالى ، وإلى أن أظهر دينه ويكون إلى ههنا غاية كأنه أراد من يثبت على نصرتي إلى أن تتم دعوتي ، ويظهر أمر الله تعالى

الثالث : قال الأكثرون من أهل اللغة إلى ههنا بمعنى مع قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ أموالهم إلى أموالكم ﴾ [النساء : 2] أي معها ، وقال صلى الله عليه وسلم : " الذود إلى الذود إبل " أي مع الذود .

قال الزجاج: كلمة ﴿ إلى ﴾ ليست بمعنى مع فإنك لو قلت ذهب زيد إلى عمرو لم يجز أن تقول: ذهب زيد مع عمرو لأن ﴿ إلى ﴾ تفيد الغاية و﴿ مَّعَ ﴾ تفيد ضم الشيء إلى الشيء، بل المراد من قولنا أن ﴿ إلى ﴾ ههنا بمعنى ﴿ معَ ﴾ هو أنه يفيد فائدتها من حيث أن المراد من يضيف نصرته إلى نصرة الله إياي وكذلك المراد من قوله ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أموالهم إلى أموالكم ﴾ [النساء: 2] أي لا تأكلوا أموالهم مضمومة إلى أموالكم، وكذلك قوله عليه السلام: " الذود إلى الذود إبل " معناه: الذود مضموماً إلى الذود إبل والرابع: أن يكون المعنى من أنصاري فيما يكون قربة إلى الله ووسيلة إليه، وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا ضحى " اللّهم منك وإليك " أي تقرباً إليك، ويقول الرجل لغيره عند دعائه إياه ﴿ إلى ﴾ أي انضم إلى، فكذا ههنا المعنى من أنصاري فيما يكون قربة إلى الله تعالى الخامس: أن يكون ﴿ إلى ﴾ بمعنى اللام كأنه قال: من أنصاري لله نظيره قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ مَّن يَهْدِىٓ إِلَى الحق قُلِ اللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقّ ﴾ [يونس: 35] والسادس: تقدير الآية: من أنصاري في سبيل الله.

و(إلى) بمعنى (في) جائز، وهذا قول الحسن. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 55 ﴾

وقال ابن عادل:

وقد رد أبو البقاء كونَها بمعنى: " مع " فقال: [وقيل: هي بمعنى: " مع "] وليس بشيء؛

فإن " إلَى " لا تصلح أن تكون بمعنى " مع " ولا قياس يُعَضِّدُهُ.

وقيل : إن " إلَى " بمعنى اللام من أنصاري لله ؟ كقوله : ﴿ يهدي إِلَى الحق ﴾ ، كذا قدره الفارسي.

وقيل : ضمَّن أنصاري معنى الإضافة ، أي : من يضيف نفسه إلى الله في نصرتي ، فيكون " إلَى الله " متعلقاً بنفس " أنصاري " .

وقيل : متعلق بمحذوف على أنه حال من الياء في " أَنْصَارِي " أي : مَنْ أنصاري ذَاهِباً إلى الله ملتجِئاً إليه ، قاله الزمخشريُّ.

(14/120)

وقيل : التقدير : من أنصاري إلى أن أُبَيِّن أمر الله ، وإلى أن أظهر دينه ، ويكون " إلَى " هاهنا غاية ؛ كأنه أراد : من يثبت على نصرتي إلى أن تتم دعوتي ، ويظهر أمرُ الله ؟

وقيل : المعنى : من أنصاري فيما يكون قربة إلى الله ووسيلة إليه ؟

وفي الحديث : أنه – عليه السلام – كان يقول – إذا ضَحَّى – : " اللَّهُمَّ مِنْكَ وإلَيْكَ " أي تقرّبنا إليك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 258 . 289 ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ الحواريون نَحْنُ أَنْصَارُ الله ﴾

قال الفخر :

ذكروا في لفظ ﴿ الحواري ﴾ وجوهاً

الأول : أن الحواري اسم موضوع لخاصة الرجل ، وخالصته ، ومنه يقال للدقيق حواري ، لأنه هو الخالص منه ، وقال صلى الله عليه وسلم للزبير : " إنه ابن عمتي ، وحواري من أمتي " والحواريات من النساء النقيات الألوان والجلود ، فعلى هذا الحواريون هم صفوة الأنبياء الذي خلصوا وأخلصوا في التصديق بهم وفي نصرتهم .

القول الثاني : الحواري أصله من الحور ، وهو شدة البياض ، ومنه قيل للدقيق حواري ، ومنه الأحور ، والحور نقاء بياض العين ، وحورت الثياب : بيضتها ، وعلى هذا القول اختلفوا في أن أولئك لم سموا بهذا الاسم ؟ فقال سعيد بن جبير : لبياض ثيابهم ، وقيل كانوا قصارين ، يبيضون الثياب ، وقيل لأن قلوبهم كانت نقية طاهرة من كل نفاق وريبة فسموا بذلك مدحاً لهم ، وإشارة إلى نقاء قلوبهم ، كالثوب الأبيض ، وهذا كما يقال فلان نقي الجيب ، طاهر الذيل ، إذا كان بعيداً عن الأفعال الذميمة ، وفلان دنس الثياب : إذا كان مقدماً على ما لا ينبغي .

القول الثالث : قال الضحاك : مرّ عيسى عليه السلام بقوم من الذين كانوا يغسلون الثياب ، فدعاهم إلى الإيمان فآمنوا ، والذي يغسل الثياب يسمى بلغة النبط هواري ، وهو القصار فعربت هذه اللفظة فصارت حواري ، وقال مقاتل بن سليمان : الحواريون : هم القصارون ، وإذا عرفت أصل هذا اللفظ فقد صار بعرف الاستعمال دليلاً على خواص الرجل وبطانته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 56 ﴾

وقال ابن عادل :

والحواريون ، جمع حواري ، وهو النّاصرُ ، وهو مصروفٌ - وإن ماثل " مفاعل " ؛ لأن ياء النسب فيه عارضة ومثله حَوَالِيّ - وهو المحتال - وهذا بخلاف : قَمَارِيّ وبَخَاتِيّ ، فإنهما ممنوعان من الصرف ، والفرق أن الياء في حواريّ وحواليّ - عارضة ، بخلافها في قَمَاري وبخاتيّ فإنها موجودة - قبل جمعهما - في قولك قُمْريّ وبُخْتِيّ . والحواريّ : الناصر - كما تقدم - ويُسَمَّى كل من تبع نبياً ونصره : حوارياً ؛ تسمية له باسم أولئك ؛ تشبيهاً بهم ، وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم في الزبير : " ابن عمتي وحواريّ أمتي " وفيه أيضاً - " إنَّ لكل نبي حواريًّا وحواريي الزُّبَيْر " ، وقال معمر قال قتادة : إن الحواريّين كلهم من قريش : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وحمزة ، وجعفر ، وأبو عبيدةِ بن الجراح ، وعثمان بن مَظْعُون وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وَقّاصٍ وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوامِ - رضي الله عنهم أجمعين . وقيل : الحواريّ : هو صفوة الرجل وخالصته واشتقاقه

من جِرتُ الثوب ، أي : أخلصت بياضَه بالغَسْل ، ومنه سُمّي القَصّار حوارياً ؛ لتنظيفه الثياب ، وفي التفسير : إن أتباع عيسى كانوا قصارين .

قال أبو عبيدة : سمي اصحاب عيسى الحواريون للبياض وكانوا قصارين .

وقال الفرزدق : [البسيط]

1487 - فَقُلْتُ : إنّ الْحَوَارِيّاتِ مَعْطَبَةٌ . . . إذَا تَفَتَّلْنَ مِنْ تَحْتِ الْجَلاَبِيْبِ

(16/120)

يعني النساء ؛ لبياضهن وصفاء لونهن - ولا سيما المترفِّهات - يقال لهن : الحواريات ، ولذلك قال الزَّمَخْشَرِيُّ : وحواري الرَّجُلِ : صفوته وخالصته ، ومنه قيل للحضريات : الحواريات ؛ لخلوص ألوانهن ونظافتهن .

[وأنشد لأبي حلزة اليشكري] : [الطويل]

فَقُلْ للحَوَارِيّاتِ : يبكين غيرَنا . . . ولا تبكِنا إلا الكلابُ النوابحُ

ومنه سميت الحور العين ؛ لبياضهن ونظافتهن ، والاشتقاق من الحور ، وهو تبيض الثياب وغيرها :

وقال الضّحّاكُ : هم الغَسّالون وهم بلغة النبط - وهواري - بالهاء مكان الحاء - .

قال ابن الأنباري : فمن قال بهذا القول قال : هذا حرف اشتركت فيه لغة العرب ولغة النبطِ وهو قول مقاتل بن سليمان إن الحواريين هم القصارون .

وقيل : " هم المجاهدون "كذا نقله ابنُ الأنباريّ .

وأنشد : [الطويل]

وَنَحْنُ أُنَاسٌ تَمْلأُ البِيْضُ هَامُنَا . . . وَنَحْنُ الحَوَارِيُّونَ يَوْمَ نُزَاحِفُ

جَمَاجِمُنَا يَوْمَ اللِّقَاءِ تُرُوسُنَا . . . إلَى المَوْتِ نَمْشِي لَيْسَ فِينَا تَجَانُفُ

قال الواحديُّ : والمختار - من هذه الأقوال عند أهل اللغة - أن هذا الاسم لزمهم للبياض ثم ذكر ما تقدم عن أبي عبيدة .

وقال الراغبُ : حوَّرت الشيء : بيَّضت ودوَّرته ، ومنه الخبز الحُوَّارَى ، والحواريُّون : أنصار عيسى .

(17/120)

وقيل : اشتقاقه من حار يَحُور - أي : رَجَع . قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ [الانشقاق : 14] . أي لن يرجع ، فكأنهم الراجعون إلى الله تعالى حار يحور حَوَراً - أي : رجع - وحار يحور حَوَراً - إذا تردَّد في مكانه ومنه : حار الماء في القدر ، وحار في أمره ،

وتحيَّر فيه ، وأصله تَحيْوَرَ ، فقُلِبَت الواوُ ياءً ، فوزنه تَفَيْعَل ، لا تفعَّل ؛ إذْ لو كان تفعّل لقيل : تحوَّر نحو تجوَّز ومنه قيل للعود الذي تُشَدُّ عليه البكرة : مِحْوَر ؛ لتردُّدِه ، ومَحَارة الأذُنِ ، لظاهره المنقعر – تشبيهاً بمحارة الماء ؛ لتردُّد الهواء بالصوت كتردُّد الماء في المحارة ، والقوم في حوارى أي : في تَرَدُّد إلى نقصان ، ومنه : "نعوذ بالله من الحور بعد الكور" وفيه تفسيران : أحدهما : نعوذ بالله من التردُّد في الأمر بعد المُضِيِّ فيه والثاني : نعوذ بالله من النقصان والتردُّد في الحال بعد الزيادةِ فيها .

ويقال : حَارَ بعدما كان . والمحاورة : المرادَّة في [الكلام] ، وكذلك التحاورُ ، والحوار ، ومنه : ﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ [الكهف : 34] و﴿ واللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمآ ﴾ [المجادلة : 1] ومنه أيضاً : كلمته فما رجع إليَّ حواراً وحَوِيراً ومَحُورة وما يعيش بحَوْر – أي : بعَقْل يرجع إليه . والحور : ظهور قَلِيلِ بَيَاض في العين من السواد ، وذلك نهاية الحُسْنِ في العينِ ، يقال – منه – : أحورت عينه ، والمذكر أحور ، والمؤنث حوراء والجمع فيهما حور – نحو حُمر في جمع أحمر وحمراء – .

وقيل : سُمِّيت الحوراءُ حوراء لذلك .

وقيل : اشتقاقهم من نقاء القلب وخلوصه وصدقه ، قاله أبو البقاء والضَّحَّاك ، وهو راجع للمعنى الأول من خلوص البياض ، فهو مجاز عن التنظيف من الآثام ، وما يشوب الدين .

قاله ابن المبارك : سُمُّوا بذلك ؛ لما عليهم من أثر العبادة ونورها .

وقال رَوْحُ بن قَاسِم : سألت قتادةَ عن الحوارِيِّين ، فقال : هم الذين تَصْلُح لهم الخلافةُ ،

وعنه أنه قال : الحواريون هم الوزراء .

والياء في " حواريّ وحواليّ " ليست للنسب ، بل زيادة كزيادتها في كُرْسِيٍّ ، وقرأ العامة " الْحَوَارِيُّونَ " بتشديد الياء في جميع القرآن ، وقرأ الثَّقَفِي والنخعيّ بتخفيفها في جميع القرأن ، قالوا : لأن التشديد ثقيل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 259 . 261 ﴾

قال الآلوسى :

ونقل جمع عن القفال أنه يجوز أن يكون بعضهم من الملوك وبعضهم من الصيادين وبعضهم من القصارين وبعضهم من الصباغين وبعضهم من سائر الناس وسموا جميعا بالحواريين لأنهم كانوا أنصار عيسى عليه السلام والمخلصين في محبته وطاعته

والاشتقاق كيف كانوا هو الاشتقاق ، ومأخذه إما أن يؤخذ حقيقياً وإما أن يؤخذ مجازياً وهو الأوفق بشأن أولئك الأنصار ، وقيل : إنه مأخوذ من حار بمعنى رجع ومنه قوله تعالى :

﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ [الإنشقاق : 14] وكأنهم سموا بذلك لرجوعهم إلى الله تعالى .

(19/120)

ومن الناس من فسر الحواري بالمجاهد فإن أريد بالجهاد ما هو المتبادر منه أشكل ذلك حيث إنه لم يصح أن عيسى عليه السلام أمر به ؛ وادعاه بعضهم مستدلاً بقوله تعالى : ﴿ يأيُّهَا الذين ءامَنُواْ كُونُواْ أنصار الله كَمَا قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيّينَ مَنْ أنصارى ﴾ [الصف : 14] ولا يخفى أن الآية ليست نصاً في المقصود لجواز أن يراد بالتأييد التأييد بالحجة وإعلاء الكلمة ، وإن أريد بالجهاد جهاد النفس بتجريعها مرائر التكاليف لم يشكل ذلك . نعم استشكل أن عيسى عليه السلام إذا لم يكن مأموراً بالقتال فما معنى طلبه الأنصار ؟ وأجيب بأنه عليه السلام لما علم أن اليهود يريدون قتله استنصر للحماية منهم كما قاله الحسن ومجاهد ولم يستنصر للقتال معهم على الإيمان بما جاء به ، وهذا هو الذي لم يؤمر به لا ذلك بل ربما يدعى أن ذلك مأمور به لوجوب المحافظة على حفظ النفس ، وقد روي أن اليهود لما طلبوه ليقتلوه قال للحواريين : أيكم يحب أن يكون رفيقي في الجنة على أن يلقى فيه شبهي فيقتل مكاني ؟ فأجابه إلى ذلك بعضهم ، وفي بعض الأناجيل أن اليهود لما

أخذوا عيسى عليه السلام سل شمعون سيفه فضرب به عبداً كان فيهم لرجل من الأحبار عظيم فرمى بإذنه فقال له عيسى عليه السلام : حسبك ثم أدنى أذن العبد فردها إلى موضعها فصارت كما كانت ، وقيل : يجوز أن يكون طلب النصرة للتمكين من إقامة الحجة ولتمييز الموافق من المخالف وذلك لا يستدعي الأمر بالجهاد كما أمر نبينا روح جسد الوجود صلى الله عليه وسلم وهو الظاهر لمن أنصف ، والمراد من أنصار الله أنصار دينه ورسوله وأعوانهما على ما هو المشهور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 3 صـ 177.176﴾

قال الطبرى :

وأشبه الأقوال التي ذكرنا في معنى "الحواريين" ، قولُ من قال : "سموا بذلك لبياض ثيابهم ، ولأنهم كانوا غسّالين" .

(20/120)

وذلك أن "الحوَر" عند العرب شدة البياض ، ولذلك سمي "الحُوَّارَى" من الطعام "حُوّارَى" لشدة بياضه ، ومنه قيل للرجل الشديد البياض مقلة العينين "أحور" ، وللمرأة "حوراء" .

وقد يجوز أن يكون حواريو عيسى كانوا سُمُّوا بالذي ذكرنا ، من تبييضهم الثيابَ ، وأنهم

كانوا قصّارين ، فعرفوا بصحبة عيسى ، واختياره إياهم لنفسه أصحابًا وأنصارًا ، فجرى ذلك الاسم لهم ، واستُعمل حتى صار كل خاصّة للرجل من أصحابه وأنصاره : "حواريُّه" ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم .

"إنّ لكلّ نبيَ حواريًّا ، وَحوَاريَّ الزبير" . ﴿ ذكره الطبري بغير إسناد ، وهو من صحيح الحديث . أخرجه البخاري في مواضع (الفتح 6 : 39 / 7 : 64 ، 412 / 13 : 203 ، 204) ، وأخرجه مسلم في صحيحه 15 : 188 . وكان في المطبوعة : "إن لكل نبي حواري" ، وصوابه ما أثبت . والرواية الأخرى بحذف : "إن" أي : "لكل نبي حواري" ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 450 . 451 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقد أكثر المفسرون وأهل اللغة في احتمالات اشتقاقه واختلاف معناه وكلّ ذلك إلصاق بالكلمات التي فيها حروف الحاء والواو والراء لا يصحّ منه شيء .

والحواريون اثنا عشر رجلا وهم : سَمْعَان بطرس ، وأخوه أندراوس ، ويوحنا بن زبْدي ، وأخوه يعقوب وهؤلاء كلّهم صيادو سَمك ومتّى العشّار وتوما وفيليبس ، وبرثو لماوس ، ويعقوب بن حلفي ، ولباوس ، وسمعان القانوى ، ويهوذا الأسخريوطي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 105 ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في أن هؤلاء الحواريين من كانوا ؟ .

فالقول الأول : إنه عليه السلام مرّ بهم وهم يصطادون السمك فقال لهم "تعالوا نصطاد الناس" قالوا : من أنت ؟ قال : "أنا عيسى ابن مريم ، عبد الله ورسوله" فطلبوا من المعجز على ما قال فلما أظهر المعجز آمنوا به ، فهم الحواريون .

(21/120)

القول الثاني : قالوا : سلمته أمه إلى صباغ ، فكان إذا أراد أن يعلمه شيئاً كان هو أعلم به منه وأراد الصباغ أن يغيب لبعض مهماته ، فقال له : ههنا ثياب مختلفة ، وقد علمت على كل واحد علامة معينة ، فاصبغها بتلك الألوان ، بحيث يتم المقصود عند رجوعي ، ثم غاب فطبخ عيسى عليه السلام جباً واحداً ، وجعل الجميع فيه وقال : "كوني بإذن الله كما أريد" فرجع الصباغ فأخبره بما فعل فقال : قد أفسدت علي الثياب ، قال : "قم فانظر" فكان يخرج ثوباً أحمر ، وثوباً أخضر ، وثوباً أصفر كما كان يريد ، إلى أن أخرج الجميع على الألوان التي أرادها ، فتعجب الحاضرون منه ، وآمنوا به فهم الحواريون .

القول الثالث : كانوا الحواريون اثنى عشر رجلاً اتبعوا عيسى عليه السلام ، وكانوا إذا قالوا

: يا روح الله جعنا ، فيضرب بيده إلى الأرض ، فيخرج لكل واحد رغيفان ، وإذا عطشوا قالوا يا روح الله : عطشنا ، فيضرب بيده إلى الأرض ، فيخرج الماء فيشربون ، فقالوا : من أفضل منا إذا شئنا أطعمتنا ، وإذا شئنا سقيتنا ، وقد آمنا بك فقال : "أفضل منكم من يعمل بيده ، ويأكل من كسبه" فصاروا يغسلون الثياب بالكراء ، فسموا حواريين .

القول الرابع : أنهم كانوا ملوكاً قالوا وذلك أن واحداً من الملوك صنع طعاماً ، وجمع الناس عليه ، وكان عيسى عليه السلام على قصعة منها ، فكانت القصعة لا تنقص ، فذكروا هذه الواقعة لذلك الملك ، فقال : تعرفونه ، قالوا : نعم ، فذهبوا بعيسى عليه السلام ، قال : من أنت ؟ قال : أنا عيسى بن مريم ، قال فإني أترك ملكي وأتبعك فتبعه ذلك الملك مع أقاربه ، فأولئك هم الحواريون قال القفال : ويجوز أن يكون بعض هؤلاء الحواريين الاثني عشر من الملوك ، وبعضهم من صيادي السمك ، وبعضهم من القصارين ، والكل سموا بالحواريين لأنهم كانوا أنصار عيسى عليه السلام ، وأعوانه ، والمخلصين في محبته ، وطاعته ، وخدمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 57.56 ﴾

فائدة

قال الفخر :

المراد من قوله ﴿ نَحْنُ أَنْصَارُ الله ﴾ أي نحن أنصار دين الله وأنصار أنبيائه ، لأن نصرة الله تعالى في الحقيقة محال ، فالمراد منه ما ذكرناه .

أما قوله ﴿ آمنا بالله ﴾ فهذا يجري مجرى ذكر العلة ، والمعنى يجب علينا أن نكون من أنصار الله ، لأجل أنا آمنا بالله ، فإن الإيمان بالله يوجب نصرة دين الله ، والذب عن أوليائه ، والمحاربة مع أعدائه .

ثم قالوا : ﴿ واشهد بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ وذلك لأن إشهادهم عيسى عليه السلام على أنفسهم ، إشهاد لله تعالى أيضاً ، ثم فيه قولان

الأول : المراد واشهد أنا منقادون لما تريده منا في نصرتك ، والذب عنك ، مستسلمون لأمر الله تعالى فيه

الثاني : أن ذلك إقرار منهم بأن دينهم الإسلام ، وأنه دين كل الأنبياء صلوات الله عليهم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 57 ﴾

وقال ابن عاشور :

وكان جواب الحواريين دالاّ على أنهم علموا أنّ نصر عيسى ليس لذاته بل هو نصر لدين الله ، وليس في قولهم : ﴿ نحن أنصار الله ﴾ ما يفيد حصراً لأنّ الإضافة اللفظية لا تفيد تعريفاً ، فلم يحصل تعريف الجزأين ، ولكنّ الحواريين بادروا إلى هذا الانتداب .

وقد آمن مع الحواريّين أفراد متفرّقون من اليهود ، مثل الذين شفى المسيح مرضاهم ، وآمن به من النساء أمّه عليها السلام ، ومريم المجدلية ، وأم يوحنا ، وحماة سمعان ، ويوثا امرأة حوزي وكيل هيرودس ، وسوسة ، ونساء أخر ولكنّ النساء لا تطلب منهنّ نصره . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 106.105 ﴾

وقال الآلوسى :

(23/120)

﴿ ءامَنَّا بالله ﴾ مستند لتلك الدعوى جارية مجرى العلة لها ﴿ واشهد ﴾ عطف على ﴿ مِنَ ﴾ ولا يضر اختلافهما إنشائية وإخبارية لما تحقق في محله ، وقيل : إن ﴿ مِنَ ﴾ لإنشاء الإيمان أيضاً فلا اختلاف ﴿ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أي منقادون لما تريده منا ويدخل فيه دخولاً أولياً نصرتهم له ، أو بأن ديننا الإسلام الذي هو دين الأنبياء من قبلك فهو إقرار معنى بنبوة من قبله عليه السلام وهذا طلب منهم شهادته عليه السلام لهم يوم القيامة حين تشهد الرسل لقومهم وعليهم إيذاناً كما قال الكرخي بأن مرمى غرضهم السعادة الأخروية وجاء في المائدة (111) ﴿ بِأَنَّنَا ﴾ لأن ما فيها كما قيل أول كلام الحواريين فجاء على الأصل ، وما هنا تكرار له بالمعنى فناسب فيه التخفيف لأن كلاً من التخفيف والتكرار فرع ،

والفرع بالفرع أولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 177 ﴾

فائدة

قال الماوردى :

واختلفوا في سبب استنصار المسيح بالحواريين على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه استنصر بهم طلباً للحماية من الكفار الذين أرادوا قتله حين أظهر دعوته ، وهذا قول الحسن ، ومجاهد .

والثاني : أنه استنصر بهم ليتمكن من إقامة الحجة وإظهار الحق .

والثالث : لتمييز المؤمن الموافق من الكافر المخالف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 395.396 ﴾

فائدة

قال الشنقيطى :

لم يبين هنا الحكمة في ذكر قصة الحواريين مع عيسى ولكنه بين في سورة الصف ، أن حكمة ذكر قصتهم هي أن تتأسى بهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم في نصرة الله ودينه ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ كونوا أَنصَارَ الله كَمَا قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أنصاري إِلَى الله ﴾ [الصف : 14] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ 201 ﴾

فائدة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون" ، وفى سورة المائدة : "وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون" فحذفت النون من "أنا" فى آية آل عمران تخفيفا وثبتت فى آية المائدة فقيل : "أننا" مع أن التخفيف بالحذف جائز فيهما والإثبات جائز وهو الأصل فللسائل أن يسأل عن وجه تخصيص كل من الموضعين بما ورد فيه ؟

والجواب عن ذلك والله أعلم أن آية المائدة لما ورد فيها التفصيل فيما يجب الإيمان به وذلك قوله : "أن آمنوا بى وبرسولى" فجاء على أتم عبارة فى المطلوب وأوفاها ناسب ذلك ورود "أننا" على أوفى الحالين وهو الورود على الأصل ، ولما لم يقع إفصاح بهذا التفصيل فى آية آل عمران حين قال تعالى : "قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله" فلم يقع

هنا "وبرسوله" إيجازا للعلم به وشهادة السياق ناسب هذا الإيجاز كما ناسب الإتمام فى آية

المائدة الإتمام فقيل هنا : "واشهد بأنا مسلمون" وجاء كل على ما يجب ولو قدر ورود العكس لما ناسب والله سبحانه أعلم بما أراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 87 ﴾

(25/120)

من فوائد العلامة تقى الدين السبكى :

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ :

قَوْله تَعَالَى ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ ﴾

قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فَلَمَّا عَلِمَ مِنْهُمْ الْكُفْرَ عِلْمًا لَا شُبْهَةَ فِيهِ بِعِلْمِ مَا يُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ قُلْت هَذَا وَجْهٌ مُحْتَمَلٌ لِأَنَّ الْعِلْمَ الْحِسِّيَّ أَجْلَى مِنْ غَيْرِهِ وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ وَهُوَ أَنَّهُ أَوَّلُ مَا ابْتَدَأَ عِلْمُهُ وَشُعُورُهُ بِكُفْرِهِمْ وَعَبَّرَ عَنْهُ بِذَلِكَ لِأَنَّ الْحِسَّ طَرِيقُ الْعِلْمِ وَمَبْدَؤُهُ ، فَهُمَا وَجْهَانِ مِنْ الْمَجَازِ فِي التَّعْبِيرِ بِالْإِحْسَاسِ عَنْ الْعِلْمِ سَائِغَانِ ، وَالثَّانِي مُسْتَعْمَلٌ فِي الْعُرْفِ كَثِيرًا وَهُوَ أَظْهَرُ مِمَّا قَالَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ وَالْأَكْثَرُ فِي " أَحَسَّ " اسْتِعْمَالُهُ هَكَذَا رُبَاعِيًّا وَلَمْ يَبْنُوا مِنْهُ اسْمَ مَفْعُولٍ . وَقَوْلُ النَّاسِ " مَحْسُوسَاتٌ " يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُ اسْمُ مَفْعُولٍ مِنْهُ جَاءَ عَلَى غَيْرِهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ بَلْ هُوَ مِنْ الثُّلَاثِيِّ أَلَا تَرَاك تَقُولُ الْحَاسَّةُ فَالْمَحْسُوسَاتُ اسْمُ مَفْعُولٍ مِنْهَا

وَمَعْنَاهُ الْأَشْيَاءُ الَّتِي تُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ وَإِدْرَاكُ الْحَوَاسِّ طَرِيقٌ فِي الْعِلْمِ الْوَاصِلِ إِلَى الْقَلْبِ لَا نَفْسِ الْعِلْمِ الَّذِي فِي الْقَلْبِ وَقَوْلُهُمْ أَحَسَّ مَعْنَاهُ عَلِمَ بِقَلْبِهِ عِلْمًا مُسْنَدًا إِلَى الْحِسِّ فَهُوَ مَعْنَى غَيْرُ الْأَوَّلِ وَلَمْ يَبْنُوا مِنْهُ اسْمَ مَفْعُولٍ لِاسْتِغْنَائِهِمْ عَنْهُ فَافْهَمْ هَذَا فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَا يَعْرِفُهُ وَهُوَ مِمَّا أَبْرَزَتْهُ الْقَرِيحَةُ بِالْفِكْرِ وَتَأَمُّلِ الْكَلَامِ .

(26/120)

قَوْلُهُ ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ قِيلَ السُّؤَالُ " بِمَنْ " عَنْ التَّصَوُّرِ وَالْجَوَابُ بِالتَّصْدِيقِ قُلْت " مَنْ " وَإِنْ كَانَ سُؤَالًا عَنْ التَّصَوُّرِ فَالسَّائِلُ بِهَا تَارَةً يَجْزِمُ بِحُصُولِ مِنْهُمْ وَلَكِنْ يَسْأَلُ عَنْ تَعْيِينِهِ فَقَوْلُهُ مَنْ أَنْصَارِي مَحْمُولٌ عَلَى ذَلِكَ قَالَهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَاجِيًا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى إقَامَةَ نَاصِرٍ لَهُ سَائِلًا عَنْ عَيْنِهِ فَهُوَ سُؤَالٌ عَنْ التَّصْدِيقِ وَالتَّصَوُّرِ وَلَكِنْ أَخْرَجَهُ مَخْرَجَ التَّصَوُّرِ ثِقَةً بِاَللَّهِ وَأَدَبًا مَعَ اللَّهِ وَمَعَ السَّامِعِينَ ؛ فَكَانَ الْأَكْمَلُ فِي حَقِّهِ السُّؤَالَ عَنْ التَّصَوُّرِ وَجَعْلَ السُّؤَالِ عَنْ التَّصْدِيقِ مَطْلُوبًا فِيهِ ؛ وَالْحَوَارِيُّونَ تَفَطَّنُوا لِذَلِكَ فَأَجَابُوا بِالتَّصْدِيقِ لِيُحَصِّلُوا الْمَقْصُودَيْنِ مَعًا فَكَأَنَّهُمْ قَالُوا هُنَا : مَنْ يَنْصُرُك هُمْ نَحْنُ .

وَقَالُوا أَنْصَارُ اللَّهِ لِأَنَّ نُصْرَتَهُ نُصْرَةُ اللَّهِ بِمَعْنَى نُصْرَةِ دِينِهِ . وَلِيُبَيِّنُوا أَنَّ نُصْرَتَهُمْ لِلَّهِ لَا يَشُوبُهَا غَيْرُهَا مِنْ حُظُوظِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَإِنَّمَا فَسَّرُوا الْإِحْسَاسَ بِالْعِلْمِ لِأَنَّ الْكُفْرَ يُعْلَمُ وَلَا يُحَسُّ عَلَى

أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ بِأَقْوَالٍ تُسْمَعُ وَأَعْمَالٍ تُبْصَرُ تَكُونُ سَبَبًا لِلْكُفْرِ أَوْ دَلِيلا عَلَيْهِ ؛ فَيَصِحُّ إطْلَاقُ الْإِحْسَاسِ عَلَيْهَا حَقِيقَةً ، وَلَكِنَّ الظَّاهِرَ فِي الْآيَةِ الْأَوَّلِ وَفِي قَوْله تَعَالَى هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ الْإِبْصَارُ حَقِيقَةً . وَلِهَذَا قَالَ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا انتهى . انتهى . ا هـ

﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 27. 28 ﴾

(27/120)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾

لقد ذكر عيسى ابن مريم القضية الجامعة المانعة أولا حين قال :

﴿ إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

[آل عمران : 51] .

وأوضح عيسى ابن مريم بما لا يقبل الجدل : " أنا معكم سواء في مربوبيتنا إلى إله واحد ، وأنا لم أجيء لأعلّمكم لأني تميزت عنكم بشيء . فيما يتعلق بالعبادة نحن سواء ، فالله رب لي ورب لكم ، والصراط المستقيم هو عبادة الله الحق .

ونحن ساعة نسمع " الصراط المستقيم " فإننا نتخيل على الفور الطرق الموصلة إلى الغاية ، ونعرف جميعا أنه لا يوجد طريق في الحياة مصنوع لذات الطريق ، إنما الطريق يصنع ليوصل إلى غاية . وساعة تسمع " صراط " فإننا نفهم على الفور الغاية التي نريد أن نصل إليها .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَالِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

[الأنعام : 153] .

وما دام هناك طريق لغاية ما فلا بد أن نحدد الغاية أولا ، وتحديد الغاية إنما يهدف إلى إيضاح السبيل أمام الإنسان ليسلك الطريق الموصل إلى تلك الغاية . وهكذا يقول الحق على لسان عيسى ابن مريم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ .

(28/120)

والعبادة هي إطاعة العابد لأمر المعبود ، وهكذا يجب أن نفطن إلى أن العبادة لا تقتصر على إقامة الأركان التعبدية في الدين من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ، إن هذه هي

أركان الإسلام ولا يستقيم أن ينفصل الإنسان المسلم عن ربه بين أوقات الأركان التعبدية ، إن الأركان التعبدية لازمة ، لأنها تشحن الطاقة الإيمانية للنفس حتى تقبل على العمل الخاص بعمارة الدنيا ، ويجب أن نفطن إلى أن العبادة في الدنيا هي كل حركة تؤدي إلى إسعاد الناس وعمارة الكون .

ويجب أن نعرف أن الأركان التعبدية هي تقسيم اصطلاحي وضعه العلماء في الفقه كباب العبادات وباب المعاملات ، لكن علينا أن نعرف أن كل شيء يأمر به الله اسمه " عبادة " .

إذن فالعبادة منها ما يصل العبد بالمعبود ليأخذ الشحنة الإيمانية من خالقه ، خالق الكون ، ومنها ما يتصل بعمارة الكون . ولذلك قلنا : إنك حينما تتقبل من الله أمرا بعبادة ما ، فأنت تتلقاه وأنت موصول بأسباب الله بحثا عن الرزق وغير ذلك من أمور الحياة ، والمثل الواضح لذلك هو قول الحق :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[الجمعة : 9] .

إن هذا الأمر بالصلاة الجامعة يوم الجمعة يخرج بالإنسان من أمر البيع ، وهذا الأمر بالصلاة لم يأخذ الإنسان من فراغ ، إنما أخذ الإنسان من عمل ، هو البيع .

. ولو نظرنا إلى دقة الأداء في البيع لوجدناها قمة الأخذ المباشر للرزق . إن كلام الله يصل

في دقته إلى ما لا يصل إليه كلام بشر ، فلم يقل الله مثلا " اتركوا الصنعة " " اتركوا الحرث " ولكن الحق جاء بالبيع هنا لأنه قمة النفعية العاجلة .

(29/120)

إن الذي يحرث ويزرع ينتظر وقتا قد يطول حتى تنضج الثمار ، لكن الذي يبيع شيئًا ، فإنه ينال المنفعة فوراً ، لقد جاء الأمر بترك هذه الثمرة العاجلة لأداء صلاة الجمعة ، ويتضمن هذا الأمر ترك كل الأمور التي قد تأتي ثمراتها من بعد ذلك لأداء الصلاة .

إن البيع هو التعبير الدقيق لأن المتكلم هو الله ، والحق لم يتكلم هنا مثلا عن الشراء ، لأن الشاري قد يشتري وهو كاره ، لكن البائع يملأه السرور وهو يبيع فقد يذهب رجل لشراء أشياء لبيته فيسمع الأذان فيسرع إلى الصلاة ويقول لأهله من بعد ذلك : لقد ذهبت إلى الشراء ، لكن المؤذن قد أذن لصلاة الجمعة ، ذلك أن الإنسان يجب ألا يدفع نقودا ، لكن البائع يستفيد بقمة الفائدة . لذلك يخرجنا الحق من قمة "كل الأعمال ونهاية كل الأعمال وهي مبادلة السلع بأثمانها " . لكن ماذا بعد انقضاء الصلاة ؟

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

[الجمعة: 10].

لقد أخرجنا من الصلاة إلى الحياة نبتغي من فضل الله، ولذلك يكون الإنتشار في الأرض والبحث عن الرزق عبادة.

(30/120)

ولننظر إلى الدقة في قوله الحق: ﴿ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ ﴾ إن الانتشار يعني أن ينساح البشر لينتظموا في كل حركات الحياة، وبذلك تعمر كل حركة فيها. إن كل حركة في الحياة هي عبادة، وهكذا نستوعب قوله الحق على لسان عيسى ابن مريم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ ومن بعد ذلك يقول الحق: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ لقد حسم عيسى ابن مريم أمر العقيدة حينما قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ إن في ذلك تحذيرا من أن يقول أتباع عيسى أي شيء آخر عن عيسى غير أنه عبد الله خاضع لله، مأمور بالطاعة والعبادة لله. ووضع أمامهم المنهج، فقال: ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾.

وقول الحق: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ يدل على أن كل صاحب فكرة، وكل صاحب مهمة، وكل صاحب هدف لا بد أن يكون يقظ الأحاسيس، لأن صاحب

الفكرة وخاصة الدينية يخرج الناس من الظلمات إلى النور .

وقد يقول قائل : لماذا يعيش الناس في الظلام ولا يتجهون إلى النور من أول الأمر ؟ وتكون الإجابة : إن هناك أناسا يستفيدون من وجود جموع الناس في الظلمات ، لذلك يكون بينهم أناس ظالمون وأناس مظلومون ، والظالم الذي يأخذ - اغتصابا - خيرَ الآخرين ويعربد في الكون يخاف من رجل الدعوة الذي ينهاه عن الظلم ، ويدعوه إلى الهداية إلى منطق العقل ، ومثل هذا الظالم عندما يسمع كلمة المنطق والدعوة إلى الإيمان لا يحب أن تُنطق هذه الكلمة ، إنه يكره الكلمة والقائل لها .

(31/120)

إن الداعية مأمور من الله بأن يكون يقظا لأنه إن اهتدى بكلماته أناس وسعدوا بها ، فإنّه يغضب أناساً آخرين ، ذلك أن المجتمع الفاسد يوجد به المستفيدون من الفساد ، فالداعية عليه أن يعرف يقظة الحس ، ويقظة الحس معناها الالتفاف إلى الأحاسيس الخفية الموجودة عند كل إنسان ، ونحن نسمى الأشياء الظاهرة منها الحواس الخمس ، اللمس ، والرؤية ، والسمع ، والتذوق ، والشم .

إن رجل الدعوة مأمور بأن تعمل كل حواسه حتى يعرف من الذي يجبن ويرتجف لحظة أن

تأتي دعوة الخير، ومن الذي يطمئن ويحسن الراحة لدعوة الخير. إن رجل الدعوة مأمور بدقة اليقظة والإحساس ليميز بين الذي تتغير سحنته لحظة دعوة الخير، ومن الذي يستبشر ويفرح.

وعندما أعلن عيسى ابن مريم منهج الحق، وجد أنصار الظلم وأنصار البغي، وأنصار الظلمات غير معجبين بالمنهج الواضح للإيمان بالله، لذلك أحس منهم الكفر لقد كان مليئًا باليقظة والانتباه. إنه يعلم أنه قد جاء برسالة من الله؛ ليخرج أناساً من مفسدة إلى مصلحة. وعندما أحس منهم الكفر، أراد أن ينتدب جماعة ليعينوه على أمر الدعوة.

﴿ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ؟

إن الدعوة تحتاج إلى معركة، والمعركة تحتاج إلى تضحية. والتضحية تكون بالنفس والنفيس، لذلك لا بد أن يستثير ويحرك من يجد في نفسه العون على هذه المسألة. وهو لم يناد أفرادا محددين، إنما طرح الدعوة ليأتي الأنصار الذين يستشرفون في أنفسهم القدرة على حمل لواء الدعوة، ولتكون التضحية بإقبال نفس لا استجابة لداع. ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ وكلمة "أنصار" هي جمع "نصير". والنصير هو المعين لك بقوة على بُغْيَتك.

وعندما سأل عيسى : ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ؟ ﴾ كانت إلى في السؤال تفيد الغاية ، وهي الله ، أي من ينصرني نصرا تصير غايته إلى الله وحده لا إلى هؤلاء البشر ؟ إنه لا يسأل عن أناس يدخلون في لواء الدعوة من أجل الغنيمة أو يدخلون من أجل الجاه, أو غير ذلك, إنه يسأل عن أهل العزم ليكون كل منهم متجها بطاقته إلى نصرة الله وحده .

ومثال ذلك ما دار بين رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وبين رجال من المدينة في أثناء مبايعتهم له في العقبة فقد قال لهم رسول الله " : " أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون فيه نساءكم وأبناءكم " فأخذ الداء بن معرور بيده ثم قال : " نعم, والذي بعثك بالحق لنمنعنّك مِما نمنع منه أزرنا " فبايعوا رسول الله على ذلك فقام أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين اليهود حبالا وإنا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتَدَعنَا " ؟ فتبسم رسول الله ثم قال : " بل الدم الدم, والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني, أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم " أي ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم " .

أقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكم ستمتلكون الأرض, وستسودون الدنيا ، أو ستنتصرون على أعدائكم ؟ لا . بل قال صلى الله عليه وسلم أنا منكم وأنتم مِنّي . لماذا ؟ لأنه لو قال لهم ستنتصرون على أعدائكم ، فقد يدخلون المعركة ، ويموت واحد

منهم ؛ ولا يرى النصر ، لكن الأمر الذي سيراه كل المؤمنين أن رسول الله منهم وأنهم من رسول الله وما داموا كذلك فسيدخلون معه الجنة وهي الغاية الأصيلة .

(33/120)

وعندما سأل عيسى ابن مريم ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ فكأنه كان يسأل : من يعينني معونة غايتها الله ؟ ولماذا نأخذ هذا المعنى ؟ تكون الإجابة : أنا آخذ المعنى على قدر ذهني ؛ لأن مرادات الله في كلماته لا تتناهى كمالاً ، وقد يأتي غيري ويأخذ منها معنى آخر . ومعنى " النصير " : هو " من ينصر بجهد وقوة " . وننظر النصر في الإيمان كيف يأتي ؟ إن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن النصر في الإيمان قال :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

[محمد : 7] .

إذن فالنصر منا لله بأن نُطبق دينه ، وهذا مراد الله ، ولذلك يأتي النصر مرة من المؤمن لربه ، ومرة من الرب لمربوبه ، وقد يكون مراد عيسى – عليه السلام – من الذي ينصرني كي ينضم إلى الله في النصر ؟

ونحن هنا أمام معسكرين, معسكر الإيمان ، ومعسكر الكفر . لقد سأل عيسى ﴿ مَنْ

أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أي أنه يسأل عن الذين بإمكانهم أن ينضموا إلى غاية هي الله, ونتفهم نحن هذا المعنى على ضوء ما قاله الحق :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

[محمد : 7] .

ونعرف أيضا أن هناك نصراً من المؤمن لله ، وهناك نصر من الله للمؤمن . وهكذا يكون سؤال عيسى ابن مريم ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ؟ فقد أفاد المعنيين معاً . وكانت الإجابة : ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ, آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

والحواريون مأخوذة من الحور ، وهو شدة البياض, وهم جماعة أشرقت في وجوههم سيماء الإيمان, فكأنها مشرقة بالنور . ونور الوجه لا يقصد به البشرة البيضاء ، ولكن نور الوجه في المؤمن يكون بإشراقة الإيمان في النفس ، ولذلك يصف الحق المؤمنين برسالة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾

[الفتح : 29] .

فحتى لو كان المؤمن أسود اللون فإن له سمة على وجهه . كيف ولماذا ؟ لأن الإنسان مكون من أجهزة ، ومكون من ذرات ، وكل جهاز في الإنسان له مطلوب محدد , وساعة أن تتجه كل الأجهزة إلى ما أراده الله ، فإن الذي يحدث للإنسان هو انسجام كل أجهزته ، وما دامت الأجهزة منسجمة فإن النفس تكون مرتاحة ، ولكن عندما تتضارب مطلوبات الأجهزة ، تكون السحنة مكفهرة .

عندما قال عيسى : ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ سمع الاستجابة من الحواريين ، والحواريون قوم لهم إشراقات انسجام النفس مع الإيمان ، أو هم قوم بيض المعاني , أي أن معانيهم بيضاء ومشرقة . والنبي صلى الله عليه وسلم سمى بعضا من صحابته حواري رسول الله, وهم الذين جعلهم رسول الله معه طوال الوقت .

وحين قال الحواريون : ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾ كان ذلك يعني أن كل إنسان منهم يريد نصرة الله . فينضم إلى الله ناصرا للمنهج, وهذا يتطلب أن يعرف كل منهم المنهج . ونحن نعرف مقومات النصرة لله . إنه الإيمان : وما الإيمان ؟ إنه اطمئنان القلب إلى قضية ما ، هذا هو الإيمان في عمومه . فلو لم أكن مؤمنا بأن الطريق الذي أسير فيه موصل إلى غاية مطلوبة لي لما سرت فيه .

مثال ذلك المسافر من القاهرة إلى دمياط لو لم يعتقد صحة الطريق لما سلك هذا الطريق ، وإن لم اعتقد أنني إن لم أذاكر دروسي سوف أرسب لما ذاكرت . إذن فكل أمر في الدنيا يتم بناؤه على الإيمان ، لكن إذا أطلق الإيمان بالمعنى الخاص ، فهو اطمئنان القلب إلى قمة القضايا ، وهي الإيمان بالله ، لذلك فأسلحة النصر إلى الله هي : إسلام كل جوارح الإنسان إلى الله . ولذلك قال الحواريون : ﴿ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

لماذا يشهد الرسول لهم ؟ لأن المفروض في الرسول أن يبلغ القوم عن الله ، فيشهد عليهم كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾

[الحج : 78] .

ولنا أن نلحظ أن الحق أورد على لسانهم – الحواريين – الإيمان أولا ، لأنه أمر غيبي عقدي في القلب ، وجاء من بعد ذلك على لسان الحواريين طلب الشهادة بالإسلام ؛ لأن الإسلام خضوع لمطلوبات الإيمان وأحكامه . إن قولهم : ﴿ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ هو أيضا طلب منهم يسألونه لعيسى ابن مريم أن يبلغهم كل مطلوبات الإسلام قل لنا افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا إنهم قالوا : " آمنا " وما داموا قد أعلنوا الإيمان بالله ، فهم آمنوا بمن بلغهم عن الله

، والمطلوب من عيسى ابن مريم أن يشهد بأنهم مسلمون ، ولا تتم الشهادة إلا بعد أن يبلغهم كل الأحكام وقد بلغهم ذلك وعملوا به وقالوا من بعد ذلك : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلَتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1484. 1491 ﴾

(36/120)

" فصل "

قال السيوطى :

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (52)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر ﴾ قال : كفروا وأرادوا قتله . فذلك حين استنصر قومه . فذلك حين يقول ﴿ فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة ﴾ [الصف : 14] .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ من أنصاري إلى الله ﴾ قال : من يتبعني إلى الله .

وأخرج ابن جرير عن السدي ﴿ من أنصاري إلى الله ﴾ يقول : مع الله .

وأما قوله تعالى : ﴿ قال الحواريون ﴾ الآية .

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إنما سموا الحواريين لبياض ثيابهم . كانوا صيادين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي أرطاة قال ﴿ الحواريون ﴾ الغسالون الذين يحورون الثياب : يغسلونها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال ﴿ الحواريون ﴾ الغسالون وهو بالنبطية هواري ، وبالعربية المحور .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال ﴿ الحواريون ﴾ قصارون مر بهم عيسى فآمنوا به واتبعوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال ﴿ الحواريون ﴾ هم الذين تصلح لهم الخلافة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك قال ﴿ الحواريون ﴾ أصفياء الأنبياء .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن قتادة قال : " الحواري " الوزير .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان بن عيينة قال : " الحواري " الناصر .

وأخرج البخاري والترمذي وابن المنذر عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن لكل نبي حوارياً وإن حواريِّ الزبير .

وأخرج ابن أبي داود في المصاحف عن أسيد بن يزيد قال ﴿ واشهد بأنا مسلمون ﴾ في مصحف عثمان ثلاثة أحرف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 222 . 223 ﴾

(37/120)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ الآية .

حين بَلَّغهم الرسالة واختلفوا – فمنهم من صدّقه ومنهم من كذّبه وهم الأكثرون – عَلِمَ أن النبوة لا تنفك عن البلاء وتسليط الأعداء ، فقطع عنهم قلبه ، وصدق إلى الله قصده ، وقال لقومه : مَنْ أنصاري إلى الله ليساعدوني على التجرد لحِقّه والخلوص في قصده ؟ فقال مَنْ انبسطت عليهم آثار العناية ، واستخلصوا بآثار التخصيص : نحن أنصار الله ، آمنا بالله ، واشهد علينا بالصدق ، وليس يشكل عليك شيءٌ مما نحن فيه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 245 ﴾

(38/120)

قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (53) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

لما خاطبوا الرسول أدباً ترقوا إلى المرسل في خطابهم إعظاماً للأمر وزيادة في التأكيد فقالوا مسقطين لأداة النداء استحضاراً لعظمته بالقرب لمزيد القدرة وترجي منزلة أهل الحب : ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت ﴾ أي على ألسنة رسلك كلهم ﴿ واتبعنا الرسول ﴾ الآتي إلينا بذلك معتقدين رسالته منك وعبوديته لك ﴿ فاكتبنا ﴾ لتقبّلك شهادتنا واعتدادك بها ﴿ مع الشاهدين ﴾ أي الذين قدمت أنهم شهدوا لك بالوحدانية مع الملائكة انتهى انتهى .

اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 97 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنهم لما أشهدوا عيسى عليه السلام على إيمانهم ، وعلى إسلامهم تضرعوا إلى الله تعالى ، وقالوا : ﴿ رَبَّنَا ءامَنَّا بِمَا أَنزَلَتْ واتبعنا الرسول فاكتبنا مَعَ الشاهدين ﴾ وذلك لأن القوم آمنوا بالله حين قالوا : في الآية المتقدمة ﴿ آمنا بالله ﴾ ثم آمنوا بكتب الله تعالى حيث قالوا ﴿ بِمَا أَنزَلَتْ ﴾ وآمنوا برسول الله حيث ، قالوا ﴿ واتبعنا الرسول ﴾ فعند ذلك

طلبوا الزلفة والثواب ، فقالوا ﴿ فاكتبنا مَعَ الشاهدين ﴾ وهذا يقتضي أن يكون للشاهدين فضل يزيد على فضل الحواريين ، ويفضل على درجته ، لأنهم هم المخصوصون بأداء الشهادة قال الله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا لّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى الناس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : 143] الثاني : وهو منقول أيضاً عن ابن عباس ﴿ فاكتبنا مَعَ الشاهدين ﴾ أي اكتبنا في زمرة الأنبياء لأن كل نبي شاهد لقومه قال الله تعالى : ﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ المرسلين ﴾ [الأعراف : 6] .

وقد أجاب الله تعالى دعاءهم وجعلهم أنبياء ورسلاً ، فأحيوا الموتى ، وصنعوا كل ما صنع عيسى عليه السلام .

(39/120)

والقول الثالث : ﴿ فاكتبنا مَعَ الشاهدين ﴾ أي اكتبنا في جملة من شهد لك بالتوحيد ولأنبيائك بالتصديق ، والمقصود من هذا أنهم لما أشهدوا عيسى عليه السلام على إسلام أنفسهم ، حيث قالوا ﴿ واشهد بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ فقد أشهدوا الله تعالى على ذلك تأكيداً للأمر ، وتقوية له ، وأيضاً طلبوا من الله مثل ثواب كل مؤمن شهد لله بالتوحيد ولأنبيائه بالنبوّة .

القول الرابع : إن قوله ﴿ فاكتبنا مَعَ الشاهدين ﴾ إشارة إلى أن كتاب الأبرار إنما يكون في السموات مع الملائكة قال الله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كتاب الأبرار لَفِى عِلّيّينَ ﴾ [المطففين : 18] فإذا كتب الله ذكرهم مع الشاهدين المؤمنين كان ذكرهم مشهوراً في الملأ الأعلى وعند الملائكة المقربين .

القول الخامس : إنه تعالى قال : ﴿ شَهِدَ الله أَنَّهُ لا إله إِلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم ﴾ [آل عمران : 18] فجعل أولو العلم من الشاهدين ، وقرن ذكرهم بذكر نفسه ، وذلك درجة عظيمة ، ومرتبة عالية ، فقالوا ﴿ فاكتبنا مَعَ الشاهدين ﴾ أي اجعلنا من تلك الفرقة الذين قرنت ذكرهم بذكرك .

والقول السادس : أن جبريل عليه السلام لما سأل محمداً صلى الله عليه وسلم عن الإحسان فقال : " أن تعبد الله كأنك تراه " وهذا غاية درجة العبد في الاشتغال بالعبودية ، وهو أن يكون العبد في مقام الشهود ، لا في مقام الغيبة ، فهؤلاء القوم لما صاروا كاملين في درجة الاستدلال أرادوا الترقي من مقام الاستدلال ، إلى مقام الشهود والمكاشفة ، فقالوا ﴿ فاكتبنا مَعَ الشاهدين ﴾ .

القول السابع : إن كل من كان في مقام شهود الحق لم يبال بما يصل إليه من المشاق والآلام ، فلما قبلوا من عيسى عليه السلام أن يكونوا ناصرين له ، ذابين عنه ، قالوا ﴿ فاكتبنا مَعَ الشاهدين ﴾ أي اجعلنا ممن يكون في شهود جلالك ، حتى نصير مستحقرين لكل ما يصل إلينا من المشاق والمتاعب فحينئذ يسهل علينا الوفاء بما التزمناه من نصرة رسولك ونبيك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 57.58 ﴾

(41/120)

وقال الآلوسى :

﴿ رَبَّنَا ءامَنَّا بِمَا أَنزَلَتْ ﴾ عرض لحالهم عليه تعالى بعد عرضها على رسوله استمطاراً لسحائب إجابة دعائهم الآتي ، وقيل : مبالغة في إظهار أمرهم ﴿ واتبعنا الرسول ﴾ أي امتثلنا ما أتى به منك إلينا ﴿ فاكتبنا مَعَ الشاهدين ﴾ أي محمد صلى الله عليه وسلم وأمته لأنهم يشهدون للرسل بالتبليغ ومحمد صلى الله عليه وسلم يشهد لهم بالصدق رواه عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وروى أبو صالح عنه أنهم من آمن من الأمم قبلهم ، وقيل : المراد من ﴿ الشاهدين ﴾ الأنبياء لأن كل نبي شاهد لأمته وعليها ، وقال مقاتل : هم الصادقون ، وقال الزجاج : هم الشاهدون للأنبياء بالتصديق ، وقيل : أرادوا

مع المستغرقين في شهود جلالك بحيث لا نبالي بما يصل إلينا من المشاق والآلام فيسهل علينا الوفاء بما التزمنا من نصرة رسولك ، وقيل : أرادوا اكتب ذكرنا في زمرة من شهد حضرتك من الملائكة المقربين كقوله تعالى : ﴿ إِنّ كتاب الابرار لَفِى عِلّيّينَ ﴾ [المطففين : 81] ولا يخفى ما في هذا الأخير من التكلف والمعنى على ما عداه أدخلنا في عداد أولئك ، أو في عداد أتباعهم ، قيل : وعبروا عن فعل الله تعالى ذلك بهم بلفظ ﴿ فاكتبنا ﴾ إذ كانت الكتابة تقيد وتضبط ما يحتاج إلى تحقيقه وعلمه في ثاني حال ، وقيل : المراد اجعل ذلك وقدره في صحائف الأزل . ومن الناس من جعل الكتابة كناية عن تثبيتهم على الإيمان في الخاتمة ، والظرف متعلق بمحذوف وقع حالاً من مفعول اكتبنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 177 ﴾

(42/120)

وقال الطبرى :

وهذا خبر من الله عز وجل عن الحواريين أنهم قالوا : "ربنا آمنا" ، أي : صدّقنا "بما أنزلت" ، يعني : بما أنزلتَ على نبيك عيسى من كتابك "واتبعنا الرسول" ، يعني بذلك : صرنا أتباع عيسى على دينك الذي ابتعثته به ، وأعوانه على الحق الذي أرسلتَه به إلى عبادك وقوله :

"فاكتبنا مع الشاهدين" ، يقول : فأثبت أسماءنا مع أسماء الذين شهدوا بالحق ، وأقرُّوا لك بالتوحيد ، وصدّقوا رسلك ، واتبعوا أمرك ونهيك ، فاجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به من كرامتك ، وأحِلَّنا محلهم ، ولا تجعلنا ممن كفر بك ، وصدَّ عن سبيلك ، وخالف أمرك ونهيك .

يعرّف خلقه جل ثناؤه بذلك سبيلَ الذين رضي أقوالهم وأفعالهم ، ليحتذوا طريقهم ، ويتبعوا منهاجهم ، فيصلوا إلى مثل الذي وصلوا إليه من درجات كرامته ويكذّب بذلك الذين انتحلوا من الملل غير الحنيفية المسلمة ، في دعواهم على أنبياء الله أنهم كانوا على غيرها ويحتجُّ به على الوفد الذين حاجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل نجران : بأنّ قِيل مَنْ رضي الله عنه من أتباع عيسى كان خلاف قِيلهم ، ومنهاجهم غير منهاجهم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 452ـ453 ﴾

(43/120)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلَتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾

فهل يكون إعلانهم للإيمان ، يعني إيمانهم بتشريعات رسالة سابقة ، لا ، إن الإيمان هنا مقصود به ما جاء به عيسى من عند الله ؛ لأن كل رسول جاء بشيء من الله ، فوراء مجيء رسول جديد أمر يريد الله إبلاغه للناس ، ونحن نعلم أن العقائد لا تغيير فيها ؛ وكذلك الأخبار ؛ وكذلك القصص ، ولكن الأحكام هي التي تتغير . فكأن إعلان الحواريين هو إعلان بالإيمان بما جاء سابقا على عيسى ابن مريم من عقائد وبما جاء به عيسى ابن مريم من أحكام وتشريعات .

وقولهم : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ ﴾ كلمة ﴿ بِمَا أَنزَلْتَ ﴾ تدل على منهج منزل من أعلى إلى أدنى ، ونحن حين نأخذ التشريع فنحن نأخذه من أعلى . ولذلك قلنا سابقا : إن الله حينما ينادي من آمن به ليتبع مناهج الإيمان يقول : " تعالوا " أي ارتفعوا إلى مستوى التلقي من الإله وخذوا منه المنهج ولا تظلوا في حضيض الأرض ، أي لا تتبعوا أهواء بعضكم وآراء بعضكم أو تشريع بعضكم ، وما دام المؤمن يريد العلو في الإيمان ، فليذهب بسلوكه في الأرض إلى منهج السماء .

وقولهم: ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلَتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ . إن المتبع عادة يقتنع بمن اتبعه أولا ، حتى يكون الاتباع صادرا من قيم النفس لا من الإرغام قهرا أو قسرا ، فنحن قد نجد إنسانا يرغم إنسانا آخر على السير معه ، وهنا لا يقال عن المُرغَم: إنه "اتبع" إنما الذي يتبع ، أي الذي يسير في نفس طريق صاحبه يكون ذلك بمحض إرادته ومحض اختياره. فلو سار شخص في طريق شخص آخر بالقهر أو القسر لكان ذلك الاتباع بالقالب ، لا بالقلب. ولذلك فمن الممكن لمتجبر أن يمسك سوطا ويقهر مستضعفا على السير معه ، وفي ذلك إخضاع لقالب المستضعف ، لكنه لم يخضع قلبه ، فالإكراه يخضع القالب لكنه لا يخضع القلب.

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾

[الشعراء: 3-4].

إن الحق يخبر رسوله أن أحدا من العباد . لا يستعصي على خالقه ، وأنه سبحانه القادر على الإحياء والإماتة ، ولو أراد الله أن ينزل آية تخضع أعناق كل العباد لفَعَل ، لكن الحق لا يريد أعناق الناس ، ولكنه يطلب القلوب التي تأتي طواعية وبالاختيار ، وأن يأتي العبد إلى الإيمان وهو قادر ألا يجيء . هذه هي العظمة الإيمانية . وقال الحواريون بعد إعلانهم الإيمان بما جاء به عيسى: ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ إنه الطلب الإيماني العالي الواعي ،

الفاهم . إنهم يحملون أمانة التبليغ عن الرسول ، ويشهدون كما يشهد الرسل لأممهم ، ويطلبون أن يكتبهم الله مع الذين يشهدون أن الرسل يبلغون رسالات الله وأنهم يحملونها من بعدهم ؛ ولذلك قلنا عن أمة محمد عليه الصلاة والسلام : إنها الأمة التي حملها الله مهمة وصل بلاغ الرسالة المحمدية إلى أن تقوم الساعة .

لماذا ؟ ها هو ذا القول الحق :

(45/120)

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾

[الحج : 78] .

ولذلك فلن يأتي أنبياء أو رسل من بعد أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لقد ائتمن الله أمة محمد ؛ بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، لذلك فلا نبوة من بعد رسول الله صلى الله عليه

وسلم. وبعد ذلك يخبرنا الحق: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ. . . ﴾ .

انتهى انتهى. ا هـ ﴿تفسير الشعراوى صـ 1491.1493﴾

(46/120)

قوله تعالى ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (54) ﴾

قال البقاعى:

ولعله عقب قوله ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾

بقوله: ﴿ ومكروا ﴾ المعطوف على قوله: ﴿ قال من أنصاري إلى الله ﴾ بالإضمار الصالح لشمول كل من تقدم له ذكر إشارة إلى أن التمالؤ عليه يصح أن ينسب إلى المجموع من حيث هو مجموع، أما مكر اليهود فمشهور، وأما الحواريون الاثنا عشر فنقض أحدهم وهو الذي تولى كبر الأمر وجر اليهود إليه ودلهم عليه - كما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى في سورة النساء، وترتيب المكر على الشرط يفهم أنهم لما علموا إحساسه بفكرهم خافوا غائلته فأعملوا الحيلة في قتله.

والمكر - قال الحرالي - إعمال الخديعة والاحتيال في هدم بناء ظاهر كالدنيا، والكيد أعمال الخدعة والاحتيال في هدم بناء باطن كالتدين والتخلق وغير ذلك، فكان المكر

خديعة حس والكيد خديعة معنى – انتهى .

ثم إن مكرهم تلاشى واضمحل بقوله : ﴿ ومكر الله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً .

ولما كان المقام لزيادة العظمة أظهر ولم يضمر لئلا يفهم الإضمار خصوصاً من جهة ما فقال :

﴿ والله ﴾ أي والحال أنه الذي له هذا الاسم الشريف فلم يشاركه فيه أحد بوجه ﴿ خير الماكرين ﴾ بإرادته تأخير حربه لهم إلى وقت قضاه في الأزل فأمضاه وذلك عند مجيء الدجال بجيش اليهود فيكون أنصاره الذين سألهم ربه هذه الأمة تشريفاً لهم ، ثم بين ما فعله بهم من القضاء الذي هو على صورة المكر في كونه أذى يخفى على المقصود به بأنه رفعه إليه وشبه ذلك عليهم حتى ظنوا أنهم صلبوه وإنما صلبوا أحدهم ، ويقال : إنه الذي دلهم ، وأما هو عليه الصلاة والسلام فصانه عنده بعد رفعه إلى محل أوليائه وموطن قدسه لينزله في آخر الزمان لاستئصالهم بعد أن ضرب عليهم الذلة بعد قصدهم له بالأذى الذى طلبوا به العز إلى آخر الدهر فكان تدميرهم في تدبيرهم ، وذلك أخفى الكيد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 97. 98 ﴾ . بصرف يسير .

(47/120)

فصل

قال الفخر :

أصل المكر في اللغة ، السعي بالفساد في خفية ومداجاة ، قال الزجاج : يقال مكر الليل ، وأمكر إذا أظلم ، وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ ﴾ [الأنفال : 30] وقال : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [يوسف : 102] وقيل أصله من اجتماع الأمر وإحكامه ، ومنه امرأة ممكورة أي مجتمعة الخلق وإحكام الرأي يقال له الإجماع والجمع قال الله تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ﴾ [يونس : 71] فلما كان المكر رأياً محكماً قوياً مصوناً عن جهات النقص والفتور ، لا جرم سمي مكراً . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 58 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما مكرهم بعيسى عليه السلام ، فهو أنهم هموا بقتله ، وأما مكر الله تعالى بهم ، ففيه وجوه الأول : مكر الله تعالى بهم هو أنه رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ، وذلك أن يهودا ملك اليهود ، أراد قتل عيسى عليه السلام ، وكان جبريل عليه السلام ، لا يفارقه ساعة ، وهو معنى قوله ﴿ وأيدناه بِرُوحِ القدس ﴾ [البقرة : 87] فلما أرادوا ذلك أمره جبريل عليه السلام أن يدخل بيتاً فيه روزنة ، فلما دخلوا البيت أخرجه جبريل عليه السلام من تلك

الروزنة ، وكان قد ألقى شبهه على غيره ، فأخذ وصلب فتفرق الحاضرون ثلاث فرق ، فرقة قالت : كان الله فينا فذهب ، وأخرى قالت : كان ابن الله ، والأخرى قالت : كان عبد الله ورسوله ، فأكرمه بأن رفعه إلى السماء ، وصار لكل فرقة جمع فظهرت الكافرتان على الفرقة المؤمنة إلى أن بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم ، وفي الجملة ، فالمراد من مكر الله بهم أن رفعه إلى السماء وما مكنهم من إيصال الشر إليه .

(48/120)

الوجه الثاني : أن الحواريين كانوا اثنى عشر ، وكانوا مجتمعين في بيت فنافق رجل منهم ، ودل اليهود عليه ، فألقى الله شبهه عليه ورفع عيسى ، فأخذوا ذلك المنافق الذي كان فيهم ، وقتلوه وصلبوه على ظن أنه عيسى عليه السلام ، فكان ذلك هو مكر الله بهم .

الوجه الثالث : ذكر محمد بن إسحاق أن اليهود عذبوا الحواريين بعد أن رفع عيسى عليه السلام ، فشمسوهم وعذبوهم ، فلقوا منهم الجهد فبلغ ذلك ملك الروم ، وكان ملك اليهود من رعيته فقيل له إن رجلاً من بني إسرائيل ممن تحت أمرك كان يخبرهم أنه رسول الله ، وأراهم إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص فقتل ، فقال : لو علمت ذلك لحلت بينه وبينهم ، ثم بعث إلى الحواريين ، فانتزعهم من أيديهم وسألهم عن عيسى عليه السلام ، فأخبروه

فتابعهم على دينهم ، وأنزل المصلوب فغيبه ، وأخذ الخشبة فأكرمها وصانها ، ثم غزا بني إسرائيل وقتل منهم خلقاً عظيماً ومنه ظهر أصل النصرانية في الروم ، وكان اسم هذا الملك طباريس ، وهو صار نصرانياً ، إلا أنه ما أظهر ذلك ، ثم إنه جاء بعده ملك آخر ، يقال له : مطليس ، وغزا بيت المقدس بعد ارتفاع عيسى بنحو من أربعين سنة ، فقتل وسبى ولم يترك في مدينة بيت المقدس حجراً على حجر فخرج عند ذلك قريظة والنضير إلى الحجاز فهذا كله مما جازاهم الله تعالى على تكذيب المسيح والهم بقتله .

القول الرابع : أن الله تعالى سلّط عليهم ملك فارس حتى قتلهم وسباهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ [الإسراء : 5] فهذا هو مكر الله تعالى بهم .

القول الخامس : يحتمل أن يكون المراد أنهم مكروا في إخفاء أمره ، وإبطال دينه ومكر الله بهم حيث أعلى دينه وأظهر شريعته وقهر بالذل والدناءة أعداءه وهم اليهود ، والله أعلم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 58. 59 ﴾

وقال الآلوسي :

﴿ وَمَكَرُواْ ﴾ أي الذين أحس منهم الكفر إذ وكلوا به من يقتله غيلة ﴿ وَمَكَرَ اللهُ ﴾ بأن ألقى شبهه عليه السلام على غيره فصلب ورفعه إليه ، قال ابن عباس : لما أراد ملك بني إسرائيل قتل عيسى عليه السلام دخل خوخة وفيها كوة فرفعه جبريل عليه السلام من الكوة إلى السماء فقال الملك لرجل منهم خبيث : أدخل عليه فاقتله فدخل الخوخة فألقى الله تعالى عليه شبه عيسى عليه السلام فخرج إلى أصحابه يخبرهم أنه ليس في البيت فقتلوه وصلبوه وظنوا أنه عيسى ، وقال وهب : أسروه ونصبوا خشبة ليصلبوه فأظلمت الأرض فأرسل الله الملائكة فحالوا بينه وبينهم فأخذوا رجلاً يقال له يهودا وهو الذي دلهم على عيسى وذلك أن عيسى جمع الحواريين تلك الليلة وأوصاهم ثم قال ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك فيبيعني بدراهم يسيرة فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فأتى أحد الحواريين إليهم وقال : ما تجعلون لي إن دللتكم عليه ؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً فأخذها ودلهم عليه فألقى الله تعالى عليه شبه عيسى عليه السلام فأدخل البيت ورفع وقال : أنا الذي دللتكم عليه فلم يلتفتوا إلى قوله وصلبوه وهم يظنون أنه عيسى فلما صلب شبه عيسى وأتى على ذلك سبعة أيام قال الله تعالى لعيسى : اهبط على مريم ثم لتجمع لك الحواريين وبثهم في الأرض دعاة فهبط عليها واشتعل الجبل نوراً فجمعت له الحواريين

فبثهم في الأرض دعاة ثم رفعه الله سبحانه ، وتلك الليلة هي الليلة التي تدخن فيها النصارى فلما أصبح الحواريون قصد كل منهم بلدة من أرسله عيسى إليهم .

(50/120)

وروي عن غير واحد أن اليهود لما عزموا على قتله عليه السلام اجتمع الحواريون في غرفة فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة فأخبر بهم إبليس جمع اليهود فركب منهم أربعة آلاف رجل فأخذوا باب الغرفة فقال المسيح للحواريين : أيكم يخرج ويقتل ويكون معي في الجنة ؟ فقال واحد منهم : أنا يا نبي الله فألقى عليه مدرعة من صوف وعمامة من صوف وناوله عكازه وألقى عليه شبه عيسى عليه السلام فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه وأما عيسى عليه السلام فكساه الله النور وقطع عنه شهوة المطعم والمشرب ورفعه إليه ، ثم إن أصحابه لما رأوا ذلك تفرقوا ثلاث فرق فقالت فرقة : كان الله تعالى فينا فصعد إلى السماء ، وقالت فرقة أخرى : كان فينا ابن الله عز وجل ثم رفعه الله سبحانه إليه ، وقالت فرقة أخرى منهم : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه وهؤلاء هم المسلمون ، فتظاهرت عليهم الفرقتان الكافرتان فقتلوهم فلم يزل الإسلام مندرس الآثار إلى أن بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم ، وروي عن ابن إسحق أن اليهود عذبوا الحواريين

بعد رفع عيسى عليه السلام ولقوا منهم الجهد فبلغ ذلك ملك الروم وكان ملك اليهود من رعيته واسمه داود بن نوذا فقيل له : إن رجلاً من بني إسرائيل ممن تحت أمرك كان يخبرهم أنه رسول الله تعالى وأراهم إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص فعل وفعل فقال : لو علمت ذلك ما خليت بينهم وبينه ثم بعث إلى الحواريين فانتزعهم من أيديهم وسألهم عن عيسى عليه السلام فأخبروه فبايعهم على دينهم وأنزل المصلوب فغيبه وأخذ الخشبة فأكرمها ثم غزا بني إسرائيل فقتل منهم خلقاً عظيماً ، ومنه ظهر أصل النصرانية في الروم ثم جاء بعده ملك آخر يقال له طيطوس وغزا بيت المقدس بعد رفع عيسى عليه السلام بنحو من أربعين سنة فقتل وسبى ولم يترك في بيت المقدس حجراً على حجر فخرج عند ذلك قريظة والنضير إلى الحجاز . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 3 صـ 177. 178 ﴾

(51/120)

فائدة

قال البغوى :

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (54) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا ﴾ يعني كفار بني إسرائيل الذي أحس عيسى منهم الكفر وبروا

في قتل عيسى عليه السلام ، وذلك أن عيسى عليه السلام بعد إخراج قومه إياه وأمه عاد إليهم مع الحواريين ، وصاح فيهم بالدعوة فهموا بقتله وتواطؤوا على الفتك به فذلك مكرهم ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ فالمكر من المخلوقين : الخبث والخديعة والحيلة ، والمكر من الله : استدراج العبد وأخذه بغتة من حيث لا يعلم كما قال : "سنستدرجهم من حيث لا يعلمون "(182 –الأعراف) وقال الزجاج : مكر الله عز وجل مجازاتهم على مكرهم فسمي الجزاء باسم الابتداء لأنه في مقابلته كقوله تعالى : " الله يستهزئ بهم "(15 –البقرة) " وهو خادعهم "(142 –النساء) ومكر الله تعالى خاصة بهم في هذه الآية ، وهو إلقاؤه الشبه على صاحبهم الذي أراد قتل عيسى عليه السلام حتى قتل .

(52/120)

قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن عيسى استقبل رهطا من اليهود فلما رأوه قالوا : قد جاء الساحر ابن الساحرة ، والفاعل ابن الفاعلة ، وقذفوه وأمه فلما سمع ذلك عيسى عليه السلام دعا عليهم ولعنهم فمسخهم الله خنازير . فلما رأى ذلك يهوذا رأس اليهود وأميرهم فزع لذلك وخاف دعوته فاجتمعت كلمة اليهود على قتل

عيسى عليه السلام ، وثاروا إليه ليقتلوه فبعث الله إليه جبريل فأدخله في خوخة في سقفها روزنة فرفعه الله إلى السماء من تلك الروزنة ، فأمر يهوذا رأس اليهود رجلا من أصحابه يقال له : ططيانوس أن يدخل الخوخة ويقتله ، فلما دخل لم ير عيسى ، فأبطأ عليهم فظنوا أنه يقاتله فيها ، فألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام ، فلما خرج ظنوا أنه عيسى عليه السلام فقتلوه وصلبوه ، قال وهب : طرقوا عيسى في بعض الليل ، ونصبوا خشبة ليصلبوه ، فأظلمت الأرض ، فأرسل الله الملائكة فحالت بينهم وبينه ، فجمع عيسى الحواريين تلك الليلة وأوصاهم ثم قال : ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ويبيعني بدراهم يسيرة ، فخرجوا وتفرقوا ، وكانت اليهود تطلبه ، فأتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال لهم : ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح ؟ فجعلوا له ثلاثين درهما فأخذها ودلهم عليه . ولما دخل البيت ألقى الله عليه شبه عيسى ، فرفع عيسى وأخذ الذي دلهم علي فقال : أنا الذي دللتكم عليه فلم يلتفتوا إلى قوله وقتلوه وصلبوه ، وهم يظنون أنه عيسى ، فلما صلب شبه عيسى ، جاءت مريم أم عيسى وامرأة كان عيسى دعا لها فأبرأها الله من الجنون تبكيان عند المصلوب ، فجاءهما عيسى عليه السلام فقال لهما : علام تبكيان ؟ إن الله تعالى قد رفعني ولم يصبني إلا خير ، وإن هذا شيء شبه لهم ، فلما كان بعد سبعة أيام قال الله عز وجل لعيسى عليه السلام : اهبط على مريم المجدلانية اسم موضع في جبلها ، فإنه لم

يبك عليك أحد بكاءها ، ولم يحزن حزنها ثم ليجتمع لك الحواريون فبثهم في الأرض دعاة إلى الله عز وجل

(53/120)

فأهبطه الله عليها فاشتعل الجبل حين هبط نورًا ، فجمعت له الحواريين فبثهم في الأرض دعاة ثم رفعه الله عز وجل إليه وتلك الليلة هي التي تدخن فيها النصارى ، فلما أصبح الحواريون حدّث كل واحد منهم بلغة من أرسله عيسى إليهم فذلك قوله تعالى ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّه وَاللَّه خَيْر الْمَاكِرِينَ ﴾

وقال السدي : إن اليهود حبسوا عيسى في بيت وعشرة من الحواريين فدخل عليهم رجل منهم فألقى الله عليه شبهه ، وقال قتادة ذكر لنا أن نبي الله عيسى عليه السلام قال لأصحابه أيكم يقذف عليه شبهي فإنه مقتول ، فقال رجل من القوم : أنا يا نبي الله فقتل ذلك الرجل ومنع الله عيسى عليه السلام ورفعه إليه وكساه الله الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وطار مع الملائكة فهو معهم حول العرش ، وكان إنسيا ملكيا سمائيا أرضيا ، قال أهل التواريخ : حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة ، وولدت عيسى ببيت لحم من أرض أوري شلم لمضي خمس وستين سنة من غلبة الإسكندر على أرض

بابل فأوحى الله إليه على رأس ثلاثين سنة ، ورفعه الله من بيت المقدس ليلة القدر من شهر رمضان ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة فكانت نبوته ثلاث سنين ، وعاشت أمه مريم بعد رفعه ست سنين . (1) انتهى . اهـ ﴿ تفسير البغوى حـ 2 صـ 44.45 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللهُ ﴾ من باب المقابلة ، أي : لا يجوز أن يوصف – تعالى – بالمكر إلاَّ لأجل ما ذُكِرَ معه من لفظ آخر مسند لمن يليق به . هكذا قيل ، وقد جاز ذلك من غير مقابلة في قوله : ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ القوم ﴾ [الأعراف : 99] والمكر في اللغة أصله الستر ، يقال : مكر اللَّيْل ، أي أظلم وستر بظلمته ما فيه .

---

(1) كلام أهل التاريخ يحتاج إلى سند صحيح . والله أعلم .

(54/120)

قال القرطبي : وأصل المكر في اللغة : الاحتيال والخِداع ، والمكر : خَدَالَةُ الساق ، والمكر : ضَرْب من النبات ويقال : بل هو المَغْرَة ، حكاه ابنُ فارس ، قالوا : واشتقاقه من المكر ، وهو شجر ملقف ، تخيلوا منه أن المكر منه أن المكر يلتفّ بالممكور به ويشتمل عليه ،

وامرأة ممكورة الخَلْق ، أي : ملتفة الجسم ، وكذا ممكورة البَطْن .

ثم أطلق المكر على الخُبْث والخداع ، ولذلك عبر عنه بعض أهل اللغة بأنه السعيُ بالفساد ، قال الزّجّاجُ هو من مكر الليل وأمكر أي أظلم ، وعب ر بعضهم عنه فقال هو صرف الغير عما يقصده بحيلةٍ ، وذلك ضربان : محمود ، وهو أن يتحرَّى به فِعْلَ جَميلٍ ، وعلى ذلك قوله : ﴿ واللهُ خَيْرُ الماكرين ﴾ . ومذموم ، وهو أن يتحرَّى به فعل قبيح ، نحو : ﴿ ولَا يَحِيقُ المكر السيىء إِلَاّ بأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : 43] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 263. 264 ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

لم يبين هنا مكر اليهود بعيسى ولا مكر الله باليهود ، ولكنه بين في موضع آخر أن مكرهم به محاولتهم قتله ، وذلك في قوله : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولَ الله ﴾ [النساء : 157] وبين أن مكره بهم إلقاؤه الشبه على غير عيسى وإنجاؤه عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وذلك في قوله : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ولكن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء : 157] ، وقوله : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء : 157-158] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ 201 ﴾

فصل

قال الفخر :

المكر عبارة عن الاحتيال في إيصال الشر ، والاحتيال على الله تعالى محال فصار لفظ المكر في حقه من المتشابهات وذكروا في تأويله وجوهاً أحدها : أنه تعالى سمى جزاء المكر بالمكر ، كقوله ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] وسمى جزاء المخادعة بالمخادعة ، وجزاء الاستهزاء بالاستهزاء

(55/120)

والثاني : أن معاملة الله معهم كانت شبيهة بالمكر فسمي بذلك الثالث : أن هذا اللفظ ليس من المتشابهات ، لأنه عبارة عن التدبير المحكم الكامل ثم اختص في العرف بالتدبير في إيصال الشر إلى الغير ، وذلك في حق الله تعالى غير ممتنع والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 59 ﴾

وقال ابن عاشور فى معنى الآية :

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾

عطف على جملة ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر ﴾ فإنّه أحس منهم الكفر وأحس منهم بالغدر والمكر .

وضمير مكروا عائد إلى ما عاد إليه ضمير منهم وهم اليهود وقد بَيّن ذلك قولُه تعالى ، في سورة الصف (14) : ﴿ قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة ﴾ والمكر فعل يُقصد به ضر ضُرُّ أحَد في هيئة تخفى عليه ، أو تلبيس فعل الإضرار بصورة النفع ، والمراد هنا : تدبير اليهود لأخذ المسيح ، وسعيُهم لدى ولاة الأمور ليمكّنوهم من قتله .

ومَكْرُ الله بهم هو تمثيل لإخفاق الله تعالى مساعيَهم في حال ظنهم أن قد نجحت مساعيهم ، وهو هنا مشاكلة .

وجَاَزَ إطلاق المكر على فعل الله تعالى دونَ مشاكلة كما في قوله : ﴿ أفأمنوا مكر اللَّه ﴾ (99) في سورة الأعراف وبعض أساتذتنا يسمي مثل ذلك مشاكلة تقديرية .

ومعنى : والله خير الماكرين ﴾ أي أقواهم عند إرادة مقابلة مكرهم بخذلانه إياهم .

ويجوز أن يكون معنى خير الماكرين : أنّ الإملاء والاستدراج ، الذي يقدّره للفجّار والجبابرة والمنافقين ، الشبيه بالمكر في أنّه حَسَن الظاهر سيّء العاقبة ، هو خير محض لا يترّتب عليه إلاّ الصلاح العام ، وإن كان يؤذي شخصاً أو أشخاصاً ، فهو من هذه الجهة

مجرّد عما في المكر من القُبح ، ولذلك كانت أفعاله تعالى منزّهة عن الوصف بالقبح أو الشناعة ، لأنها لا تقارنها الأحوال التي بها تقبح بعض أفعال العباد ؛ من دلالة على سفاهة رأي ، أو سوء طوية ، أو جُبن ، أو ضُعف ، أو طَمع ، أو نحو ذلك .

أي فإن كان في المكر قبْح فمكر الله خير محض ، ولك على هذا الوجه أن تجعل "خَيْر" بمعنى التفضيل وبدونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 106 ﴾

وقال ابن عطية :

المكر في اللغة ، السعي على الإنسان دون أن يظهر له ذلك ، بل أن يبطن الماكر ضد ما يبدي ، وقوله ﴿ والله خير الماكرين ﴾ معناه في أنه فاعل في حق في ذلك ، والماكر من البشر فاعل باطل ففي الأغلب ، لأنه في الأباطيل يحتاج إلى التحيل ، والله سبحانه أشد بطشاً وأنفذ إرادة ، فهو خير من جهات لا تحصى ، لا إله إلا هو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 443 ﴾

وقال الثعالبى :

﴿ وَمَكَرُواْ ﴾ ، يريدُ في تحيُّلهم في قتله بزعمهم فهذا هو مَكْرُهُمْ ، فجازاهم اللَّه تعالى ؛ بأنْ طرح شَبَهَ عيسى على أحد الحواريِّين ؛ في قول الجمهور ، أو على يهوديٍّ منهم كَانَ جَاسُوساً ، وأعقب بَنِي إسرائيل مذلَّةً وهَوَاناً في الدُّنيا والآخرة ، فهذه العُقُوبة هي التي

سَمَّاها اللَّه تعالى مَكْراً في قوله : ﴿ وَمَكَرَ اللهُ ﴾ ، وذلك مَهْيَعٌ أنْ تسمَّى العقوبةُ باسم الذنب .

(57/120)

وقوله : ﴿ واللهُ خَيْرُ الماكرين ﴾ : معناه : فاعلُ حقٍّ في ذلك ، وذكر أبو القَاسِمِ القُشَيْرِيُّ في "تحبيره" ، قال : سُئِلَ مَيْمُونٌ ، أحسبه : ابن مِهْرَانَ ؛ عن قولِهِ تعالى : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللهُ ﴾ فقال : تخليتُهُ إياهم ، مع مَكْرِهم هو مَكْرُهُ بهم . انتهى . ونحوه عن الجُنَيْدِ ، قال الفَرَّاء : المَكْرُ من المخْلُوقِ الْخِبُّ والحِيلَة ، ومِنَ الإله الاِسْتِدْرَاجُ ، قال اللَّه تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم : 44] قال ابن عبَّاس : كُلَّما أحْدَثُوا خطيئَةً ، أحدثنا لَهُمْ نعمة . انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ 271 . 272 ﴾

فائدة

قال فى روح البيان :

أيها العبد خف من وجود إحسان مولاك إليك ودوام إساءتك معه فى دوام لطفه بك وعطفه عليك أن يكون استدراجا لك حتى تقف معها وتغترلها وتفرح لما أوتيت فتؤخذ

بغتة قال الله تعالى ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾

قال سهل رضى الله عنه فى معنى هذه الآية نمدهم بالنعم وننسيهم الشكر عليها فإذا ركنوا إلى النعمة وحجبوا عن المنعم أخذوا

وقال أبو العباس ابن عطاء يعنى كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة ومن جهل المريد بنفسه وبحق ربه أن يسيىء الأدب بإظهار دعوى أو تورط فى بلوى فتؤخر العقوبة عنه إمهالا له فيظنه إهمالا فيقول لو كان هذا سوء أدب لقطع الإمداد وأوجب الإبعاد اعتبارا بالظاهر من الأمر من غير تعريج على ما وراء ذلك وما ذاك إلا لفقد نور بصيرته أو ضعف نورها وإلا فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر حتى ربما ظن أنه متوفر فى عين تقصير ولو لم يكن من قطع المدد إلا منع المزيد لكان قطعا لأن من لم يكن فى زيادة فهو فى نقصان

ولو لم يكن من الإبعاد إلا أن يخليك وما تريد فيصرفك عنه بمرادك هذا والعياذ بالله مكر وخسران

وعن ابن حنبل أنه كان يوصى بعض أصحابه فقال خف سطوة العدر وارج رقة الفضل ولا تأمن من مكره تعالى ولو أدخلك الجنة ففى الجنة وقع لأبيك آدم ما وقع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح البيان حـ 2 صـ 50 . 51 ﴾

لطيفة

قال الماوردى :

والفرق بين المكر والحيلة أن الحيلة قد تكون لإظهار ما يعسر من غير قصد إلى الإضرار ، والمكر : التوصل إلى إيقاع المكروه به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 396 ﴾

لطيفة

قال ابن عجيبة :

قيل للجنيد رضي الله عنه : كيف رَضِيَ المكرَ لنفسه ، وقد عابه على غيره ؟ قال : لا أدري ، ولكن أنشدني فلان للطبرانية :

فديتُك قد جُبلْتُ على هواكَ . . . ونفْسِي ما تَحِنُّ إلى سِوَاكَ

؛ أُحِبّك ، لا ببَعْضِي بل بكُلِّي . . . وإن يُبْق حُبُّكَ لي حِرَاكَا

ويَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ الْفِعْلُ عِنْدي . . . وتَفْعَلُهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَ

فقال له السائل : أسألك عن القرآن ، وتجيبني بشعر الطبرانية ؟ قال : ويحك ، قد أجبتك

إن كنت تعقل . إنَّ تخليته إياهم مع المكرية ، مكرٌ منه بهم . ه .

قلت : وجه الشاهد في قوله : (وتفعله فيحسن منك ذاك) ، ومضمن جوابه : أن فعل الله كله حسن في غاية الإتقان ، لا عيب فيه ولا نقصان ، كما قال صاحب العينية :

وكلُّ قبيحٍ إنْ نَسَبْتَ لِحُسْنِهِ . . . أَتَتْكَ مَعَانِي الْحُسْنِ فِيهِ تُسَارِعُ

يُكَمِّلُ نُقْصَانَ الْقَبِيحِ جَمَالُهُ . . . فَما ثَمَّ نُقْصَانٌ وَلاَ ثَمَّ بَاشِعُ

وتخليته تعالى إياهم مع المكر ، تسبب عنه الرفع إلى السماء ، وإبقاء عيسى حيّاً إلى آخر الزمان ، حتى ينزل خليفة عن نبينا – عليه الصلاة والسلام – ، فكان ذلك في غاية الكمال والإتقان ، لكن لا يفطن لهذا إلا أهل العرفان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المديد حـ 1 صـ 358﴾

(59/120)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾

إن الأشياء التي يدركها العقل هي مسميات ولها أسماء وتكون أولا بالحس ؛ لأن الحس هو

أول مصاحب للإنسان لإدراك الأشياء ، وبعد ذلك تأتي المعاني عندما نكبر ونعرف الحقائق . إن البداية دائما تكون هي الأمور المحسة ، ولذلك يقول الله عن المنهج الإيماني : إنه طريق مستقيم ، أي أن نعرف الغاية والطريق الموصل إليها ، وكلمة " الطريق المستقيم " من الأمور المحسة والتي يتعرف الناس عليها بالتطبيق لقواعد المنهج .

إن كلمة " مكر " ، مأخوذة من الشجر ، فساعة أن ترى الشجرة التي لا تلتف أغصانها على بعضها فإن الإنسان يستطيع أن يحكم أن ورقة ما ، هي من فرع ما ، ولكنْ هناك نوع من الأشجار تكون فروعه ملفوفة على بعضها بحيث لا يستطيع الإنسان أن يعرف أي ورقة من أي فرع هي ، ومن هذا المعنى أخذنا كلمة " المكر " فالرجل الذي يلف ويدور ، هو الذي يمكر ، فالذي يلف على إنسان من أجل أن يستخلص منه حقيقة ما ، والذي يحتال من أجل إبراز حقيقة ، فإن كان ذلك بغير قصد الضرر نسميه حيلة ، وإن كان بقصد الضرر فهذا هو المكر السيء . ولذلك فالحق يقول :

﴿ وَمَكْرَ السَّيِّىءِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّىءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾

[فاطر : 43] .

ومعنى ذلك أن هناك مكراً غير سيء ، أي أن المكر الذي لا يقصد منه إيقاع الضرر بأحد ، فإننا نسميه مكرَ خير ، أما المكر الذي يقصد منه إيقاع الضرر فهو " المكر السيء " . ولنا أن نسأل : ما الذي يدفع إنسانا ما إلى المكر ؟ إن الذي يمكر يداري نواياه ، فقد يظهر لك الحب بينما هو مبغض ، ويريد أن يزين لك عملا ليمكر بك ، فيحاول مثلا أن يصحبك إلى مكان بعيد غير مأهول بالناس ويريد أن يوقع بك أبلغ الضرر ، وقد يكون القتل .

إذن ، فمن أسس المكر التبييت ، والتبييت يحتاج إلى حنكة و خبرة ، لأن الذي يحاول التبييت قد يجد قبالته من يلتقط خبايا التبييت بالحدس والتخمين ، وما دام المكر يحتاج إلى التبييت ، فإن ذلك علامة على الضعف في البشر لأن القوي لا يمكر ولا يكيد ولكن يواجه .

إن القوي لحظة أن يمسك بخصم ضعيف ، فمن الممكن أن يطلقه ، لأن القوي مطمئن إلى أن قوته تستطيع أن تؤذي هذا الضعيف . لكن الضعيف حين يملك قويا ، فإنه يعتبر الأمر فرصة لم تتكرر ، ولذلك فالشاعر يقول : وضعيفة فإذا أصابت فرصة قتلت كذلك قدرة الضعفاء

إن الضعيف هو الذي يمكر ويبيت . والذي يمكر قد يضع في اعتباره أن خصمه أقوى منه حيلة وأرجح عقلا ، وقد ينكل به كثيرا ، لذلك يخفى الماكر أمر مكره أو تبييته .

فإذا ما أراد خصوم المنهج الإيماني أن يمكروا ، فعلى من يمكرون ؟ إن الرسول لا يكون في المعركة بمفرده ولكن معه الله .

﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

[البقرة : 9] .

فالله يعلم ما يبيت أي إنسان ، ولذلك فعندما يريد الله أن يبرز شيئًا ويوجده فلن يستطيع أحد أن يواجه إرادة الله وأمره ، إذن فمكر الله لا قبل لأحد لمواجهته .

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : 54]

(61/120)

وساعة تجد صفة تستبعد أن يوصف بها الله فاعلم أنما جاءت للمشاكلة فقط وليست من أسماء الله الحسنى ، إن المؤمنين بإمكانهم أن يقولوا للكافرين : إنكم إن أردتم أن تبيتوا لنا ، فإن الله قادر على أن يقلب المكر عليكم ، أما أسماء الله وصفاته فهي توقيفية ، نزل بها جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن إذا وجد فعل لله لا يصح أن نشتق نحن منه وصفا ونجعله اسما لله ، ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ ، فليس من أسماء الله مخادع ، أو ماكر ، إياك أن تقول ذلك ، لأن أسماء الله وصفاته توقيفية ، وجاء

القول هنا بمكر الله كمقابل لفعل من البشر ، ليدلهم على أنهم لا يستطيعون أن يخدعوا الله ، ولا يستطيعون أن يمكروا بالله ، لأن الله إذا أراد أن يمكر بهم ، فهم لا يستطيعون مواجهة ذلك . إن الحق يقول : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ .

إذن فهناك " مكر خير " . . وذلك دليل على أن هناك من يصنع المكر ليؤدي إلى الخير .

ولماذا تأتي هذه الآية هنا ؟ لأن هناك معركة سيدخلها عيسى ابن مريم عليه السلام ، وعيسى عليه السلام لم يجيء ليقاتل بالسيف ليحمي العقيدة ، إنما جاء واعظا ليدل الناس على العقيدة ، إن النصرة لا تكون بالسيف فقط ، ولكن بالحجة . ونحن نعرف أن السماء كانت لا تطلب من أي رسول أن يحارب في سبيل العقيدة لأن السماء هي التي كانت تتولى التأديب .

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَاكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : 40] .

ولم يجيء قتال إلا حينما طلب بنو إسرائيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾

[البقرة: 246].

ولكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هي التي أذن الله لها أن تحمل السيف لتؤدب به الذين يحولون دون بلوغ العقيدة الصحيحة للناس.

إن السيف لم يأت ليفرض العقيدة، إنما ليحمي الاختيار في النفس الإيمانية، فبدلا من أن يترك الناس مقهورين على اعتناق عقيدة خاطئة فالمسلمون يرفعون السيف في وجه الظالم القاهر لعباد الله. وعباد الله لهم أن يختاروا عقيدتهم.

ولذلك فعندما يقول اعداء الإسلام: "أن الإسلام انتشر بالسيف". نرد عليهم: إن الله قد بدأ الإسلام بضعف حتى يسقط هذا الاتهام، لقد كان المسلمون الأوائل ضعفاء لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، فيتجه بعضهم إلى الحبشة، ويهاجرون بحثا عن الحماية، فلو كان الإسلام قد انتشر بالسيف فلنا أن نسأل: من الذي حمل أول سيف ليكره أول مؤمن؟ إن المؤمنين رضوا الإسلام دينا وهم في غاية الضعف ومنتهاه. إن الإسلام قد بدأ واستمر وما زال يحيا بقوة الإيمان.

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء في أمة أمية ، ومن قبيلة لها شوكتها ، وشاء الحق ألا ينصر الله دينه بإسلام أقوياء قريش أولا ، بل آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم الضعفاء وخاض رسول الله صلى الله عليه وسلم رحلة الدعوة الإيمانية مدة ثلاثة عشر عاما ، دعوة للإيمان بالله ، ثم هاجر رسول الله إلى المدينة ، إلى أن صار كل المسلمين وحدة إيمانية قوية ، وارتفع السيف لا ليفرض العقيدة ، ولكن ليحمي حرية اختيار الناس للعقيدة الصحيحة . ولو أن الإسلام انتشر بالسيف . فكيف نفسر وجود أبناء لديانات أخرى في البلاد المسلمة ؟ لقد أتاح الإسلام فرصة اختيار العقيدة لكل إنسان .

إذن فكل مسلم يمثل وحدة إيمانية مستقلة ، وواجب كل مسلم أن يعرف أن الإسلام قد انتشر بالأسوة الحسنة ، وأنه كمؤمن بالله وبدين الله ، قد اصطفاه الله ليطبق السلوك الإيماني ، فقد مكن الله للإسلام في الأرض بالسلوك والقدوة .

إن كل مسلم عليه واجب ألا يترك في سلوكه ثغرة ينفذ منها خصوم الإسلام إلى الإسلام ، ذلك أن اختلال توازن سلوك المسلم بالنسبة لمنهج الله هو ثغرة ينفذ منها خصوم الإسلام ، ولذلك فالمفكرون في الأديان الأخرى حينما يذهبون إلى الإسلام ، ويقتنعون به ، إنما

يقتنعون بالإسلام لأنه منهج حق . إنهم يمحصونه بالعقل ، ويهتدون إليه بالفطرة الإيمانية .

أما الذين يريدون الطعن في الإسلام ، فهم ينظرون إلى سلوك بعض من المسلمين ، فيجدون فيه من الثغرات ما يتهمون به الإسلام .

(64/120)

إن المفكرين المنصفين يفرقون دائما بين العقيدة ، ومتبع العقيدة ، ولذلك فأغلب المفكرين الذين يتبعون هذا الاتجاه ، يلجأون إلى الإسلام ويؤمنون به . ولكن الذين يذهبون إلى الإسلام من جهة أتباعه ، فإن صادفوا تابعا للإسلام ملتزما دعاهم ذلك إلى أن يؤمنوا بالإسلام ، ولذلك كانت الجمهرة الكثيرة الوفيرة في البلاد الإسلامية المعاصرة في بلاد لم يدخلها فتح إسلامي ، وإنما دخلتها الأسوة الإسلامية في أفراد تابعين ملتزمين ، فراق الناس ما عليه هؤلاء المسلمون من حياة ورعة ، ومن تصرفات مستقيمة جميلة ، ومن أسلوب تعامل سمح أمين ، نزيه ، نظيف ، كل ذلك لفت جمهرة الناس إلى الإسلام ، وجعلهم يتساءلون : ما الذي جعلكم على هذا السلوك الطيب ؟ قالوا : لأننا مسلمون .

وتساءل الناس في تلك المجتمعات : وما معنى الإسلام ؟ وبدأ المسلمون يشرحون لهم الإسلام .

إذن ، فالذي لفت إلى الإسلام هو السلوك المنهجي الملتزم ، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى حين يعرض منهج الدعوة الناجحة يقول :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

[فصلت : 33] .

والدعوة إلى الله تكون باللسان والعمل الصالح ، ليدل المؤمن على أن ما يدعو إليه غيره قد وجده مفيدا فالتزمه هو ، فالعمل الصالح هو شهادة للدعوة باللسان ، ولا يكتفي المؤمن بذلك ، إنما يعلن ويقول : ﴿ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ يقول ذلك لمن ؟ يقوله لمن يرونه على السلوك السمح الرضى الطيب . إنها لفتة من ذاته إلى دينه .

(65/120)

إن هذا يفسر لنا كيف انتشر الإسلام بوساطة جماعة من التجار الذين كانوا يذهبون إلى كثير من البلاد ، وتعاملوا مع الناس بأدب الإسلام ، وبوقار الإسلام ، وبورع الإسلام ، فصار سلوكهم الملتزم لافتا ، وعندما يسألهم القوم عن السر في سلوكهم الملتزم ، ويقول الإنسان منهم : أنا لم أجيء بذلك من عندي ولكن من اتباعي لدين الله الإسلام .

ومثال ذلك في السلوك الأسوة : المسلمون الأوائل من صحابة رسول الله صلى الله عليه

وسلم . لقد كان صحابته رضوان الله عليهم يخافون عليه من خصومه ، فكانوا يتناوبون حراسته ، ومعنى تناوب الحراس أنهم أرادوا أن يكونوا المصد للأخطار يتداولون ذلك فيما بينهم . وأراد الحق سبحانه أن يهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة خفية ، ونام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه مكان الرسول صلى الله عليه وسلم . لقد أراد علي - كرم الله وجهه - أن يكون هو المصد ، فإذا جاء خطر فإنه هو الذي يصده .

لا شك أنه كان يفعل ذلك لأنه واثق أن بقاء الرسول صلى الله عليه وسلم خير للإسلام حتى ولو افتداه بروحه . هذا هو التسامي العالي من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان الواحد منهم يحب الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الأسوة بالرسول واتباع دين الله إنّما يعود ذلك عليه بالخير العميم . وعندما يموت واحد منهم في سبيل المحافظة على من أرسله الله رسولا ليبلغ دعوته فقد نال الشهادة في سبيل الله .

هذا هو أبو بكر الصديق رضوان الله عليه مع رسول الله في الغار . ألم يجد الصديق شقوقا فيمزع من ثيابه ليسد الشقوق ؟ ألم يضع قدمه في شق لأنه يخشى أن تجيء حشرة من الحشرات قد تؤذي حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ؟ لقد أراد أن يحافظ على الرسول صلى الله عليه وسلم حتى ولو افتداه ، وهذه شهادة بأن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنوا بأن بقاء الرسول خير لهم وللإيمان ولنفوسهم من بقائهم هم أنفسهم .

وهكذا أراد الله نصرة رسوله على الكفار ، عندما مكروا وبيتوا أن يقتلوه قبل الهجرة ، وهكذا أراد الله نصر رسوله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة عندما واجه أعداء الإسلام في القتال ، لقد مكروا ، ولكن الله خير الماكرين .

وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول بهذا النصر من الله : لن تستطيعوا أن تقاوموا محمدا لا بالمواجهة ولا بالتبييت . وها هو ذا تابع من أتباعه صلى الله عليه وسلم هو سيدنا عمر رضي الله عنه يهاجر علنا ، ويقول : من أراد أن تثكله أمه ، أو ترمل زوجته ، أو ييتم ولدُه ، فليلقني وراء هذا الوادي . بينما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم خفية .

لماذا ؟ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة للضعيف . إن القوى يستطيع حماية نفسه ويخرج إلى الهجرة مجاهرا . أما الضعيف فلا بد أن يهاجر خفية ؛ لذلك فالأسوة للضعيف كانت في رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد مكر أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله مكر بهم .

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾

[إبراهيم : 46] .

إن مكرهم رغم عنفه وشدته والذي قد يؤدي إلى زوال الجبال ، هذا المكر يبور عند مواجهته لمكر الله الذي يحمى رسله وعباده الصالحين . لقد جاء مكر بني إسرائيل وأنزل فيه الله قوله الحكيم : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ . لأنهم أرادوا أن يتخلصوا من سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام . فقال الحق سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ . . . ﴾ . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 1493.1500 ﴾

(67/120)

" فصل "

قال السيوطى :

رَبَّنَا آَمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (53) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (54)

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ قال : مع محمد صلى الله عليه وسلم وأمته . إنهم شهدوا له أنه قد بلغ ، وشهدوا للرسل أنهم قد بلغوا .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ قال : مع أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قضى صلاته : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك فإن السائلين عليك حقاً أيما عبد أو أمة من أهل البر والبحر تقبلت دعوتهم ، واستجبت دعاءهم ، أن تشركنا في صالح ما يدعونك به ، وإن تعافينا وإياهم ، وأن تقبل منا ومنهم ، وأن تجاوز عنا وعنهم ، بأنا ﴿ آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ وكان يقول : لا يتكلم بهذا أحد من خلقه إلا أشركه الله في دعوة أهل بَرِّهم وأهل بحرهم فعمتهم وهو مكانه " .

وأخرج ابن جرير عن السدي قال : إن بني إسرائيل حصروا عيسى وتسعة عشر رجلاً من الحواريين في بيت فقال عيسى لأصحابه : من يأخذ صورتي فيقتل وله الجنة ؟ فأخذها رجل منهم وصعد بعيسى إلى السماء . فذلك قوله ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور جـ 2 صـ 223. 224 ﴾

(68/120)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

وأما الباقون فجدُّوا في الشقاق ، وبالغوا في العداوة ، ودسُّوا له المكائد ، ومكروا ولكن أذاقهم الله وبال مكرهم ، فتوهموا أنهم صلبوا عيسى عليه السلام وقتلوه ، وذلك جهل منهم ، ولَبْسٌ عليهم . فالله – سبحانه – رفع عيسى عليه السلام نبيَّه ووليّه ، وحُقَّ الطردُ واللَّعنُ على أعدائه ، وهذا مَكْرُهُ بهم :

﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 1 صـ 245 ﴾

(69/120)

قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (55) ﴾

قال البقاعى :

﴿ إذ ﴾ أي مكر حين ﴿ قال الله ﴾ أي ما له من التفرد بصفات الكمال ﴿ يا عيسى إني متوفيك ﴾ وعبر عن ذلك بطريق الكناية الإيمائية فإن عصمته من قتل الكفار ملزومة

للموت حتف الأنف ، وأما قول الزمخشري : أي مستوفى أجلك ومعناه : إني عاصمك من أن يقتلك الكفار ، ومؤخرك إلى أجل كتبته لك ، ومميتك حتف أنفك لا قتلاً بأيديهم - ليكون كناية تلويحية عن العصمة من القتل لأنها ملزومة لتأخيره إلى الأجل المكتوب والتأخير ملزوم للموت حتف الأنف - فلا ينبغي الاغترار به لأنه مبني على مذهب الاعتزال من أن القاتل قطع أجل المقتول المكتوب ، وكأن القاضي البيضاوي لم يتفطن له فترجم هذه العبارة بما يؤديها ؛ ويجوز أن يكون معنى متوفيك : آخذك إليّ من غير أن يصلوا منك إلى محجم دم ولا ما فوقه من عضو ولا نفس فلا تخش مكرهم .

قال في القاموس : أوفى فلاناً حقه : أعطاه وافياً ، كوفّاه ووافاه فاستوفاه وتوفاه .

ثم زاد سبحانه وتعالى في بشارته بالرفعة إلى محل كرامته وموطن ملائكته ومعدن النزاهة عن الأدناس فقال : ﴿ ورافعك ﴾ وزاد إعظام ذلك بقوله : ﴿ إليّ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ .

(70/120)

ولما كان لذوي الهمم العوال ، أشد التفات إلى ما يكون عليه خلائفهم بعدهم من الأحوال ، بشره سبحانه وتعالى في ذلك بما يسره فقال : ﴿ وجاعل الذين اتبعوك ﴾ أي ولو بالاسم

﴿ فوق الذين كفروا ﴾ أي ستروا ما يعرفون من نبوتك بما رأوا من الآيات التي أتيت بها مطابقة لما عندهم من البشائر بك ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ وكذا كان ، لم يزل من اتسم بالنصرانية حقاً أو باطلاً فوق اليهود ، ولا يزالون كذلك إلى أن يعدموا فلا يبقى منهم أحد .

ولما كان البعث عاماً دل عليه بالالتفات إلى الخطاب فقال تكميلاً لما بشر به من النصرة :

﴿ ثم إليّ مرجعكم ﴾ أي المؤمن والكافر في الآخرة ﴿ فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 98. 99 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ إِذْ قَالَ اللهُ ﴾ في ناصبه ثلاثة أُوجهٍ :

أحدها : قوله : ﴿ وَمَكَرَ اللهُ ﴾ أي : مكر الله بهم في هذا الوقت .

الثاني : ﴿ خَيْرُ الماكرين ﴾ .

الثالث : أنه "اذكر" . مقدرا . فيكون مفعولا به كما تقدم تقريره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 265 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعترفوا بأن الله تعالى شرف عيسى في هذه الآية بصفات :

الصفة الأولى : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ ونظيره قوله تعالى حكاية عنه ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة : 117] واختلف أهل التأويل في هاتين الآيتين على طريقين أحدهما : إجراء الآية على ظاهرها من غير تقديم ، ولا تأخير فيها

والثاني : فرض التقديم والتأخير فيها ،

أما الطريق الأول فبيانه من وجوه

الأول : معنى قوله ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ أي متمم عمرك ، فحينئذ أتوفاك ، فلا أتركهم حتى يقتلوك ، بل أنا رافعك إلى سمائي ، ومقربك بملائكتي ، وأصونك عن أن يتمكنوا من قتلك وهذا تأويل حسن

والثاني : ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ أي مميتك ، وهو مروي عن ابن عباس ، ومحمد بن إسحاق قالوا : والمقصود أن لا يصل أعداؤه من اليهود إلى قتله ثم إنه بعد ذلك أكرمه بأن رفعه إلى السماء ثم اختلفوا على ثلاثة أوجه

أحدها : قال وهب : توفي ثلاث ساعات ، ثم رفع (1)

وثانيها : قال محمد بن إسحاق : توفي سبع ساعات ، ثم أحياه الله ورفعه

الثالث : قال الربيع بن أنس : أنه تعالى توفاه حين رفعه إلى السماء ، قال تعالى : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مَوْتِهَا والتى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ [الزمر : 42] .

الوجه الرابع : في تأويل الآية أن الواو في قوله ﴿ مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ تفيد الترتيب فالآية تدل على أنه تعالى يفعل به هذه الأفعال ، فأما كيف يفعل ، ومتى يفعل ، فالأمر فيه موقوف على الدليل ، وقد ثبت الدليل أنه حي وورد الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أنه سينزل ويقتل الدجال " ثم إنه تعالى يتوفاه بعد ذلك .

---

(1) هذا قول باطل وفاسد ومخالف لإجماع الأمة ويؤيد ما يقوله النصارى. قاتلهم الله.

وكان الأحرى بالفخر . رحمه الله . أن يبين فساد هذا القول ، وكما تقدمت الإشارة إلى وجوب التوقف فى أخبار وهب بن منبه

قال القرطبى . رحمه الله . عن هذا الوجه :

وهذا فيه بعد ؛ فإنه صح في الأخبار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم نزولُه وقتلُه الدجّال على ما بيناه في كتاب التذكرة .

وفي هذا الكتاب حسب ما تقدّم ، ويأتي .

وقال ابن زيد : متوفيك قابضك ، ومتوفيك ورافعك واحد ولم يمت بعدُ . انتهى ا . هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 100 ﴾

الوجه الخامس : في التأويل ما قاله أبو بكر الواسطي ، وهو أن المراد ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ عن شهواتك وحظوظ نفسك (1) ، ثم قال : ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ وذلك لأن من لم يصر فانياً عما سوى الله لا يكون له وصول إلى مقام معرفة الله ، وأيضاً فعيسى لما رفع إلى السماء صار حاله كحال الملائكة في زوال الشهوة ، والغضب والأخلاق الذميمة .

والوجه السادس : إن التوفي أخذ الشيء وافياً ، ولما علم الله إن من الناس من يخطر بباله أن الذي رفعه الله هو روحه لا جسده ذكر هذا الكلام ليدل على أنه عليه الصلاة والسلام رفع بتمامه إلى السماء بروحه وبجسده ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾ [النساء : 113] .

والوجه السابع : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ أي أجعلك كالمتوفى لأنه إذا رفع إلى السماء وانقطع خبره وأثره عن الأرض كان كالمتوفى ، وإطلاق اسم الشيء على ما يشابهه في أكثر خواصه وصفاته جائز حسن .

الوجه الثامن : أن التوفي هو القبض يقال : وفاني فلان دراهمي وأوفاني وتوفيتها منه ، كما يقال : سلم فلان دراهمي إلي وتسلمتها منه ، وقد يكون أيضاً توفي بمعنى استوفى وعلى كلا

الاحتمالين كان إخراجه من الأرض وإصعاده إلى السماء توفياً له .

فإن قيل : فعلى هذا الوجه كان التوفي عين الرفع إليه فيصير قوله ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ تكراراً .

قلنا : قوله ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ يدل على حصول التوفي وهو جنس تحته أنواع بعضها بالموت وبعضها بالإصعاد إلى السماء ، فلما قال بعده ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ كان هذا تعييناً للنوع ولم يكن تكراراً .

---

(1) لا يخفى ما فى هذا الوجه من البعد البعيد . والله أعلم .

الوجه التاسع : أن يقدر فيه حذف المضاف والتقدير : متوفي عملك بمعنى مستوفي عملك ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ أي ورافع عملك إلي ، وهو كقوله ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب ﴾ [فاطر : 10] والمراد من هذه الآية أنه تعالى بشّره بقبول طاعته وأعماله ، وعرفه أن ما يصل إليه من المتاعب والمشاق في تمشية دينه وإظهار شريعته من الأعداء فهو لا يضيع أجره ولا يهدم ثوابه ، فهذه جملة الوجوه المذكورة على قول من يجري الآية على ظاهرها .

الطريق الثاني : وهو قول من قال : لا بد في الآية من تقديم وتأخير من غير أن يحتاج فيها إلى

تقديم أو تأخير، قالوا إن قوله ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ يقتضي إنه رفعه حياً، والواو لا تقتضي الترتيب، فلم يبق إلا أن يقول فيها تقديم وتأخير، والمعنى: أني رافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالي إياك في الدنيا، ومثله من التقديم والتأخير كثير في القرآن.

واعلم أن الوجوه الكثيرة التي قدمناها تغني عن التزام مخالفة الظاهر، والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 60.61 ﴾

(74/120)

وقال محمد بن أبى بكر الرازى:

لما هدده اليهود بالقتل بشره بأنه يقبض روحه بالوفاة لا بالقتل، والواو لا تفيد الترتيب ليلزم من الآية موته قبل رفعه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الرازى صـ 63 ﴾

وقال البغوى:

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ اختلفوا في بعض التوفي هاهنا، قال الحسن والكلبي وابن جريج: إني قابضك ورافعك في الدنيا إليّ من غير موت، يدل عليه قوله تعالى: "فلما توفيتني" (117 -المائدة) أي قبضتني إلى السماء وأنا حي، لأن قومه إنما تنصروا بعد رفعه إلى السماء لا بعد موته، فعلى هذا للتوفي تأويلان، أحدهما: إني

رافعك إلي وافيًا لم ينالوا منك شيئًا ، من قولهم توفيت كذا واستوفيته إذا أخذته تامًا والآخر : أني [مستلمك] من قولهم توفيت منه كذا أي تسلمته ، وقال الربيع بن أنس : المراد بالتوفي النوم [وكل ذي عين نائم] وكان عيسى قد نام فرفعه الله نائما إلى السماء ، معناه : أني منومك ورافعك إلي كما قال الله تعالى : " وهو الذي يتوفاكم بالليل "(60 –الأنعام) أي ينيمكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البغوى حـ 2 صـ 45 ﴾

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ الله يا عيسى إِنّي مُتَوَفّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ ففي الآية تقديم وتأخير ، ومعناه إني رافعك من الدنيا إلى السماء ، ومتوفّيك بعد أن تنزل من السماء على عهد الدجال ويقال : إنه ينزل ويتزوج امرأة من العرب بعدما يقتل الدجال ، وتلد له ابنة ، فتموت ابنته ، ثم يموت هو بعدما يعيش سنين ، لأنه قد سأل ربه أن يجعله من هذه الأمة ، فاستجاب الله دعاءه . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 243 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

قال القرطبيُّ : " والصحيح أن الله تعالى – رفعه من غير وفاةٍ ولا نومٍ – كما قال الحسنُ وابنُ زيد – وهو اختيار الطبريِّ ، وهو الصحيحُ عن ابنِ عباس " .

---

(1) هذا الكلام يحتاج إلى سند .

وقال الضحاك : وكانت القصة أنهم لما أرادوا قَتْلَ عيسى عليه السلام اجتمع الحواريُّونَ في غرفة – وهم اثنا عشرَ رَجُلاً ، فدخل عليهمُ المسيحُ من مشكاةِ الغرفةِ ، فأخبر إبليس جَميع الْيَهُودِ ، فركب منهم أربعة آلاف رجلٍ ، فأخذوا بباب الغرفة ، فقال المسيح للحواريين : أَيُّكُمْ يخرج ، ويقتل ، ويكون معي في الجنة ؟ فقال واحدٌ منهم أنا يا نبيَّ الله ، فألقَى إليه مدرعة من صوف ، وعمامة من صوفٍ ، ونَاوَلَه عُكَّازه ، وألقي عليه شبه عيسى ، فخرج على اليهود فقتلوه ، وصلبوه ، وأما عيسى فكساه اللهُ الرِّيشَ ، وألبسه النورَ ، وقطع عنه شهوة المطعم والمشرب ، فَطَارَ مع الملائكة ، ثم إن اصحابه تفرقوا ثلاث فرق :

فقالت فرقة : كان اللهُ فينا ، ثم صعد إلى السماء ، وهم اليعقوبية .

وقالت فرقة : كان فينا ابن الله – ما شاء الله – ثم رفعه الله إليه – وهم النسطورية .

وقالت فرقة : كان فينا عبدُ الله ورسوله – ما شاء الله – ثم رفعه الله إليه – وهؤلاء هم المسلمون .

فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يَزَلِ الإسلامُ طامساً حتى بَعَثَ اللهُ محمداً

صلى الله عليه وسلم ﴿ فَآمَنَت طَّآئِفَةٌ مِّن بني إِسْرَائِيل وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴾ [الصف : 14] الآية على ما سيأتي من السورة إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 267. 268 ﴾

فصل

قال القرطبى :

(76/120)

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والله لينزلنّ ابن مريم حكما عادلاً فليكسِرنّ الصليب وليقتلنّ الخنزير وليضعن الجِزية ولتُترَكُنّ القِلاَصُ فلا يسعى عليها ولتَذهبَن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعونّ إلى المال فلا يقبله أحد " وعنه أيضاً عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " والذي نفسي بيده لَيُهلنّ ابن مريم بِفَجِّ الرّوْحاء حاجاً أو معتمراً أو ليثنّيَنّهما " ولا ينزل بشرع مبتدإ فينسخ به شريعتنا بل ينزل مجدّداً لما دَرَس منها متبعها .

كما في "صحيح مسلم" عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم " وفي رواية : "فأمّكم منكم" .

قال ابن أبي ذِئب: تدري ما أمّكم منكم ؟ .

قلت: تخبرني.

قال: فأمّكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنةِ نبيكم صلى الله عليه وسلم. انتهى انتهى.

اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 101 ﴾

كلام غريب للشيخ الطاهر بن عاشور:

قال رحمه الله:

قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ استئناف؛ وإذ ظرف غير متعلق بشيء، أو متعلق بمحذوف، أي اذكر إذ قال الله: كما تقدم في قوله: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: 30] وهذا حكاية لأمر رفع المسيح وإخفائه عن أنظار أعدائه. وقدم الله في خطابه إعلامه بذلك استئناسا له، إذ لم يتم ما يرغبه من هداية قومه. مع العلم بأنه يحب لقاء الله، وتبشيرا له بأن الله مظهر دينه، لأن غاية هم الرسول هو الهدى، وإبلاغ الشريعة، فلذلك قال له: ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ والنداء فيه للاستئناس، وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يقبض نبي حتى يخير".

وقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ ظاهر معناه: إني مميتك، هذا هو معنى هذا الفعل في مواقع استعماله لأن أصل فعل توفى الشيء أنه قبضه تاما واستوفاه. فيقال: توفاه الله أي قدر موته، ويقال: توفاه ملك الموت أي أنفذ إرادة الله بموته، ويطلق التوفي على النوم مجازا بعلاقة المشابهة في نحو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: 60] وقوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الزمر: 42]. أي وأما التي تمت الموت المعروف فيميتها في منامها موتا شبيها بالموت التام كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ثم قال حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ فالكل إماتة في التحقيق، وإنما فصل بينهما العرف والاستعمال، ولذلك فرع بالبيان بقوله: "فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى، فالكلام منتظم غاية الانتظام، وقد اشتبه نظمه على بعض الأفهام.

وأصرح من هذه الآية آية المائدة فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم لأنه دل على أنه قد توفى الوفاة المعروفة التي تحول بين المرء وبين علم ما يقع في الأرض، وحملها على النوم بالنسبة لعيسى لا معنى له؛ لأنه إذا أراد رفعه لم يلزم أن ينام؛ ولأن النوم حينئذ وسيلة للرفع فلا ينبغي الاهتمام بذكره وترك ذكر المقصد، فالقول بأنها بمعنى الرفع عن هذا العالم إيجاد معنى جديد للوفاة في اللغة بدون حجة، ولذلك قال ابن عباس، ووهب بن منبه:

إنها وفاة موت وهو ظاهر قول مالك في جامع العتبية قال مالك : مات عيسى وهو ابن إحدى وثلاثين سنة قال ابن رشد في البيان والتحصيل يحتمل أن قوله : مات وهو ابن ثلاث وثلاثين على الحقيقة لا على المجاز .

(78/120)

وقال الربيع : هي وفاة نوم رفعه الله في منامه ، وقال الحسن وجماعة : معناه إني قابضك من الأرض ، ومخلصك في السماء ، وقيل : متوفيك متقبل عملك . والذي دعاهم إلى تأويل معنى الوفاة ما ورد في الأحاديث الصحيحة : أن عيسى ينزل في آخر مدة الدنيا ، فأفهم أن له حياة خاصة أخص من حياة أرواح بقية الأنبياء ، التي هي حياة أخص من حياة بقية الأرواح؛ فإن حياة الأرواح متفاوتة كما دل عليه حديث "أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر" . ورووا أن تأويل المعنى في هذه الآية أولى من تأويل الحديث في معنى حياته وفي نزوله ، فمنهم من تأول معنى الوفاة فجعله حيا بحياته الأولى ، ومنهم من أبقى الوفاة على ظاهرها ، وجعل حياته بحياة ثانية ، فقال وهب بن منبه : توفاه الله ثلاث ساعات ورفعه فيها ، ثم أحياه عنده في السماء ، وقال بعضهم : توفي سبع ساعات . وسكت ابن عباس ومالك عن تعيين كيفية ذلك ، ولقد وفقا وسددا . ويجوز أن تكون حياته كحياة

سائر الأنبياء ، وأن يكون نزوله إن حمل على ظاهره بعثا له قبل إبان البعث على وجه الخصوصية ، وقد جاء التعبير عن نزوله بلفظ "يبعث الله عيسى فيقتل الدجال" رواه مسلم عن عبد الله ابن عمر ، ولا يموت بعد ذلك بل يخلص من هنالك إلى الآخرة .

(79/120)

وقد قيل في تأويله : إن عطف ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ على التقديم والتأخير ؛ إذ الواو لا تفيد ترتيب الزمان أي إني رافعك إلي ثم متوفيك بعد ذلك ، وليس في الكلام دلالة على أنه يموت في آخر الدهر سوى أن في حديث أبي هريرة في كتاب أبي داود "ويمكث" أي "عيسى أربعين سنة ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون" والوجه أن يحمل قوله تعالى : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ على حقيقته ، وهو الظاهر ، وأن تؤول الأخبار التي يفيد ظاهرها أنه حي على معنى حياة كرامة عند الله ، كحياة الشهداء وأقوى ، وأنه إذا حمل نزوله على ظاهره دون تأويل ، أن ذلك يقوم مقام البعث ، وأن قوله في حديث أبي هريرة ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون مدرج من أبي هريرة لأنه لم يروه غيره ممن رووا حديث نزول عيسى ، وهم جمع من الصحابة ، والروايات مختلفة وغير صريحة . ولم يتعرض القرآن في عد مزاياه إلى أنه ينزل في آخر الزمان . (1) انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 106. 109 ﴾

(1) كما ترى فإن بعض كلامه لا يخلو من بعد بعيد لا يخفى على المتأمل . والله أعلم .

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ الآية, هذه الآية الكريمة يتوهم من ظاهرها وفاة عيسى عليه السلام وعلى نبينا الصلاة والسلام, وقد جاء في بعض الآيات ما يدل على خلاف ذلك كقوله : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ , وقوله : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ الآية على ما فسرها به ابن عباس في إحدى الروايتين, وأبو مالك والحسن وقتادة وابن زيد وأبو هريرة, ودلّت على صدقه الأحاديث المتواترة, واختاره ابن جرير, وجزم ابن كثير أنه الحق من أن قوله : ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ أي موت عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

والجواب عن هذا من ثلاثة أوجه :

الأول : أنّ قوله تعالى : ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ لا يدل على تعيين الوقت, ولا يدل على كونه قد مضى, وهو مُتَوَفّيه قطعاً يوماً ما, ولكن لا دليل على أنّ ذلك اليوم قد مضى, وأما عطفه ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيّ ﴾ على قوله : ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ فلا دليل عليه لإطباق جمهور اللسان العربي على أن الواو لا تقتضي الترتيب ولا الجمع, وإنما تقتضي مطلق التشريك, وقد ادّعى السيرافي والسهيلي إجماع النحاة على ذلك, وعزاه الأكثر للمحققين, وهو الحق, خلافا لما قاله قطرب والفراء وثعلب وأبو عمر والزاهد وهشام والشافعي من أنها تفيد الترتيب لكثرة استعمالها فيه, وقد أنكر السيرافي ثبوت هذا القول عن الفراء وقال : لم أجده في كتابه . وقال ولي الدين : أنكر أصحابنا نسبة هذا القول إلى الشافعي, حكاه عنه صاحب (الضياء اللامع) وقوله صلى الله عليه وسلم : "أبدأ بما بدأ الله به" يعني الصفا, لا دليل عليه على اقتضائها الترتيب, وبيان ذلك هو ما قاله الفهري كما ذكر عنه صاحب الضياء اللامع وهو أنها كما أنها لا تقتضي الترتيب ولا المعية, فكذلك لا تقتضي المنع منهما فقد يكون العطف بها مع قصد الاهتمام بالأول كقوله : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ الآية بدليل الحديث المتقدم . وقد يكون المعطوف بها مرتبا كقول حسان : (هجوت محمد وأجبت عنه) على رواية الواو, وقد يراد بها المعية كقوله : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ

السَّفِينَةِ﴾ , وقوله : ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ , ولكن لا تحمل على الترتيب ولا على المعية إلا بدليل منفصل .

(82/120)

الوجه الثاني : أنّ معنى ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ أي منيمك ورافعك إليّ أي في تلك النومة, وقد جاء في القرآن إطلاق الوفاة على النوم في قوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ , وقوله : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ , وعزا ابن كثير هذا القول للأكثرين, واستدل بالآيتين المذكورتين وقوله صلى الله عليه وسلم : "الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا . . " الحديث .

الوجه الثالث : أنّ ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ اسم فاعل توفاه إذا قبضه وحازه إليه ومنه قولهم : "توفّى فلان دينه" إذا قبضه إليه . . فيكون معنى ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ على هذا قابضك منهم إلي حيا , وهذا القول هو اختيار بن جرير . وأما الجمع بأنه توفّاه ساعات أو أياما ثم أحياه فالظاهر أنه من الإسرائيليات, وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن تصديقها وتكذيبها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿دفع إيهام الاضطراب صـ 53.50﴾

(83/120)

كلام نفيس للعلامة الآلوسي في الآية الكريمة

قال عليه الرحمة:

﴿ إِذْ قَالَ اللهُ ﴾ ظرف لمكر أو لمحذوف نحو وقع ذلك ولو قدر أذكر كما في أمثاله لم يبعد وتعلقه بالماكرين بعيد إذ لا يظهر وجه حسن لتقييد قوة مكره تعالى بهذا الوقت ﴿ يا عيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: هذا من المقدم والمؤخر أي: رافعك إليّ ومتوفيك، وهذا أحد تأويلات اقتضاها مخالفة ظاهر الآية للمشهور المصرح به في الآية الأخرى، وفي قوله صلى الله عليه وسلم: "إن عيسى لم يمت وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة" وثانيها: أن المراد إني مستوفي أجلك ومميتك حتف أنفك لا أسلط عليك من يقتلك فالكلام كناية عن عصمته من الأعداء وما هم بصدده من الفتك به عليه السلام لأنه يلزم من استيفاء الله تعالى أجله وموته حتف أنفه ذلك. وثالثها: أن المراد قابضك ومستوفي شخصك من الأرض من توفى المال بمعنى استوفاه وقبضه.

ورابعها: أن المراد بالوفاة هنا النوم لأنهما أخوان ويطلق كل منهما على الآخر، وقد روي عن الربيع أن الله تعالى رفع عيسى عليه السلام إلى السماء وهو نائم رفقاً به، وحكي هذا القول والذي قبله أيضاً عن الحسن. وخامسها: أن المراد أجعلك كالمتوفى لأنه بالرفع يشبهه، وسادسها: أن المراد آخذك وافياً بروحك وبدنك فيكون ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾

كالمفسر لما قبله، وسابعها: أن المراد بالوفاة موت القوى الشهوانية العائقة عن إيصاله بالملكوت، وثامنها: أن المراد مستقبل عملك، ولا يخلو أكثر هذه الأوجه عن بعد لا سيما الأخير، وقيل: الآية محمولة على ظاهرها، فقد أخرج ابن جرير عن وهب أنه قال: توفى الله تعالى عيسى ابن مريم ثلاث ساعات من النهار حتى رفعه إليه. وأخرج الحاكم عنه أن الله تعالى توفى عيسى سبع ساعات ثم أحياه، وأن مريم حملت به ولها ثلاث عشرة سنة وأنه رفع وهو ابن ثلاث وثلاثين، وأن أمه بقيت بعد رفعه ست سنين، وورد ذلك في رواية ضعيفة عن ابن عباس والصحيح كما قاله

القرطبي أن الله تعالى رفعه من غير وفاة ولا نوم وهو اختيار الطبري والرواية الصحيحة عن ابن عباس، وحكاية أن الله تعالى توفاه سبع ساعات ذكر ابن إسحق أنها من زعم النصارى. ولهم في هذا المقام كلام تقشعر منه الجلود، ويزعمون أنه في الإنجيل وحاشا الله ما هو إلا افتراء وبهتان عظيم، ولا بأس بنقله ورده فإن في ذلك ردّ دعواهم فيه عليه السلام الربوبية على أتم وجه، فنقول: قالوا: بينما المسيح مع تلاميذه جالس ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر نيسان إذ جاء يهودا الأسخريوطي أحد الاثني عشر ومعه

جماعة معهم السيوف والعصي من عند رؤساء الكهنة ومشايخ الشعب وقد قال لهم يهودا : الرجل الذي أقبل هو هو فأمسكوه فلما رأى يهودا المسيح قال : السلام عليك يا معلم ثم أمسكوه فقال يسوع : مثل ما يفعل باللصوص خرجتم لي بالسيوف والعصي وأنا عندكم في الهيكل كل يوم أعلم فلم تتعرضوا لي لكن هذه ساعة سلطان الظلمة فذهبوا به إلى رئيس الكهنة حيث تجتمع الشيوخ وتبعه بطرس من بعيد ودخل معه الدار ليلاً وجلس ناحية منها متنكراً ليرى ما يؤول أمره إليه فالتمس المشايخ على يسوع شهادة يقتلونه بها فجاء جماعة من شهود الزور فشهد منهم اثنان أن يسوع قال : أنا أقدر أن أنقض هيكل الله تعالى وأبنيه في ثلاثة أيام فقال له الرئيس : ما تجيب عن نفسك بشيء ؟ فسكت يسوع فأقسم عليه رئيس الكهنة بالله الحي أنت المسيح ؟ فقال أنت قلت ذاك وأنا أقول لكم من الآن لا ترون ابن الإنسان حتى تروه جالساً عن يمين القوة وآتيا في سحاب السماء وأن ناساً من القيام ههنا لا يذوقون الموت حتى يرون ابن الإنسان آتياً في ملكوته فلما سمع رئيس الكهنة ذلك شق ثيابه وقال : ما حاجتنا إلى شهادة يهودا قد سمعتم ماذا ترون في أمره ؟ فقالوا : هذا مستوجب الموت فحينئذٍ بصقوا في وجه البعيد ولطموه وضربوه وهزأوا به وجعلوا يلطمونه ويقولون : بين لنا من لطمك ولما كان من الغد أسلموه لفيلاطس

القائد فتصايح الشعب بأسره يصلب يصلب فتحرج فيلاطس من قتله ، وقال : أي شر فعل هذا فقال الشيوخ : دمه عليهم وعلى أولادهم فحينئذٍ ساقه جند القائد إلى الأبروطوريون فاجتمع عليه الشعب ونزعوه ثيابه وألبسوه لباساً أحمر وضفوا إكليلاً من الشوك وتركوه على رأسه وجعلوا في يده قصبة ثم جثوا على ركبهم يهزأون به ويقولون : السلام عليك يا ملك اليهود وشرعوا يبصقون عليه ويضربونه في رأسه ثم ذهبوا به وهو يحمل صليبه إلى موضع يعرف بالجمجمة فصلبوه وسمروا يديه على الخشبة فسألهم شربة ماء فأعطوه خلاً مدافاً بمرّ فذاقه ولم يسغه وجلس الشرط فاقتسموا ثيابه بينهم بالقرعة وجعلوا عند رأسه لوحاً مكتوباً هذا يسوع ملك اليهود استهزاءاً به ، ثم جاءوا بلصين فجعلوهما عن يمينه وشماله تحقيراً له وكان اليهود يقولون له : يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام خلص نفسك وإن كنت ابن الله كما تقول انزل عن الصليب ، وقال اليهود : هذا يزعم أنه خلص غيره فكيف لم يقدر على خلاص نفسه إن كان متوكلاً على الله تعالى فهو ينجيه مما هو فيه ؟ ولما كان ست ساعات من يوم الجمعة صرخ يسوع وهو على الصليب بصوت عظيم آلوي آلوي إيما صاصا أي إلهي إلهي لم تركتني وخذلتني وأخذ اليهود سفنجة فيها خل ورفعها أحدهم على قصبة وسقاه ، وقال آخر : دعوه حتى نرى من يخلصه فصرخ يسوع وأمال رأسه وأسلم الروح وانشق حجاب الهيكل وانشقت الصخور وتفتحت

القبور وقام كثير من القديسين من قبورهم ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا للناس ولما كان المساء جاء رجل من ألزامه يسمى يوسف بلفائف نقية وتركه في قبر كان قد نحته في صخرة ثم جعل على باب القبر حجراً عظيماً وجاء مشايخ اليهود من الغد الذي بعد الجمعة إلى فيلاطس القائد فقالوا : يا سيدي ذكرنا أن ذاك الضال كان قد ذكر لتلاميذه أنا أقوم بعد ثلاثة أيام فلو أمرت من يحرس القبر حتى تمضي المدة كي لا تأتي تلاميذه ويسرقوه ثم يشيعون في الشعب أنه قام فتكون

الضلالة الثانية شراً من الأولى فقال لهم القائد : اذهبوا وسدوا عليه واحرسوه كما تريدون فمضوا وفعلوا ما أرادوا ، وفي عشية يوم السبت جاءت مريم المجدلانية ومريم رفيقتها لينظرن إلى القبر.

وفي "إنجيل مرقص" إنما جاءت مريم يوم الأحد بغلس وإذا ملك قد نزل من السماء برجة عظيمة فألقى الحجر عن القبر وجلس عنده وعليه ثياب بيض كالبرق فكاد الحرس أن يموتوا من هيبته ثم قال للنسوة : لا تخافا قد علمت أنكما جئتما تطلبان يسوع المصلوب ليس هو ههنا إنه قد قام تعالين انظرن إلى المكان الذي كان فيه الرب واذهبا وقولا لتلاميذه

إنه سبقكم إلى الخليل فمضتا وأخبرتا التلاميذ ودخل الحراس وأخبروا رؤساء الكهنة الخبر فقالوا : لا تنطقوا بهذا ورشوهم بفضة على كتمان القضية فقبلوا ذلك منهم وأشاعوا أن التلاميذ جاءوا وسرقوه ومهدت المشايخ عذرهم عند القائد ومضت الأحد عشر تلميذاً إلى الخليل وقد شك بعضهم ، وجاء لهم يسوع وكلمهم وقال لهم : اذهبوا فعمدوا كل الأمم وعلموهم ما أوصيكم به ، وهو ذا أنا معكم إلى انقضاء الدهر انتهى .

(87/120)

وههنا أمور :

الأول : أنه يقال للنصارى : ما ادعيتموه من قتل المسيح وصلبه أتنقلونه تواترا ًأو آحاداً فإن زعموا أنه آحاد لم تتم بذلك حجة ولم يثبت العلم إذ الآحاد لم يؤمن عليهم السهو والغفلة والتواطؤ على الكذب ، وإذا كان الآحاد يعرض لهم ذلك فكيف يحتج بقولهم في القطعيات ؟ ا وإن عزوا ذلك إلى التواتر قلنا لهم : أحد شروط التواتر استواء الطرفين فيه والواسطة بأن يكون الإخبار في كل طبقة ممن لا يمكن مواطأته على الكذب فإن زعمتم أن خبر قتل المسيح كذلك أكذبتم نصوص الإنجيل الذي بأيديكم إذ قال نقلته الذين دونوه لكم وعليه معولكم : إن المأخوذ للقتل كان في شرذمة قليلة من تلامذته فلما قبض عليه هربوا بأسرهم

ولم يتبعه سوى بطرس من بعيد فلما دخل الدار حيث اجتمعوا نظرت جارية منهم إليه فعرفته فقالت : هذا كان مع يسوع فحلف أنه لا يعرف يسوع ولا يقول بقوله وخادعهم حتى تركوه وذهب ، ولم يكد يذهب وأن شاباً آخر تبعه وعليه إزار فتعلقوا به فترك إزاره بأيديهم وذهب عرياناً فهؤلاء أصحابه وأتباعه لم يحضر أحد منهم بشهادة الإنجيل ، وأما أعداؤه اليهود الذين تزعمون أنهم حضروا الأمر فلا نسلم أنهم بلغوا عدد التواتر بل كانوا آحاداً وهم أعداء يمكن تواطؤهم على الكذب على عدوهم إيهاماً منهم أنهم ظفروا به وبلغوا منه أمانيهم فانخرم شرط التواتر .

ويؤيد هذا أن رؤساء الكهنة فيما زعمتم رشوا الحراس فلا يبعد أن تكون هذه العصابة من اليهود صلبوا شخصاً من أصحاب يسوع وأوهموا الناس أنه المسيح لتتم لهم أغراضهم على أن الأخباريين ذكروا أن بختنصر قتل علماء اليهود في مشارق الأرض ومغاربها لأنهم حرفوا التوراة وزادوا فيها ونقصوا حتى لم يبق منهم إلا شرذمة ، فالمخبرون لم يبلغوا حد التواتر في الطبقة الوسطى أيضاً .

الثاني : أن في هذا الفصل ما تحكم البداهة بكذبه ، وما تضحك الثكلى منه ، وما يبعده العقل مثل قوله للكهنة : إنكم من الآن ما ترون ابن الإنسان يريدون بالإنسان الرب سبحانه فإنه لم يرد إطلاق ذلك عليه جل شأنه في كتاب ، وقوله : إن ناساً من القيام ههنا الخ فإنه لم ير أحد من القيام هناك قبل موتة عيسى عليه السلام آتياً في ملكوته ، وقول الملك للنسوة : تعالين فانظرن إلى الموضع الذي كان فيه الرب فإنه يقال فيه : أرب يقبر وإله يلحد ، أف لتراب يغشى وجه هذا الإله ، وتباً لكفن ستر محاسنه ، وعجباً للسماء كيف لم تبد وهو سامكها وللأرض لم تمد وهو ماسكها وللبحار كيف لم تغض وهو مجريها وللجبال كيف لم تسر وهو مرسيها وللحيوان كيف لم يصعق وهو مشبعه وللكون كيف لم يمحق وهو مبدعه سبحان الله كيف استقام الوجود والرب في اللحود ، وكيف ثبت العالم على نظام والإله في الرغام إنا لله وإنا إليه راجعون على المصيبة بهذا الرب والرزية بهذا الإله لقد ثكلته أمه ، وعدمه لا أبا لك قومه ؟ ! وقوله : إلهي إلهي لم خذلتني فإنه ينافي الرضا بمرّ القضاء ، ويناقض التسليم لأحكام الحكيم ، وذلك لا يليق بالصالحين فضلاً عن المرسلين على أنه يبطل دعوى الربوبية التي تزعمونها والألوهية التي تعتقدونها ، وقولهم : إنه قام كثير من القديسين من قبورهم الخ فإنه كذب صريح لأنه لو كان صحيحاً لأطبق الناس على نقله ولزال الشك عن تلك الجموع في أمر يسوع ، وقولهم : مضت الأحد عشر تلميذاً إلى الخليل الخ فإنه قد انطفأ فيه سراج التلميذ الثاني عشر على ما يقتضيه قول المسيح : ويل لمن يسلم

ابن الإنسان مع أن يسوع بزعمكم قال لتلاميذه الاثني عشر وفيهم يهودا الإسخريوطي الذي أسلمه للقتل : إنكم ستجلسون يوم القيامة على اثني عشر كرسياً تدينون اثني عشر سبط بني إسرائيل ، وقولهم : إنهم سألهم شربة ماء فإنه في غاية البعد لأن الإنجيل مصرح بأن المسيح كان يطوي أربعين يوماً وأربعين

(89/120)

ليلة ومثله لا يجزع من فراق الماء ساعة لا سيما وقد كان يقول لتلاميذه : إن لي طعاماً لا تعرفونه إلى غير ذلك .

الثالث : إن ما ذكروا من قيام المسيح من قبره ليلة السبت مع صلبه يوم الجمعة مخالف لما رواه "متى في إنجيله" فإنه قال فيه : سأل اليهود المسيح أن يريهم آية فقال : الجيل الشرير الفاسق يطلب آية فلا يعطى إلا آية يونيان النبي يعني يونس عليه السلام لأنه أقام في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال وكذلك ابن الإنسان يقيم في بطن الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال

الرابع : أن في هذه القصة ما يدل دلالة واضحة على أن المصلوب هو الشبه وأن الله تعالى حمى المسيح عليه السلام عن الصلب كما سيتضح لك مع زيادة تحقيق عند قوله تعالى :

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء : 157] هذا وإنما أكد الحكم

السابق اعتناءاً به أو لأن تسلط الكفار عليه جعل المقام مقام اعتقاد أنهم يقتلونه ، وأراد سبحانه بقوله : ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ رافعك إلى سمائي ، وقيل : إلى كرامتي ، وعلى كل فالكلام على حذف مضاف إذ من المعلوم أن الباريء سبحانه ليس بمتحيز في جهة ، وفي رفعه إلى أي سماء خلاف ، والذي اختاره الكثير من العارفين أنه رفع إلى السماء الرابعة ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه رفعه إلى السماء الدنيا فهو فيها يسبح مع الملائكة ثم يهبطه الله تعالى عند ظهور الدجال على صخرة بيت المقدس .

(90/120)

وفي الخازن أنه سبحانه لما رفعه عليه السلام إليه كساه الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب فطار مع الملائكة فهو معهم حول العرش وصار إنسياً ملكياً أرضياً سماوياً ، وأورد بعض الناس ههنا إشكالات وهي أن الله تعالى كان قد أيده بجبريل عليه السلام كما قال سبحانه : ﴿ وأيدناه بِرُوحِ القدس ﴾ [البقرة : 87] ثم إن طرف جناح من أجنحة جبريل كان يكفي للعالم فكيف لم يكف في منع أولئك اليهود عنه ؟ ! وأيضاً أنه عليه السلام لما كان قادراً على إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص فكيف لم يقدر على إماتتهم ودفع شوكتهم ، أو على إسقامهم وإلقاء الزمانة والفلج عليهم حتى يصيروا عاجزين

من التعرض له ؟ وأيضاً لما خلصه من الأعداء بأن رفعه إلى السماء فما الفائدة في إلقاء شبهه على الغير ؟ وأجيب عن الكل بأن بناء التكليف على الاختيار ، ولو أقدر الله تعالى جبريل ، أو عيسى عليهما السلام على دفع الأعداء ، أو رفعه من غير إلقاء شبهه إلى السماء لبلغت معجزته إلى حد الإلجاء ، والقول بأن فتح باب إلقاء الشبه يوجب ارتفاع الأمان عن المحسوسات وأنه يفضي إلى سقوط الشرائع وإبطال التواتر ، وأيضاً إن في ذلك الإلقاء تمويهاً وتخليطاً وذلك لا يليق بحكمة الله تعالى ليس بشيء ، أما أولاً : فلأن إلقاء شبه شخص على آخر وإن كان ممكناً في نفسه إلا أن الأصل عدم الإلقاء واستقلال كل من الحيوان بصورته التي هي له ، نعم لو أخبر الصادق بإلقاء صورة شخص على آخر قلنا به واعتقدناه فحينئذٍ لا يرتفع الأمان عن المحسوسات بل هي باقية على الأصل فيها فيما لم يخبر الصادق بخلافه على أن إبطال التواتر بفتح هذا الباب ممنوع لأنه لم يشترط في الخبر أن يكون عن أمر ثابت في نفس الأمر بل يكفي فيه كونه عن أمر محسوس على ما قاله بعض المحققين ، وأما ثانياً : فلأن التمويه والتلبيس إن كان على الأعداء فلا نسلم أنه مما لا يليق بالحكمة وإن كانت النجاة مما تمكن بدون

الإلقاء وإن كان ذلك على أوليائه فلا نسلم أن في الإلقاء تمويهاً لأنهم كانوا عارفين يقيناً بأن المطلوب الشبه لا عيسى عليه السلام كما ستعرفه إن شاء الله تعالى ، والقول بأن المطلوب قد ثبت بالتواتر أنه بقي حياً زماناً طويلاً فلولا أنه كان عيسى لأظهر الجزع وعرف نفسه ولو فعل ذلك لاشتهر وتواتر ليس بشيء أيضاً ، أما أولاً : فلأن دعوى تواتر بقاء المصلوب حياً زماناً طويلاً مما لم يثبتها برهان والثابت أن المصلوب إنما صلب في الساعة الثانية من يوم الجمعة ومات في الساعة السادسة من ذلك اليوم وأنزل ودفن ، ومقدار أربع ساعات لا يعد زماناً طويلاً كما لا يخفى ، وأما ثانياً : فلأن عدم تعريف المصلوب نفسه إما لأنه أدركته دهشة منعته من البيان والإيضاح ، أو لأن الله تعالى أخذ على لسانه لم يستطع أن يخبر عن نفسه صوناً لنبيه عليه السلام أن يفصح الرجل عن أمره ، أو لأنه لصديقيته آثر المسيح بنفسه وفعل ذلك بعهد عهده إليه رغبة في الشهادة ، ولهذا ورى في الجواب الذي نقلته النصارى في القصة وقد وعد المسيح عليه السلام التلاميذ على ما نقلوا قبل بقولهم لو دفعنا إلى الموت معك لمتنا والشبه من جملتهم فوفى بما وعد من نفسه على عادة الصديقين من أصحاب الأنبياء عليهم السلام فهو من رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ومن ذهب إلى أن الشبه كان من الأعداء لا من الأولياء روى أنه جعل يقول لليهود عند الصلب : لست المسيح وإنما أنا صاحبكم لكنه لم يسمع ولم يلتفت إلى قوله وصلبوه ، والقول بأنه لو كان ذلك

لتواتر لا يخفى ما فيه لمن أحاط بما ذكرناه خبراً فتأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 183.179 ﴾

(92/120)

فصل

قال ابن عطية :

أجمعت الأمة على ما تضمنه الحديث المتواتر من أن عيسى عليه السلام في السماء حي ، وأنه ينزل في آخر الزمان فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويقتل الدجال ويفيض العدل ويظهر هذه الملة ملة محمد ويحج البيت ويعتمر ، ويبقى في الأرض أربعاً وعشرين سنة ، وقيل أربعين سنة ، ثم يميته الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 444 ﴾

فصل

قال الفخر :

المشبهة يتمسكون بهذه الآية في إثبات المكان لله تعالى وأنه في المساء ، وقد دللنا في المواضع الكثيرة من هذا الكتاب بالدلائل القاطعة على أنه يمتنع كونه تعالى في المكان فوجب حمل اللفظ على التأويل ، وهو من وجوه :

الوجه الأول : أن المراد إلى محل كرامتي ، وجعل ذلك رفعاً إليه للتفخيم والتعظيم ومثله قوله ﴿ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلى رَبِّى ﴾ [الصافات : 99] وإنما ذهب إبراهيم صلى الله عليه وسلم من العراق إلى الشام وقد يقول السلطان : ارفعوا هذا الأمر إلى القاضي ، وقد يسمى الحجاج زوار الله ، ويسمى المجاورون جيران الله ، والمراد من كل ذلك التفخيم والتعظيم فكذا ههنا .

الوجه الثاني : في التأويل أن يكون قوله ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ معناه إنه يرفع إلى مكان لا يملك الحكم عليه فيه غير الله لأن في الأرض قد يتولى الخلق أنواع الأحكام فأما السموات فلا حاكم هناك في الحقيقة وفي الظاهر إلا الله .

الوجه الثالث : إن بتقدير القول بأن الله في مكان لم يكن ارتفاع عيسى إلى ذلك سبباً لانتفاعه وفرحه بل إنما ينتفع بذلك لو وجد هناك مطلوبه من الثواب والروح والراحة والريحان ، فعلى كلا القولين لا بد من حمل اللفظ على أن المراد : ورافعك إلى محل ثوابك ومجازاتك ، وإذا كان لا بد من إضمار ما ذكرناه لم يبق في الآية دلالة على إثبات المكان لله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 61 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الذين كَفَرُواْ ﴾

قال الفخر :

المعنى مخرجك من بينهم ومفرق بينك وبينهم ، وكما عظم شأنه بلفظ الرفع إليه أخبر عن معنى التخليص بلفظ التطهير وكل ذلك يدل على المبالغة في إعلاء شأنه وتعظيم منصبه عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 61 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الذين كَفَرُواْ ﴾ يحتمل أن يكون تطهيره عليه السلام بتبعيده منهم بالرفع ، ويحتمل أن يكون بنجاته مما قصدوا فعله به من القتل ، وفي الأول : جعلهم كأنهم نجاسة ، وفي الثاني : جعل فعلهم كذلك والأول هو الظاهر وإلى الثاني ذهب الجبائي . والمراد من الموصول اليهود ، وأتى بالظاهر على ما قيل دون الضمير : إشارة إلى علة النجاسة وهي الكفر . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن أن المراد من الموصول اليهود والنصارى والمجوس وكفار قومه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 183 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

والتطهير في قوله : ﴿ ومطهرك ﴾ مجازي بمعنى العصمة والتنزيه ؛ لأن طهارة عيسى هي هي ، ولكن لو سلط عليه أعداؤه لكان ذلك إهانة له .

وحذف متعلق كفروا لظهوره أي الذين كفروا بك وهم اليهود ، لأن اليهود ما كفروا بالله بل كفروا برسالة عيسى ، لأن عيسى لم يبعث لغيرهم فتطهيره لا يظن أنه تطهير من المشركين بقرينة السياق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 109 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَجَاعِلُ الذين اتبعوك فَوْقَ الذين كَفَرُواْ إلى يَوْمِ القيامة ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ وَجَاعِلُ الذين اتبعوك فَوْقَ الذين كَفَرُواْ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ فيه وجهان

(94/120)

الأول : أن المعنى : الذين اتبعوا دين عيسى يكونون فوق الذين كفروا به ، وهم اليهود بالقهر والسلطان والاستعلاء إلى يوم القيامة ، فيكون ذلك إخباراً عن ذل اليهود وإنهم يكونون مقهورين إلى يوم القيامة ، فأما الذين اتبعوا المسيح عليه السلام فهم الذين كانوا يؤمنون بأنه عبد الله ورسوله وأما بعد الإسلام فهم المسلمون ، وأما النصارى فهم وإن أظهروا من أنفسهم موافقته فهم يخالفونه أشد المخالفة من حيث أن صريح العقل يشهد أنه عليه السلام ما كان يرضى بشيء مما يقوله هؤلاء الجهال ، ومع ذلك فإنا نرى أن دولة النصارى في الدنيا

أعظم وأقوى من أمر اليهود فلا نرى في طرف من أطراف الدنيا ملكاً يهودياً ولا بلدة مملوءة من اليهود بل يكونون أين كانوا بالذلة والمسكنة وأما النصارى فأمرهم بخلاف ذلك . (1)

الثاني : أن المراد من هذه الفوقية الفوقية بالحجة والدليل .

واعلم أن هذه الآية تدل على أن رفعه في قوله ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ هو الرفعة بالدرجة والمنقبة ، لا بالمكان والجهة ، كما أن الفوقية في هذه ليست بالمكان بل بالدرجة والرفعة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 61.62 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

﴿ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ متعلق بالجَعْل ، يعني أن هذا الجعل مستمر إلى ذلك اليوم . ويجوز أن يتعلق الاستقرار المقدَّر في فَوْقَ أي : جاعلهم قاهرين لهم ، إلى يَوْمِ القيامةِ ، يعني أنهم ظاهرون على اليهود ، وغيرهم من الكفار بالغلبة في الدنيا ، فأما يوم القيامة ، فَيَحْكُمُ اللهُ بينهم ، فيدخل الطائع الجَنَّةَ ، والعاصي النَّارَ وليس المعنى على انقطاع ارتفاع المؤمنين على الكافرين بعد الدنيا ، وانقضائها ؛ لن لهم استعلاءٌ آخر غير هذا الاستعلاء .

---

(1) الذين اتبعوه هم أمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأن النصارى بدلوا وحرفوا فلم يؤمن به حقا إلا الأمة المحمدية ، ولأنهم سيتبعونه عند نزوله قبيل الساعة ليقتل الدجال

ويحكم بشريعة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية. والله أعلم

(95/120)

قال أبو حيّان: " والظاهر أن " إلى " تتعلق بمحذوف وهو العامل في " فَوْقَ " وهو المفعول الثاني لـ " جَاعِل " إذْ معنى " جاعل " هنا مُصيِّر، فالمعنى كائنين فوقهم إلى يوم القيامة. وهذا على أن الفوقية مجاز، أما إن كانت الفوقية حقيقة - وهي الفوقية في الجنة - فلا تتعلق " إلى " بذلك المحذوف، بل بما تقدم من " مُتَوَفِّيك " أو من " رَافِعُكَ " أو من " مُطَهِّرُكَ " إذْ يصح تعلُّقه بكل واحد منها، أما تعلقه بـ " رَافِعُكَ " أو بـ " مُطَهِّرُكَ " فظاهر، وأما بـ " مُتَوَفِّيكَ " فعلى بعض الأقوال ".

يعني ببعض الأقوال أن التوفي يُرادُ به: قابضك من الأرض من غير موت، وهو قول جماعة - كالحسن والكلبي [وابن جريج] وابن زيد وغيرهم. أو يراد به ما ذكره الزمخشريُّ: وهو مُسْتَوْفٍ أجلك، ومعناه: إني عاصمك من أن يقتلَكَ الكفارُ، ومؤخّرُك إلى أجل كتبتُهُ لك، ومميتك حَتْفَ أنفكِ لا قَتْلاً بأيدي الكفار، وإن على قول مَنْ يقول: إنه توَفّ حقيقةً فلا يُتَصَوَّر تعلُّقه به؛ لأن القائل بذلك لم يَقُل باستمرار الوفاة إلى يوم القيامة، بل قائل يقول: إنه

تُوُفِّي ثَلاثَ سَاعاتٍ ، بقدر ما رفع إلى سمائه حتّى لا يلحقه خوفٌ ولا ذُعْرٌ في اليقظة .

وعلى هذا الذي ذكره أبو حيان يجوز أن تكون المسألة من الإعمال ، ويكون قد تنازع في هذا الجار ثلاثةُ عواملَ ، وإذا ضَمَمْنَا إليها كَوْنَ الفوقية مجازاً تنازع فيها أربعة عوامل ، والظاهر أنه متعلق بـ " جَاعِل " . وقد تقدم أن أبا عمرو يسكن ميم " أحكم " ونحوه قبل الباء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 268 . 269 ﴾

(96/120)

وقال ابن كثير :

وقوله تعالى : ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : برفعي إياك إلى السماء ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ وهكذا وقع ؛ فإن المسيح ، عليه السلام ، لما رفعه الله إلى السماء تَفَرّقت أصحابه شيَعًا بعده ؛ فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته ، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله ، وآخرون قالوا : هو الله . وآخرون قالوا : هو ثالث ثلاثة . وقد حكى الله مقالاتهم في القرآن ، ورَدَ على كل فريق ، فاستمروا كذلك قريبا من ثلاثمائة سنة ، ثم نَبَع لهم ملك من ملوك اليونان ، يقال له : قسطنطين ، فدخل في دين النصرانية ، قيل : حيلة ليفسده ، فإنه كان فيلسوفا ، وقيل :

جهلا منه ، إلا أنه بَدل لهم دين المسيح وحرفه ، وزاد فيه ونقص منه ، ووضعت له القوانين والأمانة الكبيرة – التي هي الخيانة الحقيرة– وأحل في زمانه لحم الخنزير ، وصلّوا له إلى المشرق وصوروا له الكنائس ، وزادوا في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه ، فيما يزعمون . وصار دين المسيح دين قسطنطين إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارت ما يزيد على اثنى عشر ألف معبد ، وبنى المدينة المنسوبة إليه ، واتبعه الطائفة المَلْكِيَّة منهم . وهم في هذا كله قاهرون لليهود ، أيّدهم الله عليهم لأنهم أقرب إلى الحق منهم ، وإن كان الجميع كفار ، عليهم لعائن الله .

فلما بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم ، فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق –كانوا هم أتباع كُل نبي على وجه الأرض– إذ قد صدقوا الرسول النبي الأمي ، خاتم الرسل ، وسيد ولد آدم ، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق ، فكانوا أولى بكل نبي من أمته ، الذين يزعمون أنهم على ملّته وطريقته ، مع ما قد حرّفوا وبدلوا .

ثم لو لم يكن شيء من ذلك لكان قد نسخ الله بشريعته شريعة جميع الرسل بما بعث به محمدًا صلى الله عليه وسلم من الدين الحق ، الذي لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة ، ولا يزال قائما منصورًا ظاهرا على كل دين . فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها ، واحتازوا جميع الممالك ، ودانت لهم جميعُ الدول ، وكسروا كسرى ، وقَصروا قيصر ، وسلبوهما كُنوزَهما ، وأنفقت في سبيل الله ، كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم ، عز وجل ، في قوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ الآية[النور : 55] ولهذا لما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقا سلبوا النصارى بلاد الشام وأَجْلَوهم إلى الروم ، فلجؤوا إلى مدينتهم القسطنطينية ، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة . وقد أخبر الصادق المصدوق أمّته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية ، ويستفيؤون ما فيها من الأموال ، ويقتلون الروم مَقْتلة عظيمة جدا ، لم ير الناس مثلها ولا يرون بعدها نظيرها ، وقد جمعت في هذا جزءا مفردا . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 47 . 48 ﴾

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

قال الفخر :

المعنى أنه تعالى بشّر عيسى عليه السلام بأنه يعطيه في الدنيا تلك الخواص الشريفة ، والدرجات الرفيعة العالية ، وأما في القيامة فإنه يحكم بين المؤمنين به ، وبين الجاحدين برسالته ، وكيفية ذلك الحكم ما ذكره في الآية التي بعد هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 62 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي مصيركم بعد يوم القيامة ورجوعكم ، والضمير لعيسى عليه السلام والطائفتين ، وفيه تغليب على الأظهر ، و﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي ؛ وتقديم الظرف للقصر المفيد لتأكيد الوعد والوعيد ، ويحتمل أن يكون الضمير لمن اتبع وكفر فقط ، وفيه التفات للدلالة على شدة إرادة إيصال الثواب والعقاب لدلالة الخطاب على الاعتناء . ﴿ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ أي فأقضي بينكم إثر رجوعكم إليّ ومصيركم بين يدي ﴿ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمور الدين ، أو من أمر عيسى عليه السلام ، والظرف متعلق بما بعده وقدم رعاية للفواصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 184 ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ عطف على جملة ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ إذ مضمون كلتا الجملتين من شأن جزاء الله متبعي عيسى والكافرين به ، وثم للتراخي الرتبي ؛ لأن الجزاء الحاصل عند مرجع الناس إلى الله يوم القيامة ، مع ما يقارنه من الحكم بين الفريقين فيما اختلفوا فيه ، أعظم درجة وأهم من جعل متبعي عيسى فوق الذين كفروا في الدنيا .

والظاهر أن هذه الجملة مما خاطب الله به عيسى ، وأن ضمير مرجعكم ، وما معه من ضمائر المخاطبين ، عائد إلى عيسى والذين اتبعوه والذين كفروا به .

ويجوز أن يكون خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فتكون ثم للانتقال من غرض إلى غرض ، زيادة على التراخي الرتبي والتراخي الزمني .

(99/120)

والمرجع مصدر ميمي معناه الرجوع . وحقيقة الرجوع غير مستقيمة هنا فتعين أنه رجوع مجازي ، فيجوز أن يكون المراد به البعث للحساب بعد الموت ، وإطلاقه على هذا المعنى كثير في القرآن بلفظه وبمرادفه نحو المصير ، ويجوز أن يكون مرادا به انتهاء إمهال الله إياهم في أجل أراده فينفذ فيهم مراده في الدنيا .

ويجوز الجمع بين المعنيين باستعمال اللفظ في مجازيه ، وهو المناسب لجمع العذابين في قوله : ﴿ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ وعلى الوجهين يجري تفسير حكم الله بينهم فيما هم فيه يختلفون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 109 . 110 ﴾

فوائد ولطائف

قال ابن عادل :

﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من الدِّين ، وأمر عيسى عليه السلام ؛ التفات من غيبة إلى خطاب ؛ وذلك أنه – تعالى – قدَّم ذِكْر مَنْ كَذَّب بعيسى وافترى عليه – وهم اليهود – وقدَّم – أيضاً – ذِكْرَ مَنْ آمن به – وهم الحواريون رضي الله عنهم – وقفَّى بعد ذلك بالإخبار بأنه يجعل مُتَّبِعي عيسى فوق مخالفيه ، فلو جاء النظم على هذا السياق – من غير التفات ، لكان : ثم إليّ مرجعهم ، فأحكم بَيْنَهُم فيما كانوا ، ولكنه التفت إلى الخطاب ؛ لأنه أبلغ في البشارة ، وأزجر في النذارة .

وفي ترتيب هذه الأخبار الأربعة – أعني : إني مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ وَمُطَهِّرُكَ وَجَاعِلُ – هذا الترتيب معنًى حَسَنٌ جِدًّا ؛ وذلك أنه – تعالى – بشّره – أولاً – بأنه متوفيه ، ومتولّي أمره ، فليس للكفار المتوعّدين له بالقتل عليه سلطانٌ ولا سبيلٌ ، ثم بَشَّرَه – ثانياً – بأنه رافعه إليه – أي : إلى سمائه محل أنبيائه وملائكته ، ومحل عبادته ؛ ليسكن فيها ، ويعبدَ ربَّه مع عابديه – ثم – ثالثاً – بتطهيره من أوضار الكفرة وأذاهم وما قذفوه به ، ثم رابعاً – برفعة تابعيه على من خالَفهم ؛ ليتمَّ بذلك سروره ، ويكمل فرحه . وقدم البشارة بما يتعلق بنفسه على البشارة بما يتعلق بغيره ؛ لأن – الإنسان بنفسه أهم ، وبشأنه أعْنَى ، كقوله : ﴿ قوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارا ﴾ [التحريم : 6] وفي الحديث : " ابْدَأ بِنَفْسِكَ ثُمَّ بِمَن تَعُولُ " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 272 ﴾

فصل

قال الفخر :

بقي من مباحث هذه الآية موضع مشكل وهو أن نص القرآن دل على أنه تعالى حين رفعه ألقى شبهه على غيره على ما قال : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ولكن شُبّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء : 157] والأخبار أيضاً واردة بذلك إلا أن الروايات اختلفت ، فتارة يروى أن الله تعالى ألقى شبهه على بعض الأعداء الذين دلوا اليهود على مكانه حتى قتلوه وصلبوه ، وتارة

يروى أنه عليه السلام رغب بعض خواص أصحابه في أن يلقي شبهه حتى يقتل مكانه ، وبالجملة فكيفما كان ففي إلقاء شبهه على الغير إشكالات :

الإشكال الأول : إنا لو جوزنا إلقاء شبه إنسان على إنسان آخر لزم السفسطة ، فإني إذا رأيت ولدي ثم رأيته ثانياً فحينئذ أجوز أن يكون هذا الذي رأيته ثانياً ليس بولدي بل هو إنسان ألقي شبهه عليه وحينئذ يرتفع الأمان على المحسوسات ، وأيضاً فالصحابة الذين رأوا محمداً صلى الله عليه وسلم يأمرهم وينهاهم وجب أن لا يعرفوا أنه محمد لاحتمال أنه ألقي شبهه على غيره وذلك يفضي إلى سقوط الشرائع ، وأيضاً فمدار الأمر في الأخبار المتواترة على أن يكون المخبر الأول إنما أخبر عن المحسوس ، فإذا جاز وقوع الغلط في المبصرات كان سقوط خبر المتواتر أولى وبالجملة ففتح هذا الباب أوله سفسطة وآخره إبطال النبوات بالكلية .

والإشكال الثاني : وهو أن الله تعالى كان قد أمر جبريل عليه السلام بأن يكون معه في أكثر الأحوال ، هكذا قاله المفسرون في تفسير قوله ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ القدس ﴾ [المائدة : 110] ثم إن طرف جناح واحد من أجنحة جبريل عليه السلام كان يكفي العالم من

البشر فكيف لم يكف في منع أولئك اليهود عنه ؟ وأيضاً أنه عليه السلام لما كان قادراً على إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، فكيف لم يقدر على إماتة أولئك اليهود الذين قصدوه بالسوء وعلى إسقامهم وإلقاء الزمانة والفلج عليهم حتى يصيروا عاجزين عن التعرض له ؟ .

والإشكال الثالث : إنه تعالى كان قادراً على تخليصه من أولئك الأعداء بأن يرفعه إلى السماء فما الفائدة في إلقاء شبهه على غيره ، وهل فيه إلا إلقاء مسكين في القتل من غير فائدة إليه ؟ .

والإشكال الرابع : أنه إذا ألقى شبهه على غيره ثم إنه رفع بعد ذلك إلى السماء فالقوم اعتقدوا فيه أنه هو عيسى مع أنه ما كان عيسى ، فهذا كان إلقاء لهم في الجهل والتلبيس ، وهذا لا يليق بحكمة الله تعالى .

والإشكال الخامس : أن النصارى على كثرتهم في مشارق الأرض ومغاربها وشدة محبتهم للمسيح عليه السلام ، وغلوهم في أمره أخبروا أنهم شاهدوه مقتولاً مصلوباً ، فلو أنكرنا ذلك كان طعناً فيما ثبت بالتواتر ، والطعن في التواتر يوجب الطعن في نبوّة محمد صلى الله

عليه وسلم ، ونبوّة عيسى ، بل في وجودهما ، ووجود سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكل ذلك باطل .

والإشكال السادس : أنه ثبت بالتواتر أن المصلوب بقي حياً زماناً طويلاً ، فلو لم يكن ذلك عيسى بل كان غيره لأظهر الجزع ، ولقال : إني لست بعيسى بل إنما أنا غيره ، ولبالغ في تعريف هذا المعنى ، ولو ذكر ذلك لاشتهر عند الخلق هذا المعنى ، فلما لم يوجد شيء من هذا علمنا أن ليس الأمر على ما ذكرتم ، فهذا جملة ما في الموضع من السؤالات :

والجواب عن الأول : أن كل من أثبت القادر المختار ، سلم أنه تعالى قادر على أن يخلق إنساناً آخر على صورة زيد مثلاً ، ثم إن هذا التصوير لا يوجب الشك المذكور ، فكذا القول فيما ذكرتم :

والجواب عن الثاني : أن جبريل عليه السلام لو دفع الأعداء عنه أو أقدر الله تعالى عيسى عليه السلام على دفع الأعداء عن نفسه لبلغت معجزته إلى حد الإلجاء ، وذلك غير جائز .

وهذا هو الجواب عن الإشكال الثالث : فإنه تعالى لو رفعه إلى السماء وما ألقي شبهه على الغير لبلغت تلك المعجزة إلى حد الإلجاء .

والجواب عن الرابع : أن تلامذة عيسى كانوا حاضرين ، وكانوا عالمين بكيفية الواقعة ، وهم كانوا يزيلون ذلك التلبيس .

والجواب عن الخامس : أن الحاضرين في ذلك الوقت كانوا قليلين ودخول الشبهة على الجمع القليل جائز والتواتر إذا انتهى في آخر الأمر إلى الجمع القليل لم يكن مفيداً للعلم .

(103/120)

والجواب عن السادس : إن بتقدير أن يكون الذي ألقي شبه عيسى عليه السلام عليه كان مسلماً وقبل ذلك عن عيسى جائز أن يسكت عن تعريف حقيقة الحال في تلك الواقعة ، وبالجملة فالأسئلة التي ذكروها أمور تتطرق الاحتمالات إليها من بعض الوجوه ، ولما ثبت بالمعجز القاطع صدق محمد صلى الله عليه وسلم في كل ما أخبر عنه امتنع صيرورة هذه الأسئلة المحتملة معارضة للنص القاطع ، والله ولي الهداية . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 62.63﴾

(104/120)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

لقد جاء الحق سبحانه بعد عرضه لمسألة المكر بهذا القول الحكيم، وذلك دليل على أن عيسى عليه السلام أحس من بني إسرائيل الكفر، والتبييت، ومؤامرة للقتل فطمأن الله عيسى إلى نهاية المعركة. ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾. إنها أربعة مواقف، أرادها الله لعيسى ابن مريم عليه السلام.

ونريد أن نقف الآن عند كلمة قول الحق: ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾. نحن غالبا ما نأخذ معنى بعض الألفاظ من الغالب الشائع، ثم تموت المعاني الأخرى في اللفظ ويروج المعنى الشائع فنفهم المقصد من اللفظ. إن كلمة "التوفي" نفهمها على أنها الموت، ولكن علينا هنا أن نرجع إلى أصل استعمال اللفظة، فإنه قد يغلب معنى على لفظ، وهذا اللفظ موضوع لمعان متعددة، فيأخذه واحد ليجعله خاصا بواحد من هذه. إن كلمة "التوفي" قد يأخذها واحدا لمعنى "الوفاة" وهو الموت. ولكن، ألم يكن ربك الذي قال: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ ؟ وهو القائل في القرآن الكريم:

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

[الأنعام: 60].

إذن ﴿ يَتَوَفَّاكُم ﴾ هنا بأي معنى ؟ إنها بمعنى ينيمكم . فالنوم معنى من معاني التوفي . ألم يقل الحق في كتابه أيضا الذي قال فيه : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ .

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

[الزمر : 42] .

لقد سمى الحق النوم موتا أيضا . هذا من ناحية منطق القرآن ، إن منطق القرآن الكريم يبين لنا أن كلمة " التوفي " ليس معناها هو الموت فقط ولكن لها معان أخرى ، إلا أنه غلب اللفظ عند المستعملين للغة على معنى فاستقل اللفظ عندهم بهذا المعنى ، فإذا ما أطلق اللفظ عند هؤلاء لا ينصرف إلا لهذا المعنى ، ولهؤلاء نقول : لا ، لا بد أن ندقق جيدا في اللفظ ولماذا جاء ؟

وقد يقول قائل : ولماذا يختار الله اللفظ هكذا ؟ والإجابة هي : لأن الأشياء التي قد يقف فيها العقل لا تؤثر في الأحكام المطلوبة ويأتي فيها الله بأسلوب يحتمل هذا ، ويحتمل ذلك ، حتى لا يقف أحد في أمر لا يستأهل وقفة . فالذي يعتقد أن عيسى عليه السلام قد رفعه

الله إلى السماء ما الذي زاد عليه نت أحكام دينه ؟ والذي لا يعتقد أن عيسى عليه السلام قد رُفع، ما الذي نقص عليه من أحكام دينه، إن هذه القضية لا تؤثر في الأحكام المطلوبة للدين، لكن العقل قد يقف فيها ؟ فيقول قائل: كيف يصعد إلى السماء ؟ ويقول آخر: لقد توفاه الله.

وليعتقدها أي إنسان كما يريد لأنها لا تؤثر في الأحكام المطلوبة للدين.

إذن، فالأشياء التي لا تؤثر في الحكم المطلوب من الخلق يأتي بها الله بكلام يحتمل الفهم على أكثر من وجه حتى لا يترك العقل في حيرة أمام مسألة لا تضر ولا تنفع. وعرفنا الآن أن " توفى " تأتي من الوفاة بمعنى النوم من قوله سبحانه:

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

[الأنعام: 60].

ومن قوله سبحانه وتعالى:

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ

وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

[الزمر : 42] .

إن الحق سبحانه قد سمى النوم موتا لأن النوم غيب عن حس الحياة . واللغة العربية توضح ذلك ، فأنت تقول - على سبيل المثال - لمن أقرضته مبلغا من المال ، ويطلب منك أن تتنازل عن بعضه لا ، لا بد أن أستوفي مالي ، وعندما يعطيك كل مالك ، تقول له : استوفيت مالي تماما ، فتوفيته ، أي أنك أخذته بتمامه .

إذن ، فمعنى ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ قد يكون هو أخذك الشيء تاما . أقول ذلك حتى نعرف الفرق بين الموت والقتل ، كلاهما يلتقي في أنه سلب للحياة ، وكلمة " سلب الحياة " قد تكون مرة بنقض البنية ، كضرب واحد لآخر على جمجمته فيقتله ، هذا لون من سلب الحياة ، ولكن بنقض البنية . أما الموت فلا يكون بنقض البنية ، إنما يأخذ الله الروح ، وتبقى البنية كما هي ، ولذلك فرق الله في قرآنه الحكيم بين " موت " و " قتل " وإن اتحدا معا في إزهاق الحياة .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾

[آل عمران : 144] .

إن الموت والقتل يؤدي كل منهما إلى انتهاء الحياة ، لكن القتل ينهي الحياة بنقض البنية ، ولذلك يقدر بعض البشر على البشر فيقتلون بعضهم بعضا . لكن لا أحد يستطيع أن يقول : " أنا أريد أن يموت فلان " ، فالموت هو ما يجريه الله على عباده من سلب للحياة بنزع الروح. إن البشر يقدرون على البينة بالقتل ، والبينة ليست هي التي تنزع الروح ، ولكن الروح تحل في المادة فتحيا ، وعندما ينزعها الله من المادة تموت وترم أي تصير رمة .

إذن ، فالقتل إنما هو إخلال بالمواصفات الخاصة التي أرادها الله لوجود الروح في المادة ، كسلامة المخ أو القلب . فإذا اختل شيء من هذه المواصفات الخاصة الأساسية فالروح تقول : " أنا لا أسكن هنا " .

إن الروح إذا ما انتزعت ، فلأنها لا تريد أن تنتزع . لأي سبب ولكن البنية لا تصلح لسكنها . ونضرب المثل ولله المثل الأعلى .

إن الكهرباء التي في المنزل يتم تركيبها ، وتعرف وجود الكهرباء بالمصباح الذي يصدر منه الضوء . إن المصباح لم يأت بالنور ، لأن النور لا يظهر إلا في بنية بهذه المواصفات بدليل أن المصباح عندما ينكسر تظل الكهرباء موجودة ، ولكن الضوء يذهب . وكذلك الروح بالنسبة للجسد . إن الروح لا توجد إلا في جسد له مواصفات خاصة . وأهم هذه المواصفات الخاصة أن تكون خلايا البنية مناسبة ، فإن توقف القلب ، فمن الممكن

تدليكه قبل مرور سبع ثوان على التوقف ، لكن إن فسدت خلايا المخ ، فكل شيء ينتهي لأن المواصفات اختلت .

إذن ، فالروح لا تحل إلا في بنية لها مواصفات خاصة ، والقتل وسيلة أساسية لهدم البنية ؛ وإذهاب الحياة ، لكن الموت هو إزهاق الحياة بغير هدم البنية ، ولا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى . ولكن خلق الله يقدرون على البينة ، لأنها مادة ولذلك يستطيعون تخريبها .

(108/120)

إذن ، "فمتوفيك" تعني مرة تمام الشيء ، "كاستيفاء المال" وتعني مرة "النوم" . وحين يقول الحق : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ ماذا يعني ذلك ؟ إنه سبحانه يريد أن يقول : أريدك تماما ، أي أن خلقي لا يقدرون على هدم بنيتك ، إني طالبك إلى تاما ، لأنك في الأرض عرضة لأغيار البشر من البشر ، لكني سآتي بك في مكان تكون خالصا لي وحدى ، لقد أخذتك من البشر تامًّا ، ومعنى " تاما " ، أي أن الروح في جسدك بكل مواصفاته ، فالذين يقدرون عليه من هدم المادة لم يتمكنوا منه .

إذن ، فقول الحق : ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ هذا القول الحكيم يأتي مستقيما مع قول الحق : ﴿

مُتَوَفِّيكَ ﴾ . وقد يقول قائل : لماذا نأخذ الوفاة بهذا المعنى ؟ نقول : إن الحق بجلال قدرته كان قادرا على أن يقول : إني رافعك إليّ ثم أتوفاك بعد ذلك . ونقول أيضا : من الذي قال : إن " الواو " تقتضي الترتيب في الحدث ؟ ألم يقل الحق سبحانه :

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾

[القمر : 16] .

هل جاء العذاب قبل النذر أو بعدها ؟ إن العذاب إنما يكون من بعد النذر . إن " الواو " تفيد الجمع للحدثين فقط . ألم يقل الله في كتابه أيضا :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾

[الأحزاب : 7] .

إن " الواو " لا تقتضي ترتيب الأحداث ، فعلى فرض أنك قد أخذت ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ أي " مميتك " ، فمن الذي قال : إن " الواو " تقتضي الترتيب في الحدث ؟ بمعنى أن الحق يتوفى عيسى ثم يرفعه . فإذا قال قائل : ولماذا جاءت ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ أولا ؟ نرد على ذلك : لأن البعض قد يظن أن الرفع تبرئة من الموت .

ولكن عيسى سيموت قطعا ، فالموت ضربة لازب . ومسألة يمر بها كل البشر . هذا الكلام من ناحية النص القرآني . فإذا ما ذهبنا إلى الحديث وجدنا أن الله فوّض رسوله صلى الله عليه وسلم ليشرح ويبين ، ألم يقل الحق :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : 44] .

فالحديث كما رواه البخاري ومسلم : (كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم) ؟ .

إي أن النبي صلى الله عليه وسلم بين لنا أن ابن مريم سينزل مرة أخرى . ولنقف الآن وقفة عقلية لنواجه العقلانيين الذين يحاولون إشاعة التعب في الدنيا فنقول : يا عقلانيون أقبلتم في بداية عيسى أن يوجد من غير أب على غير طريقة الخلق في الإيجاد والميلاد ؟ سيقولون نعم . هنا نقول : إذا كنتم قد قبلتم بداية مولده بشيء عجيب خارق للنواميس فكيف تقفون في نهاية حياته إن كانت خارقة للنواميس ؟ . إن الذي جعلكم تقبلون العجيبة الأولى يمهد لكم أن تقبلوا العجيبة الثانية . إن الحق سبحانه يقول :

﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران : 55] .

إنه سبحانه يبلغ عيسى إنني سأأخذك تاما غير مقدور عليك من البشر ومطهرك من خبث هؤلاء الكافرين ونجاستهم ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة . وكلمة " اتبع " تدل على أن هناك " مُتَّبعاً " يتلو مُتّبعا . أي أن المتّبِع هو الذي يأتي بعد ، فمن الذي جاء من بعد عيسى بمنهج من السماء ؟ إنه محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن على أي منهج يكون الذين اتبعوك ؟ أعلى المنهج الذي جاؤا به أم المنهج الذي بلغته أنت يا عيسى ؟ إن الذي يتبعك على غير المنهج الذي قلته لن يكون تبعا لك ، ولكن الذي يأتي ليصحح الوضع على المنهج الصحيح فهو الذي اتبعك . وقد جاء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحح الوضع ويبلغ المنهج كما أراده الله . ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ فإن أخذنا المعنى بهذا ؛ فإن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هي التي اتبعت منهج الله الذي جاء به الرسل جميعا ، ونزل به عيسى أيضا ، وأن أمة محمد قد صححت كثيرا من القضايا التي انحرف بها القوم . نقول ليس المراد هنا من " فوق " الغلبة والنصر ، ولكننا نريد من " فوق " الحجة والبرهان . وذلك إنما يحدث في حالة وجود قوم منصفين عقلاء يزنون الأمور بحججها وأدلتها وهم لن يجدوا إلا قضية الإسلام وعقيدة

الإسلام.

إذن، فالفوقية هي فوقية ظهور دليل وقوة برهان. ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾

[التوبة: 33].

وفي موقع آخر من القرآن الكريم، يؤكد الحق ظهور الإسلام على كافة الأديان وهو الشاهد على ذلك:

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾

[الفتح: 28].

ومعنى ذلك أن الله قد أراد للإسلام أن يظهر على كل الأديان. وقد يقول قائل: إن في العالم أديانا كثيرة، ولم يظهر عليها الإسلام، والموجودون من المسلمين في العالم الآن مليار وأضعاف ذلك من البشر على ديانات أخرى. نقول لمثل هذا القائل: إن الله أراد للإسلام أن يظهره إظهار حجة، لا من قِبَلكم أنتم فقط ولكن من قِبلهم هم كذلك، والناس دائما

حين يجتمعون ليشرعوا القوانين وليحددوا مصالح بعضهم بعضا ، يلجأون أخيرا إلى الإسلام . فلننظر إلى من يشرع من جنس تشريع الأرض ولنسأل أرأيت تشريعا ارضيا ظل على حاله ؟ لا ، إن التشريع الأرضي يتم تعديله دائما .

لماذا لأن الذي وضع التشريع الأول لم يكن له من العلم ما يدله على مقتضيات الأمور التي تَجدّ ، فلما جَدّت أمور في الحياة لم تكن في ذهن من شرع أولا ، احتاج الناس إلى تعديل التشريع . ولنمسك بأي قانون بشرى معدل في أي قضية من قضايا الكون ، ولننظر إلى أي اتجاه يسير ؟ إنه دائما يتجه إلى الإسلام ، وإن لم يلتق مع الإسلام فإنه يقرب من الإسلام . وعندما قامت في أوروبا ضجة على الطلاق في الإسلام ، ما الذي حدث ؟ جاء التشريع بالطلاق في إيطاليا تحت سمع وبصر الفاتيكان . هل شرعوا الطلاق لأن الإسلام أباح الطلاق ؟ لا . إنما شرعوه لأن أمور الحياة أخضعتهم إلى ضرورة تشريع الطلاق ، فكأنهم أقاموا الدليل بخضوعهم لأمور الحياة على أن ما جاء به الإسلام قبل التجربة كان حقا . بدليل أن أوربا لجأت إلى تشريع الطلاق لا كمسلمين ولكن لأن مصالح حياتهم لا تتأتى إلا به .

وهل هناك ظهور وغلبة أكثر من الدليل الذي يأتي من الخصم ؟ تلك هي الغلبة . لقد وصلوا إلى تشريع الطلاق ، رغم كراهيتهم للإسلام كدليل على صدق ما جاء به الإسلام . وفي الربا ، الذي يريد البعض هنا أن يحلله ، تجد أوربا تحاول التخلص منه ، لأنهم توصلوا بالتجربة إلى أن المال لا يؤدي وظيفته في الحياة إلا إذا انخفضت الفائدة إلى الصفر أي ؟أنهم عرفوا أن إلغاء الربا ضروري حتى يؤدي المال وظيفته الحقيقية في الحياة ، والذي ألجأهم إلى الوصول إلى هذه الحقيقة هو أن فساد الحياة سببه الربا ، فأرادوا أن يمنعوا الربا . لقد وصلوا إلى ما بدأ به الإسلام من أربعة عشر قرنا . أتريد غلبة ، وتريد فوقا ، وتريد ظهورا ، أكثر من هذا بالنسبة لدين الله ؟

إذن ، ففهم الخصوم ما يصلح أمر الحياة اضطرهم إلى الأخذ بمبادئ الإسلام وتابع بالتأمل قول الحق : ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ، أي أن الحق جاعل الذين ساروا على المنهج الأصيل القادم من الله فوق الذين كفروا .

فالذين يقولون فيك يا عيسى ابن مريم ما لا يقال من ألوهية ، هل اتبعوك ؟ لا . . لم يتبعوك . إن الذي يتبع عيسى هو الذي يأتي على المنهج القادم من الله . إن عيسى ابن مريم رسول إلى بني إسرائيل . وديانات السماء لا تأتي لعصبيات الجنس أو القومية أو الأوطان أو غير ذلك ، ولكن المنهج هو الذي يربط الناس بعضهم ببعض ، ولذلك جاء لنا الحق بقصة سيدنا نوح لنتعرف على هذه المعاني . لقد وعد الله سيدنا نوحا أن ينجي له أهله .

وعندما دعا نوح عليه السلام ابنه ليركب معه : ولكن ابن نوح رفض ، فقال نوح عليه السلام لله :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾

[هود : 45] .

فهل الأهلية بالنسبة للأنبياء هي التي قالها نوح هل أهلية الدم ؟ لا ، لأن الحق قال :

(113/120)

﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾

[هود : 46] .

لماذا ؟ لأن أهل النبوة هم المؤمنون بها فالذين اتبعوا المنهج الذي جاء به المسيح من عند الله ليس من يطلق على نفسه النسب للمسيح ، ومن يطلق على نفسه أنه يهودي إن هذه أسماء فقط . إن المتبع الحق هو من يتبع المنهج المنزل من عند الله . إن الأنبياء ميراثهم المنهج والعلم . ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم على سلمان وهو فارسي لا يجتمع مع رسول الله في أرومة عربية :

" سلمان منا آل البيت " .

وهكذا انتسب سلمان إلى آل البيت بحكم إيمانه ، وبنص حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن : " وجاعل الذي اتبعوك فوق الذي كفروا إلى يوم القيامة " ، أي أن الحق سبحانه قد جعل الفوقية للذين يتبعون المنهج الحق القادم من عند الله . والذي يصوب منهج عيسى هو محمد رسول الله هل تكون الفوقية هي فوقية مساحة جغرافية ؟ لأن رقعة من الأرض التي تتبع الديانات الأخرى غير الإسلام أكبر مساحة من رقعة أرض المؤمنين بالإسلام ؟ لا . . فالفوقية تكون فوقية دليل .

وقد يقول قائل : إن الدليل لا يلزم . نرد قائلين : كيف لا يلزم الدليل ؟ ونحن نرى الذين لا يؤمنون به يدللون عليه . كيف يدللون عليه ؟ إنهم يسيرون فيما يقننون من قوانين البشر إلى ما سبق إليه تقنين السماء . وما دام هنا في هذه الآية كلمة " فوق " وكلمة " كفروا " وهناك أتباع, إذن ، فهناك قضية وخصومة ، وهناك حق ، وهناك باطل ، وهناك هدى ، وهناك ضلال . فلا بد من الفصل في هذه القضية .

ويأتي الفصل ساعة ألا يوجد للإنسان تصرف إرادى لا على ذات نفسه ولا على سواه .

إن الظالمين يستطيعون التصرف في الأرض ، لكن عندما يكون المرجع إلى الله فالله يقول : أنا ملكتكم وأنتم عصاة لي في كثير من الأسباب ، لكن هناك وقت تزول فيه ملكيتكم للأسباب . إذن . . فالظالم قد يتحكم على الأرض وكذلك الباطل لأن الله أوجد لنا جميعا إرادات ومرادات اختيارية . لكن في يوم القيامة فلا إرادات إلا إرادة الله :

﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

[غافر : 16] .

إذن فالحكم قادم بدون منازع . . والذي يدل على ذلك قوله الحق :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾

[البقرة : 166-167] .

إن الذي اتبع واحدا على ضلال يأتي يوم القيامة ليجد أن صاحب الضلال يتبرأ منه ، فيقول المتبعون سائلين الله : يارب ارجعنا إلى الدنيا لننتقم ممن خدعونا ، هذا من ناحية علاقة البشر بالبشر . أما من ناحية الجسد الواحد نفسه ، فسوف نجد شهادة الجلود والألسنة والأيدي ، بعد أن تسقط عنها إرادة الإنسان ويسقط تسخير الحق لهذه الجوارح

والحواس لخدمة الإنسان ، تقول الجوارح والحواس : لقد كانت لصاحبي إرادة ترغمني على أن أفعل ما لا أحب ، لكن ها هو ذا يوم القيامة ، فلا قهر ولا إرغام ولا تسخير لأن الملك كله لله . . لذلك تشهد الألسنة والجلود ولهذا يقول الحق : ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ .

إن الحق يحكم فيما كانوا فيه يختلفون لتكون ثمرة الحكم هي ماذا ؟ هل هناك تكليف بعد ذلك ؟ لا . . لكن ثمرة الحكم هي الجزاء . ففي الآخرة لا عمل هنالك ، والحكم فيها للجزاء ، وكما قلنا : مادام هناك متبعون وكافرون ، وجماعة فوق جماعة ، وإلى الله مرجعهم ، فلابد لنا أن نرى ما هو الحكم الذي سوف يكون ؟ ها هو ذا القول الحكيم : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 1500.1510 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (56) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما ذكر ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران : 55] بيّن بعد ذلك مفصلاً ما في ذلك الاختلاف ، أما الاختلاف فهو أن كفر قوم وآمن آخرون ، وأما الحكم فيمن كفر فهو أن يعذبه عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة ، وأما الحكم فيمن آمن وعمل الصالحات ، فهو أن يوفيهم أجورهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 64.63 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ فَأَمَّا الذين كَفَرُواْ ﴾ في محل هذا الموصول قولان :

أظهرهما – وهو الأظهر – : أنه مرفوع على الابتداء ، والخبر الفاء وما بعدها .

الثاني : أنه منصوب بفعل مقدّر ، على أن المسألة من باب الاشتغال ، إذ الفعل بعده قد عمل في ضميره ، وهذا وجه ضعيف ؛ لأن " أمّا " لا يليها إلا المبتدأ وإذا لم يَلِها إلا المبتدأ امتنع حمل الاسم بعدها على إضمار فعل ، ومن جوّز ذلك قال : بأنه يُضمَر الفعل متأخِراً

عن الاسم ، ولا يضمر قبله . قال : لئلا يَلِيَ " أمَّا " فعل – وهي لا يليها الأفعال ألبتة – فَتُقَدِّر – في قولك : أما زيداً فضربتُهُ – أما زيداً ضربتُ فضَرَبْتُه ، وكذا هنا يُقَدَّر : فأما الذين كفروا أعَذِّبُ فأعَذِّبُهُم ؛ قدر العامل بعد الصلة ، ولا تقدره قبل الموصول ؛ لما ذكرناه . وهذا ينبغي أن لا يجوز ؛ لعدم الحاجة إليه مع ارتكابِ وجهٍ ضعيفٍ جدّاً في أفصح الكلامِ .

وقد قرئ شاذّاً ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ [فصلت : 17] بنصب " ثمود " واستضعفها الناس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 272.273 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما عذاب الكافر في الدنيا فهو من وجهين

أحدهما : القتل والسبي وما شاكله ، حتى لو ترك الكفر لم يحسن إيقاعه به ، فذلك داخل في عذاب الدنيا

والثاني : ما يلحق الكافر من الأمراض والمصائب ، وقد اختلفوا في أن ذلك هل هو عقاب

أم لا ؟ قال بعضهم : إنه عقاب في حق الكافر ، وإذا وقع مثله للمؤمن فإنه لا يكون عقاباً بل يكون ابتلاءً وامتحاناً ، وقال الحسن : إن مثل هذا إذا وقع للكافر لا يكون عقاباً بل يكون أيضاً ابتلاءً وامتحاناً ، ويكون جارياً مجرى الحدود التي تقام على النائب ، فإنها لا تكون عقاباً بل امتحاناً ، والدليل عليه أنه تعالى يعد الكل بالصبر عليها والرضا بها والتسليم لها وما هذا حاله لا يكون عقاباً .

فإن قيل : فقد سلمتم في الوجه الأول إنه عذاب للكافر على كفره ، وهذا على خلاف قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ الناس بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [النحل : 61] وكلمة ﴿ لَوْ ﴾ تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره ، فوجب أن لا توجد المؤاخذة في الدنيا ، وأيضاً قال تعالى : ﴿ اليوم تجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [غافر : 17] وذلك يقتضي حصول المجازاة في ذلك اليوم ، لا في الدنيا ، قلنا : الآية الدالة على حصول العقاب في الدنيا خاصة ، والآيات التي ذكرتموها عامة ، والخاص مقدم على العام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 64 ﴾

فصل

قال الفخر :

لقائل أن يقول وصف العذاب بالشدة ، يقتضي أن يكون عقاب الكافر في الدنيا أشد ، ولسنا نجد الأمر كذلك ، فإن الأمر تارة يكون على الكفار وأخرى على المسلمين ، ولا نجد

بين الناس تفاوتاً .

قلنا : بل التفاوت موجود في الدنيا ، لأن الآية في بيان أمر اليهود الذين كذبوا بعيسى عليه السلام ، ونري الذلة والمسكنة لازمة لهم ، فزال الإشكال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 63. 64﴾

فصل

قال الفخر :

وصف تعالى هذا العذاب بأنه ليس لهم من ينصرهم ويدفع ذلك العذاب عنهم .

(118/120)

فإن قيل : أليس قد يمتنع على الأئمة والمؤمنين قتل الكفار بسبب العهد وعقد الذمة .

قلنا : المانع هو العهد ، ولذلك إذا زال العهد حل قتله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 64﴾

من فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَأَمَّا الذين كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ تفسير للحكم المدلول عليه بقوله سبحانه

: ﴿ فاحكم ﴾ [آل عمران : 55] وتفصيل له على سبيل التقسيم بعد الجمع ، وإلى ذلك ذهب كثير من المحققين ، واعترض بأن الحكم مرتب على الرجوع إلى الله تعالى وذلك في القيامة لا محالة ، فكيف يصح تفسيره بالعذاب المقيد بقوله تعالى : ﴿ فِى الدنيا والآخرة ﴾ ؟! وأجيب بوجوه

الأول : أن المقصود التأبيد وعدم الانقطاع من غير نظر إلى الدنيا والآخرة ،

الثاني : أن المراد بالدنيا والآخرة مفهومهما اللغوي أي الأول والآخر ، ويكون ذلك عبارة عن الدوام وهذا أبعد من الأول جداً .

الثالث : ما ذكر صاحب "الكشف" من أن المرجع أعم من الدنيوي والأخروي ، وقوله سبحانه : ﴿ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ [آل عمران : 55] غاية الفوقية لا غاية الجعل ، والرجوع متراخ عن الجعل وهو غير محدود على وزان قولك : سأعيرك سكنى هذا البيت إلى شهر ثم أخلع عليك بثوب من شأنه كذا وكذا فإنه يلزم تأخر الخلع عن الإعارة لا الخلع ، وعلى هذا توفية الأجر لغنم الدارين ، ولا يخفى أن في لفظ ﴿ كُنتُمْ ﴾ في قوله جل وعلا : ﴿ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران : 55] بعض نبوة عن هذا المعنى ، وأن المعنى أحكم بينكم في الآخرة فيما كنتم فيه تختلفون في الدنيا .

الرابع : أن العذاب في الدنيا هو الفوقية عليهم ، والمعنى أضم إلى عذاب الفوقية السابقة عذاب الآخرة قال في "الكشف" : وفيه تقابل حسن وإن هذه الفوقية مقدمة عذاب الآخرة ومؤكدته ، وإدماج أنها فوقية عدل لا تسلط وجود ، ولا يخفى أنه بعيد من اللفظ جداً إذ معنى أعذبه في الدنيا والآخرة ليس إلا أني أفعل عذاب الدارين إلا أن يقال : إن اتخاذ الكل لا يلزم أن يكون باتخاذ كل جزء فيجوز أن يفعل في الآخرة تعذيب الدارين بأن يفعل به عذاب الآخرة وقد فعل في الدنيا عذاب الدنيا فيكون تمام العذابين في الآخرة .

الخامس : أن في الدنيا والآخرة متعلق بشديد تشديداً لأمر الشدة وليس بشيء كما لا يخفى ، والأولى من هذا كله ما ذكره بعض المحققين أن يحمل معنى ﴿ ثُمَّ ﴾ [آل عمران : 55] على التراخي الرتبي والترقي من كلام إلى آخر لا على التراخي في الزمان فحينئذٍ لا يلزم أن يكون رجوعهم إلى الله تعالى متأخراً عن الجعل في الزمان سواء كان قوله جل شأنه : ﴿ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ [آل عمران : 55] غاية للجعل أو الفوقية فلا محذور ، ثم إن المراد بالعذاب في الدنيا إذلالهم بالقتل والأسر والسبي وأخذ الجزية ونحو ذلك ، ومن لم يفعل معه شيء من وجوه الإذلال فهو على وجل إذ يعلم أن الإسلام يطلبه وكفى بذلك عذاباً ، وبالعذاب في الآخرة عقاب الأبد في النار ﴿ وَمَا لَهُم مّن ناصرين ﴾ أي أعوان يدفعون

عنهم عذاب الله ، وصيغة الجمع كما قال مولانا مفتي الروم لمقابلة ضمير الجمع أي ليس لكل واحد منهم ناصر واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 184 ﴾

(120/120)

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ فأما الذين كفروا ﴾ الآية ، إخبار بما يجعل عليه حالهم من أول أمرهم وليس بإخبار عما يفعل بعد يوم القيامة ، لأنه قد ذكر الدنيا وهي قبل ، وإنما المعنى ، فأما الكافرون فالصنع بهم أنهم يعذبون ﴿ عذاباً شديداً في الدنيا ﴾ بالأسر والقتل والجزية والذل ، ولم ينله منهم فهو تحت خوفه إذ يعلم أن شرع الإسلام طالب له بذلك ، وقد أبرز الوجود هذا ، وفي ﴿ الآخرة ﴾ معناه ، بعذاب النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 445 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

اعلم أن قوله فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة قضية جزئية لا تقتضي استمرار العذابين :

فأما عذاب الدنيا فهو يجري على نظام أحوال الدنيا : من شدة وضعف وعدم استمرار ، فمعنى انتفاء الناصرين لهم منه انتفاء الناصرين في المدة التي قدرها الله لتعذيبهم في الدنيا ، وهذا متفاوت ، وقد وجد اليهود ناصرين في بعض الأزمان مثل قصة أستير في الماضي وقضية فلسطين في هذا العصر .

وأما عذاب الآخرة : فهو مطلق هنا ، ومقيد في آيات كثيرة بالتأبيد ، كما قال : ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة : 167] .

وجملة ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ تذييل للتفصيل كله فهي تذييل ثاني لجملة ﴿ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ بصريح معناها ، أي أعذبهم لأنهم ظالمون والله لا يحب الظالمين وتذييل لجملة ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إلى آخرها ، بكناية معناها ؛ لأن انتفاء محبة الله الظالمين يستلزم أنه يحب الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلذلك يعطيهم ثوابهم وافيا .

ومعنى كونهم ظالمين أنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم وظلم الله النصارى بأن نقصوه بإثبات ولد له وظلموا عيسى بأن نسبوه ابنا لله تعالى ، وظلمه اليهود بتكذيبهم إياه وأذاهم .

وعذاب الدنيا هو زوال الملك وضرب الذلة والمسكنة والجزية ، والتشريد في الأقطار ، وكونهم يعيشون تبعا للناس ، وعذاب الآخرة هو جهنم .

ومعنى : ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ أنهم لا يجدون ناصرا يدفع عنهم ذلك وإن حاوله لم يظفر به. انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 111.110 ﴾

(121/120)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾

لماذا لم يأت الله بالحكم على المؤمنين أولا ؟ لأن المؤمنين يؤمنون بذلك تماما ، إنهم بإيمانهم يعرفون ذلك ويعونه . ولننتبه هنا إلى أن الحكم لا يشمل العذاب في الآخرة فقط ولكنه يشتمل على العذاب في الدنيا أيضا ، فعذاب الدنيا سيكون قبل الحكم ، وكأن الحق يقول لنا : لا تعتقدون أن تعذيبي إياهم في الدنيا يعفيهم من تعذيبي إياهم في الآخرة, لأن التعذيب في الدنيا فقط قد يصيب من آمن بي .

أما من كفر بي ، فإني أعذبه في الدنيا وأعذبه في الآخرة إنني لا أؤجل العذاب للكافرين إلى الآخرة فقط ولكن سأضم عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة .

إن الحصيلة بعد كل شيء هي أن يعذب الكافر في الدنيا وفي الآخرة . ويقول الحق عن هذا

العذاب : إنه عذاب شديد ؛ لأن الحدث حين يقع لا بد أن تلحظ فيه القوة التي تناسب من أحدث . ولنضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى :

إن الطفل قد يكسر شيئًا في حدود قوته كطفل ، والشاب قد يكسر شيئًا مناسبا لقوته .

إذن فالحديث يجب أن نأخذه قياسا بالنسبة لفاعله ؛ فإذا كان الفاعل هو الله ، فهل لأحد طاقة على عذاب الله ؟ لا أحد يتصور ذلك ، وليس لأحد من هؤلاء من ناصر ، لأن الذي يهزمه الله ويعذبه لا ناصر له ، وبعد ذلك يأتي الحق بالمقابل : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1511.1510 ﴾

(122/120)

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (57) ﴾

فائدة

قال الفخر :

ذكر الذين آمنوا ، ثم وصفهم بأنهم عملوا الصالحات ، وذلك يدل على أن العمل الصالح

خارج عن مسمى الإيمان ، وقد تقدم ذكر هذه الدلالة مراراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 65 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

قرأ حفص عن عاصم والحسن " فَيُوَفِّيهِمْ " - بياء الغيبة - والباقون بالنون . فقراءة حفص على الالتفاتِ من التكلُّم إلى الغيبة ؛ تفنُّناً في الفصاحةِ ، وقراءة الباقين جاريةٌ على ما تقدم من إتِّسَاق النظم ، ولكن جاء هناك بالمتكلم وحده ، وهنا بالمتكلم وحده المعظم نفسه ؛ اعتناءً بالمؤمنين ، ورفْعاً من شأنهم ؛ لمَّا كانوا مُعَظَّمِينَ عندَه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 273 ﴾

وقال السمرقندى :

قرأ عاصم في رواية حفص ، فيوفيهم بالياء ، يعني يوفيهم أجورهم ، وأما الباقون بالنون ، يعني أن الله قال ﴿ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ وهذا لفظ الملوك ، إنهم يتكلمون بلفظ الجماعة ، ويقولون : نحن نفعل كذا وكذا ، ونكتب إلى فلان ، ونأمر بكذا ، فالله تعالى خاطب العرب بما يفهمون فيما بينهم كما قال في سائر المواضع ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ [القمر : 19] ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس بِمَآ

أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴾ [النساء : 105] وكذلك ها هنا قال : "فنوفيهم أجورهم" أي نعطيهم ثواب عملهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 243 ﴾

(123/120)

فصل

قال الفخر :

احتج من قال بأن العمل علة للجزاء بقوله ﴿ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ فشبههم في عبادتهم لأجل طلب الثواب بالمستأجر ، والكلام فيه أيضاً قد تقدم والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 65 ﴾

فائدة

قال ابن عطية :

وتوفية الأجور هي قسم المنازل في الجنة فذلك هو بحسب الأعمال ، وأما نفس دخول الجنة فبرحمة الله وبفضله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 445 ﴾

وقال ابن عاشور :

وأسند ﴿ فيوفيهم ﴾ إلى نون العظمة تنبيها على عظمة مفعول هذا الفاعل ؛ إذ العظيم

يعطي عظيما .

والتقدير فيوفيهم أجورهم في الدنيا والآخرة بدليل مقابله في ضدهم من قوله : ﴿ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ وتوفية الأجور في الدنيا تظهر في أمور كثيرة : منها رضا الله عنهم ، وبركاته معهم ، والحياة الطيبة ، وحسن الذكر .

وجملة ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ تذييل ، وفيها اكتفاء : أي ويحب الذين آمنوا وعملوا الصالحات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 111 ﴾

فصل

قال الفخر :

المعتزلة احتجوا بقوله ﴿ والله لا يُحِبُّ الظالمين ﴾ على أنه تعالى لا يريد الكفر والمعاصي ، قالوا : لأن مريد الشيء لا بد وأن يكون محباً له ، إذا كان ذلك الشيء من الأفعال وإنما تخالف المحبة الإرادة إذا علقتا بالأشخاص ، فقد يقال : أحب زيداً ، ولا يقال : أريده ، وأما إذا علقتا بالأفعال : فمعناهما واحد إذا استعملتا على حقيقة اللغة ، فصار قوله ﴿ والله لا يُحِبُّ الظالمين ﴾ بمنزلة قوله (لا يريد ظلم الظالمين) هكذا قرره القاضي ، وعند أصحابنا أن المحبة عبارة عن إرادة إيصال الخير إليه فهو تعالى وإن أراد كفر الكافر إلا أنه لا يريد إيصال الثواب إليه ، وهذه المسألة قد ذكرناها مراراً وأطواراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 65 ﴾

بحث نفيس فى الآية الكريمة للإمام السبكى

قال عليه الرحمة :

باب جامع مسألة في أصول الدين فيها بحث كنا في مجلس نقرأ فيه قرآنا وإلى جانبي قاضي القضاة جلال الدين وإلى جانبه القاضي برهان الدين الحنفي وهناك من فيه فضيلة أيضا فقرأ القارئ ﴿ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين ﴾

فيه إشارة إلى أن ترك توفية الأجور ظلم فتكون التوفية واجبة لأن قوله لا يحب الظالمين إشارة إلى أن ترك توفية الأجور ظلم فتكون التوفية واجبة قال له بعض الحاضرين قد يريد بالظالمين الكافرين فيكون عائدا إلى القسم الأول فقال جلال الدين ما يستقيم هذا ولا يقع مثله في كلام أحد البلغاء فضلا عن كلام الله تعالى لأن كل جملة قسم مستقل قد أخذ حكمه فأسكت الحاضرون فقلت له لم سمى الجزاء أجرا على سبيل المجاز رشح ذلك بأن جعل تركه ظلما وإن كان في الحقيقة ليس بأجر ولا تركه ظلما لأن العبد لا يستحق بطاعته شيئا على الله تعالى فإن النزاع بيننا وبين الخصم إنما هو في الوجوب العقلي ومعناه أن إثابة

الطائع صفة كمال وضدها نقص بالعقل سواء وعد بذلك أم لا

فالخصم يدعي ذلك ونحن ننكره ونقول العقل لا يوجب ذلك ولا نحكم بأن ضده صفة نقص

بل مهما فعل تعالى من الإثابة وعدمها لا ينافي شيء من ذلك كماله عز وجل لكنه سبحانه

وتعالى تفضل ووعد بإثابة الطائع وزاد في الفضل بأن سماه أجرا تأكيدا لثبوته وتنزيلا له

منزلة الأجر المستحق بالعمل كما قال كتب ربكم على نفسه الرحمة وكما قال صلى الله

عليه وسلم حاكيا عنه تعالى إني حرمت الظلم على نفسي وهذا كما يقول الإنسان حقك

واجب علي وأنا ظالم إن لم أفعل والمقصود في ذلك كله تأكيد الوفاء لا حقيقة الوجوب

ولكنه استعار اسم الوجوب والظلم على الترك ويجوز بإطلاقهما عليه ليدل على قوة

التأكيد قال هذا بالوعد يصير واجبا لأن تركه إخلاف للوعد وهو نقص

قلت له النزاع في الوجوب العقلي فبعد الوعد نحن نقول إنه واقع ولا بد وأما قبل الوعد فلا

وعد فلا خلف فلا نقص فأفحم وسكت وكأنني ألقمته حجرا وقلت له إن هذا الاحتجاج

الذي قاله في هذه الآية قاله الزمخشري في قوله تعالى إن الله لا يظلم مثقال ذرة وجوابه ما

ذكرناه مع جواب آخر وهو أن الظلم النقص بالمعنى اللغوي لحديث نسمة المؤمن طائر يعلق

وفي حديث الشهداء في حواصل طير خضر يمكن أن يقال إن قوله في حواصل طير خضر مثل قولنا جاء جبريل في صورة دحية فيكون المراد أن الأرواح تتشكل طيورا وعبر عنها بالحواصل لأنها محل الغذاء إشارة إلى كمال تنعمها الأكل والشرب قولهم حمل كلام البالغ العاقل على الصحة أولى من حمله على الفساد كلام مجمل يحتاج بيانه إلى نظر

ومن جملة ما عرض من المباحث في ذلك أنه إذا تعارض اللفظ بين أن يكون إنشاء فاسدا أو إقرارا هل يجعل إقرارا لظاهر هذه القاعدة أولا لأن الإقرار يعتبر فيه اليقين هذا فيه نظر .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتاوى السبكى جـ 2 صـ 522. 523 ﴾

(126/120)

من فوائد الإمام البقاعى فى الآية

قال رحمه الله :

لم يقل : وأما الذين اتبعوك - لئلا يلتبس الحال وإن كان من اتبع النبي الأمي فقد اتبعه في بشارته به والأمر باتباعه بل قال : ﴿ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ لأن هذه ترجمة الذين اتبعوه حق الاتباع .

ولما كان تمام الاعتناء بالأولياء متضمناً لغاية القهر للأعداء أبدى في مظهر العظمة قوله

تعظيماً لهم وتحقيراً لأعدائهم : ﴿ فيوفيهم أجورهم ﴾ أي نحبهم من غير أن نبخسهم منها شيئاً أو نظلم أحداً من الفريقين في شيء فإن الله سبحانه وتعالى متعال عن ذلك ﴿ والله ﴾ الذي له الكمال كله ﴿ لا يحب الظالمين ﴾ من كانوا ، أي لا يفعل معهم فعل المحب ، فهو يحبط أعمالهم لبنائها على غير أساس الإيمان ، فالآية من الاحتباك ، ونظمها على الأصل : فنوفيهم لأنا نحبهم والله يحب المؤمنين ، والذين ظلموا نحبط أعمالهم لأنا لا نحبهم والله لا يحب الظالمين ؛ فتوفية الأجر أولاً ينفيها ثانياً ، وإثبات الكراهة ثانياً يثبت ضدها أولاً ، وحقيقة الحال أنه أثبت للمؤمنين لازم المحبة المراد منها في حق الله سبحانه وتعالى لأنه أسرّ ، ولازم المراد من عدمها في الظالمين لأنه أنكأ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 99 ﴾

(127/120)

من فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَأَمَّا الذين ءامَنُوا وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ بيان لحال القسم الثاني ، وبدأ بقسم ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ [آل عمران : 56] لأن ذكر ما قبله من حكم الله تعالى بينهم أول ما يتبادر منه

في بادىء النظر التهديد فناسب البداءة بهم ولأنهم أقرب في الذكر لقوله تعالى : ﴿ فَوْقَ الذين كَفَرُواْ ﴾ [آل عمران : 55] ولكون الكلام مع اليهود الذين كفروا بعيسى عليه السلام وهموا بقتله ﴿ فَيُوَفّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أي فيوفر عليهم ويتمم جزاء أعمالهم القلبية والقالبية ويعطيهم ثواب ذلك وافياً من غير نقص . وزعم بعضهم أن توفية الأجور هي قسم المنازل في الجنة والظاهر أنها أعم من ذلك وعلق التوفية على الإيمان والعمل الصالح ولم يعلق العذاب بسوى الكفر تنبيها على درجة الكمال في الإيمان ودعاءاً إليها وإيذاناً بعظم قبح الكفر ، وقرأ حفص . ورويس عن يعقوب فيوفيهم بياء الغيبة ، وزاد رويس ضم الهاء ، وقرأ الباقون بالنون جرياً على سنن العظمة والكبرياء ، ولعل وجه الالتفات إلى الغيبة على القراءة الأولى الإيذان بأن توفية الأجر مما لا يقتضي لها نصب نفس لأنها من آثار الرحمة الواسعة ولا كذلك العذاب ، والموصول في الآيتين مبتدأ خبره ما بعد الفاء ، وجوز أن يكون منصوباً بفعل محذوف يفسره ما ذكر ، وموضع المحذوف بعد الصلة كما قال أبو البقاء ولا يجوز أن يقدر قبل الموصول لأن أما لا يليها الفعل . ﴿ والله لاَ يُحِبُّ الظالمين ﴾ أي لا يريد تعظيمهم ولا يرحمهم ولا يثني عليهم ، أو المراد يبغضهم على ما هو الشائع في مثل هذه العبارة ، والجملة تذييل لما قبل مقرر لمضمونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 3 صـ 185﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ﴾ بدأ أولاً بقسم الكفار ، لأن ما قبله من ذكر حكمه تعالى بينهم هو على سبيل التهديد والوعيد للكفار ، والإخبار بجزائهم ، فناسبت البداءة بهم ، ولأنهم أقرب في الذكر بقوله : ﴿ فوق الذين كفروا ﴾ وبكون الكلام مع اليهود الذين كفروا بعيسى وراموا قتله ، ثم أتى ثانياً بذكر المؤمنين ، وعلق هناك العذاب على مجرّد الكفر ، وهنا علق توفية الأجر على الإيمان وعمل الصالحات تنبيهاً على درجة الكمال في الإيمان ، ودعاء إليها .

والتوفية : دفع الشيء وافياً من غير نقص ، والأجور : ثواب الأعمال ، شبهه بالعامل الذي يوفى أجره عند تمام عمله .

وتوفية الأجور هي : قسم المنازل في الجنة بحسب الأعمال على ما رتبها تعالى ، وفي الآية قبلها قال : ﴿ فأعذبهم ﴾ أسند الفعل إلى ضمير المتكلم وحده ، وذلك ليطابق قوله : ﴿ فأحكم بينكم ﴾ وفي هذه الآية قال : فيوفيهم ، بالياء على قراءة حفص ، ورويس ، وذلك على سبيل الالتفات والخروج من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة للتنوع في الفصاحة .

وقرأ الجمهور : فنوفيهم ، بالنون الدالة على المتكلم المعظم شأنه ، ولم يأت بالهمزة كما في

تلك الآية ليخالف في الإخبار بين النسبة الإسنادية فيما يفعله بالكافر وبالمؤمن ، كما خالف في الفعل ، ولأن المؤمن العامل للصالحات عظيم عند الله ، فناسبه الإخبار عن المجازي بنون العظمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 499 ﴾

(129/120)

" فصل "

قال السيوطى :

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (55) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (56) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (57)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس في قوله ﴿ إني متوفيك ﴾ يقول : إني مميتك .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن قال ﴿ متوفيك ﴾ من الأرض .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من وجه آخر عن الحسن في قوله ﴿ إني متوفيك ﴾ يعني وفاة المنام رفعه الله في منامه ، قال الحسن : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لليهود : " إن عيسى لم يمت وأنه راجع إليكم قبل يوم القيامة " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ إني متوفيك ورافعك إليّ ﴾ قال : هذا من المقدم والمؤخر : أي رافعك إليّ ومتوفيك .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مطر الوراق في الآية قال ﴿ متوفيك ﴾ من الدنيا وليس بوفاة موت .

وأخرج ابن جرير بسند صحيح عن كعب قال : لما رأى عيسى قلة من اتبعه وكثرة من كذبه ، شكا ذلك إلى الله . فأوحى الله إليه ﴿ إني متوفيك ورافعك إليَّ ﴾ وإني سأبعثك على الأعور الدجال فتقتله ، ثم تعيش بعد ذلك أربعاً وعشرين سنة ، ثم أميتك ميتة الحي . قال كعب : وذلك تصديق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال "كيف تهلك أمة أنا في أوّلها وعيسى في آخرها ؟ " .

وأخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن الحسن قال : لم يكن نبي كانت العجائب في زمانه أكثر من عيسى إلى أن رفعه الله ، وكان من سبب رفعه أن ملكاً جباراً يقال له داود بن نوذا ، وكان ملك بني إسرائيل هو الذي بعث في طلبه ليقتله ، وكان الله أنزل عليه الإنجيل وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، ورفع وهو ابن أربع وثلاثين سنة من ميلاده . فأوحى الله إليه ﴿ إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ يعني ومخلصك من اليهود فلا يصلون إلى قتلك .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من وجه آخر عن الحسن في الآية قال : رفعه الله إليه فهو عنده في السماء .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن وهب قال : توفى الله عيسى ابن مريم ثلاث ساعات من النهار رفعه إليه .

وأخرج ابن عساكر عن وهب قال : أماته الله ثلاثة أيام بعثه ورفعه .

وأخرج الحاكم عن وهب أن الله توفى عيسى سبع ساعات ثم أحياه ، وإن مريم حملت به ولها ثلاث عشرة سنة ، وأنه رفع ابن ثلاث وثلاثين ، وأن أمه بقيت بعد رفعه ست سنين .

وأخرج ابن إسحاق بن بشر وابن عساكر من طريق جوهر عن الضحاك عن ابن عباس في قوله ﴿ إني متوفيك ورافعك ﴾ يعني رافعك ثم متوفيك في آخر الزمان .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جرير في الآية قال : رفعه إياه توفيته .

وأخرج الحاكم عن الحريث بن مخشي أن علياً قتل صبيحة إحدى وعشرين من رمضان ، فسمعت الحسن بن علي وهو يقول : قتل ليلة أنزل القرآن ، وليلة أُسْرِيَ بعيسى ، وليلة قُبِضَ موسى .

وأخرج ابن سعد وأحمد في الزهد والحاكم عن سعيد بن المسيب قال : رُفع عيسى ابن ثلاث وثلاثينَ سنة ، ومات لها معاذ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ قال : طهره من اليهود ، والنصارى ، والمجوس ، ومن كفار قومه .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ قال : إذ هموا منك بما هموا .

(131/120)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ قال : أهل الإسلام الذين اتبعوه على فطرته وملته وسنته ، فلا يزالون ظاهرين على ناوأهم إلى يوم القيامة .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج في الآية قال : ناصر من اتبعك على الإسلام على الذين

كفروا إلى يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن النعمان بن بشير " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين لا يبالون من خالفهم حتى يأتي أمر الله " قال النعمان : فمن قال إني أقول على رسول الله ما لم يقل فإن تصديق ذلك في كتاب الله تعالى . قال الله تعالى ﴿ وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ وجاعل الذين اتبعوك ﴾ قال : هم المسلمون ونحن منهم ، ونحن فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة .

وأخرج ابن عساكر عن معاوية بن أبي سفيان قال " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنها لن تبرح عصابة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على الناس حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك . ثم قرأ بهذه الآية ﴿ يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ " .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في الآية قال : النصارى فوق اليهود إلى يوم القيامة ، فليس بلد فيه أحد من النصارى إلا وهو فوق يهود في شرق ولا غرب في البلد كلها مستذلون .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن في الآية قال : عيسى مرفوع عند الله ثم ينزل قبل يوم القيامة ، فمن صدق عيسى ومحمداً صلى الله عليه وسلم وكان على دينهما لم يزالوا ظاهرين على من فارقهم إلى يوم القيامة .

(132/120)

وأخرج ابن جرير من طريق علي عن ابن عباس في قوله ﴿ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ يقول : أدوا فرائضي ﴿ فيوفيهم أجورهم ﴾ يقول : فيعطيهم جزاء أعمالهم الصالحة كاملاً لا يبخسون منه شيئاً ولا ينقصونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 224.227 ﴾

(133/120)

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (58) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أتم سبحانه وتعالى ما أراد من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام من ابتداء تكوينه إلى انتهاء رفعه وما كان بعده من أمر أتباعه مشيراً بذلك إلى ما فيه من بدائع الحكم وخزائن العلوم واللطائف المتنزلة على مقادير الهمم على أتقن وجه وأحكمه وأتمه وأخلصه وأسلمه

، وختمه بالتنفير من الظلم ، وكان الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، وكان هذا القرآن العظيم قد حاز من حسن الترتيب ورصانة النظم بوضع كل شيء منه لفظاً ومعنى في محله الأليق به المحل الأعلى ، لا سيما هذه الآيات التي أتت بالتفصيل من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام ، فلم تدع فيه شكاً ولا أبقت شبهة ولا لبساً ، أتبع ما تقدم من تفصيل الآيات البينات قوله منبهاً على عظمة هذه الآيات الشاهدات الآتي بها صلى الله عليه وسلم بأوضح الصدق بإعجازها في نظمها وفي العلم بمضامينها من غير معلم من البشر كما تقدم نحو ذلك في ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾ ﴿ هود : 49] ﴿ ذلك ﴾ أي النبأ العظيم والأمر الجسيم الذي لم تكن تعلم شيئاً منه ولا علمه من شبان قومك ﴿ نتلوه ﴾ أي نتابع قصه بما لنا من العظمة ﴿ عليك ﴾ وأنت أعظم الخلق حال كونه ﴿ من الآيات ﴾ أي التي لا إشكال فيها ، ويجوز أن يكون خبر اسم الإشارة ، ﴿ والذكر الحكيم ﴾ إشارة إلى ذلك لأن الحكمة وضع الشيء في أعدل مواضعه وأتقنها ، وأشار بأداة البعد تنبيهاً على علو منزلته ورفيع قدره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 99. 100 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ ﴿ ذلك نَتْلُوهُ ﴾ يجوز أن يكون " ذَلِكَ " مبتدأ ، " نَتْلُوهُ " الخبر " مِنَ الآيَاتِ " حال أو خبر بعد خبر .

ويجوز أن يكون " ذَلِكَ " منصوباً بفعل مقدّرٍ يفسّره ما بعده – فالمسألة من باب الاشتغال – و" مِنَ الآيَاتِ " حال ، أو خبر مبتدأ مُضمَرٍ [أي : هو من الآيات ، ولكنّ الأحسن الرفعُ بالابتداء ؛ لأنه لا يحوج إلى إضمار ، وعندهم " زيد ضربته " أحسن من " زيداً ضربته " ، ويجوز أن يكون ذلك خبر مبتدأ مضمر] ، يعني الأمر ذلك ، و" نَتْلُوهُ " على هذا حال من اسم الإشارة ، و﴿ مِنَ الآيَاتِ ﴾ حال من مفعول " نَتْلُوهُ " .

ويجوز أن يكون " ذَلِكَ " موصولاً بمعنى " الذي " و" نَتْلُوهُ " صلة وعائد ، وهو مبتدأ خبره الجار بعده أي : الذي نتلوه عليك كائن من الآيات ، أي : المعجزات الدالة على نبوتك .

جوَّز ذلك الزَّجَّاجُ وتبعه الزمخشريُّ ، وهذا مذهب الكوفيين .

أما البصريون فلا يُجيزُون أن يكون اسماً من أسماء الإشارة موصولاً إلا " ذَا " خاصةً ، بشروطٍ تقدم ذكرها ؛ ويجوز أن يكون " ذلك " مبتدأ ، و" مِنَ الآيَاتِ " خبره ، و" نَتْلُوهُ " جملة في موضع نصب على الحال ، والعامل معنى اسم الإشارة .

قوله : " نَتْلُوهُ " فيه وجهان :

أحدهما : أنه وإن كان مضارعاً لفظاً فهو ماضٍ معنًى ، أي : الذي قدمناه من قصة عيسى

وما جرى له تلوناه عليك، كقوله: ﴿ واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين ﴾ [البقرة: 102].

والثاني: أنه على بابه؛ لأن الكلام لم يتم، ولم يفرغ من قصة عيسى - عليه السلام - إذْ بقي منها بقية.

و"من" فيها وجهانِ:

أظهرهما: أنها تبعيضية؛ لأن المَتْلُوَّ عليه - من قصة عيسى - بعض معجزاته وبعض القرآن وهذا أوْجَهُ وأوضحُ. والمرادُ بالآيات - على هذا - العلامات الدالة على نبوتك.

والثاني: أنها لبيان الجنسِ، وإليه ذهب ابنُ عَطِيَّةَ وبَدَأ به.

(135/120)

قال أبو حيّان: ولاَ يَتأَتَّى ذلك من جهة المعنى إلا بمجاز؛ لأن تقدير "من" البيانية بالموصول ليس بظاهر؛ إذ لو قلتَ: ذلك تتلوه عليك الذي هو الآيات والذكر الحكيم لاحتجت إلى تأويل، وهو أن تجعل بعض الآيات والذكر آياتٍ وذكراً [على سبيل المجاز].

والحكيمُ: صيغة مبالغة محول من "فاعل". ووصف الكتاب بذلك مجازاً؛ لأن هذه الصفة الحقيقية لمنزِّله والمتكلم به، فوصف بصفة من هو من سببه - وهو الباري تبارك وتعالى - أو لأنه ناطق بالحكمة أو لأنه أحْكِم في نظمه. وجوزوا أن تكون بمعنى "مُفْعَل"

أي : مُحْكَم ، كقوله : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ [هود : 1] إلا أن " فعيل " بمعنى " مُفْعَل " قليل ، قد جاءت منه ألْفَاظ ، قالوا : عقدت العسل فهو عقيد ومعقد وحبست الفرس [في سبيل الله] فهو حبيس ومُحْبَس . وفي قوله : " نَتْلُوه " التفات من غيبة إلى تكلُّم ؛ لأنه قد تقدمه اسم ظاهر – وهو قوله : ﴿ والله لاَ يُحِبُّ الظالمين ﴾ – كذا قاله أبو حيّان ، وفيه نظرٌ ؛ إذ يُحْتَمل أن يكون قوله : ﴿ والله لاَ يُحِبُّ الظالمين ﴾ جِيء به اعتراضاً بَيْنَ أبعاض هذه القصَّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 275.274 ﴾

فصل

قال الفخر :

التلاوة والقصص واحد في المعنى ، فإن كلا منهما يرجع معناه إلى شيء يذكر بعضه على إثر بعض ، ثم إنه تعالى أضاف التلاوة إلى نفسه في هذه الآية ، وفي قوله ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ موسى ﴾ [القصص : 3] وأضاف القصص إلى نفسه فقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص ﴾ [يوسف : 3] وكل ذلك يدل على أنه تعالى جعل تلاوة الملك جارية مجرى تلاوته سبحانه وتعالى ، وهذا تشريف عظيم للملك ، وإنما حسن ذلك لأن تلاوة جبريل صلى الله عليه وسلم لما كان بأمره من غير تفاوت أصلاً أُضيف ذلك إليه سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 65 ﴾

فائدة

قال الفخر :

(136/120)

قوله ﴿ مِنَ الآيات ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه ، أن ذلك من آيات القرآن ويحتمل أن يكون المراد منه أنه من العلامات الدالة على ثبوت رسالتك ، لأنها أخبار لا يعلمها إلا قارىء من كتاب أو من يوحى إليه ، فظاهر أنك لا تكتب ولا تقرأ ، فبقي أن ذلك من الوحي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 65 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ والذكر الحكيم ﴾ فيه قولان

الأول : المراد منه القرآن وفي وصف القرآن بكونه ذكراً حكيماً وجوه

الأول : إنه بمعنى الحاكم مثل القدير والعليم ، والقرآن حاكم بمعنى أن الأحكام تستفاد منه والثاني : معناه ذو الحكمة في تأليفه ونظمه وكثرة علومه والثالث : أنه بمعنى المحكم ، فعيل بمعنى مفعل ، قال الأزهري : وهو شائع في اللغة ، لأن حكمت يجري مجرى أحكمت في

المعنى ، فرد إلى الأصل ، ومعنى المحكم في القرآن أنه أحكم عن تطرق وجوه الخلل إليه قال تعالى : ﴿ أُحكمت آياته ﴾ [هود : 1] والرابع : أن يقال القرآن لكثرة حكمه إنه ينطق بالحكمة ، فوصف بكونه حكيماً على هذا التأويل .

القول الثاني : أن المراد بالذكر الحكيم ههنا غير القرآن ، وهو اللوح المحفوظ الذي منه نقلت جميع الكتب المنزلة على الأنبياء عليهم السلام ، أخبر أنه تعالى أنزل هذا القصص مما كتب هنالك ، والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 65 . 66 ﴾

(137/120)

من فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ذلك ﴾ أي المذكور من أمر عيسى عليه السلام والإتيان بما يدل على البعد للإشارة إلى عظم شأن المشار إليه وبعد منزلته في الشرف . ﴿ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ ﴾ أي نسرده ونذكره شيئاً بعد شيء ، والمراد تلوناه إلا أنه عبر بالمضارع استحضاراً للصورة الحاصلة اعتناءاً بها ، وقيل : يمكن الحمل على الظاهر لأن قصة عيسى عليه السلام لم يفرغ منها بعد ﴿ مِنَ

الآيات ﴾ أي الحجج الدالة على صدق نبوتك إذ أعلمتهم بما لا يعلمه إلا قارئ كتاب ، أو معلم ولست بواحد منهما فلم يبق إلا أنك قد عرفته من طريق الوحي ﴿ والذكر ﴾ أي القرآن ، وقيل : اللوح المحفوظ وتفسيره به لاشتماله عليه ، و ﴿ مِنْ ﴾ تبعيضية على الأول ، وابتدائية على الثاني وحملها على البيان وإرادة بعض مخصوص من القرآن بعيد ﴿ الحكيم ﴾ أي المحكم المتقن نظمه ، أو الممنوع من الباطل ، أو صاحب الحكمة ، وحينئذ يكون استعماله لما صدر عنه مما اشتمل على حكمته ؛ إما على وجه الاستعارة التبعية في لفظ حكيم ، أو الإسناد المجازي بأن أسند للذكر ما هو لسببه وصاحبه ، وجعله من باب الاستعارة المكنية التخييلية بأن شبه القرآن بناطق بالحكمة وأثبت له الوصف بحكيم تخييلا محوج إلى تكلف مشهور في دفع شبهة ذكر الطرفين حينئذ فتأمل ، وجوز في الآية أوجه من الإعراب ، الأول : أن ذلك مبتدأ ، و ﴿ نَتْلُوهُ ﴾ خبره ، و ﴿ عَلَيْكَ ﴾ متعلق بالخبر ، و ﴿ مِنَ الآيات ﴾ حال من الضمير المنصوب ، أو خبر بعد خبر ، أو هو الخبر وما بينهما حال من اسم الاشارة على أن العامل فيه معنى الإشارة لا الجار والمجرور قيل : لأن الحال لا يتقدم العامل المعنوي ، الثاني : أن يكون ذلك خبراً لمحذوف أي : الأمر ذلك ، و ﴿ نَتْلُوهُ ﴾ في موضع الحال من ﴿ ذلك ﴾ و ﴿ مِنَ الآيات ﴾ حال من الهاء ، الثالث : أن يكون ذلك في موضع نصب بفعل دل عليه نتلو فيكون ﴿ مِنَ الآيات ﴾ حالا من الهاء أيضاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 185 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ذِلكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ذِلكَ ﴾ إشارة لما سبق من الأحداث ، في شأن امرأة عمران ، ومريم ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وكان لكل واحد من هؤلاء قضية عجيبة يخرق فيها ناموس الكون ، وكلها آيات ، أي عجائب . وقد نقلت إلينا هذه العجائب من واقع ما رآه الذين عاصروا تلك الأحداث ، وجاء الخبر اليقين بتلك العجائب في قرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو الكتاب الحق الموصوف من الله بأنه ﴿ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ فاطمئنوا – أيها المؤمنين – إلى أن ما وصلكم عن طريق القرآن ، إنما حكى واقعا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فما جاء به من أخبار عن تلك الآيات هو ما يطابق الواقع الذي عاصره الناس وحكوه .

وبعد ذلك يعرض الحق لنا سبحانه قضية سيدنا عيسى عليه السلام ، وهي قضية يجب

أن تتنبه إليها تنبها جديدا فنعرض وجهة نظر الذين يضعونه في غير الموضع الذي أراده الله ، كما نعرض وجهة نظر الذين يضعونه في الموضع الذي يريده الله ، فالمسألة ليست انتصارا منا في الدنيا على فريق يقول : كذا ، لأنها مسألة لها عاقبة تأتي في الآخرة ويحاسبنا عليها الحق تعالى ، لذلك كان من المهم جدا أن نصفيها تصفية يتضح فيها الحق ، حتى لا يظلم أحد نفسه .

لقد جاء عيسى عليه السلام على دين اليهودية ، أي طرأ على دين اليهودية ونحن نعلم أن دين اليهودية قد تم تحريفه من اليهود تحريفا جعله ينحاز إلى الأمور المادية الصرفة ، دون أدنى اعتبار للأمور الروحية والإيمان بالغيب ، فهم ماديون ، وتتمثل ماديتهم في أنهم قالوا لموسى عليه السلام ما حكاه القرآن الكريم :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

[البقرة : 55] .

إنهم لم يلتفتوا إلى أن بعضا من كمال وجلال الله غيبٌ ؛ لأنه لو كان مشهودا محسا ، لحدد – بضم الحاء وكسر الدال – وحُيّزَ ، وما دام قد حُدِدَ وحُيّزَ في تصورهم فذلك يعني أنه سبحانه قد يوجد في مكان ولا يوجد في مكان آخر ، والحق سبحانه منزه عن مثل ذلك لأنه موجود في كل الوجود ، ولا نراه بالعين ، لكن نرى آثار أعماله وجميل صنعه في كل الكون .

إذن فكون الله غيبا هو من تمام الجلال والكمال فيه .

لكن اليهود قد صوروا الأشياء كلها على أنها حسية ، حتى أمور اقتيات حياتهم وهي الطعام ، لقد أرادها الله لهم غيبا حتى يريحهم في التيه ، فأرسل عليهم المنّ والسلوى ، كرزق من الغيب الذي يأتي إليهم ، لم يستنبتوه . ولم يستوردوه ، ولم يعرفوا كنهه ، ولم يجتهدوا في استخراجه ، إنه رزق من الغيب ، ومع ذلك تمردوا على هذا الرزق القادم لهم من الغيب وقالوا كما أخبر الله عنهم :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ

[البقرة: 61].

(140/120)

إنهم يريدون أن يكون طعامهم كما ألفوا، وأن يروا هذا الطعام كأمر مادي من أمور الحياة؛ لذلك تشككوا في رزق الغيب، وهو المن والسلوى، وقالوا: "من يدرينا أن المن قد لا يأتي، وأن السلوى قد لا تنزل علينا" فلم تكن لهم ثقة في رزق وُهب لهم من الغيب؛ لأنهم تناولوا كل أمورهم بمادية صرفة. وما دامت كل أمورهم مادية فهم في حاجة إلى هزة عنيفة تهز أوصال ماديتهم هذه؛ لتُخرجهم إلى معنى يؤمنون فيه بالغيب.

ونحن نعلم أن الفكر المادي لا يرى الحياة إلا أسبابا ومسببات، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يخلع منهم ذلك الفكر المادي، لذلك جاء بعيسى عليه السلام على غير طريق الناموس الذي يأتي عليه البشر، فجعله من امرأة دون أب، حتى يزلزل قواعد المادية عند اليهود.

لكن الفتنة جاءت في قومه، فقالوا ببنوته للإله، وسبحانه منزه عن أن يكون له ولد.

ولنا أن نسأل ما الشبهة التي جعلتهم يقولون بهذه البنوة؟

قالوا: إن الأمومة موجودة والذكورة ممتنعة، والشبهة إنما جاءت من أن الله نفخ فيه الروح،

فالله هو الأب .

نقول لهم : لو أن الأمر كذلك لوجب أن تفتنوا في آدم أولى من أن تفتنوا في عيسى ؛ لأن عيسى عليه السلام كان في خلقه أمومة ، أما آدم فلا أمومة ولا أبوة ، فتكون الفتنة في آدم عليه السلام أكبر ، وإن قلتم : " إن الحق قال : إنه نفخ فيه من روحه " ، فلكم أن تعرفوا قول الله في آدم عليه السلام :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾

[الحجر : 28-29] .

(141/120)

إذن فالنفخ هنا في آدم موجود ، فلماذا سكتم عن هذه الحكاية منذ آدم وحتى مجيء عيسى عليه السلام ، وهكذا يتم دحض تلك الحجة ونهايتها ، وبعد ذلك نأتي إلى قضية أخرى ، وهي توفيه أو وفاته ، إلى القضيتين معا - توفيه ووفاته - حتى نُبيِّن الرأيين معا :

وهنا نتساءل : لماذا فتنتم في ذلك ؟ يقولون : لقد أحيا عيسى الموتى ، ونقول لهم : ألم تأخذوا تاريخ إبراهيم عليه السلام حينما قال الله له :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[البقرة: 260].

إذن فمجال الفتنة في إبراهيم عليه السلام كبير، وكذلك، ألم يجيء موسى عليه السلام بآية هي العصا ؟ إنه لم يجيء ميتاً كانت فيه حياة، إنما أجرى الله على يديه خلق الحياة فيما لم تثبت له حياة، فأصبحت العصا - وهي جماد - حية تسعى لماذا إذن لم تفتنوا في عصا موسى عليه السلام ؟

وهكذا نعرف انه لا يصح أن يفتن أحد في المعجزة التي جاءت بعيسى عليه السلام، أو في إحيائه الموتى بإذن الله، وأتباع عيسى عليه السلام يتفقون معنا أن الله سبحانه وتعالى غيب، ولكنهم يختلفون معنا فيقولون: إن الله أراد أن يؤنس البشر بصورة يتجلى لهم فيها بشرا فجاء بعيسى عليه السلام ليتحقق لهم ذلك الأنس.

ونقول لهم: سنبحث هذه المسألة بدون حساسية، وبدون عصبية، بل بالعقل، ونسأل" هل خلق الله عيسى ليعطي صورة للإله ؟ إن عيسى كان طفلا، ثم كبر من بعد ذلك، فأي صورة من صورة المرحلية كانت تمثل الله ؟

إن كانت صورة طفل فهل هي صورة الله ؟ وإن كانت صورة كهل فهل هي صورة الله ؟ إن لله صورة واحدة لا نراها ولا نعرف كنهها فهو سبحانه " ليس كمثله شيء " ، فأية صورة من الصور التي تقولون : إنها صورة الله ؟

وإن كان الله على كل هذه الصور فمعنى ذلك أن لله أغيارا , وهو سبحانه منزه عن ذلك ، ولو كان على صورة واحدة لقلنا : إنه الثبات والأمر كذلك فهو – سبحانه – الحق الذي لا يتغير إنهم يقولون : إن الله أراد أن يجعل صورته في بشر ليؤنس الناس بالإله ، فتمثل في عيسى .

ولنا أن نسأل : كم استغرق وجود عيسى على الأرض ؟ والإجابة : ثلاثين عاما أو يزيد قليلا . وهكذا تكون فترة معرفة الناس بالصورة الإلهية محدودة بهذه السنوات الثلاثين طبقا لتصوركم . ولا بد ان نسأل " ما عمر الخلق البشرى كله ؟ " إن عمر البشرية هو ملايين السنين . فهل ترك الله خلقه السابقين الأولين بدون أن يبدي لهم صورته ، ثم ترك خلقه الآخرين الذين قدموا إلى الحياة بعد وفاة عيسى – أي تمام مهمته – ورفعه ، بدون أن يعطيهم صورة له ؟ إن هذا تصور لإله ظالم ، وسبحانه وتعالى منزه عن الشرك والظلم . فلا يعقل أن يضن بصورته فلا يبقيها إلا ثلاثين عاما ؟ إن هذا القول لا يقبله عقل يثق في عدالة الله المطلقة .

ثم إنهم يقولون : إن عيسى عليه السلام قد صلب ، وهم معذورون والحق سبحانه وتعالى قد عذرهم في ذلك فأورد التأريخ الحق العادل ، حين يقول :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ [النساء : 157] .

(143/120)

لقد جعل الله لهم عذرا في أن يقولوا : إنه قتل أو صلب ؛ لأنه شبه لهم وكان من المعقول أن يلتمسوا من الإسلام حلا لهذه المشكلة ، لأن الإسلام جاء ليقول : " لا ، لقد شبه لكم ، فما قتلوه وما صلبوه ؛ لأن هذا الفعل – القتل أو الصلب – ينقض فكرتهم عن أنه إله أو ابن إله .

لأن المصلوب لو كان إلها أو ابن إله ، لكانت لديه القدرة التي تغلب الصالب ، فكيف يعقل الإنسان أن ينقلب الإله – أو ابن الإله – مقدورا عليه من مخلوق ؟ والإسلام عندما يقول : إن عيسى ابن مريم لم يصلب فقد كرمه الله . وهكذا ترى أن الإسلام قد جاء ليصفى العقائد كلها من عيوب التحريف التي قام بها المتبعون لتلك الأديان .

وبعد ذلك يأتي الحق سبحانه وتعالى ليعرض علينا قضية جدلية حدثت في أيام رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، حتى يخرج الناس – مسلمين ونصارى ويهودا – من هذه البلبلة ، وأن يتم ذلك في مودة ، لأنهم كلهم مؤمنون بالعبودية لمعبود واحد . فقد جاء وفد من نصارى نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ، والتقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان لهؤلاء القوم جدل مع اليهود ، ولهم جدل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما كان لليهود والنصارى معا جدل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والجدل بين اليهود والنصارى مصدره أن لليهود والنصارى قولا متضاربا في بعضهم بعضا يرويه لنا الحق :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

[البقرة: 113].

فاليهود يقولون : "كان إبراهيم يهوديا " والنصارى يقولون لا ، كان " إبراهيم نصرانيا " وأما الجدل بين النصارى وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسببه أنهم قد أرادوا ان

يتكلموا في مسألة عيسى, وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يصفى القضية تصفية نهائية حتى لا تظل معلقة تلوكها الألسنة وتجعلها مثارا للفتن. فلما اجتمع نصارى نجران تحت لواء رؤسائهم، ومن هؤلاء الرؤساء من اسمه السيد ، ومنهم من يسمى العاقب صاحب المشورة، ومعهم قسيس، فقال لهم صلى الله عليه وسلم: ماذا تقولون في عيسى ؟ قالوا : إنه ابن الله. وقال لهم الرسول: إن عيسى عليه السلام قال: "إني عبد الله" وهو عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول، فغضبوا وقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم: هل رأيت إنسانا قط من غير أب ؟ إن كنت قد رأيت مثل ذلك فأخبرنا به.

وهنا نزلت الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ. . . ﴾. انتهى.

اهـ ﴿تفسير الشعراوى صـ 1512. 1517﴾

(145/120)

"فصل"

قال السيوطى:

ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (58)

أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال "أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم راهبا نجران

فقال أحداهما : من أبو عيس ؟ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعجل حتى يأمره ربه . فنزل عليه ﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾ إلى قوله ﴿ من الممترين ﴾ " .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله ﴿ والذكر الحكيم ﴾ قال : القرآن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ستكون فتن قلت : فما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله ، هو الذكر الحكيم ، والصراط المستقيم " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 227 ﴾

(146/120)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ثم أكد ظلمهم وصور حكمته بمثل هذا الفرقان في أمر عيسى عليه الصلاة والسلام الكاشف لما في ذلك مما ألبس عليهم فقال : ﴿ إن مثل عيسى ﴾ أي في كونه من أنثى فقط

﴿ عند الله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً في إخراجه من غير سبب حكمي عادي ﴿ كمثل آدم ﴾ في أن كلاًّ منهما أبدع من غير أب ، بل أمر آدم أعجب فإنه أوجده من غير أب ولا أم ، ولذلك فسر مثله بأنه ﴿ خلقه ﴾ أي قدره وصوره جسداً من غير جنس البشر ، بل ﴿ من تراب ﴾ فعلمنا أن تفسير مثل عيسى كونه خلقه من جنس البشر من أم فقط بغير أب ، فمثل عيسى أقل غرابة من هذه الجهة وإن كان أغرب من حيث إنهم لم يعهدوا مثله ، فلذلك كان مثل آدم مثلاً له موضحاً لأنه مع كونه أغرب اشهر (وعبر بالتراب دون الماء والطين والحمأ وغيره كما في غير هذا الموطن ، لأن التراب أغلب أجزائه ولأن المقام لإظهار العجب ، وإبداع ما أسكنه أنواع الأنوار بالهداية والعلوم الباهرة من التراب الذي هو أكثف الأشياء أغرب كما أن تغليب ظلام الضلال على الشياطين من كونهم من عنصر نير أعجب) .

(147/120)

ولما شبه المثل بالمثل علمنا أن مثل عيسى كل ولد نشاهده تولد من أنثى ، ومثل آدم كل حيوان نشاهده تولد من تراب ، وما شاهده بنو إسرائيل من خلق عيسى عليه الصلاة والسلام الطير من الطين فهذا المثل الذي هو كل ما تولد من أنثى مثل ذلك المثل الذي هو كل

ما تولد من تراب في أن كلاً منهما لم يكن إلا بتكوين الله سبحانه وتعالى ، وإلا لكان كل جماع موجباً للولد وكل تراب موجباً لتولد الحيوان منه ، فلما كان أكثر الجماع لا يكون منه ولد علمنا أن الإيجاد بين الذكر والأنثى إنما هو بقدرة الله سبحانه وتعالى وإرادته ، ومن إرادته وقدرته كونه من ذكر وأنثى ، فلا فرق في ذلك بين أن يريد كونه من أنثى بتسبيب جماع من ذكر يخرق به عادة الجماع فيجعله موجباً للحبل وبين أن يريد كونه من أنثى فقط فيخرق به عادة ما نشاهده الآن من التوليد بين الذكر والأنثى ، كما أنا لما علمنا أنه ليس كل تراب يكون منه حيوان علمنا قطعاً أن هذا المتولد من تراب إنما هو بإرادة القادر واختياره لا بشيء آخر ، وإلى ذلك أشار يحيى عليه الصلاة والسلام بقوله فيما سلف قريباً : إن الله قادر على أن يقيم من الحجارة أولاداً لإبراهيم ، أي لأنه سبحانه وتعالى هو الذي يخلق المسببات فلا فرق حينئذ بين مسبب وسبب ، بل كلها في قدرته سواء ، وإلى ذلك أشار قوله : ﴿ ثم قال له كن ﴾ أي بشراً كاملاً روحاً وجسداً ، وعبر بصيغة المضارع المقترن بالفاء في ﴿ فيكون ﴾ دون الماضي وإن كان المتبادر إلى الذهب أن المعنى عليه حكاية للحال وتصويراً لها إشارة إلى أنه كان مع الأمر من غير تخلف وتنبيهاً على أن هذا هو الشأن دائماً ، يتجدد مع كل مراد ، لا يتخلف عن مراد الآمر أصلاً – كما تقدم التصريح به في آية ﴿ إذا قضى أمراً ﴾ [البقرة : 117] وذلك أغرب مما كان سبب ضلال النصارى الذين

يجادل عن معتقدهم وفد نجران ، قال سبحانه وتعالى ذلك إشارة إلى أنهم ظلموا في القياس ، وكان العدل أن يقاس في خرقه

(148/120)

للعادة بأبي أمه الذي كان يعلم الأسماء كلها وسجد له الملائكة ، لا بخالقه ومكونه تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

قال الحرالي : جعل سبحانه وتعالى آدم عليه الصلاة والسلام مثلاً مبدؤه السلالة الطينية ، وغايته النفخة الأمرية ، وكان عيسى عليه الصلاة ولاسلام مثلاً مبدؤه الروحية والكلمة ، وغايته التكمل بملابسة السلالة الطينية ، حتى قال صلى الله عليه وسلم : إنه عند نزوله في خاتمة اليوم المحمدي يتزوج امرأة من بني أسد ويولد له غلام لتكمل به الآدمية في العيسوية كما كملت العيسوية في الآدمية وليكون مثلاً واحداً أعلى جامعاً ﴿ وله المثل الأعلى في السماوات والأرض ﴾ [الروم : 27] - انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 101.100 ﴾

فصل

قال الفخر :

أجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت عند حضور وفد نجران على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان من جملة شبههم أن قالوا : يا محمد ، لما سلمت أنه لا أب له من البشر وجب أن يكون أبوه هو الله تعالى ، فقال : إن آدم ما كان له أب ولا أم ولم يلزم أن يكون ابناً لله تعالى ، فكذا القول في عيسى عليه السلام ، هذا حاصل الكلام ، وأيضاً إذا جاز أن يخلق الله تعالى آدم من التراب فلم لا يجوز أن يخلق عيسى من دم مريم ؟ بل هذا أقرب إلى العقل ، فإن تولد الحيوان من الدم الذي يجتمع في رحم الأم أقرب من تولده من التراب اليابس ، هذا تلخيص الكلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 66 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ دليل على صحة القياس .

والتشبيه واقع على أن عيسى خُلِقَ من غير أبٍ كآدم ، لا على أنه خلق من تراب .

(149/120)

والشيء قد يشبه بالشيء وإن كان بينهما فرق كبير بعد أن يجتمعا في وصف واحد ؛ فإن آدم خُلِقَ من تراب ولم يُخلق عيسى من تراب فكان بينهما فرق من هذه الجهة ، ولكن شبه ما بينهما أنهما خلقهما من غير أبٍ ؛ ولأن أصل خلقتهما كان من تراب لأنّ آدم لم يخلق من نفس التراب ، ولكنه جعل التراب طيناً ثم جعله صلصالاً ثم خلقه منه ، فكذلك عيسى حوّله من حال إلى حال ، ثم جعله بشراً من غير أبٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 102.103 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى ﴾ جملة مستأنفة لا تعلُّق لها بما قبلها تعلقاً صناعياً ، بل معنويًّا . وزعم بَعْضُهُمْ أنها جواب القسم ، وذلك القسم هو قوله : ﴿ والذكر الحكيم ﴾ كأنه قيل : أقسم بالذكر الحكيم أنَّ مثل عيسى ، فَيَكُونُ الْكَلاَمُ قد تم عند قوله : ﴿ مِنَ الآيَاتِ ﴾ ثم استأنف قسماً ، فالواو حَرْف جرٍّ ، لا عطف وهذا بَعِيدٌ ، أو مُمْتَنِعٌ ؛ إذ فيه تفكيكٌ لنَظْم القرآنِ ، وإذْهاب لرونقه وفصاحته .

قوله : ﴿ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ﴾ في هذه الجملة وَجْهَانِ :

أظهرهما : أنها مفسِّرة لوجه الشبه بين المثلين ، فلا مَحَلَّ لَهَا حينئذٍ مِنَ الإعْرَابِ .

الثاني : أنها في محل نصب على الحال من آدَمَ عليه السلام و" قد " معه مضمرة ، والعامل

فيها معنى التشبيه والهاء في طخلَقَهُ" عائدة على "آدم" ولا تعود على "عِيْسَى" لِفَسَادِ المعنى.

وقال ابن عطية: "ولا يجوز أن تكون خَلَقَه [صفة] لآدم ولا حالاً منه".

قال الزّجّاج: إذ الماضي لا يكون حالاً أنت فيها ن بل هو كلامٌ مَقْطُوعٌ منه مَضمَّن تفسير الْمَثَلِ، كما يقال في الكَلامِ: مثلك مثل زيد، يشبه في امر من الأمور، ثم يخبر بقصة زيد، فيقول: فعل كذا وكذا.

قال أبو حيّان: "وَفيهِ نظرٌ" ولم يُبيِّن وَجْهَ النظر.

(150/120)

قال شهاب الدّين: "والظاهر من هذا النظر أن الاعتراضَ - وهو قوله: لا يكون حالاً أنت فيها غير لازمٍ؛ إذ تقدير "قَدْ" تُقَرِّبه من الحال. وقد يظهر الجوابُ عما قاله الزَّجَّاج من قول الزمخشريِّ: قدره جسداً من طين ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ أي: أنشأه بَشَراً".

قال أبو حيّان: ولو كان الخلق بمعنى الإنشاء - لا بمعنى التقدير - لم يأت بقوله: "كُنْ"؛ لأن ما خلق لا يقال له: كُنْ، ولا ينشأ إلا إن كان معنى: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن﴾ عِبارةً عَنْ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ.

وقال الواحديُّ: قوله ﴿ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ﴾ لَيْسَ بِصِلَةٍ لآدم ولا صِفَةٍ؛ لأن الصّلَةَ للمبهمات، والصفة للنّكِرَاتِ، ولكنه خبر مُسْتأنَف على وجه التفسيرِ لحال آدمَ عليه السلام.

وعلى قول الزجّاج: ﴿ مِن تُرَابٍ ﴾ فيه وجهان:

أظهرهما: أنه متعلق بـ "خَلَقَهُ" أي: ابتدأ خلقه من هذا الجنس.

الثاني: أنه حال من مفعول "خلقه" تقديره: خلقه كائناً من تراب، وهذا لا يساعده المعنى.

وَالْمَثَلُ هاهنا منهم من فسّره بمعنى الحال والشأن.

قال الزّمَخْشَرِيُّ: "إن شأن عيسى وحاله الغريبة كشأن آدمَ". وعلى هذا التفسير فالكاف على بابها - من كونها حرف تشبيه - وفسَّر بعضُهم المثل بمعنى الصفة، كقوله: ﴿ مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون ﴾ [الرعد: 35]، أي: صفة الجنة.

قال ابنُ عَطِيَّة: وهذا عندي خطأٌ وضَعْفٌ في فَهْمِ الكلام، وإنما المعنى: أن المثل الذي تتصوره النفوس والعقول من عيسى هو كالمُتَصَوَّر من آدمَ؛ إذ النّاس كلهم مُجْمِعُون على أن الله - تعالى - خلقه من تراب، من غير فحل، وكذلك قوله: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ ﴾ عبارة عن المُتَصَوَّر منها. والكاف في "كَمَثَلِ" اسم على ما ذكرناه من المعنى.

قال أبو حيّان : " ولا يظهر لي فرق بين كلامه هذا وكلام مَنْ جعل المثل بمعنى الشأن والحَال أو بمعنى الصفةِ " .

[قَالَ شِهَابُ الدّينِ : قَد تَقَدّمَ في أوّلِ الْبَقَرةِ أنّ الْمَثَل قَدْ يُعَبّرُ بهِ عَن الصّفَةِ ، وَقَدْ لا يُعَبّرُ بهِ عَنْهَا ؛ فَدلّ ذِلكَ عَلَى تغايُرِهمَا ، وَقَدْ تَقدّمَ كَلامُ النّاسِ فِيهِ ، ويدلُّ عَلَى ذَلكَ مَا قَالَهُ صَاحِبُ " ريّ الظّمآنِ " عن الفارسيّ الْجَميعِ ، وقَالَ : " المَثَلُ بمعنَى الصّفَةِ ، لا يمكن تَصْحِيحُهُ فِي اللُّغَةِ ، إنّمَا الْمثلُ التشبيه على هذا تدور تصاريفُ الكلمةِ ، ولا معنى للوصفية في التشابه ؛ ومعنى المثل] في كلامهم أنها كلمة يُرْسِلها قائلُها لحكمة تُشَبّه بها الأمور ، وتقابَل بها الأحوال وقد فرق بين لفظ المثل في الاصطلاح وبين الصفة .

قال بعضهم : إن الكافَ زائدة .

وقال آخرون : إنّ " مَثَلاً " زائدة فحصل في الكافِ ثَلاَثَة أقوالٍ :

قيل : أظهرها : أنها على بابها من الحرفية وعدم الزيادة وقد تقدم تحقيقه .

وقال الزمخشريُّ : " فإن قلتَ : كيف شُبِّه به وقد وُجِد هو بغير أب ووُجد آدم من غير أب ولا أمٍّ ؟

قلت : هو مثله في أحد الطّرَفَيْنِ ، فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به ؛ لأن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف ، ولأنه شُبِّه به في أنه وُجِد وجوداً خارجاً عن

العادةِ المستمرةِ ، وهما في ذلك يظهران ، ولأن الوجود من غير أب ولا أمٍّ أغرب وأخرق للعادةِ من الوجود من غي رأب ، فشبّه الغريبَ بالأغرب ؛ ليكون أقطعَ للخَصْم ، وأحسم لمادة شُبْهَتِه ، إذا نُظِّر فيما هو أغرب مما اسْتَغْرَبَه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 275 . 277 ﴾

(152/120)

وقال الشيخ المراغى :

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف قصص عيسى وأمه وما جاء به ، وكفر بعض قومه به ، ورميهم أمه بالزنا ، وإيمان بعض آخر به .

أردف ذلك ذكر حال فريق ثالث لم يكفر به ، ولم يؤمن به إيمانا صحيحا ، بل افتتن به افتتانا ، لكونه ولد من غير أب ، فزعم أن معنى كونه (كلمة الله وروح الله) أن الله حل في أمه ، وأن كلمة الله تجسدت فيه فصار إنسانا وإلها ، فضرب مثلا ليردّ به على الفريقين الكافرين به من اليهود ، والمفتونين به من النصارى .

فبين أن خلق آدم أعجب من خلق عيسى فهذا خلق من حيوان من نوعه ، وذاك قد خلق من التراب فهو أولى بالمزية إن كانت ، والإنكار إن صح الإنكار .

وأمر الخلقة غريب بالنسبة إلينا ، لكنه ليس بالغريب بالنسبة إلى الصانع المبدع .

والقوانين المعروفة في الخلق قد استخرجت مما نعهد ونشاهد ، وليست بالقوانين العقلية التي قامت البراهين على استحالة ما عداها وإنا لنشاهد كل يوم ما يخالفها كالحيوان التي توجد من غير جنسها ، أو الحيوان ذوات الأعضاء الزائدة ، ويعبرون عن ذلك بفلتات الطبيعة ، ولعل لهذه الشواذ وتلك الفلتات سننا أخرى مطردة لم تظهر لنا .

وهكذا شأن خلق عيسى ، فكونه على غير السنن المعروفة لا يقتضى تفضيله على غيره من الأنبياء بله أن يكون إلها .

وقد روى في سبب نزول الآية أن وفد نجران من النصارى قالوا لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : مالك تشتم صاحبنا ؟ قال وما أقول ، قالوا تقول إنه عبد اللّه قال أجل هو عبد اللّه ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول ، فغضبوا وقالوا هل رأيت إنسانا من غير أب ؟ فإن كنت صادقا فأرنا مثله فأنزل اللّه الآية .

الإيضاح

(إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ)

أي إن شأن عيسى وصفته في خلق اللّه إياه على غير مثال سابق كشأن آدم في ذلك ، ثم فسر هذا المثل وفصل ما أجمله فقال :

(خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ) أي قدّر أوضاعه وكوّن جسمه من تراب ميت أصابه الماء فكان طينا لازبا لزجا .

وفي هذا توضيح للتمثيل ببيان وجه الشبه بينهما وقطع لشبه الخصوم ، فإن إنكار خلق عيسى عليه السلام بلا أب مع الاعتراف بخلق آدم من غير أب ولا أم - مما لا ينبغى أن يكون ولا يسلمه العقل .

(ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) أي ثم أنشأه بشرا بنفخ الروح فيه كما جاء في قوله : « ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ » . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 1 صـ 174.172 ﴾

(154/120)

بحث نفيس للدكتور عبد المجيد الزندانى

الحمد لله رب العالمين وأصلي وأسلم على سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين وبعد : فهذا هو البروفيسور ج . س . جورنجر أستاذ في كلية الطب

قسم التشريح في جامعة جورج تاون في واشنطن . التقينا بهذا الأستاذ وسألناه : هل ذكر في تاريخ علم الأجنة أن الجنين يخلق في أطوار ؟ وهل هناك من الكتب المتعلقة بعلم الأجنة ما قد أشار إلى هذه الأطوار في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم أو بعده بقرون ، أم أن هذا التقسيم إلى أطوار لم يعرف إلا في منتصف القرن التاسع عشر ؟ أجابنا بقوله : لقد كانت هناك عناية من اليونانيين بدراسة الجنين ، وقد حاول عدد منهم أن يصف ما يدور للجنين وما يحدث فيه . قلنا له : نعم ، نعلم هذا ، إن هناك نظريات لبعض العلماء منهم أرسطو وغيره ، ولكن هل هناك من ذكر أن هناك أطواراً ؟ لأننا نعلم أن الأطوار لم تعرف إلا في منتصف القرن التاسع عشر ، ولم تثبت إلا في أوائل القرن العشرين . فبعد نقاش طويل قال : لا . قلنا : هل هناك مصطلحات أطلقت على هذه الأطوار كالمصطلحات التي وردت في القرآن الكريم ؟ قال : لا . قلنا فما رأيك في هذه المصطلحات التي تغطي أطوار الجنين ؟ بعد مناقشة طويلة معه قدم بحثاً وألقاه في المؤتمر الطبي السعودي الثامن عن هذه الأطوار التي وردت في القرآن الكريم ، وعن جهل البشرية بها ، وعن شمول ودقة هذه المصطلحات التي أطلقها القرآن الكريم على هذه الأطوار لأحوال الجنين بعبارات موجزة وألفاظ مختصرة شملت حقائق واسعة . ثم هو ذا يتكلم عن رأيه في هذا فيقول :

البروفيسور جورنجر : إنه وصف للتطور البشري منذ تكوين الأمشاج إلى أن أصبحت كتلاً عضوية ، عن هذا الوصف والإيضاحات الجلية والشاملة لكل مرحلة من مراحل

تطور الجنين في معظم الحالات إن لم يكن في جميعها يعود هذا الوصف في قدمه إلى قرون عديدة قبل تسجيل المراحل المختلفة للتطور الجنيني البشري التي وردت في العلوم التقليدية العلمية. الشيخ الزنداني: وتطرق البحث مع

(155/120)

البروفيسور جورنجر حول هذه الظاهرة التي كشفت علمياً وكشفت حديثاً أنها لتزيل الإشكال الذي كان يثيره النصارى.

النصارى يقولون ها هو ذا عيسى عليه السلام قد خلق من أم فمن هو أبوه؟ يثيرون هذا الإشكال لا يتصورون أن يكون هناك خلق بدون أب. أجاب عليهم القرآن الكريم وبين لهم وضرب لهم مثلاً بآدم قال تعالى: ?إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون? (سورة آل عمران، الآية: 59). إننا نجد ثلاثة أنواع من الخلق. آدم مخلوق بدون أب ولا أم. حواء مخلوقة بدون أم. عيسى عليه السلام مخلوق بدون أب. والذي قدر أن يخلق آدم عليه السلام بدون أب وأم قادر على أن يخلق عيسى عليه السلام من أم بدون أب، ومع ذلك لا يزال النصارى يجادلون، ويشاء الله سبحانه وتعالى أن يكشف لهم حجة بعد حجة وبرهاناً بعد برهان. لماذا تستشكلون هذا أيها النصارى؟ قالوا: لأنا لا

نرى أبداً مخلوقاً يمكن أن يأتي بغير أب ولا أم . فإذا بالعلم يكشف أن كثيراً من الحيوانات الدنيا وكثيراً من الكائنات الآن تتوالد وتنجب بدون تلقيح الذكور ، فهذا النحل : جميع ذكوره عبارة عن بيض لم يلقح بماء الذكور والبيضة التي تلقح بماء الذكور تكون شغالة أنثى . أما الذكور فهي مخلوقة من بيض الملكة بدون ماء الذكور وهناك أمثلة كثيرة على ذلك . بل لقد حدث في التقدم العلمي أن تمكن الإنسان أن ينبه بعض البيض لبعض الكائنات فتنمو هذه البيضة بدون حاجة إلى تلقيح الذكر . وها هو ذا البروفيسور جورنجر يحدثنا عن هذا الأمر . البروفيسور جورنجر : في نوع آخر لتناول الموضوع فإن البيض غير المخصب لكثير من الحيوانات اللافقارية والبرمائية والثديية السفلي يمكن تنشيطه بوسائل ميكانيكية ، كالوخز بالإبرة ، أو بوسائل مادية كالصدمة الحرارية ، أو بوسائل كيميائية بأي عدد من المواد الكيمائية المختلفة ، ويستمر البيض إلى مراحل تطور متقدمة ، في بعض الأجناس يعتبر هذا النوع من التطور الجيني طبيعياً .

الشيخ الزنداني : أين الإشكال إذاً عند النصارى ؟ يقولون مستحيل أن يكون هناك مخلوق من أم بدون أب . ويقدم هذا الدليل ويصبح ذلك من الأمور التي يمكن أن تقاس فيما بعد

فأي إشكال بعد ذلك ؟ لقد أجاب الله تعالى الجواب القاطع الشافي وضرب مثلاً بآدم الذي هم يؤمنون به ليس له أب وليس له أم .

أنتم تستشكلون مخلوقاً من أم بدون أب فإن الله قد قدم لكم مثلاً مخلوقاً أنتم تعرفونه وتؤمنون به بدون أب وبدون أم وهو آدم عليه السلام . ?إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون? .

ويشاء الله جل وعلا أن يأتي هذا التقدم العلمي والكشف العلمي ليقيم دليلاً بعد دليل على بيان الحق الذي جاء به القرآن ، وهكذا يتجلى هذا الكتاب الكريم مع مرور الزمن وتتجلى آياته ، وتتضح لأكابر علماء عصرنا وللعلماء جيلاً بعد جيل ، فهو الكتاب الذي لا يشبع منه العلماء ولا تنقضي عجائبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحث للدكتور عبد المجيد الزندانى ﴾

لطيفة

من طريف ما ذكره الدكتور عبد الرزاق نوفل أنه قد ورد ذكر آدم في القرآن الكريم خمسا وعشرين مرة ، ومثل ذلك العدد ورد ذكر عيسى بن مريم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإعجاز العددي للقرآن الكريم دكتور عبد الرزاق نوفل صـ243 ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ ليس بصلة لآدم ولا صفة ولكنه خبر مستأنف على جهة التفسير بحال آدم ، قال الزجاج : هذا كما تقول في الكلام مثلك كمثل زيد ، تريد أن تشبهه به في أمر من الأمور ، ثم تخبر بقصة زيد فتقول فعل كذا وكذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 66 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن العقل دل على أنه لا بد للناس من والد أول ، وإلا لزم أن يكون كل ولد مسبوق بوالد لا إلى أول وهو محال ، والقرآن دل على أن ذلك الوالد الأول هو آدم عليه السلام كما في هذه الآية ، وقال : ﴿ يا أَيُّهَا الناس اتقوا رَبَّكُمُ الذى خَلَقَكُمْ مّن نَّفْسٍ واحدة وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء : 1] وقال : ﴿ هُوَ الذى خَلَقَكُمْ مّن نَّفْسٍ واحدة وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الأعراف : 189] ثم إنه تعالى ذكر في كيفية خلق آدم عليه السلام وجوهاً كثيرة

أحدها : أنه مخلوق من التراب كما في هذه الآية

والثاني : أنه مخلوق من الماء ، قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ مِنَ الماء بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ [الفرقان : 54]

والثالث : أنه مخلوق من الطين قال الله تعالى : ﴿ الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْء خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ ﴾ [السجدة : 7 ، 8]

والرابع : أنه مخلوق من سلالة من طين قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سلالة مِّن طِينٍ * ثُمَّ جعلناه نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المؤمنون : 12 ، 13]

الخامس : أنه مخلوق من طين لازب قال تعالى : ﴿ إِنَّا خلقناهم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ ﴾ [الصافات : 11]

السادس : إنه مخلوق من صلصال قال تعالى : ﴿ إِنِّى خالق بَشَرًا مِّن صلصال مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : 28]

(158/120)

السابع : أنه مخلوق من عجل ، قال تعالى : ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء : 37]

الثامن : قال تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى كَبَدٍ ﴾ [البلد : 4] أما الحكماء فقالوا :

إنما خلق آدم عليه السلام من تراب لوجوه :

الأول : ليكون متواضعاً

الثاني : ليكون ستاراً

الثالث : ليكون أشد التصاقاً بالأرض ، وذلك لأنه إنما خلق لخلافة أهل الأرض ، قال تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِى الأرض خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : 30]

الرابع : أراد إظهار القدرة فخلق الشياطين من النار التي هي أضوأ الأجرام وابتلاهم بظلمات الضلالة ، وخلق الملائكة من الهواء الذي هو ألطف الأجرام وأعطاهم كمال الشدة والقوة ، وخلق آدم عليه السلام من التراب الذي هو أكثف الأجرام ، ثم أعطاه المحبة والمعرفة والنور والهداية ، وخلق السموات من أمواج مياه البحار وأبقاها معلقة في الهواء حتى يكون خلقه هذه الأجرام برهاناً باهراً ودليلاً ظاهراً على أنه تعالى هو المدبر بغير احتياج ، والخالق بلا مزاج وعلاج الخامس : خلق الإنسان من تراب ليكون مطفئاً لنار الشهوة ، والغضب ، والحرص ، فإن هذه النيران لا تطفأ إلا بالتراب وإنما خلقه من الماء ليكون صافياً تتجلى فيه صور الأشياء ، ثم إنه تعالى مزج بين الأرض والماء ليمتزج الكثيف فيصير طيناً وهو قوله ﴿ إِنِّى خالق بَشَراً مِّن طِينٍ ﴾ ثم إنه في المرتبة الرابعة قال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سلالة مِّن طِينٍ ﴾ والسلالة بمعنى المفعولة لأنها هي التي تسل من ألطف أجزاء الطين ، ثم إنه في المرتبة السادسة أثبت له من الصفات ثلاثة أنواع :

أحدها : أنه من صلصال والصلصال : اليابس الذي إذا حرك تصلصل كالخزف الذي

يسمع من داخله صوت .

والثاني : الحمأ وهو الذي استقر في الماء مدة ، وتغير لونه إلى السواد .

والثالث : تغير رائحته قال تعالى : ﴿ فانظر إلى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ [البقرة : 259] أي لم يتغير .

(159/120)

فهذه جملة الكلام في التوفيق بين الآيات الواردة في خلق آدم عليه السلام . انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 66.67 ﴾

فصل

قال الفخر :

في الآية إشكال ، وهو أنه تعالى قال : ﴿ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ فهذا يقتضي أن يكون خلق آدم متقدما على قول الله له ﴿ كُنّ ﴾ وذلك غير جائز .

وأجاب عنه من وجوه الأول : قال أبو مسلم : قد بينا أن الخلق هو التقدير والتسوية ، ويرجع معناه إلى علم الله تعالى بكيفية وقوعه وإراداته لإيقاعه على الوجه المخصوص وكل ذلك متقدم على وجود آدم عليه السلام تقديماً من الأزل إلى الأبد ، وأما قوله ﴿ كُنّ ﴾ فهو

عبارة عن إدخاله في الوجود فثبت أن خلق آدم متقدم على قوله ﴿ كُنَّ ﴾ .

والجواب الثاني : وهو الذي عول عليه القاضي أنه تعالى خلقه من الطين ثم قال له ﴿ كُنَّ ﴾ أي أحياه كما قال : ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ فإن قيل الضمير في قوله خلقه راجع إلى آدم وحين كان تراباً لم يكن آدم عليه السلام موجوداً .

أجاب القاضي وقال : بل كان موجوداً وإنما وجد بعد حياته ، وليست الحياة نفس آدم وهذا ضعيف لأن آدم عليه السلام ليس عبارة عن مجرد الأجسام المشكلة بالشكل المخصوص ، بل هو عبارة عن هوية أخرى مخصوصة وهي : إما المزاج المعتدل ، أو النفس ، وينجر الكلام من هذا البحث إلى أن النفس ما هي ، ولا شك أنها من أغمض المسائل .

الجواب : الصحيح أن يقال لما كان ذلك الهيكل بحيث سيصير آدم عن قريب سماه آدم عليه السلام قبل ذلك ، تسمية لما سيقع بالواقع .

والجواب الثالث : أن قوله ﴿ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ يفيد تراخي هذا الخبر عن ذلك الخبر كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ [البلد : 17] ويقول القائل : أعطيت زيداً اليوم ألفاً ثم أعطيته أمس ألفين ، ومراده : أعطيته اليوم ألفاً ، ثم أنا أخبركم أني أعطيته

أمس ألفين فكذا قوله ﴿ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ أي صيره خلقاً سوياً ثم إنه يخبركم أني إنما خلقته بأن قلت له ﴿ كُنَّ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 67.

68 ﴾

فصل

قال الفخر :

في الآية إشكال آخر وهو أنه كان ينبغي أن يقال : ثم قال له كن فكان فلم يقل كذلك بل قال : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

والجواب : تأويل الكلام ، ثم قال له ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فكان .

واعلم يا محمد أن ما قال له ربك ﴿ كُنَّ ﴾ فإنه يكون لا محالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 68 ﴾

(161/120)

من فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى ﴾ ذكر غير واحد أن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم

: مالك تشتم صاحبنا ؟ قال : ما أقول ؟ قالوا : تقول : إنه عبد الله قال : أجل هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول فغضبوا وقالوا : هل رأيت إنساناً قط من غير أب فإن كنت صادقاً فأرنا مثله فأنزل الله تعالى هذه الآية" . وأخرج البيهقي في "الدلائل" من طريق سلمة بن عبد يسوع عن أبيه عن جده "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى أهل نجران قبل أن ينزل عليه ﴿ طس ﴾ [النمل : 1] سليمان : بسم إله إبراهيم وإسحق ويعقوب من محمد رسول الله إلى أسقف نجران وأهل نجران إن أسلمتم فإني أحمد الله إليكم إله إبراهيم وإسحق ويعقوب أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد فإن أبيتم فالجزية فإن أبيتم فقد أذنتم بحرب والسلام ، فلما قرأ الأسقف الكتاب فظع به وذعر ذعراً شديداً فبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له شرحبيل بن وداعة فدفع إليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأه فقال له الأسقف : ما رأيك ؟ فقال شرحبيل : قد علمت ما وعد الله تعالى إبراهيم في ذرية إسمعيل من النبوة فما يؤمن أن يكون هذا الرجل نبياً وليس لي في النبوة رأي لو كان أمر من أمر الدنيا أشرت عليك فيه وجهدت لك فبعث الأسقف إلى واحد بعد واحد من أهل نجران فكلهم قال مثل قول شرحبيل فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا شرحبيل وعبد الله بن شرحبيل ، وحيار بن قنص فيأتونهم بخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق الوفد حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألهم وسألوه فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا : ما

تقول في عيسى ابن مريم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما عندي فيه شيء يومي هذا فأقيموا حتى أخبركم بما يقال لي في عيسى صبح الغداة فأنزل الله هذه الآية ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ فَنَجْعَل لَّعْنَتُ

(162/120)

الله عَلَى الكاذبين ﴾ [آل عمران : 61] فأبوا أن يقروا بذلك فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم الغد بعد ما أخبرهم الخبر أقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خميلة له وفاطمة تمشي عند ظهره للملاعنة وله يومئذ عدة نسوة فقال شرحبيل لصاحبيه : إني أرى أمراً ثقيلاً إن كان هذا الرجل نبياً مرسلاً فتلاعناه لا يبقى على ظهر الأرض منا شعر ولا ظفر إلا هلك فقالا له : ما رأيك ؟ فقال : رأيي أن أحكمه فإني أرى رجلاً لا يحكم شططاً أبداً فقالا له : أنت وذاك فتلقى شرحبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني رأيت خيراً من ملاعنتك قال : وما هو ؟ قال : حكمك اليوم إلى الليل وليلك إلى الصباح فما حكمت فينا فهو جائز فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يلاعنهم وصالحهم على الجزية ، وروي غير ذلك كما سيأتي قريباً ، والمثل هنا ليس هو المثل المستعمل في التشبيه والكاف زائدة كما قيل به بل بمعنى الحال والصفة العجيبة أي : إن

صفة عيسى عندَ الله أي : في تقديره وحكمه ، أو فيما غاب عنكم ولم تطلعوا على كنهه ، والظرف متعلق فيما تعلق به الجار في قوله سبحانه : ﴿ كَمَثَلِ ءادَمَ ﴾ أي كصفته وحاله العجيبة التي لا يرتاب فيها مرتاب

(163/120)

﴿ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ جملة ابتدائية لا محل لها من الإعراب مبينة لوجه الشبه باعتبار أن في كل الخروج عن العادة وعدم استكمال الطرفين ، ويحتمل أنه جيء بها لبيان أن المشبه به أغرب وأخرق للعادة فيكون ذلك أقطع للخصم وأحسم للمادة شبهته ، و ﴿ مِنْ ﴾ لابتداء الغاية متعلقة بما عندها ، والضمير المنصوب لآدم والمعنى ابتدأ خلق قالبه من هذا الجنس ﴿ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي صر بشراً فصار ، فالتراخي على هذا زماني إذ بين إنشائه مما ذكر وإيجاد الروح فيه وتصييره لحماً ودماً زمان طويل ، فقد روي أنه بعد أن خلق قالبه بقي ملقى على باب الجنة أربعين سنة لم تنفخ فيه الروح ؛ والتعبير بالمضارع مع أن المقام مقام المضي لتصوير ذلك الأمر الكامل بصورة المشاهد الذي يقع الآن إيذاناً بأنه من الأمور المستغربة العجيبة الشأن ، وجوز أن يكون التعبير بذلك لما أن الكون مستقبل بالنظر إلى ما قبله ، وذهب كثير من المحققين إلى أن ﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي في الأخبار لا في المخبر به ،

وحملوا الكلام على ظاهره ، ولا يضر تقدم القول على الخلق في هذا الترتيب والتراخي كما لا يخفى ، والضمير المجرور عائد على ما عاد عليه الضمير المنصوب ، والقول بأنه عائد على عيسى ليس بشيء لما فيه من التفكيك الذي لا داعي إليه ولا قرينة تدل عليه ، قيل : وفي الآية دلالة على صحة النظر والاستدلال لأنه سبحانه احتج على النصارى وأثبت جواز خلق عيسى عليه السلام من غير أب بخلق آدم عليه السلام من غير أب ولا أم ، ثم إن الظاهر أن عيسى عليه السلام خلقه الله سبحانه من نطفة مريم عليها السلام بجعلها قابلة لذلك ومستعدة له كما أشرنا إليه فيما تقدم . والقول بأنه خلق من الهواء كما خلق آدم من التراب مما لا مستند له من عقل ولا نقل ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [الأنبياء : 12] لا يدل عليه بوجه أصلا . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 3 صـ 186.187 ﴾

(164/120)

ومن فوائد السمرقندى

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله ﴾ نزلت في وفد نجران ، السيد والعاقب ، والأسقف ، وجماعة من علمائهم وأحبارهم ، قدموا على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وناظروه في أمر

عيسى عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ " ، فقالوا : أرنا خلقاً من خلق الله تعالى بغير أب ، وكَانَ يُحيي الموتى ، وكان فيه دليل على ما قلنا ، وكانوا يقولون : إنه اتخذه ابناً ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أَسْلِمُوا " فقالوا : قد أسلمنا قبلك ، فقال لهم : "كَذَبْتُمْ ، إِنَّمَا يَمْنَعُكُمْ مِنَ الإِسْلامِ ثَلاثٌ ، أَكْلُ لَحْمِ الخَنْزِيرِ ، وَعِبَادَةُ الصَّلِيبِ ، وَقَوْلُكُمْ : للهِ وَلَدٌ " ، فقالوا له : من أبو عيسى ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ يعني : شبه خلق عيسى عند الله كشبه خلق آدم ﴿ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ يعني : صوّره من غير أب ولا أم ﴿ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ فكان بشراً بغير أب ، كذلك عيسى كان بشراً بغير أب ، وفي هذه الآية دليل علمي أن الشيء يشبه بالشيء ، وإن كان بينهما فرق كبير ، بعد أن يجتمعا في وصف واحد ، كما أن ها هنا خلق آدم من تراب ، ولم يخلق عيسى من تراب ، وكان بينهما فرق من هذا الوجه ، ولكن الشبه بينهما أنه خلقهما من غير أب ، ولأن أصل خلقهما جميعاً كان من تراب ، لأن آدم لم يخلق من نفس التراب ، ولكنه جعل التراب طيناً ، ثم جعله صلصالاً ، ثم خلقه منه ، فكذلك عيسى عليه السلام حوله من حال إلى حال ، ثم خلقه بشراً من غير أب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 244 ﴾

وقال ابن كثير :

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ ﴾ في قدرة الله تعالى حيث خلقه من غير أب ﴿ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ فإن الله تعالى خلقه من غير أب ولا أم ، بل ﴿ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ والذي خلق آدم قادر على خلق عيسى بطريق الأولى والأحرى ، وإن جاز ادعاء البنوة في عيسى بكونه مخلوقا من غير أب ، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى ، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل ، فدعواها في عيسى أشد بطلانا وأظهر فسادًا . ولكن الرب ، عَزّ وجل ، أراد أن يظهر قدرته لخلقه ، حين خَلَق آدم لا من ذكر ولا من أنثى ؛ وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى ، ولهذا قال تعالى في سورة مريم : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ [مريم : 21] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 49 ﴾

لطيفة

قال ابن عادل :

وعن بعض العلماء أنه أسِر بالروم ، فقال لهم : لِمَ تعبدون عيسى ؟ قالوا : لأنه لا أبَ له . قال : فآدم أوْلَى ؛ لأنه لا أبوين له ، قالوا : فإنه كان يُحْيي الموتَى ؟ قال : فحَزقيل أوْلَى ؛ لأن عيسى أحْيَى أربعةَ نفر ، وحزقيل أحْيَى ثَمَانِيَةَ آلاف ، قالوا : فإنه كان يُبْرِئُ الأكمه

والأبرص .

قال : فجَرْجيس أوْلَى ؛ لأنه طُبخَ ، وأحرق ، وخَرَجَ سَالِماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 278 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ الآية .

خَصَّهما بتطهير الروح عن التناسخ في الأصلاب وأفرد آدم بصفَةِ البدء ؛ وعيسى عليه السلام بتخصيص نفخ الروح فيه على وجه الإعزاز ، وهما وإنْ كانا كبيري الشأن فنِقْصُ الحدثان والمخلوقية لازِمٌ لهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 246 ﴾

لطيفة

قال أبو حيان :

وقال بعض أهل العلم : المشاركة بين آدم وعيسى في خمسة عشر وصفاً : في التكوين ، و : في الخلق من العناصر التي ركب الله منها الدنيا .

وفي العبودية ، وفي النبوّة .

وفي المحنة : عيسى باليهود ، وآدم بابليس ، وفي : أكلهما الطعام والشراب ، وفي الفقر إلى الله .

وفي الصورة ، وفي الرفع إلى السماء والإنزال منها إلى الأرض ، وفي الإلهام ، عطس آدم فألهم ، فقال الحمد لله .

وألهم عيسى ، حين أخرج من بطن أمّة فقال : ﴿ إني عبد الله ﴾ وفي العلم ، قال : ﴿ وعلم آدم الاسماء ﴾ وقال : ﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة ﴾ وفي نفخ الروح فيهما ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾ وفي الموت ، وفي فقد الأب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 501 ﴾

(167/120)

فصل

قال الإمام السهيلى رحمه الله :

ذكر نصارى نجران وما أنزل الله فيهم

قد تقدم أن نجران عرفت بنجران بن زيد بن يشجب بن يعرب بن قحطان وأما أهلها فهم

بنو الحارث بن كعب من مذحج .

أسماء وفد نجران ومعتقدهم ومجادلتهم الرسول صلى الله عليه وسلم قال ابن إسحاق :

فكانت تسمية الأربعة عشر الذين يئول إليهم أمرهم العاقب وهو عبد المسيح والسيد وهو الأيهم ، وأبو حارثة بن علقمة أخو بني بكر بن وائل ، وأوس والحارث وزيد وقيس ، ويزيد ونبيه وخويلد وعمرو ، وخالد وعبد الله ويحنس في ستين راكبا ، فكلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منهم أبو حارثة بن علقمة ، والعاقب عبد المسيح والأيهم السيد - وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف من أمرهم يقولون هو الله ويقولون هو ولد الله ويقولون هو ثالث ثلاثة . وكذلك قول النصرانية .

فهم يحتجون في قولهم " هو الله " بأنه كان يحيي الموتى ، ويبرئ الأسقام ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طائرا ، وذلك كله بأمر الله تبارك وتعالى : ولنجعله آية للناس

ويحتجون في قولهم " إنه ولد الله " بأنهم يقولون لم يكن له أب يعلم وقد تكلم في المهد وهذا لم يصنعه أحد من ولد آدم قبله .

ويحتجون في قولهم " إنه ثالث ثلاثة " بقول الله فعلنا ، وأمرنا ، وخلقنا ، وقضينا ، فيقولون لو كان واحدا ما قال إلا فعلت ، وقضيت ، وأمرت ، وخلقت ، ولكنه هو وعيسى ومريم . ففي كل ذلك من قولهم قد نزل القرآن - فلما كلمه الحبران ، قال لهما رسول الله

صلى الله عليه وسلم أسلما ، قالا : قد أسلمنا ، قال إنكما لم تسلما ، فأسلما ، قالا : بلى ، قد أسلمنا قبلك . قال كذبتما ، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدا ، وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير قالا : فمن أبوه يا محمد ؟ فصمت عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم - فلم يجبهما

(تأويل كن فيكون)

(168/120)

ذكر فيه قولهم للنبي صلى الله عليه وسلم من أبوه يا محمد يعنون عيسى ، فأنزل الله تعالى : إن مثل عيسى عند الله إلى قوله كن فيكون وفيها نكتة فإن ظاهر الكلام أن يقول خلقه من تراب ثم قال له كن فكان فيعطف بلفظ الماضي على الماضي ، والجواب أن الفاء تعطي التعقيب والتسبيب فلو قال فكان لم تدل الفاء إلا على التسبيب وأن القول سبب للكون فلما جاء بلفظ الحال دل مع التسبيب على استعقاب الكون للأمر من غير مهل وأن الأمر بين الكاف والنون قال له كن فإذا هو كائن واقتضى لفظ فعل الحال كونه في الحال فإن قيل وهي مسألة أخرى : إن آدم مكث دهرا طويلا ، وهو طين صلصال وقوله للشيء كن فيكون يقتضي التعقيب وقد خلق السموات والأرض في ستة أيام وهي ستة آلاف سنة فأين قوله

كن فيكون من هذا ؟

فالجواب ما قال أهل العلم في هذه المسألة وهو أن قول الباري سبحانه كن يتوجه إلى المخلوق مطلقا ومقيدا ، فإذا كان مطلقا كان كما أراد لحينه وإذا كان مقيدا بصفة أو بزمان كان كما أراد على حسب ذلك الزمان الذي تقيد الأمر به فإن قال له كن في ألف سنة كان في ألف سنة وإن قال له كن فيما دون اللحظة كان كذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الروض الأنف 5 صـ 8.5 ﴾

(169/120)

لطيفة

قال فى الميزان :

منزلة عيسى عند الله وموقفه في نفسه

كان (عليه السلام) عبدا لله

وكان نبيا سورة مريم آية 30

وكان رسولا إلى بني إسرائيل آل عمران آية 49

وكان واحدا من الخمسة أولي العزم صاحب شرع وكتاب وهو الإنجيل الأحزاب آية 7

الشورى آية 13 المائدة آية 46

وكان سماه الله بالمسيح عيسى آل عمران آية 45

وكان كلمة لله وروحا منه النساء آية 171

وكان إماما الأحزاب آية 7

وكان من شهداء الأعمال النساء آية 159 المائدة آية 117

وكان مبشرا برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الصف آية 6

وكان وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين آل عمران آية 45

وكان من المصطفين آل عمران آية 33

وكان من المجتبين وكان من الصالحين الأنعام آية 85.87

وكان مباركا أينما كان وكان زكيا وكان آية للناس ورحمة من الله وبرا بوالدته وكان مسلما عليه مريم آية 33 وكان ممن علمه الله الكتاب والحكمة آل عمران آية 48 فهذه اثنتان وعشرون خصلة من مقامات الولاية هي جمل ما وصف الله به هذا النبي المكرم ورفع بها قدره. انتهى انتهى. اهـ ﴿الميزان حـ 3 صـ 282.281﴾

كلام نفيس للعلامة ابن القيم عن عقيدة النصارى

قال عليه الرحمة :

"المثلثة" ، أمة الضلال ، وعباد الصليب ، الذين سبوا الله الخالق مسبّة ما سبّه إياها أحد من البشر ، ولم يقروا بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذي ﴿ لم يلده ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ، ولم يجعلوه أكبر من كل شيء ، بل قالوا فيه ما ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً ﴾ ، فقل ما شئت في طائفة أصل عقيدتها : إن الله ثالث ثلاثة ، وإن مريم صاحبته ، وإن المسيح ابنه ، وأنه نزل عن كرسي عظمته والتحم ببطن الصاحبة ، وجرى له ما جرى ، إلى أن قتل ومات ودفن ، فدينها عبادة الصلبان ، ودعاء الصور المنقوشة بالأحمر والأصفر في الحيطان ، يقولون في دعائهم : يا والدة الإله ارزقينا ، واغفري لنا وارحمينا ! .

فدينهم : شرب الخمور ، وأكل الخنزير ، وترك الختان ، والتعبد بالنجاسات ، واستباحة كل خبيث من الفيل إلى البعوضة ، والحلال ما حلله القس والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه ، وهو الذي يغفر لهم الذنوب ، وينجيهم من عذاب السعير . انتهى انتهى . اهـ ﴿ هداية الحيارى صـ 20 . 21 ﴾

وقال أيضا :

[فصل : أساس دين النصارى قائم على شتم الله والشرك به خرافة الفداء]

وإن كان المعير للمسلمين من أمة الضلال وعبّاد الصليب والصور المدهونة في الحيطان والسقوف .

فيقال له : ألا يستحيي من أصل دينه الذي يدين به : اعتقاده أن رب السموات والأرض – تبارك وتعالى – نزل عن كرسي عظمته وعرشه ، ودخل في فرج امرأة تأكل وتشرب وتبول وتتغوط وتحيض ، فالتحم ببطنها ، وأقام هناك تسعة أشهر ، يتلبط بين نجو وبول ودم طمث ، ثم خرج إلى القماط والسرير ، كلما بكي ألقمته أمه ثديها ، ثم انتقل إلى المكتب بين الصبيان ، ثم آل أمره إلى لطم اليهود خديه ، وصفعهم قفاه ، وبصقهم في وجهه ، ووضعهم تاجاً من الشوك على رأسه ، والقصبة في يده ، استخفافاً به وانتهاكاً لحرمته .

(171/120)

ثم قربوه من مركب خص بالبلاء راكبه ، فشدوه عليه ، وربطوه بالحبال ، وسمروا يديه ورجليه ، وهو يصيح ويبكي ويستغيث من حر الحديد وألم الصلب .

هذا وهو الذي خلق السموات والأرض ، وقسم الأرزاق والآجال ، ولكن اقتضت حكمته ورحمته أن يمكن أعداءه من نفسه لينالوا منه ما نالوا ، فيستحقوا بذلك العذاب والسجن في الجحيم ، ويفدي أنبياءه ورسله وأولياءه بنفسه ، فيخرجهم من سجن إبليس

، فإن روح آدم وإبراهيم ونوح وسائر النبيين عندهم كانت في سجن إبليس في النار ، حتى خلصها من سجنه بتمكينه أعداءه من صلبه .

وأما قولهم في "مريم" ، فإنهم يقولون : إنها أم المسيح ابن الله في الحقيقة ، ووالدته في الحقيقة ، لا أم لابن الله إلا هي ، ولا والدة له غيرها ، ولا أب لابنها إلا الله ، ولا ولد له سواه ، وإن الله اختارها لنفسه ولولادة ولده وابنه من بين سائر النساء ، بأنها حبلت بابن الله ، وولدت ابنه الذي لا ابن له في الحقيقة غيره ، ولا والد له سواه ، وإنها على العرش جالسة عن يسار الرب تبارك وتعالى والد ابنها ، وابنها عن يمينه .

والنصارى يدعونها ، ويسألونها سعة الرزق ، وصحة البدن ، وطول العمر ، ومغفرة الذنوب ، وأن تكون لهم عند ابنها ووالده ، الذي يعتقد عامتهم أنه زوجها ، ولا ينكرون ذلك عليهم ، سوراً وسنداً وذخراً وشفيعاً وركناً ، ويقولون في دعائهم : يا والدة الإله اشفعي لنا . وهم يعظمونها ويرفعونها على الملائكة وعلى جميع النبيين والمرسلين ، ويسألونها ما يسأل الإله من العافية والرزق والمغفرة ، حتى أن "اليعقوبية" يقولون في مناجاتهم لها : يا مريم ، يا والدة الله ، كوني لنا سوراً وسنداً وذخراً وركناً ، "والنسطورية" يقولون : يا والدة المسيح كوني لنا كذلك ! ، ويقولون لليعقوبية : لا تقولوا يا والدة الإله ، وقولوا : يا والدة المسيح ، فقالت لهم اليعقوبية : المسيح عندنا وعندكم إله في

الحقيقة ، فأي فرق بيننا وبينكم في ذلك ؟ ، ولكنكم أردتم مصالحة المسلمين ومقاربتهم في التوحيد .

(172/120)

هذا ؛ والأوقاح الأرجاس من هذه الأمة تعتقد أن الله سبحانه اختار مريم لنفسه ولولده ، وتخطاها كما يتخطى الرجل المرأة .

قال النظام بعد أن حكى ذلك عنهم : "وهم يفصحون بهذا عند من يثقون به ، وقد قال ابن الأخشيد هذا عنهم في المعونة ، وقال : إليه يشيرون ، ألا ترون أنهم يقولون : من لم يكن والداً يكون عقيماً ، والعقم آفة وعيب ، وهذا قول جميعهم ، وإلى المباضعة يشيرون ، ومن خالط القوم وطاولهم وباطنهم عرف ذلك منهم ، فهذا كفرهم وشركهم برب العالمين ، ومسبتهم له ، ولهذا قال فيهم أحد الخلفاء الراشدين : أهينوهم ولا تظلموهم ، فلقد سبوا الله مسبة ما سبه إياها أحد من البشر" .

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه في الحديث الصحيح أنه قال : "شتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وكذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، أما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، وأما تكذيبه إياي فقوله :

لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته" .

فلو أتي الموحدون بكل ذنب ، وفعلوا كل قبيح ، وارتكبوا كل معصية ؛ ما بلغت مثقال ذرة في جنب هذا الكفر العظيم برب العالمين ، ومسبته هذا السب ، وقول العظائم فيه .

(173/120)

فما ظن هذه الطائفة برب العالمين أن يفعله بهم إذا لقوه : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ ، ويسأل المسيح على رؤس الأشهاد وهم يسمعون : ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ؟ ، فيقول المسيح مكذباً لهم ومتبرئاً منهم : ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

[فصل : النصارى مخالفون للمسيح في كل فروع دينهم أيضاً : في الطهارة والصلاة والصوم وأكل الخنزير وتعليق الصليب . . .]

فهذا أصل دينهم وأساسه الذي قام عليه .

وأما فروعه وشرائعه : فهم مخالفون للمسيح في جميعها ، وأكثر ذلك بشهادتهم وإقرارهم ، ولكن يحيلون على البطارقة والأساقفة ، فإن المسيح صلوات الله وسلامه عليه كان يتدين بالطهارة ، ويغتسل من الجنابة ، ويوجب غسل الحائض ، وطوائف النصارى عندهم أن ذلك كله غير واجب ، وأن الإنسان يقوم من على بطن المرأة ، ويبول ، ويتغوط ، ولا يمس ماء ، ولا يستجمر ، والبول والنجو ينحدر على ساقه وفخذه ، ويصلي كذلك وصلاته صحيحة تامة ، ولو تغوط وبال وهو يصلي لم يضره ، فضلاً عن أن يفسو أو يضرط ، ويقولون : إن الصلاة بالجنابة والبول والغائط أفضل من الصلاة بالطهارة ، لأنها حينئذ أبعد من صلاة المسلمين واليهود ، وأقرب إلى مخالفة الأمتين ، ويستفتح الصلاة بالتصليب بين عينيه .

(174/120)

وهذه الصلاة رب العالمين بريء منها ، وكذلك المسيح وسائر النبيين ، فإن هذه بالاستهزاء أشبه منها بالعبادة ، وحاشى المسيح أن تكون هذه صلاته ، أو صلاة أحد من الحواريين ، والمسيح كان يقرأ في صلاته ما كان الأنبياء وبنوا إسرائيل يقرؤنه في صلاتهم من التوراة والزبور ، وطوائف النصارى إنما يقرؤن في صلاتهم كلاماً قد لحنه لهم الذين يتقدمون

ويصلون بهم ، يجري مجرى النوح والأغاني . فيقولون : هذا قداس فلان ، وهذا قداس فلان . ينسبونه إلى الذين وضعوه ، وهم يصلون إلى الشرق ، وما صلى المسيح إلى الشرق قط ، وما صلى إلى أن توفاه الله إلا إلى بيت المقدس ، وهي قبلة داود والأنبياء قبله ، وقبلة بني إسرائيل .

والمسيح اختتن ، وأوجب الختان ، كما أوجبه موسى وهارون والأنبياء قبل المسيح .

والمسيح حرّم الخنزير ، ولعن آكله ، وبالغ في ذمه ، والنصارى تقر بذلك ، ولقي الله ولم يطعم من لحمه بوزن شعيرة ، والنصارى تتقرب إليه بأكله .

والمسيح ما شرع لهم هذا الصوم الذي يصومونه قط ، ولا صامه في عمره مرة واحدة ، ولا أحد من أصحابه ، ولا صام صوم العذارى في عمره ، ولا أكل في الصوم ما يأكلونه ، ولا حرم فيه ما يحرمونه ، ولا عطل السبت يوماً واحد حتى لقي الله ، ولا اتخذ الأحد عيداً قط ، والنصارى تقر أنه رقى مريم المجد الأنسية ، فأخرج منها سبع شياطين ، وأن الشياطين قالت له : أين نأوي ؟ ، فقال لها : اسلكي هذه الدابة النجسة ، يعني : الخنزير .

فهذه حكاية النصارى عنه ، وهم يزعمون أن الخنزير من أطهر الدواب وأجملها .

والمسيح سار في الذبائح والمناكح والطلاق والمواريث والحدود سيرة الأنبياء قبله .

[الراهب والقسيس يغفر ذنوبهم ! ! ويطيب لهم نسائهم !]

وليس عند النصارى على من زنا أو لاط أو سكر حد في الدنيا أبداً ، ولا عذاب في الآخرة ، لأن القس والراهب يغفره لهم ، فكلما أذنب أحدهم ذنباً أهدى للقس هدية أو أعطاه درهماً أو غيره ليغفر له ربه ! ! ، وإذا زنت امرأته أحدهم بيّتها عند القس ليطيبها له ، فإذا انصرفت من عنده وأخبرت زوجها أن القس طيبها قبل ذلك منها وتبرك به ! .

[المسيح لم يفوض الأساقفة والبتاركة في التشريع]

مناقضة النصارى لليهود

وهم يقرون أن المسيح قال : "إنما جئتكم لأعمل بالتوراة وبوصايا الأنبياء قبلي ، وما جئت ناقضاً بل متمماً ، ولأن تقع السماء على الأرض أيسر عند الله من أن أنقض شيئاً من شريعة موسى ، ومن نقض شيئاً من ذلك يدعى ناقضاً في ملكوت السماء" .

وما زال هو وأصحابه كذلك إلى أن خرج من الدنيا ، وقال لأصحابه : "اعملوا بما رأيتموني أعمل ، وارضوا من الناس بما أرضيتكم به ، ووصوا الناس بما وصيتكم به ، وكونوا معهم كما كنت معكم ، وكونوا لهم كما كنت لكم" .

وما زال أصحاب المسيح بعده على ذلك قريباً من ثلاثمائة سنة ، ثم أخذ القوم في التغير والتبديل ، والتقرب إلى الناس بما يهوون ، ومكايدة اليهود ومناقضتهم بما فيه ترك دين المسيح ، والانسلاخ منه جملة .

فرأوا اليهود قد قالوا في المسيح : إنه ساحر مجنون ، ممخرق ، ولد زنية . فقالوا : هو إله تام ، وهو ابن الله ! ! . ورأوا اليهود يختتنون فتركوا الختان ! ! .

(176/120)

ورأوهم يبالغون في الطهارة فتركوها جملة ! ! . وراوهم يتجنبون مؤاكلة الحائض وملامستها ومخالطتها جملة ، فجامعوها . وراوهم يحرمون الخنزير ، فأباحوه وجعلوه شعار دينهم . ورأوهم يحرمون كثيراً من الذبائح والحيوان ، فأباحوا ما دون الفيل إلى البعوضة ، وقالوا : كل ما شئت ، ودع ما شئت ، لا حرج . وراوهم يستقبلون بيت المقدس في الصلاة ، فاستقبلوا هم الشرق . ورأوهم يحرمون على الله نسخ شريعة شرعها ، فجوزوا هم لأساقفتهم وبتاركتهم أن ينسخوا ما شاؤا ، ويحللوا ما شاؤا ، ويحرموا ما شاؤا . ورأوهم يحرمون السبت ويحفظونه ، فحرموا هم الأحد وأحلوا السبت ، مع إقرارهم بأن المسيح كان يعظم السبت ويحفظه . ورأوهم ينفرون من الصليب ، فإن في التوراة : "ملعون من تعلق بالصليب" ، والنصارى تقر بهذا ، فعبدوا هم الصليب . كما أن في التوراة تحريم الخنزير نصاً فتعبدوا هم بأكله . وفيها الأمر بالختان ، فتعبدوا هم بتركه ، مع إقرار النصارى بأن المسيح قال لأصحابه : "إنما جئتكم لأعمل بالتوراة ووصايا الأنبياء

قبلي ، وما جئت ناقضاً بل متمماً ، ولأن تقع السماء على الأرض أيسر عند الله من أن أنقض شيئًا من شريعة موسى" ، فذهبت النصارى تنقضها شريعة شريعة في مكايدة اليهود ومغايظتهم.

(177/120)

وانضاف إلى هذا السبب ما في كتابهم المعروف عندهم "بافركسيس" : أن قوماً من النصارى خرجوا من بيت المقدس وأتوا أنطاكية وغيرها من الشام ، فدعوا الناس إلى دين المسيح الصحيح ، فدعوهم إلى العمل بالتوراة وتحريم ذبائح من ليس من أهلها ، وإلى الختان وإقامة السبت ، وتحريم الخنزير ، وتحريم ما حرمته التوراة ، فشق ذلك على الأمم واستثقلوه ، فاجتمع النصارى ببيت المقدس وتشاوروا ، فيما يحتالون به على الأمم ليحببوهم إلى دين المسيح ، ويدخلوا فيه ، فاتفق رأيهم على مداخلة الأمم ، والترخيص لهم ، والاختلاط بهم ، وأكل ذبائحهم ، والانحطاط في أهوائهم ، والتخلق باخلاقهم ، وإنشاء شريعة تكون بين شريعة الإنجيل وما عليه الأمم ، وأنشأوا في ذلك كتاباً ، فهذا أحد مجامعهم الكبار ، وكانوا كلما أرادوا إحداث شيء اجتمعوا معاً وافترقوا فيه على ما يريدون إحداثه ، إلى أن اجتمعوا المجمع الذي لم يجتمع لهم أكبر منه في عهد قسطنطين

الرومي ابن هيلانة الحرانية الفندقية ، وفي زمنه بدل دين المسيح ، وهو الذي أشاد دين النصارى المبتدع وقام به وقعد ، وكان عدتهم زهاء ألفى رجل ، فقرروا تقريراً ثم رفضوه ولم يرتضوه ، ثم اجتمع ثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً منهم - والنصارى يسمونهم الآباء - ، فقرروا هذا التقرير الذي هم عليه اليوم ، وهو أصل الأصول عند جميع طوائفهم ، لا يتم لأحد منهم نصرانية إلا به ، ويسمونه "سنهودس" وهي "الأمانة" ! ! .

أمانة المثلثة أكبر خيانة

(178/120)

ولفظها : "نؤمن بالله الأب الواحد ، خالق ما يرى وما لا يرى ، وبالرب الواحد اليسوع المسيح ابن الله بكر أبيه ، وليس بمصنوع ، إله حق من إله حتى ، من جوهر أبيه ، الذي بيده أتقنت العوالم ، وخلق كل شيء ، الذي من أجلنا معشر الناس ومن أجل خلاصنا نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ومن مريم البتول ، وحبلت به مريم البتول وولدته ، وأخذ وصلب ، وقتل أيام فيلاطس الرومي ، ومات ودفن ، وقام في اليوم الثالث كما هو مكتوب ، وصعد إلى السماء ، وجلس عن يمين أبيه ، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء .

ونؤمن بالرب الواحد ، روح القدس ، روح الحق ، الذي يخرج من أبيه روح محبته ، وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا ، وبجماعة واحدة قديسية سليحية جاثليقية ، وبقيام أبداننا ، وبالحياة الدائمة إلى أبد الآبدين" .

فصرحوا فيه بأن المسيح رب ، وأنه ابن الله ، وأنه بكره ليس له ولد غيره ، وأنه ليس بمصنوع ، أي : ليس بعبد مخلوق ، بل هو رب خالق ، وأنه إله حق ، استل وولد من إله حق ، وأنه مساوٍ لأبيه في الجوهر ، وأنه بيده أتقنت العوالم ، وهذه اليد التي أتقنت العوالم بها عندهم هي التي ذاقت حر المسامير كما صرحوا به في كتبهم ، وهذه ألفاظهم ، قالوا : "وقد قال القدوة عندنا : إن اليد التي سمرها اليهود في الخشبة هي اليد التي عجنت طين آدم وخلقته ، وهي اليد التي شبرت السماء ، وهي اليد التي كتبت التوراة لموسى" ! .

قالوا : وقد وصفوا صنيع اليهودية وهذه ألفاظهم : "وإنهم لطموا الإله وضربوه على رأسه" ، قالوا : "وفي بشارة الأنبياء به : أن الإله تحبل به امرأة عذراء ، وتلده ، ويؤخذ ويصلب ويقتل" ! ! .

قالوا : "وأما "سنهودس" دون الأمم ، قد اجتمع عليه سبعمائة من الآباء وهم القدوة ، وفيه : "أن مريم حبلت بالإله وولدته وأرضعته وسقته وأطعمته" ، قالوا : "وعندنا : أن المسيح ابن آدم ، وهو ربه وخالقه ورازقه ، وابن ولده إبراهيم ، وربه وخالقه ورازقه ، وابن إسرائيل ، وربه وإلهه ورازقه ، وابن مريم ، وربها وخالقها ورازقها" ، قالوا : "وقد قال علماؤنا ومن هو القدوة عند جميع طوائفنا : "اليسوع في البدء ولم يزل كلمة ، والكلمة لم تزل الله ، والله هو الكلمة ، فذاك الذي ولدته مريم وعاينه الناس وكان بينهم هو الله ، وهو ابن الله ، وهو كلمة الله" هذه ألفاظهم .

(180/120)

قالوا : "فالقديم الأزلي خالق السموات والأرض هو الذي عاينه الناس بأبصارهم ، ولمسوه بأيديهم ، وهو الذي حبلت به مريم ، وخاطب الناس من بطنها حيث قال للأعمى : أنت مؤمن بالله ، قال الأعمى : ومن هو حتى أؤمن به ؟ ، قال : هو المخاطب لك ، ابن مريم ، فقال : آمنت بك وخر ساجداً" ، قالوا : "فالذي حبلت به مريم هو الله وابن الله وكلمة الله" ، وقالوا : "وهو الذي ولد ورضع وفطم ، وأخذ وصلب وصفع ، وكتفت يداه وسمر وبصق في وجهه ، ومات ودفن ، وذاق ألم الصلب والتسمير والقتل لأجل خلاص النصارى

من خطاياهم" . قالوا : "وليس المسيح عند طوائفنا الثلاثة بنبي ، ولا عبد صالح ، بل هو رب الأنبياء ، وخالقهم وباعثهم ومرسلهم وناصرهم ومؤيدهم ، ورب الملائكة ، قالوا : وليس مع أمه بمعنى الخلق والتدبير واللطف والمعونة ، فإنه لا يكون لها بذلك مزية على سائر الإناث ولا الحيوانات ، ولكنه معها بجبلها به واحتواء بطنها عليه ، فلهذا فارقت إناث جميع الحيوانات ، وفارق ابنها جميع الخلق ، فصار الله وابنه الذي نزل من السماء وحبلت به مريم وولدته إلهاً واحداً ، ومسيحاً واحداً ، ورباً واحداً ، وخالقاً واحداً ، لا يقع بينهما فرق ، ولا يبطل الاتحاد بينهما بوجه من الوجوه ، لا في حبل ، ولا في ولادة ، ولا في حال نوم ، ولا مرض ، ولا صلب ، ولا موت ، ولا دفن ، بل هو متحد به في حال الحبل ، فهو في تلك الحال مسيح واحد ، وخالق واحد ، وإله واحد ، ورب واحد ، وفي حال الولادة كذلك ، وفي حال الصلب والموت كذلك ، قالوا : فمنا من يطلق في لفظه وعبارته حقيقة هذا المعنى فيقول : مريم حبلت بالإله ، وولدت الإله ، ومات الإله . ومنا من يمتنع من هذه العبارة لبشاعة لفظها ويعطي معناها وحقيقتها ، ويقول : مريم حبلت بالمسيح في الحقيقة ، وولدت المسيح في الحقيقة ، وهي أم المسيح في الحقيقة ، والمسيح إله في الحقيقة ، ورب في الحقيقة ، وابن الله في الحقيقة ، وكلمة الله في الحقيقة ، لا ابن لله في الحقيقة سواه ، ولا أب للمسيح في الحقيقة إلا هو .

قالوا : فهؤلاء يوافقون في المعنى قول من قال : حبلت بالإله ، وولدت الإله ، وقتل الإله ، وصلب الإله ، ومات ودفن ، وإن منعوا اللفظ والعبارة . قالوا : وإنما منعنا هذه العبارة التي أطلقها إخواننا ، لئلا يتوهم علينا إذا قلنا : حبلت بالإله ، وولدت الإله ، وألم الإله ، ومات الإله ، أن هذا كله حل ونزل بالإله الذي هو أب ، ولكنا نقول : حل هذا كله ونزل بالمسيح ، والمسيح عندنا وعند طوائفنا إله تام ، من إله تام ، من جوهر أبيه ، فنحن وإخواننا في الحقيقة شيء واحد ، ولا فرق بيننا إلا في العبارة فقط . قالوا : فهذا حقيقة ديننا وإيماننا ، والآباء والقدوة قد قالوا قبلنا وسنوه لنا ، ومهدوه ، وهم أعلم بالمسيح منا .

ولا تختلف المثلثة عباد الصليب من أولهم إلى آخرهم أن المسيح ليس بنبي ولا عبد صالح ، ولكنه إله حق من إله حق من جوهر أبيه ، وأنه إله تام من إله تام ، وأنه خالق السموات والأرضين ، والأولين والآخرين ، ورازقهم ومحييهم ومميتهم ، وباعثهم من القبور ، وحاشرهم ومحاسبهم ومثيبهم ومعاقبهم ، والنصارى تعتقد أن الأب انخلع من ملكه كله وجعله لابنه ، فهو الذي يخلق ويرزق ، ويميت ويحيي ، ويدبر أمر السموات والأرض ، ألا تراهم يقولون في أمانتهم : "ابن الله وبكر أبهي ، وليس بمصنوع" – إلى قولهم – : "بيده أتقنت العوالم وخلق كل شيء" – إلى قولهم – : "وهو مستعد للمجئ تارة أخرى لفصل القضاء بين الأموات والأحياء" ، ويقولون في صلواته ومناجاتهم : "أنت أيها المسيح اليسوع

تحيينا وترزقنا ، وتخلق أولادنا ، وتقيم أجسادنا ، وتبعثنا وتجازينا" ! ! .

[المسيح يكذب دعوى ربوبيته وإلهيته ويصرح بأنه نبي بشر]

(182/120)

وقد تضمن هذا كله تكذيبهم الصريح للمسيح ، وإن أوهمتهم ظنونهم الكاذبة أنهم يصدقونه ، فإن المسيح قال لهم : "إن الله ربي وربكم ، وإلهي وإلهكم" ، فشهد على نفسه أنه عبد الله ، مربوب مصنوع ، كما أنهم كذلك ، وأنه مثلهم في العبودية والحاجة والفاقة إلى الله ، وذكر أنه رسول الله إلى خلقه كما أرسل الأنبياء قبله .

ففي إنجيل "يوحنا" أن المسيح قال في دعائه : "إن الحياة الدائمة إنما تجب للناس بأن يشهدوا أنك أنت الله الواحد الحق ، وأنك أرسلت اليسوع المسيح" ، وهذا حقيقة شهادة المسلمين : أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

وقال لبني إسرائيل : "تريدون قتلي وأنا رجل قلت لكم الحق الذي سمعت الله يقوله" ، فذكر ما غايته : أنه رجل بلّغهم ما قاله الله ، ولم يقل : وأنا إله ، ولا ابن الإله على معنى التوالد ، وقال : "إني لم أجيء لأعمل بمشيئة نفسي ، ولكن بمشيئة من أرسلني" ، وقال : "إن الكلام الذي تسمعونه مني ليس من تلقاء نفسي ، ولكن من الذي أرسلني ، والويل لي إن

قلت شيئاً من تلقاء نفسي ، ولكن بمشيئة هو من أرسلني " .

وكان يواصل العبادة من الصلاة والصوم ويقول : "ماجئت لأُخدم ، إنما جئت لأَخْدِم" ، فأنزل نفسه بالمنزلة التي أنزله الله بها وهي منزلة الخدام ، وقال : "لست أدين العباد بأعمالهم ، ولا أحاسبهم بأعمالهم ، ولكن الذي أرسلني هو الذي يلي ذلك منهم" ، كل هذا في الإنجيل الذي بأيدي النصارى .

وفيه : أن المسيح قال : "يارب ، قد علموا أنك قد أرسلتني ، وقد ذكرت لهم اسمك" ، فأخبر أن الله ربه ، وأنه عبده ورسوله .

وفيه : "أن الله الواحد رب كل شيء ، أرسل من أرسل من البشر إلى جميع العالم ليقبلوا إلى الحق" .

وفيه : أنه قال : "إن الأعمال التي أعمل هي الشاهدات لي بأن الله أرسلني إلى هذا العالم" .

(183/120)

وفيه : "ما أبعدني وأتعبني إن أحدثت شيئاً من قبل نفسي ، ولكن أتكلم وأجيب بما علمني ربي" . وقال : "إن الله مسحني وأرسلني ، وأنا عبد الله ، وإنما أعبد الله الواحد ليوم الخلاص" . وقال : "إن الله عز وجل ما أكل ، ولا يأكل ، وما شرب ، ولا يشرب ، ولم ينم

، ولا ينام ، ولا ولد له ، ولا يلد ، ولا يولد ، ولا رآه أحد ، ولا يراه أحد إلا مات" .

وبهذا يظهر لك سر قوله تعالى في القرآن : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ﴾ ، تذكيراً للنصارى بما قال لهم المسيح ، وقال في دعائه لما سأل ربه أن يحيي الميت : "أنا أشكرك وأحمدك لأنك تجيب دعائي في هذا الوقت وفي كل وقت ، فأسألك أن تحيي هذا الميت ليعلم بنو إسرائيل أنك أرسلتني ، وأنك تجيب دعائي" .

وفي الإنجيل : أن المسيح حين خرج من السامرية ولحق بجلجال قال : "لم يكرم أحد من الأنبياء في وطنه" ، فلم يزد على دعوى النبوة .

وفي إنجيل لوقا : "لم يقتل أحد من الأنبياء في وطنه فكيف تقتلونني" .

وفي إنجيل مرقس : "إن رجلاً أقبل إلى المسيح وقال : أيها المعلم الصالح ، أي خير أعمل لأنال الحياة الدائمة ؟ ، فقال له المسيح : لم قلت صالحاً ؟ ، إنما الصالح الله وحده ، وقد عرفت الشروط ، لا تسرق ، ولا تزني ، ولا تشهد بالزور ، ولا تخن ، وأكرم أباك وأمك" .

وفي إنجيل يوحنا : أن اليهود لما أرادوا قبضه رفع بصره إلى السماء وقال : "قد دنا الوقت يا إلهي فشرفني لديك ، واجعل لي سبيلاً أن أملك كل من ملكتني الحياة الدائمة ، وإنما الحياة الباقية أن يؤمنوا بك إلهاً واحداً ، وبالمسيح الذي بعثت ، وقد عظمتك على أهل الأرض ، واحتملت الذي أمرتني به فشرفني" ، فلم يدع سوى أنه عبد مرسل مأمور مبعوث .

وفي إنجيل متى : "لا تنسبوا أباكم الذي على الأرض ، فإن أباكم الذي في السماء وحده ، ولا تدعوا معلمين فإنما معلمكم المسيح وحده" ، والأب في لغتهم الرب المربي ، أي : لا تقولوا إلهكم وربكم في الأرض ، ولكنه في السماء ، ثم أنزل نفسه بالمنزلة التي أنزله بها ربه ومالكه وهو أن غايته أنه يعلم في الأرض ، وإلهم هو الذي في السماء .

وفي إنجيل لوقا حين دعا الله فأحيا ولد المرأة فقالوا : "إن هذا النبي لعظيم ، وإن الله قد تفقد أمته" .

وفي إنجيل يوحنا : إن لمسيح أعلن صوته في البيت ، وقال لليهود : "قد عرفتموني ، كنت كاذباً مثلكم ، وأنا أعلم وأنتم تجهلون أني منه وهو بعثني" ، فما زاد في دعواه على ما ادعاه الأنبياء ، فأمسكت المثلثة قوله : "إني منه" وقالوا : إله حق من إله حق .

وفي القرآن : ﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ ﴾ ، وقال هود : ﴿ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وكذلك قال صالح ، ولكن أمة الضلال كما أخبر الله عنهم يتبعون المتشابه ، ويردون المحكم .

وفي الإنجيل أيضاً أنه قال لليهود وقد قالوا له : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ ﴾ ، فقال لهم : "لو كان الله

أباكم لأطعمتموني ، لأني رسول منه ، خرجت مقبلاً ، ولم أقبل من ذاتي ، ولكن هو بعثني ، لكنكم لا تقبلون وصيتي ، وتعجزون عن سماع كلامي ، إنما أنتم أبناء الشيطان ، وتريدون إتمام شهواته" .

وفي الإنجيل : إن اليهود أحاطت به ، وقالت له : "إلى متى تخفي أمرك إن كنت المسيح الذي ننتظره فأعلمنا بذلك" ، ولم تقل : إن كنت الله أو ابن الله ، فإنه لم يدّع ذلك ، ولا فهمه عنه أحد من أعدائه ولا أتباعه .

(185/120)

وفي الإنجيل أيضاً : "أن اليهود أرادوا القبض عليه ، فبعثوا لذلك الأعوان ، وأن الأعوان رجعوا إلى قوادهم ، فقالوا لهم : لم لم تأخذوه ، فقالوا : ماسمعنا آدمياً أنصف منه ، فقالت اليهود : وأنتم أيضاً مخدوعون ، أترون أنه آمن به أحد من القواد ، أو من رؤساء أهل الكتاب ؟ ، فقال لهم بعض أكابرهم : أترون كتابكم يحكم على أحد قبل أن يسمع منه ؟ ، فقالوا له : اكشف الكتب ، ترى أنه لا يجيء من جلجال نبي" ، فما قالت اليهود ذلك إلا وقد أنزل نفسه بالمنزلة التي أنزله بها ربه ومالكه أنه نبي ، ولو علمت من دعواه الإلهية لذكرت ذلك له ، وأنكرته عليه ، وكان أعظم أسباب التنفير عن طاعته ، لأن كذبه كان

يعلم بالحس والعقل والفطرة واتفاق الأنبياء .

ولقد كان يجب لله سبحانه – لو سبق في حكمته أن يبرز لعباده ، وينزل عن كرسي عظمته ، ويباشرهم بنفسه – أن لا يدخل في فرج امرأة ، ويقيم في بطنها بين البول والنجو والدم عدة أشهر ، وإذ قد فعل ذلك ، لا يخرج صبياً صغيراً ، يرضع ويبكي ، وإذ قد فعل ذلك ، لا يأكل مع الناس ويشرب معهم وينام ، وإذ قد فعل ذلك فلا يبول ولا يتغوط ، ويمتنع من الخرأة إذ هي منقصة ابتلي بها الإنسان في هذه الدار لنقصه وحاجته ، وهو تعالى المختص بصفات الكمال ، المنعوت بنعوت الجلال ، الذي ما وسعته سمواته ولا أرضه ، وكرسيه وسع السموات والأرض ، فكيف وسعه فرج امرأة . تعالى الله رب العالمين .

وكلكم متفقون على أن المسيح كان يأكل ويشرب ، ويبول ويتغوط ، وينام .

[ما يراد بلفظ : "الأب" و"الرب" و"الإله" و"السيد" في كتبهم التي اشتبهت عليهم]

[أسئلة على إلهية المسيح تنتظر الجواب من عبّاد الصليب]

فيا معشر المثلثة وعبّاد الصليب ، أخبرونا من كان الممسك للسموات والأرض حين كان ربها وخالقها مربوطاً على خشبة الصليب ، وقد شدت يداه ورجلاه بالحبال ، وسمرت اليد التي أتقنت العوالم ، فهل بقيت السموات والأرض خلواً من إلهها وفاطرها ، وقد جرى عليه هذا الأمر العظيم ؟ ! ! .

أم تقولون : استخلف على تدبيرها غيره ، وهبط عن عرشه لرب نفسه على خشبة الصليب ، وليذوق حر المسامير ، وليوجب اللعنة على نفسه ، حيث قال في التوراة : "ملعون من تعلق بالصليب" أم تقولون : كان هو المدبر لها في تلك الال ، فكيف وقد مات ودفن ! ؟ .

أم تقولون – وهو حقيقة قولكم – : لا ندري ، ولكن هذا في الكتب ، وقد قاله الآباء ، وهم القدوة ! ! . والجواب عليهم ! !

فنقول لكم وللآباء معاشر المثلثة عبّاد الصليب : ما الذي دلكم على إلهية المسيح ؟ ، فإن كنتم استدللتم عليها بالقبض من أعدائه عليه ، وسوقه إلى خشبة الصليب ، وعلى رأسه تاج من الشوك ، وهم يبصقون في وجهه ويصفعونه ، ثم أركبوه ذلك المركب الشنيع ، وشدوا يديه ورجليه بالحبال ، وضربوا فيها المسامير ، وهو يستغيث ، وتعلق ، ثم فاضت نفسه وأودع ضريحه ، فما أصحه من استدلال عند أمثالكم ممن هم أضل من الأنعام ؟ ، وهم عار على جميع الأنام ! !

وإن قلتم : إنما استدللنا هذا الاستدلال صحيحاً ، فآدم إله المسيح ، وهو أحق بأن يكون إلهاً منه ، لأنه لا أم له ، ولا أب ، ولا مسيح له أم ، وحواء أيضاً اجعلوها إلهاً خامساً ، لأنها لا أم لها ، وهي أعجب من خلق المسيح ؟ ! ! ، والله سبحانه قد نوع خلق آدم وبنيه

إظهاراً لقدرته ، وأنه يفعل ما يشاء ، فخلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى ، وخلق زوجه حوى من ذكر لا من أنثى ، وخلق عبده المسيح من أنثى لا من ذكر ، وخلق سائر النوع من ذكر وأنثى .

وإن قلتم : استدللنا على كونه إلهاً بأنه أحيا الموتى ، ولا يحييهم إلا إله . فاجعلوا موسى إلهاً آخر ، فإنه أتى من ذلك بشيء لم يأت المسيح بنظيره ولا ما يقاربه ، وهو جعل الخشبة حيواناً عظيماً ثعباناً ، فهذا أبلغ وأعجب من إعادة الحياة إلى جسم كانت فيه أولاً .

(187/120)

فإن قلتم : هذا غير إحياء الموتى . فهذا اليسع النبي أتى بإحياء الموتى وهم يقرون بذلك ، وكذلك إيليا النبي أيضاً أحيا صبياً بإذن الله ، وهذا موسى قد أحيا بإذن الله السبعين الذين ماتوا من قومه ، وفي كتبكم من ذلك كثير عن الأنبياء والحواريين ، فهل صار أحد منهم إلهاً بذلك . ! ؟

وإن قلتم : جعلناه إلهاً للعجائب التي ظهرت على يديه ، فعجائب موسى أعجب وأعجب ، وهذا إيليا النبي بارك على دقيق العجوز ودهنها فلم ينفد ما في جرابها من الدقيق وما في قارورتها من الدهن سبع سنين ! ! .

وإن جعلتموه إلهاً لكونه أطعم من الأرغفة اليسيرة آلافاً من الناس ، فهذا موسى قد أطعم أمته أربعين سنة من المن والسلوى ! ! ، وهذا محمد بن عبد الله قد أطعم العسكر كله من زاد يسير جداً حتى شبعوا وملؤا أوعيتهم ، وسقاهم كلهم من ماء يسير لا يملأ اليد حتى ملؤوا كل سقاء في العسكر ، وهذا منقول عنه بالتواتر ! ؟ .

وإن قلتم : جعلناه إلهاً لأنه صاح بالبحر فسكنت أمواجه ، فقد ضرب موسى البحر بعصاه فانفلق اثنى عشر طريقاً ، وقام الماء بين الطرق كالحيطان ، وفجر من الحجر الصلد اثنى عشر عيناً سارحة . !

وإن جعلتموه إلهاً لأنه أبرأ الأكمه والأبرص ، فإحياء الموتى أعجب من ذلك ، وآيات موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أعجب من ذلك .

(188/120)

وإن جعلتموه إلهاً لأنه ادعى ذلك ، فلا يخلو إما أن يكون الأمر كما تقولون عنه ، أو يكون إنما ادعى العبودية والافتقار ، وأنه مربوب مصنوع مخلوق . فإن كان كما ادعيتم عليه فهو أخو المسيح الدجال ، وليس بمؤمن ولا صادق ، فضلاً عن أن يكون نبياً كريماً ، وجزاؤه جهنم وبئس المصير ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ ،

وكل من ادعى الإلهية من دون الله فهو من أعظم أعداء الله ، كفرعون ، ونمرود ، وأمثالهما من أعداء الله ، فأخرجتم المسيح عن كرامة الله ونبوته ورسالته ، وجعلتموه من أعظم أعداء الله ، ولهذا كنتم أشد الناس عداوة للمسيح في صور محب موال !

ومن أعظم ما يعرف به كذب المسيح الدجال أنه يدعي الإلهية ، فيبعث الله عبده ورسوله مسيح الهدى ابن مريم فيقتله ، ويظهر للخلائق أنه كان كاذباً مفترياً ، ولو كان إلهاً لم يقتل ، فضلاً عن أن يصلب ويسمر ويبصق في وجهه ! .

وإن كان المسيح إنما ادّعى أنه عبد ونبي ورسول كما شهدت به الأناجيل كلها ، ودلَّ عليه العقل والفطرة ، وشهدتم أنتم له بالإلهية – وهذا هو الواقع – ، فلم تأتوا على إلهيته ببينة غير تكذيبه في دعواه ، وقد ذكرتم عنه في أناجيلكم في مواضع عديدة ما يصرح بعبوديته ، وأنه مربوب مخلوق ، وأنه ابن البشر ، وأنه لم يدع غير النبوة والرسالة ، فكذبتموه في ذلك كله وصدقتم من كذب على الله وعليه .

وإن قلتم : إنما جعلناه إلهاً لأنه أخبر بما يكون بعده من الأمور ، فكذلك عامة الأنبياء ، وكثير من الناس يخبر عن حوادث في المستقبل جزئية ، ويكون ذلك كما أخبر به ، ويقع من ذلك كثير للكهان والمنجمين والسحرة ! .

وإن قلتم : إنما جعلناه إلهاً لأنه سمى نفسه ابن الله في غير موضع من الإنجيل ، كقوله : "إني ذاهب إلى أبي" ، "وإني سائل أبي" ، ونحو ذلك ، وابن الإله إله .

قيل : فاجعلوا أنفسكم كلكم آلهة ، في غير موضع أنه سماه : "أباه ، وأباهم" ، كقوله : "أذهب إلى أبي وأبيكم" ، وفيه : "ولا تسبوا أباكم على الأرض ، فإن أباكم الذي في السماء وحده" ، وهذا كثير في الإنجيل ، وهو يدل على أن الأب عندهم الرب .

وإن جعلتموه إلهاً لأن تلاميذه ادعوا ذلك له ، وهم أعلم الناس به ؛ كذبتم أناجيلكم التي بأيديكم ، فكلها صريحة أظهر صراحة بأنهم ما ادعوا له إلا ما ادعاه لنفسه من أنه عبد ، فهذا "متى" يقول في الفصل التاسع من إنجيله ، محتجاً بنبوة شعيا في المسيح عن الله عز وجل : "هذا عبدي الذي اصطفيته ، وحبيبي الذي ارتاحت نفسي له" ، وفي الفصل الثامن من إنجيله : "إني أشكرك يارب" ، "ويارب السموات والأرض" .

وهذا "لوقا" يقول في آخر إنجيله : "إن المسيح عرض له ولآخر من تلاميذه في الطريق ملكوهما محزونان ، فقال لهما وهما لا يعرفانه : ما بالكما محزونين ؟ ، فقالا : كأنك غريب في بيت المقدس ، إذ كنت لا تعلم ما حدث فيها في هذه الأيام من أمر الناصري ، فإنه كان رجلاً نبياً قوياً تقياً في قوله وفعله عند الله وعند الأمة ، أخذوه وقتلوه" .

وهذا كثير جداً في الإنجيل .

وإن قلتم : إننا جعلناه إلهاً لأنه صعد إلى السماء .

فهذا أخنوخ وإلياس قد صعدا إلى السماء ، وهما حيان مكرمان لم تشكهما شوكة ، ولا طمع فيهما طامع ، والمسلمون مجمعون على أن محمداً صلى الله عليه وسلم صعد إلى السماء وهو عبد محض ، وهذه الملائكة تصعد إلى السماء ، وهذه أرواح المؤمنين تصعد إلى السماء بعد مفارقتها الأبدان ، ولا تخرج بذلك عن العبودية ، وهل كان الصعود إلى السماء مخرج عن العبودية بوجه من الوجوه ؟ ! ! .

وإن جعلتموه إلهاً لأن الأنبياء سمته إلهاً ورباً وسيداً ، ونحو ذلك ، فلم يزل كثير من أسماء الله عز وجل تعلق على غيره عند جميع الأمم وفي سائر الكتب ، وما زالت الروم والفرس والهند والسريانيون والعبرانيون والقبط وغيرهم يسمون ملوكهم آلهة وأرباباً .

(190/120)

وفي السفر الأول من التوراة : "أن نبي الله دخلوا على بنات إلياس ورأوهن بارعات الجمال فتزوجوا منهن" .

وفي السفر الثاني من التوراة في قصة المخرج من مصر : "إني جعلتك إلهاً لفرعون" .

وفي المزمور الثاني والثمانين لداود : "قام الله لجميع الآلهة" هكذا في العبرانية ، وأما من نقله

إلى السريانية فإنه حرفه فقال : "قام الله في جماعة الملائكة" ، وقال في هذا المزمور وهو يخاطب قوماً بالروح : "لقد ظننت أنكم آلهة ، وأنكم أبناء الله كلكم" .

وقد سمى الله سبحانه عبده بالملك ، كما سمى نفسه بذلك ، وسماه بالرؤف الرحيم كما سمى نفسه بذلك ، وسماه بالعزيز وسمى نفسه بذلك .

اسم الرب واقع على غير الله تعالى في لغة أمة التوحيد ، كما يقال : هذا رب المنزل ، ورب الإبل ، ورب هذا المتاع ، وقد قال شعيا : "عرف الثور من اقتناه ، والحمار مربط ربه ، ولم يعرف بنو إسرائيل" .

وإن جعلتموه إلهاً لأنه صنع من الطين صورة طائر ثم نفخ فيها فصارت لحماً ودماً وطائراً حقيقة ، ولا يفعل هذا إلا الله . قيل : فاجعلوا موسى بن عمران إله الآلهة ، فإنه ألقى عصا فصارت ثعباناً عظيماً ، ثم أمسكها بيده فصارت عصا كما كانت .

وإن قلتم : جعلناه إلهاً لشهادة الأنبياء والرسل له بذلك . قال عزرا حيث سباهم بختنصر إلى أرض بابل إلى أربعمائة واثنين وثمانين سنة : "يأتي المسيح ويخلص الشعوب والأمم" ، وعند انتهاء هذه المدة أتى : المسيح ، ومن يطبق تخليص الأمم غير الإله التام . قيل لكم : فاجعلوا جميع الرسل آلهة ، فإنهم خلصوا الأمم من الكفر والشرك ، وخلصوهم من النار بإذن الله وحده ، ولا شك أن المسيح خلص من آمن به واتبعه من ذل الدنيا وعذاب الآخرة ، كما خلص موسى بني إسرائيل من فرعون وقومه ، وخلصهم بالإيمان بالله واليوم الآخر من

عذاب الآخرة ، وخلص الله سبحانه بمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله من الأمم والشعوب ما لم يخلصه نبي سواه ، فإن وجبت بذلك الإلهية لعيسى فموسى ومحمد أحق بها منه .

وإن قلتم : أوجبنا له بذلك الإلهية لقول أرمياء النبي عن ولادته : "وفي ذلك الزمان يقوم لداود ابن ، وهو ضوء النور ، يملك الملك ، ويقيم الحق والعدل في الأرض ، يخلص من آمن به من اليهود ومن بني إسرائيل ومن غيرهم ، ويبقى بيت المقدس من غير مقاتل ، ويسمى الإله" ، فقد تقدم أن اسم الإله في الكتب المتقدمة وغيرها قد أطلق على غيره هو بمنزلة الرب والسيد والأب ، ولو كان عيسى هو الله لكان أجل من أن يقال ويسمى الإله ، وكان يقول : وهو الله ، فإن الله سبحانه لا يعرف بمثل هذا ، وفي هذا الدليل الذي جعلتموه به إلهاً أعظم الأدلة على أنه عبد وأنه ابن البشر ، فإنه قال : "يقوم لداود أب" فهذا الذي قام لداود هو الذي سمي بالإله ، فعلم أنه هذا الاسم لمخلوق مصنوع مولود ، لا لرب العالمين وخالق السموات والأرضين .

وإن قلتم : إنما جعلناه إلهاً من جهة قول شعيا النبي : "قل لصهيون : يفر ويتهلل ، فإن الله

يأتي ويخلص الشعوب ، ويخلص من آمن به ، ويخلص مدينة بيت المقدس ، ويظهر الله ذراعه الطاهر فيها لجميع الأمم المتبددين ، ويجعلهم أمة واحدة ، ويصير جميع أهل الأرض خلاص الله ، لأنه يمشي معهم وبين أيديهم ، ويجمعهم إله إسرائيل" .

قيل لهم : هذا يحتاج أولاً : إلى أن يعلم أن ذلك في نبوة أشعيا بهذا اللفظ بغير تحريف للفظة ، ولا غلط في الترجمة ، وهذا غير معلوم ، وإن ثبت ذلك لم يكن فيه دليل على أنه إله تام ، وأنه غير مصنوع ولا مخلوق ، فإنه نظير ما في التوراة : "جاء الله من طور سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران" ، وليس في هذا ما يدل على أن موسى ومحمداً إلهان ، والمراد بهذا : مجيء دينه وكتابه وشرعه وهداه ونوره .

وأما قوله : "ويظهر ذراعه والطاهر لجميع الأمم المبددين" ففي التوراة مثل هذا وأبلغ منه في غير موضع . وأما قوله : "ويصر جميع أهل الأرض خلاص الله ، لأنه يمشي معهم ومن بين أيديهم" فقد قال في التوراة في السفر الخامس لبني إسرائيل : "لا تها بوهم ولا تخافوهم ، لأن الله ربكم السائر بين أيديكم وهو محارب عنكم" ، وفي موضع آخر قال موسى : "إن الشعب هو شعبك ، فقال : أنا أمضي أمامك ، فقال : إن لم تمض أنت أمامنا وإلا فلا

تصعدنا من ههنا ، فكيف أعلم أنا ، وهذا الشعب أني وجدت نعمة كذا إلا بسيرك معنا" ، وفي السفر الرابع : "إني أصعدت هؤلاء بقدرتك ، فيقولان لأهل هذه الأرض الذي سمعوا منك الله فيما بين هؤلاء القوم يرونه عيناً بعين ، وغمامك تغيم عليهم ، ويعود غماماً يسير بين أيديهم نهاراً ويعود نهاراً ليلاً" ، وفي التوراة أيضاً : "يقول الله لموسى : إني آت إليك في غلظ الغمام ، لكي يسمع القوم مخاطبتي لك" ، وفي الكتب الإلهية ، وكلام الأنبياء من هذا كثير ، وفيما حكى خاتم الأنبياء عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : "ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي" .

وإن قلتم : جعلناه إلهاً لقول زكريا في نبوته1 : "صهيون ، لأني آتيك وأحل فيك وأترائى ، وتؤمن بالله في ذلك اليوم الأمم الكثيرة ، ويكونون له شعباً واحداً ، ويحل هو فيهم ، ويعرفون أني أنا الله القوي الساكن فيك ، ويأخذ الله في ذلك اليوم الملك من يهودا ويملك عليهم إلى الأبد" .

قيل لكم : إن أوجبتم له الإلهية بهذا فلتجب لإبراهيم وغيره من الأنبياء ، فإن عند أهل الكتاب وأنتم معهم أن الله تجلى لإبراهيم ، واستعلن له وترائى له .

وأما قوله : "وأحل فيك" لم يرد سبحانه بهذا حلول ذاته التي لا تسعها السموات والأرض في بيت المقدس ، وكيف تحل ذاته في مكان يكون فيه مقهوراً مغلوباً مع شرار الخلق ؟ ! ، كيف وقد قال : "ويعرفون أني أنا الله القوي الساكن فيك" ؟ ! ، أفترى عرفوا قوته بالقبض عليه ، وشد يديه بالحبال ، وربطه على خشبة الصليب ، ودق المسامير في يديه ورجليه ، ووضع تاج الشوك على رأسه ، وهو يستغيث ولا يغاث ، وما كان المسيح يدخل بيت المقدس إلا وهو مغلوب مقهور مستخف في غالب أحواله .

ولو صح مجيء هذه الألفاظ صحة لا تدفع ، وصحت ترجمتها كما ذكروه ؛ لكان معناها أن معرفة الله والإيمان به وذكره ودينه وشرعه حل في تلك البقعة ، وبيت المقدس لما ظهر فيه دين المسيح بعد رفعه حصل فيه من الإيمان بالله ومعرفته ما لم يكن قبل ذلك .

وجماع الأمر : أن النبوات المتقدمة والكتب الإلهية لم تنطق بحرف واحد يقتضي أن يكون ابن البشر إلهاً تاماً إله حق من إله حق ، وأنه غير مصنوع ولا مربوب ، بل لم يخصه إلا بما خص به أخوه ، وأولى الناس به محمد بن عبد الله في قوله : "إنه عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه" ، وكتب الأنبياء المتقدمة وسائر النبوات موافقة لما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك كله يصدق بعضه بعضاً ، وجميع ما تستدل به المثلثة عبّاد الصليب على إلهية المسيح من ألفاظ وكلمات في الكتب ، فإنها مشتركة بين المسيح

وغيره كتسميته أباً وكلمة وروح حق وإلهاً ، وكذلك ما أطلق من حلول روح القدس فيه وظهور الرب فيه أو في مكانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ هداية الحيارى صـ 217 . 238 ﴾

(194/120)

ومن فوائد الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قال رحمه الله :

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59)

التفسير : كثر الخلاف فى المسيح عليه السلام ، لأن ميلاده كان على صورة فريدة ، لم يولد بها أحد من قبله . . وكان الناس فى هذا الميلاد شيعا وفرقا ، كل شيعه تقول فيه قولا ، وكل فرقة تذهب فيه مذهبا !

أما اليهود ، فقد ارتضوا الجريمة مركبا ، فقتلوا أنفسهم ، وقتلوا الحق معهم . . وقالوا فى المسيح إنه ولد كما يولد الناس ، من ذكر وأنثى . . وإن كان ميلاده على فراش الإثم والفاحشة . . لأنه ابن زنا ! وأما أتباع المسيح ، فقد قصرت مداركهم عن إدراك قدرة الله ، فلم تحتمل عقولهم تلك الحقيقة ، وهى أن الله قادر على كل شىء ، يخلق ما يشاء ، مما يشاء ، وكيف يشاء ! فقالوا : إن المسيح هو الله تجسد بشرا فى جسد عذراء . . وإذن

فهو ميلاد صوريّ، لأنه لم يولد إلا اللّه نفسه، الذي كان موجودا بكماله الإلهى قبل هذا الميلاد! وإذن فلا مسيح، وإنما هو اللّه تسمّى باسم بشرى، كما لبس صورة بشرية . . وإذن فهى عملية أشبه بعملية الحلول التي آمن بها كثير من قدماء المصريين، والبراهمة، وغيرهم من الأمم . . فكما كان يحلّ اللّه فى ثور، أو تمساح، أو شجرة، أو رجل . . حلّ فى جسد طفل، وخرج وليدا من بطن امرأة.

وأما المسلمون، فقد جاءهم القرآن بالخبر اليقين عن المسيح . . إنه خلق من خلق اللّه، وإنه إنسان من الناس، ولد بنفخة من روح اللّه، كما ولد هذا الوجود كله بفيض من فيض اللّه! وأقرب مثل لهذا . آدم - عليه السّلام - إنه خلق من غير أب أو أم . .

خلق من تراب هامد، لا أثر للحياة فيه . . وعيسى - عليه السّلام - خلق مولودا من كائن حيّ، هى أمّه، فأيهما أشدّ غرابة فى الخلق؟ الذي خلق من تراب هامد، أم الذي تخلّق من جسد حيّ؟

وفى قوله تعالى: «ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» ما يسأل عنه . . وهو:

كيف يقول الله للشىء كن ، ثم لا يكون واقعا فى الحال ، كما يدل على ذلك قوله تعالى : « فَيَكُونُ » التي تدل على المستقبل المتراخى ، ولو كان ما أمر الله به واقعا فى الحال ، لكانت صياغة الآية على غير هذا ، ولكانت تلك الصياغة مثلا : « ثم قال له كن فكان » . .

فكيف يكون هذا ؟ وهل أمام قدرة القادر العظيم حواجز وحوائل ، تحول بين القدرة وبين إمضاء ما قدرت ، على الفور ، وفى الحال ؟

والجواب على هذا . . هو أنّ قول الله للشىء « كن » لا يقتضى وقوع هذا الشيء فى الحال ، إذ قد يكون الأمر موقوتا بوقت ، أو متعلقا بأسباب ، لا بد أن يقترن حدوثه بها ، وهذه الأسباب لا متعلّق لها بقدرة الله ، وإنما متعلّقها بالشيء ذاته ، الذي دعته القدرة إلى الظهور ، والذي قضت حكمة الله ألا يظهر إلا بعد أن يستكمل أسبابه المقترنة به . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » (82 : يس) . فمثلا مما سبق علم الله به ، واقتضته إرادته إيجاد ، شىء ما ، وليكن هذا الإنسان أو ذاك . .

إن أمر الله قد صدر من قديم لهذا الإنسان أن يكون ، على صورة كذا ، وهيئة كذا ، وأن تحمل به أمه فى يوم كذا ، وأن يولد فى يوم كذا . .

وهكذا . .

بل وأكثر من هذا . . فإنه قبل ذلك بآلاف السنين ، بل وآلاف الآلاف منها . . تنقّل هذا

الإنسان فى أصلاب الآباء وترائب الأمهات إلى أن التقى أبوه بأمه، فى الزمن المحدد واليوم الموعود! . . وهكذا الشأن فى كل موجود . . إنه تنقل فى موجودات سبقته، وتقلّب فى أحوال وأطوار حتى صار إلى ما صار إليه.

(196/120)

وفى خلق آدم، وفى قول اللّه سبحانه وتعالى فيه: «خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» . ما يكشف عن وجه واضح من وجوه الإعجاز القرآنى، وذلك الإعجاز الذي يطالع الناس فى كل آية من آياته، الراصدة لأحداث الحياة، وتطور العقل البشرى، المتحدية للإنسانية فى كل جيل من أجيالها، وفى كل وجه من وجوهها.

وانظر فى وجه هذه المعجزة، على ضوء ما كشف العلم الحديث، من علم الأحياء، ونظرية النشوء والارتقاء. فإنك ترى عجبا من العجب. فى نظم القرآن الكريم، وما يحمل هذا النظم من أسرار وغيوب.

إن آدم - ونعنى به الإنسان - لم يخلق من تراب خلقا مباشرا، بمعنى أن اللّه سبحانه قبض قبضة من تراب، فقال لها كونى آدم - أي إنسانا - فكانت . . ولو شاء اللّه سبحانه هذا لكان كما شاء وأراد . . ولكنه - سبحانه - خلق آدم خلقا متطورا، كما يخلق الشجرة

العظيمة ـ مثلا ـ من بذرة، وكما يخلق الرجل المكتمل من نطفة! لقد تنقّل آدم ـ ونقول الإنسان ـ فى أطوار كثيرة لا حصر لها، كما يقول سبحانه: «ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً» (14: نوح» وكما يقول سبحانه فى هذه السورة: «وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً» (17: نوح).

فآدم الذي هو أول إنسان ظهر على هذه الأرض ـ قد كان ترابا..

ثم تخلّق من هذا التراب أول جرثومة للحياة، هى أدنى مراتب النبات، فى عالم الطحالب.. ثم تدرجت الأحياء فى هذا العالم النباتي إلى مداها، فكان منها النخل الذي هو قمة هذا العالم النباتي، ثم بدأت جرثومة العالم الحيواني فى الإميبيا

(197/120)

والمحّار، والإسفنج.. وذلك فى أدنى مراتب هذا العالم الذي نما صعدا حتى بلغ مداه فى فضائل القردة، التي بدأت تطل من وجهها صورة باهتة للإنسان «آدم» ثم أخذت هذه الصورة تتضح قليلا قليلا، وتنضج فى بوتقة الزمن على مهل.. حتى كان اليوم الذي أطل منه وجه «آدم»، ممثلا فى إنسان الغاب. وكان هذا الآدم هو باكورة ثمار هذه الشجرة التي امتدت جذورها فى أعماق الأرض! واقرأ الآية الكريمة مرة أخرى: «كَمَثَلِ آدَمَ

خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ . . ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ . . فَيَكُونُ » .

وقس أبعاد الزمن فى ذبذبات تلك الكلمة المعجزة . . « فيكون » .

فإنه لو انكشف لك من العلم هذا المقياس الذي تقاس به ذبذبات الكلمات . لاهتديت إلى ذلك الزمن الذي تم فيه خلق آدم ، وتنقله من طور إلى طور . .

من التراب . . إلى النبات . . إلى الحيوان . . إلى الإنسان ، ولوضعت يدك على العدد الصحيح من ملايين السنين التي قطعها « آدم » فى رحلته الطويلة عبر الزمن ، حتى كان هذا « الآدم » ! ! إن « آدم » ليس غريبا عن هذا العالم الأرضىّ الذي يعيش فيه ، والذي استولى عليه بسلطان العقل . . فهو ثمرة من ثمراته . . إنه من تراب هذه الأرض .

واقرأ مع هذا قول اللّه تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ » (4 : البلد) قوله سبحانه : « وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ . . يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (45 : النور)

وقف عند قوله

تعالى : « فَمِنْهُمْ . . وَمِنْهُمْ . . وَمِنْهُمْ » إنهم هم آدم ، وأبناء آدم ، ينتقلون فى أصلاب هذه الكائنات وأرحامها ، فى ملايين السنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 2 صـ 477.482 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾

لقد جاء القول الفصل بالحجة الأقوى ، فإذا كان عيسى عليه السلام قد جاء بدون أب ، فإن آدم عليه السلام قد جاء بدون أب ، وبدون أم ، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعلمون أني رسول الله وأنني نبي هذه الأمة ، فقالوا : أنظرنا غدا نتكلم في هذه المسائل ، ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان فقالوا : لا .

وعندما يعرض الحق سبحانه صراع قضية حق مع قضية باطل فهو يقول :

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

[سبأ : 24] .

أي إن طرفا واحدا على الهدى ، والطرف الآخر على ضلال مبين ، لماذا ؟ لأن القضيتين متناقضتان ، ولا يمكن أن يجتمعا ، ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يجتمع بهم في مكان ظاهر ، ويدعو الطرفان الأبناء والنساء ، ويبتهل الجميع إلى الله الحق أن تُستَنْزل لعنة الله على الكاذبين ، وفي هذا جاء القول الكريم : ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِّنَ الْمُمْتَرِينَ . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1518.1517 ﴾

قوله تعالى ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (60) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ابتدأ القصة بالحق في قوله : ﴿ نزل عليك الكتاب بالحق ﴾ ختمها بذلك على وجه آكد وأضخم فقال : ﴿ الحق ﴾ أي الكامل في الثبات كائن ﴿ من ربك ﴾ أي المحسن إليك بأنه لا يدع لخصم عليك مقالاً ، ولما تسبب عما مضى نقلاً وعقلاً الاعتقاد الحق في أمر عيسى عليه الصلاة والسلام قال : ﴿ فلا تكن من الممترين ﴾ مشيراً بصيغة الافتعال إلى أنه لا يشك فيه بعد هذا إلا من أمعن الفكر في شبه يثيرها وأوهام يزاولها ويستزيرها ، وما أحسن ما في سفر الأنبياء الإسرائيليين الذي هو بأيدي الطائفتين اليهود ثم النصارى ، يتناقلونه معتقدين ما فيه ، وأوضحه في خلاف معتقدهم في عيسى عليه الصلاة والسلام وموافقة معتقدنا فيه ، لكنهم لا يتدبرون ، وذلك أنه قال في نبوة أشعيا عليه السلام : اسمع مني يا يعقوب عبدي وأنت يا إسرائيل الذي انتخبته ! أنا الذي خلقتك في الرحم وأعنتك ، ثم قال : هكذا يقول : يقول الرب : أنا الذي جبلتك في الرحم وخلصتك وأعنتك ، أنا الذي

خلقت الكل ، وأنا الذي مددت السماء وحدي ، وأنا الذي ثبتّ الأرض ، أنا الذي أبطل آيات العرافين ، وأصير كل تعريفهم جهلاً ، وأرد الحكماء إلى خلفهم ، وأعرف أعمالهم للناس ، وأثبت كلمة عبيدي ، وأتمم قول رسلي ؛ ثم قال : أنا الرب الذي خلقت هذه الأشياء ، الويل للذي يخاصم خالقه ولا يعلم أنه من خزف الطين ! لعل الطين يقول للفاخوري : لماذا تصنعني ؟ أو لعله يقول له : لست أنا من صنعتك ، الويل للذي يقول لأبيه : لماذا ولدتني ؟ أو لأمه : لماذا حبلت بي ؟ هكذا يقول الرب قدوس إسرائيل ومخلصه : أنا الذي خلقت السماء ومددتها بيدي وجميع أجنادها ، وجعلت فيها الكواكب البهية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 102.101 ﴾

فصل

قال الفخر :

في الحق تأويلان

(200/120)

الأول : قال أبو مسلم المراد أن هذا الذي أنزلت عليك هو الحق من خبر عيسى عليه السلام لا ما قالت النصارى واليهود ، فالنصارى قالوا : إن مريم ولدت إلها ، واليهود رموا

مريم عليها السلام بالإفك ونسبوها إلى يوسف النجار ، فالله تعالى بيّن أن هذا الذي أنزل في القرآن هو الحق ثم نهى عن الشك فيه ، ومعنى ممتري مفتعل من المرية وهي الشك .

والقول الثاني : أن المراد أن الحق في بيان هذه المسألة ما ذكرناه من المثل وهو قصة آدم عليه السلام فإنه لا بيان لهذه المسألة ولا برهان أقوى من التمسك بهذه الواقعة ، والله أعلم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 68 . 69 ﴾

لطيفة

قال أبو السعود :

والتعرضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطَبِ لتشريفه عليه الصلاة والسلام والإيذانِ بأن تنزيلَ هذه الآياتِ الحقةِ الناطقةِ بكنه الأمر تربيةٌ له عليه الصلاة والسلام ولُطفٌ به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 46 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ يجوز أنْ تكونَ هذه الجملة مُستقلةً برأسِهَا والمعنى أنَّ الحقَّ الثابت الذي لا يضمحلّ هو مِنْ ربك ، ومن جملةِ ما جاء مِنْ ربكَ قصةُ عيسى وأمُهُ ، فهو حقٌّ ثابتٌ .

ويجوز أن يكونَ " الحقُّ " خبرَ مبتدأ محذوفٍ أي : ما قَصَصْنَا عليكَ من خبرِ عيسى وأمه ،

وحُذِفَ لكونه معلوماً . و﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ على هذا - فيه وجهان :

أحدهما : أنه حال فيتعلق بمحذوف .

والثاني : أنه خبر ثان - عند من يجوز ذلك وتقدم نظير هذه الجملة في البقرة .

وقال بعضهم : " الحق رفع بإضمار فعل ، أي : جاءك الحق " .

وقيل : إنه مرفوع بالصفة ، وفيه تقديم وتأخير ، تقديره : من ربك الحق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 281 ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَكُنْ مِّن الممترين ﴾

قال الفخر :

الامتراء الشك ، قال ابن الأنباري : هو مأخوذ من قول العرب مريت الناقة والشاة إذا حلبتها فكأن الشاك يجتذب بشكه مراء كاللبن الذي يجتذب عند الحلب ، يقال قد مارى فلان فلاناً إذا جادله ، كأنه يستخرج غضبه ، ومنه قيل الشكر يمتري المزيد أي يجلبه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 68 ﴾

فصل

قال الفخر

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَكُنْ مّنَ الممترين ﴾ خطاب في الظاهر مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا بظاهره يقتضي أنه كان شاكاً في صحة ما أنزل عليه ، وذلك غير جائز ، واختلف الناس في الجواب عنه ، فمنهم من قال : الخطاب وإن كان ظاهره مع النبي عليه الصلاة والسلام إلا أنه في المعنى مع الأمة قال تعالى : ﴿ يا أيها النبى إِذَا طَلَّقْتُمُ النساء ﴾ [الطلاق : 1]

والثاني : أنه خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام والمعنى : فدم على يقينك ، وعلى ما أنت عليه من ترك الامتراء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 69 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَلاَ تَكُنْ مّنَ الممترين ﴾ خطاب له صلى الله عليه وسلم ، ولا يضر فيه استحالة وقوع الامتراء منه عليه الصلاة والسلام كما في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ [يونس : 105] بل قد ذكروا في هذا الأسلوب فائدتين .

إحداهما : أنه صلى الله عليه وسلم إذا سمع مثل هذا الخطاب تحركت منه الأريحية فيزداد في الثبات على اليقين نوراً على نور

وثانيتهما : أن السامع يتنبه بهذا الخطاب على أمر عظيم فينزع وينزجر عما يورث الامتراء لأنه صلى الله عليه وسلم مع جلالته التي لا تصل إليها الأماني إذا خوطب بمثله فما يظن

بغيره ففي ذلك زيادة ثبات له صلوات الله تعالى وسلامه عليه ولطفه بغيره ، وجوز أن يكون خطاباً لكل من يقف عليه ويصلح للخطاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 187 ﴾

(202/120)

وقال ابن عاشور :

الخطاب في ﴿ فلا تكن من الممترين ﴾ للنبيء صلى الله عليه وسلم والمقصود التعريض بغيره ، والمعرَّض بهم هنا هم النصارى الممترُون الذين امتروا في الإلاهية بسبب تحقق أن لاَ أبَ لِعيسى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 113 ﴾

وقال ابن عطية :

ونهي النبي عليه السلام في عبارة اقتضت ذم الممترين ، وهذا يدل على أن المراد بالامتراء غيره ، ولو قيل : فلا تكن ممترياً لكانت هذه الدلالة أقل ، ولو قيل فلا تمتر لكانت أقل ونهي النبي عليه السلام عن الامتراء مع بعده عنه على جهة التثبيت والدوام على حاله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 447 ﴾

وقال الزمخشري :

ونهيه عن الامتراء وجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون ممتريا من باب التهييج لزيادة الثبات والطمأنينة ، وأن يكون لطفاً لغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 1 صـ 368 ﴾

وقال فى روح البيان :

ولا يتصور كونه عليه السلام شاكا فى صحة ما أنزل عليه والمعنى دم على يقينك وعلى ما أنت عليه من الاطمئنان على الحق والتنزه عن الشك فيه

قال الإمام أبو منصور رحمه الله العصمة لا تزيل المحنة ولا ترفع النهى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح البيان حـ 2 صـ 54 ﴾

فائدة

قال السعدى :

في هذه الآية وما بعدها دليل على قاعدة شريفة وهو أن ما قامت الأدلة على أنه حق وجزم به العبد من مسائل العقائد وغيرها ، فإنه يجب أن يجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل ، وكل شبهة تورد عليه فهي فاسدة ، سواء قدر العبد على حلها أم لا فلا يوجب له عجزه عن حلها القدح فيما علمه ، لأن ما خالف الحق فهو باطل ، قال تعالى ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ وبهذه القاعدة الشرعية تنحل عن الإنسان إشكالات كثيرة يوردها المتكلمون

ويرتبها المنطقيون، إن حلها الإنسان فهو تبرع منه، وإلا فوظيفته أن يبين الحق بأدلته ويدعو إليه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 133 ﴾

(203/120)

فصل

قال البقاعى :

ذكر ما يحتاج إليه المفسرون - ويثمر إن شاء الله سبحانه وتعالى زيادة الإيقان لكل مسلم - من قصة عيسى عليه السلام في ولادته وما يتعلق بهذه السورة من مبدإ أمره ومنتهاه وبعض ما ظهر على يديه من الآيات ولسانه من الحكم المشيرة إلى أنه عبد الله ورسوله وغير ذلك من الأناجيل الأربعة التي في أيدي النصارى اليوم، وقد أدخلت كلام بعضهم في بعض وجمعت ما تفرق من المعاني في سياقاتهم بحيث صار الكل حديثاً واحداً :

قال متى - ومعظم السياق له - : كتاب ميلاد يسوع المسيح بن داود بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام، ثم قال : لكل الأجيال من إبراهيم إلى داود أربعة عشر جيلاً، ومن داود إلى زربابل أربعة عشر جيلاً، ومن زربابل إلى المسيح أربعة عشر جيلاً ؛ لما خطبت مريم أمه ليوسف قبل أن يفترقا وجدت حبلاً من روح القدس، وكان يوسف خطيبها صديقاً

ولم يرد أن ينشرها ، وهم بتخليتها سراً ، وفيما هو مفكر في هذا إذا ظهر له ملاك الرب في الحلم قائلاً : يا يوسف بن داود ! لا تخف أن تأخذ مريم خطيبتك ، فإن الذي تلده هو من روح القدس ، وستلد ابناً ويدعى اسمه يسوع ، وهو يخلص شعبه من خطاياهم ، هذا كله كان لكي يتم ما قيل من قبل الرب على لسان النبي القابل : ها هو ذا العذراء تحبل وتلد ابناً ، ويدعى اسمه " عمانويل " الذي تفسيره : الله معنا ، فقام يوسف من النوم وصنع كما أمره ملاك الرب وأخذ مريم خطيبته ولم يعرفها حتى ولدت ابناه البكر ، ودعي اسمه يسوع .

(204/120)

وفي إنجيل لوقا : ولما كان في تلك الأيام – أي أيام ولادة يحيى بن زكريا عليهم السلام – خرج أمر من أوغوسطوس قيصر بأن يكتب جميع المسكونة هذه الكتبة الأولى في ولاية فرسوس على الشام ، فمضى جميعهم ليكتتب كل واحد منهم في مدينته ، فصعد يوسف أيضاً من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التي تدعى بيت لحم ، لأنه كان من بيت داود وقبيلته ليكتتب مع مريم خطيبته وهي حبلى ، فبينما هما هناك إذ تمت أيام ولادتها لتلد ، فولدت ابنها البكر ولفته وتركته في مزود لأنه لم يكن لهما موضع حيث نزلا ، وكان في تلك الكورة رعاة يسهرون لحراسة الليل نوباً على مراعيهم ، وإذا ملاك الرب قد وقف بهم

ومجد الرب أشرق عليهم، فخافوا خوفاً عظيماً، قال لهم الملاك: لا تخافوا الآن، هوذا أبشركم بفرح عظيم يكون لكم ولجميع الشعوب، لأنه ولد لكم اليوم مخلص، الذي هو المسيح في مدينة داود، وهذه علامة لكم أنكم تجدون طفلاً ملفوفاً موضوعاً في مزود، وللوقت بغتة تراءى مع الملاك جنود كثيرة سماويون، يسبحون الله سبحانه وتعالى ويقولون: المجد لله في العلى، وعلى الأرض السلام، وفي الناس المسرة؛ فلما صعد الملائكة إلى السماء قال الرجال الرعاة بعضهم لبعض: امضوا بنا إلى بيت لحم لننظر الكلام الذي أعلمنا به الرب، فجاؤوا مسرعين فوجدوا مريم ويوسف والطفل موضوعاً في مزود؛ فلما رأوه علموا أن الكلام الذي قيل لهم عن الصبي حق، وكل من سمع تعجب مما تكلم به الرعاة، وكانت مريم تحفظ هذا الكلام كله وتقيه، ورجع الرعاة يمجدون الله سبحانه وتعالى ويسبحون على كل ما سمعوا وعاينوا كما قيل لهم.

(205/120)

ولما تمت ثمانية أيام أتوا به ليختتن ودعوا اسمه يسوع كالذي دعاه الملاك قبل أن تحبل به في البطن، فلما كملت أيام تطهيرها - على ما في ناموس موسى - صعدوا به إلى يروشليم ليقيموه للرب، كما هو مكتوب في ناموس الرب أن كل ذكر فاتح رحم أمه يدعى قدوس

الرب ، ويقرب عنه – كما هو مكتوب في ناموس الرب – زوج يمام أو فرخا حمام ؛ وكان إنسان بايروشليم اسمه شمعون ، وكان رجلاً باراً تقياً ، يرجو عز بني إسرائيل ، وروح القدس كان عليه ، وكان يوحى إليه من روح القدس أنه لا يموت حتى يعاين المسيح الرب ، فأقبل بالروح إلى الهيكل عندما جاؤوا بالطفل يسوع ليصفى عنه كما يجب في الناموس ، فحمله على ذراعه وبارك الرب قائلاً : الآن يا سيد ! أطلق عبدك بسلام لكلامك ، لأن عيني أبصرتك خلاصك الذي أعددت قدام جميع الشعوب ، نور استعلن للأمم ومجد لشعبك إسرائيل ، وكان يوسف وأمه يتعجبان مما يقال عنه ، وباركهما شمعون وقال لمريم أمه : هوذا هذا موضوع لسقوط كثير وقيام كثير من بني إسرائيل .

وكانت حنة النبية ابنة فانوئل من سبط أشير قد طعنت في أيامها وأقامت مع زوجها سبعة وستين بعد بكوريتها ، وترملت أربعة وثمانين عاماً غير مفارقة للهيكل عائدة للصّوم ، وللطلبة ليلاً ونهاراً ، وفي تلك الساعة جاءت قدامه معترفة لله وكانت تتكلم من أجله عند كل أحد ، تترجى خلاص يروشليم ، فلما أكملوا كل شيء على ما في ناموس الرب رجعوا إلى الجليل إلى مدينتهم الناصرة ، فأما الصبي فكان ينشأ ويتقوى بالروح ويمتلىء بالحكمة ، ونعمة الله كانت عليه ، وأبواه يمضيان إلى يروشليم في كل سنة في عيد الفصح .

وقال متى : فلما ولد يسوع في بيت لحم يهودا في أيام هيرودس الملك إذا مجوس وافوا من المشرق إلى يروشليم قائلين : أين هو المولود ملك اليهود لأنا رأينا نجمة في المشرق ، ووافينا لنسجد له ، فلما سمع هيرودس الملك اضطرب وجمع يروشليم وجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب واستخبرهم : أين يولد المسيح ؟ فقالوا له : في بيت لحم أرض يهودا – كما هو مكتوب في النبي : وأنت يا بيت لحم أرض يهودا لست بصغيرة في ملوك يهود ، يخرج منك مقدم ، الذي يرعى شعب بني إسرائيل .

(207/120)

حينئذ دعا هيرودس والروم المجوس سراً ، وتحقق منهم الزمان الذي ظهر لهم فيه النجم وأرسلهم إلى بيت لحم قائلاً : امضوا فابحثوا عن الصبي باجتهاد ، فإذا وجدتموه فأخبروني لآتي أنا وأسجد له ، فلما سمعوا من الملك ذهبوا ، وإذا النجم الذي رأوه في المشرق يقدمهم حتى جاء ووقف حيث كان الصبي ، فلما رأوا النجم فرحوا فرحاً عظيماً جداً ، وأتوا إلى البيت فرأوا الصبي ، مع مريم أمه ، فخروا له سجداً وفتحوا أوعيتهم وقدموا له قرابين ذهباً ولُباناً ومُرّاً ، وأنحى إليهم في الحلم أن لا يرجعوا إلى هيردوس ، بل يذهبوا في طريق أخرى إلى

كورتهم ، فلام ذهبوا وإذ ملاك الرب تراءى ليوسف في الحلم قائلاً : قم ، خذ الصبي وأمه واهرب إلى أرض مصر وكن هناك حتى أقول لك فإن هيردوس مزمع أن يطلب الصبي ليهلكه ، فقام وأخذ الصبي أمه ليلاً ، ومضى إلى مصر وكان هناك إلى وفاة هيرودس ، لكي يتم ما قيل من قبل الرب بالنبي القابل من مصر : دعوت ابني ؛ حينئذ لما رأى هيرودس سخرية المجوس به غضب جداً وأرسل ، فقتل كل صبيان بيت لحم وكل تخومها من ابن سنتين فما دون ، كنحو الزمان الذي تحقق عنده من المجوس ، حينئذ تم ما قيل من أرميا النبي حيث يقول : صوت سمع في الزأمة ، بكاء ونوح وعويل كثير ، راحيل تبكي على بنيها ولا تريد أن تتعزى لفقدهم ؛ فلما مات هيرودس ظهر ملاك الرب ليوسف في الحلم بمصر قائلاً : قم ، خذ الصبي وأمه واذهب إلى أرض إسرائيل ؛ فما سمع أن أورشلاوش قد ملك على اليهودية عوض هيرودس أبيه خاف أن يذهب إلى هناك ، فأخبر في الحلم وذهب إلى حور ناحية الجليل ، فأتى وسكن في مدينة تدعى ناصرة لكي يتم ما قيل في الأنبياء : إنه يدعى ناصريا وفي إنجيل لوقا : فلما تمت له اثنتا عشرة سنة مضوا إلى يروشليم إلى العيد كالعادة ، فلما كملت الأيام ليعودوا تخلف عنهما يسوع في يروشليم ولم تعلم أمه ويوسف ، لأنهما كانا يظنان أنه مع السائرين في الطريق ، فلما ساروا نحو يوم

طلباه عند أقربائهما ومعارفهما فلم يجداه ، فرجعا إلى يروشليم يطلبانه ، وبعد ثلاثة أيام وجداه في الهيكل جالساً بين العلماء يسمع منهم ويسألهم ، وكان كل من يسمعه مبهوتين من علمه وإجابته لهم ، فلما أبصراه بهتا ، فقالت له أمه : يا بني ! ما هذا الذي صنعت بنا ؟ إن أباك وأنا كنا نطلبك باجتهاد معذبين ، فقال لهما : لم تطلباني ؟ أما تعلمان أنه ينبغي أن أكون في الذي لأبي ؟ فأما هما فلم يفهما الكلام ونزل معهما وجاء إلى الناصرة وكان يطيعهما ، فأما يسوع فكان ينشأ في قامته وفي الحكمة والنعمة عند الله والناس .

قال متى : وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية يهودا – إلى آخر ما تقدم آنفاً من بشارة يحيى عليه الصلاة والسلام به ، ثم قال : حينئذ أتى يسوع من الجليل إلى الأردن ليعتمد من يوحنا ، فامتنع يوحنا منه وقال : أنا المحتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إلي ، فأجاب يسوع : دع الآن ، هكذا يجب لنا أن نكمل كل البر ، حينئذ تركه فاعتمد يسوع ، وللوقت صعد من الماء فانفتحت له السماوات ، ورأى روح الله نازلاً كمثل حمامة جائياً إليه .

وقال مرقس : وكان تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الجليل واصطنع في نهر الأردن من يوحنا ، فساعة صعد من الماء رأى السماوات قد انشقت ، وروح القدس كالحمامة نزلت عليه ، وللوقت أخرجه الروح إلى البرية ، وأقام بها أربعين يوماً وأربعين ليلة ، وهو مع

الوحوش ، والملائكة تخدمه .

وقال متى : وصام أربعين يوماً وأربعين ليلة .

(209/120)

وقال لوقا : وكان لما اعتمد جميع الشعب واعتمد يسوع فبينما هو يصلي انفتحت السماء ونزل عليه روح القدس شبه جسد حمامة ، وكان قد صار ليسوع ثلاثون سنة وكان يُظنّ أنه ابن يوسف وأن يسوع امتلأ من روح القدس ورجع من الأردن ، فانطلق به الروح أربعين يوماً ، لم يأكل شيئاً في تلك الأيام ؛ ثم قال : ورجع يسوع إلى الجليل بقوة الروح وخرج خبره في كل الكورة ، وكان يعلم في مجامعهم ويمجده كل أحد ، وجاء إلى الناصرة حيث كان تربى ودخل كعادته إلى مجمعهم يوم السبت ، وقام ليقرأ فدفع إليه سفر أشعيا النبي فلما فتح السفر وجد الموضع الذي فيه مكتوب : روح الرب عليّ ، من أجل هذا مسحني وأرسلني لأبشر المساكين وأشفي منكسري القلوب وأبشر المأسورين بالتخلية والعميان بالنظر ، وأرسل المربوطين بالتخلية ، وأبشر بالسنة المقبولة للرب والأيام التي أعطانا إلهنا ؛ ثم طوى السفر ودفعه إلى الخادم وجلس ، وكل من كان في الجمع كانت عيونهم محدقة إليه ، فبدأ يقول لهم : اليوم كمل هذا المكتوب بأسماعكم ؛ وفي إنجيل يوحنا : إن يسوع قال : إن كنت

أنا أشهد لنفسي فليست شهادتي حقاً ، ولكن الذي يشهد لي بها حق ، أنتم أرسلتم إليّ يوحنا فشهد لي بالحق ، وأما أنا فلست أطلب شهادة من إنسان ولكني أقول هذا لتخلصوا أنتم ، وأنا على أعظم من شهادة يوحنا لأن الأعمال التي أعملها تشهد من أجلي أن الرب أرسلني ، والذي أرسلني قد شهد لي ولم تسمعوا قط صوته ولا عرفتموه ولا رأيتموه ، وكلمته لا تثبت فيكم لأنكم لستم تؤمنون بالذي أرسل ، فتشوا الكتب التي تظنون أن تكون لكم بها حياة الأبد فهي تشهد من أجلي ، لست آخذ المجد من الناس أنا أتيت باسم أبي فلم تقبلوني ، وإن أتاكم آخر باسم نفسه قبلتموه ، كيف تقدرون أن تؤمنوا وإنما تقبلون المجد بعضكم ، من بعض ولا تظنون أن المجد من الله تعالى الواحد ، لا تظنوا أني أشكوكم ، إن لكم من يشكوكم : موسى الذي عليه تتوكلون ، فلو كنتم آمنتم بموسى

آمنتم بي ، لأن ذلك كتب من أجلي ، وإن كنتم لا تؤمنون بكتب ذلك فكيف تؤمنون بكلامي - انتهى ما وقع الاختيار أخيراً على إثباته هنا ، وفيه من الألفاظ المنكرة في شرعنا إطلاق الأب والابن ، وقد تقدم التنبيه على مثل ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 106.102 ﴾

(210/120)

"فصل"

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (52) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (53) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (54) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (55) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (56) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (57) ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (58) إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (60) ﴾

القصة الخامسة ذكر عاقبة أمر عيسى ثم شرع في بيان أن عيسى لما شرح لهم تلك المعجزات فهم بماذا عاملوه فقال : ﴿ فلما أحس ﴾ أي علم ﴿ عيسى منهم الكفر ﴾ علماً لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس ، أو أنهم تكلموا بكلمة الكفر فأحس ذلك بأذنه . قال السدي : لما بعثه الله تعالى رسولاً إلى بني إسرائيل جاءهم ودعاهم فتمردوا وعصوا فخافهم واختفى عنهم ، وكان أمر عيسى في قومه كأمر

(211/120)

محمد صلى الله عليه وسلم بمكة ، وكان مستضعفاً فخرج هو وأمه يسيحان في الأرض ، فاتفق أنه نزل على رجل في قرية فأحسن ذلك الرجل ضيافته . وكان في تلك المدينة رجل جبار فجاء ذلك الرجل يوماً حزيناً فسأله عيسى عن السبب فقال : إن من عادة هذا الملك أنه جعل على كل رجل منا يوماً نطعمه ونسقيه مع جنوده وهذا اليوم نوبتي والأمر متعذر عليّ .

(212/120)

فلما سمعت مريم ذلك قالت : يا ولدي ادع الله ليكفي ذلك . فقال عليه السلام : يا أمي إني إن فعلت ذلك كان فيه شر . فقالت : قد أحسن وأكرم ولا بد من إكرامه . فقال عيسى عليه السلام : إذا قرب مجيء الملك فاملأ قدورك وخوابيك ثم أعلمني . فلما فعل دعا الله تعالى فتحول ما في القدور طبيخاً ، وما في الخوابي خمراً . فلما جاءه الملك أكل وشرب وسأله من أين هذه الخمر ؟ فتوقف الرجل في الجواب وتعلل ، فلم يزل يطالبه حتى

أخبره بالواقعة فقال : إن من دعا الله حتى جعل الماء خمراً إذا دعاه حتى يحيي ولدي أجابه – وكان ابنه قد مات في تلك الأيام – فدعا عيسى عليه السلام وطلب منه ذلك فقال له عيسى : لا تفعل فإنه إن عاش كان شراً عليه – فقال : ما أبالي ما كان فدعا الله فعاش الغلام لكلام عيسى عليه السلام ، فلما رآه أهل مملكته قد عاش تنادوا بالسلاح واقتتلوا وصار أمر عيسى عليه السلام مشهوراً وقصد اليهود قتله صلى الله عليه وسلم وأظهروا الطعن فيه . وقيل : إن اليهود كانوا عارفين أنه هو المسيح المبشر به في التوراة أنه ينسخ دينهم فكانوا طاعنين فيه من أول الأمر طالبين قتله ﴿ قال من أنصاري إلى الله ﴾ قيل : إنه لما دعا عليه السلام بني إسرائيل إلى الدين وتمردوا عليه السلام فر منهم وأخذ يسيح في الأرض فمر بطائفة صيادي السمك – منهم شمعون ويعقوب من جملة الحواريين الاثني عشر – فقال عيسى عليه السلام : إنكم تصيدون السمك فهل لكم أن تسيروا بحيث تصيدون الناس لحياة الأبد ؟ فطلبوا منه المعجزة وكان شمعون قد رمى شبكته تلك الليلة في الماء فما اصطاد شيئاً فأمره عيسى عليه السلام بإلقاء شبكته في الماء مرة أخرى ، فاجتمع في تلك الشبكة من السمك ما كادت تتمزق ، واستعانوا بأهل سفينة أخرى وملؤا السفينتين فعند ذلك آمنوا بعيسى . وقيل : إن اليهود لما طلبوه في آخر أمره للقتل وكان هو في الهرب منهم قال لأولئك الاثني عشر من الحواريين : أيكم يحب أن يكون

رفيقي في الجنة على أن يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ؟ فأجابه إلى ذلك بعضهم . ومما يذكره النصارى في إنجيلهم أن اليهود لما أخذوا عيسى ، سل شمعون سيفه فضرب به عبداً كان فيهم لرجل من الأحبار عظيم فرمى بأذنه فقال له عيسى : حسبك ثم أدنى عليه السلام أذن العبد فردها إلى موضعها فصارت كما كانت . والحاصل أن المراد بطلب النصرة إقدامهم على دفع الشر عنه عليه السلام . وقيل : إنه دعاهم إلى القتال مع القوم كما قال في موضع آخر

﴿ فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ [الصف : 14] ومعنى ﴿ إلى الله ﴾ قيل : من يضيف نصرته إياي إلى نصر الله عز وجل إياي ؟ وقيل : من أنصاري إلى أن أظهر دين الله . فالجار على القولين من صلة ﴿ أنصاري ﴾ مضمناً معنى الإضافة . وقيل : من أنصاري حال ذهابي إلى الله ؟ أو حال التجائي إليه ؟ وقيل : من أنصاري فيما يكون قربة إلى الله ووسيلة إلى رحمته ؟ وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا ضحى : " اللهم منك وإليك " أي تقرباً إليك . فالجار على هذين القولين يتعلق بالمحذوف . وقيل : " إلى " بمعنى اللام . وقيل : بمعنى " في " أي في سبيل الله . وهذا قول الحسن . ﴿ قال الحواريون نحن أنصار الله ﴾ أعوان دينه ورسوله . وحواري الرجل صفيه وخالصته ومنه يقال للحضريات الحواريات لخلوص

ألوانهن ونقاء بشرتهن . والحور نقاء بياض العين ، وحوّرت الثياب بيضتها ، والحواريّ واحد ونظيره الحوالي وهو الكثير الحيلة .

(214/120)

عن سعيد بن جبير : سموا بذلك لبياض ثيابهم . وعن مقاتل بن سليمان لأنهم كانوا قصارين يبيضون الثياب . وقيل : لنقاء قلوبهم وطهارة أخلاقهم ومنه قولهم " فلان نقيّ الجيب طاهر الذيل " للكريم و " دنس الثياب " للئيم . وعن الضحاك : الذي يغسل الثياب يسمى بلغة النبط هواري فعرّب . وأما أن الحواريين من هم فقيل : هم الذين يصطادون السمك فاتبعوا عيسى وآمنوا كما حكينا . وقيل : إن أمه دفعته إلى صبّاغ فكان إذا أراد أن يعلمه شيئاً كان هو أعلم به منه فغاب الصبّاغ يوماً لبعض مهماته فقال : ههنا ثياب مختلفة وقد علمت على كل واحد علامة معينة فاصبغها بتلك الألوان . فطبخ عيسى عليه السلام حباً واحداً وجعل الجميع فيه . وقال : كوني بإذن الله كما أريد . فرجع الصباغ وسأله فأخبره بما فعل فقال : قد أفسدت عليّ الثياب قال : قم فانظر . فكان يخرج ثوباً أحمر وثوباً أخضر وثوباً أصفر كما يريد . فتعجب الحاضرون منه وآمنوا فهم الحواريون . وقيل : كانوا اثني عشر اتبعوا عيسى وكانوا إذا جاعوا قالوا : يا روح الله جعنا فيضرب

بيده على الأرض فيخرج لكل واحد رغيفان ، وإذا عطشوا قالوا : عطشنا فيضرب بيده على الأرض فيخرج الماء فيشربون فقالوا : من أفضل منا إذا شئنا أطعمتنا وإذا شئتنا سقيتنا وقد آمنا بك ؟ فقال : أفضل منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه . قال : فصاروا يغسلون الثياب فسموا حواريين . وقيل : إن واحداً من الملوك صنع طعاماً وجمع الناس عليه ، وكان عيسى عليه السلام على قصعة . فكانت القصعة لا تنقص . فذكروا هذه الواقعة لذلك الملك فقال : تعرفونه ؟ قالوا : نعم . فذهبوا إليه بعيسى فقال : من أنت ؟ قال : عيسى ابن مريم . قال : فإني أترك ملكي فأتبعك . فتبعه ذلك الملك مع أقاربه فأولئك هو الحواريون .

(215/120)

قال القفال : يجوز أن يكون بعضهم من الملوك وبعضهم من الصيادين وبعضهم من القصارين ، وسموا جميعاً بالحواريين لأنهم كانوا أنصار عيسى والمخلصين في محبته وطاعته . ﴿ آمنا بالله ﴾ يجري مجرى السبب لقولهم : ﴿ نحن أنصار الله ﴾ فإن الإيمان بالله يوجب نصرة دين الله والذب عن أوليائه والمحاربة مع أعدائه ﴿ واشهد بأنا مسلمون ﴾ منقادون لما تريده منا في نصرتك والذب عنك ، مستسلمون لأمر الله تعالى فيه . أو هو إقرار منهم بأن

دينهم الإسلام وأنه دين كل الأنبياء عليهم السلام ، وإنما طلبوا شهادته لأن الرسل يشهدون للأمم يوم القيامة . ثم تضرعوا إلى الله تعالى بقولهم : ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ وهذا يقتضي أن يكون للشاهدين فضل يزيد على فضل الحواريين . فقال ابن عباس : أي مع محمد صلى الله عليه وسلم وأمته لأنهم مخصوصون بأداء الشهادة ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾ [البقرة : 143] وعنه أيضاً اكتبنا في زمرة الأنبياء لأن كل نبي شاهد لقومه ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ [البقرة : 143] وقيل : اكتبنا في جملة من شهد لك بالتوحيد ولأنبيائك بالتصديق فقرنت ذكرهم بذكرك في قولك : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم ﴾ [آل عمران : 18] وقيل : اجعلنا ممن هو مستغرق في شهود جلالك بحيث لا نبالي بما يصل إلينا من المشاق والآلام فيسهل علينا الوفاء بما التزمنا من نصرة رسولك ، أو اكتب ذكرنا في زمرة من شهد حضرتك من الملائكة المقربين كقوله : ﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين ﴾ [المطففين : 18] ﴿ ومكروا ﴾ يعني كفار بني إسرائيل الذين أحس عيسى منهم الكفر ﴿ ومكر الله ﴾ المكر في اللغة السعي في خفية ومداجاة . قال الزجاج : يقال مكر الليل وأمكر إذا أظلم . وقيل : أصله من إجماع الأمر وإحكامه ، ومنه امرأة ممكورة مجتمعة الخلق . فلما كان المكرر رأياً محكماً قوياً مصوناً عن

جهات النقض والفتور لا جرم سمي مكراً . أما مكرهم بعيسى عليه السلام فهو أنهم هموا بقتله ، وأما مكر الله بهم فهو أن رفعه إلى السماء وما مكنهم من إيصال السوء إليه ، روي أن ملك اليهود أراد قتل عيسى عليه السلام وكان جبريل لا يفارقه ساعة ، فأمره جبريل أن يدخل بيتاً فيه روزنة . فلما دخلوا البيت أخرجه جبريل من تلك الروزنة وكان قد ألقى شبهه على غيره ممن وكل به ليقتله غيلة فأخذ وصلب فتفرق الحاضرون ثلاث فرق : فرقة قالت : كان الله فينا فذهب . وأخرى قالت : كان ابن الله . وأخرى قالت : كان عبد الله ورسوله . وقيل : إن الحواريين كانوا اثني عشر ، وكانوا مجتمعين في بيت ، فنافق واحد منهم ودل اليهود عليه فألقى الله شبهه عليه ورفع عيسى عليه السلام . وذكر محمد بن إسحق أن اليهود عذبوا الحواريين بعد أن رفع عيسى فشمسوهم ولقوا منهم الجهد .

فسمع بذلك ملك الروم . وكان ملك اليهود من رعيته فقيل : إنه قتل رجلاً من بني إسرائيل ممن يحب أمرك ، وكان يخبرهم أنه رسول الله وأراهم إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وفعل ما فعل فقال : لو علمت ذلك ما خليت بينه وبينهم . ثم بعث إلى الحواريين فانتزعهم

من أيديهم وسألهم عن عيسى عليه السلام فأخبروه ، فتابعهم على دينهم وأنزل المصلوب فغيبه وأخذ الخشبة فأكرمها وصانها ، ثم غزا بني إسرائيل وقتل منهم خلقاً عظيماً ومنه ظهر أصل النصرانية في الروم . وكان اسم هذا الملك " طباريس " ، وهو صار نصرانياً إلا أنه ما أظهر ذلك . ثم إنه جاء بعده ملك آخر يقال له " ملطيس " وغزا بيت المقدس بعد ارتفاع عيسى بنحو من أربعين سنة ، فقتل وسبى ولم يترك في حاشية بيت المقدس حجراً على حجر ، فخرج عند ذلك قريظة والنضير إلى الحجاز ، فهذا كله مما جازاهم الله تعالى على تكذيب المسيح والهم بقتله . وقيل : إنهم مكروا في إخفاء أمره وإبطال دينه ، ومكر الله بهم حيث أعلى دينه وأظهر شريعته وقهر بالذل أعداءه وهم اليهود ﴿ والله خير الماكرين ﴾ أقواهم مكراً وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب .

(218/120)

واعلم أن المكر إن كان عبارة عن الاحتيال في إيصال الشر فهو في حق الله تعالى محال ، فاللفظ إذن من المتشابهات فيجب أن يؤول بأن جزاء المكر يسمى مكراً كقوله : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ [الشورى : 40] أو بأنه تعالى عاملهم معاملة من يمكر وهو عذابهم على سبيل الاستدراج . وإن كان المكر عبارة عن التدبير المحكم الكامل لم يكن

اللفظ متشابهاً لأنه غير ممتنع في حق الله إلا أنه قد اختص في العرف بالتدبير في إيصال الشر إلى الغير . ﴿ إذ قال الله ﴾ ظرف لخير الماكرين أو لمكر الله أو مفعول اذكر ﴿ يا عيسى إني متوفيك ﴾ أي متمم عمرك وعاصمك من أن يقتلك الكفار الآن بل أرفعك إلى سمائي وأصونك من أن يتمكنوا من قتلك . وقيل : متوفيك أي مميتك كيلا يصل أعداؤك من اليهود إلى قتلك ثم رافعك إليّ . وهذا القول مروي عن ابن عباس ومحمد بن إسحق . ثم قال وهب : توفي ثلاث ساعات ثم رفع وأحيي . وقال محمد بن إسحق . توفي سبع ساعات ثم أحياه الله ورفعه . وقال الربيع بن أنس : إنه نومه ورفعه إلى السماء نائماً حتى لا يلحقه خوف ورعب . أخذه من قوله ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ﴾ [الزمر : 42] . وقيل : التوفي أخذ الشيء وافياً أي آخذك بروحك وبجسدك جميعاً فرافعك إلي دفعاً لوهم من يتوهم أنه أخذ بروحه دون جسده . وقيل : متوفيك قابضك من الأرض من توفيت مالي على فلان أي استوفيته . وقيل : أجعلك كالمتوفى لأنه إذا رفع إلى السماء انقطع خبره وأثره عن الأرض فيكون من باب إطلاق الشيء على ما يشابهه في أكثر خواصه وصفاته .

وقيل : المضاف محذوف أي متوفى عملك ورافع طاعتك فكأنه بشره بقبول طاعته وأن ما وصل إليه من المتاعب في تمشية دينه وإظهار شريعته فهو لا يضيع أجره ، فهذا كقوله : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ [فاطر : 10] وقيل : في نسق الكلام تقديم وتأخير . فإن الواو لا تقتضي الترتيب . والمعنى إني رافعك إلي ومتوفيك بعد إنزالك إلى الدنيا . ويؤيده ما ورد في الخبر أنه سينزل ويقتل الدجال ، ثم إنه تعالى يتوفاه بعد ذلك . أما قوله ﴿ ورافعك إليّ ﴾ فالمشبهة تمسكوا بمثله في إثبات المكان لله تعالى وأنه في السماء ، لكن الدلائل القاطعة دلت على أنه متعال عن الحيز والجهة فوجب حمل هذا الظاهر على التأويل بأن المراد إلى محل كرامتي ومقر ملائكتي ومثله قول إبراهيم : ﴿ إني ذاهب إلى ربي ﴾ [الصافات : 99] وإنما ذهب من العراق إلى الشام ، وقد سمي الحجاج زوّار الله ، والمجاورون جيران الله . والمراد التفخيم والتعظيم ، أو المراد إلى مكان لا يملك الحكم عليه هناك غير الله فإن في الأرض ملوكاً مجازية . ولئن سلم أنه تعالى يمكن أن يكون في مكان فليس رفع عيسى عليه السلام إلى ذلك المكان سبباً لبشارته ما لم يتيقن الثواب والكرامة والروح والراحة ، فلا بد من صرف اللفظ عن ظاهره وهو أن يقال : المراد رفعه إلى محل كرامته ، وإذا لم يكن بد من الإضمار فلم يبق في الآية دلالة على إثبات المكان له تعالى . ثم إنه كما عظم شأنه بلفظ الرفع إليه ، عبر لذلك عن معنى التخليص بلفظ التطهير فقال : ﴿ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ أي من خبث جوارهم وسوء عشرتهم ﴿

وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ وليس هذا فوقية المكان بالاتفاق . فالمراد إما الفوقية بالحجة والدليل ، وإما الفوقية بالقهر والاستيلاء . وفيه إخبار عن ذل اليهود ومسكنتهم إلى يوم القيامة . ولعمري إنه كذلك فلا يرى ملك يهودي في الدنيا ولا بلد لهم مستقل بخلاف النصارى . على أنا

(220/120)

نقول : المراد بمتبعي المسيح هم الذين كانوا يؤمنون بأنه عبد الله ورسوله ثم آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعده فصدقوه في قوله : ﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ [الصف : 6] أو المتبعون هم المسلمون الذين اتبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى .

واعلم أن نص القرآن دل على أنه تعالى حين رفعه ألقى شبهه على غيره قال : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾ [النساء : 157] فأورد بعض الملحدة عليه إشكالات :

الأول أنه يوجب ارتفاع الأمان عن المحسوسات فإني إذا رأيت ولدي ثم رأيته ثانياً فحينئذٍ أجوز أن هذا الذي رأيته ثانياً ليس ولدي بل هو إنسان آخر ألقى شبهه عليه ، وكذا الصحابة الذين رأوا محمداً يأمرهم وينهاهم احتمل أن يكون محمد إنساناً آخر ألقى شبهه

عليه وأنه يفضي إلى سقوط الشرائع وكذا إلى إبطال التواتر ، لأن مدار الأمر في الأخبار المتواترة على أن يكون المخبر الأول إنما أخبر عن المحسوس وأنتم جوزتم وقوع الغلط في المبصرات ، ففتح هذا الباب أوله سفسطة وآخره إبطال النبوات .

(221/120)

الثاني أن جبريل كان معه حيث سار . ثم إن طرف جناح واحد منه يكفي لأهل الأرض . فكيف لم يكف في منع أولئك اليهود ؟ وأنه صلى الله عليه وسلم كان يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ، فكيف لم يقدر على إماتة أولئك اليهود الذين قصدوه بالسوء والقاء الفلج والزمانة عليهم حتى لا يتعرضوا له ؟ الثالث أنه تعالى كان قادراً على تخليصه من الأعداء بأن يرفعه إلى السماء ، فما الفائدة في إلقاء شبهه على الغير ؟ وهل فيه إلا إيقاع مسكين في القتل من غير فائدة مع أن ذلك يوجب تلبيس الأمر عليهم حتى اعتقدوا أن المصلوب هو عيسى وأنه لم يكن عيسى ، والتمويه والتخليط لا يليق بحكمة الله تعالى ؟ الرابع أن النصارى على كثرتهم في المشارق والمغارب وإفراطهم في محبة عيسى أخبروا أنهم شاهدوه مصلوباً ، فإنكار ذلك إنكار المتواتر ، والطعن في المتواتر يوجب الطعن في نبوة جميع الأنبياء . الخامس ثبت بالتواتر أن المصلوب بقي حياً زماناً طويلاً . فلو كان هو غير

عيسى لأظهر الجزع وعرف نفسه ، ولو فعل ذلك اشتهر وتواتر . والجواب عن الأول أن كل من أثبت القادر المختار سلم أنه تعالى قادر على خلق مثل زيد . وهذا التجويز لا يوجب الشك في وجود زيد فكذا فيما ذكرتم . وعن الثاني والثالث أن ذلك يفضي إلى بلوغ الإعجاز حد الإلجاء ، وأنه ينافي التكليف . والتلبيس المذكور قد أزاله تلامذة عيسى الحاضرون منه العالمون بالواقعة . وعن الرابع أنه تواتر منقطع الأول لأنهم كانوا قليلين في ذلك الوقت فلا يفيد العلم . إذ شرط التواتر استواء الطرفين والوسط . وعن الخامس ما روي أن الذي ألقي عليه الشبه كان من خواص أصحابه ، فلهذا صبر . على أنا نقول : قد ثبت بالمعجز القاطع صدق محمد صلى الله عليه وسلم في كل ما أخبر عنه ، فهذه الاحتمالات تمتنع أن تصير معارضة للنص القاطع والله ولي الهداية . قال : ﴿ ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ وفيه بشارة لعيسى بأنه سيحكم بين

(222/120)

المؤمنين وبين الجاحدين . وتفسيره قوله : ﴿ فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا ﴾ بالقتل والسبي والذلة وأنواع المصائب والرزايا التي لا ثواب عليها ﴿ والآخرة ﴾ بدخول النار خالدين فيها ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ ﴿ وأما الذين آمنوا وعملوا

الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين ﴾ الواضعين الشيء في غير موضعه ، التكذيب في مقام التصديق ، والعمل السيء مكان العمل الصالح ، وذلك أن المحبة عبارة عن إيصال الخير إليه .

(223/120)

وهو وإن أراد كفر الكافر إلا أنه لم يوصل الثواب إليه ، وقالت المعتزلة : المحبة والإرادة واحدة ، فالمعنى أنه لا يريد ظلم الظالمين . ﴿ ذلك ﴾ الذي سبق من نبأ عيسى عليه السلام وغيره وهو مبتدأ خبره ﴿ نتلوه عليك ﴾ والتلاوة والقصص كلاهما يؤل إلى معنى واحد وهو ذكر الشيء بعضه على إثر بعض . جعل تلاوة الملك لما كانت بأمره كتلاوته .

﴿ من الآيات ﴾ خبر بعد خبر أو خبر بعد مبتدأ محذوف والمراد بها آيات القرآن ، ويحتمل أن يراد أنه من العلامات الدالة على ثبوت رسالتك لأنها أخبار لا يعلمها إلا قارىء من كتاب أو من يوحى إليه ، وظاهر أنك لا تكتب ولا تقرأ فبقي أن يكون من الوحي .

ويجوز أن يكون ذلك بمعنى "الذي" و ﴿ نتلوه ﴾ صلته و ﴿ من الآيات ﴾ الخبر .

ويجوز أن ينتصب ذلك بمضمر يفسره ﴿ نتلوه ﴾ . والذكر الحكيم القرآن . وصف بصفة من هو سببه ، أو كأنه ينطق بالحكمة لكثرة حكمه ، أو هو بمعنى الحاكم كالعليم

بمعنى أن الأحكام تستفاد منه ، أو بمعنى المحكم أحكمت آياته أي عن تطرق وجوه الخلل إليه . وقيل : الذكر الحكيم اللوح المحفوظ الذي منه نقلت جميع كتب الله المنزلة على الأنبياء ، أخبر أنه تعالى أنزل هذه القصص مما كتب هناك . قال المفسرون : إن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : مالك تشتم صاحبنا ؟ قال صلى الله عليه وسلم : وما أقول ؟ قالوا : تقول إنه عبد . قال : أجل هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول . فغضبوا وقالوا : هل رأيت إنساناً قط من غير أب ؟ فإن كنت صادقاً فأرنا مثله فأنزل الله عز وجل ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ﴾ أي حاله الغريبة كحاله . ووجه الشبه أن كلاًّ منهما وجد وجوداً خارجا عن العادة المستمرة ، بل الوجود من غير أب وأم أغرب ، فشبه الغريب بالأغرب . لأن المشبه به ينبغي أن يكون أقوى حالاً من المشبه في وجه الشبه . ثم فسر كيفية خلق آدم بقوله : ﴿ خلقه من تراب ﴾ أي قدّره جسداً

من طين . قيل : اشتقاق آدم من الأدمة ، وقال ابن عباس : سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض كلها أحمرها وأسودها طيبها وخبيثها ، فلذلك كان في ولده الأسود والأحمر

والطيب والخبيث . وقيل : إنه اسم أعجمي كآزر ووزنه " فاعل " لا " أفعل " . والضمير عائد إلى آدم الموجود كقولك : " هذا الكون أصله من الطين " ﴿ ثم قال له ﴾ أي لذلك المقدّر ﴿ كن فيكون ﴾ وهذا كقوله : ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ [المؤمنون : 14] وإنما لم يقل " فكان " إما لأنه حكاية حال ماضية ، وإما تصوير لتلك الحالة العجيبة كقوله :

فأصربها بلا دهش فخرت . . .

(225/120)

أو المراد اعلم يا محمد أن ما قال له ربك " كن " فإنه يكون لا محالة . وقيل : معنى " ثم " تراخي الخبر عن الخبر لا تراخي المخبر عن المخبر كقول القائل " أعطيت زيداً ألفاً اليوم ثم أنا أعطيته أمس ألفين " أي ثم أنا أخبركم أني أعطيته أمس ألفين فكذا قوله : ﴿ خلقه من تراب ﴾ أي صيره بشراً سوياً . ثم إنه يخبركم أنه إنما خلقه بأن قال له " كن " . وقيل : إن معنى الخلق يرجع إلى علمه تعالى بكيفية وقوعه وإرادته لإيقاعه على الوجه المخصوص . والمراد ب " كن " إدخاله في الوجود . قالت الحكماء : إنما خلق آدم من التراب لوجوه : ليكون متواضعاً وليكون ستاراً وليكون أشد التصاقاً بالأرض فيصلح للخلافة فيها ، ولما فيه من إظهار القدرة فخلق الشياطين من النار التي هي أضوأ الأجرام السفلية وابتلاهم

بظلمات الضلالة ، وخلق الملائكة من الهواء الذي هو أرق الأجرام وأعطاهم كمال القوة والقدرة ، وخلق السموات من أمواج مياه البحار وأبقاها معلقة في الفضاء ، وخلق آدم من التراب الذي هو أكثف الأجرام فآتاه النور والهداية ، وكل ذلك برهان باهر ودليل ظاهر على أنه تعالى هو المدبر بغير احتياج والخالق بلا مزاج . وعلاج خلق البشر من التراب لإطفاء نيران الشهوة والحرص والغضب ، وخلقه من الماء ﴿ خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً ﴾ [الفرقان : 54] ليكون صافياً تتجلى فيه صور الأشياء . ثم مزج بين التراب والماء لامتزاج اللطيف بالكثيف فصار طيناً ﴿ إني خالق بشراً من طين ﴾ [ص : 71] ثم إنه سل من ألطف أجزاء الطين ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ [المؤمنون : 13] ثم جعله طيناً لازباً ﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ [الصافات : 11] ثم سنه وغير رائحته ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإٍ مسنون ﴾ [الحجر : 26] .

عن بعض العلماء أنه أسر بالروم فقال لهم : لم تعبدون عيسى عليه السلام ؟ قالوا : لأنه لا أب له . قال : فآدم أولى لأنه لا أبوين له . قالوا : كان يحيي الموتى . قال : فحزقيل أولى لأن

عيسى أحيا أربعة نفر وأحيا حزقيل ثمانية آلاف . فقالوا : كان يبرئ الأكمه والأبرص . قال : فجرجيس أولى لأنه طبخ وأحرق ثم قام سالماً . ﴿ الحق من ربك ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو الحق يعني الذي أنبأتك من شأن عيسى لا الذي اعتقد النصارى فيه أنه إله ، ولا الذي يزعم اليهود من رميها بيوسف النجار ، أو ﴿ الحق ﴾ مبتدأ و ﴿ من ربك ﴾ خبره كما يقال : الحق من الله والباطل من الشيطان . ﴿ فلا تكن من الممترين ﴾ الشاكين . قال ابن الأنباري : أصله من مريت الناقة والشاة حلبتها فكأن الشاك يجتذب بشكه شراً . وفي هذا النهي ترغيب له في زيادة الثبات والطمأنينة ولطف للأمة وقد مر نظائره في سورة البقرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 2 صـ 167. 175 ﴾

(227/120)

قوله تعالى ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (61) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أتاهم سبحانه وتعالى من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام بالفصل في البيان الذي ليس

بعده إلا العناد ، فبين أولاً ما تفضل فيه عيسى عليه الصلاة والسلام من أطوار الخلق الموجبة للحاجة المنافية للإلهية ، ثم فضح بتمثيله بآدم عليه الصلاة والسلام شبهتَهم ، ألزمهم عل تقديره بالفيصل الأعظم للمعاند الموجب للعذاب المستأصل أهل الفساد فقال سبحانه وتعالى : ﴿ فمن ﴾ أي فتسبب عما آتيناك به من الحق في أمره أنا نقول لك : من ﴿ حآجك فيه ﴾ أي خاصمك بإيراد حجة ، أي كلام يجعله في عداد ما يقصد .

ولما كان الملوم إنما هو من بلغته هذه الآيات وعرف معناها دون من حاج في الزمان الذي هو بعد نزولها دون اطلاعه عليها قال : ﴿ من ﴾ أي مبتدئاً المحاجة من ، ويجوز أن يكون الإتيان بمن لئلا يفهم أن المباهلة تختص بمن استغرق زمان البعد بالمجادلة ﴿ بعدما جاءك من العلم ﴾ أي الذي أنزلنا ن إليك وقصصناه عليك في أمره ﴿ فقل تعالوا ﴾ أي اقبلوا أيها المجادلون إلى أمر نعرف فيه علو المحق وسفول المبطل ﴿ ندع أبنآءنا وأبناءكم ﴾ أي الذي هم أعز ما عند الإنسان لكونهم بعضه ﴿ ونساءنا ونساءكم ﴾ أي اللاتي هن أولى ما يدافع عنه أولو الهمم العوالي ﴿ وأنفسنا وأنفسكم ﴾ فقدم ما يدافع عنه ذوو الأحساب ويفدونه بنفوسهم ، وقدم منه الأعز الألصق بالأكباد وختم بالمدافع ، وهذا الترتيب على سبيل الترقي إذا اعتبرت أنه قدم الفرع ثم الأصل وبدأ بالأدنى وختم بالأعلى ، وفائدة الجمع الإشارة إلى القطع بالوثوق بالكون على الحق .

ثم ذكر ما له هذا الجمع مشيراً بحرف التراخي إلى خطر الأمر وأنه مما ينبغي الاهتمام به والتروي له وإمعان النظر فيه لوخامة العاقبة وسوء المنقلب للكاذب فقال : ﴿ ثم نبتهل ﴾ أي نتضرع - قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كما نقله الإمام أبو حيان في نهره .

وقال الحرالي : الابتهال طلب البهل ، والبهل أصل معناه التخلي والضراعة في مهم مقصود - انتهى .

﴿ فنجعل لعنت الله ﴾ أي الملك الذي له العظمة كلها فهو يجير ولا يجار عليه ، أي إبعاد وطرده ﴿ على الكاذبين ﴾ وقال ابن الزبير بعد ما تقدم من كلامه : ثم لما أتبعت قصة آدم عليه الصلاة والسلام - يعني في البقرة - بذكر بني إسرائيل لوقوفهم من تلك القصص على ما لم تكن العرب تعرفه ، وأنذروا وحذروا ؛ أتبعت قصة عيسى عليه الصلاة والسلام - يعني هنا - بذكر الحواريين وأمر النصارى إلى آية المباهلة - انتهى . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 106.107 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أن الله تعالى بيّن في أول هذه السورة وجوهاً من الدلائل القاطعة على فساد قول النصارى بالزوجة والولد ، وأتبعها بذكر الجواب عن جميع شبههم على سبيل الاستقصاء التام ، وختم الكلام بهذه النكتة القاطعة لفساد كلامهم ، وهو أنه لما لم يلزم من عدم الأب والأم البشريين لآدم عليه السلام أن يكون ابناً لله تعالى لم يلزم من عدم الأب البشري لعيسى عليه السلام أن يكون ابناً لله ، تعالى الله عن ذلك ولما لم يبعد انخلاق آدم عليه السلام من التراب لم يبعد أيضاً انخلاق عيسى عليه السلام من الدم الذي كان يجتمع في رحم أم عيسى عليه السلام ، ومن أنصف وطلب الحق ، علم أن البيان قد بلغ إلى الغاية القصوى ، فعند ذلك قال تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ ﴾ بعد هذه الدلائل الواضحة والجوابات اللائحة فاقطع الكلام معهم وعاملهم بما يعامل به المعاند ، وهو أن تدعوهم إلى الملاعنة فقال : ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ﴾ إلى آخر الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 69 ﴾

(230/120)

مناظرة بين الإمام فخر الدين الرازى وبين عالم نصرانى

قال الإمام الفخر :

اتفق أني حين كنت بخوارزم ، أخبرت أنه جاء نصراني يدعي التحقيق والتعمق في مذهبهم ، فذهبت إليه وشرعنا في الحديث وقال لي : ما الدليل على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقلت له كما نقل إلينا ظهور الخوارق على يد موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام ، نقل إلينا ظهور الخوارق على يد محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن رددنا التواتر ، أو قبلناه لكن قلنا : إن المعجزة لا تدل على الصدق ، فحينئذ بطلت نبوّة سائر الأنبياء عليهم السلام ، وإن اعترفنا بصحة التواتر ، واعترفنا بدلالة المعجزة على الصدق ، ثم إنهما حاصلان في حق محمد وجب الاعتراف قطعاً بنبوّة محمد عليه السلام ضرورة أن عند الاستواء في الدليل لا بد من الاستواء في حصول المدلول ، فقال النصراني : أنا لا أقول في عيسى عليه السلام إنه كان نبياً بل أقول إنه كان إلها ، فقلت له الكلام في النبوّة لا بد وأن يكون مسبوقاً بمعرفة الإله وهذا الذي تقوله باطل ويدل عليه أن الإله عبارة عن موجود واجب الوجود لذاته ، يجب أن لا يكون جسماً ولا متحيزاً ولا عرضاً وعيسى عبارة عن هذا الشخص البشري الجسماني الذي وجد بعد أن كان معدوماً وقتل بعد أن كان حياً على قولكم وكان طفلاً أولاً ، ثم صار مترعرعاً ، ثم صار شاباً ، وكان يأكل ويشرب ويحدث وينام ويستيقظ ، وقد تقرر في بداهة العقول أن المحدث لا يكون قديماً والمحتاج لا يكون غنياً والممكن لا يكون واجباً والمتغير لا يكون دائماً .

(231/120)

والوجه الثاني : في إبطال هذه المقالة أنكم تعترفون بأن اليهود أخذوه وصلبوه وتركوه حياً على الخشبة ، وقد مزقوا ضلعه ، وأنه كان يحتال في الهرب منهم ، وفي الاختفاء عنهم ، وحين عاملوه بتلك المعاملات أظهر الجزع الشديد ، فإن كان إلها أو كان الإله حالاً فيه أو كان جزءاً من الإله حالاً فيه ، فلم لم يدفعهم عن نفسه ؟ ولم لم يهلكهم بالكلية ؟ وأي حاجة به إلى إظهار الجزع منهم والاحتيال في الفرار منهم ! وبالله أنني لأتعجب جداً ! إن العاقل كيف يليق به أن يقول هذا القول ويعتقد صحته ، فتكاد أن تكون بديهة العقل شاهدة بفساده .

والوجه الثالث : وهو أنه : إما أن يقال بأن الإله هو هذا الشخص الجسماني المشاهد ، أو يقال حل الإله بكليته فيه ، أو حل بعض الإله وجزء منه فيه والأقسام الثلاثة باطلة أما الأول : فلأن إله العالم لو كان هو ذلك الجسم ، فحين قتله اليهود كان ذلك قولاً بأن اليهود قتلوا إله العالم ، فكيف بقي العالم بعد ذلك من غير إله ! ثم إن أشد الناس ذلاً ودناءة اليهود ، فالإله الذي تقتله اليهود إله في غاية العجز ! وأما الثاني : وهو أن الإله بكليته حل في هذا الجسم ، فهو أيضاً فاسد ، لأن الإله لم يكن جسماً ولا عرضاً امتنع حلوله في الجسم ، وإن كان جسماً ، فحينئذ يكون حلوله في جسم آخر عبارة عن اختلاط أجزاءه بأجزاء ذلك الجسم ، وذلك يوجب وقوع التفرق في أجزاء ذلك الإله ، وإن كان عرضاً كان محتاجاً إلى

المحل ، وكان الإله محتاجاً إلى غيره ، وكل ذلك سخف ، وأما الثالث : وهو أنه حل فيه بعض من أبعاض الإله ، وجزء من أجزائه ، فذلك أيضاً محال لأن ذلك الجزء إن كان معتبراً في الإلهية ، فعند انفصاله عن الإله ، وجب أن لا يبقى الإله إلها ، وإن لم يكن معتبر في تحقق الإلهية ، لم يكن جزأ من الإله ، فثبت فساد هذه الأقسام ، فكان قول النصارى باطلاً .

(232/120)

الوجه الرابع : في بطلان قول النصارى ما ثبت بالتواتر أن عيسى عليه السلام كان عظيم الرغبة في العبادة والطاعة لله تعالى ، ولو كان إلها لاستحال ذلك ، لأن الإله لا يعبد نفسه ، فهذه وجوه في غاية الجلاء والظهور ، دالة على فساد قولهم ، ثم قلت للنصراني : وما الذي دلك على كونه إلها ؟ فقال الذي دل عليه ظهور العجائب عليه من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وذلك لا يمكن حصوله إلا بقدرة الإله تعالى ، فقلت له هل تسلم إنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول أم لا ؟ فإن لم تسلم لزمك من نفي العالم في الأزل نفي الصانع ، وإن سلمت أنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول ، فأقول : لما جوّزت حلول الإله في بدن عيسى عليه السلام ، فكيف عرفت أن الإله ما حل في بدني وبدنك وفي بدن كل حيوان ونبات وجماد ؟ فقال : الفرق ظاهر ، وذلك لأني إنما حكمت بذلك الحلول ، لأنه ظهرت

تلك الأفعال العجيبة عليه ، والأفعال العجيبة ما ظهرت على يدي ولا على يدك ، فعلمنا أن ذلك الحلول مفقود ههنا ، فقلت له : تبين الآن أنك ما عرفت معنى قولي إنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول ، وذلك لأن ظهور تلك الخوارق دالة على حلول الإله في بدن عيسى : فعدم ظهور تلك الخوارق مني ومنك ليس فيه إلا أنه لم يوجد ذلك الدليل ، فإذا ثبت أنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول لا يلزم من عدم ظهور تلك الخوارق مني ومنك عدم الحلول في حقي وفي حقك ، وفي حق الكلب والسنور والفأر ثم قلت : إن مذهباً يؤدي القول به إلى تجويز حلول ذات الله في بدن الكلب والذباب لفي غاية الخسة والركاكة .

(233/120)

الوجه الخامس : أن قلب العصا حية ، أبعد في العقل من إعادة الميت حياً ، لأن المشاكلة بين بدن الحي وبدن الميت أكثر من المشاكلة بين الخشبة وبين بدن الثعبان ، فإذا لم يوجب قلب العصا حية كون موسى إلها ولا ابناً للإله ، فبأن لا يدل إحياء الموتى على الإلهية كان ذلك أولى ، وعند هذا انقطع النصراني ولم يبق له كلام ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 69 . 71 ﴾

(234/120)

مناظرة القاضى أبى بكر الباقلانى في مجلس ملك الروم وأخباره معه

وجه عضد الدولة في بعض سفراته ، إلى ملك الروم الأعظم ، القاضي أبا بكر ابن الطيب ، واختصه بذلك ، ليظهر رفعة الإسلام ، ويغض من النصرانية . فلما تهيأ للخروج ، قال للقاضي ، وزير عضد الدولة : الطالع خروجاً ؟ فسأله القاضي أبو بكر . فلما فسر مراده ، قال : لا أقول بهذا . لأن السعد والنحس كله ، والشر والخير كله ، بيد الله عز وجلّ . ليس للكواكب هاهنا مثقال ذرة من القدرة . وإنما وضعت كتب المنجمين ليتمعش بها الجاهلون ، بين العامة . ولا حقيقة لها . فقال الوزير : احضروا لي ابن الصدفي ، ليست المناظرة من شأني . ولا أنا قائم بها ، وإنما أنا أحفظ علم النجوم ، وأقول إذا كان من النجوم كذا كان كذا . وأما تعليله ، فهو من علم المنطق . فأحضر وأمر بمكالمة القاضي ، فقال له أبو سليمان : هذا القاضي يقول : إن الباري سبحانه ، قادر على أن يركب عشرة أنفس في ذلك المركب الذي في دجلة ، فإذا وصلوا إلى الجانب الآخر يكون الله قد زاد فيهم آخر فيكونون أحد عشر . ويكون الحادي عشر من خلقه الله في ذلك الوقت . ولو قلت أنا لا يقدر على ذلك أو هذا محال ، قطعوا لساني وقتلوني ، وإن أحسنوا إليّ كتفوني ، ورموني في الدجلة . وإذا كان الأمر كما ذكرت لم يكن لمناظرتي معه معنى . فالتفت الوزير إلى القاضي وقال : ما تقول أيها القاضي ؟ فقلت : ليس كلامنا هاهنا في قدرة الباري تعالى ،

والباري تعالى قادر على كل شيء . وإن جحده هذا الجاهل ، وإنما كلامنا في تأثيرات هذه الكواكب ، فانتقل إلى ما ذكر لعجزه وقلة معرفته ، وإلا فأي تعلق للكلام في قدرة الباري ، عز وجلّ ، في مسألتنا ؟ وأنا وإن قلت إن القديم تعالى قادر على ذلك ، ما أقول إنه يخرق العادة ، ويفعل هذا . لأنه لا يجوز عندنا أن يخلق اليوم إنساناً من غير أبوين ، فإذا كان كذلك فقد علم الوزير أن هذا فرار من الزحف . فقال هو كما ذكرت . فقال المنطيقي : المناظرات دربة وتجربة ، وأنا لا أعرف مناظرات هؤلاء القوم ، وهم لا يعرفون مواضعتنا وعبارتنا ، ولا تجمل

(235/120)

المناظرة بين قوم هذا حالهم . فقال له الوزير : قبلنا اعتذارك والحق أبلج . قال القاضي : ومال إليّ بوجهه ، وقال : سر في دعة الله . فخرجت . فدخلنا بلاد الروم ، حتى وصلت إلى ملك الروم بالقسطنطينية ، وأخبر الملك بقدومنا . فأرسل إلينا من تلقانا ، وقال : لا تدخلوا على الملك بعمائمكم ، حتى تنزعوها . إلا أن تكون مناديل لطاف ، وحتى تنزعوا أخفافكم . فقلت : لا أفعل ، ولا أدخل ، إلا بما أنا عليه من الزي ، واللباس . فإن رضيتم ، وإلا فخذوا الكتب تقرأونها ، وأرسلوا بجوابها وأعود به . فأخبر بذلك الملك ، فقال :

أريد معرفة سبب هذا وامتناعه عما مضى عليه رسمي مع الرسل. فسئل القاضي عن ذلك. فقال: أنا رجل من علماء المسلمين، وما تحبونه منا ذلّ وصغار، والله تعالى قد رفعنا بالإسلام وأعزّنا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وأيضاً فإن من شأن الملوك، إذا بعثوا رسلهم إلى ملك آخر، رفع أقدارهم، لا إذلالهم. سيما إذا كان الرسول من أهل العلم. ووضع قدره انهدام جانبه، عند الله تعالى، وعند المسلمين. فعرّف الترجمان الملك بذلك، فقال: دعوه يدخل ومن معه كما يشاؤون. ندخل بها على سلطاننا الأكرم، الذي هو تحت يد أمير المؤمنين، وأدخل بها على سلطاننا الأكرم الذي أمرنا الله تعالى ورسوله، بطاعته. فما تنكرون عليّ هذا، وأنا رجل من علماء المسلمين؟ فإن دخلت بغير هيئتي ورجعت إلى حكمك، أهنت العلم ونفسي، وذهب عند المسلمين جاهي. فقال للترجمان: قل له قد قبلنا عذرك، ورفعنا منزلتك، وليس محلك عندنا محل سائر الرسل، وإنما محلك عندنا محل الأبرار الأخيار، وقد أخبرنا صاحبكم في كتبه: إنك لسان المسلمين والمناظر عنهم، وأنا أشتهي أن أعرف ذلك وأسمعه منك، كما ذكروه عنك. قلت: إذا أذن الملك، فقال: أنزلوا حيث أعددت لكم، ويكون بعد هذا الاجتمال. قال القاضي: فنهضنا إلى موضع أُعدّ لنا، وذكر أبو بكر البغدادي الحافظ: أن القاضي، لما وصل إلى مدينة الطاغية، وعرّف به وبمحله من العلم،

فكر الطاغية في أمره ، وعلم أنه لا يكفر له إذا دخل عليه - كما جرى رسم الرعية أن يقبل الأرض بين يدي ملوكها - فرأى أن يضع سريره ، وراء باب لطيف ، لا يمكن أن يدخل أحد منه إلا راكعاً ، ليدخل القاضي من ذلك الباب . فلما رآه القاضي ، تفكّر وأدار رأسه ، وحنى رأسه راكعاً ، ودخل من الباب يمشي مستقبلاً الملك بدبره ، حتى صار بين يديه . ثم رفع رأسه ، ونصب ظهره . ثم أدار وجهه إلى الملك حينئذ ، فعجب من فطنته ، ووقعت له الهيبة في قلبه . قال غيره : قال القاضي : فلما كان يوم الأحد ، بعث الملك في طلبي ، وقال : من شأن الرسول حضور مائدة الملك . فنحب أن تجيب إلى طعامنا ولا تنقض كل رسومنا . فقلت لرسوله : أنا من علماء المسلمين ، ولست كالرسل من الجند وغيرهم ، الذين لا يعرفون ما يجب عليهم في هذا الموطن . والملك يعلم أن العلماء لا يقدرون أن يدخلوا هذه الأشياء ، وهم يعلمون ، وأخشى أن يكون على مائدته من لحوم الخنازير ، وما حرمه الله تعالى على رسوله ، وعلى المسلمين؟ فذهب الترجمان ، وعاد إليّ وقال : يقول لك الملك : ليس على مائدتي ، ولا في طعامي شيء تكرهه . وقد استحسنت ما أتيت به ، وما أنت عندنا كسائر الرسل ، بل أعظم ، وما كرهت من لحوم الخنزير ، إنما هو خارج من حضرتي بيني وبينه حجاب . فنهضت على كل حال .

وجلست وقدّم الطعام ، ومددت يدي وأوهمت الأكل ، ولم آكل منه شيئاً مع أني لم أرَ على

مائدته ما يكره. فلما فرغ من الطعام، بخّر المجلس وعطّره، ثم قال: هذا الذي تدعونه في معجزات نبيّكم من انشقاق القمر، كيف هو عندكم؟ قلت: هو صحيح عندنا، وانشقّ القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى رأى الناس ذلك. وإنما رآه الحضور، ومن اتفق نظره إليه في تلك الحال. فقال الملك: وكيف لم يره جميع الناس؟ قلت: لأن الناس لم يكونوا على أهبة ووعد لشقوقه وحضوره. فقال: وهذا القمر بينكم وبينه نسبة وقرابة؟ لأي شيء لم تعرفه الروم وغيرها من سائر الناس، وإنما رأيتموه أنتم خاصة؟ قلت:

فهذه المائدة بينكم وبينها نسبة؟ وأنتم رأيتموها دون اليهود، والمجوس والبراهمة، وأهل الإلحاد، وخاصة يونان جيرانكم، فإنهم كلهم منكرون لهذا الشأن، وأنتم رأيتموها دون غيركم. فتحيّر الملك وقال بكلامه: سبحان الله، وأمر بإحضار فلان القسيس ليكلمني. وقال: نحن لا نطيقه. لأن صاحبه قال: ما في مملكتي مثله، ولا للمسلمين في عصره مثله. فلم أشعر إذ جاؤوا برجل كالذئب أشقر الشعر مسبله، فقعد، وحكيت له المسألة فقال: الذي قاله المسلم لازم، هو الحق لا أعرف له جواباً إلا ما ذكره. فقلت له:

أتقول إن الكسوف إذا كان، يراه جميع أهل الأرض أم يراه أهل الإقليم الذي بمحاذاته؟ قال: لا يراه إلا من كان في محاذاته. قلت: فما أنكرت من انشقاق القمر، إذا كان في ناحية لا يراه إلا أهل تلك الناحية، ومن تأهب للنظر له؟ فأما من أعرض عنه، وكان في الأمكنة التي لا يرى القمر منها فلا يراه. فقال: هو كما قلت. ما يدفعك عنه دافع. وإنما الكلام في الرواة الذين نقلوه. وأما الطعن في غير هذا الوجه، فليس بصحيح. فقال الملك: وكيف يطعن في النقلة؟ فقال النصراني: شبه هذا من الآيات، إذا صح، وجب أن ينقله الجم الغفير، إلى الجم الغفير، حتى يتصل بنا العلم الضروري به، ولو كان كذلك، لوقع إلينا العلم الضروري به. فلما لم يقع لنا العلم الضروري به، دلّ أن الخبر مفتعل باطل. فالتفت الملك إليّ وقال: الجواب. قلت: يلزمه في نزول المائدة، ما يلزمني في انشقاق القمر، ويقال له لو كان نزول المائدة صحيحاً، لوجب أن ينقله العدد الكثير، فلا يبقى يهودي ولا نصراني ولا ثنوي إلا ويعلم هذا بالضرورة. ولما لم يعلموا ذلك بالضرورة، دلّ أن الخبر كذب. فبهت النصراني والملك، ومن ضمه المجلس. وانفض المجلس على هذا يديه. ثم رفع رأسه، ونصب ظهره. ثم أدار وجهه إلى الملك حينئذ، فعجب من فطنته، ووقعت له الهيبة في قلبه.

قال القاضي : ثم سألني الملك في مجلس ثانٍ ، فقال : ما تقولون في المسيح عيسى بن مريم عليه السلام؟ قلت روح الله ، وكلمته ، وعبده ، ونبيه ، ورسوله . كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له : كن ، فيكون . وتلوت عليه النص . فقال : يا مسلم تقولون : المسيح عبد ، فقلت : نعم ، كذا نقول ، وبه ندين . قال : ولا تقولون إنه ابن الله؟ قلت : معاذ الله ، "ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله" الآيتان ، إنكم لتقولون قولاً عظيماً . فإذا جعلتم المسيح ابن الله ، فمن أبوه وأخوه وجده وعم وخاله . وعددت عليه الأقارب ، فتحيّر وقال : يا مسلم ، العبد يخلق ، ويحيي ويميت ويبرئ الأكمه والأبرص؟ قلت : لا يقدر العبد على ذلك وإنما ذلك كله من فعل الله عز وجلّ . قال : وكيف يكون المسيح عبداً لله وخلقاً من خلقه ، وقد أتى بهذه الآيات ، وفعل ذلك كله؟ قلت : معاذ الله ما أحيى المسيح الموتى ولا أبرأ الأكمه والأبرص . فتحيّر وقلّ صبره ، وقال : يا مسلم ، تنكر هذا مع اشتهاره في الخلق ، وأخذ الناس له بالقبول؟ فقلت : ما قال أحد من أهل الفقه والمعرفة ، إن الأنبياء عليهم السلام ، يفعلون المعجزات من ذاتهم . وإنما هو شيء يفعله الله تعالى على أيديهم ، تصديقاً لهم ، يجري مجرى الشهادة . فقال : قد حضر عندي جماعة من أولاد نبيّكم ، وأهل دينكم المشهورين فيكم ، وقالوا ، إن ذلك في كتابكم . فقلت : أيها الملك ، في كتابنا أن ذلك كله بإذن الله ، وتلوت عليه منصوص القرآن في المسيح : "بإذن الله" وقلت : إنما فعل ذلك كله بإذن الله وحده لا شريك له ، لا من ذات المسيح . ولو كان المسيح يحيي

الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص من ذاته ، لجاز أن يقال : موسى ، فلق البحر ، وأخرج يده بيضاء من غير سوء من ذاته . وليست معجزات الأنبياء عليهم السلام من ذاتهم وأفعالهم ، دون إرادة الخالق . فلما لم يجز هذا ، لم يجز أن تسند المعجزات التي ظهرت على يد المسيح إليه . فقال الملك : وسائر الأنبياء كلهم من آدم ، إلى من بعده كانوا يتضرّعون للمسيح ، حتى

(239/120)

يفعل ما يطلبون . قلت : أوَفي لسان اليهود عظم ، لا يقدرون أن يقولوا إن المسيح كان يتضرّع إلى موسى ؟ وكل صاحب نبي يقول : إن المسيح كان يتضرع إلى نبيه ، فلا فرق بين الموضعين في الدعوى . قال القاضي رحمه الله : ثم تكلمنا في مجلس ثالث فقلت له : أتحد اللهوت بالناسوت ؟ قال : أراد أن ينجي الناس من الهلاك . قلت له : درى بأنه يقتل ويصلب ويفعل به كذا ولم يؤمن به اليهود ؟ فإن قلت إنه لا يدري ما أراد اليهود به ، بطل أن يكون إلهاً . وإذا بطل أن يكون إلهاً ، بطل أن يكون ابناً ، وإن قلت قد درى ودخل في هذا الأمر على بصيرة ، فليس بحكيم ، لأن الحكمة تمنع من التعرض للبلاء . فبهت . وكان آخر مجلس كان لي معه . وذكر ابن حيّان عمن حدثه أن الطاغية ، وعد القاضي أبا بكر بالاجتماع معه في

محفل من محافل النصرانية ليوم سمّاه . فحضر أبو بكر وقد احتفل المجلس ، وبولغ في زينته ، فأدناه الملك وألطف سؤاله ، وأجلسه على كرسيه ، دون سريره بقليل . والملك في أبهته وخاصته ، عليه التاج ، والذرية ورجال مملكته ، على مراتبهم . وجاء البطرك قيم ديانتهم ، وقد أوعد الملك إليه في التيقظ ، وقال له : إن فنا خسرو ملك الفرس ، الذي سمعت بدهائه وبكرامته ، لا ينفذ إلا من يشبهه في رحلته وحيلته . فتحفظ منه . وأظهر دينك . فلعلك تتعلق منه بسقطة ، أو تعثر منه على زلة تقضي بفضلنا عليه . فجاء البطرك قيم الديانة ، وولي النِّحلة . فسلم القاضي عليه أحفل سلام . وسأله أحفى سؤال ، وقال له : كيف الأهل والولد ؟ فعظم قوله هذا عليه ، وعلى جميعهم وتغيروا له ، وصلبوا على وجوههم ، وأنكروا قول أبي بكر عليه ، فقال : يا هؤلاء تستعظمون لهذا الإنسان اتخاذ الصاحبة والولد ، وتربون به عن ذلك ، ولا تستعظمونه لربكم ، عزّ وجهه ، فتضيفون ذلك إليه؟ سوءة لهذا الرأي ما أبين غلطه . فسقط في أيديهم ، ولم يردوا جواباً . وتداخلتهم له هيبة عظيمة ، وانكسروا ، ثم قال الملك للبطرك : ما ترى في أمر هذا الشيطان . قال : تقضي حاجته ، وتلاطف صاحبه ،

وتبعث بالهدايا إليه ، وتخرج العراقي عن بلدك من يومك إن قدرت . وإلا لم آمن الفتنة منه على النصرانية . ففعل الملك ذلك وأحسن جواب عضد الدولة ، وهداياه ، وعجل تسريحه ، ومعه عدة من أسارى المسلمين والمصاحف . ووكل بالقاضي من جنده من يحفظه ، حتى وصل إلى مأمنه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الإنصاف فيما يجب ولا يجوز فيه الخلاف

للقاضى أبى بكر الباقلانى صـ 18.10 ﴾ . بتصرف يسير

(241/120)

[مُنَاظَرَةُ ابن القيم لِأَحَدِ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي نُبُوَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

وَدَارَ بَيْنِي وَبَيْنَ بَعْضِ عُلَمَائِهِمْ مُنَاظَرَةٌ فِي ذَلِكَ فَقُلْت لَهُ فِي أَثْنَاءِ الْكَلَامِ وَلَا يَتِمّ لَكُمْ الْقَدْحُ فِي نُبُوّةِ نَبِيّنَا صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إلّا بِالطّعْنِ فِي الرّبّ تَعَالَى وَالْقَدْحِ فِيهِ وَنِسْبَتِهِ إلَى أَعْظَمِ الظّلْمِ وَالسّفَهِ وَالْفَسَادِ تَعَالَى اللّهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ كَيْفَ يَلْزَمُنَا ذَلِكَ ؟ قُلْت : بَلْ أَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ لَا يَتِمّ لَكُمْ ذَلِكَ إلّا بِجُحُودِهِ وَإِنْكَارِ وُجُودِهِ تَعَالَى وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنّهُ إذَا كَانَ مُحَمّدٌ عِنْدَكُمْ لَيْسَ بِنَبِيّ صَادِقٍ وَهُوَ بِزَعْمِكُمْ مَلِكٌ ظَالِمٌ فَقَدْ تَهَيّأَ لَهُ أَنْ يَفْتَرِيَ عَلَى اللّهِ وَيَتَقَوّلَ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَقُلْهُ ثُمّ يَتِمّ لَهُ ذَلِكَ وَيَسْتَمِرّ حَتّى يُحَلّلَ وَيُحَرّمَ وَيَفْرِضَ الْفَرَائِضَ وَيُشَرّعَ الشّرَائِعَ وَيَنْسَخَ الْمِلَلَ

وَيَضْرِبَ الرِّقَابَ وَيَقْتُلَ أَتْبَاعَ الرُّسُلِ وَهُمْ أَهْلُ الْحَقِّ وَيَسْبِي نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَيَغْنَمَ أَمْوَالَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَيُتِمَّ لَهُ ذَلِكَ حَتَّى يَفْتَحَ الْأَرْضَ وَيَنْسُبَ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِهِ وَمَحَبَّتِهِ لَهُ وَالرَّبُّ تَعَالَى يُشَاهِدُهُ وَمَا يَفْعَلُ بِأَهْلِ الْحَقِّ وَأَتْبَاعِ الرُّسُلِ وَهُوَ مُسْتَمِرٌّ فِي الِافْتِرَاءِ عَلَيْهِ ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ سَنَةً وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ يُؤَيِّدُهُ وَيَنْصُرُهُ وَيُعْلِي أَمْرَهُ وَيُمَكِّنُ لَهُ مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ الْخَارِجَةِ عَنْ عَادَةِ الْبَشَرِ وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُجِيبُ دَعَوَاتِهِ وَيُهْلِكُ أَعْدَاءَهُ مِنْ غَيْرِ فِعْلٍ مِنْهُ نَفْسِهِ وَلَا سَبَبٍ بَلْ تَارَةً بِدُعَائِهِ وَتَارَةً يَسْتَأْصِلُهُمْ سُبْحَانَهُ مِنْ غَيْرِ دُعَاءٍ

(242/120)

مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَ ذَلِكَ يَقْضِي لَهُ كُلَّ حَاجَةٍ سَأَلَهُ إِيَّاهَا وَيَعِدُهُ كُلَّ وَعْدٍ جَمِيلٍ ثُمَّ يُنْجِزُ لَهُ وَعْدَهُ عَلَى أَتَمِّ الْوُجُوهِ وَأَهْنَئِهَا وَأَكْمَلِهَا هَذَا وَهُوَ عِنْدَكُمْ فِي غَايَةِ الْكَذِبِ وَالِافْتِرَاءِ وَالظُّلْمِ فَإِنَّهُ لَا أَكْذَبَ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَاسْتَمَرَّ عَلَى ذَلِكَ وَلَا أَظْلَمَ مِمَّنْ أَبْطَلَ شَرَائِعَ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ وَسَعَى فِي رَفْعِهَا مِنَ الْأَرْضِ وَتَبْدِيلِهَا بِمَا يُرِيدُ هُوَ وَقَتَلَ أَوْلِيَاءَهُ وَحِزْبَهُ وَأَتْبَاعَ رُسُلِهِ وَاسْتَمَرَّتْ نُصْرَتُهُ عَلَيْهِمْ دَائِمًا وَاللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ كُلِّهِ رَبِّهِ أَنَّهُ أَوْحَى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ

مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ [الْأَنْعَامِ 93] فَيَلْزَمُكُمْ مَعَاشِرَ مَنْ كَذَّبَهُ أَحَدُ أَمْرَيْنِ لَا بُدَّ لَكُمْ مِنْهُمَا :
إِمَّا أَنْ تَقُولُوا : لَا صَانِعَ لِلْعَالَمِ وَلَا مُدَبِّرَ وَلَوْ كَانَ لِلْعَالَمِ صَانِعٌ مُدَبِّرٌ قَدِيرٌ حَكِيمٌ لَأَخَذَ عَلَى
يَدَيْهِ وَلَقَابَلَهُ أَعْظَمَ مُقَابَلَةٍ وَجَعَلَهُ نَكَالًا لِلظَّالِمِينَ إِذْ لَا يَلِيقُ بِالْمُلُوكِ غَيْرُ هَذَا فَكَيْفَ بِمَلِكِ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ؟ . الثَّانِي : نِسْبَةُ الرَّبِّ إِلَى مَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الْجَوْرِ
وَالسَّفَهِ وَالظُّلْمِ وَإِضْلَالِ الْخَلْقِ دَائِمًا أَبَدَ الْآبَادِ لَا بَلْ نُصْرَةَ الْكَاذِبِ وَالتَّمْكِينِ لَهُ مِنَ الْأَرْضِ
وَإِجَابَةِ دَعَوَاتِهِ وَقِيَامِ أَمْرِهِ مِنْ بَعْدِهِ وَإِعْلَاءِ كَلِمَاتِهِ دَائِمًا وَإِظْهَارِ دَعْوَتِهِ وَالشَّهَادَةِ لَهُ

(243/120)

بِالنُّبُوَّةِ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ فِي كُلِّ مَجْمَعٍ وَنَادٍ فَأَيْنَ هَذَا مِنْ فِعْلِ أَحْكَمِ
الْحَاكِمِينَ وَأَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ فَلَقَدْ قَدَحْتُمْ فِي رَبِّ الْعَالَمِينَ أَعْظَمَ قَدْحٍ وَطَعَنْتُمْ فِيهِ أَشَدَّ
طَعْنٍ وَأَنْكَرْتُمُوهُ بِالْكُلِّيَّةِ وَنَحْنُ لَا نُنْكِرُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْكَذَّابِينَ قَامَ فِي الْوُجُودِ وَظَهَرَتْ لَهُ
شَوْكَةٌ وَلَكِنْ لَمْ يَتِمَّ لَهُ أَمْرُهُ وَلَمْ تَطُلْ مُدَّتُهُ بَلْ سَلَّطَ عَلَيْهِ رُسُلَهُ وَأَتْبَاعَهُمْ فَمَحَقُوا أَثَرَهُ وَقَطَعُوا
دَابِرَهُ وَاسْتَأْصَلُوا شَأْفَتَهُ . هَذِهِ سُنَّتُهُ فِي عِبَادِهِ مُنْذُ قَامَتِ الدُّنْيَا وَإِلَى أَنْ يَرِثَ الْأَرْضَ
وَمَنْ عَلَيْهَا . فَلَمَّا سَمِعَ مِنِّي هَذَا الْكَلَامَ قَالَ . مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَقُولَ إِنَّهُ ظَالِمٌ أَوْ كَاذِبٌ بَلْ كُلُّ
مُنْصِفٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يُقِرُّ بِأَنَّ مَنْ سَلَكَ طَرِيقَهُ وَاقْتَفَى أَثَرَهُ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّجَاةِ وَالسَّعَادَةِ

فِي الْأُخْرَى . قُلْتُ لَهُ فَكَيْفَ يَكُونُ سَالِكُ طَرِيقِ الْكَذَّابِ وَمُقْتَفِي أَثَرِهِ بِزَعْمِكُمْ مِنْ أَهْلِ النَّجَاةِ وَالسَّعَادَةِ ؟ فَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ الِاعْتِرَافِ بِرِسَالَتِهِ وَلَكِنْ لَمْ يُرْسَلْ إلَيْهِمْ . قُلْتُ : فَقَدْ لَزِمَكَ تَصْدِيقُهُ وَلَا بُدّ وَهُوَ قَدْ تَوَاتَرَتْ عَنْهُ الْأَخْبَارُ بِأَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ إلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ كِتَابِيّهِمْ وَأُمِّيّهِمْ وَدَعَا أَهْلَ الْكِتَابِ إلَى دِينِهِ أَقَرّوا بِالصّغَارِ وَالْجِزْيَةِ فَبُهِتَ الْكَافِرُ وَنَهَضَ مِنْ فَوْرِهِ . وَالْمَقْصُودُ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَمْ يَزَلْ فِي جِدَالِ الْكُفّارِ عَلَى اخْتِلَافِ مِلَلِهِمْ وَنِحَلِهِمْ إلَى أَنْ تُوُفّيَ

وَكَذَلِكَ أَصْحَابُهُ مِنْ بَعْدِهِ وَقَدْ أَمَرَهُ اللّه سُبْحَانَهُ بِجِدَالِهِمْ بِاَلّتِي هِيَ أَحْسَنُ فِي السّورَةِ الْمَكّيّةِ وَالْمَدَنِيّةِ وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوَهُمْ بَعْدَ ظُهُورِ الْحُجّةِ إلَى الْمُبَاهَلَةِ وَبِهَذَا قَامَ الدّينُ وَإِنّمَا جَعَلَ السّيْفَ نَاصِرًا لِلْحُجّةِ وَأَعْدَلُ السّيُوفِ سَيْفٌ يَنْصُرُ حُجَجَ اللّهِ وَبَيّنَاتِهِ وَهُوَ سَيْفُ رَسُولِهِ وَأُمّتِهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المعاد جـ 3 صـ 560 . 561 ﴾

(244/120)

فصل

قال الفخر :

روي أنه عليه السلام لما أورد الدلائل على نصارى نجران ، ثم إنهم أصروا على جهلهم ،

فقال عليه السلام : " إن الله أمرني إن لم تقبلوا الحجة أن أباهلكم " فقالوا : يا أبا القاسم ، بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك فلما رجعوا قالوا للعاقب : وكان ذا رأيهم ، يا عبد المسيح ما ترى ، فقال : والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل ، ولقد جاءكم بالكلام الحق في أمر صاحبكم ، والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ولئن فعلتم لكان الاستئصال فإن أبيتم إلا الإصرار على دينكم والإقامة على ما أنتم عليه ، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وعليه مرط من شعر أسود ، وكان قد احتضن الحسين وأخذ بيد الحسن ، وفاطمة تمشي خلفه ، وعلي رضي الله عنه خلفها ، وهو يقول ، إذا دعوت فأمنوا ، فقال أسقف نجران : يا معشر النصارى ، إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها ، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة ، ثم قالوا : يا أبا القاسم ، رأينا أن لا نباهلك وأن نقرك على دينك فقال صلوات الله عليه : " فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا ، يكن لكم ما للمسلمين ، وعليكم ما على المسلمين " ، وعليكم ما على المسلمين ، فأبوا ، فقال : " فإني أناجزكم القتال " ، فقالوا ما لنا بحرب العرب طاقة ، ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تردنا عن ديننا ، على أن نؤدي إليك في كل عام ألفي حلة : ألفا في صفر ، وألفا في رجب ، وثلاثين درعاً عادية من حديد ، فصالحهم على ذلك ، وقال : " والذي نفسي بيده ، إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ، ولولا عنوا لمسخوا قردة وخنازير

، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً ، ولاستأصل الله نجران وأهله ، حتى الطير على رؤوس الشجر ، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا " ، وروي أنه عليه السلام لما خرج في المرط الأسود ، فجاء

(245/120)

الحسن رضي الله عنه فأدخله ، ثم جاء الحسين رضي الله عنه فأدخله ثم فاطمة ، ثم علي رضي الله عنهما ثم قال : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرجس أَهْلَ البيت وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب : 33] واعلم أن هذه الرواية كالمتفق على صحتها بين أهل التفسير والحديث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 71 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

يجوز في " مَنْ " وجهان :

أحدهما : أن تكونَ شرطية - وهو الظاهرُ - أي : إن حاجَّكَ أحدٌ فقُل له كيت وكيت .

ويجوز أن تكونَ موصولة بمعنى : " الذي " وإنما دخلت الفاءُ في الخبرِ لتضمُّنه معنى الشرطِ [والمحاجةِ مفاعلة وهي من اثنين ، وكانَ الأمرُ كذلك] .

"فِيهِ" متعلق بـ "حَاجَّكَ" أي: جادلكَ في شأنِهِ، والهاء فيها وجهان:

أولهما: وهو الأظهرُ – عودُها على عيسى عليه السلامُ.

الثاني: عودها على "الْحَقِّ"؛ لأنه أقربُ مذكورٍ، والأول أظْهَرُ؛ لأنَّ عيسى هو المحدَّثُ عنهُ، وهو صاحبُ القصة. قوله: ﴿مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ﴾ متعلق بـ "حَاجَّكَ" – أيضاً – و"ما" يجوز أن تكون موصولة اسمية، ففاعل "جَاءَكَ" ضمير يعود عليها، أي: من بعد الذي جاءك هو. ﴿مِنَ الْعِلْمِ﴾ حال من فاعل "جَاءَكَ".

ويجوز أن تكونَ موصولةً حرفيَّةً، وحينئذٍ يقال: يلزم من ذلك خُلُوُّ الفعل من الفاعلِ، أو عَوْدُ الضمير على الحرف؛ لأن "جَاءَكَ" لا بد له من فاعل، وليس معنا شيء يصلح عوده عليه إلا "ما" وهي حرفية.

(246/120)

والجوابُ: أنه يجوز أن يكون الفاعل قوله: ﴿مِنَ الْعِلْمِ﴾ و"من" مزيدة – : من بعد ما جاءك العلم – وهذا إنما يتخرج على قول الأخفش؛ لأنه لا يشترط في زيادتها شيئاً. و"مِنْ" في قوله: "مِنَ الْعِلْمِ" يحتمل أن تكون تبعيضيَّة – وهو الظاهر – وأن تكون لبيان الجنس. والمراد بالعلم هو أنَّ عيسى عبد الله ورسوله، وليس المراد – هاهنا – بالعلم

نفس العلم ؛ لن العلمَ الذي في قلبه لا يؤثر في ذلك ، بل المرادُ بالعلم ، ما ذكره من الدلائل العقلية ، والدلائل الواصلة إليه بالوحي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 283.282 ﴾

فائدة

قال الفخر :

﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ ﴾ أي في عيسى عليه السلام ، وقيل : الهاء تعود إلى الحق ، في قوله ﴿ الحق مِن رَّبّكَ ﴾ [هود : 17] ﴿ مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ العلم ﴾ [البقرة : 145] بأن عيسى عبد الله ورسوله عليه السلام وليس المراد ههنا بالعلم نفس العلم لأن العلم الذي في قلبه لا يؤثر في ذلك ، بل المراد بالعلم ما ذكره بالدلائل العقلية ، والدلائل الواصلة إليه بالوحي والتنزيل ، فقل تعالوا : أصله تعاليوا ، لأنه تفاعلوا من العلو ، فاستثقلت الضمة على الياء ، فسكنت ، ثم حذفت لاجتماع الساكنين ، وأصله العلو والارتفاع ، فمعنى تعالى ارتفع ، إلا أنه كثر في الاستعمال حتى صار لكل مجيء ، وصار بمنزلة هلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 72.71 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ ﴾ أي جادلك وخاصمك من وفد نصارى نجران إذ هم المتصدون لذلك ﴿ فِيهِ ﴾ أي في شأن عيسى عليه السلام لأنه المحدث عنه وصاحب القصة ، وقيل : الضمير للحق المتقدم لقربه وعدم بعد المعنى ﴿ مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ العلم ﴾ أي الآيات الموجبة للعلم ، وإطلاق العلم عليها إما حقيقة لأنها كما قيل : نوع منه ، وإما مجاز مرسل ، والقرينة عليه ذكر المحاجة المقتضية للأدلة ، والجار والمجرور الأخير حال من فاعل ﴿ جَاءكَ ﴾ الراجع إلى ﴿ مَا ﴾ الموصولة ، و﴿ مِنْ ﴾ من ذلك تبعيضية ، وقيل : لبيان الجنس ﴿ فَقُلْ ﴾ أي لمن حاجك ﴿ تَعَالَوْاْ ﴾ أي أقبلوا بالرأي والعزيمة ، وأصله طلب الإقبال إلى مكان مرتفع ، ثم توسع فيه فاستعمل في مجرد طلب المجيء ﴿ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ﴾ أي يدع كل منا ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه للمباهلة ، وفي تقديم من قدم على النفس في المباهلة مع أنها من مظان التلف والرجل يخاطر لهم بنفسه إيذاناً بكمال أمنه صلى الله عليه وسلم وكمال يقينه في إحاطة حفظ الله تعالى بهم ، ولذلك مع رعاية الأصل في الصيغة فإن غير المتكلم تبع له في الإسناد قدم صلى الله عليه وسلم جانبه على جانب المخاطبين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 187 ﴾

فصل

قال الفخر :

هذه الآية دالة على أن الحسن والحسين عليهما السلام كانا ابني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعد أن يدعو أبناءه ، فدعا الحسن والحسين ، فوجب أن يكونا ابنيه ، ومما يؤكد هذا قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودُ وسليمان ﴾ [الأنعام : 84] إلى قوله ﴿ وَزَكَرِيَّا ويحيى وعيسى ﴾ [الأنعام : 85] ومعلوم أن عيسى عليه السلام إنما انتسب إلى إبراهيم عليه السلام بالأم لا بالأب ، فثبت أن ابن البنت قد يسمى ابناً ، والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ72 ﴾

(248/120)

فصل

قال الفخر :

كان في الري رجل يقال له : محمود بن الحسن الحمصي ، وكان معلم الاثنى عشرية ، وكان يزعم أن علياً رضي الله عنه أفضل من جميع الأنبياء سوى محمد عليه السلام ، قال : والذي يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ﴾ وليس المراد بقوله ﴿ وَأَنفُسَنَا ﴾ نفس محمد صلى الله عليه وسلم لأن الإنسان لا يدعو نفسه بل المراد به غيره ، وأجمعوا

على أن ذلك الغير كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فدلت الآية على أن نفس علي هي نفس محمد ، ولا يمكن أن يكون المراد منه ، أن هذه النفس هي عين تلك النفس ، فالمراد أن هذه النفس مثل تلك النفس ، وذلك يقتضي الاستواء في جميع الوجوه ، ترك العمل بهذا العموم في حق النبوة ، وفي حق الفضل لقيام الدلائل على أن محمداً عليه السلام كان نبياً وما كان علي كذلك ، ولانعقاد الإجماع على أن محمداً عليه السلام كان أفضل من علي رضي الله عنه ، فيبقى فيما وراءه معمولاً به ، ثم الإجماع دل على أن محمداً عليه السلام كان أفضل من سائر الأنبياء عليهم السلام فيلزم أن يكون علي أفضل من سائر الأنبياء ، فهذا وجه الاستدلال بظاهر هذه الآية ، ثم قال : ويؤيد الاستدلال بهذه الآية ، الحديث المقبول عند الموافق والمخالف ، وهو قوله عليه السلام :

" من أراد أن يرى آدم في علمه ، ونوحاً في طاعته ، وإبراهيم في خلته ، وموسى في هيبته ، وعيسى في صفوته ، فلينظر إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه " فالحديث دل على أنه اجتمع فيه ما كان متفرقاً فيهم ، وذلك يدل على أن علياً رضي الله عنه أفضل من جميع الأنبياء سوى محمد صلى الله عليه وسلم ، وأما سائر الشيعة فقد كانوا قديماً وحديثاً

يستدلون بهذه الآية على أن علياً رضي الله عنه مثل نفس محمد عليه السلام إلا فيما خصه الدليل ، وكان نفس محمد أفضل من الصحابة رضوان الله عليهم ، فوجب أن يكون نفس علي أفضل أيضاً من سائر الصحابة ، هذا تقدير كلام الشيعة ، والجواب : أنه كما انعقد الإجماع بين المسلمين على أن محمداً عليه السلام أفضل من علي ، فكذلك انعقد الإجماع بينهم قبل ظهور هذا الإنسان ، على أن النبي أفضل ممن ليس بنبي ، وأجمعوا على أن علياً رضي الله عنه ما كان نبياً ، فلزم القطع بأن ظاهر الآية كما أنه مخصوص في حق محمد صلى الله عليه وسلم ، فكذلك مخصوص في حق سائر الأنبياء عليهم السلام . انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 72 ﴾

(250/120)

وقال أبو حيان :

وأما الحديث الذي استدل به فموضوع لا أصل له .

وهذه النزغة التي ذهب إليها هذا الحمصي من كون علي أفضل من الأنبياء عليهم السلام سوى محمد صلى الله عليه وسلم ، وتلقفها بعض من ينتحل كلام الصوفية ، ووسع المجال فيها ، فزعم أن الولي أفضل من النبي ، ولم يقصر ذلك على وليّ واحد ، كما قصر ذلك

الحمصي ، بل زعم : أن رتبة الولاية التي لا نبوة معها أفضل من رتبة النبوة .

قال : لأن الولي يأخذ عن الله بغير واسطة ، والنبي يأخذ عن الله بواسطة ومن أخذ بلا واسطة أفضل ممن أخذ بواسطة .

وهذه المقالة مخالفة لمقالات أهل الإسلام .

نعوذ بالله من ذلك ، ولا أحد أكذب ممن يدعي أن الولي يأخذ عن الله بغير واسطة ، لقد يقشعرّ المؤمن من سماع هذا الافتراء وحكى لي من لا أتهمه عن بعض المنتمين ، إلى أنه من أهل الصلاح ، أنه رؤي في يده كتاب ينظر فيه ، فسئل عنه .

فقال : فيه ما أخذته عن رسول الله ، وفيه ما أخذته عن الله شفاهاً ، أو شافهني به ، الشك من السامع .

فانظر إلى جراءة هذا الكاذب على الله حيث ادعى مقام من كلمة الله : كموسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء ؟ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 504 ﴾

(251/120)

وقال الآلوسى :

واستدل بها ﴿ قصة المباهلة ﴾ الشيعة على أولوية علي كرم الله تعالى وجهه بالخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بناءاً على رواية مجيء علي كرم الله تعالى وجهه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجه أن المراد حينئذ بأبنائنا الحسن والحسين وبنسائنا فاطمة ، وبأنفسنا الأمير ، وإذا صار نفس الرسول وظاهر أن المعنى الحقيقي مستحيل تعين أن يكون المراد المساواة ، ومن كان مساوياً للنبي صلى الله عليه وسلم فهو أفضل وأولى بالتصرف من غيره ، ولا معنى للخليفة إلا ذلك ، وأجيب عن ذلك أما أولاً : فبأنا لا نسلم أن المراد بأنفسنا الأمير بل المراد نفسه الشريفة صلى الله عليه وسلم ، ويجعل الأمير داخلاً في الأبناء ، وفي العرف يعد الختن ابناً من غير ريبة ، ويلتزم عموم المجاز إن قلنا : إن إطلاق الإبن على ابن البنت حقيقة ، وإن قلنا : إنه مجاز لم يحتج إلى القول بعمومه وكان إطلاقه على الأمير وابنيه رضي الله تعالى عنهم على حد سواء في المجازية .

(252/120)

وقول الطبرسي وغيره من علمائهم إن إرادة نفسه الشريفة صلى الله عليه وسلم من أنفسنا لا تجوز لوجود ﴿ نَدْعُ ﴾ والشخص لا يدعو نفسه هذيان من القول ، إذ قد شاع وذاع في

القديم والحديث دعته نفسه إلى كذا ، ودعوت نفسي إلى كذا ، وطوعت له نفسه ، وآمرت نفسي ، وشاورتها إلى غير ذلك من الاستعمالات الصحيحة الواقعة في كلام البلغاء فيكون حاصل ﴿ نَدۡعُ أَنفُسَنَا ﴾ نحضر أنفسنا وأي محذور في ذلك على أنا لو قررنا الأمير من قبل النبي صلى الله عليه وسلم لمصداق أنفسنا فمن نقرره من قبل الكفار مع أنهم مشتركون في صيغة ﴿ نَدۡعُ ﴾ إذ لا معنى لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم إياهم وأبناءهم ونساءهم بعد قوله : ﴿ تَعَالَوۡا ﴾ كما لا يخفى . وأما ثانياً : فبأنا لو سلمنا أن المراد بأنفسنا الأمير لكن لا نسلم أن المراد من النفس ذات الشخص إذ قد جاء لفظ النفس بمعنى القريب والشريك في الدين والملة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ﴾ [البقرة : 84] ﴿ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [الحجرات : 11] ﴿ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا ﴾ [النور : 12] فلعله لما كان للأمير اتصال بالنبي صلى الله عليه وسلم في النسب والمصاهرة واتحاد في الدين عبر عنه بالنفس ، وحينئذ لا تلزم المساواة التي هي عماد استدلالهم على أنه لو كان المراد مساواته في جميع الصفات يلزم الاشتراك في النبوة والخاتمية والبعثة إلى كافة الخلق ونحو ذلك وهو باطل بالإجماع لأن التابع دون المتبوع ولو كان المراد المساواة في البعض لم يحصل الغرض لأن المساواة في بعض صفات الأفضل والأولى بالتصرف لا تجعل من هي له أفضل وأولى بالتصرف بالضرورة ، وأما ثالثاً : فبأن ذلك لو دلّ على خلافة الأمير كما زعموا لزم كون

الأمير إماماً في زمنه صلى الله عليه وسلم وهو باطل بالاتفاق وإن قيد بوقت دون وقت فمع أن التقييد

(253/120)

مما لا دليل عليه في اللفظ لا يكون مفيداً للمدعي إذ هو غير متنازع فيه لأن أهل السنة يثبتون إمامته في وقت دون وقت فلم يكن هذا الدليل قائماً في محل النزاع ، ولضعف الاستدلال به في هذا المطلب بل عدم صحته كالاستدلال به على أفضلية الأمير علي كرم الله تعالى وجهه على الأنبياء والمرسلين عليهم السلام لزعم ثبوت مساواته للأفضل منهم فيه لم يقمه محققو الشيعة على أكثر من دعوى كون الأمير والبتول والحسين أعزة على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صنع عبد الله المشهدي في كتابه "إظهار الحق" .

وقد أخرج مسلم والترمذي وغيرهما عن سعد بن أبي وقاص قال : "لما نزلت هذه الآية ﴿ قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ ﴾ الخ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال : اللهم هؤلاء أهلي" وهذا الذي ذكرناه من دعائه صلى الله عليه وسلم هؤلاء الأربعة المتناسبة رضي الله تعالى عنهم هو المشهور المعول عليه لدى المحدثين ، وأخرج ابن عساكر

عن جعفر بن محمد عن أبيه رضي الله تعالى عنهم "أنه لما نزلت هذه الآية جاء بأبي بكر وولده وبعمر وولده وبعثمان وولده وبعلي وولده" وهذا خلاف ما رواه الجمهور.

(254/120)

واستدل ابن أبي علان من المعتزلة بهذه القصة أيضاً على أن الحسنين كانا مكلفين في تلك الحال لأن المباهلة لا تجوز إلا مع البالغين، وذهب الإمامية إلى أنها يشترط فيها كمال العقل والتمييز، وحصول ذلك لا يتوقف على البلوغ فقد يحصل كمال قبله ربما يزيد على كمال البالغين فلا يمتنع أن يكون الحسنان إذ ذاك غير بالغين إلا أنهما في سن لا يمتنع معها أن يكونا كاملي العقل على أنه يجوز أن يخرق الله تعالى العادات لأولئك السادات ويخصهم بما لا يشاركهم فيه غيرهم، فلو صح أن كمال العقل غير معتاد في تلك السن لجاز ذلك فيهم إبانة لهم عمن سواهم ودلالة على مكانهم من الله تعالى واختصاصهم به وهم القوم الذين لا تحصى خصائصهم. وذهب النواصب إلى أن المباهلة جائزة لإظهار الحق إلى اليوم إلا أنه يمنع فيها أن يحضر الأولاد والنساء، وزعموا رفعهم الله تعالى لا قدراً، وحطهم ولا حط عنهم وزراً أن ما وقع منه صلى الله عليه وسلم كان لمجرد إلزام الخصم وتبكيته وأنه لا يدل على فضل أولئك الكرام على نبينا وعليهم أفضل الصلاة وأكمل السلام، وأنت تعلم أن هذا

الزعم ضرب من الهذيان ، وأثر من مس الشيطان .

وليس يصح في الأذهان شيء . . . إذا احتاج النهار إلى دليل

ومن ذهب إلى جواز المباهلة اليوم على طرز ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم استدل بما أخرجه عبد بن حميد عن قيس بن سعد أن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كان بينه وبين آخر شيء فدعاه إلى المباهلة ، وقرأ الآية ورفع يديه فاستقبل الركن وكأنه يشير بذلك رضي الله تعالى عنه إلى كيفية الابتهال وأن الأيدي ترفع فيه ، وفيما أخرجه الحاكم تصريح بذلك وأنها ترفع حذو المناكب . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 3 صـ 190.189﴾

(255/120)

" فصل فى الرافضة "

قال ابن عبد ربه :

إنما قيل لهم رافضة ، لأنهم رفضوا أبا بكر وعمر ولم يَرْفُضهما أحد من أهل الأهواء غيرهم ، والشيعة دونهم ، وهم الذين يُفضِّلون عليّاً على عثمان ، ويَتَوَلَّون أبا بكر وعمر . فأما الرافضة فلها غُلوّ شديد في عليّ ، ذهب بعضهم مَذهب النَّصارى في المسيح ، وهم

السَّبَئية أصحاب عبد الله بن سبأ ، عليهم لعنةُ اللّٰه ، وفيهم يقول السَّيد الحميري :

قَوْمٌ غَلَوْا في علّيٍ لا أبا لهمُ . . . وأُجْشَمُوا أنفُساً في حُبّه تَعَبَا

قالوا هو اللّٰه ، جَلّ الله خالقُنا . . . من أن يكون ابن شيء أو يكون أَبَا

وقد أَحْرقهم عليّ رضي الله عنه بالنّار .

ومن الروافض : المُغيرة بن سعد مولى بَجيلة . قال الأعمش : دخلتُ على المُغيرة بن سعد ، فسألته عن فَضائل عليّ ؛ فقال : إنك لا تَحْتملها ؛ قلتُ : بلى . فَذَكر آدم صلواتُ الله عليه ، فقال : عليٌّ خير منه ، ثم ذكر مَن دونه من الأنبياء ، فقال عليٌّ خير منهم ، حتى انتهى إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال : عليّ مثْله ، فقلت : كذبت ، عليك لعنة الله ؛ قال : قد أَعلمتُك أنك لا تحتملها .

ومن الروافض : مَن يزعُم أنّ علياً رضي الله عنه في السَّحاب ، فإذا أطلَّت عليهم سحابة قالوا : السلامُ عليك يا أبا الحَسن . وقد ذكرهم الشاعر فقال :

بَرِئتُ من الخوارجِ لستُ منهم . . . مِن الغَزّال منهم وابن باب

ومِن قومٍ إذا ذكروا عليًّا . . . يردون السلامَ على السَّحابَ

ولكنّي أُحِبُّ بكلّ قَلْبي . . . وأَعْلم أنّ ذاك من الصواب

رسولَ الله والصِّدّيقَ حَقًّا . . . به أرجو غداً حُسن الثَّواب

وهؤلاء من الرافضة يقال لهم : المَنصورية . وهم أصحاب أبي منصور الكِسْف ، وإنما

سُمّي الكِسْف لأنه كان يتأوّل في قول الله عزّ وجلّ : " وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولوا سَحَابٌ مَرْكُوم " ، فالكِسْفُ عليٌّ وهو في السحاب .

(256/120)

وكان المُغيرة بن سعد من السَّبَئية الذين أحْرقهم علي رضي الله تعالى عنه بالنار ، وكان يقول : لو شاء عليّ لأحيا عاداً وثمودَ وقروناً بين ذلك كثيراً . " وقد " خرج " على " خالد بن عبد الله ، فقتل خالد وصلبه بواسط عند قنطرة العاشر .

ومن الروافض كُثَيّر عَزَّة الشاعر . ولما حضرته الوفاة ، دعا ابنةَ أخٍ له ، فقال : يا بِنتَ أخي ، إنَ عمّك كان يُحب هذا الرّجل فأَحبّيه – يعني عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه – فقالت : نَصِيحتك يا عمّ مردودة عليك ، أحبّه والله خلافَ الحبّ الذي أحْببتَه أنت ؛ فقال لها : بَرِئت منك ، وأنشد يقول :

بَرِئتُ إلى الإله من ابن أَرْوَى . . . ومن قول الخوارج أجمعينا

ومن عُمرٍ برئتُ ومن عَتيق . . . غداةَ دُعي أميرَ المؤمنينا

ابن أروى : عثمان .

والروافض كلها تؤمن بالرّجعة ، وتقول : لا تقوم الساعة حتى يخرجِ المهديُّ ، وهو محمد بن

عليٍّ، فيملؤُها عَدْلاً كما مُلِئَتْ جَوْراً، ويُحيي لهم موتاهم فيرْجعون إلى الدنيا، ويكون الناسُ أمةً واحدة. وفي ذلك يقول الشاعر:

أَلا إنَّ الأئمة من قُريش ... وُلاةَ العَدْلِ أربعةٌ سَواءُ

عليٌّ والثلاثةُ مِن بَنيه ... همُ الأسباط ليس بهم خَفاء

فَسِبْطٌ سِبطُ إيمانٍ وبرٍّ ... وسِبْط غَيَّبته كرْبلاء

أراد بالأسباط الثلاثة: الحسن، والحسين، ومحمد بن الحنفيَّة، وهو المهديّ الذي يخرُج في آخر الزمان.

ومن الروافض: السيّد الحِمْيري، وكان يُلقَى له وسائد في مسجد الكوفة يَجلس عليها، وكان يؤمن بالرَّجعة، وفي ذلك يقول:

إذا ما المرْءُ شابَ له قَذال ... وعَلّلهُ المَواشِطُ بالْخِضاب

فقد ذهبتْ بَشاشتهُ وأودَى ... فَقُم بأَبيك فابكِ على الشَباب

فليسَ بعائدٍ ما فاتَ منهُ ... إلى أحدٍ إلى يوم المآب

إلى يومٍ يؤوب الناسُ فيه ... إلى دُنياهُم قبل الحساب

أدين بأنّ ذاك كذاك حقا ... وما أنا في النشور بذي ارتياب

لأنّ اللهَ خبّر عن رجالٍ . . . حَيُوا من بعد دَسٍّ في التُّراب

وقال يرثي أخاه :

يابن أمّي فدَتْكَ نفسي ومالي . . . كنتَ رُكني ومَفْزعي وجَمالي

ولَعَمْري لئن تركْتُك ميْتاً . . . رَهْنَ رَمْس ضَنْكٍ عليك مُهالَ

لوشيكاً ألقاك حياً صحيحاً . . . سامِعاً مُبْصَراً على خير حال

قد بُعثتم من القُبور فأُبْتُم . . . بعد ما رَفَت العِظامَ البَوالي

أو كَسَبْعين وافداً مع مُوسى . . . عاينُوا هائلاً من الأهْوال

حين رامُوا من خُبثهم رُؤية الله . . . وأنىّ برُؤية المتعالي

فرَماهم بصَعْقة أحْرقتهم . . . ثم أحياهُم شديدُ المحال

دخل رجل من الْحِسْبانيّة على المأمون ، فقال : لثُمامة بن أشرس كلّمه ؟ فقال له : ما تقول وما مَذْهبك ؟ فقال : أقول إنّ الأشياء كلّها على التوهُّم والْحِسْبان ، وإنما يُدْرِكُ منها الناسُ على قَدْر عقولهم ، ولا حتّى في الحقيقة . فقام إليه ثُمامة ، فلَطَمه لطمةً سوَدت وَجْهه ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، يفعل بي مثْل هذا في مجلسك ! فقال له ثُمامة : وما فعلتُ بك ؟ قال : لَطَمْتني ، قال : ولعلّ إنما دَهَنتُك بالبان ، ثم أنشأ يقول :

ولَعلّ آدمَ أمنا . . . والأب حوّا في الْحِساب

ولعلَّ ما أبصرتَ من . . . بِيض الطُّيور هو الغُراب

وعَساك حين قَعدتَ قم . . . تَ وحين جئتَ هو الذّهاب

وعَسى البنفسج زِئْبقاً . . . وعسى البَهار هو السَّذاب

وعَساك تأكل مِن خرَا . . . ك وأنتَ تَحْسبه الكَباب

ومن حديث ابن أبي شَيْبة أن عبد الله بن شدّاد قال : قال لي عبد الله بن عبَّاس : لأخبرنَّك بأعجب شيء : قَرَع اليومَ علي البابَ رجل لمّا وضعتُ ثيابي للظَّهيرة ، فقلتُ : ما أتى به في مثل هذا الحين إلا أمرٌ مهمّ ، أدخله . فلما دخل قال : متى يُبعث ذلك الرجل ؟ قلت : أي رجل ؟ قال : عليّ بن أبي طالب ؟ قلتُ : لا يُبعث حتى يَبعث الله مَن في القبور ، قال : وإنك لتقول بقول هذه الجَهلة ! قلت : أَخْرِجوه عني لعنه الله .

(258/120)

ومن الروافض الكَيْسانية ، قلتُ : وهم أصحاب المُختار بن أبي عُبيد ، ويقولون إنّ اسمه كَيْسان .

ومن الرافضة الحُسينية ، وهم أصحاب إبراهيم بن الاشتر ، وكانوا يطوفون بالليل في أزقة الكوفة وينادون : يا ثاراتِ الحسين ؛ فقيل لهم : الحُسينية .

ومن الرافضة الغُرابية : سمِّيت بذلك لقولهم : عليّ أشبه بالنبي من الغُراب بالغراب .

ومن الرافضة : الزَّيدِية ، وهم أصحاب زيد بن عليّ المقتول بخُراسان ، وهم أقلُّ الرافضة غُلُوًّا ، غيرَ أنّهم يَرَوْن الخُروج مع كل مَن خرج .

(259/120)

مالك بن مُعاوية قال : قال لي الشّعبي ، وذَكَرْنا الرافضة : يا مالك ، لو أردتُ أن يُعطوني رقابَهم عَبيداً وأن يَمْلئوا بيتي ذَهَباً عليّ على أن أكْذِبَ لهم على علّي كِذْبَةً واحدةً لَقَبلوا ، ولكني والله لا أَكْذِب عليه أبداً ، يا مالك ، إني دَرسْتُ الأهواءَ كلَّها فلم أَرَ قوماً أحمقَ من الرافضة ، فلو كانوا من الدوابّ لكانوا حميراً ، أو كانوا من الطير لكانوا رَخَماً . ثم قال : أحذِّرك الأهواءَ المُضلة شرُّها الرافضة ، فإنها يهود هذه الأمة ، يُبغضون الإسلام ، كما يُبغض اليهودُ النّصرانية ، ولم يدْخلوا في الإسلام رغبةً ولا رَهْبة من الله ، ولكن مَقْتاً لأهل الإسلام وبَغْياً عليهم ، وقد أحرقَهم عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه بالنار ، ونفاهم إلى البُلْدان ، منهم : عبد الله بن سبأ ، نفاه إلى ساباط ، وعبد الله بن سباب ، نفاه إلى الجازر ، وأبو الكَرَوّس ، وذلك أن مِحْنة الرافضة محنة اليهود ، قالت اليهود : لا يكون المُلك إلا في آل داود ، وقالت الرافضة : لا يكون المُلك إلا في آل عليّ بن أبي طالب ، وقالت اليهود : لا

يكون جِهاد في سبيل الله حتى يَخْرج المَسيح المُنتظر ، ويُنادي منادٍ من السماء ، وقالت الرافضة : لا جِهادَ في سبيل الله حتى يخرُج المَهديُّ ، ويَنْزل سَبَب من السماء ، واليَهود يُؤخّرِون صلاةَ المَغرِب حتى تَشتبك النّجوم ، وكذلك الرافضة ، واليَهود لا تَرى الطّلاق الثلاثَ شيئاً ، وكذا الرّافضة واليهود لا ترى على النساء عدة وكذلك الرافضة ، واليهود تستحل دم كل مسلم ، وكذلك الرافضة ، واليهود حرفوا التوراة وكذلك الرافضة حرفت القران ، واليهود تُبْغض جبريلَ وتقول : هو عَدوُّنا من الملائكة ، وكذلك الرافضة تقول : غَلط جبريلُ في الوَحْي إلى محمد بترك عليّ بن أبي طالب ، واليهود لا تأكُل لَحم الجَزُور ، وكذلك الرافضة . ولليهود والنصارى فَضِيلة على الرافضة في خَصْلتين ، سُئِل اليهود مَن خَيْر أهل مِلّتكم ؟ فقالوا :

(260/120)

أصحابُ موسى ، وسُئلت النصارى ، فقالوا : أصحابَ عيسى ، وسُئِلت الرافضة : مَن شرّ أهل مِلّتكم ؟ فقالوا : أصحابُ محمّد ، أَمرهم الله بالاستغفار لهم فشَتَموهم ، فالسيفُ مَسْلول عليهم إلى يوم القيامةِ ، لا تَثبت لهم قدم ، ولا تقومُ لهم راية ، ولا تُجمع لهم كِلمة ، دَعْوَتهم مَدْحورة ، وكَلِمتهم ، مِختلفة ، وجَمْعهم مُفرّق ، كلما أَوْقدُوا ناراً للحرب

أطْفأها اللّه .

وذُكرت الرّافضةُ يوماً عند الشّعْبيّ فقال : لقد بغّضُوا إلينا حديثَ عليّ بن أبي طالب .

وقال الشّعبيّ : ما شَبّهتُ تأويلَ الروافض في القرآن إلا بتأويل رَجل مَضْعوف من بني مَخْزوم من أهل مكّة وجدتُه قاعداً بِفناء الكَعْبة ، فقال يا شعبيّ : ما عِنْدك في تأويل هذا البَيْت ؟ فإن بَني تَميم يَغْلطون فيه ويزعمون أنه إنما قيل في رجل منهم ، وهو قولُ الشاعر :

بَيْتاً زُرارةُ مُحْتَبٍ بِفنائه . . . ومُجاشع وأَبو الفَوارس نَهْشَلُ

فقلت له : وما عِندَك أنت فيه ؟ قال : البيتُ هو هذا البيت ، وأشار بيده إلى الكَعْبة ، وزُرارةُ الحجر ، زُرّر حول البيت ؟ فقلت له : فَمُجاشع ؟ قال : زَمزم جَشِعت بالماء ؟ قلت : فأَبو الفوارس ؟ قال : هو أبو قُبيس جَبل مكّة ؟ قلت : فَنَهْشل ؟ ففكّر فيه طويلا ثم قال : أَصبتُه ، هو مِصْباح الكعبة طويلٌ أَسود ، وهو النّهشل .

قولهم في الشيعة

قال أبو عُثمان عمرو بن بَحر الجاحظ : أخبرني رجلٌ من رُؤساء التجّار قال : كان معنا في السَّفينة شيخٌ شرس الأخلاق ، طويلُ الإطْراق ، وكان إذا ذُكِر له الشّيعةُ غَضِب واربدّ

وجهُه وزَوى من جاجبَيْه ، فقلتُ له يوماً : يَرْحمك الله ، ما الذي تَكْرهه من الشّيعة فإني رأيتُك إذا ذُكِروا غَضِبْتَ وقُبضتَ ؟ قال : ما أَكْره منهم إلا هذه الشّين في أوّل اسمهم ، فإني لم أجدْها قطُّ إلا في كلّ شرّ وشُؤْم وشَيْطان وشَغب وشَقَاء وشَنَار وشَرَر وشَين وشَوْك وشَكْوى وشَهْوة وشَتْم وشُح . قال أبو عثمان : فما ثَبت لِشيعيّ بعدها قائمة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ العقد الفريد جـ 2 صـ 230 . 236 ﴾

(262/120)

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾

قال الفخر :

قوله ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾ أي نتباهل ، كما يقال اقتتل القوم وتقاتلوا واصطحبوا وتصاحبوا ، والابتهال فيه وجهان

أحدهما : أن الابتهال هو الاجتهاد في الدعاء ، وإن لم يكن باللعن ، ولا يقال : ابتهل في الدعاء إلا إذا كان هناك اجتهاد

والثاني : أنه مأخوذ من قولهم عليه بهلة الله ، أي لعنته وأصله مأخوذ مما يرجع إلى معنى اللعن ، لأن معنى اللعن هو الإبعاد والطرد وبهله الله ، أي لعنه وأبعده من رحمته من قولك

أبهله إذا أهمله وناقة باهل لا صرار عليها ، بل هي مرسلة مخلاة ، كالرجل الطريد المنفي ، وتحقيق معنى الكلمة : أن البهل إذا كان هو الإرسال والتخلية فكان من بهله الله فقد خلاه الله ووكله إلى نفسه ومن وكله إلى نفسه فهو هالك لا شك فيه فمن باهل إنساناً ، فقال : علي بهلة الله إن كان كذا ، يقول : وكلني الله إلى نفسي ، وفرضني إلى حولي وقوتي ، أي من كلاءته وحفظه ، كالناقة الباهل التي لا حافظ لها في ضرعها ، فكل من شاء حلبها وأخذ لبنها لا قوة لها في الدفع عن نفسها ، ويقال أيضاً : رجل باهل ، إذا لم يكن معه عصاً ، وإنما معناه أنه ليس معه ما يدفع عن نفسه ، والقول الأول أولى ، لأنه يكون قوله ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾ أي ثم نجتهد في الدعاء ، ونجعل اللعنة على الكاذب وعلى القول الثاني يصير التقدير : ثم نبتهل ، أي ثم نلتعن ﴿ فَنَجْعَل لَّعْنَتُ اللهِ عَلَى الكاذبين ﴾ وهي تكرار . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 72 . 73 ﴾

وقال ابن عادل :

قوله : ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾ قال ابنُ عبّاس : نتضرع في الدعاء .

وقال الكلبي : نجتهد ونبالغ في الدعاء وقال الكسائيُّ وأبو عبيدة : نَلتعن . والابتهال : افتعال ، من البُهْلَة ، وهي - بفتح الباء وضمها - اللعنة ، قال الزمخشريُّ : ثم نتباهل بأن نقول لعنة الله على الكاذب منا ومنكم والبهلة - بالفتح والضم - اللعنة ، وبَهَله الله : لعنه وأبعده من رحمته من قولك : أبهله إذا أهمله ، وناقة باهل : لا صِرَارَ عليها ، أي : مرسلة مُخَلاَّة - كالرجل الطريد المنفي - وإذا كان البهل هو الإرسال والتخلية ، فمن بهله الله فقد خلاه ، ووكله إلى نفسه ، فهو هالك لا شك فيه - كالناقة الباهل التي لا حافظ لها ، فمن شاء حلبها ، لا تقدر على الدفع عن نفسها هذا أصل الابتهال ، ثم استُعْمِل في كل دعاء مُجْتَهَدٍ فيه - وإن لم يكن التعاناً - [يعني أنه اشتهر في اللغة : فلان يبتهل إلى الله - تعالى - في قضاء حاجته ، ويبتهل في كشف كربته] .

قال شهاب الدّين : ما أحسن ما جعل " الافتعال " - هنا - بمعنى التفاعل ؛ لأن المعنى لا يجيء إلا على ذلك ، وتفاعل و" افتعل " أخوان في مواضع ، نحو اجتوروا وتجاوروا ، واشتوروا وتشاوروا ، واقتتل القوم وتقاتلوا ، واصطحبوا وتصاحبوا ، لذلك صحت واو اجتوروا واشتوروا .

قال الراغبُ : وأصل البهل : كون الشيء غيرَ مراعى ، والباهل : البعير المُخَلَّى عن قيده والناقة المخلَّى ضرعها عن صِرَارٍ ، وأنشد لامرأة : أتيتك باهلاً غير ذات صِرار .

وأبهلت فلاناً : خليته وإرادته ؛ تشبيهاً بالبعير الباهل ، والبهل والابتهال في الدعاء :

الاسترسال فيه والتضرع، نحو ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل ﴾ ومن فسر الابتهال باللعن فلأجل أن الاسترسال في هذا المكان لأجل اللعن.

قال الشاعر: (وهو لبيد): [الرمل]

مِنْ قُرُومٍ سَادَةٍ فِي قَوْمِهِمْ . . . نَظَرَ الدَّهْرُ إِلَيْهِمْ فَابْتَهَلْ

(264/120)

وظاهر هذا أنَّ الابتهال عام في كل دعاء - لعناً كان أو غيره - ثم خُصَّ في هذه الآية باللعن، وظاهر عبارة الزمخشري أن أصله خصوصيته باللعن، ثم تُجُوِّز فيه، فاستُعمِل في كل اجتهاد في دعاء - لعناً كان، أو غيره - والظاهر من أقوال اللغويين ما ذكره الراغب.

قال أبو بكر بن دُرَيْد في مقصورته: [الرجز]

لَمْ أَرَ كَالْمُزْنِ سَوَاماً بُهَّلاً تَحْسَبُهَا مَرْعِيَّةً وَهْيَ سُدَى

بهلاً جمع باهلة - أي: مهملة، وفاعلة تجمع على فُعَّل، نحو ضُرَّب. والسُّدَى: المهمل - أيضاً - وأتى بـ "ثُمَّ" هنا، تنبيهاً على خطئهم في مباهلته، كأنه يقول لهم: لا تعجلوا، وتَأَنَّوْا؛ لعلّه أن يظهر لكم الحق، فلذلك أتى بحرف التراخي.

قوله: ﴿ فَنَجْعَل ﴾ هي المتعدية لاثنين - بمعنى نصير - و ﴿ عَلَى الكاذبين ﴾ هو

المفعول الثاني . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 287. 288 ﴾

لطيفة

قال ابن عادل :

ورد لفظ " الْعِلْم " في القرآن على أربعة [أضربٍ] .

الأول : العلم القرآن ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ العلم ﴾ [آل عمران : 61] .

الثاني : النبي صلى الله عليه وسلم قال تعالى : ﴿ فَمَا اختلفوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ العلم ﴾ [الجاثية : 17] أي : محمد ، لما اختلف فيه أهلُ الكتاب .

الثالث : الكيمياء ، قال تعالى - حكاية عن قارون - : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي ﴾ [القصص : 78] .

الرابع : الشرك ، قال تعالى : ﴿ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُمْ مِّنَ العلم ﴾ [غافر : 83] أي من الشرك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 283 ﴾

فصل

من فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [61].

تفريع على قوله : ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فلا تكن من الممترين ﴾ لما فيه من إيماء إلى أن وفد نجران ممترون في هذا الذي بين الله لهم في هذه الآيات : أي فإن استمروا على محاجتهم إياك مكابرة في هذا الحق أو في شأن عيسى فادعهم إلى المباهلة والملاعنة .

ذلك أن تصميمهم على معتقدهم بعد هذا البيان مكابرة محضة بعد ما جاءك من العلم وبينت لهم ، فلم يبق أوضح مما حاجتهم به فعلمت أنهم إنما يحاجونك عن مكابرة ، وقلة يقين ، فادعهم إلى المباهلة بالملاعنة الموصوفة هنا .

و ﴿ تعالوا ﴾ اسم فعل لطلب القدوم ، وهو في الأصل أمر من تعالى يتعالى إذا قصد العلو ، فكأنهم أرادوا في الأصل أمرا بالصعود إلى مكان عال تشريفا للمدعو ، ثم شاع حتى صار لمطلق الأمر بالقدوم أو الحضور ، وأجريت عليه أحوال اسم الفعل فهو مبني على فتح آخره

وأما قول أبي فراس الحمداني :

أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا . . .

تعالي أقاسك الهموم تعالي

فقد لحنوه فيه.

ومعنى: ﴿ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ﴾ ائتوا وادعوا أبناءكم ونحن ندعو أبناءنا إلى آخره

، والمقصود هو قوله: ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾ إلى آخره.

وثم هنا للتراخي الرتبي.

والابتهال مشتق من البهل وهو الدعاء باللعن ويطلق على الاجتهاد في الدعاء مطلقا لأن

الداعي باللعن يجتهد في دعائه والمراد في الآية المعنى الأول.

ومعنى ﴿ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ ﴾ فندع بإيقاع اللعنة على الكاذبين.

وهذا الدعاء إلى المباهلة إلجاء لهم إلى أن يعترفوا بالحق أو يكفوا.

روى المفسرون وأهل السيرة أن وفد نجران لما دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى

الملاعنة قال لهم العاقب: نلاعنه فوالله لئن كان نبيا فلاعننا لا نفلح أبدا ولا عقبنا من بعدنا

فلم يجيبوا إلى المباهلة وعدلوا إلى المصالحة كما سيأتي.

وهذه المباهلة لعلها من طرق التناصف عند النصارى فدعاهم إليها النبي صلى الله عليه

وسلم لإقامة الحجة عليهم .

وإنما جمع في الملاعنة الأبناء والنساء : لأنه لما ظهرت مكابرتهم في الحق وحب الدنيا ، علم أن من هذه صفته يكون أهله ونساؤه أحب إليه من الحق كما قال شعيب أرهطي أعز عليكم من الله وأنه يخشى سوء العيش ، وفقدان الأهل ، ولا يخشى عذاب الآخرة .

والظاهر أن المراد بضمير المتكلم المشارك أنه عائد إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن معه من المسلمين ، والذين يحضرهم لذلك وأبناء أهل الوفد ونساؤهم اللائي كن معهم .

والنساء : الأزواج لا محالة ، وهو إطلاق معروف عند العرب إذا أضيف لفظ النساء إلى واحد أو جماعة دون ما إذا ورد غير مضاف ، قال تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ [الأحزاب : 32] وقال : ﴿ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقال النابغة :

حذارا على أن لا تنال مقادتي . . .

ولا نسوتي حتى يمتن حرائرا

والأنفس أنفس المتكلمين وأنفس المخاطبين أي وإيانا عَلَى الْكَاذِبِينَ وإياكم ، وأما الأبناء فيحتمل أن المراد شبانهم ، ويحتمل أنه يشمل الصبيان ، والمقصود أن تعود عليهم آثار الملاعنة .

والابتهال افتعال من البهل ، وهو اللعن ، يقال : بهله الله بمعنى لعنه واللعنة بهلة وبهلة بالضم والفتح ثم استعمل الابتهال مجازا مشهورا في مطلق الدعاء قال الأعشى :

لا تقعدن وقد أكلتها حطبا . . .

تعوذ من شرها يوما وتبتهل

وهو المراد هنا بدليل أنه فرع عليه قوله : ﴿ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ على الكاذبين .

وهذه دعوة إنصاف لا يدعو لها إلا واثق بأنه على الحق .

(267/120)

وهذه المباهلة لم تقع لأن نصارى نجران لم يستجيبوا إليها .

وقد روى أبو نعيم في الدلائل أن النبي هيأ عليا وفاطمة وحسنا وحسينا ليصحبهم معه للمباهلة .

ولم يذكروا فيه إحضار نسائه ولا إحضار بعض المسلمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 113. 114 ﴾

ومن فوائد العلامة الجصاص

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ﴾

الاحْتِجَاجُ الْمُتَقَدِّمُ لِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى النَّصَارَى فِي قَوْلِهِمْ إِنَّ الْمَسِيحَ هُوَ ابْنُ اللَّهِ وَهُمْ ﴿ وَفْدُ نَجْرَانَ وَفِيهِمْ السَّيِّدُ وَالْعَاقِبُ قَالَا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَلْ رَأَيْت وَلَدًا مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ ﴾ ؛ رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ .

(268/120)

وَقَالَ قَبْلَ ذَلِكَ فِيمَا حَكَى عَنْ الْمَسِيحِ : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ إلَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي الْإِنْجِيلِ ؛ لِأَنَّ فِيهِ : " إنِّي ذَاهِبٌ إلَى أَبِي ، وَأَبِيكُمْ وَإِلَهِي وَإِلَهِكُمْ " ؛ وَالْأَبُ السَّيِّدُ فِي تِلْكَ اللُّغَةِ ، أَلَا تَرَاهُ قَالَ : وَأَبِي ، وَأَبِيكُمْ ؟ فَعَلِمْت أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِهِ الْأُبُوَّةَ الْمُقْتَضِيَةَ لِلْبُنُوَّةِ ، فَلَمَّا قَامَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِمَا عَرَفُوهُ وَاعْتَرَفُوا بِهِ ، وَأَبْطَلَ شُبْهَتَهُمْ فِي قَوْلِهِمْ إنَّهُ وَلَدٌ مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ بِأَمْرِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَعَاهُمْ حِينَئِذٍ إلَى الْمُبَاهَلَةِ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ﴾ الْآيَةَ ؛ فَنَقَلَ رُوَاةُ السِّيَرِ وَنَقَلَةُ الْأَثَرِ لَمْ يَخْتَلِفُوا فِيهِ : ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ بِيَدِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ وَعَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ،

ثُمَّ دَعَا النَّصَارَى الَّذِينَ حَاجُّوهُ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ ، فَأَحْجَمُوا عَنْهَا وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : إِنْ بَاهَلْتُمُوهُ اضْطَرَمَ الْوَادِي عَلَيْكُمْ نَارًا ، وَلَمْ يَبْقَ نَصْرَانِيٌّ ، وَلَا نَصْرَانِيَّةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ .

(269/120)

وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ دَحْضُ شُبَهِ النَّصَارَى فِي أَنَّهُ إِلَهٌ أَوْ ابْنُ الْإِلَهِ ؛ وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْلَا أَنَّهُمْ عَرَفُوا يَقِينًا أَنَّهُ نَبِيٌّ مَا الَّذِي كَانَ يَمْنَعُهُمْ مِنْ الْمُبَاهَلَةِ ؟ فَلَمَّا أَحْجَمُوا وَامْتَنَعُوا عَنْهَا دَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ كَانُوا عَرَفُوا صِحَّةَ نُبُوَّتِهِ بِالدَّلَائِلِ الْمُعْجِزَاتِ وَبِمَا وَجَدُوا مِنْ نَعْتِهِ فِي كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ .

(270/120)

وَفِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ ابْنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لِأَنَّهُ ﴿ أَخَذَ بِيَدِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ حِينَ أَرَادَ حُضُورَ الْمُبَاهَلَةِ وَقَالَ : تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ﴾ ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَنُونَ غَيْرُهُمَا ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ ﴿ قَالَ لِلْحَسَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ ﴾ وَقَالَ ﴿ حِينَ بَالَ

عَلَيْهِ أَحَدُهُمَا وَهُوَ صَغِيرٌ : لَا تُزْرِمُوا ابْنِي ﴾ وَهُمَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أَيْضًا ، كَمَا جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى عِيسَى مِنْ ذُرِّيَّةِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُد وَسُلَيْمَانَ ﴾ إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى ﴾ وَإِنَّمَا نِسْبَتُهُ إلَيْهِ مِنْ جِهَةِ أُمِّهِ ؛ لِأَنَّهُ لَا أَبَ لَهُ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ إنَّ هَذَا مَخْصُوصٌ فِي الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنْ يُسَمَّيَا ابْنَيْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُونَ غَيْرِهِمَا ، وَقَدْ رُوِيَ فِي ذَلِكَ خَبَرٌ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدُلُّ عَلَى خُصُوصِ إطْلَاقِ اسْمِ ذَلِكَ فِيهِمَا دُونَ غَيْرِهِمَا مِنْ النَّاسِ ؛ لِأَنَّهُ رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ ﴿ كُلُّ سَبَبٍ وَنَسَبٍ مُنْقَطِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلَّا سَبَبِي وَنَسَبِي ﴾ ؛ .

وَقَالَ مُحَمَّدٌ فِيمَنْ أَوْصَى لِوَلَدِ فُلَانٍ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ لِصُلْبِهِ وَلَهُ وَلَدُ ابْنٍ وَوَلَدُ ابْنَةٍ : " إنَّ الْوَصِيَّةَ لِوَلَدِ الِابْنِ دُونَ وَلَدِ الِابْنَةِ " .

(271/120)

وَقَدْ رَوَى الْحَسَنُ بْنُ زِيَادٍ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّ وَلَدَ الِابْنَةِ يَدْخُلُونَ فِيهِ .

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى وَقَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ مَخْصُوصٌ بِهِ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ فِي جَوَازِ نِسْبَتِهِمَا عَلَى الْإِطْلَاقِ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ النَّاسِ لِمَا وَرَدَ فِيهِ مِنْ الْأَثَرِ ، وَأَنَّ غَيْرَهُمَا مِنْ النَّاسِ إنَّمَا يُنْسَبُونَ إلَى الْآبَاءِ وَقَوْمِهِمْ

دُونَ قَوْمِ الْأُمِّ ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْهَاشِمِيَّ إذَا اسْتَوْلَدَ جَارِيَةً رُومِيَّةً أَوْ حَبَشِيَّةً أَنَّ ابْنَهُ يَكُونُ هَاشِمِيًّا مَنْسُوبًا إلَى قَوْمِ أَبِيهِ دُونَ أُمِّهِ ؟ وَكَذَلِكَ قَالَ الشَّاعِرُ : بَنُونَا بَنُو أَبْنَائِنَا وَبَنَاتُنَا بَنُوهُنَّ أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الْأَبَاعِدِ فَنِسْبَةُ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْبُنُوَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ مَخْصُوصٌ بِهِمَا لَا يَدْخُلُ فِيهِ غَيْرُهُمَا ؛ هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ الْمُتَعَالِمُ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ فِيمَنْ سِوَاهُمَا ؛ لِأَنَّهُمْ يُنْسَبُونَ إلَى الْأَبِ وَقَوْمِهِ دُونَ قَوْمِ الْأُمِّ. انتهى انتهى ا. هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 2 صـ 295. 296 ﴾

أسئلة وأجوبة للإمام الفخر

السؤال الأول : الأولاد إذا كانوا صغاراً لم يجز نزول العذاب بهم وقد ورد في الخبر أنه صلوات الله عليه أدخل في المباهلة الحسن والحسين عليهما السلام فما الفائدة فيه ؟ .

(272/120)

والجواب : إن عادة الله تعالى جارية بأن عقوبة الاستئصال إذا نزلت بقوم هلكت معهم الأولاد والنساء ، فيكون ذلك في حق البالغين عقاباً ، وفي حق الصبيان لا يكون عقاباً ، بل يكون جارياً مجرى إماتتهم وإيصال الآلام والأسقام إليهم ومعلوم أن شفقة الإنسان على أولاده وأهله شديدة جداً فربما جعل الإنسان نفسه فداءً لهم وجنة لهم ، وإذا كان كذلك

فهو عليه السلام أحضر صبيانه ونساءه مع نفسه وأمرهم بأن يفعلوا مثل ذلك ليكون ذلك أبلغ في الزجر وأقوى في تخويف الخصم ، وأدل على وثوقه صلوات الله عليه وعلى آله بأن الحق معه .

السؤال الثاني : هل دلت هذه الواقعة على صحة نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ .

الجواب : أنها دلّت على صحة نبوته عليه السلام من وجهين

أحدهما : وهو أنه عليه السلام خوفهم بنزول العذاب عليهم ، ولو لم يكن واثقاً بذلك ، لكان ذلك منه سعياً في إظهار كذب نفسه لأن بتقدير : أن يرغبوا في مباهلته ، ثم لا ينزل العذاب ، فحينئذ كان يظهر كذبه فيما أخبر ومعلوم أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان من أعقل الناس ، فلا يليق به أن يعمل عملاً يفضي إلى ظهور كذبه فلما أصر على ذلك علمنا أنه إنما أصر عليه لكونه واثقاً بنزول العذاب عليهم

وثانيهما : إن القوم لما تركوا مباهلته ، فلولا أنهم عرفوا من التوراة والإنجيل ما يدل على نبوته ، وإلا لما أحجموا عن مباهلته .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يقال : إنهم كانوا شاكين ، فتركوا مباهلته خوفاً من أن يكون صادقاً فينزل بهم ما ذكر من العذاب ؟ .

قلنا هذا مدفوع من وجهين

الأول : أن القوم كانوا يبذلونه النفوس والأموال في المنازعة مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولو كانوا شاكين لما فعلوا ذلك

(273/120)

الثاني : أنه قد نقل عن أولئك النصارى أنهم قالوا : إنه والله هو النبي المبشر به في التوراة والإنجيل ، وإنكم لو باهلتموه لحصل الاستئصال فكان ذلك تصريحاً منهم بأن الامتناع عن المباهلة كان لأجل علمهم بأنه نبي مرسل من عند الله تعالى .

السؤال الثالث : أليس إن بعض الكفار اشتغلوا بالمباهلة مع محمد صلى الله عليه وسلم ؟ حيث قالوا ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ السماء ﴾ [الأنفال : 32] ثم إنه لم ينزل العذاب بهم ألبتة ، فكذا ههنا ، وأيضاً فبتقدير نزول العذاب ، كان ذلك مناقضاً لقوله ﴿ وَمَا كَانَ الله لِيُعَذّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : 33] .

والجواب : الخاص مقدم على العام ، فلما أخبر عليه السلام بنزول العذاب في هذه السورة على التعيين وجب أن يعتقد أن الأمر كذلك .

السؤال الرابع : قوله ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ القصص الحق ﴾ هل هو متصل بما قبله أم لا ؟ .

والجواب : قال أبو مسلم : إنه متصل بما قبله ولا يجوز الوقف على قوله ﴿ الكاذبين ﴾

وتقدير الآية فنجعل لعنة الله على الكاذبين بأن هذا هو القصص الحق وعلى هذا التقدير كان حق ﴿ إن ﴾ أن تكون مفتوحة ، إلا أنها كسرت لدخول اللام في قوله ﴿ لَهُوَ ﴾ كما في قوله ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ [العاديات : 11] وقال الباقون : الكلام تم عند قوله ﴿ عَلَى الكاذبين ﴾ وما بعده جملة أخرى مستقلة غير متعلقة بما قبلها ، والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 74.73 ﴾

(274/120)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ ﴾ الآية .

يعني بعد ما ظَهَرْتَ على صدق ما يُقال لك ، وتَحَقَّقْتَ بقلبك معرفة ما خاطبناك ، فلا تحتشم من حملهم على المباهلة ، وثقْ بأن لك القهر والنصرة ، وأَنَّا توليناك ، وفي كنف قُرْبنا آويناك ، ولو أنهم رغبوا في هذه المباهلة لأحرقت الأودية عليهم نيرانًا مؤججة ، ولكن أخَّر الله - سبحانه - ذلك عنهم لعلمه بِمَنْ في أصلابهم من المؤمنين .

والإشارة في هذه الآية لِمَنْ نزلت حالته عن أحوال الصديقين ، فإنه إذا ظهرت أنوارهم انخنست آثار هؤلاء فلا إقرار ، ولا عنهم آثار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ

﴿ 1 صـ 247 ﴾

فائدة

قال أبو حيان :

قيل : وفي هذه الآية ضروب من البلاغة : منها إسناد الفعل إلى غير فاعله ، وهو : ﴿ إذ قال الله يا عيسى ﴾ والله لم يشافهه بذلك ، بل بإخبار جبريل أو غيره من الملائكة .

والاستعارة في : ﴿ متوفيك ﴾ وفي : ﴿ فوق الذين كفروا ﴾ والتفصيل لما أجمل في : ﴿ إليّ مرجعكم فأحكم ﴾ بقوله : فأما ، وأمّا ، والزيادة لزيادة المعنى في ﴿ من ناصرين ﴾ أو : المثل في قوله ﴿ إن مثل عيسى ﴾ .

والتجوز بوضع المضارع موضع الماضي في قوله ﴿ نتلوه ﴾ وفي ﴿ فيكون ﴾ وبالجمع بين أداتي تشبيه على قول في ﴿ كمثل آدم ﴾ وبالتجوز بتسمية الشيء باسم أصله في ﴿ خلقه من تراب ﴾ .

وخطاب العين ، والمراد به غيره ، في ﴿ فلا تكن من الممترين ﴾ .

والعام يراد به الخاص في ﴿ ندع أبناءنا ﴾ الآية والتجوز بإقامة ابن العم مقام النفس على أشهر الأقوال ، والحذف في مواضع كثيرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 505.504 ﴾

ومن فوائد القاسمي في الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ ﴾ أي : جادلك من النصارى بإيراد حجة : ﴿ فِيهِ ﴾ أي : في شأن عيسى ، زعماً منهم أنه ليس على الشأن المتلو : ﴿ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أي : الذي أنزلناه إليك ، وقصصناه عليك في أمره . وللفاضل المهايمي في هذه الآية أسلوب لطيف في التأويل حيث قال : ﴿ الْحَقُّ ﴾ أي : الثابت الذي لا يقبل التأويل جاء : ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ الذي رباك بالإطلاع على الحقائق : ﴿ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ ﴾ بما ورد في الإنجيل من إطلاق لفظ الأب على الله ، فإنه إطلاق مجازي ؛ لأنه لما حدث منه كان كأبيه .

وإذا ظهر لك الحق من ربك بالبيان التام : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ ﴾ أي : جادلك : ﴿ فِيهِ ﴾ لإثبات أبنيته بظواهر الإنجيل : ﴿ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ القطعي الموجب لتأويله ﴿ فَقُلْ ﴾ لم يبق بيننا وبينكم مناظرة ، ولكن نرفع عنادكم بطريق المباهلة : ﴿ تَعَالَوْاْ ﴾ أي : أقبلوا أيها المجادلون إلى أمر يعرف فيه علو الحق وسفول الباطل : ﴿ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ﴾ أي يدع كل منا ومنكم نفسه ، وأعزة أهله ، وألصقهم بقلبه ، ممن يخاطر الرجل بنفسه لهم ، ويحارب دونهم ، ويحملهم على المباهلة : ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾ أي : نتضرع إلى الله تعالى ونجتهد في دعاء اللعنة : ﴿ فَنَجْعَل

لَّعْنَةُ اللّهِ ﴾ أي : إبعاده وطرده : ﴿ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ منا ومنكم ليهلكهم الله وينجي الصادقين ، فلا يبقى العناد الباقي عليكم بعد اتفاق الدلائل العقلية والنقلية .

تنبيهات :

(276/120)

الأول – قال القاشاني : إن لمباهلة الأنبياء تأثيراً عظيماً ، سببه : اتصال نفوسهم بروح القدس ، وتأييد الله إياهم به ، وهو المؤثر بإذن الله في العالم العنصري ، فيكون انفعال العالم العنصري منه كانفعال بدننا من روحنا بالهيئات الواردة عليه ، كالغضب والحزن والفكر في أحوال المعشوق ، وغير ذلك من تحرك الأعضاء عند حدوث الإرادات والعزائم ، وانفعال النفوس البشرية منه ، كانفعال حواسنا وسائر قوانا من هيئات أرواحنا ، فإذا اتصل نفس قدسي به كان تأثيرها في العالم عند التوجه الاتصالي بتأثير ما يتصل به ، فتنفعل أجرام العناصر والنفوس الناقصة الْإِنْسَانية منه بما أراد ، ألم تر كيف انفعلت نفوس النصارى من نفسه عليه السلام بالخوف ، وأحجمت عن المباهلة ، وطلبت الموادعة بقبول الجزية ! .

(277/120)

الثاني : قال ابن كثير : وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نصارى نجران لما قدموا المدينة ، فجعلوا يحاجون في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوة والإلهية ، فأنزل الله صدر هذه السورة رداً عليهم كما ذكره الإمام محمد بن إسحاق وغيره ، وكانوا ستين راكباً ، منهم ثلاثة نفر ، إليهم يؤول أمرهم : العاقب أمير القوم واسمه : عبد المسيح ، والسيد ثِمَالُهم ، وصاحب رحلهم واسمه : الأيهم ، وأبو حارث بن علقمة أسقفهم وحبرهم . وفي القصة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أتاه الخبر من الله عز وجل ، والفصل من القضاء بينه وبينهم ، وأمر بما أمر به من ملاعنتهم ، إن ردوا ذلك عليه ، دعاهم إلى المباهلة ، فقالوا : يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ، ثم نأتيك بما نريد [في المطبوع : نزيد] أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، فانصرفوا عنه ، ثم خلوا بالعاقب فقالوا : يا عبد المسيح ماذا ترى ؟ فقال : والله يا معشر النصارى لقد عرفتم إن محمداً لنبي مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم ما لاعَنَ قوم نبياً قط ، فبقي كبيرهم ، ولا نبت صغيرهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم ، فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم ! قد رأينا أن لا نلاعنك ، وأن

نتركك على دينك ، ونرجع على ديننا . فلم يلاعنهم صلى الله عليه وسلم ، وأقرهم على خراج يؤدونه إليه .

(278/120)

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن الشعبي عن جابر قال : قدم على النبي صلى الله عليه وسلم العاقب والطيب ، فدعاهما إلى الملاعنة ، فواعداه على أن يلاعناه الغداة ، قال : فغدا رسول الله ، فأخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين ، ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا ، وأقرا له بالخراج ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < والذي بعثني بالحق ، لو قالا : لا ، لأمطر عليهم الوادي ناراً > . قال جابر : وفيهم نزلت : ﴿ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا ﴾ الآية . قال جابر : أنفسنا وأنفسكم : رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب ، وأبناؤنا الحسن والحسين ، ونساؤنا : فاطمة ، وهكذا - رواه الحاكم في مستدركه بمعناه ، ثم قال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . هكذا قال .

وقد رواه أبو داود الطيالسي عن شعبة عن المغيرة عن الشعبي مرسلاً ، وهذا أصح .

وقد روي عن ابن عباس والبراء نحو ذلك .

وروى البخاري عن حذيفة رضي الله عنه قال : جاء العاقب والسيد ، صاحبا نجران إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه ، قال : فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل ، فوالله لئن كان نبياً فلاعنّا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا ، قالا : إنا نعطيك ما سألتنا ، وابعث معنا رجلاً أميناً ، ولا تبعث معنا إلا أميناً . فقال : < لأبعثن معكم رجلاً أميناً ، حق أمين > . فاستشرف لها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : قم يا أبا عبيدة بن الجراح ، فلما قام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < هذا أمين هذه الأمة > . ورواه مسلم والنسائي أيضاً وغيرهم .

(279/120)

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال أبو جهل قبحه الله - : إن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على رقبته ، قال : فقال : لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ، ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً .

قال ابن الكثير : وقد رواه البخاري والترمذي والنسائي . وقد ساق قصة وفد نجران الإمام ابن القيم عليه الرحمة في " زاد المعاد " وأعقبها بفصل مهم في فقهها ، فليراجع .

الثالث : قال الزمخشري : فإذا قلت : ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلى ليتبين الكاذب منه ومن

خصمه ، وذلك أمر يختص به وبمن يكاذبه . فما معنى ضم الأبناء والنساء ؟ قلت : ذلك آكد في الدلالة على ثقته بحاله ، واستيقانه بصدقه ، حيث استجرأ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه لذلك . ولم يقتصر على تعريض نفسه له ، وعلم ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة ، وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب ، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل ، ومن ثمت كانوا يسوقون مع أنفسهم الظعائن في الحروب لتمنعهم من الهرب . ويسمون الذادة عنها بأرواحهم حماة الحقائق . وقدّمهم في الذكر على الأنفس لينبه على لطف مكانهم وقرب منزلتهم وليؤذن بأنهم مقدمون على الأنفس مفدّون بها . وفيه دليل ، لا شيء أقوى منه ، على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام . وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لم يرو أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك .

الرابع : استنبط من الآية جواز المحاجة في أمر الدين ، وأن من جادل وأنكر شيئاً من الشريعة جازت مباهلته اقتداء بما أمر به صلى الله عليه وسلم . والمباهلة : الملاعنة .

قال الكازروني في تفسيره : وقع البحث عند شيخنا العلامة الدواني قدس الله سره في جواز المباهلة بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، فكتب رسالة في شروطها المستنبطة من الكتاب والسنة والآثار ، وكلام الأئمة ، وحاصل كلامه فيها : أنها لا تجوز إلا في أمر مهم شرعاً ، وقع فيه اشتباه وعناد لا يتيسر دفعه إلا بالمباهلة ، فيشترط كونها بعد إقامة الحجة والسعي في إزالة الشبهة وتقديم النصح والإنذار وعدم نفع ذلك ، ومساس الضرورة إليها .

قال الإمام صديق خان في تفسيره : وقد دعا الحافظ ابن القيم ، رحمه الله ، من خالفه في مسألة صفات الرب تعالى شأنه وإجرائها على ظواهرها من غير تأويل ولا تحريف ولا تعطيل ، إلى المباهلة بين الركن والمقام ، فلم يجبه إلى [في المطبوع : يحبه إلا] ذلك ، وخاف سوء العاقبة . وتمام هذه القصة مذكور في أول كتابه المعروف بـ " النونية " - انتهى - وقد ذكر في " زاد المعاد " في فصل فقه قصة وفد نجران ما نصه : ومنها أن السنة في مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حجة الله ولم يرجعوا ، بل أصروا على العناد أن يدعوهم إلى المباهلة ، وقد أمر الله سبحانه بذلك رسوله ، ولم يقل : إن ذلك ليس لأمتك من بعدك . ودعا إليه ابن عمه عبد الله بن عباس لمن أنكر عليه بعض مسائل الفروع ، ولم ينكر عليه الصحابة ، ودعا إليه الأوزاعي سفيان الثوري في مسألة رفع اليدين ، ولم ينكر عليه ذلك ، وهذا من تمام الحجة . انتهى . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل جـ 4 صـ 373 . 377 ﴾

(281/120)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآيتين

قال رحمه الله :

﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِّنَ الْمُمْتَرِينَ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾

لقد جاء الحق البيّن والقول الفصل من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فلا مجال للشك أو المراء ، ومن يرد أن يحتكم إلى أحدٍ فليقبل الاحتكام إلى الإله العادل الذي لن يحكم بالباطل أبدا ، فهو سبحانه الحق ، ويجيء هذا القول : ﴿ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ . إن الطرفين مدعوان ليوجها الدعوة لأبنائهم ونسائهم ، فالرسول صلى الله عليه وسلم مدعو لدعوة أبنائه ونسائه ، ومن له الولاية عليهم ، وبحضوره هو صلى الله عليه وسلم ، وهم مدعون لدعوة أبنائهم ونسائهم وأنفسهم للابتهال .

(282/120)

وقد يسأل سائل : ولماذا تكون الدعوة للأبناء والنساء ؟ والإجابة هي : أن الأبناء والنساء هم القرابة القريبة التي تهم كل إنسان ، وإن لم يكن رسولا ، إنهم بضعة من نفسه وأهله . فكان الرسول صلى الله عليه وسلم مأمور بأن يقول لهم : " هاتوا أحبابكم من الأبناء والنساء لأنهم أعزة الأهل وألصقهم بالقلوب وادخلوا معنا في مباهلة " " والمباهلة " : هي التضرع في الدعاء لاستنزال اللعنة على الكاذب ، فالبهلة – بضم الباء – هي اللعنة ، وعندما يقول الطرفان : " يارب لتنزل لعنتك على الكذاب منا " فهذا دعاء يحمل مطلق العدالة ، فالإله الذي يستطيع أن ينزل اللعنة هو الإله الحق . وهو سينزل اللعنة على من يشركون به ، ولو كانت اللعنة تنزل من الآلهة المتعددة فسوف تنزل اللعنة على أتباع الإله الواحد .

ولهذا كانت الدعوة إلى المباهلة والبهلة – كما قلنا – وهي ضراعة إلى القوة القاهرة التي تتصرف في الأمر لتنهى الخلاف ، ثم صار المراد بالمباهلة هنا مطلق الدعاء ، فنحن نقول : " نبتهل إلى الله " ، أي ندعو الله .

إذن فالرسول صلى الله عليه وسلم جاءهم بالأمر المنزل من عند الله الحق بدعوة الأبناء والنساء والأنفس ، لكنهم قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : " أَنْظِرْنا إلى غد ونأتي إليك " .

ثم أرسلوا في الصباح واحدا منهم ليرى ماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وهل هو مستعد لهذا الأمر حقيقة ، أو هو مجرد قول منه أراد به التهديد فقط ؟ ووجد رسولهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء ومعه الحسين والحسن وفاطمة وعلي بن أبي طالب ، لذلك قالوا : "لا لن نستطيع المباهلة" ، والله ما باهل قوم نبيا إلا أخذوا ، وحاولوا ترضية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : "لنظل على ديننا ويظل محمد وأتباعه على دينه" لقد ظنوا ان الدعوة إلى المباهلة هي مجرد تهديد لن ينفذه الرسول ، لكن صاحب اليقين الصادق جاء ومعه أهله استعدادا للمباهلة ، ولن يُقبل على مثل هذا الموقف الا من عنده عميق الإيمان واليقين ، أما الذي لا يملك يقيناً فلن يقبل على المباهلة بل لا بد ان يرجع عنها .

وقد رجعوا عن المباهلة ، وقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : لنتفق معا ألا تغزونا أو تخيفنا على أن نرسل لك الجزية في رجب وفي صفر وهي من الخيل وغير ذلك ! لقد فروا من المباهلة لمعرفتهم أنهم في شك من أمرهم ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان على يقين بما أنزل الله عليه وكان العرب إذا خرجوا إلى الحرب يأخذون نساءهم معهم ،

لذلك حتى يخجل الرجل من الفرار ، وحتى لا يترك أولاده ونساءه لكيلا يذلوا من بعد موته ، فإن قُتِل قَتَلوا معه هم أيضا .

(284/120)

إذن إن أردنا نحن الآن أن ننهي الجدل في مسألة عيسى عليه السلام فلنسمع قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِّن الْمُمْتَرِينَ ﴾ إنه الحق القادم من الربوبية فلا تكن أيها السامع من الشاكين في هذه المسألة . ومن أراد أن يأتي بحجة مضادة للحجة القادمة من الله فلنا أن نحسمها بأن نقول : ﴿ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ .

ولن يجرؤ واحد منهم على ذلك . لماذا ؟ لأن السابقين عليهم قد فروا من المباهلة ولأن الله – سبحانه – يريد ان يزيد المؤمنين إيمانا واطمئنانا إلى أن ما ينزله على رسوله هو الحق قال – جل شأنه – : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ . . . ﴾

لقد جاء الحق البيّن والقول الفصل من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فلا مجال للشك أو المراء ، ومن يرد أن يحتكم إلى أحدٍ فليقبل الاحتكام إلى الإله العادل الذي لن يحكم بالباطل

أبدا ، فهو سبحانه الحق ، ويجيء هذا القول : ﴿ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ . إن الطرفين مدعوان ليوجها الدعوة لأبنائهم ونسائهم ، فالرسول صلى الله عليه وسلم مدعو لدعوة أبنائه ونسائه ، ومن له الولاية عليهم ، وبحضوره هو صلى الله عليه وسلم ، وهم مدعون لدعوة أبنائهم ونسائهم وأنفسهم للابتهال .

(285/120)

وقد يسأل سائل : ولماذا تكون الدعوة للأبناء والنساء ؟ والإجابة هي : أن الأبناء والنساء هم القرابة القريبة التي تهم كل إنسان ، وإن لم يكن رسولا ، إنهم بضعة من نفسه وأهله . فكان الرسول صلى الله عليه وسلم مأمور بأن يقول لهم : " هاتوا أحبابكم من الأبناء والنساء لأنهم أعزة الأهل وألصقهم بالقلوب وادخلوا معنا في مباهلة " " والمباهلة " : هي التضرع في الدعاء لاستنزال اللعنة على الكاذب ، فالبهلة - بضم الباء - هي اللعنة ، وعندما يقول الطرفان : " يارب لتنزل لعنتك على الكذاب منا " فهذا دعاء يحمل مطلق العدالة ، فالإله الذي يستطيع أن ينزل اللعنة هو الإله الحق . وهو سينزل اللعنة على من يشركون به ، ولو كانت اللعنة تنزل من الآلهة المتعددة فسوف تنزل اللعنة على أتباع الإله

الواحد .

ولهذا كانت الدعوة إلى المباهلة والبهلة - كما قلنا - وهي ضراعة إلى القوة القاهرة التي تتصرف في الأمر لتنهى الخلاف ، ثم صار المراد بالمباهلة هنا مطلق الدعاء ، فنحن نقول : " نبتهل إلى الله " ، أي ندعو الله .

إذن فالرسول صلى الله عليه وسلم جاءهم بالأمر المنزل من عند الله الحق بدعوة الأبناء والنساء والأنفس ، لكنهم قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : " أَنْظِرْنا إلى غد ونأتي إليك " .

(286/120)

ثم أرسلوا في الصباح واحدا منهم ليرى ماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وهل هو مستعد لهذا الأمر حقيقة ، أو هو مجرد قول منه أراد به التهديد فقط ؟ ووجد رسولهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء ومعه الحسين والحسن وفاطمة وعلي بن أبي طالب ، لذلك قالوا : " لا لن نستطيع المباهلة " ، والله ما باهل قوم نبيا إلا أخذوا ، وحاولوا ترضية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : " لنظل على ديننا ويظل محمد وأتباعه على دينه " لقد ظنوا ان الدعوة إلى المباهلة هي مجرد تهديد لن ينفذه الرسول ، لكن

صاحب اليقين الصادق جاء ومعه أهله استعدادا للمباهلة ، ولن يُقبل على مثل هذا الموقف الا من عنده عميق الإيمان واليقين ، أما الذي لا يملك يقيناً فلن يقبل على المباهلة بل لا بد ان يرجع عنها .

وقد رجعوا عن المباهلة ، وقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : لنتفق معا ألا تغزونا أو تخيفنا على أن نرسل لك الجزية في رجب وفي صفر وهي من الخيل وغير ذلك ! لقد فروا من المباهلة لمعرفتهم أنهم في شك من أمرهم ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان على يقين بما أنزل الله عليه وكان العرب إذا خرجوا إلى الحرب يأخذون نساءهم معهم ، لذلك حتى يخجل الرجل من الفرار ، وحتى لا يترك أولاده ونساءه لكيلا يذلوا من بعد موته ، فإن قُتِل قتلوا معه هم أيضا .

(287/120)

إذن إن أردنا نحن الآن أن ننهي الجدل في مسألة عيسى عليه السلام فلنسمع قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ إنه الحق القادم من الربوبية فلا تكن أيها السامع من الشاكين في هذه المسألة . ومن أراد أن يأتي بحجة مضادة للحجة القادمة من الله

فلنا أن نحسمها بأن نقول : ﴿ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ .

ولن يجرؤ واحد منهم على ذلك . لماذا ؟ لأن السابقين عليهم قد فروا من المباهلة ولأن الله - سبحانه - يريد ان يزيد المؤمنين إيمانا واطمئنانا إلى أن ما ينزله على رسوله هو الحق قال - جل شأنه - : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1519 . 1521 ﴾

(288/120)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرَيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والعشرون بعد المائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الحادى والعشرون بعد المائة

من الآية ﴿ 62 ﴾ من سورة آل عمران

وحتى الآية ﴿ 74 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (62) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان العلم الأزلي حاصلاً بأن المجادلين في أمر عيسى عليه الصلاة والسلام يكفون عن المباهلة بعد المجادلة خوفاً من الاستئصال في العاجلة مع الخزي الدائم في الآجلة ، وكان كفهم عن ذلك موجباً للقطع بإبطالهم في دعواهم لكل من يشاهدهم أو يتصل به خبرهم ، حسن كل الحسن تعقيب ذلك بقوله : - تنبيهاً على ما فيه من العظمة - ﴿ إن هذا ﴾ أي الذي تقدم ذكره من أمر عيسى عليه السلام وغيره ﴿ لهو ﴾ أي خاصة دون غيره مما يضاده ﴿ القصص الحق ﴾ والقصص - كما قال الحرالي - تتبع الوقائع بالإخبار عنها شيئاً بعد شيء على ترتيبها ، في معنى قص الأثر ، وهو اتباعه حتى ينتهي إلى محل ذي الأثر - انتهى .

ولما بدأ سبحانه وتعالى القصة أول السورة بالإخبار بوحدانيته مستدلاً على ذلك بأنه الحي القيوم صريحاً ختمها بمثل ذلك إشارة وتلويحاً فقال - عاطفاً على ما أنتجه ما تقدم من أن عيسى صلى الله عليه وسلم عبد الله ورسوله معمماً للحكم معرقاً بزيادة الجار في النفي : ﴿ وما من إله ﴾ أي معبود بحق ، لأن له صفات الكمال ، فهو بحيث يضر وينفع ﴿ إلا الله ﴾ أي المحيط بصفات الكمال ، لأنه الحي القيوم - كما مضى التصريح به ، فاندرج في ذلك عيسى عليه الصلاة والسلام وغيره ، وقد علم من هذا السياق أنهم لما علموا تفرده تركوا المباهلة رهبة منه سبحانه وتعالى علماً منهم بأنهم له عاصون ولحقّه

مضيعون وأن ما يدعون إلهيته لا شيء في يده من الدفع عنهم ولا من النفع لهم ، فلا برهان أقطع من هذا .

(5/121)

ولما كان في نفي العزة والحكمة عن غيره تعالى نوع خفاء أتى بالوصفين على طريق الحصر فقال - عاطفاً على ما قدّرته مام أرشد السياق إلى أنه علة ما قبله من نفي : ﴿ وإن الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ لهو ﴾ أي وحده ﴿ العزيز الحكيم ﴾ وهذا بخلاف الحياة والقيومية فإنه لم يؤت بهما على طريق الحصر لظهورهما ، وقد علم بلا شبهة بما علم من أنه لا عزيز ولا حكيم إلا هو وأنه لا إله إلا هو . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 107 108. ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره من الدلائل ، ومن الدعاء إلى المباهلة ﴿ لَهُوَ القصص الحق ﴾ والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين ، ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة فبين تعالى إن الذي أنزله على نبيه هو القصص الحق ليكون على

ثقة من أمره ، والخطاب وإن كان معه فالمراد به الكل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 74 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

قال أبو مُسْلِمٍ : هذا الكلام متصل بما قبله ، ولا يجوز الوقف على قوله : ﴿ الكاذبين ﴾ ، وتقدير الآية : فنجعل لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِيْنَ بأن هذا هو القصص الحقُ ، وعلى هذا التقدير كان حق " إنَّ " أن تكون مفتوحةً ، إلا أنها كُسِرَت ؛ لدخول اللاَّمِ في قوله : ﴿ لَهُوَ الْقَصَصُ ﴾ ، كما في قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ [العاديات : 11] .

قال الباقون : الكلام تمّ عند قوله : ﴿ عَلَى الكاذبين ﴾ وما بعده جملة أخْرَى مستقلة غير مُتَعَلّقةٍ بما قبلها ، فَقَوْلُهُ : ﴿ هذا ﴾ الكلام إشارةٌ إلى ما تقدم من الدلائلِ والدعاءِ إلى الْمُبَاهَلَةِ ، وأخبار عيسى .

وقيل : هو إشارة لما بعده - وهو قوله : ﴿ وَمَا مِنْ إله إِلاَّ الله ﴾ - وضُعِفَ هذا بوجهين :

أحدهما : أنَّ هذا ليس بقصصٍ .

الثاني : أن مقترن بحرف العطف .

واعتذر بعضهم عن الأول ، فقال : إن أراد بالقصص الخبر ، فيصح على هذا ، ويكون التقدير : إن الخبر الحق ﴿ وَمَا مِنْ إلهٍ إلاَّ الله ﴾ ولكن الاعتراض الثاني باقٍ ، لم يُجَبْ عنه .

و" هُوَ " يجوز أن يكون فَصْلاً ، و" القصص " خبر " إن " ، و" الْحَقُّ " صفته ، ويجوز أن يكون " هو " مبتدأ و" الْقَصَصُ " خبره ، والجملة خبر " إنَّ " .

والقصص مصدر قولهم : قَصَّ فلانٌ الحديثَ ، يَقُصُّهُ ، قَصًّا ، وقَصَصاً وأصله : تتبع الأَثَر ، يقال : فلان خرج يقصُّ أُثَرَ فلان ، أي : يتبعه ، ليعرف أين ذَهَبَ . ومنه قوله : ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ [القصص : 11] ، أي ، اتبعي أثره ، وكذلك القاصّ في الكلام ، لأنه يتتبع خَبراً بعد خبر . وقد تقدم التنبيه على قراءتي " لَهْو " بسكون الهاء وضمها ؛ إجراء لها مجرى عضد .

قال الزمخشريُّ : فإن قلتَ : لِمَ جاز دخولُ اللامِ على الفَصْل ؟

قلت : إذا جاز دخولُها على الخبر كان دخولُها على الفَصْل أجودَ ؛ لأنه أقرب إلى المبتدأ منه وأصلها أن تدخل على المبتدأ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 192.191 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَمَا مِنْ إلهٍ إلاَّ الله ﴾

قال الفخر :

﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللهُ ﴾ هذا يفيد تأكيد النفي ، لأنك لو قلت عندي من الناس أحد ، أفاد أن عندك بعض الناس ، فإذا قلت ما عندي من الناس من أحد ، أفاد أنه ليس عندك بعضهم ، وإذا لم يكن عندك بعضهم ، فبأن لا يكون عندك كلهم أولى فثبت أن قوله ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللهُ ﴾ مبالغة في أنه لا إله إلا الله الواحد الحق سبحانه وتعالى .

(7/121)

ثم قال : ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ وفيه إشارة إلى الجواب عن شبهات النصارى ، وذلك لأن اعتمادهم على أمرين أحدهما : أنه قدر على إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، فكأنه تعالى قال : هذا القدر من القدرة لا يكفي في الإلهية ، بل لا بد وأن يكون عزيزاً غالباً لا يدفع ولا يمنع ، وأنتم قد اعترفتم بأن عيسى ما كان كذلك ، وكيف وأنتم تقولون إن اليهود قتلوه ؟

والثاني : أنهم قالوا : إنه كان يخبر عن الغيوب وغيرها ، فيكون إلها ، فكأنه تعالى قال : هذا القدر من العلم لا يكفي في الإلهية ، بل لا بد وأن يكون حكيماً ، أي عالماً بجميع المعلومات وبجميع عواقب الأمور ، فذكر ﴿ العزيز الحكيم ﴾ ههنا إشارة إلى الجواب عن

هاتين الشبهتين ونظير هذه الآية ما ذكره تعالى في أول السورة من قوله ﴿ هُوَ الذي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأرحام كَيْفَ يَشَاء لا إله إِلاَّ هُوَ العزيز الحكيم ﴾ [آل عمران : 6]. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 75 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَمَا مِنْ إله إِلاَّ الله ﴾ يجوز فيه وجهان :

أحدهما : أن ﴿ مِنْ إله ﴾ مبتدأ، و"مِنْ" مزيدة فيه، و"إلاَّ اللهُ" خبره، تقديره : ما إلَهٌ إلا اللهُ، وزيدت "مِنْ" للاستغراق والعموم.

قال الزمخشريّ : و"مِنْ" - في قوله : ﴿ وَمَا مِنْ إله إِلاَّ الله ﴾ - بمنزلة البناء على الفتح في : لا إلَهَ إلا اللهُ - في إفادة معنى الاستغراق.

قال شهابُ الدين : الاستغراق في : لا إلَهَ إلاَّ اللهُ، لم نستفده من البناء على الفتح، بل استفدناه من "مِنْ" المقدَّرة، الدالة على الاستغراق، نَصَّ النحويون على ذلك، واستدلوا عليه بظهورها في قول الشاعر : [الطويل]

فَقَامَ يَذُودُ النَّاسَ عَنْهَا بِسَيْفِهِ... وَقَالَ : ألاَ لاَ مِنْ سَبِيلٍ إلَى هِنْدِ

الثاني : أن يكون الخبر مُضْمَراً ، تقديره : وما من إله لنا إلا الله ، و ﴿ إِلاَّ اللهُ ﴾ بدل من موضع ﴿ مِنْ إله ﴾ ، لأن موضعه رفع بالابتداء ، ولا يجوز في مثله الإبدال من اللفظ ، لِئَلاّ يلزم زيادة " مِنْ " في الواجب ، وذلك لا يجوز عند الجمهور .

ويجوز في مثل هذا التركيب نصب ما بعد " إِلاَّ " على الاستثناء ، ولكن لم يُقرأ به ، إلا أَنَّه جائز لُغَةً أَنْ يُقَال لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ - برفع لفظ الجلالة بدلاً من الموضع ، ونصبها على الاستثناء من الضمير المستكن في الخبر المقدر ؛ إذ التقدير : لا إله استقر لنا إلا الله .

وقال بَعْضُهُم : دخلت " مِنْ " لإفادة تأكيد النفي ؛ لأنك لو قلتَ : ما عندي من الناس أحد ، أفاد أن عندك بعض الناس . فإذا قلتَ : ما عندي من الناس من أحدٍ ، أفاد أن ليس عندك بعضهم وإذا لم يكن عندك بعضهم فبأن لا يكون عندك كلهم أَوْلَى ، فثبت أن قوله : ﴿ وَمَا مِنْ إِله إِلاَّ الله ﴾ مبالغة في أنه لا إله إلا الله الواحدُ الحقُّ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 192 . 193 ﴾

فائدة

قال الآلوسى :

﴿ وَمَا مِنْ إِله إِلاَّ الله ﴾ رد النصارى في تثليثهم ، وكذا فيه رد على سائر الثنوية ، و ﴿ مِنْ ﴾ زائدة للتأكيد كما هو شأن الصلات ، وقد فهم أهل اللسان كما قال الشهاب أنها

لتأكيد الاستغراق المفهوم من النكرة المنفية لاختصاصها بذلك في الأكثر ، وقد توقف محب الدين في وجه إفادة الكلمات المزيدة للتأكيد بأي طريق هي فإنها ليست وضعية ، وأجاب بأنها ذوقية يعرفها أهل اللسان ، واعترض بأن هذا حوالة على مجهول فلا تفيد ، فالأولى أن يقال : إنها وضعية لكنه من باب الوضع النوعي فتدبر

(9/121)

﴿ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ العزيز ﴾ أي الغالب غلبة تامة ، أو القادر قدرة كذلك ، أو الذي لا نظير له ﴿ الحكيم ﴾ أي المتقن فيما صنع ، أو المحيط بالمعلومات ، والجملة تذييل لما قبلها ، والمقصود منها أيضاً قصر الإلهية عليه تعالى رداً على النصارى أي قصر إفراد فالفصل والتعريف هنا كالفصل والتعريف هناك فما قيل : إنهما ليسا للحصر إذ الغالب على الأغيار لا يكون إلا واحداً فيلغو القصر فيه إلا أن يجعل قصر قلب ، والمقام لا يلائمه مما لا عصام له كما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 191 ﴾

من فوائد ابن عاشور فى الآية

قال عليه الرحمة :

جملة ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾ وما عطف عليها بالواو اعتراض لبيان ما اقتضاه

قوله: ﴿ الكاذبين ﴾ [آل عمران: 61] لأنهم نفوا أن يكون عيسى عبد الله، وزعموا أنه غلب فإثبات أنه عبد هو الحق.

واسم الإشارة راجع إلى ما ذكر من نفي الإلهية عن عيسى.

والضمير في قوله لَهو القصصُ ضمير فصل، ودخلت عليه لام الابتداء لزيادة التقوية التي أفادَها ضمير الفصل؛ لأنّ اللام وَحدها مفيدة تقوية الخبر وَضمير الفصل يفيد القصر أي هذا القصص لا ما تَقُصُّه كُتُب النصارى وعَقائِدهم.

والقصَص بفتح القاف والصاد اسم لما يُقَص، يقال: قَصّ الخبر قَصّاً إذا أخبر به، والقَصُّ أخص من الإخبار؛ فإنّ القص إخبار بخبرٍ فيه طولٌ وتفصيل وتسمى الحادثة التي من شأنها أن يُخبر بها قِصة بكسر القاف أي مقصوصة أي مما يقُصها القُصّاص، ويقال للذي ينتصب لتحديث الناس بأخبار الماضين قَصّاص بفتح القاف.

فالقصصُ اسم لما يُقص: قال تعالى: ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص وقيل: هو اسم مصدر وليس هو مصدراً، ومن جرى على لسانه من أهل اللغة أنه مصدر فذلك تسامح من تسامح الأقدمين، فالقصّ بالإدغام مصدر، والقصص بالفَكّ اسم للمصدر واسم للخبر المقصوص.

وقوله: وما من إله إلا الله ﴾ تأكيد لحقيَّة هذا القصص.

ودخلت من الزائدة بعد حرف نفي تنصيصاً على قصد النفي الجنس لتدل الجملة على التوحيد ، ونفي الشريك بالصراحة ، ودلالةِ المطابقة ، وأن ليس المراد نفي الوحدة عن غير الله ، فيوهم أنه قد يكون إلاَ هَان أو أكثر في شقّ آخر ، وإن كان هذا يؤول إلى نفي الشريك لكن بدلالة الالتزام .

وقوله : ﴿ وإن الله لهو العزيز الحكيم ﴾ فيه ما في قوله : ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾ فأفاد تقوية الخَبر عَن الله تعالى بالعزّة والحكم ، والمقصود إبطال إلهية المسيح على حسب اعتقاد المخاطبين من النصارى ، فإنهم زعموا أنه قتله اليهود وذلك ذِلّة وعجز لا يلتئمان مع الإلهية فكيف يكون إله وهو غير عزيز وهو محكوم عليه ، وهو أيضاً إبطال لإلهيته على اعتقادنا ؛ لأنه كان محتَاجاً لإنقاذه من أيدي الظالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 115 ﴾

(11/121)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

وقوله الحق : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ يلفتنا إلى أن ما يرويه الحق لنا هو الحق المطلق ، وليس مجرد حكاية أو قصة ، أو مزج خيال بواقع ، كما يحدث في العصر الحديث ، عندما أُخذت كلمة القصة في العرف الأدبي الحديث – القادم من حضارة الغرب – إن القصة بشكلها الحديث المعروف إنما يلعب فيها الخيال دورا كبيرا ، لكن لو عرفنا ان كلمة " قصة " مشتقة من قص الأثر لبحث أهل الأدب فيما يكتبون من روايات وخيالات عن كلمة أخرى غير " قصة " ، فالقصص هو تتبع ما حدث بالفعل لا تبديل فيه ولا أخيلة .

وها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ فإذا جاء القصص من الإله الواحد فلنطمئن إلى أنه لا يوجد إله آخر سيأتي بقصص أخرى ، ولأن الله الواحد هو ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي الغالب على أمره ، ومع أنه غالب على أمره فهو حكيم في تصرفه .

لكن هل اتعظ القوم الذين جادلوا ؟ لا ، إن الحق يقول : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1521 ﴾

(12/121)

قوله تعالى ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (63) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ثبت ذلك كله سبب عنه تهديدهم على الإعراض بقوله - منبهاً بالتعبير بأداة الشك على أنه لا يعرض عن هذا المحل البين إلا من كان عالماً بأن مبطل ، ومثل ذلك لا يظن بذي عقل ولا مروة ، فمن حق ذكره أن يكون من قبيل فرض المحالات : ﴿ فإن تولوا ﴾ أي عن إجابتك إلى ما تدعوا إليه ﴿ فإن الله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ عليهم ﴾ بهم ، هكذا كان الأصل ، فعدل عنه لتعليق الحكم بالوصف تنفيراً من مثل حالهم فقال : ﴿ بالمفسدين ﴾ أي فهو يحكم فيهم بعلمه فينتقم منهم فسادهم بعزته انتقاماً يتقنه بحكمته فينقلبون منه بصفقة خاسر ولا يجدون من ناصر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 108 ﴾

(13/121)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (52) ﴾

فَلَمَّا أَحَسَّ فلما علم منهم الْكُفْرَ علما لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس. وإِلَى اللَّهِ

(14/121)

من صلة أنصارى مضمنا معنى الإضافة، كأنه قيل: من الذين يضيفون أنفسهم إلى اللَّه، ينصرونني كما ينصرني، أو يتعلق بمحذوف حالا من الياء، أى من أنصارى، ذاهبا إلى اللَّه ملتجئا إليه نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ أى أنصار دينه ورسوله. وحوارىّ الرجل: صفوته وخالصته. ومنه قيل للحضريات الحواريات لخلوص ألوانهن ونظافتهن، قال:

فَقُلْ لِلْحَوَارِيَّاتِ يَبْكِينَ غَيْرَنَا وَلَا تَبْكِنَا إلّا الْكِلَابُ النَّوَابِحُ «1»

وفي وزنه الحوالى، وهو الكثير الحيلة. وإنما طلبوا شهادته بإسلامهم تأكيداً لإيمانهم، لأنّ الرسل يشهدون يوم القيامة لقومهم وعليهم مَعَ الشَّاهِدِينَ مع الأنبياء الذين يشهدون لأممهم أو مع الذين يشهدون بالوحدانية. وقيل: مع أمة محمد صلى اللَّه عليه وسلم لأنهم شهداء على الناس وَمَكَرُوا الواو لكفار بنى إسرائيل الذين أحس منهم الكفر، ومكرهم أنهم وكلوا به من يقتله غيلة وَمَكَرَ اللَّهُ أن رفع عيسى إلى السماء وألقى شبهه على من أراد

اغتياله حتى قتل وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ أقواهم مكراً وأنفذهم كيدا وأقدرهم على العقاب

من حيث لا يشعر المعاقب.

[سورة آل عمران (3) : الآيات 55 إلى 57]

إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (55) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (56) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (57)

إِذْ قالَ اللَّهُ ظرف لخير الماكرين أو لمكر الله إِنِّي مُتَوَفِّيكَ أى مستوفى أجلك.

معناه: إنى عاصمك «2» من أن يقتلك الكفار ومؤخرك إلى أجل كتبته لك. ومميتك حتف أنفك لا قتيلا بأيديهم وَرافِعُكَ إِلَيَّ إلى سمائي ومقرّ ملائكتي وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا من سوء جوارهم وخبث صحبتهم. وقيل متوفيك: قابضك من الأرض، من توفيت مالى على

(1) . لليشكرى، يقول: فقل للنساء الحضريات الصافيات البياض يبكين غيرنا، كناية عن أنه ليس من أهل التنعم، ثم نهى عن أن يبكيهم أحد إلا الكلاب التي تساق معهم للصيد، أو التي جرت عادتها بأكل قتلاهم في الحرب أو التي تنبحهم إذا أقبلوا على أصحابها،

كناية عن أنه من أهل البدو والغزو .

(2) . قوله «أى مستوفى أجلك ومعناه إنى عاصمك» مبنى على أن القتيل يموت قبل استيفاء أجله ، وهو مذهب المعتزلة . (ع)

(15/121)

فلان إذا استوفيته : وقيل : مميتك في وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن : وقيل : متوفى نفسك بالنوم من قوله : (وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها) ورافعك وأنت نائم حتى لا يلحقك خوف ، وتستيقظ وأنت في السماء آمن مقرب فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ يعلونهم بالحجة وفي أكثر الأحوال بها وبالسيف ، ومتبعوه هم المسلمون لأنهم متبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع ، دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ تفسير الحكم قوله فَأُعَذِّبُهُمْ . . .) (فنوفيهم أجورهم) «1» وقرئ فيوفيهم بالياء .

[سورة آل عمران (3) : آية 58]

ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (58)

ذلِكَ إشارة إلى ما سبق من نبإ عيسى وغيره وهو مبتدأ خبره (نَتْلُوهُ) و(مِنَ الْآياتِ) خبر

بعد خبر أو خبر مبتدإ محذوف. ويجوز أن يكون ذلك بمعنى الذي، ونتلوه صلته. ومن الآيات الخبر: ويجوز أن ينتصب ذلك بمضمر تفسيره نتلوه وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ القرآن، وصف بصفة من هو سببه، أو كأنه ينطق بالحكمة لكثرة حكمه.

[سورة آل عمران (3): آية 59]

إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59)

إِنَّ مَثَلَ عِيسى إن شأن عيسى وحاله الغريبة كشأن آدم. وقوله خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ جملة مفسرة لما له شبه «2» عيسى بآدم أى خلق آدم من تراب ولم يكن ثمة أب ولا أم، وكذلك حال عيسى. فإن قلت: كيف شبه به وقد وجد هو من غير أب، ووجد آدم من غير أب وأم؟ قلت:

هو مثيله في إحدى الطرفين، فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به، لأنّ المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف، ولأنه شبه به لأنه وجد وجودا خارجا عن العادة المستمرة، وهما في ذلك نظيران، ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود بغير أب، فشبه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه.

وعن بعض العلماء أنه أسر بالروم فقال لهم: لِمَ تعبدون عيسى، قالوا: لأنه لا أب له. قال. فآدم أولى لأنه لا أبوين له. قالوا: كان يحيى الموتى. قال: فحزقيل أولى، لأن عيسى

أحيا أربعة نفر ، وأحيا حزقيل ثمانية آلاف . قالوا : كان يبرئ الأكمه والأبرص . قال : فجرجيس أولى ، لأنه طبخ وأحرق

---

(1) . قوله «فأعذبهم فنوفيهم» هذا في الذين كفروا . وقوله : فنوفيهم . . . الخ ، في الذين آمنوا . (ع) [. . . . . .]

(2) . قوله «لما له شبه» أى للأمر الذي لأجله كان ذلك التشبيه . (ع)

(16/121)

ثم قام سالما . خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ قدّره جسداً من طين ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ أى أنشأه بشراً كقوله (ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ) . فَيَكُونُ حكاية حال ماضية .

[سورة آل عمران (3) : آية 60]

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (60)

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ خبر مبتدإ محذوف ، أى هو الحق كقول أهل خيبر : محمد والخميس «1» .

ونهيه عن الامتراء - وجل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أن يكون ممتريا - من باب التهييج لزيادة الثبات والطمأنينة ، وأن يكون لطفا لغيره .

[سورة آل عمران (3) : آية 61]

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ (61)

فَمَنْ حَاجَّكَ من النصارى فِيهِ في عيسى مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ أى من البينات الموجبة للعلم تَعالَوْا هلموا. والمراد المجيء بالرأى والعزم، كما تقول تعال نفكر في هذه المسألة نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ أى يدع كل منى ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه إلى المباهلة ثُمَّ نَبْتَهِلْ ثم نتباهل بأن نقول بهلة اللَّه على الكاذب منا ومنكم. والبهلة بالفتح، والضم: اللعنة. وبهله اللَّه لعنه وأبعده من رحمته من قولك «أبهله» إذا أهمله. وناقة باهل: لاصرار عليها «2» وأصل الابتهال هذا، ثم استعمل في كل دعاء يجتهد فيه وإن لم يكن التعانا. وروى «أنهم لما دعاهم إلى المباهلة قالوا: حتى نرجع وننظر، فلما تخالوا قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم: يا عبد المسيح، ما ترى؟ فقال واللَّه لقد عرفتم يا معشر النصارى أنّ محمداً نبىٌّ مرسل، وقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم، واللَّه ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لتهلكنّ فإن أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وقد غدا محتضنا الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعلىٌّ خلفها وهو يقول: «إذا أنا دعوت فأمّنوا» فقال أسقف نجران «3» : يا معشر النصارى، إنى لأرى وجوها لو شاء اللَّه أن

يزيل جبلا

---

(1) . هو طرف من حديث لأنس متفق عليه ، بلفظ «صبح رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أهل خيبر وقد خرجوا بالمساحي على أعناقهم فلما رأوه قالوا : هذا محمد والخميس . . . الحديث» وسيأتى في سورة الصافات .

(2) . قوله «و ناقة باهل لاصرار عليها » في الصحاح صررت الناقة شددت عليها الصرار ، وهو خيط يشد فوق الخلف والتودية ، لئلا يرضعها ولدها . وفيه الخلف : حلمة ضرع الناقة . وفيه التودية : خشبة تشد عليه . (ع)

(3) . قوله «فقال أسقف نجران يا معشر النصارى» أى حبرهم عبد المسيح اه . (ع)

(17/121)

من مكانه لأزاله بها ، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة ، فقالوا : يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأن نقرّك على دينك ونثبت على ديننا قال «فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم» فأبوا . قال : «فإنى أناجزكم» فقالوا :

ما لنا بحرب العرب طاقة ، ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردّدنا عن ديننا

على أنّ تؤدي إليك كل عام ألفى حلة : ألف في صفر ، وألف في رجب ، وثلاثين درعا عادية من حديد . فصالحهم على ذلك «1» وقال : «والذي نفسي بيده ، إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً ، ولاستأصل اللَّه نجران وأهله حتى الطير على رؤس الشجر ، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا» وعن عائشة رضى اللَّه عنها أنّ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم خرج وعليه مرط مرجل من شعر أسود ، فجاء الحسن فأدخله ، ثم جاء الحسين فأدخله ، ثم فاطمة ، ثم على ، ثم قال : «2» (إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ) فإن قلت . ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا ليتبين الكاذب منه ومن خصمه وذلك أمر يختص به وبمن يكاذبه ، فما معنى ضم الأبناء والنساء ؟ قلت : ذلك آكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه ، حيث استجرأ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده «3» وأحب الناس إليه لذلك ولم يقتصر على تعريض نفسه له ، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة . وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب ، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل . ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الظعائن في الحروب لتمنعهم من الهرب ، ويسمون الذادة عنها بأرواحهم حماة الحقائق . وقدمهم

---

(1) . أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة ، من طريق محمد بن مروان السدى عن الكلبي عن

أبى صالح عن ابن عباس بطوله وابن مروان متروك متهم بالكذب ثم أخرج أبو نعيم نحوه عن الشعبي مرسلا ، وفيه «فان أبيتم المباهلة فأسلموا ولكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم ، فان أبيتم فأعطونا الجزية ، كما قال اللّه تعالى . قالوا : ما نملك إلا أنفسنا قال : فان أبيتم فانى أنبذ إليكم على سواء ، فقالوا : لا طاقة لنا بحرب العرب ، ولكن نؤدي الجزية ، فجعل عليهم في كل سنة ألفى حلة : ألفاً في صفر ، وألفاً في رجب ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : لقد أتانى البشير بهلكة أهل نجران لو تموا على الملاعنة» رواه الطبري من طريق أبى إسحاق ، حدثني محمد بن جعفر بن الزبير في قوله : (إِنَّ هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ) فذكره مرسلا ، وفي سنن أبى داود من حديث ابن عباس «صالح النبي صلى اللّه عليه وسلم أهل نجران على ألفى حلة النصف في صفر ، والبقية في رجب يؤدونه إلى المسلمين ، وعارية ثلاثين درعا وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً ، وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم» وهو طرف من هذه القصة .

(2) . أخرجه مسلم من طريق صفية بنت شيبة عنها . وغفل الحاكم فاستدركه .

(3) . قوله «وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه» في الصحاح : الفلذ : كبد البعير . والجمع : أفلاذ . والفلذة : القطعة من الكبد واللحم والمال وغيرها ، والجمع فلذ اه ، فتدبر . (ع)

في الذكر على الأنفس لينبه على لطف مكانهم وقرب منزلتهم، وليؤذن بأنهم مقدمون على الأنفس مفدون بها. وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام. وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي صلى اللَّه عليه وسلم لأنه لم يرو أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك.

[سورة آل عمران (3): الآيات 62 إلى 63]

إِنَّ هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (62) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (63)

إِنَّ هذا الذي قص عليك من نبأ عيسى لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ قرئ بتحريك الهاء على الأصل وبالسكون، لأن اللام تنزل من (هو) منزلة بعضه، فخفف كما خفف عضد. وهو إما فصل بين اسم إن وخبرها، وإما مبتدأ والقصص الحق خبره، والجملة خبر إن. فإن قلت: لم جاز دخول اللام على الفصل؟ قلت: إذا جاز دخولها على الخبر كان دخولها على الفصل أجوز، لأنه أقرب إلى المبتدإ منه، وأصلها أن تدخل على المبتدإ. و«من» في قوله وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ بمنزلة البناء على الفتح في: (إله إلا اللَّه) في إفادة معنى الاستغراق، والمراد والردّ على النصارى في تثليثهم فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ وعيد لهم بالعذاب

المذكور في قوله: {زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ} . انتهى انتهى . ا هـ

﴿الكشاف حـ 1 صـ 365 . 370﴾

(19/121)

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

1 - [فلما أحس] قال ابو حيان : فيها استعارة اذ الكفر ليس بمحسوس ، وانما يعلم ويفطن به ، فاطلاق الحس عليه من نوع الاستعارة .

2 - [والله خير الماكرين] بين لفظ مكروا والماكرين جناس الاشتقاق وهو من باب المشاكلة .

3 - [فيوفيهم اجورهم] فيه التفات من ضمير التكلم الى ضمير الغيبة ، وهو ضرب من ضروب الفصاحة .

4 - [الحق من ربك] التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى الرسول لتشريفه عليه الصلاة والسلام .

5 - [فلا تكن من الممترين] هو من باب (الإلهاب والتهييج) لزيادة التثبيت أفاده أبو السعود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 207 ﴾

(20/121)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

وقوله : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ يجوز أن يكون مضارعاً - حُذِفَتْ منه إحدى التاءَين ، تخفيفاً - على حَدّ قراءة : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة ﴾ [القدر : 4] و ﴿ تَذَكَّرُون ﴾ [الأنعام : 152] - ويؤيد هذا نسق الكلام ، ونظمُه في خطاب من تقدم في قوله : ﴿ تَعَالَوْا ﴾ ثم جرى معهم في الخطاب إلى أن قال لهم : فَإن تولّوا .

قال ابو البقاء : " ويجوز أن يكون مستقبلاً ، تقديره : تتولوا - ذكره النَّحَّاسُ - وهو ضعيفٌ ؛ لأن حَرْفَ الْمُضَارِعِ لا يُحْذَفَ " .

قال شهاب الدين : " وهذا ليس بشيء ؛ لأن حرف المضارعة يُحْذَف - في هذا النحو - من غير خِلافٍ . وسيأتي من ذلك طائفة كثيرة " .

وقد أجمعوا على الحذف في قوله : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ [القدر : 4] .

ويجوز أن يكون ماضياً ، أي : فإن تَوَلَّى وَفْدُ نجرانَ المطلوب مباهلتهم ، ويكون – على ذلك – في الكلام التفات ؛ إذْ فيه انتقال من خطابٍ إلى غيبةٍ .

قوله : ﴿ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ من وقوع الظاهر موقعَ المُضْمَرِ ، تنبيهاً على العلة المقتضية للجزاءِ ، وكان الأصل : فإن الله عليم بكم – على الأول – وبهم – على الثاني . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 193.194 ﴾

فصل

قال الفخر

والمعنى : فإن تولوا عما وصفت من أن الله هو الواحد ، وأنه يجب أن يكون عزيزاً غالباً قادراً على جميع المقدورات ، حكيماً عالماً بالعواقب والنهايات مع أن عيسى عليه السلام ما كان عزيزاً غالباً ، وما كان حكيماً عالماً بالعواقب والنهايات .

فاعلم أن توليهم وإعراضهم ليس إلا على سبيل العناد فاقطع كلامك عنهم وفوض أمرهم إلى الله ، فإن الله عليم بفساد المفسدين ، مطلع على ما في قلوبهم من الأغراض الفاسدة ، قادر على مجازاتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 75 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أي أعرضوا عن اتباعك وتصديقك بعد هذه الآيات البينات ، وهذا على تقدير أن يكون الفعل ماضياً ، ويحتمل أن يكون مضارعاً وحذفت منه إحدى التاءين تخفيفاً ، وأصله تتولوا ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بالمفسدين ﴾ أي بهم أو بكم ، والجملة جواب الشرط في الظاهر لكن المعنى على ما يترتب على علمه ﴿ بالمفسدين ﴾ من معاقبته لهم ، فالكلام للوعيد ووضع الظاهر موضع الضمير تنبيهاً على العلة المقتضية للجزاء والعقاب وهي الإفساد ، وقيل : المعنى على أن الله عليم بهؤلاء المجادلين بغير حق وبأنهم لا يقدمون على مباهلتك لمعرفتهم نبوتك وثبوت رسالتك ، والجملة على هذا أيضاً عند التحقيق قائمة مقام الجواب إلى أنه ليس الجزاء والعقاب ، والكلام منساق لتسليته صلى الله عليه وسلم ولا يخفى ما فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 191 ﴾

وقال أبو حيان :

والمعنى : ما يترتب على علمه بالمفسدين من معاقبته لهم ، فعبر عن العقاب بالعلم الذي ينشأ عنه عقابهم ، ونبه على العلة التي توجب العقاب ، وهي الإفساد ، ولذلك أتى بالاسم الظاهر دون الضمير ، وأتى به جمعاً ليدل على العموم الشامل لهؤلاء الذين تولوا ولغيرهم ، ولكونه رأس آية ، ودل على أن توليهم إفساد أي إفساد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 505.506 ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فإن تولوا ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : عن الملاعنة ، قاله مقاتل .

والثاني : أنه عن البيان الذي أتى به النبي صلى الله عليه وسلم ، قاله الزجاج.

والثالث : عن الإقرار بوحدانية الله ، وتنزيهه عن الصاحبة والولد ، قاله أبو سليمان الدمشقي ، وفي الفساد هاهنا قولان .

أحدهما : أنه العمل بالمعاصي ، قاله مقاتل .

والثاني : الكفر ، ذكره الدمشقي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 400 ﴾

(22/121)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : انْتَقَلَ مِنَ الْبِشَارَةِ بِعِيسَى إِلَى ذِكْرِ خَبَرِهِ مَعَ قَوْمِهِ وَطَوَى مَا بَيْنَهُمَا مِنْ خَبَرِ وِلَادَتِهِ وَنَشْأَتِهِ وَبَعْثَتِهِ مُؤَيَّدًا بِتِلْكَ الْآيَاتِ ، وَهَذَا مِنْ إِيجَازِ الْقُرْآنِ الَّذِي انْفَرَدَ بِهِ ، فَقَدِ

انْطَوَى تَحْتَ قَوْلِهِ : فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ جَمِيعُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْبِشَارَةُ وَعُلِمَ أَنَّهُ وُلِدَ وَبُعِثَ وَدَعَا وَأَيَّدَ دَعْوَتَهُ كَمَا سَبَقَتِ الْبِشَارَةُ ، فَأَحَسَّ وَشَعَرَ مِنْ قَوْمِهِ – وَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ – الْكُفْرَ وَالْعِنَادَ وَالْمُقَاوَمَةَ وَالْقَصْدَ بِالْإِيذَاءِ ، وَفِي هَذَا مِنَ الْعِبْرَةِ وَالتَّسْلِيَةِ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَا فِيهِ ، وَإِنَّ أَكْبَرَ مَا فِيهِ الْإِعْلَامُ بِأَنَّ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةَ وَإِنْ كَثُرَتْ وَعَظُمَتْ لَيْسَتْ مُلْزِمَةً بِالْإِيمَانِ وَلَا مُفْضِيَةً إِلَيْهِ حَتْمًا ، وَإِنَّمَا يَكُونُ الْإِيمَانُ بِاسْتِعْدَادِ الْمَدْعُوِّ إِلَيْهِ وَحُسْنِ بَيَانِ الدَّاعِي ; وَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ أَمْرِ عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – أَنَّهُ لَمَّا أَحَسَّ مِنْ قَوْمِهِ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ أَيْ تَوَجَّهَ إِلَى الْبَحْثِ عَنْ أَهْلِ الِاسْتِعْدَادِ الَّذِينَ يَنْصُرُونَهُ فِي دَعْوَتِهِ تَارِكِينَ

(23/121)

لِأَجْلِهَا كُلَّ مَا يُشْغِلُ عَنْهَا مُنْخَلِعِينَ عَمَّا كَانُوا فِيهِ مُتَحَيِّزِينَ وَمُنْزَوِينَ إِلَى اللهِ مُنْصَرِفِينَ إِلَى تَأْيِيدِ رَسُولِهِ وَنَصْرِهِ عَلَى خَاذِلِيهِ وَالْكَافِرِينَ بِمَا جَاءَ بِهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ أَيْ أَنْصَارُ دِينِهِ ، وَهَذَا الْقَوْلُ يُفِيدُ الِانْخِلَاعَ وَالِانْفِصَالَ مِنَ التَّقَالِيدِ السَّابِقَةِ وَالْأَخْذَ بِالتَّعْلِيمِ الْجَدِيدِ ، وَبَذْلَ مُنْتَهَى الِاسْتِطَاعَةِ فِي تَأْيِيدِهِ ; فَإِنَّ نَصْرَ اللهِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِذَلِكَ وَالْحَوَارِيُّونَ : أَنْصَارُ الْمَسِيحِ ، وَالنَّصْرُ لَا يَسْتَلْزِمُ الْقِتَالَ ، فَالْعَمَلُ بِالدِّينِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ نَصْرٌ لَهُ . قَالَ

الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: وَلَا تَتَكَلَّمُ فِي عَدَدِهِمْ لِأَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يُعَيِّنْهُ. أَقُولُ: وَلَعَلَّ لَفْظَ "الْحَوَارِيِّ" مَأْخُوذٌ مِنَ "الْحُوَّارَى" وَهُوَ لُبَابُ الدَّقِيقِ وَخَالِصُهُ; لِأَنَّهُ مِنْ خِيَارِ الْقَوْمِ وَصَفْوَتِهِمْ، أَوْ مِنَ "الْحَوَرِ" وَهُوَ الْبَيَاضُ، وَفِي حَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ وَحَوَارِيِّي الزُّبَيْرُ وَمِنْ هُنَا قِيلَ خَاصٌّ بِأَنْصَارِ الْأَنْبِيَاءِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ مُخْلِصُونَ لَهُ مُنْقَادُونَ لِأَمْرِهِ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِسْلَامَ دِينُ اللهِ عَلَى لِسَانِ كُلِّ نَبِيٍّ وَإِنِ اخْتَلَفُوا فِي بَعْضِ صُوَرِهِ وَأَشْكَالِهِ وَأَحْكَامِهِ وَأَعْمَالِهِ.

(24/121)

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ فِي الْآيَةِ أَنَّ (أَحَسَّ) يُسْتَعْمَلُ فِي إِدْرَاكِ الْحِسِّيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ، فَفِي حَقِيقَةِ الْأَسَاسِ أَحْسَسْتُ مِنْهُ مَكْرًا، وَأَحْسَسْتُ مِنْهُ بِمَكْرٍ، وَمَا أَحْسَسْنَا مِنْهُ خَبَرًا، وَهَلْ تُحِسُّ مِنْ فُلَانٍ بِخَبَرٍ؟ وَالْمَكْرُ مِنَ الْأُمُورِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَإِنْ كَانَ يُسْتَنْبَطُ مِنَ الْأَعْمَالِ الْحِسِّيَّةِ وَيُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ بِهَا. وَقَالَ الْبَيْضَاوِيُّ فِي الْآيَةِ: "تَحَقَّقَ كُفْرُهُمْ عِنْدَهُ تَحَقُّقَ مَا يُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ" وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ مَعْنَى أَحَسَّ الشَّيْءَ أَدْرَكَهُ بِإِحْدَى حَوَاسِّهِ، وَأَنَّ إِطْلَاقَهُ عَلَى إِدْرَاكِ الْأُمُورِ الْمَعْنَوِيَّةِ مَجَازٌ شُبِّهَ فِيهِ الْمَعْقُولُ بِالْمَحْسُوسِ فِي الْجَلَاءِ وَالْوُصُولِ إِلَى دَرَجَةِ الْيَقِينِ، عَلَى أَنَّ الْكُفْرَ يُعْرَفُ بِالْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْمَحْسُوسَةِ.

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنَّ الْجَارَّ فِي إِلَى اللهِ مُتَعَلِّقٌ بِلَفْظِ أَنْصَارِي وَإِنْ لَمْ يُعْرَفْ أَنَّ مَادَّةَ نَصَرَ تُعَدَّى بِـ " إِلَى " ، ذَلِكَ بِأَنَّ مَجْمُوعَ الْكَلَامِ هُنَا قَدْ أَشْرَبَ الْكَلِمَةَ مَعْنَى اللُّجْأِ وَالِانْضِمَامِ لِأَنَّ النَّصْرَ يَحْصُلُ بِذَلِكَ ، وَيَصِحُّ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِوَصْفٍ يُفِيدُ هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ الْأُسْلُوبُ كَمَا قَدَّرْنَا فِي بَيَانِ الْعِبَارَةِ ، وَهُوَ الَّذِي جَرَى عَلَيْهِ الْمُفَسِّرُونَ مُحَافَظَةً عَلَى الْقَوَاعِدِ الْمَوْضُوعَةِ .

(25/121)

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِمْ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ إِلَخْ أَيْ صَدَّقْنَا بِمَا أَنْزَلْتَ مِنَ الْإِنْجِيلِ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ، قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : ذَكَرَ الِاتِّبَاعَ بَعْدَ الْإِيمَانِ ; لِأَنَّ الْعِلْمَ الصَّحِيحَ يَسْتَلْزِمُ الْعَمَلَ ، وَالْعِلْمُ الَّذِي لَا أَثَرَ لَهُ فِي الْعَمَلِ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ مُجْمَلًا وَنَاقِصًا لَا يَقِينًا وَإِيمَانًا ، وَكَثِيرًا مَا يَظُنُّ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ عَالِمٌ بِشَيْءٍ حَتَّى إِذَا حَاوَلَ الْعَمَلَ بِهِ لَمْ يُحْسِنْهُ فَيَتَبَيَّنُ لَهُ أَنَّهُ كَانَ مُخْطِئًا فِي دَعْوَى الْعِلْمِ . ثُمَّ قَالَ : إِنَّ الْعِلْمَ بِالشَّيْءِ يَظَلُّ مُجْمَلًا مُبْهَمًا فِي النَّفْسِ حَتَّى يَعْمَلَ بِهِ صَاحِبُهُ فَيَكُونُ بِالْعَمَلِ تَفْصِيلِيًّا ، فَذِكْرُ الْحَوَارِيِّينَ الْأَتْبَاعَ بَعْدَ الْإِيمَانِ يُفِيدُ أَنَّ إِيمَانَهُمْ كَانَ فِي مَرْتَبَةِ الْيَقِينِ التَّفْصِيلِيِّ الْحَاكِمِ عَلَى النَّفْسِ الْمُصَرِّفِ لَهَا فِي الْعَمَلِ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ لِلرَّسُولِ بِتَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ ، وَعَلَى قَوْمِهِ بِمَا

كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْجُحُودِ ، فَحَذَفَ مَعْمُولَ الشَّاهِدِينَ لِيَعُمَّ الْمَشْهُودَ لَهُ وَالْمَشْهُودَ عَلَيْهِمْ .

(26/121)

أَوْ يُقَالُ : الشَّاهِدِينَ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ أَيْ حَالَةِ الرَّسُولِ مَعَ قَوْمِهِ ، وَهُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ . قَالَ : وَمِنَ الْمَعْرُوفِ فِي الْفِقْهِ أَنَّ الشَّاهِدَيْنِ بِمَنْزِلَةِ الْحَاكِمِ ؛ لِأَنَّ الْفَصْلَ بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ يَكُونُ بِشَهَادَتِهِمَا ، وَلَا تَصِحُّ الشَّهَادَةُ إِلَّا مِنَ الْعَارِفِ بِالْمَشْهُودِ بِهِ مَعْرِفَةً صَحِيحَةً ، وَقَدْ كَانَ الْحَوَارِيُّونَ كَذَلِكَ كَمَا عُلِمَ مِنْ إِقْرَارِهِمْ بِالْإِيمَانِ وَالِاتِّبَاعِ .

(27/121)

وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ أَيْ وَمَكَرَ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ بِهِ ، فَحَاوَلُوا قَتْلَهُ وَأَبْطَلَ اللَّهُ مَكْرَهُمْ فَلَمْ يَنْجَحُوا فِيهِ ، وَعَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِالْمَكْرِ عَلَى طَرِيقِ الْمُشَاكَلَةِ ، كَذَا قَالَ الْجُمْهُورُ ، وَأَقَرَّهُمُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ . وَلَكِنْ وَرَدَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ إِضَافَةُ الْمَكْرِ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى - مِنْ غَيْرِ مُقَابَلَةٍ بِمَكْرِ النَّاسِ . قَالَ : أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ

الْخَاسِرُونَ[7 : 99] وَالْمَكْرُ فِي الْأَصْلِ: التَّدْبِيرُ الْخَفِيُّ الْمُفْضِي بِالْمَمْكُورِ بِهِ إِلَى مَا لَا يَحْتَسِبُ، وَلَمَّا كَانَ الْغَالِبُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي السُّوءِ لِأَنَّ مَنْ يُدَبِّرُ لِلْإِنْسَانِ مَا يَسُرُّهُ وَيَنْفَعُهُ لَا يَكَادُ يَحْتَاجُ إِلَى إِخْفَاءِ تَدْبِيرِهِ، غَلَبَ اسْتِعْمَالُ الْمَكْرِ فِي التَّدْبِيرِ السَّيِّئِ وَإِنْ كَانَ فِي الْمَكْرِ الْحَسَنِ وَالسَّيِّئِ جَمِيعًا قَالَ – تَعَالَى –: اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ[35 : 43] وَوَجْهُ الْحَاجَةِ إِلَى الْمَكْرِ الْحَسَنِ أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ إِذَا عَلِمَ بِمَا يُدَبَّرُ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ أَفْسَدَ عَلَى الْفَاعِلِ تَدْبِيرَهُ لِجَهْلِهِ فَيَحْتَاجُ مُرَبِّيهِ أَوْ مُتَوَلِّي شُئُونِهِ إِلَى أَنْ يَحْتَالَ عَلَيْهِ وَيَمْكُرَ بِهِ لِيُوصِلَهُ إِلَى مَا لَا يَصِحُّ أَنْ يَعْرِفَهُ قَبْلَ الْوُصُولِ; إِذْ يُوجَدُ فِي الْمَاكِرِينَ الْأَشْرَارِ وَالْأَخْيَارِ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ فَإِنَّ تَدْبِيرَهُ الَّذِي يَخْفَى عَلَى عِبَادِهِ إِنَّمَا يَكُونُ لِإِقَامَةِ سُنَنِهِ وَإِتْمَامِ

(28/121)

حُكْمِهِ، وَكُلُّهَا خَيْرٌ فِي نَفْسِهَا وَإِنْ قَصَّرَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي الِاسْتِفَادَةِ مِنْهَا بِجَهْلِهِمْ وَسُوءِ اخْتِيَارِهِمْ.

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ فِي تَفْسِيرِ: خَيْرُ الْمَاكِرِينَ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْمَكْرَ فِي نَفْسِهِ شَرٌّ: أَيْ إِنْ كَانَ فِي

الْخَيْرِ

مَكْرٌ ، فَمَكْرُهُ - سُبْحَانَهُ - وَتَعَالَى مُوجَّهٌ إِلَى الْخَيْرِ وَمَكْرُهُمْ هُوَ الْمُوجَّهُ إِلَى الشَّرِّ .

(29/121)

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَيْ مَكْرُ اللَّهِ بِهِمْ ; إِذْ قَالَ لِنَبِيِّهِ : إِنِّي مُتَوَفِّيكَ إِلَخْ ، فَإِنَّ هَذِهِ بِشَارَةٌ بِإِنْجَائِهِ مِنْ مَكْرِهِمْ وَجَعْلِ كَيْدِهِمْ فِي نَحْرِهِمْ قَدْ تَحَقَّقَتْ ، وَلَمْ يَنَالُوا مِنْهُ مَا كَانُوا يُرِيدُونَ بِالْمَكْرِ وَالْحِيلَةِ ، وَالتَّوَفِّي فِي اللُّغَةِ : أَخْذُ الشَّيْءِ وَافِيًا تَامًّا ، وَمِنْ ثَمَّ اسْتُعْمِلَ بِمَعْنَى الْإِمَاتَةِ قَالَ - تَعَالَى - : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا [39 : 42] وَقَالَ : قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ [32 : 11] فَالْمُتَبَادِرُ مِنَ الْآيَةِ : إِنِّي مُمِيتُكَ وَجَاعِلُكَ بَعْدَ الْمَوْتِ فِي مَكَانٍ رَفِيعٍ عِنْدِي ، كَمَا قَالَ فِي إِدْرِيسَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا [19 : 57] وَاللَّهُ - تَعَالَى - يُضِيفُ إِلَيْهِ مَا يَكُونُ فِيهِ الْأَبْرَارُ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ قَبْلَ الْبَعْثِ وَبَعْدَهُ كَمَا قَالَ فِي الشُّهَدَاءِ : أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ [3 : 169] وَقَالَ : إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ [54 : 54 ، 55] وَأَمَّا تَطْهِيرُهُ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُوَ : إِنْجَاؤُهُ مِمَّا كَانُوا يَرْمُونَهُ بِهِ أَوْ يَرُومُونَهُ مِنْهُ وَيُرِيدُونَهُ بِهِ مِنَ الشَّرِّ . هَذَا مَا يَفْهَمُهُ الْقَارِئُ الْخَالِي الذِّهْنِ مِنَ الرِّوَايَاتِ وَالْأَقْوَالِ ; لِأَنَّهُ هُوَ الْمُتَبَادِرُ

مِنَ الْعِبَارَةِ وَقَدْ أَيَّدْنَاهُ بِالشَّوَاهِدِ مِنَ الْآيَاتِ ، وَلَكِنَّ الْمُفَسِّرِينَ قَدْ حَوَّلُوا الْكَلَامَ عَنْ ظَاهِرِهِ لِيَنْطَبِقَ عَلَى مَا أَعْطَتْهُمُ

(30/121)

الرِّوَايَاتُ مِنْ كَوْنِ عِيسَى رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ بِجَسَدِهِ ، وَهَاكَ مَا قَالَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي ذَلِكَ : يَقُولُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : إِنِّي مُتَوَفِّيكَ أَيْ مُنَوِّمُكَ ، وَبَعْضُهُمْ : إِنِّي قَابِضُكَ مِنَ الْأَرْضِ بِرُوحِكَ وَجَسَدِكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ بَيَانٌ لِهَذَا التَّوَفِّي ، وَبَعْضُهُمْ : إِنِّي أُنَجِّيكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُعْتَدِينَ ، فَلَا يَتَمَكَّنُونَ مِنْ قَتْلِكَ ، وَأُمِيتُكَ حَتْفَ أَنْفِكَ ثُمَّ أَرْفَعُكَ إِلَيَّ ، وَنَسَبَ هَذَا الْقَوْلَ إِلَى الْجُمْهُورِ وَقَالَ : لِلْعُلَمَاءِ هَاهُنَا طَرِيقَتَانِ إِحْدَاهُمَا – وَهِيَ الْمَشْهُورَةُ – أَنَّهُ رُفِعَ حَيًّا بِجِسْمِهِ وَرُوحِهِ ، وَأَنَّهُ سَيَنْزِلُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ فَيَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ بِشَرِيعَتِنَا ثُمَّ يَتَوَفَّاهُ اللهُ تَعَالَى .

وَلَهُمْ فِي حَيَاتِهِ الثَّانِيَةِ عَلَى الْأَرْضِ كَلَامٌ طَوِيلٌ مَعْرُوفٌ ، وَأَجَابَ هَؤُلَاءِ عَمَّا يَرِدُ عَلَيْهِمْ مِنْ مُخَالَفَةِ الْقُرْآنِ فِي تَقْدِيمِ الرَّفْعِ عَلَى التَّوَفِّي بِأَنَّ الْوَاوَ لَا تُفِيدُ تَرْتِيبًا . أَقُولُ : وَفَاتَهُمْ أَنَّ مُخَالَفَةَ التَّرْتِيبِ فِي الذِّكْرِ لِلتَّرْتِيبِ فِي الْوُجُودِ لَا يَأْتِي فِي الْكَلَامِ الْبَلِيغِ إِلَّا لِنُكْتَةٍ ، وَلَا نُكْتَةَ هُنَا لِتَقْدِيمِ التَّوَفِّي عَلَى الرَّفْعِ ; إِذِ الرَّفْعُ هُوَ الْأَهَمُّ

لِمَا فِيهِ مِنَ الْبِشَارَةِ بِالنَّجَاةِ وَرِفْعَةِ الْمَكَانَةِ .

(قَالَ) : وَالطَّرِيقَةُ الثَّانِيَةُ أَنَّ الْآيَةَ عَلَى ظَاهِرِهَا ، وَأَنَّ التَّوَفِّيَ عَلَى مَعْنَاهُ الظَّاهِرِ الْمُتَبَادِرِ وَهُوَ الْإِمَاتَةُ الْعَادِيَّةُ ، وَأَنَّ الرَّفْعَ يَكُونُ بَعْدَهُ وَهُوَ رَفْعُ الرُّوحِ ، وَلَا بِدْعَ فِي إِطْلَاقِ الْخِطَابِ عَلَى شَخْصٍ وَإِرَادَةِ رُوحِهِ ، فَإِنَّ الرُّوحَ هِيَ حَقِيقَةُ الْإِنْسَانِ ، وَالْجَسَدُ كَالثَّوْبِ الْمُسْتَعَارِ فَإِنَّهُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ وَيَتَغَيَّرُ ، وَالْإِنْسَانُ إِنْسَانٌ لِأَنَّ رُوحَهُ هِيَ هِيَ . (قَالَ) : وَلِصَاحِبِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي حَدِيثِ الرَّفْعِ وَالنُّزُولِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ تَخْرِيجَانِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ حَدِيثُ آحَادٍ مُتَعَلِّقٌ بِأَمْرٍ اعْتِقَادِيٍّ لِأَنَّهُ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ ، وَالْأُمُورُ الِاعْتِقَادِيَّةُ لَا يُؤْخَذُ فِيهَا إِلَّا بِالْقَطْعِيِّ ; لِأَنَّ الْمَطْلُوبَ فِيهَا هُوَ الْيَقِينُ ، وَلَيْسَ فِي الْبَابِ حَدِيثٌ مُتَوَاتِرٌ .

وَثَانِيهِمَا : تَأْوِيلُ نُزُولِهِ وَحُكْمِهِ فِي الْأَرْضِ بِغَلَبَةِ رُوحِهِ وَسِرِّ رِسَالَتِهِ عَلَى النَّاسِ ، وَهُوَ مَا غَلَبَ فِي تَعْلِيمِهِ مِنَ الْأَمْرِ بِالرَّحْمَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالسِّلْمِ وَالْأَخْذِ بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ دُونَ الْوُقُوفِ عِنْدَ ظَوَاهِرِهَا وَالتَّمَسُّكِ بِقُشُورِهَا دُونَ لُبَابِهَا ، وَهُوَ حِكْمَتُهَا وَمَا شُرِعَتْ لِأَجْلِهِ ;

فَالْمَسِيحُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمْ يَأْتِ لِلْيَهُودِ بِشَرِيعَةٍ جَدِيدَةٍ ، وَلَكِنَّهُ جَاءَهُمْ بِمَا يُزَحْزِحُهُمْ عَنِ الْجُمُودِ عَلَى ظَوَاهِرِ أَلْفَاظِ شَرِيعَةِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَيُوقِفُهُمْ عَلَى فِقْهِهَا وَالْمُرَادِ مِنْهَا ، وَيَأْمُرُهُمْ بِمُرَاعَاتِهِ وَبِمَا يَجْذِبُهُمْ إِلَى عَالَمِ الْأَرْوَاحِ بِتَحَرِّي كَمَالِ الْآدَابِ ، أَيْ وَلَمَّا كَانَ أَصْحَابُ الشَّرِيعَةِ الْأَخِيرَةِ قَدْ جَمَدُوا عَلَى ظَوَاهِرِ أَلْفَاظِهَا بَلْ وَأَلْفَاظٍ مَنْ كَتَبَ فِيهَا مُعَبِّرًا عَنْ رَأْيِهِ وَفَهْمِهِ ، وَكَانَ ذَلِكَ مُزْهِقًا لِرُوحِهَا ذَاهِبًا بِحِكْمَتِهَا كَانَ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ إِصْلَاحٍ عِيسَوِيٍّ يُبَيِّنُ لَهُمْ أَسْرَارَ الشَّرِيعَةِ وَرُوحَ الدِّينِ وَأَدَبَهُ الْحَقِيقِيَّ ، وَكُلُّ ذَلِكَ مَطْوِيٌّ فِي الْقُرْآنِ الَّذِي حُجِبُوا عَنْهُ بِالتَّقْلِيدِ الَّذِي هُوَ آفَةُ الْحَقِّ وَعَدُوُّ الدِّينِ فِي كُلِّ زَمَانٍ . فَزَمَانُ عِيسَى عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ هُوَ الزَّمَانُ الَّذِي يَأْخُذُ النَّاسُ فِيهِ بِرُوحِ الدِّينِ وَالشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لِإِصْلَاحِ السَّرَائِرِ مِنْ غَيْرِ تَقَيُّدٍ بِالرُّسُومِ وَالظَّوَاهِرِ .

(33/121)

هَذَا مَا قَالَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي الدَّرْسِ مَعَ بَسْطٍ وَإِيضَاحٍ ، وَلَكِنَّ ظَوَاهِرَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ تَأْبَاهُ ، وَلِأَهْلِ هَذَا التَّأْوِيلِ أَنْ يَقُولُوا : إِنَّ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ قَدْ نُقِلَتْ بِالْمَعْنَى كَأَكْثَرِ الْأَحَادِيثِ ، وَالنَّاقِلُ لِلْمَعْنَى يَنْقُلُ مَا فَهِمَهُ ، وَسُئِلَ عَنِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ وَقَتْلِ عِيسَى لَهُ فَقَالَ : إِنَّ الدَّجَّالَ رَمْزٌ لِلْخُرَافَاتِ وَالدَّجَلِ وَالْقَبَائِحِ الَّتِي تَزُولُ بِتَقْرِيرِ الشَّرِيعَةِ عَلَى وَجْهِهَا

وَالْأَخْذِ بِأَسْرَارِهَا وَحِكَمِهَا . وَإِنَّ الْقُرْآنَ أَعْظَمُ هَادٍ إِلَى هَذِهِ الْحِكَمِ وَالْأَسْرَارِ ، وَسُنَّةَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُبَيِّنَةٌ لِذَلِكَ فَلَا حَاجَةَ لِلْبَشَرِ إِلَى إِصْلَاحٍ وَرَاءَ الرُّجُوعِ إِلَى ذَلِكَ ، وَسَنَعُودُ إِلَى مَبْحَثِ مَا جَرَى لِلْمَسِيحِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَعَ الْمَاكِرِينَ الَّذِينَ أَرَادُوا قَتْلَهُ وَصَلْبَهُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ النِّسَاءِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ - تَعَالَى - .

(34/121)

وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ بِالْأَخْذِ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الْهُدَى فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِكَ وَلَمْ يَهْتَدُوا بِهَدْيِكَ فَوْقِيَّةً رُوحَانِيَّةً دِينِيَّةً وَهِيَ كَوْنُهُمْ أَحْسَنَ أَخْلَاقًا وَأَكْمَلَ آدَابًا وَأَقْرَبَ إِلَى الْحَقِّ وَالْفَضْلِ ، وَأَبْعَدَ عَنِ الْبَاطِلِ وَالِاعْتِدَاءِ ، أَوْ فَوْقِيَّةً دُنْيَوِيَّةً وَهُوَ كَوْنُهُمْ يَكُونُونَ أَصْحَابَ السِّيَادَةِ عَلَيْهِمْ ، وَلَكِنَّ هَذَا الْوَجْهَ لَمْ يَتَحَقَّقْ فِي زَمَنِ الْمَسِيحِ لِأَشَدِّ النَّاسِ اتِّبَاعًا لَهُ ، بَلْ كَانُوا مَغْلُوبِينَ لِلْيَهُودِ ، فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ الْوَجْهُ الْأَوَّلُ هُوَ الْمُرَادُ وَوَجْهُهُ ظَاهِرٌ ، فَإِنَّ اتِّبَاعَ الْمَسِيحِ هُوَ عَيْنُ الْأَخْذِ بِتِلْكَ الْفَضَائِلِ وَالْمَوَاعِظِ الَّتِي جَاءَ بِهَا وَلَيْسَ عِنْدَنَا شَيْءٌ عَنِ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ فِي هَذَا . وَلَا يُشْكِلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ :

إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَإِنَّ فَوْقِيَّةَ الْفَضَائِلِ وَالْآدَابِ هِيَ الَّتِي كَانَتْ وَسَتَبْقَى كَذَلِكَ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ أَقُولُ : فِيهِ

الْتِفَاتٌ عَنِ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ ، وَبِذَلِكَ يَشْمَلُ الْمَسِيحَ وَالْمُخْتَلِفِينَ مَعَهُ وَيَشْتَمِلُ الِاخْتِلَافَ بَيْنَ أَتْبَاعِهِ وَالْكَافِرِينَ بِهِ ، وَاللهُ هُوَ الَّذِي يُبَيِّنُ لَهُمْ جَمِيعًا يَوْمَ الْحِسَابِ الْحَقَّ فِي كُلِّ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ بِمَا يُزِيلُ شُبَهَ الْمُشْتَبِهِينَ وَرِيَاءَ الْجَاحِدِينَ .

(35/121)

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ وَكَذَلِكَ عَذَّبَ اللهُ الْيَهُودَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ بِتَسْلِيطِ الْأُمَمِ عَلَيْهِمْ وَبِحُكْمِهَا فِيهِمْ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ [41 : 16] هُنَاكَ كَمَا أَنَّهُمْ لَمْ يُنْصَرُوا هُنَا وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ إِمَّا فِي الدَّارَيْنِ وَهُوَ الْغَالِبُ فِي الْأُمَمِ ، وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ فَقَطْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ بِالْخُرُوجِ عَنْ سُنَنِ الْفِطْرَةِ وَالْكُفْرِ بِالْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يُطَالِبُونَ النُّفُوسَ بِتَقْوِيمِهَا .

ذَلِكَ الَّذِي تَقَدَّمَ مِنْ خَبَرِ عِيسَى نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى نُبُوَّتِكَ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ الَّذِي يُبَيِّنُ وُجُوهَ الْعِبَرِ فِي الْأَخْبَارِ وَالْحِكَمِ فِي الْأَحْكَامِ ، فَيَهْدِي الْمُؤْمِنِينَ إِلَى لُبَابِ الدِّينِ وَفِقْهِ الشَّرِيعَةِ وَأَسْرَارِ الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ لِيَتَّعِظَ الْمُتَّعِظُونَ ، وَيَصِلَ إِلَى مَقَامِ الْحِكْمَةِ

الْعَارِفُونَ . وَلَيْسَ لَدَيْنَا عَنِ الْأُسْتَاذِ
الْإِمَامِ شَيْءٌ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ .

(36/121)

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ

(37/121)

أَقُولُ : بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ – سُبْحَانَهُ – خَلْقَ عِيسَى وَمَجِيئَهُ بِالْآيَاتِ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ قَوْمِهِ فِي الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ بِهِ ، كَشَفَ شُبْهَةَ الْمَفْتُونِينَ بِخَلْقِهِ عَلَى غَيْرِ السُّنَّةِ الْمُعْتَادَةِ وَالْمُحَاجِّينَ فِيهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَرَدَّ عَلَى الْمُنْكِرِينَ لِذَلِكَ فَقَالَ : إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ أَيْ إِنَّ شَبَهَ

عِيسَى وَصِفَتَهُ فِي خَلْقِ اللهِ إِيَّاهُ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ كَشَأْنِ آدَمَ فِي ذَلِكَ ، ثُمَّ فَسَّرَ هَذَا الْمَثَلَ بِقَوْلِهِ : خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ أَيْ قَدَّرَ أَوْضَاعَهُ وَكَوَّنَ جِسْمَهُ مِنْ تُرَابٍ مَيِّتٍ أَصَابَهُ الْمَاءُ فَكَانَ طِينًا لَازِبًا ذَا لُزُوجَةٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ أَيْ ثُمَّ كَوَّنَهُ تَكْوِينًا آخَرَ بِنَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ الْعِبَارَةِ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ الظَّاهِرُ أَنْ يَقُولَ هُنَا : (ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَكَانَ) . وَلَكِنَّهُ قَالَ : فَيَكُونُ لِتَصْوِيرِ الْحَالِ الْمَاضِيَةِ ، كَمَا يَقُولُ أَهْلُ الْمَعَانِي فِي وَضْعِ الْمُضَارِعِ مَوْضِعَ الْمَاضِي أَحْيَانًا . وَخَطَرَ لِي الْآنَ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ التَّكْوِينِ مَجْمُوعَ كُنْ فَيَكُونُ وَالْمَعْنَى : ثُمَّ قَالَ لَهُ كَلِمَةَ التَّكْوِينِ الَّتِي هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ تَوَجُّهِ الْإِرَادَةِ إِلَى الشَّيْءِ وَوُجُودِهِ بِهَا حَالًا ، وَيَظْهَرُ هَذَا فِي مِثْلِ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ [6 : 73] وَلَوْ كَانَ الْقَوْلُ لِلتَّكْلِيفِ لَمْ يَظْهَرْ هَذَا ; لِأَنَّ قَوْلَ التَّكْلِيفِ مِنْ صِفَةِ الْكَلَامِ ، وَقَوْلَ

التَّكْوِينِ مِنْ صِفَةِ الْمَشِيئَةِ ، وَلَعَلَّ مَنْ تَأَمَّلَهُ حَقَّ

التَّأَمُّلِ لَا يَجِدُ عَنْهُ مُنْصَرَفًا . وَالْعَطْفُ بِـ (ثُمَّ) لِبَيَانِ التَّكْوِينِ الْآخَرِ يُفِيدُ تَرَاخِيهِ وَتَأَخُّرَهُ عَنِ الْخَلْقِ الْأَوَّلِ ، وَهَلْ كَانَ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ عَلَى صِفَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ تَقَلَّبَ فِي أَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ كَمَا تَتَقَلَّبُ ذُرِّيَّتُهُ ؟ اقْرَأْ قَوْلَهُ - تَعَالَى - : وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا [71 : 14] وَقَوْلَهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ [23 : 12 - 16] فَالسُّلَالَةُ الْمُسْتَخْرَجَةُ مِنَ الطِّينِ : هِيَ الْمُكَوِّنُ الْأَوَّلُ الَّذِي يُعَبِّرُونَ عَنْهُ بِلِسَانِ الْعِلْمِ الْآنَ بِـ " الْبُرُوتُوبْلَازْمَا " ، وَمِنْهَا تَكَوَّنَ أَصْلُنَا فِي ذَلِكَ الطَّوْرِ ; لِأَنَّهُ - تَعَالَى - يَقُولُ : إِنَّهُ خَلَقَهُ مِنْ تِلْكَ السُّلَالَةِ ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى طَوْرِ التَّوَلُّدِ بِوَاسِطَةِ النُّطْفَةِ فِي الْقَرَارِ الْمَكِينِ وَهُوَ الرَّحِمُ ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى طَوْرِ تَحَوُّلِ النُّطْفَةِ إِلَى عَلَقَةٍ وَالْعَلَقَةِ إِلَى مُضْغَةٍ وَالْمُضْغَةِ إِلَى هَيْكَلٍ مِنَ الْعِظَامِ يُكْسَى لَحْمًا ، وَقَدْ عَدَّ هَذَا طَوْرًا وَاحِدًا ، ثُمَّ أَنْشَأَهُ خَلْقًا آخَرَ وَهُوَ الطَّوْرُ الْأَخِيرُ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ لَهُ طَوْرًا آخَرَ فِي الْمَوْتِ وَطَوْرًا آخَرَ فِي الْبَعْثِ وَهُوَ آخِرُ أَطْوَارِهِ ، فَكُلُّ

طَوْرٍ مِنَ الْأَطْوَارِ الَّتِي قَبْلَ الْمَوْتِ حَادِثٌ ، وَحُدُوثُهُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ لَمْ يَكُنْ مَسْبُوقًا بِنَظِيرٍ وَلَمْ يَكُنْ مُعْتَادًا ، وَإِنَّمَا وُجِدَ بِمَشِيئَةِ اللهِ وَتَكْوِينِهِ الْمُعَبَّرِ عَنْهُ بِقَوْلِهِ : كُنْ فَيَكُونُ فَهَلْ يَعِزُّ عَلَى صَاحِبِ هَذِهِ الْمَشِيئَةِ أَنْ يَخْلُقَ عِيسَى مِنْ غَيْرِ أَبٍ ؟ كَلَّا ، وَلَا يُعْجِزُهُ أَنْ يَبْعَثَ النَّاسَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ فِي نَشْأَةٍ أُخْرَى كَالنَّشْأَةِ الْأُولَى .

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مَا مِثَالُهُ : قُلْنَا إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ سِيقَتْ فِي مَعْرِضِ إِثْبَاتِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِبَيَانِ أَنَّ اللَّهَ – تَعَالَى – أَنْ يَصْطَفِيَ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ يَشَاءُ لِرِسَالَتِهِ ، وَأَنَّهُ مُسْتَقِلٌّ فِي أَفْعَالِهِ ، فَلَا وَجْهَ لِإِنْكَارِ اصْطِفَائِهِ مُحَمَّدًا ، وَقَدِ اصْطَفَى قَبْلَهُ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ ، ثُمَّ جَاءَ فِي السِّيَاقِ ذِكْرُ قِصَّةِ عِيسَى وَأُمِّهِ وَمَا جَاءَ بِهِ ، وَمَا كَانَ مِنْ كُفْرِ بَعْضِ قَوْمِهِ بِهِ وَرَمْيِ أُمِّهِ بِالزِّنَا ، وَإِيمَانِ بَعْضٍ ، وَهُنَاكَ قِسْمٌ ثَالِثٌ لَمْ يَكْفُرْ بِعِيسَى وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ إِيمَانًا صَحِيحًا بَلِ افْتُتِنَ بِهِ افْتِتَانًا لِكَوْنِهِ وُلِدَ مِنْ غَيْرِ أَبٍ ، وَزَعَمُوا أَنَّ مَعْنَى كَوْنِهِ وُلِدَ بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَكَوْنِهِ مِنْ رُوحِ اللهِ أَنَّ اللهَ – تَعَالَى – حَلَّ فِي أُمِّهِ ، وَأَنَّ كَلِمَةَ اللهِ تَجَسَّدَتْ فِيهِ فَصَارَ إِلَهًا وَإِنْسَانًا ، فَضَرَبَ

لِلْكَافِرِينَ وَلِلْمَفْتُونِينَ مَثَل خَلْق آدَم مِنْ تُرَابٍ ، وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، وَلَا شَكَّ أَنَّ خَلْقَ آدَمَ أَعْجَبُ مِنْ خَلْقِ عِيسَى ; لِأَنَّ هَذَا خُلِقَ مِنْ حَيَوَانٍ مِنْ نَوْعِهِ وَذَاكَ قَدْ خُلِقَ مِنَ التُّرَابِ ، وَفِي الْكَلَامِ إِرْشَادُهُ إِلَى أَنَّ أَمْرَ الْخَلِيقَةِ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَكُلُّهُ غَرِيبٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْنَا إِذَا تَفَكَّرْنَا فِي حَقِيقَتِهَا وَعِلَلِهَا ، وَلَا شَيْءَ مِنْهُ بِغَرِيبٍ عِنْدَ الْمُوجِدِ الْمُبْدِعِ ، أَمَّا الْقَوَانِينُ الْمَعْرُوفَةُ فِي عِلْمِ الْخَلِيقَةِ فَهِيَ قَدِ اسْتُخْرِجَتْ مِمَّا نَعْهَدُهُ وَنُشَاهِدُهُ ، وَلَيْسَتْ قَوَانِينَ عَقْلِيَّةً قَامَتِ الْبَرَاهِينُ عَلَى اسْتِحَالَةِ مَا عَدَاهَا ، كَيْفَ وَإِنَّنَا نَرَى فِي كُلِّ يَوْمٍ مَا يُخَالِفُهَا كَالْحَيَوَانَاتِ الَّتِي لَهَا أَعْضَاءٌ زَائِدَةٌ وَالَّتِي تُولَدُ مِنْ غَيْرِ جِنْسِهَا ، وَتَرَوْنَ ذِكْرَ ذَلِكَ فِي الْجَرَائِدِ وَيُعَبِّرُونَ عَنْهُ بِفَلَتَاتِ الطَّبِيعَةِ ، وَهُوَ إِنَّمَا خَالَفَ مَا نَعْرِفُ لَا مَا يَعْلَمُ اللَّهُ - تَعَالَى - ، وَمَا يُدْرِينَا أَنَّ لِكُلِّ هَذِهِ الشَّوَاذِّ وَالْفَلَتَاتِ سُنَنًا مُطَّرِدَةً مُحْكَمَةً لَمْ تَظْهَرْ لَنَا ، وَكَذَلِكَ شَأْنُ خَلْقِ عِيسَى ، فَكَوْنُهُ عَلَى غَيْرِ الْمَعْهُودِ لَيْسَ مَزِيَّةً تَقْتَضِي تَفْضِيلَهُ عَلَيْهِمْ ، فَكَيْفَ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ إِلَهًا ؟ وَإِذَا كَانَ عِيسَى قَدْ خُلِقَ مِنْ بَعْضِ جِنْسِهِ فَآدَمُ قَدْ خُلِقَ مِنْ غَيْرِ جِنْسِهِ ، فَهُوَ أَوْلَى بِالْمَزِيَّةِ لَوْ كَانَتْ ، وَبِالْإِنْكَارِ إِنْ صَحَّ ، عَلَى أَنَّ مَا نَعْرِفُ مِنْ أَمْرِ الْخِلْقَةِ لَيْسَ لَنَا مِنْهُ إِلَّا الظَّاهِرُ

، نَصِفُهُ وَنَقُولُ بِهِ وَإِنْ لَمْ نَعْقِلْهُ ، وَمَاذَا نَعْقِلُ مِنَ الرَّابِطَةِ بَيْنَ الْحِسِّ وَالنُّطْقِ فِي الْإِنْسَانِ مَثَلًا ؟ بَلْ مَاذَا نَعْقِلُ مِنْ أَمْرِ حَبَّةِ الْحِنْطَةِ فِي نَبْتِهَا وَاسْتِوَائِهَا عَلَى سُوقِهَا وَتَنَاسُبِ أَوْرَاقِهَا وَغَيْرِ ذَلِكَ ؟ ذَلِكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ عِيسَى وَغَيْرَهُ وَبِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ فِي أَمْرِهِ ، الْقَائِلِينَ فِيهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَقَدْ جَاءَكَ عِلْمُ الْيَقِينِ .

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا يُظْهِرُ عِلْمَكَ الْحَقَّ وَارْتِيَابَهُمُ الْبَاطِلَ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ يُقَالُ : ابْتَهَلَ الرَّجُلُ دَعَا وَتَضَرَّعَ ، وَالْقَوْمُ تَلَاعَنُوا ، وَفُسِّرَ الِابْتِهَالُ هُنَا بِقَوْلِهِ : فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ وَتُسَمَّى هَذِهِ الْآيَةُ آيَةَ الْمُبَاهَلَةِ ، وَقَدْ وَرَدَ مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ : أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دَعَا نَصَارَى نَجْرَانَ لِلْمُبَاهَلَةِ فَأَبَوْا . أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ : " أَنَّ الْعَاقِبَ وَالسَّيِّدَ أَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَرَادَ أَنْ يُلَاعِنَهُمَا ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : لَا تُلَاعِنْهُ فَوَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلَاعَنَنَا لَا نُفْلِحُ أَبَدًا وَلَا عَقِبُنَا مِنْ بَعْدِنَا . فَقَالَا لَهُ : نُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَ ،

فَابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا أَمِينًا

فَقَالَ: قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ، فَلَمَّا قَامَ قَالَ: هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ" وَأَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ فِي الدَّلَائِلِ مِنْ طَرِيقِ عَطَاءٍ وَالضَّحَّاكِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: "أَنَّ ثَمَانِيَةً مِنْ نَصَارَى نَجْرَانَ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمُ الْعَاقِبُ وَالسَّيِّدُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ - تَعَالَى -: فَقُلْ تَعَالَوْا الْآيَةَ. فَقَالُوا: أَخِّرْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَذَهَبُوا إِلَى قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ وَبَنِي قَيْنُقَاعَ فَاسْتَشَارُوهُمْ فَأَشَارُوا عَلَيْهِمْ أَنْ يُصَالِحُوهُ وَلَا يُلَاعِنُوهُ، وَقَالُوا: هُوَ النَّبِيُّ الَّذِي نَجِدُهُ فِي التَّوْرَاةِ، فَصَالَحُوا النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى أَلْفِ حُلَّةٍ فِي صَفَرٍ وَأَلْفٍ فِي رَجَبٍ وَدَرَاهِمَ" وَرُوِيَ فِي الصُّلْحِ غَيْرُ ذَلِكَ، وَمِنْهَا أَنَّهُمْ صَالَحُوهُ عَلَى الْجِزْيَةِ، وَرُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - اخْتَارَ لِلْمُبَاهَلَةِ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَوَلَدَيْهِمَا - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَالرِّضْوَانُ -، وَخَرَجَ بِهِمْ وَقَالَ: إِنْ أَنَا دَعَوْتُ فَأَمِّنُوا أَنْتُمْ وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِمَا عَنْ سَعْدٍ قَالَ: "لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فَقُلْ تَعَالَوْا دَعَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا وَقَالَ: اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي وَأَخْرَجَ ابْنُ عَسَاكِرَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا الْآيَةَ: قَالَ: "فَجَاءَ بِأَبِي بَكْرٍ وَوَلَدِهِ وَبِعُمَرَ وَوَلَدِهِ وَبِعُثْمَانَ وَوَلَدِهِ وَبِعَلِيٍّ وَوَلَدِهِ"

وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْكَلَامَ فِي جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : الرِّوَايَاتُ مُتَّفِقَةٌ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - اخْتَارَ لِلْمُبَاهَلَةِ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَوَلَدَيْهِمَا وَيَحْمِلُونَ كَلِمَةَ وَنِسَاءَنَا عَلَى فَاطِمَةَ وَكَلِمَةَ وَأَنْفُسَنَا عَلَى عَلِيٍّ فَقَطْ ، وَمَصَادِرُ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ الشِّيعَةُ وَمَقْصِدُهُمْ مِنْهَا مَعْرُوفٌ ، وَقَدِ اجْتَهَدُوا فِي تَرْوِيجِهَا مَا اسْتَطَاعُوا حَتَّى رَاجَتْ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ ، وَلَكِنَّ وَاضِعِيهَا لَمْ يُحْسِنُوا تَطْبِيقَهَا عَلَى الْآيَةِ فَإِنَّ كَلِمَةَ وَنِسَاءَنَا لَا يَقُولُهَا الْعَرَبِيُّ وَيُرِيدُ بِهَا بِنْتَهُ لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ لَهُ أَزْوَاجٌ وَلَا يُفْهَمُ هَذَا مِنْ لُغَتِهِمْ ، وَأَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يُرَادَ بِأَنْفُسِنَا عَلِيٌّ - عَلَيْهِ الرِّضْوَانُ - ، ثُمَّ إِنَّ وَفْدَ نَجْرَانَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِمْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ نِسَاؤُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ، وَكُلُّ مَا يُفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ أَمْرُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يَدْعُوَ الْمُحَاجِّينَ وَالْمُجَادِلِينَ فِي عِيسَى مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَى الِاجْتِمَاعِ رِجَالًا وَنِسَاءً وَأَطْفَالًا ، وَيَجْمَعُ هُوَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالًا وَنِسَاءً وَأَطْفَالًا ، وَيَبْتَهِلُونَ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى - بِأَنْ يَلْعَنَ الْكَاذِبَ فِيمَا يَقُولُ عَنْ عِيسَى ، وَهَذَا الطَّلَبُ يَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ يَقِينِ صَاحِبِهِ وَثِقَتِهِ بِمَا يَقُولُ ، كَمَا يَدُلُّ امْتِنَاعُ مَنْ دَعَوْا إِلَى ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ سَوَاءٌ كَانُوا نَصَارَى نَجْرَانَ أَوْ غَيْرَهُمْ عَلَى امْتِرَائِهِمْ فِي

حِجَاجِهِمْ وَمُمَارَاتِهِمْ فِيمَا يَقُولُونَ وَزِلْزَالِهِمْ فِيمَا يَعْتَقِدُونَ وَكَوْنِهِمْ عَلَى غَيْرِ بَيِّنَةٍ وَلَا يَقِينٍ ، وَأَنَّى لِمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ أَنْ يَرْضَى بِأَنْ يَجْتَمِعَ مِثْلُ هَذَا الْجَمْعِ مِنَ النَّاسِ الْمُحِقِّينَ وَالْمُبْطِلِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ مُتَوَجِّهِينَ إِلَى اللهِ - تَعَالَى - فِي طَلَبِ لَعْنِهِ وَإِبْعَادِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَأَيُّ جَرَاءَةٍ عَلَى اللهِ وَاسْتِهْزَاءٍ بِقُدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ أَقْوَى مِنْ هَذَا ؟

قَالَ : أَمَّا كَوْنُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْمُؤْمِنِينَ كَانُوا عَلَى يَقِينٍ مِمَّا يَعْتَقِدُونَ فِي عِيسَى

-

عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَحَسْبُنَا فِي بَيَانِهِ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَالْعِلْمُ فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ الِاعْتِقَادِيَّةِ لَا يُرَادُ بِهِ إِلَّا الْيَقِينُ ، وَفِي قَوْلِهِ : نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ إِلَخْ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ كُلَّ فَرِيقٍ يَدْعُو الْآخَرَ ، فَأَنْتُمْ تَدْعُونَ أَبْنَاءَنَا وَنَحْنُ نَدْعُو أَبْنَاءَكُمْ ، وَهَكَذَا الْبَاقِي .

وَثَانِيهِمَا : أَنَّ كُلَّ فَرِيقٍ يَدْعُو أَهْلَهُ ، فَنَحْنُ الْمُسْلِمِينَ نَدْعُو أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا وَأَنْفُسَنَا وَأَنْتُمْ كَذَلِكَ ، وَلَا إِشْكَالَ فِي وَجْهٍ مِنْ وَجْهَيِ التَّوْزِيعِ فِي دَعْوَةِ الْأَنْفُسِ ، وَإِنَّمَا الْإِشْكَالُ فِيهِ عَلَى قَوْلِ الشِّيعَةِ وَمَنْ شَايَعَهُمْ عَلَى الْقَوْلِ بِالتَّخْصِيصِ .

أَقُولُ : وَفِي الْآيَةِ مَا تَرَى مِنَ الْحُكْمِ بِمُشَارَكَةِ النِّسَاءِ لِلرِّجَالِ فِي الِاجْتِمَاعِ لِلْمُبَارَاةِ الْقَوْمِيَّةِ وَالْمُنَاضَلَةِ الدِّينِيَّةِ ، وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى اعْتِبَارِ الْمَرْأَةِ كَالرَّجُلِ حَتَّى فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ إِلَّا مَا اسْتُثْنِيَ مِنْهَا ، كَكَوْنِهَا لَا تُبَاشِرُ الْحَرْبَ بِنَفْسِهَا بَلْ يَكُونُ حَظُّهَا مِنَ الْجِهَادِ خِدْمَةَ الْمُحَارِبِينَ كَمُدَاوَاةِ الْجَرْحَى ، وَقَدْ عَلِمْنَا مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ الْحِكْمَةَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ هِيَ إِظْهَارُ الثِّقَةِ بِالِاعْتِقَادِ وَالْيَقِينِ فِيهِ ، فَلَوْ لَمْ يَعْلَمِ اللهُ أَنَّ الْمُؤْمِنَاتِ عَلَى يَقِينٍ فِي اعْتِقَادِهِنَّ كَالْمُؤْمِنِينَ لَمَا أَشْرَكَهُنَّ مَعَهُمْ فِي هَذَا الْحُكْمِ ، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ حَالِ نِسَائِنَا الْيَوْمَ وَمِنَ اعْتِقَادِ جُمْهُورِنَا فِيمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُنَّ عَلَيْهِ ؟ لَا عِلْمَ لَهُنَّ بِحَقَائِقِ الدِّينِ وَلَا بِمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ غَيْرِنَا مِنَ الْخِلَافِ وَالْوِفَاقِ ، وَلَا مُشَارَكَةَ لِلرِّجَالِ فِي عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ وَلَا الِاجْتِمَاعِيَّةِ ، فَهَلْ فَرَضَ الْإِسْلَامُ عَلَى نِسَاءِ الْأَغْنِيَاءِ – لَا سِيَّمَا فِي الْمُدُنِ – أَلَّا يَعْرِفْنَ غَيْرَ التَّطَرُّسِ وَالتَّطَرُّزِ وَالتَّوَرُّنِ وَعَلَى نِسَاءِ الْفُقَرَاءِ – لَا سِيَّمَا فِي الْقُرَى وَالْبَوَادِي – أَنْ يَكُنَّ كَالْأُتُنِ الْحَامِلَةِ وَالْبَقَرِ الْعَامِلَةِ ؟ وَهَلْ حَرَّمَ عَلَى هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ عِلْمَ الدُّنْيَا وَالدِّينِ ، وَالِاشْتِرَاكَ فِي شَيْءٍ مِنْ شُئُونِ الْعَالَمِينَ ؟ كَلَّا بَلْ فَسَقَ الرِّجَالُ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ، فَوَضَعُوا النِّسَاءَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ بِحُكْمِ

قوّتهم ، فصغرت نفوسهن ، وهزلت آدابهن ، وضعفت دياناتهن .

وتحفت إنسانيتهن ، وصرن كالدواجن في البيوت ، أو السوائم في الصحراء ، أو السواني على السواقي والآبار ، أو ذوات الحرث في الحقول والغيطان ، فساءت تربية البنين والبنات ، وسرى الفساد الاجتماعي من الأفراد إلى الجماعات فعم الأسر والعشائر والشعوب والقبائل ، لبث المسلمون على هذا الجهل الفاضح أحقابا ، حتى قام فيهم اليوم من يعيرهم باحتقار النساء واستبعادهن ، ويطالبونهم بتحريرهن ومشاركتهن في العلم والأدب وشؤون الحياة ، منهم من يطالب بهذا اتباعا لهدي الإسلام وما جاء به من الإصلاح ، ومنهم من يطالب به تقليدا لمدنية أوربا ، وقد استحسنت الدعوة الأولى بالقول دون العمل ، وأجيبت الدعوة الأخرى بالعمل على ذم الأكثرين لها بالقول ، فأنشأ المسلمون يعلمون بناتهم القراءة والكتابة وبعض اللغات الأوروبية والعزف بآلات اللهو وبعض أعمال اليد كالخياطة والتطريز ، ولكن هذا التعليم لا يصحبه شيء من التربية الدينية ولا من إصلاح الأخلاق والعادات بل هو من عامل الانقلاب الاجتماعي الذي تجهل عاقبته .

إِنَّ هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ فِي شَأْنِ الْمَسِيحِ ، وَمَا عداهُ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِينَ لَهُ إِنَّهُ وَلَدُ زِنًا ، وَقَوْلُ الْغَالِينَ فِيهِ : إِنَّهُ اللهُ أَوِ ابْنُ اللهِ فَبَاطِلٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، فَأَيُّ مَعْنًى تَتَصَوَّرُونَ مِنْ مَعَانِي الْأُلُوهِيَّةِ فَهُوَ لَهُ وَحْدَهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَا يُسَاوِيهِ أَحَدٌ فِي عِزَّتِهِ فِي مُلْكِهِ ، وَلَا يُسَامِيهِ مُسَامٍ فِي حِكْمَتِهِ فِي خَلْقِهِ فَيَكُونَ شَرِيكًا لَهُ فِي أُلُوهِيَّتِهِ ، أَوْ نِدًّا فِي رُبُوبِيَّتِهِ ، وَمَا الْوَلَدُ إِلَّا نُسْخَةٌ مِنَ الْوَالِدِ يُسَاوِيهِ فِي جِنْسِهِ وَنَوْعِهِ ، وَهُوَ - تَعَالَى - فَوْقَ الْأَجْنَاسِ وَالْأَنْوَاعِ وَفَوْقَ التَّصَوُّرَاتِ وَالْأَوْضَاعِ .

فَإِنْ تَوَلَّوْا وَلَمْ يُجِيبُوا الدَّعْوَةَ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ وَلَمْ يَقْبَلُوا عَقِيدَةَ التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ لِعَقَائِدِ النَّاسِ بِإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْبَاطِلِ تَقْلِيدًا مَحْضًا لَا بُرْهَانَ يُؤَيِّدُهُ وَلَا بَصِيرَةَ تَعْضُدُهُ ، وَإِفْسَادُ الْعَقَائِدِ إِفْسَادٌ لِلْعَقْلِ ، وَهُوَ رَأْسُ كُلِّ فَسَادٍ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 3 صـ 258 . 267 ﴾

(49/121)

" فصل "

قال السيوطي :

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ

فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (60) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (61) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (62) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (63)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس " أن رهطاً من أهل نجران قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان فيهم السيد والعاقب فقالوا له : ما شأنك تذكر صاحبنا ؟ قال : من هو ؟ قالوا : عيسى تزعم أنه عبد الله ! قال : أجل إنه عبد الله . قالوا : فهل رأيت مثل عيسى أو أنبئت به ؟ ثم خرجوا من عنده فجاءه جبريل فقال : قل لهم إذا أتوك ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ﴾ إلى آخر الآية " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : " ذكر لنا أن سيدي أهل نجران وأسقفيهم السيد والعاقب لقيا نبي الله فسألاه عن عيسى فقالا : كل أدمي له أب فما شأن عيسى لا أب له ؟ فأنزل الله فيه هذه الآية ﴿ إن مثل عيسى عند الله . . . ﴾ الآية " . وأخرج ابن جرير عن السدي قال " لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع به أهل نجران أتاه

منهم أربعة نفر من خيارهم ، منهم السيد ، والعاقب ، وماسرجس ، ومار بحر ، فسألوه ما تقول في عيسى ؟ قال : هو عبد الله ، وروحه ، وكلمته " ، قالوا هم : لا ، ولكنه هو الله نزل من ملكه فدخل في جوف مريم ثم خرج منها ، فأرانا قدرته وأمره ، فهل رأيت إنساناً قط خلق من غير أب ؟ فأنزل الله ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم . . . ﴾ الآية " .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة في قوله ﴿ إن مثل عيسى . . . ﴾ الآية قال : نزلت في العاقب ، والسيد ، من أهل نجران .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال " بلغنا أن نصارى نجران قدم وفدهم على النبي صلى الله عليه وسلم فيهم السيد ، والعاقب ، وهما يومئذ سيدا أهل نجران فقالوا : يا محمد فيم تشتم صاحبنا ؟ قال : من صاحبكم ؟ ! قالوا : عيسى ابن مريم تزعم أنه عبد . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجل إنه عبد الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه . فغضبوا وقالوا : إن كنت صادقاً فأرنا عبداً يحيي الموتى ، ويبرئ الأكمه ، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه ، لكنه الله . فسكت حتى أتاه جبريل فقال : يا محمد ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم . . . ﴾ [المائدة : 72] الآية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا جبريل إنهم سألوني أن أخبرهم بمثل عيسى . قال جبريل ﴿ إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ فلما أصبحوا عادا فقرأ عليهم الآيات " .

وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد عن الأزرق بن قيس قال : " جاء أسقف نجران ، والعاقب ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض عليهما الإسلام فقالا : قد كنا مسلمين قبلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبتما مع الإسلام منكما ثلاث : قولكما اتخذ الله ولداً ، وسجودكما للصليب ، وأكلكما لحم الخنزير ، قالا : فمن أبو عيسى ؟ فلم يدر ما يقول . فأنزل الله ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ﴾ إلى قوله ﴿ بالمفسدين ﴾ فلما نزلت هذه الآيات دعاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملاعنه فقالا : إنه ان كان نبياً فلا ينبغي لنا أن نلاعنه ، فأبيا فقالا : ما تعرض سوى هذا ؟ فقال : الإسلام ، أو الجزية ، أو الحرب ، فأقروا بالجزية " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ الحق من ربك فلا تكن من الممترين ﴾ يعني فلا تكن في شك من عيسى ، إنه كمثل آدم عبد الله ورسوله وكلمته .

وأخرج ابن المنذر عن الشعبي قال : " قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : حدثنا عن عيسى ابن مريم قال : رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم . قالوا : ينبغي لعيسى أن يكون فوق هذا . فأنزل الله ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم . . .

﴿ الآية . قالوا : ما ينبغي لعيسى أن يكون مثل آدم . فأنزل الله ﴿ فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم . . . ﴾ الآية " .

وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن الحرث بن جزء الزبيدي " أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ليت بيني وبين أهل نجران حجاباً فلا أراهم ولا يروني ، من شدة ما كانوا يمارون النبي صلى الله عليه وسلم " .

(52/121)

وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق سلمة بن عبد يشوع عن أبيه عن جده " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى أهل نجران قبل أن ينزل عليه " طس " سليمان . بسم الله إله إبراهيم وإسحق ويعقوب ، من محمد رسول الله إلى أسقف نجران وأهل نجران . إن أسلمتم فإني أحمد إليكم الله إله إبراهيم وإسحق ويعقوب . أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد ، فإن أبيتم فالجزية ، وإن أبيتم فقد آذنتكم بالحرب ، والسلام . فلما قرأ الأسقف الكتاب فظع به وذعر ذعراً شديداً ، فبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له شرحبيل بن وداعة ، فدفع إليه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم فقرأه فقال له الأسقف : ما رأيك . . . ؟ فقال شرحبيل : قد

علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوّة ، فما يؤمن أن يكون هذا الرجل !

ليس لي في النبوّة رأي ، لو كان رأي من أمر الدنيا أشرت عليك فيه وجهدت لك .

فبعث الأسقف إلى واحد بعد واحد من أهل نجران ، فكلهم قال مثل قول شرحبيل ، فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة ، وعبد الله بن شرحبيل ، وجبار بن فيض ، فيأتونهم بخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلق الوفد حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألهم وسألوه ، فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا له : ما تقول في عيسى ابن مريم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما عندي فيه شيء يومي هذا فأقيموا حتى أخبركم بما يقال لي في عيسى صبح الغد .

فأنزل الله هذه الآية ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ﴾ إلى قوله ﴿ فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ فأبوا أن يقروا بذلك .

(53/121)

فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم الغد بعد ما أخبرهم الخبر أقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خميلة له ، وفاطمة تمشي خلف ظهره للملاعنة ، وله يومئذ عدة نسوة فقال شرحبيل لصاحبيه : إني أرى أمراً مقبلاً ان كان هذا الرجل نبياً مرسلاً فلاعناه لا

يبقي على الأرض منا شعر ولا ظفر إلا هلك فقالا له : ما رأيك ؟ فقال : رأيي أن أحكمه فإني أرى رجلاً لا يحكم شططاً أبداً . فقالا له : أنت وذاك . فتلقى شرحبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني قد رأيت خيراً من ملاعنتك قال : وما هو ؟ قال : حكمك اليوم إلى الليل ، وليلتك إلى الصباح ، فمهما حكمت فينا فهو جائز . فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يلاعنهم وصالحهم على الجزية " .

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو نعيم في الدلائل عن حذيفة " أن العاقب ، والسيد ، أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد أن يلاعنهما فقال أحدهما لصاحبه : لا تلاعنه فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا فقالوا له : نعطيك ما سألت فابعث معنا رجلاً أميناً فقال : قم يا أبا عبيدة . فلما وقف قال : هذا أمين هذه الأمة " .

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن جابر قال " قدم على النبي صلى الله عليه وسلم العاقب ، والسيد ، فدعاهما إلى الإِسلام فقالا : أسلمنا يا محمد قال : كذبتما إن شئتما أخبرتكما بما يمنعكما من الإِسلام . قالا : فهات . قال : حب الصليب

، وشرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير ، قال جابر : فدعاهما إلى الملاعنة ، فوعداه إلى الغد ، فغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذ بيد علي ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين ، ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيباه ، وأقرا له ، فقال : والذي بعثني بالحق لو فعلا لأمطر الوادي عليهما ناراً . قال جابر : فيهم نزلت ﴿ تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم . . . ﴾ الآية . قال جابر : أنفسنا وأنفسكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي ، وأبناءنا الحسن والحسين ، ونساءنا فاطمة " .

وأخرج الحاكم وصححه عن جابر " أن وفد نجران أتوا النبي فقالوا : ما تقول في عيسى ؟ فقال : هو روح الله ، وكلمته ، وعبد الله ، ورسوله ، قالوا له : هل لك أن نلاعنك أنه ليس كذلك ؟ قال : وذاك أحب إليكم ؟ قالوا : نعم . قال : فإذا شئتم . فجاء وجمع ولده الحسن والحسين ، فقال رئيسهم : لا تلاعنوا هذا الرجل فوالله لئن لاعنتموه ليخسفن بأحد الفريقين فجاؤوا فقالوا : يا أبا القاسم إنما أراد أن يلاعنك سفهاؤنا ، وإنا نحب أن تعفينا . قال قد أعفيتكم ثم قال : إن العذاب قد أظل نجران " .

وأخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس " أن وفد نجران من النصارى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم . منهم السيد وهو الكبير ، والعاقب وهو الذي يكون بعده ، وصاحب رأيهم ، فقال رسول الله لهما : أسلما قالا : أسلمنا . قال : ما أسلمتما . قالا : بلى . قد أسلمنا قبلك . قال : كذبتما يمنعكم من الإسلام ثلاث فيكما . عبادتكما الصليب ، وأكلكما الخنزير ، وزعمكما أن لله ولداً . ونزل ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب . . . ﴾ الآية . فلما قرأها عليهم قالوا : ما نعرف ما تقول . ونزل ﴿ فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم ﴾ يقول : من جادلك في أمر عيسى من بعد ما جاءك من العلم من القرآن ﴿ فقل تعالوا ﴾ إلى قوله ﴿ ثم نبتهل ﴾ يقول : نجتهد في الدعاء أن الذي جاء به محمد هو الحق ، وإن الذي يقولون هو الباطل فقال لهم : إن الله قد أمرني إن لم تقبلوا هذا أن أباهلكم فقالوا : يا أبا القاسم بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك . فخلا بعضهم ببعض وتصادقوا فيما بينهم قال السيد للعاقب : قد والله علمتم أن الرجل نبي مرسل ، ولئن لاعنتموه إنه ليستأصلكم ، وما لاعن قوم قط نبياً فبقي كبيرهم ، ولا نبت صغيرهم . فإن أنتم لم تتبعوه وأبيتم إلا إلف دينكم فوادعوه وارجعوا إلى بلادكم . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ومعه علي ، والحسن ، والحسين ، وفاطمة ، فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : " إن أنا دعوت فأمنوا أنتم . فأبوا أن يلاعنوه وصالحوه على الجزية " ." .

(56/121)

وأخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس " أن ثمانية من أساقف العرب من أهل نجران قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم العاقب ، والسيد ، فأنزل الله ﴿ قل تعالوا ندع أبناءنا ﴾ إلى قوله ﴿ ثم نبتهل ﴾ يريد ندع الله باللعنة على الكاذب . فقالوا : أخرنا ثلاثة أيام ، فذهبوا إلى بني قريظة ، والنضير ، وبني قينقاع ، فاستشارهم . فاشاروا عليهم أن يصالحوه ولا يلاعنوه ، وهو النبي الذي نجده في التوراة . فصالحوا النبي صلى الله عليه وسلم على ألف حلة في صفر ، وألف في رجب ودراهم " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو نعيم في الدلائل عن قتادة ﴿ فمن حاجَّك فيه ﴾ في عيسى ﴿ فقل تعالوا ندع أبناءنا . . . . ﴾ الآية " فدعا النبي صلى الله عليه وسلم لذلك وفد نجران ، وهم الذين حاجوه في عيسى فنكصوا وأبوا . وذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن كان العذاب لقد نزل على أهل نجران ، ولو فعلوا لاستؤصلوا عن وجه الأرض " .

وأخرج ابن أبي شيبة وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وأبو نعيم عن الشعبي قال "كان أهل نجران أعظم قوم من النصارى قولاً في عيسى ابن مريم، فكانوا يجادلون النبي صلى الله عليه وسلم فيه. فأنزل الله هذه الآيات في سورة آل عمران ﴿ إن مثل عيسى عند الله ﴾ إلى قوله ﴿ فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ فأمر بملاعنتهم، فواعدوه لغد، فغدا النبي صلى الله عليه وسلم ومعه الحسن، والحسين، وفاطمة، فأبوا أن يلاعنوه وصالحوه على الجزية فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لقد أتاني البشير بهلكة أهل نجران حتى الطير على الشجر لو تموا على الملاعنة".

وأخرج عبد الرزاق والبخاري والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال "لو باهل أهل نجران رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً".

(57/121)

وأخرج مسلم والترمذي وابن المنذر والحاكم والبيهقي في سننه عن سعد بن أبي وقاص قال: "لما نزلت هذه الآية ﴿ فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً، وفاطمة، وحسناً، وحسيناً، فقال "اللهم هؤلاء أهلي"".

وأخرج ابن جرير عن غلباء بن أحمر اليشكري قال " لما نزلت هذه الآية ﴿ فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم . . . ﴾ الآية . أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علي ، وفاطمة ، وابنيهما الحسن ، والحسين ، ودعا اليهود ليلاعنهم فقال شاب من اليهود : ويحكم أليس عهدكم بالأمس إخوانكم الذين مسخوا قردة وخنازير ؟ لا تلاعنوا . فانتهوا " .

وأخرج ابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه في هذه الآية ﴿ تعالوا ندع أبناءنا . . . ﴾ الآية . قال : فجاء بأبي بكر وولده ، وبعمر وولده ، وبعثمان وولده ، وبعلي وولده .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق ابن جريج عن عباس ﴿ ثم نبتهل ﴾ نجتهد .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هذا الإخلاص يشير بأصبعه التي تلي الإبهام ، وهذا الدعاء فرفع يديه حذو منكبيه ، وهذا الابتهال فرفع يديه مداً " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾ يقول : إن هذا الذي قلنا في عيسى هو الحق .

وأخرج عبد بن حميد عن قيس بن سعد قال : كان بين ابن عباس وبين آخر شيء فقرأ هذه الآية ﴿ تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل ﴾ فرفع يديه واستقبل الركن ﴿ فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور جـ 2 صـ 228 . 233 ﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ ﴾ أي شاهد عيسى بواسطة النور الإلهي المشرق عليه ﴿ مِنْهُمُ الكفر ﴾ أي ظلمته ، أو نفسه فإن المعاني تظهر للكمل على صور مختلفة بخلافها فيرونها .

وحكي عن الباز قدس سره أنه قال : إن الليل والنهار يأتياني فيخبراني بما يحدث فيهما ، وعن بعض العارفين أنه يشاهد أعمال العباد كيف تصعد إلى السماء ويرى البلاء النازل منها ﴿ قَالَ مَنْ أَنصَارِى ﴾ في حال دعوتي ﴿ إِلَى الله ﴾ سبحانه بأن يلتفت إلى الاشتغال بتكميل نفسه وتهذيب أخلاقها حتى يصلح لتربية الناقصين فينصرني ويعينني في تكميل الناقص وإرشاد الضال ﴿ قَالَ الحواريون ﴾ المبيضون ثياب وجودهم بمياه العبادة ومطرقة المجاهدة وشمس المراقبة ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ الله ﴾ أي أعوان الفانين فيه الباقين به ومنهم عيسى عليه السلام ﴿ بالله فَإِذَا ﴾ الإيمان الكامل ﴿ واشهد بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : 52] أي مناقدون لأمرك حيث إنه أمر الله سبحانه ﴿ رَبَّنَا ءامَنَّا بِمَا أَنزَلَتْ

﴿ وهو ما نورت به قلوب أصفيائك من علوم غيبك ﴾ واتبعنا الرسول ﴿ فيما أظهر من أوامرك ونواهيك رجاء أن يوصلنا ذلك إلى محبتك ﴾ فاكتبنا مَعَ الشاهدين ﴿ [آل عمران : 53] أي مع من يشهدك ولا يشهد معك سواك ، أو الحاضرين لك المراقبين لأمرك ﴿ وَمَكَرُواْ ﴾ أي الذين أحس منهم الكفر واحتالوا مع أهل الله بتدبير النفس فكان مكرهم مكر الحق عليهم لأنه المزين ذلك لهم كما قال سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [الأنعام : 108] فهو الماكر في الحقيقة وهذا معنى ﴿ وَمَكَرَ اللهُ ﴾ [آل عمران : 54] عند بعض ، والأولى القول باختلاف المكرين على ما يقتضيه مقام الفرق ، وقد سئل بعضهم كيف يمكر الله ؟ فصاح وقال : لا علة لصنعه وأنشأ يقول :

فديتك قد جبلت على هواكا . . .

ونفسي لا تنازعني سواكا

(59/121)

أحبك لا ببعضي بل بكلي . . .

وإن لم يبق حبك لي حراكا

ويقبح من سواك الفعل عندي . . .

وتفعله فيحسن منك ذاكا

﴿ إِذْ قَالَ اللّهُ يا عيسى عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ عن رسم الحدوثية ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ بنعت الربوبية ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الذين كَفَرُواْ ﴾ [آل عمران : 55] بشغل سرك عن مطالعة الأغيار ، أو متوفيك عنك ، وقابضك منك ، ورافعك عن نعوت البشرية ومطهرك من إرادتك بالكلية ، وقيل : إن عيسى عليه الصلاة والسلام لما أحس منهم الكفر وعلم أنهم بعثوا من يقتله قال للحواريين : إني ذاهب إلى أبي وأبيكم السماوي أي متصل بروح القدس ومتطهر من علاقة عالم الرجس فأمدكم بالفيض كي تستجاب دعوتكم الخلق بعدي ، فشبه للقوم صورة جسدانية هي مظهر عيسى روح الله تعالى بصورة حقيقة عيسى فظنوها هو فصلبوها ولم يعلموا أن الله تعالى رفعه إلى السماء الرابعة التي هي فلك الشمس ، وحكمة رفعه إلى ذلك أن روحانيته عبارة عن إسرافيل عليه الصلاة والسلام ويشاركه المسيح في سر النفخ .

ومن قال : إنه رفع إلى السماء الدنيا بين الحكمة بأن إفاضة روحه كانت بواسطة جبريل عليه السلام وهو عبارة عن روحانية فلك القمر ، وبأن القمر في السماء الدنيا وهو آية ليلية

تناسب علم الباطن الذي أوتيه المسيح عليه السلام ، ولم يعتبر الصوفية قدس الله تعالى أسرارهم القول : بأنه يدور حول العرش لأن ذلك مقام النهاية في الكمال ، ولهذا لم يعرج إليه سوى صاحب المقام المحمود صلى الله عليه وسلم الجامع بين الظاهر والباطن ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ ءادَمَ ﴾ في أن كلا منهما خارق للعادة خارج عن دائرتها وإن افترقا في أن عيسى عليه الصلاة والسلام بلا ذكر بل من نطفة أنثى فقط كان في بعضها قوة العقد وفي البعض الآخر قوة الانعقاد كسائر النطف المركبة من منيين في أحدهما القوة العاقدة وفي الأخرى المنعقدة ، وأن آدم عليه الصلاة والسلام بلا ذكر ولا أنثى خلقه من تراب أي صوّر قالبه من ذلك ﴿ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : 59] إشارة إلى نفخ الروح فيه وكونه من عالم الأمر نظراً إلى روحه المقدسة التي لم تركض في رحم ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ ﴾ أي الحق ، أو في عيسى عليه السلام بالحجج الباطلة ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْاْ ﴾ [آل عمران : 61] الخ أي فادعه إلى المباهلة بالهيئة المذكورة .

(61/121)

قال بعض العارفين : اعلم أن لمباهلة الأنبياء عليهم السلام تأثيراً عظيماً سببه اتصال نفوسهم بروح القدس وتأييد الله تعالى إياهم به وهو المؤثر بإذن الله تعالى في العالم العنصري

فيكون انفعال العالم العنصري منه كانفعال أبداننا من روحنا بالعوارض الواردة عليه كالغضب والخوف والفكر في أحوال المعشوق وغير ذلك وانفعال النفوس البشرية منه كانفعال حواسنا وسائر قوانا من عوارض أرواحنا فإذا اتصل نفس قدسي به ، أو ببعض أرواح الأجرام السماوية والنفوس الملكوتية كان تأثيرها في العالم عند التوجه الاتصالي تأثير ما يتصل به فينفعل أجرام العناصر والنفوس الناقصة الإنسانية منه بما أراد حسب ذلك الاتصال ولذا انفعلت نفوس النصارى من نفسه عليه الصلاة والسلام بالخوف وأحجمت عن المباهلة وطلبت الموادعة بقبول الجزية انتهى .

وادعى بعضهم أن لكل نفس تأثيراً لكنه يختلف حسب اختلاف مراتب النفوس وتفاوت مراتب التوجهات إلى عام التجرد وفيه كلام طويل ولعل النوبة تفضي إلى تحقيقه ، وهذا وتطبيق ما في الآفاق على ما في الأنفس ظاهر لمن أحاط خبراً بما قدمناه في الآيات الأول ، والله تعالى الموفق . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعاني حـ 3 صـ 191 . 193﴾

(62/121)

قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ

﴿ (64) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما نكصوا عن المباهلة بعد أن أورد عليهم أنواع الحجج فانقطعوا ، فلم تبق لهم شبهة وقبلوا الصغار والجزية ، فعلم انحلالهم عما كانوا فيه من المحاجة ولم يبق إلا إظهار النتيجة ، اقتضى ذلك عظم تشوفه صلى الله عليه وسلم إليها لعظم حرصه صلى الله عليه وسلم على هداية الخلق ، فأمره بأن يذكرها مكرراً إرشادهم بطريق أخف مما مضى بأن يؤنسهم فيما يدعوهم إليه بالمؤاساة ، فيدعو دعاء يشمل المحاجين من النصارى وغيرهم ممن له كتاب من اليهود وغيرهم إلى الكلمة التي قامت البراهين على حقيتها ونهضت الدلائل على صدقها ، دعاء لا أعدل منه ، على وجه يتضمن نفي ما قد يتخيل من إرادة التفضل عليهم والاختصاص بأمر دونهم ، وذلك أنه بدأ بمباشرة ما دعاهم إليه ورضى لهم ما رضي لنفسه وما اجتمعت عليه الكتب واتفقت عليه الرسل فقال سبحانه وتعالى : ﴿ قل ﴾ ولما كان قد انتقل من طلب الإفحام خاطبهم تلطفاً بهم بما يحبون فقال : ﴿ يا أهل الكتاب ﴾ إشارة إلى ما عندهم في ذلك من العلم ﴿ تعالوا ﴾ أي ارفعوا أنفسكم من حضيض الشرك الأصغر والأكبر الذي أنتم به ﴿ إلى كلمة ﴾ ثم وصفها بقوله :

﴿ سواء ﴾ أي ذات عدل لا شطط فيه بوجه ﴿ بيننا وبينكم ﴾ ثم فسرها بقوله : ﴿ ألا

نعبد إلا الله ﴾ أي لأنه الحائز لصفات الكمال ، وأكد ذلك بقوله : ﴿ ولا نشرك به شيئاً ﴾

أي لا نعتقد له شريكاً وإن لم نعبده .

(63/121)

ولما كان التوجه إلى غير الله خلاف ما تدعو إليه الفطرة الأولى عبر بصيغة الافتعال فقال : ﴿ ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً ﴾ أي كعزير والمسيح والأحبار والرهبان الذين يحلون ويحرمون .

ولما كان الرب قد يطلق على المعلم والمربي بنوع تربية نبه على أن المحذور إنما هو اعتقاد الاستبداد ، والأجتراء على ما يختص به الله سبحانه وتعالى فقال : ﴿ من دون الله ﴾ الذي اختص بالكمال .

ولما زاحت الشكوك وانتفت العلل أمر بمصارحتهم بالخلاف في سياق ظاهره المتاركة وباطنه الإنذار الشديد المعاركة فقال - مسبباً عن ذلك مشيراً بالتعبير بأداة الشك إلى أن الإعراض عن هذا العدل لا يكاد يكون : ﴿ فإن تولوا ﴾ أي عن الإسلام له في التوحيد ﴿ فقولوا ﴾ أنتم تبعاً لأبيكم إبراهيم عليه السلام إذ قال : ﴿ أسلمت لرب العالمين ﴾ [البقرة : 131] وامتثالاً لوصيته إذ قال : ﴿ ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ [البقرة :

132] ﴿ اشهدوا بأنا ﴾ أي نحن ﴿ مسلمون ﴾ أي متصفون بالإسلام منقادون لأمره ، فيوشك أن يأمرنا نبيه صلى الله عليه وسلم بقتالكم لنصرته عليكم جرياً على عادة الرسل ، فنجيبه بما أجاب به الحواريون المشهدون بأنهم مسلمون ، ثم نبارزكم متوجهين إليه معتمدين عليه ، وأنتم تعرفون أيامه الماضية ووقائعه السالفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 109 . 110 ﴾

(64/121)

وقال الفخر :

اعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أورد على نصارى نجران أنواع الدلائل وانقطعوا ، ثم دعاهم إلى المباهلة فخافوا وما شرعوا فيها وقبلوا الصغار بأداء الجزية ، وقد كان عليه السلام حريصاً على إيمانهم ، فكأنه تعالى قال : يا محمد اترك ذلك المنهج من الكلام واعدل إلى منهج آخر يشهد كل عقل سليم وطبع مستقيم أنه كلام مبني على الإنصاف وترك الجدال ، و ﴿ قُلْ يا أهل الكتاب تَعَالَوْاْ إلى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي هلموا إلى كلمة فيها إنصاف من بعضنا لبعض ، ولا ميل فيه لأحد على صاحبه ، وهي ﴿ أَن لاَ نَعْبُدَ إِلاَّ الله وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ﴾ هذا هو المراد من الكلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8

﴿ صـ 76 ﴾

وقال ابن عاشور :

قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [64].

رجوع إلى المجادلة ، بعد انقطاعها بالدعاء إلى المباهلة ، بعث عليه الحرص على إيمانهم ، وإشارة إلى شيء من زيغ أهل الكتابين عن حقيقة إسلام الوجه لله كما تقدم بيانه .

وقد جيء في هذه المجادلة بحجة لا يجدون عنها موئلا وهي دعوتهم إلى تخصيص الله بالعبادة ونبذ عقيدة إشراك غيره في الإلهية .

فجملة ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ بمنزلة التأكيد لجملة ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا ﴾ [آل عمران : 61] لأن مدلول الأولى احتجاج عليهم بضعف ثقتهم بأحقية اعتقادهم ، ومدلول هذه احتجاج عليهم بصحة عقيدة الإسلام ، ولذلك لم تعطف هذه الجملة . انتهى ا . هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 116 ﴾

اللغة :

[سواء] السواء : العدل والنصف ، قال ابو عبيدة : يقال قد دعاك الى السواء فاقبل منه ،

قال زهير : اروني خطة لاضيم فيها يسوى بيننا فيها السواء

[اولى] احق

[ودت] تمنت

[تلبسون] اللبس : الخلط ، يقال : لبس الامر عليه إذا اشتبه واختلط

[وجه النهار] اوله سمي وجها لانه اول ما يواجه من النهار ، قال الشاعر : من كان مسرورا بمقتل مالك فليات نسوتنا بوجه نهار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿صفوة التفاسير حـ 1 صـ 207 . 208﴾

(66/121)

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿يا أَهْلَ الكتاب﴾ ففيه ثلاثة أقوال

أحدها : المراد نصارى نجران

والثاني : المراد يهود المدينة والثالث : أنها نزلت في الفريقين ، ويدل عليه وجهان

الأول : أن ظاهر اللفظ يتناولهما

والثاني : روي في سبب النزول ، أن اليهود قالوا للنبي عليه الصلاة والسلام ، ما تريد إلا أن نتخذك رباً كما اتخذت النصارى عيسى ! وقالت النصارى : يا محمد ما تريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عزير ! فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وعندي أن الأقرب حمله على النصارى ، لما بينا أنه لما أورد الدلائل عليهم أولاً ، ثم باهلهم ثانياً ، فعدل في هذا المقام إلى الكلام المبني على رعاية الإنصاف ، وترك المجادلة ، وطلب الإفحام والإلزام ، ومما يدل عليه ، أنه خاطبهم ههنا بقوله تعالى : ﴿ يا أهلَ الكتاب ﴾ وهذا الاسم من أحسن الأسماء وأكمل الألقاب حيث جعلهم أهلاً لكتاب الله ، ونظيره ، ما يقال لحافظ القرآن يا حامل كتاب الله ، وللمفسر يا مفسر كلام الله ، فإن هذا اللقب يدل على أن قائله أراد المبالغة في تعظيم المخاطب وفي تطييب قلبه ، وذلك إنما يقال عند عدول الإنسان مع خصمه عن طريقة اللجاج والنزاع إلى طريقة طلب الإنصاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 76 ﴾

وقال ابن عباس : نزلت في القسيسين والرهبان ، فبعث بها النبي صلى الله عليه وسلم إلى جعفر وأصحابه بالحبشة ، فقرأها جعفر ، والنجاشي جالس ، وأشراف الحبشة . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 400 ﴾

قال الطبرى :

(67/121)

وإنما قلنا عنى بقوله : "يا أهل الكتاب" ، أهلَ الكتابين ، لأنهما جميعًا من أهل الكتاب ، ولم يخصص جل ثناؤه بقوله : "يا أهل الكتاب" بعضًا دون بعض . فليس بأن يكون موجّهًا ذلك إلى أنه مقصود به أهلُ التوراة ، بأولى منه بأن يكون موجهًا إلى أنه مقصود به أهل الإنجيل ، ولا أهل الإنجيل بأولى أن يكونوا مقصودين به دُون غيرهم من أهل التوراة . وإذ لم يكن أحدُ الفريقين بذلك بأولى من الآخر لأنه لا دلالة على أنه المخصوص بذلك من الآخر ، ولا أثر صحيح فالواجب أن يكون كل كتابيّ معنيًّا به . لأن إفرادَ العبادة لله وحدَه ، وإخلاصَ التوحيد له ، واجبٌ على كل مأمور منهيٍّ من خلق الله . واسم "أهل الكتاب" ، يلزم أهل التوراة وأهل الإنجيل ، فكان معلومًا بذلك أنه عني به الفريقان جميعًا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 485 ﴾

قوله تعالى : ﴿ تعالوا إلى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا ﴾

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ تَعَالَوْا ﴾ فالمراد تعيين ما دعوا إليه والتوجه إلى النظر فيه وإن لم يكن انتقالاً من مكان إلى مكان لأن أصل اللفظ مأخوذ من التعالي وهو الارتفاع من موضع هابط إلى مكان عال ، ثم كثر استعماله حتى صار دالاً على طلب التوجه إلى حيث يدعى إليه .

أما قوله تعالى : ﴿ إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا ﴾ فالمعنى هلموا إلى كلمة فيها إنصاف من بعضنا لبعض ، لا ميل فيه لأحد على صاحبه ، والسواء هو العدل والإنصاف ، وذلك لأن حقيقة الإنصاف إعطاء النصف ، فإن الواجب في العقول ترك الظلم على النفس وعلى الغير ، وذلك لا يحصل إلا بإعطاء النصف ، فإذا أنصف وترك ظلمه أعطاه النصف فقد سوى بين نفسه وبين غيره وحصل الاعتدال ، وإذا ظلم وأخذ أكثر مما أعطى زال الاعتدال فلما كان من لوازم العدل والإنصاف التسوية جعل لفظ التسوية عبارة عن العدل .

(68/121)

ثم قال الزجاج ﴿ سَوَآءٍ ﴾ نعت للكلمة يريد : ذات سواء ، فعلى هذا قوله ﴿ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ﴾ أي كلمة عادلة مستقيمة مستوية ، فإذا آمنا بها نحن وأنتم كنا على السواء والاستقامة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 76 ﴾

وقال الطبرى :

وأما تأويل قوله : "تعالوا" ، فإنه : أقبلوا وهلمُّوا .

وإنما "هو تفاعلوا" من "العلوّ" فكأن القائل لصاحبه : "تعالَ إليّ" ، قائلٌ "تفاعل" من "العلوّ" ، كما يقال : "تَدَانَ مني" من "الدنوّ" ، و"تقارَبْ مني" ، من "القرب" .

وقوله : "إلى كلمة سواء" . فإنها الكلمة العدلُ ، "والسَّواء" من نعتِ "الكلمة" .

وقد اختلف أهل العربية في وجه إتباع "سواء" في الإعراب "لكلمة" ، وهو اسمٌ لا صفة .

فقال بعض نحويي البصرة : جر "سواء" لأنها من صفة "الكلمة" وهي العدل ، وأراد مستوية . قال : ولو أراد "استواء" ، كان النصب . وإن شاء أن يجعلها على "الاستواء" ويجرّ ، جاز ، ويجعله من صفة "الكلمة" ، مثل "الخلق" ، لأن "الخلق" هو "المخلوق" . "والخلق" قد يكونُ صفةً واسمًا ، ويجعل "الاستواء" مثل "المستوى" ، قال عز وجل : (الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ) [سورة الحج : 25] ، لأن "السواء" للآخر ، وهو اسمٌ ليس بصفة فيجرى على الأول ، وذلك إذا أراد به "الاستواء" . فإن أراد به "مستويًا" جاز أن يُجرَي على الأول . والرفع في ذا المعنى جيدٌ ، لأنها لا تغيَّر عن حالها ولا تثنى ولا تجمع ولا تؤنث فأشبهت الأسماء التي هي مثل "عدل" و"رضًى" و"جُنُب" ، وما أشبه ذلك . وقالوا : [في قوله] : (أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ) [سورة الجاثية : 21] ، فـ"السواء" للمحيا والممات بهذا ، المبتدأ .

وإن شئت أجريته على الأول ، وجعلتَه صفة مقدمة ، كأنها من سبب الأول فجرت عليه . وذلك إذا جعلته في معنى "مستوى" . والرفع وجه الكلام كما فسَّرتُ لك .

(69/121)

وقال بعض نحويي الكوفة : "سواء" مصدرٌ وُضع موضع الفعل ، يعني موضع "متساوية" : و"متساو" ، فمرة يأتي على الفعل ، ومرّةً على المصدر . وقد يقال في "سواء" ، بمعنى عدل : "سِوًى وسُوًى" ، كما قال جل ثناؤه : (مَكَانًا سُوًى) و(سِوًى) [سورة طه : 58] ، يراد به : عدل ونصَفٌ بيننا وبينك . وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرأ ذلك(" إِلَى كَلَمَةٍ عَدْلٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم ") . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 487.485 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ إلى كَلَمَةٍ ﴾ مُتَعَلّق بـ " تَعَالَوْا " فذكر مفعول " تعَالَوْا " قبلها ، فإنه لم يذكر مفعوله ؛ فإن المقصودَ مُجَرَّدُ الإقبال ، ويجوز أن يكون حذفه للدلالة عليه ، تقديره : تعالوا إلى المباهلة .

وقرأ العامة "كَلِمَةٍ" - بفتح الكاف وكسر اللام - وهو الأصل ، وقرأ أبو السَّمَّال "كِلْمَةٍ" بوزن سدرة و"كَلْمَةٍ" كَضَرْبَة وتقدم هذا قريباً .

وكلمة مفسَّرة بما بعدها - من قوله : "ألاَّ نَعْبُدَ إلاَّ الله" - فالمرادُ بها كَلاَمٌ كَثِيرٌ ، وهَذا مِنْ بَابَ إطلاق الجزء والمراد به الكل ، ومنه تسميتهم القصيدة جميعاً قافيةً - والقافية جزء منها قال : [الوافر]

أعَلِّمُهُ الرِّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ . . . فَلَمَّا اشتدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي

وكَمْ عَلَّمْتُهُ نَظْمَ الْقَوَافِي . . . فَلَمَّا قَالَ قَافِيَةً هَجَانِي

ويقولون كلمة الشهادة - يعنون : لا إله إلا الله ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله - وقال صلى الله عليه وسلم : "أصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شاعرٌ كلمة لبيدٍ" .

يريد : [الطويل]

ألا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ . . . وكُلُّ نَعِيمٍ - لا مَحَالَةَ - زَائِلُ

وهذا كما يسمون الشيء بجزئه في الأعيان ، لأنه المقصود منه ، قالوا لرئيس القوم - وهو الذي ينظر لهم ما يحتاجون إليه - : عَيْن ، فأطلقوا عليه "عيناً" .

وقال بعضهم : وُضِعَ المفردُ موضعَ الجمع ، كما قال : [الطويل]

بِهَا جِيَفُ الْحَسْرَى ، فَأَمَّا عِظَامُهَا . . . فَبِيضٌ ، وَأَمَّا جِلدُهَا فَصَلِيبُ

وقيل : أطلقت الكلمة على الكلمات ؛ لارتباط بعضها ببعضٍ ، فصارت في قوة الكلمة الواحدة – إذا اخْتَلَّ جُزْءٌ منها اختلت الكلمةُ ؛ لأن كلمة التوحيد – لا إله إلا الله – هي كلماتٌ لا تتم النسبة المقصودة فيها من حصر الإلهية في " الله " إلا بمجموعها .

وقرأ العامة " سَوَاءٍ " بالجر ؛ نعتاً لِ " كَلِمَةٍ " بمعنى عَدْلٍ ، ويدل عليه قراءة عبد الله : إلى كلمة عدل ، وهذا تفسير لا قراءة .

وسواء في الأصل – مصدر ، ففي الوصف التأويلات الثلاثة المعروفة ، ولذلك لم يُؤنث كما لم تؤنث بـ " امرأة عدل " ؛ لأن المصادر لا تُثَنَّى ، ولا تُجْمَع ، ولا تُؤَنَّثُ ، فإذا فتحت السين مَدَدْتَ ، وإذا كسرتَ أو ضممت قصرت ، كقوله : ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ [طه : 58] .

وقرأ الحسن " سَوَاءً " بالنصب ، وفيها وجهان :

أحدهما : نصبها على المصدر .

قال الزمخشريُّ : " بمعنى : اسْتَوَتِ اسْتِوَاءً " ، وكذا الحوفيّ .

والثاني : أنه منصوب على الحال ، وجاءت الحالُ من النكرة ، وقد نصَّ عليه سيبويه .

قال أبو حيّان : " ولكن المشهور غيره ، والذي حسَّن مجيئَها من النكرة – هنا – كونُ الوَصْفِ بالمصدر على خلاف الأصل ، والصفة والحال متلاقيان من حيث المعنى " .

وكأن أبا حيان غض من تخريج الزمخشريِ والحوفيّ ، فقال : " والحال والصفة متلاقيان من حيثُ المعنى ، والمصدر يحتاج إلى إضمار عاملٍ ، وإلى تأويل " سواء " بمعنى استواء " .

والأشهر استعمال " سَوَاء " بمعنى اسم الفاعل – أي : مُسْتوٍ .

قال شهاب الدين : " وبذلك فسَّرها ابن عباس ، فقال : إلى كَلِمَةٍ مُسْتَوِيَةٍ " . انتهى . ا . هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 294.295 ﴾

فائدة

قال ابن عطية :

(71/121)

وقوله : ﴿ سواء ﴾ نعت للكلمة ، قال قتادة والربيع وغيرهما : معناه إلى كلمة عدل ، فهذا معنى " السواء " ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود : " إلى كلمة عدل بيننا وبينكم " ، كما فسر قتادة والربيع ، وقال بعض المفسرين : معناه إلى كلمة قصد .

قال الفقيه الإمام أبو محمد : وهذا قريب في المعنى من الأول ، والسواء والعدل والقصد مصادر وصف بها في هذه التقديرات كلها ، والذي أقوله في لفظة ﴿ سواء ﴾ انها ينبغي أن تفسر بتفسير خاص بها في هذا الموضع وهو أنه دعاهم إلى معان جميع الناس فيها

مستوون ، صغيرهم وكبيرهم ، وقد كانت سيرة المدعوين أن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً فلم يكونوا على استواء حال فدعاهم بهذه الآية إلى ما تألفه النفوس من حق لا يتفاضل الناس فيه ، ف ﴿ سواء ﴾ على هذا التأويل بمنزلة قولك لآخر : هذا شريكي في مال سواء بيني وبينه .

والفرق بين هذا التفسير وبين تفسير اللفظة بعدل ، أنك لو دعوت أسيراً عندك إلى أن يسلم أو تضرب عنقه ، لكنت قد دعوته إلى السواء الذي هو العدل ، وعلى هذا الحد جاءت لفظة ﴿ سواء ﴾ في قوله تعالى : ﴿ فانبذ إليهم على سواء ﴾ [الأنفال : 58] على بعض التأويلات ، ولو دعوت أسيرك إلى أن يؤمن فيكون حراً مقاسماً لك في عيشك ، لكنت قد دعوته إلى السواء ، الذي هو استواء الحال على ما فسرته ، واللفظ على كل تأويل فيها معنى العدل ، ولكني لم أر لمتقدم أن يكون في اللفظة معنى قصد استواء الحال ، وهو عندي حسن ، لأن النفوس تألفه ، والله الموفق للصواب برحمته . (1) انتهى ا . هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 449 ﴾

لطيفة

قال ابن الجوزى :

فأما "الكلمة" فقال المفسرون هي : لا إله إلا الله

فإن قيل : فهذه كلمات ، فلم قال كلمة ؟ فعنه جوابان .

(1) هذا الكلام استحنه ابن عاشور وتعقبه أبو حيان بقوله :

وهو تكثير لا طائل تحته ، والظاهر انتصاب الظرف بسواء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 507 ﴾

(72/121)

أحدهما : أن الكلمة تعبر عن ألفاظ وكلمات .

قال اللغويون : ومعنى كلمة : كلام فيه شرح قصة وإن طال ، تقول العرب : قال زهير في كلمته يراد في قصيدته .

قالت الخنساء :

وقافيةٍ مثلِ حدِّ السنا . . .

ن تبقى ويذهبُ من قالها

تقدُّ الذّؤابة مِن يَذْبلٍ . . .

أبت أن تُزايل أوعالَها

نطْقتَ ابنَ عمروٍ فسهّلتها . . .

ولم ينطق الناس أمثالها

فأوقعت القافية على القصيدة كلها ، والغالب على القافية أن تكون في آخر كلمة ، من البيت ، وإنما سميت قافية ، لإن الكلمة تتبع البيت ، وتقع آخره ، فسُميت قافية من قول العرب : قفوت فلاناً : إذا اتبعته ، وإلى هذا الجواب يذهب الزجاج وغيره .

والثاني : أن المراد بالكلمة : كلمات ، فاكتفى بالكلمة من كلمات ، كما قال علقمة بن عبدة .

بِها جيفُ الحسرى فأمّا عظامُها . . .

فبيضٌ وأما جلدُها فصليب

أراد : وأما جلودها ، فاكتفى بالواحد من الجمع ، ذكره والذي قبله ابن الأنباري . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 401 ﴾

قوله تعالى ﴿ أَن لاَ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ ﴾

فصل

قال الفخر :

إنه تعالى ذكر ثلاثة أشياء أولها : ﴿ أَن لاَ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ ﴾

وثانيها : أن ﴿ لاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ﴾

وثالثها : أن ﴿ لاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مّن دُونِ اللهِ ﴾ وإنما ذكر هذه الثلاثة لأن النصارى جمعوا بين هذه الثلاثة فيعبدون غير الله وهو المسيح ، ويشركون به غيره وذلك

لأنهم يقولون إنه ثلاثة : أب وابن وروح القدس ، فأثبتوا ذوات ثلاثة قديمة سواء ، وإنما قلنا : إنهم أثبتوا ذوات ثلاثة قديمة ، لأنهم قالوا : إن أقنوم الكلمة تدرعت بناسوت المسيح ، وأقنوم روح القدس تدرعت بناسوت مريم ، ولولا كون هذين الأقنومين ذاتين مستقلتين وإلا لما جازت عليهما مفارقة ذات الأب والتدرع بناسوت عيسى ومريم ، ولما أثبتوا ذوات ثلاثة مستقلة فقد أشركوا ، وأما إنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله فيدل عليه وجوه :

(73/121)

أحدها : إنهم كانوا يطيعونهم في التحليل والتحريم

والثاني : إنهم كانوا يسجدون لأحبارهم

والثالث : قال أبو مسلم : من مذهبهم أن من صار كاملاً في الرياضة والمجاهدة يظهر فيه أثر حلول اللاهوت ، فيقدر على إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، فهم وإن لم يطلقوا عليه لفظ الرب إلا أنهم أثبتوا في حقه معنى الربوبية

والرابع : هو أنهم كانوا يطيعون أحبارهم في المعاصي ، ولا معنى للربوبية إلا ذلك ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ [الجاثية : 23] فثبت أن النصارى جمعوا

بين هذه الأمور الثلاثة ، وكان القول ببطلان هذه الأمور الثلاثة كالأمر المتفق عليه بين جمهور العقلاء وذلك ، لأن قبل المسيح ما كان المعبود إلا الله ، فوجب أن يبقى الأمر بعد ظهور المسيح على هذا الوجه ، وأيضاً القول بالشركة باطل باتفاق الكل ، وأيضاً إذا كان الخالق والمنعم بجميع النعم هو الله ، وجب أن لا يرجع في التحليل والتحريم والانقياد والطاعة إلا إليه ، دون الأحبار والرهبان ، فهذا هو شرح هذه الأمور الثلاثة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 77 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ ﴾ فيه ستة أوجهٍ :

أحدها : أنه بدل من "كَلِمةٍ" – بدل كل من كل .

الثاني : بدل من "سَوَاء" جوزه أبو البقاء ؛ وليس بواضح ، لأن المقصود إنما هو الموصوف لا صفته فنسبة البدلية إلى الموصوف أوْلَى ، وعلى الوجهين ف "أنْ" وما في حَيِّزها في محل جَرٍّ .

الثالث : أنه في محل رَفْع ؛ خبراً لمبتدأ مُضْمَرٍ ، والجملة استئناف ، جواب لسؤال مقدَّر ، كأنه لما قيل : ﴿ تَعَالَوْاْ إلى كَلَمَةٍ ﴾ قال قائل : ما هي ؟ فقيل : هي أن لا نعبد إلا الله ، وعلى هذا الأوجه الثلاثة ف "بَيْنَ" منصوب بـ "سَوَاءٍ" ظرفاً له ، أي : يقع الاستواء في

هذه الجهة .

وقد صرَّح بذلك [الشاعر] ، حيث قال : [الوافر]

(74/121)

أرُوني خُطَّةً لا عَيبَ فيهَا . . . يُسَوِّي بَيْنَنا فِيهَا السَّوَاءُ

والوقف التام – حينئذ – عند قوله : ﴿ مِّن دُونِ الله ﴾ ؛ لارتباط الكلام معنًى وإعراباً .

الرابع : أن يكون " أنْ " وما في حيِّزها في محل رفع بالابتداء ، والخبرُ : الظرفُ قبله .

الخامس : جوَّز ابو البقاء أن يكون فاعلاً بالظرف قبله ، وهذا إنما يتأتَّى على رأي الأخفش ؛ إذا لم يعتمد الظرفُ .

وحينئذ يكون الوقف على " سَوَاءٍ " ثم يبتدأ بقوله : ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ الله ﴾ وهذا فيه بُعْدٌ من حيثُ المعنى ، ثم إنهم جعلوا هذه الجملة صفة لـ " كَلِمةٍ " ، وهذا غلط ؛ لعدم رابطة بين الصفة والموصوف ، وتقدير العائد ليس بالسهل .

وعلى هذا فقَوْل أبي البقاء : وقيل : تم الكلامُ على " سَوَاءٍ " ، ثم استأنف ، فقال : ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ ﴾ ، أي : بيننا وبينكم التوحيد ، فعلى هذا يكون ﴿ أَلاَّ نَعْبُدَ ﴾

مبتدأ ، والظرف خبره ، والجملة صفة لـ " الكلمة " ، غير واضح ؛ لأنه - من حيث جعلها صفة - كيف يحسن أن يقول : تم الكلام على " سَوَاءٍ " ثم استأنف ؟ بل كان الصواب - على هذا الإعراب - أن تكون الجملة استئنافية - كما تقدم .

السادس : أن يكون : ﴿ أَلاَّ نَعْبُدَ ﴾ مرفوعاً بالفاعلية بـ " سَوَاءٍ " ، وإلى هذا ذَهَبَ الرُّمَّانِيُّ ؛ فإن التقدير - عنده - إلى كلمة مستوٍ فيها بيننا وبينكم عدم عبادةُ غيرِ الله تعالى :

قال أبو حيّان : " إلا أن فيه إضمارَ الرابطِ - وهو فيها - وهو ضعيف " . انتهى ا . هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 296 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

(75/121)

وقوله : ﴿ وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله ﴾ قال القرطبي : معنى قوله : ﴿ وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله ﴾ أي لا نتبعه في تحليل شيء أو تحريمه ، إلا فيما حلّله الله - تعالى - وهو نظير قوله تعالى : ﴿ اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ

الله ﴾ [التوبة : 31] أي : أنزلوهم منزلةَ ربهم في قبول تحريمهم وتحليلهم لما لم يحرمْه الله ولم يحللْه ، وهذا يدل على بُطْلان القول بالاستحسان المجردِ الذي لا يستند إلى دليلٍ شرعيٍّ .

قال إلكيا الطبريُّ : " مثل [استحسانات] أبي حنيفة في التقديرات التي قدرها دون [مستندات بينة] " .

قال عكرمةُ : " هو سجودُ بعضهم لبعض " ، أي : لا نسجد لغير الله ، وكان السجود إلى زمان نبينا عليه السلامُ - ثم نُهِيَ عنه .

وروى ابن ماجه - في سننه - عن أنس ، قال : " قُلْنَا : يَا رَسُولَ الله ، أينحَنِي بَعْضُنَا لِبَعْضٍ ؟ قال : " لاَ " ، قُلْنَا : أيُعَانِقُ بَعْضُنَا بَعْضاً ؟ قَالَ : " لا ، وَلَكِنْ تَصَافَحُوا " .

وقيل : لا نطيع أحداً في معصية الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 299.298 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

وفيه ردّ على الروافض الذين يقولون : يجب قبول (قول) الإمام دون إبانة مستند شرعيّ ، وأنه يحل ما حرّمه الله من غير أن يبين مستنداً من الشريعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 107.106 ﴾

تنبيه

قال أبو حيان :

قال الطبرى (1) : في قوله : ﴿ أربابا ً من دون الله ﴾ أنزلوهم منزلة ربهم في قبول التحريم والتحليل لما لم يحرمه الله ، ولم يحله .

وهذا يدل على بطلان القول بالاستحسان المجرد الذي لا يستند إلى دليل شرعي ، كتقديرات دون مستند ، والقول بوجوب قبول قول الإمام دون إبانة مستند شرعي ، كما ذهب إليه الرّوافض . انتهى . وفيه بعض اختصار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 508 ﴾

---

(1) اطلعت على أكثر من طبعة للبحر المحيط فوجدت هذا الكلام منسوبا إلى الطبرى وهو تصحيف فهذا الكلام غير موجود فى الطبرى ، والصواب نسبته إلى القرطبى . والله أعلم .

(76/121)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مّن دُونِ الله ﴾ أي لا يطيع بعضنا بعضا ً في معصية الله تعالى قاله ابن جريج ويؤيده ما أخرجه الترمذي وحسنه من حديث عدي بن حاتم "أنه لما

نزلت هذه الآية قال : ما كنا نعبدهم يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم : أما كانوا يحللون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم ؟ قال : نعم فقال عليه الصلاة والسلام : هو ذاك" قيل : وإلى هذا أشار سبحانه بقوله عز من قائل : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أَرْبَابًا مِّن دُونِ الله ﴾ [التوبة : 31] وعن عكرمة أن هذا الاتخاذ هو سجود بعضهم لبعض ، وقيل : هو مثل اعتقاد اليهود في عزير أنه ابن الله ، واعتقاد النصارى في المسيح نحو ذلك ، وضمير بيننا على كل تقدير للناس لا للممكن وإن أمكن حتى يشمل الأصنام لأن أهل الكتاب لم يعبدوها .

وفي التعبير بالبعض نكتة وهي الإشارة إلى أنهم بعض من جنسنا فكيف يكونون أربابا ؟! فإن قلت : إن المخاطبين لم يتخذوا البعض أرباباً من دون الله بل اتخذوهم آلهة معه سبحانه أجيب : بأنه أريد من دون الله وحده ، أو يقال : بأنه أتى بذلك للتنبيه على أن الشرك لا يجامع الاعتراف بربوبيته تعالى عقلاً قاله بعضهم وللنصارى سود الله تعالى حظهم الحظ الأوفر من هذه المنهيات ، وسيأني إن شاء الله تعالى بيان فرقهم وتفصيل كفرهم على أتم وجه . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 3 صـ 193 ﴾

لطيفة

قال أبو حيان :

وفي قوله : بعضنا بعضاً ، إشارة لطيفة ، وهي أن البعضية تنافي الإلهية إذ هي تماثل في البشرية ، وما كان مثلك استحال أن يكون إلهاً ، وإذا كانوا قد استبعدوا اتباع من شاركهم في البشرية للاختصاص بالنبوّة في قولهم : ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ ﴿ إن نحن إلا بشر مثلكم ﴾ ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا ﴾ فادعاء الإلهية فيهم ينبغي أن يكونوا فيه أشد استبعاداً : وهذه الأفعال الداخل عليها أداة النفي متقاربة في المعنى ، يؤكد بعضها بعضاً ، إذ اختصاص الله بالعبادة يتضمن نفي الاشتراك ونفي اتخاذ الأرباب من دون الله ، ولكن الموضع موضع تأكيد وإسهاب ونشر كلام ، لأنهم كانوا مبالغين في التمسك بعبادة غير الله ، فناسب ذلك التوكيد في انتفاء ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 508 ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشهدوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

قال الفخر :

المعنى إن أبوا إلا الإصرار ، فقولوا إنا مسلمون ، يعني أظهروا أنكم على هذا الدين ، لا تكونوا في قيد أن تحملوا غيركم عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 77 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشهدوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ المراد فإن تولوا عن موافقتكم فيما ذكر مما اتفق عليه الكتب والرسل بعد عرضه عليهم فاعلموا أنهم لزمتهم الحجة وإنما أبوا عناداً فقولوا لهم : أنصفوا واعترفوا بأنا على الدين الحق وهو تعجيز لهم أو هو تعريض بهم لأنهم إذا شهدوا بالإسلام لهم فكأنهم قالوا : إنا لسنا كذلك ، وإلى هذا ذهب بعض المحققين ، وقيل : المراد فإن تولوا فقولوا : إنا لا نتحاشى عن الإسلام ولا نبالي بأحد في هذا الأمر فاشهدوا بأنا مسلمون فإنا لا نخفي إسلامنا كما أنكم تخافون وتخفون كفركم ولا تعترفون به لعدم وثوقكم بصر الله تعالى ، ولا يخفى أن هذا على ما فيه إنما يحسن لو كان الكلام في منافقي أهل الكتاب لأن المنافقين هم الذين يخافون فيخفون ، وأما هؤلاء فهم معترفون بما هم عليه كيف كان فلا يحسن هذا الكلام فيهم ، و﴿ تَوَلَّوْاْ ﴾ هنا ماض ولا يجوز أن يكون التقدير تتولوا لفساد المعنى لأن ﴿ فَقُولُواْ ﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، (وتتولوا) خطاب للمشركين ، وعند ذلك لا يبقى في الكلام جواب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿روح المعانى حـ 3 صـ 193 . 194﴾

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون ﴾ أمر بتصريح مخالفتهم بمخاطبتهم ومواجهتهم بذلك ، وإشهادهم على معنى التوبيخ والتهديد ، أي ستروْن أنتم أيها المتولون عاقبة توليكم كيف تكون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 449 ﴾

وقال الزمخشرى :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ عن التوحيد ﴿ فَقُولُواْ اشهدوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أي لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا وتسلموا بأنا مسلمون دونكم ، كما يقول الغالب للمغلوب في جدال أو صراع أو غيرهما : اعترف بأني أنا الغالب وسلم لي الغلبة .

ويجوز أن يكون من باب التعريض ، ومعناه : اشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 1 صـ 371 ﴾

(79/121)

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ جيء في هذا الشرط بحرف إن لأن التولي بعد نهوض هذه الحجة وما قبلها من الأدلة غريب الوقوع ، فالمقام مشتمل على ما هو صالح لاقتلاع حصول هذا

الشرط ، فصار فعل الشرط من شأنه أن يكون نادر الوقوع مفروضا ، وذلك من مواقع إن الشرطية فإن كان ذلك منهم فقد صاروا بحيث يؤيس من إسلامهم فأعرضوا عنهم ، وأمسكوا أنتم بإسلامكم ، وأشهدوهم أنكم على إسلامكم .

ومعنى هذا الإشهاد التسجيل عليهم لئلا يظهروا إعراض المسلمين عن الاسترسال في محاجتهم في صورة العجز والتسليم بأحقية ما عليه أهل الكتاب فهذا معنى الإشهاد عليهم بأنا مسلمون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 117 ﴾

لطيفة

قال أبو حيان :

وعبر عن العلم بالشهادة على سبيل المبالغة ، إذ خرج ذلك من حيز المعقول إلى حيز المشهود ، وهو المحضر في الحسّ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 508 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ﴾ .

قال أبو البقاء : هو ماضٍ ، ولا يجوز أن يكون التقدير : " فإن تتولوا " لفساد المعنى ؛ لأن قوله : ﴿ فَقُولُواْ اشهدوا ﴾ خطاب للمؤمنين ، و" يَتولّوا " للمشركين وعند ذلك لا يبقى في الكلام جوابُ الشرط ، والتقدير : فقولوا لهم وهذا ظاهر .

والمعنى : إن أَبَوْا إلا الإصرار فقولوا لهم : اشْهَدُوا بأنا مسلمون [مخلصون بالتوحيد] .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 299 ﴾

(80/121)

من فوائد الإمام الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إلَّا اللَّهَ ﴾ الْآيَةَ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ﴾ يَعْنِي وَاَللَّهُ أَعْلَمُ : كَلِمَةِ عَدْلٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ نَتَسَاوَى جَمِيعًا فِيهَا ؛ إذْ كُنَّا جَمِيعًا عِبَادَ اللَّهِ ، ثُمَّ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وَهَذِهِ هِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي تَشْهَدُ الْعُقُولُ بِصِحَّتِهَا ؛ إذْ كَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ عَبِيدَ اللَّهِ لَا يَسْتَحِقُّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ الْعِبَادَةَ ، وَلَا يَجِبُ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ طَاعَةُ غَيْرِهِ إلَّا فِيمَا كَانَ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى .

وَقَدْ شَرَطَ اللَّهُ تَعَالَى فِي طَاعَةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا كَانَ مِنْهَا مَعْرُوفًا ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَأْمُرُ إلَّا بِالْمَعْرُوفِ ؛ لِئَلَّا يَتَرَخَّصَ أَحَدٌ فِي إلْزَامِ غَيْرِهِ طَاعَةَ نَفْسِهِ إلَّا

بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قِصَّةِ الْمُبَايِعَاتِ : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ ﴾ فَشَرَطَ عَلَيْهِنَّ تَرْكَ عِصْيَانِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَعْرُوفِ الَّذِي يَأْمُرُهُنَّ بِهِ تَأْكِيدًا ؛ لِئَلَّا يُلْزِمَ أَحَدًا طَاعَةَ غَيْرِهِ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنْهُ طَاعَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى .

(81/121)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أَيْ لَا يَتَّبِعُهُ فِي تَحْلِيلِ شَيْءٍ ، وَلَا تَحْرِيمِهِ إِلَّا فِيمَا حَلَّلَهُ اللَّهُ أَوْ حَرَّمَهُ ، وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ وَقَدْ رَوَى عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ حَرْبٍ عَنْ غُطَيْفِ بْنِ أَعْيَنَ عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ : ﴿ أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ ، فَقَالَ : أَلْقِ هَذَا الْوَثَنَ عَنْكَ ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كُنَّا نَعْبُدُهُمْ قَالَ : أَلَيْسَ كَانُوا يُحِلُّونَ لَهُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَيُحِلُّونَهُ وَيُحَرِّمُونَ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ فَيُحَرِّمُونَهُ ؟ قَالَ : فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ ﴾ ؛ وَإِنَّمَا وَصَفَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ اتَّخَذُوهُمْ أَرْبَابًا ؛ لِأَنَّهُمْ أَنْزَلُوهُمْ مَنْزِلَةَ رَبِّهِمْ وَخَالِقِهِمْ فِي قَبُولِ تَحْرِيمِهِمْ وَتَحْلِيلِهِمْ لِمَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللَّهُ ، وَلَمْ يُحَلِّلْهُ .

وَلَا يَسْتَحِقُّ أَحَدٌ أَنْ يُطَاعَ بِمِثْلِهِ إلَّا اللَّهُ تَعَالَى الَّذِي هُوَ خَالِقُهُمْ ، وَالْمُكَلَّفُونَ كُلُّهُمْ مُتَسَاوُونَ فِي لُزُومِ عِبَادَةِ اللَّهِ وَاتِّبَاعِ أَمْرِهِ وَتَوْجِيهِ الْعِبَادَةِ إلَيْهِ دُونَ غَيْرِهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 2 صـ 296. 297 ﴾

(82/121)

ومن فوائد ابن كثير فى الآية

قال رحمه الله :

هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ومن جرى مجراهم ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ ﴾ والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال هاهنا . ثم وصفها بقوله : ﴿ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي : عدل ونصف ، نستوي نحن وأنتم فيها . ثم فسرها بقوله : ﴿ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾

لا وَثَنا ، ولا صنما ، ولا صليبا ولا طاغوتا ، ولا نارًا ، ولا شيئًا بل نُفْرِدُ العبادة لله وحده لا شريك له . وهذه دعوة جميع الرسل ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الانبياء : 25] . [وقال تعالى] ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : 36] .

ثم قال: ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وقال ابن جُرَيْج: يعني: يطيع بعضنا بعضا في معصية الله. وقال عكرمة: يعني: يسجد بعضنا لبعض.

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أي: فإن تولوا عن هذا النَّصَف وهذه الدعوة فأشْهدوهم أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم.

وقد ذكرنا في شرح البخاري، عند روايته من طريق الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس، عن أبي سفيان، في قصته حين دخل على قيصر، فسألهم عن نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن صفته ونعته وما يدعو إليه، فأخبره بجميع ذلك على الجلية، مع أن أبا سفيان كان إذ ذاك مُشْركًا لم يُسْلم بعد، وكان ذلك بعد صُلْح الحُدَيْبِيَة وقبل الفتح، كما هو مُصَرّح به في الحديث، ولأنه لما قال هل يغدر؟ قال: فقلت: لا ونحن منه في مُدة لا ندري ما هو صانع فيها. قال: ولم يمكني كلمة أزيد فيها شيئًا سوى هذه: والغرض أنه قال: ثم جيء بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأه، فإذا فيه:

"بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيم

مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ ، سَلامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى . أَمَّا بَعْدُ ، فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِن تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ ، و ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغير واحد أن صَدْر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت في وَفْد نجران ، وقال الزهري : هم أول من بَذَل الجزية . ولا خلاف أن آية الجزية نزلت بعد الفتح ، فما الجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح إلى هِرَقْل في جملة الكتاب ، وبين ما ذكره محمد بن إسحاق والزهري ؟ والجواب من وجُوه :

أحدها : يحتمل أن هذه الآية نزلت مرتين ، مَرَّةً قبل الحديبية ، ومرة بعد الفتح .

الثاني : يحتمل أن صدر سورة آل عمران نزل في وفد نجران إلى عند هذه الآية ، وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك ، ويكون قول ابن إسحاق : "إلى بضع وثمانين آية" ليس بمحفوظ ، لدلالة حديث أبي سفيان .

الثالث : يحتمل أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية ، وأن الذي بذلوه مُصَالحةً عن المباهلة لا على وجه الجزية ، بل يكون من باب المهادنة والمصالحة ، ووافق نزول آية الجزية

بعد ذلك على وفق ذلك كما جاء فرض الخمس والأربعة الأخماس وفق ما فعله عبد الله بن جحش في تلك السرية قبل بدر ، ثم نزلت فريضة القسم على وفق ذلك .

(84/121)

الرابع : يحتمل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أمر بكَتْب هذا [الكلام] في كتابه إلى هرقل لم يكن أنزل بعد ، ثم نزل القرآن موافقة له كما نزل بموافقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الحجاب وفي الأسارى ، وفي عدم الصلاة على المنافقين ، وفي قوله : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : 125] وفي قوله : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ﴾ الآية [التحريم : 5] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 57.55 ﴾

فصل

قال الخازن :

عن ابن عباس أن أبا سفيان أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه وهو بإيلياء فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعا بكتاب رسول الله صلى

الله عليه وسلم الذي بعث به مع دحية الكلبي إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه

"بسم الله الرحمن الرحيم"

من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم اليرسيين ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون لفظ الحديث أحد روايات البخاري ، ﴿ أخرجه البخاري : في التفسير تفسير سورة آل عمران باب : قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم . . . 8/ 214 ﴾ .

وقد أخرجه بأطول من هذا وفيه زيادة قوله الأريسيين وفي رواية الأريسيين والأريس الأكار وهو الزراع والفلاح وقيل : هم أتباع عبد الله بن أريس رجل كان في الزمن الأول بعثه الله فخالفه قومه وقيل هم الأروسيون وهم نصارى أتباع عبد الله بن أروس وهم الأروسة .

وقيل : هم الأريسون بضم الهمزة وهم الملوك الذين يخالفون أنبياءهم وقيل : هم المتبخترون وقيل : هم اليهود والنصارى الذين صددتهم عن الإسلام واتبعوك على كفرك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 362.361 ﴾

لطيفة

قال البيضاوى :

(تنبيه) انظر إلى ما راعى في هذه القصة من المبالغة في الإرشاد وحسن التدرج في الحجاج بين : أولاً ، أحوال عيسى عليه الصلاة والسلام وما تعاور عليه من الأطوار المنافية للألوهية ، ثم ذكر ما يحل عقدتهم ويزيح شبهتهم ، فلما رأى عنادهم ولجاجهم دعاهم إلى المباهلة بنوع من الإعجاز ، ثم لما أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد عاد عليهم بالإرشاد وسلك طريقاً أسهل ، وألزم بأن دعاهم إلى ما وافق عليه عيسى والإنجيل وسائر الأنبياء والكتب ، ثم لما لم يجد ذلك أيضاً عليهم وعلم أن الآيات والنذر لا تغني عنهم أعرض عن ذلك وقال ﴿ فَقُولُواْ اشهدوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 49 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ الآية .

هي كلمة التوحيدِ وإفرادِ الحق سبحانه في إنشاء الأشياء بالشهود .

وقوله : ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ : لا تطالع بِسِرِّك مخلوقاً . وكما لا يكون غيرُه معبودك فينبغي ألا يكون غيرُه مقصودك ولا مشهودك ، وهذا هو اتّقاء الشِرْك ، وأنت أول الأغيار الذين يجب ألا تشهدهم .

﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا ﴾ ويظهر صدقُ هذا بترك المدح والذم لهم .

ونفي الشكوى والشك عنهم ، وتنظيف السر عن حسبان ذرة من المحو والإثبات منهم .

قال صلى الله عليه وسلم " أصدق كلمة قالتها العربُ قول لبيد "

ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل . . . وكل نعيمٍ لا مَحالة زائل

فإنَّ الذي على قلوبهم من المشاق أشد . وأمَّا أهل البداية فالأمر مُضيّقٌ عليهم في الوظائف والأوراد ، فسبيلهم الأخذ بما هو الأشق والأصعب ، لفراغهم بقلوبهم من المعاني ، فمن ظنَّ بخلاف هذا فقد غلط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 248 ﴾

(86/121)

فائدة

قال التسترى :

قوله : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ [64]

يعني إلى طمع عدل بيننا وبينكم ، لأنهم كانوا مقرين بأن خالقهم وخالق السماوات والأرض هو الله تعالى ، فنوحده ولا نعبد إلاَّ إياه . وأصل العبادة : التوحيد مع أكل الحلال وكف الأذى ، ولا يحصل الأكل الحلال إلاَّ بكف الأذى ، ولا كف الأذى إلاَّ بأكل الحلال ، وأن تعلموا أكل الحلال وترك أذى الخلق والنية في الأعمال كما تعلموا فاتحة الكتاب ، ليصفوا إيمانكم وقلوبكم وجوارحكم ، فإنما هي الأصول . قال : حكى محمد بن سوار عن الثوري أنه قال : منزلة لا إله إلاَّ الله في العبد بمنزلة الماء في الدنيا ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء : 30] فمن لم ينفعه اعتقاد لا إله إلاَّ الله والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو ميت . قال سهل : وإني لأعرف رجلاً من أولياء الله تعالى اجتاز برجل مصلوب وجهه إلى غير القبلة ، فقال : أين ذلك اللسان الذي كنت تقول به صادقاً : " لا إله إلاَّ الله " ، ثم قال : اللهم هب لي ذنبه . قال سهل : فاستدار نحو القبلة بقدرة الله .

وهو قوله تعالى : ﴿ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [64] الآية . والثالث إطاعة بالجوارح خالصاً لله ، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والقنوع والرضا ، فدعاهم بذلك إلى أطيب القول وأحسن الفعال ، ولو لم يكن الإيمان بالله والقرآن الذي هو علم الله فيه الدعوة إلى الإقرار بالربوبية والتبعد إياه في الفزع ، لم تعرف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أجابهم من الخلق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير التسترى صـ 48 . 50 ﴾

كلام نفيس للعلامة ابن القيم

قال عليه الرحمة :

قصة هرقل

فصل :

وكان ملك الشام أحد أكابر علماءهم بالنصرانية "هرقل" ، قد عرف أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حقاً ، وعزم على الإسلام ، فأبى عليه عباد الصليب ، فخافهم على نفسه ، وضن بملكه مع علمه بأنه سينقل عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته . ونحن نسوق قصته :

ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن عباس : أن أبا سفيان أخبره من فِيه إلى فِيه ، قال : انطلقت في المدة التي كانت بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال فبينا أنا بالشام إذ جيء بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ، وقد كان دحية بن خليفة جاء به ، فدفعه إلى عظيم بصرى ، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل ، فقال هرقل : هل هاهنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ ، قالوا : نعم ، قال : فدعيت في نفر

من قريش ، فدخلنا على هرقل ، فأجلسنا بين يديه ، واجلسوا أصحابي خلفي ، فدعا بترجمانه ، فقال : قل لهم : إني سائل هذا عن الرجل الذي يزعم أنه نبي ، فإن كذبني فكذبوه ، فقال أبو سفيان : وأيم الله لولا مخافة أن يؤثر عليَّ الكذب لكذبت .

ثم قال لترجمانه : سله كيف حسبه فيكم ؟ ، قال : قلت : هو فينا ذو حسب . قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ ، قلت : لا . قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ ، قلت : لا . قال : ومن اتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم ؟ ، قلت : بل ضعفاؤهم . قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ ، قلت : لا ، بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له ؟ ، قال : قلت : لا . قال : فهل قاتلتموه ؟ ، قلت : نعم . قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ ، قال : قلت : يكون الحرب بيننا وبينه سجالاً ، يصيب منا ونصيب منه . قال : فهل يغدر ؟ ، قلت : لا ، ونحن منه في مدة ما ندري ما هو صانع فيها ، قال : فوالله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه . قال : فهل قال هذا القول أحد قبله ؟ ، قلت : لا .

قال لترجمانه : قل له : إني سألتك عن حسبه ، فزعمت أنه فيكم ذو حسب ، وكذلك الرسل تُبعث في أحساب قومها ، وسألتك : هل كان في آبائه ملك ؟ ، فزعمت أن لا ، فقلت : لو كان في آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك آبائه ، وسألتك عن أتباعه : أضعفاؤهم أم أشرافهم ؟ ، قلت : بل ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ ، فزعمت : أن لا ، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله عز وجل ، وسألتك : هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل سُخطة له ؟ ، فزعمت أن لا ، وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب ، وسألتك : هل يزيدون أم ينقصون ؟ ، فزعمت أنهم يزيدون ، وكذلك الإيمان حتى يتم ، وسألتك : هل قاتلتموه ؟ ، فزعمت أنكم قاتلتموه ، فيكون الحرب بينكم وبينه سجالاً ينال منكم وتنالون منه ، وكذلك الرسل تُبتلى ، ثم تكون لها العاقبة ، وسألتك هل يغدر ؟ ، فزعمت أنه لا يغدر ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك : هل قال هذا القول أحد قبله ؟ ، فزعمت أن لا ، فقلت : لو قال هذا القول أحد من قبله قلت : رجل ائتم بقول قيل قبله .

ثم قال : فبم يأمركم ؟ ، قلت : يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف ، قال : إن يكن ما تقول حقاً إنه لنبي ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولكن لم أكن أظنه منكم ، ولو أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، وليبلغن ملكه ما تحت

قدمي .

ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأه ، فإذا فيه :

"بسم الله الرحمن الرحيم"

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد :

(89/121)

فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسين ، و ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ " .

فلما قرأه وفرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده ، وكثر اللغط ، وأمر بنا فأخرجنا ، ثم أذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص ، ثم أمر بأبوابها فغلقت ، ثم اطلع فقال : يا معشر الروم ، هل لكم بالفلاح والرشد ، وأن تثبت مملكتكم ، فتبايعوا هذا النبي ؟ . فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب ، فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى

هرقل نفرتهم ، وأيس من الإيمان ، قال : ردوهم علي ، فقال : إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت ، فسدوا له ، ورضوا عنه .

فهذا ملك الروم ، كان من علمائهم أيضاً ، عرف وأقر أنه نبي ، وأنه سيملك ما تحت قدميه ، وأحب الدخول في الإسلام ، فدعا قومه إليه ، فولوا عنه معرضين ﴿كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة﴾ ، فمنعه من الإسلام الخوف على ملكه ورياسته ، ومنع أشباه الحمير ما منع الأمم قبلهم .

ولما عرف النجاشي ملك الحبشة أن عبّاد الصليب لا يخرجون عن عبادة الصليب إلى عبادة الله وحده أسلم سراً ، وكان يكتم إسلامه بينهم هو وأهل بيته ، ولا يمكنه مجاهرتهم .

(90/121)

ذكر ابن إسحاق : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل إليه عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه مكانه يدعوه إلى الإسلام ، فقال له عمرو : يا أصحمة ، علي القول وعليك الاستماع ، إنك كأنك في الرقة علينا منا وكانا في الثقة بك منك ، لأنا لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه ، ولم نخفك على شيء قط إلا أمناه ، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك ، الإنجيل بيننا

وبينك شاهد لا يرد ، وقاض لا يجور ، وفي ذلك موقع الحز ، وإصابة المفصل ، وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى ابن مريم ، وقد فرق النبي صلى الله عليه وسلم إلى الناس ، فرجاك لما لم يرجهم له ، وأمنك على ما خافهم عليه ، لخبر سالف وأجر منتظر ،

فقال النجاشي : "أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب ، وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل ، وأن العيان ليس بأشفى من الخبر" .

كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي

قال الواقدي : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه :

"بسم الله الرحمن الرحيم"

من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، حملت بعيسى ، فخلقه من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وإن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله إليك ، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى" .

فكتب إليه النجاشي :

"بسم الله الرحمن الرحيم"

إلى محمد رسول الله ، من النجاشي أصحمة ، سلام عليك يا نبي الله من الله وبركات الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فلقد بلغني كتابك فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت تفروقاً ، إنه كما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه ، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين" .

والتفروق : علامة تكون بين النواة والتمرة .

كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس عظيم القبط

فصل

وكذلك ملك دين النصرانية بمصر ، عرف أنه نبي صادق ، ولكن منعه من اتباعه ملكه ، وأن عبّاد الصليب لا يتركون عبادة الصلب ، ونحن نسوق حديثه وقصته :

قال الواقدي : كتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك بداعية الإسلام ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم القبط ، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا

نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ " وختم الكتاب .

فخرج به حاطب حتى قدم عليه الإسكندرية ، فانتهى إلى حاجبه ، فلم يلبثه أن أوصل إليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال حاطب للمقوقس لما لقيه : إنه قد كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى ، ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ ، فانتقم به ، ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولا يعتبر بك غيرك .

قال : هات ، قال : إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه ، وهو الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه ، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له يهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل نبي أدرك قوماً فهم من أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، فأنت ممن أدرك هذا النبي ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكنا نأمرك به .

فقال المقوقس : إني قد نظرت في أمر هذا النبي فرأيته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن

مرغوب عنه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آلة النبوة من إخراج الخبء ، والإخبار بالنجوى ، ووصف لحاطب أشياء من صفة النبي صلى الله عليه وسلم . وقال : القبط لا يطاوعونني في اتباعه ، ولا أحب أن تعلم بمحاورتي إياك ، وأنا أضن بملكي أن أفارقه ، وسيظهر على بلادي ، وينزل بساحتي هذه أصحابه من بعده ، فارجع إلى صاحبك .

وأخذ كتاب النبي صلى الله عليه وسلم فجعله في حق من عاج ، وختم عليه ، ودفعه إلى جارية له ، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية ، فكتب :

"بسم الله الرحمن الرحيم"

لمحمد بن عبد الله ، من المقوقس عظيم القبط .

سلام عليك ، أما بعد :

فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبياً بقي ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها ، والسلام عليك . " ولم يزد .

والجاريتان : مارية ، وسيرين . والبلغة : دلدل ، وبقيت إلى زمن معاوية .

قال حاطب : فذكرت قوله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : "ضن الخبيث بملكه ، ولا بقاء لملكه" .

كتاب رسول الله صلى الله عليه إلى حيفر وعبيد ابني الجلندي

فصل :

(93/121)

وكذلك ابنا الجلندي ، ملكا عمان وما حولها من ملوك النصارى ، أسلما طوعاً واختياراً . ونحن نذكر قصتهما ، وكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهما ، وهذا لفظه :

"بسم الله الرحمن الرحيم"

من محمد بن عبد الله إلى حيفر وعبيد ابني الجلندي ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوكما بداعية الإسلام ، أسلما تسلما ، فإني رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وَلَّيتكما مكانكما ، وإن أبيتما أن تقرّا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما ، وخيلي تحل بساحتكما ، وتظهر نبوتي على ملككما" . وختم الكتاب ، وبعث به مع عمرو بن العاص .

قال عمرو : فخرجت حتى انتهيت إلى عمان ، فلما قدمتها انتهيت إلى عبيد ، وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقاً ، فقلت : إني رسول رسول الله إليك وإلى أخيك ، فقال : أخي

المقدم عليَّ بالسن والملك ، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك .

ثم قال لي : وما تدعو إليه ؟ ، قلت : أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وتخلع ما عبد من دونه ، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله .

قال : يا عمرو ، إنك سيد قومك ، فكيف صنع أبوك ، فإن لنا فيه قدوة ؟ ، قلت : مات ولم يؤمن بمحمد ، ووددت أنه كان أسلم وصدّق به ، وكنت أنا على مثل رأيه ، حتى هداني الله للإسلام .

قال : فمتى تبعته ؟ ، قلت : قريباً ، فسألني أين كان إسلامي ؟ ، فقلت : عند النجاشي ، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم .

قال : فكيف صنع قومه بملكه ؟ ، قلت : أقروه ، قال : والأساقفة والرهبان ؟ ، قلت : نعم .

قال : انظر يا عمرو ما تقول ، إنه ليس خصلة في رجل أفضح له من كذب ، قلت : ما كذبت ، وما نستحله في ذلك .

قلت : كان النجاشي يخرج له خراجاً ، فلما أسلم وصدق بمحمد قال : لا والله لو سألني درهماً واحداً ما أعطيته ، فبلغ هرقل قوله ، فقال له نياق أخوه : أتدع عبدك لا يخرج لك خراجاً ويدين ديناً محدثاً ؟ ، قال هرقل : رجل رغب في دين واختاره لنفسه ، ما أصنع به ، والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع .

قال : انظر ما تقول يا عمرو ؟ ، قلت : والله لقد صدقتك .

قال عبد : فأخبرني ما الذي يأمر به وينهي عنه ؟ ، قلت : يأمر بطاعة الله عز وجل ، وينهي عن معصيته ، ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهي عن الظلم والعدوان ، وعن الزنا وشرب الخمر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب .

فقال : ما أحسن هذا الذي يدعو إليه ، لو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد ، ونصدّق به ، ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ديناً .

قلت : إنه إن أسلم مَلَّكه رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه ، فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم . قال : إن هذا لخلق حسن . وما الصدقة ؟ ، فأخبرته بما فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصدقات في الأموال ، حتى انتهيت إلى الإبل ، فقال : يا عمرو ويؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه ؟ ، فقلت : نعم ، فقال : والله ما أرى قومي في بعد دارهم ، وكثرة عددهم ، يطيعون بهذا .

قال : فمكثت ببابه أياماً وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبري ، ثم إنه دعاني يوماً فدخلت عليه ، فأخذ أعوانه بضبعي ، فقال : دعوه ، فأرسلت ، فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعوني

أجلس ، فنظرت إليه فقال : تكلم بحاجتك ، فدفعت إليه الكتاب مختوماً ، ففض خاتمه ، فقرأه حتى انتهى إلى آخره ، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته ، إلا أني رأيت أخاه أرق منه ، ثم قال : ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت ؟ ، فقلت : اتبعوه إما راغب في الإسلام وإما مقهور بالسيف ، قال : ومن معه ؟ ، قلت : الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هدي الله إياهم أنهم كانوا في ضلال ، فما أعلم أحداً بقي غيرك في هذه الحرجة ، وإن أنت لم تسلم اليوم وتتبعه يوطئك الخيل ، ويبيد خضرائك ، فأسلم تسلم ، ويستعملك على قومك ، ولا تدخل عليك الخيل والرجال .

قال : دعني يومي هذا وارجع إلى غداً .

فرجعت إلى أخيه ، فقال : يا عمرو إني لأرجو أن يسلم إن لم يضن بملكه ، حتى إذا كان الغد أتيت إليه ، فأبي أن يأذن لي ، فانصرفت إلى أخيه فأخبرته أني لم أصل إليه ، فأوصلني إليه ، فقال : إني فكرت فيما دعوتني إليه ، فإذا أنا أضعف العرب إن ملّكت رجلاً ما في يدي ، وهو لا يبلغ خيله هنا ، وإن بلغت خيله ألفت قتالاً ليس كقتال من لاقاه .

قلت : وأنا خارج غداً ، فلما أيقن بمخرجي خلا به أخوه فقال : ما نحن فيما قد ظهر عليه

، وكل من أرسل إليه قد أجابه . فأصبح فأرسل إليَّ فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً ، وصدقا النبي صلى الله عليه وسلم ، وخليا بيني وبين الصدقة ، وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لي عوناً على من خالفني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ هداية الحيارى صـ 66.61 ﴾

(96/121)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ﴾

إنها دعوة إلى كلمة مستوية لا التواء فيها ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ وهذا أمر لا جدال فيه ، ثم ﴿ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ أي لا ندخل معه من لا يقدر على الارتفاع إلى جلال كماله ، فالعقول السليمة ترفض كلمة " الشرك " ؛ لأن الشرك يكون على ماذا ؟ هل الشرك على خلق الكون ؟ إن كل مخلوق أشركوه في الألوهية إنما جاء من بعد أن خلق الله الكون . أو يكون الشرك على إدارة هذا الكون ؟

إذا كان هذا هو السبب في الشرك فهو أتفه من أن يكون سببا لأن الحق سبحانه قادر على إدارة هذا الكون ، وأنزل منهجا إذا ما اتبعه الإنسان صار الكون منسجما ، إذن فأي

شرك لا لزوم له. وإن كان - والعياذ بالله - له شريك وتمتع إله ما بقدرات خاصة فهذه القدرات تنقص من قدرات الإله الثاني. وهذا عجز في قدرة هؤلاء الآلهة، ولهذا يحسم الحق هذا الأمر بقوله الكريم:

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

[المؤمنون: 91].

(97/121)

إذن فمسألة الشركاء هذه ليست مقبولة، وبعد ذلك يقول الحق: ﴿ وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾. أي ألا نأخذ من بعضنا كهنوتا وكهنة، يضع الواحد منهم الحلال لنا أو الحرام علينا، فالتحليل والتحريم إنما يأتي من الله، وليس لمخلوق أن يحلل أو يحرم. ثم يقول الحق: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ: اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أي إن من لا يقبل عبادة الإله الواحد الذي لا شريك له ولا أرباب تحلل أو تحرم، إنما يريد أربابا وشركاء، وهذا معناه أن قلبه غير مستعد لتقبل قضية الإيمان؛ لأن قضية الإيمان تتميز بأن مصدرا واحدا هو الذي له مطلق القدرة، وهو مصدر الأمر في الحركة وهو الواحد الأحد، فلا

تتضارب الحركات في الكون .

إن حركاتنا كلها وهي الخاضعة لمنهج الله بـ " افعل " و " لا تفعل " فلو أن هناك إلها قال : " افعل " وإلها آخر قال : " لا تفعل " ، لكان معنى ذلك والعياذ بالله أن هؤلاء الآله أغيار لها أهواء . والحق سبحانه يحسم هذا بقوله :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾

[المؤمنون : 71] .

(98/121)

وهكذا كانت دعوة الله على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ، إنها آية تحمل دعوة مستوية بلا نتوءات ، فلا عبادة إلا لله ، ونحن لا نأخذ " افعل " و " لا تفعل " إلا من الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا كهنوتا أو مصدرا للتحليل أو التحريم ، فإن رفضوا وتولوا ، فليقل المؤمنون : ﴿ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أي أنه لا يوجد إلا إله واحد

، ولا شركاء له ، وبعضنا لا يتخذ بعضا أربابا ، وتلك شهادة بأن الإسلام إنما جاء بالأمر المستوى الذي لا عوج ولا نتوء فيه ونحن متبعون ما جاء به . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 1522.1524 ﴾

(99/121)

" فصل "

قال السيوطى :

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (64)

أخرج ابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود والنسائي والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال " كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في ركعتي الفجر في الأولى منهما ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا . . . ﴾ [البقرة : 136] الآية . وفي الثانية ﴿ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ " .

وأخرج عبد الرزاق والبخاري ومسلم والنسائي وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال " حدثني أبو سفيان أن هرقل دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأه ، فإذا فيه

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم . أسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الاريسيين ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴾ إلى قوله ﴿ اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ " .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس أن كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكفار ﴿ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله ﴿ تعالوا إلى كلمة . . . ﴾ الآية . قال : بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا يهود أهل المدينة إلى ذلك فأبوا عليه . فجاهدهم حتى أتوا بالجزية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال " ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا يهود أهل المدينة إلى الكلمة السواء ، وهم الذين حاجوا في إبراهيم وزعموا أنه مات يهودياً ، وأكذبهم الله ونفاهم منه فقال ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم . . . ﴾ [آل عمران : 65] الآية " .

وأخرج ابن جرير عن الربيع قال " ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا اليهود إلى الكلمة السواء " .

وأخرج عن محمد بن جعفر بن الزبير في قوله ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا . . . ﴾ الآية قال : فدعاهم إلى النصف وقطع عنهم الحجة . يعني وفد نجران .

وأخرج عن السدي قال " ثم دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعني الوفد من نصارى نجران فقال : ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء . . . ﴾ الآية " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ تعالوا إلى كلمة سواء ﴾ قال : عدل .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع . مثله .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ سواء بيننا وبينكم ﴾ قال : عدل . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت قول الشاعر :

تلاقينا تعاصينا سواء . . . ولكن حم عن حال بحال

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : كلمة السواء لا إله إلا الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿ تعالوا إلى كلمة سواء ﴾ قال : لا إله إلا الله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من

دون الله ﴾ قال : لا يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله ويقال : إن تلك الربوبية أن يطيع الناس سادتهم وقادتهم في غير عبادة وإن لم يصلوا لهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿ ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً ﴾ قال : سجود بعضهم لبعض . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 233 . 235 ﴾

(101/121)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (34) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (64) ﴾

تقول الروايات التي تصف المناظرة بين النبي – صلى الله عليه وسلم – ووفد نجران اليمن :

إن هذا القصص الذي ورد في هذه السورة عن مولد عيسى عليه السلام، ومولد أمه مريم، ومولد يحيى، وبقية القصص جاء رداً على ما أراد الوفد إطلاقه من الشبهات؛ وهو يستند إلى ما جاء في القرآن عن عيسى عليه السلام بأنه كلمة الله إلى مريم وروح منه، وأنهم كذلك سألوا عن أمور لم ترد في سورة مريم وطلبوا الجواب عنها . .

وقد يكون هذا صحيحاً . . ولكن ورود هذا القصص في هذه السورة على هذا النحو يمضي مع طريقة القرآن العامة في إيراد القصص لتقرير حقائق معينة يريد إيضاحها . وغالباً ما تكون هذه الحقائق هي موضوع السورة التي يرد فيها القصص؛ فيساق القصص بالقدر وبالأسلوب الذي يركز هذه الحقائق ويبرزها ويحييها . . فما من شك أن للقصص طريقته الخاصة في عرض الحقائق، وإدخالها إلى القلوب، في صورة حية، عميقة الإيقاع، بتمثيل هذه الحقائق في صورتها الواقعية وهي تجري في الحياة البشرية . وهذا أوقع في النفس من مجرد عرض الحقائق عرضاً تجريدياً .

(102/121)

وهنا نجد هذا القصص يتناول ذات الحقائق التي يركز عليها سياق السورة، وتظهر فيها ذات الخطوط العريضة فيها . ومن ثم يتجرد هذا القصص من الملابسة الواقعة المحدودة التي

ورد فيها ؛ ويبقى عنصراً أصيلاً مستقلاً ؛ يتضمن الحقائق الأصيلة الباقية في التصور الاعتقادي الإسلامي .

إن القضية الأصيلة التي يركز عليها سياق السورة كما قدمنا هي : قضية التوحيد . توحيد الألوهية وتوحيد القوامة . . وقصة عيسى – وما جاء من القصص مكملاً لها في هذا الدرس – تؤكد هذه الحقيقة ، وتنفي فكرة الولد والشريك ، وتستبعدهما استبعاداً كاملاً ؛ وتظهر زيف هذه الشبهة وسخف تصورها ؛ وتبسط مولد مريم وتاريخها ، ومولد عيسى وتاريخ بعثته وأحداثها ، بطريقة لا تدع مجالاً لإثارة أية شبهة في بشريته الكاملة ، وأنه واحد من سلالة الرسل ، شأنه شأنهم ، وطبيعته طبيعتهم ، وتفسر الخوارق التي صاحبت مولده وسيرته تفسيراً لا تعقيد فيه ولا غموض ، من شأنه أن يريح القلب والعقل ، ويدع الأمر فيهما طبيعياً عادياً لا غرابة فيه . . حتى إذا عقب على القصة بقوله : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن . فيكون ﴾ . . وجد القلب برد اليقين والراحة ؛ وعجب كيف ثارت تلك الشبهات حول هذه الحقيقة البسيطة ؟

والقضية الثانية التي تنشأ من القضية الأولى في سياق السورة كله هي قضية حقيقة الدين وأنه الإسلام . ومعنى الإسلام وأنه الاتباع والاستسلام . . وهذه ترد كذلك في ثنايا القصص واضحة . . ترد في قول عيسى عليه السلام لبني إسرائيل : ﴿ ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾ .

. وفي هذا القول تقرير لطبيعة الرسالة ، وأنها تأتي لإقرار منهج ، وتنفيذ نظام ، وبيان الحلال والحرام ، ليتبعه المؤمنون بهذه الرسالة ويسلموا به . . ثم يرد معنى الاستسلام والاتباع على لسان الحواريين : ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال : من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله ، آمنا بالله ، واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ . .

ومن الموضوعات التي يركز عليها سياق السورة تصوير حال المؤمنين مع ربهم . . وهذا القصص يعرض جملة صالحة من هذه الحال في سير هذه النخبة المختارة من البشر ، التي اصطفاها وجعلها ذرية بعضها من بعض . وتتمثل هذه الصور الوضيئة في حديث امرأة عمران مع ربها ومناجاته في شأن وليدتها . . وفي حديث مريم مع زكريا . وفي دعاء زكريا ونجائه لربه . وفي رد الحواريين على نبيهم ، ودعائهم لربهم . . وهكذا . .

حتى إذا انتهى القصص جاء التعقيب متضمنا وملخصا هذه الحقائق ، معتمداً على وقائع القصص في تقرير الحقائق التي يقررها . . فيتناول حقيقة عيسى – عليه السلام – وطبيعة الخلق والإرادة الإلهية . والوحدانية الخالصة . ودعوة أهل الكتاب إليها . ودعوتهم إلى

المباهلة عليها . . وينتهي الدرس ببيان جامع شامل لأصل هذه الحقيقة ليتوجه به النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى أهل الكتاب عامة . . من حضر منهم المناظرة ومن لم يحضر ومن كان من ذلك الجيل ومن يجيء بعده إلى آخر الزمان قل : ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ . .

(104/121)

بهذا ينتهي الجدل ؛ ويتبين ماذا يريد الإسلام من الناس ، وماذا يضع لحياتهم من أساس . ويحدد معنى الدين ومعنى الإسلام ؛ وتنتفي كل صورة مشوهة أو مدخولة يدعي لها أصحابها أنها دين . أو أنها إسلام . . وهذا هو الهدف النهائي للدرس الماضي ، وللسورة كلها كذلك ، تولاها القصص بالبيان والإيضاح في الصورة القصصية الجميلة الجذابة العميقة الإيحاء . . وهذه وظيفة القصص القرآني وطبيعته التي تحكم أسلوبه وطريقة عرضه في شتى السور على نهج خاص .

وقد عرضت قصة عيسى في سورة مريم ، وعرضت هنا . وبمراجعة النصوص هنا وهناك تبدو زيادة بعض الحلقات هنا ، مع اختصار في بعض الحلقات . . فقد كان هناك

تفصيل مطول في سورة مريم لحلقة مولد عيسى . ولم تكن هناك حلقة مولد مريم . وهنا تفصيل في رسالة عيسى والحواريين واختصار في قصة مولده كما أن التعقيب هنا أطول لأنه جاء بصدد مناظرات حول قضية أشمل ، وهي قضية التوحيد والدين والوحي والرسالة ، مما لم يكن موجوداً في سورة مريم . . مما يكشف عن طبيعة الأسلوب القرآني في عرض القصص ، مساوقاً لجو السورة التي يعرض فيها ، ولمناسبته فيها

والأن نأخذ في استعراض النصوص تفصيلاً .

يبدأ هذا القصص ببيان من اصطفاهم الله من عباده واختارهم لحمل الرسالة الواحدة بالدين الواحد منذ بدء الخليقة ، ليكونوا طلائع الموكب الإيماني في شتى مراحله المتصلة على مدار الأجيال والقرون . فيقرر أنهم ذرية بعضها من بعض . وليس من الضروري أن تكون ذرية النسب – وإن كان نسب الجميع يلتقي في آدم ونوح – فهي أولاً رابطة الاصطفاء والاختيار الإلهي ؛ ونسب هذه العقيدة الموصول في ذلك الموكب الإيماني الكريم :

﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً ، وآل إبراهيم وآل عمران ، على العالمين . ذرية بعضها من بعض ، والله سميع عليم ﴾ . .

ولقد ذكر السياق آدم ونوحا فردين ؛ وذكر آل إبراهيم وآل عمران أسرتين . إشارة إلى أن آدم بشخصه ونوحاً بشخصه هما اللذان وقع عليهما الاصطفاء . فأما إبراهيم وعمران فقد كان الاصطفاء لهما ولذريتهما كذلك - على القاعدة التي تقررت في سورة البقرة عن آل إبراهيم : قاعدة أن وراثة النبوة والبركة في بيته ليست وراثة الدم ، إنما هي وراثة العقيدة : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال : إني جاعلك للناس إماماً . قال : ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين ﴾ وبعض الروايات تذكر أن عمران من آل إبراهيم . فذكر آل عمران إذن تخصيص لهذا الفرع لمناسبة خاصة ، هي عرض قصة مريم وقصة عيسى عليه السلام . . كذلك نلاحظ أن السياق لم يذكر من آل إبراهيم لا موسى ولا يعقوب (وهو إسرائيل) كما ذكر آل عمران . . ذلك أن السياق هنا يستطرد إلى الجدل حول عيسى بن مريم وحول إبراهيم - كما سيأتي في الدرس التالي - فلم تكن هناك مناسبة لذكر موسى في هذا المقام أو ذكر يعقوب . .

ومن هذا الإعلان التمهيدي ينتقل السياق مباشرة إلى آل عمران ومولد مريم :

﴿ إذ قالت امرأة عمران : رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت : رب : إني وضعتها أنثى - والله أعلم بما وضعت - وليس الذكر كالأنثى ، وإني سميتها مريم ؛ وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتاً حسناً ، وكفلها زكريا . كلما دخل عليها زكريا

المحراب وجد عندها رزقاً . قال : يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ . .

(106/121)

وقصة النذر تكشف لنا عن قلب " امرأة عمران " - أم مريم - وما يعمره من إيمان ، ومن توجه إلى ربها بأعز ما تملك . وهو الجنين الذي تحمله في بطنها . خالصاً لربها ، محرراً من كل قيد ومن كل شرك ومن كل حق لأحد غير الله سبحانه . والتعبير عن الخلوص المطلق بأنه تحرر تعبير موح . فما يتحرر حقاً إلا من يخلص لله كله ، ويفر إلى الله بجملته وينجو من العبودية لكل أحد ولكل شيء ولكل قيمة ، فلا تكون عبوديته إلا لله وحده .

. فهذا هو التحرر إذن . . وما عداه عبودية وإن تراءت في صورة الحرية !

ومن هنا يبدو التوحيد هو الصورة المثلى للتحرر . فما يتحرر إنسان وهو يدين لأحد غير الله بشيء ما في ذات نفسه ، أو في مجريات حياته ، أو في الأوضاع والقيم والقوانين والشرائع التي تصرف هذه الحياة . . لا تحرر وفي قلب الإنسان تعلق أو تطلع أو عبودية لغير الله . وفي حياته شريعة أو قيم أو موازين مستمدة من غير الله . وحين جاء الإسلام بالتوحيد جاء بالصورة الوحيدة للتحرر في عالم الإنسان . .

وهذا الدعاء الخاشع من امرأة عمران ، بأن يتقبل ربها منها نذرها - وهو فلذة كبدها - ينم عن ذلك الإسلام الخالص لله ، والتوجه إليه كلية ، والتحرر من كل قيد ، والتجرد إلا من ابتغاء قبوله ورضاه :

﴿ رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني . إنك أنت السميع العليم ﴾ . .

ولكنها وضعتها أنثى ؛ ولم تضعها ذكراً !

﴿ فلما وضعتها قالت : رب إني وضعتها أنثى - والله أعلم بما وضعت - وليس الذكر كالأنثى . وإني سميتها مريم . وإني اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ . .

لقد كانت تنتظر ولداً ذكراً ؛ فالنذر للمعابد لم يكن معروفاً إلا للصبيان ، ليخدموا الهيكل ، وينقطعوا للعبادة والتبتل . ولكن ها هي ذي تجدها أنثى . فتتوجه إلى ربها في نغمة أسيفة :

﴿ رب . إني وضعتها أنثى ﴾ . .

﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ . .

ولكنها هي تتجه إلى ربها بما وجدت ، وكأنها تعتذر إن لم يكن لها ولد ذكر ينهض بالمهمة .

﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ . .

ولا تنهض الأنثى بما ينهض به الذكر في هذا المجال : ﴿ وإني سميتها مريم ﴾ . .

وهذا الحديث على هذا النحو فيه شكل المناجاة القريبة . مناجاة من يشعر أنه منفرد بربه . يحدثه بما في نفسه ، وبما بين يديه ، ويقدم له ما يملك تقديماً مباشراً لطيفاً . وهي الحال التي يكون فيها هؤلاء العباد المختارون مع ربهم . حال الود والقرب والمباشرة ، والمناجاة البسيطة العبارة ، التي لا تكلف فيها ولا تعقيد . مناجاة من يحس أنه يحدث قريباً ودوداً سميعاً مجيباً .

﴿ وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ . .

وهي الكلمة الأخيرة حيث تودع الأم هديتها بين يدي ربها ، وتدعها لحمايته ورعايته ، وتعيذها به هي وذريتها من الشيطان الرجيم . .

وهذه كذلك كلمة القلب الخالص ، ورغبة القلب الخالص . فما تود لوليدتها أمراً خيراً من أن تكون في حياطة الله من الشيطان الرجيم !

﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتاً حسناً ﴾ . .

جزاء هذا الإخلاص الذي يعمر قلب الأم ، وهذا التجرد الكامل في النذر . . وإعداداً لها أن تستقبل نفخة الروح ، وكلمة الله ، وأن تلد عيسى - عليه السلام - على غير مثال من ولادة البشر .

﴿ وكفلها زكريا ﴾ . .

أي جعل كفالتها له ، وجعله أميناً عليها . . وكان زكريا رئيس الهيكل اليهودي . من ذرية هارون الذين صارت إليهم سدانة الهيكل .

ونشأت مباركة مجدودة . يهيىء لها الله من رزقه فيضاً من فيوضاته :

﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً . قال : يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله . إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ . .

(108/121)

ولا نخوض نحن في صفة هذا الرزق كما خاضت الروايات الكثيرة . فيكفي أن نعرف أنها كانت مباركة يفيض من حولها الخير ويفيض الرزق من كل ما يسمى رزقاً . حتى ليعجب كافلها – وهو نبي – من فيض الرزق . فيسألها : كيف ومن أين هذا كله ؟ فلا تزيد على أن تقول في خشوع المؤمن وتواضعه واعترافه بنعمة الله وفضله ، وتفويض الأمر إليه كله :

﴿ هو من عند الله . إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ . .

وهي كلمة تصور حال المؤمن مع ربه ، واحتفاظه بالسر الذي بينه وبينه . والتواضع في الحديث عن هذا السر ، لا التنفج به والمباهاة ! كما أن ذكر هذه الظاهرة غير المألوفة التي

تثير عجب نبي الله زكريا . هي التمهيد للعجائب التي تليها في ميلاد يحيى وميلاد عيسى . .

عندئذ تحركت في نفس زكريا ، الشيخ الذي لم يوهب ذرية ، تحركت تلك الرغبة الفطرية القوية في النفس البشرية . الرغبة في الذرية . في الامتداد . في الخلف . . الرغبة التي لا تموت في نفوس العباد الزهاد ، الذين وهبوا أنفسهم للعبادة ونذروها للهيكل . إنها الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، لحكمة عليا في امتداد الحياة وارتقائها :

﴿ هنالك دعا زكريا ربه . قال : رب هب لي من لدنك ذرية طيبة . إنك سميع الدعاء . . فنادته الملائكة - وهو قائم يصلي في المحراب - أن الله يبشرك بيحيى ، مصدقاً بكلمة من الله ، وسيداً وحصوراً ، ونبياً من الصالحين . . قال : رب أنى يكون لي غلام ، وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر . قال : كذلك الله يفعل ما يشاء . قال : رب اجعل لي آية . قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً ؛ واذكر ربك كثيراً ، وسبح بالعشي والإبكار ﴾ . .

(109/121)

وكذلك . . نجدنا أمام حادث غير عادي . يحمل مظهراً من مظاهر طلاقة المشيئة الإلهية ، وعدم تقيدها بالمألوف للبشر ، الذي يحسبه البشر قانوناً لا سبيل إلى إخلافه ؛ ومن ثم

يشكون في كل حادث لا يجيء في حدود هذا القانون ! فإذا لم يستطيعوا تكذيبه ، لأنه واقع ، صاغوا حوله الخرافات والأساطير !

فها هو ذا " زكريا " الشيخ الكبير وزوجه العاقر التي لم تلد في صباها . . ها هو ذا تجيش في قلبه الرغبة الفطرية العميقة في الخلف – وهو يرى بين يديه مريم البنية الصالحة المرزوقة – فيتوجه إلى ربه يناجيه ، ويطلب منه أن يهب له من لدنه ذرية طيبة :

﴿ هنالك دعا زكريا ربه .

قال : رب هب لي من لدنك ذرية طيبة . إنك سميع الدعاء ﴾ . .

فما الذي كان من هذا الدعاء الخاشع الحار المنيب ؟

كانت الاستجابة التي لا تتقيد بسن ، ولا تتقيد بمألوف الناس ؛ لأنها تنطلق من المشيئة المطلقة التي تفعل ما تريد :

﴿ فنادته الملائكة – وهو قائم يصلي في المحراب – أن الله يبشرك بيحيى ، مصدقاً بكلمة من الله . وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين ﴾ . .

لقد استجيبت الدعوة المنطلقة من القلب الطاهر ، الذي علق رجاءه بمن يسمع الدعاء ؛ ويملك الإجابة حين يشاء . وبشرت الملائكة زكريا بمولود ذكر ، اسمه معروف قبل مولده ؛ " يحيى " ؛ وصفته معروفة كذلك : سيداً كريماً ، وحصوراً يحصر نفسه عن الشهوات ،

ويملك زمام نزعاته من الانفلات . ومؤمناً مصدقاً بكلمة تأتيه من الله . ونبياً صالحاً في موكب الصالحين .

(110/121)

لقد استجيبت الدعوة ، ولم يحل دونها مألوف البشر الذي يحسبونه قانوناً . ثم يحسبون أن مشيئة الله - سبحانه - مقيدة بهذا القانون ! وكل ما يراه الإنسان ويحسبه قانوناً لا يخرج عن أن يكون أمراً نسبياً - لا مطلقاً ولا نهائياً - فما يملك الإنسان وهو محدود العمر والمعرفة ، وما يملك العقل وهو محكوم بطبيعة الإنسان هذه ، أن يصل إلى قانون نهائي ولا أن يدرك حقيقة مطلقة . . فما أجدر الإنسان أن يتأدب في جناب الله . وما أجدره أن يلتزم حدود طبيعته وحدود مجاله ، فلا يخبط في التيه بلا دليل ، وهو يتحدث عن الممكن والمستحيل ، وهو يضع لمشيئة الله المطلقة إطاراً من تجاربه هو ومن مقرراته هو ومن علمه القليل !

ولقد كانت الاستجابة مفاجأة لزكريا نفسه - وهل زكريا إلا إنسان على كل حال - واشتاق أن يعرف من ربه كيف تقع هذه الخارقة بالقياس إلى مألوف البشر ؟

﴿ قال : رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر ؟ ﴾ . .

وجاءه الجواب . . جاءه في بساطة ويسر . يرد الأمر إلى نصابه . ويرده إلى حقيقته التي لا عسر في فهمها ، ولا غرابة في كونها :

﴿ قال : كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ . .

كذلك ! فالأمر مألوف مكرور معاد حين يرد إلى مشيئة الله وفعله الذي يتم دائماً على هذا النحو ؛ ولكن الناس لا يتفكرون في الطريقة ، ولا يتدبرون الصنعة ، ولا يستحضرون الحقيقة !

كذلك . بهذا اليسر . وبهذه الطلاقة . يفعل الله ما يشاء . . فماذا في أن يهب لزكريا غلاماً وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر ؟ إنما هذه مألوفات البشر التي يقررون قواعدهم عليها ، ويتخذون منها قانوناً ! فأما بالقياس إلى الله فلا مألوف ولا غريب . . كل شيء مرده إلى توجه المشيئة ، والمشيئة مطلقة من كل القيود !

ولكن زكريا لشدة لهفته على تحقق البشرى ، ولدهشة المفاجأة في نفسه ، راح يطلب إلى ربه أن يجعل له علامة يسكن إليها :

﴿ قال : رب اجعل لي آية .

. . ﴾ . .

هنا يوجهه الله سبحانه إلى طريق الاطمئنان الحقيقي ؛ فيخرجه من مألوفه في ذات نفسه . . إن آيته أن يحتبس لسانه ثلاثة أيام إذا هو اتجه إلى الناس ؛ وأن ينطلق إذا توجه إلى ربه وحده يذكره ويسبحه :

﴿ قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً . واذكر ربك كثيراً . وسبح بالعشي والإبكار ﴾ . .

ويسكت السياق هنا . ونعرف أن هذا قد كان فعلاً . فإذا زكريا يجد في ذات نفسه غير المألوف في حياته وحياة غيره . . لسانه هذا هو لسانه . . ولكنه يحتبس عن كلام الناس وينطلق لمناجاة ربه . . أي قانون يحكم هذه الظاهرة ؟ إنه قانون الطلاقة الكاملة للمشيئة العلوية . . فبدونه لا يمكن تفسير هذه الغريبة . . كذلك رزقه بيحيى وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر ! ! !

وكأنما كانت هذه الخارقة تمهيداً – في السياق – لحادث عيسى الذي انبثقت منه كل الأساطير والشبهات . . وإن هو إلا حلقة من سلسلة في ظواهر المشيئة الطليقة . . فهنا يبدأ في قصة المسيح عليه السلام . وإعداد مريم لتلقي النفخة العلوية بالطهارة والقنوت والعبادة . .

﴿ وإذ قالت الملائكة : يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين . يا

مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ . .

وأي اصطفاء ؟ ! وهو يختارها لتلقي النفخة المباشرة ، كما تلقاها أول هذه الخليقة : " آدم " ؟ وعرض هذه الخارقة على البشرية من خلالها وعن طريقها ؟ إنه الاصطفاء للأمر المفرد في تاريخ البشرية . . وهو بلا جدال أمر عظيم . .

ولكنها – حتى ذلك الحين – لم تكن تعلم ذلك الأمر العظيم !

والإشارة إلى الطهر هنا إشارة ذات مغزى . وذلك لما لابس مولد عيسى – عليه السلام – من شبهات لم يتورع اليهود أن يلصقوها بمريم الطاهرة ، معتمدين على أن هذا المولد لا مثال له في عالم الناس فيزعموا أن وراءه سراً لا يشرف . . قبحهم الله ! !

(112/121)

وهنا تظهر عظمة هذا الدين ؛ ويتبين مصدره عن يقين . فها هو ذا محمد – صلى الله عليه وسلم – رسول الإسلام الذي يلقى من أهل الكتاب – ومنهم النصارى – ما يلقى من التكذيب والعنت والجدل والشبهات . . ها هو ذا يحدث عن ربه بحقيقة مريم العظيمة وتفضيلها على " نساء العالمين " بهذا الإطلاق الذي يرفعها إلى أعلى الآفاق . وهو في معرض مناظرة مع القوم الذين يعتزون بمريم ، ويتخذون من تعظيمها مبرراً لعدم إيمانهم

بمحمد وبالدين الجديد !

أي صدق ؟ وآية عظمة ؟ وأية دلالة على مصدر هذا الدين ، وصدق صاحبه الأمين !

إنه يتلقى " الحق " من ربه ؛ عن مريم وعن عيسى عليه السلام ؛ فيعلن هذا الحق ، في هذا المجال . . ولو لم يكن رسولاً من الله الحق ما أظهر هذا القول في هذا المجال بحال !

﴿ يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ . .

طاعة وعبادة ، وخشوع وركوع ، وحياة موصولة بالله تمهيداً للأمر العظيم الخطير .

.

وعند هذا المقطع من القصة ، وقبل الكشف عن الحدث الكبير . . يشير السياق إلى شيء من حكمة مساق القصص . . إنه إثبات الوحي ، الذي ينبىء النبي - صلى الله عليه وسلم - بما لم يكن حاضره من أنباء الغيب ، في هذا الأمر :

﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك . وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ؟ وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ . .

وهي إشارة إلى ما كان من تسابق سدنة الهيكل إلى كفالة مريم ، حين جاءت بها أمها وليدة إلى الهيكل ، وفاء لنذرها وعهدها مع ربها . والنص يشير إلى حادث لم يذكره " العهد القديم " ولا " العهد الجديد " المتداولان ؛ ولكن لا بد أنه كان معروفاً عند الأحبار والرهبان . حادث إلقاء الأقلام . . أقلام سدنة الهيكل . . لمعرفة من تكون مريم من نصيبه . والنص القرآني لا يفصل الحادث – ربما اعتماداً على أنه كان معروفاً لسامعيه ، أو لأنه لا يزيد شيئًا في أصل الحقيقة التي يريد عرضها على الأجيال القادمة – فلنا أن نفهم أنهم اتفقوا على طريقة خاصة – بواسطة إلقاء الأقلام – لمعرفة من هي من نصيبه ، على نحو ما نصنع في " القرعة " مثلاً . وقد ذكرت بعض الروايات أنهم ألقوا بأقلامهم في نهر الأردن . فجرت مع التيار إلا قلم زكريا فثبت . وكانت هذه هي العلامة بينهم . فسلموا بمريم له . وكل ذلك من الغيب الذي لم يكن الرسول – صلى الله عليه وسلم – حاضره ، ولم يبلغ إلى علمه . فربما كان من أسرار الهيكل التي لا تفشى ولا تباح للإذاعة بها ، فاتخذها القرآن – في مواجهة كبار أهل الكتاب وقتها – دليلاً على وحي من الله لرسوله الصادق . ولم يرد أنهم ردوا هذه الحجة . ولو كانت موضع جدال لجادلوه ؛ وهم قد جاءوا للجدال !

والآن نجيء إلى مولد عيسى : العجيبة الكبرى في عرف الناس ، والشأن العادي للمشيئة الطليقة :

﴿ إذ قالت الملائكة : يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم . وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس في المهد وكهلاً ؛ ومن الصالحين . قالت : رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ؟ قال : كذلك الله يخلق ما يشاء . إذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن . فيكون . . ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بأية من ربكم : أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ؛ وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله ؛ وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم . إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . ومصدقاً لما بين يدي من التوارة ، ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم ، فاتقوا الله وأطيعون .

إن الله ربي وربكم فاعبدوه . هذا صراط مستقيم ﴾ . .

لقد تأهلت مريم - إذن - بالتطهر والقنوت والعبادة لتلقي هذا الفضل ، واستقبال هذا الحدث ، وها هي ذي تتلقى - لأول مرة - التبليغ عن طريق الملائكة بالأمر الخطير :

﴿ إذ قالت الملائكة : يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم . وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين ﴾ . .

إنها بشارة كاملة وإفصاح عن الأمر كله . بشارة بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى بن

مريم . . فالمسيح بدل من الكلمة في العبارة . وهو الكلمة في الحقيقة . فماذا وراء هذا التعبير ؟

إن هذه وأمثالها ، من أمور الغيب التي لا مجال لمعرفة كنهها على وجه التحديد . . ربما كانت من الذي عناه الله بقوله : ﴿ أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . . . ﴾ إلخ .

ولكن الأمر أيسر من هذا إذا أردنا أن نفهم طبيعة هذه الحقيقة الفهم الذي يصل القلب بالله ، وصنعته وقدرته ، ومشيئته الطليقة :

(115/121)

لقد شاء الله أن يبدأ الحياة البشرية بخلق آدم من تراب - وسواء كان قد جبله مباشرة من التراب أو جبل السلالة الأولى التي انتهت إليه من تراب ، فإن هذا لا يقدم ولا يؤخر في طبيعة السر الذي لا يعلمه إلا الله . سر الحياة التي لابست أول مخلوق حي ، أو لابست آدم إن كان خلقه مباشرة من التراب الميت ! وهذه كتلك في صنع الله . وليست واحدة منهما بأولى من الأخرى في الوجود والكينونة . . . .

من أين جاءت هذه الحياة؟ وكيف جاءت؟ إنها قطعاً شيء آخر غير التراب وغير سائر المواد الميتة في هذه الأرض. . شيء زائد. وشيء مغاير. وشيء ينشىء آثاراً وظواهر لا توجد أبداً في التراب ولا في مادة ميتة على الإطلاق. .

هذا السر من أين جاء؟ إنه لا يكفي أننا لا نعلم لكي ننكر أو نهذر! كما يفعل الماديون في لجاجة صغيرة لا يحترمها عاقل فضلا عن عالم!

نحن لا نعلم. وقد ذهبت سدى جميع المحاولات التي بذلناها - نحن البشر - بوسائلنا المادية لمعرفة مصدرها. أو لإنشائها بأيدينا من الموات!

نحن لا نعلم. . ولكن الله الذي وهب الحياة يعلم. . وهو يقول لنا: إنها نفخة من روحه. وإن الأمر قد تم بكلمة منه. ﴿كن. فيكون﴾. .

ما هي هذه النفخة؟ وكيف تنفخ في الموات فينشأ فيه هذا السر اللطيف الخافي على الأفهام؟

ما هي؟ وكيف؟ هذا هو الذي لم يخلق العقل البشري لإدراكه. لأنه ليس من شأنه. إنه لم يوهب القدرة على إدراكه. إن معرفة ماهية الحياة وطريق النفخة لا يجديه شيئاً في وظيفته التي خلقه الله لها - وظيفة الخلافة في الأرض - إنه لن يخلق حياة من موات.

. فما قيمة أن يعرف طبيعة الحياة، وماهية النفخة من روح الله، وكيفية اتصالها بآدم أو بأول سلم الحياة الذي سارت فيه السلالة الحية؟

والله – سبحانه – يقول : إن النفخة من روحه في آدم هي التي جعلت له هذا الامتياز والكرامة – حتى على الملائكة – فلا بد إذن أن تكون شيئاً آخر غير مجرد الحياة الموهوبة للدود والميكروب ! وهذا ما يقودنا إلى اعتبار الإنسان جنساً نشأ نشأة ذاتية ، وأن له اعتباراً خاصاً في نظام الكون ، ليس لسائر الأحياء !

وعلى أية حال فهذا ليس موضوعنا هنا ، إنما هي لمحة في سياق العرض للتحرز من شبهة قد تقوم في نفس القارئ لما عرضناه جدلاً حول نشأة الإنسان !

المهم هنا أن الله يخبرنا عن نشأة سر الحياة ؛ وإن لم ندرك طبيعة هذا السر وكيفية نفخه في الموات . .

وقد شاء الله – بعد نشأة آدم نشأة ذاتية مباشرة – أن يجعل لإعادة النشأة الإنسانية طريقاً معيناً . طريق التقاء ذكر وأنثى . واجتماع بويضة وخلية تذكير . فيتم الإخصاب ، ويتم الإنسال . والبويضة حية غير ميتة والخلية حية كذلك متحركة .

ومضى مألوف الناس على هذه القاعدة . . حتى شاء الله أن يخرق هذه القاعدة المختارة في فرد من بني الإنسان . فينشئه نشأة قريبة وشبيهة بالنشأة الأولى . وإن لم تكن مثلها

تماماً . أنثى فقط . تتلقى النفخة التي تنشئ الحياة ابتداء . فتنشأ فيها الحياة !

أهذه النفخة هي الكلمة ؟ الكلمة هي توجه الإرادة ؟ الكلمة : "كن" التي قد تكون حقيقة وقد تكون كناية عن توجه الإرادة ؟ والكلمة هي عيسى ، أو هي التي منها كينونته ؟

كل هذه بحوث لا طائل وراءها إلا الشبهات . . وخلاصتها هي تلك : أن الله شاء أن ينشىء حياة على غير مثال . فأنشأها وفق إرادته الطليقة التي تنشئ الحياة بنفخة من روح الله . ندرك آثارها ، ونجهل ماهيتها . ويجب أن نجهلها . لأنها لا تزيد مقدرتنا على الاضطلاع بوظيفة الخلافة في الأرض ، ما دام إنشاء الحياة ليس داخلاً في تكليف الاستخلاف !

والأمر هكذا سهل الإدراك . ووقوعه لا يثير الشبهات !

وهكذا بشرت الملائكة مريم بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى بن مريم . . فتضمنت البشارة نوعه ، وتضمنت اسمه ونسبه . وظهر من هذا النسب أن مرجعه إلى أمه . . ثم تضمنت البشارة كذلك صفته ومكانه من ربه : ﴿ وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين

﴾ . . كما تضمنت ظاهرة معجزة تصاحب مولده ﴿ ويكلم الناس في المهد ﴾ . . ولمحة من مستقبله : ﴿ وكهلاً ﴾ . . وسمته والموكب الذي ينتسب إليه : ﴿ ومن الصالحين ﴾ . .

فأما مريم الفتاة الطاهرة العذراء المقيدة بمألوف البشر في الحياة ، فقد تلقت البشارة كما يمكن أن تتلقاها فتاة . واتجهت إلى ربها تناجيه وتتطلع إلى كشف هذا اللغز الذي يحير عقل الإنسان :

﴿ قالت : رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ؟ ﴾ .

.

وجاءها الجواب ، يردها إلى الحقيقة البسيطة التي يغفل عنها البشر لطول ألفتهم للأسباب والمسببات الظاهرة لعلمهم القليل ، ومألوفهم المحدود :

﴿ قال : كذلك الله يخلق ما يشاء . إذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن فيكون ﴾ . .

وحين يرد الأمر إلى هذه الحقيقة الأولية يذهب العجب ، وتزول الحيرة ، ويطمئن القلب ؛ ويعود الإنسان على نفسه يسألها في عجب : كيف عجبت من هذا الأمر الفطري الواضح القريب ! !

وهكذا كان القرآن ينشئ التصور الإسلامي لهذه الحقائق الكبيرة بمثل هذا اليسر الفطري القريب . وهكذا كان يجلو الشبهات التي تعقدها الفلسفات المعقدة ، ويقر الأمر في القلوب

وفي العقول سواء . .

ثم يتابع الملك البشارة لمريم عن هذا الخلق الذي اختارها الله لإنجابه على غير مثال ؛ وكيف ستمضي سيرته في بني إسرائيل . . وهنا تمتزج البشارة لمريم بمقبل تاريخ المسيح ، ويلتقيان في سياق واحد ، كأنما يقعان اللحظة ، على طريقة القرآن :

﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾ . .

والكتاب قد يكون المراد به الكتابة ؛ وقد يكون هو التوراة والإنجيل ، ويكون عطفهما على الكتاب هو عطف بيان . والحكمة حالة في النفس يتأتي معها وضع الأمور في مواضعها ، وإدراك الصواب واتباعه . وهي خير كثير . والتوراة كانت كتاب عيسى كالإنجيل . فهي أساس الدين الذي جاء به . والإنجيل تكملة وإحياء لروح التوراة ، ولروح الدين التي طمست في قلوب بني إسرائيل . وهذا ما يخطئ الكثيرون من المتحدثين عن المسيحية فيه فيغفلون التوراة ، وهي قاعدة دين المسيح – عليه السلام – وفيها الشريعة التي يقوم عليها نظام المجتمع ؛ ولم يعدل فيها الإنجيل إلا القليل . أما الإنجيل فهو نفخة إحياء وتجديد لروح الدين ، وتهذيب لضمير الإنسان بوصله مباشرة بالله من وراء النصوص . هذا الإحياء

وهذا التهذيب اللذان جاء المسيح وجاهد لهما حتى مكروا به كما سيجيء .

﴿ ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم . إن في ذلك لآية لكم . إن كنتم مؤمنين ﴾ . .

ويفيد هذا النص أن رسالة عيسى - عليه السلام - كانت لبني إسرائيل ، فهو أحد أنبيائهم . ومن ثم كانت التوراة التي نزلت على موسى - عليه السلام - وفيها الشريعة المنظمة لحياة الجماعة الإسرائيلية ، والمتضمنة لقوانين التعامل والتنظيم ، هي كتاب عيسى كذلك ، مضافاً إليها الإنجيل الذي يتضمن إحياء الروح وتهذيب القلب وإيقاظ الضمير .

والآية التي بشر الله أمه مريم أنها ستكون معه ، والتي واجه بها بالفعل بني إسرائيل هي معجزة النفخ في الموات فيدخله سر الحياة ، وإحياء الموتى من الناس ، وإبراء المولود الأعمى ، وشفاء الأبرص ، والإخبار بالغيب - بالنسبة له - وهو المدخر من الطعام وغيره في بيوت بني إسرائيل ، وهو بعيد عن رؤيته بعينه .

.

وحرص النص على أن يذكر على لسان المسيح - عليه السلام - كما هو مقدر في غيب الله عند البشارة لمريم ، وكما تحقق بعد ذلك على لسان عيسى - أن كل خارقة من هذه الخوارق التي جاءهم بها ، إنما جاءهم بها من عند الله . وذكر إذن الله بعد كل واحدة منها تفصيلاً وتحديدا ؛ ولم يدع القول يتم ليذكر في نهايته إذن الله زيادة في الاحتياط !

وهذه المعجزات في عمومها تتعلق بإنشاء الحياة أو ردها ، أو رد العافية وهي فرع عن الحياة . ورؤية غيب بعيد عن مدى الرؤية . . وهي في صميمها تتسق مع مولد عيسى ؛ ومنحه الوجود والحياة على غير مثال إلا مثال آدم - عليه السلام - وإذا كان الله قادراً أن يجري هذه المعجزات على يد واحد من خلقه ، فهو قادر على خلق ذلك الواحد من غير مثال . . ولا حاجة إذن لكل الشبهات والأساطير التي نشأت عن هذا المولد الخاص متى رُد الأمر إلى مشيئة الله الطليقة ولم يقيد الإنسانُ اللهَ - سبحانه - بمألوف الإنسان !

﴿ ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم . وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربي وربكم فاعبدوه . هذا صراط مستقيم ﴾ . .

وهذا الختام في دعوة عيسى - عليه السلام - لبني إسرائيل يتكشف عن حقائق أصيلة في طبيعة دين الله ، وفي مفهوم هذا الدين في دعوة الرسل جميعاً - عليهم الصلاة والسلام - وهي حقائق ذات قيمة خاصة حين ترد على لسان عيسى - عليه السلام - بالذات ، وهو الذي ثار حول مولده وحقيقته ما ثار من الشبهات ، التي نشأت كلها من الانحراف عن

حقيقة دين الله التي لا تتبدل بين رسول ورسول .

فهو إذ يقول : ﴿ ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾ . .

يكشف عن طبيعة المسيحية الحقة . فالتوارة التي تنزلت على موسى – عليه السلام – وهي تتضمن التشريع المنظم لحياة الجماعة وفق حاجة ذلك الزمان ، وملابسات حياة بني إسرائيل (بما أنها ديانة خاصة لمجموعة من البشر في فترة من الزمان) – هذه التوراة معتمدة في رسالة المسيح عليه السلام ؛ وجاءت رسالته مصدقة لها ، مع تعديلات تتعلق بإحلال بعض ما حرم الله عليهم ، وكان تحريمه في صورة عقوبات حلت بهم على معاص وانحرافات ، أدبهم الله عليها بتحريم بعض ما كان حلالاً لهم . ثم شاءت إرادته أن يرحمهم بالمسيح عليه السلام ، فيحل لهم بعض الذي حرم عليهم .

ومن هذا يتبين أن طبيعة الدين – أي دين – أن يتضمن تنظيماً لحياة الناس بالتشريع ؛ وألا يقتصر على الجانب التهذيبي الأخلاقي وحده ، ولا على المشاعر الوجدانية وحدها ، ولا على العبادات والشعائر وحدها كذلك .

فهذا لا يكون ديناً . فما الدين إلا منهج الحياة الذي أراده الله للبشر ؛ ونظام الحياة الذي يربط حياة الناس بمنهج الله .

ولا يمكن أن ينفك عنصر العقيدة الإيمانية ، عن الشعائر التعبدية ، عن القيم الخلقية ، عن الشرائع التنظيمية ، في أي دين يريد أن يصرّف حياة الناس وفق المنهج الإلهي . وأي انفصال لهذه المقومات يبطل عمل الدين في النفوس وفي الحياة ؛ ويخالف مفهوم الدين وطبيعته كما أراده الله .

(121/121)

وهذا ما حدث للمسيحية . فإنها لعدة ملابسات تاريخية من ناحية ؛ ولكونها جاءت موقوته لزمن - حتى يجيء الدين الأخير - ثم عاشت بعد زمنها من ناحية . . قد انفصل فيها الجانب التشريعي التنظيمي عن الجانب الروحاني التعبدي الأخلاقي . . فقد حدث أن قامت العداوة المستحكمة بين اليهود والمسيح عليه السلام وأنصاره ومن اتبع دينه فيما بعد ؛ فأنشأ هذا انفصالاً بين التوراة المتضمنة للشريعة والإنجيل المتضمن للإحياء الروحي والتهذيب الأخلاقي . . كما أن تلك الشريعة كانت شريعة موقوتة لزمن خاص ولجماعة من الناس خاصة . وكان في تقدير الله أن الشريعة الدائمة الشاملة للبشرية كلها ستجيء في

موعدها المقدور .

وعلى أية حال فقد انتهت المسيحية إلى أن تكون نحلة بغير شريعة . وهنا عجزت عن أن تقود الحياة الاجتماعية للأمم التي عاشت عليها . فقيادة الحياة الاجتماعية تقتضي تصوراً اعتقادياً يفسر الوجود كله ، ويفسر حياة الإنسان ومكانه في الوجود ؛ وتقتضي نظاماً تعبدياً وقيماً أخلاقية . ثم تقتضي – حتماً – تشريعات منظمة لحياة الجماعة ، مستمدة من ذلك التصور الاعتقادي ، ومن هذا النظام التعبدي ، ومن هذه القيم الأخلاقية . وهذا القوام التركيبي للدين هو الذي يضمن قيام نظام اجتماعي ، له بواعثه المفهومة ، وله ضماناته المكينة . . فلما وقع ذلك الانفصال في الدين المسيحي عجزت المسيحية عن أن تكون نظاماً شاملاً للحياة البشرية ، واضطر أهلها إلى الفصل بين القيم الروحية والقيم العملية في حياتهم كلها ، ومن بينهما النظام الاجتماعي الذي تقوم عليه هذه الحياة . وقامت الأنظمة الاجتماعية هناك على غير قاعدتها الطبيعية الوحيدة . فقامت معلقة في الهواء . أو قامت عرجاء !

(122/121)

ولم يكن هذا أمراً عادياً في الحياة البشرية ، ولا حادثاً صغيراً في التاريخ البشري . . إنما كان كارثة : كارثة ضخمة تنبع منها الشقوة والحيرة والانحلال والشذوذ والبلاء الذي تتخبط فيه الحضارة المادية اليوم . سواء في البلاد التي لا تزال تعتنق المسيحية – وهي خالية من النظام الاجتماعي لخلوها من التشريع – أو التي نفضت عنها المسيحية وهي في الحقيقة لم تبعد كثيراً عن الذين يدعون أنهم مسيحيون . . فالمسيحية كما جاء بها السيد المسيح ، وكما هي طبيعة كل دين يستحق كلمة دين ، هي الشريعة المنظمة للحياة ، المنبثقة من التصور الاعتقادي في الله ، ومن القيم الأخلاقية المستندة إلى هذا التصور .

. وبدون هذا القوام الشامل المتكامل لا تكون مسيحية . ولا يكون دين على الإطلاق !

وبدون هذا القوام الشامل المتكامل لا يقوم نظام اجتماعي للحياة البشرية يلبي حاجات النفس البشرية ، ويلبي واقع الحياة البشرية ، ويرفع النفس البشرية والحياة البشرية كلها إلى الله .

وهذه الحقيقة هي أحد المفاهيم التي يتضمنها قول المسيح عليه السلام :

﴿ ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾ . . إلخ . .

وهو يستند في تبليغ هذه الحقيقة على الحقيقة الكبرى الأولى : حقيقة التوحيد الذي لا شبهة فيه :

﴿ وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربي وربكم فاعبدوه . هذا صراط مستقيم ﴾ . .

(123/121)

فهو يعلن حقيقة التصور الاعتقادي التي قام عليها دين الله كله : المعجزات التي جاءهم بها لم يجىء بها من عند نفسه . فما له قدرة عليها وهو بشر . إنما جاءهم بها من عند الله . ودعوته تقوم ابتداء على تقوى الله وطاعة رسوله . . ثم يؤكد ربوبية الله له ولهم على السواء - فما هو برب وإنما هو عبد - وأن يتوجهوا بالعبادة إلى الرب ، فلا عبودية إلا لله . . ويختم قوله بالحقيقة الشاملة . . فتوحيد الرب وعبادته ، وطاعة الرسول والنظام الذي جاء به : ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ . . وما عداه عوج وانحراف . وما هو قطعاً بالدين . .

ومن بشارة الملائكة لمريم بابنها المنتظر ، وصفاته ورسالته ومعجزاته وكلماته ، هذه التي ذكرت ملحقة بالبشارة . . ينتقل السياق مباشرة إلى إحساسه - عليه السلام - بالكفر من بني إسرائيل ، وإلى طلبه الأنصار لإبلاغ دين الله :

﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال : من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار

الله ، آمنا بالله ، واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ .

وهنا فجوة كبيرة في السياق . فإنه لم يذكر أن عيسى قد ولد بالفعل ؛ ولا أن أمه واجهت به القوم فكلمهم في المهد ؛ ولا أنه دعا قومه وهو كهل ؛ ولا أنه عرض عليهم هذه المعجزات التي ذكرت في البشارة لأمه (كما جاء في سورة مريم) . . وهذه الفجوات ترد في القصص القرآني ، لعدم التكرار في العرض من جهة ، وللاقتصار على الحلقات والمشاهد المتعلقة بموضوع السورة وسياقها من جهة أخرى . .

والآن لقد أحس عيسى الكفر من بني إسرائيل - بعد ما أراهم كل تلك المعجزات التي لا تهيأ لبشر ؛ والتي تشهد بأن الله وراءها ، وأن قوة الله تؤيدها ، وتؤيد من جاءت على يده . ثم على الرغم من أن المسيح جاء ليخفف عن بني إسرائيل بعض القيود والتكاليف . .

عندئذ دعا دعوته :

﴿ قال : من أنصاري إلى الله ؟ ﴾ . .

من أنصاري إلى دين الله ودعوته ومنهجه ونظامه ؟ من أنصاري إلى الله لأبلغ إليه ، وأؤدي عنه ؟

ولا بد لكل صاحب عقيدة ودعوة من أنصار ينهضون معه ، ويحملون دعوته ، ويحامون دونها ، ويبلغونها إلى من يليهم ، ويقومون بعده عليها .

.

﴿ قال الحواريون : نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ﴾ .

فذكروا الإسلام بمعناه الذي هو حقيقة الدين ، وأشهدوا عيسى - عليه السلام - على إسلامهم هذا وانتدابهم لنصرة الله . . أي نصرة رسوله ودينه ومنهجه في الحياة .

ثم اتجهوا إلى ربهم يتصلون مباشرة به في هذا الأمر الذي يقومون عليه :

﴿ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول ، فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ .

وفي هذا التوجه لعقد البيعة مع الله مباشرة لفتة ذات قيمة . . إن عهد المؤمن هو ابتداء مع ربه ، ومتى قام الرسول بإبلاغه فقد انتهت مهمة الرسول من ناحية الاعتقاد ؛ وانعقدت البيعة مع الله ، فهي باقية في عنق المؤمن بعد الرسول . . وفيه كذلك تعهد لله باتباع الرسول . فليس الأمر مجرد عقيدة في الضمير ؛ ولكنه اتباع لمنهج ، والاقتداء فيه بالرسول . وهو المعنى الذي يركز عليه سياق هذه السورة - كما رأينا - ويكرره بشتى الأساليب .

ثم عبارة أخرى تلفت النظر في قول الحواريين : ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ . .

فأي شهادة وأي شاهدين ؟

إن المسلم المؤمن بدين الله مطلوب منه أن يؤدي شهادة لهذا الدين . شهادة تؤيد حق هذا الدين في البقاء ؛ وتؤيد الخير الذي يحمله هذا الدين للبشر . . وهو لا يؤدي هذه الشهادة حتى يجعل من نفسه ومن خلقه ومن سلوكه ومن حياته صورة حية لهذا الدين . صورة يراها الناس فيرون فيها مثلاً رفيعاً ، يشهد لهذا الدين بالأحقية في الوجود ، وبالخيرية والأفضلية على سائر ما في الأرض من أنظمة وأوضاع وتشكيلات .

(125/121)

وهو لا يؤدي هذه الشهادة كذلك حتى يجعل من هذا الدين قاعدة حياته ، ونظام مجتمعه ، وشريعة نفسه وقومه . فيقوم مجتمع من حوله ، تدبر أموره وفق هذا المنهج الإلهي القويم . . وجهاده لقيام هذا المجتمع ، وتحقيق هذا المنهج ؛ وإيثاره الموت في سبيله على الحياة في ظل مجتمع آخر لا يحقق منهج الله في حياة الجماعة البشرية . . هو شهادته بأن هذا الدين خير من الحياة ذاتها وهي أعز ما يحرص عليه الأحياء ! ومن ثم يدعى " شهيداً " . .

فهؤلاء الحواريون يدعون الله أن يكتبهم مع الشاهدين لدينه . . أي أن يوفقهم ويعينهم في أن

يجعلوا من أنفسهم صورة حية لهذا الدين ؛ وأن يبعثهم للجهاد في سبيل تحقيق منهجه في الحياة ، وإقامة مجتمع يتمثل فيه هذا المنهج . ولو أدوا ثمن ذلك حياتهم ليكونوا من " الشهداء " على حق هذا الدين .

وهو دعاء جدير بأن يتأمله كل من يدعي لنفسه الإسلام . . فهذا هو الإسلام ، كما فهمه الحواريون . وكما هو في ضمير المسلمين الحقيقيين ! ومن لم يؤد هذه الشهادة لدينه فكتمها فهو آثم قلبه . فأما إذا ادعى الإسلام ثم سار في نفسه غير سيرة الإسلام ؛ أو حاولها في نفسه ، ولكنه لم يؤدها في المجال العام ، ولم يجاهد لإقامة منهج الله في الحياة إيثاراً للعافية ، وإيثاراً لحياته على حياة الدين ، فقد قصر في شهادته أو أدى شهادة ضد هذا الدين .

شهادة تصد الآخرين عنه . وهم يرون أهله يشهدون عليه لا له ! وويل لمن يصد الناس عن دين الله عن طريق ادعائه أنه مؤمن بهذا الدين وما هو من المؤمنين !

ويمضي السياق إلى خاتمة القصة بين عيسى – عليه السلام – وبني إسرائيل :

(126/121)

﴿ ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين . إذ قال الله : يا عيسى إني متوفيك ، ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ؛ ثم إليَّ

مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ، فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة ، وما لهم من ناصرين . وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ، والله لا يحب الظالمين ﴾ . .

والمكر الذي مكره اليهود الذين لم يؤمنوا برسولهم - عيسى عليه السلام - مكر طويل عريض . فقد قذفوه عليه السلام وقذفوا الطاهرة أمه مع يوسف النجار خطيبها الذي لم يدخل بها كما تذكر الأناجيل . . وقد اتهموه بالكذب والشعوذة ؛ ووشوا به إلى الحاكم الروماني " بيلاطس " وادعوا أنه " مهيج " يدعو الجماهير للانتقاض على الحكومة ! وأنه مشعوذ يجدف ويفسد عقيدة الجماهير ! حتى سلم لهم بيلاطس بأن يتولوا عقابه بأيديهم ، لأنه لم يجرؤ - وهو وثني - على احتمال تبعة هذا الإثم مع رجل لم يجد عليه ريبة . . وهذا قليل من كثير . .

﴿ ومكروا ومكر الله . والله خير الماكرين ﴾ . .

والمشاكلة هنا في اللفظ هي وحدها التي تجمع بين تدبيرهم وتدبير الله . . والمكر التدبير . . ليسخر من مكرهم وكيدهم إذا كان الذي يواجهه هو تدبير الله . فأين هم من الله ؟ وأين مكرهم من تدبير الله ؟

لقد أرادوا صلب عيسى - عليه السلام - وقتله . وأراد الله أن يتوفاه ، وأن يرفعه إليه . وأن يطهره من مخالطة الذين كفروا والبقاء بينهم وهم رجس ودنس ، وأن يكرمه فيجعل

الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة . . وكان ما أراده الله . وأبطل الله مكر الماكرين :

﴿ إذ قال الله : يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ .

(127/121)

فأما كيف كانت وفاته ، وكيف كان رفعه . . فهي أمور غيبية تدخل في المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله . ولا طائل وراء البحث فيها . لا في عقيدة ولا في شريعة . والذين يجرون وراءها ، ويجعلونها مادة للجدل ، ينتهي بهم الحال إلى المراء ، وإلى التخليط ، وإلى التعقيد . دون ما جزم بحقيقة . ودون ما راحة بال في أمر موكول إلى علم الله .

وأما أن الله جعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة .

. فلا يصعب القول فيه . فالذين اتبعوه هم الذين يؤمنون بدين الله الصحيح . . الإسلام . . الذي عرف حقيقته كل نبي ، وجاء به كل رسول ، وآمن به كل من آمن حقاً بدين الله . . وهؤلاء فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة في ميزان الله . . كما أنهم كذلك في واقع الحياة كلما واجهوا معسكر الكفر بحقيقة الإيمان ، وحقيقة الاتباع . . ودين الله واحد . وقد جاء به

عيسى بن مريم كما جاء به من قبله ومن بعده كل رسول. والذين يتبعون محمداً - صلى الله عليه وسلم - هم في الوقت ذاته اتبعوا موكب الرسل كلهم. من لدن آدم - عليه السلام - إلى آخر الزمان.

وهذا المفهوم الشامل هو الذي يتفق مع سياق السورة، ومع حقيقة الدين كما يركز عليها هذا السياق.

فأما نهاية المطاف للمؤمنين والكافرين، فيقررها السياق في صدد إخبار الله لعيسى عليه السلام:

﴿ ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون. فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين. وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم. والله لا يحب الظالمين ﴾..

(128/121)

وفي هذا النص تقرير لجدية الجزاء، وللقسط الذي لا يميل شعرة، ولا تتعلق به الأماني ولا الافتراء.. رجعة إلى الله لا محيد عنها. وحكم من الله فيما اختلفوا فيه لا مرد له.

وعذاب شديد في الدنيا والآخرة للكافرين لا ناصر لهم منه. وتوفية للأجر للذين آمنوا

وعملوا الصالحات لا محاباة فيه ولا بخس . . ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ . . فحاشا أن يظلم وهو لا يحب الظالمين . .

وكل ما يقوله أهل الكتاب إذن من أنهم لن يدخلوا النار إلا أياما معدودات . وكل ما رتبوه على هذا التميع في تصور عدل الله في جزائه من أماني خادعة . . باطل باطل لا يقوم على أساس .

وعندما يصل السياق إلى هذا الحد من قصة عيسى التي تدور حولها المناظرة ويدور حولها الجدل ، يبدأ التعقيب الذي يقرر الحقائق الأساسية المستفادة من هذا القصص ، وينتهي إلى تلقين الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما يواجه به أهل الكتاب مواجهة فاصلة تنهي الحوار والجدل ؛ وتستقر على حقيقة ما جاء به ، وما يدعو إليه ، في وضوح كامل وفي يقين :

﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم . إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب . ثم قال له : كن . فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين إن هذا لهو القصص الحق ، وما من إله إلا الله . وإن الله لهو العزيز الحكيم .

فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين . قل : يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم :

ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله. فإن تولوا فقولوا: اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ . .

وهكذا نجد هذا التعقيب يتضمن ابتداء صدق الوحي الذي يوحى إلى محمد – صلى الله عليه وسلم –:

﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾ . .

(129/121)

ذلك القصص. وذلك التوجيه القرآني كله. فهو وحي من الله. يتلوه الله على نبيه – صلى الله عليه وسلم – وفي التعبير معنى التكريم والقرب والود . . فماذا بعد أن يتولى الله تعالى التلاوة على محمد نبيه؟ تلاوة الآيات والذكر الحكيم . . وإنه لحكيم يتولى تقرير الحقائق الكبرى في النفس والحياة بمنهج وأسلوب وطريقة تخاطب الفطرة وتتلطف في الدخول عليها واللصوق بها بشكل غير معهود فيما يصدر عن غير هذا المصدر الفريد.

ثم يحسم التعقيب في حقيقة عيسى عليه السلام، وفي طبيعة الخلق والإرادة التي تنشىء كل شيء كما أنشأت عيسى عليه السلام:

﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم. خلقه من تراب. ثم قال له: كن فيكون ﴾ . .

إن ولادة عيسى عجيبة حقاً بالقياس إلى مألوف البشر . ولكن أية غرابة فيها حين تقاس إلى خلق آدم أبي البشر ؟ وأهل الكتاب الذين كانوا يناظرون ويجادلون حول عيسى – بسبب مولده – ويصوغون حوله الأوهام والأساطير بسبب أنه نشأ من غير أب . . أهل الكتاب هؤلاء كانوا يقرون بنشأة آدم من التراب . وأن النفخة من روح الله هي التي جعلت منه هذا الكائن الإنساني . . دون أن يصوغوا حول آدم الأساطير التي صاغوها حول عيسى . ودون أن يقولوا عن آدم : إن له طبيعة لاهوتية . على حين أن العنصر الذي به صار آدم إنسانا هو ذاته العنصر الذي به ولد عيسى من غير أب : عنصر النفخة الإلهية في هذا وذاك ! وإن هي إلا الكلمة : ﴿ كن ﴾ تنشىء ما تراد له النشأة ﴿ فيكون ﴾ !

وهكذا تتجلى بساطة هذه الحقيقة . . حقيقة عيسى ، وحقيقة آدم ، وحقيقة الخلق كله . وتدخل إلى النفس في يسر وفي وضوح ، حتى ليعجب الإنسان : كيف ثار الجدل حول هذا الحادث ، وهو جار وفق السنة الكبرى . سنة الخلق والنشأة جميعاً !

وهذه هي طريقة "الذكر الحكيم" في مخاطبة الفطرة بالمنطق الفطري الواقعي البسيط ، في أعقد القضايا ، التي تبدو بعد هذا الخطاب وهي اليسر الميسور !

(130/121)

وعندما يصل السياق بالقضية إلى هذا التقرير الواضح يتجه إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – يثبته على الحق الذي معه ، والذي يتلى عليه ، ويؤكده في حسه ؛ كما يؤكده في حس من حوله من المسلمين ، الذين ربما تؤثر في بعضهم شبهات أهل الكتاب ، وتلبيسهم وتضليلهم الخبيث :

﴿ الحق من ربك فلا تكن من الممترين ﴾ .

.

وما كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – ممترياً ولا شاكاً فيما يتلوه عليه ربه ، في لحظة من لحظات حياته . . وإنما هو التثبيت على الحق ، ندرك منه مدى ما كان يبلغه كيد أعداء الجماعة المسلمة من بعض أفرادها في ذلك الحين . كما ندرك منه مدى ما تتعرض له الأمة المسلمة في كل جيل من هذا الكيد ؛ وضرورة تثبيتها على الحق الذي معها في وجه الكائدين والخادعين ؛ ولهم في كل جيل أسلوب من أساليب الكيد جديد .

وهنا – وقد وضحت القضية وظهر الحق جلياً – يوجه الله تعالى رسوله الكريم إلى أن ينهي الجدل والمناظرة حول هذه القضية الواضحة وحول هذا الحق البين وأن يدعوهم إلى المباهلة كما هي مبينة في الآية التالية :

﴿ فمن حاجك فيه – من بعد ما جاءك من العلم – فقل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم . ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ . .

وقد دعا الرسول – صلى الله عليه وسلم – من كانوا يناظرونه في هذه القضية إلى هذا الاجتماع الحاشد ، ليبتهل الجميع إلى الله أن ينزل لعنته على الكاذب من الفريقين . فخافوا العاقبة وأبوا المباهلة . وتبين الحق واضحاً . ولكنهم فيما ورد من الروايات لم يسلموا احتفاظاً بمكانتهم من قومهم ، وبما كان يتمتع به رجال الكنيسة من سلطان وجاه ومصالح ونعيم ! ! ! وما كانت البينة هي التي يحتاج إليها من يصدون عن هذا الدين إنما هي المصالح والمطامع والهوى يصد الناس عن الحق الواضح الذي لا خفاء فيه .

(131/121)

ثم يمضي التعقيب بعد الدعوة إلى المباهلة – وربما كانت الآيات التالية قد نزلت بعد الامتناع عنها – يقرر حقيقة الوحي ، وحقيقة القصص ، وحقيقة الوحدانية التي يدور حولها الحديث ؛ ويهدد من يتولى عن الحق ويفسد في الأرض بهذا التولي :

﴿ إن هذا لهو القصص الحق . وما من إله إلا الله . وإن الله لهو العزيز الحكيم . فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين ﴾ .

والحقائق التي تقررها هذه النصوص سبق تقريرها . وهي تذكر هنا للتوكيد بعد الدعوة إلى المباهلة وإبائها . . إنما الجديد هو وصف الذين يتولون عن الحق بأنهم مفسدون ،

وتهديدهم بأن الله عليم بالمفسدين . .

والفساد الذي يتولاه المعرضون عن حقيقة التوحيد فساد عظيم . وما ينشأ في الأرض الفساد – في الواقع – إلا من الحيدة عن الاعتراف بهذه الحقيقة . لا اعتراف اللسان . فاعتراف اللسان لا قيمة له . ولا اعتراف القلب السلبي . فهذا الاعتراف لا ينشئ آثاره الواقعية في حياة الناس . . إنما هي الحيدة عن الاعتراف بهذه الحقيقة بكل آثارها التي تلازمها في واقع الحياة البشرية . . وأول ما يلازم حقيقة التوحيد أن تتوحد الربوبية ، فتتوحد العبودية . . لا عبودية إلا لله . ولا طاعة إلا لله . ولا تلقي إلا عن الله . فليس إلا لله تكون العبودية . وليس إلا لله تكون الطاعة . وليس إلا عن الله يكون التلقي . . التلقي في التشريع ، والتلقي في القيم والموازين ، والتلقي في الآداب والأخلاق . والتلقي في كل ما يتعلق بنظام الحياة البشرية . . وإلا فهو الشرك أو الكفر . مهما اعترفت الألسنة ، ومهما اعترفت القلوب الاعتراف السلبي الذي لا ينشئ آثاره في حياة الناس العامة في استسلام وطاعة واستجابة وقبول .

(132/121)

إن هذا الكون بجملته لا يستقيم أمره ولا يصلح حاله ، إلا أن يكون هناك إله واحد ، يدبر أمره : و ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ وأظهر خصائص الألوهية بالقياس إلى البشرية : تعبد العبيد ؛ والتشريع لهم في حياتهم ، وإقامة الموازين لهم . فمن ادعى لنفسه شيئاً من هذا كله فقد ادعى لنفسه أظهر خصائص الألوهية ؛ وأقام نفسه للناس إلهاً من دون الله .

وما يقع الفساد في الأرض كما يقع عندما تتعدد الآلهة في الأرض على هذا النحو . عندما يتعبد الناسُ الناس . عندما يدعي عبد من العبيد أن له على الناس حق الطاعة لذاته ؛ وأن له فيهم حق التشريع لذاته ؛ وأن له كذلك حق إقامة القيم والموازين لذاته . فهذا هو ادعاء الألوهية ولو لم يقل كما قال فرعون : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ والإقرار به هو الشرك بالله أو الكفر به . . وهو الفساد في الأرض أقبح الفساد .

ومن ثم يتلو ذلك التهديد في السياق دعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء : إلى عبادة الله وحده ، وعدم الإشراك به ، وألا يتخذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله . . وإلا فهي المفاصلة التي لا مصاحبة بعدها ولا مجادلة :

﴿ قل : يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ . .

وإنها لدعوة منصفة من غير شك . دعوة لا يريد بها النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يتفضل عليهم هو ومن معه من المسلمين . . كلمة سواء يقف أمامها الجميع على مستوى واحد . لا يعلو بعضهم على بعض ، ولا يتعبد بعضهم بعضاً . دعوة لا يأباها إلا متعنت مفسد ، لا يريد أن يفيء إلى الحق القويم .

إنها دعوة إلى عبادة الله وحده لا يشركون به شيئاً . لا بشراً ولا حجراً . ودعوة إلى ألا يتخذ بعضهم بعضاً من دون الله أرباباً . لا نبياً ولا رسولاً . فكلهم لله عبيد . إنما اصطفاهم الله للتبليغ عنه ، لا لمشاركته في الألوهية والربوبية .

(133/121)

﴿ فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ .

فإن أبوا عبادة الله وحده دون شريك . والعبودية لله وحده دون شريك . وهما المظهران اللذان يقرران موقف العبيد من الألوهية . . إن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . . وهذه المقابلة بين المسلمين ومن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ، تقرر بوضوح حاسم من هم المسلمون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 1 صـ 389 . 406 ﴾

(134/121)

قوله تعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما علم أهل الكتاب ما جبل عليه العرب من محبة أبيهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأن محمداً صلى الله عليه وسلم أتى بدينة كما تقدم في قوله سبحانه وتعالى ﴿ بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ [البقرة : 135] اجتمع ملأ من قرابتهم بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وضلل كل منهم الآخر وادعى كل منهم قصداً لاجتذاب المسلمين إلى ضلالهم بكيدهم ومحالهم اتباع إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأنه صلى الله عليه وسلم كان على دينهم ، ولم يكن لذلك ذكر في كتابهم ، مع أن العقل يرده بأدنى التفات ، لأن دين كل منهم إنما قرر بكتابهم ، وكتابهم إنما نزل على نبيهم ، ونبيهم إنما كان بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام بدهور متطاولة ، واليهود ينسبون إلى يهوذا بن يعقوب عليه السلام ، لأخذه البكورية عن أخيه بنيامين لأمر مذكور في كتابهم ، والنصارى ينسبون إلى الناصرة مخرج عيسى عليه الصلاة والسلام في جبل الجليل ، ولا يعقل أن يكون المتقدم على دين ما حدث إلا بعده وعلى نسبة متأخرة عنه ، وكان دينه صلى الله عليه وسلم إنما هو الإسلام ، وهو

الحنيفية السمحة فقال سبحانه وتعالى مبكتاً لهم : ﴿ يا أهل الكتاب ﴾ كالمعلل لتبكيتهم ، لأن الزلة من العالم أشنع ﴿ لم تحآجون في إبراهيم ﴾ فيدعيه كل من فريقكم ﴿ و ﴾ الحال أنه ﴿ ما أنزلت التوراة والإنجيل ﴾ المقرر كل منهما لأصل دين متجدد منكم ﴿ إلا ﴾ ولما كان إنزال كتاب كل منهم غير مستغرق للزمان الآتي بعده أدخل الجار فقال : ﴿ من بعده ﴾ وأعظم ما يتمسك به كل فرقة منهما السبت والأحد ، ولم يكن ما يدعونه فيهما في شريعة إبراهيم عليه السلام ، لا يقدرون على إنكار ذلك ، ولا يأتي مثل ذلك في دعوى أنه مسلم لأن الإسلام الذي هو الإذعان للدليل معنى قديم موجود من حين خلق الله العقل ، والدليل أنه لا يقدر أحد أن يدعي أنه ما حدث إلا بعد إبراهيم عليه السلام كما قيل في الدينين المذكورين .

ولما كان الدليل العقلي واضحاً في ذلك ختم الآية بقوله منكراً عليهم ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي هب أنكم لبستم وادعيتم أن ذلك في كتابكم زوراً وبهتاناً ، وظننتم أن ذلك يخفى على من لا إلمام له بكتابكم ، فكيف غفلتم عن البرهان العقلي ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 110 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن اليهود كانوا يقولون : إن إبراهيم كان على ديننا ، والنصارى كانوا يقولون : كان إبراهيم على ديننا ، فأبطل الله عليهم ذلك بأن التوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعده فكيف يعقل أن يكون يهودياً أو نصرانياً ؟ .

فإن قيل : فهذا أيضاً لازم عليكم لأنكم تقولون : إن إبراهيم كان على دين الإسلام ، والإسلام إنما أنزل بعده بزمان طويل ، فإن قلتم إن المراد أن إبراهيم كان في أصول الدين على المذهب الذي عليه المسلمون الآن ، فنقول : فلم لا يجوز أيضاً أن تقول اليهود إن إبراهيم كان يهودياً بمعنى أنه كان على الدين الذي عليه اليهود ، وتقول النصارى إن إبراهيم كان نصرانياً بمعنى أنه كان على الدين الذي عليه النصارى ، فكون التوراة والإنجيل نازلين بعد إبراهيم لا ينافي كونه يهودياً أو نصرانياً بهذا التفسير ، كما إن كون القرآن نازلاً بعده لا ينافي كونه مسلماً .

(136/121)

والجواب : إن القرآن أخبر أن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً ، وليس في التوراة والإنجيل أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً ، فظهر الفرق ، ثم نقول : أما إن النصارى ليسوا على ملة إبراهيم ، فالأمر فيه ظاهر ، لأن المسيح ما كان موجوداً في زمن إبراهيم ، فما كانت عبادته مشروعة في زمن إبراهيم لا محالة ، فكان الاشتغال بعبادة المسيح مخالفة لملة إبراهيم لا محالة ، وأما إن اليهود ليسوا على ملة إبراهيم ، فذلك لأنه لا شك إنه كان لله سبحانه وتعالى تكاليف على الخلق قبل مجيء موسى عليه السلام ، ولا شك أن الموصل لتلك التكاليف إلى الخلق واحد من البشر ، ولا شك أن ذلك الإنسان قد كان مؤيداً بالمعجزات ، وإلا لم يجب على الخلق قبول تلك التكاليف منه فإذن قد كان قبل مجيء موسى أنبياء ، وكانت لهم شرائع معينة ، فإذا جاء موسى فإما أن يقال إنه جاء بتقرير تلك الشرائع ، أو بغيرهما فإن جاء بتقريرها لم يكن موسى صاحب تلك الشريعة ، بل كان كالفقيه المقرر لشرع من قبله ، واليهود لا يرضون بذلك ، وإن كان قد جاء بشرع آخر سوى شرع من تقدمه فقد قال بالنسخ ، فثبت أنه لا بد وأن يكون دين كل الأنبياء جواز القول بالنسخ واليهود ينكرون ذلك ، فثبت أن اليهود ليسوا على ملة إبراهيم ، فبطل قول اليهود والنصارى بأن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً ، فهذا هو المراد من الآية ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 77 . 78 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

قال الزجاج : هذه الآية أَبْيَنُ حجة على اليهود والنصارى ؛ إذ التوراة والإنجيل أنزلا من بعده وليس فيهما اسم لواحد من الأديان ، واسم الإسلام في كل كتاب .

ويقال : كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة ، وبين موسى وعيسى أيضاً ألف سنة . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 107 ﴾

(137/121)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ لِمَ تُحَآجُّونَ ﴾ هي " ما " الاستفهامية ، دخل عليها حرف الجر ، فحُذِفَت ألفُها وتقدم ذلك في البقرة ، واللام متعلقة بما بعدها ، وتقديمها على عاملها واجب ؛ لجرها ما له صَدْرُ الكلام .

قوله : ﴿ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ لا بد من مضافٍ محذوفٍ ، أي : في دين إبراهيم وشريعته ؛ لأن الذوات لا مجادلة فيها .

قوله : ﴿ وَمَآ أُنزِلَتِ التوراة ﴾ الظاهر أن الواو للحال ، كهي في قوله : ﴿ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ

اللهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ [آل عمران : 70] .

أي كيف تحاجون في شريعته والحال أن التوراة والإنجيل متأخران عنه ؟

وجوزوا أن تكون عاطفة ، وليس بالبيّن ، وهذا الاستفهام للإنكار والتعجُّب ، وقوله : ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ ﴾ متعلق بـ " أنزلت " ، وهو استثناء مفرَّغ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 299 ﴾

وقال أبو حيان :

و : ما ، في قوله : لِمَ ، استفهامية حذفت ألفها مع حرف الجر ، ولذلك علة ذكرت في النحو ، وتتعلق : اللام بتحاجون ، ومعنى هذا الاستفهام الإنكار ، ومعنى : في إبراهيم ، في شرعه ودينه وما كان عليه ، ومعنى : المحاجة ، ادعاء من الطائفتين أنه منها وجدالهم في ذلك ، فرد الله عليهم ذلك بأن شريعة اليهود والنصارى متأخرة عن إبراهيم ، وهو متقدم عليهما ، ومحال أن ينسب المتقدم إلى المتأخر ، ولظهور فساد هذه الدعوى قال : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي : هذا كلام من لا يعقل ، إذ العقل يمنع من ذلك .

ولا يناسب أن يكون موافقاً لهم ، لا في العقائد ولا في الأحكام .

أمّا في العقائد فعبادتهم عيسى وادعاؤهم أنه الله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة .

وادعاء اليهود أن عزيراً ابن الله ، ولم يكونا موجودين في زمان إبراهيم .

وأما الأحكام فإن التوراة والإنجيل فيهما أحكام مخالفة للأحكام التي كانت عليها شريعة إبراهيم ، ومن ذلك قوله ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ﴾ وقوله : ﴿ إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ﴾ وغير ذلك فلا يمكن إبراهيم على دين حدث بعده بأزمنة متطاوله .

ذكر المؤرخون أن بين إبراهيم وموسى ألف سنة ، وبينه وبين عيسى ألفان .

وروى أبو صالح عن ابن عباس : أنه كان بين إبراهيم وموسى خمسمائة سنة وخمس وسبعون سنة ، وبين موسى وعيسى ألف سنة وستمائة واثنتان وثلاثون سنة .

وقال ابن إسحاق : كان بين إبراهيم وموسى خمسمائة سنة وخمس وستون سنة ، وبين موسى وعيسى ألف وتسعمائة سنة وخمس وعشرون .

والواو في : ﴿ وما أنزلت التوراة ﴾ لعطف جملة على جملة ، هكذا ذكروا .

والذي يظهر أنها للحال كهي في قوله تعالى : ﴿ لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴾ وقوله ﴿ لم تلبسون ﴾ ثم قال ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ وقوله : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ أنكر عليهم ادّعاء أن إبراهيم كان على شريعة اليهود أو النصارى ، والحال أن شريعتيهما متأخرتان عنه في الوجود ، فكيف يكون عليها مع تقدمه عليها ؟

وأمّا الحنيفية والإسلام فمن الأوصاف التي يختص بها كل ذي دين حق ، ولذلك قال تعالى :

﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ إذ الحنيف هو المائل للحق ، والمسلم هو المستسلم للحق ، وقد أخبر القرآن بأن إبراهيم ﴿ كان حنيفاً مسلماً ﴾

وفي قوله : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ توبيخ على استحالة مقالتهم ، وتنبيه على ما يظهر به غلطهم ومكابرتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 509 ﴾

من فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

(139/121)

﴿ يا أَهْلِ الكتاب ﴾ خطاب لليهود والنصارى ﴿ لِمَ تُحَاجُّونَ فِى إبراهيم ﴾ أي تنازعون وتجادلون فيه ويدعي كل منكم أنه عليه السلام كان على دينه ، أخرج ابن إسحق ، وابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : "اجتمعت نصارى نجران ، وأحبار يهود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنازعوا عنده فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهودياً ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانياً فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية" والظرف الأول متعلق بما بعده وكذا الثاني ، وما استفهامية ، والغرض الإنكار والتعجب عند السمين وحذفت ألفها لما دخل الجار للفرق بينها وبين الموصولة ، والكلام

على حذف مضاف أي دين إبراهيم أو شريعته لأن الذوات لا مجادلة فيها ﴿ وَمَا أُنزِلَتِ ﴾ على موسى عليه السلام ﴿ التوراة والإنجيل ﴾ على عيسى عليه السلام ﴿ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ﴾ حيث كان بينه وبين موسى عليهما السلام خمسمائة وخمس وستون سنة ، وقيل : سبعمائة ، وقيل : ألف سنة وبين موسى وعيسى عليهما السلام ألف وتسعمائة وخمس وعشرون سنة ، وقيل : ألفا سنة ، وهناك أقوال أخر .

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ الهمزة داخلة على مقدر هو المعطوف عليه بالعاطف المذكور على رأي أي ألا تتفكرون فلا تعقلون بطلان قولكم أو أتقولون ذلك فلا تعقلون بطلانه ، وهذا تجهيل لهم في تلك الدعوى وتحميق ، وهو ظاهر إن كانوا قد ادعوا كما قال الشهاب إنه عليه السلام منهم حقيقة ، وإن كان مدعاهم أن دين إبراهيم يوافق دين موسى ، أو دين عيسى فهو يهودي ، أو نصراني بهذا المعنى فتجهيلهم ، ونفي العقل عنهم بنزول التوراة والإنجيل بعده مشكل إلا أن يدعى بأن المراد أنه لو كان الأمر كذلك لما أوتي موسى عليه السلام التوراة ، ولا عيسى عليه السلام الإنجيل بل كانا يؤمران بتبليغ صحف إبراهيم كذا قيل وأنت تعلم أن هذا لا يشفي الغليل إذ لقائل أن يقول : أي مانع من اتحاد الشريعة مع إنزال

هذين الكتابين لغرض آخر غير بيان شريعة جديدة على أن الصحف لم تكن مشتملة على الأحكام بل كانت أمثالاً ومواعظ كما جاء في الحديث ، ثم ما قاله الشهاب وإن كان وجه التجهيل عليه ظاهراً ، إلا أن صدور تلك الدعوى من أهل الكتاب في غاية البعد لأن القوم لم يكونوا بهذه المثابة من الجهالة وفيهم أحبار اليهود ووفد نجران ، وقد ذكر أن الأخيرين كانت لهم شدة في البحث ، فقد أخرج ابن جرير عبد الله بن الحرث الزبيدي أنه قال : "سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ليت بيني وبين أهل نجران حجاباً فلا أراهم ولا يروني" من شدة ما كانوا يمارون النبي صلى الله عليه وسلم اللهم إلا أن يقال : إن الله تعالى أعمى بصائرهم في هذه الدعوى ليكونوا ضحكة لأطفال المؤمنين ، أو أنهم قالوا ذلك على سبيل التعنت والعناد ليغيظ كل منهم صاحبه ؛ أو ليوهموا بعض المؤمنين ظناً منهم أنهم لكونهم أميين غير مطلعين على تواريخ الأنبياء السالفين يزلزلهم مثل ذلك ففضحهم الله تعالى ، أو أن القوم في حدّ ذاتهم جهلة لا يعلمون وإن كانوا أهل كتاب وما ذكره ابن الحرث لا يدل على علمهم كما لا يخفى ، وقيل :

إن مراد اليهود بقولهم : إن إبراهيم عليه السلام كان يهودياً أنه كان مؤمناً بموسى عليه السلام قبل بعثته على حدّ ما يقوله المسلمون في سائر المرسلين عليهم الصلاة والسلام من أنهم كانوا مؤمنين بنبينا صلى الله عليه وسلم قبل بعثته كما يدل عليه تبشيرهم به ، وأن مراد النصارى بقولهم : إن إبراهيم كان نصرانياً نحو ذلك فرد الله تعالى عليهم بقوله سبحانه : ﴿ وَمَا أُنزِلَت التوراة والإنجيل إلاَّ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي ومن شأن المتأخر أن يشتمل على أخبار المتقدم لا سيما مثل هذا الأمر المهم والمفخر العظيم والمنة الكبرى أفلا تعقلون ما فيهما لتعلموا خلوهما عن الأخبار بيهوديته ونصرانيته اللتين زعمتموهما . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 194 . 195 ﴾

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

استئناف ابتدائي للانتقال من دعائهم لكلمة الحق الجامعة لحق الدين ، إلى الإنكار عليهم محاجتهم الباطلة للمسلمين في دين إبراهيم ، وزعم كلّ فريق منهم أنهم على دينه توصّلاً إلى أنّ الذي خالف دينهم لا يكون على دين إبراهيم كما يدّعي النبي محمد صلى الله عليه وسلم فالمحاجة فرع عن المخالفة في الدعوى .

وهذه المحاجة على طريق قياس المساواة في النفي ، أو في محاجتهم النبي في دعواه أنه على دين إبراهيم ، محاجة يقصدون منها إبطال مساواة دينِه لدين إبراهيم ، بطريقة قياس المساواة في النفي أيضاً .

فيجوز أن تكون هذه الجملة من مقول القول المأمور به الرسولُ في قوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا ﴾ أي قل لهم : يا أهل الكتاب لِمَ تحاجون .

(142/121)

ويجوز أن يكون الاستئناف من كلام الله تعالى عَقِبَ أمرِه الرسولَ بأن يقول ﴿ تعالَوا ﴾ فيكون توجيه خطاب إلى أهل الكتاب مباشرة ، ويكون جعل الجملة الأولى من مقول الرسول دون هذه لأنّ الأولى من شُؤون الدعوة ، وهذه من طرق المجاحّة ، وإبطال قولهم ، وذلك في الدرجة الثانِيَة مِن الدعوة .

والكلُ في النسبة إلى الله سواء .

ومناسبة الانتقال من الكلام السابق إلى هذا الكلام نشأت من قوله : ﴿ فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون ﴾ [آل عمران : 64] لأنه قد شاع فيما نزل من القرآن في مكة ، وبعدَها أنّ الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يرجع إلى الحنيفية دين

إبراهيم كما تقدم تقريره في سورة البقرة وكما في سورة النحل ( ) : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وسيجيء أنّ إبراهيم كان حنيفاً مسلماً ، وقد اشتهر هذا وأعلن بين المشركين في مكة ، وبني اليهود في المدينة ، وبين النصارى في وَفد نجران ، وقد علم أنّ المشركين بمكة كانوا يدّعون أنهم ورثة شريعة إبراهيم وسدنة بيته ، وكان أهل الكتاب قد ادّعوا أنهم على دين إبراهيم ، ولم يتبين لي أكان ذلك منهم ادّعاء قديماً أم كانوا قد تفطنوا إليه من دعوة محمد ، فاستيقظوا لتقليده في ذلك ، أم كانوا قالوا ذلك على وجه الإفحام للرسول حين حاجهم بأنّ دينه هو الحق ، وأنّ الدين عند الله الإسلام فألْجَؤوه إلى أحد أمرين : إما أن تكون الزيادةُ على دين إبراهيم غيرَ مخرجة عن اتِّباعه ، فهو مشترَك الإلزام في دين اليهودية والنصرانية ، وإما أن تكون مخرجة عن دين إبراهيم فلا يكون الإسلام تابعاً لدين إبراهيم .

وأحسب أنّ ادّعاءهم أنهم على ملة إبراهيم إنما انتحلوه لبثّ كل من الفريقين الدعوةَ إلى دينه بين العرب ، ولا سيما النصرانية ، فإنّ دعاتها كانوا يحاولون انتشارها بين العرب فلا يجدون شيئاً يروج عندهم سِوى أن يقولوا : إنها ملة إبراهيم ، ومن أجل ذلك اتُّبعت في

بعض قبائل العرب ، وهنالك أخبار في أسباب النزول تثير هذه الاحتمالات : فروى أنّ وفد نجران قالوا للنبيء حين دعاهم إلى اتباع دينه : على أي دين أنتَ قال : على ملة إبراهيم قالوا : فقد زدتَ فيه ما لم يكن فيه فعلى هذه الرواية يكون المخاطبُ بأهل الكتاب هنا خصوصَ النصارى كالخطاب الذي قبْله وروى : أنه تنازعت اليهود ونصارى نجران بالمدينة ، عند النبي ، فأدّعي كل فريق أنه على دين إبراهيم دون الآخر ، فيكون الخطاب لأهل الكتاب كلهم ، من يهود ونصارى .

ولعل اختلاف المخاطبين هو الداعي لتكرير الخطاب .

وقوله : وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ﴾ يكون على حسب الرواية الأولى مَنْعاً لقولهم : فقد زدت فيه ما ليس مِنْه ، المقصودِ منه إبطال أن يكون الإسلام هو دين إبراهيم . وتفصيلُ هذا المنع : إنكم لا قبل لكم بمعرفة دين إبراهيم ، فمن أين لكم أنّ الإسلام زاد فيما جاء به على دين إبراهيم ، فإنكم لا مستند لكم في علمكم بأمور الدين إلاّ التوراةُ والإنجيلُ ، وهما قد نَزلا من بعد إبراهيم ، فمن أين يعلم ما كانت شريعة إبراهيم حتى يعلمَ المزيد عليها ، وذكر التوراة على هذا لأنها أصل الإنجيل .

ويكون على حسب الرواية الثانية نفياً لدعوى كلّ فريق منهما أنه على دين إبراهيم ، بأنّ دين اليهود هو التوراة ، ودينَ النصارى هو الإنجيل ، وكلاهما نزل بعد إبراهيم ، فكيف يكون شريعةً له .

قال الفخر: يعني ولم يُصرّح في أحد هذين الكتابين بأنه مطابقٌ لشريعة إبراهيم، فذكر التوراة والإنجيل على هذا نشرٌ بعد اللف: لأنّ أهل الكتاب شَمِل الفريقين، فذكر التوراة لإبطال قول اليهود، وذكرَ الإنجيل لإبطالِ قول النصارى، وذكر التوراة والإنجيل هنا لقصد جمع الفريقين في التخطئة، وإن كان المقصود باديء ذي بدء هم النصارى الذين مَساقُ الكلام معهم.

والأظهر عندي في تأليف المحاجة ينتظم من مجموع قوله: ﴿ وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ﴾ وقولِه: ﴿ فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ﴾ وقولِه: ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ فيبطل بذلك دعواهم أنهم على دين إبراهيم، ودعواهم أنّ الإسلام ليس على دين إبراهيم، ويَثْبُتُ عليهم أنّ الإسلام على دين إبراهيم، وذلك أنّ قوله: ﴿ وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ﴾ يدل على أنّ علمهم في الدين منحصر فيهما، وهما نزلا بعد إبراهيم فلا جائز أن يكونا عين صحف إبراهيم.

وقولُه: ﴿ فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ﴾ يُبطل قولهم: إنّ الإسلام زاد على دين إبراهيم، ولا يدل على أنهم على دين إبراهيم؛ لأنّ التوراة والإنجيل لم يَرد فيهما التصريح

بذلك ، وهذا هو الفارق بين انتساب الإسلام إلى إبراهيم وانتساب اليهودية والنصرانية إليه ، فلا يقولون وكيف يُدّعَى أنّ الإسلام دين إبراهيم مع أنّ القرآن أنزل من بعد إبراهيم كما أنزلت التوراة والإنجيل من بعده .

(145/121)

وقوله : ﴿ والله يعلم ﴾ يدل على أنّ الله أنبأ في القرآن بأنه أرسل محمداً بالإسلام دينِ إبراهيم وهو أعلم منكم بذلك ، ولم يسبق أن امتنّ عليكم بمثل ذلك في التوراة والإنجيل فأنتم لا تعلمون ذلك ، فلما جاء الإسلام وأنبأ بذلك أردتم أن تنتحلوا هذه المزية ، واستيقظتم لذلك حَسداً على هذه النعمة ، فنهضتْ الحجة عليهم ، ولم يبق لهم معذرة في أن يقولوا : إنّ مجيء التوراة والإنجيل من بعد إبراهيم مشترَكُ الإلزام لنا ولكم ؛ فإنّ القرآن أنزل بعد إبراهيم ، ولولا انتظام الدليل على الوجه الذي ذكرنا لَكَانَ مشترك الإلزام .

والاستفهام في قوله : ﴿ فلم تحاجون ﴾ مقصود منه التنبيه على الغلط .

وقد أعرض في هذا الاحتجاج عليهم عن إبطال المنافاة بين الزيادة الواقعة في الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم على الدين الذي جاء به إبراهيم ، وبين وصف الإسلام بأنّه ملّة إبراهيم : لأنّهم لم يكن لهم من صحة النظر ما يفرقون به بين زيادة الفروع ، واتحاد

الأصول ، وأنّ مساواة الدينين منظور فيها إلى اتحاد أصولهما سنبينها عند تفسير قوله تعالى : ﴿ فإنْ حاجّوك فقل أسلمتُ وجهي لله ﴾ [آل عمران : 20] وعندَ قوله : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ﴾ فاكتُفي في المحاجّة بإبطال مستندهم في قولهم : "فقد زدت فيه ما ليس فيه على طريقة المنع ، ثم بقوله : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ﴾ [آل عمران : 67] على طريقة الدعوى بناءً على أنّ انقطاع المعترِض كافٍ في اتجاه دعوى المستدل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 120.118 ﴾

وقال السعدى :

(146/121)

لما ادعى اليهود أن إبراهيم كان يهوديا ، والنصارى أنه نصراني ، وجادلوا على ذلك ، رد تعالى محاجتهم ومجادلتهم من ثلاثة أوجه ، أحدها : أن جدالهم في إبراهيم جدال في أمر ليس لهم به علم ، فلا يمكن لهم ولا يسمح لهم أن يحتجوا ويجادلوا في أمر هم أجانب عنه وهم جادلوا في أحكام التوراة والإنجيل سواء أخطأوا أم أصابوا فليس معهم المحاجة في شأن إبراهيم ، الوجه الثاني : أن اليهود ينتسبون إلى أحكام التوراة ، والنصارى ينتسبون

إلى أحكام الإنجيل ، والتوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعد إبراهيم ، فكيف ينسبون إبراهيم إليهم وهو قبلهم متقدم عليهم ، فهل هذا يعقل ؟ ! فلهذا قال ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي : فلو عقلتم ما تقولون لم تقولوا ذلك ، الوجه الثالث : أن الله تعالى برأ خليله من اليهود والنصارى والمشركين ، وجعله حنيفا مسلما ، وجعل أولى الناس به من آمن به من أمته ، وهذا النبي وهو محمد صلى الله على وسلم ومن آمن معه ، فهم الذين اتبعوه وهم أولى به من غيرهم ، والله تعالى وليهم وناصرهم ومؤيدهم ، وأما من نبذ ملته وراء ظهره كاليهود والنصارى والمشركين ، فليسوا من إبراهيم وليس منهم ، ولا ينفعهم مجرد الانتساب الخالي من الصواب . وقد اشتملت هذه الآيات على النهي عن المحاجة والمجادلة بغير علم ، وأن من تكلم بذلك فهو متكلم في أمر لا يمكن منه ولا يسمح له فيه ، وفيها أيضا حث على علم التاريخ ، وأنه طريق لرد كثير من الأقوال الباطلة والدعاوى التي تخالف ما علم من التاريخ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير السعدى صـ 134 ﴾

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِى إِبْرَاهِيمَ ﴾ الآية .

ضرب على خليله – صلوات الله – نقاب الضنَّة وحجاب الغيرة ، فقطع سببه عن جميعهم بعد ادِّعاء الكل فيه ، وحَكَمَ بتعارض شُبُهَاتِهم ، وكيف يكون إبراهيم – عليه السلام –

على دين مَنْ أتى بعده ؟ ! إن هذا تناقضٌ من الظن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 248 ﴾

(147/121)

قوله تعالى ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (66) ﴾

قال البقاعى :

ثم استأنف تبكيتاً آخر فقال منبهاً لهم مكرراً التنبيه إشارة إلى طول رقادهم أو شدة عنادهم : ﴿ ها أنتم هؤلاء ﴾ أي الأشخاص الحمقى ، ثم بين ذلك بقوله :

﴿ حاججتم ﴾ أي قصدتم مغالبة من يقصد الرد عليكم ﴿ فيما لكم به علم ﴾ أي نوع من العلم من أمر موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام لذكر كل منهما في كتابكم وإن كان جدالكم فيهما على خلاف ما تعلمون من أحوالهما عناداً أو طغياناً ﴿ فلم تحاجون ﴾ أي تغالبون بما تزعمون أنه حجة ، وهو لا يستحق أن يسمى شبهة فضلاً عن أن يكون حجة ﴿ فيما ليس لكم به علم ﴾ اصلاً ، لكونه لا ذكر له في كتابكم بما حاججتم فيه مع مخالفته لصريح العقل ﴿ والله ﴾ أي المحيط بكل شيء ﴿ يعلم ﴾ أي وأنتم تعلمون أن مجادلتكم في

الحقيقة إنما هي مع الله سبحانه وتعالى، وتعلمون أن علمه محيط بجميع ما جادلتم فيه ﴿ وأنتم ﴾ أي وتعلمون أنكم أنتم ﴿ لا تعلمون ﴾ أي ليس لكم علم أصلاً إلا ما علمكم الله سبحانه وتعالى، هذا على تقدير كون "ها" في "ها أنتم" للتنبيه، ونقل شيخنا ابن الجزري في كتابه "النشر في القراءات العشر" عن أبي عمرو بن العلاء وعن أبي الحسن الأخفش أنها بدل من همزة، وروي عن أبي حمدون عن اليزيدي أن أبا عمرو قال: وإنما هي ﴿ أأنتم ﴾ ممدودة، فجعلوا الهمزة هاء، والعرب تفعل هذا، فعلى هذا التقدير يكون استفهاماً معناه التعجيب منهم والتوبيخ لهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 2 صـ 111.110﴾

قال الفخر:

(148/121)

"القراءات والوقوف"

قال العلامة النيسابورى رحمه الله:

القراءات: ﴿ ها أنتم ﴾ بالمد وغير الهمزة حيث كان: أبو جعفر ونافع وأبو عمرو. وروى ابن مجاهد وأبو عون عن قنبل ﴿ ها أنتم ﴾ على وزن "هعنتم" الباقون بالمد

والهمز .

الوقوف : ﴿ الكاذبين ﴾ ه ﴿ القصص الحق ﴾ ج ط ﴿ إلا الله ﴾ ط ﴿ الحكيم ﴾ ه ﴿ المفسدين ﴾ ه ﴿ من دون الله ﴾ ط لتناهي جملة وافية إلى ابتداء شرط ﴿ مسلمون ﴾ ه ﴿ من بعده ﴾ ط ﴿ تعقلون ﴾ ه ﴿ ليس لكم به علم ﴾ ط ﴿ لا تعلمون ﴾ ه ﴿ مسلماً ﴾ ط ﴿ المشركين ﴾ ه ﴿ والذين آمنوا ﴾ ط ﴿ المؤمنين ﴾ ه ﴿ لو يضلونكم ﴾ ط ﴿ يشعرون ﴾ ه ﴿ تشهدون ﴾ ه ﴿ تعلمون ﴾ ه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 2 صـ 177 ﴾

(149/121)

فصل

المراد من قوله ﴿ حاججتم فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ هو أنهم زعموا أن شريعة التوراة والإنجيل مخالفة لشريعة القرآن فكيف تحاجون فيما لا علم لكم به وهو ادعاؤكم أن شريعة إبراهيم كانت مخالفة لشريعة محمد عليه السلام ؟ .

ثم يحتمل في قوله ﴿ هاأَنتُمْ هؤلاء حاجحتم فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ أنه لم يصفهم في العلم حقيقة وإنما أراد إنكم تستجيزون محاجته فيما تدعون علمه ، فكيف تحاجونه فيما لا علم لكم

به ألبتة ؟ .

ثم حقق ذلك بقوله ﴿ واللهُ يَعْلَمُ ﴾ كيف كانت حال هذه الشرائع في المخالفة والموافقة ﴿ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ كيفية تلك الأحوال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 79 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

قوله تعالى ﴿ هَا أَنْتُمْ ﴾

القراء في هذه على أربع مراتِبَ ، والإعراب متوقِّفٌ على ذلك :

المرتبة الأولى للكوفيين وابن عامر والبَزِّي عن ابن كثير : ها أنتم – بألف بعد الهاء ، وهمزة مخففة بعدها .

المرتبة الثانية لأبي عمرو وقالون عن نافع : بألف بعد الهاء ، وهمزة مسهَّلَة بين بين بعدها .

المرتبة الثالثة لورش ، وله وجهانِ :

أحدهما : بهمزة مسهلة بين بين بعد الهاء دون ألف بينهما .

الثاني : بألفٍ صريحةٍ بعد الهاء بغير همزة بالكلية .

المرتبة الرابعة لقُنْبُل بهمزة مُخَفَّفَة بعد الهاء دون ألف .

فصل

اختلف الناسُ في هذه الهاء : فمنهم من قال : إنها " ها " التي للتنبيه الداخلة على أسماء الإشارة ، وقد كثر الفصلُ بينها وبين أسماء الإشارةِ بالضمائر المرفوعة المنفصلة ، نحو : ها أنت ذا قائماً ، وها نحن ، وها هم ، وهؤلاء ، وقد تُعادُ مع الإشارة بعد دخولها على الضمائر ؛ توكيداً ، كهذه الآية ، ويقل الفصل بغير ذلك كقوله : [البسيط]

تَعَلَّمَنْ هَا – لَعَمْرُ اللهِ – ذَا قَسَماً . . . فَاقْدِرْ بِذَرْعِكَ وَانْظُرْ أَيْنَ تَنْسَلِكُ

وقول النابغة : [البسيط]

(150/121)

هَا – إِنَّ – ذِي عِذْرَةٌ إِنْ لا تَكُنْ قُبِلَتْ . . . فَإِنَّ صَاحِبَهَا قَدْ تَاهَ فِي الْبَلَدِ

ومنهم من قال : إنها مُبْدَلَةٌ من همزة الاستفهام ، والأصل : أأنتم ؟ وهو استفهام إنكار ، وقد كثر إبدال الهمزة هاء – وإن لم ينقس – قالوا هَرَقْتُ ، وهَرَحْتُ ، وهَنَرتُ ، وهذا قول أبي عمرو بن العلاء ، وأبي الحسن الأخفش ، وجماعة ، وأستحسنه أبو جعفر ، وفيه نظرٌ ؛ من حيث إنه لم يثْبُت ذلك في همزة الاستفهام ، لم يُسْمَع : هَتَضْرِبُ زَيْداً – بمعنى أَتَضْرِبُ زيداً ؟ وإذا لم يثبت ذلك فكيف يُحمَلُ هذا عليه ؟

هذا معنى ما اعترض به أبو حيان على هؤلاء الأئمةِ ، وإذا ثبت إبدال الهمزة هاءً هان

الأمر ، ولا نظر إلى كونها همزةَ استفهام ، ولا غيرها ، وهذا - أعني كونها همزة استفهام أُبدِلت هاءً - ظاهر قراءة قُنْبُلٍ ، وورش ؛ لأنهما لا يُدْخِلان ألفاً بين الهاء وهمزة " أنتم " ؛ لأن إدخال الألف لما كان لاستثقال توالي همزتين ، فلما أبدلت الهمزة هاء زال الثقل لفظاً ؛ فلم يُحتَج إلى فاصلةٍ ، وقد جاء إبدال همزة الاستفهام ألفاً في قول الشاعر : [الكامل]

وَأَتَتْ صَوَاحِبهَا ، وَقُلْنَ هَذَا الَّذِي . . . مَنَحَ الْمَوَدَّةَ غَيْرَنَا وَجَفَانَا

يريد أذا الذي ؟

ويضعف جعلها - على قراءتهما - " ها " التي للتنبيه ؛ لأنه لم يُحْفَظ حَذْفُ ألِفِها ، لا يقال : هَذَا زيد - بحذف ألف " ها " - كذا قيل .

(151/121)

قال شهاب الدِّين : " وقد حذفها ابنُ عامر في ثلاثة مواضع - إلا أنه ضم الهاء الباقية بعد حذف الألف - فقرأ - في الوصل - : ﴿ يا أَيُّهَا الساحر ﴾ [الزخرف : 49] و ﴿ وتوبوا إِلَى الله جَمِيعاً أَيُّهَا المؤمنون ﴾ [النور : 31] ، و ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثقلان ﴾ [الرحمن : 31] ، ولكن إنما فعل ذلك اتباعاً للرسم ؛ لأن الألف حُذِفَتْ في مرسوم مصحف الشام في هذه الثلاثة ، وعلى الجملة فقد ثبت حذف ألف " ها " التي للتنبيه .

وأمَّا من أثبت الألف بَيْن الهاء وبين همزة " أنتم " فالظاهر أنها للتنبيه ، ويضعف أن تكون بدلاً من همزة الاستفهام ؛ لما تقدم من أن الألف إنما تدخل لأجل الثقل ، والثقل قد زال بإبدال الهمزة هاء ، وقال بعضهم : الذي يقتضيه النظر أن تكون " ها " - في قراءة الكوفيين والبَزّيّ وابن ذكوان - للتنبيه ؛ لأن الألف في قراءتهم ثابتة ، وليس من مذهبهم أن يفصلوا بين الهمزتين بألف ، وأن تكون في قراءة قُنْبل وورش - مُبْدَلَة من همزة ؛ لأن قُنْبُلاً يقرأ بهمزة بعد الهاء ، ولو كانت " ها " للتنبيه لأتى بألف بعد الهاء ، وإنما لم يُسهّل الهمزة - كما سَهَّلَها في ﴿ أَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ ونحوه لأن إبدال الأولى هاء أغناه عن ذلك ، ولأن ورشاً فعل فيه ما فعل في : ﴿ أَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ ونحوه من تسهيل الهمزة ، وترك إدخال الألفِ ، وكان الوجه في قراءته بالألف - أيضاً - الحمل على البدل كالوجه الثاني في ﴿ أَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ ونحوه .

وما عدا هؤلاء المذكورين - وهم أبو عمرو وهشام وقالون - يحتمل أن تكون " ها " للتنبيه ، وأن تكون بدلاً من همزة الاستفهام .

أما الوجه الأول فلأن " ها " التنبيه دخلت على " أنتم " فحَقَّق هشام الهمزة كما حققها في " هؤلاء " ونحوها ، وَخَفَّفَهَا قالون وأبو عمرو ؛ لتوسُّطِها بدخول حرف التنبيه عليها ، وتخفيف الهمزة المتوسطة قويٌّ .

الوجهُ الثاني : أن تكونَ الهاءُ بدلاً من همزة الاستفهام ؛ لأنهم يَفْصِلُون بين الهمزتين بألفٍ ، فيكون أبو عمرو وقالون على أصلهما - في إدخال الألف والتسهيل - وهشام على أصله - في إدخال الألف والتحقيق - ولم يُقْرَأ بالوجه الثاني - وهو التسهيل - لأن إبدال الهمزة الأولى هاءً مُغْنٍ عن ذلك .

وقال آخرون : إنه يجوز أن تكون " ها " - في قراءة الجميع - مُبْدَلَةً من همزة ، وأن تكون التي للتنبيه دخلت على " أنتم " ذكر ذلك ابو علي الفارسي والمَهْدَوِي ومَكِيّ في آخرين .

فأما احتمال هذين الوجهين - في قراءة أبي عمرو وقالون عن نافع ، وهشام عن ابن عامر - فقد تقدم توجيهه ، وأما احتمالهما في قراءة غيرهم ، فأما الكوفيون والبَزِّيُّ وابنُ ذكوان فقد تقدم توجيه كون " ها " - عندهم - للتنبيه ، وأما توجيه كونها بدلاً من الهمزة - عندهم - أن يكون الأصل أنه أأنتم ، ففصلوا بالألف - على لغة مَنْ قال : [الطويل]

. . . . آأنتِ أَمْ أُمُّ سَالِمِ

ولم يعبئُوا بإبدال الهمزة الأولى هاءً ؛ لكَوْن البدَلِ فيها عارضاً ، وهؤلاء ، وإن لم يكن من مذهبهم الفصل لكنهم جمعوا بين اللغتين .

وأما توجيه كونها بدلاً من الهمزة - في قراءة قُنْبُلٍ وورشٍ - فقد تقدم ، وأما توجيه كونها

للتنبيه في قراءتهما – وإن لم يكن فيها ألف – أن تكون الألف حُذِفَتْ لكثرة الاستعمال ، وعلى قول مَنْ أبدل كورش حذفت إحدى الألفين ؛ لالتقاء الساكنين .

(153/121)

قال أبو شَامَةَ : الأَوْلَى في هذه الكلمة – على جميع القراءات فيها – أن تكون " ها " للتنبيه ؛ لأنا إن جعلناها بدلاً من همزةٍ كانت الهمزةُ همزةَ استفهامٍ ، و﴿ هاأنتم ﴾ أينما جاءت في القرآن إنما جاءت للخبر ، لا للاستفهام ، ولا مانع من ذلك إلا تسهيل مَنْ سَهَّل ، وحَذْفُ مَنْ حذف ، أما التسهيل فقد سبق تشبيهه بقوله : ﴿ لأَعْنَتَكُمْ ﴾ [البقرة : 220] وشبهه ، وأما الحذف فنقول : " ها " مثل " أما " – كلاهما حرف تنبيه – وقد ثبت جواز حذف ألف " أما " فكذا حذف ألف " ها " وعلى ذلك قولهم : أَمَ واللهِ لأفْعَلَنَّ .

وقد حمل البصريون قولهم : " هَلُمَّ " على أن الأصل " هَالُمَّ " ، ثم حذف الف " ها " فكذا ﴿ هاأنتم ﴾ . وهو كلام حَسَنٌ ، إلا أنّ قوله : إن ﴿ هاأنتم ﴾ – حيث جاءت – كانت خبراً ، لا استفهاماً ممنوع ، بل يجوز ذلك ، ويجوز الاستفهام ، انتهى .

ذكر الفرّاءُ أيضاً – هنا – بحثاً بالنسبة إلى القصر والمد ، فقال : من أثبت الألفَ في " ها " ، واعتقدها للتنبيه ، وكان مذهبُه أن يقصر في المنفصل ، فقياسه هنا قَصْر الألف سواء

حقَّق الهمزة، أو سهلها ، وأمّا من جعلها للتنبيه، ومذهبه المد في المنفصل، أو جعل الهاء مبدلة من همزة استفهام – فقياسه أن يمد – سواء حقق الهمزة أو سهلها – .

وأما ورش فقد تقدم عنه وجهان: إبدال الهمزة – من "أنتم" – ألفاً، وتسهيلها بَيْن بَيْنَ، فإذا أبدل مَدّ، وإذا سهَّل قَصَر، إذا عُرِف هذا ففي إعراب هذه الآيَةِ أوجُهٌ:

أحدها: أنّ "أنتم" مبتدأ، و"هَؤُلَاءِ" خبره، والجملة من قوله: ﴿ حَاجَجْتُمْ ﴾ في محل نصب على الحال يدل على ذلك تصريحُ العَرَب بإيقاع الحال موقعها – في قولهم: ها أنا ذا قائماً، ثم هذه الحال عندهم – من الأحوال اللازمة، التي لا يَسْتَغْنِي الكلامُ عَنْها.

(154/121)

الثالث: أن يكون ﴿ هاأنتم هؤلا ﴾ على ما تقدم – أيضاً – ولكن هَؤلاءِ هنا موصول، لا يتم إلا بصلةٍ وعائدٍ، وهما الجملة من قوله: ﴿ حَاجَجْتُمْ ﴾، ذكره الزمخشريُّ.

وهذا إنما يتجه عند الكوفيين، تقديره: ها أنتم الذين حاججتم.

الرابع: أن يكون "أَنْتُمْ" مبتدأ، و"حَاجَجْتُمْ" خبره، و"هؤلاء" منادًى، وهذا إنما يَتَّجِه عند الكوفيين أيضاً؛ لأن حرفَ النداء لا يُحْذَف من أسماء الإشارة، وأجازه الكوفيون وأنشدوا: [البسيط]

إنَّ الأولَى وَصَفُوا قَوْمِي لَهُمْ فَبِهِمْ . . . هَذَا اعْتَصِمْ تَلْقَ مَنْ عَادَاكَ مَخْذُولا

يريد يا هذا اعتصم ، وقول الآخر : [الخفيف]

لا يَغُرَّنَّكُمْ أولاءِ مِنَ الْقَوْ . . . مِ جُنُوحٌ للسّلْمِ فَهْوَ خِدَاعُ

يريد : يا أولاء .

الخامس : أن يكون " هَؤلاءِ " منصوباً على الاختصاص بإضمار فعل . و " أنْتُمْ " مبتدأ ، و " حَاجَجْتُمْ " خبره ، وجملة الاختصاص مُعْتَرِضَةٌ .

السادس : أن يكون على حذف مضافٍ ، تقديره : ها أنتم مثل هؤلاء ، وتكون الجملة بعدَها مُبَيِّنَةً لوجه الشبه ، أو حالاً .

السابع : أن يكون " أنْتُمْ " خبراص مقدماً ، و " هَؤلاءِ " مبتدأ مؤخراً .

وهذه الأوجهُ السبعة قد تقدم ذكرُها ، وذكرُ من نسبت إليه والردُّ على بعض القائلين ببعضها ، بما يغني عند إعادته في سورة البقرة عند قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هؤلاء تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة : 85] فليلتفت إليه .

قوله : ﴿ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ " ما " يجوز أن تكون معنى " الذي " وأن تكون نكرةً موصوفةً .

ولا يجوز أن تكون مصدرية؛ لعود الضمير عليها ، وهي حرف عند الجمهور ، و" لَكُمْ " يجوز أن يكون خبراً مقدماً ، و" عِلمٌ " مبتدأ مؤخراً ، والجملة صلة لِ " ما " أو صفة ، ويجوز أن يكون لكم وحده صلة ، أو صفة ، و" عِلْمٌ " فاعلٌ به ؛ لأنه قد اعتمد ، و" بِهِ " متعلق بمحذوف ؛ لأنه حال من " عِلْمٌ " إذ لو تأخَّرَ عنه لصَحَّ جَعَلُه نعتاً له ، ولا يجوز أن يتعلق بـ " عِلمٌ " لأنه مصدر ، والمصدر لا يتقدم معموله عليه ، فإن جعلته متعلّقاً بمحذوف يفسِّره المصدرُ جاز ذلك ، وسُمي بياناً . انتهى انتهى . اهـ ﴿تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 305.300﴾

من فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

(156/121)

﴿ها أَنتُمْ هؤلاء﴾ أي : أنتم هؤلاء الحمقى ﴿حاججتم فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ﴾ كأمر موسى ، وعيسى عليهما السلام ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ وهو أمر إبراهيم عليه السلام حيث لا ذكر لدينه في كتابكم ، أو لا تعرض لكونه آمن بموسى وعيسى

قبل بعثتيهما أصلاً ، وليس المراد وصفهم بالعلم حقيقة وإنما المراد هب أنكم تحاجون فيما تدعون علمه على ما يلوح لكم من خلال عبارات كتابكم وإشارته في زعمكم فكيف تحاجون فيما لا علم لكم به ولا ذكر ، ولا رمز له في كتابكم ألبتة ؟ ! و(ها) حرف تنبيه ، واطرد دخولها على المبتدأ إذا كان خبره اسم إشارة نحو ها أنا ذا وكررت هنا للتأكيد ، وذهب الأخفش أن الأصل أأنتم على الاستفهام فقلبت الهمزة هاءاً ، ومعنى الاستفهام عنده التعجب من جهالتهم ، وتعقبه أبو حيان بأنه لا يحسن ذلك لأنه لم يسمع إبدال همزة الاستفهام هاءاً في كلامهم إلا في بيت نادر ، ثم الفصل بين الهاء المبدلة وهمزة (أنتم) لا يناسب لأنه إنما يفصل لاستثقال اجتماع الهمزتين ، وهنا قد زال الاستثقال بإبدال الأولى هاءاً ، والإشارة للتحقير والتنقيص ، ومنها فهم الوصف الذي يظهر به فائدة الحمل ، وجملة ﴿ حاججتم ﴾ مستأنفة مبينة للأولى ، وقيل : إنها حالية بدليل أنه يقع الحال موقعها كثيراً نحو ها أنا ذا قائماً وهذه الحال لازمة ؛ وقيل : إن الجملة خبر عن (أنتم) و ﴿ هَؤُلاء ﴾ منادى حذف منه حرف النداء ، وقيل : ﴿ هَؤُلاء ﴾ بمعنى الذي خبر المتبدأ ، وجملة ﴿ حاججتم ﴾ صلة ؛ وإليه ذهب الكوفيون ، وقراؤهم يقرءون ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ ﴾ بالمد والهمز ، وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو بغير همز ولا مد إلا بقدر خروج الألف الساكن ، وقرأ ابن كثير ويعقوب بالهمز والقصر بغير مد ، وقرأ ابن عامر بالمد دون الهمز ﴿ والله

يَعْلَمُ ﴾ حال إبراهيم وما كان عليه ﴿ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك ، ولك أن تعتبر المفعول عاماً ويدخل المذكور

(157/121)

فيه دخولاً أولياً ، والجملة تأكيد لنفي العلم عنهم في شأن إبراهيم عليه السلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 195 ﴾

فصل

قال القرطبى :

في الآية دليل على المنع من الجدال لمن لا علم له ، والحظر على من لا تحقيق عنده فقال عز وجل : ﴿ هاأنتم هؤلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ .

وقد ورد الأمر بالجدال لمن عِلم وأيقن فقال تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : 125] .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه " أتاه رجل أنكر ولده فقال : يا رسول الله ، إن امرأتي ولدت غلاماً أسود .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هل لك من إبل" ؟ قال نعم .

قال : "ما ألوانها" ؟ قال : حُمْرٌ : قال .

"هل فيها من أَوْرَق" ؟ قال نعم .

قال : "فمن أين ذلك" ؟ قال : لعل عِرْقاً نزَعه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وهذا الغلام لعل عِرقاً نزعه" وهذا حقيقة الجدال ونهايةٌ في تبيين الاستدلال من رسول الله صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 108. 109 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

يعني ما كان في كتابكم له بيان ، ويصح أن يكون لكم عليه برهان ، فَخَاصِمُوهُمْ في ذلك إمّا بحق وإما بباطل ، فالذي ليس لكم ألبتة عليه دليل ولا لكم إلى معرفته سبيل فكيف تصديتم للحكم فيه ، وادِّعاء الإحاطة به ؟ ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 249 ﴾

" فصل "

قال السيوطي :

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (66)

أخرج ابن إسحاق وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : " اجتمعت نصارى نجران ، وأحبار يهود ، عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتنازعوا عنده فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهودياً ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانياً . فأنزل الله فيهم ﴿ يا أهل الكتاب لما تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ﴾ إلى قوله ﴿ والله ولي المؤمنين ﴾ فقال أبو رافع القرظي : أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم ؟ فقال رجل من أهل نجران : أذلك تريد يا محمد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : معاذ الله أن أعبد غير الله ، أو آمر بعبادة غيره . ما بذلك بعثني ، ولا أمرني . فأنزل الله في ذلك من قولهما ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوّة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ﴾ [آل عمران : 79] إلى قوله ﴿ بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ ثم ذكر ما أخذ عليهم وعلى آبائهم من الميثاق بتصديقه إذا هو

جاءهم ، وإقرارهم به على أنفسهم فقال ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ﴾ [آل عمران : 81] إلى قوله ﴿ من الشاهدين ﴾ " .

(159/121)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال " ذكر النبي صلى الله عليه وسلم دعا يهود أهل المدينة ، وهم الذين حاجوا في إبراهيم ، وزعموا أنه مات يهودياً . فأكذبهم الله ونفاهم منه فقال ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم ﴾ وتزعمون أنه كان يهودياً أو نصرانياً ﴿ وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ﴾ فكانت اليهودية بعد التوراة ، وكانت النصرانية بعد الإنجيل ﴿ أفلا تعقلون ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم ﴾ قال : اليهود والنصارى برأه الله منهم حين ادعى كل أمة منهم ، وألحق به المؤمنين من كان من أهل الحنيفية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم ﴾ قالت النصارى : كان نصرانياً . وقالت اليهود : كان يهودياً . فأخبرهم الله أن التوراة والإنجيل إنما أنزلتا من بعده ، وبعده كانت اليهودية والنصرانية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية ﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ﴾ يقول : فيما شهدتم ورأيتم وعاينتم ﴿ فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ﴾ يقول : فيما لم تشهدوا ولم تروا تعاينوا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة . مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال : أما الذي لهم به علم فما حرم عليهم وما أُمروا به ، وأما الذي ليس لهم به علم فشأن إبراهيم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في الآية قال : يعذر من حاج بعلم ، ولا يعذر من حاج بالجهل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 235.236 ﴾

(160/121)

قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما وبخهم على ذلك من جهلهم نفى سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ما

ادعاه عليه كل منهم طبق ما برهنت عليه الآية الأولى ، ونفى عنه كل شرك أيضاً ، وأثبت أنه كان مائلاً عن كل باطل منقاداً مع الدليل إلى كل حق بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ﴾ أي كما ادعى اليهود ﴿ ولا نصرانياً ﴾ كما ادعى النصارى – لما تقدم من الدليل ﴿ ولكن كان حنيفاً مسلماً ﴾ وقد بين معنى الحنيف عند قوله تعالى : ﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ [البقرة : 135] بما يصدق على المسلم ، وقال الإمام العارف ولي الدين الملوي في كتابه حصن النفوس في السؤال في القبر : واليهودي أصله من آمن بموسى عليه الصلاة والسلام والتزم أحكام التوراة ، والنصراني من آمن بعيسى عليه الصلاة والسلام والتزم أحكام الإنجيل ، ثم صار اليهودي من كفر بما أنزل بعد موسى عليه الصلاة والسلام ، والنصراني من كفر بما أنزل بعد عيسى عليه الصلاة والسلام ، والحنيف المائل عن كل دين باطل ، والمسلم المطيع لأوامر الله سبحانه وتعالى في أي كتاب أنزلت مع أي رسول أوردت ، وإن شئت قلت : هو المنقاد لله سبحانه وتعالى وحده بقلبه ولسانه وجميع جوارحه المخلص عمله لله عزّ وجلّ ، قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن قال له : قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك " قل : آمنت بالله ثم استقم " انتهى .

ثم خص بالنفي من عرفوا بالشرك مع الصلاح لكل من داخله شرك من غيرهم كمن أشرك بعزير والمسيح عليهما الصلاة والسلام فقال : ﴿ وما كان من المشركين ﴾ وفي ذكر وصفي الإسلام والحنف تعريض لهم بأنهم في غاية العناد والجلافة واليبس في التمسك بالمألوفات وترك ما أتاهم من واضح الأدلة وقاطع الحجج البينات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 112.111 ﴾

وقال ابن عاشور :

قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67) ﴾

نتيجة للاستدلال إذ قد تَحَصحَص من الحجّة الماضية أنّ اليهودية والنصرانية غير الحنيفية ، وأنّ موسى وعيسى ، عليهما السلام ، لم يخبرا بأنهما على الحنيفية ، فأنتج أنّ إبراهيم لم يكن على حال اليهودية أو النصرانية ؛ إذ لم يؤْثَر ذلك عن موسى ولا عيسى ، عليهما السلام ، فهذا سنده خلوّ كتبهم عن ادّعاء ذلك .

وكيف تكون اليهودية أو النصرانية من الحنيفية مع خلوّها عن فريضة الحج ، وقد جاء الإسلام بذكر فرضه لمن تمكن منه ، ومما يؤيد هذا ما ذكره ابن عطية في تفسير قوله تعالى في هذه السورة : ﴿ لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ [البقرة : 136] عن عكرمة قال : "لما نزلت الآية قال أهل الملل : "قد أسلمنا قبلك ، ونحن المسلمون" فقال الله

له : فحُجهم يا محمد وأنزل الله : ﴿ ولله على الناس حجّ البيت ﴾ [آل عمران : 97] الآية فحجّ المسلمون وقَعد الكفار" .

ثمّ تمم الله ذلك بقوله : وما كان من المشركين ، فأبطلت دعاوى الفرق الثلاث .

والحنيف تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قل بل ملّة إبراهيم حنيفاً ﴾ في سورة [البقرة : 135] .

(162/121)

وقوله : ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ أفاد الاستدراكُ بعد نفي الضدّ حصرًا لحال إبراهيم فيما يوافق أصول الإسلام ، ولذلك بُيّن حنيفاً بقوله : ﴿ مسلماً ﴾ لأنهم يعرفون معنى الحنيفية ولا يؤمنون بالإسلام ، فأعلمهم أنّ الإسلام هو الحنيفية ، وقال : ﴿ وما كان من المشركين ﴾ فنفى عن إبراهيم موافقة اليهودية ، .

وموافقة النصرانية ، وموافقة المشركين ، وإنه كان مسلماً ، فثبتت موافقته الإسلام ، وقد تقدم في سورة البقرة [135] في مواضع أنّ إبراهيم سأل أن يكون مسلماً ، وأنّ الله أمره أن يكون مسلماً ، وأنه كان حنيفاً ، وأنّ الإسلام الذي جاء به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي كان جاء به إبراهيم ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة

إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ وكلّ ذلك لا يُبقي شكاً في أنّ الإسلام هو إسلام إبراهيم .

(163/121)

وَقد بينت ُآنفاً عند قوله تعالى : ﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ﴾ [آل عمران : 20] الأصولَ الداخلة تحت معنى ﴿ أسلمتُ وجهي لله ﴾ فلنفرضها في معنى قول إبراهيم : ﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض ﴾ [الأنعام : 79] فقد جاء إبراهيم بالتوحيد ، وأعلنه إعلاناً لم يَترك للشرك مسلكاً إلى نفوس الغافلين ، وأقام هيكلاً وهو الكعبة ، أول بيت وضع للناس ، وفرض حَجّه على الناس : ارتباطاً بمغزاه ، وأعلَن تمام العبودية لله تعالى بقوله : ﴿ ولا أخاف مَا تشركون به إلاّ أن يشاء ربّي شيئاً ﴾ [الأنعام : 80] وأخلص القول والعمل لله تعالى فقال : ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم يُنزّل به عليكم سلطاناً ﴾ [الأنعام : 81] وتَطَلّب الهُدى بقوله : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمَيْن لك ﴾ [البقرة : 128] ﴿ وأرنا مناسكنا وتُب علينا ﴾ [البقرة : 128] وكسر الأصنام بيده ﴿ فجعلهم جذاذاً ﴾ [الأنبياء : 58] ، وأظهر الانقطاع لله بقوله : ﴿ الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا

مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين ﴾ [الشعراء : 78 81] ، وتصَدّى للاحتجاج على الوحدانية وصفات الله ﴿ قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ [البقرة : 258] ﴿ وتلك حجتنا ءاتيناها إبراهيم على قومه ﴾ [الأنعام : 83] ﴿ وحاجهُ قومه ﴾ [الأنعام : 80] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 122.123 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ﴾

قال الفخر :

وهو تعريض بكون النصارى مشركين في قولهم بإلهية المسيح وبكون اليهود مشركين في قولهم بالتشبيه .

أهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 79 ﴾

وقال ابن عاشور :

وعطف قوله : ﴿ وما كان من المشركين ﴾ ليَيْأس مُشْرِكو العرب من أن يكونوا على ملّة إبراهيم ، وحتى لا يتوهم متوهم أنّ القصر المستفاد من قوله : (ولكن حنيفاً مسلماً) قصرٌ إضافي بالنسبة لليهودية والنصرانية ، حيث كان العرب يزعمون أنهم على ملّلا إبراهيم لكنهم مشركون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 123 ﴾

سؤال : فإن قيل : قولكم إبراهيم على دين الإسلام أتريدون به الموافقة في الأصول أو في الفروع ؟ فإن كان الأول لم يكن مختصاً بدين الإسلام بل نقطع بأن إبراهيم أيضاً على دين اليهود ، أعني ذلك الدين الذي جاء به موسى ، فكان أيضاً على دين النصارى ، أعني تلك النصرانية التي جاء بها عيسى فإن أديان الأنبياء لا يجوز أن تكون مختلفة في الأصول ، وإن أردتم به الموافقة في الفروع ، فلزم أن لا يكون محمد عليه السلام صاحب الشرع ألبتة ، بل كان كالمقرر لدين غيره ، وأيضاً من المعلوم بالضرورة أن التعبد بالقرآن ما كان موجوداً في زمان إبراهيم عليه السلام فتلاوة القرآن مشروعة في صلاتنا وغير مشروعة في صلاتهم .

قلنا : جاز أن يكون المراد به الموافقة في الأصول والغرض منه بيان إنه ما كان موافقاً في أصول الدين لمذهب هؤلاء الذين هم اليهود والنصارى في زماننا هذا ، وجاز أيضاً أن يقال المراد به الفروع وذلك لأن الله نسخ تلك الفروع بشرع موسى ، ثم في زمن محمد صلى الله عليه وسلم نسخ شرع موسى عليه السلام الشريعة التي كانت ثابتة في زمن إبراهيم عليه السلام وعلى هذا التقدير يكون محمد عليه السلام صاحب الشريعة ثم لما كان غالب شرع

محمد عليه السلام موافقاً لشرع إبراهيم عليه السلام ، فلو وقعت المخالفة في القليل لم يقدح ذلك في حصول الموافقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 79 . 80 ﴾

من فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

(165/121)

﴿ مَا كَانَ إبراهيم يَهُودِيًّا ﴾ كما قالت اليهود ﴿ وَلاَ نَصْرَانِيًّا ﴾ كما قالت النصارى ﴿ وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا ﴾ أي مائلاً عن العقائد الزائغة ﴿ مُسْلِمًا ﴾ أي منقاداً لطاعة الحق ، أو موحداً لأن الإسلام يرد بمعنى التوحيد أيضاً ؛ قيل : وينصره قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ﴾ أي عبدة الأصنام كالعرب الذي كانوا يدعون أنهم على دينه ، أو سائر المشركين ليعم أيضاً عبدة النار كالمجوس ، وعبدة الكواكب كالصابئة ، وقيل : أراد بهم اليهود والنصارى لقول اليهود عزير ابن الله وقول النصارى المسيح ابن الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وأصل الكلام وما كان منكم إلا أنه وضع المظهر موضع المضمر للتعريض بأنهم مشركون ، والجملة حينئذ تأكيد لما قبلها ، وتفسير الإسلام بما ذكر هو ما اختاره جمع من المحققين وادعوا أنه لا يصح تفسيره هنا بالدين المحمدي لأنه يرد عليه أنه كان بعده بكثير

فكيف يكون مسلماً ؟ فيكون كادعائهم تهوده وتنصره المردود بقوله سبحانه : ﴿ وَمَا أُنزِلَتِ التوراة والإنجيل إِلاَّ مِن بَعْدِهِ ﴾ [آل عمران : 65] فيرد عليه ما ورد عليهم ، ويشترك الإلزام بينهما ، وفسره بعضهم بذلك ، وأجاب عن اشتراك الإلزام بأن القرآن أخبر بأن إبراهيم كان مسلماً وليس في التوراة والإنجيل أنه عليه الصلاة والسلام كان يهودياً أو نصرانياً فظهر الفرق ، قال العلامة النيسابوري : فإن قيل : قولكم : إن إبراهيم عليه السلام على دين الإسلام إن أردتم به الموافقة في الأصول فليس هذا مختصاً بدين الإسلام ، وإن أردتم في الفروع لزم أن لا يكون نبينا صلى الله عليه وسلم صاحب شريعة بل مقرر لشرع من قبله . قيل : يختار الأول ، والاختصاص ثابت لأن اليهود والنصارى مخالفون للأصول في زماننا لقولهم بالتثليث وإشراك عزير عليه السلام إلى غير ذلك ، أو الثاني ولا يلزم ما ذكر لجواز أنه تعالى نسخ تلك الفروع بشرع موسى عليه السلام ثم نسخ نبينا

(166/121)

صلى الله عليه وسلم شرع موسى بشريعته التي هي موافقة لشريعة إبراهيم صلوات الله تعالى وسلامه عليه فيكون عليه الصلاة والسلام صاحب شريعة مع موافقة شرعه شرع إبراهيم في معظم الفروع انتهى ، ولا يخفى ما في الجواب على الاختيار الثاني من مزيد البعد

، بل عدم الصحة لأن نسخ شريعة إبراهيم بشريعة موسى ، ثم نسخ شريعة موسى بشريعة نبينا عليهم الصلاة والسلام الموافقة لشريعة إبراهيم لا يجعل نبينا صاحب شريعة جديدة بل يقال له أيضاً : إنه مقرر لشرع من قبله وهو إبراهيم عليه السلام ، وأيضاً موافقة جميع فروع شريعتنا لجميع فروع شريعة إبراهيم مما لا يمكن بوجه أصلاً إذ من جملة فروع شريعتنا فرضية قراءة القرآن في الصلاة ولم ينزل على غير نبينا صلى الله عليه وسلم بالبديهة ، ونحو ذلك كثير .

وموافقة المعظم في حيز المنع ودون إثباتها الشم الراسيات ، وقوله تعالى : ﴿ أَنِ اتبع مِلَّةَ إبراهيم ﴾ [النحل : 123] ليس بالدليل على الموافقة في الفروع إذ الملة فيه عبارة عن التوحيد أو عنه وعن الأخلاق كالهدى في قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الانعام : 90] واعترض الشهاب على الجواب على الاختيار الأول بالبعد كاعتراضه على الجواب على الاختيار الثاني بمجرده أيضاً ، وذكر أن ذلك سبب عدول بعض المحققين عما يقتضيه كلام هذا العلامة من أن المراد بكون إبراهيم مسلماً أنه على ملة الإسلام إلى أن المراد بذلك أنه منقاد بحمل الإسلام على المعنى اللغوي ، وادعى أنه سالم من القدح ، ونظر فيه بأن أخذ الإسلام لغوياً لا يناسب بحث الأديان والكلام فيه فلا يخلو هذا الوجه عن بعد ، ولعله لا يقصر عما ادعاه من بعد الجواب الأول كما لا يخفى على صاحب الذوق السليم .

هذا وفي الآية وجه آخر ولعله يخرج من بين فرث ودم وهو أن أهل الكتاب لما تنازعوا فقالت اليهود إبراهيم منا ، وقالت النصارى إنه منا أرادت كل طائفة أنه عليه السلام كان إذ ذاك على ما هو عليه الآن من الحال وهو حال مخالف لما عليه نبيهم في نفس الأمر موافق له زعماً على معنى موافقة الأصول للأصول ، أو الموافقة فيما يعد في العرف موافقة ولو لم تكن في المعظم وليست هذه الدعوى من البطلان بحيث لا تخفى على أحد فرد الله تعالى عليهم بقوله سبحانه : ﴿ وَمَا أُنزِلَتِ التوراة والإنجيل إِلَّا مِن بَعْدِهِ ﴾ [آل عمران : 65] أي وليسا مشتملين على ذلك وهو من الحري بالذكر لو كان ، ثم أشار سبحانه إلى ما هم عليه من الحماقة على وجه أتم ، ثم صرح سبحانه بما أشار أولاً فقال : ﴿ مَا كَانَ إبراهيم يَهُودِيّا ﴾ أي من الطائفة اليهودية المخالفة لما جاء به موسى عليه السلام في نفس الأمر ﴿ وَلَا نَصْرَانِيّا ﴾ أي من الطائفة النصرانية المخالفة لما جاء به عيسى عليه السلام كذلك ﴿ وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِمًا ﴾ أي على دين الإسلام الذي ليس عند الله دين مرضي سواه وهو دين جميع الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم ، وفي ذلك إشارة إلى أن أولئك اليهود والنصارى ليسوا من الدين في شيء لمخالفتهم في نفس الأمر لما عليه النبيان بل

الأنبياء ، ثم أشار إلى سبب ذلك بما عرّض به من قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ﴾ فعلى هذا يكون المسلم كما قال الجصاص ، وأشرنا إليه فيما مرّ مراراً المؤمن ولو من غير هذه الأمة خلافاً للسيوطي في زعمه أن الإسلام مخصوص بهذه الأمة هذا ما عندي في هذا المقام فتدبر فلمسلك الذهن اتساع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 197.195 ﴾

(168/121)

وقال الطبرى :

وهذا تكذيبٌ من الله عز وجل دعوَى الذين جادلوا في إبراهيم وملته من اليهود والنصارى ، وادَّعوا أنه كان على ملتهم وتبرئة لهم منه ، وأنهم لدينه مخالفون وقضاءٌ منه عز وجل لأهل الإسلام ولأمة محمد صلى الله عليه وسلم أنهم هم أهل دينه ، وعلى منهاجه وشرائعه ، دون سائر أهل الملل والأديان غيرهم .

يقول الله عز وجل : ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولا كان من المشركين ، الذين يعبدون الأصنامَ والأوثانَ أو مخلوقًا دون خالقه الذي هو إله الخلق وبارئهم "ولكن كان حنيفًا" ، يعني : متبعًا أمرَ الله وطاعته ، مستقيمًا على محجَّة الهدى التي أمر بلزومها "مسلمًا" ، يعني

: خاشعًا لله بقلبه ، متذللا له بجوارحه ، مذعنًا لما فَرَض عليه وألزمه من أحكامه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 493.494 ﴾

وقال ابن عطية :

أخبر الله تعالى في هذه الآية ، عن حقيقة أمر إبراهيم ، فنفى عنه اليهودية والنصرانية والإشراك الذي هو عبادة الأوثان ، ودخل في ذلك الإشراك الذي تتضمنه اليهودية والنصرانية ، وجاء ترتيب النفي على غاية الفصاحة ، نفى نفس الملل وقرر الحالة الحسنة ، ثم نفى نفياً بين به أن تلك الملل فيها هذا الفساد الذي هو الشرك ، وهذا كما تقول : ما أخذت لك مالاً بل حفظته ، وما كنت سارقاً ، فنفيت أقبح ما يكون في الأخذ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 451 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾

أعلم تعالى براءة إبراهيم من هذه الأديان ، وبدأ بانتفاء اليهودية ، لأن شريعة اليهود أقدم من شريعة النصارى ، وكرر ، لا ، لتأكيد النفي عن كل واحد من الدينين ، ثم استدرك ما كان عليه بقوله ﴿ ولكن كان حنيفاً مسلماً ﴾ ووقعت لكن هنا أحسن موقعها ، إذ هي واقعة بين النقيضين بالنسبة إلى اعتقاد الحق والباطل .

ولما كان الكلام مع اليهود والنصارى، كان الاستدراك بعد ذكر الانتفاء عن شريعتهما ، ثم نفى على سبيل التكميل للتبري من سائر الأديان كونه من المشركين، وهم: عبدة الأصنام، كالعرب الذين كانوا يدعون أنهم على دين إبراهيم، وكالمجوس عبدة النار، وكالصابئة عبدة الكواكب، ولم ينص على تفصيلهم، لأن الإشراك يجمعهم.

وقيل: أراد بالمشركين اليهود والنصارى لإشراكهم به عزيراً والمسيح، فتكون هذه الجملة توكيداً لما قبلها من قوله ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ﴾ وجاء: من المشركين، ولم يجيء: وما كان مشركاً، فيناسب النفي قبله، لأنها رأس آية.

﴿ وما كان من المشركين ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أن المشركين عبدة الأصنام والنار والكواكب والثاني: أنهم اليهود والنصارى والثالث: عبدة الأوثان واليهود والنصارى.

وقال عبد الجبار: معنى ﴿ ما كان يهودياً ولا نصرانياً ﴾ لم يكن على الدين الذي يدين به هؤلاء المحاجون، ولكن كان على جهة الدين الذي يدين به المسلمون.

وليس المراد أن شريعة موسى وعيسى لم تكن صحيحة.

وقال علي بن عيسى: لا يوصف إبراهيم بأنه كان يهودياً ولا نصرانياً لأنهما صفتا ذمّ لاختصاصهما بفرقتين ضالتين، وهما طريقان محرّفان عن دين موسى وعيسى، وكونه مسلماً لا يوجب أن يكون على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، بل كان على جهة

الإسلام .

والحنيف : اسم لمن يستقبل في صلاته الكعبة ، ويحج إليها ، ويضحي ، ويختتن .

ثم سمي من كان على دين إبراهيم حنيفاً . انتهى .

وفي حديث زيد بن عمرو بن نفيل : أنه خرج إلى الشام يسأل عن الدين ، وأنه لقي عالماً من اليهود ، ثم عالماً من النصارى ، فقال له اليهودي : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله .

وقال له النصراني : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله .

فقال زيد : ما أفرّ إلاَّ من غضب الله ، ومن لعنته .

(170/121)

فهل تدلاني على دين ليس فيه هذا ؟ قالا : ما نعلمه إلاَّ أن تكون حنيفاً .

قال : وما الحنيف ؟ قال : دين إبراهيم ، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، وكان لا يعبد إلاَّ الله وحده ، فلم يزل رافعاً يديه إلى السماء .

وقال : اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 512.511 ﴾ . بتصرف يسير .

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية .

هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن تدل على أن إبراهيم – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – لم يكن مشركاً يوما ؛ لأن نفي الكون الماضي في قوله : ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ يدل على استغراق النفي لجميع الزمن الماضي كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ . . ﴾ الآية, وقد جاء في موضع آخر ما يوهم خلاف ذلك وهو قوله : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي . . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي . . . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ . . ﴾ الآية, ومن ظنّ ربوبية غير الله فهو مشرك بالله كما دل عليه قول الله تعالى عن الكفار : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ ﴾ , والجواب عن هذا من وجهين :

أحدهما : أنه مناظر لا ناظر ومقصوده التسليم الجدلي : أي هذا ربي على زعمكم الباطل, والمناظر قد يسلم المقدمة الباطلة تسليما جدليا ليفحم بذلك خصمه, فلو قال لهم إبراهيم في أول الأمر : الكوكب مخلوق لا يمكن أن يكون ربا, لقالوا له : كذبت, بل الكوكب ربّ, ومما يدل لكونه مناظرا لا ناظر قوله تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ . . ﴾ استدل به بن جرير على أنه غير مناظر من قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ لا دليل فيه على التحقيق ؛ لأن الرسل يقولون مثل ذلك تواضعا وإظهارا لالتجائهم إلى الله كقول إبراهيم : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾, وقوله هو وإسماعيل : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ الآية .

الوجه الثاني : أنّ الكلام على حذف همزة الاستفهام أي : أهذا ربي ؟ وقد تقرر في علم النحو أن حذف همزة الاستفهام إذا دلّ المقام عليها جائز, وهو قياسي عند الأخفش مع (أم) ودونها, ذُكِر الجواب أم لا, فمن أمثلته دون (أم) ودون ذكر الجواب قول الكميت :

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب

ولا لعبا مني وذو شيب يلعب

يعني أو ذو الشيب يلعب ؟ , وقول أبي خراش الهذلي واسمه بن خويلد

رفوني وقالوا يا خويلد لم ترع

فقلت وأنكرت الوجوه هم هم

يعني أهم هم كما هو الصحيح, وجزم به الألوسي في تفسيره, وذكره ابن جرير عن جماعة,

ويدل له قوله : "وأنكرت الوجوه" , ومن أمثلته دون (أم) مع ذكر الجواب قول عمر بن أبي

ربيعة المخزومي :

ثم قالوا تحبها قلت بهرا

عدد النجم والحصى والتراب

يعني : أتحبُّها على القول الصحيح, وهو مع (أم) كثير جداً , ومن أمثلته قول الأسود بن يعفر

التميمي وأنشده سيبويه لذلك :

لعمرك ما أدري وإن كنت داريا

شعيث بن سهم أو شعيث بن منقر

يعني أشعيث بن سهم ؟ وقول بن أبي ربيعة المخزومي :

بدا لي منها معصم يوم جمرت

وكف خضيب زينت ببنان

فوالله ما أدري وإني لحاسب

بسبع رميت الجمر أم بثمان

يعني أبسبع ؟ وقول الأخطل :

كذبتك عينك أم رأيت بواسط

غلس الظلام من الرباب خيالا

يعني أكذبتك عينك ؟ كما نصّ سيبويه على جواز ذلك في بيت الأخطل, هذا وإن خالف الخليل زاعما أنّ (كذبتك) صيغة خبرية, وأنّ (أم) بمعنى (بل) ففي البيت على قول الخليل نوع من أنواع البديع المعنوي يسمى بالرجوع عند البلاغيين ، وقول الخنساء :

قذى بعينيك أم بالعين عوار

أم خلت إذا أقفرت من أهلها الدار

تعني أقذى بعينيك ؟ وقول أحيحة بن الجلاح الأنصاري :

وما تدري وإن ذمرت سقبا

لغيرك أم يكون لك الفصيل

يعني ألغيرك ؟ وقول أمرئ القيس :

تروح من الحي أم تبتكر

وماذا عليك بأن تنتظر

يعني أتروح ؟

وعلى هذا القول فقرينة الاستفهام المحذوف علو مقام إبراهيم عن ظن ربوبية غير الله، وشهادة القرآن له بالبراءة من ذلك، والآية على هذا القول تشبه قراءة ابن محيصن : (سواء عليهم أنذرتهم)، ونظيرها على هذا القول قوله تعالى : ﴿ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا ﴾ على أحد القولين، وقوله : ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ على أحد القولين.

(174/121)

وما ذكره بعض العلماء غير هذين الوجهين فهو راجع إليهما كالقول بإضمار القول أي يقول الكفار : هذا ربي، فإنه راجع إلى الوجه الأول، وما ذكره عن ابن إسحاق واختاره ابن جرير الطبري ونقله عن ابن عباس من أنّ إبراهيم كان ناظراً يظنُّ ربوبية الكوكب فهو ظاهر الضعف؛ لأن نصوص القرآن ترده كقوله : ﴿ وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ ﴾, وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾, وقوله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾, وقد بيّن المحقق ابن كثير في تفسيره رد ما ذكره بن جرير بهذه النصوص القرآنية وأمثالها, والأحاديث الدالة على مقتضاها كقوله صلى الله عليه وسلم: "كل مولود يولد على الفطرة" الحديث. انتهى انتهى. اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 57.53 ﴾

(175/121)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله:

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

وبذلك يتأكد أن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهوديا، لأن اليهودية جاءت من بعده. ولم يكن إبراهيم نصرانيا، لأن النصرانية جاءت من بعده، لكنه وهو خليل الرحمن ﴿ كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ونحن نفهم أن كلمة ﴿ حَنِيفاً ﴾ تعني الدين الصافي القادم من الله، والكلمة مأخوذة من المحسات، فالحنف هو ميل في الساقين من أسفل، أي اعوجاج في الرجلين، ثم نقل الحنف إلى كل أمر غير مستوٍ.

وهنا يتساءل الإنسان ، هل كان إبراهيم عليه السلام في العوج أو في الاستقامة ؟ وكيف يكون حنيفا ، والحنف عوج ؟ وهنا نقول : إن إبراهيم عليه السلام كان على الاستقامة ، ولكنه جاء على وثنية واعوجاج طاغ فالعالم كان معوجا . وجاء إبراهيم ليخرج عن هذا العوج ، وما دام منحرفا عن العوج فهو مستقيم ، لماذا ؟ لأن الرسل لا يأتون إلا على فساد عقدي وتشريعي طاغ . والحق سبحانه وتعالى ساعة ينزل منهجه يجعل في كل نفس خلية إيمانية . والخلية الإيمانية تستيقظ مرة ، فتلتزم ، وتغفل مرة ، فتنحرف ، ثم يأتي الاستيقاظ بعد الانحراف ، فيكون الانتباه ، وهكذا توجد النفس اللوامة ، تلك النفس التي تهمس للإنسان عند الفعل الخاطئ : أن الله لم يأمر بذلك .

(176/121)

ويعود الإنسان إلى منهج الله تائبا ومستغفرا ، فإن لم توجد النفس اللوامة صارت النفس أمارة بالسوء ، وهي التي تتجه دائما إلى الانحراف ، وحول النفس الواحدة توجد نفوس متعددة تحاول أن تقاوم وتقوّم المعوج ، وهي نفوس من البيئة والمجتمع ، فمرة يكون الاعتدال والاتجاه إلى الصواب بعد الخطأ قادما من ذات الإنسان أي من النفس اللوامة ، ومرة لا توجد النفس اللوامة ، بل توجد النفس الأمارة بالسوء ، لكن المجتمع الذي حول هذا

الإنسان لا يخلو من أن يكون فيه خلية من الخير تهديه إلى الصواب ، أما إذا كانت كل الخلايا في المجتمع قد أصبحت أمارة بالسوء فمن الذي يعدلها ويصوبها ؟

هنا لابد أن يأتي الله برسول جديد ، لأن الإنسان يفتقد الردع من ذاتية النفس بخلاياها الإيمانية ، ويفتقد الردع من المجتمع الموجود لخلوه كذلك من تلك الخلايا الطيبة ، وهكذا يطم الظلام ويعم ، فيرسل الله رسولا ليعيد شعلة الإيمان في النفوس . والله سبحانه وتعالى قد ضمن لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ألا يأتي لها نبي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا فمن الضروري أن يوجد فيها الخير ويبقى ، فالخير يبقى في الذات المسلمة ، فإذا كانت الغفلة فالنفس اللوامة تصوب ، وإن كانت هناك نفس أمارة بالسوء فهناك قوم كثيرون مطمئنون يهدون النفس الأمارة إلى الصواب .

وهكذا لن تخلو أمة محمد في أي عصر من العصور من الخير ، أما الأمم الأخرى السابقة فأمرها مختلف ؛ فإن الله يرسل لهم الرسل عندما تنطفئ كل شموع الخير في النفوس ، ويعم ظلام الفساد فتتدخل السماء ، وحين تتدخل السماء يقال : إن السماء قد تدخلت على عوج لتعدله وتقومه .

إذن فإبراهيم عليه السلام جاء حنيفا ، أي مائلا عن المائل ، وما دام مائلا عن المائل فهو مستقيم ، فالحنيفية السمحة هي الاستقامة . وهكذا نفهم قول الحق : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

إن إبراهيم هو أبو الأنبياء ، ولم تكن اليهودية قد حُرفت وبدلت ، وكذلك النصرانية لكان من المقبول أن يكون اليهود والنصارى على ملة إبراهيم ؛ لأن الأديان لا تختلف في أصولها ، ولكن قد تختلف في بعض التشريعات المناسبة للعصور ، ولذلك فسيدنا إبراهيم عليه السلام لا يمكن أن يكون يهوديا باعتبار التحريف الذي حدث منهم ، أي لا يكون موافقا لهم في عقيدتهم ، وكذلك لا يمكن أن يكون نصرانيا للأسباب نفسها ، لكنه ﴿ كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي أنه مائل عن طريق الاعوجاج .

قد يقول قائل : ولماذا لم يقل الله : " إن إبراهيم كان مستقيما " ولماذا جاء بكلمة " حنيفا " التي تدل على العوج ؟ ونقول : لو قال : " مستقيما " لظن بعض الناس أنه كان على طريقة أهل زمانه وقد كانوا في عوج وضلال ولهذا يصف الحق إبراهيم بأنه ﴿ كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً ﴾ وكلمة ﴿ مُّسْلِماً ﴾ تقتضي " مسلما إليه " وهو الله ، أي أنه أسلم زمامه إلى الله ، ومُسْلَماً فيه وهو الإيمان بالمنهج .

وعندما أسلم إبراهيم زمامه إلى الله فقد اسلم في كل ما ورد بـ " افعل ولا تفعل " وإذا ما طبقنا هذا الاشتقاق على موكب الأنبياء والرسل فسنجد أن آدم عليه السلام كان مسلما

، ونوحا عليه السلام كان مسلما ، وكل الأنبياء الذين سبقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا مسلمين .

(178/121)

كان كل نبي ورسول من موكب الرسل يلقى زمامه في كل شيء إلى مُسْلَم إليه ؛ وهو الله ، ويطبق المنهج الذي نزل إليه ، وبذلك كان الإسلام وصفا لكل الأنبياء والمؤمنين بكتب سابقة ، إلى أن نزل المنهج الكامل الذي اختتمت به رسالة السماء على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بـ " افعل ولا تفعل " ولم يعد هناك أمر جديد يأتي ، ولن يشرع أحد إسلاما لله غير ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد اكتملت الغاية من الإسلام ، ونزل المنهج بتمامه من الله . واستقر الإسلام كعقيدة مصفاة ، وصار الإسلام علما على الأمة المسلمة ، أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهي التي لا يُستدرك عليها لأنها أمة أسلمت لله في كل ما ورد ونزل على محمد صلى الله عليه وسلم . لذلك قال الحق : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1525 . 1540 ﴾

(179/121)

" فصل "

قال السيوطى :

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67)

وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال : قالت اليهود : إبراهيم على ديننا . وقال النصارى : هو على ديننا . فأنزل الله ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً . . . ﴾ الآية . فأكذبهم وأدحض حجتهم .

وأخرج عن الربيع . مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال : قال كعب وأصحابه ونفر من النصارى : إن إبراهيم منا ، وموسى منا ، والأنبياء منا . فقال الله ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن سالم بن عبد الله لا أراه إلا يحدثه عن أبيه : أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه ، فلقي عالماً من اليهود فسأله عن دينه وقال : إني لعلّي أن أدين دينكم فأخبرني عن دينكم ؟ فقال له اليهودي : إنك لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله قال زيد : ما أفر إلا من غضب الله ، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً ، فهل تدلني على دين ليس فيه هذا ؟ قال : ما أعلمه الا أن تكون حنيفاً .

قال : وما الحنيف ؟ قال : دين إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، وكان لا يعبد إلا الله . فخرج من عنده فلقي عالماً من النصارى فسأله عن دينه ؟ فقال : إنّي لعلّي أن أدين دينكم فأخبرني عن دينكم ؟ قال : إنك لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله قال : لا أحتمل من لعنة الله شيئاً ، ولا من غضب الله شيئاً أبداً فهل تدلني على دين ليس فيه هذا ؟ فقال له نحو ما قاله اليهودي : لا أعلمه إلا أن تكون حنيفاً . فخرج من عندهم وقد رضي بالذي أخبراه ، والذي اتفقا عليه من شأن إبراهيم . فلم يزل رافعاً يديه ألى الله وقال : اللهم إني أشهدك اني على دين إبراهيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 237 ﴾

(180/121)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (68) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما نفي عنه صلى الله عليه وسلم كل زيغ بعد أن نفي عنه أن يكون على ملة هو متقدم عن

حدوثها شرع في بيان ما يتم به نتيجة ما مضى ببيان من هو أقرب إليه ممن جاء بعده ، فقرر أن الأولى به إنما هو من اتبعه في أصل الدين ، وهو التوحيد والتنزيه الذي لم يختلف فيه نبيان أصلاً ، وفي الانقياد للدليل وترك المألوف من غير تلعثم حتى صاروا أحقاء بالإسلام الذي هو وصفه بقوله سبحانه وتعالى مؤكداً رداً عليهم وتكذيباً لمحاجتهم : ﴿ إن أولى الناس ﴾ أي أقربهم وأحقهم ﴿ بإبراهيم للذين اتبعوه ﴾ أي في دينه من أمته وغيرهم ، لا الذين ادعوا أنه تابع لهم ، ثم صرح بهذه الأمة فقال : ﴿ وهذا النبي ﴾ أي هو أولى الناس به ﴿ والذين آمنوا ﴾ أي من أمته وغيرهم وإن كانوا في أدنى درجات الإيمان ﴿ والله ﴾ أي بما له من صفات الكمال – وليهم ، هذا الأصل ، ولكنه قال : ﴿ ولي المؤمنين ﴾ ليعم الأنبياء كلهم وأتباعهم من كل فرقة ، ويعلم أن الوصف الموجب للتقريب العراقة في الإيمان ترغيباً لمن لم يبلغه في بلوغه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 112 ﴾

فصل

قال القرطبى :

وقال ابن عباس : قال رؤساء اليهود : والله يا محمد لقد علمت أنا أولى الناس بدين إبراهيم منك ومن غيرك ، فإنه كان يهودياً وما بك إلا الحسد ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

﴿ أَوْلَى ﴾ معناه أحق ، قيل : بالمعونة والنصرة .

وقيل بالحجة .

﴿ لَلَّذِينَ اتبعوه ﴾ على مِلّته وسنته.

﴿ وهذا النبي ﴾ أفرد ذكره تعظيماً له؛ كما قال ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن : 68] وقد تقدّم في "البقرة" هذا المعنى مستوفى.

(181/121)

و "هذا" في موضع رفع عطف على الذين ، و"النبيّ" نعت لهذا أو عطف بيان ، ولو نصب لكان جائزاً في الكلام عطفاً على الهاء في "اتبعوه" .

﴿ والله وَلِيُّ المؤمنين ﴾ أي ناصرهم .

وعن ابن مسعود أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن لكل نبيّ ولاة من النبيين وإن وليّي منهم أبي وخليل ربي ثم قرأ ﴿ إنّ أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبيّ ﴾ " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿تفسير القرطبى حـ 4 صـ 109 . 110﴾

فائدة

قال فى الميزان :

وفي قوله ﴿ وهذا النبي والذين آمنوا ﴾ إفراد للنبى (عليه السلام) ومن اتبعه من المؤمنين من الذين اتبعوا إبراهيم إجلالا للنبي وصونا لمقامه أن يطلق عليه الاتباع كما يستشعر ذلك

مثل قوله تعالى " أولئك الذين هدى الله فبهديهم اقتده : الأنعام – 90 حيث لم يقل فبهم اقتده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 3 صـ 254 ﴾

(182/121)

من فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿ أُوْلِى ﴾ أفعل تفضيل من وليه يليه ولياً وألفه منقلبة عن ياء لأن فاءه واو فلا تكون لامه واواً إذ ليس في الكلام ما فاؤه ولامه واوان إلا واو ، وأصل معناه أقرب ، ومنه ما في الحديث "لأولى رجل ذكر" ويكون بمعنى أحق كما تقول : العالم أولى بالتقديم ، وهو المراد هنا أي أقرب الناس وأخصهم بإبراهيم ﴿ لَلَّذِينَ اتبعوه ﴾ أي كانوا على شريعته في زمانه ، أو اتبعوه مطلقاً فالعطف في قوله سبحانه : ﴿ وهذا النبى ﴾ من عطف الخاص على العام وهو معطوف على الموصول قبله الذي هو خبر ﴿ إن ﴾ وقرىء بالنصب عطفاً على الضمير المفعول ، والتقدير للذين اتبعوا إبراهيم واتبعوا هذا النبي وقرىء بالجر عطفاً على إبراهيم أي إن أولى الناس بإبراهيم ، وهذا النبي للذين اتبعوه واعترض بأنه كان ينبغي أن يثني ضمير ﴿ اتبعوه ﴾ ويقال اتبعوهما ، وأجيب بأنه من باب

﴿ والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة : 62] إلا أن فيه على ما قيل الفصل بين العامل والمعمول بأجنبي ، وقوله تعالى : ﴿ والذين ءامَنُواْ ﴾ إن كان عطفاً على الذين اتبعوه يكون فيه ذلك أيضاً ، وإن كان عطفاً على هذا النبي فلا فائدة فيه إلا أن يدعى أنها للتنويه بذكرهم ، وأما التزام أنه من عطف الصفات بعضها على بعض حينئذ فهو كما ترى ، ثم إن كون المتبعين لإبراهيم عليه السلام في زمانه أولى الناس به ظاهر ، وكون نبينا صلى الله عليه وسلم أولاهم به لموافقة شريعته للشريعة الإبراهيمية أكثر من موافقة شرائع سائر المرسلين لها ، وكون المؤمنين من هذه الأمة كذلك لتبعيتهم نبيهم فيما جاء به ومنه الموافق .

(183/121)

﴿ والله وَلِىُّ المؤمنين ﴾ ينصرهم ويجازيهم بالحسنى كما هو شأن الولي ، ولم يقل وليهم تنبيهاً على الوصف الذي يكون الله تعالى به ولياً لعباده وهو الإيمان بناءاً على أن التعليق بالمشتق يقتضي عليه مبدأ الاشتقاق . ومن ذلك يعلم ثبوت الحكم للنبي بدلالة النص ، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال رؤساء اليهود : والله يا محمد لقد علمت أنا أولى بدين إبراهيم منك ومن غيرك وأنه كان يهودياً وما بك إلا الحسد فأنزل الله تعالى هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 197 ﴾

(184/121)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ يا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ ﴾

لَمَّا بَيَّنَ - جَلَّ شَأْنُهُ - الْقَصَصَ الْحَقَّ فِي شَأْنِ عِيسَى وَالْمُخْتَلِفِينَ فِيهِ وَأَقَامَ الْحُجَّةَ الْعَقْلِيَّةَ عَلَى الْغَالِبِينَ فِيهِ بِجَعْلِهِ رَبًّا وَإِلَهًا ، ثُمَّ أَلْزَمَهُمْ مِنْ طَرِيقِ الْوِجْدَانِ أَوِ الضَّمِيرِ - كَمَا يُقَالُ - بِمَا دَعَاهُمْ

إِلَى الْمُبَاهَلَةِ لَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَأْمُرَ نَبِيَّهُ بِأَنْ يَدْعُوَهُمْ إِلَى الْحَقِّ الْوَاجِبِ اتِّبَاعُهُ فِي الْإِيمَانِ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ : قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْآيَةَ .

(185/121)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : الْكَلَامُ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ فِي إِثْبَاتِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالرَّدِّ عَلَى الْمُنْكِرِينَ ، وَقَدْ ظَهَرَ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ انْقِطَاعُ حِجَاجِ الْمُكَابِرِينَ ، وَدَلَّ

نُكُولُهُمْ عَنْهَا عَلَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى يَقِينٍ مِنَ اعْتِقَادِهِمْ أُلُوهِيَّةَ الْمَسِيحِ ، وَفَاقِدُ الْيَقِينِ يَتَزَلْزَلُ عِنْدَمَا يُدْعَى إِلَى شَيْءٍ يَخَافُ عَاقِبَتَهُ ، فَلَمَّا نَكَلُوا دَعَاهُمْ إِلَى أَمْرٍ آخَرَ هُوَ أَصْلُ الدِّينِ وَرُوحُهُ الَّذِي اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ دَعْوَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَهُوَ سَوَاءٌ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ أَيْ عَدْلٌ وَوَسَطٌ لَا يَرْجَحُ فِيهِ طَرَفٌ آخَرَ ، وَقَدْ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ : أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ أَقُولُ : الْمُرَادُ بِهَذَا تَقْرِيرُ وَحْدَانِيَّةِ الْأُلُوهِيَّةِ وَوَحْدَانِيَّةِ الرُّبُوبِيَّةِ ، وَكِلَاهُمَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ ، فَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُوَحِّدًا صِرْفًا ، وَقَدْ كَانَ الْأَسَاسُ الْأَوَّلُ لِشَرِيعَةِ مُوسَى قَوْلُ اللهِ لَهُ : " إِنَّ الرَّبَّ إِلَهَكَ لَا يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى . أَمَامِي لَا تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالًا مَنْحُوتًا وَلَا صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقٍ ، وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ مِنْ تَحْتٍ ، وَمِمَّا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ ، لَا تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلَا تَعْبُدْهُنَّ " وَعَلَى هَذَا دَرَجَ جَمِيعُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى الْمَسِيحُ - عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -

(186/121)

، وَهُمْ لَا يَزَالُونَ يَنْقُلُونَ عَنْهُ فِي إِنْجِيلِ يُوحَنَّا قَوْلَهُ : (يو 17 : 3) " وَهَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الْإِلَهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ " وَغَيْرُ ذَاكَ مِنْ عِبَارَاتِ التَّوْحِيدِ ، وَكَانَ يَحْتَجُّ عَلَى الْيَهُودِ بِعَدَمِ إِقَامَتِهِمْ نَامُوسَ مُوسَى (شَرِيعَتَهُ) وَهُوَ لَمْ

يَنسَخْ مِنْ هذَا النّامُوس إلَّا بَعْضَ الرُّسُوم الظَّاهِرَة وَالتَّشْدِيداتِ فِي الْمُعامَلَة ، أَمّا الْوَصَايَا الْعَشْرُ – ورَأْسُهَا التَّوْحِيدُ وَالنّهْيُ عَنِ الشّرْكِ – فَلَمْ يَنْسَخْ مِنْهَا شَيْئًا .

(187/121)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : الْمَعْنَى أَنَّنَا نَحْنُ وَإِيّاكُمْ عَلَى اعْتِقَادٍ أَنّ الْعَالَمَ مِنْ صُنْعِ إِلَهٍ وَاحِدٍ ، وَالتّصرُّفَ فِيهِ لِإِلَهٍ وَاحِدٍ ، وَهُوَ خَالِقُهُ وَمُدَبّرُهُ وَهُوَ الّذِي يُعَرّفُنَا عَلَى أَلْسِنَةِ أَنْبِيَائِهِ مَا يُرْضِيهِ مِنَ الْعَمَلِ وَمَا لَا يُرْضِيهِ . فَتَعَالَوْا بِنَا نَتَّفِقُ عَلَى إِقَامَةِ هَذِهِ الْأُصُولِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا وَرَفْضِ الشُّبْهَاتِ الّتِي تَعْرِضُ لَهَا ، حَتّى إِذَا سَلّمْنَا أَنّ فِيمَا جَاءَكُمْ مِنْ نَبَأِ الْمَسِيحِ شَيْئًا فِيهِ لَفْظُ ابْنِ اللهِ خَرّجْنَاهُ جَمِيعًا عَلَى وَجْهٍ لَا يَنْقُضُ الْأَصْلَ الثّابِتَ الْعَامّ الَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْأَنْبِيَاءُ . فَإِنْ سَلّمْنَا أَنّ الْمَسِيحَ قَالَ إِنّهُ ابْنُ اللهِ ، قُلْنَا : هَلْ فَسّرَ هَذَا الْقَوْلَ بِأَنّهُ إِلَهٌ يُعْبَدُ ؟ وَهَلْ دَعَا إِلَى عِبَادَتِهِ وَعِبَادَةِ أُمّهِ أَمْ كَانَ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ ؟ لَا شَكّ أَنّكُمْ مُتَّفِقُونَ مَعَنَا عَلَى أَنّهُ كَانَ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ بِالتّصْرِيحِ الّذِي لَا يَقْبَلُ التّأْوِيلَ .

وَأَقُولُ : إِنّ كَلَامَهُ عَنْ نَفْسِهِ كَانَ أَكْثَرُهُ مِنْ بَابِ الْكِنَايَةِ أَوِ الْمَجَازِ ، بَلْ كَانَ بَعْضُهُ مِنْ قَبِيلِ الْمُعَمّيَاتِ وَالْأَلْغَازِ ، حَتّى إِنّ تَلَامِيذَهُ لَمْ يَكُونُوا يَفْهَمُوهُ إِلّا بَعْدَ تَفْسِيرِهِ ، وَلَقَدْ كَانَ هَذَا

التَّفْسِيرُ يَتَأَخَّرُ أَحْيَانًا إِلَى أَمَدٍ بَعِيدٍ ، وَلَفْظُ " ابْنِ اللهِ " أُطْلِقَ فِي كُتُبِ الْعَهْدِ الْعَتِيقِ عَلَى إِسْرَائِيلَ وَغَيْرِهِ فَهُوَ مَجَازٌ قَطْعًا . أَمَّا هَذِهِ

(188/121)

النَّزَعَاتُ الْوَثَنِيَّةُ الَّتِي دَخَلَتْ عَلَى الدِّينِ فَقَدْ دَخَلَتْ بَعْدَهُ وَلَيْسَ لِوَاضِعِيهَا سَنَدٌ مِنْ كَلَامِهِ ، وَإِنَّمَا يُرَوِّجُونَهَا بِأَقْيِسَةٍ بَاطِلَةٍ جَرَى عَلَيْهَا كَثِيرٌ مِنَ الْوَثَنِيِّينَ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ كَقَوْلِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ : مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى [39 : 3] وَقَوْلِهِمْ : هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ [10 : 18] قُلْنَا : إِنَّ الْآيَةَ قَرَّرَتْ وَحْدَانِيَّةَ الْأُلُوهِيَّةِ وَوَحْدَانِيَّةَ الرُّبُوبِيَّةِ ، فَأَمَّا وَحْدَانِيَّةُ الْأُلُوهِيَّةِ فَهِيَ قَوْلُهُ : أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَأَكَّدَهُ بِقَوْلِهِ : وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَالْإِلَهُ هُوَ الْمَعْبُودُ الَّذِي تُولَهُ الْعُقُولُ فِي مَعْرِفَتِهِ وَتَدْعُوهُ وَتَصْمُدُ إِلَيْهِ لِاعْتِقَادِهَا أَنَّ السُّلْطَةَ الْغَيْبِيَّةَ لَهُ وَحْدَهُ ، وَأَمَّا وَحْدَانِيَّةُ الرُّبُوبِيَّةِ فَهِيَ قَوْلُهُ : وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَالرَّبُّ : هُوَ السَّيِّدُ الْمُرَبِّي الَّذِي يُطَاعُ فِيمَا يَأْمُرُ وَيَنْهَى ، وَالْمُرَادُ هُنَا مَنْ لَهُ حَقُّ التَّشْرِيعِ

(189/121)

وَالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ : أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ ، فَقَالَ : يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ [9 : 31] فَقُلْتُ لَهُ : يَا رَسُولَ اللهِ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ ، فَقَالَ : أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَيُحَرِّمُونَ ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّونَ ؟ فَقُلْتُ : بَلَى . وَسُئِلَ حُذَيْفَةُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – عَنِ الْآيَةِ ؟ فَأَجَابَ بِمِثْلِ ذَلِكَ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : كَانَ الْيَهُودُ مُوَحِّدِينَ وَلَكِنْ كَانَ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ هُوَ مَنْبَعُ شَقَائِهِمْ فِي كُلِّ حِينٍ ، وَهُوَ اتِّبَاعُ رُؤَسَاءِ الدِّينِ فِيمَا يُقَرِّرُونَهُ وَجَعْلِهِ بِمَنْزِلَةِ الْأَحْكَامِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ اللهِ – تَعَالَى – ، وَجَرَى النَّصَارَى عَلَى ذَلِكَ وَزَادُوا مَسْأَلَةَ غُفْرَانِ الْخَطَايَا ، وَهِيَ مَسْأَلَةٌ تَفَاقَمَ أَمْرُهَا فِي بَعْضِ الْأَزْمَانِ حَتَّى ابْتَلَعَتْ بِهَا الْكَنَائِسُ أَكْثَرَ أَمْلَاكِ النَّاسِ ، وَمِنَ الْغُلُوِّ فِيهَا وُلِدَتْ مَسْأَلَةُ الْبُرُوتِسْتَانْتِ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا : هَلُمَّ بِنَا نَتْرُكْ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَابَ مِنْ دُونِ اللهِ وَنَأْخُذُ الدِّينَ مِنْ كِتَابِهِ لَا نُشْرِكُ مَعَهُ فِي ذَلِكَ قَوْلَ أَحَدٍ .

قَالَ - تَعَالَى - : فَإِنْ تَوَلَّوْا وَأَعْرَضُوا عَنْ هَذِهِ الدَّعْوَةِ وَأَبَوْا إِلَّا أَنْ يَعْبُدُوا غَيْرَ اللهِ بِاتِّخَاذِ الشُّرَكَاءِ الَّذِينَ يُسَمُّونَهُمْ وُسَطَاءَ وَشُفَعَاءَ وَاتِّخَاذِ الْأَرْبَابِ الَّذِينَ يُحِلُّونَ لَهُمْ وَيُحَرِّمُونَ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ نَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَا نَدْعُو سِوَاهُ وَلَا نَتَوَجَّهُ إِلَى غَيْرِهِ فِي طَلَبِ نَفْعٍ وَلَا دَفْعِ ضُرٍّ ، وَلَا نُحِلُّ إِلَّا مَا أَحَلَّهُ وَلَا نُحَرِّمُ إِلَّا مَا حَرَّمَهُ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : الْآيَةُ حُجَّةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَأْخُذَ بِقَوْلِ أَحَدٍ مَا لَمْ يُسْنِدْهُ إِلَى الْمَعْصُومِ . أَقُولُ : يَعْنِي فِي مَسَائِلِ الدِّينِ الْبَحْتَةِ الْعِبَادَاتِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، أَمَّا الْمَسَائِلُ الدُّنْيَوِيَّةُ كَالْقَضَاءِ وَالسِّيَاسَةِ فَهِيَ مُفَوَّضَةٌ بِأَمْرِ اللهِ إِلَى أُولِي الْأَمْرِ ، وَهُمْ رِجَالُ الشُّورَى مِنْ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، فَمَا يُقَرِّرُونَهُ يَجِبُ عَلَى حُكَّامِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُنَفِّذُوهُ وَعَلَى الرَّعِيَّةِ أَنْ يَقْبَلُوهُ .

فَمَا جَرَى عَلَيْهِ الْمُقَلِّدُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْأَخْذِ بِآرَاءِ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ فِي الْعِبَادَاتِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ

(191/121)

هُوَ عَيْنُ مَا أَنْكَرَهُ كِتَابُ اللهِ - تَعَالَى - عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَجَعَلَهُ مُنَافِيًا لِلْإِسْلَامِ ، بَلْ جَعَلَ مُخَالَفَتَهُمْ فِيهِ هِيَ عَيْنَ الْإِسْلَامِ فَلْيَعْتَبِرِ الْمُعْتَبِرُونَ فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أَسَاسُ الدِّينِ الْمَتِينِ وَأَصْلُهُ

الْأَصِيلُ ; وَلِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَدْعُو بِهَا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَى الْإِسْلَامِ كَمَا ثَبَتَ فِي كُتُبِهِ إِلَى هِرَقْلَ وَالْمُقَوْقِسِ وَغَيْرِهِمَا . وَهَذَا نَصُّ كِتَابِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى هِرَقْلَ عَاهِلِ الرُّومِ كَمَا فِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ .

" بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ . سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى . أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ وَيَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا الْآيَةَ إِلَى آخِرِهَا " .

(192/121)

فَلَوْلَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ أَسَاسُ الدِّينِ وَعَمُودُهُ لَمَا جَعَلَهَا آيَةَ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَهَلْ يُعْذَرُ مَنْ يُؤْمِنُ بِهَا إِذَا هُوَ أَدْخَلَ فِيهَا بِاجْتِهَادِهِ مَا لَيْسَ مِنْهَا فَاتَّخَذَ لَهُ أَنْدَادًا يَدْعُوهُمْ لِكَشْفِ الضُّرِّ وَجَلْبِ النَّفْعِ زَاعِمًا أَنَّهُمْ وَسَائِطُ يُقَرِّبُونَهُ إِلَى زُلْفَى ، وَيَشْفَعُونَ لَهُ عِنْدَهُ فِي مَصَالِحِ الدُّنْيَا ، وَهَذَا عَيْنُ الْإِشْرَاكِ فِي الْأُلُوهِيَّةِ بِالِاجْتِهَادِ الْبَاطِلِ ، وَالْقِيَاسِ الْفَاسِدِ الَّذِي يُشَبِّهُ بِهِ الْخَبِيرَ الْعَلِيمَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ بِالْمُلُوكِ الْجَاهِلِينَ وَالْأُمَرَاءِ الْمُسْتَبِدِّينَ ، وَلَا اجْتِهَادَ فِي الْعَقَائِدِ ، وَلَا قِيَاسَ فِي أَصْلِ الْإِيمَانِ ، أَمْ هَلْ يُعْذَرُ مَنْ يُؤْمِنُ بِهَا إِذَا هُوَ اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ أَرْبَابًا

سَمَّاهُمُ الْعُلَمَاءَ الرَّاسِخِينَ، أَوِ الْأَئِمَّةَ الْمُجْتَهِدِينَ، فَجَعَلَ كَلَامَهُمْ حُجَّةً فِي الدِّينِ، وَشَرْعًا مُتَّبَعًا فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ، وَذَلِكَ عَيْنُ الْإِشْرَاكِ فِي الرُّبُوبِيَّةِ وَالْخُرُوجِ عَنْ هِدَايَةِ الْآيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمُؤَيَّدَةِ بِمِثْلِ قَوْلِهِ - تَعَالَى -: أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ [42 : 20] وَقَوْلِهِ: وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ [16 : 166] فَاللَّهُ - تَعَالَى - قَدْ حَدَّ الْحُدُودَ وَبَيَّنَ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِنَا غَيْرَ نِسْيَانٍ مِنْهُ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَنَهَانَا نَبِيُّهُ أَنْ نَبْحَثَ عَمَّا سَكَتَ عَنْهُ وَأَنْ نَزِيدَ فِي الدِّينِ بِرَأْيِنَا

(193/121)

وَاجْتِهَادِنَا، وَإِنَّمَا أَبَاحَ لَنَا الِاجْتِهَادَ لِاسْتِنْبَاطِ مَا تَقُومُ بِهِ مَصَالِحُنَا فِي الدُّنْيَا، فَهَذَا هُوَ هَدْيُ الْآيَةِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ.

رَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ بِسَنَدِهِ الْمُتَكَرِّرِ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: "اجْتَمَعَتْ نَصَارَى نَجْرَانَ وَأَحْبَارُ يَهُودَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَقَالَتِ الْأَحْبَارُ: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ إِلَّا يَهُودِيًّا، وَقَالَتِ النَّصَارَى: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ إِلَّا نَصْرَانِيًّا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ الْآيَةَ. كَذَا فِي لُبَابِ النُّقُولِ. وَأَقُولُ: جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَالْآيَتَانِ

بَعْدَهَا فِي سِيَاقِ دَعْوَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَبَيَانِ أَنَّهُ دِينُ جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِمُ الَّذِينَ يَدِينُونَ بِإِجْلَالِهِمْ ، وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ

(194/121)

وَالسَّلَامُ وَعَلَى آلِهِ - مَوْضِعَ إِجْلَالِ الْفَرِيقَيْنِ مِنْهُمْ لِمَا فِي كُتُبِهِمْ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ فِي الْعَهْدِ الْعَتِيقِ وَالْعَهْدِ الْجَدِيدِ ، كَمَا كَانَتْ قُرَيْشٌ تُجِلُّهُ وَتَدَّعِي أَنَّهَا عَلَى دِينِهِ ، فَأَرَادَ - تَعَالَى - أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ جَمِيعًا أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الْكَرِيمَ الَّذِي كَانُوا يُجِلُّونَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ تَقَالِيدِهِمْ ، وَإِنَّمَا كَانَ عَلَى الْإِسْلَامِ الَّذِي يَدْعُوهُمْ هُوَ إِلَيْهِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - ، فَبَدَأَ بِالِاحْتِجَاجِ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ بِقَوْلِهِ : وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَيْ فَإِذَا كَانَ الدِّينُ الْحَقُّ لَا يَعْدُو التَّوْرَاةَ كَمَا تَقُولُونَ أَيُّهَا الْيَهُودُ ، أَوْ لَا يَتَجَاوَزُ الْإِنْجِيلَ كَمَا تَقُولُونَ أَيُّهَا النَّصَارَى ، فَكَيْفَ كَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَى الْحَقِّ وَاسْتَوْجَبَ ثَنَاءَكُمْ وَثَنَاءَ مَنْ قَبْلَكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَنَّ الْمُتَقَدِّمَ عَلَى الشَّيْءِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ تَابِعًا لَهُ ! ! فَإِنْ خَطَرَ فِي بَالِكَ أَيُّهَا الْقَارِئُ أَنَّ هَذَا يَرُدُّ عَلَى الْقُرْآنِ فَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعِي إِلَى تَفْسِيرِ الْآيَةِ الثَّالِثَةِ .

(195/121)

هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ مَا ، وَهُوَ خَبَرُ عِيسَى فَقَامَتْ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةُ بِأَنَّ مِنْكُمْ مَنْ غَلَا فِي الْإِفْرَاطِ إِذْ قَالَ : إِنَّهُ إِلَهٌ ، وَمِنْكُمْ مَنْ غَلَا فِي التَّفْرِيطِ إِذْ قَالَ : إِنَّهُ دَعِيٌّ كَذَّابٌ ، وَلَمْ يَكُنْ عِلْمُكُمُ الْقَلِيلُ بِهِ عَاصِمًا لَكُمْ مِنَ الْخَطَأِ فِي الْحُكْمِ عَلَيْهِ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَهُوَ كَوْنُ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا ! أَلَيْسَ الْوَاجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَّبِعُوا فِيهِ مَا يُوحِيهِ اللهُ إِلَى عَبْدِهِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ثُمَّ بَيَّنَ - تَعَالَى - مَا يَعْلَمُ مِنْ أَمْرِهِ فَقَالَ : مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا أَيْ مَائِلًا عَنْ كُلِّ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ عَصْرِهِ مِنَ الشِّرْكِ وَالضَّلَالِ مُسْلِمًا وَجْهَهُ إِلَى اللهِ - تَعَالَى - وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ وَالطَّاعَةَ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمُ الْحُنَفَاءَ وَيَدَّعُونَ أَنَّهُمْ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَهُمْ قُرَيْشٌ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ . وَهَذَا مِنَ الِاحْتِرَاسِ فَقَدْ كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَدْعُونَ الْعَرَبَ بِالْحُنَفَاءِ ، حَتَّى صَارَ الْحَنِيفُ عِنْدَهُمْ بِمَعْنَى الْوَثَنِيِّ الْمُشْرِكِ ، فَلَمَّا وَافَقَهُمُ الْقُرْآنُ عَلَى إِطْلَاقِ لَفْظِ الْحَنِيفِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ مُسْتَعْمِلًا لَهُ بِالْمَعْنَى اللُّغَوِيِّ ، احْتَرَسَ عَمَّا يُوهِمُهُ

الْإِطْلَاقِ مِنْ إِرَادَةِ الْمَعْنَى الِاصْطِلَاحِيِّ عِنْدَهُمْ ، فَصَارَ مَعْنَى الْآيَةِ : أَنَّ إِبْرَاهِيمَ الْمُتَّفَقَ عَلَى إِجْلَالِهِ وَادِّعَاءِ دِينِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْمِلَلِ الثَّلَاثِ لَمْ يَكُنْ عَلَى مِلَّةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، بَلْ كَانَ مَائِلًا عَنْ مِثْلِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْوَثَنِيَّةِ وَالتَّقَالِيدِ مُسْلِمًا خَالِصًا لِلَّهِ تَعَالَى ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِكَوْنِهِ مُسْلِمًا أَنَّهُ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَعَلَى آلِهِمَا وَسَلَّمَ - مِنَ الشَّرِيعَةِ بِالتَّفْصِيلِ ، فَإِنَّهُ يَرُدُّ عَلَى هَذَا أَنَّ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ جَاءَتْ مِنْ بَعْدِهِ كَمَا كَانَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَنَّهُ كَانَ مُتَحَقِّقًا بِمَعْنَى الْإِسْلَامِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ لَفْظُهُ وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَالْإِخْلَاصُ لِلَّهِ فِي عَمَلِ الْخَيْرِ كَمَا بَيَّنَّا ذَلِكَ بِالتَّفْصِيلِ فِي تَفْسِيرِ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ [3 : 19] وَهَذَا الْمَعْنَى لَا يَسْتَطِيعُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِنْكَارَهُ ; فَإِنَّ مَا فِي كُتُبِهِمْ عَنْ إِبْرَاهِيمَ لَا يَعْدُوهُ وَمَا كَانَ النَّبِيُّ يَدْعُوهُمْ إِلَّا إِلَيْهِ ، وَقَدْ نَسِيَ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ مَعْنَى الْإِسْلَامِ الَّذِي يُقَرِّرُهُ الْقُرْآنُ ، وَجَمَدُوا عَلَى الْمَعْنَى الِاصْطِلَاحِيِّ لَهُ فَجَعَلُوهُ جِنْسِيَّةً غَافِلِينَ عَنْ كَوْنِهِ هِدَايَةً رُوحِيَّةً ، وَمَا كَانَ سَلَفُهُمُ الصَّالِحُ كَذَلِكَ .

(197/121)

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ أَيْ أَجْدَرَهُمْ بِوِلَايَتِهِ وَأَحْرَاهُمْ بِمُوَافَقَتِهِ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي عَصْرِهِ وَأَجَابُوا دَعْوَتَهُ فَاهْتَدَوْا بِهَدْيِهِ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ فَإِنَّهُمْ أَهْلُ التَّوْحِيدِ الْمُخْلِصِ

الَّذِي لَا يَشُوبُهُ اتِّخَاذُ الْأَوْلِيَاءِ وَلَا التَّوَسُّلُ بِالْوُسَطَاءِ وَالشُّفَعَاءِ ، وَأَهْلُ الْإِخْلَاصِ فِي الْأَعْمَالِ الَّذِي لَا يُبْطِلُهُ شِرْكٌ وَلَا رِيَاءٌ ، وَهَذَا هُوَ رُوحُ الْإِسْلَامِ وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْإِيمَانِ ، فَمَنْ فَاتَهُ فَقَدْ فَاتَهُ الدِّينُ كُلُّهُ لَا تُغْنِي عَنْهُ التَّقَالِيدُ وَالرُّسُومُ وَلَا تَنْفَعُهُ الْوُسَطَاءُ وَالْأَوْلِيَاءُ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [26 : 88 ، 89] بِأَخْذِهِ بِحَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ الَّذِي شُرِعَ لِتَنْقِيَةِ الْقُلُوبِ وَتَزْكِيَةِ النُّفُوسِ وَإِعْدَادِ الْأَرْوَاحِ فِي الدُّنْيَا إِلَى الدَّرَجَاتِ الْعُلَا فِي الْأُخْرَى وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى غَيْرِهِ فِي كَشْفِ ضُرٍّ وَلَا طَلَبِ نَفْعٍ فَهُوَ يَتَوَلَّى أُمُورَهُمْ وَيُصْلِحُ شُئُونَهُمْ ، وَيَتَوَلَّى إِثَابَتَهُمْ عَلَى حَسَبِ تَأْثِيرِ الْإِسْلَامِ فِي قُلُوبِهِمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ . فَنَسْأَلُهُ – تَعَالَى – أَنْ يَجْعَلَنَا مَعَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلَا يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِ الْجُمُودِ عَلَى التَّقَالِيدِ الظَّاهِرَةِ الْغَافِلِينَ عَنْ رُوحِ الْإِسْلَامِ الْمَفْتُونِينَ بِاتِّخَاذِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأُمَرَاءِ هَذَا وَلَيْسَ عِنْدَنَا فِي هَذِهِ الْآيَاتِ شَيْءٌ عَنِ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ وَمَا قُلْنَاهُ مُوَافِقٌ لِطَرِيقَتِهِ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿تفسير المنار حـ 3 صـ 267 . 272﴾

(198/121)

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال عليه الرحمه :

قوله تعالى ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (68) ﴾

استئناف ناشيء عن نفي اليهودية والنصرانية عن إبراهيم ، فليس اليهود ولا النصارى ولا المشركون بأولى الناس به ، وهذا يدل على أنهم كانوا يقولون : نحن أولى بدينكم .

و(أولى) اسم تفضيل أي أشد ولْياً أي قرباً مشتق من وَلِي إذا صار وَلْيًا ، وعدّي بالباء لتضمّنه معنى الاتصال أي أخصّ الناس بإبراهيم وأقربهم منه .

ومن المفسّرين من جعل أولى هنا بمعنى أجدر فيضطرّ إلى تقدير مضاف قبل قوله : ﴿ بإبراهيم ﴾ أي بدين إبراهيم .

والذين اتبعوا إبراهيم هم الذين اتبعوه في حياته : مثل لوط وإسماعيل وإسحاقَ ، ولا اعتداد بمحاولة الذين حاولوا اتباع الحنيفية ولم يهتدوا إليها ، مثل زيد بن عَمْرو بن نُفَيْل ، وأميةَ ابن أبي الصّلْت ، وأبيه أبي الصّلت ، وأبي قيْس صِرمَة بن أبي أنس من بني النجّار ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم "كاد أمية بن أبي الصّلْت ، أن يُسلم " وهو لم يدرك الإسلام فالمعنى كاد أن يكون حنيفاً ، وفي "صحيح البخاري" : أنّ زيد بن عَمرو بن نُفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين فلقي عالماً من اليهود ، فسأله عن دينه فقال له : إنّي أريد أن أكونَ على دينك ، فقال اليهوديّ : إنّك لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله ، قال زيد : أفِرُّ إلاّ من غضب الله ، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وأنا أستطيع ، فهل

تدلني على دين ليس فيه هذا ؟ قال : لا أعلمه إلاّ أن تكون حنيفاً ، قال : وما الحنيف ؟ قال : دين إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وكان لا يعبد إلاّ الله ، فخرج من عنده فلقي عالماً من النصارى فقاوله مثل مقاولة اليهودي ، غير أنّ النصراني قال : أن تأخذ بنصيبك من لَعنة الله ، فخرج من عنده وقد اتفقا له على دين إبراهيم ، فلم يزل رافعاً يديه إلى السماء وقال : اللهم أشهَدُ أنّي على دين إبراهيم وهذا أمنية منه لا تصادف الواقع .

(199/121)

وفي "صحيح البخاري" ، عن أسماء بنت أبي بكر : قالت : رأيت زيدَ بن عَمرو بن نُفيل قبل الإسلام مسنِداً ظهره إلى الكعبة وهو يقول : "يا معشر قريش ليس منكم على دين إبراهيم غيري" وفيه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لقي زيدَ بن عمرو بن نُفيل بأسفل بَلْدَح قبل أن يَنزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحي فقُدّمَتْ إلى النبي صلى الله عليه وسلم سُفرة فأبى زيدُ بن عمرو أنْ يأكل منها وقال : إنّي لست آكل ممّا تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلاّ ما ذكر اسم الله عليه وهذا توهّم منه أن النبي صلى الله عليه وسلم يفعل كما تفعل قريش .

وإنّ زيداً كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول : الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء

أنبت لها من الأرض ثم تذبحونها على غير اسم الله .

واسم الإشارة في قوله : ﴿ وهذا النبي ﴾ مستعمل مجازاً في المشتهر بوصف بين المخاطبين كقوله في الحديث : " فجعل الفَرَاشُ وهذه الدّوَابُّ تقع في النار " فالإشارة استعملت في استحضار الدوابّ المعروفة بالتساقط على النار عند وقودها ، والنبي ليس بمشاهد للمخاطبين بالآية ، حينئذ ، ولا قُصدت الإشارة إلى ذاته .

ويجوز أن تكون الإشارة مستعملة في حضور التكلم باعتبار كون النبي هو الناطق بهذا الكلام ، فهو كقول الشاعر : "نجوتتِ وهَذا تحملين طَليق" أي والمتكلّم الذي تحملينه .

والاسم الواقع بعد اسم الإشارة ، بدلاً منه ، هو الذي يعين جهة الإشارة مَا هي .

وعطف النبي على الذين اتبعوا إبراهيم للاهتمام به وفيه إيماء إلى أنّ متابعته إبراهيم عليه السلام ليست متابعة عامة فكون الإسلام من الحنيفية أنّه موافق لها في أصولها .

والمراد بالذين آمنوا المسلمون .

فالمقصود معناه اللقَبي ، فإنّ وصف الذين آمنوا صار لقباً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ولذلك كثر خطابهم في القرآن بياأيها الذين آمنوا .

ووجه كون هذا النبي صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا أولى الناس بإبراهيم ، مثل الذين اتبعوه ، إنّهم قد تخلقوا بأصول شرعه ، وعرفوا قدره ، وكانوا له لسان صدق دائباً بذكره ، فهؤلاء أحقّ به ممّن انتسبوا إليه لكنهم نقضوا أصول شرعه وهم المشركون ، ومن الذين انتسبوا إليه وأنسوا ذكر شرعه ، وهم اليهود والنصارى ، ومن هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم لما سأل عن صوم اليهود ، يوم عاشوراء فقالوا : هو يوم نجّى الله فيه موسى فقال : "نَحْنُ أحقّ بموسى منهم" وصامه وأمر المسلمين بصومه .

وقوله : ﴿ والله ولي المؤمنين ﴾ تذييل أي هؤلاء هم أولى الناس بإبراهيم ، والله ولي إبراهيم ، والذين اتبعوه ، وهذا النبي ، والذين آمنوا ؛ لأنّ التذييل يشمل المذيَّل قطعاً ، ثم يشمل غيره تكميلاً كالعام على سبب خاص .

وفي قوله : ﴿ والله ولي المؤمنين ﴾ بعد قوله : ﴿ كان إبراهيم يهودياً ﴾ [آل عمران : 67] تعريض بأنّ الذين لم يكن إبراهيم منهم ليسوا بمؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ 123.125﴾

فصل

(201/121)

روى الكلبيُّ وابنُ إسحاقَ حديث هجرة الحبشة لما هاجر جعفر بن أبي طالب ، وأناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة ، واستقرَّتْ بهم الدَّارُ ، وهاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وكان من أمر بدر ما كان ، اجتمعت قريش في دارِ الندوةِ ، وقالوا : إن لنا في الذين عند النجاشي – من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم – ثأراً ممن قُتِل منكم ببدر ، فاجمعوا مالاً ، وأهدوه إلى النجاشِيِّ ؛ لعله يدفع إليكم مَنْ عنده من قَوْمِكُمْ ، ولْيُنْتَدَب لذلك رجلان من ذوي رَأْيكم ، فبعثوا عمرو بنَ العاصِ ، وعمارة بن الوليد مع الهدايا ، فركِبا البحرَ ، وأتَيا الحبشةَ ، فلما دَخَلاَ على النجاشيِّ سَجَدَا له ، وسلما عليه ، وقَالاَ له : إنَّ قومَنا لك ناصحون شاكرون ، ولصِلاَحِك مُحِبُّونَ ، وإنهم بعثونا لنحذّرك هؤلاءِ الذين قَدِموا عليك ؛ لأنهم قومُ رجلٍ كَذَّابٍ ، خرج فينا يزعم أنه رسولُ الله ، ولم يتابعه أحدٌ منا إلاَّ السُّفَهاءُ ، وإنا كنا ضيَّقْنَا عليهم الأمر ، وألجأناهم إلى شِعْبٍ بأرضِنَا ، لا يدخل عليهم أحدٌ ، ولا يخرجُ منهم أحدٌ ، حتى قتلهم الجوعُ والعطشُ ، فلمَّا اشتدَّ عليهم الأمرُ بعث إليك ابن عَمّه ، لِيُفْسِد عليك دِينَك ومُلْكَك ورَعِيَّتَك ، فاحْذَرْهُمْ ، وادْفَعْهم إلَيْنَا ، لنكفِيَكَهُمْ ، قالوا : وآية ذلك أنهم إذا دَخَلوا عليك لا يسجدون لك ، ولا يُحَيُّونَك بالتحية التي يُحَيِّيك بها الناسُ رغبةً عن دِينك وسُنَّتِكَ .

(202/121)

فدعاهم النجاشيُّ ، فلمَّا حضروا صاح جعفرُ بالباب : يستأذن عليك حزبُ اللهِ ، فقال النجاشيُّ : مروا هذا الصائحَ فلْيُعِدْ كلامَه ، ففعل جَعْفَرُ ، فقال النجاشيُّ : نعم ، فلْيَدْخُلُوا بأمان اللهِ وذمته ، فنظر عمرو بنُ العاصِ إلى صاحبه ، فقال : ألا تسمع ؟ يرطنون بـ " حِزْبِ اللهِ " وما أجابهم به النجاشي ! ! ! فساءهما ذلك ، ثم دخلوا عليه ولم يَسْجُدُوا له ، فقال عمرو بن العاص ألا ترى أنهم يستكبرون أن يسجدوا لك ؟ فقال لهم النجاشِيُّ : ما منعكم أن تسجدوا لِي وتُحَيُّونِي بالتحية التي يحييني بها مَنْ أتاني من الآفاقِ ؟ قالوا : نَسْجُد لله الذي خَلَقَكَ ومُلْكَكَ ، وإنما كانت تلك التحيةُ لنا ونحن نعبدُ الأصْنَام ، فبعث الله فينا نبيًّا صادقاً ، وأمرنا بالتحية التي رضيها اللهُ ، وهي السلامُ ، وتحية أهل الجنَّةِ ، فعرف النجاشيُّ أن ذلك حَقٌّ ، وأنه في التوراة والإنجيل ، فقال : أيكم الهاتف : يستأذنُ عليك حِزْبُ الله ؟ قال جَعْفَر : أنا ، قال : فتكلم ، قال : إنك مَلِك من ملوك أهل الأرض ، ومن أهل الكتاب ، ولا يصلح عندكَ كثْرةُ الكلامِ ، ولا الظلمُ ، وأنا أحب أن أجيبَ عن أصحابي ، فمر هذين الرجلين ، فلْيَتَكَلَّمْ أحدُهما ، ولِيُنْصِت الآخرُ ، فيسمع محاورتنا ، فقال عَمْرو لجعفر : تَكَلَّمْ ، فقال جعفر للنجاشيِّ : سل هذين الرجلين أعَبيدٌ نحن أم أحرارٌ ؟ فإن كنا عبيداً أَبَقْنَا من أربَابِنا فارْدُدْنا إليهم ، فقال النجاشيُّ : أعبيدٌ هم

أم أحرار ؟ فقال لا ، بل أحرارٌ كرام ، فقال النجاشيُّ : نَجَوْا من العبوديّةِ ، ثم قال جعفرُ : سَلْهُمَا هل لهم فينا دماء بغير حق ، فيقتصّ منا ؟ فقال عمرو : لا ، ولا قطرة .

(203/121)

قال جعفر : سَلْهُمَا ، هل أخذنا أموالَ الناسِ بغير حق ، فعلينا قضاؤها – قال النجاشيُّ : إن كان قنطاراً فعلي قضاؤه – فقال عمرو : لا ، ولا قيراط ، فقال النجاشيُّ : فما تطلبون منهم ؟ قال عمرو كنا وهم على دينٍ واحدٍ – دين آبائِنا – فتركوا ذلك ، واتَّبَعُوا غيره ، فَبَعَثَنَا إليك قومنا لتدفعهم إلينا ، فقال النجاشيُّ : ما هذا الدينُ الذي كنتم عليه ، الدين الذي اتبعتموه ؟

قال : أما الدينُ الذي كنا عليه فتركناه فهو دينُ الشيطانِ ، كنا نكفر بالله ، ونعبد الحجارة ، وأما الدين الذي تحوّلنا إليه فدينُ الله الإسلامُ ، جاءنا به من الله رسولٌ ، وكتاب مثل كتاب ابن مريم ، موافِقاً له .

فقال النجاشيُّ : يا جعفر ، تكلمت بأمر عظيم ، فعلى رِسْلِك ، ثم أمر النجاشيُّ ، فضُرِب بالنّاقوس ، قد اجتمع إليه كلُّ قِسّيسٍ وراهبٍ ، فلما اجتمعوا عنده ، قال النجاشيُّ : أنشدكم إله الذي أنزل الإنجيل على عيسى ، هل تجدون بين عيسى وبين يوم القيامة نبيّاً

مُرسَلاً ؟ فقالوا : اللهم نَعَمْ ، قد بشرنا به عيسَى ، وقال : مَنْ آمن به فقد آمن بي ، ومن كَفَرَ به فقد كفر بي .

(204/121)

قال النجاشيُّ لجعفَرَ : ماذا يقول لكم هذا الرجلُ ؟ وما يأمركم به ، وما ينهاكم عنه ؟ قال : يقرأ علينا [كتاب الله] ، ويأمرنا بالمعروف ، وينهانا عن المنكر ، ويأمر بحُسْنِ الجوار ، وصلة الرَّحِم ، وبِرِّ اليتيم ، وأمرنا أن لا نعبد إلا الله وحدَه لا شريك له ، فقال : اقرأ عليَّ مما يقرأ عليكم ، فقرأ سورتي العنكبوت والرُّوم ، ففاضت عينا النجاشيِّ وأصحابه من الدّمع ، وقالوا : زِدْنَا يا جعفرُ من هذا الحديثِ الطيب ، فقرأ عليهم سورة الكهف ، فأراد عمرو أن يُغْضِبَ النجاشِيّ ، فقال : إنهم يشتمون عيسى ابن مريمَ وأمَّه ، فقال النجاشِيُّ : ما تقولون في عيسى وأمّه ، فقرأ عليهم جعفر سورة " مريم " ، فلما أتى على ذكر مريم وعيسى رفع النجاشِيُّ نُفَاثَةً من سواكه قدْرَ ما يُقْذِي العَيْنَ قال : والله ما زادَ المسيحُ على قول هذا ، ثم أقبل على جعفرَ وأصحابه ، فقال : اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي ، آمنون ، مَنْ سَبَّكُمْ وآذاكم غَرِم ، ثم قال : أبشروا ، ولا تخافوا ، فلا دهورة اليوم على حزب إبراهيمَ ، قال عمرو : يا نجاشيُّ ، ومَنْ حِزْبَ إبراهيم ؟ قال : هؤلاء الرهط وصاحبُهم الذي جاءوا

من عنده ومَن اتبعهم، فأنكر ذلك المشركون، وادّعَوْا في دين إبراهيمَ، ثم ردَّ النجاشيُّ على عمرو وصاحبه المالَ الذي حملوه، وقال: إنما هديَّتُكم إليّ رشْوَة، فاقبضوها؛ فإن الله – تعالى – ملَّكَني ولم يأخذْ مني رشوة، قال جعفرُ: فانصرفْنَا، فكنا في خيرِ دارٍ، وأكرم جوارٍ، فأنزل الله ذلك اليوم على رسوله في خصومتهم في إبراهيم – وهو في المدينة – قوله – عز وجل: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾. ﴿ أخرجه ابن إسحاق في السيرة عن أم سلمة: 1 / 211 –

(205/121)

---

215 ومن طريقه الإمام أحمد في المسند: 1 / 201 – 203 عن أم سلمة. وقال الهيثمي في المجمع: 6 / 27: "رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح" وذكره الواحدي في أسباب النزول ص (138 – 141) ﴾.

وروى ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلاَةً مِنَ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ وليِّي مِنْهُمْ أبي، وَخَلِيلُ رَبِّي" ثم قرأ: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ سعيد بن منصور في السنن برقم (501) والترمذي في السنن برقم (2995) وقد

خولف أبو أحمد الزبيري وأبو الأحوص في رواية هذا الحديث ، فرواه ابن مهدي ويحيى القطان وأبو نعيم ، فلم يذكروا فيه مسروق .

قال ابن أبي حاتم في العلل (63/2) : سألت أبي وأبا زرعة عن حديث رواه أبو أحمد الزبيري وروح بن عبادة فذكره ، فقالا جميعا : "هذا خطأ رواه المتقنون من أصحاب الثوري عن الثوري عن أبيه عن أبي الضحى عن النبي صلى الله عليه وسلم بلا مسروق" ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 308.310 ﴾

فوائد بلاغية

قال أبو حيان :

قيل : وجمعت هذه الآيات من البلاغة : التنبيه والإشارة والجمع بين حرفي التأكيد ، وبالفصل في قوله : ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾ وفي : ﴿ وإنّ الله لهو العزيز ﴾ والإختصاص في : ﴿ عليم بالمفسدين ﴾ وفي : ﴿ وليّ المؤمنين ﴾ والتجوز بإطلاق اسم الواحد على الجمع في : ﴿ إلى كلمة سواء ﴾ وباطلاق اسم الجنس على نوعه في : ﴿ يا أهل الكتاب ﴾ إذا فسر باليهود .

والتكرار في : إلا الله ، و : إنّ الله ، وفي : يا أهل الكتاب تعالوا ، يا أهل الكتاب لم .

وفي : إبراهيم ، و : ما كان إبراهيم ، و : إن أولى الناس بإبراهيم .

والتشبيه في : أرباباً ، لما أطاعوهم في التحليل والتحريم ، وأذعنوا إليهم أطلق عليه : أرباباً تشبيهاً بالرب المستحق للعبادة والربوبية ، والإجمال في الخطاب في : يا أهل الكتاب ، تعالوا يا أهل الكتاب ، لم تحاجون ، كقول إبراهيم : يا أبت .

يا أبت وكقول الشاعر :

مهلاً بني عمنا مهلاً موالينا . . .

لا تنبشوا بيننا ما كان مدفوناً

وقول الآخر :

بني عمنا لا تنبشوا الشر بيننا . . .

فكم من رماد صار منه لهيب

والتجنيس المماثل في : أولى وولي . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 2 صـ 501. 513﴾

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

لما تفرقت الأهواء والبدع وصار كل حزب إلى خطأ آخر ، بقي أهل الحقِّ في كل عصر وكل حين ووقت على الحجة المثلى ، فكانوا حزباً واحداً ، فبعضهم أَوْلى ببعض . وإبراهيم صاحب الحق ، ومن دان بدينه – كمثل رسولنا صلى الله عليه وسلم وأمته – على الدين

الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام وهو توحيد الله سبحانه وتعالى .

﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ لأنهم تولَّوْا دينه ، ووافقوا توحيده ، وولاية الله إنما تكون بالعَوْن والنصرة والتخصيص والقربة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 249 ﴾

(207/121)

" فصل "

قال السيوطى :

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (68)

أخرج عبد بن حميد من طريق شهر بن حوشب حدثني ابن غنم . أنه لما خرج أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي أدركهم عمرو بن العاص ، وعمارة بن أبي معيط ، فأرادوا عنتهم والبغي عليهم ، فقدموا على النجاشي

(208/121)

وأخبروه أن هؤلاء الرهط الذين قدموا عليك من أهل مكة إنما يريدون أن يخبلوا عليك ملكك، ويفسدوا عليك أرضك، ويشتموا ربك. فأرسل إليهم النجاشي فلما أن أتوه قال: ألا تسمعون ما يقول صاحباكم هذان؟ لعمرو بن العاص، وعمارة بن أبي معيط، يزعمان أنما جئتم لتخبلوا عليَّ ملكي، وتفسدوا علي أرضي. فقال عثمان بن مظعون، وحمزة: إن شئتم فخلوا بين أحدنا وبين النجاشي فلنكلمه فانا أَحْدَثَكُمْ سناً، فإن كان صواباً فالله يأتي به، وإن كان أمراً غير ذلك قلتم رجل شاب لكم في ذلك عذر. فجمع النجاشي قسيسيه ورهبانه وتراجمته، ثم سألهم أرأيتكم صاحبكم هذا الذي من عنده جئتم ما يقول لكم، وما يأمركم به، وما ينهاكم عنه. هل له كتاب يقرأه؟ قالوا: نعم. هذا الرجل يقرأ ما أنزل الله عليه، وما قد سمع منه، وهو يأمر بالمعروف، ويأمر بحسن المجاورة، ويأمر باليتيم، ويأمر بأن يعبد الله وحده ولا يعبد معه إله أخر. فقرأ عليه سورة الروم، وسورة العنكبوت، وأصحاب الكهف، ومريم. فلما ان ذكر عيسى في القرآن أراد عمرو أن يغضبه عليهم فقال: والله إنهم ليشتمون عيسى ويسبونه قال النجاشي: ما يقول صاحبكم في عيسى؟ قال: يقول ان عيسى عبد الله، ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم. فأخذ النجاشي نفثة من سواكه قدر ما يقذي العين، فحلف ما زاد المسيح على ما يقول صاحبكم ما يزن ذلك القذى في يده من نفثة سواكه، فابشروا ولا تخافوا فلا دهونة يعني بلسان الحبشة اليوم على حزب إبراهيم قال عمرو بن العاص: ما حزب إبراهيم

؟ قال : هؤلاء الرهط وصاحبهم الذي جاؤوا من عنده ومن اتبعهم . فأنزلت ذلك اليوم خصومتهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو

(209/121)

بالمدينة ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن مسعود " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن لكل نبي ولاة من النبيين ، وإن وليي منهم أبي وخليل ربي ثم قرأ ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾ " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحكم بن ميناء " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا معشر قريش إن أولى الناس بالنبي المتقون ، فكونوا أنتم بسبيل ذلك ، فانظروا أن لا يلقاني الناس يحملون الأعمال ، وتلقوني بالدنيا تحولنها فأصدُّ عنكم بوجهي . ثم قرأ عليهم هذه الآية ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾ " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ﴾ قال : هم المؤمنون .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ﴾ يقول الذين اتبعوه على ملته ، وسنته ، ومنهاجه ، وفطرته ، ﴿ وهذا النبي ﴾ وهو نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ والذين آمنوا معه ﴾ وهم المؤمنون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في الآية قال : كل مؤمن ولي لإبراهيم ممن مضى وممن بقي .

وأخرج أحمد وابن أبي داود في البعث وابن أبي الدنيا في العزاء والحاكم وصححه والبيهقي في البعث والنشور عن أبي هريرة قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أولاد المؤمنين في جبل في الجنة يكفلهم إبراهيم وسارة حتى يردهم إلى آبائهم يوم القيامة " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 237 . 239 ﴾

(210/121)

قوله تعالى ﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (69) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان قصد بعضهم بدعواه أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام على دينه إنما هو إضلال أهل الإسلام عقب ذلك بالإعراب عن مرادهم بقوله تعالى - جواباً لمن كأنه قال : فما كان مراد أهل الكتابين بدعواهم فيه مع علمهم أن ذلك مخالف لصريح العقل ؟ ﴿ ودت طآئفة ﴾ أي من شأنها أن تطوف حولكم طواف التابع المحب مكراً وخداعاً ﴿ من أهل الكتاب ﴾ حسداً لكم ﴿ لو يضلونكم ﴾ بالرجوع إلى دينهم الذي يعلمون أنه قد نسخ ﴿ وما ﴾ أي والحال أنهم ما ﴿ يضلون ﴾ بذلك التمني أو الإضلال لو وقع ﴿ إلا أنفسهم ﴾ لأن كلاًّ من تمنيهم وإضلالهم ضلال لهم مع أنهم لا يقدرون أن يضلوا من هداه الله ، فمن تابعهم على ضلالهم فإنما أضله الله ﴿ وما يشعرون ﴾ أي وليس يتجدد لهم في وقت من الأوقات نوع شعور ، فكيدهم لا يتعداهم فقد جمعوا بين الضلال والجهل ، إما حقيقة لبغضهم وإما لأنهم لما عملوا بغير ما يعلمون عد علمهم جهلاً وعدوا هم بهائم ، فكانت هذه الجملة على غاية التناسب ، لأن أهم شيء في حق من رمى بباطل - إنما غلبة الرامي ليتعاظم بأنه شأنه - بيان إبطاله في دعواه ، ثم تبكيته المتضمن لبراءة المقذوف ، ثم التصريح ببراءته ، ثم بيان من هو أولى بالكون من حربه ، ثم بيان المراد من تلك الدعوى الكاذبة ليحذر غائلتها السامع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 112 .

فصل

قال الفخر :

(211/121)

اعلم أنه تعالى لما بيّن أن من طريقة أهل الكتاب العدول عن الحق ، والإعراض عن قبول الحجة بيّن أنهم لا يقتصرون على هذا القدر ، بل يجتهدون في إضلال من آمن بالرسول عليه السلام بإلقاء الشبهات كقولهم : إن محمداً عليه السلام مقر بموسى وعيسى ويدعي لنفسه النبوّة ، وأيضاً إن موسى عليه السلام أخبر في التوراة بأن شرعه لا يزول ، وأيضاً القول بالنسخ يفضي إلى البداء ، والغرض منه تنبيه المؤمنين على أن لا يغتروا بكلام اليهود ، ونظير قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب لَوْ يَرُدُّونَكُم مِن بَعْدِ إيمانكم كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [البقرة : 109] وقوله ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاء ﴾ [النساء : 89] .

واعلم أن ﴿ مِنْ ﴾ ههنا للتبعيض وإنما ذكر بعضهم ولم يعمهم لأن منهم من آمن وأثنى الله عليهم بقوله ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ﴾ [المائدة : 66] ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الكتاب أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ [آل عمران : 113] وقيل نزلت هذه الآية في معاذ وعمّار بن ياسر وحذيفة دعاهم اليهود

إلى دينهم ، وإنما قال : ﴿ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ ولم يقل أن يضلوكم ، لأن ﴿ لَوْ ﴾ للتمني فإن قولك لو كان كذا يفيد التمني ونظيره قوله تعالى : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [البقرة : 96] .

(212/121)

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ ﴾ وهو يحتمل وجوهاً منها إهلاكهم أنفسهم باستحقاق العقاب على قصدهم إضلال الغير وهو كقوله ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة : 57] وقوله ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 13] ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل : 25] ومنها إخراجهم أنفسهم عن معرفة الهدى والحق لأن الذاهب عن الاهتداء يوصف بأنه ضال ومنها أنهم لما اجتهدوا في إضلال المؤمنين ثم إن المؤمنين لم يلتفتوا إليهم فهم قد صاروا خائبين خاسرين ، حيث اعتقدوا شيئاً ولاح لهم أن الأمر بخلاف ما تصوروه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي ما يعلمون أن هذا يضرهم ولا يضر المؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 80 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

في " مِن " وجهان :

أظهرهما : أنها تبعيضيَّة .

والثاني : أنها لبيان الجنس .

قال ابن عطيَّة : ويعني أن المراد بـ " طائفة " جميع أهل الكتاب ، قال أبو حيّان : وهذا بعيد من دلالة اللفظ ، وهذا الجار - على القول بأنها تبعضية - في محلّ رفع ، صفة لِ " طَائِفَةٌ " ، وعلى القول بأنها بيانية تعلق بمحذوف .

وقوله : تقدم أنه يجوز أن تكون مصدرية ، وأن تكون على بابها - من كونها حرفاً لما كان سيقع لوقوع غيره .

قال أبو مُسْلِم الأصبهاني : " وَدَّ " بمعنى تَمَنَّى ، فيستعمل معها " لو " و " أن " وربما جُمِع بينهما ، فَيُقَالُ : وددت أن لو فعلت ، ومصدره الودادة ، والاسم منه وُدّ وبمعنى " أَحَبَّ " فيتعدَّى " أَحَب " والمصدر المودة ، والاسم منه ود وقد يتداخلانِ في المصدر والاسم .

وقال الراغب : " إذا كان بمعنى " أحب " لا يجوز إدخال " لو " فيه أبداً " .

وقال الرمانيّ : " إذا كان ودَّ " بمعنى تمنّى صلُح للحال والاستقبال [والماضي ، وإذا كان بمعنى الهمة والإرادة لم يصلح للماضي ؛ لأن الإرادة لاستدعاء الفعل ، وإذا كان للحال والمستقبل جاز وتجوز " لَوْ " ، وإذا كان للماضي لم يجز " أنْ " لأن " أن " للمستقبل] .

وفيه نظرٌ ، لأن " أن " تُوصَل بالماضي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 311.310 ﴾

من فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مّنْ أَهْلِ الكتاب لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ المشهور أنها نزلت حين دعا اليهود حذيفة وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية ، فالمراد بأهل الكتاب اليهود ، وقيل : المراد بهم ما يشمل الفريقين ، والآية بيان لكونهم دعاة إلى الضلالة إثر بيان أنهم ضالون ، وأخرج ابن المنذر عن سفيان أنه قال : كل شيء في آل عمران من ذكر أهل الكتاب فهو في النصارى ، ولعله جار مجرى الغالب ، و﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض ، والطائفة رؤساؤهم وأحبارهم ، وقيل : لبيان الجنس والطائفة جميع أهل الكتاب وفيه بعد ، و﴿ لَوْ ﴾ بمعنى أن المصدرية ، والمنسبك مفعول ودّ وجوز إقرارها على وضعها ، ومفعول ودّ محذوف ، وكذا جواب ﴿ لَوْ ﴾ والتقدير : ودّت إضلالكم لو يضلونكم لسروا بذلك ، ومعنى ﴿ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ يردونكم إلى

كفركم قاله ابن عباس أو يهلكونكم قاله ابن جرير الطبري أو يوقعونكم في الضلال ويلقون إليكم ما يشككونكم به في دينكم قاله أبو علي وهو قريب من الأول .

(214/121)

﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ ﴾ الواو للحال ، والمعنى على تقدير إرادة الإهلاك من الإضلال أنهم ما يهلكون إلا أنفسهم لاستحقاقهم بإيثارهم إهلاك المؤمنين سخط الله تعالى وغضبه ، وإن كان المراد من الإهلاك الإيقاع في الضلال فيحتاج إلى تأويل لأن القوم ضالون فيؤدي إلى جعل الضال ضالاً فيقال : إن المراد من الإضلال ما يعود من وباله إما على سبيل المجاز المرسل ، أو الاستعارة أي ما يتخطاهم الإضلال ولا يعود وباله إلا إليهم لما أنهم يضاعف به عذابهم ، أو المراد بأنفسهم أمثالهم المجانسون لهم ، وفيه على ما قيل : الإخبار بالغيب فهو استعارة أو تشبيه بتقدير أمثال أنفسهم إذ لم يتهود مسلم ولله تعالى الحمد وقيل : إن معنى إضلالهم أنفسهم إصرارهم على الضلال بما سولت لهم أنفسهم مع تمكنهم من اتباع الهدى بإيضاح الحجج ، ولا يخلو عن شيء ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي وما يفطنون بكون الإضلال مختصاً بهم لما اعترى قلوبهم من الغشاوة قاله أبو علي وقيل : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ بأن الله تعالى يعلم المؤمنين بضلالهم وإضلالهم ، وفي نفي الشعور عنهم مبالغة في ذمهم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 198 . 199 ﴾

وقال ابن عاشور :

قوله تعالى ﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾

استئناف مناسبتُه قوله : ﴿ فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون إلى قوله ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم ﴾ [آل عمران : 64 68] إلخ .

والمراد بأهل الكتاب هنا اليهود خاصة ، ولذلك عُبّر عنهم بطائفة من أهل الكتاب لئلاّ يتوهم أنهم أهل الكتاب الذين كانت المحاجة مَعهم في الآيات السابقة .

والمراد بالطائفة جماعة منهم من قريظة ، والنضير ، وقَينُقاع ، دَعَوا عمّار بن ياسر ، ومعاذَ بن جبل ، وحذيفةَ بن اليمان ، إلى الرجوع إلى الشرك .

(215/121)

وجملة لو يضلونكم مبينة لمضمون جملة ودّت ، على طريقة الإجمال والتفصيل .

فلو شرطية مستعملة في التمني مجازاً لأنّ التمنّي من لوازم الشرط الامتناعي .

وجواب الشرط محذوف يدل عليه فعل وَدّت تقديره : لو يضلونكم لحصل مودودهم ،

والتحقيق أنّ التمنّي عارض من عوارض لَوْ الامتناعية في بعض المقامات .

وليس هو معنى أصلياً من معاني لو.

وقد تقدم نظير هذا في قوله تعالى: ﴿ يَودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة ﴾ في سورة [البقرة: 96].

وقوله: ﴿ لو يضلونكم ﴾ أي ودّوا إضلالكم وهو يحتمل أنهم ودّوا أن يجعلوهم على غير هدى في نظر أهل الكتاب: أي يذبذبوهم، ويحتمل أنّ المراد الإضلال في نفس الأمر، وإن كان وُدُّ أهل الكتاب أن يهوّدوهم.

وعلى الوجهين يحتمل قوله تعالى: ﴿ وما يضلون إلا أنفسهم ﴾ أن يكون معناه: إنهم إذا أضلوا الناس فقد صاروا هم أيضاً ضالين؛ لأنّ الإضلال ضلال، وأن يكون معناه: إنهم كانوا من قبل ضالين برضاهم بالبقاء على دين منسوخ وقوله: ﴿ وما يشعرون ﴾ يناسب الاحتمالين لأنّ العلم بالحالتين دقيق. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ 125 126.﴾

وقال الطبرى:

يعني بقوله جل ثناؤه: "ودّت"، تمنت "طائفة"، يعني جماعة "من أهل الكتاب"، وهم أهل التوراة من اليهود، وأهل الإنجيل من النصارى "لو يضلُّونكم"، يقولون: لو يصدّونكم أيها المؤمنون، عن الإسلام، ويردُّونكم عنه إلى ما هم عليه من الكفر، فيهلكونكم بذلك.

و"الإضلال" في هذا الموضع، الإهلاكُ، من قول الله عز وجل: (وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي

الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) [سورة السجدة : 10] ، يعني : إذا هلكنا ، ومنه قول الأخطل في هجاء جرير :

كُنْتَ القَذَى فِي مَوْجِ أَكْدَرَ مُزْبِدٍ . . . قَذَفَ الأَتِيُّ بِهِ فَضَلَّ ضَلالا

يعنى : هلك هلاكًا ، وقول نابغة بني ذبيان :

(216/121)

فَآبَ مُضِلُّوهُ بِعَيْنٍ جَلِيَّةٍ . . . وَغُودِرَ بِالجَوْلانِ حَزْمٌ وَنَائِلُ

يعني مهلكوه .

"وما يضلون إلا أنفسهم" ، وما يهلكون - بما يفعلون من محاولتهم صدَّكم عن دينكم - أحدًا غير أنفسهم ، يعني بـ"أنفسهم" : أتباعهم وأشياعَهم على ملَّتِهم وأديانهم ، وإنما أهلكوا أنفسَهم وأتباعهم بما حاولوا من ذلك لاستيجابهم من الله بفعلهم ذلك سخَطه ، واستحقاقهم به غَضَبه ولعنته ، لكفرهم بالله ، ونقضِهم الميثاقَ الذي أخذ الله عليهم في كتابهم ، في اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وتصديقه ، والإقرار بنبوّته .

ثم أخبر جلّ ثناؤه عنهم أنهم يفعلون ما يفعلون ، من محاولة صدّ المؤمنين عن الهدى إلى الضلالة والردى ، على جهل منهم بما الله بهم مُحِلٌّ من عقوبته ، ومدَّخِر لهم من أليم عذابه ،

فقال تعالى ذكره: "وما يشعرون" أنهم لا يضلون إلا أنفسهم، بمحاولتهم إضلالكم أيها المؤمنون.

ومعنى قوله: "وما يشعرون"، وما يدرون ولا يعلمون. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 500.502 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قوله جلّ ذكره: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ ﴾.

من حلَّت به فتنة، وأصابته محنة، واستهوته غواية - رَضِي لجميع الناس ما حلّ به، فأهل الكتاب يريدون بالمؤمنين أن يزيغوا عن الحق، ولكن أبى الله إلا أن يتم نوره، وأن يعودَ إليهم وبالُ فعلهم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 249.250 ﴾

(217/121)

قوله تعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (70) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى:

ولما ختم الكلام فيهم بنفي شعورهم بين تعالى في معرض التبكيت أن نفيهم عنه إنما هو لأنهم

معاندون ، لا يعملون بعلمهم ، بل يعملون بخلافه ، فقال مستأنفاً بما يدل على غاية التبكيت المؤذنة بشديد الغضب : ﴿ يا أهل الكتاب ﴾ أي الذين يدعون أنهم أهل العلم ﴿ لم تكفرون ﴾ أي كفراً تجددونه في كل وقت ﴿ بآيات الله ﴾ أي تسترون ما عندكم من العلم بسبب الآيات التي أنزلت عليكم من الملك المحيط بكل شيء عظمة وعزاً وعلماً ﴿ وأنتم تشهدون ﴾ أي تعلمون علماً هو عندكم في غاية الانكشاف أنها آياته انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 113 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بيّن حال الطائفة التي لا تشعر بما في التوراة من دلالة نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، بيّن أيضاً حال الطائفة العارفة بذلك من أحبارهم .

فقال : ﴿ يأَهْلَ الكتاب لِمَ تَكْفُرُونَ بأيات الله ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 81 ﴾

في قوله ﴿ بآيات الله ﴾ وجوه

الأول : أن المراد منها الآيات الواردة في التوراة والإنجيل ، وعلى هذا القول فيه وجوه أحدها : ما في هذين الكتابين من البشارة بمحمد عليه السلام ، ومنها ما في هذين الكتابين ، أن إبراهيم عليه السلام كان حنيفاً مسلماً ، ومنها أن فيهما أن الدين هو الإسلام .

واعلم أن على هذا القول المحتمل لهذه الوجوه نقول : إن الكفر بالآيات يحتمل وجهين :

أحدهما : أنهم ما كانوا كافرين بالتوراة بل كانوا كافرين بما يدل عليه التوراة فأطلق اسم الدليل على المدلول على سبيل المجاز والثاني : أنهم كانوا كافرين بنفس التوراة لأنهم كانوا يحرفونها وكانوا ينكرون وجود تلك الآيات الدالة على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم .

(218/121)

فأما قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ فالمعنى على هذا القول أنهم عند حضور المسلمين ، وعند حضور عوامهم ، كانوا ينكرون اشتمال التوراة والإنجيل على الآيات الدالة على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم إذا خلا بعضهم مع بعض شهدوا بصحتها ، ومثله قوله تعالى : ﴿ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ﴾ [آل عمران : 99] .

واعلم أن تفسير الآية بهذا القول ، يدل على اشتمال هذه الآية على الإخبار عن الغيب لأنه عليه الصلاة والسلام أخبرهم بما يكتمونه في أنفسهم ، ويظهرون غيره ، ولا شك أن الإخبار عن الغيب معجز .

القول الثاني : في تفسير آيات الله أنها هي القرآن وقوله ﴿ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ يعني أنكم تنكرون عند العوام كون القرآن معجزاً ثم تشهدون بقلوبكم وعقولكم كونه معجزاً .

القول الثالث : أن المراد بآيات الله جملة المعجزات التي ظهرت على يد النبي صلى الله عليه

وسلم وعلى هذا القول فقوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ معناه أنكم إنما اعترفتم بدلالة المعجزات التي ظهرت على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الدالة على صدقهم ، من حيث أن المعجز قائم مقام التصديق من الله تعالى فإذا شهدتهم بأن المعجز إنما دل على صدق سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من هذا الوجه ، وأنتم تشهدون حصول هذا الوجه في حق محمد صلى الله عليه وسلم كان إصراركم على إنكار نبوته ورسالته مناقضاً لما شهدتهم بحقيته من دلالة معجزات سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على صدقهم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 81 ﴾

(219/121)

وقال الآلوسى :

قوله تعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (70) ﴾

أي لم تكفرون بما يتلى عليكم من آيات القرآن وأنتم تعلمون ما يدل على صحتها ووجوب الإقرار بها من التوراة والإنجيل ، وقيل : المراد : لم تكفرون بما في كتبكم من الآيات الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم وأنتم تشهدون الحجج الدالة على ذلك ، أو : لم تكفرون بما في كتبكم من أن الدين عند الله الإسلام وأنتم تشاهدون ذلك ، أو : لم تكفرون بالحجج

الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم وأنتم تشهدون أن ظهور المعجزة يدل على صدق مدعي الرسالة أو أنتم تشهدون إذا خلوتم بصحة دين الإسلام ، أو : لم تكفرون بآيات الله جميعاً وأنتم تعلمون حقيتها بلا شبهة بمنزلة علم المشاهدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 199 ﴾

وقال السمرقندى :

يقول لم تجحدون بالقرآن ﴿ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أنه نبيّ الله ، لأنهم كانوا يخبرون بأمره قبل مبعثه ويقال : بآيات الله ، يعني بعجائبه ودلائله .

ويقال : بآية الرجم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 247 ﴾

وقال الطبرى :

يعني بذلك جل ثناؤه : "يا أهل الكتاب" ، من اليهود والنصارى "لم تكفرون" ، يقول : لم تجحدون "بآيات الله" ، يعني : بما في كتاب الله الذي أنزله إليكم على ألسن أنبيائكم ، من آيه وأدلته "وأنتم تشهدون" أنه حق من عند ربكم .

وإنما هذا من الله عز وجل ، توبيخٌ لأهل الكتابين على كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وجحودهم نبوّته ، وهم يجدونه في كتبهم ، مع شَهادتهم أن ما في كتبهم حقٌّ ، وأنه من عند الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 503 ﴾

وقال ابن عطية :

المعنى : قل لهم يا محمد ، لأي سبب تكفرون بآيات الله التي هي آية القرآن ؟ وأنتم تشهدون أن أمره وصفة محمد الذي هو الآتي به في كتابكم ، قال هذا المعنى قتادة وابن جريج والسدي ، وتحتمل الآية أن يريد " بالآيات " ما ظهر على يدي محمد عليه السلام من تعجيز العرب والإعلام بالغيوب وتكلم الجماعات وغير ذلك و ﴿ تشهدون ﴾ على هذا يكون بمعنى تحضرون وتعاينون ، والتأويل الأول أقوى لأنه روي أن أهل الكتاب كانوا قبل ظهور محمد صلى الله عليه وسلم يخبرون بصفة النبي الخارج وحاله ، فلما ظهر كفروا به حسداً ، فإخبارهم المتقدم لظهوره هو الشهادة التي وقفوا عليها ، قال مكي : وقيل إن هذه الآيات عني بها قريظة والنضير وبنو قينقاع ونصارى نجران . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 452 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ﴾ قال ابن عباس : هي التوراة والإنجيل وكفرهم بها من جهة تغيير الأحكام ، وتحريف الكلام أو الآيات التي في التوراة والإنجيل من وصف النبي صلى الله عليه وسلم ، والإيمان به ، كما بين في قوله : ﴿ يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ قاله قتادة ، والسدي ، والربيع ، وابن جريج .

أو : القرآن من جهة قولهم : ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ ﴿ إن هذا إلا إفك ﴾ ﴿ أساطير الأولين ﴾ والآيات التي أظهرها على يديه من : انشقاق القمر ، وحنين الجذع ، وتسبيح الحصى ، وغير ذلك .

أو : محمد والإسلام ، قاله قتادة ، أو : ما تلاه من أسرار كتبهم وغريب أخبارهم ، قاله ابن بحر أو : كتب الله ، أو : الآيات التي يبين لهم فيها صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وصحة نبوّته ، وأمروا فيها باتباعه ، قاله ابو علي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 514 ﴾

(221/121)

وقال الثعالبى وقد أجاد :

ويحتملُ الجميع من الآيات المتلوّة والمعجزات التي شَاهَدُوها منه صلى الله عليه وسلم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ 277 ﴾

قوله تعالى ﴿ وأنتم تشهدون ﴾

قال أبو حيان :

﴿ وأنتم تشهدون ﴾ جملة حالية أنكر عليهم كفرهم بآيات الله وهم يشهدون أنها آيات

الله ، ومتعلق الشهادة محذوف ، يقدّر على حسب تفسير الآيات ، فيقدّر بما يناسب ما فسرت به ، فلذلك قال قتادة ، والسدي ، والربيع : وأنتم تشهدون بما يدل على صحتها من كتابكم الذي فيه البشارة .

وقيل : تشهدون بمثلها من آيات الأنبياء التي تقرون بها ، وقيل : بما عليكم فيه من الحجة .

وقيل : إن كتبكم حق ، ولا تتبعون ما أنزل فيها .

وقيل : بصحتها إذا خلوتم .

فيكون : تشهدون ، بمعنى : تقرون وتعترفون .

وقال الراغب : أو عنى ما يكون من شهادتهم ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ﴾

وقيل : تكفرون بآيات الله : تنكرون كون القرآن معجزاً ، ثم تشهدون بقلوبكم وعقولكم أنه معجز . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 514.515 ﴾

فائدة لغوية

قال ابن عادل :

" لِمَ " أصلها " لِمَا " لأنها " ما " التي للاستفهام ، دخلت عليها اللامُ ، فحُذِفت الألف ؛ لطلب الخفة لأن حرف الجر صار كالعِوَضِ عنها ، ولأنها وقعت طرفاً ، ويدل عليها الفتحة ؛ وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [النبأ : 1] وقوله : ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [

الحجر : 54] والوقف على [هذه الحروف] يكون بالهاء نحو فَبِمَهْ ، لِمَهْ . انتهى انتهى . ا . هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 312 ﴾

(222/121)

قوله تعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (71) ﴾

قال البقاعى :

﴿ وأنتم تشهدون ﴾ أي تعلمون علماً هو عندكم في غاية الانكشاف أنها آياته ؛ ثم أتبع ذلك استئنافاً آخر مثل ذلك إلا أن الأول قاصر على ضلالهم وهذا متعد إلى إضلالهم فقال : ﴿ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق ﴾ أي الذي لا مرية فيه ﴿ بالباطل ﴾ أي بأن تؤولوه بغير تأويله ، أو تحملوه على غير محله ﴿ وتكتمون الحق ﴾ أي الذي لا يقبل تأويلاً ، وهو ما تعلمون من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وتوابعها ﴿ وأنتم ﴾ أي والحال أنكم ﴿ تعلمون ﴾ أي من ذوي العلم ، فأنتم تعرفون ذلك قطعاً وأن عذاب الضال المضل عظيم جداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 113 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن علماء اليهود والنصارى كانت لهم حرفتان إحداهما : أنهم كانوا يكفرون بمحمد صلى الله عليه وسلم مع أنهم كانوا يعلمون بقلوبهم أنه رسول حق من عند الله والله تعالى نهاهم عن هذه الحرفة في الآية الأولى وثانيتهما : إنهم كانوا يجتهدون في إلقاء الشبهات ، وفي إخفاء الدلائل والبينات والله تعالى نهاهم عن هذه الحرفة في هذه الآية الثانية ، فالمقام الأول مقام الغواية والضلالة والمقام الثاني مقام الإغواء والإضلال . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 82﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

وإعادة ندائهم بقوله : ﴿ يا أهل الكتاب ﴾ ثانيةً لقصد التوبيخ وتسجيل باطلهم عليهم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ 126﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن الساعي في إخفاء الحق لا سبيل له إلى ذلك إلا من أحد وجهين : إما بإلقاء شبهة تدل على الباطل ، وإما بإخفاء الدليل الذي يدل على الحق ، فقوله ﴿ لِمَ تَلْبِسُونَ الحق بالباطل ﴾ إشارة إلى المقام الأول وقوله ﴿ وَتَكْتُمُونَ الحق ﴾ إشارة إلى المقام الثاني أما لبس الحق بالباطل فإنه يحتمل ههنا وجوهاً

أحدها : تحريف التوراة ، فيخلطون المنزل بالمحرف ، عن الحسن وابن زيد

وثانيها : إنهم تواضعوا على إظهار الإسلام أول النهار ، ثم الرجوع عنه في آخر النهار ، تشكيكاً للناس ، عن ابن عباس وقتادة وثالثها : أن يكون في التوراة ما يدل على نبوته صلى الله عليه وسلم من البشارة والنعت والصفة ويكون في التوراة أيضاً ما يوهم خلاف ذلك ، فيكون كالمحكم والمتشابه فيلبسون على الضعفاء أحد الأمرين بالآخر كما يفعله كثير من المشبهة ، وهذا قول القاضي ورابعها : أنهم كانوا يقولون محمداً معترف بأن موسى عليه السلام حق ، ثم إن التوراة دالة على أن شرع موسى عليه السلام لا ينسخ وكل ذلك إلقاء للشبهات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 82 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَكْتُمُونَ الحق ﴾

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وَتَكْتُمُونَ الحق ﴾ فالمراد أن الآيات الموجودة في التوراة الدالة على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم كان الاستدلال بها مفتقراً إلى التفكر والتأمل ، والقوم كانوا

يجتهدون في إخفاء تلك الألفاظ التي كان بمجموعها يتم هذا الاستدلال مثل ما أن أهل البدعة في زماننا يسعون في أن لا يصل إلى عوامهم دلائل المحققين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 82 ﴾

وقال ابن عاشور :

ولبس الحق بالباطل تلبيس دينهم بما أدخلوا فيه من الأكاذيب والخرافات والتأويلات الباطلة ، حتى ارتفعت الثقة بجميعه .

(224/121)

وكتمان الحق يحتمل أن يراد به كتمانهم تصديق محمد صلى الله عليه وسلم ويحتمل أن يراد به كتمانهم ما في التوراة من الأحكام التي أماتوها وعوّضوها بأعمال أحبارهم وآثار تأويلاتهم ، وهم يعلمونها ولا يعملون بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 126 ﴾

فائدة

قال أبو حيان :

والظاهر أنه أنكر عليهم لبس الحق بالباطل ، وكتم الحق ، وكأن الحق منقسم إلى قسمين :

قسم خلطوا فيه الباطل حتى لا يتميز ، وقسم كتموه بالكلية حتى لا يظهر . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 516 ﴾

قوله ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

قال الفخر :

أما قوله ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ففيه وجوه

أحدها : إنكم تعلمون أنكم إنما تفعلون ذلك عناداً وحسداً

وثانيها : ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي أنتم أرباب العلم والمعرفة لا أرباب الجهل والخرافة

وثالثها : ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أن عقاب من يفعل مثل هذه الأفعال عظيم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 82 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وأنتم تعلمون ﴾ جملة حالية تنعي عليهم ما التبسوا به من لبس الحق بالباطل وكتمانه ، أي : لا يناسب من علم الحق أن يكتمه ، ولا أن يخلطه بالباطل ، والسؤال عن السبب سؤال عن المسبب ، فإذا أنكر السبب فبالأولى أن ينكر المسبب ، وختمت الآية قبل هذه بقوله :

﴿ وأنتم تشهدون ﴾ وهذه بقوله : ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ لأن المنكر عليهم في تلك هو الكفر بآيات الله ، وهي أخص من الحق ، لأن آيات الله بعض الحق ، والشهادة أخص من العلم ، فناسب الأخص الأخص ، وهنا الحق أعم من الآيات وغيرها ، والعلم أعم من

الشهادة ، فناسب الأعم الأعم .

وقالوا في قوله : ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أي : إنه نبي حق ، وإن ما جاء به من عند الله حق .

وقيل : قال : ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ ليتبين لهم الأمر الذي يصح به التكليف ، ويقوم عليهم به الحجة .

وقيل : ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ الحق بما عرفتموه من كتبكم وما سمعتموه من ألسنة أنبيائكم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 516 . 517 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال القاضي : قوله تعالى : ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ و ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الحق بالباطل﴾ دال على أن ذلك فعلهم ، لأنه لا يجوز أن يخلقه فيهم ، ثم يقول : لم فعلتم ؟

وجوابه : أن الفعل يتوقف على الداعية فتلك الداعية إن حدثت لا لمحدث لزم نفي الصانع ، وإن كان محدثها هو العبد افتقر إلى إرادة أخرى وإن كان محدثها هو الله تعالى لزمكم ما ألزمتموه علينا ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 82 ﴾

(225/121)

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

جمعت هذه الآيات من ضروب الفصاحة والبلاغة ما ياتي :

- المجاز في قوله [إلى كلمة] حيث أطلق اسم الواحد على كلمة التوحيد " لا اله الا الله ، محمد رسول الله " ،

- والتشبيه في قوله [اربابا] حيث شبه طاعتهم لرؤساء الدين في امر التحليل ، بالرب المستحق للعبادة ،

- والطباق في قوله [الحق بالباطل]

- والجناس التام في قوله [يضلونكم وما يضلون]

- وجناس الاشتقاق في [أولى] و[ولى]

- والتكرار في عدة مواطن ، والحذف في عدة مواطن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 210 ﴾

(226/121)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قرأ العامة : ﴿ تَلْبِسُونَ ﴾ بكسر الباء ، من لبس عليه يلبس ، أي : خلَطه ، وقرأ يحيى بن وثَّابٍ بفتحها جعله من لبست الثوب ألبسه – على جهة المجاز ، وقرأ أبو مجلز " تُلبِّسُون " – بضم التاء ، وكسر الباء وتشديدها – من لبَّس " بالتشديد " ، ومعناه التكثير .

والباء في " الباطل " للحال ، أي : متلبساً بالباطل .

فصل في معنى : تلبسون الحق

﴿ تَلْبِسُونَ ﴾ تخلطون ﴿ الحق بالباطل ﴾ الإسلام باليهودية والنصرانية .

وقيل : تخلطون الإيمان بعيسى – وهو الحق – بالكفر بمحمد – وهو الباطل – .

وقيل : التوراة التي أنزل الله على موسى بالباطل ، الذي حرَّفتموه ، وكتبتموه بأيديكم ، قاله الحسنُ وابن زيد .

وقال ابنُ عباس وقتادةُ : تواضعوا على إظهار الإسلام أول النهار ، ثم الرجوع عنه في آخر النهار تشكيكاً للناس .

قال القاضي : أن يكون في التوراة ما يدل على نبوته صلى الله عليه وسلم من البشارة والنعت والصفة ، ويكون في التوراة – أيضاً – ما يوهم خلاف ذلك ، فيكون كالمحكم والمتشابه ، فيلبسون على الضعفاء أحد الأمرين بالآخر .

وقيل إنهم كانوا يقولون : إنَّ محمداً معترفٌ بأن موسى حَقٌّ ، ثم إنّ التوراةَ دالة على أن شرع موسى لا ينسخ ، وكل ذلك إلقاء للشبهات .

قوله : ﴿ وَتَكْتُمُونَ الحق ﴾ جملة مُسْتَأنَفَةٌ ، ولذلك لم يُنْصَب بإضمار " أن " في جواب الاستفهام ، وقد أجاز الزجاجُ – من البصريين – والفرّاءُ – من الكوفيين – فيه النصب – من حيث العربية – تسقط النون ، فينتصب على الصرف عند الكوفيين ، وبإضمار " أن " عند البصريين .

ومنع ذلك أبو علي الفارسيّ ، وأنكَرَه ، وقال : الاستفهام واقع على اللبس فحسب ، وأما ﴿ يَكْتُمُونَ ﴾ فخبر حتم ، لا يجوز فيه إلا الرفع . يعني أنه ليس معطوفاً على ﴿ تَلْبِسُونَ ﴾ ، بل هو استئناف ، خَبَّر عنهم أنهم يكتمون الحقَّ مع علمهم أنه حَقٌّ .

ونقل ابو محمد بن عَطِيَّة عن أبي عليٍّ أنه قال : الصَّرْف – هنا – يَقْبُح ، وكذلك إضمار " أن " لأن " تَكْتُمُونَ " معطوف على موجب مقرَّر ، وليس بمستفهَم عنه ، وإنما استفهم عن السبب في اللبس ، واللبس موجب ، فليست الآية بمنزلةِ قولهم : لا تأكل السمكَ وتَشْرَبَ اللَّبَنَ ، وليس بمنزلة قولك : أيقومُ فأقومَ ؟ والعطف على الموجب المقرَّر قبيح متى نصب –

إلا في ضرورة الشعر – كما رُوِي : [الوافر]

. . . . وَأَلْحَقَ بِالْحِجَازِ

فَأَسْتَرِيحَا

قال سيبويه – في قولك : أَسِرْتَ حتى تَدْخُلَهَا – : لا يجوز إلا النَّصْبُ في " تداخلها " لأن السير مستفهم عنه غيرُ موجَب ، وإذا قلنا : أيهم سار حتى يدخلُها ؟ رفعت لأن السيرَ موجب والاستفهام إنما وقع عن غيره .

(228/121)

قال أبو حيّان : وظاهر هذا النقل – عنه – معارضتُه لما نقل عنه قبله ؛ لأن ما قبلَه فيه أن الاستفهام رفع عن اللبس فحَسْب ، وأما ﴿ يَكْتُمُونَ ﴾ فخبر حَتْماً ، لا يجوز فيه إلا الرفع ، وفيما نقله ابن عطية أنَّ ﴿ يَكْتُمُونَ ﴾ معطوف على موجَب مقرَّر ، وليس بمستفهم عنه ، فيدل العطفُ على اشتراكهما في الاستفهام عن سبب اللبس ، وسبب الكَتْم الموجبين ، وفرق بين هذا المعنى ، وبين أن يكون ﴿ يَكْتُمُونَ ﴾ إخْباراً محضاً ، لم يشترك مع اللبس في السؤالِ عن السببِ ، وهذا الذي ذهبَ إليه أبو علي من أن الاستفهام إذا

تضمَّن وقوعَ الفعل ، لا ينتصب الفعل بإضمار " أن " في جوابه وتبعه في ذلك جمال الدين ابن مالك ، فقال في تسهيله : " أو لاستفهام لا يتضمَّن وقوعَ الفعلِ " .

(229/121)

فإن تضمن وقوع الفعلِ امتنع النصبُ عندَه ، نحو : لِمَ ضربتَ زيداً فيجازِيَك ؛ لأن الضرب قد وقع . ولم يشترط غيرُهما – من النحويين – ذلك ، بل إذا تعذر سَبْك المصدر مما قبله – إمَّا لعدم تقدُّمِ فعل ، وأما لاستحالة سَبْك المصدر المراد به الاستقبال ؛ لأجل مُضِيّ الفعل – فإنما يقدر مصعد مقدَّراً استقبالُه بما يدل عليه المعنى ، فإذا قلت : لِمَ ضربتَ زيداً فَاضْرِبَك ؟ فالتقدير : ليكن منك إعلام بضَرْبِ زيدٍ فمجازاة منا ، وأما ما ردَّ به أبو علي الفارسي على الزجّاج والفرّاء ليس بلازم ؛ لأنه قد منع أن يراد بالفعل المُضِيّ َمعنى إذ ليس نصًّا في ذلك ؛ إذْ قد يمكن الاستقبال لتحقيق صدوره لا سيما على الشخص الذي صدر منه أمثال ذلك ، وعلى تقدير تحقُّق المُضِي فلا يلزم – أيضاً – لأنه – كما تقدم – إذا لم يُمْكن سَبْك مصدر مستقبل من الجملة الاستفهامية سبكناه من لازمها ، ويدل على إلغاء هذا الشرطِ ، والتأويل بما ذكرناه ما حكاه ابن كَيْسَان من رفع المضارع بعد فعلٍ ماضٍ ، محقَّق الوقوع ، مستفهَم عنه ، نحو : أين ذهب زيد فنتبَّعُه ؟ ومن أبوك فنكرمه ؟ وكم مالك

فنعرفه ؟ كل ذلك متأوَّل بما ذكرنا من انسباك المصدر المستقبل من لازم الجُمَل المتقدمة ، فإن التقدير : ليكن منك إعلامٌ بذهاب زيد فاتباعٌ منا ، وليكن منك إعلام بأبيك فإكرام له منا ، وليكن منك تعريف بقدر مالك فمعرفة مِنَّا .

قال شهابُ الدِّين : " وهذا البحثُ الطويلُ على تقدير شيء لم يَقَعْ ، فإنه لم يُقْرَأ - لا في الشاذ ولا في غيره - إلا ثابتَ النون ، ولكن للعلماء غرضٌ في تطويل البحث ، تنقيحاً للذهن " .

(230/121)

ووراء هذا قراءة مُشْكِلَة ، رَوَوْها عن عُبَيْد بن عُمَير ، وهي : لِمَ تَلْبسُوا الحق بالباطل وَتَكْتُمُوا بحذف النون من الفعلين - وهي قراءة قراءة لا تَبْعد عن [لَغطِ البحث] ، كأنه توهم أن " لَمْ " هي الجازمة ، فجزم بها ، وقد نقل المفسّرونَ عن بعض النُّحَاةِ - هنا - أنهم يجزمون بلم حملاً على " لم " - نقل ذلك السجاونديُّ وغيره عنهم ، ولا أظن نحويّاً يقول ذلك ألبتة ، كيف يقولون في جار ومجرور : إنه يَجْزِم ؟ هذا ما لا يُتفَوَّهُ به ألبتة ولا نطيق سماعه ، فإن ثبتت هذه القراءةُ ولا بد فلتكن مما حُذِف فيه نونُ الرفع تخفيفاً ؛ حيث لا مقتضى لحَذْفها ، ومن ذلك قراءة بعضهم :

﴿ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَاهرَا ﴾ [القصص : 48] - بتشديد الظاء - الأصل : تتظاهران ،

فأدغم الثاني في الظاء ، وحذف النون تخفيفاً ، وفي الحديث : " والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتّى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا . . " يريد – عليه السلامُ – : لا تدخلون ، ولا تؤمنون ؛ لاستحالة النهي معنًى .

وقال الشاعرُ : [الرجز]

أبِيتُ أَسْرِي ، وَتَبِيتِي تَدْلُكِي . . . وَجْهَكِ بِالْعَنْبَرِ وَالْمِسْكِ الذَّكِي

يريد تبيتين وتدلُكين .

ومثله قول أبي طالب : [الطويل]

فَإِنْ يَكُ قَوْمٌ سَرَّهُمْ مَا صَنَعْتُمُ . . . سَتَحْتَلِبُوهَا لَاقِحاً غَيْرَ بَاهِلِ

يريد : ستحتلبونها .

ولا يجوز أن يُتَوهَّم – في هذا البيت – أن يكون حذف النون لأجل جواب الشرط ، لأن الفاء مُرادَة وجوباً ؛ لعدم صلاحية " ستحتلبوها " جواباً ؛ لاقترانه بحرف التنفيس .

والمراد بالحق : الآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة .

(231/121)

قوله : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ جملة حالية ، ومتعلق العلم محذوف ، إما اقتصاراً ، وإما اختصاراً – أي : وأنتم تعلمون الحق من الباطل ، أو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أو تعلمون أن عقاب مَنْ يفعل ذلك عظيم ، وتعلمن أنكم تفعلون ذلك عناداً وحسداً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 312.316 ﴾

فوائد بلاغية

قال أبو حيان :

وفي هذه الآيات أنواع من البديع .

الطباق في قوله : الحق بالباطل ، والطباق المعنوي في قوله : لم تكفرون وأنتم تشهدون ، لأن الشهادة إقرار وإظهار ، والكفر ستر .

والتجنيس المماثل في : يضلونك وما يضلون والتكرار في : أهل الكتاب .

والحذف في مواضع قد بينت . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 517 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قوله تعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (71) ﴾

تكتمون الحق في شأن محمد عليه السلام وأنتم تعلمون أنه النبي الصادق ، وهل هذا حكم الخذلان وقضية الحرمان ، ثم أخبر أَنَّ منهم من ينافق في حالته ، فيريد أن يدفع عنه أذى

المسلمين ، ولا يخالف إخوانه من الكافرين ، فتواصوا فيما بينهم بموافقة الرسول عليه السلام والمسلمين جهراً ، والخلوص في عقائدهم الفاسدة بعضهم مع بعض سِرًّا . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 1 صـ 250﴾

(232/121)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (61) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (62) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (63) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (64) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (66) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ

حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا
النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (68) وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا
يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (69) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ
(70) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (71) ﴾

(233/121)

التفسير : " روي أنه صلى الله عليه وسلم لما أورد الدلائل على نصارى نجران ، ثم إنهم أصروا على جهلهم قال صلى الله عليه وسلم : إن الله أمرني إن لم تقبلوا الحجة أن أباهلكم . فقالوا : يا أبا القاسم بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك . فلما رجعوا قالوا للعاقب – وكان ذا رأيهم – يا عبد المسيح ما ترى ؟ قال : والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل ، ولقد جاءكم بالكلام الفصل من أمر صاحبكم . والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، ولئن فعلتم لكان الاستئصال ، فإن أبيتم إلا الإصرار على دينكم والإقامة على ما أنتم عليه

(234/121)

فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم . فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد خرج وعليه صلى الله عليه وسلم مرط من شعر أسود . وكان صلى الله عليه وسلم قد احتضن الحسين وأخذ بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه صلى الله عليه وسلم وعلي عليه السلام خلفها وهو يقول : إذا دعوت فأمنوا . فقال أسقف نجران : يا معشر النصارى ، إني لأرى وجوهاً لو دعت الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها ، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة . ثم قالوا : يا أبا القاسم ، رأينا أن لا نباهلك وأن نقرك على دينك . فقال صلى الله عليه وسلم : فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما على المسلمين فأبوا . فقال صلى الله عليه وسلم : فإني أناجزكم أي أحاربكم . فقالوا : ما لنا بحرب العرب المسلمين طاقة ، ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تردنا على ديننا على أن نؤدي إليك كل عام ألفي حلة ، ألفاً في صفر وألفاً في رجب وثلاثين درعاً عادية من حديد فصالحهم على ذلك . قال صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ، ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي ناراً ، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤوس الشجر ، ولما حاول الحول على

(235/121)

النصارى كلهم حتى يهلكوا "

(236/121)

وروي عن عائشة أنه صلى الله عليه وسلم لما خرج في المرط الأسود جاء الحسن فأدخله ، ثم جاء الحسين فأدخله ، ثم فاطمة ثم علي عليه السلام ثم قال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ [الأحزاب : 33] وهذه الرواية كالمتفق على صحتها بين أهل التفسير والحديث . ﴿ فمن حاجك ﴾ من النصارى ﴿ فيه ﴾ في عيسى وقيل في الحق ﴿ من بعد ما جاءك من العلم ﴾ من البينات الموجبة للعلم بأن عيسى عبد الله ورسوله وذلك بطريق الوحي والتنزيل ﴿ فقل تعالوا ﴾ هلموا والمراد المجيء بالرأي والعزم كما تقول : تعال نفكر في هذه المسألة . وهو في الأصل " تفاعلوا " من العلو . وذلك أن بيوتهم كانت على أعالي الجبل ، فكانوا ينادون تعال يا فلان أي ارتفع ، إلا أنه كثر حتى استعمل في كل مجيء فصار بمنزلة " هلم " . ﴿ ندع

أبناءنا وأبناءكم ﴾ أي يدع كل منا ومنكم أبناءه ونساءه ويأتي هو بنفسه وبمن هو كنفسه إلى المباهلة . وإنما يعلم إتيانه بنفسه من قرينة ذكر النفس ومن إحضار من هم أعز من النفس ، ويعلم إتيان من هو بمنزلة النفس من قرينة أن الإنسان لا يدعو نفسه . ﴿ ثم نبتهل ﴾ ثم نتباهل وقد يجيء " افتعل " بمعنى " تفاعل " نحو : اختصم بمعنى تخاصم .

والتباهل أن يقول كل واحد منهما : بهلة الله على الكاذب منا أي لعنته . ويقال : بهله الله أي لعنه وأبعده من رحمته ومنه قولهم : " أبهله " إذا أهمله . وناقة بأهل لا صرار عليها بل هي مرسلة مخلاة . فكل من شاء حلبها وأخذ لبنها لا قوة بها على الدفع عن نفسها .

فكأن المباهل يقول : إن كان كذا فوكلني الله إلى نفسي وفوّضني إلى حولي وقوتي وخلاني من كلائه وحفظه . هذا أصل الابتهال ، ثم استعمل في كل دعاء يجتهد فيه وإن لم يكن التعاناً وهو المراد في الآية لئلا يلزم التكرار أي ثم نجتهد في الدعاء فنجعل اللعنة على الكاذب بأن نسأل الله أن يلعنه . وفي الآية دلالة على أن الحسن والحسين

وهما ابنا البنت يصح أن يقال إنهما ابنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد أن يدعو أبناءه ثم جاء بهما . وقد تمسك الشيعة قديماً وحديثاً بها في أن علياً أفضل من سائر

الصحابة لأنها دلت على أن نفس علي مثل نفس محمد إلا فيما خصه الدليل . وكان في الري رجل يقال له محمود بن الحسن الحمصي ، وكان متكلم الاثني عشرية يزعم أن علياً أفضل من سائر الأنبياء سوى محمد . قال : وذلك أنه ليس المراد بقوله : ﴿ وأنفسنا ﴾ نفس محمد لأن الإنسان لا يدعو نفسه فالمراد غيره . وأجمعوا على أن ذلك الغير كان علي بن أبي طالب فإذاً نفس علي هي نفس محمد .

لكن الإجماع دل على أن محمداً أفضل من سائر الأنبياء ، فكذا علي عليه السلام قال : ويؤكده ما يرويه المخالف والموافق أنه صلى الله عليه وسلم قال : " من أراد أن يرى آدم في علمه . ونوحاً في طاعته ، وإبراهيم في خلته ، وموسى في قربته ، وعيسى في صفوته فلينظر إلى علي بن أبي طالب عليه السلام " فدل الحديث على أنه اجتمع فيه عليه السلام ما كان متفرقا فيهم ، وأجيب بأنه كما انعقد الإجماع بين المسلمين على أن محمداً أفضل من سائر الأنبياء فكذا انعقد الإجماع بينهم قبل ظهور هذا الإنسان على أن النبي أفضل ممن ليس بنبي ، وأجمعوا على أن علياً عليه السلام ما كان نبياً ، فعلم أن ظاهر الآية كما أنه مخصوص في حق محمد صلى الله عليه وسلم فكذا في حق سائر الأنبياء ، وأما فضل

أصحاب الكساء فلا شك في دلالة الآية على ذلك ، ولهذا ضمهم إلى نفسه بل قدمهم في الذكر . وفيها أيضاً دلالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فإنه لو لم يكن واثقاً بصدقه لم يتجرأ على تعريض أعزته وخويصته وأفلاذ كبده في معرض الابتهال ومظنة الاستئصال ، ولولا أن القوم عرفوا من التوراة والإنجيل ما يدل على نبوته صلى الله عليه وسلم لما أحجموا عن مباهلته ، وأما قول المشركين ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ [الأنفال : 32] فليس من قبيل المباهلة ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعرض نفسه لذلك ولم يكن ذلك القول في معرض الاحتجاج والادعاء ولا بإذن من الله تعالى لرسوله . ﴿ إن هذا ﴾ الذي تلي عليك من نبأ عيسى ﴿ لهو القصص الحق وما من إله إلا الله ﴾ وهو في إفادة معنى الاستغراق لزيادة " من " بمنزلة لا إله إلا الله مبنياً على الفتح ، وفيه رد على النصارى في تثليثهم ﴿ وإن الله لهو العزيز الحكيم ﴾ فيه جواب عن شبهة النصارى أن عيسى يقدر على الإحياء ويخبر عن الغيوب ، فإن هذا القدر من القدرة والعلم لا يكفي في الإلهية ، بل يجب أن

يكون الإله غالباً لا يدفع ولا يمنع وهم يقولون إنه قد قتل ولم يقدر على الدفع . ويلزم أن يكون عالماً بكل المعلومات وبعواقب الأمور وعيسى لم يكن كذلك ﴿ فإن تولوا ﴾ عما وصفت من التوحيد وأن إله الخلق يجب أن يكون قادراً على المقدورات عالماً بجميع المعلومات ، فاعلم أن إعراضهم ليس إلا على سبيل العناد ، فاقطع كلامك معهم وفوِّض أمرهم إلى الله فإنه عليم بحال المفسدين في الدين ، وبنياتهم وأغراضهم الفاسدة فيجازيهم بأعمالهم الخبيثة . ثم إنه صلى الله عليه وسلم لما أورد على نصارى نجران من الدلائل ما انقطعوا معه ، ثم دعاهم إلى المباهلة فانخزلوا ورضوا بالصغار وقبلوا الجزية ، أمره الله تعالى بنمط آخر من الكلام مبني على الإنصاف يشهد به كل طبع مستقيم وعقل سليم فقال : ﴿ قل يا أهل الكتاب ﴾ يعني نصارى نجران ، لأن الآية من تمام قصتهم ، ولأنه كلام منصف فخوطب بما يطيب به قلوبهم كما لو قيل لحامل القرآن : يا حافظ كتاب الله .

(240/121)

وقيل : المراد يهود المدينة ، وقيل اليهود والنصارى جميعاً لأن ظاهر اللفظ يتناولهما ، ولما روي أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : ما تريد إلا أن نتخذك رباً كما اتخذت النصارى عيسى ، وقالت النصارى : يا محمد ما نريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود في

عزير . فأنزل الله تعالى هذه الآية . والمراد من قوله : ﴿ تعالوا ﴾ تعيين ما دعوا إليه والتوجه إلى النظر فيه وإن لم يكن انتقالاً من مكان إلى مكان . والمعنى هلموا إلى كلمة سواء فيها إنصاف من بعضنا لبعض ، لا ميل فيه لأحد على صاحبه . والسواء هو العدل والإنصاف لأن حقيقة الإنصاف إعطاء النصف وفيه التسوية بين نفسه وبين صاحبه . أو المراد إلى كلمة سواء مستوية بيننا وبينكم لا يختلف فيها القرآن والتوراة والإنجيل . وتفسير الكلمة بقوله : ﴿ أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ فمحل ﴿ أن لا نعبد ﴾ خفض على البدل من ﴿ كلمة ﴾ أو رفع على الخبر أي هي أن لا نعبد . وهو خبر في معنى الأمر أي اعبدوا . وإنما ذكر أموراً ثلاثة لأن النصارى جمعوا بين الثلاثة . فعبدوا غير الله وهو المسيح ، وأشركوا به غيره لأنهم أثبتوا أقانيم ثلاثة أباً وابناً وروح القدس ، ثم قالوا : إن أقنوم الكلمة تدرعت بناسوت المسيح وأقنوم روح القدس تدرعت بناسوت مريم ، ولولا كون هذين الأقنومين ذاتين مستقلتين لما جاز عليهما مفارقة ذات الأب والتدرع بناسوت عيسى ومريم . وحيث أثبتوا ثلاثة ذوات مستقلة فقد أشركوا . ثم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً لأنهم أطاعوهم في التحليل والتحريم من تلقاء أنفسهم من غير شريعة وبيان ، ولأنهم يسجدون لهم ويطيعونهم في المعاصي وهوى النفس ورؤية الأمور من الوسائط ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ [الجاثية : 23

] ولأن من مذهبهم أن الكامل في الرياضة يظهر فيه أثر اللاهوت ويحل فيه فيقدر على إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص . فهم

(241/121)

وإن لم يطلقوا عليهم اسم الرب إلا أنهم أثبتوا في حقهم معنى الربوبية ، فثبت أن النصارى جمعوا بين الأمور الثلاثة ، وبطلانها كالأمر المتفق عليه بين العقلاء . فإن قيل : المسيح ما كان المعبود إلا الله فوجب أن يبقى الأمر بعد ظهور المسيح عليه ، والقول بالاشتراك أيضاً ضائع . وإذا لم يكن الحكم إلا لله وجب أن لا يرجع في التحليل والتحريم والانقياد والائتمار إلا إليه .

(242/121)

"عن عدي بن حاتم : ما كنا نعبدهم يا رسول الله . قال صلى الله عليه وسلم : أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم ؟ قال : نعم . قال صلى الله عليه وسلم : هو ذاك" وعن الفضيل : لا أبالي أطعت مخلوقاً في معصية الخالق أو صليت لغير القبلة . ﴿ فإن تولوا

﴿ عن التوحيد ﴾ ﴿ فقولوا ﴾ أيها المسلمون لأهل الكتاب ﴿ اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ دونكم كما يقول الغالب لمغلوبه في جدال أو صراع : لزمتك الحجة فاعترف بأني أنا الغالب . أو يكون من باب التعريض ومعناه فاعترفوا بأنكم كافرون حيث أعرضتم عن الحق بعد ما تبين . ثم إن اليهود كانوا يقولون : إن إبراهيم على ديننا وكذا النصارى ، فأبطل الله تعالى ذلك بأن التوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعده . فبين إبراهيم وموسى ألف سنة ، وبينه وبين عيسى ألفان ، فكيف يعقل أن يكون يهودياً أو نصرانياً ؟ لا يقال هذا أيضاً لازم عليكم لأنكم تدعون أن إبراهيم كان على دين الإسلام ، والإسلام إنما أنزل بعده بزمان أطول مما بينه وبين إنزال التوراة والإنجيل . لأنا نقول : القرآن أخبر بأن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وإنما كان حنيفاً مسلماً ، وليس في الكتابين أنه كان يهودياً أو نصرانياً فظهر الفرق . وأيضاً المسيح ما كان موجوداً في زمان إبراهيم حتى يعبد ، وعبادة المسيح هي النصرانية عندكم . وأيضاً لا نسخ في دين اليهود والنسخ جائز في ملة إبراهيم ﴿ ها أنتم هؤلاء ﴾ " ها " حرف التنبيه و ﴿ أنتم ﴾ مبتدأ و ﴿ هؤلاء ﴾ خبره و ﴿ حاججتم ﴾ جملة مستأنفة مبينة للأولى يعني أنتم هؤلاء الحمقى ، وبيان حماقتكم أنكم حاججتم فيما لكم به علم مما نطق به التوراة والإنجيل من نعت محمد صلى الله عليه وسلم . أو ليس المراد وصفهم بالعلم حقيقة وإنما أراد : هب أنكم تحاجون فيما تدعون علمه ، فكيف تحاجون

فيما لا علم لكم به ألبتة ولا ذكر له في كتابكم ؟ وعن الأخفش : ﴿ ها أنتم ﴾ أصله أأنتم على الاستفهام . فقلبت الهزة هاء

(243/121)

، ومعنى الاستفهام التعجب من جهالتهم . ثم حقق ذلك بقوله : ﴿ والله يعلم ﴾ كيف كان حال هذه الشرائع في الموافقة والمخالفة ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ ثم بين ذلك مفصلاً فقال : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ كما لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، أو عرض بالمشركين عن اليهود والنصارى لإشراكهم بالله عزيراً والمسيح . فإن قيل : قولكم " إبراهيم على دين الإسلام " إن أردتم به الموافقة في الأصول فليس هذا مختصاً بدين الإسلام ، وإن أردتم به الموافقة في الفروع لزم أن لا يكون محمد صاحب شريعة بل كان مقرراً لشرع من قبله . قلنا : نختار الأول والاختصاص ثابت . فإن اليهود والنصارى مخالفون للأصول في زماننا لقولهم بالتثليث وإشراك عزير والمسيح بالله إلى غير ذلك من قبائح أفعالهم ، أو الثاني ولا يلزم ما ذكرتم لجواز أنه تعالى نسخ تلك الفروع بشرع موسى ، ثم في زمان محمد نسخ شرع موسى بتلك الشريعة التي

كانت ثابتة في زمان إبراهيم ، فيكون محمد صاحب الشريعة مع موافقة شرعه شرع إبراهيم في معظم الفروع .

(244/121)

روى الواحدي عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : لما هاجر جعفر بن أبي طالب وأصحابه إلى الحبشة واستقرت بهم الدار وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وكان من أمر بدر ما كان ، اجتمعت قريش من دار الندوة وقالوا : إن لنا في الذين عند النجاشي من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ثأراً بمن قتل منكم ببدر . فأجمعوا مالاً وأهدوه إلى النجاشي لعله يدفع إليكم من عنده من قومكم ، ولينتدب لذلك رجلان من ذوي آرائكم . فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن أبي معيط مع هدايا الأدم وغيره ، فركبا البحر وأتيا الحبشة . فلما دخلا على النجاشي سجدا له وسلما عليه وقالا له : إن قومنا لك ناصحون شاكرون وإصلاحك محبون ، وإنهم بعثونا إليك لنحذرك هؤلاء القوم الذين قدروا عليك لأنهم قوم رجل كذاب خرج فينا يزعم أنه رسول الله ولم يتابعه أحد منا إلا السفهاء . وإنا كنا ضيقنا عليهم الأمر وألجأناهم إلى شعب بأرضنا لا يدخل أحد منا عليهم ولا يخرج منهم أحد ، قد قتلهم الجوع والعطش . فلما

اشتد عليهم الأمر بعث إليك ابن عمه ليفسد عليك دينك وملكك ورعيتك ، وقد جئتك فاحذرهم وادفعهم إلينا لنكفيكهم . قالوا : وآية ذلك أنهم إذا دخلوا عليك لا يسجدون لك ولا يحيونك بالتحية التي يحييك بها الناس رغبة عن دينك وسنتك . قال : فدعاهم النجاشي . فلما حضروا صاح جعفر بالباب يستأذن عليك حزب الله . فقال النجاشي : مروا هذا الصائح فليعد كلامه ففعل جعفر . فقال النجاشي : نعم فليدخلوا بأمان الله وذمته . فنظر عمرو بن العاص إلى صاحبه فقال : ألا تسمع كيف يرطنون بحزب الله وما أجابهم به النجاشي فساءهما ذلك . ثم دخلوا عليه ولم يسجدوا له فقال عمرو بن العاص : ألا ترى أنهم يستكبرون أن يسجدوا لك ؟ فقال لهم النجاشي : ما يمنعكم أن تسجدوا لي وتحيوني بالتحية التي يحيي بها من أتاني من الآفاق ؟ قالوا : نسجد لله الذي خلقك وملكك ، وإنما كانت تلك التحية لنا ونحن

(245/121)

نعبد الأوثان ، فبعث الله فينا نبياً صادقاً وأمرنا بالتحية التي رضيها الله لنا وهي " السلام " تحية أهل الجنة . فعرف النجاشي أن ذلك حق وأنه في التوراة والإنجيل . قال : أيكم الهاتف يستأذن عليك حزب الله ؟ قال جعفر : أنا . قال : فتكلم . قال : إنك ملك من

ملوك أهل الأرض ومن أهل الكتاب ، ولا يصلح عندك كثرة الكلام ولا الظلم ، وأنا أحب أن أجيب عن أصحابي .

(246/121)

فمر هذين الرجلين فليتكلم أحدهما ولينصت الآخر فتسمع محاورتنا . فقال عمرو لجعفر : تكلم . فقال جعفر للنجاشي : سل هذا الرجل أعبيد نحن أم أحرار ؟ فإن كنا عبيداً أبقنا من أربابنا فأرددنا إليهم . فقال النجاشي : أعبيد هم أم أحرار ؟ فقال : بل أحرار كرام . فقال النجاشي : نجوا من العبودية . قال جعفر : سلهما هل أهرقنا دماً بغير حق فيقتص منا ؟ فقال عمرو : لا ولا قطرة . قال جعفر : سلهما هل أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤها ؟ قال النجاشي : يا عمرو إن كان قنطاراً فعليّ قضاؤه . فقال عمرو : لا ولا قيراط . قال النجاشي : فما تطلبون منهم ؟ قال عمرو : كنا وهم على دين واحد وأمر واحد على دين آبائنا ، فتركوا ذلك الدين واتبعوا غيره ولزمناه نحن ، فبعثنا إليك قومهم لتدفعهم إلينا . فقال النجاشي : ما هذا الدين الذي كنتم عليه والدين الذي اتبعوه أصدقني . قال جعفر : أما الدين الذي كنا عليه فتركناه فهو دين الشيطان وأمره . كنا نكفر بالله عزّ وجلّ ونعبد الحجارة . وأما الدين الذي تحولنا إليه فدين الإسلام ، جاءنا به

من الله رسول وكتاب مثل كتاب ابن مريم موافقاً له . فقال النجاشي : يا جعفر تكلمت بأمر عظيم فعلى رسلك . ثم أمر النجاشي فضرب الناقوش فاجتمع إليه كل قسيس وراهب . فلما اجمعوا عنده قال النجاشي : أنشدكم بالله الذي أنزل الإنجيل على عيسى ، هل تجدون بين عيسى وبين يوم القيامة نبياً مرسلاً ؟ فقالوا : اللهم نعم ، قد بشرنا به عيسى وقال : من آمن به فقد آمن بي ومن كفر به فقد كفر بي . فقال النجاشي لجعفر : ماذا يقول لكم هذا الرجل وما يأمركم به وما ينهاكم عنه ؟ قال : يقرأ علينا كتاب الله ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويأمر بحسن الجوار وصلة الرحم وبر اليتيم ، ويأمرنا أن نعبد الله وحده لا شريك له . فقال : اقرأ علي شيئاً مما يقرأ عليكم . فقرأ عليهم سورة العنكبوت والروم ففاضت أعين النجاشي وأصحابه من الدموع وقالوا : يا

جعفر زدنا من هذا الحديث الطيب . فقرأ عليهم سورة الكهف . فأراد عمرو أن يغضب النجاشي فقال : إنهم يشتمون عيسى وأمه . فقال النجاشي : ما تقولون في عيسى وأمه ؟ فقرأ عليهم جعفر سورة مريم . فلما أتى ذكر مريم وعيسى رفع النجاشي نفثة من سواكه قدر ما يقذى العين وقال : والله ما زاد المسيح على ما يقولون هذا . ثم أقبل على جعفر

وأصحابه فقال : اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي يقول آمنون من سبكم أو أذاكم . قال : أبشروا ولا تخافوا فلا دهورة أي لا خوف اليوم على حزب إبراهيم . قال عمرو : يا نجاشي ومن حزب إبراهيم ؟ قال : هؤلاء الرهط وصاحبهم الذي جاؤا من عنده ومن اتبعهم . فأنكر ذلك المشركون وادعوا أنهم في دين إبراهيم .

(248/121)

ثم رد النجاشي على عمرو وأصحابه المال الذي حملوه وقال : إنما هديتكم إليّ رشوة فاقبضوها فإن الله ملكني ولم يأخذ مني رشوة . قال جعفر : وانصرفنا فكنا في خير دار وأكرم جوار ، وأنزل الله عزّ وجلّ ذلك اليوم في خصومتهم في إبراهيم على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو بالمدينة قوله : ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ﴾ على ملته وسنته في زمانه ﴿ وهذا النبي ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ والذين آمنوا ﴾ في آخر الزمان ﴿ والله ولي المؤمنين ﴾ بالنصرة والتأييد والتوفيق والتسديد . ومعنى ﴿ أولى الناس ﴾ أخصهم به وأقربهم منه من الولي القرب . وقرىء ﴿ وهذا النبي ﴾ بالنصب عطفاً على الهاء في ﴿ اتبعوه ﴾ وبالجر عطفاً على ﴿ إبراهيم ﴾ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لكل نبي ولاة من النبيين وإن وليي منهم أبي وخليل ربي

إبراهيم ثم قرأ إن أولى الناس الآية " ثم بين أنهم لا يقتصرون على هذا القدر بل يجتهدون في إضلال المؤمنين بإلقاء الشبهات وإبداء المكايد كما أرادوا بحذيفة وعمار ومعاذ بن جبل وقد ذكرناه في سورة البقرة . ﴿ وما يضلون إلا أنفسهم ﴾ لأن وبال الإضلال يعود عليهم فيضاعف لهم العذاب بالضلال والإضلال ، أو وما يقدرون على إضلال المؤمنين وإنما يضلون أمثالهم من أشياعهم ﴿ وما يشعرون ﴾ أن هذا يضرهم ولا يضر المؤمنين . ثم وبخهم على قبائح أفعالهم بطريق الاستفهام فقال : ﴿ لم تكفرون بآيات الله ﴾ قيل : أي بالتوراة والإنجيل لما فيهما من البشارة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو أن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً ، أو أن الدين عند الله الإسلام ، ومعنى الكفر بالتوراة والإنجيل إما الكفر بما يدلان عليه فيكون قد أطلق اسم الدليل على المدلول ، أو الكفر بنفس التوراة والإنجيل لأنهم كانوا يحرّفونهما وينكرون وجود تلك الآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . ومعنى ﴿ وأنتم تشهدون ﴾ أنهم عند حضور المسلمين وعند

حضور عوامهم كانوا ينكرون اشتمال التوراة والإنجيل على نعت محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض شهدوا بصحتها ، وعلى هذا فيكون في الآية إخبار عن

الغيب فيكون معجزاً . وقيل : آيات الله في القرآن وشهادتهم أنهم يعرفون في قلوبهم أنه حق

. وقيل : آيات الله جملة المعجزات التي ظهرت على يد النبي صلى الله عليه وسلم .

فمعنى تشهدون أنكم تعترفون بدلالة المعجزة على صدق المدعي . ثم لما وبخهم على

الغواية أردفه التوبيخ بالإغواء . وهو إما بإلقاء الشبهات في الدين وهو معنى لبسهم الحق

بالباطل ، وإما بإخفاء الدلائل وهو كتمانهم الحق . عن الحسن وابن زيد : حرفوا التوراة

فخلطوا المنزل بالمحرف . وعن ابن عباس : أظهروا الإسلام في أول النهار ثم رجعوا عنه في

آخره تشكيكاً للناس . قيل : إن في الكتابين ما يدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

والبشارة به وفيهما ما يوهم خلاف ذلك فيكون كالمحكم والمتشابه في القرآن .

فلبسوا على الضعفاء أحد الأمرين بالآخر كما يفعل كثير من المشبهة . وهذا قول القاضي

. وقيل : كانوا يقولون : إن محمداً صلى الله عليه وسلم معترف بأن شرع موسى حق ، ثم

إن التوراة دلت على أنه لا ينسخ ، وكل ذلك إلقاء الشبهات . وأما كتمان الحق فهو أن

الآيات الدالة في التوراة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كان الاستدلال بها مفتقراً إلى

التدبر والتأمل ، والقوم كانوا يجتهدون في إخفاء تلك الألفاظ التي بمجموعها يتم الاستدلال

كما يفعل المبتدعة في زماننا ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أنكم إنما تفعلون ذلك عناداً وحسداً ، أو

تعلمون أنكم من أهل المعرفة ، أو تعلمون حقيتها ، أو أن عقاب من يفعل هذه الأفعال عظيم

والله حسبي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 2 صـ 177. 185 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آَمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آَخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (72) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر لبسهم دل عليه بقوله عطفاً على ﴿ ودت طائفة ﴾ مبيناً لنوع إضلال آخر :

﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب ﴾ أي من يهود المدينة ﴿ آمنوا ﴾ أي أظهروا الإيمان ﴿ بالذي أنزل على الذين آمنوا ﴾ متابعة لهم ﴿ وجه ﴾ أي أول ﴿ النهار ﴾ سمي وجهاً لأنه أول ما يستقبلك منه وهو ما يظهر ولذا عبروا به عن الأول الذي يصلح لاستغراق النصف ، لأن مرادهم التلبيس بظاهر لا باطن له ، ولفظ لا حقيقة له ، في جزء يسير جداً ﴿ واكفروا آخره ﴾ أي ليظنوا أنه لا غرض لكم إلا الحق ، وأنه ما ردكم عن دينهم بعد ابتاعكم له إلا ظهور بطلانه ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي ليكون حالهم حال من يرجى رجوعه عن دينه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 113 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم يلبسون الحق بالباطل أردف ذلك بأن حكى عنهم نوعاً واحداً من أنواع تلبيساتهم ، وهو المذكور في هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 83 ﴾

فصل

قال الفخر :

قول بعضهم لبعض ﴿ آمنوا بِالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار ﴾ ويحتمل أن يكون المراد كل ما أنزل وأن يكون المراد بعض ما أنزل .

أما الاحتمال الأول : ففيه وجوه

الأول : أن اليهود والنصارى استخرجوا حيلة في تشكيك ضعفه المسلمين في صحة الإسلام ، وهو أن يظهروا تصديق ما ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم من الشرائع في بعض الأوقات ، ثم يظهروا بعد ذلك تكذيبه ، فإن الناس متى شاهدوا هذا التكذيب ، قالوا : هذا التكذيب ليس لأجل الحسد والعناد ، وإلا لما آمنوا به في أول الأمر وإذا لم يكن هذا التكذيب لأجل الحسد والعناد وجب أن يكون ذلك لأجل أنهم أهل الكتاب وقد

تفكروا في أمره واستقصوا في البحث عن دلائل نبوته فلاح لهم بعد التأمل التام، والبحث الوافي أنه كذاب، فيصير هذا الطريق شبهة لضعفة المسلمين في صحة نبوته، وقيل: تواطأ اثنا عشر رجلاً من أحبار يهود خيبر على هذا الطريق.

وقوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ معناه أنا متى ألقينا هذه الشبهة فلعل أصحابه يرجعون عن دينه.

الوجه الثاني: يحتمل أن يكون معنى الآية أن رؤساء اليهود والنصارى قال بعضهم لبعض نافقوا وأظهروا الوفاق للمؤمنين، ولكن بشرط أن تثبتوا على دينكم إذا خلوتم بإخوانكم من أهل الكتاب، فإن أمر هؤلاء المؤمنين في اضطراب فزجوا الأيام معهم بالنفاق فربما ضعف أمرهم واضمحل دينهم ويرجعوا إلى دينكم، وهذا قول أبي مسلم الأصفهاني ويدل عليه وجهان الأول: أنه تعالى لما قال: ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ﴾ [النساء: 137] أتبعه بقوله ﴿ بَشّرِ المنافقين ﴾ [النساء: 138] وهو بمنزلة قوله ﴿ وَإِذَا لَقُواْ الذين ءامَنُواْ قَالُواْ ءامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إلى شياطينهم قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقرة: 14]

الثاني : أنه تعالى اتبع هذه الآية بقوله ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ فهذا يدل على أنهم نهوا عن غير دينهم الذي كانوا عليه فكان قولهم ﴿ آمنوا وَجْهَ النهار ﴾ أمر بالنفاق .

الوجه الثالث : قال الأصم : قال بعضهم لبعض إن كذبتموه في جميع ما جاء به فإن عوامكم يعلمون كذبكم ، لأن كثيراً مما جاء به حق ولكن صدقوه في بعض وكذبوه في بعض حتى يحمل الناس تكذيبكم له على الإنصاف لا على العناد فيقبلوا قولكم .

الاحتمال الثاني : أن يكون قوله ﴿ ءَامِنُواْ بِالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره ﴾ بعض ما أنزل الله والقائلون بهذا القول حملوه على أمر القبلة وذكروا فيه وجهين الأول : قال ابن عباس : وجه النهار أوله ، وهو صلاة الصبح واكفروا آخره : يعني صلاة الظهر وتقريره أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي إلى بيت المقدس بعد أن قدم المدينة ففرح اليهود بذلك وطمعوا أن يكون منهم ، فلما حوله الله إلى الكعبة كان ذلك عند صلاة الظهر قال كعب بن الأشرف وغيره ﴿ آمنواْ بِالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار ﴾ يعني آمنوا بالقبلة التي صلّى إليها صلاة الصبح فهي الحق ، واكفروا بالقبلة التي صلّى إليها صلاة الظهر ، وهي آخر النهار ، وهي الكفر الثاني : أنه لما حولت القبلة إلى الكعبة شق ذلك عليهم ، فقال بعضهم لبعض صلوا إلى الكعبة في أول النهار ، ثم اكفروا بهذه القبلة في آخر النهار وصلوا إلى الصخرة لعلّهم يقولون إن أهل الكتاب أصحاب العلم فلولا أنهم عرفوا بطلان هذه القبلة لما تركوها فحينئذ يرجعون عن هذه القبلة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب

ح 8 ص 83.84 ﴾

فصل

قال السمرقندى :

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ على الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ ﴾

(253/121)

قال الكلبي : وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قَدِمَ المدينة ، صلى نحو بيت المقدس سبعة عشر شهراً ، أو ثمانية عشر شهراً ، فلما صرف الله نبيّه إلى الكعبة عند صلاة الظهر ، وقد كان صلى صلاة الصبح إلى بيت المقدس ، وصلّى صلاة الظهر والعصر إلى الكعبة .

فقال رؤساء اليهود منهم : كعب بن الأشرف ، ومالك بن الصيف ، وغيرهما للسفلة منهم ، آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار ، صدقوه بالقبلة التي صلّى صلاة الصبح في أول النهار وآمنوا به ، وإنه الحق ، ﴿ واكفروا ءاخِرَهُ ﴾ يعني اكفروا بالقبلة التي صلى إليها آخر النهار ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ إلى قبلتكم ودينكم .

وقال مقاتل : معناه أنهم جاؤوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم أول النهار ، ورجعوا من

عنده، وقالوا للسفلة: هو حق فاتبعوه، ثم قالوا: حتى ننظر في التوراة، ثم رجعوا في آخر النهار.

فقالوا: قد نظرنا في التوراة، فليس هو إياه، يعنون أنه ليس بحق، وإنما أرادوا أن يلبسوا على السفلة، وأن يشككوا فيه فذلك قوله: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب ءامِنُواْ بالذي أُنزِلَ ﴾ يعني قالوا: لهم في أول النهار آمنوا به ﴿ واكفروا ءاخِرَهُ ﴾ يعني قالوا: في آخر النهار، واكفروا به ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي يشكون فيه فيرجعون. انتهى. اهـ

﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 248 ﴾

فصل

قال الفخر:

الفائدة في إخبار الله تعالى عن تواضعهم على هذه الحيلة من وجوه

الأول: أن هذه الحيلة كانت مخفية فيما بينهم، وما أطلعوا عليها أحداً من الأجانب، فلما أخبر الرسول عنها كان ذلك إخباراً عن الغيب، فيكون معجزاً

الثاني : أنه تعالى لما أطلع المؤمنين على تواطئهم على هذه الحيلة لم يحصل لهذه الحيلة أثر في قلوب المؤمنين ، ولولا هذا الإعلان لكان ربما أثرت هذه الحيلة في قلب بعض من كان في إيمانه ضعف

الثالث : أن القوم لما افتضحوا في هذه الحيلة صار ذلك رادعاً لهم عن الإقدام على أمثالها من الحيل والتلبيس . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 84 ﴾

من فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال عليه الرحمة :

نزلت في كعب بن الأشرف ومالك بن الصيّف وغيرهما ، قالوا للسفلة من قومهم : آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار ، يعني أوّله .

وسمي وجهاً لأنه أحسنه ، وأوّل ما يُوَاجه منه أوّلُه .

قال الشاعر :

وتُضِيءُ في وجه النهارِ منيرةً . . .

كجُمَانة البحرِيّ سُلّ نظامُها

وقال آخر :

من كان مسروراً بمقتل مالكٍ . . .

فليأتِ نسوتنا بوجه نهارِ

وهو منصوب على الظرف ، وكذلك "آخرَه" .

ومذهب قتادة أنهم فعلوا ذلك ليشككوا المسلمين .

والطائفة الجماعة ، من طاف يطوف ، وقد يستعمل للواحد على معنى نفس طائفة .

ومعنى الآية أن اليهود قال بعضهم لبعض : أظهروا الإيمان بمحمد في أوّل النهار ثم اكفروا به آخرَه ؛ فإنكم إذا فعلتم ذلك ظهر لمن يتبعه ارتياب في دينه فيرجعون عن دينه إلى دينكم ، ويقولون إن أهل الكتاب أعلم به منا .

وقيل : المعنى آمنوا بصلاته في أوّل النهار إلى بيت المقدس فإنه الحق ، واكفروا بصلاته آخر النهار إلى الكعبة لعلهم يرجعون إلى قِبلتكم ؛ عن ابن عباس وغيره .

وقال مقاتل : معناه أنهم جاءوا محمداً صلى الله عليه وسلم أوّل النهار ورجعوا من عنده فقالوا للسّفلة : هو حق فاتبعوه ، ثم قالوا : حتى ننظر في التوراة ثم رجعوا في آخر النهار فقالوا : قد نظرنا في التوراة فليس هو به .

(255/121)

يقولون إنه ليس بحق ، وإنما أرادوا أن يُلبسوا على السّفلة وأن يُشكّكوا فيه . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 111 ﴾

وقال ابن عاشور :

قوله تعالى ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (72) ﴾

عطف على ﴿ ودت طائفة ﴾ [آل عمران : 69] .

فالطائفة الأولى حاولت الإضلال بالمجاهرة ، وهذه الطائفة حاولته بالمخادعة : قيل أشير إلى طائفة من اليهود منهم كَعْب بن الأشْرَف ، ومالك بن الصيف ، وغيرهما من يهود خيبر ، أغواهم العجب بدينهم فتوهموا أنهم قدوة للناس فلما أعيتهم المجاهرة بالمكابرة دبروا للكيد مكيدة أخرى ، فقالوا لطائفة من أتباعهم : "آمِنوا بمحمد أولَ النهار مظهرين أنكم صدّقتموه ثم اكفُروا آخر النهار ليظهر أنكم كفرتم به عن بصيرة وتجربة فيقول المسلمون مَا صرف هؤلاء عنا إلاّ ما انكشف لهم من حقيقة أمر هذا الدين ، وأنّه ليس هو الدين المبشر به في الكتب السالفة" ففعلوا ذلك .

وقوله : ﴿ على الذين آمنوا ﴾ يحتمل أنه من لفظ الحكاية بأن يكون اليهود قالوا آمِنوا بالذي أنزل على أتباع محمد فحوّله الله تعالى فقال على الذين آمنوا تنويهاً بصدق إيمانهم .

ويحتمل أنه من المحكيّ بأن يكون اليهود أطلقوا هذه الصلة على أتباع محمد إذ صارت علماً بالغلبة عليهم .

ووجهُ النهار أوله وتقدم آنفاً عند قوله تعالى : ﴿ وجيهاً في الدنيا والآخرة ﴾ [آل عمران : 45] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 126 . 127 ﴾

(256/121)

وقال العلامة ابن عطية :

أخبر تعالى في هذه الآية أن طائفة من اليهود من أحبارهم ذهبت إلى خديعة المسلمين بهذا المنزع ، قال الحسن : قالت ذلك يهود خيبر ليهود المدينة ، قال قتادة وأبو مالك والسدي وغيرهم : قال بعض الأحبار لنظهر الإيمان لمحمد صدر النهار ثم لنكفر به آخر النهار ، فسيقول المسلمون عند ذلك : ما بال هؤلاء كانوا معنا ثم انصرفوا عنا ؟ ما ذلك إلا لأنهم انكشفت لهم حقيقة في الأمر فيشكون ، ولعلهم يرجعون عن الإيمان بمحمد عليه السلام . قال الفقيه الإمام أبو محمد : ولما كانت الأحبار يظن بهم العلم وجودة النظر والاطلاع على الكتاب القديم ، طمعوا أن تنخدع العرب بهذه النزعة ففعلوا ذلك ، جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بكرة ، فقالوا : يا محمد أنت هو الموصوف في كتابنا ، ولكن أمهلنا إلى العشي حتى ننظر في أمرنا ، ثم رجعوا بالعشي ، فقالوا : قد نظرنا ولست به ﴿ وجه ﴾ على هذا التأويل منصوب بقوله ﴿ آمنوا ﴾ والمعنى أظهروا الإيمان في ﴿ وجه النهار ﴾

، والضمير في قوله ﴿ آخره ﴾ عائد على ﴿ النهار ﴾ ، وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهم : نزلت الآية ، لأن اليهود ذهبت إلى المكر بالمؤمنين ، فصلوا مع النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح ، ثم رجعوا آخر النهار ، فصلوا صلاتهم ليرى الناس أنهم بدت لهم منه ضلالة ، بعد أن كانوا اتبعوه .

قال الفقيه الإمام : وهذا القول قريب من القول الأول ، وقال جماعة من المفسرين : نزلت هذه الآية في أمر القبلة ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى صلاة الصبح إلى الشام ، كما كان يصلي ، ثم حولت القبلة ، فصلى الظهر ، وقيل العصر إلى مكة ، فقالت الأحبار لتبّاعهم وللعرب : آمنوا بالذي أنزل في أول النهار واكفروا بهذه القبلة الأخيرة .

(257/121)

قال الفقيه الإمام : والعامل في قوله ﴿ وجه النهار ﴾ على هذا التأويل قوله : ﴿ أنزل ﴾ والضمير في قوله : ﴿ آخره ﴾ يحتمل أن يعود على ﴿ النهار ﴾ أو يعود على " الذي أنزل " ، و﴿ يرجعون ﴾ في هذا التأويل ، معناه عن مكة إلى قبلتنا التي هي الشام كذلك قال قائل هذا التأويل ، ﴿ وجه النهار ﴾ أوله الذي يواجه منه ، تشبيهاً بوجه الإنسان ، وكذلك تقول : صدر النهار وغرة العام والشهر ، ومنه قول النبي عليه السلام أقتلته في غرة

الإسلام ؟ ومن هذا قول الربيع بن زياد العبسي : [الكامل]

من كان مسروراً بِمَقْتَلِ مالِكٍ . . . فَلْيأْتِ نِسْوَتَنَا بوَجْهِ نَهَارِ

يَجِدِ النِّساءَ حَوَاسِراً يَنْدُبْنَهُ . . . قَدْ قُمْنَ قَبْلَ تَبَلُّجِ الأَسْحَارِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 453 . 454 ﴾

فصل

قال الفخر :

وجه النهار هو أوله ، والوجه في اللغة هو مستقبل كل شيء ، لأنه أول ما يواجه منه ، كما يقال لأول الثوب وجه الثوب ، روى ثعلب عن ابن الأعرابي : أتيته بوجه نهار وصدر نهار ، وشباب نهار ، أي أول النهار ، وأنشد الربيع بن زياد فقال :

من كان مسروراً بمقتل مالك . . فليأت نسوتنا بوجه نهار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 84 ﴾

وقال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَجْهَ النهار ﴾ منصوب على الظرف ؛ لأنه بمعنى : أول النهار ؛ لأن الوجه – في اللغة – مستقبل كل شيء ؛ لأنه أول ما يواجَه منه ، كما يقال – لأول الثوب– : وجه الثوب .

روى ثَعْلَبُ عن ابن الأعرابي : أتيته بوجه نهارٍ ، وصدر نهار ، وشباب نهار ، أي : أوله

وقال الربيع بن زياد العبسي : [الكامل]

مَنْ كَانَ مَسْرُوراً بِمَقْتَلِ مَالِكٍ . . . فَلْيَأْتِ نِسْوَتَنَا بِوَجْهِ نَهَارِ

أي : بأوله ، وفي ناصب هذا الظرف وجهان :

(258/121)

أظهرهما : أنه فعل المر من قوله ﴿ آمِنُواْ ﴾ أي : أَوْقَعُوا إيمانَكم في أول النهار ، وأوقعوا كُفْرَكم في آخره .

والثاني : أنه ﴿ وَأُنْزِلَ ﴾ أي : آمنوا بالمُنَزَّل في أول النهار ، وليس ذلك بظاهر ، بدليل المقابلة في قوله : ﴿ واكفروا آخِرَهُ ﴾ . فإن الضمير يعودُ على النهارِ ، ومن جوَّز الوجه الثاني جعل الضمير يعود على ﴿ بالذي أُنزِلَ ﴾ ، أي : واكفروا آخر المنزَّل ، وأسباب النزول تُخالف هذا التأويل وفي هذا البيتِ الذي أنشدناه فائدةٌ ، وذلك أنه من قصيدة يرثي بها مالك بن زهير بن خُزَيْمَةَ العبسي ، وبعده : [الكامل]

يَجِدِ النِّسَاءَ حَوَاسِراً يَنْدُبْنَهُ . . . يَبْكِينَ قَبْلَ تَبَلُّجِ الأَسْحَارِ

قَدْ كُنَّ يَخْبَأْنَ الْوُجُوهَ تَسَتُّراً . . . فَالْيَوْمَ حِينَ بَدَوْنَ لِلنُّظَّارِ

يَخْمِشْنَ حَرَّاتِ الْوُجُوهِ عَلَى امرِئٍ . . . سَهْلِ الْخَلِيقَةِ طَيِّبِ الأَخْبَارِ

ومعنى الأبيات يحتاج إلى معرفةِ اصطلاح العربِ في ذلك ، وهو أنهم كانوا إذا قُتِلَ لهم قتيلٌ لا تقوم عليه نائحةٌ ولا تَنْدُبه نادبةٌ ، حتى يؤخذَ بثأره ، فقال هذا : من سرَّه قَتْلُ مالك ، فليأتِ في أول النهارِ يجدنا قد أخذْنا بثأره ، فذكر اللازم للشيء ، وهو من باب الكناية .

(259/121)

وحكي أن الشيباني سأل الأصمعي : كيف تنشد قول الربيع : . . . . . حين بدأنَ ، أو بدَّنَ ؟ فقال الأصمعيّ : بدأنَ ، فقال : أخطأت ، فقال : بَدَّنَ ، فقال : أخطأتَ ، فغضب الأصمعيُّ ، وكان الصواب أن يقول : بدَوْنَ – بالواو – لأنه من باب : بدا يَبْدو ، أي : ظهر – فأتى الأصمعي يوماً للشيباني ، وقال له : كيف تُصَغّر مُخْتَاراً ؟ فقال : مُخَيْتِر ، فضَحِك منه ، وصفَّق بيديه ، وشَنَّع عليه في حلقته ، وكان الصواب أن يقول : مُخَيِّر – بتشديد الياء – وذلك أنه اجتمع زائدان – ، الميم والتاء – والميم أولى بالبقاء ؛ لعلة ذكرها التصريفيُّون ، فأبقاها ، وحذف التاء ، وأتى بياء التصغير ، فقلب – لأجلها – الألف ياءً ، وأدْغمها فيها ، فصار : مُخَيِّرا – كما ترى – وهو يحتمل أن يكون اسمَ فاعل ، أو اسمَ مفعول – كما كان يحتملها مُكَبَّرُهُ ، وهذا – أيضاً – يلبس باسم الفاعل خَيَّر فهو مُخَيِّر ، والقرائنُ تبينه .

ومفعول ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ محذوف - أيضاً - اقتصاراً - أي : لعلهم يكونون من أهل الرجوع ، أو اختصاراً أي : يرجعون إلى دينكم وما أنتم عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 317.316 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

فبين الله سبحانه أن نفاقهم كُشِف للمسلمين ، وأن ذلك لا ينفعهم أمَّا في الدنيا فَلإطْلاع الله نبيِّه عليه السلام والمؤمنين - عليه ، وأَمَّا في الآخرة فَلِفَقْدِ إخلاصهم فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 250 ﴾

(260/121)

قوله تعالى ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (73) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (74) ﴾

قال البقاعى :

﴿ ولا تؤمنوا ﴾ أي توقعوا التصديق الحقيقي ﴿ إلا لمن تبع دينكم ﴾ فصوبوا طريقته وصدقوا دينه وعقيدته .

ولما كان هذا عين الضلال أمره سبحانه وتعالى أن يعجب من حالهم منبهاً على ضلالهم بقوله معرضاً عنهم إيذاناً بالغضب : ﴿ قل إن الهدى هدى الله ﴾ أي المختص بالعظمة وجميع صفات الكمال ، أي لا تقدرون على إضلال أحد منا عنه ، ولا نقدر على إرشاد أحد منكم إليه إلا بإذنه ، ثم وصل به تقريعهم فقال : ﴿ أن ﴾ بإثبات همزة الإنكار في قراءة ابن كثير ، وتقديرها في قراءة غيره ، أي أفعلتم الإيمان على الصورة المذكورة خشية أن ﴿ يؤتى أحد ﴾ أي من طوائف الناس ﴿ مثل ما أوتيتم ﴾ أي من العلم والهدى الذي كنتم عليه أول الأمر ﴿ أو ﴾ كراهة أن ﴿ يحاجوكم ﴾ أي يحاجكم أولئك الذين أوتوا مثل ما أوتيتم ﴿ عند ربكم ﴾ الذي طال إحسانه إليكم بالشهادة عليكم أنهم آمنوا وكفرتم بعد البيان الواضح فيفضحوكم .

(261/121)

ولما كانت هذه الأية شبيهة بآية البقرة ﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾ [البقرة : 105] في الحسد على ما أوتي غيرهم من الدين الحق وكالشارحة لها ببيان ما يلبيسونه لقصد الإضلال ختمت بما ختمت به تلك ، لكن لما قصد بها الرد عليهم في كلا هذين الأمرين اللذين دبروا هذا المكر لأجلهما زيدت ما

له مدخل في ذلك فقال تعالى مجيباً لمن تشوف إلى تعليم ما لعله يكف من مكرهم ويؤمن من شرهم معرضاً عنهم بالخطاب بعد الإقبال عليهم به إيذاناً بشديد الغضب : ﴿ قل إن الفضل ﴾ في التشريف بإنزال الآيات وغيرها ﴿ بيد الله ﴾ المختص بأنه لا كفوء له ، فله الأمر كله ولا أمر لأحد معه ، وأتبعه نتيجته فقال : ﴿ يؤتيه من يشاء ﴾ فله مع كمال القدرة كمال الاجتباء ، ثم قال مرغباً مرهباً وراداً عليهم في الأمر الثاني : ﴿ والله ﴾ الذي له من العظمة وسائر صفات الكمال ما لا تحيط به العقول ولا تبلغه الأوهام ﴿ واسع عليم ﴾ أي يوسع على من علم فيه خيراً ، ويهلك من علم أنه لا يصلح لخير ، ويعلم دقيق أمركم وجليله ، فلا يحتاج سبحانه وتعالى إلى تنبيه أحد بمحاجتكم عليه عنده .

ولما كان هذا من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى تأكيد انتقل عنه إلى تأكيد الرد عليهم في الأمر الأول بثمرة هذه الجملة ونتيجتها من أنه فاعل بالاختيار تام الاقتدار فقال : ﴿ يختص برحمته من يشاء ﴾ ثم أكد تعظيم ما لديه دفعاً لتوهم من يظن أن اختصاص البعض لضيق الرحمة عن العموم فقال : ﴿ والله ﴾ الذي كل شيء دونه فلا ينقص ما عنده ﴿ ذو الفضل العظيم ﴾ وكرر الاسم الأعظم هنا تعظيماً لما ذكر من النعم مشيراً بذلك كله إلى التمكن من الإعطاء باختباره وغزارة فضله وإلى القدرة على الإنجاء من حبائل المكر بسعة علمه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 113.114 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ أن يؤتى ﴾ بهمزتين وتليين الثانية : ابن كثير . الباقون بهمزة واحدة ﴿ يؤدهى ولا يؤدهى ﴾ ابن كثير ونافع غير قالون وابن عامر وعلي وخلف وحفص والمفضل وعباس وسهل وزيد عن يعقوب ، وقرأه أبو جعفر وقالون يعقوب غير زيد وأبو عمرو في رواية الزيدي طريق أبي أيوب الهاشمي بالاختلاس . الباقون ساكنة الهاء . ﴿ تعلمون ﴾ بالتشديد . عاصم وعلي وحمزة وخلف وابن عامر . فحذف المفعول الأول للعلم به وهو الناس . الباقون ﴿ تعلمون ﴾ بالتخفيف من العلم . ﴿ ولا يأمركم ﴾ بالرفع : ابن كثير وأبو جعفر ونافع وأبو عمرو وعلي والأعشى والبرجمي وأبو زيد غير المفضل ، وقرأ أبو عمرو بالاختلاس . الباقون بالنصب .

الوقوف : ﴿ يرجعون ﴾ ج للعطف ﴿ دينكم ﴾ ط ﴿ هدى الله ﴾ (لا) لأن التقدير ولا تصدقوا بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لمن تبع دينكم . وقوله : " قل " مع مقوله معترض . ومن قرأ ﴿ آن يؤتى ﴾ مستفهماً وقف عليها . ﴿ عند ربكم ﴾ ط ﴿ بيد الله ﴾ ج ط لأن ﴿ يؤتيه ﴾ لا يتعلق بما قبله مع أن ضمير فاعله عائد إلى الله . ﴿ من يشاء ﴾ ط ﴿ عليم ﴾ ه ط ج لاحتمال الاستئناف والصفة . ﴿ من يشاء ﴾ ط ﴿ العظيم

﴿ ه ﴿ إليك ﴾ الأولى ج لتضاد الجملتين معنى مع اتفاقهما لفظاً . ﴿ قائماً ﴾ ط ﴿

سبيل ﴾ ج لأن الواو للاستئناف مع اتساق معنى الكلام ﴿ يعلمون ﴾ ه ﴿ للمتقين ﴾ ه

﴿ يزكيهم ﴾ ص ﴿ أليم ﴾ ه ﴿ وما هو من الكتاب ﴾ ج لعطف المتفقتين مع وقوع

العارض ﴿ وما هو عند الله ﴾ ج ﴿ يعلمون ﴾ ه ﴿ تدرسون ﴾ ه لا لمن قرأ ﴿

ويأمركم ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ أن يؤتيه ﴾ ﴿ أرباباً ﴾ ط ﴿ مسلمون ﴾ ه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 2 صـ 185.186 ﴾

(263/121)

فصل

قال الفخر :

اتفق المفسرون على أن هذا بقية كلام اليهود ، وفيه وجهان

الأول : المعنى : ولا تصدقوا إلا نبياً يقرر شرائع التوراة ، فأما من جاء بتغيير شيء من أحكام التوراة فلا تصدقوه ، وهذا هو مذهب اليهود إلى اليوم ، وعلى هذا التفسير تكون (اللام) في قوله ﴿ إِلَّا لِمَن تَبِعَ ﴾ صلة زائدة فإنه يقال صدقت فلاناً .

ولا يقال صدقت لفلان ، وكون هذه اللام صلة زائدة جائز ، كقوله تعالى : ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾

[النمل : 72] والمراد ردفكم والثاني : أنه ذكر قبل هذه الآية قوله ﴿ آمنوا وجه النهار واكفروا آخره ﴾ .

ثم قال في هذه الآية : ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ أي لا تأتوا بذلك الإيمان إلا لأجل من تبع دينكم ، كأنهم قالوا : ليس الغرض من الإتيان بذلك التلبيس إلا بقاء أتباعكم على دينكم ، فالمعنى ولا تأتوا بذلك الإيمان إلا لأجل من تبع دينكم ، فإن مقصود كل واحد حفظ أتباعه وأشياعه على متابعته .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الهدى هُدَى اللهِ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما .

معناه : الدين دين الله ومثله في سورة البقرة ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهدى ﴾ [البقرة : 120] .

(264/121)

واعلم أنه لا بد من بيان أنه كيف صار هذا الكلام جواباً عما حكاه عنهم ؟ فنقول : أما على الوجه الأول وهو قولهم لا دين إلا ما هم عليه ، فهذا الكلام إنما صلح جواباً عنه من حيث أن الذي هم عليه إنما ثبت ديناً من جهة الله ، لأنه تعالى أمر به وأرشد إليه وأوجب الانقياد له وإذا كان كذلك ، فمتى أمر بعد ذلك بغيره ، وأرشد إلى غيره ، وأوجب الانقياد

إلى غيره كان نبياً يجب أن يتبع ، وإن كان مخالفاً لما تقدم ، لأن الدين إنما صار ديناً بحكمه وهدايته ، فحيثما كان حكمه وجبت متابعته ، ونظيره قوله تعالى جواباً لهم عن قولهم ﴿ مَا ولاهم عَن قِبْلَتِهِمُ التى كَانُواْ عَلَيْهَا قُلْ للّهِ المشرق والمغرب ﴾ [البقرة : 142] يعني الجهات كلها لله ، فله أن يحول القبلة إلى أي جهة شاء ، وأما على الوجه الثاني فالمعنى أن الهدى هدى الله ، وقد جئتكم به فلن ينفعكم في دفعه هذا الكيد الضعيف .

ثم قال تعالى : ﴿ أَن يؤتى أَحَدٌ مّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبّكُمْ ﴾ .

واعلم أن هذه الآية من المشكلات الصعبة ، فنقول هذا إما أن يكون من جملة كلام الله تعالى أو يكون من جملة كلام اليهود ، ومن تتمة قولهم ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ ، وقد ذهب إلى كل واحد من هذين الاحتمالين قوم من المفسرين .

أما الاحتمال الأول : ففيه وجوه

(265/121)

الأول : قرأ ابن كثير (أن يؤتى) بمد الألف على الاستفهام والباقون بفتح الألف من غير مد ولا استفهام ، فإن أخذنا بقراءة ابن كثير ، فالوجه ظاهر وذلك لأن هذه اللفظة موضوعة للتوبيخ كقوله تعالى : ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تتلى عَلَيْهِ ءاياتنا قَالَ أساطير

الأولين ﴾ [القلم : 14 ، 15] والمعنى أمن أجل أن يؤتي أحد شرائع مثل ما أوتيتم من الشرائع ينكرون اتباعه ؟ ثم حذف الجواب للاختصار ، وهذا الحذف كثير يقول الرجل بعد طول العتاب لصاحبه ، وتعديده عليه ذنوبه بعد كثرة إحسانه إليه أمن قلة إحساني إليك أمن إهانتي لك ؟ والمعنى أمن أجل هذا فعلت ما فعلت ؟ ونظيره قوله تعالى :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر : 9] وهذا الوجه مروي عن مجاهد وعيسى بن عمر .

أما قراءة من قرأ بقصر الألف من ﴿ أن ﴾ فقد يمكن أيضاً حملها على معنى الاستفهام كما قرئ ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ [البقرة : 6] بالمد والقصر ، وكذا قوله ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ قرئ بالمد والقصر ، وقال امرؤ القيس :

تروح من الحي أم تبتكر ؟ . . وماذا عليك ولم تنتظر

أراد أروح من الحي ؟ فحذف ألف الاستفهام ، وإذا ثبت أن هذه القراءة محتملة لمعنى الاستفهام كان التقدير ما شرحناه في القراءة الأولى .

الوجه الثاني : أن أولئك لما قالوا لأتباعهم : لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم إن الهدى هدى الله فلا تنكروا أن يؤتي أحد سواكم من الهدى مثل ما أوتيتموه ﴿ أَوْيُحَاجُّوكُمْ ﴾ يعني هؤلاء المسلمين بذلك ﴿ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ إن لم تقبلوا ذلك منهم ، أقصى ما في الباب أنه يفتقر في هذا التأويل إلى إضمار قوله فلا تنكروا لأن عليه دليلاً وهو قوله ﴿ إِنَّ الهدى هُدَى الله ﴾ فإنه لما كان الهدى هدى الله كان له تعالى أن يؤتيه من يشاء من عباده ومتى كان كذلك لزم ترك الإنكار .

الوجه الثالث : إن الهدى اسم للبيان كقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فهديناهم فاستحبوا العمى عَلَى الهدى ﴾ [فصلت : 17] فقوله ﴿ إِنَّ الهدى ﴾ مبتدأ وقوله ﴿ هُدَى الله ﴾ بدل منه وقوله ﴿ أَن يؤتى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ﴾ خبر بإضمار حرف لا ، والتقدير : قل يا محمد لا شك أن بيان الله هو أن لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، وهو دين الإسلام الذي هو أفضل الأديان وأن لا يحاجوكم يعني هؤلاء اليهود عند ربكم في الآخرة لأنه يظهر لهم في الآخرة أنكم محقون وأنهم مضلون ، وهذا التأويل ليس فيه إلا أنه لا بد من إضمار حرف ﴿ لا ﴾ وهو جائز كما في قوله تعالى : ﴿ أَن تَضِلُّواْ ﴾ [النساء : 44] أي أن لا تضلوا .

الوجه الرابع : ﴿ الهدى ﴾ اسم و﴿ هُدَى اللهِ ﴾ بدل منه و﴿ أَن يؤتى أَحَدٌ ﴾ خبره والتقدير : إن هدى الله هو أن يؤتي أحد مثل ما أوتيتم ، وعلى هذا التأويل فقوله ﴿ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ لا بد فيه من إضمار ، والتقدير : أو يحاجوكم عند ربكم فيقضى لكم عليهم ، والمعنى : أن الهدى هو ما هديتكم به من دين الإسلام الذي من حاجكم به عندي قضيت لكم عليه ، وفي قوله ﴿ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ ما يدل على هذا الإضمار ولأن حكمه بكونه رباً لهم يدل على كونه راضياً عنهم وذلك مشعر بأنه يحكم لهم ولا يحكم عليهم .

والاحتمال الثاني : أن يكون قوله ﴿ أَن يؤتى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ﴾ من تتمة كلام اليهود ، وفيه تقديم وتأخير ، والتقدير : ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتي أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم ، قل إن الهدى هدى الله ، وأن الفضل بيد الله ، قالوا ، والمعنى لا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم ، وأسروا تصديقكم ، بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم ، ولا تفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم دون المسلمين لئلا يزيدهم ثباتاً ودون المشركين لئلا يدعوهم ذلك إلى الإسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 84 . 87 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تؤمنوا إِلَّا لِمَن تبِعَ دِينَكُمْ ﴾ نقل ابنُ عطيّة الإجماع من أهل التأويل على أن هذا من مقول الطائفة ، وليس بسديد ، لما نقل من الخلاف ، وهل هي من مقول الطائفة أم من مقول الله تعالى – على معنى أن الله – تعالى – خاطب به المؤمنين ، تثبيتاً لقلوبهم ، وتسكيناً لجأشهم ؛ لئلا يشكُّوا عند تلبيس اليهودِ عليهم وتزويرهم ؟

(268/121)

[إذا كان من كلامِ طائفةِ اليهودِ ، فالظاهر أنه انقطع كلامُهم ؛ إذ لا خلاف ، ولا شك أن قولَه : ﴿ وَلَا تؤمنوا إِلَّا لِمَن تبِعَ دِينَكُمْ ﴾ من كلام الله مخاطباً لنبيه صلى الله عليه وسلم] .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 321 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

اللام في "لِمَنْ" فيها وجهان :

أحدهما : أنها زائدة مؤكّدة ، كهي في قوله تعالى : ﴿ قُلْ عسى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم ﴾ [النمل : 72] أي : ردفكم وقول الآخر : [الوافر]

فَلَمّا أنْ تَوَاقَفْنَا قَلِيلاً . . . أَنَخْنَا لِلْكَلَاكِلِ فَارْتَمَيْنَا

وقول الآخر : [الكامل]

مَا كُنْتُ أَخْدَعُ لِلْخَلِيلِ بِخُلَّةٍ . . . حَتَّى يَكُونَ لِيَ الْخَلِيلُ خَدُوعَا

وقول الآخر : [الطويل]

يَذمُّونَ لِلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْلِبُونَهَا . . . أَفَاوِيقَ حَتَّى ما يَدِرُّ لَهَا ثُعْلُ

أي : أنخنا الكلاكِلَ ، وأخدع الخليل ، ويذمون الدنيا ، ويُرْوَى : يذمون بالدنيا ، بالباء .

قال شهابُ الدينِ : وأظن البيتَ : يذمونَ لي الدنيا – فاشتبه اللفظ على السامع – وكذا رأيته في بعض التفاسيرِ ، وهذا الوجه ليس بالقوي .

الثاني : أن " آمن " ضُمِّن معنى أَقَرّ واعْتَرَف ، فعُدّيَ باللام ، أي : ولا تُقِرّوا ، ولا تعترفوا إلا لمن تبع دينكم ، ونحوه قوله : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ ﴾ [يونس : 83] وقوله : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ [يوسف : 17] وقال أبو علي : وقد يتعدّى آمن باللام في قوله : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى ﴾ [يونس : 83] ، وقوله : ﴿ آمَنتُمْ لَهُ ﴾ [طه : 71] ، وقوله : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : 61] فذكر أنه يتعدى بها من غير تضمين ، والصّوابُ التضمين وقد تقدم تحقيقه أول البقرة . وهنا استثناء مُفَرَّغٌ .

وقال أبو البقاء : ﴿ إِلَّا لِمَن تَبِعَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه استثناء مما قبله ، والتقديرُ : ولا تُقِرُّوا إلا لمن تبع ، فعلى هذا اللام غير زائدة ولا يجوز أن تكون زائدة ويكون محمولاً على المعنى ، أي اجْحَدوا كُلَّ أحد إلا من تبع دينكم .

والثاني : أن النية به التأخير ، والتقدير : ولا تُصَدِّقُوا أن يؤتَى أحدٌ مثل ما أوتيتم إلا من تبع دينكم ؛ فاللام على هذا - زائدة ، و" مَنْ " في موضع نصب على الاستثناء من أحد .

وقال الفارسيُّ : الإيمان لا يتعدى إلى مفعولين ، فلا يتعلق - أيضاً - بجارين ، وقد تعلَّق بالجار المحذوف من قوله : ﴿ أَن يؤتى ﴾ فلا يتعلق باللام في قوله : ﴿ لِمَن تبِعَ دِينَكُمْ ﴾ إلا أن يحمل اللام على معناه ، فيتعدى إلى مفعولين ، ويكون المعنى : ولا تُقِرُّوا بأن يُتَى أحدٌ مثل ما أوتيتم إلا لمن تبع دينكم ، كما تقول : أقررت لزيد بألفٍ ، فتكون اللام متعلقة بالمعنى ، ولا تكون زائدة على حد : ﴿ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ [النمل : 72] و ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف : 43] وهذا تَصْرِيحٌ من أبي علي بأنه ضمن " آمن " معنى " أقرّ " .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 319 . 320 ﴾

قوله تعالى ﴿ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾

قال الفخر :

أما قوله ﴿ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ فهو عطف على أن يؤتى ، والضمير في يحاجوكم

لأحد ، لأنه في معنى الجمع بمعنى ولا تؤمنوا لغير أتباعكم ، إن المسلمين يحاجونكم يوم القيامة بالحق ويغالبونكم عند الله بالحجة ، وعندي أن هذا التفسير ضعيف ، وبيانه من وجوه

الأول : إن جد القوم في حفظ أتباعهم عن قبول دين محمد عليه السلام كان أعظم من جدهم في حفظ غير أتباعهم وأشياعهم عنه ، فكيف يليق أن يوصي بعضهم بعضاً بالإقرار بما يدل على صحة دين محمد صلى الله عليه وسلم عند أتباعهم وأشياعهم ، وأن يمتنعوا من ذلك عند الأجانب ؟ هذا في غاية البعد

الثاني : أن على هذا التقدير يختل النظم ويقع فيه تقديم وتأخير لا يليق بكلام الفصحاء

والثالث : إن على هذا التقدير لا بد من الحذف فإن التقدير : قبل إن الهدى هدى الله وإن الفضل بيد الله ، ولا بد من حذف ﴿ قُلْ ﴾ في قوله ﴿ قُلْ إِنَّ الفضل بِيَدِ الله ﴾

الرابع : إنه كيف وقع قوله ﴿ قُلْ إِنَّ الهدى هُدَى الله ﴾ فيما بين جزأى كلام واحد ؟ فإن هذا في غاية البعد عن الكلام المستقيم ، قال القفال : يحتمل أن يكون قوله ﴿ قُلْ إِنَّ الهدى هُدَى الله ﴾ كلام أمر الله نبيه أن يقوله عند انتهاء الحكاية عن اليهود إلى هذا الموضع لأنه لما

حكى عنهم في هذا الموضع قولاً باطلاً لا جرم أدب رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقابله بقول حق ، ثم يعود إلى حكاية تمام كلامهم كما إذا حكى المسلم عن بعض الكفار قولاً فيه كفر ، فيقول : عند بلوغه إلى تلك الكلمة آمنت بالله ، أو يقول لا إله إلا الله ، أو يقول تعالى الله ثم يعود إلى تمام الحكاية فيكون قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الهدى هُدَى الله ﴾ من هذا الباب ، ثم أتى بعده بتمام قول اليهود إلى قوله ﴿ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم بمحاجتهم في هذا وتنبيههم على بطلان قولهم ، فقيل له ﴿ قُلْ إِنَّ الفضل بِيَدِ الله ﴾ إلى آخر الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 87 ﴾

وقال ابن عادل :

اختلف الناس في هذه الآية على وجوه :

(271/121)

الأول : أن قوله : ﴿ أَن يؤتى أَحَدٌ ﴾ متعلق بقوله : ﴿ وَلاَ تؤمنوا ﴾ على حذف حرف الجر ، والأصل : ولا تُؤْمِنُوا بأن يُؤتَى أحدٌ مثل ما أوتيتم إلا لمن تبع دينكم ، فلما حُذِفَ حرف الجر جرى الخلافُ المشهور بين الخليل وسيبويه في محل " أن " ، ويكون قوله : ﴿ قُلْ إِنَّ الهدى هُدَى الله ﴾ جملة اعتراضية .

قال القفّالُ: يحتمل أن يكون قوله: ﴿ قُلْ إِنَّ الهدى هُدَى الله ﴾ كلاماً أمر اللهُ نبيه أن يقولَه عند انتهاء الحكاية عن اليهود إلى هذا الموضع؛ لأنه لما حكى عنهم في هذا الموضع قولاً باطلاً - لا جرم - أدب الله رسوله بأن يقابله بقول حقّ، ثم يعود إلى حكايةِ تمامِ كلامِهم - كما إذا حكى المسلم عن بعضِ الكُفَّار قَوْلاً فيه كُفْر، فيقول - عند بلوغه إلى تلك الكلمة - : آمنت بالله، أو يقول: لاَ إِلَهَ إلا اللهُ، أو يقول: تعالى الله عن ذلك، ثم يعود إلى تمام الحكاية، فيكون قوله: ﴿ قُلْ إِنَّ الهدى هُدَى الله ﴾ من هذا الباب.

قال الزمخشريُّ في تقرير هذا الوجه - وبه بدأ - : ﴿ وَلاَ تؤمنوا مُتَعَلِّقٌ بقوله: ﴿ أَن يؤتى أَحَدٌ ﴾ وما بينهما اعتراضٌ، أي: ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم، وأسِرُّوا تصديقكُمْ بأن المسلمين قد أوتوا مثل ما أوتيتم، ولا تُفْشُوه إلا لأشياعكم - وحدهم - دون المسلمين؛ لئلاَّ يزيدَهم ثباتاً، ودون المشركين، لئلا يدعوهم إلى الإسلام.

﴿ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ عطف على ﴿ أَن يؤتى ﴾ والضمير في ﴿ يُحَاجُّوكُمْ ﴾ لِ ﴿ أَحَدٌ ﴾ لأنه في معنى الجميع، بمعنى: ولا تؤمنوا لغير أتباعكم بأن المسلمين يحاجونكم عند ربكم بالحق، ويغالبونكم عِنْدَ الله - تعالى - بالحُجَّة.

فإن قلت: ما معنى الاعتراضِ؟

قلت : معناه : إن الهدَى هُدى الله ، من شاء يَلْطُف به حتى يُسلم ، أو يزيد ثباتاً ، ولم ينفع كيدكم وحِيَلكم ، وذَبُّكم تصديقكم عن المسلمين والمشركين ، وكذلك قوله : ﴿ قُلْ إِنَّ الفضل بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ يريد الهداية والتوفيق .

قال شهاب الدين : " وهذا كلامٌ حسَنٌ ، لولا ما يُريد بباطنه " ، وعلى هذا يكون قوله : ﴿ إِلَّا لِمَن تَبِعَ ﴾ مستثْنَى من شيء محذوفٍ ، تقديره : ولا تُؤمنوا بأن يُؤتى أحد مل ما أوتيتم لأحد من الناس إلا لأشياعكم دون غيرهم ، وتكون هذه الجملة - أعني قوله : ﴿ وَلَا تؤمنوا ﴾ من كلام الطَّائِفَةِ المتقدمة ، أي وقالت طائفةٌ كذا ، وقالت أيضاً : ولا تؤمنوا ، وتكون الجملة من قوله : ﴿ قُلْ إِنَّ الهدى هُدَى الله ﴾ من كلام اللهِ لا غير " .

قال ابن الخطيب : وعندي أن هذا التفسير ضعيف من وُجُوهٍ :

الأول : أن جدّ القوم في حفظ أتباعهم عن قبول دين محمَّد صلى الله عليه وسلم كان أعظمَ من جدهم في حفظِ غير أتباعهم عنه ، فكيف يليق أن يوصِيَ بعضُهم بعضاً بالإقرار بما يدل على صحة دين محمَّد صلى الله عليه وسلم عند أتباعهم ، وأشياعهم ، وأن يمتنعوا من ذلك عند الأجانب ؟ هذا في غاية البعد .

الثاني : أن على هذا التقدير لا بد من الحَذْف ؛ فإن التقدير : قل إن الهُدَى هُدَى اللهِ ، وإنّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ ، ولا بُدّ مِنْ حَذْفِ قل في قوله : ﴿ قُلْ إِنَّ الفضل بِيَدِ الله ﴾ .

الثالث : أنه كيف وقع قوله : ﴿ قُلْ إِنَّ الهدى هُدَى اللهِ ﴾ فيما بين جزأي كلام واحد ؟ هذا في غاية البعد عن الكلام المستقيم .

(273/121)

الوجه الثاني : أن اللام زائدة في ﴿ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ وهو مستثنى من "أَحَدٌ" المتأخِّر ، والتقدير : ولا تصدقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا مَنْ تَبعَ دينَكُمْ ، ف ﴿ لِمَنْ تَبِعَ ﴾ منصوب على الاستثناء من "أحد" ، وعلى هذا الوجه جوَّز أبو البقاء في محل ﴿ أَن يؤتى ﴾ ثلاثة أوجهٍ :

الأول والثاني : مذهب الخليل وسيبويه ، وقد تَقَدَّمَا .

الثالث : النصب على المفعول من أجله ، تقديره : مخافةَ أن يُؤتَى .

وهذا الوجه الثالث – لا يصح من جهة المعنى ، ولا من جهة الصناعة ، أمّا المعنى فواضحٌ وأما الصناعة فإن فيه تقديم المستثنى على المستثنى منه ، وعلى عامله ، وفيه – أيضاً – تقديم ما في صلة أن عليها ، وهو غير جائزٍ .

الوجه الثالث : أن يكون ﴿ أَن يؤتى ﴾ مجروراً بحرف العلة – وهو اللام – والمُعَلَّل محذوف ، تقديره لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم قلتم ذلك ، ودَبَّرتموه ، لا لشيء آخرَ ، وقوله :

﴿ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ معناه : ولا تؤمنوا هذا الإيمانَ الظاهرَ – وهو إيمانكم وَجْهَ النَّهَارِ – ﴿ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ ، إلا لمن كانوا تابعين لدينكم ممن أسلموا منكم ؛ لأن رجوعَهم كان أرْجَى عندهم من رجوع من سواهم ، ولأن إسلامَهم كان أغبط لهم ، وقوله : ﴿ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ معناه : لأن يؤتى مثل ما أُوتيتُمْ قلتم ذلك ، ودبرتموه ، لا لشيء آخرَ ، يعني أن ما بكم من الحسد والبغي ، أن يؤتى أَحَدٌ مثل ما أوتيتم من فَضْل العلم والكتاب دعاكم إلى أن قُلْتُم ما قلتم ، والدليل عليه قراءة ابن كثير : أأنْ يُؤتَى أَحَدٌ ؟ – بزيادة همزة الاستفهامِ ، والتقرير ، والتوبيخ – بمعنى : ألأن يؤتى أَحَدٌ ؟

فإن قلت : ما معنى قوله : ﴿ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ ﴾ على هذا ؟

(274/121)

قلت : معناه : دبرتم ما دبرتم لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، ولما يتصل به عند كفركم به في محاجتهم [لكم] عند ربكم .

الوجه الرابع : أن ينتصب ﴿ أن يؤتى ﴾ بفعل مقدَّرٍ ، يدل عليه : ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ إنكار لأن يؤتى أحد مثل ما أوتوا .

قال أبو حيّان : وهذا بعيد ؛ لأنه فيه حذفَ حرف النهي وحذفَ معموله ، ولم يُحْفظ ذلك

من لسانهم.

قال شهاب الدين: "متى دلَّ على العامل دليلٌ جاز حَذْفُه على أي حالةٍ كان".

الوجه الخامس: أن يكون ﴿ هُدَى الله ﴾ بدلاً من "الْهُدَى" الذي هو اسم "إنَّ" ويكون خبر ﴿ أَن يؤتى أَحَدٌ ﴾، قُلْ إنَّ هدى الله أن يؤتى أحد، أي إن هدى الله آتياً أحداً مثل ما أوتيتم، ويكون "أوْ" بمعنى "حتى"، والمعنى: حتى يحاجوكم عند ربكم، فيغلبوكم ويدحضوا حُجَّتَكم عند الله، ولا يكون ﴿ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ ﴾ معطوفاً على ﴿ أَن يؤتى ﴾ وداخلاً في خبر إن.

الوجه السادس: أن يكون ﴿ أَن يؤتى ﴾ بدلاً من ﴿ هُدَى الله ﴾ ويكون المعنى: قُلْ بأن الهدى هدى الله، وهو أن يؤتى أحد كالذي جاءنا نحن، ويكون قوله: ﴿ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ ﴾ بمعنى فليحاجوكم، فإنهم يغلبونكم، قال ابنُ عطية: وفيه نظرٌ؛ لأن يؤدي إلى حذف حرف [النهي] وإبقاء عمله.

الوجه السابع: أن تكون "لا" النافية مقدَّرة قبل ﴿ أَن يؤتى ﴾ فحذفت؛ لدلالة الكلام عليها، وتكون "أو" بمعنى "إلاَّ أن" والتقدير: ولا تؤمنوا لأحد بشيء إلا لمن تبع دينَكم بانتفاء أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم إلا من تَبع دينكُمْ، وجاء بمثله، فإن ذلك لا يؤتى به غيركم إلا أن يحاجوكم، كقولك: لألزمنك أو تقضيني حقي.

وفيه ضعف من حيث حذف "لا" النافية، وما ذكروه من دلالة الكلامِ عليها غير ظاهر.

الوجه الثامن: أن يكون ﴿ أَن يؤتى ﴾ مفعولاً من أجله، وتحرير هذا القول أن يجعل قوله: ﴿ أَن يؤتى أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ ﴾ ليس داخلاً تحت قوله: "قل" بل هو من تمام قول الطائفة، متصل بقوله: ولا تؤمنوا إلا لمن جاء بمثل دينكم مخافةَ أن يؤتى أحد من النُّبُوَّة والكرامة مثل ما أوتيتم، ومخافةَ أن يُحاجُّوكم بتصديقكم إياهم عند ربكم إذا لم تستمروا عليه، وهذا القولُ منهم ثمرة حسدهم وكُفْرهم - مع معرفتهم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

ولما قدر المُبردُ المفعول من أجله - هنا - قدر المضاف: كراهة أن يُؤتَى أحد مثل ما أوتيتم، أي: مما خالف دينَ الإسلام؛ لأن اللهَ لا يهدي من هو كاذب كَفَّار، فهُدَى الله بعيد من غير المؤمنين والخطاب في ﴿ أُوتِيتُمْ ﴾ و﴿ يُحَاجُّوكُمْ ﴾ لأمة محمد صلى الله عليه وسلم.

واستضعف بعضُهم هذا، وقال: كونه مفعولاً من أجْلِه - على تقدير: كراهة - يحتاج إلى تقدير عامل فيه ويصعُب تقديره؛ إذ قبله جملة لا يظهر تعليل النسبة فيها، بكراهة الإيتاء المذكور.

الوجه التاسع : أن "أنْ" المفتوحة تأتي للنفي - كما تأتي "لا" ، نقله بعضهم أيضاً عن الفراء ، وجعلَ "أو" بمعنى "إلا" ، والتقدير : لا يُؤتَى أحد ما أوتيتم إلا أن يحاجُّوكم ، فإن إيتاءه ما أوتيتم مقرون بمغالبتكم أو محاجتكم عند ربكم ؛ لأن من آتاه الله الوحي لا بُدّ أن يحاجهم عند ربهم - في كونهم لا يتبعونه - فقوله : ﴿ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ ﴾ حالٌ لازمةٌ من جهة المعنى ؛ إذ لا يوحي الله لرسولٍ إلا وهو يُحاجُّ مخالفيه . وهذا قول ساقطٌ ؛ إذْ لم يثبت ذلك من لسان العربِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 321.325 ﴾

فائدة

قال الماوردى :

واختلف في سبب نهيهم أن يؤمنوا إلا لِمَنْ تَبعَ دينهم على قولين :

(276/121)

أحدهما : أنهم نُهوا عن ذلك لِئَلاَّ يكون طريقاً لعبدة الأوثان إلى تصديقه ، وهذا قول الزجاج.

والثاني : أنهم نُهوا عن ذلك لِئَلاَّ يعترفوا به فيلزمهم العمل بدينه لإقرارهم بصحته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 401 ﴾

فصل

" أحد " يجوز أن تكون – في الآية الكريمة – من الأسماء الملازمةِ للنفي ، وأن تكون بمعنى " واحد " والفرق بينهما أن الملازمة للنفي همزته أصلية ، والذي لا يلزم النفي همزته بدل من واو فعلى جعله ملازماً للنفي يظهر عود الضمير عليه جمعاً ؛ اعتباراً بمعناه ؛ إذ المراد به العموم ، وعليه قوله : ﴿ فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : 47] – جمع الخبر لما كان " أَحَدٌ " في معنى الجميع – وعلى جعله غير اللازم للنفي يكون جمع الضمير في ﴿ يُحَاجُّوكُمْ ﴾ باعتبار الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعِه .

وبعض الأوجه المتقدمة يصح أن يجعل فيها " أحد " – المذكور – الملازم للنفي ، وذلك إذا كان الكلام على معنى الجَحْد ، وإذا كان الكلام على معنى الثبوت – كما مَرَّ في بعض الوجوه فيمتنع جعلُه الملازم للنفي . والأمر واضح مما تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 325 ﴾

فصل

قال الفخر :

الإشكال الخامس : في هذه الوجوه : أن الإيمان إذا كان بمعنى التصديق لا يتعدى إلى المصدق بحرف اللام لا يقال صدقت لزيد بل يقال : صدقت زيداً ، فكان ينبغي أن يقال : ولا تؤمنوا إلا من تبع دينكم ، وعلى هذا التقدير يحتاج إلى حذف اللام في قوله ﴿لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ ويحتاج إلى إضمار الباء أو ما يجري مجراه في قوله ﴿أَن يؤتى﴾ لأن التقدير : ولا تصدقوا إلا من تبع دينكم ، بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، فقد اجتمع في هذا التفسير الحذف والإضمار وسوء النظم وفساد المعنى ، قال أبو علي الفارسي : لا يبعد أن يحمل الإيمان على الإقرار فيكون المعنى : ولا تقروا بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لمن تبع دينكم ، وعلى هذا التقدير لا تكون اللام زائدة ، لكن لا بد من إضمار حرف الباء أو ما يجري مجراه على كل حال ، فهذا محصل ما قيل في تفسير هذه الآية والله أعلم بمراده .

ثم قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ الفضل بِيَدِ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء والله واسع عَلِيمٌ﴾ . انتهى ا . هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 87﴾

فائدة

قال ابن عادل :

قرأ ابن كُثير : أأن يؤتى – بهمزة استفهام – وهو على قاعدته من كونه يسهل الثانية بين بين من غير مدة بينهما ، وخُرِّجَتْ هذه القراءةُ على وجوهٍ :

أحدها : أن يكون ﴿ أَن يؤتى ﴾ على حذف حرف الجر - وهو لام العلة - والمُعَلَّل محذوف تقديره : ألأن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم قلتم ذلك ودَبَّرتموه - وتقدم تحقيقه - وهذه اللفظة موضوعة للتوبيخ ، كقوله تعالى : ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ [القلم : 14-15] ، والمعنى : أمن أجل أن يُؤتَى أحدٌ شرائعَ مثلَ ما أوتيتم من الشرائع تُنْكِرون اتباعه ؟ ثم حذف الجواب ، للاختصارِ ، تقديره : أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم يا معشرَ اليهودِ من الكتاب والحكمة تحسدونه ، ولا تؤمنون به ، قاله قتادةُ والربيعُ ، وهذا الحذفُ كثيرٌ ؛ يقول الرجل - بعد طول العتاب لصاحبه ، وتعديده عليه ذنوبه بعد قلة إحسانه إليه - : أمِنْ قلة إحساني إليك ؟ أمِنْ إساءتي إليك ؟ والمعنى : أمن هذا فعلتَ ما فعلتَ ؟ ونظيره : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَآءَ الليل سَاجِداً وَقَآئِماً يَحْذَرُ الآخرة وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر : 9] ، وهذا الوجه يُروى عن مجاهد وعيسى بن عُمَرَ . وحينئذ يسوغ في محل " أن " الوجهان - أعني النصب - مذهب سيبويه - والجر مذهب الخليلِ .

وثانيها : أن ﴿ أَن يؤتى ﴾ في محل رفع بالابتداء ، والخبر محذوف ، تقديره : أأن يُؤتَى أحَدٌ - يا معشر اليهودِ - من الكتاب والعلم مثل ما أوتيتم تصدقون به ، أو تعترفون به ، أو تذكرونه لغيركم ، أو تُشيعونه في الناس ، ونحو ذلك مما يَحْسُنُ تقديره ، وهذا على قول مَنْ

يقول : أزَيْدٌ ضربته ؟ وهو وجه مرجوحٌ ، كذا قدره الواحديُّ تبعاً للفارسيِّ وأحسن من هذا التقدير لأن الأصل إتيان أحد مثل ما أوتيتم ممكن أو مصدق به .

(279/121)

الثالث : أن يكون منصوباً بفعل مقدَّرٍ يُفَسِّرُه هذا الفعل المُضْمَر ، وتكون المسألة من باب الاشتغال ، التقدير : أتذكرون أن يؤتى أحَدٌ تذكرونه ؟ ف " تذكرونه " مُفَسِّرٌ ل " تذكرون " الأولى ، على حد : أزيداً ضربتَه ؟ ثم حذف الفعل الأخير ؛ لدلالة الكلام عليه ، وكأنه منطوقٌ به ، ولكونه في قوةِ المنطوقِ به صَحَّ له أن يُفَسِّر مُضْمَراً وهذه المسألة منصوص عليها ، وهذا أرجح من الوجه قبله ، لأنه مثل : أزيداً ضربته وهو أرجح ، لأجل الطالب للفعل ، ومثل حذف هذا الفعل المقدَّر لدلالة ما قبل الاستفهام عليه حذف الفعل في قوله تعالى : ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ [يونس : 91] تقديره : آلآن آمنتَ ، ورجعتَ وثبت ، ونحو ذلك .

قال الواحديُّ : فإن قيل : كيف جاز دخول " أحَدٌ " في هذه القراءة ، وقد انقطع من النفي ، والاستفهام ، وإذا انقطع الكلام – إيجاباً وتقريراً – فلا يجوز دخول " أحَدٌ " .

قيل : يجوز أن يكون أحَدٌ " – في هذا الموضع – أحداً الذي في نحو أحد وعشرين ، وهذا

يقع في الإيجاب، ألا ترى أنه بمعنى " واحد ".

قال أبو العباس: إن " أحَداً " و" وَحَداً " و" وَاحِداً " بمعنًى.

وقوله: ﴿ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ ﴾، أو في هذه القراءة - بمعنى " حتى "، ومعنى الكلام: أأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم تذكرونه لغيركم حتى يُحاجُّوكُمْ عند ربكم.

قال الفراء: " ومثله في لكلام: تَعَلَّق به أو يُعْطيك حَقَّك.

ومثله قول امرئ القيس: [الطويل]

1514- فَقُلْتُ لَهُ: لا تَبْكِ عَيْنُكَ إنَّمَا ... نُحَاوِلُ مُلْكاً أو نَمُوتَ فَنُعْذَرَا

(280/121)

أي حتى، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [آل عمران: 128]، ومعنى الآية: ما أعطي أحد مثل ما أوتيتم - يا أمة محمدٍ - من الدين والحُجَّة حتى يحاجوكم عند ربكم "، قال: " فهذا وَجْهٌ، وأجود منه أن تجعله عَطْفاً على الاستفهام، والمعنى: أأن يُؤتَى أحَد مثل ما أوتيتم أو يحاجّكم أحد عند الله تصدقونه ؟ ". وهذا كله معنى قول أبي علي الفارسي.

ويجوز أن يكون ﴿ أَن يؤتى أَحَدٌ ﴾ منصوباً بفعل مُقَدَّرٍ لا على سبيل التفسير، بل لمجرد

الدلالة المعنوية ، تقديره : أتذكرون ، أو أتشيعونه . ذكره الفارسي أيضاً ، وهذا هو الوجه الرابع .

الخامس : أن يكون ﴿ أَن يؤتى ﴾ - قراءته - مفعولاً من أجله على أن يكون داخلاً تحت القول لا من قول الطائفة ، وهو أظهر مِنْ جَعْلِه من قَوْل الطَّائِفَة .

قال ابن الخطيب : " أما قراءة من يقصر الألف من " أنْ " فقد يُمْكن إيضاحها على معنى الاستفهام ، كما قرئ : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُم ﴾ [البقرة : 6] - بالمد والقصر - وكذا قوله تعالى : ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ [القلم : 14] قرئ بالمد والقصر .

وقال امرؤ القيس : [المتقارب]

1515- تَرُوحُ مِنَ الْحَيِّ أَمْ تَبْتَكِرْ . . . وَمَاذَا عَلَيْكَ بِأَنْ تَنْتَظِر ؟

أراد : أتروح ؟ فحذف ألف الاستفهام ؛ لدلالة " أم " عليه ، وإذا ثبت أن هذه القراءةَ مُحْتَمِلَةٌ لمعنى الاستفهام كان التقدير ما شرحناه في القراءة الأولى .

وقد ضعف الفارسيُّ قراءةَ ابن كثيرٍ ، فقال : [" وهذا موضع ينبغي أن تُرَجَّحَ فيه قراءةُ غيرِ ابن كثير على قراءة ابن كثير] ؛ لأن الأسماء المُفْرَدَةَ ليس بالمستمر فيها أن تدلَّ على الكثرة " .

وقرأ الأعمش وشعيب بن أبي حمزة : إن يُؤتَى - بكسْر الهمزة - وخرَّجها الزمخشريُّ على أنها " إنْ " النافية ، فقال : وقُرِئَ : " إن يؤتى أحد " على " إن " النافية ، وهو متصل بكلام أهل الكتاب ، أي : " ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم " وقولوا لهم : ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم حتى يحاجوكم عند ربكم ، يعني ما يُؤتَوْنَ مثلَه فلا يحاجونكم .

قال ابنُ عطيةَ : " وهذه القراءة تحتمل أن يكون الكلام خطاباً من الطائفة القائلة ، ويكون قولها : أو يحاجوكم بمعنى : أو فَلْيُحَاجُّوكُمْ ، وهذا على التصميم على أنه لا يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم ، أو يكون بمعنى إلا أن يحاجوكم ، وهذا على تجويز أن يؤتى أحد ذلك إذا قامت الحجة له " ، فقد ظهر - على ما ذكره ابن عطية - أنه يجوز في " أوْ " - في هذه القراءة - أن تكون على بابها من كونها للتنويع والتخيير ، وأن تكون بمعنى " إلا " إلا أن فيه حذفَ حرفِ الجزمِ ، وإبقاء عمله وهو لا يجوز ، وعلى قول غيره تكون بمعنى " حَتَّى " .

(282/121)

وقرأ الحسن : أن يُؤتِيَ أحَد - على بناء الفعل للفاعل - ولما نقل بعضهم هذه القراءةَ لم يتعرَّض لـ " أن " - بفتح ولا بكسر - كأبي البقاء ، وابن عطية ، وقيَّدَها بعضُهم بكسر " أنْ "

" وفسَّرها بإن النافية ، والظاهر في معناه أن إنعام الله تعالى لا يُشْبِهه إنعام أحد من خلقه ، وهي خطاب من النبي صلى الله عليه وسلم لأمته ، والمفعول المحذوف ، تقديره : إن يُؤتِيَ أحَدٌ أحَداً مثل ما أوتيتم ، فحذف المفعول الأول ، وهُوَ أحَدٌ ؛ لدلالة المعنى عليه ، وأبقى الثاني ، فيكون قول اليهودِ وقد تم عند قوله : ﴿ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ وما بعده من قول الله تعالى ، يقول : " قل " يا محمدُ إن ﴿ الهدى هُدَى الله أَن يؤتى ﴾ " إنْ " بمعنى الجحد ، أي : ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم يا أمة محمد ، أو يحاجوكم ، يعني : إلا أن يجادلكم اليهودُ بالباطل ، فيقولوا : نحن أفضل منكم وهذا معنى قول سعيد بن جُبَيرٍ والحسن والكلبيِّ ومقاتلٍ وهذا ملخَّص كلام الناسِ في هذه الآية مع اختلافهم .

قال الواحدي : " وهذه الآيةُ من مشكلات القرآن ، وأصعبه تفسيراً ؛ ولقد تدبَّرْتُ أقْوَالَ أهلِ التفسير ، والمعاني في هذه الآية ، فلم أجد قولاً يَطَّرِدُ في الآيةِ ، من أوِّلها إلى آخرهَا ، مع بيان المعنى في النظم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 325. 328 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى حكى عن اليهود أمرين

أحدهما : أن يؤمنوا وجه النهار ، ويكفروا آخره ، ليصير ذلك شبهة للمسلمين في صحة الإسلام .

فأجاب عنه بقوله ﴿ قُلْ إِنَّ الهدى هُدَى الله ﴾ والمعنى : أن مع كمال هداية الله وقوة بيانه لا يكون لهذه الشبهة الركيكة قوة ولا أثر

والثاني : أنه حكى عنهم أنهم استنكروا أن يؤتى أحد مثل ما أوتوا من الكتاب والحكم والنبوة .

(283/121)

فأجاب عنه بقوله ﴿ قُلْ إِنَّ الفضل بِيَدِ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء ﴾ والمراد بالفضل الرسالة ، وهو في اللغة عبارة عن الزيادة ، وأكثر ما يستعمل في زيادة الإحسان ، والفاضل الزائد على غيره في خصال الخير ، ثم كثر استعمال الفضل لكل نفع قصد به فاعله الإحسان إلى الغير وقوله ﴿ بِيَدِ الله ﴾ أي إنه مالك له قادر عليه ، وقوله ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء ﴾ أي هو تفضل موقوف على مشيئته ، وهذا يدل على أن النبوة تحصل بالتفضل لا بالاستحقاق ، لأنه تعالى جعلها من باب الفضل الذي لفاعله أن يفعله وأن لا يفعله ، ولا يصح ذلك في المستحق إلا على وجه المجاز وقوله ﴿ والله واسع عَلِيمٌ ﴾ مؤكد لهذا المعنى ، لأن كونه واسعاً ، يدل على كمال القدرة ، وكونه عليماً على كمال العلم ، فيصح منه لمكان القدرة أن يتفضل على أي عبد

شاء بأي تفضل شاء ، ويصح منه لمكان كمال العلم أن لا يكون شيء من أفعاله إلا على وجه الحكمة والصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 87.87 ﴾

(284/121)

فائدة

قال صاحب التفسير الواضح :

روى أن جماعة من أهل الكتاب قالوا لسفلتهم : آمنوا بمحمد أول النهار واكفروا آخره ، فإن سئلتم في ذلك قولوا : آمنا حتى إذا رجعنا إلى التوراة والإنجيل عرفنا أنه ليس النبي المبشر به في التوراة فلعل ذلك يكون مدعاة لرجوع من آمن بمحمد .

ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الرسالة والنبوة إلا لمن تبع دينكم ، أى : لا تعترفوا أمام العرب مثلا بأنكم تعتقدون أنه يجوز أن يبعث نبي من غير بنى إسرائيل وهذا مبنى على أنهم ينكرون جواز بعثة نبي من العرب بألسنتهم مكابرة وعنادا للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم لا اعتقادا ، وأنهم كانوا لا يصرحون باعتقادهم المستكن في أنفسهم إلا لمن آمنوا له من قومهم وهذا مكرهم وخداعهم لئلا يزداد المسلمون ثباتا على الدين ، والمشركون دخولا فيه ، ولا تؤمنوا لغير أتباعكم لأن المسلمين يحاجونكم عند ربكم يوم

القيامة ويغالبونكم عند اللّه بالحجة ، وقوله تعالى : قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ اعتراض على معنى : ليس إظهاركم أو إخفاؤكم له دخل في الهداية بل الهداية من اللّه والتوفيق ، والفضل بيد اللّه يؤتيه من يشاء واللّه ذو الفضل العظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير الواضح حـ 1 صـ 243 ﴾

(285/121)

من فوائد القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تؤمنوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ هذا نهي ، وهو من كلام اليهود بعضهم لبعض ، أي قال ذلك الرؤساء للسّفلة .

وقال السدي : من قول يهودِ خيبر ليهود المدينة .

وهذه الآية أشكل ما في السورة .

فروي عن الحسن ومجاهد أن معنى الآية ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، ولا تؤمنوا أن يحاجوكم عند ربكم لأنهم لا حجة لهم فإنكم أصح منهم دِيناً .

و"أن" و"يحاجوكم" في موضع خفض ، أي بأن يحاجوكم أي باحتجاجهم ، أي لا

تصدّقوهم في ذلك فإنهم لا حجة لهم .

﴿ أَن يؤتى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ﴾ من التوراة والمنّ والسلوى وفرق البحر وغيرها من الآيات والفضائل .

فيكون "أن يؤتي" مؤخراً بعد ﴿ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ ﴾ ، وقوله ﴿ إِنَّ الهدى هُدَى الله ﴾ اعتراض بين كلامين .

وقال الأخفش : المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ولا تصدّقوا أن يحاجوكم ؛ يذهب إلى أنه معطوف .

وقيل : المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ؛ فالمَدّ على الاستفهام أيضاً تأكيد للإنكار الذي قالوه إنه لا يؤتي أحد مثل ما أوتوه ؛ لأن علماء اليهود قالت لهم ؛ لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتي أحد مِثل ما أوتيتم ؛ أي لا يؤتي أحد مثل ما أوتيتم ؛ فالكلام على نسقه .

و"أن" في موضع رفع على قول من رفع في قولك أزيد ضربته ، والخبر محذوف تقديره أن يؤتي أحد مثل ما أوتيتم تصدّقون أو تقرون ، أي إيتاء موجود مصدَّقٌ أو مُقَرّ به ، أي لا تصدّقون بذلك .

ويجوز أن تكون "أن" في موضع نصب على إضمار فعل ؛ كما جاز في قولك أزيداً ضربته ، وهذا أقوى في العربية لأن الاستفهام بالفعل أولى ، والتقدير أتقرّون أن يؤتي ، أو أتشِيعون

ذلك، أو أتذكرون ذلك ونحوه.

وبالمد قرأ ابن كثير وابن محيصِن وحميد.

وقال أبو حاتم: "أن" معناه "ألأَنْ"، فحذفت لام الجر استخفافا وأبدلت مدّةً؛ كقراءة من قرأ ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ ﴾ [القلم: 14] أي ألأن.

وقوله "أو يُحَاجُّوكُم" على هذه القراءة رجوع إلى خطاب المؤمنين؛ أو تكون "أو" بمعنى "أَنْ" لأنهما حَرْفَا شكّ وجزاء يوضع أحدهما موضع الآخر.

وتقدير الآية: وأن يحاجوكم عند ربكم يا معشر المؤمنين، فقل: يا محمد إن الهدى هدى الله ونحن عليه.

ومن قرأ بترك المدّ قال: إن النفي الأوّل دلّ على إنكارهم في قولهم ولا تؤمنوا.

(286/121)

فالمعنى أن علماء اليهود قالت لهم: لا تصدّقوا بأن يُؤتَى أحد مثل ما أوتيتم، أي لا إيمان لهم ولا حجة؛ فعطف على المعنى من العلم والحكمة والكتاب والحجة والمنّ والسّلْوَى وفَلق البحر وغيرها من الفضائل والكرامات، أي إنها لا تكون إلا فيكم فلا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا من تبع دينكم.

فالكلام فيه تقديم وتأخير على هذه القراءة واللام زائدة .

ومن استثنى ليس من الأوّل ، وإلا لم يجز الكلام .

ودخلت "أَحَدٌ" لأن أوّل الكلام نفي ، فدخلت في صلة "أن" لأنه مفعول الفعل المنفي ؛ فأن في موضع نصب لعدم الخافض .

وقال الخليل : (أنْ) في موضع خفض بالخافض المحذوف .

وقيل : إن اللام ليست بزائدة ، و"تُؤمِنُوا" محمول على تقرّوا .

وقال ابن جريج : المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم كراهية أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم .

وقيل : المعنى لا تخبروا بما في كتابكم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم إلا لمن تبع دينكم لئلا يكون طريقاً إلى عبدَة الأوثان إلى تصديقه .

وقال الفرّاء : يجوز أن يكون قد انقطع كلام اليهود عند قوله عز وجل ﴿ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ ثم قال لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ إِنَّ الهدى هُدَى الله ﴾ .

أي إن البيان الحق هو بيان الله عز وجل ﴿ أَن يؤتى أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ ﴾ بيّن ألا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، و"لا" مقدرة بعد "أن" أي لئلا يؤتى ؛ كقوله ﴿ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ﴾ [النساء : 176] أي لئلا تضلوا ، فلذلك صلح دخول "أحد" في الكلام .

و"أو" بمعنى "حتى" و"إلا أن" ؛ كما قال امرؤ القيس :

فقلتُ له لا تَبْكِ عَيْنُك إنّما . . .

نحاول مُلكاً أو نموتَ فنُعذرَا

وقال آخر :

وكنتُ إذا غَمَزْتُ قَنَاةَ قوم . . .

كسرتُ كُعُوبَها أو تستقيما

(287/121)

ومثله قولهم : لا نلتقي أو تقوم الساعة ، بمعنى "حتى" أو "إلى أن" ؛ وكذلك مذهب الكِسائيّ .

وهي عند الأخفش عاطفة على "وَلَا تُؤْمِنُوا" وقد تقدّم .

أي لا إيمان لهم ولا حجة ؛ فعطف على المعنى .

ويحتمل أن تكون الآية كلها خطاباً للمؤمنين من الله تعالى على جهة التثبيت لقلوبهم والتشحيذ لبصائرهم ؛ لئلا يشكّوا عند تلبيس اليهود وتزويرهم في دينهم .

والمعنى لا تصدّقوا يا معشر المؤمنين إلا من تبع دينكم ، ولا تصدّقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الفضل والدِّين ، ولا تصدّقوا أن يحاجّكم في دينكم عند ربّكم مَن خالفكم أو يقدر على ذلك ، فإن الهُدَى هدى الله وإن الفضل بيد الله .

قال الضحاك : إن اليهود قالوا إنا نحاجّ عند ربنا مَن خالفنا في ديننا ؛ فبيّن الله تعالى أنهم هم المُدْحَضُون المعذَّبون وأن المؤمنين هم الغالبون .

ومحاجّتهم خصومتهم يوم القيامة .

ففي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

" إن اليهود والنصارى يحاجُّونا عند ربّنا فيقولون أعطيتنا أجْراً واحداً وأعطيتهم أجرين فيقول هل ظلمتكم من حقوقكم شيئاً قالوا لا قال فإن ذلك فضلي أوتيه من أشاء " قال علماؤنا : فلو علموا أن ذلك من فضل الله لم يحاجونا عند ربنا ؛ فأعلم الله نبيِّه صلى الله عليه وسلم أنهم يحاجونكم يوم القيامة عند ربكم ، ثم قال : قل لهم الآن ﴿ إِنَّ الفضل بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ واللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 114.112 ﴾

(288/121)

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ من كلام الطائفة من أهل الكتاب قصدوا به الاحتراس ألا يظنوا من قولهم آمِنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجهَ النهار أنه إيمان حقٌّ ،

فالمعنى ولا تؤمنوا إيماناً حقاً إلاّ لمن تبع دينكم ، فأما محمد فلا تؤمنوا به لأنه لم يتبعِ دينكم فهذا تعليل للنهي .

وهذا اعتذار عن إلزامهم بأنّ كتبهم بشرت بمجيء رسول مقفّ فتوهموا أنه لا يجيء إلاّ بشريعة التوراة ، وضلوا عن عدم الفائدة في مَجيئه بما في التوراة لأنه من تحصيل الحاصل ، فينزّه فعلُ الله عنه ، فالرسول الذي يجيء بعد موسى لا يكون إلاّ ناسخاً لبعض شريعة التوراة فجمعُهم بين مقالة : ﴿ آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا ﴾ وبين مقالة : ﴿ ولا تؤمنوا ﴾ مثل ﴿ وما رميت إذ رميت ﴾ [الأنفال : 17] .

وقوله : ﴿ قل إن الهدى هدى الله ﴾ كلام معترض ، أمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يقوله لهم .

كنايةً عن استبعاد حصول اهتدائهم ، وأنّ الله لم يهدهم ، لأنّ هدى غيره أي محاولته هدى الناس لا يحصل منه المطلوب ، إذا لم يقدّره الله .

فالقصر حقيقي : لأنّ ما لم يقدّره الله فهو صورة الهدى وليس بهُدى وهو مقابل قولهم : آمنوا بالذي أنزل ولا تؤمنوا إلاَّ لمن تبع دينكم ، إذْ أرادوا صورة الإيمان ، وما هو بإيمان ، وفي هذا الجواب إظهار الاستغناء عن متابعتهم .

﴿ أَن يؤتى أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ .

أشكل موقعُ هذه الآية بعد سابقتها وصفَ نظمها ، ومصرَف معناها : إلى أي فريق .

وقال القرطبي : إنها أشكَلُ آية في هذه السورة .

وذكر ابن عطية وجوها ثمانية .

ترجع إلى احتمالين أصليين .

(289/121)

الاحتمال الأول أنها تكملة لمحاورة الطائفةِ من أهل الكتاب بعضهم بعضاً ، وأن جملة ﴿ قل إن الهدى هدى الله ﴾ معترضة في أثناء ذلك الحِوار ، وعلى هذا الاحتمال تأتي وجوه نقتصر منها على وجهين واضحين :

أحدهما : أنهم أرادوا تعليل قولهم : ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ على أن سياق الكلام يقتضي إرادتهم استحالة نسخ شريعة التوراة ، واستحالة بعثة رسول بعد موسى ، وأنه يُقدّر لام تعليل محذوف قبل (أنْ) المصدرية وهو حذف شائع مثلُه .

ثم إما أن يقدر حرف نفي بعد (أنْ) يدل عليه هذا السياق ويَقتضيه لفظ (أحد) المرادِ منه شمول كلّ أحد : لأنّ ذلك اللفظَ لا يستعمل مراداً منه الشمول إلاّ في سياق النفي ، ومَا في معنيّ النفي مثلِ استفهام الإنكار ، فأما إذا استعمل (أحَد) في الكلام الموجَب فإنه يكون بمعنى الوصف بالوحْدة ، وليس ذلك بمناسب في هذه الآية .

فتقدير الكلام لأن لا يوتى أحد مثل ما أوتيتم وحذفُ حرف النفي بعد لام التعليل، ظاهرةً ومقدّرةً، كثيرٌ في الكلام، ومنه قوله تعالى: ﴿ يُبين اللَّه لكم أن تضلوا ﴾ [النساء: 176]، أي لئلاّ تضلوا.

والمعنى: أنّ قصدهم من هذا الكلام تثبيتُ أنفسهم على ملازمة دين اليهودية، لأن اليهود لا يجوِّزون نسخَ أحكام الله، ويتوهمون أنّ النسخ يقتضي البَدَاء.

الوجه الثاني: أنهم أرادوا إنكار أن يوتَى أحد النبوءة كما أوتيها أنبياءُ بني إسرائيل فيكون الكلام استفهاماً إنكارياً حذفت منه أداة الاستفهام لدلالة السياق؛ ويؤيده قراءةُ ابن كثير قوله: ﴿ أن يؤتى أحد ﴾ بهمزتين.

(290/121)

وأما قوله: أو يحَاجوكم عندَ ربكم فحَرْف (أو) فيه للتقسيم مثل ﴿ ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ﴾ [الإنسان: 24] (أو) معطوف على النفي، أو على الاستفهام الإنكاري: على اختلاف التقديرين، والمعنى: ولا يحاجوكم عند ربكم أو وكيف يحاجونكم عند ربكم، أي لا حجة لهم عليكم عند الله.

وواو الجمع في ﴿ يحاجوكم ﴾ ضمير عائد إلى (أحد) لدلالته على العموم في سياق

النفي أو الإنكار .

وفائدة الاعتراض في أثناء كلامهم المبادرة بما يفيد ضلالهم لأنّ الله حرمهم التوفيق .

الاحتمال الثاني أن تكون الجملة مما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم بقيةً لقوله :

"إنّ الهُدى هُدى الله" .

والكلام على هذا ردّ على قولهم : ﴿ آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار ﴾ وقولهم ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ على طريقة اللفّ والنشر المعكوس ، فقوله : ﴿ أن يأتى أحد مثل ما أوتيتم ﴾ إبطال لقولهم : ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ أي قلتم ذلك حسَداً من أنْ يؤتي أحدُ مثلَ ما أوتيتم وقوله : ﴿ أو يحاجوكم ﴾ ردّ لقولهم : ﴿ آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره ﴾ على طريقة التهكم ، أي مرادكم التنصّل من أن يحاجوكم أي الذين آمنوا عند الله يوم القيامة ، فجمعتم بين الإيمان بما آمن به المسلمون ، حتى إذا كان لهم الفوز يوم القيامة لا يحاجونكم عند الله بأنكم كافرون ، وإذا كان الفوز لكم كنتم قد أخذتم بالحَزم إذ لم تبطلوا دين اليهودية ، وعلى هذا فواو الجماعة في قوله : ﴿ أو يحاجوكم ﴾ عائد إلى الذين آمنوا .

وهذا الاحتمال أنسب نظماً بقوله تعالى : ﴿ قل إن الفضل بيد اللَّه ﴾ ، ليكونِ لكلِّ كلام حُكي عنهم تلقينُ جوابٍ عنه : فجواب قولهم : ﴿ آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا ﴾ الآية ، قولُه : ﴿ قل إن الهدى هدى الله ﴾ .

وجواب قولهم : ﴿ ولا تؤمنوا ﴾ إلخ قولُه : قل إنّ الفضل بيد الله إلخ .

فهذا مِلاك الوجوه ، ولا نطيل باستيعابها إذْ ليس من غرضنا في هذا التفسير .

وكلمة ﴿ أحد ﴾ اسم نكرة غلب استعمالها في سياق النفي ومعناها شخص أو إنسان وهو معدود من الأسماء التي لا تقع إلاّ في حيّز النفي فيفيد العموم مثل عَرِيب ودَيَّار ونحوهما وندر وقوعه في حيّز الإيجاب ، وهمزته مبدلة من الواو وأصلَه وَحَد بمعنى واحد ويرد وصفاً بمعنى واحد .

[

وقرأ الجمهور ﴿ أن يُؤتَى أحد ﴾ بهمزة واحدة هي جزء من حرف (أنْ) .

وقرأه ابن كثير بهمزتين مفتوحتين أولاهما همزة استفهام والثانية جزء من حرف (أنْ) وسهل الهمزة الثانية .

﴿ قُلْ إِنَّ الفضل بِيَدِ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ والله واسع عَلِيمٌ ﴾ ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ .

زيادة تذكير لهم وإبطال لإحالتهم أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً من الله ،

وتذكير لهم على طرح الحسد على نعم الله تعالى أي كما أعطى الله الرسالة موسى كذلك أعطاها محمداً ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم اللَّه من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ﴾ [النساء : 54] .

وتأكيد الكلام بـ (إنّ) لتنزيلهم منزلة من ينكر أنّ الفضل بيد الله ومن يحسب أنّ الفضل تبع لشهواتهم وجملة ﴿ والله واسع عليم ﴾ عطف على جملة أنّ الفضل بيد الله إلخ أي أنّ الفضل بيد الله وهو لا يَخفى عليه من هو أهل لنوال فضله .

و﴿ واسع ﴾ اسم فاعل الموصوف بالسعة .

(292/121)

وحقيقة السعة امتداد فضاء الحَيِز من مكانٍ أو ظرفٍ امتداداً يكفي لإيواء ما يحويه ذلك الحيز بدون تزاحم ولا تداخل بين أجزاء المحويّ ، يقال أرض واسعة وإناء واسع وثوب واسع ، ويطلق الاتساع وما يشتقّ منه على وفاء شيء بالعمل الذي يعملَه نوعُه دون مشقة يقال : فلان واسع البال ، وواسع الصدر ، وواسع العطاء .

وواسعِ الخُلُق ، فتدلّ على شدّةِ أو كثرة ما يسند إليه أو يوصف به أو يعلق به من أشياء ومعانٍ ، وشاع ذلك حتى صار معنى ثانياً .

و﴿ وَاسع ﴾ من صفات الله وأسمائِه الحسنى وهو بالمعنى المجازي لا محالة لاستحالة المعنى الحقيقي في شأنه تعالى ، ومعنى هذا الاسم عدمُ تناهي التعلقات لصفاته ذاتتِ التعلق فهو واسع العلم ، واسع الرحمة ، واسع العطاء ، فسعة صفاته تعالى أنها لا حدّ لتعلقاتها ، فهو أحقّ الموجودات بوصف واسع ، لأنه الواسع المطلق .

وإسناد وصف واسع إلى اسمه تعالى إسناد مجازي أيضاً لأنّ الواسع صفاتُه ولذلك يُؤتَى بعد هذا الوصف أو ما في معناه من فعل السعة بما يميز جهة السعة من تمييز نحو : وَسِع كل شيء علماً ، ربنا وسعت كلّ شيء رحمةً وعلماً .

فوصفه في هذه الآية بأنه واسع هو سعة الفضل لأنه وقع تذييلاً لقوله : ذلكَ فضل الله يؤتيه من يشاء .

وأحسب أنّ وصف الله بصفة واسع في العربية من مبتكرات القرآن .

وقوله : ﴿ عليم ﴾ صفة ثانية بقوة علمه أي كثرة متعلّقات صفة علمه تعالى .

ووصفه بأنه عليم هنا لإفادة أنه عليم بمن يستأهل أن يؤتيه فضلَه ويدل على علمه بذلك ما يظهر من آثار إرادته وقدرته الجارية على وفق علمه متى ظهر للناس ما أودعه الله من فضائل في بعض خلقه ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ [الأنعام : 124] . انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ 127. 130﴾

(293/121)

وقال الثعلبي :

﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ ﴾ متصل بالكلام الأوّل إخباراً عن قول اليهود بعضهم لبعض ،

ومعنى الآية : ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ،

ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أُوتيتم من العلم والحكمة والحجّة في المنّ والسلوى ،

وفلق البحر وغيرها من الفضائل والكرامات . ولا تؤمنوا أن يُحاجّوكم عند ربّكم لأنّكم

أصحّ ديناً منه ،

وهذا معنى قول مجاهد والأخفش .

وقال ابن جريج وابن زيّات : قالت اليهود لسفلتهم : لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم كراهية أن

يؤتى أحد مثل ما أوتيتم وأيّ فضل يكون لكم عليهم حيث علموا ما علمتم وحينئذ

﴿ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ : يقولون عرفتم أنّ ديننا حقّ فلا تصدّقوهم لئلاّ يعلموا مثل ما

عُلّمتم ولا يُحاجّوكم عند ربكم ،

ويجوز أن يكون على هذا القول لا مضمراً كقوله تعالى ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ﴾ يكون

تقديره ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم لئلاّ يؤتى أحد من العلم مثل ما أوتيتم وألا يحاجّوكم عند

ربكم .

وقرأ الحسن والأعمش : إن يؤتى بكسر الألف ووجه هذه القراءة إنّ هذا كلّه من قول الله

بلا اعتراض وأن يكون كلام اليهود تاماً عند قوله ﴿ إِلا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ ومعنى الآية : قل يا محمد إنّ الهدى هدى الله أن يؤتى ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم يا أُمّة محمد أو يحاجّوكم ، يعني إلا أن يجادلكم اليهود بالباطل فيقولون نحن أفضل منكم وقوله : ﴿ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ أي عند فضل ربّكم لكم ذلك ويكون (أنّ) على هذا القول بمعنى الجحد والنفي .

وهذا معنى قول سعيد بن جبير والحسن وأبي مالك ومقاتل والكلبي . وقال الفرّاء : ويجوز أن يكون (أو) بمعنى حتّى كما يقال : تعلّق به أو يعطيك حقّك أي حتى يعطيك حقّك .

وقال امرؤ القيس :

فقلت له لا تبك عينك إنّما

نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

أي حتى نموت .

(294/121)

والمعنى لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ،

ما أعطى أحداً مثل ما أُعطيتم يا أُمة محمد من الدّين والحجّة حتّى يحاجّوكم عند ربّكم .

وقرأ ابن كثير : أن يؤتى بالمدّ وحينئذ يكون في الكلام اختيار تقديرها : أن يؤتى أحدٌ مثل

ما أوتيتم يا معشر اليهود من الكتاب والحكمة تحسدونهم ولا تؤمنون بهم وهذا قول قتادة والربيع.

وإلاّ هذا من قول الله عز وجّل: قل لهم يا محمد إنّ الهدى هدى اللّه لما أنزل كتاباً مثل كتابكم وبعث نبيّاً مثل نبيّكم حسدتموه وكفرتم به.

﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ الآية.

قال أبو حاتم: إنّ معناه الآن فحذف لام الجزاء استخفافاً وأُبدلت مدّه كقراءة من قرأ:

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ﴾ أي الآن كان.

وقوله: أو يحاجّوكم على هذه القراءة رجوع إلى خطاب المؤمنين ويكون أو بمعنى أن لأنّهما حرفا شك وجزاء ويوضع أحدهما موضع الآخر وتقدير الآية: وإن يحاجّوكم يا معشر المؤمنين عند ربّكم فقل يا محمد: إنّ الهدى هدى اللّه ونحن عليه.

ويحتمل أن يكون الجميع خطاباً للمؤمنين ويكون نظم الآية: أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم يا معشر المؤمنين (فلا تشكو عند تلبيس اليهود) فقل إنّ الفضل بيد الله.

وإن حاجّوكم فقل إنّ الهدى هدى اللّه.

فهذه وجوه الآيات باختلاف القرآن. ويحتمل أن يكون تمام الخبر عن اليهود عند قوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فيكون قوله ﴿وَلا تُؤْمِنُوا إِلا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ إلى آخر الآية من كلام اللّه عزّ وجّل. وذلك إنّ اللّه تعالى مثبّتٌ لقلوب المؤمنين ومشحذٌ لبصائرهم لئلاّ يشكّوا

عند تلبيس اليهود وتزويرهم في دينهم أي : ولا تصدّقوا يا معشر المؤمنين إلا لمن تبع دينكم ولا تصدّقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الدين والفضل ،

(295/121)

ولا تصدّقوا أن يحاجّوكم في دينكم عند ربّكم فيقدرون على ذلك فإنّ الهدى هدى اللّه وأنّ الفضل بيد اللّه .

﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ : فتكون الآية كلّها خطاب اللّه عز وجّل للمؤمنين عند تلبيس اليهود عليهم لئلاّ يزلّوا ولا يرتابوا واللّه أعلم . يدل عليه قول الضحّاك قال : إنّ اليهود قالوا : إنّا نحاجّ عند ربنا من خالفنا في ديننا فبيّن اللّه تعالى أنّهم هم المدحضون أي المغلوبون ،

وإنّ المؤمنين هم الغالبون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 3 صـ 91 . 93 ﴾

وقال العلامة الشيخ محمد أبو زهرة يرحمه الله :

وإنى أميل إلى الاحتمال الأول ، وأن تكون الجملة السامية "قل إن الهدى هدى الله" معترضة ، وأن قوله "أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم" من قولهم ، وذلك ليستقيم أمر الله بعد ذلك لنبيه بقوله "قل إن الفضل بيد الله" فإنه لا يتضح معناه إلا إذا كان عقب قولهم ؛ ليكون

معنى جديدا للأمر الثانى بعد الأمر الأول ؛ إذ لو كان قوله "أن يؤتى أحد" من كلام الله المأمور به ما اتضح لنا معنى الأمر الثانى "قل إن الهدى هدى الله" إلا إذا كان لتكرار هدايته وفضله ، والتأسيس أولى من التأكيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زهرة التفاسير / للعلامة الشيخ محمد أبو زهرة صـ 1276 ﴾

(296/121)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الهدى هُدَى الله أَن يؤتى أَحَدٌ مّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ ﴾ في نظم الآية ومعناها أوجه لخصها الشهاب من كلام بعض المحققين ، أحدها : أن التقدير : ولا تؤمنوا بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم وهم المسلمون أوتوا كتاباً سماوياً كالتوراة ونبياً مرسلاً كموسى وبأن يحاجوكم ويغلبوكم بالحجة يوم القيامة إلا لاتباعكم ، وحاصله أنهم نهوهم عن إظهار هذين الأمرين للمسلمين لئلا يزدادوا تصلباً ولمشركي العرب لئلا يبعثهم على الإسلام وأتى بأو على وزان ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ ءاثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 24] وهو أبلغ . والحمل على معنى حتى صحيح مرجوح ، وأتى بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الهدى هُدَى الله ﴾ معترضاً بين الفعل ومتعلقه ، وفائدة الاعتراض الإشارة إلى

أن كيدهم غير ضار لمن لطف الله تعالى به بالدخول في الإسلام ، أو زيادة التصلب فيه .

ويفيد أيضاً أن الهدى هداه فهو الذي يتولى ظهوره ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بأفواههم والله مُتِمُّ نُورِهِ ﴾ [الصف : 8] فالمراد بالإيمان إظهاره كما ذكره الزمخشري ، أو الإقرار اللساني كما ذكره الواحدي ، والمراد من التابعين المتصلب منهم ، وإلا وقع ما فروا منه ، وثانيها : أن المراد : ولا تؤمنوا هذا الإيمان الظاهر الذي أتيتم به وجه النهار إلا لمن كان تابعاً لدينكم أولاً وهم الذين أسلموا منهم أي لأجل رجوعهم لأنه كان عندهم أهم وأوقع ، وهم فيه أرغب وأطمع ، وعند هذا تم الكلام ، ثم قيل : ﴿ إن الهدى هُدَى الله ﴾ أي فمن يهدي الله فلا مضل له ويكون قوله تعالى : ﴿ أَن يؤتى ﴾ الخ على هذا معللاً لمحذوف أي لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ولما يتصل به من الغلبة بالحجة يوم القيامة دبرتم ما دبتم .

وحاصله أن

(297/121)

داعيكم إليه ليس إلا الحسد ، وإنما أتى بأو تنبيهاً على استقلال كل من الأمرين في غيظهم وحملهم على الحسد حتى دبروا ما دبروا ولو أتى بالواو لم تقع هذا الموقع للعلم بلزوم الثاني للأول لأنه إذا كان ما أوتوا حقاً غلبوا يوم القيامة مخالفهم لا محالة فلم يكن فيه فائدة زائدة ،

وأما أو فتشعر بأن كلاًّ مستقل في الباعثية على الحسد والاحتشاد في التدبير ، والحمل على معنى حتى ليس له موقع يروع السامع وإن كان وجهاً ظاهراً .

(298/121)

ويؤيد هذا الوجه قراءة ابن كثير أأن يؤتى بزيادة همزة الاستفهام للدلالة على انقطاعه عن الفعل واستقلاله بالإنكار ، وفيه تقييد الإيمان بالصادر أول النهار بقرينة إن الكلام فيه ، وتخصيص من تبع بمسلميهم بقرينة المضي فإن غيرهم متبع دينهم الآن أيضاً ، وعن الزمخشري أن ﴿ أَن يؤتى ﴾ الخ من جملة المقول كأنه قيل : قل لهم هذين القولين ومعناه أكد عليهم أن الهدى ما فعل الله تعالى من إيتاء الكتاب غيركم ، وأنكر عليهم أن يمتعضوا من أن يؤتى أحد مثله كأنه قيل إن الهدى هدى الله ، وقل لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم قلتم ما قلتم وكدتم ما كدتم ، وثالثها : أن يقرر ولا تؤمنوا على ما قرر عليه الثاني ، ويجعل ﴿ أَن يؤتى ﴾ خبر ﴿ إن ﴾ و ﴿ هُدَى الله ﴾ بدل من اسمها وأو بمعنى حتى على أنها غاية سببية ، وحينئذ لا ينبغي أن يخص عند ربكم بيوم القيامة بل بالمحاجة الحقة كما أشير إليه في البقرة ، ولو حملت على العطف لم يلتئم الكلام ، ورابعها : أن يكون ﴿ وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن ﴾ الخ باقياً على إطلاقه أي واكفروا آخره واستمروا على ما كنتم فيه من اليهودية ولا

تقروا لأحد إلا لمن هو على دينكم وهو من جملة مقول الطائفة ويكون ﴿ قُلْ إِنَّ الهدى ﴾ الخ أمراً للنبي صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك في جوابهم ، على معنى : قل إن الهدى هدى الله فلا تنكروا أن يؤتى حتى تحاجوا ؛ وقرينة الإضمار إن ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا ﴾ الخ تقرير على اليهودية وأنه لا دين يساويها فإذا أمر صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم علم أن ما أنكروه غير منكر وأنه كائن ، وحمل أو على معناها الأصلي حينئذٍ أيضاً حسن لأنه تأييد للإيتاء وتعريض بأن من أوتي مثل ما أوتوا هم الغالبون ، وقرىء إن يؤتى بكسر همزة إن على أنها نافية أي قولوا لهم ما يؤتى وهو خطاب لمن أسلم منهم رجاء العود

(299/121)

، والمعنى لا إيتاء ولا محاجة فأو بمعنى حتى ، وقدر قولوا توضيحاً وبياناً لأنه ليس استئنافاً تعليلاً ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الهدى ﴾ الخ اعتراض ذكر قبل أن يتم كلامهم للاهتمام ببيان فساد ما ذهبوا إليه ؛ وأرجح الأوجه الثاني لتأيده بقراءة ابن كثير وأنه أفيد من الأول وأقل تكلفاً من باقي الأوجه ، وأقرب إلى المساق انتهى .

(300/121)

وأقول : ما ذكره في الوجه الرابع من تقرير فلا تنكروا أن يؤتى الخ هو قول قتادة والربيع والجبائي لكنهم لم يجعلوا أو بمعنى حتى وهو أحد الاحتمالين اللذين ذكرهما وكذا القول بإبدال أن يؤتى من الهدى قول السدي وابن جريج إلا أنهم قدروا لا بين أن ويؤتى ، واعترض عليهما أبو العباس المبرد بأن لا ليست مما تحذف ههنا ، والتزم تقدير مضاف شاع تقديره في أمثال ذلك وهو كراهة ، والمعنى إن الهدى كراهة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أي ممن خالف دين الإسلام لأن الله لا يهدي من هو كاذب كفار فهدى الله تعالى بعيد من غير المؤمنين ، ولا يخفى أنه معنى متوعر ، وليس بشيء ، ومثله ما قاله قوم من أن ﴿ أَن يؤتى ﴾ الخ تفسير للهدى ، وأن المؤتى هو الشرع وأن ﴿ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ ﴾ عطف على ﴿ أُوتِيتُمْ ﴾ ، وأن ما يحاج به العقل وأن تقدير الكلام أن هدى الله تعالى ما شرع أو ما عهد به في العقل ، ومن الناس من جعل الكلام من أول الآية إلى آخرها من الله تعالى خطاباً للمؤمنين قال : والتقدير ولا تؤمنوا أيها المؤمنون إلا لمن تبع دينكم وهو دين الإسلام ولا تصدقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الدين فلا نبي بعد نبيكم عليه الصلاة والسلام ولا شريعة بعد شريعتكم إلى يوم القيامة ولا تصدقوا بأن يكون لأحد حجة عليكم عند ربكم لأن دينكم خير الأديان ، وجعل ﴿ قُلْ إِنَّ الهدى هُدَى الله ﴾ اعتراضاً للتأكيد وتعجيل المسرة ولا يخفى ما فيه واختيار البعض له والاستدلال عليه بما قاله الضحاك إن اليهود قالوا : إنا نحج

عند ربنا من خالفنا في ديننا فبين الله تعالى لهم أنهم هم المدحضون المغلوبون وأن المؤمنين هم الغالبون ليس بشيء لأن هذا البيان لا يتعين فيه هذا الحمل كما لا يخفى على ذي قلب سليم ، والضمير المرفوع من ﴿ يُحَاجُّوكُمْ ﴾ على كل تقدير عائد إلى ﴿ أَحَدٌ ﴾

لأنه في معنى الجمع إذ المراد به غير أتباعهم .

واستشكل ابن المنير قطع ﴿ أن يؤتى ﴾ عن ﴿ لاَ تُؤْمِنُوا ﴾ على ما في بعض الأوجه السابقة بأنه يلزم وقوع (أحد) في الواجب لأن الاستفهام هنا إنكار ، واستفهام الإنكار في مثله إثبات إذ حاصله أنه أنكر عليهم ووبخهم على ما وقع منهم وهو إخفاء الإيمان بأن النبوّة لا تخص بني إسرائيل لأجل العلتين المذكورتين فهو إثبات محقق ، ثم قال : ويمكن أن يقال : روعيت صيغة الاستفهام وإن لم يكن المراد حقيقته فحسن دخول (أحد) في سياقه لذلك وفيه تأمل فتأمل وتدبر ، فقد قال الواحدي : إن هذه الآية من مشكلات القرآن وأصعبه تفسيراً ﴿ قُلْ إِنَّ الفضل بِيَدِ الله ﴾ رد وإبطال لما زعموه بأوضح حجة ، والمراد من الفضل الإسلام قاله ابن جريج وقال غيره : النبوة ، وقيل : الحجج التي أوتيها النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ، وقيل : نعم الدين والدنيا ويدخل فيه ما يناسب

المقام دخولاً أولياً ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء ﴾ أي من عباده ﴿ والله واسع ﴾ رحمة ، وقيل : واسع القدرة يفعل ما يشاء ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمصالح العباد ، وقيل : يعلم حيث يجعل رسالته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 200.202 ﴾

(302/121)

وقال فى الميزان :

قوله تعالى : ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ الخ الذي يعطيه السياق هو أن تكون هذه الجملة من قول أهل الكتاب تتمة لقولهم : آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وكذا قوله تعالى ﴿ أن يؤتي أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم به عند ربكم ويكون قوله ﴿ قل إن الهدى هدى الله ﴾ جملة معترضة هو جواب الله سبحانه عن مجموع ما تقدم من كلامهم أعني قولهم : ﴿ آمنوا بما أنزل ﴾ إلى قوله ﴿ دينكم ﴾ على ما يفيده تغيير السياق وكذا قوله تعالى ﴿ قل إن الفضل بيد الله ﴾ جوابه تعالى عن قولهم ﴿ أن يؤتى أحد ﴾ إلى آخره هذا هو الذي يقتضيه ارتباط أجزاء الكلام واتساق المعاني في الآيتين أولا وما تناظر الآيتين من الآيات الحاكية لأقوال اليهود في الجدال والكيد ثانيا .

والمعنى - والله أعلم - أن طائفة من أهل الكتاب وهم اليهود قالت أي قال بعضهم لبعض :

صدقوا النبي والمؤمنين في صلاتهم وجه النهار إلى بيت المقدس ولا تصدقوهم في صلاتهم إلى الكعبة آخر النهار ولا تثقوا في الحديث بغيركم فيخبروا المؤمنين أن من شواهد نبوة النبي الموعود تحويل القبلة إلى الكعبة فإن في تصديقكم أمر الكعبة وإفشائكم ما تعلمونه من كونها من إمارات صدق الدعوة محذور أن يؤتى المؤمنون مثل ما أوتيتم من القبلة فيذهب به سؤددكم ويبطل تقدمكم في أمر القبلة ومحذور أن يقيموا عليكم الحجة عند ربكم أنكم كنتم عالمين بأمر القبلة الجديدة شاهدين على حقيته ثم لم تؤمنوا .

فأجاب الله تعالى عن قولهم في الإيمان بما في وجه النهار والكفر في آخره وأمرهم بكتمان أمر القبلة لئلا يهتدي المؤمنون إلى الحق بأن الهدى الذي يحتاج إليه المؤمنون الذي هو حق الهدى إنما هو هدى لله دون هداكم فالمؤمنون في غنى عن ذلك فإن شئتم فاتبعوا وإن شئتم فاكفروا وإن شئتم فأفشوا وإن شئتم فاكتموا .

(303/121)

وأجاب تعالى عما ذكروه من مخافة أن يؤتى أحد مثل ما أوتوا أو يحاجوهم عند ربهم بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء لا بيدكم حتى تحبسوه لأنفسكم وتمنعوا منه غيركم وأما حديث الكتمان مخافة المحاجة فقد أعرض عن جوابه لظهور بطلانه كما فعل كذلك في قوله

تعالى في هذا المعنى بعينه " وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون " البقرة – 77 فقوله : ﴿ أو لا يعلمون ﴾ إيذان بأن هذا القول بعد ما علموا أن الله لا يتفاوت فيه السر والعلانية كلام منهم لا يستوي على تعقل صحيح وليس جوابا لمكان الواو في قوله ﴿ أو لا يعلمون ﴾ .

وعلى ما مر من المعنى فقوله تعالى ﴿ ولا تؤمنوا ﴾ معناه لا تثقوا ولا تصدقوا لهم الوثاقة وحفظ السر على حد قوله تعالى ﴿ ويؤمن للمؤمنين ﴾ : التوبة – 61 والمراد بقوله لمن تبع اليهود .

والمراد بالجملة النهي عن إفشاء ما كان عندهم من حقية تحويل القبلة إلى الكعبة كما مر في قوله تعالى فول وجهك شطر المسجد الحرام إلى أن قال ﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ إلى أن قال ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبنائهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ : البقرة – 146 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الميزان جـ 3 صـ 257.259 ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ واللهُ ذُو الفضل العظيم (74) ﴾

قال الفخر :

هذا كالتأكيد لما تقدم ، والفرق بين هذه الآية وبين ما قبلها أن الفضل عبارة عن الزيادة ، ثم إن الزيادة من جنس المزيد عليه ، فبيّن بقوله ﴿ إِنَّ الفضل بِيَدِ الله ﴾ إنه قادر على أن يؤتى بعض عباده مثل ما آتاهم من المناصب العالية ويزيد عليها من جنسها ، ثم قال :

﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ والرحمة المضافة إلى الله سبحانه أمر أعلى من ذلك الفضل ، فإن هذه الرحمة ربما بلغت في الشرف وعلو الرتبة إلى أن لا تكون من جنس ما آتاهم ، بل تكون أعلى وأجل من أن تقاس إلى ما آتاهم ، ويحصل من مجموع الآيتين إنه لا نهاية لمراتب إعزاز الله وإكرامه لعباده ، وأن قصر إنعامه وإكرامه على مراتب معينة ، وعلى أشخاص معينين جهل بكمال الله في القدرة والحكمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 88 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ قال الحسن : هي النبوة ، وقال ابن جريج : الإسلام والقرآن ، وقال ابن عباس هو وكثرة الذكر لله تعالى ، والباء داخلة على المقصور وتدخل على المقصور عليه وقد نظم ذلك بعضهم فقال :

والباء بعد الاختصاص يكثر . . . دخولها على الذي قد قصروا وعكسه مستعمل

وجيد

ذكره الحبر الإمام السيد . . . ﴿ واللهُ ذو الفضل العظيم ﴾ قال ابن جبير : يعني الوافر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 202 ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ يختص برحمته من يشاء ﴾ بدل بعض من كل لجملة ﴿ إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ﴾ فإنّ رحمته بعض مما هو فضله .

وجملة ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ تذييل وتقدم تفسير نظيره عند قوله تعالى : ﴿ والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ في سورة [البقرة : 105] . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 130 ﴾

(305/121)

فائدة

قال فى الأمثل :

"خطط قديمة"

تعتبر هذه الآيات ، في الواقع ، من آيات إعجاز القرآن ، لأنّها تكشف أسرار

اليهود وأعداء الإسلام وتفضح خططهم لزعزعة مسلمي الصدر الأوّل ، فتيقّظ المسلمون بتركتها ، ووعوا وساوس الأعداء المغرية . ولكنّنا لو دقّقنا النظر لأدركنا أنّ تلك الخطط تجري في عصرنا الحاضر أيضاً بطرق مختلفة . إنّ وسائل إعلام الأعداء القوية المتطوّرة مستخدمة الآن للغرض نفسه ، فهم يحاولون هدم أركان العقيدة الإسلامية في عقول المسلمين ، وبخاصة الجيل الشاب . وهم في هذا السبيل لا يتورّعون عن كلّ فرية ، ويلجأون إلى كلّ السبل ويتلبّسون بلبوس العالم والمستشرق والمؤرّخ وعالم الطبيعيات والصحفي ، بل حتّى الممثّل السينمائي .

إنّهم يصرّحون أنّ هدفهم ليس التبشير بالمسيحية وحمل المسلمين على اعتناقها ، ولا اعتناق اليهودية ، بل هدفهم هو هدم أُسس المعتقدات الإسلامية في أفكار الشباب ، وجعلهم غير مهتمّين بدينهم وتراثهم . إنّ القرآن اليوم يحذّر المسلمين من هذه الخطط كما حذّرهم في القديم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الأمثل جـ 2 صـ 557 . 558 ﴾

فوائد بلاغية

قال أبو حيان :

وتضمنت هذه الآيات من البديع : التجنيس المماثل ، والتكرار في : آمنوا وآمنوا ، وفي الهدى ، هدى الله وفي : يؤتى وأوتيتم ، وفي : أن أفضل ، وذو الفضل .

والتكرار أيضاً في : اسم الله ، في أربعة مواضع .

والطباق : في آمنوا واكفروا ، وفي وجه النهار وفي آخره ، والإختصاص .

في : وجه النهار ، لأنه وقت اجتماعهم بالمؤمنين يراؤونهم ، وآخره لأنه وقت خلوتهم بأمثالهم من الكفار ، والحذف في مواضع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 522.521 ﴾

(306/121)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (64) ﴾

يا أَهْلَ الْكِتابِ قيل هم أهل الكتابين . وقيل : وفد نجران . وقيل : يهود المدينة سَوَاءٍ

(307/121)

بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ

مستوية بيننا وبينكم ، لا يختلف فيها القرآن والتوراة والإنجيل . وتفسير الكلمة قوله أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ يعنى تعالوا إليها حتى لا نقول : عزيز ابن اللَّه ، ولا المسيح ابن اللَّه ، لأن كل واحد منهما بعضنا بشر مثلنا ، ولا نطيع أحبارنا فيما أحدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع إلى ما شرع اللَّه ، كقوله تعالى (اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً) وعن عدى بن حاتم : ما كنا نعبدهم يا رسول اللَّه ، قال : أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم؟ قال : نعم . قال : هو ذاك . وعن الفضيل : لا أبالى أطعت مخلوقا في معصية الخالق ، أو صليت لغير القبلة . وقرئ (كلمة) بسكون اللام . وقرأ الحسن (سواء) بالنصب بمعنى استوت استواء فَإِنْ تَوَلَّوْا عن التوحيد فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ أى لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا وتسلموا بأنا مسلمون دونكم ، كما يقول الغالب للمغلوب في جدال أو صراع أو غيرهما . اعترف بأنى أنا الغالب وسلم لي الغلبة . ويجوز أن يكون من باب التعريض ، ومعناه :

اشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره . زعم كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان منهم ، وجادلوا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم والمؤمنين فيه فقيل لهم : إن اليهودية إنما حدثت بعد نزول التوراة ، والنصرانية بعد نزول الإنجيل ،

وبين إبراهيم وموسى ألف سنة ، وبينه وبين عيسى ألفان ، فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلا بعد عهده بأزمنة متطاولة؟ أَفَلا تَعْقِلُونَ حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ ها للتنبيه ، وأنتم مبتدأ وهؤلاء خبره . وحاجَجْتُمْ جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى ، يعنى أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جادلتم فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ مما نطق به التوراة والإنجيل فَلِمَ تُحاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ولا ذكر له في كتابيكم من دين إبراهيم . وعن الأخفش : ها أنتم هو آأنتم على الاستفهام ، فقلبت الهمزة هاء . ومعنى الاستفهام التعجب من حماقتهم . وقيل (هؤُلاءِ) بمعنى الذين و(حاجَجْتُمْ) صلته وَاللَّهُ يَعْلَمُ علم ما حاججتم فيه وَأَنْتُمْ جاهلون به ثم أعلمهم بأنه بريء من دينكم وما كان إلا حَنِيفاً مُسْلِماً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ كما لم يكن منكم . أو أراد بالمشركين اليهود والنصارى لإشراكهم به عزيرا والمسيح إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ إن أخصهم به وأقربهم منه من الولي وهو القرب لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ في زمانه وبعده وَهذَا النَّبِيُّ خصوصا وَالَّذِينَ آمَنُوا من أمته . وقرئ : وهذا النبىَّ ، بالنصب عطفاً على الهاء في اتبعوه ، أى اتبعوه واتبعوا هذا النبي . وبالجر عطفاً على إبراهيم .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 69 إلى 71]

وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَما يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ (69) يا أَهْلَ

الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (70) يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (71)

(308/121)

وَدَّتْ طائِفَةٌ هم اليهود، دعوا حذيفة وعمارا ومعاذاً إلى اليهودية وَما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم، لأن العذاب يضاعف لهم بضلالهم وإضلالهم. أو وما يقدرون على إضلال المسلمين، وإنما يضلون أمثالهم من أشياعهم بِآياتِ اللَّهِ بالتوراة والإنجيل. وكفرهم بها: أنهم لا يؤمنون بما نطقت به من صحة نبوّة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وغيرها. وشهادتهم:

اعترافهم بأنها آيات اللَّه. أو تكفرون بالقرآن ودلائل نبوّة الرسول وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ نعته في الكتابين. أو تكفرون بآيات اللَّه جميعاً وأنتم تعلمون أنها حق. قرئ (تَلْبِسُونَ) بالتشديد. وقرأ يحيى بن وثاب (تَلْبُسُونَ) بفتح الباء أى تلبسون الحق مع الباطل. كقوله: كلابس ثوبي زور. وقوله:

إِذَا هُوَ بِالْمَجْدِ ارْتَدَى وَتَأَزَّرَا «1»

[سورة آل عمران (3) : الآيات 72 إلى 74]

وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (72) وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (73) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (74)

---

(1) فلا أب وابنا تمثل مروان وابنه إذا هو بالمجد ارتدى وتأزرا

للفرزدق. وابنا: نصب عطفا على موضع الأب، ومثل بالرفع - خبر لا أو نصب صفة لأب وابنا، والخبر محذوف.

وابنه هو عبد الملك. و«إذا هو» أى مروان، لأن مجد الابن بمجد الأب لا العكس، والمراد بالمجد هنا:

الأفعال الحميدة التي تتجدد منه، ثم إنه شبهه باللباس بجامع صون كل لصاحبه على طريق المكنية، والارتداء والتأزر تخييل. ويحتمل أنه شبه الاتصاف به ظاهرا وباطنا بالارتداء والتأزر على طريق التصريحية. ويجوز أن المراد من «إذا» الزمن المستمر، لا المستقبل فقط.

وَجْهَ النَّهارِ أوّله. قال:

مَنْ كانَ مَسْرُوراً بِمَقْتَلِ مَالِكٍ فَلْيَأْتِ نِسْوَتَنَا بِوَجْهِ نَهَارِ «1»

والمعنى: أظهروا الإيمان بما أنزل على المسلمين في أوّل النهار وَاكْفُرُوا به في آخره لعلهم يشكون في دينهم ويقولون: ما رجعوا وهم أهل كتاب وعلم إلا لأمر قد تبين لهم فيرجعون برجوعكم. وقيل: تواطأ اثنا عشر من أحبار يهود خيبر وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أوّل النهار من غير اعتقاد، واكفروا به آخر النهار وقولوا: إنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمداً ليس بذلك المنعوت وظهر لنا كذبه وبطلان دينه، فإذا فعلتم ذلك شكّ أصحابه في دينهم. وقيل: هذا في شأن القبلة لما صرفت إلى الكعبة قال كعب بن الأشرف لأصحابه: آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصلوا إليها في أوّل النهار، ثم اكفروا به في آخره وصلوا إلى الصخرة، ولعلهم يقولون: هم أعلم منا وقد رجعوا فيرجعون وَلا تُؤْمِنُوا متعلق بقوله: (أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ) وما بينهما اعتراض. أى: ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم. أرادوا: أسرّوا تصديقكم بأنّ المسلمين قد أوتوا من كتب اللَّه مثل ما أوتيتم، ولا تفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم دون المسلمين لئلا يزيدهم ثباتا، ودون المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ عطف على أن يؤتى «2». والضمير في يحاجوكم لأحد لأنه في معنى الجمع «3»، بمعنى: ولا تؤمنوا لغير أتباعكم، أنّ المسلمين يحاجونكم

(1) من كان مسرورا بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهار

يجد النساء حواسراً يندبنه يلطمن أوجههن بالأسحار

لربيع بن زياد . يرثى مالك بن زهير العيسى ، ووجه النهار : أوله . والحواسر : كاشفات الوجوه ، وصرف للوزن . والندبة : رفع الصوت بالبكاء على الميت . والأسحار : مقدم أعالى الأعناق . والباء بمعنى مع .

كانت عادة العرب أن لا يندبوا القتيل إلا بعد أخذ ثأره فضمن الرثاء معنى المدح لهم والتشفي من عدوهم . وقال : من كان شامتا بقتله فليجئ إلى نسائنا في أول النهار يجدهن كاشفات وجوههن يبكين عليه برفع أصواتهن ، يضربن أوجههن مع صفاح أعناقهن ، يعنى أننا أخذنا ثأره فحل لنسائنا البكاء عليه ، وانتقد ابن العميد قوله : فليأت نسوتنا .

ولله در الامام المرزوقي حيث أبدله بقوله : فليأت ساحتنا ، لأنه فيه أيضا الفرار من الاظهار موضع الإضمار .

(2) . قال محمود : «أو يحاجوكم معطوف على أن يؤتى . . . الخ» قال أحمد : وفي هذا الوجه من الإعراب إشكال ، وهو وقوع أحد في الواجب ، لأن الاستفهام هنا إنكار ، واستفهام الإنكار في مثله إثبات ، إذ حاصله أنه أنكر عليهم ووبخهم على ما وقع منهم وهو إخفاء الايمان بأن النبوة لا تخص بنى إسرائيل لأجل العلتين المذكورتين ، فهو إثبات محقق .

ويمكن أن يقال : روعيت صيغة الاستفهام وإن لم يكن المراد حقيقة ، فحسن لذلك دخول

أحد في سياقه، والله أعلم.

(3). قال محمود: «والضمير في يحاجوكم لأحد لأنه في معنى الجمع... الخ» قال أحمد: أي حيث كان نكرة في سياق النفي، كما وصفه بالجمع في قوله: (فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ).

(310/121)

يوم القيامة بالحق ويغالبونكم عند الله تعالى بالحجة. فإن قلت: فما معنى الاعتراض؟

قلت:

معناه أنّ الهدى هدى الله، من شاء أن يلطف به حتى يسلم، أو يزيد ثباته على الإسلام، كان ذلك، ولم ينفع كيدكم وحيلكم وزيكم تصديقكم عن المسلمين والمشركين، وكذلك قوله تعالى قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ يريد الهداية والتوفيق. أو يتمّ الكلام عند قوله: (إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ) على معنى: ولا تؤمنوا هذا الإيمان الظاهر وهو إيمانهم وجه النهار إلا لمن تبع دينكم:

إلا لمن كانوا تابعين لدينكم ممن أسلموا منكم لأن رجوعهم كان أرجى عندهم من رجوع من سواهم، ولأن إسلامهم كان أغيظ لهم. وقوله: (أَنْ يُؤْتى) معناه لأن يؤتى أحد مثل ما

أوتيتم قلتم ذلك ودبرتموه ، لا لشيء آخر ، يعنى أن ما بكم من الحسد والبغي – أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم والكتاب – دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم ، والدليل عليه قراءة ابن كثير : أأن يؤتى أحد بزيادة همزة الاستفهام للتقرير والتوبيخ ، بمعنى : إلا أن يؤتى أحد . فإن قلت : فما معنى قوله أو يحاجوكم على هذا ؟ قلت : معناه دبرتم ما دبرتم لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ولما يتصل به عند كفركم به من محاجتهم لكم عند ربكم . ويجوز أن يكون (هُدَى اللَّهِ) بدلا من الهدى ، و(أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ) خبر إن ، على معنى : قل إن هدى اللَّه أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم حتى يحاجوكم عند ربكم فيقرعوا باطلكم بحقهم ويدحضوا حجتكم . وقرئ : إن يؤتى أحد ، على إن النافية ، وهو متصل بكلام أهل الكتاب . أى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم وقولوا لهم : ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم حتى يحاجوكم عند ربكم ، يعنى ما يؤتون مثله فلا يحاجونكم . ويجوز أن ينتصب (أَنْ يُؤْتَى) بفعل مضمر يدل عليه قوله : (وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ) كأنه قيل : قل إن الهدى هدى اللَّه ، فلا تنكروا ان يؤتى أحد مثل ما أوتيتم لأن قولهم (وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ) إنكار لأن يؤتى أحد مثل ما أوتوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 1 صـ 370. 374﴾

(311/121)

ومن فوائد صاحب المنار في الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ بَعْدَ دَعْوَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَى الْإِسْلَامِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ وَالْأَنْبِيَاءُ لِبَيَانِ حَالِهِمْ فِي ذَلِكَ . وَقَدْ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : إِنَّ الْيَهُودَ دَعَوْا مُعَاذًا وَحُذَيْفَةَ وَعَمَّارًا إِلَى دِينِهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمُ الْآيَةَ ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُمْ كَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ حِرْصًا عَلَى إِضْلَالِ الْمُؤْمِنِينَ سَوَاءٌ دَعَوْا بَعْضَ الصَّحَابَةِ إِلَى دِينِهِمْ أَوْ لَا ، وَلَيْسَ الْإِضْلَالُ خَاصًّا بِالدَّعْوَةِ ، بَلْ كَانُوا يُلْقُونَ ضُرُوبًا مِنَ الشَّكِّ فِي النُّفُوسِ لِيَصُدُّوهَا عَنِ الْإِسْلَامِ ، مِنْ أَغْرَبِهَا مَا فِي الْآيَةِ الْآتِيَةِ (72) وَكَانَ النِّزَاعُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مُسْتَمِرًّا وَهُوَ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ فِي وَقْتِ الدَّعْوَةِ ، وَقَدْ قَالَ – تَعَالَى – فِي بَيَانِ حَالِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ الْمُضِلَّةِ : وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ بِتَوَجُّهِهِمْ إِلَى الْإِضْلَالِ وَاشْتِغَالِهِمْ بِهِ يَنْصَرِفُونَ عَنِ النَّظَرِ فِي طُرُقِ الْهِدَايَةِ وَمَا أُوتِيَهُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى كَوْنِهِ نَبِيًّا هَادِيًا ، فَهُمْ يَعْبَثُونَ بِعُقُولِهِمْ وَيُفْسِدُونَ فِطْرَتَهُمْ بِاخْتِيَارِهِمْ ، وَلَا وَجْهَ لِمَنْ قَالَ إِنَّ مَعْنَى إِضْلَالِ أَنْفُسِهِمْ هُوَ كَوْنُ عَاقِبَتِهِ شَرًّا عَلَيْهِمْ وَوَبَالًا فِي الْآخِرَةِ لِأَنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ عَلَيْهِ ; فَإِنَّ الْكَلَامَ فِي الْمُحَاجَّةِ وَبَيَانِ

اعْوِجَاجِ طَرِيقَةِ الْمُضِلِّينَ ، وَأَمَّا الْعِقَابُ فِي الْآخِرَةِ عَلَى الْإِضْلَالِ فَهُوَ مُبَيَّنٌ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْكِتَابِ وَلَيْسَ هَذَا مَحَلَّهُ ، وَهُوَ لَا يُفِيدُ هُنَا فِي الِاحْتِجَاجِ لِأَنَّهُ إِنْذَارٌ لِغَيْرِ مُؤْمِنٍ بِالنَّذِيرِ وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ .

أَقُولُ : وَقَدْ أَوْرَدَ الرَّازِيُّ نَحْوَ مَا قَالَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ . وَوَجْهًا ثَالِثًا هُوَ : أَنَّهُمْ لَمَّا اجْتَهَدُوا فِي إِضْلَالِ الْمُؤْمِنِينَ - ثُمَّ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِمْ - صَارُوا خَائِبِينَ خَاسِرِينَ ، حَيْثُ اعْتَقَدُوا شَيْئًا وَلَاحَ لَهُمْ أَنَّ الْأَمْرَ بِخِلَافِ مَا تَصَوَّرُوهُ . وَلَكِنْ يُنَافِي هَذَا قَوْلَهُ : وَمَا يَشْعُرُونَ وَهُمْ قَدْ شَعَرُوا بِخَيْبَتِهِمْ فِي الْإِضْلَالِ ، وَلَكِنَّهُمْ لِانْهِمَاكِهِمْ فِيهِ لَمْ يَشْعُرُوا بِأَنَّهُ كَانَ صَارِفًا لَهُمْ عَنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالْهُدَى ; لِأَنَّ الْمُنْهَمِكَ فِي الشَّيْءِ لَا يَكَادُ يَفْطِنُ لِعَوَاقِبِهِ وَآثَارِهِ .

(313/121)

ثُمَّ إِنَّهُ - تَعَالَى - نَادَاهُمْ مُبَيِّنًا لَهُمْ حَقِيقَةَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ لَعَلَّهُمْ يَلْتَفِتُونَ إِلَى أَنْفُسِهِمُ الَّتِي شُغِلُوا عَنْهَا بِمُحَاوَلَةِ إِضْلَالِ غَيْرِهِمْ فَقَالَ : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ذَهَبَ الرَّازِيُّ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مُوَجَّهَةٌ إِلَى الطَّائِفَةِ الْعَارِفَةِ بِمَا فِي التَّوْرَاةِ مِنْ دَلَائِلِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَمَا قَبْلَهَا مُوَجَّهٌ إِلَى غَيْرِ الْعَارِفِينَ بِذَلِكَ ، فَآيَاتُ اللَّهِ

عَلَى هَذَا هِيَ الْبِشَارَاتُ الَّتِي فِي التَّوْرَاةِ وَمِثْلُهَا بِشَارَاتُ الْإِنْجِيلِ ، وَاللَّفْظُ عَامٌّ يَشْمَلُ مَا فِي الْكِتَابَيْنِ ، وَالْكُفْرُ بِهَا عِبَارَةٌ عَنْ عَدَمِ الْعَمَلِ بِهَا ، وَالْمُخْتَارُ عِنْدِي أَنَّ الْخِطَابَ هُنَا مُوَجَّهٌ إِلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَالْآيَاتُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَا يَدُلُّ عَلَى نُبُوَّةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَحَقِّيَّةِ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ ، وَقَدْ كَانُوا يَشْهَدُونَ هَذِهِ الْآيَاتِ مَعْنًى وَحِسًّا ، وَفِي الِاسْتِفْهَامِ مِنَ التَّوْبِيخِ لَهُمْ وَالنَّعْيِ عَلَيْهِمْ مَا يَلِيقُ بِمَنْ يُكَابِرُ الْوُجُودَ وَيَجْحَدُ الْمَشْهُورَ .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ أَيْ تَخْلِطُونَ الْحَقَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ وَنَزَلَتْ بِهِ الْكُتُبُ وَهُوَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ وَعَمَلُ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ وَالْبِشَارَةِ بِنَبِيٍّ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ يُعَلِّمُ النَّاسَ

(314/121)

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، لِمَ تَخْلِطُونَ هَذَا بِالْبَاطِلِ الَّذِي أَلْحَقَهُ بِهِ أَحْبَارُكُمْ وَرُهْبَانُكُمْ مِنَ التَّأْوِيلَاتِ وَالْآرَاءِ ، وَتَجْعَلُونَ كُلَّ ذَلِكَ دِينًا يَجِبُ اتِّبَاعُهُ وَيُحْسَبُ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ كَمَا قَالَ - تَعَالَى - فِي آيَةٍ أُخْرَى تَأْتِي : وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ [3 : 78] فَلَبْسُ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ عَامٌّ يَشْمَلُ كُلَّ مَا ذُكِرَ ، وَقِيلَ هُوَ خَاصٌّ بِالْعَقَائِدِ وَالْأَحْكَامِ . وَقَوْلُهُ :

وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَاصٌّ بِالْبِشَارَةِ بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

وَالصَّوَابُ : أَنَّ هَذَا عَامٌّ أَيْضًا ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَكْتُمُونَ بَعْضَ الْأَحْكَامِ اتِّبَاعًا لِلْهَوَى ، فَيَجْعَلُونَ الْكِتَابَ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا ، وَيَأْكُلُونَ بِذَلِكَ السُّحْتَ ، وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ كَثِيرًا مِمَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ كَمَا سَيَأْتِي فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ وَغَيْرِهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَالْآيَةُ حُجَّةٌ عَلَى الْحَشْوِيَّةِ الْمُقَلِّدِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّذِينَ يَخْلِطُونَ الْحَقَّ الْمُنَزَّلَ بِآرَاءِ النَّاسِ وَيَجْعَلُونَ كُلَّ ذَلِكَ دِينًا سَمَاوِيًّا وَشَرْعًا إِلَهِيًّا .

(315/121)

ثُمَّ قَالَ - تَعَالَى - : وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ قَالَ السُّيُوطِيُّ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ : رَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الصَّيْفِ وَعَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ وَالْحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : تَعَالَوْا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ غُدْوَةً وَنَكْفُرُ بِهِ عَشِيَّةً حَتَّى نَلْبِسَ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَصْنَعُونَ كَمَا نَصْنَعُ فَيَرْجِعُونَ عَنْ دِينِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ إِلَى قَوْلِهِ : وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

أَقُولُ: وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْكِتَابِ لِبَعْضٍ: "أَعْطُوهُمُ الرِّضَا بِدِينِهِمْ أَوَّلَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ يُصَدِّقُوكُمْ، وَيَعْلَمُوا أَنَّكُمْ قَدْ رَأَيْتُمْ فِيهِ مَا تَكْرَهُونَ، وَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ يَرْجِعُوا عَنْ دِينِهِمْ" وَأَخْرَجَ أَيْضًا عَنِ السُّدِّيِّ أَنَّهُ قَالَ فِيهَا: "كَانَ أَحْبَارُ قُرَى عَرَبِيَّةٍ اثْنَيْ عَشَرَ حَبْرًا فَقَالُوا لِبَعْضِهِمْ: ادْخُلُوا فِي دِينِ مُحَمَّدٍ أَوَّلَ النَّهَارِ وَقُولُوا: نَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا حَقٌّ صَادِقٌ، فَإِذَا كَانَ آخِرُ النَّهَارِ فَاكْفُرُوا وَقُولُوا: إِنَّا رَجَعْنَا إِلَى عُلَمَائِنَا وَأَحْبَارِنَا فَسَأَلْنَاهُمْ فَحَدَّثُونَا أَنَّ مُحَمَّدًا كَاذِبٌ، وَأَنْتُمْ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَقَدْ رَجَعْنَا إِلَى دِينِنَا فَهُوَ أَعْجَبُ إِلَيْنَا مِنْ دِينِكُمْ، لَعَلَّهُمْ يَشُكُّونَ فَيَقُولُونَ: هَؤُلَاءِ كَانُوا مَعَنَا أَوَّلَ النَّهَارِ فَمَا بَالُهُمْ"؟ فَأَخْبَرَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - رَسُولَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِذَلِكَ.

وَرُوِيَ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ وَلَمْ يَقِفُوا عِنْدَ حَدِّ الْقَوْلِ. فَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: "يَهُودُ صَلَّتْ مَعَ مُحَمَّدٍ صَلَاةَ الصُّبْحِ وَكَفَرُوا آخِرَ النَّهَارِ مَكْرًا مِنْهُمْ لِيُرُوا النَّاسَ أَنْ قَدْ بَدَتْ لَهُمْ مِنْهُ الضَّلَالَةُ بَعْدَ أَنْ كَانُوا اتَّبَعُوهُ".

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: هَذَا النَّوْعُ الَّذِي تَحْكِيهِ الْآيَةُ مِنْ صَدِّ الْيَهُودِ عَنِ الْإِسْلَامِ مَبْنِيٌّ عَلَى قَاعِدَةٍ طَبِيعِيَّةٍ فِي الْبَشَرِ، وَهِيَ أَنَّ مِنْ عَلَامَةِ الْحَقِّ أَلَّا يَرْجِعَ عَنْهُ مَنْ يَعْرِفُهُ، وَقَدْ فَقِهَ هَذَا هِرَقْلُ صَاحِبُ الرُّومِ فَكَانَ مِمَّا سَأَلَ عَنْهُ أَبَا سُفْيَانَ مِنْ شُئُونِ

(318/121)

النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عِنْدَمَا دَعَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ: " هَلْ يَرْجِعُ عَنْهُ مَنْ دَخَلَ فِي دِينِهِ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَا " وَقَدْ أَرَادَتْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ أَنْ تَغُشَّ النَّاسَ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ لِيَقُولُوا: لَوْلَا أَنْ ظَهَرَ لِهَؤُلَاءِ بُطْلَانُ الْإِسْلَامِ لَمَا رَجَعُوا عَنْهُ بَعْدَ أَنْ دَخَلُوا فِيهِ، وَاطَّلَعُوا عَلَى بَاطِنِهِ وَخَوَافِيهِ; إِذْ لَا يُعْقَلُ أَنْ يَتْرُكَ الْإِنْسَانُ الْحَقَّ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ، وَيَرْغَبَ عَنْهُ بَعْدَ الرَّغْبَةِ فِيهِ بِغَيْرِ سَبَبٍ. فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدِ ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الدُّخُولِ فِيهِ رَغْبَةً لَا حِيلَةً وَمَكِيدَةً كَمَا كَادَ هَؤُلَاءِ. فَمَاذَا تَقُولُ فِي هَؤُلَاءِ؟ وَالْجَوَابُ عَنْ هَذَا يَرْجِعُ إِلَى قَاعِدَةٍ أُخْرَى، وَهِيَ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ يَدْخُلُ فِي الشَّيْءِ رَغْبَةً فِيهِ لِاعْتِقَادِهِ أَنَّ فِيهِ مَنْفَعَةً لَهُ لَا لِاعْتِقَادِهِ أَنَّهُ حَقٌّ فِي نَفْسِهِ، فَإِذَا بَدَا لَهُ فِي ذَلِكَ مَا لَمْ يَكُنْ يَحْتَسِبُ وَخَابَ ظَنُّهُ فِي الْمَنْفَعَةِ فَإِنَّهُ يَتْرُكُ ذَلِكَ الشَّيْءَ، وَيَظْهَرُ لِي أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا أَمَرَ بِقَتْلِ الْمُرْتَدِّ إِلَّا لِتَخْوِيفِ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا يُدَبِّرُونَ الْمَكَايِدَ لِإِرْجَاعِ النَّاسِ عَنِ الْإِسْلَامِ بِالتَّشْكِيكِ

فِيهِ ; لِأَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْمَكَايِدِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا أَثَرٌ فِي نُفُوسِ الْأَقْوِيَاءِ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَوَصَلُوا فِيهِ إِلَى عَيْنِ الْيَقِينِ ، فَإِنَّهَا قَدْ تَخْدَعُ الضُّعَفَاءَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ فِي الْإِسْلَامِ لِتَفْضِيلِهِ

(319/121)

عَلَى الْوَثَنِيَّةِ فِي الْجُمْلَةِ قَبْلَ أَنْ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ بِالْإِيمَانِ ، كَالَّذِينَ كَانُوا يُعْرَفُونَ بِالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ; وَبِهَذَا يَتَّفِقُ الْحَدِيثُ الْآمِرُ بِذَلِكَ مَعَ الْآيَاتِ النَّافِيَةِ لِلْإِكْرَاهِ فِي الدِّينِ وَالْمُنْكِرَةِ لَهُ - فِيمَا أَرَى - وَقَدْ أَفْتَيْتُ بِذَلِكَ كَمَا يَظْهَرُ لِي وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ هَذَا مِنْ قَوْلِ الْكَائِدِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَآمَنَ لَهُ : صَدَّقَهُ وَسَلَّمَ لَهُ مَا يَقُولُ . قَالَ تَعَالَى : فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ [29 : 26] وَقَالَ حِكَايَةً عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ : وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا [12 : 17] .

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنَّ الْإِيمَانَ يَتَعَدَّى بِاللَّامِ إِذَا أُرِيدَ بِالتَّصْدِيقِ الثِّقَةُ وَالرُّكُونُ ، كَقَوْلِهِ : وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ [9 : 61] أَيْ فَيَكُونُ تَصْدِيقًا خَاصًّا تَضَمَّنَ مَعْنًى زَائِدًا .

وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ حَصَرُوا الثِّقَةَ بِأَنْفُسِهِمْ لِزَعْمِهِمْ أَنَّ النُّبُوَّةَ لَا تَكُونُ إِلَّا فِيهِمْ ، بَلْ غَلَوْا فِي التَّعَصُّبِ وَالْغُرُورِ حَتَّى حَقَّرُوا جَمِيعَ النَّاسِ فَجَعَلُوا كُلَّ مَا يَكُونُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ حَسَنًا وَمَا

يَكُونُ مِنْ غَيْرِهِمْ قَبِيحًا ، وَهَذَا مِنَ الِانْتِكَاسِ الَّذِي يَحُولُ بَيْنَ أَهْلِهِ وَبَيْنَ كُلِّ خَيْرٍ ، وَإِنَّنَا نَرَى مِنَ النَّاسِ الْيَوْمَ مَنْ يُحَاوِلُ تَغْرِيرَ قَوْمِهِ بِحَمْلِهِمْ عَلَى أَنْ يَكُونُوا كَذَلِكَ يُحَقِّرُونَ كُلَّ مَا لَمْ يَأْتِ مِنْهُمْ وَإِنْ كَانَ حَسَنًا ، فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخِذْلَانِ ،

(320/121)

وَعَسَى أَنْ يَعْتَبِرَ هَؤُلَاءِ بِمَا رَدَّ اللَّهُ بِهِ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ إِذْ قَالَ لِنَبِيِّهِ : قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ لَا هُدَى شَعْبٍ مُعَيَّنٍ هُوَ لَازِمٌ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ ، فَهُوَ - سُبْحَانَهُ - يُبَيِّنُ هُدَاهُ عَلَى لِسَانِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ لَا تَتَقَيَّدُ مَشِيئَتُهُ بِأَحَدٍ وَلَا بِشَعْبٍ .

أَمَّا قَوْلُهُ : أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ وَقَدْ قَرَأَهُ ابْنُ كَثِيرٍ " آأَنْ " بِهَمْزَتَيْنِ مَعَ تَلْيِينِ الثَّانِيَةِ ، وَالْبَاقُونَ بِهَمْزَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَفِيهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ مُتَّصِلٌ بِمَا حَكَاهُ - تَعَالَى - مِنْ قَوْلِ الْيَهُودِ ، وَجُمْلَةُ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ اعْتِرَاضِيَّةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ

(321/121)

مَا سَبَقَهُ . وَالْمَعْنَى : وَلَا تُصَدِّقُوا غَيْرَ مَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ بِأَنَّ أَحَدًا يُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ، أَوْ يُقِيمُوا عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، أَيْ لَا تَعْتَرِفُوا أَمَامَ الْعَرَبِ - مَثَلًا - بِأَنَّكُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُبْعَثَ نَبِيٌّ مِنْ غَيْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَخْ . وَهَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يُنْكِرُونَ جَوَازَ بَعْثَةِ نَبِيٍّ مِنَ الْعَرَبِ بِأَلْسِنَتِهِمْ مُكَابَرَةً وَعِنَادًا لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَا اعْتِقَادًا ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يُصَرِّحُونَ بِاعْتِقَادِهِمُ الْمُسْتَكِنِّ فِي أَنْفُسِهِمْ إِلَّا لِمَنْ آمَنُوا لَهُ مِنْ قَوْمِهِمْ لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْمَكْرِ وَالْمُخَادَعَةِ ، وَهَذَا الْوَجْهُ ظَاهِرٌ عَلَى قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ . هَذَا مَا ظَهَرَ لِي وَهُوَ نَحْوُ مَا جَرَى عَلَيْهِ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَّافِ كَمَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ ، قَالَ : أَيْ وَلَا تُظْهِرُوا إِيمَانَكُمْ بِأَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ إِلَّا لِأَهْلِ دِينِكُمْ دُونَ غَيْرِهِمْ ، أَرَادُوا : أَسِرُّوا تَصْدِيقَكُمْ بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أُوتُوا مِنْ كُتُبِ اللَّهِ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ وَلَا تُفْشُوهُ إِلَّا إِلَى أَشْيَاعِكُمْ وَحْدَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ لِئَلَّا يَزِيدَهُمْ ثَبَاتًا ، وَدُونَ الْمُشْرِكِينَ لِئَلَّا يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ .

(قَالَ) : أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ عَطْفٌ عَلَى أَنْ يُؤْتَى وَالضَّمِيرُ فِي يُحَاجُّوكُمْ لِأَحَدٍ ; لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى الْجَمْعِ ، بِمَعْنَى : وَلَا تُؤْمِنُوا لِغَيْرِ أَتْبَاعِكُمْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يُحَاجُّونَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْحَقِّ وَيُغَالِبُونَكُمْ

عِنْدَ اللهِ - تَعَالَى - بِالْحُجَّةِ ، فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا مَعْنَى الِاعْتِرَاضِ ؟ قُلْتُ : مَعْنَاهُ أَنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ مَنْ شَاءَ أَنْ يَلْطُفَ بِهِ حَتَّى يُسْلِمَ أَوْ يَزِيدَ ثَبَاتُهُ عَلَى الْإِسْلَامِ كَانَ كَذَلِكَ وَلَمْ يَنْفَعْ كَيْدُكُمْ وَحِيَلُكُمْ وَزَيْفُكُمْ تَصْدِيقَكُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ .

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ يُرِيدُ الْهِدَايَةَ وَالتَّوْفِيقَ انْتَهَى كَلَامُ الزَّمَخْشَرِيِّ : أَيْ فَهُوَ مُؤَكِّدٌ لِلِاعْتِرَاضِ الْأَوَّلِ ، أَوْ هُوَ اعْتِرَاضٌ آخَرُ يَجِيءُ بَعْدَ تَمَامِ الْكَلَامِ .

كَقَوْلِهِ : وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ [27 : 34] بَعْدَ قَوْلِهِ : إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا .

(323/121)

قَالَ النَّيْسَابُورِيُّ : فَإِنْ قِيلَ إِنَّ جِدَّ الْقَوْمِ فِي حِفْظِ أَتْبَاعِهِمْ عَنْ قَبُولِ دِينِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ أَعْظَمَ مِنْ جِدِّهِمْ فِي حِفْظِ غَيْرِ أَتْبَاعِهِمْ عَنْهُ ، فَكَيْفَ يَلِيقُ أَنْ يُوصِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالْإِقْرَارِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ دِينِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عِنْدَ أَتْبَاعِهِمْ وَأَنْ يَمْتَنِعُوا مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ الْأَجَانِبِ ؟ فَالْجَوَابُ : لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ هَذَا النَّهْيِ بِإِفْشَاءِ هَذَا التَّصْدِيقِ فِيمَا بَيْنَ أَتْبَاعِهِمْ ، بَلِ الْمُرَادُ أَنَّهُ إِنِ اتَّفَقَ مِنْكُمْ تَكَلُّمٌ بِهَذَا فَلَا يَكُنْ إِلَّا عِنْدَ خُوَيِّصَتِكُمْ وَأَصْحَابِ أَسْرَارِكُمْ ، عَلَى أَنْ يُحْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ شَائِعًا ، وَلَكِنَّ الْبَغْيَ

وَالْحَسَدَ كَانَ يَحْمِلُهُمْ عَلَى الْكِتْمَانِ عَنْ غَيْرِهِمْ . هَذَا مَا قَالَهُ، وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْإِيمَانِ إِظْهَارُهُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ النَّهْيُ عَنْ تَصْدِيقِ مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِمْ ; أَيِ الِاعْتِرَافُ لَهُ بِأَنَّهُ صَادِقٌ كَأَنَّهُمْ قَالُوا : إِذَا قَالَ لَكُمْ قَائِلٌ : إِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُؤْتَى غَيْرُكُمْ مِنَ النُّبُوَّةِ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ فَكَذِّبُوهُ وَلَا تُؤْمِنُوا لَهُ، وَالْمَفْهُومُ مَسْكُوتٌ عَنْهُ، وَهُوَ مَفْهُومُ مُخَالَفَةٍ، فِيهِ مِنَ الْخِلَافِ فِي الْأُصُولِ مَا هُوَ مَشْهُورٌ، وَإِذَا قُلْنَا بِهِ فَإِنَّهُ يَصْدُقُ بِأَنْ يُؤْمِنُوا لِبَعْضِ أَهْلِ دِينِهِمْ إِذَا قَالُوا بِهَذَا الْجَوَازِ كَالْمُتَّفِقِينَ مَعَهُمْ عَلَى

(324/121)

الْمُكَابَرَةِ وَالْمُكَايَدَةِ لِلتَّنْفِيرِ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَأَهْلُ الْجُحُودِ وَالْكَيْدِ لَا يُكَابِرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِيمَا هُوَ حُجَّةٌ لِلْمُخَالِفِ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا، وَإِنَّمَا يُكَابِرُونَ الْمُخَالِفِينَ .

ثُمَّ قَالَ النَّيْسَابُورِيُّ : فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ وَقَعَ قَوْلُهُ : قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ بَيْنَ جُزْئَيْ كَلَامٍ وَاحِدٍ، وَهَذَا لَا يَلِيقُ بِكَلَامِ الْفُصَحَاءِ ؟ قُلْتُ : قَالَ الْقَفَّالُ : يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا كَلَامًا أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ أَنْ يَقُولَهُ عِنْدَمَا وَصَلَ الْكَلَامُ إِلَى هَذَا الْحَدِّ، كَأَنَّهُ لَمَّا حَكَى عَنْهُمْ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ قَوْلًا بَاطِلًا لَا جَرَمَ، أَدَّبَ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِأَنْ يُقَابِلَهُ بِقَوْلٍ حَقٍّ ثُمَّ يَعُودَ إِلَى حِكَايَةِ تَمَامِ كَلَامِهِمْ ; كَمَا إِذَا حَكَى الْمُسْلِمُ عَنْ بَعْضِ الْكُفَّارِ قَوْلًا فِيهِ كُفْرٌ فَيَقُولُ عِنْدَ بُلُوغِهِ

إِلَى تِلْكَ الْكَلِمَةِ : آمَنْتُ بِاللهِ ، أَوْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، أَوْ تَعَالَى اللهُ ثُمَّ يَعُودُ إِلَى تِلْكَ الْحِكَايَةِ . اهـ .

أَقُولُ : وَيَجُوزُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ أَنْ تَكُونَ الْبَاءُ الْمَحْذُوفَةُ مِنْ أَنْ يُؤْتَى لِلسَّبَبِيَّةِ وَيَكُونَ الْمَعْنَى : آمِنُوا وَجْهَ النَّهَارِ مُخَادَعَةً وَاكْفُرُوا آخِرَهُ مُكَايَدَةً ، وَلَا تُؤْمِنُوا إِيمَانًا حَقِيقِيًّا ثَابِتًا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ وَأَقَرَّكُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ بِسَبَبِ إِتْيَانِ أَحَدٍ كَمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ ، أَوْ بِسَبَبِ مَا يُخْشَى مِنْ مُحَاجَّتِهِ

(325/121)

لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ فِي الْآخِرَةِ . وَالسَّبَبِيَّةُ مُعَلَّقَةٌ بِالنَّهْيِ ، أَيْ لَا يَكُنْ إِتْيَانُ مُحَمَّدٍ بِدِينٍ حَقٍّ وَشَرْعٍ إِلَهِيٍّ كَالَّذِي أُوتِيتُمُوهُ عَلَى لِسَانِ مُوسَى سَبَبًا فِي الْإِيمَانِ لَهُ .

وَأَمَّا قِرَاءَةُ ابْنِ كَثِيرٍ بِالِاسْتِفْهَامِ : فَأَقْرَبُ مَا تُفَسَّرُ بِهِ عَلَى الْوَجْهِ – أَيْ وَجْهِ كَوْنِ الْكَلَامِ حِكَايَةً عَنِ الْيَهُودِ – أَنْ يُقَالَ : إِنَّ الْمَصْدَرَ الَّذِي يُؤْخَذُ مِنْ أَنْ يُؤْتَى مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ مَحْذُوفٌ لِلْعِلْمِ بِهِ مِنْ قَرِينَةِ الْحَالِ وَالْخِطَابِ . وَالْمَعْنَى : أَإِتْيَانُ أَحَدٍ بِمِثْلِ مَا أُوتِيتُمْ يَحْمِلُكُمْ عَلَى الْإِيمَانِ لَهُ وَإِنْ لَمْ يَتَّبِعْ دِينَكُمْ ؟ أَيْ إِنَّ هَذَا مُنْكَرٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ، وَلَمْ أَرَ هَذَا وَلَا مَا قَبْلَهُ لِأَحَدٍ .

الْوَجْهُ الثَّانِي : أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ : أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ - تَعَالَى - بِنَاءً عَلَى أَنَّ حِكَايَةَ كَلَامِ الْيَهُودِ قَدِ انْتَهَتْ بِقَوْلِهِ : دِينَكُمْ وَعَلَى هَذَا تَكُونُ قِرَاءَةُ ابْنِ كَثِيرٍ أَظْهَرَ . وَتَقْرِيرُ الْمَعْنَى عَلَيْهَا : أَتَكِيدُونَ هَذَا الْكَيْدَ كَرَاهَةَ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مَا أُوتِيتُمْ ؟ أَوْ : أَإِيتَاءُ أَحَدٍ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ يَحْمِلُكُمْ عَلَى ذَلِكَ الْبَاطِلِ ؟ وَيُحْتَمَلُ عَلَى هَذَا أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ : أَوْ يُحَاجُّوكُمْ بِمَعْنَى حَتَّى يُحَاجُّوكُمْ ، إِذْ وَرَدَتْ (أَوْ) بِمَعْنَى " حَتَّى " أَوْ بِمَعْنَى الْوَاوِ كَمَا قِيلَ . أَوِ التَّقْدِيرُ : أَلِأَجْلِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ وَلَمَّا يَتَّصِلْ بِذَلِكَ مُحَاجَّتُكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ كِدْتُمْ ذَلِكَ الْكَيْدَ ؟ يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ، وَأَمَّا قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ فَيَجُوزُ أَنْ تُحْمَلَ عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ ، لِأَنَّ أَدَاةَ الِاسْتِفْهَامِ يَجُوزُ حَذْفُهَا اسْتِغْنَاءً عَنْهَا بِلَحْنِ الْقَوْلِ وَكَيْفِيَّةِ الْأَدَاءِ . وَيَجُوزُ فِيهَا وُجُوهٌ أُخْرَى أَظْهَرُهَا أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : قُلْ إِنَّ الْهُدَى الَّذِي هُوَ هُدَى اللَّهِ هُوَ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ وَيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ فِي الْآخِرَةِ ، أَيْ وَذَلِكَ جَائِزٌ دَاخِلٌ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ فَلَا وَجْهَ لِإِنْكَارِهِ ; وَلِذَلِكَ عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ : قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ فَالْكَلَامُ كُلُّهُ رَدٌّ عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ - تَعَالَى - .

وَأَقْوَى هَذِهِ الْوُجُوهِ مَا يُوَافِقُ الْقِرَاءَتَيْنِ وَهُوَ أَنَّ قَوْلَهُ - تَعَالَى - : قُلْ إِنَّ الْهُدَى إِلَى آخِرِ الْآيَةِ رَدٌّ عَلَيْهِمْ وَأَنَّ قَوْلَهُ : أَنْ يُؤْتَى اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ عَلَى الْقِرَاءَتَيْنِ ، وَالْمَعْنَى : أَتَفْعَلُونَ مَا تَفْعَلُونَ مِنَ الْكَيْدِ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَمِنْ كِتْمَانِ الْحَقِّ عَنْ غَيْرِ أَبْنَاءِ دِينِكُمْ كَرَاهَةَ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ . . . إِلَخْ . وَعِنْدِي أَنَّ فِي الْكَلَامِ لَفًّا وَنَشْرًا مُرَتَّبًا وَهُوَ أَنَّ كَرَاهَتَهُمْ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتُوا هُوَ سَبَبُ كَيْدِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ لِيَرْجِعُوا وَكَرَاهَتُهُمْ أَنْ يُحَاجَّهُمْ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ هُوَ سَبَبُ كِتْمَانِهِمْ ذَلِكَ عَمَّنْ لَمْ يَتْبَعْ

دِينَهُمْ أَوْ عَدَمِ الْإِيمَانِ لَهُمْ إِذَا هُمُ ادَّعَوْهُ ، وَيَشْهَدُ لِهَذَا الْأَخِيرِ قَوْلُهُ - تَعَالَى - حِكَايَةً عَنْهُمْ : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ [2 : 76] هَذَا مَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيَّ بِهِ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَمَا عَدَا هَذَا مِمَّا أَكْثَرُوا فِيهِ فَانْتِزَاعٌ بَعِيدٌ مِنَ الْبَلَاغَةِ لَا يَقْبَلُهُ الذَّوْقُ إِلَّا بِاسْتِكْرَاهٍ وَتَكَلُّفٍ ، وَخَتَمَ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ : وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ لِبَيَانِ سِعَةِ فَضْلِهِ وَإِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِالْمُسْتَحِقِّ لَهُ لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ الْيَهُودَ قَدْ ضَيَّقُوا بِزَعْمِهِمْ حَصْرَ النُّبُوَّةِ فِيهِمْ - هَذَا الْفَضْلَ الْوَاسِعَ - وَجَهِلُوا كُنْهَ هَذَا الْعِلْمِ الْمُحِيطِ .

ثُمَّ بَيَّنَ – تَعَالَى – أَنَّ فَضْلَهُ الْوَاسِعَ وَرَحْمَتَهُ الْعَامَّةَ تَابِعَةٌ لِمَشِيئَتِهِ لَا لِوَسَاوِسِ الْمَغْرُورِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ حَجَرُوهُمَا بِجَهْلِهِمْ فَقَالَ: يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ فَهُوَ يَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ نَبِيًّا وَيَبْعَثُهُ رَسُولًا، وَمَنِ اخْتَصَّهُ بِذَلِكَ فَإِنَّمَا يَخْتَصُّهُ بِمَحْضِ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ لَا بِعَمَلٍ قَدَّمَهُ، وَلَا لِنَسَبٍ شَرَّفَهُ وَإِنْ جَهِلَ ذَلِكَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُ – تَعَالَى – يُحَابِي الْأَفْرَادَ أَوِ الشُّعُوبَ بِذَلِكَ وَبِغَيْرِهِ، – تَعَالَى – اللهُ عَنْ ذَلِكَ. انتهى. اهـ

﴿تفسير المنار حـ 3 صـ 273 . 278﴾

(329/121)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآيتين

قال رحمه الله:

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾

إن الحق سبحانه يكشف للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين به من الأميين لعبة إيمان بعض من أهل الكتاب بالإسلام وجه النهار والكفر به آخر النهار، لقد طالب المتآمرون بعضهم بعضا أن يظل الأمر سرا حتى لا يفقد المكر هدفه وهو بلبلة المسلمين من الأميين،

ولذلك قال هؤلاء المتآمرون بعضهم لبعض : ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ أي لا تكشفوا سر هذه الخدعة إلا لمن هو على شاكلتكم ، لكن الحق يكشف هذا الأمر كله بنزول هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلاغه إياها للمؤمنين ، وبذلك فسد أمر تلك البلبلة ، وارتدت الحرب النفسية إلى صدور من أشعلوها ، ويستمر القول الكريم في كشف خديعة هؤلاء البعض من أهل الكتاب فيقول سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ .

إن الحق سبحانه يكشف فعل الماكرين من أهل الكتاب الذين أرادوا إعلان الإيمان أول النهار كلون من " هدى النفس " لكنه من صميم الضلال والإضلال وذريعة له ، ولم يكن هدى من الله ؛ لأن هدى الله إنما يوصل الإنسان إلى الغاية التي يريدها الله ، وهؤلاء البعض من أهل الكتاب أرادوا بالخديعة أن يجعلوا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أتباع يؤمنون بالإسلام ؛ لقد تواصى هؤلاء القوم من أهل الكتاب بأن يكتموا اتفاقهم على تمثيل الادعاء بالإيمان وجه النهار والكفر به في آخره ، وألا يعلنوا ذلك إلا لأهل ديانتهم حتى لا يفقد المكر هدفه ، وهو بلبلة المسلمين .

(330/121)

لقد أخذهم الخوف ؛ لأن الناس إن أخذوا بدين محمد صلى الله عليه وسلم لأوتوا مثلما أوتي أهل الكتاب من معرفة بالمنهج ، بل إن المنهج الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو المنهج الخاتم ، وأهل المكر من أهل الكتاب إنما أرادوا أن يحرموا الناس من الإيمان ، أو أنهم خافوا أن يدخل المسلمون معهم في المحاجة في أمر الإيمان ، وكان كل ذلك من قلة الفطنة التي تصل إلى حد الغباء .

لماذا ؟ لأنهم توهموا أن الله لا يعرف باطن ما كتموا وظاهر ما فعلوا ، إنهم تناسوا أن الحق يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وتطابق ذلك مع سابق فعلهم عندما خرجوا من مصر ، وذهبوا إلى التيه أثناء عبور الصحراء ، وادعوا أن الله قال لموسى عليه السلام : " علموا بيوتكم أيها الإسرائيليون ، لأني سأنزل وأبطش بالبلاد كلها " . وكأنهم لو لم يضعوا العلامات على البيوت فلن يعرفها الله ، إنه كلام خائب للغاية بل هو منتهى الخيبة والضلال ، ويبلغ الحق رسوله الكريم : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ . وما دام الفضل بيد الله فلن تستطيعوا يا أهل المكر بالمسلمين أن تأخذوا أناسا كما تودون ، وبعد ذلك تريدون أن تخدعوهم ؛ لأن الفضل حين يؤتيه الله لمن آمن به فلن ينزعه إلا الله . فالحيلة لن تنزع فضل الإيمان بالله ما دام قد أعطاه الله ، والله واسع بمعنى أنه قادر على إعطاء الفضل لكل الخلق ، ولن ينقص ذلك من فضله شيئًا ، والحق سبحانه عليم بمن يستحق هذا الفضل لأن قلبه مشغول بربه .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ . . . ﴾ .
إن أحدا ليس له حق على الله ؛ فكل لحظة من لحظات الحياة هي فضل من الله ، وهو سبحانه يعطي رحمته بالإيمان بمنهجه لمن يشاء وهو صاحب الفضل المطلق .

(331/121)

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1540 . 1542 ﴾

(332/121)

" فصل "

قال السيوطى :

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (69) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (70) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (71) وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي

أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (72) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (73) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (74)

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن سفيان قال: كل شيء في آل عمران من ذكر اهل الكتاب فهو في النصارى.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ يا أهل الكتاب لَمَ تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴾ قال: تشهدون أن نعت نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم في كتابكم ثم تكفرون به، وتنكرونه، ولا تؤمنون به، وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل. النبي الأمي.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع. مثله.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ يا أهل الكتاب لَمَ تكفرون بآيات الله ﴾ قال: محمد ﴿ وأنتم تشهدون ﴾ قال: تشهدون أنه الحق تجدونه مكتوباً عندكم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل ﴿ لم تكفرون بآيات الله ﴾ قال: بالحجج ﴿ وأنتم تشهدون ﴾ ان القرآن حق، وأن محمداً رسول الله تجدونه مكتوباً في التوراة والإنجيل.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن جريج ﴿ لِمَ تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴾ على أن الدين عند الله الإسلام، ليس لله دين غيره.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع في قوله ﴿ لِمَ تلبسون الحق بالباطل ﴾ يقول: لِمَ تخلطون اليهودية والنصرانية بالإسلام، وقد علمتم أن دين الله الذي لا يقبل من أحد غيره الإسلام ﴿ وتكتمون الحق ﴾ يقول: تكتمون شأن محمد صلى الله عليه وسلم وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة. مثله.

وأخرج ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال عبد الله بن الضيف، وعدي بن زيد، والحرث بن عوف، بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ونكفر به عشية، حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما نصنع فيرجعون عن دينهم. فأنزل الله فيهم ﴿ يا أهل الكتاب لِمَ تلبسون الحق بالباطل ﴾ إلى قوله ﴿ والله واسع عليم ﴾.

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن أبي مالك قال: قالت اليهود بعضهم لبعض: آمنوا معهم بما يقولون أول النهار وارتدوا آخره لعلهم يرجعون معكم. فاطلع الله على سرهم، فأنزل الله تعالى ﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل... ﴾

الآية .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب ﴾ الآية . قال : كان أحبار قرى عربية إثنى عشر حبراً فقالوا لبعضهم : أدخلوا في دين محمد أول النهار وقولوا : نشهد أن محمداً حق صادق ، فإذا كان آخر النهار فاكفروا ، وقولوا : إنا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا فسألناهم فحدثونا : أن محمداً كاذب ، وإنكم لستم على شيء ، وقد رجعنا إلى ديننا فهو أعجب إلينا من دينكم لعلهم يشكون فيقولون : هؤلاء كانوا معنا أول النهار فما بالهم ! فأخبر الله رسوله بذلك .

(334/121)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عت ابن عباس في قوله ﴿ وقالت طائفة . . . ﴾ الآية . قال : أن طائفة من اليهود قالت : إذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار فآمنوا ، وإذا كان آخره فصلوا صلاتكم لعلهم يقولون هؤلاء أهل الكتاب ، وهم أعلم منا لعلهم ينقلبون عن دينهم .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في المختارة من طريق أبي ظبيان عن ابن عباس في قوله ﴿ وقالت طائفة . . . ﴾ الآية . قال : كانوا يكونون معهم أول النهار

ويجالسونهم ويكلمونهم ، فإذا أمسوا وحضرت الصلاة كفروا به وتركوه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار ﴾ يهود تقوله ، صلت مع محمد صلاة الفجر ، وكفروا آخر النهار مكراً منهم ليروا الناس أن قد بدت لهم منه الضلالة بعد إذ كانوا اتبعوه .

وأخرج ابن جرير عن قتادة والربيع في قوله ﴿ وجه النهار ﴾ قالا : أول النهار .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ قال : هذا قول بعضهم لبعض .

وأخرج ابن جرير عن الربيع . مثله .

وأخرج ابن جرير عن السدي ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ قال : لا تؤمنوا إلا لمن تبع اليهودية .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي مالك قال : كانت اليهود تقول أحبارها للذين من دينهم : ائتوا محمداً وأصحابه أول النهار فقولوا نحن على دينكم ، فإذا كان بالعشي فأتوهم فقولوا لهم : إنا كفرنا بدينكم ونحن على ديننا الأول ، إنا قد سألنا علماءنا فأخبرونا أنكم لستم على شيء . وقالوا لعل المسلمين يرجعون إلى دينكم فيكفرون بمحمد ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ فأنزل الله ﴿ قل إن الهدى هدى الله ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴾ حسداً من يهود أن تكون النبوّة في غيرهم ، وإرادة أن يتابعوا على دينهم .

(335/121)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي مالك وسعيد بن جبير ﴿ أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴾ قالا : أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال الله لمحمد ﴿ قل إن الهدى هدى الله ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : قال الله لمحمد ﴿ قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴾ يا أمة محمد ﴿ أو يحاجوكم عند ربكم ﴾ يقول اليهود : فعل الله بنا كذا وكذا من الكرامة حتى أنزل علينا المن والسلوى ، فإن الذي أعطاكم أفضل فقولوا ﴿ إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴾ يقول : لما أنزل الله كتاباً مثل كتابكم ، وبعث نبياً كنبيكم حسدتموه على ذلك ﴿ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن الربيع . مثله .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج ﴿ قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴾ يقول : هذا الأمر الذي أنتم عليه مثل ما أوتيتم ﴿ أو يحاجُّوكم عند ربكم ﴾ قال : قال بعضهم لبعض : لا تخبروهم بما بيَّن الله لكم في كتابه ﴿ ليحاجُّوكم ﴾ قال : ليخاصموكم به ربكم ، فتكون لهم حجة عليكم ﴿ قل إن الفضل بيد الله ﴾ قال : الإسلام ﴿ يختص برحمته من يشاء ﴾ قال : القرآن والإسلام .

وأخرج عبد بن حميد وابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ يختص برحمته من يشاء ﴾ قال : النبوّة يختص بها من يشاء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ يختص برحمته من يشاء ﴾ قال : رحمته الإسلام . يختص بها من يشاء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ ذو الفضل العظيم ﴾ يعني الوافر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 239 . 242 ﴾ .

(336/121)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والعشرون بعد المائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثانى والعشرون بعد المائة

من الآية ﴿ 75 ﴾ من سورة آل عمران

وحتى الآية ﴿ 80 ﴾ من نفس السورة

(4/122)

قوله تعالى ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

فلما تقرر أن الأمر كله له ذكر دليل ذلك فيهم بأنه فضل فريقاً منهم فأعلاه ، ورذل فريقاً منهم فأرداه ، فلم يردهم الكتاب - وهم يتلونه - إلى الصواب ، فقال عاطفاً على ما مضى من مخازيهم مقرراً لكتمانهم للحق مع علمهم بأنه الحق بأنه الخيانة ديدنهم في الأعيان الدنيوية والمعاني الدينية منبهاً على أنهم وإن شاركوا الناس في انقسامهم إلى أمين وخائن فهم يفارقونهم من حيث إن خائنهم يتدين بخيانته ويسندها - مروقاً من ربقة الحياء - إلى الله ،

مادحاً للأمين منهم : ﴿ ومن أهل الكتاب ﴾ أي الموصوفين ﴿ من إن تأمنه بقنطار ﴾ أي من الذهب المذكور في الفريق الآتي ﴿ يؤده إليك ﴾ غير خائن فيه ، فلا تسوقوا الكل مساقاً واحداً في الخيانة ﴿ ومنهم من إن تأمنه بدينار ﴾ أي واحد ﴿ لا يؤده إليك ﴾ في زمن من الأزمان دناءة وخيانة ﴿ إلا ما ﴾ أي وقت ما ﴿ دمت عليه قائماً ﴾ تطالبه به غالباً له بما دلت عليه أداة الاستعلاء ، ثم استأنف علة الخيانة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر البعيد من الكمال ﴿ بأنهم قالوا ﴾ كذباً على شرعهم ﴿ ليس علينا في الأميين ﴾ يعني من ليس له كتاب فليس على دينهم ﴿ سبيل ﴾ .

ولما كان الكذب من عظم القباحة بمكان يظن بسببه أنه لا يجترىء عليه ذو عقل فكيف على الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ وهم يعلمون ﴾ أي ذوو علم فيعلمون أنه كذب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 115.114 ﴾

(5/122)

وقال الفخر :

اعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها من وجهين ،

الأول : أنه – تعالى – حكى عنهم في الآية المتقدمة أنهم ادعوا أنهم أوتوا من المناصب

الدينية ، ما لم يؤتَ أحد غيرُهم مثلَه ، ثم إنه تعالى بيّن أن الخِيانة مستقبحة عند جميع أرباب الأديان ، وهم مصرون عليها ، فدل هذا على كذبهم

والثاني : أنه تعالى لما حكى عنهم في الآية المتقدمة قبائح أحوالهم فيما يتعلق بالأديان وهو أنهم قالوا ﴿ لَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ [آل عمران : 73] حكى في هذه الآية بعض قبائح أحوالهم فيما يتعلق بمعاملة الناس ، وهو إصرارهم على الخيانة والظلم وأخذ أموال الناس في القليل والكثير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 88 ﴾

وقال ابن عاشور :

قوله تعالى ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾

عطف على قوله : ﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب ﴾ [آل عمران : 72] أو على قوله : ﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ﴾ [آل عمران : 69] عطف القصة على القصة والمناسبة بيان دخائل أحوال اليهود في معاملة المسلمين الناشئة عن حسدهم وفي انحرافهم عن ملة إبراهيم مع ادّعائهم أنهم أولَى الناس به ، فقد حكى في هذه الآية خيانة فريق منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 131 ﴾

اللغة :

[قنطار] القنطار المال الكثير وقد تقدم

[قائما] ملازما ومداوما على مطالبته

[الأميين] المراد بهم العرب ، واصل الامي الذي لا يقرأ ولا يكتب ، والعرب كانوا كذلك

[يلوون] من اللي وهو اللف والفتل تقول : لويت يده إذا فتلتها ، والمراد انهم يفتلون السنتهم ليميلوا عن الآيات المنزلة الى العبارات المحرفة

[لا خلاق] أى لا نصيب لهم من رحمة الله

[ربانيين] جمع رباني وهو المنسوب الى الرب ، قال الطبري معناه : كونوا حلماء علماء فقهاء ، وهذا القول مروى عن ابن عباس رضي الله عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 211 ﴾

(7/122)

فصل

قال الفخر :

الآية دالة على انقسامهم إلى قسمين : بعضهم أهل الأمانة ، وبعضهم أهل الخيانة وفيه أقوال

الأول : أن أهل الأمانة منهم هم الذين أسلموا ، أما الذين بقوا على اليهودية فهم مصرون على الخيانة لأن مذهبهم أنه يحل لهم قتل كل من خالفهم في الدين وأخذ أموالهم ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الكتاب أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءايات الله ءَانَاء الليل وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران : 113] مع قوله ﴿ مِّنْهُمُ المؤمنون وَأَكْثَرُهُمُ الفاسقون ﴾ [آل عمران : 110]

الثاني : أن أهل الأمانة هم النصارى ، وأهل الخيانة هم اليهود (1) ، والدليل عليه ما ذكرنا ، أن مذهب اليهود أنه يحل قتل المخالف ويحل أخذ ماله بأي طريق كان

الثالث : قال ابن عباس : أودع رجل عبد الله بن سلاّم ألفاً ومائتي أوقية من ذهب فأدى إليه ، وأودع آخر فنحاص بن عازوراء ديناراً فخانه فنزلت الآية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 88.89 ﴾

قال القرطبى :

أخبر تعالى أن في أهل الكتاب الخائنَ والأمينَ ، والمؤمنون لا يميزون ذلك ، فينبغي اجتناب جميعهم .

وخصّ أهل الكتاب بالذّكر وإن كان المؤمنون كذلك ؛ لأنّ الخيانة فيهم أكثر ، فخرج الكلام على الغالب . والله أعلم .

وقد مضى تفسير القنطار .

وأما الدينار فأربعة وعشرون قيراطاً والقيراط ثلاث حبات من وسط الشعير ، فمجموعة اثنتان وسبعون حبة ، وهو مُجْمَع عليه .

ومن حفِظ الكثير وأدّاه فالقليل أوْلى ، ومن خان في اليسير أو منعه فذلك في الكثير أكثر .

وهذا أدلّ دليل على القول بمفهوم الخطاب .

وفيه بين العلماء خلاف (كثير) مذكور في أُصول الفقه .

وذكر تعالى قسمين : من يؤدّي ومن لا يؤدّي إلا بالملازمة عليه ؛ وقد يكون من الناس من لا يؤدّي وإن دُمت عليه قائماً .

فذكر تعالى القسمين لأنه الغالب والمعتاد والثالث نادر ؛ فخرج الكلام على الغالب . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 116.117 ﴾

---

(1) معاذ الله أن يكون النصارى أهل أمانة بل كل أهل الكتاب أهل كذب وخيانة والواقع يشهد بذلك وهم كما أخبر الله عنهم ﴿ لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ﴾ . والله أعلم .

(8/122)

فصل

قال الفخر :

المراد من ذكر القنطار والدينار ههنا العدد الكثير والعدد القليل ، يعني أن فيهم من هو في غاية الأمانة حتى لو اؤتمن على الأموال الكثيرة أدى الأمانة فيها ، ومنهم من هو في غاية الخيانة حتى لو اؤتمن على الشيء القليل ، فإنه يجوز فيه الخيانة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُّمُ استبدال زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً ﴾ [النساء : 20] وعلى هذا الوجه ، فلا حاجة بنا إلى ذكر مقدار القنطار وذكروا فيه وجوهاً الأول : إن القنطار ألف ومائتا أوقية قالوا : لأن الآية نزلت في عبد الله بن سلاّم حين استودعه رجل من قريش ألفاً ومائتي أوقية من الذهب فرده ولم يخن فيه ، فهذا يدل على القنطار هو ذلك المقدار

الثاني : روي عن ابن عباس أنه ملء جلد ثور من المال

الثالث : قيل القنطار هو ألف ألف دينار أو ألف ألف درهم ، وقد تقدم القول في تفسير القنطار . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 89 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾

فصل

قال الفخر :

في لفظ (القائم) وجهان : منهم من حمله على حقيقته ، قال السدي : يعني إلا ما دمت قائماً على رأسه بالاجتماع معه والملازمة له ، والمعنى : أنه إنما يكون معترفاً بما دفعت إليه

ما دمت قائماً على رأسه ، فإن أنظرت وأخرت أنكر ، ومنهم من حمل لفظ (القائم) على مجازه ثم ذكروا فيه وجوهاً

(9/122)

الأول : قال ابن عباس المراد من هذا القيام الإلحاح والخصومة والتقاضي والمطالبة ، قال ابن قتيبة : أصله أن المطالب للشيء يقوم فيه والتارك له يقعد عنه ، دليل قوله تعالى : ﴿ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ [آل عمران : 113] أي عامله بأمر الله غير تاركه ، ثم قيل : لكل من واظب على مطالبة أمر أنه قام به وإن لم يكن ثم قيام

الثاني : قال أبو علي الفارسي : القيام في اللغة بمعنى الدوام والثبات ، وذكرنا ذلك في قوله تعالى : ﴿ يُقِيمُونَ الصلاة ﴾ [البقرة : 3] ومنه قوله ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ [الأنعام : 161] أي دائماً ثابتاً لا ينسخ فمعنى قوله ﴿ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ أي دائماً ثابتاً في مطالبتك إياه بذلك المال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 89 ﴾

قال السمرقندى :

﴿ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ أي مُلحّاً متقاضياً و﴿ ذلك ﴾ يعني الاستحلال ﴿ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الاميين سَبِيلٌ ﴾ يعني يقولون ليس علينا في مال العرب مأثم .

ويقال : من لم يكن على ديننا ، فَمَالُه لنا حلال ، بمنزلة مذهب الخوارج أنهم يستحلون مال من كان على خلاف مذهبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 249 ﴾

وقال الطبرى :

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله : "إلا ما دمت عليه قائمًا" .

فقال بعضهم : "إلا ما دمت له متقاضيًا" .

وقال آخرون : معنى ذلك : "إلا ما دمتَ قائمًا على رأسه" . أ هـ

ثم قال رحمه الله :

(10/122)

وأولى القولين بتأويل الآية، قول من قال : "معنى ذلك : إلا ما دمت عليه قائمًا بالمطالبة والاقتضاء" . من قولهم : "قام فلان بحقي على فلان حتى استخرجه لي" ، أي عمل في تخليصه، وسَعى في استخراجه منه حتى استخرجه . لأن الله عز وجل إنما وصفهم باستحلالهم أموال الأميين، وأنّ منهم من لا يقضي ما عليه إلا بالاقتضاء الشديد والمطالبة . وليس القيام على رأس الذي عليه الدين، بموجب له النقلة عما هو عليه من استحلال ما هو له مستحلّ، ولكن قد يكون – مع استحلاله الذهابَ بما عليه لربّ الحقّ –

إلى استخراجه السبيلُ بالاقتضاء والمحاكمة والمخاصمة . فذلك الاقتضاء ، هو قيام ربِّ المال باستخراج حقه ممن هو عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 520 . 521 ﴾

فصل

قال الفخر :

يدخل تحت قوله ﴿ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ ﴾ و ﴿ بِدِينَارٍ ﴾ العين والدين ، لأن الإنسان قد يأتمن غيره على الوديعة وعلى المبايعة وعلى المقارضة وليس في الآية ما يدل على التعيين والمنقول عن ابن عباس أنه حمله على المبايعة ، فقال منهم من تبايعه بثمن القنطار فيؤده إليك ومنهم من تبايعه بثمن الدينار فلا يؤده إليك ونقلنا أيضاً أن الآية نزلت في أن رجلاً أودع مالاً كثيراً عند عبد الله بن سلام ، ومالاً قليلاً عند فنحاص بن عازوراء ، فخان هذا اليهودي في القليل ، وعبد الله بن سلام أدى الأمانة ، فثبت أن اللفظ محتمل لكل الأقسام. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 90 ﴾

سؤال : فإن قال قائل : وما وجه إخبار الله عز وجل بذلك نبيَّه صلى الله عليه وسلم ، وقد علمتَ أنّ الناس لم يزالوا كذلك : منهم المؤدِّي أمانته والخائنُها ؟

قيل : إنما أراد جل وعز بإخباره المؤمنين خبرَهم – على ما بينه في كتابه بهذه الآيات – تحذيرَهم أن يأتمنوهم على أموالهم ، وتخويفهم الاغترارَ بهم ، لاستحلال كثير منهم أموالَ المؤمنين .

فتأويل الكلام : ومن أهل الكتاب الذي إنْ تأمنه ، يا محمد ، على عظيم من المال كثير ، يؤدِّه إليك ولا يخنْك فيه ، ومنهم الذي إن تأمنه على دينار يخنْك فيه فلا يؤدِّه إليك ، إلا أن تلح عليه بالتقاضي والمطالبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 519 ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الأميين سَبِيلٌ ﴾

قال الفخر :

المعنى إن ذلك الاستحلال والخيانة هو بسبب أنهم يقولون ليس علينا فيما أصبنا من أموال العرب سبيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 90 ﴾

فصل

قال الفخر :

ذكروا في السبب الذي لأجله اعتقد اليهود هذا الاستحلال وجوهاً

الأول : أنهم مبالغون في التعصب لدينهم ، فلا جرم يقولون : يحل قتل المخالف ويحل أخذ ماله بأي طريق كان وروي في الخبر أنه لما نزلت هذه الآية قال عليه السلام : "كذب أعداء

الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي ، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البرّ

والفاجر "

الثاني : أن اليهود قالوا ﴿ نَحْنُ أَبْنَاء اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة : 18] والخلق لنا عبيد فلا

سبيل لأحد علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا

(12/122)

الثالث : أن اليهود إنما ذكروا هذا الكلام لا مطلقاً لكل من خالفهم ، بل للعرب الذين آمنوا

بالرسول صلى الله عليه وسلم ، روي أن اليهود بايعوا رجالاً في الجاهلية فلما أسلموا

طالبوهم بالأموال فقالوا : ليس لكم علينا حق لأنكم تركتم دينكم ، وأقول : من المحتمل أنه

كان من مذهب اليهود أن من انتقل من دين باطل إلى دين آخر باطل كان في حكم المرتد ،

فهم وإن اعتقدوا أن العرب كفار إلا أنهم لما اعتقدوا في الإسلام أنه كفر حكموا على العرب

الذين أسلموا بالردة. انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 90 ﴾

لطيفة

قال القرطبى :

قال رجل لابن عباس : إنّا نُصيب في العَمْد من أموال أهل الذمّة الدّجاجة والشاة ونقول :

ليس علينا في ذلك بأس .

فقال له : هذا كما قال أهل الكتاب ﴿ ليس علينا في الأميِّين سبيل ﴾ إنهم إذا أدّوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا عن طِيب أنفسهم ؛ ذكره عبد الرازق عن معمر عن أبي إسحاق الهَمْدانيّ عن صَعْصعة أن رجلاً قال لابن عباس ؛ فذكره . ﴿ تفسير عبد الرازق (130/1) ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 119.118 ﴾

فائدة

قال الفخر :

نفي السبيل المراد منه نفي القدرة على المطالبة والإلزام .

قال تعالى : ﴿ مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ ﴾ [التوبة : 91] وقال : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ الله للكافرين عَلَى المؤمنين سَبِيلاً ﴾ [النساء : 141] وقال : ﴿ وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ فأولئك مَا عَلَيْهِمْ مّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا السبيل عَلَى الذين يَظْلِمُونَ الناس ﴾ [الشورى : 41 42] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 90 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

قوله : " منْ " مبتدأ ، و﴿ وَمِنْ أَهْلِ ﴾ خَبَرُه ، قُدِّمَ عليه ، و" مَنْ " إما موصولة ، وإما

نكرة. و" إن تأمنه بقنطار يؤده" هذه الجملة الشرطية، إما صلة، فلا محل لها، وإما صفة فمحلّها الرفع.

(13/122)

وقرا بعضهم: ﴿ تَأْمَنْهُ ﴾، و﴿ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّ ﴾ [يوسف: 11]. بكسر حرف المضارعة، وكذلك ابن مسعود والأشهب والعقيلي، إلا أنهما أبدلا الهمزة ياءً.

وجعل ابن عطية ذلك لغة قُرَيْشٍ، وغلّطه أبو حيّان وقد تقدّمَ الْكَلَامُ في كسر حرف المضارعةِ، وشرطه في الفاتحة يقال: أمنته بكذا، وعلى كذا، فالباءُ للإلصاق بالأمانة، و" على" بمعنى استيلاء المودع على الأمانة.

وقيل: معنى: أمنته بكذا، وثقت به فيه، وأمنته عليه: جعلته أميناً عليه.

والقنطارُ والدينار: المراد بهما العددُ الكثيرُ، والعدد القليل، يعني: أن فيهم مَنْ هو في غاية الأمانة، حتى أنه لو ائتمِنَ على الأموال الكثيرة أدَّى الأمانة فيها، ومنهم من هو في غاية الخيانة، حتى لو ائتُمِنَ على الشيء القليل فإنه يخون فيه.

واختلف في القنطار، فقيل: ألف ومائتان أوقية؛ لأن الآية نزلت في عبد الله بن سلام، حين استودعه رجل من قريش ألفاً ومائتي أوقية من الذهب، فردَّه، ولم يَخُنْ فيه.

ورُوِي عن ابن عباس أنه مِلْءُ جلد ثور من المال.

وقيل: ألف ألف دينار، أو ألف الف درهم - وقد تقدم-.

والدينار: أصله: دِنَّار - بنونين - فاستثقل توالي مثلَيْن، فأبدلوا أولهما حرفَ علة، تخفيفاً؛ لكثرة دوره في لسانهم، ويدل على ذلك ردُّهُ إلى النونين - تكسيراً وتصغيراً - في قولهم: دَنَانير ودُنَيْنِير.

ومثله قيراط، أصله: قِرَّاط، بدليل قراريط وقُرَيْريط، كما قالوا: تَظَنَّيْتُ، وقصَّصْتُ أظفاري، يريدون: تظنّنت وقصّصت - بثلاث نونات وثلاث صاداتٍ - والدِّينار مُعرَّب، قالوا: ولم يختلف وزنه أصلاً وهو أربعة وعشرون قيراطاً، كل قِيراطٍ ثلاث شعيرات معتدلاتٍ، فالمجموع اثنان وسبعون شعيرةً.

(14/122)

وقرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم "يُؤَدِّهْ" بسكون الهاء في الحرفين.

وقرأ قالون "يُؤَدِّهِ" بكسر الهاء من دون صلة، والباقون بكسرها موصولة بياء، وعن هشام وجهان:

أحدهما: كقالون، والآخر كالجماعة.

أما قراءة أبي عمرو ومن معه فقد خرَّجوها على أوجه، أحسنها أنه سكنت هاء الضمير، إجراءً للوصْل مجرى الوقف وهو باب واسع مضى منه شيء – نحو: ﴿ يَتَسَنَّهْ ﴾ [البقرة: 259] و﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيت ﴾ [البقرة: 258] وسيأتي منه أشياء إن شاء الله تعالى.

وأنشد ابنُ مجاهد على ذلك: [البسيط]

وأشْرَبُ الْمَاءَ مَا بِي نَحْوَهُ عَطَشٌ... إلاَّ لأنَّ عُيُونَهْ سَيْلُ وَادِيهَا

وأنشد الأخفش: [الطويل]

فَبتُّ لَدَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ أخِيلُهُ... وَمِطْوايَ مُشْتَاقَانِ لَهْ أرقَان

إلا أن هذا يخصُّه بعضهم بضرورة الشعر، وليس كما قال، لما سيأتي.

وقد طعن بعضهم على هذه القراءةِ، فقال الزَّجَّاجُ: هذا الإسكان الذي رُوِيَ عن هؤلاء غلط بَيِّنٌ؛ وأن الفاء لا ينبغي أن تجْزَم، وإذا لم تُجْزَم فلا تسكن في الوصل، وأما أبو عمرو فأُراه كان يختلس الكسرة، فغلط عليه كما غلط عليه في " باريكم ". وقد حكى عنه سيبويه – وهو ضابط لمثل هذا – أنه كان يكسر كسراً خفياً، يعني يكسر في ﴿ بَارِئِكُمْ ﴾ [البقرة: 54] كسراً خفيًّا، فظنه الراوي سكوناً.

قال شهابُ الدينِ: وهذا الرد من الزجَّاج ليس بشيءٍ لوجوه:

منها: أنه فرَّ من السكون إلى الاختلاس، والذي نصَّ على أن السكون لا يجوز نص على أنَّ

الاختلاس – أيضا – لا يجوز إلا في ضرورة ، بل جعل الإسكان في الضرورة أحسن منه في الاختلاس ، قال : لِيُجْرَى الوصل مُجرى الوقف إجراء كاملاً ، وجعل قوله : [البسيط]

(15/122)

. . . . إلا لأن عُيُونَهْ سَيْلُ وَادِيهَا

أحسن من قوله : [البسيط]

. . . . مَا حَجَّ رَبَّهُ في الدُّنْيَا ولا اعْتَمَرَ

حيث سكن الأول ، واختلس الثاني .

ومنها أن هذه لغة ثابتة عن العرب حفظها الأئمة الأعلام كالكسائي والفراء – حكى الكسائيُّ عن بني عقيل وبني كلاب ﴿ إِنَّ الإنسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود ﴾ [العاديات : 6] – بسكون الهاء وكسرها من غير إشباع – .

ويقولون : لَهُ مال ، ولَهْ مالٌ – بالإسكان والاختلاس .

قال الفراء : من العرب مَنْ يجزم الهاء – إذا تحرّك ما قبلَها – نحو ضَرَبْتُهْ ضربا شديداً ، فيسكنون الهاء كما يسكنون ميم "أنتم" و "قمتم" وأصلها الرفع .

وأنشد : [الرجز]

لَمَّا رَأى أن لا دَعَهْ ولا شِبَعْ . . . مَالَ إلَى أَرْطَاةِ حِقف فالطَدَعْ

قال شهاب الدينِ : وهذا عجيب من الفرّاء ؛ كيف يُنْشِد هذا البيت في هذا المَعْرِض ؛ لأن هذه الفاء مبدلة من تاء التأنيث التي كانت ثابتةً في الوصل ، فقلبها هاءً ساكنة في الوصل ؛ إجراءً له مُجْرَى الوقف وكلامنا إنما هو في هاء الضمير لا في هاء التأنيثِ ؛ لأن هاء التانيثِ لا حَظَّ لها في الحركة ألبتة ، ولذلك امتنع رومها وإشمامُها في الوقف ، نَصُّوا على ذلك ، وكان الزجاج يُضَعِّف في اللغة ، ولذلك رد على ثعلب - في فصيحه - أشياء أنكرها عن العرب ، فردَّ الناسُ عليه رَدَّه ، وقالوا : قالتها العربُ ، فحفظها ثعلب ولم يحفظْها الزجَّاج . فليكن هذا منها .

وزعم بعضهم أن الفعلَ لما كان مجزوماً ، وحلت الهاءُ محلّ لامِهِ جرى عليها ما يَجْرِي على لام الفعل - من السكون للجزم - وهو غير سديدٍ .

وأما قراءة قالون فأنشدوا عليها قول الشاعر : [الوافر]

لَهُ زَجَلٌ كأَنَّهُ صَوْتُ حَادٍ . . . إذَا طَلَبَ الْوَسِيقَةَ أوْ زَمِيرُ

وقول الآخر : [الطويل]

أَنَا ابْنُ كِلابٍ وابْنُ أوْسٍ فَمَنْ يَكُنْ . . . قِنَاعُهُ مغْطِيًّا فَإنِّي لَمُجْتَلى

وقول الآخر : [البسيط]

أوْ مَعْبَرُ الظَّهْرِ يُنْبِي عَنْ وَلِيَّتِهِ . . . مَا حَجَّ رَبَّهُ فِي الدُّنْيَا ولا اعْتَمَرَ

وقد تقدم أنها لغة عقيل ، وكلاب أيضاً ، وأما قراءة الباقين فواضحة وقرأ الزهريّ " يُؤَدِّهو " بضم الهاء بعدها واو ، وهذا هو الأصل في هاء الكتابة ، وقرأ سَلاَّم كذلك إلا أنه ترك الواوَ فاختلس ، وهما نظيرتا قراءتي " يؤدهي " و﴿ يُؤَدِّهِ ﴾ - بالإشباع والاختلاس مع الكسرِ

واعلم أن هذه الهاء متى جاءت بعد فعل مجزوم ، أو أمر معتلِّ الآخر ، جَرَى فيها هذه الأوجُه الثلاثة أعني السكون والإشباع والاختلاس - كقوله : ﴿ نُؤْتِهِ مِنْهَ ﴾ [آل عمران : 145] وقوله : ﴿ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر : 7] وقوله : ﴿ مَا تولى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ﴾ [النساء : 115] ، وقوله : ﴿ فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمِ ﴾ [النمل : 28] وقد جاء ذلك في قراءة السبعة - أعني : الأوجه الثلاثة - في بعض هذه الكلمات وبعضها لم يأت فيه إلا وجه - وسيأتي مفصّلاً في مواضعه إنْ شاء الله . وليس فيه أن الهاء التي للكناية متى سبقها متحرّك فالفصيح فيها الإشباع ، نحو " إنَّهُ ، لَهُ ، بِهِ " ، وإن سبقها ساكن ، فالأشهر

الاختلاس - سواء كان ذلك الساكن صحيحاً أو معتلاً - نحو فيه ، منه وبعضهم يفرق بين المعتلْ والصحيح وقد تقدم ذلك أول الكتاب .

(17/122)

إذا علم ذلك فنقول : هذه الكلمات - المشار إليها - إن نظرنا إلى اللفظ فقد وقعت بعد متحرِّك ، فحقها أن تشبع حركتها موصولةً بالياء ، أو الواو ، وإن سكنت فلما تقدم من إجراء الوصل مُجرى الوقف . وإن نظرنا إلى الأصل فقد سبقها ساكن - وهو حَرْفُ العلة المحذوف للجزم - فلذلك جاز الاختلاسُ ، وهذا أصل نافع مطرد في جميع هذه الكلمات .

قوله ﴿ بِدِينَارٍ ﴾ في هذه الباء ثلاثة أوجهٍ :

أحدها : أنها للإلصاق ، وفيه قلَقٌ .

الثاني : أنها بمعنى " في " ولا بد من حذف مضاف ، أي : في حفظ قنطار ، وفي حفظ دينار .

الثالث : أنها بمعنى " على " وقد عُدّيَ بها كثيراً ، كقوله : ﴿ مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا على يُوسُفَ ﴾ [يوسف : 11] وقوله : ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ على أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ [

يوسف : 64] وكذلك هي في ﴿ بِقِنطَارٍ ﴾ .

قوله : ﴿ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً ﴾ استثناء مفرَّغ من الظرف العام ؛ إذ التقدير : لا يؤده إليك في جميع المُدِدِ والأزمنة إلا في مدة دوامك قائماً عليه ، متوكّلاً به و" دُمْتَ " هذه هي الناقصةُ ، ترفع وتنصب ، وشرط إعمالها أن يتقدمها ما الظرفية كهذه الآية إذ التقدير إلا مدة دومك [ولا ينصرف ، فأما قولهم : " يدوم " فمضارع " دام " التامة بمعنى بقي ، ولكونها صلة لـ " ما " الظرفية] لزم أن يكون بحاجة إلى كلام آخر ، ليعمل في الظرف نحو أصحبك ما دمت باكياً ولو قلت ما دام زيد قائماً من غير شيء لم يكن كلاماً .

(18/122)

وجوز أبو البقاء في " ما " هذه أن تكون مصدرية فقط ، وذلك المصدر - المنسبك منها ومن دام - في محل نصب على الحال ، وهو استثناءٌ مفرّغ - أيضاً - من الأحوال المقدَّرة العامة ، والتقدير : إلا في حال ملازمتك له ، وعلى هذا ، فيكون " دَامَ " هنا تامة ؛ لما تقدم من أن تقدُّمَ الظرفية شرط في إعمالها ، فإذا كانت تامة انتصب " قَائماً " على الحال ، يقال : دام يدُوم - كقام يقوم - و" دُمت قائماً " بضم الفاء وهذه لغة الحجاز ، وتميم يقولون : دِمْت - بكسرها - وبها قرأ أبو عبد الرحمن وابن وثّابٍ والأعمشُ وطلحة والفياضُ بن

غزوان وهذه لغة تميم ، ويجتمعون في المضارع ، فيقولون : يدوم يعني : أن الحجازيين والتميميين اتفقوا على أن المضارع مضمومُ العَيْنِ ، وكان قياسُ تميم أن تقول يُدام كخاف يخاف – فيكون وزنها عند الحجازيين فعَل – بفتح العين – وعند التميميين فِعل بكسرها هذا نقل الفراء .

وأما غيره فنقل عن تميم أنهم يقولون : دِمْتُ أدام – كخِفت اخاف – نقل ذلك أبو إسحاق وغيره كالراغب الأصبهاني والزمخشري .

وأصل هذه المادة : الدلالة على الثبوت والسكون ، يقال : دام الماء ، أي سكن . وفي الحديث : "لا يبولن أحدكم في الماء الدائم" وفي بعضه بزيادة : الذي لا يجري ، وهو تفسير له ، وأدَمْت القِدْرَ ، ودومتها سكنت غليانها بالماء ، ومنه : دامَ الشيء ، إذا امتدَّ عليه الزمان ، ودوَّمت الشمس : إذا وقعت في كبد السماء .

قال ذو الرمة : [البسيط]

. . . . وَالشَّمْسُ حيْرَى لَهَا في الْجَوِّ تَدْوِيمُ

هكذا أنشد الراغبُ هذا الشطر على هذا المعنى ، وغيره ينشده على معنى أن الدوام يُعَبَّر به عن الاستدارة حول الشيء ، ومنه الدوام ، وهو الدُّوَار الذي يأخذ الإنسان في دماغه ، فيرى الأشياء دائرة . وأنشد معه - أيضاً - قول علقمة به عَبدَة : [البسيط]

تَشْفِي الصُّدَاعَ وَلاَ يُؤْذِيكَ سَالِيهَا . . . وَلاَ يُخَالِطُهَا فِي الرَّأْسِ تَدْوِيمُ

ومنها : دوَّم الطائر ، إذا حلَّق ودار .

قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا ﴾ يجوز أن يكون في "ليس" ضمير الشأنِ - وهو اسمها - وحينئذ يجوز أن يكون "سبيل" مبتدأ ، و"عَلَيْنَا" الخبر ، والجملة خبر ليس . ويجوز أن يكون "عَلَيْنَا" وحده هو الخبر ، و﴿ سَبِيلٌ ﴾ مرتفع به على الفاعلية . ويجوز أن يكون ﴿ سَبِيلٌ ﴾ اسم "ليس" والخبر أحد الجارين أعني : ﴿ عَلَيْنَا ﴾ أو ﴿ فِي الأميين ﴾ .

ويجوز أن يتعلق ﴿ فِي الأميين ﴾ بالاستقرار الذي تعلق به "عَلَيْنَا" وجوّز بعضهم أن يتعلق بنفس "ليس" نقله أبو البقاء ، وغيرُه ، وفي هذا النقل نظر ؛ وذلك أن هذه الأفعال النواقص في عملها في الظروف خلاف ، وَبَنَوُا الخلافَ على الخلاف في دلالتها على الحدث ، فمن قال : تدل على الحدث جوز إعمالها في الظرف وشبهه ، ومن قال : لا تدل على الحدث منعوا إعمالها . واتفقوا على أن "ليس" لا يدل على حدث ألبتة ، فكيف تعمل ؟ هذا ما لا يُعْقَل .

ويجوز أن يتعلق ﴿ فِي الأميين ﴾ بـ"سَبِيلٌ" ، لأنه استعمل بمعنى الحرجِ ، والضمانِ ،

ونحوها . ويجوز أن يكون حالاً منه فيتعلق بمحذوف .

قال : فالأمي منسوب إلى الأم ، وسُمِّي النبي صلى الله عليه وسلم أمياً ؛ قيل : لأنه كان لا يكتب ، وذلك لأن الأمَّ : أصل الشيء فمن لا يكتب فقد بَقِي على أصله في أن لا يكتب .

(20/122)

وقيل : نسبة إلى مكة ، وهي أمُّ القُرَى انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 329 . 337 ﴾ . بتصرف يسير .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى الله الكذب وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

قال الفخر :

فيه وجوه

الأول : أنهم قالوا : إن جواز الخيانة مع المخالف مذكور في التوراة وكانوا كاذبين في ذلك وعالمين بكونهم كاذبين فيه ومن كان كذلك كانت خيانته أعظم وجرمه أفحش

الثاني : أنهم يعلمون كون الخيانة محرمة

الثالث : أنهم يعلمون ما على الخائن من الإثم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 90 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الكذب وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يدل على أن الكافر لا يُجعل أهلاً لقبول شهادته ؛ لأن الله تعالى وصفه بأنه كذاب .

وفيه ردّ على الكفرة الذين يحرِّمون ويحلّلون غير تحريم الله وتحليله ويجعلون ذلك من الشرع .

قال ابن العربي : ومن هذا يخرج الردّ على من يحكم بالاستحسان من غير دليل ، ولست أعلم أحداً من أهل القِبْلة قاله .

وفي الخبر : لما نزلت هذه الآية قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدميّ إلا الأمانة فإنها مؤدّاة إلى البَرّ والفاجر " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 119 ﴾

من فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

وقد ذكر الله هنا أنّ في أهل الكتاب فريقين : فريقاً يؤدّي الأمانة تعففاً عن الخيانة وفريقاً لا يؤدّي الأمانة متعلّلين لإباحة الخيانة في دينهم ، قيل : ومن الفريق الأول عبد الله بن سلام ، ومن الفريق الثاني فِنْحَاص بن عازوراء وكلاهما من يهود يثرب والمقصود من الآية ذمّ الفريق الثاني إذ كان من دينهم في زعمهم إباحة الخَون قال : ﴿ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأمين سبيل ﴾ فلذلك كان المقصود هو قوله : ﴿ ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك ﴾ إلخ ولذلك طُوِّل الكلام فيه .

وإنما قدّم عليه قوله : ﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار ﴾ إنصافاً لحقّ هذا الفريق ، لأنّ الإنصاف مما اشتهر به الإسلام ، وإذ كان في زعمهم أنّ دينهم يبيح لهم خيانة غيرهم ، فقد صار النعيُ عليهم ، والتعبيرُ بهذا القول لازماً لجميعهم أمينهم وخائنهم ، لأنّ الأمين حينئذ لا مزية له إلاّ في أنّه ترك حقاً يبيح له دينُه أخذه ، فترفّع عن ذلك كما يترفع المتغالي في المروءة عن بعض المباحات .

وتقديم المسند في قوله : ﴿ ومن أهل الكتاب ﴾ في الموضعين للتعجيب من مضمون صلة المسند إليهما : ففي الأول للتعجيب من قوة الأمانة ، مع إمكان الخيانة ووجود العذر له في عادة أهل دينه ، وفي الثاني للتعجيب من أن يكون الخَوْن خُلُقاً لمتبع كتاب من كتب الله ، ثم يزيد التعجيبُ عند قوله : ﴿ ذلك بأنهم قالوا ﴾ فيكسب المسند إليهما زيادة عجَب حالٍ .

وعُدّي ﴿ تأمنه ﴾ بالباء مع أنّ مثله يتعدّى بعلي كقوله : ﴿ هل آمنكم عليه ﴾ [يوسف : 64] ، لتضمينه معنى تُعامله بقنطار ليشمل الأمانة بالوديعة ، والأمانَة بالمعاملة على الاستيمان ، وقيل الباء فيه بمعنى على كقول أبي ذرّ أو عباسسٍ بن مِرداس :

أربٌّ يَبول الثُعْلُبَان برِأسه

(22/122)

وهو محمل بعيد ، لأنّ الباء في البيت للظرفية كقوله تعالى : ﴿ ببطن مكة ﴾ [الفتح : 24] .

وقرأ الجمهور ﴿ يؤدِّه ﴾ إليك بكسر الهاء من يؤدِّه على الأصل في الضمائر .

وقرأه أبو عمرو ، وحمزة ، وأبو بكر عن عاصم ، وأبُو جعفر : بإسكان هاء الضمير في يؤدّه ، فقال الزجاج : هذا الإسكان الذي روي عن هؤلاء غلط بيِّن لأنّ الهاء لا ينبغي أن تجزم وإذا لم تجزم فلا يجوز أن تكسر في الوصل (هكذا نقله ابن عطية ومعناه أنّ جزم الجواب لا يظهر على هاء الضمير بل على آخر حرف من الفعل ولا يجوز تسكينها في الوصل كما في أكثر الآيات التي سكنوا فيها الهاء) .

وقيل هو إجراَء للوصل مُجرى الوقف وهو قليل ، قال الزجاج : وأما أبو عمرو فأراه كان

يختلس الكسر فغلط عليه من نقله وكلام الزجاج مردود لأنه راعى فيه المشهور من الاستعمال المقيس ، واللغة أوسع من ذلك ، والقراءة حجة .

وقرأه هشام عن ابن عامر ، ويعقوب باختلاس الكسر .

وحكى القرطبي عن الفرّاء : أنّ مذهب بعض العرب يجزمون الهاء إذا تحرّك ما قبلها يقولون ضربته كما يسكنون ميم أنتم وقمتم وأصله الرفع وهذا كما قال الراجز :

لَما رَأَى ألاّ دَعَهْ ولاَ شِبَع

مَالَ إلى أرْطَاةِ حقف فاضطجع . . .

والقِنطار تقدم آنفاً في قوله تعالى : ﴿ والقَناطير المقنطرة من الذهب والفضة ﴾ [آل عمران : 14]

والدينار اسم للمسكوك من الذهب الذي وزنه اثنتان وسبعون حبة من الشعير المتوسط وهو معرّب دِنَّار من الرومية .

وقد جعل القنطار والدينار مَثَلين للكثرة والقلة ، والمقصود ما يفيده الفحوى من أداء الأمانة فيما هو دون القنطار ، ووقوع الخيانة فيما هو فوق الدينار .

وقوله : ﴿ إلا ما دمت عليه قائماً ﴾ أطلق القيام هنا على الحرص والمواظبة : كقوله : ﴿ قائماً بالقسط ﴾ [آل عمران : 18] أي لا يفعل إلاّ العدل .

وعديّ "قائماً" بحرف (على) لأنّ القيام مجاز على الإلحاح والترداد فتعديته بحرف الاستعلاء قرينة وتجريد للاستعارة.

و(ما) من قوله: ﴿ إلا ما دمت عليه قائماً ﴾ حرف مصدري يصير الفعل بعده في تأويل مصدر، ويكثر أن يقدر معها اسم زمان ملتزَمٌ حذفه يدل عليه سياق الكلام فحينئذ يقال ما ظرفية مصدرية.

وليست الظرفية مدلولها بالأصالة ولا هي نائبة عن الظرف، ولكنها مستفادة من موقع (مَا) في سياق كلام يؤذن بالزمان، ويكثر ذلك في دخول (ما) على الفعل المتصرّف من مادة دَام ومرادفها.

و(ما) في هذه الآية كذلك فالمعنى: لا يؤدّه إليك إلاّ في مدة دوام قيامك عليه أي إلحاحك عليه.

والدوام حقيقته استمرار الفعل وهو هنا مجاز في طول المدة، لتعذر المعنى الحقيقي مع وجود أداة الاستثناء، لأنه إذا انتهى العمر لم يحصل الإلحاح بعدَ الموت.

والاستثناء من قوله: ﴿ إلا ما دمت عليه قائماً ﴾ يجوز أن يكون استثناء مفرّغاً من أوقات يدل عليها موقع (مَا) والتقدير لا يؤدّه إليك في جميع الأزمان إلاّ زماناً تدوم عليه فيه قائماً فيكون ما بعد (إلاّ) نصباً على الظرففِ، ويجوز أن يكون مفرّغاً من مصادر يَدل

عليها معنى (ما) المصدرية ، فيكون ما بعده منصوباً على الحال لأنّ المصدر يقع حالاً .

وقدّم المجرور على متعلقه في قوله : ﴿ عليه قائماً ﴾ للاهتمام بمعنى المجرور ، ففي تقديمه معنى الإلحاح ، أي إذا لم يكن قيامُك عليه لا يُرجعُ لك أمانتك .

والإشارة في قوله : ﴿ ذلك بأنهم قالوا ﴾ إلى الحكم المذكور وهو ﴿ إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك ﴾ وإنما أشير إليه لكمال العناية بتمييزه لاختصاصه بهذا الشأن العجيب .

(24/122)

والباء للسبب أي ذلك مُسَبَبُ عن أقوال اختلقوها ، وعبّر عن ذلك بالقول ، لأنّ القول يصدر عن الاعتقاد ، فلذا ناب منابه فأطلق على الظنّ في مواضع من كلام العرب .

وأرادوا بالأميين من ليسوا من أهل الكتاب في القديم ، وقد تقدم بيان معنى الأمي في سورة البقرة .

وحرف (في) هنا للتعليل .

وإذ قد كان التعليل لا يتعلق بالذوات ، تعيَّن تقدير مضاف مجرور بحرف (في) والتقدير في معاملة الأمّيّين .

ومعنى ليس علينا في الأميين سبيل ليس علينا في أكل حقوقهم حرج ولا إثم ، فتعليق الحكم

بالأميين أي ذواتِهم مراد منه أعلق أحوالهم بالغرض الذي سبق له الكلام .

فالسبيل هنا طريق المؤاخذة ، ثم أطلق السبيل في كلام العرب مجازاً مشهوراً على المؤاخذة قال تعالى : ﴿ مَا على المحسنين من سبيل ﴾ [التوبة : 91] وقال : ﴿ إنما السبيل على الذين يستأذنوك ﴾ [التوبة : 93] وربما عبّر عنه العرب بالطريق قال حُميد بن ثور :

وهل أنا إن علّلتُ نفسي بسَرحة

من السرْح موجود عليَّ طريق . . .

وقصدهم بذلك أن يحقروا المسلمين ، ويتطاولوا بما أوتوه من معرفة القراءة والكتابة مِنْ قبلهم .

أو أرادوا الأميين بمعرفة التوراة ، أي الجاهلين : كناية عن كونهم ليسوا من أتباع دِين موسى عليه السلام .

وأيّاماً كان فقد أُنبَأ هذا عن خلق عجيب فيهم ، وهو استخفافهم بحقوق المخالفين لهم في الدين ، واستباحة ظُلمهم مع اعتقادهم أنّ الجاهل أو الأمّي جدير بأن يدحَضُ حقُه .

والظاهر أنّ الذي جرّأهم علَى هذا سوء فهمهم في التوراة ، فإنّ التوراة ذكرت أحكاماً فرّقت فيها بين الإسرائيلي وغيره في الحقوق ، غير أنّ ذلك فيما يرجع إلى المؤاساة والمخالطة بين الأمة ، فقد جاء في سفر التثنية الإصحاح الخامس عشر : "في آخر سبع سنين تعمل إبراء يبرىء كلُ صاحب دين يدَه ممّا أقرض صاحبه .

الأجنبيَّ تُطالِب ، وأما ما كان لك عند أخيك فتبرئة" وجاء في "الإصحاح" 23 منه : "لا تقرض أخاك بربا فضة أو ربا طعام وللأجنبي تُقرض بربا" ولكن شتّان بين الحقوق وبين المؤاساة فإنّ تحريم الربا إنما كان لقصد المؤاساة ، والمؤاساة غير مفروضة مع غير أهل الملّة الواحدة .

وعن ابن الكلبي قالت اليهود : الأموال كلّها كانت لنا ، فما في أيدي العرب منها فهو لنا ، وإنهم ظلمونا وغصبونا فلا إثم علينا في أخذ أموالنا منهم .

وهذا الخلقان الذميمان اللذان حكاهما الله عن اليهود قد اتصف بهما كثير من المسلمين ، فاستحلّ بعضهم حقوق أهل الذمة ، وتأوّلوها بأنهم صاروا أهل حرب ، في حين لا حرب ولا ضرب .

وقد كذّبهم الله تعالى في هذا الزعم فقال : ﴿ ويقولون على الله الكذب ﴾ قال المفسرون : إنهم ادّعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم .

وروى عن سعيد بن جبير أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه ﴾ إلى قوله ﴿ وهم يعلمون ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم "كذب أعداء الله ما من شيء

كان في الجاهلية إلاّ وهو تحت قدميّ هاتين إلاّ الأمانة فإنها مؤدّاة إلى البرّ والفاجر .

وقوله وهم يعلمون حال أي يعتمدون الكذب : إما لأنهم علموا أنّ ما قاسوه على ما في كتابهم ليس القياس فيه بصحيح ، وإما لأنّ التأويل الباطل بمنزلة العلم بالكذب ، إذ الشبهة الضعيفة كالعهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ 131.135﴾

فصل

قال القرطبى :

الأمانة عظيمة القَدْر في الدِّين ، ومن عِظم قدرها أنها تقوم هي والرَّحِم على جَنَبَتَي الصراط ؛ كما في صحيح مسلم .

فلا يُمَكّن من الجواز إلا من حفظهما .

وروى مسلم عن حذيفة قال حدّثنا النبيّ صلى الله عليه وسلم عن رفع الأمانة ، قال : " ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه " الحديث .

وقد تقدم بكماله أوّل البقرة .

وروى ابن ماجه حدّثنا محمد ابن المُصَفَّى حدّثنا محمد بن حرب عن سعيد بن سِنان عن أبي الزاهريّة عن أبي شجرة كثير ابن مُرة عن ابن عمر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله عز وجل إذا أراد أن يهلك عبداً نزع منه الحياء فإذا نزع منه الحياء لم تَلقه إلا مَقِيتاً مُمْقَتاً فإذا لم تلقه إلا مَقِيتاً مُمْقَتاً نُزعت منه الأمانة فإذا نزعت منه الأمانة لم تَلقه إلا خائناً مُخَوّناً فإذا لم تلقه إلا خائناً مخوّناً نُزعت منه الرحمة فإذا نُزعت منه الرحمة لم تلقه إلا رجِيماً ملعناً فإذا لم تَلقه إلا رجِيماً مُلْعَناً نزعت منه رِبْقة الإسلام " وقد مضى في البقرة معنى قوله عليه السلام : " أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك " والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبي حـ 4 صـ 117. 118 ﴾

(27/122)

فصل

قال ابن كثير :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ [بَعْضَ] بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ ، فَقَالَ : ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ . فَقَالَ : كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا . قَالَ : ائْتِنِي بِالْكَفِيلِ . قَالَ : كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلا . قَالَ :

صدقْتَ. فدفعها إليْهِ إلى أجلٍ مُسمًّى، فخرَجَ فِي الْبحْرِ فقضى حاجتَهُ، ثُمَّ الْتمس مرْكَبًا يرْكَبُها يقْدمُ عليْهِ للأجل الّذي أجَّلَهُ، فلَمْ يجدْ مرْكبًا، فأخَذَ خشبةً فنقرها فأدْخل فِيها ألْفَ دينارٍ، وصحِيفةً منْهُ إلى صاحِبه، ثُمَّ زجَّجَ موْضِعَها، ثُمَّ أتى بها إلى الْبحْرِ، فقال: اللَّهُمَّ إنَّك تعْلَمُ أنِّي استسْلَفت فُلانًا ألْفَ دِينارٍ فسألني كَفِيلا فقُلْتُ: كَفَى باللَّهِ كَفِيلا فرَضِيَ بكَ. وسألني شَهِيدًا، فقُلْتُ: كَفَى باللَّهِ شَهِيدًا فرَضِيَ بكَ، وإنِّي جَهَدْتُ أنْ أجِدَ مرْكَبًا أبْعثُ إليْهِ الّذي لهُ فلَمْ أقْدِرْ، وإنِّي اسْتَوْدَعْتُكَهَا. فرمى بها فِي الْبحْرِ حتَّى ولَجتْ فيه، ثُمَّ انْصرف وهُو فِي ذلِكَ يلْتمسُ مرْكَبًا يخْرُجُ إلى بلَدِه، فخرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كانَ أسْلَفهُ ينْظُرُ لعَلَّ مرْكَبًا يجِيئُهُ بمالِه، فإذا بالْخشبَةِ الَّتِي فِيها الْمالُ، فأخذَها لأهْلِهِ حطَبًا، فلمَّا كسرَها وجَدَ الْمالَ والصَّحِيفةَ، ثُمَّ قدِمَ الَّذِي كانَ تسَلَّفَ مِنْهُ، فأتاه بألْفِ دِينارٍ، وقال: واللَّهِ ما زِلْتُ جاهِدًا

(28/122)

فِي طلَبِ مرْكَبٍ لآتِيَكَ بمالِكَ، فما وجدْتُ مرْكَبًا قبْلَ الَّذِي أتيْتُ فِيهِ. قال: هلْ كُنْتَ بعَثْتَ إليَّ بشَيْءٍ؟ قال: ألَمْ أُخْبِرْكَ أنِّي لمْ أجِدْ مرْكَبًا قبْلَ هذا؟ قال: فإنَّ اللَّهَ قدْ أدَّى عنْكَ الَّذِي بعَثْتَ فِي الْخشَبَةِ، فانْصرِفْ بألْفِ دِينارٍ راشِدًا. (1) انتهى انتهى. اهـ

﴿ تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 61 ﴾

فصل

قال القرطبى :

ليس في هذه الآية تعديل لأهل الكتاب ولا لبعضهم خلافاً لمن ذهب إلى ذلك ؛ لأن فُسّاق المسلمين يوجد فيهم من يؤدّي الأمانة ويؤمن على المال الكثير ولا يكونون بذلك عدولاً .

فطريق العدالة والشهادة ليس يجزىء فيه أداء الأمانة في المال من جهة المعاملة والوديعة ؛ ألا ترى قولهم : ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأميين سَبِيلٌ ﴾ فكيف يعدل من يعتقد استباحة أموالنا وحَريمنا بغير حرج عليه ؛ ولو كان ذلك كافياً في تعديلهم لسُمعت شهادتهم على المسلمين .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 118 ﴾

---

(1) صحيح البخاري في الكفالة برقم (2291) وفي غيرها برقم (1498) ، (2404) ، (2430) ، (2744) ، (6261) والمسند (2/348) .

(29/122)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ

بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ الآية .

أخبر أنهم – مع ضلالتهم وكفرهم – متفاوتون في أخلاقهم ، فكُلُّهم خَوَنَةٌ في أمانة الدِّين ، ولكنّ منهم من يرجع إلى سداد المعاملة ، ثم وإن كانت معاملتهم بالصدق فلا ينفعهم ذلك في إيجاب الثواب ولكن ينفعهم من حيث تخفيف العذاب ؛ إذ الكفار مُطَالَبُون بتفصيل الشرائع ، فإذا كانوا في كفرهم أقلَّ ذنباً كانوا بالإضافة إلى الأخسرين أقلَّ عذاباً ، وإن كانت عقوبتهم أيضاً مؤبَّدة .

ثم بيّن أنه ليس الحكم إليهم حتى إذا :

﴿ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ .

فلا تجري عليهم هذه الحالة ، أو تنفعهم هذه القالة ، بل الحكم لله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 252 ﴾

(30/122)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾

إنه مطلق الإنصاف الإلهي ، فإذا كان الحق قد كشف للرسول بعضا من مكر أهل الكتاب فذلك لا يعني أن هناك حملة على أهل الكتاب وكأنهم كلهم أهل سوء ، لا ، بل منهم مَنْ يتميز بالأمانة ، وهذا القول إنما يؤكد إنصاف الإله المنصف العدل .

إن الحق سبحانه يخاطب النفوس التي يعلمها ، فهو يعلم أن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، قد نزلت رحمة للناس أجمعين ، ويخاطب بها العالم كله بما فيه من أهل الكتاب ، وهم الذين يعرفون الآيات والعلامات التي تدل على مجيء رسالة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومنهم أناس قد جعلوا دعوة محمد صلى الله عليه وسلم في بؤرة شعورهم ليدرسوها ويؤمنوا بها . ولو أن الله قد جعل الحملة على كل أهل الكتاب ، لقال الذين كفروا في الإيمان برسول الله : "كنا نفكر في أن نؤمن ، ونحن نريد أن ننفذ تعاليم الله لنا لكن محمدا يشن حملة على كل أهل الكتاب ونحن منهم " .

فساعة يقول الله إن بعضا من أهل الكتاب يتميزون بالأمانة فإن من تراوده فكرة الإسلام يقولون : إن محمد صلى الله عليه وسلم لا يتكلم إلا عن نور من ربه ، لكن لو عمم القرآن الحكم على الكل ، لتساءل الذين ينشغلون برغبة الإيمان بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم "لماذا يعم الحكم الجميع ونحن نسير في الطريق إلى الإيمان ؟ " .

ولهذا يضع الحق القول الفصل في أن منهم أناساً يتجهون إلى الإيمان :

﴿ لَيْسُواْ سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَآءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾

[آل عمران: 113].

وفي هذا ما يطمئن الذي شغلوا أنفسهم بدراسة هذا الدين والتفكير في أن يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم.

لو كان القرآن قد نزل بلعنتهم جميعا لقال الذين يفكرون منهم في الإيمان " نحن لسنا كذلك ولا نستحق اللعنة، فلماذا يأتي محمد بلعنتنا ؟ ".

لذلك نرى القول بأن ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ العدل المطلق في الإنصاف:

وقد قال بعض المفسرين: إن القرآن يقصد هنا من ﴿ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ النصارى؛ لأن منهم أصحاب ضمير حي، ونحن نعرف أن المقصود بأهل الكتاب هم اليهود والنصارى، وفي هذا التفسير إنصاف للنصارى فصفة الخير لهم لا ينكرها الله، بل يشيعها في قرآنه الذي يُتلى إلى يوم الدين، وذلك ليصدق أيضا أهل الكتاب أيَّ أمر سيء تنزل فيه آيات من القرآن، لأن القرآن منصف مطلق الإنصاف. فما دام قد قال خصلة الخير فيهم فلا بد أن يكون صادقا عندما يقول الأمور السيئة التي اتصفوا بها.

وعندما يقول الحق سبحانه: " ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك " فالقنطار

هنا للمبالغة في القدر الكبير من المال ، وكلمة الأمانة حينما نستعرضها في كتاب الله عز وجل نجد أنها مرة تتعدى بالباء ، كمثل هذه الآية ﴿ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ ﴾ ومرة تتعدى بـ " على " :

﴿ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾

[يوسف : 11] وقوله الحق

﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

[يوسف : 64] .

إن مادة الأمانة تأتي متعدية مرة بالباء ، ومرة متعدية بـ " على " .

وكل حرف من هذين الحرفين له حكمة ، فالمتكلم هو الله .

إن الأمانة هي شيء يأتمن فيه مؤتِمن على مؤتَمن ولا حجة لصاحب الشيء المؤتَمن عليه إلا ذمة المؤتَمن فإن كانت العلاقة بينهما محكومة بإيصال أو عقد ، أو شهود فهذه ليست أمانة إنما الأمانة هي ما يعطيها انسان لاخر فيما بينهما ، وبعد ذلك فالمؤتمن بعد ذلك إما أن

يُقرّبها وإمّا لا يقرّبها .

وقلنا سابقا : إن على المؤمن الحق أن يحتاط للأمانة ، لأن هناك وقتاً تتحمل فيه الأمانة ، وهناك وقت آخر تؤدي فيه الأمانة إن طلبها صاحبها .

ومثال تحمل الأمانة كأن يعرض عليك إنسان مبلغا من المال ، ويقول : " احفظ هذا المبلغ أمانة عندك " فتقول له : نعم سأفعل . وتأخذ المبلغ ، إن هذا الفعل يسمى " التحمل " ، وعندما يأتي صاحب المال ليطلبه فهذا اسمه " الأداء " والكل يضمنون أنفسهم وقت التحمل ، وقد تكون النية هكذا بالفعل ، ولكن المؤمن الحق لا يأمن ظروف الأغيار ، فمن المتحمل أنه عندما يأتي صاحب المال ليطلبه من المؤتَمن يجد المؤمن نفسه وقد انشغل بالأغيار ، فقد تكون ظروف الحياة قد داهمته مما دفعه ليتصرف في الأمانة أو أن تكون نفسه قد تحركت ، وقالت له : وماذا يحدث لو تصرفت في الأمانة ؟ إن المؤمن الحق لا يضمن نفسه وقت الأداء ، وإن ضمن نفسه وقت التحمل .

إذن يجب أن نلحظ في الأمانة ملحوظتين هما " الأداء " و " التحمل " . والذي يأخذون الأمانة وفي نيتهم أن يؤدوها ضمنوا أنفسهم وقت التحمل ، لكنهم لا يضمنون أنفسهم وقت الأداء لذلك فالمؤمن المحتاط يقول لنفسه : ولماذا أعرض نفسي لذلك ، فقد يأتي وقت الأداء فلا أستطيع ردّها لصاحبها .

لذلك يقول لصاحب الأمانة : أرجوك ابتعد عني فأنا لن أحمل هذه الأمانة .

إنه خائف من وقت الأداء وذلك ما حدث في أمانة التكليف والاختيار والتي قال عنها الحق سبحانه :

(33/122)

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾

[الأحزاب : 72] .

إن السماء والأرض والجبال طلبوا ألا يكون لهم اختيار وأن يظلوا مقهورين ؛ لأنهم لا يضمنون لحظة الأداء ، أما الإنسان فلأنه ظلوم جهول فقد قال : " لا ، إنني عاقل وسأرتب الأمور " فالإنسان ظلوم لنفسه ، وجهول لأنه لم يعرف ماذا يفعل وقت الأداء .

لذلك نرى هنا القول الحق : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ ﴾ ونجد الأمانة متعدية بالباء ، فمعنى الباء - في اللغة - الإلصاق ، أي التصق القنطار بأمانته ، فأصبح هناك ارتباط وامتزاج ، وإياك ساعة الأداء أن تفصل الأمانة عن القنطار ، فساعة يغريك قنطار الذهب ببريقه فعليك أن تلصق الأمانة بالقنطار ، وإياك أن يغريك قنطار فتترك أمانتك لأنك إن نظرت إلى القنطار دون أن تنظر إلى الأمانة فهذه هي الخيبة .

أما استعمال " على " مع الأمانة ، فـ " على " في اللغة تأتي للاستعلاء والتمكن ، أي اجعل الأمانة مستعلية على القنطار ، وبذلك تصير أمانتك فوق القنطار ، فساعة تحدثك نفسك بأن تأخذ القنطار لأنه يدير لك حركة حياتك ، ولأنه يخرجك إلى دنيا عريضة مغرية فتذكر عز الأمانة ، ولهذا نجد الفقهاء قد قالوا بقطع يد السارق في ربع دينار ، وجعلوا دية قطع يد إنسان لم يسرق خمسمائة دينار وتساؤل البعض قائلا : يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار

فقال فقيه ردا على ذلك المعترض : عز الأمانة أغلاها ، وأرخصها ذل الخيانة ، فافهم حكمة الباري

(34/122)

إذن قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ ﴾ هذا القول جاء بالباء ليلصق الأمانة بما اؤتمن عليه ولا يفصل بينهما أبدا لأنه لو فصل الأمانة وعِزَّها عن القنطار ربما سولت له نفسه أن يأخذ القنطار ويترك الأمانة .

وكذلك عندما تأتي الأمانة متعدية بعلى ، تكون الأمانة فوق الشيء المؤتمن عليه ، فالأمانة يجب أن تكون مستعلية على الشيء مهما غلت قيمته ، ويقول الحق من بعد ذلك : ﴿

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً ﴾ أي أن تكون دائم السؤال عن دينارك الذي ائتمنت عليه ذلك الإنسان، وأن تلح في طلب دينارك.

ومن بعد ذلك يقول الحق: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ وقد قام بعض من بني إسرائيل على عهد رسول الله، بخديعة الأميين من العرب المؤمنين فأنكروا حقوقهم. والمقصود بالأميين هنا المؤمنون الذين لم يكونوا من أهل الكتاب، أو هم المنسوبون إلى الأم كما قال الحق:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

[النحل: 78].

أو أن يكون المقصود "بالأميين" أهل مكة، فقد كانوا يسمونهم كذلك لأنهم منسوبون إلى أم القرى "مكة المكرمة".

(35/122)

من أين جاء أهل الكتاب إذن بهذا الأسلوب المزدوج في معاملة الناس؟ ومن الذي وضع هذا المنهج الذي يقضي بخديعة المؤمنين الأميين؟ وهل الفضائل ومنازل الخلق تختلف في

المعاملة من إنسان إلى آخر ؟ وهل يقضي الخلق القويم أن يأخذ إنسان الأمانة وينكرها إذا كانت لرجل أمي ؟ ويرد الأمانة ويعترف بها إن كانت ليهودي ؟ هل يصح أن يقرض إنسان أمواله بالربا لغير اليهود ، ويقرض اليهود دون ربا ؟ إذن تكون هذه المعاملات مجحفة ، هنا فضيلة ، وهناك لا فضيلة ، لا ، إن القضية يجب أن تكون مستوية ومكتملة في كل وقت وكل زمان ولكل إنسان ، ولا ينبغي أن تتنوع .

من أين إذن جاءوا بهذا القول وهم أهل كتاب ؟ إن هذا ضد منهج الكتاب الذي أنزله الله عليهم بل هو من التحريف والتحوير لقد خدعوا أنفسهم وألصقوا بالتشريع ما ليس فيه ، فالكتاب السماوي الذي نزل عليهم ليس به تصنيف البشر صنفين : صنف هم أهل الكتاب ولهم معاملة خاصة ، وصنف هم الأميون ولهم معاملة أخرى ، وكان عليهم ان يتعلموا من عدالة رسول الله صلى الله عليه وسلم في معاملتهم .

لقد أرخ لهم رسول الله بالنص المنزل عليه من الله التأريخ الصادق والعادل ، في هذا القول الكريم الذي نتناوله بالخواطر إنما يسجل تاريخ اليهودية مع الإسلام . وهذا التأريخ لم يصدر فيه الله حكما واحدا يشملهم جميعا ، بل أنصف أصحاب الحق منهم ، وإن كانوا على دين اليهودية ، وبذلك استقر في أذهان المنصفين منهم أن الإسلام قد جاء بكل الحق ، فلو كان الإسلام قد أصدر حكما واحدا ضد كل اليهود سواء من وقف منهم ضد دعوة رسول الله أو المنصف منهم الذي تراوده فكرة الإيمان بالإسلام ، لو كان مثل ذلك الحكم العام

الشامل قد صدر لقال المنصفون من اليهود : نحن نفكر في أن نؤمن بالإسلام فكيف يهاجمنا الإسلام هذه المهاجمة ؟ لكن الإسلام جاء لينصف فيعطي كل ذي حق حقه .

(36/122)

وهؤلاء هم الذين يؤرخ الله لهم بالقول : ﴿ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ وتلك شهادة على صدق اليقين من هؤلاء ، أما الذين طغت عليهم المادة فهؤلاء هم الذين جاء فيهم القول الحكيم : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً ﴾ وهذا هو التأريخ الصادق لمن طغت عليهم المادة فلا يرد الإنسان منهم ما عليه إلا بعد الملاحقة والمطاردة ، وهكذا يبلغنا القرآن التاريخ بصدق .

والعلة في أن الذي يؤتمن على قنطار ويؤديه هو إنسان ملتزم أمامه إله موصوف باسم الحق ، ولا يريد الله من عباده إلا أن يواجهوا حركة حياتهم بالحق .

وأكرر هنا مرة أخرى ، إن كلمة " الأمانة " ترد في القرآن الكريم مرة وهي متعدية بـ " على " ، ومرة أخرى وهي متعدية بالباء ، لأن الباء تأتي في اللغة لإلصاق شيء بشيء آخر ، فكأنك إذا اؤتمنت أيها المسلم فلا بد أن تلتصق بالأمانة حتى تؤديها ، وكذلك جاءت الأمانة متعدية بـ " على " ، أي أنك أيها المؤمن إذا اؤتمنت فعليك أن تستعلي على الشيء

الذي اؤتمنت عليه .

فإذا ما اؤتمنت على مائة جنيه مثلا فلا تنظر إلى ما يعود عليك من نفع إذا ما تصرفت في هذا المبلغ ، بل يجب أن تستعلي على تلك المنفعة . فإياك أن تغش نفسك أيها المؤمن بفائدة ونفاسة الشيء الذي تختلسه من الأمانة ، بل قارن هذا الشيء بالأمانة فستجد أن كفة الأمانة هي الراجحة .

(37/122)

والذين استباحوا خيانة الأمانة من أهل الكتاب ، إنما عميت بصيرتهم عن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نال الشهرة بالأمانة سواء قبل الرسالة أو بعدها . وعميت أبصارهم ، إن الدين الحق لا يفرق في أداء الأمانة بين صنف من البشر ، وصنف آخر ؛ فالدين الحق يضم تشريعا من إله خلق الجميع وهكذا نجد أن تشريعهم بالتفرقة في أداء الأمانة هو تشريع من عند أنفسهم ، وليس من الرب المتولي شئون خلقه جميعا ، ويدحض الحق القضية التي حكموا بوساطتها أن يعاملوا الأميين معاملة تختلف عن معاملتهم لأهل الكتاب ، فقال سبحانه : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

يعلمون ماذا ؟ يعلمون ان قولهم كذب ، فهم يعرفون الحكم الصحيح وينحرفون عنه ،

ويا ليتهم قالوا : إن ذلك الحكم من عند أنفسهم ، لكنهم ينسبون ذلك إلى تعاليم دينهم ، وتعاليم الدين – كما قلنا – مأخوذة من الله ، وهم بذلك – والعياذ بالله – يفترون على الله كذبا بأنه خلق خلقا ثم صنفهم صنفين : صنفاً تؤدى الأمانة له ، وصنفاً لا تؤدى الأمانة له ، وهكذا كذبوا على الله وعلموا أنهم كاذبون ، وهذا هو الافتراء . وهم أيضا يعلمون العقوبة التي تلحق من يكذب على الله ورغم ذلك كذبوا .

لقد حذف الحق في هذه الآية المفعول به فلم يقل : " يعملون كذا " . الحق حين يحذف " المفعول " فهو يريد أن يعمم الفهم ويريد أن يعمم الحركة ، إنه سبحانه يريد أن يبلغنا بأن هؤلاء يعلمون أن قولهم هذا كذب ، ويعلمون عقوبة ذلك الكذب . . وساعة تأتي قضية منفية ثم يأتي بعدها كلمة " بلى " فإنها تنقض القضية التي سبقتها ومعنى ذلك أنها تُثْبِت ضدها .

لقد قالوا :

" ليس علينا في الأميين سبيل " وهذه قضية منفية بـ " ليس " ، والحق يقول في الآية التالية :

﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1542 . 1549 ﴾

(38/122)

قوله تعالى ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (76) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ادعوا نفي الجناح عنهم فيهم وبين تعالى أنهم لا يتحاشون عن الكذب صرح بكذبهم في هذا الأمر بخصوصه بقوله : ﴿ بلى ﴾ أي عليكم في خيانتهم لتحريم العذر عليكم مطلقاً ، أي سبيل - كما هو في التوراة وقد مضى نقله في البقرة في آية ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا ﴾ [البقرة : 62] وآية ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ [البقرة : 83] .

ولما مضى تقسيمهم إلى أمين وخائن استأنف بشارة الأول ونذارة الثاني على وجه عام لهم ولغيرهم لتحريم الخيانة في كل شرع في حق كل أحد منهما ، إن الله يبغض الخائن فقال : ﴿ من أوفى بعهده ﴾ في الدين والدنيا ﴿ واتقى ﴾ أي كائناً من كان ﴿ فإن الله ﴾ ذا الجلال والإكرام يحبه ، هكذا الأصل ، لكنه أظهر الوصف لتعليق الحكم به وإشعاراً بأنه العلة الحاملة له على الأمانة فقال : ﴿ يحب المتقين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 115 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن في ﴿ بلى ﴾ وجهين

أحدهما : أنه لمجرد نفي ما قبله ، وهو قوله ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الأميين سَبِيلٌ ﴾ فقال الله تعالى راداً عليهم ﴿ بلى ﴾ عليهم سبيل في ذلك وهذا اختيار الزجاج ، قال : وعندي وقف التمام على ﴿ بلى ﴾ وبعده استئناف والثاني : أن كلمة ﴿ بلى ﴾ كلمة تذكر ابتداء لكلام آخر يذكر بعده ، وذلك لأن قولهم : ليس علينا فيما نفعل جناح قائم مقام قولهم : نحن أحباء الله تعالى ، فذكر الله تعالى أن أهل الوفاء بالعهد والتقى هم الذين يحبهم الله تعالى لا غيرهم ، وعلى هذا الوجه فإنه لا يحسن الوقف على ﴿ بلى ﴾ وقوله ﴿ مَنْ أوفى بِعَهْدِهِ ﴾ مضى الكلام في معنى الوفاء بالعهد والضمير في ﴿ بِعَهْدِهِ ﴾ يجوز أن يعود على اسم ﴿ الله ﴾ في قوله ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى الله الكذب ﴾ ويجوز أن يعود على ﴿ مِنْ ﴾ لأن العهد مصدر فيضاف إلى المفعول وإلى الفاعل وههنا سؤالان :

السؤال الأول : بتقدير ﴿ أن ﴾ يكون الضمير عائداً إلى الفاعل وهو ﴿ مِنْ ﴾ فإنه يحتمل أنه لو وفى أهل الكتاب بعهودهم وتركوا الخيانة ، فإنهم يكتسبون محبة الله تعالى .

الجواب : الأمر كذلك ، فإنهم إذا أوفوا بالعهود أوفوا أول كل شيء بالعهد الأعظم ، وهو ما أخذ الله عليهم في كتابهم من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولو اتقوا الله في ترك

الخيانة ، لاتقوه في ترك الكذب على الله ، وفي ترك تحريف التوراة .

السؤال الثاني : أين الضمير الراجع من الجزاء إلى ﴿ مِنْ ﴾ ؟ .

الجواب : عموم المتقين قام مقام رجوع الضمير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 90 . 91 ﴾

فصل

قال الفخر :

(40/122)

واعلم أن هذه الآية دالة على تعظيم أمر الوفاء بالعهد ، وذلك لأن الطاعات محصورة في أمرين التعظيم لأمر الله ، والشفقة على خلق الله ، فالوفاء بالعهد مشتمل عليهما معاً ، لأن ذلك سبب لمنفعة الخلق ، فهو شفقة على خلق الله ، ولما أمر الله به ، كان الوفاء به تعظيماً لأمر الله ، فثبت أن العبارة مشتملة على جميع أنواع الطاعات والوفاء بالعهد ، كما يمكن في حق الغير يمكن أيضاً في حق النفس لأن الوافي بعهد النفس هو الآتي بالطاعات والتارك للمحرمات ، لأن عند ذلك تفوز النفس بالثواب وتبعد عن العقاب . انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 91 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ بلى ﴾ جواب لقولهم : " لَيْسَ " وإيجاب لما نفوه . وتقدم القول في نظيره .

قال ابن الخطيبِ : وعندي الوقف التام على " بلى " ثم استأنف .

وقيل : إن كلمة " بلى " كلمة تُذْكَر ابتداءً لكلام آخر يُذكَر بعده ؛ لأن قولَهم : ليس علينا فيما نفعل جناحٌ قائمٌ مقام قولهم : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة : 18] فذكر - تعالى - أن أهل الوفاءِ بالعهد والتقى هم الذين يحبهم الله تعالى - لا غيرهم - وعلى هذا الوجه ، فلا يَحْسُن الوقف على " بلى " اه .

و" مَنْ " شرطية ، أو موصولة ، والرابط بين الجملة الجزائية ، أو الخبرية هو العموم في ﴿ الْمُتَّقِينَ ﴾ وعند من يرى الربط بقيام الظاهر مقام المضمر يقول ذلك هنا .

وقيل : الجزاء ، أو الخبر محذوف ، تقديره : يحبه الله ، ودل على هذا المحذوف قوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ وفيه تكلُّفٌ لا حاجةَ إليه .

(41/122)

قال القرطبيُّ: "مَنْ" رفع بالابتداء، وهو شرط، و"أوفى" في موضع جزم" واتَّقَى" معطوف عليه، واتقى الله، ولم يكذب، ولم يستحل ما حرم عليه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي يحب أولئك.

و" بعهده" يجوز أن يكون المصدر مضافاً لفاعله على أن الضمير يعود على "مَنْ". أو مضافاً إلى مفعوله على أنه يعود على "الله" ويجوز أن يكون المصدر مضافاً للفاعل وإن كان الضمير لله تعالى وإلى المفعول وإن كان الضمير عائداً على "مَنْ" ومعناه واضح عند التَّأمُّل.

فإن قيل: بتقدير أن يكون الضميرُ عائداً إلى الفاعل، وهو "مَنْ" فإنه يدل على أنه لو وفى أهل الكتاب بعهودهم وتركوا الخيانة، فإنهم يكتسبونَ محبة الله.

فالجواب أن الأمر كذلك، فإنهم إذا وفوا بالعهود، فأول ما يوفون به العهد الأعظم، وهو ما أخذَ الله عليهم في كتابهم من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به، وهو المراد بالعهد في هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم "أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً، وَمَنْ كَانَتْ فيه وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خصلَةٌ مِن النّفَاقِ حَتَّى يَدعَهَا: إذا ائْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حدَّث كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجرَ". انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 338﴾

وقال الآلوسي :

﴿ بلى ﴾ جواب لقولهم ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الأميين سَبِيلٌ ﴾ [آل عمران : 75] ، وإيجاب لما نفوه ، والمعنى بلى عليهم في الأميين سبيل . ﴿ مَنْ أوفى بِعَهْدِهِ واتقى فَإِنَّ الله يُحِبُّ المتقين ﴾ استئناف مقرر للجملة التي دلت عليها ﴿ بلى ﴾ حيث أفادت بمفهومها المخالف ذم من لم يف بالحقوق مطلقاً فيدخلون فيه دخولاً أولياً ، و ﴿ مَنْ ﴾ إما موصولة أو شرطية ، و ﴿ أُوفِى ﴾ فيه ثلاث لغات : إثبات الهمزة وحذفها مع تخفيف الفاء وتشديدها ، والضمير في عهده عائد على ﴿ مَنْ ﴾ وقيل : يعود على ﴿ الله ﴾ فهو على الأول : مصدر مضاف لفاعله ، وعلى الثاني : مصدر مضاف لمفعوله أو لفاعله ولا بد من ضمير يعود على ﴿ مِنْ ﴾ من الجملة الثانية ، فإما أن يقام الظاهر مقام المضمر في الربط إن كان ﴿ المتقين ﴾ من ﴿ أُوفِى ﴾ وإما أن يجعل عمومه وشموله رابطاً إن كان ﴿ المتقين ﴾ عاماً ؛ وإنما وضع الظاهر موضع الضمير على الأول تسجيلاً على الموفين بالعهد بالتقوى وإشارة إلى علة الحكم ومراعاة لرؤوس الآي ، ورجح الأول بقوة الربط فيه ، وقال ابن هشام : الظاهر أنه لا عموم وأن ﴿ المتقين ﴾ مساو لمن تقدم ذكره والجواب لفظاً ، أو معنى محذوف تقديره يحبه الله ، ويدل عليه ﴿ فَإِنَّ الله ﴾ الخ ، واعترضه الحلبي بأنه تكلف لا حاجة إليه ، وقوله : الظاهر أنه لا عموم في حيز المنع فإن ضمير ﴿ بِعَهْدِهِ ﴾ إذا

كان لله فالالتفات عن الضمير إلى الظاهر لإفادة العموم كما هو المعهود في أمثاله قاله بعض المحققين. انتهى انتهى. ا هـ ﴿روح المعانى حـ 3 صـ 203﴾

(43/122)

وقال الطبرى :

وهذا إخبار من الله عز وجل عمَّنْ أدَّى أمانته إلى من ائتمنه عليها اتقاءَ الله ومراقبتَه، عنده. فقال جل ثناؤه : ليس الأمر كما يقول هؤلاء الكاذبون على الله من اليهود ، من أنه ليس عليهم في أموَال الأميين حرج ولا إثم ، ثمّ قال : بلى ، ولكن من أوفى بعهده واتقى - يعني : ولكن الذي أوفى بعهده ، وذلك وصيته إياهم التي أوصاهم بها في التوراة ، من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاءهم به.

و"الهاء" في قوله : "من أوفى بعهده" ، عائدة على اسم "الله" في قوله : "ويقولون على الله الكذب" .

يقول : بلى من أوفى بعهد الله الذي عاهده في كتابه ، فآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وصَدّق به وبما جاء به من الله ، من أداء الأمانة إلى من ائتمنه عليها ، وغير ذلك من أمر الله ونهيه "واتقى" ، يقول : واتقى ما نهاه الله عنه من الكفر به ، وسائر معاصيه التي حرّمها

عليه ، فاجتنبَ ذلك مراقبةَ وعيد الله وخوفَ عقابه "فإنّ الله يحبّ المتقين" ، يعني : فإن الله يحب الذين يتقونه فيخافون عقابه ويحذرون عذابه ، فيجتنبون ما نهاهم عنه وحرّمه عليهم ، ويطيعونه فيما أمرهم به .

وقد روى عن ابن عباس أنه كان يقول : هو اتقاء الشرك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 525.526 ﴾ . بتصرف يسير .

قال ابن عطية :

﴿ بلى ﴾ أي عليهم سبيل وحجة وتبعة ، ثم أخبر على جهة الشرط أن ﴿ من أوفى ﴾ بالعهد ﴿ واتقى ﴾ عقوبة الله في نقضه ، فإنه محبوب عند الله ، وتقول العرب : وفى بالعهد ، وأوفى به بمعنى ، وأوفى ، هي لغة الحجاز وفسر الطبري وغيره ، على أن الضمير في قوله ﴿ بعهده ﴾ عائد على الله تعالى ، وقال بعض المفسرين : هو عائد على ﴿ من ﴾ .

(44/122)

قال الفقيه الإمام أبو محمد : والقولان يرجعان إلى معنى واحد ، لأن أمر الله تعالى بالوفاء مقترن بعهد كل إنسان ، وقال ابن عباس : ﴿ اتقى ﴾ في هذه الآية ، معناه : اتقى الشرك ،

ثم خرج جواب الشرط على تعميم المتقين تشريفاً للتقوى وحضّاً عليها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 459 ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ بلى ﴾ إثبات لما نفوه أي بلى عليهم فيهم سبيل . ﴿ مَنْ أوفى بِعَهْدِهِ واتقى فَإِنَّ الله يُحِبُّ المتقين ﴾ استئناف مقرر للجملة التي سدت ﴿ بلى ﴾ مسدها ، والضمير المجرور لمن أو لله وعموم المتقين ناب عن الراجع من الجزاء إلى ﴿ مِنْ ﴾ ، وأشعر بأن التقوى ملاك الأمر وهو يعم الوفاء وغيره من أداء الواجبات والاجتناب عن المناهي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 55 ﴾

(45/122)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾

إن قول الحق في بداية هذه الآية ﴿ بَلَى ﴾ إنما جاء لينقض القضية السابقة التي ادعاها أهل الكتاب ، وكأن الحق يقول : أيْ عليكم في الأميين سبيل ؛ لأن المشرع هو الله ، والناس

بالنسبة له سبحانه سواء .

وبعد ذلك يأتي قول الحق بقضية عامة :

﴿ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : 76]

ما العهد هنا ؟ وأي عهد ؟

إنه العهد الإيماني الذي ارتضيناه لأنفسنا بأننا آمنا بالله وساعة تؤمن بالإله فمعنى إيمانك به هو حيثية قبولك لكل حكم يصدر منه سبحانه ، وأن تلتزم بما يطلبه منك . وإن لم تلتزم بما يطلبه منك كان إيمانك بلا قيمة ؛ لأن فائدة الإيمان هو الالتزام . ولذلك قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى حينما يريد تشريع حكم لمن آمن به ينادي أولا يأيها الذين آمنوا كتب عليكم كذا ، إن الحق سبحانه لا ينادي في التكليف كل الناس ، إنما ينادي من آمن وكأن سبحانه يقول : " يا من آمن بي إلها ، اسمع مني الحكم الذي أريده منك . أنا لا أطلب ممن لم يؤمن بي حكما ، إنما أطلب ممن آمن " .

وهنا يقول الحق : ﴿ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ وقد يفهم البعض هذا القول بأن من أوفى بعهده الإيماني واتقى الله في أن يجعل كل حركاته مطابقة لـ " افعل ولا تفعل " فإن الله يحبه . هذا هو المعنى الذي قد يُفهم للوهلة الأولى ، لكن الله لم يقل ذلك ، إن " الحب " لا يرجع إلى الذات بل يرجع إلى العمل ، لقد قال الحق : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

إن الإنسان قد يخطئ ويقول : " لقد أحبني الله ، وسأفعل من بعد ذلك ما يحلو لي " ونحن نذكر صاحب هذا القول بأن الله يحب العمل الصالح الذي يؤديه العبد بنية خالصة لله وليس للذات أي قيمة ، لذلك قال : ﴿ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

إن الذي أوفى بعهده واتقى سيحب الله فيه التقوى ، وإياك أن تفهم أن الحب من الله للعبد سيصبح حبا ذاتيا ، لكنه حب لوجود الوصف فيه ، فاحرص على أن يكون الوصف لك دائما ، لتظل في محبوبية الله .

ولذلك نقول : إن الحق سبحانه وتعالى أوضح لنا أن الذات تتناسل من ذات ، والذوات عند الله متناسلة من أصل واحد . فالجنس ليس له قيمة ، إنما القيمة للعمل الصالح .

وقد ضربنا المثل قديما ، وقلنا : إن الحق سبحانه وتعالى حينما وعد نوحا عليه السلام بأن ينجيه من الغرق هو وأهله ، ثم فوجئ نوح بأن ابنه من المغرقين ، قال سبحانه حكاية عما حدث :

﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾

[هود : 43] .

ماذا فعل نوح عليه السلام ؟ لقد نادى ربه طالبا نجاة ابنه :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾

[هود : 45] ويعلمنا الله من خلال رده على نوح، أن أهل الأنبياء ليسوا من جاءوا من نسلهم، إنما أهل الأنبياء هم من جاءوا على منهجهم، لذلك قال الحق لنوح عن ابنه :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾

[هود : 46] .

(47/122)

لماذا يكون ابن نوح ليس من أهل نوح ؟ ذلك لأن أهل النبوة هم الذين يتبعون منهج النبوة، ولذلك لم يقل الحق لنوح عن ابنه : " إنه عامل غير صالح " لكن الحق سبحانه قال عن ابن نوح : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ . . لقد نسب الحق الأمر إلى العمل.

إذن فالحكمة هي أن الله سبحانه وتعالى في أسلوبه القرآني يوضح لنا أن الله لا يحب شخصا لذاته، إنما لعمله وصفاته فلم يقل : " من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحبه "، لأن " الهاء " هنا ترجع إلى الذات، إن في ذلك إيضاحاً كامل البيان بأن الله يحب عمل العبد لا

ذات العبد ، فإن حرص العبد على محبوبية الله فذلك يتطلب من العبد أن يظل متبعا لمنهج الله ، وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1549 . 1551 ﴾

(48/122)

" فصل "

قال السيوطى :

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (76)

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة في قوله ﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ﴾ قال : هذا من النصارى ﴿ ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤدّه إليك ﴾ قال : هذا من اليهود ﴿ إلا ما دمت عليه قائماً ﴾ قال : إلا ما طلبته واتبعته .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤدّه إليك ﴾ قال :

كانت تكون ديون لأصحاب محمد عليهم فقالوا : ليس علينا سبيل في أموال أصحاب محمد إن أمسكناها . وهم أهل الكتاب أمروا أن يؤدوا إلى كل مسلم عهده .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مالك بن دينار قال : إنما سمي الدينار لأنه دين ، ونار ، قال : معناه أن من أخذه بحقه فهو دينه ، ومن أخذ بغير حقه فله النار .

وأخرج الخطيب في تاريخه عن علي بن أبي طالب أنه سئل عن الدرهم لِمَ سمي درهماً ، وعن الدينار لِمَ سمي ديناراً ؟ قال : أما الدرهم فكان يسمى دارهم ، وإما الدينار فضربته المجوس فسمي ديناراً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم مجاهد ﴿ إلا ما دمت عليه قائماً ﴾ قال : مواظباً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي ﴿ إلا ما دمت عليه قائماً ﴾ يقول : يعترف بأمانته ما دمت عليه قائماً على رأسه ، فإذا قمت ثم جئت تطلبه كافرك الذي يؤدي والذي يجحد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ﴾ قال قالت اليهود : ليس علينا فيما أصبنا من أموال العرب سبيل .

وأخرج ابن جرير عن السدي قال : يقال له ما بالك لا يؤدي أمانتك ؟ ؟ فيقول : ليس علينا حرج في أموال العرب ، قد أحلَّها الله لنا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابي أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال " لما نزلت ﴿ ومن أهل الكتاب ﴾ إلى قوله ﴿ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم : كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين إلا الأمانة فإنها مؤدَّاة إلى البر والفاجر " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن صعصعة . أنه سأل ابن عباس فقال : إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة . قال ابن عباس : فتقولون ماذا ؟ قال : نقول ليس علينا في ذلك من بأس . قال : هذا كما قال أهل الكتاب ﴿ ليس علينا في الأميين سبيل ﴾ إنهم أدَّوا الجزية لم تحلَّ لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج في الآية قال : بايع اليهودَ رجالٌ من المسلمين في الجاهلية فلما أسلموا تقاضوهم ثمن بيوعهم فقالوا : ليس علينا أمانة ، ولا قضاء لكم عندنا لأنكم تركتم دينكم الذي كنتم عليه ، وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم فقال الله ﴿ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ .

وأخرج ابن جرير من طريق علي عن ابن عباس ﴿ بلى من أوفى بعهده واتقى ﴾ يقول : اتقى الشرك ﴿ فإن الله يحب المتقين ﴾ يقول الذين يتقون الشرك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 243 . 244 ﴾

(50/122)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (77) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانت النفوس نزاعة إلى الخيانة رواغة عند مضائق الأمانة ، وكانت الخيانة تجر إلى الكذب بسط في الإنذار فقال : ﴿ إن الذين يشترون ﴾ أي يلجون في أن يأخذوا على وجه العوض ﴿ بعهد الله ﴾ أي الذي عاهدوه عليه من الإيمان بالرسول الذي عاهدهم على الإيمان به وذكر صفته للناس ، وهو سبحانه أعلى وأعز من كل شيء فهو محيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ وأيمانهم ﴾ أي التي عقدوها بالتزام متابعة الحق على ألسنة الرسل بما دل عليه العقل ﴿ ثمناً قليلاً ﴾ في الدنيا ﴿ أولئك ﴾ أي البعيدو الرتبة في الدناءة ﴿ لا

خلاق ﴾ أي نصيب ﴿ لهم في الآخرة ﴾ أي لبيعهم له بنصيب الدنيا ﴿ ولا يكلمهم الله ﴾ أي الملك الأعظم استهانة بهم وغضباً عليهم بما انتهكوا من حرمته .

ولما زادت هذه عن آية البقرة العهد والحلف ، وكان من عادة الحالف والمعاهد النظر إلى من فعل ذلك لأجله زاد قوله : ﴿ ولا ينظر إليهم ﴾ أي بل يعدهم أحقر شيء بما أعرضوا عنه ، ولما كان لكثرة الجمع مدخل عظيم في مشقة الخزي قال : ﴿ يوم القيامة ﴾ الذي من افتضح في جمعه لم يفز ﴿ ولا يزكيهم ﴾ لأنهم لم يزكوا اسمه ﴿ ولهم ﴾ أي مع ذلك ﴿ عذاب أليم ﴾ يعرفون به ما جهلوا من عظمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 116.115 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أن في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوهاً

(51/122)

الأول : أنه تعالى لما وصف اليهود بالخيانة في أموال الناس ، ثم من المعلوم أن الخيانة في أموال الناس لا تتمشى إلا بالأيمان الكاذبة لا جرم ذكر عقيب تلك الآية هذه الآية المشتملة على وعيد من يقدم على الأيمان الكاذبة

الثاني : أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم ﴿ يَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكذب وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : 75] ولا شك أن عهد الله على كل مكلف أن لا يكذب على الله ولا يخون في دينه ، لا جرم ذكر هذا الوعيد عقيب ذلك

الثالث : أنه تعالى ذكر في الآية السابقة خيانتهم في أموال الناس ، ثم ذكر في هذه الآية خيانتهم في عهد الله وخيانتهم في تعظيم أسمائه حين يحلفون بها كذباً ، ومن الناس من قال : هذه الآية ابتداء كلام مستقل بنفسه في المنع عن الأيمان الكاذبة ، وذلك لأن اللفظ عام والروايات الكثيرة دلت على أنها إنما نزلت في أقوام أقدموا على الأيمان الكاذبة ، وإذا كان كذلك وجب اعتقاد كون هذا الوعيد عاماً في حق كل من يفعل هذا الفعل وأنه غير مخصوص باليهود . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 91.92 ﴾

وقال ابن عاشور :

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنّ في خيانة الأمانة إبطالاً للعهد ، وللحلف الذي بينهم ، وبين المسلمين ، وقريشٍ .

والكلامُ استئناف قصد منه ذكر الخُلق الجامع لشتات مساوىء أهل الكتاب من اليهود ، دعا إليه قوله وَدّت طائفة من أهل الكتاب وما بعده .

وقد جرت أمثال هذه الأوصاف على اليهود مفرّقة في سورة البقرة (40) : ﴿ أوفوا بعهدي ، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾ [البقرة : 41] .

﴿ ماله في الآخرة من خلاق ﴾ [البقرة : 102] .

﴿ ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ﴾ [البرة : 174] .

فعلمنا أنهم المراد بذلك هنا .

(52/122)

وقد بينا هنالك وجه تسمية دينهم بالعهد وبالميثاق ، في مواضع ، لأنّ موسى عاهدهم على العمل به ، وبينا معاني هذه الأوصاف والأخبار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 135 ﴾

فصل في سبب نزول الآية

قال الفخر :

اختلفت الروايات في سبب النزول ، فمنهم من خصها باليهود الذين شرح الله أحوالهم في الآيات المتقدمة ، ومنهم من خصها بغيرهم .

أما الأول ففيه وجهان

الأول : قال عكرمة إنها نزلت في أحبار اليهود ، كتموا ما عهد الله إليهم في التوراة من أمر محمد صلى الله عليه وسلم وكتبوا بأيديهم غيره وحلفوا بأنه من عند الله لئلا يفوتهم الرشا ،

واحتج هؤلاء بقوله تعالى في سورة البقرة ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بعهدِكُم ﴾ [البقرة : 40]

الثاني : أنها نزلت في ادعائهم أنه ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الأمين سَبِيلٌ ﴾ [آل عمران : 75] كتبوا بأيديهم كتاباً في ذلك وحلفوا أنه من عند الله وهو قول الحسن .

وأما الاحتمال الثاني : ففيه وجوه

الأول : أنها نزلت في الأشعث بن قيس ، وخصم له في أرض ، اختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال للرجل : " أقم بيِّنَتَك " فقال الرجل : ليس لي بينة فقال للأشعث " فعليك اليمين " فهم الأشعث باليمين فأنزل الله تعالى هذه الآية فنكل الأشعث عن اليمين ورد الأرض إلى الخصم واعترف بالحق ، وهو قول ابن جريج

الثاني : قال مجاهد : نزلت في رجل حلف يميناً فاجرة في تنفيق سلعته

الثالث : نزلت في عبدان وامرئ القيس اختصما إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في أرض ، فتوجه اليمين على امرئ القيس ، فقال : أنظرني إلى الغد ، ثم جاء من الغد وأقر له بالأرض ، والأقرب الحمل على الكل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 92 ﴾

وقال القرطبى :

روى الأئمة " عن الأشعث بن قيس قال : كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني فقدّمته إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هل لك بيّنة" ؟ قلت لا ، قال لليهوديّ : "احلف" قلت : إذاً يحلف فيذهب بمالي ؛ فأنزل الله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ إلى آخر الآية " وروى الأئمة أيضاً عن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " "من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة" .

فقال له رجل : وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله ؟ قال : "وإنْ كان قضِيباً من أَرَاك" " وقد مضى في البقرة معنى ﴿ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القيامة وَلاَ يُزَكِّيهِمْ ﴾ [آل عمران : 77] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 119. 120 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ إِنَّ الذين يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ الله ﴾ يدخل فيه جميع ما أمر الله به ويدخل فيه ما نصب عليه الأدلة ويدخل فيه المواثيق المأخوذة من جهة الرسول ، ويدخل فيه ما يلزم الرجل نفسه ، لأن كل ذلك من عهد الله الذي يلزم الوفاء به .

قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عاهد اللهَ لَئِنْ ءاتانا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ [التوبة : 75] الآية وقال : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ العهد كَانَ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء : 34] وقال : ﴿ يُوفُونَ بالنذر ﴾ [الإنسان : 7] وقال : ﴿ مِّنَ المؤمنين رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عاهدوا اللهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب : 23] وقد ذكرنا في سورة البقرة معنى الشراء ، وذلك لأن المشتري يأخذ شيئاً ويعطي شيئاً فكل واحد من المعطى والمأخوذ ثمن للآخر ، وأما الأيمان فحالها معلوم وهي الحلف التي يؤكد بها الإنسان خبره من وعد ، أو وعيد ، أو إنكار ، أو إثبات . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 92 ﴾

قوله تعالى : ﴿ أولئك لاَ خلاق لَهُمْ فِى الأخرة وَلاَ يُكَلّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القيامة وَلاَ يُزَكّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى فرع على ذلك الشرط وهو الشراء بعهد الله والأيمان ثمناً قليلاً ، خمسة أنواع من الجزاء أربعة منها في بيان صيرورتهم محرومين عن الثواب والخامس : في بيان وقوعهم في

أشد العذاب ، أما المنع من الثواب فاعلم أن الثواب عبارة عن المنفعة الخالصة المقرونة بالتعظيم .

فالأول : وهو قوله ﴿ أولئك لاَ خلاق لَهُمْ فِى الأخرة ﴾ إشارة إلى حرمانهم عن منافع الآخرة .

وأما الثلاثة الباقية : وهي قوله ﴿ وَلاَ يُكَلّمُهُمُ الله وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكّيهِمْ ﴾ فهو إشارة إلى حرمانهم عن التعظيم والإعزاز .

وأما الخامس : وهو قوله ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فهو إشارة إلى العقاب ، ولما نبهت لهذا الترتيب فلنتكلم في شرح كل واحد من هذه الخمسة :

(55/122)

أما الأول : وهو قوله ﴿ لاَ خلاق لَهُمْ فِى الأخرة ﴾ فالمعنى لا نصيب لهم في خير الآخرة ونعيمها واعلم أن هذا العموم مشروط بإجماع الأمة بعدم التوبة ، فإنه إن تاب عنها سقط الوعيد بالإجماع وعلى مذهبنا مشروط أيضاً بعدم العفو فإنه تعالى قال : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ [النساء : 48] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 92 . 93 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ ﴾

قال الفخر :

وأما الثاني : وهو قوله ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ ﴾ ففيه سؤال ، وهو أنه تعالى قال : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر : 92 ، 93] وقال : ﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ المرسلين ﴾ [الأعراف : 6] فكيف الجمع بين هاتين الآيتين ، وبين تلك الآية ؟ قال القفال في الجواب : المقصود من كل هذه الكلمات بيان شدة سخط الله عليهم ، لأن من منع غيره كلامه في الدنيا ، فإنما ذلك بسخط الله عليه وإذا سخط إنسان على آخر ، قال له لا أكلمك ، وقد يأمر بحجبه عنه ويقول لا أرى وجه فلان ، وإذا جرى ذكره لم يذكره بالجميل فثبت أن هذه الكلمات كنايات عن شدة الغضب نعوذ بالله منه .

وهذا هو الجواب الصحيح ، ومنهم من قال : لا يبعد أن يكون إسماع الله جلّ جلاله أولياءه كلامه بغير سفير تشريفاً عالياً يختص به أولياءه ، ولا يكلم هؤلاء الكفرة والفساق ، وتكون المحاسبة معهم بكلام الملائكة ومنهم من قال معنى هذه الآية أنه تعالى لا يكلمهم بكلام يسرهم وينفعهم ، والمعتد هو الجواب الأول . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 93 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ ﴾

قال الفخر :

(56/122)

وأما الثالث : وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ ﴾ فالمراد إنه لا ينظر إليهم بالإحسان ، يقال فلان لا ينظر إلى فلان ، والمراد به نفي الاعتداد به وترك الإحسان إليه ، والسبب لهذا المجاز أن من اعتد بالإنسان التفت إليه وأعاد نظره إليه مرة بعد أخرى ، فهذا السبب صار نظر الله عبارة عن الاعتداد والإحسان ، وإن لم يكن ثم نظر ، ولا يجوز أن يكون المراد من هذا النظر الرؤية ، لأنه تعالى يراهم كما يرى غيرهم ، ولا يجوز أن يكون المراد من النظر تقليب الحدقة إلى جانب المرئي التماساً لرؤيته لأن هذا من صفات الأجسام ، وتعالى إلهنا عن أن يكون جسماً ، وقد احتج المخالف بهذه الآية على أن النظر المقرون بحرف (إلى) ليس للرؤية وإلا لزم في هذه الآية أن لا يكون الله تعالى رائياً لهم وذلك باطل . انتهى ا . هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 93 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾

قال الفخر :

وأما الرابع : وهو قوله ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ ففيه وجوه الأول : أن لا يطهرهم من دنس ذنوبهم بالمغفرة بل يعاقبهم عليها والثاني : لا يزكيهم أي لا يثني عليهم كما يثني على أوليائه الأزكياء والتزكية من المزكى للشاهد مدح منه له .

واعلم أن تزكية الله عباده قد تكون على ألسنة الملائكة كما قال : ﴿ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مّن كُلّ بَابٍ سلام عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ [الرعد : 23 ، 24] وقال : ﴿ وتتلقاهم الملائكة هذا يَوْمُكُمُ الذى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 103] ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى الحياة الدنيا وَفِى الأخرة ﴾ [فصلت : 21] وقد تكون بغير واسطة ، أما في الدنيا فكقوله ﴿ التائبون العابدون ﴾ [التوبة : 112] وأما في الآخرة فكقوله ﴿ سَلَامٌ قَوْلاً مّن رَّبّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس : 58] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 93 ﴾

(57/122)

قوله تعالى ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

قال الفخر :

وأما الخامس : وهو قوله ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فاعلم أنه تعالى لما بيّن حرمانهم من الثواب

بيّن كونهم في العقاب الشديد المؤلم. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 94 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

في هذه اللام قولان :

أحدهما : أنها بمعنى الاستحقاق ، أي : يستحقُّون العذاب الأليم .

الثاني : كما تقول : المال لزيد ، فتكون لام التمليك ، فذكر ملك العذاب لهم ، تهكُّماً بهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 341 ﴾

من فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

(58/122)

﴿ إِنَّ الذين يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ الله وأيمانهم ثَمَنًا قَلِيلا ﴾ أخرج الستة وغيرهم عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقطع بها مال امرىء مسلم لقي الله وهو عليه غضبان فقال الأشعث بن قيس : فيَّ والله كان ذلك كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني فقدمته إلى النبي صلى الله

عليه وسلم فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألك بينة ؟ قلت : لا فقال لليهودي : احلف فقلت : يا رسول الله إذاً يحلف فيذهب مالي فأنزل الله تعالى ﴿ إِنَّ الذين ﴾ " الخ . وأخرج البخاري وغيره عن عبد الله بن أبي أوفى أن رجلاً أقام سلعة له في السوق فحلف بالله لقد أعطى بها ما لم يعطه ليوقع فيها رجلاً من المسلمين فنزلت هذه الآية .

وأخرج أحمد وابن جرير واللفظ له عن عدي بن عميرة قال : كان بين امرىء القيس ورجل من حضرموت خصومة فارتفعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال للحضرمي : بينتك وإلا فيمينه قال : يا رسول الله إن حلف ذهب بأرضي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها حق أخيه لقي الله تعالى وهو عليه غضبان فقال امرؤ القيس : يا رسول الله فما لمن تركها وهو يعلم أنها حق ؟ قال : الجنة قال : فإني أشهدك أني قد تركتها " فنزلت ، وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال : نزلت هذه الآية في أبي رافع ولبابة بن أبي الحقيق وكعب بن الأشرف وحيي بن أخطب حرفوا التوراة وبدلوا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكم الأمانات وغيرهما وأخذوا على ذلك رشوة ، وروي غير ذلك ولا مانع من تعدد سبب النزول كما حققوه .

والمراد بيشترون يستبدلون ، وبالعهد أمر الله تعالى ، وما يلزم الوفاء به ، وقيل : ما عهده إلى اليهود في التوراة من أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : ما في عقل الإنسان من الزجر عن الباطل والانقياد إلى الحق ، وبالأيمان الأيمان الكاذبة ، وبالثمن القليل الأعواض النزرة أو الرشا ، ووصف ذلك بالقلة لقلته في جنب ما يفوتهم من الثواب ويحصل لهم من العقاب ﴿ أُوْلَئِكَ لاَ خلاق لَهُمْ فِى الآخرة ﴾ أي لا نصيب لهم من نعيمها بسبب ذلك الاستبدال ﴿ وَلاَ يُكَلّمُهُمُ الله ﴾ أي بما يسرهم بل بما يسوؤهم وقت الحساب لهم قاله الجبائي أو لا يكلمهم بشيء أصلاً وتكون المحاسبة بكلام الملائكة لهم بأمر الله تعالى إيا هم استهانة بهم ، وقيل : المراد إنهم لا ينتفعون بكلمات الله تعالى وآياته ولا يخفى بعده ، واستظهر أن يكون هذا كناية عن غضبه سبحانه عليهم .

(60/122)

﴿ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القيامة ﴾ أي لا يعطف عليهم ولا يرحمهم كما يقول القائل أنظر إليّ يريد ارحمني ، وجعله الزمخشري مجازاً عن الاستهانة بهم والسخط عليهم ، وفرق بين استعماله فيمن يجوز عليه النظر المفسر بتقليب الحدقة وفيمن لا يجوز عليه ذلك بأن أصله فيمن يجوز عليه الكناية لأن من اعتد بالإنسان التفت إليه وأعاره نظر عينيه ، ثم كثر حتى

صار عبارة عن الاعتداد والإحسان وإن لم يكن ثم نظر ، ثمّ جاء فيمن لا يجوز عليه النظر مجرداً لمعنى الإحسان مجازاً عما وقع كناية عنه فيمن يجوز عليه النظر ، وفي "الكشف" إن في هذا تصريحاً بأن الكناية يعتبر فيها صلوح إرادة الحقيقة وإن لم ترد وأن الكنايات قد تشتهر حتى لا تبقى تلك الجهة ملحوظة وحينئذٍ تلحق بالمجاز ولا تجعل مجازاً إلا بعد الشهرة لأن جهة الانتقال إلى المعنى المجازي أولاً غير واضحة بخلاف المعنى المكنى عنه ، وبهذا يندفع ما ذكره غير واحد من المخالفة بين قولي الزمخشري في جعل بسط اليد في قوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : 64] مجازاً عن الجود تارة وكناية أخرى إذ حاصله أنه إن قطع النظر عن المانع الخارجي كان كناية ثم ألحق بالمجاز فيطلق عليه أنه كناية باعتبار أصله قبل الإلحاق ومجاز بعده فلا تناقض بينهم كما توهموه فتدبر . والظرف متعلق بالفعلين وفيه تهويل للوعيد .

﴿ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ ﴾ أي ولا يحكم عليهم بأنهم أزكياء ولا يسميهم بذلك بل يحكم بأنهم كفرة فجرة قاله القاضي وقال الجبائي : لا ينزلهم منزلة الأزكياء ، وقيل : لا يطهرهم عن دنس الذنوب والأوزار بالمغفرة ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي مؤلم موجع ، والظاهر أن ذلك في

القيامة إلا أنه لم يقيد به اكتفاءاً بالأول ، وقيل : إنه في الدنيا بالإهانة وضرب الجزية بناءاً على أن الآية في اليهود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 203 . 204 ﴾

وقال ابن عاشور :

ومعنى : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ غضبه عليهم إذ قد شاع نفي الكلام في الكناية عن الغضب ، وشاع استعمال النظر في الإقبال والعناية ، ونفي النظر في الغضب فالنظر المنفي هنا نظر خاص .

وهاتان الكنايتان يجوز معهما إرادة المعنى الحقيقي .

وقوله : ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ أي لا يطهرهم من الذنوب ولا يقلعون عن آثامهم ، لأن من بلغ من رقة الديانة إلى حد أن يشتري بعهد الله وأيمانه ثمنا قليلا ، فقد بلغ الغاية القصوى في الجرأة على الله ، فكيف يرجى له صلاح بعد ذلك ، ويحتمل أن يكون المعنى ولا ينميهم أي لا يكثر حظوظهم في الخيرات .

(62/122)

وفي مجيء هذا الوعيد ، عقب الصلة ، وهي يشترون بعهد الله الآية ، إيذان بأن من شابههم في هذه الصفات فهو لاحق بهم ، حتى ظن بعض السلف أن هذه الآية نزلت فيمن حلف

يمينا باطلة ، وكل يظن أنها نزلت فيما يعرفه من قصة يمين فاجرة ، ففي البخاري ، عن أبي وائل ، عن عبد الله بن مسعود ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من حلف يمين صبر ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان" فأنزل الله تصديق ذلك : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ﴾ الآية فدخل الأشعث بن قيس وقال : ما يحدثكم أبو عبد الرحمن قلنا : كذا وكذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 136.135 ﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِم ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ وفي العهد قولان :

أحدهما : ما أوجب الله تعالى على الإنسان من طاعته وكَفِّه عن معصيته .

والثاني : ما في عقل الإنسان من الزجر عن الباطل والانقياد إلى الحق .

﴿ أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُم فِي الآخِرَةِ ﴾ . وفي أصل الخلاق قولان :

أحدهما : أن أصله من الخلق بفتح الخاء وهو النفس ، وتقدير الكلام لا نصيب لهم .

والثاني : أن أصله الخُلق بضم الخاء لأنه نصيب مما يوجبه الخُلُق الكريم .

﴿ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : لا يكلمهم الله بما يسرهم ، لكن يكلمهم بما يسوءهم وقت الحساب لأنه قال : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَينَا حِسَابَهُم ﴾ .

والثاني : لا يكلمهم أصلاً ولكن يرد حسابهم إلى الملائكة .

﴿ وَلَا يَنظُرُ إِلَيهِم يَومَ الْقِيَامَةِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : لا يراهم .

والثاني : لا يَمِنُ عليهم .

﴿ وَلَا يُزَكِّيهِم ﴾ أي لا يقضي بزكاتهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿النكت والعيون حـ 1 صـ 404.403﴾

فائدة

قال ابن عطية :

(63/122)

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله ﴾ الآية آية وعيد لمن فعل هذه الأفاعيل إلى يوم القيامة وهي آية يدخل فيها الكفر فيما دونه من جحد الحقوق وختر المواثيق ، وكل أحد يأخذ من وعيد الآية على قدر جريمته . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 1 صـ 459﴾

فصل

قال القرطبى :

ودلتْ هذه الآية والأحاديثُ أن حكم الحاكم لا يُحلّ المال في الباطن بقضاء الظاهر إذا علم المحكوم له بطلانَه ؛ وقد روى الأئمة عن أمّ سلمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنكم تختصمون إليّ وإنما أنا بشر ولعلّ بعضكم أن يكون ألْحن بحجّته من بعض وإنما أقضي بينكم على نحوٍ مما أسمع منكم فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها يوم القيامة " وهذا لا خلاف فيه بين الأئمة ، وإنما ناقض أبو حنيفة وغلا وقال : إن حكم الحاكم المبنيّ على الشهادة الباطلة يُحلّ الفرج لمن كان محرّماً عليه ؛ كما تقدّم في البقرة .

وزعم أنه لو شهد شاهدا زورٍ على رجل بطلاق زوجته وحكم الحاكم بشهادتهما فإن فرجها يحل لمتزوّجها ممن يعلم أن القضية باطل .

وقد شُنّع عليه بإعراضه عن هذا الحديث الصحيح الصريح ، وبأنه صان الأموال ولم ير استباحتها بالأحكام الفاسدة ، ولم يصن الفروج عن ذلك ، والفروج أحقّ أن يُحتاط لها وتُصان .

وسيأتي بطلان قوله في آية اللعان إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 120 ﴾

فصل

قال ابن كثير :

وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة فلنذكر ما تيسر منها :

الحديث الأول : قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا شعبة قال : علي بن مُدْرِك أخْبَرَني قال : سمعت أبا زُرْعَة ، عن خَرَشَة بن الحُر ، عن أبي ذر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ثَلاثَة لا يُكَلِّمُهُمُ الله وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" قلت : يا رسول الله ، من هم ؟ خابوا وخسروا . قال : وأعاده رسول الله [صلى الله عليه وسلم] ثلاث مرات قال : "المُسْبِل ، والمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ ، والمنانُ" . ورواه مسلم ، وأهل السنن ، من حديث شعبة ، به . (1)

طريق أخرى : قال أحمد : حدثنا إسماعيل ، عن الجُرَيري ، عن أبي العلاء بن الشِّخِّير ، عن أبي الأحْمَس قال : لقيتُ أبا ذر ، فقلتُ له : بلغني عنك أنك تُحدِّث حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : أما إنه لا تَخَالُني أَكذبُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما سمعته منه ، فما الذي بلغك عني ؟ قلتُ : بلغني أنك تقول : ثلاثة يحبهم الله ، وثلاثة يَشْنَؤهم الله عز وجل . قال : قلته وسمعته . قلت : فمن هؤلاء الذين يحبهم الله ؟ قال : الرجل يلقى العدوّ في فئة فينصب لهم نَحْرَه حتى يقتل أو يفتح لأصحابه . والقومُ

يسافرون فيطول سراهم حتى يَحنُّوا أن يمسوا الأرض فينزلون ، فيتنحى أحدهم فيصلي حتى يوقظهم لرحيلهم . والرجل يكون له الجار يؤذيه فيصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظَعْن . قلت : ومن هؤلاء الذين يشنأ الله ؟ قال : التاجر الحلاف – أو البائع الحلاف – والفقير المختال ، والبخيل المنان غريب من هذا الوجه . (2)

---

(1) المسند (148/5) وصحيح مسلم برقم (106) وأبو داود في السنن برقم (4087 ، 4088) والترمذي في السنن برقم (1211) والنسائي في السنن (81/5) وابن ماجه في السنن برقم (2208) .

(2) المسند (151/5) .

(65/122)

الحديث الثاني : قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، عن جرير بن حازم قال : حدثنا عَدِيّ بن عدي ، أخبرني رجاء بن حَيْوة والعُرْس بن عَمِيرة عن أبيه عَدِي – هو ابن عميرة الكندي – قال : خاصم رجل من كِنْدة يقال له : امرؤ القيس بن عابس رَجلا من حَضرمَوْت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أرض ، فقضى على الحضرمي بالبينة ، فلم يكن له بينة ، فقضى على امرئ القيس باليمين . فقال الحضرمي : إن أمكنته من اليمين

يا رسول الله ذهبتْ وربِ الكعبة أرضى . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ أَحَدٍ لَقِيَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ" قال رجاء : وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلا ﴾ فقال امرؤ القيس : ماذا لمن تركها يا رسول الله ؟ فقال الجنة" قال : فاشهَدْ أني قد تركتها له كلها . ورواه النسائي من حديث عدي بن عدي ، به . (1)

الحديث الثالث : قال أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن شَقيق ، عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ حَلَفَ عَلَى يمين هو فيها فَاجِر ، لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ ، لَقِيَ اللهَ عَزَّ وجلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ" .

---

(1) المسند (4/191) والنسائي في السنن الكبرى برقم (5996) .

(66/122)

فقال الأشعث : فيّ والله كان ذلك ، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني ، فقدّمته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ألَكَ بَيِّنَة ؟ " قلتُ : لا فقال لليهودي : "احْلِفْ" فقلتُ : يا رسول الله ، إذا يحلف فيذهب مالي . فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلا ﴾

[إلى آخر] الآية: أخرجاه من حديث الأعمش. (1)

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا أبو بكر بن عَيّاش، عن عاصم بن أبي النَّجُود، عن شَقِيق بن سلمة، حدثنا عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنِ اقْتَطَعَ مَالَ امرئ مسلمٍ بغير حقٍ لَقِيَ الله وَهُوَ عَلَيْهِ غضْبَان" قال: فجاء الأشْعث بن قَيْس فقال: ما يُحدّثكم أبو عبد الرحمن؟ فحدثناه، فقال: فيّ كان هذا الحديث، خاصمتُ ابن عمٍ لي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بئر لي كانت في يده، فجحدني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بيِّنَتُكَ أَنَّها بِئْرُكَ وإلا فَيمينُهُ" قال: قلتُ: يا رسول الله، ما لي بينة، وإن تجعلها بيمينه تذهب بئري؛ إنّ خَصْمي امرؤ فاجر. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنِ اقْتَطَعَ مَالَ امرئ مسلمٍ بغير حقٍ لَقِيَ الله وَهُوَ عَلَيْهِ غضْبَان" قال: وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلا [أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] ﴾. (2)

---

(1) المسند (5/211) والبخاري في صحيحه برقم (2673).

(2) المسند (5/12).

الحديث الرابع: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غَيْلان، حدثنا رِشْدين عن زَبّان، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ للهِ تَعَالى عِبَادًا لا يُكَلِّمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلا يَنْظُرُ إِلَيهِمْ" قيل: ومن أولئك يا رسول الله؟ قال: "مُتَبَرِّئٌ مِنْ وَالِدَيهِ رَاغِبٌ عَنْهُمَا، ومُتَبَرِّئٌ مِنْ وَلَدِهِ، وَرَجُلٌ أَنْعَمَ عَلَيْهِ قَوْمٌ فَكَفَرَ نِعْمَتَهُمْ وَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ". (1)

الحديث الخامس: قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا هُشَيْم، أنبأنا العوّام -يعني ابن حَوْشَب- عن إبراهيم بن عبد الرحمن -يعني السَّكْسَكي- عن عبد الله بن أبي أوْفَى: أن رجلا أقام سلعة له في السوق، فحلف بالله لقد أعطَى بها ما لم يُعْطه، ليُوقع فيها رجلا من المسلمين، فنزلت هذه الآية: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلا ﴾ ورواه البخاري، من غير وجه، عن العوام. (2)

---

(1) المسند (440/3).

(2) تفسير ابن أبي حاتم (355/2) وصحيح البخاري برقم (4551).

الحديث السادس : قال الإمام أحمد : حدثنا وَكِيع ، حدثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَة وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ ولَهم عذابٌ أليم : رَجُلٌ مَنَعَ ابْنَ السَّبِيلِ فَضْلَ مَاءٍ عِنْدَهُ ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ -يَعْنِي كَاذِبًا- وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا ، فَإِنْ أَعْطَاهُ وَفَى لَهُ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ لَمْ يَفِ لَهُ" . ورواه أبو داود ، والترمذي ، من حديث وكيع ، وقال الترمذي : حسن صحيح . (1) انتهى انتهى . اهـ ﴿تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 62. 65﴾

لطيفة

قال ابن عجيبة :

قد أخذ الله العهد على الأرواح ألا يعبدوا معه غيره ، ولا يميلوا إلى شيء سواه ، فكل من مال إلى شيء ، أو ركن بالمحبة إلى غير الله ، فقد نقض العهد مع الله ، فلا نصيب له في مقام المعرفة ، ولا تحصل له مشاهدة ولا مكالمة حتى يتوب ويتوجه بكليته إلى مولاه . والله - تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المديد حـ 1 صـ 372﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

الذين آثروا هواهم على عُقباهم ، وقدّموا مناهم على موافقة مولاهم أولئك لا نصيب لهم في الآخرة ؛ فللاستمتاع بما اختاروا من العاجل خسروا في الدارين .

بقوا عن الحق ، وما استمتعوا بحظٍّ ، جَمَعَ عليهم فنون المِحَن ولكنهم لا يدرون ما أصابهم ، لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ، ثم مع هذا يُخَلِّدُم في العقوبة الأبدية .

انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 1 صـ 252﴾

---

(1) المسند (2/480) وسنن أبي داود برقم (3474) وسنن الترمذي برقم (1595) ﴾ .

(69/122)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾

وساعة نسمع كلمة " شراء وبيع " فلا بد أن نتوقف عندها ؛ لنفهم معناها بدقة . ونحن في الريف نرى المقايضات أو المبادلات في الرزق الذي له نفع مباشر ، كأن يبادل طرف طرفا آخر ، قمحا بقماش ، فهذه سلعة يتم مبادلتها بسلعة أخرى ، وعلى ذلك فليس هناك شارٍ وبائع ، لأن كل من الطرفين قد اشترى وباع . وهنا نسأل : متى يصبح الأمر إذن شراء وبيعا ؟

إن الشراء والبيع يحدث عندما نستبدل رزقا مباشرا برزق غير مباشر ، ومثال ذلك عندما يشتري الإنسان رغيف خبز بخمسة قروش ، إن هذا هو الشراء والبيع ، لأن الخمسة قروش هي رزق غير مباشر النفعية ؛ لأن النقود لا تشبعك ولا ترويك من عطشك ولا تسترك . والرغيف هو رزق مباشر النفعية لأنه يشبعك ويدفع عنك الجوع وعندما يحب الإنسان أن يشتري شيئًا فإن الذي يدفعه في الشراء يسمى ثمنا .

إذن فكيف يشتري الثمن ؟

إن الحق يوضح لنا أن الأثمان لا تكون مشتراة أبدا ، إنها مُشترى بها ، ولذلك تكون أول خيبة في صفقة الذين يشترون بعهد الله ثمنا قليلا ، إنهم اشتروا الثمن ، بينما الثمن لا يُشترى ، فالذي يشتري هو السلعة . ويا ليت الثمن الذي اشتروه ثمن له قيمة ، لكنه ثمن قليل ، ومن هنا جاء تحريم الربا لأن المرابي يعطي الشخص مائة ، ويريد أن يسترده مائة وعشرة ، ويكون المرابي في هذه المسألة قد جعل النقود سلعة ، وهكذا تكون الصفقة خائبة من بدايتها .

إذن فأول خيبة في نفوس الناس الذين يستبدلون الهدى ويأخذون بدلا منه الضلالة ، إنهم خاسرون .

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة: 16].

والحق سبحانه يقول هنا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾. ونعرف أن "الباء" دائما تدخل على المتروك، أي أنهم تركوا عهد الله والأيمان التي حلفوا بها على التصديق بالرسول، وعلى نصرته إذا جاءهم، أنهم اشتروا ذلك بثمن قليل، كيف يحدث ذلك؟ لهذه المسألة واقعة حال، وإن كان المراد عموم الموضوع لا خصوص السبب، فلا يقولن أحد: إن هذه الآية نزلت في الأمر الفلاني فلا شأن لي بها، لا فكل من يشتري بآيات الله ثمنا قليلا تنطبق عليه هذه الآية.

وواقعة الحال التي نزلت فيها الآية هي أن جماعة في عهد جدب ومجاعة دخلت على كعب بن الأشرف اليهودي يطلبون منه الميرة – أي الطعام والكسوة – فقال لهم: هل تعلمون أن هذا الرجل رسول الله؟ قالوا نعم، قال: إنني هممت أن أطعمكم وأن أكسوكم ولكن الله حرمكم خيرا كثيرا وتساءلوا: لماذا حرمنا الله خير الكثير؟ وجاءتهم الإجابة لقد أعلنتم الإيمان بمحمد فلما وجدوا أنفسهم في هذا الموقف، قالوا لكعب بن الأشرف: دعنا فترة لأنه ربما غلبتنا شبهة، فلنراجع فيها أنفسنا.

وعندما مرت الفترة، فضلوا الطعام والكسوة على الإيمان، وقالوا لكعب بن الأشرف:

لقد قرأنا في كتبنا الموجودة لدينا خطأ ، ومحمد ليس رسولا . فأعطاهم كعب القوت والكسوة . وهؤلاء هم الذين اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ، وهو الطعام والكسوة . وكل من يشتري بآيات الله ثمنا قليلا ، فهو يطمس حكما من أحكام الله من أجل أن يتظاهر أمام الناس أنه عصري ، أو أنه مساير لروح الزمان ، أو يزين لأولياء الأمر فعلا من الأفعال لا يرضى عنه الله .

(71/122)

إذن فالذي يفعل مثل ذلك إنما يشتري بآيات الله ثمنا قليلا ، وكل من يجعل آية من آيات الله عرضة للبيع من أجل أن يأخذ عنها ثمنا قليلا ، وكل من يجعل آية من آيات الله عرضة للبيع من أجل أن يأخذ عنها ثمنا يُعتبر داخلا في هذا النص ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ .

والمقصود هنا بعهد الله ، إما أن يكون عهد الفطرة أو العهد الذي أخذه الله على أهل الكتاب بأنهم إن أدركوا بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا بد أن يعلنوا الإيمان به هو العهد الذي جاء به القول الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا

مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَالِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾

[آل عمران : 81] .

إذن فعندما جاءت صفة تكذيبهم لما أعلنوه من إيمان سابق مقابل الميرة والكسوة ، وكان ذلك خيبة كبرى فهم قد اشتروا الثمن ، والثمن مع ذلك قليل ، ولذلك يقول عنهم الحق :

﴿ أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : 77]

(72/122)

وكلمة ﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ تدل على أن الصلة وهي ﴿ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ تُلحق بهم كل من يتصف بهذه الصفات وتجعل له المصير نفسه . فهذه الآية وإن نزلت في هؤلاء الأشخاص الذين جرت منهم حادثة شراء الطعام والكسوة مقابل النكوص عن الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها تشمل كل متصف بهذه الصفة وكل من كان على هذا اللون في أي عصر ، وفي أي دين من الأديان ، ويصفهم الحق سبحانه بـ ﴿ أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ ﴾ .

وكلمة ﴿ خَلاَقَ ﴾ وكلمة " خُلق " وكلمة " خليقة " وكلمة " خلق " كلها تدور حول معنى يكاد يكون متقاربا ، فالخلق – بضم الخاء واللام – أن توجد صفة في الإنسان تغلب عليه حتى تصير ملكة . فيقال : " فلان عنده خلق الصدق " أو " فلان خلقه الكرم " ومعناه : أن فلانا الأول صار الصدق عنده ملكة ولا يتعب نفسه في أن يكون صادقا بل صار الصدق أمرا طبيعيا فيه ، وكذلك وصف فلان الثاني بالكرم أي أن الكرم صار ملكة وسجية عنده .

وهذه الملكة في الأمور المعنوية تساوي الآلية في الأمور الحسية ؛ لأننا نعرف أن كل فعل من الأفعال يحتاج إلى دربة ليكون الإنسان متميزا في أدائه ، وعلى سبيل المثال ، العامل الذي ينسج على آلة يحتاج إلى أن يتدرب على تحريك مكوك الخيط ، وأن يتعلم كيف يحرك المكوك بين خيوط النسيج ، وبعد ذلك يختلف الخيطان معا لتمسك بهما حركة المكوك الثانية في ارتدادها ، وبذلك يتم النسيج ، وحين يتدرب إنسان على هذا العمل فهو يحتاج إلى وقت طويل ، ليصل إلى كفاءة الحركة .

في بداية التدريب يكون الأمر صعبا ، ويستطيع النساج بعد أن يتقن التدريب أن يجلس أمام آلة النسيج ويداه تحرك المكوك بآلية . لقد صارت المسألة بالنسبة إلى النساج المتدرب آلية .

وسبق أن ضربت المثل بالإنسان الذي يتعلم قيادة السيارة ، فالمدرب يعلمه كيف يدير المفتاح ، وكيف ينتظر لتسخين المحرك ، وكيف يفك مكبح السيارة ، ثم كيف يحرك عصا التحكم في اندفاع السيارة ، وكيف يوازن بين الضغط على بدال الوقود والضغط على بدال التحكم الفاصل ، وكيف يوازن بين سير السيارة بتخفيض السرعة بلمسات خفيفة لبدال المكبح .

وقد يخطئ الإنسان في بداية التعلم ويرتبك ، ولكنه بعد تمام التدريب فإنه يعمل بآلية وبدون تفكير ، إنه عمل آلي لا يحتاج إلى تفكير ، وضربت في السابق مثالا بالصبي الذي يتعلم حياكة الملابس ، إنه يأخذ وقتا ليضع الخيط في سم الإبرة ، وتقع منه الأخطاء في قياس المسافات المختلفة بين الغرز ، لكنه من بعد ذلك يتدرب على فعل هذه الأعمال التي كانت صعبة ، ويؤديها بآلية ، والعمل الآلي في الأمور المحسة ، يقابل الملكة في الأمور المعنوية ، فيقال : " إن الصدق عند فلان ملكة " إي أنه إنسان لا يرهُقه أن يكون صادقا .

ونحن أثناء تعليم أبنائنا للنحو – مثلا – نقول لهم : " إن حكم الفاعل الرفع والمفعول به منصوب " وعندما ينطق الابن عبارة ما ، فإنه يحاول تطبيق القاعدة أثناء القراءة ، وقد ينساها ، أو يتلجلج ، وعندما يتذكرها فإنه ينطق الكلمات برسمها الصوتي الصحيح ، وبعد أن يتم التدريب على القاعدة ويقرأ الابن ، فإن أخطاءه تتلاشى ، وبذلك يصير النحو

ملكة عنده .

وكذلك الخلق ، إن الخلق صفة ترسخ في النفس ، فتصدر عنها الأفعال بيسر وسهولة ، فيقال : " الصدق له خلق " ، و " الكرم له خلق " ، و " الشجاعة له خلق " إنها الصفات التي ترسخ في النفس فتصدر عنها الأفعال في يسر وسهولة . والحق سبحانه يقول : ﴿ أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ ﴾ وقد فسر البعض حرمان أولئك من الخلق بأن هذا الصنف من الناس لا نصيب لهم من الخلق ، لأن الخلق صفة راسخة في الإنسان ، والحق يحدد الزمن بأنه ﴿ فِي الآخِرَةِ ﴾ .

(74/122)

والآخرة هي الوقت الذي لا يمكن التدارك فيه ، فالآخرة هي يوم التقييم الصحيح والنهائي .

إن الإنسان قد لا يكون له نصيب السلوك القويم فيعدل سلوكه حتى يكتسب هذا السلوك القويم في الدنيا لكن الإنسان لا يستطيع في الآخرة أن يجد مجالا للاستدراك ، وهذه هي الخيبة القوية .

فالإنسان في الدنيا ، قد يقوم بعمل ما ولا يكون له نصيب من أجره أو قد لا نرى نحن الجزاء

والنصيب الذي يعطيه له الله ولكن الله يعوضه في الآخرة عن هذا العمل الذي لم يكن له نصيب منه في الدنيا أما من لا خلاق له في الآخرة فكيف يتم التعويض ؟ إنّ ذلك أمر مستحيل ؟

ويضيف الحق ﴿ ولاَ يُكلّمُهُمُ اللَّهُ ولاَ ينظرُ إلَيْهِمْ يوْمَ الْقِيامَةِ ولاَ يُزكّيهِمْ ولَهُمْ عذابٌ أَلِيمٌ ﴾

وقد يقول قائل : ألم يقل القرآن الكريم في موقع آخر ، إن الله يقول للكافرين :

﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا ولاَ تُكلّمُونِ ﴾

[المؤمنون : 108] .

فلماذا يقول الحق لهم مرة : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا ولاَ تُكلّمُونِ ﴾ ، ومرة أخرى يقول الحق : ﴿ لاَ يُكلّمُهُمُ اللَّهُ ﴾ ؟ . ونجيب على مثل هذا القول : إن الحق لا يكلمهم كلاما ينفعهم ، أو أنه سبحانه يكلمهم بواسطة ملائكته ، ولكن كيف لا ينظر إليهم الله ؟

وساعة نجد أمرا يوجد في الناس وله نظير منسوب لله سبحانه وتعالى ويقوله سبحانه عن نفسه ، فلا بد أن نأخذ هذا الأمر في إطار : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ .

إننا في مجالنا البشرى نقول : " فلان لا ينظر إلى فلان " أي أنه لا يوجه عيونه إليه ، ويحول حدقتيه عنه ، لكن لا يمكن قياس ذلك على الله ، لأن الله منزه عن التشبيه ففي الوضع البشرى نجد إنسانا يحب صديقا له فيقبل عليه بالوجه والنظر فيقال : " فتى هو قيد العين " أي أنه شاب عندما تنظر إليه العين فهو يقيد العين فلا تذهب عنه إلى مكان آخر ؛ ففي هذا الشاب محاسن تجعل العين لا تذهب بعيدا عنه . وهكذا نأخذ إقبال العين بالنظر على المنظور أو على المرئي كسمة للاهتمام به ، وهذا صحيح في الوضع البشرى .

لكن إذا ما جاء ذلك بالنسبة لله ، هنا نأخذ المسألة في إطار : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ . وهكذا نفهم عدم نظر الله إلى ﴿ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ بأن الله يهملهم ، ولا يهتم بهم " لا ينالهم الله برحمته " ، فالحق سبحانه منزه عن كل تشبيه ، وهكذا الأمر في عدم نظر الحق إليهم ، نأخذ الأمر أيضا في إطار : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ إن ولي الأمر من البشر عندما يرغب في عقاب أحد رعاياه ، لا ينظر إليه ويهمله ، فما بالنا بإهمال الحق سبحانه وتعالى ؟ ! إنه إبعاد لهم عن رحمة الله ورضوانه .

ويضيف الحق سبحانه ﴿ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ والتزكية تأتي بمعنى التطهير ، أو بمعنى الثناء أو النماء والزيادة فنقول : " فلان زكى فلانا " أي أثنى عليه ويقال أيضا : " فلان زكى فلانا " أي طهره ، ومن هذا تكون " الزكاة " التي هي تطهير ونماء .

وعندما يخبرنا الحق سبحانه أنه لا يكلم ذلك الصنف من البشر ولا ينظر إليهم ولا يطهرهم

من أوزارهم ، فهذا مقدمة لما أعده لهم بقوله : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فلا بد أن نأخذ قوة الحدث بفاعل الحدث .

(76/122)

وفي حياتنا العادية عندما يقال : " صفع الطفل فلانا الرجل " نفهم بطبيعة الحال أن صفعة الطفل تختلف في قوتها عن صفعة الشاب ، وكذلك صفعة الشاب تختلف عن صفعة بطل في الملاكمة . إذن فالحدث يختلف باختلاف فاعله قوة وضعفا على المفعول به الذي هو مناط الحدث ، فإذا كان فاعل العذاب هو الله فلا بد أن يكون عذابا أليما ؛ ولا حدود لألمه ، أنجانا الله وإياكم منه . ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 1558.1551 ﴾

(77/122)

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (78) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما نسبهم إلى الكذب عموماً نبه على نوع خاص منه هو أكذب الكذب فقال : ﴿ وإن منهم لفريقاً ﴾ أي جبلوا على الفرقة ، فهم لا يزالون يسعون في التفريق ﴿ يلون ﴾ أي يفتلون ويحرفون ﴿ ألسنتهم بالكتاب ﴾ بأن ينقلوا اللسان لتغيير الحرف من مخرج إلى آخر – مثلاً بأن يقولوا في ﴿ اعبدوا الله ﴾ [المائدة : 72 وغيرها] اللات ، وفي ﴿ لا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ [الأنعام : 151] بالحد ، وفي " من زنى فارجموه " فارحموه بالمهملة ، أو فحمموه ، أو اجلدوه – ونحو هذا .

ولما كان كلام الله سبحانه وتعالى لما له من الحلاوة والجلالة لا يلبس بغيره إلا على ضعيف العقل ناقص الفطرة عبر بالحسبان تنفيراً عن السماع منهم وتنبيهاً على بعد ما يسمعه الإنسان من غيره فقال : ﴿ لتحسبوه ﴾ أي الذي لوى به اللسان فحرف ﴿ من الكتاب ﴾ أي المنزل من عند الله ، ولما علم بهذه أنه ليس منه نبه على أنه في غاية البعد عنه فقال : ﴿ ما هو من الكتاب ﴾ أعاده ظاهراً تصريحاً بالتعميم .

ولما كان إيهامهم هذا من الجراأة بمكان أعلم سبحانه وتعالى أنهم تجاوزوا إلى ما هو أعظم منه فصرحوا بما أوهموه فقال : ﴿ ويقولون ﴾ أي مجددين التصريح بالكذب في كل وقت بأن يقولوا ﴿ وهو من عند الله ﴾ أي المحيط بجميع صفات الكمال ، ثم صرح بكذبهم بقوله - مبعداً لما لووا به ألسنتهم عن أن يكون فيه ثبوت حق مظهراً في موضع الإضمار لأن الاسم الذي لم يشارك فيه أحد بوجه أنص على المراد وأنفى لكل احتمال : ﴿ وما هو ﴾ أي الذي لووا به ألسنتهم حتى أحالوه عن حقيقته ﴿ من عند الله ﴾ أي الذي له الإحاطة العامة ، فما لم يكن من عنده فلا حق فيه بوجه من الوجوه ، لا بكونه من الكتاب ولا من غيره .

ولما بين بهذا كذبهم على الله سبحانه وتعالى تصريحاً بعد أن قدم في الآية الأولى بيانه بما يظن تلويحاً أخبر بأن ذلك عادة لهم ، لا يقفون منه عند عد ، ولا ينحصرون فيه بحد ، فقال : ﴿ ويقولون على الله ﴾ أي الحائز لجميع العظمة جراأة منهم ﴿ الكذب ﴾ أي العام كما قالوا عليه هذا الكذب الخاص ، ولما كان الكذب قد يطلق على ما لم يتعمد ، بل وقع خطأ احترز عنه بقوله : ﴿ وهم يعلمون ﴾ أي أنه كذب ، لا يشكون فيه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 117.116 ﴾

فصل

قال الفخر :

(79/122)

اعلم أن هذه الآية تدل على أن الآية المتقدمة نازلة في اليهود بلا شك لأن هذه الآية نازلة في حق اليهود وهي معطوفة على ما قبلها فهذا يقتضي كون تلك الآية المتقدمة نازلة في اليهود أيضاً واعلم أن ﴿ اللي ﴾ عبارة عن عطف الشيء ورده عن الاستقامة إلى الاعوجاج، يقال : لويت يده ، والتوى الشيء إذا انحرف والتوى فلان علي إذا غير أخلاقه عن الاستواء إلى ضده ، ولوى لسانه عن كذا إذا غيره ، ولوى فلاناً عن رأيه إذا أماله عنه ، وفي الحديث : "لي الواجد ظلم " وقال تعالى : ﴿ وراعنا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِى الدين ﴾ [النساء : 46].

إذا عرفت هذا الأصل ففي تأويل الآية وجوه الأول : قال القفال رحمه الله قوله ﴿ يَلْوُونَ أَلسِنَتَهُم ﴾ معناه وأن يعمدوا إلى اللفظة فيحرفونها في حركات الإعراب تحريفاً يتغير به المعنى ، وهذا كثير في لسان العرب فلا يبعد مثله في العبرانية ، فلما فعلوا مثل ذلك في الآيات

الدالة على نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام من التوراة كان ذلك هو المراد من قوله تعالى : ﴿ يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم ﴾ وهذا تأويل في غاية الحسن الثاني : نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إن النفر الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم كتبوا كتاباً شوشوا فيه نعت محمد صلى الله عليه وسلم وخلطوه بالكتاب الذي كان فيه نعت محمد صلى الله عليه وسلم ثم قالوا ﴿ هذا مِنْ عِندِ الله ﴾ .

إذا عرفت هذا فنقول : إن لي اللسان تثنيه بالتشدق والتنطع والتكلف وذلك مذموم فعبّر الله تعالى عن قراءتهم لذلك الكتاب الباطل بلي اللسان ذماً لهم وعيباً ولم يعبر عنها بالقراءة ، والعرب تفرق بين ألفاظ المدح والذم في الشيء الواحد ، فيقولون في المدح : خطيب مصقع ، وفي الذم : مكثار ثرثار .

(80/122)

فقوله ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بالكتاب ﴾ المراد قراءة ذلك الكتاب الباطل ، وهو الذي ذكره الله تعالى في قوله ﴿ فَوَيْلٌ لّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِندِ الله ﴾ [البقرة : 79] ثم قال : ﴿ وَمَا هُوَ مِنَ الكتاب ﴾ أي وما هو الكتاب الحق المنزّل من عند الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 94 ﴾

سؤالان

السؤال الأول : إلى ما يرجع الضمير في قوله ﴿ لِتَحْسَبُوهُ ﴾ ؟ .

الجواب : إلى ما دل عليه قوله ﴿ يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم ﴾ وهو المحرّف .

السؤال الثاني : كيف يمكن إدخال التحريف في التوراة مع شهرتها العظيمة بين الناس ؟ .

الجواب : لعله صدر هذا العمل عن نفر قليل ، يجوز عليهم التواطؤ على التحريف ، ثم إنهم عرضوا ذلك المحرف على بعض العوام وعلى هذا التقدير يكون هذا التحريف ممكناً ، والأصوب عندي في تفسير الآية وجه آخر وهو أن الآيات الدالة على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم كان يحتاج فيها إلى تدقيق النظر و تأمل القلب ، والقوم كانوا يوردون عليها الأسئلة المشوشة والاعتراضات المظلمة فكانت تصير تلك الدلائل مشتبهة على السامعين ، واليهود كانوا يقولون : مراد الله من هذه الآيات ما ذكرناه لا ما ذكرتم ، فكان هذا هو المراد بالتحريف وبلي الألسنة وهذا مثل ما أن المحق في زماننا إذا استدل بآية من كتاب الله تعالى ، فالمبطل يورد عليه الأسئلة والشبهات ويقول : ليس مراد الله ما ذكرت ، فكذا في هذه الصورة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 94. 95 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن من الناس من قال : إنه لا فرق بين قوله ﴿ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ وبين قوله ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ [آل عمران : 78] وكرر هذا الكلام بلفظين مختلفين لأجل التأكيد ، أما المحققون فقالوا : المغايرة حاصلة ، وذلك لأنه ليس كل ما لم يكن في الكتاب لم يكن من عند الله ، فإن الحكم الشرعي قد ثبت تارة بالكتاب ، وتارة بالسنة ، وتارة بالإجماع ، وتارة بالقياس والكل من عند الله .

فقوله ﴿ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ هذا نفي خاص ، ثم عطف عليه النفي العام فقال : ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ وأيضاً يجوز أن يكون المراد من الكتاب التوراة ، ويكون المراد من قولهم : هو من عند الله ، أنه موجود في كتب سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مثل أشعياء ، وأرمياء ، وحيقوق ، وذلك لأن القوم في نسبة التحريف إلى الله كانوا متحيرين ، فإن وجدوا قوماً من الأغمار والبله الجاهلين

بالتوراة نسبوا ذلك المحرف إلى أنه من التوراة ، وإن وجدوا قوماً عقلاء أذكياء زعموا أنه موجود في كتب سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين جاؤا بعد موسى عليه السلام ، واحتج الجُبّائي والكَعْبيّ به على أن فعل العبد غير مخلوق لله تعالى فقالا : لو كان لَيُّ اللّسان بالتحريف والكذب خلقاً لله تعالى لصدق اليهود في قولهم : إنه من عند الله ولزم الكذب في قوله تعالى : إنه ليس من عند الله ، وذلك لأنهم أضافوا إلى الله ما هو من عنده ، والله ينفي عن نفسه ما هو من عنده ، ثم قال : وكفى خزياً لقوم يجعلون اليهود أولى بالصدق من الله قال : ليس لأحد أن يقول المراد من قولهم ﴿ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكتاب وَمَا هُوَ مِنَ الكتاب ﴾ وبين قوله ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ الله ﴾ فرق ، وإذا لم يبق الفرق لم يحسن العطف ، وأجاب الكعبي عن هذا السؤال أيضاً من وجهين آخرين الأول : أن كون المخلوق من عند الخالق أوكد من كون المأمور به من عند الآمر به ، وحمل الكلام على الوجه الأقوى أولى والثاني : أن قوله ﴿ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ الله ﴾ نفي مطلق لكونه من عند الله وهذا ينفي كونه من عند الله بوجه من الوجوه ، فوجب أن لا يكون من عنده لا بالخلق ولا بالحكم .

والجواب : أما قول الجُبّائي لو حملنا قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ على أنه كلام الله لزم التكرار ، فجوابه ما ذكرنا أن قوله ﴿ وَمَا هُوَ مِنَ الكتاب ﴾ معناه أنه غير موجود في الكتاب وهذا لا يمنع من كونه حكماً لله تعالى ثابتاً بقول الرسول أو بطريق آخر فلما قال : ﴿ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ الله ﴾ ثبت نفي كونه حكماً لله تعالى وعلى هذا الوجه زال التكرار .

وأما الوجه الأول : من الوجهين اللذين ذكرهما الكعبي فجوابه ، أن الجواب لا بد وأن يكون منطبقاً على السؤال ، والقوم ما كانوا في ادعاء أن ما ذكروه وفعلوه خلق الله تعالى ، بل كانوا يدعون أنه حكم الله ونازل في كتابه .

فوجب أن يكون قوله ﴿ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ الله ﴾ عائداً إلى هذا المعنى لا إلى غيره ، وبهذا الطريق يظهر فساد ما ذكره في الوجه الثاني والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 95. 96 ﴾

فائدة

قال أبو حيان :

قال أبو بكر الرازي : هذه الآية فيها دلالة على أن المعاصي ليست من عند الله ولا من فعله ، لأنها لو كانت من فعله كانت من عنده .

وقد نفى الله تعالى نفياً عامّاً لكون المعاصي من عنده . انتهى .

وهذا مذهب المعتزلة ، وكان الرازي يجنح إلى مذهبهم .

وقال ابن عطية ﴿ وما هو من عند الله ﴾ نفي أن يكون منزلاً كما ادّعوا ، وهو من عند الله بالخلق والاختراع والإيجاد ، ومنهم بالتكسب .

ولم تعن الآية إلاَّ معنى التنزيل ، فبطل تعلق القدرية بظاهر قوله : ﴿ وما هو من عند الله ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 528 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

وقوله : يَلْوُونَ " صفة لـ " فريقاً " فهي في محل نصبٍ ، وجمع الضمير اعتباراً بالمعنى ؛ لأنه اسم جمع - كالقوم والرهط - .

قال أبو البقاء : " ولو أفرد على اللفظ لجاز " وفيه نظرٌ ؛ إذ لا يجوز : القوم جاءني ، والعامة على ﴿ يَلْوُونَ ﴾ بفتح الياء ، وسكون اللام ، وبعدها واو مضمومة ، ثم أخرَى ساكنة مضارع لوى أي : فتل .

وقرأ أبو جعفر وشيبة بن نِصاح وأبو حاتم - عن نافع - " يُلَوُّون " بضم الياء ، وفتح اللام ، وتشديد الأولى - من لَوَّى " مضعَّفاً ، والتضعيف فيه للتكثير والمبالغة ، لا للتعدية ؛ إذ لو

كان لها لتعدى لآخرَ ؛ لأنه مُتَعَدّ لواحد قبل ذلك ، ونسبها الزمخشريُّ لأهل المدينةِ ، وهو كما قال ، فإن هؤلاء رؤساء قُرّاء المدينة

وقرأ حُمَيْد "يَلُون" - بفتح الياء ، وضم اللام ، بعدها واو مفردة ساكنة - ونسبها الزمخشريُّ لمجاهدٍ وابن كثيرٍ ، ووجَّهَهَا هو بأن الأصل ﴿ يَلْوُونَ ﴾ - كقراءة العامة - ثم أبدِلَت الواو المضمومة همزة ، وهو بدل قياسيٌّ - كأجوه وأُقِّتَتْ . ثم خُفِّفَت الهمزةُ بإلقاء حركتها على الساكن قبلها وهو اللام - وحُذِفَت الهمزةُ ، فبقي وزن "يَلُون" "يَفُون" - بحذْف اللام والعين - وذلك لأن اللام - وهي الياء - حُذِفت لالتقاء الساكنين ؛ لأن الأصل "يلويون" "كيضربون ، فاستُثْقِلَت الضمة على الياء فحذفت ، فالتقى ساكنان - الياء وواو الضمير - فحُذِفت الياء لالتقائهما ، ثم حُذِفت الواو التي هي عين الكلمة .

و ﴿ أَلْسِنَتَهُمْ ﴾ جمع لسانٍ ، وهذا على لغة من ذكَّره ، وأما على لغة من يُؤنثه - فيقول : هذه لسانٌ - فإنه يجمع على "أَلْسُن" - نحو ذِراع وأذرُع وكراع وأكرع .

وقال الفرّاء : لم نسمعْه من العرب إلا مذكَّراً . ويُعَبَّر باللسان عن الكلام ؛ لأنه ينشأ منه ، وفيه - والمراد به ذلك - التذكير والتأنيث - ، واللَّيّ : الفتل ، يقال : لَوَيْت الثوب ، ولويت

عنقه – أي فتلته – واللّيُّ : المطل ، لواه دَيْنَه ، يلويه ليًّا ، وليَّاناً : مطله . والمصدر : اللَّيّ واللّيان .

قال الشاعرُ : [الرجز]

قَدْ كُنْتُ دَايَنْتُ بِهَا حَسَّانا . . . مَخَافَةَ الإفْلاسِ وَاللَّيانا

والأصل لوْيٌ ، ولَوْيان ، فأعِلَّ بما تقدم في " مَيِّت " وبابه ثم يُطْلَق اللَّيّ على الإراغة والمراوغة في الحجج والخصومة ؛ تشبيهاً للمعاني بالأجرام . وفي الحديث : " لَيُّ الْوَاجِدِ ظُلْمٌ " .

وقال بعضهم : اللَّيّ عبارة عن عَطْف الشيء ، وردّه عن الاستقامة إلى الاعوجاج يقال : لَوَيْت يده والتوى الشيءُ – إذا انحرف – والتوى فلان عليَّ إذا غيَّر أخلاقه عن الاستواء إلى ضده . ولوى لسانه عن كذا – إذا غيره – ولوى فلانٌ فلاناً عن رأيه – إذا أماله عنه –

و ﴿ بالكتاب ﴾ متعلق بـ ﴿ يَلْوُونَ ﴾ ، وجعله أبو البقاء حالاً من الألسنة ، قال : وتقديره : ملتبسة بالكتاب ، أو ناطقة بالكتاب .

والضمير في ﴿ لِتَحْسَبُوهُ ﴾ يجوز أن يعود على ما تقدَّم مما دل عليه ذِكْر اللَّيّ والتحريف ، أي : لتحسبوا المحرف من التوراة . ويجوز أن يعود على مضاف محذوفٍ ، دل عليه المعنى ، والأصل : يلوون ألسنتهم بشِبْهِ الكتاب ؛ لتحسبوا شِبْهَ الكتاب الذي حرفوه من الكتاب ، ويكون كقوله : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ ﴾ [النور : 40] ثم قال : ﴿ يَغْشَاهُ ﴾ [النور : 40] يعود على " ذِي " المحذوفة . و" من الكتاب " هو المفعول الثاني للحُسْبان . وقُرِئَ " ليحسبوه " – بياء الغيبة – والمراد بهم المسلمون – أيضاً – كما أريد بالمخاطبين في قراءة العامة ، والمعنى : ليحسب المسلمون أن المحرَّف من التوراة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 341 . 343 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكذب وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

قال الفخر :

المعنى أنهم يتعمدون ذلك الكذب مع العلم .

واعلم أنه إن كان المراد من التحريف تغيير ألفاظ التوراة ، وإعراب ألفاظها ، فالمقدمون عليه يجب أن يكونوا طائفة يسيرة يجوز التواطؤ منهم على الكذب ، وإن كان المراد منه تشويش دلالة تلك الآيات على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم بسبب إلقاء الشكوك والشبهات في وجوه الاستدلالات لم يبعد إطباق الخلق الكثير عليه ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 96 ﴾

من فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا ﴾ أي إن من أهل الكتاب الخائنين لجماعة ﴿ يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بالكتاب ﴾ أي يحرفونه قاله مجاهد وقيل : أصل الليّ الفتل من قولك : لويت يده إذا فتلتها ، ومنه لويت الغريم إذا مطلته حقه قال الشاعر :

تطيلين لياني وأنت (ملية) . . . وأحسن يا ذات الوشاح التقاضيا

(87/122)

وفي الخبر "ليّ الواجد ظلم" فالمعنى يفتلون ألسنتهم في القراءة بالتحريف في الحركات ونحوها تغييراً يتغير به المعنى ويرجع هذا في الآخرة إلى ما قاله مجاهد ، وقريب منه ما قيل : إن المراد يميلون الألسنة بمشابه الكتاب ، والألسنة جمع لسان ، وذكر ابن الشحنة أنه يذكر ويؤنث . ونقل عن أبي عمرو بن العلاء أن من أنثه جمعه على ألسن ، ومن ذكره جمعه على ألسنة ، وعن الفراء أنه قال : اللسان بعينه لم أسمعه من العرب إلا مذكراً ولا يخفى أن المثبت مقدم على النافي ؛ والباء صلة أو للآلة أو للظرفية أو للملابسة ، والجار والمجرور حال من الألسنة أي ملتبسة بالكتاب ، وقرأ أهل المدينة يلوون بالتشديد فهو على حد ﴿ لَوَّوْا

رُءوسَهُمْ ﴾ [المنافقون : 5] وعن مجاهد وابن كثير يلون على قلب الواو المضمومة همزة ثم تخفيفها بحذفها وإلقاء حركتها على الساكن قبلها كذا قيل ، واعترض عليه بأنه لو نقلت ضمة الواو لما قبلها فحذفت لالتقاء الساكنين كفى في التوجيه فأي حاجة إلى قلب الواو همزة ، ورد بأنه فعل ذلك ليكون على القاعدة التصريفية بخلاف نقل حركة الواو ثم حذفها على ما عرف في التصريف ، ونظر فيه بعض المحققين بأن الواو المضمومة إنما تبدل همزة إذا كانت ضمتها أصلية فهو مخالف للقياس أيضاً . نعم قرىء يلؤون بالهمز في الشواذ وهو يؤيده ، وعلى كل ففيه اجتماع إعلالين ومثله كثير ، وأما جعله من الولي بمعنى القرب أي يقربون ألسنتهم بميلها إلى المحرف فبعيد من الصحيح قريب إلى المحرف .

(88/122)

﴿ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أي لتظنوا أيها المسلمون أن المحرف المدلول عليه باللي أو المشابه من كتاب الله تعالى المنزل على بعض أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، وقرىء (ليحسبوه) بالياء والضمير أيضاً للمسلمين . ﴿ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ ولكنه من قبل أنفسهم ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أي ويزعمون صريحاً غير مكتفين بالتورية والتعريض أن المحرف أو المشابه نازل من عند الله ﴿ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ أي وليس هو

نازلاً من عند الله تعالى ، والواو للحال والجملة حال من ضمير المبتدأ في الخبر ، وفي جملة ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ الخ تأكيد للنفي الذي قبلها وليس الغرض التأكيد فقط وإلا لما توجه العطف بل التشنيع أيضاً بأنهم لم يكتفوا بذلك التعريض حتى ارتكبوا هذا التصريح وبهذا حصلت المغايرة المقتضية للعطف ، والإظهار في موضع الإضمار لتهويل ما قدموا عليه ، واستدل الجبائي والكعبي بالآية على أن فعل العبد ليس بخلق الله تعالى وإلا صدق أولئك المحرفون بقولهم ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ تعالى لكن الله وردّ بأن القوم ما ادعوا أن التحريف من عند الله وبخلقه وإنما ادعوا أن المحرف منزل من عند الله ، أو حكم من أحكامه فتوجه تكذيب الله تعالى إياهم إلى هذا الذي زعموا .

والحاصل أن المقصود بالنفي كما أشرنا إليه نزوله من عنده سبحانه وهو أخص من كونه من فعله وخلقه ، ونفي الخاص لا يستلزم نفي العام فلا يدل على مذهب المعتزلة القائلين بأن أفعال العباد مخلوقة لهم لا لله تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ أي في نسبتهم ذلك إلى الله تعالى تعريضاً وتصريحاً ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم كاذبون عليه سبحانه وهو تسجيل عليهم بأن ما افتروه عن عمد لا

خطأ ، وقيل : يعلمون ما عليهم في ذلك من العقاب ، روى الضحاك عن ابن عباس أن الآية نزلت في اليهود والنصارى جميعاً وذلك أنهم حرفوا التوراة والإنجيل وألحقوا بكتاب الله تعالى ما ليس منه ، وروى غير واحد أنها في طائفة من اليهود ، وهم كعب بن الأشرف ومالك وحيي بن أخطب وأبو ياسر وشعبة بن عمرو الشاعر غيروا ما هو حجة عليهم من التوراة .

واختلف الناس في أن المحرف هل كان يكتب في التوراة أم لا ؟ فذهب جمع إلى أنه ليس في التوراة سوى كلام الله تعالى وأن تحريف اليهود لم يكن إلا تغييراً وقت القراءة أو تأويلاً باطلاً للنصوص ، وأما أنهم يكتبون ما يرومون في التوراة على تعدد نسخها فلا ، واحتجوا لذلك بما أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم عن وهب بن منبه أنه قال : إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله تعالى لم يغير منهما حرف ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم ويقولون : إن ذلك من عند الله وما هو من عند الله فأما كتب الله تعالى فإنها محفوظة لا تحول وبأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول لليهود إلزاماً لهم : ﴿ فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ [آل عمران : 93] وهم يمتنعون عن ذلك فلو

كانت مغيرة إلى ما يوافق مرامهم ما امتنعوا بل وما كان يقول لهم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه يعود على مطلبه الشريف بالإبطال . وذهب آخرون إلى أنهم بدلوا وكتبوا ذلك في نفس كتابهم واحتجوا على ذلك بكثير من الظواهر ولا يمنع من ذلك تعدد النسخ إما لاحتمال الطواطؤ أو فعل ذلك في البعض دون البعض وكذا لا يمنع منه قول الرسول لهم ذلك لاحتمال علمه صلى الله عليه وسلم ببقاء بعض ما يفي بغرضه سالماً عن التغيير إما لجهلهم بوجه دلالته ، أو لصرف الله تعالى إياهم عن تغييره ، وأما ما روي عن وهب فهو على تقدير ثبوته عنه يحتمل أن يكون قولاً عن اجتهاد ، أو ناشئاً عن عدم استقراء تام ، ومما يؤيد وقوع التغيير في كتب الله تعالى وأنها لم تبق كيوم نزلت وقوع التناقض في الأناجيل وتعارضها وتكاذبها وتهافتها ومصادمتها بعضها ببعض ، فأنها أربعة أناجيل : الأول : "إنجيل متى" وهو من الاثني عشر الحواريين وإنجيله باللغة السريانية كتبه بأرض فلسطين بعد

رفع المسيح إلى السماء بثماني سنين وعدة إصحاحاته ثمانية وستون إصحاحاً ، والثاني : "إنجيل مرقس" وهو من السبعين وكتب إنجيله باللغة الفرنجية بمدينة رومية بعد رفع

المسيح باثنتي عشرة سنة وعدة إصحاحاته ثمانية وأربعون إصحاحاً ، والثالث : "إنجيل لوقا" وهو من السبعين أيضاً كتب إنجيله باللغة اليونانية بمدينة الإسكندرية بعد ذلك وعدة إصحاحاته ثلاثة وثمانون إصحاحاً ، والرابع : "إنجيل يوحنا" وهو حبيب المسيح كتب إنجيله بمدينة إفسس من بلاد رومية بعد رفع المسيح بثلاثين سنة وعدة إصحاحاته في النسخ القبطية ثلاثة وثلاثون إصحاحاً ، وقد تضمن كل إنجيل من الحكايات والقصص ما أغفله الآخر ، واشتمل على أمور وأشياء قد اشتمل الآخر على نقيضها أو ما يخالفها ، وفيها ما تحكم الضرورة بأنه ليس من كلام الله تعالى أصلاً ، فمن ذلك أن متى ذكر أن المسيح صلب وصلب معه لصان أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله وأنهما جميعاً كانا يهزءان بالمسيح مع اليهود ويعيرانه ، وذكر لوقا خلاف ذلك فقال : إن أحدهما كان يهزأ به والآخر يقول له : أما تتقي الله تعالى أما نحن فقد جوزينا وأما هذا فلم يعمل قبيحاً ثم قال للمسيح : يا سيدي أذكرني في ملكوتك فقال : حقاً إنك تكون معي اليوم في الفردوس ولا يخفى أن هذا يؤول إلى التناقض فإن اللصين عند متى كافران وعند لوقا أحدهما مؤمن والآخر كافر ، وأغفل هذه القصة مرقس ويوحنا ، ومنه أن لوقا ذكر أنه قال يسوع : إن ابن الإنسان لم يأت ليهلك نفوس الناس ولكن ليحيي وخالفه أصحابه وقالوا بل قال : إن ابن الإنسان لم يأت ليلقي على الأرض سلامة لكن سيفاً ويضرم فيها ناراً ، ولا شك أن هذا

تناقض ، أحدهما : يقول جاء رحمة للعالمين ، والآخر يقول : جاء نقمة على الخلائق أجمعين ، ومن ذلك أن متى قال : قال يسوع للتلاميذ الإثني عشر :

أنتم الذين تكونون في الزمن الآتي جلوساً على إثني عشر كرسياً تدينون إثني عشر سبط إسرائيل فشهد للكل بالفوز والبرعامة في القيامة ثم نقض ذلك متى وغيره وقال : مضى واحد من التلاميذ الإثني عشر وهو يهوذا صاحب صندوق الصدقة فارتشى على يسوع بثلاثين درهماً وجاء بالشرطي فسلم إليهم يسوع فقال يسوع : الويل له خير له أن لا يولد ، ومنه أن متى أيضاً ذكر أنه لما حمل يسوع إلى فيلاطس القائد قال : أي شر فعل هذا فصرخ اليهود وقالوا : يصلب يصلب فلما رأى عزمهم وأنه لا ينفع فيهم أخذ ماءاً وغسل يديه وقال : أنا بريء من دم هذا الصديق وأنتم أبصر ، وأكذب يوحنا ذلك فقال : لما حمل يسوع إليه قال لليهود : ما تريدون ؟ قالوا : يصلب فضرب يسوع ثم سلمه إليهم إلى غير ذلك مما يطول ، فإذا وقع هذا التغيير والتحريف في أصول القوم ومتقدميهم فما ظنك في فروعهم ومتأخريهم .

وإذا كان في الأنابيب حيف . . . وقع الطيش في صدور الصعاد

ويا ليت شعري هل تنبه ابن منبه لهذا أم لم يتنبه فقال : إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله تعالى سبحان الله هذا من العجب العجاب ؟ ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 204.207 ﴾

وقال ابن عاشور :

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ ﴾

أي من اليهود طائفة تخيل للمسلمين أشياء أنها مما جاء في التوراة ، وليست كذلك ، إما في الاعتذار عن بعض أفعالهم الذميمة ، كقولهم : ليس علينا في الأميين سبيل ، وإما للتخليط على المسلمين حتى يشككوهم فيما يخالف ذلك مما ذكره القرآن ، أو لإدخال الشك عليهم في بعض ما نزل به القرآن ، فاللَّيُّ مجمل ، ولكنه مبين بقوله : ﴿ لتحسبوه من الكتاب ﴾ وقولِه : ﴿ ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ﴾ .

(93/122)

واللَّيُّ في الأصل : الإراغة أي إدارة الجسم غير المتصلب إلى غير الصوْب الذي هو ممتدّ إليه : فمن ذلك ليّ الحَبْل ، وليّ العنان للفَرس لإدارته إلى جهة غير صوب سَيره ، ومنه لَيّ العنق ، وليّ الرأس بمعنى الالتفات الشزر والإعراض قال تعالى : ﴿ لووا رؤوسهم ﴾ [المنافقون

: 5] .

واللّي في هذه الآية يحتمل أن يكون حقيقة بمعنى تحريف اللسان عن طريق حرف من حروف الهجاء إلى طريق حرف آخر يقاربه لتعطي الكلمة في أذن السامع جرس كلمة أخرى ، وهذا مثل ما حكى الله عنهم في قولهم "راعنا" وفي الحديث من قولهم في السلام على النبي : "السامُ عليكم" أي الموت أو "السِّلام بكسر السين عليك" وهذا اللّي يشابه الإشمام والاختلاس ومنه إمالة الألف إلى الياء ، وقد تتغير الكلمات بالترقيق والتفخيم وباختلاف صفات الحروف .

والظاهر أنّ الكتاب هو التوراة فلعلهم كانوا إذا قرؤوا بعض التوراة بالعربية نطقوا بحروف من كلماتها بينَ بينَ ليوهموا المسلمين معنى غير المعنى المراد ، وقد كانت لهم مقدرة ومِراس في هذا .

وقريب من هذا ما ذكره المبرّد في الكامل أنّ بعض الأزارقة أعاد بيت عُمر ابن أبي ربيعة في مجلس ابن عباس

. . .

.

رأَتْ رجلاً أما إذا الشمس عَارَضت

فيضْحَى وأما بالعشي فيخصر . . .

فجعل يضحى يَحْزَى وجعل يَخصر يخسر بالسينِ ليشوّه المعنى لأنه غضب من إقبال ابن عباس على سماع شعره .

وفي الأحاجي والألغاز كثير من هذا كقولهم : إنّ للآهي إلهاً فوقَه فيقولها أحد بحضرة ناس ولا يشبع كسرة اللاّهي يخالها السامع لله فيظنه كَفَر .

أو لعلهم كانوا يقرؤون ما ليس من التوراة بالكيفيات أو اللحون التي كانوا يقرؤون بها التوراة ليخيلوا للسامعين أنهم يقرؤون التوراة .

(94/122)

ويحتمل أن يكون اللّي هنا مجازاً عن صرف المعنى إلى معنى آخر كقولهم لوى الحجة أي ألقي بها على غير وجهها ، وهو تحريف الكلم عن مواضعه : بالتأويلات الباطلة ، والأقيسة الفاسدة ، والموضوعات الكاذبة ، وينسبون ذلك إلى الله ، وأياماً كان فهذا اللَّيُّ يقصدون منه التمويه على المسلمين لغرض ، حكما فعل ابن صوريا في إخفاء حكم رجم الزاني في التوراة وقوله : نحَمم وجهه .

والمخاطب يتحسبوه المسلمون دون النبي صلى الله عليه وسلم أو هو والمسلمون في ظنّ اليهود .

وجيء بالمضارع في هاته الأفعال : يلوون ، ويَقُولون ، للدلالة على تجدّد ذلك وأنه دأبهم .

وتكرير الكتاب في الآية مرتين ، واسم الجلالة أيضاً مرتين ، لقصد الاهتمام بالاسمين ، وذلك يجر إلى الاهتمام بالخبر المتعلق بهما ، والمتعلقين به ، قال المرزوقي في شرح الحماسة في باب الأدب عند قول يحيى بن زياد :

لما رأيت الشيب لاح بياضه

بمفرق رأسي قلت للشيب مرحبا . . .

كان الواجب أن يقول : "قلت له مرحبا لكنهم يكرّرون الأعلام وأسماء الأجناس كثيراً والقصد بالتكرير التفخيم" قلت ومنه قول الشاعر :

لا أرى الموت يسبق الموت شيء

قهر الموت ذا الغنى والفقيرا . . .

وقد تقدم تفصيل ذلك عند قوله تعالى في سورة [البقرة : 282] : ﴿ واتقوا اللَّه ويعلمكم اللَّه واللَّه بكل شيء عليم ﴾

والقراءة المعروفة يلوون : بفتح التحتية وسكون اللام وتخفيف الواو مضارع لوى ، وذكر ابن عطيّة أنّ أبا جعفر قرأه : يُلَوون بضم ففتح فواو مشدّدة مضارع لوّى بوزن فعل للمبالغة ولم أر نسبة هذه القراءة إلى أبي جعفر في كتب القراءات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 136 . 138 ﴾

فصل

قال العلامة أبو حيان ولله دره :

(95/122)

والذي يظهر أن اللّيّ وقع بالكتاب أي : بألفاظه لا بمعانيه وحدها كما يزعم بعض الناس ، بل التحريف والتبديل وقع في الألفاظ ، والمعاني تبع للألفاظ ، ومن طالع التوراة علم يقيناً أن التبديل في الألفاظ والمعاني ، لأنها تضمنت أشياء يجزم العاقل أنها ليست من عند الله ، ولا أن ذلك يقع في كتاب إلهي من كثرة التناقض في الأخبار والأعداد ونسبة أشياء إلى الله تعالى من الأكل والمصارعة وغير ذلك ، ونسبة أشياء إلى الأنبياء من الكذب والسكر من الخمر والزنا ببناتهم .

وغير ذلك من القبائح التي ينزه العاقل نفسه عن أن يتصف بشيء منها ، فضلاً عن منصب النبوة .

وقد صنف الشيخ علاء الدين علي بن محمد بن خطاب الباجي ، رحمه الله تعالى ، كتاباً في (السؤالات على ألفاظ التوراة ومعانيه) ومن طالع ذلك الكتاب رأى فيه عجائب وغرائب ، وجزم بالتبديل لألفاظ التوراة ومعانيها ، هذا مع خلوها من ذكر : الآخرة ،

والبعث ، والحشر ، والنشر ، والعذاب والنعيم الأخرويين ، والتبشير برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأين هذا من قوله تعالى ﴿ الذين يتبعون الرسول النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ وقوله تعالى وقد ذكر رسوله وصحابته .

﴿ ذلك مثلهم في التوراة ﴾

(96/122)

وقد نص تعالى في القرآن على ما يقتضي إخفاءهم لكثير من التوراة ، قال تعالى : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ﴾ وقال تعالى ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ﴾ فدلت هاتان الآيتان على أن الذي أخفوه من الكتاب كثير ، ودل بمفهوم الصفة أن الذي أبدوه من الكتاب قليل . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 2 صـ 527 ﴾

فائدة

قال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ ﴾ إلَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَعَاصِيَ لَيْسَتْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَلَا مِنْ فِعْلِهِ ؛ لِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ مِنْ فِعْلِهِ لَكَانَتْ مِنْ عِنْدِهِ ، وَقَدْ نَفَى اللَّهُ نَفْيًا عَامًّا كَوْنَ الْمَعَاصِي مِنْ عِنْدِهِ ، وَلَوْ كَانَتْ مِنْ فِعْلِهِ لَكَانَتْ مِنْ عِنْدِهِ مِنْ آكَدِ الْوُجُوهِ ، فَكَانَ لَا يَجُوزُ إطْلَاقُ النَّفْيِ بِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِنْدِهِ .

فَإِنْ قِيلَ فَقَدْ يُقَالُ إنَّ الْإِيمَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَلَا يُقَالُ إنَّهُ مِنْ عِنْدِهِ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ ، كَذَلِكَ الْكُفْرُ وَالْمَعَاصِي .

قِيلَ لَهُ : لِأَنَّ إطْلَاقَ النَّفْيِ يُوجِبُ الْعُمُومَ وَلَيْسَ كَذَلِكَ إطْلَاقُ الْإِثْبَاتِ ، أَلَا تَرَى أَنَّك لَوْ قُلْت : " مَا عِنْدَ زَيْدٍ طَعَامٌ " كَانَ نَفْيًا لِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ ، وَلَوْ قُلْت : " عِنْدَهُ طَعَامٌ " مَا كَانَ عُمُومًا فِي كَوْنِ جَمِيعِ الطَّعَامِ عِنْدَهُ ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 2 صـ 300 ﴾

(97/122)

لطيفة

قال فى الميزان :

وتكرار لفظ الكتاب ثلاث مرات في الكلام لدفع اللبس فإن المراد بالكتاب الأول هو الذي

كتبوه بأيديهم ونسبوه إلى الله سبحانه وبالثاني الكتاب الذي أنزله الله تعالى بالوحي وبالثالث هو الثاني كرر لفظه لدفع اللبس وللإشارة إلى أن الكتاب بما أنه كتاب الله أرفع منزلة من أن يشتمل على مثل تلك المفتريات وذلك لما في لفظ الكتاب من معنى الوصف المشعر بالعلية.

ونظيره تكرار لفظ الجلالة في قوله ﴿ ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ﴾ فالمعنى وما هو من عند الله الذي هو إله حقا لا يقول إلا الحق قال تعالى ﴿ والحق أقول ﴾ وأما قوله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون تكذيب بعد تكذيب لنسبتهم ما اختلقوه من الوحي إلى الله سبحانه فإنهم كانوا يلبسون الأمر على الناس بلحن القول فأبطله الله بقوله ﴿ وما هو من الكتاب ﴾ ثم كانوا يقولون بألسنتهم هو من عند الله فكذبهم الله أولا بقوله ﴿ وما هو من عند الله ﴾ وثانيا بقوله ﴿ ويقولون على الله الكذب ﴾ وزاد في الفائدة أولا أن الكذب من دأبهم وديدنهم وثانيا أن ذلك ليس كذبا صادرا عنهم بالتباس من الأمر عليهم بل هم عالمون به متعمدون فيه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ الميزان حـ 3 صـ 83.

84 ﴾

ومن فوائد صاحب المنار في الآيات السابقة

قال رحمه الله:

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾

هَذَا بَيَانُ حَالٍ أُخْرَى مِنْ أَحْوَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ، تُمَثِّلُهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى تَخُونُ الْأَمَانَةَ وَتَسْتَحِلُّ أَكْلَ أَمْوَالِ مَنْ لَيْسَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ بِالْبَاطِلِ غُرُورًا فِي الدِّينِ وَتَأْوِيلًا لِلْكِتَابِ. وَهِيَ قَدْ جَاءَتْ فِي مُقَابِلِ الطَّائِفَةِ الَّتِي تَكِيدُ لِلْمُسْلِمِينَ لِيَرْجِعُوا

(99/122)

عَنْ دِينِهِمْ. وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي قَوْلِهِ: وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَخْ. هَذِهِ الْآيَةُ جَاءَتْ بِبَعْضِ التَّفْصِيلِ لِمَا أُجْمِلَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ مِنْ غُرُورِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَزَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ شَعْبُ اللهِ الْخَاصُّ، وَأَنَّ الدِّينَ وَالْحَقَّ مِنْ خَصَائِصِهِمْ. وَابْتِدَاؤُهَا بِالْعَطْفِ يُشْعِرُ بِمَعْطُوفٍ مَحْذُوفٍ حُذِفَ إِيجَازًا، لِأَنَّ السِّيَاقَ لَا يَقْتَضِي ذِكْرَهُ وَهُوَ مُبَيَّنٌ فِي آيَاتٍ أُخْرَى كَقَوْلِهِ - تَعَالَى -: مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ [3: 113] إِلَخْ. فَكَأَنَّهُ هَاهُنَا يَعْطِفُ عَلَى مَا هُنَالِكَ، أَيْ مِنْهُمْ كَذَا وَمِنْهُمْ كَذَا. وَإِنَّمَا قَالَ: كَأَنَّهُ؛ لِأَنَّ آيَةَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ... إِلَخْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَهِيَ مُتَأَخِّرَةٌ عَنْ هَذِهِ

الْآيَاتِ . وَلَعَلَّ جَعْلَهُ مَعْطُوفًا عَلَى مَا قَبْلَهُ بِاعْتِبَارِ الْمَفْهُومِ أَقْرَبُ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : مِنْهُمْ طَائِفَةٌ تَكِيدُ لِلْمُسْلِمِينَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَحِلُّ أَكْلَ أَمْوَالِهِمْ وَأَمْوَالِ غَيْرِهِمْ ، وَقَدْ أَشَرْنَا إِلَى ذَلِكَ آنِفًا وَإِنَّمَا أَعَادَ ذِكْرَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَمْ يَبْتَدِئِ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ : " وَمِنْهُمْ " - وَالْكَلَامُ فِيهِمْ - لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ بِاسْمِ الْكِتَابِ الَّذِي حَرَّفُوا نَهْيَهُ عَنْ أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ فَزَعَمُوا أَنَّهُ لَمْ يَنْهَهُمْ إِلَّا عَنْ خِيَانَةِ إِخْوَتِهِمُ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ . وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ الْقِنْطَارِ (آيَة 14) وَقَوْلُهُ : إِلَّا مَا

(100/122)

دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا مَعْنَاهُ إِلَّا مُدَّةَ دَوَامِكَ أَيُّهَا الْمُؤْتَمِنُ لَهُ قَائِمًا عَلَى رَأْسِهِ تُلِحُّ بِالْمُطَالَبَةِ ، أَوْ تَلْجَأُ إِلَى التَّقَاضِي وَالْمُحَاكَمَةِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ أَيْ ذَلِكَ التَّرْكُ لِلْأَدَاءِ بِسَبَبِ قَوْلِهِمْ : لَيْسَ عَلَيْنَا فِي أَكْلِ أَمْوَالِ الْأُمِّيِّينَ أَيِ الْعَرَبِ تَبِعَةٌ وَلَا ذَنْبٌ ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ : إِنَّ اسْتِحْلَالَ هَذِهِ الْخِيَانَةِ جَاءَهُمْ مِنَ الْغُرُورِ بِشَعْبِهِمْ وَالْغُلُوِّ فِي دِينِهِمْ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَتْبِعُ احْتِقَارَ الْمُخَالِفِ احْتِقَارًا يُهْضَمُ بِهِ حَقُّهُ الثَّابِتُ فِي الْمُعَامَلَةِ . قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : كَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ كُلَّ مَنْ لَيْسَ مِنْ شَعْبِ اللهِ الْخَاصِّ وَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ دِينِهِ فَهُوَ سَاقِطٌ مِنْ نَظَرِ اللهِ وَمَبْغُوضٌ عِنْدَهُ ، فَلَا حُقُوقَ لَهُ وَلَا حُرْمَةَ لِمَا لَهُ فَيَحِلُّ أَكْلُهُ مَتَى أَمْكَنَ ، وَقَدْ رَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْمَزَاعِمَ بِقَوْلِهِ : وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ ذَلِكَ كَذِبٌ عَلَيْهِ لِأَنَّ مَا كَانَ

مِنْهُ فَهُوَ مَا جَاءَ فِي كِتَابِهِ وَلَيْسَ فِي التَّوْرَاةِ الَّتِي عِنْدَهُمْ إِبَاحَةُ خِيَانَةِ الْأُمِّيِّينَ وَأَكْلِ أَمْوَالِهِمْ بِالْبَاطِلِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ فِيهَا ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَأْخُذُونَ الدِّينَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَإِنَّمَا لَجَئُوا إِلَى التَّقْلِيدِ فَعَدُّوا كَلَامَ أَحْبَارِهِمْ دِينًا يَنْسُبُونَهُ إِلَى اللهِ ،

(101/122)

وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ فِي الدِّينِ بِآرَائِهِمْ وَيُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ لِيُؤَيِّدُوا بِذَلِكَ أَقْوَالَهُمْ ، فَكُلُّ هَذِهِ الدَّوَاهِي جَاءَتْهُمْ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ ، نَاحِيَةِ التَّقْلِيدِ وَالْأَخْذِ بِكَلَامِ الْعُلَمَاءِ فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَهُوَ مِمَّا لَا يُؤْخَذُ فِيهِ إِلَّا بِكِتَابِ اللهِ وَوَحْيِهِ . وَانْظُرْ كَيْفَ أَنْصَفَهُمُ الْكِتَابُ فَبَيَّنَ أَنَّ مِنْهُمُ الْوَفِيَّ وَالْخَائِنَ ، وَلَا يَكُونُ أَفْرَادُ جَمِيعِ الْأُمَّةِ خَائِنِينَ ، وَنَاهِيكَ بِأُمَّةٍ مِنْهَا السَّمَوْأَلُ .

(102/122)

أَقُولُ : وَفِي خَبَرِ هَؤُلَاءِ الْمُحَرِّفِينَ مِنَ الْعِبْرَةِ لَنَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَا فِيهِ ، فَإِنَّ فِينَا مَنْ يَقُولُ الْآنَ : إِنَّهُ يَجُوزُ أَكْلُ أَمْوَالِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ بَلِ الْمُسْلِمِينَ فِي دَارِ الْحَرْبِ مُطْلَقًا ، ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُفَسِّرُونَ دَارَ الْحَرْبِ - كَمَا يَشَاءُونَ - حَتَّى رَأَيْتُ بَعْضَ النَّاسِ يُحِلُّونَ لِعُمَّالِ مَرْكَبَاتِ التِّرَامِ

بِمِصْرَ أَنْ يَخُونُوا أَصْحَابَهَا بِبَيْعِ تَذْكِرَةِ الرُّكُوبِ فِيهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ وَيُسَاعِدُونَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَإِنِ اسْتَلْزَمَتْ مُسَاعَدَتُهُمُ الْكَذِبَ ، فَهُمْ بِهَذَا يُحِلُّونَ الْخِيَانَةَ وَالسَّرِقَةَ وَالْكَذِبَ وَهِيَ مِنْ كَبَائِرِ الْمَعَاصِي الَّتِي لَا تَحِلُّ فِي دِينٍ ، وَيَتَنَاوَلُهُمْ وَعِيدُ الْيَهُودِ فِي الْآيَةِ وَوَعِيدُ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [16 : 116 ، 117] وَمَا جَرَّأَهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا سُوءُ التَّقْلِيدِ لِلْفُقَهَاءِ الَّذِينَ قَالُوا بِجَوَازِ أَكْلِ مَالِ الْحَرْبِيِّ فِي دَارِهِ بِالْعُقُودِ الْفَاسِدَةِ الَّتِي لَا تَحِلُّ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ كَالرِّبَا وَالْبَيْعِ الْفَاسِدِ ، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْفُقَهَاءَ لَا يُحِلُّونَ الْغِشَّ وَلَا الْخِيَانَةَ وَلَا السَّرِقَةَ وَلَا الْكَذِبَ وَالِاحْتِيَالَ لِذَلِكَ ، وَإِنَّمَا يَقُولُونَ يَجُوزُ أَكْلُ مَالِهِ بِرِضَاهُ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْعُقُودِ ، عَلَى أَنَّ الْمَسْأَلَةَ خِلَافِيَّةٌ لَمْ يَتَّفِقِ الْفُقَهَاءُ عَلَيْهَا . فَلْيَنْظُرِ

(103/122)

الْمُسْلِمُ الصَّادِقُ الْمُسْتَنِيرُ بِالدَّلِيلِ إِلَى سُوءِ مَغَبَّةِ التَّقْلِيدِ وَكَيْفَ أَنَّهُ اسْتَلْزَمَ الِاجْتِهَادَ الْبَاطِلَ إِذْ صَارَ الْجَاهِلُونَ مِنَ الْمُقَلِّدِينَ يَقِيسُونَ أَكْلَ الْمَالِ بِالْغِشِّ وَالْخِيَانَةِ وَالسَّرِقَةِ عَلَى أَكْلِهِ بِالْعُقُودِ الْفَاسِدَةِ مَعَ التَّرَاضِي ، وَبَيْنَهُمَا فَرْقٌ عَظِيمٌ .

ثُمَّ قَالَ - تَعَالَى - فِي بَيَانِ الْحَقِّ فِي الْمُعَامَلَةِ: بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ الْعَهْدُ: مَا تَلْتَزِمُ الْوَفَاءَ بِهِ لِغَيْرِكَ، فَإِذَا اتَّفَقَ اثْنَانِ عَلَى أَنْ يَقُومَ كُلٌّ مِنْهُمَا لِلْآخَرِ بِشَيْءٍ مُقَابَلَةً وَمُجَازَاةً يُقَالُ: إِنَّهُمَا تَعَاهَدَا، وَيُقَالُ: عَاهَدَ فُلَانٌ فُلَانًا عَهْدًا فَيَدْخُلُ فِيهِ الْعُقُودُ الْمُؤَجَّلَةُ وَالْأَمَانَاتُ، فَمَنِ ائْتَمَنَكَ عَلَى شَيْءٍ أَوْ أَقْرَضَكَ مَالًا إِلَى

(104/122)

أَجَلٍ أَوْ بَاعَكَ بِثَمَنٍ مُؤَجَّلٍ وَجَبَ عَلَيْكَ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ وَأَدَاءُ حَقِّهِ إِلَيْهِ فِي وَقْتِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُلْجِئَهُ إِلَى التَّقَاضِي وَالْإِلْحَاحِ فِي الطَّلَبِ، بِذَلِكَ تَقْتَضِي الْفِطْرَةُ وَتُحَتِّمُهُ الشَّرِيعَةُ، وَهَذَا مِثَالُ الْعَهْدِ مَعَ النَّاسِ وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ لِلرَّدِّ عَلَى أُولَئِكَ الْيَهُودِ الَّذِينَ لَمْ يَجْعَلُوا الْعَهْدَ مِمَّا يَجِبُ الْوَفَاءُ بِهِ لِذَاتِهِ وَإِنَّمَا الْعِبْرَةُ عِنْدَهُمْ بِالْمُعَاهَدِ، فَإِنْ كَانَ إِسْرَائِيلِيًّا وَجَبَ الْوَفَاءُ لَهُ لِأَنَّهُ إِسْرَائِيلِيٌّ، وَمَنْ كَانَ غَيْرَ إِسْرَائِيلِيٍّ فَلَا عَهْدَ لَهُ وَلَا حَقَّ يَجِبُ الْوَفَاءُ بِهِ، وَيَدْخُلُ فِي الْإِطْلَاقِ عَهْدُ اللهِ - تَعَالَى - وَهُوَ مَا يَلْتَزِمُ الْمُؤْمِنُ الْوَفَاءَ لَهُ بِهِ مِنِ اتِّبَاعِ دِينِهِ وَالْعَمَلِ بِمَا شَرَعَهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، وَعَهْدِ لِلنَّاسِ الْعَمَلَ بِهِ، وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَى الْيَهُودِ أَيْضًا فَإِنَّهُمْ مَا كَانُوا يُوفُونَ بِهَذَا الْعَهْدِ مَعَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ بِوُجُوبِ الْوَفَاءِ، وَلَوْ أَوْفَوْا بِهِ لَآمَنُوا بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، كَمَا أَوْصَاهُمُ اللهُ وَعَهِدَ إِلَيْهِمْ عَلَى

لِسَانِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَلَفْظُ (بَلَى) جَاءَ لِإِثْبَاتِ مَا نَفَوْهُ فِي قَوْلِهِمْ : لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ فَهُوَ يَقُولُ : بَلَى عَلَيْكُمْ سَبِيلٌ وَأَيُّ سَبِيلٍ ; إِذْ فُرِضَ عَلَيْكُمُ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ وَالتَّقْوَى ، ثُمَّ ذَكَرَ جَزَاءَ أَهْلِ الْوَفَاءِ

وَالتَّقْوَى فَقَالَ : مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ الَّذِي عَاهَدَ بِهِ اللهَ أَوِ النَّاسَ وَاتَّقَى الْإِخْلَافَ وَالْغَدْرَ وَالِاعْتِدَاءَ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّهُ فَيُعَامِلُهُ الْمَحْبُوبُ بِأَنْ يَجْعَلَهُ مَحَلَّ عِنَايَتِهِ وَرَحْمَتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مَا مَعْنَاهُ : إِنَّ وُرُودَ الْجَوَابِ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ أَفَادَنَا قَاعِدَةً عَامَّةً مِنْ قَوَاعِدِ الدِّينِ وَهِيَ أَنَّ الْوَفَاءَ بِالْعُهُودِ وَاتِّقَاءَ الْإِخْلَافِ وَسَائِرِ الْمَعَاصِي وَالْخَطَايَا هُوَ الَّذِي يُقَرِّبُ الْعَبْدَ مِنْ رَبِّهِ وَيَجْعَلُهُ أَهْلًا لِمَحَبَّتِهِ لَا كَوْنُهُ مِنْ شَعْبٍ كَذَا ، وَمِنْ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ يُعْلَمُ خَطَأُ الْيَهُودِ فِي زَعْمِهِمْ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِمْ فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ، وَفِيهِ التَّعْرِيضُ بِأَنَّ أَصْحَابَ هَذَا الرَّأْيِ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ التَّقْوَى الَّتِي هِيَ الرُّكْنُ الرَّكِينُ لِكُلِّ دِينٍ قَوِيمٍ .

ثُمَّ بَيَّنَ - تَعَالَى - جَزَاءَ أَهْلِ الْغَدْرِ وَالْإِخْلَافِ مَعَ بَيَانِ السَّبَبِ الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا

يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ رَوَى الشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا أَنَّ الْأَشْعَثَ قَالَ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ أَرْضٌ فَجَحَدَنِي فَقَدَّمْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: أَلَكَ بَيِّنَةٌ؟ قُلْتُ: لَا. فَقَالَ لِلْيَهُودِيِّ: " أَحْلِفُ "

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذَنْ يَحْلِفُ فَيَذْهَبُ مَالِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ الْآيَةَ.

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى أَنَّ رَجُلًا أَقَامَ سِلْعَةً لَهُ فِي السُّوقِ فَحَلَفَ بِاللَّهِ لَقَدْ أُعْطِيَ بِهَا مَا لَمْ يُعْطَهُ لِيُوقِعَ فِيهَا رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي شَرْحِ الْبُخَارِيِّ: لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْحَدِيثَيْنِ بَلْ يُحْمَلُ عَلَى أَنَّ النُّزُولَ كَانَ بِالسَّبَبَيْنِ مَعًا. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ وَكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَتَمُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي التَّوْرَاةِ وَبَدَّلُوهُ وَحَلَفُوا أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ : وَالْآيَةُ مُحْتَمِلَةٌ وَلَكِنَّ الْعُمْدَةَ فِي ذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ انْتَهَى مِنْ لُبَابِ النُّقُولِ . وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْآيَةَ كَانَتْ تُذْكَرُ عِنْدَ ذِكْرِ تِلْكَ الْوَقَائِعِ فَيَظُنُّ مَنْ لَمْ يَكُنْ سَمِعَهَا أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهَا وَهِيَ عَلَى كُلِّ حَالٍ مُتَّصِلَةٌ بِمَا قَبْلَهَا مُتَمِّمَةٌ لَهُ ، وَالْأَيْمَانُ فِيهَا جَمْعُ يَمِينٍ ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ اسْمٌ لِلْيَدِ الَّتِي تُقَابِلُ الشِّمَالَ ثُمَّ سَمَّى الْحَلِفَ وَالسَّقَمَ يَمِينًا لِأَنَّ الْحَالِفَ فِي الْعَهْدِ يَضَعُ يَمِينَهُ فِي يَمِينِ مَنْ يُعَاهِدُهُ عِنْدَ الْحَلِفِ لِتَأْكِيدِ الْعَهْدِ وَتَوْثِيقِهِ ، حَتَّى إِنَّ اللَّفْظَ يُطْلَقُ عَلَى الْعَهْدِ نَفْسِهِ ، وَقَدْ أَضَافَ الْعَهْدَ هَاهُنَا إِلَى اللهِ لِأَنَّهُ - تَعَالَى - عَهِدَ إِلَى النَّاسِ فِي كُتُبِهِ الْمُنَزَّلَةِ أَنْ يَلْتَزِمُوا الصِّدْقَ وَالْوَفَاءَ بِمَا يَتَعَاهَدُونَ وَيَتَعَاقَدُونَ عَلَيْهِ ، وَأَنْ يُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا كَمَا عَهِدَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَتَّقُوهُ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ ، فَعَهْدُ اللهِ يَشْمَلُ كُلَّ ذَلِكَ .

وَلَمَّا كَانَ النَّاكِثُ لِلْعَهْدِ لَا يَنْكُثُ إِلَّا لِمَنْفَعَةٍ يَجْعَلُهَا بَدَلًا مِنْهُ عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِالشِّرَاءِ الَّذِي هُوَ مُعَاوَضَةٌ وَمُبَادَلَةٌ ، وَسَمَّى الْعِوَضَ ثَمَنًا قَلِيلًا مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ لَا يَنْكُثُونَ الْعَهْدَ فِي الْأُمُورِ الْكَبِيرَةِ إِلَّا إِذَا أُوتُوا عَلَيْهِ أَجْرًا كَبِيرًا وَثَمَنًا كَثِيرًا لِأَجْلِ أَنْ يُبَيِّنَ لِلنَّاسِ أَنَّ كُلَّ مَا يُؤْخَذُ بَدَلًا مِنْ

عَهْدِ اللهِ فَهُوَ قَلِيلٌ لَا سِيَّمَا إِذَا أُكِّدَ بِالْيَمِينِ ; لِأَنَّ الْعُهُودَ إِذَا خُزِيَتِ اخْتَلَّ أَمْرُ الدِّينِ إِذِ الْوَفَاءُ آيَتُهُ الْبَيِّنَةُ ، بَلْ مِحْوَرُهُ الَّذِي عَلَيْهِ مَدَارُهُ ، وَفَسَدَتْ مَصَالِحُ الدُّنْيَا إِذْ تَبْطُلُ ثِقَةُ النَّاسِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، وَالثِّقَةُ رُوحُ الْمُعَامَلَاتِ وَسِلْكُ النِّظَامِ وَأَسَاسُ الْعُمْرَانِ ; لِأَجْلِ هَذَا كَانَ الْوَعِيدُ عَلَى نَكْثِ الْعَهْدِ - وَلَوْ لِأَجْلِ الْمَنْفَعَةِ - أَشَدَّ مَا نَطَقَ بِهِ الْكِتَابُ وَأَغْلَظَهُ ، وَأَيُّ عِقَابٍ أَشَدُّ مِنْ عِقَابِ مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ ، أَيْ لَا نَصِيبَ لَهُ مِنَ النَّعِيمِ فِيهَا ، وَلَا يُكَلِّمُهُ اللهُ كَلَامَ إِعْتَابٍ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظَرَ عَطْفٍ وَرَحْمَةٍ ، وَلَا يُزَكِّيهِ بِالثَّنَاءِ عَلَى عَمَلٍ لَهُ صَالِحٍ ، أَوْ لَا يُطَهِّرُهُ مِنْ ذُنُوبِهِ بِالْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ وَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ؟ لَمْ يَكْتَفِ - تَعَالَى - بِحِرْمَانِ بَائِعِي الْعَهْدِ بِالثَّمَنِ مِنَ النَّعِيمِ وَبِمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ حَتَّى بَيَّنَ مَعَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ فِي دَرَكَةٍ مِنَ الْغَضَبِ الْإِلَهِيِّ لَا تُرْجَى لَهُمْ فِيهَا رَحْمَةٌ وَلَا يَسْمَعُونَ مِنْهُ - تَعَالَى - كَلِمَةَ عَفْوٍ وَلَا مَغْفِرَةٍ ، فَعَدَمُ النَّظَرِ وَالْكَلَامِ كِنَايَةٌ عَنْ عَدَمِ الِاعْتِدَادِ وَمُنْتَهَى الْغَضَبِ الَّذِي لَا رَجَاءَ مَعَهُ وَلَا أَمَلَ .

إِنَّ الزِّنَا وَشُرْبَ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرَ وَالرِّبَا وَعُقُوقَ الْوَالِدَيْنِ مِنَ الْكَبَائِرِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - لَمْ يَتَوَعَّدْ مُرْتَكِبِي هَذِهِ الْمُوبِقَاتِ بِمِثْلِ مَا تَوَعَّدَ بِهِ نَاكِثِي الْعُهُودِ وَخَائِنِي الْأَمَانَاتِ ; لِأَنَّ مَفَاسِدَ النَّكْثِ وَالْخِيَانَةِ أَعْظَمُ مِنْ جَمِيعِ الْمَفَاسِدِ الَّتِي حُرِّمَتْ لِأَجْلِهَا تِلْكَ الْجَرَائِمُ ، فَمَا بَالُ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ يَدَّعُونَ التَّدَيُّنَ وَيَتَّسِمُونَ بِسِمَةِ الْإِسْلَامِ وَهُمْ لَا يُبَالُونَ بِالْعُهُودِ وَلَا يَحْفَظُونَ الْأَيْمَانَ وَيَرَوْنَ ذَلِكَ صَغِيرًا مِنْ حَيْثُ يُكَبِّرُونَ أَمْرَ الْمَعَاصِي الَّتِي لَمْ يَتَعَوَّدُوهَا ; لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَعَوَّدُوهَا .

الْإِيمَانُ بِاللَّهِ لَا يَجْتَمِعُ مَعَ الْخِيَانَةِ وَالنَّكْثِ فِي نَفْسٍ ، وَقَدْ عَدَّ - تَعَالَى - أَخَصَّ وَصْفٍ لِزُعَمَاءِ الْكُفْرِ يُبِيحُ قِتَالَهُمْ كَوْنَهُمْ لَا وَفَاءَ لَهُمْ بِالْعُهُودِ إِذْ قَالَ : فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ [9 : 12] وَقَالَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ - وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ : وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ - إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا . وَفِي رِوَايَةٍ لَهُمَا : وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَرَوَى أَحْمَدُ وَالْبَزَّارُ وَالطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ : مَا خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَّا وَقَالَ : لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ

لَهُ .

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

قَوْلُهُ - تَعَالَى - : وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ بَيَانٌ لِحَالِ طَائِفَةٍ أُخْرَى مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا الْفَرِيقِ بَعْضُ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا حَوَالَيِ الْمَدِينَةِ وَإِنْ كَانَ التَّشْنِيعُ عَلَيْهِمْ يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَنْ كَانَ عَلَى

شَاكِلَتِهِمْ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ . وَيَرْوُونَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) أَنَّ هَذَا الْفَرِيقَ هُمُ الْيَهُودُ الَّذِينَ قَدِمُوا عَلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ أَحَدِ زُعَمَائِهِمُ الْمُلِحِّينَ فِي عَدَاوَةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَإِيذَائِهِ وَالْإِغْرَاءِ بِهِ ، غَيَّرُوا التَّوْرَاةَ وَكَتَبُوا كِتَابًا بَدَّلُوا فِيهِ صِفَةَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَأَخَذَتْ قُرَيْظَةُ مَا كَتَبُوهُ فَخَلَطُوهُ بِالْكِتَابِ الَّذِي عِنْدَهُمْ وَجَعَلُوا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِقِرَاءَتِهِ ; يُوهِمُونَ النَّاسَ أَنَّهُ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَهَذَا الْعَمَلُ يُنْبِئُ بِفَسَادِ اعْتِقَادِهِمْ وَعَدَمِ اسْتِمْسَاكِهِمْ بِكِتَابِهِمْ . وَذَلِكَ أَنَّهُمْ جَعَلُوا الدِّينَ جِنْسِيَّةً وَصَارَ الِانْتِصَارُ لَهُ عِنْدَهُمْ عِبَارَةً عَنْ مُقَاوَمَةِ مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ جِنْسِهِمْ وَإِنْ كَانَ أَقْرَبَ مِنْهُمْ إِلَى مَا

جَاءَ فِي كِتَابِهِمْ، بَلْ إِنَّهُمْ يَخْرُجُونَ عَنْ كِتَابِهِمْ وَيُحَرِّفُونَهُ لِمُقَاوَمَةِ الْغَرِيبِ، وَيُعِدُّونَ ذَلِكَ انْتِصَارًا لَهُ، وَهَكَذَا يَفْعَلُ أَشْبَاهُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ، فَقَدْ يَعُدُّونَ مِنْ أَنْصَارِ الدِّينِ وَالْمُتَعَصِّبِينَ لَهُ مَنْ لَا مَعْرِفَةَ لَهُ بِعَقَائِدِهِ وَأُصُولِهِ وَلَا بِفُرُوعِهِ إِلَّا مَا هُوَ مَشْهُورٌ عَنِ الْعَامَّةِ، وَلَا هُوَ يَعْمَلُ بِمَا يَعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ - وَإِنَّمَا يَعُدُّونَهُ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ عَادَى مَنْ لَا يَعُدُّونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَوْ بِسَبَبٍ سِيَاسِيٍّ أَوْ دُنْيَوِيٍّ لَا عَلَاقَةَ لَهُ بِالْإِسْلَامِ، بَلْ يَعُدُّونَ مِنْ أَنْصَارِ الدِّينِ مَنْ يَطْعَنُ فِي بَعْضِ

(112/122)

الْمُصْلِحِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِمُخَالَفَتِهِمْ مَا عَلَيْهِ الْعَامَّةُ وَالْمُقَلِّدُونَ فِيمَا يَعُدُّونَهُ مِنَ الْإِسْلَامِ لِأَنَّهُمُ اعْتَادُوهُ لَا لِأَنَّ كِتَابَ اللهِ جَاءَ بِهِ. وَقَدْ يُحَرِّفُونَ الْقُرْآنَ بِالتَّأْوِيلِ لِتَأْيِيدِ تَقَالِيدِهِمْ وَبِدَعِهِمْ أَوْ يُعْرِضُونَ عَنْهُ اعْتِذَارًا بِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُطَالَبِينَ بِأَخْذِ دِينِهِمْ مِنْهُ بَلْ مِنْ كَلَامِ الْعُلَمَاءِ.

أَمَّا لَيُّ اللِّسَانِ بِالْكِتَابِ فَهُوَ فَتْلُهُ لِلْكَلَامِ وَتَحْرِيفُهُ لَهُ بِصَرْفِهِ عَنْ مَعْنَاهُ إِلَى مَعْنًى آخَرَ وَقَدْ وَصَفَ - تَعَالَى - بِهِ الْيَهُودَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ بِقَوْلِهِ: مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ [4 : 46] فَهَذَا مِثَالٌ مِنْ

لِيِّ اللِّسَانِ بِالْكَلَامِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْكِتَابِ ، ذَلِكَ أَنَّهُمْ وَضَعُوا كَلِمَةَ غَيْرَ مُسْمَعٍ مَكَانَ جُمْلَةِ "لَا أُسْمِعْتَ مَكْرُوهًا " الدُّعَائِيَّةِ الَّتِي تُقَالُ عَادَةً عِنْدَ ذِكْرِ السَّمَاعِ . وَكَلِمَةَ رَاعِنَا مَكَانَ كَلِمَةِ " انْظُرْنَا " الَّتِي يَقُولُهَا النَّاسُ لِمَنْ يَطْلُبُونَ مَعُونَتَهُ وَمُسَاعَدَتَهُ وَإِنَّمَا قَالُوا : غَيْرَ مُسْمَعٍ لِأَنَّهَا تُسْتَعْمَلُ فِي الدُّعَاءِ عَلَى الْمُخَاطَبِ بِمَعْنَى " لَا سَمِعْتَ " وَقَالُوا : رَاعِنَا لِأَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ عِبْرَانِيَّةٌ أَوْ سُرْيَانِيَّةٌ كَانُوا يَتَسَابُّونَ

(113/122)

بِهَا - كَمَا قَالَ الْمُفَسِّرُونَ ، وَسَيَأْتِي تَفْصِيلُ ذَلِكَ فِي مَحَلِّهِ - وَمِثْلُ هَذَا مَا وَرَدَ فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ وَالسِّيَرِ مِنْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَلَّمُوا عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُضْغِمُونَ كَلِمَةَ السَّلَامِ فَيُخْفُونَ اللَّامَ قَائِلِينَ " السَّامُ عَلَيْكُمْ " غَيْرَ مُفْصِحِينَ بِالْكَلِمَةِ ، وَالسَّامُ : الْمَوْتُ ، فَاللَّيُّ وَالتَّحْرِيفُ قَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْهُمْ أَحْيَانًا بِتَغْيِيرٍ فِي اللَّفْظِ وَأَحْيَانًا بِصَرْفِهِ إِلَى غَيْرِ الْمَعْنَى الْمُرَادِ مِنْهُ ، وَمِنْهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقَارِئُ شَيْئًا بِالْكَيْفِيَّةِ الَّتِي يُقْرَأُ بِهَا الْكِتَابُ مِنْ جَرْسِ الصَّوْتِ وَطَرِيقَةِ النَّغَمِ وَإِظْهَارِ الْخُشُوعِ لِيَحْسَبَهُ السَّامِعُ مِنَ الْكِتَابِ فَيَقْبَلَهُ ، وَلَا أَذْكُرُ أَنَّ أَحَدًا نَبَّهَ عَلَيْهِ . وَلَفْظُ اللَّيِّ يَتَنَاوَلُهُ وَهُوَ مِمَّا يَتَبَادَرُ إِلَى أَذْهَانِ الْمُوهِمِينَ ، وَقَدْ رَأَيْنَا مِنَ الْمُتَسَاهِلِينَ فِي الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَأْتِيهِ مَازِحًا بِأَنْ يَقْرَأَ مِنْ كِتَابٍ مَا جُمَلًا بِالتَّجْوِيدِ الَّذِي يُقْرَأُ بِهِ

الْقُرْآنَ لِيُوهِمَ الْجَاهِلَ أَوْ يَخْتَبِرَهُ . وَيُرْوَى أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ رَوَاحَةَ أَوْهَمَ امْرَأَتَهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ ، وَهُوَ مِمَّا لَا يُصَدَّقُ عَلَى صَحَابِيٍّ جَلِيلٍ مِثْلِهِ .

(114/122)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : هَذَا اللَّيُّ هُوَ أَنْ يُعْطِيَ النَّاطِقُ لِلَّفْظِ مَعْنًى آخَرَ غَيْرَ الْمَعْنَى الَّذِي يَظْهَرُ مِنْهُ . مِثَالُ ذَلِكَ الْأَلْفَاظُ الَّتِي جَاءَتْ عَلَى لِسَانِ سَيِّدِنَا عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَكَلِمَةِ ابْنِ اللهِ وَتَسْمِيَةِ اللهِ أَبًا لَهُ وَأَبًا لِلنَّاسِ فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ اسْتِعْمَالًا مَجَازِيًّا ، وَلَوَاهُ بَعْضُهُمْ فَنَقَلَهُ إِلَى الْحَقِيقَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَسِيحِ وَحْدَهُ أَيْ فَهُمْ يُفَسِّرُونَ لَفْظًا بِغَيْرِ مَعْنَاهُ الْمُرَادِ فِي الْكِتَابِ يُوهِمُونَ النَّاسَ أَنَّ الْكِتَابَ جَاءَ بِذَلِكَ كَمَا قَالَ : لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ كَاذِبُونَ .

أَكَّدَ الْخَبَرَ بِتَعَمُّدِهِمُ التَّحْرِيفَ وَسَجَّلَ الْكَذِبَ الصَّرِيحَ عَلَيْهِمْ ; كَأَنَّهُ يَقُولُ إِنَّهُمْ لَا يُعَرِّضُونَ وَلَا يُوَرُّونَ وَإِنَّمَا يُصَرِّحُونَ بِالْكَذِبِ تَصْرِيحًا لِفَرْطِ جَرَاءَتِهِمْ وَعَدَمِ خَوْفِهِمْ مِنَ اللهِ - تَعَالَى - لِأَنَّ الدِّينَ عِنْدَهُمْ رَسْمٌ ظَاهِرٌ وَجِنْسِيَّةٌ هِيَ مَصْدَرُ الْغُرُورِ ; إِذْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ يُغْفَرُ لَهُمْ جَمِيعُ مَا يَجْتَرِمُونَ لِأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ هَذَا الدِّينِ ، وَمِنْ سُلَالَةِ أُولَئِكَ النَّبِيِّينَ ، وَهَكَذَا حَالُ الَّذِينَ

اتَّبَعُوا سُنَنَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، يَقُولُونَ إِنَّ الْمُسْلِمَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتْمًا ، مَهْمَا كَانَتْ سِيرَتُهُ سَيِّئَةً وَعَمَلُهُ قَبِيحًا .

(115/122)

فَإِنْ لَمْ تُدْرِكْهُ الشَّفَاعَاتُ أَدْرَكَتْهُ الْمَغْفِرَةُ ، وَيَعْنُونَ بِالْمُسْلِمِ مَنِ اتَّخَذَ الْإِسْلَامَ جِنْسًا لَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَصْدُقْ عَلَيْهِ مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالْأَحَادِيثِ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ ، بَلْ صَدَقَ عَلَيْهِ مَا جَاءَ فِي وَصْفِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 3 صـ 279.284 ﴾

(116/122)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ ﴾

أي أنهم يلوون ألسنتهم بالكلام الصادر من الله ليحرفوه عن معانيه ، أو يَلْوُون ألسنتهم

عندما يريدون التعبير عن المعاني . و " اللي " هو الفتل ، فنحن عندما نفتل حبلا ، ونحاول أن نجدل بين فرعين اثنين من الخيوط ، ثم نفتلهم معا لنصنع حبلا ، والهدف من الفتل هو أن نضع قوة من شعيرات الخيوط ، فهذه الشعيرات لها قوة محدودة ، وعندما نفتل هذه الخيوط فإننا نزيد من قوة الخيوط بجدلها معا .

إذن فالفتل المراد به الوصول إلى قوة ، وهكذا نرى أنهم يلوون ألسنتهم بكلام يدعون أنه من المنهج المنزل من عند الله ، وهذا الكلام ليس من المنهج ولم ينزل من عند الله إنّهم يفعلون ذلك لتقوية مركزهم والتنقيص من مكانة الإسلام والطعن في الرسول كما قالوا من قبل : " راعنا " ، لذلك قال الحق مخاطبا المؤمنين :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

[البقرة : 104] .

إن الحق يوضح لنا ألا نعطي لهم فرصة لتحريف كلام الله ، فهو سبحانه القائل :

﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾

[النساء : 46] .

لقد فضحهم – الحق سبحانه – لنا ، وهم يحرفون الكلام عن موضعه ، فقد قال الحق هذا القول بمعنى : أن الذي تسمعه لا يضرك لقد سجل الله عليهم أنهم قالوا سمعنا وعصينا كما قاموا بتحريف الكلمة وقالوا : " اسمع غير مسمع " أي " لا سمعت أبدا " ، تماما كما أخذوا من قبل قول الله :

﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾

[الأعراف : 161] .

وحرفوا هذا القول : " وَقُولُواْ حِنطَةٌ " ، وهم قد فعلوا ذلك حتى نحسب هذا التحريف من الكتاب ، وما هو من الكتاب ، أي أنهم يفتلون بعضا من المعاني المستنبطة من الكلمات حتى يوهموا المؤمنين بأن هذه المعاني غير المرادة وغير الصحيحة هي معان مرادة لله ، وصحيحة المعنى ، إنهم يدعون على المنهج المنزل من السماء ما ليس فيه ، ولذلك قال سبحانه : ﴿ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ إنهم عندما يلوون ألسنتهم بالكتاب يحرفونه رغبة في التلبيس والتدليس عليكم لتظنوا أنه من الكتاب المنزل من عند الله على رسولهم ، إنهم لو فعلوا ذلك فحسب لجاز أن يتوبوا ويرجعوا إلى ربهم ويندموا على ما فعلوا .

أما قولهم بعد ذلك : ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ فهو دليل على أنهم أحدثوا في الكتاب شيئا

وأصروا عليه فجاءوا بقولهم : ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ لينفوا عن أنفسهم شبهة أن يُدعى عليهم أنهم حرفوا الكتاب ، ولو لم يكونوا قد حرفوا الكتاب أكانت تخطر ببالهم ، هذه ؟ إن أمرهم جاء من باب (يكاد المريب أن يقول خذوني) إنهم بهذا القول يحتالون على إخفاء أمر حدث منهم .

(118/122)

إن الحق – سبحانه – يؤكد أن الخيانة تلاحقهم فيقول : (وما هو من عند الله) ، فهذه الآية الكريمة تفضحهم وتكشف تحريفهم لكتاب الله ، يقول سبحانه : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ إنهم يعرفون أن ما يقولونه هو الكذب ، والكذب كما عرفنا هو أن تكون النسبة الكلامية غير مطابقة للواقع ، فالنسب في الأحداث تأتي على ثلاث حالات :

نسبة واقعة .

نسبة يفكر فيها وهي نسبة ذهنية .

نسبة ينطق بها .

فعندما نعرف إنسانا اسمه محمد ، وهو مجتهد بالفعل فهذه نسبة واقعة وإذا خطر ببالك أن تخبر صديقا لك باجتهاد محمد فهذا الخاطر نسبة ذهنية .

وساعة تنطق بهذا الخبر لصديق لك صارت النسبة كلامية . والصدق هو أن تكون النسبة الكلامية لها واقع متسق معها كأن يقول : " محمد مجتهد " ويكون هناك بالفعل من اسمه محمد وهو مجتهد بالفعل ، وبهذا تكون أنت الناطق بخبر اجتهاد محمدٍ إنسانا صادقا ، أما إن لم يكن هناك من اسمه محمد ومجتهد فالنسبة الكلامية لا تتفق مع النسبة الواقعية ، لذلك يصير الخبر كاذبا . والعلماء يفرقون بين الصدق والكذب بهذا المعيار . فالصدق : هو مطابقة الكلام للواقع ، والكذب : هو عدم مطابقة الكلام للواقع .

وحاول بعض من الذين يحبون التشكيك أن يقفوا عند سورة المنافقين التي يقول فيها الحق :

﴿ إِذَا جَآءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾

[المنافقون : 1] .

(119/122)

لقد قال المنافقون : نشهد إنك لرسول الله ، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو رسول من عند الله بالفعل ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ فهل علمهم كعلم الله ؟ لا ، لأن الله سبحانه قال : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ ، فكيف يصفهم

الحق بأنهم كاذبون مع أنهم شهدوا بما شهد هو به ؟

إن الحق لا يكذبهم في أن محمدا رسول الله فهذه قضية صادقة ، ولكنه سبحانه قد كذبهم في قضية قالوها وهي : ﴿ نَشْهَدُ ﴾ ، لأن قولهم : ﴿ نَشْهَدُ ﴾ تعني أن يوافق الكلام المنطوق ما يعتقدونه في قلوبهم ، وقولهم : ﴿ نَشْهَدُ ﴾ هو قول لا يتفق مع ما في قلوبهم ، ولذلك صاروا كذابين ، فلسان كل منهم لا يوافق ما في قلبه .

إذن فقوله الحق : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ، أي إنهم يقولون كلاما ليس له نسبة خارجية تطابقه ، وهم يعلمون أنه كذب ، حتى لا نقول : إنهم نطقوا بذلك غفلة ، لقد تعمدوا الكذب ، وهم يعرفون أنهم يقولون الكذب . والدقة تقتضي أننا يجب أن نفرق بين صدق الخبر ، وصدق المخبر . صدق الخبر هو أن يطابق الواقع لكن أحيانا يكون المخبر صادقا ، والخبر في ذاته كذب ، كأن يقول واحد : " إن فلانا يستذكر طول الليل " لأنه شاهد حجرة فلان مضاءة وأنه يفتح كتابا ، بينما يكون هذا الفلان غارقا في قراءة رواية ما ، إن المخبر الصادق في هذه الحالة ، لكن الخبر كاذب .

ولكن في مجال الآية نحن نجد أنهم كاذبون عن عمد ، فللسان هو وسيلة بيان ما في النفس : إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1558 . 1561 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (77)

أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان . فقال الأشعث بن قيس : فيَّ والله كان ذلك ، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني ، فقدمته النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألك بيِّنة . . . ؟ قلت : لا . فقال لليهودي : احلف . . . فقلت : يا رسول الله إذن يحلف فيذهب مالي . فأنزل الله ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ﴾ إلى آخر الآية " .

وأخرج عبد بن حميد والبخاري وابن المنذر أبي حاتم عن عبد الله بن أبي أوفى . أن رجلاً أقام سلعة له في السوق فحلف بالله لقد أعطى بها ما لم يعطه ، ليوقع فيها رجلاً من

المسلمين . فنزلت هذه الآية ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً . . . ﴾ إلى آخر الأية .

(121/122)

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر والطبراني والبيهقي في الشعب وابن عساكر عن عدي بن بحيرة قال "كان بين امرئ القيس ورجل من حضرموت خصومة فارتفعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال للحضرمي : بينتك وإلا فيمينة قال : يا رسول الله إن حلف ذهب بأرضي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها حق أخيه لقي الله وهو عليه غضبان . فقال امرؤ القيس : يا رسول الله فما لمن تركها وهو يعلم أنها حق ؟ قال : الجنة . . . فقال : أشهدك إني قد تركتها . فنزلت هذه الآية ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ﴾ " إلى آخر الآية . لفظ ابن جرير .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج " أن الأشعث بن قيس اختصم هو ورجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أرض كانت في يده لذلك الرجل أخذها في الجاهلية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقم بينتك قال الرجل : ليس يشهد لي أحد على الأشعث قال :

فلك يمينه فقال الأشعث : نحلف . فأنزل الله ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله . . . ﴾ الآية . فنكل الأشعث وقال : إني أشهد الله وأشهدكم أن خصمي صادق ، فرد إليه أرضه ، وزاده من أرض نفسه زيادة كثيرة " .

وأخرج ابن جرير عن الشعبي ، أن رجلاً أقام سلعته من أول النهار ، فلما كان آخره جاء رجل يساومه ، فحلف لقد منعها أول النهار من كذا ، ولولا المساء ما باعها به .

فأنزل الله ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد . نحوه .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال : نزلت هذه الآية ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ﴾ في أبي رافع ، وكنانة بن أبي الحقيق ، وكعب بن الأشرف ، وحيي بن أخطب .

وأخرج ابن أبي شيبة من طريق ابن عون عن إبراهيم ومحمد والحسن في قوله ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ﴾ قالوا : هو الرجل يقتطع مال الرجل بيمينه .

وأخرج مسلم وأبو داود والترمذي عن وائل بن حجر قال " جاء رجل من حضرموت ، ورجل من كندة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال الحضرمي : يا رسول الله إن هذا قد غلبني على أرض كانت لأبي . قال الكندي : هي أرض كانت في يدي أزرعها ليس له فيها حق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للحضرمي : ألك بينة ؟ قال : لا . قال : فلك يمينه فقال : يا رسول الله إن الرجل فاجر لا يبالي على ما حلف عليه ، وليس يتورع عن شيء فقال : ليس لك منه إلا ذلك ، فانطلق ليحلف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أدبر : لئن حلف على مال ليأكله ظلماً ليلقين الله وهو عنه معرض " .

وأخرج أبو داود وابن ماجة عن الأشعث بن قيس " أن رجلاً من كندة ، وآخر من حضرموت ، اختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أرض من اليمن فقال الحضرمي : يا رسول الله إن أرضي اغتصبها أبو هذا وهي في يده فقال : هل لك بينة ؟ قال : لا . ولكن أحلفه والله ما يعلم أنها أرضي اغتصبها أبوه . فتهيأ الكندي لليمين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يقتطع أحد مالاً بيمين إلا لقي الله وهو أجذم فقال الكندي : هي أرضه " .

وأخرج أحمد والبزار وأبو يعلى والطبراني بسند حسن عن أبي موسى قال " اختصم رجلان إلى النبي صلى الله عليه وسلم في أرض أحدهما من حضرموت ، فجعل يمين أحدهما فضج الآخر وقال : إذن يذهب بأرضي فقال : إن هو اقتطعها بيمينه ظلماً كان

ممن لا ينظر الله إليه يوم القيامة ، ولا يزكيه ، وله عذاب أليم ، قال : وروع الآخر فردها " .

وأخرج أحمد بن منيع في مسنده والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن مسعود قال : كنا نعد من الذنب الذي ليس كفارة اليمين الغموس قيل : وما اليمين الغموس ؟ فقال : الرجل يقتطع بيمينه مال الرجل .

(123/122)

وأخرج ابن حبان والطبراني والحاكم وصححه عن الحرث بن البرصاء : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحج بين الجمرتين وهو يقول : " من اقتطع مال أخيه بيمين فاجرة فليتبوّأ مقعده من النار . ليبلِّغ شاهدكم غائبكم مرتين أو ثلاثاً " .

وأخرج البزار عن عبد الرحمن بن عوف " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : اليمين الفاجرة تذهب بالمال " .

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس مما عُصِيَ الله به هو أعجل عقاباً من البغي ، وما من شيء أُطيع الله فيه أسرع ثواباً من الصلة . واليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع " .

وأخرج الحرث بن أبي أسامة والحاكم وصححه عن كعب بن مالك " سمعت رسول الله

صلى الله عليه وسلم يقول : من اقتطع مال امرئ مسلم بيمين مسلم كاذبة كانت نكتة سوداء في قلبه لا يغيرها شيء إلى يوم القيامة " .

وأخرج الطبراني والحاكم وصححه عن جابر بن عتيك قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من اقتطع مال مسلم بيمينه حرَّم عليه الجنة وأوجب له النار . فقيل : يا رسول الله وإن شيئاً يسيرا ؟ قال : وإن سواكاً " .

وأخرج مالك وابن سعد وأحمد ومسلم والنسائي وابن ماجة عن أبي أمامة إياس بن ثعلبة الحارثي " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرَّم عليه الجنة . قالوا : وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله ؟ قال : وإن كان قضيباً من أراك ثلاثاً " .

وأخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يحلف عند هذا المنبر عبد ولا أمة على يمين آثمة ولو على سواك رطبة إلا وجبت له النار " .

وأخرج ابن ماجة وابن حبان عن جابر بن عبد الله قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من حلف على يمين آثمة عند منبري هذا فليتبوأ مقعده من النار . ولو على سواك أخضر " قال أبو عبيد والخطابي : كانت اليمين على عهده صلى الله عليه وسلم عند المنبر .

وأخرج عبد الرزاق عن أبي هريرة قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن اليمين الكاذبة تنفق السلعة وتمحق الكسب " .

وأخرج عبد الرزاق عن أبي سويد قال : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن اليمين الفاجرة تعقم الرحم ، وتقل العدد ، وتدع الديار بلاقع " .

وأخرج البخاري ومسلم والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ثلاثة لا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم ، ولهم عذاب أليم : رجل حلف يميناً على مال مسلم فاقتطعه ، ورجل حلف على يمين بعد العصر أنه أعطي بسلعته أكثر مما أعطي وهو كاذب ، ورجل منع فضل ماء فإذن الله سبحانه يقول : اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو داود وابن جرير والحاكم وصححه عن عمران بن حصين ، أنه كان يقول : من حلف على يمين فاجرة يقتطع بها مال أخيه فليتبوأ مقعدة من النار . فقال له قائل : شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال لهم : إنكم

لتجدون ذلك ثم قرأ ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ﴾ الآية .

وأخرج البخاري عن ابن أبي مليكة ، أن امرأتين كانتا تخرزان في بيت ، فخرجت إحداهما وقد أنفذ بإشفاء في كفها فادعت على الأخرى ، فرفع إلى ابن عباس فقال ابن عباس " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو يُعطي الناس بدعواهم لذهب دماء قوم وأموالهم ذكروها بالله ، واقروا عليها ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله . . . ﴾ الآية . فذكروها فاعترفت " .

(125/122)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن المسيب قال : إن اليمين الفاجرة من الكبائر . ثم تلا ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال : كنا نرى ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من الذنب الذي لا يغفر يمين فجر فيها صاحبها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي قال : من قرأ القرآن يتأكل الناس به أتى الله يوم القيامة ووجهه بين كتفيه ، وذلك بأن الله يقول ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً

قليلاً ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن زاذان قال : من قرأ القرآن يأخذ به جاء يوم القيامة ووجهه عظم عليه لحم .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي ذر قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة لا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : المسبل إزاره ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب ، والمنان " .

وأخرج عبد الرزاق وأحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : رجل منَع ابن السبيل فضل ماء عنده ، ورجل حلف على سلعة بعد العصر كاذباً فصدَّقه فاشتراها بقوله ، ورجل بايع إماماً فإن أعطاه وفى له وإن لم يعطه لم يَفِ له " .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن سلمان : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكِّيهم ، ولهم عذاب أليم : أشمط زانٍ ، وعائل مستكبر ، ورجل جعل الله له بضاعة فلا يبيع إلا بيمينه ولا يشتري إلا بيمينه " .

وأخرج الطبراني والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله أذن لي أن أحدث عن ديك قد مرقت رجلاه الأرض وعنقه منثن تحت العرش وهو يقول : سبحانك ما أعظمك ربنا ! فيرد عليه ما علم ذلك من حلف بي كاذباً . " .

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (78)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿ وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب ﴾ قال : هم اليهود كانوا يزيدون في كتاب الله ما لم ينزل الله .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ يلوون ألسنتهم بالكتاب ﴾ قال : يحرِّفونه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن وهب بن منبه قال : إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله لم يغير منهما حرف ، ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل ، وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم ﴿ ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ﴾ فأما كتب الله فهي محفوظة لا تحوّل . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 2 صـ 244 . 249 ﴾

قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (79) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما فرغ من بيان ما أراد من كتمانهم للحق مع الإشارة إلى بعض توابعه إلى أن ختم بأنهم لا يتحاشون من الكذب على الله المقتضي للكذب على الأنبياء صلوات الله وسلامة عليهم ، لأنهم لا علم لهم بقول الله سبحانه وتعالى إلا بواسطة الأنبياء عليهم السلام ، ومهما كان القول كذباً على الله سبحانه وتعالى اقتضى أن يكون تعبداً للمنسوب إليه من دون الله سبحانه وتعالى لأنه هو الذي شرعه ، وذلك موجب لأن يدعي أن النبي دعا إليه عبادته من دون الله سبحانه وتعالى ، وذلك بعد أن اوضح سبحانه وتعالى من صفات عيسى عليه الصلاة والسلام المقتضية لنفي الإلهية عنه ما لا يخفى على ذي لب شرع يبين أنهم كاذبون فيما يدعونه في عيسى عليه الصلاة والسلام ، فنفي أن يكون قال لهم ذلك أو شيئاً منه على وجه شامل له ولكل من اتصف بصفته وسياق هو بمجرده كاف في إبطال قولهم

فقال : ﴿ ما كان ﴾ أي صح ولا تصور بوجه من الوجوه ﴿ لبشر ﴾ أي من البشر كائناً من كان من عيسى وعزير عليهما الصلاة والسلام وغيرهما ﴿ أن يؤتيه الله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ الكتاب والحكم ﴾ أي الحكمة المهيئة للحكم ، وهي العلم المؤيد بالعمل والعمل المتقن بالعلم ، لأن أصلها الإحكام ، وهو وضع الشيء في محله بحيث يمتنع فساده ﴿ والنبوة ﴾ وهي الخبر من الله سبحانه وتعالى المقتضي لأتم الرفعة ، يفعل الله به ذلك الأمر الجليل وينصبه للدعاء إلى اختصاصه الله بالعبادة وترك الأنداد ﴿ ثم ﴾ يكذب على الله سبحانه وتعالى بأن ﴿ يقول للناس كونوا عباداً لي ﴾ .

(128/122)

ولما كان ذلك قد يكون تجوزاً عن قبول قوله والمبادرة لامتثال أمره عن الله سبحانه وتعالى احترز عنه بقوله : ﴿ من دون الله ﴾ أي المختص بجميع صفات الكمال إذ لا يشك عاقل أن من أوتي نبوة وحكمة – وهو بشر – في غاية البعد عن ادعاء مثل ذلك ، لأن كل صفة من صفاته – لا سيما تغير بشرته الدالة على انفعالاته – مستقلة بالإبعاد عن هذه الدعوى ، فلم يبق لهم مستند ، لا من جهة عقل ولا من طريق نقل ، فصار قول مثل ذلك منافياً للحكمة التي هو متلبس بها ، فصح قطعاً انتفاؤه عنه .

ولما ذكر ما لا يكون له أتبعه ما له فقال : ﴿ ولكن ﴾ أي يقول ﴿ كونوا ربانيين ﴾ أي تابعين طريق الرب منسوبين إليه بكمال العلم المزين بالعمل ، والألف والنون زيدتا للإيذان بمبالغتهم في المتابعة ورسوخهم في العلم اللدني ، فإن الرباني هو الشديد التمسك بدين الله سبحانه وتعالى وطاعته ، قال محمد بن الحنفية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لما مات : مات رباني هذه الأمة : ﴿ بما كنتم تعلمون الكتاب ﴾ أي بسبب كونكم عالمين به معلمين له ﴿ وبما كنتم تدرّسون ﴾ فإن فائدة الدرس العلم ، وفائدة العلم العمل ، ومنه الحث على الخير والمراقبة للخالق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 117 . 118 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بيّن أن عادة علماء أهل الكتاب التحريف والتبديل أتبعه بما يدل على أن من جملة ما حرّفوه ما زعموا أن عيسى عليه السلام كان يدعي الإلهية ، وأنه كان يأمر قومه بعبادته فلهذا قال : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 96 ﴾

فصل في سبب نزول الآية

قال الفخر :

في سبب نزول هذه الآية وجوه

الأول : قال ابن عباس : لما قالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله نزلت هذه الآية

(129/122)

الثاني : قيل إن أبا رافع القرظي من اليهود ورئيس وفد نجران من النصارى قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً ، فقال عليه الصلاة والسلام " معاذ الله أن نعبد غير الله أو أن نأمر بغير عبادة الله فما بذلك بعثني ؛ ولا بذلك أمرني " فنزلت هذه الآية

الثالث : قال رجل يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض ، أفلا نسجد لك ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : " لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد من دون الله ، ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله "

الرابع : أن اليهود لما ادعوا أن أحداً لا ينال من درجات الفضل والمنزلة ما نالوه ، فالله تعالى قال لهم : إن كان الأمر كما قلتم ، وجب أن لا تشتغلوا باستعباد الناس واستخدامهم ولكن يجب أن تأمروا الناس بالطاعة لله والانقياد لتكاليفه وحينئذ يلزمكم أن تحثوا الناس على الإقرار بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن ظهور المعجزات عليه يوجب ذلك ، وهذا

الوجه يحتمله لفظ الآية فإن قوله ﴿ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِي مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ مثل قوله ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة : 31] . انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 96. 97 ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في المراد بقوله ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيهُ اللَّهُ الكتاب والحكم والنبوة ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لّى مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ على وجوه

الأول : قال الأصم : معناه ، أنهم لو أرادوا أن يقولوا ذلك لمنعهم الدليل عليه قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل * لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين ﴾ [الحاقه : 44 ، 45] قال :

﴿ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً * إِذاً لأذقناك ضِعْفَ الحياة وَضِعْفَ الممات ﴾ [الإسراء : 74 ، 75]

(130/122)

الثاني : أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام موصوفون بصفات لا يحسن مع تلك الصفات ادعاء الإلهية والربوبية منها أن الله تعالى آتاهم الكتاب والوحي وهذا لا يكون إلا في

النفوس الطاهرة والأرواح الطيبة ، كما قال الله تعالى : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رسالاته ﴾ [الأنعام : 124] وقال : ﴿ وَلَقَدِ اخترناهم على عِلْمٍ عَلَى العالمين ﴾ [الدخان : 32] وقال الله تعالى : ﴿ اللهُ يَصْطَفِى مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ الناس ﴾ [الحج : 75] والنفس الطاهرة يمتنع أن يصدر عنها هذه الدعوى ، ومنها أن إيتاء النبوّة لا يكون إلا بعد كمال العلم وذلك لا يمنع من هذه الدعوى ، وبالجملة فللإنسان قوتان : نظرية وعملية ، وما لم تكن القوة النظرية كاملة بالعلوم والمعارف الحقيقية ولم تكن القوة العملية مطهرة عن الأخلاق الذميمة لا تكون النفس مستعدة لقبول الوحي والنبوّة ، وحصول الكمالات في القوة النظرية والعملية يمنع من مثل هذا القول والاعتقاد ،

الثالث : أن الله تعالى لا يشرف عبده بالنبوّة والرسالة إلا إذا علم منه أنه لا يقول مثل هذا الكلام

الرابع : أن الرسول ادعى أنه يبلغ الأحكام عن الله تعالى ، واحتج على صدقه في هذه الدعوى فلو أمرهم بعبادة نفسه فحينئذ تبطل دلالة المعجزة على كونه صادقاً ، وذلك غير جائز ،

واعلم أنه ليس المراد من قوله ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ ذلك أنه يحرم عليه هذا الكلام لأن ذلك محرم على كل الخلق ، وظاهر الآية يدل على أنه إنما لم يكن له ذلك لأجل أن الله آتاه الكتاب والحكم والنبوّة ، وأيضاً لو كان المراد منه التحريم لما كان ذلك تكذيباً للنصارى في ادعائهم ذلك على المسيح عليه السلام لأن من ادعى على رجل فعلاً فقيل له إن فلان لا يحل له أن يفعل ذلك لم يكن تكذيباً له فيما ادعى عليه وإنما أراد في ادعائهم أن عيسى عليه السلام قال لهم : اتخذوني إلها من دون الله فالمراد إذن ما قدمناه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ [مريم : 35] على سبيل النفي لذلك عن نفسه ، لا على وجه التحريم والحظر ، وكذا قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ [آل عمران : 161] والمراد النفي لا النهي والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 97 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ أَن يُؤْتِيهُ الله الكتاب والحكم والنبوة ﴾ إشارة إلى ثلاثة أشياء ذكرها على ترتب في غاية الحسن ، وذلك لأن الكتاب السماوي ينزل أولاً ثم إنه يحصل في عقل النبي فهم ذلك الكتاب وإليه الإشارة بالحكم ، فإن أهل اللغة والتفسير اتفقوا على أن هذا الحكم هو العلم ، قال تعالى : ﴿ وآتَيْنَاهُ الحكم صَبِيّاً ﴾ [مريم : 12] يعني العلم والفهم ، ثم إذا حصل فهم الكتاب ، فحينئذ يبلغ ذلك إلى الخلق وهو النبوّة فما أحسن هذا الترتيب . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 97. 98 ﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ اللهِ ﴾

قال الفخر :

حكى الواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالى : ﴿ كُونُواْ عِبَادًا لّى ﴾ إنه لغة مزينة يقولون للعبيد عباداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 98 ﴾

(132/122)

قوله تعالى : ﴿ ولكن كُونُواْ ربانيين ﴾

قال الفخر :

في هذه الآية إضمار ، والتقدير : ولكن يقول لهم كونوا ربانيين فأضمر القول على حسب مذهب العرب في جواز الاضمار إذا كان في الكلام ما يدل عليه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الذين اسودت وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إيمانكم ﴾ [آل عمران : 106] أي فيقال لهم ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 98 ﴾

فصل

قال الفخر :

ذكروا في تفسير (الرباني) أقوالاً

الأول : قال سيبويه : الرباني المنسوب إلى الرب ، بمعنى كونه عالماً به ، ومواظباً على طاعته ، كما يقال : رجل إلهي إذا كان مقبلاً على معرفة الإله وطاعته وزيادة الألف والنون فيه للدلالة على كمال هذه الصفة ، كما قالوا : شعراني ولحياني ورقباني إذا وصف بكثرة الشعر وطول اللحية وغلظ الرقبة ، فإذا نسبوا إلى الشعر قالوا : شعري وإلى الرقبة رقبي وإلى اللحية لحيي

والثاني : قال المبرّد ﴿ الربانيون ﴾ أرباب العلم وأحدهم رباني ، وهو الذي يرب العلم ويرب الناس أي : يعلمهم ويصلحهم ويقوم بأمرهم ، فالألف والنون للمبالغة كما قالوا : ربان وعطشان وشبعان وعريان ، ثم ضمت إليه ياء النسبة كما قيل : لحياني ورقباني قال الواحدي : فعلى قول سيبويه الرباني : منسوب إلى الرب على معنى التخصيص بمعرفة الرب وبطاعته ، وعلى قول المبرد ﴿ الرباني ﴾ مأخوذ من التربية

الثالث : قال ابن زيد : الرباني .

هو الذي يرب الناس ، فالربانيون هم ولاة الأمة والعلماء ، وذكر هذا أيضاً في قوله تعالى :

﴿ لَوْلاَ ينهاهم الربانيون والأحبار ﴾ [المائدة : 63] أي الولاة والعلماء وهما الفريقان اللذان يطاعان ومعنى الآية على هذا التقدير : لا أدعوكم إلى أن تكونوا عباداً لي ، ولكن أدعوكم إلى أن تكونوا ملوكاً وعلماء باستعمالكم أمر الله تعالى ومواظبتكم على طاعته ، قال القفال رحمه الله : ويحتمل أن يكون الوالي سمي ربانياً ، لأنه يطاع كالرب تعالى ، فنسب إليه

الرابع : قال أبو عبيدة أحسب أن هذه الكلمة ليست بعربية إنما هي عبرانية ، أو سريانية ، وسواء كانت عربية أو عبرانية ، فهي تدل على الإنسان الذي علم وعمل بما علم ، واشتغل بتعليم طرق الخير . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 98 ﴾

قال الطبرى :

وأولى الأقوال عندي بالصواب في "الربانيين" أنهم جمع "رباني" ، وأن "الرباني" المنسوب إلى "الرَّبَّان" ، الذي يربُّ الناسَ ، وهو الذي يُصْلح أمورهم ، و"يربّها" ، ويقوم بها ، ومنه قول علقمة بن عبدة :

وَكُنْتُ امْرَأً أَفْضَتْ إلَيْكَ رِبَابَتِي . . . وَقَبْلَكَ رَبَّتْنِي ، فَضِعْتُ ، رُبُوبُ

يعني بقوله : "ربتني" : ولي أمري والقيامَ به قبلك من يربه ويصلحه ، فلم يصلحوه ، ولكنهم أضاعوني فضعتُ .

يقال منه : "رَبَّ أمري فلان ، فهو يُربُّه ربًّا ، وهو رَابُّه" . فإذا أريد به المبالغة في مدْحه قيل : "هو ربّان" ، كما يقال : "هو نعسان" من قولهم : "نعَس ينعُس" . وأكثر ما يجيء من الأسماء على "فَعْلان" ما كان من الأفعال ماضيه على "فَعِل" مثل قولهم : "هو سكران ، وعطشان ، وريان" من "سَكِر يسكَر ، وعطِش يعطَش ، وروَي يرْوَى" . وقد يجيء مما كان ماضيه على "فَعَل يفعُل" ، نحو ما قلنا من "نَعَس ينعُس" و "ربَّ يَرُبّ" .

(134/122)

فإذا كان الأمر في ذلك على ما وصفنا وكان "الربَّان" ما ذكرنا ، و "الرّبّاني" هو المنسوب إلى من كان بالصفة التي وصفتُ وكان العالم بالفقه والحكمة من المصلحين ، يَرُبّ أمورَ الناس ، بتعليمه إياهم الخيرَ ، ودعائهم إلى ما فيه مصلحتهم وكان كذلك الحكيمُ التقيُّ لله ، والوالي الذي يلي أمور الناس على المنهاج الذي وَلِيه المقسطون من المصْلحين أمورَ الخلق ، بالقيام فيهم بما فيه صلاحُ عاجلهم وآجلهم ، وعائدةُ النفع عليهم في دينهم ، ودنياهم كانوا جميعًا يستحقون أن [يكونوا] ممن دَخل في قوله عز وجل : "ولكن كونوا ربانيين" .

ف "الربانيون" إذاً ، هم عمادُ الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا . ولذلك قال مجاهد : "وهم فوق الأحبار" ، لأن "الأحبارَ" هم العلماء ، و "الرباني" الجامعُ إلى العلم

والفقه ، البصرَ بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية ، وما يصلحهم في دُنياهم ودينهم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 543. 544 ﴾

وقال ابن عطية :

فجملة ما يقال في الرباني إنه العالم بالرب والشرع المصيب في التقدير من الأقوال والأفعال التي يحاولها في الناس . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 462 ﴾

قوله تعالى : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الكتاب وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾

فصل

قال الفخر :

(135/122)

(ما) في القراءتين ، هي التي بمعنى المصدر مع الفعل ، والتقدير : كونوا ربانيين بسبب كونكم عالمين ومعلمين وبسبب دراستكم الكتاب ، ومثل هذا من كون (ما) مع الفعل بمعنى المصدر قوله تعالى : ﴿ فاليوم ننساهم كَمَا نَسُوا لِقَاء يَوْمِهِمْ هذا ﴾ [الأعراف : 51] وحاصل الكلام أن العلم والتعليم والدراسة توجب على صاحبها كونه ربانياً والسبب لا محالة مغاير للمسبب ، فهذا يقتضي أن يكون كونه ربانياً ، أمراً مغايراً لكونه

عالماً ، ومعلماً ، ومواظباً على الدراسة ، وما ذاك إلا أن يكون بحيث يكون تعلمه لله ، وتعليمه ودراسته لله ، وبالجملة أن يكون الداعي له إلى جميع الأفعال طلب مرضاة الله ، والصارف له عن كل الأفعال الهرب عن عقاب الله ، وإذا ثبت أن الرسول يأمر جميع الخلق بهذا المعنى ثبت أنه يمتنع منه أن يأمر الخلق بعبادته ، وحاصل الحرف شيء واحد ، وهو أن الرسول هو الذي يكون منتهى جهده وجده صرف الأرواح والقلوب عن الخلق إلى الحق ، فمثل هذا الإنسان كيف يمكن أن يصرف عقول الخلق عن طاعة الحق إلى طاعة نفسه . وعند هذا يظهر أنه يمتنع في أحد من الأنبياء صلوات الله عليهم أن يأمر غيره بعبادته . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 99﴾

(136/122)

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

1 - [ذلك بأنهم قالوا] الإشارة بالبعيد للإيذان بكمال غلوهم فى الشر والفساد .

2 - [ليس علينا في الأميين سبيل] فيه ايجاز بالحذف أى ليس علينا في أكل اموال الاميين

سبيل .

3 - [يشترون بعهد الله] فيه استعارة فقد استعار لفظ الشراء للاستبدال .

4 - [ولا يكلمهم الله] بيان عن شدة غضبه وسخطه تعالى عليهم وكذلك في الاتي بعدها .

5 - [ولا ينظر اليهم] قال الزمخشري : مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم لان من اعتد بأنسان التفت اليه وأعاره نظر عينيه .

6 - بين لفظ [اتقى] و[المتقين] جناس الاشتقاق وبين لفظ [الكفر] و[مسلمون] طباق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 213 ﴾

(137/122)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ أَن يُؤْتِيَهُ ﴾ اسم "كَانَ" و"الْبَشَر" خبرها . وقوله : ﴿ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ ﴾ عطف على "يُؤتيهُ" ، وهذا العطفُ لازم من حيث المعنى ؛ إذ لو سكت عنه لم يصحّ المعنى ؛ لأن الله – تعالى – قد آتى كثيراً من البشر الكتابَ والحُكْمَ والنبوة ، وهذا كما

يقولون – في بعض الأحوال والمفاعيل – : إنها لازمة فلا غرو – أيضاً – في لزوم المعطوف.

وإنما بينا هذا ؛ لأجل قراءة تأتي – إن شاء اله تعالى – ومعنى مجيء هذا النّفي في كلام العرب، نحو: "ما كان لزيد أن يفعل"، كقوله تعالى: ﴿ مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا ﴾ [النور: 16]. وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً ﴾ [النساء: 92] وقوله: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ [مريم: 35] أي: ما ينبغي لنا، ونحوه بنفي الكون والمراد نفي خبره، وهو على قسمين:

قسم يكون النفي فيه من جهة العقل ؛ ويُعَبَّر عنه بالنفي التام – كهذه الآية – لأن الله – تعالى – لا يُعْطي الكتاب بالحكم والنبوة لمن يقول هذه المقالة الشنعاء، ونحوه: ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا ﴾ [النمل: 60] وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [آل عمران: 145].

وقسم يكون النفي فيه على سبيل الانتفاء، كقول أبي بكر: ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم فيصلي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُعْرَف القسمان من السياق.

وقرأ العامة "يَقُولَ" – بالنصب – نسقاً على "يؤتيه" والتقدير: لا يجتمع النبوة وهذا القول. والعامل فيه "أن" وهو معطوف عليه بمعنى: ثم أن يقول.

والمراد بالحكم: الفَهْم والعلم. وقيل: إمضاء الحكم عن الله – عز وجل – .

و﴿ الكتاب ﴾ القرآن.

وقرأ ابن كثير – في رواية شبل بن عباد – وأبو عمرو – في رواية محبوب – : " يقولُ " – بالرفع – وخرَّجوها على القطع والاستئناف ، وهو مُشْكِلٌ ؛ لما تقدم من أن المعنى على لزوم ذكر هذا المعطوف ؛ إذْ لا يستقلّ ما قبله ؛ لفساد المعنى ، فكيف يقولون : على القطع والاستئناف .

(138/122)

قوله : ﴿ عِبَادًا ﴾ حكى الواحديُّ – عن ابن عباسٍ – أنه قال في قوله تعالى : ﴿ كُونُواْ عِبَاداً لِّي ﴾ أنه لغة مزينة ويقولون للعبيد : عباد .

قال ابنُ عطِية : ومن جموعه : عَبيد وعِبدَّى .

قال بعض اللغويين : هذه الجموع كلُّها بمعنًى .

وقال بعضهم : العبادُ للهِ ، والعبيدُ والعِبدَّى للبشر .

وقال بعضهم : العِبدَّى إنما تقال في العبد من العَبيد ، كأنه مبالغة تقتضي الإغراق في العبودية ، والذي استقرأت في لفظ " العباد " أنه جَمْع عَبْد متى سيقت اللفظة في مضمار الترفُّع والدلالة على الطاعة دون أن يقترن بها معنى التحقير ، وتصغير الشأن ، وانظر قوله : ﴿ والله رَؤُوفٌ بالعباد ﴾ ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء : 26] وقوله : ﴿ قُلْ

يا عبادي الذين أَسْرَفُوا على أنفُسِهِمْ ﴾ [الزمر : 53] وقول عيسى في معنى الشفاعة والتعريض ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ [المائدة : 118] ، وأما العبيد ، فتستعمل في تحقيره .

ومنه قول امرئ القيس :

قُولاَ لِدُودَانَ عَبِيدِ العَصَا . . . مَا غَرَّكُمْ بِالأَسَدِ الْبَاسِلِ

وقال حمزة بن عبد المطلب : " وَهَلْ أَنْتُمْ إِلاَّ عَبِيدٌ لأَبِي " ؟ ومنه قوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : 46] لأنه مكان تشفيق وإعلام بقلة أنصارهم ومقدرتهم ، وأنه - تعالى - ليس بظلامٍ لهم مع ذلك . ولما كانت " العباد " تقتضي الطاعة لم تقع هنا ، ولذلك أتى بها في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا عبادي الذين أَسْرَفُوا على أنفُسِهِمْ ﴾ [الزمر : 53] فهذا النوع من النظر يسلك به سبيل العجائب في فصاحة القرآن على الطريقة العربية .

(139/122)

قال أبو حيّان : " وفيه بعض مناقشة ، أما قوله : ومن جموعه عَبِيد وعِبِدَّى ، فأما عبيد ، فالأصح أنه جمع ، وقيل اسم جمع . وأما عِبِدَّى فإنه اسم جمع ، وألفه للتأنيث " .

قال شهابُ الدِّين : " لا مناقشة ، فإنه إنما يعني جَمْعاً معنويّا ، ولا شك أن اسمَ الجمع جَمْعٌ

معنويٌّ " .

قال : وأما ما استقرأه من أن " عِباداً " يساق في [مضمار] الترفُّع والدلالة على الطاعة ، دون أن يقترن بها معنى التحقير والتصغير ، وإيراده ألفاظاً في القرآن بلفظ " العباد " وأما قوله : وأما العبيد ، فيستعمل في تحقيره - وأنشد بيت امرئ القيس ، وقول حمزة : " وهل أنتم إلا عبيد أبي " ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : 46] فاستقراء ليس بصحيح ، إنما كثر استعمال " عباد " دون " عبيد " لأن " فعالاً " في جمع " فَعْل " غير الياء والعين قياس مُطَّرِدٌ ، وجمع فَعْل على " فعيل " لا يطَّرد .

(140/122)

قال سيبويه : " وربما جاء " فعيلاً " وهو قليل - نحو الكليب والعبيد " . فلما كان " فِعَال " مقيساً في جمع " عبد " جاء " عباد " كثيراً ، وأما ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : 46] فحسَّنَ مجيئه هنا - وإن لم يكن مقيساً - أنه جاء لتواخي الفواصل ، ألا ترى أن قبله : ﴿ أولَئكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : 44] وبعده ﴿ قالوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ [فصلت : 47] فحسَّنَ مجيئه بلفظ العبيد مؤاخاة هاتين الفاصلتين .

ونظير هذا - في سورة ق - ﴿ وَمَا أَنَاْ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق : 29] لأن قبله : ﴿ وَقَدْ

قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بالوعيد ﴾ [ق : 28] . وبعده : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امتلأت وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق : 30] وأما مدلوله فمدلول " عباد " سواء ، وأما بيت امرئ القيس فلم يُفْهَم التحقير من لفظ " عبيد " إنما فُهِم من إضافتهم إلى العصا ، ومن مجموع البيت .

وكذلك قول حمزةَ : هل أنتم إلا عبيد ؟ إنما فهم التحقير من قرينة الحال التي كان عليها ، وأتى في البيت وفي قول حمزة على أحد الجائزين .

وقال شهابُ الدينِ : " رده عليه استقراءه من غير إثباته ما يجرِّم الاستقراء مردود ، وأما ادّعاؤه أن التحقير مفهوم من السياق – دون لفظ – " عبيد " – ممنوع ؛ لأنه إذا دار إحالة الحكم بين اللفظ وغيره ، فالإحالة على اللفظ أوْلَى " .

قوله : " لي " صفة لـ " عباد " . و ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ متعلق بلفظ " عِبَاداً لما فيه من معنى الفعل ، ويجوز أن يكون صفة ثانية ، وأن يكون حالاً ؛ لتخصُّص النكرة بالوصف .

(141/122)

قوله : ﴿ ولكن كُونُواْ ﴾ أي : ولكن يقول : كونوا ، فلا بد من إضمار القول هنا ، ومذهب العرب جواز الإضمار إذا كان في الكلام ما يدل عليه ، كقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الذين اسودت وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [آل عمران : 106] أي : يقال لهم ذلك .

والربانيون: جمع رَبَّانِيّ، وفيه قولان:

أحدهما: قال سيبَوَيْهِ: إنه منسوب إلى الرَّبّ، يعني كونه عالماً به، ومواظباً على طاعته، كما يُقال: رجل إلهيّ إذا كان مقبلاً على معرفة الإلهِ وطاعتِهِ، والألف والنونُ فيه زائدتان في النسبِ، دلالةٌ على المبالغة كرقباني وشَعراني، ولِحْيَاني - للغليظِ الرقبةِ، والكثيرِ الشعرِ، والطويلِ اللحيةِ - ولا تُفرد هذه الزيادة عن النسب أما إذا نسبوا إلى الرقبة والشعر واللحية - من غير مبالغة: قالوا: رَقَبِيّ وشَعْرِيّ ولحويّ.

الثاني: قال المُبَرِّدُ: الربانيون: أرباب العلم، منسوب إلى ربَّان، والربان: هو المُعَلِّم للخير، ومَن يوسوس للناس ويعرِّفُهم أمرَ دينهم، فالألف والنون والتاء على زيادة الوصف، كهي في عطشان وريان وجوعان ووسنان، ثم ضمت إليه ياء النسب - كما قيل: لحيانيّ ورقبانيّ - وتكون النسبة - على هذا - في الوصف نحو أحمري، قال: [الرجز]

أَطَرَباً وَأَنتَ قِنَّسْرِيُّ . . . وَالدَّهْرُ بالإِنْسَانِ دَوَّارِيُّ

وقال سيبويه: زادوا ألفاً ونوناً في الربانيّ؛ لأنهم أرادوا تخصيصاً بعلم الرَّبِّ دون غيره من العلوم، وهذا كما يقال: شعرانيّ ولحيانيّ ورقبانيّ.

قال الواحديُّ: فعلى قول سيبويه الرباني منسوب إلى الربِّ مأخوذٌ من التربية.

وفي التفسير: كونوا فقهاء، علماء، عاملين. قاله عليٌّ وابن عباس والحسنُ.

(142/122)

وقال قتادةُ : حكماء ، علماء وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : فقهاء ، معلمين .

وقل عطاءٌ : علماء ، حكماء ، نصحاء لله في خلقه .

وقيل : الرَّبَّانِيّ : الذي يُربّي الناسَ بصغار العلم قَبل كِباره .

وقال سعيد بن جُبَيرٍ : الرباني : العالم الذي يعمل بعلمه .

وقيل : الربانيون فوق الأحبار ، والأحبارُ : العلماء ، والربانيون : الذين جمعوا مع العلم البصارة لسياسة الناس ، ولما مات ابنُ عبَّاسٍ قال محمدُ بنُ الحنفيةَ : اليوم مات ربَّانِيُّ هذه الأمة .

وقال ابنُ زيدٍ : الربانيُّ : هو الذي يربُّ النَّاسَ ، والربانيون هم : ولاة الأمة والعلماء ، وذكروا هذا – أيضاً – في قوله تعالى : ﴿ لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الربانيون والأحبار ﴾ [المائدة : 63] أي : الولاة والعلماء ، وهما الفريقان اللذان يطاعان .

ومعنى الآية – على هذا التقدير – لا أدعوكم إلى أن تكونوا عباداً لي ، ولكن أدعوكم إلى أن تكونوا ملوكاً وعلماء باستعمالكم أمر الله تعالى ، ومواظبتكم على طاعته .

قال القفال : يحتمل أن يكون الوالي ، سُمّي ربانيًّا ؛ لأنه يُطاع كالربِّ ، فنسب إليه .

قال أبو عبيدة : أحسب أن هذه الكلمة ليست بعربيةٍ ، إنما هي عبرانية ، أو سريانية ، وسواء كانت عبرانية ، أو سريانية ، أو عربية فهي تدل على الإنسان الذي عَلِمَ وعَمِلَ بما

عَلِم، ثم اشتغل بتعليم الخيرِ.

قوله: ﴿ بِمَا كُنْتُمْ ﴾ الباء سببية، أي: كونوا علماء بسبب كَوْنِكُمْ، وفي متعلق هذه الباء ثلاثة أقوالٍ:

أحدها: أنها متعلقة بـ "كُونُوا" ذكره أبو البقاء، والخلاف مشهورٌ.

الثاني: أن تتعلق بـ "رَبَّانِيّينَ" لأن فيه معنى الفعل.

(143/122)

الثالث: أن تتعلق بمحذوف على أنها صفة لـ "رَبَّانِيّينَ" ذكره أبو البقاء، وليس بواضح المعنى، و"ما" مصدرية، فتكون مع الفعل بتأويل المصدر، أي: بسبب كونكم عالمينَ، نظيره قوله: ﴿ اليوم نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ ﴾ [الجاثية: 34]. وظاهر كلام أبي حيان أنه يجوز أن تكون غير ذلك؛ فإنه قال: و"ما" الظاهر أنها مصدرية، فهذا يوم تجويز غير ذلك -وفي جوازه بُعْد- وهو أن تكون موصولة، وحينئذ تحتاج إلى عائد وهو مقدر، أي بسبب الذي تعلمون به الكتاب، وقد نقص شرطٌ، وهو اتحاد المتَعلَّق، فلذلك لم يظهر جعلها غير مصدرية. و"كُنْتُمْ" معناه "أنتم" كقوله: ﴿ مَن كَانَ فِي المهد صَبِيّاً ﴾ [مريم: 29] أي مَنْ هو في المهد.

قوله : ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ قرأ نافعٌ وابن كُثير وأبو عمرو " تَعْلَمُونَ " مفتوح حرف المضارعة ، ساكن العين مفتوح اللام من عَلِم يَعْلَم ، أي : تعرفون ، فيتعدى لواحدٍ ، وباقي السبعة بضم حرف المضارعة ، وفتح العين وتشديد اللام مكسورةً ، فيتعدى لاثنين ، أولهما محذوف ، تقديره : تُعَلِّمُونَ الناسَ والطالبين الكتاب .

ويجوز أن لا يُراد مفعول ، أي : كنتم من أهل التعليم ، وهو نظير : أطعم الخبزَ ، المقصود الأهم إطعام الخُبْز من غير نظرٍ إلى مَنْ يُطْعِمُه ، فالتضعيف فيه للتعدية .

وقد رجح جماعة هذه القراءة على قراءة نافع ، بأنها أبلغ ؛ وذلك أن كل مُعَلِّم عالم ، وليس كُلُّ عالمٍ معلماً ، فالوصف بالتعليم أبلغ ، وبأن قبله ذِكْرَ الربانيين ، والرباني يقتضي أن يَعْلَم ، ويُعَلِّمَ غيرَه ، لا أن يقتصر بالعلم على نفسه .

(144/122)

ورجح بعضُهم الأولى بأنه لم يُذْكَر إلا مفعول واحدٌ ، والأصل عدم الحذف - والتخفيف مُسوِّغ لذلك ، بخلاف التشديد ، فإنه لا بدّ من تقدير مفعول . وأيضاً فهو أوفق لِ " تَدْرُسُونَ " . والقراءتان متواترتان ، فلا ينبغي ترجيحُ إحداهما على الأخْرى .

وقرأ الحسن ومجاهدٌ " تَعَلَّمُونَ " - بفتح التاء والعين ، واللام مشددة - من تعلم ، والأصل

تتعلمون – بتاءين – فحُذِفَتْ إحداهما .

قوله : ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ كالذي قبله ، والعامة على " تَدْرُسُونَ بفتح التاء ، وضم الراء – من الدرس ، وهو مناسب " تَعْلَمُونَ " من علم – ثلاثياً .

قال بعضهم : كان حق من يقرأ " تُعَلِّمون " – بالتشديد – أن يقرأ " تُدَرِّسُونَ " – بالتشديد وليس بلازمٍ ؛ إذ المعنى : صرتم تُعَلِّمون غيركم ، ثم تُدَرِّسُونَ ، وبما كنتم تدرسون عليهم – أي : تتلونه عليهم ، كقوله : ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ ﴾ [الإسراء : 6] .

قال أبو حَيْوَةَ – في إحدى الروايتين عنه – " تَدْرِسُونَ " – بكسر الراء – وهي لغة ضعيفة ، يقال : دَرَسَ العلم يدرسه – بكسر العين في المضارع – وهما لغتان في مضارع " درس " وقرأ هو – أيضاً – في رواية " تُدَرِّسُونَ " من درَّس – بالتشديد – وفيه وجهان :

أحدهما : أن يكون التضعيف فيه للتكثير موافقاً لقراءة " تَعْلَمُونَ " بالتخفيف .

الثاني : أن التضعيف للتعدية ، ويكون المفعولان محذوفين ؛ لفهم المعنى ، والتقدير : تُدَرِّسُونَ غيركم العلم ، أي : تحملونهم على الدرس . وقُرِئَ " تُدْرِسُونَ " من أدرس – كيكرمون من أكرم – على أن أفعل بمعنى فعل – بالتشديد – فأدرس ودرّس واحد كأكرم وكرّم ، وأنزل ونزّل .

والدرس : التكرار والإدمان على الشيء . ومنه : درس زيد الكتاب والقرآن ، يدرُسه ويدرِسه ، أي : كرر عليه ، ويقال درست الكتاب ، أي : تناولت أثره بالحفظ ، ولما كان ذلك بمداومة القرآن عبر عن إدامة القرآن بالدرس . ودَرَس المنزلُ : ذهب أثرُه ، وطَلَلٌ عافٍ ودارس بمعنًى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 345 . 350 ﴾

من فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

وقوله : ﴿ ما كان لبشر ﴾ نفي لاستحقاق أحد لذلك القول واللام فيه للاستحقاق .

وأصل هذا التركيب في الكلام ما كان فُلان فاعلاً كذا ، فلما أريدت المبالغة في النفي عدل عن نفي الفعل إلى نفي المصدر الدال على الجنس ، وجعل نفي الجنس عن الشخص بواسطة نفي الاستحقاق إذ لا طريقة لِحمل اسم ذات على اسم ذات إلاّ بواسطة بعض الحروف ، فصار التركيب : ما كان له أن يفعل ، ويقال أيضاً : ليس له أن يفعل ، ومثل ذلك في الإثبات كقوله تعالى : ﴿ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ﴾ [طه : 118] .

فمعنى الآية : ليس قولُ ﴿ كونوا عباداً لي ﴾ حقاً لبشر أيِّ بشر كان .

وهذه اللام هي أصل لام الجحود التي في نحو ﴿ وما كان الله ليعذّبهم ﴾ [الأنفال : 33] ، فتراكيب لام الجحود كلّها من قبيل قلب مثل هذا التركيب لقصد المبالغة في النفي ، بحيث

ينفى أن يكون وجود المسند إليه مجعولاً لأجل فِعْل كذا ، أي فهو بريء منه بأصل الخلقة ولذلك سميت جحوداً .

والمنفي في ظاهر هذه الآية إيتاء الحكم والنبوءة ، ولكن قد علم أنّ مصبّ النفي هو المعطوف من قوله : ﴿ ثم يقول للناس كونوا عباداً لي ﴾ أي ما كان له أن يقول كونوا عباداً لي إذا آتاه الله الكتاب إلخ .

(146/122)

والعباد جمع عبد كالعبيد ، وقال ابن عطية : "الذي استقريت في لفظ العباد أنه جمع عبد لا يقصد معه التحقير ، والعبيد يقصد منه ، ولذلك قال تعالى : "يا عبادي" وسمّت العرب طوائف من العرب سكنوا الحِيرة ودخلوا تحت حكم كِسرى بالعباد ، وقيل لأنهم تنصّروا فسموْهم بالعباد ، بخلاف جمعه على عَبيد كقولهم : هم عبيد العَصا ، وقال حمزةُ بنُ المطلب هل أنتم إلاّ عبيدٌ لأبي ومنه قول الله تعالى : ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ [فصلت : 46] ؛ لأنّه مكان تشفيق وإعْلام بقلة مقدرتهم وأنه تعالى ليس بظلاّم لهم مع ذلك ، ولما كان لفظة العباد تقتضي الطاعة لم تقع هنا ، ولذلك آنس بها في قوله تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ [الزمر : 53] فهذا النوع من النظر يُسلك به

سُبل العجائب في ميزة فصاحة القرآن على الطريقة العربية السلبية" . أهـ .

وقوله : ﴿ من دون الله ﴾ قيد قصد منه تشنيع القول بأن يكونوا عباداً للقائل بأنّ ذلك يقتضي أنهم انسلخوا عن العبودية لله تعالى إلى عبودية البشر ، لأنّ حقيقة العبودية لا تقبل التجزئة لمعبودين ، فإنّ النصارى لما جعلوا عيسى ربّاً لهم ، وجعلوه ابناً للّه ، قد لزمهم أنهم انخلعوا عن عبودية الله فلا جدوى لقولهم : نحن عبد الله وعبيدُ عيسى ، فلذلك جعلت مقالتُهم مقتضية أنّ عيسى أمرهم بأن يكونوا عباداً له دون الله ، والمعنى أنّ لآمِر بأن يكون الناس عباداً له هو آمر بانصرافهم عن عبادة الله .

﴿ ولكن كونوا ربانيين ﴾ أي ولكن يقول كونوا ربانيين أي كونوا منسوبين للربّ ، وهو الله تعالى ، لأنّ النسب إلى الشيء إنما يَكون لمزيد اختصاص المنسوب بالمنسوب إليه .

ومعنى ذلك أن يَكونوا مخلصين لله دون غيره .

والرّباني نسبة إلى الرب على غير قياس كما يقال اللِّحياني لعظيم اللحية ، والشّعراني لكثير الشعرَ .

وقوله : ﴿ بما كنتم تعلمون الكتاب ﴾ أي لأنّ علمكم الكتاب من شأنه أن يصدّكم عن إشراك العبادة ، فإنّ فائدة العلم العمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 140.139 ﴾

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ ما كان لبشر ﴾ معناه لأحد من الناس ، والبشر اسم جنس يقع للكثير والواحد ولا مفرد له من لفظه ، وهذا الكلام لفظه النفي التام كقول أبي بكر رضي الله عنه : ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما يعلم مبلغها من النفي بقرينة الكلام الذي هي فيه ، كقوله تعالى : ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله ﴾ [آل عمران : 145] وقوله تعالى : ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ [النحل : 60] فهذا منتف عقلاً ، وأما آيتنا هذه فإن النفي على الكمال لأنّا نقطع أن الله تعالى لا يؤتي النبوة للكذبة والمدعين ، و﴿ الكتاب ﴾ في هذه الآية اسم جنس ، و﴿ الحكم ﴾ بمعنى الحكمة ، ومنه قول النبي عليه السلام : إن من الشعر لحكماً ، و﴿ ثم ﴾ في قوله تعالى : ﴿ ثم يقول ﴾ معطية تعظيم الذنب في القول ، بعد مهلة من هذا الإنعام ، وقوله ﴿ عباداً ﴾ هو جمع عبد ، ومن جموعه عبيد وعبدى ، قال بعض اللغويين ، وهذه الجموع بمعنى ، وقال قوم ، العباد لله ، العبيد والعبدى للبشر ، وقال قوم : العبدى ، إنما تقال في العبيد بني العبيد ، وكأنه بناء مبالغة ، تقتضي الإغراق في العبودية .

قال القاضي أبو محمد : والذي استقريت في لفظة العباد ، أنه جمع عبد متى سيقت اللفظة في مضمار الترفيع والدلالة على الطاعة دون أن يقترن بها معنى التحقير وتصغير الشأن وانظر قوله تعالى : ﴿ والله رؤوف بالعباد ﴾ [البقرة : 207] [آل عمران : 30] و﴿ عباد مكرمون ﴾ [الأنبياء : 26] ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ [الزمر : 53] وقول عيسى في معنى الشفاعة والتعريض لرحمة الله ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ [المائدة : 118] فنوه بهم ، وقال بعض اللغويين : إن نصارى الحيرة وهم عرب لما أطاعوا كسرى ودخلوا تحت أمره سمتهم العرب العباد فلم ينته بهم إلى اسم العبيد ، وقال قوم بل هم قوم من العرب من قبائل شتى اجتمعوا وتنصروا وسموا أنفسهم العباد كأنه انتساب إلى عبادة الله ، وأما العبيد فيستعمل في تحقير ، ومنه قول امرىء القيس : [السريع] .

قُولاَ لِدُودَان عبيدِ العَصَى . . . مَا غَرَّكُمْ بالأَسَد الباسلِ

ومنه قول حمزة بن عبد المطلب : وهل أنتم إلا عبيد ومنه قول الله تعالى : ﴿ وما ربك بظلاّم للعبيد ﴾ [فصلت : 46] لأنه مكان تشفيق وإعلام بقلة انتصارهم ومقدرتهم ،

وأنه تعالى ليس بظلاّم لهم مع ذلك ، ولما كانت لفظة العباد تقتضي الطاعة لم تقع هنا ، ولذلك أنس بها في قوله تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ [الزمر : 53] .

قال الإمام أبو محمد : فهذا النوع من النظر يسلك به سبل العجائب في ميزة فصاحة القرآن العزيز على الطريقة العربية السليمة ، ومعنى قوله : ﴿ كونوا عباداً لي من دون الله ﴾ اعبدوني واجعلوني إلهاً .

(149/122)

واختلف المفسرون إلى من هي الإشارة بقوله تعالى : ﴿ ما كان لبشر ﴾ فقال النقاش وغيره : الإشارة إلى عيسى عليه السلام ، والآية رادة على النصارى الذين قالوا : عيسى إله ، وادعوا أن عبادته هي شرعة ومستندة إلى أوامره ، وقال ابن عباس والربيع وابن جريج وجماعة من المفسرين : بل الإشارة إلى محمد عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 461 . 462 ﴾

وقال ابن كثير :

قوله ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ

دُونِ اللَّهِ ﴾ أي: ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحُكْم والنبوة أن يقول للناس: اعبدوني من دون الله. أي: مع الله، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى؛ ولهذا قال الحسن البصري: لا ينبغي هذا لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته. قال: وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضا -يعني أهل الكتاب- كانوا يَتعبَّدون لأحبارهم ورهبانهم، كما قال الله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ [وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ] ﴾ [التوبة: 31] وفي المسند، والترمذي -كما سيأتي- أن عَديّ بن حاتم قال: يا رسول الله، ما عبدوهم. قال: "بَلَى، إِنَّهُمْ أَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلالَ، فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ".

فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنما يأمرون بما أمَرَ الله به وبلغتهم إياه رسله الكرام. إنما يَنْهَوْنهم عما نهاهم الله عنه وبلغتهم إياه رسله الكرام. فالرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعينَ، هم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة،

فقاموا بذلك أتم قيام ، ونصحوا الخلق ، وبلغوهم الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 66 ﴾

فائدة

قال الفخر :

دلّت الآية على أن العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانياً ، فمن اشتغل بالتعلم والتعليم لا لهذا المقصود ضاع سعيه وخاب عمله وكان مثله مثل من غرس شجرة حسناء مونقة بمنظرها ولا منفعة بثمرها ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : " نعوذ بالله من علم لا ينفع وقلب لا يخشع " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 99 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

أي ليس من صفة مَنْ اخترناه للنبوة واصطفيناه للولاية أن يدعو الخلق إلى نفسه ، أو يقول بإثبات نفسه وحظِّه ، لأن اختياره – سبحانه – إياهم للنبوة يتضمن عصمتهم عَمَّا لا يجوز ، فتجويز ذلك في وصفهم مُنافٍ لحالهم ، وإنما دعاء الرسل والأولياء – للخلق – إلى الله سبحانه وتعالى ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾ أي إنما أشار بهم على الخلق بأن يكونوا ربانيين ، والرَّباني منسوبٌ إلى الرب كما يقال فلان دقياني ولحياني . . . وبابه .

وهم العلماء بالله الحلماء في الله القائمون بفنائهم عن غير الله ، المستهلكة حظوظهم ،

المستغرِقون في حقائق وجوده عن إحساسهم بأحوال أنفسهم ، ينطقون بالله ويسمعون بالله ، وينظرون بالله ، فهم بالله مَحْوٌ عمّا سوى الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 253 ﴾

(151/122)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللَّهِ ﴾

ونحن نعرف أن الحق سبحانه وتعالى حين ينزل منهجه ، فهو ينزله في كتاب ، ويقتضي ذلك أن يصطفي سبحانه إنسانا للرسالة ، أي أن الرسول يجيء بمنهج ويطبقه على نفسه ويبلغه للناس ، الرسول مصطفى من الله ويختلف في مهمته عن النبي ، فالنبي أيضا مصطفى ليطبق المنهج ، وهكذا حتى لا يسمع الناس المنهج ككلام فقط ولكن يرونه تطبيقا أيضا ، إذن فالرسول واسطة تبليغية ونموذج سلوكي والنبي ليس واسطة تبليغية ، بل هو نموذج سلوكي فقط .

إن الحق سبحانه وتعالى يرسل النبي ويرسل الرسول ، ولذلك تأتي الآية :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

[الحج : 52] .

هكذا نعرف أن الرسول والنبي كليهما مرسل من عند الله ، الرسول مرسل للبلاغ والأسوة ، والنبي مرسل للأسوة فقط ، لأن هناك بعضا من الأزمنة يكون المنهج موجودا ، ولكن حمل النفس على المنهج ، هو المفتقد ، ومثال ذلك عصرنا الحاضر ان المنهج موجود وكلنا نعلم ما الحلال وما الحرام ، لكن خيبة هذا الزمان تأتي من ناحية عدم حمل أنفسنا على المنهج ، لذلك فنحن نحتاج إلى أسوة سلوكية ، هكذا عرفنا الكتاب ، والنبوة ، فما هو الحكم إذن ؟

لقد جاء الحق بكلمة : " الحكم " هنا ليدلنا على أنه ليس من الضروري أن توجد الحكمة الإيمانية في الرسول أو النبي فقط ، بل قد تكون الحكمة من نصيب إنسان من الرعية الإيمانية ، وتكون القضية الإيمانية ناضجة في ذهنه ، فيقولها لأن الحكمة تقتضي هذا . ألم يذكر الله

لنا وصية لقمان لابنه ؟ إن وصية لقمان لابنه هي المنهج الديني ، وعلى ذلك فمن الممكن أن يأتي إنسان دون رسالة أو نبوة ، ولكن المنهج الإيماني ينقدح في ذهنه ، فيعظ به ويطبقه ، وهذا إيذان من الله على أن المنهج يمكن لأي عقل حين يستقبله أن يقتنع به ، فيعمل به ويبلغه .

ولابد لنا أن نؤكد أن من يهبه الله الحكمة في الدعوة لمنهج الله وتطبيق هذا المنهج ، لن يضيف للمنهج شيئا ، وبحكم صدقة مع الله فهو لن يدعي أنه مبعوث من الله للناس ، إنه يكتفي بالدعوة لله وبأن ، يكون أسوة حسنة .

لكن لماذا جاءت هذه الآية ؟ لقد جاءت هذه الآية بعد جدال نصارى نجران مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ، وأثناء الجدال انضمت إليهم جماعة من اليهود ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

- بماذا تؤمن وتأمر ؟ فأبلغهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأوامر المنهج ونواهيه ، وأصول العبادة ، ولأن تلك الجماعة كانوا من أهل الكتاب ، بعضهم من نصارى نجران والبعض الآخر من يهود المدينة ، وكانوا يزيفون أوامر تعبدية ليست من عند الله ، ويريدون من الناس طاعة هذه الأوامر ، لذلك لم يفطنوا إلى الفارق بين منهج رسول الله صلى الله عليه السلام وأوامره ، وبين ما زيفوه هم من أوامر ، فمحمد صلى الله عليه وسلم يطلب من

الناس عبادة الله على ضوء المنهج الذي أنزله عليه الحق سبحانه ، أما هم فيطلبون طاعة الناس في أوامر من تزييفهم .

(153/122)

والطاعة - كما نعلم - هي لله وحده في أصول كل الأديان ، فإذا ما جاء إنسان بأمر ليس من الله ، وطلب من الناس أن يطيعوه فيه ، فهذا معناه أن ذلك الإنسان يطلب أن يعبده الناس - والعياذ بالله - لأن طاعة البشر في غير أوامر الله هي شرك بالله . ولهذا تشابهت المواقف على هذا البعض من أهل الكتاب ، وظنوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب منهم طاعتهم لأوامره هو ، كما كانوا يطلبون من الناس بعد تحريفهم للمنهج وقالوا : أتريد أن نعبدك ونتخذك إلها ؟

إنهم لم يفطنوا إلى الفارق بين الرسول الأمين على منهج الله ، وبين رؤسائهم الذين خالفوا الأحكام واستبدلوها بغيرها ، فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يطلب منهم طاعته لذاته هو ، ولكنه قد طلب منهم الطاعة للمنهج الذي جاء به رسولا وقدوة ، واستنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قالوه .

وأنزل الله سبحانه قوله الحق :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : 79]

لقد بلغت بهم الغفلة والشرك أنهم ظنوا أن الله لم يختر رسولا أمينا على المنهج ، وظنوا بالله ظن السوء ، أو أنهم ظنوا أن الرسول سيحرف المنهج كما حرفوه هم ، فتحولوا عن عبادة الله إلى عبادة من بعثه الله رسولا ، ولذلك جاء القول الفصل ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ .

وقد ينصرف المعنى أيضا إلى أن بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يُجِلُّونَه –صلى الله عليه وسلم – وكل مؤمن مطلوب منه أن يُجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يعظمه ، ومن فرط حب بعض الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له : أنسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض ، ألا نسجد لك ؟

(154/122)

إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يطلب السجود له من أحد ، والحق سبحانه هو الذي كلف عباده المؤمنين بتكريم رسوله فقال :

﴿ لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ

لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : 63] .

إن المطلوب هو التعظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا أن نعطي له أشياء لا تكون إلا لله .

إن تعظيم المسلمين لرسول الله وتكريمهم له هو أن نجعل دعاءه مختلفاً عن دعاء بعضنا بعضا .

والحق في هذه الآية التي نحن في مجال الخواطر عنها وحولها يقول : ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ .

إن " لكن " هنا للاستدراك ، مثلما قلنا من قبل : إن " بلى " تنقض القضية التي قبلها وتثبت بعدها قضية مخالفة لها . إن الحق يستدرك هنا لنفهم أنه ليس لأحد من البشر أن يقول : " كونوا عبادا لي " بعد أن أعطاه الله الكتاب والحكم والنبوة ، والقضية التي يتم الاستدراك من أجلها وإثباتها هي : ﴿ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾ وكلمة " رباني " ، وكلمة " رب " ، وكلمة " ربيون " ، وكلمة " ربان " ، وكل المادة المكونة من " الراء " و " الباء " تدل على التربية ، والولاية ، وتعهد المربي ، وتدور حول هذا المعنى . أليس ربان السفينة هو الذي يقود السفينة ؟

وكلمة " الرب " توضح المتولي للتربية ، إذن فما معنى كلمة " رباني " ؟ إنك إذا أردت أن تنسب إلى " رب " تقول : " ربّي " . وإذا أردنا المبالغة في النسبة نضيف لها ألفا ونونا فنقول : " رباني " ولذلك نجد في التعبيرات المعاصرة من يريدون أن ينسبوا أمرا إلى العلم فيقولون : " علماني " وفي ذلك مبالغة في النسبة إلى العلم . والفرق بين " علمي " و " علماني " هو أن العلماني يزعم لنفسه أن كل أموره تمشي على العلم المادي ، ونجد أن في " علماني " ألفاً ونوناً زائدين لتأكيد النسبة إلى العلم .

وقد يقول قائل : ولماذا نؤكد الانتساب إلى الله بكلمة " رباني " ؟

ونقول : لأن الكلمة مأخوذة من كلمة رب ، وتؤدي إلى معان : منها أن كل ما عنده من حصيلة البلاغ لا بد أن يكون صادرا ومنسوبا إلى الرب ؛ لأنه لم يأت بشيء من عنده ، أي أنه يأخذ من الله ولا يأخذ من أحد آخر أبدا ؛ فهو رباني الأخذ .

وتؤدي الكلمة إلى معنى آخر : إنه حين يقول ويتكلم فإنه يكون متصفا بخلق أنزله رب يربي الناس ليبلغوا الغاية المقصودة منهم ، فهو عندما ينقل ما عنده للناس يكون مربيا ، ويدبر الأمر للفلاح والصلاح .

يقول الحق - سبحانه - : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ إن العلم هو تلقي النص المنهجي . والدراسة هي البحث الفكري في النص المنهجي .

لذلك فنحن في الريف نقول : " ندرس القمح " أي أننا ندرس القمح بألة حادة كالنورج حتى تنفصل حبوب القمح عن " التبن " وتكون نتيجة الدراس هي استخلاص النافع .

. إذن ففيه فرق بين " تعلمون " أي تعلمون غيركم المنهج الصادر من الله وذلك خاضع لتلقي النص ، وبين ﴿ مَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ أي تعلمون أفكاركم في الفهم عن النص .

(156/122)

إن الفهم عن النص يحتاج إلى مدارسة ، ومعنى المدارسة هو أخذ وعطاء ، ويقال : " دارسه " أي أن واحد قد قام بتبادل التدريس مع آخر ، ويقال أيضا : " تدارسنا " أي أنني قلت ما عندي وأنت قد قلت ما عندك حتى يمكن أن نستخلص ونستنبط الحكم الذي يوجد في النص .

وقد يأتي النص محكما ، وقد يأتي النص محتملا لأكثر من معنى .

وما دمت قد تعلمت ، فلا بد أنك تعرفت على النصوص المحكمة للمنهج . وما دمت قد تدارست ، فلا بد أنك قد فهمت من النصوص المحتملة حين مدارستك لأهل الذكر حُسْن استقبال المنهج ؛ لذلك يجب أن تكون ربانياً في الأمرين معاً .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً . . .

﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1561 . 1566 ﴾

(157/122)

قوله تعالى ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (80) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما نفي أن يكون الحكيم من البشر داعياً إلى نفسه وأثبت أنه يكون ولا بد داعياً إلى الله سبحانه وتعالى لتظهر حكمته أثبت أن ذلك لا بد وأن يكون على وجه الإخلاص ، لأن بعض الشياطين يحكم مكره بإبعاد التهمة عن نفسه بالدعاء إلى إلى غيره على وجه الشرك لا سيما إن كان ذلك الغير ربانياً كعيسى عليه الصلاة والسلام فقال : ﴿ ولا يأمركم ﴾ أي ذلك البشر ﴿ أن تتخذوا ﴾ أتى بصيغة الافتعال إيذاناً بأن الفطر مجبولة على التوجه لله سبحانه وتعالى من غير كلفة ﴿ الملائكة والنبيين ﴾ فضلاً عن غيرهم ﴿ أرباباً ﴾ أي مع الله سبحانه وتعالى أو من دونه ، ثم بين أن كل عبادة كان فيها أدنى شائبة فهي باطلة بقوله

على طريق الإنكار تبرئة لعبادة الخلص من مثل ذلك : ﴿ أيأمركم بالكفر ﴾ إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى غني ، لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه ﴿ بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ أي منقادون لأحكامه ، أو متهيئون للتوحيد على عليّ الفطرة الأولى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 118.119 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ عاصم وحمزة وابن عامر ﴿ وَلاَ يَأْمُرَكُمْ ﴾ بنصب الراء ، والباقون بالرفع أما النصب فوجهه أن يكون عطفاً على ﴿ ثُمَّ يَقُولُ ﴾ وفيه وجهان

أحدهما : أن تجعل ﴿ لا ﴾ مزيدة والمعنى : ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوّة أن يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ويأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيّين أرباباً ، كما تقول : ما كان لزيد أن أكرمه ثم يهينني ويستخف بي والثاني : أن تجعل ﴿ لا ﴾ غير مزيدة ، والمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينهى قريشاً عن عبادة الملائكة ، واليهود والنصارى عن عبادة عزير والمسيح ، فلما قالوا : أتريد أن نتخذك رباً ؟ قيل لهم : ما كان

لبشر أن يجعله الله نبياً ثم يأمر الناس بعبادة نفسه وينهاهم عن عبادة الملائكة والأنبياء ، وأما القراءة بالرفع على سبيل الاستئناف فظاهر لأنه بعد انقضاء الآية وتمام الكلام ، ومما يدل على الانقطاع عن الأول ما روي عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿ وَلَنْ يَأْمُرُكُمْ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 99 . 100 ﴾

قال الطبري :

وأولى القراءتين بالصواب في ذلك : "ولا يأمركم" ، بالنصب على الاتصال بالذي قبله ، بتأويل : ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتابَ والحكمَ والنبوةَ ، ثم يقولَ للناس كونوا عبادًا لي من دون الله ولا أنْ يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا . لأن الآية نزلت في سبب القوم الذين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : "أتريد أن نعبدك" ؟ فأخبرهم الله جل ثناؤه أنه ليس لنبيّه صلى الله عليه وسلم أن يدعو الناسَ إلى عبادة نفسه ، ولا إلى اتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا . ولكن الذي له : أنْ يدعوهم إلى أن يكونوا ربانيين .

(159/122)

فأما الذي ادّعى من قرأ ذلك رفعًا ، أنه في قراءة عبد الله : "ولن يأمركم" استشهادًا لصحة قراءته بالرفع ، فذلك خبر غيرُ صحيح سَنَده ، وإنما هو خبر رواه حجاج ، عن هارون

الأعور أنّ ذلك في قراءة عبد الله كذلك . ولو كان ذلك خبرًا صحيحًا سنده ، لم يكن فيه لمحتجٍّ حجة . لأن ما كان على صحته من القراءة من الكتاب الذي جاءَ به المسلمون وراثةً عن نبيهم صلى الله عليه وسلم ، لا يجوز تركه لتأويلٍ على قراءة أضيفت إلى بعض الصحابة ، بنقل من يجوز في نقله الخطأ والسهو . (1) انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 547 . 548 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قال الزجاج : ولا يأمركم الله ، وقال ابن جُرَيْج : لا يأمركم محمد ، وقيل : لا يأمركم الأنبياء بأن تتخذوا الملائكة أربابا كما فعلته قريش . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 100 ﴾

فائدة

قال الفخر :

إنما خص الملائكة والنبيّين بالذكر لأن الذين وصفوا من أهل الكتاب بعبادة غير الله لم يحك عنهم إلا عبادة الملائكة وعبادة المسيح وعزير ، فلهذا المعنى خصهما بالذكر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 100 ﴾

قال تعالى : ﴿ أَيَأْمُرُكُم بالكفر بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

قال القرطبى :

﴿ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ على طريق الإنكار والتعجب ؛ فحرّم الله تعالى على الأنبياء أن يتخذوا الناس عباداً يتألهون لهم ولكن ألزم الخلق حرمتهم .

وقد ثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يقولنّ أحدكم عَبْدِي وأَمَتِي وليقل فَتَايَ وفَتَاتِي ولا يقل أحدكم رَبّي وليقل سَيِّدي " وفي التنزيل ﴿ اذكرني عِندَ رَبِّكَ ﴾ [يوسف : 42] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 124 ﴾

---

(1) القراءتان متواترتان ومن ثم فلا يجوز الترجيح بينهما . والله أعلم .

(160/122)

فصل

قال الفخر :

قال صاحب "الكشاف" قوله ﴿ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ دليل على أن المخاطبين كانوا مسلمين وهم الذين استأذنوا الرسول صلى الله عليه وسلم في أن يسجدوا له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 100 ﴾

وقال أبو حيان :

وفي هذه الآية دلالة على أن المخاطبين كانوا مسلمين ، ودلالة على أن الكفر ملة واحدة إذ الذين اتخذوا الملائكة أرباباً ثم الصابئة وعبدة الأوثان ، والذين اتخذوا النبيين أرباباً هم اليهود والنصارى والمجوس ، ومع هذا الاختلاف سمى الله الجميع : كفراً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 531 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ استدل به الخطيب (1) على أن الآية نزلت في المسلمين القائلين "أفلا نسجد لك ؟" بناءاً على الظاهر ، ووجه كون الخطاب للكفار وأن الآية نزلت فيهم بأنه يجوز أن يقال لأهل الكتاب : ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي منقادون مستعدون للدين الحق إرخاءاً للعنان واستدراجاً ، والقول بأن كل مصدق بنبيه مسلم ودعواه أنه أمره نبيه بما يوجب كفره دعوى أنه أمره بالكفر بعد إسلامه فدلالة هذا على أن الخطاب للمسلمين ضعيفة في غاية السقوط كما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 209 ﴾

---

(1) لعل الصواب ابن الخطيب والمراد منه الإمام فخر الدين الرازى فهو ابن خطيب الرى ، ونرى هذه العبارة شائعة فى كلام كثير من المفسرين كابن عادل وابن عرفة وغيرهما .

ونص عبارته فى مفاتيح الغيب " المسألة الثانية :

قال صاحب «الكشاف» قوله ﴿ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ دليل على أن المخاطبين كانوا

مسلمين وهم الذين استأذنوا الرسول صلى الله عليه وسلم في أن يسجدوا له " . والله أعلم .

(161/122)

فصل

قال الفخر :

قال الجبائي : الآية دالة على فساد قول من يقول : الكفر بالله هو الجهل به والإيمان بالله هو المعرفة به ، وذلك لأن الله تعالى حكم بكفر هؤلاء ، وهو قوله تعالى : ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ ﴾ ثم إن هؤلاء كانوا عارفين بالله تعالى بدليل قوله ﴿ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ وظاهر هذا يدل على معرفته بالله فلما حصل الكفر ههنا مع المعرفة بالله دل ذلك على أن الإيمان به ليس هو المعرفة والكفر به تعالى ليس هو الجهل به .

والجواب : أن قولنا الكفر بالله هو الجهل به لا نعني به مجرد الجهل بكونه موجوداً بل نعني به الجهل بذاته وبصفاته السلبية وصفاته الإضافية أنه لا شريك له في المعبودية ، فلما جهل هذا فقد جهل بعض صفاته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 100 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بنصب يَأمُرَكُمْ " والباقون بالرفع وأبو عمرو على أصله من جواز تسكين الراء والاختلاس ، وهي قراءة واضحة ، سهلة التخريج ، والمعنى ، وذلك أنها على القطع والاستئناف .

أخبر تعالى - بأن ذلك الأمر لا يقع ، والفاعل فيه احتمالان :

أحدهما : هو ضمير الله - تعالى - .

الثاني : هو ضمير الموصوف المتقدم .

والمعنى : ولا يأمركم الله ، وقال ابن جريج وجماعة : ولا يأمركم محمد أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً وقيل : لا يأمركم عيسى .

وقيل : لا يأمركم الأنبياء أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرْباباً ، كفعل قريش والصابئين - حيث قالوا في المسيح هو العزير .

(162/122)

والمعنى على عوده على " بَشَرَ " أنه لا يقع من بشر موصوفٍ بما وُصِفَ به أن يَجْعَل نفسه ربًّا ، فيُعْبَدَ ، ولا يأمر - أيضاً - أن تُعْبَد الملائكةُ والنبيون من دون الله ، فانتفى أن يدعوَ

الناسَ إلى عبادة نفسه، وإلى عبادة غيره - والمعنى - على عَوْده على الله - تعالى - أنه تعالى أخْبَرَ أنه لم يَأمُرْ بذلك، فانتفى أمر الله وأمر أنبيائه بعبادة غيره تعالى.

وأما قراءة النصب ففيها وجوهٌ:

أحدها: قول أبي علي وغيره، وهو أن يكون المعنى: دلالة أن يأمركم، فقدروا "أن" مضمرة بعده وتكون "لا" مؤكِّدة لمعنى النفي السابق، كما تقول: ما كان من زيد إتيان ولا قيام وأنت تريد انتفاء كل واحد منهما عن زيد، ف "لا" للتوكيد لمعنى النفي السابق، وبقي معنى الكلام: ما كان من زيد إتيان، ولا منه قيام.

الثاني: أن يكون نصبه لنَسَقه على ﴿ أَن يُؤْتِيَهُ ﴾ قال سيبويه: والمعنى: وما كان لبَشَرٍ أن يأمركم أن تتخِذُوا الملائكة.

قال الواحديّ: ويُقوي هذا الوجهَ ما ذكرنا من أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم أتريد يا محمدُ أن نتخذك ربًّا؟ فنزلت.

الثالث: أن يكون معطوفاً على "يَقُولُ في قراءة العامة - قاله الطَّبَريُّ.

قال ابن عطيةَ: "وهذا خطأ لا يلتئم به المعنى"، ولم يبين أبو مُحَمدٍ وَجْهَ الخَطَأ "ولا عدم التّام المعنى.

قال أبو حيّان : " وجه الخطأ أنه إذا كان معطوفاً على "يَقُولَ" وجعل "لا للنفي - على سبيل التأسيس لا على سبيل التأكيد - فلا يمكن أن يُقَدَّر الناصب - وهو "أن" - إلا قبل "لا" النافية ، وإذا قدرها قبلها انسبك منها ومن الفعل المنفي بـ "لا" مصدر منفي ، فيصير المعنى : ما كان لبشر موصوف بما وُصِفَ به انتفاء أمره باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً - وإذا لم يكن له انتفاء الأمر بذلك كان له ثبوت الأمر بذلك ، وهو خَطَأ بيّن .

أما إذا جعل "لا" لتأكيد النفي لا لتأسيسه فلا يلزم خَطَأ ، ولا عدم التَّام المعنى ؛ وذلك أنه يصير النفي مستحباً على المصدرين المقدَّرِ ثبوتهما ، فينتفي قوله : ﴿كُونُواْ عِبَادًا لِّي﴾ وينتفي أيضاً أمره باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً . ويوضِّح هذا المعنى وَضْعُ "غير" موضع "لا" فإذا قلتَ : ما لزيد فقهٌ ولا نحوٌ .

كانت "لا" لتأكيد النفي ، وانتفى عنه الوَصْفان ، ولو جعلت "لا" لتأسيس النفي كانت بمعنى "غير" فيصير المعنى انتفاء الفقه عنه ، وثبوت النحو له ؛ إذ لو قلت : ما لزيد فقه غير نحو ، إن في ذلك إثبات النحو له ، كأنك قلتَ : ما له غير نحو ، ألا ترى أنك إذا قلت : جئت بلا زادٍ ، كان المعنى : جئت بغير زاد وإذا قلت : ما جئت بغير زادٍ ، معناه أنك جئت بزاد ؛ لأن "لا" هنا لتأسيس النفي ، فإطلاق ابن عطية الخطأ وعدم التَّامِ المعنى إنما يكون على أحد التقديرين ، وهو أن يكون "لا" لتأسيس النفي لا لتأكيده ، وأن يكون

من عطف المنفي بـ "لا" على المثبت الداخل عليه النفي نحو: ما أريد أن تجهل وألا تتعلم، تريد: ما أريد أن لا تتعلم".

وتابع الزمخشريُّ الطبريَّ في عطف "يَأمُرَكم" على "يَقُولَ" وجوّز في طلا" الداخلة عليه وجهين:

أحدهما: أن يكون لتأسيس النفي.

(164/122)

الثاني: أنها مزيدة لتأكيده، فقال: وقُرِئ ﴿ وَلَا يَأْمُرُكُمْ ﴾ بالنصب؛ عطفاً على "ثُمَّ يَقُولَ" وفيه وجهان:

أحدهما: أن تجعل "لا" مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾. والمعنى: ما كان لبشر أن يستنبئه الله تعالى، ويُنَصِّبه للدعاء إلى اختصاص الله بالعبادة وترك الأنداد، ثم يأمر الناس بأن يكونوا عباداً لهم، ويأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً، كقولك: ما كان لزيد أن أكرمه، ثم يهينني ولا يستخف بي.

والثاني: أن يُجْعَل "لا" غير مزيدة، والمعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينهى قُرَيْشاً عن عبادة الملائكة واليهود والنصارى عن عبادةِ عُزَيْرٍ والمسيح، فلما قالوا له:

أتتخذك ربًّا ؟ قيل لهم : ما كان لبشر أن يستنبئه الله ثم يأمر الناس بعبادته ، وينهاكم عن عبادة الملائكة والأنبياء .

قال شهاب الدينِ : " وكلام الزمخشري صحيحٌ ، ومعناه واضح على كلا تقديري كون " لا " لتأسيس النفي وتأكيده فكيف يَجْعَل الشيخُ كلامَ الطبريِّ فاسداً على أحد التقديرين – وهو كونها لتأسيس النفي فقد ظهر صحةُ كلام الطبريِ بكلام الزمخشريِّ ، وظهر أن ردَّ ابنِ عطيةَ عليه مردودٌ " .

وقد رجح الناس قراءةَ الرفعِ على النصبِ .

قال سيبويه : ولا يأمركم منقطعة مما قبلها ؛ لأن المعنى ولا يأمركم الله .

قال الواحدي : ومما يدل على انقطاعها من النسق ، وأنها مُسْتأنفة ، فلما وقعت " لا " موقع " لن " رفعت كما قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بالحق بَشِيراً وَنَذِيراً وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الجحيم ﴾ [البقرة : 119] وفي قراءة ، عبد الله : ولن تُسْأل .

(165/122)

قال الزمخشريُّ : والقراءة بالرفع على ابتداء الكلام أظهر ، ويعضدُهَا قراءةُ عبد الله : " ولَنْ يَأْمُرَكم " وقد تقدم أن الضمير في " يَأْمُرَكُمْ " يجوز أن يعود على " الله " وأن يعود على

البشر الموصوف بما تقدم والمراد به النبي صلى الله عليه وسلم أو أعم من ذلك .

وسواء قرئ برفع ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ ﴾ وبنصبه إذا جعلناه معطوفاً على "يَقُولَ" فإن الضمير يعود على "بشر" لا غير ، [ويؤيد هذا قول بعضهم : ووجه القراءة بالنصب أن يكون معطوفاً على الفعل المنصوب قبله ، فيكون الضمير المرفوع ل "بشر" لا غير يعني بما قبله "ثُمَّ يَقُولَ" .

ولما ذكر سيبويه قراءة الرفع جعل الضمير عائداً على "الله" تعالى ولم يذكر غير ذلك ، فيحتمل أن يكون هو الأظهر عنده ، ويُحْتَمَل أنه لا يجوز غيره ، والأول أوْلَى .

قال بعضهم : وفي الضمير المنصوب في "يَأْمُرُكُمْ" – على كلتا القراءتين – خروج من الغيبة إلى الخطاب على طريق الالتفات ، فكأنه توهم أنه لما تقدم في قوله ذكر النافي – في قوله : ﴿ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ ﴾ كان ينبغي أن يكون النظم ولا يأمرهم ؛ جرياً على ما تقدم ، وليس كذلك ، بل هذا ابتداء خطاب ، لا التفات فيه .

قوله : ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ ﴾ الهمزة للاستفهام بمعنى الإنكار ، يعني أنه لا يفعل ذلك .

قوله : ﴿ بَعْدَ إِذْ أَنْتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ "بَعْدَ" متعلق بـ "يَأْمُرُكُمْ" وبعد ظرف زمان مضاف لظرف زمان ماضٍ وقد تقدّم أنه لا يضافُ إليه إلا الزمان ، نحو حينئذٍ ويومئذٍ . و ﴿ أَنْتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ في محل خفض بالإضافة ؛ لأن "إذْ" تضاف إلى الجملة مطلقاً .

قال الزمخشريُّ : "بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ" دليلٌ على أن المخاطبين كانوا مسلمين ، وهم الذين استأذنوا الرسول صلى الله عليه وسلم أن يَسْجُدُوا له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 350.354 ﴾

من فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

وفي قوله : ﴿ ولا يأمركم ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب .

وقرأ الجمهور "يأمُركم" بالرفع على ابتداء الكلام ، وهذا الأصل فيما إذا أعيد حرف النفي ، فإنه لما وقع بعد فعل منفي ، ثم انتقض نفيه بلكن ، احتيج إلى إعادة حرف النفي ، والمعنى على هذه القراءة واضح : أي ما كان لبشر أن يقول للناس كونوا إلخ ولا هو يأمُرهم أن يتخذوا الملائكة أرباباً .

وقرأه ابن عامر ، وحمزة ويعقوب ، وخلف : بالنصب عطفاً على أن يقولَ ولا زائدة لتأكيد النفي الذي في قوله : ﴿ ما كان لبشر ﴾ ، وليست معمولة لأنْ : لاقتضاء ذلك أن يصير المعنى : لا ينبغي لبشر أوتي الكتاب ألاّ يأمركم أن تتخذوا ، والمقصود عكس هذا المعنى ، إذ المقصود أنه لا ينبغي له أن يأمر ، فلذلك اضطرّ في تخريج هذه القراءة إلى جعل لا زائدة لتأكيد النفي وليست لنفي جديد .

وقرأه الدُّوري عن أبي عمرو باختلاس الضمة إلى السكون .

ولعلّ المقصود من قوله : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ﴾ : أنهم لما بالغوا في تعظيم بعض الأنبياء والملائكة ، فصوّروا صور النبيئين ، مثل يحيى ومريم ، وعبدوهما ، وصوّروا صور الملائكة ، واقتران التصوير مع الغلوّ في تعظيم الصورة والتعبد عندها ضربٌ من الوثنية .

قال ابن عرفة : "إن قيل نفي الأمر أعم من النهي فهلا قيل وينهاكم .

والجواب أنّ ذلك باعتبار دعواهم وتقوّلهم على الرسل" .

(167/122)

وأقول : لعلّ التعبير بلا يأمركم مشاكلة لقوله : ﴿ ثم يقول للناس ﴾ لأنهم زعموا أنّ المسيح قال : إنه ابنُ الله فلما نفي أنه يقول ذلك نفي ما هو مثله وهو أن يأمُرهم باتخاذ الملائكة أرباباً ، أو لأنهم لما كانوا يدّعون التمسك بالدين كان سائر أحوالهم محمولة على أنهم تلقوها منه ، أو لأنّ المسيح لم ينههم عن ذلك في نفس الأمر ، إذ هذا مما لا يخطر بالبال أن تتلبس به أمة متدينة فاقتصر ، في الردّ على الأمة ، على أنّ أنبياءهم لم يَأمروهم به ولذلك عقب بالاستفهام الإنكاري ، وبالظرف المفيد مزيد الإنكار على ارتكابهم هذه الحالة ، وهي

قوله : ﴿ أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ .

فهناك سببان لإنكار أن يكونَ ما هم عليه مُرضياً أنبياءهم ؛ فإنه كفر ، وهم لا يرضون بالكفر .

فما كان من حقّ من يتبعونهم التلبُّس بالكفر بعد أن خرجوا منه .

والخطاب في قوله : ﴿ ولا يأمركم ﴾ التفات من طريقة الغيبة في قوله : ﴿ ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ﴾ فالمواجَه بالخطاب هم الذين زعموا أنّ عيسى قال لهم : كونوا عباداً لي من دون الله .

فمعنى ﴿ أنتم مسلمون ﴾ يقتضي أنّهم كانوا مسلمين والخطاب للنصارى وليس دينهم يطلق عليه أنه إسلام .

فقيل : أريد بالإسلام الإيمان أي غير مشركين بقرينة قوله ﴿ بالكفر ﴾ .

وقيل الخطاب للمسلمين بناء على ظاهر قوله : ﴿ إذ أنتم مسلمون ﴾ لأنّ اليهود والنصارى لم يوصفوا بأنهم مسلمون في القرآن ، فهذا الذي جرّأ من قالوا : إنّ الآية نزلت لقول رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم "ألاَ نسجد لك" ، ولا أراه لو كان صحيحاً أن تكون الآية قاصدة إياه ؛ لأنه لو أريد ذلك لقيل : ثم يأمر الناس بالسجود إليه ، ولما عرّج على الأمر بأن يكونوا عباداً له من دون الله ولا بأن يتّخذوا الملائكة والنبيين أرباباً . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 141 . 142 ﴾

أبحاث نفيسة

قال فى الميزان:

ما الذي قاله عيسى (عليه السلام) وما الذي قيل فيه

ذكر القرآن أن عيسى كان عبدا رسولا وأنه لم يدع لنفسه ما نسبوه إليه ولا تكلم معهم إلا بالرسالة كما قال تعالى ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وامي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ : المائدة - 116 119 .

وهذا الكلام العجيب الذي يشتمل من العبودية على عصارتها ويتضمن من بارع الأدب على مجامعه يفصح عما كان يراه عيسى المسيح (عليه السلام) من موقفه نفسه تلقاء ربوبية ربه وتجاه الناس وأعمالهم فذكر أنه كان يرى نفسه بالنسبة إلى ربه عبدا لا شأن له إلا

الامتثال لا يرد إلا عن أمر ولا يصدر إلا عن أمر ولم يؤمر إلا بالدعوة إلى عبادة الله وحده ولم يقل لهم إلا ما أمر به أن اعبدوا الله ربي وربكم.

ولم يكن له من الناس إلا تحمل الشهادة على أعمالهم فحسب وأما ما يفعله الله فيهم وبهم يوم يرجعون إليه فلا شأن له في ذلك غفر أو عذب.

فإن قلت فما معنى ما تقدم في الكلام على الشفاعة أن عيسى (عليه السلام) من الشفعاء يوم القيامة يشفع فيشفع.

قلت القرآن صريح أو كالصريح في ذلك قال تعالى ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾: الزخرف - 86 وقد قال تعالى فيه ﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا﴾: النساء - 159 وقال تعالى ﴿وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾: المائدة - 110

وقد تقدم إشباع الكلام في معنى الشفاعة وهذا غير التفدية التي يقول بها النصارى وهي إبطال الجزاء بالفدية والعوض فإنها تبطل السلطنة المطلقة الإلهية على ما سيجئ من بيانه والآية إنما تنفي ذلك وأما الشفاعة فالآية غير متعرضة لأمرها لا إثباتا ولا نفيا فإنها لو

كانت بصدد إثباتها على منافاته للمقام لكان حق الكلام أن يقال وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم ولو كانت بصدد نفيها لم يكن لذكر الشهادة على الناس وجه وهذا إجمال ما سيأتي في تفسير الآيات تفصيله إن شاء الله تعالى .

وأما ما قاله الناس في عيسى (عليه السلام) فإنهم وإن تشتتوا في مذاهبهم بعده واختلفوا في مسالكهم بما ربما جاوز السبعين من حيث كليات ما اختلفوا فيه وجزئيات المذاهب والآراء كثيرة جدا .

(170/122)

لكن القرآن إنما يهتم بما قالوا به في أمر عيسى نفسه وأمه لمساسه بأساس التوحيد الذي هو الغرض الوحيد فيما يدعو إليه القرآن الكريم والدين الفطري القويم وأما بعض الجزئيات كمسألة التحريف ومسألة التفدية فلم يهتم به ذاك الاهتمام والذي حكاه القرآن الكريم عنهم أو نسبه إليهم ما في قوله تعالى ﴿ وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾ : التوبة - 30 وما في معناه كقوله تعالى ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه ﴾ : الأنبياء - 26 وما في قوله تعالى ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ : المائدة - 72 وما في قوله تعالى ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ : المائدة - 73 وما في قوله تعالى ﴿ ولا

تقولوا ثلاثة ﴾ : النساء – 171 .

وهذه الآيات وإن اشتملت بظاهرها على كلمات مختلفة ذوات مضامين ومعان متفاوتة ولذلك ربما حملت على اختلاف المذاهب في ذلك كمذهب الملكانية القائلين بالبنوة الحقيقية والنسطورية القائلين بأن النزول والبنوة من قبيل إشراق النور على جسم شفاف كالبلور واليعقوبية القائلين بأنه من الانقلاب وقد انقلب الاله سبحانه لحما ودما لكن الظاهر أن القرآن لا يهتم بخصوصيات مذاهبهم المختلفة وإنما يهتم بكلمة واحدة مشتركة بينهم جميعا وهو البنوة وأن المسيح من سنخ الإله سبحانه وما يتفرع عليه من حديث التثليث وإن اختلفوا في تفسيرها اختلافا كثيرا وتعرقوا في المشاجرة والنزاع والدليل على ذلك وحدة الاحتجاج الوارد عليهم في القرآن لسانا .

بيان ذلك أن التوراة والأناجيل الحاضرة جميعا تصرح بتوحيد الإله تعالى من جانب والإنجيل يصرح بالبنوة من جانب آخر وصرح بأن الابن هو الأب لا غير .

ولم يحملوا البنوة الموجودة فيه على التشريف والتبريك مع ما في موارد منه من التصريح بذلك كقوله : وأنا أقول لكم أحبوا أعداءكم وباركوا على لأغنيكم وأحسنوا إلى من أبغضكم

وصلوا على من يطردكم ويعسفكم كيما تكونوا بني أبيكم الذي في السموات لأنه المشرق شمسه على الأخيار والأشرار والممطر على الصديقين والظالمين وإذا أحببتم من يحبكم فأي أجر لكم أليس العشارون يفعلون كذلك وإن سلمتم على إخوتكم فقط فأي فضل لكم أليس كذلك يفعل الوثنيون كونوا كاملين مثل أبيكم السماوي فهو كامل آخر الإصحاح الخامس من إنجيل متى .

وقوله أيضا فليضئ نوركم قدام الناس ليروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السموات إنجيل متى الإصحاح الخامس .

وقوله أيضا لا تصنعوا جميع مراحمكم قدام الناس كي يروكم فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السموات .

وقوله أيضا في الصلاة وهكذا تصلون أنتم يا أبانا الذي في السموات يتقدس اسمك الخ .

وقوله أيضا فإن غفرتم للناس خطاياهم غفر لكم أبوكم السمائي خطاياكم كل ذلك في الإصحاح السادس من إنجيل متى .

وقوله وكونوا رحماء مثل أبيكم الرحيم إنجيل لوقا الإصحاح السادس .

وقوله لمريم المجدلية امضي إلى إخوتي وقولي لهم إني صاعد إلى ابي الذي هو أبوكم وإلهي الذي هو إلهكم إنجيل يوحنا الإصحاح العشرون .

فهذه وأمثالها من فقرات الأناجيل تطلق لفظ الأب على الله تعالى وتقدس بالنسبة إلى عيسى وغيره جميعا كما ترى بعناية التشريف ونحوه.

(172/122)

وإن كان ما في بعض الموارد منها يعطي أن هذه البنوة والأبوة نوع من الاستكمال المؤدي إلى الاتحاد كقوله تكلم اليسوع بهذا ورفع عينيه إلى السماء فقال يا أبت قد حضرت الساعة فمجد ابنك ليمجدك ابنك ثم ذكر دعائه لرسله من تلامذته ثم قال ولست أسأل في هؤلاء فقط بل وفي الذين يؤمنون بي بقولهم ليكونوا بجمعهم واحدا كما أنك يا أبت ثابت في وأنا أيضا فيك ليكونوا أيضا فينا واحدا ليؤمن العالم أنك أرسلتني وأنا أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحدا كما نحن واحد أنا فيهم وأنت في ويكونوا كاملين لواحد لكي يعلم العالم أنك أرسلتني وأني أحببتهم كما أحببتني إنجيل يوحنا الإصحاح السابع عشر.

لكن وقع فيها أقاويل يتأبى ظواهرها عن تأويلها إلى التشريف ونحوه كقوله قال له توما يا سيد ما نعلم أين تذهب وكيف نقدر أن نعرف الطريق قال له يسوع أنا هو الطريق والحق والحياة لا يأتي أحد إلى أبي إلا بي لو كنتم تعرفونني لعرفتم أبي أيضا ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه أيضا قال له فيلبس يا سيد أرنا الأب وحسبنا قال له يسوع أنا معكم كل هذا الزمان

ولم تعرفني يا فيلبس من رآني فقد رأى الأب فكيف تقول أنت أرنا الأب أما تؤمن أني في أبي وأبي في وهذا الكلام الذي أقوله لكم ليس هو من ذاتي وحدي بل أبي الحال في هو يفعل هذه الأفعال آمنوا بي أنا في أبي وأبي في إنجيل يوحنا الإصحاح الرابع عشر .

وقوله لكني خرجت من الله وجئت ولم آت من عندي بل هو أرسلني إنجيل يوحنا الإصحاح الثامن .

وقوله أنا وأبي واحد نحن إنجيل يوحنا الإصحاح العاشر .

وقوله لتلامذته اذهبوا وتلمذوا كل الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن وروح القدس إنجيل متى الإصحاح الثامن والعشرون .

(173/122)

وقوله في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله والله كان الكلمة منذ البدء كان هذا عند الله كل به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان به كانت الحياة والحياة كانت نور الناس إنجيل يوحنا الإصحاح الأول .

فهذه الكلمات وما يماثلها مما وقع في الإنجيل هي التي دعت النصارى إلى القول بالتثليث في الوحدة .

والمراد به حفظ أن المسيح ابن الله مع التحفظ على التوحيد الذي نص عليه المسيح في تعليمه كما في قوله إن أول كل الوصايا اسمع يا إسرائيل الرب إلهك إله واحد هو إنجيل مرقس الإصحاح الثاني عشر .

ومحصل ما قالوا به وإن كان لا يرجع إلى محصل معقول أن الذات جوهر واحد له أقانيم ثلاث والمراد بالأقنوم هو الصفة التي هي ظهور الشئ وبروزه وتجليه لغيره وليست الصفة غير الموصوف والأقانيم الثلاث هي أقنوم الوجود وأقنوم العلم وهو الكلمة وأقنوم الحياة وهو الروح.

وهذه الأقانيم الثلاث هي الأب والابن والروح القدس والأول أقنوم الوجود والثاني أقنوم العلم والكلمة والثالث أقنوم الحياة فالابن وهو الكلمة وأقنوم العلم نزل من عند أبيه وهو أقنوم الوجود بمصاحبة روح القدس وهو أقنوم الحياة التي بها يستنير الأشياء .

ثم اختلفوا في تفسير هذا الإجمال اختلافا عظيما أوجب تشتتهم وانشعابهم شعبا ومذاهب كثيرة تجاوز السبعين وسيأتيك نبأها على قدر ما يلائم حال هذا الكتاب .

إذا تأملت ما قدمناه عرفت أن ما يحكيه القرآن عنهم أو ينسبه إليهم بقوله ﴿ وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾ الآية وقوله ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم الآية وقوله ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ الآية وقوله ﴿ ولا تقولوا ثلاثة انتهوا ﴾ الآية كل ذلك يرجع إلى معنى واحد وهو تثليث الوحدة هو المشترك بين جميع المذاهب المستحدثة في النصرانية وهو الذي قدمناه في معنى تثليث الوحدة.

وإنما اقتصر فيه على هذا المعنى المشترك لأن الذي يرد على أقوالهم في خصوص المسيح (عليه السلام) على كثرتها وتشتتها مما يحتج به القرآن أمر واحد يرد على وتيرة واحدة كما سيتضح.

أهـ ﴿ الميزان حـ 3 صـ 282.287 ﴾

فائدة

قال فى الميزان:

أما الطريق الأول فتوضيحه أن حقيقة البنوة والتولد هو أن يجزء واحد من هذه الموجودات الحية المادية كالإنسان والحيوان بل النبات أيضا شيئا من مادة نفسه ثم يجعله بالتربية

التدريجية فردا آخر من نوعه مماثلا لنفسه يترتب عليه من الخواص والآثار ما كان يترتب على المجزى منه كالحيوان يفصل من نفسه النطفة والنبات يفصل من نفسه اللقاح ثم يأخذ في تربيته تدريجا حتى يصيره حيوانا أو نباتا آخر مماثلا لنفسه ومن المعلوم أن الله سبحانه يمتنع عليه ذلك أما أولا فلاستلزامه الجسمية المادية والله سبحانه منزه من المادة ولوازمها الافتقارية كالحركة والزمان والمكان وغير ذلك وأما ثانيا فلأن الله سبحانه لإطلاق ألوهيته وربوبيته له القيومية المطلقة على ما سواه فكل شئ سواه مفتقر الوجود إليه قائم الوجود به فكيف يمكن فرض شئ غيره يماثله في النوعية يستقل عنه بنفسه ويكون له من الذات والأوصاف والأحكام ما له من غير افتقار إليه وأما ثالثا فلأن جواز الإيلاد والاستيلاد عليه تعالى يستلزم جواز الفعل التدريجي عليه تعالى وهو يستلزم دخوله تحت ناموس المادة والحركة وهو خلف بل ما يقع بإرادته ومشيته تعالى إنما يقع من غير مهلة وتدريج .

وهذا البيان هو الذي يفيده قوله تعالى ﴿ وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ : البقرة - 117 وعلى ما قررناه فقوله سبحانه برهان وقوله له ما في السموات والأرض كل له قانتون برهان آخر وقوله بديع السموات والأرض إذا قضى الخ برهان ثالث .

ويمكن أن يجعل قوله بديع السموات والأرض من قبيل إضافة الصفة إلى فاعلها ويستفاد منه أن خلقه تعالى على غير مثال سابق فلا يمكن منه الإيلاد لأنه خلق على مثال نفسه لانمفروضهم العينية فيكون هذه الفقرة وحدها برهانا آخر .

ولو فرض قولهم اتخذ الله ولدا كلاما ملقى لا على وجه الحقيقة بل على وجه التوسع في معنى الابن والولد بأن يراد به انفصال شئ عن شئ يماثله في الحقيقة من غير تجزء مادي أو تدريج زماني وهذا هو الذي يرومه النصارى بقولهم المسيح ابن الله بعد تنقيحه ليتخلص بذلك عن إشكال الجسمية والمادية والتدريج بقي إشكال المماثلة .

توضيحه أن إثبات الابن والأب إثبات للعدد بالضرورة وهو إثبات للكثرة الحقيقية وإن فرضت الوحدة النوعية بين الأب والابن كالأب والابن من الإنسان هما واحد في الحقيقة الإنسانيد وكثير من حيث إنهما فردان من الإنسان وعلى هذا فلو فرض وحدة الإله كان كل ما سواه ومن جملتها الابن غيرا له مملوكا مفتقرا إليه فلا يكون الابن المفروض إلها مثله ولو فرض ابن مماثل له غير مفتقر إليه بل مستقل مثله بطل التوحيد في الإله عز اسمه .

وهذا البيان هو المدلول عليه بقوله تعالى ﴿ ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا ﴾ : النساء - 171 .

وأما الطريق الثاني وهو بيان أن شخص عيسى ابن مريم (عليه السلام) ليس ابنا لله مشاركا له في الحقيقة الإلهية فلما كان فيه من البشرية ولوازمها وتوضيحه أن المسيح (عليه السلام) حملت به مريم وربته جنينا في رحمها ثم وضعته وضع المرأة ولدها ثم ربته كما يتربى الولد في حضانة أمه ثم أخذ في النشوء وقطع مراحل الحياة والارتقاء في مدارج العمر من الصبا والشباب والكهولة وفي جميع ذلك كان حاله حال إنسان طبيعي في حياته يعرضه من العوارض والحالات ما يعرض الإنسان من جوع وشبع وسرور ومسائة ولذة وألم وأكل وشرب ونوم ويقظة وتعب وراحة وغير ذلك.

فهذا ما شوهد من حال المسيح (عليه السلام) حين مكثه بين الناس ولا يرتاب ذو عقل أن من كان هذا شأنه فهو إنسان كسائر الأناسي من نوعه وإذا كان كذلك فهو مخلوق مصنوع كسائر أفراد نوعه وأما صدور الخوارق وتحقق المعجزات بيده كإحياء الأموات وخلق الطير وإبراء الأكمه والأبرص وكذا تحقق الخوارق من الآيات في وجوده كتكونه من غير أب فإنما هي أمور خارقة للعادة المألوفة والسنة الجارية في الطبيعة فإنها نادرة الوجود لا مستحيلته فهذا آدم تذكر الكتب السماوية أنه خلق من تراب ولا أب له وهؤلاء أنبياء الله

كصالح وإبراهيم وموسى (عليهم السلام) جرت بأيديهم آيات معجزة كثيرة مذكورة في مسفورات الوحي من غير أن تقتضي فيهم ألوهية ولا خروجا عن طور الإنسانية.

(178/122)

وهذه الطريقة هي المسلوكة في قوله تعالى ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ﴾ إلى أن قال ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون ﴾ : المائدة - 75 وقد خص أكل الطعام من بين جميع الأفعال بالذكر لكونه من أحسنها دلالة على المادية واستلزاما للحاجة والفاقة المنافية للألوهية فمن المعلوم أن من يجوع ويظمأ بطبعه ثم يشبع بأكله أو يرتوي بشربه ليس عنده غير الحاجة والفاقة التي لا يرفعها إلا غيره وما معنى ألوهية من هذا شأنه فإن الذي قد أحاطت به الحاجة واحتاج في رفعها إلى الخارج من نفسه فهو ناقص في نفسه مدبر بغيره وليس بإله غني بذاته بل هو مخلوق مدبر بربوبية من ينتهي إليه تدبيره.

وإلى هذا يمكن أن يرجع قوله تعالى ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا ولله

ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شئ قدير : المائدة - 17 .

وكذا قوله تعالى في ذيل الآية المنقولة سابقا آية 75 خطابا للنصارى ﴿ قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم ﴾ : المائدة - 76 .

(179/122)

فإن الملاك في هذا النوع من الاحتجاجات هو أن الذي شوهد من أمر المسيح أنه كان يعيش على الناموس الجاري في حياة الإنسان متصفا بجميع صفاته وأفعاله وأحواله النوعية كالأكل والشرب وسائر الاحتياجات الإنسانية والخواص البشرية ولم يكن هذا التلبس والاتصاف بحسب ظاهر الحس أو تسويل الخيال فحسب بل كان على الحقيقة وكان المسيح (عليه السلام) إنسانا ذا هذه الأوصاف والأحوال والأفعال والأناجيل مشحونة بتسميته نفسه إنسانا وابن الإنسان مملوئة بالقصص الناطقة بأكله وشربه ونومه ومشيه ومسافرته وتعبه وتكلمه ونحو ذلك بحيث لا يقبل شئ منها صرفا ولا تأويلا ومع تسليم هذه الأمور يجري على المسيح ما يجري على غيره فهو لا يملك من غيره شيئا كغيره ويمكن أن يهلك كغيره .

وكذا حديث عبادته ودعائه بحيث لا يرتاب في أن ما كان يأتيه من عبادة فإنما للتقرب من الله والخضوع لقدس ساحته لا لتعليم الناس أو لاغراض أخر تشابه ذلك .

وإلى حديث العبادة والاحتجاج به يؤمي قوله تعالى ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا ﴾ : النساء – 172 فعبادة المسيح أول دليل على أنه ليس بإله وأن الألوهية لغيره لا نصيب له فيها فأي معنى لنصب الشئ نفسه في مقام العبودية والمملوكية لنفسه وكون الشئ قائما بنفسه من عين الجهة التي بها يقوم نفسه والأمر ظاهر وكذا عبادة الملائكة كاشفة عن أنها ليست ببنات الله سبحانه ولا أن روح القدس إله بعد ما كانوا بأجمعهم عابدين لله طائعين له كما قال تعالى ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ : الأنبياء – 28

على أن الاناجيل مشحونة بأن الروح طائع لله ورسله مؤتمر للأمر محكوم بالحكم ولا معنى لأمر الشئ نفسه ولا لطاعته لذاته ولا لانقياده وائتماره لمخلوق نفسه .

ونظير عبادة المسيح لله سبحانه في الدلالة على المغايرة دعوته الناس إلى عبادة الله كما يشير إليه قوله تعالى ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ : المائدة – 72 وسبيل الآية واحتجاجها ظاهر .

والأناجيل أيضا مشحونة في دعوته إلى الله سبحانه وهي وإن لم تشتمل على هذا اللفظ الجامع ﴿ اعبدوا الله ربي وربكم ﴾ لكنها مشتملة على الدعوة إلى عبادة الله وعلى اعترافه بأنه ربه الذي بيده زمام أمره وعلى اعترافه بأنه رب الناس ولا تتضمن دعوته إلى عبادة د نفسه صريحا ولا مرة مع ما فيها من قوله أنا وأبي واحد نحن إنجيل يوحنا الإصحاح العاشر فمن الواجب أن يحمل على تقدير صحته على أن المراد أن إطاعتي إطاعة الله كما قال تعالى في كتابه الكريم من يطع الرسول فقد أطاع الله : النساء – 80 . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الميزان حـ 3 صـ 287. 291 ﴾

فائدة

قال فى الميزان :

المسيح من الشفعاء عند الله وليس بفاد =

زعمت النصارى أن المسيح فداهم بدمه الكريم ولذلك لقبوه بالفادي قالوا إن آدم لما عصي الله بالأكل من الشجرة المنهية في الجنة أخطأ بذلك ولزمته الخطيئة وكذلك لزمت ذريته من

بعده ما توالدوا وتناسلوا وجزاء الخطيئة العقاب في الآخرة والهلاك الأبدي الذي لا مخلص منه وقد كان الله سبحانه رحيما عادلا .

(181/122)

فبدا إذ ذاك إشكال عويص لا انحلال له وهو أنه لو عاقب آدم وذريته بخطيئتهم كان ذلك منافيا لرحمته التي لها خلقهم ولو غفر لهم كان ذلك منافيا لعدله فإن مقتضى العدل أن يعاقب المجرم الخاطي بجرمه وخطيئته كما أن مقتضاه أن يثاب المحسن المطيع بإحسانه وإسائته .

ولم تزل هذه العويصة على حالها حتى حلها بركة المسيح وذلك بأن حل المسيح وهو ابن الله وهو الله نفسه رحم واحدة من ذرية آدم وهو مريم البتول وتولد منها كما يتولد إنسان فكان بذلك إنسانا كاملا لأنه ابن إنسان وإلها كاملا لأنه ابن الله وابن الله هو الله تعالى معصوما عن جميع الذنوب والخطايا .

وبعد أن عاش بين الناس برهة يسيرة من الزمان يعاشرهم ويخالطهم ويأكل ويشرب معهم ويكلمهم ويستأنس بهم ويمشي فيهم تسخر لاعدائه ليقتلوه شر قتلة وهي قتلة الصلب التي لعن صاحبها في الكتاب الإلهي فاحتمل اللعن والصلب بما فيه من الزجر والأذى والعذاب

ففدى الناس بنفسه ليخلصوا بذلك من عقاب الآخرة وهلاك السرمد وهو كفارة لخطايا المؤمنين به بل لخطايا كل العالم هذا ما قالوه .

وقد جعلت النصارى هذه الكلمة أعني مسألة الصلب والفداء أساس دعوتهم فلا يبدئون إلا بها ولا يختمون إلا عليها كما أن القرآن يجعل أساس الدعوة الإسلامية هو التوحيد كما قال الله مخاطبا لرسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) ﴿ قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ : يوسف - 108 مع أن المسيح على ما يصرح به الأناجيل وقد تقدم نقله كان يجعل أول الوصايا هو التوحيد ومحبة الله سبحانه .

وقد ناقشهم غيرهم من المسلمين وسائر الباحثين فيما يشتمل عليه قولهم هذا من وجوه الفساد والبطلان وألفت فيها كتب ورسائل وملئت بها صحف وطوامير ببيان منافاتها لضرورة العقل ومناقضتها لكتب العهدين والذي يهمنا ويوافق الغرض الموضوع له هذا الكتاب بيان جهات منافاته لأصول تعليم القرآن وختمه ببيان الفرق بين ما يثبته القرآن من الشفاعة وما يثبتونه من الفداء .

على أن القرآن يذكر صراحة أنه إنما يخاطب الناس ويكلمهم ببيان ما يقرب من أفق عقولهم ويمكن بياناته من فقههم وفهمهم وهو الأمر الذي به يميز الإنسان الحق من الباطل فينقاد لهذا ويأبى ذاك ويفرق بين الخير والشر والنافع والضار فيأخذ بهذا ويترك ذاك والذي ذكرناه من اعتبار القرآن في بياناته حكم العقل السليم مما لا غبار عليه عند من راجع الكتاب العزيز .

فأما ما ذكروه ففيه أولا أنهم ذكروا معصية آدم (عليه السلام) بالأكل من الشجرة المنهية والقرآن يدفع ذلك من جهتين الأولى أن النهي هناك كان نهيا إرشاديا يقصد به صلاح المنهي ووجه الرشد

في أمره لا إعمال المولوية والأمر الذي هو من هذا القبيل لا يترتب على امتثاله ولا تركه ثواب ولا عقاب مولوي كأوامر المشير ونواهيه لمن يستشيره وأوامر الطبيب ونواهيه للمريض بل إنما يترتب على امتثال التكليف الإرشادي الرشد المنظور لمصلحة المكلف وعلى مخالفته الوقوع في مفسدة المخالفة وضرر الفعل بما أنه فعل وبالجملة لم يلحق بآدم (عليه السلام) إلا أنه أخرج من الجنة وفاته راحة القرب وسرور الرضا وأما العقاب الأخروي فلا لأنه لم يعص معصية مولوية حتى يستتبع عقابا راجع تفسير الآيات 35 39 من سورة البقرة .

والثانية أنه (عليه السلام) كان نبيا والقرآن ينزه ساحة الأنبياء (عليهم السلام) ويبرء نفوسهم الشريفة عن اقتراف المعاصي والفسق عن أمر الله سبحانه والبرهان العقلي أيضا يؤيد ذلك راجع ما ذكرناه في البحث عن عصمة الأنبياء في تفسير الآية 213 من سورة البقرة.

(184/122)

وثانيا قولهم إن الخطيئة لزمت آدم فإن القرآن يدفعه بقوله ﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ : طه - 122 وقوله ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ : البقرة - 37 والاعتبار العقلي يؤيد ذلك بل يبينه فإن الخطيئة وتبعة الذنب إنما هو أمر محذور مخوف منه يعتبره العقل أو المولى لازما للمخالفة والتمرد ليستحكم بذلك أمر التكليف فلولا العقاب والثواب لم يستقم أمر المولوية ولم يمتثل أمر ولا نهي وكما أن من شئون المولوية بسط العقاب على المجرمين في جرائمهم كالثواب على المطيعين في طاعاتهم كذلك من شئون المولوية إطلاق التصرف في دائرة مولويته فللمولى أن يغمض عن خطيئة المخطئين ومعصية العاصين بالعفو والمغفرة فإنه نوع تصرف وحكومة كما أن له أن يؤاخذ بها وهي نوع حكومة وحسن العفو والمغفرة عن الموالي وأولي القوة والسطوة في الجملة مما لا

ريب فيه والعقلاء من الناس يستعملونه إلى هذا الحين فكون كل خطيئة صادرة من الإنسان لازمة للإنسان مما لا وجه له ألبتة وإلا لم يكن لأصل العفو والمغفرة تحقق لأن المغفرة والعفو إنما يكون لإمحاء الخطيئة وإبطال أثر الذنب ومع فرض أن الخطيئة لازمة غير منفكة لا يبقى موضوع للعفو والمغفرة مع أن الوحي الالهي مملو بحديث العفو والمغفرة وكتب العهدين كذلك حتى أن هذا الكلام المنقول منهم لا يخلو عنه وبالجملة دعوى كون ذنب من الذنوب أو خطيئة من الخطايا لازمة غير قابلة في نفسه للمغفرة والإمحاء حتى بالتوبة والإنابة والرجوع والندم مما لا يقبله عقل سليم ولا طبع مستقيم.

(185/122)

وثالثا أن قولهم أن خطيئة آدم كما لزمته كذلك لزمت ذريته إلى يوم القيامة يستلزم أن يشمل تبعة الذنب الصادر من واحد غيره أيضا ممن لم يذنب في المعاصي المولوية وبعبارة أخرى أن يصدر فعل عن واحد ويعم عصيانه وتبعته غير فاعله كما يشمل فاعله وهذا غير أن يأتي قوم بالمعصية ويرضى به آخرون من أخلافهم فتحسب المعصية على الجميع وبالجملة هو تحمل الوزر من غير صدور الذنب والقرآن يرد ذلك كما في قوله ﴿أن لا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ : النجم - 39 والعقل يساعده عليه لقبح

مؤاخذة من لم يذنب بذنب لم يصدر عنه راجع أبحاث الأفعال في تفسير آية 218 216 من سورة البقرة .

ورابعا أن كلامهم مبني على كون تبعة جميع الخطايا والذنوب هو الهلاك الأبدي من غير فرق بينها ولازمه أن لا يختلف الخطايا والذنوب من حيث الصغر والكبر بل يكون جميعها كبائر موبقات والذي يراه القرآن الكريم في تعليمه أن الخطايا والمعاصي مختلفة فمنها كبائر ومنها صغائر ومنها ما تناله المغفرة ومنها ما لا تناله إلا بالتوبة كالشرك قال تعالى ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ : النساء – 31 وقال تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ : النساء – 48 فجعل تعالى من المحرمات المنهي عنها وهي الخطايا والذنوب ما هي كبائر وما هي سيئات أي صغائر بقرينة المقابلة وجعل تعالى من الذنوب ما لا يقبل المغفرة ومنها ما يقبلها فالذنوب على أي حال مختلفة وليس كل ذنب بموجب للخلود في النار والهلاك الأبدي .

(186/122)

واحد فاللطم غير القتل والنظر المريب غير الزنا وهكذا والعقلاء من الإنسان في جميع الأدوار لم يضعوا كل ذنب وخطأ موضع غيره ويرون للمعاصي المختلفة تبعات ومؤاخذات

مختلفة فكيف يصح إجراء الجميع مجرى واحدا مع هذا الاختلاف الفاحش بينها وإذا فرض اختلافها لم يصح إلا جعل العقاب الخالد والهلاك الأبدي لبعضها كالشرك بالله كما يقول القرآن الكريم ومن المعلوم أن مخالفة نهي ما في الأكل من الشجرة ليس يحل محل الكفر بالله العظيم وما يشابه ذلك فلا وجه لجعل عقابه وتبعته هو العذاب المؤبد راجع بحث الأفعال السابق الذكر.

وخامسا ما ذكروه من وقوع الإشكال وحدوث التزاحم بين صفة الرحمة وصفة العدل ثم الاحتيال إلى رفعه بنزول المسيح وصعوده بالوجه الذي ذكروه.

(187/122)

والمتأمل في هذا الكلام وما يستتبعه من اللوازم يجد أنهم يرون أن الله تعالى وتقدس موجود خالق ينسب وينتهي إليه هذا العالم المخلوق بجميع أجزائه غير أنه إنما يفعل بإرادة وعلم في نفسه وإرادته في تحققها تتوقف إلى ترجيح علمي كما أن الإنسان إنما يريد شيئًا إذا رجحه بعلمه فهناك مصالح ومفاسد يطبق الله أفعاله عليها فيفعلها وربما أخطأ في التطبيق فندم على الفعل وربما فكر في أمر ولم يهتد إلى طريق صلاحه وربما جهل أمرا وبالجملة هو تعالى في أوصافه وأفعاله كالإنسان إنما يفعل ما يفعل بالتفكر والتروي ويروم فيه تطبيق فعله على

المصلحة فهو محكوم بحكم المصالح ومقهور بعملها فيه من الخارج ويمكن له الاهتداء إلى الصلاح ويمكن له الضلال والاشتباه والغفلة فربما يعلم وربما يجهل وربما يغلب وربما يغلب عليه فقدرته محدودة كعلمه وإذا جاز عليه هذا الذي ذكر جاز عليه سائر ما يطرأ الفاعل المتفكر المريد في فعله من سرور وحزن وحمد وندم وابتهاج وانفعال وغير ذلك والذي هذا شأنه يكون موجودا ماديا جسمانيا واقعا تحت ناموس الحركة والتغير والاستكمال والذي هو كذلك ممكن مخلوق بل إنسان مصنوع وليس بالواجب تعالى الخالق لكل شئ.

وأنت بالرجوع إلى كتب العهدين تجد صدق جميع ما نسبناه إليهم في الواجب تعالى من جسميته واتصافه بجميع أوصاف الجسمانيات وخاصة الإنسان.

(188/122)

والقرآن في جميع هذه المعاني المذكورة ينزه الله تعالى عن هذه الأوهام الخرافية كما يقول تعالى ﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ : الصافات - 159 والبراهين العقلية القاطعة قائمة على أنه تعالى ذات مستجمع لجميع صفات الكمال فله الوجود من غير شائبة عدم والقدرة المطلقة من غير عجز والعلم المطلق من غير طرو جهل والحياة المطلقة من غير إمكان موت وفناء وإذا كان كذلك لم يجز عليه تغير حال في وجوده أو علمه أو قدرته أو حياته.

وإذا كان كذلك لم يكن جسما ولا جسمانيا لأن الأجسام والجسمانيات محاط التغيرات والتحولات ومحال الإمكانات والافتقارات والاحتياجات وإذا لم يكن جسما ولا جسمانيا لم يطرء عليه الحالات المختلفة والطواري المتنوعة من غفلة وسهو وغلط وندم وتحير وتأثر وانفعال وهوان وصغر ومغلوبية ونحوها وقد استوفينا البحث البرهاني المتعلق بهذه المعاني في هذا الكتاب في موارد يناسبها يجدها المراجع إذا راجع.

وعلى الناقد المتبصر والمتأمل المتدبر أن يقايس بين القولين ما يقول به القرآن الكريم في إله العالم فيثبت له كل صفة كمال وينزهه عن كل صفة نقص وبالآخرة يعده أكبر وأعظم من أن يحكم فيه أفهامنا بما صحبته من عالم الحد والتقدير وبين ما يثبته العهدان في الباري تعالى بما لا يوجد إلا في أساطير يونان وخرافات هند القديم والصين وأمور كان الإنسان الأولي يتوهمها فيتأثر مما قدمه إليه وهمه.

وسادسا قولهم إن الله أرسل ابنه المسيح وأمره أن يحل رحما من الأرحام ليتولد إنسانا وهو إله وهذا هو القول غير المعقول الذي انتهض لبيان بطلانه القرآن الكريم على ما أوضحناه في البيان السابق فلا نعيد.

ومن المعلوم أن العقل أيضا لا يساعد عليه فإنك إذا تأملت فيما يجب من الصفات أن يقال باتصاف الواجب تعالى بها كالثبات السرمدي وعدم التغير وعدم تحدد الوجود والإحاطة بكل شئ والتنزه عن الزمان والمكان وما يتبعهما وتأملت في تكون إنسان من حين كونه نطفة فجنينا في رحم سواء اعتبرت في معناه تفسير الملكانيين لهذه الكلمة أو تفسير النسطوريين أو تفسير اليعقوبيين أو غيرهم إذ لا نسبة بين ما له الجسمية وجميع أوصاف الجسمية وآثارها وبين ما ليس فيه جسمية ولا شئ مما يتصف به من زمان أو مكان أو حركة أو غير ذلك فكيف يمكن تعقل الاتحاد بينهما بوجه.

وعدم انطباق القول المذكور على القضايا الضرورية العقلية هو السر فيما يذكره بولس وغيره من رؤسائهم القديسيين من تقبيح الفلسفة والازراء بالأحكام العقلية يقول بولس قد كتب لأهلكن حكمة الحكماء ولأخالفن فهم الفقهاء أين الحكيم أين الكاتب أين مستفحص هذا الدهر بتعمق أوليس قد حمق الله حكمة هذا العالم إلى أن قال وإذ اليهود يسألون آية واليونانيون يطلبون حكمة نكرز نحن بالمسيح مصلوب رسالة بولس الإصحاح الأول ونظائر هذه الكلمات كثيرة في كلامه وكلام غيره وليست إلا لسياسة النشر والإذاعة والتبليغ والعظة يوقن بذلك من أرعى نظره في هذه الرسائل والكتب وتعمق في طريق تكليمها الناس وإلقاء بياناتها إليهم.

ومن ما مر يظهر ما في قولهم إنه تعالى معصوم من الذنوب والخطايا فإن الإله الذي صوروه

غير مصون عن الخطأ أصلا بمعنى الغلط في الإدراك والغلط في الفعل من غير أن ينتهي إلى مخالفة من يجب موافقته .

وأما الذنب والمعصية بمعنى التمرد فيما يجب فيه الطاعة والانقياد فهو غير متصور في حقه تعالى فالعصمة أيضا غير متصورة في حقه سبحانه .

(190/122)

وسابعا قولهم إنه بعد أن صار إنسانا عاشر الناس معاشرة الإنسان للإنسان حق تسخر لأعدائه فيه تجويز اتصاف الواجب بحقيقة من حقائق الممكنات حتى يكون إلها وإنسانا في عرض واحد فكان من الجائز أن يصير الواجب شيئا من مخلوقاته أي يتصف بحقيقة كل نوع من هذه الأنواع الخارجية فتارة يكون إنسانا من الأناسي وتارة فرسا وتارة طائرا وتارة حشرة وتارة غير ذلك وتارة يكون أزيد من نوع واحد من الأنواع كالإنسان والفرس والحشرة معا .

وهكذا يجوز أن يصدر عنه أي فعل فرض من أفعال الموجودات لجواز أن يصير هو ذلك النوع فيفعل فعله المختص به وكذا يجوز أن يصدر عنه أفعال متقابلة معا كالعدل والظلم وأن يتصف بصفات متقابلة كالعلم والجهل والقدرة والعجز والحياة والموت والغنى والفقر تعالى

الملك الحق وهذا غير المحذور المتقدم في الأمر السادس

وثامنا قولهم إنه تحمل الصلب واللعن أيضا لأن المصلوب ملعون ماذا يريدون بقولهم إنه تحمل اللعن وما ذا يراد بهذا اللعن أهو هذا اللعن الذي يعرفه العرف واللغة وهو الإبعاد من الرحمة والكرامة أو غير ذلك فإن كان هو الذي نعرفه وتعرفه اللغة فما معنى إبعاده تعالى نفسه من الرحمة أو إبعاد غيره إياه من الرحمة فهل الرحمة إلا الفيض الوجودي وموهبة النعمة والاختصاص بمزايا الوجود فيرجع هذا الإبعاد واللعن بحسب المعنى إلى الفقر في المال أو الجاه أو نحو ذلك في الدنيا أو الآخرة أو كلتيهما وحينئذ فما معنى لحوق اللعن بالله تعالى وتقدس بأي وجه تصوروه مع أنه الغني بالذات الذي هو يسد باب الفقر عن كل شئ .

(191/122)

والتعليم القرآني على خلاف هذا التعليم العجيب بتمام معنى الكلمة قال تعالى ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ﴾ : الفاطر - 15 والقرآن يسميه تعالى بأسماء ويصفه بصفات يستحيل معها عروض أي فقر وفاقة وحاجة ونقيصة وفقد وعدم وسوء وقبح وذل وهوان إلى ساحة قدسه وكبريائه .

فإن قيل إن اتصافه بالهوان وحمله اللعن بواسطة اتحاده بالإنسان وإلا فهو تعالى في نفسه

وحيال ذاته أجل من أن يعرضه ذلك .

قيل لهم هل يوجب هذا الاتحاد حمله اللعن واتصافه بهذه الأمور الشاقة حقيقة ومن غير مجاز أو لا ؟

فإن كان الأول لزم المحذور الذي ذكرناه وإن كان الثاني عاد الإشكال أعني أن تولد المسيح لم يوجب انحلال إشكال تزاحم الرحمة والعدل فإن تحمل غيره تعالى للمصائب وأقسام العذاب واللعن لا يتم أمر الفدية أي صيرورة الله فدية عن أفراد الإنسان وهو ظاهر .

وتاسعا قولهم إن ذلك كفارة لخطايا المؤمنين بعيسى بل لخطايا كل العالم يدل ذلك على أنهم لم يحصلوا حقيقة معنى الذنوب والخطايا وكيفية استتباعها للعقاب الأخروي وكيف يتحقق هذا العقاب ولم يعرفوا حقيقة الارتباط بين هذه الذنوب والخطايا وبين التشريع وما هو موقف التشريع من ذلك على ما يتكفله البيان القرآني وتعليمه .

(192/122)

فقد بينا في المباحث السابقة في هذا الكتاب ومن جملتها ما في تفسير قوله تعالى ﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما ﴾ : البقرة - 26 وفي ذيل قوله تعالى ﴿ كان الناس امة واحدة ﴾ : البقرة - 213 أن الأحكام والقوانين التي يقع فيها المخالفة والتمرد ثم الذنب

والخطيئة إنما هي أمور وضعية اعتبارية أريد بوضعها واعتبارها أن يحفظ مصالح المجتمع الإنساني بالعمل بها والرقوب لها وأن العقاب المترتب على المعصية والمخالفة إنما هو تبعة سوء اعتبروه ووضعوه ليكون ذلك صارفا للإنسان المكلف عن اقتراف المعصية والتمرد عن الطاعة هذا ما عند العقلاء البانين للمجتمع الإنساني.

لكن التعليم القرآني يعطي في هذا المعنى ما هو أرقي من ذلك وأرق ويؤيده البحث العقلي على ما مر وهو أن الإنسان بانقياده للشرع المنصوب له من جانب الله وعدم انقياده له تتهيأ في نفسه حقائق من الصفات الباطنة الحميدة الفاضلة أو الرذيلة الخسيسة الخبيثة وهذه هي التي تهيئ للإنسان نعمة أخروية أو نقمة أخروية اللتين ممثلهما الجنة والنار وحقيقتهما القرب والبعد من الله فالحسنات أو الخطايا تتكي وتنتهي إلى أمور حقيقية لها نظام حقيقة غير اعتباري.

(193/122)

ومن البين أيضا أن التشريع الإلهي إنما هو تتمة للتكميل الإلهي في الخلقة وإنهاء الهداية التكوينية إلى غايتها وهدفها من الخلقة وبعبارة أخرى شأنه تعالى إيصال كل نوع إلى كمال وجوده وهدف ذاته ومن كمال وجود الإنسان النظام النوعى الصالح في الدنيا والحياة

الناعمة السعيدة في الآخرة والطريق إلى ذلك الدين الذي يتكفل قوانين صالحة لإصلاح الاجتماع وجهات من التقرب باسم العبادات يعمل بها الإنسان فينتظم بذلك معاشه ويتهيأ في نفسه ويصلح في ذاته وعمله للكرامة الإلهية في الدار الآخرة كل ذلك من جهة النور المجعول في قلبه والطهارة الحاصلة في نفسه هذا حق الأمر .

فللإنسان قرب وبعد من الله سبحانه هما الملاكان في سعادته وشقاوته الدائمتين ولصلاح اجتماعه المدني في الدنيا والدين هو العامل الوحيد في إيجاد هذا القرب والبعد وجميع ذلك أمور حقيقية غير مبتنية على اللغو والجزاف .

وإذا فرضنا أن اقتراف معصية واحدة كالأكل من الشجرة المنهية ؟ من آدم أوجب له الهلاك الدائم لا له فحسب بل ولجميع ذريته ثم لم يكن هناك ما يعالج به الداء ويفرج به الهم إلا فداء المسيح فما فائدة تشريع الدين قبل المسيح وما فائدة تشريعه معه وما فائدة تشريعه بعده ؟ ؟ ! ! ! .

وذلك أنه لما فرض أن الهلاك الدائم والعقاب الأخروي محتوم من جهة صدور المعصية لا ينفع في صرفه عن الإنسان لا عمل ولا توبة إلا بنحو الفداء لم يكن معنى لتشريع الشرائع وإنزال الكتب وإرسال الرسل من عند الله سبحانه ولم يزل الوعد والوعيد والإنذار والتبشير خالية عن وجه الصحة فماذا كاد يصلحه هذا السعي بعد وجوب العذاب وحتم الفساد .

وإذا فرض هناك من تكمل بالعمل بالشرائع السابقة وكم من الأنبياء والربانيين من الأمم السالفة كذلك كالنبي المكرم إبراهيم وموسى (عليهما السلام) وغيرهما وقد قضوا وماتوا قبل إدراك زمان الفداء فماذا ترى أترى أنهم ختموا الحياة على الشقاء أو السعادة وما الذي استقبلهم به الموت وعالم الآخرة استقبلهم بالعقاب والهلاك أم بالثواب والحيوة السعيدة .

مع أن المسيح يصرح بأنه إنما أرسل لتخليص المذنبين والمخطئين وأما الصلحاء والأخيار فلا حاجة لهم إلى ذلك .

وبالجملة فلا يبقى لتشريع الشرائع الإلهية وجعل النواميس الدينية قبل فداء المسيح غرض صحيح يصونه عن العبث واللغوية ولا لهذا الفعل العجيب من الله تعالى وتقدس محمل حق إلا أن يقال إنه تعالى كان يعلم أن لو لم يرفع محذور خطيئة آدم لم ينفعه شئ من هذه التشريعات قط وإنما شرع هذه الشرائع على سبيل الاحتياط برجاء أن سيوفق يوما لرفع المحذور ويجني ثمرة تشريعه بعد ذلك ويبلغ غايته ويظفر بأمنيته إذ ذاك فشرع ما شرع بكتمان الأمر

عن الأنبياء والناس وإخفاء أن ههنا محذورا لو لم يرتفع خابت مساعي الأنبياء والمؤمنين كافة وذهبت الشرائع سدى وإظهار أن التشريع والدعوة على الجد والحقيقة .

(195/122)

فغر الناس وغر نفسه أما غرور الناس فبإظهار أن العمل بالشرائع يضمن مغفرتهم وسعادتهم وأما غرور نفسه فلأن التشريع بعد رفع المحذور بالفداء يعود لغوا لا أثر له في سعادة الناس كما أنه من غير رفع المحذور كان لا أثر له فهذا حال تشريع الدين قبل وصول أوان الفداء وتحققه ! وأما في زمان الفداء وبعده فالأمر في صيرورة التشريع والدعوة الدينية والهداية الإلهية لغوا أوضح وأبين فما هي الفائدة في الإيمان بالمعارف الحقة والإتيان بالأعمال الصالحة بعد ارتفاع محذور الخطيئة واستيجاب نزول المغفرة والرحمة على الناس مؤمنهم وكافرهم برهم وفاجرهم من غير فرق بين أتقى الأتقياء وأشقى الأشقياء في أنهما يشتركان في الهلاك المؤبد مع بقاء الخطيئة وفي الرحمة اللازمة مع ارتفاعها بالفداء والمفروض أنه لا ينفع أي عمل صالح في رفعها لولا الفداء .

فإن قيل إن الفداء إنما ينفع في حق من آمن بالمسيح فللدعوة ثمرة كما يصرح به المسيح في بشارته

قيل مضافا إلى أنه مناقض لما تقدمت الإشارة إليه من كلام يوحنا في رسالته إنه هدم لجميع الأصول الماضية إذ لا يبقى من الناس آدم فمن دونه في حظيرة النجاة والخلاص إلا شرذمة منهم وهم المؤمنون بالمسيح والروح بل واحدة من طوائفهم المختلفة في الأصول وأما غيرهم فهم باقون على الهلاك الدائم فليت شعري إلى ما يؤل أمر الأنبياء المكرمين قبل المسيح وأمر المؤمنين من أممهم ؟ وبماذا يتصف الدعوة التي جاؤوا بها من كتاب وحكم أبالصدق أم بالكذب ؟ والأناجيل تصدق التوراة ودعوتها وليس فيها دعوة إلى قصة الروح والفداء !

وهل هي تصدق ما هو صادق أو تصدق الكاذب ؟

(196/122)

فإن قيل إن الكتب السماوية السابقة فيما نعلم تبشر بالمسيح وهذه منهم دعوة إجمالية إلى المسيح وإن لم تفصل القول في كيفية نزوله وفدائه فلم يزل الله يبشر أنبيائه بظهور المسيح ليؤمنوا به ويطيبوا نفسا بما سيصنعه .

قيل أولا إن القول به قبل موسى تخرص على الغيب على أن البشارة لو كانت فإنما هي بشارة بالخلاص وليست بدعوة إلى الإيمان والتدين به

وثانيا إن ذلك لا يدفع محذور لغوية الدعوة في فروع الدين من الأخلاق والأفعال حتى من

المسيح نفسه ، والأناجيل مملوءة بذلك

وثالثا إن محذور الخطيئة وانتقاض الغرض الإلهي باق على حاله فإن الله تعالى إنما خلقهم ليرحم جميعهم ويبسط النعمة والسعادة على كافتهم وقد آل أمره إلى عقابهم والغضب عليهم وإهلاكهم للأبد إلا شرذمة منهم .

فهذه نبذة من وجوه فساده عند العقل ويؤيده ويجري عليه القرآن الكريم قال تعالى ﴿ الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى ﴾ طه – 50 فبين أن كل شئ مهدي إلى غايته وما يبتغيه بوجوده والهداية تعم التكوينية والتشريعية فالسنة الإلهية جارية على بسط الهداية ومنها هداية الإنسان هداية دينية .

(197/122)

ثم قال تعالى وهو أول هداية دينية ألقاها إلى آدم ومن معه حين إهباطهم من الجنة " قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون " البقرة – 39 وما يشتمل عليه بمنزلة التلخيص لتفاصيل الشرائع إلى يوم القيامة ففيه تشريع ووعد ووعيد عليه من غير تردد وارتياب وقد قال تعالى : " والحق أقول " ص – 84 وقال تعالى " ما

يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد " ق – 29 فبين أنه لا يتردد فيما جزم به من الأمر ولا ينقض ما أنفذه من الأمر فما يقضيه هو الذي يمضيه وإنما يفعل ما قاله فلا ينحرف فعله عن المجرى الذي أراد عليه لا من جهته نفسه بأن يريد شيئا ثم يتردد في فعله أو يريده ثم يبدو له فلا يفعله ولا جهة غيره بأن يريد شيئا ويقطع به ويعزم عليه ثم يمنعه مانع من العقل أو يبدو إشكال يعترض عليه في طريق الفعل فكل ذلك من قهر القاهر وغلبة المانع الخارجي قال تعالى " والله غالب على أمره " يوسف – 21 وقال تعالى " إن الله بالغ أمره " الطلاق – 3 وقال تعالى حكاية عن موسى " قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى " طه – 52 وقال تعالى " اليوم تجزي كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب " المؤمن – 17 .

تدل هذه الآيات وما يشابهها على أنه تعالى إنما خلق الخلق ولم يغفل عن أمره ولم يجهل شيئا مما سيظهر منه ولم يندم على ما فعله ثم شرع لهم الشرائع تشريعا جديا فأصلا من غير هزل ولا خوف ولا رجاء ثم إنه يجزي كل ذي عمل بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر من غير أن يغلبه تعالى غالب أو يحكم عليه حاكم من شريك أو فدية أو خلة أو شفاعة من دون إذنه فكل ذلك ينافي ملكه المطلق لما سواه من خلقه .

وعاشرا ما ذكروه من حديث الفداء وحقيقة الفداء أن يلزم الإنسان أو ما يتعلق به من نفس أو مال أثر سيئ من قتل أو فناء فيعوض بغيره أي شئ كان ليصان بذلك من لحوق ذلك الأثر به كما يفدي الإنسان الأسير بنفس أو مال وكما تفدي الجرائم والجنايات بالأموال ويسمى البدل فدية وفداء فالتفدية نوع معاملة ينتزع بها حق صاحب الحق وسلطنته عن المفدي عنه إلى الفداء فيستنقذ به المفدي عنه من أن يلحق به الشر .

ومن هنا يظهر أن الفداء غير معقول في ما يتعلق بالله سبحانه فإن السلطنة الإلهية على خلاف السلطنة الوضعية الاعتبارية الإنسانية سلطنة حقيقية واقعية غير جائزة التبديل مستحيلة الصرف فالأشياء بأعيانها وآثارها موجودة قائمة بالله سبحانه وكيف يتصور تغيير الواقع عما هو عليه فليس إلا أمرا لا يمكن تعقله فضلا عن أن يمكن وقوعه وهذا بخلاف الملك والسلطنة والحق وأمثالها الدائرة بيننا معاشر أبناء الاجتماع فإنها وأمثالها أمور وضعية اعتبارية زمامها بأيدينا نحن المجتمعين نبطلها مرة ونبدلها أخرى على حسب تغير مصالحنا في الحياة والمعاش (راجع ما تقدم من البحث في تفسير قوله تعالى " ملك يوم الدين " الحمد - 4 وقوله تعالى " قل اللهم مالك الملك الآية " آل عمران - 26) .

وقد نفى الله سبحانه الفدية بالخصوص في قوله " فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار " الحديد – 15 وقد تقدم فيما مر أن من هذا القبيل قول المسيح فيما يحكيه الله تعالى عنه " ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ إلى أن قال ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم " ﴾ المائدة – 118

فإن قوله وكنت عليهم الخ في معنى أنه لم يكن لي شأن فيهم إلا ما أنت وظفته علي وعينته وهو تبليغ الرسالة والشهادة على الأعمال ما دمت فيهم وأما هلاكهم ونجاتهم وعذابهم ومغفرتهم فإنما ذلك إليك من غير أن يرتبط بي شئ من ذلك أو يكون لي شأن فيه فأملك لهم شيئا منك أخرجهم به من عذابك أو تسلطك عليهم وفي ذلك نفى الفداء إذ لو كان هناك فداء لم يصح تبريه من أعمالهم وإرجاع العذاب والمغفرة معا إلى الله سبحانه بنفي ارتباطهما به أصلا.

وفي معنى هذه الآيات قوله تعالى " واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون " البقرة – 48 وكذا قوله تعالى " يوم لا بيع فيه

ولا خلة ولا شفاعة " البقرة – 254 وقوله تعالى " يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم " المؤمن – 33 فإن العدل في الآية الأولى والبيع في الآية الثانية والعصمة من الله في الآية الثالثة مما ينطبق عليه الفداء فنفيها نفي الفداء .

(200/122)

نعم أثبت القرآن الشريف في مورد المسيح الشفاعة بدل ما يثبتونه من الفداء والفرق بينهما أن الشفاعة (كما تقدم البحث عنها في قوله تعالى " واتقوا يوما لا تجزي " البقرة – 48 نوع من ظهور قرب الشفيع ومكانته لدى المشفوع عنده من غير أن يملك الشفيع منه شيئًا أو يسلب عنه ملك أو سلطنة أو يبطل حكمه الذي خالفه المجرم أو يبطل قانون المجازاة بل إنما هو نوع دعاء واستدعاء من الشفيع لتصرف المشفوع عنده وهو الرب ما يجوز له من التصرف في ملكه وهذا التصرف الجائز مع وجود الحق هو العفو الجائز للمولى مع كونه ذا حق أن يعذبه لمكان المعصية وقانون العقوبة .

فالشفيع يحضه ويستدعي منه أن يعمل بالعفو والمغفرة في مورد استحقاق العذاب للمعصية من غير أن يسلب من المولى ملك أو سلطان بخلاف الفداء فإنه كما مر معاملة يتبدل به سلطنة من شئ إلى شئ آخر هو الفداء ويخرج المفدي عنه عن سلطان القابل الآخذ

للفداء .

ويدل على هذا الذي ذكرناه قوله تعالى " ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون " الزخرف - 86 فإنه صريح في وقوع الشفاعة من المستثنى والمسيح (عليه السلام) ممن كانوا يدعونهم من دون الله وقد نص القرآن بأن الله علمه الكتاب والحكمة وبأنه من الشهداء يوم القيامة قال تعالى " ويعلمه الكتاب والحكمة " آل عمران - 48 وقال تعالى حكاية عنه " وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم : المائدة - 117 وقال تعالى " ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا : النساء - 159 فالآيات كما ترى تدل على كون المسيح (عليه السلام) من الشفعاء وقد تقدم تفصيل القول في هذا المعني في تفسير قوله تعالى " واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا الآية : البقرة - 48 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان جـ 3 صـ 291 . 305 ﴾

(201/122)

فصل

قال فى الميزان :

وأما حقيقة ما عند النصارى من قصة المسيح وأمر الإنجيل والبشارة فهي أن قصته (عليه

السلام) وما يتعلق بها تنتهي عندهم إلى الكتب المقدسة عندهم وهي الأناجيل الأربعة التي هي أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا وكتاب أعمال الرسل للوقا وعدة رسائل لبولس وبطرس ويعقوب ويوحنا ويهوذا واعتبار الجميع ينتهي إلى اعتبار الأناجيل فلنشتغل بها أما إنجيل متى فهو أقدم الأناجيل في تصنيفه وانتشاره ذكر بعضهم أنه صنف سنة 38 الميلادية وذكر آخرون أنه كتب ما بين سنة 50 إلى سنة 60 فهو مؤلف بعد المسيح. والمحققون من قدمائهم ومتأخريهم على أنه كان أصله مكتوبا بالعبرانية ثم ترجم إلى اليونانية وغيرها أما النسخة الأصلية العبرانية فمفقودة وأما الترجمة فلا يدري حالها ولا يعرف مترجمها.

وأما إنجيل مرقس فمرقس هذا كان تلميذا لبطرس ولم يكن من الحواريين وربما ذكروا إنه أنما كتب إنجيله باشارة بطرس وأمره وكان لا يرى إلهية المسيح ولذلك ذكر بعضهم أنه إنما كتب إنجيله للعشائر وأهل القرى فعرف المسيح تعريف رسول إلهي مبلغ لشرائع الله وكيف كان فقد كتب إنجيله سنة 61 ميلادية.

وأما إنجيل لوقا فلوقا هذا لم يكن حواريا ولا رأى المسيح وإنما تلقن النصرانية من بولس وبولس كان يهوديا متعصبا على النصرانية يؤذي المؤمنين بالمسيح ويقلب الأمور عليهم ثم اتفق مفاجأة أن ادعى أنه صرع وفي حال الصرع لمسه المسيح ولامه وزجره عن الإساءة إلى متبعيه وأنه آمن بالمسيح وأرسله المسيح ليبشر بإنجيله.

وبولس هذا هو الذي شيد أركان النصرانية الحاضرة على ما هي عليها فبنى التعليم على أن الإيمان بالمسيح كاف في النجاة من دون عمل وأباح لهم أكل الميتة ولحم الخنزير ونهى عن الختنة وكثير مما في التوراة مع أن الإنجيل لم يأت إلا مصدقا لما بين يديه من التوراة ولم يحلل إلا أشياء معدودة وبالجملة إنما جاء عيسى ليقوم شريعة التوراة ويرد إليها المنحرفين والفاسقين لا ليبطل العمل ويقصر السعادة على الإيمان الخالي .

وقد كتب لوقا إنجيله بعد إنجيل مرقس وذلك بعد موت بطرس وبولس وقد صرح جمع بأن إنجيله ليس كتابا إلهاميا كسائر الأناجيل كما يدل عليه ما وقع في مبتدء إنجيله .

وأما إنجيل يوحنا فقد ذكر كثير من النصارى أن يوحنا هذا هو يوحنا بن زبدي الصياد أحد التلاميذ الاثنى عشر الحواريين الذي كان يحبه المسيح حبا شديدا .

وذكروا أن شيرينطوس وابيسون وجماعتهما لما كانوا يرون أن المسيح ليس إلا إنسانا مخلوقا لا يسبق وجوده وجود أمه اجتمعت أساقفة آسيا وغيرهم في سنة 96 ميلادية عند يوحنا والتمسوا منه أن يكتب ما لم يكتبه الآخرون في اناجيلهم ويبين بنوع خصوصي لاهوت المسيح فلم يسعه أن ينكر إجابة طلبهم .

وقد اختلفت كلماتهم في السنة التي الف فيها هذا الإنجيل فمن قائل أنها سنة 65 وقائل أنها سنة 96 وقائل أنها سند 98.

(203/122)

وقال جمع منهم أنه ليس تأليف يوحنا التلميذ فبعضهم على أنه تأليف طالب من طلبة المدرسة الإسكندرية وبعضهم على أن هذا الإنجيل كله وكذا رسائل يوحنا ليست من تصنيفه بل إنما صنفه بعضهم في ابتداء القرن الثاني ونسبه إلى يوحنا ليعتبره الناس وبعضهم على أن إنجيل يوحنا كان في الأصل عشرين بابا فألحقت كنيسة أفاس الباب الحادي والعشرين بعد موت يوحنا فهذه حال هذه الأناجيل الأربعة وإذا أخذنا بالقدر المتيقن من هذه الطرق انتهت إلى سبعة رجال هم متى مرقس لوقا يوحنا بطرس بولس يهوذا ينتهي ركونهم كله إلى هذه الأناجيل الأربعة وينتهي الأربعة إلى واحد هو أقدمها وأسبقها وهو إنجيل متى وقد مر أنه ترجمة مفقود الأصل لا يدري من الذي ترجمه وكيف كان أصله وعلى ماذا كان يبني تعليمه أبرسالة المسيح أم بألوهيته.

وهذا الإنجيل الموجود يترجم أنه ظهر في بني إسرائيل رجل يدعى عيسى بن يوسف النجار وأقام الدعوة إلى الله وكان يدعي أنه ابن الله مولود من غير أب بشري وأن أباه أرسله ليفدي

به الناس عن ذنوبهم بالصلب والقتل وأنه أحيى الميت وإبرء الأكمه والأبرص وشفى المجانين بإخراج الجن من أبدانهم وأنه كان له اثنا عشر تلميذا أحدهم متى صاحب الإنجيل بارك لهم وأرسلهم للدعوة وتبليغ الدين المسيحي الخ.

فهذا ملخص ما تنتهي إليه الدعوة المسيحية على انبساطها على شرق الأرض وغربها وهو لا يزيد على خبر واحد مجهول الاسم والرسم مبهم العين والوصف.

(204/122)

وهذا الوهن العجيب في مبدأ القصة هو الذي أوجب لبعض أحرار الباحثين من أوربا أن ادعى أن المسيح عيسى ابن مريم شخص خيالي صوره بعض النزعات الدينية على حكومات الوقت أو لها وتأيد ذلك بموضوع خرافي آخر يشبهه كل الشبه في جميع شئون القصة وهو موضوع كرشنا الذي تدعي وثنية الهند القديمة أنه ابن الله نزل عن لاهوته وفدى الناس بنفسه صلبا ليخلصهم من الأوزار والخطايا كما يدعى في عيسى المسيح حذو النعل بالنعل كما سيجئ ذكره.

وأوجب لآخرين من منتقدي الباحثين أن يذهبوا إلى أن هناك شخصين مسميين بالمسيح المسيح غير المصلوب والمسيح المصلوب وبينهما من الزمان ما يزيد على خمسة قرون.

وأن التاريخ الميلادي الذي سنتنا هذه سنة ألف وتسعمائة وستة وخمسين منه لا ينطبق على واحد منهما بل المسيح الأول غير المصلوب يتقدم عليه بما يزيد على مائتين وخمسين سنة وقد عاش نحوا من ستين سنة والمسيح الثاني المصلوب يتأخر عنه بما يزيد على مائتين وتسعين سنة وقد عاش نحو من ثلاث وثلاثين سنة على أن عدم انطباق التاريخ الميلادي على ميلاد المسيح في الجملة مما لم يسع للنصارى إنكاره وهو سكتة تاريخية.

على أن ههنا أمورا مريبة موهمة اخرى فقد ذكروا أنه كتب في القرنين الأولين من الميلاد أناجيل كثيرة أخرى ربما أنهوها إلى نيف ومائة من الأناجيل والأناجيل الأربعة منها ثم حرمت الكنيسة جميع تلك الأناجيل إلا الأناجيل الأربعة التي عرفت قانونية لموافقة متونها تعليم الكنيسة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الميزان حـ 3 صـ 311. 315 ﴾

(205/122)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيتين :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

(206/122)

أَخْرَجَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَالْبَيْهَقِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو رَافِعٍ الْقُرَظِيُّ حِينَ اجْتَمَعَتِ الْأَحْبَارُ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ: أَتُرِيدُ يَا مُحَمَّدُ أَنْ نَعْبُدَكَ كَمَا تَعْبُدُ النَّصَارَى عِيسَى؟ قَالَ: مَعَاذَ اللهِ فَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ إِلَى قَوْلِهِ: مُسْلِمُونَ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ: نُسَلِّمُ عَلَيْكَ كَمَا يُسَلِّمُ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ، أَفَلَا نَسْجُدُ لَكَ؟ قَالَ: لَا وَلَكِنْ أَكْرِمُوا نَبِيَّكُمْ وَاعْرِفُوا الْحَقَّ لِأَهْلِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ دُونِ اللهِ فَأَنْزَلَ اللهُ مَا كَانَ لِبَشَرٍ الْآيَتَيْنِ. ذَكَرَ ذَلِكَ السُّيُوطِيُّ فِي (لُبَابِ النُّقُولِ).

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: إِنَّ مَا رُوِيَ مِنْ أَنَّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ طَلَبَ أَنْ يَسْجُدُوا لِلرَّسُولِ هُوَ مِنَ الرِّوَايَاتِ الَّتِي لَمْ يَقِ اللهُ الْمُسْلِمِينَ شَرَّهَا وَلَا حَاجَةَ إِلَيْهَا فِي الْقُرْآنِ. فَإِنَّ الْآيَةَ مُتَّصِلَةٌ بِمَا قَبْلَهَا فَهِيَ فِي سِيَاقِ الرَّدِّ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ إِبْطَالٌ لِمَا ادَّعَاهُ بَعْضُهُمْ مِنْ أَنَّ لِلَّهِ - تَعَالَى - ابْنًا أَوْ أَبْنَاءً حَقِيقَةً، وَأَنَّ بَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ أَثْبَتَ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ. وَصَرَّحَ بِأَنَّ هَذِهِ الدَّعْوَى مِمَّا يَدْخُلُ فِي لَيِّ اللِّسَانِ بِالْكِتَابِ وَتَحْرِيفِهِ بِالتَّأْوِيلِ. وَيَصِحُّ أَنْ تَكُونَ رَدًّا عَلَى أَصْحَابِ هَذِهِ الدَّعْوَى ابْتِدَاءً مُسْتَأْنَفًا اسْتِئْنَافًا

بَيَانِيًّا كَأَنَّ النَّفْسَ تَتَشَوَّفُ بَعْدَ بَيَانِ حَالِ فِرَقِ الْيَهُودِ إِلَى بَيَانِ حَالِ النَّصَارَى وَمَا يَدَّعُونَ فِي الْمَسِيحِ فَجَاءَتِ الْآيَتَانِ فِي ذَلِكَ . فَقَوْلُهُ : مَا كَانَ لِبَشَرٍ نَفْيٌ لِلشَّأْنِ وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ نَفْيِ الْوُقُوعِ خَاصَّةً ; لِأَنَّهُ نَفْيٌ لِلْوُقُوعِ مَعَ بَيَانِ السَّبَبِ وَالدَّلِيلِ ، وَهُوَ أَنَّ هَذَا غَيْرُ مُمْكِنٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ بِهِ وَالْعَمَلَ بِإِرْشَادِهِ . قَالَ فِي الْكَشَّافِ : الْحُكْمُ : الْحِكْمَةُ الَّتِي هِيَ السُّنَّةُ ، وَوَافَقَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ قَائِلًا : إِنَّ عِبَارَاتِ الْكِتَابِ رُبَّمَا تَذْهَبُ النَّفْسُ فِيهَا مَذَاهِبَ التَّأْوِيلِ ، فَالْعَمَلُ هُوَ الَّذِي يُقَرِّرُ الْحَقَّ فِيهَا . وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْهُ تَفْسِيرُ الْحِكْمَةِ بِفِقْهِ الْكِتَابِ وَمَعْرِفَةِ أَسْرَارِهِ وَأَنَّ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ الْعَمَلَ بِهِ ، وَإِنَّمَا قَالَ : وَالنُّبُوَّةَ بَعْدَ قَوْلِهِ : يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ لِأَنَّ الْمُرْسَلَ إِلَيْهِمْ يُقَالُ إِنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي الْعِبَادُ جَمْعُ عَبْدٍ بِمَعْنَى عَابِدٍ ، وَالْعَبِيدُ جَمْعٌ لَهُ بِمَعْنَى مَمْلُوكٍ أَيْ بِأَنْ تَتَّخِذُونِي إِلَهًا أَوْ رَبًّا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَيْ كَائِنِينَ لِي مِنْ دُونِ اللهِ أَوْ كُونُوا عَابِدِينَ لِي مِنْ دُونِهِ ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ حَالَ كَوْنِكُمْ مُتَجَاوِزِينَ اللهَ - تَعَالَى - أَيْ مُتَجَاوِزِينَ مَا يَجِبُ مِنْ إِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ وَتَخْصِيصِهِ بِالْعُبُودِيَّةِ . وَقَطَعَ أَبُو السُّعُودِ بِأَنَّ ذَلِكَ يَصْدُقُ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ اسْتِقْلَالًا أَوِ اشْتِرَاكًا . وَلَهُ عِنْدِي وَجْهَانِ :

أَحدُهُمَا : أَنَّ الْعِبَادَةَ الصَّحِيحَةَ لِلَّهِ - تَعَالَى - لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا إِذَا خَلُصَتْ لَهُ وَحْدَهُ فَلَمْ تَشُبْهَا شَائِبَةٌ مَا مِنَ التَّوَجُّهِ إِلَى غَيْرِهِ كَمَا قَالَ : قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي [39 : 14] وَقَالَ : وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ [98 : 5] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ .

فَمَنْ دَعَا إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ فَقَدْ دَعَا النَّاسَ إِلَى أَنْ يَكُونُوا عَابِدِينَ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَإِنْ لَمْ يَنْهَهُمْ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ ، بَلْ وَإِنْ أَمَرَهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ ، وَمَنْ جَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ وَاسِطَةً فِي الْعِبَادَةِ كَالدُّعَاءِ فَقَدْ عَبَدَ هَذِهِ الْوَاسِطَةَ مِنْ دُونِ اللهِ ; لِأَنَّ هَذِهِ الْوَسَاطَةَ تُنَافِي الْإِخْلَاصَ لَهُ وَحْدَهُ .

(209/122)

وَمَتَى انْتَفَى الْإِخْلَاصُ انْتَفَتِ الْعِبَادَةُ ; وَلِذَلِكَ قَالَ : فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ [39 : 2 - 3] الْآيَةَ فَلَمْ يَمْنَعْ تَوَسُّلُهُمْ بِالْأَوْلِيَاءِ إِلَيْهِ - تَعَالَى - أَنْ يَقُولَ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوهُمْ مِنْ دُونِهِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا قَوْلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " قَالَ اللهُ - تَعَالَى - : أَنَا أَغْنَى

الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ - وَفِي رِوَايَةٍ - فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ ، هُوَ لِلَّذِي عَمِلَ لَهُ " رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ ، وَقَوْلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : إِذَا جَمَعَ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ نَادَى مُنَادٍ مَنْ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ لِلَّهِ أَحَدًا فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ رَوَاهُ أَحْمَدُ . وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّ مَنْ يَتَوَجَّهُ بِعِبَادَتِهِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ - تَعَالَى - عَلَى أَنَّهُ وَسِيلَةٌ إِلَيْهِ وَمُقَرِّبٌ مِنْهُ وَشَفِيعٌ عِنْدَهُ ، أَوْ عَلَى أَنَّهُ مُتَصَرِّفٌ بِالنَّفْعِ وَدَفْعِ الضُّرِّ لِقُرْبِهِ مِنْهُ ، فَتَوَجُّهُهُ هَذَا إِلَيْهِ عِبَادَةٌ لَهُ مُقَدَّرَةٌ بِقَدْرِهَا فَهُوَ عَبْدٌ لَهُ فِي هَذَا الْقَدْرِ مِنَ

(210/122)

التَّوَجُّهِ إِلَيْهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَهَذَا الْوَجْهُ مَعْقُولٌ فِي نَفْسِهِ وَالْأَوَّلُ أَقْوَى لِأَنَّ النُّصُوصَ مُؤَيِّدَةٌ لَهُ ، وَقَدْ غَفَلَ عَنْهُ مَنْ أَجَازُوا لِلْعَامَّةِ اتِّخَاذَ أَوْلِيَاءَ يَتَوَجَّهُونَ إِلَيْهِمْ بِالدُّعَاءِ وَطَلَبِ الْحَاجَاتِ وَيُسَمُّونَ ذَلِكَ تَوَسُّلًا بِهِمْ إِلَى اللَّهِ إِنَّمَا هُوَ عِبَادَةٌ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ . فَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ وَتَلَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَوْلَهُ - تَعَالَى - : وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي [40 : 60] الْآيَةَ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرُهُمْ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ أَيْ وَلَكِنْ يَأْمُرُهُمُ النَّبِيُّ الَّذِي أُوتِيَ الْكِتَابَ

وَالْحُكْمِ بِأَنْ يَكُونُوا مَنْسُوبِينَ إِلَى الرَّبِّ مُبَاشَرَةً مِنْ غَيْرِ تَوَسُّطِهِ هُوَ وَلَا التَّوَسُّلِ بِشَخْصِهِ وَإِنَّمَا يَهْدِيهِمْ إِلَى الْوَسِيلَةِ الْحَقِيقِيَّةِ الْمُوصِلَةِ إِلَى ذَلِكَ وَهِيَ تَعْلِيمُ الْكِتَابِ وَدِرَاسَتُهُ، فَبِعِلْمِ الْكِتَابِ وَتَعْلِيمِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ يَكُونُ الْإِنْسَانُ رَبَّانِيًّا مَرْضِيًّا عِنْدَ اللهِ - تَعَالَى - ; فَالْكِتَابُ هُوَ وَاسِطَةُ الْقُرْبِ مِنَ اللهِ - تَعَالَى -، وَالرَّسُولُ هُوَ الْوَاسِطَةُ الْمُبَلِّغَةُ لِلْكِتَابِ كَمَا قَالَ - تَعَالَى - : إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ [42 : 48] فَلَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَقَرَّبَ إِلَى اللهِ بِشَخْصِ الرَّسُولِ بَلْ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ (رَاجِعْ تَفْسِيرَ آيَةِ 31) قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَالْآيَاتُ الْمُقَرِّرَةُ لِهَذِهِ

الْحَقِيقَةِ كَثِيرَةٌ جِدًّا.

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مَا مِثَالُهُ مُفَصَّلًا: أَفَادَتِ الْآيَةُ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَكُونُ رَبَّانِيًّا بِعِلْمِ الْكِتَابِ وَدَرْسِهِ وَبِتَعْلِيمِهِ لِلنَّاسِ وَنَشْرِهِ، وَمِنَ الْمُقَرَّرِ أَنَّ التَّقَرُّبَ إِلَى اللهِ - تَعَالَى - لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْعَمَلِ بِالْعِلْمِ، وَالْعِلْمُ الَّذِي لَا يَبْعَثُ إِلَى الْعَمَلِ لَا يُعَدُّ عِلْمًا صَحِيحًا ; لِأَنَّ الْعِلْمَ الصَّحِيحَ مَا كَانَ صِفَةً لِلْعَالِمِ وَمَلَكَةً رَاسِخَةً فِي نَفْسِهِ وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ آثَارُ الصِّفَاتِ وَالْمَلَكَاتِ، وَالْمُعَلِّمُ يُعَبِّرُ عَمَّا رَسَخَ فِي نَفْسِهِ، وَمَنْ لَمْ يُحَصِّلْ مِنْ عِلْمِ الْكِتَابِ إِلَّا صُوَرًا وَتَخَيُّلَاتٍ تَلُوحُ فِي

الذّهْنِ وَلَا تَسْتَقِرُّ فِي النّفْسِ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَكُونَ مُعَلّمًا لَهُ يُفِيضُ الْعِلْمَ عَلَى غَيْرِهِ ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَكُونُ عَامِلًا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ كَمَا ثَبَتَ بِالْمُشَاهَدَةِ وَالِاخْتِبَارِ ، أَيْ فِي نَحْوِ الْعُلُومِ الْفَنّيّةِ فَإِنَّ مَنْ لَا يَعْرِفُ مِنَ الْهَنْدَسَةِ إِلَّا بَعْضَ

الِاصْطِلَاحَاتِ وَالْمَسَائِلِ النّاقِصَةِ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَكُونَ مُهَنْدِسًا بِالْفِعْلِ وَلَا أَنْ يَكُونَ مُعَلّمًا لِلْهَنْدَسَةِ ، وَمُرَادُ الْأُسْتَاذِ أَنَّ الْعِلْمَ لَمّا كَانَ يَسْتَلْزِمُ الْعَمَلَ اسْتُغْنِيَ بِذِكْرِهِ عَنِ التّصْرِيحِ بِالْعَمَلِ كَمَا يُسْتَغْنَى عَنْ ذِكْرِ الْعِلْمِ عِنْدَمَا يُعَلّقُ الْجَزَاءُ عَلَى الْعَمَلِ لِأَنّ الْعَمَلَ الصّحِيحَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنِ الْعِلْمِ الصّحِيحِ

فَتَارَةً يُذْكَرُ الْمَلْزُومُ وَتَارَةً يُذْكَرُ اللّازِمُ وَلِكُلّ مَقَامٍ مَقَالٌ .

(212/122)

وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنّبِيّينَ أَرْبَابًا قَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَحَمْزَةُ وَعَاصِمٌ وَيَعْقُوبُ " يَأْمُرَكُمْ " بِالنّصْبِ عَطْفًا عَلَى (ثُمّ يَقُولَ) وَ (لَا) هَذِهِ هِيَ الّتِي يُجَاءُ بِهَا لِتَأْكِيدِ النّفْيِ السّابِقِ . وَهُوَ هُنَا قَوْلُهُ : مَا كَانَ لِبَشَرٍ وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالرّفْعِ عَلَى الِاسْتِئْنَافِ . وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو بِاخْتِلَاسِ الْهَمْزَةِ عَلَى الْأَصْلِ عِنْدَهُ . تُنْقَلُ عِبَادَةُ الْمَلَائِكَةِ عَنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَعَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَاتّخَذَ بَعْضُ الْيَهُودِ عُزَيْرًا وَالنّصَارَى الْمَسِيحَ ابْنًا لِلّهِ ، فَجَاءَ الْإِسْلَامُ يُبَيّنُ أَنّ

كُلُّ ذَلِكَ مُخَالِفٌ لِمَا جَاءَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ مِنَ الْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ وَالنَّهْيِ عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ، وَلِذَلِكَ قَالَ: أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ بِمُقْتَضَى الْفِطْرَةِ وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: مَعْنَاهُ أَنَّهُ مَا كَانَ لِلْمَسِيحِ أَنْ يَأْمُرَ أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِي بُعِثَ فِيهِمْ بِعِبَادَتِهِ بَعْدَ إِذْ كَانُوا مُوَحِّدِينَ بِمُقْتَضَى مَا جَاءَهُمْ بِهِ مُوسَى، وَحَمَلَهُ أَكْثَرُ مَنْ عَرَفْنَا مِنَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى جَوَابِ مَنْ طَلَبَ السُّجُودَ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِنَاءً عَلَى أَنَّهُمْ هُمُ الْمُسْلِمُونَ دُونَ غَيْرِهِمْ. وَقَدْ نَسُوا هُنَا أَنَّ الْإِسْلَامَ فِي عُرْفِ الْقُرْآنِ هُوَ دِينُ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ كَمَا أَنَّهُ دِينُ الْفِطْرَةِ (رَاجِعْ تَفْسِيرَ الْآيَةِ 19) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير المنار حـ 3 صـ 285. 287﴾

(213/122)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله:

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

أي أنه ليس لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يأمر الناس باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا. إن من اختصه الله بعلم وكتاب ونبوة لا يمكن أن يقول: اعبدوني، أو اعبدوا

الملائكة، أو اعبدوا الأنبياء .

لماذا ؟ ويجيب الحق سبحانه : ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

وقوله الحق : ﴿ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ تدل على أن واقعة القضية وما معها كانت مع مسلمين كأنهم عندما جاءوا وأرادوا أن يعظموا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : نحن نريد أن نعطيك وضعا في التعظيم أكثر من أي كائن ونريد أن نسجد لك . فَوَضَّح النبي صلى الله عليه وسلم لهم : أنَّ السجود لا يكون إلا لله .

إذن فالذين تكلموا مسلمون ، وكانوا يقصدون بذلك تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو أن رسول الله وافقهم لكان معنى ذلك انه يخرجهم عن الإسلام ، ولا يتصور أن يصدر هذا عن سيدنا وحبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم أو عن غيره من الأنبياء عليهم السلام .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1566 . 1567 ﴾

(214/122)

" فصل "

قال السيوطى :

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (79) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (80)

أخرج ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال " قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعاهم إلى الإسلام : أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم ؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس : أوَ ذاك تريد منا يا محمد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : معاذ الله . . . ! أن نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غيره . ما بذلك بعثني ، ولا بذلك أمرني . فأنزل الله في ذلك من قولهما ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب ﴾ إلى قوله ﴿ بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن جريج قال : كان ناس من يهود يتعبدون الناس من دون ربهم بتحريفهم كتاب الله عن موضعه . فقال الله ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوّة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ﴾ ثم يأمر الناس بغير ما أنزل الله في كتابه .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال " بلغني أن رجلاً قال : يا رسول الله نسلِّم عليك كما يسلم بعضنا على بعض ، أفلا نسجد لك ؟ قال : لا . ولكن أكرموا نبيكم ، واعرفوا الحق لأهله ، فانه لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله . فأنزل الله ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب ﴾ إلى قوله ﴿ بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ " .

(215/122)

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله ﴿ ربانيين ﴾ قال : فقهاء معلمين .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله ﴿ ربانيين ﴾ قال : حلماء علماء حكماء .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن طريق الضحاك عن ابن عباس ﴿ ربانيين ﴾ قال : علماء فقهاء .

وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس ﴿ ربانيين ﴾ قال : حكماء فقهاء .

وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود ﴿ ربانيين ﴾ قال : حكماء علماء .

وأخرج ابي جرير عن مجاهد قال ﴿ الربانيون ﴾ الفقهاء العلماء . وهم فوق الأحبار .

وأخرج عن سعيد بن جبير ﴿ ربانيين ﴾ قال : حكماء أتقياء .

وأخرج ابن جرير عن ابي زيد قال " الربانيون " الذين يربون الناس ولاة هذا الأمر . يلونهم ، وقرأ ﴿ لولا ينهاهم الربانيون والأحبار ﴾ [المائدة : 63] قال (الربانيون) الولاة (والأحبار) العلماء .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب ﴾ قال : حق على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً .

وأخرج ابن المنذر عن ابق عباس أنه كان يقرأ ﴿ بما كنتم تعلمون ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير أنه قرأ ﴿ بما كنتم تعلمون ﴾ مثقلة برفع التاء وكسر اللام .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ، أنه قرأ ﴿ بما كنتم تعلمون الكتاب ﴾ خفيفة بيصب التاء قال ابن عيينة : ما علموه حتى علموه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي بكر قال : كان عاصم يقرؤها ﴿ بما كنتم تعلمون الكتاب ﴾ مثقلة برفع التاء وكسر اللام . قال : القرآن ﴿ وبما كنتم تدرسون ﴾ قال : الفقه .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الضحاك قال : لا يعذر أحد حر ، ولا عبد ، ولا

رجل ، ولا امرأة ؛ لا يتعلم من القرآن جهده ما بلغ منه فإن الله يقول : ﴿ كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾ يقول : كونوا فقهاء ، كونوا علماء .

(216/122)

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي رزين في قوله ﴿ وبما كنتم تدرسون ﴾ قال : مذاكرة الفقه ، كانوا يتذاكرون الفقه كما نتذاكره نحن .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا ﴾ قال : ولا يأمركم النبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 250.252 ﴾

(217/122)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابوري فى الآيات السابقة :

﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آَمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آَخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (72) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ

مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ
(73) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (74) وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ
تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) بَلَى
مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (76) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ
ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (77) وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا
هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ (78) مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا
لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (79) وَلَا
يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (80) ﴾

(218/122)

التفسير: هذا نوع آخر من تلبيساتهم .

وقوله ﴿ بالذي أنزل ﴾ يحتمل أن يراد كل ما أنزل الله عليهم ، ويحتمل أن يراد بعض ما أنزل

. أما الاحتمال الأول فقول الحسن والسدي تواطأ اثنا عشر حبراً من يهود خيبر وقرى عرينة وقال بعضهم لبعض : ادخلوا في دين محمد باللسان دون الاعتقاد ﴿ وجه النهار ﴾ أي أوله . والوجه في اللغة مستقبل كل شيء ومنه وجه الثوب لأول ما يبدو منه . روى ثعلب عن ابن الأعرابي : أتيته بوجه نهار وصدر نهار وشباب نهار .

وأنشد الربيع بن زياد :

من كان مسروراً بمقتل مالك . . . فليأت نسوتنا بوجه نهار

يجد النساء حواسراً يندبنه . . . قد قمن قبل تبلج الأسحار

وذلك أنه كان من عادتهم أن لا يظهروا الجزع على المقتول إلى أن يدركوا الثأر . فمعنى البيت من كان مسروراً فليرَ أثر تشفي الغيظ ودرك الثأر قبل أن يمضي على المقتول تمام يوم وليلة . واكفروا به آخر النهار وقولوا : إنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمداً ليس بذلك ، فإن أصحابه متى شاهدوا هذا غلب على ظنونهم أن هذا التكذيب ليس لأجل الحسد والعناد وإلا لما آمنوا به في أول الأمر ، وإنما ذلك لأمر لأجل أنهم أهل كتاب

وقد تفكروا في أمره وفي دلائل نبوته ، فلاح لهم بعد التأمل التام والبحث الشافي أنه كذاب فيكون في هذا الطريق تشكيك لضعفة المسلمين فربما يرجعون عن دينهم .

(220/122)

وقال أبو مسلم : معنى وجه النهار وآخره أن رؤساء اليهود والنصارى قال بعضهم لبعض : نافقوا وأظهروا الوفاق للمؤمنين ولكن بشرط أن تثبتوا على دينكم إذا خلوتم بإخوانكم من أهل الكتاب ، فإن أمر هؤلاء في اضطراب فزجوا الأيام معهم بالنفاق فربما ضعف أمرهم واضمحل دينهم فيرجعوا إلى دينكم ، فتكون هذه الآية كقوله : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ﴾ [البقرة : 14] . وقال الأصمْ : معناه تفريق أحكام الإسلام إلى قسمين ، وذلك أنه قال بعضهم لبعض : إن كذبتموه في جميع ما جاء به علم عوامكم كذبكم لأن كثيراً مما جاء به حق ، ولكن صدقوه في بعض وكذبوه في بعض ليحملوا كلامكم على الإنصاف فيقبلوا قولكم ويرجعوا عن دين الإسلام والرغبة فيه . وأما الاحتمال الثاني فقول من قال إنها نزلت في شأن القبلة ثم اختلفوا . فعن ابن عباس : وجه النهار أوله وهو صلاة الصبح ، وآخره صلاة الظهر . وتقريره أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي إلى بيت المقدس ففرح اليهود بذلك ، فلما حوّله الله إلى الكعبة عند

صلاة الظهر قال كعب بن الأشرف وغيره : آمنوا بالقبلة التي صلى إليها صلاة الصبح فهي الحق . وقال مجاهد ومقاتل والكلبي : لما صرفت إلى الكعبة شق ذلك على اليهود لمخالفتهم فقالوا : آمنوا بالذين أنزل على محمد من أمر الكعبة وصلوا إليها من أول النهار ، ثم اكفروا بالكعبة آخر النهار وارجعوا إلى قبلتكم الصخرة لعلهم يقولون : هؤلاء أهل كتاب وهم أعلم منا فربما يرجعون إلى قبلتنا ، فحذر الله نبيه مكر هؤلاء وأطلعه على سرهم كيلا تؤثر الحيلة في قلوب ضعفاء المؤمنين . ولأن القوم لما افتضحوا في هذه الحيلة لم يقدموا على أمثالها من الحيل ويصير ذلك وازعاً لهم . وفيه أيضاً أنه إخبار عن الغيب فيكون معجزاً . ثم قال تعالى : ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ اتفق المفسرون على أنه من بقية حكاية كلام أهل الكتاب . واتفقوا على أن

قوله : ﴿ قل إن الهدى هدى الله ﴾ وكذا قوله : ﴿ قل إن الفضل بيد الله ﴾ إلى آخرها كلام الله إلا أنهم اختلفوا في أن قوله : ﴿ أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم ﴾ من جملة كلام الله ، أو من جملة كلام اليهود ، ومن تتمة قولهم : ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع

دينكم ﴾ فهذان احتمالان ذهب إلى كل منهما طائفة من المحققين ، وكل منهما يحتاج في تصحيح المعنى إلى تقدير وإضمار ، فلهذا عدت الآية من المواضع المشكلة .

(222/122)

أما الاحتمال الأول فوجهه على قراءة ابن كثير ظاهر ، وكذا في قراءة من قرأ بهمزة واحدة ويقدر همزة الاستفهام للتقرير والتوبيخ وكذا لام الجر . وهذا الوجه يروى عن مجاهد وعيسى بن عمر . والمعنى ألأن أي من أجل أن يؤتى أحد شرائع مثل ما أوتيتم تنكرون اتباعه ؟ فحذف الجواب للاختصار ، وهذا الحذف كثير . ويقول الرجل بعد طول العتاب لصاحبه وعد ذنوبه عليه وقد أحسن إليه : أمن قلة إحساني إليك أمن إهانتي لك ؟ والمعنى أمن أجل هذا فعلت ما فعلت أم من ذاك ؟ ونظيره قوله : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه ﴾ [الزمر : 9] ومعنى قول حكاية عنهم ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ على هذا الوجه لا تصدقوا إلا نبياً يقرر شرائع التوراة ، فأما من جاء بتغيير شيء من أحكام التوراة فلا تصدقوه وهذا هو مذهب اليهود إلى اليوم . واللام زائدة مثل ﴿ ردف لكم ﴾ [النمل : 72] فإنه يقال : صدقت فلاناً ولا يقال صدقت لفلان . فأمر الله نبيه أن يقول لهم في الجواب إن الدين دين الله ، فكل ما رضيه

ديناً فهو الدين الذي يجب متابعته كقوله في جواب قولهم : ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب ﴾ [البقرة : 142] ثم وبخهم بالاستفهام المذكور .

ويحتمل أن يكون المعنى : ولا تؤمنوا هذا الإيمان الظاهر وهو إيمانهم وجه النهار إلا لمن كانوا تابعين لدينكم ممن أسلموا منكم ، لأن رجوعهم كان أرجى عندهم من رجوع من سواهم ، ولأن إسلامهم كان أغيظ لهم . فقيل للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ قل إن الهدى هدى الله ﴾ وقد جئتكم به فلن ينفعكم هذا الكيد الضعيف . ثم استفهم فقال : ألأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم قلتم ذلك ودبرتم لا لشيء آخر ؟ يعني أن ما بكم من الحسد والبغي أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم والكتاب دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم ؟ ثم قال : ﴿ أو يحاجوكم ﴾ يعني دبرتم ما دبرتم لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، أو لما

(223/122)

يتصل بالإيتاء عند كفركم به من محاجتهم لكم عند ربكم لأن ما أوتوا مثل ما أوتيتم ، فحين لم تؤمنوا به ثبت لهم حجة عليكم . وأما إن لم تقدر همزة الاستفهام فالتقدير إما كما سبق . أو يقال : ﴿ الهدى ﴾ اسم "إن" و ﴿ هدى الله ﴾ بدل منه . والتقدير : قل إن هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم . ويكون "أو" بمعنى "حتى" ويتم الكلام بمحذوف

أي حتى يحاجوكم عند ربكم فيقضي لهم عليكم ويدحض حجتكم ، أو يقال : ﴿ أن يؤتى ﴾ مفعول فعل محذوف هو لا تنكروا لأنه لما كان الهدى هدى الله كان له أن يؤتيه من يشاء من عباده ومتى كان كذلك لزم ترك الإنكار فصح أن يقال : لا تنكروا أن يؤتى أحد سواكم من الهدى ما أوتيتموه أو يحاجوكم - يعني هؤلاء المسلمين - بذلك عند ربكم إن لم تقبلوا ذلك منهم .

(224/122)

أو يقال ﴿ الهدى ﴾ اسم للبيان و ﴿ هدى الله ﴾ بدل ويضمر لا بعد "إن" مثل ﴿ أن تضلوا ﴾ [النساء : 176] أي لا تضلوا . والتقدير : قل يا محمد لأمتك إن بيان الله هو أن لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم وهو دين الإسلام الذي هو أفضل الأديان ، وأن لا يحاجوكم - يعني هؤلاء اليهود - عند ربكم في الآخرة لأنه يظهر لهم في الآخرة أنكم مهتدون وأنهم ضالون . وأما الاحتمال الثاني وهو أن يكون قوله : ﴿ أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴾ من تتمة كلام اليهود ، وقوله : ﴿ قل إن الهدى هدى الله ﴾ جملة معترضة . فمعناه لا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم ، أو لا تقروا بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لمن تبع دينكم . فحذف حرف الجر من "أن" على القياس . قال في

الكشاف : أراد أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم ولا تفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم دون المسلمين لئلا يزيدهم ثباتاً ، ودون المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام . وقوله : ﴿ أو يحاجوكم ﴾ عطف على ﴿ أن يؤتى ﴾ والضمير في ﴿ يحاجوكم ﴾ ل ﴿ أحد ﴾ لأنه في معنى الجمع بمعنى ولا تؤمنوا لغير أتباعكم أن المسلمين يحاجونكم يوم القيامة بالحق ويغالبونكم عند الله بالحجة . قال : ومعنى الاعتراض ، أن الهدى هدى الله ، من شاء أن يلطف به حتى يسلم أو يزيد ثباته على الإسلام كان ذلك ، ولم ينفع كيدكم وحيلكم وزيكم أي ستركم تصديقكم عن المسلمين والمشركين . وكذلك قوله : ﴿ قل إن الفضل بيد الله ﴾ مؤكد للاعتراض الأول ، أو هو اعتراض آخر يجيء بعد تمام الكلام كقوله : ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ [النمل : 34] بعد قوله : ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ﴾ [النمل : 34] فإن قيل : إن جد القوم في حفظ أتباعهم عن قبول دين محمد صلى الله عليه وسلم كان أعظم من جدهم في حفظ غير أتباعهم عنه ، فكيف يليق أن يوصي بعضهم بعضاً بالإقرار ؟ ربما يدل على صحة دين محمد صلى الله

عليه وسلم عند أتباعهم وأن يمتنعوا من ذلك عند الأجانب . فالجواب : ليس المراد من هذا النهي الأمر بإفشاء هذا التصديق فيما بين أتباعهم ، بل المراد أنه ان اتفق منكم تكلم بهذا فلا يكن إلا عند خويصتكم وأصحاب أسراركم . على أنه يحتمل أن يكون شائعاً ولكن البغي والحسد كان يحملهم على الكتمان من غيرهم . فإن قيل : كيف وقع قوله : ﴿ قل إن الهدى هدى الله ﴾ فيما بين جزأي كلام واحد ؟ وهذا لا يليق بكلام الفصحاء ؟ قلت : قال القفال : يحتمل أن يكون هذا كلاماً أمر الله نبيه أن يقوله عند ما وصل الكلام إلى هذا الحد .

(226/122)

كأنه لما حكى عنهم في هذا الموضع قولاً باطلاً لا جرم أدب رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقابله بقول حق ، ثم يعود إلى حكاية تمام كلامهم كما إذا حكى المسلم عن بعض الكفار قولاً فيه كفر فيقول عند بلوغه إلى تلك الكلمة : آمنت بالله أو لا إله إلا الله ، أو تعالى الله ، ثم يعود إلى تلك الحكاية . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير والتقدير : ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الهدى هدى الله وأن الفضل بيد . واعلم أنه تعالى حكى عن اليهود أمرين : أحدهما أن يؤمنوا وجه النهار

ويكفروا آخره ليصير ذلك شبهة للمسلمين في صحة الإسلام فأجاب بقوله : ﴿ قل إن الهدى هدى الله ﴾ . وذلك أن مع كمال هداية الله وقوة بيانه لا يكون لهذه الشبهة الركيكة عين ولا أثر . وثانيها أنهم استنكروا أن يؤتى أحد مثل ا أوتوا من الكتاب والحكمة والنبوة فأجاب عنه بقوله : ﴿ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ﴾ والمراد بالفضل الرسالة وهو في اللغة الزيادة ، وأكثر ما يستعمل في زيادة الإحسان . والفاضل الزائد على غيره في خصال الخير . ومعنى قوله ﴿ بيد الله ﴾ أنه مالك له غالب عليه يوضحه قوله ﴿ يؤتيه من يشاء ﴾ . وفيه دليل على النبوة تحصل بالتفضل لا بالاستحقاق لأنه جعلها من باب الفضل الذي لفاعله أن يفعله وأن لا يفعله ولا يصح ذلك في المستحق إلا على وجه المجاز ﴿ والله واسع ﴾ كامل القدرة ﴿ عليم ﴾ بالحكم والمصالح وبمواقع فضله فلهذا ﴿ يختص برحمته من يشاء ﴾ والحاصل أنه بين بقوله : ﴿ إن الفضل بيد الله ﴾ أنه قادر على أن يؤتى بعض عباده مثل ما آتاكم من المناصب العالية ويزيد عليها من جنسها ، فإن الزيادة من جنس المزيد عليه . ثم قال : ﴿ يختص برحمته من يشاء ﴾ والرحمة المضافة إليه تعالى أمر أجل من ذلك الفضل لأنه لا يكون من جنس ما آتاهم بل يكون أشرف وأعظم ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ فمن قصر إنعامه وإكرامه على .

مراتب معينة وعلى أشخاص معينين كان جاهلاً بكمال الله تعالى في قدرته وحكمته . ثم إنه تعالى كذبهم في دعواهم الاختصاص بالمناصب العالية فإن فيهم الخيانة المستقبحة في جميع الأديان ونقص العهد والكذب على الله إلى غير ذلك من القبائح فقال : ﴿ ومن أهل الكتاب ﴾ الآية . فيها دلالة على انقسامهم إلى قسمين : أهل للأمانة وأهل للخيانة . فقيل : إن أهل الأمانة هم الذي أسلموا ، أما الذي بقوا على اليهودية فهم مصرون على الخيانة لأن مذهبهم أنه يحل لهم قتل كل من يخالفهم في الدين وأخذ أموالهم . وقيل : إن أصحاب الأمانة هم النصارى لغلبة الأمانة عليهم ، وأهل الخيانة اليهود لكثرة ذلك فيهم .

(228/122)

وقال ابن عباس : ﴿ من إن تأمنه بقنطار يؤده ﴾ هو عبد الله بن سلام استودعه رجل من قريش ألفاً ومائتي أوقية ذهباً فأداه إليه و ﴿ من إن تأمنه بدينار لا يؤده ﴾ هو فنحاص بن عازورا استودعه رجل من قريش ديناراً فجحده وخانه . وقال أهل الحقيقة : هي فيمن يؤتى كثيراً من الدنيا فيخرج عن عهدته بعدم الالتفات إليه وقطع النظر عنه ثقة بالله وتوكلاً عليه واكتفاء به ، وفيمن يمتحن بالدنيا فيكون همه مقصوراً عليها معرضاً عما سواها غير

مؤد حقوقها . ويقال : أمنته بكذا وعلى كذا ، فمعنى الباء إلصاق الأمانة بحفظها وحياطتها ، ومعنى "على" استعلاؤها والاستيلاء عليها . والمراد بالقنطار والدينار ههنا العدد الكثير والعدد القليل فلا حاجة إلى تعيينه . وأما الأقوال فيه فقد مرت في أوائل السورة . وقد يستدل بما روينا عن ابن عباس أن القنطار ألف ومائتا أوقية . ويدخل تحت القنطار والدينار العين والدين ، لأن الإنسان قد يأتمن غيره على الوديعة وعلى المبايعة وعلى المقارضة ، وليس في الآية ما يدل على التعيين لكنه نقل عن ابن عباس أنه محمول على المبايعة فقال : منهم من تبايعه بثمن القنطار فيؤده إليك ، ومنهم من تبايعه بثمن الدينار فلا يؤده إليك . ونقلنا عنه أيضا أنها نزلت في الوديعة . وأما قوله ﴿ إلا ما دامت عليه قائماً ﴾ فمنهم من حمله على حقيقته . قال السدي : يعني إلا مدة دوامك عليه يا صاحب الحق قائماً على رأسه مجتمعاً معه ملازماً إياه ، فإن أنظرت وأخرت أنكر . ومنهم من يحمله على الإلحاح والخصومة والتقاضي والمطالبة . قال ابن قتيبة : أصله أن الطالب للشيء يقوم به والتارك له يقعد عنه ومنه قوله تعالى : ﴿ أمة قائمة ﴾ [آل عمران : 113] أي عاملة بأمر الله غير تاركة له . وقال أبو علي الفارسي : إنه في اللغة الدوام والثبات ومنه قوله : ﴿ ديناً قيماً ﴾ [الأنعام : 161] أي ثابتاً لا ينسخ . فمعنى الآية إلا دائماً ثابتاً في مطالبتك إياه

بذلك المال . ﴿ ذلك ﴾ الاستحلال وترك الأداء الذي دل عليه لا يؤده بسبب أنهم يقولون ليس علينا في ما أصبنا من أموال العرب سبيل بالخطاب والعتاب . إما لأنهم يبالغون في التعصب لدينهم حتى استحلوا قتل المخالف وأخذ ماله بأي طريق كان ، وإنا لأنهم قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه والخلق لنا عبيد فلا سبيل لأحد علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا ، ويحتمل أن يكونوا اعتقدوا في الإسلام أنه كفر فيحكمون على المسلمين بالردة فيستحلون دماءهم وأموالهم . روي أن اليهود عاملوا رجالاً في الجاهلية من قريش . فلما أسلموا تقاضوهم فقالوا : ليس لكم علينا حق حيث تركتم دينكم ، وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم فلا جرم قال تعالى : ﴿ ويقولون على الله الكذب ﴾ بادعائهم أن ذلك في كتابهم ﴿ وهم يعلمون ﴾ أنهم كاذبون ، وهذه غاية الجرأة والجهالة .

(230/122)

أو يعلمون حرمة الخيانة ، أو يعلمون ما على الخائن من الإثم . عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عند نزولها : "كذب أعداء الله ما من شيء في الجاهلية إلا وهو تحت قدميّ إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر " وعن ابن عباس أنه سأله رجل فقال : إنا نصيب في

الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة . قال : فتقولون ماذا ؟ قال : نقول ليس علينا في ذلك بأس . قال : هذا كما قال أهل الكتاب ليس علينا في الأميين سبيل . إنهم إذا أدوا الجزية لم يحل أكل أموالهم إلا بطيب أنفسهم ، ﴿ بلى ﴾ قال الزجاج : عندي وقف التمام ههنا لأنه لمجرد نفي ما قبله أي بلى عليهم سبيل في ذلك وما بعده استئناف ، وقال غيره : إنه يذكر في ابتداء كلام يقع جواباً عن المنفي قبله . فقولهم : ﴿ ليس علينا جناح ﴾ قائم مقام قوله : ﴿ نحن أحباء الله ﴾ تعالى فقيل لهم : إن أهل الوفاء بالعهد وأهل التقى هم الذين يحبهم الله . وعلى هذا فلا وقف على " بلى " . وفيه أن اليهود ليسوا من الوفاء والتقى في شيء ، ولو أنهم أوفوا بالعهود أوفوا أول كل شيء بالعهد الذي أخذه الله تعالى في كتابهم من الإيمان بنبي آخر الزمان وهو محمد صلى الله عليه وسلم . ولو أنهم اتقوا الله لم يكذبوا عليه ولم يحرفوا كتابه . وعموم لفظ المتقين قائم مقام الضمير العائد إلى المبتدأ والضمير في ﴿ بعهده ﴾ يجوز أن يرجع إلى ﴿ من ﴾ ويجوز أن يرجع إلى اسم الله كقوله في الآية التالية ﴿ بعهد الله ﴾ . واعلم أن الوفاء والتقى أصلان لجميع مكارم الأخلاق . فالوفاء بالعهد يشمل عهد الميثاق وعهد الله تعالى بالتزام التكاليف الخاصة والعامة ، والتقوى تتممها وتزينها حتى يأتي بها على وجه الكمال من غير شائبة الاختلال . فكل متقٍ موفٍ بالعهد ولا يلزم العكس ، فلهذا اقتصر على قوله : ﴿ يحب المتقين ﴾ دون أن

يقول يحب الموفين أو الموفين والمتقين فافهم . ثم إنه سبحانه لما وصف اليهود بالخيانة في أموال الناس –

(231/122)

والخيانة فيها لا تتمشى إلا بالأيمان الكاذبة غالباً – لا جرم أردفها بالوعيد عليها . وأيضاً الخيانة في العهود وفي تعظيم أسماء الله تناسب الخيانة في الأموال ، فلا جرم قال : ﴿ إن الذين يشترون ﴾ الآية . واختلفت الروايات في سبب النزول فمنهم من خصها باليهود لأن الآيات السابقة فيهم وكذا اللاحقة ، ومنهم من خصها بغيرهم والروايات هذه . قال عكرمة : نزلت في أبي رافع ولبابة بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وغيرهم من رؤوس اليهود . كتموا ما عهد الله إليهم في التوراة في شأن محمد صلى الله عليه وسلم وبدلوه وكتبوا بأيديهم غيره ، وحلفوا أنه من عند الله كيلا يفوتهم الرشا والمآكل التي كانت لهم على أتباعهم .

(232/122)

وقال الكلبي : إن ناساً من علماء اليهود أولي فاقة أصابتهم سنة فاقتحموا إلى كعب بن الأشرف بالمدينة ، فسألهم كعب : هل تعلمون أن هذا الرجل رسول الله في كتابكم ؟ قالوا : نعم ، وما تعلمه أنت ؟ قال : لا . قالوا : فإنا نشهد أنه عبد الله ورسوله . قال كعب : لقد حرمكم الله خيراً كثيراً . لقد قدمتم عليّ وأنا أريد أن أميركم وأكسوا عيالكم فحرمكم الله وحرم عيالكم . فقالوا : فإنه شبه لنا فرويداً حتى نلقاه . فانطلقوا وكتبوا صفة سوى صفته ثم انتهوا إلى رسول الله فكلموه وسألوه ثم رجعوا فقالوا : لقد كنا نرى أنه رسول الله فلما أتيناه إذا هو ليس بالنعت الذي نعت لنا ، ووجدنا نعته مخالفاً للذي عندنا . وأخرجوا الذين كتبوا فنظر إليه كعب ففرح وأمارهم وأنفق عليهم فنزلت . وعن الأشعث بن قيس : " خاصمت رجلاً في بئر فاختصمنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : شاهداك أو يمينه . فقلت : إذاً يحلف ولا يبالي . فقال صلى الله عليه وسلم : " من حلف عليّ يمين يستحق بها مالاً هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان " " ونزلت الآية على وفقه . وقيل : نزلت في رجل أقام سلعة في السوق فحلف لقد أعطى بها ما لم يعطه . ومعنى يشترون يستبدلون ، وعهود الله مواثيقه ، واليمين هي التي يؤكد الإنسان بها خبره من وعد أو وعيد أو إنكار أو إقرار بذكر اسم الله تعالى أو صفة من صفاته أو ما يجري مجراه . والثمن القليل متاع الدنيا من المال والجاه ونحوهما . ثم إنه تعالى رتب على الشراء بعهد الله وبأيمانهم ثمناً قليلاً خمسة أنواع من الجزاء فقوله : ﴿ أولئك لا

خلاق لهم في الآخرة ﴾ إشارة إلى أنه لا نصيب لهم في منافعها ونعيمها . وقوله : ﴿ ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ﴾ إشارة إلى حرمانهم عما عند الله من الكرامات والقرب . وقوله : ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ إشارة إلى ما يحصل لهم هنالك من صنوف الآلام وضروب الأهوال . قال المحققون ومنهم

(233/122)

القفال : المقصود من هذه الكلمات بيان شدة سخط الله عليهم لأن من منع كلامه في الدنيا غيره فإنما ذلك لسخطه عليه ، وقد يأمره بحجبه عنه ويقول : لا أكلمك ولا أرى وجهك . وإذا جرى ذكره لم يذكره بالجميل . قال في الكشاف : لا ينظر إليهم مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم . تقول : فلان لا ينظر إلى فلان تريد نفي اعتداده به . وأصله فيمن يجوز عليه النظر الكناية لأن من اعتد بالإنسان التفت إليه وأعاره نظر عينيه ، ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد والإحسان وإن لم يكن ثمة نظر . ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النظر مجرداً لمعنى الإحسان مجازاً عما وقع كناية عنه فيمن يجوز عليه النظر .

(234/122)

قلت : لعله أراد بهذا المجاز الاستعارة كأنه شبه هذا النظر بذاك النظر ، ثم حذف المشبه وأداة التشبيه فبقي استعارة . وفي التفسير الكبير : لا يجوز أن يكون المراد من هذا النظر الرؤية لأنه تعالى يراهم كما يرى غيرهم ، ولا يجوز أن يكون المراد من النظر تقليب الحدقة إلى جانب المرئي التماساً لرؤيته لأن هذا من صفات الأجسام وهو تعالى منزه عن ذلك ، وقد احتج المخالف بهذه الآية على أن النظر المقرون بحرف " إلى " ليس بمعنى الرؤية وإلا لزم من هذه الآية أن لا يكون الله رائياً وذلك باطل . قلت : يجوز أن يراد بهذا النظر النظر المعهود وهو الذي سيخص الله تعالى به أولياءه من أنه ينظر إليهم وينظرون إليه ﴿ وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ [القيامة : 22 ، 23] وعلى هذا جاز أن يكون النظر بمعن الرؤية لأنه لا يلزم من نفي رؤية يراه العباد أيضاً وقتئذٍ نفي رؤية لا يرونه حينئذٍ ﴿ وإن منهم لفريقاً ﴾ عن ابن عباس هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف غيروا التوراة وكتبوا كتاباً بدلوا فيه صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت قريظة ما كتبوه فخلطوه بالكتاب الذي عندهم ﴿ يلوون ألسنتهم بالكتاب ﴾ قال القفال : معناه أن يعمدوا إلى اللفظة فيحرفوها في حركات الإعراب تحريفاً يتغير به المعنى . فإن الليَّ عبارة عن عطف الشيء ورده عن الاستقامة إلى الاعوجاج وهذا كثير في لسان العرب فلا يبعد مثله في العبرانية . وإنما كانوا يفعلون مثل ذلك في الآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله

عليه وسلم وفي غيرها بحسب أغراضهم الفاسدة . وفي الكشاف : أي يقتلونها بقراءته عن الصحيح إلى المحرف . أقول : وذلك أن لي اللسان أشبه بالتشدق والتنطع والتكلف مذموم ، فعبر الله عن قراءتهم لذلك الكتاب الباطل بليّ اللسان ذماً لهم وتقريعاً ، ولم يعبر عنها بالقراءة ، والعرب تفرق بين ألفاظ المدح والذم في الشيء الواحد ﴿ لتحسبوه ﴾ أي المحرف الذي دل عليه ﴿ يلوون ﴾

(235/122)

ويجوز أن يقدر مضاف محذوف أي يعطفون ألسنتهم بشبه الكتاب لتحسبوا ذلك الشبه من الكتاب ﴿ وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ﴾ نفى أوّلاً كونه من الكتاب ، ثم عطف عليه النفي العام ليعلم أنه كما أنه ليس من الكتاب ليس بسنة ولا إجماع ولا قياس . فإن كل هذا يصدق عليه أنه من عند الله بمعنى كونه حكماً من أحكامه المستنبطة من الأصول . ويجوز أن يراد بالكتاب التوراة فقط وبقولهم : ﴿ هو من عند الله ﴾ أنه موجود في كتاب سائر الأنبياء . وذلك أن القوم في نسبة ذلك المحرف إلى الله كانوا متحيرين خابطين . فإن وجدوا قوماً من الأغمار الجاهلين بالتوراة قالوا : إنه من التوراة . وإن وجدوا قوماً عقلاء زعموا أنه موجود في كتب سائر الأنبياء .

واعلم أنه إن كان المراد من التحريف تغيير ألفاظ التوراة أو إعراب ألفاظها فالذين أقدموا على ذلك يجب أن يكونوا طائفة يسيرة يجوز التواطؤ منهم على الكذب ، وإن كان المعنى تشويش دلالة تلك الآيات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بسبب إلقاء الشكوك والشبهات في وجوه الاستدلالات كما يفعله المبطلون في ملتنا إذا استدل المحقون بآية من كتاب الله تعالى لم يبعد إطباق الخلق الكثير والجم الغفير عليه . احتج الجبائي والكعبي بالآية على أن فعل العبد ليس بخلق الله تعالى وإلا صدق اليهود في قولهم هو من عند الله ، لكن الله كذبهم . والغلط فيه أن القوم ما ادعوا أن التحريف من عند الله وبخلقه ، وإنما ادعوا أن المحرف منزل من عند الله ، أو هو حكم من أحكامه فتوجه التكذيب تكذيب الله إياهم إلى هذا الذي زعموا لا إلى ما لم يزعموا ، فلم يبق لهما في الآية استدلال . ثم من جملة ما حرفه أهل الكتاب أن زعموا أن عيسى كان يدعي الإلهية ويأمر قومه بعبادته فلهذا قال عز من قائل : ﴿ ما كان لبشر ﴾ الآية . وقيل : إن أبا رافع القرضي من اليهود والسيد من نصارى نجران قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً ؟ فقال : معاذ الله أن نعبد غير الله أو أن نأمر بغير عبادة الله فما بذلك بعثني ولا بذلك

أمرني فنزلت . وقيل : " إن رجلاً قال : يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك ؟ قال : لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله ، ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله " وقيل : زعمت اليهود أن أحداً لا ينال من درجات الفضل ما نالوه فقال لهم الله : إن كان الأمر كما قلتم وجب أن لا تشتغلوا باستعباد الناس واستخدامهم وهذا الوجه يحتمله لفظ الآية فإن قوله : ﴿ ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ﴾ كقوله : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ [التوبة : 31] ومعنى قوله : ﴿ ما كان لبشر ﴾ قال الأصم : لو

أرادوا أن يقولوا ذلك لمنعهم الله منه نظيره ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ [الحاقة : 44 ، 45] ﴿ لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ﴾ [الإسراء : 74 ، 75] وقيل : معناه أنه تعالى لا يشرف عبداً بالنبوة إلا إذا علم منه أنه لا يقول مثل ذلك الكلام . وقيل : إن الرسول يدعي تبليغ الأحكام عن الله تعالى ويحتج على صدقه بالمعجزة . فلو أمرهم بعبادة نفسه بطل دلالة المعجزة على كونه صادقاً . والتحقيق أن الأنبياء موصوفون بصفات لا يحصل

معها هذا الادعاء ، لأن النفس ما لم تكن كاملة بحسب قوتها النظرية والعملية لم تكن مستعدة لقبول نزول الكتاب السماوي عليه وللحكم وهو فهم ذلك الكتاب وبيانه .

(238/122)

وقد يعبر عنه بالسنة والنبوة وهو كونه مأموراً بتبليغ ما فهم إلى الخلق ، وما أحسن هذا الترتيب ، وإذا كانت كاملة بحسب القوتين وما يتبعهما امتنع من مثله مل هذا القول والاعتقاد ، لأن غاية جهد النبي وقصارى أمره صرف القلوب والأرواح من الخلق إلى الحق ، فكيف يعقل منه ضده ؟ فتبين أنه ليس المراد من قوله : ﴿ ما كان لبشر ﴾ إلى قوله : ﴿ كونوا عباداً لي من دون الله ﴾ أنه يحرم عليه هذا الكلام لأن ذلك محرم على كل الخلق . ولو كان المراد منه التحريم لم يكن فيه تكذيب للنصارى في ادعائهم ذلك على المسيح ، لأن من ادعى على رجل فعلاً فقيل له إن فلاناً لا يحل له أن يفعل ذلك لم يكن مكذباً له فيما ادعاه عليه . ومثله ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد ﴾ [مريم : 35] على سبيل النفي لذلك عن نفسه لا على وجه التحريم والحظر . وكذا قوله : ﴿ ما كان لنبي أن يغل ﴾ [آل عمران : 161] ومعناه النفي لا النهي . ومعنى " ثم " في قوله : ﴿ ثم يقول ﴾ تبعيد هذا القول عن مثل ذلك البشر ﴿ ولكن كونوا ﴾ ولكن يقول كونوا ﴿ ربانيين ﴾ قال

سيبويه : الرباني منسوب إلى الرب بمعنى كونه عالماً به ومواظباً على طاعته كما يقال : رجل إلهي إذا كان مقبلاً على معرفة الإله وطاعته . وزيادة الألف والنون في النسبة فقط للدلالة على كمال هذه الصفة كما قالوا : شعراني ولحياني ورقباني للموصوف بكثرة الشعر وطول اللحية وغلظ الرقبة . وقال المبرد : والربانيون أرباب العلم واحدها ربان وهو الذي يرب العلم ويرب الناس بتعليمهم وإصلاحهم والقيام بأمرهم . والألف والنون كما في ريان وعطشان لا يختص بحال النسبة . والربانيون بهذا التفسير يشمل الولاة أيضاً . قال القفال : يحتمل أن يكون الوالي يسمى ربانياً لأن يطاع كالرب تعالى فينسب إليه . فمعنى الآية : ولكن يدعوكم إلى أن تكونوا ملوكاً وعلماء باستعمالكم أمر الله تعالى ومواظبتكم على طاعته . وقال أبو عبيدة : أحسب أن هذه الكلمة ليست

بعربية إنما هي عبرانية أو سريانية . وسواء كانت عربية أو عبرية تدل على الإنسان الذي علم وعمل بما علم ثم اشتغل بتعليم طرق الخير . عن محمد ابن الحنفية أنه قال حين مات ابن عباس : اليوم مات رباني هذه الأمة . والباء في قوله : ﴿ بما كنتم ﴾ للسببية و " ما " مصدرية و ﴿ تعلمون ﴾ من التعليم أو العلم على القراءتين فيعلم منه أن التعليم أو العلم أو

الدراسة وهي القراءة توجب على صاحبها كونه ربانياً ، والسبب لا محالة مغاير للمسبب فهذا يقتضي أن يكون كونه ربانياً أمراً مغايراً لكونه عالماً ومعلماً ومواظباً على قراءة العلم ، وما ذاك إلا بأن يكون تعلمه لله وتعليمه لله ودراسته لله .

(240/122)

فمن اشتغل بالعلم والتعليم والدراسة لا لهذا الغرض خاب وخسر وكان السبب بينه وبين ربه منقطعاً وكان مثله كمن غرس شجرة تونقه بمنظرها ولا تنفعه بثمرها ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : " نعوذ بالله من قلب لا يشخع ومن علم لا ينفع " وفي الآية دليل على صحة قوله صلى الله عليه وسلم : " العلماء ورثة الأنبياء " تأمل تفهم بإذن الله . ﴿ ولا يأمركم ﴾ من قرأ بالنصب فوجهان : أحدهما أن تجعل " لا " مزيدة لتأكيد النفي أي ما ينبغي لبشر أن ينصبه الله منصب الدعاء إلى اختصاص الله بالعبادة ثم يخالفه إلى أن يأمر الناس بعبادة نفسه ويأمركم ﴿ أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ﴾ كما تقول : ما كان لزيد أن أكرمه ثم يهينني ويستخف بي . والثاني أن يكون حرف النفي غير زائد فيرجع المعنى إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسل كان ينهي قريشاً عن عبادة الملائكة ، واليهود والنصارى عن عبادة عزير والمسيح بحيث قالوا له : أنتخذك رباً ؟ قيل لهم : ما كان لبشر أن يستنبئه

الله ثم يأمر الناس بعبادة نفسه وينهاكم عن عبادة الملائكة والأنبياء ، فيكون عدم الأمر في معنى النهي . ويراد بالنبيين غيره صلى الله عليه وسلم كأنه أخرج نفسه بتلك الدعوى عن زمرة الأنبياء . ومن قرأ بالرفع على الاستئناف فظاهر وتنصره قراءة عبد الله بن مسعود ﴿ ولن يأمركم ﴾ والضمير فيه على قراءة الرفع - قال الزجاج - لله . وقال ابن جريج لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : لعيسى . وإنما خص الملائكة والنبيين بالذكر لأن الذين وصفوا بعبادة غير الله لم يحك عنهم إلا عبادة الملائكة وعبادة المسيح . ﴿ أيأمركم ﴾ أي البشر وقيل : الله ﴿ بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ ومعنى الاستفهام الإنكار أي إنه لا يفعل ذلك . قيل : وفيه دليل على أن المخاطبين كانوا مسلمين وهم الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسجدوا له . قلت : وضع الشيء ابتداء أسهل من رفع نقيضه ثم وضعه ، فيحتمل أن يكون

(241/122)

المراد ما صح ولا يعقل أن يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أمته بعبادة نفسه أول ما استنبىء ، فكيف يعقل أن يأمرهم بذلك بعد الفهم بالإسلام واستنارة باطنهم بنور الهدى والإيمان بالله ؟ . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 2 صـ 186.196 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والعشرون بعد المائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثالث والعشرون بعد المائة

من الآية ﴿ 81 ﴾ من سورة آل عمران

وحتى الآية ﴿ 91 ﴾ من نفس السورة

(4/123)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آَتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (81) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (82) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بين سبحانه وتعالى فيما مضى أن التولي عن الرسل كفر ، وذكر كثيراً من الرسل فخص في ذكرهم وعمم ، ذكر قانوناً كلياً لمعرفة الرسول عنه سبحانه وتعالى والتمييز بينه وبين الكاذب فقال عاطفاً على ﴿ إذ أنتم مسلمون ﴾ ﴿ وإذ أخذ الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ ميثاق النبيين ﴾ أي كافة ، والمعنى : ما كان له أن يقول ذلك بعد الإنعام عليكم

بالإسلام والإنعام عليه بأخذ الميثاق على الناس - الأنبياء وغيرهم - بأن يؤمنوا به إذا آتاهم ، فيكون بذلك الفعل مكفراً لغيره وكافراً بنعمة ربه ، وهذا معنى قوله : ﴿ لما ﴾ أي فقال لهم الله : لما ﴿ آتيتكم ﴾ وقراءة نافع : آتيناكم ، أوفق لسياق الجلالة - قاله الجعبري ﴿ من كتاب وحكمة ﴾ أي أمرتكم بها بشرع من الشرائع ، فأمرتم بذلك من أرسلتم إليه ﴿ ثم جاءكم رسول ﴾ أي من عندي ، ثم وصفه بما يعلم أنه من عنده فقال : ﴿ مصدق لما معكم ﴾ أي من ذلك الكتاب والحكمة ﴿ لتؤمنن به ﴾ أي أنتم وأممكم ﴿ ولتنصرنه ﴾ أي على من يخالفه ، فكأنه قيل : إن هذا الميثاق عظيم ، فقيل : إنّ ، زاد في تأكيده اهتماماً به فقال : ﴿ قال ءأقررتم ﴾ أي يا معشر النبيين ﴿ وأخذتم على ذلكم ﴾ أي العهد المعظم بالإشارة بأداة البعد وميم الجمع ﴿ إصري ﴾ أي عهدي ، سمي بذلك لما فيه من الثقل ، فإنه يشد في نفسه بالتوثيق والتوثق ، ويشتد بعد كونه على النفوس لما لها من النزوع إلى الإطلاق عن عهد التقيد بنوع من القيود ، فكأنه قيل : ما قالوا ؟ فقيل : ﴿ قالوا أقررنا ﴾ أي بذلك ، فقيل : ما قال ؟ فقيل ﴿ قال فاشهدوا ﴾ أي يا أنبياء ! بعضكم على بعض ، أو يا ملائكة ! عليهم ﴿ وأنا معكم من الشاهدين فمن ﴾ أي فتسبب عنه أنه من ﴿ تولى ﴾ أي منكم أو من أممكم الذي بلغهم ذلك عن نصرة نبي موصوف بما ذكر .

ولما كان المستحق لغاية الذم إنما هو من اتصل توليه بالموت لم يقرن الظرف بجار فقال : ﴿ بعد ذلك ﴾ أي الميثاق البعيد الرتبة بما فيه من الوثاقة ﴿ فأولئك ﴾ أي البعداء من

خصال الخير ﴿ هم الفاسقون ﴾ أي المختصون بالخروج العظيم عن دائرة الحق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 119 ﴾

(5/123)

اللغة :

[ميثاق] الميثاق : العهد المؤكد بيمين ونحوه وقد تقدم

[إصري] عهدي واصله في اللغة الثقل قال الزمخشري : وسمي اصرا لانه مما يؤصر أى يشد ويعقد

[الفاسقون] الخارجون عن طاعة الله

[طوعا] انقيادا عن رغبة

[كرها] اجبارا وهو كاره

[الاسباط] جمع سبط وهو ابن الابن والمراد به هنا قبائل بني اسرائيل من اولاد يعقوب

[ينظرون] يمهلون يقال : انظره يعني امهله والنظرة الامهال

[الخاسرون] الخسران : انتقاص رأس المال يقال : خسر فلان أى أضاع من رأس ماله

[الضالون] التائهون في مهامه الكفر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 214.213 ﴾

(6/123)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ لما ﴾ بكسر اللام حمزة الخزا . الباقون بفتحها . ﴿ آتيناكم ﴾ على صيغة جمع المتكلم : أبو جعفر ونافع . الباقون ﴿ آتيتكم ﴾ على الوحدة ﴿ يبغون ﴾ بياء الغيبة و ﴿ ترجعون ﴾ بتاء الخطاب مبنياً للمفعول : أبو عمرو غير عباس . وقرأ عباس وسهل وحفص بالياء التحتانية فيهما وقرأ يعقوب ﴿ يبغون ﴾ بالياء التحتانية ﴿ يرجعون ﴾ بالتحتانية مبنياً للفاعل . الباقون بتاء الخطاب فيهما ﴿ ملء ﴾ بالهمزة ﴿ الأرض ﴾ بغير الهمز . روى النجاري عن ورش وروى الأصفهاني عنه بغير همز فيهما . الباقون بالهمز فيهما .

الوقوف : ﴿ ولتنصرنه ﴾ ط ﴿ إصري ﴾ ط ﴿ أقررنا ﴾ ط ﴿ الشاهدين ﴾ ه ﴿ الفاسقون ﴾ ه ﴿ يرجعون ﴾ ه ﴿ من ربهم ﴾ ص ﴿ منهم ﴾ ج ﴿ مسلمون

﴿ ه ﴾ منه ﴿ ج لعطف المختلفتين ﴾ الخاسرين ﴿ ه ﴾ البينات ﴿ ط ﴾ الظالمين

﴿ ه ﴾ اجمعين ﴿ ه ﴾ فيها ﴿ ج (لا) ﴾ ينظرون ﴿ ه (لا) للاستثناء ﴾ رحيم

﴿ ه ﴾ توبتهم ﴿ ج ﴾ الضالون ﴿ ه ، ﴾ افتدى به ﴿ ط ﴾ ناصرين ﴿ ه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 2 صـ 197 ﴾

(7/123)

فصل

قال الفخر :

اعلم أن المقصود من هذه الآيات تعديد تقرير الأشياء المعروفة عند أهل الكتاب مما يدل على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم قطعاً لعذرهم وإظهاراً لعنادهم ومن جملتها ما ذكره الله تعالى في هذه الآية وهو أنه تعالى أخذ الميثاق من الأنبياء الذين آتاهم الكتاب والحكمة بأنهم كلما جاءهم رسول مصدق لما معهم آمنوا به ونصروه ، وأخبر أنهم قبلوا ذلك وحكم تعالى بأن من رجع عن ذلك كان من الفاسقين ، فهذا هو المقصود من الآية فحصل الكلام أنه تعالى أوجب على جميع الأنبياء الإيمان بكل رسول جاء مصدقاً لما معهم إلا أن هذه المقدمة الواحدة لا تكفي في إثبات نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ما لم يضم إليها مقدمة

أخرى ، وهي أن محمداً رسول الله جاء مصدقاً لما معهم ، وعند هذا لقائل أن يقول : هذا إثبات للشيء بنفسه ، لأنه إثبات لكونه رسولاً بكونه رسولاً .

والجواب : أن المراد من كونه رسولاً ظهور المعجز عليه ، وحينئذ يسقط هذا السؤال والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 101 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ ﴾ فقال ابن جرير الطبري : معناه واذكروا يا أهل الكتاب إذ أخذ الله ميثاق النبيّين ، وقال الزجاج : واذكر يا محمد في القرآن إذ أخذ الله ميثاق النبيّين .

(8/123)

أما قوله ﴿ ميثاق النبيين ﴾ فاعلم أن المصدر يجوز إضافته إلى الفاعل وإلى المفعول ، فيحتمل أن يكون الميثاق مأخوذاً منهم ، ويحتمل أن يكون مأخوذاً لهم من غيرهم ، فلهذا السبب اختلفوا في تفسير هذه الآية على هذين الوجهين .

أما الاحتمال الأول : وهو أنه تعالى أخذ الميثاق منهم في أن يصدق بعضهم بعضاً ، وهذا قول سعيد بن جبير والحسن وطاوس رحمهم الله ، وقيل : إن الميثاق هذا مختص بمحمد

صلى الله عليه وسلم ، وهو مروي عن علي وابن عباس وقتادة والسدي رضوان الله عليهم ، واحتج أصحاب هذا القول على صحته من وجوه

الأول : أن قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ الله ميثاق النبيين ﴾ يشعر بأن آخذ الميثاق هو الله تعالى ، والمأخوذ منهم هم النبيون ، فليس في الآية ذكر الأمة ، فلم يحسن صرف الميثاق إلى الأمة ، ويمكن أن يجاب عنه من وجوه

الأول : أن على الوجوه الذي قلتم يكون الميثاق مضافاً إلى الموثق عليه ، وعلى الوجه الذي قلنا يكون إضافته إليهم إضافة الفعل إلى الفاعل ، وهو الموثق له ، ولا شك أن إضافة الفعل إلى الفاعل أقوى من إضافته إلى المفعول ، فإن لم يكن فلا أقل من المساواة ، وهو كما يقال ميثاق الله وعهده ، فيكون التقدير : وإذ أخذ الله الميثاق الذي وثقه الله للأنبياء على أممهم

الثاني : أن يراد ميثاق أولاد النبيّين ، وهو بنو إسرائيل على حذف المضاف وهو كما يقال : فعل بكر بن وائل كذا ، وفعل معد بن عدنان كذا ، والمراد أولادهم وقومهم ، فكذا ههنا

الثالث : أن يكون المراد من لفظ ﴿ النبيين ﴾ أهل الكتاب وأطلق هذا اللفظ عليهم تهكماً بهم على زعمهم لأنهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوّة من محمد عليه الصلاة والسلام لأنا أهل الكتاب ومنا كان النبيون

الرابع : أنه كثيراً ورد في القرآن لفظ النبي والمراد منه أمته قال تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا النبى إِذَا طَلَّقْتُمُ النساء ﴾ [الطلاق : 1] .

الحجة الثانية : لأصحاب هذا القول : ما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال : " لقد جئتكم بها بيضاء نقية أما والله لو كان موسى بن عمران حياً لما وسعه إلا اتباعي " .

الحجة الثالثة : ما نقل عن علي رضي الله عنه أنه قال : إن الله تعالى ما بعث آدم عليه السلام ومن بعده من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلا أخذ عليهم العهد لئن بعث محمد عليه الصلاة والسلام وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، فهذا يمكن نصرة هذا القول به والله أعلم .

الاحتمال الثاني : إن المراد من الآية أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يأخذون الميثاق من أممهم بأنه إذا بعث محمد صلى الله عليه وسلم فإنه يجب عليهم أن يؤمنوا به وأن ينصروه ، وهذا قول كثير من العلماء ، وقد بينا أن اللفظ محتمل له وقد احتجوا على صحته بوجوه

الأول : ما ذكره أبو مسلم الأصفهاني فقال : ظاهر الآية يدل على أن الذين أخذ الله الميثاق منهم يجب عليهم الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم عند مبعثه ، وكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يكونون عند مبعث محمد صلى الله عليه وسلم من زمرة الأموات ، والميت لا يكون مكلفاً فلما كان الذين أخذ الميثاق عليهم يجب عليهم الإيمان بمحمد عليه السلام

عند مبعثه ولا يمكن إيجاب الإيمان على الأنبياء عند مبعث محمد عليه السلام ، علمنا أن الذين أخذ الميثاق عليهم ليسوا هم النبيّين بل هم أمم النبيّين قال : ومما يؤكد هذا أنه تعالى حكم على الذين أخذ عليهم الميثاق أنهم لو تولوا لكانوا فاسقين وهذا الوصف لا يليق بالأنبياء عليهم السلام وإنما يليق بالأمم ،

(10/123)

أجاب القفال رحمه الله فقال لم لا يجوز أن يكون المراد من الآية أن الأنبياء لو كانوا في الحياة لوجب عليهم الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 65] وقد علم الله تعالى أنه لا يشرك قط ولكن خرج هذا الكلام على سبيل التقدير والفرض فكذا ههنا ، وقال : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل * لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين ﴾ [الحاقة : 44 ، 45 ، 46] وقال في صفة الملائكة ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنّى إله مّن دُونِهِ فذلك نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِى الظالمين ﴾ [الأنبياء : 29] مع أنه تعالى أخبر عنهم بأنهم لا يسبقونه بالقول وبأنهم يخافون ربهم من فوقهم ، فكل ذلك خرج على سبيل الفرض والتقدير فكذا ههنا ، ونقول إنه سماهم فاسقين على تقدير التولي فإن اسم الفسق ليس أقبح من اسم الشرك ، وقد ذكر تعالى ذلك

على سبيل الفرض والتقدير في قوله ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 65] فكذا ههنا .

الحجة الثانية : أن المقصود من هذه الآية أن يؤمن الذين كانوا في زمان الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان الميثاق مأخوذاً عليهم كان ذلك أبلغ في تحصيل هذا المقصود من أن يكون مأخوذاً على الأنبياء عليهم السلام ، وقد أجيب عن ذلك بأن درجات الأنبياء عليهم السلام ، أعلى وأشرف من درجات الأمم ، فإذا دلت هذه الآية على أن الله تعالى أوجب على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد عليه السلام لو كانوا في الأحياء ، وأنهم لو تركوا ذلك لصاروا من زمرة الفاسقين فلأن يكون الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم واجباً على أممهم لو كان ذلك أولى ، فكان صرف هذا الميثاق إلى الأنبياء أقوى في تحصيل المطلوب من هذا الوجه .

(11/123)

الحجة الثالثة : ما روي عن ابن عباس أنه قيل له إن أصحاب عبد الله يقرؤن ﴿ وَإِذْ أَخَذَ الله ميثاق الذين أُوتُوا الكتاب ﴾ ونحن نقرأ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ الله ميثاق النبيين ﴾ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : إنما أخذ الله ميثاق النبيّين على قومهم .

الحجة الرابعة : أن هذا الاحتمال متأكد بقوله تعالى : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نِعْمَتِيَ التى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ وبقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ ميثاق الذين أُوتُواْ الكتاب لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ ﴾ [آل عمران : 187] فهذا جملة ما قيل في هذا الموضوع ، والله أعلم بمراده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 101 . 103 ﴾

قال الطبرى :

وأولى هذه الأقوال في ذلك بالصواب ، قول من قال : معنى ذلك : الخبرُ عن أخذ الله الميثاقَ من أنبيائه بتصديق بعضهم بعضًا ، وأخذ الأنبياء على أممها وتُبَّاعها الميثاقَ بنحو الذي أخذَ عليها ربُّها من تصديق أنبياء الله ورسله بما جاءتها به لأن الأنبياء عليهم السلام بذلك أرسلت إلى أممها . ولم يدَّع أحدٌ ممن صدَّق المرسلين ، أن نبيًّا أرسِل إلى أمة بتكذيب أحد من أنبياء الله عز وجل وحُجَجه في عباده بل كلها وإن كذب بعض الأمم بعض أنبياء الله ، بجحودها نبوّته مقرّةٌ بأنّ من ثبتت صحّة نبوته ، فعليها الدينونة بتصديقه . فذلك ميثاق مقرٌّ به جميعهم .

ولا معنى لقول من زعم أن الميثاق إنما أخذ على الأمم دون الأنبياء . لأن الله عز وجل قد أخبر أنه أخذ ذلك من النبيين ، فسواءٌ قال قائل : "لم يأخذ ذلك منها ربها" أو قال : "لم يأمرها ببلاغ ما أرسلت" ، وقد نصّ الله عز وجل أنه أمرها بتبليغه ، لأنهما جميعًا خبرَان

من الله عنها : أحدهما أنه أخذ منها ، والآخر منهما أنه أمرَها . فإن جاز الشك في أحدهما ، جازَ في الآخر .

(12/123)

وأما ما استشهد به الربيع بن أنس ، على أن المعنيَّ بذلك أهلُ الكتاب من قوله : "لتؤمنن به ولتنصرنه" ، فإن ذلك غير شاهد على صحة ما قال . لأن الأنبياء قد أمر بعضُها بتصديق بعض ، وتصديقُ بعضها بعضًا ، نُصرةٌ من بعضها بعضًا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 557 ﴾

فائدة لغوية

قال ابن عادل :

العامل في " إذْ " وجوه :

أحدها : " اذكر " إن كان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم .

الثاني : " اذكروا " إن كان الخطاب لأهل الكتاب .

الثالث : اصطفى ، فيكون معطوفاً على " إذْ " المتقدمة قبلها ، وفيه بُعْدٌ ؛ بل امتناع ؛ لبُعْده .

الرابع : أن العامل فيه " قَالَ " في قوله : ﴿ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ ﴾ وهو واضح .

وميثاق ، يجوز أن يكون مضافاً لفاعله ، أو لمفعوله ، وفي مصحف أبيّ وعبد الله وقراءتهما : ﴿ مِيثَاقَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ [آل عمران : 187] . وعن مجاهد ، وقال : أخطأ الكاتب .

قال شهابُ الدين : " وهذا خطأٌ من قائله – كائناً مَنْ كان – ولا أظنه عن مجاهد ؛ فإنه قرأ عليه مثل ابن كثير وأبي عمرو بن العلاء ، ولم يَنْقُلْ عنه واحدٌ منهما شيئاً مِنْ ذلك " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 354 ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَمَا ءَاتَيْتُكُم مّن كتاب وَحِكْمَةٍ ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ الجمهور ﴿ لَمّاَ ﴾ بفتح اللام وقرأ حمزة بكسر اللام وقرأ سعيد بن جبير ﴿ لَمّاَ ﴾ مشددة ، أما القراءة بالفتح فلها وجهان

الأول : أن ﴿ مَا ﴾ اسم موصول والذي بعده صلة له وخبره قوله ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ﴾ والتقدير : للذي آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ، وعلى هذا التقدير (مَا) رفع بالابتداء والراجع إلى لفظة (مَا) وموصولتها محذوف والتقدير : لما

آتيتكموه فحذف الراجع كما حذف من قوله ﴿ أهذا الذى بَعَثَ الله رَسُولاً ﴾ [الفرقان : 41] وعليه سؤالان :

(13/123)

السؤال الأول : إذا كانت (مَا) موصولة لزم أن يرجع من الجملة المعطوفة على الصلة ذكر إلى الموصول وإلا لم يجز ، ألا ترى أنك لو قلت : الذي قام أبوه ثم انطلق زيد لم يجز .

وقوله ﴿ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدّقٌ لّمَا مَعَكُمْ ﴾ ليس فيه راجع إلى الموصول ، قلنا : يجوز إقامة المظهر مقام المضمر عند الأخفش والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ [يوسف : 90] ولم يقل : فإن الله لا يضيع أجره ، وقال : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ [الكهف : 30] ولم يقل : إنا لا نضيع أجرهم وذلك لأن المظهر المذكور قائم مقام المضمر فكذا ههنا .

السؤال الثاني : ما فائدة اللام في قوله ﴿ لَّمَا ﴾ ؟

قلنا : هذه اللام هي لام الابتداء بمنزلة قولك : لزيد أفضل من عمرو ، ويحسن إدخالها على ما يجري مجرى المقسم عليه لأن قوله ﴿ إِذْ أَخَذَ الله ميثاق النبيين ﴾ بمنزلة القسم والمعنى استحلفهم ، وهذه اللام المتلقية للقسم ، فهذا تقرير هذا الكلام .

الوجه الثاني : وهو اختيار سيبويه والمازني والزجاج أن (مَا) ههنا هي المتضمنة لمعنى الشرط والتقدير ما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ، فاللام في قوله ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ﴾ هي المتلقية للقسم ، أما اللام في ﴿ لَّمَّاً ﴾ هي لام تحذف تارة ، وتذكر أخرى ، ولا يتفاوت المعنى ونظيره قولك : والله لو أن فعلت ، فعلت فلفظة (أن) لا يتفاوت الحال بين ذكرها وحذفها فكذا ههنا ، وعلى هذا التقدير كانت (ما) في موضع نصب بآتيتكم ﴿ وَجَاءكُمُ ﴾ جزم بالعطف على ﴿ ءاتَيْتُكُم ﴾

(14/123)

و ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ﴾ هو الجزاء ، وإنما لم يرض سيبويه بالقول الأول لأنه لا يرى إقامة المظهر مقام المضمر ، وأما الوجه في قراءة ﴿ لَّمّاً ﴾ بكسر اللام فهو أن هذا لام التعليل كأنه قيل : أخذ ميثاقهم لهذا لأن من يؤتى الكتاب والحكمة فإن اختصاصه بهذه الفضيلة يوجب عليه تصديق سائر الأنبياء والرسل (وَمَا) على هذه القراءة تكون موصولة ، وتمام البحث فيه ما قدمناه في الوجه الأول ، وأما قراءة ﴿ لَّمّاً ﴾ بالتشديد فذكر صاحب "الكشاف" فيه وجهين

الأول : أن المعنى : حين آتيتكم بعض الكتاب والحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق له ،

وجب عليكم الإيمان به ونصرته

والثاني : أن أصل ﴿ لَّمّاً ﴾ لمن ما فاستثقلوا اجتماع ثلاث ميمات ، وهي الميمان والنون المنقلبة ميماً بإدغامها في الميم فحذفوا إحداها فصارت ﴿ لَّمّاً ﴾ ومعناه : لمن أجل ما آتيتكم لتؤمنن به ، وهذا قريب من قراءة حمزة في المعنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 103 ﴾

وقال ابن عادل :

قرأ العامَّة : " لما آتيتكم " بفتح لام " لما " وتخفيف الميم ، وحمزة - وحده - على كسر اللام . وقرأ الحسن وسعيد بن جبير " لَمَّا " بالفتح والتشديد .

فأما قراءة العامة ففيها خمسة أوجه :

أحدها : أن تكون " ما " موصولة بمعنى الذي ، وهي مفعولة بفعل محذوف ، ذلك الفعل هو جواب القسم والتقدير : واللهِ لَتُبَلِّغُنَّ ما آتيناكم من كتاب . قال هذا القائلُ : لأن لامَ القسَم إنما تقع على الفعل فلما دلت هذه اللام على الفعل حُذِف . ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم قال : وعلى هذا التقدير يستقيم النَّظْمُ .

وقال شهاب الدينِ : وهذا الوجه لا ينبغي أن يجوز ألبتة ؛ إذ يمتنع أن تقول في نظيره من الكلام : " والله لزيداً " تريد : والله لنضربن زيداً .

الوجه الثاني : وهو قول أبي علي وغيره : أن تكون اللام - في "لَمَا " - جواب قوله : ﴿ مِيثَاقَ النبيين ﴾ لأنه جارٍ مَجْرَى القسم ، فهي بمنزلة قولك : لزيدٌ أفضل من عمرو ، فهي لام الابتداء المتَلَقَّى بها القسم وتسمى اللام المتلقية للقسم . و" ما " مبتدأة موصولة و" آتيتكم " صلتها ، والعائد محذوف ، تقديره : آتيناكموه فحذف لاستكمال شرطه . و ﴿ مِّن كِتَابٍ ﴾ حال - إما من الموصول ، وإما من عائده - وقوله : ﴿ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ عطف على الصلة ، وحينئذٍ فلا بد من رابط يربط هذه الجملةَ بما قبلها ؛ فإن المعطوفَ على الصلة صِلة .

واختلفوا في ذلك ، فذهب بعضهم إلى أنه محذوف ، تقديره : جاءكم رسول به ، فحذف " به " لطول الكلام ودلالة المعنى عليه . وهذا لا يجوز ؛ لأنه متى جُرَّ العائدُ لم يُحْذَف إلا بشروط ، وهي مفقودةٌ هنا ، [وزعم هؤلاء أن هذا مذهب سيبويه ، وفيه ما قد عرفت ، ومنهم من] قال : الربط حصل - هنا - بالظاهر ، لأن الظاهر - وهو قوله " لما معكم " صادق على قوله : " لما آتيناكم " فهو نظير : أبو سعيد الذي رويت عن الخدري ، والحجاج الذي رأيت أبو يوسف .

وقال : [الطويل]

فَيَا رَبَّ لَيْلَى أَنْتَ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ . . . وَأَنْتَ الَّذِي فِي رَحْمَةِ اللهِ أَطْمَعُ

يريد رويت عنه، ورأيته، وفي رحمته. فأقام الظاهر مقام المضمر، وقد وقع ذلك في المبتدأ والخبر، نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ [الكهف: 30] ولم يقل: إنا لا نضيع، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ [يوسف: 90] ولم يقل: لا يضيع أجره وهذا رأي أبي الحسن والأخفش. وقد تقدم البحث فيه.

(16/123)

ومنهم من قال: إن العائد يكون ضمير الاستقرار العامل في " مَعَ " و " لتؤمنن به " جوابُ قسمٍ مقدرٍ، وهذا القَسَم المقدَّر وجوابه خبر للمبتدأ الذي هو " لما آتيناكم " والهاء - في " بِهِ " - تعود على المبتدأ، ولا تعود على " رَسُولٌ " لئلاَّ يلزم خلوّ الجملة الواقعة خبراً من رابط يربطها بالمبتدأ.

الوجه الثالث: كما تقدم، إلا أن اللام في " لَمَا " لام التوطئة؛ لأن أخذ الميثاق في معنى الاستخلاف. وفي " لتؤمنن " لام جواب القسم، هذا كلام الزمخشريّ. ثم قال: و " ما " تحتمل أن تكون المتضمنة لمعنى الشرط، و " لَتُؤْمِنُنَّ " سادّ مَسَدّ جواب القَسَم والشرط جميعاً، وأن تكون بمعنى الذي. وهذا الذي قاله فيه نظرٌ؛ من حيثُ إن لام التوطئة تكون

مع أدوات الشرط، وتأتي - غالباً - مع "إن" أما مع الموصول فلا يجوزُ في اللام أن تكون موطئةً وأن تكون للابتداء. ثم ذكر في "ما" الوجهين، لحملنا كل واحد على ما يليق به.

الوجه الرابع: أن اللام هي الموطئة، و"ما" بعدها شرطية، ومحلها النصب على المفعول به بالفعل الذي بعدها - وهو "آتيْنَاكُمْ"، وهذا الفعل مستقبل معنًى؛ لكونه في جزاء الشرط، ومحله الجزم، والتقدير: والله لأي شيء آتيتكم من كذا وكذا ليكونن كذا، وقوله: ﴿ مِّن كِتَابٍ ﴾، كقوله: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ [البقرة: 106] وقد تقدم تقريره.

وقوله: ﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ عطف على الفعل قبله، فيلزم أن يكون فيه رابط يربطه بما عُطِف عليه، و"لَتُؤْمِنُنَّ" جواب لقوله: ﴿ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النبيين ﴾ وجواب الشرط محذوف، سَدَّ جوابُ القسم مَسَدَّه، والضمير في "بِهِ" عائد على "رَسُولٌ"، كذا قال أبو حيّان.

(17/123)

قال شهاب الدين: "وفيه نظر؛ لأنه يمكن عودُه على اسم الشرط، ويُستغنَى - حينئذٍ - عن تقديره رابطاً".

وهذا كما تقدم في الوجه الثاني ونظير هذا من الكلام أن تقول: أحلف بالله لأيهمْ رأيت، ثم

ذهب إليه رجل قرشي لأحسنن إليه – تريد إلى الرجل – وهذا الوجه هو مذهب الكسائي.

وقد سأل سيبويه الخليل عن هذه الآية، فأجاب بأن "ما" بمنزلة الذي، ودخلت اللام على "ما" كما دخلت على "إن" حين قلت: والله لئن فعلت لأفعلن، فاللام التي في "ما" كهذه التي في "إن" واللام التي في الفعل كهذه اللام التي في الفعل هنا. هذا نصُّ الخليلِ.

قال أبو علي: لم يرد الخليل بقوله: إنما بمنزلة الذي كونها موصولة، بل إنها اسم كما أن "الذي" اسم وإما أن تكون حرفاً كما جاءت حرفاً في قوله: ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ ﴾ [هود: 111] وقوله: ﴿ وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحياة الدنيا ﴾ [الزخرف: 35].

وقال سيبويه: ومثل ذلك ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ [الأعراف: 18] إنما دخلت اللام على نية اليمين. وإلى كونها شرطية ذهب جماعة كالمازني والزجَّاج والفارسيّ والزمخشري.

قال أبو حيّان: "وفيه خدش لطيف جداً" وحاصل ما ذكر: أنهم إن أرادوا تفسير المعنى فيمكن أن يقال، وإن أرادوا تفسير الإعراب فلا يصح؛ لأن كلاًّ منهما – أعني: الشرط والقسم – يطلب جواباً على حدة، ولا يمكن أن يكون هذا محمولاً عليهما؛ لأن الشرط يقتضيه على جهة العمل، فيكون في موضع جزمٍ، والقسم يطلبه على جهة التعلُّق

المعنويّ به من غير عملٍ ، فلا موضع له من الإعراب ، ومحال أن يكون الشيءُ له موضع من الإعراب ولا موضع له من الإعراب . [وتقدم هذا الإشكال وجوابه] .

(18/123)

الوجه الخامس : أن أصلها " لَمّا " - بالتشديد - فخُفِّفَتْ ، وهذا قول أبي إسحاق وسيأتي في قراءة التشديد ، وقرأ حمزة لما - بكسر اللام ، خفيفة الميم - أيضاً - وفيها أربعة أوجه :

أحدها : وهو أغربها - أن تكون اللام بمعنى "بَعْد " .

كقول النابغة : [الطويل]

تَوَهَّمْتُ آيَاتٍ لها فعَرفْتُهَا . . . لِسِتّةِ أعْوَامٍ وَذَا الْعَامُ سَابِعُ

يريد : فعرفتها بعد ستة أعوام ، وهذا منقول عن صاحب النَّظْم .

قال شهاب الدين : " ولا أدري ما حمله على ذلك ؟ وكيف ينتظم هذا كلاماً ؟ إيْصير تقديره : وإذْ أخذ الله ميثاق النبيين بعدما آتيتكم ، ومَن المخاطب بذلك ؟ " .

الثاني : أن اللام للتعليل - وهذا الذي ينبغي أن لا يُحَاد عنه - وهي متعلِّقة بـ " لتؤمنن " و ما " حينئذٍ - مصدرية .

قال الزمخشري : " ومعناه : لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب والحكمة ، ثم لمجيء رسول مصدق لتؤمنن به على أن " ما " مصدرية ، والفعلان معها – أعني : " آتيناكم " و " جاءكم " – في معنى المصدرين ، واللام داخلة للتعليل ، والمعنى : أخذ اللهُ ميثاقهم ليؤمنن بالرسول ، ولينصرنه ، لأجل أن آتيتكم الكتابَ والحكمةَ ، وأن الرسول الذي آمركم بالإيمان به ونُصْرَتِهِ موافق لكم ، غير مخالف لكم " .

(19/123)

قال أبو حيّان : وظاهر هذا التعليل الذي ذكره ، والتقدير الذي قدره أنه تعليلٌ للفعل المقسَم فإن عنى هذا الظاهر ، فهو مخالفٌ لظاهر الآية ؛ لأن ظاهر الآية يقتضي أن يكون تعليلاً لأخْذ الميثاق ، لا لمتعلّقه – وهو الإيمان – فاللام متعلقة بـ " أخَذَ " وعلى ظاهر تقدير الزمخشريِّ تكون متعلقة بقوله : ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ﴾ ويمتنع ذلك من حيث إن اللام المتَلَقَّى بها القسم لا يعمل ما بعدها فيما قبلها تقول : والله لأضربن زيداً ، ولا يجوز : والله زيداً لأضربن ، فعلى هذا لا يجوز أن تتعلق اللام في " لَمَا " بقوله : " لتؤمنن " .

وأجاز بعض النحويين في معمول الجواب – إذا كان ظرفاً أو مجروراً – تَقَدُّمَه ، وجعل من ذلك قوله : ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ [المؤمنون : 40] .

وقوله : [الطويل]

. . . . بِأَسْحَم دَاجٍ عَوْضُ لا تتفَرَّقُ

فعلى هذا يجوز أن يتعلق بقوله : ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ ﴾ .

قال شهاب الدين " أما تعلُّق اللام بـ ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ ﴾ – من حيث المعنى – فإنه أظهر من تعلُّقِها بـ " أخذ " فلم يَبْقَ إلا ما ذكر من منع تقديم معمول الجواب المقترن بالام عليه ، وقد يكون الزمخشريّ ممن يرى جوازه " .

والثالث : أن تتعلق اللام بـ " أَخَذَ " ، أي لأجل إيتائي إياكم كيت وكيت ، أخذت عليكم الميثاقَ ، وفي الكلام حذفُ مضاف ، تقديره : رعاية ما آتيتكم .

الرابع : أن تتعلق بـ " الِميثاق " ، لأنه مصدر ، أي : توثقنا عليهم لذلك .

هذه الأوجه بالنسبة إلى اللام ، وأما " ما " ففيها ثلاثة أوجهٍ :

أحدها : أن تكون مصدرية كما تقدم عن الزمخشريِّ .

والثاني : أنها موصولة بمعنى " الذي " وعائدها محذوف ، و ﴿ ثُمَّ جَآءَكُمْ ﴾ ، عطف على الصلة ، والرابط بالموصول إما محذوف ، تقديره : به ، وإما قيام الظاهر مقام المضمر ،

وهو رأي الأخفشِ، وإما ضمير الاستقرار الذي تضمنه "مَعَكُمْ".

والثالث: أنها نكرة موصوفة، والجملة بعدها صفتها، وعائدها محذوف، ﴿ ثُمَّ جَآءَكُمْ ﴾ عطف على الصفة، والكلام في الرابط كما تقدم فيها وهي صلة، إلا أن إقامة الظاهر مُقَامه في الصفة ممتنع، لو قلت: مررت برجل قام أبو عبد الله - على أن يكون قام أبو عبد الله صفة لرجل، والرابط أبو عبد الله، إذ هو الرجل في المعنى - لم يجز ذلك، وإن جاز في الصلة والخبر - عند من يرى ذلك - فيتعين عود ضمير محذوف وجواب قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ ﴾ قوله: ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ﴾ والضمير في "بِهِ" عائد على "رَسُولٌ" ويجوز الفصل بين القسم والمقسم عليه بمثل هذا الجار والمجرور، فلو قلت أقسمت لَلْخَبرِ الذي بلغني عن عمرو لأُحْسِنَنَّ إليه، جاز.

وقوله: ﴿ مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ إما حالٌ من الموصول، أو من عائده، وإمّا بيانٌ له فامتنع في قراءة حمزة أن تكون "ما" شرطية، كما امتنع - في قراءة الجمهورِ - أن تكون مصدرية.

وأما قراءة التشديد ففيها أوجهٌ:

أحدها: أن "لَمَّا" هنا - ظرفية، بمعنى "حين" ثم القائل بظرفيتها اختلف تقديره في جوابها، فذهب الزمخشري إلى أن الجواب مقدّر من جنس جواب القسم، فقال: "لَمَّا"

- بالتشديد - بمعنى " حين " أي حين آتيتكم الكتاب والحكمة ، ثم جاءكم رسول ، وجب عليكم الإيمان به ، ونُصْرَته .

(21/123)

وقال ابن عطية : ويظهر أن " لَمَّا " هذه هي الظرفية ، أي : لما كنتم بهذه الحال رؤساء الناس وأمثالهم أخذ عليكم الميثاق ؛ إذ على القادة يُؤخَذ ، فيجيء على هذا المعنى كالمعنى في قراءة حمزةَ فقدر ابن عطية جوابها من جنس ما سبقها ، وهذا الذي ذهب إليه مذهبٌ مرجوحٌ ، قال به الفارسيّ والجمهور وسيبويه وأتباعه والجمهور .

وقال الزجّاجُ : أي : لما ىتاكم الكتاب والحكمة ، أي : أخذ عليكم الميثاق وتكون لما يؤول إلى الجزاء ، كما تقول : لما جئتني أكرمتك .

وهذه العبارة لا يؤخذ منها كون " لما " ظرفية ، ولا غير ذلك ، إلا أن فيها عاضداً لتقدير ابن عطية جوابها من جنس ما تقدمها ، بخلاف تقدير الزمخشريّ .

الثاني : أن " لَمَّا " حرف وجوب لوجوب ، وهو مذهب سيبويه ، وجوابها كما تقدم من تقديري ابن عطيةَ والزمخشري ، وفي قول ابن عطيةَ : فيجيء على هذا المعنى كالمعنى في قراءة حمزةَ - نظر ؛ إذ قراءة حمزة فيها تعليل ، وهذه القراءة لا تعليل فيها ، اللهم إلا أن يقال

: لما كانت " لَمَّا " تحتاج إلى جواب أشبه ذلك العلة ومعمولها ؛ لأنك إذا قلت : لما جئتني أكرمتك ؛ في قوة : أكرمتك لأجل مجيئي إليه ، فهي من هذه الجهة كقراءة حمزة.

والثالث : أن الأصل : لمن ما ، فأدغمت النون في الميم ، لأنها تقاربها ، والإدغام – هنا – واجبٌ ، ولما اجتمع ثلاث ميمات : ميم " من " وميم " ما " والميم التي انقلبت من نون – من أجل الإدغام – فحصل ثقل في اللفظ ، قال الزمخشريُّ : " فحذفوا إحداها " .

(22/123)

قال أبو حيّان : وفيه إبهام ، وقد عيَّنها ابن جني بأن المحذوف هي الأولى ، وفيه نظرٌ ؛ لأن الثقل إنما حصل بما بعد الأولى ، ولذلك كان الصحيحُ في نظائره إنما هو حذف الثاني ، في نحو ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة ﴾ [القدر : 4] وقد ذكر أبو البقاء أن المحذوفة هي النافية ، قال : " لضعفها بكونها بدلاً ، وحصول التكرير بها " و" مِنْ " هذه التي في لمن ما زائدة في الواجب على رأي الأخفشِ – وهذا تخريج أبي الفتح ، وفيه نظر بالنسبة إلى ادّعائه زيادة " من " ، فإن التركيب يقلق على ذلك ، ويبقى المعنى غير ظاهر .

الرابع : أن الأصل – أيضاً – لِمَنْ ما ، ففُعِل به ما تقدم من القلبِ والإدغامِ ، ثم الحذف ، إلا أن " من " ليست زائدة ، بل هي تعليلية ، قال الزمخشريُّ : " ومعناه : لمن أجل ما آتيتكم

لتؤمنن به ، وهذا نحو من قراءة حمزة في المعنى " .

وهذا الوجه أوجه مما تقدمه ؛ لسلامته من ادِّعاء زيادة " من " ولوضوح معناه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 356.362 ﴾

فصل

قال الفخر :

(23/123)

قرأ نافع ﴿ ءاتيناكم ﴾ بالنون على التفخيم ، والباقون بالتاء على التوحيد ، حجة نافع قوله ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُود زَبُوراً ﴾ [النساء : 163] ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكم صَبِيّاً ﴾ [مريم : 12] ﴿ وءاتيناهما الكتاب المستبين ﴾ [الصافات : 117] ولأن هذا أدل على العظمة فكان أكثر هيبة في قلب السامع ، وهذا الموضع يليق به هذا المعنى ، وحجة الجمهور قوله ﴿ هُوَ الذى يُنَزّلُ على عَبْدِهِ ءايات بينات ﴾ [الحديد : 9] و ﴿ الحمد لِلَّهِ الذى أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب ﴾ [الكهف : 1] وأيضاً هذه القراءة أشبه بما قبل هذه الآية وبما بعدها لأنه تعالى قال قبل هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَخَذَ الله ﴾ وقال بعدها ﴿ إِصْرِى ﴾ وأجاب نافع عنه بأن أحد أبواب الفصاحة تغيير العبارة من الواحد إلى الجمع

ومن الجمع إلى الواحد قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِى إسرائيل أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِى ﴾ [الإسراء : 2] ولم يقل من دوننا كما قال : ﴿ وجعلناه ﴾ ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 104 ﴾

قال الطبرى :

وأولى القراءتين في ذلك بالصواب (1) قراءةُ من قرأ : "وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم" ، بفتح "اللام" . لأن الله عز وجل أخذ ميثاقَ جميع الأنبياء بتصديق كل رسول له ابتعثه إلى خلقه فيما ابتعثه به إليهم ، كان ممن آتاه كتابًا أو ممن لم يؤته كتابًا . وذلك أنه غير جائز وصف أحد من أنبياء الله عز وجل ورسله ، بأنه كان ممن أبيح له التكذيب بأحد من رسله . فإذْ كان ذلك كذلك ، وكان معلومًا أن منهم من أنزل عليه الكتابَ ، وأنّ منهم من لم ينزل عليه الكتاب كان بينًا أن قراءة من قرأ ذلك : "لِما آتيتكم" ، بكسر "اللام" ، بمعنى : من أجل الذي آتيتكم من كتاب ، لا وجه له مفهومٌ إلا على تأويل بعيد ، وانتزاع عميق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 552 . 553 ﴾

---

(1) لا يجوز الترجيح بين القراءات المتواترة وهذا أمر متكرر من الإمام الطبرى فليتأمل .

فائدة

قال ابن عادل :

وفي قوله : "آتيتكم " و" آتيناكم " على كلتا القراءتين – التفاتان :

الأول : الخروج من الغيبة إلى التكلم في قوله : " آتينا " أو " آتيت " لأن قبله ذكر الجلالة المعظمة في قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ ﴾ .

والثاني : الخروج من الغيبة إلى الخطاب في قوله : " آتيناكم " لأنه قد تقدمه اسم ظاهر ، وهو ﴿ النبيين ﴾ إذ لو جرى على مقتضي تقدُّم الجلالة والنبيين لكان الترتيب : وإذْ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتاهم من كتاب . كذا قال بعضهم ، وفيه نظرٌ ؛ لأن مثل هذا لا يُسَمَّى التفاتاً في اصطلاحهم ، وإنما يسمى حكاية الحال ، ونظيره قولك : حلف زيد ليفعلن ، ولأفعلن ، فالغيبة مراعاة لتقدم الاسم الظاهر ، والتكلُّم حكاية لكلام الحالف . والآية الكريمة من هذا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 362 ﴾

فصل

قال الفخر :

إنه تعالى ذكر النبيّين على سبيل المغايبة ثم قال: ﴿ ءَاتَيْتُكُم ﴾ وهو مخاطبة إضمار والتقدير: وإذ أخذ الله ميثاق النبيّين فقال مخاطباً لهم لما آتيتكم من كتاب وحكمة، والإضمار باب واسع في القرآن، ومن العلماء من التزم في هذه الآية إضماراً آخر وأراح نفسه عن تلك التكلفات التي حكيناها عن النحويين فقال تقدير الآية: وإذ أخذ الله ميثاق النبيّين لتبلغن الناس ما آتيتكم من كتاب وحكمة، قال إلا أنه حذف لتبلغن لدلالة الكلام عليه لأن لام القسم إنما يقع على الفعل فلما دلت هذه اللام على هذا الفعل لا جرم حذفه اختصاراً ثم قال تعالى بعده ﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ﴾ وعلى هذا التقدير يستقيم النظم ولا يحتاج إلى تكليف تلك التعسفات، وإذا كان لا بد من التزام الإضمار فهذا الإضمار الذي به ينتظم الكلام نظماً بيناً جلياً أولى من تلك التكلفات. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 104 ﴾

فصل

قال الفخر:

في قوله ﴿ لَمَا ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ ﴾ إشكال، وهو أن هذا الخطاب إما أن يكون مع الأنبياء أو مع الأمم، فإن كان مع الأنبياء فجميع الأنبياء ما أوتوا الكتاب، وإنما أوتي بعضهم وإن كان مع الأمم، فالإشكال أظهر، والجواب عنه من وجهين

الأول : أن جميع الأنبياء عليهم السلام أوتوا الكتاب ، بمعنى كونه مهتدياً به داعياً إلى العمل به ، وإن لم ينزل عليه

والثاني : أن أشرف الأنبياء عليهم السلام هم الذين أوتوا الكتاب ، فوصف الكل بوصف أشرف الأنواع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 104 ﴾

فائدة

قال الفخر :

الكتاب هو المنزل المقروء والحكمة هي الوحي الوارد بالتكاليف المفصلة التي لم يشتمل الكتاب عليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 104 ﴾

(26/123)

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدّقٌ لّمَا مَعَكُمْ ﴾

أسئلة وأجوبة للعلامة الفخر

السؤال الأول : ما وجه قوله ﴿ ثُمَّ جَاءكُمْ ﴾ والرسول لا يجيء إلى النبيّين وإنما يجيء إلى الأمم ؟ .

والجواب : إن حملنا قوله ﴿ وَإِذْ أَخَذَ الله ميثاق النبيين ﴾ على أخذ ميثاق أممهم فقد زال

السؤال وإن حملناه على أخذ ميثاق النبيّين أنفسهم كان قوله ﴿ ثُمَّ جَاءكُمْ ﴾ أي جاء في زمانكم .

السؤال الثاني : كيف يكون محمد صلى الله عليه وسلم مصدقاً لما معهم مع مخالفة شرعه لشرعهم ،

قلنا : المراد به حصول الموافقة في التوحيد ، والنبوات ، وأصول الشرائع ، فأما تفاصيلها وإن وقع الخلاف فيها ؛ فذلك في الحقيقة ليس بخلاف ، لأن جميع الأنبياء عليهم السلام متفقون على أن الحق في زمان موسى عليه السلام ليس إلا شرعه وأن الحق في زمان محمد صلى الله عليه وسلم ليس إلا شرعه ، فهذا وإن كان يوهم الخلاف ، إلا أنه في الحقيقة وفاق ، وأيضاً فالمراد من قوله ﴿ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدّقٌ لّمَا مَعَكُمْ ﴾ هو محمد صلى الله عليه وسلم ، والمراد بكونه مصدقاً لما معهم هو أن وصفه وكيفية أحواله مذكورة في التوراة والإنجيل ، فلما ظهر على أحوال مطابقة لما كان مذكوراً في تلك الكتب ، كان نفس مجيئه تصديقاً لما كان معهم ، فهذا هو المراد بكونه مصدقاً لما معهم .

السؤال الثالث : حاصل الكلام أن الله تعالى أخذ الميثاق على جميع الأنبياء بأن يؤمنوا بكل رسول يجيء مصدقاً لما معهم فما معنى ذلك الميثاق .

والجواب : يحتمل أن يكون هذا الميثاق ما قرر في عقولهم من الدلائل الدالة على أن الانقياد لأمر الله واجب ، فإذا جاء الرسول فهو إنما يكون رسولاً عند ظهور المعجزات الدالة على صدقه فإذا أخبرهم بعد ذلك أن الله أمر الخلق بالإيمان به عرفوا عند ذلك وجوبه ، فتقدير هذا الدليل في عقولهم هو المراد من أخذ الميثاق ، ويحتمل أن يكون المراد من أخذ الميثاق أنه تعالى شرح صفاته في كتب الأنبياء المتقدمين ، فإذا صارت أحواله مطابقة لما جاء في الكتب الإلهية المتقدمة وجب الانقياد له ، فقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ يدل على هذين الوجهين ، أما على الوجه الأول ، فقوله ﴿ رَّسُول ﴾ وأما على الوجه الثاني ، فقوله ﴿ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 104. 105 ﴾

قوله تعالى ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ﴾

قال الفخر :

أما قوله ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ﴾ فالمعنى ظاهر ، وذلك لأنه تعالى أوجب الإيمان به أولاً ، ثم الاشتغال بنصرته ثانياً ، واللام في ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ﴾ لام القسم ، كأنه قيل : والله لتؤمنن به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 105 ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ على ذلكم إِصْرِى ﴾

فصل

قال الفخر :

(28/123)

إن فسرنا قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللّه ميثاق النبيين ﴾ بأنه تعالى أخذ المواثيق على الأنبياء كان قوله تعالى ﴿ أأقررتم ﴾ معناه : قال الله تعالى للنبيّين أأقررتم بالإيمان به والنصرة له وإن فسرنا أخذ الميثاق بأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أخذوا المواثيق على الأمم كان معنى قوله ﴿ قَالَ أأقررتم ﴾ أي قال كل نبي لأمته أأقررتم ، وذلك لأنه تعالى أضاف أخذ الميثاق إلى نفسه ، وإن كانت النبيون أخذوه على الأمم ، فكذلك طلب هذا الإقرار أضافه إلى نفسه وإن وقع من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والمقصود أن الأنبياء بالغوا في إثبات هذا المعنى وتأكيده ، فلم يقتصروا على أخذ الميثاق على الأمم ، بل طالبوهم بالإقرار بالقول ، وأكدوا ذلك بالإشهاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 105 ﴾

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ ﴾ فاعل " قَالَ " يجوز أن يكون ضمير الله - تعالى - وهو الظاهر -

وأن يكون ضمير النبي الذي هو واحد النبيين، خاطب بذلك أمَّته، ومتعلَّق الإقرار محذوف، أي: أقررتم بذلك كله؟ والاستفهام – على الأول – مجاز؛ إذ المراد به التقرير والتوكيد عليهم؛ لاستحالته في حق الباري تعالى، وعلى الثاني: هو استفهام حقيقة.

و"إصري" على الأول – الياء لله – تعالى – وعلى الثاني للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

(29/123)

وقرأ العامة "إصري" بكسر الهمزة، وهي الفصحى، وقرأ أبو بكر عن عاصم – في رواية – "أُصْرِي" بضمها ثم المضموم الهمزة يحتمل أن يكون لغة في المكسور – وهو الظاهرُ – ويحتمل أن يكون جمع إصار ومثله أزر في جميع إزار، والإصر: الثقل الذي يلحق الإنسان؛ لأجل ما يلزمه من عَمَلٍ، قال الزمخشري: "سُمِّي العهدُ إصْراً؛ لأنه مما يؤصر، أي: يُشَدّ، ويُعْقَد، ومنه الإصار الذي يُعْقَد به" وتقدم الكلام عليه في آخر البقرة. انتهى انتهى. اهـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 364 ﴾

فصل

قال الفخر:

الإقرار في اللغة منقول بالألف من قر الشيء يقر، إذا ثبت ولزم مكانه وأقره غيره والمقر

بالشيء يقره على نفسه أي يثبته .

أما قوله تعالى : ﴿ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ على ذلكم إِصْرِى ﴾ أي قبلتم عهدي ، والأخذ بمعنى القبول كثير في الكلام قال تعالى : ﴿ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ [البقرة : 48] أي يقبل منها فدية وقال : ﴿ وَيَأْخُذُ الصدقات ﴾ [التوبة : 104] أي يقبلها والإصر هو الذي يلحق الإنسان لأجل ما يلزمه من عمل قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا ﴾ [البقرة : 286] فسمى العهد إصراً لهذا المعنى ، قال صاحب "الكشاف" : سمي العهد إصراً لأنه مما يؤصر أي يشد ويعقد ، ومنه الإصار الذي يعقد به وقرىء ﴿ إِصْرِى ﴾ ويجوز أن يكون لغة في إصر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 105.106 ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشهدوا وَأَنَاْ مَعَكُمْ مّنَ الشاهدين فَمَنْ تولى بَعْدَ ذلك فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفاسقون ﴾

فصل

قال الفخر :

وفي تفسير قوله ﴿ فَاشْهَدُواْ ﴾ وجوه

الأول : فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار ، وأنا على إقراركم وإشهاد بعضكم بعضاً ﴿ مّنَ الشاهدين ﴾ وهذا توكيد عليهم وتحذير من الرجوع إذا علموا شهادة الله وشهادة بعضهم على بعض

الثاني : أن قوله ﴿ فَاشْهَدُواْ ﴾ خطاب للملائكة

الثالث : أن قوله ﴿ فَاشْهَدُواْ ﴾ أي ليجعل كل أحد نفسه شاهداً على نفسه ونظيره قوله ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَا ﴾ [الأعراف : 172] على أنفسنا وهذا من باب المبالغة

الرابع : ﴿ فَاشْهَدُواْ ﴾ أي بينوا هذا الميثاق للخاص والعام ، لكي لا يبقى لأحد عذر في الجهل به ، وأصله أن الشاهد هو الذي يبين صدق الدعوى

الخامس : ﴿ فَاشْهَدُواْ ﴾ أي فاستيقنوا ما قررته عليكم من هذا الميثاق ، وكونوا فيه كالمشاهد للشيء المعاين له السادس : إذا قلنا إن أخذ الميثاق كان من الأمم فقوله ﴿ فَاشْهَدُواْ ﴾ خطاب للأنبياء عليهم السلام بأن يكونوا شاهدين عليهم .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَأَنَاْ مَعَكُمْ مّنَ الشاهدين ﴾ فهو للتأكيد وتقوية الإلزام ، وفيه فائدة أخرى وهي أنه تعالى وإن أشهد غيره ، فليس محتاجاً إلى ذلك الإشهاد ، لأنه تعالى لا يخفى عليه خافية لكن لضرب من المصلحة لأنه سبحانه وتعالى يعلم السر وأخفى ، ثم إنه تعالى ضم إليه تأكيداً آخر فقال : ﴿ فَمَنْ تولى بَعْدَ ذلك فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفاسقون ﴾ يعني من أعرض

عن الإيمان بهذا الرسول وبنصرته بعد ما تقدم من هذه الدلائل كان من الفاسقين ووعيد الفاسق معلوم ، وقوله ﴿ فَمَنْ تولى بَعْدَ ذلك ﴾ هذا شرط ، والفعل الماضي ينقلب مستقبلاً في الشرط والجزاء ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 106 ﴾

(31/123)

وقال الآلوسى :

﴿ فَمَنْ تولى ﴾ أي أعرض عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ونصرته قاله علي كرم الله وجهه ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ أي الميثاق والإقرار والتوكيد بالشهادة ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارة إلى (من) مراعى معناه كما روعي من قبل لفظها ﴿ هُمُ الفاسقون ﴾ أي الخارجون في الكفر إلى أفحش مراتبه ، والمشهور عدم دخول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في حكم هذه الشرطية ، أو ما هي في حكمها لأنهم أجل قدراً من أن يتصور في حقهم ثبوت المقدم ليتصفوا ، وحاشاهم بما تضمنه التالي بل هذا الحكم بالنسبة إلى أتباعهم ، وجوز أن يراد العموم والآية من قبيل : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 56] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 202 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ مِّنَ الشاهدين ﴾ هذا هو الخبر ؛ لأنه محط الفائدة . وأما قوله : ﴿ مَعَكُمْ ﴾ فيجوز أن يكون حالاً ، أي : وأنا من الشاهدين مصاحباً لكم ، ويجوز أن يكون منصوباً بـ " الشَّاهدينَ " ظرفاً له عند مَنْ يرى تجويزَ ذلك - ويمتنع أن يكون هذا هو الخبرُ ؛ إذ الفائدة به غير تامةٍ في هذا المقامِ .

والجملة من قوله : ﴿ وَأَنَاْ مَعَكُمْ مِّنَ الشاهدين ﴾ يجوز ألا يكون لها محل ؛ لاستئنافها . ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من فاعل ﴿ فاشهدوا ﴾ والمقصود من هذا الكلام التأكيد ، وتقوية الإلزام . قوله : ﴿ فَمَنْ تولى ﴾ يجوز أن تكون " مَنْ " شرطية ، فالفاء - في " فَأُولَئِكَ " جوابها . والفعل الماضي ينقلب مستقبلاً في الشرط . وأن تكون موصولةً ، ودخلت الفاء لشبه المبتدأ باسم الشرطِ ، فالفعل بعدها على الأول - في محل جزم ، وعلى الثاني لا محل له ؛ لكونه صلة ، وأما " فأولئك " ففي محل جزم أيضاً - على الأول ، ورفع الثاني ، لوقوعه خبراً و" هم " يجوز أن يكون فَصْلاً ، وأن يكون مبتدأ .

(32/123)

ومعنى الآية : من أعرض عن الإيمان بهذا الرسولِ ، وبنصرته ، والإقرار له ﴿ فأولئك هُمُ الفاسقون ﴾ الخارجون عن الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 366.365 ﴾

قول غريب منكر

قال ابن الجوزى :

قال مجاهد ، والربيع بن أنس : هذه الآية خطأ من الكتّاب ، وهي في قراءة ابن مسعود : ﴿ وإِذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ﴾ واحتج الربيع بقوله تعالى : ﴿ ثم جاءكم رسول ﴾ . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 415 ﴾

لطيفة

قال فى روح البيان :

قال فى التيسير والتولى لا يقع من الأنبياء ولا يوصفون بالفسق لكن له وجهان .

أحدهما أن الميثاق كان على الأنبياء وأممهم على التبعية والتولى من الأمم خاصة .

والثانى أن العصمة لا تزيل المحنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 2 صـ 70 ﴾

من فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

قيل : أخذ الله تعالى ميثاق الأنبياء أن يصدّق بعضهم بعضاً ويأمر بعضهم بالإيمان بعضاً ؛

فذلك معنى النُّصرة بالتصديق .

وهذا قول سعيد بن جُبير وقَتادة وطاوس والسُّدي والحسن ، وهو ظاهر الآية .

قال طاوس : أخذ الله ميثاق الأوّل من الأنبياء أن يؤمن بما جاء به الآخِر .

وقرأ ابن مسعود ﴿ وَإِذ أَخَذَ الله مِيثَاقَ الذين أُوتُوا الكتاب ﴾ .

---

(1) هذا القول ظاهر الفساد والبطلان وأين هو من قوله تعالى ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾

والقرآن محفوظ فى السطور والصدور بل إن أحكام التجويد محفوظة كذلك فمن لحن فى حكم من أحكام التجويد رده أهل العلم كائنا من كان .

ومن العجيب أن بعض المفسرين كالقرطبى وغيره ذكر هذا القول دون إنكار .

قال العلامة ابن عطية رحمه الله :

وهذا لفظ مردود بإجماع الصحابة على مصحف عثمان رضي الله عنه . انتهى ا . هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 464 ﴾ . والله أعلم .

قال الكسائي : يجوز أن يكون ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النبيين ﴾ بمعنى وإذ أخذ الله ميثاق الذين مع النبيين .

وقال البصريون : إذا أخذ الله ميثاق النبيين فقد أخذ ميثاق الذين معهم ؛ لأنهم قد اتبعوهم وصدّقوهم .

و"ما" في قوله "لَمَا" بمعنى الذي .

قال سيبويه : سألت الخليل بن أحمد عن قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النبيين لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ فقال : لما بمعنى الذي .

قال النحاس : التقدير على قول الخليل للذي آتيتكموه ، ثم حذف الهاء لطول الاسم .

و"الذي" رفع بالابتداء وخبره "من كتاب وحكمة" .

و"مِن" لبيان الجنس .

وهذا كقول القائل : لزيد أفضل منك ؛ وهو قول الأخفش أنها لام الابتداء .

قال المَهْدِويّ : وقوله "ثم جاءكم" وما بعده جملة معطوفة على الصلة ، والعائد منها على الموصول محذوف ؛ والتقدير ثم جاءكم رسول مصدّق به .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ﴾ الرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم في قول عليّ وابن عباس رضي الله عنهما .

واللفظ وإن كان نكرة فالإشارة إلى معين ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ

آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾ إلى قوله ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ ﴾ [النحل : 113] .

فأخذ الله ميثاق النبيين أجمعين أن يؤمنوا بمحمد عليه السلام وينصروه إن أدركوه ، وأمرهم أن يأخذوا بذلك الميثاقَ على أممهم .

واللام من قوله "لتؤمنن به" جواب القسم الذي هو أخذ الميثاق ، إذ هو بمنزلة الاستحلاف .

وهو كما تقول في الكلام : أخذت ميثاقك لتفعلنّ كذا ، كأنك قلت استحلفك ، وفصل بين القسم وجوابه بحرف الجر الذي هو "لِما" في قراءة ابن كَثير على ما يأتي .

(34/123)

ومن فتحها جعلها متلقيةً للقسم الذي هو أخذ الميثاق .

واللام في "لتؤمنن به" جواب قسم محذوف ، أي والله لتؤمنن به .

وقال المبرّد والكسائي والزجاج : "ما" شرط دخلت عليها لام التحقيق كما تدخل على إن ، ومعناه (لمهما) آتيتكم ؛ فموضع "ما" نصب ، وموضع "آتيتكم" جزم ، و"ثم جاءكم" معطوف عليه ، ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ﴾ اللام في قوله "لتؤمنن به" جواب الجزاء ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ ﴾ [الإسراء : 86] ونحوه .

وقال الكسائيّ : لتؤمنن به مُعْتَمد القسم فهو متصل بالكلام الأول ، وجواب الجزاء قوله ﴿ فَمَنْ تولى بَعْدَ ذلك ﴾ .

ولا يحتاج على هذا الوجه إلى تقدير عائد .

وقرأ أهل الكوفة "لِمَا آتيتكم" بكسر اللام ، وهي أيضاً بمعنى الذي وهي متعلقة بأخذ ، أي أخذ الله ميثاقهم لأجل الذي آتاهم من كتاب وحكمة ثم إن جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمننّ به من بعد الميثاق : لأن أخذ الميثاق في معنى الاستحلاف كما تقدّم .

قال النحاس : ولأبي عبيدة في هذا قول حَسَن .

قال : المعنى وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتؤمننّ به لِما آتيتكم من ذكر التوراة .

وقيل : في الكلام حذف ، والمعنى وَإِذْ أخذ الله ميثاق النبيّين لَتُعَلِّمُنّ الناس لِمَا جاءكم من كتاب وحكمة ، ولتأخذنّ على الناس أن يؤمنوا .

ودلّ على هذا الحذف ﴿ وَأَخَذْتُمْ على ذلكم إِصْرِي ﴾ .

وقيل : إن اللام في قولِهِ "لِما" في قراءة من كسرها بمعنى بعد ، يعني بعد ما آتيتكم من كتاب وحكمة ؛ كما قال النابغة :

توهّمتُ آيات لها فعرفتُها . . .

لستّةِ أعوام وذا العامُ سابع

أي بعد ستة أعوام.

وقرأ سعيد بن جُبير "لمّا" بالتشديد ، ومعناه حين آتيتكم.

(35/123)

واحتمل أن يكون أصلها التخفيف فزيدت "مِن" على مذهب من يرى زيادتها في الواجب فصارت لمن ما ، وقلبت النون ميما للإدغام فاجتمعت ثلاث ميمات فحذفت الأولى منهن استخفافا.

وقرأ أهل المدينة "آتيناكم" على التعظيم.

والباقون "آتيتكم" على لفظ الواحد.

ثم كلّ الأنبياء لم يُؤتوا الكتاب وإنما أوتي البعض؛ ولكن الغلبة للذين أوتوا الكتاب.

والمراد أخذ ميثاق جميع الأنبياء فمن لم يؤت الكتاب فهو في حكم من أوتي الكتاب لأنه أوتي الحُكْم والنبوّة.

وأيضاً من لم يؤت الكتاب أمر بأن يأخذ بكتاب من قبله فدخل تحت صفة من أوتي الكتاب.

قوله تعالى: ﴿ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ على ذلكم إِصْرِي قالوا أَقْرَرْنَا قَالَ فاشهدوا وَأَنَاْ مَعَكُمْ مِّنَ

الشاهدين ﴾ "أقررتم" من الإقرار ، والإصْر والأَصْر لغتان ، وهو العهد .

والإصر في اللغة الثِّقْل ؛ فَسُمِّي العهد إصراً لأنه مَنْع وتشديد .

﴿ قَالَ فَاشْهَدُوا ﴾ أي اعلموا ؛ عن ابن عباس .

الزجاج : بيّنوا لأن الشاهد هو الذي يصحّح دعوى المدّعِي .

وقيل : المعنى اشهدوا أنتم على أنفسكم وعلى أتباعكم .

﴿ وَأَنَاْ مَعَكُمْ مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ عليكم وعليهم .

وقال سعيد بن المسيّب : قال الله عز وجل للملائكة فاشهدوا عليهم ، فتكون كناية عن غير مذكور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 124. 126 ﴾

(36/123)

ومن فوائد العلامة ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

وقوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ﴾ الآية ، المعنى واذكر يا محمد "إذ" ويحتمل أن يكون "أخذ" هذا الميثاق حين أخرج بني آدم من ظهر آدم نسماً ، ويحتمل أن يكون هذا الأخذ على كل نبي في زمنه ووقت بعثه ، ثم جمع اللفظ ، في حكاية الحال في هذه الآية ،

والمعنى : أن الله تعالى أخذ ميثاق كل نبي بأنه يلتزم هو ومن آمن به ، الإيمان بمن أوتي بعده من الرسل ، الظاهره براهينهم والنصرة له ، واختلف المفسرون في العبارة عن مقتضى ألفاظ هذه الآية ، فقال مجاهد والربيع : إنما أخذ ميثاق أهل الكتاب ، لا ميثاق النبيين ، وفي مصحف أبي بن كعب وابن مسعود : " وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب " ، قال مجاهد : هكذا هو القرآن ، وإثبات " النبيين " خطأ من الكتاب .

قال الفقيه الإمام : وهذا لفظ مردود بإجماع الصحابة على مصحف عثمان رضي الله عنه ، وقال ابن عباس رضي الله عنه : إنما ﴿ أخذ الله ميثاق النبيين ﴾ على قومهم ، فهو أخذ لميثاق الجميع ، وقال طاوس : أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ما بعث الله نبياً ، آدم فمن بعده ، إلا أخذ عليه العهد في محمد لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره بأخذه على قومه ، ثم تلا هذه الآية ، وقاله السدي : وروي عن طاوس أنه قال : صدر الآية أخذ الميثاق على النبيين وقوله : ﴿ ثم جاءكم ﴾ مخاطبة لأهل الكتاب بأخذ الميثاق عليهم .

قال الفقيه الإمام أبو محمد : حكاه الطبري وهو قول يفسده إعراب الآية ، وهذه الأقوال كلها ترجع إلى ما قاله علي بن أبي طالب وابن عباس ، لأن الأخذ على الأنبياء أخذ على الأمم . وقرأ حمزة وغيره سوى السبعة : " لما " بكسر اللام ، وهي لام الجر ، والتقدير لأجل ما أتيناكم ، إذ أنتم القادة الرؤوس ، ومن كان بهذه الحال فهو الذي يؤخذ ميثاقه ، و" ما " في هذه القراءة بمعنى الذي الموصولة ، والعائد إليها من الصلة تقديره آتيناكموه ، و" من " لبيان الجنس ، وقوله ، ﴿ ثم جاءكم ﴾ الآية ، جملة معطوفة على الصلة ، ولا بد في هذه الجملة من ضمير يعود على الموصول ، فتقديره عند سيبويه : رسول به مصدق لما معكم ، وحذف تخفيفاً كما حذف الذي في الصلة بعينها لطول الكلام ، كما قال تعالى : ﴿ أهذا الذي بعث الله رسولاً ﴾ [الفرقان : 41] والحذف من الصلات كثير جميل ، وأما أبو الحسن الأخفش ، فقال قوله تعالى : ﴿ لما معكم ﴾ . هو العائد عنده على الموصول ، إذ هو في المعنى بمنزلة الضمير الذي قدر سيبويه ، وكذلك قال الأخفش في قوله تعالى : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ [يوسف : 90] لأن المعنى لا يضيع أجرهم ، إذ المحسنون هم من يتقي ويصبر ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنّا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ [الكهف : 30] وكذلك ما ضارع هذه الآيات ، وسيبويه رحمه الله لا يرى أن يضع المظهر موقع المضمر ، كما يراه أبو الحسن ، واللام

في ﴿ لتؤمننَّ ﴾ ، هي اللام المتعلقة للقسم الذي تضمنه أخذ الميثاق وفصل بين القسم والمقسم عليه بالجار والمجرور وذلك جائز .

(38/123)

وقرأ سائر السبعة : " لَما " بفتح اللام ، وذلك يتخرج على وجهين ، أحدهما أن تكون " ما " موصولة في موضع رفع بالابتداء ، واللام لام الابتداء ، وهي متلقية لما أجري مجرى القسم من قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق ﴾ وخبر الابتداء قوله ﴿ لتؤمنن ﴾ ، و ﴿ لتؤمنن ﴾ متعلق بقسم محذوف ، والمعنى والله لتؤمنن ، هكذا قال أبو علي الفارسي ، وفيه من جهة المعنى نظر ، إذا تأملت على أي شيء وقع التحليف لكنه متوجه بأن الحلف يقع مرتين تأكيداً فتأمل ، والعائد الذي في الصلة ، والعائد الذي في الجملة المعطوفة على الصلة هنا في هذه القراءة هما على حد ما ذكرناهما في قراءة حمزة ، أما أن هذا التأويل يقتضي عائداً من الخبر الذي هو ﴿ لتؤمنن ﴾ فهو قوله تعالى : ﴿ به ﴾ فالهاء من ﴿ به ﴾ عائدة على " ما " ، ولا يجوز أن تعود على ﴿ رسول ﴾ فيبقى الموصول حينئذ غير عائد عليه من خبره ذكر ، والوجه الثاني الذي تتخرج عليه قراءة القراء " لما " بفتح اللام ، هو أن تكون " ما " للجزاء شرطاً ، فتكون في موضع نصب بالفعل الذي بعدها وهو مجزوم

و﴿ جاءكم ﴾ معطوف في موضع جزم ، واللام الداخلة على " ما " ليست المتلقية للقسم ، ولكنها الموطئة المؤذنة بمجيء لام القسم ، فهي بمنزلة اللام في قوله تعالى : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض ﴾ [الأحزاب : 60] لأنها مؤذنة بمجيء المتلقية للقسم في قوله ، لنغرينك بهم وكذلك هذه مؤذنة بمجيء المتلقية للقسم في قوله : ﴿ لتؤمِننَّ ﴾ وهذه اللام الداخلة على " أن " لا يعتمد القسم عليها ، فلذلك جاز حذفها تارة وإثباتها تارة ، كما قال تعالى : ﴿ وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ [المائدة : 73] .

(39/123)

قال الزجاج : لأن قولك ، والله لئن جئتني لأكرمنك ، إنما حلف على فعلك ، لأن الشرط معلق به ، فلذلك دخلت اللام على الشرط ، وما في هذا الوجه من كونها جزاء لا تحتاج إلى عائد لأنها مفعولة والمفعول لا يحتاج إلى ذكر عائد .

والضمير في قوله تعالى : ﴿ لتؤمِننَّ به ﴾ عائد على ﴿ رسول ﴾ ، وكذلك هو على قراءة من كسر اللام ، وأما الضمير في قوله ﴿ ولَتنصرنَه ﴾ فلا يحتمل بوجه إلا العود على رسول ، قال أبو علي في الإغفال : وجزاء الشرط محذوف بدلالة قوله ﴿ لتؤمنن ﴾ عليه

، قال سيبويه : سألته ، يعني الخليل عن قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيناكم ﴾ فقال : " ما " هنا بمنزلة الذي ودخلتها اللام كما دخلت على إن ، حين قلت : لئن فعلت لأفعلن ، ثم استمر يفسر وجه الجزاء قال أبو علي : أرد الخليل بقوله : هي بمنزلة الذي ، أنها اسم كما أن الذي اسم ولَم يرد أنها موصولة كالذي ، وإنما فرّ من أن تكون " ما " حرفاً كما جاءت حرفاً في قوله تعالى : ﴿ وإن كلاًّ لما ليوفينهم ربك أعمالهم ﴾ [هود : 111] وفي قوله ﴿ وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ﴾ [الزخرف : 35] ، الله المستعان ، وحكى المهدوي ومكي عن سيبويه والخليل ، : أن خبر الابتداء فيمن جعل " ما " ابتداء على قراءة من فتح اللام هو في قوله : ﴿ من كتاب وحكمة ﴾ ولا أعرف من أين حكياه لأنه مفسد لمعنى الآية لا يليق بسيبويه ، والخليل ، وإنما الخبر في قوله ، ﴿ لتؤمنن ﴾ كما قال أبو علي الفارسي ومن جرى مجراه كالزجاج وغيره ، وقرأ الحسن : " لمّا آتيناكم " بفتح اللام وشدها قال أبو إسحاق : أي لما آتاكم الكتاب والحكمة أخذ الميثاق ، وتكون اللام تؤول إلى الجزاء ، كما تقول لما جئتني أكرمتك .

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه : ويظهر أن " لما " هذه هي الظرفية أي لما كنتم بهذه الحال ، رؤساء الناس وأماثلهم ، أخذ عليكم الميثاق ، إذ على القادة يؤخذ ، فيجيء هذا المعنى كالمعنى في قراءة حمزة ، وذهب ابن جني في " لما " في هذه الآية إلى أن أصلها " لمن ما " ، وزيدت " من " في الواجب على مذهب الأخفش ، ثم أدغمت ، كما يجب في مثل هذا ، فجاء لمما ، فثقل اجتماع ثلاث ميمات فحذفت الميم الأولى فبقي " لما " ، وتتفسر هذه القراءة على هذا التوجيه المحلق تفسر " لما " بفتح الميم مخففة ، وقد تقدم ، وقرأ نافع وحده ، " آتيناكم " بالنون ، وقرأ الباقون ، " آتيتكم " بالتاء ، و﴿ رسول ﴾ في هذه الآية اسم جنس ، وقال كثير من المفسرين : الإشارة بذلك إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي مصحف ابن مسعود : " مصدقاً " بالنصب على الحال .

قوله تعالى :

﴿ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِّنَ الشَّاهِدِينَ فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

هذه الآية هي وصف توقيف الأنبياء على إقرارهم بهذا الميثاق والتزامهم له وأخذ عهد الله فيه ، وذلك يحتمل موطن القسم ، ويحتمل أن يراد بهذه العبارة الجامعة وصف ما فعل مع كل نبي في زمنه ، ﴿ وأخذتم ﴾ في هذه الآية عبارة عما تحصل لهم من إيتاء الكتاب والحكمة فمن حيث أخذ عليهم أخذوا هم ايضاً وقال الطبري : ﴿ أخذتم ﴾ في هذه الآية معناه : قبلتم ، و" الإصر " ، العهد ، لا تفسير له في هذا الموضع إلا لذلك ، وقوله تعالى ﴿ فاشهدوا ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما فاشهدوا على أممكم المؤمنين بكم ، وعلى أنفسكم بالتزام هذا العهد ، هذا قول الطبري وجماعة ، والمعنى الثاني ، بثوا الأمر عند أممكم واشهدوا به ، وشهادة الله تعالى هذا التأويل ، وفي التي في قوله ﴿ وأنا معكم من الشاهدين ﴾ هي إعطاء المعجزات وإقرار نبوءاتهم ، هذا قول الزجّاج وغيره .

قال القاضي أبو محمد : فتأمل أن القول الأول هو إيداع الشهادة واستحفظها ، والقول الثاني هو الأمر بأدائها ، وحكم الله تعالى بالفسق على من تولى من الأمم بعد هذا الميثاق ، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره ويحتمل أن يريد بعد الشهادة عند الأمم بهذا الميثاق على أن قوله ، ﴿ فاشهدوا ﴾ أمر بالأداء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 1 صـ 463.466 ﴾

من فوائد العلامة تقي الدين السبكي :

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ :

" التعظيم والمنة في لتؤمنن به ولتنصرنه "

قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَظَّمَ نَبِيَّهُ وَمَنَّ عَلَيْنَا بِهِ ، وَهَدَانَا إلَى كُلِّ خَيْرٍ ، إذْ وَصَّلَ سَبَبَنَا بِسَبَبِهِ . وَبَعْدُ فَقَدْ حَصَلَ الْبَحْثُ فِي تَفْسِيرِ قَوْله تَعَالَى

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾

وَقَوْلُ الْمُفَسِّرِينَ هُنَا أَنَّ الرَّسُولَ هُوَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَّهُ مَا مِنْ نَبِيٍّ إلَّا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ أَنَّهُ إنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ فِي زَمَانِهِ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرَنَّهُ وَيُوصِي أُمَّتَهُ بِذَلِكَ ؛ وَفِي ذَلِكَ مِنْ التَّنْوِيهِ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَعْظِيمِ قَدْرِهِ الْعَلِيِّ مَا لَا يَخْفَى ، وَفِيهِ مَعَ ذَلِكَ أَنَّهُ عَلَى تَقْدِيرِ مَجِيئِهِ فِي زَمَانِهِمْ يَكُونُ مُرْسَلًا إلَيْهِمْ فَتَكُونُ نُبُوَّتُهُ وَرِسَالَتُهُ عَامَّةً لِجَمِيعِ الْخَلْقِ مِنْ زَمَنِ آدَمَ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيَكُونُ الْأَنْبِيَاءُ وَأُمَمُهُمْ كُلُّهُمْ مِنْ أُمَّتِهِ وَيَكُونُ قَوْلُهُ : بُعِثْتُ إلَى النَّاسِ كَافَّةً لَا يَخْتَصُّ بِهِ النَّاسُ مِنْ زَمَانِهِ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ بَلْ يَتَنَاوَلُ مَنْ قَبْلَهُمْ أَيْضًا ، وَيَتَبَيَّنُ بِذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُنْت نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ وَإِنَّ مَنْ

فَسَّرَهُ بِعِلْمِ اللَّهِ بِأَنَّهُ سَيَصِيرُ نَبِيًّا لَمْ يَصِلْ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى لِأَنَّ عِلْمَ اللَّهِ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ وَوَصْفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنُّبُوَّةِ فِي ذَلِكَ

(43/123)

الْوَقْتِ يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ مِنْهُ أَنَّهُ أَمْرٌ ثَابِتٌ لَهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَلِهَذَا رَأَى اسْمَهُ آدَمَ مَكْتُوبًا عَلَى الْعَرْشِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مَعْنًى ثَابِتًا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ مُجَرَّدَ الْعِلْمِ بِمَا سَيَصِيرُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ لَمْ يَكُنْ لَهُ خُصُوصِيَّةٌ

(44/123)

بِأَنَّهُ نَبِيٌّ وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ لِأَنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ يَعْلَمُ اللَّهُ نُبُوَّتَهُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَقَبْلَهُ فَلَا بُدَّ مِنْ خُصُوصِيَّةٍ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَجْلِهَا أَخْبَرَ بِهَذَا الْخَبَرِ إِعْلَامًا لِأُمَّتِهِ لِيَعْرِفُوا قَدْرَهُ عِنْدَ اللَّهِ فَيَحْصُلُ لَهُمُ الْخَيْرُ بِذَلِكَ . فَإِنْ قُلْتَ : أُرِيدُ أَنْ أَفْهَمَ ذَلِكَ الْقَدْرَ الزَّائِدَ فَإِنَّ النُّبُوَّةَ وَصْفٌ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْمَوْصُوفُ بِهِ مَوْجُودًا وَإِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ بُلُوغِ أَرْبَعِينَ سَنَةً أَيْضًا . فَكَيْفَ يُوصَفُ بِهِ قَبْلَ وُجُودِهِ وَقَبْلَ إِرْسَالِهِ فَإِنْ صَحَّ ذَلِكَ فَغَيْرُهُ كَذَلِكَ . قُلْتُ قَدْ جَاءَ أَنَّ

اللَّهَ خَلَقَ الأَرْوَاحَ قَبْلَ الأَجْسَادِ فَقَدْ تَكُونُ الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ : كُنْتُ نَبِيًّا إِلَى رُوحِهِ الشَّرِيفَةِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِلَى حَقِيقَتِهِ وَالْحَقَائِقُ تَقْصُرُ عُقُولُنَا عَنْ مَعْرِفَتِهَا وَإِنَّمَا يَعْلَمُهَا خَالِقُهَا . وَمَنْ أَمَدَّهُ بِنُورٍ إِلَهِيٍّ ثُمَّ إِنَّ تِلْكَ الْحَقَائِقَ يُؤْتِي اللَّهُ كُلَّ حَقِيقَةٍ مِنْهَا مَا يَشَاءُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَشَاءُ ، فَحَقِيقَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ تَكُونُ مِنْ قَبْلِ خَلْقِ آدَمَ آتَاهَا اللَّهُ ذَلِكَ الْوَصْفَ بِأَنْ يَكُونَ خَلَقَهَا مُتَهَيِّئَةً لِذَلِكَ وَأَفَاضَهُ عَلَيْهَا مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ ، فَصَارَ نَبِيًّا وَكَتَبَ اسْمَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَأَخْبَرَ عَنْهُ بِالرِّسَالَةِ لِيَعْلَمَ مَلَائِكَتُهُ وَغَيْرُهُمْ كَرَامَتَهُ عِنْدَهُ فَحَقِيقَتُهُ مَوْجُودَةٌ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ ، فَإِنْ تَأَخَّرَ جَسَدُهُ الشَّرِيفُ الْمُتَّصِفُ بِهَا وَاتِّصَافُ حَقِيقَتِهِ

(45/123)

بِالأَوْصَافِ الشَّرِيفَةِ الْمُفَاضَةِ عَلَيْهِ مِنْ الْحَضْرَةِ الإِلَهِيَّةِ حَاصِلٌ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَإِنَّمَا يَتَأَخَّرُ الْبَعْثُ وَالتَّبْلِيغُ لِتَكَامُلِ جَسَدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ التَّبْلِيغُ ، وَكُلُّ مَالَهُ مِنْ جِهَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمِنْ جِهَةِ تَأَهُّلِ ذَاتِهِ الشَّرِيفَةِ وَحَقِيقَتِهِ مُعَجَّلٌ لَا تَأَخُّرَ فِيهِ وَكَذَلِكَ اسْتِنْبَاؤُهُ وَإِيتَاؤُهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، وَإِنَّمَا الْمُتَأَخِّرُ تَكَوُّنُهُ وَتَنَقُّلُهُ إِلَى أَنْ ظَهَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَغَيْرُهُ ، مِنْ أَهْلِ الْكَرَامَةِ . وَلَا نُمَثِّلُ بِالأَنْبِيَاءِ بَلْ بِغَيْرِهِمْ قَدْ يَكُونُ إِفَاضَةُ

اللَّهِ تلكَ الْكَرَامَةَ عَلَيْهِ بَعْدَ وُجُودِهِ بِمُدَّةٍ كَمَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَلا شَكَّ أَنَّ كُلَّ مَا يَقَعُ فَاللَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِهِ مِنْ الأَزَلِ ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ عِلْمَهُ بِذَلِكَ بِالأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ وَيَعْلَمُ النَّاسُ مِنْهَا مَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ عِنْدَ ظُهُورِهِ لِعِلْمِهِمْ نُبُوَّةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ فِي أَوَّلِ مَا جَاءَهُ بِهِ جِبْرِيلُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ فِعْلٌ مِنْ أَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ جُمْلَةِ مَعْلُومَاتِهِ مِنْ آثَارِ قُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ فِي مَحَلٍّ خَاصٍّ يَتَّصِفُ بِهَا . فَهَاتَانِ مَرْتَبَتَانِ الأُولَى مَعْلُومَةٌ بِالْبُرْهَانِ وَالثَّانِيَةُ ظَاهِرَةٌ لِلْعِيَانِ ، وَبَيْنَ الْمَرْتَبَتَيْنِ وَسَائِطُ مِنْ أَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَحْدُثُ عَلَى حَسَبِ اخْتِيَارِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْهَا

(46/123)

مَا يَظْهَرُ لِبَعْضِ خَلْقِهِ حِينَ حُدُوثِهِ ، وَمِنْهَا مَا يَظْهَرُ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ وَمِنْهَا مَا يَحْصُلُ بِهِ كَمَالٌ لِذَلِكَ الْمَحِلِّ وَإِنْ لَمْ يَظْهَرْ لأَحَدٍ مِنْ الْمَخْلُوقِينَ ، وَذَلِكَ يَنْقَسِمُ إِلَى كَمَالٍ يُقَارِنُ ذَلِكَ الْمَحَلَّ مِنْ حِينِ خَلْقِهِ وَإِلَى كَمَالٍ يَحْصُلُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَلا يَصِلُ عِلْمُ ذَلِكَ إِلَيْنَا إِلا بِالْخَبَرِ الصَّادِقِ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرُ الْخَلْقِ فَلا كَمَالَ لِمَخْلُوقٍ أَعْظَمَ مِنْ كَمَالِهِ وَلا مَحَلَّ أَشْرَفَ مِنْ مَحَلِّهِ يُعَرِّفُنَا بِالْخَبَرِ الصَّحِيحِ حُصُولَ ذَلِكَ الْكَمَالِ مِنْ قَبْلِ خَلْقِ آدَمَ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَأَنَّهُ أَعْطَاهُ النُّبُوَّةَ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ ثُمَّ

أَخَذَ لَهُ الْمَوَاثِيقَ عَلَى الأَنْبِيَاءِ وَعَلَى

أُمَمِهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ الْمُقَدَّمُ عَلَيْهِمْ وَأَنَّهُ نَبِيُّهُمْ وَرَسُولُهُمْ وَفِي أَخْذِ الْمَوَاثِيقِ وَهِيَ مَعْنًى فِي الاسْتِخْلافِ . وَلِذَلِكَ دَخَلَتْ لامُ الْقَسَمِ فِي لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ .

(47/123)

(لَطِيفَةٌ أُخْرَى) : وَهِيَ كَأَنَّهَا أَيْمَانُ الْبَيْعَةِ الَّتِي تُؤْخَذُ لِلْخُلَفَاءِ وَلَعَلَّ أَيْمَانَ الْخُلَفَاءِ أُخِذَتْ مِنْ هُنَا فَانْظُرْ هَذَا التَّعْظِيمَ الْعَظِيمَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَإِذَا عُرِفَ ذَلِكَ فَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ نَبِيُّ الأَنْبِيَاءِ ، وَلِهَذَا ظَهَرَ ذَلِكَ فِي الآخِرَةِ جَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ تَحْتَ لِوَائِهِ وَهُوَ فِي الدُّنْيَا كَذَلِكَ لَيْلَةَ الإِسْرَاءِ صَلَّى بِهِمْ ؛ وَلَوْ اتَّفَقَ مَجِيئُهُ فِي زَمَنِ آدَمَ وَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَجَبَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى أُمَمِهِمْ الإِيمَانُ بِهِ وَنُصْرَتُهُ . وَبِذَلِكَ أَخَذَ اللَّهُ الْمِيثَاقَ عَلَيْهِمْ فَنُبُوَّتُهُ عَلَيْهِمْ وَرِسَالَتُهُ إلَيْهِمْ مَعْنًى حَاصِلٌ لَهُ ، وَإِنَّمَا أَثَرُهُ يَتَوَقَّفُ عَلَى اجْتِمَاعِهِمْ مَعَهُ فَتَأَخُّرُ ذَلِكَ الأَمْرِ رَاجِعٌ إلَى وُجُودِهِمْ لا إلَى عَدَمِ اتِّصَافِهِ بِمَا تَقْتَضِيهِ ، وَفَرْقٌ بَيْنَ تَوَقُّفِ الْفِعْلِ عَلَى قَبُولِ الْمَحَلِّ وَتَوَقُّفِهِ عَلَى أَهْلِيَّةِ الْفَاعِلِ فَهُنَا لا تَوَقُّفَ مِنْ جِهَةِ الْفَاعِلِ ، وَلا مِنْ جِهَةِ ذَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشَّرِيفَةِ ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ

جِهَةِ وُجُودِ الْعَصْرِ الْمُشْتَمِلِ عَلَيْهِمْ، فَلَوْ وُجِدَ فِي عَصْرِهِمْ لَزِمَهُمْ إِتْبَاعُهُ بِلَا شَكٍّ، وَلِهَذَا يَأْتِي عِيسَى فِي آخِرِ الزَّمَانِ عَلَى شَرِيعَتِهِ

(48/123)

وَهُوَ نَبِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى حَالَتِهِ، لَا كَمَا ظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُ يَأْتِي وَاحِدًا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ نَعَمْ هُوَ وَاحِدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ لِمَا قُلْنَاهُ أَنَّ إِتْبَاعَهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّمَا يَحْكُمُ بِشَرِيعَةِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ؛ وَكُلُّ مَا فِيهَا مِنْ أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ، فَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِهِ كَمَا يَتَعَلَّقُ بِسَائِرِ الْأُمَّةِ، وَهُوَ نَبِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ شَيْءٌ؛ وَكَذَلِكَ لَوْ بُعِثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي زَمَانِهِ أَوْ فِي زَمَنِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ وَنُوحٍ وَآدَمَ كَانُوا مُسْتَمِرِّينَ عَلَى نُبُوَّتِهِمْ وَرِسَالَتِهِمْ إِلَى أُمَمِهِمْ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيٌّ عَلَيْهِمْ وَرَسُولٌ إِلَى جَمِيعِهِمْ، فَنُبُوَّتُهُ وَرِسَالَتُهُ أَعَمُّ وَأَشْمَلُ وَأَعْظَمُ وَتَتَّفِقُ مَعَ شَرَائِعِهِمْ فِي الْأُصُولِ لِأَنَّهَا لَا تَخْتَلِفُ، وَتُقَدَّمُ شَرِيعَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا عَسَاهُ يَقَعُ الِاخْتِلَافُ فِيهِ مِنَ الْفُرُوعِ، إِمَّا عَلَى سَبِيلِ التَّخْصِيصِ وَإِمَّا عَلَى سَبِيلِ النَّسْخِ أَوْ لَا نَسْخَ وَلَا تَخْصِيصَ بَلْ تَكُونُ شَرِيعَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تِلْكَ الْأَوْقَاتِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أُولَئِكَ الْأُمَمِ مَا جَاءَتْ بِهِ أَنْبِيَاؤُهُمْ، وَفِي هَذَا الْوَقْتِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ هَذِهِ الشَّرِيعَةُ، وَالْأَحْكَامُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ

الأَشْخَاصِ وَالأَوْقَاتِ . وَبِهَذَا بَانَ لَنَا مَعْنَى حَدِيثَيْنِ خَفِيَا عَنَّا أَحَدُهُمَا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(49/123)

(بُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً)

كُنَّا نَظُنُّ أَنَّهُ مِنْ زَمَانِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَبَانَ أَنَّهُ جَمِيعُ النَّاسِ أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمْ ، وَالثَّانِي قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ كُنَّا نَظُنُّ أَنَّهُ بِالْعِلْمِ فَبَانَ أَنَّهُ زَائِدٌ عَلَى ذَلِكَ عَلَى مَا شَرَحْنَاهُ وَإِنَّمَا يُفَرَّقُ الْحَالُ بَيْنَ مَا بَعْدَ وُجُودِ جَسَدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبُلُوغِهِ الأَرْبَعِينَ وَمَا قَبْلَ ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَبْعُوثِ إِلَيْهِمْ وَتَأَهُّلِهِمْ لِسَمَاعِ كَلامِهِ لا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ وَلا إِلَيْهِمْ لَوْ تَأَهَّلُوا قَبْلَ ذَلِكَ وَتَعْلِيقُ الأَحْكَامِ عَلَى الشُّرُوطِ قَدْ يَكُونُ بِحَسَبِ الْمَحَلِّ الْقَابِلِ وَقَدْ يَكُونُ بِحَسَبِ الْفَاعِلِ الْمُتَصَرِّفِ فَهَاهُنَا التَّعْلِيقُ إِنَّمَا هُوَ بِحَسَبِ الْمَحَلِّ الْقَابِلِ وَهُوَ الْمَبْعُوثُ إِلَيْهِمْ وَقَبُولُهُمْ سَمَاعَ الْخِطَابِ وَالْجَسَدِ الشَّرِيفِ الَّذِي يُخَاطِبُهُمْ بِلِسَانِهِ وَهَذَا كَمَا يُوَكِّلُ الأَبُ رَجُلاً فِي تَزْوِيجِ ابْنَتِهِ إِذَا وَجَدَتْ كُفُؤًا فَالتَّوْكِيلُ صَحِيحٌ وَذَلِكَ الرَّجُلُ أَهْلٌ لِلْوَكَالَةِ وَوَكَالَتُهُ ثَابِتَةٌ ، وَقَدْ يَحْصُلُ تَوَقُّفُ التَّصَرُّفِ عَلَى وُجُودِ كُفْءٍ وَلا يُوجَدُ إِلا

بَعْدَ مُدَّةٍ وَذَلِكَ لاَ يَقْدَحُ فِي صِحَّةِ الْوَكَالَةِ وَأَهْلِيَّةِ التَّوْكِيلِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ. انْتَهَى. انتهى. ا هـ

﴿ فتاوى السبكي حـ 1 صـ 41.28 ﴾

(50/123)

ومن فوائد العلامة أبي السعود

قال رحمه الله:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ الله ميثاق النبيين ﴾ منصوبٌ بمضمر خوطب به النبيُّ صلى الله عليه وسلم أي اذكرْ وقتَ أخذِه تعالى ميثاقَهم ﴿ لَمَا ءاتَيْتُكُم مّن كتاب وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدّقٌ لّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ﴾ قيل: هو ظاهره وإذا كان هذا حكمَ الأنبياءِ عليهم السلام كان الأممُ بذلك أولى وأحرى، وقيل: معناه أخذُ الميثاقِ من النبيين وأممهم، واستُغنيَ بذكرهم عن ذكرهم، وقيل: إضافةُ الميثاقِ إلى النبيين إضافةٌ إلى الفاعل والمعنى وإذْ أخذ الله الميثاقَ الذي وثّقه الأنبياءُ على أممهم، وقيل: المرادُ أولادُ النبيين على حذف المضافِ وهم بنو إسرائيلَ أو سماهم نبيين تهكماً بهم لأنهم كانوا يقولون: نحن أولى بالنبوة من محمد صلى الله عليه وسلم لأنا أهلُ الكتاب والنبيون كانوا منا، واللام في ﴿ لَمَّا ﴾ موطئةٌ للقسم لأن أخذَ الميثاق بمعنى الاستخلافِ، وما تحتملُ الشرطيةَ، ولتؤمنُنّ سادٌّ

مسدَّ جوابِ القسم والشرط ، وتحتمل الخبرية ، وقرئ ﴿ لِمَّا ﴾ بالكسر على أن ما مصدرية أي لأجل إيتائي إياكم بعضَ الكتاب ثم لمجيء رسولٍ مصدقٍ أخذَ اللهُ الميثاقَ لتؤمِنُنَّ به ولتنصرُنه ، أو موصولةٌ والمعنى أخذه الذي آتيتكموه وجاءكم رسولٌ مصدقٌ له وقرئ لَمّا بمعنى حين آتيتُكم أو لَمِنْ أجل ما آتيتُكم على أن أصله لَمِنْ ما بالإدغام فحُذف إحدى الميمات الثلاثِ استثقالاً .

(51/123)

﴿ قَالَ ﴾ أي الله تعالى بعدما أخذَ الميثاقَ ﴿ ءأَقْرَرْتُم ﴾ بما ذُكر ﴿ وَأَخَذْتُمْ على ذلكم إِصْرِى ﴾ أي عهدي سُمّيَ به لأنه يؤصَرُ أي يُشَدّ وقرئ بضم الهمزة إما لغةٌ كعبر وعبر أو جمع إصار وهو ما يشد به ﴿ قَالُواْ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال كأنه قيل : فماذا قالوا عند ذلك ؟ فقيل قالوا : ﴿ أَقْرَرْنَا ﴾ وإنما لم يُذكر أخذُهم الإصرارَ اكتفاءً بذلك ﴿ قَالَ ﴾ تعالى ﴿ فَأَشْهَدُواْ ﴾ أي فليشهدْ بعضُكم على بعض بالإقرار وقيل : الخطابُ فيه للملائكة ﴿ وَأَنَاْ مَعَكُمْ مّنَ الشاهدين ﴾ أي وأنا أيضاً على إقراركم ذلك وتشاهُدِكم به شاهدٌ ، وإدخالُ مع على المخاطبين لما أنهم المباشِرون للشهادة حقيقةً وفيه من التأكيد والتحذيرِ ما لا يخفى .

﴿ فَمَنْ تولى ﴾ أي أعرض عما ذكر ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ الميثاقِ والتوكيدِ بالإقرار والشهادة ، فمعنى البُعد في اسم الإشارةِ لتفخيم الميثاق ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارةٌ إلى مَنْ ، والجمعُ باعتبار المعنى كما أن الإفرادَ في تولى باعتبار اللفظ ، وما فيه من معنى البُعد للدِلالة على ترامي أمرِهم في السوء وبُعد منزلِتهم في الشر والفساد أي فأولئك المُتولُّون المتّصفون بالصفات القبيحةِ ﴿ هُمُ الفاسقون ﴾ المتمرِّدون الخارجون عن الطاعة من الكَفَرة فإن الفاسقَ من كل طائفةٍ مَنْ كان متجاوزاً عن الحد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 53.54 ﴾

ومن فوائد العلامة الآلوسى

قال رحمه الله :

(52/123)

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ ميثاق النبيين لَمَا ءاتَيْتُكُم مّن كتاب وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدّقٌ لّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر مخاطب به النبي صلى الله عليه وسلم أي اذكر وقت ذلك واختار السمين كونه معمولاً لأقررتم الآتي ، وضعفه عبد الباقي بأن خطاب ﴿ ءأَقْرَرْتُمْ ﴾ بعد تحقق أخذ الميثاق ، وفيه تردد ، وعطفه على ما تقدم من

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ المَلائِكَة ﴾ [آل عمران : 42] كما نقله الطبرسي بعيد .

واختلف في المراد من الآية فقيل : إنها على ظاهرها ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن جرير عن علي كرم الله تعالى وجهه قال : لم يبعث الله تعالى نبياً آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد صلى الله عليه وسلم لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ويأمره فيأخذ العهد على قومه ثم تلا الآية ، وعدم ذكر الأمم فيها حينئذ إما لأنهم معلومون بالطريق الأولى أو لأنه استغنى بذكر النبيين عن ذكرهم ، ففي الآية اكتفاء وليس فيها الجمع بين المتنافيين ، وقيل : إن إضافة الميثاق إلى النبيين إضافة إلى الفاعل ، والمعنى وإذ أخذ الله الميثاق الذي وثقه النبيون على أممهم وإلى هذا ذهب ابن عباس فقد أخرج ابن المنذر ، وغيره عن سعيد بن جبير أنه قال : قلت لابن عباس : إن أصحاب عبد الله يقرءون ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ ميثاق الذين أُوتُوا الكتاب لَمَا ءاتَيْتُكُم ﴾ الخ ونحن نقرأ ميثاق النبيين فقال ابن عباس إنما أخذ الله تعالى ميثاق النبيين على قومهم ، وأشار بذلك رضي الله تعالى عنه إلى أنه لا تناقض بين القراءتين كما توهم حتى ظن أن ذلك منشأ قول مجاهد فيما رواه عنه ابن المنذر وغيره أن ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ ميثاق النبيين ﴾ خطأ من الكتاب وأن الآية كما قرأ عبد الله وليس كذلك إذ لا يصلح ذلك

وحده منشأ وإلا لزم الترجيح بلا مرجح بل المنشأ لذلك إن صح ، ولا أظن ما يعلم بعد التأمل فيما أسلفناه في المقدمات وبسطنا الكلام عليه في "الأجوبة العراقية عن الأسئلة الإيرانية" وقيل : المراد أمم النبيين على حذف المضاف ، وإليه ذهب الصادق رضي الله تعالى عنه ؛ وقيل : المضاف المحذوف أولاد ، والمراد بهم على الصحيح بنو إسرائيل لكثرة أولاد الأنبياء فيهم وأن السياق في شأنهم ، وأيد بقراءة عبد الله المشار إليها وهي قراءة أبيّ بن كعب أيضاً ، وقيل : المراد وإذ أخذ الله ميثاقاً مثل ميثاق النبيين أي ميثاقاً غليظاً على الأمم ، ثم جعل ميثاقهم نفسه ميثاقهم بحذف أداة التشبيه مبالغة ، وقيل : المراد من النبيين بنو إسرائيل وسماهم بذلك تهكماً لأنهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوة من محمد لأنا أهل الكتاب والنبيون كانوا منا ، وهذا كما تقول لمن ائتمنته على شيء فخان فيه ثم زعم الأمانة : يا أمين ماذا صنعت بأمانتي ؟ ؟ ا وتعقبه الحلبي بأنه بعيد جداً إذ لا قرينة تبين ذلك ، وأجيب بأن القائل بعد لعله اتخذ مقالهم المذكور قرينة حالية ، وقيل : إن الإضافة للتعليل لأدنى ملابسة كأنه قيل : وإذ أخذ الله الميثاق على الناس لأجل النبيين ، ثم بينه بقوله سبحانه : ﴿ لَمَا ءاتَيْتُكُم ﴾ الخ ولا يخفى أن هذا أيضاً من البعد بمكان ، وقال الشهاب : لم نر من ذكر أن الإضافة تفيد التعليل في غير كلام هذا القائل ، واختار كثير من العلماء القول الأول ، وأخذ الميثاق من النبيين له صلى الله عليه وسلم على ما دل عليه كلام

الأمير كرم الله تعالى وجهه مع علمه سبحانه أنهم لا يدركون وقته لا يمنع من ذلك لما فيه مع ما علمه الله تعالى من التعظيم له صلى الله عليه وسلم والتفخيم ورفعة الشأن والتنويه بالذكر ما لا ينبغي إلا لذلك الجناب ، وتعظم الفائدة إذا كان

(54/123)

ذلك الأخذ عليهم في كتبهم لا في عالم الذر فإنه بعيد كبعد ذلك الزمان كما عليه البعض ويؤيد القول بأخذ الميثاق من الأنبياء الموجب لإيمان من أدركه عليه الصلاة والسلام منهم به ما أخرجه أبو يعلى عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا فإما أن تصدقوا بباطل ، وإما أن تكذبوا بحق وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني " وفي معناه أخبار كثيرة وهي تؤيد بظاهرها ما قلنا ، ومن هنا ذهب العارفون إلى أنه صلى الله عليه وسلم هو النبي المطلق والرسول الحقيقي والمشرع الاستقلالي ، وأن من سواه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في حكم التبعية له صلى الله عليه وسلم .

وهذا وقد عدوا هذه الآية من مشكلات القرآن إعراباً وقد غاص النحويون في تحقيق ذلك وشقوا الشعر فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 3 صـ 209 . 210﴾

من فوائد العلامة الطاهر بن عاشور

قال عليه الرحمة :

عطف ﴿ وإذْ أخذ الله ﴾ على ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة ﴾ [آل عمران : 80] أي ما أمركم الأنبياء بشيء مما تقوّلتم عليهم وقد أمروكم بغير ذلك فأضعتموه حين أخذ الله ميثاقهم لِيُبَلّغوه إليكم ، فالمعطوف هو ظرف (إذْ) وما تعلق به .

ويجوز أن يتعلق (إذ) بقوله : ﴿ أأقررتم ﴾ مقدماً عليه .

ويصح أن تجعل (إذ) بمعنى زمان غير ظرف والتقدير : واذكر إذْ أخذ الله ميثاق النبيين ، فالمقصود الحكاية عن ذلك الزمان وما معه فيكون ﴿ قال أقررتم ﴾ معطوفاً بحذف العاطف .

كما هو الشأن في جمل المحاورة وكذلك قوله : ﴿ قالوا أقررنا ﴾ .

(55/123)

ويصح أن تكون جملة ﴿ قال أأقررتم ﴾ وما بعدها بياناً لجملة ﴿ أخذ اللَّه ميثاق النبيين ﴾ باعتبار ما يقتضيه فعل أخذ الله ميثاقَ النبيين : من أنّ النبيين أعْطَوْا ميثاقاً لله فقال : أأقررتم قالوا : أقررنا إلخ .

ويكون قوله : ﴿ لما آتيناكم ﴾ إلى قوله ﴿ ولتنصرنه ﴾ هو صيغة الميثاق .

وهذا الميثاق أخذه الله على جميع الأنبياء ، يؤذنهم فيه بأنّ رسولاً يجيء مصدّقاً لما معهم ، ويأمُرُهم بالإيمان به وبنصره ، والمقصود من ذلك إعلام أممهم بذلك ليَكون هذا الميثاق محفوظاً لدى سائر الأجيال ، بدليل قوله : ﴿ فمن تولّى بعد ذلك ﴾ إلخ إذ لا يجوز على الأنبياء التولّي والفسق ولكنّ المقصود أممهم كقوله : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ .

وبدليل قوله قال : ﴿ فاشهدوا ﴾ أي على أممكم .

وإلى هذا يرجع ما ورد في القرآن من دعوة إبراهيم عليه السلام : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم ﴾ [البقرة : 129] ، وقد جاء في سفر التثنية قول موسى عليه السلام : "قال لي الربّ أقيم لهم نبيئاً من وسط إخوتهم مثلَك وأجْعَل كلامي في فمه فيكلمهم بكلّ ما أوصيه به" .

وإخوةُ بني إسرائيل هم بنو إسماعيل ، ولو كان المراد نبيئاً إسرائيلياً لقال أقيم لهم نبيئاً منهم على ما في ترجمة التوراة من غموض ولعلّ النص الأصلي أصرح من هذا المترجم .

والبشارات في كتب أنبياء بني إسرائيل وفي الأناجيل كثيرة ففي متى قول المسيح "وتقوم أنبياء كذَبة كثيرون ويضلون كثيرين ولكنّ الذي يصبر أي يبقى أخيراً إلى المنتهى فهذا يخلص ويكرز (1) ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادةً لجميع الأمم ثم يَأتي المنتهَى" وفي إنجيل يوحنا قول المسيح "وأنا أطلب من الأب فيعطيكم مُعَزِّياً آخر ليَمكث معكم إلى الأبد وأما المُعَزِّي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكّركم بكل ما قلتُه لكم ومتى جاء المعزِّي روحُ الحق الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي" إلى غير ذلك.

وفي أخذ العهد على الأنبياء زيادة تنويه برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وهذا المعنى هو ظاهر الآية، وبه فسر محققو المفسرين من السلف والخلف منهم علي بن أبي طالب، وابن عباس، وطاووس، والسدي.

ومن العلماء من استبعد أن يكون أخذ العهد على الأنبياء حقيقة نظراً إلى قوله: ﴿ فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ (توهموه متعيناً لأن يكون المراد بمن تولّى من النبيين المخاطبين، وستعلم أنه ليس كذلك) فتأوّلوا الآية بأنّ المراد أخذ العهد على أممهم، وسلكوا مسالك مختلفة من التأويل فمنهم من جعل إضافة الميثاق للنبيين إضافة تشبه إضافة المصدر إلى فاعله أي أخذ الله على الأمم ميثاق أنبيائهم منهم.

---

(1) وقعت كلمة يكرز في ترجمة إنجيل متى، ولعل معناها ويحسن تبليغ الدين

ومنهم من قدَّر حذف المضاف أي أمم النبيئين أو أولاد النبيئين وإليه مال قول مجاهد والربيع ، واحتجوا بقراءة أبي ، وابن مسعود ، هذه الآية : وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لما آتيناكم من كتاب ، ولم يقرأ ميثاق النبيئين ، وزاد مجاهد فقال : إن قراءة أبي هي القرآن ، وإنّ لفظ النبيئين غلط من الكُتّاب ، وردّه ابن عطية وغيره بإجماع الصحابة والأمة على مصحف عثمان .

وقوله : ﴿ لما آتيناكم ﴾ قرأ الجمهور "لَمَا" بفتح اللام وتخفيف الميم فاللام موطئة للقسم ، لأنّ أخذ الميثاق في معنى اليمين وما موصوله مبتدأ ﴿ وآتيناكم ﴾ صلته وحذف العائد المنصوب جرى على الغالب في مثله ومِن كتاب بيان للموصول وصلتِه ، وعُطف ﴿ ثم جاءكم ﴾ على ﴿ آتيْناكم ﴾ أي الذي آتيناكموه وجاءكم بعده رسول .

ولتؤمننّ اللام فيه لام جواب القسم والجواب سدّ مسد خبر المبتدأ كما هو المعروف وضمير به عائد على المذكور أي لتؤمنّن بما آتيناكم وبالرسول ، أو هو عائد على الرسول وحذف ما يعود على ما آتيناكم لظهوره .

وقرأه حمزة : بكسر لام لما فتكون اللام للتعليل متعلق بقوله : ﴿ لتؤمننّ به ﴾ أي شكراً

على ما آتيتُكم وعلى أن بعثت إليكم رسولاً مصدّقاً لما كنتم عليه من الدين ولا يضرّ عمل مَا بعد لام القسم فيما قبلها فأخْذ الميثاق عليهم مطلقاً ثم علّل جواب القسم بأنه من شكر نعمة الإيتاء والتصديق ، ولا يصح من جهة المعنى تعليق ﴿ لما آتيتكم ﴾ بفعل القسم المحذوف ، لأنّ الشكر علة للجواب ، لا لأخْذ العهد .

ولام ﴿ لتؤمننّ ﴾ لام جواب القسم ، على الوجه الأول ، وموطئة للقسم على الوجه الثاني .

وقرأ نافع ، وأبو جعفر : آتيناكم بنون العظمة وقرأه الباقون ﴿ آتيتكم ﴾ بتاء المتكلم .

وجملة قال : ﴿ أأقررتم ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ أخذ الله ميثاق النبيين ﴾ .

(58/123)

والإقرار هنا مستعمل في معنى التحقيق بالوفاء مما أخذ من الميثاق .

والإصر : بكسر الهمزة ، العهد المؤكد الموثق واشتقاقه من الإصار بكسر الهمزة وهو ما يعقد ويسدّ به ، وقد تقدم الكلام على حقيقته ومجازه في قوله تعالى : ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً ﴾ في سورة [البقرة : 286] .

(وقوله : ﴿ فاشهدوا ﴾ إن كان شهادة على أنفسهم فهي بمعنى التوثق والتحقيق

وكذلك قوله : ﴿ وأنا معكم من الشاهدين ﴾ كقوله : ﴿ شهد اللَّه أنه لا إله إلا هو ﴾ [آل عمران : 18] وإن كانت شهادة على أممهم بتبليغ ذلك الميثاق فالمعنى فاشهدوا على أممكم بذلك ، والله شاهد على الجميع كما شهد النبيئون على الأمم .

وقوله : ﴿ فمن تولى بعد ذلك ﴾ أي من تولّى مِمن شهدتم عليهم ، وهم الأمم ، ولذلك لم يقل فمن تولّى بعد ذلك منكم كما قال في الآية التي خوطب فيها بنو إسرائيل في سورة [المائدة : 12] : ﴿ فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلّ سواء السبيل ﴾

ووجه الحَصر في قوله : فأولئك هم الفاسقون ﴾ أنه للمبالغة لأنّ فسقهم في هذه الحالة أشد فسق فجعل غيره من الفسق كالعدَم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 145.142 ﴾

فصل

قال العلامة ابن كثير فى معنى الآية :

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم ، عليه السلام ، إلى عيسى ، عليه السلام ، لَمَهْمَا آتى الله أحدَهم من كتاب وحكمة ، وبلغ أيّ مبلَغ ، ثم جاءه رسول من بعده ،

ليؤمنَنّ به ولينصرَنّه ، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته ؛

ولهذا قال تعالى وتقدس : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴾

أي : لمهما أعطيتكم من كتاب وحكمة ﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي ﴾

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، والربيع ، وقتادة ، والسدي : يعني عهدي .

وقال محمد بن إسحاق : ﴿ إصري ﴾ أي : ثقل ما حمّلتم من عهدي ، أي ميثاقي الشديد المؤكد .

﴿ قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ . فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ أي : عن هذا العهد والميثاق ، ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

قال علي بن أبي طالب وابن عمه عبد الله بن عباس ، رضي الله عنهما : ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق ، لئن بَعَث محمدًا وهو حَيّ ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمَرَه أن يأخذ الميثاق على أمته : لئن بعث محمد [صلى الله عليه وسلم] وهم أحياء ليؤمِنُنّ به ولينصرُنّه .

وقال طاووس ، والحسن البصري ، وقتادة : أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضا .

وهذا لا يضاد ما قاله عليّ وابن عباس ولا ينفيه ، بل يستلزمه ويقتضيه . ولهذا رواه عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن ابن طاووس ، عن أبيه مثل قول عليّ وابن عباس .

(60/123)

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا سفيان ، عن جابر ، عن الشعبي ، عن عبد الله بن ثابت قال : جاء عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إني مررتُ بأخٍ لي من قُرَيْظَة ، فكتب لي جوَامعَ من التوراة ، ألا أعرضها عليك ؟ قال : فتغيّرَ وَجْهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم -قال عبد الله بن ثابت : قلت له : ألا ترى ما بوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : رضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولا -قال : فسُرِّيَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى عليه السلام ، ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ ، إِنَّكُمْ حَظِّي مِنَ الأُمَمِ ، وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنْ النَّبِيِّينَ" . ﴿ المسند (265/4) قال الهيثمي في المجمع (173/1) : "رجاله رجال الصحيح إلا أن فيه جابر الجعفي وهو ضعيف" ﴾ .

حديث آخر : قال الحافظ أبو بكر حدثنا إسحاق ، حدثنا حماد ، عن مُجالد ، عن الشعبي ، عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ

شَيْءٍ ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا ، وَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ وإما أَنْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ ، وَإِنَّهُ –واللهِ– لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلا أَنْ يَتَّبِعَنِي" . ﴿ مسند البزار برقم (124) "كشف الأستار" ورواه أحمد في مسنده (387/3) والدارمي في السنن (115/1) قال الهيثمي في المجمع (174/1) : "رواه البزار وأحمد وأبو يعلى" . وقد حسنه الشيخ ناصر الألباني ، وتوسع في الكلام عليه فليراجع في كتابه : "إرواء الغليل" (34/6) ﴾ .

(61/123)

وفي بعض الأحاديث [له] : "لَوْ كَانَ مُوسَى وَعِيسَى حَيَّيْنِ لَمَا وَسِعَهُما إلا اتّباعِي" (10) .

فالرسول محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه ، دائما إلى يوم الدين ، وهو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد لكان هو الواجب الطاعة المقدَّم على الأنبياء كلهم ؛ ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس ، وكذلك هو الشفيع في يوم الحشر في إتيان الرب لِفَصْل القضاء ، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له ، والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين ، حتى تنتهي النوبة إليه ، فيكونَ هو المخصوص به .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 67. 68 ﴾

وقال السعدى :

(62/123)

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق النبيين وعهدهم المؤكد بسبب ما أعطاهم من كتاب الله المنزل ، والحكمة الفاصلة بين الحق والباطل والهدى والضلال ، إنه إن بعث الله رسولا مصدقا لما معهم أن يؤمنوا به ويصدقوه ويأخذوا ذلك على أممهم ، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أوجب الله عليهم أن يؤمن بعضهم ببعض ، ويصدق بعضهم بعضا لأن جميع ما عندهم هو من عند الله ، وكل ما من عند الله يجب التصديق به والإيمان ، فهم كالشيء الواحد ، فعلى هذا قد علم أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو خاتمهم ، فكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لو أدركوه لوجب عليهم الإيمان به واتباعه ونصرته ، وكان هو إمامهم ومقدمهم ومتبوعهم ، فهذه الآية الكريمة من أعظم الدلائل على علو مرتبته وجلالة قدره ، وأنه أفضل الأنبياء وسيدهم صلى الله عليه وسلم لما قررهم تعالى [ص 137] ﴿ قالوا أقررنا ﴾ أي : قبلنا ما أمرتنا به على الرأس والعين ﴿ قال ﴾ الله لهم : ﴿ فاشهدوا ﴾ على أنفسكم وعلى أممكم بذلك ، قال ﴿ وأنا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك ﴾

العهد والميثاق المؤكد بالشهادة من الله ومن رسله ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ فعلى هذا كل من ادعى أنه من أتباع الأنبياء كاليهود والنصارى ومن تبعهم ، فقد تولوا عن هذا الميثاق الغليظ ، واستحقوا الفسق الموجب للخلود في النار إن لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 136 ﴾

فائدة

قال الطبرى :

وهاتان الآيتان ، وإن كان مَخرَجَ الخبر فيهما من الله عز وجل بما أخبر أنه أشهدَ وأخذ به ميثاقَ منْ أخذَ ميثاقه به ، عن أنبيائه ورسله ، فإنه مقصودٌ به إخبارُ من كان حوالَي مهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم من يهود بني إسرائيل أيام حياته صلى الله عليه وسلم ، عَمَّا لله عليهم من العهد في الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ومعنيٌّ [به] تذكيرُهم ما كان الله آخذًا على آبائهم وأسلافهم من المواثيق والعهود ، وما كانت أنبياءُ الله عرَّفتهم وتقدّمت إليهم في تصديقه واتباعه ونُصرته على من خالفه وكذبه وتعريفهم ما في كتب الله ، التي أنزلها إلى أنبيائه التي ابتعثها إليهم ، من صفته وعلامته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 563 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيّينَ ﴾ الآية .

أخذ الله ميثاق محمد صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياء عليهم السلام ، كما أخذ ميثاقهم في الإقرار بربوبيته – سبحانه ، وهذا غاية التشريف للرسول عليه السلام ، فقد قَرَنَ اسمه باسم نفسه ، وأثبت قَدْرَه كما أثبت قدر نفسه ، فهو أوحد الكافة في الرتبة ، ثم سَهَّلَ سبيلَ الكافة في معرفة جلاله بما أظهر عليه من المعجزات .

قوله تعالى ﴿ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

الإشارة فيه : فَمَنْ حاد عن سُنَّتِه ، أو زاغ عن اتباع طريقته بعد ظهور دليله ، ووضوح معجزته فأولئك هم الذين خَبُثَتْ درجتهم ، ووجب المقت عليهم لجحدهم ، وسقوطهم عن تعلُّق العناية بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 255 ﴾

(64/123)

فوائد بلاغية

قال أبو حيان :

وذكروا في هذه الآية أنواعاً من الفصاحة .

منها : الطباق : في : بقنطار وبدينار ، إذ أريد بهما القليل والكثير ، وفي : يؤدّه ولا يؤدّه ، لأن الأداء معناه الدفع وعدمه معناه المنع ، وهما ضدان ، وفي قوله : بالكفر ومسلمون ،

والتجنيس المغاير في : اتقى والمتقين ، وفي : فاشهدوا والشاهدين ، والتجنيس المماثل في : ولا يأمركم أيأمركم ، وفي : أقررتم وأقررنا .

والإشارة في قوله : ذلك بأنهم ، وفي أولئك لا خلاق لهم .

والسؤال والجواب ، وهو في : قال أأقررتم ؟ ثم : قالوا أقررنا .

والاختصاص في : يحب المتقين ، وفي يوم القيامة ، اختصه بالذكر لأنه اليوم الذي تظهر فيه مجازاة الأعمال .

والتكرار في : يؤدّه ولا يؤده ، وفي اسم الله في مواضع ، وفي : من الكتاب وما هو من الكتاب .

والاستعارة في : يشترون بعهد الله .

والالتفات في : لما آتيتكم ، وهو خطاب بعد قوله : النبيين ، وهو لفظ غائب .

والحذف في عدة مواضع تقدمت . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 2 صـ 536﴾

(65/123)

فصل

قال القاضى عياض :

الفصل السابع فيما أخبر الله تعالى به في كتابه العزيز من عظيم قدره وشريف منزلته على الأنبياء وحظوة رتبته عليهم

قال الله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة) إلى قوله (من الشاهدين) قال أبو الحسن القابسى استخص الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسقلم بفضل لم يؤته غيره أبانه به وهو ما ذكره في هذه الآية ، قال المفسرون أخذ الله الميثاق بالوحى فلم يبعث نبيا إلا ذكر له محمدا ونعته وأخذ عليه ميثاقه إن أدركه ليؤمنن به وقيل أن يبينه لقومه ويأخذ ميثاقهم أن يبينوه لمن بعدهم ، وقوله ثم جاءكم : الخطاب لأهل الكتاب المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم ، قال على بن أبى طالب رضى الله عنه لم يبعث الله نبيا من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد صلى الله عليه وسلم لئن بعث وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ويأخذن العهد بذلك على قومه .

ونحوه عن السدى وقتادة في آى تضمنت فضله من غير وجه وحد : قال الله تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) الآية وقال تعالى (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح – إلى قوله – شهيدا) روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال في كلام بكى به النبي صلى الله عليه وسلم فقال بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك في أولهم فقال (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) الآية بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا : قال قتادة إن النبي صلى الله عليه وسلم قال كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث فلذلك وقع ذكره مقدما هنا قبل نوح وغيره قال السمرقندى في هذا تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم لتخصيصه بالذكر قبلهم وهو آخرهم بعثا ، المعنى أخذ الله تعالى عليهم الميثاق إذ أخرجهم من ظهر آدم كالذر وقال تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) الآية قال أهل التفسير أراد بقوله ورفع بعضهم درجات محمدا صلى الله عليه وسلم لأنه بعث إلى الأحمر والأسود وأحلت له الغنائم وظهرت على يديه المعجزات وليس أحد من الأنبياء أعطى فضيلة أو كرامة إلا وقد أعطى محمدا صلى الله عليه وسلم مثلها قال بعضهم ومن فضله أن الله تعالى خاطب الأنبياء بأسمائهم وخاطبه بالنبوة والرسالة في كتابه فقال ﴿ يا أيها النبي ﴾ ﴿ ويا أيها الرسول ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الشفا حـ 1 صـ 43 . 46 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآيتين

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴾

هذه الآية تجعلنا نتعرف على أسباب بعث الحق لموكب الرسل ، ونعرف جميعا أن المنهج الأول قد أنزله الله على آدم عليه السلام متضمنا كل ما يجعل الحياة تسير إلى انسجام ، وبلّغ آدم أولاده هذا المنهج كما علمهم أمور حياتهم ، تماما مثلما يعلم الأب أبناءه ما يخدم أمور حياتهم ، كما يقوم بإبلاغ الأبناء مطلوب الدين ، والأبناء يبلغون أبناءهم ، وتتواصل البلاغ من جيل إلى جيل كي يكتمل وصول المنهج للذرية ، ولكن مع توالي الزمن وتتابعه نجد أن بعضا من مطلوبات الدين يتم نسيانها .

إن هذا دليل على أن الناس قد غفلت عن المنهج وهكذا نرى أن الغفلة عن المنهج إنما تتم على مراحل ، فبعد بلاغ المنهج نجد إنسانا يغفل عن جزئية ، ما في هذا المنهج ، وتنبهه نفسه وتلومه على تركه لتلك الجزئية ، ونسمي صاحب هذا الموقف بصاحب النفس اللوامة ، إنه يفعل السيئة لكن نفسه تعود إلى اليقظة لمنهج الله ؛ لأنه يتمتع بوجود خلية

المناعة الإيمانية فيه ، وهناك إنسان آخر يستمرئ المخالفة للمنهج وتلح عليه نفسه بالمخالفة ؛ إنه صاحب النفس الأمارة بالسوء ، وتتوالى به دواعي ارتكاب السيئات ، ومثل هذا الإنسان يحتاج إلى غيره من خارج نفسه ليلفته إلى الخير .

وماذا يحدث للمجتمع إذا صار افراده جميعا من أصحاب النفس الأمارة بالسوء ؟

(68/123)

إن معنى ذلك أن الفساد قد طم ، ولا بد من مجيء رسول ؛ لأن مراد الحق سبحانه هو هداية الناس ، لقد خلقنا سبحانه وله كل صفات الكمال ، ولم يضف خلقُنا إليه شيئا .

وها هو ذا الحديث القدسي الذي رواه أبو ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : " يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، ياعبادي ، كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي ، كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي ، كلكم عار ، إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي ، إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم

وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا ، يا عبادي ، لم أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، قاموا إلى صعيد واحد ، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخْيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياه ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه " .

إن الله سبحانه وتعالى قد خلقنا وهو من الأزل إلى الأبد ، في تمام صفات الكمال ولم يضف له هذا الخلق شيئًا ، وهو القائل :

﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : 57-58] .

(69/123)

إذن فعندما يشرع لنا الحق أمراً فهو يشرعه لمصلحتنا ؛ إنه سبحانه يحب لصنعته أن تظفر بسعادة المنهج ؛ لذلك أنزل المنهج " بافعل ولا تفعل " وحين يقول المنهج : " افعل ولا تفعل " فهو لا يريد أن يحدد حرية الحركة على الخلق الا بما يحميهم ، إنه يحدد حرية هنا ليحمي

حرية هناك . فعندما حرم الله السرقة –على سبيل المثال – فالأمر شامل لكل البشر ، فلا يسرق أحدا أحدا .

إن الحق سبحانه حين منع يدَ واحدٍ من السرقة ، كان في ذلك منع لملايين الأيدي أن تسرق من هذا الإنسان ، وفي هذا حماية لكل البشر من أن يسرق إنسان إنسانا آخر ، وفي ذلك كسب لكل إنسان ، فساعة تأخذ التشريع لا تأخذه على أنه مطلوب منك ، ولكن خذه على أنه مطلوب منك ومطلوب لك أيضا .

ومثال آخر ، لقد حرم المنهج على العبد المؤمن أن يمد عينيه إلى محارم غيره ، ولم يكن هذا التحريم لعبد واحد ، إنما لكل إنسان مؤمن ، وبذلك لا تمتد أي عين إلى محارم هذا العبد ، لقد جاء الأمر لك بغض البصر عن محارم غيرك وأنت واحد ، وكفنا من أجلك ملايين الأبصار كيلا تمتد إلى محارمك .

إذن فكل عبد مؤمن يكسب حياة مطمئنة من وجود التشريع ، وكل التشريعات إنما جاءت لصالحنا جميعا ، ولذلك كان الحق رحيما بنا لأن رَكْبَ الرسل قد تواصل واستمر في الكون منذ آدم ، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم ، والمنهج الذي جاء به كل هؤلاء الرسل لا تناقض فيه أبدا ، لأن في هذا المنهج مصلحة للخلق ، لذلك فلا يمكن أن يكون موكب رسول قد أتى ، ليناقض موكب رسول آخر .

لكن ما الذي يأتي بالتناقض بين الأديان والمشرع واحد ؟ وكل الناس عيال له ؟

إننا نبرئ الرسل من التناقض، وإن حاول البعض أن يصوروا الأمر كذلك فلنعلم أن أتباع الرسل هم الذين يريدون لأنفسهم سلطة زمنية يتحكمون بها في الدنيا، فالذين كانت لهم سلطة زمنية في دين كاليهودية أو النصرانية فعلوا ذلك.

(70/123)

وعندما جاءت النصرانية على اليهودية قال أحبار اليهود: نحن لا نريد النصرانية لماذا؟ لأن السلطة الزمنية كانت في أيديهم، ولو أن هؤلاء الأحبار ظلوا باقين على ما أنزله الله عليهم من منهج لقَبَّلُوا يدي أي رسول قادم شاكرين له مقدَمَة ومجيئه وقالوا له: ساعدنا على أن نعمق فهمنا لمنهج الله.

. إذن فالخلاف لا يحدث إلا حين توجد أهواء لها سلطات زمنية، وموكب الرسالات من يوم أن خلق الله الإنسان هو منهج متساند لا متعاند.

وحينما يأتي رسول ليجد أناسا غير مؤمنين بإله فالمشكلة تكون سهلة، لأنه سيلفتهم إلى إله واحد، وبالمنهج الذي يريده الله، لكن المشكلة تكون كبيرة مع الجماعة التي لها رسول وهم منسوبون إلى السماء فإذا ما جاء رسول من الله فهو يجيء وهؤلاء الأتباع قد أخذوا من ادعائهم بالانتساب لرسالة رسول سابق سلطة زمنية كما حدث مع اليهود والنصارى،

فتعصبوا للدين الذي كانوا عليه متناسين أن كبارهم قد حرفوا المنهج لحساب السلطة الزمنية.

وقد استمر موكب الرسل إلى الخلق ليحمي الله الخلق من سيادة الانحراف واصطفى الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله قد ضمن بقاء الخير في هذه الأمة، فإذا رأيت أناسا بالغوا في الإلحاد فثق أن هناك أناسا زادهم الله في المدد حتى يحدث التوازن؛ لأن الحق هو القائل:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَائِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

[آل عمران: 104].

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه:

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

[آل عمران: 110].

إذن فإن امتنع الوازع النفسي في النفس اللوامة عند فرد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فسوف يأتي أناس مسلمون ينبهونه إلى المنهج ، والحق سبحانه وتعالى لا يعصم الناس من أن يخطئوا فهو القائل :

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾

[العصر : 1-3] .

إن الحق جاء بكلمة " وتواصوا " ، ولم يأتِ بكلمة " وصوا " وذلك لنفهم أن التوصية أمر متبادل بين الجميع ، فساعة يوجد إنسان في لحظة ضعف أمام المنهج توجد لحظة قوة عند غيره فيوصيه .

وترد هذه المسألة أيضا إلى الموصى ، فقد تأتي له لحظة ضعف أمام المنهج ؛ فيجد من يوصيه وهكذا نرى أنه لا يوجد أناس مخصوصون ليوصوا ، وآخرون مهمتهم تلقى التوصية ، إنما الأمر متبادل بينهم ، وهذا هو التكافل الإيماني ، والإنسان قد يضعف في مسألة من المسائل فيأتي أخ مؤمن يقول له : ابتعد عن هذا الضعف ، إن هذه المسألة تحدث بالتناوب لمقاومة لحظات الأغيار في النفس البشرية ؛ لأن لحظات الأغيار لا تجعل الإنسان يثبت على حال ، فإذا ما رأينا إنسانا قد ضعف أمام التزام ما فعلينا أن نتواصى بالحق ونتواصى بالصبر ، وأنت أيضا حين تضعف ستجد من أخوتك الإيمانية مَنْ يوصيك .

هذا هو الحال في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أما الأمم السابقة عليها فقد كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، ولذلك كان لا بد أن تتدخل السماء وتأتي برسول جديد ومعه معجزة جديدة تلفت العقول لفتا قسريا إلى أن هناك أشياء تأتي بها المعجزة ، وهي خرق ناموس الكون ، وفي ذلك لفت من الله للناس إلى مناطق القدرة .

6

وأخذ الله الميثاق على الأنبياء بأن يبلغ كل نبي قومه هذا البلاغ ، انتظروا أن ترسل إليكم السماء رسلا ، وساعة يجيء الرسول المبلغ عن الله منهجه فكونوا معه ، وأيدوه .

(72/123)

كان الرسل عليهم جميعا السلام مأمورين أن يضعوا في المنهج . وصلبه أن السماء حينما تتدخل وتأتي برسول جديد فلا بد أن يتبعه أقوامهم ، وألا يتعصبوا ضد الرسول القادم ، بل يسلمون معه ويرحبون به ؛ لأن الرسول إنما يجيء ليعاون الناس على المنهج الصحيح ، لكن الأتباع الذين يعشقون السلطة الزمنية تعمدوا التحريف ، ومن أجل أن يحمي الحقُّ خلقه من هذا المرض أنزل الميثاق الذي أخذه على النبيين ، فقال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا

مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ﴾ [آل عمران : 81]

قد يقول قائل : إن هذا القول يصلح عندما يأتي رسول معاصر لرسول مثلما عاصر شعيب سيدنا موسى عليه السلام ، وكما عاصر لوط سيدنا إبراهيم عليه السلام ، ونقول : هذا يحدث - أيضا - وإن لم تتعاصر الرسل ، فالحق سبحانه قد أراد لكل رسول أن يعطي لقومه البلاغ الواضح ، وإن لم يتعاصر الرسولان فلا بد أن يعطي الرسول مناعة ضد التعصب ، فما داموا قد آمنوا بالرسول واتبعوه فعليهم حسنَ استقبال الرسول القادم من بعد رسولهم ، وكان على كل رسول أن يبلغ قومه : كونوا في انتظار أن تدخل السماء في أي وقت ، فإذا تدخلت السماء في أي وقت من الأوقات ، وجاءت برسول مصدق لما معكم فإياكم أن تقفوا منه موقف المضارّة ، وإياكم أن تقفوا منه موقف العداوة ، بل عليكم أن " تنصروه " وهذا قول واضح وجلى ولا لبس فيه . ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ ﴾

ونقول في شرح معنى : ﴿ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ .

(73/123)

إن الدين يأتي بقضايا متفق عليها ؛ لأن العقائد واحدة ، والأخبار واحدة ، والقصص واحد ، لكن الذي يختلف هو الحكم التشريعي الذي قد يناسب زمنا ولا يناسب زمنا آخر ، فإذا جاء الرسول بكتاب مصدق لما معكم في الأمور الدائرة في منهج العقائد ، أو منهج القصص فلا بد لكم أن تصدقوه .

لكن اليهود لم يفعلوا ذلك ؛ لأن الرسول جاء ليعيد هداية الجماعة التي آمنت بالرسل والتي تؤمن بإله ، وكان مجيء محمد صلى الله عليه وسلم بالمنهج الواضح العقيدة والأخبار الصحيحة غير المحرفة والقصص التي تدعم المنهج كما جاء بالتشريع المناسب وكان مجيء النبي الخاتم مزلزلا لمن استمرءوا السلطة الزمنية ، فمنهم من أصر على اتباع رسولهم فقط وبالمنهج الذي تم تحريفه ورفضوا اتباع الرسول الجديد ، ومنهم جماعة أخرى آمنت ، بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت هناك جماعة ثالثة تؤمن برسول آخر ، والخيبة تأتي نتيجة للتعصب ، ولذلك كانت دعوة الإسلام هي لتصفية العقائد ، ودعوة لكل متبع لأي رسالة سابقة أن يدرس ويناقش ، هل الدين الخاتم قد جاء بما يختلف عن الأديان السابقة في العقائد ؟ أو جاء مصدقاً لها ؟

لقد جاء الدين الخاتم مصدقا لما سبقه في العقائد والأخبار والقصص وإن اختلف في التشريعات التي تناسب زمنا ولا تناسب زمنا آخر ، فكأن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يعصم البشرية من العصبية الهوجاء ، والعصبية العمياء التي تنشأ من اتباع رسول لتقف

سدا حائلا أمام رسول آخر ؛ فالله حين أرسل كل رسول قد أعطاه الأخبار والحقائق وأنه سبحانه قد أخذ الميثاق على كل نبي أرسله بأن يكون على استعداد هو والمؤمنون معه لتصديق كل رسول يأتي معاصرا ومصدقا لما معهم ، وأن يؤمنوا به ، وأن يبلغ كل رسول أمته بضرورة هذا الإيمان .

(74/123)

لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد من الركب الإيماني المتمثل في مواكب الرسل ألا يكون بعضهم لبعض عدوّا ، بل عليهم أن يواجهوا أعداء قضية الدين كلها . فالذي يجعل الإلحاد متفشيا في هذا العصر هو أن المنسوبين إلى الأديان السماوية مختلفون ، وربما كانت العداوة بينهم وبين بعضهم أقوى من العداوة بينهم وبين الملحدين والمنكرين لله ، وهذا الاختلاف يعطي المجال للملحدين فيقولون : لو كانت هذه الأديان حقا لا تفقوا وما اختلفوا ، فما معنى أن يقول أتباع كل رسول إنهم يتبعون رسولا قادما من السماء ؟

إن الملحدين يجدون من اختلاف أتباع الديانات السماوية فرصة ليبذروا في الناس بذور الإلحاد ، ولا يجدون تكتلا ولا قوة إيمانية لمن يؤمن بالسماء أو بمنهج السماء لكن الحق سبحانه يقول : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ﴾ وهذا يعني أنه سبحانه قد أخذ الميثاق

على كل نبي ساعة أرسله أنه قد آتاه الكتاب والحكمة ، وإنه إذا جاءكم رسول مصدق لهذا الكتاب وتلك الحكمة فعليكم الإيمان به ، ولا يكفي إعلان الإيمان فقط ، بل لا بد أن يكون النبي ومن معه في نصرة الرسول الجديد نقول : ولو عمل أتباع كل نبيّ بهذا العهد والميثاق لما كان لهؤلاء الملحدين حجة ويضيف سبحانه : ﴿ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا ﴾ والإقرار سيد الأدلة كما يقولون ؛ والإصر هو العهد الشديد ، ولذلك يقال : "آصره المودة" أي الرابطة الشديدة المعقودة. قال الموكب الإيماني للأنبياء موجهين إقرارهم لله تعالى ﴿ أَقْرَرْنَا ﴾ ، فقال الحق سبحانه : ﴿ فَاشْهَدُوا ﴾ . والشهادة دائما تقتضي شاهدا ومشهودا عليه ومشهودا به .

وما دام الحق سبحانه هو الذي يقول للنبيين الذين أخذوا منه العهد والميثاق الحق : ﴿ فَاشْهَدُوا ﴾ ، إذن فهم في موقف الشاهد ، وما المشهود عليه ؟ وما المشهود به ؟ هل يشهدون على أنفسهم ؟

أو يشهد كل نبي على الأنبياء الآخرين ؟

أو يشهد أنه قد بلغ أمته هذا القرار الإلهي ؟

إن الرسول يشهد على أمته ، وأن الأنبياء يشهد بعضهم لبعض .

إذن قد يكون الشاهد نبيا ، والمشهود له نبي آخر ، والمشهود به أن يؤمنوا بالرسول القادم وينصروه .

وقد يكون الشاهد النبي ، والمشهود عليه هي أمته بأنه قد بلغها ضرورة الإيمان بالرسول القادم بمنهج السماء ؛ لأن الأمة ما دامت قد آمنت برسول فعليهم مؤازرة هذا الرسول ، ومؤازرة مَنْ يأتي من بعده ، وذلك حتى لا يتبدد ركب الإيمان ؤمام باطل الإلحاد :

﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَالِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَاْ مَعَكُمْ مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران : 81]

ولنرتب الشهادات التي وردت في هذه الآية الكريمة : الأنبياء يشهد بعضهم على بعض ، أو الأنبياء يشهدون على أممهم ، ثم شهادة الله على الأنبياء .

وما دام الأمر قد جاء بهذا التوثيق فعلينا أن ننبه أنه إذا ما وجدنا دينا سابقا يتعصب أمام دين لاحق ، بعد أن يأتي هذا الدين بالمعجزة الدالة على صدق بلاغ ذلك الرسول عن الله فلنعلم أنهم خانوا هذه القضية . وسبب ذلك يرجع إلى أن الله يريد أن يحتفظ للدعوة إلى الإيمان ، بانسجام تام ، فلا يتعصب رسول لنفسه ولا لقوميته ولا لبيئته ، ولا يتعصب أهل رسول لملتهم أو نحلتهم ؛ لأنهم جميعا مبلغون عن إله واحد لمنهج واحد ، فيجب أن يظل المنهج مترابطا فلا يتعصب كل قوم لنبيهم أو دينهم ، وهذا ليكون موكب الرسالات موكبا

متلاحما متساندا متعاضدا ، فلا حجة من بعد ذلك لنبي ، ولا لتابع نبي أن يصادم دعوة أي رسول يأتي ، ما دام مصدقا لما بين يديه .

(76/123)

لقد أعلمنا الحق أنه قد عرض شهادة الأنبياء على بعضهم ، وشهادة الأنبياء على أممهم ، وشهادة الله سبحانه على الجميع ، وذلك أوثق العهود وآكدها . ولذلك يزداد موكب الإيمان تآزرا وتلاحما ، فلا يأتي مؤمن برسالة من السماء ليصادم مؤمنا آخر برسالة من السماء . . ولندع المصادمة لمن لا يؤمنون برسالة السماء ، وحين يتكاتف المؤمنون برسالة السماء يستطيعون الوقوف أمام هؤلاء الملاحدة ، وبعد هذا البيان الواضح يقول الحق : ﴿ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

معنى " تولى " هي مقابل " أقبل " . و " أقبل " تعني أنه جاء بوجهه عليك . و " تولى " أعرض كما نقول نحن في تعبيراتنا الشائعة : " أعطاني ظهره " . ومعنى هذا أنه لم يأبه لي ، ولم يقبل علي . إذن فالمراد مِنْ أَخْذ العهدِ أن يُقْبَل الناسُ على ذلك الدين ، فالذي يُعرض ويعطي الإيمان الجديد ظهره يتوعده الله ويصفه بقوله : ﴿ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ بعد ماذا ؟ إنه التولي بعد أخذ العهد والميثاق على النبيين ، وشهادة الأمم

بعضها على بعضها ، وشهادة الله على الجميع ، إذن فلا عذر لأحد . فمن أعطى ظهره للنبي الجديد ، فماذا يكون وعيد الله له ؟

إن الحق يصفهم بقوله : ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي أن الوعيد هو أن الله يحاسبه حساب الفاسقين ، والفسق - كما نعلم - هو الخروج عن منهج الطاعة . والمعاني - كما تعرف - أخذت وضعها من المحسوسات . لأن الأصل في الوعي البشرى هو الشيء المحس أولا ، ثم تأتي المعنويات لتأخذ من ألفاظ المحسوسات . والفسق في أصل اللغة هو خروج الرطبة عن قشرتها ؛ فالبلح حين يرطب ، يكون حجم كل ثمرة قد تناقص عن قشرتها . وحينما يتناقص الحجم الطبيعي عن القشرة تصبح القشرة فضفاضة عليه ، وتصبح أي حركة عليه هي فرصة لانفلات الرطبة من قشرتها .

ويقال : " فسقت الرطبة " أي خرجت عن قشرتها . وأَخَذَ الدينُ هذا التعبير وجعله وصفاً لمن يخرج عن منهج الله ، فكأن منهج الله يحيط بالإنسان في كل تصرفاته ، فإذا ما خرج الإنسان عن منهج الله ، كان مثل الرطبة التي خرجت عن قشرتها .

ونحن أمام فسق من نوع أكبر ، فهناك فسق صغير ، وهناك فسق كبير . وهنا نسأل أيكون

الفسق هنا مجرد خروج عن منهج طاعة الرسول ؟ لكن هذا الخروج يوصف به كل عاصٍ ، أي أن صاحبه مؤمن بمنهج وفسق جزئيا ، إننا نقول عن كل عاصٍ : " إنه فسق " أي أنه مؤمن بمنهج وخرج عن جزئية من هذا المنهج ، أما الفسق الذي يتحدث عنه الحق هنا فهو فسق القمة ؛ لأنه فسق عن ركب الإيمان كله ، فإذا كان الله قد أخذ العهد ، وشهد الأنبياء على أممهم ، وشهدت الأمم بعضها على بعض ، وشهد الله على الجميع ، أبعد ذلك تكون هناك فرصة لأن يتولى الإنسان ويعرض ؟

ثم لماذا يتولى ويعرض ؟ إنه يفعل ذلك لأنه يريد منهجا غير هذا المنهج الذي أنزله الله ، فلو كان قد اقتنع بمنهج الله لأقبل على هذا المنهج ، أما الذي لم يقتنع فإنه يعرض عن المنهج ويطلب منهجا غيره فأي منهج تريد يا من لا ترضى هذه الشهادة ولا هذا التوثيق ؟ خصوصا وأنت تعلم أنه لا يوجد منهج صحيح إلا هذا المنهج ، فليس هناك إله آخر يرسل مناهج أخرى .

(78/123)

وهكذا نعرف أنه لا يأتي منهج غير منهج الله ، إلا منهج من البشر لبعضهم بعضا ، ولنا أن نقول لمن يتبع منهجا غير منهج الله : من الذي جعل إنسانا أولى بأن يتبعه إنسان ؟ إن التابع لا

بد أن يبحث عمن يتبعه ، ولا بد أن يكون الذي يتبعه أعلى منه ، لكن أن يتبع إنسان إنسانا آخر في منهج من عنده ، فهذا لا يليق ، وهو فسق عن منهج الله ؛ لأن المساوي لا يتبع مساوياً له أبدا ، ومن فضل الله سبحانه أنه جعل المنهج من عنده للناس جميعا حتى لا يتبع إنسان إنسانا آخر . لماذا ؟ حتى لا يكون هوى إنسان مسيطرا على مقدرات إنسان آخر ، والحق سبحانه لا هوى له . إن كل إنسان يجب أن يكون هواه تابعا لله الذي خلق كل البشر .

وما دام ليس هناك إله آخر فما المنهج الذي يرتضيه الإنسان لنفسه ؟

إن المنهج الذي يرتضيه الإنسان لنفسه لو لم يتبع منهج الله هو منهج من وضع البشر ، والمنهج الذي يضعه البشر ينبع دائما من الهوى ، وما دامت الأهواء قد وجدت ، فكل مشرِّع من البشر له هوى ، وهذا يؤدي إلى فساد الكون . قال تعالى :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴾

[المؤمنون : 71] .

فإذا كانوا لا يرضون منهج الله ، فأي فسق هم فيه ؟ إنه فسق عظيم ؛ لأن الله قد أخذ عليهم العهد وعلى أنبيائهم ووثق هذا العهد ، أفغير الله يبغون ؟ نعم ، إنهم يبغون غير الله ومن هو ذلك الغير ؟ أهو إله آخر ؟ لا ، فليس مع الله إله آخر ، بل هم قد جعلوا الخلق

مقابل الخالق ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1567. 1578 ﴾

(79/123)

" فصل "

قال السيوطى :

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آَتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (81) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (82)

أخرج عبد بن حميد والفريابي وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ﴾ قال : هي خطأ من الكتاب . وهي قراءة ابن مسعود ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ﴾ .

وأخرج ابن جرير عي الربيع أنه قرأ ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ﴾ قال : وكذلك كان يقرؤها أبي بن كعب . قال الربيع : ألا ترى أنه يقول ﴿ ثم جاءكم رسول

مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾ يقول : لتؤمنن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولتنصرنه . قال : هم أهل الكتاب .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : إن أصحاب عبد الله يقرؤون ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لما آتيتكم من كتاب وحكمة ﴾ ونحن نقرأ ﴿ ميثاق النبيين ﴾ فقال ابن عباس : إنما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن طاوس في الآية قال : أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من وجه آخر عن طاوس في الآية قال : أخذ الله ميثاق الأول من الأنبياء ليصدقن ، وليؤمنن بما جاء به الآخر منهم .

(80/123)

وأخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : لم يبعث الله نبياً ؛ آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد ، لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ، ولينصرنه . ويأمره فيأخذ العهد على قومه . ثم تلا ﴿ وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب

وحكمة . . . ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابي جرير عن قتادة في الآية قال : هذا ميثاق أخذه الله على النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً ، وأن يبلّغوا كتاب الله ورسالاته ، فبلغت الأنبياء كتاب الله ورسالاته إلى قومهم ، وأخذ عليهم فيما بلغتهم رسلهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويصدقوه ، وينصروه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال : لم يبعث الله نبياً قط من لدن نوح إلا أخذ الله ميثاقه ؛ ليؤمنن بمحمد ، ولينصرنه إن خرج وهو حي ، وإلا أخذ على قومه أن يؤمنوا به وينصروه إن خرج وهم أحياء .

وأخرج ابن جريج عن الحسن في الآية قال : أخذ الله ميثاق النبيين ليبلغن آخركم أوّلكم ، ولا تختلفوا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال : ثم ذكر ما أخذ عليهم يعني على أهل الكتاب وعلى أنبيائهم من الميثاق بتصديقه يعني بتصديق محمد صلى الله عليه وسلم إذ جاءهم ، وإقرارهم به على أنفسهم .

وأخرج أحمد عن عبد الله بن ثابت قال " جاء عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني قد مررت بأخ لي من قريظة ، فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك ؟ فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام

ديناً ، وبمحمد رسولاً . فسري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه لضللتم . إنكم حظي من الأمم ، وأنا حظكم من النبيين " .

(81/123)

وأخرج أبو يعلى عن جابر قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا . إنكم أما أن تصدقوا بباطل ، وإما أن تكذبوا بحق ، وأنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني " .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير أنه قرأ ﴿ لما آتيتكم ﴾ ثقل لما .

وأخرج عن عاصم أنه قرأ ﴿ لما ﴾ مخففة ﴿ آتيتكم ﴾ بالتاء على واحدة يعني أعطيتكم .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿ إصري ﴾ قال : عهدي .

وأخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب في قوله ﴿ قال فاشهدوا ﴾ يقول : فاشهدوا على أممكم بذلك ﴿ وأنا معكم من الشاهدين ﴾ عليكم وعليهم ﴿ فمن تولى ﴾ عنك

يا محمد بعد هذا العهد من جميع الأمم ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ هم العاصون في الكفر. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 252. 254 ﴾

(82/123)

قوله تعالى ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (83) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان المدرك لكل نبي إنما هم أمة النبي الذي قبله ، وكانوا يكذبونه ويخالفونه قال - خاتماً لهذه القصص بعد الشهادة بنفسه المقدسة بما بدأها به في قوله ﴿ شهد الله ﴾ الآية إلى ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ على وجه الإنكار والتهديد عاطفاً على ما دل عليه السياق - : ﴿ أفغير ﴾ أي أتولوا ففسقوا ، فتسبب عن ذلك أنهم غير دين الله ، وأورد بأن تقديم "غير" يفهم أن الإنكار منحط على طلبهم اختصاصاً لغير دين الله ، وليس ذلك هو المراد كما لا يخفى ، وأجيب بأن تقديمه الاهتمام بشأنه في الإنكار ، والاختصاص متأخر مراعاته عن نكتة غيره - كما تقرر في محله ﴿ دين الله ﴾ الذي اختص بصفات

الكمال ﴿ يبغون ﴾ أي يطلبون بفسقهم ، أو أتوليتم – على قراءة الخطاب ﴿ وله ﴾ أي والحال أنه له حاصة ﴿ أسلم ﴾ أي خضع بالانقياد لأحكامة والجري تحت مراده وقضائه ، لا يقدرون على مغالبة قدره بوجه ﴿ من في السموات والأرض ﴾ وهم من لهم قوة الدفاع بالبدن والعقل فكيف بغيرهم ﴿ طوعاً ﴾ بالإيمان أو بما وافق أغراضهم ﴿ وكرهاً ﴾ بالتسليم لقهره في إسلام أحدهم وإن كثرت أعوانه وعز سلطانه إلى أكره ما يكره وهو صاغر داخر ، لا يستطيع أمراً ولا يجد نصراً ﴿ وإليه يرجعون ﴾ بالحشر ، لا تعالجون مقراً ولا تلقون ملجأ ولا مفراً ، فإذا كانوا كذلك لا يقدرون على التفصي من قبضته بنوع قوة ولا حيلة في سكون ولا حركة فكيف يخالفون ما أتاهم من أمره على ألسنة رسله وقد ثبت أنهم رسله بما أتى به كل منهم من المعجزة ! ومن المعلوم أن المعاند للرسول صلى الله عليه وسلم معاند للمرسل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 119.120 ﴾

(83/123)

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بيّن في الآية الأولى أن الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام شرع شرعه الله وأوجبه على جميع من مضى من الأنبياء والأمم ، لزم أن كل من كره ذلك فإنه يكون طالباً

ديناً غير دين الله ، فلهذا قال بعده ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 106 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ حفص عن عاصم ﴿ يَبْغُونَ ﴾ و ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ بالياء المنقطة من تحتها ، لوجهين أحدهما : رداً لهذا إلى قوله ﴿ وأولئك هُمُ الفاسقون ﴾ [آل عمران : 82]

والثاني : أنه تعالى إنما ذكر حكاية أخذ الميثاق حتى يبين أن اليهود والنصارى يلزمهم الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلما أصروا على كفرهم قال على جهة الاستنكار ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ وقرأ أبو عمرو ﴿ تبغون ﴾ بالتاء خطاباً لليهود وغيرهم من الكافر و ﴿ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ بالياء ليرجع إلى جميع المكلفين المذكورين في قوله ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى السموات والأرض ﴾ وقرأ الباقون فيهما بالتاء على الخطاب ، لأن ما قبله خطاب كقوله ﴿ ءأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ ﴾ [آل عمران : 81] وأيضاً فلا يبعد أن يقال للمسلم والكافر ولكل أحد : أفغير دين الله تبغون مع علمكم بأنه أسلم له من في السموات والأرض ، وأن مرجعكم إليه وهو كقوله ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تتلى عَلَيْكُمْ ءايات الله وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ [آل عمران : 101] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 107.106 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

الجمهور يجعلون الهمزة مقدَّمةً على الفاء ، للزومها الصدر ، والزمخشري يقرها على حالها ، ويُقدِّر محذوفاً قبلها ، وهنا جوَّز وجهين :

أحدهما : أن تكون الفاء عاطفةً جملة على جملة ، والمعنى : فأولئك هم الفاسقون ، فغير دين الله يبغون ، ثم توسطت الهمزة بينهما .

(84/123)

والثاني : أن تعطف على محذوف ، تقديره أيتولون ، فغير دين الله يبغون ؟ لأن الاستفهام إنما يكون عن الأفعال والحوادث ، وهو استفهام استنكار ، وقدم المفعول – الذي هو " غير " – على فعله ؛ لأنه أهم من حيث أن الإنكار – الذي هو معنى الهمزة – مُتَوَجِّه إلى المعبود الباطل ، هذا كلام الزمخشريِّ.

قال أبو حيان : " ولا تحقيق فيه ؛ لأن الإنكار – الذي هو معنى الهمزة – لا يتوجه إلى الذوات ، وإنما يتوجه إلى الأفعال التي تتعلق بالذوات ، فالذي أنكر إنما هو الابتغاء ، الذي متعلقه غير دين الله ، وإنما جاء تقديم المفعول من باب الاتساع ، ولشبه " يبغون " بالفاصلة ، فأُخِّرَ الفعل " .

وقرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم "يَبْغُونَ" من تحت - نسقاً على قوله : ﴿ هُمُ الفاسقون ﴾ [آل عمران : 82] والباقون بتاء الخطاب ، التفاتاً لقوله : ﴿ لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ [آل عمران : 81] ولقوله : ﴿ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ ﴾ [آل عمران : 81].

وأيضاً فلا يبعد أن يُقال للمسلم والكافر ، ولكل أحد : أفغير دين الله تبغون مع علمكم أنه أسلم له مَنْ في السموات والأرض وأن مَرْجعكم إليه ؟ ونظيره قوله : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تتلى عَلَيْكُمْ آيَاتُ الله وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ [آل عمران : 101]. انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 366 ﴾

فصل

قال الفخر :

(85/123)

الهمزة للاستفهام والمراد استنكار أن يفعلوا ذلك أو تقرير أنهم يفعلونه ، وموضع الهمزة هو لفظة ﴿ يَبْغُونَ ﴾ تقديره : أيبغون غير دين الله ؟ لأن الاستفهام إنما يكون عن الأفعال والحوادث ، إلا أنه تعالى قدم المفعول الذي هو ﴿ غَيْرَ دِينِ الله ﴾ على فعله ، لأنه أهم من

حيث أن الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجه إلى المعبود الباطل وأما الفاء فلعطف جملة على جملة وفيه وجهان أحدهما : التقدير : فأولئك هم الفاسقون ، فغير دين الله يبغون .

واعلم أنه لو قيل أو غير دين الله يبغون جاز إلا أن في الفاء فائدة زائدة كأنه قيل : أفبعد أخذ هذا الميثاق المؤكد بهذه التأكيدات البليغة تبغون ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 107 ﴾

فصل

قال الفخر :

(86/123)

روي أن فريقين من أهل الكتاب اختصموا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيما اختلفوا فيه من دين إبراهيم عليه السلام ، وكل واحد من الفريقين ادعى أنه أولى به ، فقال عليه الصلاة والسلام : "كلا الفريقين برىء من دين إبراهيم عليه السلام ، " فقالوا : ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك فنزلت هذه الآية ، ويبعد عندي حمل هذه الآية على هذا السبب لأن على هذا التقدير تكون هذه الآية منقطعة عما قبلها ، والاستفهام على سبيل الإنكار يقتضي تعلقها بما قبلها ، فالوجه في الآية أن هذا الميثاق لما كان مذكوراً في كتبهم

وهم كانوا عارفين بذلك فقد كانوا عالمين بصدق محمد صلى الله عليه وسلم في النبوّة فلم يبق لكفرهم سبب إلا مجرد العداوة والحسد فصاروا كإبليس الذي دعاه الحسد إلى الكفر ، فأعلمهم الله تعالى أنهم متى كانوا طالبين ديناً غير دين الله ، ومعبوداً سوى الله سبحانه ، ثم بيّن أن التمرد على الله تعالى والإعراض عن حكمه مما لا يليق بالعقلاء فقال : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى السموات والأرض طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 107 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

قوله : " وله أسلم من في السموات " جملةٌ حالية ، أي : كيف يبغون غير دينه ، والحال هذه ، وفي قوله : " طوعاً وكرهاً " وجهان :

أحدهما : أنهما مصدران في موضع الحال ، والتقدير : طائعين وكارهين .

الثاني : أنهما مصدران على غير المصدر ، قال ابو البقاء : " لأن " أَسْلَمَ " بمعنى انقاد ، وأطاع " وتابعه أبو حيان على هذا .

وفيه نظرٌ ؛ من حيث إن هذا ماشٍ في " طَوْعاً " لموافقته معنى الفعل قبله ، وأما " كَرْهاً " ، كيف يقال فيه ذلك ؟ والقول بأنه يُغتفر في التوالي ما لا يُغْتَفَر في الأوائل ، غير نافع هنا .

ويقال يطاع يطوع ، وأطاع يُطيع بمعنى ، قاله ابن السّكيتِ ، وقول : طاعه يطوعه : انقاد له ، وأطاعه ، أي : رضي لأمره ، وطاوعه ، أي : وافقه .

قرأ الأعمش : " وكُرْهاً " - بالضم - وسيأتي أنها قراءة الأخوين في سورة النساء . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 367 ﴾

فصل

قال الفخر :

الإسلام ، هو الاستسلام والانقياد والخضوع .

إذا عرفت هذا ففي خضوع كل من في السموات والأرض لله وجوه الأول : وهو الأصح عندي أن كل ما سوى الله سبحانه ممكن لذاته وكل ممكن لذاته فإنه لا يوجد إلا بإيجاده ولا يعدم إلا بإعدامه فإذن كل ما سوى الله فهو منقاد خاضع لجلال الله في طرفي وجوده وعدمه ، وهذا هو نهاية الانقياد والخضوع ، ثم إن في هذا الوجه لطيفة أخرى وهي أن قوله ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ ﴾ يفيد الحصر أي وله أسلم كل من في السموات والأرض لا لغيره ، فهذه الآية تفيد أن واجب الوجود واحد وأن كل ما سواه فإنه لا يوجد إلا بتكوينه ولا يفنى إلا بإفنائه سواء كان عقلاً أو نفساً أو روحاً أو جسماً أو جوهراً أو عرضاً أو فاعلاً أو فعلاً ، ونظير هذه الآية في الدلالة على هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَللَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى السموات والأرض ﴾ [

الرعد : 15] وقوله ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : 44] .

الوجه الثاني : في تفسير هذه الآية أنه لا سبيل لأحد إلى الامتناع عليه في مراده ، وإما أن ينزلوا عليه طوعاً أو كرهاً ، فالمسلمون الصالحون ينقادون لله طوعاً فيما يتعلق بالدين ، وينقادون له كرهاً فيما يخالف طباعهم من المرض والفقر والموت وأشباه ذلك ، وأما الكافرون فهم ينقادون لله تعالى على كل حال كرهاً لأنهم لا ينقادون فيما يتعلق بالدين ، وفي غير ذلك مستسلمون له سبحانه كرهاً ، لأنه لا يمكنهم دفع قضائه وقدره

(88/123)

الثالث : أسلم المسلمون طوعاً ، والكافرون عند موتهم كرهاً لقوله تعالى : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمانهم لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ [غافر : 85] الرابع : أن كل الخلق منقادون لإلهيته طوعاً بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [لقمان : 25] ومنقادون لتكاليفه وإيجاده للآلام كرهاً الخامس : أن انقياد الكل إنما حصل وقت أخذ الميثاق وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ [الأعراف : 172]

السادس : قال الحسن : الطوع لأهل السموات خاصة ، وأما أهل الأرض فبعضهم بالطوع

وبعضهم بالكره ، وأقول : إنه سبحانه ذكر في تخليق السموات والأرض هذا وهو قوله ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت : 11] وفيه أسرار عجيبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 107.108 ﴾

وقال ابن كثير :

المؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله ، والكافر مستسلم لله كرها ، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم ، الذي لا يخالف ولا يمانع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 69 ﴾

وقال ابن عادل :

وقيل : كل الخلق منقادون للإلهية طوعاً ، بدليل قوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [لقمان : 25] ومنقادون لتكاليفه وإيجاده للآلام كرهاً .

قوله : ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ يجوز أن تكون هذه الجملة مُستأنفةً ، فلا محل لها ، وإنما سيقت للإخبار بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 368 ﴾

قوله ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

قال الفخر :

أما قوله ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فالمراد أن من خالفه في العاجل فسيكون مرجعه إليه ، والمراد إلى حيث لا يملك الضر والنفع سواه هذا وعيد عظيم لمن خالف الدين الحق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 108 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ يجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفةً ، فلا محل لها ، وإنما سيقت للإخبار بذلك ؛ لتضمنها معنى التهديد العظيم ، والوعيد الشديد . ويجوز أن تكون معطوفة على الجملة من قوله : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ ﴾ فتكون حالاً - أيضاً - ويكون المعنى : أنه نَعَى عليهم ابتغاء غير دين من أسلم له جميع من في السموات والأرض - طائعين ومكرهين - ومن مرجعهم إليه .

قرأ حفص - عن عاصم - "يُرْجَعُونَ" بياء الغيبة - ويحتمل ذلك وجوهاً :

أحدها : أن يعود الضمير على ﴿ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ .

الثاني : أن يعود على من عاد عليه الضمير في "يَبْغُونَ" في قراءة من قرأ بالغيبة ، ولا التفات في هذين .

والثالث : أن يعود على من عاد عليه الضمير في " تَبْغُونَ " - في قراءة الخطاب - فيكون

التفاتاً حينئذ . وقرأ الباقون – " تبغون " – بالخطاب – وهو واضح ، ومن قرأه بالغيبة كان التفاتاً منه .

ويجوز أن يكون التفاتاً من قوله : ﴿ مَن فِي السماوات والأرض ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 368 ﴾

قال الطبرى :

(90/123)

وأولى ذلك بالصواب ، قراءةُ من قرأ : "أفغير دين الله تبغون" على وجه الخطاب "وإليه تُرجعون" بالتاء . لأن الآية التي قبلها خطابٌ لهم ، فإتباعُ الخطاب نظيرَه ، أولى من صرف الكلام إلى غير نظيره . وإن كان الوجه الآخر جائزًا ، لما قد ذكرنا فيما مضى قبل : من أن الحكاية يخرج الكلام معها أحيانًا على الخطاب كله ، وأحيانًا على وجه الخبر عن الغائب ، وأحيانًا بعضُه على الخطاب ، وبعضُه على الغيبة ، فقوله : "تبغون" و"إليه ترجعون" في هذه الآية ، من ذلك . (1)

وتأويل الكلام : يا معشرَ أهل الكتاب "أفغيرَ دين الله تبغون" ، يقول : أفغير طاعة الله تلتمسون وتريدون ، "وله أسلم من في السماوات والأرض" ، يقول : وله خَشع من في

السموات والأرض، فخضع له بالعبودة، وأقرّ له بإفراد الربوبية، وانقاد له بإخلاص التوحيد والألوهية "طوْعًا وكرهًا"، يقول أسلم لله طائعًا من كان إسلامه منهم له طائعًا، وذلك كالملائكة والأنبياء والمرسلين، فإنهم أسلموا لله طائعين "وكرهًا"، من كان منهم كارهًا. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير الطبرى حـ 6 صـ 564. 565﴾

فصل

قال الفخر:

قال الواحدي رحمه الله: الطوع الانقياد، يقال: طاعه يطوعه طوعاً إذا انقاد له وخضع، وإذا مضى لأمره فقد أطاعه، وإذا وافقه فقد طاوعه، قال ابن السكيت: يقال طاع له وأطاع، فانتصب طوعاً وكرهاً على أنه مصدر وقع موقع الحال، وتقديره طائعاً وكارهاً، كقولك أتاني راكضاً، ولا يجوز أن يقال: أتاني كلاماً أي متكلماً، لأن الكلام ليس يضرب للإتيان، والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 108﴾

---

(1) تقدم الكلام على الترجيح بين القراءات المتواترة.

من فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (83) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (84)

قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ ﴾ قال الكَلْبي : إن كعب بن الأشرف وأصحابه اختصموا مع النصارى إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : أيُّنا أحق بدِين إبراهيم ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "كِلاَ الفريقين بريءٌ من دِينه" فقالوا : ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بِدينك ؛ فنزل ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ ﴾ يعني يطلبون .

ونصبت "غير" بيبغون ، أي يبغون غير دين الله .

وقرأ أبو عمرو وحده "يبغون" بالياء على الخبر "وإليه ترجعون" بالتاء على المخاطبة .

قال : لأن الأوّل خاصٌ والثاني عامٌّ ففرق بينهما لافتراقهما في المعنى .

وقرأ حفص وغيره "يبغون ، ويرجعون" بالياء فيهما ؛ لقوله : ﴿ فأولئك هُمُ الفاسقون ﴾ .

وقرأ الباقون بالتاء فيهما على الخطاب ؛ لقوله ﴿ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ [آل

عمران : 81] .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ ﴾ أي استسلم وانقاد وخضع وذلّ ، وكل مخلوق فهو منقاد مستسلم ؛ لأنه مجبول على ما لا يقدر أن يخرج عنه .

قال قتادة : أسلم المؤمن طوعاً والكافر عند موته كرهاً ولا ينفعه ذلك ؛ لقوله : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ [غافر : 85] .

(92/123)

قال مجاهد : إسلام الكافر كرهاً بسجودِهِ لغير الله وسجود ظِلّه لله ، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ اليمين والشمآئل سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [النحل : 48] .

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السماوات والأرض طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بالغدو والآصال ﴾ [الرعد : 15] .

وقيل : المعنى أن الله خلق الخلق على ما أراد منهم ؛ فمنهم الحَسَن والقبيح والطويل والقصير والصحيح والمريض وكلهم منقادون اضطرارا ، فالصحيح منقاد طائع محبّ

لذلك ، والمريض منقاد خاضع وإن كان كارهاً .

والطوع الانقياد والاتباع بسهولة .

والكره ما كان بمشقة وإباء من النفس .

و ﴿ طَوْعاً وكَرْهاً ﴾ مصدران في موضع الحال ، أي طائعين ومكرهين .

وروى أنس بن مالك قال .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله عز وجل : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السماوات والأرض طَوْعاً وكَرْهاً ﴾ قال : " الملائكة أطاعوه في السماء والأنصارُ وعبدُ القَيْس في الأرض " وقال عليه السلام : " لا تَسُبُّوا أصحابي فإن أصحابي أسلموا من خوف الله وأسلم الناس من خوف السيف " وقال عِكْرمة : "طوعا" مَن أسلم من غير مُحاجّة "وكرهاً" مَن اضطرته الحجة إلى التوحيد .

يدلّ عليه قوله عز وجل : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [الزخرف : 87] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض وَسَخَّرَ الشمس والقمر لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [العنكبوت : 61] .

قال الحسن : هو عموم معناه الخصوص .

وعنه : ﴿ أَسْلَمَ مَن فِي السماوات ﴾ وتمّ الكلام .

ثم قال : ﴿ والأرض طَوْعاً وكَرْهاً ﴾ .

قال : والكاره المنافق لا ينفعه عمله .

و"طوعاً وكرهاً" مصدران في موضع الحال .

(93/123)

عن مجاهد عن ابن عباس قال : إذا استصعبت دابّة أُحدكم أو كانت شَمُوساً فليقرأ فى أذنها هذه الآية : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السماوات والأرض طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾ إلى آخر الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 127 . 128 ﴾

وقال العلامة ابن عطية :

﴿ أسلم ﴾ في هذه الآية بمعنى : استسلم عند جمهور المفسرين ، و﴿ من ﴾ في هذه الآية تعم الملائكة والثقلين ، واختلفوا في معنى قوله ﴿ طوعاً وكرهاً ﴾ فقال مجاهد : هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض ليقولن الله ﴾ [الزمر : 38] فالمعنى أن إقرار كل كافر بالصانع هو إسلام كرهاً .

قال الفقيه الإمام أبو محمد : فهذا عموم في لفظ الآية ، لأنه لا يبقى من لا يسلم على هذا التأويل و﴿ أسلم ﴾ فيه بمعنى استسلم ، وقال بمثل هذا القول أبو العالية رفيع ، وعبارته

رحمه الله : كل آدمي فقد أقر على نفسه بأن الله ربي وأنا عبده ، فمن أشرك في عبادته فهذا الذي أسلم كرهاً ، ومن أخلص فهذا الذي أسلم طوعاً ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : بل إسلام الكاره منهم كان حين أخذ الميثاق ، وروي عن مجاهد أنه قال : الكره في هذه الآية هو بسجود ظل الكافر فيسجد المؤمن طوعاً ويسجد الكافر وهو كاره ، وقال الشعبي : الآية عبارة عن استقادة جميع البشر لله وإذعانهم لقدرته وإن نسب بعضهم الألوهية إلى غيره ، وذلك هو الذي يسجد كرهاً .

قال الفقيه الإمام : وهذا هو مجاهد وأبي العالية المتقدم وإن اختلفت العبارات ، وقال الحسن بن أبي الحسن : معنى الآية : أنه أسلم قوم طوعاً ، وأسلم قوم خوف السيف ، وقال مطر الوراق : أسلمت الملائكة طوعاً ، وكذلك الأنصار وبنو سليم وعبد القيس ، وأسلم سائر الناس كرهاً حذر القتال والسيف .

قال الفقيه الإمام : وهذا قول الإسلام فيه هو الذي في ضمنه الإيمان ، والآية ظاهرها العموم ومعناها الخصوص ، إذ من أهل الأرض من لم يسلم طوعاً ولا كرهاً على هذا حد ، وقال قتادة : الإسلام كرهاً هو إسلام الكافر عند الموت والمعاينة حيث لا ينفعه .

قال الفقيه الإمام : ويلزم على هذا أن كل كافر يفعل ذلك ، وهذا غير موجود إلا في أفراد ، والمعنى في هذه الآية ، يفهم كل ناظر أن هذا القسم الذي هو الكره إنما هو في أهل الأرض خاصة ، والتوقيف بقوله ﴿ أفغَير ﴾ إنما هو لمعاصري محمد صلى الله عليه وسلم من الأحبار والكفار . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 1 صـ 466 . 467﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

والهمزة في : أفغير ؟ للإنكار والتنبيه على الخطأ في التولي والإعراض ، وأضيف الدين إلى الله لأنه تعالى هو الذي شرعه وتعبد به الخلق ، ومعنى : تبغون ، تطلبون ، وهو هنا بمعنى : تدينون لأنهم متلبسون بدين غير دين الله لا طالبوه ، وعبر بالطلب إشعاراً بأنهم في كل الوقت باحثون عنه ومستخرجوه ومبتغوه .

وقال الماتريدي : فإن قيل كل عاقل يبتغي دين الله ويدعي أنّ الذي هو عليه دين الله .

قيل : الجواب من وجهين .

أحدهما : أنه لما قصر في الطلب جعل في المعنى كأنه باغ غير دين الله ، إذ لو كان باغياً لبالغ في الطلب من الوجه الذي يوصل إليه منه ، فكأنه ليس باغياً من حيث المعنى ، ولكنه من حيث الصورة .

والثاني : أنه قد بان للبعض في الابتغاء ما هو الحق لظهور الحجج والآيات ، ولكن أبى إلاَّ

العناد ، فهو باغ غير دين الله ، فتكون الآية في المعاندين . انتهى كلامه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 537 ﴾

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

(95/123)

والجملة في النظم معطوفة على مجموع الشرط والجزاء ، وقيل : على الجزاء فقط ، وعطف الإنشاء على الأخبار مغتفر هنا عند المانعين ، والهمزة على التقديرين متوسطة بين المعطوف والمعطوف عليه للإنكار ، وقيل : إنها معطوفة على محذوف تقديره أيتولون فغير دين الله يبغون قال ابن هشام : والأول : مذهب سيبويه والجمهور ، وجزم به الزمخشري في مواضع ، وجوز الثاني في بعض ويضعفه ما فيه من التكلف وأنه غير مطرد ، أما الأول : فلدعوى حذف الجملة فإن قوبل بتقديم بعض المعطوف فقد يقال إنه أسهل منه لأن المتجوز فيه على قولهم : أقل لفظاً مع أن في هذا التجوز تنبيهاً على أصالة شيء في شيء أي أصالة الهمزة في التصدر ، وأما الثاني : فلأنه غير ممكن في نحو ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ على كُلّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : 33] انتهى .

وتعقبه الشمس بن الصائغ بأنه أي مانع من تقدير ألا مدبر للموجودات فمن هو قائم على كل نفس على الاستفهام التقريري المقصود به تقرير ثبوت الصانع ، والمعنى أنتفى المدبر فلا أحد قائم على كل نفس لا يمكن ذلك بل المدبر موجود فالقائم على كل نفس هو وهو أولى من تقدير البدر ابن الدماميني أهم ضالون فمن هو قائم على كل نفس بما كسبت لم يوحدوه ، وجعله الهمزة للإنكار التوبيخي ، وعلى العلات يوشك أن يكون التفصيل في هذه المسألة أولى بأن يقال : إن انساق ذلك المقدر للذهن قيل : بالتقدير ، وإلا قيل : بما قاله الجماعة ، وتقديم المفعول لأنه المقصود بالإنكار لا للحصر كما توهم لأن المنكر اتخاذ غير الله رباً ولو معه ، ودعوى أنه إشارة إلى أن دين غير الله لا يجامع دينه في الطلب ، فالتقديم للتخصيص ، والإنكار متوجه إليه أي أيخصون غير دين الله بالطلب تكلف ، وقول أبي حيان : إن تعليل التقديم بما تقدم لا تحقيق فيه لأن الإنكار الذي هو معنى الهمزة لا يتوجه إلى الذوات ، وإنما يتوجه إلى الأفعال التي تتعلق بالذوات ، فالذي أنكر إنما هو الابتغاء الذي متعلقه غير دين الله ، وإنما جاء تقديم المفعول من باب الاتساع ، ولشبه ﴿ يَبْغُونَ ﴾ بالفاصلة لا تحقيق فيه عند ذوي التحقيق لأنا لم ندع توجه الإنكار إلى الذوات كما لا يخفى ، وقرأ أبو عمرو

وعاصم في رواية لحفص ويعقوب يبغون بالياء التحتية ، وقرأ الباقون بالتاء الفوقانية على معنى أتتولون أو أتفسقون ، وتكفرون فغير دين الله تبغون وذهب بعضهم إلى أنه التفات فعنده لا تقدير ، وعلى تقدير التقدير يجيء قصد الإنكار فيما أشير إليه ولا ينافيه لأنه منسحب عليه

(97/123)

﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى السماوات والارض ﴾ جملة حالية مؤكدة للإنكار أي كيف يبغون ويطلبون غير دينه ، والحالة هذه ﴿ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ مصدران في موضع الحال أي طائعين وكارهين ، وجوز أبو البقاء أن يكونا مصدرين على غير المصدر لأنه أسلم بمعنى انقاد وأطاع قيل : وفيه نظر لأنه ظاهر في ﴿ طَوْعاً ﴾ لموافقة معناه ما قبله لا في ﴿ كَرْهاً ﴾ والقول بأن يغتفر في الثواني ما لا يغتفر في الأوائل غير نافع ، وقد يدفع بأن الكره فيه انقياد أيضاً ، والطوع مصدر طاع يطوع ، كالإطاعة مصدر أطاع يطيع ولم يفرقوا بينهما ، وقيل : طاعه يطوعه انقاد له ، وأطاعه يطيعه بمعنى مضى لأمره ، وطاوعه بمعنى وافقه ، وفي معنى الآية أقوال : الأول : أن المراد من الإسلام بالطوع الإسلام الناشيء عن العلم مطلقاً سواء كان حاصلاً للاستدلال كما في الكثير منا ، أو بدون استدلال وإعمال فكر كما في

الملائكة ومن الإسلام بالكره ما كان حاصلاً بالسيف ومعاينة ما يلجئ إلى الإسلام ، الثاني : أن المراد انقادوا له تعالى مختارين لأمره كالملائكة والمؤمنين ومسخرين لإرادته كالكفرة فإنهم مسخرون لإرادة كفرهم إذ لا يقع ما لا يريده تعالى ، وهذا لا ينافي على ما قيل : الجزء الاختياري حتى لا يكون لهم اختيار في الجملة فيكون قولاً بمذهب الجبرية ، ولا يستدعي عدم توجه تعذيبهم على الكفر ولا عدم الفرق بين المؤمن والكافر بناءاً على أن الجميع لا يفعلون إلا ما أراده الله تعالى بهم كما وهم ،

الثالث : ما إشار إليه بعض ساداتنا الصوفية نفعنا الله تعالى بهم أن الإسلام طوعاً هو الانقياد والامتثال لما أمر الله تعالى من غير معارضة ظلمة نفسانية وحيلولة حجب الأنانية ، والإسلام كرهاً هو الانقياد مع توسط المعارضات والوساوس وحيلولة الحجب والتعلق بالوسائط ، والأول : مثل إسلام الملائكة وبعض من في الأرض من المصطفين الأخيار ، والثاني : مثل إسلام الكثير ممن تقلبه الشكوك جنباً إلى جنب حتى غدا يقول :

لقد طفت في تلك المعاهد كلها . . . وسرحت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر . . . على ذقن أو قارعاً سن نادم

والكفار من القسم الثاني عند أهل الله تعالى لأنهم أثبتوا صانعاً أيضاً إلا أن ظلمة أنفسهم حالت بينهم وبين الوقوف على الحق ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : 106] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [العنكبوت : 61] وإلى هذا يشير كلام مجاهد ، وأخرج ابن جرير ، وغيره عن أبي العالية أنه قال : كل آدمي أقرّ على نفسه بأن الله تعالى ربي وأنا عبده فمن أشرك في عبادته فهذا الذي أسلم كرهاً ، ومن أخلص لله تعالى العبودية فهو الذي أسلم طوعاً ، وقرأ الأعمش كرهاً بالضم ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ أي إلى جزائه تصيرون على المشهور فبادروا إلى دينه ، ولا تخالفوا الإسلام ، وجوزوا في الجملة أن تكون مستأنفة للأخبار بما تضمنته من التهديد ، وأن تكون معطوفة على ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ ﴾ فهي حالية أيضاً ، وقرأ عاصم بياء الغيبة ، والضمير لمن أو لمن عاد إليه ضمير ﴿ يَبْغُونَ ﴾ فإن قرىء بالخطاب فهو التفات ، وقرأ الباقون بالخطاب ، والضمير عائد لمن عاد إليه ضمير ﴿ يَبْغُونَ ﴾ فعلى الغيبة فيه التفات أيضاً . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 214.213 ﴾

(99/123)

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (83) ﴾

تفريع عن التذكير بما كان عليه الأنبياء .

والاستفهام للتوبيخ والتحذير .

وقرأه الجمهور ﴿ تبغون ﴾ بتاء الخطاب فهو خطاب لأهل الكتاب جارٍ على طريقة الخطاب في قوله آنفاً : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة ﴾ [آل عمران : 80] وقرأه أبو عَمرو ، وحفص ، ويعقوب : بياء الغيبة فهو التفات من الخطاب إلى الغيبة ، إعراضاً عن مخاطبتهم إلى مخاطبة المسلمين بالتعجيب من أهل الكتاب .

وكله تفريع ذكر أحوال خلَف أولئك الأمم كيف اتبعوا غير ما أخذ عليهم العهد به .

والاستفهام حينئذ للتعجيب .

ودين الله هو الإسلام لقوله تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [آل عمران : 19]

وإضافته إلى الله لتشريفه على غيره من الأديان ، أو لأنّ غيره يومئذ قد نسخ بما هو دين الله .

ومعنى ﴿ تبغون ﴾ وتطلبون يقال بَغى الأمرَ يبغيه بُغَاء بضم الباء وبالمد ، ويقصر والبُغية

بضم الباء وكسرها وهاء في آخره قيل مصدر ، وقيل اسم ، ويقال ابتغى بمعنى بغى ، وهو موضوع للطلب ويتعدّى إلى مفعول واحد .

وقياس مصدره البغي ، لكنه لم يسمع البغي إلاّ في معنى الاعتداء والجور ، وذَلك فعلُه قاصر ، ولعلهم أرادوا التفرقة بين الطلب وبين الاعتداء ، فأماتوا المصدر القياسي لبَغَى بمعنى طلب وخصّوه ببغى بمعنى اعتدى وظلم : قال تعالى : ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ﴾ [الشورى : 42] ويقال تَبَغّى بمعنى ابتغى .

وجملة ﴿ وله أسلَم ﴾ " حال من اسم الجلالة وتقدم تفسير معنى الإسلام لله عند قوله تعالى : ﴿ فقل أسلمتُ وجهي للَّه ﴾ [آل عمران : 20] .

(100/123)

ومعنى ﴿ طوعاً وكرهاً ﴾ أنّ من العقلاء من أسلم عن اختيار لظهور الحق له ، ومنهم من أسلم بالجبلّة والفطرة كالملائكة ، أو الإسلام كرهاً هو الإسلام بعد الامتناع أي أكرهته الأدلة والآيات أو هو إسلام الكافرين عند الموت ورؤية سوء العاقبة ، أو هو الإكراه على الإسلام قبل نزول آية لاَ إكراه في الدين .

والكرهُ بفتح الكاف هو الإكراه ، والكُره بضم الكاف المكروه .

ومعنى ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أنه يرجعكم إليه ففعل رجع المتعدّي أسند إلى المجهول .

لظهور فاعله ، أي يرجعكم الله بعد الموت ، وعند القيامة ، ومناسبة ذكر هذا ، عقب التوبيخ والتحذير ، أنّ الربّ الذي لا مفر من حكمه لا يجوز للعاقل أن يعدل عن دينٍ أمره به ، وحقه أن يسلم إليه نفسه مختاراً قبل أن يسلمها اضطراراً .

وقد دل قوله : ﴿ وإليه ترجعون ﴾ على المراد من قوله : ﴿ وكرهاً ﴾ . انتهى انتهى . ا . هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 145 . 146 ﴾

فصل

قال الثعالبى :

قال النوويّ : ورُوِّينَا في كتاب ابن السُّنِّيِّ ، عن السَّيِّدِ الجليل المُجْمَع على جلالته وحِفْظِه ودِيَانَتِهِ وَوَرَعِهِ يُونُسَ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ دِينَارٍ البَصْرِيِّ الشَّافِعِيِّ المشهور ؛ أنه قَالَ : لَيس رجُلٌ يكونُ على دابَّة صَعْبَةٍ ، فيقول في أذنها : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السموات والأَرض طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ ، إلا وقفَتْ بإذن اللّه تعالى .

ورويّنا في كتاب ابن السُّنّيّ ، عن ابن مَسْعودٍ ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أَنَّهُ قَالَ : " إذَا انفلتت دابّةُ أَحَدِكُمْ بأرْض فلاةٍ ، فَلْيُنادِ : يَا عِبادَ اللَّهِ ، واحبسوا ، يَا عِبادَ اللَّهِ ، احبسوا ، فَإنّ للَّهِ عزّ وجلّ في الأَرْض حَاضِراً سَيَحْبِسُهَا " . قال النَّوويُّ : حكى لي بعْضُ شُيُوخِنا ؛ أَنَّهُ انفلتت له دابّة أظُنُّها بَغْلَةً ، وكَانَ يعرفُ هذا الحديث ، فقالَهُ ، فَحَبَسَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ في الحَالِ ، وكُنْتُ أَنَا مرّةً مع جماعةٍ ، فانفلتت منّا بهيمةٌ ، فَعَجزُوا عَنْها ، فَقُلْتُهُ ، فوقفَتْ في الحال بغَيْر سَبَبٍ سوى هذا الكلامِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان جـ 1 صـ 286 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ .

مَنْ لاحظه على غير الحقيقة ، أو طالع سواه في توهم الأهلية كَرَاءِ السراب ظَنّهُ ماءً فلمّا أتاه وجده هباءً . ومغاليط الحسبانات مُقَطِّعَةٌ مُشْكِلَةٌ فَمَنْ حَلَّ بها نَزَلَ بوادٍ قفْرٍ .

﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ لإجراء حكم الإلهية على وجه القهر عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات جـ 1 صـ 255 ﴾ .

ومن فوائد صاحب المنار في الآيات السابقة

قال رحمه الله:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴾

قَالَ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ الْآيَةَ: اعْلَمْ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ تَعْدِيدُ تَقْرِيرِ الْأَشْيَاءِ الْمَعْرُوفَةِ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -،

قَطْعًا لِعُذْرِهِمْ وَإِظْهَارًا لِعِنَادِهِمْ، وَمِنْ جُمْلَتِهَا مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ -

(103/123)

تَعَالَى - فِي هَذِهِ الْآيَةِ: وَهُوَ أَنَّهُ - تَعَالَى - أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ آتَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ بِأَنَّهُمْ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ آمَنُوا بِهِ وَنَصَرُوهُ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ قَبِلُوا ذَلِكَ. وَحَكَمَ بِأَنَّ مَنْ رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ كَانَ مِنَ الْفَاسِقِينَ، فَهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ مِنَ الْآيَةِ، وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: هَذَا رُجُوعٌ إِلَى أَصْلِ الْمَوْضُوعِ الَّذِي افْتُتِحَتِ السُّورَةُ بِتَقْرِيرِهِ وَهُوَ التَّنْزِيلُ، وَكَوْنُ الدِّينِ عِنْدَ اللَّهِ وَاحِدًا، وَهُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ وَسَائِرُ النَّبِيِّينَ، وَكَوْنُ اللَّهِ - تَعَالَى

- مُخْتَارًا فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِ بَعْضَ خَلْقِهِ مِنْ مَزِيَّةٍ أَوْ نُبُوَّةٍ وَقَدْ سَبَقَتْ تِلْكَ الْمَسَائِلُ لِإِثْبَاتِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَإِزَالَةِ شُبُهَاتِ مَنْ أَنْكَرَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بَعْثَةَ نَبِيٍّ مِنَ الْعَرَبِ وَاسْتَتْبَعَ ذَلِكَ مُحَاجَّتَهُمْ وَبَيَانَ خَطَئِهِمْ فِي ذَلِكَ وَفِي غَيْرِهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ . وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ الَّتِي تُقَرِّرُهَا هَذِهِ الْآيَةُ مِنَ الْحُجَجِ الْمُوَجَّهَةِ إِلَيْهِمْ لِدَحْضِ مَزَاعِمِهِمْ وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى جَمِيعِ النَّبِيِّينَ وَعَلَى أَتْبَاعِهِمْ بِالتَّبَعِ لَهُمْ بِأَنَّ مَا يُعْطُونَهُ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ - وَإِنْ عَظُمَ أَمْرُهُ - فَالْوَاجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمَنْ يُرْسَلُ مِنْ بَعْدِهِمْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ مِنْهُ وَأَنْ يَنْصُرُوهُ . أَيْ فَالْآيَةُ مُتَّصِلَةٌ بِمَا قَبْلَهَا بِالنَّظَرِ إِلَى أَصْلِ الْمَوْضُوعِ .

(104/123)

أَمَّا أَخْذُ الْمِيثَاقِ مِنَ الْمَرْءِ ، وَهُوَ الْعَهْدُ الْمُوَثَّقُ الْمُؤَكَّدُ فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كَوْنِ الْمَأْخُوذِ مِنْهُ وَهُوَ الْمُعَاهِدُ (بِكَسْرِ الْهَاءِ) يَلْتَزِمُ لِلْآخِذِ وَهُوَ الْمُعَاهَدُ (بِفَتْحِ الْهَاءِ) أَنْ يَفْعَلَ كَذَا مُؤَكِّدًا ذَلِكَ بِالْيَمِينِ أَوْ بِلَفْظٍ مِنَ الْمُعَاهَدَةِ أَوِ الْمُوَاثَقَةِ . وَفِي قَوْلِهِ : مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ وَجْهَانِ ; أَحَدُهُمَا : أَنَّ مَعْنَاهُ : "الْمِيثَاقَ مِنَ النَّبِيِّينَ" . فَالنَّبِيُّونَ هُمُ الْمَأْخُوذُ عَلَيْهِمْ . وَعَلَى هَذَا يَكُونُ حُكْمُهُ سَارِيًا عَلَى أَتْبَاعِهِمْ بِالْأَوْلَى ، كَمَا قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ ، وَثَانِيهِمَا : أَنَّ إِضَافَةَ مِيثَاقٍ إِلَى النَّبِيِّينَ عَلَى أَنَّهُمْ أَصْحَابُهُ فَهُوَ مُضَافٌ إِلَى الْمُوثِقِ لَا إِلَى الْمُوثَقِ عَلَيْهِ كَمَا تَقُولُ : عَهْدُ اللَّهِ

وَمِيثَاقَ اللهِ . وَحِينَئِذٍ يَكُونُ الْمَأْخُوذُ عَلَيْهِ مَسْكُوتًا عَنْهُ لِلْعِلْمِ بِهِ ، وَتَقْدِيرُهُ : وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ عَلَى أُمَمِهِمْ ، أَوِ الْخِطَابُ لِأَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَعْنَى : وَإِذْ أَخَذَ اللهُ عَلَيْكُمْ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ الَّذِينَ أُرْسِلُوا إِلَى قَوْمِكُمْ . أَوِ التَّقْدِيرُ : " مِيثَاقَ أُمَمِ النَّبِيِّينَ " ، وَكُلٌّ مِنَ الْقَوْلَيْنِ مَرْوِيٌّ عَنِ السَّلَفِ ، وَمِمَّنْ قَالَ بِالثَّانِي مِنْ آلِ الْبَيْتِ جَعْفَرٌ الصَّادِقُ قَالَ : هُوَ عَلَى حَدِّ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ [65 : 1] . فَالْخِطَابُ فِيهِ لِلنَّبِيِّ وَالْمُرَادُ أُمَّتُهُ عَامَّةً .

وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْوَجْهَيْنِ أَوِ الطَّرِيقَيْنِ فِي تَفْسِيرِ الْعِبَارَةِ وَاحِدٌ وَهُوَ أَنَّ الْوَاجِبَ

(105/123)

عَلَى الْأُمَمِ الَّتِي أُوتِيَتِ الْكِتَابَ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَيَنْصُرُوهُ وَجَبَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ بِمِيثَاقِ اللهِ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ أَوْ مِيثَاقِهِ عَلَيْهِمْ أَنْفُسِهِمْ عَلَى لِسَانِ أَنْبِيَائِهِمْ .

وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ : لَمَا آتَيْتُكُمْ لَامُ التَّوْطِئَةِ لِأَخْذِ الْمِيثَاقِ ، قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى الِاسْتِحْلَافِ أَيْ أَنَّ الْمِيثَاقَ بِمَعْنَى الْقَسَمِ ، فَأَخْذُهُ بِمَعْنَى الِاسْتِحْلَافِ وَ " مَا " الَّتِي دَخَلَتْ عَلَيْهَا اللَّامُ هِيَ الْمُتَضَمِّنَةُ لِمَعْنَى الشَّرْطِ ، وَالْمَعْنَى : مَهْمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ وَاللَّامُ فِي لَتُؤْمِنُنَّ لَامُ جَوَابِ الْقَسَمِ وَجَعَلُوا لَتُؤْمِنُنَّ سَادًّا مَسَدَّ جَوَابِ الْقَسَمِ وَجَوَابِ الشَّرْطِ جَمِيعًا ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَا

مَوْصُولَةً وَالْعَائِدُ حِينَئِذٍ مَحْذُوفٌ أَيْ: لَمَا آتَيْتُكُمُوهُ . وَقَرَأَ حَمْزَةُ " لِمَا " بِكَسْرِ اللَّامِ وَهِيَ لَامُ التَّعْلِيلِ وَ " مَا " عَلَى هَذِهِ مَوْصُولَةٌ حَتْمًا . وَالْمَعْنَى أَنَّهُ أَخَذَ مِيثَاقَهُمْ لِأَجْلِ مَا ذَكَرَ . وَقَرَأَ نَافِعٌ " آتَيْنَاكُمْ " بِالْإِسْنَادِ إِلَى ضَمِيرِ الْجَمْعِ تَفْخِيمًا . وَقَوْلُهُ: ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ فِيهِ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: لَفْظُ " رَسُولٍ " فِيهِ عَلَى إِطْلَاقِهِ .

(106/123)

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْمُرَادَ بِهِ هُنَا مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَيَرِدُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ إِشْكَالٌ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْمِيثَاقَ قَدْ أُخِذَ عَلَى النَّبِيِّينَ أَنْفُسِهِمْ وَهُوَ أَنَّ هَذَا الرَّسُولَ مَا جَاءَ فِي عَصْرِ أَحَدٍ مِنْهُمْ .

وَكَانَ اللَّهُ - تَعَالَى - يَعْلَمُ ذَلِكَ عِنْدَ أَخْذِ الْمِيثَاقِ عَلَيْهِمْ لِأَنَّ عِلْمَهُ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ . وَأُجِيبَ عَنْهُ بِأَنَّهُ مِيثَاقٌ مَبْنِيٌّ عَلَى الْفَرْضِ أَيْ إِذَا فُرِضَ أَنْ جَاءَكُمْ وَجَبَ عَلَيْكُمُ الْإِيمَانُ بِهِ وَنَصْرُهُ . أَقُولُ: وَيَكُونُ الْمُرَادُ مِنْهُ بَيَانَ مَرْتَبَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعَ النَّبِيِّينَ إِذَا فُرِضَ أَنْ وُجِدَ فِي عَصْرِهِمْ ، وَهُوَ أَنَّهُ يَكُونُ الرَّئِيسَ الْمَتْبُوعَ لَهُمْ ; فَمَا قَوْلُكَ إِذًا فِي أَتْبَاعِهِمْ لَا سِيَّمَا بَعْدَ زَمَنِهِمْ ؟ وَإِنَّمَا كَانَ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هَذَا الِاخْتِصَاصُ لِأَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قَضَى فِي سَابِقِ عِلْمِهِ بِأَنْ يَكُونَ هُوَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ الَّذِي يَجِيءُ بِالْهُدَى الْأَخِيرِ الْعَامِّ الَّذِي لَا

يَحْتَاجُ الْبَشَرُ بَعْدَهُ إِلَى شَيْءٍ مَعَهُ سِوَى اسْتِعْمَالِ عُقُولِهِمْ وَاسْتِقْلَالِ أَفْكَارِهِمْ ، وَأَنْ يَكُونَ مَا قَبْلَهُ مِنَ الشَّرَائِعِ الَّتِي يَجِيئُونَ بِهَا هِدَايَةً مَوْقُوتَةً خَاصَّةً بِقَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ . وَاحْتَجَّ الْقَائِلُونَ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِالرَّسُولِ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِحُجَجٍ مِنْهَا حَدِيثُ وَاللهِ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ .

(107/123)

وَأَمَّا الْمَعْنَى عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ مَعَ الْقَوْلِ بِأَنَّ الْمِيثَاقَ أُخِذَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ فَهُوَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْقَصْدُ مِنْ إِرْسَالِهِمْ وَاحِدًا وَجَبَ أَنْ يَكُونُوا مُتَكَافِلِينَ مُتَنَاصِرِينَ إِذَا جَاءَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي زَمَنِ آخَرَ آمَنَ بِهِ وَنَصَرَهُ بِمَا اسْتَطَاعَ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مُتَّبِعًا لِشَرِيعَتِهِ ، كَمَا آمَنَ لُوطٌ لِإِبْرَاهِيمَ وَأَيَّدَ دَعْوَتَهُ إِذْ كَانَ فِي زَمَنِهِ .

وَكُلٌّ مِنَ الْقَوْلَيْنِ حُجَّةٌ عَلَى الَّذِينَ يَجْعَلُونَ الدِّينَ سَبَبًا لِلْخِلَافِ وَالنِّزَاعِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ ، كَمَا فَعَلَ أَهْلُ الْكِتَابِ فِي عَدَاوَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْكَيْدِ لَهُ فَكَانَ يَدْعُوهُمْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ فَلَا يَلْقَى مِنْهُمْ إِلَّا الْخِلَافَ وَالشَّحْنَاءَ .

وَسُئِلَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي الدَّرْسِ عَنْ إِيمَانِ نَبِيٍّ بِنَبِيٍّ آخَرَ يُبْعَثُ فِي عَصْرِهِ هَلْ يَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ نَسْخَ الثَّانِي لِشَرِيعَةِ الْأَوَّلِ ؟ فَقَالَ لَا يَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ وَلَا يُنَافِيهِ ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ تَصْدِيقُ دَعْوَتِهِ

وَنَصْرِه عَلَى مَنْ يُؤْذِيهِ وَيُنَاوِئُهُ فَإِنْ تَضَمَّنَتْ شَرِيعَةُ الثَّانِي نَسْخَ شَيْءٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ الْأَوَّلُ وَجَبَ التَّسْلِيمُ لَهُ وَإِلَّا صَدَّقَهُ بِالْأُصُولِ الَّتِي هِيَ وَاحِدَةٌ فِي كُلِّ دِينٍ ، وَيُؤَدِّي كُلُّ وَاحِدٍ مَعَ أُمَّتِهِ أَعْمَالَ عِبَادَتِهَا التَّفْصِيلِيَّةِ وَلَا يُعَدُّ ذَلِكَ اخْتِلَافًا وَتَفَرُّقًا فِي الدِّينِ ، فَإِنَّ مَثَلَهُ يَأْتِي فِي

(108/123)

الشَّرِيعَةِ الْوَاحِدَةِ كَأَنْ يُؤَدِّي شَخْصَانِ كَفَّارَةَ الْيَمِينِ أَوْ غَيْرِهَا بِغَيْرِ مَا يُكَفِّرُ بِهِ الْآخَرُ هَذَا بِالصِّيَامِ وَذَاكَ بِإِطْعَامِ الْمَسَاكِينِ ، وَسَبَبُ ذَلِكَ اخْتِلَافُ حَالِ الشَّخْصَيْنِ فَأَدَّى كُلُّ وَاحِدٍ مَا سَهُلَ عَلَيْهِ .

أَقُولُ : وَلَنَا أَنْ نَضْرِبَ لِلْمَسْأَلَةِ مَثَلَ عَامِلَيْنِ يُرْسِلُهُمَا الْمَلِكُ فِي عَصْرٍ وَاحِدٍ إِلَى وِلَايَتَيْنِ مُسْتَقِلَّتَيْنِ مُتَجَاوِرَتَيْنِ فَلَا شَكَّ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلٍّ مِنْهُمَا تَصْدِيقُ الْآخَرِ وَنَصْرُهُ عِنْدَ الْحَاجَةِ وَأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَا مُتَّفِقَيْنِ فِي الْأُصُولِ الْعَامَّةِ لِلسَّلْطَنَةِ أَوْ مَا يُعَبِّرُ عَنْهُ أَهْلُ هَذَا الْعَصْرِ بِالْقَانُونِ الْأَسَاسِيِّ ، وَمَا يُنَاسِبُ ذَلِكَ . وَقَدْ يَكُونُ بَيْنَ الْوِلَايَتَيْنِ اخْتِلَافٌ فِي طِبَاعِ الْأَهَالِي وَاسْتِعْدَادِهِمْ وَحَالِ الْبِلَادِ يَقْتَضِي اخْتِلَافَ الْأَحْكَامِ الْجُزْئِيَّةِ كَأَنْ تَكُونَ الضَّرَائِبُ قَلِيلَةً فِي إِحْدَاهُمَا كَثِيرَةً فِي الْأُخْرَى ، وَكُلٌّ مِنَ الْعَامِلَيْنِ يُؤْمِنُ لِلْآخَرِ بِذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَعْمَلْ بِعَمَلِهِ ، وَكَذَلِكَ يُؤْمِنُ كُلٌّ مِنَ النَّبِيِّينَ الْمُرْسَلِينَ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الْآخَرُ وَإِنْ وَافَقَهُ فِي الْأُصُولِ

دُونَ جَمِيعِ الْفُرُوعِ . وَلَا يُعْقَلُ أَنْ يُنْسَخَ مَا جَاءَ بِهِ الْأَوَّلُ عَلَى لِسَانِ رَسُولٍ آخَرَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ . وَأَمَّا إِذَا بُعِثَ الرَّسُولَانِ فِي أُمَّةٍ

وَاحِدَةٍ فَإِنَّهُمَا يَكُونَانِ مُتَّفِقَيْنِ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَنْسَ مُوسَى وَهَارُونَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - ، وَأَمَّا مَجِيءُ النَّبِيِّ بَعْدَ النَّبِيِّ فَيَجُوزُ أَنْ يُنْسَخَ مُعْظَمُ فُرُوعِ شَرْعِهِ . وَبِهَذَا يَتَّضِحُ لَكَ مَعْنَى تَصْدِيقِ نَبِيِّنَا بِالْكُتُبِ السَّابِقَةِ وَلِمَنْ جَاءُوا بِهَا مِنَ الرُّسُلِ وَأَنَّهُ لَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ شَرْعُهُ التَّفْصِيلِيُّ مُوَافِقًا لِشَرَائِعِهِمْ ، وَلَا أَنْ يُقِرَّ أَقْوَامَهُمْ عَلَى مَا دَرَجُوا عَلَيْهِ .

قَالَ - تَعَالَى - لِمَنْ أَخَذَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْمِيثَاقَ : أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ أَيْ قَبِلْتُمْ عَلَى ذَلِكُمُ الَّذِي ذُكِرَ مِنَ الْإِيمَانِ بِالرَّسُولِ الْمُصَدِّقِ لِمَا مَعَكُمْ وَنَصْرِهِ إِصْرِي أَيْ عَهْدِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ أَيْ فَلْيَشْهَدْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ وَأَنَا مَعَكُمْ شَاهِدٌ عَلَيْكُمْ جَمِيعًا لَا يَغِيبُ عَنْ عِلْمِي شَيْءٌ ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ : فَلْيَشْهَدْ كُلٌّ وَاحِدٍ عَلَى نَفْسِهِ كَمَا

قَالَ: وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ [7 : 172] وَقِيلَ مَعْنَاهُ فَبَيِّنُوا هَذَا الْمِيثَاقَ لِلنَّاسِ. وَقِيلَ مَعْنَاهُ: فَاعْلَمُوا ذَلِكَ عِلْمًا يَقِينًا، كَالْعِلْمِ بِالْمُشَاهَدِ بِالْبَصَرِ. وَقَالَ الْأُسْتَاذُ: إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ بِالشَّهَادَةِ دَلِيلٌ عَلَى تَرْجِيحِ قَوْلِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ إِنَّ الْعَهْدَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى أُمَمِهِمْ، وَالْمَعْنَى أَنَّ اللهَ - تَعَالَى - أَمَرَ الْأَنْبِيَاءَ بِأَنْ يَشْهَدُوا عَلَى أُمَمِهِمْ بِذَلِكَ وَهُوَ - سُبْحَانَهُ - مَعَهُمْ شَهِيدٌ. وَقَالَ أَيْضًا: إِنَّ الْعِبَارَةَ لَيْسَتْ نَصًّا فِي أَنَّ هَذِهِ الْمُحَاوَرَةَ وَقَعَتْ وَهَذِهِ الْأَقْوَالَ قِيلَتْ، وَالْمُخْتَارُ عِنْدَهُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا تَقْرِيرُ الْمَعْنَى وَتَوْكِيدُهُ عَلَى طَرِيقِ التَّمْثِيلِ.

(111/123)

أَقُولُ: وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ فِي الْآيَةِ أَنَّ الْإِقْرَارَ مِنْ قَرَّ الشَّيْءُ إِذَا ثَبَتَ وَلَزِمَ قَرَارُهُ مَكَانَهُ، زِيدَتْ عَلَيْهِ هَمْزَةُ التَّعْدِيَةِ، فَقِيلَ أَقَرَّ الشَّيْءَ إِذَا أَثْبَتَهُ، وَأَقَرَّ بِهِ إِذَا نَطَقَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ثُبُوتِهِ. وَالْأَخْذُ التَّنَاوُلُ، وَفَسَّرْنَاهُ هُنَا بِالْقَبُولِ وَهُوَ غَايَتُهُ; لِأَنَّ آخِذَ الشَّيْءِ يَقْبَلُهُ وَهُوَ مُسْتَعْمَلٌ كَذَلِكَ فِي التَّنْزِيلِ قَالَ - تَعَالَى -: وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ [2 : 48]

ثُمَّ قَالَ: وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ [2 : 123] فَقَالَ مَرَّةً إِنَّهُ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَمَرَّةً لَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ. وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ وَ"الْإِصْرُ" فِي الْأَصْلِ

عَقْدُ الشَّيْءِ وَحَبْسُهُ بِقَهْرِهِ ، وَالْمَأْصِرُ مَحْبِسُ السَّفِينَةِ ، وَفُسِّرَ الْإِصْرُ فِي وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ [7 : 157] بِمَا يَحْبِسُهُمْ عَنِ الْخَيْرِ وَيُقْعِدُهُمْ عَنْ عَمَلِ الْبِرِّ . وَعَلَى هَذَا قَالَ الرَّاغِبُ فِي الْآيَةِ الَّتِي نُفَسِّرُهَا : إِنَّ الْإِصْرَ هُوَ الْعَهْدُ الْمُؤَكَّدُ الَّذِي يُثَبِّطُ نَاقِضَهُ عَنِ الثَّوَابِ وَالْخَيْرَاتِ . وَالْأَظْهَرُ عِنْدِي أَنْ يَقُولَ : هُوَ الْعَهْدُ الَّذِي يَحْبِسُ صَاحِبَهُ وَيَمْنَعُهُ مِنَ التَّهَاوُنِ فِيمَا الْتَزَمَهُ وَعَاهَدَ عَلَيْهِ . وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُ الشَّهَادَةِ فِي آيَةِ شَهِدَ اللهُ [3 : 18] إِلَخْ .

(112/123)

فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ أَيْ إِنَّ مِنْ مُقْتَضَى ذَلِكَ الْمِيثَاقِ أَنَّ دِينَ اللهِ وَاحِدٌ وَأَنَّ دُعَاتَهُ مُتَّفِقُونَ مُتَّحِدُونَ فَمَنْ تَوَلَّى - بَعْدَ الْمِيثَاقِ عَلَى ذَلِكَ - عَنْ هَذِهِ الْوَحْدَةِ وَاتَّخَذَ الدِّينَ آلَةً لِلتَّفْرِيقِ وَالْعُدْوَانِ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالنَّبِيِّ الْمُتَأَخِّرِ الْمُصَدِّقِ لِمَنْ تَقَدَّمَهُ وَلَمْ يَنْصُرْهُ كَأُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا يَجْحَدُونَ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَيُؤْذُونَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ أَيِ الْخَارِجُونَ مِنْ مِيثَاقِ اللهِ النَّاقِضُونَ لِعَهْدِهِ وَلَيْسُوا مِنْ دِينِهِ الْحَقِّ فِي شَيْءٍ . أَقُولُ : وَهَذَا يُؤَكِّدُ أَنَّ الْمِيثَاقَ مَأْخُوذٌ عَلَى الْأُمَمِ .

(113/123)

وَلَمَّا بَيَّنَ - سُبْحَانَهُ - أَنَّ دِينَهُ وَاحِدٌ وَأَنَّ رُسُلَهُ مُتَّفِقُونَ فِيهِ قَالَ فِي مُنْكِرِي نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ قَرَأَ حَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ يَبْغُونَ بِالْيَاءِ عَلَى الْغَيْبَةِ وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالتَّاءِ عَلَى الْخِطَابِ . وَهَمْزَةُ الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ دَاخِلَةٌ عَلَى فِعْلٍ مَحْذُوفٍ وَالْفَاءُ الدَّاخِلَةُ عَلَى " غَيْرَ " عَاطِفَةٌ لِلْجُمْلَةِ بَعْدَهُ عَلَى ذَلِكَ الْمَحْذُوفِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْعَطْفُ وَعَيَّنَهُ الْكَلَامُ السَّابِقُ . وَالْمَعْنَى : أَيَتَوَلَّوْنَ عَنِ الْإِيمَانِ بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ فَيَبْغُونَ غَيْرَ دِينِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ الْإِسْلَامُ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا أَيْ وَالْحَالُ أَنَّ جَمِيعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْعُقَلَاءِ قَدْ خَضَعُوا لَهُ - تَعَالَى - وَانْقَادُوا لِأَمْرِهِ طَائِعِينَ وَكَارِهِينَ .

وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي بَيَانِ إِسْلَامِ الطَّوْعِ وَالْكُرْهِ ، فَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ الْإِسْلَامَ هُنَا مُتَعَلِّقٌ بِالتَّكْوِينِ وَالْإِيجَادِ وَالْإِعْدَامِ لَا بِالتَّكْلِيفِ ، أَيْ إِنَّهُ - تَعَالَى - هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِيهِمْ وَهُمُ الْخَاضِعُونَ الْمُنْقَادُونَ لِتَصَرُّفِهِ وَقَالَ الرَّازِيُّ : إِنَّ هَذَا هُوَ الْأَصَحُّ عِنْدَهُ وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ مَعْنَى الطَّوْعِ وَالْكُرْهِ وَكَأَنَّهُ يَعْنِي أَنَّ مَا يَحِلُّ بِالْعُقَلَاءِ مِنْ تَصَارِيفِ الْأَقْدَارِ ، مِنْهُ مَا يَصْحَبُهُ اخْتِيَارُهُمْ عَنْ رِضًا وَاغْتِبَاطٍ فَيَكُونُونَ خَاضِعِينَ لَهُ طَوْعًا ، وَمِنْهُ مَا لَيْسَ كَذَلِكَ فَيَحِلُّ بِهِمْ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ

. [44 : 17]

وَيُقَابِلُ هَذَا : أَنَّ الْإِسْلَامَ مُتَعَلِّقٌ بِالتَّكْلِيفِ وَالدِّينِ فَقَطْ . وَصَاحِبُ هَذَا الْقَوْلِ يُفَسِّرُ إِسْلَامَ الْكُرْهِ بِمَا يَكُونُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ الْمُلْجِئَةِ إِلَيْهِ . كَمَا قَالَ - تَعَالَى - : وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ

مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ [31 : 32]

وَقَالَ : فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ [29 : 65] وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ إِنَّ إِسْلَامَ الْكُرْهِ مَا يَكُونُ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْآيَاتِ كَمَا وَقَعَ لِقَوْمِ مُوسَى ، وَقِيلَ مَا يَكُونُ عِنْدَ الْخَوْفِ مِنَ السَّيْفِ ، وَقِيلَ مَا يَكُونُ عِنْدَ الْمَوْتِ إِذْ يُشْرِفُ الْكَافِرُ عَلَى الْآخِرَةِ ، وَلَكِنَّهُ إِسْلَامٌ لَا يَنْفَعُهُ .

(115/123)

وَهُنَاكَ مَذْهَبٌ ثَالِثٌ : وَهُوَ أَنَّ هَذَا الْإِسْلَامَ أَعَمُّ مِنْ إِسْلَامِ التَّكْلِيفِ وَإِسْلَامِ التَّكْوِينِ فَهُوَ يَشْمَلُ مَا يَكُونُ بِالْفِطْرَةِ وَمَا يَكُونُ بِالِاخْتِيَارِ . وَفِي هَذَا الْمَذْهَبِ وُجُوهٌ قَالَ الْحَسَنُ : الطَّوْعُ لِأَهْلِ السَّمَاوَاتِ خَاصَّةً ، وَأَمَّا أَهْلُ الْأَرْضِ فَبَعْضُهُمْ بِالطَّوْعِ وَبَعْضُهُمْ بِالْكُرْهِ . وَقِيلَ :

إِنَّ كُلَّ الْخَلْقِ مُنْقَادُونَ لِإِلَهِيَّتِهِ طَوْعًا بِدَلِيلِ قَوْلِهِ : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ [31 : 25] وَمُنْقَادُونَ لِتَكَالِيفِهِ وَإِيجَادِهِ لِلْآلَامِ كُرْهًا . وَقِيلَ : الْمُسْلِمُونَ الصَّالِحُونَ يَنْقَادُونَ لِلَّهِ طَوْعًا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالدِّينِ وَيَنْقَادُونَ لَهُ كُرْهًا فِيمَا يُخَالِفُ طِبَاعَهُمْ مِنَ الْمَرَضِ وَالْفَقْرِ وَالْمَوْتِ وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ ، وَأَمَّا الْكَافِرُونَ فَهُمْ يَنْقَادُونَ لِلَّهِ كُرْهًا عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي التَّكْلِيفِ وَالتَّكْوِينِ . وَهَذِهِ وُجُوهٌ ضَعِيفَةٌ كَمَا تَرَى .

(116/123)

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنَّ الَّذِينَ أَسْلَمُوا طَوْعًا لَهُمُ اخْتِيَارٌ فِي الْإِسْلَامِ وَأَمَّا الَّذِينَ أَسْلَمُوا كُرْهًا فَهُمُ الَّذِينَ فُطِرُوا عَلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - كَالْأَنْبِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الْكُرْهِ يُطْلَقُ فِي الْغَالِبِ عَلَى مَا يُخَالِفُ الِاخْتِيَارَ وَيَقْهَرُهُ ; فَإِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قَدِ اسْتَعْمَلَهُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ بَعْدَ ذِكْرِ خَلْقِ السَّمَاءِ فِي الْكَلَامِ عَلَى التَّكْوِينِ : فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا [41 : 11] فَأَطْلَقَ الْكُرْهَ وَأَرَادَ بِهِ لَازِمَهُ وَهُوَ عَدَمُ الِاخْتِيَارِ . أَقُولُ : وَهَذَا سَهْوٌ فِيمَا يَظْهَرُ لِي وَكُنْتُ - فِي أَيَّامِ حَيَاتِهِ - أُرَاجِعُهُ فِي مِثْلِهِ قَبْلَ الْكِتَابَةِ أَوِ الطَّبْعِ ، وَبَيَانُهُ أَنَّ تَتِمَّةَ الْآيَةِ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَالظَّاهِرُ أَنَّ مَا يَكُونُ مِنْهُمْ مِنَ الِانْقِيَادِ لِلَّهِ - تَعَالَى - بِمُقْتَضَى الْفِطْرَةِ مِنْ قِسْمِ إِسْلَامِ الطَّوْعِ . وَأَمَّا مَا يَقَعُ مِنْهُمْ مِنَ التَّكْلِيفِ بِالِاخْتِيَارِ فَمِنْهُ مَا يُفْعَلُ طَوْعًا

وَمَا يُفْعَلُ كُرْهًا . وَكَذَا مَا يَقَعُ بِهِمْ مِنْهُ مَا يَكُونُونَ كَارِهِينَ لَهُ ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُونَ رَاضِينَ بِهِ .
فَإِذَا كَانَ مُرَادًا فِي الْآيَةِ فَالطَّوْعُ فِيهِ بِمَعْنَى الرِّضَا . وَصَفْوَةُ الْكَلَامِ أَنَّ الدِّينَ الْحَقَّ هُوَ إِسْلَامُ الْوَجْهِ لِلَّهِ –

(117/123)

تَعَالَى – وَالْإِخْلَاصُ فِي الْخُضُوعِ لَهُ ، وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ كُلَّهُمْ كَانُوا عَلَى ذَلِكَ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَهُمْ بِذَلِكَ عَلَى أُمَمِهِمْ وَلَكِنَّهُمْ نَقَضُوهُ ، فَجَاءَهُمُ النَّبِيُّ الْمَوْعُودُ بِهِ يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ فَكَذَّبُوهُ ، فَهُمْ بِذَلِكَ قَدِ ابْتَغَوْا غَيْرَ دِينِهِ الَّذِي زَعَمُوهُ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ فَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، قَرَأَ حَفْصٌ يَرْجِعُونَ بِالْيَاءِ كَمَا قَرَأَ يَبْغُونَ وَكَذَلِكَ أَبُو عَمْرٍو عَلَى أَنَّهُ قَرَأَ " تَبْغُونَ " بِالتَّاءِ كَالْجُمْهُورِ فَهُوَ قَدْ جَعَلَ الْخِطَابَ أَوَّلًا لِلْيَهُودِ وَجَعَلَ الْكَلَامَ فِي الْمَرْجِعِ عَامًّا وَقَرَأَ الْبَاقُونَ " تُرْجَعُونَ " وِفَاقًا لِقِرَاءَتِهِمْ " تَبْغُونَ " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 3 صـ 287. 292 ﴾

(118/123)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾

إنهم ما داموا غير مؤمنين برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله نبيا ورسولا فإن ذلك يكشف رغبتهم في أنهم يريدون منهجا غير منهج الله ، وليس أمامهم إذن إلا مناهج البشر النابعة من الأهواء ، والتي تقود حتما إلى الضلال ، إن الحق سبحانه وتعالى يريد لخلقه أن يكونوا منطقيين مع أنفسهم ، إنه الحق سبحانه وتعالى قد أوضح لنا في منهجه ، وقال لنا هذا المنهج : أنتم مستخلفون في الكون ، وأنتم أيها الخلفاء في الأرض سادة هذا الكون ، سادة يخدمكم الكون كله ، وانظروا إلى أجناس الوجود تجدوها في خدمتكم ، الحيوان أقل منكم بالفكر . والنبات أقل من الحيوان بالحس . والجماد أقل من النبات .

إذن فأجناس الكون من حيوان ونبات وجماد ترضخ لإرادتك أيها الإنسان ، فالنبات يخدم الحيوان والحيوان يخدمك أيها الإنسان ، والجماد يخدم الجميع ، والعناصر التي نأخذها نحن البشر من الجماد يستفيد منها أيضا النبات والحيوان . إذن فكل جنس في الوجود تراه بعينيك إنما يخدم الأجناس التي تعلوه .

والجماد يخدم النبات .

والجماد والنبات يخدمان الحيوان .

والجماد والنبات والحيوان في خدمة الإنسان وأنت أيها الإنسان تخدم من ؟ كان من واجب عقلك أيها الإنسان أن تفكر فيمن ترتبط به ارتباطا يناسب سيادتك على الأجناس الأخرى كان لا بد أن تبحث عمن اعطاك السيادة على الأجناس الأخرى .

هل أنت أيها الإنسان قد سخرت هذه الأجناس بقدرتك وقوتك ؟

(119/123)

لا ؛ فلست تملك قدرة ذاتية تتيح لك ذلك ؟ أما كان يجب عليك أن تفكر ما هي القوة التي سخرت لك ما لا تقدر عليه ، فخدمتك حين لا توجد لك قدرة ، وخدمتك وأنت نائم تغط في نوم عميق ؟ أما كان يجب أن تفكر هذا الفكر ؟ إنك أيها الإنسان يجب أن تكون منطقيا مع نفسك ، وأن تبحث لك عن سيد يناسب سيادتك على غيرك . والكون لا يوجد فيه سيد عليك ؛ لأن الكون محس ، فإن جاءك من يحدثك بأن غيبا هو الإله يطلب أن تكون في خدمته فيجب أن تقول : " إن هذا كلامي منطقي بالنسبة لوضعي في الكون " وبعد ذلك انظر إلى الكون ، فأنت في الكون لست وحدك بل هناك أجناس أخرى ، وكل جنس من الأجناس له قانونه وله مهمته ، للحيوان مهمة ، وللنبات مهمة ، وللجماد مهمة .

فهل وجدت جنسا من الأجناس تمرد على مهمته ؟ لا .

إن الحصان مثلا ، تستخدمه كمطية عليها وسادة من حرير وجلد ولها لجام من فضة لتركبه ، وتجد هذه المطية في يوم آخر تحمل سماد الأرض من روث الحيوان وما تأبت ، لقد أدت الخدمة لك راكبا ، وأدت الخدمة لك ناقلا ، وما تمردت عليك أبدا . كل الأجناس - إذن - تؤدي مهمتها كما ينبغي ، فاستقام الأمر فيها ، وما دام الأمر قد استقام فيها ، فبأي شيء استقام ؟ إن الله هو الذي خلقها ذللها ، قال لها : "كوني في خدمة الإنسان مؤمنا كان أو كافرا " وفي هذا الأمر عدالة الربوبية ، فلا تتأخر أو تشذ عن حركتها في خدمة الإنسان .

أرأى أحدكم الشمس مرة قالت : لم يعد الخلق يعجبونني ، ولن أشرق عليهم وسأحتجب اليوم ؟ ! أتمرد الهواء وقال : لا ، إن الخلق لم تعد تستحق تنفس الهواء ، لذلك لن أمكنهم من الانتفاع بي .

أرأينا المطر امتنع ؟ هل استنبت الإنسان أرضا صالحة للزراعة واستعصت عليه ؟

لا . . فكل شيء في الوجود يؤدي مهمته تسخيرا وتذليلا .

لذلك يقول الحق :

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾

(120/123)

[يس : 72-73] .

والحق سبحانه وتعالى يطلق بعضا من الحيوان فلا يذلل ، ولا يستأنس ، وذلك حتى تعلم أيها الإنسان أنك لم تستأنس الجمل بقدرتك فإن كانت لك قدرة مطلقة على الكون فاستأنس بعض ثعابين هذا العالم أو استأنس الأسد . وأنت أيها الإنسان ترى في هذا الكون بعضا من الحيوانات والمخلوقات شاردة مثل الثعابين والحيوانات المتوحشة . بغير استئناس ليدلنا الحق على أن هذا الذي يخدمك لو لم يذلله الله لك لما استطعت أنت بقدرتك أن تذلله ، إنه تذليل وتسخير وخضوع لهذه المخلوقات منحه الله تعالى لك أيها الإنسان تفضلا منه - سبحانه - مع عجزك وضعفك .

ولم نجد شيئا نافعا قد عصى الإنسان في الكون ، لأن كل الخلق مسخر من الله لخدمة الإنسان كافرا كان أو مؤمنا ، وهذا هو عطاء الربوبية ، لأن عطاء الربوبية يشمل الخلق جميعا ، فالخالق الأكرم هو رب الناس كلهم ويتولى تربيتهم جميعا ، ولذلك تستجيب الأجناس من غير الإنسان للإنسان سواء أكان مؤمنا أم كافرا . فإن أحسن الكافر استخدام الأسباب فإن الأسباب تعطيه ولا تعطي المؤمن الذي لا يستخدم الأسباب ، أو لا يُحسن استخدامها فهذا هو عطاء الربوبية ، والربوبية للجميع . أما عطاء الألوهية فهو " افعل ولا تفعل " وهو عطاء للمؤمنين فقط .

فإذا كانت هذه هي صورة الكون وهو يؤدي مهمته بلا شذوذ فيه ، ومنسجم في ذاته انسجاما عجيبا فلنا أن نسأل " من أين جاء الخلل في الكون ؟ " إن الخلل قد جاء منك أيها الإنسان . ولهذا فنحن لا نجد فسادا في الكون إلا وللإنسان مدخل فيه ، أما مالا مدخل للإنسان فيه فلا فساد فيه أبدا .

أرأيت أحدا قد اشتكى من أن الهواء قصر ؟ لا .

لماذا لأن أحدا لا دخل له بمسألة الهواء هذه أبدا ، صحيح أننا تدخل في الهواء بتلويثه بالعادم والفضلات ، وصحيح أيضا أن الحق يُكرم الخلق باكتشافات قد تصلح من هذا الفساد إذن ، فحين يتدخل الإنسان فإن الشيء قد يفسد .

(121/123)

لكن هل معنى ذلك ألا تتدخل ؟ هل نقف من الكون مكتوفي الأيدي ؟ لا ، بل يجب أن تتدخل في الكون ، ولكن بمنهج الله .

إنك إن تدخلت في الكون بمنهج الله ، فكل شيء يسير الكون الذي لا منهج له إلا الخضوع والتسخير ، فكما أدت الشمس مهمتها والجماد مهمته ، والحيوان مهمته ، وأنت أيها الإنسان مطلوب منك أن تؤدي مهمتك ، وهي أن تطيع الله ، تلك الطاعة التي تتلخص

مطلوباته منك في : " افعل كذا ولا تفعل كذا " فإن انتظمت مع المنهج بـ " افعل " و " لا تفعل " تكن قد انسجمت مع الكون .

إن الله سبحانه يزيّل هذه القضية ويختمها باستفهام تنقطع وتنفطر له قلوب المؤمنين :

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران : 83]

إن كل شيء في السماوات وفي الأرض قد أسلم لله طوعا أو كرها . وإذا ما تساءلنا ، وما معنى " طوعا ؟ " فالإجابة هي طاعة التسخير ، كما قالت السماوات والأرض في النص القرآني الحكيم :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾

[فصلت : 11] .

فكل ما لا تكليف له جاء طائعا مسخرا ، وما معنى : "كرها " ؟ إن بعضا من العلماء قد قال : إن " طوعا " تشمل أجناس الملائكة ، والجماد ، والنبات ، والحيوان ، فكل منهم يؤدي مهمته بخضوع ولا يعترض أحد منهم ولا يملك أحدهم قدرة على العصيان ، وأما عن "كرها " فقد فهم بعض العلماء أنهم الناس الذين يخدمون الناس بالقوة كالعبيد مثلا ،

ولهؤلاء نقول : لا يصح ولا يستقيم أن نعطي خصوم الإسلام فرصة ليقولوا إن الإسلام قد أكره أحداً من البشر أن يخدم أحدا كرها ؛ لأن الحق سبحانه قال :

(122/123)

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

[البقرة : 256] .

فما دام الله لم يكره أحداً على الإيمان به فكيف يكره إنسانا ليخدم إنسانا آخر ؟ ! ولهذا فإننا يجب أن نفهم كرها على وضعها الحقيقي ، والحق سبحانه أبلغنا أن هذا الكون كله مسخر له ، لأنه سبحانه هو الذي خلقه ولا إله غيره وهذه مسألة مسلم بها ، فالكون كله لله ، وهو المدبر والقاهر له ، قال الحق :

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

[المؤمنون : 91] .

وما دام هو الواحد وهو الخالق فلن يتمرد أحد على مراده ، وكان يجب أن يفهم الإنسان

مهمته على أنه هو الوحيد الذي كلفه الله ؛ لأن بقية الأجناس لا اختيار لها وهي غير مكلفة كما كلف الله الإنسان بـ " افعل " و " لا تفعل " إذن فالتكليف فرع الإختيار ؛ فالمنهج يقول لك : " افعل كذا ولا تفعل كذا " لأن الذي وضعه يعلم أنه قد خلقك صالحا لأن تفعل ما يأمرك به ، وصالحا لأن تفعل ما لا يأمرك به .

إن اليد – مثلا – مخلوقة لتتحرك حسب إرادة صاحبها ، بدليل أن الإرادة إن شُلت وانقطع الخيط الموصل للإرادة الآمرة إلى الجارحة الفاعلة عندئذ يحاول الإنسان المصاب بذلك – والعياذ بالله – أن يرفع يده فلا يستطيع ، فاليد مسخرة لإرادة الإنسان ، وإرادتك أيها الإنسان عندما تسير في ضوء منهج الله فإنك توجهها في ضوء " افعل " و " لا تفعل " .

وعندما يقال لك مثلا : " لا تضرب بها أحداً " فمعنى ذلك أن اليد صالحة لأن تضرب ، وعندما يقال لك : " خذ بيد العاثر " فيدك قادرة على أن تأخذ بيد العاثر ، فأنت مخلوق على هيئة الطواعية من جوارحك لإرادتك . ويأتي المنهج ليقول لك : " نفذ الإرادة في كذا ولا تنفذ الإرادة في كذا " . .

إذن فالإنسان عندما يتبع المنهج فهو يتفق مع الأشياء المسخرة تمام الاتفاق ، ويؤدي كل

شيء على خير أداء ، لكن متى يختلف الإنسان عن الانسجام عندما لا يطبق المنهج ، فيشذ عن الركب في الكون كله ، ولتقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾

[الحج : 18] .

إنها الأجناس كلها ساجدة ، الشمس ساجدة ، القمر ساجد ، والنجوم ، والجبال ، كل هذه الجمادات ساجدة ، وكذلك الشجر والنبات ساجد لله ، والحيوان والدواب ساجدة لله ، وكثير من الناس سجود ، لكن في مقابل هذا الكثير الساجد من البشر ، هناك كثير غير ساجد لذلك حق عليه العذاب ، ولو أن الإنسان قد أخذ منهج الله فنفذه لصار كبقية الأجناس ، لكن الإنسان اختلف ، وقال : " أنا سوف آخذ اختيار تحمل الأمانة ، لأني عالم وعاقل " كما جاء في القول الحق :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾

[الأحزاب : 72] .

فلو أخذ الإنسان منهج الله في " افعل " و " لا تفعل " ، لانسجم الإنسان مع الوجود كله وحين ينسجم الإنسان مع الوجود كله فلن تأتي منه مخالفة أبدا كما لا تأتي مخالفة في الوجود من غير الإنسان ، وعند ذلك يصبح الكون مثاليا في الانسجام . ونحن نعرف أن الطموحات العلمية حين تعمل وتُشغل العقل في أمر ما فإنها تريد الخير ، ولكنها تعلم شيئًا ، ويغيب عنها شيء آخر ، ولو أخذوا عن الله العليم بكل شيء لصارت الدنيا إلى انسجامها .

إن المخترعين الذين صمموا المحركات التي تتحرك بسائل البنزين قاموا بتسهيل الحركة على الإنسانية ، ولكن العادم والمخلفات الناتجة من البنزين صنعت ضررا بالكون ، ودليل ذلك ان العلماء الآن يبحثون عن أساليب لمقاومة تلوث البيئة . وعندما كان الوقود هو الحطب لم يكن هناك تلوث للبيئة ، لماذا ؟ لأن كل عنصر كان يؤدي مهمته ، فجزء من احتراق الحطب كان يتحول إلى كربون ، وجزء آخر يتحول إلى غازات ، وتنصرف كل الأشياء إلى مساراتها .

إن هذا يدلنا على أن الإنسان قد دخل إلى المخترعات المعاصرة بنصف علم . لقد قدّر الإنسان انه يريد تخفيف الحركة ، وينقل الأثقال ويختصر المسافات ، لكنه لم ينظر إلى البيئة وتلوثها ، فنشأ عادم يفسد البيئة ، لكن لو كان عند الإنسان القدرة الشاملة على العلم

لكان ساعة اختراع هذه المحركات قد بحث عن وضع معادلة لتعدل من فساد العادم.

ولننظر إلى عظمة الحق، إنه يترك للعقل البشري أن يتقدم، ولكن العقل البشري قاصر وينسى من الأشياء ما ينتج عنه الضرر أخيرا. إن الذين اخترعوا المبيدات الحشرية كانوا يظنون أنهم قاموا بفتح جديد في الكون، وتشاء إرادة الحق ان يقوم بتحريم هذه المبيدات القوم أنفسهم الذين اخترعوها؛ لأنهم وجدوا منها الضرر، لذلك يقول الحق سبحانه:

(125/123)

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً ﴾

[الكهف: 103-105].

إنك أن أردت أن تكمل صنعتك فابحث عن الحسن في ضوء منهج الله، والحق سبحانه يضرب لنا المثل الواضح. إننا نعرف أن عادم صناعتنا ضار كعادم المصانع والسيارات وغيرها، لكن عادم خلق الله في الحيوان نافع، فالإنسان يأخذ روث الحيوان ويصنع منه السماد ليزيد من خصوبة الأرض، والعجيب أن فضلات الحيوان التي تعطي خصوبة

للأرض لا نجد فيها شيئًا يقزز ، ولا نجد لها الرائحة التي توجد في فضلات الإنسان ، لماذا ؟

لأن الحيوان يأكل على قدر حاجته ، إن الحيوان قد يجد أمامه أصنافا كثيرة ، مثل الحشيش اليابس ، وإذا شبع الحيوان امتنع عن الطعام ، ولذلك لا يُخرج فضلات كريهة الرائحة ، لكن الإنسان ينوع ويلون ويأكل فوق طاقته ويحث شهيته على الانطلاق والانفلات ، إن الحيوان لا اختيار له ، ومحكوم بالغريزة ويجد أمامه هذا الذي يؤكل وذلك الذي لا يؤكل فيختار بغريزته المناسب له ، وإذا امتلأت البطن لا يأكل ؛ لأنه محكوم بالغريزة والتسخير المطلق ، لكن الإنسان يتمتع بالاختيار ، فأفسد عليه هذا الاختيار وأبعده عن منهج الله وجعله بما لديه من قدرة يتجاوز الاكتفاء بحدود الشبع .

وهكذا نرى بوضوح أن الكون كله أسلم لله طوعا في المسخرات .

وإياك أن تفهم أن هناك إسلاما بالقهر والإكراه . وبعض العلماء قد فاتهم ذلك, وهم يعطون لخصوم الإسلام حجة الإسلام حجة فيقولون : " إن دينكم انتشر بإكراه السيف " ولذلك نقول لهم : لا ، إن أحدا لم يسلم كرها أبدا ؛ لأن السيف إنما رفع لشيء واحد هو حماية

حرية الاختيار . إن السيف قد رُفع ليمنع الإكراه ، وليمنع تسلط بعض الناس بقوتهم ليجبروا الناس على عقائدهم فقال لهم السيف : " قفوا عند حدكم ، ودعوا الناس أحرارا في اختيار ما يعتقدون " ، ودليل ذلك أن البلاد التي فتحها الإسلام تجد فيها غير المسلمين ، ولو كان الأمر فتحا بالسيف لما وجدنا ديانات أخرى . غير الإسلام ، نجدهم أيضا يتشدقون بذلك ويزيدون " إنكم تفرضون جزية " .

ونقول لهم : أنتم تردون على أنفسكم ، نحن لم نفرض جزية على المؤمن ولكن الكافر تركناه على كفره ، والجزية يدفعها الكافر ليدافع عنه المؤمنون لو أصاب البلاد مكروه .

إذن فكيف نفهم قوله الحق بأن هناك من أسلم كرها ؟

نحن نفهمها كالآتي : إن الإنسان هو الذي انقسمت عنده المسائل ، وفيه أمور تدخل في فعله ومراداته ، وفيه أمور تحدث قهرا عنه ، وتحدث له بلا إرادة ولا اختيار ، فالإنسان يكون مختارا في الفعل الذي يقع منه ، أما الفعل الذي يقع عليه أو فيه فلا دخل له فيه بالاختيار ؛ إن أحدا منا لا يختار يوم ميلاده ، أو يوم وفاته أو يوم إصابته بالمرض ، والإنسان الذكي هو الذي يعرف ذلك ونقول للإنسان الذي لا يعرف أو يتجاهل ذلك : أيها الإنسان دعك من الغباء ؛ إن هناك زوايا من حياتك أنت مجبر فيها على أن تكون مسلما لله كرها إنك تسلم لله دون إرادتك في كثير من الأمور التي تقع عليك ، ولا تستطيع لها دفعا ، فلماذا تقف في الإسلام عند زاوية الاختيار ؟

إن المسخرات كلها مسلمة لله ، والإنسان فيما يقع فيه أو عليه من أمور لا يستطيع دفعها .

هو تسليم لله كرها من الإنسان ، وهكذا نرى أن قيادة التسخير فيما ليس لك دخل فيه أيها الإنسان هي مسلمة لله ، مثلك في ذلك مثل كل الكائنات ، أفلا يجب عليك أن تسلم بكل زوايا حياتك ؟ فلو كان هناك إنسان كافر بكل ما فيه من أبعاض فعلى هذا الكافر ألا يسلم بأي شيء من جوارحه ؛ هل يستطيع أن يمنعها من أن تؤدي عملها ؟

ولأن ما سيحدث له لا بد أن يتوقف عن التنفس ؛ لأن التنفس يحدث رغما عنه ، لا بد أن يوقف دقات قلبه ؛ لأنها تدق رغما عنه . وما دام هناك من يستمرئ الكفر فليحاول أن يجعل كل ما فيه كافرا ، ولن يستطيع ؛ بل سيجد أنه يحب أمورا ولا تأتي له ، ويكره أمورا وتنزل به ، ولم يفلت أحد من الإسلام لله ، لأن الله قد اختار لكل إنسان يوم الميلاد ويوم الموت ، واختار الله للإنسان أن تجري الأحداث فوقه ولا يستطيع دفعها ، ويصبح خاضعا رغم أنفه ، لذلك قال الحق : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ .

إذن ولنأخذ " طوعا " لغير الإنسان ، وللمؤمن الذين نفذ تعاليم المنهج ، ولنأخذ "كرها "

في المسائل التي لا دخل لاختيار الإنسان فيها وتقع عليه وهو يكرهها ، ولا يستطيع دفعها ، لأن الذي يجريها عليه هو الخالق الفعال لما يريد ، وما دامت هناك زاوية من حياتك أيها الإنسان أنت مكره فيها فلماذا تمردت في المسألة الاختيارية ؟

كان يجب أن يأخذ الكافر هذه النقطة ويقول للكفر : " لا " ، ويتجه إلى الإيمان ؛ لأن المؤمن يأخذ هذه النقطة ويقول : أنا أريد أن أنسجم مع الكون كله حتى لا تطغى ملكة على ملكة ، ولا تطغى إرادة على إرادة أخرى ، وهذه رحمة من الله بالخلق .

(128/123)

وحين يسلم الإنسان منهجه لله فإنه يفعل ما يطلبه المنهج ولا يفعل ما يحرمه المنهج ومن يريد أن يقف في " افعل " و " لا تفعل " ، ونقول له : إذا فعلت ما الذي يستفيده الله منك ؟ وإذا لم تفعل ما الذي يضر الله منك ؟

لا شيء ، إن عليك أن تفكر جيدا فالأمر إنما يُرَدّ أو يتمرد عليه إن كان للآمر فيه مصلحة ، وحيث إنه لا مصلحة للحق سبحانه وتعالى في مراداته من الخلق إلا إصلاح الخلق ذاته ، إذن فمنهج الحق هو لمصلحة الإنسان ، وأول ما يصاب به من يقف في منهج الله أنه يصبح ضد نفسه ، ولا ينسجم مع الكون ، فإن كان هناك من يريد ألا يسلم ، فليجرب نفسه بألا

يسلم في المقهورات التي هو مقهور عليها ، وهذا أمر مستحيل .

ولنقرأ الموقف القرآني بدقة ، لنرى أنه الحق بعد القسم وبعد العهد وبعد الإشهاد عليه ، قال لنا : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ . إن من يبغي غير دين الله ليس منطقيا مع نفسه أو مع الكون ؛ لأن الكون كله لله بما فيه ومن فيه من السماوات والأرض ، وكذلك الإنسان الذي ارتضى منهج الله ، وأيضا أسلم الكافر لله فيما ليس له فيه اختيار .

" وأسلم " في هذا السياق القرآني الكريم تعني أنه خضع وسُخر ، وقُهر على أن ينفذ ، ولكن الحق سبحانه أورد عن السماء والأرض قال :

﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾

[فصلت : 11] . إن المألوف أن ترضخ السماء والأرض لأمر الله ، وعندما " قالتا أتينا طائعين " فقد كسبت السماء والأرض الإسلام لله ، فإلى الله كل مرجع فالإنسان – مؤمنا كان أو كافرا – سيعود إلى الله حتما .

(129/123)

وكلمة " يرجعون " التي تأتي في تذييل الآية يمكننا أن نراها في مواقع أخرى من القرآن مرة تأتي مبنية للمفعول ونطقها "يُرجعون" بمعنى أنهم مقهورون على الرجوع إلى الله ، ونجدها في مواقع أخرى في القرآن كفعل مبنى للفاعل فننطقها ﴿ يُرْجَعُونَ ﴾ ، أي أنهم يريدون الإسراع في العودة إلى الله ، وفي هذه الآية نفهم أن الذين يبغون غير دين الله لا يرغبون أن يعودوا إلى الله لذلك يتم إرجاعهم بالقهر ، فسبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾

[الطور : 13] .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1588.1578 ﴾

(130/123)

قوله تعالى ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (84) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تم تنزيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن الدعاء إلى شيء غير الله ، ثم هدد من تولى ، فكان السامع جديراً بأن يقول : أنا مقبل غير متول فما اقول وما أفعل ؟ قال مخاطباً لرأس السامعين ليكون أجدر لامتثالهم : ﴿ قل ﴾ أي قبل كل شيء ، أي ملفتاً لمن نفعه هذا التذكير والتهديد فأقبل ﴿ آمنا ﴾ أنا ومن أطاعني من أمتي - مبكتاً لأهل الكتاب بما تركوه من دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومن بعده من خلص أبنائه ، وأبوه وجادلوا فيه عدواناً وادعوه ؛ ثم فصل المأمور بالإيمان به فقال : ﴿ بالله ﴾ الذي لا كفوء له .

ولما كان الإنزال على الشيء مقصوداً به ذلك الشيء بالقصد الأول كان الأنسب أن يقال : ﴿ وما أنزل علينا ﴾ فيكون ذلك له حقيقة ولأتباعه مجازاً ، وكانت هذه السورة بذلك أحق لأنها سورة التوحيد ﴿ وما أنزل على إبراهيم ﴾ أي أبينا ﴿ وإسماعيل وإسحاق ﴾ أي ابنيه ﴿ ويعقوب ﴾ ابن إسحاق ﴿ والأسباط ﴾ أي أولاد يعقوب .

ولما كان ما ناله صاحبا شريعة بني إسرائيل من الكتابين المنزلين عليهما والمعجزات الممنوحين بها أعظم مما كان لمن قبلهما غير السياق إلى قوله : ﴿ وما أوتي موسى ﴾ من أولاد الأسباط من التوراة والشريعة ﴿ وعيسى ﴾ من ذرية داود من الإنجيل والشريعة الناسخة لشريعة موسى عليهما الصلاة والسلام .

ولما كان النظر هنا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر لكونها سورة التوحيد الذي هو أخلق به وأغرق فيه ناسب الإعراء عن التأكيد بما في البقرة ، ونظر إلى الكل لحاً واحداً فقال : ﴿ والنبيون ﴾ أي كافة من الوحي والمعجزات ليكون الإيمان بالمنزل مذكوراً مرتين لشرفه ﴿ من ربهم ﴾ أي المحسن إليهم خاصة وإلى العباد عامة بإرسالهم إليهم ؛ ثم استأنف تفسير هذا الإيمان بقوله : ﴿ لا نفرق بين أحد منهم ﴾ تنبيهاً على الموضع الذي كفر به اليهود والنصارى ﴿ ونحن له ﴾ أي لله وما أنزل من عنده ﴿ مسلمون ﴾ أي منقادون على طريق الإخلاص والرضى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 121.120 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة أنه إنما أخذ الميثاق على الأنبياء في تصديق الرسول الذي يأتي مصدق لما معهم بيّن في هذه الآية أن من صفة محمد صلى الله عليه وسلم كونه مصدقاً لما معهم فقال : ﴿ قُلْ ءامَنَّا بالله ﴾ إلى آخر الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 108 ﴾

فصل

قال الفخر :

وحد الضمير في ﴿ قُلْ ﴾ وجمع في ﴿ آمنا ﴾ وفيه وجوه

الأول : إنه تعالى حين خاطبه ، إنما خاطبه بلفظ الوحدان ، وعلمه أنه حين يخاطب القوم يخاطبهم بلفظ الجمع على وجه التعظيم والتفخيم ، مثل ما يتكلم الملوك والعظماء

والثاني : أنه خاطبه أولاً بخطاب الوحدان ليدل هذا الكلام على أنه لا مبلغ لهذا التكليف من الله إلى الخلق إلا هو ، ثم قال : ﴿ آمنا ﴾ تنبيهاً على أنه حين يقول هذا القول فإن أصحابه يوافقونه عليه

(132/123)

الثالث : إنه تعالى عينه في هذا التكليف بقوله ﴿ قُلْ ﴾ ليظهر به كونه مصدقاً لما معهم ثم قال ﴿ آمنا ﴾ تنبيهاً على أن هذا التكليف ليس من خواصه بل هو لازم لكل المؤمنين كما قال : ﴿ والمؤمنون كُلٌّ ءامَنَ بالله وَمَلَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مّن رُّسُلِهِ ﴾ [البقرة : 285] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 108 . 109 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

وفي هذه الآية احتمالان :

أحدهما : أن يكون المأمور بهذا القول – وهو " آمَنَّا " إلى آخره – هو محمد صلى الله عليه وسلم ثم في ذلك معنيان :

أحدهما : أن يكون هو وأمته مأمورين بذلك ، وإنما حُذِفَ معطوفه ؛ لِفَهْم المعنى ، والتقدير : قل يا محمد أنت وأمتك : آمنا بالله ، كذا قدّره ابنُ عطية .

والثاني : أن المأمور بذلك نبينا وحده ، وإنما خوطب بلفظ الجمع ؛ تعظيماً له .

قال الزمخشري : " ويجوز أن يُؤمَر بأن يتكلم عن نفسه كما يتكلم الملوك ؛ إجلالاً من الله – تعالى – لقدر نبيّه " .

والاحتمال الثاني : أن يكون المأمور بهذا القول مَنْ تقدم ، والتقدير : قل لهم : قولوا : آمنا ، ف " آمَنَّا " منصوب بـ " قُلْ " على الاحتمال الأول ، وب " قُولُوا " المقدَّر على الاحتمال الثاني ، وذلك القول المُضْمر منصوب المحل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 368. 369 ﴾

فصل

قال الفخر :

قدم الإيمان بالله على الإيمان بالأنبياء ، لأن الإيمان بالله أصل الإيمان بالنبوة ، وفي المرتبة الثانية ذكر الإيمان بما أنزل عليه ، لأن كتب سائر الأنبياء حرفوها وبدلوها فلا سبيل إلى معرفة أحوالها إلا بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان ما أنزل على محمد كالأصل لما أنزل على سائر الأنبياء فلهذا قدمه عليه ، وفي المرتبة الثالثة ذكر بعض الأنبياء وهم الأنبياء الذين يعترف أهل الكتاب بوجودهم ، ويختلفون في نبوتهم ﴿ وَالأَسْبَاطَ ﴾ هم أسباط يعقوب عليه السلام الذين ذكر الله أممهم الاثنى عشر في سورة الأعراف ، وإنما أوجب الله تعالى الإقرار بنبوّة كل الأنبياء عليهم السلام لفوائد

إحداها : إثبات كونه عليه السلام مصدقاً لجميع الأنبياء ، لأن هذا الشرط كان معتبراً في أخذ الميثاق

وثانيها : التنبيه على أن مذاهب أهل الكتاب متناقضة ، وذلك لأنهم إنما يصدقون النبي الذي يصدقونه لمكان ظهور المعجزة عليه ، وهذا يقتضي أن كل من ظهرت المعجزة عليه كان نبياً ، وعلى هذا يكون تخصيص البعض بالتصديق والبعض بالتكذيب متناقضاً ، بل الحق تصديق الكل والاعتراف بنبوّة الكل

وثالثها : إنه قال قبل هذه الآية ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى السموات والأرض ﴾ [آل عمران : 83] وهذا تنبيه على أن إصرارهم على تكذيب بعض

الأنبياء إعراض عن دين الله ومنازعة مع الله ، فههنا أظهر الإيمان بنبوّة جميع الأنبياء ، ليزول عنه وعن أمته ما وصف أهل الكتاب به من منازعة الله في الحكم والتكليف

(134/123)

ورابعها : أن في الآية الأولى ذكر أنه أخذ الميثاق على جميع النبيّين ، أن يؤمنوا بكل من أتى بعدهم من الرسل ، وههنا أخذ الميثاق على محمد صلى الله عليه وسلم بأن يؤمن بكل من أتى قبله من الرسل ، ولم يأخذ عليه الميثاق لمن يأتي بعده من الرسل ، فكانت هذه الآية دالة من هذا الوجه على أنه لا نبي بعده ألبتة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 109 ﴾

سؤال : فإن قيل : لم عدّى ﴿ أَنزلَ ﴾ في هذه الآية بحرف الاستعلاء ، وفيما تقدم من مثلها بحرف الانتهاء ؟

قلنا : لوجود المعنيين جميعاً ، لأن الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل ، فجاء تارة بأحد المعنيين وأخرى بالآخر ، وقيل أيضاً إنما قيل ﴿ عَلَيْنَا ﴾ في حق الرسول ، لأن الوحي ينزل عليه وإلينا في حق الأمة لأن الوحي يأتيهم من الرسول على وجه الانتهاء وهذا تعسف ، ألا ترى إلى قوله ﴿ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ﴾ [البقرة : 4] وأنزل إليك الكتاب وإلى قوله ﴿ آمنوا

بالذي أنزل على الذين آمنوا ﴾ [آل عمران : 72] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 109 ﴾

وقال ابن عادل :

وهذه الآية شبيهة بالتي في البقرة ، إلا أنَّ هنا عَدَّى " أُنْزِلَ " بـ " عَلَى " وهناك عدَّاه بـ " إلى " .

قال الزمخشري : لوجود المعنيين جميعاً ؛ لأن الوحي ينزل من فوق ، وينتهي إلى الرسل ، فجاء تارة بأحد المعنيين ، وأخرى بالآخر .

قال ابن عطيةَ : " الإنزال على نَبيِّ الأمة إنزال عليها " وهذا ليس بطائل بالنسبة إلى طلب الفرق .

قال الراغب : " إنما قال – هنا – " عَلَى " ، لأن ذلك لما كان خطاباً للنبيّ صلى الله عليه وسلم وكان واصلاً إليه من الملأ الأعلى بلا واسطةٍ بشريةٍ ، كان لفظ " عَلَى " المختص بالعُلوِّ أوْلَى به ، وهناك لما كان خطاباً للأمة ، وقد وصل إليهم بواسطة النبي صلى الله عليه وسلم كان لفظ " إلَى " المختص بالاتصال أوْلَى .

ويجوز أن يقال : " أنزل عليه " ، إنما يُحمَل على ما أُمِر المنزَّل عليه أن يُبَلِّغَه غيرَه . وأنزل إليه ، يُحمَل على ما خُصَّ به في نفسه ، وإليه نهاية الإنزال ، وعلى ذلك قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب يتلى عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت : 51] وقال : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : 44] خص هنا بـ " إلى " لما كان مخصوصاً بالذكر الذي هو بيان المنزل ، وهذا كلام في الأولى لا في الوجوب " .

(136/123)

وهذا الذي ذكره الراغب ردَّه الزمخشريُّ ، فقال : " ومن قال : إنما قيل : " عَلَيْنَا " لقوله : " قُلْ " و " إلينا " لقوله : " قُولُوا " ، تفرقة بين الرسول والمؤمنين ؛ لأن الرسول يأتيه الوحي عن طريق الاستعلام ، ويأتيهم على وجه الانتهاء ، فقد تعسَّف ؛ ألا ترى إلى قوله : ﴿ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [البقرة : 4] وقوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ الكتاب ﴾ [المائدة : 48] وقوله : ﴿ وَقَالَتْ طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب آمِنُوا بالذي أُنْزِلَ عَلَى الذين آمَنُواْ وَجْهَ النهار ﴾ [آل عمران : 72] وفي البقرة : ﴿ وَمَا أُوتِيَ النبيون ﴾ [البقرة : 136] وهنا : " وَالنَّبِيُّونَ " ، لأن التي في البقرة لفظ الخطاب فيها عام ، ومن حكم خطاب العام البسط دون الإيجاز ، بخلاف الخطاب هنا ، لأنه خاص ، فلذلك اكتفى فيه بالإيجاز دون الإطناب " . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 369 . 370 ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلف العلماء في أن الإيمان بهؤلاء الأنبياء الذين تقدموا ونسخت شرائعهم كيف يكون ؟ وحقيقة الخلاف ، أن شرعه لما صار منسوخاً ، فهل تصير نبوته منسوخة ؟ فمن قال إنها تصير منسوخة قال : نؤمن أنهم كانوا أنبياء ورسلاً ، ولا نؤمن بأنهم الآن أنبياء ورسل ، ومن قال إن نسخ الشريعة لا يقتضي نسخ النبوّة قال : نؤمن أنهم أنبياء ورسل في الحال فتنبه لهذا الموضع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 109 ﴾

قوله تعالى ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ فيه وجوه

الأول : قال الأصم : التفرق قد يكون بتفضيل البعض على البعض ، وقد يكون لأجل القول بأنهم ما كانوا على سبيل واحد في الطاعة لله والمراد من هذا الوجه يعني : نقر بأنهم كانوا بأسرهم على دين واحد في الدعوة إلى الله وفي الانقياد لتكاليف الله

الثاني : قال بعضهم المراد ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ بأن نؤمن ببعض دون بعض كما تفرقت اليهود والنصارى

الثالث : قال أبو مسلم ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ أي لا نفرق ما أجمعوا عليه ، وهو كقوله ﴿ واعتصموا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران : 103] وذم قوماً وصفهم بالتفرق فقال : ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام : 94] .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 109. 110 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

قال الفخر :

أما قوله ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ففيه وجوه

الأول : إن إقرارنا بنبوّة هؤلاء الأنبياء إنما كان لأجل كوننا منقادين لله تعالى مستسلمين لحكمه وأمره ، وفيه تنبيه على أن حاله على خلاف الذين خاطبهم الله بقوله ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى السموات والأرض ﴾

والثاني : قال أبو مسلم ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ أي مستسلمون لأمر الله بالرضا وترك

المخالفة وتلك صفة المؤمنين بالله وهم أهل السلم والكافرون يوصفون بالمحاربة لله كما قال : ﴿ إِنَّمَا جَزَاء الذين يُحَارِبُونَ الله وَرَسُولَهُ ﴾ [المائدة : 33]

(138/123)

الثالث : أن قوله ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ يفيد الحصر والتقدير : له أسلمنا لا لغرض آخر من سمعة ورياء وطلب مال ، وهذا تنبيه على أن حالهم بالضد من ذلك فإنهم لا يفعلون ولا يقولون إلا للسمعة والرياء وطلب الأموال ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 110 ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ لاَ نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مّن رُّسُلِهِ ﴾ وهمزة أحدٍ إما أصلية فهو اسمٌ موضوعٌ لمن يصلُح أن يخاطَبَ يستوي فيه المفردُ والمثنى والمجموعُ والمذكرُ والمؤنث ولذلك صح دخولُ بين عليه كما في مثل المال بين الناس ، وإما مُبدلةٌ من الواو فهو بمعنى واحد ، وعمومُه لوقوعه في حيز النفي ، وصِحةُ دخولِ ﴿ بَيْنَ ﴾ عليه باعتبار معطوفٍ قد حُذف لظهوره أي بين أحدٍ منهم وغيرِه كما في قول النابغة :

فما كان بين الخيرِ إذ جاء سالما . . . أبو حجَرٍ إلا ليالٍ قلائلُ

أي بين الخير وبيني ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ أي منقادون أو مخلصون أنفسَنا له تعالى لا نجعلُ له شريكاً فيها ، وفيه تعريضٌ بإيمان أهلِ الكتاب فإنه بمعزل من ذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 55 ﴾

(139/123)

من فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ ءامَنَّا بالله ﴾ أمر للرسول صلى الله عليه وسلم أن يخبر عن نفسه والمؤمنين بالإيمان بما ذكر ، فضمير (آمنا) للنبي صلى الله عليه وسلم والأمة ، وقال المولى عبد الباقي : لما أخذ الله تعالى الميثاق من النبيين أنفسهم أن يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام وينصروه أمر محمداً أيضاً صلى الله عليه وسلم أن يؤمن بالأنبياء المؤمنين به وبكتبهم فيكون ﴿ مِنَ ﴾ في موضع آمنت لتعظيم نبينا عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام ، أو لما عهد مع النبيين وأممهم أن يؤمنوا أمر محمداً عليه الصلاة والسلام وأمته أن يؤمنوا بهم وبكتبهم . والحاصل أخذ الميثاق من الجانبين على الإيمان على طريقة واحدة ولم يتعرض هنا لحكمة الأنبياء السالفين إما لأن الإيمان بالكتاب المنزل إيمان بما فيه من الحكمة ، أو للإشارة إلى أن

شريعتهم منسوخة في زمن هذا النبي صلى الله عليه وسلم وكلاهما على تقدير كون الحكمة بمعنى الشريعة ولم يتعرض لنصرته عليه الصلاة والسلام لهم إذ لا مجال بوجه لنصرة السلف، ويؤيد دعوى أخذ الميثاق من الجانبين ما أخرجه عبد الرزاق وغيره عن طاوس أنه قال: أخذ الله تعالى ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً.

(140/123)

﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ وهو القرآن المنزل عليه صلى الله عليه وسلم أولاً وعليهم بواسطة تبليغه إليهم، ومن هنا أتى بضمير الجمع، وقد يعتبر الإنزال عليه عليه الصلاة والسلام وحده، ولكن نسب إلى الجمع ما هو منسوب لواحد منه مجازاً على ما قيل، ويحتمل أن تكون النون نون العظمة لا ضمير الجماعة، وعدى الإنزال هنا بعلى وفي البقرة (136) بإلى لأنه له جهة علو باعتبار ابتدائه وانتهاء باعتبار آخره، وقد جعل الخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وسلم فناسبه الاستعلاء وهناك للعموم، فناسب الانتهاء كذا قيل، ويرد عليه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءامِنُواْ ﴾ [آل عمران: 72] والتحقيق أنه لا فرق بين المعدى بإلى والمعدى بعلى إلا بالاعتبار، فإن اعتبرت مبدأه عديته بعلى لأنه فوقاني وإن اعتبرت انتهاءه إلى من هو له عديته بإلى ويلاحظ أحد الاعتبارين تارة

والآخر أخرى تفنناً بالعبارة ، وفرّق الراغب بأن ما كان واصلاً من الملأ الأعلى بلا واسطة كان لفظ على المختص بالعلو أولى به ، وما لم يكن كذلك كان لفظ إلى المختص بالإيصال أولى به وقيل : أنزل عليه يحمل على أمر المنزل عليه أن يبلغه غيره ، وأنزل إليه يحمل على ما خص به نفسه لأن إليه انتهاء الإنزال وكلا القولين لا يخلو عن نظر

(141/123)

﴿ وَمَا أُنزِلَ على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويَعْقُوبَ والاسباط ﴾ قيل : خص هؤلاء الكرام بالذكر لأن أهل الكتاب يعترفون بنبوتهم وكتبهم ، والمراد بالموصول الصحف كما هو الظاهر وقدم المنزل عليه عليه الصلاة والسلام على المنزل عليهم إما لتعظيمه والاعتناء به ، أو لأنه المعرف له ومعرفة المعرف تتقدم على معرفة المعرف ، والأسباط الأحفاد لا أولاد البنات ، والمراد بهم على رأي أبناء يعقوب الإثنا عشر وذراريهم ، وليس كلهم أبناءاً خلافاً لزاعمه ﴿ وَمَا أُوتِىَ موسى وعيسى ﴾ من "التوراة" "والإنجيل" وسائر المعجزات كما يشعر به إيثار الإيتاء على الإنزال الخاص بالكتاب وقيل : هو خاص بالكتابين ، وتغيير الأسلوب للاعتناء بشأن الكتابين ، وتخصيص هذين النبيين بالذكر لما أن الكلام مع اليهود والنصارى ﴿ والنبيون ﴾ عطف على ﴿ موسى وعيسى ﴾ أي وبما أوتي النبيون على

تعدد أفرادهم واختلاف أسمائهم ﴿ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ متعلق بأوتي ، وفي التعبير بالرب مضافاً إلى ضميرهم ما لا يخفى من اللطف .

﴿ لاَ نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مّنْهُمْ ﴾ أي بالتصديق والتكذيب ما فعل اليهود والنصارى والتفريق بغير ذلك كالتفضيل جائز ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ أي مستسلمون بالطاعة والانقياد في جميع ما أمر به ونهى عنه ، أو مخلصون له في العبادة ، وعلى التقديرين لا تكون هذه الجملة مستدركة بعد جملة الإيمان كما هو ظاهر ، وقيل : إن أهل الملل المخالفة للإسلام كانوا كلهم يقرون بالإيمان ولم يكونوا يقرون بلفظ الإسلام فلهذا أردف تلك الجملة بهذه . انتهى .

اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 214.215 ﴾

(142/123)

وقال ابن عاشور :

المخاطب بفعل قل هو النبي صلى الله عليه وسلم ليقول ذلك بمسمع من الناس : مسلمهم ، وكافرهم ، ولذلك جاء في هذه الآية قوله : ﴿ وما أنزل علينا ﴾ أي أنزل عليّ لتبليغكم فجعل إنزاله على الرسول والأمة لاشتراكهم في وجوب العمل بما أنزل ، وعدّى فعل (أنزل) هنا بحرف (على) باعتبار أنّ الإنزال يقتضي علوّاً فوصول الشيء المنزَل وصول استعلاء

وعدّي في آية سورة البقرة بحرف (إلى) باعتبار أنّ الإنزال يتضمن الوصول وهو يتعدّى بحرف (إلى) .

والجملة اعتراض .

واستئناف : لتلقين النبي عليه السلام والمسلمين كلاماً جامعاً لمعنى الإسلام ليدوموا عليه ، ويعلن به للأمم ، نشأ عن قوله : ﴿ أفغير دين الله يبغون ﴾ [آل عمران : 83] .

ومعنى : ﴿ لا نفرق بين أحد منهم ﴾ أننا لا نعادي الأنبياء ، ولا يحملنا حبّ نبيئنا على كراهتهم ، وهذا تعريض باليهود والنصارى ، وحذف المعطوف وتقديره لا نفرق بين أحد وآخر ، وتقدم نظير هذه الآية في سورة البقرة .

وهذه الآية شعار الإسلام وقد قال الله تعالى : ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾ [آل عمران : 119] .

وهنا انتهت المجادلة مع نصارى نجران . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 147 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

آمنا بالله لا بنفوسنا أو حَوْلنا أو قوتنا .

وآمنا بما أنزل علينا بالله ، وأَنَّا لا نُفَرِّق بين أحد منهم – بالله سبحانه – لا بحولنا واختيارنا ،

وجهدنا واكتسابنا ، ولولا أنه عرَّفنا أنه مَنْ هو ما عرفنا وإلا فمتى عَلِمْنا ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 1 صـ 256 ﴾

(143/123)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُولُوا آَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾

عندما ننظر إلى هذه الآية بخواطرنا فإننا نجد أن الحق يمزج الرسول والمؤمنين به والمرسل إليهم في الإيمان به ، ويتحدث إلى الرسول والمؤمنين كوحدة إيمانية ، إن قول الحق : " قل " هو خطاب لمفرد هو النبي صلى الله عليه وسلم ، والمقول : ﴿ آمَنَّا ﴾ دليل على انسجام الرسول مع الأمة المؤمنة به ، فكأن الأمة الإسلامية قد انصهرت في " قل " ، وكأن الرسول موجود في ﴿ آمَنَّا ﴾ ، وبذلك يتحقق الامتزاج والانسجام بين الرسول وبين المؤمنين به ، ويصير خطاب الحق إليهم هو خطاب لوحدة إيمانية واحدة لا انفصام فيها .

(144/123)

وقد جاء الحق بهذا الأسلوب ليوضح لنا أن الرسول لم يأت ليتعالى على أمته ، بل جاء ليحمل أعْباءَ هذه الأمة ، ولذلك قلنا من قبل : إن للرسول صلى الله عليه وسلم إيمانين ، لقد آمن بالله ، وأمن للمؤمنين ، وهو صلى الله عليه وسلم سيشفع لنا ، لأنه قد أدى مُؤدى يسع أمته كلها ، لقد أتم البلاغ وخضع للتكليف بما يسع أمته كلها ، ولذلك يقول الحق : ﴿ قُلْ آمَنَّا ﴾ ، كان القياس أن يقول : " قل آمنت " ، أو أن يقول : ﴿ قُولُوا آمَنَّا ﴾ . لكن الحق في قرآنه الكريم يضع كل كلمة في موضعها ، فتصبح الكلمة جاذبة لمعناها ، ويصبح كل معنى عاشقا لكلمته ، وقد قال الحق هنا : ﴿ قُلْ آمَنَّا ﴾ ليتضح لنا أن محمدا رسول ممتزج في أمته ، وأمة الإسلام في طواعية لرسولها ، والأمر يأتي لرسول الله من الحق سبحانه ، والتنفيذ لهذا الأمر يكون من الجميع ، وفي هذا إشعار للخصوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون ذا عصبية إيمانية قوية ، فلو قال : " قل آمنت " لكان معنى ذلك أن الرسول لن يملك إلا إيمانه فقط ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم آمن به قومه ، وكثير غيرهم وجاء على يديه فتح مكة كما قال الحق :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ﴾

[النصر : 1–2] .

وعندما نقرأ قوله الحق : ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ فلنا أن نلتفت إلى أن العلماء

لهم وقفة في مسألة الإنزال ، فمرة يقول الحق :

﴿ والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾

[البقرة : 4] .

ومرة أخرى يقول الحق :

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

[النحل : 64] .

(145/123)

وهكذا نجد أن " الإنزال " يأتي مرة متعديا بـ " إلى " ، ويأتي مرة مرة أخرى متعديا " بعلى " . وقال بعض من العلماء : إن الكلام حينما يكون موجها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فالحق يقول : " أنزل عليك " ، وكأن هؤلاء العلماء - دون قصد منهم - يفصلون بين بلاغ الله للرسول عن البلاغ إلى أمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يلتفتوا إلى أن الغاية من إنزال المنهج على الرسول هو هداية الأمة .

ونحن نقول : إن علينا ألا نأخذ الأمر بسطحية من أسلوب ظهر لنا ؛ ذلك أن هناك أسلوبا خفيًا ، وهو أن " إلى " و " على " إنما تفيدان أن المنهج نزل للأمة والرسول صلى الله عليه

وسلم ؛ فمرة يأتي الحق بالنزول متعديا بـ " إلى " والخطاب موجه للرسول صلى الله عليه وسلم كقوله الحق :

﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾

[المائدة : 83] .

ومرة يأتي الحق بالنزول متعديا بـ " على " والخطاب موجه للرسول صلى الله عليه وسلم كقوله الحق :

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

[النحل : 64] .

ومرة ثالثة يأتي الحق بالإنزال في حديث إلى المؤمنين :

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً ﴾

[النساء : 140] .

إنه كتاب منزل من السماء وملحوظ فيه العلو ، والغاية من النزول هو مصلحة الأمة ، فالإتيان بـ (على) يُفيد العلو ، ولمصلحة الأمة ، " العلية " هنا لتزيد مقام المنهج بالنسبة للمؤمنين فهو قد نزل لمصلحتهم . إذن فالنزول يقتضي " علِّية " ، وهو من حيث العلو يأتي بـ " على " ، ومن حيث الغاية يأتي بـ " إلى " ، فهو منهج نزل من الحق الأعلى ونزل إلى الرسول وعلى الرسول ليبلغه إلى المؤمنين لمصلحتهم . ولذلك قلنا : إننا إذا رأينا حكما يقيد من حرية الفرد فلا يصح أن نفهم أن الله قد قصد هذا الفرد ليقيد حريته ، إنما جاء مثل هذا القيد لقيد الملايين من أجل حرية الفرد ، مثال ذلك ساعة يحرم المنهج السرقة على الإنسان ، فهو أمر لكل إنسان من الملايين وهو لمصلحة كل إنسان ، فالقرآن قد نزل لمصلحتك ، ومصلحة المؤمنين جميعا .

وعندما نقرأ قوله الحق : ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ . فهذا القول يوضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما جاء بمنهج يضم صحيح العقائد والقصص والأخبار ، وهو يوافق ما جاء في موكب الرسالات من يوم أن خلق الله الأرض وأرسل الرسل . وقد أخذ الله العهد على الأمم والأنبياء من قبل ، بأنه إذا جاء رسول مصدق لما معهم ليؤمنن به ، وكذلك أخذ الله على رسولنا صلى

الله عليه وسلم بأن يؤمن بالرسل السابقين ، فهو صلى الله عليه وسلم لم يأت ليهدم أديانا ، ولكن ليكمل أديانا ، وهكذا نرى النص القرآني الجليل :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾ [المائدة : 3] .

(147/123)

كأن الأديان السابقة بكل ما جاء فيها من صحيح العقائد ، والقصص ، والأخبار موجودة في الإسلام ، وفوق كل ذلك جاء الإسلام بشرائع تناسب كل زمان ومكان ، ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف : " إنما مثلى ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بني بنيانا فأحسنه وأجمله وأكمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويقولون ما رأينا أحسن من هذا لولا موضع هذه اللبنة فكنت أنا اللبنة " .

إذن فزمام كل الأمر انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أخذ الله العهد على غيره أن يصدقوه عندما يجيء ، وهو صلى الله عليه وسلم آمن وصدق بمن سبق من الرسل ، ولم يجيء من بعده شيء يطلب من رسول الله ولا من أمته أن يصدقوه ، وقال الحق تذييلا لهذه الآية الكريمة : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ .

أي أنه لا يوجد لأتباع أي رسول من الرسل السابقين ما يعطيهم سلطة زمنية ، بل المسألة كلها تبدأ من الله ، وتنتهي إلى الله . وتلك هي القضية النهائية في موكب الرسالات . وما دام الإسلام هو ذلك الانقياد الذي يختاره الإنسان لنفسه ليكون منسجما مع نفسه في الإسلام لله ، ويكوّن انسجاما مع الكون الآخر وما يحتويه من حيوان ونبات وجماد وغيرها في أنه أسلم خضوعا لله ، وبذلك يصبح الكون بما فيه الإنسان المؤمن المسلم لله كله مسخّراً لله سبحانه وتعالى . وما دام الكون بالإنسان قد صار مسخرا لله فلا تضاد في حركةٍ لتعاند حركة أخرى ؛ لأن الذي يهيمن هذه الهيمْنة هو الذي وضع لكل إنسان في مجال حركته في الحياة قانونا يعصمه من أن يصطدم بغيره ، وإذا كان البشر قد استطاعوا أن يضعوا لأنفسهم معايير تمنع التصادم في الحركة ، ذلك التصادم الذي يؤدي إلى كوارث ومصائب .

مثال ذلك ، للنظر إلى السكك الحديدية ، ألا يوجد موظف اسمه " المحولجي " ؟ ومعنى هذه الوظيفة هو أن القائم بها يقوم بتحويل القاطرة القادمة من طريق معين إلى مسار محدد حتى لا تدهم قاطرة أخرى جاءت من الطريق نفسه . إن ذلك من فعل الإنسان فيما صنع من قطارات ومواصلات ، لقد صنع أيضا وسائل تمنع تصادمها ، فما بالنا بالحق – وله المثل

الأعلى - وهو الذي خلق الإنسان ؟ إنه سبحانه قد وضع المنهج حتى لا تصطدم حركة في الوجود بحركة أخرى .

ولننظر إلى الأشياء التي جاءت بقانون التسخير ، والأشياء التي دخلت في ظل الاختيار . أسمعنا أن جملين سارا في طريقين متعارضين واصطدم الجمل بجمل ؟ لم يحدث ذلك أبدا ، فالجمل يفادي نفسه وما يحمل من الجمل الآخر وما يحمله ، لكننا نسمع عن تصادم سيارة مع سيارة ، ذلك أن السيارة لا تسير بذاتها بل تسير بقيادة إنسان مختار ، وهو الذي يصدم وهو الذي قد تأتي منه في غفلته الكوارث .

إذن فتصادم حركة بحركة إنما ينشأ في الأمور الاختيارية ، أو غفلة إنسان عن مهمته ، كغفلة " المحولجي " عن عمله في تنظيم مرور القطارات ، لكن تصادم حركة في الوجود بحركة أخرى في الوجود هو أمر مستحيل ، ولا يحدث أبدا ، لأن الأمر الذي ما زال في يد المهيمن الأعلى ، مهيمن الأرض والسماء ، وهو الله الذي يسير الكون منسجما ويعرفنا بصفاته فيقول : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾

ومعناه : أني أنا القائم بأسبابكم ومدبر أمركم ولا أنام أو تأخذنا سنة أو غفلةاي فناموا أنتم فقد سخرت الوجود كله من أجلكم .

وما دام الأمر في الإسلام هكذا ، والوجود ينسجم مع نفسه ، فلماذا تشذ أنت أيها الإنسان عن الوجود ؟ ولماذا تشِذُّ عن ملكات نفسك ؟

لماذا لا تكون منسجما مع الكون ؟ إنك إن انسجمت مع نفسك ومع الكون صرت الإنسان السعيد .

(149/123)

وفي عصرنا الحديث نرى ارتقاء العالم ماديا بصورة عالية ، بحيث يقع الحدث في أمريكا مثلا فنراه على شاشة التلفزيون فورا ، ويركب الإنسان مركبا صاروخيا إلى الفضاء ولكن هل استراح العالم ؟ لا ، لقد ازداد العالم عناء ، وكأنه يكد ذهنه ويرهق العلماء في معاملهم لابتكار أشياء تعطي للعالم مزيدا من القلق والاضطراب وتصادم وتعارض . وبذلك صار الكون لا يفرغ أبدا من حرب باردة أو ساخنة .

كل ذلك إنما ينشأ من إدارة أمور العالم بأهواء البشر ، فلسنا جميعا مردودون إلى منهج واحد يأمرنا فنأتمر ، وينهانا فننتهي ، بل كل إنسان يتبع في عمله هواه ، لذلك نرى القلق والاضطراب ، ونرى الصرخات تملأ الدنيا من أهوال ومصائب ، منها مثلا المخدرات هو إنسان غير راضٍ عن واقع حياته ، فلا يريد مواجهة حياته ، إنما يحاول الهرب منها بالإدمان ، ونقول لمثل هذا الإنسان : ليس هذا حلا للمشكلة ؛ لأن الإنسان عندما تأتيه مشكلة فهو يحتاج عقلا على عقله ليواجه هذه المشكلة ، وأنت بهذا الإدمان إنما تُضيِّع عقلك ، رغم

أنك مطالب بأن تأتي بعقل آخر بجانب عقلك لتحل مشكلتك ، فالهرب من المشكلة لا يحلها ، إنما الهروب غباء وقلة فطنة فالمشكلة زادت تعقيدا ونقول للمجتمعات التي تشكو من مثل هذه البلايا لو أخذتم شرائعكم من منهج الله لكان ذلك حماية لكم من مثل تلك الكوارث .

وهكذا نرى أن كل الابتكارات تُوجه دائما إلى الشر أولا ، فإذا لم يوجد لها ميدان شر فإننا نوجهها إلى الخير ، ويا ليته خير خالص لوجه الله ، لا ، إنه خير مجنح ومنحرف عن الخير لأن الذي لا يملك هذا اللون من الاختراعات كالشعوب النامية والعالم الثالث قد جعله المخترعون بوساطة هذه الاكتشافات والاختراعات مستعبدا ومقهورا لهم ؛ إنهم جعلوا تقدمهم استعبادا وإذلالا لغيرهم وإن تظاهروا بغير ذلك .

(150/123)

لماذا يحدث كل ذلك ؟ لأننا لم نكن منطقيين – كما يجب – مع أنفسنا ولا مع واقع الأمور النهوضية التي نحن فيها فالطموحات العلمية التي لا حد لها لا يصح أن تسبب لنا كل هذا التعب ، بل كان المفروض بعد الوصول إلى تحقيق هذه الطموحات ان نستريح ، ولكن لِمَ لم يحدث هذا ؟ لأن زمامنا نحن البشر بيد أهوائنا ، والأهواء ليست هي اليد الأمينة ، إن

اليد الأمينة هي شرع الله الذي لم يشرع إلا لمصلحة من خلق ، وما دام الإسلام يرسم طريق الأمان مع الخالق والنفس والكون الذي نحياه ، بما فيه من الأجناس الأخرى ، إذن فالدين عند الله هو الإسلام ، وهذه هي النتيجة الحتمية لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ويتبعها الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1589 . 1595 ﴾

(151/123)

" فصل "

قال السيوطى :

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (83) قُلْ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (84)

أخرج الطبراني بسند ضعيف عن ابن عباس " عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾ أما من في السموات فالملائكة ، وأما من

في الأرض فمن ولد على الإسلام ، وأما كرهاً فمن أتى به من سبايا الأمم في السلاسل والأغلال يقادون إلى الجنة وهم كارهون " .

وأخرج الديلمي عن أنس قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾ قال : الملائكة أطاعوه في السماء ، والأنصار وعبد القيس أطاعوه في الأرض " .

وأخرج ابن جرير من طريق مجاهد عن ابن عباس ﴿ وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾ قال : حين أخذ الميثاق .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس في الآية قال : عبادتهم لي أجمعين ﴿ طوعاً وكرهاً ﴾ وهو قوله ﴿ ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾ [الرعد : 15] .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس ﴿ وله أسلم من في السماوات ﴾ قال : هذه مفصولة ﴿ ومن في الأرض طوعاً وكرهاً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ وله أسلم ﴾ قال : المعرفة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في الآية قال : هو كقوله ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾ [لقمان : 25] فذلك إسلامهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية في الآية قال : كل آدمي أقر على نفسه بأن الله ربي وأنا عبده . فمن أشرك في عبادته فهذا الذي أسلم كرهاً ، ومن أخلص لله العبودية فهو الذي أسلم طوعاً .

وأخرج ابن جرير عن الحسن في الآية قال : أكره أقوام على الإسلام ، وجاء أقوام طائعين .

وأخرج عن مطر الوراق في الآية قال : الملائكة طوعاً ، والأنصار طوعاً ، وبنو سليم وعبد القيس طوعاً ، والناس كلهم كرهاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : أما المؤمن فأسلم طائعاً فنفعه ذلك وقبل منه ، وأما الكافر فأسلم حين رأى بأس الله ، فلم ينفعه ذلك ، ولم يقبل منه ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ [غافر : 85] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في الآية قال : في السماء الملائكة طوعاً ، وفي الأرض الأنصار وعبد القيس طوعاً .

وأخرج عن الشعبي ﴿ وله أسلم من في السماوات ﴾ قال : استقادتهم له .

وأخرج عن أبي سنان ﴿ وله أسلم من في السماوات والأرض ﴾ قال : المعرفة . ليس

أحد تسأله إلا عرفه .

وأخرج عن عكرمة في قوله ﴿ وكرهاً ﴾ قال : من أسلم من مشركي العرب والسبايا : ومن دخل في الإسلام كرهاً .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ساء خلقه من الرقيق والدواب والصبيان فاقرأوا في أذنه ﴿ أفغير دين الله يبغون ﴾ " .

وأخرج ابن السني في عمل يوم وليلة عن يونس بن عبيد قال : ليس رجل يكون على دابة صعبة فيقرأ في أذنها ﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم ﴾ الآية . إلا ذلت له بإذن الله عز وجل . انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 2 صـ 254 . 256 ﴾

(153/123)

قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (85) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أمر سبحانه وتعالى بإظهار الإيمان بهذا القول ، وكان ذلك هو الإذعان الذي هو

الإسلام قال – محذراً من الردة عنه عاطفاً على ﴿ آمنا ﴾ ومظهراً لما من حقه الإضمار لولا إرادة التنبيه على ذلك مشيراً بصيغة الافتعال إلى مخالفة الفطرة الأولى – : ﴿ ومن يبتغ ﴾ أي يتطلب ﴿ غير ﴾ دين ﴿ الإسلام ﴾ الذي هو ما ذكر من الانقياد لله سبحانه وتعالى المشتمل على الشرائع المعروفة التي أساسها الإيمان بعد التلبس به حقيقة بإظهار اتباع الرسل أو مجازاً بالكون على الفطرة الأولى بما أشعر به الابتغاء – كما تقدم ، وكرر الإسلام في هذا السياق كثيراً لكونه في حيز الميثاق المأخوذ بمتابعة الرسول المصدق حثاً على تمام الانقياد له ﴿ ديناً ﴾ وأتى بالفاء الرابطة إعلاماً بأن ما بعدها مسبب عما قبلها ومربوط به فقال : ﴿ فلن يقبل منه ﴾ أي في الدنيا ، وأشعر ترتيب هذا على السبب بأنه يرجى زوال السبب لأنه مما عرض للعبد كما جرى في الردة في خلافة الصديق رضي الله تعالى عنه ، فإنه رجع إلى الإسلام أكثر المرتدين وحسن إسلامهم ، وقوله : ﴿ وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ معناه : ولا يقبل منهم في الآخرة ، مع زيادة التصريح بالخسارة – وهي حرمان الثواب – المنافية لمقاصدهم ، والقصد الأعظم بهذا أهل الكتاب مع العموم لغيرهم لإقرارهم بهذا النبي الكريم وتوقعهم له ، عالمين قطعاً بصدقه لما في كتبهم من البشارة به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 121 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما قال في آخر الآية المتقدمة ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : 84] أتبعه بأن بيّن في هذه الآية أن الدين ليس إلا الإسلام ، وأن كل دين سوى الإسلام فإنه غير مقبول عند الله ، لأن القبول للعمل هو أن يرضى الله ذلك العمل ، ويرضى عن فاعله ويثيبه عليه ، ولذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المتقين ﴾ [المائدة : 27] ثم بيّن تعالى أن كل من له دين سوى الإسلام فكما أنه لا يكون مقبولاً عند الله ، فكذلك يكون من الخاسرين ، والخسران في الآخرة يكون بحرمان الثواب ، وحصول العقاب ، ويدخل فيه ما يلحقه من التأسف والتحسر على ما فاته في الدنيا من العمل الصالح وعلى ما تحمله من التعب والمشقة في الدنيا في تقريره ذلك الدين الباطل واعلم أن ظاهر هذه الآية يدل على أن الإيمان هو الإسلام إذ لو كان الإيمان غير الإسلام وجب أن لا يكون الإيمان مقبولاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ إلا أن ظاهر قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الأعراب ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا ولكن قُولُواْ أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات : 14] يقتضي كون الإسلام مغايراً للإيمان ووجه التوفيق بينهما أن تحمل الآية الأولى على العرف الشرعي ، والآية الثانية على الوضع اللغوي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 110 ﴾

فصل فى نزول الآية

قال القرطبى :

قال مجاهد والسُّدِّي : نزلت هذه الآية في الحارث بن سُويد أخو الجُلاَس بن سويد ، وكان من الأنصار ، ارتد عن الإسلام هو واثنا عشر معه ولحقوا بمكة كفاراً ، فنزلت هذه الآية ، ثم أرسل إلى أخيه يطلب التوبة .

ورُوي ذلك عن ابن عباس وغيره .

قال ابن عباس : وأسلم بعد نزول الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 128 ﴾

(155/123)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ نزلت في جماعة ارتدوا وكانوا اثني عشر رجلاً وخرجوا من المدينة وأتوا مكة كفاراً ، منهم الحرث بن سويد الأنصاري ، والإسلام قيل : التوحيد والانقياد ، وقيل : شريعة نبينا عليه الصلاة والسلام بين تعالى أن من تحرى بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم غير شريعته فهو غير مقبول منه ، وقبول الشيء هو الرضا

به وإثابة فاعله عليه، وانتصاب ﴿ دِينًا ﴾ على التمييز من ﴿ غَيْرِ ﴾ وهي مفعول ﴿ يَبْتَغِ ﴾ وجوز أن يكون ﴿ دِينًا ﴾ مفعول ﴿ يَبْتَغِ ﴾ و ﴿ غَيْرِ ﴾ صفة قدمت فصارت حالاً، وقيل: هو بدل من ﴿ غَيْرَ الإسلام ﴾ والجمهور على إظهار الغينين، وروي عن أبي عمرو الإدغام، وضعفه أبو البقاء بأن كسرة الغين الأولى تدل على الياء المحذوفة (1)

(1) القراءة متواترة للسوسى عن أبى عمرو ومن ثم فلا يجوز تضعيفها . والله أعلم .

(156/123)

﴿ وَهُوَ فِى الآخرة مِنَ الخاسرين ﴾ إما معطوفة على جواب الشرط فتكون في محل جزم، وإما في محل الحال من الضمير المجرور فتكون في محل نصب، وإما مستأنفة فلا محل لها من الإعراب، و ﴿ فِى الآخرة ﴾ متعلق بمحذوف يدل عليه ما بعده أي وهو خاسر في الآخرة أو متعلق بالخاسرين على أن الألف واللام ليست موصولة بل هي حرف تعريف، والخسران في الآخرة هو حرمان الثواب وحصول العقاب، وقيل: أصل الخسران ذهاب رأس المال، والمراد به هنا تضييع ما جبل عليه من الفطرة السليمة المشار إليها في حديث " كل مولود يولد على الفطرة " وعدم الانتفاع بذلك وظهوره بتحقق ضده ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ

وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : 88 ، 89] والتعبير بالخاسرين أبلغ من التعبير بخاسر كما أشرنا إليه فيما قبل وهو منزل منزلة اللازم ولذا ترك مفعوله ، والمعنى وهو من جملة الواقعين في الخسران واستدل بالآية على أن الإيمان هو الإسلام إذ لو كان غيره لم يقبل ، واللازم باطل بالضرورة فالملزوم مثله ، وأجيب بأن ﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ ينفي قبول كل دين يباين دين الإسلام والإيمان ، وإن كان ﴿ غَيْرَ الإسلام ﴾ لكنه لا يغاير دين الإسلام بل هو هو بحسب الذات ، وإن كان غيره بحسب المفهوم ، وذكر الإمام أن ظاهر هذه الآية يدل على عدم المغايرة ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الاعراب ءامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا ولكن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات : 14] يدل على المغايرة ، ووجه التوفيق بينهما أن تحمل الآية الأولى على العرف الشرعي ، والثانية على الوضع اللغوي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 215.216 ﴾

(157/123)

وقال السمرقندى :

قوله ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِينًا ﴾ قال الكلبي : نزلت في شأن مرثد بن أبي مرثد ، وطُعْمَة بن أُبَيْرق ، ومقيس بن صبابة ، والحارث بن سُوَيد ، وكانوا عشرة .

وقال مقاتل : كانوا اثني عشر .

وقال الضحاك : يعني لا يقبل من جميع الخلق من أهل الأديان ديناً غير دين الإسلام ، ومن يتدين غير الإسلام ديناً ﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخرة مِنَ الخاسرين ﴾ أي من المغبونين ، لأنه ترك منزله في الجنة ، واختار منزله في النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 253 ﴾

وقال ابن عاشور :

قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (85) ﴾

عطف على جملة ﴿ أفغير دين الله يبغون ﴾ وما بينهما اعتراض ، كما علمت ، وهذا تأييس لأهل الكتاب من النجاة في الآخرة ، وردّ لقولهم : نحن على ملة إبراهيم ، فنحن ناجون على كلّ حال .

والمعنى من يبتغ غير الإسلام بعد مجيء الإسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 147 ﴾

وقال ابن عطية :

حكم تعالى في قوله ﴿ ومن يبتغ ﴾ الآية بأنه لا يقبل من آدمي ديناً غير دين الإسلام ، وهو الذي وافق في معتقداته دين كل من سمي من الأنبياء ، وهو الحنيفة السمحة ، وقال عكرمة

: لما نزلت قال أهل الملل للنبي صلى الله عليه وسلم : قد أسلمنا قبلك ونحن المسلمون ، فقال الله له : فجحهم يا محمد وأنزل عليه ﴿ ولله على الناس حج البيت ﴾ [آل عمران : 97] فحج المسلمون وقعد الكفار ، وأسند الطبري عن ابن عباس أنه قال : نزلت ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ إلى قوله ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ [البقرة : 62] فأنزل الله بعدها ، ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ الآية .

(158/123)

قال الفقيه الإمام : فهذه إشارة إلى نسخ ، وقوله ﴿ في الآخرة ﴾ متعلق بمقدر ، تقديره خاسر في الآخر لأن الألف واللام في ﴿ الخاسرين ﴾ في معنى الموصول ، وقال بعض المفسرين : إن قوله ﴿ من يبتغ ﴾ الآية ، نزلت في الحارث بن سويد ، ولم يذكر ذلك الطبري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 467 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

العامة يظهرون هذين المثلين في ﴿ يَبْتَغِ غَيْرَ ﴾ لأن بينهمَا فاصلاً فلم يلتقيا في الحقيقةِ ،

وذلك الفاصل هو الياء التي حذفت للجزم .

وروي عن أبي عمرو فيها الوجهان :

الإظهار على الأصل ، ولمراعاة الفاصل الأصْلِيّ .

والإدغام ؛ مراعاةً للفظ ؛ إذ يَصْدُق أنهما التقيا في الجملة ، ولأن ذلك مستحِقّ الحَذْف لعامل الجَزْم .

وليس هذا مخصوصاً بهذه الآية ، بل كل ما التقى فيه مِثْلاَن بسبب حذف حرف لعلةٍ اقتضت ذلك جرَى فيها الوجهان ، نحو : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ [يوسف : 9] وقوله : ﴿ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ [غافر : 28] .

وقد استشكل على هذا نحو ﴿ ويا قوم مَالِي أَدْعُوكُمْ ﴾ [غافر : 41] ونحو : ﴿ ويا قوم مَن يَنصُرُنِي ﴾ [هود : 30] فإنه لم يُرْوَ عن أبي عمرو خلاف في إدغامها ، وكان القياس يقتضي جواز الوجهين ، لأن ياء المتكلم فاصلة تقديراً .

قوله : " دِيناً " فيه ثلاثة أوجهٍ :

أحدها : أنه مفعول " يَبْتَغِ " و " غَيْرَ الإسْلاَمِ " حالٌ ؛ لأنها في الأصل صفةٌ له ، فلما قُدِّمَتْ نُصِبَت حالاً .

الثاني : أن يكون تمييزاً لِ " غَيْرَ " لإبهامها ، فمُيِّزَتْ كما مُيِّزت " مِثْلُ " و " شِبهُ " وأخواتهما ، وسُمِع من العرب : إن لنا غيرَها إبلاً وشاءً .

والثالث : أن يكون بدلاً من " غَيْرَ " . وعلى هذين الوجهين ف ﴿ غَيْرَ الإسلام ﴾ هو المفعول به ل " يبتغ " .

(159/123)

وقوله : ﴿ وَهُوَ فِي الآخرة مِنَ الخاسرين ﴾ يجوز أن لا يكون لهذه الجملة محلٌّ ؛ لاستئنافها ، ويجوز أن تكون في محل جَزْم ؛ نَسَقاً على جواب الشرط - وهو ﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ - ويكون قد ترتب على ابتغاء غير الإسلام ديناً الخُسران وعدمُ القبول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 372.371 ﴾

من فوائد البيضاوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِينًا ﴾ أي غير التوحيد والإنقياد لحكم الله . ﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الأخرة مِنَ الخاسرين ﴾ الواقعين في الخسران ، والمعنى أن المعرض عن الإسلام والطالب لغيره فاقد للنفع واقع في الخسران بإبطال الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها ، واستدل به على أن الإيمان هو الإسلام إذ لو كان غيره لم يقبل . والجواب إنه ينفي قبول كل دين يغايره لا قبول كل ما يغايره ، ولعل الدين أيضاً للأعمال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير

البيضاوي حـ 2 صـ 61 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ﴾ الإسلام هنا قيل هو الاستسلام إلى الله والتفويض إليه ، وهو مطلوب في كل زمان ومكان وشريعة ، ولذلك فسره الزمخشري بالتوحيد ، وإسلام الوجه لله .

وقيل : المراد بالإسلام شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، بيَّن تعالى أن من تحرّى بعد مبعثه شريعة غير شريعته فغير مقبول منه ، وهو الدين الذي وافق في معتقداته دين من ذكر من الأنبياء .

قيل : وعن ابن عباس لما نزلت : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى ﴾ الآية أنزل الله بعدها : ﴿ ومن يبتغ ﴾ الآية .

وهذا إشارة إلى نسخ ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ وعن عكرمة : لما نزلت قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : قد أسلمنا قبلك ونحن المسلمون ، فقال الله له : حججهم يا محمد ، وأنزل ﴿ ولله على الناس حج البيت ﴾ فحج المسلمون وقعد الكفار .

(160/123)

وقيل : نزلت في الحارث بن سويد ، وسيأتي قصته بعد هذا .

وقبول العمل هو رضاه وإثابة فاعله عليه .

﴿ وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ الخسران في الآخرة هو حرمان الثواب وحصول العقاب شبه في تضييع زمانه في الدنيا باتباع غير الإسلام بالذي خسر في بضاعته ، ويحتمل أن تكون هذه الجملة قد عطفت على جواب الشرط ، فيكون قد ترتب على ابتغاء غير الإسلام ديناً عدم القبول والخسران ، ويحتمل أن لا تكون معطوفة عليه بل هي استئناف إخبار عن حاله في الآخرة .

و: في الآخرة متعلق بمحذوف يدل عليه ما بعده ، أي : وهو خاسر في الآخرة ، أو : بإضمار أعني ، أو : بالخاسرين على أن الألف واللام ليست موصولة بل للتعريف ، كهي في : الرجل ، أو : به على أنها موصولة ، وتسومح في الظرف والمجرور لأنه يتسع فيهما ما لا يتسع في غيرهما ، وكلُّ منقول ، وقد تقدّم لنا نظير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 539.540 ﴾ . بتصرف يسير .

فصل

قال ابن كثير

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ أي : من سلك طريقًا سوى ما

شرَعَه الله فلن يُقْبل منه ﴿ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : "مَنْ عَمِلَ عَمَلا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ" .

(161/123)

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم ، حدثنا عباد بن راشد ، حدثنا الحسن ، حدثنا أبو هريرة ، إذ ذاك ونحن بالمدينة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تَجِيءُ الأَعْمَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَتَجِيءُ الصَّلاةُ فَتَقُولُ : يَا رَبِّ ، أَنَا الصَّلاةُ . فَيَقُولُ : إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ . فَتَجِيءُ الصَّدَقَةُ فَتَقُولُ : يَا رَبِّ ، أَنَا الصَّدَقَةُ . فَيَقُولُ : إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ . ثُمَّ يَجِيءُ الصِّيَامُ فَيَقُولُ : أَيْ يَا رَبِّ ، أَنَا الصِّيَامُ . فَيَقُولُ : إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ . ثُمَّ تَجِيءُ الأَعْمَالُ ، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تعالى : إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ ، ثُمَّ يَجِيءُ الإِسْلامُ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ ، أَنْتَ السَّلامُ وَأَنَا الإِسْلامُ . فَيَقُولُ اللَّهُ [تعالى] : إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ ، بِكَ الْيَوْمَ آخُذُ وَبِكَ أُعْطِي ، قَالَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

تفرد به أحمد . قال أبو عبد الرحمن عبد الله بن الإمام أحمد : عباد بن راشد ثقة ، ولكن الحسن لم يسمع من أبي هريرة . ﴿ المسند (362/2) وقال الهيثمي في المجمع (345/10) : "فيه عباد بن راشد ، وثقه أبو حاتم وغيره ، وضعفه جماعة ، وبقية

رجال أحمد رجال الصحيح" ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 70 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

مَنْ سَلَكَ غير الخمود تحت جريان حكمه سبيلاً زلَّت قَدَمُه في وهدة من المغاليط لا مدى لقعرها .

ويقال من توسَّل إليه بشيء دون الاعتصام به فخُسْرانه أكثر من رِبْحِه .

ويقال من لم يَفْنَ عن شهود الكل لم يصل إلى مَنْ به الكل .

ويقال مَنْ لم يَمْشِ تحت راية المصطفى صلى الله عليه وسلم المُعظَّم في قَدْره ، المُعَلَّى في وصفه ، لم يُقْبَلْ منه شيء ولا ذرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 256 ﴾

(162/123)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

إن الغاية التي تسعد العالم كله هي دين الإسلام ، ومن يرد دينا غير ذلك فلن يقبله الله منه .

فإن كان هناك من لا يعجبه تقنين السماء ويقول مندهشا : إن في هذا التقنين قسوة ؛ إنك تُقطع يد إنسان وتشوهه نرد على مثل هذا القائل : إن سيارة تصدم سيارة تشوه عشرات من البشر داخل السيارتين ، أو قطار يصاب بكارثة فيشوه مئات من البشر .

ونحن عندما نبحث عن عدد الأيدي التي تم قطعها في تاريخ الإسلام كله ، فلن نجدها إلا أقل كثيرا من عدد المشوهين بالحوادث ، وأي ادعاء بالمحافظة على جمال الإنسان مسألة تثير السخرية ؛ لأن تقنين قطع يد السارق استقامت به الحياة ، بينما الحروب الناتجة عن الهوى شوهت وأفنت المئات والآلاف ، إن مثل هذا القول سفسطة ، هل معنى تشريع العقوبة أن يحدث الذنب ؟ لا ، إن تشريع العقوبة يعني تحذير الإنسان من أن يرتكب الذنب .

وعندما نقول لإنسان : " إن قتلت نفسا فسيتولى ولي الأمر قتلك " أليس في ذلك حفاظ على حياته وحياة الآخرين ؟ وحين يحافظ التشريع على حياة فرد واحد فهو يحافظ في الوقت نفسه على حياة كل إنسان ، يقول الله تعالى :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

[البقرة : 179] .

وهكذا يصبح هذا التقنين سليما غاية السلامة ، إذن فقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ يدلنا على أن الذي يشرع تشريعا يناقض ما شرعه الله

فكأنه خطأ الله فيما شرع ، وكأنه قد قال لله : أنا أكثر حنانا على الخلق منك أيها الإله ؛ لأنه قد فاتتك هذه المسألة .

(163/123)

وفي هذا القول فسق عن شرع الله ، وعلى الإنسان أن يلتزم الأدب مع خالقه . وليرد كل شيء إلى الله المربي ، وحين ترد أيها الإنسان كل شيء إلى ربك فأنت تستريح وتريح ، اللهم إلا أن يكون لك مصلحة في الانحراف . فإن كان لك مصلحة في الانحراف فأنت تريد غير ما أراد الله ، أما إذا أردت مصلحة الناس فقد شرع الحق ما فيه مصلحة كل الناس ؛ لذلك قال الحق : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

وقد يقول قائل في قوله تعالى : ﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ إن هذه العبارة لا تكفي في منحى اطمئنانا إلى جزاء العمل الذي أتقرب به إلى الله ، فالله قد يقبل وقد لا يقبل فهو - سبحانه - لا أحد يكرهه على شيء ، ونقول له : إنك ستأتي إلى ربك رضيت أو أبيت فما حاجتك إلى هذا القول ؟ لو كنت تستطيع ، فكن عاقلا ولا تتمرد على أمر ربك ، ويقول الحق : ﴿ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ . والخاسر : مأخوذة من " الخسر " ، و " الخسر " هو ذهاب رأس المال وضياعه ، والآخرة حياة ليس بعدها حياة ، ومن الغباء أن

يقول قائل : " سوف أتعذب قليلا ثم تنتهي المسألة " لا ، إن المسألة لا تنتهي ؛ لأن الآخرة حياة دائمة ولا حياة بعدها . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَق . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1595.1596 ﴾

(164/123)

" فصل "

قال السيوطى :

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (85)

أخرج أحمد والطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تجئ الأعمال يوم القيامة فتجيء الصلاة فتقول : يا رب أنا الصلاة فيقول : إنك على خير ، وتجيء الصدقة فتقول : يا رب أنا الصدقة فيقول : إنك على خير ، ثم يجيء الصيام فيقول : أنا الصيام فيقول إنك على خير ، ثم تجيء الأعمال كل ذلك يقول الله : إنك على خير ، ثم يجيء الإسلام فيقول : يا رب أنت السلام ، وأنا الإسلام فيقول الله : إنك على خير . بك اليوم آخذ ، وبك أعطي " قال الله في كتابه ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن

يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 256 ﴾

(165/123)

قوله تعالى ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (86) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (87) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (88) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (89) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أخبر سبحانه وتعالى بخسارة من ارتد عن الإسلام شرع يستدل على استحقاقه لذلك بقوله : ﴿ كيف يهدي الله ﴾ مع ما له من كمال العظمة ﴿ قوماً ﴾ أي يخلق الهداية في قلوب ناس بهم قوة المحاولة لما يريدونه ﴿ كفروا ﴾ أي أوقعوا الكفر بالله ربهم وبما ذكر مما أتت به رسله إعراضاً عنه وعنهم ، ولما كان المقصود بكمال الذم من استمر كفره إلى الموت قال من غير جار : ﴿ بعد إيمانهم ﴾ بذلك كله ﴿ وشهدوا ﴾ أي وبعد أن شهدوا ﴿ أن

الرسول حق ﴾ بما عندهم من العلم به ﴿ وجاءهم البينات ﴾ أي القاطعة بأنه حق وأنه رسول الله قطعاً ، لا شيء أقوى من بيانه ولا أشد من ظهوره بما أشعر به إسقاط تاء التأنيث من جاء .

(166/123)

ولما كان الحائد عن الدليل بعد البيان لا يرجى في الغالب عوده كان الاستبعاد بكيف موضحاً لأن التقدير لأجل التصريح بالمراد : أولئك لا يهديهم الله لظلمهم بوضعهم ثمرة الجهل بنقض عهد الله سبحانه وتعالى المؤكد بواسطة رسله موضع ثمرة العلم ، فعطف على هذا المقدر المعلوم تقديره قوله : ﴿ والله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أي الغريقين في الظلم لكونه جبلهم على ذلك ، تحذيراً من مطلق الظلم ، ولما علمت بشاعة خيانتهم تشوف السامع إلى معرفة جزائهم فقال : ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ جزاؤهم أن عليهم لعنة الله ﴾ أي الملك الأعظم ، وهي غضبه وطرده ﴿ والملائكة والناس أجمعين ﴾ حتى أنهم هم ليلعنون أنفسهم ، فإن الكافر يطبع على قلبه فيظن أنه على هدى ويصير يلعن الكافر ظاناً أنه ليس بكافر ، وهذا اللعن واقع عليهم حال تلبسهم بالفعل لوضعهم الشيء في غير محله ، فصار كل من له علم يبعدهم لسوء صنيعهم لتبديلهم

الحسن بالسيىء ، وحذراً من فعل مثل ذلك معه ﴿ خالدين فيها ﴾ أي اللعنة دائماً .

ولما كان المقيم في الشدة قد تنقص شدته على طول نفي ذلك بقوله : ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ﴾ مفيداً أن عليهم مع مطلق الشدة بالطرد شدائد أخرى بالعقوبة .

ولما كان المعذب على شيء ربما استمهل وقتاً ما ليرجع عن ذلك الشيء أو ليعتذر نفى ذلك بقوله : ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي يؤخرون للعلم بحالهم باطناً وظاهراً حالاً ومآلاً ، ولإقامة الحجة عليهم من جميع الوجوه ، لم يترك شيء نمها لأن المقيم لها منزه عن العجز والنسيان .

(167/123)

ولما انخلعت القلوب بهذه الكروب نفّس عنها سبحانه وتعالى مشيراً إلى أن فيهم – وإن استبعد رجوعهم – موضعاً للرجاء بقوله : ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ أي رجعوا إلى ربهم متذكرين لإحسانه ، ولما كان التائب لم يستغرق زمان ما بعد الإيمان بالكفر ، وكانت التوبة مقبولة ولو قل زمنها أثبت الجار فقال : ﴿ من بعد ذلك ﴾ الارتدار حيث تقبل التوبة ﴿ وأصلحوا ﴾ أي بالاستمرار على ما تقضيه من الثمرات الحسنة ﴿ فإن الله ﴾ أي الذي له الجلال والإكرام يغفر ذنوبهم لأن الله ﴿ غفور ﴾ يمحو الزلات ﴿ رحيم ﴾ بإعطاء

المثوبات ، هذه صفة لهم ولكل من تاب من ذنبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 122.121 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما عظم أمر الإسلام والإيمان بقوله ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسلام دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الأخرة مِنَ الخاسرين ﴾ [آل عمران : 85] أكد ذلك التعظيم بأن بيّن وعيد من ترك الإسلام ، فقال : ﴿ كَيْفَ يَهْدِى الله قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إيمانهم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 111 ﴾

فصل

قال الفخر :

في سبب النزول أقوال

الأول : قال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت هذه الآية في عشرة رهط كانوا آمنوا ثم ارتدوا ولحقوا بمكة ثم أخذوا يتربصون به ريب المنون فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية ، وكان فيهم من تاب فاستثنى التائب منهم بقوله ﴿ إِلاَّ الذين تَابُواْ ﴾

الثاني : نقل أيضاً عن ابن عباس أنه قال : نزلت في يهود قريظة والنضير ومن دان بدينهم كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن كانوا مؤمنين قبل مبعثه ، وكانوا يشهدون له بالنبوّة ، فلما بعث وجاءهم بالبينات والمعجزات كفروا بغياً وحسداً

والثالث : نزلت في الحرث بن سويد وهو رجل من الأنصار حين ندم على ردته فأرسل إلى قومه أن اسألوا لي هل لي من توبة ؟ فأرسل إليه أخوه بالآية ، فأقبل إلى المدينة وتاب على يد الرسول صلى الله عليه وسلم وقبل الرسول صلى الله عليه وسلم توبته ،

قال القفال رحمه الله : للناس في هذه الآية قولان : منهم من قال إن قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِينًا ﴾ [آل عمران : 85] وما بعده من قوله ﴿ كَيْفَ يَهْدِى الله قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إيمانهم ﴾ إلى قوله ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضالون ﴾ [آل عمران : 90] نزل جميع ذلك في قصة واحدة ، ومنهم من جعل ابتداء القصة من قوله ﴿ إن الذين كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ [آل عمران : 90] ثم على التقديرين ففيها أيضاً قولان أحدهما : أنها في أهل الكتاب

والثاني : أنها في قوم مرتدين عن الإسلام آمنوا ثم ارتدوا على ما شرحناه . انتهى ا . هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 111 ﴾

وقال القرطبى :

قال ابن عباس : إن رجلاً من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم ندم ؛ فأرسل إلى قومه

: سَلُوا لِي رسول الله صلى الله عليه وسلم هل لي مِنْ توبة ؟ فجاء قومُه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : هل له من توبة ؟ فنزلت ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فأرسل إليه فأسلم .

أخرجه النسائي .

(169/123)

وفي رواية : أن رجلاً من الأنصار ارتد فلحق بالمشركين ، فأنزل الله ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا الذين تَابُوا ﴾ فبعث بها قومُه إليه ، فلما قرئت عليه قال : والله ما كذَبني قومي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أكذبت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله ، والله عز وجل أصدق الثلاثة ؛ فرجع تائباً ، فقبِل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركه .

وقال الحسن : نزلت في اليهود لأنهم كانوا يبشِّرون بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ويَسْتَفْتِحون على الذِين كفروا ؛ فلما بُعِث عانَدُوا وكفروا ، فأنزل الله عز وجل ﴿ أولئك جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ والملائكة والناس أَجْمَعِين ﴾ .

ثم قيل : "كيف" لفظة استفهام ومعناه الجحْد ، أي لا يهدي الله .

ونظيره قوله : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ ﴾ [التوبة : 7] أي لا يكون لهم عهد ؛ وقال الشاعر :

كيف نومي على الفِراش ولَمّا . . .

يشمل القومَ غارةٌ شَعْواءُ

أي لا نوم لي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 129 ﴾

قال الطبرى :

وأشبه القولين بظاهر التنزيل ما قال الحسن : منْ أنّ هذه الآية معنيٌّ بها أهل الكتاب على ما قال ، غيرَ أنّ الأخبار بالقول الآخر أكثر ، والقائلين به أعلم ، بتأويل القرآن .

(170/123)

وجائز أن يكون الله عز وجل أنزل هذه الآيات بسبب القوم الذين ذُكر أنهم كانوا ارتدّوا عن الإسلام ، فجمع قصّتهم وقصة من كان سبيله سبيلهم في ارتداده عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم في هذه الآيات . ثم عرّف عباده سُنته فيهم ، فيكون داخلا في ذلك كلّ من كان مؤمنًا بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أنْ يبعث ، ثم كفر به بعد أن بُعث ، وكلّ من كان كافرًا ثم أسلم على عهده صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتد وهو حيٌّ عن إسلامه .

فيكون معنيًّا بالآية جميعُ هذين الصنفين وغيرُهما ممن كان بمثل معناهما ، بل ذلك كذلك إن شاء الله .

فتأويل الآية إذاً : "كيف يَهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم" ، يعني : كيف يُرشد الله للصواب ويوفّق للإيمان ، قومًا جحدُوا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم "بعد إيمانهم" ، أي : بعد تصديقهم إياه ، وإقرارهم بما جاءَهم به من عند ربه "وَشهدوا أن الرسول حقّ" ، يقول : وبعد أن أقرّوا أن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خلقه حقًّا "وجاءهم البينات" ، يعني : وجاءهم الحجج من عند الله والدلائل بُصحة ذلك ؟ . انتهى ا . هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 575.576 ﴾

فصل

قال الفخر :

(171/123)

اختلف العقلاء في تفسير قوله ﴿ كَيْفَ يَهْدِى الله قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إيمانهم ﴾ أما المعتزلة فقالوا : إن أصولنا تشهد بأنه تعالى هدى جميع الخلق إلى الدين بمعنى التعريف ، ووضع الدلائل وفعل الألطاف ، إذ لو يعم الكل بهذه الأشياء لصار الكافر والضال معذوراً ، ثم إنه

تعالى حكم بأنه لم يهد هؤلاء الكفار ، فلا بد من تفسير هذه الهداية بشيء آخر سوى نصب الدلائل ، ثم ذكروا فيه وجوهاً الأول : المراد من هذه الآية منع الألطاف التي يؤتيها المؤمنين ثواباً لهم على إيمانهم كما قال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : 69] وقال تعالى : ﴿ وَيَزِيدُ اللهُ الذين اهتدوا هُدًى ﴾ [مريم : 76] وقال تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد : 17] وقال : ﴿ يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتبع رِضْوَانَهُ سُبُلَ السلام ﴾ [المائدة : 16] فدلت هذه الآيات على أن المهتدي قد يزيده الله هدىً

الثاني : أن المراد أن الله تعالى لا يهديهم إلى الجنة قال تعالى : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾ [النساء : 168 ، 169] وقال : ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأنهار ﴾ [يونس : 9]

(172/123)

والثالث : أنه لا يمكن أن يكون المراد من الهداية خلق المعرفة فيه لأن على هذا التقدير يلزم أن يكون أيضاً من الله تعالى لأنه تعالى إذا خلق المعرفة كان مؤمناً مهتدياً ، وإذا لم يخلقها كان كافراً ضالاً ، ولو كان الكفر من الله تعالى لم يصح أن يذمهم الله على الكفر ولم يصح أن

يضاف الكفر إليهم ، لكن الآية ناطقة بكونهم مذمومين بسبب الكفر وكونهم فاعلين للكفر فإنه تعالى قال : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إيمانهم ﴾ فضاف الكفر إليهم وذمهم على ذلك الكفر فهذا جملة أقوالهم في هذه الآية ،

وأما أهل السنة فقالوا : المراد من الهداية خلق المعرفة ، قالوا : وقد جرت سنة الله في دار التكليف أن كل فعل يقصد العبد إلى تحصيله فإن الله تعالى يخلقه عقيب قصد العبد ، فكأنه تعالى قال : كيف يخلق الله فيهم المعرفة وهم قصدوا تحصيل الكفر أو أرادوه والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 112.111 ﴾

قوله تعالى ﴿ وشهدوا ﴾

قال الفخر :

قوله ﴿ وشهدوا ﴾ فيه قولان :

الأول : أنه عطف والتقدير بعد أن آمنوا وبعد أن شهدوا أن الرسول حق ، لأن عطف الفعل على الاسم لا يجوز فهو في الظاهر وإن اقتضى عطف الفعل على الاسم لكنه في المعنى عطف الفعل على الفعل

الثاني : أن الواو للحال بإضمار (قد) والتقدير : كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم حال ما شهدوا أن الرسول حق . انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 112 ﴾

فصل

قال الفخر :

تقدير الآية : كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم ، وبعد الشهادة بأن الرسول حق ، وقد جاءتهم البينات ، فعطف الشهادة بأن الرسول حق ، على الإيمان ، والمعطوف مغاير للمعطوف عليه ، فيلزم أن الشهادة بأن الرسول حق مغاير للإيمان

(173/123)

وجوابه : إن مذهبنا أن الإيمان هو التصديق بالقلب ، والشهادة هو الإقرار باللسان ، وهما متغايران فصارت هذه الآية من هذا الوجه دالة على أن الإيمان مغاير للإقرار باللسان وأنه معنى قائم بالقلب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 112 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى استعظم كفر القوم من حيث أنه حصل بعد خصال ثلاث

أحدها : بعد الإيمان

وثانيها : بعد شهادة كون الرسول حقاً

وثالثها : بعد مجيء البينات ، وإذا كان الأمر كذلك كان ذلك الكفر صلاحاً بعد البصيرة

وبعد إظهار الشهادة، فيكون الكفر بعد هذه الأشياء أقبح لأن مثل هذا الكفر يكون كالمعاندة والجحود، وهذا يدل على أن زلة العالم أقبح من زلة الجاهل. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 112 ﴾

فصل

قال ابن عادل:

الاستفهام فيه كقوله: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ ﴾ [البقرة: 28].

وقيل: الاستفهام - هنا - معناه النَّفْي كقوله: [الخفيف]

كَيْفَ نَوْمي عَلَى الْفِرَاشِ ولَمَّا ... تَشْمَلِ الشَّامَ غَارَةٌ شَعْوَاءُ؟

وقول الآخر: [الطويل]

فَهَذِي سُيُوفٌ يَا صُدَيُّ بْنَ مَالِكٍ ... كَثِيرٌ، وَلَكِنْ كَيْفَ بِالسَّيْفِ ضَارِبُ؟

يعني: أين بالسيف؟

﴿ وشهدوا ﴾ في هذه الجملة ثلاثة أوجهٍ:

أحدها: أنها معطوفة على "كَفَرُوا" و"كَفَرُوا" في محل نَصْب؛ نعتاً لِ "قوماً" أي: كيف يهدي من جمع بين هذين الأمرين، وإلى هذا ذهب ابنُ عطيةَ والحَوْفِيُّ وأبو البقاء، وردَّه مكيّ، فقال: لا يجوز عطف "شَهِدُوا" على كَفَرُوا" لفساد المعنى. ولم يُبَيِّن جهَةَ الفساد، فكأنه فهم الترتيب بين الكفر والشهادة، فلذلك فَسَد المعنى عنده. وهذا غير لازم؛

فإن الواو لا تقتضي ترتيباً ، ولذلك قال ابن عطيةَ : " المعنى مفهوم أن الشهادة قبل الكُفْرِ ، والواو لا تُرَتِّب " .

(174/123)

الثاني : أنها في محل نصب على الحال من واو "كَفَرُوا " فالعامل فيها الرافع لصاحبها ، و" قد " مضمرة معها على رأي – أي كفروا وقد شهدوا ، وإليه ذهب جماعةٌ كالزمخشريِّ ، وأبي البقاء وغيرهما .

قال أبو البقاء : " ولا يجوز أن يكون العامل "يَهْدِي " ؛ لأنه يهدي من شَهِدَ أن الرسول حق " .

يعني أنه لا يجوز أن يكون حالاً من " قَوْماً " والعاملُ في الحالِ "يَهْدِي " لما ذكر من فساد المعنى .

الثالث : أن يكون معطوفاً على " إيمَانِهِمْ " لما تضمَّنه من الانحلال لجملة فعلية ؛ إذ التقدير : بعد أن آمنوا وشهدوا ، وإلى هذا ذهب جماعة .

قال الزمخشريُّ : أن يُعْطَف على ما في " إيمانهم " من معنى الفعل ؛ لأن معناه : بعد أن آمنوا ، كقوله : ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن ﴾ [المنافقون : 10] وقول الشاعر : [الطويل]

مَشَائِيمُ لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً . . . وَلَا نَاعِبٍ إلَّا بِبَيْنٍ غُرَابُهَا

وجه تنظيره ذلك بالآية والبيت يوهم ما يسوّغ العطف عليه في الجملة ، كذا يقول النحاة :

جزم على التوهم أي لسقوط الفاء ؛ إذْ لو سقطت لانجزم في جواب التحضيض ، ولذا

يقولون : توهّم وجودَ الباء فجَرَّ .

وفي العبارة – بالنسبة إلى القرآن – سوءُ أدبٍ ، ولكنهم لم يقصدوا ذلك .

وكان تنظير الزمخشري بغير ذلك أولى ، كقوله : ﴿ إنَّ المصدقين والمصدقات وَأَقْرَضُوا اللهَ

قَرْضاً حَسَنا ﴾ [الحديد : 18] .

إذ هو في قوة : إن الذين تصدقوا وأقرضوا .

وقال الواحدي : " عطف الفعل على المصدر ؛ لأنه أرادَ بالمصدر الفعلَ ، تقديره : كفروا

بالله بعد أن آمنوا ، فهو عطف على المعنى ، كقوله : [الوافر]

لَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وَتَقَرَّ عَيْنِي . . . أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ

معناه : لأن ألبس عباءةً وتقرَّ عيني " .

وظاهر عبارة الزمخشري والواحدي أن الأول مؤوَّل لأجل الثاني ، وهذا ليس بظاهر ؛ لأنا إنما نحتاج إلى ذلك لكون الموضع يطلب فِعْلاً ، كقوله : ﴿ إِنَّ المصدقين ﴾ لأن الموصول يطلب جملة فعلية ، فاحتجنا أن نتأول اسم الفاعل بفعله ، وعطفنا عليه و " أقرضُوا " وأما " بعد إيمانهم " وقوله : " للبس عباءة " ، فليس الاسم محتاجاً إلى فِعل ، فالذي ينبغي هو أن نتأوَّل الثاني باسم ؛ ليصحَّ عطفه على الاسم الصريح قبله ، وتأويله بأن تأتي معه بـ " أن " المصدريَّة مقدَّرةً ، تَقْدِيرُهُ : بعد إيمانهم وأن شهدوا أي وشهادتهم ، ولهذا تأول النحويون قوله : للُبْسُ عباءة وتقرَّ : وأن تَقَرَّ ، إذ التقدير : وقرة عيني ، وإلى هذا ذهب أبو البقاء ، فقال : " التقدير : بعد أن آمنوا وأن شهدوا ، فيكون في موضع جر ، يعني أنه على تأويل مصدر معطوف على المصدر الصحيح المجرور بالظرف " .

وكلام الجرجاني فيه ما يشهد لهذا ، ويشهد لتقدير الزمخشريّ ؛ فإنه قال : قوله " وَشَهِدُوا " منسوق على ما يُمْكن في التقدير ، وذلك أن قوله : " بعد إيمانهم " يمكن أن يكون : بعد أن آمنوا ، و " أن " الخفيفة مع الفعل بمنزلة المصدر ، كقوله : ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُم ﴾ [البقرة : 184] ، أي : والصوم .

ومثله مما حُمِل فيه على المعنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ ﴾ [الشورى : 51] فهو عطف على قوله : " إلا وحياً " ويمكن فيه : إلاَّ أن يُوحِيَ إليه ، فلما كان قوله : " إلا وحياً " بمعنى : إلا أن يُوحِي إليه ، حمله على

ذلك .

ومثله من الشعر : [الطويل]

فَظَلَّ طُهَاةُ اللَّحْمِ مِنْ بَيْنِ مُنْضِجٍ . . . صَفِيفَ شواءٍ أَوْ قَدِيرٍ مُعَجَّلِ

(176/123)

خفض قوله : قدير ؛ لأنه عطف على ما يمكن في قوله : منضج ؛ لأنه أمكن أن يكون مضافاً إلى الصفيف ، فحملَه على ذلك ، فإتيانه بهذا البيت نظير إتيان الزمخشريِّ بهذه الآيةِ الكريمةِ والبيت المتقدمَيْن ؛ لأنه جر " قدير " - هنا - على التوهُّم ، كأنه توهَّم إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله ؛ تخفيفاً ، فَجرَّ على التوهُّم كما توهم الآخر وجود الباء في قوله : ليسوا مصلحين ؛ لأنها كثيراً ما تزاد في خبر " ليس " .

فإن قيل : إذا كان تقدير الآية : كيف يهدي الله قوماً كُفروا بعد الإيمانِ وبعد الشهادةِ بأن الرسول حق ، وبعد أن جاءَهم البيِّنات ، فعطف الشهادة بأن الرسول حَقٌّ يقتضي أنه مغاير للإيمان .

فالجواب : أن الإيمان هو التصديق بالقلب ، والشهادة هي الإقرار باللسان ، فهما متغايران .

وقوله : " أن الرسول " الجمهور على أنه وَصْف بمعنى المُرْسَل ، وقيل : هو بمعنى الرسالةِ ،

فيكون مصدراً ، وقد تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 272 . 375 ﴾

قوله تعالى : ﴿ والله لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾

قال ابن عطية :

وقوله تعالى ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ عموم معناه الخصوص فيمن حتم كفره وموافاته عليه ، ويحتمل أن يريد الإخبار عن أن الظالم في ظلمه ليس على هدى من الله ، فتجيء الآية عامة تامة العموم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 468 ﴾

وقال القرطبى :

﴿ والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ يقال : ظاهر الآية أنّ مَن كفر بعد إسلامه لا يهديه الله ومن كان ظالماً ، لا يهديه الله ؛ وقد رأينا كثيراً من المرتدّين قد أسلموا وهداهم الله ، وكثيراً من الظالمين تابوا عن الظلم .

قيل له : معناه لا يهديهم الله ما داموا مقيمين على كفرهم وظلمهم ولا يُقبِلون على الإسلام ؛ فأما إذا أسلموا وتابوا فقد وفقهم الله لذلك . والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير

القرطبى حـ 4 صـ 130.129 ﴾

وقال السمرقندى :

فإن قيل : في ظاهر الآية أن من كفر بعد إسلامه ، لا يهديه الله ، ومن كان ظالماً لا يهديه الله ، وقد رأينا كثيراً من المرتدين ، أسلموا وهداهم الله ، وكثيراً من الظالمين تابوا عن الظلم .

قيل له : لا يهديهم الله ما داموا مقيمين على كفرهم وظلمهم ، ولا يُقْبِلُون إلى الإسلام ، فأما إذا جاهدوا ، وقصدوا الرجوع ، وفقهم الله لذلك لقوله : ﴿ والذين جاهدوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ الله لَمَعَ المحسنين ﴾ [سورة العنكبوت : 69] وتأويل آخر : ﴿ كَيْفَ يَهْدِى الله ﴾ يقول : كيف يرشدهم إلى الجنة ؟ كما قال في آية : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ الله لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً ﴾ [النساء : 168] ويقال : كيف يرحمهم الله وينجيهم من العقوبة ؟ ويقال : كيف يغفر الله لهم ؟ وقالت المعتزلة : كَيْفَ يَهْدِي الله ؟ معناه : كيف يكونون مهتدين ، لأنهم لا يرون الهداية ، والاهتداء في الابتداء إلا على سبيل الجزاء ، ويرون ذلك من كسب العبد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 254 ﴾

سؤالان

السؤال الأول : قال في أول الآية ﴿ كَيْفَ يَهْدِى الله قَوْمًا ﴾ وقال في آخرها ﴿ والله لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ وهذا تكرار .

والجواب : أن قوله ﴿ كَيْفَ يَهْدِى الله ﴾ مختص بالمرتدين ، ثم إنه تعالى عمم ذلك الحكم في

المرتد وفي الكافر الأصلي فقال: ﴿ والله لا يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ .

السؤال الثاني: لم سمي الكافر ظالماً ؟ .

(178/123)

الجواب: قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: 13] والسبب فيه أن الكافر أورد نفسه موارد البلاء والعقاب بسبب ذلك الكفر، فكان ظالماً لنفسه. انتهى. ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 112.113 ﴾

من فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله:

﴿ كَيْفَ يَهْدِى الله ﴾ إلى الدين الحق ﴿ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إيمانهم ﴾ أخرج عبد بن حميد وغيره عن الحسن أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى رأوا نعت محمد صلى الله عليه وسلم في كتابهم وأقروا وشهدوا أنه حق فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك فأنكروه وكفروا بعد إقرارهم حسداً للعرب حين بعث من غيرهم. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس مثله، وقال عكرمة: هم أبو عامر الراهب والحرث بن سويد في اثني عشر رجلاً رجعوا عن الإسلام ولحقوا بقريش ثم كتبوا إلى أهلهم هل لنا من

توبة ؟ فنزلت الآية فيهم وأكثر الروايات على هذا والمراد من الآية استبعاد أن يهديهم أي يدلهم دلالة موصولة لا مطلق الدلالة قاله بعضهم ، وقيل : إن المعنى كيف يسلك بهم سبيل المهديين بالإثابة لهم والثناء عليهم وقد فعلوا ما فعلوا ، وقيل : إن الآية على طريق التبعيد كما يقال : كيف أهديك إلى الطريق وقد تركته أي لا طريق يهديهم به إلى الإيمان إلا من الوجه الذي هداهم به وقد تركوه ولا طريق غيره ، وقيل : إن المراد كيف يهديهم إلى الجنة ويثيبهم والحال ما ترى ؟ !

(179/123)

﴿ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرسول ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ حَقّ ﴾ لا شك في رسالته ﴿ وَجَاءهُمُ البينات ﴾ أي البراهين والحجج الناطقة بحقية ما يدعيه ، وقيل : القرآن ، وقيل : ما في كتبهم من البشارة به عليه الصلاة والسلام ، ﴿ وَشَهِدُواْ ﴾ عطف على ما في إيمانهم من معنى الفعل لأنه بمعنى آمنوا ، والظاهر أنه عطف على المعنى كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المصدقين والمصدقات وَأَقْرَضُواْ الله ﴾ [الحديد : 18] لا على التوهم كما توهم ؛ واختار بعضهم تأويل المعطوف ليصح عطفه على الاسم الصريح قبله بأن يقدر معه

أن المصدرية أي : وإن شهدوا أي وشهادتهم على حد قوله :

ولبس عباءة وتقرّ عيني . . . أحب إليّ من لبس الشفوف

(180/123)

وإلى هذا ذهب الراغب وأبو البقاء ، وجوز عطفه على ﴿ كَفَرُواْ ﴾ وفساد المعنى يدفعه أن العطف لا يقتضي الترتيب فليكن المنكر الشهادة المقارنة بالكفر أو المتقدمة عليه ، واعترض بأن الظاهر تقييد المعطوف بما قيد به المعطوف عليه وشهادتهم هذه لم تكن بعد إيمانهم بل معه أو قبله ؛ وأجيب بالمنع لأنه لا يلزم تقييد المعطوف بما قيد به المعطوف عليه ولو قصد ذلك لأخر ، وقيل : يمنع من ذلك العطف أنهم ليسوا جامعين بين الشهادة والكفر ، وأجيب بالمنع بل هم جامعون وإن لم يكن ذلك معاً ، ومن الناس من جعله معطوفاً على ﴿ كَفَرُواْ ﴾ ولم يتكلم شيئاً مما ذكر ، وزعم أن ذلك في المنافقين وهو خلاف المنقول والمعقول ، والأكثرون من المحققين على اختيار الحالية من الضمير في ﴿ كَفَرُواْ ﴾ وقد معه مقدرة ، ولا يجوز أن يكون العامل يهدي لأنه يهدي من شهد أن الرسول حق وعليه ، وعلى تقدير العطف على الإيمان استدل على أن الإقرار باللسان خارج عن حقيقة الإيمان ، ووجه ذلك أن العطف يقتضي بظاهره "المغايرة" بين المعطوف والمعطوف عليه وأن الحالية

تقتضي التقييد ولو كان الإقرار داخلاً في حقيقة الإيمان لخلا ذكره عن الفائدة ، ولو كان عينه يلزم تقييد الشيء بنفسه ولا يخفى ما فيه ، وادعى بعضهم أن المراد من الإيمان الإيمان بالله ، ومن الشهادة المذكورة الإيمان برسول صلى الله عليه وسلم ، والأمر حينئذ واضح فتدبر ﴿ والله لا يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ أي الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالإخلال بالنظر ، ووضع الكفر موضع الإيمان فكيف من جاءه الحق وعرفه ثم أعرض عنه ؛ ويجوز حمل الظلم مطلقه فيدخل فيه الكفر دخولاً أولياً ، والجملة اعتراضية أو حالية . انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 216.217 ﴾

(181/123)

وقال ابن عاشور :

قوله تعالى ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾

استئناف ابتدائي يناسب ما سبقه من التنويه بشرف الإسلام .

(وكيف) استفهام إنكاري والمقصود إنكار أن تحصل لهم هداية خاصة وهي إما الهداية الناشئة عن عناية الله بالعبد ولطفه به ، وإسنادها إلى الله ظاهر ؛ وإما الهداية الناشئة عن إعمال الأدلة والاستنتاج منها ، وإسنادُها إلى الله لأنّه موجد الأسباب ومسبّباتها .

ويجوز أن يكون الاستفهام مستعملاً في الاستبعاد ، فإنهم آمنوا وعلموا ما في كتب الله ، ثمّ كفروا بعد ذلك بأنبيائهم ، إذ عبدَ اليهود الأصنام غير مرة ، وعبد النصارى المسِيح ، وقد شهدوا أنّ محمداً صادق لقيام دلائل الصدق ، ثم كابروا ، وشككوا الناس .

وجاءتهم الآيات فلم يتعظوا ، فلا مطمع في هديهم بعد هذه الأحوال ، وإنما تسري الهداية لمن أنصف وتهيّأ لإدراك الآيات دون القوم الذين ظلموا أنفسهم .

وقيل نزلت في اليهود خاصّة .

وقيل نزلت في جماعة من العرب أسلموا ثم كفروا ولحقوا بقريش ثم ندموا فراسلوا قومهم من المسلمين يسألونهم هل من توبة فنزلت ، ومِنهم الحارث بن سويد ، وأبو عامر الراهب ، وطُعيمة بن أُبَيْرِق .

وقوله : ﴿ وشهدوا ﴾ عطف على ﴿ إيمانهم ﴾ أي وشهادتهم ، لأنّ الاسم الشبيه بالفعل في الاشتقاق يحسن عطفه على الفعل وعطفُ الفعل عليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 147 . 148 ﴾

قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ والملائكة والناس أَجْمَعِينَ خالدين فِيهَا ﴾

قال الفخر :

المعنى أنه تعالى حكم بأن الذين كفروا بعد إيمانهم يمنعهم الله تعالى من هدايته ، ثم بيّن أن

الأمر غير مقصور عليه ، بل كما لا يهديهم في الدنيا يلعنهم اللعن العظيم ويعذبهم في الآخرة ، على سبيل التأبيد والخلود .

(182/123)

واعلم أن لعنة الله ، مخالفة للعنة الملائكة ، لأن لعنته بالإبعاد من الجنة وإنزال العقوبة والعذاب واللعنة من الملائكة هي بالقول ، وكذلك من الناس ، وكل ذلك مستحق لهم بسبب ظلمهم وكفرهم فصح أن يكون جزاء لذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 113 ﴾

قال ابن عطية :

" اللعنة " الإبعاد وعدم الرحمة والعطف ، وذلك مع قرينة الكفر زعيم بتخليدهم في النار ، ولعنة الملائكة قول ، و﴿ الناس ﴾ : بنو آدم ، ويظهر من كلام أبي علي الفارسي في بعض تعاليقه ، أن الجن يدخلون في لفظة الناس ، وأنشد على ذلك ، [الوافر]

فقلتُ إلى الطَّعامِ فقَالَ مِنْهُمْ . . . أُناسٌ يَحْسُدُ الأَنسَ الطَّعاما

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه : والذي يظهر ، أن لفظة ﴿ الناس ﴾ إذا جاءت مطلقة ، فإنما هي في كلام العرب بنو آدم لا غير ، فإذا جاءت مقيدة بالجن ، فذلك

على طريقة الاستعارة ، إذ هي جماعة كجماعة ، وكذلك ﴿ برجال من الجن ﴾ [الجن : 6] وكذلك ﴿ نفر من الجن ﴾ [الجن : 1] ، ولفظة النفر أقرب إلى الاشتراك من رجال وناس ، وقوله تعالى : ﴿ من الجنة والناس ﴾ [الناس : 6] قاض بتباين الصنفين ، وقوله تعالى : ﴿ والناس أجمعين ﴾ إما يكون لمعنى الخصوص في المؤمنين ويلعن بضعهم بعضاً ، فيجيء من هذا في كل شخص منهم أن لعنة جميع الناس ، وإما أن يريد أن هذه اللعنة تقع في الدنيا من جميع الناس على من هذه صفته ، وكل من هذه صفته – وقد أغواه الشيطان – يلعن صاحب الصفات ولا يشعر من نفسه أنه متصف بها ، فيجيء من هذا أنهم يلعنهم جميع الناس في الدنيا حتى أنهم ليلعنون أنفسهم ، لكن على غير تعيين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 468.469 ﴾

(183/123)

وقال البيضاوى :

﴿ أُوْلَٰئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ والملائكة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ يدل بمنطوقه على جواز لعنهم ، وبمفهومه على نفي جواز لعن غيرهم . ولعل الفرق أنهم مطبوعون على الكفر ممنوعون عن الهدى مؤيسون عن الرحمة رأساً بخلاف غيرهم ، والمراد بالناس المؤمنون أو

العموم فإن الكافر أيضاً يلعن منكر الحق والمرتد عنه ولكن لا يعرف الحق بعينه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 62 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ أولئك ﴾ أي المذكورون المتصفون بأشنع الصفات وهو مبتدأ ، وقوله سبحانه : ﴿ جَزَآؤُهُمْ ﴾ أي جزاء فعلهم مبتدأ ثان ، وقوله عز شأنه : ﴿ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ الله والملئكة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ خبر المبتدأ الثاني ، وهو وخبره خبر المبتدأ الأول قيل : وهذا يدل بمنطوقه على جواز لعنهم ، ومفهومه ينفي جواز لعن غيرهم ، ولعل الفرق بينهم وبين غيرهم حتى خص اللعن بهم أنهم مطبوع على قلوبهم ممنوعون بسبب خباثة ذواتهم وقبح استعدادهم من الهدى آيسون من رحمة الله تعالى بخلاف غيرهم ، والخلاف في لعن أقوام بأعيانهم ممن ورد لعن أنواعهم كشارب خمر معين مثلا مشهور والنووي على جوازه استدلالا بما ورد أنه صلى الله عليه وسلم مر بحمار وسم في وجهه فقال : لعن الله تعالى من فعل هذا وبما صح أن الملائكة تلعن من خرجت من بيتها بغير إذن زوجها ، وأجيب بأن اللعن هناك للجنس الداخل فيه الشخص أيضاً ، واعترض بأنه خلاف الظاهر كتأويل إن وراكبها بذلك والاحتياط لا يخفى والمراد من الناس إما المؤمنون لأنهم هم الذين يلعنون الكفرة ، أو المطلق لأن كل واحد يلعن من لم يتبع الحق ، وإن لم يكن غير متبع بناءاً على زعمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 217 ﴾

سؤالان

السؤال الأول : لم عم جميع الناس ومن يوافقه لا يلعنه ؟ .

قلنا : فيه وجوه

(184/123)

الأول : قال أبو مسلم له أن يلعنه وإن كان لا يلعنه

الثاني : أنه في الآخرة يلعن بعضهم بعضاً قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف : 38] وقال : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ [العنكبوت : 25] وعلى هذا التقدير فقد حصل اللعن للكفار من الكفار

والثالث : كأن الناس هم المؤمنون ، والكفار ليسوا من الناس ، ثم لما ذكر لعن الثلاث قال : ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾

الرابع : وهو الأصح عندي أن جميع الخلق يلعنون المبطل والكافر ، ولكنه يعتقد في نفسه أنه ليس بمبطل ولا بكافر ، فإذا لعن الكافر وكان هو في علم الله كافراً ، فقد لعن نفسه وإن كان لا يعلم ذلك .

السؤال الثاني : قوله ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ أي خالدين في اللعنة ، فما خلود اللعنة ؟ .

قلنا : فيه وجهان

الأول : أن التخليد في اللعنة على معنى أنهم يوم القيامة لا يزال يلعنهم الملائكة والمؤمنون ومن معهم في النار فلا يخلو شيء من أحوالهم ، من أن يلعنهم لاعن من هؤلاء

الثاني : أن المراد بخلود اللعن خلود أثر اللعن ، لأن اللعن يوجب العقاب ، فعبر عن خلود أثر اللعن بخلود اللعن ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القيامة وِزْراً * خالدين فِيهِ ﴾ [طه : 100 ، 101]

الثالث : قال ابن عباس قوله ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ أي في جهنم فعلى هذا الكناية عن غير مذكور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 113 ﴾

(185/123)

وقال الآلوسى :

﴿ خالدين فِيهَا ﴾ حال من الضمير في ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ [آل عمران : 78] والعامل فيه الاستقرار ، والضمير المجرور للعنة أو للعقوبة أو للنار ، وإن لم يجر لها ذكر اكتفاءاً بدلالة اللعنة عليها ﴿ لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العذاب وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي لا يمهلون ولا يؤخر عنهم العذاب من وقت إلى وقت آخر ، أو لا ينظر إليهم ولا يعتد بهم ، والجملة إما مستأنفة أو في

محل نصب على الحال. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 3 صـ 217﴾

قال ابن عطية:

وقرائن الآية تقتضي أن هذه اللعنة مخلدة لهم في جهنم: فالضمير عائد على النار، وإن كان لم يجر لها ذكر، لأن المعنى يفهمها في هذا الموضع كما يفهم قوله تعالى: ﴿كل من عليها فان﴾ [الرحمن: 26] أنها الأرض، وقد قال بعض الخراسانيين في قوله تعالى: ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾ [النازعات: 45] إن الضمير عائد على النار و﴿ينظرون﴾ في هذه الآية، بمعنى يؤخرون، ولا راحة إلا في التخفيف أو التأخير فهما مرتفعان عنهم، ولا يجوز أن يكون ﴿ينظرون﴾ هنا من نظر العين إلا على توجيه غير فصيح لا يليق بكتاب الله تعالى. انتهى انتهى. اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 1 صـ 469﴾

فصل

قال ابن عادل:

وفي قوله: ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ وجهان:

أحدهما: أن يكون مبتدأ ثانياً، و﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ﴾ في محل رفع؛ خبراً ل "جَزَاؤُهُمْ" والجملة خبر ل "أولئك".

والثاني: أن يكون "جَزَاؤُهُمْ" بدلاً من "أولَئِكَ" بدل اشتمال، و﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ﴾ خبر "أولئك".

وقال هنا : ﴿ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ ﴾ وقال – هناك – : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ ﴾ [البقرة : 161] دون " جزاؤهم " قيل : لأن هناك وقع الإخْبار عمن توفّي على الكُفْر ، فمن ثَمَّ حتم الله عليه اللعنة ، بخلافه هنا ، فإن سبب النزول في قوم ارتدوا ثم رجعوا للإسلام ، ومعنى : " جَزَآؤُهُمْ " أي : جزاء كفرهم وارتدادهم ، وتقدم القول في قراءة الحسن " النَّاس أجمعون " وتخريجها .

قوله : " خالدين " حال من المضير في " عَلَيْهِمْ " والعامل فيها الاستقرار ؛ أو الجارّ ؛ لقيامه مقام الفعلِ ، والضمير في " فِيهَا " للَّعنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 377 ﴾

قوله تعالى : ﴿ لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العذاب وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

قال الفخر :

معنى الإنظار التأخير قال تعالى : ﴿ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ ﴾ [البقرة : 280] فالمعنى أنه لا يجعل عذابهم أخف ولا يؤخر العقاب من وقت إلى وقت وهذا تحقيق قول المتكلمين : إن العذاب الملحق بالكافر مضرة خالصة عن شوائب المنافع دائمة غير منقطعة ، نعوذ منه

بالله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 113 ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الذين تَابُواْ مِن بَعْدِ ذلك ﴾

قال الفخر :

والمعنى إلا الذين تابوا منه ، ثم بيّن أن التوبة وحدها لا تكفي حتى ينضاف إليها العمل الصالح فقال : ﴿ وَأَصْلَحُواْ ﴾ أي أصلحوا باطنهم مع الحق بالمراقبات وظاهرهم مع الخلق بالعبادات ، وذلك بأن يلعنوا بأنا كنا على الباطل حتى أنه لو اغتر بطريقتهم الفاسدة مغتر رجع عنها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 113 ﴾

وقال ابن عطية :

والإصلاح عام في القول والعمل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 469 ﴾

(187/123)

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

قال الفخر :

فيه وجهان

الأول : غفور لقبائحهم في الدنيا بالستر ، رحيم في الآخرة بالعفو

الثاني : غفور بإزالة العقاب ، رحيم بإعطاء الثواب ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال : 38] ودخلت الفاء في قوله ﴿ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لأنه الجزاء ، وتقدير الكلام : إن تابوا فإن الله يغفر لهم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 114.113 ﴾

وقال ابن كثير :

﴿ إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته وعائدته على خلقه : أنه من تاب إليه تاب عليه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 71 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ إِلاَّ الذين تَابُواْ مِن بَعْدِ ذلك ﴾ أي الكفر الذي ارتكبوه بعد الإيمان ﴿ وَأَصْلَحُواْ ﴾ أي دخلوا في الصلاح بناءاً على أن الفعل لازم من قبيل أصبحوا أي دخلوا في الصباح ، ويجوز أن يكون متعدياً والمفعول محذوف أي أصلحوا ما أفسدوا ففيه إشارة كما قيل إلى أن مجرد الندم على ما مضى من الارتداد ، والعزم على تركه في الاستقبال غير كاف لما أخلوا به من الحقوق ، واعترض بأن مجرد التوبة يوجب تخفيف العذاب ونظر الحق إليهم ، فالظاهر أنه ليس تقييداً بل بيان لأن يصلح ما فسد . وأجيب بأنه ليس بوارد لأن مجرد الندم والعزم على ترك الكفر في المستقبل لا يخرجه منه فهو بيان للتوبة المعتد بها ، فالمآل واحد عند

التحقيق . ﴿ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي فيغفر كفرهم ويثيبهم ، وقيل : ﴿ غَفُورٌ ﴾ لهم في الدنيا بالستر على قبائحهم ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بهم في الآخرة بالعفو عنهم ولا يخفى بعده والجملة تعليل لما دل عليه الاستثناء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 218 ﴾

(188/123)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيات الكريمة

قوله جلّ ذكره : ﴿ كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ ﴾ الآية .

مَنْ أبعده عن استحقاق الوصلة في سابق حكمه فمتى يقربه من بساط الخدمة بفعله في وقته ؟

ويقال : الذي أقصاه حكم (الأول) متى أدناه صدق العمل ؟ والله غالبٌ على أمره .

أولئك قصارى حالهم ما سبق لهم من حكمه في ابتداء أمرهم ، ابتداؤهم ردُّ القسمة ، ووسائطهم الصدُّ عن الخدمة ، ونهايتهم المصير إلى الطرد والمذلة .

خالدين في تلك المذلة لا يفتر عنهم العذاب لحظة ، ولا يخفف دونهم الفراق ساعة .

أولئك هم الذين تداركتهم الرحمة ، ولم يكونوا في شق السبق من تلك الجملة ، وإن كانوا في توهم الخلق من تلك الزمرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 1 صـ 257 ﴾

(189/123)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

إننا نرى هنا الأسلوب البديع ؛ إن الحق سبحانه يدعونا أن نتعجب من قوم كفروا بعد الإيمان ، إنهم لو لم يعلنوا الإيمان من قبل لقلنا : إنهم لم يذوقوا حلاوة الإيمان ، لكن الذي آمن وذاق حلاوة الإيمان كيف يقبل على نفسه أن يذهب إلى الكفر ؟ إنه التمرد المركب .

وقد يتساءل إنسان قائلا : مادام الله لم يهدهم ، فما ذنبهم ؟ نقول له : يجب أن تتذكر ما نكرره دائما ، لتتضح القضية في الذهن لأنها قضية شائعة وخاصة عند غير الملتزمين ، الذين يقول الواحد منهم : إن الله لم يرد هدايتي ، فماذا أفعل أنا ؟ إن ذلك استدلال لتبرير الانحراف ومثل هذا القول لا يصدر إلا من المسرف على نفسه ، ولا يأتي هذا القول أبدا من

طائع لله ، إن الذي يقول : " إن المعصية إنما أرادها الله مني ، فما ذنبي ؟ " يجب أن يعرف أن الطاعة من الله ، فلماذا لم يقل : " إن الطاعة من الله فلماذا يثيبنا عليها ؟ لماذا تغفل أيها العاصي عن ذكر ثواب الطاعة ، وتقف عند المعصية وتقول : " إن الله قد كتب على المعصية فلماذا يعذبني ؟ " كان يجب أن نقول أيضا : " ما دام قد كتب علي الطاعة فلماذا يعطيني عليها ثوابا ؟ " .

(190/123)

إننا نقول لمن يبرر لنفسه الانحراف : إنك تريد أن تأخذ من الطاعة ثوابها ، وتريد أن تهرب من عقاب المعصية . وأنت تحتاج إلى أن تفهم الأمر على حقيقته ، لقد قلت من قبل : إن " الهداية " تأتي بمعنيين " هَدَى " أي دل على الطريق الموصلة للغاية المرجوة ولم يصنع شيئا أكثر من ذلك والمثال هو إشارات المرور الصماء ؛ إن كل إشارة توضح طريقا معينا وتهدي إليه ، وإشارة أخرى توضح طريقا آخر وتهدي إليه . ولا يوجد أحد عند هذه الإشارة يأخذ بيد إنسان ويقول له : أنا سآخذ بيدك وأصلح العربة عندما تقف منك ، أو أركب معك لأوصلك إلى غايتك .

إن هذه الإشارة هي هداية فقط ، إي أنها دلالة على الطريق الموصلة إلى الغاية المرجوة

والله سبحانه وتعالى قد هدى الناس جميعا المؤمن منهم والكافر أيضا ، أي دلّهم سبحانه على الطريق الموصل للغاية . وانقسم الناس بعد ذلك إلى قسمين : قسم قبِل هذا المنهج وارتضاه وسار كما يريد الله ، وساعة أن راح هذا المؤمن إلى جناب الله وآمن به ، فكأن الحق يقول له : إنك آمنت بي وبمنهجي ، لذلك ستكون لك جائزة أخرى ، وهي أن أعينك وأخفف عليك الأمور ، وهذه هي الهداية الثانية التي يعطيها الله جائزة لمن آمن به وارتضى منهجه وتعني " المعونة " ، إن الله يعطي عبده المؤمن حلاوة الطاعة ، ويجعله مقبلا عليها بنشاط .

إذن فالهداية تكون مرة " دلالة " وتكون مرة ثانية " معونة " إنني أكرر هذا القول حتى يتضح الأمر في أذهاننا جميعا ، ولنذكره دائما ، ونقول : مَن يعين الإنسان ؟ إن الذي يعينه هو من آمن به ، أما من كفر بالله ، فلا يعينه الله .

وسبق أن قلت مثلا – وما زلت أضربه – : إن إنسانا ما يسير في طريق ثم التبس عليه الطريق الموصل للغاية كالمسافر إلى الإسكندرية مثلا ، وبعد ذلك وجد شرطيا واقفا فسأله : أين الطريق إلى الإسكندرية ؟

فيشير الشرطي إلى الطريق الموصل إلى الإسكندرية قائلا للسائل : هذا هو الطريق الصحيح إلى الإسكندرية .

إن الشرطي هنا قد دل هذا الإنسان ، لكن عندما يقول السائل للشرطي : " الحمد لله أنني وجدتك هنا لأنك يسرت لي السبيل " فهذا القول يأسر قلب الشرطي ، فيزيد من إرشاداته للسائل ويوضح له بالتفصيل الدقيق كيف يصل إلى الطريق ، وينبهه إلى أي عقبة قد تعترضه ، وإن زاد السائل في شكره للشرطي ، فإن ذلك يأسر وجدان الشرطي أكثر ، ويتطوع ليركب مع السائل ليوصله إلى الطريق ، شارحا له ما يجب أن يتجنبه من عقبات ، وبذلك يكون الشرطي قد قدم كل المعونة لمن شكره .

لكن لنفترض أن رجلا آخر سأل الشرطي عن الطريق ، فكذب الرجل الشرطي ، وفي مثل هذا الموقف يتجاهل الشرطي مثل هذا الرجل ، وقد ضربت هذا المثل للتقريب لا للتشبيه . إن الحق يدل أولا بهداية الدلالة ، وقد هدى الله الناس جميعا ، أي دلهم على المنهج ، فمن ذهب إلى رحابه وآمن به ، أعطاه الله هداية ثانية ، وهي هداية المعونة والتيسير .

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾

[محمد : 17] .

إن الحق يعطيهم حلاوة الهداية وهي التقوى ، كأن الحق يقول للعبد المؤمن : ما دمت قد أقبلت عليِّ بالإيمان فلك حلاوة الإيمان ، أما الذي يكفر ، والذي يظلم نفسه بالشرك ،

فالحق يمنع عنه هداية المعونة؛ لأنه قد رأى هداية الدلالة ولم يؤمن بها . إذن فالاستفهام في قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾ هو تساؤل يراد به الإنكار والاستبعاد لا عن الهداية الأولى وهي هداية الدلالة، ولكنه عن هداية المعونة، أي: كيف أعين من كفر بي ؟

والمقصود بهذا القول هو بعض من أهل الكتاب الذي جاءهم نعت الرسول صلى الله عليه وسلم في كتبهم حتى إن عبد الله بن سلام وهو منهم، يقول: لقد عرفت محمداً حين رأيته كمعرفتي لابني، ومعرفتي لمحمد أشد ، ومصداق ذلك ما يقوله الحق سبحانه وتعالى :

(192/123)

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

[الأعراف : 157] .

والتعبير القرآني الدقيق لم يقل: يجدون وصفة مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل إنما يقول

الحق :

﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ ﴾

[الأعراف : 157] .

كأن الذي يقرأ التوراة والإنجيل يمكنه أن يرى صورة النبي عليه الصلاة والسلام من دقة الوصف ، لقد عرفته التوراة وعرفه الإنجيل معرفة مفصلة وشاملة ، مع نطق وقول يؤكد ذلك وهناك فرق بين أن " تعرف " وبين أن " تقول " ؛ فقد يعرف الإنسان ويكتم ما عرف ، ولكنهم عرفوا الرسول صلى الله عليه وسلم واعترفوا بذلك ، فقد كانوا من قبل يستفتحون به على الذين كفروا ، قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

[البقرة : 89] .

لقد أخذوا الرسول صلى الله عليه وسلم قبل مجيئه نصرة على الكافرين ، فقالوا : سيأتي نبي ونتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم . فماذا فعلوا ؟ إن الحق يجيب :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

[البقرة : 89] .

إذن هم آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم من قبل مجيئه ، فلما جاء كفروا به . انظر إلى العدالة من الحق سبحانه وتعالى ، حين يريد أن يدلهم على موقف الصدق والحق والكرامة الإيمانية .

﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾

[الرعد : 43] .

إن الذين عندهم علم الكتاب هم اليهود والنصارى ، هؤلاء يشهدون أن محمدا رسول الله ، وإن القرآن بعدالته ينصف التوراة والإنجيل وهي الكتب التي بين أيديهم ، ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ ﴾ لقد آمنوا به رسولا من منطوق كتبهم ، ثم أعلنوها حينما قالوا : " يأتي نبي نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم " .

فإذا كانوا قد صنعوا ذلك ، فكيف يهديهم الله ؟ إنهم ليس لديهم الاستعداد للهداية ، ولم يقبلوا على الله بشيء من الحب ، لذلك فهو سبحانه لا يعينهم على الهداية ولو أقبلوا على الله لأعانهم قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾

[محمد : 17] .

وهؤلاء لم يهتدوا ، فلذلك تركهم الله بدون هداية المعونة ، وهذا يوضح لنا معنى القول الحق

:

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾

[النساء : 88] .

(194/123)

إن الذين لم يهتدوا بهداية الدلالة فلم يؤمنوا يضلهم الله أي يتركهم في غيهم وكفرهم ، أي أنه ما دام هناك من لم يؤمن بالله فهل يمسك الله بيده ليهديه هداية المعونة ؟ لا ؛ لأنه إذا لم يؤمن بالأصل وهو هداية الدلالة ، فكيف يمنحه الله هداية المعونة ؟ وما دام لم يؤمن بالله أكان يصدق التيسيرات التي يمنحها الله له ؟ لا . إنه لا يصدقها ، ويجب أن تعلم أن هداية الدلالة هداية عامة لكل مخاطب خطابا تكليفيا ، وهو الإنسان على إطلاقه ، أما هداية المعونة فهي لمن أقبل مؤمنا بالله وكأن الحق يقول له : " أنت آمنت بدلالتي فخذ معونتي " أو " أنت أهل لمعونتي " أو " ستجد التيسير في كل الأمور " ، أما الذي كفر فلا يهديه الله .

إن الحق سبحانه لا يعين الكافر ؛ لأن المعونة تقتضي ابتداء فعلاً من المُعان ، والكافر لم يفعل ما يمكن أن ينال به هذه المعونة ، فهو لم يؤمن ، لذلك يكون القول الفصل : ﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ ويكون القول الحق ﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ويكون القول الحق

﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ . إن هؤلاء هم الظالمون الذين ارتكبوا الظلم الأصيل وهو الشرك بالله كما قال الحق :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لاِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] .

والحق عندما يتركهم فإنه يزيدهم ضلالا ، ويختم على قلوبهم ، فلا يعرفون طريقا إلى الإيمان :

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران : 86] .

(195/123)

لقد جاءهم الرسول بالآيات الدالة على صدق رسالته ، ولكنهم ظلموا أنفسهم الظلم الكبير العظيم ، وهو الشرك بالله ، ولكن هل هذه الآية قد نزلت في أهل الكتاب الذين كان عندهم نعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإشارات وبشارات به ؟ أو نزلت من أجل شيء آخر هو أن أناسا آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ثم كفروا به ؟

إن القول الحق يتناول الفئتين ، وينطبق عليهم ، سواء أكانوا من أهل الكتاب الذين آمنوا

بالرسل من قبل ولم يؤمنوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، أم من الذين آمنوا برسالة رسول الله ثم كفروا به ، كما حدث من بعضهم في عهد الرسول ، مثال ذلك طعمة بن أبيرق ، وابن الأسلت والحارث بن سويد ، هؤلاء أعلنوا الإيمان واتجهوا إلى مكة ومكثوا فيها ، تاب منهم واحد وأخذ له أخوه ضمانا عند رسول الله ، والباقون لم يتوبوا .

إن القول الحق يتناول الفئتين ، وينطبق عليهم جميعا قوله تعالى :

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران : 86]

ويفصل لنا الحق سبحانه جزاء هؤلاء بقوله الحكيم : ﴿ أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

واللعنة هي الطرد من الرحمة ، والله يعلم كل ملعون منهم ، وما داموا قد طُرِدوا من رحمة الله فالملائكة وهم المؤمنون بالله إيمان المشهد يرددون اللعنة ، والمؤمنون من خلق الله يرددون اللعنة ، وكذلك يلعنهم جميع الناس ، وكيف يلعنهم كل الناس سواء أكانوا مؤمنين أم كفارا ؟ كيف يلعنهم الكافرون ؟ إن الكافر عندما يرى إنسانا يرتكب معصية ما فإنه ينزله من نظره ويحتقره وإن لم يكن مؤمنا .

وهَب أن كافرا وجد إنسانا يخرج على المنهج ويفعل معصية ويرتكب جُرماً ألا يلعن الكافر مثل ذلك الإنسان ؟ إنه يلعنه لأن الفطرة المركوزة التي فطر الله الناس عليها ترفض ذلك ولا ترتضيه .

وهكذا شاء الحق أن يجعلهم ككفار يتلاعنون فيما بينهم ، ونجد أن جميع الناس يلعنونهم كذلك ؛ لأنهم قد خرجوا عن منهج الله بالكفر بعد الإيمان ، وجرهم ذلك إلى اقتراف الآثام ، وهكذا تصبح الملاعنة من الجميع ، وهم مع ذلك خالدون في اللعنة قال تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

ومعنى ﴿ لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أي أن العذاب يظل دائما أبدا وقد يظن بعض الناس أن الكافر ما دام سيدخل النار ويحترق فسوف ينتهي أمره . لا إنه يغفل قضية ويذكر قضية ، إنه يتناسى قول الحق :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾

[النساء : 56] .

إنهم سيذوقون العذاب بأمر من الحق دائما وأبدا ، وقد يقول بعضهم : إن العلم قد توصل إلى أن الإنسان تقل حساسيته للألم الناتج من الضرب بالسوط بعد العشرين سوطا الأولى ،

وهو بذلك ينسى أن العذاب في الآخرة على نمط آخر ، إن الله يخلق للمعذب إحساسا جديدا ليظل مستشعرا دائما العذاب ، قال الحق : ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي أن عذابهم مؤكد ولا يتركهم الحق ليستريحوا من عذابهم . وبعد ذلك يقول تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

والحق سبحانه وتعالى هو الخالق للخلق كلهم ، يحب أن يكونوا على ما يود ويحب ؛ لأنهم صنعة الله فهو سبحانه وتعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين

(197/123)

وقد أمر عباده أن يتوبوا إليه توبة نصوحاً أي توبة صادقة خالصة لا رجوع فيها هذه التوبة تتسم بالاقلاع عن الذنب والندم على ما فات والعزم على عدم العودة للذنب مرة أخرى ورد المظالم لأصحابها إن كانت هناك مظالم .

وقد قال صلى الله عليه وسلم " إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها " .

وهكذا أوجد الحق تشريع التوبة بهدف إصلاح الكون ؛ لأن الله لو لم يشرع التوبة لمن أذنب فإن من غفل عن منهج الله ولو مرة واحدة قد يصير في نظر نفسه ضائعا فاسداً مرتكبا لكل

الحماقات ، فكأن الله بتشريع التوبة قد ضمن لصاحب الإسراف على نفسه في ذنب أن يعود إلى الله ، كما يرحم المجتمع من شرور إنسان فاسد ، إذن فتشريع التوبة إنما جاء لصالح الكون ، ولصالح الإنسان لينعم بمحبة الله ، لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران : 89] .

فبرغم كفرهم السابق إلا أن الله برحمته لا يدخلهم في الوعيد ؛ لأنهم مطالبون بالتوبة والإصلاح ، ومعنى كلمة " أصلح " أنه زاد شيئا صالحا على صلاحه . والكون ليس فيه شيء فاسد . اللهم إلا ما ينشأ عن فعل اختياري من الإنسان وعلى التائب أن يزيد الصلاح في الكون ، وهكذا نضمن ألا يجيء التائب إلى الشيء فيفسده ؛ لأن من يريد أن يزيد الصالح صلاحا ، لن يفسد الشيء الصالح .

وربما كان هؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم في لحظة من لحظات غفلة وعيهم الإيماني ساعة يذكرون الذنب أو الجريرة التي اقترفوها بالنسبة لدينهم ، يحاولون أن يجدّوا ويسارعوا في أمر صالح حتى يَجْبُرَ الله كسر معصيتهم السابقة بطاعتهم اللاحقة .

(198/123)

ولذلك تجد كثيرا من الناس الذين يتحمسون للإصلاح وللخير ، هم أناس قد تكون فيهم زاوية من زوايا الإسراف على نفوسهم في شيء ، وبعد ذلك يتجهون لعمل الخيرات في مجالات كثيرة جدا ، كأن الله يقول لكل منهم : أنت اختلست من محارمي شيئًا وأنا سآخذك إلى حلائلي ، إنه الحق يجعل من معصية الفرد السابقة سياطا دائمة تلهب ضميره فيتجه إلى الخير ، فيتصدق على الفقراء ، وربما كان أهل الطاعة الرتيبة ليس في حياتهم مثل هذه السياط .

ولكن الذين أسرفوا على أنفسهم هم الذين تلهبهم تلك السياط ، فساعة يرى الواحد منكم إنسانا قد أسرف على نفسه فليدع الله له بالهداية ، واعلم تمام العلم أن الله سيُسَخِّر منه ما يفعل به الخير ؛ لأن أحدا لن يسرق الكون من خالقه أبدا . وهذا ينطبق على من قال عنهم الله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ ﴾ (وأصلحوا) أي عملوا صلاحات كثيرة لأن حرارة إسرافهم على نفوسهم تلهب ظهورهم دائما ، فهم يريدون أن يصنعوا دائما أشياء لاحقة تستر انحرافاتهم السابقة وتذهبها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1606.1597 ﴾

"فصل"

قال السيوطى :

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (86) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (87) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (88) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (89)

أخرج النسائي وابن حبان وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : كان رجل من الأنصار فأسلم ثم ارتد ولحق بالمشركين ، ثم ندم فأرسل إلى قومه : أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هل لي من توبة ؟ فنزلت ﴿ كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم ﴾ إلى قوله ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ فأرسل إليه قومه فأسلم .

وأخرج عبد الرزاق ومسدد في مسنده وابن جرير وابن المنذر والباوردي في معرفة الصحابة قال : جاء الحارث بن سويد فأسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم كفر فرجع إلى قومه ، فأنزل الله فيه القرآن ﴿ كيف يهدي الله قوماً كفروا ﴾ إلى قوله ﴿ رحيم ﴾ فحملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه فقال الحارث : إنك والله ما علمت لصدوق ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصدق منك ، وأن الله عز وجل لأصدق الثلاثة . فرجع

الحارث فأسلم فحسن إسلامه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن السدي في قوله ﴿ كيف يهدي الله قوماً ﴾ الآية قال : أنزلت في الحارث بن سويد الأنصاري ، كفر بعد إيمانه . فأنزلت فيه هذه الآيات ، ثم نزلت ﴿ إلا الذين تابوا . . . ﴾ الآية . فتاب .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من وجه آخر عن مجاهد في قوله ﴿ كيف يهدي الله قوماً . . . ﴾ الآية . قال : نزلت في رجل من بني عمرو بن عوف كفر بعد إيمانه فجاء الشام .

(200/123)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر من طريق ابن جريج عن مجاهد في الآية قال : هو رجل من بني عمرو بن عوف كفر بعد إيمانه قال : قال ابن جريج ، أخبرني عبد الله بن كثير ، عن مجاهد قال : لحق بأرض الروم فتنصَّر ، ثم كتب إلى قومه : أرسلوا هل لي من توبة ؟ فنزلت ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ فآمن ثم رجع . قال ابن جريج : قال عكرمة : نزلت في أبي عامر الراهب ، والحارث بن سويد بن الصامت ، ووحوح بن الأسلت ، في اثني عشر رجلاً رجعوا عن الإسلام ولحقوا بقريش . ثم كتبوا إلى أهلهم هل لنا من توبة ؟ ! فنزلت ﴿ إلا الذين تابوا من

بعد ذلك . . . ﴾ الآيات .

وأخرج ابن إسحق وابن المنذر عن ابن عباس ، أن الحارث بن سويد قتل المجدر بن زياد ، وقْيس بن زيد أحد بني ضبيعة يوم أحد ، ثم لحق بقريش فكان بمكة ، ثم بعث إلى أخيه الجلاس يطلب التوبة ليرجع إلى قومه . فأنزل الله فيه ﴿ كيف يهدي الله قوماً ﴾ إلى آخر القصة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي صالح مولى أم هانئ ، أن الحرث بن سويد بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لحق بأهل مكة ، وشهد أحداً فقاتل المسلمين ، ثم سقط في يده فرجع إلى مكة ، فكتب إلى أخيه جلاس بن سويد يا أخي إني ندمت على ما كان مني ، فأتوب إلى الله وأرجع إلى الإسلام ؟ فاذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن طمعت لي في توبة فاكتب إليَّ .

فذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فأنزل الله ﴿ كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم ﴾ فقال قوم من أصحابه ممن كان عليه يتمنع ثم يراجع الإسلام . فأنزل الله ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿ كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم ﴾ قال : هم أهل الكتاب عرفوا محمداً ثم كفروا به .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الحسن في الآية قال : هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، رأوا نعت محمد في كتابهم ، وأقرُّوا به ، وشهدوا أنه حق . فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك ، فأنكروه وكفروا بعد اقرارهم حسداً للعرب حين بعث من غيرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 256. 258 ﴾

(202/123)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (90) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما رغب في التوبة رهب من التواني عنها فقال : ﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي بالله وأوامره ، وأسقط الجار لما مضى من قوله ﴿ من بعد إيمانهم ﴾ بذلك .

ولما كان الكفر لفظاعته وقبحه وشناعته جديراً بالنفرة عنه والبعد منه نبه سبحانه وتعالى على ذلك باستبعاد إيقاعه ، فكيف بالتمادي عليه فكيف بالازدياد منه ! وعبر عن ذلك

بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم ازدادوا كفراً ﴾ أي بأن تمادوا على ذلك ولم يبادروا بالتوبة ﴿ لن تقبل توبتهم ﴾ أي إن تابوا ، لأن الله سبحانه وتعالى يطبع على قلوبهم فلا يتوبون توبة نصوحاً يدومون عليها ويصلحون ما فسد ، أو لن توجد منهم توبة حتى يترتب عليها القبول لأنهم زادوا عن أهل القسم الأول بالتمادي ، ولم يأت بالفاء الدالة على أنه مسبب عما قبله إعلاماً بأن ذلك إنما هو لأنهم مطبوع على قلوبهم ، مهيؤون للكفر من أصل الجبلة ، فلا يتوبون أبداً توبة صحيحة ، فالعلة الحقيقية الطبع لا الذنب ، وهذا شامل لمن تاب عن شيء وقع منه كأبي عزة الجمحي ، ولمن لم يتب كحيي بن أخطب ﴿ وأولئك هم ﴾ أي خاصة ﴿ الضالون ﴾ أي الغريقون في الضلال وإليه أشار ﴿ ولو أسمعهم لتولوا ﴾ [الأنفال : 23] لوقوعهم في أبعد شعابة وأضيق نقابه ، فأنى لهم بالرجوع منه والتقصي عنه ! .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 122 . 123 ﴾

فصل فى سبب نزول الآية

قال القرطبى :

قال قتادة وعطاء الخراسانيّ والحسن : نزلت في اليهود كفروا بعيسى والإنجيل ، ثم ازدادوا كفراً بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن .

وقال أبو العالية : نزلت في اليهود والنصارى كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم بنعته وصفته ، ﴿ ثُمَّ ازدادوا كُفْراً ﴾ بإقامتهم على كفرهم .

وقيل : ﴿ ازدادوا كُفْراً ﴾ بالذنوب التي اكتسبوها .

وهذا اختيار الطبري ، وهي عنده في اليهود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 130 ﴾

قال الطبرى :

وأولى هذه الأقوال بالصواب في تأويل هذه الآية ، قولُ من قال : "عنى بها اليهودَ" وأن يكون تأويله : إن الذين كفروا من اليهود بمحمد صلى الله عليه وسلم عند مَبعثه ، بعد إيمانهم به قبل مبعثه ، ثم ازدادوا كفرًا بما أصَابوا من الذنوب في كفرهم ومُقامهم على ضلالتهم ، لن تقبل توبتهم من ذنوبهم التي أصابوها في كفرهم ، حتى يتوبوا من كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويراجعوا التوبة منه بتصديقه بما جاء به من عند الله .

وإنما قلنا : "ذلك أولى الأقوال في هذه الآية بالصواب" ، لأن الآيات قبلها وبعدها فيهم نزلت ، فأولى أن تكون هي في معنى ما قبلها وبعدها ، إذ كانت في سياق واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 581.582 ﴾

وقال ابن عطية :

اختلف المتأولون في كيف يترتب كفر بعد إيمان ، ثم زيادة كفر ، فقال الحسن وقتادة وغيرهما : الآية في اليهود كفروا بعيسى بعد الإيمان بموسى ثم ﴿ ازدادوا كفراً ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم .

قال الإمام أبو محمد : وفي هذا القول اضطراب ، لأن الذي كفر بعيسى بعد الإيمان بموسى ليس بالذي كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فالآية على هذا التأويل تخلط الأسلاف بالمخاطبين ، وقال أبو العالية رفيع : الآية في اليهود ، كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم بصفاته وإقرارهم أنها في التوراة . ثم ازدادوا كفراً بالذنوب التي أصابوها في خلاف النبي صلى الله عليه وسلم ، من الافتراء والبهت والسعي على الإسلام وغير ذلك .

(204/123)

قال الإمام أبو محمد : وعلى هذا الترتيب يدخل في الآية المرتدون اللاحقون بقريش وغيرهم ، وقال مجاهد : معنى قوله ﴿ ثم ازدادوا كفراً ﴾ أي تموا على كفرهم وبلغوا الموت به ، فيدخل في هذا القول اليهود والمرتدون ، وقال السدي نحوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 469 . 470 ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا فيما به يزداد الكفر ، والضابط أن المرتد يكون فاعلاً للزيادة بأن يقيم ويصر فيكون الإصرار كالزيادة ، وقد يكون فاعلاً للزيادة بأن يضم إلى ذلك الكفر كفراً آخر ، وعلى هذا التقدير الثاني ذكروا فيه وجوهاً

الأول : أن أهل الكتاب كانوا مؤمنين بمحمد عليه الصلاة والسلام قبل مبعثه ، ثم كفروا به عند المبعث ، ثم ازدادوا كفراً بسبب طعنهم فيه في كل وقت ، ونقضهم ميثاقه ، وفتنتهم للمؤمنين ، وإنكارهم لكل معجزة تظهر

الثاني : أن اليهود كانوا مؤمنين بموسى عليه السلام ، ثم كفروا بسبب إنكارهم عيسى والإنجيل ، ثم ازدادوا كفراً ، بسبب إنكارهم محمداً عليه الصلاة والسلام والقرآن

والثالث : أن الآية نزلت في الذين ارتدوا وذهبوا إلى مكة ، وازديادهم الكفر أنهم قالوا : نقيم بمكة نتربص بمحمد صلى الله عليه وسلم ريب المنون

الرابع : المراد فرقة ارتدوا ، ثم عزموا على الرجوع إلى الإسلام على سبيل النفاق ، فسمى الله تعالى ذلك النفاق كفراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 114 ﴾

فصل

قال الفخر :

إنه تعالى حكم في الآية الأولى بقبول توبة المرتدين ، وحكم في هذه الآية بعدم قبولها وهو يوهم التناقض ، وأيضاً ثبت بالدليل أنه متى وجدت التوبة بشروطها فإنها تكون مقبولة لا محالة ، فلهذا اختلف المفسرون في تفسير قوله تعالى : ﴿ لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ على وجوه ؛

(205/123)

الأول : قال الحسن وقتادة وعطاء : السبب أنهم لا يتوبون إلا عند حضور الموت والله تعالى يقول : ﴿ وَلَيْسَتِ التوبة لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السيئات حتى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ إِنّى تُبْتُ الآن ﴾ [النساء : 18]

الثاني : أن يحمل هذا على ما إذا تابوا باللسان ولم يحصل في قلوبهم إخلاص

الثالث : قال القاضي والقفال وابن الأنباري : أنه تعالى لما قدم ذكر من كفر بعد الإيمان ، وبيّن أنه أهل اللعنة ، إلا أن يتوب ذكر في هذه الآية أنه لو كفر مرة أخرى بعد تلك التوبة فإن التوبة الأولى تصير غير مقبولة وتصير كأنها لم تكن ، قال وهذا الوجه أليق بالآية من سائر الوجوه لأن التقدير : إلا الذين تابوا وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ، فإن كانوا كذلك ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم ،

الرابع : قال صاحب "الكشاف" : قوله ﴿ لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ جعل كناية عن الموت على

الكفر ، لأن الذي لا تقبل توبته من الكفار هو الذي يموت على الكفر ، كأنه قيل إن اليهود والمرتدين الذين فعلوا ما فعلوا مائتون على الكفر داخلون في جملة من لا تقبل توبتهم الخامس : لعلّ المراد ما إذا تابوا عن تلك الزيادة فقط فإن التوبة عن تلك الزيادة لا تصير مقبولة ما لم تحصل التوبة عن الأصل ، وأقول : جملة هذه الجوابات إنما تتمشى على ما إذا حملنا قوله ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ بَعْدَ إيمانهم ثُمَّ ازدادوا كُفْرًا ﴾ على المعهود السابق لا على الاستغراق وإلا فكم من مرتد تاب عن ارتداده توبة صحيحة مقرونة بالإخلاص في زمان التكليف ، فأما الجواب الذي حكيناه عن القفال والقاضي فهو جواب مطرد سواء حملنا اللفظ على المعهود السابق أو على الاستغراق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 114 . 115 ﴾

(206/123)

فائدة

قال الزمخشرى :

فإن قلت : فحين كان المعنى ﴿ لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ بمعنى الموت على الكفر ، فهلا جعل الموت على الكفر مسبباً عن ارتدادهم وازديادهم الكفر لما في ذلك من قساوة القلوب

وركوب الرين وجرّه إلى الموت على الكفر ؟

قلت : لأنه كم من مرتد مزداد للكفر يرجع إلى الإسلام ولا يموت على الكفر .

فإن قلت : فأي فائدة في هذه الكناية ، أعني أن كنى عن الموت على الكفر بامتناع ، قبول التوبة ؟

قلت : الفائدة فيها جليلة ، وهي التغليظ في شأن أولئك الفريق من الكفار ، وإبراز حالهم في صورة حالة الآيسين من الرحمة التي هي أغلظ الأحوال وأشدّها ، ألا ترى أنّ الموت على الكفر إنما يخاف من أجل اليأس من الرحمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 1 صـ 383.382﴾

فصل

قال ابن عادل :

قوله : "كفراً" تمييز منقول من الفاعلية ، والأصل : ثم ازداد كفرُهم ، والدال الأولى بدل من تاء الافتعال ؛ لوقوعها بعد الزاي ، كذا أعربه أبو حيان ، وفيه نظر ؛ إذ المعنى على أنه مفعول به ، وهي أن الفعل المتعدي لاثنين إذا جُعِل مطاوعاً نقص مفعولاً ، وهذا من ذاك ؛ لأن الأصل : زدت زيداً خيراً فازداده ، وكذلك أصل الآيةِ الكريمةِ : زادهم الله كُفْراً فازدادوه ، فلم يؤت هنا بالفاء داخلةً على "لَنْ" وأتي بها في "لَنْ" الثانية ، لأن الفاءَ مُؤذِنَةً بالاستحقاق بالوصف السابق – لأنه قد صرَّحَ بقَيْد مَوْتِهِم على الكُفْر ، بخلاف "لَنِ"

الأولى ، فإنه لم يُصرّحْ معها به فلذلك لم يُؤتَ بالفاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 378.379 ﴾

فصل

قال القرطبى :

﴿ لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ مشكل لقوله : ﴿ وَهُوَ الذي يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُواْ عَنِ السيئات ﴾ [الشورى : 25] فقيل : المعنى لن تقبل توبتهم عند الموت .

(207/123)

قال النحاس : وهذا قول حسن ؛ كما قال عز وجل : ﴿ وَلَيْسَتِ التوبة لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السيئات حتى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآن ﴾ [النساء : 18] .

ورُوي عن الحسن وقتادة وعطاء .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : "إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغرْغر" وسيأتي في "النساء" بيان هذا المعنى .

وقيل : ﴿ لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُم ﴾ التي كانوا عليها قبل أن يكفروا ؛ لأن الكفر قد أحبطها .

وقيل : ﴿ لن تقبل توبتهم ﴾ إذا تابوا من كفرهم إلى كفر آخر ؛ وإنما تقبل توبتهم إذا تابوا إلى

الإسلام .

وقال قطرب .

هذه الآية نزلت في قوم من أهل مكة قالوا : نتربص بمحمد ريب المنون ، فإن بدا لنا الرّجعة رجعنا إلى قومنا .

فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازدادوا كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ أي لن تقبل توبتهم وهم مقيمون على الكفر ؛ فسماها توبة غير مقبولة ؛ لأنه لم يصح من القوم عزم ، والله عز وجل يقبل التوبة كلها إذا صحّ العزم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 130 . 131 ﴾

وقال ابن عطية :

وتحتمل الآية عندي أن تكون إشارة إلى قوم بأعيانهم من المرتدين ختم الله عليهم بالكفر ، وجعل ذلك جزاء لجريمتهم ونكايتهم في الدين ، وهم الذي أشار إليهم بقوله ﴿ كيف يهدي الله قوماً ﴾ [آل عمران : 86] فأخبر عنهم أنهم لا تكون لهم توبة فيتصور قبولها ، فتجيء الآية بمنزلة قول الشاعر :

(على لاحب لا يهتدى بمناره) . . . أي قد جعلهم الله من سخطه في حيز من لا تقبل له توبة إذ ليست لهم، فهم لا محالة يموتون على الكفر، ولذلك بيّن حكم الذين يموتون كفاراً بعقب الآية، فبانت منزلة هؤلاء، فكأنه أخبر عن هؤلاء المعينين، أنهم يموتون كفاراً، ثم أخبر الناس عن حكم من يموت كافراً. انتهى انتهى. اهـ ﴿المحرر الوجيز جـ 1 صـ 470﴾

وقال الآلوسى:

﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ قال الحسن وقتادة والجبائي: لأنهم لا يتوبون إلا عند حضور الموت والمعاينة وعند ذلك لا تقبل توبة الكافر، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لأنها لم تكن عن قلب، وإنما كانت نفاقاً، وقيل: إن هذا من قبيل:

ولا ترى الضب بها ينجحر . . . أي لا توبة لهم حتى تقبل لأنهم لم يوفقوا لها فهو من قبيل الكناية كما قال العلامة دون المجاز حيث أريد بالكلام معناه لينتقل منه إلى الملزوم، وعلى كل تقدير لا ينافي هذا ما دل عليه الاستثناء وتقرر في الشرع كما لا يخفى، وقيل: إن هذه التوبة لم تكن عن الكفر وإنما هي عن ذنوب كانوا يفعلونها معه فتابوا عنها مع إصرارهم على الكفر فردت عليهم لذلك، ويؤيده ما أخرجه ابن جرير عن أبي العالية قال: هؤلاء اليهود والنصارى كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً بذنوب أذنبوها ثم ذهبوا يتوبون من تلك الذنوب في كفرهم فلم تقبل توبتهم ولو كانوا على الهدى قبلت ولكنهم على ضلالة، وتجيء

على هذا مسألة تكليف الكافر بالفروع وقد بسط الكلام عليها في الأصول . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 218 ﴾

وقال ابن عاشور :

وتأويل ﴿ لن تقبل توبتهم ﴾ إما أنه كناية عن أنهم لا يتوبون فتقبَل توبتهم كقوله تعالى : ﴿ ولا يقبل منها شفاعة ﴾ [البقرة : 48] أي لا شفاعة لها فتقبل وهذا كقول امرىء القيس

. .

على لاَحب لا يُهتدَى بمناره

(209/123)

أي لا منار له ، إذ قد علم من الأدلة أنّ التوبة مقبولة ودليله الحصر المقصود به المبالغة في قوله : ﴿ وأولئك هم الضالون ﴾ .

وإمّا أنّ الله نهى نبيه عن الاغترَار بما يظهرونه من الإسلام نفاقاً ، فالمراد بعدم القبول عدم تصديقهم في إيمانهم ، وإما الإخبار بأنّ الكفر قد رسخ في قلوبهم فصار لهم سجية لا يحولون عنها ، فإذا أظهروا التوبة فهم كاذبون ، فيكون عدم القبول بمعنى عدم الاطمئنان لهم ، وأسرارُهم موكولة إلى الله تعالى .

وقد أسلم بعض اليهود قبل نزول الآية : مثل عبد الله بن سلام ، فلا إشكال فيه ، وأسلم بعضهم بعد نزول الآية .

وقيل المراد الذين ارتدّوا من المسلمين وماتوا على الكفر ، فالمراد بالازدياد الاستمرار وعدم الإقلاع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 149 ﴾

وقال الطبرى :

(210/123)

وإنما قلنا : "معنى ازديادهم الكفر : ما أصابوا في كفرهم من المعاصي" ، لأنه جل ثناؤه قال : "لن تقبل توبتهم" ، فكان معلومًا أن معنى قوله : "لن تقبل توبتهم" ، إنما هو معنيٌّ به : لن تقبل توبتهم مما ازدادوا من الكفر على كفرهم بعد إيمانهم ، لا من كفرهم . لأن الله تعالى ذكره وعد أن يقبل التوبة من عباده فقال : (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ) [سورة الشورى : 25] ، فمحالٌ أنْ يقول عز وجل : "أقبل" و"لا أقبل" في شيء واحد . وإذْ كان ذلك كذلك وكان من حُكم الله في عباده أنه قابلٌ توبة كل تائب من كل ذنب ، وكان الكفر بعد الإيمان أحدَ تلك الذنوب التي وعد قَبول التوبة منها بقوله : "إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم" علم أنّ المعنى الذي لا يقبل التوبةَ منه ، غيرُ المعنى الذي

يَقبل التوبة منه. وإذْ كان ذلك كذلك، فالذي لا يَقبل منه التوبة، هو الازدياد على الكفر بعد الكفر، لا يقبل الله توبة صاحبه ما أقام على كفره، لأن الله لا يقبل من مشرك عملا ما أقام على شركه وضلاله. فأما إن تاب من شركه وكفره وأصلح، فإنّ الله - كما وصف به نفسه - غفورٌ رحيمٌ.

فإن قال قائل: وما تُنكر أن يكون معنى ذلك كما قال من قال: "فلن تقبل توبته من كفره عند حضور أجله وتوبته الأولى"؟

(211/123)

قيل: أنكرنا ذلك، لأن التوبة من العبد غير كائنة إلا في حال حياته، فأما بعد مماته فلا توبة، وقد وعد الله عز وجل عبادَه قَبول التوبة منهم ما دامت أرواحُهم في أجسادهم. ولا خلاف بين جميع الحجة في أنّ كافرًا لو أسلم قبل خُرُوج نفسه بطرْفة عين، أنّ حكمه حكم المسلمين في الصلاة عليه، والموارثة، وسائر الأحكام غيرهما. فكان معلومًا بذلك أنّ توبته في تلك الحال لو كانت غير مقبولة، لم ينتقل حكمه من حكم الكفار إلى حكم أهل الإسلام، ولا منزلةَ بين الموت والحياة، يجوز أن يقال: "لا يقبل الله فيها توبةَ الكافر". فإذْ صحّ أنها في حال حياته مقبولة، ولا سبيلَ بعد الممات إليها، بطل قولُ الذي زعم أنها غير

مقبولة عند حُضُور الأجل .

وأما قول من زعم أنّ معنى ذلك : "التوبة التي كانت قبل الكفر" ، فقولٌ لا معنى له . لأن الله عز وجل لم يصف القوم بإيمان كان منهم بعد كفر ، ثم كُفْر بعد إيمان بل إنما وصفهم بكفر بعد إيمان . فلم يتقدم ذلك الإيمانَ كفرٌ كان للإيمان لهم توبة منه ، فيكون تأويل ذلك على ما تأوّله قائل ذلك . وتأويل القرآن على ما كان موجودًا في ظاهر التلاوة إذا لم تكن حجة تدل على باطن خاص – أولى من غيره ، وإن أمكن توجيهه إلى غيره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 6 صـ 582.583 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضالون ﴾

سؤالان

الأول : ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضالون ﴾ ينفي كون غيرهم ضالاً ، وليس الأمر كذلك فإن كل كافر فهو ضال سواء كفر بعد الإيمان أو كان كافراً في الأصل والجواب : هذا محمول على أنهم هم الضالون على سبيل الكمال .

(212/123)

السؤال الثاني : وصفهم أولاً بالتمادي على الكفر والغلو فيه والكفر أقبح أنواع الضلال والوصف إنما يراد للمبالغة ، والمبالغة إنما تحصل بوصف الشيء بما هو أقوى حالاً منه لا بما هو أضعف حالاً منه والجواب : قد ذكرنا أن المراد أنهم هم الضالون على سبيل الكمال ، وعلى هذا التقدير تحصل المبالغة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 115 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

قوله : " وأولئك هم الضالون " في هذه الجملة ثلاثة أوجه :

أحدها : أن تكون في محل رفع ؛ عَطْفاً على خبر " إنَّ " ، أي : إن الذين كفروا لن تُقْبَلَ توبتُهم ، وإنهم أولئك هم الضَّالُّون .

الثاني : أن تُجعل معطوفةً على الجملة المؤكَّدة بـ " إنَّ " ، وحينئذ فلا محل لها من الإعراب ، لعَطْفِها على ما لا محل له .

الثالث : هو إعرابها بأن تكون الواو للحال ، فالجملة بعدها في محل نصب على الحال ، والمعنى : لن تقبل توبتهم من الذنوب ، والحال أنهم ضالُّون ، فالتوبة والضلال متنافيان ، لا يجتمعان ، قاله الراغب .

وهو بعيد في التركيب ، وإن كان قريب المعنى .

قال أبو حيان : " وينبو عن هذا المعنى هذا التركيب إذْ لو أريد هذا المعنى لم يُؤتَ باسم الإشارة " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 380 . 381 ﴾

(213/123)

فصل

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴾ هذه الآية الكريمة تدل على أن المرتدين بعد إيمانهم المزدادين كفرا لا يقبل الله توبتهم إذا تابوا ؛ لأنه عبّر بـ (لن) الدالة على نفي الفعل في المستقبل, مع أنه جاءت آيات أخر دالة على أن الله يقبل توبة كل تائب قبل حضور الموت, وقبل طلوع الشمس من مغربها , كقوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ , وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ , وقوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ , فإنه يدل بمفهومه على أن التوبة قبل إتيان بعض الآيات مقبولة من كل تائب, وصرّح تعالى بدخول المرتدين في قبول التوبة قبل هذه الآية مباشرة في قوله تعالى :

﴿ كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حقٌّ . . ﴾ إلى قوله :

﴿ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾ فالاستثناء في قوله : ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ راجع إلى المرتدين بعد الإيمان المستحقين للعذاب واللعنة إن لم يتوبوا , ويدل له قوله تعالى : ﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر ﴾ الآية ؛ لأنّ مفهومه أنه إذا تاب قبل الموت قبلت توبته مطلقا .

والجواب من أربعة أوجه :

(214/123)

الأول : وهو اختيار ابن جرير ونقله عن رفيع بن العالية أن المعنى : إنّ الذين كفروا من اليهود بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم به قبل مبعثه ثم ازداوا كفرا بما أصابوا من الذنوب في كفرهم لن تقبل توبتهم من الذنوب التي أصابوها في كفرهم, ويدل على هذا الوجه قوله تعالى : ﴿ وأولئك هم الضالون ﴾ ؛ لأنه يدل على أن توبتهم مع بقائهم على ارتكاب الضلال وعدم قبولها حينئذ ظاهر .

الثاني : وهو أقربها عندي أن قوله تعالى : ﴿ لن تقبل توبتهم ﴾ يعني إذا تابوا عند حضور الموت, ويدل لهذا الوجه أمران :

الأول : أنّه تعالى بيّن في مواضع أخرى أنّ الكافر الذي لا تقبل توبته هو الذي يصر على

الكفر حتى يحضره الموت في ذلك الوقت كقوله تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إني تبت الآن, ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾, فجعل التائب عند حضور الموت والميت على كفره سواء, وقوله تعالى : ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ الآية, وقوله في فرعون : ﴿ الآن وقد عصَيْتَ قبلُ وكنت من المفسدين ﴾ . فالإطلاق الذي في هذه الآية يقيّد بقيد تأخير التوبة إلى حضور الموت لوجوب حمل المطلق على المقيد كما تقرر في الأصول .

الثاني : أنه تعالى أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ ثم ازدادوا كفرا ﴾ فإنه يدل على عدم توبتهم في وقت نفعها, ونقل ابن جرير هذا الوجه الثاني – الذي هو التقيد بحضور الموت – عن الحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسدي .

الثالث : أن المعنى ﴿ لن تقبل توبتهم ﴾ أي إيمانهم الأول لبطلانه بالردة بعد, وهذا القول خرجه ابن جرير عن ابن جريج, ولا يخفى ضعف هذا القول وبعده عن ظاهر القرآن .

الرابع : أن المراد بقوله : ﴿ لن تقبل توبتهم ﴾ أنهم لم يوفقوا للتوبة النصوح حتى تقبل منهم, ويدل لهذا الوجه قوله تعالى : ﴿ إنّ الذين آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكنِ اللهُ ليغفر

لهم ولا ليهدِيَهُم سبيلا ﴾ , فإنّ قوله تعالى : ﴿ ولا ليهديهم سبيلا ﴾ يدل على ﴿ إنّ الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا إلا طريق جهنم ﴾ , وكقوله : ﴿ إن الذين حقّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ﴾ الآية, ونظير الآية على هذا القول قوله تعالى : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ أي لا شفاعة لهم أصلا حتى تنفعهم, وقوله تعالى : ﴿ ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به ﴾ الآية ؛ لأن الإله الآخر لا يمكن وجوده أصلا حتى يقوم عليه برهان أو لا يوم عليه .

قال مقيده – عفا الله عنه – : مثل هذا الوجه الأخير هو المعروف عند النظار بقولهم : "السالبة لا تقتضي وجود الموضوع" وإيضاحه أن القضية السالبة عندهم صادقة في صورتين ؛ لأن المقصود منها عدم اتصاف الموضوع بالمحمول, وعدم اتصافه به يتحقق في صورتين : ا الأولى : أن يكون الموضوع موجودا إلا أن المحمول منتف عنه, كقولك : "ليس الإنسان بحجر" فالإنسان موجود والحجرية منتفية عنه .

والثانية : أن يكون الموضوع من أصله معدوما ؛ لأنه إذا عدم تحقق عدم اتصافه بالمحمول الوجودي – لأن العدم لا يتصف بالوجود كقولك لا نظير لله يستحق العبادة – فإن الموضوع الذي هو نظير لله مستحيل من أصله, وإذا تحقق عدمه تحقق انتفاء اتصافه باستحقاق العبادة ضرورة . وهذا النوع من أساليب اللغة العربية, ومن شواهده قول امرؤ القيس :

على لاحب لا يهتدي بمناره

إذا سافه العود النباطي جرجرا

لأن المعنى: على لا حب لا منار له أصلا حتى يهتدى به, وقول الآخر:

لا تفزع الأرنب أهوالها

ولا ترى الضب بها ينجحر

(216/123)

لأنه يصف فلاة بأنها ليس فيها أرانب ولا ضباب حتى تفزع أهوالها أو ينجحر فيها الضب أي يدخل الجحر أو يتخذه. وقد أوضحت مسألة (أن السالبة لا تقتضي وجود الموضوع) في أرجوزتي في المنطق, في مبحث (انحراف السور), وأوضحت فيها أيضا في مبحث (التحصيل والعدول) أن من الموجبات ما لا يقتضي وجود الموضوع نحو: (بحر من زئبق) ممكن والمستحيل معدوم؛ فإنها موجبتان, وموضوع كل منهما معدوم. وحررنا هناك التفصيل فيما يقتضي وجود الموضوع وما لا يقتضيه.

وهذا الذي قررنا من أن المرتد إذا تاب قبلت توبته ولو بعد تكرر الردة ثلاث مرات أو أكثر, لا منافاة بينه وبين ما قاله جماعة من العلماء من الأربعة وغيرهم, وهو مروي عن علي وبن عباس رضي الله عنهما من أن المرتد إذا تكرر منه ذلك يقتل ولا تقبل توبته, واستدل

بعضهم على ذلك بهذه الآية ؛ لأن هذا الخلاف في تحقيق المناط لا في نفس المناط، والمتناظران قد يختلفان في تحقيق المناط مع اتفاقهما على أصل المناط، وإيضاحه أن المناط مكان النوط وهو التعليق، ومنه قول حسان رضي الله عنه :

وأنت زنيم نيط في آل هاشم

كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

(217/123)

والمراد به : مكان تعليق الحكم وهو العلة، فالمناط والعلة مترادفان اصطلاحا ، إلا أنه غلب التعبير بلفظ المناط في المسلك الخامس من مسالك العلة الذي هو المناسبة والإخالة ؛ فإنه يسمى تخريج المناط، وكذلك في المسك التاسع الذي هو تنقيح المناط، فتخريج المناط : هو استخراج العلة بمسلك المناسبة والاخالة، وتنقيح المناط : هو تصفية العلة وتهذيبها حتى لا يخرج شيء غير صالح لها ، ولا يدخل شيء غير صالح لها كما هو معلوم في محله، وأما تحقيق المناط – وهو الغرض هنا – فهو : أن يكون مناط الحكم متفق عليه بين الخصمين، إلا أن أحدهما يقول : هو موجود في هذا الفرع، والثاني : يقول : لا ، ومثاله : الاختلاف في قطع النباش ؛ فإن أبا حنيفة رحمه الله تعالى يوافق الجمهور على أن السرقة

مناط القطع, ولكنه يقول: لم يتحقق المناط في النباش؛ لأنه غير سارق, بل هو آخذ مال عارض للضياع كالملتقط من غير حرز.

(218/123)

فإذا حققت ذلك, فاعلم أن مراد القائلين: لا تقبل توبته أن أفعاله دالة على خبث نيته وفساد عقيدته, وأنه ليس تائبا في الباطن توبة نصوح, فهم موافقون على أن التوبة النصوح مناط القبول كما ذكرنا, ولكن يقولون: أفعال هذا الخبيث دلّت على عدم تحقيق المناط فيه, ومن هنا اختلفت العلماء في توبة الزنديق المستتر بالكفر, فمن قائل: لا تقبل توبته, ومن قائل: تقبل, ومن مفرق بين إتيانه تائبا قبل الإطلاع عليه وبين الإطلاع على نفاقه قبل التوبة, كما هو معروف في فروع المذاهب الأربعة؛ لأن الذين يقولون: يقتل ولا تقبل توبته يرون أن نفاقه الباطن دليل على أن توبته تقية لا حقيقة, واستدلوا بقوله تعالى: ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا﴾, فقالوا: الإصلاح شرط والزنديق لا يُطَّلَعُ على إصلاحه؛ لأن الفساد أتى مما أسرَّهُ, فإذا اطلع عليه وأظهر الإقلاع لم يزل في الباطن على ما كان عليه.

والذي يظهر أن أدلة القائلين بقبول توبته مطلقا أظهر وأقوى كقوله صلى الله عليه وسلم لأسامة رضي الله عنه: "هلاّ شققت على قلبه", وقوله للذي ساره في قتل رجل قال:

"أليس يصلي ؟ " قال : "بلى", قال : "أولئك الذين نهيت عن قتلهم", وقوله – لخالد لما استأذنه في قتل الذي أنكر القسمة – : "إني لم أؤمر أن أنقِّبَ عن قلوب الناس", وهذه الأحاديث في الصحيح, ويدل لذلك أيضا : إجماعهم على أن أحكام الدنيا على الظاهر والله يتولى السرائر, وقد نصّ تعالى على أن الأيمان الكاذبة جُنّةٌ للمنافقين في الأحكام الدنيوية بقوله : ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة ﴾ , وقوله : ﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتُعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم فإنهم رجس ﴾ , وقوله : ﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ﴾ الآية, إلى غير ذلك من الآيات .

(219/123)

وما استدل به بعضهم من قتل ابن مسعود لابن النواحة صاحب مسيلمة, فيجاب عنه : بأنه قتله لقول النبي صلى الله عليه وسلم – حين جاءه رسولا لمسيلمة – : "لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتك", فقتله ابن مسعود تحقيقا لقوله صلى الله عليه وسلم, فقد روي أنه قتله لذلك, فإن قيل : إن هذه الآية الدالة على عدم قبول توبتهم أخص من غيرها ؛ لأن فيها القيد بالردة وازدياد الكفر, فالذي تكررت منه الردة أخص من مطلق المرتد, والدليل على الأعم ليس دليلا على الأخص ؛ لأن وجود الأعم لا يلزم وجود الأخص, فالجواب : أن

القرآن دل على توبة من تكرر منه الكفر إذا أخلص في الإنابة إلى الله ، ووجه الدلالة على ذلك قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا ﴾ , ثم بيّن أن المنافقين داخلون فيهم بقوله تعالى : ﴿ بشّرِ المنافقين بأنّ لهم عذابا أليما ﴾ الآية, ودلالة الاقتران وإن ضعفها بعض الأصوليين فقد صححتها جماعة من المحققين, ولا سيما إذا اعتضدت بدلالة القرينة عليها كما هنا ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ لم يكنِ الله ليغفرَ لهم ولا ليهديَهم سبيلا, بشّر المنافقين بأن لهم عذابا أليما ﴾ فيه الدلالة الواضحة على دخولهم في المراد بالآية, بل كونها في خصوصهم قال به جماعة من العلماء .

(220/123)

فإذا حققت ذلك فاعلم أن الله تعالى نصّ على أن من أخلص التوبة من المنافقين تاب الله عليه بقوله : ﴿ إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا, إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرا عظيما, ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم, وكان الله شاكراً عليما ﴾ , وقد كان مخشي بن حمير رضي الله عنه من المنافقين الذين أنزل الله فيهم قوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد

كفرتم بعد إيمانكم ﴾ فتاب إلى الله بإخلاص ، فتاب الله عليه ، وأنزل الله فيه : ﴿ إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة ﴾ الآية ، فتحصّل أن القائلين بعدم قبول توبة من تكررت منه الردة يعنون الأحكام الدنيوية ولا يخالفون في أنه أخلص التوبة إلى الله قبلها منه ؛ لأن اختلافهم في تحقيق المناط كما تقدم ، والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 57.66 ﴾

(221/123)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ ﴾

أي : الذي ضلوا سبيل الحق وأخطأوا منهاجه ، وقد أشكل على كثير قوله تعالى : ﴿ لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ مع أن التوبة عند الجمهور مقبولة كما في الآية قبلها ، وقوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [الشورى : 25] . وغير ذلك ، فأجابوا : بأن المراد عند حضور الموت . قال الواحدي في " الوجيز " : لن تقبل توبتهم لأنهم لا يتوبون إلا عند حضور الموت ، وتلك التوبة لا تقبل انتهى – . أي : كما قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ

يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ﴾ [النساء : 18] ، الآية . وقيل : عدم قبول توبتهم كناية عن عدم توبتهم ، أي : لا يتوبون . كقوله : ﴿ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : 6] . وإنما كنى بذلك تغليظاً في شأنهم وإبرازاً لحالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة ، وقيل : لأن توبتهم لا تكون إلا نفاقاً لارتدادهم وازديادهم كفراً . وبقي للمفسرين وجوه أخرى ، هي في التأويل أبعد مما ذكر . ولا أرى هذه الآية إلا كآية النساء : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ الخ . وكلاهما مما يدل صراحة على أن من تكررت ردته لا تقبل توبته ، وإلى هذا ذهب إسحاق وأحمد كما قدمنا ، وذلك لرسوخه في الكفر . وقد أشار القاشاني إلى أن هذه الآية مع التي قبلها يستفاد منها أن الكفرة قسمان في باب العناد ، وعبارته عند قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً ﴾ أنكر تعالى هدايته لقوم قد هداهم أولاً بالنور الاستعدادي إلى الإيمان ، ثم بالنور الإيماني إلى أن عاينوا حقية الرسول وأيقنوا بحيث لم يبق لهم "كذا " . وانضم إليه الاستدلال العقلي بالبينات ، ثم ظهرت نفسهم بعد

هذه الشواهد كلها بالعناد واللجاج وحجبت أنوار قلوبهم وعقولهم وأرواحهم الشاهدة ثلاثتها بالحق للحق ، لشؤم ظلمهم وقوة استيلاء نفوسهم الأمارة عليهم الذي هو غاية الظلم فقال : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، لغلظ حجابهم وتعمقهم في البعد عن الحق وقبول النور . وهم قسمان :

قسم رسخت هيئة استيلاء النفوس الأمارة على قلوبهم فيهم وتمكنت ، وتناهوا في الغي والاستشراء ، وتمادوا في البعد والعناد ، حتى صار ذلك ملكة لا تزول . وقسم لم يرسخ ذلك فيهم بعد ، ولم يصر على قلوبهم ريناً ، ويبقى من وراء حجاب النفس مسكة من نور استعدادهم ، عسى أن تتداركهم رحمة من الله وتوفيق فيندموا ويستجيبوا بحكم غريزة [في المطبوع : غريز] العقول . فأشار إلى القسم الأول بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾ . . إلى آخره ، وإلى الثاني بقوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ ، بالمواظبة على الأعمال والرياضات ، ما أفسدوا . انتهى . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 4 صـ 396 . 397 ﴾

(223/123)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴾

هذه الآية تحدث عن أولئك الذين كفروا بعد إيمانهم ، وازدادوا كفرا ، هؤلاء لا تقبل توبتهم وهم الضالون ، وقد جاءت مقابلة للآية السابقة ، أناس تابوا وأناس لم يتوبوا . لكن كيف يزداد الكفر ؟ إنه قد كفر في ذاته ، وبعد ذلك كان عائقا لغيره عن أن يؤمن ، وهو لا يكتفي بخيبته ، بل يحاول أن ينشر خيبته على الآخرين ، وفي ذلك ازدياد في الكفر والعياذ بالله ، وهذا القول قد نزل في بعض من اليهود الذين آمنوا بالبشارات التي تنبأت بمقدم عيسى عليه السلام ، فلما جاء عيسى كفروا به ، ولما جاء محمد ازدادوا كفرا .

لقد كفروا بعيسى أولا ، ثم ازدادوا كفرا بمحمد وادعوا انهم أبناء الله وأحباؤه ، وهؤلاء ليسوا من الذين تابوا . أو أنهم أعلنوا التوبة باللسان ، ولم يتوبوا التوبة النصوح ، " والراجع في توبته كالمستهزئ بربه " . وقانا الله وإياكم هذا المنقلب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1606.107 ﴾

(224/123)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (91) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما رغب في التوبة رهب من التواني عنها فقال : ﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي بالله وأوامره ، وأسقط الجار لما مضى من قوله ﴿ من بعد إيمانهم ﴾ بذلك .

ولما كان الكفر لفظاعته وقبحه وشناعته جديراً بالنفرة عنه والبعد منه نبه سبحانه وتعالى على ذلك باستبعاد إيقاعه ، فكيف بالتمادي عليه فكيف بالازدياد منه ! وعبر عن ذلك بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم ازدادوا كفراً ﴾ أي بأن تمادوا على ذلك ولم يبادروا بالتوبة ﴿ لن تقبل توبتهم ﴾ أي إن تابوا ، لأن الله سبحانه وتعالى يطبع على قلوبهم فلا يتوبون توبة نصوحاً يدومون عليها ويصلحون ما فسد ، أو لن توجد منهم توبة حتى يترتب عليها القبول لأنهم زادوا عن أهل القسم الأول بالتمادي ، ولم يأت بالفاء الدالة على أنه مسبب عما قبله إعلاماً بأن ذلك إنما هو لأنهم مطبوع على قلوبهم ، مهيؤون للكفر من أصل الجبلة ، فلا يتوبون أبداً توبة صحيحة ، فالعلة الحقيقية الطبع لا الذنب ، وهذا شامل لمن تاب عن شيء وقع منه كأبي عزة الجمحي ، ولمن لم يتب كحيي بن أخطب ﴿ وأولئك هم ﴾ أي

خاصة ﴿ الضالون ﴾ أي الغريقون في الضلال وإليه أشار ﴿ ولو أسمعهم لتولوا ﴾ [الأنفال : 23] لوقوعهم في أبعد شعابة وأضيق نقابه ، فأنى لهم بالرجوع منه والتقصي عنه !

(225/123)

ولما أثبت لهم الخصوصية بذلك لائناً لهم فيه إلى حد أيس معه من رجوعهم تشوف السامع إلى حالهم في الآخرة فقال مبيناً لهم أن السبب في عدم قبول توبتهم تفويت محلها بتماديهم على الكفر : ﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي هذا الكفر أو غيره ، ويجوز أن يكون المراد أنهم ثلاثة أقسام : التائبون توبة صحيحة وهم الذين أصلحوا ، والتائبون توبة فاسدة ، والواصلون كفرهم بالموت من غير توبة ، ولذا قال : ﴿ وماتوا وهم كفار ﴾ ولما كان الموت كذلك سبباً للخلود في النار لأن السياق للكفر والموت عليه ، صرح بنفي قبول الفداء كائناً من كان ، وربطه بالفاء فقال : ﴿ فلن يقبل ﴾ أي بسبب شناعة فعلهم الذي هو الاجتراء على الكفر ثم الموت عليه ﴿ من أحدهم ﴾ أي كائناً من كان ﴿ ملء الأرض ذهباً ﴾ أي من الذهب لا يتجدد له قبول ذلك لو بذله هبة أو هدية أو غير ذلك ﴿ ولو افتدى به ﴾ لو في مثل هذا السياق تجيء منبهة على أن ما قبلها جاء على سبيل الاستقصاء ، وما بعدها جاء تنصيصاً على الحالة التي يظن أنها لا تندرج فيما قبلها ، كقوله صلى الله عليه وسلم "

أعطوا السائل ولو جاء على فرس " فكونه جاء على فرس يؤذن بغناه ، فلا يناسب أن يعطى فنص عليه ؛ وأما هنا فلما كان قبول الفدية واجباً عند أهل الكتاب - كما مر في قوله سبحانه وتعالى ﴿ وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ﴾ [البقرة : 85] كان بحيث ربما ظن أن بذله - على طريق الافتداء يخالف بذله على غير ذلك الوجه حتى يجب قبوله ، فنص عليه ؛ وأيضاً فحالة الافتداء حالة لا يمتن فيها المفتدي على المفتدى منه ، إذ هي حالة قهر من المفتدى منه للمفتدى - قاله أبو حيان .

(226/123)

فالمعنى : لا يقبل من أحدهم ما يملأ الأرض من الذهب على حال من الأحوال ولو على حال الافتداء ، والمراد بالمثال المبالغة في الكثرة ، أي لا يقبل منه شيء ؛ وإنما اقتصر على ملء الأرض لأنه أكثر ما يدخل تحت أوهام الناس ويجري في محاوراتهم - والله سبحانه وتعالى أعلم .

ولما تشوف السامع إلى معرفة ما يحل بهم أجيب بقوله : ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء من الرحمة ﴿ لهم عذاب أليم ﴾ ولعظمته أغرق في النفي بعده بزيادة الجار فقال : ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ أي ينصرونهم بوجه من الوجوه ، فانتفى عنهم كل وجه من وجوه الاستنقاذ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 124.123 ﴾

وقال ابن عاشور :

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ ﴾

استئناف لبيان حال الكافرين الذين ماتوا على كفرهم ، نشأ عن حكم فريق من الكفار تكرر منهم الكفر حتى رسخ فيهم وصار لهم ديدنا .

وإن كان المراد في الآية السابقة من الذين ازدادوا كفرا الذين ماتوا على الكفر ، كانت هذه الآية كالتوكيد اللفظي للأولى أعيدت ليبنى عليها قوله : ﴿ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً ﴾ .

وأيا ما كان فالمراد بالموصول هنا العموم مثل المعرف بلام الاستغراق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 150.149 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن الكافر على ثلاثة أقسام

أحدها : الذي يتوب عن الكفر توبة صحيحة مقبولة وهو الذي ذكره الله تعالى في قوله ﴿ إِلاَّ الذين تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران : 89]

وثانيهما : الذي يتوب عن ذلك الكفر توبة فاسدة وهو الذي ذكره الله في الآية المتقدمة وقال : إنه لن تقبل توبته

(227/123)

وثالثهما : الذي يموت على الكفر من غير توبة ألبتة وهو المذكور في هذه الآية ، ثم إنه تعالى أخبر عن هؤلاء بثلاثة أنواع .

النوع الأول : قوله ﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْء الأرض ذَهَبًا وَلَوِ افتدى بِهِ ﴾ قال الواحدي ملء الشيء قدر ما يملؤه وانتصب ﴿ ذَهَبًا ﴾ على التفسير ، ومعنى التفسير : أن يكون الكلام تاماً إلا أن يكون مبهماً كقوله : عندي عشرون ، فالعدد معلوم ، والمعدود مبهم ، فإذا قلت : درهماً فسرت العدد ، وكذلك إذا قلت : هو أحسن الناس فقد أخبرت عن حسنه ، ولم تبين في ماذا ، فإذا قلت وجهاً أو فعلاً فقد بينته ونصبته على التفسير وإنما نصبته لأنه ليس له ما يخفضه ولا ما يرفعه فلما خلا من هذين نصب لأن النصب أخف الحركات فيجعل كأنه لا عامل فيه قال صاحب "الكشاف" وقرأ الأعمش ﴿ ذَهَبَ ﴾ بالرفع رداً على ملء كما يقال : عندي عشرون نفساً رجال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 115 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

" قد تقدم أن عكرمة يقرأ : " نقبل ملء " بالنون مفعولاً به

وقرأ بعضهم " فلن يقبل " - بالياء من تحت مبنيًّا للفاعل وهو الله تعالى ، "مِلْءَ" بالنصب كما تقدم .

وقرأ ابو جعفر وأبو السَّمَّال " مل الأرض " بطرح همزة " ملء " ، نقل حركتها إلى الساكن قبلها .

وبعضهم يدغم نحو هذا - أي لام " ملء " في لام " الأرضِ " - بعروض التقائهما .

والملء : مقدار ما يُمْلأ الوعاء ، والمَلْء - بفتح الميم - هو المصدر ، يقال : ملأت القدر ، أملؤها ، مَلأً ، والملاءة بضم الميم والمد : الملحَفة .

و" ذهباً " العامة على نصبه ، تمييزاً .

وقال الكسائي : على إسقاط الخافض ، وهذا كالأول ؛ لأن التمييز مقدر بـ " من "

واحتاجت " ملء " إلى تفسير ؛ لأنها دالة على مقدار - كالقفيز والصّاع- .

وقرأ الأعمش : " ذهب " - بالرفع - .

(228/123)

قال الزمخشريُّ : ردًّا على " مِلْءُ " كما يقال : عندي عشرون نَفْساً رجال ، يعني الردّ البدل ، ويكون بدل نكرة من معرفة .

قال أبو حيان : ولذلك ضبط الحذّاق قوله : " لك الحمد ملء السموات " بالرفع ، على أنه نعت لِ " الْحَمْد " . واستضعفوا نصبه على الحال ، لكونه معرفة .

قال شهاب الدين : " يتعين نصبه على الحال ، حتى يلزم ما ذكره من الضعف ، بل هو منصوب على الظرف ، أي : إن الحمد يقع مِلْئاً للسموات والأرض " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 381.382 ﴾

أسئلة وأجوبة

السؤال الأول : لم قيل في الآية المتقدمة ﴿ لَّن تُقْبَلَ ﴾ بغير فاء وفي هذه الآية ﴿ فَلَن يُقْبَلَ ﴾ بالفاء ؟ .

الجواب : أن دخول الفاء يدل على أن الكلام مبني على الشرط والجزاء ، وعند عدم الفاء لم يفهم من الكلام كونه شرطا وجزاء ، تقول : الذي جاءني له درهم ، فهذا لا يفيد أن الدرهم حصل له بسبب المجيء ، وإذا قلت : الذي جاءني فله درهم ، فهذا لا يفيد أن الدرهم حصل له بسبب المجيء فذكر الفاء في هذه الآية يدل على أن عدم قبول الفدية معلل بالموت على الكفر .

السؤال الثاني : ما فائدة الواو في قوله ﴿ وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ﴾ ؟ .

الجواب : ذكروا فيه وجوهاً

الأول : قال الزجاج : إنها للعطف ، والتقدير : لو تقرب إلى الله بملء الأرض ذهباً لم ينفعه ذلك مع كفره ، ولو افتدى من العذاب بملء الأرض ذهباً لم قبل منه ، وهذا اختيار ابن الأنباري قال : وهذا أوكد في التغليظ ، لأنه تصريح بنفي القبول من جميع الوجوه

(229/123)

الثاني : ﴿ الواو ﴾ دخلت لبيان التفصيل بعد الإجمال وذلك لأن قوله ﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا ﴾ يحتمل الوجوه الكثيرة ، فنص على نفي القبول بجهة الفدية

الثالث : وهو وجه خطر ببالي ، وهو أن من غضب على بعض عبيده ، فإذا أتحفه ذلك العبد بتحفة وهدية لم يقبلها ألبتة إلا أنه قد يقبل منه الفدية ، فأما إذا لم يقبل منه الفدية أيضاً كان ذلك غاية الغضب ، والمبالغة إنما تحصل بتلك المرتبة التي هي الغاية ، فحكم تعالى بأنه لا يقبل منهم ملء الأرض ذهباً ولو كان واقعاً على سبيل الفداء تنبيهاً على أنه لما لم يكن مقبولاً بهذا الطريق ، فبأن لا يكون مقبولاً منه بسائر الطرق أولى .

السؤال الثالث : أن من المعلوم أن الكافر لا يملك يوم القيامة نقيراً ولا قطميراً ومعلوم أن

بتقدير أن يملك الذهب فلا ينفع الذهب ألبتة في الدار الآخرة ، فما فائدة قوله ﴿ لَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرض ذَهَبًا ﴾ .

الجواب : فيه وجهان

أحدهما : أنهم إذا ماتوا على الكفر فلو أنهم كانوا قد أنفقوا في الدنيا ملء الأرض ذهباً لن يقبل الله تعالى ذلك منهم ، لأن الطاعة مع الكفر لا تكون مقبولة

والثاني : أن الكلام وقع على سبيل الفرض ، والتقدير : فالذهب كناية عن أعز الأشياء ، والتقدير : لو أن الكافر يوم القيامة قدر على أعز الأشياء ثم قدر على بذله في غاية الكثرة لعجز أن يتوسل بذلك إلى تخليص نفسه من عذاب الله ، وبالجملة فالمقصود أنهم آيسون من تخليص النفس من العقاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 115. 116﴾

(230/123)

وقال الآلوسى :

وههنا سؤال مشهور وهو أنه لم دخلت الفاء في خبر ﴿إن﴾ هنا ولم تدخل في الآية السابقة مع أن الآيتين سواء في صحة إدخال الفاء لتصور السببية ظاهراً ؟ وأجاب غير واحد بأن

الصلة في الآية الأولى الكفر وازدياده وذلك لا يترتب عليه عدم قبول التوبة بل إنما يترتب على الموت عليه إذ لو وقعت على ما ينبغي لقبلت بخلاف الموت على الكفرة في هذه الآية فإنه يترتب عليه ذلك ولذلك لو قال : من جاءني له درهم كان إقراراً بخلاف ما لو قرنه بالفاء كما هو معروف بين الفقهاء ولا يرد أن ترتب الحكم على الوصف دليل على السببية لأنا لا نسلم لزومه لأن التعبير بالموصول قد يكون لأغراض كالإيماء إلى تحقق الخبر كقوله :

إن التي ضربت بيتاً مهاجرة . . . بكوفة الجند غالت دونها غول

وقد فصل ذلك في المعاني ؛ وقرىء فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض على البناء للفاعل وهو الله تعالى ونصب ملء وملء الأرض بتخفيف الهمزتين .

(231/123)

﴿ وَلَوِ افْتَدَى بِهِ ﴾ قال ابن المنير في "الانتصاف" : إن هذه الواو المصاحبة للشرط تستدعي شرطاً آخر تعطف عليه الشرط المقترنة به ضرورة والعادة في مثل ذلك أن يكون المنطوق به منبها على المسكوت عنه بطريق الأولى مثاله قولك : أكرم زيداً ولو أساء فهذه الواو عطفت المذكور على محذوف تقديره أكرم زيداً لو أحسن ولو أساء إلا أنك نبهت بإيجاب إكرامه وإن أساء على أن إكرامه إن أحسن بطريق الأولى ؛ ومنه ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ

بالقسط شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ ﴾ [النساء : 135] فإن معناه والله تعالى أعلم لو كان الحق على غيركم ولو كان عليكم ولكنه ذكر ما هو أعسر عليهم فأوجبه تنبيهاً على أن ما كان أسهل أولى بالوجوب ، ولما كانت هذه الآية مخالفة لهذا النمط من الاستعمال لأن قوله سبحانه : ﴿ وَلَوِ افتدى بِهِ ﴾ يقتضي شرطاً آخر محذوفاً يكون هذا المذكور منبهاً عليه بطريق الأولى ، والحالة المذكورة أعني حالة افتدائهم بملء الأرض ذهباً هي أجدر الحالات بقبول الفدية ، وليس وراءها حالة أخرى تكون أولى بالقبول منها خاض المفسرون بتأويلها فذكر الزمخشري ثلاثة أوجه حاصل الأول : أن عدم قبول ملء الأرض كناية عن عدم قبول فدية مّا لدلالة السياق على أن القبول يراد للخلاص وإنما عدل تصويراً للتكثير لأنه الغاية التي لا مطمح وراءها في العرف ، وفي الضمير يراد ﴿ مِّلْءُ الأرض ﴾ على الحقيقة فيصير المعنى لا تقبل منه فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ففي الأول نظر إلى العموم وسده مسد فدية ما ، وفي الثاني إلى الحقيقة أو لكثرة المبالغة من غير نظر إلى القيام مقامها ، وحاصل الثاني : أن المراد ولو افتدى بمثله معه كما صرح به في آية أخرى ولأنه علم أن الأول فدية أيضاً كأنه قيل : لا يقبل ملء الأرض فدية ولو ضوعف ، ويرجع هذا إلى جعل

الباء بمعنى مع ، وتقدير مثل بعده أي مع مثله ، وحاصل الثالث : أنه يقدر وصف يعينه المساق من نحو كان متصدقاً به ، وحينئذ لا يكون الشرط المذكور من قبل ما يقصد به تأكيد الحكم السابق بل يكون شرطاً محذوف الجواب ويكون المعنى لا يقبل منه ملء الأرض ذهباً لو تصدق ولو افتدى به أيضاً لم يقبل منه وضمير ﴿ بِهِ ﴾ للمال من غير اعتبار وصف التصدق فالكلام من قبيل ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ [فاطر : 11] ، وعندي درهم ونصفه انتهى ، ولا يخفى ما في ذلك من الخفاء والتكلف ، وقريب من ذلك ما قيل : إن الواو زائدة ، ويؤيد ذلك أنه قرىء في الشواذ بدونها وكذا القول : بأن ﴿ لَوْ ﴾ ليست وصلية بل شرطية ، والجواب ما بعد أو هو ساد مسده ، وذكر ابن المنير في الجواب مدعياً أن تطبيق الآية عليه أسهل وأقرب بل ادعى أنه من السهل الممتنع أن قبول الفدية التي هي ملء الأرض ذهباً تكون على أحوال تارة تؤخذ قهراً كأخذ الدية ، وكرة يقول المفتدي : أنا أفدي نفسي بكذا ولا يفعل ، وأخرى يقول ذلك والفدية عتيدة ويسلمها لمن يؤمل قبولها منه فالمذكور في الآية أبلغ الأحوال وأجدرها بالقبول ، وهي أن يفتدي بملء الأرض ذهباً افتداءاً محققاً بأن يقدر على هذا الأمر العظيم ويسلمه اختياراً ، ومع ذلك لا يقبل منه فلأن لا يقبل منه مجرد قوله : أبذل المال وأقدر عليه ، أو ما يجري هذا المجرى بطريق الأولى فتكون الواو والحالة هذه على بابها تنبيهاً على أن ثم أحوالاً أخر لا يقع فيها القبول بطريق الأولى بالنسبة إلى الحالة المذكورة ، وقوله تعالى : (ولو أن لهم ما في الأرض

جميعاً ومثله معه ليفتدوا به) مصرح بذلك ، والمراد به أنه لا خلاص لهم من الوعيد وإلا فقد علم أنهم في ذلك اليوم أفلس من ابن المُذَلَّق لا يقدرون على شيء ،

(233/123)

ونظير هذا قولك : لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار ولو سلمتها إليَّ في يدي انتهى ، وقريب منه ما ذكره أبو حيان قائلاً : إن الذي يقتضيه هذا التركيب وينبغي أن يحمل عليه أن الله تعالى أخبر أن من مات كافراً لا يقبل منه ما يملأ الأرض من ذهب على كل حال يقصدها ولو في حال افتدائه من العذاب لأن حالة الافتداء لا يمتن فيها المفتدي على المفتدى منه إذ هي حالة قهر من المفتدى منه ، وقد قررنا في نحو هذا التركيب أن (لو) تأتي منبهة على أن ما قبلها جاء على سبيل الاستقصاء وما بعدها جاء تنصيصاً على الحالة التي يظن أنه لا تندرج فيما قبلها كقوله عليه الصلاة والسلام : " أعطوا السائل ولو جاء على فرس " و " ردوا السائل ولو بظلف محرق " كأن هذه الأشياء مما لا ينبغي أن يؤتى بها لأن كون السائل على فرس يشعر بغناه فلا يناسب أن يعطى ، وكذلك الظلف المحرق لا غناء فيه فكان يناسب أن لا يرد السائل به . وكذلك حال الافتداء يناسب أن يقبل منه ملء الأرض ذهباً لكنه لا يقبل ، ونظيره ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صادقين ﴾ [يوسف : 17] لأنهم

نفوا أن يصدقهم على كل حال حتى في حالة صدقهم وهي الحالة التي ينبغي أن يصدقوا فيها ولو لتعميم النفي والتأكيد له . هذا وقد أخرج الشيخان وابن جرير واللفظ له عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له : أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا أكنت مفتديا به ؟ فيقول : نعم فيقال : لقد سئلت ما هو أيسر من ذلك فلم تفعل فذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مّلْء الأرض ذَهَبًا وَلَوِ افتدى بِهِ ﴾ . ﴿ أخرجه البخاري في الرقاق باب من نوقش الحساب عذب : 11 / 400 ، وباب صفة الجنة والنار : 11 / 416 ، وفي الأنبياء

(234/123)

باب خلق آدم وذريته . ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبا برقم (2805) : 4 / 2160 ، والبغوى في شرح السنة : 15 /242 ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 218 . 220 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

وعندي أن موقع هذا الشرط في الآية جار على استعمال غفل أهل العربية عن ذكره وهو

أن يقع الشرط استئنافا بيانيا جوابا لسؤال، محقق أو مقدر، يتوهمه المتكلم من المخاطب فيريد تقديره، فلا يقتضي أن شرطها هو غاية للحكم المذكور قبله، بل قد يكون كذلك، وقد يكون السؤال مجرد استغراب من الحكم فيقع بإعادة ما تضمنه الحكم تثبيتا على المتكلم على حد قولهم: ادر ما تقول فيجيب المتكلم بإعادة السؤال تقريرا له وإيذانا بأنه تكلم عن بينة، نعم إن الغالب أن يكون السؤال عن الغاية وذلك كقول رؤبة، وهو من شواهد هذا:

قالت بنات العم يا سلمى وإن . . .

كان فقيرا معدما قالت وإن

وقد يحذف السؤال ويبقى الجواب كقول كعب بن زهير:

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم . . .

أذنب وإن كثرت في الأقاويل

وقد يذكر السؤال ولا يذكر الجواب كقوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: 43] فلو ذكر الجواب من قبل المشركين لأجابوا بتقرير ذلك.

فقوله: ﴿وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ جواب سؤال متعجب من الحكم وهو قوله: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ﴾ فكأنه قال ولو افتدى به فأجيب بتقرير ذلك على حد بيت كعب.

فمفاد هذا الشرط حينئذ مجرد التأكيد .

ويجوز أن يكون الشرط عطفا على محذوف دل عليه افتدى : أي لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا يجعله رهينة .

(235/123)

ولو بذله فدية ، لأن من عادة العرب أن المطلوب بحق قد يعطي فيه رهنا إلى أن يقع الصلح أو العفو ، وكذلك في الديون ، وكانوا إذا تعاهدوا على صلح أعطت القبائل رهائن منهم كما قال الحارث :

واذكروا حلف ذي المجاز وما قدم . . .

فيه العهود والكفلاء

ووقع في حديث أبي رافع اليهودي أن محمد بن مسلمة قال لأبي رافع نرهنك السلاح واللامة . انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ 152.151﴾

فصل

قال ابن عادل :

قوله : " ولو افتدى به " الجمهور على ثبوت الواو ، وهي واو الحال .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : كيف موقع قوله : " ولو افتدى به " ؟

قلت : هو كلام محمول على المعنى ، كأنه قيل : فلن يقبل من أحدهم فدية ، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً . انتهى .

والذي ينبغي أن يُحْمَل عليه : أن الله – تعالى – أخبر أن مَنْ مات كافراً لا يُقْبَل منه ما يملأ الأرض من ذهب على كل حال يقصدُها ، ولو في حال افتدائه من العذاب ، وذلك أن حالة الافتداء حالة لا يميز فيها المفتدي عن المفتدى منه ؛ إذ هي حالة قهر من المفتدى منه للمفتدي .

قال أبو حيان : وقد قررنا – في نحو هذا التركيب – أن " لَوْ " تأتي منبهة على أن ما قبلها جاء على سبيل الاستقصاء ، وما بعدها جاء تنصيصاً على الحالة التي يظن أنها لا تندرج فيما قبلها ، كقوله صلى الله عليه وسلم : " أَعْطُوا السَّائِلَ ولو جاء عَلَى فَرَسٍ " وقوله : " رُدُّوا السَّائِلَ وَلَو بظِلْف محرق " كأن هذه الأشياء مما ينبغي أن يؤتى بها ؛ لأن كون السائل على فرس يُشْعر بغناه ، فلا يناسب أن يُعْطَى ، وكذلك الظلف المحرق ، لا غناء فيه ، فكان يناسب أن لا يُرَدَّ به السائل .

قيل : الواو – هنا – زائدة ، وقد يتأيد هذا بقراءة ابن أبى عبلة طلو افتدى به " – دون واو – معناه أنه جعل الافتداء شرطاً في عدم القبول ، فلم يتعمم النفي وجود القبول .

و" لو " قيل : هي – هنا – شرطية ؛ بمعنى " إن " لا التي معناها لما كان سيقع لوقوع غيره ؛ لأنها متعلقة بمستقبل ، وهو قوله : " فلن تقبل " ، وتلك متعلّقة بالماضي .

قال الزجاج : إنها للعطف ، والتقدير : لو تقرب إلى الله بملء الأرض ذهباً لن يقبل منه ، ولو افتدى به لم تقبل منه ، وهذا اختيار ابن الأنباري ، قال : وهذا آكد في التغليظ ؛ لأنه تصريح بنفي القبول من وجوه . وقيل : دخلت الواو لبيان التفصيل بعد الإجمال ؛ لأن قوله : ﴿ فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ﴾ يحتمل الوجوه الكثيرة ، فنص على نفي القبول بجهة الفدية .

وافتدى افتعل – من لفظ الفدية – وهو متعدّ لواحد ؛ لأنه بمعنى فدى ، فيكون افتعل فيه وفعل بمعنى ، نحو : شَوَى ، واشْتَوَى ، ومفعوله محذوف ، تقديره : افْتَدَى نفسه . والهاء في " به " – فيها أقوال :

أحدها : – وهو الأظهر – عودها على " ملء " ؛ لأنه مقدار يملأها ، أي : ولو افتدى بملء الأرض .

الثاني : أن يعوج على " ذَهَباً " ، قاله أبو البقاء .

قال أبو حيان : ويوجد في بعض التفاسير أنها تعود على الملء ، أو على الذهب ، فقوله : "

أو على الذهب " غلط .

قال شهاب الدين : "كأن وجه الغلط فيه أنه ليس محدّثاً عنه ، إنما جيء به بياناً وتفسيراً لغيره ، فضلة " .

الثالث : أن يعود على " مِثْل " محذوف .

(237/123)

قال الزمخشريُّ : " ويجوز أن يُراد : ولو افتدى بمثله ، كقوله : ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الأرض جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ [الرعد : 18] ، والمثل يحذف في كلامهم كثيراً ، كقولك : ضربت ضرب زيد – تريد : مثل ضربه – وقولك : أبو يوسف أبو حنيفة – أي : مثله – .

وقوله : [الرجز]

لا هَيْثَمَ اللَّيْلَةَ لِلْمَطِيِّ . . . وَلاَ فَتَى إلاَّ ابْنُ خَيْبَرِيِّ

و" قضية ولا أبا حسن لها " يريد : لا مثل هيثم ، ولا مثل أبي حسن ، كما أنه يزاد قولهم : مثلك لا يفعل كذا ، يريدون : أنت لا تفعل كذا ، وذلك أن المثلين يسد أحدهما مسد الآخر ، فكانا في حكم شيء واحد " .

قال أبو حيان : " ولا حاجةَ إلى تقدير " مثل " في قوله : " ولو افتدى به " ، وكأن الزمخشريَّ

تخيَّل انَّ قدّر أن يُقْبَل لا يُمكن أن يُفْتَدَى به ، فاحتاج إلى إضمار : " مثل " حتى يغاير ما نُفِي قبولُه وبين ما يفتدى به ، وليس كذلك ؛ لأن ذلك – ما ذكرناه – على سبيل الفرض والتقدير ؛ إذ لا يمكن – عادةً – أن أحداً يملك مِلْءَ الأرض ذهباً ، بحيث أنه لو بَذَلَّهُ – على أيِّ جهةٍ بذله – لم يُقْبَل منه ، بل لو كان ذلك ممكناً لم يَحْتَج إلى تقدير " مثل " ؛ لأنه نفى قبوله – حتى في حالة الافتداء – وليس ما قدر في الآية نظير ما مثل به ، لأن هذا التقدير لا يحتاج إليه ، ولا معنى له ، ولا في اللفظ ، ولا في المعنى ما يدل عليه ، فلا يقدر .

وأما ما مثل به – من نحو : ضربت ضربَ زيدٍ ، وأبو يوسف أبو حنيفةَ – فبضرورة العقل يُعْلَم أنه لا بد من تقدير مثل إذ ضربك يستحيل أن يكون ضربَ زيد ، وذات أبي يوسف ، يستحيل أن تكون ذاتَ أبي حنيفة .

(238/123)

وأما " لا هيثم الليلة للمطي " ، فدل على حذف " مثل " ما تقرر في اللغة العربية أن " لا " التي لنفي الجنس ، لا تدخل على الأعلام ، فتؤثر فيها ، فاحتيج إلى إضمار : " مثل " لتبقى على ما تقرر فيها ؛ إذ تقرر أنها لا تعمل إلا في الجنس ؛ لأن العلمية تنافي عمومَ الجنس .

وأما قوله : كما يزاد في : مثلك لا يفعل – تريد : أنت – فهذا قول قد قيل ، ولكن المختار

عند حُذَّاق النحويين أن الأسماء لا تزاد " .

قال شهاب الدين : وهذا الاعتراض – على طوله – جوابه ما قاله أبو القاسم – في خطبة كشافه – واللغوي وإن علك اللغة بلحييه والنحوي – وإن كان أنحَى من سيبويه – [لا يتصدى أحد لسلوك تلك الطرائقِ ، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائقِ ، إلا رجل قد برع في علمين مختصَّين بالقرآن المعاني والبديع – وتمهَّل في ارتيادهما آونةً ، وتعب في التنقير عنهما أزمنةً] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 382. 385 ﴾ .

بتصرف يسير .

قوله تعالى ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بيّن أن الكافر لا يمكنه تخليص النفس من العذاب ، أردفه بصفة ذلك العذاب ، فقال : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي مؤلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 116 ﴾

فائدة

قال الآلوسى :

وفي تعقيب ما ذكر بهذه الجملة مبالغة في التحذير والإقناط لأن من لا يقبل منه الفداء ربما يعفى عنه تكرماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 220 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

ويجوز أن يكون " لهم " : خبراً لاسم الإشارة ، و" عَذَابٌ " فاعل به ، وعمل لاعتماده على ذي خبره ، أي : أولئك استقر لهم عذاب . وأن يكون " لَهُمْ " خبراً مقدَّماً و" عَذَابٌ " مبتدأ مؤخر ، والجملة خبر عن اسم الإشارة ، والأول أحسن ؛ لأن الإخبار بالمفرد أقرب من الإخبار بالجملة ، والأول من قبيل الإخبار بالمفرد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 385 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَمَا لَهُم مّن ناصرين ﴾

قال الفخر :

والمعنى أنه تعالى لما بيّن أنه لا خلاص لهم عن هذا العذاب الأليم بسبب الفدية ، بيّن أيضاً أنه لا خلاص لهم عنه بسبب النصرة والإعانة والشفاعة ، ولأصحابنا أن يحتجوا بهذه الآية على إثبات الشفاعة وذلك لأنه تعالى ختم تعديد وعيد الكفار بعدم النصرة والشفاعة فلو حصل هذا المعنى في حق غير الكافر بطل تخصيص هذا الوعيد بالكفر ،

والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 116 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

ويجوز في إعرابه وجهان :

أحدهما : أن يكون ﴿ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ : فاعلاً، وجاز عمل الجارّ ؛ لاعتماده على حرف النفي، أي : وما استقر لهم من ناصرين.

والثاني : أنه خبر مقدَّم، و﴿ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ : مبتدأ مؤخر، و"مِنْ" مزيدة على الإعرابَيْن ؛ لوجود الشرطين في زيادتها.

وأتى بـ "ناصرين" جمعاً ؛ لتوافق الفواصل. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 385 ﴾

(240/123)

فصل

قال ابن كثير فى معنى الآية :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى

بِهِ ﴾ أي: من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبدًا، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبا فيما يراه قُرْبة، كما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن عبد الله بن جُدْعان -وكان يُقْري الضيفَ، ويَفُكُّ العاني، ويُطعم الطعام-: هل ينفعه ذلك؟ فقال: لا إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يومَ الدِّينِ. (1)

وكذلك لو افتدى بملء الأرض أيضا ذهبا ما قبل منه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ [البقرة: 123]، [وقال ﴿ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ﴾] [البقرة: 254] وقال: ﴿ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ [إبراهيم: 31] وقال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: 36]؛ ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ ﴾ فعطف ﴿ وَلَوِ افْتَدَى بِهِ ﴾ على الأول، فدل على أنه غيره، وما ذكرناه أحسن من أن يقال: إن الواو زائدة، والله أعلم. ويقتضي ذلك ألا ينقذه من عذاب الله شيء، ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهبا، ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهبا، بوَزْن جبالها وتِلالها وتُرابها ورِمَالها وسَهْلها ووعْرها وبَرِّها وبَحْرِها.

---

(1) رواه مسلم في صحيحه برقم (214) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجّاج ، حدثني شُعْبَة ، عن أبي عمران الجَوْني ، عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ ؟ قَالَ : فَيَقُولُ : نَعَمْ . قَالَ : فَيَقُولُ : قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ أَبِيكَ آدَمَ أَلا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا ، فَأَبَيْتَ إِلا أَنْ تُشْرِكَ" . وهكذا أخرجاه البخاري ، ومسلم . (1)

طريق أخرى : قال الإمام أحمد : حدثنا رَوْح ، حدثنا حَمّاد ، عن ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ لَهُ : يَا ابْنَ آدَمَ ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَنزلَكَ ؟ فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ، خَيْرُ مَنزلٍ . فَيَقُولُ : سَلْ وَتَمَنَّ . فَيَقُولُ : مَا أَسْأَلُ وَلا أَتَمَنَّى إِلا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ عَشْرَ مِرَارٍ -لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ . وَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيَقُولُ لَهُ : يَا ابْنَ آدَمَ ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَنزلَكَ ؟ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ شَرُّ مَنزلٍ . فَيَقُولُ لَهُ : تَفْتَدِي مِنِّي بِطِلاعِ الأَرْضِ ذَهَبًا ؟ فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ، نَعَمْ . فَيَقُولُ : كَذَبْتَ ، قَدْ سَأَلْتُكَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ وَأَيْسَرَ فَلَمْ تَفْعَلْ ، فَيُرَدُّ إِلَى النَّارِ" . (2)

ولهذا قال : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ أي : وما لهم من أحد يُنْقِذهم

من عذاب الله ، ولا يجيرهم من أليم عقابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 72.71 ﴾

---

(1) المسند (127/3) وصحيح البخاري برقم (6538) وصحيح مسلم برقم (2805) .

(2) المسند (208/3) .

(242/123)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾

هذه الآية نظير قوله تعالى في سورة المائدة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة : 36] . وقد روى الإمام أحمد والشيخان عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : < يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض

من شيء أكنت مفتدياً به ؟ قال : فيقول نعم ، فيقول الله : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك > ! وفي رواية للإمام أحمد عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول له : يا ابن آدم ! كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أي : رب ! خير منزل ، فيقول : سل وتمنّ ، فيقول : ما أسأل ولا أتمنى إلا أن تردني إلى الدنيا فأقتل في سبيلك عشر مرات – لما يرى من فضل الشهادة – ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له : يا ابن آدم ! كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أي : رب ! شر منزل ، فيقول له : أتفتدي منه بطلاع الأرض ذهباً ؟ فيقول : أي : رب ! نعم . فيقول : كذبت ! قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل ، فيرد إلى النار > . ولهذا قال : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ أي : من منقذ من عذاب الله ولا مجير من أليم عقابه .

لطيفة :

(243/123)

في قوله تعالى : ﴿ وَلَوِ افْتَدَى بِهِ ﴾ قال صاحب " الانتصاف " : إن هذه الواو المصاحبة للشرط تستدعي شرطاً آخر ، يعطف عليه الشروط المقترنة به ضرورة . والعادة في مثل

ذلك أن يكون المنطوق به منبهاً على المسكوت عنه بطريق الأولى . مثاله : قولك : أكرم زيداً ولو أساء ، فهذه الواو عطفت المذكور على محذوف تقديره : أكرم زيداً ولو أساء ، إلا أنك نبهت بإيجاب إكرامه وإن أساء ، على أن إكرامه أن أحسن بطريق الأولى . ومنه : ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ [النساء : 135] . معناه والله أعلم : لو كان الحق على غيركم ولو كان عليكم ، ولكنه ذكر ما هو أعسر عليهم ، فأوجبه تنبيهاً على ما هو أسهل وأولى بالوجوب ، فإذا تبين مقتضى الواو في مثل هذه المواضع وجدت آية آل عِمْرَان هذه مخالفة لهذا النمط ظاهراً ، لأن قوله : ﴿ وَلَوِ افْتَدَى بِهِ ﴾ . يقتضي شرطاً آخر محذوفاً ، يكون هذا المذكور منبهاً عليه بطريق الأولى . وهذه الحال المذكورة ، وهي حالة افتدائهم بملء الأرض ذهباً ، هي حالة أجدر الحالات بقبول الفدية ، وليس وراءها حالة أخرى تكون أولى بالقبول منها ، فلذلك قدر الزمخشري الكلام بمعنى : لن يقبل من أحد منهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً . حتى تبين حالة أخرى يكون الافتداء الخاص بملء الأرض ذهباً هو أولى بالقبول منها ، فإذا انتفى حيث كان أولى فلأن ينتفي فيما عدا هذه الحالة أولى ؛ فهذا كله بيان للباعث له على التقدير المذكور . وأما تنزيل الآية عليه فعسر جداً ، فالأولى ذكر وجه يمكن تطبيق الآية عليه على أسهل وجه وأقرب مأخذ إن شاء الله . فنقول : قبول الفدية التي هي ملء الأرض ذهباً يكون على أحوال :

منها : أن يؤخذ منه على وجه القهر فدية عن نفسه كما تؤخذ الدية قهراً من مال القاتل على قول .

ومنها : أن يقول المفتدي في التقدير : أفدى نفسي بكذا – وقد لا يفعل – .

(244/123)

ومنها : أن يقول هذا القول وينجز المقدار الذي يفدي به نفسه ويجعله حاضراً عتيداً ، وقد يسلمه مثلاً لمن يأمن منه قبول فديته .

وإذا تعددت الأحوال فالمراد في الآية أبلغ الأحوال وأجدرها بالقبول ، وهو أن يفتدي بملء الأرض ذهباً افتداء محققاً ، بأن يقدر على هذا الأمر العظيم ويسلمه وينجزه اختياراً ، ومع ذلك لا يقبل منه . فمجرد قوله : أبذل المال وأقدر عليه ، أو ما يجري هذا المجرى بطريق الأولى ، فيكون دخول الواو والحالة هذه على بابها تنبيهاً على أن ثم أحوالاً آخر لا ينفع فيها القبول بطريق الأولى بالنسبة إلى الحالة المذكورة . وقد ورد هذا المعنى مكشوفاً في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة : 36] – والله أعلم – وهذا كله تسجيل بأنه لا محيص ولا مخلص لهم من الوعيد ، وإلا فمن المعلوم أنهم أعجز عن الفلس

في ذلك اليوم . ونظير هذا التقدير من الأمثلة أن يقول القائل : لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار ولو سلمتها إليّ في يدي هذه . فتأمل هذا النظر فإنه من السهل الممتنع والله ولي التوفيق – انتهى – .

(245/123)

وثمة وجه ثان وهو أن المراد : ولو افتدى بمثله معه كما صرح به في تلك الآية ، فالمعنى لا يقبل ملء الأرض فدية ، ولو زيد عليه مثله ، والمثل يحذف كثيراً في كلامهم ، كقولك : ضربته ضرب زيد ، تريد مثل ضربه . وأبو يوسف أبو حنيفة [؟ ؟] ، تريد مثله . وقضية ولا أبا حسن لها ، أي : ولا مثل أبي حسن . كما أنه يراد في نحو قولهم : مثلك لا يفعل كذا ، تريد : أنت . وذلك أن المثلين يسد أحدهما مسد الآخر ، فكانا في حكم شيء واحد ، وعلى هذا الوجه يجري الكلام على التأويل المتقدم لأنه نبه بعدم قبول مثلي ملء الأرض ذهباً على عدم قبول ملئها مرة واحدة بطريق الأولى .

ووجه ثالث : وهو أن لا يحمل " ملء الأرض " أولاً على الافتداء بل على التصدق ، ولا يكون الشرط المذكور من قبيل ما يقصد به تأكيد الحكم السابق ، بل يكون شرطاً محذوف الجواب ، ويكون المعنى : لا يقبل منه ملء الأرض ذهباً تصدق به ، ولو افتدى به أيضاً لم

يقبل منه . وضمير به للمال من غير اعتبار وصف التصدق .

ووجه رابع : وهو أن الواو زيدت لتأكيد النفي . فتبصر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 4 صـ 397. 399 ﴾

(246/123)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ ﴾

لقد كفروا ، ولقد يقدر الله لهم أن يتوبوا ، فماتوا على الكفر ، ويريد الله أن يعطينا حكما خاصا بعملهم في الدنيا ، وحكما خاصا بما يتلقونه من عذاب في الآخرة ، والحكم الخاص بعملهم في الدنيا سببه أن لهم اختيارا ، والحكم الخاص بما يتلقونه في الآخرة من عقاب لأنه لا خيار لهم ، وهنا للعلماء وقفة ، فهل ملء الأرض ذهبا أنهم أنفقوا في حياتهم ملء الأرض ذهبا ؟ نقول له : لا ينفعك هذا الإنفاق في أعمال الخير لأن أعمالك حابطة .

هب أن كافرا مات على الكفر وقد أنفق في الخير ملء الأرض ذهبا ، نقول له : هذا الإنفاق

لا ينفع ، مع الخيانة العظمى وهي الكفر ، فما دام غير مؤمن بإله ، فهو قد أنفق هذا المال من أجل الناس ، وصار منفقا على من لا يقدر على أن يجازيه بالخير في الآخرة ، لذلك فليس له عند الله شيء ، فالذي يعمل عملا ، عليه ان يطلب أجرا ممن عمل له ، فهل كان الله في بال ذلك الكافر ؟ لا ؛ لأنه مات على الكفر ، لذلك لو أنفق ملء الأرض ذهبا فلن يقبل منه .

لقد صنع ذلك الخير وفي باله الناس ، والناس يعطونه حقه من الثناء ، سواء كان مخترعا أو محسنا أو غير ذلك ، إنه ينال أجره من الإنسانية ، وينطبق عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " وفعلت ليقال وقد قيل " .

كأن الله يقول له : لم أكن في بالك فلماذا تطلب مني أجرا في الآخرة ، لم يكن في بالك أن الملك لي ، قال سبحانه :

﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر : 16] .

(247/123)

وبعض الناس يقول : كيف لا ينال ثواب الآخرة من ملئوا الدنيا بالاكتشافات والابتكارات وخففوا بها آلام الإنسانية ؟ ونقول : لقد أعطتهم الإنسانية وخلدت ذكراهم ، وأقامت لهم

التماثيل والمؤلفات والأعياد والجوائز، لقد عملوا للناس فأعطاهم الناس، فلا بخس في حقوقهم، ذلك أنهم لم يعملوا وفي بالهم الله، وقد صور الحق موقفهم التصوير الرائع فيقول جل شأنه:

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

[النور: 39].

إنه سراب ناتج عن تخيل الماء في الصحراء يتوهمه السائر العطشان في الصحراء نتيجة انعكاسات الضوء، فيظل السائر متجها إلى وهم الماء، إنه يصنع الأمل لنفسه، فإذا جاءه لم يجده شيئا، ويفاجأ بوجود الله، فيندم ويتلقى العذاب، وكذلك لن يقبل منه ملء الأرض ذهبا لو أنفقه في أي خير في الدنيا، وبعد ذلك لن يقبل الله منه ملء الأرض ذهبا، لو افتدى به نفسه في الآخرة، إن كان سيجد ملء الأرض ذهباً وعلى فرض أنه قد وجد ملء الأرض ذهبا، فهل يجد من يقبل ذلك منه؟ لا، إنّه في الحقيقة لن يجد الذهب؛ لأنه في الآخرة لم يعد يملك شيئا: يقول الحق:

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

[غافر: 16].

ويقول سبحانه:

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾

[الزمر: 47].

(248/123)

﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ أي إن لهؤلاء عذابا أليما ؛ لأن كل حدث من الأحداث إنما يأخذ قوته من قوة فاعله ، فإذا كان الحدث التعذيبي منسوبا إلى الله وله مطلق القوة والقدرة ، لذلك فالعذاب لن يطاق . ولن يجد الظالم من يدرأ عنه هذا العذاب . لأنه لن يجد ناصرا له ، ولن يجد شفيعا فلن يأتي أحد ويقول : إن فلانا يتعذب فهيا بنا ننصره ، لا يأتي أحد لينصره. انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1607. 1609 ﴾

(249/123)

فوائد بلاغية

قال أبو حيان :

وتضمنت هذه الآية من أصناف البديع : الطباق : في قوله : طوعا وكرها .

وفي : كفروا بعد إيمانهم في موضعين .

والتكرار : في : يهدي ولا يهدي .

وفي : كفروا بعد إيمانهم .

والتجنيس المغاير : في كفروا وكفروا .

والتأكيد : بلفظ : هم ، في قوله : وأولئك هم الضالون .

قيل : والتشبيه في : ثم ازدادوا كفراً ، شبه تماديهم على كفرهم وإجرامهم بالاجرام التي يزاد بعضها على بعض ، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس .

والعدول من مفعل إلى فعيل ، في : عذاب أليم ، لما في : فعيل ، من المبالغة .

والحذف في مواضع . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 2 صـ 545﴾

(250/123)

" فصل "

قال السيوطى :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (90)

أخرج البزار عن ابن عباس . أن قوماً أسلموا ، ثم ارتدوا ، ثم أسلموا ، ثم ارتدوا . فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم . فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فنزلت هذه الآية ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً . . . ﴾ الآية . هذا خطأ من البزار .

وأخرج ابن جرير عن الحسن في الآية قال : اليهود والنصارى ، لن تقبل توبتهم عند الموت .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : هم اليهود ، كفروا بالإنجيل وعيسى ، ثم ازدادوا كفراً بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية في الآية قال : إنها نزلت في اليهود والنصارى ، كفروا بعد إيمانهم ، ثم ازدادوا كفراً بذنوب أذنبوها ، ثم ذهبوا يتوبون من تلك الذنوب في كفرهم ، ولو كانوا على الهدى قبلت توبتهم ، ولكنهم على ضلالة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله ﴿ لن تقبل توبتهم ﴾ قال : تابوا من الذنوب ولم يتوبوا من الأصل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ ثم ازدادوا كفراً ﴾ قال : تموا على كفرهم .

وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله ﴿ ثم ازدادوا كفراً ﴾ قال : ماتوا وهم كفار ﴿ لن تقبل توبتهم ﴾ قال : إذا تاب عند موته لم تقبل توبته .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (91)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ﴾ قال : هو كل كافر .

(251/123)

وأخرج عبد بن حميد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له : أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت مفتدياً به ؟ فيقول : نعم . فيقال : لقد سئلت ما هو أيسر من ذلك " فذلك قوله تعالى ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار . . . ﴾ الآية . لفظ ابن جرير . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 258 . 259 ﴾ .

(252/123)

"فصل"

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (81) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (82) أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (83) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (84) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (85) كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (86) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (87) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (88) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (89) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (90) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (91) ﴾

التفسير: الغرض من هذه الآيات تعديد الأشياء المعروفة عند أهل الكتاب مما يدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم قطعاً لأعذارهم وإظهاراً لعنادهم من جملتها أخذ ميثاق النبيين . قال الزجاج: تقديره واذكر يا محمد في القرآن إذ أخذ الله . وقيل: واذكروا يا أهل الكتاب . وإضافة الميثاق إلى النبيين إما أن تكون من إضافة العهد إلى المعاهد منه ، أو من إضافة العهد إلى المعاهد كما تقول: ميثاق الله وعهد الله . أما الاحتمال الأول فيؤيده ما يشعر به ظاهر اللفظ من أن آخذ الميثاق هو الله والمأخوذ منهم النبيون وهو قول سعيد بن جبير والحسن وطاوس . ثم على هذا القول ما نقل عن علي أنه ما بعث آدم ومن بعده من الأنبياء إلا أخذ عليهم العهد لئن بعث محمد صلى الله عليه وسلم وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه والذي يدل على

(254/123)

صحته ما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: "لقد جئتكم بها بيضاء نقية أما والله لو كان موسى بن عمران حياً لما وسعه إلا اتباعي" فهذا على سبيل الفرض والتقدير ، وهو أنهم لو كانوا أحياء لوجب عليهم الإيمان بمحمد وإلا فالميت لا يكون مكلفاً . وقيل: المراد

أولاد النبيين وهم بنو إسرائيل على حذف المضاف ، أو أمة النبيين فقد ورد كثيراً في القرآن لفظ النبي صلى الله عليه وسلم ويراد به الأمة

(255/123)

كقوله ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾ [الطلاق : 1] وقيل : النبيون أهل الكتاب وقد ورد على زعمهم تهكماً بهم لأنهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوة من محمد صلى الله عليه وسلم لأنا أهل الكتاب ومنا كان النبيون . ويؤكده قراءة أبي وابن مسعود ﴿ وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ﴾ وأما الاحتمال الثاني فالمعنى أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يأخذون الميثاق من أممهم بأنه إذا بعث محمد صلى الله عليه وسلم فإنه يجب عليهم أن يؤمنوا به ، ويؤكده أنه تعالى حكم بأنهم إن تولوا كانوا فاسقين وهذا الوصف لا يليق بالأنبياء وإنما يليق بالأمم .

(256/123)

وروي عن ابن عباس أنه قيل له : إن أصحاب عبد الله يقرأون ﴿ وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ﴾ ونحن نقرأ ﴿ وإذا أخذ الله ميثاق النبيين ﴾ فقال : إنما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم ﴿ لما آتيتكم ﴾ من قرأ بفتح اللام ففيه وجهان : أحدهما : أن " ما " تكون موصولة واللام للابتداء وخبره ﴿ لتؤمنن ﴾ واللام فيه جواب القسم المقدر . والعائد على الموصول في ﴿ آتيتكم ﴾ محذوف وفي ﴿ جاءكم ﴾ ما يدل عليه ﴿ لما معكم ﴾ لأنه في معنى " ما آتيتكم " والتقدير للذي آتيتكموه من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق له والله لتؤمنن به – وثانيهما – واختاره سيبويه وغيره – كيلا يفتقر إلى تكلف الرابط أن يقال : أخذ الميثاق في معنى الاستحلاف . و " ما " هي المتضمنة لمعنى الشرط وحينئذٍ يحتاج القسم إلى الجواب والشرط إلى الجزاء ، وليس ههنا ما يصلح لكل منهما إلا الإيمان والنصرة . فالأصح في هذا المقام أن يجعل المذكور جواباً للقسم ظاهراً ، ولهذا أدخل اللام والنون المؤكدة في " لتؤمنن " و " لتنصرن " وأدخل اللام في الشرط وتسمى موطئة لأنها تعين من أول الأمر وتمهد أن المذكور هو جواب القسم لا الشرط . ثم إن جواب الشرط يكون مستغنى عنه لأن جواب القسم يسد مسدّه . ومن قرأ بكسر اللام للتعليل ففيه أيضاً وجهان : أحدهما أن تكون " ما " مصدرية أي أخذ الله ميثاقهم لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب والحكمة ، ثم لمجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم موافقاً لكم في الأصول لتؤمنن به ، لأن من يؤتى الكتاب والحكمة فإن اختصاصه بهذه الفضيلة يوجب

عليه تصديق سائر الأنبياء ، والثاني أن تكون " ما " موصولة وبيان الرابط كما مر . وعن سعيد بن جبير ﴿ لما ﴾ بالتشديد بمعنى " حين " . وقيل : أصله " لمن ما " أي لمن أجل ما آتيتكم . أدغمت النون في الميم فاجتمعت ثلاث ميمات فحذفوا إحداها للتخفيف فيؤول المعنى إلى قراءة حمزة . وفي جميع القراءات قيل : لا بد من إضمار بأن يقال

(257/123)

: وإذا أخذ الله ميثاق النبيين فقال مخاطباً لهم لما آتيتكم . قلت : هذا من باب الالتفات فلا حاجة إلى الإضمار فكأنه قيل : وإذ أخذت أو أخذنا . ولما في أخذ الميثاق من معنى القول . ومن العلماء من قدر الإضمار بنوع آخر واستحسنه في التفسير الكبير مع أنه متكلف فقال : وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لتبلغن الناس ما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم إن جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه .

(258/123)

والنبيون عام وليس كلهم أصحاب كتاب ولكنه وصف الكل بوصف أشرفهم ، أو الكتاب لذوي الكتب والحكمة لغيرهم ، أو جعل الداعي إلى الكتاب وإلى العمل به كالذي أنزل عليه . و " من " للبيان أو للتبعيض . وقوله : ﴿ ثم جاءكم ﴾ والرسول لا يجيء إلى النبيين وإنما يجيء إلى الأمم معناه أي في زمانكم وإن كان المراد من النبيين أولادهم أو أممهم فلا إشكال . والمراد بتصديقه لما معهم موافقته في التوحيد والنبوات وأصول الشرائع . فأما تفاصيلها وإن وقع الخلاف فيها فذاك في الحقيقة ليس بخلاف لأن جميع الأنبياء متفقون على أن الحق في زمان موسى ليس إلا شرعه عليه السلام وأن الحق في زمان محمد صلى الله عليه وسلم ليس الاشرعه عليه السلام . ولو قلنا : إن المراد بالرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم فالمراد إما ما ذكرنا أو أن نعته وصفته وأحواله مذكورة في الكتب المتقدمة ، فكان نفس مجيئه تصديقاً لما كان معهم . الظاهر أن المراد بهذا الميثاق هو التوصية بأن يؤمنوا بكل رسول يجيء مصدقاً لما معهم . وقيل : يحتمل أن يكون الميثاق إشارة إلى ما قرر في عقولهم من الدلائل الدالة على أن الانقياد لأمر الله واجب ، فإذا جاء الرسول فهو إنما يكون رسولاً عند ظهور المعجزات الدالة على صدقه ، فإذا أخبرهم بعد ذلك أن الله أمر الخلق بالإيمان به عرفوا عند ذلك وجوبه . وقيل : المراد بأخذ الميثاق أنه تعالى شرح صفاته صلى الله عليه وسلم في كتب الأنبياء المتقدمين ، فإذا صارت أحواله صلى الله عليه وسلم مطابقة لما جاء في الكتب الإلهية وجب الانقياد له صلى الله عليه وسلم ،

وهذا إنما يصح لو كان المراد بالنبين أولادهم أو أممهم أو ميثاق النبيين من الأمم أو ميثاق الله من النبيين على تقدير كونهم أحياء . أقول والله أعلم : يحتمل أن يراد بقوله ﴿ ثم جاءكم ﴾ المجيء في الزمان الماضي ، فيكون معنى الآية أن الله تعالى أخذ ميثاقه من كل نبي أوتي كتاباً وحكمة أن يؤمن بكل رسول كان

(259/123)

قد جاء قبله موافقاً لما معه وينصر دينه بأن يظهر حقيته في وقته وأنه من عند الله سبحانه وأنه موافق له في أصول العقائد وفي قواعد مكارم الأخلاق ، فتكون هذه الآية تمهيداً لما يجيء بعد من قوله : ﴿ قل آمنا بالله ﴾ الآية . ﴿ قال ﴾ الله أو كل نبي لأمته مستفهماً بمعنى الأمر ﴿ أأقررتم ﴾ بالإيمان به والنصرة ؟ والإقرار في الشرع إخبار عن ثبوت حق سابق . وفي اللغة منقول بهمزة التعدية من قر الشيء يقر إذا ثبت ولزم مكانه ﴿ وأخذتم ﴾ أي قبلتم ﴿ على ذلكم إصري ﴾ عهدي . والأخذ بمعنى القبول كثير قال تعالى : ﴿ لا يؤخذ منها عدل ﴾ [البقرة : 48] أي لا يقبل . ويأخذ الصدقات أي يقبلها . سمي العهد إصراً لأنه مما يؤصر أي يشد ويعقد .

(260/123)

ثم بعد المطالبة بالإقرار أكد ذلك بالإشهاد وقال : ﴿ فاشهدوا ﴾ أي فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار . وفي قوله : ﴿ وأنا معكم من الشاهدين ﴾ وأنه لا يخفى عليه خافية ، تذكير لهم وتوكيد عليهم وتحذير من الرجوع إذا علموا شهادة الله وشهادة بعضهم على بعض . وقيل : فاشهدوا خطاب للملائكة . وقيل : معناه ليجعل كل أحد نفسه شاهداً على نفسه كقوله : ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ﴾ [الأعراف : 172] وقيل : بينوا هذا الميثاق للخاص والعام حتى لا يبقى لأحد عذر في الجهل به . وأصله أن الشاهد هو الذي يبين تصديق الدعوى . وقيل : استيقنوا وكونوا كالمشاهد للشيء المعاين له ، أو يكون خطاباً للأنبياء بأن يكونوا شاهدين على الأمم . ثم ضم إلى توكيد الوعيد بقوله : ﴿ فمن تولى بعد ذلك ﴾ الميثاق وصنوف التوكيد فلم يؤمن ولم ينصر ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ الخارجون عن دين الله وطاعته ، ووعيد الفساق المردة معلوم . ثم وبخ من خرج من دين الله إلى غيره بإدخال همزة الاستفهام على الفاء العاطفة فقال : ﴿ أفغير دين الله يبغون ﴾ ويحتمل أن يراد أيتولون فغير دين الله يبغون ﴿ وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه ترجعون ﴾ من قرأ بتاء الخطاب فيهما فلأن ما قبله خطاب في " أقررتم " و " أخذتم " أو للالتفات بعد قوله ﴿ أولئك هم الفاسقون ﴾ ومن قرأ بياء الغيبة فلرجوع الضمير في الأول إلى الفاسقين ، وفي الثاني إلى جميع المكلفين . والأصل أفتبتغون غير دين

الله ؟ لأن الاستفهام إنما يكون عن الحوادث إلا أنه قدم المفعول لأنه أهم من حيث إن الإنكار الذي هو فائدة الهمزة ههنا متوجه إلى الدين الباطل . وعن ابن عباس أن أهل الكتابين اختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اختلفوا فيه من دين إبراهيم ، فكل واحد من الفريقين ادعى أنه أولى به فقال صلى الله عليه وسلم : كل الفريقين بريء من دين إبراهيم . فقالوا : ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك فنزلت . وعلى هذا

(261/123)

تكون الآية كالمنقطعة عما قبلها ، ولكن الاستفهام على سبيل الإنكار يقتضي تعلقها بما قبلها ، فالوجه أن هذا الميثاق لما كان مذكوراً في كتبهم ولم يكن لكفرهم سبب إلا مجرد البغي والعناد ، كانوا طالبين ديناً غير دين الله ، فاستنكر أن يفعلوا ذلك أو قرر أنهم يفعلون . ثم بيّن أن الإعراض عن دين الله خارج عن قضية العقل ، وكيف لا وقد أخلص له تعالى الانقياد وخصص له الخضوع كل من سواه ، لأن ما عداه كل ممكن وكل ممكن لذاته فإنه لا يوجد إلا بإيجاده ولا يعدم إلا بإعدامه ، فهو ذليل بين يدي قدرته ، خاضع لجلال قدرة في طرفي وجوده وعدمه عقلاً كان أو نفساً أو روحاً أو جسماً أو جوهراً أو عرضاً أو فاعلاً أو فعلاً . ونظير الآية ﴿ ولله يسجد من في السموات والأرض ﴾

[الرعد : 15] فلا سبيل لأحد إلى الامتناع عن مراده ﴿ طوعاً وكرهاً ﴾ وهما مصدران وقعا موقع الحال لأنهما من جنس الفعل أي طائعين وكارهين كقولك : أتاني راكضاً . ولو قلت أتاني كلاماً أي متكلماً لم يجز لأن الكلام ليس من جنس الإتيات . فالمسلمون الصالحون ينقادون لله طوعاً فيما يتعلق بالدين وكرهاً في غيره من الآلام والمكاره التي تخالف طباعهم ، لأنهم لا يمكنهم دفع قضائه وقدره . وأما الكافرون فينقادون في الدين كرهاً أي خوفاً من السيف أو عند الموت أو نزول العذاب . وعن الحسن : الطوع لأهل السموات ، والكره لأهل الأرض . أقول : وذلك لأن السفلي ينجذب بالطبع إلى السفل فحمله نفسه على ما يخالف طبعه هو الكره . وبلسان الصوفية من شاهد الجمال أسلم طوعاً ، ومن شاهد الجلال أسلم كرهاً . فليس الاعتبار بذلك الإسلام الفطري بل الاعتبار بهذا الإسلام الكسبي ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي إلى حيث لا مالك سواه ظاهراً وباطناً ، وفيه وعيد شديد لمن خالف الدين الحق إلى غيره . ثم إنه سبحانه لما بين أخذ الميثاق على الأنبياء في تصديق كل رسول كان قبله ، أمر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ليعرف منه غاية إذعانه ونهاية استسلامه . أما وجه التوحيد في ﴿ قل ﴾ فظاهر ، بناء

على ما قلنا ، وأما وجه الجمع في ﴿ آمنا ﴾ فلتشريف أمته بانضمامهم معه في سلك الإخبار عن الإيمان ، أو ليعلم أن هذا التكليف ليس من خواصه وإنما هو لازم لجميع المؤمنين كقوله : ﴿ والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته ﴾ [البقرة : 285] أو لإجلال قدر نبيه حيث أمر أن يتكلم عن نفسه كما يتكلم العظماء والملوك . وقدم الإيمان بالله لأنه أصل جميع العقائد ، ثم ذكر الإيمان بما أنزل الله إلأيه لأن كتب سائر الأنبياء محرفة لا سبيل إلى معرفة أحوالها إلا بالفرقان المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر الإيمان بما أنزل على مشاهير الأنبياء إذ لا سبيل إلى حصر الكل ، وفي ذلك تنبيه على سوء

(263/123)

عقيدة أهل الكتاب حيث فرقوا بين الأنبياء فصدقوا بعضاً وكذبوا بعضاً ، ورمز إلى أنهم ليسوا من الدين في شيء حيث خالفوا مقتضى الميثاق . ثم إن قلنا إنه تعالى أخذ الميثاق على كل نبي أن يؤمن بكل رسول جاء بعده كما ذهب إليه الجمهور في تفسير قوله : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق البنين ﴾ [آل عمران : 81] فههنا قد أخذ الميثاق على محمد صلى الله عليه وسلم بأن يؤمن بكل رسول كان قبله ولم يؤخذ عليه الميثاق لمن يأتي بعده فيكون في الآية دليل على أنه لا نبي بعده .

واعلم أن الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل فيجوز أن يعدّى أنزل ب " على " تارة كما في هذه الآية ، وبحرف الانتهاء أخرى كما في البقرة . فنطق القرآن بالاعتبارين جميعاً .

(264/123)

وقيل : عُدي هناك ب " إلى " لمكان ﴿ قولوا ﴾ فإن الوحي يأتي الأمة بطريق الانتهاء ، وعدي ههنا ب " على " لمكان ﴿ قل ﴾ فإن الرسول يأتيه الوحي بطريق الاستقلال وزيفه في الكشاف بقوله تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب ﴾ [المائدة : 48] وبقوله : ﴿ آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا ﴾ [آل عمران : 72] والإنصاف أن هذا القائل لم يدع أن هذه المناسبة يجب اعتبارها في كل موضع وإنما ادعى اعتبارها في الموضعين فيصلح حجة للتخصيص والله أعلم . ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ فائدة تقديم الجار أن يعلم أن هذا الإذعان والإيمان والاستسلام لا غرض فيه إلا وجه الله دون شيء آخر من طلب المال والجاه ، بخلاف أحبار اليهود الذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً فليسوا من الإسلام في شيء ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ ﴿ وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ حيث فاته الثواب وحصل مكانه العقاب . والخاسرون ههنا هم الكافرون فقط عند أهل السنة ، ومع أصحاب الكبائر عند المعتزلة . وقد

يستدل بالآية على أن الإيمان والإسلام واحد إذ لو كان الإيمان غير الإسلام كان غير مقبول ، لأن كل ما هو غير الإسلام ليس بمقبول عند الله للآية . وقد ذكرنا مرارا ً أن النزاع لفظي لأن الإسلام إن أريد به الانقياد الكلي فلا فرق بينه وبين الإيمان كما في هذه الآية ، وإن أريد به الإقرار باللسان فالفرق بناء على أن الاعتقاد القلبي داخل في مفهوم الإيمان ، وعلى الفرق ورد قوله تعالى : ﴿ قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾ [الحجرات : 14] ثم بيّن وعيد من ترك الإسلام فقال : ﴿ كيف يهدي الله ﴾ واختلف في سبب النزول ، ففي رواية عن ابن عباس نزلت في يهود قريضة والنضير ومن دان بدينهم ، كفروا بالنبي بعد أن كانوا مؤمنين قبل مبعثه وكانوا يشهدون له بالنبوة فلما بعث وجاءهم بالبينات والمعجزات كفروا به بغياً وحسداً وعناداً ولدداً . وفي رواية أخرى عنه : نزلت في

رهط كانوا أسلموا ثم ارتدوا ولحقوا بمكة ، ثم أخذوا يتربصون به ريب المنون وكان فيهم من تاب فاستثنى التائب بقوله : ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ وعن مجاهد قال : كان الحرث بن سويد قد أسلم وكان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لحق بقومه وكفر فأنزل الله هذه الآية إلى قوله : ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ فحملهن إليه رجل من قومه فقرأهن عليه فقال

الحرث : والله إنك لصدوق وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصدق منك وإن الله أصدق الثلاثة ، ثم رجع فأسلم إسلاماً حسناً . قالت المعتزلة في الآية : إن أصولنا تشهد بأنه تعالى هدى جميع الخلق إلى الدين بمعنى التعريف ووضع الدلائل وإلا كان الكافر معذوراً ولا يحس ذمه على الكفر . ثم إنه حكم بأنه لم يهد هؤلاء الكفار فلابد من تفسير الآية بشيء أخر سوى نصب الدلائل .

(266/123)

قالوا : فالمراد بهذه الهداية منع الألطاف التي يؤتيها المؤمنين ثواباً لهم على إيمانهم كما قال : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ [العنكبوت : 69] وقال : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ [محمد : 17] أو المعنى لا يهديهم إلى الجنة كقوله : ﴿ ولا يهديهم طريقاً إلا طريق جهنم ﴾ [النساء : 168169] وقوله : ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار ﴾ [يونس : 9] وقال أهل السنة : المراد بالهداية خلق المعرفة . وقد جرت سنة الله في باب التكليف وفي دار العمل أن كل فعل يقصد العبد إلى تحصيله فإنه الله يخلقه عقيب قصد العبد فكأنه تعالى قال : كيف يخلق الله فيهم المعرفة والهداية وهم قصدوا تحصيل الكفر وأرادوه . ؟ وقال أهل التحقيق : كيف يهدي الله

إليه قوماً احتجبوا بالصفات الإنسانية والطبائع الحيوانية عن الأخلاق الربانية . وقوله : ﴿ وشهدوا ﴾ عطف على ما في إيمانهم من معنى الفعل إذ هو في تقدير أن آمنوا كقوله تعالى : ﴿ فأصدق وأكن ﴾ [المنافقون : 10] ويجوز أن يكون الواو للحال بإضمار " قد " أي كفروا وقد شهدوا أن الرسول حق . وكيفما كان فمعنى الآية يؤل إلى أنه تعالى لا يهدي قوماً كفروا بعد الإيمان وبعد الشهادة بأن الرسول حق في نفسه غير باطل ولا مما يسوغ إنكاره بعد أن جاءتهم الشواهد الدالة على صدقه من القرآن وغيره ، لكن الشهادة هي الإقرار باللسان ، فيكون المراد من الإيمان هو التصديق بالقلب ليكون المعطوف مغايراً للمعطوف عليه . ﴿ والله لا يهدي القول الظالمين ﴾ الواضعين للشيء في غير موضعه وذلك أن الخصال الثلاث – أعني الإيمان والشهادة ومشاهدة المعجزات – توجب مزيد الإيمان بالنبي المبعوث في آخر الزمان لا الكفر والعناد . وفيه دليل على أن زلة العالم أقبح من زلة الجاهل ولهذا صرح في آخر الآية بأنه تعالى لا يهديهم بعد أن عرض بذلك في أول الآية ، ثم أردفه بغاية الوعيد قائلاً ﴿ أولئك جزاؤهم ﴾ إلى قوله : ﴿ ولا

هم ينظرون ﴾ وقد مر مثله في البقرة . وهذا تحقيق قول المتكلمين بأن العذاب الملحق بالكافر مضرة خالصة عن شوائب المنافع دائمة غير منقطعة . ﴿ إلا الذين تابوا من بعد ذلك ﴾ الكفر العظيم . ولا يكفي التوبة وحدها حتى يضاف إليها العمل الصالح فلهذا قال : ﴿ وأصلحوا ﴾ أي باطنهم مع الحق بالمراجعات ، وظاهرهم مع الخلق بالعبادات ، وأظهروا إنا كنا على الباطل حتى لو اغتر بطريقتهم المنحرفة مغتر رجع عنها . ﴿ فإن الله غفور ﴾ في الدنيا بالستر ﴿ رحيم ﴾ في الآخرة بالعفو . أو غفور بإزالة العقاب ، رحيم بإعطاء الثواب . قوله سبحانه ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً ﴾ ازدياد الكفر قد يراد به الإصرار على الكفر ، وقد يراد به ضم كفر إلى كفره وهو المراد في الآية باتفاق عامة المفسرين . ثم اختلفوا فقيل : إنهم أهل الكتاب آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ثم كفروا به عند المبعث ثم ازدادوا كفراً بسبب طعنهم فيه كل وقت ، وإنكارهم لكل معجز يظهر عليه إلى غير ذلك من تخليطاتهم وتغليطاتهم .

وقيل : إن اليهود كانوا مؤمنين بموسى ثم كفروا بعيسى والإنجيل ، ثم ازدادوا كفراً بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن . وهذا قول الحسن وقتادة وعطاء ، وقيل : نزلت في الذين

ارتدوا وذهبوا إلى مكة ، وازديادهم الكفر أنهم قالوا : نقيم بمكة نتربص بمحمد ريب المنون . وقيل : عزموا على الرجوع إلى الإسلام على سبيل النفاق فسمى الله تعالى ذلك النفاق زيادة في الكفر ثم إنه تعالى حكم في الآية الأولى بقبول توبة المرتدين ، وحكم تعالى في هذه الآية بعدم قبولها ، وهذا يوهم التناقض . وأيضاً ثبت بالدليل أن التوبة بشروطها مقبولة فما معنى قوله ﴿ لن تقبل توبتهم ﴾ قال الحسن وقتادة وعطاء : المراد بازدياد الكفر إصرارهم عليه فلا يتوبون إلا عند حضور الموت ، والتوبة حينئذٍ لا تقبل لقوله تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ﴾ [النساء : 18] وقيل : هي محمولة على ما إذا تابوا باللسان لا عن الإخلاص . وقال القاضي والقفال وابن الأنباري : هي من تتمة قوله : ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ يريد أنه لو كفر بعد التوبة الأولى فإن التوبة الأولى لا تكون مقبولة . وقيل : لعل المراد أن التوبة من تلك الزيادة لا تكون مقبولة ما لم يتب عن الأصل المزيد عليه . أقول : ويحتمل أن يكون لن تقبل توبتهم جعل كناية الموت على الكفر كأنه قيل : إن اليهود والمرتدين المصرين على الكفر ما يتوبون عن الكفر لما في فعلهم من قساوة القلوب والإفضاء إلى الرين وانجراره إلى الموت على حالة الكفر . وفائدة هذه الكناية تصير كونهم آيسين من الرحمة ، هذا إذا خصصنا اليهود والمرتدين بالمصرين ، أما على تقدير التعميم فنقول : إنما يجعل الموت على الكفر لازماً لازدياد كفرهم لأن القضية حينئذٍ لا تكون كلية ، فكم من مرتد أو يهودي مزداد للكفر لا

بمعنى الإصرار يرجع إلى الإسلام ولا يموت على الكفر . فاكتفى بذكر لازم الموت على الكفر وهو عدم

(269/123)

قبول التوبة حتى برز الكلام في معرض الكناية . ومن المعلوم أنها ذكر اللازم وإرادة الملزوم ، وأنه لا بد للعدول من فائدة ، فصح أن نبين فائدة العدول على وجه يصير القضية كلية وهي التغليظ في شأن أولئك الفريق من الكفار وإبراز حالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة التي هي أغلظ الأحوال وأشدها ، ألا ترى أن الموت على الكفر إنما يخاف لأجل اليأس من الرحمة ، وهذا هو الذي عول عليه في الكشاف . والحاصل أنه كأنه قيل : إن اليهود والمرتدين الذين فعلوا ما فعلوا من حقهم أن لا تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون الكاملون في الضلال ، ضلوا في تيه الأوصاف البهيمة والأخلاق السبعية فلم يكادوا يخرجون منها بقدم الإنابة .

واعلم أن الكافر على ثلاثة أقسام : أحدها الذي يتوب عن الكفر توبة صحيحة مقبولة وهو الذي سيق لأجله الآية التي ردفها الاستثناء ، وثانيها الذي يتوب توبة فاسدة وهو المذكور في قوله : ﴿ لن تقبل توبتهم ﴾ على وجه .

وثالثها الذي يموت على الكفر من غير توبة فذكره في الآية الأخيرة . ومِلْ الشيء قدر ما يملؤه و ﴿ ذهباً ﴾ نصب على التمييز . وربما يقال على التفسير ، ومعناه أن يكون الكلام تاماً إلا أنه يكون مبهماً كقولك " عندي عشرون " فالعدد معلوم والمعدود مبهم . فإذا قلت " درهماً " فسرت العدد . ومعنى الفاء في ﴿ فلن يقبل ﴾ أن يعلم أن الكلام مبني على لاشرط والجزاء ، وإذا ترك كما في الآية الأولى فلعدم قصد التسبيب والاكتفاء بمجرد الحمل والوضع . هذا ما قاله النحويون ومنهم صاحب الكشاف . وليت شعري أنهم لو سئلوا عن تخصيص كل موضع بما خصص به فبماذا يجيبون ؟ ولعل عقيدتهم في أمثال هذه المواضع أنها من الأسئلة المتقلبة وهو وهم . والسر في التخصيص هو أنه لما قيد في الجملة الثانية أنهم قد ماتوا على الكفر زيدت فاء السببية الجزائية تأكيداً للزوم وتغليظاً في الوعيد والله أعلم . أما الواو في قوله ﴿ ولو افتدى به ﴾ فإنها تشبه عطف الشيء على نفسه لأنه كالمكرر ، فلهذا كثر أقاويل العلماء فيه فقال الزجاج وابن الأنباري : إنها للعطف والتقدير : لو تقرب إلى الله بملء الأرض ذهباً لم يمنعه ذلك مع كفره ولو افتدى به أيضاً لم يقبل منه . وقيل : إنها لبيان التفصيل بعد الإجمال فإن إعطاء ملء الأرض ذهباً يحتمل الوجوه

الكثيرة ، فنص على نفي القبول بجهة الفدية . وقيل : إن الملوك قد لا يقبلون الهدية ويقبلون الفدية ، فإذا لم يقبلوا الفدية كان ذلك غاية الغضب ونهاية السخط ، فعبر بنفي قبول الفداء عن شدة الغضب . وقيل : إنه محمول على المعنى كأنه قيل : فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً . وقيل : يجوز أن يراد ولو افتدى بمثله كقوله : ﴿ ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به ﴾ [الزمر : 47] والمثل يحذف كثيراً في كلامهم مثل : ضربت ضرب زيد . أي مثل ضربه . و " أبو يوسف وأبو حنيفة " تريد مثله . كما أنه يراد به في نحو

(271/123)

قولهم " مثلك لا يفعل " كذا أي أنت . وذلك أن المثلين يقول أحدهما مقام الآخر في أغلب الأمور فكانا في حكم شيء واحد ، فإن قيل : من المعلوم أن الكافر لا يملك يوم القيامة شيئا ، وبتقدير أن يملك فلا نفع في الذهب هناك ، فما فائدة هذا الكلام ؟ فالجواب أنه على سبيل الفرض والتقدير ، والذهب كناية عن أعز الأشياء . والمراد أنه لو قدر على أعز الأشياء وفرض أن في بذله نفعاً للآخذ وأن المبذول في غاية الكثرة لعجز أن يتوصل بذلك إلى تخليص نفسه من عذاب ربه . ثم صرح بعقابهم ونفى من يشفع لهم فقال : ﴿ أولئك

لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾ قال أهل التحقيق : وما توا أي ماتت قلوبهم ﴿ أولئك لهم عذاب أليم ﴾ بموت القلب وفقد المعرفة ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ على إحياء القلب بنور المعرفة حسبي الله ونعم الوكيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 2 صـ 197.206 ﴾

(272/123)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : الاصطفاء ثلاثة أنواع : اصطفاء على غير الجنس

﴿ إن الله اصطفى آدم ﴾ [آل عمران : 33] ولم يكن له جنس حين خلقه وأسجد له ملائكته ، واصطفاء على الجنس وعلى غير الجنس كاصطفاء محمد صلى الله عليه وسلم على الكائنات كقوله : لولاك لما خلقت الأفلاك . وقال صلى الله عليه وسلم : « آدم فمن دونه تحت لوائي » ، واصطفاء على الجنس كقوله : ﴿ يا موسى إني اصطفيتك على الناس ﴾ [الأعراف : 144] ولمريم ﴿ إن الله اصطفاك ﴾ لاصطفائك إياه ﴿ وطهرك ﴾ عن الالتفات لغيره ﴿ واصطفاك على نساء العالمين ﴾ لنيل درجة الكمال

وإن لم يكن ذلك من شأن النساء . ﴿ إن الله يبشرك بكلمة منه ﴾ كل صنف من أصناف الخلق حرف من حروف كلمة معرفة الله تعالى . والعالم بما فيه كلمة المعرفة كقوله : « كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف » والإنسان وإن كان صنفاً من أصناف العالم وهو حرف من حروف كلمة المعرفة لكنه خلق نسخة العالم بما فيه فهو أيضاً كلمة المعرفة كالعالم ، لكنه خص من العالم بما فيه بكرامة معرفة نفسه ومعرفة ربه ومعرفة العالم بما فيه ، وهذا مقام مخصوص بالإنسان الكامل المزكى بتزكيه الشريعة المربى بتربية أرباب الطريقة . وإنما خص عيسى علية السلام بهذا الاسم – أعنى الكلمة – من بين سائر الأنبياء والأولياء لأنه خلق مستعداً لهذا الكمال في بدء أمره . قد فهم من كلمة نفسه معرفة ربه كما قال صلى الله عليه وسلم « من عرف نفسه فقد عرف ربه » وكان من اختصاصه بالكلمة أنه قال في المهد : ﴿ إني عبد الله آتاني الكتاب ﴾ [مريم : 30] روى مجاهد قال : قالت مريم بنت عمران : كنت إذا خلوت أنا وجنيني حدثته وحدثني ، فإذا شغلني عنه إنسان سبح في بطني وأنا أسمع . وسمي المسيح لأنه حين مسح الله تعالى ظهر آدم فاستخرج منه ذرّات ذرّياته لم يردّه إلى مقامه كما جاء في الخبر « إن الله تعالى أذن للذرّات بالرجوع إلى ظهر آدم وحفظ ذرة عيسى وروحه عنده حتى ألقاها إلى مريم » فكان قد بقي عليه اسم المسيح أي

المسوح . ﴿ وكهلاً ﴾ أي حالة النبوة لأن بلوغ الأنبياء عند كهولتهم ﴿ ومن الصالحين ﴾ يعني صلاحية قبول الفيض بلا واسطة كما هو حال جميع الأنبياء عليهم السلام . ﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾ الروح الإنساني الذي هو خليفة الله في أرضه قابل لجميع أنوار الصفات خلافة عنه حتى القدرة على الخلق والإحياء والإبراء والإنباء وغير ذلك من الآيات التي هي من نتاج القدرة ، لكنه لتعلقه بالجسد الكائن من العناصر ولاحتجابه بظلمات شهوات الأبوين امتنع عن قبول أنوار الصفات إلى أن يخرجه مدد العناية بطريق الهداية ، وقوة استعداد الروحية والجسمية من تلك الظلمات فيظهر على النبي صلى الله عليه وسلم آيات المعجزات وعلى الولي أمارات الكرامات . ولما كان روح عيسى عليه السلام وذرّة طينته المستخرجة من ظهر آدم محتبسة عند الله حتى ألقاها إلى مريم من غير شائبة ظلمات شهوة الأبوين ولهذا سمي روح الله ، كان قابل أنوار الصفات في بدوّ أمره يكلم الناس في المهد ويكتب ويقرأ التوراة والإنجيل غير من تعلم ، ويحيي ويبرىء إلى غير ذلك من الآيات ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر ﴾ فيه إشارة إلى أن عيسى الروح ، لما أحس من النفس وصفاتها الكفر ﴿ قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون ﴾ وهم القلب وصفاته ﴿ نحن أنصار الله آمنا بالله ﴾ أي بوحدانيته والتبري عن غيره ﴿ واشهد بأنا مسلمون ﴾ منقادون لأحكامه ، راضون بقضائه ، صابرون على بلائه ﴿

ربنا آمنا بما أنزلت ﴾ من الحكم والأسرار واللطائف والحقائق ﴿ واتبعنا الرسول ﴾ الوارد من نفحات ألطافك ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ المشاهدين لأنوار جلالك ﴿ ومكروا ﴾ أي النفس وصفاتها والشياطين وأتباعها في هلاك عيسى الروح ﴿ ومكر الله ﴾ بتجلي صفات قهره في فناء النفس وصفاتها ﴿ والله خير الماكرين ﴾ في قهر النفس الأمارة بالسوء وقمع صفاتها وقلع شهواتها ﴿ إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ﴾ عن الصفات النفسانية والسمات

(274/123)

الحيوانية ﴿ ورافعك إليّ ﴾ بجذبات العناية كما أسرى بعبده إلى قاب قوسين أو أدنى . ومن خواص الجذبة الربوبية خمود الصفات البشرية ﴿ ثم إليّ مرجعكم ﴾ باللطف أو القهر بالاختيار على قدم السلوك ، أو بالاضطرار عند نزع الروح . ﴿ فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا ﴾ بحجاب الغفلة والاشتغال بغير الله ، ﴿ والآخرة ﴾ بالقطيعة والبعد عن الله ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ الذين يظلمون أنفسهم بانقضاء العمر في طلب غير الله تعالى . ثم قال له كن فيكون . هذه السنة في تكوين الأرواح والملكوت لا الأجساد والملك ، ولكنه أجراها في تكوين آدم من تراب بلا أب وأم ، وخلق حوّاء منه بلا أم ، وخلق عيسى

ابن مريم بلا أب خرقاً للعادة ودلالة على اختياره ورغماً بأنف من قال بالإيجاب في الإيجاد ﴿ فلا تكن من الممترين ﴾ نهي الكينونة قاله في الأزل فما كان من الممترين ولا يكون إلى الأبد . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 2 صـ 175.176 ﴾

(275/123)

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة :

﴿ قُلْ يا أهل أَهْلِ الكتاب تَعَالَوْاْ إلى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [آل عمران : 64] وهي كلمة التوحيد وترك اتباع الهوى والميل إلى السوى فإن ذلك لم يختلف فيه نبي ولا كتاب قط ﴿ مَا كَانَ إبراهيم ﴾ الخليل يهودياً متعلقاً بالتشبيه ﴿ وَلاَ نَصْرَانِيّا ﴾ قائلاً بالتثليث ﴿ وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا ﴾ مائلاً عن الكون برؤية المكون ﴿ مُّسْلِمًا ﴾ [آل عمران : 67] منقاداً عند جريان قضائه وقدره ، أو ذاهباً إلى ما ذهب إليه المسلمون المصطفون القائلون ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء وَهُوَ السميع البصير ﴾ [الشورى : 11] ، ﴿ إِنَّ أَوْلَى الناس بإبراهيم لَلَّذِينَ اتبعوه ﴾ بشرط التجرد عن الكونين ومنع النفوس عن الالتفات إلى العالمين فإن الخليل لما بلغ حضرة القدس زاغ بصره عن عرائس الملك والملكوت فقال ﴿ إِنّى بَرِىء

مّمَّا تُشْرِكُونَ إِنّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السموات والأرض ﴾ [الأنعام : 78 ، 79]

﴿ وهذا النبى ﴾ العظيم يعني محمداً عليه من الله تعالى أفضل الصلاة وأكمل التسلم أولى أيضاً بمتابعة أبيه الخليل وسلوك منهجه الجليل لأنه زبدة مخيض محبته وخلاصة حقيقة فطرته ﴿ والذين ءامَنُواْ ﴾ به صلى الله عليه وسلم وأشرقت عليهم أنواره وأينعت في رياض قلوبهم أسراراه ﴿ والله وَلِىُّ المؤمنين ﴾ [آل عمران : 68] كافة يحفظهم عن آفات القهر ويدخلهم في قباب العصمة ويبيح لهم ديار الكرامة ﴿ وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ جعله أهل الله سبحانه خطاباً للمؤمنين كما قال بذلك بعض أهل الظاهر أي لا تفشوا أسرار الحق إلا إلى أهله ولا تقروا بمعاني الحقيقة للمحجوبين من الناس فيقعون فيكم ويقصدون سفك دمائكم ﴿ قُلْ إِنَّ الهدى ﴾ أعني ﴿ هُدَى الله أَن يؤتى أَحَدٌ مّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ﴾ من علم الباطن ، أو مثل ما يحاجوكم به في زعمهم عند ربكم وهو علم الظاهر .

(276/123)

وحاصل المعنى : إن الهدى بين الظاهر والباطن وأما الاقتصار على علم الظاهر وإنكار الباطن فليس بهدى ﴿ قُلْ إِنَّ الفضل بِيَدِ الله ﴾ فيتصرف به حسب مشيئته التابعة لعلمه التابع للمعلوم في أزل الآزال ﴿ والله واسع عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : 73] فكيف

يتقيد بالقيود بل يتجلى حسبما تقتضيه الحكمة في المظاهر لأهل الشهود ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ ﴾ الخاصة ﴿ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وهي المعرفة به وهي فوق مكاشفة غيب الملكوت ومشاهدة سر الجبروت ، ﴿ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ [آل عمران : 74] الذي لا يكتنه ﴿ بلى مَنْ أوفى بِعَهْدِهِ ﴾ وهو عهد الروح بنعت الكشف ؛ وعهد القلب بتلقي الخطاب ، وعهد العقل بامتثال الأوامر والنواهي ﴿ واتقى ﴾ من خطرات النفوس وطوارق الشهوات ﴿ فَإِنَّ الله يُحِبُّ المتقين ﴾ [آل عمران : 76] أي فهو بالغ مقام حقيقة المحبة ﴿ إِنَّ الذين يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ الله وأيمانهم ثَمَنًا قَلِيلا ﴾ [آل عمران : 77] الآية إشارة إلى من مال إلى خضرة الدنيا وآثرها على مشاهدة حضرة المولى وزين ظاهره بعبادة المقربين ومزجها بحب الرياسة فذلك الذي سقط عن رؤية اللقاء ومخاطبة الحق في الدنيا والآخرة ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ الله الكتاب والحكم والنبوة ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ الله ﴾ لأن الاستنباء لا يكون إلا بعد الفناء في التوحيد فمن محا الله تعالى بشريته بإفنائه عن نفسه وأثابه وجوداً نورانياً حقياً قابلاً للكتاب والحكمة العقلية لا يمكن أن يدعو إلى نفسه إذ الداعي إليها لا يكون إلا محجوباً بها ، وبين الأمرين تناقض ﴿ ولكن ﴾ يقول :

﴿ كُونُواْ ربانيين ﴾ [آل عمران : 79] أي منسوبين إلى الرب ، والمراد عابدين مرتاضين بالعلم والعمل والمواظبة على الطاعات لتغلب على أسراركم أنوار الرب ، ولهم في الرباني عبارات كثيرة ، فقال الشبلي : الرباني الذي لا يأخذ العلوم إلا من الرب ولا يرجع في شيء إلا إليه ، وقال سهل : الرباني الذي لا يختار على ربه حالا ، وقال القاسم : هو المتخلق بأخلاق الرب علماً وحكماً ، وقيل : هو الذي محق في وجوده ومحق عن شهوده ، وقيل : هو الذي لا تؤثر فيه تصاريف الأقدار على اختلافها وقيل وقيل .

(278/123)

وكل الأقوال ترد من منهل واحد ، ﴿ وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الملائكة والنبيين أَرْبَاباً ﴾ فإنها بعض مظاهره وهو سبحانه المطلق حتى عن قيد الإطلاق ﴿ أَيَأْمُرُكُم بالكفر بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : 80] أي أيأمركم بالاحتجاب برؤية الأشكال والنظر إلى الأمثال بعد أن لاح في أسراركم أنوار التوحيد وطلعت في قلوبكم شموس التفريد ﴿ وَإِذْ أَخَذَ الله ميثاق النبيين ﴾ [آل عمران : 18] الآية فيه إشارة إلى أنه سبحانه أخذ العهد من نواب الحقيقة المحمدية في الأزل بالانقياد والطاعة والإيمان بها ، وخصهم بالذكر لكونهم

أهل الصف الأول ورجال الحضرة ، وقيل : إن الله تعالى أخذ عليهم ميثاق التعارف بينهم وإقامة الدين وعدم التفرق وتصديق بعضهم بعضاً ودعوة الخلق إلى التوحيد وتخصيص العبادة بالله تعالى وطاعة النبي وتعريف بعضهم بعضاً لأممهم ، وهذا غير الميثاق العام المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءادَمَ ﴾ [الأعراف : 172] الخ ﴿ فَمَنْ تولى بَعْدَ ذلك ﴾ أي بعد ما علم عهد الله تعالى مع النبيين وتبليغ الأنبياء إليه ما عهد إليهم ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفاسقون ﴾ [آل عمران : 82] أي الخارجون عن دين الله تعالى ولا دين غيره معتداً به في الحقيقة إلا توهماً ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى السموات والأرض ﴾ أي من في عالم الأرواح وعالم النفوس ، أو من في عالم الملكوت وعالم الملك ﴿ طَوْعاً ﴾ باختياره وشعوره ﴿ وَكَرْهًا ﴾ من حيث لا يدري ولا يدري أنه لا يدري بسبب احتجابه برؤية الأغيار ، ولهذا سقط عن درجة القبول ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران : 83] في العاقبة حين يكشف عن ساق ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام ﴾ وهو التوحيد ﴿ دِينًا ﴾ له ﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ لعدم وصوله إلى الحق لمكان الحجاب ﴿ وَهُوَ فِى الآخرة ﴾ ويوم القيامة الكبرى ﴿

مّنَ الخاسرين ﴾ [آل عمران : 85] الذين خسروا أنفسهم ﴿ كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا ﴾ [آل عمران : 86] الآية استبعاد لهداية من فطره الله على غير استعداد المعرفة ، وحكم عليه بالكفر في سابق الأزل فإن من لم يكن له استعداد لم يقع في أنوار التجلي ، ومن خاض في بحر القهر ولزم قعر بعد البعد لم يكن له سبيل إلى ساحل قرب القرب والله غالب على أمره ولله در من قال :

إذ المرء لم يخلق سعيداً تحيرت . . .

ظنون مربيه وخاب المؤمل

فموسى الذي رباه جبريل كافر . . .

وموسى الذي رباه فرعون مرسل

هذا والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 222.220 ﴾

(280/123)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فِى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والعشرون بعد المائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الرابع والعشرون بعد المائة

من الآية ﴿ 92 ﴾ من سورة آل عمران

وحتى الآية ﴿ 92 ﴾ نفس الآية

قوله تعالى ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (92) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان آخر هذه القصص في الحقيقة إبطال كل ما خالف الإسلام الذي هو معنى ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [آل عمران : 19] - وما بعد ذلك إنما جرّه - ختم الآية بدعوى أن المخالفين من الخاسرين ، وختم ذلك بأن من مات على الكفر لا يقبل إنفاقه للإنقاذ مما يلحقه من الشدائد ، لا بدفع لقاهر ولا بتقوية لناصر ، فتشوفت النفس إلى الوقت الذي يفيد فيه الإنفاق وأي وجوهه أنفع ، فأرشد إلى ذلك وإلى أن الأحب منه أجدر بالقبول ، رجوعاً إلى ما قرره سبحانه وتعالى قبل آية الشهادة بالوحدانية من صفة عباده المنفقين والمستغفرين بالأسحار على وجه أبلغ بقوله : ﴿ لن تنالوا البر ﴾ وهو كمال الخير ﴿ حتى تنفقوا ﴾ أي في وجوه الخير ﴿ مما تحبون ﴾ أي من كل ما تقتضون ، كما ترك إسرائيل عليه الصلاة والسلام أحب الطعام إليه لله سبحانه وتعالى .

ولما كان التقدير : فإن أنفقتم منه علمه الله سبحانه وتعالى فأنالكم به البر ، وإن تيممتم الخبيث الذي تكرهونه فأنفقتموه لم تبروا ، وكان كل من المحبة والكراهة أمراً خفياً ، قال

سبحانه وتعالى مرغماً مرهباً : ﴿ وما تنفقوا من شيء ﴾ أي من المحبوب وغيره ﴿ فإن الله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة .

وقدم الجار اهتماماً به إظهاراً لأنه يعلمه من جميع وجوهه ما تقول لمن سألك – هل تعلم كذا : لا أعلم إلا هو ، فقال : ﴿ به عليم ﴾ فهذا كما ترى احتباك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 125 ﴾

فصل

قال الفخر :

(5/124)

اعلم أنه تعالى لما بيّن أن الإنفاق لا ينفع الكافر ألبتة علم المؤمنين كيفية الإنفاق الذي ينتفعون به في الآخرة ، فقال : ﴿ لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وبيّن في هذه الآية أن من أنفق مما أحب كان من جملة الأبرار ، ثم قال في آية أخرى ﴿ إِنَّ الأبرار لَفِى نَعِيمٍ ﴾ [المطففين : 22] وقال أيضاً : ﴿ إِنَّ الأبرار يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ [الإنسان : 5] وقال أيضاً : ﴿ إِنَّ الأبرار لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى الأرائك يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النعيم * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * ختامه مِسْكٌ وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ

المتنافسون ﴾ [المطففين : 22 ، 26] وقال : ﴿ لَّيْسَ البر أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المشرق والمغرب ﴾ [البقرة : 177] فالله تعالى لما فصل في سائر الآيات كيفية ثواب الأبرار اكتفى ههنا بأن ذكر أن من أنفق ما أحب نال البر ، وفيه لطيفة أخرى .

وهي أنه تعالى قال : ﴿ لَّيْسَ البر أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المشرق والمغرب ولكن البر مَنْ ءَامَنَ بالله واليوم الآخر والملائكة ﴾ إلى آخر الآية ، فذكر في هذه الآية أكثر أعمال الخير ، وسماه البر ثم قال في هذه الآية ﴿ لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ والمعنى أنكم وإن أتيتم بكل تلك الخيرات المذكورة في تلك الآية فإنكم لا تفوزون بفضيلة البر حتى تنفقوا مما تحبون ، وهذا يدل على أن الإنسان إذا أنفق ما يحبه كان ذلك أفضل الطاعات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 117 ﴾

فصل

قال القرطبى :

روى الأئمة واللفظ للنسائي عن أنس قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ قال أبو طلحة : إن ربنا ليسألنا من أموالنا فأشهدك يا رسول الله أني جعلت

أرضي لله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اجعلها في قرابتك في حسان بن ثابت وأُبيّ بن كعب " وفي الموطأ "وكانت أحب أمواله إليه بَيْرُحَاء ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيبٍ" .

وذكر الحديث .

ففي هذه الآية دليل على استعمال ظاهر الخطاب وعمومه ؛ فإن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لم يفهموا من فحوى الخطاب حين نزلت الآية غير ذلك .

ألا ترى أبا طلحة حين سمع ﴿ لَن تَنَالُوا۟ البر حتى تُنفِقُوا۟ ﴾ الآية ، لم يحتج أن يقف حتى يرد البيان الذي يريد اللَّهُ أن ينفق منه عبادُه بآية أخرى أو سنة مبيِّنة لذلك فإنهم يحبون أشياء كثيرة .

وكذلك فعل زيد بن حارثة .

عَمِد مما يحب إلى فرس يقال له "سَبَل" وقال : اللهم إنك تعلم أنه ليس لي مال أحب إليّ من فرسي هذه ؛ فجاء بها (إلى) النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هذا في سبيل الله .

فقال لأسامة بن زيد "اقبضه" .

فكأنّ زيداً وجد من ذلك في نفسه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله قد قبلها منك " ذكره أسد بن موسى .

وأعتق ابن عمر نافعاً مولاه، وكان أعطاه فيه عبد الله بن جعفر ألف دينار.

قالت صفية بنت أبي عبيد: أظنه تأوّل قول الله عز وجل: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

(7/124)

وروى شِبل عن ابن أبي نَجيح عن مجاهد قال: كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري أن يبتاع له جارية من سَبْي جَلُولاء يوم فتح مدائن كسْرَى؛ فقال سعد بن أبي وقاص، فدعا بها عمر فأعجبته، فقال إن الله عز وجل يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فأعتقها عمر رضي الله عنه.

وروي عن الثوري أنه بلغه أن أمّ ولد الرّبيع بن خَيْثم قالت: كان إذا جاءه السائل يقول لي: يا فلانة أعطي السائل سكراً، فإن الربيع يحب السكر.

قال سفيان: يتأوّل قوله جلّ وعز: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يشتري أعدالاً من سكر ويتصدّق بها.

فقيل له: هلا تصدّقت بقيمتها؟ فقال: لأن السكر أحب إليّ فأردت أن أنفق مما أحبّ.

وقال الحسن: إنكم لن تنالوا ما تحبون إلا بترك ما تشتهون، ولا تُدركوا ما تأمّلون إلا بالصبر

على ما تكرهون. انتهى انتهى . ا هـ ﴿تفسير القرطبى حـ 4 صـ 133.132 ﴾

فصل

قال الفخر :

وههنا بحث وهو : أن لقائل أن يقول كلمة ﴿ حتى ﴾ لانتهاء الغاية فقوله ﴿ لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حتى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ يقتضي أن من أنفق مما أحب فقد نال البر ومن نال البر دخل تحت الآيات الدالة على عظم الثواب للأبرار ، فهذا يقتضي أن من أنفق ما أحب وصل إلى الثواب العظيم وإن لم يأت بسائر الطاعات ، وهو باطل ،

(8/124)

وجواب هذا الإشكال : أن الإنسان لا يمكنه أن ينفق محبوبه إلا إذا توسل بإنفاق ذلك المحبوب إلى وجدان محبوب أشرف من الأول ، فعلى هذا الإنسان لا يمكنه أن ينفق الدنيا في الدنيا إلا إذا تيقن سعادة الآخرة ، ولا يمكنه أن يعترف بسعادة الآخرة إلا إذا أقر بوجود الصانع العالم القادر ، وأقر بأنه يجب عليه الانقياد لتكاليفه وأوامره ونواهيه ، فإذا تأملت علمت أن الإنسان لا يمكنه إنفاق الدنيا في الدنيا إلا إذا كان مستجمعاً لجميع الخصال المحمودة في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 117 ﴾

فصل

قال الفخر :

كان السلف إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله ، روي أنه لما نزلت هذه الآية قال أبو طلحة : يا رسول الله لي حائط بالمدينة وهو أحب أموالي إليّ أفأتصدق به ؟ فقال عليه السلام : " بخ بخ ذاك مال رابح ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين "

فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله ، فقسمها في أقاربه ، ويروى أنه جعلها بين حسّان بن ثابت وأُبي بن كعب رضي الله عنهما ، وروي أن زيد بن حارثة رضي الله عنه جاء عند نزول هذه الآية بفرس له كان يحبه وجعله في سبيل الله ، فحمل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة ، فوجد زيد في نفسه فقال عليه السلام : " إن الله قد قبلها " واشترى ابن عمر جارية أعجبته فأعتقها فقيل له : لم أعتقتها ولم تصب منها ؟ فقال : ﴿ لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 117 ﴾

فصل

قال الفخر :

للمفسرين في تفسير البر قولان

أحدهما : ما به يصيرون أبراراً حتى يدخلوا في قوله ﴿ إِنَّ الأبرار لَفِى نَعِيمٍ ﴾ فيكون المراد

بالبر ما يحصل منهم من الأعمال المقبولة

والثاني : الثواب والجنة فكأنه قال : لن تنالوا هذه المنزلة إلا بالانفاق على هذا الوجه .

(9/124)

أما القائلون بالقول الأول ، فمنهم من قال : ﴿ البر ﴾ هو التقوى واحتج بقوله ﴿ ولكن البر مَنْ ءامَنَ بالله ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك الذين صَدَقُوا وأولئك هُمُ المتقون ﴾ [البقرة : 177] وقال أبو ذر : إن البر هو الخير ، وهو قريب مما تقدم .

وأما الذين قالوا : البر هو الجنة فمنهم من قال : ﴿ لَن تَنَالُواْ البر ﴾ أي لن تنالوا ثواب البر ، ومنهم من قال : المراد بر الله أولياءه وإكرامه إياهم وتفضله عليهم ، وهو من قول الناس : برني فلان بكذا ، وبر فلان لا ينقطع عني ، وقال تعالى : ﴿ لاَّ ينهاكم الله عَنِ الذين لَمْ يقاتلوكم فِى الدين ﴾ إلى قول : ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ [الممتحنة : 8] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 118.117 ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلف المفسرون في قوله ﴿ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ منهم من قال : إنه نفس المال ، قال تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات : 8] ومنهم من قال : أن تكون الهبة رفيعة جيدة ، قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ [البقرة : 267] ومنهم من قال : ما يكون محتاجاً إليه قال تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ مِسْكِيناً ﴾ [الإنسان : 8] أحد تفاسير الحب في هذه الآية على حاجتهم إليه ، وقال : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : 9] وقال عليه السلام : " أفضل الصدقة ما تصدقت به وأنت صحيح شحيح تأمل العيش وتخشى الفقر " والأولى أن يقال : كل ذلك معتبر في باب الفضل وكثرة الثواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 118 ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلف المفسرون في أن هذا الإنفاق ، هل هو الزكاة أو غيرها ؟

(10/124)

قال ابن عباس : أراد به الزكاة ، يعني حتى تخرجوا زكاة أموالكم ، وقال الحسن : كل شيء أنفقه المسلم من ماله طلب به وجه الله فإنه من الذين عنى الله سبحانه بقوله ﴿ لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ حتى التمرة ، والقاضي اختار القول الأول ، واحتج عليه

بأن هذا الإنفاق ، وقف الله عليه كون المكلف من الأبرار ، والفوز بالجنة ، بحيث لو لم يوجد هذا الإنفاق ، لم يصر العبد بهذه المنزلة ، وما ذاك إلا الإنفاق الواجب ، وأقول : لو خصصنا الآية بغير الزكاة لكان أولى لأن الآية مخصوصة بإيتاء الأحب ، والزكاة الواجبة ليس فيها إيتاء الأحب ، فإنه لا يجب على المزكي أن يخرج أشرف أمواله وأكرمها ، بل الصحيح أن هذه الآية مخصوصة بإيتاء المال على سبيل الندب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 118 ﴾

فائدة

قال الفخر :

نقل الواحدي عن مجاهد والكلبي : أن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة ، وهذا في غاية البعد لأن إيجاب الزكاة كيف ينافي الترغيب في بذل المحبوب لوجه الله سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 118 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال بعضهم كلمة ﴿ مِنْ ﴾ في قوله ﴿ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ للتبعيض ، وقرأ عبد الله ﴿ حتى تُنفِقُواْ بَعْضِ مَا تُحِبُّونَ ﴾ وفيه إشارة إلى أن إنفاق الكل لا يجوز ثم قال : ﴿ والذين إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ [الفرقان : 67] وقال آخرون : إنها

للتبيين. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 118 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم ﴾

فصل

قال الفخر :

وأما قوله : ﴿ وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم ﴾ .

ففيه سؤال :

وهو أن يقال : قيل فإن الله به عليم على جهة جواب الشرط مع أن الله تعالى يعلمه على كل حال.

والجواب : من وجهين

(11/124)

الأول : أن فيه معنى الجزاء تقديره : وما تنفقوا من شيء فإن الله به يجازيكم قل أم كثر ، لأنه عليم به لا يخفى عليه شيء منه ، فجعل كونه عالماً بذلك الإنفاق كناية عن إعطاء الثواب ، والتعريض في مثل هذا الموضع يكون أبلغ من التصريح

والثاني : أنه تعالى يعلم الوجه الذي لأجله يفعلونه ويعلم أن الداعي إليه أهو الإخلاص أم

الرياء ويعلم أنكم تنفقون الأحب الأجود ، أم الأخس الأرذل .

واعلم أن نظير هذه الآية قوله ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ وقوله ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ﴾ [البقرة : 270] قال صاحب "الكشاف" ﴿ مِنْ ﴾ في قوله ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ لتبيين ما ينفقونه أي من شيء كان طيباً تحبونه أو خبيثاً تكرهونه فإن الله به عليم يجازيكم على قدره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 119 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

النيل : إدراك الشيء ولحوقه .

وقيل : هو العطية .

وقيل : هو تناول الشيء باليد ، يقال : نِلْتُه ، أناله ، نَيْلاً ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا ﴾ [التوبة : 120] .

وأما النول - بالواو - فمعناه التناول ، يقال : نِلتُه ، أنوله ، أي تناولته ، وأنلْته زيداً ، وأنوله إياه ، أي ناولته إياه ، كقولك : عطوته ، أعطوه ، بمعنى : تناولته ، وأعطيته إياه - إذا ناولته إياه .

قوله : " حتى تنفقوا " بمعنى إلى أن ، و" مِن " في "مما تحبون " تبعيضية يدل عليه قراءة عبد

الله : بعض ما تحبون .

قال شهاب الدين : " وهذه – عندي – ليست قراءة ، بل تفسير معنى " .

وقال آخرون : " إنها للتبيين " .

(12/124)

[وجوز أبو البقاء ذلك فقال : " أو نكرة موصوفة ولا تكون مصدرية ؛ لأن المحبة لا تنفق ، فإن جعلت المحبة بمعنى : المفعول ، جاز على رأي أبي علي " يعني يَبْقى التقدير : من الشيء المحبوب ، وهذان الوجهان ضعيفان والأول أضعف] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 385.386 ﴾

(13/124)

من فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ كلام مستأنف لبيان ما ينفع المؤمنين ويقبل منهم

إثر بيان ما لا ينفع الكفار ولا يقبل منهم ، وتنال من نال نيلاً إذا أصاب ووجد ، ويقال : نال العلم إذا وصل إليه واتصف به ، والبر الإحسان وكمال الخير ، وبعضهم يفرق بينه وبين الخير بأن البر هو النفع الواصل إلى الغير مع القصد إلى ذلك ، والخير هو النفع مطلقاً وإن وقع سهواً ، وضد البر العقوق ، وضد الخير الشر ، وأل فيه إما للجنس والحقيقة ، والمراد لن تكونوا أبراراً حتى تنفقوا وهو المروي عن الحسن ، وإما لتعريف العهد ، والمراد لن تصيبوا بر الله تعالى يا أهل طاعته حتى تنفقوا ، وإلى ذلك ذهب مقاتل وعطاء . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه تفسير البر بالجنة ، وروي مثله عن مسروق والسدي وعمرو بن ميمون ، وذهب بعضهم إلى أن الكلام على حذف مضاف أي لن تنالوا ثواب البر ، وحتى بمعنى إلى ، ومن تبعيضية ، ويؤيده قراءة عبد الله (بعض ما تحبون) ، وقيل : بيانية ، وعليه أيضاً لا تخالف بين القراءتين معنى ، و(ما) موصولة أو موصوفة ، وجعلها مصدرية والمصدر بمعنى المفعول جائز على رأي أبي علي . وفي المراد من قوله سبحانه : ﴿ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ أقوال ، فقيل المال وكنى بذلك عنه لأن جميع الناس يحبونه ، وقيل : نفائس الأموال وكرائمها ، وقيل : ما يعم ذلك وغيره من سائر الأشياء التي يحبها الإنسان ويهواها ، والإنفاق على هذا مجاز ، وعلى الأولين حقيقة .

وكان السلف رضي الله تعالى عنهم إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله تعالى ، فقد أخرج الشيخان والترمذي والنسائي عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار نخلاً بالمدينة وكان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب فلما نزلت ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة : يا رسول الله إن الله تعالى يقول : ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إليَّ بيرحاء وإنها صدقة لله تعالى أرجو برها وذخرها عند الله تعالى فضعها يا رسول الله حيث أراك الله تعالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بخ بخ ذلك مال رابح وقد سمعت ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه" وفي رواية لمسلم وأبي داود "فجعلها بين حسان بن ثابت وأُبي بن كعب" . وأخرج ابن أبي حاتم وغيره عن محمد بن المنكدر قال : "لما نزلت هذه الآية جاء زيد بن حارثة بفرس يقال لها سبل لم يكن له مال أحب إليه منها فقال : هي صدقة فقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحمل عليها ابنه أسامة فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك في وجه زيد فقال : إن الله تعالى قد قبلها منك" .

(15/124)

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عمر قال : "حضرتني هذه الآية ﴿لَن تَنَالُواْ البر﴾ الخ فذكرت ما أعطاني الله تعالى فلم أجد أحب إلي من مرجانة جارية لي رومية فقلت هي حرة لوجه الله تعالى فلو أني أعود في شيء جعلته لله تعالى لنكحتها فأنكحتها نافعاً ، وأخرج ابن المنذر عن نافع قال : كان ابن عمر رضي الله تعالى عنهما يشتري السكر يتصدق به فنقول له : لو اشتريت لهم بثمنه طعاماً كان أنفع لهم من هذا فيقول : أنا أعرف الذي تقولون ولكن سمعت الله تعالى يقول : ﴿لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وأن ابن عمر يحب السكر .

(16/124)

وظاهر هذه الأخبار يدل على أن الإنفاق في الآية يعم المستحب ، وروي عن ابن عباس أن المراد به إخراج الزكاة الواجبة وما فرضه الله تعالى في الأموال فكأنه قيل : لن تنالوا البر حتى تخرجوا زكاة أموالكم وهو مبني على أن المراد من ما تحبون المال لا كرائمه ، فقول

النيسابوري : إنه يرد عليه أنه لا يجب على المزكي أن يخرج أشرف أمواله وأكرمها ، ناشيء من قلة التأمل ، ولو تأمل ما اعترض على ترجمان القرآن وحبر الأمة ، ونقل الواحدي عن مجاهد والكلبي أن الآية منسوخة بآية الزكاة ، وضعف بأن إيجاب الزكاة لا ينافي الترغيب في بذل المحبوب في سبيل الله تعالى ، واستشكلت هذه الآية بأن ظاهرها يستدعي أن الفقير الذي لم ينفق طول عمره مما يحبه لعدم إمكانه لا يكون باراً أو لا يناله برّ الله تعالى بأهل طاعته مع أنه ليس كذلك ، وأجيب بأن الكلام خارج مخرج الحث على الإنفاق وهو مقيد بالإمكان وإنما أطلق على سبيل المبالغة في الترغيب ، وقيل : الأولى أن يكون المراد : لن تنالوا البر الكامل الواقع على أشرف الوجوه حتى تنفقوا مما تحبون والفقير الذي لم ينفق طول عمره لا يبعد القول بأنه لا يكون باراً كاملاً ولا يناله برّ الله تعالى الكامل بأهل طاعته ، وقيل : الأولى من هذا الأولى أن يقال : إن المراد : لن تنالوا البر على الإنفاق حتى تنفقوا مما تحبون وحاصله أن الإنفاق من المحبوب يترتب عليه نيل البر وأن الإنفاق مما عداه لا يترتب عليه نيل البر ، وليس في الآية ما يدل على حصر ترتب البر على الإنفاق من المحبوب ، ونفي ترتب البر على فعل آخر من الأفعال المأمور بها ، وحينئذ لا يبعد أن يكون الفقير الغير المنفق باراً أو نائلاً برّ الله تعالى بأهل طاعته من جهة أخرى ، وربما تستدعي أفعاله الخالية عن إنفاق المال من البرّ ما هو أكمل وأوفر مما يستدعيه

الإنفاق المجرد منه ؛ وينجر الكلام إلى مسألة تفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر ، وهي مسألة طويلة الذيل قد ألفت فيها الرسائل ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ ﴾ أي أي شيء تنفقونه من الأشياء ، أو أي شيء تنفقوا طيب تحبونه ، أو خبيث تكرهونه فمن على الأول متعلقة بمحذوف وقع صفة لاسم الشرط ، وعلى الثاني في محل نصب على التمييز ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ تعليل لجواب الشرط واقع موقعه أي فيجازيكم بحسبه فإنه تعالى عليم بكل ما تنفقونه ، وقيل : إنه جواب الشرط ، والمراد أن الله تعالى يعلمه موجوداً على الحدّ الذي تفعلونه من حسن النية وقبحها ، وتقديم الظرف لرعاية الفواصل ، وفي الآية ترغيب وترهيب قيل : وفيها إشارة إلى الحث على إخفاء الصدقة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 3 صـ 222 . 223 ﴾

ومن فوائد أبى حيان

قال عليه الرحمة :

﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها هو أنه لما أخبر عمن مات كافراً أنه لا يقبل ما أنفق في الدنيا ، أو ما أحضره لتخليص نفسه في الآخرة على الاختلاف الذي سبق ، حض المؤمن على الصدقة وبين أنه لن يدرك البر حتى ينفق مما يحب .

والبر هنا .

قال ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، والسدّي ، وعمرو بن ميمون : البر الجنة .

وقال الحسن ، والضحاك : الصدقة المفروضة .

وقال أبو روق : الخير كله .

وقيل : الصدق .

وقيل : أشرف الدين ، قاله عطاء .

وقال ابن عطية : الطاعة .

وقال مقاتل بن حيان : التقوى .

وقال الزجاج : كل ما تقرّب به إلى الله من عمل خير .

وقال معناه ابن عطية .

قال أبو مسلم : وله مواضع ، فيقال : الصدق البر ، ومنه : صدقت وبررت ، وكرام بررة ، والإحسان : ومنه بررت والدي ، واللطف والتعاهد : ومنه بر أصحابه إذا كان يزورهم ويتعاهدهم ، والهبة والصدقة : برّة بكذا إذا وهبه له .

وقال : ويحتمل لن تنالوا برّ الله بكم أي ، رحمته ولطفه . انتهى .

وهو قول أبي بكر الوراق ، قال : معنى الآية لن تنالوا برّي بكم إلاَّ ببرّكم بإخوانكم ، والإنفاق عليهم من أموالكم وجاهكم .

وروي نحوه على ابن جرير .

ويحتمل أن يريد : لن تنالوا درجة الكمال من فعل البر حتى تكونوا أبراراً إلاَّ بالإنفاق المضاف إلى سائر أعمالكم ، قاله ابن عطية .

وقد تقدّم شرح البرّ في قوله : ﴿ أتأمرون الناس بالبر ﴾ ولكن فعلنا ما قال الناس في خصوصية هذا الموضع .

و : من ، في : مما تحبون ، للتبعيض ، ويدل على ذلك قراءة عبد الله : حتى تنفقوا بعض ما تحبون .

و : ما ، موصولة ، والعائد محذوف .

والظاهر : أن المحبة هنا هو ميل النفس وتعلقها التعلق التام بالمنفق ، فيكون إخراجه على النفس أشق وأصعب من إخراج ما لا تتعلق به النفس ذلك التعلق ، ولذلك فسره الحسن ، والضحاك : بأنه محبوب المال ، كقوله : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ لذلك ما روي عن جماعة أنهم لهذه الآية تصدّقوا بأحب شيء إليهم ، فتصدّق أبو طلحة ببيرحاء ، وتصدق زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها ، وابن عمر بالسكر واللوز لأنه كان يحبه ، وأبو ذر بفحل

خير إبله وبرنس على مقرور ، وتلا الآية ، والربيع بن خيثم بالسكر لحبه له ، وأعتق عمر جارية أعجبته ، وابنه عبد الله جارية كانت أعجب شيء إليه .

وقيل : معنى مما تحبون ، نفائس المال وطيبه لا رديئه وخبيثه .

وقيل : ما يكون محتاجاً إليه .

وقيل : كل شيء ينفقه المسلم من ماله يطلب به وجه الله .

ولفظة : تحبون ، تنبو عن هذه الأقوال ، والذي يظهر أن الإنفاق هو في الندب ، لأن المزكي لا يجب عليه أن يخرج أشرف أمواله ولا أحبها إليه ، وأبعد من ذهب إلى أن هذه الآية منسوخة ، لأن الترغيب في الندب لوجه الله لا ينافي الزكاة .

(19/124)

قال بعضهم : وتدل هذه الآية على أن الكلام يصير شعراً بأشياء ، منها : قصد المتكلم إلى أن يكون شعراً ، لأن هذه الآية على وزن بيت الرمل ، يسمى المجزؤ والمسبع ، وهو :

يا خليليّ أربعا واستخبرا ل . . .

منزل الدارس عن حيّ حلال

رسماً بعسفان . . .

ولا يجوز أن يقال : إن في القرآن شعراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 2 صـ 546 547. ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾

اسئناف وقع معتَرَضاً بين جملة ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفّار ﴾ [آل عمران : 91] الآية ، وبين جملة ﴿ كُلّ الطعام كانَ حِلاّ لبني إسرائيل ﴾ [آل عمران : 93] .

وافتتاح الكلام ببيان بعض وسائل البرّ إيذَان بأنّ شرائع الإسلام تدور على مِحْور البرّ ، وأنّ البرّ معنى نفساني عظيم لا يخرِم حقيقته إلاّ ما يفضى إلى نقض أصل من أصول الاستقامة النَّفسانيّة .

فالمقصود من هذه الآية أمران : أوّلهما التَّحريض على الإنفاق والتّنويه بأنّه من البرّ ، وثانيهما التنويه بالبرّ الَّذِي الإنفاق خصلة من خصاله .

ومناسبة موقع هذه الآية تِلْو سابقتها أنّ الآية السّابقة لمّا بينت أنّ الّذين كفروا لن يقبل من أحدهم أعظم ما ينفقه ، بيّنت هذه الآية ما ينفع أهل الإيمان من بذل المال ، وأنّه يبلغ بصاحبه إلى مرتبة البرّ ، فبيْن الطرفيْن مراتب كثيرة قد علمها الفطناء من هذه المقابلة .

والخطاب للمؤمنين لأنّهم المقصود من كُلّ خطاب لم يتقدّم قبله ما يعيِّن المقصود منه .

والبرّ كمال الخير وشموله في نوعه : إذ الخير قد يعظم بالكيفية ، وبالكمّيّة ، وبهما معاً ، فبذل النَّفس في نصر الدّين يعظم بالكيفية في ملاقاة العدوّ الكثير بالعدد القليل ، وكذلك إنقاذ الغريق في حالة هوْل البحر ، ولا يتصوّر في مثل ذلك تعدّد ، وإطعام الجائع يعظم بالتعدّد ، والإنفاق يعظم بالأمرين جميعاً ، والجزاء على فعل الخير إذا بلغ كمال الجزاء وشموله كان برّاً أيضاً .

وروَى النَّوَّاسُ بن سِمْعان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال : " البرُّ حُسْن الخُلُق والإثمِ ما حاكَ في النفْس وكَرهتَ أن يَطَّلع عليه الناس " رواه مسلم .

ومُقابَلَة البرّ بالإثم تدلّ على أنّ البرّ ضدّ الإثم .

وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قِبل المَشرق والمغرب ﴾ [البقرة : 177] .

وقد جعل الإنفاق من نفس المال المُحَبّ غاية لانتفاء نوال البرّ ، ومقتضى الغاية أنّ نوال البرّ لا يحصل بدونها ، وهو مشعر بأنّ قبْل الإنفاق مسافات معنوية في الطريق الموصلة إلى البرّ ، وتلك هي خصال البرّ كلّها بقيتْ غير مسلوكة ، وأنّ البرّ لا يحصل إلاّ بِنهايتها وهو الإنفاق من المحبوب ، فظهر ل (حتّى) هنا موقع من البلاغة لا يخلفها فيه غيرها : لأنّه لو قيل إلاّ أن تنفقوا مِمَّا تحبّون ، لتوهمّ السامع أنّ الإنفاق من المحَبّ وحده يوجب نَوال البِرّ ، وفاتت

الدلالة على المسافات والدرجات الّتي أشعرت بها (حتّى) الغائية.

و(تنالوا) مشتقّ من النوال وهو التّحصيل على الشيء المعطي.

والتّعريف في البِرّ تعريف الجنس: لأنّ هذا الجنس مركّب من أفعال كثيرة منها الإنفاق المخصوص، فبدونه لا تتحقّق هذه الحقيقة.

والإنفاق: إعطاء المال والقوتِ والكسوة.

(21/124)

وما صدقُ (ما) في قوله: ﴿مما تحبون﴾ المال: أي المال النَّفيس العزيز على النَّفس، وسوّغ هذا الإبهام هنا وجود تنفقوا إذ الإنفاق لا يطلق على غير بذل المال ف(من) للتبعيض لا غير، ومن جوّز أن تكون (من) للتبيين فقد سها لأنّ التبيينية لا بدّ أن تُسبق بلفظ مبهم.

والمال المحبوب يختلف باختلاف أحوال المتصدّقين، ورغباتهم، وسعة ثرواتهم، والإنفاقُ منه أي التّصدق دليل على سخاءٍ لوجه الله تعالى، وفي ذلك تزكية للنّفس من بقية ما فيها من الشحّ، قال تعالى: ﴿ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ [الحشر: 9] وفي ذلك صلاح عظيم للأمّة إذ تجود أغنيَاؤها على فقرائها بما تطمح إليه نفوسهم من نفائس

الأموال فتشتدّ بذلك أواصر الأخوّة ، ويهنأ عيش الجميع .

وقد بيّن الله خصال البِرّ في قوله : ﴿ ولكن البر من آمن باللّه واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنّبيّين وآتى المال على حُبّه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقامَ الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ﴾ في سورة [البقرة : 177] .

(فالبرّ هو الوفاء بما جاء به الإسلام ممّا يعرض للمرء في أفعاله ، وقد جمع الله بينه وبين التّقوى في قوله : ﴿ وتعاونوا على البِر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ [المائدة : 2] فقابل البرّ بالإثم كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث النّواس بن سِمْعان المتقدّم آنفاً .

وقوله : ﴿ وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم ﴾ تَذْييل قُصد به تعميم أنواع الإنفاق ، وتبيين أنّ الله لا يخفى عليه شيء من مقاصد المنفقين ، وقد يكون الشيء القليل نفيساً بحسب حال صاحبه كما قال تعالى : ﴿ والذين لا يجدون إلاّ جهدهم ﴾ [التوبة : 79] .

(22/124)

وقوله: ﴿فإن الله به عليم﴾ مراد به صريحه أي يطّلع على مقدار وقعه ممّا رغَّب فيه، ومرَاد به الكناية عن الجزاء عليه. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ 152. 155﴾. بتصرف يسير.

وقال العلامة ابن عطية:

ذهب بعض الناس إلى أن يصل معاني هذه الآيات بعضها ببعض، من حيث أخبر تعالى: أنه لا يقبل من الموافي على الكفر ﴿ملء الأرض ذهباً﴾ [آل عمران: 91] وقد بان أنه يقبل من المؤمن القليل والكثير، فحض على الإنفاق من المحبوب المرغوب فيه، ثم ذكر تقرب إسرائيل عليه السلام، بتحريم ما كان يحب على نفسه، ليدل تعالى على أن جميع التقربات تدخل بالمعنى في جملة الإنفاق من المحبوب، وفسر جمهور المفسرين هذه الآيات، على أنها معان منحازة، نظمتها الفصاحة المعجزة أجمل نظم، وقوله تعالى ﴿لن تنالوا﴾ الآية، خطاب لجميع المؤمنين، وقال السدي وعمر بن ميمون: ﴿البر﴾ الجنة.

قال الفقيه الإمام: وهذا تفسير بالمعنى، وإنما الخاص باللفظة أنه ما يفعله البر من افاعيل الخير، فتحتمل الآية أن يريد: لن تنالو بر الله تعالى بكم، أي رحمته ولطفه، ويحتمل أن يريد: لن تنالوا درجة الكمال من فعل البر حتى تكونوا أبراراً، إلا بالإنفاق المنضاف إلى سائر أعمالكم، وبسبب نزول هذه الآية، تصدق أبو طلحة بحائطه، المسمى بيرحاء، وتصدق زيد بن حارثة بفرس كان يحبها، فأعطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم

أسامة ابنه ، فكأن زيداً شق عليه فقال له النبي : أما إن الله قد قبل صدقتك ، وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري أن يشتري له جارية من سبي جلولاء وقت فتح مدائن كسرى على يدي سعيد بن أبي وقاص فسيقت إليه وأحبها فدعا بها يوماً وقال : إن الله يقول ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ ، فأعتقها .

(23/124)

قال الفقيه الإمام أبو محمد : فهذا كله حمل للآية على أن قوله تعالى : ﴿ مما تحبون ﴾ أي من رغائب الأموال التي يضن بها ، ويتفسر بقول النبي صلى الله عليه وسلم : خير الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى - الحديث - وذهب قوم من العلماء إلى أن ما يحب من المطعومات على جهة الاشتهاء يدخل في الآية ، فكان عبد الله بن عمر ، يشتهي أكل السكر بالوز فكان يشتري ذلك ويتصدق به ويتلو الآية .

قال الفقيه الإمام أبو محمد : وإذا تأملت جميع الطاعات ، وجدتها إنفاقاً مما يحب الإنسان ، إما من ماله ، وإما من صحته ، وإما من دعته وترفهه ، وهذه كلها محبوبات ، وسأل رجل أبا ذر الغفاري رضي الله عنه ، أي الأعمال أفضل ؟ فقال : الصلاة عماد الإسلام ، والجهاد سنام العمل ، والصدقة شيء عجيب ، فقال له الرجل : أراك تركت شيئاً وهو

أوثقها في نفسي الصيام، فقال أبو ذر: قربة وليس هناك، ثم تلا ﴿لن تنالوا البر﴾ الآية، وقوله تعالى ﴿وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ شرط وجواب فيه وعد، أي عليم مجاز به وإن قل. انتهى انتهى. اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 1 صـ 471.472﴾

لطيفة

قال الثعالبى:

قال الغَزَّالِيُّ: قال نافعٌ: كانَ ابْنُ عُمَرَ مريضاً، فاشتهى سَمَكَةً طَرِيَّةً، فحملتْ إلَيْه على رغيفٍ، فقام سائلٌ بالبابِ، فأمر بدفعها إلَيْه، ثم قَالَ: سمعْتُ رسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم يَقُولُ "أَيُّمَا امرىء اشتهى شَهْوَةً، فَرَدَّ شَهْوَتَهُ، وآثَرَ على نَفْسِهِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ" انتهى انتهى. اهـ من "الإِحياء". (1) انتهى انتهى. اهـ ﴿الجواهر الحسان حـ 1 صـ 288﴾

---

(1) ﴿الإحياء حـ 3 صـ 92﴾

(24/124)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله:

﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾

كَمَا خَتَمَ - تَعَالَى - آيَةَ دَعْوَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَى الْإِسْلَامِ بِقَوْلِهِ : فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ [3 : 64] جَاءَ هُنَا بَعْدَ ذِكْرِ تَوْلِيَتِهِمْ عَنِ الْإِسْلَامِ يَأْمُرُنَا بِالْإِقْرَارِ بِهِ فَقَالَ مُخَاطِبًا لِنَبِيِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ أَيْ آمَنْتُ أَنَا وَمَنْ مَعِي بِوُجُودِ اللَّهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَكَمَالِهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا مِنْ كِتَابِهِ بِالتَّفْصِيلِ وَهَذِهِ الْآيَةُ نَظِيرُ قَوْلِهِ - تَعَالَى - فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا [2 : 136] إِلَخْ وَقَدْ عُدِّيَ الْإِنْزَالُ هُنَاكَ بِـ " إِلَى " الدَّالَّةِ عَلَى الْغَايَةِ وَالِانْتِهَاءِ ، وَهُنَا بِـ " عَلَى " الَّتِي لِلِاسْتِعْلَاءِ وَكِلَا الْمَعْنَيَيْنِ صَحِيحٌ ، كَمَا قَالَ فِي الْكَشَّافِ رَامِيًا بِالتَّعَسُّفِ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ التَّعْدِيَتَيْنِ بِاخْتِلَافِ الْمَأْمُورِ بِالْقَوْلِ فِي الْآيَتَيْنِ إِذْ هُوَ هُنَاكَ الْمُؤْمِنُونَ وَهَاهُنَا النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ; لِأَنَّ التَّعْدِيَةَ بِـ " إِلَى " وَرَدَتْ فِي خِطَابِ النَّبِيِّ ، وَالتَّعْدِيَةَ بِـ " عَلَى " وَرَدَتْ فِي خِطَابِ غَيْرِهِ فِي آيَاتٍ أُخْرَى .

وَقَدَّمَ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ عَلَى الْإِيمَانِ بِإِنْزَالِ الْوَحْيِ لِأَنَّهُ الْأَصْلُ الْأَوَّلُ الْمَقْصُودُ بِالذَّاتِ وَالْوَحْيُ فَرْعٌ لَهُ ، إِذْ هُوَ وَحْيُهُ - تَعَالَى - إِلَى رُسُلِهِ .

وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ أَيْ وَآمَنَّا بِمَا أُنْزِلَ عَلَى هَؤُلَاءِ بِالْإِجْمَالِ أَيْ صَدَّقْنَا بِأَنَّ اللهَ - تَعَالَى - أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ وَحْيًا لِهِدَايَةِ أَقْوَامِهِمْ ، وَأَنَّهُ مُوَافِقٌ لِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا فِي أَصْلِهِ وَجَوْهَرِهِ وَالْقَصْدِ مِنْهُ أَخْبَرَنَا

اللهُ - تَعَالَى - فِي مِثْلِ قَوْلِهِ : قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى [87 : 14] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ وَقَوْلِهِ : أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ [35 : 36 ، 37] إِلَخْ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ [4 : 163] إِلَخْ . وَأَمَّا عَيْنُ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ فِي أَيْدِي الْأُمَمِ شَيْءٌ يُعْتَمَدُ عَلَى نَقْلِهِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى مِنَ التَّوْرَاةِ لِلْأَوَّلِ وَالْإِنْجِيلِ لِلثَّانِي ، (وَ) مَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ كَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَمْ يَقُصَّ اللهُ عَلَيْنَا خَبَرَهُمْ ، فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ قَصَّهُ عَلَيْنَا وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَقْصُصْهُ ، فَإِذَا ثَبَتَ عِنْدَنَا أَنَّ نَبِيًّا ظَهَرَ فِي الْهِنْدِ أَوِ الصِّينِ قَبْلَ خَتْمِ النُّبُوَّةِ نُؤْمِنُ بِهِ . وَارْجِعْ إِلَى آيَةِ الْبَقَرَةِ فِي اسْتِبَانَةِ الْفَرْقِ بَيْنَ التَّعْبِيرِ بِالْإِنْزَالِ وَالتَّعْبِيرِ بِالْإِتْيَانِ ، قَالَ

الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَقَدْ قَدَّمَ الْإِيمَانَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا عَلَى الْإِيمَانِ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مَنْ قَبْلَنَا مَعَ كَوْنِهِ أُنْزِلَ قَبْلَهُ فِي الزَّمَنِ ; لِأَنَّ مَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا هُوَ الْأَصْلُ فِي مَعْرِفَةِ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ وَالْمُثْبِتُ لَهُ وَلَا

طَرِيقٍ لِإِثْبَاتِهِ سِوَاهُ ; لِانْقِطَاعِ سَنَدِ تِلْكَ وَفَقْدِ بَعْضِهَا وَوُقُوعِ الشَّكِّ فِيمَا بَقِيَ مِنْهَا . فَمَا أَثْبَتَهُ كِتَابُنَا مِنْ نُبُوَّةِ كَثِيرٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نُؤْمِنُ بِهِ إِجْمَالًا فِيمَا أُجْمِلَ وَتَفْصِيلًا فِيمَا فُصِّلَ ، وَمَا أَثْبَتَهُ لَهُمْ مِنَ الْكُتُبِ كَذَلِكَ ، نُؤْمِنُ بِأَنَّ أُصُولَ مَا جَاءُوا بِهِ وَاحِدَةٌ وَهِيَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَإِسْلَامُ الْقُلُوبِ لَهُ وَالْإِيمَانُ بِالْآخِرَةِ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ مَعَ الْإِخْلَاصِ . فَكَمَا أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ أَصْلٌ لِلْإِيمَانِ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا كَذَلِكَ مَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا أَصْلٌ لِلْإِيمَانِ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ فَقُدِّمَ عَلَيْهِ : لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ كَمَا يُفَرِّقُ أَهْلُ الْكِتَابِ فَيُؤْمِنُونَ بِبَعْضٍ وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، وَلَا نُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ فِي الدِّينِ ، فَنَقُولُ : بَعْضُهُمْ عَلَى حَقٍّ وَبَعْضُهُمْ عَلَى بَاطِلٍ ، بَلْ نَقُولُ : إِنَّهُمْ كَانُوا جَمِيعًا عَلَى الْحَقِّ لَا خِلَافَ بَيْنَهُمْ فِي الْأُصُولِ وَالْمَقَاصِدِ ، فَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الْوُلَاةِ الصَّادِقِينَ يُرْسِلُهُمُ الْمَلِكُ الْعَادِلُ مُتَعَاقِبِينَ لِعِمَارَةِ الْوِلَايَةِ وَإِصْلَاحِ أَهْلِهَا ، وَمَا يَكُونُ مِنَ التَّغْيِيرِ فِي بَعْضِ قَوَانِينِهِمْ إِنَّمَا يَكُونُ بِحَسْبِ حَالِ الْوِلَايَةِ وَأَهْلِهَا ، وَالْمَقْصِدُ وَاحِدٌ وَهُوَ الْعُمْرَانُ

وَالْإِصْلَاحُ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ مُنْقَادُونَ بِالرِّضَا وَالْإِخْلَاصِ مُنْصَرِفُونَ عَنْ أَهْوَائِنَا وَشَهَوَاتِنَا فِي الدِّينِ لَا نَتَّخِذُهُ جِنْسِيَّةً لِأَجْلِ حُظُوظِ الدُّنْيَا وَإِنَّمَا نَبْتَغِي بِهِ التَّقَرُّبَ إِلَيْهِ - تَعَالَى - بِإِصْلَاحِ النُّفُوسِ وَإِخْلَاصِ الْقُلُوبِ وَالْعُرُوجِ بِالْأَرْوَاحِ ، إِلَى سَمَاءِ الْكَرَامَةِ وَالْفَلَاحِ .

افْتَتَحَ الْآيَةَ بِذِكْرِ الْإِيمَانِ وَخَتَمَهَا بِالْإِسْلَامِ الَّذِي هُوَ فِي
كَمَالِهِ ثَمَرَتُهُ وَغَايَتُهُ وَهَذَا هُوَ الْإِسْلَامُ الدِّينِيُّ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ ; وَلِذَلِكَ قَفَّى عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ : وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ لِأَنَّ الدِّينَ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُوَ الْإِسْلَامَ الَّذِي بَيَّنَّا مَعْنَاهُ آنِفًا فَمَا هُوَ إِلَّا رُسُومٌ وَتَقَالِيدُ يَتَّخِذُهَا الْقَوْمُ رَابِطَةً لِلْجِنْسِيَّةِ ، وَآلَةً لِلْعَصَبِيَّةِ وَوَسِيلَةً لِلْمَنَافِعِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، وَذَلِكَ مِمَّا يَزِيدُ الْقُلُوبَ فَسَادًا ، وَالْأَرْوَاحَ إِظْلَامًا . فَلَا يَزِيدُ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا عُدْوَانًا ، وَفِي الْآخِرَةِ إِلَّا خُسْرَانًا وَلِذَلِكَ قَالَ : وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ أَيْ أَنَّهُ يَكُونُ هُنَالِكَ خَاسِرًا لِلنَّعِيمِ الْمُقِيمِ فِي جِوَارِ الرَّبِّ الرَّحِيمِ ، لِأَنَّهُ خَسِرَ نَفْسَهُ إِذْ لَمْ يُزَكِّهَا بِالْإِسْلَامِ لِلَّهِ ، وَإِخْلَاصِ السَّرِيرَةِ لَهُ جَلَّ عُلَاهُ .

(28/124)

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ [7 : 53] فِي الدِّينِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ مَنَاطُ النَّجَاةِ وَوَسِيلَةُ الْفَوْزِ وَالسَّعَادَةِ ; إِذْ يَهْوَوْنَ أَنْ يَسْعَدُوا بِغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَإِنْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِسُلُوكِ سُبُلِ الشَّقَاءِ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ

الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ [39 : 14 - 15] وَلَمْ أَرَ أَحَدًا مِنَ الْمُفَسِّرِينَ نَبَّهَ فِي هَذَا الْمَقَامِ عَلَى أَنَّ الْأَصْلَ فِي خُسْرَانِ الْآخِرَةِ هُوَ خُسْرَانُ النَّفْسِ ، وَلَا نَبَّهَ إِلَيْهِ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ ، بَلْ لَمْ يَقُلْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ شَيْئًا لِظُهُورِ مَعْنَاهَا .

(29/124)

وَقَدْ أَوْرَدَ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ هَاهُنَا إِشْكَالًا وَأَجَابَ عَنْهُ قَالَ : وَاعْلَمْ أَنَّ ظَاهِرَ هَذِهِ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الْإِسْلَامُ ، وَإِذْ لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ غَيْرَ الْإِسْلَامِ لَوَجَبَ أَلَّا يَكُونَ الْإِيمَانُ مَقْبُولًا لِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ إِلَّا أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا [49 : 14] يَقْتَضِي كَوْنَ الْإِسْلَامِ مُغَايِرًا لِلْإِيمَانِ وَوَجْهُ التَّوْفِيقِ بَيْنَهُمَا أَنْ تَحْمِلَ الْآيَةَ الْأُولَى عَلَى الْعُرْفِ الشَّرْعِيِّ وَالْآيَةُ الثَّانِيَةُ عَلَى الْوَضْعِ اللُّغَوِيِّ اهـ . كَلَامُهُ ، وَهَذَا الْجَوَابُ مُبْهَمٌ وَقَدْ أَرَادَ بِالْآيَةِ الْأُولَى الْآيَةَ الَّتِي تُفَسِّرُهَا وَبِالثَّانِيَةِ قَالَتِ الْأَعْرَابُ وَالْمَعْنَى

أَنَّ أُولَئِكَ الْأَعْرَابَ الَّذِينَ نَزَلَتْ فِيهِمُ الْآيَةُ لَمْ يُسْلِمُوا الْإِسْلَامَ الشَّرْعِيَّ وَإِنَّمَا انْقَادُوا لِأَهْلِهِ فِي

الظَّاهِرِ وَهُوَ يَقْتَضِي اتِّحَادَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، وَقَالَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الثَّانِيَةِ مِنْ سُورَةِ الْحُجُرَاتِ مَا نَصُّهُ:

(30/124)

(الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ) الْمُؤْمِنُ وَالْمُسْلِمُ وَاحِدٌ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ، فَكَيْفَ يُفْهَمُ ذَلِكَ مَعَ هَذَا؟ نَقُولُ: بَيْنَ الْعَامِّ وَالْخَاصِّ فَرْقٌ، فَالْإِيمَانُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالْقَلْبِ، وَقَدْ يَحْصُلُ بِاللِّسَانِ، وَالْإِسْلَامُ أَعَمُّ لَكِنَّ الْعَامَّ فِي صُورَةِ الْخَاصِّ مُتَّحِدٌ مَعَ الْخَاصِّ وَلَا يَكُونُ أَمْرًا آخَرَ غَيْرَهُ. مِثَالُهُ: الْحَيَوَانُ أَعَمُّ مِنَ الْإِنْسَانِ لَكِنَّ الْحَيَوَانَ فِي صُورَةِ الْإِنْسَانِ لَيْسَ أَمْرًا يَنْفَكُّ عَنِ الْإِنْسَانِ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْحَيَوَانُ حَيَوَانًا وَلَا يَكُونُ إِنْسَانًا فَالْعَامُّ وَالْخَاصُّ مُخْتَلِفَانِ فِي الْعُمُومِ مُتَّحِدَانِ فِي الْوُجُودِ، فَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ وَالْمُسْلِمُ، وَسَنُبَيِّنُ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ - تَعَالَى -: فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ [51: 35 - 36].

(31/124)

وَقَالَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ هَاتَيْنِ مَا نَصُّهُ: " وَالدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمَ بِمَعْنَى الْمُؤْمِنِ ظَاهِرَةٌ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْمُسْلِمَ أَعَمُّ مِنَ الْمُؤْمِنِ وَإِطْلَاقُ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ لَا مَانِعَ مِنْهُ. فَإِذَا سُمِّيَ الْمُؤْمِنُ مُسْلِمًا لَا يَدُلُّ عَلَى اتِّحَادِ مَفْهُومَيْهِمَا فَكَأَنَّهُ - تَعَالَى - قَالَ: أَخْرَجْنَا الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا الْأَعَمَّ مِنْهُمْ إِلَّا بَيْتًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَلْزَمُ مِنْ هَذَا أَلَّا يَكُونَ هُنَاكَ غَيْرُهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَهَذَا كَمَا لَوْ قَالَ قَائِلٌ لِغَيْرِهِ: مَنْ فِي الْبَيْتِ مِنَ النَّاسِ؟ فَيَقُولُ لَهُ مَا فِي الْبَيْتِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ أَحَدٌ غَيْرُ زَيْدٍ فَيَكُونُ مُخْبِرًا لَهُ بِخُلُوِّ الْبَيْتِ عَنْ كُلِّ إِنْسَانٍ غَيْرِ زَيْدٍ " اهـ.

أَقُولُ: وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ فِي كَلَامِهِ اضْطِرَابًا وَسَبَبُهُ تَزَاحُمُ الِاصْطِلَاحَاتِ الْكَلَامِيَّةِ وَالْإِطْلَاقَاتِ اللُّغَوِيَّةِ فِي ذِهْنِهِ. وَالصَّوَابُ أَنَّ مَفْهُومَيِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ فِي اللُّغَةِ مُتَبَايِنَانِ فَالْإِسْلَامُ: الدُّخُولُ فِي السِّلْمِ وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى ضِدِّ الْحَرْبِ وَعَلَى السَّلَامَةِ وَالْخُلُوصِ وَعَلَى الِانْقِيَادِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَائِلِ السُّورَةِ، وَالْإِيمَانُ: التَّصْدِيقُ وَيَكُونُ بِالْقَلْبِ كَأَنْ يَقُولَ امْرُؤٌ قَوْلًا فَتَعْتَقِدَ صِدْقَهُ. وَيَكُونُ بِاللِّسَانِ كَأَنْ تَقُولَ لَهُ صَدَقْتَ، وَقَدْ أُطْلِقَ كُلٌّ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ

(32/124)

فِي الْقُرْآنِ عَلَى إِيمَانٍ خَاصٍّ جُعِلَ هُوَ الْمُنْجِي عِنْدَ اللهِ - تَعَالَى - وَإِسْلَامٍ خَاصٍّ هُوَ دِينُهُ الْمَقْبُولُ عِنْدَهُ. أَمَّا الْأَوَّلُ: فَهُوَ التَّصْدِيقُ

الْيَقِينِيِّ بِوَحْدَانِيَّةِ اللهِ وَكَمَالِهِ وَبِالْوَحْيِ وَالرُّسُلِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ بِحَيْثُ يَكُونُ لَهُ السُّلْطَانُ عَلَى الْإِرَادَةِ وَالْوِجْدَانِ فَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الْعَمَلُ الصَّالِحُ ; وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَ نَفْيِ دُخُولِ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِ أُولَئِكَ الْأَعْرَابِ : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ [49 : 15] وَأَمَّا الثَّانِي : فَهُوَ الْإِخْلَاصُ لَهُ - تَعَالَى - فِي التَّوْحِيدِ وَالْعِبَادَةِ وَالِانْقِيَادِ لِمَا هَدَى إِلَيْهِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ . وَهُوَ بِهَذَا الْمَعْنَى دِينُ جَمِيعِ النَّبِيِّينَ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ لِهِدَايَةِ عِبَادِهِ . فَالْإِيمَانُ وَالْإِسْلَامُ عَلَى هَذَا يَتَوَارَدَانِ عَلَى حَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ يَتَنَاوَلُهَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِاعْتِبَارٍ ; وَلِذَلِكَ عُدَّا شَيْئًا وَاحِدًا فِي الْآيَاتِ الَّتِي ذُكِرَتْ آنِفًا وَفِي قَوْلِهِ بَعْدَمَا ذَكَرَ عَنْ إِيمَانِ الْأَعْرَابِ وَإِسْلَامِهِمْ فِي (49 : 15) ثُمَّ بَيَانِ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ الصَّادِقِ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [49 : 16 - 17] فَهَذَا هُوَ الْإِيمَانُ الصَّادِقُ وَالْإِسْلَامُ الصَّحِيحُ وَهُمَا الْمَطْلُوبَانِ لِأَجْلِ السَّعَادَةِ .

وَقَدْ يُطْلَقُ كُلٌّ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ عَلَى مَا يَكُونُ مِنْهُمَا ظَاهِرًا سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ عَنْ يَقِينٍ أَوْ عَنْ جَهْلٍ أَوْ نِفَاقٍ . فَمِنَ الْأَوَّلِ الشِّقِّ الْأَوَّلِ مِنْ قَوْلِهِ – تَعَالَى – : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ [2 : 62] الْآيَةَ فَالْمُرَادُ بِالَّذِينَ آمَنُوا فِي أَوَّلِ الْآيَةِ الَّذِينَ صَدَّقُوا بِهَذَا الدِّينِ فِي الظَّاهِرِ وَقَوْلِهِ: مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ إِلَخْ هُوَ الْإِيمَانُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي عَلَيْهِ مَدَارُ النَّجَاةِ وَقَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُهُ آنِفًا . وَمِنَ الثَّانِي قَوْلُهُ: وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا أَيْ دَخَلْنَا فِي السِّلْمِ الَّذِي هُوَ مُسَالَمَةُ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ أَنْ كُنَّا حَرْبًا لَهُ ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ الْإِخْلَاصَ وَالِانْقِيَادَ مَعَ الْإِذْعَانِ وَإِلَّا لَمَا نَفَى إِيمَانَ الْقَلْبِ . هَذَا هُوَ التَّحْقِيقُ فِي الْمَسْأَلَةِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ .

أَمَّا إِطْلَاقُ الْإِسْلَامِ بِمَعْنَى مَا عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامُ الْمَعْرُوفُونَ بِالْمُسْلِمِينَ مِنْ عَقَائِدَ وَتَقَالِيدَ وَأَعْمَالٍ فَهُوَ اصْطِلَاحٌ حَادِثٌ مَبْنِيٌّ عَلَى قَاعِدَةِ " الدِّينُ مَا عَلَيْهِ الْمُتَدَيِّنُونَ " فَالْبُوذِيَّةُ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ الْمَعْرُوفُونَ بِالْبُوذِيَّةِ ، وَالْيَهُودِيَّةُ مَا عَلَيْهِ الشَّعْبُ

الَّذِي يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْيَهُودِ ، وَالنَّصْرَانِيَّةُ مَا عَلَيْهِ الْأَقْوَامُ الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّا نَصَارَى وَهَكَذَا .

وَهَذَا هُوَ الدِّينُ بِمَعْنَى الْجِنْسِيَّةِ وَقَدْ يَكُونُ لَهُ أَصْلٌ سَمَاوِيٌّ أَوْ وَضْعِيٌّ فَيَطْرَأُ عَلَيْهِ التَّغْيِيرُ وَالتَّبْدِيلُ حَتَّى يَكُونَ بَعِيدًا عَنْ أَصْلِهِ فِي قَوَاعِدِهِ وَمَقَاصِدِهِ ، وَتَكُونُ الْعِبْرَةُ بِمَا عَلَيْهِ أَهْلُهُ لَا بِذَلِكَ الْأَصْلِ الْمَجْهُولِ أَوِ الْمَعْلُومِ ، وَتَحَوُّلُ دِينِ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَى جِنْسِيَّةٍ بِهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي صَدَّ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنِ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنْ بَيَانِ رُوحِ دِينِ اللهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى اخْتِلَافِ شَرَائِعِهِمْ فِي الْفُرُوعِ وَهُوَ الْإِسْلَامُ ، فَالْإِسْلَامُ مَعْنًى بَيَّنَهُ الْقُرْآنُ فَمَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى دِينِ اللهِ الْمَرْضِيِّ ، وَمَنْ خَالَفَهُ كَانَ بَاغِيًا لِغَيْرِ دِينِ اللهِ ، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ مَعْنَى الْجِنْسِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ الْآنَ الَّتِي تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ مَا يَحْدُثُ لِأَهْلِهَا مِنَ التَّقَالِيدِ ، فَالْإِسْلَامُ الْحَقِيقِيُّ مُبَايِنٌ لِلْإِسْلَامِ الْعُرْفِيِّ ; لِذَلِكَ جَرَيْنَا فِي هَذَا التَّفْسِيرِ عَلَى إِنْكَارِ جَعْلِ الْإِسْلَامِ جِنْسِيَّةً عُرْفِيَّةً مَعَ الْغَفْلَةِ عَنْ كَوْنِهِ هِدَايَةً إِلَهِيَّةً . نَعَمْ إِنَّهُ لَوْ أُقِيمَ عَلَى أَصْلِهِ وَاسْتَتْبَعَ مَعَ ذَلِكَ رَابِطَةَ الْجِنْسِيَّةِ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الرَّابِطَةُ إِلَّا رَابِطَةَ خَيْرٍ لِأَهْلِهَا غَيْرَ ضَارَّةٍ بِغَيْرِهِمْ لِبِنَائِهَا عَلَى قَوَاعِدِ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ ،

وَلَكِنَّ جَعْلَ الْجِنْسِيَّةِ هُوَ الْأَصْلُ مُفْسِدٌ لِلدِّينِ الَّذِي هُوَ مَنَاطُ سَعَادَةِ الدَّارَيْنِ .

كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

رَوَى النَّسَائِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : "كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ أَسْلَمَ ثُمَّ ارْتَدَّ ثُمَّ نَدِمَ فَأَرْسَلَ إِلَى قَوْمِهِ أَرْسِلُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فَنَزَلَتْ كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ إِلَى قَوْلِهِ : فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ قَوْمُهُ فَأَسْلَمَ . وَأَخْرَجَ مُسَدَّدٌ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ عَبْدِ الرَّازِقِ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : جَاءَ الْحَارِثُ بْنُ سُوَيْدٍ فَأَسْلَمَ مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثُمَّ كَفَرَ ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَأَنْزَلَ اللهُ كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا إِلَى قَوْلِهِ : غَفُورٌ رَحِيمٌ فَحَمَلَهَا إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ فَقَرَأَهَا عَلَيْهِ فَقَالَ الْحَارِثُ : إِنَّكَ وَاللهِ - مَا عَلِمْتُ - لَصَدُوقٌ وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ لَأَصْدَقُ مِنْكَ ، وَإِنَّ اللهَ لَأَصْدَقُ الثَّلَاثَةِ ، فَرَجَعَ فَأَسْلَمَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ اهـ . (مِنْ لُبَابِ النُّقُولِ) .

وَفِي رُوحِ الْمَعَانِي : أَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَغَيْرُهُ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى رَأَوْا نَعْتَ مُحَمَّدٍ فِي كِتَابِهِمْ وَأَقَرُّوا وَشَهِدُوا أَنَّهُ حَقٌّ ، فَلَمَّا بُعِثَ مِنْ غَيْرِهِمْ حَسَدُوا الْعَرَبَ عَلَى ذَلِكَ فَأَنْكَرُوهُ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِقْرَارِهِمْ حَسَدًا لِلْعَرَبِ حِينَ بُعِثَ مِنْ غَيْرِهِمْ . وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ الْعَوْفِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مِثْلَهُ . وَقَالَ عِكْرِمَةُ : هُمْ أَبُو عَامِرٍ الرَّاهِبُ وَالْحَارِثُ بْنُ سُوَيْدٍ فِي اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا رَجَعُوا عَنِ الْإِسْلَامِ وَلَحِقُوا بِقُرَيْشٍ ، ثُمَّ كَتَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ : هَلْ لَنَا مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ فِيهِمْ : قَالَ الْأُلُوسِيُّ : وَأَكْثَرُ الرِّوَايَاتِ عَلَى هَذَا وَفِي التَّفْسِيرِ الْكَبِيرِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ :

(1) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَهْطٍ كَانُوا آمَنُوا ثُمَّ ارْتَدُّوا وَلَحِقُوا بِمَكَّةَ ثُمَّ أَخَذُوا يَتَرَبَّصُونَ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ ، وَكَانَ فِيهِمْ مَنْ تَابَ فَاسْتَثْنَى التَّائِبَ مِنْهُمْ بِقَوْلِهِ : إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا .

(2) وَعَنْهُ أَيْضًا أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي يَهُودِ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ وَمَنْ دَانَ بِدِينِهِمْ ، كَفَرُوا بِالنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بَعْدَ أَنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِهِ قَبْلَ مَبْعَثِهِ وَكَانُوا يَشْهَدُونَ لَهُ بِالنُّبُوَّةِ فَلَمَّا بُعِثَ وَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ كَفَرُوا بَغْيًا وَحَسَدًا .

(3) نَزَلَتْ فِي الْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ وَتَقَدَّمَ خَبَرُهُ .

أَقُولُ : إِنَّ الْآيَاتِ مُتَّصِلَةٌ بِمَا قَبْلَهَا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا بَيَّنَ حَقِيقَةَ الْإِسْلَامِ وَأَنَّهُ دِينُ اللهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ وَالَّذِي لَا يَقْبَلُ غَيْرَهُ مِنْ أَحَدٍ ذَكَرَ حَالَ الْكَافِرِينَ بِهِ وَجَزَاءَهُمْ وَأَحْكَامَهُمْ وَقَدْ رَآهَا أَصْحَابُ أُولَئِكَ الرِّوَايَاتِ فِي سَبَبِ نُزُولِهَا صَادِقَةً عَلَى مَنْ قَالُوا إِنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِمْ فَذَهَبُوا إِلَى ذَلِكَ . وَأَظْهَرُ تِلْكَ الرِّوَايَاتِ وَأَشَدُّهَا الْتِئَامًا مَعَ السِّيَاقِ رِوَايَةُ مَنْ يَقُولُ : إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَهُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَالْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ وَقَالَ : إِنَّ الْكَلَامَ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ مَعَهُمْ .

أَمَّا قَوْلُهُ - تَعَالَى - : كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ فَهُوَ اسْتِبْعَادٌ

لِهِدَايَةِ هَؤُلَاءِ كَمَا قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ وَإِيئَاسٌ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْهُمْ ، وَفَسَّرَتِ الْمُعْتَزِلَةُ الْهِدَايَةَ بِالْإِلْطَافِ الَّذِي يَكُونُ مِنَ اللهِ لِلْمُؤْمِنِينَ أَوْ بِالْهِدَايَةِ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ : بِخَلْقِ الْمَعْرِفَةِ . قَالَهُمَا الرَّازِيُّ وَكِلَاهُمَا ضَعِيفٌ . وَفَسَّرَهَا ابْنُ جَرِيرٍ : بِالتَّوْفِيقِ وَالْإِرْشَادِ

، فَأَمَّا الْإِرْشَادُ فَقَدْ أُوتُوهُ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانُوا مَعْذُورِينَ ، وَلَوْلَاهُ لَمَا كَانَ لِإِيمَانِهِمْ بَعْدَ مَجِيءِ الْبَيِّنَاتِ مَعْنًى ، وَالصَّوَابُ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنْ أَنَّ الْمَعْنَى اسْتِبْعَادُ هِدَايَتِهِمْ بِحَسَبِ سُنَنِ اللهِ فِي الْبَشَرِ وَإِيئَاسِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ إِيمَانِهِمْ . وَوَجْهُ الِاسْتِبْعَادِ أَنَّ سُنَّةَ اللهِ - تَعَالَى - فِي هِدَايَةِ الْبَشَرِ إِلَى الْحَقِّ هِيَ أَنْ يُقِيمَ لَهُمُ الدَّلَائِلَ وَالْبَيِّنَاتِ مَعَ عَدَمِ الْمَوَانِعِ مِنَ النَّظَرِ فِيهَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى طَلَبِ الْمَطْلُوبِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ قَدْ كَانَ لِهَؤُلَاءِ ; وَلِذَلِكَ آمَنُوا مِنْ قَبْلُ : وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ ثُمَّ كَفَرُوا مُكَابَرَةً لِأَنْفُسِهِمْ وَمُعَانَدَةً لِلرَّسُولِ حَسَدًا لَهُ وَبَغْيًا عَلَيْهِ . أَوِ الْمَعْنَى : بِأَيِّ كَيْفِيَّةٍ تَكُونُ هِدَايَةُ مَنْ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَالْحَالُ أَنَّهُمْ قَدْ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ الَّتِي تَبَيَّنَ بِهَا الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ وَالرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ، وَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ ذَلِكَ شَيْئًا لِغَلَبَةِ الْعِنَادِ وَالِاسْتِكْبَارِ عَلَى نُفُوسِهِمْ ،

(40/124)

وَالْحَسَدِ وَالْبَغْيِ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، فَكَانُوا بِذَلِكَ ظَالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ بِاسْتِحْبَابِ الْعَمَى عَلَى الْهُدَى وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أَيْ مَضَتْ سُنَّتُهُ بِأَنَّ الظَّالِمَ لَا يَكُونُ مُهْتَدِيًا .

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ طَرِيقَتَانِ ، إِحْدَاهُمَا شَهَادَتُهُمْ بِأَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ : هِيَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْرِفُونَ بِشَارَاتِ الْأَنْبِيَاءِ بِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَكَانُوا عَازِمِينَ عَلَى

اتِّبَاعِهِ إذَا جَاءَ فِي زَمَنِهِمْ ، وَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِ الْعَلَامَاتُ وَظَهَرَتْ فِيهِ الْبِشَارَاتُ ، ثُمَّ إنَّهُمْ كَفَرُوا بِهِ وَعَانَدُوهُ بَعْدَ مَجِيئِهِ بِالْبَيِّنَاتِ لَهُمْ وَظُهُورِ الْآيَاتِ عَلَى يَدَيْهِ ، وَاَللَّهُ لَا يَهْدِي أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ وَالْجَانِينَ عَلَيْهَا . وَوَضَعَ الْوَصْفَ الظَّالِمِينَ مَكَانَ الضَّمِيرِ لِبَيَانِ سَبَبِ الْحِرْمَانِ مِنَ الْهِدَايَةِ ، فَإِنَّ الظُّلْمَ هُوَ الْعُدُولُ عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي يَجِبُ سُلُوكُهُ لِأَجْلِ الْوُصُولِ إلَى الْحَقِّ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ ، فَذِكْرُهُ مِنْ قَبِيلِ ذِكْرِ الدَّلِيلِ عَلَى الشَّيْءِ بَعْدَ ادِّعَائِهِ ، وَمَا كَانَ مِنْ تَنَكُّبِ هَؤُلَاءِ بِاخْتِيَارِهِمْ لِطَرِيقِ الْحَقِّ وَهُوَ الْعَقْلُ وَهُدَى النُّبُوَّةِ بَعْدَ مَا عَرَفُوهُ بِالْبَيِّنَاتِ هُوَ نِهَايَةُ الظُّلْمِ . (قَالَ) : وَالْهِدَايَةُ هُنَا هِيَ الَّتِي أُمِرْنَا بِطَلَبِهَا فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ وَهِيَ الْإِيصَالُ إلَى الْحَقِّ ;

لِأَنَّ سَائِرَ مَعَانِي الْهِدَايَةِ عَامٌّ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ .

وَالطَّرِيقَةُ الثَّانِيَةُ : هِيَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ مَا سَبَقَ لَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ - فَالرَّسُولُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ لِلْجِنْسِ - وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَذَلِكَ بِتَرْكِهِمْ مَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ أُولَئِكَ الرُّسُلُ مِنَ التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ وَإِسْلَامِ الْوَجْهِ لِلَّهِ وَإِخْلَاصِهِ لَهُ بِالْبَرَاءَةِ مِنْ حُظُوظِ النَّفْسِ وَأَهْوَائِهَا فِي الدِّينِ وَاسْتِبْدَالِهِمْ بِهَذِهِ الْهِدَايَةِ مَا وَضَعُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ التَّقَالِيدِ وَالْبِدَعِ . وَحَاصِلُ

الْمَعْنَى عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ : كَيْفَ تَرْجُو يَا مُحَمَّدُ هِدَايَةَ هَؤُلَاءِ الْمُعَانِدِينَ لَكَ ظَنًّا أَنَّ مَعْرِفَتَهُمْ بِالْكِتَابِ وَالْإِيمَانِ جَعَلَتْهُمْ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَى مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ مَا جِئْتَ بِهِ بَعْدَمَا عَلِمْتَ مِنْ كُفْرِهِمْ بِحَقِيقَةِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِسْلَامِ بِنَقْضِهِمُ الْمِيثَاقَ وَتَحْرِيفِهِمُ الْكَلِمَ . أَقُولُ : وَالْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ مَبْنِيٌّ عَلَى اعْتِبَارِ الْأُمَّةِ كَالشَّخْصِ لِتَكَافُلِهَا كَمَا قَرَّرَهُ مِرَارًا ، فَالْمُرَادُ بِكُفْرِهِمْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ كُفْرُ مَجْمُوعِ الْحَاضِرِينَ وَأَمْثَالِهِمْ بَعْدَ إِيمَانِ مَجْمُوعِ سَلَفِهِمْ لَا أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْكَافِرِينَ كَانَ مُؤْمِنًا ثُمَّ كَفَرَ .

(42/124)

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : لَعْنَةُ اللهِ عِبَارَةٌ عَنْ سُخْطِهِ ، وَلَعْنَةُ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ إِمَّا سُخْطُهُمْ وَهُوَ الظَّاهِرُ هُنَا وَإِمَّا الدُّعَاءُ عَلَيْهِمْ بِاللَّعْنَةِ ، أَيْ أَنَّهُمْ مَتَى عَرَفُوا حَالَهُمْ فَإِنَّهُمْ يَلْعَنُونَهُمْ ، وَالْمَشْهُورُ : أَنَّ مَعْنَى اللَّعْنَةِ الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ فَفِي حَقِيقَةِ الْأَسَاسِ " لَعَنَهُ أَهْلُهُ : طَرَدُوهُ وَأَبْعَدُوهُ وَهُوَ لَعِينٌ طَرِيدٌ " وَبِذَلِكَ فَسَّرْنَا الْكَلِمَةَ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - : وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ [2 : 88] وَهِيَ أَوَّلُ آيَةٍ ذُكِرَ فِيهَا اللَّعْنُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَالظَّاهِرُ مِنَ الْعِبَارَةِ هُنَاكَ أَنَّهَا لَيْسَتْ عَنِ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ وَمَا قَالَهُ هُنَا هُوَ التَّفْسِيرُ بِطَرِيقِ اللُّزُومِ ; فَإِنَّ الطَّرِيدَ لَا يُطْرَدُ إِلَّا وَهُوَ مَسْخُوطٌ عَلَيْهِ وَقَدْ قَالَ

الرَّاغِبُ فِي الْمُفْرَدَاتِ : " اللَّعْنُ الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ عَلَى سَبِيلِ السُّخْطِ . وَذَلِكَ مِنَ اللهِ فِي الْآخِرَةِ عُقُوبَةٌ وَفِي الدُّنْيَا انْقِطَاعٌ مِنْ قَبُولِ رَحْمَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ . وَمِنَ الْإِنْسَانِ دُعَاءٌ عَلَى غَيْرِهِ قَالَ :

(43/124)

أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ [11 : 18] وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ [24 : 7] . اهـ .

وَقَوْلُهُ دُعَاءٌ عَلَى غَيْرِهِ أَيْ بِالطَّرْدِ لِأَنَّهُ هُوَ مَعْنَى اللَّعْنِ فِي الْأَصْلِ . وَالْجُمْهُورُ يُفَسِّرُونَ لَعْنَ اللهِ لِمَنْ يَلْعَنُهُ بِطَرْدِهِ مِنْ جَنَّتِهِ أَوْ مِنْ رَحْمَتِهِ أَيِ الْخَاصَّةِ - إِذِ الرَّحْمَةُ الْعَامَّةُ مَبْذُولَةٌ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ -

(44/124)

وَيُفَسِّرُونَ السُّخْطَ وَالْغَضَبَ مِنْهُ بِنَحْوِ ذَلِكَ ; لِأَنَّ مَا أُطْلِقَ عَلَيْهِ - تَعَالَى - مِنَ الْأَوْصَافِ الَّتِي تَدُلُّ فِي الْبَشَرِ عَلَى الِانْفِعَالَاتِ تُفَسَّرُ بِآثَارِهَا الَّتِي هِيَ أَفْعَالٌ ، وَلَكِنَّ السَّلَفِيِّينَ يَعُدُّونَ هَذَا تَأْوِيلًا ، وَيَقُولُونَ : إِنَّ تِلْكَ الْأَوْصَافَ كَغَيْرِهَا شُئُونٌ لِلَّهِ - تَعَالَى - لَا يُدْرِكُ الْبَشَرُ كُنْهَهَا

، وَتِلْكَ الْأَفْعَالُ الَّتِي فُسِّرَتْ بِهَا آثَارُهَا ، كَمَا هُوَ الْمَفْهُومُ مِنَ اللُّغَةِ . وَالْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ كَانَ سَلَفِيَّ الْعَقِيدَةِ فِي سِنِيهِ الْأَخِيرَةِ الَّتِي عَرَفْنَاهُ فِيهَا ، فَلَا يُبَالِي بِإِمْضَاءِ جَمِيعِ الْأَوْصَافِ عَلَى ظَاهِرِهَا مَعَ التَّنْزِيهِ ، وَكَأَنَّهُ رَأَى أَنَّ تَفْسِيرَ مِثْلِ " عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ " بِعَلَيْهِ السُّخْطُ أَقْرَبُ مِنْ تَفْسِيرِهِ بِعَلَيْهِ الطَّرْدُ ، فَمَا قَالَهُ أَقْرَبُ إِلَى الذَّوْقِ الصَّحِيحِ فِي أُسْلُوبِ الْكَلَامِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ : فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [16 : 106] فَعَبَّرَ عَنْ وُقُوعِ الْغَضَبِ الَّذِي هُوَ صِفَةٌ بِعَلَى ، وَعَنِ الْعَذَابِ الَّذِي هُوَ فِعْلٌ بِاللَّامِ . وَقَدِ اسْتَشْكَلُوا قَوْلَهُ - تَعَالَى - : وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ مَنْ عَلَى عَقِيدَتِهِمْ لَا يَلْعَنُونَهُمْ ، وَقَدْ أَشَارَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ إِلَى الْجَوَابِ عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّ كُلَّ النَّاسِ يَلْعَنُونَهُمْ مَتَى عَرَفُوا حَقِيقَةَ حَالِهِمْ ، فَالْمَعْنَى أَنَّ هَذِهِ الْحَالَةَ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا مَجْلَبَةٌ لِلَّعْنَةِ بِطَبْعِهَا مِنْ كُلِّ مَنْ عَرَفَهَا ، وَصَحَّحَ الرَّازِيُّ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ مَا يَجْرِي عَلَى أَلْسِنَةِ جَمِيعِ النَّاسِ

مِنْ لَعْنِ الْكَافِرِ وَالْمُبْطِلِ ، وَقَالَ أَبُو مُسْلِمٍ : لَهُ أَنْ يَلْعَنَهُ إِنْ كَانَ لَا يَلْعَنُهُ ، كَأَنَّهُ يُفَسِّرُ اللَّعْنَ بِاسْتِحْقَاقِهِ ، وَهُنَاكَ وَجْهٌ ثَالِثٌ وَهُوَ أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ فِي الْآخِرَةِ ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ

بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا [29 : 25] وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالنَّاسِ الْمُؤْمِنُونَ .

خَالِدِينَ فِيهَا أَيْ فِي اللَّعْنَةِ أَيْ يَكُونُونَ مَطْرُودِينَ ، أَوْ مَسْخُوطًا عَلَيْهِمْ إِلَى الْأَبَدِ ، أَوْ فِي أَثَرِهِ ، وَهُوَ عَذَابُ جَهَنَّمَ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ الَّذِي هُوَ مِنْ لَوَازِمِهَا ; لِأَنَّ عِلَّتَهُ مَا تَكَيَّفَتْ بِهِ نُفُوسُهُمُ الظَّالِمَةُ ، وَهِيَ مَعَهُمْ لَا تُفَارِقُهُمْ ، وَالشَّيْءُ يَدُومُ بِدَوَامِ عِلَّتِهِ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ مِنَ الْإِنْظَارِ وَهُوَ التَّأْخِيرُ وَالْإِمْهَالُ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ ذَنْبِهِمْ وَتَابُوا إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الظُّلْمِ الَّذِي

(46/124)

دَنَّسُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ فَتَرَكُوهُ مُسْتَقْبِحِينَ لَهُ نَادِمِينَ عَلَى مَا أَصَابُوا مِنْهُ وَأَصْلَحُوا أَعْمَالَهُمْ بِمَا صَارَ لِلْإِيمَانِ الرَّاسِخِ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى نُفُوسِهِمْ ، وَالتَّصْرِيفِ لِإِرَادَتِهِمْ ، أَوْ أَصْلَحُوا نُفُوسَهُمْ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تُمِدُّ الْإِيمَانَ وَتُغَذِّيهِ وَتَمْحُو مِنْ لَوْحِ الْقَلْبِ تِلْكَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةَ وَتُثْبِتُ فِيهِ أَضْدَادَهَا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ فَيَنَالُهُمْ مِنْ مَغْفِرَتِهِ مَا يُزَكِّي نُفُوسَهُمْ بِمُقْتَضَى سُنَّتِهِ ، وَيُصِيبُهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ مَا يُؤَهِّلُهُمْ لِدُخُولِ جَنَّتِهِ .

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا مِثَالُهُ : عَطَفَ الْإِصْلَاحَ عَلَى التَّوْبَةِ ; لِأَنَّ التَّوْبَةَ الَّتِي لَا أَثَرَ لَهَا فِي الْعَمَلِ لَا شَأْنَ لَهَا وَلَا قِيمَةَ فِي نَظَرِ الدِّينِ ، وَلِذَلِكَ جَرَى الْقُرْآنُ عَلَى عَطْفِ الْعَمَلِ

الصَّالِحِ عَلَيْهَا عِنْدَ ذِكْرِهَا أَوْ وَصْفِهَا بِالنَّصُوحِ ، وَتَرَى كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يُظْهِرُونَ التَّوْبَةَ بِالنَّدَمِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالرُّجُوعِ عَنِ الذَّنْبِ ، ثُمَّ لَا يَلْبَثُونَ أَنْ يَعُودُوا إِلَى مَا كَانُوا تَابُوا عَنْهُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِلتَّوْبَةِ أَثَرٌ فِي نُفُوسِهِمْ يُنَبِّهُهُمْ إِذَا غَفَلُوا كَيْ لَا يَعُودُوا إِلَى مَا اقْتَرَفُوا ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى اتِّخَاذِ الْوَسَائِلِ لِإِصْلَاحِ شَأْنِهِمْ وَتَقْوِيمِ أَمْرِهِمْ ، ثُمَّ ذَكَرَ - تَعَالَى - مَا هُوَ بِمَعْنَى الِاسْتِثْنَاءِ مِنْ هَذَا الِاسْتِثْنَاءِ لِلتَّائِبِينَ مَنْ لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُمْ أَوْ مَا هُوَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ :

(47/124)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهَادَتِهِمْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا بِمُقَاوَمَةِ الْحَقِّ وَإِيذَاءِ الرَّسُولِ وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِالْكَيْدِ وَالتَّشْكِيكِ وَبِالْحَرْبِ وَالْكِفَاحِ ، أَوِ الْكَلَامُ عَلَى عُمُومِهِ لَا يَخْتَصُّ بِأُولَئِكَ الَّذِينَ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ ، فَازْدِيَادُ الْكُفْرِ عِبَارَةٌ عَمَّا يُنَمِّيهِ وَيُقَوِّيهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي يُقَاوَمُ بِهَا الْإِيمَانُ ، فَالْكُفْرُ يَزْدَادُ قُوَّةً وَاسْتِقْرَارًا وَتَمَكُّنًا بِالْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ ، كَمَا أَنَّ الْإِيمَانَ كَذَلِكَ . وَقَوْلُهُ : لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ يَعُدُّونَهُ مِنَ الْمُشْكِلَاتِ ، إِذْ هُوَ مُخَالِفٌ فِي

الظَّاهِرِ لِلْآيَةِ السَّابِقَةِ وَلِمِثْلِ قَوْلِهِ : وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ [42 : 25] فَقَالَ الْقَاضِي

(48/124)

وَالْقَفَّالُ وَابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : إِنَّهُ - تَعَالَى - لَمَّا قَدَّمَ ذِكْرَ مَنْ كَفَرَ وَبَيَّنَ أَنَّهُ أَهْلُ اللَّعْنَةِ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ لَوْ كَفَرَ مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ تِلْكَ التَّوْبَةِ فَإِنَّ التَّوْبَةَ الْأُولَى تَصِيرُ غَيْرَ مَقْبُولَةٍ حَتَّى كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ ، وَيَكُونُ التَّقْدِيرُ فِي الْآيَةِ وَمَا قَبْلَهَا : إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، فَإِنْ كَانُوا كَذَلِكَ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا فَلَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ . اهـ . مِنَ التَّفْسِيرِ الْكَبِيرِ بِتَصَرُّفٍ . وَفِيهِ أَنَّ هَذَا الْوَجْهَ أَلْيَقُ بِالْآيَةِ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ وَأَنَّهُ مُطَّرِدٌ فِي الْآيَةِ سَوَاءٌ حُمِلَتْ عَلَى الْمَعْهُودِ السَّابِقِ أَوْ عَلَى الِاسْتِغْرَاقِ . وَفِي الْكَشَّافِ أَنَّ عَدَمَ قَبُولِ تَوْبَتِهِمْ كِنَايَةٌ عَنْ مَوْتِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ وَقَالَ الْبَيْضَاوِيُّ : لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ لِأَنَّهُمْ لَا يَتُوبُونَ ،

(49/124)

أَوْ لَا يَتُوبُونَ إِلَّا إِذَا أَشْفَوْا عَلَى الْهَلَاكِ ، فَكَنَّى عَنْ عَدَمِ تَوْبَتِهِمْ بِعَدَمِ قَبُولِهَا تَغْلِيظًا فِي شَأْنِهِمْ وَإِبْرَازِ حَالِهِمْ فِي صُورَةِ الْآيِسِينَ مِنَ الرَّحْمَةِ أَوْ لِأَنَّ تَوْبَتَهُمْ لَا تَكُونُ إِلَّا نِفَاقًا لِارْتِدَادِهِمْ وَزِيَادَةِ كُفْرِهِمْ ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُدْخِلِ الْفَاءَ فِيهِ . اهـ . وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْكَلَامَ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ ، وَأَنَّ الْمُرَادَ بِالتَّوْبَةِ التَّوْبَةُ عَنِ الذُّنُوبِ ، فَهِيَ لَا تَنْفَعُهُمْ مَعَ بَقَائِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . وَرُوِيَ فِي الْآيَةِ عِدَّةُ رِوَايَاتٍ وَقَالَ عَنْ هَذَا الَّذِي قُلْنَا إِنَّهُ اخْتَارَهُ : إِنَّهُ أَوْلَاهَا بِالصَّوَابِ (قَالَ) : وَإِنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ أَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِالصَّوَابِ ; لِأَنَّ الْآيَاتِ قَبْلَهَا وَبَعْدَهَا فِيهِمْ نَزَلَتْ ، فَأَوْلَى أَنْ تَكُونَ هِيَ فِي مَعْنَى مَا قَبْلَهَا وَبَعْدَهَا إِذَا كَانَتْ فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ ، وَإِذْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ وَكَانَ مِنْ حُكْمِ اللهِ فِي عِبَادِهِ أَنَّهُ قَابِلُ تَوْبَةِ كُلِّ تَائِبٍ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ وَكَانَ الْكُفْرُ بَعْدَ الْإِيمَانِ أَحَدَ تِلْكَ الذُّنُوبِ الَّتِي وَعَدَ قَبُولَ التَّوْبَةِ مِنْهَا بِقَوْلِهِ : إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ عُلِمَ أَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي لَا تُقْبَلُ التَّوْبَةُ مِنْهُ غَيْرُ الْمَعْنَى الَّذِي تُقْبَلُ التَّوْبَةُ مِنْهُ ، وَإِذْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَالَّذِي لَا تُقْبَلُ التَّوْبَةُ مِنْهُ هُوَ الِازْدِيَادُ عَلَى الْكُفْرِ بَعْدَ الْكُفْرِ لَا يَقْبَلُ اللهُ

تَوْبَةَ صَاحِبِهِ مَا أَقَامَ عَلَى كُفْرِهِ ; لِأَنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنْ مُشْرِكٍ عَمَلًا مَا أَقَامَ عَلَى شِرْكِهِ وَضَلَالِهِ .

فَأَمَّا إِنْ تَابَ مِنْ شِرْكِهِ وَكُفْرِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . اهـ . ثُمَّ بَيَّنَ ضَعْفَ سَائِرِ الرِّوَايَاتِ حَتَّى رِوَايَةَ مَنْ قَالَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ التَّوْبَةُ عِنْدَ الْمَوْتِ ، وَجَزَمَ : (أَيِ ابْنُ جَرِيرٍ) بِأَنَّ الْكَافِرَ إِذَا أَسْلَمَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِطَرْفَةِ عَيْنٍ فَإِنَّ إِيمَانَهُ يَكُونُ مَقْبُولًا وَلَيْسَ هَذَا مَحَلَّ الْخَوْضِ فِي ذَلِكَ ،

(51/124)

فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ هَذِهِ الْأَقْوَالَ وَهِيَ أَظْهَرُ مَا قِيلَ فِي الْآيَةِ مِنْهَا مَا يَرْجِعُ إِلَى وَقْتِ التَّوْبَةِ وَمِنْهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالذَّنْبِ الَّذِي تِيبَ عَنْهُ ، وَلِلْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ وَجْهٌ يَتَعَلَّقُ بِصِفَةِ التَّوْبَةِ وَكَيْفِيَّتِهَا . فَقَدْ ذُكِرَ فِي الدَّرْسِ أَنَّ أُولَئِكَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ ازْدَادُوا كُفْرًا قَدْ يَحْدُثُ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ أَلَمٌ مِنْ مُقَاوَمَةِ الْحَقِّ وَقَدْ يَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ الْأَلَمُ عَلَى تَرْكِ بَعْضِ الذُّنُوبِ وَالشُّرُورِ . قَالَ : فَهَذَا النَّوْعُ مِنَ التَّوْبَةِ لَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ مَا لَمْ يُصْلِحُوا أَمْرَهُمْ وَيُخْلِصُوا لِلَّهِ فِي اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَنُصْرَتِهِ ، فَالتَّوْبَةُ الَّتِي يَزْعُمُونَهَا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ مُقَاوَمَةِ الْمُحِقِّينَ لَا يَقْبَلُهَا اللهُ - تَعَالَى - ; يَعْنِي أَنَّهُ قَدْ يَقَعُ مِنْ هَؤُلَاءِ نَوْعٌ مِنَ التَّوْبَةِ لَا يَكُونُ مُطَهِّرًا لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ جَمِيعِ مَا لَصِقَ بِهَا مِنَ الْكُفْرِ وَالْأَوْزَارِ ،

وَلَيْسَ هَذَا عَيْنُ قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّ تَوْبَتَهُمْ هَذِهِ الَّتِي لَا تُقْبَلُ هِيَ تَوْبَةٌ فِي الظَّاهِرِ دُونَ الْبَاطِنِ وَبِاللِّسَانِ دُونَ الْقَلْبِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَفْيٌ لِلتَّوْبَةِ وَهَذَا إِثْبَاتٌ لَهَا، بَلْ هُوَ قَرِيبٌ مِنْ قَوْلِ ابْنِ جَرِيرٍ الَّذِي هُوَ أَظْهَرُ الْأَقْوَالِ السَّابِقَةِ.

(52/124)

وَقَدْ يَكُونُ مُرَادُ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ أَنَّ النُّفُوسَ قَدْ تُوغِلُ فِي الشَّرِّ وَتَتَمَكَّنُ فِي الْكُفْرِ حَتَّى تُحِيطَ بِهَا خَطِيئَتُهَا وَتَصِلَ إِلَى مَا عَبَّرَ عَنْهُ الْقُرْآنُ بِالرَّيْنِ وَالطَّبْعِ وَالْخَتْمِ عَلَى الْقُلُوبِ، فَإِذَا كَانَ صَاحِبُ هَذِهِ النَّفْسِ قَدْ جَحَدَ الْحَقَّ عِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا وَضَلَّ عَلَى عِلْمٍ فَلَا يَبْعُدُ أَنَّ تُحَدِّثَهُ نَفْسُهُ بِالتَّوْبَةِ وَأَنْ يُحَاوِلَهَا وَلَكِنْ يَكُونُ لَهُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْمَوَانِعِ وَالْحَوَائِلِ دُونَ قَبُولِهَا لِلْخَيْرِ

(53/124)

وَالْحَقِّ مَا يَكُونُ هُوَ السَّبَبُ لِعَدَمِ قَبُولِهَا فَإِنَّ قَبُولَ التَّوْبَةِ الْمُسْتَلْزِمَ لِمَغْفِرَةِ ذَنْبِ التَّائِبِ لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ الْعَطَاءِ الْجُزَافِ وَالْأَمْرِ الْأُنُفِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ بِمُوَافَقَةِ سُنَنِ اللهِ فِي الْفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ

ذَلِكَ أَنَّ مِنْ مُقْتَضَى الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ أَنْ يُحْدِثَ لَهَا الْعِلْمُ بِقُبْحِ الذَّنْبِ وَسُوءِ عَاقِبَتِهِ أَلَمًا يَحْمِلُهَا عَلَى تَرْكِهِ وَمَحْوِ أَثَرِهِ الْمُدَنِّسِ لَهَا بِعَمَلٍ صَالِحٍ يُحْدِثُ فِيهَا أَثَرًا مُضَادًّا لِذَلِكَ الْأَثَرِ . وَبِهَذَا تَكُونُ التَّوْبَةُ مُعِدَّةً صَاحِبَهَا وَمُؤَهِّلَةً لَهُ لِلْمَغْفِرَةِ الَّتِي هِيَ تَرْكُ الْعُقُوبَةِ عَلَى الذَّنْبِ الْمُتَرَتِّبِ عَلَى مَحْوِ سَبَبِهِ وَهُوَ تَدْنِيسُ النَّفْسِ وَتَدْسِيَتُهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا [91 : 9 ، 10] فَإِذَا بَلَغَتِ التَّدْسِيَةُ مِنْ بَعْضِهَا مَبْلَغًا تَتَعَذَّرُ مَعَهُ التَّزْكِيَةُ عَلَى مُرِيدِهَا أَوْ مُحَاوِلِهَا صَحَّ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِعَدَمِ قَبُولِ تَوْبَةِ صَاحِبِ هَذِهِ النَّفْسِ . مِثَالُ ذَلِكَ الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ النَّاصِعُ يُصِيبُهُ لَوْثٌ فَيَسْتَقْبِحُ ذَلِكَ

(54/124)

صَاحِبُهُ فَيَغْسِلُهُ فَيَنْظُفُ ، فَإِذَا كَانَ اللَّوْثُ قَلِيلًا وَبَادَرَ إِلَى غَسْلِهِ بُعَيْدَ طُرُوئِهِ يُرْجَى أَنْ يَزُولَ حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ أَثَرٌ . وَلَكِنَّ هَذَا الثَّوْبَ إِذَا دُسَّ فِي الْأَقْذَارِ سِنِينَ كَثِيرَةً حَتَّى تَخَلَّلَتْ جَمِيعَ خُيُوطِهِ وَتَمَكَّنَتْ مِنْهَا فَاصْطَبَغَ بِهَا صِبْغَةً جَدِيدَةً ثَابِتَةً تَعَذَّرَ تَنْظِيفُهُ وَإِعَادَتُهُ إِلَى نَصَاعَتِهِ الْأُولَى . وَبَيْنَ هَذِهِ الدَّرَجَةِ وَمَا قَبْلَهَا دَرَجَاتٌ كَثِيرَةٌ ، وَقَدْ أُشِيرَ إِلَى الطَّرَفَيْنِ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا

حضرَ أَحدَهُمُ الْموْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عذَابًا أَلِيمًا [4 : 17 ، 18] تلْكَ حَالَةُ هَذَا الصِّنْفِ مِنَ الْهَازِئِينَ بِالدِّينِ الْمُتَقَلِّبِينَ فِي الْكُفْرِ الْعَرِيقِينَ فِي الشَّرِّ ; وَلِذَلِكَ سَجَّلَ عَلَيْهِمُ الرُّسُوخَ فِي الضَّلَالِ بِصِيغَةِ الْقَصْرِ أَوِ الْحَصْرِ فَقَالَ : وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ الْمُتَمَكِّنُونَ مِنَ الضَّلَالِ حَتَّى كَأَنَّهُ مَحْصُورٌ فِيهِمْ ، وَحَسْبُكَ بِضَالٍّ لَا تُرْجَى هِدَايَتُهُ وَلَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخِذْلَانِ .

(55/124)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْقِسْمُ الثَّالِثُ مِنْ أَقْسَامِ الْكَافِرِينَ فِي الْآيَاتِ ، فَالْأَوَّلُ مَنْ يَتُوبُونَ تَوْبَةً مَقْبُولَةً مِنَ الْكُفْرِ وَيَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ فَيَسْتَحِقُّونَ الْمَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ . وَالثَّانِي مَنْ يَتُوبُونَ تَوْبَةً غَيْرَ مَقْبُولَةٍ إِمَّا لِفَسَادِهَا فِي نَفْسِهَا وَإِمَّا لِأَنَّهَا تَوْبَةٌ عَنْ بَعْضِ أَعْمَالِ الْكُفْرِ مَعَ الْبَقَاءِ عَلَيْهِ وَقَدْ تَقَدَّمَ حُكْمُهَا ، أَمَّا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُقِيمُونَ عَلَى الْكُفْرِ وَأَعْمَالِهِ حَتَّى يُدْرِكَهُمُ الْمَوْتُ عَلَى ذَلِكَ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا إِذَا كَانَ قَدْ تَصَدَّقَ بِهِ فِي الدُّنْيَا ; لِأَنَّ الْكُفْرَ يُحْبِطُ كُلَّ عَمَلٍ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا [25 : 23] فَهُوَ لَا يُفِيدُ فِي نَجَاتِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ الْآتِي ذِكْرُهُ فِي الْآيَةِ ، لِأَنَّ مَنْ لَمْ تَرْتَقِ رُوحُهُ فِي الدُّنْيَا إِلَى دَرَجَةِ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَإِنَّهَا لَا تَرْتَقِي فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْهَاوِيَةِ الَّتِي

تُسَمَّى النَّارَ وَالْجَحِيمَ إِلَى دَرَجَةٍ مِنَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَا الَّتِي تَكُونُ فِي الْجَنَّةِ وَلَوِ افْتَدَى بِهِ فِي الْآخِرَةِ عَلَى فَرْضِ أَنْ يَمْلِكَهُ بِأَنْ أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَهُ جَزَاءَ نَجَاتِهِ وَالْعَفْوِ عَنْهُ كَمَا يَفْعَلُ النَّاسُ مَعَ الْحُكَّامِ الظَّالِمِينَ فَإِنَّهُ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ أَيْضًا . قَالَ - تَعَالَى - فِي وَعِيدِ الْمُنَافِقِينَ : فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ

فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ [57 : 15] بَلْ لَا تُقْبَلُ الْفِدْيَةُ مِنْ غَيْرِهِمْ أَيْضًا ، كَمَا فِي آيَاتٍ أُخْرَى عَامَّةٍ ، وَلَيْسَتْ عِلَّةُ ذَلِكَ مَا قَالُوهُ مِنْ كَوْنِ اللَّهِ - تَعَالَى - غَنِيًّا عَنِ الذَّهَبِ وَغَيْرِهِ مِمَّا يُفْتَدَى بِهِ ، فَإِنَّهُ - تَعَالَى - غَنِيٌّ أَيْضًا عَنْ إِيمَانِ النَّاسِ وَأَعْمَالِهِمْ ، وَإِنَّمَا عِلَّتُهُ أَنَّهُ - تَعَالَى - لَمْ يَجْعَلْ أَمْرَ نَجَاةِ النَّاسِ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ ، وَلَا أَمْرَ فَوْزِهِمْ بِنَعِيمِهَا مِمَّا يَكُونُ بِالْأُمُورِ الْخَارِجِيَّةِ كَمَالٍ يُبْذَلُ وَعَظِيمٍ يَنْفَعُ ، بَلْ جَعَلَ ذَلِكَ أَمْرًا مُتَعَلِّقًا بِأَمْرٍ دَاخِلِيٍّ ، مُتَعَلِّقًا بِجَوْهَرِ النَّفْسِ ، فَمَنْ زَكَّاهَا بِالْإِيمَانِ مَعَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ أَفْلَحَ وَمَنْ دَسَّاهَا بِالْكُفْرِ وَالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ خَابَ وَخَسِرَ - رَاجِعْ تَفْسِيرَ وَاتَّقُوا يَوْمًا [2 : 48 ، 123] إِلَخْ - وَتَفْسِيرَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ [2 : 254] إِلَخْ . وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي الْآيَةِ : الْكَلَامُ فِي هَذَا الْجَزَاءِ مِنَ التَّمْثِيلِ لِأَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ حَاجَةٌ إِلَى

الذَّهَبِ وَلَا إِلَى إِنْفَاقِهِ ، لِأَنَّ الْأَشْقِيَاءَ لَا نَصِيرَ لَهُمْ فَيُنْفِقُ عَلَيْهِمْ ، وَالْأَوْلِيَاءُ فِي غِنًى بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ عَمَّنْ يُنْفِقُ عَلَيْهِمْ ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ لَا طَرِيقَ لِلِافْتِدَاءِ لَوْ أُرِيدَ . لَيْسَ عِنْدَنَا عَنْهُ غَيْرُ هَذَا .

(57/124)

أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ يَنْصُرُونَهُمْ بِدَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ أَوْ إِيصَالِ الْخَيْرِ إِلَيْهِمْ ، أَيْ لَا يَجِدُونَ لَهُمْ نَصِيرًا مَا ، كَمَا تُفِيدُهُ (مِنْ) الدَّالَّةُ عَلَى اسْتِغْرَاقِ النَّفْيِ وَيُسَمُّونَهَا زَائِدَةً ; لِأَنَّهَا لَا مُتَعَلَّقَ لَهَا فِي اصْطِلَاحِ النُّحَاةِ لَا لِأَنَّهَا لَا مَعْنَى لَهَا فِي الْكَلَامِ .

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ مَعَ الْمَعْنَى فِي الْآيَةِ : أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : فَلَنْ يُقْبَلَ وَفِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا : لَنْ تُقْبَلَ بِغَيْرِ فَاءٍ ، وَقَدْ بَيَّنَ صَاحِبُ الْكَشَّافِ النُّكْتَةَ فِي ذَلِكَ وَتَبِعَهُ غَيْرُهُ فِيهَا ، قَالَ : " قَدْ أُوذِنَ بِالْفَاءِ لِأَنَّ الْكَلَامَ بُنِيَ عَلَى الشَّرْطِ وَالْجَزَاءِ وَأَنَّ سَبَبَ امْتِنَاعِ قَبُولِ الْفِدْيَةِ هُوَ الْمَوْتُ عَلَى الْكُفْرِ ، وَبِتَرْكِ الْفَاءِ أَنَّ الْكَلَامَ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ وَلَا دَلِيلَ فِيهِ عَلَى التَّسَبُّبِ ، كَمَا تَقُولُ : الَّذِي جَاءَنِي لَهُ دِرْهَمٌ ، لَمْ تَجْعَلِ الْمَجِيءَ سَبَبًا فِي اسْتِحْقَاقِ الدِّرْهَمِ ، بِخِلَافِ قَوْلِكَ : فَلَهُ دِرْهَمٌ " أَيْ فَإِنَّهُ يُفِيدُ الدِّرْهَمَ جَزَاءً لِمَجِيئِهِ ، وَالنُّكْتَةُ فِي غَايَةِ الْجَلَاءِ وَالظُّهُورِ

. فَإِنَّ عَدمَ قَبُول تَوْبَةِ أُولَئِك لَيْس مُسَبَّبًا عَنْ كَوْنِهِمْ كَفَرُوا ، وَلَا عَنْ كَوْنِهِم ازْدَادُوا كُفْرًا ; لِأَنَّ الْكَافِر وَمَن ازْدَادَ كُفْرًا تُقْبَل تَوْبَتُهُمَا إِذَا صَحَّتْ ، وَقَدْ عُلِم سَبَبُهُ مِمَّا تَقَدَّمَ .

وَمِنْهَا أَنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِي مَوْقِعِ الْوَاو مِنْ قَوْلِه : وَلَو افْتَدَى بِهِ عَلَى ظُهُورِه فِيمَا جَرَيْنَا عَلَيْهِ مِنْ تَفْسِيرِ الْآيَة ، وَيَقْرُبُ مِنْهُ قَوْلُ الزَّجَاجِ النَّحْوِيّ : إِنَّهَا لِلْعَطْفِ وَالتَّقْدِيرُ لَوْ تَقَرَّبَ إِلَى اللهِ بِمَلْءِ الْأَرْض ذَهَبًا لَمْ يَنْفَعْهُ ذَلِكَ وَلَو افْتَدَى بِملْءِ الْأَرْض ذَهَبًا لَمْ يُقْبَل مِنْهُ . قَالَ الرَّازِيُّ : وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ الْأَنْبَارِيّ . قَالَ : وَهَذَا أَوْكَدُ فِي التَّغْلِيظِ لِأَنَّهُ تَصْرِيحٌ بِنَفْي

الْقَبُول مِنْ جَمِيع الْوُجُوه .

أَقُولُ : وَمَا قَدَّرْنَاهُ أَظْهَرُ وَبِالنَّظْمِ أَلْيَقُ . قَالَ الرَّازِيُّ بَعْدَ إِيرَادِ رَأْيِ الزَّجَّاجِ : (الثَّانِي) الْوَاوُ دَخَلَتْ لِبَيَا نِ التَّفْصِيل بَعْدَ الْإِجْمَال ; وَذَلِكَ لِأَنَّ قَوْلَهُ : فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْض ذَهَبًا يَحْتَمِلُ الْوُجُوهَ الْكَثِيرَةَ ، فَنَصَّ عَلَى نَفْيِ الْقَبُول بِجِهَةِ الْفِدْيَةِ . أَقُولُ : وَلَوْ قَالَ

التَّخْصِيصِ بَعْدَ التَّعْمِيمِ لَكَانَ أَظْهَرَ، لِأَنَّ ذِكْرَ وَاحِدٍ مِمَّا يَتَنَاوَلُهُ أَوْ يَحْتَمِلُهُ الْمُجْمَلُ لَيْسَ تَفْصِيلًا لَهُ. ثُمَّ قَالَ: (الثَّالِثُ) وَهُوَ وَجْهٌ خَطَرَ بِبَالِي وَهُوَ أَنَّ مَنْ غَضِبَ عَلَى بَعْضِ عَبِيدِهِ فَإِذَا أَتْحَفَهُ ذَلِكَ الْعَبْدُ بِتُحْفَةٍ وَهَدِيَّةٍ لَمْ يَقْبَلْهَا أَلْبَتَّةَ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَقْبَلُ الْفِدْيَةَ فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ الْفِدْيَةَ أَيْضًا كَانَ ذَلِكَ غَايَةَ الْغَضَبِ، وَالْمُبَالَغَةُ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِتِلْكَ الْمَرْتَبَةِ الَّتِي هِيَ الْغَايَةُ، فَحَكَمَ اللَّهُ - تَعَالَى - بِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ مِلْءَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ كَانَ وَاقِعًا عَلَى سَبِيلِ الْفِدَاءِ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّهُ لَمَّا لَمْ يَكُنْ مَقْبُولًا بِهَذَا الطَّرِيقِ فَبِأَلَّا يَكُونَ مَقْبُولًا مِنْهُ بِسَائِرِ الطُّرُقِ أَوْلَى. اهـ.

وَفِي الْكَشَّافِ: هُوَ كَلَامٌ مَحْمُولٌ عَلَى الْمَعْنَى كَأَنَّهُ قِيلَ: فَلَنْ تُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ فِدْيَةٌ وَلَوِ افْتَدَى بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ وَلَوِ افْتَدَى بِمِثْلِهِ - وَأَوْرَدَ لِذَلِكَ شَوَاهِدَ وَأَمْثِلَةً ثُمَّ قَالَ - وَأَنْ يُرَادَ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا كَانَ قَدْ تَصَدَّقَ

بِهِ وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أَيْضًا لَمْ يُقْبَلْ. اهـ.

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ

ذَكَرَ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ قَوْلَهُ - تَعَالَى -: لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ خِطَابٌ

لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنَّهُ كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ سِيقَ لِبَيَانِ مَا يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ وَيُقْبَلُ مِنْهُمْ إِثْرَ بَيَانِ مَا لَا يَنْفَعُ الْكَافِرِينَ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ . وَذَهَبَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ إِلَى أَنَّ

(61/124)

الْخِطَابَ لَا يَزَالُ لِأَهْلِ الْكِتَابِ . ذَلِكَ أَنَّ مِنْ سُنَّةِ الْقُرْآنِ أَنْ يَقْرِنَ الْكَلَامَ فِي الْإِيمَانِ بِذِكْرِ آثَارِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ . وَأَدَلُّهَا عَلَيْهِ بَذْلُ الْمَالِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، فَلَمَّا حَاجَّ أَهْلَ الْكِتَابِ فِي دَعَاوِيهِمْ فِي الْإِيمَانِ وَالنُّبُوَّةِ وَكَوْنِهِمْ شَعْبَ اللهِ الْخَاصَّ وَكَوْنِ النُّبُوَّةِ مَحْصُورَةً فِيهِمْ ، وَكَوْنِهِمْ لَا تَمَسُّهُمُ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ خَاطَبَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِآيَةِ الْإِيمَانِ وَمِيزَانِهِ الصَّحِيحِ الَّذِي يُعْرَفُ بِهِ الْمَرْجُوحُ وَالرَّجِيحُ ، وَهُوَ الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللهِ مِنَ الْمَحْبُوبَاتِ مَعَ الْإِخْلَاصِ وَحُسْنِ النِّيَّةِ كَأَنَّهُ يَقُولُ : إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْمُدَّعُونَ لِتِلْكَ الدَّعَاوِي وَالْمُفْتَخِرُونَ بِالْكِتَابِ الْإِلَهِيِّ وَاتِّصَالِ حَبْلِ النَّسَبِ بِالنَّبِيِّينَ قَدْ أُحْضِرَتْ أَنْفُسُكُمُ الشُّحَّ وَآثَرْتُمْ شَهْوَةَ الْمَالِ عَلَى مَرْضَاةِ اللهِ وَإِذَا أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ شَيْئًا مَا فَإِنَّمَا يُنْفِقُ مِنْ أَرْدَأِ مَا يَمْلِكُ وَأَبْغَضِهِ إِلَيْهِ وَأَكْرَهِهِ عِنْدَهُ ; لِأَنَّ مَحَبَّةَ كَرَائِمِ الْمَالِ فِي قَلْبِهِ تَعْلُو مَحَبَّةَ اللهِ - تَعَالَى - ، وَالرَّغْبَةَ فِي ادِّخَارِهِ تَفُوقُ لَدَيْهِ الرَّغْبَةَ فِيمَا عِنْدَ رَبِّهِ مِنَ الرِّضَى وَالْمَثُوبَةِ ، وَلَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ فَتُعَدُّوا مِنَ الْأَبْرَارِ الَّذِينَ هُمُ

الْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ ، حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ، فَحَذَفَ ذِكْرَ الْإِيمَانِ اسْتِغْنَاءً بِذِكْرِ أَكْبَرِ آيَاتِهِ وَأَوْضَحِ دَلَالَتِهِ ، وَهِيَ إِنْفَاقُ الْمَحْبُوبَاتِ وَبَذْلُ الْمُشْتَهَيَاتِ . وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ

(62/124)

: إِنَّ الْمُتَبَادِرَ مِنَ الْإِنْفَاقِ هُنَا هُوَ الْمَالُ ; لِأَنَّ شَأْنَهُ عِنْدَ النُّفُوسِ عَظِيمٌ حَتَّى إِنَّ الْإِنْسَانَ كَثِيرًا مَا يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَيَسْتَسْهِلُ بَذْلَ رُوحِهِ لِأَجْلِ الدِّفَاعِ عَنْ مَالِهِ أَوِ الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ . أَقُولُ : وَتُؤَيِّدُهُ آيَةُ (2 : 177) الْآتِيَةُ عَلَى أَنَّ الْمَالَ يَعُمُّ النَّقْدَيْنِ وَغَيْرَهُمَا مِمَّا يَتَمَوَّلُهُ النَّاسُ ، وَشَرْطُ الْبِرِّ بَذْلُ بَعْضِ مَا يُحِبُّهُ الْإِنْسَانُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى الطَّعَامِ وَهُوَ أَحَدُ الْوَجْهَيْنِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا [76 : 8] أَيْ عَلَى حُبِّهِمْ إِيَّاهُ .

وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ إِلَى اللهِ - تَعَالَى - ، أَيْ لِأَجْلِ حُبِّهِ - تَعَالَى - وَالْمَالُ يَجْمَعُ جَمِيعَ الْمَحْبُوبَاتِ وَيُوَصِّلُ إِلَيْهَا .

وَاخْتَلَفُوا فِي الْبِرِّ الْمُرَادِ هُنَا الَّذِي لَا يَنَالُهُ الْمَرْءُ - أَيْ يُصِيبُهُ وَيُدْرِكُهُ - إِلَّا إِذَا أَنْفَقَ مِمَّا يُحِبُّ فَقِيلَ : هُوَ بِرُّ اللهِ - تَعَالَى - وَإِحْسَانُهُ مُطْلَقًا ، وَقِيلَ : الْجَنَّةُ ، وَقِيلَ : هُوَ مَا يَكُونُ بِهِ الْإِنْسَانُ بَارًّا وَهُوَ مَا تَقَدَّمَ تَفْصِيلُهُ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - : لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ

الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ [2 : 177] الْآيَةَ، وَفِيهَا وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى إِلَخْ . وَأَنْتَ تَرَى أَنَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ

(63/124)

جَعَلَ إِيتَاءَ الْمَالِ عَلَى حُبِّهِ شُعْبَةً مِنْ شُعَبِ الْبِرِّ، كَمَا جَعَلَ فِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ إِطْعَامَ الطَّعَامِ عَلَى حُبِّهِ صِفَةً مِنْ صِفَاتِ الْأَبْرَارِ، وَلَكِنَّهُ فِي الْآيَةِ الَّتِي نُفَسِّرُهَا جَعَلَ الْإِنْفَاقَ مِمَّا يُحِبُّ غَايَةً لَا يَنَالُ الْبِرَّ إِلَّا بِالِانْتِهَاءِ إِلَيْهَا . وَقَدْ فَهِمَ مِنْهُ بَعْضُهُمْ أَنَّ مَنْ أَنْفَقَ مِمَّا يُحِبُّ كَانَ بَرًّا وَإِنْ لَمْ يَأْتِ بِسَائِرِ شُعَبِ الْبِرِّ مِنَ الْإِيمَانِ بِجَمِيعِ أَرْكَانِهِ وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَالصَّبْرِ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ، وَلَيْسَ مَا فُهِمَ بِصَوَابٍ، إِنَّمَا الصَّوَابُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَكُونُ بَارًّا بِالْقِيَامِ بِهَذِهِ الْخِصَالِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى هَذِهِ الْخَصْلَةِ - الْإِنْفَاقِ مِمَّا يُحِبُّ - وَمَا جَعَلَهَا غَايَةً إِلَّا وَهِيَ أَشَقُّ عَلَى النُّفُوسِ وَأَبْعَدُ عَنِ الْحُصُولِ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ - تَعَالَى - وَوَهَبَهُ الْكَمَالَ .

وَهَذَا الْإِنْفَاقُ غَيْرُ الزَّكَاةِ، خِلَافًا لِمَا نُقِلَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ قَدْ عُدَّتْ فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ شُعَبِ الْبِرِّ وَأَرْكَانِهِ بَعْدَ ذِكْرِ إِيتَاءِ الْمَالِ عَلَى حُبِّهِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمَا مُتَغَايِرَانِ وَلَا يُشْتَرَطُ فِي الزَّكَاةِ أَنْ تَكُونَ مِمَّا يُحِبُّ الْمُؤَدِّي، بَلْ وَرَدَ أَمْرُ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا بِاتِّقَاءِ كَرَائِمِ

أَمْوَالِ النَّاس ، وَمِنْ فَضْلِ اللهِ – تَعَالَى – عَلَيْنَا أَنِ اكْتَفَى مِنَّا فِي نَيْلِ الْبِرِّ بِأَنْ نُنْفِقَ مِمَّا نُحِبُّ ، وَلَمْ يَشْتَرِطْ عَلَيْنَا أَنْ نُنْفِقَ جَمِيعَ مَا نُحِبُّ .

(64/124)

ثُمَّ قَالَ – تَعَالَى – : وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ هَلْ هُوَ مَحْبُوبٌ لَدَيْكُمْ أَوْ مَزْهُودٌ فِيهِ ، وَهَلْ أَنْتُمْ مُخْلِصُونَ فِي إِنْفَاقِهِ أَمْ أَنْتُمْ مُرَاءُونَ طَالِبُونَ لِلشُّهْرَةِ وَالْجَاهِ ، فَهُوَ – عَزَّ وَجَلَّ – يُجَازِيكُمْ عَلَى مَا تُنْفِقُونَ بِحَسَبِ مَا يَعْلَمُ مِنْ نِيَّتِكُمْ وَمِنْ مَوْقِعِ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِكُمْ ، وَقَدْرِ مَا تَرْتَقِي بِذَلِكَ أَرْوَاحُكُمْ ، فَرُبَّ مُنْفِقٍ مِمَّا يُحِبُّ لَا يَسْلَمُ مِنَ الرِّيَاءِ وَرُبَّ فَقِيرٍ لَا يَجِدُ مَا يُحِبُّ فَيُنْفِقُ مِنْهُ وَلَكِنَّ قَلْبَهُ يَفِيضُ بِالْبِرِّ حَتَّى لَوْ وَجَدَ مَا أَحَبَّ لَأَوْشَكَ أَنْ يُنْفِقَهُ كُلَّهُ .

وَيَذْكُرُ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ مِنْ جَعْلِ مَا يُحِبُّونَ لِلَّهِ – تَعَالَى – . ذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ الشَّوَاهِدَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ رِوَايَتِهِ وَنَقَلَ غَيْرُهُ مِنْ كُتُبِ الْحَدِيثِ بَعْضَ الْوَقَائِعِ ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : "كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ نَخْلًا بِالْمَدِينَةِ وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ ، وَكَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ

مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّب ، فَلَمَّا نَزَلَتْ : لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ قَالَ أَبُو طَلْحَةَ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءُ ، إِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ - تَعَالَى - أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ - تَعَالَى - فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ بِحَيْثُ أَرَاكَ اللهُ - تَعَالَى - ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : بَخٍ بَخٍ ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ . فَقَالَ : أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ ، فَقَسَّمَهَا أَبُو طَلْحَةَ بَيْنَ أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ " وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ وَأَبِي دَاوُدَ " فَجَعَلَهَا بَيْنَ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ " وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرُهُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ قَالَ : " لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ جَاءَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ بِفَرَسٍ يُقَالُ لَهَا سَبَلٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْهَا ، فَقَالَ : وَهِيَ صَدَقَةٌ فَقَبِلَهَا رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَحَمَلَ عَلَيْهَا ابْنَهُ أُسَامَةَ فَرَأَى رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذَلِكَ فِي وَجْهِ زَيْدٍ فَقَالَ : إِنَّ اللهَ قَبِلَهَا مِنْكَ " وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ جَرِيرٍ " فَكَأَنَّ زَيْدًا وَجَدَ فِي نَفْسِهِ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مِنْهُ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : أَمَا إِنَّ اللهَ قَدْ قَبِلَهَا " وَهَذَا وَمَا قَبْلَهُ مِنْ آيَاتِ سِيَاسَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلْقُلُوبِ . رَأَى أَنَّ زَيْدًا وَأَبَا طَلْحَةَ قَدْ خَرَجَا بِعَاطِفَةِ الْإِيمَانِ عَنْ

أَحَبِّ أَمْوَالِهِمَا إِلَيْهِمَا عَلَى تَعَلُّقِ الْقُلُوبِ بِكَرَائِمِ الْأَمْوَالِ ، فَجَعَلَ ذَلِكَ فِي الْأَقْرَبِينَ مِنْهُمَا لِيُثَبِّتَ قُلُوبَهُمَا فَلَا يَكُونُ لِلشَّيْطَانِ سَبِيلٌ إِلَى الْوَسْوَسَةِ لَهُمَا بِالنَّدَمِ أَوْ الِامْتِعَاضِ إِذَا رَأَيَا ذَلِكَ فِي أَيْدِي الْغُرَبَاءِ ، وَقَدْ يَمْتَعِضُ الْمَرْءُ بَعْدَ فَقْدِ الْمَحْبُوبِ وَإِنْ فَارَقَهُ مُخْتَارًا مُرْتَاحًا لِعَاطِفَةٍ أَوْ أَرْيَحِيَّةٍ طَارِئَةٍ ، ثُمَّ لَا يَلْبَثُ أَنْ يُعَاوِدَهُ مِنَ الْحَنِينِ إِلَيْهِ مَا لَا يُعَاوِدُهُ إِلَى مَا هُوَ أَغْلَى مِنْهُ ثَمَنًا إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْكَرَائِمِ الْمَحْبُوبَةِ ; وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَأْمُرُ عُمَّالَ الصَّدَقَةِ بِاتِّقَاءِ كَرَائِمِ أَمْوَالِ النَّاسِ . وَيَدُلُّ عَلَى مَا قَرَّرْتُهُ فِي ذَلِكَ أَثَرُ ابْنِ عُمَرَ الْآتِي : أَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : " حَضَرَتْنِي هَذِهِ الْآيَةُ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ إِلَخْ فَذَكَرْتُ مَا أَعْطَانِي اللهُ - تَعَالَى - فَلَمْ أَجِدْ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ مَرْجَانَةَ - جَارِيَةٍ لِي رُومِيَّةٍ - فَقُلْتُ : هِيَ حُرَّةٌ لِوَجْهِ اللهِ - تَعَالَى - ، فَلَوْ أَنِّي أَعُودُ فِي شَيْءٍ جَعَلْتُهُ
لِلَّهِ - تَعَالَى - لَنَكَحْتُهَا فَأَنْكَحْتُهَا نَافِعًا " فَانْظُرْ كَيْفَ رَاوَدَتْهُ نَفْسُهُ بَعْدَ عِتْقِهَا أَنْ يَسْتَبْقِيَهَا لِنَفْسِهِ وَلَا يُفَارِقَهَا لَوْلَا أَنْ كَانَ مِمَّا تَرَبَّتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ الْعَالِيَةُ أَلَّا يَعُودَ فِي شَيْءٍ جَعَلَهُ لِلَّهِ ، وَانْظُرْ كَيْفَ خَصَّ بِهَا بَعْدَ ذَلِكَ مَوْلَاهُ نَافِعًا الَّذِي كَانَ يُحِبُّهُ كَوَلَدِهِ .

وَمِمَّا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي ذَلِكَ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: "كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أَنْ يَبْتَاعَ لَهُ جَارِيَةً مِنْ جَلُولَاءَ يَوْمَ فُتِحَتْ مَدَائِنُ كِسْرَى فِي قِتَالِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، فَدَعَا بِهَا عُمَرُ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ فَأَعْتَقَهَا عُمَرُ".

وَآثَارُ السَّلَفِ فِي الْإِيثَارِ وَبَذْلِ الْمَحْبُوبَاتِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرَةٌ" نَزَلَ بِالرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ضَيْفٌ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَ أَهْلِهِ شَيْئًا فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ - هُوَ أَبُو طَلْحَةَ زَيْدُ بْنُ سَهْلٍ - فَذَهَبَ بِهِ إِلَى أَهْلِهِ، فَوَضَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ الطَّعَامَ وَأَمَرَ امْرَأَتَهُ بِإِطْفَاءِ السِّرَاجِ، فَقَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُهُ فَأَطْفَأَتْهُ، وَجَعَلَ يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى الطَّعَامِ كَأَنَّهُ يَأْكُلُ وَلَا يَأْكُلُ حَتَّى أَكَلَ الضَّيْفُ وَبَقِيَ هُوَ وَعِيَالُهُ مَجْهُودِينَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنْ صَنِيعِكُمُ اللَّيْلَةَ إِلَى ضَيْفِكُمْ وَنَزَلَتْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ [59 : 9] رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ.

وَاشْتَهَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ سَمَكَةً ، وَكَانَ قَدْ نَقِهَ مِنْ مَرَضٍ فَالْتُمِسَتْ بِالْمَدِينَةِ فَلَمْ تُوجَدْ حَتَّى وُجِدَتْ بَعْدَ مُدَّةٍ وَاشْتُرِيَتْ بِدِرْهَمٍ وَنِصْفٍ فَشُوِيَتْ وَجِيءَ بِهَا عَلَى رَغِيفٍ فَقَامَ سَائِلٌ بِالْبَابِ ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ لِلْغُلَامِ لُفَّهَا بِرَغِيفِهَا وَادْفَعْهَا إِلَيْهِ فَأَبَى الْغُلَامُ فَرَدَّهُ وَأَمَرَهُ بِدَفْعِهَا إِلَيْهِ ، ثُمَّ جَاءَ بِهِ فَوَضَعَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ : كُلْ هَنِيئًا يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَقَدْ أَعْطَيْتُهُ دِرْهَمًا وَأَخَذْتُهَا ، فَقَالَ لُفَّهَا وَادْفَعْهَا إِلَيْهِ وَلَا تَأْخُذْ مِنْهُ الدِّرْهَمَ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ : أَيُّمَا امْرِئٍ اشْتَهَى شَهْوَةً فَرَدَّ شَهْوَتَهُ وَآثَرَ عَلَى نَفْسِهِ غُفِرَ لَهُ أَوْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي الضُّعَفَاءِ وَأَبُو الشَّيْخِ مِنْ حَدِيثِ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ وَالدَّارَقُطْنِيُّ فِي الْأَفْرَادِ .

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – : " أَنَّهُ أَهْدَى إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – رَأْسَ شَاةٍ فَقَالَ : إِنَّ أَخِي فُلَانًا كَانَ أَحْوَجَ مِنِّي إِلَيْهِ فَبَعَثَ بِهِ إِلَيْهِ فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ قَالَ: إِنَّ فُلَانًا أَحْوَجُ مِنِّي إِلَيْهِ فَبَعَثَ بِهِ إِلَيْهِ ، فَلَمْ يَزَلْ يَبْعَثُ بِهِ كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى آخَرَ حَتَّى تَدَاوَلَهُ سَبْعَةُ أَبْيَاتٍ وَرَجَعَ إِلَى الْأَوَّلِ " نَقَلَهُ أَبُو طَالِبٍ فِي الْقُوتِ وَالْغَزَالِيُّ فِي الْإِحْيَاءِ . وَيُشْبِهُ هَذَا مَا حُكِيَ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ

الْأَنْطَاكِيِّ الصُّوفِيِّ أَنَّهُ اجْتَمَعَ عِنْدَهُ ثَلَاثُونَ نَفْسًا وَنَيِّفٌ وَكَانُوا فِي قَرْيَةٍ بِقُرْبِ الرَّيِّ وَلَهُمْ أَرْغِفَةٌ مَعْدُودَةٌ لَا تُشْبِعُ جَمِيعَهُمْ ، فَكَسَرُوا الرُّغْفَانَ وَأَطْفَئُوا السِّرَاجَ وَجَلَسُوا لِلطَّعَامِ وَأَوْهَمَ كُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ أَنَّهُ يَأْكُلُ ، فَلَمَّا رُفِعَ إِذَا الطَّعَامُ بِحَالِهِ لَمْ يَأْكُلْ أَحَدٌ مِنْهُ شَيْئًا .

وَفِي الْإِحْيَاءِ : أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ جَعْفَرٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – خَرَجَ إِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ فَنَزَلَ عَلَى نَخِيلِ قَوْمٍ ، وَفِيهِمْ غُلَامٌ أَسْوَدُ يَعْمَلُ فِيهِ ، إِذْ أَتَى الْغُلَامُ بِقُوتِهِ فَدَخَلَ الْحَائِطَ كَلْبٌ وَدَنَا مِنَ الْغُلَامِ ، فَرَمَى إِلَيْهِ الْغُلَامُ بِقُرْصٍ فَأَكَلَهُ ، ثُمَّ رَمَى إِلَيْهِ بِالثَّانِي وَالثَّالِثِ فَأَكَلَهُمَا وَعَبْدُ اللهِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : يَا غُلَامُ كَمْ قُوتُكَ كُلَّ يَوْمٍ ؟ قَالَ : مَا رَأَيْتَ ، قَالَ : فَلِمَ آثَرْتَ هَذَا الْكَلْبَ ؟ فَقَالَ : مَا هِيَ بِأَرْضِ كِلَابٍ ، إِنَّهُ جَاءَ مِنْ مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ جَائِعًا فَكَرِهْتُ رَدَّهُ ، قَالَ : فَمَا أَنْتَ صَانِعٌ الْيَوْمَ ؟ قَالَ : أَطْوِي يَوْمِي هَذَا . فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرٍ : أُلَامُ عَلَى السَّخَاءِ ؟ إِنَّ هَذَا لَأَسْخَى مِنِّي . فَاشْتَرَى الْحَائِطَ (أَيْ بُسْتَانَ النَّخْلِ الَّذِي يَعْمَلُ فِيهِ الْغُلَامُ الْأَسْوَدُ) وَالْغُلَامَ وَمَا فِيهِ مِنَ الْآلَاتِ فَأَعْتَقَ الْغُلَامَ وَوَهَبَهُ لَهُ .

وَفِي هَذِهِ الْآثَارِ وَأَمْثَالِهَا مَا يَجِبُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . وَيَنْتَمِي إِلَى أُولَئِكَ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ ، وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 3 صـ 293 . 309 ﴾

(71/124)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾

وتؤدي كل مادة الباء والراء المضعفة إلى معنى " السعة " ، فـ " البَرّ " أي الواسع والبَرّ أي الأرض المتسعة ومقابله " البحر " وإن قال قائل : " إن البحر أوسع من البر ، لأن حجم القارات ليس في حجم البحار والمحيطات التي تفصل بينها : " نقول لمثل هذا القائل " لا ، إن حركتك في البر – الأرض – موسعة ، وحركتك في البحر مضيقة ؛ لأنك لا تتحرك في البحر إلا على شكل خاص ، إما أن تتحرك بسفينة أو حتى على لوح من الخشب ، أما حركتك في البر – الأرض – فأنت تمشي أو تركب ، تذهب أو تجيء ، فمجالك في البر متسع عن مجالك في البحر .

و" البِرّ " هو التقوى ، والطاعة ، أو هو " الجنة " وكلها معان ملتقية ، لأنها تؤدي إلى السعة ، فالطاعة تؤدي إلى السعة ، وكذلك التقوى ، وكذلك الجنة ، كلها ملتقية ؛ لأن كلها سعة ، فأحدهم أخذ معنى الكلمة من مرحلتها الأولى أي بالسبب وهو الطاعة ، وبعضهم أخذها من المرحلة الأخيرة أي بالمسبب وهو الجنة ، وقد يسأل سائل ، لماذا أراد الله أن يجيء بحديث عن النفقة بعد الحديث عن تعذيب الكفار ؟ ونقول : إن الحق حين يتكلم عمن يصيبه العذاب الأليم لأنه كفر ومات كافرا ، وماله من ناصرين فإن المقابل يأتي إلى الذهن ، وهو من آمن وعمل صالحاً ، ومات على إيمانه ، فله عكس العذاب الأليم وهو النعيم ، وسيجد من يأخذ بيده ، بينما الكافر لن يجد ناصرين له . إن المؤمن سيجد جزاء الله على الطاعة وهي البر ؛ لأن البر هو كل خير ، وإن جاء اطلاقه فإنه ينصرف إلى الجزاء من الله وقمته هو الجنة .

(72/124)

وهكذا نرى المقابل لمعاملة الحق للكفار وهو معاملة الحق للمؤمنين ، لقد جاء هذا القول في القرآن وهو كلام الله المعجز ، وحين يخاطب سبحانه المكلفين بالمنهج . فهو يخاطب بكلامه ملكات إنسانية خلقها هو ، إذن فلا بد أن يغذي هذا الكلام كل الملكات المخلوقة

لله ، فلو كان الخالق للملكات غير المتكلم لكان من الممكن ألا ينسجم الكلام مع الملكات ، ولكن الكلام هنا لله الذي خلق ، لذلك لا بد أن تنسجم الملكات مع كلام الله .

وفي النفس الإنسانية ملكات متعددة ، وهذه الملكات المتعددة متشابكة تشابكا دقيقا فتستطيع حين تخاطب ملكة سمعية أن تحرك مواجيد وجدانية ، فإن لم يكن العالم بالملكات عليما بها لما أمكن أن يجيء المنطق موافقا لملكة سمعية ، وموافقا لملكات وجدانية قد تتأتى بها طبيعة تداعى المعاني .

و" تداعى المعاني " هو الخاصية الموجودة في الإنسان ، ومعنى " تداعى المعاني " أن الإنسان يستقبل معنى من المعاني فيشير ذلك المعنى إلى معان خبيئة يستدعيها لتحضر في الذهن ، فمثلا حين ترى إنسانا تعرفه .

فإن تداعى المعاني يعطيك تاريخك معه وتاريخه معك ، ويصور بخاطرك أيضا صورا عن أهله وأصدقائه ، ومعارفه ، ويأتي لك تداعى المعاني بالأحداث التي كانت بينك وبينه أو شاهدتها أنت وهذا هو ما نسميه " تداعى المعاني " أي أن المعنى يدعو المعنى .

وحين يخاطب الله سبحانه وتعالى الإنسان ، فإنه يخاطب كل ملكة فيه في آن واحد ، حتى لا تأخذ ملكة غذاءها ، دون ملكة أخرى لا تجد لها غذاء إن كلام الله جاء مستوفيا وكافيا لكل الملكات ، ومثال ذلك حينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يمنع المشركين من أن يطوفوا بالبيت ، وكان المشركون قبل تحريم الله لطوافهم ، يطوفون بالبيت ، ويأتون من أماكن سحيقة بعيدة ليطوفوا في موسم الحج ، وكانوا يأتون بأموالهم لينفقوها على أهل مكة ، ويشتروا كل شيء يلزمهم منها ، فموسم الحج كان موسما اقتصاديا . وحين يريد الله أن يمنع المشركين من الحج فهو يخاطب المسلمين المقيمين بمكة حتى يحولوا بين المشركين وبين الطواف ، وهو سبحانه قد علم – وهو العليم – بما خلق من ملكات ، يعلم سبحانه أن ملكة أخرى ستتدخل في هذا الوقت ، فيقول :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ [التوبة : 28] .

وعندما ينزل هذا الحكم فلا بد أن تتحرك ملكات في النفس الإنسانية ، والحق قد علم أزلا أن ملكة النفعية الاقتصادية عند أهل مكة ستتحرك عند سماع هذا الحكم ، بمعنى أن بعضا من المسلمين المقيمين بمكة وقت نزول هذا الحكم قد يقولون : " وإذا كنا نمنع المشركين الذين يفدون علينا بالأموال ليشتروا بضائعنا وموسمهم الاقتصادي هو الذي يعولنا طيلة العام فماذا نصنع إذن ؟ إن الله يعلم أنه عند نزول حكم بتحريم البيت على المشركين أن

يقربوه فلا بد أن تتحرك في النفس الإنسانية تلك الملكية النفعية، فيقول - سبحانه - عقب ذلك مباشرة:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

[التوبة: 28].

(74/124)

الخوف من العيلة، أي الخوف من الفقر، وتلك هي عظيمة الكلام الإلهي لأن ربّاً يتكلم إن الإنسان حينما يتكلم قد تفوته معان كثيرة، وبعد ذلك قد تحدث ضجة وبلبلة وثورة بين الناس، لكن الحق الأعلى عندما يقول: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ ويتبع ذلك فورا بقوله المطمئن: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ وقد فعل وجبي الحق وجلب إلى البيت الحرام ثمرات كل شيء، وكأنه يقول لنا: لا تعتقدوا أن هذه الثمرات قادمة عن طريق التطوع ولكنها رزق من لدنا، كما جاء في قوله الحق:

﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا وَلَاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾

[القصص : 57].

أي أنه ليست هناك حرية لأحد أن يعطي أهل البيت الحرام أو لا يعطي ، إنها جباية ، لطمأنة الملكية النفعية في النفس ، وهو سبحانه يعطي الأمان الاقتصادي الذي يترتب عليه قوام الحياة ، وعندما نمعن النظر في آيات القرآن نجد أن هناك آية قد تتقدم وآية قد تتأخر ، وآية قد تأتي في الوسط ، ونجد أن الآية الوسطى ، مرتبطة بتداعي المعاني بالآية التي قبلها ، ومرتبطة بتداعي المعاني بالآية التي بعدها ، ولذلك لترتوي وتتغذى كل ملكات الإنسان فلا يأتي أمر يوحي بأن هناك ما ينقص النفس البشرية ، لنتأمل مثالا لذلك وهو قول الحق :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [المجادلة : 8].

(75/124)

إن المشركين لم يقولوا لأحد : "إنما قالوا لأنفسهم" ، ويكشفهم الحق سبحانه العليم في أخفى خباياهم ، ويُظهر ما في أنفسهم ، وهو العليم بكل خفايا عباده والكاشف لكل الملكات النفسية في خلقه. وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ . فإن الآية تحريض على الإنفاق ، وجاءت بعد آية

تفيد أن هناك إنفاقا لا يقبله الله في قوله سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾

[آل عمران : 91] .

إذن فهناك لون من النفقة يرفضه الله ، وتداعى المعاني في النفس الإنسانية قد يجعل الإنسان يسأل " ما هي إذن النفقة المقبولة ؟ " لذلك كان لا بد وأن يأتي قوله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ فإذا كانت هناك نفقة مردودة فهناك أيضا نفقة مقبولة ، وهكذا نرى الآية التي تحرص على الإنفاق منسجمة مع ما قبلها . ﴿ لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ ، قد يسأل سائل ، ولماذا لا ينال الإنسان البر إلا بعد ان ينفق مما يحب ؟ وله أن يعرف أن طبيعة النفس الإنسانية هي " الشح " ولهذا جاء في القرآن الكريم :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

[التغابن : 16] .

وشح النفس يأتي لأن الإنسان لا يأمن أبدا أن يأتيه العجز من بعد القدرة ، لذلك فإنه يحاول إن كان يملك شيئًا أن يؤمن العجز المتوهم ، فيحافظ على ما عنده من حاجات ، ومن هنا جاءت الحيازة والملكية ولم تنشأ هذه الأشياء من أول الخلق ، وإنما نشأت من يوم أن ضاقت الأمكنة المُعْطية دون الحاجات ، فحين تكون الأمكنة المعطية تسع الحاجات فلا داعي لهذا العجز المتوهم .

لنفترض أن رجلا اشترى صندوقا من البرتقال ، ودخل منزله وعندما يحتاج ابن هذا الرجل لبرتقالة أو اثنتين فإنه يأخذ ما يريد ، لكن لو أحضر الرجل قليلا من البرتقال فإن زوج الرجل تكون حريصة على أن تقسم البرتقال بين الأولاد حتى لا تترك كل ابن على سجيته بما قد يحرم الآخرين .

وهكذا كان الأمر في بدء استخلاف الله للإنسان في الأرض ، فمن أراد الأرض اخذ ، ومن أراد أكل الثمار فهي أمامه ، وعندما قلت مُعطيات الحاجات وذلك بضيق الأمكنة المعطية بدأت في الظهور الرغبة في الملكية ، وامتياز الأشياء ، والحق سبحانه يلفتنا في هذه المسألة وكأنه يقول لنا : إن النفقة لو نظرت إليها نظرة واقعية حقيقية لوجدت أنك أيها العبد مضارب لله في خير الله . ومعنى " مضارب " أي أنك تعمل عند الله بالعقل الذي خلقه لك ، وتخطط به ، وتعمل عند الله بالطاقة التي خلقها الله ، والمادة التي خلقها الله لك تنفعل معها فماذا لك أنت ؟

إن كل شيء لله ، وأنت مجرد مضارب لا تملك شيئًا وما دمت مضاربا أيها العبد ، فأعط لله حقه ، وحق الله لا يأخذه هو ؛ فهو أغنى الأغنياء ، إن حق الله يأخذه أخوك غير القادر الذي لا يستطيع أن يتفاعل مع المادة ، ولا تظن أيها العبد أن الله حين طلب منك النفقة مما تحب أنه – جل شأنه – قد استكثر عليك ما طلب منك أن تنفقه ، إنه ساعة يأخذ منك لأخيك وأنت قادر ، إنما يطمئنك أنك إن عجزت فسيأخذ لك من القادرين ذلك هو التأمين في يد الله .

(77/124)

إن الحق يريد أن يحببنا في أن ننفق ، لكن الإنسان يحاول أن ينفق مما لا يحب ، فيهدي الإنسان الثوب الذي لم يعد صالحا للاستعمال يعطيه لفقير ، أو يعطي الحذاء المستهلك لواحد محتاج. لكن الله يأمرنا بأن ننفق مما نحب لذلك انفعل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما سمعوا هذا النص : ﴿ لَن تَنَالُوا۟ الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ هذا أبو طلحة حينما يسمعها يقول : يا رسول الله ، إن أحب مالي إليّ هو " بيرحاء " فأنا أخرجه في سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعله في أقاربك ، فجعله في أقاربه ، وهذا زيد بن حارثة يسمع الآية الكريمة فينفعل بها كذلك ، وكان عنده فرس اسمه " سَبَل

" وكان يحبه ، فيقول : يا رسول الله أنت تعلم حبي لفرسي ، وأنا أجعله في سبيل الله فأخذه منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء بأسامة بن زيد وأركبه الفرس قال زيد : " فوجدت في نفس " أي أنه حزن ، وقال زيد : يا رسول الله أنا أردت أن أجعل الفرس في سبيل الله وأنت تعطي الفرس لا بني ليركبه . فقال رسول الله لزيد : " أمَا إنّ الله قبله منك " .

وبعد ذلك ينفعل سيدنا أبو ذر رضي الله عنه وكان عنده إبل ، والإبل لها فحل يلقح إناث الإبل ، وكان هذا الفحل أحب مال أبي ذر إليه وجاء ضيف إلى أبي ذر, فقال له : إني مشغول ، فاخرج إلى إبلي فاختر خيرها لنذبحه لضيافتك . فخرج الضيف ، ثم عاد وفي يده ناقة مهزولة ، فلما رآها أبو ذر قال : خنتني ، قلت لك هات خير الإبل ، قال الضيف : يا أبا ذر لقد رأيت خيرها فحلالك وقدرت يوم حاجتكم إليه . فقال أبو ذر : إن يوم حاجتي إليه ليوم أوضع في حفرتي .

إن الصحابي الجليل أبا ذر يعرف أن يوم أن يوضع في الحفرة هو اليوم الجليل الذي يستحق من المرء أن يستعد له .

وسيدنا ابن عمر كان عنده جارية جميلة من فارس ، وكان يحبها ، فلما سمع الآية ، قال : ليس عندي أحب إليّ من هذه الجارية ، وأعتقها ، وكان من الممكن أن يتزوجها بعد أن أعتقها لكنه قال : لولا أن ذلك يقدح في عتقها لتزوجتها . وسيدنا أبو ذر رضي الله عنه يعطينا في مسألة الإنفاق درسا من أروع الدروس المستوعبة للملكة النفسية ، فيقول : في المال شركاء ثلاثة : القَدَر لا يستأمرك أن يذهب بخيره وشره من هلك أو موت . أي أن القدر لا يستأذن عبدا في أن يذهب بالمال حيث يريد ، فتأتي أي مصيبة فتأخذ المال إلى هلك أو موت . هذا هو الشريك الأول في المال ، إنه القَدَر .

والشريك الثاني في المال يوضحه لنا أبو ذر فيقول : إنّه الوارث ، ينتظرك إلى أن تضع رأسك ، ثم يستاقها وأنت قد سلبت بالموت كل ما تملك في الدنيا وأصبحت من غير أهلها . إن الوارث يقول لنفسه : " فلأستمتع بما ترك لي " ، وهذا هو الشريك الثاني في المال .

ويوضح لنا أبو ذر رضي الله عنه الشريك الثالث في المال فيقول : والثالث أنت ، فإن استطعت ألا تكون أعجز الثلاثة فلا تكن أعجزها ، أي إياك أن يغلبك على المال القدر أو الوارث ، ينبغي عليك أن تغلب بإنفاق المال في سبيل الله وإلا أخذه منك باقي الشركاء .

إذن لقد انفعل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالآية حينما نزلت حتى عدا الخير المحبوب منهم إلى غيرهم ، وكان جزاء ذلك الجنة . لقد عرفوا قول الحق : ﴿ لَن تَنَالُوا۟ الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ أي الجنة المترتبة على الطاعة أو التقوى ، أو سعة البركة أو

سعة القوة، وكلها معان ملتقية، ولذلك يقول الله في الحديث القدسي: "قد كان العباد يكافِئون في الدنيا بالمعروف وأنا اليوم أكافئ بالجنة".

(79/124)

إن الحق سبحانه الذي يعطي البر ثمنا لنفقة مما تحب يعلم هل أنفقت مما تحب فعلا أو تيممت الخبيث لتنفق منه، فإياك أيها المؤمن أن تخدع نفسك في هذا الأمر، لأن الذي البر ثمنا لنفقه مما تحب يعلم خبايا النفس، لذلك يقول سبحانه: ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾.

وعلم الله شامل، إنه يعلم ما في نيتك، وكيف أنفقت.

ولقد بين الحق سبحانه النفقة المرفوضة حتى ولو كانت ملء الأرض ذهبا، ثم أوضح لنا أن هناك نفقة مقبولة وجزاؤها الجنة، وبذلك نرى التقابل بين النفقتين ولماذا جاء هذا الحديث؟ لقد كذب بعض أهل الكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مستهل أمر الدعوة وكذبوا البشارة به، والنعت والبشارة جاءا في التوراة والإنجيل، وأنكروا الأوصاف التي ذُكِرت في كتبهم. حدث ذلك مع أنهم قد تورطوا من قبل في إعلان البشارة به ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ ﴾.

لقد أراد الله أن يفضحهم في التوراة التي يعتقدون أنها كتابهم وقد حرفوا بعض أحكام الله ، وظنوا أن هذه التحريفات ستظل مستورة ، لذلك جاء لهم بأحداث ولم ينتبهوا إليها لتقوم الحجة على أنهم قاموا بتحريف التوراة مثلما قلنا من قبل عن الخيبرية التي ارتكبت فاحشة الزنا ، وأراد رؤساء اليهود أن يخففوا العقوبة عنها ، لأن العقوبة الواردة في التوراة على جريمة الزني هي الرجم وقال هؤلاء الرؤساء : " نذهب إلى محمد ، لعل لديه حكما مخففا " فلما ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضح لهم أنه الرجم . فقالوا : لا ، إنك لم تنصف في حكمك . فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم إنه يرضى بحكم التوراة التي عندكم وجيء بالتوراة وأمرهم الرسول أن يقرأوا فلما جاءوا إلى آية الرجم أرادوا أن يغفلوها فقال ابن سلام : إنهم يا رسول الله قد وثبوا وأغفلوا الآية .

وهكذا انتبه الجميع إلى أن رؤساء اليهود أرادوا ان يتخطوا حكما لله موجودا عندهم وأرادوا أن ينكروه ، كما فعلوا وأحدثوا في وصف النبي عليه الصلاة والسلام ومحوا هذا الوصف ، ولم يتركوا له أثرا ، لكن الله انساهم بعض الأشياء لتكون بينة وآية على رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعندما أحل الرسول صلى الله عليه وسلم الإبل

وألبانها ، قالوا : هذه محرمة من أيام إبراهيم ومن قبله من أيام نوح ، ولا يمكن أن نقبل تحليلها ، فوضح النبي صلى الله عليه وسلم لهم أنها ليست محرمة ، الله أحلها .

وكان يجب أن يفهموا أن الإبل وألبانها حتى وإن كانت محرمة من قبل إلا أن رسولا قد جاء من عند الله بتشريع له أن ينسخ ما قبله مع أنّ الإبل وألبانها لم تكن محرمة ، لذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحتكم إلى التوراة . وهذه هي العظمة النورانية المحمدية ، فلا يمكن أن يقول صلى الله عليه وسلم : " نحتكم إلى التوراة " إلا وهو واثق أن التوراة إنما تأتي بالحكم الذي يؤيد ما يقول ، مع أنه لا يقرأ ولا يكتب . ويحضرون التوراة ، فيجدون الكلام مطابقا لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك قال الله : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1617.1609 ﴾

(81/124)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

لَّما كان وجود البِرّ مطلوباً ذكر فيه " مِنْ " التي للتبعيض فقال : ﴿ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ ؛ فَمنْ أراد البر فلينفق مما يحبه أي البعض ، وَمَنْ أراد البَارّ فلينفقْ جميع ما يحبه . ومن أنفق محبوبه من

الدنيا وَجَدَ مطلوبه من الحق تعالى ، ومن كان مربوطاً بحظوظ نفسه لم يحظ بقرب ربِّه .

ويقال إذا كنت لا تصل إلى البر إلا بإنفاق محبوبك فمتى تصل إلى البارّ وأنت تؤثر عليه حظوظك . ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ منهم من ينفق على ملاحظة الجزاء والعِوض ، ومنهم من ينفق على مراقبة دفع البلاء والحَزن ، ومنهم من ينفق اكتفاء بعلمه ، قال قائلهم :

ويهتز للمعروف في طلب العلى . . . لِتُذكَرَ يوماً – عند سلمى – شمائلُه . انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 258 . 259 ﴾

(82/124)

" فصل "

قال السيوطى :

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (92)

أخرج مالك وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أنس قال " كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة نخلاً ، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب

من ماء فيها طيب ، فلما نزلت ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ قال أبو طلحة : يا رسول الله ان الله يقول ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ وان أحب أموالي إليَّ بيرحاء ، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بخ ذاك مال رابح . ذلك مال رابح ، وقد سمعت ما قلت ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين . فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله ؟ فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه " .

وأخرج عبد بن حميد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن جرير عن أنس قال " لما نزلت هذه الآية ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ قال أبو طلحة : يا رسول الله إن الله يسألنا من أموالنا ، أشهد أني قد جعلت بأريحا لله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اجعلها في قرابتك . فجعلها في حسان بن ثابت ، وأبي بن كعب " .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن أنس قال " لما نزلت هذه الآية ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ أو هذه الآية ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ قال أبو طلحة : يا رسول الله حائطي الذي بكذا وكذا صدقة ، ولو استطعت أن أسره لم أعلنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعله في فقراء أهلك " .

وأخرج عبد بن حميد والبزار عن ابن عمر قال: حضرتني هذه الآية ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ فذكرت ما أعطاني الله، فلم أجد شيئاً أحب إليَّ من مرجانة جارية لي رومية، فقلت هي حرة لوجه الله، فلو أني أعود في شيء جعلته لله لنكحتها. فأنكحها نافعاً.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عمر بن الخطاب، إنه كتب إلى أبي موسى الأشعري، أن يبتاع له جارية من سبي جلولاء. فدعا بها عمر فقال: إن الله يقول ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ فأعتقها عمر.

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن المنكدر قال "لما نزلت هذه الآية ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ جاء زيد بن حارثة بفرس له يقال لها شبلة لم يكن له مال أحب إليه منها فقال: هي صدقة. فقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحمل عليها ابنه أسامة، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك في وجه زيد فقال: إن الله قد قبلها منك".

وأخرج ابن جرير عن عمرو بن دينار. مثله.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير من طريق معمر عن أيوب وغيره "أنها حين نزلت ﴿ لن تنالوا البر... ﴾ الآية. جاء زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها فقال: يا رسول الله هذا

في سبيل الله ، فحمل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم اسامة بن زيد ، فكأن زيداً وجد في نفسه . فلما رأى ذلك منه النبي صلى الله عليه وسلم قال أما إن الله قد قبلها " .

وأخرج عبد بن حميد عن ثابت بن الحجاج قال " بلغني أنه لما نزلت هذه الآية ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ قال زيد : اللهم إنك تعلم أنه ليس لي مال أحب إلي من فرسي هذه فتصدق بها على المساكين ، فأقاموها تباع وكانت تعجبه . فسأل النبي صلى الله عليه وسلم فنهاه أن يشتريها " .

(84/124)

وأخرج ابن جرير عن ميمون بن مهران ، أن رجلاً سأل أبا ذر أيُّ الأعمال أفضل ؟ قال : الصلاة عماد الإسلام ، والجهاد سنام العمل ، والصدقة شيء عجيب . فقال : يا أبا ذر لقد تركت شيئاً هو أوثق عملي في نفسي لا أراك ذكرته ! قال : ما هو ؟ قال : الصيام ! فقال : قربة وليس هنا . وتلا هذه الآية ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن رجل من بني سليم قال : جاورت أبا ذر بالربذة ، وله فيها قطيع إبل . له فيها راع ضعيف فقلت : يا أبا ذر الا أكون لك صاحباً أكنف راعيك ، واقتبس منك بعض ما عندك ، لعل الله أن ينفعني به ؟ فقال أبو ذر : إن صاحبي من أطاعني ، فأما

أنت مطيعي فأنت لي صاحب وإلا فلا . قلت : ما الذي تسألني فيه الطاعة ؟ قال : لا أدعوك بشيء من مالي إلا توخيت أفضل .

قال : فلبثت معه ما شاء الله ، ثم ذكر له في الماء حاجة فقال : ائتني ببعير من الإبل ، فتصفحت الإبل فإذا أفضلها فحلها ذلول ، فهممت بأخذه ثم ذكرت حاجتهم إليه فتركته ، وأخذت ناقة ليس في الإبل بعد الفحل أفضل منها ، فجئت بها فحانت منه نظرة فقال : يا أخا بني سليم خنتني . فلما فهمتها منه خليت سبيل الناقة ورجعت إلى الإبل ، فاخذت الفحل فجئت به فقال لجلسائه : من رجلان يحتسبان عملهما ؟ قال رجلان : نحن . . . قال : اما لا فأنيخاه ، ثم اعقلاه ، ثم انحراه ، ثم عدوا بيوت الماء فجزئوا لحمه على عددهم ، واجعلوا بيت أبي ذر بيتاً منها ففعلوا .

فلما فرق اللحم دعاني فقال : ما أدري أحفظت وصيتي فظهرت بها ، أما نسيت فاعذرك ؟ قلت : ما نسيت وصيتك ولكن لما تصفحت الإبل وجدت فحلها أفضلها ، فهممت بأخذه فذكرت حاجتكم إليه فتركته فقال : ما تركته إلا لحاجتي إليه ؟ قلت : ما تركت إلا لذلك قال : أفلا أخبرك بيوم حاجتي ؟ إن يوم حاجتي يوم أوضع في حفرتي ، فذلك يوم حاجتي .

إن في المال ثلاثة شركاء : القدر لا ينتظر أن يذهب بخيرها أو شرها ، والوارث ينتظر متى تضع رأسك ثم يستفيئها وأنت ذميم ، وأنت الثالث فإن استطعت أن لا تكونن أعجز الثلاثة فلا تكونن مع أن الله يقول ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ وأن هذا المال مما أحب من مالي فأحببت أن أقدمه لنفسي .

وأخرج أحمد عن عائشة قالت " أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بضب فلم يأكله ولم ينهَ عنه قلت : يا رسول الله أفلا نطعمه المساكين ؟ قال : لا تطعموهم مما لا تأكلون " .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن طريق مجاهد عن ابن عمر ، أنه لما نزلت ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ دعا بجارية له فاعتقها .

وأخرج أحمد في الزهد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : قرأ ابن عمر وهو يصلي فأتى على هذه الآية ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ فاعتق جارية له وهو يصلي أشار إليها بيده .

وأخرج ابن المنذر عن نافع قال : كان ابن عمر يشتري السكر فيتصدق به فنقول له : لو اشتريت لهم بثمنه طعاماً كان أنفع لهم من هذا ، فيقول : إني أعرف الذي تقولون ولكن سمعت الله يقول ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ وابن عمر يحب السكر .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله ﴿ لن تنالوا البر ﴾ قال : الجنة .

وأخرج ابن جرير عن عمرو بن ميمون والسدي . مثله .

وأخرج ابن المنذر عن مسروق . مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في الآية قال : لن تنالوا بركم حتى تنفقوا مما يعجبكم ، ومما تهوون من أموالكم ﴿ وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم ﴾ يقول محفوظ : ذلك لكم والله به عليم شاكر له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 262.259 ﴾

(86/124)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾

عن ابن عباس مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ هو عبد اللَّه بن سلام ، استودعه رجل من قريش ألفا ومائتي أوقية ذهبا فأدّاه إليه . ومَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ فنحاص بن عازوراء استودعه رجل

(87/124)

من قريش ديناراً فجحده وخانه . وقيل : المأمونون على الكثير النصارى ، لغلبة الأمانة

عليهم .

والخائنون في القليل اليهود ، لغلبة الخيانة عليهم إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً إلا مدّة دوامك عليه يا

صاحب الحق قائما على رأسه متوكلا عليه بالمطالبة والتعنيف ، أو بالرفع إلى الحاكم

وإقامة البينة عليه . وقرئ (يؤده) بكسر الهاء والوصل ، وبكسرها بغير وصل ،

وبسكونها . وقرأ يحيى بن وثاب :

تئمنه ، بكسر التاء . ودمت بكسر الدال من دام يدام ذلِكَ إشارة إلى ترك الأداء الذي دلّ

عليه لم يؤدّه ، أى تركهم أداء الحقوق بسبب قولهم لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ أى لا يتطرّق

علينا عتاب وذم في شأن الأميين ، يعنون الذين ليسوا من أهل الكتاب ، وما فعلنا بهم من

حبس أموالهم والإضرار بهم ، لأنهم ليسوا على ديننا ، وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم

ويقولون :

لم يجعل لهم في كتابنا حرمة . وقيل : بايع اليهود رجالا من قريش ، فلما أسلموا تقاضوهم

فقالوا :

ليس لكم علينا حق حيث تركتم دينكم ، وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم . وعن النبي

صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال عند نزولها «كذب أعداء اللَّه ما من شيء في الجاهلية إلا

وهو تحت قدميّ، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البرّ والفاجر» «1» وعن ابن عباس أنه سأله رجل فقال: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة. قال: فتقولون ما ذا؟ قال: نقول ليس علينا في ذلك بأس. قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ليس علينا في الأميين سبيل. إنهم إذا أدّوا الجزية لم يحلّ لكم أكل أموالهم إلا بطيبة أنفسهم «2». وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ بادعائهم أن ذلك في كتابهم وَهُمْ يَعْلَمُونَ أنهم كاذبون بَلى إثبات لما نفوه من السبيل عليهم في الأميين، أى بلى عليهم سبيل فيهم. وقوله مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ جملة مستأنفة مقرّرة للجملة التي سدّت بلى مسدّها، والضمير في بعهده راجع إلى من أوفى، على أنّ كل من أوفى بما عاهد عليه واتقى اللَّه في ترك الخيانة والغدر، فإنّ اللَّه يحبه. فإن قلت، فهذا عام يخيل أنه لو وفي أهل الكتاب بعهودهم وتركوا الخيانة لكسبوا محبة اللَّه. قلت: أجل، لأنهم إذا وفوا بالعهود وفوا أول شيء بالعهد الأعظم، وهو ما أخذ عليهم في كتابهم من الإيمان برسول مصدق لما معهم، ولو اتقوا اللَّه في ترك الخيانة لاتقوه في ترك الكذب على اللَّه وتحريف كلمه. ويجوز أن يرجع الضمير إلى اللَّه تعالى، على أن كل من وفى بعهد اللَّه واتقاه فإنّ اللَّه يحبه، ويدخل في ذلك الإيمان وغيره من الصالحات وما وجب اتقاؤه من الكفر وأعمال السوء. فإن قلت: فأين الضمير الراجع من الجزاء إلى من؟ قلت:

---

(1). أخرجه الطبري وابن أبى حاتم من طريق يعقوب بن النعمان القمي عن جعفر عن سعيد بن جبير به مرسلا.

(2) . أخرجه عبد الرزاق والطبري من طريق أبى إسحاق عن صعصعة بن معاوية أنه سأل ابن عباس - فذكره .

(88/124)

عموم المتقين قام مقام رجوع الضمير . وعن ابن عباس : نزلت في عبد اللَّه بن سلام وبحيرا الراهب ونظرائهما من مسلمة أهل الكتاب

[سورة آل عمران (3) : الآيات 77 إلى 78]

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (77) وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ وَما هُوَ مِنَ الْكِتابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (78)

يَشْتَرُونَ يستبدلون بِعَهْدِ اللَّهِ بما عاهدوه عليه من الإيمان بالرسول المصدّق لما معهم وَأَيْمانِهِمْ وبما حلفوا به من قولهم . واللَّه لنؤمنن به ولننصرنه ثَمَناً قَلِيلًا متاع الدنيا من الترؤس والارتشاء ونحو ذلك . وقيل : نزلت في أبى رافع ولبابة بن أبى الحقيق وحيىّ بن أخطب ، حرفوا التوراة وبدلوا صفة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، وأخذوا الرشوة على ذلك .

وقيل :

جاءت جماعة من اليهود إلى كعب بن الأشرف في سنة أصابتهم ممتارين ، فقال لهم : هل تعلمون أن هذا الرجل رسول اللَّه ؟ قالوا : نعم . قال : لقد هممت أن أميركم وأكسوكم فحرمكم اللَّه خيراً كثيراً .

فقالوا : لعله شبه علينا فرويداً حتى نلقاه . فانطلقوا فكتبوا صفة غير صفته ، ثم رجعوا إليه وقالوا : قد غلطنا وليس هو بالنعت الذي نعت لنا ، ففرح ومارهم . وعن الأشعث بن قيس :

نزلت فىّ ، كانت بيني وبين رجل خصومة في بئر ، فاختصمنا إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال : «شاهداك أو يمينه» فقلت إذن يحلف ولا يبالى فقال «من حلف على يمين يستحق بها ما لا هو فيها فاجر لقى اللَّه وهو عليه غضبان» «1» وقيل : نزلت في رجل أقام سلعة في السوق فحلف لقد أعطى بها ما لم يعطه . والوجه أن نزولها في أهل الكتاب . وقوله : (بِعَهْدِ اللَّهِ) يقوّى رجوع الضمير في بعهده إلى اللَّه وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم تقول : فلان لا ينظر إلى فلان ، تريد نفى اعتداده به وإحسانه إليه وَلا يُزَكِّيهِمْ ولا يثنى عليهم . فإن قلت :

أى فرق بين استعماله فيمن يجوز عليه النظر وفيمن لا يجوز عليه ؟ قلت : أصله فيمن يجوز عليه النظر الكناية ، لأن من اعتد بالإنسان التفت إليه وأعاره نظر عينيه ، ثم كثر حتى

صار عبارة عن الاعتداد والإحسان وإن لم يكن ثم نظر ، ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النظر مجرداً لمعنى الإحسان

---

(1) . متفق عليه من حديثه . [. . . . .]

مجازاً عما وقع كناية عنه فيمن يجوز عليه النظر لَفَرِيقاً هم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحييّ بن أخطب وغيرهم يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ يفتلونها بقراءته عن الصحيح إلى المحرف وقرأ أهل المدينة : يلوّون ، بالتشديد ، كقوله : لووا رؤسهم . وعن مجاهد وابن كثير : يلون .

ووجهه أنهما قلبا الواو المضمومة همزة ، ثم خففوها بحذفها وإلقاء حركتها على الساكن قبلها .

فإن قلت : إلام يرجع الضمير في : (لتحسبوه) ؟ قلت : إلى ما دلّ عليه يلوّون ألسنتهم بالكتاب وهو المحرف . ويجوز أن يراد : يعطفون ألسنتهم بشبه الكتاب لتحسبوا ذلك الشبه من الكتاب وقرئ : ليحسبوه بالياء ، بمعنى : يفعلون ذلك ليحسبه المسلمون من الكتاب وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تأكيد لقوله : هو من الكتاب ، وزيادة تشنيع عليهم ،

وتسجيل بالكذب ، ودلالة على أنهم لا يعرضون ولا يورون وإنما يصرحون بأنه في التوراة هكذا ، وقد أنزله اللَّه تعالى على موسى كذلك لفرط جرامتهم على اللَّه وقساوة قلوبهم ويأسهم من الآخرة. وعن ابن عباس : هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف غيروا التوراة وكتبوا كتابا بدّلوا فيه صفة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، ثم أخذت قريظة ما كتبوه فخلطوه بالكتاب الذي عندهم.

[سورة آل عمران (3) : الآيات 79 إلى 80]

ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (79) وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْباباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (80)

ما كانَ لِبَشَرٍ تكذيب لمن اعتقد عبادة عيسى. وقيل : إنّ أبا رافع القرظي والسيد من نصارى نجران قالا لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : أتريد أن نعبدك وتتخذك ربا ؟ فقال معاذ اللَّه أن نعبد غير اللَّه ، أو أن نأمر بعبادة غير اللَّه ! فما بذلك بعثني ، ولا بذلك أمرنى «1» فنزلت.

وقيل : قال رجل : يا رسول اللَّه ، نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك ؟ قال :

---

(1) . أخرجه البيهقي في الدلائل والطبري من طريق ابن إسحاق : حدثني محمد بن أبى

محمد حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس قال «اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديا. وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانيا. فأنزل اللَّه فيهم (يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحاجُّونَ فِي إِبْراهِيمَ) - الآية قال أبو رافع القرظي ورجل آخر منهم يقال له الرئيس وهو السيد - لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم - وقد دعاهم للإسلام - أتريد منا يا محمد - فذكره» وذكر الواحدي في الأسباب من طريق الكلبي وعطاء بن عياش «أن أبا رافع والرئيس من نصارى نجران قالا يا محمد - فذكره»

(90/124)

لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون اللَّه، ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله «1» وَالْحُكْمَ والحكمة وهي السنة وَلكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ولكن يقول كونوا. والربانىّ: منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون كما يقال: رقبانى ولحياني، وهو الشديد التمسك بدين اللَّه وطاعته. وعن محمد ابن الحنفية أنه قال حين مات ابن عباس: اليوم مات ربانىّ هذه الأمّة. وعن الحسن ربانيين علماء فقهاء. وقيل علماء معلمين. وكانوا يقولون: الشارع الرباني: العالم العامل المعلم بِما كُنْتُمْ بسبب كونكم عالمين «2» وبسبب كونكم دارسين

للعلم أوجب أن تكون الربانية التي هي قوّة التمسك بطاعة اللَّه مسببة عن العلم والدراسة ، وكفى به دليلا على خيبة سعى من جهد نفسه وكدّ روحه في جمع العلم ، ثم لم يجعله ذريعة إلى العمل ، فكان مثله مثل من غرس شجرة حسناء تونقه بمنظرها ولا تنفعه بثمرها : وقرئ : تعلمون ، من التعليم . وتعلمون من التعلم تَدْرُسُونَ تقرءون . وقرئ تدرسون ، من التدريس . وتدرسون على أن أدرس بمعنى درّس كأكرم وكرّم وأنزل ونزّل .

وتدرّسون ، من التدرّس . ويجوز أن يكون معناه ومعنى تدرسون بالتخفيف : تدرسونه على الناس كقوله : (لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ) فيكون معناهما معنى تدرسون من التدريس .

وفيه أن من علم ودرس العلم ولم يعمل به فليس من اللَّه في شيء ، وأن السبب بينه وبين ربه منقطع ، حيث لم يثبت النسبة إليه إلا للمتمسكين بطاعته . وقرئ (وَلا يَأْمُرَكُمْ) بالنصب عطفا على : (ثُمَّ يَقُولَ) وفيه وجهان أحدهما أن تجعل «لا» مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله : (ما كانَ لِبَشَرٍ) والمعنى : ما كان لبشر أن يستنبئه اللَّه وينصبه للدعاء إلى اختصاص اللَّه بالعبادة وترك الأنداد ، ثم يأمر الناس بأن يكونوا عبادا له ويأمركم أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْباباً كما تقول : ما كان لزيد أن أكرمه ثم يهينني ولا يستخف بى . والثاني أن تجعل «لا» غير مزيدة . والمعنى : أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم كان ينهى قريشا عن عبادة الملائكة ، واليهود والنصارى عن عبادة عزير والمسيح . فلما قالوا له : أنتخذك ربا ؟ قيل لهم : ما كان لبشر أن يستنبئه اللَّه ، ثم يأمر الناس بعبادته وينهاكم عن عبادة الملائكة

والأنبياء. والقراءة بالرفع على ابتداء الكلام أظهر، وتنصرها قراءة عبد الله ولن يأمركم. والضمير في: (وَلا يَأْمُرَكُمْ) و(لا يَأْمُرُكُمْ) لبشر. وقيل الله، والهمزة في أيأمركم للإنكار بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ دليل على أن المخاطبين كانوا مسلمين، وهم الذين استأذنوه أن يسجدوا له

[سورة آل عمران (3) : الآيات 81 إلى 83]

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (81) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (82) أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (83)

---

(1) . لم أجد له إسنادا. ونقله الواحدي في الأسباب عن الحسن البصري «أن رجلا» فذكره.

(2) . قوله «بسبب كونكم عالمين» تفسير لقراءة (تعلمون) من العلم. (ع)

مِيثاقَ النَّبِيِّينَ فيه غير وجه: أحدها أن يكون على ظاهره من أخذ الميثاق على النبيين بذلك. والثاني أن يضيف الميثاق إلى النبيين إضافته إلى الموثق لا إلى الموثق عليه، كما تقول

:

ميثاق اللَّه وعهد اللَّه ، كأنه قيل : وإذ أخذ اللَّه الميثاق الذي وثقه الأنبياء على أممهم ، والثالث : أن يراد ميثاق أولاد النبيين وهم بنو إسرائيل على حذف المضاف . والرابع : أن يراد أهل الكتاب وأن يرد على زعمهم تهكما بهم ، لأنهم كانوا يقولون : نحن أولى بالنبوة من محمد لأنا أهل الكتاب ومنا كان النبيون . وتدل عليه قراءة أبىّ وابن مسعود : وإذ أخذ اللَّه ميثاق الذين أوتوا الكتاب واللام في لَما آتَيْتُكُمْ لام التوطئة لأن أخذ الميثاق في معنى الاستحلاف «1» وفي لتؤمنن لام جواب القسم ، و«ما» يحتمل أن تكون المتضمنة لمعنى الشرط ، ولتؤمنن سادّ مسدّ جواب القسم والشرط جميعاً ، وأن تكون موصولة بمعنى : للذي آتيتكموه لتؤمنن به . وقرئ : لما آتيناكم وقرأ حمزة : لما آتيتكم . بكسر اللام ومعناه : لأجل إيتائى إياكم بعض الكتاب والحكمة ثم لمجيء رسول مصدّق لما معكم لتؤمنن به ، على أن «ما» مصدرية ، والفعلان معها أعنى «آتيتكم» و«جاءكم» في معنى المصدرين ، واللام داخلة للتعليل على معنى : أخذ اللَّه ميثاقهم لتؤمنن بالرسول ولتنصرنه ، لأجل أنى آتيتكم الحكمة ، وأن الرسول الذي آمركم بالإيمان به ونصرته موافق لكم غير مخالف . ويجوز أن تكون «ما» موصولة . فإن قلت : كيف يجوز ذلك والعطف على آتيتكم وهو قوله (ثُمَّ جاءَكُمْ) لا يجوز أن يدخل تحت حكم الصفة ، لأنك لا تقول : للذي جاءكم رسول مصدق لما معكم ؟ قلت : بلى»

، لأنّ ما معكم في معنى ما آتيتكم ، فكأنه قيل : للذي آتيتكموه وجاءكم رسول مصدق له . وقرأ سعيد بن جبير «لما» بالتشديد ، بمعنى حين آتيتكم بعض الكتاب والحكمة ،

---

(1) . قال محمود : «اللام في لما آتيتكم لام التوطئة لأن أخذ الميثاق في معنى القسم . . . الخ» قال أحمد : يريد على أن قوله : (رَسُولٌ) فاعل جاء ، لأنه لا يخلو من الضمير وإلا فهذا القول صحيح على أن يكون الفاعل مضمراً ، ورسول : خبر الموصول . ولم يرد الزمخشري إلا الأول ، وهو ظاهر الآية .

(2) . عاد كلامه ، قال مجيبا عن السؤال : «قلت : بلى . . . الخ» قال أحمد : يريد أن الكلام وإن خلا من العائد إلا أنه في معنى كلام يتحقق فيه العائد فيجوز دخوله في الصلة ، واللَّه أعلم .

(92/124)

ثم جاءكم رسول مصدّق له وجب عليكم الإيمان به ونصرته . وقيل : أصله لمن ما ، فاستثقلوا اجتماع ثلاث ميمات وهي الميمان والنون المنقلبة ميما بإدغامها في الميم ، فحذفوا إحداها فصارت لما .

ومعناه : لمن أجل ما آتيتكم لتؤمنن به ، وهذا نحو من قراءة حمزة في المعنى إِصْرِي عهدى .

وقرئ : أصرى ، بالضم . وسمى إصراً ، لأنه مما يؤصر ، أى يشدّ ويعقد . ومنه الإصار ، الذي يعقد به . ويجوز أن يكون المضموم لغة في أصر ، كعبر وعبر ، وأن يكون جمع إصار فَاشْهَدُوا فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار وَأَنَا عَلى ذلِكُمْ من إقراركم وتشاهدكم مِنَ الشَّاهِدِينَ وهذا توكيد عليهم وتحذير من الرجوع إذا علموا بشهادة اللَّه وشهادة بعضهم على بعض . وقيل :

الخطاب للملائكة فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذلِكَ الميثاق والتوكيد فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ أى المتمردون من الكفار دخلت همزة الإنكار على الفاء العاطفة جملة على جملة . والمعنى : فأولئك هم الفاسقون فغير دين اللَّه يبغون ، ثم توسطت الهمزة بينهما . ويجوز أن يعطف على محذوف تقديره (أ) يتولون فَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وقدم المفعول الذي هو غير دين اللَّه على فعله لأنه أهم من حيث أنّ الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجه إلى المعبود بالباطل . وروى : أن أهل الكتاب اختصموا إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فيما اختلفوا فيه من دين إبراهيم عليه السلام وكل واحد من الفريقين ادعى أنه أولى به ، فقال صلى اللَّه عليه وسلم : «كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم» «1» فقالوا : ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك .

فنزلت : وقرئ : يبغون ، بالياء : وترجعون ، بالتاء وهي قراءة أبى عمرو ، لأنّ الباغين هم المتولون ، والراجعون جميع الناس . وقرئا بالياء معا ، وبالتاء معا طَوْعاً بالنظر في الأدلة والإنصاف من نفسه وَكَرْهاً بالسيف ، أو بمعاينة ما يلجئ إلى الإسلام كنتق الجبل على بنى

إسرائيل، وإدراك الغرق فرعون، والإشفاء على الموت «2» فلما رأوا بأسنا قالوا: آمنا باللَّه وحده. وانتصب طوعا وكرها على الحال، بمعنى طائعين ومكرهين

[سورة آل عمران (3) : الآيات 84 إلى 85]

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَما أُنْزِلَ عَلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (84) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ (85)

أمر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بأن يخبر عن نفسه وعمن معه بالإيمان، فلذلك وحد الضمير

---

(1) . لم أجد له إسنادا، وذكره الواحدي في الأسباب أيضا عن ابن عباس رضى اللَّه عنهما.

(2) . قوله «والإشفاء على الموت» أى الاشراف، كما في الصحاح. (ع)

(93/124)

في قُلْ وجمع في آمَنَّا ويجوز أن يؤمر بأن يتكلم عن نفسه كما يتكلم الملوك إجلالا من اللَّه لقدر نبيه. فإن قلت: لم عدّى أنزل في هذه الآية بحرف الاستعلاء، وفيما تقدم من مثلها بحرف

الانتهاء ؟ قلت : لوجود المعنيين جميعا ، لأن الوحى ينزل من فوق وينتهى إلى الرسل ، فجاء تارة بأحد المعنيين ، وأخرى بالآخر . ومن قال : إنما قيل (عَلَيْنا) لقوله : (قُلْ) و(إلينا) لقوله (قولوا) تفرقة بين الرسل والمؤمنين ، لأن الرسول يأتيه الوحى على طريق الاستعلاء ، ويأتيهم على وجه الانتهاء ، فقد تعسف . ألا ترى إلى قوله : (بما أُنْزِلَ إِلَيْكَ) ، (وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ) وإلى قوله : (آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا) . وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ موحدون مخلصون أنفسنا له لا نجعل له شريكا في عبادتها ثم قال وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ يعنى التوحيد والإسلام الوجه لله تعالى دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ من الذين وقعوا في الخسران مطلقا من غير تقييد للشياع . وقرئ : ومن يبتغ غير الإسلام بالإدغام .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 86 إلى 89]

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (86) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (87) خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (88) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (89)

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كيف يلطف بهم وليسوا من أهل اللطف ، لما علم الله من تصميمهم على كفرهم ، ودل على تصميمهم بأنهم كفروا بعد إيمانهم وبعد ما شهدوا بأن الرسول حق ، وبعد ما جاءتهم الشواهد من القرآن وسائر المعجزات التي تثبت بمثلها النبوّة - وهم

اليهود - كفروا بالنبي صلى اللَّه عليه وسلم بعد أن كانوا مؤمنين به وذلك حين عاينوا ما يوجب قوّة إيمانهم من البينات: وقيل: نزلت في رهط كانوا أسلموا ثم رجعوا عن الإسلام ولحقوا بمكة، منهم طعمة ابن أبيرق، ووحوح بن الأسلت، والحرث بن سويد بن الصامت. فإن قلت: علام عطف قوله وَشَهِدُوا؟ قلت: فيه وجهان: أن يعطف على ما في إيمانهم من معنى الفعل لأن معناه بعد أن آمنوا، كقوله تعالى: (فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ) وقول الشاعر:

... لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً وَلَا نَاعِبٍ .... «1» ....

---

(1) مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب إلا ببين غرابها

أنشده أبو المهدى. والشؤم: ضد اليمن. والناعب: الصائح، من باب ضرب ونفع. والبين: مصدر بمعنى الانفصال والبعد. وجر ناعب على توهم: ليسوا بمصلحين ولا ناعب، وجعل هذا جمهور النحاة مطردا، ومنعه بعضهم.

وروى «إلا بشؤم» وصوت الغراب كثيرا ما تتشاءم منه العرب. وهو كناية عن تشتت شمل تلك المشائيم وعدم اتفاق كلمتهم.

ويجوز أن تكون الواو للحال بإضمار «قد» بمعنى كفروا وقد شهدوا أن الرسول حق وَاللَّهُ لا يَهْدِي لا يلطف بالقوم الظالمين المعاندين الذين علم أن اللطف لا ينفعهم إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ الكفر العظيم والارتداد وَأَصْلَحُوا ما أفسدوا أو ودخلوا في الإصلاح. وقيل: نزلت في الحرث بن سويد بعد أن ندم على ردّته وأرسل إلى قومه أن سلوا: هل لي من توبة، فأرسل إليه أخوه الجلاس بالآية، فأقبل إلى المدينة فتاب وقبل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم توبته.

[سورة آل عمران (3) : الآيات 90 إلى 91]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (90) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدى بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (91)

ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً هم اليهود كفروا بعيسى والإنجيل بعد إيمانهم بموسى والتوراة، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد والقرآن. أو كفروا برسول اللَّه بعد ما كانوا به مؤمنين قبل مبعثه ثم ازدادوا كفراً بإصرارهم على ذلك وطعنهم في كل وقت، وعداوتهم له، ونقضهم ميثاقه، وفتنتهم للمؤمنين، وصدهم عن الإيمان به، وسخريتهم بكل آية تنزل. وقيل: نزلت في الذين ارتدوا ولحقوا بمكة، ازديادهم الكفر أن قالوا نقيم بمكة نتربص بمحمد ريب المنون، وإن أردنا الرجعة نافقنا بإظهار التوبة. فإن قلت: قد علم أنّ المرتد كيفما ازداد كفرا فإنه

مقبول التوبة إذا تاب فما معنى لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ؟ قلت : جعلت عبارة عن الموت على الكفر ، لأنّ الذي لا تقبل توبته من الكفار هو الذي يموت على الكفر ، كأنه قيل : إن اليهود أو المرتدين الذين فعلوا ما فعلوا مائتون على الكفر ، داخلون في جملة من لا تقبل توبتهم . فإن قلت : فلم قيل في إحدى الآيتين (لَنْ تُقْبَلَ) بغير فاء ، وفي الأخرى (فَلَنْ يُقْبَلَ) ؟ قلت : قد أوذن بالفاء أنّ الكلام بنى على الشرط والجزاء . وأن سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر . وبترك الفاء أن الكلام مبتدأ وخبر ولا دليل فيه على التسبيب ، كما تقول : الذي جاءني له درهم ، لم تجعل المجيء سببا في استحقاق الدرهم ، بخلاف قولك : فله درهم . فإن قلت : فحين كان المعنى (لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ)

(95/124)

بمعنى الموت على الكفر ، فهلا جعل الموت على الكفر مسببا عن ارتدادهم وازديادهم الكفر لما في ذلك من قساوة القلوب وركوب الرين وجرّه إلى الموت على الكفر ؟ قلت : لأنه كم من مرتد مزداد للكفر يرجع إلى الإسلام ولا يموت على الكفر . فإن قلت : فأى فائدة في هذه الكناية ، أعنى أن كنى عن الموت على الكفر بامتناع قبول التوبة ؟ قلت : الفائدة فيها جليلة ، وهي التغليظ في شأن أولئك الفريق من الكفار ، وإبراز حالهم في صورة حالة

الآيسين من الرحمة التي هي أغلظ الأحوال وأشدّها : ألا ترى أنّ الموت على الكفر إنما يخاف من أجل اليأس من الرحمة ذَهَباً نصب على التمييز . وقرأ الأعمش : ذهب ، بالرفع ردا على ملء ، كما يقال : عندي عشرون نفسا رجال . فإن قلت : كيف موقع قوله وَلَوِ افْتَدى بِهِ «1» ؟ قلت : هو كلام محمول على المعنى ،

---

(1) . قال محمود رحمه اللَّه : «إن قلت كيف موقع قوله ولو افتدى به . . . الخ» قال أحمد : لم يبين تطبيق لفظ الآية على هذا التقدير الذي ذهب إليه بوجه ، ونحن نبين السبب الباعث له على إخراج الكلام عن ظاهره ، ثم نقرر وجها يطابق الآية ، وذلك أن هذه الواو المصاحبة للشرط تستدعى شرطا آخر يعطف عليه الشرط المقترنة به ضرورة ، والعادة في مثل ذلك أن يكون المنطوق به منبها على المسكوت عنه بطريق الأولى ، مثاله قولك : أكرم زيداً ولو أساء ، فهذه الواو عطفت المذكور على محذوف تقديره : أكرم زيداً لو أحسن ولو أساء ، إلا أنك نبهت بإيجاب إكرامه إن أساء على أن إكرامه إن أحسن بطريق الأولى . ومنه (كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ) معناه - واللَّه أعلم - : لو كان الحق على غيركم ، ولو كان عليكم ، ولكنه ذكر ما هو أعسر عليهم ، فأوجبه تنبيها على ما هو أسهل وأولى بالوجوب ، فإذا تبين مقتضى الواو في مثل هذه المواضع وجدت آية آل عمران هذه مخالفة لهذا النمط ظاهراً ، لأن قوله : (وَلَوِ افْتَدى بِهِ) يقتضى شرطا آخر محذوفا يكون هذا المذكور منبها عليه بطريق الأولى ، وهذه الحال المذكورة وهي حالة

افتدائهم بملء الأرض ذهبا هي حالة أجدر الحالات بقبول الفدية ، وليس وراءها حالة أخرى تكون أولى بالقبول منها ، فلذلك قدر الكلام بمعنى : لن يقبل من أحد منهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهبا ، حتى تبين حالة أخرى يكون الافتداء الخاص بملء الأرض ذهبا هو أولى بالقبول منها ، فإذا انتفى حيث كان أولى فلأن ينتفي فيما عدا هذه الحالة أولى ، فهذا كله بيان للباعث له على التقدير المذكور . وأما تنزيل الآية عليه فعسر جداً ، فالأولى ذكر وجه يمكن تطبيق الآية عليه على أسهل وجه وأقرب مأخذ إن شاء اللّٰه فنقول :

قبول الفدية التي هي ملء الأرض ذهبا يكون على أحوال : منها أن يؤخذ منه على وجه لقهر فدية عن نفسه كما تؤخذ الدية قهراً من مال القاتل على قول . ومنها أن يقول المفتدى في التقدير : أفدى نفسي بكذا ، وقد لا يفعل . ومنها أن يقول هذا القول وينجز المقدار الذي يفدى به نفسه ويجعله حاضراً عتيداً ، وقد يسلمه مثلا لمن يأمن منه قبول فديته .

وإذا تعددت الأحوال فالمراد في الآية أبلغ الأحوال وأجدرها بالقبول ، وهو أن يفتدى بملء الأرض ذهبا افتداء محققا بأن يقدر على هذا الأمر العظيم ويسلمه وينجزه اختيارا ، ومع ذلك لا يقبل منه فمجرد قوله أبذل المال وأقدر عليه أو ما يجرى هذا المجرى بطريق الأولى ، فيكون دخول الواو والحالة هذه على بابها ، تنبيها على أن ثم أحوالا أخر لا ينفع فيها القبول بطريق الأولى بالنسبة إلى الحالة المذكورة . وقد ورد هذا المعنى مكشوفا في قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ

ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ) واللَّه أعلم .

وهذا كله تسجيل بأنه لا محيص ولا مخلص لهم من الوعيد ، وإلا فمن المعلوم أنهم أعجز عن الفلس في ذلك اليوم .

ونظير هذا التقدير من الأمثلة أن يقول القائل : لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار ولو سلمتها إلى في يدي هذه . فتأمل هذا النظر فانه من السهل الممتنع . واللَّه ولى التوفيق .

(96/124)

كأنه قيل : فلن تقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً . ويجوز أن يراد : ولو افتدى بمثله «1» ، كقوله : (وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ) والمثل يحذف كثيراً في كلامهم ، كقولك : ضربته ضرب زيد ، تريد مثل ضربه . وأبو يوسف أبو حنيفة تريد مثله ولا هيثم الليلة للمطىّ ، وقضية ولا أبا حسن لها ، تريد : ولا مثل هيثم ، ولا مثل أبى حسن ، كما أنه يراد في نحو قولهم : مثلك لا يفعل كذا ، تريد أنت . وذلك أنّ المثلين يسدّ أحدهما مسدّ الآخر فكانا في حكم شيء واحد ، وأن يراد : فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا كان قد تصدق به ، ولو افتدى به أيضاً لم يقبل منه . وقرئ : فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ، على البناء للفاعل وهو اللَّه عزّ وعلا ، ونصب ملء .

ومل لرض بتخفيف الهمزتين

[سورة آل عمران (3) : آية 92]

لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (92)

لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ لن تبلغوا حقيقة البرّ، ولن تكونوا أبرارا. وقيل: لن تنالوا بر اللَّه وهو ثوابه حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها وتؤثرونها كقوله: (أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ) وكان السلف رحمهم اللَّه إذا أحبوا شيئا جعلوه للَّه. وروى أنها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال: يا رسول اللَّه. إن أحبّ أموالى إلىّ بيرحا فضعها يا رسول اللَّه حيث أراك اللَّه. فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم «بخ بخ ذاك مال رابح «2» أو مال رائح وإنى أرى أن تجعلها في الأقربين» فقال أبو طلحة: افعل يا رسول اللَّه فقسمها في أقاربه. وجاء زيد ابن حارثة بفرس له كان يحبها فقال: هذه في سبيل اللَّه، فحمل عليها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أسامة بن زيد، فكأن زيداً وجد في نفسه وقال: إنما أردت أن أتصدق به. فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: أما إن اللَّه تعالى قد قبلها «3» منك. وكتب عمر رضى اللَّه عنه إلى أبى موسى الأشعرى أن يبتاع له جارية من سبى جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى، فلما جاءت أعجبته فقال: إن اللَّه تعالى يقول (لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) «4» فأعتقها. ونزل بأبى ذرّ ضيف فقال للراعي

---

(1). (عاد كلامه) قال: «ويجوز أن يكون معنى الكلام ولو افتدى بمثله... الخ» قال

أحمد : وعلى هذا النمط يجرى الكلام على التأويل المتقدم لأنه نبه بعدم قبول مثلي ملء الأرض ذهباً على عدم قبول ملئها مرة واحدة بطريق الأولى .

(2) . متفق عليه من حديث إسحاق بن عبد اللَّه بن أبى طلحة عن انس بن مالك رضى اللَّه عنه .

(3) . أخرجه عبد الرزاق في تفسيره والطبري من طريقه : أخبرنا معمر عن أيوب وغيره «أنه لما نزلت (لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) جاء زيد بن حارثة بفرس له - فذكره وهو معضل . وأخرجه الطبري من رواية عمرو بن دينار نحوه مرسلا ، ورجاله ثقات .

(4) . رواه الطبري من رواية ابن أبى نجيح عن مجاهد في قوله تعالى : (لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) قال «كتب عمر إلى أبى موسى - فذكره» .

ائتني بخير إبلى فجاء بناقة مهزولة . فقال : خنتني ، قال : وجدت خير الإبل فحلها ، فذكرت يوم حاجتكم إليه فقال : إنّ يوم حاجتي إليه ليوم أوضع في حفرتي . وقرأ عبد اللَّه : حتى تنفقوا بعض ما تحبون . وهذا دليل على أنّ «من» في : (مِمَّا تُحِبُّونَ) للتبعيض .

ونحوه : أخذت من المال . ومن في مِنْ شَيْءٍ لتبيين ما تنفقوا ، أى من أى شيء كان طيبا

تحبونه أو خبيثاً تكرهونه فَإِنَّ اللَّهَ عليم بكل شيء تنفقونه فمجازيكم بحسبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 1 صـ 374 . 385 ﴾

(98/124)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (92) ﴾

هذا الشوط من السورة ما يزال يجري مع الخط الأول الأساسي العريض فيها . . خط المعركة بين أهل الكتاب والجماعة المسلمة . . معركة العقيدة ، وما يبذل أعداء هذا الدين من جهد ومن حيلة ومن مكيدة ومن خداع ، ومن كذب ، ومن تدبير ، للبس الحق بالباطل ، وبث الريب والشكوك ، وتبييت الشر والضر لهذه الأمة بلا ونأة ولا انقطاع . . ثم مواجهة القرآن لهذا كله ، بتبصير المؤمنين بحقيقة ما هم عليه من الحق ؛ وحقيقة ما عليه أعداؤهم من الباطل ؛ وحقيقة ما يبيته لهم هؤلاء الأعداء . . وأخيراً بتشريح هؤلاء الأعداء . .

طباعهم وأخلاقهم وأعمالهم ونياتهم . . على مشهد من الجماعة المسلمة . لتعريفها حقيقة أعدائها ، وفضح ما يضفونه على أنفسهم من مظاهر العلم والمعرفة ، وتبديد ثقة المخدوعين من المسلمين فيهم ، وتنفيرهم من حالهم وإسقاط دسائسهم بتركها مكشوفة عوراء ، لا تخدع أحداً ولا تنطلي على أحد !

(99/124)

ويبدأ هذا الشوط بمواجهة أهل الكتاب - اليهود والنصارى - بسخف موقفهم وهم يحاجون في إبراهيم - عليه السلام - فيزعم اليهود أنه كان يهودياً ، ويزعم النصارى أنه كان نصرانياً . على حين أن إبراهيم سابق لليهودية والنصرانية ، سابق للتوراة والإنجيل . والحجاج فيه على هذا النحو مراء لا يستند إلى دليل . . ويقرر حقيقة ما كان عليه إبراهيم . . لقد كان على الإسلام . . دين الله القويم . وأولياؤه هم الذين يسيرون على نهجه . والله ولي المؤمنين أجمعين . . ومن ثم تسقط ادعاءات هؤلاء وهؤلاء ؛ ويتبين خط الإسلام الواصل بين رسل الله والمؤمنين بهم على توالي القرون : ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ، وهذا النبي ، والذين آمنوا . والله ولي المؤمنين ﴾ . .

يلي ذلك في السياق كشف الهدف الأصيل الكامن وراء مماراة أهل الكتاب في إبراهيم

وغير إبراهيم - مما سبق في السورة ومما سيجيء - فهو الرغبة الملحة في إضلال المسلمين عن دينهم - وتشكيكهم في عقيدتهم . . ومن ثم يتجه بالتقريع إلى المضللين : ﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ؟ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ؟ ﴾ . .

ثم يطلع الجماعة المسلمة على لون من تبييت أعدائهم وتدبيرهم ، لزعزعة ثقتهم في عقيدتهم ودينهم بطريقة خبيثة ماكرة لئيمة . ذلك أن يعلنوا إيمانهم بالإسلام أول النهار ، ثم يكفروا بالإسلام آخره . . كي يلقوا في روع غير المتثبتين في الصف المسلم - ومثلهم موجود دائماً في كل صف - أنه لأمر ارتد أهل الكتاب ، الخبيرون بالكتب والرسل والديانات :

﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ﴾ . . وهو كيد خبيث لئيم !

(100/124)

ثم يكشف عن طبيعة أهل الكتاب وأخلاقهم ونظرتهم للعهود والمواثيق - على أمانة في بعضهم لا ينكرها عليهم - فأما البعض الآخر فلا أمانة له ولا عهد ولا ذمة ؛ وهم يفلسفون جشعهم وخيانتهم ويدعون لها سنداً من دينهم ، ودينهم من هذا الخلق بريء : ﴿ ومن

أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك .

ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً . ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا في الأميين سبيل . ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ . .

وفي هذا الموضع يبين طبيعة نظرة الإسلام الأخلاقية ومبعثها وارتباطها بتقوى الله : ﴿ بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين . إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ، أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم ﴾ . .

ويمضي يعرض نموذجاً آخر من التواء أهل الكتاب وكذبهم الرخيص في أمر الدين ابتغاء مكاسب الأرض وهي كلها ثمن قليل : ﴿ وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب ، لتحسبوه من الكتاب ، وما هو من الكتاب . ويقولون : هو من عند الله . وما هو من عند الله . ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ . .

ومن هذا الذي يلوون ألسنتهم فيه ما يدعونه من ألوهية للمسيح وللروح القدس . . وينفي الله – سبحانه – أن يكون المسيح – عليه السلام – قد جاءهم بهذا في الكتاب أو أمرهم به : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس : كونوا عباداً لي من دون الله . ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً . أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ . .

وبهذه المناسبة يذكر حقيقة الصلة بين موكب الرسل المتتابعة . . وهي عهد الله عليهم أن يسلم السابق منهم للاحق وينصره : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين : لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه . قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ قالوا : أقررنا . قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ . . ومن ثم يتعين على أهل الكتاب أن يؤمنوا بالرسول الأخير وينصروه . ولكنهم لا يوفون بعهد الله معهم ومع رسلهم الأولين .

وفي ظل هذا العهد الساري يقرر أن الذي يبتغي ديناً غير دين الله . . الإسلام . . يخرج في الحقيقة على نظام الكون كله كما أراده الله : ﴿ أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ؟ وإليه يرجعون ؟ ﴾ . . فيبدو هؤلاء الذين يخرجون عن إسلام أمرهم لله كله ، والطاعة والاتباع لمنهج الله في خضوع واستسلام . . يبدو هؤلاء شذاذاً خارجين على نظام الوجود الكبير !

هنا يوجه الرسول – صلى الله عليه وسلم – والمسلمين معه إلى إعلان الإيمان بدين الله الواحد ، ممثلاً في كل ما جاء به الرسل أجمعين . وأن الله لا يقبل من البشر جميعاً إلا هذا

الدين : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ .

.

فأما الذين لا يؤمنون بهذا الدين فلا مطمع لهم في هداية الله . ولا في النجاة من عقابه . إلا أن يتوبوا . وأما الذين يموتون وهم كفار فلن ينفعهم أن يكونوا قد بذلوا ، ما بذلوا ولن ينجيهم أن يفتدوا بملء الأرض ذهباً ! وبمناسبة البذل والفداء يحبب للمسلمين أن ينفقوا مما يحبون من مال في هذه الدنيا ، ليجدوه عند الله مدخراً يوم القيامة : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون . وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم ﴾ . .

(102/124)

وهكذا يستعرض هذا الشوط الواحد هذا الحشد من الحقائق والتوجيهات . وهو شوط في المعركة الضخمة التي تعرضها السورة ، دائرة بين الجماعة المسلمة وأعداء هذا الدين . من وراء القرون . وهي ذاتها المعركة الدائرة اليوم ، لا تختلف فيها الأهداف والغايات ، وإن اختلفت أشكال الوسائل والأدوات . . وهي هي في خطها الطويل المديد . .

فلننظر في النصوص – بعد هذا الإجمال – نظرة استيعاب وتفصيل :

﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم ، وما أنزلت التوراة والإنجيل إلاّ من بعده ؟ أفلا

تعقلون؟ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم؟ والله يعلم وأنتم لا تعلمون. ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا، ولكن كان حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين. إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه، وهذا النبي، والذين آمنوا. والله ولي المؤمنين ﴾.

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي - مولى زيد بن ثابت - حدثني سعيد بن جبير - أو عكرمة - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتنازعوا عنده. فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً. وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً. فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم... ﴾ الآية.

(103/124)

وسواء كانت هذه هي مناسبة نزول الآية أو لم تكن، فظاهر من نصها أنها نزلت رداً على ادعاءات لأهل الكتاب، وحجاج مع النبي - صلى الله عليه وسلم - أو مع بعضهم البعض في حضرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - والهدف من هذه الادعاءات هو احتكار عهد الله مع إبراهيم - عليه السلام - أن يجعل في بيته النبوة؛ واحتكار الهداية والفضل

كذلك . ثم – وهذا هو الأهم – تكذيب دعوى النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه على دين إبراهيم ، وأن المسلمين هم ورثة الحنيفية الأولى ؛ وتشكيك المسلمين في هذه الحقيقة ، أو بث الريبة في نفوس بعضهم على الأقل . .

ومن ثم يندد الله بهم هذا التنديد ؛ ويكشف مراءهم الذي لا يستند إلى دليل .

فإبراهيم سابق على التوراة وسابق على الإنجيل . فكيف إذن يكون يهودياً ؟ أو كيف إذن يكون نصرانياً ؟ إنها دعوى مخالفة للعقل ، تبدو مخالفتها بمجرد النظرة الأولى إلى التاريخ :

﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ؟ أفلا تعقلون ؟ ﴾ .

ثم يمضي في التنديد بهم ؛ وإسقاط قيمة ما يدلون به من حجج وكشف تعنتهم وقلة اعتمادهم على منهج منطقي سليم في الجدل والحوار :

﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ؟ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ؟ ﴾ .

وقد جادلوا في أمر عيسى عليه السلام ؛ كما يبدو أنهم جادلوا في بعض الأحكام التشريعية حين دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، ثم تولوا وهم معرضون . . وكان هذا وذاك في دائرة ما يعلمون من الأمر ، أما أن يجادلوا فيما هو سابق على وجودهم ، ووجود كتبهم ودياناتهم . . فهو الأمر الذي لا سند له ولو كان سنداً شكلياً . . فهو الجدل إذن لذات

الجدل . وهو المراء الذي لا يسير على منهج ، وهو الغرض إذن والهوى . . ومن كان هذا حاله فهو غير جدير بالثقة فيما يقول . بل غير جدير بالاستماع أصلا لما يقول !

(104/124)

حتى إذا انتهى السياق من إسقاط قيمة جدلهم من أساسه ، ونزع الثقة منهم ومما يقولون ، عاد يقرر الحقيقة التي يعلمها الله . فهو - سبحانه - الذي يعلم حقيقة هذا التاريخ البعيد ؛ وهو الذي يعلم كذلك حقيقة الدين الذي نزله على عبده إبراهيم . وقوله الفصل الذي لا يبقى معه لقائل قول ؛ إلا أن يجادل ويماري بلا سلطان ولا دليل :

﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً . ولكن كان حنيفاً مسلماً . وما كان من المشركين ﴾ . .

فيؤكد ما قرره من قبل ضمناً من أن إبراهيم - عليه السلام - ما كان يهودياً ولا نصرانياً . وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده . ويقرر أنه كان مائلاً عن كل ملة إلا الإسلام . فقد كان مسلماً . . مسلماً بالمعنى الشامل للإسلام الذي مر تفصيله وبيانه . .

﴿ وما كان من المشركين ﴾ . .

وهذه الحقيقة متضمنة في قوله قبلها ﴿ ولكن كان حنيفاً مسلماً ﴾ . . ولكن إبرازها هنا

يشير إلى عدة من لطائف الإشارة والتعبير :

يشير أولاً إلى أن اليهود والنصارى - الذين انتهى أمرهم إلى تلك المعتقدات المنحرفة - مشركون . . ومن ثم لا يمكن أن يكون إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً . ولكن حنيفاً مسلماً !

ويشير إلى أن الإسلام شيء والشرك شيء آخر . فلا يلتقيان . الإسلام هو التوحيد المطلق بكل خصائصه . وكل مقتضياته . ومن ثم لا يلتقي مع لون من ألوان الشرك أصلاً .

ويشير ثالثاً إلى إبطال دعوى المشركين من قريش كذلك أنهم على دين إبراهيم ، وسدنة بيته في مكة . . فهو حنيف مسلم ، وهم مشركون . ﴿ وما كان من المشركين ﴾ !

وما دام أن إبراهيم - عليه السلام - كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ، فليس لأي من اليهود أو النصارى - أو المشركين أيضاً - أن يدعي وراثته ، ولا الولاية على دينه ، وهم بعيدون عن عقيدته .

(105/124)

. والعقيدة هي الوشيجة الأولى التي يتلاقى عليها الناس في الإسلام . حين لا يلتقون على نسب ولا أرومة ولا جنس ولا أرض ، إذا أنبتت تلك الوشيجة التي يتجمع عليها أهل الإيمان . فالإنسان في نظر الإسلام إنسان بروحه . بالنفخة التي جعلت منه إنساناً . ومن ثم

فهو يتلاقى على العقيدة أخص خصائص الروح فيه . ولا يلتقي على مثل ما تلتقي عليه البهائم من الأرض والجنس والكلأ والمرعى والحد والسياج ! والولاية بين فرد وفرد ، وبين مجموعة ومجموعة ، وبين جيل من الناس وجيل ، لا ترتكن إلى وشيجة أخرى سوى وشيجة العقيدة . يتلاقى فيها المؤمن والمؤمن . والجماعة المسلمة والجماعة المسلمة . والجيل المسلم والأجيال المسلمة من وراء حدود الزمان والمكان ، ومن وراء فواصل الدم والنسب ، والقوم والجنس ؛ ويتجمعون أولياء – بالعقيدة وحدها – والله من ورائهم ولي الجميع :

﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ، وهذا النبي ، والذين آمنوا . والله ولي المؤمنين ﴾ . .

فالذين اتبعوا إبراهيم – في حياته – وساروا على منهجه ، واحتكموا إلى سنته هم أولياؤه . ثم هذا النبي الذي يلتقي معه في الإسلام بشهادة الله أصدق الشاهدين . ثم الذين آمنوا بهذا النبي – صلى الله عليه وسلم – فالتقوا مع إبراهيم – عليه السلام – في المنهج والطريق .

﴿ والله ولي المؤمنين ﴾ . .

فهم حزبه الذين ينتمون إليه ، ويستظلون برايته ، ويتولونه ولا يتولون أحداً غيره . وهم أسرة

واحدة. وأمة واحدة. من وراء الأجيال والقرون، ومن وراء المكان والأوطان؛ ومن وراء القوميات والأجناس، ومن وراء الأرومات والبيوت!

(106/124)

وهذه الصورة هي أرقى صورة للتجمع الإنساني تليق بالكائن الإنساني. وتميزه من القطيع! كما أنها هي الصورة الوحيدة التي تسمح بالتجمع بلا قيود. لأن القيد الواحد فيها اختياري يمكن لكل من يشاء أن يفكه عن نفسه بإرادته الذاتية. فهو عقيدة يختارها بنفسه فينتهي الأمر. . على حين لا يملك الفرد أن يغير جنسه - إن كانت رابطة التجمع هي الجنس - ولا يملك أن يغير قومه - إن كانت رابطة التجمع هي القوم - ولا يملك أن يغير لونه - إن كانت رابطة التجمع هي اللون - ولا يملك بيسر أن يغير لغته إن كانت رابطة التجمع هي اللغة - ولا يملك بيسر أن يغير طبقته - إن كانت رابطة التجمع هي الطبقة - بل قد لا يستطيع أن يغيرها أصلا إن كانت الطبقات وراثة كما في الهند مثلاً. ومن ثم تبقى الحواجز قائمة أبداً دون التجمع الإنساني، ما لم ترد إلى رابطة الفكرة والعقيدة والتصور. الأمر المتروك للاقتناع الفردي، والذي يملك الفرد بذاته، بدون تغيير أصله أو لونه أو لغته أو طبقته أن يختاره، وأن ينضم إلى الصف على أساسه.

وذلك فوق ما فيه من تكريم للإنسان ، بجعل رابطة تجمعه مسألة تتعلق بأكرم عناصره ، المميزة له من القطيع !

والبشرية إما أن تعيش - كما يريدها الإسلام - أناسيّ تتجمع على زاد الروح وسمة القلب وعلامة الشعور . . وإما أن تعيش قطعاناً خلف سياج الحدود الأرضية ، أو حدود الجنس واللون . . وكلها حدود مما يقام للماشية في المرعى كي لا يختلط قطيع بقطيع ! ! !

ثم يكشف للجماعة المسلمة عما يريده بها أهل الكتاب من وراء كل جدال وكل مراء .

ويواجه أهل الكتاب بألاعيبهم وكيدهم وتدبيرهم على مرأى ومسمع من الجماعة المسلمة أيضاً . وهو يمزق عنهم الأردية التي يتخفون تحتها ، فيقفهم أمام الجماعة المسلمة عراة مفضوحين :

(107/124)

﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم . وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون . يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ؟ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ؟ وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم - قل : إن

الهدى هدى الله - أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم - قل : إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

إن الإحنة التي يكنها أهل الكتاب للجماعة المسلمة هي الإحنة المتعلقة بالعقيدة . إنهم يكرهون لهذه الأمة أن تهتدي . يكرهون لها أن تفيء إلى عقيدتها الخاصة في قوة وثقة ويقين . ومن ثم يرصدون جهودهم كلها لإضلالها عن هذا المنهج ، والإلواء بها عن هذا الطريق :

﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ﴾ . .

فهو ود النفس ورغبة القلب والشهوة التي تهفو إليها الأهواء من وراء كل كيد ، وكل دس ، وكل مراء ، وكل جدال ، وكل تلبيس .

وهذه الرغبة القائمة على الهوى والحقد والشر ، ضلال لا شك فيه . فما تنبعث مثل هذه الرغبة الشريرة الآثمة عن خير ولا عن هدى . فهم يوقعون أنفسهم في الضلالة في اللحظة التي يودون فيها إضلال المسلمين . فما يحب إضلال المهتدين إلا ضال يهيم في الضلال البهيم :

﴿ وما يضلون إلا أنفسهم . وما يشعرون ﴾ . .

والمسلمون مكفيون أمر أعدائهم هؤلاء ما استقاموا على إسلامهم وما لهم عليهم من سبيل . والله سبحانه يتعهد لهم ألا يصيبهم كيد الكائدين ، وأن يرتد عليهم كيدهم ما بقي

المسلمون مسلمين .

هنا يقرع أهل الكتاب بحقيقة موقفهم المريب المعيب :

﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ؟ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ؟ ﴾ .

.

(108/124)

ولقد كان أهل الكتاب وقتها - وما يزالون حتى اليوم - يشهدون الحق واضحاً في هذا الدين . سواء منهم المطلعون على حقيقة ما جاء في كتبهم عنه من بشارات وإشارات - وكان بعضهم يصرح بما يجد من هذا كله وبعضهم يسلم بناء على هذا الذي يجده في كتبه ويشهده متحققاً أمامه - وسواء كذلك غير المطلعين ، ولكنهم يجدون في الإسلام من الحق الواضح ما يدعو إلى الإيمان . . غير أنهم يكفرون . . لا لنقص في الدليل . ولكن للهوى والمصلحة والتضليل . . والقرآن يناديهم : ﴿ يا أهل الكتاب ﴾ . . لأنها الصفة التي كان من شأنها أن تقودهم إلى آيات الله وكتابه الجديد .

كذلك يناديهم مرة أخرى ليفضح ما يقومون به من لبس الحق بالباطل لإخفائه وكتمانه

وتضييعه في غمار الباطل، على علم وعن عمد وفي قصد.. وهو أمر مستنكر قبيح!

وهذا الذي ندد الله به - سبحانه - من أعمال أهل الكتاب حينذاك، هو الأمر الذي درجوا عليه من وقتها حتى اللحظة الحاضرة.. فهذا طريقهم على مدار التاريخ.. اليهود بدأوا منذ اللحظة الأولى. ثم تابعهم الصليبيون!

وفي خلال القرون المتطاولة دسوا - مع الأسف - في التراث الإسلامي ما لا سبيل إلى كشفه إلا بجهد القرون! ولبسوا الحق بالباطل في هذا التراث كله - اللهم إلا هذا الكتاب المحفوظ الذي تكفل الله بحفظه أبد الآبدين - والحمد لله على فضله العظيم.

(109/124)

دسوا ولبسوا في التاريخ الإسلامي وأحداثه ورجاله. ودسوا ولبسوا في الحديث النبوي حتى قيض الله له رجاله الذين حققوه وحرروه إلا ما ند عن الجهد الإنساني المحدود. ودسوا ولبسوا في التفسير القرآني حتى تركوه تيهاً لا يكاد الباحث يفيء فيه إلى معالم الطريق. ودسوا ولبسوا في الرجال أيضاً. فالمئات والألوف كانوا دسيسة على التراث الإسلامي - وما يزالون في صورة المستشرقين وتلاميذ المستشرقين الذين يشغلون مناصب القيادة الفكرية اليوم في البلاد التي يقول أهلها: إنهم مسلمون. والعشرات من الشخصيات

المدسوسة على الأمة المسلمة في صورة أبطال مصنوعين على عين الصهيونية والصليبية ، ليؤدوا لأعداء الإسلام من الخدمات ما لا يملك هؤلاء الأعداء أن يؤدوه ظاهرين !

وما يزال هذا الكيد قائماً ومطرداً . وما تزال مثابة الأمان والنجاة منه هي اللياذ بهذا الكتاب المحفوظ ؛ والعودة إليه لاستشارته في المعركة الناشبة طوال هذه القرون .

كذلك يعرض بعض المحاولات التي يبذلها فريق من أهل الكتاب لبلبلة الجماعة المسلمة في دينها ، وردها عن الهدى ، من ذلك الطريق الماكر اللئيم :

﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم . . . ﴾ . .

وهي طريقة ماكرة لئيمة كما قلنا . فإن إظهارهم الإسلام ثم الرجوع عنه ، يوقع بعض ضعاف النفوس والعقول وغير المتثبتين من حقيقة دينهم وطبيعته .

. يوقعهم في بلبلة واضطراب . وبخاصة العرب الأميين ، الذين كانوا يظنون أن أهل الكتاب أعرف منهم بطبيعة الديانات والكتب . فإذا رأوهم يؤمنون ثم يرتدون ، حسبوا أنهم إنما ارتدوا بسبب اطلاعهم على خبيئة ونقص في هذا الدين . وتأرجحوا بين اتجاهين فلم يكن لهم ثبات على حال .

وما تزال هذه الخدعة تتخذ حتى اليوم . في شتى الصور التي تناسب تطور الملابسات والناس في كل جيل . . ولقد يئس أعداء المسلمين أن تنطلي اليوم هذه الخدعة ، فلجأت القوى المناهضة للإسلام في العالم إلى طرق شتى ، كلها تقوم على تلك الخدعة القديمة .

إن لهذه القوى اليوم في أنحاء العالم الإسلامي جيشاً جراراً من العملاء في صورة أساتذة وفلاسفة ودكاترة وباحثين - وأحياناً كتاب وشعراء وفنانين وصحفيين - يحملون أسماء المسلمين ، لأنهم انحدروا من سلالة مسلمة ! وبعضهم من " علماء " المسلمين !

هذا الجيش من العملاء موجه لخلخلة العقيدة في النفوس بشتى الأساليب ، في صورة بحث وعلم وأدب وفن وصحافة . وتوهين قواعدها من الأساس . والتهوين من شأن العقيدة والشريعة سواء . وتأويلها وتحميلها ما لا تطيق . والدق المتصل على " رجعيتها " ! والدعوة للتلفت منها . وإبعادها عن مجال الحياة إشفاقا عليها من الحياة أو إشفاقا على الحياة منها ! وابتداع تصورات ومثل وقواعد للشعور والسلوك تناقض وتحطم تصورات العقيدة ومثلها . وتزيين تلك التصورات المبتدعة بقدر تشويه التصورات والمثل الإيمانية . وإطلاق الشهوات من عقالها وسحق القاعدة الخلقية التي تستوي عليها العقيدة النظيفة لتخر في الوحل الذي ينثرونه في الأرض نثراً ! ويشوهون التاريخ كله ويحرفونه كما يحرفون النصوص !

وهم بعد مسلمون ! أليسوا يحملون أسماء المسلمين ؟ وهم بهذه الأسماء المسلمة يعلنون الإسلام وجه النهار . وبهذه المحاولات المجرمة يكفرون آخره . . ويؤدون بهذه وتلك دور أهل الكتاب القديم . . لا يتغير إلا الشكل والإطار في ذلك الدور القديم !

وكان أهل الكتاب يقول بعضهم لبعض : تظاهروا بالإسلام أول النهار واكفروا آخره لعل المسلمين يرجعون عن دينهم . وليكن هذا سراً بينكم لا تبدونه ولا تأتمنون عليه إلا أهل دينكم :

﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ . .

(111/124)

وفعل الإيمان حين يعدّى باللام يعني الاطمئنان والثقة . أي ولا تطمئنوا إلا لمن تبع دينكم ، ولا تفضوا بأسراركم إلا لهؤلاء دون المسلمين !

وعملاء الصهيونية والصليبية اليوم كذلك . . إنهم متفاهمون فيما بينهم على أمر . . هو الإجهاز على هذه العقيدة في الفرصة السانحة التي قد لا تعود . . وقد لا يكون هذا التفاهم في معاهدة أو مؤامرة . ولكنه تفاهم العميل مع العميل على المهمة المطلوبة للأصيل ! ويأمن بعضهم لبعض فيفضي بعضهم إلى بعض . . ثم يتظاهرون - بعضهم على الأقل بغير - ما

يريدون وما يبيتون . . والجو من حولهم مهيأ ، والأجهزة من حولهم معبأة . . والذين يدركون حقيقة هذا الدين في الأرض كلها مغيبون أو مشردون !

﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ .

.

وهنا يوجه الله نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يعلن أن الهدى هو وحده هدى الله ؛ وأن من لا يفيء إليه لن يجد الهدى أبداً في أي منهج ولا في أي طريق :

﴿ قل : إن الهدى هدى الله ﴾ . .

ويجيء هذا التقرير رداً على مقالتهم : ﴿ آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ﴾ تحذيراً للمسلمين من تحقيق الهدف اللئيم . فهو الخروج من هدى الله كله . فلا هدى إلا هداه وحده . وإنما هو الضلال والكفر ما يريده بهم هؤلاء الماكرون .

يجيء هذا التقرير قبل أن ينتهي السياق من عرض مقولة أهل الكتاب كلها . . ثم يمضي يعرض بقية تآمرهم بعد هذا التقرير المعترض :

﴿ أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، أو يحاجوكم عند ربكم ﴾ . .

بهذا يعللون قولهم : ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ . . فهو الحقد والحسد والنقمة أن يؤتي الله أحداً من النبوة والكتاب ما آتى أهل الكتاب . وهو الخوف أن يكون في الاطمئنان للمسلمين وإطلاعهم على الحقيقة التي يعرفها أهل الكتاب ، ثم ينكرونها ، عن هذا الدين ، ما يتخذه المسلمون حجة عليهم عند الله ! - كأن الله سبحانه لا يأخذهم بحجة إلا حجة القول المسموع ! - وهي مشاعر لا تصدر عن تصور إيماني بالله وصفاته ؛ ولا عن معرفة بحقيقة الرسالات والنبوات ، وتكاليف الإيمان والاعتقاد !

ويوجه الله سبحانه رسوله الكريم ليعلمهم - ويعلم الجماعة المسلمة - حقيقة فضل الله حين يشاء أن يمن على أمة برسالة وبرسول :

﴿ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ﴾ . .

وقد شاءت إرادته أن يجعل الرسالة والكتاب في غير أهل الكتاب ؛ بعد ما خاسوا بعهدهم مع الله ؛ ونقضوا ذمة أبيهم إبراهيم ؛ وعرفوا الحق ولبسوه بالباطل ؛ وتخلوا عن الأمانة التي ناطها الله بهم ؛ وتركوا أحكام كتابهم وشريعة دينهم ؛ وكرهوا أن يتحاكموا إلى كتاب الله بينهم . وخلت قيادة البشرية من منهج الله وكتابه ورجاله المؤمنين . . عندئذ سلم القيادة ، وناط الأمانة ، بالأمة المسلمة . فضلا منه ومنة . ﴿ والله واسع عليم

﴿ . . ﴿ يختص برحمته من يشاء ﴾ . . عن سعة في فضله وعلم بمواضع رحمته . . ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ . . وليس أعظم من فضله على أمة بالهدى ممثلاً في كتاب . وبالخير ممثلاً في رسالة . . وبالرحمة ممثلة في رسول .

فإذا سمع المسلمون هذا احسوا مدى النعمة وقيمة المنة في اختيار الله لهم ، واختصاصه إياهم بهذا الفضل . واستمسكوا به في إعزاز وحرص ، وأخذوه بقوة وعزم ، ودافعوا عنه في صرامة ويقين ، وتيقظوا لكيد الكائدين وحقد الحاقدين . وهذا ما كان يربيهم به القرآن الكريم والذكر الحكيم . وهو ذاته مادة التربية والتوجيه للأمة المسلمة في كل جيل .

(113/124)

ثم يمضي السياق يصف حال أهل الكتاب ؛ ويبين ما في هذه الحال من نقائص ؛ ويقرر القيم الصحيحة التي يقوم عليها الإسلام دين المسلمين . ويبدأ فيعرض نموذجين من نماذج أهل الكتاب في التعامل والتعاقد :

﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً . ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا في الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين . إن الذين يشترون

بعهد الله وإيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم ﴾ . .

إنها خطة الإنصاف والحق وعدم البخس والغبن يجري عليها القرآن الكريم في وصف حال أهل الكتاب الذين كانوا يواجهون الجماعة المسلمة حينذاك ؛ والتي لعلها حال أهل الكتاب في جميع الأجيال . ذلك أن خصومة أهل الكتاب للإسلام والمسلمين ، ودسهم وكيدهم وتدبيرهم الماكر اللئيم ، وإرادتهم الشر بالجماعة المسلمة وبهذا الدين . . كل ذلك لا يجعل القرآن يبخس المحسنين منهم حقهم ، حتى في معرض الجدل والمواجهة . فهو هنا يقرر أن من أهل الكتاب ناساً أمناء ، لا يأكلون الحقوق مهما كانت ضخمة مغرية :

﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ﴾ . .

ولكن منهم كذلك الخونة الطامعين المماطلين ، الذين لا يردون حقاً - وإن صغر - إلا بالمطالبة والإلحاح والملازمة . ثم هم يفلسفون هذا الخلق الذميم ، بالكذب على الله عن علم وقصد :

﴿ ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً . ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا في الأميين سبيل . ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ . .

وهذه بالذات صفة يهود . فهم الذين يقولون هذا القول ؛ ويجعلون للأخلاق مقاييس متعددة . فالأمانة بين اليهودي واليهودي . أما غير اليهود ويسمونهم الأميين وكانوا يعنون بهم العرب (وهم في الحقيقة يعنون كل من سوى اليهود) فلا حرج على اليهودي في أكل أموالهم ، وغشهم وخداعهم ، والتدليس عليهم ، واستغلالهم بلا تحرج من وسيلة خسيسة ولا فعل ذميم !

ومن العجب أن يزعموا أن إلههم ودينهم يأمرهم بهذا . وهم يعلمون أن هذا كذب . وأن الله لا يأمر بالفحشاء ، ولا يبيح لجماعة من الناس أن يأكلوا أموال جماعة من الناس سحتاً وبهتاناً ، وألا يرعوا معهم عهداً ولا ذمة ، وأن ينالوا منهم بلا تحرج ولا تذمم . ولكنها يهود يهود ! التي اتخذت من عداوة البشرية والحقد عليها ديدناً وديناً :

﴿ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ . .

هنا نجد القرآن الكريم يقرر قاعدته الخلقية الواحدة ، وميزانه الخلقي الواحد . ويربط نظرته هذه بالله وتقواه :

﴿ بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين . إن الذين يشترون بعهد الله وإيمانهم ثمناً قليلاً ، أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم .

ولهم عذاب أليم ﴾ . .

فهي قاعدة واحدة من راعاها وفاء بعهد الله وشعوراً بتقواه أحبه الله وأكرمه . ومن اشترى بعهد الله وبأيمانه ثمناً قليلاً – من عرض هذه الحياة الدنيا أو بالدنيا كلها وهي متاع قليل – فلا نصيب له في الآخرة ، ولا رعاية له عند الله ولا قبول ، ولا زكاة له ولا طهارة . وإنما هو العذاب الأليم .

ونلمح هنا أن الوفاء بالعهد مرتبط بالتقوى . ومن ثم لا يتغير في التعامل مع عدو أو صديق . فليس هو مسألة مصلحة . إنما هو مسألة تعامل مع الله أبداً دونما نظر إلى من يتعامل معهم .

(115/124)

وهذه هي نظرية الإسلام الأخلاقية بصفة عامة . في الوفاء بالعهد وفي سواه من الأخلاق : التعامل هو أولاً تعامل مع الله ، يلحظ فيه جناب الله ، ويتجنب به سخطه ويطلب به رضاه . فالباعث الأخلاقي ليس هو المصلحة ؛ وليس هو عرف الجماعة ، ولا مقتضيات ظروفها القائمة . فإن الجماعة قد تضل وتنحرف ، وتروج فيها المقاييس الباطلة . فلا بد من مقياس ثابت ترجع إليه الجماعة كما يرجع إليه الفرد على السواء . ولا بد أن يكون لهذا المقياس فوق ثباته قوة يستمدها من جهة أعلى . . أعلى من اصطلاح الناس ومن

مقتضيات حياتهم المتغيرة . . ومن ثم ينبغي أن تستمد القيم والمقاييس من الله ؛ بمعرفة ما يرضيه من الأخلاق والتطلع إلى رضاه والشعور بتقواه . . بهذا يضمن الإسلام تطلع البشرية الدائم إلى أفق أعلى من الأرض ؛ واستمدادها القيم والموازين من ذلك الأفق الثابت السامق الوضيء .

ومن ثم يجعل الذين يخيسون بالعهد ويغدرون بالأمانة . . ﴿ يشترون بعهد الله وإيمانهم ثمناً قليلاً ﴾ . . فالعلاقة في هذا بينهم وبين الله قبل أن تكون بينهم وبين الناس . . ومن هنا فلا نصيب لهم في الآخرة عنده ، أن كانوا يبغون بالغدر والنكث بالعهد ثمناً قليلا هو هذه المصالح الدنيوية الزهيدة ! ولا رعاية لهم من الله في الآخرة جزاء استهانتهم بعهده – وهو عهدهم مع الناس – في الدنيا .

ونجد هنا أن القرآن قد سلك طريقة التصوير في التعبير . وهو يعبر عن إهمال الله لهم وعدم رعايتهم ، بأنه لا يكلمهم ولا ينظر إليهم ولا يطهرهم . . وهي أعراض الإهمال التي يعرفها الناس . . ومن ثم يتخذها القرآن وسيلة لتصوير الموقف صورة حية تؤثر في الوجدان البشري أعمق مما يؤثر التعبير التجريدي . على طريقة القرآن في ظلاله وإيحاءاته الجميلة .

ثم يمضي في عرض نماذج من أهل الكتاب ؛ فيعرض نموذج المضللين ، الذي يتخذون من كتاب الله مادة للتضليل ، يلوون ألسنتهم به عن مواضعه ، ويؤولون نصوصه لتوافق أهواء معينة ، ويشترون بهذا كله ثمناً قليلاً . . عرضاً من عرض هذه الحياة الدنيا : ومن بين ما يلوون السنتهم به ويحرفونه ويؤولونه ما يختص بمعتقداتهم التي ابتدعوها عن المسيح عيسى بن مريم ، مما اقتضته أهواء الكنيسة وأهواء الحكام سواء :

﴿ وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ، ويقولون : هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس . كونوا عباداً لي من دون الله . ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً . أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟ ﴾ . .

وآفة رجال الدين حين يفسدون ، أن يصبحوا أداة طيعة لتزييف الحقائق باسم أنهم رجال الدين . وهذه الحال التي يذكرها القرآن عن هذا الفريق من أهل الكتاب ، نعرفها نحن جيداً في زماننا هذا . فهم كانوا يؤولون نصوص كتابهم ، ويلوونها ليا ليصلوا منها إلى مقررات معينة ، يزعمون أنها مدلول هذه النصوص ، وأنها تمثل ما أراده الله منها . بينما هذه المقررات تصادم حقيقة دين الله في أساسها . معتمدين على أن كثرة السامعين لا تستطيع

التفرقة بين حقيقة الدين ومدلولات هذه النصوص الحقيقية ، وبين تلك المقررات المفتعلة المكذوبة التي يُلجئون إليها النصوص إلجاء .

(117/124)

ونحن اليوم نعرف هذا النموذج جيداً في بعض الرجال الذين ينسبون إلى الدين ظلماً ! الذين يحترفون الدين ويسخرونه في تلبية الأهواء كلها ؛ ويحملون النصوص ويجرون بها وراء هذه الأهواء حيثما لاح لهم أن هناك مصلحة تتحقق ، وأن هناك عرضاً من أعراض هذه الحياة الدنيا يحصل ! يحملون هذه النصوص ويلهثون بها وراء تلك الأهواء ، ويلوون أعناق هذه النصوص ليا لتوافق هذه الأهواء السائدة ؛ ويحرفون الكلم عن مواضعه ليوافقوا بينه وبين اتجاهات تصادم هذا الدين وحقائقه الأساسية . ويبذلون جهداً لاهثاً في التمحل وتصيد أدنى ملابسة لفظية ليوافقوا بين مدلول آية قرآنية وهوى من الأهواء السائدة التي يهمهم تمليقها . . ﴿ ويقولون هو من عند الله . وما هو من عند الله . ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ . . كما يحكي القرآن عن هذا الفريق من أهل الكتاب سواء . فهي آفة لا يختص بها أهل الكتاب وحدهم . إنما تبتلى بها كل أمة يرخص دين الله فيها على من ينتسبون إليه حتى ما يساوي إرضاء هوى من الأهواء التي يعود تمليقها بعرض من أعراض

هذه الأرض ! وتفسد الذمة حتى ما يتحرج القلب من الكذب على الله ، تحريف كلماته عن مواضعها لتمليق عبيد الله ، ومجاراة أهوائهم المنحرفة التي تصادم دين الله . . وكأنما كان الله – سبحانه – يحذر الجماعة المسلمة من هذا المزلق الوبيء ، الذي انتهى بنزع أمانة القيادة من بني إسرائيل .

هذا النموذج من بني إسرائيل – فيما يبدو من مجموع هذه الآيات – كانوا يتلمسون في كتاب الله الجمل ذات التعبير المجازي ؛ فيلوون السنتهم بها – أي في تأويلها واستخراج مدلولات منها هي لا تدل عليها بغير ليها وتحريفها – ليوهموا الدهماء أن هذه المدلولات المبتدعة هي من كتاب الله ؛ ويقولون بالفعل : هذا ما قاله الله ، وهو ما لم يقله – سبحانه – وكانوا يهدفون من هذا إلى إثبات الوهية عيسى عليه السلام ومعه " روح القدس " .

(118/124)

. وذلك فيما كانوا يزعمون من الأقانيم : الأب والابن والروح القدس . باعتبارها كائناً واحداً هو الله – تعالى الله عما يصفون – ويروون عن عيسى – عليه السلام – كلمات تؤيد هذا الذي يدعونه ، فرد الله عليهم هذا التحريف وهذا التأويل ، بأنه ليس من شأن نبي يخصه الله بالنبوة ويصطفيه لهذا الأمر العظيم أن يأمر الناس أن يتخذوه إلهاً هو

والملائكة . فهذا مستحيل :

﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس : كونوا عباداً لي من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟ ﴾ . .

إن النبي يوقن أنه عبد ، وأن الله وحده هو الرب ، الذي يتجه إليه العباد بعبوديتهم وبعبادتهم . فما يمكن أن يدعي لنفسه صفة الألوهية التي تقتضي من الناس العبودية . فلن يقول نبي للناس : ﴿ كونوا عباداً لي من دون الله ﴾ . . ولكن قوله لهم : ﴿ كونوا ربانيين ﴾ . . منتسبين إلى الرب ، عباداً له وعبيداً ، توجهوا إليه وحده بالعبادة ، وخذوا عنه وحده منهج حياتكم ، حتى تخلصوا له وحده فتكونوا ﴿ ربانيين ﴾ . . كونوا ﴿ ربانيين ﴾ . . بحكم علمكم للكتاب وتدارسكم له . فهذا مقتضى العلم بالكتاب ودراسته . والنبي لا يأمر الناس أبداً أن يتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، فالنبي لا يأمر الناس بالكفر بعد أن يسلموا لله ويستسلموا لألوهيته ، وقد جاء ليهديهم إلى الله لا ليضلهم ، وليقودهم إلى الإسلام لا ليكفرهم !

ومن ثم تتجلى استحالة هذا الذي ينسبه ذلك الفريق إلى عيسى - عليه السلام - كما يتجلى الكذب على الله في ادعائهم أن هذا من عند الله . . وتسقط في الوقت ذاته قيمة كل

ما يقوله هذا الفريق وما يعيده لإلقاء الريب والشكوك في الصف المسلم . وقد عراهم القرآن هذه التعرية على مرأى ومسمع من الجماعة المسلمة !

(119/124)

ومثل هذا الفريق من أهل الكتاب فريق ممن يدعون الإسلام ، ويدعون العلم بالدين كما أسلفنا . وهم أولى بأن يوجه إليهم هذا القرآن اليوم . وهم يلوون النصوص القرآنية ليا ، لإقامة أرباب من دون الله في شتى الصور . وهم يتصيدون من النصوص ما يلوونه لتمويه هذه المفتريات . ﴿ ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ !

بعد ذلك يصور حقيقة الترابط بين موكب الرسل والرسالات ، على عهد من الله وميثاق ، ينبني عليه فسوق من يتولى عن اتباع آخر الرسالات ، وشذوذه عن عهد الله وناموس الكون كله على الإطلاق :

﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين : لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه .

قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ قالوا : أقررنا . قال : فاشهدوا وأنا معكم من

الشاهدين . فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ، وإليه يرجعون ؟ ﴾ . .

لقد أخذ الله – سبحانه – موثقاً رهيباً جليلاً كان هو شاهده وأشهد عليه رسله . موثقاً على كل رسول . أنه مهما آتاه من كتاب وحكمة . ثم جاء رسول بعده مصدقاً لما معه ، أن يؤمن به وينصره ، ويتبع دينه . وجعل هذا عهداً بينه وبين كل رسول .

والتعبير القرآني يطوي الأزمنة المتتابعة بين الرسل ؛ ويجمعهم كلهم في مشهد . والله الجليل الكبير يخاطبهم جملة : هل أقروا هذا الميثاق وأخذوا عليه عهد الله الثقيل :

﴿ قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ ﴾ . .

وهم يجيبون :

﴿ قالوا أقررنا ﴾ . .

فيشهد الجليل على هذا الميثاق ويشهدهم عليه :

﴿ قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ :

هذا المشهد الهائل الجليل ، يرسمه التعبير ، فيجف له القلب ويجب ؛ وهو يتمثل المشهد بحضرة البارئ الجليل ، والرسل مجتمعين . .

وفي ظل هذا المشهد يبدو الموكب الكريم متصلاً متسانداً مستسلماً للتوجيه العلوي، ممثلاً للحقيقة الواحدة التي شاء الله - سبحانه - أن تقوم عليها الحياة البشرية، ولا تنحرف، ولا تتعدد، ولا تتعارض، ولا تتصادم.. إنما ينتدب لها المختار من عباد الله؛ ثم يسلمها إلى المختار بعده، ويسلم نفسه معها لأخيه اللاحق به. فما للنبي في نفسه من شيء؛ وما له في هذه المهمة من أرب شخصي، ولا مجد ذاتي. إنما هو عبد مصطفى، ومبلغ مختار. والله - سبحانه - هو الذي ينقل خطى هذه الدعوة بين أجيال البشر؛ ويقود هذا الموكب ويصرفه كيف يشاء. ويخلص دين الله - بهذا العهد وبهذا التصور - من العصبية الذاتية. عصبية الرسول لشخصه. وعصبيته لقومه. وعصبية أتباعه لنحلتهم. وعصبيتهم لأنفسهم. وعصبيتهم لقوميتهم.. ويخلص الأمر كله لله في هذا الدين الواحد، الذي تتابع به وتوالى ذلك الموكب السني الكريم.

وفي ظل هذه الحقيقة يبدو الذين يتخلفون من أهل الكتاب عن الإيمان بالرسول الأخير - صلى الله عليه وسلم - ومناصرته وتأييده، تمسكاً بدياناتهم - لا بحقيقتها فحقيقتها تدعوهم إلى الإيمان به ونصرته، ولكن باسمها تعصباً لأنفسهم في صورة التعصب لها! - مع أن رسلهم الذين حملوا إليهم هذه الديانات قد قطعوا على أنفسهم عهداً ثقيلاً غليظاً مع ربهم في مشهد مرهوب جليل.. في ظل هذه الحقيقة يبدو أولئك الذي يتخلفون فسقة عن

تعليم أنبيائهم . فسقة عن عهد الله معهم .

فسقة كذلك عن نظام الكون كله المستسلم لبارئه ، الخاضع لناموسه ، المدبر بأمره ومشيئته :

﴿ فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ؟ ﴾ . .

إنه لا يتولى عن اتباع هذا الرسول إلا فاسق . ولا يتولى عن دين الله إلا شاذ . شاذ في هذا الوجود الكبير . ناشز في وسط الكون الطائع المستسلم المستجيب .

إن دين الله واحد ، جاءت به الرسل جميعاً ، وتعاقدت عليه الرسل جميعاً . وعهد الله واحد أخذه على كل رسول . والإيمان بالدين الجديد واتباع رسوله ، ونصرة منهجه على كل منهج ، هو الوفاء بهذا العهد . فمن تولى عن الإسلام فقد تولى عن دين الله كله ، وقد خاس بعهد الله كله .

والإسلام - الذي يتحقق في إقامة منهج الله في الأرض واتباعه والخلوص له - هو ناموس هذا الوجود . وهو دين كل حي في هذا الوجود .

إنها صورة شاملة عميقة للإسلام والاستسلام . صورة كونية تأخذ بالمشاعر ، وترتجف لها الضمائر . . صورة الناموس القاهر الحاكم ، الذي يرد الأشياء والأحياء إلى سنن واحد وشرعة واحدة ، ومصير واحد .

﴿ وإليه يرجعون ﴾ . .

فلا مناص لهم في نهاية المطاف من الرجوع إلى الحاكم المسيطر المدبر الجليل . .

ولا مناص للإنسان حين يبتغي سعادته وراحته وطمأنينة باله وصلاح حاله ، من الرجوع إلى منهج الله في ذات نفسه ، وفي نظام حياته ، وفي منهج مجتمعه ، ليتناسق مع النظام الكوني كله . فلا ينفرد بمنهج من صنع نفسه ، لا يتناسق مع ذلك النظام الكوني من صنع بارئه في حين أنه مضطر أن يعيش في إطار هذا الكون وأن يتعامل بجملته مع النظام الكوني . .

والتناسق بين نظامه هو في تصوره وشعوره ، وفي واقعه وارتباطاته ، وفي عمله ونشاطه ، مع النظام الكوني هو وحده الذي يكفل له التعاون مع القوى الكونية الهائلة بدلا من التصادم معها . وهو حين يصطدم بها يتمزق وينسحق ؛ أو لا يؤدي – على كل حال – وظيفة الخلافة في الأرض كما وهبها الله له . وحين يتناسق ويتفاهم مع نواميس الكون التي تحكمه وتحكم سائر الأحياء فيه يملك معرفة أسرارها ، وتسخيرها ، والانتفاع بها على وجه يحقق له السعادة والراحة والطمأنينة ، ويعفيه من الخوف والقلق والتناحر . . الانتفاع بها لا ليحترق بنار الكون ، ولكن ليطبخ بها ويستدفىء ويستضيء !

والفطرة البشرية في أصلها متناسقة مع ناموس الكون ، مسلمة لربها إسلام كل شيء وكل حي . فحين يخرج الإنسان بنظام حياته عن ذلك الناموس لا يصطدم مع الكون فحسب ، إنما يصطدم أولا بفطرته التي بين جنبيه ، فيشقى ويتمزق ، ويحتار ويقلق . ويحيا كما تحيا البشرية الضالة النكدة اليوم في عذاب من هذا الجانب - على الرغم من جميع الانتصارات العلمية ، وجميع التسهيلات الحضارية المادية !

إن البشرية اليوم تعاني من الخواء المرير .

خواء الروح من الحقيقة التي لا تطيق فطرتها أن تصبر عليها . . حقيقة الإيمان . . وخواء حياتها من المنهج الإلهي . هذا المنهج الذي ينسق بين حركتها وحركة الكون الذي تعيش فيه .

إنها تعاني من الهجير المحرق الذي تعيش فيه بعيداً عن ذلك الظل الوارف الندي . ومن الفساد المقلق الذي تتمرغ فيه بعيدا عن ذلك الخط القويم والطريق المأنوس المطروق !

ومن ثم تجد الشقاء والقلق والحيرة والاضطراب ؛ وتحس الخواء والجوع والحرمان ؛ وتهرب من واقعها هذا بالأفيون والحشيش والمسكرات ؛ وبالسرعة المجنونة والمغامرات الحمقاء ،

والشذوذ في الحركة واللبس والطعام ! وذلك على الرغم من الرخاء المادي والإنتاج الوفير والحياة الميسورة والفراغ الكثير . . لا بل إن الخواء والقلق والحيرة لتتزايد كلما تزايد الرخاء المادي والإنتاج الحضاري واليسر في وسائل الحياة ومرافقها .

إن هذا الخواء المرير ليطارد البشرية كالشبح المخيف . يطاردها فتهرب منه . ولكنها تنتهي كذلك إلى الخواء المرير !

وما من أحد يزور البلاد الغنية الثرية في الأرض حتى يكون الانطباع الأول في حسه أن هؤلاء قوم هاربون ! هاربون من أشباح تطاردهم . هاربون من ذوات أنفسهم . . وسرعان ما يتكشف الرخاء المادي والمتاع الحسي الذي يصل إلى حد التمرغ في الوحل ، عن الأمراض العصبية والنفسية والشذوذ والقلق والمرض والجنون والمسكرات والمخدرات والجريمة . وفراغ الحياة من كل تصور كريم !

(123/124)

إنهم لا يجدون أنفسهم لأنهم لا يجدون غاية وجودهم الحقيقية . . إنهم لا يجدون سعادتهم لأنهم لا يجدون المنهج الإلهي الذي ينسق بين حركتهم وحركة الكون ، وبين نظامهم وناموس الوجود . . إنهم لا يجدون طمأنينتهم لأنهم لا يعرفون الله الذي إليه يرجعون . .

ولما كانت الأمة المسلمة - المسلمة حقاً لا جغرافية ولا تاريخاً ! - هي الأمة المدركة لحقيقة العهد بين الله ورسله . وحقيقة دين الله الواحد ومنهجه ، وحقيقة الموكب السني الكريم الذي حمل هذا المنهج وبلغه ، فإن الله يأمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يعلن هذه الحقيقة كلها ؛ ويعلن إيمان أمته بجميع الرسالات ، واحترامها لجميع الرسل ، ومعرفتها بطبيعة دين الله ، الذي لا يقبل الله من الناس سواه :

﴿ قل : آمنا بالله ، وما أنزل علينا ، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل ، وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم . لا نفرق بين أحد منهم . ونحن له مسلمون . ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ . .

هذا هو الإسلام في سعته وشموله لكل الرسالات قبله ، وفي ولائه لكافة الرسل حملته . وفي توحيده لدين الله كله ، ورجعه جميع الدعوات وجميع الرسالات إلى أصلها الواحد ، والإيمان بها جملة كما أرادها الله لعباده .

ومما هو جدير بالالتفات في الآية القرآنية الأولى هنا هو ذكرها الإيمان بالله وما أنزل على المسلمين - وهو القرآن - وما أنزل على سائر الرسل من قبل ، ثم التعقيب على هذا الإيمان بقوله :

﴿ ونحن له مسلمون ﴾ .

.

فهذا الإقرار بالإسلام له مغزاه. بعد بيان أن الإسلام هو الاستسلام والخضوع والطاعة واتباع الأمر والنظام والمنهج والناموس. كما يتجلى في الآية قبلها ﴿ أفغير دين الله يبغون، وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴾.. فظاهر أن إسلام الكائنات الكونية هو إسلام الخضوع للأمر، واتباع النظام، وطاعة الناموس.. ومن ثم تتجلى عناية الله - سبحانه - ببيان معنى الإسلام وحقيقته في كل مناسبة. كي لا يتسرب إلى ذهن أحد أنه كلمة تقال باللسان، أو تصديق يستقر في القلب، ثم لا تتبعه آثاره العملية من الاستسلام لمنهج الله، وتحقيق هذا المنهج في واقع الحياة.

وهي لفتة ذات قيمة قبل التقرير الشامل الدقيق الأكيد:

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾..

إنه لا سبيل - مع هذه النصوص المتلاحقة - لتأويل حقيقة الإسلام، ولا للي النصوص وتحريفها عن مواضعها لتعريف الإسلام بغير ما عرفه به الله، الإسلام الذي يدين به الكون كله. في صورة خضوع للنظام الذي قرره الله له ودبره به.

ولن يكون الإسلام إذن هو النطق بالشهادتين، دون أن يتبع شهادة أن لا إله إلا الله معناها

وحقيقتها . وهي توحيد الألوهية وتوحيد القوامة . ثم توحيد العبودية وتوحيد الاتجاه . ودون أن يتبع شهادة أن محمداً رسول الله معناها وحقيقتها . وهي التقيد بالمنهج الذي جاء به من عند ربه للحياة ، واتباع الشريعة التي أرسله بها ، والتحاكم إلى الكتاب الذي حمله إلى العباد .

ولن يكون الإسلام إذن تصديقاً بالقلب بحقيقة الألوهية والغيب والقيامة وكتب الله ورسله . . دون أن يتبع هذا التصديق مدلوله العملي ، وحقيقته الواقعية التي أسلفنا . .

(125/124)

ولن يكون الإسلام شعائر وعبادات ، أو إشراقات وسبحات ، أو تهذيباً خلقياً وإرشاداً روحياً . . دون أن يتبع هذا كله آثاره العملية ممثلة في منهج للحياة موصول بالله الذي تتوجه إليه القلوب بالعبادات والشعائر ، والإشراقات والسبحات ، والذي تستشعر القلوب تقواه فتتهذب وترشد . . فإن هذا كله يبقى معطلاً لا أثر له في حياة البشر ما لم تنصب آثاره في نظام اجتماعي يعيش الناس في إطاره النظيف الوضيء .

هذا هو الإسلام كما يريده الله ؛ ولا عبرة بالإسلام كما تريده أهواء البشر في جيل منكود من أجيال الناس ! ولا كما تصوره رغائب أعدائه المتربصين به ، وعملائهم هنا أو هناك !

فأما الذين لا يقبلون الإسلام على النحو الذي أراده الله ، بعدما عرفوا حقيقته ، ثم لم تقبلها أهواؤهم ، فهم في الآخرة من الخاسرين . ولن يهديهم الله ، ولن يعفيهم من العذاب :

﴿ كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم ، وشهدوا أن الرسول حق ، وجاءهم البينات . والله لا يهدي القوم الظالمين . أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴾ . .

وهي حملة رعيبة يرجف لها كل قلب فيه ذرة من إيمان ؛ ومن جدية الأمر في الدنيا وفي الآخرة سواء . وهو جزاء حق لمن تتاح له فرصة النجاة ثم يعرض عنها هذا الإعراض .

ولكن الإسلام - مع هذا - يفتح باب التوبة ، فلا يغلقه في وجه ضال يريد أن يتوب ؛ ولا يكلفه إلا أن يطرق الباب . بل أن يدلف إليه فليس دونه حجاب . وإلا أن يفيء إلى الحمى الآمن ، ويعمل صالحاً فيدل على أن التوبة صادرة من قلب تاب :

﴿ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾ . .

(126/124)

فأما الذين لا يتوبون ولا يثوبون. الذين يصرون على الكفر ويزدادون كفراً والذين يلجون في هذا الكفر حتى تفلت الفرصة المتاحة وينتهي أمد الاختبار، ويأتي دور الجزاء. هؤلاء وهؤلاء لا توبة لهم ولا نجاة. ولن ينفعهم أن يكونوا قد أنفقوا ملء الأرض ذهباً فيما يظنون هم أنه خير وبر، ما دام مقطوعاً عن الصلة بالله. ومن ثم فهو غير موصول به ولا خالص له بطبيعة الحال. ولن ينجيهم أن يقدموا ملء الأرض ذهباً ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة.
فقد أفلتت الفرصة وأغلقت الأبواب:

﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون. إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به. أولئك لهم عذاب أليم. وما لهم من ناصرين ﴾..

وهكذا يحسم السياق القضية بهذا التقرير المروع المفزع، وبهذا التوكيد الواضح الذي لا يدع ريبة لمستريب.

وبمناسبة الإنفاق على غير درب الله، وفي غير سبيله وبمناسبة الافتداء يوم لا ينفع الفداء، يبين البذل الذي يرضاه:

﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون. وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم ﴾..

وقد فقه المسلمون وقتها معنى هذا التوجيه الإلهي، وحرصوا على أن ينالوا البر - وهو

جماع الخير – بالنزول عما يحبون ، وببذل الطيب من المال ، سخية به نفوسهم في انتظار ما هو أكبر وأفضل .

(127/124)

روى الإمام أحمد – بإسناده – عن أبي إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة : سمع أنس بن مالك يقول : "كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً ، وكان أحب أمواله إليه بَيْرْحاء وكانت مستقبلة المسجد . وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . قال أنس : فلما نزلت : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ . . قال أبو طلحة : يا رسول الله ، إن الله يقول : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ وإن أحب أموالي إليّ بَيْرْحاء وإنها صدقة لله أرجو بها برها وذخرها عند الله تعالى . فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : بخ بخ . ذاك مال رابح . ذاك مال رابح . وقد سمعت . وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين فقال أبو طلحة أفعل يا رسول الله . فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه"

. (أخرجه الشيخان) .

وفي الصحيحين أن عمر – رضي الله عنه – قال : "يا رسول الله لم أصب مالاً قط ، هو

أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر. فما تأمرني به؟ قال: احبس الأصل وسبل الثمرة".

وعلى هذا الدرب سار الكثيرون منهم يلبون توجيه ربهم الذي هداهم إلى البر كله، يوم هداهم إلى الإسلام. ويتحررون بهذه التلبية من استرقاق المال، ومن شح النفس، ومن حب الذات؛ ويصعدون في هذا المرتقى السامق الوضيء أحرارا خفافاً طلقاء. انتهى انتهى. اهـ ﴿الظلال حـ 1 صـ 409. 425﴾

(128/124)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

[سورة آل عمران (3) : آية 52]

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (52)

الإعراب:

(الفاء) استئنافيّة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بـ (قال)، (أحسّ) فعل ماض (عيسى) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (من) حرف جرّ

و(هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف حال من (الكفر) وهو مفعول به منصوب (قال) مثل أحسّ والفاعل هو (من) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أنصار) خبر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الراء و(الياء) مضاف إليه (إلى اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من ضمير المتكلّم في أنصاري أي: ملتجئا إلى اللّه (قال) مثل أحسّ (الحواريّون) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الواو (نحن) ضمير منفصل مبنيّ

على الضمّ في محلّ رفع مبتدأ، (أنصار) خبر مرفوع (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه (آمنّا) فعل ماض مبنيّ على السكون و(نا) ضمير فاعل (باللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (آمنّا)، (الواو) عاطفة (اشهد) فعل أمر والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (الباء) حرف جرّ (أنّ) حرف مشبّه بالفعل و(نا) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (مسلمون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو.

والمصدر المؤوّل (أنّا مسلمون) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (اشهد).

جملة: "أحسّ عيسى.." في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "قال..." لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: "من أنصاري.." في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "قال الحواريّون" لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "نحن أنصار اللّه" في محلّ نصب مقول القول.

وجملة : " آمنّا باللّه " في محلّ نصب حال من أنصار " 1 " .

وجملة : " اشهد " في محلّ نصب معطوفة على جملة نحن أنصار .

الصرف :

(أنصار) ، جمع نصير زنة شريف ، وهو صفة مشتقّة مبالغة اسم الفاعل من باب نصر ينصر المتعدّي .

(الحواريّون) ، جمع الحواريّ ، والياء الأخيرة للنسبة ، واشتقاق الكلمة من الحور وهو البياض وقد كان الحواريون يقصرون الثياب ، وقيل هو من حار يحور أي رجع فكأنّهم الراجعون إلى اللّه ، وقيل هو مشتقّ من بياض الوجه والقلب وصفائهما ونقائهما .

---

(1) وذلك بتقدير قد ، ويجوز أن تكون في محلّ رفع خبرا ثانيا للضمير نحن .

البلاغة

- " فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى مِنْهُمُ الْكُفْرَ " وأصل الإحساس الإدراك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة وقد أستعير استعارة تبعية للعلم بلا شبهه ، وقيل : إنه مجاز مرسل عن ذلك ، من باب ذكر الملزوم وإرادة اللازم . والداعي لذلك أن الكفر مما لا يحس .

- لما الحينية: هي الظرفية وتختص بالماضي ويكون جوابها فعلا ماضيا نحو: "فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ" أو جملة اسمية مقرونة بـ "إذا الفجائية" نحو "فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ" أو بالفاء نحو "فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ" وقد يحذف جوابها.

قال سيبويه: أعجب الكلمات "لما" إن دخلت على الماضي تكون ظرفا وإن دخلت على المضارع تكون حرفا وإلا فهي بمعنى "إلّا".

[سورة آل عمران (3): آية 53]

رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ (53)

الإعراب:

(ربّنا) منادى مضاف محذوف منه أداة النداء.. و(نا) ضمير مضاف إليه (آمنّا) فعل ماض وفاعله (الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (آمنا)، (أنزلت) فعل ماض مبنيّ على السكون.. و(التاء) فاعل (الواو) عاطفة (اتّبعنا) مثل آمنّا (الرسول) مفعول به منصوب (الفاء) رابطة لجواب الشرط المقدّر (اكتبنا) فعل أمر..

و(نا) ضمير متّصل مفعول به، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (مع) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (اكتبنا)، (الشاهدين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء.

جملة النداء: "ربّنا" لا محلّ لها اعتراضيّة استرحاميّة.

وجملة: "آمنّا" في محل نصب بدل من جملة آمنّا في الآية السابقة تأخذ محلّها من الاعراب.

وجملة: "أنزلت" لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: "اتّبعنا..." في محلّ نصب معطوفة على جملة آمنّا بما أنزلت.

وجملة: "اكتبنا" في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي: إن صدق قولنا فاكتبنا..

الصرف:

(الشاهدين)، جمع الشاهد، اسم فاعل من شهد يشهد باب فرح وزنه فاعل.

[سورة آل عمران (3): آية 54]

وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (54)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (مكروا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ.. والواو فاعل (الواو) استئنافيّة (مكر) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (خير) خبر مرفوع (الماكرين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء.

الجمل الثلاث: لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف :

(الماكرين) ، جمع الماكر ، اسم فاعل من مكر يمكر باب نصر ، وزنه فاعل .

البلاغة

1 - فن المشاكلة وهي : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته ، وقد وقعت المشاكلة في قوله تعالى وَمَكَرَ اللَّهُ والمكر من حيث إنه في الأصل حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة فلا يمكن إسناده إليه سبحانه إلا بطريق المشاكلة .

(131/124)

الفوائد

1 - " وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ " هذه هي المشاكلة التي نوهنا عنها سابقا . وليعلم القارئ أن الله لا يمكر وإنما جرى الأسلوب مشاكلا لما اتخذ الكفار من أسلوب .

[سورة آل عمران (3) : آية 55]

إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (55)

الإعراب :

(إذ) اسم ظرفيّ مبنيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (قال) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (يا) أداة نداء (عيسى) منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف في محلّ نصب (انّ) حرف مشبّه بالفعل (الياء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (متوفّي) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء و(الكاف) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (رافعك) مثل متوفّيك بالعطف عليه (إلى) حرف جرّ و(الياء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق برافع (الواو) عاطفة (مطهّرك) مثل متوفّيك بالعطف عليه (من) حرف جرّ (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلق بمطهّر (كفروا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (الواو) عاطفة " 1 " ، (جاعل) معطوف على متوفّيك مرفوع مثله (الذين) في محلّ جرّ مضاف إليه (اتّبعوا) مثل كفروا و(الكاف) ضمير مفعول به (فوق) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف مفعول به ثان لجاعل (الذين) مثل السابق (كفروا) مثل الأول (إلى يوم) جارّ ومجرور متعلّق بجاعل ، (ثمّ) حرف عطف (إليّ) مثل الأول

---

(1) يجوز أن تكون الواو استئنافيّة ، والخطاب موجه إلى النبيّ صلى اللّه عليه وسلم ، و(جاعل) خبر لمبتدأ محذوف تقديره أنا ، والجملة على هذا استئنافيّة لا محلّ لها .

[. . . . .]

متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (مرجع) مبتدأ مؤخّر مرفوع و(كم) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (أحكم) مضارع مرفوع، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (بين) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (أحكم)، و(كم) ضمير مضاف إليه (في) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أحكم) (كنتم) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون.. و(تم) ضمير اسم كان في محلّ رفع (في) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تختلفون) وهو مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون.. والواو فاعل.

جملة: "قال اللّه..." في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "يا عيسى" في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "إنّي متوفّيك" لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: "كفروا (الأولى)" لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الأول.

وجملة: "اتّبعوك" لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني.

وجملة: "كفروا (الثانية)" لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثالث.

وجملة: "إليّ مرجعكم" لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّي متوفّيك.

وجملة : " أحكم بينكم " لا محلّ لها معطوفة على جملة إليّ مرجعكم .

وجملة : "كنتم . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " تختلفون " في محلّ نصب خبر كنتم .

الصرف :

(متوفّي) ، اسم فاعل من توفّاه اللّه ، وزنه متفعّل بضمّ الميم وكسر العين المشدّدة .

(رافع) ، اسم فاعل من رفع وزنه فاعل .

(مطهّر) ، اسم فاعل من طهّر الرباعيّ ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وكسر العين المشدّدة .

(مرجع) ، اسم مكان أو زمان من رجع على وزن مفعل بكسر العين لأن عينه في المضارع مكسورة فهو من باب ضرب ، وقد يصحّ أن يكون اللفظ مصدرا سماعيّا للفعل رجع ومستعملا في الآية على ذلك .

البلاغة

---

1 - أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : هذا من المقدم والمؤخر أي رافعك إليّ ومتوفيك ، وهذا أحد تأويلات اقتضاها مخالفة ظاهر الآية للمشهور المصرح به في الآية .

وثانيها : أن المراد مستوفي أجلك ومميتك حتف أنفك لا أسلط عليك من يقتلك فالكلام كناية عن عصمته من الأعداء .

ثالثها : أن المراد بالوفاة هنا النوم لأنهما أخوان ويطلق كل منهما على الآخر .

[سورة آل عمران (3) : آية 56]

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (56)

الإعراب :

(الفاء) تفريعيّة عاطفة (أمّا) حرف شرط وتفصيل (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (كفروا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (الفاء) رابطة لجواب الشرط (أعذّب) مضارع والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا و(هم) ضمير مفعول به (عذابا) مفعول مطلق منصوب (شديدا) نعت لـ (عذابا) منصوب مثله (في الدنيا) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اعذّب) ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف

(الواو) عاطفة (الآخرة) معطوف على الدنيا مجرور مثله (الواو) عاطفة (ما) نافية مهملة (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير متّصل في محلّ جر متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (من) حرف جرّ زائد (ناصرين) مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخّر .

جملة : " الذين كفروا " لا محلّ لها معطوفة على جملة أحكم في السابقة .

وجملة : " أعذّبهم " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة: "كفروا" لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "ما لهم من ناصرين" في محلّ رفع معطوفة على جملة أعذّبهم.

[سورة آل عمران (3) : آية 57]

وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (57)

الإعراب:

(134/124)

(الواو) عاطفة (أمّا الذين آمنوا) مثل أمّا الذين كفروا في الآية السابقة (الواو) عاطفة (عملوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ..

والواو فاعل (الصالحات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (الفاء) رابطة لجواب الشرط (يوفّي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة و(هم) ضمير مفعول به، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (أجور) مفعول به ثان منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) استئنافيّة، (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (لا) نافية (يحبّ) مضارع مرفوع، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو، (الظالمين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء.

وجملة: "الذين آمنوا" لا محلّ لها معطوفة على جملة الذين كفروا في الآية السابقة.

وجملة: "آمنوا" لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "عملوا.." لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

وجملة: "يوفّيهم" في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين).

وجملة: "اللّه لا يحبّ.." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لا يحبّ الظالمين" في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه).

الفوائد

1 - أمّا: هي حرف فيه معنى الشرط والتوكيد دائما، ثم التفصيل غالبا يدل على الأول لزوم الفاء بعدها نحو "فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ. وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا".

ويدل على الثاني: أنك إذا قصدت توكيد "زيد ذاهب" تقول: أمّا زيد فذاهب أي لا محالة ذاهب. ويدل على التفصيل استقراء مواقعها نحو "أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ، وَأَمَّا الْغُلامُ.. وَأَمَّا الْجِدارُ" ومثله "فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ".

[سورة آل عمران (3): آية 58]

ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (58)

الإعراب :

(ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ " 1 " ، و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب ، (نتلو) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة و(الهاء) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن

---

(1) أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره الأمر كذلك ، وجملة نتلوه حال .

(على) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نتلوه) ، (من الآيات) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من ضمير الغائب في (نتلوه) " 1 " ، (الذكر) معطوف بالواو على الآيات مجرور مثله ، (الحكيم) نعت للذكر مجرور مثله .

جملة : " ذلك نتلوه " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نتلوه " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ذلك) .

الصرف :

(الذكر) مصدر ذكر يذكر باب نصر، ولكنّه استعمل هنا استعمال الاسم الجامد لأنه بمعنى القرآن الكريم.

(الحكيم)، صفة مشتقّة وزنه فعيل بمعنى المفعول أي المحكم بفتح الكاف (انظر البقرة - 32).

[سورة آل عمران (3) : آية 59]

إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59)

الإعراب:

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل (مثل) اسم إنّ منصوب (عيسى) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة (عند) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف حال من مثل، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (كمثل) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر إنّ (آدم) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة لامتناعه من الصرف للعلميّة والعجمة (خلق) فعل ماض و(الهاء) ضمير مفعول به، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (من تراب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (خلق)، (ثمّ) حرف عطف (قال)

---

(1) أو متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ ذلك، وجملة نتلوه حال.

مثل خلق (اللام) حرف جرّ ، و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (قال) ، (كن فيكون) مرّ إعرابها " 1 " .

جملة : " إنّ مثل عيسى . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " خلقه . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

وجملة : " قال . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلقه .

وجملة : " كن " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يكون " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو والجملة الاسميّة معطوفة على جملة يقول .

الفوائد

- " إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ " :

نزلت هذه الآية في السنة التاسعة للهجرة " عام الوفود " وقد وفد عليه وفد نجران فعرض عليهم الإسلام فلم يسلموا وسألوه رأيه في المسيح فأنزل اللّه عليه هذه الآية . ولما جادلوا الرسول فأكثروا جداله طلبهم " للملاعنة " فتشاوروا فيما بينهم فألقى اللّه في قلوبهم الرعب فتهيبوا عاقبة الملاعنة ، وسألوا رسول اللّه إعفاءهم منها ، ثم عرضوا على الرسول صلى اللّه عليه وسلم أن يرسل معهم رجلا أمينا يحكم بينهم فيما اختلفوا فيه

فأشر أبت نفس عمر أن يكون هو الأمين ولكن الرسول صلى اللّه عليه وسلم نادى أبا عبيدة فأرسله مع القوم ليحكم بينهم ومنذئذ أصبح أبو عبيدة أمين هذه الأمة رضي اللّه عنهم جميعا .

[سورة آل عمران (3) : آية 60]

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (60)

---

(1) في الآية (118) من سورة البقرة ، وفي الآية (47) من هذه السورة .

(2) يجوز أن تكون في محلّ نصب حال من آدم بتقدير قد ، هذا وقد جعلها أبو حيّان تفسير لمعنى - مثل آدم - .)

(138/124)

الإعراب :

(الحقّ) مبتدأ مرفوع " 1 " ، (من ربّ) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر و(الكاف) ضمير مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لا) ناهية جازمة (تكن) مضارع ناقص مجزوم ، واسم تكن ضمير مستتر تقديره (أنت) (من الممترين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر تكون ، وعلامة الجرّ الياء .

جملة: "الحقّ من ربّك" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لا تكن... لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير جازم أي:

إذا كان الأمر كذلك فلا تكن من الممترين.

البلاغة

- "فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ" نهيه عن الامتراء - وجلّ رسول اللّه (ص) أن يكون ممتريا - من باب التهييج لزيادة الثبات والطمأنينة، وأن يكون لطفا لغيره.

[سورة آل عمران (3) : آية 61]

فَمَنْ حاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ (61)

الإعراب:

(الفاء) عاطفة (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (حاجّ) فعل ماض مبنيّ على الفتح في محلّ جزم فعل الشرط و(الكاف) ضمير مفعول به، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (في) حرف

---

(1) أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو أي خبر عيسى أو أمر عيسى و(من ربّك) حال أو خبر ثان.

جرّ (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (حاجّ) على حذف مضاف أي في أمره (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (حاجّ) ، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه " 1 " ، (جاء) فعل ماض و(الكاف) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (من العلم) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من الضمير المستتر في جاء (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قل) فعل أمر والفاعل أنت (تعالوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . .

والواو فاعل (ندع) مضارع مجزوم فهو جواب الطلب والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (أبناء) مفعول به منصوب و(نا) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (الواو) عاطفة في المواضع الخمسة (أبناءكم ، نساءنا ، نساءكم أنفسنا ، أنفسكم) ألفاظ مركّبة من مضاف ومضاف إليه معطوفة بحروف العطف على (أبناء) منصوبة مثله (ثم) حرف عطف (نبتهل) مضارع مجزوم معطوف على ندع ، والفاعل نحن (الفاء) عاطفة (نجعل) مضارع مجزوم معطوف على (نبتهل) ، والفاعل نحن (لعنة) مفعول به منصوب (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (على الكاذبين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف مفعول به ثان لـ (نجعل) . . أي نجعل لعنة اللّه واقعة على الكاذبين . . .

جملة : " من حاجّك " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ مثل . . . في الآية السابقة .

---

(1) منع أبو البقاء العكبريّ أن يكون (ما) مصدريّا – خلافا للأخفش – لأن الحرف المصدريّ لا يعود إليه ضمير – على رأي سيبويه والجمهور . وفي (حاجّك) ضمير فاعل إذ ليس بعده ما يصحّ أن يكون فاعلا ، والعلم لا يصحّ أن يكون فاعلا لأن (من) لا تزاد في الموجب .

(140/124)

وجملة : " حاجّك " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) "

.

وجملة : " جاءك " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " قل . . . " في محلّ جزم جواب شرط جازم مقترنة بالفاء .

وجملة : " تعالوا " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ندع " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء " 2 " .

وجملة : " نبتهل " معطوفة على جملة ندع .

وجملة : " نجعل " لا محلّ لها معطوفة على جملة نبتهل .

الصرف :

(تعالوا) ، فيه إعلال بالحذف ، حذفت الألف الساكنة قبل واو الجماعة الساكنة تخلّصا من التقاء الساكنين ، وفتح ما قبل الواو دلالة عليها " 3 " ، أو هو فعل جامد يأتي في الأمر بإسناد الضمائر إليه ، أو من غير إسناد الضمائر (تعال) ، وعلى ذلك فليس فيه حذف ولا إعلال .

(ندع) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، وزنه نفع .

(الكاذبين) ، جمع الكاذب ، اسم فاعل من كذب الثلاثيّ وزنه فاعل .

[سورة آل عمران (3) : آية 62]

إِنَّ هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (62)

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(2) يقول ابن هشام : في تأويل الشرط يجب أن نقول : تعالوا فإن تأتوا ندع ، ولا يجوز أن نقدّر فإن تتعالوا ، لأن (تعال) فعل جامد لا مضارع له ولا ماض ، حتى توهّم بعضهم - وهو الزمخشريّ - أنه اسم فعل .

(3) يجوز ضمّ الواو في (تعالوا) - في غير قراءة حفص - على لغة أهل الحجاز .

الإعراب :

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) لام المزحلقة (هو) ضمير فصل " 1 " ، (القصص) خبر إنّ مرفوع (الحقّ) نعت للقصص مرفوع مثله ، (الواو) عاطفة (ما) نافية مهملة (من) حرف جرّ زائد (اله) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ (إلّا) أداة حصر (اللّه) لفظ الجلالة خبر المبتدأ مرفوع " 2 " ، (الواو) عاطفة (إنّ) مثل الأول (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (لهو العزيز) مثل لهو القصص (الحكيم) خبر ثان مرفوع.

جملة : " إنّ هذا لهو القصص " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما من إله إلّا اللّه " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " إنّ اللّه لهو العزيز " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافية .

الصرف :

(القصص) ، مصدر قصّ يقصّ باب نصر . . وأصله تتّبع الأثر ، فالقاصّ يتتبّع خبرا بعد خبر ، وزن القصص فعل بفتحتين .

[سورة آل عمران (3) : آية 63]

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (63)

الإعراب:

(الفاء) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (تولّوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين في محلّ جزم فعل الشرط " 3 " .. والواو فاعل (الفاء) رابطة لجواب الشرط

---

(1) يجوز أن يكون ضميرا منفصلا في محلّ رفع مبتدأ خبره القصص .. والجملة الاسميّة خبر إنّ.

(2) يجوز أن يكون الخبر محذوفا، والتقدير: ما من إله لنا .. ف (إلّا) أداة استثناء، ولفظ الجلالة بدل من موضع إله .. واختار أبو حيّان هذا التخريج.

(3) يجوز أن يكون الفعل مضارعا حذف منه إحدى التاءين .. فهو حينئذ مجزوم وعلامة الجزم حذف النون.

(إنّ الله عليم) حرف مشبّه بالفعل واسمه وخبره (بالمفسدين) جارّ ومجرور متعلّق ب (عليم) وعلامة الجرّ الياء.

جملة: " أن تولّوا " لا محلّ لها معطوفة على استئناف متقدّم.

وجملة " إنّ اللّه عليم " في محلّ جزم جواب الشرط الجازم مقترنة بالفاء . . .

ويجوز أن تكون الجملة تعليلا للجواب المقدّر أي فإن تولوا فهم المفسدين لأن اللّه عليم بهم .

[سورة آل عمران (3) : آية 64]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (64)

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (يا) أداة نداء (أهل) منادى مضاف منصوب (الكتاب) مضاف إليه مجرور (تعالوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (الى كلمة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تعالوا) ، (سواء) نعت لكلمة مجرور مثلها (بين) ظرف مكان منصوب متعلّق بسواء فهو مصدر و(نا) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه (الواو) عاطفة (بين) مثل الأول ومعطوف عليه ويتعلّق بما تعلّق به الأول و(كم) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه (أن) حرف مصدريّ ونصب (لا) نافية (نعبد) مضارع منصوب ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (إلّا) أداة حصر (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب .

والمصدر المؤوّل (ألّا نعبد . . .) في محلّ جرّ بدل من كلمة سواء . . أي : تعالوا إلى ترك عبادة غير اللّه . . ويجوز أن يكون المصدر

في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي ، والجملة تفسيريّة لسواء .

(الواو) عاطفة (لا) نافية (نشرك) مضارع منصوب معطوف على (نعبد) ، والفاعل نحن

(الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق (نشرك) ، (شيئا) مفعول به منصوب

(الواو) عاطفة (لا) نافية (يتّخذ) مضارع منصوب معطوف على (نعبد) ، (بعض) فاعل

مرفوع و(نا) ضمير متّصل مضاف إليه (بعضا) مفعول به أوّل منصوب (أربابا) مفعول به

ثان منصوب (من دون) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لأرباب (اللّه) لفظ الجلالة

مضاف إليه. (الفاء) استئنافيّة (إن تولّوا) مرّ إعرابها في الآية السابقة (الفاء) رابطة لجواب

الشرط (قولوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (اشهدوا) مثل قولوا

(الباء) حرف جرّ (أنّ) حرف مشبّه بالفعل و(نا) ضمير اسم أنّ في محلّ نصب (مسلمون)

خبر أنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو .

والمصدر المؤوّل (أنّا مسلمون) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (اشهدوا) .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة النداء : " يا أهل الكتاب " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تعالوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " لا نعبد إلّا اللّه " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " لا نشرك . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا نعبد .

وجملة : " لا يتّخذ بعضنا " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا نعبد .

وجملة : " تولّوا " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قولوا . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " اشهدوا . . . " في محلّ نصب مقول القول

الفوائد

- سواء : بمعنى مستو ، ويوصف بها المكان فيقال " فكانا سوى " وهو أحد الصفات التي جاءت على فعل كقولهم " ماء روى " و " قوم عدى " وتأتي بمعنى الوسط كقوله تعالى : فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ وتأتي بمعنى " التامّ " كقولهم " هذا درهم سواء " .

ويخبر بـ سواء عن الواحد فأكثر نحو " ليسوا سواء " . وتكون " سواء " للتسوية وتأتى بعدها همزة التسوية ثم تليها كلمة أم نحو قوله تعالى : - " سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ " أي إنذارك وعدمه سواء .

قوله تعالى : " لِمَ تُحَاجُّونَ " إذا أتت ما متصلة في معرض الاستفهام وجب حذف ألفها

وذلك في " علام وإلام وحتام ، وبم ، وعمّ وفيم ، وممّ وقالوا إن ذلك لأسباب منها التفرقة بينها وبين " ما " الحرفية ، واتصالها بحرف الجر ، وتخفيف اللفظ ، وتدلنا الفتحة على أن المحذوف " ألف " .

[سورة آل عمران (3) : آية 65]

يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْراهِيمَ وَما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (65)

الإعراب :

(144/124)

(يا أهل الكتاب) مرّ إعرابها في الآية السابقة (اللام) حرف جرّ (ما) اسم استفهام مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (تحاجّون) وهو مضارع مرفوع . . والواو فاعل (في إبراهيم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تحاجّون) وعلامة الجرّ الفتحة لأنه ممنوع من الصرف للعلميّة والعجمة (الواو) حاليّة (ما) نافية (أنزل) فعل ماض مبنيّ للمجهول و(التاء) للتأنيث (التوراة) نائب فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (الإنجيل) معطوف على التوراة مرفوع مثله (إلّا) اداة حصر (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنزلت) و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الهمزة) للاستفهام الإنكاري

(الفاء) عاطفة (لا) نافية (تعقلون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . والواو فاعل .

جملة النداء : " يا أهل الكتاب " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تحاجّون " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أنزلت التوراة " في محلّ نصب حال .

وجملة : " تعقلون " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : أغفلتم فلا تعقلون .

[سورة آل عمران (3) : آية 66]

ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (66)

الإعراب :

(ها) حرف تنبيه (أنتم) ضمير بارز منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (ها) مثل الأول (أولاء) اسم إشارة مبنيّ على الضمّ المقدّر على آخره منع من ظهوره حركة البناء الأصليّ في محلّ نصب على النداء ، وقد حذف منه أداة النداء " 1 " ، (حاججتم) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(تم) ضمير في محلّ رفع فاعل (في) حرف جرّ (ما) اسم موصول في محلّ جرّ متعلّق بـ (حاججتم) " 2 " ، (اللام) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ

متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (الباء) حرف

(145/124)

---

(1) هذا الإعراب لا يجوز عند البصريين وسيبويه لأنه لا يجوز حذف أداة النداء من اسم الإشارة ولكنّ العكبريّ والسيوطيّ وأبو حيّان . . ثمّ الجمل في حاشية الجلالين أوردوه على مذهب الكوفيّين، وقد اخترناه لأنه لا يعارض المعنى وبعيد عن التأويل . . هذا ويجوز في اسم الإشارة أن يكون خبر المبتدأ وجملة حاججتم حاليّة . . أو مستأنفة مبيّنة للجملة الأولى، وأجازوا في اسم الإشارة أن يكون بدلا أو عطف بيان والخبر جملة حاججتم . . . (وانظر الآية 85 من سورة البقرة) .

(2) يجوز أن يكون نكرة موصوفة، والجملة بعدها صفة لها . [. . . . .]

جرّ و(الهاء) ضمير في محل جرّ متعلّق بحال محذوف من علم - وصف تقدّم على الموصوف - (علم) مبتدأ مؤخّر مرفوع (الفاء) عاطفة (لم تحاجّون) مرّ إعرابها في الآية السابقة (في ما) مثل الأول " 1 "، (ليس) فعل ماض ناقص (لكم به علم) خبر ليس واسمه وحال من اسمه كما مرّ .

(الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (يعلم) مضارع مرفوع، والفاعل ضمير

مستتر تقديره هو (الواو) عاطفة (أنتم) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (لا) نافية (تعلمون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " أنتم . . . " حاججتم لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " النداء : " هؤلاء " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " حاججتم " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم) .

وجملة : " لكم به علم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " لم تحاجّون " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " ليس لكم به علم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة : " اللّه يعلم " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يعلم " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " أنتم لا تعلمون " لا محلّ لها معطوفة على جملة اللّه يعلم .

وجملة : " لا تعلمون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم) .

الفوائد

1 - قال أبو عمرو بن العلاء ، في قوله تعالى : " ها أنتم " إن هذه الهاء منقلبة عن همزة لتسهيل اللفظ ، وتخلصا من التكرار ، ولأن الهاء أخت الهمزة وهو رأي حسن وقليل الكلفة والتحمّل .

(1) يجوز أن تكون (ما) نكرة موصوفة والجملة بعدها صفة لها .

(146/124)

[سورة آل عمران (3) : آية 67]

ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرانِيًّا وَلكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67)

الإعراب :

(ما) نافية (كان) فعل ماض ناقص (إبراهيم) اسم كان مرفوع (يهوديّا) خبر كان منصوب (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (نصرانيّا) معطوف على (يهوديّا) منصوب مثله (الواو) عاطفة (لكن) حرف استدراك لا عمل له (كان) مثل الأول واسمه ضمير تقديره هو (حنيفا) خبر كان منصوب (مسلما) خبر ثان منصوب (الواو) عاطفة (ما كان) مثل الأولى واسم كان ضمير تقديره هو (من المشركين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر كان .

جملة : " ما كان إبراهيم . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كان حنيفا " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " ما كان من المشركين لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

[سورة آل عمران (3) : آية 68]

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (68)

الإعراب:

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل (أولى) اسم إنّ منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على

الألف (الناس) مضاف إليه مجرور (بإبراهيم) جارّ ومجرور متعلّق بأولى، وعلامة الجرّ

الفتحة لامتناعه من

الصرف

(اللام) هي المزحلقة وتفيد التوكيد (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع خبر إنّ (اتبعوا)

فعل ماض مبنيّ على الضمّ.. والواو فاعل

و (الهاء) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ

رفع معطوف على الاسم الموصول (النبيّ) بدل من اسم الإشارة أو صفة له (الواو) عاطفة

(الذين) مثل الأول ومعطوف عليه في محلّ رفع (آمنوا) مثل اتّبعوا (الواو) عاطفة أو

استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (وليّ) خبر مرفوع (المؤمنين) مضاف إليه مجرور

وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " إنّ أولى الناس . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اتّبعوه " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الأول .

وجملة : " آمنوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " اللّه وليّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة أو استئنافيّة .

الصرف :

(أولى) ، اسم تفضيل من ولي يلي باب ضرب وباب وثق ، وزنه أفعل ، والألف منقلبة عن الياء ففيه إعلال بالقلب .

[سورة آل عمران (3) : آية 69]

وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَما يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ (69)

الإعراب :

(ودّ) فعل ماض و(التاء) تاء التأنيث (طائفة) فاعل مرفوع (من أهل) جارّ ومجرور نعت لطائفة (الكتاب) مضاف إليه مجرور (لو) حرف مصدريّ (يضلون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل و(كم) ضمير مفعول به .

والمصدر المؤوّل (لو يضلّونكم) في محلّ نصب مفعول به عامله فعل ودّت .

(الواو) حاليّة (ما) نافية (يضلّون) مثل الأول (إلّا) أداة حصر (أنفس) مفعول به منصوب

و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (ما يشعرون) مثّل ما يضلّون.

جملة: "ودّت طائفة" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يضلّونكم" لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (لو).

وجملة: "ما يضلّون إلّا أنفسهم" في محلّ نصب حال.

وجملة: "ما يشعرون" في محلّ نصب معطوفة على جملة الحال.

الصرف:

(طائفة)، مشتقّ من طاف يطوف باب نصر، اسم جمع لا واحد له من لفظه، وزنه فاعلة، وقد قلب حرف العلّة همزة شأنه مع كلّ فعل أجوف يشتقّ منه لفظ على وزن فاعل.

(يضلّون)، فيه حذف همزة الماضي تخفيفا جرى فيه مجرى ينفقون، والأصل يؤضللون (الآية 26 من البقرة).

[سورة آل عمران (3): آية 70]

يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (70)

الإعراب:

(يا أهل الكتاب لم تكفرون) مثل نظيرها المتقدّمة " 1 " ، (بآيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تكفرون) ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) حاليّة (أنتم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (تشهدون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

---

(1) في الآية (65) من هذه السورة .

جملة : " يا أهل الكتاب " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لم تكفرون " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أنتم تشهدون " في محلّ نصب حال .

وجملة : " تشهدون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم) .

[سورة آل عمران (3) : آية 71]

يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (71)

الإعراب :

(يا أهل الكتاب لم تلبسون) مثل نظيرها المتقدّمة " 1 " ، (الحقّ) مفعول به منصوب (بالباطل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تلبسون) بتضمين الفعل معنى تخلطون وتمزجون (الواو)

عاطفة (تكتمون) مضارع مرفوع والواو فاعل (الحقّ) مفعول به منصوب (الواو) حاليّة (أنتم تعلمون) مثل أنتم تشهدون في الآية السابقة.

جملة: "يا أهل الكتاب... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لم تلبسون... " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: "تكتمون " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء.

وجملة: "أنتم تعلمون " في محلّ نصب حال.

وجملة: "تعلمون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم).

[سورة آل عمران (3) : آية 72]

وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (72)

---

(1) في الآية (65) من هذه السورة.

(150/124)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (قالت) فعل ماض.. (التاء) التأنيث (طائفة) فاعل مرفوع (من أهل)

جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لطائفة (الكتاب) مضاف إليه مجرور (آمنوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون والواو فاعل (الباء) حرف جرّ (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (آمنوا) ، (أنزل) فعل ماض مبنيّ للمجهول ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو ، وهو العائد (على الذين) مثل بالذي متعلّق بـ (أنزل) ، (آمنوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (وجه) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (آمنوا) ، (النهار) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (اكفروا آخره) مثل آمنوا وجه . . . والظرف متعلّق بفعل اكفروا . . والهاء مضاف إليه (لعلّ) حرف مشبّه بالفعل للترجّي و(هم) ضمير متّصل اسم لعلّ في محلّ نصب (يرجعون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " قالت طائفة " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنزل " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " آمنوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " اكفروا " في محلّ نصب معطوفة على جملة آمنوا الطلبيّة .

وجملة : " لعلّهم يرجعون " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يرجعون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

[سورة آل عمران (3) : آية 73]

وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (73)

(151/124)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تؤمنوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون.. والواو فاعل (إلا) أداة استثناء (اللام) حرف جرّ " 1 "، (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ بدل من المستثنى منه المقدّر على اعادة الجارّ، والتقدير: لا تؤمنوا لأحد إلّا لمن تبع دينكم " 2 " (قل) فعل أمر والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (الهدى) اسم إنّ منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (هدى) خبر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (أن) حرف مصدريّ ونصب (يؤتى) مضارع مبنيّ للمجهول منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (أحد) نائب فاعل مرفوع (مثل) مفعول به منصوب (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (أوتيتم) فعل ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ على السكون.. و(تمّ) ضمير نائب فاعل.

والمصدر المؤوّل (أن يؤتى أحد) في محل جرّ بحرف جرّ محذوف أي: بأن يؤتى "3" والجارّ والمجرور متعلّق بـ (تؤمنوا) بتضمينه معنى

---

(1) اختلف المفسّرون والمعربون في هذه الآية كثيرا، وذكر منها أوجه تربو على التسعة، ولكنّ أوضحها وأقربها للمعنى الظاهر ما أشرنا إليه أعلاه.. من هذه الأوجه أن اللام في (لمن) زائدة بتضمين فعل تؤمنوا معنى تصدقوا.. والمصدر المؤوّل (أن يؤتى..) مفعول به عامله تؤمنوا.. إلخ.

(2) والمعنى الإجماليّ للآية يصبح على التقدير التالي: لا تقرّوا ولا تعترفوا لأحد بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلّا لمن تبع دينكم.

(3) جعل العكبري المصدر المؤوّل مفعولا لأجله على حذف مضاف أي: لا تؤمنوا إلّا لمن تبع دينكم خشية أن يؤتي أحد...

(152/124)

تقرّوا وتعترفوا "1"، (أو) حرف عطف (يحاجّوا) مضارع منصوب معطوف على فعل يؤتى.. والواو فاعل و(كم) ضمير مفعول به (عند) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (يحاجّوكم) (ربّ) مضاف إليه مجرور و(كم) ضمير مضاف إليه (قل) مثل الأول (إنّ

الفضل) مثل إنّ الهدى (بيد) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر إنّ (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه (يؤتي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء و(الهاء) ضمير مفعول به، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به ثان (يشاء) مضارع مرفوع والفاعل هو. (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (واسع) خبر مرفوع (عليم) خبر ثان مرفوع.

جملة: "لا تؤمنوا" في محلّ نصب معطوفة على جملة آمنوا الطلبيّة - في الآية السابقة - لأنها تتمّة لكلام الطائفة "2".

وجملة: "تبع دينكم" لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: "قل ومعموله" لا محلّ لها اعتراضيّة.

وجملة: "إنّ الهدى هدى اللّه" في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "يؤتى أحد" لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: "أوتيتم" لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

---

(1) كما يجوز أن يكون المصدر المؤوّل خبرا لـ (إنّ).. وهدى اللّه بدل من الهدى.. و(يحاجّوكم) منصوب بـ (أن) مضمرة بعد أو التي بمعنى حتى.

(2) قال أبو حيّان: من المفسّرين من ذهب إلى أن ذلك من كلام اللّه يثبّت به قلوب المؤمنين

لئلّا يشكّوعند تزوير اليهود . . ولا خلاف ولا شكّ أن قوله : " قل إنّ الهدى هدى اللّه "
هو من كلام اللّه .

(153/124)

وجملة : " يحاجّوكم " لا محلّ لها معطوفة على جملة يؤتى .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ الفضل . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يؤتيه " في محلّ رفع خبر ثان لـ (إنّ) .

وجملة : " يشاء " لا محلّ لها صلة الموصول (من) وجملة : " اللّه واسع " لا محلّ لها استئنافيّة .

الفوائد

1 - قوله تعالى : " إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ " اعترضت هذه الجملة بين جملتين من كلام اليهود . فهم يوصون بعضهم أن لا يأتمنوا لأحد إذا لم يكن يهوديا . هذا هو الجزء الأول وأما الجزء الثاني فهو ألا يعترفوا بأنه قد يؤتى أحد مثلما أوتي بنو إسرائيل ، إذ في ذلك اعتراف بنبوّة محمد صلى اللّه عليه وسلم . وفي هذه الوصية التي يتواصون بها منتهى الجحود والكفر

والحسد للرسول والمسلمين سواء بسواء .

[سورة آل عمران (3) : آية 74]

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (74)

الإعراب :

(يختصّ) مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (برحمة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يختصّ) و(الهاء) ضمير مضاف إليه (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (يشاء) مضارع مرفوع والفاعل هو. (الواو) عاطفة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (ذو) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو (الفضل) مضاف إليه مجرور (العظيم) نعت للفضل مجرور مثله.

جملة : " يختصّ " في محلّ رفع خبر ثالث للمبتدأ الوارد في الآية السابقة (اللّه) " 1 " .

وجملة : " يشاء " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " اللّه ذو الفضل " لا محلّ لها معطوفة على جملة (اللّه واسع) في الآية السابقة.

[سورة آل عمران (3) : آية 75]

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (من أهل) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (الكتاب) مضاف إليه مجرور (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخر (ان) حرف شرط جازم (تأمن) مضارع مجزوم فعل الشرط و(الهاء) ضمير مفعول به، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (بقنطار) جار ومجرور متعلّق بـ (تأمن)، والباء بمعنى على (يؤدّ) مضارع مجزوم جواب الشرط وعلامة الجزم حذف حرف العلّة من آخره و(الهاء) ضمير مفعول به، والفاعل هو (إلى) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يؤدّ)، (الواو) عاطفة (منهم من.. لا

---

(1) يجوز أن تكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هو.

يؤدّه إليك) تعرب كصدر الآية (إلّا) أداة حصر " 1 "، (ما) حرف مصدريّ ظرفيّ (دمت) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون.. و(التاء) اسم دام في محلّ رفع (على) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (قائما) وهو خبر دمت منصوب.

والمصدر المؤوّل (ما دمت...) في محلّ نصب على الظرفيّة الزمانيّة متعلّق بـ (يؤدّه)

المنفي " 2 " .

(ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (الباء) حرف جرّ (أنّ) حرف مشبّه بالفعل و(هم) ضمير اسم أنّ في محلّ نصب (قالوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل .

والمصدر المؤوّل (أنّهم قالوا . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ أي : ذلك النكوص عن أداء المال بسبب اعتقادهم المعبّر عنه .

(ليس) فعل ماض ناقص (على) حرف جرّ و(نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للفعل الناقص (في الأمّيّين) جارّ ومجرور متعلّق بالخبر المحذوف " 3 " ، وعلامة الجرّ الياء (سبيل) اسم ليس مؤخّر مرفوع (الواو) استئنافيّة (يقولون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (على اللّه)

---

(1) أو أداة استثناء والمستثنى منه مقدّر وهو عموم الأوقات ، والمصدر المؤوّل الظرفيّ مستثنى .

(2) أجاز العكبريّ أن تكون (ما) مصدريّة فقط والمصدر المؤوّل منصوب على الحال فيكون ذلك استثناء من الأحوال لا من الأزمان أي : إلّا في حال ملازمتك له ، ويكون (قائما) حالا لا خبرا لأن دام أصبح تامّا .

(3) ويجوز تعليقه بحال محذوفة من سبيل لأنه صفة تقدّمت على موصوف نكرة .

جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من الكذب " 1 " ، (الكذب) مفعول به منصوب

(الواو) حاليّة (هم) ضمير منفصل مبتدأ (يعلمون) مثل يقولون .

جملة : " من أهل الكتاب من . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تأمنه (الأولى) " لا محلّ لها صلة الموصول (من) " 2 " .

وجملة : " يؤدّه إليك " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " منهم من . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " تأمنه (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني " 3 " .

وجملة : " لا يؤدّه إليك " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " دمت " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " ذلك بأنّهم " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قالوا " في محلّ رفع خبر (أنّ) .

وجملة : " ليس علينا . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يقولون " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هم يعلمون " في محلّ نصب حال .

وجملة : " يعلمون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

الصرف :

(قنطار) ، اسم جامد وزنه فنعال (انظر الآية 14 من هذه السورة) .

---

(1) يجوز تعليقه بـ (يقولون) بتضمينه معنى يفترون .

(2 ، 3) أي الجملة المكونة من فعل الشرط وجوابه . . وبعضهم يكتفي بجملة الشرط وحدها . [. . . . .]

(156/124)

(دينار) ، أصله دنّار بنون مشدّدة ، فاستثقل اللفظ بهذه النون فأبدلت أولى النونين ياء للتخفيف ، وذلك لكثرة الاستعمال ، ويعود تضعيف النون في التكثير فيقال دنانير أو في التصغير فيقال دنينير . . والدينار معرّب .

(الكذب) ، مصدر سماعيّ لفعل كذب يكذب باب ضرب وزنه فعل بفتح فكسر ، ويأتي مكسور الفاء ساكن العين ، ويأتي على فعال بكسر الفاء وتخفيف العين وتشديدها .

الفوائد

1 - قول اليهود " لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ " هذا ما كان عليه اليهود إبان بعثة الرسول وهذا ما لا يزالون عليه حيال شعوب العالم أجمع فهم يعتقدون أن المال مالهم وقد اغتصب منهم ، ولهم أن يستعيدوه من أيدي الناس بمختلف الوسائل .

ويكاد يتسرب هذا المفهوم الخاطئ إلى العوام من المسلمين ، على حين أن الإسلام حرّم على المسلم أن يأخذ شيئا من مال ذوي الأديان الأخرى إلّا بحقه وما لم يكن في حالة حرب مع أولئك المخالفين لدينه .

2 - الفرق بين " ما دام وما زال " أن الأولى ملازمة لـ " ما " ولا تأتي إلا بصيغة الماضي .

وأما الثانية فيمكن أن تكون بصيغة الماضي والمضارع كما يمكن أن تسبق بأحد أحرف النفي الأخرى نحو لم يزل ولا يزال .

[سورة آل عمران (3) : آية 76]

بَلى مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَاتَّقى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (76)

الإعراب :

(بلى) حرف جواب ، وهو إيجاب لما نفوه من قولهم (ليس علينا في الأمّيّين سبيل) ، (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أوفى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف في محلّ

جزم فعل الشرط، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (بعهد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أوفى)، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (اتّقى) مثل أوفي ومعطوف عليه (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (يحبّ) مضارع مرفوع والفاعل هو (المتّقين) مفعول به منصوب.

جملة: من أوفى... لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أوفى" في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) "1".

وجملة: "اتّقى" في محلّ رفع معطوفة على جملة أوفى.

وجملة: "إنّ اللّه يحب" في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

وجملة: "يحبّ المتّقين" في محلّ رفع خبر إنّ.

الصرف:

(أوفى)، في الفعل إعلال بالقلب، قلبت الياء ألفا لمجيئها مفتوحة بعد فتح، أصله أوفي - كلّ فعل فاؤه واو فإنّ لامه ياء -.

الفوائد

"بلى" حرف جواب وتختص بالنفي وتفيد إبطاله، سواء أكان مجردا نحو "زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ: بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ" أم مقرونا بالاستفهام نحو "أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ

سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ بَلى ! " والفرق بين " بلى ونعم " أن بلى لا تأتي إلا بعد نفي، وأن نعم تأتي بعد النفي والإثبات فإذا قلت " ما قام علي " فتصديقه نعم وتكذيبه بلى . . .

[سورة آل عمران (3) : آية 77]

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (77)

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

الإعراب :

(انّ) حرف مشبّه بالفعل (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب اسم إنّ (يشترون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . والواو ضمير في محلّ رفع فاعل (بعهد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يشترون) ضمّن معنى يستبدلون (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (أيمان) معطوف على عهد مجرور مثله و(هم) ضمير مضاف إليه (ثمنا) مفعول به منصوب (قليلا) نعت له منصوب مثله (أولاء) اسم إشارة مبنيّ على الكسر في محلّ رفع مبتدأ و(الكاف) حرف خطاب (لا) نافية للجنس (خلاق) اسم لا مبنيّ على

الفتح في محلّ نصب (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر لا (في الآخرة) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر لا (الواو) عاطفة (لا) نافية (يكلّم) مضارع مرفوع و(هم) ضمير متصل في محلّ نصب مفعول به، (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (لا) نافية (ينظر) مثل يكلّم، والفاعل هو (إليهم) مثل لهم متعلّق بـ (ينظر) (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (ينظر)، (القيامة) مضاف إليه مجرور (ولا يزكّيهم) مثل ولا يكلّمهم والفاعل هو (الواو) عاطفة (لهم) مثل الأول متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (عذاب) مبتدأ مؤخر مرفوع (أليم) نعت له مرفوع (أليم) نعت له مرفوع مثله.

جملة: "إن الذين يشترون.." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يشترون" لا محلّ لها صلة الموصول.

وجملة: "أولئك" لا خلاق لهم في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "لا خلاق لها" في محلّ رفع خبر أولئك.

وجملة: "لا يكلّمهم اللّه" في محلّ رفع معطوفة على جملة لا خلاق.

وجملة: "لا ينظر إليهم" في محلّ رفع معطوفة على جملة لا خلاق.

وجملة: "لا يزكّيهم" في محلّ رفع معطوفة على جملة لا خلاق.

وجملة: "لهم عذاب" في محلّ رفع معطوفة على جملة لا خلاق.

الصرف:

(ثمنا) ، اسم لما كان عوض البيع فعله ثمن يثمن باب كرم وزنه فعل بفتحتين (الآية 79 - البقرة) .

البلاغة

1 - الاستعارة المكنية : في الاشتراء ، أي أنهم يستبدلون بما عاهدوا عليه وبما حلفوا به من الإيمان متاع الدنيا ، ورأوا بذلك تحريفهم للتوراة وتبديل ما ورد فيها .

[سورة آل عمران (3) : آية 78]

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ وَما هُوَ مِنَ الْكِتابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (78)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (من) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (اللام) لام التوكيد (فريقا) اسم إنّ مؤخّر منصوب (يلوون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (ألسنة) مفعول به منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (بالكتاب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يلوون) " 1 " ، والباء بمعنى في أي في قراءة الكتاب (اللام) لام

التعليل (تحسبوا) مضارع منصوب بـ (أن) مضمرة بعد اللام .. والواو فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به (من الكتاب) جارّ ومجرور

(1) يجوز تعليقه بمحذوف حال من الألسنة.

متعلّق بمحذوف مفعول به ثان أي معدودا من الكتاب " 1 " .

والمصدر المؤوّل (أن تحسبوه ...) في محلّ جرّ متعلّق بـ (يلوون) .

(الواو) حاليّة (ما) نافية عاملة عمل ليس (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع اسم ما (من الكتاب) مثل الأول متعلّق بمحذوف خبر ما (الواو) عاطفة (يقولون) مضارع مرفوع .. والواو فاعل (هو) ضمير مثل الأول (من عند) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (وما هو من عند اللّه) مثل وما هو من الكتاب (الواو) عاطفة (يقولون على اللّه ... يعلمون) مرّ إعراب هذه الآية سابقا " 2 " .

جملة: " إنّ منهم لفريقا " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة في الآية السابقة.

وجملة: " يلوون " في محلّ نصب نعت لـ (فريقا) .

وجملة: " تحسبوه " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة: " ما هو من الكتاب " في محلّ نصب حال.

وجملة: " يقولون . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يلوون.

وجملة: " هو من عند اللّه " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " ما هو من عند اللّه " في محلّ نصب حال.

وجملة: " يقولون على اللّه . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يلوون.

وجملة: " هم يعلمون " في محلّ نصب حال.

---

(1) يجوز تعليق الجارّ بفعل حسب من غير تقدير المفعول.

(2) في الآية (75) من هذه السورة.

وجملة: " يعلمون " في محلّ رفع خبر المبتدأ هم.

الصرف:

(يلوون)، فيه إعلال بالحذف، أصله يلويون، استثقلت الضمّة على الياء فنقلت حركتها إلى الواو وحذفت الياء لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة فأصبح يلوون، وزنه يفعون.

(ألسنة)، جمع لسان، اسم جامد وهو - على الغالب - مذكّر، وبعضهم يجعله مؤنثا إن

كان جمعه ألسن.

البلاغة

1 - التشبيه: في قوله "لتحسبوه" أي يعطفون ألسنتهم بشبه الكتاب لتحسبوا ذلك الشبه من الكتاب.

2 - وإظهار "الاسم الجليل" و "الكتاب" في محلّ الإضمار لتهويل ما أقدموا.

عليه في القول.

الفوائد

(لوى) الحبل فتله يلويه ليّا. ولوى رأسه وألوى برأسه أماله وأعرض. وقوله تعالى: "وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا". قال ابن عباس رضي اللّه عنهما: هو القاضي يكون ليّه وإعراضه لأحد الخصمين على الآخر، وألوى بالكلام: خالف به عن جهته. وألوى بهم الدهر: أهلكهم قال الشاعر:

أصبح الدهر وقد ألوى بهم، غير تقوالك من قيل وقال

[سورة آل عمران (3): آية 79]

ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (79)

الإعراب:

(ما) نافية (كان) فعل ماض ناقص (لبشر) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدّم لفعل كان (أن) حرف مصدريّ ونصب (يؤتي) مضارع منصوب و(الهاء) ضمير مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الكتاب) مفعول به ثان منصوب (الحكم، النبوّة) اسمان معطوفان بحرفي العطف على الكتاب منصوبان مثله.

والمصدر المؤوّل (أن يؤتيه اللّه) في محلّ رفع اسم كان مؤخّر.

(ثمّ) حرف عطف (يقول) مضارع منصوب معطوف على (يؤتي)، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو، (للناس) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يقول)، (كونوا) فعل أمر ناقص مبنيّ على حذف النون.. والواو اسم كونوا (عبادا) خبر كونوا منصوب (اللام) حرف جرّ و(الياء) ضمير مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف نعت لـ (عبادا) (من دون) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من الياء في (لي) " 1 "، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (لكن) حرف استدراك لا عمل له (كونوا) مثل الأول (ربّانيّين) خبر كونوا منصوب وعلامة النصب الياء (الباء) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ (كنت) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون و(تم) ضمير في محلّ رفع اسم كان (تعلّمون) مضارع مرفوع.. والواو فاعل (الكتاب) مفعول به منصوب.

والمصدر المؤوّل (ما كنتم تعلّمون) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بربّانيّين لأن فيه معنى الفعل.

---

(1) أي منفردا من دون اللّه.

(الواو) عاطفة (بما كنتم تدرسون) مثل بما كنتم تعلّمون مفردات ومصدرا مؤوّلا.

جملة: "ما كان لبشر أن يؤتيه اللّه... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يؤتيه اللّه.. " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) وجملة: "يقول. " لا محلّ لها معطوفة على جملة يؤتيه اللّه.

وجملة: "كونوا عبادا " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "كونوا ربانيين " في محلّ نصب مقول القول لفعل مقدّر أي: لكن يقول: "كونوا ربّانيّين.. والجملة المقدّرة لا محلّ لها معطوفة الاستئنافيّة.

وجملة: "كنتم تعلّمون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

وجملة: "تعلّمون " في محلّ نصب خبر كنتم.

وجملة: "كنتم تدرسون " لا محلّ لها معطوفة على جملة كنتم تعلّمون.

وجملة: "تدرسون " في محلّ نصب خبر كنتم الثاني.

الصرف:

(الحكم)، مصدر حكم يحكم باب كرم بمعنى فهم وصار حكيما، وزنه فعل بضمّ

فسكون.

(النبوة)، اسم مصدر لفعل تنبأ الخماسيّ، وزنه فعولة بضمّ الفاء وفتح اللام.

(ربّانيّين)، جمع ربّانيّ وهو إمّا منسوب إلى الربّ، والألف والنون

فيه زائدتان في النسب دلالة على المبالغة كرقبانيّ وشعرانيّ للغليظ الرقبة والكثير الشعر

.. أو هو منسوب إلى ربّان وهو المعلّم للخير ومن يسوس الناس ويعرّفهم أمر دينهم،

فالألف والنون دالّان على زيادة الوصف كعطشان وريّان. وزنه فعلانيّ.

الفوائد

- الربانيّ: نسبة إلى الرب بزيادة الألف والنون، وهذه القاعدة يمكن اطّرادها في كثير من

النسب عند ما تقصد منها المبالغة، مثل "علماني، وروحاني، وديراني، وفوقاني،

وتحتاني". وهذه القاعدة مستساغة لدى العامة أكثر منها لدى الخاصة فهم يقولون

دوماني وفيجاني نسبة إلى دوما والفيجة وعقلاني ونفساني إلخ.

[سورة آل عمران (3): آية 80]

وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْباباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (80)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (لا) نافية (يأمر) مضارع منصوب معطوف على فعل يؤتي - في الآية السابقة - و(كم) ضمير مفعول به، والفاعل هو (أن) حرف مصدريّ ونصب (تتّخذوا) مضارع منصوب بأن وعلامة النصب حذف النون.. والواو فاعل (الملائكة) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (النبيّين) معطوف على الملائكة منصوب مثله وعلامة النصب الياء (أربابا) مفعول به ثان عامله تتخذوا وهو منصوب.

والمصدر المؤوّل (أن تتّخذوا...) في محلّ نصب مفعول به ثان عامله يأمركم "1".

(الهمزة) للاستفهام الانكاريّ (يأمر) مضارع مرفوع و(كم) ضمير

(1) أو مجرور بحرف جرّ محذوف أي بأن تتّخذوا.. وهو متعلّق بفعل يأمركم.

مفعول به، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (بالكفر) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يأمركم)، (بعد) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يأمركم)، (إذ) اسم ظرفيّ مبنيّ على السكون في محلّ جرّ مضاف إليه (أنتم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (مسلمون) خبر مرفوع

وعلامة الرفع الواو.

جملة: "لا يأمركم" لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول الحرفيّ يؤتيه اللّه الكتاب .. " في الآية السابقة.

وجملة: "تتّخذوا" لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ أن.

وجملة: "أيأمركم بالكفر" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أنتم مسلمون" في محلّ جرّ مضاف إليه.

[سورة آل عمران (3) : آية 81]

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (81)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (إذ) اسم ظرفيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (أخذ) فعل ماض (اللّه) فاعل مرفوع (ميثاق) مفعول به منصوب (النبيّين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء - والظاهر أنه على حذف مضاف - أي أتباع النبيّين أو أولاد النبيّين " 1 "،

---

(1) وهذا اختيار أبي حيّان في البحر حيث قال: " فيوافق صدر الآية ما بعدها ..

ويبيّن أن الميثاق كان على الأمم قوله فمن تولّى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ، ومحال هذا الفرض في حقّ النبيّين " .

(165/124)

(اللام) موطّئة للقسم (ما) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ نصب مفعول به مقدّم عامله آتيتكم " 1 " ، (آتيت) فعل ماض مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . و(التاء) فاعل و(كم) ضمير مفعول به أول (من كتاب) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من (ما) أو تمييز له . (ثمّ) حرف عطف (جاء) فعل ماض و(كم) ضمير مفعول به (رسول) فاعل مرفوع (مصدّق) نعت لرسول مرفوع مثله (اللام) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمصدّق (مع) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما و(كم) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (اللام) واقعة في جواب قسم (تؤمننّ) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون - وقد حذفت لتوالي الأمثال - والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل والنون نون التوكيد الثقلية لا محلّ لها (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تؤمننّ) (الواو) عاطفة (لتنصرنّ) مثل لتؤمننّ . . و(الهاء) ضمير مفعول به ، (قال) فعل ماض والفاعل هو أي اللّه (الهمزة) للاستفهام التقريريّ (أقررتم) فعل ماض

وفاعله (الواو) عاطفة (أخذتم) مثل أقررتم (على) حرف جرّ و(ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف حال من ضمير الخطاب في قوله أخذتم و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب و(الميم) حرف لجمع الذكور (إصري) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة . . والياء ضمير مضاف إليه

---

(1) قال ابن كثير في تفسيره: "أي لمهما أعطيتكم من كتاب وحكمة ثمّ جاء رسول من بعده لتؤمننّ به ولتنصرنّه" . ويجوز أن يكون (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ وصلته جملة آتيتكم والعائد محذوف تقديره آتيتكم إيّاه، وخبر المبتدأ امّا قوله من كتاب وحكمة أو جملة قسم مقدّر جوابه لتؤمننّ به . . واللام في هذه الحال لام القسم لقسم مقدّر . . وهو اختيار أبي عليّ الفارسيّ وغيره .

(قالوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (أقررنا) مثل أقررتم (قال) مثل الأول (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اشهدوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (الواو) حاليّة (أنا) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (معكم) مثل الأول متعلّق بمحذوف حال من الشاهدين (من الشاهدين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر أنا .

جملة : " أخذ اللّه . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " آتيتكم . . " لا محلّ لها تفسيريّة لأخذ الميثاق .

وجملة : " جاءكم رسول " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتيتكم .

وجملة : " تؤمنن " لا محلّ لها جواب القسم . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم " 1 " .

وجملة : " تنصرنّه " لا محلّ لها معطوفة على جملة تؤمننّ .

وجملة : " قال . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أقررتم " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أخذتم " في محلّ نصب معطوفة على جملة أقررتم .

وجملة : " قالوا . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أقررنا " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قال . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أظهر أبو حيّان على هذا الإعراب بعض التحفّظ فقال : " و فيه - أي هذا التقدير - فيه خدش لطيف جدا لأن المقدّر يجب أن يكون من جنس المثبت ومتعلّقات هذا هي متعلّقات ذاك وهذا لا يستقيم مع جملة جاءكم رسول المعطوفة على جملة آتيتكم إذ ليس فيها ضمير يعود على اسم الشرط . . فإن كان الجواب هنا من غير جنس جواب القسم

فكيف يدلّ عليه جواب القسم . .

(انظر البحر ج 2 ص 511) .

(167/124)

وجملة : " اشهدوا " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر مقترنة بالفاء أي إن أقررتم فاشهدوا .

والشرط المقدر مع جوابه في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنا معكم من الشاهدين " في محلّ نصب حال . . أو استئنافيّة لا محلّ لها .

الفوائد

1 - " لَما آتَيْتُكُمْ " اختلف القدامى في إعراب " ما " على وجوه أهمها وجهان الأول : رأي سيبويه والخليل أن " ما " بمعنى " الذي " وتقدير الكلام " الذي آتيتكموه " قد حذفت الهاء وهي العائد بقصد تخفيف اللفظ ، وقد قال الأخفش بهذا الرأي . وعلى هذا تكون اللام للابتداء و " ما " في محلّ رفع مبتدأ .

والثاني : رأي الكسائي والزجاج والمبرد ، ورأيهم أن " ما " شرطية واللام للتحقيق وهي موطئة للقسم لأن أخذ الميثاق بمنزلة الاستحلاف وجملة " تؤمننّ " جواب القسم وهو يغني عن جواب الشرط .

[سورة آل عمران (3) : آية 82]

فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (82)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (تولّى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف في محلّ جزم فعل الشرط . . والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (بعد) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (تولّى) ، (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه و (اللام) للبعد و (الكاف) للخطاب (الفاء) رابطة لجواب الشرط (أولاء) اسم إشارة مبنيّ على الكسر في محلّ رفع مبتدأ (هم) ضمير فصل " 1 " لتأكيد صفة الخبر في الفاسقين (الفاسقون) خبر المبتدأ

---

(1) يجوز إعرابه ضميرا منفصلا مبتدأ ثانيا خبره الفاسقون ، والجملة الاسميّة هم الفاسقون خبر أولئك .

أولئك وعلامة الرفع الواو .

جملة : " من تولّى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: " تولّى بعد ذلك " في محلّ رفع خبر المبتدأ من " 1 " .

وجملة: " أولئك . . " الفاسقون في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

الفوائد

1 - فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ " هم " ضمير فصل لا محلّ له من الإعراب وضمير الفصل مثل " هو وأنا وأنت " يتوسط بين المبتدأ والخبر ليؤذن أن ما بعده خبر وليس نعتا ، وهو يضفي على الكلام نوعا من التوكيد للحكم زيادة في التأكيد .

[سورة آل عمران (3) : آية 83]

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (83)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) عاطفة أو استئنافيّة (غير) مفعول به مقدّم منصوب (دين) مضاف إليه مجرور (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (يبغون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (الواو) حاليّة (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أسلم) وهو فعل ماض (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (في السموات) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة من (الواو) عاطفة (الأرض) معطوف على السموات مجرور مثله (طوعا) مصدر في موضع الحال منصوب " 2 " ،

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(2) أو مفعول مطلق ناب عن المصدر لأنه مرادفه فالطوع مرادف للتسليم أو فعل أسلم بمعنى أطاع وانقاد .

(169/124)

(الواو) عاطفة (كرها) معطوف على (طوعا) منصوب مثله (الواو) عاطفة (إليه) مثل له متعلّق بـ (يرجعون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع . . والواو ضمير متّصل في محلّ رفع نائب فاعل .

جملة : " يبغون " لا محلّ لها استئنافيّة أو معطوفة على جملة مقدّرة استئنافية ، والتقدير أيتولّون فغير دين اللّه يبغون . . .

وجملة : " أسلم من في السموات " في محلّ نصب حال .

وجملة : " يرجعون " في محلّ نصب معطوفة على جملة أسلم .

الصرف :

(يبغون) ، فيه إعلال بالتسكين وبالحذف ، أصله يبغيون ، استثقلت الضمّة على الياء فسكنت ونقلت حركتها إلى الغين ، ثمّ حذفت الياء لمجيئها ساكنة قبل واو الجماعة

الساكنة فأصبح يبغون.

(طوعا)، مصدر سماعيّ لفعل طاع يطوع باب نصر، وطاع يطاع باب فتح.. أو هو اسم مصدر لفعل أطاع الرباعيّ وزنه فعل بفتح فسكون.

[سورة آل عمران (3) : آية 84]

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَما أُنْزِلَ عَلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (84)

الإعراب:

(قل) فعل أمر، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (آمنّا) فعل ماض وفاعله (باللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (آمنّا)، (الواو) عاطفة (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ معطوف على لفظ الجلالة، (أنزل) فعل ماض مبنيّ للمجهول، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو (على) حرف جرّ و(نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنزل)، (الواو) عاطفة (ما) مثل الأول ومعطوف عليه (أنزل على) مثل الأولى (إبراهيم) اسم مجرور وعلامة الجرّ الفتحة متعلّق بـ (أنزل)، (إسماعيل، إسحاق، يعقوب، الأسباط) أسماء معطوفة على إبراهيم بحروف العطف مجرورة مثله (الواو) عاطفة (ما) اسم مثل الأول ومعطوف عليه (أوتي) مثل أنزل (موسى) نائب فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة في

الموضعين (عيسى، النبيّون) اسمان معطوفان على موسى مرفوعان مثله وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة والواو على التوالي (من ربّ) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من الضمير المقدّر في (أوتي) أي ما أوتيه موسى . . . منزلا من ربّهم " 1 "، و(هم) ضمير مضاف إليه (لا) نافية (نفرّق) مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (بين) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (نفرّق)، (أحد) مضاف إليه مجرور (من) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف نعت لأحد (الواو) عاطفة (نحن) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (مسلمون) وهو خبر المبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الواو.

جملة: " قل . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " آمنّا بالله " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " أنزل علينا " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول.

وجملة: " أنزل على إبراهيم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني.

وجملة: " أوتي موسى " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثالث.

---

(1) أو متعلّق بـ (أوتي).

وجملة: "لا نفرّق" في محلّ نصب حال.

وجملة: "نحن له مسلمون" في محلّ نصب معطوفة على جملة الحال.

الصرف:

(الأسباط)، جمع سبط اسم لابن البنت في علاقته مع جدّه، ولكن استعمل في الآية بمعنى الأحفاد لأنهم أولاد يعقوب، فهم أحفاد إبراهيم.. ووزن سبط فعل بكسر فسكون.

[سورة آل عمران (3): آية 85]

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ (85)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يبتغ) مضارع مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم حذف حرف العلّة، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (غير) مفعول به منصوب "1"، (الإسلام) مضاف إليه مجرور (دينا) تمييز لغير لأنه لفظ مبهم "2" منصوب (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لن) حرف نفي ونصب (يقبل) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو (من) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يقبل)، (الواو) عاطفة (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (في الآخرة) جارّ ومجرور متعلّق بالخاسرين (من الخاسرين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف

خبر المبتدأ هو.

جملة: "من يبتغ... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يبتغ... "في محلّ رفع خبر المبتدأ من "3".

---

(1) يجوز أن يكون حالا من (دينا) - نعت تقدّم على المنعوت - و(دينا) مفعول به عامله يبتغ. [.....]

(2) يجوز أن يكون بدلا من المفعول به غير.

(3) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا.

(171/124)

وجملة: "لن يقبل منه" في محلّ جزم جواب الشرط الجازم مقترنة بالفاء.

وجملة: "هو... "من الخاسرين في محلّ جزم معطوفة على جملة جواب الشرط.

الصرف:

(يبتغ) فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم، وزنه يفتع.

[سورة آل عمران (3): آية 86]

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَاللَّهُ لا

يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (86)

الإعراب :

(كيف) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب حال وهو بمعنى الإنكار والاستبعاد (يهدي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (قوما) مفعول به منصوب (كفروا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل () ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (كفروا) ، (إيمان) مضاف إليه مجرور و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (شهدوا) مثل كفروا (أنّ) حرف مشبّهة بالفعل للتوكيد (الرسول) اسم أنّ منصوب (حقّ) خبر أنّ مرفوع .

والمصدر المؤوّل (أنّ الرسول حقّ) في محلّ جرّ بباء محذوفة متعلّق بـ (شهدوا) .

(الواو) عاطفة (جاء) فعل ماض و(هم) ضمير مفعول به (البيّنات) فاعل مرفوع . (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (لا) نافية (يهدي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (القوم) مفعول به منصوب (الظالمين) نعت للقوم منصوب مثله وعلامة النصب الياء .

جملة : " يهدي اللّه " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كفروا " في محلّ نصب نعت لـ (قوما) .

وجملة : " شهدوا " في محلّ نصب معطوفة على جملة كفروا " 1 " .

وجملة: " جاءهم البيّنات " في محلّ نصب معطوفة على جملة شهدوا " 2 " .

وجملة: " اللّه لا يهدي . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " لا يهدي . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

الفوائد

2 - كيف ، هي كيف الاستفهامية ، وهي اسم مبهم غير متمكن يستفهم به عن حالة الشي ء مبنيّ على الفتح . والاستفهام بها على نوعين :

حقيقي : نحو "كيف حالك ؟ " أو غير حقيقي ويكون لعدة اعتبارات . وهو في هذه الآية للنفي ، وقد يكون للتعجب والاستنكار كقوله تعالى : كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ؟ " أما إعرابها فهو كما يلي :

- تقع خبرا عن مبتدأ نحو "كيف أنت " " ؟ أو خبرا مقدما لكان نحو "كيف كنت " أو مفعولا ثانيا مقدما لـ " ظنّ " وأخواتها نحو "كيف ظننت أخاك " أو مفعولا ثالثا ، "أعلم " وأخواتها نحو "كيف أعلمت فرسك " لأن ثاني مفعولي ظنّ وثالث مفعولات أعلم خبر أنّ في الأصل .

---

(1) يجوز أن تكون الجملة صلة الموصول لحرف مصدريّ مقدّر . . والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ معطوف على المصدر الصريح إيمان . . أي بعد إيمانهم وشهادتهم بأنّ الرسول حقّ . . أمّا عطف جملة شهدوا على جملة كفروا فتقدير ذلك : كيف يهديهم بعد اجتماع

الأمرين الكفر والشهادة بصدق الرسول . . هذا وأجاز بعضهم أن تكون الجملة حاليّة بتقدير قد .

(2) أو الواو حاليّة والجملة حال بتقدير قد .

(172/124)

وقد تدخل على الباء من حروف الجر فتكون حرف جر زائد ، فتقول "كيف بخالد " فكيف في محل رفع خبر مقدم ، وبخالد : الباء زائدة وخالد مبتدأ مرفوع محلا مجرور لفظا وقد تكون في محل نصب مفعولا مطلقا ، كما في قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ وتقع حالا نحو "كيف مضى أخوك " أي على أي حال مضى . . . ؟

[سورة آل عمران (3) : آية 87]

أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (87)

الإعراب :

(أولاء) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ و(الكاف) حرف خطاب (جزاء) مبتدأ ثان مرفوع و(هم) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (أنّ) حرف مشبّه بالفعل (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم لـ (أنّ) ، (لعنة) اسم أنّ مؤخّر

منصوب (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) حرف عطف في الموضعين (الملائكة ، الناس) اسمان معطوفان على لفظ الجلالة مجروران مثله (أجمعين) توكيد معنويّ لما سبق مجرور وعلامة الجرّ الياء " 1 " والمصدر المؤوّل (أنّ عليهم لعنة اللّه) في محلّ رفع خبر المبتدأ جزاء .

جملة : " أولئك جزاؤهم . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جزاؤهم أنّ عليهم لعنة اللّه " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) .

---

(1) انظر الآية (161) من سورة البقرة .

[سورة آل عمران (3) : آية 88]

خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (88)

الإعراب :

(خالدين) ، حال منصوبة من الضمير في (عليهم) - الآية السابقة - وعلامة النصب الياء (في) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخالدين ، والضمير يعود إلى اللعنة أو النار المدلول بها عليها (لا) نافية (يخفّف) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع (عنهم) مثل فيها متعلّق

بـ (يخفّف) ، (العذاب) نائب فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (لا) نافية مكرّرة لتأكيد النفي (هم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ ، (ينظرون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع . . والواو نائب فاعل .

جملة : " لا يخفّف عنهم العذاب " في محلّ نصب حال من الضمير في خالدين أو لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هم ينظرون " في محلّ نصب معطوفة على جملة لا يخفّف . . أو لا محلّ لها .

وجملة : " ينظرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

[سورة آل عمران (3) : آية 89]

إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (89)

الإعراب :

(إلّا) أداة استثناء (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب على الاستثناء (تابوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تابوا) ، (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (الواو) عاطفة

(أصلحوا) مثل تابوا (الفاء) تعليليّة (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (غفور) خبر إنّ مرفوع (رحيم) خبر ثان مرفوع.

جملة: " تابوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: " أصلحوا " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

وجملة: " انّ اللّه غفور " لا محلّ لها تعليل لمقدّر أي فاللّه يغفر لهم إنّ اللّه غفور رحيم.

[سورة آل عمران (3) : آية 90]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (90)

الإعراب:

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل (الذين) اسم موصول مبنيّ على الفتح في محلّ نصب اسم إنّ (كفروا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ.. والواو فاعل (بعد) ظرف زمان منصوب متعلّق ب (كفروا)، (إيمان) مضاف إليه مجرور و (هم) ضمير مضاف إليه (ثمّ) حرف عطف (ازدادوا) مثل كفروا (كفرا) تمييز منصوب (لن) حرف نفي ونصب (تقبل) مضارع مبنيّ للمجهول منصوب (توبة) نائب فاعل مرفوع و (هم) مضاف إليه (الواو) عاطفة (أولئك هم الضالّون) مثل أولئك هم الفاسقون " 1 ".

جملة: " إنّ الذين كفروا.. " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "كفروا... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

(1) في الآية (82) من هذه السورة.

(175/124)

وجملة: "ازدادوا.. " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

وجملة: "لن تقبل توبتهم" في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "أولئك هم الضالون" في محلّ رفع معطوفة على جملة لن تقبل.

الصرف:

(توبة)، مصدر سماعيّ لفعل تاب يتوب باب نصر، وزنه فعلة بفتح فسكون، وثمّة مصادر أخرى هي توب من غير تاء مربوطة وتابة ومتابا - هو مصدر ميميّ - وتتوبة بكسر الواو.

الفوائد

1 - وقف المفسرون وقفة طويلة أمام قوله تعالى لن تقبل توبتهم مع أن اللّه قد فتح باب التوبة لعباده مهما أساؤوا وأذنبوا، وقد خرج بعضهم من هذا المأزق بحمل هذه الآية على ساعة الوفاة "لورود النص بهذا الخصوص فتوبة المحتضر لا تقبل بنص القرآن الكريم".

2 - واو العطف التي تسبق الشرط تعطف هذا الشرط على شرط آخر للعلم - به كقولك "أكرم فلانا ولو أساء" فإكرام المسيء يستدعي إكرام المحسن، إذا هو أولى

بالإكرام.

[سورة آل عمران (3) : آية 91]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدى بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (91)

الإعراب:

(انّ الذين كفروا) مرّ اعرابها في الآية السابقة (الواو) عاطفة (ماتوا) مثل كفروا، (الواو) حاليّة (هم) ضمير منفصل في محلّ

(176/124)

رفع مبتدأ (كفّار) خبر مرفوع (الفاء) زائدة لدخولها على الخبر (لن) حرف ناصب (يقبل) مضارع مبنيّ للمجهول منصوب (من أحد) جارّ ومجرور متعلّق ب (يقبل) "1" و (هم) ضمير مضاف إليه (ملء) نائب فاعل مرفوع (الأرض) مضاف إليه مجرور (ذهبا) تمييز منصوب (الواو) حاليّة (لو) حرف امتناع لامتناع متضمّن معنى الشرط (افتدى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق ب (افتدى) (أولاء) اسم اشارة مبنيّ في محلّ رفع

مبتدأ و(الكاف) حرف خطاب (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق

بمحذوف خبر مقدّم (عذاب) مبتدأ مؤخّر مرفوع (أليم) نعت لعذاب مرفوع مثله (الواو)

عاطفة (ما) نافية مهملة (لهم) مثل الأول متعلّق بخبر مقدّم (من) حرف جرّ زائد لاعتماده

على النفي (ناصرين) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر.

جملة: "إنّ الذين كفروا.." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ماتوا" لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة كفروا.

وجملة: "هم كفّار" في محلّ نصب حال.

وجملة: "لن يقبل.. ملء" في محلّ رفع خبر انّ.

وجملة: "افتدى به" في محلّ نصب حال.. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي

: فلن يقبل منه.

وجملة: "أولئك لهم عذاب" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لهم عذاب" في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك).

وجملة: "ما لهم من ناصرين" في محلّ رفع معطوفة على جملة لهم عذاب.

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من (ملء الأرض ذهبا) - نعت تقدّم على المنعوت -

الصرف :

(مل ء) اسم جامد مما يأخذه الإناء إذا امتلأ ، والجمع أملاء بفتح الهمزة ، وزنه فعل بكسر الفاء .

(افتدى) ، فيه إعلال بالقلب أصله افتدي بالياء ، جاءت الياء متحركة بعد الفتح قلبت ألفا . وزنه افتعل .

(ناصرين) ، جمع ناصر ، اسم فاعل من نصر ينصر الباب الأول ، وزنه فاعل (انظر الآية 22 - آل عمران) .

[سورة آل عمران (3) : آية 92]

لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (92)

الإعراب :

(لن) حرف نفي ونصب (تنالوا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل (البرّ) مفعول به منصوب (حتّى) حرف غاية وجرّ (تنفقوا) مضارع منصوب بـ (أن) مضمرة بعد حتّى ، والواو فاعل (من) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (تنفقوا) ، والعائد محذوف (تحبّون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . والواو فاعل .

والمصدر المؤوّل (أن تنفقوا) في محلّ جرّ بـ (حتّى) ، والجارّ والمجرور متعلّق بـ (تنالوا) .

(الواو) عاطفة (ما) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ نصب مفعول به مقدّم (تنفقوا) مضارع مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم حذف النون . .

والواو فاعل (من شيء) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من ما " 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (اللّه) لفظ الجلالة

---

(1) أو هو تمييز (ما) .

اسم إنّ منصوب (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (عليم) (عليم) خبر إنّ مرفوع.

جملة : " لن تنالوا . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " تنفقوا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " تحبّون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " ما تنفقوا . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة : " إنّ اللّه به عليم " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجدول حـ 3 صـ 191 . 247 ﴾

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (52) رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ (53) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (54)

(فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى مِنْهُمُ الْكُفْرَ) الفاء عاطفة على محذوف تقديره فكذبوه ، لأنه قول مرتب على هذا المحذوف . ويجوز أن تعرب استئنافية ولما ظرفية حينية أو رابطة وقد تقدم ذكرها كثيرا ، وجملة أحس عيسى في محل جر بإضافة الظرف إليه أو لا محل لها إذا أعربناها رابطة . وأحس فعل ماض وعيسى فاعل ومنهم جار ومجرور متعلقان بأحس والكفر مفعول به ويجوز أن يتعلقا بمحذوف حال من الكفر أي حال كونه صادرا منهم (قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ) جملة قال لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وهو لما ومن اسم استفهام مبتدأ وأنصاري خبره وإلى اللّه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من الياء في أنصاري ، والمعنى من أنصاري حال كوني ماضيا إلى سبيل اللّه شارعا في المناضلة عنه ونصرته ؟ وللزمخشري رأي طريف في هذا الجار والمجرور إذ جعلهما من صلة أنصاري مضمنا معنى الإضافة ، كأنه قال : من الذين يضيفون أنفسهم إليّ ينصرونني كما ينصرني ؟ (قالَ الْحَوارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ) جملة مستأنفة مسوقة لتقرير الجواب على استفهامه .

وقال الحواريون فعل وفاعل وجملة نحن أنصار اللّه من المبتدأ والخبر مقول القول (آمَنَّا بِاللَّهِ) آمنا فعل وفاعل وباللّه جار ومجرور متعلقان بآمنا والجملة خبر ثان لنحن (وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) الواو استئنافية واشهد

(179/124)

فعل أمر وبأنا الباء حرف جر وأن واسمها ، ومسلمون خبرها . وأن وما في حيزها مصدر في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بأشهد ، وهذا أحسن من جعلها عاطفة لئلا يلزم عطف الإنشاء على الخبر ، وهو مرجوح ، وإنما طلبوا شهادته بإسلامهم تأكيدا لإيمانهم (رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ) ربنا منادى مضاف وجملة آمنا خبر ثالث لنحن وبما جار ومجرور متعلقان بآمنا وجملة أنزلت لا محل لها لأنها صلة الموصول (وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ) عطف على جملة آمنا والرسول مفعول به (فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) الفاء الفصيحة أي إذا كان الأمر كما تقدم فاكتبنا ، ولك أن تجعلها استئنافية ومع ظرف مكان متعلق باكتبنا والشاهدين مضاف إليه (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) الواو استئنافية ومكروا فعل وفاعل ومكر اللّه عطف على مكروا واللّه الواو حالية واللّه مبتدأ وخير الماكرين خبره والجملة في محل نصب على الحال .

البلاغة :

1- الاستعارة التمثيلية في أحس ، إذ لا يحس إلا ما كان متجسدا ، والكفر ليس بمحسوس ، وإنما يعلم ويدرك كعلم ما يدرك بالحواس .

2- فن المشاكلة وقد مرت الإشارة إلى هذا الفن ، وحقيقة ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته ، فكأنه قال : وأخذهم بمكرهم ، لأن اللّه تعالى وتقدس لا تستعمل في حقه لفظة توهم الشناعة . وهو كثير شائع في القرآن ، فاعلمه . ومنه في الشعر قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

أي فنجازيه على جهله ، فجعل لفظة فنجهل موضع فنجازيه للمشاكلة . ومن طريف المشاكلة قول أبي تمام الطائي :

والدهر ألأم من شرقت بلؤمه إلا إذا أشرقته بكريم

أي انتصرت عليه بكريم فقال : أشرقته ، للمشاكلة .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 55 إلى 57]

إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (55) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (56) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (57)

الإعراب:

(إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسى) إذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق باذكر مقدرا أو متعلق بمكروا أو ظرف لخير الماكرين. وجملة قال الله في محل جر بالإضافة ويا حرف نداء وعيسى منادى مفرد علم مبني على الضم المقدر على الألف (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ إِلَيَّ) إن واسمها ومتوفيك خبرها والكاف مضاف اليه ورافعك عطف على متوفيك وإلي جار ومجرور متعلقان برافعك لأنه اسم فاعل (وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) ومطهرك عطف على ما تقدم ومن الذين جار ومجرور متعلقان بمطهرك وجملة كفروا صلة الموصول لا محل لها (وَجاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا) وجاعل عطف أيضا والذين اسم موصول في محل جر بالإضافة وجملة اتبعوك صلة الموصول لا محل لها وفوق

ظرف مكان متعلق بمحذوف مفعول به ثان لجاعل والذين مضاف إليه وجملة كفروا صلة الموصول (إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ) الجار والمجرور متعلقان بجاعل ، يعني أن هذا الجعل مستمر إلى يوم القيامة (ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ) ثم حرف عطف للتراخي وإلي جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ومرجعكم مبتدأ مؤخر (فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ) الفاء حرف عطف للتعقيب وأحكم فعل مضارع مرفوع وبينكم ظرف مكان متعلق بأحكم (فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) فيما جار ومجرور متعلقان بأحكم وجملة كنتم صلة الموصول وكان واسمها ، وفيه جار ومجرور متعلقان بتختلفون وجملة تختلفون في محل نصب خبر كنتم ، والجملة كلها في محل نصب مقول القول (فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا) الفاء استئنافية والجملة مستأنفه مسوقة لتكون تفسيرا للحكم بين الفريقين .

وأما حرف شرط وتفصيل والذين مبتدأ وجملة كفروا صلة الموصول لا محل لها (فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ) الفاء رابطة لجواب أما وأعذبهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به والجملة الفعلية خبر الذين وعذابا مفعول مطلق وشديدا صفة وفي الدنيا جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة ثانية والآخرة عطف على الدنيا (وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ) الواو حالية أو استئنافية وما نافية ولهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ومن حرف جر زائد وناصرين مجرور بمن لفظا مرفوع محلا لأنه مبتدأ مؤخر والجملة حالية أو

استئنافية (وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ) عطف على الآية السابقة والصالحات مفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم (فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ) الفاء رابطة لجواب أما ويوفيهم فعل مضارع مرفوع وفاعله ضمير مستتر تقديره هو والهاء مفعول به أول وأجورهم مفعول به ثان والجملة خبر الذين (وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) الواو استئنافية والله مبتدأ وجملة لا يحب الظالمين خبر.

(182/124)

البلاغة:

اختلف المفسرون في قوله: "إني متوفيك ورافعك إلي"، قال قتادة وغيره: هذا من المقدم والمؤخر، والتقدير: إني رافعك إلي ومتوفيك. يعني بعد ذلك. قال علي بن طلحة عن ابن عباس: إني متوفيك أي مميتك. وجمهور المفسرين يقولون: المراد بالوفاة هنا النوم، كما قال تعالى: "وهو الذي يتوفاكم بالليل" الآية. وقد اقتبس هذا المعنى بلفظه بعض الشعراء فقال:

تبارك من توفاكم بليل ويعلم ما جرحتم في النهار

[سورة آل عمران (3): الآيات 58 إلى 60]

ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (58) إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (60)

الإعراب :

(ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ) جملة مستأنفة مسوقة لبيان ما تقدم من أمر عيسى وذلك مبتدأ وجملة نتلوه خبر وعليك جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ويجوز أن يكون اسم الإشارة مبتدأ وجملة نتلوه في موضع نصب على الحال ومن الآيات جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ) عطف على الآيات والحكيم صفة (إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ) كلام مستأنف سيق تمهيدا لذكر محاجة وفد نجران الذي قدم على النبي صلى اللّه عليه وسلم يسأله في أمر عيسى عليه السلام. وإن واسمها ، وعيسى مضاف إليه وعند اللّه ظرف متعلق

(183/124)

بمحذوف حال (كَمَثَلِ آدَمَ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر وآدم مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه لا ينصرف كما تقدم (خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ) الجملة مفسرة لشبه عيسى بآدم لا محل لها وخلقه فعل ومفعول به والفاعل هو يعود على اللّه ومن تراب جار ومجرور متعلقان بخلقه

(ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي وقال فعل ماض وله جار ومجرور متعلقان بقال وجملة كن التامة في محل نصب مقول القول وقوله فيكون عطف، وهي حكاية حال ماضيه (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) جملة مستأنفة مسوقة لتقرير أن الحق الثابت الذي لا يطرأ عليه التغيير هو من ربك فالحق مبتدأ، ومن ربك خبر، ويجوز أن يكون الحق خبرا لمبتدأ محذوف أي ما قصصنا عليك هو الحق، ومن ربك جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال (فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) الفاء الفصيحة أي إذا علمت هذا وقد علمته فلا تكن والجملة جواب الشرط غير جازم لا محل لها ولا ناهية وتكن فعل مضارع ناقص مجزوم بلا واسمها ضمير مستتر تقديره أنت ومن الممترين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر.

البلاغة:

المقصود بالنهي "لا تكن من الممترين" إما زيادة تهييجه صلى الله عليه وسلم على الثبات، والطمأنينة، وحاشاه أن يكون ممتريا، أو أن الخطاب لغيره لطفا بهم.

[سورة آل عمران (3) : الآيات 61 إلى 63]

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ (61) إِنَّ هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (62) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (63)

اللغة :

)

(184/124)

حَاجَّكَ) : خاصمك وجادلك ، وقارعك الحجة . والمحاجّة هي مفاعلة ، ولا تقع إلا من اثنين فصاعدا .

(تَعَالَوْا) : تعال فعل أمر على الأصح ولامه مفتوحة دائما ، وأصله طلب الإقبال من مكان مرتفع تفاؤلا بذلك ، وإذنا للمدعوّ لأنه من العلو والرفعة . فإذا أمرت المفرد قلت : تعال ، ثم توسع فيه فاستعمل في مجرد طلب المجيء .

وقد لحنوا أبا فراس الحمداني لأنه كسر لامه مع ياء الخطاب بقوله :

أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي

وقد يجاب عنه بأنه ضرورة شعرية .

(نَبْتَهِلْ) المباهلة والابتهال في الأصل : الملاعنة . وفعله الثلاثي بهلة بهلا من باب نصر لعنه . واسم الفاعل باهل ، والأنثى باهلة ، وبها سميت قبيلة عربية ، ثم تطورت الكلمة وأطلقت على كل دعاء خيرا كان أم شرا ، وإن لم يكن لعانا . وقد استعمل هذه الكلمة أبو العلاء

المعري في رسالة الغفران إذ قال في صدد حديثه عن الخرمية ، وهم فئة من الزنادقة : " فعلى معتقدي هذه المقالة بهلة المبتهلين " والبهلة بضم الباء وفتحها : اللعنة أي لعنة اللاعنين ، وهذا المعنى هو المراد في الآية .

الإعراب :

(

(185/124)

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ) الفاء استئنافية ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدا حاجك فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والفاعل ضمير مستتر تقديره هو والكاف مفعول به وفيه جار ومجرور متعلقان بحاجك والضمير يعود إلى عيسى أو الحق مطلقا والجملة مستأنفة مسوقة لبيان حكم المباهلة وشروطها المستنبطه من الكتاب والسنة . وحاصل كلام الأئمة فيها أنها بعد النبي صلى اللّه عليه وسلم لا تجوز إلّا في أمر مهم شرعا ، وقع فيه اشتباه وعناد ، لا يتاح دفعهما إلا بالمباهلة (مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) الجار والمجرور متعلقان بحاجك أي من ذلك الوقت وما اسم موصول مضاف إليه وجملة جاءك صلة الموصول ومن العلم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال أي كائنا من العلم (فَقُلْ : تَعالَوْا

نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ) الفاء رابطة وقل فعل أمر وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت وتعالوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وجملة قل في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر " ما " وجملة تعالوا في محل نصب مقول القول وندع فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وفاعله نحن وأبناءنا مفعول به وأبناءكم وما تلاه عطف على قوله " أبناءنا " وإنما أضافهم إليه صلى اللّه عليه وسلم والأمر مختص به وبمن يباهله لأن ذلك آكد في الدلالة على الثقة بالنفس والإيمان بانتصار حجته ، وإلا ما كان عرض أفلاذ كبده وأهله للهلاك ، ولكن المباهلة لم تتم ورجع الوفد بحجة استشارة قومه من دون الارتطام بها كما هو مبين في كتب التاريخ فارجع إليها . (ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) ثم حرف عطف للتراخي ونبتهل فعل مضارع معطوف على ندع مجزوم والفاء حرف عطف للتعقيب ونجعل عطف على نبتهل والفاعل بينهما نحن

(186/124)

ولعنت اللّه مفعول به وعلى الكاذبين جار ومجرور متعلقان بنجعل أو في محل نصب على أنهما بمثابة المفعول الثاني (إِنَّ هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ) كلام مستأنف مسوق لتقدير ما تقدم

ذكره وإن واسمها ، اللام المزحلقة وهو ضمير فصل لا محل له والقصص خبر أو "هو" مبتدأ والقصص خبره والجملة خبر إن والحق صفة للقصص (وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ) الواو استئنافية وما نافية ومن حرف جر زائد وإله مجرور لفظا مبتدأ ويجوز أن يكون الخبر محذوفا أي لنا . وإلا أداة حصر والله بدل من محل إله وهو الرفع . ويجوز أن يكون الله خبر إله والجملة مستأنفة (وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) تقدم إعراب نظيرتها قريبا (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ) الفاء استئنافية والجملة مستأنفة وإن شرطية وتولوا فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين والواو فاعل والجملة في محل جزم فعل الشرط فإن الفاء رابطة وإن واسمها ، وعليم خبرها وبالمفسدين جار ومجرور متعلقان بعليم والجملة في محل جزم جواب الشرط .

الفوائد :

نص العلماء على كتابة "لعنة" بالتاء المفتوحة هنا وفي سورة النور فقط وما عداها تكتب بالتاء المربوطة على الأصل المعروف .

[سورة آل عمران (3) : آية 64]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (64)

الإعراب :

(قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ) كلام مستأنف مسوق للبحث في الجدل الذي ثار حول إبراهيم عليه السلام عند مقدم وفد نجران، وقل فعل أمر وفاعله

(187/124)

أنت ويا حرف نداء وأهل الكتاب منادى مضاف (تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ) الجملة نصب على أنها مقول القول وتعالوا تقدم إعرابها قبل قليل وإلى كلمة جار ومجرور متعلقان بتعالوا وسواء صفة وبيننا ظرف مكان متعلق بسواء لأنها أجريت مجرى المصادر كما تقدم في أول البقرة وبينكم عطف على بيننا (أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ) أن وما في حيزها مصدر مؤول بدل من "كلمة"، أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي، وأن مصدرية ولا نافية ونعبد فعل مضارع منصوب بأن وفاعله مستتر تقديره نحن وإلا أداة حصر والله مفعول به.

والكلمة تطلق في اللغة على الجملة المفيدة (وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً) الواو عاطفة ولا نافية ونشرك عطف على نعبد وبه جار ومجرور متعلقان بنشرك وشيئا مفعول به أو مفعول مطلق وقد تقدم الكلام على هذا الإعراب (وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ) الواو عاطفة ولا نافية ويتخذ فعل مضارع معطوف على لا نعبد ولا نشرك وبعضنا فاعل وبعضا مفعوله الأول وأربابا مفعوله الثاني ومن دون الله جار ومجرور متعلقان بمحذوف

صفة ل " أربابا " (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) الفاء استئنافية وما بعدها كلام مستأنف لا محل له مسوق لتقرير جوابهم وإن شرطية وتولوا فعل ماض في محل جزم فعل الشرط أي أعرضوا ، فقولوا الفاء رابطة لجواب الشرط والجملة في محل جزم جواب الشرط واشهدوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة في محل نصب مقول القول وبأنا الباء حرف جر وأن حرف مشبه بالفعل ونا اسمها ومسلمون خبرها وأن وما بعدها في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان باشهدوا .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 65 إلى 66]

(188/124)

يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحاجُّونَ فِي إِبْراهِيمَ وَما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (65) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (66)

الإعراب :

(يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحاجُّونَ فِي إِبْراهِيمَ) كلام مستأنف لإتمام قصة الجدل في أمر إبراهيم عليه السلام ، ويا حرف نداء وأهل الكتاب منادى مضاف ولم : اللام حرف جر وما اسم

استفهام حذفت ألفها بعد حرف الجر كما سيأتي في باب الفوائد ، والجار والمجرور متعلقان بتحاجون وتحاجون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل وفي إبراهيم جار ومجرور متعلقان بتحاجون ولا بد من حذف مضاف أي في دين إبراهيم لأن المجادلة لا تكون في الذوات (وَما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ) الواو حالية وما نافية وأنزلت فعل ماض مبني للمجهول والتوراة نائب فاعل والإنجيل عطف على التوراة وإلا أداة حصر من بعده جار ومجرور متعلقان بأنزلت فهو استثناء مفرّغ (أَفَلا تَعْقِلُونَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري التعجبي وهي داخلة على مقدر هو المعطوف عليه بهذا العاطف أي ألا تتفكرون فلا تعقلون بطلان قولكم ؟ (ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ) الهاء للتنبيه وأنتم مبتدأ وهؤلاء خبر والجملة مستأنفة مسوقة لبيان بطلان قولهم وجملة حاججتم مستأنفة مسوقة لبيان الجملة قبلها والمعنى أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى ، وآية حمقكم أنكم أمعنتم في اللّجاج والمكابرة فيما لا طائل تحته ، وفيما جار ومجرور متعلقان بحاججتم ولكم جار ومجرور

متعلقان بمحذوف خبر مقدم وبه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لعلم فلما تقدم أعرب حالا وعلم مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية لا محل لها لأنها صلة ما الموصولة (فَلِمَ تُحَاجُّونَ) الفاء عاطفة ولم تحاجون تقدم إعرابها قريبا (فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ) فيما جار ومجرور متعلقان بتحاجون وليس فعل ماض ناقص ولكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ليس المقدم وبه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال وعلم اسم ليس المؤخر (وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) الواو استئنافية والله مبتدأ وجملة يعلم خبر وأنتم الواو عاطفة وأنتم ضمير منفصل مبتدأ وجملة لا تعلمون خبر.

الفوائد:

1 - أعلم أن الأصل وصل الهاء التنبيهية باسم الإشارة لأن تعريف أسماء الإشارة في أصل الوضع بما يضاف إليها من إشارة المتكلم الحسية من يد أو جارحة أخرى فجيء في أوائلها بحرف ينبه بها المتكلم المخاطب حتى يلتفت إليه وينظر إلى أي شيء يشير من الإشارة الحاضرة، ويفصل ب "أنا" وأخواته كثيرا نحو: ها أنا ذا وها أنتم أولاء وها هو ذا وبغيرها قليلا، وليس المراد بقولك: ها أنا أفعل، أن تعرف المخاطب نفسك وأن تعلمه أنك لست غيرك، لأن الحال حروف التنبيه أو اسم الإشارة. والذي نراه أن ما قررناه أولى، وأن الاستئناف هو الأرجح، إذ ليس المراد أنت المشار إليه في حال قولك.

وما أعجب هذه اللغة الشريفة.

2- إذا وصلوا " ما " في الاستفهام حذفوا ألفها لوجوه : الأول للتفرقة بينها وبين أن تكون حرفا . والثاني : لاتصالها بحرف الجر حتى صارت كأنها جزء منه لتنبئ عن شدة الاتصال . والثالث : للتخفيف ، لأن " ما " تقع كثيرا في الكلام ، وأبقوا الفتحة لتدل على أن المحذوف من جنسها ، كما فعلوا في علام ؟ وإلام ؟ وحتام ؟ وبم ؟ وعم ؟ وفيم ؟ ومم ؟ قيل : إن بعض العوام سأل أحد النحويين فقال له : بما توصيني ؟

(190/124)

و أثبت الألف في " ما " ، فقال : بتقوى اللّه وإسقاط الألف من " ما " .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 67 إلى 68]

ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرانِيًّا وَلكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (68)

اللغة :

(الحنف) الميل ، والمراد مائلا عن الأديان كلها إلى الدين القيم .

الإعراب :

(ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرانِيًّا) كلام مستأنف أورده سبحانه تبرئة لإبراهيم مما حاولوا

إلصاقه به . وما نافية وكان فعل ماض ناقص

وإبراهيم اسمها ويهوديا خبرها والواو حرف عطف ولا نافية ونصرانيا معطوف على " يهوديا " (وَلكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً) الواو عاطفة ولكن مخففة مهملة وكان فعل ماض ناقص واسمها هو وحنيفا خبرها الأول ومسلما خبر ثان . (وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) عطف على ما تقدم ومن المشركين متعلقان بمحذوف خبر كان (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ) إن واسمها ، والناس مضاف إليه وبإبراهيم جار ومجرور متعلقان بأولى والجملة استئنافية (لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ) اللام المزحلقة والذين خبر إن واتبعوه فعل وفاعل ومفعول به والجملة صلة (وَهذَا النَّبِيُّ) الواو حرف عطف على الذين والنبي بدل من اسم الإشارة (وَالَّذِينَ آمَنُوا) الواو حرف عطف والذين اسم موصول معطوف على هذا النبي وجملة آمنوا صلة الموصول (وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ) الواو استئنافية والله مبتدأ وولي خبر والمؤمنين مضاف إليه .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 69 إلى 71]

(191/124)

وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَما يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ (69) يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (70) يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ

بِالْباطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (71)

اللغة:

(تَلْبِسُونَ) بكسر الباء أي تخلطون.

الإعراب:

(وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ) ودت فعل ماض والتاء للتأنيث وطائفة فاعل ومن أهل الكتاب جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة

لطائفة والجملة مستأنفة مسوقة للحديث عن اليهود الذين دعوا عددا من الصحابة منهم حذيفة ومعاذ وعمار إلى دينهم. وسيأتي بحث مهم عن معنى ودت في باب الفوائد (لَوْ يُضِلُّونَكُمْ) لو مصدرية ويضلونكم فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والكاف مفعول به ولو مؤولة مع ما بعدها بمصدر منصوب لأنه مفعول ودت، والتقدير تمنّت إضلالكم (وَما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ) الواو حالية وما نافية ويضلون فعل وفاعل وإلا أداة حصر وأنفسهم مفعول به والجملة في محل نصب حال (وَما يَشْعُرُونَ) عطف على الجملة السابقة (يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ) جملة مستأنفة مسوقة لتأكيد استركاك

عقولهم ويا حرف نداء وأهل الكتاب منادى مضاف ولم اللام حرف جر وما اسم استفهام في محل جر باللام وحذفت ألف ما لوقوعها بعد حرف الجر كما تقدم قريبا ، وتكفرون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجار والمجرور المتقدم عليه متعلق به وبآيات الله جار ومجرور متعلقان بتكفرون (وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ) الواو حالية وأنتم ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ وتشهدون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر وجملة أنتم تشهدون في محل نصب حال (يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ) جملة مستأنفة ثالثة مسوقة لتأكيد استركاك عقولهم وقد تقدم إعراب نظيرتها (وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ) الواو عاطفة وتكتمون فعل مضارع والواو فاعل والحق مفعول به (وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) تقدم إعرابها .

الفوائد :

تستعمل " ود " بمعنى تمنى فتستعمل معها لو أو أن وربما جمع

بينهما فيقال : وددت لو أن فعل " والمصدر " الودادة والاسم منه ود وقد يتداخلان في المصدر والاسم وقال الراغب : إذا كان ود بمعنى أحب لا يجوز إدخال " لو " فيه أبدا ، وقال علي بن عيسى : إذا كان " ود " بمعنى تمنى صلح للماضي وللحال وللمستقبل ، وإذا

كان بمعنى المحبة والإرادة لم يصلح إلا للماضي لأن الإرادة كاستدعاء الفعل وإذا كان للحال والمستقبل جاز أن ولو وإذا كان للماضي لم يجز أن لأن أن للمستقبل.

[سورة آل عمران (3) : الآيات 72 إلى 74]

وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (72) وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (73) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (74)

اللغة:

(وَجْهَ النَّهارِ) أوله وسمي الوجه وجها لأنه أول ما يبدو من الإنسان لمن يشاهده قال:

من كان مسرورا بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهار

وقال:

وتضيء في وجه الظلام منيرة كجمانة البحري سلّ نظامها

الإعراب:

)

(وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة للحديث عن نوع آخر من تلبيسات اليهود فقد توطأ اثنا عشر حبرا من يهود خيبر فقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان، دون اعتقاد بالجنان، ثم اكفروا اخر النهار لادخال التشكيك في صدور أصحاب محمد وربما أفضى ذلك إلى رجوعهم عن دينهم. وقالت فعل ماض وطائفة فاعل ومن أهل الكتاب جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لطائفة (آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا) الجملة في محل نصب مقول القول وآمنوا فعل أمر مبني على حذف النون وبالذي جار ومجرور متعلقان بآمنوا وجملة أنزل صلة وأنزل فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو وعلى الذين آمنوا جار ومجرور متعلقان بأنزل وجملة آمنوا صلة (وَجْهَ النَّهارِ) ظرف زمان متعلق بآمنوا (وَاكْفُرُوا آخِرَهُ) الواو حرف عطف واكفروا فعل أمر مبني على حذف النون معطوف على آمنوا وآخره ظرف زمان متعلق باكفروا (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) جملة الرجاء في محل نصب على الحال أي راجين رجوعهم عن دينهم ولعل واسمها وجملة يرجعون خبرها ثم أردف بتتمة مقولهم فهو داخل في حيزه (وَلا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ) الواو عاطفة ولا ناهية وتؤمنوا فعل مضارع مجزوم بلا والواو فاعل وإلا أداة استثناء ولمن اللام حرف جر ومن اسم موصول في محل جر باللام والجار والمجرور في محل نصب على الاستثناء من محذوف تقديره ولا تؤمنوا أي

تعترفوا وتظهروا بأن يؤتى أحد بمثل ما أوتيتم لأحد من الناس إلا لأشياعكم دون غيرهم

وتبع فعل ماض وفاعله هو والجملة الفعلية

(195/124)

صلة ودينكم مفعول به (قُلْ: إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ) الجملة من قل ومقولها وهو ان واسمها وخبرها لا محل لها لأنها اعتراضية (أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ) أن وما في حيزها في تأويل مصدر مجرور بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بتؤمنوا وأحد نائب فاعل يؤتى ومثل مفعول به ثان وما اسم موصول في محل جر بالإضافة وجملة أوتيتم صلة (أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ) أو حرف عطف ويحاجوكم فعل مضارع معطوف على يؤتى وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل والكاف مفعول به وعند ظرف مكان متعلق بمحذوف حال وربكم مضاف إليه (قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ) قل فعل أمر وفاعله أنت وإن واسمها ، وبيد اللّه جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر وإن وما في حيزها جملة اسمية في محل نصب مقول القول (يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ) جملة يؤتيه في محل نصب حال ويؤتي فعل مضارع وفاعله هو والهاء مفعول يؤتي الأول ومن اسم موصول في محل نصب مفعول يؤتي الثاني وجملة يشاء صلة (وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ) الواو استئنافية واللّه مبتدأ وواسع خبر أول وعليم خبر ثان (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ

مَنْ يَشاءُ) الجملة خبر ثالث ويختص فعل مضارع مرفوع وفاعله هو أي اللّه تعالى وبرحمته جار ومجرور متعلقان بيختص ومن اسم موصول في محل نصب مفعول به وجملة يشاء لا محل لها من الإعراب لأنها صلة الموصول (وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) الواو عاطفة واللّه مبتدأ وذو الفضل خبر مرفوع وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة لأنه من الأسماء الخمسة والفضل مضاف إليه والعظيم صفة للفضل.

الفوائد :

كثر الخوض في هذه الآية والاختلاف في إعرابها وتخريجها ، وأوصل

بعض المعربين أوجه الإعراب فيها إلى تسعة دون أن يصلوا إلى وجه حاسم يخلو من

الاعتراضات.

ما يقوله الواحدي :

قال الواحديّ وهو من كبار المشتغلين بالمسائل الإعرابية : " وهذه الآية من مشكلات القرآن وأصعبه إعرابا وتفسيرا ، ولقد تدبّرت أقوال أهل التفسير والمعاني في هذه الآية فلم أجد قولا يطّرد في الآية من أولها إلى آخرها مع بيان المعنى وصحة النّظم " .

ما يقوله الشهاب الحلبي :

وقال الشهاب الحلبي المعروف بالسّمين : " أعلم أنه قد اختلف الناس والمفسرون والمعربون في هذه الآية على أوجه " وذكر السمين الأوجه التسعة ، ولما كان كتابنا يتوخى الأسهل والأقرب إلى المنطق والأبعد عن التكلف اكتفينا في باب الإعراب بما أوردناه فيه ورأينا أنه الأقرب إلى ما توخيناه وقد اختاره الزمخشري في كشافه ، ولكننا نرى من المفيد أن نثبت ما قاله أبو حيان ، ثم نعقب عليه بما قاله ابن هشام .

ما يقوله ابو حيان :

قال أبو حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط بعد كلام طويل :

" يحتمل القول وجوها :

1- أن يكون المعنى : ولا تصدقوا تصديقا صحيحا وتؤمنوا إلا لمن جاء بمثل دينكم مخافة أن يؤتى أحد من النبوة والكرامة مثل ما أوتيتم ومخافة أن يحاجوكم بتصديقكم إياهم عند ربهم إذا لم يستمروا

عليه ، وهذا القول على هذا المعنى ثمرة الحسد والكفر مع المعرفة بصحة نبوة محمد صلى اللّه عليه وسلم .

2- أن يكون التقدير أن لا يؤتى فحذفت لا لدلالة الكلام ، ويكون ذلك منتفيا داخلا في حيز إلا ، لا مقدرا دخوله قبلها والمعنى :

ولا تؤمنوا لأحد بشيء إلا لمن تبع دينكم بانتفاء أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم وانتفاء أن يحاجوكم عند ربكم أي إلا بانتفاء كذا .

(197/124)

3- أن يكون التقدير بأن يؤتى متعلقا بتؤمنوا ، ولا يكون داخلا في حيز إلا والمعنى : ولا تؤمنوا بأن يؤتى أحد مثلما أوتيتم إلا لمن تبع دينكم وجاء بمثله وعاضدا له فإن ذلك لا يؤتاه غيركم . ويكون معنى أو يحاجوكم عند ربكم بمعنى إلا أن يحاجوكم ، كما تقول : أنا لا أتركك أو تقضيني حقي . وهذا القول على هذا المعنى ثمرة التكذيب لمحمد صلى اللّه عليه وسلم على اعتقاد منهم أن النبوة لا تكون إلا في بني إسرائيل .

4- أن يكون المعنى : لا تؤمنوا بمحمد وتقروا بنبوته إذ قد علمتم صحتها إلا لليهود الذين هم منكم ، وأن يؤتى أحد مثلما أوتيتم صفة لحال محمد صلى اللّه عليه وسلم ، فالمعنى تستروا بإقراركم أن قد أوتي أحد مثلما أوتيتم ، أو فإنهم يعنون العرب يحاجونكم بالإقرار عند ربكم " .

ولعمري لقد أبدع أبو حيان ولكنه اكتفى بإيراد المعنى مجردا عن الإعراب .

ما يقوله ابن هشام :

وقال ابن هشام في معرض حديثه عن الجمل : "كثيرا ما تشتبه

(198/124)

المعترضة بالحالية ويميزها منها أمور : أحدها أنها تكون غير خبرية كالأمرية في " ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل : إن الهدى هدى اللّه أن يؤتى أحد مثلما أوتيتم " ، كذا مثل ابن مالك وغيره بناء على أن " أن يؤتى أحد " متعلق بتؤمنوا وأنّ المعنى : ولا تظهروا تصديقكم بأن أحدا يؤتى من كتب اللّه مثل ما أوتيتم وبأن ذلك الأحد يحاجونكم عند اللّه تعالى يوم القيامة بالحق فيغلبونكم إلا لأهل دينكم لأن ذلك لا يغير اعتقادهم بخلاف المسلمين فإن ذلك يزيدهم ثباتا ، وبخلاف المشركين فإن ذلك يدعوهم إلى الإسلام . ومعنى الاعتراض حينئذ أن الهدى بيد اللّه ، فإذا قدره لأحد لم يضره مكرهم . والآية محتملة لغير ذلك ، وهي أن يكون الكلام قد تم عند الاستثناء ، والمراد : لا تظهروا والإيمان الكاذب الذي توقعونه وجه النهار وتنقضونه آخره إلا لمن كان منكم كعبد اللّه بن سلام ثم أسلم ، وذلك لأن إسلامهم كان أغيظ لهم ورجوعهم إلى الكفر كان عندهم أقرب ، وعلى هذا ف " أن يؤتى " من كلام اللّه تعالى ، وهو متعلق بمحذوف مؤخر ، أي : الكراهية أن يؤتى أحد دبرتم

هذا الكيد .

وهذا الوجه أرجح لوجهين : أحدهما أنه الموافق لقراءة ابن كثير :

أأن يؤتى بهمزتين ، أي : الكراهية أن يؤتى قلتم ذلك ، والثاني أن في الوجه الأول عمل ما قبل إلا فيما بعدها ، مع أنه ليس من المسائل الثلاث المذكورة آنفا ، والثاني مما يميزها الدّعائية كقول عوف بن محلم :

إن الثمانين ، وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

وكالتنزيهية في قوله تعالى : " ويجعلون للّه البنات ، سبحانه ، ولهم ما يشتهون "

وكالاستفهامية في قوله تعالى : " فاستغفروا لذنوبهم ،

ومن يغفر الذنوب إلا اللّه ولم يصروا " إلى آخر هذا البحث الممتع الذي عكره الأسلوب الجاف .

ما يقوله الزمخشري :

(199/124)

ولا مندوحة لنا عن ذكر عبارة الزّمخشري التي جاءت مؤيدة لما ذهبنا إليه في الإعراب ،

قال : " ولا تؤمنوا متعلق بقوله : أن يؤتى أحد ، وما بينهما اعتراض ، أي : ولا تظهروا

إيمانكم بأن يؤتى أحد مثلما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم ، أرادوا : أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا مثلما أوتيتم ولا تفشوه إلا لأشياعكم وحدهم دون المسلمين لئلا يزيدهم ثباتا ، ودون المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام ، أو يحاجوكم به عند ربكم : عطف على أن يؤتى والضمير في يحاجوكم لأحد لأنه في معنى الجمع ، ولا تؤمنوا لغير أتباعكم أن المسلمين يحاجونكم يوم القيامة بالحق ويغالبونكم عند اللّه بالحجة " .

وقد كدنا نخرج عن شرط الكتاب في تلخيص الأقوال ، فحسبنا ما أوردناه ولعل بعض العلماء كان على حق عند ما قرر أن هذه الآية أعظم آي هذه السور إشكالا ، وكلام اللّه أكبر ، وغور لغتنا العربية أبعد وأعمق من أن يسبر .

[سورة آل عمران (3) : آية 75]

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75)

اللغة :

(دينار) : الدينار : ضرب من قديم النقود الذهبية ، والجمع دنانير

وأصله دنّار بنونين ، فاستثقل توالي مثلين فأبدلوا أولهما حرف علة تخفيفا لكثرة دورانه في الاستعمال ، ويدل على ذلك رده إلى النونين عند جمعه جمعا مكسرا أو عند تصغيره ،

فقالوا : دنانير ودنينير .

(الْأُمِّيِّينَ) جمع أمي والمراد به هنا : من ليس من أهل الكتاب . ومعلوم أن اليهود استباحوا دماء العرب وأموالهم وأعراضهم .

الإعراب :

)

(200/124)

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتابِ) جملة مستأنفة مسوقة للشروع في بيان خيانتهم في الأموال بعد بيان خيانتهم في الدين ، والواو استئنافية ومن أهل الكتاب جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم (مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ) من اسم موصول مبتدأ مؤخر ولك أن تعربها نكرة موصوفة أيضا أي : ناس وهي مبتدأ مؤخر وإن شرطية وتأمنه فعل الشرط مجزوم والهاء مفعول به والفاعل أنت وبقنطار جار ومجرور متعلقان بتأمنه ويؤده جواب الشرط مجزوم وعلامة جزمه حذف حرف العلة والهاء مفعول به وإليك جار ومجرور متعلقان بيؤده وجملة الشرط وجوابه إما صلة للموصول إذا كانت من موصولة . وإما صفة لها في محل رفع إذا كانت من نكرة موصوفة (وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ) عطف على الجملة

السابقة وتقدم إعرابها بحروفها (إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً) إلا أداة حصر وما دمت فعل ماض ناقص والتاء اسمها وقائما خبرها وعليه جار ومجرور متعلقان ب " قائما " والاستثناء مفرغ من الظرف العام فهو ظرف (ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا) جملة مستأنفة مسوقة لبيان استحلالهم أموال العرب واسم الإشارة في محل رفع مبتدأ والباء حرف جر وأن وما بعدها في محل

(201/124)

جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر وجملة قالوا خبر إن (لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ) الجملة في محل نصب مقول قولهم وليس فعل ماض ناقص وعلينا جار ومجرور متعلقان بمحذوف في محل نصب خبر ليس المقدم وفي الأميين جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال وسبيل اسم ليس المؤخر (وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ) الواو استئنافية ويقولون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل وعلى اللّه جار ومجرور متعلقان بيقولون والكذب مفعول به على التضمين فمعنى يقولون يفترون والأحسن أن يعرب صفة لمصدر محذوف وذلك المصدر مفعول مطلق أي القول المكذوب (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) الواو حالية وهم ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ وجملة يعلمون خبر .

الفوائد :

(ما دام) من أخوات كان وشرط إعمالها أن تتقدمها " ما " الظرفية والمصدرية ، فإذا قلت : لا أكلمك ما دام زيد قاعدا ، فالمراد زمن دوام قعوده ، و" ما " من قولك : ما دام ، تقع لازمة ولا بد منها ولا يكون معها الفعل إلا ماضيا ، وليس كذلك ما زال ، فإنه يجوز أن يقع موقع " ما " غيرها من حروف النفي ، ويكون الفعل مع النافي ماضيا ومضارعا ، نحو : ما زال ولم يزل ولا يزال ، وأصل مادة " دام " السكون والثبوت يقال : دام الماء أي سكن ، ودوّمت الشمس إذا وقفت في كبد السماء .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 76 إلى 77]

بَلى مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَاتَّقى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (76) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (77)

الإعراب :

)

(بَلى مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَاتَّقى) كلام مستأنف مسوق ليكون إثباتا لما نفوه بقولهم: ليس علينا في الأميين سبيل، أي العرب. وبلى حرف جواب وتصديق مثل نعم وأكثر ما تقع بعد الاستفهام وتختص بالإيجاب وسيأتي المزيد عنها في موضعه من هذا الكتاب، ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ وأوفى فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وبعهده جار ومجرور متعلقان بأوفى، واتقى عطف على أوفى (فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) الفاء رابطة لجواب الشرط وإن واسمها، وجملة يحب خبرها والمتقين مفعول به وجملة فإن الله إلخ في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر "من" (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً) كلام مستأنف لا محل له من الإعراب مسوق لبيان كذب اليهود إذا حلفوا أو باعوا سلعة وحلفوا أنهم أعطوا فيها كذا وكذا، وإن واسمها، وجملة يشترون صلة وبعهد الله جار ومجرور متعلقان بيشترون والباء داخلة على المتروك وأيمانهم عطف على بعهد الله وثمنا مفعول به وقليلا صفة (أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ) اسم الإشارة مبتدأ ولا نافية للجنس وخلاق اسمها المبني على الفتح ولهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبرها وفي الآخرة جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال وجملة لا خلاق لهم خبر أولئك وجملة الإشارة وما تلاها في محل رفع خبر إن (وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ) الواو عاطفة ولا نافية ويكلمهم فعل مضارع مرفوع والهاء مفعول به مقدم والله فاعل مؤخر والجملة عطف على جملة لا خلاق لهم (وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ) عطف أيضا (يَوْمَ الْقِيامَةِ) الظرف متعلق بينظر

(وَلَا يُزَكِّيهِمْ) عطف على " ولا

ينظر إليهم " (وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ) الواو عاطفة ولهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر

مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر وأليم صفة والجملة معطوفة أيضا .

البلاغة :

(203/124)

1- الاستعارة المكنية في الاشتراء ، أي أنهم يستبدلون بما عاهدوا عليه وبما حلفوا به من

الأيمان متاع الدنيا ، وأراد بذلك تحريفهم للتوراة وتبديل ما ورد فيها .

2- الكناية في قوله " ولا يكلمهم ولا ينظر إليهم " عن السخط وشدة الغضب ، ومعنى "

ولا يكلمهم الله " أي بما يسرهم " ولا ينظر إليهم " ولا يعطف عليهم بخير مقتا من الله لهم ،

كقول القائل : أنظر إلي نظر الله إليك ، بمعنى تعطفه عليّ تعطّف الله عليك بخير ورحمة ،

وكما يقال للرجل :

لا استجاب الله لك . والله لا تخفى عليه خافية على حد قول شمير بن الحارث الضّبيّ :

دعوت الله حتى خفت أن لا يكون الله يسمع ما أقول

[سورة آل عمران (3) : آية 78]

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (78)

اللغة :

(يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ) يفتلونها ويديرونها عن الصحيح إلى المزيف ،

يقال : لويت عنقه : أي فتلته ، والمصدر : اللّيّ واللّيّان ، وأصل اللّي الفتل والقلب ، من قول القائل : لوى فلان يد فلان ، ومنه قول فرعان بن الأعرف السعدي في ابنه منازل :

تخون مالي ظالما ولوى يدي لوى يده اللّه الذي هو غالبه

وهذا البيت من أبيات جميلة ، وقبله :

جزت رحم بيني وبين منازل جزاء كما يستنزل الدّين طالبه

وما كنت أخشى أن يكون منازل عدوّي وأدنى شانىء أنا راهبه

حملت على ظهري وفديت صاحبي صغيرا إلى أن أمكن الطّرّ شاربه

وأطعمته حتى إذا صار شيظما يكاد يساوي غارب الفحل غاربه

تخون مالي ظالما . . . البيت .

الإعراب :

(وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ) كلام مستأنف مسوق لوصف فريق منهم ككعب بن الأشرف ومالك بن الصّيف وحيّي بن أخطب وأبي ياسر وشعبة بن عمرو الشاعر كانوا يلوون ألسنتهم ويتشدقون بها محرفين ما فيها من نعت النبي محمد صلى الله عليه وسلم وغيره ، والواو استئنافية وإن حرف مشبه بالفعل ومنهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر إن المقدم واللام المزحلقة وفريقا اسم إن المؤخر وجملة يلوون صفة ل " فريقا " وجمع الضمير اعتبارا بالمعنى لأنه اسم جمع كالرهط والقوم ، والواو فاعل وألسنتهم مفعول به وبالكتاب :

جار ومجرور متعلقان بيلوون (لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ) اللام لام التعليل وتحسبوه فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وحذفت النون لأنه من الأفعال الخمسة والهاء مفعول تحسبوه الأول ومن الكتاب جار ومجرور في موضع المفعول الثاني وأن المضمرة وما بعدها في محل جر باللام ، والجار والمجرور متعلقان بيلوون (وَما هُوَ مِنَ الْكِتابِ) الواو حالية وما نافية حجازية تعمل عمل ليس وهو ضمير منفصل في محل رفع اسمها ومن الكتاب جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبرها (وَيَقُولُونَ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) الواو حرف عطف ويقولون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون وهو معطوف على يلوون وهو مبتدأ ومن عند الله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول (وَما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

تقدم إعرابها بحروفها . (وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ) عطف على ما سبق ويقولون فعل مضارع والواو فاعل وعلى الله جار ومجرور متعلقان بيقولون الكذب مفعول به أو مفعول مطلق وقد تقدم إعرابه قريبا ، (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) الواو حالية وهم ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ وجملة يعلمون خبرها .

البلاغة :

التشبيه في قوله : " لتحسبوه " أي يعطفون ألسنتهم بشبه الكتاب لتحسبوا ذلك الشبه من الكتاب .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 79 إلى 80]

ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (79) وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْباباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (80)

اللغة :

(البشر) الإنسان ذكرا وأنثى ، واحدا وجمعا ، ولا واحد له من لفظه ، مثل القوم والخلق .

(رَبَّانِيِّينَ) الربانيون: جمع ربّاني، وفيه أقوال أشهرها وأصحها ما ذكره سيبويه قال: الربّاني منسوب إلى الرب، والألف والنون فيه زائدتان في النسب دلالة على المبالغة، كرقباني ولحياني وشعراني للغليظ الرقبة والطويل اللحية والكثير الشعر ولا تفرد هذه الزيادة عن النسب، أما إذا نسبوا إلى الرقبة واللحية والشعر من غير مبالغة قالوا: رقبي ولحوي وشعري. وهذه فائدة جليلة نرى اطّرادها في كل نسبة قصد منها المبالغة، فيصح أن يقال: علماني نسبة للعلم.

الإعراب:

(ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ) كلام مستأنف مسوق لبيان افتراء اليهود على الأنبياء إثر افترائهم على اللّه، وما نافية وكان فعل ماض ناقص، لبشر جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم وأن حرف مصدري ونصب ويؤتيه فعل مضارع منصوب بإن والهاء مفعول به أول وأن وما في حيزها في تأويل مصدر اسم

كان المؤخر واللّه فاعل يؤتيه والكتاب مفعول به ثان والحكم والنبوة معطوفان (ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ) ثم حرف عطف للتراخي وجملة يقول معطوف على يؤتيه وللناس جار ومجرور

متعلقان بيقول (كُونُوا عِبادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ) الجملة في محل نصب مقول القول وكان واسمها ، وعبادا خبرها ولي جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة ل " عبادا " ومن دون اللّه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال (وَلكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ) الواو عاطفة ولكن مخففة من الثقيلة مهملة وكونوا فعل أمر ناقص مبني على حذف النون والواو اسمها وربانيين خبرها وجملة كونوا ربانيين في محل مقول قول محذوف أي ولكن يقول كونوا . .

(بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ) الباء حرف جر وما مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر مجرور بالباء والجار والمجرور متعلقان بربانيين لما فيه من رائحة الفعل وكان واسمها ، وجملة تعلمون الكتاب خبر كنتم والكتاب مفعول به . (وَبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ) عطف على " بما كنتم " وجملة تدرسون خبر كنتم (وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْباباً) الواو عاطفة ولا مزيدة لتأكيد النفي في قوله " ما كان لبشر أن يؤتيه " ، ويأمركم فعل مضارع معطوف على يؤتيه ، أي : ما كان لبشر أن يؤتيه اللّه ما ذكر ثم يأمر الناس بعبادة نفسه أو باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا ، وتوسيط الاستدراك بين المعطوف والمعطوف عليه للمسارعة إلى تحقيق الحق . وقرىء برفع يأمركم على الاستئناف وابتداء الكلام .

وسيأتي مزيد من تفصيل إعرابه في باب الفوائد . أن تتخذوا الواو حرف عطف وتتخذوا فعل مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل والمصدر المؤول منصوب بنزع الخافض والجار

والمجرور متعلقان بيأمر والملائكة مفعول به أول والنبيين معطوف على الملائكة منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم وأربابا مفعول به ثان (أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) كلام مستأنف لخطاب المؤمنين عن طريق التعجب من حال غيرهم والهمزة للاستفهام الإنكاري ويأمركم فعل مضارع مرفوع وفاعله هو والكاف مفعول به وبالكفر جار ومجرور متعلقان بيأمركم وبعد ظرف زمان متعلق بيأمركم أيضا وإذ ظرف زمان مضاف ل " بعد " وقد مر أنه لا يضاف إليها إلا الزمان نحو حينئذ ويومئذ ، وأنتم ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ ومسلمون خبره والجملة الاسمية في محل جر بإضافة الظرف إليها .

الفوائد :

1- نفي الكون في قوله تعالى " ما كان لبشر " يراد به نفي خبره نحو : ما كان لك أن تفعل هذا ، والمراد نفي الفعل لا نفي الكون ، ويطرد هذا في نوعين :

آ- نوع يكون النفي من جهة العقل كالآية الآنفة الذكر لأن الله لا يعطي الكتاب لمن يقول مثل هذه المقالة الشنعاء .

ب- نوع يكون فيه النفي على سبيل الانبغاء والإمكان كقول أبي بكر : ما كان لابن أبي

قحافة أن يتقدم فيصلي بين يدي رسول اللّه أي : ما ينبغي له ذلك ولا بإمكانه ، والمدار في التمييز بينهما على الذوق والإلمام بسياق الكلام وفحواه .

2- إذا عطفت قوله : " ولا يأمركم " على " يؤتيه " فتكون " لا " زائدة مؤكدة لمعنى النفي السابق . وإذا عطفته على " يقول "

فيجوز فيه وجهان :

آ- الزيادة : فالمعنى ، ما كان لبشر أن ينصبه اللّه للدعاء إلى عبادته وترك الأنداد ثم يأمر الناس بأن يكونوا عبادا له ويأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا .

(208/124)

ب- أن تكون غير زائدة ، ووجهه بأن النبي صلى اللّه عليه وسلم كان ينهى قريشا عن عبادة الملائكة ، وأهل الكتاب عن عبادة عيسى فلما قالوا له : أنتخذك ربا ؟ قيل لهم : ما كان لبشر أن يستنبئه اللّه ثم يأمر الناس بعبادته وينهاهم عن عبادة الملائكة والنبيين ، وقيل هو معطوف على قوله " ثم يقول " ويكون التقدير : ولا له أن يقول ، وقرىء بالرفع على الاستئناف وابتداء الكلام .

[سورة آل عمران (3) : آية 81]

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (81)

اللغة:

الإصر: المراد به هنا العهد وسمي العهد إصرا لأنه مما يؤصر أي: يعقد ويشد. والإصر كل ما يشد به.

الإعراب:

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ) كلام مستأنف مسوق لبحث العهد الذي أخذه اللّه تعالى على النبيين وأممهم والواو استئنافية وإذ ظرف

لما مضى من الزمن متعلق باذكر محذوفا وقد مر نظيره وجملة أخذ في محل جر بالإضافة واللّه فاعل وميثاق مفعول به والنبيين مضاف إليه (لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ) اللام المفتوحة موطئة للقسم لأن أخذ الميثاق فيه معنى الاستحلاف وقيل: هي للابتداء التي يتلقى بها القسم وما اسم موصول مبتدأ وجملة آتيتكم لا محل لها من الإعراب لأنها صلة

الموصول ومن كتاب جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال وحكمة عطف على كتاب (ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي وجاءكم فعل ماض والكاف مفعول به ورسول فاعل مؤخر مرفوع ومصدق صفة ولما اللام حرف جر وما اسم موصول في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بمصدق ومعكم ظرف مكان متعلق بمحذوف لا محل له لأنه صلة الموصول (لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ) الواو واقعة في جواب قسم مقدر وتؤمننّ فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال والأصل لتؤمنوننّ ولما التقى ساكنان حذفت الواو أيضا وهي فاعل وبقيت الضمة دليلا عليها ، والنون المشددة هي نون التوكيد الثقيلة لا محل لها ، وبه متعلق بتؤمننّ ، ولتنصرنه عطف على لتؤمنن وهو مثله في الإعراب والواو المحذوفة فاعل والهاء مفعول به وجملة القسم المقدر وجوابه خبر ما (قالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي) جملة مفسرة لا محل لها وقال فعل ماض وفاعله هو والهمزة للاستفهام التقريري والتوكيدي لأن الاستفهام بمعناه الحقيقي مستحيل في حقه وأقررتم فعل وفاعل والجملة في محل نصب مقول القول وأخذتم عطف على أقررتم وعلى ذلكم جار ومجرور متعلقان

بأخذتم وإصري مفعول به والياء ضمير متصل في محل جر بالإضافة (قَالُوا أَقْرَرْنا) الجملة مستأنفة لا محل لها وجملة أقررنا في محل نصب مقول القول (قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) الجملة مستأنفة مسوقة لتسجيل الشهادة على إقرارهم وقال فعل ماض والفاعل هو ، فاشهدوا الفاء هي الفصيحة واشهدوا فعل أمر والواو فاعل والجملة لا محل لها ، وأنا الواو حالية أو استئنافية وأنا مبتدأ ومعكم ظرف متعلق بمحذوف حال ومن الشاهدين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر وجملة أنا معكم في محل نصب على الحال أو استئنافية لا محل لها .

الفوائد :

1- شغلت هذه الآية المعربين كثيرا وسنورد خلاصة لأهم ما قيل فيها سالكين سبيل الاختصار .

ما يقوله سيبويه :

قال سيبويه : سألت الخليل عن قوله : " وإذا أخذ اللّه ميثاق النبيين لما آتيتكم " فقال : " ما " بمعنى الذي ، قال النحاس في شرحه لكتاب سيبويه : التقدير في قول الخليل : الذي آتيتكموه ثم حذفت الهاء لطول الاسم واللام لام الابتداء ، وبهذا قال الأخفش ، وتكون " ما " في محل رفع على الابتداء . وقوله : ثم جاءكم وما بعده جملة معطوفة على الصلة والعائد محذوف أي مصدق به .

ما يقوله المبرد والزّجاج والكسائي :

ما : شرطية دخلت عليها لام التحقيق كما تدخل على إن ولتؤمننّ جواب القسم الذي هو أخذ الميثاق ، إذ هو بمنزلة الاستحلاف كما

تقول : أخذت ميثاقك لتفعلنّ كذا ، وهو سار مسد الجزاء . وقال الكسائي : إن الجزاء في قوله فمن تولى .

ابن هشام يرد على أبي البقاء :

(211/124)

و قال ابن هشام في الرد على أبي البقاء : " وأما أبو البقاء فإنه قال في " لما آتيتكم من كتاب وحكمة " الآية : من فتح اللام ففي " ما " وجهان أحدهما أنها موصولة مبتدأ والخبر إما من كتاب أي الذي آتيتكموه من الكتاب ، أو لتؤمننّ به واللام جواب القسم لأن أخذ الميثاق قسم وجاءكم عطف على آتيتكم والأصل ثم جاءكم به فحذف عائد ما والأصل مصدق له ، ثم ناب الظاهر عن المضمر ، أو العائد ضمير استقر الذي تعلقت به " مع " والثاني أنها شرطية واللام موطئة وموضع ما نصب بآتيت والمفعول الثاني ضمير المخاطب و" من كتاب " مثل " من آية " في " ما ننسخ من آية " وفيه أمور :

آ- إن اجازته كون من كتاب خبرا فيه الإخبار عن الموصول قبل كمال الصلة لأن " ثم جاءكم " عطف على الصلة .

ب- إن تجويزه كون لتؤمننّ خبر مع تقديره إياه جوابا لأخذ الميثاق يقتضي أن له موضوعا وأنه لا موضع له من حيث جعله خبرا ومن حيث أنه جواب للقسم وهذا تناقض ، وإنما كان حقه أن يقدره جوابا لقسم محذوف ويقدر الجملتين خبرا ، وقد يقال : إنما أراد بقوله : اللام جواب القسم لأن أخذ الميثاق قسم ، وأخذ الميثاق دال على جملة قسم مقدرة ومجموع الجملتين ، وإنما سمى " لتؤمننّ " خبرا لأنه الدال على المقصود بالأصالة لأنه وحده هو الخبر بالحقيقة ،

وإنه لا قسم مقدر بل " بل أخذ اللّه ميثاق النبيين " هو جملة القسم ، وقد يقال : لو أراد هذا لم يحصر الدليل فيما ذكر للاتفاق على وجود المضارع مفتتحا بلام مفتوحة مختتما بنون مؤكدة وهو دليل قاطع على القسم وإن لم يذكر معه أخذ الميثاق أو نحوه .

ج- إن تجويزه كون العائد ضميرا استقر يقتضي عود ضمير مفرد إلى شيئين معا فإنه عائد إلى الموصول .

د- إنه جوّز حذف العائد المجرور مع أن الموصول غير مجرور ، فإن قيل : اكتفى بكلمة به الثانية فيكون كقوله :

لو أنّ ما عالجت لين فؤادها فقسا استلين به للان الجندل

قلنا قد جوز على هذا الوجه عود " به " المذكورة إلى " الرسول " لا إلى " ما " .

ه- إنه سمى ضمير آتيتكم مفعولا ثانيا وإنما هو مفعول أول .

2- اللام الموطئة للقسم : هي الداخلة على شرط وسميت موطئة لأنها توطئ ما يصلح أن يكون جوابا للشرط وللقسم فيصير جواب الشرط محذوفا إذ ذاك لدلالة جواب القسم عليه .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 82 إلى 83]

فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (82) أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (83)

الإعراب :

(فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذلِكَ) كلام مستأنف للرد على أهل الكتاب الذين اختصموا إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم والفاء استئنافية ومن شرطية في محل رفع مبتدأ تولى فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وبعد ظرف متعلق بتولي وذلك اسم إشارة في محل جر بالإضافة (فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ) الفاء رابطة لجواب الشرط وأولئك اسم إشارة

مبتدأ وهم ضمير فصل لا محل له والفاسقون خبر أو " هم الفاسقون " مبتدأ وخبر والجملة خبر أولئك وجملتا فعل الشرط وجوابه في محل رفع خبر " من " .

)

(213/124)

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ) الهمزة للاستفهام الانكاري ودخلت على الفاء العاطفة جملة على جملة ، والمعنى : فأولئك هم الفاسقون فغير دين اللّه يبغون ، ثم توسطت الهمزة بينهما ، ويجوز أن يعطف على محذوف تقديره : أيتولون فغير دين اللّه يبغون ، وقد تقدمت الإشارة إلى ويبغون فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون لأنه من الافعال الخمسة والواو فاعل (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً) الواو حالية وله جار ومجرور متعلقان بأسلم ، وأسلم فعل ماض والجملة في محل نصب حال ومن اسم موصول فاعل أسلم وفي السموات جار ومجرور متعلقان بمحذوف لا محل له لأنه صلة والأرض عطف على السموات وطوعا وكرها مصدران منصوبان على الحالية بمعنى طائعين أو كارهين أو على أنهما مفعولان مطلقان لفعلين محذوفين والأول أولى (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) الواو عاطفة وإليه جار ومجرور متعلقان بيرجعون ويرجعون قرىء بالتاء والياء وهو فعل مضارع مبني

للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل .

[سورة آل عمران (3) : آية 84]

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَما أُنْزِلَ عَلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (84)

اللغة :

(الْأَسْباطِ) : جمع سبط بكسر السين ، وهو ولد الولد . ويغلب على ولد البنت ، مقابل الحفيد الذي هو ولد الابن . والأسباط من اليهود مقابل القبيلة من العرب .

الإعراب :

)

(214/124)

قُلْ : آمَنَّا بِاللَّهِ) كلام مستأنف مسوق للطلب إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم أن يقول هو وأصحابه : آمنا باللّه . ولذلك وحد الضمير في قوله : " قل " ، وجمعه في قوله : " آمنا " .

وقل فعل أمر وفاعله أنت وآمنا فعل ماض وفاعل وجملة آمنا مقول القول وباللّه جار ومجرور

متعلقان بآمنا (وَما أُنْزِلَ عَلَيْنا) الواو عاطفة وما اسم موصول معطوف على الله وجملة أنزل علينا صلة الموصول (وَما أُنْزِلَ عَلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ) الواو حرف عطف وما اسم معطوف على ما الأولى وأنزل فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو وجملة أنزل صلة وعلى إبراهيم جار ومجرور متعلقان بأنزل والأسماء المتعاقبة عطف على إبراهيم (وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ) عطف على ما تقدم، وأوتي فعل ماض مبني للمجهول وموسى نائب فاعل وما بعده عطف عليه ومن ربهم جار ومجرور متعلقان بأوتي (لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ) لا نافية ونفرق فعل مضارع وفاعله ضمير مستتر تقديره نحن وبين ظرف مكان متعلق بنفرق، وأحد مضاف إليه ومنهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة

لأحد والجملة حالية (وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) الواو حالية أو استئنافية ونحن مبتدأ وله جار ومجرور متعلقان ب" مسلمون" . ومسلمون خبر نحن والجملة إما نصب على الحال وإما مستأنفة لا محل لها .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 85 إلى 89]

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ (85) كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (86) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (87) خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (88) إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (89)

الإعراب:

(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ) كلام مستأنف مسوق للشروع في الحديث عن المرتدين الذين لحقوا بالكفار، وكانوا اثني عشر رجلا ارتدوا وخرجوا من المدينة وأتوا مكة كفارا، منهم الحارث بن سويد الأنصاري. والواو استئنافية ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ويبتغ فعل الشرط وعلامة جزمه حذف حرف العلة وفاعله ضمير مستتر تقديره هو وغير: لنا فيها وجهان إما أن تكون مفعولا به ليبتغ ودينا تمييز وإما أن تكون حالا لأنها كانت في الأصل صفة ل: دينا، ثم تقدمت عليه، ودينا على هذا الوجه مفعول به، فلن الفاء رابطة

لجواب الشرط ولن حرف نفي ونصب واستقبال ويقبل فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بلن ومنه جار ومجرور متعلقان بيقبل وجملة لن يقبل منه في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر من (وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) الواو للعطف وهو مبتدأ وفي الآخرة جار ومجرور متعلقان بالخاسرين ومن الخاسرين: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر هو والجملة عطف على جواب الشرط، ويحتمل أن تكون الواو استئنافية والجملة مستأنفة بمثابة الإخبار عن حاله في الآخرة (كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ) كلام مستأنف مسوق للحديث عن المرتدين الآنفي الذكر وقيل: نزلت بشأن اليهود أو المراد هؤلاء وأولئك. وكيف اسم استفهام معناه الجحد والنفي، أي لا يهدي الله وهو في محل نصب حال ويهدي فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الياء والله فاعل وقوما مفعول به وجملة كفروا صفة ل: قوما وبعد ظرف زمان متعلق بكفروا وإيمانهم مضاف إليه (وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ) هذا العطف من الدقائق إذ لا يصح عطفه على كفروا كما يبدو لأول وهلة لفساد المعنى فالأصح أن يعطف على ما في "إيمانهم" من معنى الفعل لأن معناه: بعد أن آمنوا بالله، فهو من باب العطف على التوهم.

ويمكن أن يقال إن الواو لا تقتضي الترتيب فهي معطوفة على كفروا، ويجوز أن تكون الواو حالية بإضمار "قد" بعدها أي: وقد شهدوا، والأول أمكن في المعنى وأبعد عن الوهن. وأن واسمها وخبرها وهي وما في حيزها في محل نصب بنزع الخافض أي بأن الرسول حق

فيكون الجار والمجرور متعلقين بشهدوا (وَجاءَهُمُ الْبَيِّناتُ) الواو عاطفة وجاءهم فعل ماض ومفعول به والبينات فاعل والجملة عطف على جملة شهدوا

(217/124)

ويجوز أن تكون الواو للحال بتقدير قد أي وقد شهدوا فالجملة نصب على الحال (وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) الواو استئنافية والله مبتدأ وجملة لا يهدي خبر والقوم مفعول به والظالمين صفة القوم (أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ) الجملة مستأنفة مسوقة لبيان جزائهم ومصيرهم، وأولئك اسم إشارة في محل رفع مبتدأ أول وجزاؤهم مبتدأ ثان وأن وما في حيزها خبر جزاؤهم والجملة الاسمية خبر اسم الإشارة وعليهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر أن المقدم، ولعنة الله اسم أن المؤخر (وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) الواو حرف عطف والملائكة عطف على الله والناس عطف أيضا وأجمعين تأكيد مجرور وعلامة جره الياء لأنه جمع مذكر سالم (خالِدِينَ فِيها) خالدين: حال وفيها جار ومجرور متعلقان بخالدين (لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ) الجملة حال ثانية ولا نافية ويخفف فعل مضارع مبني للمجهول وعنهم جار ومجرور متعلقان بيخفف والعذاب نائب فاعل (وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ) الواو عاطفة ولا نافية وهم ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ وينظرون أي يمهلون

فعل مضارع والواو نائب فاعل والجملة في محل رفع خبر " هم " والجملة عطف على جملة لا يخفف (إِلَّا الَّذِينَ تابُوا) إلا أداة استثناء والذين مستثنى وجملة تابوا لا محل لها لأنها صلة الموصول (مِنْ بَعْدِ ذلِكَ) جار ومجرور متعلقان بتابوا ، وذلك اسم إشارة في محل جر بالإضافة (وَأَصْلَحُوا) الجملة معطوفة على جملة تابوا (فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) الفاء هي الفصيحة وإن واسمها ، وغفور خبرها الأول ورحيم خبرها الثاني .

هذا وقد اختلف في إعراب جملة الاستثناء وأكثر المعربين يعربونها حالا متداخلة أي حالا من حال ، لأن خالدين حال من الضمير في " عليهم " وأعربها آخرون جملة مستأنفة وهي بذلك مسوقة لبيان خلودهم في النار ،

(218/124)

وجدير بالذكر أن الذي تاب هو الحارث بن سويد بن الصامت الانصاري حين ندم على ردته وأرسل إلى قومه الأنصار يقول : سلوا هل لي من توبة ؟ فأرسل إليه أخوه الجلاس الآية ، فأقبل إلى المدينة فتاب وقبل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم توبته .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 90 إلى 91]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (90) إِنَّ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدى بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (91)

الإعراب:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ) كلام مستأنف مسوق للحديث عن اليهود الذين كفروا بعيسى عليه السلام والإنجيل بعد إيمانهم بموسى والتوراة ثم ازدادوا كفرا بكفرهم بمحمد صلى اللّه عليه وسلم والقرآن، وقيل هي عامة، وإن واسمها، وجملة كفروا لا محل لها لأنها صلة الموصول وبعد ظرف زمان متعلق بكفروا وإيمانهم مضاف إليه (ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي وازدادوا فعل ماض والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل وكفروا تمييز محول عن الفاعل أي: ازداد كفرهم، وزاد يتعدى لاثنين ومطاوعه يتعدى لواحد فقط (لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ) لن حرف نصب وتقبل فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بلن وتوبتهم نائب فاعل والجملة خبر إن (وَأُولئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ) الواو حرف عطف أو استئنافية لئلا نحتاج إلى تقدير في عطف الجملة

الاسمية على الجملة الفعلية وقيل هي للحال ، والمعنى لن تقبل توبتهم من الذنوب في حال أنهم ضالون وأولئك اسم إشارة . وهم ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ ثان والضالون خبر " هم " والجملة الاسمية في محل رفع خبر اسم الإشارة أو " هم " ضمير منفصل لا محل له الضالون خبر أولئك (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ) جملة مستأنفة مسوقة لتأكيد ما تقدم وإن واسمها ، وجملة كفروا صلة الموصول وماتوا عطف على كفروا وهم الواو حالية وهم ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ وكفار خبر والجملة نصب على الحال (فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً) الفاء رابطة للجواب لما في الموصول من رائحة الشرط وإنما دخلت الفاء هنا ولم تدخل في قوله " لن تقبل منهم " لأن الفاء مؤذنة بالاستحقاق بالوصف السابق ، وهنا قال " وماتوا وهم كفار " ولم يصرح هناك بهذا القيد ، ولن حرف نصب ويقبل فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بلن والجملة خبر إن ومن أحدهم جار ومجرور متعلقان بيقبل وملء نائب فاعل والأرض مضاف إليه وذهبا تمييز وقد اختلف في ناصبه اختلافا حدا بالكسائي إلى ترجيح نصبه بنزع الخافض ولعله أرجح (وَلَوِ افْتَدى بِهِ) الواو عاطفة على محذوف وسيأتي حكمها في باب الفوائد لو شرطية غير جازمة وافتدى فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف وفاعله هو وبه جار ومجرور متعلقان بافتدى (أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ) الجملة برأسها خبر ثان لإن وأولئك اسم إشارة مبتدأ ولهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر اسم

الإشارة وأليم صفة (وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ) الواو عاطفة وما نافية ولهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ومن حرف جر

زائد وناصرين مجرور بمن لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ مؤخر.

الفوائد:

(220/124)

1- العطف على التوهم: جعل جمهور النحاة العطف على التوهم مطردا، وهو أن تتوهم أن الأمر جار على الأصل فتعطف عليه كقول زهير بن أبي سلمى:

بدا لي أني لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئا إذا كان جائيا

بعطف سابق على توهم زيادة الباء في خبر ليس أي لست بمدرك ولا سابق، وقول الآخر:

مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب إلا ببين غرابها

أي ليسوا بمصلحين ولا ناعب.

2- زعم نحويو البصرة أنه نصب الذهب لاشتغال الملء بالأرض، ومجيء الذهب بعدهما، فصار نصبها نظير نصب الحال، وذلك أن الحال يجيء بعدها فعل قد شغل بفاعله فينصب كما ينصب المفعول الذي يأتي بعد الفاعل الذي قد شغل بفاعله. قالوا: ونظير

قوله : ملء الأرض ذهبا ، في نصب الذهب في الكلام : لي مثلك رجلا ، بمعنى لي مثلك من الرجال . وزعموا أن نصب الرجل لاشتغال الإضافة بالاسم ، فينصب كما ينصب المفعول به لاشتغال الفعل بالفاعل .

3- استشكل جماعة من المفسرين قوله تعالى : " فلن تقبل توبتهم "

مع كون التوبة مقبولة كما في الآية الأولى وكما في قوله تعالى : " وهو الذي يقبل التوبة عن عباده " وغير ذلك ، فقيل : لن تقبل توبتهم عند الموت . قال النحاس : وهذا قول حسن ، كما قال تعالى : " وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إني تبت الآن " . وقيل : الأولى أن يحمل عدم قبول التوبة في هذه الآية على من مات كافرا غير تائب ، فكأنه عبر عن الموت على الكفر بعدم قبول التوبة ، أو تابوا في الآخرة عند معاينة العذاب ، كما أشير إليه بقوله تعالى : " ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا " إلخ وبقوله تعالى : " فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا " .

(221/124)

4- الواو المصاحبة للشرط تستدعي شرطا آخر يعطف عليه الشرط الذي اقترنت الواو به ، والعادة في مثل ذلك أن يكون المنطوق منبها على المسكوت عنه بطريق الأولى . مثاله

قولك : أكرم فلانا ولو أساء ، فهذه الواو عطفت المذكور على محذوف تقديره : أكرم فلانا لو أحسن ولو أساء ، إلا إنك نبهت بإيجاب إكرامه ان أساء ، على أن إكرامه إن أحسن بطريق الأولى ، والافتداء بملء الأرض ذهبا هو جدير بالقبول ، فإن لم يقل فبطريق الأولى أن لا يقبل الافتداء بأقل من ذلك ، وهذا من دقائق النكت وأسرار لغتنا التي لا تقف عند مدى .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 92 إلى 94]

لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (92) كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلاَّ ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (93) فَمَنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (94)

اللغة :

(حِلًّا) الحلّ : بكسر الحاء مصدر حلّ ، يقال : حل الشيء حلالا وحلا . ويستوى في الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع .

الإعراب :

(لَنْ تنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) : كلام مستأنف مسوق لبيان ما ينفع المؤمنين ويقبل منهم إثر بيان ما لا ينفع الكفار ولا يقبل منهم ، ولن حرف نفي ونصب واستقبال وتنالوا فعل مضارع منصوب بلن وعلامة نصبه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل والبر مفعول به وحتى حرف غاية وجر وتنفقوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوبا بعد حتى والواو فاعل ومما جار ومجرور متعلقان بتنفقوا وجملة تحبون لا محل لها لأنها صلة " ما " الموصولية . واعلم أنّ هذه الآية وردت منظومة من غير قصد ، فلا تعد شعرا ، لأن الشعر عند العروضيين هو المنظوم بقصد ، وهذه الآية بيت كامل من مجزوء الرّمل ، ويأتي على الشكل التالي :

لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبّون

وسيرد الكثير من الآيات الموزونة بغير قصد الشعر .

(وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ) الواو استئنافية وما اسم شرط جازم في محل نصب مفعول به مقدم لتنفقوا وتنفقوا فعل الشرط مجزوم والواو فاعل ومن شيء جار ومجرور متعلقان بتنفقوا فإن الفاء

رابطة لجواب الشرط المحذوف بمثابة التعليل له ، وقد وقعت موقعه والتقدير : فيجازيكم بحسبه ومقداره فإنه عليم بكل شيء ، وإن واسمها ، وعليم خبرها وبه : جار ومجرور متعلقان بعليم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 1 صـ 518 . 564 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وِيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والعشرون بعد المائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الخامس والعشرون بعد المائة

من الآية ﴿ 93 ﴾ من سورة آل عمران

وحتى الآية ﴿ 97 ﴾ من نفس السورة

(4/125)

قوله تعالى ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (93) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أخبر بذلك بين أنه كان دين أهل الكمال على وجه يقرر به ما مضى من الإخبار بعظيم اجتراء أهل الكتاب على الكذب بأمر حسّي فقال تعالى : ﴿ كل الطعام ﴾ أي من الشحوم مطلقاً وغيرها ﴿ كان حلاًّ لبني إسرائيل ﴾ أي أكله - كما كان حلاًّ لمن قبلهم على أصل الإباحة ﴿ إلا ما حرم إسرائيل ﴾ تبرراً وتطوعاً ﴿ على نفسه ﴾ وخصه بالذكر استجلاباً لبنيه إلى ما يرفعهم بعد اجتذابهم للمؤمنين إلى ما يضرهم ولا ينفعهم.

ولما كانوا بما أغرقوا فيه من الكذب ربما قالوا : إنما حرم ذلك اتباعاً لحكم التوراة قال :

﴿ من قبل ﴾ وأثبت الجار لأن تحريمه كان في بعض ذلك الزمان ، لا مستغرقاً له .

وعبر بالمضارع لأنه أدل على التجدد فقال : ﴿ أن تنزل التوراة ﴾ وكان قد ترك لحوم الإبل وألبانها وكانت أحب الأطعمة إليه لله وإيثاراً لعباده - كما تقدم ذلك في البقرة عند ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ [البقرة : 89] .

ولما كانت هذه الآية إلزاماً لليهود باعتقاد النسخ الذي طعنوا به في هذا الدين في أمر القبلة ، وكانوا ينكرونه ليصير عذراً لهم في التخلف عن اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم ، فكانوا يقولون : لم تزل الشحوم وما ذكر معها حراماً على من قبلنا كما كانت حراماً علينا ، فأمر بجوابهم بأن قال : ﴿ قل ﴾ أي لليهود ﴿ فأتوا بالتوارة فاتلوها ﴾ أي لتدل لكم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيما ادعيتموه ، فلم يأتوا بها فبان كذبهم فافتضحوا فضيحة لا مثل لها في الدنيا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 125.126 ﴾

(5/125)

اللغة :

[البر] كلمة جامعة لوجوه الخير والمراد بها هنا الجنة

[حلا] حلالاً وهو مصدر يستوي فيه الواحد والجمع ، والمذكر والمؤنث

[إسرائيل] هو يعقوب عليه السلام

[بكة] اسم لمكة فتسمى " بكة " و " مكة " سميت بذلك لانها تبك أى تدق اعناق الجبابرة فلم يقصدها جبار بسوء الا قصمه الله

[مباركا] البركة : الزيادة وكثرة الخير

[مقام ابراهبم] محل قيام ابراهيم وهو الحجر الذي قام عليه لما ارتفع بناء البيت

[عوجا] العوج : الميل ، قال ابو عبيدة : بالكسر ، في الدين والكلام والعمل ، وبالفتح عوج ، في الحائط والجذع

[يعتصم] يتمسك ويلتجىء وأصله المنع ، قال القرطبي : وكل متمسك بشيء معتصم ، وكل مانع شيئا فهو عاصم [قال لا عاصم اليوم من امر الله]

[شفا] الشفا : حرف كل شيء وحده ، ومثله الشفير ، وشفا الحفرة : حرفها قال تعالى [على شفا جرف هار] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 217 ﴾

(6/125)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

﴿ القراءات ﴾ : ﴿ أن تنزل ﴾ خفيفاً : ابن كثير وأبو عمرو وسهل ويعقوب . الباقون بالتشديد . ﴿ حج البيت ﴾ بكسر الحاء : يزيد وحمزة وعلي وخلف وعاصم غير أبي بكر وحماد الباقون بفتحها .

الوقوف : ﴿ تحبون ﴾ ط ﴿ عليم ﴾ ه ﴿ تنزل التوراة ﴾ ط ﴿ صادقين ﴾ ه ﴿ الظالمون ﴾ ه ﴿ حنيفاً ﴾ ط ﴿ المشركين ﴾ ه ﴿ للعالمين ﴾ ه ج لأن ما بعده يصلح حالاً واستئنافاً ﴿ مقام إبراهيم ﴾ ج للابتداء بالشرط مع الواو لأن الأمن من الآيات ﴿ آمنا ﴾ ط ﴿ سبيلا ﴾ ط ﴿ العالمين ﴾ ه ﴿ بآيات الله ﴾ ط قد قيل : والوده الوصل لأن الواو للحال ﴿ تعملون ﴾ ه ﴿ شهداء ﴾ ط ﴿ تعملون ﴾ ه ﴿ كافرين ﴾ ه ﴿ رسوله ﴾ ط لتناهي الاستفهام إلى الشرط ﴿ مستقيم ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 2 صـ 207 ﴾

(7/125)

فصل

قال الفخر :

اعلم أن الآيات المتقدمة إلى هذه الآية كانت في تقرير الدلائل الدالة على نبوّة محمد صلى الله

عليه وسلم ، وفي توجيه الإلزامات الواردة على أهل الكتاب في هذا الباب .

وأما هذه الآية فهي في بيان الجواب عن شبهات القوم فإن ظاهر الآية يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يدعي أن كل الطعام كان حلاً ثم صار البعض حراماً بعد أن كان حلاً والقوم نازعوه في ذلك وزعموا أن الذي هو الآن حرام كان حراماً أبداً .

وإذا عرفت هذا فنقول : الآية تحتمل وجوهاً

الأول : أن اليهود كانوا يعولون في إنكار شرع محمد صلى الله عليه وسلم على إنكار النسخ ، فأبطل الله عليهم ذلك بأن ﴿ كُلُّ الطعام كَانَ حِلاًّ لِّبَنِى إسرائيل إِلاَّ مَا حَرَّمَ إسرائيل على نَفْسِهِ ﴾ فذاك الذي حرمه على نفسه ، كان حلالاً ثم صار حراماً عليه وعلى أولاده فقد حصل النسخ ، فبطل قولكم : النسخ غير جائز ، ثم إن اليهود لما توجه عليهم هذا السؤال أنكروا أن يكون حرمة ذلك الطعام الذي حرم الله بسبب أن إسرائيل حرمه على نفسه ، بل زعموا أن ذلك كان حراماً من لدن زمان آدم عليه السلام إلى هذا الزمان ، فعند هذا طلب الرسول عليه السلام منهم أن يحضروا التوراة فإن التوراة ناطقة بأن بعض أنواع الطعام إنما حرم بسبب أن إسرائيل حرمه على نفسه ، فخافوا من الفضيحة وامتنعوا من إحضار التوراة ، فحصل عند ذلك أمور كثيرة تقوي دلائل نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم

أحدها : أن هذا السؤال قد توجه عليهم في إنكار النسخ ، وهو لازم لا محيص عنه

وثانيها : أنه ظهر للناس كذبهم وأنهم ينسبون إلى التوراة ما ليس فيها تارة ، ويمتنعون عن الإقرار بما هو فيها أخرى

(8/125)

وثالثها : أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان رجلاً أُمياً لا يقرأ ولا يكتب فامتنع أن يعرف هذه المسألة الغامضة من علوم التوراة إلا بخبر السماء فهذا وجه حسن علمي في تفسير الآية وبيان النظم .

الوجه الثاني : أن اليهود قالوا له : إنك تدعي أنك على ملة إبراهيم ، فلو كان الأمر كذلك فكيف تأكل لحوم الإبل وألبانها مع أن ذلك كان حراماً في دين إبراهيم فجعلوا هذا الكلام شبهة طاعنة في صحة دعواه ، فأجاب النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الشبهة بأن قال : ذلك كان حلاً لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام ، إلا أن يعقوب حرمه على نفسه بسبب من الأسباب وبقيت تلك الحرمة في أولاده فأنكر اليهود ذلك ، فأمرهم الرسول عليه السلام بإحضار التوراة وطالبهم بأن يستخرجوا منها آية تدل على أن لحوم الإبل وألبانها كانت محرمة على إبراهيم عليه السلام فعجزوا عن ذلك وافتضحوا فظهر عند هذا أنهم كانوا كاذبين في ادعاء حرمة هذه الأشياء على إبراهيم عليه السلام .

الوجه الثالث : أنه تعالى لما أنزل قوله ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾ [الأنعام : 146] وقال أيضاً : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طيبات أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء : 160] فدلت هذه الآية على أنه تعالى إنما حرم على اليهود هذه الأشياء جزاءً لهم على بغيهم وظلمهم وقبيح فعلهم وإنه لم يكن شيء من الطعام حراماً غير الطعام الواحد الذي حرمه إسرائيل على نفسه ، فشق ذلك على اليهود من وجهين

أحدهما : أن ذلك يدل على أن تلك الأشياء حرمت بعد أن كانت مباحة ، وذلك يقتضي وقوع النسخ وهم ينكرونه

(9/125)

والثاني : أن ذلك يدل على أنهم كانوا موصوفين بقبائح الأفعال ، فلما حق عليهم ذلك من هذين الوجهين أنكروا كون حرمة هذه الأشياء متجددة ، بل زعموا أنها كانت محرمة أبداً ، فطالبهم النبي صلى الله عليه وسلم بآية من التوراة تدل على صحة قولهم فعجزوا عنه فافتضحوا ، فهذا وجه الكلام في تفسير هذه الآية وكله حسن مستقيم . انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 119 . 120 ﴾

قوله تعالى ﴿ كُلُّ الطعام كَانَ حِلاًّ لّبَنِى إسراءيل ﴾

فصل

قال الفخر :

قال صاحب "الكشاف" ﴿ كُلُّ الطعام ﴾ أي كل المطعومات أو كل أنواع الطعام وأقول :

اختلف الناس في أن اللفظ المفرد المحلى بالألف واللام هل يفيد العموم أم لا ؟ .

ذهب قوم من الفقهاء والأدباء إلى أنه يفيده ، واحتجوا عليه بوجوه

أحدها : أنه تعالى أدخل لفظ ﴿ كُلُّ ﴾ على لفظ الطعام في هذه الآية ، ولولا أن لفظ الطعام قائم مقام لفظ المطعومات وإلا لما جاز ذلك

وثانيها : أنه استثنى عنه ما حرم إسرائيل على نفسه والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل ، فلولا دخول كل الأقسام تحت لفظ الطعام وإلا لم يصح هذا الاستثناء وأكدوا هذا بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ [العصر : 2 ، 3]

وثالثها : أنه تعالى وصف هذا اللفظ المفرد بما يوصف به لفظ الجمع ، فقال : ﴿ والنخل باسقات لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رّزْقاً لّلْعِبَادِ ﴾ [ق : 10 ، 11] فعلى هذا من ذهب إلى هذا المذهب لا يحتاج إلى الإضمار الذي ذكره صاحب "الكشاف" ، أما من قال إن الاسم المفرد المحلى بالألف واللام لا يفيد العموم ، وهو الذي نظرناه في أصول الفقه احتاج إلى

الإضمار الذي ذكره صاحب "الكشاف" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 121.120 ﴾

فصل

قال الفخر :

(10/125)

الطعام اسم لكل ما يطعم ويؤكل ، وزعم بعض أصحاب أبي حنيفة رحمة الله عليه إنه اسم للبر خاصة ، وهذه الآية دالة على ضعف هذا الوجه ، لأنه استثنى من لفظ الطعام ما حرم إسرائيل على نفسه ، والمفسرون اتفقوا على أن ذلك الذي حرمه إسرائيل على نفسه كان شيئاً سوى الحنطة ، وسوى ما يتخذ منها ومما يؤكد ذلك قوله تعالى في صفة الماء ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنّى ﴾ [البقرة : 249] وقال تعالى : ﴿ وَطَعَامُ الذين أُوتُواْ الكتاب حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ [المائدة : 5] وأراد الذبائح ، وقالت عائشة رضي الله عنها : ما لنا طعام إلا الأسودان ، والمراد التمر والماء .

إذا عرفت هذا فنقول : ظاهر هذه الآية يدل على أن جميع المطعومات كان حلاً لبني إسرائيل ثم قال القفال : لم يبلغنا أنه كانت الميتة مباحة لهم مع أنها طعام ، وكذا القول في

الخنزير ، ثم قال فيحتمل أن يكون ذلك على الأطعمة التي كان يدعي اليهود في وقت الرسول صلى الله عليه وسلم أنها كان محرمة على إبراهيم ، وعلى هذا التقدير لا تكون الألف واللام في لفظ الطعام للاستغراق ، بل للعهد السابق ، وعلى هذا التقدير يزول الإشكال ومثله قوله تعالى : ﴿ قُل لا أَجِدُ فِى مَا أُوْحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِير ﴾ [الأنعام : 145] فإنه إنما خرج هذا الكلام على أشياء سألوا عنها فعرفوا أن المحرم منها كذا وكذا دون غيره فكذا في هذه الآية . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 121 ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إسرائيل على نَفْسِهِ ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في الشيء الذي حرمه إسرائيل على نفسه على وجوه

الأول : روى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن يعقوب مرض مرضاً شديداً فنذر لئن عافاه الله ليحرمن أحب الطعام والشراب عليه ، وكان أحب الطعام إليه

لحمان الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها " وهذا قول أبي العالية وعطاء ومقاتل

والثاني : قيل إنه كان به عرق النسا ، فنذر إن شفاه الله أن لا يأكل شيئاً من العروق

الثالث : جاء في بعض الروايات أن الذي حرمه على نفسه زوائد الكبد والشحم إلا ما على الظهر ، ونقل القفال رحمه الله عن ترجمة التوراة ، أن يعقوب لما خرج من حران إلى كنعان بعث برداً إلى عيصو أخيه إلى أرض ساعير ، فانصرف الرسول إليه ، وقال : إن عيصو هو ذا يتلقاك ومعه أربعمائة رجل ، فذعر يعقوب وحزن جداً وصلّى ودعا وقدم هدايا لأخيه وذكر القصة إلى أن ذكر الملك الذي لقيه في صورة رجل ، فدنا ذلك الرجل ووضع أصبعه على موضع عرق النسا ، فخدرت تلك العصبة وجفت فمن أجل هذا لا يأكل بنو إسرائيل العروق . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 121 . 122﴾

فائدة

قال الماوردى :

واختلفوا في تحريم إسرائيل على نفسه هل كان بإذن الله تعالى أم لا _ على اختلافهم في اجتهاد الأنبياء . . . على قولين :

أحدهما : لم يكن إلا بإذنه وهو قول من زعم أن ليس لنبي أن يجتهد .

والثاني : باجتهاده من غير إذن ، وهو قول من زعم أن للنبي أن يجتهد .

واختلفوا في تحريم اليهود ذلك على أنفسهم على قولين :

أحدهما : أنهم حرموه على أنفسهم اتباعاً لإسرائيل .

والثاني : أن التوراة نزلت بتحريمها فحرموها بعد نزولها ، والأول أصح . انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 409 . 410 ﴾

فصل

قال الفخر :

ظاهر الآية يدل على أن إسرائيل حرم ذلك على نفسه ، وفيه سؤال : وهو أن التحريم والتحليل إنما يثبت بخطاب الله تعالى ، فكيف صار تحريم يعقوب عليه السلام سبباً لحصوله الحرمة .

أجاب المفسرون عنه من وجوه

الأول : أنه لا يبعد أن الإنسان إذا حرم شيئاً على نفسه فإن الله يحرمه عليه ألا ترى أن الإنسان يحرم امرأته على نفسه بالطلاق ، ويحرم جاريته بالعتق ، فكذلك جائز أن يقول تعالى إن حرمت شيئاً على نفسك فأنا أيضاً أحرمه عليك

الثاني : أنه عليه الصلاة والسلام ربما اجتهد فأدى اجتهاده إلى التحريم ، فقال بحرمته وإنما

قلنا : إن الاجتهاد جائز من الأنبياء لوجوه

الأول : قوله تعالى : ﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ [الحشر : 2] ولا شك أن الأنبياء

عليهم الصلاة والسلام رؤساء أولي الأبصار

والثاني : قال : ﴿ لَعَلِمَهُ الذين يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : 83] مدح المستنبطين

والأنبياء أولى بهذا المدح

والثالث : قال تعالى لمحمد عليه الصلاة والسلام ﴿ عَفَا الله عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة :

43] فلو كان ذلك الإذن بالنص ، لم يقل : لم أذنت ، فدل على أنه كان بالاجتهاد

الرابع : أنه لا طاعة إلا وللأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيها أعظم نصيب ولا شك أن

استنباط أحكام الله تعالى بطريق الاجتهاد طاعة عظيمة شاقة ، فوجب أن يكون للأنبياء

عليهم الصلاة والسلام فيها نصيب لا سيما ومعارفهم أكثر وعقولهم أنور وأذهانهم أصفى

وتوفيق الله وتسديده معهم أكثر ، ثم إذا حكموا بحكم بسبب الاجتهاد يحرم على الأمة

مخالفتهم في ذلك الحكم كما أن الإجماع إذا انعقد على الاجتهاد فإنه يحرم مخالفته

والأظهر الأقوى أن إسرائيل صلوات الله عليه إنما حرم ذلك على نفسه بسبب الاجتهاد إذ

لو كان ذلك بالنص لقال إلا ما حرّم الله على إسرائيل فلما أضاف التحريم إلى إسرائيل دل

هذا على أن ذلك كان بالاجتهاد وهو كما يقال : الشافعي يحل لهم الخيل وأبو حنيفة يحرمه بمعنى أن اجتهاده أدى إليه فكذا ههنا .

(13/125)

الثالث : يحتمل أن التحريم في شرعه كالنذر في شرعنا ، فكما يجب علينا الوفاء بالنذر كان يجب في شرعه الوفاء بالتحريم .

واعلم أن هذا لو كان فإنه كان مختصاً بشرعه أما في شرعنا فهو غير ثابت قال تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا النبى لِمَ تُحَرّمُ مَا أَحَلَّ الله لَكَ ﴾ [التحريم : 1]

الرابع : قال الأصم : لعل نفسه كانت مائلة إلى أكل تلك الأنواع فامتنع من أكلها قهراً للنفس وطلباً لمرضاة الله تعالى ، كما يفعله كثير من الزهاد فعبر من ذلك الامتناع بالتحريم

الخامس : قال قوم من المتكلمين أنه يجوز من الله تعالى أن يقول لعبده : احكم فإنك لا تحكم إلا بالصواب فلعل هذه الواقعة كانت من هذا الباب ، وللمتكلمين في هذه المسألة منازعات كثيرة ذكرناها في أصول الفقه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 122 ﴾

فصل

قال الفخر :

ظاهر هذه الآية يدل على أن الذي حرمه إسرائيل على نفسه فقد حرمه الله على بني إسرائيل ، وذلك لأنه تعالى قال : ﴿ كُلُّ الطعام كَانَ حِلاًّ لِّبَنِى إسراءيل ﴾ فحكم بحل كل أنواع المطعومات لبني إسرائيل ، ثم استثنى عنه ما حرمه إسرائيل على نفسه ، فوجب بحكم الاستثناء أن يكون ذلك حراماً على بني إسرائيل والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 122.123 ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التوراة ﴾

قال الفخر :

(14/125)

أما قوله تعالى : ﴿ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التوراة ﴾ فالمعنى أن قبل نزول التوراة كان حلاً لبني إسرائيل كل أنواع المطعومات سوى ما حرّمه إسرائيل على نفسه ، أما بعد التوراة فلم يبق كذلك بل حرم الله تعالى عليهم أنواعاً كثيرة ، روي أن بني إسرائيل كانوا إذا أتوا بذنب عظيم حرم الله عليهم نوعاً من أنواع الطعام ، أو سلّط عليهم شيئاً لهلاك أو مضرة ، دليله قوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طيبات أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء : 160] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 123 ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

فصل

قال الفخر :

(15/125)

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وهذا يدل على أن القوم نازعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إما لأنهم ادعوا أن تحريم هذه الأشياء كان موجوداً من لدن آدم عليه السلام إلى هذا الزمان ، فكذبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك ، وإما لأن الرسول صلى الله عليه وسلم ادعى كون هذه المطعومات مباحة في الزمان القديم ، وأنها إنما حرمت بسبب أن إسرائيل حرمها على نفسه ، فنازعوه في ذلك ، فطلب الرسول عليه السلام إحضار التوراة ليستخرج منها المسلمون من علماء أهل الكتاب آية موافقة لقول الرسول ، وعلى كلا الوجهين ، فالتفسير ظاهر ، ولمنكري القياس أن يحتجوا بهذه الآية ، وذلك لأن الرسول عليه السلام طالبهم فيما ادعوه بكتاب الله ، ولو كان القياس حجة لكان لهم أن يقولوا : لا يلزم من عدم هذا الحكم في التوراة عدمه ، لأنا نثبته بالقياس ، ويمكن أن يجاب عنه بأن النزاع ما وقع في حكم شرعي ، وإنما وقع في أن هذا الحكم ، هل كان

موجوداً في زمان إبراهيم وسائر الأنبياء عليهم السلام أم لا ؟ ومثل هذا لا يمكن إثباته إلا بالنص ، فلهذا المعنى طالبهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، بنص التوراة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 123 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ .

قل : خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم .

وقيل : فأتوا محذوف تقديره : هذا الحق ، لا زعمُكم معشر اليهود .

فأتوا : وهذه أعظم محاجة أَن يُؤمروا بإحضار كتابهم الذي فيه شريعتهم ، فإنه ليس فيه ما ادّعوه بل هو مصدّق لما أخبر به صلى الله عليه وسلم : من أنّ تلك المطاعم كانت حلالاً لهم من قديم ، وأن التحريم هو حادث .

وروي أنهم لم يتجاسروا على الإتيان بالتوراة لظهور افتضاحهم بإتيانها ، بل بهتوا وذلك كعادتهم في كثير من أحوالهم .

وفي استدعاء التوراة منهم وتلاوتها الحجةُ الواضحة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ كان عليه السلام النبيّ الأميَّ الذي لم يقرأ الكتب ولا عرف أخبار الأمم السالفة ، ثم أخذ يحاجهم ويستشهد عليهم بما في كتبهم ولا يجدون من إنكاره محيصاً .

وفي الآية دليل على جواز النسخ في الشرائع ، وهم ينكرون ذلك .

وخرج قوله : " إن كنتم صادقين " مخرجَ الممكن ، وهم معلوم كذبهم .

وذلك على سبيل الهزء بهم كقولك : إنْ كنت شجاعاً فالقني ، ومعلوم ، عندك أنَّه ليس بشجاع ، ولكن هزأت به إذ جعلت هذا الوصف مما يمكن أن يتصف به . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 5 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

الحِلّ بمعنى : الحَلالَ ، وهو - في الأصل - مصدر لِ " حَلَّ يَحِلُّ " ، كقولك : عز يعز عزًّا ، ثم يطلق على الأشخاص ، مبالغة ، ولذلك يَسْتَوي فيه الواحدُ والمثنَّى والمجموعُ ، والمذكَّرُ والمؤنثُ ، كقوله تعالى : ﴿ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ [الممتحنة : 10] ، وفي الحديث عن عائشة : " كُنْتُ أطيِّبُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم لِحِلّه ولِحَرَمِهِ " ، أي لإحلاله ولإحرامه ، وهو كالحرم واللبس - بمعنى : الحرام واللباس - وقال ابن عباس - في زمزم - : هي حِلٌّ وبِلٌّ . رواه سفيان بن عُيَيْنَة ، فسئل سفيان ، ما حِلّ ؟ فقال : محَلّل .

و"لِبَني" : متعلق بـ"حِلاًّ" .

قوله : ﴿ إِلاَّ مَا حَرَّمَ ﴾ مستثنى من اسم "كَانَ" .

وجوَّز أبو البقاء أن يكون مستثنًى من ضمير مستتر في "حِلاًّ" فقال لأنه استثناء من اسم "كَانَ" والعامل فيه : "كان" ، ويجوز أن يعمل فيه "حِلاًّ" ، ويكون فيه ضمير يكون الاستثناء منه ؛ لأن حِلاًّ وحلالاً في موضع اسم الفاعل بمعنى الجائز والمباح .

وفي هذا الاستثناء قولان :

(17/125)

أحدهما : أنه متَّصل ، والتقدير : إلا ما حرَّم إسرائيل على نفسه ، فحرم عليهم في التوراة ، فليس فيها ما زادوه من محرمات ، وادَّعَوْا صحةَ ذلك .

والثاني : أنه مُنْقَطِع ، والتقدير : لكن حرم إسرائيلُ على نفسه خاصَّةً ، ولم يحرمه عليهم ، والأول هو الصحيح .

قوله : ﴿ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التوراة ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه متعلق بـ"حَرَّمَ" أي : إلا ما حرَّمَ من قبل ، قاله أبو البقاء .

قال أبو حيان : " ويبعد ذلك ؛ إذ هو من الإخبار بالواضح ؛ لأنه معلوم أن الذي حَرَّمَ

إسرائيل على نفسه ، هو من قبل إنزال التوراة ضرورةً ؛ لتباعد ما بين وجود إسرائيل وإنزال التوراة " .

والثاني : أنه يتعلق بقوله : ﴿ كَانَ حِلاًّ ﴾ .

قال أبو حيان : " ويظهر أنه متعلّق بقوله : ﴿ كَانَ حِلاًّ لبني إِسْرَائِيلَ ﴾ ، أي : من قبل أن تُنَزَّل التوراة ، وفصل بالاستثناء ؛ إذْ هو فَصْل جائز ، وذلك على مذهب الكسائي وأبي الحسن ، في جواز أن يعمل ما قبل " إلا " فيما بعدها إذا كان ظرفاً أو مجروراً أو حالاً - نحو ما جلس إلا زيد عندك ، ما أوى إلا عمرو إليك ، وما جاء إلا زيد ضاحكاً .

وأجاز الكسائي ذلك في المنصوب مطلقاً ، نحو ما ضرب إلا زيدٌ عمراً ؛ وأجاز ذلك هو وابن الأنباري في المرفوع ، نحو ما ضرب إلا زيداً عمرو ، وأما تخريجه على غير مذهب الكسائي وأبي الحسن ، فيُقدَّر له عامل من جنس ما قبله ، تقديره - هنا - حل من قبل أن ينزل أي تنزل التوراة " .

(18/125)

وقرئ : ﴿ تُنَزَّلَ التوراة ﴾ بتخفيف الزاي وتشديدها ، وكلاهما بمعنى واحد ، وهذا يرد قولَ من قال بأن " تنزّل " - بالتشديد - يدل على أنه نزل مُنَجَّماً ؛ لأن التوراة إنَّما نزلت

دُفْعَةً واحدة بإجماع المفسرين .

. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 388.389 ﴾

فصل

قال البغوى :

روي أن يعقوب مرض مرضًا شديدًا فطال سُقْمُه فنذر لئن عافاه الله من سقمه لَيُحرِّمَنّ أحبَّ الطعام والشراب إليه ، وكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها فحرّمهما .

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي والضحاك : هي العروق .

(19/125)

وكان السبب في ذلك أنه اشتكى عرق النَّسا وكان أصل وجعه فيما روى جُويبر ومقاتل عن الضحاك : أن يعقوب كان نذر إن وهبه الله اثنى عشر ولدًا وأتى بيت المقدس صحيحًا أن يذبح آخرهم فتلقاه مَلك [من الملائكة] فقال : يا يعقوب إنك رجل قوي فهل لك في الصراع ، فعالجه فلم يصرعْ واحدٌ منهما صاحبَه فغمزه المَلك غمزة فعرض له عرق النسا من ذلك ، ثم قال له : أمَا إني لو شئت أن أصرعك لفعلت ولكن غمزتك هذه الغمزة

لأنك كنت نذرت إن أتيت بيت المقدس صحيحًا ذبحت آخر ولدك ، فجعل الله لك بهذه الغمزة من ذلك مخرجًا ، فلما قدمها يعقوب أراد ذبح ولده ونسي قول الملَكِ فأتاه الملَكُ وقال : إنما غمزتك للمخرج وقد وُفي نذرُك فلا سبيل لك إلى ولدك . (1)

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي : أقبل يعقوب من حران يريد بيت المقدس حين هرب من أخيه عيصو : وكان رجلا بطيشًا قويًا فلقيه ملك فظن يعقوب أنه لص فعالجه أن يصرعه فغمز الملك فخذ يعقوب ، ثم صعد إلى السماء ويعقوب عليه السلام ينظر إليه ، فهاج به عرق النسا ولقي من ذلك بلاءً وشدةً وكان لا ينام بالليل من الوجع ، ويبيت وله زقاء ، أي : صياح ، فحلف يعقوب لئن شفاه الله أن لا يأكل عرقًا ولا طعاما فيه عرق ، فحرمه على نفسه ، فكان بنوه بعد ذلك يتبعون العروق يخرجونها من اللحم .

وروى جُويبر عن الضحاك عن ابن عباس : لمّا أصاب يعقوب عرق النسا وصف له الأطباء أن يجتنب لحمان الإبل فحرمها يعقوب على نفسه .

وقال الحسن : حرّم إسرائيل على نفسه لحم الجزور تعبدًا لله تعالى : فسأل ربَّه أن يجيز له ذلك فحرمه الله على ولده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البغوى حـ 2 صـ 68 ﴾

---

(1) هذا القول يفتقر إلى سند وسياقها تظهر عليه علامات الإسرائيليات . والله أعلم .

وقال ابن كثير :

قال ابن عباس [رضي الله عنه] حضرت عصابة من اليهود نبيّ الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : حدّثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي . قال : "سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ ، وَلَكِنْ اجْعَلُوا لِي ذِمَّةَ اللَّهِ ، وَمَا أَخَذَ يَعْقُوبُ عَلَى بَنِيهِ لَئِنْ أنا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا فَعَرَفْتُمُوهُ لَتُتَابِعُنِّي عَلَى الإِسْلامِ" . قَالُوا : فَذَلِكَ لَكَ . قَالَ : "فَسَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ" قالوا : أَخْبِرْنَا عن أربع خلال : أَخْبِرْنَا أَيُّ الطعام حَرَّمَ إسرائيل على نفسه ؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل ؟ كيف هذا النبي الأمّي في النوم ؟ ومن وليّه من الملائكة ؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنه وقال : "أَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي أَنزلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى : هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا وَطَالَ سُقْمُهُ ، فَنَذَرَ لِلَّهِ نَذْرًا لَئِنْ شَفَاهُ اللَّهُ مِنْ سُقْمِهِ لَيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ وَأَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ ، وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحْمانَ الإِبِلِ ، وَأَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا" فقالوا : اللهم نعم . قال : "اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ" . وقال : أَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ ، الَّذِي أَنزلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى : هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ أَبْيَضُ غَلِيظٌ ، وماءَ الْمَرْأَةِ أَصْفَر رَقِيقٌ ، فَأَيُّهُمَا عَلا كَانَ لَهُ الولد وَالشَّبَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ ، إِنْ عَلا مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ المرأة كَانَ ذَكَرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَإِنْ عَلا مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ كَانَ أُنْثَى بِإِذْنِ اللَّهِ" . قالوا : نعم . قال : "اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ" . وقال :

(21/125)

"أَنشُدُكُمْ بِالَّذِي أَنزلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى : هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الأُمِّيَّ تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلا يَنَامُ قَلْبُهُ" . قالوا : اللهم نعمْ . قَالَ : "اللَّهُمَّ اشْهَدْ" . قالوا : وأنت الآن فحدثنا منْ وليُّك من الملائكة ؟ فعندها نجامعك أو نفارقك قال : "إِنَّ وَلِيِّي جِبْرِيلُ ، وَلَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ نَبِيًّا قَطُّ إِلا وَهُوَ وَلِيُّهُ" . قالوا : فعندها نفارقك ، ولو كان وليك غيره لتابعناك ، فعند ذلك قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ﴾ الآية [البقرة : 97] .

ورواه أحمد أيضًا ، عن حسين بن محمد ، عن عبد الحميد ، به . (1)

---

(1) المسند (278/1) .

(22/125)

طريق أخرى : قال أحمد : حدثنا أبو أحمد الزبيري حدثنا عبد الله بن الوليد العِجْليّ ، عن بُكَير بن شهاب ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس قال : أقبلت يهودُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا أبا القاسم ، نسألك عن خمسة أشياء ، فإن أنبأتنا بهن

عرفنا أنك نبي واتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: 66]. قال: "هاتوا". قالوا: أخبرنا عن علامة النبي؟ قال: "تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُه". قالوا: أخبرنا كيف تُؤَنَّثُ المرأةُ وكيف تُذْكِرُ؟ قال: "يَلْتَقِي المَاءَان، فإذا علا مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ أَذْكَرَتْ، وإذا عَلا مَاءُ الْمَرْأَةِ آنَثَتْ. قالوا: أخبرنا ما حَرَّمَ إسرائيل على نفسه، قال: "كَانَ يَشْتَكِي عِرْقَ النَّسَا، فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلائِمُهُ إلا أَلْبَانَ كَذَا وكَذَا -قال أحمد: قال بعضهم: يعني الإبل- فَحَرَّمَ لُحُومَهَا". قالوا: صدقت. قالوا: أخبرنا ما هذا الرَّعد؟ قال: "مَلَكٌ مِنْ مَلائِكَةِ الله مُوكَلٌ بالسَّحَابِ بِيَدِهِ -أو في يَدِهِ- مِخْرَاقٌ مِنْ نَارٍ يَزْجُر بِهِ السَّحابَ، يَسُوقُهُ حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ". قالوا: فما هذا الصوت الذي يُسمع؟ قال: "صَوْتُه". قالوا: صدقت، إنما بقيت واحدة، وهي التي نتابعك إن أخبرتنا بها، فإنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبُك؟ قال: "جبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ". قالوا: جبريل ذاك ينزل بالحَرْب والقتال والعذاب عَدُوُّنا. لو قلتَ: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطْر لكانَ، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: 97]. ﴿ المسند (274/1) وسنن الترمذي برقم (3117) والنسائي في السنن الكبرى برقم (9072) ﴾. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 75.74 ﴾

من فوائد العلامة ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿ كل الطعام ﴾ الآية، إخبار بمغيب عن محمد صلى الله عليه وسلم وجميع الأميين لا يعلمه إلا الله وعلماء أهل الكتاب، وذهب كثير من المفسرين إلى أن معنى الآية: الرد على اليهود في قولهم في كل ما حرموه على أنفسهم من الأشياء: إنها محرمة عليهم بأمر الله في التوراة، فأكذبهم الله بهذه الآية، وأخبر أن جميع الطعام كان حلاً لهم، إلا ما حرم إسرائيل على نفسه خاصة، ولم يرد به ولده، فلما استنوا هم به جاءت التوراة بتحريم ذلك عليهم، وليس من التوراة شيء من الزوائد التي يدعون أن الله حرمها، وإلى هذا تنحو ألفاظ السدي، وقال: إن الله تعالى حرم ذلك عليهم في التوراة عقوبة لاستنانهم في تحريم شيء إنما فعله يعقوب خاصة لنفسه، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ﴾ [النساء: 160].

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه : والظاهر في لفظة ظلم أنها مختصة بتحريم ونحوه ، يدل على ذلك أن العقوبة وقعت بذلك النوع ، وذهب قوم من العلماء إلى أن معنى الآية : الرد على قوم من اليهود قالوا : إن ما نحرمه الآن على أنفسنا من الأشياء التي لم تذكر في التوراة كان علينا حراماً في ملة أبينا إبراهيم ، فأكذبهم الله وأخبر أن الطعام كله كان حلالاً لهم قبل التوراة ﴿ إلا ما حرم إسرائيل ﴾ في خاصته ، ثم جاءت التوراة بتحريم ما نصت عليه ، وبقيت هذه الزوائد في حيز افترائهم وكذبهم ، وإلى هذا تنحو ألفاظ ابن عباس رضي الله عنهما وترجم الطبري في تفسير هذه الآية بتراجم ، وأدخل تحتها أقوالاً توافق تراجمه ، وحمل ألفاظ الضحاك أن الاستثناء منقطع وكأن المعنى : كل الطعام كان حلالاً لهم قبل نزول التوراة وبعد نزولها .

قال الفقيه الإمام أبو محمد : فيرجع المعنى إلى القول الأول الذي حكيناه ، وحمل الطبري قول الضحاك إن معناه : لكن إسرائيل حرم على نفسه خاصة ولم يحرم الله على بني إسرائيل في توراة ولا غيرها .

قال الفقيه الإمام : وهذا تحميل يرد عليه قوله تعالى : ﴿ حرمنا عليهم ﴾ [الأنعام : 146] وقوله صلى الله عليه وسلم : حرمت عليهم الشحوم إلى غير ذلك من الشواهد ، وقوله تعالى : ﴿ حِلاًّ ﴾ معناه : حلالاً ، و ﴿ إسرائيل ﴾ هو يعقوب ، وانتزع من هذه الآية أن للأنبياء أن يحرموا باجتهادهم على أنفسهم ما اقتضاه النظر لمصلحة أو قربة أو زهد ، ومن هذا على جهة المصلحة تحريم النبي صلى الله عليه وسلم جاريته ، فعاتبه الله تعالى في ذلك ولم يعاتب يعقوب ، فقيل : إن ذلك لحق آدمي ترتب في نازلة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقيل : إن هذه تحريم تقرب وزهد ، وتحريم الجارية تحريم غضب ومصلحة نفوس ، واخلتف الناس في الشيء الذي حرمه يعقوب على نفسه فقال يوسف بن ماهك : جاء أعرابي إلى ابن عباس فقال له : إنه جعل امرأته عليه حراماً ، فقاله ابن عباس : إنها ليس عليك بحرام ، فقال الأعرابي : ولم ؟ والله تعالى يقول في كتابه ﴿ إلا ما حرم إسرائيل على نفسه ﴾ فضحك ابن عباس وقال : وما يدريك ما حرم إسرائيل ؟ ثم أقبل على القوم يحدثهم ، فقال : إن إسرائيل عرضت له الأنساء فأضنته فجعل لله إن شفاه من ذلك أن لا يطعم عرقاً ، قال : فلذلك اليهود تنزع العروق من اللحم ، وقال بمثل هذا القول قتادة وأبو مجلز وغيرهم ، وقال ابن عباس والحسن بن أبي الحسن وعبد الله بن كثير ومجاهد أيضاً : إن الذي حرم إسرائيل هو لحوم الإبل وألبانها ، ولم يختلف فيما علمت أن سبب التحريم هو بمرض أصابه ، فجعل تحريم ذلك شكراً لله تعالى إن شفي ، وقيل : هو وجع عرق النسا ،

وفي حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أن عصابة من بني إسرائيل قالوا له : يا محمد ما الذي حرم إسرائيل على نفسه ؟ فقال لهم : أنشدكم بالله هل تعلمون أن يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه فنذر لله نذراً إن

(26/125)

عافاه الله من سقمه ليحرمنَّ أحب الطعام والشراب إليه ، وكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل وألبانها ؟ قالوا : اللهم نعم ، وظاهر الأحاديث والتفاسير في هذه الأمر أن يعقوب عليه السلام حرم الإبل وألبانها ، وهو يحبها ، تقرباً إلى الله بذلك ، إذ ترك الترفه والتنعم من القرب ، وهذا هو الزهد في الدنيا ، وإليه نحا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله : إياكم وهذه المجازر فإن لها ضراوة كضراوة الخمر ومن ذلك قول أبي حازم الزاهد ، وقد مر بسوق الفاكهة فرأى محاسنها فقال : موعدك الجنة إن شاء الله ، وحرم يعقوب عليه السلام أيضاً العروق ، لكن بغضه لها لما كان امتحن بها ، وهذا شيء يعتري نفوس البشر في غير ما شيء وليس في تحريم العروق قربة فيما يظهر ، والله أعلم ، وقد روي عن ابن عباس : أن يعقوب حرم العروق ولحوم الإبل ، وأمر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم بالإتيان بالتوراة ، حتى يبين منها كيف الأمر ، المعنى : فإنه أيها اليهود ، كما أنزل الله عليَّ لا

كما تدعون أنتم ، قال الزجّاج : وفي هذا تعجيز لهم وإقامة الحجة عليهم ، وهي كقصة المباهلة مع نصارى نجران . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 1 صـ 472 ـ 473﴾

(27/125)

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿كُلُّ الطعام كَانَ حِلاًّ لِّبَنِى إسرائيل﴾ روى الواحدي عن الكلبي أنه حين قال النبي صلى الله عليه وسلم : "أنا على ملة إبراهيم قالت اليهود : كيف وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كان ذلك حلالاً لإبراهيم عليه السلام فنحن نحله فقالت اليهود : كل شيء أصبحنا اليوم نحرمه فإنه كان محرماً على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا فأنزل الله تعالى هذه الآية تكذيباً لهم" والطعام بمعنى المطعوم ، ويراد به هنا المطعومات مطلقاً أو المأكولات وهو لكونه مصدرا منعوتاً به معنى يستوي فيه الواحد المذكور وغيره وهو الأصل المطرد فلا ينافيه قول الرضيّ : إنه يقال : رجل عدل ورجلان عدلان لأنه رعاية لجانب المعنى ، وذكر بعضهم أن هذا التأويل يجعل كلا للتأكيد لأن

الاستغراق شأن الجمع المعرف باللام ، والحل مصدر أيضاً أريد منه حلالاً ، والمراد الإخبار عن أكل الطعام بكونه حلالاً لا نفس الطعام لأن الحل كالحرمة مما لا يتعلق بالذوات ولا يقدر نحو الانفاق وإن صح أن يكون متعلق الحل وربما توهم بقرينة ما قبله لأنه خلاف الغرض المسوق له الكلام . و﴿ إسرائيل ﴾ هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام ، وعن أبي مجلز أن ملكاً سماه بذلك بعد أن صرعه وضرب على فخذه .

(28/125)

﴿ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إسرائيل على نَفْسِهِ ﴾ قال مجاهد : حرم لحوم الأنعام ، وروى عكرمة عن ابن عباس أنه حرم زائدتي الكبد والكليتين والشحم إلا ما كان على الظهر ، وعن عطاء أنه حرم لحوم الإبل وألبانها . وسبب تحريم ذلك كما في الحديث الذي أخرجه الحاكم وغيره بسند صحيح عن ابن عباس أنه عليه الصلاة والسلام كان به عرق النسا فنذر إن شفي لم يأكل أحب الطعام إليه وكان ذلك أحب إليه ، وفي رواية سعيد بن جبير عنه أنه كان به ذلك الداء فأكل من لحوم الإبل فبات بليلة يزقو فحلف أن لا يأكله أبداً ، وقيل : حرمه على نفسه تعبداً وسأل الله تعالى أن يجيز له فحرم سبحانه على ولده ذلك ، ونسب هذا إلى الحسن ، وقيل : إنه حرمه وكف نفسه عنه كما يحرم المستظهر في دينه من الزهاد اللذائذ على

نفسه . وذهب كثير إلى أن التحريم كان بنص ورد عليه ، وقال بعض : كان ذلك عن اجتهاد ويؤيده ظاهر النظم ، وبه استدل على جوازه للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والاستثناء متصل لأن المراد على كل تقدير أنه حرمه على نفسه وعلى أولاده ، وقيل : منقطع ، والتقدير ولكن حرم إسرائيل على نفسه خاصة ولم يحرمه عليهم وصحح الأول .

(29/125)

﴿ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ﴾ الظاهر أنه متعلق بقوله تعالى : ﴿ الطعام كَانَ حِلاًّ ﴾ ولا يضر الفصل بالاستثناء إذ هو فصل جائز ، وذلك على مذهب الكسائي وأبي الحسن في جواز أن يعمل ما قبل إلا فيما بعدها إذا كان ظرفاً أو جاراً ومجروراً أو حالاً ، وقيل : متعلق بحرم ، وتعقبه أبو حيان بأنه بعيد إذ هو من الإخبار بالواضح المعلوم ضرورة ولا فائدة فيه ، واعتذر عنه بأن فائدة ذلك بيان أن التحريم مقدم عليها وأن التوراة مشتملة على محرمات أخر حدثت عليهم حرجاً وتضييقاً ، واختار بعضهم أنه متعلق بمحذوف ، والتقدير : كان حلاً من قبل أن تنزل التوراة في جواب سؤال نشأ من سابق المستثنى كأنه قيل : متى كان حلاً ؟ فأجيب به والذي دعاه إلى ذلك عدم ظهور فائدة تقييد التحريم ولزوم قصر الصفة قبل تمامها على تقدير جعله قيداً للحل .

ولا يخفى ما فيه ، والمعنى على الظاهر أن كل الطعام ما عدا المستثنى كان حلالاً لبني إسرائيل قبل نزول التوراة مشتملة على تحريم ما حرم عليهم لظلمهم ، وفي ذلك رد لليهود في دعواهم البراءة فيما نعى عليهم قوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ [النساء : 160] وقوله سبحانه : ﴿ وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا ﴾ [الأنعام : 146] الآيتين ، وتبكيت لهم في منع النسخ ضرورة أن تحريم ما كان حلالاً لا يكون إلا به ودفع الطعن في دعوى الرسول صلى الله عليه وسلم موافقته لأبيه إبراهيم عليه السلام على ما دل عليه سبب النزول . وذهب السدي إلى أنه لم يحرم عليهم عند نزول التوراة إلا ما كان يحرمونه قبل نزولها اقتداءاً بأبيهم يعقوب عليه السلام ، وقال الكلبي : لم يحرم سبحانه عليهم ما حرم في التوراة ، وإنما حرمه بعدها بظلمهم وكفرهم ، فقد كانت بنو إسرائيل إذا أصابت ذنباً عظيماً حرم الله تعالى عليهم طعاماً طيباً وصب عليهم رجزاً ، وعن الضحاك أنه لم يحرم الله تعالى عليهم شيئاً من ذلك في التوراة ولا بعدها ، وإنما هو شيء حرموه على أنفسهم اتباعاً لأبيهم وإضافة تحريمه إلى الله تعالى مجاز وهذا في غاية البعد .

﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِالتوراة فاتلوها ﴾ أمر له صلى الله عليه وسلم بأن يحاجهم بكتابهم الناطق بصحة ما يقول في أمر التحليل والتحريم وإظهار اسم التوراة لكون الجملة كلاماً مع اليهود منقطعاً عما قبله، وقوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أي في دعواكم شرط حذف جوابه لدلالة ما قبله عليه أي إن كنتم صادقين فأتوا بالتوراة فاتلوها، روي أنهم لم يجسروا على الإتيان بها فبهتوا وألقموا حجراً. وفي ذلك دليل ظاهر على صحة نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم إذ علم بأن ما في التوراة يدل على كذبهم وهو لم يقرأها ولا غيرها من زبر الأولين ومثله لا يكون إلا عن وحي. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 4 صـ 3.2 ﴾

وقال ابن عاشور:

﴿ كُلُّ الطعام كَانَ حِلاًّ لِّبَنِى إسرائيل ﴾

هذا يرتبط بالآي السَّابقة في قوله تعالى: ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ﴾ [آل عمران: 67] وما بينهما اعتراضات وانتقالات في فنون الخطاب.

وهذه حجّة جزئية بعد الحجج الأصليّة على أنّ دين اليهودية ليس من الحنيفية في شيء، فإنّ الحنيفية لم يكن ما حرّم من الطّعام بنصّ التّوراة محرّماً فيها، ولذلك كان بنو إسرائيل قبل التّوراة على شريعة إبراهيم، فلم يكن محرّماً عليهم ما حُرّم من الطعام إلاّ طعاماً حرّمه يعقوب على نفسه.

والحجّة ظاهرة ويدلّ لهذا الارتباط قوله في آخرها : ﴿ قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ [آل عمران : 95] .

(32/125)

ويحتمل أنّ اليهود مع ذلك طعنوا في الإسلام ، وأنّه لم يكن على شريعة إبراهيم ، إذْ أباح للمسلمين أكل المحرّمات على اليهود ، جهلاً منهم بتاريخ تشريعهم ، أو تضليلاً من أحبارهم لعامّتهم ، تنفيراً عن الإسلام ، لأن الأمم في سذاجتهم إنّما يتعلّقون بالمألوفات ، فيعدّونها كالحقائق ، ويقيمونها ميزاناً للقبول والنّقد ، فبيّن لهم أنّ هذا ممّا لا يُلتفت إليه عند النّظر في بقيّة الأديان ، وحسبكم أنّ ديناً عظيماً وهو دين إبراهيم ، وزُمرة من الأنبياء من بنيه وحفدته ، لم يكونوا يحرّمون ذلك .

وتعريف (الطّعام) تعريف الجنس ، و(كُلّ) للتنصيص على العموم .

وقد استدلّ القرآن عليهم بهذا الحكم لأنّه أصرح ما في التّوراة دلالة على وقوع النسخ فإنّ التوراة ذكرت في سفر التكوين ما يدلّ على أنّ يعقوب حرّم على نفسه أكل عِرق النَّسَا الَّذِي على الفخذ ، وقد قيل : إنّه حرّم على نفسه لحوم الإبل وألبانها ، فقيل : إنّ ذلك على وجه النذر ، وقيل : إنّ الأطبّاء نهوه عن أكل ما فيه عرق النّسا لأنّه كان مبتلى بوجع نَساه ، وفي

الحديث أنّ يعقوب كان في البدو فلم تستقم عافيته بأكل اللّحم الّذي فيه النّسا .

وما حرّمه يعقوب على نفسه من الطعام : ظاهر الآية أنّه لم يكن ذلك بوحي من الله إليه ، بل من تلقاء نفسه ، فبعضه أراد به تقرّباً إلى الله بحرمان نفسه من بعض الطيّبات المشتهاة ، وهذا من جهاد النَّفس ، وهو من مقامات الزّاهدين ، وكان تحريم ذلك على نفسه بالنذر أو بالعزم .

وليس في ذلك دليل على جواز الاجتهاد للأنبياء في التشّريع لأنّ هذا من تصرّفه في نفسه فيما أبيح له ، ولم يدع إليه غيرَه ، ولعلّ أبناء يعقوب تأسَّوا بأبيهم فيما حرَّمه على نفسه فاستمرّ ذلك فيهم .

(33/125)

وقوله : ﴿ من قبل أن تنزل التوراة ﴾ تصريح بمحلّ الحجَّة من الردّ إذ المقصود تنبيههم على ما تناسوه فنُزلوا منزلة الجاهل بكون يعقوب كان قبل موسى ، وقال العصام : يتعلّق قوله : ﴿ من قبل أن تنزل التوراة ﴾ بقوله : ﴿ حِلاًّ ﴾ لئلاّ يلزم خلوّه عن الفائدة ، وهو غير مُجد لأنّه لمّا تأخّر عن الاستثناء من قوله ﴿ حلاّ ﴾ وتبيّن من الاستثناء أنّ الكلام على زمن يعقوب ، صار ذكر القيد لغواً لولا تنزيلهم منزلة الجاهل ، وقصد إعلان التّسجيل بخطئهم

والتعريض بغباوتهم.

وقوله: ﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتّلوها إن كنتم صادقين ﴾ أي في زعمكم أنّ الأمر ليس كما قلناه أو إن كنتم صادقين في جميع ما تقدّم: من قولكم إنّ إبراهيم كان على دين اليهودية، وهو أمر للتعجيز، إذ قد علم أنّهم لا يأتون بها إذا استدلّوا على الصّدق.

والفاء في قوله: ﴿ فأتوا ﴾ فاء التفريع.

وقوله: ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ شرط حذف جوابه لدلالة التفريع الّذي قبله عليه.

والتّقدير: إن كنتم صادقين فأتوا بالتّوراة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 156.155 ﴾

(34/125)

فائدة

قال الجصاص:

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُحَرِّمَ عَلَى نَفْسِهِ شَيْئًا وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مَوْقِعَ الْمَصْلَحَةِ فِي الْحَظْرِ وَالْإِبَاحَةِ؛ إذْ كَانَ عِلْمُ الْمَصَالِحِ فِي الْعِبَادَاتِ لِلَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ؟ قِيلَ: هَذَا جَائِزٌ بِأَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لَهُ فِيهِ، كَمَا يَجُوزُ الِاجْتِهَادُ فِي الْأَحْكَامِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى فَيَكُونُ مَا يُؤَدِّي إلَيْهِ

الِاجْتِهَادُ حُكْمًا لِلَّهِ تَعَالَى .

وَأَيْضًا فَجَائِزٌ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُحَرِّمَ امْرَأَتَهُ عَلَى نَفْسِهِ بِالطَّلَاقِ وَيُحَرِّمَ جَارِيَتَهُ بِالْعِتْقِ ، فَكَذَلِكَ جَائِزٌ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لَهُ فِي تَحْرِيمِ الطَّعَامِ ، إمَّا مِنْ جِهَةِ النَّصِّ أَوْ الِاجْتِهَادِ .

وَمَا حَرَّمَهُ إسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ تَحْرِيمُهُ صَدَرَ عَنْ اجْتِهَادٍ مِنْهُ فِي ذَلِكَ أَوْ تَوْقِيفًا مِنْ اللَّهِ لَهُ فِي إبَاحَةِ التَّحْرِيمِ لَهُ إنْ شَاءَ .

وَظَاهِرُ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَحْرِيمَهُ صَدَرَ عَنْ اجْتِهَادٍ مِنْهُ فِي ذَلِكَ لِإِضَافَةِ اللَّهِ تَعَالَى التَّحْرِيمَ إلَيْهِ ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ عَنْ تَوْقِيفٍ لَقَالَ : " إلَّا مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى بَنِي إسْرَائِيلَ " فَلَمَّا أَضَافَ التَّحْرِيمَ إلَيْهِ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ جَعَلَ إلَيْهِ إيجَابَ التَّحْرِيمِ مِنْ طَرِيقِ الِاجْتِهَادِ .

(35/125)

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يَجْعَلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الِاجْتِهَادَ فِي الْأَحْكَامِ كَمَا جَازَ لِغَيْرِهِ ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْلَى بِذَلِكَ لِفَضْلِ رَأْيِهِ وَعِلْمِهِ بِوُجُوهِ الْمَقَايِيسِ وَاجْتِهَادِ الرَّأْيِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 2 صـ 302﴾

(36/125)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ﴾

وحين يحرم نبي الله يعقوب – إسرائيل – طعاما ما ، فهو حر ؛ فقد يحرم على نفسه طعاما كنذر ، أو كوسيلة علاج أو زهادة ، لكن الله لم يحرم عليه شيئًا ، وما تحتجون به أيها اليهود إنما هو خصوصية لسيدنا يعقوب ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ فلماذا تقولون : إن الإبل وألبانها كانت محرمة ؟

لقد فعلوا ذلك لأنهم أرادوا أن يستروا على أنفسهم نقيصة لا يحبون أن يُفضحوا بها ، وتلك هي النقيصة التي كشفها القرآن بالقول الكريم :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾

[الأنعام : 146]

إذن فهناك أشياء قد حُرمت على اليهود لأنهم ظلموا ، وهذه الآية الكريمة هي التي أوضحت أن الحق قد حرم عليهم هذه الأطعمة لظلمهم . ومعنى : ﴿ كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾ أي

القدم التي تكون اصابعها مندمجة ومتصلة ، فليست الأصابع منفصلة ، ونجدها في الإبل والنعام والأوز ، والبط ، وهذه كلها تسمى ذوات الظفر ﴿ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ يعني الشحم الذي على الظهر . أما " الحوايا " فهي الدهون التي في الأمعاء الغليظة ﴿ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ . أي الشحم الذي يختلط بالعظم إن التحريم هنا لم يكن لأن هذه الأشياء ضارة ، ولكن التحريم إنما كان عقابا لهم على ظلمهم لأنفسهم وبغيهم على غيرهم .

(37/125)

وأقول ذلك حتى لا يقول كل راغب في الانفلات من حكم الله ما الضرر في تحريم الأمر الفلاني ؟ إن محاولة البحث عن الضرر فيما حرمه الله هي رغبة في الانفلات عن حكم الله . فالتحريم قد يأتي أدبا وتأديبا ، ونحن على المستوى البشرى - ولله المثل الأعلى - يمنع الإنسان منا " المصروف " عن ابنه تأديبا ، أو يمنع عنه الحلوى ، لأن الابن خرج عن طاعة أمه ، إذن كان التحريم جزاءً لهم وعقابا قال تعالى :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾

[النساء : 160-161]

وذلك هو الجزاء الذي أراده الله عليهم .

إن التشريع السماوي حينما يأتي لظالم يخرج عن منهج الله فكأنه يقول له ما هو القصد من خروجه عن منهج الله ؟ لماذا يظلم ؟ لماذا يأخذ الربا ؟ لماذا يصد عن سبيل الله ؟ لماذا يأكل أموال الناس بالباطل ؟ إن الظالم يفعل ذلك حتى يمتع نفسه بشيء أكثر من حقه ، لذلك يأتي التشريع السماوي ليفوت عليه حظ المتعة ، وكان هذا الحظ من المتعة حقا وحلالاً له ، لكن التشريع يحرمه .

ومثال ذلك القاتل يحرم من ميراث من يقتله ؟ لأن القاتل استعجل ما أخره الله, وأراد أن يجعل لنفسه المتعة بالميراث ، فارتكب جريمة قتل ، لذلك يأتي التشريع ليحرمة من الميراث .

(38/125)

كأن التشريع يقول له : " ما دامت نيتك هكذا فأنت محروم من الميراث " والتشريع حين وضع ذلك إنما حمى كل مورث, وإلا لكان كل مورث عرضة لتعدى ورثته عليه بالقتل لينتقل إليهم ما يملك ، فقال : لا . نحرمة من الميراث وكذلك هنا نجد الظلم بأنواعه المختلفة ، الظلم

بإنكار الحق, والصد عن سبيل الله ، وأخذ الربا ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وما دام اليهود قد أدخلوا على أنفسهم أشياء ليست لهم فالتشريع يسلب منهم أشياء كانت حقا لهم .

وكان اليهود في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرغبون ألا يُشاع عنهم هذا الأمر فقالوا : إن هذا الطعام محرم على بني إسرائيل . وبعد ذلك وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هذا اللون من الطعام حلال في التوراة ، فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر الذي فضحهم .

ولماذا تجيء هذه الآية بعد قوله الحق في الآية السابقة : ﴿ لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ ؟ ونحن نعرف أن آية ﴿ لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ ﴾ قد جاءت بعد آية توضح النفقة غير المقبولة من الله . ولنذكر ما قلناه أولا ، عن تداعي المعاني في الملكات الإنسانية : إن في النفس الإنسانية ملكة تستقبل ، فتتحرك ملكة أخرى ، وحين يقول الحق : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ فالذين يسمعون هذا سينفعلون انفعالات مختلفة ، فالشبعان من الناس لن يلتفت إلى هذه المسألة بانتباه بالغ ، ومن عنده بعض الطعام فإن نفسه قد تتحرك إلى ألوان أخرى من الطعام ، أما من ليس عنده طعام فلسوف يلتفت بانتباه شديد ليتعرف على الحلال من الطعام والحرام منه .

إذن فقبل أن يأتي الله بالحكم الذي يحلل ويحرم ، هذا الحكم الذي يثير عند الجائع شجن الافتقار وشجن ذكر الطعام الذي يسيل له لعابه ، إن الحق قبل أن يحرك معدما على غير موجود معه ، فإنه يحرك معطيا على موجود معه ، لذلك فقبل أن يأتي الحق سبحانه ويذكر الطعام ، وقبل أن يُقلب الأمر على النفس الإنسانية التي لا تجد طعاما ، نجد الرسول قد نطق قبلها بما أنزله عليه الحق ﴿ لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ . فبتداعي المعاني في النفس الإنسانية يكون - سبحانه - قد حرك ملكة واجدة ومالكة قبل أن يحرك ملكة معدمة . وهكذا يكون التوازن الذي أراده الله في الكون المخلوق له .

إنه رب يحكم كونه ، فلا ينسى شيئا ويذكر شيئا . ﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى ، ﴾ إن كل شيء في علمه كما قَدّره وهو الخلاق القدير العليم ، وهو لا يذكر بعضا من الخلق ، وينسى بعضا آخر ، فهو قد كتب العدم لحكمة ، وأعطى النعمة لحكمة .

لقد جعل الفقير عبرة ، ولكنه لم يتركه ، وذلك حتى يرى كل إنسان أن القدرة على الكسب ليست إلا عرضا زائلا ، فمن الممكن أن يصبح القادر الآن عاجزا بعد دقائق أو ساعات ، ومن الممكن أن يصبح القوي ضعيفا ، فإذا ما علم القوى أو القادر ذلك فإنه يتحرك إلى إعطاء الآخرين ؛ حتى يضمن لنفسه التأمين الإلهي لو صار ضعيفا ، فيعطيه الأقوياء ،

فعندما يأمر الله الأقوياء بأن يعطوا وينفقوا فإن عليهم إن يستجيبوا ؛ لأن الواحد منهم لو صار ضعيفا فسوف يأخذ .

(40/125)

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ هذا القول قد خدم قضية سبقتها ، وهي أنه لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به ، ما دام كافرا ، إنها نفقة مرفوضة لا اعتبار لها ، إنها هدر . ويأتي من بعد ذلك بتحديد النفقة التي ليست هدرا ، ثم يفضح اليهود بقضية توجد عندهم في التوراة ولكنهم كذبوها ، وهي قضية تتعرض للطعام ، وما دامت القضية تتعرض للطعام فهناك الكثير من الملكات التي يمكن أن تتحرك ، فملكات الواجد حين تتحرك فحركتها تكون بأسلوب غير الأسلوب الذي تتحرك به ملكات المعدم . فقيل أن يُحرِك وجدان المعدم إلى أنه معدم ، حتى لا يتلقى ذلك بحسرة ، فإنه سبحانه يكون قد عمل رصيدا لهذا المعدم ، فيرقق قلب الواجد أولا ﴿ لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ وبعد ذلك يأتي قوله الحق سبحانه :

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران: 93]

ومعنى كلمة "حل" هو "حلال"، ويقابلها "حرام" وحل هي مصدر، وما دامت مصدرا فلا نقول "هذان حلالان" بل نقول: "هذان حل"، ونقول: "هؤلاء حل" وإن شئت فاقرأ قوله تعالى:

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾

[الممتحنة: 10]

(41/125)

"لا هن" هذه لجماعة النساء، والحل مفرد، وعندما يقول الحق سبحانه: ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ فهذا يعني أنه قد حرم بعضا من الطعام على نفسه فهو حر في أن يأخذ أو يترك، أو أنه قد حرمه على نفسه فوافقه الله؛ لأن الناذر حين ينذر شيئا لم يفرضه الله عليه فهو قد ألزم نفسه بالنذر أمام الله.

إن الزمن الذي حرم فيه إسرائيل على نفسه بعضا من الأطعمة هو ﴿ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ﴾ أي أن هذا التحريم لم يحرمه الله، ويأتي الأمر لرسوله الكريم أن يخاطب بني

إسرائيل : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ إنه قد كشف سترهم ، وعلموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أن النص الذي يؤيد صدقه موجود في التوراة ، ولهذا لم يأت اليهود بالتوراة ، وذلك لعلمهم أن فيها نصا صريحا يصدق ما جاء به رسول الله ، ولا يحتمل اللجاجة ، أو المجادلة ، وما داموا لم يحضروا التوراة فهذا يعني أنهم غير صادقين .

ويقول الحق : ﴿ فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1617.1622 ﴾

(42/125)

قوله تعالى ﴿ فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (94) ﴾

فصل

قال الفخر :

الافتراء اختلاق الكذب ، والفرية الكذب والقذف ، وأصله من فرى الأديم ، وهو قطعه ، فقيل للكذب افتراء ، لأن الكاذب يقطع به في القول من غير تحقيق في الوجود .

ثم قال : ﴿ مِن بَعْدِ ذلك ﴾ أي من بعد ظهور الحجة بأن التحريم إنما كان من جهة يعقوب ، ولم يكن محرماً قبله ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظالمون ﴾ المستحقون لعذاب الله لأن كفرهم ظلم منهم

لأنفسهم ولمن أضلوه عن الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 123 ﴾

وقال البقاعى :

﴿ فمن ﴾ أي فتسبب عن ذلك أنه من ﴿ افترى ﴾ أي تعمد ﴿ على الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ الكذب ﴾ أي في أمر المطاعم أو غيرها .

ولما كان المراد النهي عن إيقاع الكذب في أي زمن كان ، لا عن إيقاعه في جميع الزمان الذي بعد نزول الآية أثبت الجار فقال : ﴿ من بعد ذلك ﴾ أي البيان العظيم الظاهر جداً ﴿ فأولئك ﴾ أي الأباعد الأباغض ﴿ هم ﴾ خاصة لتعمدهم الكذب على من هو محيط بهم ولا تخفى عليه خافية ﴿ الظالمون ﴾ أي المتناهو الظلم بالمشي على خلاف الدليل فعل من يمشي في الظلام ، فهو لا يضع شيئاً في موضعه ، وذلك بتعرضهم إلى أن يهتكهم التام العلم ويعذبهم الشامل القدرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 126 ﴾

(43/125)

وقال الآلوسى

﴿ فَمَنِ افترى عَلَى الله الكذب ﴾ أي اختزع ذلك بزعمه أن التحريم كان على الأنبياء

وأممهم قبل نزول التوراة فمن عبارة عن أولئك اليهود ، ويحتمل أن تكون عامة ويدخلون حينئذٍ دخولاً أولياً ، وأصل الافتراء قطع الأديم يقال : فرى الأديم يفريه فرياً إذا قطعه ، واستعمل في الابتداع والاختلاق ، والجملة يحتمل أن تكون مستأنفة وأن تكون منصوبة المحل معطوفة على جملة ﴿ فَأتُواْ ﴾ [آل عمران : 93] فتدخل تحت القول ، ومن يجوز أن تكون شرطية وأن تكون موصولة وقد روعي لفظها ومعناها .

﴿ مِن بَعْدِ ذلك ﴾ أي أمرهم بما ذكر وما يترتب عليه من قيام الحجة وظهور البينة .

﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ أي المفترون المبعدون عن عز القرب ﴿ هُمُ الظالمون ﴾ لأنفسهم بفعل ما أوجب العقاب عليهم ، وقيل : هم الظالمون لأنفسهم بذلك ولأشياعهم بإضلالهم لهم بسبب إصرارهم على الباطل وعدم تصديقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما قيد بالبعدية مع أنه يستحق الوعيد بالكذب على الله تعالى في كل وقت وفي كل حال للدلالة على كمال القبح ، وقيل : لبيان أنه إنما يؤاخذ به بعد إقامة الحجة عليه ومن كذب فيما ليس بمحجوج فيه فهو بمنزلة الصبي الذي لا يستحق الوعيد بكذبه وفيه تأمل ، ثم مناسبة هذه الآية لما قبلها أن الأكل إنفاق مما يحب لكن على نفسه وإلى ذلك أشار علي بن عيسى ، وقيل : إنه لما تقدم محاجتهم في ملة إبراهيم عليه السلام وكان مما أنكروا على نبينا صلى الله عليه وسلم أكل لحوم الإبل وادعوا أنه خلاف ملة إبراهيم ناسب أن يذكر رد دعواهم ذلك عقيب تلك المحاجة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 3 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون ﴾ نهاية لتسجيل كذبهم أي من استمرّ على الكذب على الله ، أي فمن افترى منكم بعد أن جعلنا التّوراة فيصلاً بيننا ، إذ لم يبق لهم ما يستطيعون أن يدّعُوه شُبهة لهم في الاختلاق ، وجُعل الافتراء على الله لتعلّقه بدين الله .

والفاء للتفريع على الأمْر .

والافتراء : الكذب ، وهو مرادف الاختلاق .

والافتراء مأخوذ من الفَرْي ، وهو قطع الجلد قِطعاً ليُصلح به مثل أن يحْذى النعل ويصنع النطع أو القِربة .

وافترى افتعال من فرى لعلّهُ لإفادة المبالغة في الفَرْي ، يقال : افترى الجلد كأنّه اشتدّ في تقطيعه أو قطعَه تقطيع إفساد ، وهو أكثر إطلاق افترى .

فأطلقوا على الإخبار عن شيء بأنّه وقَعَ ولَم يقع اسم الافتراء بمعنى الكذب ، كأنّ أصله كناية عن الكذب وتلميح ، وشاع ذلك حتّى صار مرادفاً للكذب ، ونظيره إطلاق اسم

الاختلاق على الكذب ، فالافتراء مرادف للكذب ، وإردَافه بقوله هنا : "الكذب" تأكيد للافتراء ، وتكرّرت نظائر هذا الإرداف في آيات كثيرة .

فانتصب "الكذب" على المفعول المطلق المؤكّد لفعله .

واللام في الكذب لتعريف الجنس فهو كقوله : ﴿ أَفْتَرَى على اللَّه كَذِباً أَمْ به جِنّة ﴾ [سبأ : 8]

والكذب : الخبر المخالف لما هو حاصل في نفس الأمر من غير نظر إلى كون الخَبر موافقاً لاعتقاد المُخبر أو هو على خلاف ما يعتقده ، ولكنّه إذا اجتمع في الخبر المخالفة للواقع والمخالفة لاعتقاد المخبِر كان ذلك مذموماً ومسبَّة ؛ وإن كان معتقداً وقوعه لشبهة أو سوء تأمّل فهو مذموم ولكنّه لا يُحقّر المخبر به ، والأكثر في كلام العرب أن يعنى بالكذب ما هو مذموم .

(45/125)

ثُمّ أعلنَ أن المتعيّن في جانبه الصّدق هو خبَر الله تعالى للجزم بأنهم لا يأتون بالتوراة ، وهذا كقوله : ﴿ ولن يتمنّوه أبداً ﴾ [البقرة : 95] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 157.156 ﴾

فائدة

قال ابن عطية :

قوله : ﴿ فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك ﴾ تحتمل الإشارة -بذلك- أن تكون إلى ثلاثة أشياء : أحدها : أن تكون إلى التلاوة إذ مضمنها بيان المذهب وقيام الحجة ، أي فمن كذب منا على الله تعالى أو نسب إلى كتب الله ما ليس فيها فهو ظالم واضع الشيء غير موضعه ، والآخر : أن تكون الإشارة إلى استقرار التحريم في التوراة ، لأن معنى الآية :

﴿ كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه ﴾ [آل عمران : 93]

، ثم حرمته التوراة عليهم عقوبة لهم ، ﴿ فمن افترى على الله الكذب ﴾ ، وزاد في المحرمات فهو الظالم ، والثالث : أن تكون الإشارة إلى الحال بعد تحريم إسرائيل على نفسه ، وقبل نزول التوراة ، أي من تسنن بيعقوب وشرع ذلك دون إذن من الله ، ومن حرم شيئاً ونسبه إلى ملة إبراهيم فهو الظالم ، ويؤيد هذا الاحتمال الأخير ، قوله تعالى ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ﴾ [النساء : 160] فنص على أنه كان لهم ظلم في معنى التحليل والتحريم ، وكانوا يشددون فشدد الله عليهم ، كما فعلوا في أمر البقرة ، وبخلاف هذه السيرة جاء الإسلام في قوله صلى الله عليه وسلم : يسروا ولا تعسروا ، وقوله : دين الله يسر وقوله : بعثت بالحنيفية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 473 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

" مَنْ " يجوز أن تكون شرطيّةً ، أو موصولة ، وحمل على لفظها في قوله : " افْتَرَى " فوحَّد الضمير ، وعلى معناها فجمع في قوله : ﴿ فأولئك هُمُ الظالمون ﴾ ، والافتراء مأخوذ من الفَرْي ، وهو القطع ، والظالم هو الذي يضع الشيء في غير مَوْضِعِه .

وقوله : ﴿ مِن بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أي : من بعد ظهور الحجة ، ﴿ فأولئك هُمُ الظالمون ﴾ المستحقون لعذاب الله .

قوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : - وهو الظاهر - : أن يتعلق بـ " افْتَرَى " .

الثاني : قال أبو البقاء : يجوز أن يتعلق بالكذب ، يعني : الكذب الواقع من بعد ذلك .

وفي المشار إليه ثلاثة أوجه :

أحدها : استقرار التحريم المذكور في التوراةِ عليهم ؛ إذ المعنى : إلا ما حرم إسرائيلُ على نفسه ، ثم حرم في التوراة ؛ عقوبةً لهم .

الثاني : التلاوة ، وجاز تذكير اسم الإشارة ؛ لأن المراد بها بيان مذهبهم .

الثالث : الحال بعد تحريم إسرائيل على نفسه ، وهذه الجملة - أعني : قوله : ﴿ فَمَنِ افترى عَلَى الله الكذب ﴾ - يجوز أن تكون استئنافيةً ، فلا محل لها من الإعراب ، ويجوز أن تكون منصوبة المحل ؛ نسقاً على قوله : ﴿ فَأْتُواْ بالتوراة ﴾ ، فتندرج في المقول . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 394 ﴾

(47/125)

قوله تعالى ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (95) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما اتضح كذبهم وافتضح تدليسهم - لأنه لما استدل عليهم بكتابهم فلم يأتوا به صار ظاهراً كالشمس ، لا شك فيه ولا لبس ، ولم يزدهم ذلك إلا تمادياً في الكذب - أمر سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ قل ﴾ أي لأهل الكتاب الذي أنكروا النسخ فأقمت عليهم الحجة من كتابهم ﴿ صدق الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي له الكمال كله في جميع ما أخبر ، وتخبر به عن ملة إبراهيم وغيره من بنيه أسلافكم ، وتبين أنه ليس

على دينكم هو ولا أحد ممن قبل موسى عليه الصلاة والسلام ، لأنكم لو كنتم صادقين لأتيتم بالتوراة ، نافياً بذلك أن يكون تأخرهم عن الإتيان بها لعلة يعتلون بها غير ذلك ، وإذ قد تبين صدقه تعالى في جميع ما قال وجب اتباعه في كل ما يأمر به ، وأعظمه ملة إبراهيم فإنها الجامعة للمحاسن .

ولما ثبت ذلك بهذا الدليل المحكم لزم قطعاً أنه ما كان يهودياً ولا نصرانياً ولا مشركاً ، وقد أقروا بأن ملته هي الحق وأنهم أتباعه ، فتسبب عن ذلك وجوب اتباعه فيما أخبر الله سبحانه وتعالى به فبان كالشمس صدقه ، لا فيما افتروه هم من الكذب ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ فاتبعوا ملة إبراهيم ﴾ وهي الإسلام أي الانقياد للدليل ، وهو معنى قوله : ﴿ حنيفاً ﴾ أي تابعاً للحجة إذا تحررت ، غير متقيد بمألوف .

ولما كان صلى الله عليه وسلم مفطوراً .

على الإسلام فلم يكن في جبلته شيء من العوج فلم يكن له دين غير الإسلام نفى الكون فقال : ﴿ وما كان من المشركين ﴾ أي بعزير ولا غيره من الأكابر كالأحبار الذين تقلدونهم مع علمكم بأنهم يدعون إلى ضد ما دعا إليه سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 126 . 127 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ صَدَقَ اللهُ ﴾ يحتمل وجوهاً

(48/125)

أحدها : ﴿ قُلْ صَدَقَ ﴾ في أن ذلك النوع من الطعام صار حراماً على إسرائيل وأولاده بعد أن كان حلالاً لهم ، فصح القول بالنسخ ، وبطلت شبهة اليهود

وثانيها : ﴿ صَدَقَ اللهُ ﴾ في قوله إن لحوم الإبل وألبانها كانت محللة لإبراهيم عليه السلام وإنما حرمت على بني إسرائيل لأن إسرائيل حرمها على نفسه ، فثبت أن محمداً صلى الله عليه وسلم لما أفتى بحل لحوم الإبل وألبانها ، فقد أفتى بملة إبراهيم

وثالثها : ﴿ صَدَقَ اللهُ ﴾ في أن سائر الأطعمة كانت محللة لبني إسرائيل وأنها إنما حرمت على اليهود جزاءً على قبائح أفعالهم .

ثم قال تعالى : ﴿ فاتبعوا مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً ﴾ أي اتبعوا ما يدعوكم إليه محمد صلوات الله عليه من ملة إبراهيم ، وسواء قال : ملة إبراهيم حنيفاً ، أو قال : ملة إبراهيم الحنيف لأن الحال والصفة سواء في المعنى .

ثم قال : ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ﴾ أي لم يدع مع الله إلها آخر ، ولا عبد سواه ، كما فعله

بعضهم من عبادة الشمس والقمر ، أو كما فعله العرب من عبادة الأوثان ، أو كما فعله اليهود من ادعاء أن عزير ابن الله ، وكما فعله النصارى من ادعاء أن المسيح ابن الله ، والغرض منه بيان أن محمداً صلوات الله عليه على دين إبراهيم عليه السلام ، في الفروع والأصول .

أما في الفروع ، فلما ثبت أن الحكم بحله كان إبراهيم قد حكم بحله أيضاً ، وأما في الأصول فلأن محمداً صلوات الله وسلامه عليه لا يدعو إلا إلى التوحيد ، والبراءة عن كل معبود سوى الله تعالى وما كان إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه إلا على هذا الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 123. 124 ﴾

(49/125)

وقال الآلوسى

﴿ قُلْ صَدَقَ الله ﴾ أي ظهر وثبت صدقه في أن كل الطعام كان حلاًّ لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه وقيل : في أن محمداً صلى الله عليه وسلم على دين إبراهيم عليه السلام وأن دينه الإسلام ، وقيل : في كل ما أخبر به ويدخل ما ذكر دخولاً أولياً وفيه كما قيل : تعريض بكذبهم الصريح ﴿ فاتبعوا مِلَّةَ إبراهيم ﴾ وهي دين الإسلام فإنكم غير

متبعين ملته كما تزعمون ، وقيل : اتبعوا مثل ملته حتى تخلصوا عن اليهودية التي اضطرتكم إلى الكذب على الله والتشديد على أنفسكم ، وقيل : اتبعوا ملته في استباحة أكل لحوم الإبل وشرب ألبانها مما كان حلاًله ﴿ حَنِيفاً ﴾ أي مائلاً عن سائر الأديان الباطلة إلى دين الحق ، أو مستقيماً على ما شرعه الله تعالى من الدين الحق في حجه ونسكه ومأكله وغير ذلك ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمشركين ﴾ أي في أمر من أمور دينهم أصلاً (وفرعاً) وفيه تعريض بشرك أولئك المخاطبين ، والجملة تذييل لما قبلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 3.4 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قل صدق الله ﴾ وهو تعريض بكذبهم لأنّ صدق أحد الخبرين المتنافيين يستلزم كذب الآخر ، فهو مستعمل في معناه الأصلي والكنائي .

والتّفريع في قوله : ﴿ فاتبعوا ملة إبراهيم جنيفاً ﴾ تفريع على ﴿ صدق الله ﴾ لأنّ اتّباع الصادق فيما أمر به مَنجاة من الخطر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 157 ﴾

لطيفة

قال الطبري :

وإنما قال جل ثناؤه : "وما كان من المشركين" ، يعني به : وما كان من عَدَدهم وأوليائهم . وذلك أن المشركين بعضهم من بعض في التظاهر على كفرهم . ونصرةِ بعضهم بعضاً . فبرأ الله إبراهيم خليله أن يكون منهم أو [من] نصرائهم وأهل ولايتهم . وإنما عنى جل ثناؤه بالمشركين ، اليهودَ والنصارَى وسائر الأديان ، غير الحنيفية . قال : لم يكن إبراهيم من أهل هذه الأديان المشركة ، ولكنه كان حنيفًا مسلمًا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 7 صـ 18 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

العامة على إظهار لام " قُلْ " مع الصاد .

وقرأ ابنُ بن تغلب بإدغامها فيها ، وكذلك أدغم اللام في السين في قوله : ﴿ قُلْ سِيرُوا ﴾ [الأنعام : 11] وسيأتي أن حمزةَ والكسائيِّ وهشاماً أدْغموا اللام في السين في قوله : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ ﴾ [يوسف : 18] .

قال أبو الفتح : " عِلَّةُ ذلك فُشُوُّ هذين الحرفَيْن في الضم ، وانتشار الصوت المُنْبَثّ عنهما ، فقاربتا بذلك مخرج اللام ، فجاز إدغامها فيهما " ، وهو مأخوذ من كلام سيبويه ، فإن

سيبويه قال : " والإدغام ، يعني : إدغام اللام مع الصاد والطاء وأخواتهما ، جائز ، وليس ككثرته مع الراء ؛ لأن هذه الحروفَ تراخين عنها ، وهن من الثنايا ؛ قال : وجواز الإدغام أنّ آخر مخرج اللام قريب من مخرجها " . انتهى .

قال أبو البقاء عبارة تُوَضِّحُ ما تقدم ، وهي : " لأن الصاد فيها انبساط ، وفي اللام انبساط ، بحيث يتلاقى طرفاهما ، فصارا متقاربين " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 395 ﴾

(51/125)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ﴾

كَانَ الْكَلَامُ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى هُنَا فِي إِثْبَاتِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعَ إِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ ، وَاسْتَتْبَعَ ذَلِكَ مُحَاجَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي ذَلِكَ ، وَفِي بَعْضِ بِدَعِهِمْ وَمَا اسْتَحْدَثُوا فِي دِينِهِمْ . أَمَّا هَذِهِ الْآيَاتُ فَفِي دَفْعِ شُبْهَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنْ شُبُهَاتِ الْيَهُودِ عَلَى

الْإِسْلَامِ . قَرَّرَهُمَا الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ هَكَذَا :

قَالُوا : إِذَا كُنْتَ يَا مُحَمَّدُ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ - كَمَا تَدَّعِي - فَكَيْفَ تَسْتَحِلُّ مَا كَانَ مُحَرَّمًا عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ كَلَحْمِ الْإِبِلِ ؟ أَمَا وَقَدِ اسْتَبَحْتَ مَا كَانَ مُحَرَّمًا عَلَيْهِمْ فَلَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَدَّعِيَ أَنَّكَ مُصَدِّقٌ لَهُمْ وَمُوَافِقٌ فِي الدِّينِ ، وَلَا أَنْ تَخُصَّ إِبْرَاهِيمَ بِالذِّكْرِ وَتَقُولَ : إِنَّكَ أَوْلَى النَّاسِ بِهِ . هَذِهِ هِيَ الشُّبْهَةُ الْأُولَى . وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَهِيَ أَنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ وَعَدَ إِبْرَاهِيمَ بِأَنْ تَكُونَ الْبَرَكَةُ فِي نَسْلِ وَلَدِهِ إِسْحَاقَ ، وَجَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْحَاقَ كَانُوا يُعَظِّمُونَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَيُصَلُّونَ إِلَيْهِ ، فَلَوْ كُنْتَ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ لَعَظَّمْتَ مَا عَظَّمُوا ، وَلَمَا تَحَوَّلْتَ عَنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَعَظَّمْتَ مَكَانًا آخَرَ اتَّخَذْتَهُ مُصَلًّى وَقِبْلَةً - وَهُوَ الْكَعْبَةُ - فَخَالَفْتَ الْجَمِيعَ .

(52/125)

فَقَوْلُهُ - تَعَالَى - : كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ هُوَ جَوَابٌ عَنِ الشُّبْهَةِ الْأُولَى ، قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَلَكِنَّ الْجَلَالَ وَكَثِيرًا مِنَ الْمُفَسِّرِينَ يُقَرِّرُونَ الشُّبْهَةَ وَلَا يُبَيِّنُونَ وَجْهَ دَفْعِهَا بَيَانًا مُقْنِعًا ، إِذْ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ بَعْضَ الطَّيِّبَاتِ كَانَتْ مُحَرَّمَةً عَلَى إِسْرَائِيلَ ، وَالصَّوَابُ مَا قَصَّهُ اللَّهُ - تَعَالَى - عَلَيْنَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ

وَغَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تُوَضِّحُهَا ، وَهِيَ أَنَّ كُلَّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَلِإِبْرَاهِيمَ مِنْ قَبْلُ بِالْأَوْلَى ، ثُمَّ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ بَعْضَ الطَّيِّبَاتِ فِي التَّوْرَاةِ عُقُوبَةً لَهُمْ وَتَأْدِيبًا ، كَمَا قَالَ : فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ [4 : 160] الْآيَةَ . فَالْمُرَادُ بِإِسْرَائِيلَ شَعْبُ إِسْرَائِيلَ ، كَمَا هُوَ مُسْتَعْمَلٌ عِنْدَهُمْ ، لَا يَعْقُوبُ نَفْسُهُ . وَمَعْنَى تَحْرِيمِ الشَّعْبِ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ : أَنَّهُ ارْتَكَبَ الظُّلْمَ وَاجْتَرَحَ السَّيِّئَاتِ الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ التَّحْرِيمِ ، كَمَا صَرَّحَتِ الْآيَةُ . فَكَأَنَّهُ يَقُولُ : إِذَا كَانَ الْأَصْلُ فِي الْأَطْعِمَةِ الْحِلَّ ، وَكَانَ تَحْرِيمُ مَا حَرُمَ عَلَى إِسْرَائِيلَ تَأْدِيبًا عَلَى جَرَائِمَ أَصَابُوهَا ، وَكَانَ النَّبِيُّ وَأُمَّتُهُ لَمْ يَجْتَرِحُوا تِلْكَ السَّيِّئَاتِ ، فَلِمَ تَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الطَّيِّبَاتُ ؟ ثُمَّ قَالَ مُبَيِّنًا تَقْرِيرَ الدَّفْعِ وَسَنَدَهُ : قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ

(53/125)

صَادِقِينَ فِي قَوْلِكُمْ ; لَا تَخَافُونَ أَنْ تُكَذِّبَكُمْ نُصُوصُهَا .

أَقُولُ : كَأَنَّهُ يَقُولُ : أَمَا إِنَّكُمْ لَوْ جِئْتُمْ بِمَا عِنْدَكُمْ مِنْهَا لَمَا كَانَ إِلَّا مُؤَيِّدًا لِلْقُرْآنِ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنْ أَنَّهَا هِيَ حَرَّمَتْ عَلَيْكُمْ مَا حَرَّمَتْ . وَعُلِّلَتْ جُمْلَةُ التَّكَالِيفِ بِأَنَّكُمْ شَعْبٌ غَلِيظُ الرَّقَبَةِ مُتَمَرِّدٌ يُقَاوِمُ الرَّبَّ ، كَمَا قَالَ مُوسَى عِنْدَ أَخْذِ الْعَهْدِ عَلَيْكُمْ بِحِفْظِ الشَّرِيعَةِ (اقْرَأْ

الْفَصْل 31 مِنْ سِفرِ التَّثْنِيَة) وَفِي غَيْر ذَلِكَ مِنْ فُصُول التَّوْرَاةِ .

قَالَ الْأُسْتَاذ الْإِمَام : أَمَّا قَوْلُ الجَلَال وَغَيْرِه : إنّ يَعْقُوب كَانَ بِهِ عِرْقُ النَّسَا - بِالْفَتْحِ وَالْقَصْرِ - فَنَذَرَ إِنْ شُفِيَ لَا يَأْكُل لَحْمَ الْإِبل ، فَهُوَ دَسِيسَةٌ مِنَ الْيَهُودِ . وَقِيل : إِنَّهُ نَذرَ أَلَّا يَأْكُل هَذَا الْعِرْق . وَفِي التَّوْرَاةِ أَنَّ يَعْقُوب الْتَقَى فِي بَعْض أَسْفَارِهِ بِالرَّبِّ فِي الطَّرِيق فَتَصَارَعَا إِلَى الصَّبَاحِ ، وَكَادَ يَعْقُوبُ يَغْلِبُهُ ، وَلَكِن اعْتَرَاهُ عِرْقُ النَّسَا . إِلَخْ مَا حَرَّفُوهُ . أَقُولُ : وَتَتِمَّةُ الْعِبَارَةِ - كَمَا فِي سِفرِ التَّكْوِين - (32 : 25) وَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ ضَرَبَ حُقَّ فَخِذِهِ فَانْخَلَعَ حُقُّ فَخِذِ يَعْقُوبَ فِي مُصَارَعَتِهِ مَعَهُ [26] وَقَالَ أَطْلِقْنِي لِأَنَّهُ قَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ . فَقَالَ

(54/125)

لَا أُطْلِقُكَ إِنْ لَمْ تُبَارِكْنِي [27] فَقَالَ لَهُ مَا اسْمُكَ . فَقَالَ : يَعْقُوبُ [28] فَقَالَ لَا يُدْعَى اسْمُكَ فِي مَا بَعْدُ يَعْقُوبَ بَلْ إِسْرَائِيل . لِأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ [29] وَسَأَلَ يَعْقُوبُ وَقَالَ : أَخْبِرْنِي بِاسْمِكَ . فَقَالَ : لِمَاذَا تَسْأَلُ عَنِ اسْمِي ؟ وَبَارَكَهُ هُنَاكَ [30] فَدَعَا يَعْقُوبُ اسْمَ الْمَكَانِ فَنِيئِيل . قَائِلًا لِأَنِّي نَظَرْتُ اللهَ وَجْهًا لِوَجْهٍ وَنُجِّيَتْ نَفْسِي [31] وَأَشْرَقَتْ لَهُ الشَّمْسُ إِذْ عَبَرَ فَنُوئِيل وَهُوَ يَخْمَعُ عَلَى فَخِذِهِ [32] لِذَلِكَ لَا يَأْكُل بَنُو

إِسْرَائِيلَ عِرْقَ النَّسَا الَّذِي عَلَى حُقِّ الْفَخِذِ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ لِأَنَّهُ ضُرِبَ حُقُّ فَخِذِ يَعْقُوبَ عَلَى عِرْقِ النَّسَا " اهـ . وَلَيْسَ فِيهِ أَنَّهُ نَذَرَ شَيْئًا وَلَا حَرَّمَ شَيْئًا . وَقِيلَ : إِنَّ مَا حَرَّمَهُ يَعْقُوبُ هُوَ زَائِدَتَا الْكَبِدِ وَالْكُلْيَتَيْنِ وَالشَّحْمِ إِلَّا مَا كَانَ عَلَى الظَّهْرِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : حَرَّمَ لُحُومَ الْأَنْعَامِ كُلَّهَا ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ ، وَصِحَّةُ السَّنَدِ فِي بَعْضِهَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَوْ غَيْرِهِ - كَمَا زَعَمَ الْحَاكِمُ - لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ مَصْدَرُهَا إِسْرَائِيلِيًّا . وَالْأَقْرَبُ مَا قَالَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ ; لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي تَقُومُ بِهِ الْحُجَّةُ وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ الْمُطَّلِعِ عَلَى التَّوْرَاةِ ، وَلَوْ أُرِيدَ بِإِسْرَائِيلَ يَعْقُوبُ نَفْسُهُ لَمَا كَانَ هُنَاكَ حَاجَةٌ إِلَى قَوْلِهِ : مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ لِأَنَّ زَمَنَ يَعْقُوبَ سَابِقٌ عَلَى زَمَنِ نُزُولِ التَّوْرَاةِ سَبْقًا لَا يُشْتَبَهُ فِيهِ فَيُحْتَرَسُ عَنْهُ .

وَالْمُتَبَادِرُ عِنْدِي : أَنَّ الْمُرَادَ بِمَا حَرَّمَهُ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مَا امْتَنَعُوا عَنْ أَكْلِهِ وَحَرَّمُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِحُكْمِ الْعَادَةِ وَالتَّقْلِيدِ لَا بِحُكْمٍ مِنَ اللهِ ، كَمَا يُعْهَدُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ ، وَمِنْهُ تَحْرِيمُ الْعَرَبِ لِلْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا حَكَاهُ الْقُرْآنُ عَنْهُمْ فِي سُورَتَيِ الْمَائِدَةِ وَالْأَنْعَامِ . وَقِيلَ : إِنَّ شُبْهَتَهُمُ الَّتِي دَفَعَتْهَا الْآيَةُ هِيَ إِنْكَارُ النَّسْخِ ، فَأَلْزَمَهُمْ بِأَنَّ التَّوْرَاةَ نَفْسَهَا نَسَخَتْ بَعْضَ مَا كَانَ

عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْرَائِيلُ ، وَهُوَ إِلْزَامٌ لَا يُمْكِنُهُمُ التَّفَصِّي مِنْهُ ; لِأَنَّهُ ثَابِتٌ عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى نُبُوَّةِ النَّبِيِّ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، إِذْ أَخْبَرَهُمْ بِمَا عِنْدَهُمْ وَلَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ . وَبِهَذَا يَسْقُطُ بَحْثُهُمْ فِي كَوْنِ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ لَا يَكُونَانِ إِلَّا مِنَ اللهِ .

(56/125)

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ فِي الْآيَةِ : أَنَّ الطَّعَامَ مَا يُطْعَمُ ، أَيْ يُتَنَاوَلُ لِأَجْلِ الْغِذَاءِ ، كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ . وَقَدْ يُقَالُ أَيْضًا : طَعِمَ الْمَاءَ - بِكَسْرِ الْعَيْنِ - وَكَانَ يُطْلَقُ غَالِبًا عَلَى الْخُبْزِ . وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : أَكَلَ الطَّعَامَ مَأْدُومًا ، وَعَلَى الْبُرِّ . وَمِنْهُ حَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ "كُنَّا نُخْرِجُ زَكَاةَ الْفِطْرِ صَاعًا مِنْ طَعَامٍ أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ " إِلَخْ . - مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ - وَمِنْ إِطْلَاقِهِ عَلَى غَيْرِهِ حَتْمًا قَوْلُهُ - تَعَالَى - : أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ [5 : 96] وَعَلَى الذَّبَائِحِ أَوْ لِعُمُومِ قَوْلِهِ : وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ [5 : 5] الْآيَةَ . وَالْحِلُّ بِالْكَسْرِ : مَصْدَرُ حَلَّ الشَّيْءُ ضِدُّ حَرُمَ ، وَهُوَ مُسْتَعَارٌ مِنْ حَلِّ الْعُقْدَةِ ، كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ . وَإِسْرَائِيلُ : لَقَبُ نَبِيِّ اللهِ يَعْقُوبَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَمَعْنَاهُ " الْأَمِيرُ الْمُجَاهِدُ مَعَ اللهِ " وَقَدْ عَلِمْتَ مَا عِنْدَهُمْ فِي سَبَبِ إِطْلَاقِهِ عَلَيْهِ مِنْ عِبَارَةِ سِفْرِ التَّكْوِينِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا آنِفًا ،

ثُمَّ أُطْلِقَ عَلَى جَمِيعِ ذُرِّيَّتِهِ كَمَا هُوَ شَائِعٌ فِي كُتُبِ الْقَوْمِ مِنَ الْأَسْفَارِ الْمَنْسُوبَةِ إِلَى مُوسَى فَمَا دُونَهُمَا .

(57/125)

فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْبَيَانِ وَإِلْزَامِ الْكَاذِبِينَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَالْأَنْبِيَاءِ بِالتَّوْرَاةِ ، وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى الْإِتْيَانِ بِهَا وَتِلَاوَتِهَا عَلَى الْمَلَأِ ، وَامْتِنَاعِهِمْ عَنْ ذَلِكَ لِئَلَّا يَظْهَرَ أَنَّ اللهَ لَمْ يُحَرِّمْ عَلَيْهِمْ شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ قَبْلَ التَّوْرَاةِ . وَالْأَصْلُ فِي الْأَشْيَاءِ الْحِلُّ حَتَّى يَرِدَ النَّصُّ بِالتَّحْرِيمِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ بِتَحْوِيلِهِمُ الْحَقَّ فِي الْمَسْأَلَةِ عَنْ وَجْهِهِ ، وَوَضْعِ حُكْمِ اللهِ بِتَحْرِيمِ بَعْضِ الطَّيِّبَاتِ عَلَيْهِمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ .

قُلْ صَدَقَ اللهُ فِيمَا أَنْبَأَنِي بِهِ مِنْ عَدَمِ تَحْرِيمِ شَيْءٍ عَلَى إِسْرَائِيلَ قَبْلَ التَّوْرَاةِ ، وَقَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ ، فَثَبَتَ أَنِّي مُبَلِّغٌ عَنْهُ ، إِذْ مَا كَانَ لِي لَوْلَا وَحْيُهُ أَنْ أَعْرِفَ صِدْقَكُمْ مِنْ كَذِبِكُمْ فِيمَا تُحَدِّثُونَ بِهِ عَنْ أَنْبِيَائِكُمْ ، وَإِذْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي أَدْعُوكُمْ إِلَيْهَا حَالَ كَوْنِهِ حَنِيفًا لَا غُلُوَّ فِيمَا كَانَ عَلَيْهِ وَلَا تَقْصِيرَ ، وَلَا إِفْرَاطَ وَلَا تَفْرِيطَ ، بَلْ هُوَ الْفِطْرَةُ الْقَوِيمَةُ وَالْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ

الْمَبْنِيَّةُ عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَإِسْلَامِ الْوَجْهِ لَهُ وَحْدَهُ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْخَيْرَ

مِنْ غَيْرِه – تَعَالَى – ، أَوْ يَخَافُونَ الضُّرَّ مِنْ غَيْرِ أَسْبَابِهِ الَّتِي مَضَتْ بِهَا سُنَّتُهُ . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 4 صـ 6.3 ﴾

(58/125)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

يأمر الحق رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول : ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ .

ونعرف أن ملة إبراهيم هي التي سمّت كل المؤمنين بالله المسلمين ، والدعوة إلى الإيمان بملة إبراهيم هي لإيضاح أن جوهر الإيمان لا يحتمل الخلاف ، فركب الإيمان والرسل والأنبياء هو ركب واحد ، وكلمة " اتبعوا " تعني أن هناك مقدما كما أن هناك تابعا . و " الملة " تشمل المعتقدات والتشريعات العامة ، كما أن الشريعة تشمل الأحكام ، والدين يكون لبيان العقائد .

وقد عرفنا من قبل أن كلمة ﴿ حَنِيفاً ﴾ تعني الذي يسير على خط مستقيم ، ويتبع

منهجا قويما ومستويا ونحن نسمى ملتنا " الحنيفية السمحاء " ومع ذلك فالحنف هل ميل في الساقين ، اليمين مقوسة إلى اليمين ، واليسار مقوسة إلى اليسار ، فكيف إذن تقول عن الدين الحق الهادي لمنهج الله وشريعته : إنه حنيف ؟

لقد قلنا : إن السماء لا تتدخل بإرسال الرسل إلا حين يعم الفساد ، وما دام الفساد قد عم فإن الذي يميل منحرفا عن الفساد هو الذي اهتدى إلى الصراط المستقيم ، فالحنيف معناه مائل عن الفساد ، فالمائل عن المعوج معتدل ، ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

﴿ صَدَقَ اللَّهُ ﴾ نعم ؛ لأن الصدق هو أن يطابق القول ما وقع فعلا ، وحين يتكلم الحق وهو العليم أزلا فما الذي يحدث ؟ لا بد أن يوافق الواقع ما يقوله سبحانه وتعالى فليس من المعقول أن يتكلم الله كلاما يأتي على لسان رسول ، أو على لسان أتباع الرسول ، وبعد ذلك يأتي واقع الحياة فينقض قول الحق ويخالفه ، إن الحق العليم أزلا يُنزل من الكلام ما هو في صالح الدعوة إلى منهجه .

إذن فحين يطلق الله قضية من قضايا الإيمان فإنه – سبحانه – عليم أزلا أنها سوف تحدث على وفق ما قال ، إن كان الظرف الذي قيلت فيه لا يشجع على استيعابها وفهمها . إن المؤمنين كانوا في أول الأمر مضطهدين ، ومرهقين وإن لم يكن للواحد منهم عشيرة تحميه فإنه يهاجر عن البلاد ، وإن لم يستطع الهجرة فإنه يُعَذب ويضطهد . وفي هذه الفترة الشديدة القاسية وفي قمة اضطهاد المؤمنين ينزل القول الحق :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾

[القمر : 45]

وعندما يسمع سيدنا عمر عليه رضوان الله هذا القول يتساءل : أي جمع هذا ؟ إن الواقع لا يساعد على هذا ، ثم جاءت بدر ، وهزم المؤمنون الجمعَ وولوا الدبر, وهذا دليل على أن الله قد أطلق قضية وضمن أنها ستحدث كما قال وكما أخبر ، وهذا مطلق الصدق . إن الإنسان يمكنه أن يستبعد الصدق لو أن الذي قال غير الذي خلق ، لكن الذي قال ذلك هو الذي خلق ويخلق ويعلم ، فمن أين يأتي التناقض ؟ وهذا معنى القول الكريم :

﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً ﴾

[النساء : 82]

إنه قول حق جاء من عند العليم أزلا ، ومن العجيب أن أهل الكتاب من يهود ونصارى يتمسحون في سيدنا إبراهيم ، فقال بعضهم : إن إبراهيم عليه السلام كان يهوديا ، وبعضهم

قال : إن إبراهيم كان نصرانيا . وكان يجب أن يفهموا أن اليهودية والنصرانية إنما جاءتا من بعد إبراهيم ، فكيف يكون يهوديا أو نصرانيا وهذه الملل قد جاءت من بعده ؟ لذلك جاء القرآن الكريم قائلا :

﴿ يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾

[آل عمران : 65]

وقد أوضح الحق بعد ذلك دين إبراهيم عليه السلام :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

[آل عمران : 67]

فكيف يمكن أن يختلقوا على إبراهيم أنه كان يهوديا أو نصرانيا ؟ إنه كلام لا يصدر إلا عن قلة فطنة وغفلة بالغة . وعندما يقول الحق عن إبراهيم : ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فهل أهل الكتاب مشركون ؟ نعم ؛ لأنهم حين يؤمنون بالبنوة لعزير ، ويؤمنون بالنبوة لعيسى فهذا إشراك بالله ، وأيضا كان العرب عبدة الأصنام يقولون : إنهم على ملة إبراهيم ؛ لأن شعائر

الحج جاء بها إبراهيم عليه السلام ، ولهذا ينزه الحق سبحانه سيدنا إبراهيم عن ذلك ، ويقول : ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وذلك يدل على أن ملة إبراهيم وما جاء به موافقة لملة محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، وإجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام . ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1625.1622 ﴾

(61/125)

" فصل "

قال السيوطى :

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (93) فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (94) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (95)

أخرج عبد بن حميد والفريابي والبيهقي في سننه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم

والحاكم وصححه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ كل الطعام كان حلالبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه ﴾ قال : العرق . أخذه عرق النسا ، فكان يبيت له زقاء يعني صياح ، فجعل لله عليه إن شفاه أن لا يأكل لحماً فيه عروق ، فحرمته اليهود .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير من طريق يوسف بن ماهك عن ابن عباس قال : هل تدري ما حرم إسرائيل على نفسه ؟ ان إسرائيل أخذته الأنساء فاضنته ، فجعل لله عليه إن عافاه الله أن لا يأكل عرقاً أبداً . فلذلك تسل اليهود العروق فلا يأكلونها .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في الآية قال : حرم على نفسه العروق . وذلك أنه كان يشتكي عرق النسا ، فكان لا ينام الليل فقال : والله لئن عافاني الله منه لا يأكله لي ولد ، وليس مكتوباً في التوراة" وسأل محمد صلى الله عليه وسلم نفراً من أهل الكتاب فقال : ما شأن هذا حراماً ؟ فقالوا : هو حرام علينا من قبل الكتاب فقال الله ﴿ كل الطعام كان حلالبني إسرائيل ﴾ إلى ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ " .

وأخرج البخاري في تاريخه وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال " جاء اليهود فقالوا : يا أبا القاسم أخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه ؟ قال : كان يسكن البدو ، فاشتكى عرق النسا ، فلم يجد شيئاً يداويه إلا لحوم الإبل وألبانها ، فلذلك حرمها قالوا صدقت " .

وأخرج ابن جرير من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله ﴿ إلا ما حرَّم إسرائيل على نفسه ﴾ قال : حرم العروق ، ولحوم الإبل ، كان به عرق النسا فأكل من لحومها ، فبات بليلة يزقو ، فحلف أن لا يأكله أبداً .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مجلز في قوله ﴿ إلا ما حرم إسرائيل على نفسه ﴾ قال : إن إسرائيل هو يعقوب ، وكان رجلاً بطيشاً ، فلقي ملكاً فعالجه ، فصرعه الملك ، ثم ضرب على فخذه ، فلما رأى يعقوب ما صنع به بطش به فقال : ما أنا بتاركك حتى تسميني اسماً . فسماه إسرائيل ، فلم يزل يوجعه ذلك العرق حتى حرمه من كل دابة .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في الآية قال : حرم على نفسه لحوم الأنعام .

وأخرج ابن إسحق وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس ، أنه كان يقول : الذي حرم إسرائيل على نفسه زائدتا الكبد ، والكليتين ، والشحم ، إلا ما كان على الظهر . فإن ذلك كان يقرب للقربان فتأكله النار .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عطاء ﴿ إلا ما حرم إسرائيل ﴾ قال : لحوم الإبل وألبانها .

(63/125)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق ابن جريج عن ابن عباس قال " قالت اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم : نزلت التوراة ، بتحريم الذي حرم إسرائيل ، فقال الله لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ وكذبوا ليس في التوراة ، وإنما لم يحرم ذلك إلا تغليظاً لمعصية بني إسرائيل بعد نزول التوراة ﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ وقالت اليهود لمحمد صلى الله عليه وسلم : "كان موسى يهودياً على ديننا ، وجاءنا في التوراة تحريم الشحوم ، وذي الظفر ، والسبت . فقال محمد صلى الله عليه وسلم : كذبتم لم يكن موسى يهودياً ، وليس في التوراة إلا الإسلام . " يقول الله ﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ أفيه ذلك وما جاءهم بها أنبياؤهم بعد موسى ، فنزلت في الألواح جملة " .

وأخرج عبد بن حميد عن عامر ، أن علياً رضي الله عنه قال في رجل جعل امرأته عليه حراماً قال : حرمت عليه كما حرم إسرائيل على نفسه لحم الجمل فحرم عليه . قال

مسروق : إن إسرائيل كان حرم على نفسه شيئاً كان في علم الله أن سيحرمه ، إذا نزل الكتاب فوافق تحريم إسرائيل ما قد علم الله أنه سيحرمه ، إذا نزل الكتاب وأنتم تعمدون إلى الشيء قد أحله الله فتحرمونه على أنفسكم ما أبالي إياها حرمت أو قصعة من ثريد .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 262 . 265 ﴾

(64/125)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (96) فِيهِ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ألزمهم سبحانه وتعالى بالدليل الذي دل على النسخ أنهم على غير ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وأوجب عليهم اتباعها بعد بيان أنها هي ما عليه محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه ، أخبر عن البيت الذي يحول إليه التوجه في الصلاة ، فعابوه على أهل الإسلام أنه أعظم شعائر إبراهيم عليه الصلاة والسلام التي كفروا بتركها ، ولذلك أبلغ في

تأكيده فقال سبحانه وتعالى : ﴿ إن أول بيت ﴾ أي من البيوت الجامعة للعبادة ﴿ وضع للناس ﴾ أي على العموم متعبداً واجباً عليهم قصده وحجه بما أمرهم به على لسان موسى عليه الصلاة والسلام ، واستقباله في الصلاة بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم في ذلك ، ولعل بناء وضع ، للمفعول إشارة إلى أن وضعه كان قبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ للذي ببكة ﴾ أي البلدة التي تدق أعناق الجبابرة ، ويزدحم الناس فيها إزدحاماً لا يكون في غيرها مثله ولا قريب منه ، فلا بد أن يدق هذا النبي الذي أظهرته منها الأعناق من كل من ناواه ويزدحم الناس على الدخول في دينه ازدحاماً لم يعهد مثله فإن فاتكم ذلك ختم في الدارين غاية الخيبة ودام ذلكم وصغاركم ؛ حال كونه ﴿ مباركاً ﴾ أي عظيم الثبات كثير الخيرات في الدين والدنيا ﴿ وهدى للعالمين ﴾ أي من بني إسرائيل ومن قبلهم ومن بعدهم ، فعاب عليهم سبحانه وتعالى في هذه الآية فعلهم من النسخ ما أنكروه على مولاهم .

وذلك نسخهم لما شرعه من حجة من عند أنفسهم تحريفاً منهم مثالاً لما قدم من الإخبار به عن كذبهم ، وهذا أمر شهير يسجل عليهم بالمخالفة ويثبت للمؤمنين المؤالفة ، فإن حج

البيت الحرام وتعظيمه من أعظم ما شرعه إبراهيم عليه الصلاة والسلام - كما هو مبين في السير وغيرها وهم عالمون بذلك ، وقد حجه أنبياؤهم عليهم الصلاة والسلام وأسلافهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وغيرهم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم - كما روي من غير طريق عن النبي صلى الله عليه وسلم حتى أن في بعض الطرق أنه كان مع موسى عليه الصلاة في حجة إليه سبعون ألفاً من بني إسرائيل ، ومن المحال عادة أن يخفى ذلك عليهم ، ومن الأمر الواضح أنهم قد تركوا هذه الشريعة العظيمة أصلاً ورأساً ، فكيف يصح لهم دعوى أنهم على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع انسلاخهم من معظم شرائعه ! ثم فسر الهدى بقوله : ﴿ فيه آيات بينات ﴾ وقوله : ﴿ مقام إبراهيم ﴾ أي أثر قدمه عليه الصلاة والسلام في الحجر حيث قام لتغسل كنته رأسه الشريف - أعربه أبو حيان بدلاً أو عطف بيان من الموصول الذي هو خبر ﴿ إن ﴾ في قوله : ﴿ للذي ببكة ﴾ فكأنه قيل : إن أول بيت وضع للناس لمقام إبراهيم ، وأعربه غيره بدل بعض من قوله ﴿ آيات ﴾ وهو وحده آيات لعظمه ولتعدد ما فيه من تأثير القدم ، وحفظه إلى هذا الزمان مع كونه منقولاً ، وتذكيره بجميع قضايا إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام .

ولما كان أمن أهله في بلاد النهب والغارات التي ليس بها حاكم يفزع إليه ولا رئيس يعول في ذلك عليه من أدل الآيات قال سبحانه وتعالى : ﴿ ومن دخله ﴾ أي فضلاً عن أهله

﴿كان آمناً ﴾ أي عريقاً في الأمن ، أو فأمنوه بأمان الله ، وتحويل العبارة عن " وأمن داخله " لأن هذا أدل على المراد من تمكن الأمن ، وفيه بشارة بدخول الجنة .

(66/125)

ولما أوضح سبحانه وتعالى براءتهم من إبراهيم عليه الصلاة والسلام لمخالفتهم إياه بعد دعواهم بهتاناً أنه على دينهم ، وكانت المخالفة في الواجب أدل قال سبحانه وتعالى : ﴿ ولله ﴾ أي الملك الذي له الأمر كله ﴿ على الناس ﴾ أي عامة ، فأظهر في موضع الإضمار دلالة على الإحاطة والشمول - كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى عن الأستاذ أبي الحسن الحرالي في ﴿ استطعما أهلها ﴾ [الكهف : 77] في الكهف ، وذلك لئلا يدعي خصوصة بالعرب أو غيرهم ﴿ حج البيت ﴾ أي زيارته زيارة عظيمة ، وأظهر أيضاً تنصيصاً عليه وتنويهاً بذكره تفخيماً لقدره ، وعبر هنا بالبيت لأنه في الزيارة ، وعادة العرب زيارة معاهد الأحباب وأطلالهم وأماكنهم وحلالهم ، وأعظم ما يعبر به عن الزيارة عندهم الحج ، ثم مَن بالتخفيف بقوله مبدلاً من الناس ، تأكيداً بالإيضاح بعد الإبهام وحملاً على الشكر بالتخفيف بعد التشديد وغير ذلك من البلاغة : ﴿ من استطاع ﴾ أي منهم ﴿ إليه سبيلاً ﴾ فمن حجه كان مؤمناً .

ولما كان من الواضح أن التقدير : ومن لم يحجه مع الاستطاعة كفر بالنعمة إن كان معترفاً بالوجوب ، وبالمروق من الدين إن جحد ، عطف عليه قوله : ﴿ ومن كفر ﴾ أي بالنعمة أو بالدين ﴿ فإن الله ﴾ اي الملك الأعلى ﴿ غني ﴾ ولما كان غناه مطلقاً دل عليه بقوله موضع عنه : ﴿ عن العالمين ﴾ أي طائعهم وعاصيهم ، صامتهم وناطقهم ، رطبهم ويابسهم ، فوضح بهذه الآية وما شاكلها أنهم ليسوا على دينه كما وضح بما تقدم أنه ليس على دينهم ، فثبتت بذلك براءته منهم ، والآية من الاحتباك لأن إثبات فرضه أولاً يدل على كفر من أباه ، وإثبات ﴿ ومن كفر ﴾ ثانياً يدل على إيمان من حجه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 127 . 129 ﴾

فصل

قال الفخر :

في اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه

(67/125)

الأول : أن المراد منه الجواب عن شبهة أخرى من شبه اليهود في إنكار نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام ، وذلك لأنه عليه السلام لما حول القبلة إلى الكعبة طعن اليهود في نبوته ،

وقالوا إن بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحق بالاستقبال ، وذلك لأنه وضع قبل الكعبة ، وهو أرض المحشر ، وقبلة جملة الأنبياء ، وإذا كان كذلك كان تحويل القبلة منه إلى الكعبة باطلاً ، فأجاب الله تعالى عنه بقوله ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ فبيّن تعالى أن الكعبة أفضل من بيت المقدس وأشرف ، فكان جعلها قبلة أولى

والثاني : أن المقصود من الآية المتقدمة بيان أن النسخ هل يجوز أم لا ؟ فإن النبي صلى الله عليه وسلم استدل على جوازه بأن الأطعمة كانت مباحة لبني إسرائيل ، ثم إن الله تعالى حرم بعضها ، والقوم نازعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، وأعظم الأمور التي أظهر رسول الله نسخها هو القبلة ، لا جرم ذكر تعالى في هذه الآية بيان ما لأجله حولت الكعبة ، وهو كون الكعبة أفضل من غيرها

الثالث : أنه تعالى لما قال في الآية المتقدمة ﴿ فاتبعوا مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ﴾ [آل عمران : 95] وكان من أعظم شعار ملة إبراهيم الحج ، ذكر في هذه الآية فضيلة البيت ، ليفرع عليه إيجاب الحج

الرابع : أن اليهود والنصارى زعم كل فرقة منهم أنه على ملة إبراهيم ، وقد سبقت هذه المناظرة في الآيات المتقدمة ، فإن الله تعالى بيّن كذبهم ، من حيث أن حج الكعبة كان ملة إبراهيم واليهود والنصارى لا يحجون ، فيدل هذا على كذبهم في ذلك . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 124 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ .

أخرج ابن المنذر وغيره عن ابن جريج قال : بلغنا أن اليهود قالت : بيت المقدس أعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء ولأنه في الأرض المقدسة ، فقال المسلمون : بل الكعبة أعظم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت إلى ﴿ مَّقَامِ إبراهيم ﴾ [آل عمران : 97] وروي مثل ذلك عن مجاهد ووجه ربطها بما قبلها أن الله تعالى أمر الكفرة باتباع ملة إبراهيم ومن ملته تعظيم بيت الله تعالى الحرام فناسب ذكر البيت وفضله وحرمته لذلك ، وقيل : وجه المناسبة أن هذه شبهة ثانية ادعوها فأكذبهم الله تعالى فيها كما أكذبهم في سابقتها ، والمعنى : إن أول بيت وضع لعبادة الناس ربهم أي هيىء وجعل متعبداً ؛ والواضع هو الله تعالى كما يدل عليه قراءة من قرأ ﴿ وُضِعَ ﴾ بالبناء للفاعل لأن الظاهر حينئذٍ أن يكون الضمير راجعاً إلى الله تعالى وإن لم يتقدم ذكره سبحانه صريحاً في الآية بناءاً على أنها مستأنفة واحتمال عوده إلى إبراهيم عليه السلام لاشتهاره ببناء البيت خلاف الظاهر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 4 ﴾

فصل

قال القرطبى :

ثبت في صحيح مسلم " عن أبي ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أوّل مسجد وضع في الأرض قال : "المسجد الحرام" .

قلت : ثم أي ؟ قال : "المسجد الأقصى" .

قلت : كم بينهما ؟ قال : "أربعون عاماً ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة فصل" " قال مجاهد وقتادة : لم يوضع قبله بيت .

قال عليّ رضي الله عنه : كان قبل البيت بيوت كثيرة ، والمعنى أنه أوّل بيت وضع للعبادة .

وعن مجاهد قال : تفاخر المسلمون واليهود فقالت اليهود : بيت المقدِس أفضل وأعظم من الكعبة ؛ لأنه مهاجر الأنبياء وفي الأرض المقدسة .

وقال المسلمون : بل الكعبة أفضل ؛ فأنزل الله هذه الآية .

(69/125)

وقد مضى في البقرة بنيان البيت وأوّل من بناه .

قال مجاهد : خلق الله موضع هذا البيتِ قبل أن يخلق شيئاً من الأرض بألفي سنة ، وأن

قواعده لفي الأرض السابعة السفلى .

وأما المسجد الأقصى فبناه سليمان عليه السلام ؛ كما خرجه النسائي بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " أن سليمان بن داود عليه السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله خِلالاً ثلاثة (سأل الله عز وجل) حُكْماً يصادف حكمه فأُوتِيَهُ ، وسأل الله عز وجل مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه ، وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد ألاّ يأتيه أحد لا يَنْهزه إلا الصلاةُ فيه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمّه فأوتيه " فجاء إشكالٌ بين الحديثين ؛ لأن بين إبراهيم وسليمان آماداً طويلة .

قال أهل التواريخ : أكثر من ألف سنة .

فقيل : إن إبراهيم وسليمان عليهما السلام إنما جدّدا ما كان أسَّسَه غيرهما .

وقد روي أن أوّل من بني البيت آدم عليه السلام كما تقدّم .

فيجوز أن يكون غيره من ولده وضع بيت المقدس من بعده بأربعين عاماً ، ويجوز أن تكون الملائكة أيضاً بنته بعد بنائها البيت بإذن الله ؛ وكل محتمل .

والله أعلم .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أمر الله تعالى الملائكة ببناء بيت في الأرض وأن يطوفوا به ؛ وكان هذا قبل خلق آدم ، ثم إن آدم بنى منه ما بنى وطاف به ، ثم الأنبياء بعده ،

ثم استتم بناءه إبراهيم عليه السلام. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 138.137 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال المحققون : ﴿ الأول ﴾ هو الفرد السابق ، فإذا قال : أول عبد اشتريه فهو حر فلو اشترى عبدين في المرة الأولى لم يعتق أحد منها لأن الأول هو الفرد ، ثم لو اشترى في المرة الثانية عبداً واحداً لم يعتق ، لأن شرط الأول كونه سابقاً فثبت أن الأول هو الفرد السابق .

(70/125)

إذا عرفت هذا فنقول : إن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ لا يدل على أنه أول بيت خلقه الله تعالى ، ولا أنه أول بيت ظهر في الأرض ، بل ظاهر الآية يدل على أنه أول بيت وضع للناس ، وكونه موضوعاً للناس يقتضي كونه مشتركاً فيه بين جميع الناس ، فأما سائر البيوت فيكون كل واحد منها مختصاً بواحد من الناس فلا يكون شيء من البيوت موضوعاً للناس ، وكون البيت مشتركاً فيه بين كل الناس ، لا يحصل إلا إذا كان البيت موضوعاً للطاعات والعبادات وقبلة للخلق ، فدل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ

لِلنَّاسِ ﴾ على أن هذا البيت وضعه الله موضعاً للطاعات والخيرات والعبادات فيدخل فيه كون هذا البيت قبلة للصلوات ، وموضعاً للحج ، ومكانا يزداد ثواب العبادات والطاعات فيه .

فإن قيل : كونه أولاً في هذا الوصف يقتضي أن يكون له ثان ، وهذا يقتضي أن يكون بيت المقدس يشاركه في هذه الصفات التي منها وجوب حجه ، ومعلوم أنه ليس كذلك .

والجواب : من وجهين

الأول : أن لفظ الأول : في اللغة اسم للشيء الذي يوجد ابتداء ، سواء حصل عقيبه شيء آخر أو لم يحصل ، يقال : هذا أول قدومي مكة ، وهذا أول مال أصبته ولو قال : أول عبد ملكته فهو حر فملك عبداً عتق وإن لم يملك بعده عبداً آخر ، فكذا هنا ،

والثاني : أن المراد من قوله ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ أي أول بيت وضع لطاعات الناس وعباداتهم وبيت المقدس يشاركه في كونه بيتاً موضوعاً للطاعات والعبادات ، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام : " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدي هذا " فهذا القدر يكفي في صدق كون الكعبة أول بيت

وضع للناس ، وأما أن يكون بيت المقدس مشاركاً له في جميع الأمور حتى في وجوب الحج ، فهذا غير لازم والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 124 . 125 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن قوله ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً ﴾ يحتمل أن يكون المراد كونه أولاً في الوضع والبناء وأن يكون المراد كونه أولاً في كونه مباركاً وهدىً فحصل للمفسرين في تفسير هذه الآية قولان

الأول : أنه أول في البناء والوضع ، والذاهبون إلى هذا المذهب لهم أقوال

أحدها : ما روى الواحدي رحمه الله تعالى في "البسيط" بإسناده عن مجاهد أنه قال : خلق الله تعالى هذا البيت قبل أن يخلق شياً من الأرضين ، وفي رواية أخرى : خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شياً من الأرض بألفي سنة ، وإن قواعده لفي الأرض السابعة السفلى وروي أيضاً عن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله تعالى عليهم أجمعين عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله تعالى بعث ملائكته فقال ابنوا لي في الأرض بيتاً على مثال البيت المعمور وأمر الله تعالى من في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور ، وهذا كان قبل خلق آدم " .

وأيضاً ورد في سائر كتب التفسير عن عبد الله بن عمر ، ومجاهد والسدي : أنه أول بيت وضع على وجه الماء عند خلق الأرض والسماء ، وقد خلقه الله تعالى قبل الأرض بألفي عام وكان زبدة بيضاء على الماء ثم دحيت الأرض تحته ، قال القفال في "تفسيره" : روى حبيب بن ثابت عن ابن عباس أنه قال : وجد في كتاب في المقام أو تحت المقام" أنا الله ذو بكة وضعتها يوم وضعت الشمس والقمر ، وحرمتها يوم وضعت هذين الحجرين ، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء"

وثانيها : أن آدم صلوات الله عليه وسلامه لما أهبط إلى الأرض شكا الوحشة ، فأمره الله تعالى ببناء الكعبة وطاف بها ، وبقي ذلك إلى زمان نوح عليه السلام ، فلما أرسل الله تعالى الطوفان ، رفع البيت إلى السماء السابعة حيال الكعبة ، يتعبد عنده الملائكة ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك سوى من دخل من قبل فيه ، ثم بعد الطوفان اندرس موضع الكعبة ، وبقي مختفياً إلى أن بعث الله تعالى جبريل صلوات الله عليه إلى إبراهيم عليه السلام ودله على مكان البيت ، وأمره بعمارته ، فكان المهندس جبريل والبناء إبراهيم والمعين إسماعيل عليهم السلام .

واعلم أن هذين القولين يشتركان في أن الكعبة كانت موجودة في زمان آدم عليه السلام ، وهذا هو الأصوب ويدل عليه وجوه

(73/125)

الأول : أن تكليف الصلاة كان لازماً في دين جميع الأنبياء عليهم السلام ، بدليل قوله تعالى في سورة مريم ﴿ أولئك الذين أنعمَ الله عَلَيْهِم مّنَ النبيين مِن ذُرِّيَّةِ ءادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إبراهيم وإسرائيل وَمِمَّنْ هَدَيْنَا واجتبينا إِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءايات الرحمن خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيّاً ﴾ [مريم : 58] فدلت الآية على أن جميع الأنبياء عليهم السلام كانوا يسجدون لله والسجدة لا بد لها من قبلة ، فلو كانت قبلة شيث وإدريس ونوح عليهم السلام موضعاً آخر سوى القبلة لبطل قوله ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ فوجب أن يقال : إن قبلة أولئك الأنبياء المتقدمين هي الكعبة ، فدل هذا على أن هذه الجهة كانت أبداً مشرفة مكرمة

الثاني : أن الله تعالى سمى مكة أم القرى ، وظاهر هذا يقتضي أنها كانت سابقة على سائر البقاع في الفضل والشرف منذ كانت موجودة

الثالث : روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في خطبته يوم فتح مكة " ألا إن الله قد حرم

مكة يوم خلق السموات والأرض والشمس والقمر " وتحريم مكة لا يمكن إلا بعد وجود مكة

الرابع : أن الآثار التي حكيناها عن الصحابة والتابعين دالة على أنها كانت موجودة قبل زمان إبراهيم عليه السلام .

واعلم أن لمن أنكر ذلك أن يحتج بوجوه

الأول : ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " اللّهم إني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة " وظاهر هذا يقتضي أن مكة بناء إبراهيم عليه السلام ولقائل أن يقول : لا يبعد أن يقال البيت كان موجوداً قبل إبراهيم وما كان محرماً ثم حرمه إبراهيم عليه السلام

(74/125)

الثاني : تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهيم القواعد مِنَ البيت وإسماعيل ﴾ [البقرة : 127] ولقائل أن يقول : لعل البيت كان موجوداً قبل ذلك ثم انهدم ، ثم أمر الله إبراهيم برفع قواعده وهذا هو الوارد في أكثر الأخبار

الثالث : قال القاضي : إن الذي يقال من أنه رفع زمان الطوفان إلى السماء بعيد ، وذلك لأن الموضع الشريف هو تلك الجهة المعينة ، والجهة لا يمكن رفعها إلى السماء ألا ترى أن الكعبة

والعياذ بالله تعالى لو انهدمت ونقل الأحجار والخشب والتراب إلى موضع آخر لم يكن له شرف ألبتة ، ويكون شرف تلك الجهة باقياً بعد الانهدام ، ويجب على كل مسلم أن يصلي إلى تلك الجهة بعينها ، وإذا كان كذلك فلا فائدة في نقل تلك الجدران إلى السماء ولقائل أن يقول : لما صارت تلك الأجسام في العزة إلى حيث أمر الله بنقلها إلى السماء ، وإنما حصلت لها هذه العزة بسبب أنها كانت حاصلة في تلك الجهة ، فصار نقلها إلى السماء من أعظم الدلائل على غاية تعظيم تلك الجهة وإعزازها ، فهذا جملة ما في هذا القول :

القول الثاني : أن المراد من هذه الأولية كون هذا البيت أولاً في كونه مباركاً وهدىً للخلق روي أن النبي عليه الصلاة والسلام سئل عن أول مسجد وضع للناس ، فقال عليه الصلاة والسلام : " المسجد الحرام ثم بيت المقدس " فقيل كم بينهما ؟ قال : " أربعون سنة " وعن علي رضي الله عنه أن رجلاً قال له : أهو أول بيت ؟ قال : " لا قد كان قبله بيوت ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً فيه الهدى والرحمة والبركة أول من بناه إبراهيم ، ثم بناه قوم من العرب من جرهم ، ثم هدم فبناه العمالقة ، وهم ملوك من أولاد عمليق بن سام بن نوح ، ثم هدم فبناه قريش "

واعلم أن دلالة الآية على الأولية في الفضل والشرف أمر لا بد منه ، لأن المقصود الأصلي من ذكر هذه الأولية بيان الفضيلة ، لأن المقصود ترجيحه على بيت المقدس ، وهذا إنما يتم بالأولية في الفضيلة والشرف ، ولا تأثير للأولية في البناء في هذا المقصود ، إلا أن ثبوت الأولية بسبب الفضيلة لا ينافي ثبوت الأولية في البناء ، وقد دللنا على ثبوت هذا المعنى أيضاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 125.127 ﴾

وقال الآلوسى :

المراد بالأولية الأولية بحسب الزمان ، وقيل : بحسب الشرف (1) ، ويؤيد الأول : ما أخرجه الشيخان عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول بيت وضع للناس فقال : " المسجد الحرام ثم بيت المقدس فقيل : كم بينهما ؟ فقال : أربعون سنة " واستشكل ذلك بأن باني المسجد الحرام إبراهيم عليه السلام وباني الأقصى داود ثم ابنه سليمان عليهما السلام ، ورفع قبته ثمانية عشر ميلاً وبين بناء إبراهيم وبنائهما مدة تزيد على الأربعين بأمثالها .

وأجيب بأن الوضع غير البناء والسؤال عن مدة ما بين وضعيهما لا عن مدة ما بين بناءيهما فيحتمل أن واضع الأقصى بعض الأنبياء قبل داود وابنه عليهما السلام ثم بنياه بعد ذلك ، ولا بد من هذا التأويل قاله الطحاوي وأجاب بعضهم على تقدير أن يراد من الوضع البناء بأن باني المسجد الحرام والمسجد الأقصى هو إبراهيم عليه السلام وأنه بنى الأقصى بعد

أربعين سنة من بنائه المسجد الحرام وادعى فهم ذلك من الحديث فتدبر .

---

(1) الأولية فى الشرف أسمى من الأولية فى الزمان فإبليس عليه لعنة الله خلق قبل آدم. عليه السلام. بآلاف السنين وشتان بين أشقى الأشقياء وبين أسعد السعداء . والله أعلم .

(76/125)

وورد في بعض الآثار أن أول من بنى البيت الملائكة وقد بنوه قبل آدم عليه السلام بألفي عام ، وعن مجاهد وقتادة والسدي ما يؤيد ذلك ، وحكي أن بناء الملائكة له كان من ياقوتة حمراء ثم بناه آدم ثم شيث ثم إبراهيم ثم العمالقة ثم جرهم ثم قصي ثم قريش ثم عبد الله بن الزبير ثم الحجاج واستمر بناء الحجاج إلى الآن إلا في الميزاب والباب والعتبة ووقع الترميم في الجدار والسقف غير مرة وجدد فيه الرخام ، وقيل : إنه نزل مع آدم من الجنة ثم رفع بعد موته إلى السماء ، وقيل : بني قبله ورفع في الطوفان إلى السماء السابعة ، وقيل : الرابعة ، وذهب أكثر أهل الأخبار أن الأرض دحيت من تحته ، وقد أسلفنا لك ما ينفعك هنا فتذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 4 صـ 5.4 ﴾

فائدة نفيسة

قال العلامة ابن عطية وقد أجاد :

ورويت في هذا أقاصيص من نزول آدم به من الجنة ومن تحديد ما بين خلقه ودحو الأرض ، ونحو ما قال الزجّاج : من أنه البيت المعمور أسانيدها ضعاف فلذلك تركتها ، وعلى هذا القول يجيء رفع إبراهيم القواعد تجديداً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 474 ﴾

فصل

قال الفخر :

إذا ثبت أن المراد من هذه الأولية زيادة الفضيلة والمنقبة فلنذكر ههنا وجوه فضيلة البيت :

الفضيلة الأولى : اتفقت الأمم على أن باني هذا البيت هو الخليل عليه السلام ، وباني بيت المقدس سليمان عليه السلام ، ولا شك أن الخليل أعظم درجة وأكثر منقبة من سليمان عليه السلام فمن هذا الوجه يجب أن تكون الكعبة أشرف من بيت المقدس .

واعلم أن الله تعالى أمر الخليل عليه السلام بعمارة هذا البيت ، فقال : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإبراهيم مَكَانَ البيت أَن لاَّ تُشْرِكْ بِى شَيْئاً وَطَهّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ والقائمين والركع السجود ﴾ [الحج : 26] والمبلغ لهذا التكليف هو جبريل عليه السلام ، فلهذا قيل : ليس في العالم بناء

أشرف من الكعبة ، فالآمر هو الملك الجليل والمهندس هو جبريل ، والباني هو الخليل ، والتلميذ إسماعيل عليهم السلام .

الفضيلة الثانية : ﴿ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وهو الحجر الذي وضع إبراهيم قدمه عليه فجعل الله ما تحت قدم إبراهيم عليه السلام من ذلك الحجر دون سائر أجزائه كالطين حتى غاص فيه قدم إبراهيم عليه السلام ، وهذا مما لا يقدر عليه إلا الله ولا يظهره إلا على الأنبياء ، ثم لما رفع إبراهيم قدمه عنه خلق فيه الصلابة الحجرية مرة أخرى ، ثم إنه تعالى أبقى ذلك الحجر على سبيل الاستمرار والدوام فهذه أنواع من الآيات العجيبة والمعجزات الباهرة أظهرها الله سبحانه في ذلك الحجر .

الفضيلة الثالثة : قلة ما يجتمع فيه من حصى الجمار ، فإنه منذ آلاف سنة وقد يبلغ من يرمي في كل سنة ستمائة ألف إنسان كل واحد منهم سبعين حصاة ، ثم لا يرى هناك إلا ما لو اجتمع في سنة واحدة لكان غير كثير وليس الموضع الذي ترمي إليه الجمرات مسيل ماء ولا مهب رياح شديدة وقد جاء في الآثار أن من كانت حجته مقبولة رفعت حجارة جمراته إلى السماء .

الفضيلة الرابعة : إن الطيور تترك المرور فوق الكعبة عند طيرانها في الهواء بل تنحرف عنها إذا ما وصلت إلى فوقها .

الفضيلة الخامسة : أن عنده يجتمع الوحش لا يؤذي بعضها بعضاً كالكلاب والظباء ، ولا يصطاد فيه الكلاب والوحوش وتلك خاصية عجيبة وأيضاً كل من سكن مكة أمن من النهب والغارة وهو بركة دعاء إبراهيم عليه السلام حيث قال : ﴿ رَبِّ اجعل هذا بَلَدًا آمِنًا ﴾ [البقرة : 126] وقال تعالى في صفة أمنه ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً ءَامِناً وَيُتَخَطَّفُ الناس مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 67] وقال : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت الذى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءامَنَهُم مِّنْ خوْفٍ ﴾ [قريش : 3 ، 4] ولم ينقل ألبتة أن ظالماً هدم الكعبة وخرب مكة بالكلية ؛ وأما بيت المقدس فقد هدمه بختنصر بالكلية .

الفضيلة السادسة : أن صاحب الفيل وهو أبرهة الأشرم لما قاد الجيوش والفيل إلى مكة لتخريب الكعبة وعجز قريش عن مقاومة أولئك الجيوش وفارقوا مكة وتركوا له الكعبة فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل ، والأبابيل هم الجماعة من الطير بعد الجماعة ، وكانت صغاراً تحمل أحجاراً ترميهم بها فهلك الملك وهلك العسكر بتلك الأحجار مع أنها كانت في غاية الصغر ، وهذه آية باهرة دالة على شرف الكعبة وإرهاص لنبوّة محمد عليه الصلاة والسلام .

فإن قال قائل : لم لا يجوز أن يقال إن كل ذلك بسبب طلسم موضوع هناك بحيث لا يعرفه أحد فإن الأمر في تركيب الطلسمات مشهور .

قلنا : لو كان هذا من باب الطلسمات لكان هذا طلسماً مخالفاً لسائر الطلسمات فإنه لم يحصل لشيء سوى الكعبة مثل هذا البقاء الطويل في هذه المدة العظيمة ، ومثل هذا يكون من المعجزات ، فلا يتمكن منها سوى الأنبياء .

الفضيلة السابعة : إن الله تعالى وضعها بواد غير ذي زرع ، والحكمة من وجوه

أحدها : إنه تعالى قطع بذلك رجاء أهل حرمه وسدنة بيته عمن سواه حتى لا يتوكلوا إلا على الله

وثانيها : أنه لا يسكنها أحد من الجبابرة والأكاسرة فإنهم يريدون طيبات الدنيا فإذا لم يجدوها هناك تركوا ذلك الموضع ، فالمقصود تنزيه ذلك الموضع عن لوث وجود أهل الدنيا

وثالثها : أنه فعل ذلك لئلا يقصدها أحد للتجارة بل يكون ذلك لمحض العبادة والزيارة فقط

ورابعها : أظهر الله تعالى بذلك شرف الفقر حيث وضع أشرف البيوت في أقل المواضع نصيباً من الدنيا ، فكأنه قال : جعلت الفقراء في الدنيا أهل البلد الأمين ، فكذلك أجعلهم في الآخرة أهل المقام الأمين ، لهم في الدنيا بيت الأمن وفي الآخرة دار الأمن

وخامسها : كأنه قال : لما لم أجعل الكعبة إلا في موضع خال عن جميع نعم الدنيا فكذا لا

أجعل كعبة المعرفة إلا في كل قلب خال عن محبة الدنيا ، فهذا ما يتعلق بفضائل الكعبة ، وعند هذا ظهر أن هذا البيت أول بيت وضع للناس في أنواع الفضائل والمناقب ، وإذا ظهر هذا بطل قول اليهود : إن بيت المقدس أشرف من الكعبة والله أعلم . انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 127.128 ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾

فصل

قال الفخر :

(80/125)

لا شك أن المراد من ﴿ بكة ﴾ هو مكة ثم اختلفوا فمنهم من قال : بكة ومكة اسمان لمسمى واحد ، فإن الباء والميم حرفان متقاربان في المخرج فيقام كل واحد منهما مقام الآخر فيقال : هذه ضربة لازم ، وضربة لازب ، ويقال : هذا دائم ودائب ، ويقال : راتب وراتم ، ويقال : سمد رأسه ، وسبده ، وفي اشتقاق بكة وجهان الأول : أنه من البك الذي هو عبارة عن دفع البعض بعضاً ، يقال : بكه يبكه بكاً إذا دفعه وزحمه ، وتباك القوم إذا ازدحموا فلهذا قال سعيد بن جبير : سميت مكة بكة لأنهم يتباكون فيها أي يزدحمون في

الطواف ، وهو قول محمد بن علي الباقر ومجاهد وقتادة قال بعضهم : رأيت محمد بن علي الباقر يصلي فمرت امرأة بين يديه فذهبت أدفعها فقال : دعها فإنها سميت بكة لأنه يبك بعضهم بعضاً ، تمر المرأة بين يدي الرجل وهو يصلي ، والرجل بين يدي المرأة وهي تصلي لا بأس بذلك في هذا المكان .

الوجه الثاني : سميت بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة لا يريدها جبار بسوء إلا اندقت عنقه قال قطرب : تقول العرب بككت عنقه أبكه بكاً إذا وضعت منه ورددت نخوته .

وأما مكة ففي اشتقاقها وجوه

الأول : أن اشتقاقها من أنها تمك الذنوب أي تزيلها كلها ، من قولك : أمتك الفصيل ضرع أمه ، إذا امتص ما فيه

الثاني : سميت بذلك لاجتلابها الناس من كل جانب من الأرض ، يقال أمتك الفصيل ، إذا استقصى ما في الضرع ، ويقال تمككت العظم ، إذا استقصيت ما فيه الثالث : سميت مكة ، لقلة مائها ، كأن أرضها امتكت ماءها الرابع : قيل : إن مكة وسط الأرض ، والعيون والمياه تنبع من تحت مكة ، فالأرض كلها تمك من ماء مكة ، ومن الناس من فرق بين

مكة وبكة ، فقال بعضهم : إن بكة اسم للمسجد خاصة ، وأما مكة ، فهو اسم لكل البلد ، قالوا : والدليل عليه أن اشتقاق بكة من الازدحام والمدافعة ، وهذا إنما يحصل في المسجد عند الطواف ، لا في سائر المواضع ، وقال الأكثرون : مكة اسم للمسجد والمطاف.

وبكة اسم البلد ، والدليل عليه أن قوله تعالى : ﴿ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ يدل على أن البيت حاصل في بكة ومظروف في بكة فلو كان بكة اسماً للبيت لبطل كون بكة ظرفاً للبيت ، أما إذا جعلنا بكة اسماً للبلد ، استقام هذا الكلام. انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 128. 129 ﴾

لطيفة

قال الفخر :

لمكة أسماء كثيرة ، قال القفال رحمه الله في "تفسيره" : مكة وبكة وأم رحم وكوساء والبشاشة والحاطمة تحطم من استخف بها ، وأم القرى قال تعالى : ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ القرى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام : 92] وسميت بهذا الاسم لأنها أصل كل بلدة ومنها دحيت الأرض ، ولهذا المعنى يزار ذلك الموضع من جميع نواحي الأرض. انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 129 ﴾

لطيفة ثانية

قال الفخر :

(82/125)

للكعبة أسماء أحدها : الكعبة قال تعالى : ﴿ جَعَلَ اللهُ الكعبة البيت الحرام ﴾ [المائدة : 97] والسبب فيه أن هذا الاسم يدل على الإشراف والارتفاع ، وسمي الكعب كعباً لإشرافه وارتفاعه على الرسغ ، وسميت المرأة الناهدة الثديين كاعباً ، لارتفاع ثديها ، فلما كان هذا البيت أشرف بيوت الأرض وأقدمها زماناً ، وأكثرها فضيلة سمي بهذا الاسم

وثانيها : البيت العتيق : قال تعالى : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إلى البيت العتيق ﴾ [الحج : 33] وقال : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ بالبيت العتيق ﴾ [الحج : 29] وفي اشتقاقه وجوه

الأول : العتيق هو القديم ، وقد بينا أنه أقدم بيوت الأرض بل عند بعضهم أن الله خلقه قبل الأرض والسماء

والثاني : أن الله أعتقه من الغرق حيث رفعه إلى السماء

الثالث : من عتق الطائر إذا قوي في وكره ، فلما بلغ في القوة إلى حيث أن كل من قصد تخريبه أهلكه الله سمي عتيقاً

الرابع : أن الله أعتقه من أن يكون ملكاً لأحد من المخلوقين

الخامس : أنه عتيق بمعنى أن كل من زاره أعتقه الله تعالى من النار

وسادسها : المسجد الحرام قال سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾ [الإسراء : 1] والمراد من كونه حراماً سيجيء إن شاء الله في تفسير هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 129 ﴾

سؤال : فإن قال قائل : كيف الجمع بين قوله ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ وبين قوله ﴿ وَطَهّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ ﴾ [الحج : 26] فأضافه مرة إلى نفسه ومرة إلى الناس .

والجواب : كأنه قيل : البيت لي ولكن وضعته لا لأجل منفعتي فإني منزّه عن الحاجة ولكن وضعته لك ليكون قبلة لدعائك والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 130.129 ﴾

قوله تعالى : ﴿ مُبَارَكاً وَهُدًى لّلْعَالَمِينَ ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى وصف هذا البيت بأنواع الفضائل فأولها : أنه أول بيت وضع للناس ، وقد ذكرنا معنى كونه أولاً في الفضل ونزيد ههنا وجوهاً أُخر

الأول : قال علي رضي الله عنه ، هو أول بيت خص بالبركة ، وبأن من دخله كان آمناً ، وقال الحسن : هو أول مسجد عبد الله فيه في الأرض وقال مطرف .

أول بيت جعل قبلة

وثانيها : أنه تعالى وصفه بكونه مباركاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 130﴾

فصل

قال الفخر :

البركة لها معنيان

أحدهما : النمو والتزايد

والثاني : البقاء والدوام ، يقال تبارك الله ، لثبوته لم يزل ، والبركة شبه الحوض لثبوت الماء فيها ، وبرك البعير إذا وضع صدره على الأرض وثبت واستقر ، فإن فسرنا البركة بالتزايد والنمو فهذا البيت مبارك من وجوه أحدها : أن الطاعات إذا أتى بها في هذا البيت ازداد ثوابها .

قال صلى الله عليه وسلم : " فضل المسجد الحرام على مسجدي ، كفضل مسجدي على

سائر المساجد " ثم قال صلى الله عليه وسلم : " صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه " فهذا في الصلاة ، وأما الحج ، فقال عليه الصلاة والسلام : " من حج ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه " وفي حديث آخر " الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة " ومعلوم أنه لا أكثر بركة مما يجلب المغفرة والرحمة

وثانيها : قال القفال رحمه الله تعالى : ويجوز أن يكون بركته ما ذكر في قوله تعالى : ﴿ يجبى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلّ شَىْء ﴾ [القصص : 57] فيكون كقوله ﴿ إلى المسجد الأقصى الذى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ [الإسراء : 1]

(84/125)

وثالثها : أن العاقل يجب أن يستحضر في ذهنه أن الكعبة كالنقطة وليتصور أن صفوف المتوجهين إليها في الصلوات كالدوائر المحيطة بالمركز ، وليتأمل كم عدد الصفوف المحيطة بهذه الدائرة حال اشتغالهم بالصلاة ، ولا شك أنه يحصل فيما بين هؤلاء المصلين أشخاص أرواحهم علوية ، وقلوبهم قدسية وأسرارهم نورانية وضمائرهم ربانية ثم إن تلك الأرواح الصافية إذا توجهت إلى كعبة المعرفة وأجسادهم توجهت إلى هذه الكعبة الحسيّة فمن كان في الكعبة يتصل أنوار أرواح أولئك المتوجهين بنور روحه ، فتزداد الأنوار الإلهية في قلبه

، ويعظم لمعان الأضواء الروحانية في سره وهذا بحر عظيم ومقام شريف ، وهو ينبهك على معنى كونه مباركاً .

وأما إن فسرنا البركة بالدوام فهو أيضاً كذلك لأنه لا تنفك الكعبة من الطائفين والعاكفين والركع السجود ، وأيضاً الأرض كرة ، وإذا كان كذلك فكل وقت يمكن أن يفرض فهو صبح لقوم ، وظهر لثان وعصر لثالث ، ومغرب لرابع وعشاء لخامس ، ومتى كان الأمر كذلك لم تكن الكعبة منفكة قط عن توجه قوم إليها من طرف من أطراف العالم لأداء فرض الصلاة ، فكان الدوام حاصلاً من هذه الجهة ، وأيضاً بقاء الكعبة على هذه الحالة ألوفاً من السنين دوام أيضاً فثبت كونه مباركاً من الوجهين . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 130﴾

(85/125)

وقال الآلوسى :

﴿مُبَارَكاً﴾ أي كثير الخير لما أنه يضاعف فيه ثواب العبادة قاله ابن عباس ، وقيل : لأنه يغفر فيه الذنوب لمن حجه وطاف به واعتكف عنده . وقال القفال : يجوز أن تكون بركته ما ذكر في قوله تعالى : ﴿يجبى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلّ شَىْء﴾ [القصص : 57] ، وقيل : بركته

دوام العبادة فيه ولزومها ، وقد جاءت البركة بمعنيين : النمو وهو الشائع ، والثبوت ومنه البركة لثبوت الماء فيها والبرك الصدر لثبوت الحفظ فيه وتبارك الله سبحانه بمعنى ثبت ولم يزل ، ووجه الكرماني كونه مباركاً بأن الكعبة كالنقطة وصفوف المتوجهين إليها في الصلوات كالدوائر المحيطة بالمركز ولا شك أن فيهم أشخاصاً أرواحهم علوية وقلوبهم قدسية وأسرارهم نورانية وضمائرهم ربانية ومن كان في المسجد الحرام يتصل أنوار تلك الأرواح الصافية المقدسة بنور روحه فتزداد الأنوار الإلهية في قلبه وهذا غاية البركة ثم إن الأرض كرية وكل آن يفرض فهو صبح لقوم ظهر لثان عصر لثالث وهلم جراً ، فليست الكعبة منفكة قط عن توجه قوم إليها لأداء الفرائض فهو دائماً كذلك والمنصوب حال من الضمير المستتر في الظرف الواقع صلة . وجوز أبو البقاء جعله حالاً من الضمير في وضع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 5 ﴾

قوله تعالى ﴿ هُدًى للعالمين ﴾

قال الفخر :

المعنى أنه قبلة للعالمين يهتدون به إلى جهة صلاتهم ، وقيل : هدىً للعالمين أي دلالة على وجود الصانع المختار ، وصدق محمد صلى الله عليه وسلم في النبوّة بما فيه من الآيات التي ذكرناها والعجائب التي حكيناها فإن كل ما يدل على النبوة فهو بعينه يدل أولاً على وجود الصانع ، وجميع صفاته من العلم والقدرة والحكمة والاستغناء ، وقيل : هدىً للعالمين إلى

الجنة لأن من أدى الصلوات الواجبة إليها استوجب الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 130 . 131 ﴾

(86/125)

فصل

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ هذه الجملة في موضع خفض ؛ صفة ل " بَيْتٍ " .

وقرأ العامة " وُضِعَ " مبنيًّا للمفعول . وعكرمة وابن السميفع " وضَعَ " مبنيًّا للفاعل .

وفي فاعله قولان :

أحدهما : – وهو الأظهر – أنه ضمير إبراهيم ؛ لتقدُّم ذِكْرِه ؛ ولأنه مشهور بعمارته .

والثاني : أنه ضمير الباري تعالى ، و " لِلنَّاسِ " متعلق بالفعل قبله ، واللام فيه للعلة .

و " للذي " بِبَكَّة " خبر " إنَّ " وأخبر – هنا – بالمعرفة – وهو الموصول – عن النكرة – وهو " أول بَيْتٍ " – لتخصيص النكرة بشيئين : الإضافة ، والوصف بالجملة بعده ، وهو جائز في باب " إن " ، ومن عبارة سيبويه : إن قريباً منك زيدٌ ، لما تخصص " قريباً " بوصفه بالجار بعده ساغ ما ذكرناه ، وزاده حُسْناً – هنا – كونه اسماً ل " إنَّ " ، وقد جاءت النكرة

اسماً ل " إنَّ " – وإن لم يكن تخصيص – كقوله : [الطويل]

وَإِنَّ حَرَاماً أن أَسُبَّ مُجَاشِعاً . . . بِآبَائِيَ الشُّمِّ الْكِرَامِ الخَضَارِمِ

وببكة صلة ، والباء فيه ظرفية ، أي : في مكة .

وبكة فيها أربعة أوجه :

أحدها : أنها مرادفة ل " مكة " فأبدلت ميمها باءً ، قالوا : والعرب تُعَاقِب بين الباء والميم في مواضع ، قالوا : هذا على ضربة لازم ، ولازب ، وهذا أمر راتب ، وراتم ، والنبيط والنميط وسبد رأسه وسَمَدَها ، وأغبطت الحمى ، وأغمطت .

وقيل : إنها اسم لبطن مكة ، ومكة اسم لكل البلد .

وقيل : إنها اسم لمكان البيت .

وقيل : إنها اسم للمسجد نفسه ، وأيدوا هذا بأن التباكّ وهو : الازدحام إنما يحصل عند الطواف ، يقال : تباكَّ الناسُ – أي : ازْدَحموا ، ويُفْسِد هذا القول أن يكون الشيء ظرفاً لنفسه ، كذا قال بعضهم ، وهو فاسد ، لأن البيت في المسجد حقيقةً .

وقال الأكثرون : بكة : اسم للمسجد والمطاف ، ومكة : اسم البلد ، لقوله تعالى :

﴿ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ فدل على أن البيت مظروف في بكة ، فلو كان بكة اسماً للبيت لبطل كون بكةَ ظرفاً له .

وسميت بكة ؛ لازدحام الناس ، قاله مجاهد وقتادة ، وهو قول محمد بن علي الباقر .

وقال بعضهم : رأيت محمد بن علي الباقر يصلي ، فمرت امرأة بين يديه ، فذهبت أدْفَعها ، فقال : دعها ، فإنها سُمِّيَتْ بكةَ ، لأنه يبكُّ بعضُهم بعضاً ، تمر المرأة بين يدي الرجل وهو يصلي ، والرجل بين يدي المرأة وهي تصلي ، ولا بأس بذلك هنا .

وقيل : لأنها تبكُّ أعناق الجبابرة – أي : تدقها .

قال قطرب : تقول العرب : بَكَكْتُه ، أُبُكُّه ، بَكّاً ، إذا وضعت منه .

وسميت مكة – من قولهم : مَكَكْتُ المخ من العظم ، إذا تستقصيته ولم تترك فيه شيئاً .

ومنه : مَكَّ الفصيل ما في ضَرْعِ أمِّه – إذا لم يترك فيه لبناً ، ورُوِيَ أنه قال : " لا تُمَكِّكُوا عَلَى غُرَمَائِكُمْ " .

وقيل : لأنها تَمُكُّ الذنوبَ ، أي : تُزيلها كلَّها .

قال ابن الأنباري : وسُمِّيَتْ مكة لِقلَّةِ مائِها وزرعها ، وقلة خِصْبها ، فهي مأخوذة من مككْت العَظْم ، إذا لم تترك فيه شيئاً .

وقيل : لأن مَنْ ظَلَم فيها مَكَّهُ اللهُ ، أي : استقصاه بالهلاك .

وقيل : سُمِّيت بذلك ؛ لاجتلابها الناسَ من كل جانب من الأرض ، كما يقال : امتكّ الفصيلُ - إذا استقصى ما في الضَّرْع .

وقال الخليل : لأنها وسط الأرض كالمخ وسط العظم .

وقيل : لأن العيونَ والمياه تنبع من تحت مكة ، فالأرض كلها تمك من ماء مكة ، والمكوك : كأس يشرب به ، ويُكال به - كـ " الصُّوَاع " .

(88/125)

قال القفال : لها أسماء كثيرة ، مكة ، وبكة ، وأمّ رُحْم ، - بضم الراء وإسكان الحاء - قال مجاهد : لأن الناس يتراحمون فيها ، ويتوادَعُون - والباسَّة ؛ قال الماوَرْدِي : لأنها تبس من الْحَد فيها ، أي : تُحَطِّمه وتُهْلكه ، قال تعالى : ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً ﴾ [الواقعة : 5] .

ويروى : الناسَّة - بالنون - قال صاحبُ المطالع : ويقال : الناسَّة - بالنون - . قال الماوَرْدِيُّ : لأنها تنس من ألحد فيها - أي : تطرده وتَنْفِيه .

ونقل الجوهري - عن الأصمعي - : النَّسّ : اليبس ، يُقال : جاءنا بخُبْزَة ناسَّة ، ومنه قيل لمكةَ : الناسَّة ؛ لقلة مائها .

والرأس ، والعرش ، والقادس ، والمقدّسة - من التقديس - وصَلاَحِ - بفتح الصاد وكسر

الحاء - مبنيًّا على الكسر كقَطَامِ وحَذَامِ ، والبلد ، والحاطمة ؛ لأنها تحطم من استخَفَّ بها ، وأم القرى ؛ لأنها أصل كل بلدة ، ومنها دحيت الأرض ، ولهذا المعنى تُزَار من جميع نواحي الأرض .

قوله : ﴿ مُبَارَكاً وَهُدًى ﴾ حالان ، إما من الضمير في " وُضِعَ " كذا أعربه أبو البقاء وغيره ، وفيه نظر ؛ من حيث إنه يلزم الفصل بين الال بأجنبيّ - وهو خبر " إنَّ " - وذلك غير جائز ؛ لأن الخبر معمول ل " إنَّ " فإن أضمرت عاملاً بعد الخبر أمكن أن يعمل في الحال ، وكان تقديره : أول بيت وُضِعَ للناس للذي ببكة وُضِعَ مباركاً ، والذي حمل على ذلك ما يُعْطيه تفسير أمير المؤمنين من أنه وُضِعَ أولاً بقيد هذه الحال .

وإما أن يكون العامل في الحال هو العامل في " بِبَكَّةَ " أي استقر ببكة في حال بركته ، وهو وجه ظاهر الجواز . والظاهر أن قوله : " وَهُدًى " معطوف على " مُبَارَكاً " والمعطوف على الحال حال .

وجوز بعضهم أن يكونَ مرفوعاً ، على أنه خبر مبتدأ محذوف - أي : وهو هدى - ولا حاجة إلى تكلف هذا الإضمار .

والبركة: الزيادة، يقال: بارك الله لك، أي: زادك خيراً، وهو مُتَعَدٍّ، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النار وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: 8] و"تبارك" لا يَتَصَرف، ولا يُستعمل إلا مُسْنداً لله تعالى، ومعناه -في حقه تعالى-: تزايد خيرُه وإحسانه.

وقيل: البركة ثبوت الخير، مأخوذ من مَبْرَك البعير.

وإما من الضمير المستكن في الجار وهو "ببكة" لوقوعه صلة، والعامل فيها الجار وبما تضمنه من الاستقرار أو العامل في الجار ويجوز أن ينصب على إضمار فعل المدح أو على الاختصاص، ولا يضر كونه نكرة وقد تقدم دلائل ذلك. و"للعالمين" كقوله: "للمتقين" أول البقرة. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 396. 404﴾. بتصرف يسير.

قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءايات بينات﴾

فصل

قال الفخر:

فيه قولان

الأول: أن المراد ما ذكرناه من الآيات التي فيه وهي: أمن الخائف، وإمحاق الجمار على كثرة الرمي، وامتناع الطير من العلو عليه واستشفاء المريض به وتعجيل العقوبة لمن انتهك فيه حرمة، وإهلاك أصحاب الفيل لما قصدوا تخريبه فعلى هذا تفسير الآيات وبيانها غير

مذكور .

وقوله ﴿ مَّقَامِ إبراهيم ﴾ لا تعلق له بقوله ﴿ فِيهِ ءايات بينات ﴾ فكأنه تعالى قال : ﴿ فِيهِ ءايات بينات ﴾ ومع ذلك فهو مقام إبراهيم ومقره والموضع الذي اختاره وعبد الله فيه ، لأن كل ذلك من الخلال التي بها يشرف ويعظم .

القول الثاني : أن تفسير الآيات مذكور ، وهو قوله ﴿ مَّقَامِ إبراهيم ﴾ أي : هي مقام إبراهيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 131 ﴾

فائدة

قال ابن عطية :

الضمير في قوله : ﴿ فيه ﴾ عائد على البيت ، وساغ ذلك مع كون " الآيات " خارجة عنه لأن البيت إنما وضع بحرمه وجميع فضائله ، فهي فيه وإن لم تكن داخل جدرانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 475 ﴾

(90/125)

سؤال : فإن قيل : الآيات جماعة ولا يصح تفسيرها بشيء واحد ، أجابوا عنه من وجوه

الأول : أن مقام إبراهيم بمنزلة آيات كثيرة ، لأن ما كان معجزة لرسول الله صلى الله عليه

وسلم ، فهو دليل على وجود الصانع ، وعلمه وقدرته وإرادته وحياته ، وكونه غنياً منزّهاً مقدساً عن مشابهة المحدثات فمقام إبراهيم وإن كان شيئاً واحداً إلا أنه لما حصل فيه هذه الوجوه الكثيرة كان بمنزلة الدلائل كقوله ﴿ إِنَّ إبراهيم كَانَ أُمَّةً قانتاً ﴾ [النحل : 120]

الثاني : أن مقام إبراهيم اشتمل على الآيات ، لأن أثر القدم في الصخرة الصماء آية ، وغوصه فيها إلى الكعبين آية ، وإلانة بعض الصخرة دون بعض آية ، لأنه لأن من الصخرة ما تحت قدميه فقط ، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية خاصة لإبراهيم عليه السلام وحفظه مع كثرة أعدائه من اليهود والنصارى والمشركين والملحدين ألوف سنين فثبت أن مقام إبراهيم عليه السلام آيات كثيرة

الثالث : قال الزجاج إن قوله ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءامِناً ﴾ من بقية تفسير الآيات ، كأنه قيل : فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن من دخله ، ولفظ الجمع قد يستعمل في الاثنين ، قال تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى الله فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم : 4] وقال عليه السلام : " الاثنان فما فوقهما جماعة " ومنهم من تمم الثلاثة فقال : مقام إبراهيم ، وأن من دخله كان آمناً ، وأن لله على الناس حجه ، ثم حذف (أن) اختصاراً ، كما في قوله ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبّي بالقسط ﴾ [الأعراف : 29] أي أمر ربي بأن تقسطوا

الرابع: يجوز أن يذكر هاتان الآيتان ويطوي ذكر غيرهما دلالة على تكاثر الآيات، كأنه قيل فيه آيات بينات مقام إبراهيم، وأمن من دخله، وكثير سواهما

(91/125)

الخامس: قرأ ابن عباس ومجاهد وأبو جعفر المدني في رواية قتيبة ﴿آيَةٌ بَيِّنَةٌ﴾ على التوحيد

السادس: قال المبرّد ﴿مَّقَامِ﴾ مصدر فلم يجمع كما قال: ﴿وعلى سَمْعِهِمْ﴾ والمراد مقامات إبراهيم، وهي ما أقامه إبراهيم عليه السلام من أمور الحج وأعمال المناسك ولا شك أنها كثيرة وعلى هذا فالمراد بالآيات شعائر الحج كما قال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شعائر الله﴾ [الحج: 32]. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 131﴾

وقال العلامة ابن عطية:

وقرأ جمهور الناس: "آيات بينات" بالجمع، وقرأ أبي بن كعب وعمر وابن عباس: "آية بينة" على الإفراد، قال الطبري: يريد علامة واحدة المقام وحده، وحكي ذلك عن مجاهد.

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل أن يراد بالآية اسم الجنس فيقرب من معنى القراءة الأولى،

واختلف عبارة المفسرين عن " الآيات البينات " فقال ابن عباس : من الآيات المقام ، يريد الحجر المعروف والمشعر وغير ذلك .

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وهذا يدل على أن قراءته " آية " بالإفراد إنما يراد بها اسم الجنس ، وقال الحسن بن أبي الحسن : " الآيات البينات " مقام إبراهيم ، وإن من دخله كان آمناً ، وقال مجاهد : المقام الآية ، وقوله : ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ كلام آخر .

قال القاضي أبو محمد : فرفع ﴿ مقام ﴾ على قول الحسن ومجاهد على البدل من ﴿ آيات ﴾ ، أو على خبر ابتداء تقديره هن مقام إبراهيم ، وعلى قول ابن عباس ومن نحا نحوه : هو مرتفع بالابتداء وخبره محذوف مقدم تقديره : منهن ﴿ مقام إبراهيم ﴾ .

(92/125)

قال القاضي : والمترجح عندي أن المقام وأمن الداخل جعلا مثالاً مما في حرم الله من الآيات ، وخصا بالذكر لعظمهما ، وأنهما تقوم بهما الحجة على الكفار ، إذ هم مدركون لهاتين الآيتين بحواسهم ، ومن آيات الحرم والبيت التي تقوم بها الحجة على الكفار أمر الفيل ، ورمي طير الله عنه بحجارة السجيل ، وذلك أمر لم تختلف كافة العرب في نقله وصحته إلى أن أنزله الله في كتابه ، ومن آياته كف الجبابرة عنه على وجه الدهر ، ومن آياته الحجر الأسود ، وما

روي فيه أنه من الجنة وما أشربت قلوب العالم ثم تعظيمه قبل الإسلام ، ومن آياته حجر المقام ، وذلك أنه قام عليه إبراهيم عليه السلام ، وقت رفعه القواعد من البيت ، لما طال له البناء فكلما علا الجدار ، ارتفع الحجر به في الهواء ، فما زال يبني وهو قائم عليه وإسماعيل يناوله الحجارة والطين حتى أكمل الجدار ، ثم إن الله تعالى ، لما أراد إبقاء ذلك آية للعالمين لين الحجر ، فغرقت فيه قدما إبراهيم عليه السلام كأنها في طين ، فذلك الأثر العظيم باقي في الحجر إلى اليوم ، وقد نقلت كافة العرب ذلك في الجاهلية على مرور الأعصار ، وقال أبو طالب : [الطويل]

ومَوْطِىءُ إبراهيمَ في الصَّخرِ رطْبَةٌ . . . على قَدَميهِ حافياً غيرَ ناعِلِ

(93/125)

فما حفظ أن أحداً من الناس نازع في هذا القول ، ومن آياته البينات زمزم في نبعها لهاجر بهمز جبريل عليه السلام الأرض بعقبه ، وفي حفر عبد المطلب لها آخراً بعد دثورها بتلك الرؤيا المشهورة ، وبما نبع من الماء تحت خف ناقته في سفره ، إلى منافرة قريش ومخاصمتها في أمر زمزم ، ذكر ذلك ابن إسحاق مستوعباً ، ومن آيات البيت نفع ماء زمزم لما شرب له ، وأنه يعظم ماؤها في الموسم ، ويكثر كثرة خارقة للعادة في الآبار ، ومن آياته ، الأمنة الثابتة

فيه على قديم الدهر ، وأن العرب كانت تغير بعضها على بعض ويتخطف الناس بالقتل ، وأخذ الأموال وأنواع الظلم إلا في الحرم ، وتركب على هذا أمن الحيوان فيه ، وسلامة الشجر ، وذلك كله للبركة التي خصه الله بها ، والدعوة من الخليل عليه السلام في قوله ، اجعل هذا بلداً آمناً ، وإذعان نفوس العرب وغيرهم قاطبة لتوقير هذه البقعة دون ناه ، ولا زاجر ، آية عظمى تقوم بها الحجة ، وهي التي فسرت بقوله تعالى : ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ ومن آياته كونه بواد غير ذي زرع ، والأرزاق من كل قطر تجيء إليه عن قرب وعن بعد ، ومن آياته ، ما ذكر ابن القاسم العتقي رحمه الله ، قال في النوادر ، وغيرها : سمعت أن الحرم يعرف بأن لا يجيء سيل من الحل فيدخل الحرم .

قال القاضي أبو محمد : هذا والله أعلم ، لأن الله تعالى جعله ربوة أو في حكمها ليكون أصون له ، والحرم فيما حكى ابن أبي زيد في الحج الثاني من النوادر . مما يلي المدينة نحو من أربعة أميال إلى منتهى التنعيم ، ومما يلي العرق نحو من ثمانية أميال إلى مكان يقال له المقطع ، ومما يلي عرفة تسعة أميال ، ومما يلي طريق اليمن سبعة أميال ، إلى موضع يقال له أضاة ، ومما يلي جدة عشرة أميال إلى منتى الحديبية ، قال مالك في العتبية : والحديبية في الحرم ،

ومن آياته فيما ذكر مكي وغيره ، أن الطير لا تعلوه ، وإن علاه طائر فإنما ذلك لمرض به ، فهو يستشفي بالبيت ، وهذا كله عندي ضعيف ، والطير تعاين تعلوه ، وقد علته العقاب التي أخذت الحية المشرفة على جداره ، وتلك كانت من آياته ومن آياته فيما ذكر الناس قديماً وحديثاً ، أنه إذا عمه المطر من جوانبه الأربعة في العام الواحد ، أخصبت آفاق الأرض ، وإن لم يصب جانباً منه لم يخصب ذلك الأفق الذي يليه ذلك العام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 475.476 ﴾

وقال ابن عادل :

وفيه أجوبة :

أحدها : أن أقلَّ الجمع اثنان – كما ذهب إليه بعضهم .

قال الزمخشري : ويجوز أن يُراد : فيه آيات مقام إبراهيم ، وأمن من دخله ؛ لأن الاثنين نَوْعٌ من الجَمْع ، كالثلاثة والأربعة ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " الاثْنَانِ فَمَا فَوْقَهُمَا جَمَاعَةٌ " .

قال الزجَّاج : ولفظ الجمع قد يُستعمل في الاثنين ، قال تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم : 4] .

وقال بعضهم : تمام الثلاثة قوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ وتقدير الكلام : مقام إبراهيم ، وأن من دخله كان آمناً ، وأن لله على الناس حجَّ البيت ، ثم حذف " أن " اختصاراً ، كما في قوله : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ [الأعراف : 29] أي : أمر ربي أن اقسطوا .

الثاني : أن ﴿ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وإن كان مفرداً لفظاً إلا أنه يشتمل على آياتٍ كثيرةٍ ، بمعنيين :

أحدهما : أن أثر القدمين في الصخرة الصَّمَّاء آية ، وغَوصَهما فيها إلى الكعبين آية أخْرَى ؛ وبعض الصخرة دون بعض آيةٌ ، وإبقاؤه على مر الزمان ، وحفظه من الأعداء الكثيرة آية ، واستمراره دون آيات سائر الأنبياء خلا نبينا صلى الله عليه وعلى سائرهم آية ، قال معناه الزمخشري .

وثانيهما : أن ﴿ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ بمنزلة آيات كثيرة ؛ لأن كل ما كان معجزةً لنبيٍ فهو دليل على وجود الصانع وعلمه وقدرته وإرادته وحياته ، وكونه غنيًّا مُنَزَّهاً ، مقدَّساً عن مشابهة المحدثات ، فمقام إبراهيم وإن كان شيئاً واحداً إلا أنه لما حصل فيه هذه الوجوه الكثيرة كان بمنزلة الآيات ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً ﴾ [النحل : 120] ، قاله ابنُ الخطيب .

الثالث : أن يكون هذا من باب الطَّيّ ، وهو أن يُذْكَرَ جَمْعٌ ، ثم يُؤتَى ببعضه ، ويُسْكَت عن ذِكْر باقيه لغرض للمتكلم ، ويُسَمَّى طيًّا .

وأنشد الزمخشري عليه قول جرير : [البسيط]

كَانَتْ حَنِيفَةُ أُثْلاَثًا فَثُلْثُهُمُ . . . مِنَ الْعَبِيدِ ، وَثُلْثٌ مِنْ مَوَالِيهَا

(96/125)

وأورد منه قوله صلى الله عليه وسلم : " حُبِّبَ إِلَيّ مِنْ دُنْيَاكُم ثَلاثٌ : الطيبُ والنّسَاءُ ، وجُعِلَت قُرَّةُ عَيني فِي الصلاة " ذكر اثنين - وهما الطيب والنساء - وطَوَى ذِكْر الثالثة .

لا يقال إن الثالثة قوله صلى الله عليه وسلم : " جعلت قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ " لأنها ليست من دنياهم ، إنما هي من الأمور الأخروية .

وفائدة الطَّيّ - عندهم - تكثير ذلك الشيء ، كأنه تعالى لما ذكر من جملة الآيات هاتين الآيتين قال : وكثير سواهما .

وقال ابن عطية : " والأرجح - عندي - أن المقام ، وأمن الداخل ، جُعِلاَ مثالاً مما في حرم الله - تعالى - من الآيات ، وخُصَّا بالذِّكْر ؛ لِعظَمِهما ، وأنهما تقوم بهما الحُجَّة على الكفَّار

؛ إذْ هم مدركون لها تين الآيتين بِحوَاسِّهم " .

الوجه الثاني : أن يكون ﴿ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ عطف بيان ، قاله الزمخشري .

(97/125)

ورَدَّ عليه أبو حيان هذا من جهة تخالفهما تعريفاً وتنكيراً ، فقال : وقوله مخالف لإجماع البصريين والكوفيين ، فلا يلتفت إليه ، وحُكْم عطف البيان عند الكوفيين حكم النعت ، فيُتْبعون النكرة نكرة ، والمعرفة معرفة ، ويتبعهم في ذلك أبو علي الفارسي . وأما البصريون ، فلا يجوز – عندهم – إلا أن يكونا معرفتين ، ولا يجوز أن يكونا نكرتين ، وكل شيء أورده الكوفيون مما يُوهِم جواز كونه عطفَ بيان جعله البصريون بَدَلاً ، ولم يَقُمْ دليل للكوفيين ؛ وستأتي هذه المسألة إن شاء الله – عند قوله : ﴿ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم : 16] وقوله : ﴿ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾ [النور : 35] ، ولما أوّل الزمخشريُّ مقام إبراهيم وأمن داخله – بالتأويل المذكور – اعترض على نفسه بما ذكرناه من إبدال غير الجمع من الجمع – وأجاب بما تقدم ، واعترض – أيضاً – على نفسه بأنه كيف تكون الجملة عطف بيان للأسماء المفردةِ ؟ فقال : " فإن قلتَ : كيف أجزْتَ أن يكون مقام إبراهيم والأمن عطف بيان للآيات . وقوله : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ جملة مستأنفة ، إما ابتدائية وإما

شرطية ؟

قلت : أجَزْت ذلك من حيث المعنى ؛ لأن قوله : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ دل على أمْن مَنْ دخله ، وكأنه قيل : فيه آيات بيّنات مقام إبراهيم وأمن من دخله ، ألا ترى أنك لو قلت : فيه آية بينة ، مَنْ دخله كان آمناً صَحّ ؛ لأن المعنى : فيه آية بينة أمن مَنْ دخله " .

(98/125)

قال أبو حيان : " وليس بواضح ؛ لأن تقديره - وأمنَ الداخل - هو مرفوع ، عطفاً على " مَقَام إبراهيم " وفسر بهما الآيات ، والجملة من قوله : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ لا موضع لها من الإعراب ، فتدافعا ، إلا إن اعتقد أن ذلك معطوف على محذوف ، يدل عليه ما بعده ، فيمكن التوجيه ، فلا يجعل قوله : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ في معنى : وأمن داخله ، إلا من حيث تفسير المعنى ، لا تفسير الإعراب " .

قال شهاب الدين : " وهي مُشَاحَّة لا طائل تحتَها ، ولا تدافع فيما ذكر ؛ لأن الجملة متى كانت في تأويل المفرد صح عطفُها عليه " .

الوجه الثالث : قال المبرد : " مَقَامُ " مصدر ، فلم يُجْمَع ، كما قال : ﴿ خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ ﴾ [البقرة : 7] والمراد : مقامات إبراهيم ، وهي ما أقامه إبراهيم من أمور

الحج ، وأعمال المناسك ، ولا شك أنها كثيرة ، وعلى هذا ، فالمراد بالآيات : شعائر الحج ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ ﴾ [الحج : 32] .

الوجه الرابع : أن قوله : ﴿ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ خبر مبتدأ مضمر ، تقديره : أحدها ، أي : أحد تلك الآيات البينات مقام إبراهيم ، أو مبتدأ محذوف الخبر ، تقديره : منها ، أي : من الآيات البيِّنات " مقام إبراهيم " .

وقال بعضهم : ﴿ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ لا تعلُّقَ له بقوله : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ ، فكأنه – تعالى – قال : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ ومع ذلك فهو ﴿ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ومَقَرُّه ، والموضع الذي اختاره ، وعَبَدَ اللهَ فيه ؛ لأن كل ذلك من الخِلال التي بها تَشَرَّف وتَعَظَّم .

(99/125)

وقرأ أبَيّ وعُمَر وابنُ عباس ومُجَاهِدٌ وأبو جعفر المديني – في رواية قتيبة – آية بيِّنة – بالتوحيد ، وتخريج " مَقَامُ " – على الأوجه المتقدِّمة – سَهْل ، من كونه بدلاً ، أو بياناً – عند الزمخشري – أو خبر مبتدأ محذوف وهذا البدل متفق عليه ؛ لأن البصريين يُبْدِلون من النكرة مطلقاً ، والكوفيون لا يبدلون منها إلا بشرط وَصْفها ، وقد وُصِفَتْ . انتهى .

اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 406.408 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ مقَامِ إبراهيم ﴾ فيه أقوال

أحدها : أنه لما ارتفع بنيان الكعبة ، وضعف إبراهيم عن رفع الحجارة قام على هذا الحجر فغاصت فيه قدماه

والثاني : أنه جاء زائراً من الشام إلى مكة ، وكان قد حلف لامرأته أن لا ينزل بمكة حتى يرجع ، فلما وصل إلى مكة قالت له أم إسماعيل : إنزل حتى نغسل رأسك ، فلم ينزل ، فجاءته بهذا الحجر فوضعته على الجانب الأيمن ، فوضع قدمه عليه حتى غسلت أحد جانبي رأسه ، ثم حولته إلى الجانب الأيسر ، حتى غسلت الجانب الآخر ، فبقي أثر قدميه عليه

والثالث : أنه هو الحجر الذي قام إبراهيم عليه عند الأذان بالحج ، قال القفال رحمه الله : ويجوز أن يكون إبراهيم قام على ذلك الحجر في هذه المواضع كلها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 132 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ﴾

فصل

قال ابن عطية :

واختلف الناس في معنى قوله ﴿ كان آمناً ﴾ فقال الحسن وقتادة وعطاء ومجاهد وغيرهم : هذه وصف حال كانت في الجاهلية أن الذي يجر جريرة ثم يدخل الحرم ، فإنه كان لا يتناول ولا يطلب فأما في الإسلام وأمن جميع الأقطار ، فإن الحرم لا يمنع من حد من حدود الله ، من سرق فيه قطع ، ومن زنى رجم ، ومن قتل قتل ، واستحسن كثير ممن قال هذا القول أن يخرج من وجب عليه القتل إلى الحل فيقتل هنالك ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : من أحدث حدثاً ثم استجار بالبيت فهو آمن ، وإن الأمن في الإسلام كما كان في الجاهلية ، والإسلام زاد البيت شرفاً وتوقيراً ، فلا يعرض أحد بمكة لقاتل وليه ، إلا أنه يجب على المسلمين ألا يبايعوا ذلك الجاني ولا يكلموه ولا يؤوه حتى يتبرم فيخرج من الحرم فيقام عليه الحد ، وقال بمثل هذا عبيد بن عمير والشعبي وعطاء بن أبي رباح والسدي وغيرهم ، إلا أن أكثرهم قالوا هذا فيمن يقتل خارج الحرم ثم يعوذ بالحرم ، فأما من يقتل في الحرم ، فإنه يقام عليه الحد في الحرم .

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه : وإذا تؤمل أمر هذا الذي لا يكلم ولا يبايع ، فليس بآمن ، وقال يحيى بن جعدة : معنى الآية ومن دخل البيت كان آمناً من النار ،

وحكى النقاش عن بعض العباد قال : كنت أطوف حول الكعبة ليلاً فقلت : يا رب إنك قلت : ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ ، فمن ماذا هو آمن يا رب ؟ فسمعت مكلماً يكلمني وهو يقول : من النار ، فنظرت وتأملت فما كان في المكان أحد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 476 . 477 ﴾

(101/125)

وقال الفخر :

﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِناً ﴾ ولهذه الآية نظائر : منها قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا البيت مَثَابَةً لّلنَّاسِ وَأَمْناً ﴾ [البقرة : 125] وقوله ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً ءَامِناً ﴾ [العنكبوت : 67] وقال إبراهيم ﴿ رَبِّ اجعل هذا بَلَدًا آمِنًا ﴾ [إبراهيم : 35] وقال تعالى : ﴿ أَطْعَمَهُم مّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مّنْ خوف ﴾ [قريش : 4] قال أبو بكر الرازي : لما كانت الآيات المذكورة عقيب قوله ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ موجودة في الحرم ثم قال : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِناً ﴾ وجب أن يكون مراده جميع الحرم ، وأجمعوا على أنه لو قتل في الحرم فإنه يستوفي القصاص منه في الحرم وأجمعوا على أن الحرم لا يفيد الأمان فيما سوى النفس ، إنما الخلاف فيما إذا وجب القصاص عليه خارج الحرم فالتجأ إلى الحرم فهل

يستوفي منه القصاص في الحرم ؟ قال الشافعي : يستوفي ، وقال أبو حنيفة : لا يستوفي ، بل يمنع منه الطعام والشراب والبيع والشراء والكلام حتى يخرج ، ثم يستوفي منه القصاص ، والكلام في هذه المسألة قد تقدم في تفسير قوله ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا البيت مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً ﴾ واحتج أبو حنيفة رضي الله عنه بهذه الآية ، فقال : ظاهر الآية الإخبار عن كونه آمناً ، ولكن لا يمكن حمله عليه إذ قد لا يصير آمناً فيقع الخلف في الخبر ، فوجب حمله على الأمر ترك العمل به في الجنايات التي دون النفس ، لأن الضرر فيها أخف من الضرر في القتل ، وفيما إذا وجب عليه القصاص لجناية أتى بها في الحرم ، لأنه هو الذي هتك حرمة الحرم ، فيبقى في محل الخلاف على مقتضى ظاهر الآية .

والجواب : أن قوله ﴿ كَانَ ءَامِناً ﴾ إثبات لمسمى الأمن ، ويكفي في العمل به إثبات الأمن من بعض الوجوه ، ونحن نقول به وبيانه من وجوه

الأول : أن من دخله للنسك تقرباً إلى الله تعالى كان آمناً من النار يوم القيامة ، قال النبي عليه السلام : " من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمناً " وقال أيضاً : " من صبر على حر مكة ساعة من نهار تباعدت عنه جهنم مسيرة مائتي عام " وقال : " من حج ولم يرفث ولم

يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه "

والثاني : يحتمل أن يكون المراد ما أودع الله في قلوب الخلق من الشفقة على كل من التجأ إليه ودفع المكروه عنه ، ولما كان الأمر واقعاً على هذا الوجه في الأكثر أخبر بوقوعه على هذا الوجه مطلقاً وهذا أولى مما قالوه لوجهين

الأول : أنا على هذا التقدير لا نجعل الخبر قائماً مقام الأمر وهم جعلوه قائماً مقام الأمر

والثاني : أنه تعالى إنما ذكر هذا لبيان فضيلة البيت وذلك إنما يحصل بشيء كان معلوماً للقوم حتى يصير ذلك حجة على فضيلة البيت ، فأما الحكم الذي بيّنه الله في شرع محمد عليه السلام فإنه لا يصير ذلك حجة على اليهود والنصارى في إثبات فضيلة الكعبة .

الوجه الثالث : في تأويل الآية : أن المعنى من دخله عام عمرة القضاء مع النبي صلى الله عليه وسلم كان آمناً لأنه تعالى قال : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [الفتح : 27]

الرابع : قال الضحاك : من حج حجة كان آمناً من الذنوب التي اكتسبها قبل ذلك .

واعلم أن طرق الكلام في جميع هذه الأجوبة شيء واحد ، وهو أن قوله ﴿ كَانَ ءَامِناً ﴾ حكم بثبوت الأمن وذلك يكفي في العمل به إثبات الأمن من وجه واحد وفي صورة واحدة فإذا حملناه على بعض هذه الوجوه فقد عملنا بمقتضى هذا النص فلا يبقى للنص دلالة على ما قالوه ، ثم يتأكد ذلك بأن حمل النص على هذا الوجه لا يفضي إلى تخصيص النصوص الدالة على وجوب القصاص وحمله على ما قالوه يفضي إلى ذلك فكان قولنا أولى والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 132.133 ﴾

فصل

قال ابن كثير :

وقوله : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ يعني : حَرَمُ مكة إذا دخله الخائف يأمَنُ من كل سوء ، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية ، كما قال الحسن البصري وغيره : كان الرجل يَقْتُل فيَضَع في عُنُقِه صوفَة ويدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول فلا يُهَيّجْهُ حتى يخرج .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشجّ ، حدثنا أبو يحيى التَّيْمِيّ ، عن عطاء ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ قال : من عاذ بالبيت أعاذه البيت ، ولكن لا يؤوى ولا يُطْعَم ولا يُسقى ، فإذا خرج أُخذ بذنبه .

وقال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 67] وقال تعالى : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ

وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش : 3 ، 4] وحتى إنه من جملة تحريمها حُرْمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره ، وحُرْمة قطع أشجارها وقَلْع ثمارها حَشيشها ، كما ثبتت الأحاديث والآثار في ذلك عن جماعة من الصحابة مرفوعا وموقوفًا .

(104/125)

ففي الصحيحين ، واللفظ لمسلم ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فتح مكة : "لا هِجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادٌ ونية ، وإذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا" ، وقال يوم الفتح فتح مكة : "إنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحرمَةِ الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ، ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يُعْضَد شَوْكُهُ ، ولا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ ، ولا يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إلا من عَرَّفَها ، ولا يُخْتَلَى خَلاها فقال العباس : يا رسول الله ، إلا الإذْخَرَ ، فإنه لقَيْنهم ولبُيوتهم ، فقال : "إلا الإذْخَر" . (1)

ولهما عن أبي هريرة ، مثله أو نحوه . (2)

---

(1) صحيح البخاري برقم (1834) وصحيح مسلم برقم (1353) .

(2) صحيح البخاري برقم (2434) ، وصحيح مسلم برقم (1355) .

ولهما واللفظ لمسلم أيضًا عَن أبي شُرَيح العَدوي أنه قال لعَمْرو بن سعيد ، وهو يبعث البعوث إلى مكةَ : ائذَنْ لي أيها الأمير أن أُحدّثك قَولا قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم الغَدَ من يوم الفتح سَمعَتْه أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به ، إنه حَمد الله وأثنى عليه ثم قال : "إنّ مَكةَ حَرّمَهَا اللهُ ولَمْ يحَرّمْهَا النّاسُ ، فَلا يَحِلُّ لامرئ يُؤْمِنُ بالله والْيَوْمِ الآخرِ أنْ يَسْفِكَ بهَا دمًا ، ولا يَعْضد بهَا شَجَرَةً ، فَإنْ أحَد تَرَخّصَ بِقتَال رَسُول الله صلى الله عليه وسلم فِيهَا فَقُولُوا له : إنّ اللهَ أذِنَ لِرَسُولِه وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ ، وإنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بالأمْسِ فَلْيُبَلّغِ الشّاهدُ الغائبَ" فقيل لأبي شُرَيح : ما قال لك عَمْرو ؟ قال : أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح ، إن الحَرَمَ لا يُعيذ عاصيا ولا فَارا بدَمٍ ولا فارا بخَزْيَة . (1)

وعن جابر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا يَحِلُّ لأحَدِكُمْ أنْ يَحْمِلَ بِمَكّةَ السّلاحَ" رواه مسلم . (2)

وعن عبد الله بن عَدِيّ بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، وهو واقف بالحَزْوَرَة في سوق مكة : "والله إنّكِ لَخَيْرُ أرْض الله ، وأحَبُّ أرْض الله إلَى الله

، وَلَوْلا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ" .

رواه الإمام أحمد ، وهذا لفظه ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة . وقال الترمذي : حسن صحيح . (3)

وكذا صَحّح من حديث ابن عباس نحوه . (4)

وروى أحمد عن أبي هريرة ، نحوه . (5) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 80.79 ﴾

---

(1) صحيح البخاري برقم (1832) وصحيح مسلم برقم (1354) .

(2) صحيح مسلم برقم (1356) .

(3) المسند (305/4) وسنن الترمذي برقم (3925) والنسائي في السنن الكبرى برقم (4254) وسنن ابن ماجة برقم (3108) .

(4) سنن الترمذي برقم (3926) وقال : "هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه" .

(5) المسند (305/4) .

" فصل "

قال ابن الجوزى :

المجلس الثامن في قصة بناء الكعبة

الحمد لله الملك الجليل المنزه عن النظير والعديل المنعم بقبول القليل المتكرم بإعطاء الجزيل تقدس عما يقول أهل التعطيل وتعالى عما يعتقد أهل التمثيل نصب للعقل على وجوده أوضح دليل وهدى إلى وجوده أبين سبيل وجعل للحسن حظاً إلى مثله يميل فأمر ببناء بيت وجل عن السكنى الجليل وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ثم حماه لما قصده أصحاب الفيل فأرسل عليهم حجارة من سجيل أحمده كلما نطق بحمده وقيل وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المنزه عن ما عنه قيل وأصلي على نبيه محمد النبي النبيل وعلى أبي بكر الصديق الذي لا يبغضه إلا ثقيل وعلى عمر وفضل عمر فضل طويل وعلى عثمان وكم لعثمان من فعل جميل وعلى علي وجحد قدر علي تغفيل وعلى عمه العباس المستسقى بشيبته فإذا السحب تسيل قال الله تعالى (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) اختلف العلماء في المبتدئ ببناء البيت على ثلاثة أقوال أحدها أن الله تعالى وضعه لا ببناء أحد ثم في زمن وضعه إياه قولان أحدهما قبل خلق الدنيا قال أبو هريرة كانت الكعبة حشفة على الماء عليها ملكان يسبحان الليل والنهار قبل خلق الأرض بألفي عام الحشفة الأكمة الحمراء وقال ابن عباس رضي الله عنهما لما كان

العرش على الماء قبل خلق السماوات بعث الله تعالى ريحاً فصفقت الماء فأبرزت عن حشفة في موضع البيت كأنها قبة فدحا الأرض من تحتها

(107/125)

وقال مجاهد لقد خلق الله تعالى موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرض بألفي سنة وإن قواعده لفي الأرض السابعة السفلى وقال كعب كانت الكعبة غثاء على الماء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض بأربعين سنة وقد روى ابن عباس عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال كان البيت قبل هبوط آدم ياقوتة من يواقيت الجنة وفيه قناديل من الجنة فلما أهبط الله تعالى آدم أنزل عليه الحجر الأسود فأخذه فضمه إليه استئناساً به وحج آدم فقالت له الملائكة بر حجك لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام فقال يا رب اجعل له عماراً من ذريتي فأوحى الله تعالى إني معمره بأبناء نبي من ذريتك اسمه إبراهيم القول الثاني أن الملائكة بنته قال أبو جعفر الباقر لما قالت الملائكة أتجعل فيها من يفسد فيها غضب عليهم فعاذوا بالعرش يطوفون حوله يسترضون ربهم فرضي عنهم وقال ابنوا في الأرض بيتاً يعوذ به كل من سخطت عليه ويطوفون حوله كما فعلتم بعرشي فبنوا هذا البيت والثالث أن آدم لما أهبط أوحى الله إليه ابن لي بيتاً واصنع جوله كما رأيت الملائكة

تصنع حول عرشي رواه أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما وروى عنه عطاء أنه بناه آدم من خمسة أجبل لبنان وطور سيناء وطور زيتا والجودي وحراء قال وهب فلما مات آدم بناه بنوه بالطين والحجارة فنسفه الغرق قال مجاهد وكان موضعه بعد الغرق أكمة حمراء لا تعلوها السيول وكان يأتيها المظلوم ويدعو عندها المكروب قال علماء السير لما سلم الخليل من النار خرج بمن معه من المؤمنين مهاجراً فتزوج سارة بحران وقدم مصر وبها فرعون من الفراعنة فوصف له حسنها فبعث

(108/125)

فأخذها فلما دخلت قام إليها فقامت تصلي وتقول اللهم إني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط على الكافر فغط حتى ركض الأرض برجله فقالت اللهم إن يمت يقال هي التي قتلته فأرسل ثم قام إليها فدعت فغط حتى ركض الأرض برجله ثم أرسل فقال ردوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر فوهبتها لإبراهيم وقالت لعله يأتيك منها ولد وكانت سارة قد منعت الولد فولدت له إسماعيل فهو بكر أبيه ولد له وهو ابن تسعين سنة فلما ولدت غارت سارة وأخرجتها وحلفت لتقطعن منها بضعة فحفظتها ثم قالت لا تساكني في بلدي فأوحى الله تعالى إليه أن يأتي مكة فذهب بها وبابنها والبيت

يومئذ ربوة حمراء فقال يا جبريل أهنا أمرت أن أضعهما قال نعم فأنزلهما موضع الحجر وأمر هاجر أن تتخذ فيه عريشاً أخبرنا عبد الأول قال أنبأنا أبو الحسن الداودي قال أنبأنا ابن أعين السرخسي حدثنا أبو عبد الله العزيزي حدثنا البخاري حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن أيوب السختياني وكثير بن كثير عن المطلب بن أبي وداعة يزيد أحدهما على الآخر عن سعيد بن جبير قال قال ابن عباس رضي الله عنهما أول ما اتخذ النساء المنطقة من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هناك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها فقالت له الله أمرك بهذا قال نعم قالت إذاً لا يضيعنا الله ثم رجعت

(109/125)

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال رب (إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم) حتى بلغ يشكرون وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقا عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى من العطش أو قال يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحد فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ فلذلك سعى الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت أيضاً فقالت قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف قال ابن عباس قال النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك لا تخافي الضيعة فإن هذا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم مقبلين من

طريق كدي فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عائفاً فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جريا أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا

قال وأم إسماعيل عند الماء قالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك قالت نعم ولكن لا حق لكم في الماء قالوا نعم قال ابن عباس قال النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه فقالت خرج يبتغي لنا ثم سألها عن عيشتهم وهيأتهم فقالت نحن بشر نحن في ضيق وشدة وشكت إليه قال إذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال هل جاءكم من أحد قالت نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة قال فهل أوصاك بشيء قالت نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك قال ذاك

أبي وقد أمرني أن أفارقك الحقي بأهلك فطلقها وتزوج منهم أخرى فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت خرج يبتغي لنا فسألها عن عيشتهم وهيأتهم فقالت نحن بخير وسعة وأثنت على الله عز وجل فقال ما طعامكم قالت اللحم قال فما شرابكم قالت الماء قال اللهم بارك لهم في اللحم والماء قال رسول الله ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم دعا لهم فيه قال فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه قال فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه فلما جاء إسماعيل قال هل جاءكم من أحد قالت نعم جاءنا شيخ حسن الوجه وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير قال

فأوصاك بشيء قالت نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك قال ذاك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم فلما رآه قام إليه فصنعا كما يفعل الوالد بالولد والولد بالوالد ثم قال يا إسماعيل إن الله قد أمرني بأمر قال فاصنع ما أمرك ربك قال وتعينني قال وأعينك قال فإن الله تعالى قد

أمرني أن أبني ها هنا بيتاً وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها فعند ذلك رفع القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم انفرد بإخراجه البخاري قال علماء السير لما أمر الخليل عليه السلام ببناء البيت قال يا رب بين لي صفته فأرسل الله تعالى سحابة على قدر الكعبة فسارت معه حتى قدم مكة حتى وقفت في موضع البيت ونودي ابن علي ظلها لا تزد ولا تنقص وكان جبريل حين الغرق قد استودع أبا قبيس الحجر الأسود فلما بنى إبراهيم البيت أخرجه إليه فوضعه أخبرنا الكروخي أنبأنا الغورجي أنبأنا الجراحي حدثنا المحبوبي حدثنا الترمذي حدثنا قتيبة حدثنا جرير عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن فسودته خطايا بني آدم

قالوا وولد لإسماعيل اثنا عشر ولدا واتخذه الله نبياً وبعثه إلى العماليق وجرهم وقبائل اليمن فنهاهم عن عبادة الأوثان وتوفيت هاجر وهي بنت تسعين سنة ولإسماعيل

عشرون سنة فدفنها في الحجر وعاش مائة وسبعا وثلاثين سنة وكان قد شكا إلى ربه حر مكة فأوحى الله تعالى إليه أني أفتح لك بابا من الجنة في الحجر يجري عليك منه الروح إلى يوم القيامة وفي الحجر قبره ولما توفي دبر أهل الحرم بعده ابنه نابت ويقال نبت ثم غلبت جرهم على البيت وانهدم فبنته العمالقة ثم بنته جرهم وقصده أصحاب الفيل وكان السبب أن أبرهة بنى كنيسة وأراد أن يصرف إليها الحج فسمع بذلك رجل من العرب فأحدث فيها فغضب أبرهة وقصد الكعبة فلما دنا من مكة أغار أصحابه على نعم الناس فأصابوا إبلاً لعبد المطلب ثم قال لبعض أصحابه سل عن شريف مكة فأتي بعبد المطلب فقال له ما حاجتك قال حاجتي أن ترد علي إبلي قال أولا تسألني عن بيت هو دينك ودين آبائك فقال أنا رب هذا الإبل ولهذا البيت رب يمنعه فأمر قريشاً أن يتفرقوا في الشعاب وأخذ بحلقة باب الكعبة وقال (يا رب لا أرجو لهم سواكا

يا رب فامنع منهم حماكا

(إن عدو البيت من عاداكا

امنعهم أن يخربوا قراكا

ثم قال (لا هم إن المرء يمنع رحله

وحلاله فامنع رحالك

(لا يغلبن صليبهم

ومحالهم غدواً محالك

(جروا جموع بلادهم

والفيل كي يسبوا عيالك

عمدوا حماك بكيدهم

جهلاً وما رقبوا جلالك

(إن كنت تاركهم وكعبتنا

فأمر ما بدا لك

(113/125)

فبعث الله تعالى عليهم طيوراً رءوسها كرءوس السباع وقيل كأمثال الخطاطيف مع كل طير ثلاثة أحجار حجران في رجليه وحجر في منقاره وكانت كأمثال الحمص وقيل كرأس الجمل فكانت تقع على الرجل فتخرج من دبره والأبابيل جماعات متفرقة والسجيل الشديد الصلب والعصف تبن الزرع وورقه ثم بنته قريش ورسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ يومئذ شاب ثم بناه ابن الزبير ثم نقضه الحجاج وبناه سبحان من اختص من عباده الأخيار فجعل منهم الأنبياء والأبرار وأبعد العصاة والفجار (وربك يخلق ما يشاء ويختار

الكلام على البسملة

(تزين أعمالاً خواتيمها

فإنك وزين عملاً بالختام

(أفضل ما زودت زاد التقى

وشر ما تحمل زاد الأثام

(والجسم ينسيه البلى في الثرى

ما كان عاني من خطوب جسام

(أخاصم القلب لإعراضه

عن الهدى وهو ألد الخصام

(ويحطم السن أخا كثرة

وهمه متصل بالحطام

(كأن عمري مركب سار بي

حتى إذا بلغ الحين قام

(سهد هذا الخلق في شأنهم

تمت لأقوام أناموا الأنام

ليأتينك من الموت ما لا يقبل رشوة ومالاً إذا مال على القوم والقويم مالاً

يا مختار الهوى جهلاً وضلالاً لقد حملت أزرك أوزاراً ثقالاً إياك والمنى فكم وعد المنى محالاً كم قال الطالب نعم نعم سأعطى نوالاً ثم نوالاً كم سقا من الحسرات كؤوساً وفرغ ربعا بعد أن كان مأنوساً وطمس بهوله بدوراً وشموساً وأغمض عيوناً ونكس رءوساً وأبدل التراب عن الثياب ملبوساً (إذا كان ما فيه الفتى عنه زائلاً

فسيان فيه أدرك الحظ أو أخطا

(وليس يفي يوماً سرور وغبطة

بحزن إذا المعطي استرد الذي أعطى

لقد وعظ الزمن بالآفات والمحن لقد حدث من لم يظعن بالظعن وخوف المطلق بالمرتهن تالله لو صفت الفطن لأبصرت ما بطن إخواني أمر الموت قد علن كم طحطح الردى وكم طحن يا بائعاً لليقين مشترياً للظنن يا مؤثراً الرذائل في اختيار الفتن إن السرور والشرور في قرن (

أجل هبات الدهر ترك المواهب

تمد لما أعطاك راحة ناهب

(وأفضل من عيش الغنى عيش فاقة

ومن زي ملك رائق زي راهب

(ولي مذهب في هجري الإنس نافع

إذا القوم خاضوا في اختيار المذاهب

(أرانا على الساعات فرسان غارة

وهن بنا يجرين جري السلاهب

(ومما يزيد العيش إخلاق ملبس

تأسف نفس لم تطق رد ذاهب

لقد تكاثفت ذنوبك يركب بعضها بعضا وتعاظمت عيوبك فملأت الأرض طولاً وعرضاً وهذا الموت يركض نحو روحك ركضاً وعندك من الدنيا فوق ما يكفي وما ترضى أأمنت على مبسوط الأمل بسطاً وقبضاً كم حصر الردى إذا أتى غصناً غضاً كم بلبل بالاً وما بالي هدماً ونقضاً اسمع مني قولاً نفوعاً ونصحاً محضاً كم قد جنيت طويلاً فكن من اليوم ذليلاً أرضاً قال ذو النون المصري رحمة الله عليه لقيت جارية سوداء قد استلبها الوله من

حب الرحمن شاخصة ببصرها نحو السماء فقلت علميني شيئاً مما علمك الله فقالت يا أبا الفيض ضع على جوارحك نيران القسط حتى يذوب كل ما كان لغير الله فيبقى القلب مصفى ليس فيه غير الرب عز وجل فعند ذلك يقيمك على الباب ويوليك ولاية جديدة ويأمر الخزان لك بالطاعة فقلت زيديني رحمك الله فقالت خذ من نفسك لنفسك وأطع الله إذا خلوت بحبك إذا دعوت ثم ولت عني وتركتني إخواني من النفوس نفوس خلقت طاهرة ونفوس خلقت كدرة وإنما تصلح الرياضة في نجيب الجلود الطاهرة إذا وردت عليها النجاسة يطهرها الدباغ لأن الأصل طاهر بخلاف جلد الخنزير للنفوس الخيرة علامات الجد في الغالب والحذر من الزلل والإحتقار للعمل والقلق من خوف السابقة والجزع من حذر الخاتمة فترى أحدهم يستغيث استغاثة الفريق ويلجأ لجأ الأسير الذل لباسه وسهر الليل فراشه وذكر الموت حديثه والبكاء دأبه بات عتبة الغلام ليلة على ساحل البحر فجعل يقول إن تعذبني فإني لك محب وإن ترحمني فإني لك محب فلم يزل يرددها ويبكي إلى الصباح وكان عابد يقول يا إخوتاه ابكوا على خوف فوات الآخرة حيث لا رجعة ولا حيلة لما أسر النوم سار القوم فقطع نفسك باللوم اليوم (يا مقلة راقدة

لم تدر بالساهدة

(كأنها سهرت

نجومها الراكدة

(بدا سهيل لها

فانحرفت عائدة

(كأنه درهم

رمت به الناقدة

يا نفس لا تجزعي

قد تجد الفاقدة

(أي الورى خالد

أنفسهم واحدة

(والموت حوض لها

وهي له واردة

(حائدة جهدها

إن سلمت حائدة

(في كل فج لها

منية راصدة

(تفر من حتفها

وهي له قاصدة

(لا تخدعن بالمنى

قد تكذب الرائدة

(هان على ميت

ما تجد الواجدة

الكلام على قوله تعالى

(في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه

البيوت هاهنا المساجد و (أذن) بمعنى أمر و (ترفع) بمعنى تعظم و (اسمه) توحيده وكتابه وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال أحب البلاد إلى الله تعالى مساجدها وأبغض البلاد إلى الله تعالى أسواقها وفي الصحيحين من حديث عثمان رضي الله عنه عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال من بنى لله عز وجل مسجداً بنى الله له مثله في الجنة وفيهما من حديث أبي هريرة قال من غدا إلى المسجد وراح أعد الله له في الجنة نزلا كلما غدا أو راح أخبرنا يحيى بن علي أنبأنا أبو جعفر بن المسلمة وأنبأنا سعيد بن أحمد حدثنا علي ابن أحمد بن السيدي

قالا أخبرنا المخلص حدثنا البغوي حدثنا عبد الجبار بن عاصم حدثني عبيد الله بن عمرو عن زيد بن أنيسة عن عدي بن ثابت عن أبي حازم الأشجعي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ من تطهر في بيته

ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطوتاه إحداهما تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة أخبرنا هبة الله بن محمد أنبأنا الحسن بن علي أنبأنا أحمد بن جعفر حدثنا عبد الله ابن أحمد حدثني أبي حدثنا هاشم حدثنا ليث حدثني سعيد يعني المقبري عن أبي عبيدة عن سعيد بن يسار أنه سمع أبا هريرة يقول قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ لا يتوضأ أحد فيحسن وضوءه ويسبغه ثم يأتي المسجد لا يريد إلا الله فيه إلا تبشبش الله به كما تبشبش أهل الغائب بطلعته قوله تعالى (يسبح له فيها بالغدو والآصال) قال الزجاج لا خلاف بين أهل اللغة أن التسبيح هو التنزيه لله عز وجل عن كل سوء والغدو جمع غدوة والآصال جمع أُصُل وأُصل جمع أصيل فالآصال جمع الجمع والآصال العشيات وللمفسرين في المراد بهذا التسبيح قولان أحدهما أنه الصلاة ثم في صلاة الغدو قولان أحدهما أنها الفجر رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس والثاني صلاة الضحى

وروى ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال إن صلاة الضحى لفي كتاب الله وما يغوص عليهما غواص ثم قرأ { يسبح الله له فيها بالغدو والآصال } وفي صلاة الآصال قولان أحدهما أنها الظهر والعصر والمغرب والعشاء قاله ابن السائب والثاني صلاة العصر قاله أبو سليمان الدمشقي قوله تعالى { رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله } أي لا تشغلهم قال ابن السائب التجار الجلابون والباعة المقيمون وفي المراد بذكر الله ثلاثة أقوال أحدها الصلاة المكتوبة قاله ابن عباس وروى سالم عن ابن عمر أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا

(118/125)

المسجد فقال ابن عمر فيهم نزلت { رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله } والثاني أنه القيام بحق الله تعالى قاله قتادة والثالث ذكر الله تعالى باللسان قاله أبو سليمان الدمشقي قوله تعالى { وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة } أي أداؤها لوقتها وإتمامها قال سعيد بن المسيب رضي الله عنه ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد وقال سفيان بن عيينة لا تكن مثل عبد السوء لا يأتي حتى يدعى ايت الصلاة قبل النداء أخبرنا المبارك بن أحمد الأنصاري أخبرنا الحسين بن عبد الجبار أخبرنا محمد ابن علي بن الفتح أنبأنا علي بن

الحسين بن سكينة أنبأنا محمد بن القاسم حدثنا أبو بكر ابن عبيد أنبأنا أبو الحسين ابن أبي قيس أنبأنا سويد بن سعيد أنبأنا علي بن مسهر عن عبد الرحمن بن القاسم عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد ينادي بصوت يسمع الخلائق سيعلم الخلائق اليوم من أولى بالكرم ثم يرجع فينادي فليقم الذين كانوا يحمدون الله عز وجل في السراء والضراء فيقومون وهم قليل ثم يرجع فينادي أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليلون ثم يحاسب الناس قال بعض الزهاد رأيت رجلاً قد أقبل من بعض جبال الشام فسلمت عليه فرد ووقف ينظر كالحيران فقلت له من أين أقبلت فقال من عند قوم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فقلت وأين تريد قال إلى قوم تتجافى جنوبهم عن المضاجع ثم قال واأسفاً قلت على ماذا قال على ما هم فيه إذ كانوا بأعمالهم على طريق نجاتهم

الناسكون يحاذرون

وما بسيئة ألموا

(كانوا إذا رامو كلاماً

مطلقاً خطموا وزموا

(إن قيلت الفحشاء أو

ظهرت عموا عنها وصموا

(فمضوا وجاء معاً شر

بالمنكرات طموا وطموا

(ففم لطعم فاغر

ويد على مال تضم

(عدلوا عن الحسن الجميل

وللخنا عمدوا وأموا

(وإذا هم أعيتهم

شنعاهم كذبوا ونموا

(119/125)

(فالصدر يغلي بالهواجس

مثل ما يغلى المحم

قوله تعالى (يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار

تصعد القلوب إلى الحناجر وتنقلب الأبصار إلى الزرق عن الكحل والعمي بعد النظر أخبرنا

ابن الحصين قال أنبأنا ابن المذهب أنبأنا أحمد بن جعفر أخبرنا عبد الله ابن أحمد حدثني

أبي حدثنا سليمان بن حيان أخبرنا ابن عون عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ قال يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه أخبرنا عبد الأول حدثنا الداوودي حدثنا ابن أعين حدثنا الفربري حدثنا البخاري حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثني سليمان عن ثور بن زيد عن أبي الغيث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم الحديثان في الصحيحين وفي لفظ سبعين باعاً قال مغيث بن سمي تركز

الشمس فوق رءوسهم على سبعة أذرع وتفتح أبواب جهنم فيهب عليهم من رياحها وسمومها ويخرج عليهم من نفاحها حتى تجري الأنهار من عرقهم والصائمون في ظل العرش يا من لا يردعه ما يسمعه يا من لا يقنعه ما يجمعه أما القبر عن قريب موضعه أما اللحد عن قريب مضجعه أما يرجع عنه من يشيعه ويأخذ ما جمعه أجمعه كم يخرق خرقاً بالخطأ ثم لا يرفعه كم يحطه القبيح والنصح يرفعه كم يعلم غرور الهوى وهو يتبعه (لا تعذلنه فإن العذل يولعه

قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه

أشرف راهب من الرهبان من صومعته فإذا رجل جالس فقال يا هذا ما جلوسك ها هنا فقال له اسكت يا فارغ القلب ودع التشاغل بغيره فإنه منك قريب فصرخ الراهب وخر مغشياً عليه فلما أفاق قال سيدي لك العتبى لا أعود فيما يقطعني عنك فصمت عن الكلام حتى مات كم غر الغرور غراً أمد له أطناب الطمع على أوتاد الهوى وسامره في خيمة المنى يملي عليه أماني الآمال وما أجال فيما جال سهو ذكر الآجال ثم وجه إلى جهة الجهل والغفلة فسلما إليه منشور التسويف فلما ضرب بوق الرحلة وقربت نوق النقلة سل ما سلما إليه فألقي كاللقى على باب الندم (إلام أمني النفس مالا تناله

وأذكر عيشاً لم يعد مذ تصرما

(وقد قالت الستون للهو والصبا

دعا لي أسيري واذهبا حيث شئتما

أخبرنا محمد بن عبد الملك أنبأنا أحمد بن الحسين الشاهد حدثني عبد العزيز بن علي حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد الحافظ أخبرنا إبراهيم بن نصر حدثني إبراهيم بن بشار قال سمعت إبراهيم بن أدهم يقول لرجل رآه يضحك لا تطمعن في بقائك وأنت تعلم أن مصيرك إلى الموت فلم يضحك من يموت ولا يدري أين مصيره إلى الجنة أم إلى النار ولا يدري أي وقت يكون الموت صباحاً أو مساء بليل أو نهار ثم قال أوه وسقط مغشياً عليه

سجع على قوله تعالى

(يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار) لو رأيت أرباب القلوب والأسرار وقد أخذوا أهبة التعبد في الأسحار وقاموا في مقام الخوف على قدم الإعتذار (يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار) عقدوا عزم الصيام وما جاء النهار وسجنوا الألسنة فليس فيهم مهذار وغضوا أبصارهم ولازم غض الأبصار فانظر مدحهم إلى أين انتهى وصار أحزانهم أحزان ثكلى ما لهذا اصطبار ودموعهم لولا التحري لقلت كالأنهار ووجوههم من الخوف قد علاها الصفار والقلق قد أحاط بهم ودار (يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار) جدوا في انطلاقهم إلى خلاقهم وراضوا أنفسهم بتحسين أخلاقهم فإذا بهم قد أذابهم كرب اشتياقهم أتدري ما الذي حبسك عن لحاقهم حب الدرهم والدينار أيقظنا الله وإياكم من هذه السنة ورزقنا اتباع النفوس المحسنة وآتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ووقانا عذاب النار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التبصرة لابن الجوزى حـ 1 صـ 133.199 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ يجوز أن تكون هذه الجملة في محل نصب على الحال ، إما من ضمير " وُضِعَ " وفيه ما تقدم من الإشكال .

وأمَّا من الضمير في " بِبَكَّةَ " وهذا على رأي مَنْ يُجِيز تعدد الحال الذي حالٍ واحدٍ .

وإما من الضمير في " للعالِمِينَ " ، وإما من " هُدًى " ، وجاز ذلك لتخصُّصِه بالوَصْف ، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في " مُبَارَكاً " .

(123/125)

ويجود أن تكون الجملة في محل نصب ؛ نعتاً لِ " هُدًى " بعد نعته بالجار قبله . ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفةً ، لا محل لها من الإعراب ، وإنما جِيء بها بياناً وتفسيراً لبركته وهُداه ، ويجوز أن يكون الحال أو الوصف على ما مر تفصيله هو الجار والمجرور فقط ، و" آياتٌ " مرفوع بها على سبيل الفاعلية لأن الجار متى اعتمد على أشياء تقدمت أول الكتاب رفع الفاعل ، وهذا أرجح مِنْ جَعْلِها جملةً من مبتدأ وخبر ؛ لأن الحالَ والنعتَ والخبرَ أصلها : أن تكون مفردة ، فما قَرُب منها كان أولى ، والجار قريب من المفرد ، ولذلك

تقدَّم المفردُ ، ثم الظرفُ ، ثم الجملة فيما ذكرنا ، وعلى ذلك جاء قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ [غافر : 28] ، فقدم الوصف بالمفرد " مُؤمِنٌ " ، وثنّى بما قَرُبَ منه وهو ﴿ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ [البقرة : 49] ، وثلَّث بالجملة وهي ﴿ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ وقد جاء في الظاهر عكس هذا ، وسيأتي الكلام عليه – إن شاء الله – عند قوله : ﴿ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ ﴾ [المائدة : 45] .

قوله : ﴿ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ فيه أوْجُه :

أحدها : أن " مَقَام " : بدل من " آيَاتٌ " وعلى هذا يقال : إن النحويين نَصُّوا على أنه متى ذكر جمع لا يُبْدَل منه إلا ما يُوَفّي بالجمع ، فتقول : مررت برجال زيد وعمرو وبكر ؛ لأن أقل الجمع – على الصحيح – ثلاثة ، فإن لم يُوفِّ ، قالوا : وجب القطع عن البدلية ، إما إلى النصب بإضمار فِعْل ، وإما إلى الرفع ، على مبتدأ محذوف الخبر ، كما تقول – في المثال المتقدم – زيداً وعمراً ، أي : أعني زيداً وعمراً ، أو زيد وعمرو ، أي : منهم زيد وعمرو .

(124/125)

ولذلك أعربوا قول النابغة الذبياني : [الطويل]

تَوَهَّمْتُ آيَاتٍ لَهَا فَعَرَفْتُهَا . . . لِسِتَّةِ أعْوَامٍ وَذَا العَامُ سَابِعُ

رَمَادٌ كَكُحْلِ الْعَيْنِ لأْياً أُبِينُهُ . . . وَنُؤْيٌ كَجِذْمِ الْحَوْضِ أَثْلَمُ خَاشِعُ

على القطع المتقدم ، أي : فمنها رمادٌ ونؤي ، وكذا قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ [البروج : 17-18] أي : أعني فرعون وثمود ، أو أذُمّ فرعونَ وثمودَ ، على أنه قد يُقال : إن المراد بفرعون وثمودَ ؛ هما ومَنْ تبعهما من قومهما ، فذكرهما وافٍ بالجمعيَّةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 505. 506 ﴾

من فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ[96] فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إبراهيم وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ .

هذا الكلام واقع موقع التعليل للأمر في قوله : ﴿ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً ﴾ [آل عمران : 95] لأن هذا البيت المنوه بشأنه كان مقاما لإبراهيم ففضائل هذا البيت تحقق فضيلة شرع بانيه في متعارف الناس ، فهذا الاستدلال خطابي ، وهو أيضا إخبار بفضيلة الكعبة وحرمتها فيما مضى من الزمان .

وقد آذن بكون الكلام تعليلا موقع إن في أوله فإن التأكيد بإن هنا لمجرد الاهتمام وليس لرد إنكار منكر ، أو شك شاك .

ومن خصائص إن إذا وردت في الكلام لمجرد الاهتمام ، أن تغني غناء فاء التفريع وتفيد

التعليل والربط ، كما في دلائل الإعجاز .

ولما في هذه من إفادة الربط استغني عن العطف لكون إن مؤذنة بالربط .

(125/125)

وبيان وجه التعليل أن هذا البيت لما كان أول بيت وضع للهدى وإعلان توحيد الله ليكون علما مشهودا بالحس على معنى الوحدانية ونفي الإشراك ، فقد كان جامعا لدلائل الحنيفية ، فاذا ثبت له شرف الأولية ودوام الحرمة على ممر العصور ، دون غيره من الهياكل الدينية التي نشأت بعده ، وهو ماثل ، كان ذلك دلالة إلهية على أنه بمحل العناية من الله تعالى ، فدل على أن الدين الذي قارن إقامته هو الدين المراد لله ، وهذا يؤول إلى معنى قوله :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران : 19] .

وهذا التعليل خطابي جار على طريقة اللزوم العرفي .

وقال الواحدي ، عن مجاهد : تفاخر المسلمون واليهود ، فقالت اليهود : بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء وفي الأرض المقدسة .

وقال المسلمون : بل الكعبة أفضل .

فأنزل الله هذه الآية .

و ﴿ أول ﴾ اسم للسابق في فعل ما فإذا أضيف إلى اسم جنس فهو السابق من جنس ذلك المضاف إليه في الشأن المتحدث عنه .

والبيت بناء يأوي واحدا أو جماعة ، فيكون بيت سكنى ، وبيت صلاة ، وبيت ندوة ، ويكون مبنيا من حجر أو من أثواب نسيج شعر أو صوف ، ويكون من أدم فيسمى قبة قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً ﴾ [النحل : 81] .

ومعنى ﴿ وضع ﴾ أسس وأثبت ، ومنه سمي المكان موضعا ، وأصل الوضع أنه الحط ضد الرفع ، ولما كان الشيء المرفوع لمعنى الإدناء للمتناول ، والتهيئة للانتفاع .

والناس تقدم في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ في سورة البقرة [8] .

و ﴿ بكة ﴾ اسم مكة .

(126/125)

وهو لغة بإبدال الميم باء في كلمات كثيرة عدت من المترادف : مثل لازب في لازم ، وأربد وأرمد أي في لون لرماد ، وفي سماع ابن القاسم من العتبية عن مالك : أن بكة بالباء اسم موضع البيت ، وأن مكة بالميم اسم بقية الموضوع ، فتكون باء الجر هنا لظرفية مكان البيت خاصة .

لا لسائر البلد الذي فيه البيت ، والظاهر عندي أن بكة اسم بمعنى البلدة وضعه إبراهيم علما على المكان الذي عينه لسكنى ولده بنية أن يكون بلدا ، فيكون أصله من اللغة الكلدانية ، لغة إبراهيم ، ألا ترى أنهم سموا مدينة بعلبك أي بلد بعل وهو معبود الكلدانيين ، ومن أعجاز القرآن هذا اللفظ عند ذكر كونه أول بيت ، فلاحظ أيضا الاسم الأول ، ويؤيد قوله : ﴿ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ ﴾ [النمل : 91] وقوله : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً ﴾ [إبراهيم : 35] .

وقد قيل : إن بكة مشتق من البك وهو الازدحام ، ولا أحسب قصد ذلك لواضع الاسم .

وعدل عن تعريف البيت باسمه العلم بالغلبة ، وهو الكعبة ، إلي تعريفه بالموصولية بأنه الذي ببكة : لأن هذه الصلة صارت أشهر في تعينه عند السامعين ، إذ ليس في مكة يومئذ بيت للعبادة غيره ، بخلاف اسم الكعبة : فقد أطلق اسم الكعبة على القليس الذي بناه الحبشة في صنعاء لدين النصرانية ولقبوه الكعبة اليمانية .

والمقصود إثبات سبق الكعبة في الوجود قبل بيوت أخر من نوعها .

وظاهر الآية أن الكعبة أول البيوت المبنية في الأرض ، فتمسك بهذا الظاهر مجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وجماعة ، فقالوا : هي أول بناء ، وقالوا : أنها كانت مبنية من عهد آدم عليه السلام ثم درست ، فجددها إبراهيم ، قال ابن عطية : ورويت في هذا أقاصيص

أسانيدها ضعاف فلذلك تركتها ، وقد زعموا أنها كانت تسمى الضراح بوزن غراب ولكن المحققين وجمهور أهل العلم لم يأخذوا بهذا الظاهر ، وتأولوا الآية .

(127/125)

قال علي رضي الله عنه كان قبل البيت بيوت كثيرة ولا شك أن الكعبة بناها إبراهيم وقد تعدد في القرآن ذكر ذلك ، ولو كانت من بناء الأنبياء قبله لزيد ذكر ذلك زيادة في التنويه بشأنها ، وإذا كان كذلك فلا يجوز أن يكون أول بناء وقع في الأرض كان في عهد إبراهيم ، لأن قبل إبراهيم أمما وعصورا كان فيها البناء ، وأشهر ذلك برج بابل ، بنى إثر الطوفان ، وما بناه المصريون قبل عهد إبراهيم ، وما بناه الكلدان في بلد إبراهيم قبل رحلته إلى مصر ، ومن ذلك بيت أصنامهم ، وذلك قبل أن تصير إليه هاجر التي أهداها له ملك مصر ، وقد حكى القرآن عنهم ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات : 97] فتعين تأويل الآية بوجه ظاهر ، وقد سلك العلماء مسالك فيه : وهي راجعة إلى تأويل الأول ، أو تأويل البيت ، أو تأويل فعل وضع ، أو تأويل الناس ، أو تأويل نظم الآية .

والذي أراه في التأويل أن القرآن كتاب دين وهدى ، فليس غرض الكلام فيه ضبط أوائل التاريخ ، ولكن أوائل أسباب الهدى ، فالأولية في الآية على بابها ، والبيت كذلك ، والمعنى

أنه أول بيت عبادة حقة وضع لإعلان التوحيد ، بقرينة المقام ، وبقرينة قوله : ﴿ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ المقتضي أنه من وضع واضع لمصلحة الناس ، لأنه لو كان بيت سكنى لقيل وضعه الناس ، وبقرينة مجيء الحالين بعد ؛ وهما قوله : ﴿ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

(128/125)

وهذا تأويل في معنى بيت ، وإذا كان أول بيت عبادة حق ، كان أول معهد للهدى ، فكان كل هدى مقتبسا منه فلا محيص لكل قوم كانوا على هدى من الاعتراف به وبفضله ، وذلك يوجب اتباع الملة المبنية على أسس ملة بانية ، وهذا المفاد من تفريغ قوله : ﴿ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ [البقرة : 95] وتأول الآية علي بن أبي طالب ، فروى عنه أن رجلا سأله : أهو أول بيت؟ قال : لا ، قد كان قبله بيوت ، ولكنه أول بيت وضع للناس مباركا وهدى فجعل مباركا وهدى حالين من الضمير في ﴿ وضع ﴾ لا من اسم الموصول ، وهذا تأويل في النظم لا ينساق إليه الذهن إلا على معنى أنه أول بيت من بيوت الهدى كما قلنا ، وليس مراده أن قوله : ﴿ وضع ﴾ هو الخبر لتعين أو الخبر هو قوله : ﴿ للذي ببكة ﴾ بدليل دخول اللام عليه .

وعن مجاهد قالت اليهود : بيت المقدس أفضل من لكعبة لأنها مهاجر الأنبياء ، وقال

المسلمون : الكعبة ، فأنزل الله هذه الآية ، وهذا تأويل ﴿أول﴾ بأنه الأول من شيئين لا من جنس البيوت كلها .

وقيل : أراد بالأول الأشرف مجازا .

وعندي أنه يجوز أن يكون المراد من الناس المعهودين وهم أهل الكتب أعني اليهود والنصارى والمسلمين ، وكلهم يعترف بأصالة دين إبراهيم عليه السلام فأول معبد بإجماعهم هو الكعبة فيلزمهم الاعتراف بأنه أفضل مما سواه من بيوت عبادتهم .

وإنما كانت الأولية موجبة التفضيل لأن مواضع العبادة لا تتفاضل من جهة العبادة ، إذ هي في ذلك سواء ، ولكنها تتفاضل بما يحف بذلك من طول أزمان التعبد فيها ، وبنسبتها إلى بانيها ، وبحسن المقصد في ذلك ، وقد قال تعالى في مجسد قباء ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة : 108] .

وقد جمعت الكعبة جميع هذه المزايا فكانت أسبق بيوت العبادة الحق ، وهي أسبق من بيت المقدس بتسعة قرون .

فإن إبراهيم بني الكعبة في حدود سنة 1900 قبل المسيح وسليمان بني بيت المقدس سنة 1000 قبل المسيح ، والكعبة بناها إبراهيم بيده فهي مبنية بيد رسول .

وأما بيت المقدس فبناها العملة لسليمان بأمره .

وروى في صحيح مسلم ، عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي مسجد وضع أول ؟ قال : "المسجد الحرام" ، قلت : ثم أي ؟ قال : "المسجد الأقصى" ، قلت : كم كان بينهما ؟ قال : "أربعون سنة" ، فاستشكله العلماء بأن بين إبراهيم وسليمان قرونا فكيف تكون أربعين سنة ، وأجاب بعضهم بإمكان أن يكون إبراهيم بنى مسجدا في موضع بيت المقدس ثم درس فجدده سليمان .

وأقول : لاشك أن بيت المقدس من بناء سليمان كما هو نص كتاب اليهود ، وأشار إليه القرآن في قوله : ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ﴾ [سبأ : 13] الآية ، فالظاهر أن إبراهيم لما مر ببلاد الشام ووعده الله أن يورث تلك الأرض نسله عين الله له الموضع الذي سيكون به أكبر مسجد تبنيه ذريته ، فأقام هنالك مسجدا صغيرا شكرا لله تعالى ، وجعله على الصخرة المجعولة مذبحا للقربان .

وهي الصخرة التي بنى سليمان عليها المسجد ، فلما كان أهل ذلك البلد يومئذ مشركين دثر ذلك البناء حتى هدى الله سليمان إلى إقامة المسجد الأقصى عليه ، وهذا من العلم الذي أهملته كتب اليهود ، وقد ثبت في سفر التكوين إن إبراهيم بنى مذابح في جهات مر

عليها من أرض الكنعانيين لأن الله أخبره أنه يعطي تلك الأرض لنسله ، فالظاهر أنه بنى أيضا بموضع مسجد أرشليم مذبحا . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ 161.158﴾

---

(1) بعض هذا الكلام فيه نظر لاستناده إلى التوراة التى لم تسلم من الأيدى الآثمة التى حرفتها . والله أعلم .

(130/125)

قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿حِجّ البيت ﴾ بكسر الحاء والباقون بفتحها ، قيل الفتح لغة الحجاز ، والكسر لغة نجد وهما واحد في المعنى ، وقيل هما جائزان مطلقاً في اللغة ، مثل رطل ورطل ، وبزر وبزر ، وقيل المكسورة اسم للعمل والمفتوحة مصدر ، وقال سيبويه : يجوز أن تكون المكسورة أيضاً مصدراً ، كالذكر والعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 133 ﴾

فصل

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ﴾ اللام في قوله "ولله" لام الإيجاب والإلزام ، ثم أكده بقوله تعالى :

﴿ عَلَى ﴾ التي هي من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب ؛ فإذا قال العربي : لفلان عليّ كذا ؛ فقد وكّده وأوجبه .

فذكر الله تعالى الحج (بأبلغ) ألفاظ الوجوب تأكيداً لِحَقّه وتعظيماً لحُرْمته .

ولا خلاف في فريضته ، وهو أحد قواعد الإسلام ، وليس يجب إلاَّ مرّة في العمر .

وقال بعض الناس : يجب في كل خمسة أعوام (مرة) ؛ ورووا في ذلك حديثاً أسندوه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، والحديث باطل لا يصح ، والإجماع صادّ في وجوههم .

قلت : وذكر عبد الرزاق قال : حدّثنا سفيان (الثوري) عن العلاء بن المسيّب عن أبيه عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يقول الرب جلّ وعزّ إن عبداً أوسعت عليه في الرزق فلم يعد إليّ في كل أربعة أعوام لمحروم " مشهور من حديث العلاء بن المسيب بن رافع الكاهليّ الكوفيّ من أولاد المحدّثين ، روى عنه غير واحد ، منهم من قال : في كل خمسة أعوام ، ومنهم من قال : عن العلاء عن يونس بن خَبّاب عن أبي سعيد ، في غير ذلك من الاختلاف .

وأنكرت الملحدة الحَجّ ، فقالت : إن فيه تجريد الثياب وذلك يخالف الحياء ، والسعي وهو يناقض الوَقَار ، ورمي الجمار لغير مرمى وذلك يضادّ العقل ؛ فصاروا إلى أن هذه الأفعال كلها باطلة ؛ إذ لم يعرفوا لها حِكمة ولا عِلة ، وجهلوا أنه ليس من شرط المولى مع العبد ، أن يفهم المقصود بجميع ما يأمره به ، ولا أن يطلع على فائدة تكليفه ، وإنما يتعين عليه الامتثال ، ويلزمه الانقياد من غير طلب فائدة ولا سؤال عن مقصود .

ولهذا المعنى كان عليه السَّلام يقول في تلبيته : "لبيْك حقّاً حقّاً تعبُّداً ورِقاً لبيّك إله الحق "

وروى الأئمّة عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " "أيها الناس قد فَرض الله عليكم الحجَّ فحجّوا " .

فقال رجل : كلَّ عام يا رسول الله ؟ فسكت ، حتى قالها ثلاثاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو قلت نعم لوجبتْ ولما استطعتم" ثم قال : "ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلَكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه " "لفظ مسلم .

فبيّن هذا الحديثُ أن الخطاب إذا توجه على المكلفين بفرضٍ أنه يكفي منه فعل مرّة ولا

يقتضي التكرار ؛ خلافاً للأستاذ أبي إسحاق الأسفرايِني وغيره .

وثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له أصحابه : يا رسول الله ، أحجُّنا لعامِنا هذا أم للأبد ؟ فقال : "لا بل للأبد" .

وهذا نص في الردّ على من قال : يجب في كل خمس سنين مرة .

وقد كان الحج معلوماً عند العرب مشهوراً لديهم ، وكان مما يرغب فيه لأسواقها وتَبَرُّرِها وتحنُّفها ؛ فلما جاء الإسلام خوطبوا بما علموا وألزموا بما عرفوا .

(132/125)

وقد حجّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل حجِّ الفرض ، وقد وقف بعرفة ولم يغيّر من شرع إبراهيم ما غيروا ؛ حين كانت قريش تقف بالمَشْعَر الحرام ويقولون : نحن أهل الحرم فلا نخرج منه ؛ ونحن الحُمْسُ .

حسب ما تقدّم بيانه في "البقرة" .

قلت : من أغرب ما رأيته أن النبيّ صلى الله عليه وسلم حجّ قبل الهجرة مرتين وأن الفرض سقط عنه بذلك ؛ لأنه قد أجاب نداء إبراهيم حين قيل له : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاس بِالحج ﴾ [الحج : 27] .

قال الكيا الطبري : وهذا بعيد ؛ فإنه ورد إذا في شرعه : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البيت ﴾ [آل عمران : 97] فلا بدّ من وجوبه عليه بحكم الخطاب في شرعه .

ولئن قيل : إنما خاطب من لم يحج ، كان تَحَكُّماً وتخصيصاً لا دليل عليه ، ويلزم عليه ألاَّ يجب بهذا الخطاب على من حج على دِينِ إبراهيم ، وهذا في غاية البعد . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 142. 144 ﴾

فصل

قال الفخر :

في قوله ﴿ مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ وجوه

الأول : قال الزجاج : موضع ﴿ مِنْ ﴾ خفض على البدل من ﴿ الناس ﴾ والمعنى : ولله على من استطاع من الناس حج البيت

الثاني : قال الفرّاء إن نويت الاستئناف بمن كانت شرطاً وأسقط الجزاء لدلالة ما قبله عليه ، والتقدير من استطاع إلى الحج سبيلاً فلله عليه حج البيت

الثالث : قال ابن الأنباري : يجوز أن يكون ﴿ مِنْ ﴾ في موضع رفع على معنى الترجمة للناس ، كأنه قيل : من الناس الذين عليهم لله حج البيت ؟ فقيل هم من استطاع إليه سبيلاً . انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 133 ﴾

فصل

قال الفخر :

(133/125)

اتفق الأكثرون على أن الزاد والراحلة شرطان لحصول الاستطاعة ، روى جماعة من الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه فسّر استطاعة السبيل إلى الحج بوجود الزاد والراحلة ، وروى القفال عن جويبر عن الضحاك أنه قال : إذا كان شاباً صحيحاً ليس له مال فعليه أن يؤاجر نفسه حتى يقضي حجه فقال له قائل : أكلف الله الناس أن يمشوا إلى البيت ؟ فقال : لو كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه ؟ قال : لا بل ينطلق إليه ولو حبواً ، قال : فكذلك يجب عليه حج البيت ، عن عكرمة أيضاً أنه قال : الاستطاعة هي صحة البدن ، وإمكان المشي إذا لم يجد ما يركبه .

واعلم أن كل من كان صحيح البدن قادراً على المشي إذا لم يجد ما يركب فإنه يصدق عليه أنه يستطيع لذلك الفعل ، فتخصيص هذه الاستطاعة بالزاد والراحلة ترك لظاهر اللفظ فلا بد فيه من دليل منفصل ، ولا يمكن التعويل في ذلك على الأخبار المروية في هذا الباب لأنها أخبار آحاد فلا يترك لأجلها ظاهر الكتاب لا سيما وقد طعن محمد بن جرير الطبري في

رواة تلك الأخبار ، وطعن فيها من وجه آخر ، وهو أن حصول الزاد والراحلة لا يكفي في حصول الاستطاعة ، فإنه يعتبر في حصول الاستطاعة صحة البدن وعدم الخوف في الطريق ، وظاهر هذه الأخبار يقتضي أن لا يكون شيء من ذلك معتبراً ، فصارت هذه الأخبار مطعوناً فيها من هذا الوجه بل يجب أن يعول في ذلك على ظاهر قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : 78] وقوله ﴿ يُرِيدُ الله بِكُمُ اليسر وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر ﴾ [البقرة : 185] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 134.133 ﴾

فصل

قال القرطبى :

(134/125)

ودلّ الكتاب والسنة على أن الحج على التراخي لا على الفور ؛ وهو تحصيل مذهب مالكٍ فيما ذكر ابن خُوَيزِ مَنْدَاد ، وهو قول الشافعيّ ومحمد بن الحسن وأبي يوسف في رواية عنه .

وذهب بعض البغداديين من المتأخرين من المالكيين إلى أنه على الفور ، ولا يجوز تأخيره مع

القدرة عليه ؛ وهو قول داود .

والصحيح الأوّل ؛ لأن الله تعالى قال في سور الحج : ﴿ وَأَذِّن فِي الناس بالحج يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ [الحج : 27] وسورة الحج مكية .

وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت ﴾ الآية .

وهذه السورة نزل عام أُحُد بالمدينة سنة ثلاث من الهجرة ولم يحج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سنة عشر .

أما السُّنّة : فحديثِ ضمام بن ثعلبة السعديّ من بني سعد بن بكر قِدم على النبيّ صلى الله عليه وسلم فسأله عن الإسلام فذكر الشهادة والصّلاة والزكاة والصيام والحج .

رواه ابن عباس وأبو هريرة وأنس ، وفيها كلها ذكر الحج ، وأنه كان مفروضاً ، وحديث أنس أحسنُها سياقاً وأتَمُّها .

واختلف في وقت قدومه ؛ فقيل : سنة خمس .

وقيل : سنة سبع .

وقيل : سنة تسع ؛ ذكره ابن هشام عن أبي عبيدة الواقدي عام الخَنْدَق بعد انصراف الأَحْزَاب .

قال ابن عبد البر : ومن الدليل على أن الحج على التراخي إجماع العلماء على ترك تفسِيق القادر على الحج إذا أخره العام والعامين ونحوهما ، وأنه إذا حج من بعد أعوامٍ من حين

استطاعته فقد أدّى الحج الواجب عليه في وقته ، وليس هو عند الجميع كمن فاته الصَّلاة حتى خرج وقتها فقضاها بعد خروج وقتها ، ولا كمن فاته صيام رمضان لمرض أو سفر فقضاه ، ولا كمن أفسد حجه فقضاه ، فلما أجمعوا على أنه لا يُقال لمن حج بعد أعوام من وقت استطاعته : أنت قاضٍ لما وجب عليك ؛ عِلمنا أن وقت الحج مُوسَّع فيه وأنه على التراخي لا على الفور .

(135/125)

قال أبو عمر : كل من قال بالتراخي لا يَحُدُّ في ذلك حداً ؛ إلاَّ ما روي عن سحنون وقد سئل عن الرجل يجد ما يحج فيه فيؤخّر ذلك إلى سنين كثيرةٍ مع قدرته على ذلك هل يُفَسَّق بتأخيره الحجّ وتُردّ شهادته ؟ قال : لا وإن مضى من عمره ستون سنة ، فإذا زاد على الستين فُسّق وردّت شهادته .

وهذا توقيف وحَدّ ، والحدود في الشرع لا تؤخذ إلاَّ عمن له أن يشَرِّع .

قلت : وحكاه ابن خويزِمنداد عن ابن القاسم .

قال ابن القاسم وغيره : إنْ أخره ستين سنة لم يُحَرَّج ، وإن أخره بعد الستين حُرِّج ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وقل من يتجاوزها "

فكأنه في هذا العشر قد يتضايق عليه الخطاب .

قال أبو عمر : وقد احتج بعض الناس (كسحنون) بقوله صلى الله عليه وسلم : " معترك أمّتي بين الستين إلى السبعين وقل من يجاوز ذلك " ولا حجة فيه ؛ لأنه كلام خرج على الأغلب من أعمار أمّته لو صحّ الحديث .

وفيه دليل على التوسعة إلى السبعين لأنه من الأغلب أيضاً ، ولا ينبغي أن يقطع بتفسيق من صحت عدالته وأمانته بمثل هذا من التأويل الضعيف . وبالله التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 144 . 145 ﴾

فصل

قال الفخر :

احتج بعضهم بهذه الآية على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع قالوا لأن ظاهر قوله تعالى : ﴿ وَللَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت ﴾ يعم المؤمن والكافر وعدم الإيمان لا يصلح معارضاً ومخصصاً لهذا العموم ، لأن الدهري مكلف بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم مع أن الإيمان بالله الذي هو شرط صحة الإيمان بمحمد عليه السلام غير حاصل والمحدث مكلف بالصلاة مع أن الوضوء الذي هو شرط صحة الصلاة غير حاصل ، فلم يكن عدم الشرط مانعاً من كونه مكلفاً بالمشروط ، فكذا ههنا والله أعلم . انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 134 ﴾

فصل

(136/125)

قال القرطبى :

أجمع العلماء على أن الخطاب بقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ عام في جميعهم مسترسل على جملتهم .

قال ابن العربيّ : "وإن كان الناس قد اختلفوا في مطلق العمومات بَيْدَ أنهم اتفقوا على حمل هذه الآية على جميع الناس ذكرِهم وأنثاهم ، خلا الصغيرِ فإنه خارج بالإجماع عن أصول التكليف ، وكذلك العبد لم يدخل فيه ؛ لأنه أخرجه عن مطلق العموم قوله تعالى (في التمام) : ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ والعبد غيرُ مستطيع ؛ لأن السيّد يمنعه لحقوقه عن هذه العبادة .

وقد قدّم الله سبحانه حقّ السيّد على حقه رفقاً بالعباد ومصلحةً لهم .

ولا خلاف فيه بين الأمّة ولا بين الأئمة ، فلا نُهْرِف بما لا نعرِف ، ولا دليل عليه إلاَّ الإجماعُ" .

قال ابن المنذر : أجمع عامّة أهل العلم إلاَّ من شَذّ منهم ممن لا يعدّ خلافاً ، على أن الصبيّ إذا

حَجّ في حال صغره ، والعبد إذا حج في حال رِقه ، ثم بلغ الصبي وعَتق العبد إنّ عليهما حجة الإسلام إذا وجدا إليها سبيلاً .

وقال أبو عمر : خالف داود جماعة فقهاء الأمصار وأئمّة الأثر في المملوك وأنه عنده مخاطب بالحج ، وهو عند جمهور العلماء خارج من الخطاب العام في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَاس حِجُّ البيت مَنِ استطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ بدليل عدم التصرف ، وأنه ليس له أن يحج بغير إذن سيده ؛ كما خرج من خطاب الجمعة وهو قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة ﴾ [الجمعة : 9] الآية عند عامّة العلماء إلاّ من شذّ .

وكما خرج من خطاب إيجاب الشهادة ، قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ يَأْبَ الشهدآء إِذَا مَا دُعُواْ ﴾ [البقرة : 282] فلم يدخل في ذلك العبدُ .

(137/125)

وكما جاز خروج الصبيّ من قوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت ﴾ [آل عمران : 97] وهو من الناس بدليل رفع القلم عنه .

وخرجت المرأة من قوله : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ ﴾ وهي ممّن شَمِله اسم الإيمان ، وكذلك خروج العبد من الخطاب المذكور .

وهو قول فقهاء الحجاز والعراق والشام والمغرب ، ومثلهم لا يجوز عليهم تحريف تأويل الكتاب .

فإن قيل : إذا كان حاضَر المسجد الحرام وأذِن له سيدُه فلِمَ لا يلزمه الحج ؟ قيل له : هذا سؤال على الإجماع وربما لا يُعلّل ذلك ، ولكن إذا ثبت هذا الحكم على الإجماع استدللنا به على أنه لا يُعتدّ بحجّه في حال الرِّقّ عن حجة الإسلام ؛ وقد روي عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أيّما صبيّ حجّ ثم أدرك فعليه أن يحج حجة أُخرى وأيّما أعرابيّ حجّ ثم هاجر فعليه أن يحج حجة أخرى وأيما عبد حج ثم أعتق فعليه أن يحج حجة أخرى " قال ابن العربيّ .

"وقد تساهل بعض علمائنا فقال : إنما لم يثبت الحج على العبد وإن إذِن له السيد لأنه كان كافراً في الأصل ولم يكن حَجُّ الكافر معتدّاً به ، فلما ضُرب عليه الرقّ ضرباً مؤبّداً لم يخاطب بالحج ؛ وهذا فاسد من ثلاثة أوجه فاعلموه : أحدها أن الكفار عندنا مُخاطبون بفروع الشريعة ، ولا خلاف فيه في قول مالك .

الثاني أن سائر العبادات تلزمه من صلاة وصوم مع كونه رقيقاً ، ولو فعلها في حال كفره لم يعتدّ بها ، فوجب أن يكون الحج مثلها .

الثالث أن الكفر قد ارتفع بالإسلام فوجب ارتفاع حكمه .

فتبين أن المعتمد ما ذكرناه من تقدّم حقوق السيد " . والله الموفق . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 145. 146 ﴾

(138/125)

فصل

قال الفخر :

احتج جمهور المعتزلة بهذه الآية على أن الاستطاعة قبل الفعل ، فقالوا : لو كانت الاستطاعة مع الفعل لكان من لم يحج مستطيعاً للحج ، ومن لم يكن مستطيعاً للحج لا يتناوله التكليف المذكور في هذه الآية فيلزم أن كل من لم يحج أن لا يصير مأموراً بالحج بسبب هذه الآية وذلك باطل بالاتفاق .

أجاب الأصحاب بأن هذا أيضاً لازم لهم ، وذلك لأن القادر إما أن يصير مأموراً بالفعل قبل حصول الداعي إلى الفعل أو بعد حصوله أما قبل حصول الداعي فمحال ، لأن قبل حصول الداعي يمتنع حصول الفعل ، فيكون التكليف به تكليف ما لا يطاق ، وأما بعد حصول الداعي فالفعل يصير واجب الحصول ، فلا يكون في التكليف به فائدة ، وإذا كانت

الاستطاعة منتفية في الحالين وجب أن لا يتوجه التكليف المذكور في هذه الآية على أحد .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 134 ﴾

(139/125)

كلام نفيس للعلامة الآلوسى فى هذا الموضع

قال عليه الرحمة :

والحق عندي في هذه المسألة أن شرط التكليف هو القوة التي تصير مؤثرة بإذن الله تعالى عند انضمام الإرادة التابعة لإرادة الله تعالى لقوله سبحانه : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : 286] وإيضاحه أنه تعالى كما أنه غني بالذات عن العالمين كذلك حكيم جواد وكما أن غناه الذاتي أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد كذلك مقتضى جوده ورحمته مراعاة ما اقتضته حكمته سبحانه كما أشار إليه العضد في "عيون الجواهر" ، وأطال الكلام فيه أبو عبد الله الدمشقي في "شفاء العليل" . ومن المعلوم أن الحكمة لا تقتضي أن يؤمر بالفعل من لا يقدر على الامتثال وينهى عنه من لا يقدر على الاجتناب فلا بد بمقتضى الحكمة التي رعاها سبحانه فيما خلق وأمر فضلاً ورحمة أن يكون التكليف بحسب الوسع وإذا كان كذلك كان شرط التكليف هو القوة التي تصير مؤثرة إذا انضم إليها

الإرادة وهذه قبل الفعل ، والقدرة التي هي مع الفعل هي القدرة المستجمعة لشرائط التأثير التي من جملتها انضمام الإرادة إليها ، وبهذا جمع الإمام الرازي كما في "المواقف بين مذهب الأشعري القائل بأن القدرة مع الفعل ، والمعتزلة القائلين بأنها قبله ، وقال : لعل الأشعري أراد بالقدرة القوة المستجمعة لشرائط التأثير فلذلك حكم بأنها مع الفعل وأنها لا تتعلق بالضدين ، والمعتزلة أرادوا بالقدرة مجرد القوة العضلية فلذلك قالوا بوجودها قبل الفعل وتعلقها بالأمور المتضادة وهو جمع صحيح ، وقول السيد قدس سره في توجيه البحث الذي ذكره صاحب "المواقف" فيه بأن القدرة الحادثة ليست مؤثرة عند الشيخ فكيف يصح أن يقال : إنه أراد بالقدرة والقوة المستجمعة لشرائط التأثير مدفوع بما تبين في "الإبانة" التي هي آخر مصنفاته .

والمعتمد من كتبه كما صرح به ابن عساكر والمجد ابن تيمية وغيرهما أن الشيخ قائل بالتأثير للقدرة المستجمعة للشرائط لكن لا استقلالاً كما يقوله المعتزلة بل بإذن الله تعالى وهو معنى الكسب عنده ، وأما قوله في شرح المواقف" : إن أفعال العباد الاختيارية واقعة بقدرة الله تعالى وحدها ليس لقدرتهم تأثير فيها بل الله تعالى أجرى عادته بأن يوجد في العبد قدرة

واختياراً فإذا لم يكن هناك مانع أوجد فيه فعله المقدور مقارناً لهما فيكون فعل العبد مخلوقاً لله تعالى إبداعاً وإحداثاً ومكسوباً للعبد ، والمراد بكسبه إياه مقارنته لقدرته وإرادته من غير أن يكون هناك منه تأثير ومدخل في وجوده سوى كونه محلاً له ، وهو مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري ، ففيه بحث من وجوه :

(141/125)

أما أولاً : فلأن هذا ليس مذهب الشيخ المذكور في آخر تصانيفه التي استقر عليها الاعتماد وذكره في غيره إن سلم لا يعول عليه لكونه مرجوحاً مرجوعاً عنه وأما ثانياً : فلأن التكليف في صرائح الكتاب والسنة إنما تعلق أمراً أو نهياً بالأفعال الاختيارية أنفسها لا بمقارنة القدرة والإرادة لها فمكسوب العبد نفس الفعل الاختياري ، والمراد بكسبه إياه تحصيله إياه بتأثير قدرته بإذن الله تعالى لا مستقلاً ، فالقول بأن المراد بكسب العبد للفعل هو مقارنة الفعل لقدرته وإرادته من غير تأثير لا يوافق ما اقتضاه صرائح الكتاب والسنة ونصوص "الإبانة" ، ويزيده وضوحاً حديث أبي هريرة "أنه لما نزل ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ ﴾ [البقرة : 284] اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جثوا على الركب

فقالوا : يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزل عليك هذه الآية ولا نطيقها " الحديث فإنه صريح بأن الذي كلفوا به ما يطيقونه من نفس الأعمال وهو نفس الصلاة وأخواتها لا مقارنتها لقدرتهم وإرادتهم وأقرهم صلى الله عليه وسلم على ذلك وأما ثالثاً : فلأن مقارنة الفعل لقدرة العبد وإرادته لو كانت هي الكسب لكانت هي المكلف بها ولو كانت كذلك لكان التكليف بما لا يطاق واقعاً لأن المقارنة أمر يترتب على فعل الله تعالى أي على إيجاد الله تعالى الفعل الاختياري مقارناً لهما وما يترتب على فعل الله تعالى ليس مقدوراً للعبد أصلاً لأن معنى كون الشيء مقدوراً له أن يكون ممكن الإيقاع بقدرته عند تعلق مشيئته به الموافقة لمشيئة الله تعالى كما هو واضح من حديث " من كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه " وما يترتب على فعل الله تعالى لا

يكون مقدوراً للعبد بهذا المعنى إذ لو كان مقدوراً له ابتداءاً لزم أن لا يكون مترتباً على فعل الله تعالى أو بواسطة لزم أن يكون فعل الله تعالى المترتب عليه هذا مقدوراً للعبد واللازم باطل بشقيه بعد القول بنفي التأثير أصلاً فكذا الملزوم وأما رابعاً : فلأن المقارنة لكونها مترتبة على فعل الله تعالى لا تختلف بالنسبة إلى العبد صعوبة وسهولة فلو كانت هي

المكلف بها لاستوى بالنسبة إلى العبد التكليف بأشق الأعمال والتكليف بأسهلها مع أن نص الكتاب التكليف بحسب الوسع ونص السنة أن المملوك لا يكلف إلا ما يطيق شاهدان على التفاوت كما أن البديهة تشهد بذلك ، واعترض هذا من وجوه الأول : أن القول بأن من المعلوم أن الحكمة لا تقتضي أن يؤمر بالفعل من لا يقدر على الامتثال يقتضي أن أفعال الله تعالى وأحكامه لا بدّ فيها من حكمة ومصلحة وهو مسلم لكن لا نسلم أنه لا بدّ أن تظهر هذه المصلحة لنا إذ الحكيم لا يلزمه اطلاع من دونه على وجه الحقيقة كما قاله القفال في "محاسن الشريعة" وحينئذٍ فما المانع من أن يقال هناك مصلحة لم نطلع عليها ، ويجاب بأنا لم ندع سوى أن الله تعالى قد راعى الحكمة فيما أمر وخلق تفضلاً ورحمة لا وجوباً وهذا ثابت بقوله تعالى : ﴿ صُنْعَ اللهِ الذى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل : 88] وقوله سبحانه : ﴿ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [السجدة : 7] وبالإجماع المعصوم عن الخطأ بفضل الله تعالى وإن مقتضى الحكمة أن لا يطلب حصول شيء إلا من يتمكن منه ويقدر عليه كما تشهد له النصوص ولم ندع وجوب ظهور وجه الحكمة في جميع أفعاله وأحكامه ولا ما يستلزم ذلك وبيان وجه الحكمة لحكم واحد لا يستلزم دعوى الكلية ويؤول هذا إلى أن الله تعالى أطلعنا على الحكمة في هذا مع عدم وجوب الاطلاع عليه .

والثاني : أن القول بأن التكليف في صرائح الكتاب والسنة إنما تعلق الخ فيه أنه ليس المراد مطلق المقارنة بل المقارنة على جهة التعلق فالكسب عبارة عن تعلق القدرة الحادثة بالمقدور من غير تأثير كما في عبارة غير واحد ، فالأوامر والنواهي متعلقة بالأفعال التي هي اختيارية في الظاهر باعتبار هذا التعلق الذي لا تأثير معه وادعاء أنها صرائح في التعلق مع التأثير ممنوع بل هي محتملة ولو سلم أنها ظاهرة في التأثير ، فالظاهر قد يعدل عنه لدليل خلافه ، والقول بأنا لا نفهم من تعلق القدرة إلا تأثيرها وإلا فليست بقدرة ، فكيف يثبت للقدرة تعلق بلا تأثير سؤال مشهور وجوابه : ما في "شرح المواقف" وغيره من أن التأثير من توابع القدرة ، وقد ينفك عنها ويجاب بأن تفسير الكسب بالتعلق الذي لا تأثير معه مراداً به التحصيل بحسب ظاهر الأمر فقط مصادم للنصوص الناطقة بأن العبد متمكن من إيجاد أفعاله الاختيارية بإذن الله تعالى ، ولا دليل على خلافه يوجب العدول ، و ﴿ اللهُ خالقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد : 16] لا ينافي التأثير بالإذن على أن تعلق القدرة تابع للإرادة وتعلقها على القول بنفي التأثير بالكلية غير صحيح كما يشير إليه كلام الجلال الدواني في بيان مبادىء الأفعال الاختيارية ، ويوضحه كلام حجة الإسلام الغزالي في كتاب التوحيد والتوكل من "الإحياء" ، وأما ما في "شرح المواقف" وغيره من أن التأثير قد ينفك عن القدرة فنحن نقول به إذ ما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يكن وإنما الإنكار على نفي التأثير

بالكلية عن القدرة الحادثة والاستدلال بما ذكره حجة الإسلام في "الاقتصاد" من أن القدرة الأزلية متعلقة في الأزل بالحادث ولا حادث فصح التعلق ولا تأثير ، ويجوز أن تكون القدرة الحادثة كذلك مجاب عنه بأن القدرة لا تؤثر إلا على وفق الإرادة والإرادة

(144/125)

تعلقت أزلاً بإيجاد الأشياء بالقدرة في أوقاتها اللائقة بها في الحكمة فعدم تأثيرها قبل الوقت لكونها مؤثرة على وفق الإرادة لا مطلقاً فلا يجب تأثيرها قبل الوقت ويجب تأثيرها فيه والقدرة الحادثة على القول بنفي تأثيرها بالكلية لا يصدق عليها أنها تؤثر وفق الإرادة فلا يصح قياسها على القديمة .

والحاصل : إن كل تعلق للقديمة على وفق الإرادة لا ينفك عنه التأثير في وقته بخلاف الحادثة فإنه لا تأثير لها أصلاً على القول بنفي التأثير عنها كليًا فلا تعلق لها بالتأثير على وفق الإرادة .

والثالث : أن القول في الاعتراض الثالث أنه لو كانت كذلك لكان التكليف بما لا يطاق واقعاً الخ يقال عليه : نلتزم وقوعه عند الأشعري ولا محذور فيه ، ويجاب بأنه قد حقق في موضعه أن الإمام الأشعري لم ينص على ذلك ولا يصح أخذه من كلامه فالتزام وقوعه عنده التزام ما

لم يقل به لا صريحاً ولا التزاماً . والقول بأنه لا محذور فيه إنما يصح بالنظر إلى الغنى الذاتي وأما بالنظر إلى أنه تعالى جواد حكيم فالتزامه مصادمة للنص وأي محذور أشنع من هذا .

(145/125)

والرابع : أن القول هناك أيضاً أن المقارنة لو كانت هي الكسب لكانت هي المكلف بها غير لازم فإن الكسب يطلق على المعنى المصدري ويطلق على المفعول أي المكسوب وهو نفس الأمر لا الكسب بمعنى المقارنة أو تعلق القدرة الحادثة بالفعل فمعنى كسب تعلقت قدرته بالفعل ، وإن شئت قلت : قارنت قدرته الفعل فكان الفعل مكسوباً وهو المكلف به ، ويجاب بأن الكسب الحقيقي الوارد في الكتاب والسنة معناه تحصيل العبد ما تعلقت به إرادته التابعة لإرادة الله تعالى بقدرته المؤثرة بإذنه وإن مكسوبه ما حصله بقدرته المذكورة فمعنى كون الفعل المكسوب مكلفاً به هو أن العبد المكلف مطلوب منه تحصيله بالكسب بالمعنى المصدري لأن المكسوب هو الحاصل بالمصدر فإذا كان المكسوب مكلفاً به كان الكسب بالمعنى المصدري مكلفاً به قطعاً لامتناع حصول المكسوب من غير قيام المعنى المصدري بالمكلف ضرورة انتفاء الحاصل بالمصدر عند انتفاء قيام المصدر بالمكلف فظهرت الملازمة في الشرطية .

والخامس: إن القول في الاعتراض أن المقارنة لكونها أمراً مترتباً على فعل الله تعالى لا تختلف الخ، فيه أمران: الأول: أنا لا نسلم التلازم بين كون المقارنة هي المكلف بها وبين عدم الاختلاف وأيّ مانع من أن تكون مختلفة باعتبار أحوال الشخص عندها فتارة يخلق الله تعالى فيه صبراً وعزماً وتارة جزعاً وفتوراً إلى غير ذلك مما يرجع إلى سلامة البنية ومقابله أو غيرهما من الأعراض والأحوال التي يخلقها الله تعالى ويصرف عبده فيها كيف شاء مما يوجب ألماً أو لذة. الثاني: إن ما ذكرتموه مشترك الإلزام إذ يقال إذا كانت قدرة العبد مؤثرة بإذن الله تعالى فبأي وجه وقع الاختلاف حتى كان هذا سهلاً وهذا صعباً وكلاهما مقدور وهما متساويان في الإمكان.

(146/125)

ويجاب أما عن الأول: بأن التلازم بين كونها مترتبة على فعل الله تعالى وبين عدم اختلافها متحقق لأنها إذا كانت الكسب بالمعنى المصدري كانت تحصيلاً للمكسوب والتحصيل لكونه قائماً بالمكلف تتفاوت درجاته صعوبة وسهولة قطعاً ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: " صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب " والمقارنة لكونها أمراً مرتباً على فعل الله تعالى ليست قائمة بالعبد فلا تتفاوت بالنسبة إليه أصلاً، والإيراد

بتجويز اختلافها بكون بعضها بخلق الله تعالى عنده صبراً في العبد الخ خارج عن المقصود لأن العبارة صريحة في أن المقصود عدم اختلافها بالنسبة إلى العبد صعوبة وسهولة لا مطلق الاختلاف ، وأما عن الثاني : فبأنه قد دلت النصوص على تفاوت درجات القوة والبطش كقوله تعالى : ﴿ كَانُواْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ [غافر : 82] وقوله سبحانه : ﴿ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ ﴾ [غافر : 21] وقوله عز شأنه : ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ [الزخرف : 8] وباختلاف درجات ذلك في الأقوياء التابع لاستعداداتهم الذاتية الغير المجعولة وقع الاختلاف في الأعمال صعوبة وسهولة ، هذا ما ظفرنا به من تحقيق الحق من كتب ساداتنا قدس الله تعالى أسرارهم وجعل أعلى الفردوس قرارهم ، وإنما استطردت هذا المبحث هنا مع تقدم إشارات جزئية إلى بعض منه لأنه أمر مهم جداً لا تنبغي الغفلة عنه فاحفظه فإنه من بنات الحقاق لا من حوانيت الأسواق ، والله تعالى الموفق لا رب غيره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 13.9 ﴾

فصل

قال القرطبى :

إذا وُجدت الاستطاعة وتوجّه فرضُ الحج فقد يعرض ما يمنع منه كالغرِيم يمنعه عن الخروج حتى يؤدّيَ الدّين ؛ ولا خلاف في ذلك .

أو يكون له عِيَال يجب عليه نفقتهم فلا يلزمه الحج حتى يكوِّن لهم نفقتهم مدّةَ غيبته لذهابه ورجوعه ، ولأن هذا الإنفاق فرض على الفَوْر ، والحجّ فرضٌ على التّراخي ، فكان تقديم العيال أوْلى .

وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "كفى بالمرء إثماً أن يُضيِّع من يقوت" وكذلك الأَبوان يخاف الضيعةَ عليهما وعَدَم العوضِ في التلطّف بهما ، فلا سبيل له إلى الحج ؛ فإن مَعنَاه لأجل الشّوق والوَحْشة فلا يُلتفت إليه .

والمرأة يمنعها زوجها ، وقيل لا يمنعها .

والصحيح المنع ؛ لا سيما إذا قلنا إن الحج لا يلزم على الفَوْر .

والبحر لا يمنع الوجوب إذا كان غالبه السلامة كما تقدّم بيانه في البقرة ويعلم من نفسه أنه لا يَمِيد .

فإن كان الغالب عليه العَطَب أو المَيْد حتى يعطل الصّلاة فلاَ .

وإن كان لا يجد موضعاً لسجوده لكثرة الراكب وضيق المكان فقد قال مالك : إذا لم يستطع الركوع والسجود إلاَّ على ظهر أخيه فلا يركبه .

ثم قال : أيركب حيث لا يصلي ويلٌ لمن ترك الصلاة .

ويسقط الحج إذا كان في الطريق عدوّ يطلب الأنفس أو يطلب من الأموال ما لم يتحدّد بحدّ

مخصوص أو يتحدّد بقدر مُجحِف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 149﴾

فصل

قال الفخر :

(148/125)

روي أنه لما نزلت هذه الآية قيل : يا رسول الله أكتب الحج علينا في كل عام ، ذكروا ذلك ثلاثاً ، فسكت الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم قال في الرابعة (1) : " لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما قمتم بها ولو لم تقوموا بها لكفرتم ألا فوادعوني ما وادعتكم وإذا أمرتكم بأمر فافعلوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن أمر فانتهوا عنه فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة احتلافهم على أنبيائهم " ثم احتج العلماء بهذا الخبر على أن الأمر لا يفيد التكرار من وجهين الأول : أن الأمر ورد بالحج ولم يفد التكرار والثاني : أن الصحابة استفهموا أنه هل يوجب التكرار أم لا ؟ ولو كانت هذه الصيغة تفيد التكرار لما احتاجوا إلى الاستفهام مع كونهم عالمين باللغة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 134﴾

فصل

قال الفخر :

استطاعة السبيل إلى الشيء عبارة عن إمكان الوصول ، قال تعالى : ﴿ فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [غافر : 11] وقال : ﴿ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [الشورى : 44] وقال : ﴿ مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ ﴾ [التوبة : 91] فيعتبر في حصول هذا الإمكان صحة البدن ، وزوال خوف التلف من السبع أو العدو ، وفقدان الطعام والشراب والقدرة على المال الذي يشتري به الزاد والراحلة وأن يقضي جميع الديون ويرد جميع الودائع ، وإن وجب عليه الإنفاق على أحد لم يجب عليه الحج إلا إذا ترك من المال ما يكفيهم في المجيء والذهاب وتفاصيل هذا الباب مذكور في كتب الفقهاء والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 134.135 ﴾

---

(1) نص الحديث عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " أَيُّهَا النَّاسُ ، قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ فَحُجُّوا " . فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت ، حتى قالها ثلاثًا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَوْ قُلْتُ : نَعَمْ ، لَوَجَبَتْ ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ" . ثم قال : "ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ

عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ" . ورواه مسلم ، عن زُهَير بن حرب ، عن يزيد بن هارون ، به نحوه .

﴿ المسند (2/508) وصحيح مسلم برقم (1337) ﴾ .

(149/125)

فصل

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ فيه ستة أوجُه :

أحدها : أن " مَنْ " بدل من " النَّاس " بدل بعض من كل ، وبدل البعض وبدل الاشتمال لا بد في كل منهما من ضميرٍ يعود على المُبْدَل منه ، نحو : أَكَلْتُ الرَّغِيفَ ثُلُثَه ، وسُلِب زيدٌ ثوبُه ، وهنا ليس من ضمير . فقيل : هو محذوف تقديره من استطاع منهم .

الثاني : أنه بدل كُلٍّ من كلٍ ، إذ المراد بالناس المذكورين : خاصٌّ ، والفرق بين هذا الوجه ، والذي قبله ، أن الذي قبله يقال فيه : عام مخصوص ، وهذا يقال فيه : عامٌّ أُريد به الخاص ، وهو فرق واضح وهاتان العبارتان للشافعي .

الثالث : أنها خبر مبتدأ مُضْمَر ، تقديره : هم من استطاع .

الرابع : أنها منصوبة بإضمار فعل ، أي : أعني من استطاع . وهذان الوجهان – في الحقيقة

- مأخوذان من وجه البدل ؛ فإنّ كل ما جاز إبداله مما قبله ، جاز قطعه إلى الرفع ، أو إلى النصب المذكورين آنفاً . الخامس : أن "مَنْ" فاعل بالمصدر وهو "حَدُّ" ، والمصدر مضاف لمفعوله ، والتقدير : ولله على الناس أن يحج من استطاع منهم سبيلاً البيت .

وهذا الوجه قد رَدَّه جماعةٌ من حيث الصناعة ، ومن حيث المعنى ؛ أما من حيث الصناعة ؛ فلأنه إذا اجتمع فاعل ومفعول مع المصدر العامل فيهما ، فإنما يُضَاف المصدر لمرفوعه - دون منصوبة - فيقال : يعجبني ضَرْبُ زيدٍ عمراً ، ولو قلتَ : ضَرْبُ عمرٍو زيدٌ ، لم يجزْ إلا في ضرورة ، كقوله : [البسيط]

أفْنَى تِلاَدِي وَمَا جَمَّعْتُ مِنْ نَشَبٍ . . . قَرْعُ القَوَاقِيزِ أفْوَاهُ الأبَارِيقِ

(150/125)

يروى بنصب "أفواه" على إضافة المصدر - وهو "قَرْع" - إلى فاعله ، وبالرفع على إضافته إلى مفعوله . وقد جوَّزَ ، بعضُهم في الكلام على ضَعْفٍ ، والقرآن لا يُحْمَل على ما في الضرورة ، ولا على ما فيه ضعف ، أمَّا من حيث المعنى ؛ فلأنه يؤدي إلى تكليف الناس جميعهم - مستطيعهم وغير مستطيعهم - بأن يحج مستطيعهم ، فيلزم من ذلك تكليف غير المُسْتَطِيع بأن يَحُجَّ ، وهو غير جائز - وقد التزم بعضُهم هذا ، وقال : نعم ، نقول بموجبه ،

وأن الله – تعالى – كلَّف الناسَ ذلك ، حتى لو لم يحج المستطيعون لزم غير المستطيعين أن يأمروهم بالحج حسب الإمكان ؛ لأن إحجاج الناس إلى الكعبة وعرفة فرضٌ واجب . و " مَنْ " – على هذه الأوجه الخمسة – موصولة بمعنى : الذي .

السادس : أنها شرطية ، والجزاء محذوف ، يدل عليه ما تقدم ، أو هو نفس المتقدم – على رأي – ولا بد من ضمير يعود من جملة الشرط على " النَّاسِ " ، تقديره : من استطاع منهم إليه سبيلاً فلله عليه .

ويترجح هذا بمقابلته بالشرط بعده ، وهو قوله : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العالمين ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت ﴾ جملة من مبتدأ – وهو ﴿ حِجُّ البيت ﴾ – وخبر – وهو قوله : " لله " – و " عَلَى النَّاسِ " متعلق بما تعلق به الخبر ، أو متعلق بمحذوف ؛ على أنه حال من الضمير المستكن في الجار ، والعامل فيه – أيضاً – ذلك الاستقرار المحذوف ، ويجوز أن يكون على الناس هو الخبر ، و " لله " متعلق بما تعلق به الخبر ، ويمتنع فيه أن يكون حالاً من الضمير في " عَلَى النَّاسِ " وإنْ كان العكس جائزاً – كما تقدم – .

(151/125)

والفرق أنه يلزم هنا تقديم الحال على العامل المعنوي ، والحال لا يتقدم على العامل المعنوي - بخلاف الظرف وحرف الجر ، فإنهما يتقدمان على عاملهما المعنوي ؛ للاتساع فيهما ، وقد تقدم أن الشيخ جمال الدين بن مالك ، يجوز تقديمها على العامل المعنوي - إذا كانت هي ظرفاً ، أو حرف جر ، والعامل كذلك ، ومسألتنا في الآية الكريمة من هذا القبيل . وقد جيء في هذه الآيات بمبالغات كثيرة .

منها قوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت ﴾ يعني : أنه حق واجب عليهم لله في رقابهم ، لا ينفكون عن أدائه والخروج عن عُهدته .

ومنها : أنه ذكر " النَّاسَ " ، ثم أبدل منهم ﴿ مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ ، وفيه ضربان من التأكيد .

أحدهما : أن الإبدال تثنية المراد وتكرير له .

والثاني : أن التفصيل بعد الإجمال ، والإيضاح بعد الإبهام ، إيراد له في صورتين مختلفتين ، قاله الزمخشري ، على عادة فصاحته ، وتلخيصه المعنى بأقرب لفظ ، والألف واللام في " البَيْتِ " للعهد ؛ لتقدم ذكره ، وهو أعلم بالغلبة كالثريا والصعيد . فإذا قيل : زار البيتَ ، لم يَتَبَادر الذهن إلا إلى الكعبة شرفها الله .

وقال الشاعر : [الطويل]

لَعَمْرِي لأَنْتَ الْبَيْتُ أُكْرِمُ أَهْلَهُ . . . وَأَقْعُدُ فِي أَفْيَائِهِ بِالأَصَائِلِ

أنشد هذا البيت أبو حيان في هذا المعرض.

قال شهابُ الدين: "وفيه نظر، إذْ ليس في الظاهر الكعبة".

الضمير في: "إلَيْهِ" الظاهر عوده على الحَجّ؛ لأنه محدّث عنه.

قال الفراء: إن نويت الاستئناف بـ "مَنْ" كانت شرطاً، وأسقط الْجَزاء لدلالة ما قبله عليه، والتقدير: من استطاع إلى الحج سبيلاً، فللَّه عليه حجُّ البيت.

وقيل: يعود على "الْبَيْتِ"، و"إلَيْهِ" متعلق بـ "اسْتَطَاعَ"، و"سَبِيلاً" مفعول به؛ لأن استطاع متعدٍّ، ومنه قوله تعالى: ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ [الأعراف: 197]، إلى غير ذلك من الآيات. انتهى. اهـ ﴿تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 413.415﴾

(152/125)

لطيفة

قال ابن عادل:

قال أبو العباس المقرئ: ورد لفظ الاستطاعة بإزاء معنيين في القرآن:

الأول: سَعَةِ المال، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَاس حِجُّ البيت مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: 97] أي: سعة في المال ومنه قوله تعالى: ﴿لَوِ استطعنا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [

التوبة : 42] أي : لو وجدنا سعة في المال .

الثاني : بمعنى الإطاقة ، قال تعالى : ﴿ وَلَن تستطيعوا أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النسآء ﴾ [النساء : 129] ، وقال : ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ [التغابن : 16] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 415 ﴾

وقال العلامة الفيروزابادى :

وردت الاستطاعة فى القرآن على ثلاثة أَوجهٍ :

الأَوّل : بمعنى السّعةِ والغِنى بالمال : ﴿ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ ، ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ .

الثانى : بمعنى القوة والطَّاقة : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النّسَآءِ ﴾ .

الثالث : بمعنى القُدْرة والمُكْنة البدنيّة : ﴿ وَمَا اسْتَطَاعُواْ لَهُ نَقْباً ﴾ ، ﴿ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ ﴾ .

والاستطاعة استفعالة من الطَّوع . وذلك وجود ما يصير به الفعل (متأتيا . وهو عن المحققين اسم للمعانى [التى] بها يتمكَّن الإِنسان مّما يريده من إِحداث الفعل) . وهى أَربعة أَشياءَ : بِنْية مخصوصة للفاعل ، وتصوّر للفعل ، ومادّة قابلة لتأْثيره ، وآلة إِن كان الفعل آليّاً ، كالكتابة ؛ فإِن الكاتب محتاج إِلى هذه الأَربعة فى إِيجاده للكتابة . ولذلك يقال : فلان غير مستطيع للكتابة إِذا فَقَد واحداً من هذه الأَربعة ، فصاعداً . ويضادّه العَجْز ، وهو أَلاَّ

يجد أَحد هذه الأَربعة فصاعداً . ومتى وَجَدَ هذه الأَربعة كلَّها فمستطيع مطلقا ، ومتى فقدها فعاجز مطلقا ، ومتى وجد بعضها دون بعض فمستطيع من وجهٍ ، عاجزٌ من وجهٍ . ولأَن يوصَف بالعجز أَولى .

والاستطاعة أَخصّ من القدرة . وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ فإِنَّه يحتاج إِلى هذه الأَربعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 187.188 ﴾

(153/125)

قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العالمين ﴾

فصل

قال الفخر :

في هذه الآية قولان :

القول الأول : أنها كلام مستقل بنفسه ووعيد عام في حق كل من كفر بالله ولا تعلق له بما قبله .

القول الثاني : أنه متعلق بما قبله والقائلون بهذا القول منهم من حمله على تارك الحج ومنهم من

حمله على من لم يعتقد وجوب الحج ، أما الذين حملوه على تارك الحج فقد عولوا فيه على ظاهر الآية فإنه لما تقدم الأمر بالحج ثم أتبعه بقوله ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ فهم منه أن هذا الكفر ليس إلا ترك ما تقدم الأمر به ثم إنهم أكدوا هذا الوجه بالأخبار ، روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً " وعن أبي أمامة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من مات ولم يحج حجة الإسلام ولم تمنعه حاجة ظاهرة أو مرض حابس أو سلطان جائز فليمت على أي حال شاء يهودياً أو نصرانياً " وعن سعيد بن جبير : لو مات جار لي وله ميسرة ولم يحج لم أصل عليه ، فإن قيل : كيف يجوز الحكم عليه بالكفر بسبب ترك الحج ؟

أجاب القفال رحمه الله تعالى عنه : يجوز أن يكون المراد منه التغليظ ، أي قد قارب الكفر وعمل ما يعمله من كفر بالحج ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ القلوب الحناجر ﴾ [الأحزاب : 10] أي كادت تبلغ ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام : " من ترك صلاة متعمداً فقد كفر " وقوله عليه الصلاة والسلام : " من أتى امرأة حائضاً أو في دبرها فقد كفر "

وأما الأكثرون : فهم الذين حملوا هذا الوعيد على من ترك اعتقاد وجوب الحج ، قال الضحاك : لما نزلت آية الحج جمع الرسول صلى الله عليه وسلم أهل الأديان الستة المسلمين ، والنصارى واليهود والصابئين والمجوس والمشركين فخطبهم وقال : " إن الله تعالى كتب عليكم الحج فحجوا " فآمن به المسلمون وكفرت به الملل الخمس ، وقالوا : لا نؤمن به ، ولا نصلي إليه ، ولا نحجه ، فأنزل الله تعالى قوله ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِىٌّ عَنِ العالمين ﴾ وهذا القول هو الأقوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 135 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العالمين ﴾ قال آبن عباس وغيره : المعنى ومن كفر بفرض الحج ولم يره واجبا .

وقال الحسن البصري وغيره : إن من ترك الحج وهو قادر عليه فهو كافر .

وروى الترمذي عن الحارث عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ملك زادا وراحلة تُبَلّغه إلى بيت الله ولم يحجّ فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا وذلك أنَّ الله يقول في كتابه ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ " قال أبو عيسى : "هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وفي إسناده مَقال ، وهلال بن عبد الله مجهول ، والحارث يُضعَّف" وروي نحوه عن أبي أمامة وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

وعن عبد خير بن يزيد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله قال في خطبته : " يأيها الناس إن الله فرض عليكم الحج على من استطاع إليه سبيلا ومن لم يفعل فليمت على أي حال شاء إن شاء يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيا إلا أن يكون به عذر من مرض أو سلطان جائر ألا نصيب له في شفاعتي ولا ورُودَ حَوْضي " وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كان عنده مال يبلّغه الحج فلم يحج أو عنده مال تحلّ فيه الزكاة فلم يزّكه سأل عند الموت الرجعة " فقيل يا بن عباس إنا كنا نرى هذا للكافرين .

فقال : أنا أقرأ عليكم به قرآنا ﴿ يا أَيُّها الذين آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ ولا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فأولئك هُمُ الخاسرون ﴾ ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الموت فَيَقُولَ رَبِّ لولا أخرتني إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصالحين ﴾ [المنافقون : 109] ، قال الحسن بن صالح في تفسيره : فأزّكى وأحجّ .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا سأله عن الآية فقال : " من حج لا يرجو ثوابا أو جلس لا يخاف عقابا فقد كفر به " وروى قتادة عن الحسن قال قال عمر رضي الله عنه : لقد هممت أن أبعث رجالا إلى الأمصار فينظرون إلى من كان له مال ولم يحجّ فيضربون عليه الجزية ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العالمين ﴾ .

قلت : هذا خرج مخرج التغليظ ؛ ولهذا قال علماؤنا : تضمّنت الآية أن من مات ولم يحج

وهو قادر فالوعيد يتوجّه عليه ، ولا يجزىء أن يحج عنه غيره لأن حج الغير لو أسقط عنه الفرض لسقط عنه الوعيد .

والله أعلم .

وقال سعيد بن جُبير : لو مات جارٌ لي وله مَيْسرة ولم يحج لم أصلّ عليه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 153.154 ﴾

(156/125)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِىٌّ عَنِ العالمين ﴾ يحتمل أن يراد بمن كفر من لم يحج وعبر عن ترك الحج بالكفر تغليظاً وتشديداً على تاركه كما وقع مثل ذلك فيما أخرجه سعيد بن منصور وأحمد وغيرهما عن أبي أمامة من قوله صلى الله عليه وسلم : " من مات ولم يحج حجة الإسلام لم يمنعه مرض حابس أو سلطان جائر أو حاجة ظاهرة فليمت على أي حالة شاء يهودياً أو نصرانياً " ومثله ما روي بسند صحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال : لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار فلينظروا كل من كان له جدة فلم يحج فيضربوا عليهم الجزية ما هم بمسلمين ما هم بمسلمين ، ويحتمل إبقاء الكفر على ظاهره

بناءاً على ما أخرج ابن جرير وعبد بن حميد وغيرهما عن عكرمة "أنه لما نزلت ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسلام دِينًا ﴾ [آل عمران : 85] الآية قال اليهود : فنحن مسلمون فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى فرض على المسلمين حج البيت فقالوا لم يكتب علينا وأبوا أن يحجوا فنزل ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ " الآية . ومن طريق الضحاك أنه لما نزلت آية الحج جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الملل مشركي العرب والنصارى واليهود والمجوس والصابئين فقال : إن الله تعالى قد فرض عليكم الحج فحجوا البيت فلم يقبله إلا المسلمون وكفرت به خمس ملل قالوا : لا نؤمن به ولا نصلي إليه ولا نستقبله فأنزل الله سبحانه ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ الخ وإلى إبقائه على ظاهره ذهب ابن عباس ، فقد أخرج البيهقي عنه أنه قال في الآية : ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ بالحج فلم ير حجه براً ولا تركه مأثماً ، وروى ابن جرير أن الآية لما نزلت قام رجل من هذيل فقال : يا رسول الله من تركه كفر ؟ قال : " من تركه لا يخاف عقوبته ومن حج لا يرجو ثوابه فهو ذاك " ، وعلى كلا الاحتمالين لا تصلح الآية

(157/125)

دليلاً لمن زعم أن مرتكب الكبيرة كافر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 13 ﴾

وقال العلامة ابن عطية :

هذا كفر معصية ، كقوله عليه السلام ، من ترك الصلاة فقد كفر وقوله : لا ترجعوا بعدي كفاراً ، يضرب بعضكم رقاب بعض ، على أظهر محتملات هذا الحديث . وبيّن أن من أنعم الله عليه بمال وصحة ولم يحج فقد كفر النعمة ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ غني عن العالمين ﴾ الوعيد لمن كفر ، والقصد بالكلام ، فإن الله غني عنهم ، ولكن عمم اللفظ ليبرع المعنى ، وينتبه الفكر على قدرة الله وسلطانه واستغنائه من جميع الوجوه حتى ليس به افتقار إلى شيء ، لا ربَّ سواه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 480 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ ظاهره أنه مقابل قوله : ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ فيكون المراد بمن كفر من لم يحج مع الاستطاعة ، ولذلك قال جمع من المحققين : إن الإخبار عنه بالكفر هنا تغليط لأمر ترك الحج .

والمراد كفر النعمة .

ويجوز أيضا أن يراد تشويه صنعه بأنه كصنيع من لا يؤمن بالله ورسله وفضيلة حرمه .

وقال قوم : أراد ومن كفر بفرض الحج ، وقال قوم بظاهره : إن ترك الحج مع القدرة عليه كفر .

ونسب للحسن .

ولم يلتزم جماعة من المفسرين أن يكون العطف للمقابلة وجعلوها جملة مستقلة .

كالتذييل ، يبين بها عدم اكتراث الله بمن كفر به .

وعندي أنه يجوز أن يكون المراد بمن كفر من كفر بالإسلام ، وذلك تعريض بالمشركين من أهل مكة بأنه لا اعتداد بحجهم عند الله وإنما يريد الله أن يحج المؤمنون به والموحدون له .

(158/125)

وفي قوله : ﴿ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ رمز إلى نزعه ولاية الحرم من أيديهم : لأنه لما فرض الحج وهم يصدون عنه ، وأعلمنا أنه غني عن الناس ، فهو لا يعجزه من يصد الناس عن مراده تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 168 . 169 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن تكليف الشرع في العبادات قسمان ، منها ما يكون أصله معقولاً إلا أن تفاصيله لا تكون معقولة مثل الصلاة فإن أصلها معقول وهو تعظيم الله أما كيفية الصلاة فغير معقولة ، وكذا الزكاة أصلها دفع حاجة الفقير وكيفيتها غير معقولة ، والصوم أصله معقول ، وهو قهر النفس وكيفيته غير معقولة ، أما الحج فهو سفر إلى موضع معين على كيفيات مخصوصة ،

فالحكمة في كيفيات هذه العبادات غير معقولة وأصلها غير معلومة .

إذا عرفت هذا فنقول : قال المحققون إن الإتيان بهذا النوع من العبادة أدل على كمال العبودية والخضوع والانقياد من الإتيان بالنوع الأول ، وذلك لأن الآتي بالنوع الأول يحتمل أنه إنما أتى به لما عرف بعقله من وجوه المنافع فيه ، أما الآتي بالنوع الثاني فإنه لا يأتي به إلا لمجرد الانقياد والطاعة والعبودية ، فلأجل هذا المعنى اشتمل الأمر بالحج في هذه الآية على أنواع كثيرة من التوكيد

أحدها : قوله ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النّاسِ حِجُّ البيت ﴾ والمعنى أنه سبحانه لكونه إلها ألزم عبيده هذه الطاعة فيجب الانقياد سواء عرفوا وجه الحكمة فيها أو لم يعرفوا

وثانيها : أنه ذكر ﴿ الناس ﴾ ثم أبدل منه ﴿ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ وفيه ضربان من التأكيد ، أما أولاً فلأن الإبدال تثنية للمراد وتكرير ، وذلك يدل على شدة العناية ، وأما ثانياً فلأنه أجمل أولاً وفصل ثانياً وذلك يدل على شدة الاهتمام

وثالثها : أنه سبحانه عبّر عن هذا الوجوب بعبارتين إحداهما : لام الملك في قوله ﴿ وَلِلَّهِ ﴾

وثانيتهما : كلمة ﴿ على ﴾ وهي للوجوب في قوله ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى الناس ﴾

ورابعها : أن ظاهر اللفظ يقتضي إيجابه على كل إنسان يستطيعه ، وتعميم التكليف يدل على شدة الاهتمام

وخامسها : أنه قال ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ مكان ، ومن لم يحج وهذا تغليظ شديد في حق تارك الحج

وسادسها : ذكر الاستغناء وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان

وسابعها : قوله ﴿ عَنِ العالمين ﴾ ولم يقل عنه لأن المستغني عن كل العالمين أولى أن يكون مستغنياً عن ذلك الإنسان الواحد وعن طاعته ، فكان ذلك أدل على السخط

وثامنها : أن في أول الآية قال : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى الناس ﴾ فبيّن أن هذا الإيجاب كان لمجرد عزة الإلهية وكبرياء الربوبية ، لا لجر نفع ولا لدفع ضر ، ثم أكد هذا في آخر الآية بقوله ﴿ فَإِنَّ الله غَنِىٌّ عَنِ العالمين ﴾ ومما يدل من الأخبار على تأكيد الأمر بالحج ، قوله عليه الصلاة والسلام : " حجوا قبل أن لا تحجوا فإنه قد هدم البيت مرتين ويرفع في الثالث " وروي " حجوا قبل أن لا تحجوا حجوا قبل أن يمنع البر جانبه " قيل : معناه أنه يتعذر عليكم السفر في البر في مكة لعدم الأمن أو غيره ، وعن ابن مسعود " حجوا هذا البيت قبل أن تنبت في البادية شجرة لا تأكل منها دابة إلا هلكت " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 136.135 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

(160/125)

وقوله : ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ يجوز أن تكون الشرطية - وهو الظاهر - ويجوز أن تكون الموصولة ، ودخلت الفاء ؛ شبهاً للموصول باسم الشرط كما تقدم ، ولا يخفى حال الجملتين بعدها بالاعتبارين المذكورين ، ولا بد من رابط بين الشرط وجزائه ، أو المبتدأ وخبره ، ومن جوَّز إقامة الظاهر مقام المضمر اكتفى بذلك في قوله : ﴿ غَنِيٌّ عَنِ العالمين ﴾ كأنه قال : غني عنهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 418 ﴾

فصل

قال ابن كثير :

وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا ﴾ هذه آية وُجُوب الحج عند الجمهور . وقيل : بل هي قوله : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : 196] والأول أظهر .

وقد وَرَدَت الأحاديثُ المتعددة بأنه أحدُ أركان الإسلام ودعائمه وقواعده ، وأجمع

المسلمون على ذلك إجماعا ضروريا ، وإنما يجب على المكَلَّف في العُمْر مَرّة واحدة بالنص والإجماع .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا الربيع بن مسلم القُرَشيّ ، عن محمد بن زياد ، عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "أَيُّهَا النَّاسُ ، قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ الحَجُّ فَحُجُّوا" . فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت ، حتى قالها ثلاثًا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَوْ قُلْتُ : نَعَمْ ، لَوَجَبَتْ ، ولَمَا اسْتَطَعْتُمْ" . ثم قال : "ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، وإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ" .

ورواه مسلم ، عن زُهَير بن حرب ، عن يزيد بن هارون ، به نحوه . (1)

---

(1) المسند (2/508) وصحيح مسلم برقم (1337) .

(161/125)

وقد روى سُفْيان بن حسين ، وسليمان بن كثير ، وعبد الجليل بن حُمَيد ، ومحمد بن أبي حفصة ، عن الزهري ، عن أبي سنَان الدؤلي –واسمه يزيد بن أمية– عن ابن عباس قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "يَاأَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيْكُم الحَجَّ" .

فقام الأقرع بن حابس فقال: يا رسول الله، أفي كل عام؟ قال: "لَوْ قُلْتُهَا، لَوَجَبَتْ، ولَوْ وَجَبَتْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهَا، وَلَمْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْمَلُوا بِهَا؛ الحَجُّ مَرَّةٌ، فَمَنْ زَادَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ".

رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجة، والحاكم من حديث الزهري، به. ورواه شريك، عن سِمَاك، عن عِكرمة، عن ابن عباس، بنحوه. وروي من حديث أسامة بن زيد. (1)

وقال الإمام أحمد: حدثنا منصور بن وَرْدَان، عن علي بن عبد الأعلى، عن أبيه، عن أبي البَخْتَرِيّ، عن عليّ قال: لما نزلت: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا﴾ قالوا: يا رسول الله، في كل عام؟ فسكت، قالوا: يا رسول الله، في كل عام؟ قال: "لا ولَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجَبَتْ". فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: 101].

وكذا رواه الترمذي، وابن ماجة، والحاكم، من حديث منصور بن وَرْدان، به: ثم قال الترمذي: حسن غريب. وفيما قال نظر؛ لأن البخاري قال: لم يسمع أبو البَخْتَرِيّ من عليّ. (2)

---

(1) المسند (290/1) وسنن أبي داود برقم (1721) وسنن النسائي (111/5) وسنن ابن ماجة برقم (2886) والمستدرك (293/2).

(2) المسند (113/1) وسنن الترمذي برقم (3055) وسنن ابن ماجة برقم (2884) والمستدرك (294/2) .

(162/125)

وقال ابن ماجة : حدثنا محمد بن عبد الله بن نُمَيْر ، حدثنا محمد بن أبي عُبَيدة ، عن أبيه ، عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن أنس بن مالك قال : قالوا : يا رسول الله ، الحج في كل عام ؟ قال : "لَوْ قُلْتُ : نعم ، لوجَبَتْ ، ولَوْ وجَبَتْ لَمْ تَقُومُوا بِهَا ، ولَوْلَمْ تقومُوا بِهَا لَعُذِّبْتُمْ" . (1)

وفي الصحيحين من حديث ابن جُرَيْج ، عن عطاء ، عن جابر ، عن سُراقة بن مالك قال : يا رسول الله ، مُتْعَتنا هذه لعامنا هذا أم للأبد ؟ قال : "لا بَل لِلأبَدِ" . وفي رواية : "بل لأبد أبدٍ" . (2)

وفي مسند الإمام أحمد ، وسنن أبي داود ، من حديث واقد بن أبي واقد الليثي ، عن أبيه ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنسائه في حجته : "هَذِهِ ثُمَّ ظُهُورَ الحُصْرِ" . (3)

يعني : ثم الزَمْنَ ظُهور الحصر ، ولا تخرجن من البيوت .

وأما الاستطاعة فأقسام: تارة يكون الشخص مستطيعا بنفسه، وتارة بغيره، كما هو مقرر في كتب الأحكام.

قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا عَبْدُ بن حميد، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا إبراهيم بن يزيد قال: سمعت محمَّد بن عَبَّاد بن جعفر يحدث عن ابن عمر قال: قام رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: مَن الحاجّ يا رسول الله؟ قال: "الشَّعثُ التَّفِل" فقام آخر فقال: أيّ الحج أفضل يا رسول الله؟ قال: "العَجُّ والثَّجُّ"، فقام آخر فقال: ما السبيل يا رسول الله؟ قال: "الزَّادُ والرَّاحِلَة".

---

(1) سنن ابن ماجة برقم (2885) وقال البوصيري في الزوائد (4/3): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات".

(2) صحيح البخاري برقم (2505) وصحيح مسلم برقم (1216).

(3) المسند (218/5، 219) وسنن أبي داود برقم (1722).

(163/125)

وهكذا رواه ابن ماجة من حديث إبراهيم بن يزيد وهو الخُوزي. قال الترمذي: ولا نعرفه إلا من حديثه، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه. كذا قال هاهنا. وقال في

كتاب الحَجّ : هذا حديث حسن . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 83.81 ﴾

---

(1) سنن الترمذي برقم (813) ، (2998) وسنن ابن ماجة برقم (2896) .

(164/125)

من لطائف الإمام القشيري فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

البيت حَجَرَةٌ والعبد مَدَرَةٌ ، فَرَبَطَ المدرة بالحجرة ، فالمدر مع الحجر . وتعزَّز وتَقَدَّس من لم يزل .

ويقال البيت مطاف النفوس ، والحق سبحانه مقصود القلوب !

البيت أطلال وآثار وإنما هي رسوم وأحجار ولكن :

تلك آثارنا تدلُّ علينا . . . فانظروا بعدنا إلى الآثار

ويقال البيت حجر ، ولكن ليس كل حجر كالذي يجانسه من الحجر .

حَجَرٌ ولكن لقلوب الأحباب مزعج بل لأكباد الفقراء منفج ، لا بل لقلوب قومٍ مِثْلجٌ مبهج ، ولقلوب الآخرين منفج مزعج .

وهم على أصناف : بيت هو مقصد الأحباب ومزارهم ، وعنده يسمع أخبارهم ويشهد آثارهم .

بيت من طالعه بعين التفرقة عاد بسرٍ خراب ، ومن لاحظه بعين الإضافة حظي بكل تقريب وإيجاب ، كما قيل :

إن الديار – وإن صَمَتَتْ – فإنّ لها . . . عهداً بأحبابنا إذ عندها نزلوا

بيت من زاره بنفسه وجد ألطافه ، ومن شهده بقلبه نال كشوفاته .

ويقال قال سبحانه : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ [الحج : 26] وأضافه إلى نفسه ، وقال ها هنا : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ وفي هذا طرف من الإشارة إلى عين الجمع .

وسميت (بكة) لازدحام الناس ، فالكلُّ يتناجزون على البدار إليه ، ويزدحمون في الطواف حواليْه ، ويبذلون المهج في الطريق ليصلوا إليه .

والبيت لم يخاطِب أحداً منذ بِنِيَ بِمُنْيَةٍ ، ولم يستقبل أحداً بحظوة ، ولا راسل أحداً بسطر في رسالة ، فإذا كان البيت الذي خلقه من حجر – هذا وصفه في التعزز فما ظنُّك بِمَن البيتُ له . قال صلى الله عليه وسلم مخبراً عنه سبحانه : " الكبرياء ردائي والعظمة إزاري " .

ويقال إذا كان البيت المنسوب إليه لا تصل إليه من ناحية من نواحيه إلا بقطع المفاوز

والمتاهات فكيف تطمع أن تصل إلى ربِّ البيت بالهوينى دون تحمُّل المشقات ومفارقة الراحات ؟ !

(165/125)

ويقال لا تُعلِّق قلبك بأول بيتٍ وضع لَكَ ولكن أَفْرِدْ سِرَّكَ لأول حبيبٍ آثرك .

ويقال شتَّان بين عبدٍ اعتكف عند أول بيتٍ وُضِع له وبين عبدٍ لازم حضرة أول عزيز كان له .

ويقال ازدحام الفقراء بهممهم حول البيت ليس بأقل من ازدحام الطائفين بقدَمِهم ، فالأغنياء يزورون البيت ، ويطوفون بقدَمِهم ، والفقراء يبقون عنه فيطوفون حوله بهممهم .

ويقال الكعبة بيت الحق سبحانه في الحجر ، والقلب بيت الحق سبحانه في السِّر ، قال قائلهم :

لستُ من جملة المحبين إنْ لم . . . أجعل القلبَ بيته والمقاما

وطوافي إجالة السِّر فيه . . . وهو ركني إذا أردت استلاما

فاللطائف تطوف بقلوب العارفين ، والحقائق تعتكف في قلوب الموحِّدين ، والكعبة مقصود العبد بالحج ، والقلب مقصود الحق بإفراده إياه بالتوحيد والوجد .

قوله جلّ ذكره : ﴿ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

بركاته اتصال الألطاف والكشوفات ، فَمَنْ قصده بهمته ، ونزل عليه بقصده هداه إلى طريق رُشْدِه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ .

ولكن لا تُدْرَكُ تلك الآيات بأبصار الرؤوس ولكن ببصائر القلوب .

(166/125)

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ .

شرط الغَنيّ ألا يَدَّخِر عن البيت شيئاً مِنْ ماله ، وشرط الفقير ألا يدخر عن الوصول إلى بيته نَفَساً من روحه .

ويقال الاستطاعة فنون ؛ فمستطيع بنفسه ومَاله وهو الصحيح السليم ، ومستطيع بغيره وهو الزَّمِنُ المعصوب ، وثالث غفل الكثيرون عنه وهو مستطيع بربه وهذا نعت كل مخلص مستحق فإن بلاياه لا تحملها إلا مطاياه .

ويقال حج البيتِ فَرْضٌ على أصحاب الأموال ، وربّ البيتِ فَرْضٌ على الفقراء فرض حتم ؛ فقد يَنْسَدُّ الطريق إلى البيت ولكن لا ينسدُّ الطريق إلى رب البيت ، ولا يُمْنَعُ الفقير عن

ربّ البيت .

ويقال الحج هو القصد إلى مَنْ تُعَظِّمه : فقاصدٌ بنفسه إلى زيارة البيت ، وقاصد بقلبه إلى شهود رب البيت ، فشتان بين حج وحج ، هؤلاء تحللهم عن إحرامهم عند قضاء منسكهم وأداء فَرضِهم ، وهؤلاء تحللهم عن إحرامهم عند شهود ربهم ، فأمَّا القاصدون بنفوسهم فأحرموا عن المعهودات من محرمات الإحرام ، وأمَّا القاصدون بقلوبهم فإنهم أحرموا عن المساكنات وشهود الغير وجميع الأنام .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِىٌّ عَنِ العَالَمِينَ ﴾ .

ضرب رقم الكفر على من ترك حج البيت ، ووقعت بسبب هذا القول قلوب العلماء في كدّ التأويل ، ثم قال : ﴿ فَإِنَّ اللهَ غَنِىٌّ عَنِ العَالَمِينَ ﴾ وهذا زيادة تهديد تدل عَلى زيادة تخصيص .

(167/125)

ويقال إن سبيل من حج البيت أن يقوم بآداب الحج ، فإذا عقد بقلبه الإحرام يجب أن يفسخ كلَّ عَقْدٍ يصدُّه عن هذا الطريق ، وينقض كل عزم يرده عن هذا التحقيق ، وإذا طَهَّرَ تَطَهَّرَ عن كل دَنَسٍ من آثار الأغيار بماء الخجل ثم بماء الحياء ثم بماء الوفاء ثم بماء الصفاء ، فإذا

تجرَّد عن ثيابه تجرد عن كل ملبوسٍ له من الأخلاق الذميمة ، وإذا لبَّى بلسانه وجب ألا تبقى شَعْرَةٌ مِنْ بَدَنِهِ إلا وقد استجابت لله . فإذا بلغ الموقف وقف بقلبه وسِرِّه حيث وقفه الحق بلا اختيار مقام ، ولا تعرض لتخصيص ؛ فإذا وقف بعرفات عرف الحق سبحانه ، وعرف له تعالى حقَّه على نفسه ، ويتعرَّف إلى الله تعالى بتَبَرِّيه عن مُنَّتِه وحَوْلِه ، والحقُّ سبحانه يتعرَّف إليه بمِنَّته وطَوْله ، فإذا بلغ المشعر الحرام يذكر مولاه بنسيان نفسه ، ولا يصحُّ ذكرُه لربِّه مع ذكره لنفسه ، فإذا بلغ مَنيّ نفى عن قلبه كل طَلَبٍ ومُنَى ، وكلَّ شهوةٍ وهوى .

وإذا رمى الجمار رمى عن قلبه وقذف عن سره كل علاقة في الدنيا والعقبى .

وإذا ذبح ذبح هواه بالكلية ، وتَقَرَّب به إلى الحق سبحانه ، فإذا دخل الحَرَمَ عَزَمَ على التباعد عن كل مُحرَّم على لسان الشريعة وإشارة الحقيقة .

وإذا وقع طَرْفُه على البيت شهد بقلبه ربَّ البيت ، فإذا طاف بالبيت أخذ سِرُّه بالجولان في الملكوت .

فإذا سعى بين الصفا والمروة صفَّى عنه كل كدورة بشرية وكل آفة إنسانية .

فإذا حَلَقَ قطع كلَّ علاقة بقيت له .

وإذا تحلل من إحرام نفسه وقصده إلى بيت ربِّه استأنف إحراماً جديداً بقلبه ، فكما خرج من بيت نفسه إلى بيت ربه يخرج من بيت ربه إلى ربه تعالى .

فمن أكمل نُسْكَه فإنما عمل لنفسه ، ومن تكاسل فإنّ الله غني عن العالمين وقال صلى الله عليه وسلم : " الحاج أشعث أغبر " ، فمن لم يتحقق بكمال الخضوع والذوبان عن كليته فليس بأشعث ولا أغبر. انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 1 صـ 260. 264﴾ . بتصرف يسير.

(168/125)

من فوائد ولطائف العلامة ابن القيم فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ حج البيت مبتدأ وخبره في أحد المجرورين قبله والذي يقتضيه المعنى أن يكون في قوله على الناس لأنه وجوب والوجوب يقتضي على ويجوز أن يكون في قوله ولله لأنه يتضمن الوجوب والاستحقاق ويرجح هذا التقدير أن الخبر محط الفائدة وموضعها وتقديمه في هذا الباب في نية التأخير وكان الأحق أن يكون ولله ويرجح الوجه الأول بأن يقال قوله : "حج البيت على الناس" أكثر استعمالا في باب الوجوب من أن يقال حج البيت لله تعالى أي حق واجب لله فتأمله وعلى هذا ففي تقديم المجرور الأول وليس بخبر فائدتان إحداهما : أنه اسم للموجب

للحج فكان أحق بالتقديم من ذكر الوجوب فتضمنت الآية ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع أحدها : الموجب لهذا الفرض فبديء بذكره والثاني : مؤدي الواجب وهو المفترض عليه وهم الناس والثالث : النسبة

(169/125)

والحق المتعلق به إيجابا وبهم وجوبا وأداء وهو الحج والفائدة الثانية : أن الاسم المجرور من حيث كان لله تعالى اسما سبحانه وجب الاهتمام بتقديمه تعظيما لحرمة هذا الواجب الذي أوجبه وتخويفا من تضييعه إذ ليس ما أوجبه الله سبحانه بمثابة ما أوجبه غيره وأما قوله : من فهي بدل وقد استهوى طائفة من الناس بأنها فاعل المصدر كأنه قال : "أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلا" وهذا القول يضعف من وجوه منها أن الحج فرض عين ولو كان معنى الآية ما ذكره لأفهم فرض الكفاية لأنه إذا حج المستطيعون برئت ذمم غيرهم لأن المعنى يؤول إلى ولله على الناس أن يحج البيت مستطيعهم فإذا أدى المستطيعون الواجب لم يبق واجبا على غير المستطيعين وليس الأمر كذلك بل الحج فرض عين على كل أحد حج المستطيعون أو قعدوا ولكن الله سبحانه عذر غير المستطيع بعجزه عن أداء الواجب فلا يؤاخذه به ولا يطالبه بأدائه فإذا حج أسقط الفرض عن نفسه وليس حج المستطيعين

بمسقط للفرض عن العاجزين وإن أردت زيادة إيضاح فإذا قلت : واجب على أهل هذه الناحية أن يجاهد منهم الطائفة المستطيعة للجهاد فإذا جاهدت تلك الطائفة انقطع تعلق الوجوب عن غيرهم وإذا قلت : واجب على الناس كلهم أن يجاهد منهم المستطيع كان الوجوب متعلقا بالجميع وعذر العاجز بعجزه ففي نظم الآية على هذا الوجه دون أن يقال ولله حج البيت على المستطيعين هذه النكتة البديعة فتأملها الوجه الثاني : أن إضافة المصدر إلى الفاعل إذا وجد أولى من إضافته إلى المفعول ولا يعدل عن هذا الأصل إلا بدليل منقول فلو كان من هو الفاعل لأضيف المصدر إليه وكان يقال ولله على الناس حج البيت من استطاع وحمله على باب يعجبني ضرب زيدا عمرو ومما يفصل به بين المصدر وفاعله المضاف إليه بالمفعول والظرف حمل على المكثور المرجوح وهي قراءة ابن عامر قتل

(170/125)

أولادهم بفتح الدال شركائهم فلا يصار إليه وإذا ثبت أن من بدل بعض من كل وجب أن يكون في الكلام ضمير يعود إلى الناس كأنه قيل : من استطاع منهم وحذف هذا الضمير في أكثر الكلام لا يحسن وحسنه هاهنا أمور منها أن من واقعة على من يعقل كالاسم المبدل منه فارتبطت به ومنها : أنها موصولة بما هو أخص من الاسم الأول ولو كانت الصلة أعم

لقبح حذف الضمير العائد ومثال ذلك إذا قلت: رأيت أخواتك من ذهب إلى السوق تريد من ذهب منهم لكان قبيحا لأن الذاهب إلى السوق أعم من الأخوة وكذلك لو قلت البس الثياب ما حسن وجمل تريد منها ولم تذكر الضمير لكان أبعد في الجواز لأن لفظ ما حسن أعم من الثياب وباب بدل البعض من الكل أن يكون أخص من المبدل منه فإذا كان أعم وأضفته إلى ضمير أو قيدته بضمير يعود إلى الأول ارتفع العموم وبقي الخصوص ومما حسن حذف الضمير في هذه الآية أيضا مع ما تقدم طول الكلام بالصلة والموصول وأما المجرور من قوله إليه فيحتمل وجهين أحدهما: أن يكون في موضع حال من سبيل كأنه نعت نكرة قدم عليها لأنه لو تأخر لكان في موضع النعت لسبيل والثاني أن يكون متعلقا بسبيل فإن قيل: كيف يتعلق به وليس فيه معنى الفعل قيل: السبيل كان هاهنا عبارة عن الموصل إلى البيت من قوت وزاد ونحوهما كان فيه رائحة الفعل ولم يقصد به السبيل الذي هو الطريق فصلح تعلق المجرور به واقتضى حسن النظم وإعجاز اللفظ تقديم المجرور وإن كان موضعه التأخير لأنه ضمير يعود على البيت والبيت هو المقصود به الاعتناء وهم يقدمون في كلامهم ما هم به أهم وببيانه أعنى هذا تعبير السهيلي وهو بعيد جدا بل الصواب في متعلق الجار والمجرور وجه آخر أحسن من هذين ولا يليق بالآية سواه وهو الوجوب المفهوم من قوله على الناس أي يجب على الناس الحج فهو حق واجب وأما تعليقه بالسبيل أو جعله حالا

منها ففي غاية البعد فتأمله ولا يكاد يخطر بالبال من الآية وهذا كما يقول لله عليك الحج ولله عليك الصلاة والزكاة ومن فوائد الآية وأسرارها أنه سبحانه إذا ذكر ما يوجبه ويحرمه يذكره بلفظ الأمر والنهي وهو الأكثر أو بلفظ الإيجاب والكتاب والتحريم نحو: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ نظم الآية وتأكد الوجوب وفي الحج أتى بهذا النظم الدال على تأكد الوجوب من عشرة أوجه أحدها: أن قدم اسمه تعالى وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف على ثم أبدل منه أهل الاستطاعة ثم نكر السبيل في سياق الشرط إيذانا بأنه يجب الحج على أي سبيل تيسرت من قوت أو مال فعلق الوجوب بحصول ما يسمى سبيلا ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال: ومن كفر أي بعدم التزام هذا الواجب وتركه ثم عظم الشأن وأكد الوعيد بإخباره باستغنائه عنه والله تعالى هو الغني الحميد ولا حاجة به إلى حج أحد وإنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقته له وسخطه عليه وإعراضه بوجهه عنه ما هو من أعظم التهديد وأبلغه ثم أكد ذلك بذكر اسم العالمين عموما ولم يقل فإن الله غني عنه لأنه إذا كان غنيا عن العالمين كلهم فله الغنى الكامل التام من كل وجه عن كل أحد بكل اعتبار وكان أدل على عظم مقته لتارك حقه الذي أوجبه عليه ثم أكد هذا المعنى بأداة إن الدالة على التوكيد فهذه عشرة أوجه تقتضي

تأكيد هذا الغرض العظيم وتأمل سر البدل في الآية المقتضى لذكر الإسناد مرتين مرة بإسناده إلى عموم الناس ومرة بإسناده إلى خصوص المستطيعين وهذا من فوائد البدل تقوية المعنى وتأكيده بتكرار الإسناد ولهذا كان فيه نية تكرار العامل وإعادته ثم تأمل ما في الآية من

(172/125)

الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال وكيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين وحلتين اعتناء به وتأكيدا لشأنه ثم تأمل كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت وعظم شأنه بما يدعو النفوس إلى قصده وحجه وإن لم يطلب ذلك منها فقال: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ فوصفه بخمس صفات أحدها: أنه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض الثاني: أنه مبارك والبركة كثرة الخير ودوامه وليس في بيوت العالم

أبرك منه ولا أكثر خيرا ولا أدوم ولا أنفع للخلائق الثالث: أنه هدى وصفه بالمصدر نفسه مبالغة حتى كأنه هو نفس الهدى الرابع: ما تضمنه من الآيات البينات التي تزيد على أربعين آية الخامس: الأمن لداخله وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس

على حجه وإن شطت بالزائرين الديار وتناءت بهم الأقطار ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات وهذا يدلك على الاعتناء منه سبحانه بهذا البيت العظيم والتنويه بذكره والتعظيم لشأنه والرفعة من قدره ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ ﴾ لكفى بهذه الإضافة فضلا وشرفا وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه وسلبت نفوسهم حبا له وشوقا إلى رؤيته فهو المثابة للمحبين يثوبون إليه ولا يقضون منه وطرا أبدا كلما ازدادوا له زيادة ازدادوا له حبا وإليه اشتياقا فلا الوصال يشفيهم ولا البعاد يسلبهم كما قيل:

أطوف به والنفس بعد مشوقة . . . إليه وهل بعد الطواف تداني

وألثم منه الركن أطلب برد ما . . . بقلبي من شوق ومن هيمان

فوالله ما أزداد إلا صبابة . . . ولا القلب إلا كثرة الخفقان

(173/125)

فيا جنة المأوى ويا غاية المنى . . . ويا منيتي من دون كل أمان

أبت غلبات الشوق إلا تقربا . . . إليك فما لي بالبعاد يدان

وما كان صدى عنك صد ملالة . . . ولي شاهد من مقلتي ولساني

دعوت اصطباري عنك بعدك والبكا . . . فلبى البكا والصبر عنك عصاني

وقد زعموا أن المحب إذا نأى . . . سيبلى هواه بعد طول زمان

ولو كان هذا الزعم حقا لكان ذا . . . دواء الهوى في الناس كل أوان

بل إنه يبلى التصبر والهوى . . . على حاله لم يبله الملوان

وهذا محب قاده الشوق والهوى . . . بغير زمام قائد وعنان

أتاك على بعد المزار ولو ونت . . . مطيته جاءت به القدمان. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ بدائع الفوائد حـ 2 صـ 43. 46 ﴾

(174/125)

ومن فوائد القاسمى فى الآيتين

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ أي : لنسكهم وعباداتهم : ﴿ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ أي : للبيت الذي ببكة، أي : فيها . وفي ترك الموصوف من التفخيم ما لا يخفى . وبكة لغة في مكة، فإن العرب تعاقب بين الباء والميم كما في قولهم : ضربة لازب ولازم، والنميط والنبيط في اسم موضع بالدهناء، وقولهم أمر راتب وراتم وأغبطت الحمى وأغمطت .

وقيل : مكة البلد ، وبكة موضع المسجد ، سميت بذلك : لدقها أعناق الجبابرة [في المطبوع : الجبارية] ، فلم يقصدها جبار إلا قصمه الله تعالى ، أو لازدحام الناس بها من بكَّهُ إذا فرقه ووضعه وإذا زاحمه ، كما أن مكة من مكّهُ : أهلكه ونقصه ؛

لأنها تهلك من ظلم فيها وألحد ، وتنقص الذنوب أو تنفيها كما في القاموس – وقد ذهب بعضهم إلى أن مكة هي ميشا أو ماسا المذكورة في التوراة ، وآخر إلى أنه مأخوذ من اسم واحد من أولاد إسماعيل وهو مسّا ﴿ مُبَارَكاً ﴾ أي : كثير الخير ، لما يحصل لمن حجه واعتمره واعتكف عنده وطاف حوله ، من الثواب وتكفير الذنوب : ﴿ وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ لأنه قبلتهم ومتعبدهم .

تنبيه :

ذكر بعض المفسرين أن المراد بالأولية كونه أولاً في الوضع والبناء ، ورووا في ذلك آثاراً ، منها أنه تعالى خلق هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرضين ، ومنها : أنه تعالى بعث ملائكة لبناء بيت في الأرض على مثال البيت المعمور ، وذلك قبل خلق آدم ، ومنها : أنه أول بيت وضع على وجه الماء عند خلق السماء والأرض ، وأنه خلق قبل الأرض بألفي عام .

وليس في هذه الآثار خبر صحيح يعول عليه . والمتعين أن المراد : أول بيت وضع مسجداً ، كما بينته رواية ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه في هذه الآية قال : كانت البيوت قبله ، ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله تعالى . وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله : أي : مسجد وضع في الأرض أول ؟ قال : < المسجد الحرام > قلت : ثم أي : ؟ قال : < المسجد الأقصى > قلت : كم كان بينهما ؟ قال : < أربعون سنة ، ثم أينما أدركتك الصلاة بعدُ فصلّه ، فإن الفضل فيه > .

قال ابن القيم في " زاد المعاد " : وقد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به ، فقال : معلوم أن سليمان بن داود الذي بنى المسجد الأقصى . وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام . وهذا من جهل القائل ، فإن سليمان إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده لا تأسيسه ، والذي أسسه هو يعقوب بن إسحاق صلى الله عليهما وسلم ، بعد بناء إبراهيم عليه السلام بهذا المقدار . انتهى .

(176/125)

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وهو الحجر الذي قام عليه عند رفعه قواعد البيت .

قال ابن كثير : وقد كان ملتصقاً بجدار البيت ، حتى أخره عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه

في إمارته إلى ناحية الشرق ، بحيث يتمكن الطواف منه ، ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف ، لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده ، حيث قال : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : 125] ، وتقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة . قال المفسرين : ثمرة الآية : الترغيب في زيارة البعض الحرم وفعل الطاعات فيه ، لأنه تعالى وصفة بالبركة والهدى وجعل فيه آيات بينات .

لطيفة :

مقام إبراهيم مبتدأ حذف خبره ، أي : منها مقام إبراهيم ، أو بدل من آيات ، بدل البعض من الكل ، أو عطف بيان ، إما وحده باعتبار كونه بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالته على قدرة الله تعالى ، وعلى نبوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا ﴾ أو باعتبار اشتماله على آيات كثيرة . قالوا : فإن كل واحد من أثر قدميه في صخرة صماء ، وغوصه فيها إلى الكعبين ، وإلانة بعض الصخور دون بعض ، وإبقاءه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام ، وحفظه ، مع كثرة الأعداء ، ألوف السنين [في المطبوع : سنة] ، آية مستقلة . ويؤيده قراءة آية بينة على التوحيد ، وإما بما يفهم من قوله عز وجل :

﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ فإنه وإن كان جملة مستأنفة ابتدائية أو شرطية ، لكنها في قوة أن يقال : وأمن من دخله فتكون بحسب المعنى والمآل ، معطوفة على مقام إبراهيم ، ولا يخفى أن الاثنين نوع من الجمع فيكتفى بذلك ، أو يحمل على أنه ذكر من تلك الآيات اثنتان ، وطوى ذكر ما عداهما دلالة على كثرتها - أفاده أبو السعود - . قال المهايمي : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ رمي الطير أصحاب الفيل بحجارة من سجيل ، وتعجيل عقوبة من عتا فيه ، وإجابة دعاء من دعاء تحت ميزابه ، وإذعان النفوس لتوقيره من غير زاجر ، ومن أعظمها : النازل منزلة الكل ، مقام إبراهيم ، الحجر الذي قام عليه عند رفعه قواعد البيت ، كلما علا الجدار ارتفع الحجر في الهواء ، ثم لين ، فغرقت فيه قدماه ، كأنهما في طين ، فبقي أثره إلى يوم القيامة . ومن آياته : أن من دخله كان آمناً من نهب العرب وقتالهم ، وقد أمن صيده وأشجاره . قال أبو السعود : ومعنى أمن داخله : أمنه من التعرض له كما في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 67] ، وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً ﴾ [إبراهيم : 35] ، وكان الرجل لو جرّ كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يُطلب . وعن عمر رضي الله عنه : لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى خرج عنه .

تنبيه :

ما أفادته الآية من إثبات الأمان لداخله إنما هو بتحريمه الشرعيّ الذي وردت به الآيات ، وأوضحته الأحاديث والآثار . ففي الصحيحين ، واللفظ لمسلم ، عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة : < لا هجرة ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا > . وقال يوم فتح مكة : < إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته ، إلا من عرفها ، ولا يختلى خلاها > . فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر ، فإنه لقينهم ولبيوتهم ، فقال : < إلا الإذخر > . ولهما عن أبي هريرة مثله أو نحوه ؛ ولهما ، واللفظ مسلم أيضاً ، عن أبي شريح العدوي أنه قال لعمرو بن سعيد ، وهو يبعث البعوث إلى مكة : ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم الغد من يوم الفتح ، سمعته أذناي ، ووعاه قلبي ، وأبصرته عيناي ، حين تكلم به ، إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : < إن مكة حرمها الله ، ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً أو يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها فقولوا له : إن الله أذن لنبيه ولم يأذن لكم ، وإنما

أذن لي فيها ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد الغائب > . فقيل لأبي شريح : ما قال لك ؟ قال : أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح . إن الحرم لا يعيذ عاصياً ، ولا فارّاً بدمٍ ، ولا فاراً بخربةٍ .

(179/125)

قال الإمام ابن القيم في " زاد المعاد " : قوله فلا يحل لأحد أن يسفك بها دماً ، هذا التحريم لسفك الدم المختص بها ، وهو الذي يباح في غيرها ، ويحرم فيها ، لكونها حرماً ، كما أن تحريم عضد الشجرة بها واختلاء خلائها والتقاط لقطتها ، هو أمر مختص بها ، وهو مباح في غيرها ، إذ الجميع في كلام واحد ، ونظام واحد ، وإلا بطلت فائدة التخصيص ، وهذا أنواع :

(180/125)

أحدها : وهو الذي ساقه أبو شريح العدوي لأجله : أن الطائفة الممتنعة بها من مبايعة الإمام لا تقاتل ، لا سيما إن كان لها تأويل . كما امتنع أهل مكة من مبايعة يزيد ، وبايعوا ابن

الزبير . فلم يكن قتالهم ونصب المنجنيق عليهم وإحلال حرم الله جائزاً بالنص والإجماع ، وإنما خالف في ذلك عَمْرو بن سعيد الفاسق وشيعته ، وعارض نص رسول الله صلى الله عليه وسلم برأيه وهواه فقال : إن الحرم لا يعيذ عاصياً . فيقال له : هو لا يعيذ عاصياً من عذاب الله ، ولو لم يُعذّه من سفك دمه لم يكن حرماً بالنسبة إلى الآدميين ، وكان حرماً بالنسبة إلى الطير والحيوان البهيم ، وهو لم يزل يعيذ العصاة من عهد إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه ، وقام الإسلام على ذلك ، وإنما لم يعد مقيس بن صُبابة وابن خطل ومن سمي معهما ؛ لأنه في تلك الساعة لم يكن حرماً بل حلاً ، فلما انقضت ساعة الحرب عاد إلى ما وضع عليه يوم خلق الله السموات والأرض . وكانت العرب في جاهليتها ، يرى الرجل قاتل أبيه أو ابنه في الحرم فلا يهيجه ، وكان ذلك بينهم خاصة الحرم الذي صار بها حرماً . ثم جاء الإسلام فأكد ذلك وقواه ، وعلم النبي صلى الله عليه وسلم أن من الأمة من يتأسى به في إحلاله بالقتال والقتل ، فقطع الإلحاق وقال لأصحابه : < فإن أحد ترخص لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لك > ، وعلى هذا فمن أتى حداً أو قصاصاً خارج الحرم يوجب القتل ، ثم لجأ إليه ، لم يجز إقامته عليه فيه . وذكر الإمام أحمد عن عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : لو وجدت فيه قاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه . وذكر عن عبد الله بن عُمَر أنه قال : لو وجدت فيه قاتل عمر ما بدهته . وعن ابن عباس أنه قال : لو لقيت قاتل أبي في الحرم ما هجته حتى يخرج منه ،

وهذا قول جمهور التابعين ومن بعدهم ، بل لا يحفظ عن تابعيّ ولا صحابيّ خلافه . وإليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله

(181/125)

ومن وافقه من أهل العراق ، والإمام أحمد ومن وافقه من أهل الحديث . وذهب مالك والشافعي إلى أنه يستوفي منه في الحرم كما يستوفي منه في الحل ، وهو اختيار ابن المنذر ، واحتج لهذا القول بعموم النصوص الدالة على استيفاء الحدود والقصاص في كل مكان وزمان ، وبأن النبي صلى الله عليه وسلم قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة ، وبما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : < إن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فارّاً بدم ولا بخربة > . وبأنه لو كان الحدود والقصاص فيما دون النفس لم يعذه الحرم ، ولم يمنعه من إقامته عليه ، وبأنه لو أتى فيه بما يوجب حداً أو قصاصاً لم يعذه الحرم ولم يمنع من إقامته ، فكذلك إذا أتاه خارجه ثم لجأ إليه ، إذ كونه حرماً بالنسبة إلى عصمته لا يختلف بين الأمرين ، وبأنه حيوان أبيح قتله لفساده ، فلم يفترق الحال بين قتله لاجئاً إلى الحرم وبين كونه قد أوجب ما أبيح قتله فيه ، كالحية والحدأة والكلب العقور ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : < خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم > . فنبه بقتلهن في الحل والحرم على

العلة – وهي فسقهن – ولم يجعل التجاءهن إلى الحرم مانعاً من قتلهن ، وكذلك فاسق بني آدم الذي قد استوجب القتل . قال الأولون : ليس في هذا ما يعارض ما ذكرنا من الأدلة ، ولا سيما قوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ وهذا إما خبر بمعنى الأمر لاستحالة الخلف في خبره تعالى ، وإما خبر عن شرعه ودينه الذي شرعه في حرمه ، وإما إخبار عن الأمر المعهود المستمر في حرمه في الجاهلية والإسلام كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 67] . وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [القصص :

57] .

(182/125)

وما عدا هذا من الأقوال الباطلة فلا يلتفت إليه كقول بعضهم : من دخله كان آمناً من النار ، وقول بعضهم : كان آمناً من الموت على غير الإسلام ، ونحو ذلك ، فكم ممن دخله وهو في قعر الجحيم . وأما العمومات الدالة على استيفاء الحدود القصاص في كل زمان ومكان فيقال أولاً : لا تعرض في تلك العمومات لزمان الاستيفاء ولا مكانه ، كما لا تعرض فيها

لشروطه وعدم موانعه ، فإن اللفظ لا يدل عليها بوضعه ، ولا بتضمنه فهو مطلق بالنسبة إليها ، ولهذا إذا كان للحكم شرط أو مانع لم يقل إن توقف الحكم عليه تخصيص لذلك العام ، فلا يقول محصِّلٌ إن قوله تعالى : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ [النساء : 24] . مخصوص بالمنكوحة في عدتها أو بغير إذن وليها ، أو بغير شهود ، فهكذا النصوص العامة في استيفاء الحدود والقصاص لا تعرض فيها لزمنه ولا مكانه ولا شرطه ولا مانعه ، ولو قدر تناول اللفظ لذلك لوجب تخصيصه بالأدلة الدالة على المنع ، لئلا يبطل موجبها ، ووجب حمل اللفظ العام على ما عداها كسائر نظائره ، وإذا خصصتم تلك العمومات بالحامل والمرضع والمريض الذي يرجى برؤه ، والحال المحرّمة للاستيفاء كشدة المرض أو البرد أو الحر ، فما المانع من تخصيصها بهذه الأدلة ؟ وإن قلتم : ليس ذلك تخصيصاً بل تقييداً لمطلقها كلنا لكم هذا الصاع سواء بسواء . وأما قتل ابن خطل فقد تقدم أنه كان في وقت الحل ، وإن النبي صلى الله عليه وسلم قطع الإلحاق ، ونص على أن ذلك من خصائصه ، وقوله صلى الله عليه وسلم : < وإنما أحلت لي ساعة من نهار > ، صريح في أنه إنما أحل له سفك دم حلال في غير الحرم في تلك الساعة خاصة ، إذ لو كان حلالاً في كل وقت ، لم يختص بتلك الساعة ، وهذا صريح في أن الدم الحلال في غيرها حرام فيها ، فيما عدا تلك الساعة . وأما قوله : الحرم لا يعيذ عاصياً ، فهو من كلام الفاسق عَمْرو بن سعيد الأشدق ، يرد به حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

حين روى له أبو شريح الكعبي هذا الحديث ، كما جاء مبيناً في الصحيح ، فكيف يقدم على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وأما قولكم : لو كان الحد والقصاص فيما دون النفس لم يعذه الحرم منه ، فهذه المسألة فيها قولان للعلماء : وهما روايتان منصوصتان عن الإمام أحمد رحمه الله ، فمن منع الاستيفاء نظر إلى عموم الأدلة العاصمة بالنسبة إلى النفس وما دونها ، ومن فرق قال : سفك الدم إنما ينصرف إلى القتل ولا يلزم من تحريمه في الحرم تحريمه ما دونه ، لأن حرمة النفس أعظم ، والانتهاك بالقتل أشد ، قالوا : ولأن الحد بالجلد أو القطع يجري مجرى التأديب ، فلم يمنع منه ، كتأديب السيد عبده . وظاهر هذا المذهب أنه لا فرق بين النفس ما دونها في ذلك . قال أبو بكر : هذه مسألة وجدتها لحنبل عن عمه : أن الحدود كلها تقام في الحرم إلا القتل ، قال : والعمل على أن كل جانٍ دخل الحرم لم يقم عليه الحد حتى يخرج منه ، قالوا : وحينئذ فنجيبكم بالجواب المركب ، وهو أنه إن كان بين النفس وما دونها في ذلك فرق مؤثر بطل الإلزام ، وإن لم يكن بينهما فرق مؤثر سوينا بينهما في الحكم وبطل الاعتراض ، فتحقق بطلانه على التقديرين . قالوا : وأما قولكم إن الحرم لا يعيذ من هتك فيه الحرمة إذ أتى بما يوجب الحد ، فكذلك اللاجئ إليه ، فهو جمع بين ما

فرق الله ورسوله والصحابة بينهما . فروى الإمام أحمد ، حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال : من سرق أو قتل في الحد ثم دخل الحرم فإنه لا يجالس ولا يكلم ولا يؤوى ، حتى يخرج فيؤخذ فيقام عليه الحد . وإن سرق أو قتل في الحرم أقيم عليه في الحرم . وذكر الأثرم عن ابن عباس أيضاً : من أحدث حدثاً في الحرم ، أقيم عليه ما أحدث فيه من شيء ، وقد أمر الله سبحانه بقتل من قاتل في الحرم فقال : ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ

(184/125)

فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ . والفرق بين اللاجئ والمتهتك فيه من وجوه :

أحدها : أن الجاني فيه هاتك لحرمته بإقدامه على الجناية فيه ، بخلاف من جنى خارجه ثم لجأ إليه فإنه معظّم لحرمته مستشعر بها بالتجائه إليه ، فقياس أحدهما على الآخر باطل .

الثاني : أن الجاني فيه بمنزلة المفسد الجاني على بساط الملك في داره وحرمه ، ومن جنى خارجه ثم لجأ إليه فإنه بمنزلة من جنى خارج بساط الملك وحرمه ثم دخل إلى حرمه مستجيراً .

الثالث : أن الجاني في الحرم قد هتك حرمة الله سبحانه وحرمة بيته وحرمه ، فهو هاتك لحرمتين بخلاف غيره .

الرابع : أنه لو لم يقم الحد على الجناة في الحرم لعم الفساد وعظم الشر في حرم الله ، فإن أهل الحرم كغيرهم في الحاجة إلى نفوسهم وأموالهم وأعراضهم ، ولو لم يشرع الحد في حق من ارتكب الجرائم في الحرم لتعطلت حدود الله وعم الضرر للحرم وأهله .

والخامس : أن اللاجئ إلى الحرم بمنزلة التائب المتنصل اللاجئ إلى بيت الرب تعالى المتعلق بأستاره ، فلا يناسب حاله ولا حال بيته وحرمه أن يهاج ، بخلاف المقدم على انتهاك حرمته .

فظهر سر الفرق ، وتبين أن ما قاله ابن عباس هو محض الفقه . وأما قولكم : إنه حيوان مفسد فأبيح قتله في الحل والحرم كالكلب العقور فلا يصح القياس ، فإن الكلب العقور طبعه الأذى ، فلم يحرمه الحرم ليدفع أذاه عن أهله . وأما الآدمي فالأصل فيه الحرمة وحرمته عظيمة ، فإنما أبيح لعارض فأشبه الصائل من الحيوانات المباحة من المأكولات ، فإن الحرم يعصمها ، وأيضاً فإن حاجة أهل الحرم إلى قتل الكلب العقور والحية والحدأة كحاجة أهل الحل سواء ، فلو أعاذها الحرم لعظم عليهم الضرر بها . انتهى . "من الجزء الثاني من صفحة 177 إلى صفحة 180 " .

ولما ذكر تعالى فضائل البيت ومناقبه، أردفه بذكر إيجاب الحج فقال: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ اللام في البيت للعهد. وحجه: قصده للزيارة بالنسك المعروف. وكسر الحاء وفتحها لغتان، وهما قراءتان سبعيتان، وفي الآية مباحث:

الأول: في إعرابها قال أبو السعود في صدر الآية: جملة من مبتدأ هو: ﴿ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ وخبر هو: ﴿ لِلَّهِ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ عَلَى النَّاسِ ﴾ متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار، أو بمحذوف هو حال من الضمير المستكن في الجار، والعامل فيه ذلك الاستقرار، ويجوز أن يكون: ﴿ عَلَى النَّاسِ ﴾ هو الخبر، و: ﴿ لله ﴾ متعلق بما تعلق به الخبر. ثم قال في قوله تعالى: ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ في محل الخبر على أنه بدل من: ﴿ النَّاسِ ﴾ بدل البعض من الكل مخصص لعمومه، فالضمير العائد إلى المبدل منه محذوف، أي: من استطاع منهم، وقيل: بدل الكل، على أن المراد بالناس هو البعض المستطيع، فلا حاجة إلى الضمير. وقيل: في محل الرفع، على أنه خبر مبتدأ مضمر، أي: هم من استطاع. وقيل: في حيز النصب بتقدير أعني.

الثاني: هذه الآية هي آية وجوب الحج عند الجمهور. وقيل: بل هي قوله: ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: 196]، والأول أظهر. وفي "فتح البيان": اللام في قوله:

﴿ لله ﴾ هي التي يقال لها لام الإيجاب والإلزام ، ثم زاد هذا المعنى تأكيداً حرف : ﴿ عَلَى ﴾ فإنه من أوضح الدلالات على الوجوب عند العرب . كما إذا قال القائل : لفلان عليّ كذا ، فذكره الله سبحانه بأبلغ ما يدل على الوجوب تأكيداً لحقه ، وتعظيماً لحرمته . وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده ، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعاً ضرورياً .

(186/125)

الثالث : يجب الحج على المكلف في العمر مرة واحدة ، بالنص والإجماع ، روى الإمام أحمد ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : < أيها الناس إنه فرض الله عليكم الحج فحجوا > . فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت . حتى قالها ثلاثاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم > . ثم قال : < ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه > . وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وغيرهم عن ابن عباس قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : < يا أيها الناس ! إن الله

كتب عليكم الحج > ، فقام الأقرع بن حابس فقال : يا رسول الله أفي كل عام ؟ فقال : < لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ولن تستطيعوا أن تعملوا بها . الحج مرة . فمن زاد فهو تطوع > .

(187/125)

الرابع : استطاعة السبيل عبارة عن إمكان الوصول إليه . قال ابن المنذر : اختلف العلماء في قوله تعالى : ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ فقالت طائفة : الآية على العموم ، إذ لا نعلم خبراً ثابتاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا إجماعاً لأهل العلم يوجب أن نستثني من ظاهر الآية بعضاً ، فعلى كل مستطيع للحج يجد إليه السبيل بأي وجه كانت الاستطاعة الحج ، على ظاهر الآية . قال : وروينا عن عِكْرِمَة أنه قال : الاستطاعة : الصحة . وقال الضحاك : إذا كان شاباً صحيحاً ليس له مال فليؤجر نفسه بأكله وعقبه حتى يقضي نسكه . فقال له قائل : أكلف الله الناس أن يمشوا إلى البيت ؟ فقال : لو كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه ؟ قال : لا ، بل ينطلق إليه ولو حبواً ، قال : فكذلك يجب عليه حج البيت . وقال مالك : الاستطاعة على إطاقة الناس ، الرجل يجد الزاد والراحلة ولا يقدر على المشي ، وآخر يقدر على المشي على رجليه . وقالت طائفة : الاستطاعة : الزاد

والراحلة ، كذلك قال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وأحمد بن حنبل ، واحتجوا بحديث ابن عمر أن رجلاً قال : يا رسول الله ما يوجب الحج ؟ قال : < الزاد والراحلة > - رواه الترمذي - وفي إسناده الخوزي فيه مقال .

قال ابن كثير : لكن قد تابعه غيره . وقد اعتنى الحافظ أبو بكر بن مردويه بجمع طرق هذا الحديث . ورواه الحاكم من حديث قتادة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قول الله عز وجل : ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ . فقيل : ما السبيل ؟ قال : < الزاد والراحلة > ، ثم قال : صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه .

الخامس : قال الإمام ابن القيم الدمشقي رضي الله عنه في " زاد المعاد " في سياق هديه صلى الله عليه وسلم في حجته : لا خلاف أنه لم يحج بعد هجرته إلى المدينة سوى حجة واحدة ، وهي حجة الوداع ، ولا خلاف أنها كانت سنة عشر ، واختلف هل حج قبل الهجرة ؟ .

وروى الترمذي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : حج النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث حجج : حجتين قبل أن يهاجر ، وحجة بعد ما هاجر ، معها عُمْرة . قال الترمذي :

هذا حديث غريب من حديث سفيان . قال : وسألت محمداً - يعني البخاري - عن هذا فلم يعرفه من حديث الثوري . وفي رواية : لا يعد هذا الحديث محفوظاً . ولما نزل فرض الحج بادر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحج من غير تأخير ، فإن فرض الحج تأخر إلى سنة تسع أو عشر . وأما قوله تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ ، فإنها ، وإن نزلت سنة ست عام الحديبية ، فليس فيها فريضة الحج ، وإنما فيها الأمر بإتمامه وإتمام العمرة بعد الشروع فيهما ، وذلك لا يقتضي وجوب الابتداء . فإن قيل : فمن أين لكم تأخر نزول فرضه إلى التاسعة أو العاشرة ؟ قيل : لأن صدر سورة آل عِمْرَان نزل عام الوفود ، وفيه قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصالحهم على أداء الجزية والجزية إنما نزلت عام تبوك سنة تسع ، وفيها نزل صدر سورة آل عِمْرَان ، وناظر أهل الكتاب ودعاهم إلى التوحيد والمباهلة . ويدل عليه أن أهل مكة وجدوا في نفوسهم لما فاتهم من التجارة من المشركين لما أنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ ، فأعاضهم الله تعالى من ذلك بالجزية . ونزول هذه الآيات والمناداة بها إنما كان في سنة تسع . وبعث الصديق يؤذن بذلك في مكة في مواسم الحج ، وأردفه بعلي رضي الله عنه ، وهذا الذي ذكرناه قد قاله غير واحد من السلف والله أعلم . وقوله تعالى :

﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ إما مستأنف لوعيد من كفر به تعالى ، لا تعلق له بما قبله ، وإما أنه متعلق به ومنتظم معه ، وهو أظهر وأبلغ . والكفر ، على هذا ، إما بمعنى جحد فريضة الحج ، أو بمعنى ترك ما تقدم الأمر به . ونظيره في السنة ما رواه النسائي والترمذي عن بريدة مرفوعاً : < العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر > . وعن عبد الله بن شقيق قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة - أخرجه الترمذي - ولأبي داود عن جابر مرفوعاً : < بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة > ولفظ مسلم : < بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة > . وروى الترمذي عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . < من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج ، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً ، وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ > . قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وفي إسناده مقال . وقد روى الحافظ أبو بكر الإسماعيلي عن عُمَر بن الخطاب قال : من أطاق الحج فلم يحج ، فسواء عليه مات يهودياً أو نصرانيا .

قال ابن كثير : إسناده صحيح إلى عمر رضي الله عنه : وروى سعيد بن منصور في سننه عن الحسن البصري قال : قال عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه : لقد هممت أن أبعث رجلاً

إلى هذه الأمصار ، فينظروا إلى كل من كان عنده جدة فلم يحج ، فيضربوا عليهم الجزية ، ما هم بمسلمين ، ما هم بمسلمين . قال السيوطي في "الإكليل" : وقد استدل بظاهر الآية ابن حبيب على أن من ترك الحج ، وإن لم ينكره ، كفر . ثم قال : وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر : من كان يجد وهو موسر صحيح ولم يحج ، كان سيماه بين عينيه كافر ، ثم تلا هذه الآية .

تنبيه :

(190/125)

هذه الآية الكريمة حازت من فنون الاعتبارات المعربة عن كمال الاعتناء بأمر الحج والتشديد على تاركه ما لا مزيد عليه ، فمنها الإتيان باللام وعلى في قوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ . يعني : أنه حق واجب لله في رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج عن عهدته ، ومنها أنه ذكر الناس ثم أبدل عنه : ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ ، وفيه ضربان من التأكيد :

أحدهما : أن الإبدال تثنية للمراد وتكرير له .

والثاني : أن الإيضاح بعد الإبهام ، والتفصل بعد الإجمال إيراد له في صورتين مختلفتين .

ومنها : قوله : ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ مكان من لم يحج تغليظاً على تارك الحج .

ومنها : ذكر الاستغناء عنه . وذلك مما يد على المقت والسخط والخذلان .

ومنها : قوله : ﴿ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ ، ولم يقل : عنه . وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان ، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة ، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل ، فكان أدل على عظم السخط الذي وقع عبارة عنه – أشار لذلك الزمخشري – . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 4 صـ 403.415 ﴾

(191/125)

ومن فوائد صاحب المنار في الآيتين :

أَمَّا قَوْلُهُ – عَزَّ وَجَلَّ – : إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فَهُوَ جَوَابُ الشُّبْهَةِ الثَّانِيَةِ . وَتَقْرِيرُهُ : أَنَّ الْبَيْتَ الْحَرَامَ الَّذِي نَسْتَقْبِلُهُ فِي صَلَاتِنَا هُوَ أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ مَعْبَدًا لِلنَّاسِ ، بَنَاهُ إِبْرَاهِيمُ وَوَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ – عَلَيْهِمَا السَّلَامُ – لِأَجْلِ الْعِبَادَةِ خَاصَّةً ، ثُمَّ بَنَى الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ بَعْدَهُ بِعِدَّةِ قُرُونٍ ، بَنَاهُ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ – عَلَيْهِمَا السَّلَامُ – ، فَصَحَّ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، وَيَتَوَجَّهُ بِعِبَادَتِهِ إِلَى حَيْثُ كَانَ يَتَوَجَّهُ إِبْرَاهِيمُ وَوَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ . وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى الظَّاهِرُ

الْمُتَبَادِرُ مِنَ الْآيَةِ الَّذِي قَرَّرَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ ، وَهُوَ كَافٍ فِي إِبْطَالِ شُبْهَةِ الْيَهُودِ عَلَى النَّبِيِّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى الْبَحْثِ فِي هَذِهِ الْأَوَّلِيَّةِ هَلْ هِيَ أَوَّلِيَّةُ الشَّرَفِ أَمْ أَوَّلِيَّةُ الزَّمَانِ أَقُولُ : وَالْمُتَبَادِرُ أَنَّهَا أَوَّلِيَّةُ الزَّمَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى بُيُوتِ الْعِبَادَةِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي بَنَاهَا الْأَنْبِيَاءُ ، فَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعٌ بَنَاهُ الْأَنْبِيَاءُ أَقْدَمَ مِنْهُ فِيمَا يُعْرَفُ مِنْ تَارِيخِهِمْ وَمَا يُؤْثَرُ عَنْهُمْ ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ الْأَوَّلِيَّةَ فِي الشَّرَفِ .

(192/125)

وَذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ الْأَوَّلِيَّةَ زَمَانِيَّةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى وَضْعِ الْبُيُوتِ مُطْلَقًا . فَقَالُوا : إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَتْهُ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ وَأَنَّ بَيْتَ الْمَقْدِسِ بُنِيَ بَعْدَهُ بِأَرْبَعِينَ عَامًا . قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : إِذَا صَحَّ الْحَدِيثُ فَلَا شَيْءَ فِي الْعَقْلِ يُحِيلُهُ ، وَلَكِنَّ الْآيَةَ لَا تَدُلُّ عَلَيْهِ وَلَا يَتَوَقَّفُ الِاحْتِجَاجُ بِهَا عَلَى ثُبُوتِهِ ، وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ الْمَعْرُوفُ الَّذِي يَنْصَرِفُ إِلَيْهِ الْإِطْلَاقُ قَدْ بَنَاهُ سُلَيْمَانُ بِالِاتِّفَاقِ ، وَذَلِكَ قَبْلَ مِيلَادِ الْمَسِيحِ بِنَحْوِ 800 سَنَةٍ - كَذَا قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الدَّرْسِ - وَالْمَعْرُوفُ فِي كُتُبِ الْقَوْمِ أَنَّهُ تَمَّ بِنَاؤُهُ سَنَةَ 1005 قَبْلَ الْمِيلَادِ ، وَالْحَدِيثُ الَّذِي ذُكِرَ آنِفًا فِي بِنَاءِ الْمَسْجِدَيْنِ رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ بِلَفْظِ الْوَضْعِ لَا الْبِنَاءِ . قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ

- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

عَنْ أَوَّلِ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ فَقَالَ: الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ ثُمَّ بَيْتُ الْمَقْدِسِ، فَقِيلَ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ فَقَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً وَأَجَابُوا عَمَّا فِيهِ مِنَ الْإِشْكَالِ بِوُجُوهٍ مِنْهَا: أَنَّ الْوَضْعَ غَيْرُ الْبِنَاءِ وَهُوَ ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّهُ سَمَّاهُ بَيْتًا وَلَوْ جُعِلَ الْمَكَانُ مَسْجِدًا وَلَمْ يُبْنَ فِيهِ لَمَا سُمِّيَ بَيْتًا بَلْ مَسْجِدًا أَوْ قِبْلَةً، وَمِنْهَا: أَنَّ ذَلِكَ مَبْنِيٌّ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ

(193/125)

إِبْرَاهِيمَ هُوَ الَّذِي بَنَى أَوَّلَ مَسْجِدٍ لِلْعِبَادَةِ فِي أَرْضِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَذَلِكَ مَعْقُولٌ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَنَا فِيهِ نَصٌّ صَحِيحٌ. وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: إِنَّ الَّذِي أَسَّسَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ يَعْقُوبُ وَإِنَّمَا كَانَ سُلَيْمَانُ مُجَدِّدًا لَهُ. هَذَا وَإِنَّ أَخْبَارَ التَّارِيخِ لَيْسَتْ مِمَّا بَلَغَ عَلَى أَنَّهُ دِينٌ يُتَّبَعُ، وَالْمَوْضُوعَاتُ الْمَرْوِيَّةُ فِي بِنَاءِ الْكَعْبَةِ كَثِيرَةٌ وَلَا حَاجَةَ إِلَى إِضَاعَةِ الْوَقْتِ فِي ذِكْرِهَا وَبَيَانِ وَضْعِهَا.

(194/125)

أَمَّا قَوْلُهُ – تَعَالَى – فِي الْبَيْتِ : مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فَهُوَ بَيَانٌ لِحَالِهِ الْحَسَنَةِ الْحِسِّيَّةِ وَحَالِهِ الشَّرِيفَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ ، أَمَّا الْأُولَى : فَهِيَ مَا أُفِيضُ عَلَيْهِ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ وَثَمَرَاتِ كُلِّ شَيْءٍ عَلَى كَوْنِهِ بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ، فَتَرَى الْأَقْوَاتَ وَالثِّمَارَ فِي مَكَّةَ أَكْثَرَ وَأَجْوَدَ وَأَقَلَّ ثَمَنًا مِنْهَا فِي مِثْلِ مِصْرَ وَكَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ : فَهِيَ هَوَى أَفْئِدَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ وَإِتْيَانُهُ لِلْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ مُشَاةً وَرُكْبَانًا مِنْ كُلِّ فَجٍّ ، وَتَوْلِيَةُ وُجُوهِهِمْ شَطْرَهُ فِي الصَّلَاةِ ، وَلَعَلَّهُ لَا تَمُرُّ سَاعَةٌ وَلَا دَقِيقَةٌ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ وَلَيْسَ فِيهَا أُنَاسٌ مُتَوَجِّهُونَ إِلَى ذَلِكَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يُصَلُّونَ . فَأَيُّ هِدَايَةٍ لِلْعَالَمِينَ أَظْهَرُ مِنْ هَذِهِ الْهِدَايَةِ ؟ تِلْكَ دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ [14 : 37] وَقَدْ أُشِيرَ إِلَى الْوَصْفَيْنِ فِي قَوْلِهِ – تَعَالَى – حِكَايَةً عَنِ الْمُشْرِكِينَ : وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [28 : 57] وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ مُبَارَكًا يَشْمَلُ الْبَرَكَاتِ الْحِسِّيَّةَ وَالْمَعْنَوِيَّةَ ، وَمَا اخْتَرْنَاهُ هُوَ

الْمُتَبَادِرُ .

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ فِي الْآيَةِ أَنَّ " بَكَّةَ " اسْمٌ لِمَكَّةَ كَمَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ ، قِيلَ : وَعَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ ، وَجَعَلُوهُ مِنْ إِبْدَالِ الْمِيمِ بَاءً ، وَهُوَ كَثِيرٌ فِي كَلَامِهِمْ ، كَسَمَدَ رَأْسَهُ وَسَبَدَهُ ، وَضَرْبَةٍ لَازِمٍ وَضَرْبَةٍ لَازِبٍ ، وَرَاتِمٍ وَرَاتِبٍ ، وَنَمِيطٍ وَنَبِيطٍ وَقِيلَ : بَكَّةُ اسْمُ الْمَسْجِدِ نَفْسِهِ ، أَوْ حَيْثُ الطَّوَافُ مِنَ التَّبَاكِ ، أَيِ الِازْدِحَامِ . وَقِيلَ : هُوَ اسْمُ بَطْنِ مَكَّةَ حَيْثُ الْحَرَمِ .

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ أَيْ فِيهِ دَلَائِلُ أَوْ عَلَامَاتٌ ظَاهِرَةٌ لَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ ، أَحَدُهَا أَوْ مِنْهَا : مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، أَيْ مَوْضِعُ قِيَامِهِ فِيهِ لِلصَّلَاةِ وَالْعِبَادَةِ ، تَعْرِفُ ذَلِكَ الْعَرَبُ بِالنَّقْلِ الْمُتَوَاتِرِ . فَأَيُّ دَلِيلٍ أَبْيَنُ مِنْ هَذَا عَلَى كَوْنِ هَذَا الْبَيْتِ أَوَّلَ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الْعِبَادَةِ الصَّحِيحَةِ الْمَعْرُوفَةِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ ، وُضِعَ لِيَعْبُدَ النَّاسُ فِيهِ رَبَّهُمْ ؟ وَإِبْرَاهِيمُ أَبُو الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ بَقِيَ فِي الْأَرْضِ أَثَرُهُمْ بِجَعْلِ النُّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ فِيهِمْ لَا يُعْرَفُ لِنَبِيٍّ قَبْلَهُ أَثَرٌ وَلَا يُحْفَظُ لَهُ نَسَبٌ .

(196/125)

وَقَوْلُهُ : وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا آيَةٌ ثَانِيَةٌ بَيِّنَةٌ لَا يَمْتَرِي فِيهَا أَحَدٌ ، وَهِيَ اتِّفَاقُ قَبَائِلِ الْعَرَبِ كُلِّهَا عَلَى احْتِرَامِ هَذَا الْبَيْتِ وَتَعْظِيمِهِ لِنِسْبَتِهِ إِلَى اللهِ ، حَتَّى إِنَّ مَنْ دَخَلَهُ يَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهِ لَا مِنَ

الِاعْتِدَاءِ عَلَيْهِ وَإِيذَائِهِ فَقَطْ بَلْ يَأْمَنُ أَنْ يَثْأَرَ مِنْهُ مَنْ سَفَكَ هُوَ دِمَاءَهُمْ وَاسْتَبَاحَ حُرُمَاتِهِمْ مَا دَامَ فِيهِ . مَضَى عَلَى هَذَا عَمَلُ الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى اخْتِلَافِهَا فِي الْمَنَازِعِ وَالْأَهْوَاءِ وَالْمَعْبُودَاتِ ، وَكَثْرَةِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْأَحْقَادِ وَالْأَضْغَانِ ، وَأَقَرَّهُ الْإِسْلَامُ .

(197/125)

وَيُرَدُّ عَلَى إِقْرَارِ الْإِسْلَامِ لِحُرْمَةِ الْبَيْتِ فَتْحُ مَكَّةَ بِالسَّيْفِ ، وَأُجِيبَ عَنْهُ : بِأَنَّهَا حَلَّتْ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلَهُ وَلَنْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ بَعْدَهُ ، كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ ، وَذَلِكَ لِضَرُورَةِ تَطْهِيرِ الْبَيْتِ مِنَ الشِّرْكِ وَتَخْصِيصِهِ لِمَا وُضِعَ لَهُ .

وَأَقُولُ : إِنَّ حُرْمَةَ مَكَّةَ كُلِّهَا وَمَا يَتْبَعُهَا مِنْ ضَوَاحِيهَا وَحِلَّهَا لِلنَّبِيِّ لَمْ يَسْتَحِلَّ الْبَيْتَ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ، وَهُوَ أَمْنُ مَنْ دَخَلَ الْبَيْتَ ، وَالنَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يَسْتَحِلَّ الْبَيْتَ سَاعَةً وَلَا بَعْضَ سَاعَةٍ ، وَإِنَّمَا كَانَ مُنَادِيهِ يُنَادِي بِأَمْرِهِ مَنْ دَخَلَ دَارَهُ وَأَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ فَهُوَ آمِنٌ وَلَمَّا أَخْبَرَ أَبُو سُفْيَانَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِقَوْلِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ حَامِلِ لِوَاءِ الْأَنْصَارِ لَهُ فِي الطَّرِيقِ : الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ ، الْيَوْمَ تُسْتَحَلُّ الْكَعْبَةُ ، قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ - : كَذَبَ سَعْدٌ ، وَلَكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللَّهُ فِيهِ الْكَعْبَةَ ، وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الْكَعْبَةُ

(رَاجِعِ السِّيَرَ) .

(198/125)

وَأَمَّا فِعْلُ الْحَجَّاجِ - أَخْزَاهُ اللَّهُ - فَقَدْ قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنَّهُ كَانَ مِنَ الشُّذُوذِ الَّذِي لَا يُنَافِي الِاتِّفَاقَ عَلَى احْتِرَامِ الْبَيْتِ وَتَعْظِيمِهِ وَتَأْمِينِ مَنْ دَخَلَهُ ، وَهَذَا الْجَوَابُ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ أَمْنَ مَنْ دَخَلَ الْبَيْتَ لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّ الْبَشَرَ يَعْجِزُونَ عَنِ الْإِيقَاعِ بِهِ عَجْزًا طَبِيعِيًّا عَلَى سَبِيلِ خَرْقِ الْعَادَةِ ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنَّهُ - تَعَالَى - أَلْهَمَهُمُ احْتِرَامَهُ لِاعْتِقَادِهِمْ نِسْبَتَهُ إِلَيْهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ، وَحَرَّمَ الْإِلْحَادَ وَالِاعْتِدَاءَ فِيهِ . وَلَمْ يَكُنِ الْحَجَّاجُ وَجُنْدُهُ يَعْتَقِدُونَ

(199/125)

حِلَّ مَا فَعَلُوا مِنْ رَمْيِ الْكَعْبَةِ بِالْمَنْجَنِيقِ ، وَلَكِنَّهَا السِّيَاسَةُ تَحْمِلُ صَاحِبَهَا عَلَى مُخَالَفَةِ الِاعْتِقَادِ ، وَتُوقِعُهُ فِي الظُّلْمِ وَالْإِلْحَادِ ، وَإِنَّ مَا يُفْعَلُ الْآنَ فِي الْحَرَمِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْإِلْحَادِ الْمُسْتَمِرِّ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ نَظِيرٌ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ . وَلَا ضَرُورَةَ مُلْجِئَةٌ إِلَيْهِ ، وَإِنَّمَا هِيَ

السِّيَاسَةُ السَّوْءَى قَضَتْ بِتَنْفِيرِ النَّاسِ مِنْ أُمَرَاءِ مَكَّةَ وَشُرَفَائِهَا وَإِبْعَادِ عُقَلَاءِ الْمُسْلِمِينَ عَنْهَا، حَتَّى لَا يَكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ فِيهَا قُوَّةٌ فِي الدِّينِ، وَلَا فِي الْعِلْمِ وَالرَّأْيِ! وَمَاذَا يَكُونُ مِنْ ضَرَرِ هَذِهِ الْقُوَّةِ؟ يُوَسْوِسُ لَهُمْ شَيْطَانُ السِّيَاسَةِ أَنَّ عُمْرَانَ الْحِجَازِ وَثِقَةَ النَّاسِ بِأُمَرَائِهِ وَشُرَفَائِهِ، وَأَمْنَ الْعُقَلَاءِ وَالسَّرَوَاتِ فِيهِ رُبَّمَا يَكُونُ سَبَبًا فِي إِنْشَاءِ خِلَافَةٍ عَرَبِيَّةٍ فِيهِ. إِنَّ كَثِيرًا مِنْ أُمَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَنَابِغِيهِمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ دُونَ أَدَائِهِمْ لِفَرِيضَةِ الْحَجِّ عَقَبَاتٍ سِيَاسِيَّةً لَا يَسْهُلُ اقْتِحَامُهَا، وَقَدْ جَاءَ فِي صُحُفِ الْأَخْبَارِ أَنَّ أَمِيرَ مِصْرَ اسْتَأْذَنَ السُّلْطَانَ فِي حَجِّ وَالِدَتِهِ وَبَعْضِ أُمَرَاءِ أُسْرَتِهِ فَلَمْ يَأْذَنْ. وَقَدْ كَانَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ يَعْتَقِدُ اعْتِقَادًا جَازِمًا فِيهِ أَنَّهُ إِذَا حَجَّ

يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ، وَأَنَّهُ لَا أَمَانَ لَهُ فِي الْحَرَمِ الَّذِي كَانَ يَرَى الْجَاهِلِيُّ فِيهِ قَاتِلَ أَبِيهِ فَلَا يَعْرِضُ لَهُ بِسُوءٍ. وَإِنَّ كَاتِبَ هَذِهِ السُّطُورِ يَعْتَقِدُ مِثْلَ هَذَا الِاعْتِقَادِ، فَنَسْأَلُ اللهَ - تَعَالَى - أَنْ يُحَقِّقَ لَنَا ثَانِيَةً مَضْمُونَ قَوْلِهِ: وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا لِنَمْتَثِلَ مَا فَرَضَهُ عَلَيْنَا مِنْ حَجِّ هَذَا الْبَيْتِ - كَمَا يَأْتِي فِي تَتِمَّةِ الْآيَةِ - فَلَا نَلْجَأُ إِلَى تَأْوِيلِ الْأَمَانِ بِمِثْلِ مَا أَوَّلَهُ بِهِ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْأَمْنُ مِنَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقَدْ رَدَّ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ هَذَا التَّأْوِيلَ وَقَالَ مَا مَعْنَاهُ:

إِنَّهُ هَدْمٌ لِلدِّينِ كُلِّهِ ، فَإِنَّ الْأَمْنَ هُنَاكَ إِنَّمَا يَكُونُ لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، الَّذِينَ أَقَامُوا الدِّينَ فِي الدُّنْيَا كَمَا أَمَرَ اللهُ - تَعَالَى - ، وَمَا دُخُولُ الْبَيْتِ إِلَّا بَعْضُ أَعْمَالِ الْإِيمَانِ ، إِذَا أَخْلَصَ صَاحِبُهُ فِيهِ . أَقُولُ : وَلَا تَنْسَ فِي هَذَا الْمَقَامِ مِثْلَ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ [6 : 82] وَمَا رَوَوْهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْآثَارِ لَا يُنَافِي الْمُتَبَادِرَ الْمُخْتَارَ .

وَمَا أَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ يَصِحُّ عَنِ الْإِمَامِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ كَمَا قِيلَ .

(201/125)

أَمَّا قَوْلُهُ - تَعَالَى - : وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا فَهُوَ بَيَانُ آيَةٍ ثَالِثَةٍ مِنْ آيَاتِ هَذَا الْبَيْتِ جَاءَتْ بِصِيغَةِ الْإِيجَابِ وَالْفَرْضِيَّةِ فِي مَعْرِضِ ذِكْرِ مَزَايَاهُ وَدَلَائِلِ كَوْنِهِ أَوَّلَ بُيُوتِ الْعِبَادَةِ الْمَعْرُوفَةِ لِلْمُعْتَرِضِينَ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى اسْتِقْبَالِهِ

فِي الصَّلَاةِ ، فَهُوَ يُفِيدُ بِمُقْتَضَى السِّيَاقِ مَعْنًى خَبَرِيًّا وَبِمُقْتَضَى الصِّيغَةِ مَعْنًى إِنْشَائِيًّا وَهُوَ وُجُوبُ الْحَجِّ عَلَى الْمُسْتَطِيعِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ . أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ بِقَوْلِهِ : هَذِهِ الْجُمْلَةُ - وَإِنْ جَاءَتْ بِصِيغَةِ الْإِيجَابِ - هِيَ وَارِدَةٌ فِي مَعْرِضِ تَعْظِيمِ الْبَيْتِ . وَأَيُّ تَعْظِيمٍ أَكْبَرُ مِنِ افْتِرَاضِ حَجِّ النَّاسِ إِلَيْهِ ؟ وَمَا زَالُوا يَحُجُّونَهُ مِنْ عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ إِلَى عَهْدِ مُحَمَّدٍ -

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَعَلَى آلِهِمَا وَسَلَّمَ - ، وَلَمْ يَمْنَعِ الْعَرَبَ عَنْ ذَلِكَ شِرْكُهَا وَإِنَّمَا كَانُوا يَحُجُّونَ عَمَلًا بِسُنَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، يَعْنِي أَنَّ الْحَجَّ عَمَلٌ عَامٌّ جَرَوْا عَلَيْهِ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ عَلَى أَنَّهُ مِنْ دِينِ إِبْرَاهِيمَ ، وَهَذِهِ آيَةٌ مُتَوَاتِرَةٌ عَلَى نِسْبَةِ هَذَا الْبَيْتِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ، فَهِيَ أَصَحُّ مِنْ نُقُولِ الْمُؤَرِّخِينَ الَّتِي تَحْتَمِلُ الصِّدْقَ وَالْكَذِبَ ، وَبِهَذَا وَبِمَا سَبَقَهُ بَطَلَ اعْتِرَاضُ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ دُونَهُمْ .

(202/125)

أَمَّا الْحَجُّ فَمَعْنَاهُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ الْقَصْدُ - وَهُوَ بِكَسْرِ الْحَاءِ - وَبِهِ قَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ - وَفَتْحِهَا - وَبِهِ قَرَأَ الْبَاقُونَ . وَقِيلَ : الْفَتْحُ لُغَةُ الْحِجَازِ وَالْكَسْرُ لُغَةُ نَجْدٍ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْصِيلُ أَعْمَالِهِ فِي تَفْسِيرِ آيَاتِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ . وَأَمَّا اسْتِطَاعَةُ السَّبِيلِ : فَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ الْقُدْرَةِ عَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ ، وَهِيَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ النَّاسِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَفِي بُعْدِهِمْ عَنِ الْبَيْتِ وَقُرْبِهِمْ مِنْهُ ، وَكُلُّ مُكَلَّفٍ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ - وَإِنْ كَانَ عَامِّيًّا - مِنْ غَيْرِهِ وَإِنْ كَانَ عَالِمًا نِحْرِيرًا ، وَمَا زَادَ النَّاسَ اخْتِلَافُ الْعُلَمَاءِ فِي تَفْسِيرِ الِاسْتِطَاعَةِ إِلَّا بُعْدًا عَنْ حَقِيقَتِهَا الْوَاضِحَةِ مِنَ الْآيَةِ أَتَمَّ الْوُضُوحِ ; إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ الِاسْتِطَاعَةَ صِحَّةُ الْبَدَنِ

وَالْقُدْرَةُ عَلَى الْمَشْيِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّهَا الْقُدْرَةُ عَلَى الزَّادِ وَالرَّاحِلَةِ ، وَاشْتَرَطُوا فِيهَا أَمْنَ الطَّرِيقِ وَلَمْ يَشْتَرِطُوا الْأَمْنَ فِي أَرْضِ الْحَرَمِ ، لِأَنَّهَا كَانَتْ آمِنَةً قَطْعًا ، وَأَمَّا فِي هَذَا الزَّمَانِ فَمَا كُلُّ أَحَدٍ يَأْمَنُ فِيهَا وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ مُتَّهَمًا بِالِاشْتِغَالِ بِالسِّيَاسَةِ .

وَكَيْفَ وَقَدْ أُلْقِيَ بَعْضُ عُلَمَائِهَا فِي ظُلْمَةِ السِّجْنِ مُكَبَّلًا بِالسَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ ، وَلَا ذَنْبَ لَهُ إِلَّا أَنَّهُ أَلَّفَ كِتَابًا أَيَّدَ فِيهِ التَّوْحِيدَ وَبَيَّنَ فَسَادَ مَا طَرَأَ عَلَى النَّاسِ مِنْ نَزَعَاتِ الْوَثَنِيَّةِ الَّتِي يُعَبِّرُونَ عَنْهَا بِالتَّوَسُّلِ بِالْأَوْلِيَاءِ ؟

(203/125)

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي لَوْ كَانَ مِثْلُ الْأُسْتَاذِ أَبِي إِسْحَاقَ الْإِسْفِرَايِينِيِّ الَّذِي كَانَ يُنْكِرُ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ حَيًّا ، أَكَانَ يَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهِ إِذَا أَرَادَ الْحَجَّ ، وَهُوَ الْمَعْدُودُ فِي عَصْرِ الْعِلْمِ مِنْ أَئِمَّةِ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ فِي أُصُولِ الدِّينِ ؟ وَقُلْ مِثْلَ هَذَا فِي الْإِمَامِ أَبِي بَكْرٍ الْبَاقِلَّانِيِّ الَّذِي كَانَ يَقُولُ فِي الْأَرْوَاحِ بِمِثْلِ مَا يَقُولُ جُمْهُورُ عُلَمَاءِ أُورُبَّا الْيَوْمَ مِنْ مَادِّيِّينَ وَغَيْرِهِمْ ، دَعِ الْفِرَقَ الَّتِي وُسِمَتْ بِالِابْتِدَاعِ كَالْمُعْتَزِلَةِ وَالْخَوَارِجِ وَالشِّيعَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ أَهْلُ السُّنَّةِ يُكَفِّرُونَ أَحَدًا مِنْهُمْ وَلَا يُعَاقِبُونَهُ عَلَى مُخَالَفَةِ الْجُمْهُورِ فِي بَعْضِ الْآرَاءِ أَيَّامَ كَانَ قُرْبُ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْعِلْمِ

وَالدِّين كَبُعْدِهِمْ عَنْهُ الْيَوْمَ .

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - : مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا إِنَّهُ بَيَانٌ لِمَوْقِعِ الْإِيجَابِ وَمَحَلِّهِ ، وَإِعْلَامٌ بِأَنَّ الْفَرْضِيَّةَ مُوَجَّهَةٌ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ إِلَى هَذَا الْعَمَلِ ، وَلَكِنَّ اللهَ رَحِمَ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَالِاسْتِطَاعَةُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَشْخَاصِ وَلَمْ يَزِدْ عَلَى ذَلِكَ .

(204/125)

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى - : وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ تَأْكِيدٌ لِمَا سَبَقَ وَوَعِيدٌ عَلَى جُحُودِهِ ، وَبَيَانٌ لِتَنْزِيهِ اللهِ - تَعَالَى - بِإِزَالَةِ مَا عَسَاهُ يَسْبِقُ إِلَى أَوْهَامِ الضُّعَفَاءِ عِنْدَ سَمَاعِ نِسْبَةِ الْبَيْتِ إِلَى اللهِ ، وَالْعِلْمِ بِفَرْضِهِ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَحُجُّوهُ مِنْ كَوْنِهِ مُحْتَاجًا إِلَى ذَلِكَ . فَالْمُرَادُ بِالْكُفْرِ : جُحُودُ كَوْنِ هَذَا الْبَيْتِ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضَعَهُ إِبْرَاهِيمُ لِلْعِبَادَةِ الصَّحِيحَةِ بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَجِ عَلَى ذَلِكَ ، وَعَدَمِ الْإِذْعَانِ لِمَا فَرَضَ اللهُ مِنْ حَجِّهِ وَالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِ بِالْعِبَادَةِ . هَذَا هُوَ الْمُتَبَادِرُ ، وَحَمَلَهُ بَعْضُهُمْ عَلَى الْكُفْرِ مُطْلَقًا عَلَى أَنَّهُ كَلَامٌ مُسْتَقِلٌّ لَا مُتَمِّمٌ لِمَا قَبْلَهُ ، وَهُوَ بَعِيدٌ جِدًّا ، وَبَعْضُهُمْ عَلَى تَرْكِ الْحَجِّ ، وَهُوَ بَعِيدٌ أَيْضًا وَإِنْ دَعَّمُوهُ بِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا : مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ فَلْيَمُتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا رَوَاهُ ابْنُ عَدِيٍّ . وَحَدِيثُ أَبِي أُمَامَةَ عِنْدَ الدَّارِمِيِّ وَالْبَيْهَقِيِّ : مَنْ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنَ الْحَجِّ حَاجَةٌ ظَاهِرَةٌ أَوْ سُلْطَانٌ جَائِرٌ أَوْ

مَرَضٌ حَابِسٌ فَمَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ فَلْيَمُتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا وَرَوَاهُ غَيْرُهُمْ بِاخْتِلَافٍ فِي اللَّفْظِ . وَالرِّوَايَاتُ كُلُّهَا ضَعِيفَةٌ إِلَّا مَا قِيلَ فِي رِوَايَةٍ مَوْقُوفَةٍ ، بَلْ عَدَّهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ ، وَاعْتُرِضَ عَلَيْهِ لِكَثْرَةِ طُرُقِهِ ، وَأَمْثَلُ طُرُقِهِ الْمَرْفُوعَةِ مَا رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - بِلَفْظِ : مَنْ مَلَكَ

(205/125)

زَادًا وَرَاحِلَةً تُبَلِّغُهُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ وَلَمْ يَحُجَّ فَلَا عَلَيْهِ أَنْ يَمُوتَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا ; وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قَالَ فِي كِتَابِهِ :

وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا الْآيَةَ . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ ، وَقَالَ : غَرِيبٌ فِي إِسْنَادِهِ مَقَالٌ ، وَالْحَارِثُ يُضَعَّفُ . وَهِلَالُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الرَّاوِي لَهُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ مَجْهُولٌ . وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ تَعَدُّدَ طُرُقِ الْحَدِيثِ تَرْتَقِي بِهِ إِلَى دَرَجَةِ الْحَسَنِ لِغَيْرِهِ كَمَا يَقُولُونَ فِي مِثْلِهِ ، وَلَا يَقْدَحُ فِي ذَلِكَ قَوْلُ الْعُقَيْلِيِّ وَالدَّارَقُطْنِيِّ : لَا يَصِحُّ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ ; إِذْ لَا نَدَّعِي أَنَّ هُنَا شَيْئًا صَحِيحًا ، وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ أَثَرُ عُمَرَ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ فِي سُنَنِهِ قَالَ : " لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَبْعَثَ رِجَالًا إِلَى هَذِهِ الْأَمْصَارِ فَيَنْظُرُوا كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ جِدَةٌ فَيَضْرِبُوا عَلَيْهِمُ الْجِزْيَةَ ، مَا هُمْ بِمُسْلِمِينَ مَا هُمْ بِمُسْلِمِينَ " وَاسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الرِّوَايَاتِ عَلَى أَنَّ الْحَجَّ

وَاجِبٌ عَلَى الْفَوْرِ ، وَبِهِ قَالَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْفِقْهِ وَالْأَثَرِ ، وَالْآخَرُونَ يَقُولُونَ : إِنَّهُ عَلَى التَّرَاخِي . وَالِاحْتِيَاطُ أَلَّا يُؤَخِّرَ الْمُسْتَطِيعُ الْحَجَّ بِغَيْرِ عُذْرٍ صَحِيحٍ لِئَلَّا يُفَاجِئَهُ الْمَوْتُ قَبْلَ ذَلِكَ .

(206/125)

أَقُولُ : إِنَّ الْآيَةَ تَشْتَمِلُ عَلَى مَزَايَا وَآيَاتٍ لِبَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ . فَالْمَزَايَا كَوْنُهُ أَوَّلَ مَسْجِدٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ، وَكَوْنُهُ مُبَارَكًا ، وَكَوْنُهُ هُدًى لِلْعَالَمِينَ . وَالْآيَاتُ : مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَأَمْنُ دَاخِلِهِ ، وَالْحَجُّ إِلَيْهِ عَلَى مَا بَيَّنَّا . وَيَذْكُرُ لَهُ الْمُفَسِّرُونَ هُنَا خَصَائِصَ وَمَزَايَا يَعُدُّونَهَا مِنَ الْآيَاتِ عَلَى تَقْدِيرِ "مِنْهَا مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ" وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إِنَّهَا هِيَ الْآيَاتُ وَإِنَّ قَوْلَهُ : مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ كَلَامٌ مُسْتَقِلٌّ . قَالَ الرَّازِيُّ : فَكَأَنَّهُ قَالَ : فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ، وَمَعَ ذَلِكَ هُوَ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَقَرُّهُ وَالْمَوْضِعُ الَّذِي اخْتَارَهُ وَعَبَدَ اللهَ فِيهِ . اهـ . وَلَعَلَّ الدَّافِعَ لَهُمْ إِلَى هَذَا فَهْمُهُمْ أَنَّ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ تَفْسِيرٌ لِلْآيَاتِ وَهُوَ مُفْرَدٌ ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ مَا بَعْدَهُ تَابِعٌ لَهُ فِي ذَلِكَ . وَمِمَّا يُؤَيِّدُ ذَلِكَ : مُحَاوَلَةُ الْآخَرِينَ أَنْ يَجْعَلُوا مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ بِمَنْزِلَةِ عِدَّةِ آيَاتٍ . قَالَ الرَّازِيُّ : إِنَّ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ اشْتَمَلَ عَلَى الْآيَاتِ ; لِأَنَّ أَثَرَ الْقَدَمِ فِي الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ آيَةٌ ، وَغَوْصَهُ فِيهَا إِلَى الْكَعْبَيْنِ آيَةٌ ، وَإِلَانَةَ بَعْضِ الصَّخْرَةِ دُونَ بَعْضٍ آيَةٌ ; لِأَنَّهُ لَانَ مِنَ الصَّخْرَةِ مَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ فَقَطْ ، وَإِبْقَاؤُهُ دُونَ سَائِرِ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ

- عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - آيَةٌ خَاصَّةٌ لِإِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَحِفْظُهُ مَعَ كَثْرَةِ أَعْدَائِهِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ أُلُوفَ السِّنِينَ آيَةٌ . فَثَبَتَ أَنَّ مَقَامَ

(207/125)

إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - آيَاتٌ كَثِيرَةٌ . اهـ .

أَقُولُ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ : وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى [2 : 125] أَنَّ بَعْضَهُمْ يَقُولُ : إِنَّ مَقَامَهُ عِبَارَةٌ عَنْ مَوْقِفِهِ حَيْثُ ذَلِكَ الْأَثَرِ لِلْقَدَمَيْنِ وَإِنَّ هَذَا ضَعِيفٌ . وَالْكَلَامُ هُنَا فِي أَنَّ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ مُشْتَمِلٌ عَلَى مَا ذُكِرَ مِنَ الْأَثَرِ وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ ، أَمَّا الْأَثَرُ نَفْسُهُ فَقَدْ كَانَتِ الْعَرَبُ تَعْتَقِدُ أَنَّهُ قَدَمَيْ إِبْرَاهِيمَ ، كَمَا قَالَ أَبُو طَالِبٍ فِي لَامِيَّتِهِ :

وَمَوْطِئُ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةً . . . عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ نَاعِلِ

وَقَدْ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ : " رَطْبَةً " أَنَّ الصَّخْرَةَ كَانَتْ عِنْدَمَا وَطِئَ عَلَيْهَا رَطْبَةً لَمْ تَتَحَجَّرْ ثُمَّ تَحَجَّرَتْ بَعْدَ ذَلِكَ وَبَقِيَ أَثَرُ قَدَمَيْهِ فِيهَا ; وَعَلَى هَذَا لَا يَظْهَرُ مَعْنَى كَوْنِهِ آيَةً إِلَّا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي جَرَيْنَا عَلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ دُونَ مَا جَرَى عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنْ كَوْنِ الْآيَاتِ بِمَعْنَى الْخَوَارِقِ الْكَوْنِيَّةِ ، وَقَدْ يَكُونُ مُرَادُهُ أَنَّهَا كَانَتْ رَطْبَةً كَرَامَةً لَهُ (وَهُوَ مَا جَرَيْنَا عَلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ الْقَصِيدَةِ فِي الْمَنَارِ - 465 م 9) وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ مَقَامَ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْجَمْعِ ،

وَالْمُرَادُ مَقَامَاتُ إِبْرَاهِيمَ ، أَيْ مَا قَامَ بِهِ مِنَ الْمَنَاسِكِ وَأَعْمَالِ الْحَجِّ وَالْمُتَبَادِرُ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي مَوْضِعِهِ .

(208/125)

وَمِمَّا عَدُّوهُ مِنَ الْآيَاتِ : قَصْمُ مَنْ يَقْصِدُهُ مِنَ الْجَبَابِرَةِ بِسُوءٍ كَأَصْحَابِ الْفِيلِ ، وَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ مَا كَانَ مِنَ الْحَجَّاجِ وَمَنْ هُمْ شَرٌّ مِنَ الْحَجَّاجِ فِي هَذَا الزَّمَانِ ، وَعَدَمُ تَعَرُّضِ ضَوَارِي السِّبَاعِ لِلصُّيُودِ فِيهِ ، وَهَذَا الْقَوْلُ ظَاهِرُ الضَّعْفِ إِذْ لَيْسَ ذَلِكَ آيَةً . وَعَدَمُ نَفْرَةِ الطَّيْرِ مِنَ النَّاسِ هُنَاكَ ، وَيَرُدُّ عَلَيْهِ أَنَّ الطَّيْرَ تَأْلَفُ النَّاسَ لِعَدَمِ تَعَرُّضِهِمْ لَهَا ، وَلِذَلِكَ نَظَائِرُهُ فِي الْأَرْضِ .

وَانْحِرَافُ الطَّيْرِ عَنْ مُوَازَاتِهِ وَلَيْسَ بِمُتَحَقِّقٍ . وَكَوْنُ وُقُوعِ الْغَيْثِ فِيهِ دَلِيلًا عَلَى الْخِصْبِ ، فَإِذَا عَمَّهُ كَانَ الْخِصْبُ عَامًّا وَإِذَا وَقَعَ فِي جِهَةٍ مِنْ جِهَاتِهِ كَانَ الْخِصْبُ فِي تِلْكَ الْجِهَةِ مِنَ الْأَرْضِ ، وَهِيَ آيَةٌ وَهْمِيَّةٌ .

وَلَعَمْرِي إِنَّ بَيْتَ اللهِ غَنِيٌّ عَنِ اخْتِرَاعِ الْآيَاتِ وَإِلْصَاقِهَا بِهِ مَعَ بَرَاءَتِهِ ، فَحَسْبُهُ شَرَفًا كَوْنُهُ حَرَمًا آمِنًا وَمَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَمُبَارَكًا هُدًى لِلْعَالَمِينَ ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ وَإِقْسَامُهُ - تَعَالَى - بِهِ وَمَا وَرَدَ عَنْ رَسُولِهِ فِي حُرْمَتِهِ وَتَحْرِيمِهِ وَفَضْلِهِ ، كَكَوْنِهِ لَا يُسْفَكُ

فِيهِ دَمٌ وَلَا يُعْضَدُ شَجَرُهُ ، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ - أَيْ لَا يُقْطَعُ نَبَاتُهُ - وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ ، وَلَا تُمْلَكُ لُقَطَتُهُ ، وَكَوْنُ قَصْدِهِ مُكَفِّرًا لِلذُّنُوبِ مَاحِيًا لِلْخَطَايَا ، وَكَوْنُ

(209/125)

الْعِبَادَةِ الَّتِي تُؤَدَّى فِيهِ لَا تُؤَدَّى فِي غَيْرِهِ ، وَكَوْنُ اسْتِلَامِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ فِيهِ رَمْزًا إِلَى مُبَايَعَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - عَلَى إِقَامَةِ دِينِهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ فِيهِ ، وَكَوْنُ الصَّلَاةِ فِيهِ بِمِائَةِ أَلْفِ ضِعْفٍ فِي غَيْرِهِ . وَالْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي ذَلِكَ تُطْلَبُ مِنَ الصَّحِيحَيْنِ وَكُتُبِ السُّنَنِ . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 4 صـ 6.12 ﴾

(210/125)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآيتين

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾

لقد عرفنا من قبل كيف كان تداعى المعاني سببا في إرواء الحق لكل ملكات الإنسانية ،

وقبل هذه الآية التي تتحدث عن بناء البيت الحرام بمكة المكرمة كان هناك حديث عن سيدنا إبراهيم عليه السلام حين قال الحق :

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

[آل عمران : 95]

وإبراهيم عليه السلام هو أول الأنبياء صلة بالبيت الحرام ، وكان رفع قواعد البيت الحرام على يده بعد أن طمر وستر بالطوفان في عهد نوح عليه السلام ، فحين يأتي الكلام في رسالة سيدنا إبراهيم عليه السلام فلا بد أن تأتي أكبر حادثة في تاريخ سيدنا إبراهيم ، وهي حادثة بناء البيت الحرام ، كما أن الحق سبحانه حينما تكلم عن المحاجاة بين المسلمين وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده القرآن ، وبين أهل الكتاب وفي أيديهم التوراة المحرفة والإنجيل المحرف أراد سبحانه أن يردنا إلى شيء واحد هو ملة إبراهيم الذي سمانا مسلمين . ومعنى ذلك أن الله يريد منا أن تسيطر قيم السماء على حركة أهل الأرض ؛ لأن حركة أهل الأرض إن اتبعت الأهواء تصادمت الحركات ، وما دامت الحركات قد تصادمت فإن ما ينتج عنها هو ضياع مجهود الحركة الإنسانية ، ويصير هذا المجهود مبددا .

ولكن الإنسان الذي يحمل القيم التي تتركز عقيدة في قلبه – بعد أن يبحثها بفكره – هذا الإنسان له قالب تنفذ به تشريعات الله ، ولولا وجود القالب هذا لما استطاع الإنسان أن

يطبق تشريعات الله ، ولَمَا استطاع أن يؤدي هذه التشريعات ، ولما استطاع أن يطيع الله بجوارحه ؛ فالإنسان بغير قالب لا يستطيع أن يؤدي الحركة المطلوبة .

(211/125)

إذن فلا بد للقالب الإنساني – البدن – في التشريع من عملية أخرى وهي أن ينصب القالب ويكون له عمل حين يتوجه إلى بيت واحد لله ، وبذلك يصبح للقالب نصيب في العبادة أيضا .

ولهذا كان لا بد أن يوجد للقالب – أيضا – مُتّجَهٌ وهذا المُتجه يحكم القالب نفسه ، فكان المؤمن المسلم محكوماً قلبا وقالبا ، فحين نأتي للصلاة لنكون في حضرة الله نتحرى أن يكون قالبنا متجها إلى المكان الذي أمرنا الله أن نتوجه إليه ، لماذا ؟

لأن الحق سبحان وتعالى ساعة يعطي رحمته وبركته وتنزلاته وإشراقاته يريد أن يكون الجسم في وضع مؤهل لاستقبال هذه التجليات ؛ ولذلك كان لا بد أن يكون لله بيت يتجه إليه الجميع حتى يعطي للتدين وحدة ، فكما أعطى الحق لموكب الرسالات وحدة ، فإنه يعطي أيضا وحدة في القالب الإنساني والمتجَه ، وكل مكان يعبد الله فيه بالنسبة للإسلام يُعتبر مسجدا ، وقد يسر الله الأمر على أمة سيدنا محمد ، فقال – صلى الله عليه وسلم –

:

" جعلت لي أرض مسجداً وطهورا " .

وكان لقاء الله وعبادته في الديانات السابقة يقتضي مكانا محددا ولكن قد وسع رحمته على أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

إن تراب الأرض طهور ، إننا عندما نفتقد الماء الطهور فإن التراب الذي قد يبدو للوهلة السطحية أنه سبب في عدم النظافة قد جعله الله لنا طهورا .

إن الإنسان يمكنه أن يتيمم ويتطهر بالتراب ، وكأن الله قد أراد أن يكون لقاء كل فرد من أمة محمد به ميسرا تيسيرا كبيرا . وكل مكان نعبد فيه الله ويسجد فيه المسلم لله يصير مسجدا .

(212/125)

لكن هناك فارقا بين أي مكان نعبد الله فيه والمسجد ، فنحن نرى العامل يعبد الله في المصنع والتلميذ يعبد الله في الفصل ، والفلاح يعبد الله ويؤدي الفروض في الحقل ، ويمكن للسائر في الشارع أن يؤدي صلاته في أي مكان ، وأن يزاول عمله بعد ذلك ، ولكن حين يُحَيِّز الإنسان مكانا ليكون بيتا لله ، فمحظور أن يزاول فيه نشاطا آخر من نشاطات الحياة

؛ إنه مكان مُحيز .

إن العبادة كلها مقبولة ، ولكن هناك فارقا بين مكان تعمل فيه ومكان تخصصه ليصير مسجدا . فالمسجد هو مكان لا يزاول فيه إلا لقاء الله ، لذلك أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا نستغل هذا الحيز في أي أمر يتعلق بدنيانا ، وقد أوضح لنا – صلى الله عليه وسلم – أن الذي يعقد صفقة في المسجد لم يبارك الله فيها ، والذي ينشد فيه شيئًا ضالا له لن يجده . فقد دعا الرسول ألا يرد الله عليه ضالته .

إن أمور الدنيا يكفيها أن تأخذ من الإنسان كل يوم ثلاثا وعشرين ساعة ، فليخصص الإنسان المؤمن ساعة لله وحده ، وليخلع كل أغراض الحياة الدنيا كما يخلع النعال على باب المسجد . فليس من حسن الأدب واللياقة أن ينشغل الإنسان بأي شيء غير لقاء الله في الوقت المخصص للقاء الله ، وفي المكان المخصص لهذا اللقاء .

فساعة تدخل المسجد ينبغي أن تمنع نفسك من أن يتكلم معك أحد في فضول الكلام ولغوه ، وأن تنوي الاعتكاف لتستفيد من وجودك في المسجد . وساعة أن نخصص حيزا ما ليكون مسجدا ، فكيف يكون الاتجاه داخل المسجد ؟ أيترك الأمر لكل واحد أن يختار له متجها ؟

لا ، إن المؤمن ملتزم بالاتجاه إلى مكان واحد ، هذا المكان الواحد هو بيت لله باختيار الله

بينما المساجد الأخرى هي بيوت لله باختيار خلق الله ، فبيوت الله باختيار خلق الله متجهها جميعا هو بيت الله الحرام .

(213/125)

وحين تنظر هذه النظرة ستجد العالم متواجها ؛ لأن كل عابد سيكون اتجاهه إلى بيت الله مع بقية العابدين لله ، فيلتف المؤمنون كلهم حول بيت الله ، ويتواجهون ، إن وجوهنا كلها تُقابل بعضها بعضا ، ولكن ما ضرورة الاتجاه للكعبة ؟ والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

[البقرة : 115]

نقول : إن هذه الآية تؤيد ما نقوله ، فما دام لله المشرق والمغرب ، فهذا هو المعنى العام ، فالناس أول ما عرفوا الكون تعرفوا على المشرق والمغرب ثم الشمال والجنوب أيضا ، وبعد أن توصل العلم إلى تحديد الجهات الفرعية بجانب الجهات الأصلية الأربع المعروفة عرفنا " الشمال الشرقي " و " الشمال الغربي " و " الجنوب الشرقي " و " الجنوب الغربي " . إذن فكل المتجهات لله ، والاتجاه للكعبة يحقق هذا القول الكريم .

وعندما يتجه إنسان إلى الكعبة فقد يكون الشرق خلفه ، ويكون الغرب أمامه ، ويتجه

إليها إنسان آخر إلى الكعبة ، فيتقابل وجهه مع وجه المتجه للكعبة ، وثالث يتجه إلى الكعبة ، فيكون في زاوية أخرى ناظرا إليها ، وهكذا يلتف البشر من الشرق والغرب والشمال والجنوب وكل الجهات الفرعية حول الكعبة .

إذن فقول الحق : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ أي جميع الخلق متجه إلى الكعبة ، وبذلك لا تكون هناك جهة أولى بالله من جهة أخرى . وأنا لا أريد أن أدخل في متاهة أنّ الكعبة مركز الأرض وأن الأرض خلقت منها ؛ لأن الشيء إذا كان مكورا فأي نقطة فيه تكون مركزا للجميع ، لذلك فلنترك مثل هذا الكلام ، لكن ألا يكفي أن يرجحها أن الله قد اختارها ؟ إن ذلك يكفي وزيادة ، وبذلك ينتهي الأمر ، إنها كذلك ؛ لأنها بيت الله باختيار الله ، وهذا يكفي .

(214/125)

لقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأشياء التي تقف فيها العقول وليست من صلب العقائد أو الدين لا يصح أن تكون محل خلاف أو جدل . ويقول سيدنا علي كرم الله وجهه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : سأله رجل ، " أذلك أول بيت لله ؟ " فوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قبله بيوتا ، ولكن هو أول بيت وُضِع للناس .

هذا إيضاح ان الله قد جعل الكعبة هي أول بيت له يتعبد فيه جنس البشر ، وذلك لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ . ولكن إن كانت هناك اجناس سابقة على الجنس البشري فمن المؤكد انه كانت هناك لله بيوت لا نعرفها . وما آدم في منطق العقل واحد ولكنه عند القياس أوادم

ولذلك فوجود البيت الحرام كبيت لله لا يصطدم مع منطق الناس الذين لا يملكون إلا الثقافة الدينية الضحلة ، فساعة أن يسمع الواحد منهم ، أن هناك اكتشافا لحفريات من كذا مليون سنة فهو يتساءل قائلا : كيف وآدم لم يمر عليه ملايين السنين ؟ لنفترض أن هناك خمسة أجيال لإدريس عليه السلام وثلاثة اجيال لنوح عليه السلام ، وأحد عشر جيلاً لابراهيم عليه السلام وثلاثين جيلا لمحمد عليه السلام ، وهكذا يكون الوجود البشري محددا بآلاف السنوات لا ملايينها .

لهذا الإنسان نقول : وهل قال لك أحد : إن آدم أول من عَمَرَ الأرض ؟ إن الدين لم يقل ذلك ، لكن الدين قال : إن آدم هو أول هذا الجنس البشري ، ولكنه ليس أول من سكن الأرض ، لذلك فليقل العلماء : إن عمر هذه الأرض ملايين السنين ولنسمع جميعا قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

[إبراهيم : 19]

إذن فلا مجال لهذا البحث ، لذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام : " لا ، بل قبله بيوت " .

(215/125)

والحق سبحانه وتعالى يقول ما يوضح أن الجن قد سكنوا الأرض قبلنا :

﴿ وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾

[الحجر : 27]

ألم يقل الحق سبحانه إن الإنسان خليفة ، وردّت عليه الملائكة :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾

[البقرة : 30]

إن الذين قالوا ذلك ليسوا من البشر ، إذن فكلام الله يؤكد أن الكعبة هي أول بيت وُضع للناس ، أي للجنس البشري ، ولذلك فلا داعي أن نتكلم في الأشياء التي يقف فيها العقل حتى لا ندخل في متاهة . ولو كان الله قد أراد أن يعلمنا أن الكعبة هي أول بيت في الأرض لقال لنا : " إن أول بيت وضع في الأرض " ، ولم يكن قد حدد الجنس الذي وضع البيت من

أجله ، لكن الحق سبحانه قال : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ ، ولذلك بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قبله بيوتا ، ولكنه أول بيت وضع للناس .

إنه جواب يتسع لكل ما يأتي به العلم .

وحين ننظر إلى القول الحق : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ ما معنى " أول " ؟ إنه الابتداء ، وهل كل ابتداء له انتهاء ؟ لا ، إن هناك أمورا لها " أول " وليس لها " آخر " ومثال ذلك العدد " واحد " وما بعده ليس له آخر ، فآخر ما بعد العدد واحد هو ما يمكن الإنسان أن يحسبه عجزا في التقديرات الدشليونية ، ولكن ما بعد الدشليون هناك أعداد أخرى ، وكان الإنسان قديما يقف عند الألف ، ثم يقول عن المليون " ألف ألف " ، وكذلك الجنة لها أول وليس لها آخر .

(216/125)

إذن فأول بيت وضعه الله للناس هو الكعبة . وعندما نرى كلمة " وُضع " نجدها فعلا ، ونرى انه قد وُضِع للناس . وما دام هذا البيت قد وضع للناس لذلك فمن اللازم حين تأتي كلمة " ناس " أن يكون هناك " بيت " و " آدم " من الناس ، ووالد كل الناس ، وكان له بيت وضع له .

وحين يقال : إن البيت قد تم بناؤه قبل آدم فإننا نقول : نعم ، لأن آدم من الناس ، والله يقول : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ فلماذا نحرم آدم من أن يكون له بيت عند الله ؟ إذن فالبيت موجو من قبل آدم . وبعض الناس تظن أن إبراهيم عليه السلام هو الذي بنى البيت ، ولأصحاب هذا الظن نقول : لنفهم القرآن معا ، إن مثل هذا القول يناقض القرآن ؛ لأن القرآن قد قال : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ وذلك إيضاح أن إبراهيم كان من قبله أناس سابقون له ، فكيف لا يكون للناس من قبل إبراهيم بيت ؟ ولا يكون للناس من بعد إبراهيم بيت ؟

إن الذين كانوا يعيشون قبل مجيء إبراهيم عليه السلام لهم الحقوق نفسها عند الله التي وضعها الله لمن بعد إبراهيم ، فلا بد أن الله قد جعل بيته لهم ، والنص القرآني ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ مؤكد ذلك ، وما دام قد جاء الفعل مَبْنِيًا للمفعول فواضعه غير الناس ، فـ " وُضِعَ " هو فعل مبني على ما لم يسم فاعله ، فمن الذي وضعه ؟ هل هم الملائكة ؟ قد يصح ذلك وهو أن يكون الملائكة قد تلقوا الأمر من الله بمزاولة هذا البناء ولكن الحق يقول عن هذا البيت إنه : " هدى للعالمين " وهذا يعني أن البيت هدى للملائكة ؛ لأنهم عالم ، وهذا يعني أن البيت قد وضعه الله من قبل ذلك ، إن أحداً لا يقدر أن يجعل الكون على قدر العقل البشرى ، إن على العقل البشري أن يكون في ركاب الكون ، وإياك أن تجعل

الكون في ركاب عقلك. أما مسألة أن إبراهيم قد بني الكعبة أولاً فهذا عدم فهم للنص القرآني القائل:

(217/125)

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

[البقرة: 127]

فما هو الرفع؟ إنه إيجاد البُعد الثالث وهو الارتفاع، فالطول والعرض موجودان إذن فهذا دليل على وجود البيت قبل أن يقيم إبراهيم عليه السلام ارتفاع البيت. وهكذا نستنتج أن الذي كان مطموسا هو القاعدة والارتفاع، مع وجود الطول والعرض اللذين يحددان المكان، أما البناء فهو الذي يحدد "المكين" وعندما انهدم البيت الحرام كان الناس يتجهون إلى المكان نفسه. ونحن عندما نصلي في الدور الثالث في الحرم، فإننا نتجه إلى الهواء الموجود من فوق الكعبة، ولو حفرنا نفقا تحت الأرض بألف متر، وأردنا أن نصلي فإننا سنتجه إلى جذر الكعبة، وهكذا نعرف أن جو الكعبة كعبة.

إذن فعمل إبراهيم عليه السلام كان في إيجاد المكين لا المكان، ولنقرأ بالفهم الإيماني ما

حدث لإبراهيم عليه السلام . لقد أخذ إبراهيم هاجر وابنها إسماعيل ، وخرج بهما ليضعهما في هذا المكان . " وهاجر " تعرف أن مكونات الحياة هي المياه والهواء والقوت ، وهذا المكان لا توجد به حتى المياه ، لذلك قالت هاجر سائلة إبراهيم عليه السلام : كيف تتركنا هنا ؟ هل أنزلتنا هنا برأيك أم بتوجيه من الله ؟ فقال لها إبراهيم عليه السلام : إنه توجيه من الله ، لذلك قالت : " لقد اطمأننت ، والله لا يضيعنا أبدا " .

لم تقلق هاجر لأن إبراهيم اتجه إلى ما أمره الله ، وهذا هو الإيمان في قمته ، ولو لم يكن الإيمان على هذه الدرجة الرفيعة فأي قلب لأم تترك أب الطفل يذهب بعيدا عنها وتعيش مع ابنها في هذا المكان الذي لا يوجد به طعام أو فيه ماء ، فهي لا تؤمن بإبراهيم ، ولكنها تؤمن برب إبراهيم وعندما تقرأ القرآن الكريم تجد القول الحق على لسان إبراهيم :

(218/125)

﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

[إبراهيم : 37]

هكذا نعرف أنه ساعة إسكان إبراهيم لذريته كان هناك بيت وأن هذا البيت محرم ،

وعندما نقرأ عن رفع البيت الحرام نجد أن إبراهيم عليه السلام لم يرفع قواعد البيت بمفرده بل شاركه ابنه إسماعيل عليه السلام .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

[البقرة : 127]

هكذا نعلم أن إسماعيل عليه السلام كان قد نضج بصورة تسمح له أن يساعد والده خليل الرحمن في إقامة قواعد البيت الحرام ، وهذا يدلنا على أن إسماعيل نشأ طفلا في هذا المكان عندما أسكنه والده إبراهيم عند البيت المحرم ، هكذا نتيقن أن البيت المحرم كان موجودا من قبل إبراهيم عليه السلام ، وعندما ندقق النظر في معنى كلمة " بكة " التي وردت في هذا القول الكريم : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ فإننا نعرف أن هناك اسما لمكان البيت الحرام هو " بكة " وهناك اسم آخر هو مكة ، وبعض العلماء يقول : إن " الميم " و " الباء " يتعاونان ، ونلحظ ذلك في الإنسان " الأخنف " أو المصاب بزكام ، إنه ينطق " الميم " كأنها " باء " . والميم و " الباء " حرفان قريبان في النطق ، والألفاظ منهما تأتي قريبة المعنى من بعضها .

ولننظر إلى اشتقاق " مكة " واشتقاق " بكة " . إننا نقرأ " بكّ المكان " أي ازدحم المكان ، وهكذا نعرف من قوله الحق : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً ﴾ أي أنه مكان الازدحام الذي يأتي إليه كل الناس وكل الوفود لتزور بيت الله الحرام ، ولا أدل على ازدحام البيت الحرام من أن الرجال والنساء يختلط بعضهم ببعض ، والإنسان يطوف بالبيت الحرام ، ولا يدري أنه يسير وقد يلمس امرأة أثناء الطواف .

و" بكة " هي المكان الذي فيه الطواف والكعبة ، أي هي اسم مكان البيت الحرام ، " ومكة " اسم البلد كلها الذي يوجد به البيت الحرام . و " مكة " مأخوذة من ماذا ؟ إن " مكة " مأخوذة من " مك الفصيل الضرع " أو " امتك الفصيل الضرع " ، أي امتص كل ما فيه من لبن ، والفصيل كما نعرف هو صغير الإبل أو صغير البقر . وما دام الفصيل قد امتص كل ما في الضرع من لبن فمعنى هذا أنه جائع ، ومكة كما نعرف ليس فيها مياه ، والناس تجهد وتبالغ في أن تمتص المياه القليلة عندما تجدها في مكة .

وفي كلمة " مباركا " نجد أنها مأخوذة من " الباء والراء والكاف " والمادة كلها تدور حول شيء اسمه الثبات ، فهل هو الثبات الجامد ، أم الثبات المعطي النامي الذي مهما أخذت منه فإنه ينمو أيضا ؟ إننا في حياتنا اليومية نقول : " إن هذا المال فيه بركة مهما صرفت منه

فإنه لا ينتهي " ، أي أنه ثابت لا يضيع ، ويعطي ولا ينفد . وكلمة " بِرْكة " في حياتنا تعني أنها تَجَمعُ الماء تأخذ منها مهما تأخذ فيأتي إليها ماء آخر .

(220/125)

وكلمة " تبارك الله " تعني " ثبت الحق " ولم يزل أزلا ولا يزال هو واحداً أحداً ، إنه الثبوت المطلق . وهكذا نجد أن الثبات يأتي في معنى البيت الحرام . إن البيت الحرام مبارك أبدا " كيف " ؟ أليست تضاعف فيه الحسنة ؟ وهل هناك بركة أحسن من هذه ؟ وهل هناك بركة أفضل من أنه بيت تُجبى إليه ثمرات كل شيء ولا تنقطع ؟ فقديما كان الذاهب إلى البيت الحرام يأخذ معه حتى الكفن ، ويأخذ الإبرة والخيط ، والملح ، والآن فإن الزائر لبيت الله الحرام يذهب ليأتي بكماليات الحياة من هناك . ويقول سبحانه عن هذا البيت الحرام المبارك : إنه ﴿ هُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ . ما هو الهدى ؟ قلنا : إن الهدى هو الدلالة الموصلة للغاية ، ومن يَزُرْ البيت الحرام يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فهل اهتدى للجنة أم لا ؟ إنه يعرف بزيارة البيت الحرام الطريق إلى الجنة . وحينما ننظر إلى هذه المسألة نجد أن الحق سبحانه وتعالى عندما تكلم عن البيت لم يتكلم إلا عن آية واحدة فيه هي مقام إبراهيم مع أن فيه آيات كثيرة .

قال الحق : ﴿ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾

إننا نجد أن صيغة الجمع موجودة في قوله الحق : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ ﴾ و ﴿ بَيِّنَاتٌ ﴾ وهي وصف الجميع . وبعد ذلك قال الحق : ﴿ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ إنه سبحانه لم يذكر إلا مقام إبراهيم بعد الآيات ، والمقام آية واحدة ، وهذا يدل على أن مقام إبراهيم فيه الآيات البينات ، ونحن نقرأ ﴿ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ بفتح الميم الأولى في كلمة " مقام " ولا ننطقها " مقام " بضم الميم الأولى لأن المقام بضم الميم تعني مكان إقامة إبراهيم ، أما مقام بفتح الميم فمكان القيام ، لماذا كان قيام إبراهيم عليه السلام ؟

(221/125)

لقد كان إبراهيم يقوم ليرفع قواعد البيت الحرام ، وكان إبراهيم يقوم على " حجر " .

وعندما ننظر إلى مقام إبراهيم فإنك تجد فيه كل الآيات البينات ؛ لأن الله طلب من إبراهيم عليه السلام أن يرفع قواعد البيت ، وكان يكفيه حين يرفع قواعد البيت أن يعطيه الارتفاع الذي يؤديه طول يديه ، وبذلك يكون إبراهيم عليه السلام قد أدى مطلوب الله – كما قلنا من قبل – لكن إبراهيم عليه السلام تعود مع الله أن يؤدي كل تكليفات الله بعشق وحب

وإكمال وإتمام ، فقال إبراهيم في نفسه : " ولماذا لا أرفع البيت أكثر مما تطول يداي ؟ " ولم تكن هناك في ذلك الزمن القديم فكرة " السقالات " ، ولم يكن مع إبراهيم عليه السلام إلا ابنه إسماعيل . وأحضر إبراهيم عليه السلام حجرا ، ووقف عليه ؛ ليرفع القواعد قدر الحجر .

إذن فإبراهيم خليل الرحمن أراد أن ينفذ أمر الله بالرفع للقواعد لا بقدر الاستطالة البدنية فقط ، ولكن بقدر الاحتيال على أن يرفع القواعد فوق ما يطلبه الله ، وهذا معنى قول الله عن إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾

[البقرة : 124]

أي أنه أدى مطلوب الله أداء كاملا ، ولا أدل على هذا الأداء الكامل من أنه أتى بحجر ليقف عليه ليزيد من ارتفاع البيت قدر هذا الحجر . ونعرف أن الذي ساعده وشاركه في رفع القواعد هو ابنه إسماعيل . ومن أكرمه الله برؤية مقام إبراهيم يجد أن الحجر يسع وقوف إنسان واحد ، وهكذا نفهم أن إسماعيل كان يساعد ويناول والده الأحجار ، أما مكان الأقدام الموجودة في هذا الحجر ، فهذا يعني أن إبراهيم عندما كان يقف ويحمل

حجرا من المفروض أن يحمله اثنان فإن هذا يتطلب ثبات القدمين في مكان آمن حتى لا يقع.

(222/125)

فهل يا ترى أن الله سبحانه وتعالى جلت قدرته ساعة رأى إبراهيم يحتال هذه الحيلة قال لخليله: سأكفيك مؤنة ذلك. وجعل الحق القدمين تغوصان في الحجر غوصا يسندهما حتى لا تقعا.

والذي لا يتسع ذهنه إلى أن الله ألاَنَ لإبراهيم الحجر، نقول له: إن إبراهيم قد احتال، وخاف أن تزل قدمه، فنحت مكانا في الحجر على قدر قدمه حتى تثبت قدمه حين يحمل ويرفع الحجر، وهذه آيات بينات. فخذ ما يتسع ذهنك وفهمك له، إن الله أعان إبراهيم لأنه فكر أن يبني القواعد ويرفعها أكثر مما تطول يداه، وقد مكّن الله له في ذلك وأعانه عليه، ونحن نعلم أن الهداية تكون هداية الدلالة وهداية المعونة.

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾

[محمد: 17]

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾، والآيات هي الأمور العجيبة،

وعندما تراها فإنك لا تستطيع أن تنكرها . ودخول البيت يعني الأمن للإنسان الذي يدخله ، ونحن نعلم أن البيت قد تم بناؤه في هذا المكان . وهذا المكان تجتمع فيه القبائل ، وبين بعض هذه القبائل ثارات ودماء وحروب ، لذلك يبيّن الله الوضع الذي بمقتضاه تحقن الدماء ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ لماذا ؟ لأنه بيت الرب ولا يصح أن يدخل واحد بيت الرب ويُعاقب حتى ولو كان قد أجرم جرما يوجب الله عليه الحد فيه . ولذلك قال سيدنا عمر رضي الله عنه : لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب - والده لم أتعرض له .

(223/125)

ولكن يُضيّق الخناق على المجرم حتى يخرج . وهذا الأمن محدد بأي أمر اقترفه في دنياه ، أما من دخله كان آمنا يوم القيامة فالحكم فيه شيء آخر ، إنها درجة عالية من فضل الله ، والآيات البينات الواضحة في البيت الحرام يراها من زار البيت الحرام ، وليحقق الله أمل كل راغب في زيارة البيت الحرام ، وأن يكرر الزيارة لمن ذهب وأراد أن يعود للزيارة مرة أخرى .

فساعة تدخل البيت الحرام فأنت هنا تتجه إلى مكان في البيت والمقابل لك في الكرة الأرضية يتجه إلى المكان المقابل ، إلى أن تصير الاتجاهات مشتملة على الكعبة كلها .

ونحن عندما نكون في الكعبة فإننا نوجه وجوهنا إلى المبنى لأننا نراها ، ونحن نوجه الوجوه

إلى المبنى المقطوع بأنه منها ، والحطيم ، وهو القوس المبنى حول حجر إسماعيل ، هو من الكعبة أيضا ، ولكن النفقة قصرت ، فجعلوه ليحدد مكان الكعبة ، فظل هكذا ، فإذا غاب الإنسان عن الكعبة واتجه إليها فإنه يكفي أن يتجه إلى جهتها .

ولذلك نجد الصفوف في الصلاة حول الكعبة تتخذ شكل الدائرة ؛ لأن الذين يصلون في داخل الحرم يشاهدونها ، أما الذين يصلون خارجها فيكفي أن يتجهوا إلى جهتها ولو طال الصف إلى ألف متر ، لذلك فالصف للمصلين خارج الحرم يكون معتدلا ، أما في داخل الحرم فالصفوف تأخذ شكل الدائرة لأن أقصى بُعد في الكعبة هو اثنا عشر مترا وربع المتر ، ونجد من الآيات العجيبة أنك إذا ما نظرت إلى الحجر الأسود تجد الناس تتهافت على تقبيله ، والحجر يمثل أدنى أجناس الكون ، ونعلم جميعا أن الإنسان مستخلف كسيد في الكون ، ومن بعده الحيوان أقل منه في الفكر ومسخر ، ومن بعد الحيوان يكون جنس النبات ، ومن بعد ذلك يأتي جنس الجماد ومنه الحجر .

إننا نرى هذا الإنسان السيد في الكون لا يقبل الله منه النسك القبول التام الحسن إلا إذا قبل الحجر ، أو حياه ، وهكذا ينقل الحق أعلى الأجناس إلى أدناها . والناس تزدحم حول

الحجر ، ومن لم يقبل الحجر يحس أنه افتقد شيئا كثيرا ، وهكذا ترى استطراقا وسلوكا من الخلق إلى باب الله ، فالإنسان المتكبر الذي يتوهم أنه سيد على غيره ، يأتي إليه أمر في النسك بتقبيل الحجر أو تحيته بالسلام ، وهذا الإنسان برغم أن الحق - سبحانه - يقبل منه أن يحيي الحجر الأسود بالسلام ولم يفرض عليه أن يقبّله ولكنه مع ذلك يحاول أن يقبل الحجر ، وهو أدنى الأجناس ، لأن الله قد عظمه ، وهذا أول كسر لأنف غرور الإنسان ، وحتى لا يظن ظان أنها حجرية أو وثنية ، يأتي الأمر من الحق برجم حجر آخر .

إذن فالحجرية لا ملحظ لها هنا ، فنحن نجد حجرا يُقدس ، وحجرا آخر يُرجم . نجد حجرا يقبله الإنسان ويعظمه وحجرا آخر يزدريه ويحقره . وذلك يدل على رضوخنا لإرادة الآمر سبحانه وتعالى فقط ، فعندما يأمرنا بأن نعظم حجرا فالمؤمن يؤدي حق التعظيم بالسمع والطاعة ، وعندما يأمرنا سبحانه برجم حجر آخر ، فالمؤمن يرجم هذا الحجر بالسمع والطاعة لله أيضا ، فالذاتية الحجرية لا دخل لها على الإطلاق . وبعض من أصحاب الظن السيء قالوا : إن الإسلام قد استبقى بعض الوثنية .

ولهؤلاء نقول : ولماذا تذكرون تعظيم الحجر الأسود ، ولم تذكروا رجم إبليس وهو ثلاثة أحجار ؟ لقد عظم المؤمن المؤدي للنسك حجرا واحدا ورجم ثلاثة أحجار ، إن المؤمن إنما يطيع أمر الله ، فليست للحجر أي ذاتية في النسك أو العبادة . لقد رفعنا الحق من حضيض عبادة الأصنام التي هي عين الكفر ، لكنه قال لنا : " قبلوا الحجر الأسود " فقد قبلنا الحجر احتراما لأمر الآمر ، وذلك هو منتهى اليقين . لقد نقلنا الحق من مسا و إلى مساو ، من عبادة الحجر إلى تعظيم وتقديس حجر مثله ، لكن الأصنام كانت منتهى الشرك ، وتقبيل الحجر الأسود منتهى اليقين . أليست هذه آيات بينات ؟

وزمزم التي توجد في حضن الكعبة ، أليست آيات بينات ؟ إن " هاجر " تترك الكعبة وتروح إلى " الصفا " وتصعد إلى " المروة " بعد أن تضع " إسماعيل " بجانب الكعبة ، وتدور بحثا عن المياه . وسعت هاجر سبعة أشواط لعلها ترى طيرا أو تجد إنسانا يعرف طريق المياه لان ابنها يحتاج إلى الشرب ، ولو أنها وجدت على الصفا أو المروة مياها في أول سعيها أكانت تجد تصديقا لقولها لإبراهيم عندما جاء بها للإقامة في هذا المكان " إن الله لا يضيعنا " إنها سعت .

وكأن الله يقول لها ولكل إنسان : عليك بالسعي ، ولكن لن أعطيك من السعي ، إنما أعطيك الماء تحت رجل إسماعيل . إذن فصدقت في قولها : لن يضيعنا الله ، لقد جعلها الحق سبحانه تسعى سبعة أشواط ، ولا يمكن لامرأة في مثل عمرها أن تقدر على أكثر من

ذلك ، وهذا يعلمنا أن الإنسان عليه أن يباشر الأسباب ، ولكن القلب عليه أن يتعلق بمسبب الأسباب ، وهو الله سبحانه ، وفي هذا ما يعدل سلوك الناس جميعا . فساعة يرى الإنسان أن البئر مكان قدم إسماعيل وعلى البعد تكون الصفا والمروة ، وتسعى بينهما ، وبعد ذلك تجد زمزم مكان ضربة قدم إسماعيل ، أليس في هذا آيات بينات تهدى الإنسان أن يباشر الأسباب ويأخذ بها ، ويتعلق القلب بمسبب الأسباب ؟

(226/125)

إن هذا يعطي المؤمن إيمانية التوكل ، وهي تختلف عن الكسل و " بلادة التواكل " فإيمانية التوكل هي أن الجوارح تعمل ، والقلوب تتوكل ، أما الكسل عن الأخذ بالأسباب مع الادعاء بالتوكل فهذه بلادة ، ومثل هذا الكسول المتواكل عندما يأتي الأكل أمامه يأكل بنهم وشره ، ولو كان صادقا لترك اللقمة تقفز إلى فمه ، ولماذا يمضغها إذن ؟ لماذا يختار التواكل والكسل ، وعدم العمل ، ثم يمد يده ليأكل ؟ إن هذه هي " صفات التواكل " .

إننا نأخذ من سعي " هاجر " وتفجر الماء عبرة ، هي الأخذ بأسباب الله ، وبعد ذلك فإننا نجد كل إنسان في البيت الحرام مشغولا بنفسه مع ربه ، ومن فرط انشغاله يكون غافلا عمّن يكون معه ، ولو كان أحب إنسان له فإنه لا يدري به . وساعة تدخل وتنظر إلى

الكعبة ينفض من عقلك كل فكر في أي شيء من الأشياء ، لا تذكر أولادك أو مالك ، لكنك بعد أن تفرغ من المناسك تعود للتفكير في أولادك وعملك ، وإلا لو ظل حبك وشوقك وتعلقك ومواجيدك بهذه البقعة لضاق المكان بالناس جميعا . بعد ذلك يقول الحق سبحانه عن البيت الحرام : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ . وهنا يجب أن نفهم أن هناك فارقا بين أن يكون " الخبر " تاريخا للواقع ، وبين أن يكون " الخبر " خبرا تكليفيا فلو كان ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ تاريخا للواقع لتم نقض ذلك بأشياء كثيرة ، فقد وجد فيه قوم ولم يأمَنوا .

ونحن نعرف حادث الاعتداء الأخير الذي حاوله جهيمان منذ سنوات قال الناس : إن جهيمان عندما اعتدى على الناس ، لم يستطع حجيج بيت الرحمن أن يكونوا آمنين في البيت وتساءل بعضهم ، فكيف قال الحق : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ ؟ بل قال بعض أهل الانحراف : إذن مسألة دخول جهيمان إلى البيت الحرام تجعل ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ ليست صادقة ! ولهؤلاء نقول :

إن هناك فرقا بين إخبار الحق بواقع قد حدث ، وبين إخبار بتكليف .

(227/125)

إن الإخبار بالواقع كان معناه ألا يدخل أحد البيت الحرام ويهيجه أو يهاجمه أحد أبدا ، ولكن الإخبار التكليفي معناه : أن يخبر الله بخبر ويقصد به تكليف خلقه به ، والتكليف كما نعرف عرضة لأن يطاع ، وعرضة لأن يعصى ، فإذا قال الله سبحانه : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ فهذا معناه : يأيها المؤمنون ، من دخل البيت الحرام فأمنوه . ونضرب المثل - ولله المثل الأعلى - تقول أنت لولدك : يا بني هذا بيت يفتح للضيوف من دخله يكرم . أهذا يدل على إنجاز الإكرام لكل من دخل هذا البيت وحصوله له بالفعل وأن هذا لا يتخلف أبداً أم أنك قلت الخبر وتريد لولدك أن ينفذه ؟

إن هذا خبر يحمل أمرا لابنك هو ضرورة إكرام من يدخل هذا البيت ، وتلك الوصية عرضة لتطاع وعرضة لأن تخالف ، لذلك فنحن نفهم من قول الحق : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ على أساس أنها أمر تكليفي ، عرضة للطاعة وللعصيان ، ومثال آخر على ذلك هو قول الله تعالى :

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

[النور : 26]

بعض الناس يقول : نجد واقع الحياة غير ذلك ، حيث نجد امرأة طيبة تقع في عصمة رجل غير طيب وتتزوجه . ونجد رجلا طيبا يقع مع امرأة غير طيبة ويتزوجها ، فكيف يقول الله

ذلك ؟ ونحن نرد على أصحاب هذا القول : إن الله لم يقل ذلك تأريخا للواقع . ولكنه أمر تكليفي . أيْ افعلوا ذلك ، وحكمي وتكليفي أن يكون الطيبات للطيبين والطيبون يكونون للطيبات . فإذا امتثل الخلق أمر الحق فعليهم أن يفعلوا ذلك ، وإن لم يمتثل بعض الخلق لأمر الحق فإن الواقع ينبيء بحدوث وجود طيبين لغير طيبات أو العكس .

(228/125)

إذن فقول الحق : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ هو خبر يراد به أمر تكليفي ، فمن أراد أن يكون صادقا فيما كلفه الله به فليؤمن مَن دخل البيت الحرام . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : 97]

وحين تسمع " لـ " و " على " ، فافهم أن الفائدة تقع على ما دخلت عليه " اللام " ، والتبعة تقع على ما دخلت عليه " على " . فحين نقول : : " لفلان عَلَى فلان كذا " فالنفعية لِفلان الأول والتبعة على فلان الثاني . وحين يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ . فعلى هذا فالنفعية هنا تكون لله ، والتبعة هنا تكون على الناس ، لكن لو

فطنا إلى سر العبارة لوجدنا أن الله لا ينتفع بشيء من تكليفه لنا ، فالحج لله ، ولكنه يعود إليك ، فما لله عاد إليك ، وما عليك عاد لك .

وكل تكليف عليك فأثره لك ، فإياك أن تفهم من ذلك القول الكريم : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ أن اللام الأولى للنفعية ، وإياك أن تفهم أن " على " هي للتبعة ، نعم إن الحج لله ، ولكن الفائدة لا تعود إلا عليك ، وهو تكليف عليك ، وفائدته تعود عليك ، فالحق سبحانه وتعالى منزه عن أن يُفيد من حكم من أحكامه ، وهو سبحانه حين ينزل حكما تكليفيا فعلى العبد المؤمن أن يعرف أن فائدة الحكم عائدة عليه وعلى حياته ، ولله يكون القصد والحج ، لا لشيء سواه .

(229/125)

ولماذا يقول الحق : إن على العبد المؤمن أن يحج البيت الحرام ؟ لأنه الخالق وهو خبير وعليم بأن التكليف شاق على النفس ، ولكن على المؤمن المكلف حين يجد تكليفا شاقا عليه أن ينظر إلى الفائدة العائدة من هذا الحكم ، فإن نظر إلى الفائدة من الحكم وجد أنها تعود عليه ، ولذلك يسهل على العبد المؤمن أمر الطاعة . والذي لا يقبل على الطاعة ويهمل الجزاء عليها ويغفل عنه . تكون الطاعة شاقة عليه . والذي يقبل على المعصية ويهمل

الجزاء عليها تكون المعصية هينة عليه . ولكن الطائع لو استحضر غاية الطاعة لعلم أنها له لا عليه .

ولو أن العاصي استحضر العذاب على المعصية لعلم أنها عليه لا له ؛ فالعاصي قد يحقق لنفسه شهوة ، لكنها شهوة عاجلة ، أمدها قصير ، ولو استحضر العاصي العقوبة على المعصية وقت عملها ما أقدم على معصيته أبدا . ولكن الذين يرتكبون المعصية ينظرون إلى الشهوة الطارئة ، ويعزلون جزاء المعصية عنها ، ولو أنصفوا أنفسهم ، لا يستحضروا العقاب على المعصية في وقت الرغبة في ارتكابها . وحين يستحضرون جزاء المعصية مع المعصية فإن شهوة المعصية تنتهي منهم ، وأضرب هذا المثل دائما عن أعنف غرائز الإنسان وهي غريزة الجنس .

هب أن هناك واحدا رأى فتاة جميلة ثم أراد أن ينالها نقول لهذا المتشرد جنسيا : استحضر العذاب على هذا العمل ، وإن أخذت هذه الفتاة فتعال لنريك بعينيك ما أعده الله لك حين تتمتع بهذه الفتاة خارجا عن شرع الله ، وأوقد له فرنا مسجوراً ومحمّياً ، وقُل له : في مثل هذا ستدخل بل وأشد منه إن نلت من الفتاة .

أيقبل هذا المتشرد على ارتكاب تلك المعصية ؟ لا ؛ فشهوة المعصية تضيع عندما يستحضر العذاب عليها . إن الحق سبحانه يقول : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ والسبيل هو الطريق الموصل للغاية ، والطريق الموصل للغاية عادة ما يكون مطروقا ، وعندما يتجه الإنسان لأداء فريضة الحج فهو طارق للطريق ، أي سيسير عليه ، هكذا تعرف أن هناك ثلاثة أشياء :

طارق ، وهو من كتب الله عليه الحج وهو المكلف .

وسبيل مطروق .

وغاية ، وهي حج البيت .

وما دام الطارق سيسلك طريقا فلا بد أن يكون عنده قدرة على أن يسلك هذا الطريق فكيف تتأتى هذه القدرة ؟ إن أول شيء في القدرة هو الزاد ، وثاني شيء في القدرة هو المطية التي يركبها ، وهكذا تتبين أننا نحتاج إلى زاد وراحلة لطارق الحج .

والسبيل الذي يطرقه ، أيكون محفوفا بالمخاطر ؟ لا ، بل يُفترض أن يكون السبيل آمنا .

إذن فالاستطاعة تلزمها ثلاث حاجات ، هي : الزاد ، والراحلة ، وأمن الطريق . والزاد عادة يخص الإنسان نفسه ، ولكن ماذا يكون الحال إن كان الإنسان يعول أسرة وصغارا ؟

إذا كان الإنسان على هذا الحال فمن الاستطاعة أن يكون قد ترك زادا لمن يعولهم إلى أن يعود . وعلينا أن ننتبه إلى أن الله قال في كل تكليف : ﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ﴾ . ولكنه سبحانه جاء في فريضة الحج بالقول الواضح ، بأن الحج لله على الناس وليس لمن أسلموا فقط ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا أهل الكتاب الذين كانوا يتمحكون في إبراهيم عليه السلام أن يحجوا البيت الحرام ، فامتنعوا عن الحج ، ولو كان الحج للمسلمين المؤمنين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم لما عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليهود والنصارى أن يحجوا ليكون ذلك جمعاً لهم على أن يتجه الخلق جميعا إلى بيت الله ويعبدوا إلها واحداً هو ربّ هذا البيت ، ولكنهم امتنعوا عن الحج . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيمن لم يحج بدون مرض حابس ، أو سلطان جائر ، أو فقر وعوز ، يقول في الحديث الشريف :

عن علي رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا ، وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ " .

ولذلك نجد التكليف بالحج قد اتبع مباشرة بقول الحق : ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ فهل يقع من لا يحج بدون مانع قاهر في الكفر ؟ هنا يقف العلماء وقفة . العلماء يقولون : نعم إنه يدخل في

الكفر، لماذا ؟ لأن الكفر عند العلماء نوعان كفر بالله، أو كفر بنعمة الله، ومثال ذلك قوله -جل شأنه-:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾

[النحل: 112]

(232/125)

أو هو الكفر، كأن يموت الإنسان يهوديا أو نصرانيا، وهنا نقول: انتبه، لا تأخذ الحكم من زاوية وتترك الزاوية الأخرى. إن المسألة التكليفية يوضحها الحق بقوله: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾. فهل تعارضون في هذا التكليف؟ أو تؤمنون به ولكن لا تنفذونه؟ إن القضية التكليفية الإيمانية هي ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ فهل أنت مؤمن بها أو لا؟ سنجد الإجابة من كل المؤمنين بـ "نعم".

ولكن الموقف يختلف مِنْ مؤمن إلى آخر؛ فنحن نجد مؤمنا يحرص على أداء الحكم من الله، وهو الطائع، ونجد مؤمنا آخر قد لا يحرص على أداء الحكم فيصبح عاصيا.

ونجد في هذا الموقف أن الكفر نوعان، هناك من يكفر بحكم الحج، أي من كفر في الاعتقاد

بأن لله على الناس حج البيت ، وهذا كافر حقا ، لكنْ هناك نوع آخر وهو الذي يرتكب معصية الكفران بالنعمة ؛ لأن الله أعطاه الاستطاعة من زاد ، ومن راحلة ، ومن أمن طريق ، ومن قدرة على زاد يكفي من يعولهم إلى أن يعود ، وهنا كان يجب على مثل هذا الإنسان أن يسعى إلى الحج . لذلك قال بعض العارفين لو أن أحدهم أُخْبِر بأن له ميراثا بمكة لذهب إليه حبواً .

إذن فقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ هي قضية إيمانية ، فمن اعتقدها يبرأ من الكفر ، ومن خالفها وأنكرها فهو في الكفر . ومن قام بالحج فهو طائع ، ومن لم يفعل وهو مؤمن بالحج فهو عاصٍ .

(233/125)

ولننظر إلى دقة الأداء القرآني حين يقول الحق : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قد يقول قائل : ولماذا لم يقل الله : ومن كفر فإن الله غني عنه ؟ وقال : ﴿ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ ؟ ونقول : إنّ الله غنيٌّ عن كل مخلوقاته ، وإيّاك أن تفهم أن الذي لم يكفر وآمن ، وأدى ما عليه من تكليف ، أنه عمل منفعة لله ؛ إن الله غني عن الذي أَدّى وعن الذي لم يؤد ، إياك أن تظن أن من أدّى قد صنع لله معروفا ، أو قدم لله يدا ؛ ﴿ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ

الْعَالَمِينَ ﴾ عمن لا يفعل ، وعمن يفعل . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1644.1625 ﴾

(234/125)

" من روائع الشيخ الصابونى فى الآيتين "

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (96) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97) ﴾

التحليل اللفظي

﴿ أَوَّلَ بَيْتٍ ﴾ : المراد به أول بيت للعبادة ، فالبيت الحرام أول المساجد على وجه الأرض ، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع الناس فقال : " المسجد الحرام ، ثم بيت المقدس " .

قال علي بن أبي طالب : أول بيت وضع الناس للعبادة .

قال الزمخشري : ومعنى (وضع للناس) أي جُعل متعبداً لهم ، فكأنه قال : إن أول متعبد

للناس الكعبة .

﴿ بِبَكَّةَ ﴾ : اسم لمكة فتسمى (مكة) و (بكة) من باب الإبدال كقولهم سبد رأسه وسمده إذا حلقه ، وطين لازب ولازم ، وقيل : (بكة) موضع البيت ، و (مكة) الحرم كله .

قال ابن العربي : وإنما سميت بكة لأنها تبكّ أعناق الجبابرة ، فلم يقصدها جبار بسوء إلا قصمه الله تعالى .

﴿ مُبَارَكاً ﴾ : البركة معناها الزيادة وأكثر الخير ، وهي نوعان : حسية ، ومعنوية .

أمّا الحسية : فهي ما ساقه الله تعالى من خيرات الأرض وبركاتها إلى أهل هذه البلاد ، تجبى إليهم من أقطار الدنيا كما قال تعالى : ﴿ يجبى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا ﴾ [القصص : 57] .

وأما المعنوية : فهي توجه الناس من مشارق الأرض ومغاربها إلى هذه البلاد المقدسة ، يأتون إلأيها من كل فج عميق لأداء المناسك من الحج والعمرة استجابة لدعوة الخليل ﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تهوى إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم : 37] .

﴿ وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ : هدى مصدر بمعنى (هداية) أي أن هذا البيت العتيق هو مصدر الهداية والنور لجميع الخلق ، وقيل : المعنى أنه قبلة للعالمين يهتدون به إلى جهة صلاتهم .

﴿ مَّقَامُ إبراهيم ﴾ : هو الحجر الذي قام عليه إبراهيم عليه السلام حين ارتفع بناء الكعبة وكان فيه أثر قدميه .

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد من ﴿ مَّقَامُ إبراهيم ﴾ هو موضع قيامه للصلاة والعبادة ، يقال : هذا مقامه أي الموضع الذي اختاره للصلاة فيه ، وهذا قول (مجاهد) .

قال القرطبي : " وفسّر مجاهد مقام إبراهيم بالحرم كله ، فذهب إلى أن من آياته الصفا ، والمروة ، والركن ، والمقام " .

فيكون المراد بالمقام المسجد الحرام كله .

﴿ آمِناً ﴾ : أي أمن على نفسه وماله . قال القاضي أبو يعلى : لفظه لفظ الخبر ، ومعناه الأمر ، وتقديره : ومن دخله فأمنوه .

وقد فسّر بعض العلماء الأمن بأن المراد منه الأمن من العذاب في الآخرة وروي في ذلك آثاراً ، ولا مانع من إرادة العموم ، الأمن في الدنيا ، والأمن من عذاب الله .

﴿ سَبِيلاً ﴾ : استطاعةُ السبيل إلى الشيء إمكان الوصول إليه ، وقد فسّرت

الاستطاعة بملك الزاد والراحلة كما جاء في الحديث الصحيح .

المعنى الإجمالي

(236/125)

بيّن الله عز وجل مكانة هذا البيت (البيت الحرام) وعدّد مزاياه وفضائله فهو أول بيت من بيوت العبادة وضع معبداً للناس بناه إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام ليكون مثابة للناس وأمناً ، ثم بني مسجد الأقصى بعد ذلك بعدة قرون بناه " سليمان " عليه السلام ، فالبيت العتيق هو أول قبلة وأول معبد على وجه الإطلاق ، فليس في الأرض موضع بناه الأنبياء أقدم منه وقد عدّد الله من مزايا هذا البيت ما يستحق تفضيله على جميع المساجد وأماكن العبادة ، فهو أول المساجد ، وهو قبلة الأنبياء ، وهو بلد الأمن والاستقرار وفيه الآيات البينات : الصفا ، والمروة ، وزمزم ، والحطيم ، والحجر الأسود ، ومقام إبراهيم ، وفوق ذلك فأنّ الله عز وجل خصّه بخصائص فجعله مركز الهداية والنور وفرض الحج إليه ، يأتيه الناس من أقطار الدنيا ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ، أفلا يكفي برهاناً على شرف هذا البيت وأحقيته أن يكون قبلة للمسلمين ؟ ! ذكر (القرطبي) في " تفسيره " عن (مجاهد) أنه قال : " تفاخر المسلمون واليهود ، فقالت

اليهود : بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة ، لأنه مهاجر الأنبياء وفي الأرض المقدسة ، وقال المسلمون بل الكعبة أفضل فأنزل الله هذه الآية .

" وجه الارتباط بالآيات السابقة "

كانت الآيات من أول سور " آل عمران " إلى هنا في تقرير الدلائل الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم مع إثبات الوحدانية ، وقد تبع ذلك محاجة أهل الكتاب ودحض شبههم ، وتفنيد ما استحدثوه في دينهم من بدعٍ وأهواء ما أنزل الله بها من سلطان . . أما هذه الآيات من قوله تعالى : ﴿ كُلُّ الطعام كَانَ حِلاًّ لبني إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ ﴾ [آل عمران : 93] فقد جاءت لدفع شبهتين من شبه اليهود التي كانوا يثيرونها لإفساد عقائد الناس .

(237/125)

الشبهة الأولى : إنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم إنك تدّعي أنك على ملة إبراهيم ، فكيف تأكل لحوم الإبل وألبانها مع أن ذلك كان حراماً في دين إبراهيم ؟ فقد استحللت ما كان محرّماً عليه ، فلست بمصدّق له ، ولا بموافق له في الدين ، وليس لك أن تقول إنك أولى الناس به . . . فردّ الله عز وجل عليهم بأن كل الطعام كان حلالاً لإسرائيل ولذريته ﴿ كُلُّ

الطعام كَانَ حِلاًّ لبني إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ على نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التوراة . . .

﴾ [آل عمران : 93] الآية .

الشبهة الثانية : أما الشبهة الثانية التي أثارها اليهود فهي حينما حوّلت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرّفة ، فقد طعن اليهود في نبوة محمد عليه السلام ، واتخذوا من هذا التحويل ذريعة لإنكار رسالته عليه الصلاة والسلام وتشكيك الناس في الإسلام ، وقالوا إن "بيت المقدس" أفضل من الكعبة ، وأحق بالاستقبال فهو قد وضع قبلها وهو أرض المحشر ، وجميع الأنبياء من ذرية إسحاق كانوا يعظمونه ويصلّون إليه ، فلو كنت يا محمد على ما كانوا عليه لعظّمتَ ما عظّموا ، فرد الله سبحانه شبهتهم بهذه الآية ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً ﴾ .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : الحكمة في اختيار البيت العتيق لفريضة الحج ، أن الله تعالى جعله قبلة أهل التوحيد ، وأقام بناءه وشيّد دعائمه أبو الأنبياء (إبراهيم) الخليل عليه السلام ، وهو أول المساجد على الإطلاق فليس ثمة معبد أقدم منه ، وهو يقابل البيت المعمور في السماء ، فالبيت العتيق مطاف أهل الأرض ، والبيت المعمور مطاف أهل السماء .

اللطيفة الثانية : قال الإمام الفخر : " إن الله أمر الخليل عليه السلام بعمارة هذا البيت ، فالآخر هو الله رب العالمين ، والمبلّغ هو جبريل عليه السلام فلهذا قيل : ليس في العالم بناء أشرف من الكعبة ، فالآخر هو المِلكُ الجليل ، والمهندس جبريل ، والباني هو الخليل ، والتلميذ : إسماعيل عليه السلام " .

اللطيفة الثالثة : من مزايا البيت العتيق ، ذلك الأمن الذي جعله الله فيه ، وذلك ببركة دعاء إبراهيم عليه السلام حيث قال : ﴿ رَبِّ اجعل هذا بَلَداً آمِناً ﴾ [البقرة : 126] وقد كان الناس يتخطفون من أطراف الأرض وأهل مكة في أمن واستقرار وقد امتن الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ الناس مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 67] ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " لو ظفرتُ فيه بقاتل الخطاب لما مسسته حتى يخرج منه " .

اللطيفة الرابعة : قال العلامة أبو السعود : " وضع (ومن كفر) موضع من لم يحج تأكيداً لوجوبه وتشديداً على تاركه ولذلك قال عليه السلام " من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً " ، ولقد حازت الآية الكريمة من فنون الاعتبارات ، المعربة عن كمال الاعتناء بأمر الحج ، والتشديد على تاركه ما لا مزيد عليه ، حيث أوثرت صيغة الخبر الدالة على التحقيق ، وأبرزت في صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستمرار ،

على وجه يفيد أنه حق واجب لله سبحانه في ذمم الناس ، لا انفكاك لهم عن أدائه والخروج عن عهدته ، وسلك بهم مسلك التعميم ثم التخصيص والإبهام ثم التبيين والإجمال . . " .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : حكم الجاني في الحرم .

(239/125)

اتفق الفقهاء على أنّ من جنى في الحرم فإنه يقتص منه ، سواءً كانت الجناية في النفس أم فيما دونها كالأطراف ، وعللوا ذلك بأنّ الجاني انتهك حرمة الحرم فلم يعد يعصمه الحرم من القصاص ، لأنه هو الذي أحدث فيه فيقتص منه . كما استدلوا بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ المسجد الحرام حتى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فاقتلوهم كَذَلِكَ جَزَآءُ الكافرين ﴾ [البقرة : 191] واختلفوا فيمن جنى في غير الحرم ثم لجأ إلى الحرم هل يقتص منه في الحرم ؟ على مذهبين :

1 - مذهب الحنفية والحنابلة : ذهب الإمام (أبو حنيفة) والإمام أحمد رحمهما الله إلى أنّ من اقترف ذنباً واستوجب به حداً ثم لجأ إلى الحرم عصمه لقوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ فأوجب الله سبحانه الأمن لمن دخله .

. والآية الكريمة على تقديره (خبرٌ يقصد به الأمر) ويكون المعنى : من دخله فأمّنوه ، فهو مثل قوله تعالى : ﴿ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الحج ﴾ [البقرة : 197] أي لا يرفثْ ولا يفسقْ ولا يجادل .

وهذا الرأي منقول عن حَبْر هذه الأمة (عبد الله بن عباس) فقد قال ابن عباس : إن جنى في الحِلّ ثم لجأ إلى الحَرَم لا يُقْتَصّ منه لكن لا يُجالس ولا يُبايع ولا يُكلّم حتى يخرج من الحرم فيقتص منه . . وهذا هو نفس مذهب الأحناف فإنهم قالوا إذا جنى ثم لجأ إلى الحرم فإنه لا يؤوي ولا يجالس ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج فيقتص منه .

وقالوا : إن الحرم له حرمة خاصة فمن لجأ إليه احتمى كما قال تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً ﴾ [العنكبوت : 67] .

(240/125)

ب – مذهب المالكية والشافعية : وذهب (الشافعية والمالكية) إلى أنّ من جنى في غير الحرم ثم لجأ إلى الحرم فإنه يقتص منه ، سواءَ كانت الجناية في النفس أو غيرها . واستدلوا ببضعة أدلة منها : ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل بعض المشركين في الحرم ، وقال عن (ابن خطل) اقتلوه ولو رأيتموه متعلقاً بأستار الكعبة ومنها ما ورد (إنّ الحرم لا

يجير عاصياً ، ولا فاراً بخربة ولا فاراً بدم) وأجابوا على قوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ قالوا هذا كان في الجاهلية لو أنّ إنساناً ارتكب كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يتعرض له حتى يخرج من الحرم ، وهذا من منن الله عزّ وجل على أهل تلك البلاد فقد جعل لهم الحرم مركز أمن واستقرار . أما الإسلام فلم يزده إلا شدةً فمن لجأ إليه جانباً أقيم عليه الحد ، كيف لا والإسلام دين القوة والحزم ؟ !

الترجيح : ولعل الرأي الثاني هو الأوجه والأرجح ، لأننا لو أخذنا بالرأي الأول –على ما فيه من وجاهة– لأصبح الحرم مركزاً لاجتماع الجُناة والمجرمين ، ولاختل الأمن ، لأن القاتل يقتل ثم يفر من وطنه ويأتي الحرم ، لأنه يعلم أنه يحميه ، وبذلك تنتشر الجرائم وتكثر المفاسد والله تعالى أعلم .

الحكم الثاني : حكم حج الفقير والعبد :

الفقير لا يجب عليه الحج لعدم الاستطاعة ، ولكنه إذا أدى الحج سقط عنه الفرض بالإجماع ، وأما العبد فإنه إذا حج هل تسقط عنه الفريضة ؟

قال (أبو حنيفة) : يقع حجة نفلاً ويجب عليه أن يحج متى عتق ، لأنه يشبه الطفل دون البلوغ فإنه إذا حج ثم بلغ سن الرشد يجب عليه حجة الفريضة ، كذلك العبد إذا حج ثم عتق يجب عليه حجة الفريضة .

وقال (الشافعي) : يجزيه الحج قياساً على الفقير، واستدل بأنّ الجمعة لا تجب على فإذا صلاها سقط عنه الظهر، فكذلك الحج إذا أداه تسقط عنه حجة الفريضة، وهذا الرأي ضعيف فقد نقل عن النووي وهو من أئمة المذهب الشافعي ما يخالف ذلك حيث قال : إن مذهب الشافعية أن العبد إذا أحرم بالحج ثم عتق قبل الوقوف بعرفة أجزأه ذلك عن حجة الإسلام خلافاً لأبي حنيفة ومالك، أمّا إذا كان العتق بعد فوات الحج فإنه لا يجزئه، ولعل هذا هو الرأي الصحيح عند الشافعية فيكون الخلاف بين المذهبين (شكلياً) لا (جوهرياً) لأنهما متفقان على أن العتق إذا كان بعد أداء ركن وهو الوقوف بعرفة أجزأه ذلك عن حجة الإسلام خلافاً لأبي حنيفة ومالك، أمّا إذا كان العتق بعد فوات الحج فإنه لا يجزئه، ولعله هذا هو الرأي الصحيح عند الشافعية فيكون الخلاف بين المذهبين (شكلياً) لا (جوهرياً) لأنهما متفقان على أن العتق إذا كان بعد أداء ركن الحج وهو الوقوف بعرفة فإنه لا يجزئه ويجب عليه الحج مرة أخرى لأن الأول يقل نافلة .

الحكم الثالث : هل المحْرَمْ بالنسبة للمرأة شرط لوجوب الحج ؟

ذهب بعض الفقهاء إلى أن وجود المَحْرم شرط من شروط وجوب الحج وهذا هو مذهب الحنفية ، ودليلهم ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفراً فوق ثلاثٍ إلا مع ذي رحم محرمٍ أو زوج " وهذا عام يشمل كل سفرٍ سواءً كان للحج أو غيره . . واستدلوا أيضاً روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : " خطب النبي صلى الله عليه وسلم فقال : لا تسافر امرأة ومعها ذو محرم ، فقال رجل يا رسول الله إني قد اكتتبت في غزوة كذا ، وقد أرادت امرأتي في أن تحج ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم احجج مع امرأتك " وهذا الحديث يدل على أن المرأة إذا أرادت الحج فليس لها أن تحج إلا مع زوجٍ أو ذي رحم محرم ، فقد أمره عليه الصلاة والسلام أن يترك الجهاد وهو فرض وأن يحج مع امرأته ، ولولا أن وجود المحرم واجب لما أمره بترك الجهاد والسفر مع زوجه .

وذهب الشافعية والحنابلة إلى أنّ حج الفرض لا يجب فيه المحرم بشرط أمن المرأة على نفسها بأن يكون معها عدة من النسوة . . وأما حج النافلة فيجب فيه المحرم ، وهم محجوبون بالأدلة التي ذكرناها مما يشير إلى أن الحج لا يجب على المرأة إلا إذا وجدت محرماً ، لأن وجود المحرم من شرائط الوجوب ، وهذا هو الأرجح .

تنبيه هام : أقول إذا كان الإسلام لم يسمح للمرأة أن تسافر لأداء فريضة الحج إلا مع ذي محرم – والحج أحد أركان الإسلام كما نعلم وهو فريضة على الرجل والمرأة – فكيف يسمح

الناس لبناتهم بالسفر إلى بلاد بعيدة ، أو إلى بلدان أجنبية بحجة الدراسة وطلب العلم ، وليس معهن مَحْرَمٌ أو من يوافقهن من أقاربهن ؟ ! إن هذا - بلا شك - يدل على بعد الناس عن التمسك بآداب الإسلام وتعاليمه الرشيدة ، بل يدل على فقدان الرجولة والشهامة حتى أضحى أمر سفر النساء وتبرجهن واختلاطهن بالرجال أمراً طبيعياً معتاداً وإنا لله وإنا إليه راجعون ! !

الحكم الرابع : ما هي شروط وجوب الحج ؟

(243/125)

شروط وجوب الحج خمسة ، وهي (1 - الإسلام 2 - العقل 3 - البلوغ ، 4 - الاستطاعة ، 5 - وجود محرم مع المرأة) وزاد بعضهم أمن الطريق وهو من شروط الأداء لا من شروط هي شروط لجميع التكاليف الشرعية كالصلاة والصيام .

. الخ ، وأما الشرط الرابع وهو (الاستطاعة) فقد بينته الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ كما بينت السنة النبوية الاستطاعة بأنها ملك (الزاد والراحلة) فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من ملك زاداً وراحلة تبلغه بيت الله ولم يحجّ فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً " وذلك أن الله يقول في كتابه : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ

حِجُّ البيت مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ وروي عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله عز وجل : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ فقال : السبيلُ : الزادُ والراحلة) . .

قال الجصاص : وليست الاستطاعة مقصورة على وجود الزاد والراحلة لأن المريض الخائف ، والشيخ الذي لا يثبت على الراحلة ، والزَّمِنُ وكل من تعذّر عليه الوصول إليه فهو غير مستطيع السبيل إلى الحج وإن كان واجداً للزاد والراحلة ، فدل ذلك على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد بقوله : الاستطاعة (الزادُ والراحلة) أن ذلك جميع شرائط الاستطاعة ، وإنما أفاد ذلك بطلان قول من يقول إن أمكنه المشي ولم يجد زاداً وراحلة فعليه الحج ، فبيّن صلى الله عليه وسلم أن لزوم فرض الحج مخصوص بالركوب دون المشي "

.

أما الشرط الخامس وهو (وجود المحرم للمرأة) فقد استوفينا شرحه فيما سبق والله أعلم

.

الحكم الخامس : هل يجب الحج أكثر من مرة ؟

ظاهر الآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت ﴾ أن الحج لا يجب إلا مرة واحدة في العمر وهو رأي الجمهور إذ ليس في الآية ما يوجب التكرار وقد أكد ذلك النبي صلى الله عليه وسلم بقوله في الحديث الذي رواه أبو هريرة قال : " خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا . . فقال رجل : كلّ عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ثم قال : ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلك بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روائع البيان فى أحكام القرآن حـ 1 صـ 415.405 ﴾

(245/125)

" فصل "

قال السيوطى :

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (96)

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق الشعبي عن علي بن أبي طالب في قوله ﴿ إن أوّل

بيت وضع للناس للذي ببكة ﴾ قال : كانت البيوت قبله ، ولكنه كان أول بيت وصع لعبادة الله .

وأخرج ابن جرير عن مطر . مثله .

وأخرج ابن جرير عن الحسن في الآية قال ﴿ إن أول بيت وضع للناس ﴾ يُعْبَدُ الله فيه ﴿ للذي ببكة ﴾

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وابن جرير والبيهقي في الشعب عن أبي ذر قال " قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال : المسجد الحرام . قلت : ثم أي ؟ قال : المسجد الأقصى قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن عمرو قال : خلق الله البيت قبل الأرض بألفي سنة ، وكان إذ كان عرشه على الماء زبدة بيضاء ، وكانت الأرض تحته كأنها حشفة فدحيت الأرض من تحته .

وأخرج ابن المنذر عن أبي هريرة قال : إن الكعبة خلقت قبل الأرض بألفي سنة وهي من الأرض ، إنما كانت حشفة على الماء عليها ملكان من الملائكة يسبحان ، فلما أراد الله أن يخلق الأرض دحاها منها ، فجعلها في وسط الأرض .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والأزرقي عن مجاهد قوله ﴿ إن أول بيت وضع للناس ﴾ كقوله ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ [آل عمران : 110] .

وأخرج ابن جرير عن السدي قال : أما أول بيت فإنه يوم كانت الأرض ماء كان زبدة على الأرض ، فلما خلق الله الأرض خلق البيت معها . فهو أول بيت وضع في الأرض .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن في الآية قال : أول قبلة أعملت للناس المسجد الحرام .

(246/125)

وأخرج ابن المنذر والأزرقي عن ابن جريج قال " بلغنا أن اليهود قالت : بيت المقدس أعظم من الكعبة لأنها مهاجر الأنبياء ، ولأنه في الأرض المقدسة . فقال المسلمون : بل الكعبة أعظم . فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم . فنزلت ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً ﴾ إلى قوله ﴿ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ﴾ وليس ذلك في بيت المقدس ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ وليس ذلك في بيت المقدس ﴿ ولله على الناس حج البيت ﴾ وليس ذلك لبيت المقدس " .

وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أول بقعة وضعت في الأرض موضع البيت ، ثم مهدت منها الأرض . وإن أول جبل وضعه الله على وجه الأرض أبو قبيس ، ثم مدت منه الجبال " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبد الله بن الزبير قال : إنما

سميت بكة لأن الناس يجيئون إليها من كل جانب حجاجاً .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير والبيهقي في الشعب عن مجاهد قال : إنما سميت بكة لأن الناس يتباكون فيها الرجال والنساء . يعني يزدحمون .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير . مثله .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبيهقي عن مجاهد قال : إنما سميت بكة لأن الناس يبك بعضهم بعضاً فيها ، وانه يحل فيها ما لا يحل في غيرها .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والبيهقي في الشعب عن قتادة قال : سميت بكة لأن الله بك بها الناس جميعاً ، فيصلي النساء قدام الرجال ولا يصلح ذلك ببلد غيره .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عتبة بن قيس قال : إن مكة بكت بكاء الذكر فيها كالأنثى . قيل : عمن تروي هذا ؟ قال : عن ابن عمر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن زيد حميد بن مهاجر قال : إنما سميت بكة لأنها كانت تبك الظلمة .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : البيت وما حوله بكة ، وما وراء ذلك مكة .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي مالك الغفاري قال : بكة موضع البيت ، ومكة ما سوى ذلك .

وأخرج ابن جرير عن ابن شهاب قال : بكة البيت والمسجد ، ومكة الحرم كله .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : بكة هي مكة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : مكة من الفج إلى التنعيم ، وبكة من البيت إلى البطحاء .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : بكة الكعبة ، ومكة ما حولها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان ﴿ مباركاً ﴾ جعل فيه الخير والبركة ﴿ وهدى للعالمين ﴾ يعني بالهدى قبلتهم .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف والبيهقي في الشعب عن الزهري قال : بلغني أنهم وجدوا في مقام إبراهيم ثلاثة صفوح في كل صفح منها كتاب . في الصفح الأول " أنا الله ذو بكة صغتها يوم صغت الشمس والقمر ، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء ، وباركت لأهلها في اللحم واللبن . وفي الصفح الثاني أنا الله ذو بكة خلقت الرحم ، وشققت لها من اسمي ، من وصلها وصلته ، ومن قطعها بتته . وفي الثالث أنا الله ذو بكة خلقت الخير والشر ، فطوبى لمن كان الخير على يديه ، وويل لمن كان الشر على يديه " .

وأخرج الأزرقي عن ابن عباس قال : وجد في المقام كتاب فيه : هذا بيت الله الحرام بكة توكل الله برزق أهله من ثلاثة سبل ، يبارك لأهلها في اللحم ، والماء ، واللبن ، لا يحله أول من أهله ، ووجد في حجر من الحجر كتاب من خلقة الحجر " أنا الله ذو بكة الحرام صغتها يوم صغت الشمس والقمر ، وخففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشابها ، مبارك لأهلها في اللحم والماء " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد والضحاك . نحوه .

وأخرج الجندي في فضائل مكة عن ابن عباس وأبي هريرة قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خلق الله مكة فوضعها على المكروهات والدرجات " قيل لسعيد بن جبير : ما الدرجات ؟ قال : الدرجات الجنة .

وأخرج الأزرقي والجندي عن عائشة قالت : ما رأيت السماء في موضع أقرب منها إلى الأرض من مكة .

وأخرج الأزرقي عن عطاء بن كثير رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم " المقام بمكة سعادة ، وخروج منها شقوة " .

وأخرج الأزرقي والجندي والبيهقي في الشعب وضعفه عن ابن عباس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أدركه شهر رمضان بمكة فصامه كله وقام منه ما تيسر كتب الله له مائة ألف شهر رمضان بغير مكة ، وكتب له كل يوم حسنة ، وكل ليلة حسنة ، وكل يوم عتق رقبة ، وكل ليلة عتق رقبة ، وكل يوم حملان فرس في سبيل الله ، وكل ليلة حملان فرس في سبيل الله ، وله بكل يوم دعوة مستجابة " .

وأخرج الأزرقي والطبراني في الأوسط عن جابر بن عبد الله " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال : هذا البيت دعامة الإسلام من خرج يؤم هذا البيت من حاج أو معتمر كان مضموناً على الله ان قبضه أن يدخله الجنة ، وإن رده أن يرده بأجر أو غنيمة " .

وأخرج البيهقي في الشعب عن جابر بن عبد الله قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، والجمعة في مسجدي هذا أفضل من ألف جمعة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، وشهر رمضان في مسجدي هذا أفضل من ألف شهر رمضان فيما سواه إلا المسجد الحرام " .

وأخرج البزار وابن خزيمة والطبراني والبيهقي في الشعب عن أبي الدرداء قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره مائة ألف صلاة ، وفي مسجدي ألف صلاة ، وفي مسجد بيت المقدس بخمسمائة صلاة " .

وأخرج ابن ماجة عن أنس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صلاة الرجل في بيته بصلاة ، وصلاته في مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة ، وصلاته في المسجد الذي يجمع فيه بخمسمائة صلاة ، وصلاته في المسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة ، وصلاته في مسجدي بخمسين ألف صلاة ، وصلاته في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة " .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم والنسائي وابن ماجة عن ابن عمر :

" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام " .

وأخرج الطيالسي وأحمد والبزار وابن عدي والبيهقي وابن خزيمة وابن حبان عن عبد الله بن الزبير قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة في مسجدي هذا " قيل لعطاء : هذا الفضل الذي يذكر في المسجد الحرام وحده أو في الحرم ؟ قال : لا . بل في الحرم ، فإن الحرم كله مسجد .

وأخرج أحمد وابن ماجة عن جابر : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة والبيهقي عن أبي هريرة : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام " .

وأخرج البزار عن عائشة قالت : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا خاتم الأنبياء ، ومسجدي خاتم مساجد الأنبياء ، أحق المساجد أن يزار ، وتشد إليه الرواحل : المسجد الحرام ، ومسجدي . صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام " .

(250/125)

وأخرج الطيالسي وابن أبي شيبة وأحمد وابن منيع والروياني وابن خزيمة والطبراني عن جبير بن مطعم قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام " .

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97)

أخرج سعيد بن منصور والفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف

عن ابن عباس أنه كان يقرأ " فيه آية بينة مقام إبراهيم " .

وأخرج ابن الأنباري عن مجاهد أنه كان يقرأ " فيه آيات بينة " .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم بن أبي النجود ﴿ فيه آيات بينات ﴾ على الجمع .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس ﴿ فيه آيات بينات ﴾ منهن مقام إبراهيم ، والمشعر .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد وقتادة في الآية قالا : مقام إبراهيم من الآيات البينات .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن في قوله ﴿ فيه آيات بينات ﴾ قال : ﴿ مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والأزرقي عن مجاهد ﴿ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ﴾ قال : أثر قدميه في المقام آية بينة ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ قال : هذا شيء آخر .

وأخرج الأزرقي عن زيد بن أسلم ﴿ فيه آيات بينات ﴾ قال : الآيات البينات هنَّ مقام إبراهيم ﴿ ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت ﴾ وقال ﴿ يأتين من كل فج عميق ﴾ [الحج : 27] .

وأخرج ابن الأنباري عن الكلبي ﴿ فيه آيات بينات ﴾ قال ﴿ الآيات ﴾ الكعبة ، والصفا ، والمروة ، ومقام إبراهيم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ قال : هذا كان في الجاهلية ، كان الرجل لو جر كل جريرة على نفسه ثم لجأ إلى حرم الله لم يتناول ولم يطلب ، فاما في الإِسلام فإنه لا يمنع من حدود الله ، ومن سرق فيه قطع ، ومن زنى فيه أقيم عليه الحد ، ومن قتل فيه قتل .

وأخرج الأزرقي عن مجاهد . مثله .

وأخرج ابن المنذر والأزرقي عن حويطب بن عبد العزى قال : أدركت في الجاهلية في الكعبة حلقاً أمثال لُجَمِ البُهْمِ ، لا يُدخل خائف يده فيها ويهيجه أحد ، فجاء خائف ذات يوم فادخل يده فيها فجاءه آخر من ورائه فاجتذ به فشلت يده ، فلَقد رأيته أدرك الإِسلام وأنه لأشل .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والأزرقي عن عمر بن الخطاب قال : لو وجدت فيه قاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ قال : من عاذ بالبيت أعاذه البيت ، ولكن لا يؤذي ، ولا يطعم ، ولا

يسقى ، ولا يرعى . فإذا خرج أخذ بذنبه .

وأخرج ابن المنذر والأزرقي من طريق طاوس عن ابن عباس في قوله ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ قال : من قتل ، أو سرق في الحل ثم دخل الحرم فإنه لا يجالس ، ولا يكلم ، ولا يؤوى ، ولكنه يناشد حتى يخرج فيؤخذ فيقام عليه فإن قتل ، أو سرق في الحل فادخل الحرم فارادوا أن يقيموا عليه ما أصاب ، اخرجوه من الحرم إلى الحل فأقيم عليه ، وإن قتل في الحل أو سرق ، أقيم عليه في الحرم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير من طريق مجاهد عن ابن عباس قال : إذا أصاب الرجل الحد ، قتل أو سرق ، فدخل الحرم ، لم يبايع ولم يؤْوَ حتى يتبرم فيخرج من الحرم ، فيقام عليه في الحد .

وأخرج ابن المنذر عن طاوس قال : عاب ابن عباس على ابن الزبير في رجل أخذ في الحل ، ثم أدخله الحرم ، ثم أخرجه إلى الحل فقتله .

وأخرج عن الشعبي قال : من أحدث حدثاً ثم لجأ إلى الحرم فقد أَمِنَ ولا يعرض له ، وان أحدث في الحرم أقيم عليه .

وأخرج ابن جرير من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : من أحدث حدثاً ثم استجار بالبيت فهو آمن ، وليس للمسلمين أن يعاقبوه على شيء إلى أن يخرج ، فإذا خرج أقاموا عليه الحد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير من طريق عطاء عن ابن عباس قال : من أحدث حدثاً في غير الحرم ثم لجأ إلى الحرم لم يعرض له ، ولم يبايع ، ولم يؤوَ حتى يخرج من الحرم ، فإذا خرج من الحرم أُخِذَ فأقيم عليه الحد ، ومن أحدث في الحرم حدثاً أقيم عليه الحد .

وأخرج ابن جرير عن ابن عمر قال : لو أخذت قاتل عمر في الحرم ما هجته .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس قال : لو وجدت قاتل أبي في الحرم لم أعرض له .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في الآية قال : كان الرجل في الجاهلية يقتل الرجل ثم يدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول أبو أبوه فلا يحركه .

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي شريح العدوي قال " قام النبي صلى الله عليه وسلم الغد من يوم الفتح فقال : إن مكة حرَّمها الله ولم يحرِّمها الناس ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ، ولا يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا : إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما لي ساعة من نهار ، ثم عادت حرمتها اليوم بالأمس " .

وأخرج سعيد بن منصور عن ابن عمرو قال " مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بناس من قريش جلوس في ظل الكعبة ، فلما انتهى إليهم سلَّم ثم قال : اعلموا أنها مسؤولة عما يعمل فيها ، وإن ساكنها لا يسفك دماً ، ولا يمشي بالنميمة " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن يحيى بن جعدة بن هبيرة في قوله ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ قال : آمناً من النار .

(253/125)

وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من دخل البيت دخل في حسنة وخرج من سيئة مغفوراً له " .

وأخرج ابن المنذر عن عطاء قال : من مات في الحرم بعث آمناً . يقول الله ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ . وأخرج البيهقي في الشعب عن جابر قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مات في أحد الحرمين بعث أمناً " .

وأخرج البيهقي في الشعب وضعفه عن سلمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من مات في أحد الحرمين استوجب شفاعتي ، وجاء يوم القيامة من الآمنين " .

وأخرج الجندي والبيهقي عن أنس بن مالك قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

من مات في أحد الحرمين بعث من الآمنين يوم القيامة ، ومن زارني محتسباً إلى المدينة كان في جواري يوم القيامة " .

وأخرج الجندي عن محمد بن قيس بن مخرمة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " من مات في أحد الحرمين بعث من الآمنين يوم القيامة " .

وأخرج الجندي عن ابن عمر قال : من قُبِرَ بمَكة مسلماً بُعِثَ آمناً يوم القيامة .

أما قوله تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت ﴾ الآية .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجة : وابن أبي حاتم والحاكم عن علي قال " لما نزلت ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ قالوا : يا رسول الله في كل عام ؟ فسكت . . قالوا : يا رسول الله في كل عام ؟ قال : لا . ولو قلت نعم لوجبت . فأنزل الله ﴿ لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ [المائدة : 101] " .

وأخرج عبد حميد وابن المنذر عن ابن عباس قال : " لما نزلت ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ قال : يا رسول الله أفي كل عام ؟ فقال : حج حجة الإسلام التي عليك . ولو قلت نعم وجبت عليكم " .

وأخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: " خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج. فقام الأقرع بن حابس فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ قال: لو قلتها لوجبت، ولو وجبت لم تعملوا بها ولم تستطيعوا أن تعملوا بها. الحج مرة فمن زاد فتطوّع".

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال: " لما نزلت ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ قال رجل: يا رسول الله أفي كل عام؟ قال: والذي نفسي بيده لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما قمتم بها، ولو تركتموها لكفرتم. فذروني فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم أنبياءهم واختلافهم عليهم، فإذا أمرتكم بأمر فأتمروه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن أمر فاجتنبوه".

وأخرج الشافعي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عدي وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عمر قال " قام رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: من الحاج يا رسول الله؟ قال: الشعث التفل. فقام آخر فقال: أي الحج أفضل يا رسول الله؟ قال: العج والثج. فقام آخر فقال: ما السبيل يا رسول الله؟ قال: الزاد والراحلة".

وأخرج الدارقطني والحاكم وصححه عن أنس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قول الله ﴿ من استطاع إليه سبيلاً ﴾ فقيل ما السبيل؟ قال: الزاد والراحلة".

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والدارقطني والبيهقي في سننهما عن الحسن قال " قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ قالوا : يا رسول الله ما السبيل ؟ قال : الزاد والراحلة " .

وأخرج الدارقطني والبيهقي في سننهما من طريق الحسن عن أبيه عن عائشة قالت " سئل النبي صلى الله عليه وسلم ما السبيل إلى الحج ؟ قال : الزاد والراحلة " .

(255/125)

وأخرج الدارقطني في سننه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ قال " قيل يا رسول الله ما السبيل ؟ قال : الزاد والراحلة " .

وأخرج الدارقطني عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى لله عليه وسلم قال " السبيل إلى البيت : الزاد والراحله " .

وأخرج الدارقطني عن جابر بن عبد الله قال " لما نزلت هذه الآية ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ قام رجل فقال : يا رسول الله ما السبيل ؟ قال : الزاد

والراحلة " .

وأخرج الدارقطني عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ قال : " فسئل عن ذلك فقال : " تجد ظهر بعير " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن عمر بن الخطاب في قوله ﴿ من استطاع إليه سبيلاً ﴾ قال : الزاد والراحلة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله ﴿ من استطاع إليه سبيلاً ﴾ قال : الزاد والبعير . وفي لفظ الراحلة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن ابن عباس في قوله ﴿ من استطاع إليه سبيلاً ﴾ قال : السبيل أن يصح بدن العبد ، ويكون له ثمن زاد وراحلة من غير أن يجحف به .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن ابن عباس قال ﴿ سبيلاً ﴾ من وجد إليه سعة ولم يحل بينه وبينه .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن عبد الله بن الزبير ﴿ من استطاع إليه سبيلاً ﴾ قال : الاستطاعة القوة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد ﴿ من استطاع إليه سبيلاً ﴾ قال : زاداً وراحلة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير والحسن وعطاء . مثله .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي قال : إن المحرم للمرأة من السبيل

الذي قال الله .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تسافر امرأة مسيرة ليلة " وفي لفظ "لا تسافر المرأة بريداً إلا مع ذي محرم " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس قال : "سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يخطب يقول : لا تسافر امرأة إلا مع ذي محرم . فقام رجل فقال : يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة ، وإني كنت في غزوة كذا وكذا . فقال : انطلق فحُجَّ مع امرأتك " .

وأخرج الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب وابن مردويه عن علي قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحجَّ بيت الله فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً ، وذلك بأن الله يقول ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ "

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد في كتاب الإيمان وأبو يعلى والبيهقي عن أبي أمامة قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مات ولم يحج حجة الإسلام ، لم يمنعه مرض حابس ، أو سلطان جائر ، أو حاجة ظاهرة ، فليمت على أي حال شاء يهودياً أو نصرانياً

" .

وأخرج ابن المنذر عن عبد الرحمن بن سابط مرفوعاً مرسلاً . مثله .

وأخرج سعيد بن منصور بسند صحيح عن عمر بن الخطاب قال : لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار ، فلينظروا كل من كان له جدة ولم يحج فيضربوا عليهم الجزية . ما هم بمسلمين ما هم بمسلمين .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة عن عمر بن الخطاب قال : من مات وهو موسر لم يحج . فليمت إن شاء يهودياً ، وإن شاء نصرانياً .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم من طريق مجاهد عن ابن عمر قال : من كان يجد وهو موسر صحيح لم يحج كان سماه بين عينيه كافراً . ثم تلا هذه الآية ﴿ ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ ولفظ ابن أبي شيبة : من مات وهو موسر ولم يحج ، جاء يوم القيامة وبين عينيه مكتوب كافراً .

وأخرج سعيد بن منصور من طريق نافع عن ابن عمر قال : من وجد إلى الحج سبيلاً سنة ، ثم مات ولم يحج لم يصل عليه ؛ لا يدري مات يهودياً ، أو نصرانياً .

وأخرج سعيد بن منصور عن عمر بن الخطاب قال : لو ترك الناس الحج لقاتلتهم عليه كما نقاتلهم على الصلاة والزكاة .

وأخرج سعيد بن منصور عن ابن عباس قال : لو أن الناس تركوا الحج عاماً واحداً لا يحج أحد ما نوظروا بعده .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ومن كفر ﴾ قال : من زعم أنه ليس بفرض عليه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس في الآية قال : من كفر بالحج فلم ير حجه براً ، ولا تركه مأثماً .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في سننه عن عكرمة قال " لما نزلت ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً . . . ﴾ [آل عمران : 85] الآية . قالت اليهود : فنحن مسلمون . فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم . إن الله فرض على المسلمين حج البيت فقالوا : لم يكتب علينا . وأبوا أن يحجوا قال الله ﴿ ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة قال : لما نزلت ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً . . . ﴾ الآية . قالت الملل . نحن المسلمون . فأنزل الله ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ فحج المسلمون وقعد

الكفار.

وأخرج عبد بن حميد والبيهقي في سننه عن مجاهد قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ ومن يبتغ غير الإِسلام ديناً ﴾ الآية. قال: أهل الملل كلهم: نحن مسلمون. فأنزل الله ﴿ ولله على الناس حج البيت ﴾ قال: يعني على المسلمين. حج المسلمون وترك المشركون.

(258/125)

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الضحاك قال " لما نزلت آية الحج ﴿ ولله على الناس جح البيت ﴾ الآية جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الملل؛ مشركي العرب، والنصارى، واليهود، والمجوس، والصابئين، فقال: إن الله فرض عليكم الحج فحجوا البيت. فلم يقبله إلا المسلمون، وكفرت به خمس ملل. قالوا: لا نؤمن به، ولا نصلي إليه، ولا نستقبله. فأنزل الله ﴿ ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ ".

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي داود نفيع قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ فقام رجل من هذيل فقال: يا رسول الله من تركه كفر؟ قال: من تركه لا يخاف

عقوبته ، ومن حج لا يرجو ثوابه فهو ذاك " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله ﴿ ومن كفر ﴾ قال " من كفر بالله واليوم الآخر " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد أنه سئل عن قول الله ﴿ ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ ما هذا الكفر ؟ قال : من كفر بالله واليوم الآخر .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عطاء بن أبي رباح . في الآية قال : من كفر بالبيت .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد أنه سئل عن ذلك فقرأ ﴿ إن أول بيت وضع للناس ﴾ إلى قوله ﴿ سبيلاً ﴾ ثم قال : من كفر بهذه الآيات .

وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود في الآية قال : ومن كفر فلم يؤمن فهو الكافر .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير قال : لو كان لي جار موسر ، ثم مات ولم يحجَّ لم أصلِّ عليه .

وأخرج عبد بن حميد عن الأعمش أنه قرأ ﴿ ولله على الناس حج البيت ﴾ بكسر الحاء .

وأخرج عن عاصم بن أبي النجود ﴿ ولله على الناس حج البيت ﴾ بنصب الحاء .

وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم وصححه عن ابن عباس " أن الأقرع بن حابس سأل النبي صلى الله عليه وسلم الحج في كل سنة . أو مرة واحدة ؟ قال : لا . بل مرة واحدة ، فمن زاد فتطوّع " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 2 صـ 265 . 277﴾

(260/125)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرَيمِ

وِيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاَقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والعشرون بعد المائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/126)

الجزء السادس والعشرون بعد المائة

من الآية ﴿ 98 ﴾ من سورة آل عمران

وحتى الآية ﴿ 108 ﴾ من نفس السورة

(4/126)

قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (98) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (99) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أتم سبحانه وعز شأنه البراهين وأحكم الدلائل عقلاً وسمعاً ، ولم يبق لمتعنت شبهة ، ولم يبادروا الإذعان ، بل زادوا في الطغيان ، وكادوا أن يوقعوا الضراب والطعان بين أهل الإيمان ، أعرض سبحانه وتعالى عن خطابهم إيذاناً بشديد الغضب ورابع الانتقام فقال سبحانه وتعالى مخاطباً لرسوله الذي يكون قتلهم على يده : ﴿ قل ﴾ وأثبت أداة دالة على بعدهم عن الحضرة القدسية فقال : ﴿ يا أهل الكتاب ﴾ أي من الفريقين ﴿ لم تكفرون ﴾ أي توقعون الكفر ﴿ بآيات الله ﴾ أي وهي - لكونه الحائز بجميع الكمال - البينات نقلاً وعقلاً الدالة على أنكم على الباطل لما وضح من أنكم على غير ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

ولما كان كفرهم ظاهراً ذكر شهادته تعالى فقال مهدداً ﴿ والله ﴾ أي والحال أن الله الذي هو محيط بكل شيء قدرة وعلماً فلا إله غيره وقد أشركتم به ﴿ شهيد على ﴾ كل ﴿ ما تعملون ﴾ أي لكونه يعلم سبحانه السر وأخفى وإن حرفتم وأسررتم .

ثم استأنف إيذاناً بالاستقلال تقريعاً آخر لزيادتهم على الكفر التكفير فقال : ﴿ قل يا آهل الكتاب ﴾ أي المدعين للعلم واتباع الوحي ، كرر هذا الوصف لأنه مع أنه أبعد في التقريع أقرب إلى التطلف في صرفهم عن ضلالهم ﴿ لم تصدون ﴾ أي بعد كفركم ﴿ عن سبيل الله ﴾ أي الملك الذي له القهر والعز والعظمة والاختصاص بجميع صفات الكمال ، وسبيله دينه الذي جاء به نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وقدمه اهتماماً به .

ثم ذكر المفعول فقال : ﴿ من أمن ﴾ حال كونكم ﴿ تبغونها ﴾ أي السبيل ﴿ عوجاً ﴾ أي بليكم ألسنتكم وافترائكم على الله ، ولم يفعل سبحانه وتعالى إذ أعرض عنهم في هذه الآية ما فعل من قبل إذ أقبل عليهم بلذيذ خطابه تعالى جده وتعاظم مجده إذ قال : ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم ﴾ [آل عمران : 65] ﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون ﴾ [آل عمران : 70] والآية التي بعدها بغير واسطة .

ولما ذكر صدهم وإرادتهم العوج الذي لا يرضاه ذو عقل قال موبخاً : ﴿ وأنتم شهداء ﴾ أي باستقامتها بشهادتكم باستقامة دين إبراهيم مع قيام أدلة السمع والعقل أنها دينه وأن النبي والمؤمنين أولى الناس به لانقيادهم للأدلة .

ولما كان الشهيد قد يغفل ، وكانوا يخفون مكرهم في صدهم ، هددهم بإحاطة علمه فقال : ﴿ وما الله ﴾ أي الذي تقدم أنه شهيد عليكم وله صفات الكمال كلها ﴿ بغافل ﴾ أي أصلاً ﴿ عما تعملون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 129.130 ﴾ . بتصرف يسير .

وقال ابن عاشور :

قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾

ابتداء كرم رُجع به إلى مجادلة أهل الكتاب وموعظتهم فهو مرتبط بقوله تعالى : ﴿ قل صدق الله ﴾ الآية .

أمر الرّسول عليه الصلاة والسّلام بالصدع بالإنكار على أهل الكتاب .

بعد أن مهّد بين يدي ذلك دلائل صحّة هذا الدّين ولذلك افتتح بفعل ﴿ قل ﴾ اهتماماً بالمقول ، وافتتح المقول بنداء أهل الكتاب تسجيلاً عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 169 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن في كيفية النظم وجهين

الأول : وهو الأوفق : أنه تعالى لما أورد الدلائل على نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام مما ورد في التوراة والإنجيل من البشارة بمقدمه ، ثم ذكر عقيب ذلك شبهات القوم .

فالشبهة الأولى : ما يتعلق بإنكار النسخ .

وأجاب عنها بقوله ﴿ كُلُّ الطعام كَانَ حِلاًّ لِّبَنِى إسرائيل إِلاَّ مَا حَرَّمَ إسرائيل على نَفْسِهِ ﴾ [آل عمران : 93] .

والشبهة الثانية : ما يتعلق بالكعبة ووجوب استقبالها في الصلاة ووجوب حجها .

وأجاب عنها بقوله ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : 96] إلى آخرها ، فعند هذا تمت وظيفة الاستدلال وكمل الجواب عن شبهات أرباب الضلال ، فعند ذلك خاطبهم بالكلام اللين وقال : ﴿ لِمَ تَكْفُرُونَ بآيات الله ﴾ بعد ظهور البينات وزوال الشبهات ، وهذا هو الغاية القصوى في ترتيب الكلام وحسن نظمه .

الوجه الثاني : وهو أنه تعالى لما بين فضائل الكعبة ووجوب الحج ، والقوم كانوا عالمين بأن هذا هو الدين الحق والملة الصحيحة قال لهم : ﴿ لِمَ تَكْفُرُونَ بآيَاتِ الله ﴾ بعد أن علمتم كونها حقة صحيحة .

واعلم أن المبطل إما أن يكون ضالاً فقط ، وإما أن يكون مع كونه ضالاً يكون مضلاً ، والقوم كانوا موصوفين بالأمرين جميعاً فبدأ تعالى بالإنكار عليهم في الصفة الأولى على سبيل الرفق واللطف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 136.137 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ يا أهل الكتاب لِمَ تَكْفُرُونَ بِأَيَاتِ الله ﴾ واختلفوا فيمن المراد بأهل الكتاب ، فقال

الحسن : هم علماء أهل الكتاب الذين علموا صحة نبوته ، واستدل عليه بقوله ﴿ وَأَنْتُمْ شُهَدَاء ﴾ وقال بعضهم : بل المراد كل أهل الكتاب لأنهم وإن لم يعلموا فالحجة قائمة عليهم فكأنهم بترك الاستدلال والعدول إلى التقليد بمنزلة من علم ثم أنكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 137 ﴾

(7/126)

سؤال : فإن قيل : ولم خص أهل الكتاب بالذكر دون سائر الكفار ؟ .

قلنا لوجهين : الأول : أنا بينا أنه تعالى أورد الدليل عليهم من التوراة والإنجيل على صحة نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم أجاب عن شبههم في ذلك ، ثم لما تّم ذلك خاطبهم فقال : ﴿ يا أَهْلَ الكتاب ﴾ فهذا الترتيب الصحيح

الثاني : أن معرفتهم بآيات الله أقوى لتقدم اعترافهم بالتوحيد وأصل النبوّة ، ولمعرفتهم بما في كتبهم من الشهادة بصدق الرسول والبشارة بنبوته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 137 ﴾

وقال الطبرى :

يعني بذلك : يا معشر يهود بني إسرائيل وغيرهم من سائر من ينتحل الدِّيانة بما أنزلَ الله عز

وجل من كتبه ، ممن كفَر بمحمد صلى الله عليه وسلم وجحد نبوَّته : "لم تكفرون بآيات الله" ، يقول : لم تجحدونُ حجج الله التي آتاها محمدًا في كتبكم وغيرها ، التي قد ثبتت عليكم بصدقه ونبوَّته وحُجته .

وأنتم تعلمون : يقول : لم تجحدون ذلك من أمره ، وأنتم تعلمون صدقه ؟ فأخبر جل ثناؤه عنهم أنهم متعمِّدون الكفر بالله وبرسوله على علم منهم ، ومعرفةٍ من كفرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 7 صـ 52 ﴾

فصل

قال الفخر :

قالت المعتزلة في قوله تعالى : ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله ﴾ دلالة على أن الكفر من قبلهم حتى يصح هذا التوبيخ وكذلك لا يصح توبيخهم على طولهم وصحتهم ومرضهم .

والجواب عنه : المعارضة بالعلم والداعي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 137 ﴾

فصل

قال الفخر :

المراد ﴿ مِنْ آيات الله ﴾ الآيات التي نصبها الله تعالى على نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام ، والمراد بكفرهم بها كفرهم بدلالتها على نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام .

ثم قال: ﴿ والله شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴾ الواو للحال والمعنى: لم تكفرون بآيات الله التي دلتكم على صدق محمد عليه الصلاة والسلام، والحال أن الله شهيد على أعمالكم ومجازيكم عليها وهذه الحال توجب أن لا تجترؤا على الكفر بآياته. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 137 ﴾

(8/126)

من فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله:

﴿ قُلْ يا أهل الكتاب لِمَ تَكْفُرُونَ بئايات الله ﴾ خاطبهم بعنوان أهلية الكتاب الموجبة للإيمان به وبما يصدقه مبالغة في تقبيح حالهم في تكذيبهم بذلك والاستفهام للتوبيخ والإشارة إلى تعجيزهم عن إقامة العذر في كفرهم كأنه قيل: هاتوا عذركم إن أمكنكم. والمراد من الآيات مطلق الدلائل الدالة على نبوة رسوله صلى الله عليه وسلم وصدق مدعاه الذي من جملته الحج وأمره به، وبه تظهر مناسبة الآية لما قبلها، وسبب نزولها ما أخرجه ابن إسحاق وجماعة عن زيد بن أسلم قال: مرّ شاس بن قيس وكان شيخاً قد عسا في الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم على نفر من

أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار فأمر فتى شاباً معه من يهود فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم ثم ذكرهم يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، وكان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ففعل، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب أوس بن قيظي أحد بني حارثة من الأوس وهبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددناها الآن وغضب الفريقان جميعاً وقالوا قد فعلنا السلاح السلاح موعدكم الظاهرة والظاهرة الحرة فخرجوا إليها وانضمت الأوس بعضها إلى بعض والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من

أصحابه حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين اللَّهَ اللَّهَ أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله تعالى إلى الإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد لهم من عدوهم فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا وعانق الرجال بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين قد أطفأ الله تعالى عنهم كيد عدو الله تعالى شماس ، وأنزل الله تعالى في شأن شاس وما صنع ﴿ قُلْ يا أَهْلَ الكتاب لِمَ تَكْفُرُونَ ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ وَمَا الله بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران : 98 ، 99] وأنزل في أوس بن قيظي وهبار ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا ﴿ المحسنين يا أيها الذين ءامَنُواْ إِن تُطِيعُواْ ﴾ [آل عمران : 149] الآية ، وعلى هذا يكون المراد من أهل الكتاب ظاهراً اليهود . وقيل : المراد منه ما يشمل اليهود والنصارى .

﴿ والله شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴾ جملة حالية العامل فيها ﴿ تَكْفُرُونَ ﴾ وهي مفيدة لتشديد التوبيخ والإظهار في موضع الإضمار لما مرّ غير مرة والشهيد العالم المطلع ، وصيغة المبالغة للمبالغة في الوعيد وجعل الشهيد بمعنى الشاهد تكلف لا داعي إليه ، و ﴿ مَا ﴾ إما عبارة عن كفرهم ، وإما على عمومها وهو داخل فيها دخولاً أولياً والمعنى لأي سبب تكفرون ، والحال أنه لا يخفى عليه بوجه من الوجوه جميع أعمالكم وهو مجازيكم عليها

على أتم وجه ولا مرية في أن هذا مما يسد عليكم طرق الكفر والمعاصي ويقطع أسباب ذلك أصلاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 15.14 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

الخطاب بهذه الآية لتأكيد الحجة عليهم ، ومن حيث الحقيقة والقهر يَسُدُّ الحجة عليهم ، فهم مدعوون – شرعاً وأمراً ، مطرودون – حُكْماً وقهراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 265 ﴾

(10/126)

قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (99) ﴾

قال الفخر :

إنه تعالى لما أنكر عليهم في ضلالهم ذكر بعد ذلك الإنكار عليهم في إضلالهم لضعفة المسلمين فقال : ﴿ قُلْ يا أهل الكتاب لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله مَنْ ءامَنَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 138 ﴾

قال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ قل يا أهل الكتاب لم تصدون ﴾ توبيخ ثان وإنكار على مجادلتهم لإضلالهم المؤمنين بعد أن أنكر عليهم ضلالهم في نفوسهم ، وفُصِل بلا عطف للدلالة على استقلاله بالقصد ، ولو عطف لصحّ العطف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 170.169 ﴾

فائدة

قال البيضاوى :

﴿ قُلْ يا أهل الكتاب لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله مَنْ ءامَنَ ﴾ كرر الخطاب والاستفهام مبالغة في التقريع ونفي العذر لهم ، وإشعاراً بأن كل واحد من الأمرين مستقبح في نفسه مستقل باستجلاب العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 71 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قال المفسرون : وكان صدهم عن سبيل الله بإلقاء الشبه والشكوك في قلوب الضعفة من المسلمين وكانوا ينكرون كون صفته صلى الله عليه وسلم في كتابهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 138 ﴾

قوله تعالى : ﴿ تَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾

فصل

قال الفخر :

العوج بكسر العين الميل عن الاستواء في كل ما لا يرى ، وهو الدين والقول ، فأما الشيء الذي يرى فيقال فيه : عوج بفتح العين كالحائط والقناة والشجرة ، قال ابن الأنباري : البغي يقتصر له على مفعول واحد إذا لم يكن معه اللام كقولك : بغيت المال والأجر والثواب وأُريد هنا : تبغون لها عوجاً ، ثم أسقطت اللام كما قالوا : وهبتك درهماً أي وهبت لك درهماً ، ومثله صدت لك ظبياً وأنشد :

فتولى غلامهم ثم نادى . . أظليما أصيدكم أم حماراً

أراد أصيد لكم والهاء في ﴿ تَبْغُونَهَا ﴾ عائدة إلى ﴿ السبيل ﴾ لأن السبيل يؤنث ويذكر و﴿ العوج ﴾ يعني به الزيغ والتحريف ، أي تلتمسون لسبيله الزيغ والتحريف بالشبه التي توردونها على الضعفة نحو قولهم : النسخ يدل على البداء وقولهم : إنه ورد في التوراة أن شريعة موسى عليه السلام باقية إلى الأبد ، وفي الآية وجه آخر وهو أن يكون ﴿ عِوَجَا ﴾ في موضع الحال والمعنى : تبغونها ضالين وذلك أنهم كأنهم كانوا يدعون أنهم على دين الله وسبيله فقال الله تعالى : إنكم تبغون سبيل الله ضالين وعلى هذا القول لا يحتاج إلى إضمار

اللام في تبغونها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 138 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ شُهَدَاء ﴾

قال الفخر :

فيه وجوه

الأول : قال ابن عباس رضي الله عنهما : يعني أنتم شهداء أن في التوراة أن دين الله الذي لا يقبل غيره هو الإسلام

الثاني : وأنتم شهداء على ظهور المعجزات على نبوته صلى الله عليه وسلم

الثالث : وأنتم شهداء أنه لا يجوز الصد عن سبيل الله

الرابع : وأنتم شهداء بين أهل دينكم عدول يثقون بأقوالكم ويعولون على شهادتكم في عظام الأمور وهم الأحبار والمعنى : أن من كان كذلك فكيف يليق به الإصرار على الباطل والكذب والضلال والإضلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 138 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله: ﴿ وأنتم شهداء ﴾ حال أيضاً توازن الحال في قوله قبلها ﴿ والله شهيد على ما تعملون ﴾ ومعناه وأنتم عالمون أنّها سبيل الله.

وقد أحالهم في هذا الكلام على ما في ضمائرهم مِمَّا لا يعلمه إلاّ الله لأنّ ذلك هو المقصود من وخز قلوبهم، وانثنائهم باللائمة على أنفسهم، ولذلك عقّبه بقوله: ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ وهو وعيد وتهديد وتذكير لأنّهم يعلمون أنّ الله يعلم ما تخفي الصدور وهو بمعنى قوله في موعظتهم السابقة ﴿ والله شهيد على ما تعملون ﴾ إلاّ أنّ هذا أغلظ في التّوبيخ لما فيه من إبطال اعتقاد غفلته سبحانه، لأنّ حالهم كانت بمنزلة حال من يعتقد ذلك. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ 171 ﴾

وقال أبو حيان:

﴿ وأنتم شهداء ﴾ أي بالعقل نحو: ﴿ وألقى السمع وهو شهيد ﴾ أي عارف بعقله، وتارة بالفعل.

نحو قال: ﴿ فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ وتارة بإقامة ذلك، أي شهدتم بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثه على ما في التوراة من صفته وصدقه.

وقال الزمخشري: وأنتم شهداء أنها سبيل الله التي لا يصدّ عنها إلا ضال مضلٌّ.

أو وأنتم شهداء بين أهل دينكم عدول يثقون بأقوالكم، ويستشهدون في عظام أمورهم، وهم الأحبار انتهى.

قيل : وفي قوله : ﴿ وأنتم شهداء ﴾ دلالة على أن شهادة بعضهم على بعض جائزة ، لأنه تعالى سماهم شهداء ، ولا يصدق هذا الاسم إلا على من يكون له شهادة .

وشهادتهم على المسلمين لا تجوز بإجماع ، فتعين وصفهم بأن تجوز شهادة بعضهم على بعض ، وهو قول أبي حنيفة وجماعة .

والأكثرون على أنَّ شهادتهم لا تقبل بحال ، وأنّهم ليسوا من أهل الشهادة . انتهى . اهـ

﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 17 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

(13/126)

" لِمَ " : متعلق بالفعل بعده ، و" من آمن " مفعوله والعامة على " تَصِدُّون " - بفتح التاء - من صَدَّ يَصُدُّ - ثلاثياً - ويُستعْمَل لازماً ومتعدياً .

وقرأ الحسن " تُصِدُّونَ " - بضم التاء - من أصَدَّ - مثل أعد - ووجهه أن يكون عدى " صَدَّ " اللازم بالهمزة كقول ذي الرمة : [الطويل]

أناسٌ أصَدُّوا النَّاسَ بِالسَّيْفِ

عَنْهُمْ. . . . .

قال الفراء: يقال: صَدَدتُه، أَصُدُّه، صَدًّا. وأَصْدَدتُهُ، إِصْداداً.

وكان صدهم عن سبيل الله بإلقاءِ الشُّبَه في قلوب الضَّعَفَة من المسلمين، وكانوا يُنْكِرون كَوْنَ صفته في كتابهم.

قوله: ﴿تَبْغُونَهَا﴾ يجوز أن تكون جملةً مستأنفةً، أخبر عنهم بذلك - وأن تكون في محل نَصْب على الحال، وهو أظهر من الأول؛ لأن الجملةَ الاستفهاميةَ السابقة جِيء بعدَها بجملة حالية - أيضاً - وهي قوله: ﴿واللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾. ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة: 84].

فتتفق الجملتان في انتصاب الحال عن كل منهما، ثم إذا قُلْنا بأنها حال، ففي صاحبها احتمالان:

أحدهما: أنه فاعل "تَصُدُّونَ".

والثاني: أنه ﴿سَبِيلِ اللهِ﴾.

وإن جاز الوجهان لأن الجملة - اشتملت على ضمير كل منهما.

والضمير في ﴿تَبْغُونَهَا﴾ يعود على ﴿سَبِيلِ﴾ فالسبيل يذَكَّر ويؤنث كما تقدم ومن التأنيث هذه الآية، وقوله: ﴿قُلْ هذه سبيلي﴾ [يوسف: 108].

وقول الشاعر: [الوافر]

فَلاَ تَبْدُ فَكُلُّ فَتَى أنَاسٍ . . . سَيُصْبحُ سَالِكاً تِلْكَ السَّبِيلا

قوله (عوجاً) فيه وجهان :

أحدهما : أنه مفعول به ، وذلك أن يُراد بـ " تَبْغُونَ " تطلبون .

قال الزجَّاج والطبريّ : تطلبون لها اعوجاجاً .

(14/126)

تقول العرب : ابْغِني كذا - بوصل الألف - أي : أطْلُبه لي ، وأبْغِني كذا - بقطع ، الألف - أي : أعِنّي على طلبه .

قال ابنُ الأنباري : البغي يقتصر له على مفعول واحد إذا لم يكن معه اللام ، كقولك : بغيت المال والأجر والثواب .

وههنا أريد يبغون لها عوجاً ، فلما سقطت اللام عمل الفعل فيما بعدَها ، كما قالوا وهبتك درهماً ، يريدون وهبت لك ، ومثله : صِدْتُك ظبياً ، أي : صدت لك .

قال الشاعر : [الخفيف]

فَتَوَلَّى غُلاَمُهُمْ ثُمَّ نَادَى . . . أظَلِيماً أصِيدُكُمْ أمْ حِمَارا

يريد : أصيد لكم ظليماً ؟

ومثله : " جنيتك كمأة وجنيتك طِبًّا " ، والأصل جنيت لك ، فحذف ونصب " .

والثاني : أنه حال من فاعل " تَبْغُونَهَا " وذلك أن يُراد بـ " تبغون " معنى تتعدّون ، والبغي : التَّعَدِّي .

والمعنى : تبغون عليها ، أو فيها .

قال الزجاج : كأنه قال تبغونها ضالين ، والعوج بالكسر ، والعوج بالفتح - المَيْل ، ولكن العرب فرّقوا بينهما ، فخَصُّوا المكسور بالمعاني ، والمفتوح بالأعيان تقول : في دينه وفي كلامه عِوَج - بالكسر ، وفي الجدار والقناة والشجر عَوَجٌ - بالفتح .

قال أبو عبيدة : العِوَج - بالكسر . المَيْل في الدِين والكلامِ والعملِ ، وبالفتح في الحائط والجِذْع .

وقال أبو إسحاق : الكسر فيما لا تَرَى له شَخْصاً ، وبالفتح فيما له شَخْصٌ .

وقال صاحب المُجْمَل : بالفتح في كل منتصب كالحائط ، والعوَج - يعني : بالكسر - ما كان في بساط ، أو دين ، أو أرض ، أو معاش ، فجعل الفرق بينهما بغير ما تقدم .

وقال الراغب : العِوَجُ : العطف من حال الانتصاب ، يقال : عُجْتُ البعير بزمامه ، وفلان ما يعوج به - أي : يرجع ، والعَوَج - يعني : بالفتح - يقال فيما يُدْرَك بالبصر كالخشب المنتصِب ، ونحوه ، والعِوَجُ يقال فيما يُدْرَك بِفكْر وبصيرة ، كما يكون في أرض بسيطة عوج ، فيُعْرَف تفاوتُه بالبصيرة ، وكالدين والمعاش ، وهذا قريب من قول ابن فارس ؛ لأنه كثيراً ما يأخذ منه .

وقد سأل الزمخشريُّ في سورة طه قوله تعالى : ﴿ لَّا ترى فِيهَا عِوَجاً ولا أَمْتاً ﴾ [طه : 107] - سؤالاً ، حاصله : أنه كيف قيل : عوج - بالكسر - في الأعيان ، وإنما يقال في المعاني ؟

وأجاب هناك بجواب حَسَنٍ - يأتي إن شاء الله .

والسؤال إنما يَجيء على قول أبي عبيدة والزجَّاج المتقدم ، وأما على قول ابن فارس والراغب فلا يرد ، ومن مجيء العِوَج بمعنى الميل من حيث الجملة قول الشاعر : [الوافر]

تَمُرُّونَ الدِّيَارَ وَلَمْ تَعُوجُوا . . . كَلاَمُكُمُ عَلَيَّ إِذَنْ حَرَامُ

وقول امرئ القيس : [الكامل]

عُوجَا عَلَى الطَّلَلِ الْمُحِيلِ لأَنَّنا . . . نَبْكِي الدِّيَارَ كَمَا بَكَى ابْنُ حِذَامِ

أي : ولم تميلوا ، ومِيلاَ .

وأما قولهم : ما يَعوج زيد بالدواء - أي : ما ينتفع به - فمن مادة أخرى ومعنى آخر .

والعاجُ: العَظْم، ألفه مجهولة لا يُعْلم منقلبة عن واوٍ أو عن ياءٍ؟ وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال لثوبان: "اشْتَرِ لِفَاطِمَةَ سِوَارًا مِنْ عَاج".

قال القتيبي: العاجُ الذَّبْل؛ وقال أبو خراش الهذليّ في امرأة: [الطويل]

فَجَاءَتْ كَخَاصِي الْعِيرِ لَمْ تَحْلَ عَاجَةً . . . ولاَ جَاجَةً مِنْهَا تَلُوحُ عَلَى وَشْمِ

قال الأَصْمَعِيّ: العاجة: الذبلة، والجاجة - بجيمين - خرزة ما تساوي فلساً.

(16/126)

وقوله: كَخَاصِي العير، هذا مَثَل تقوله العرب لمن جاء مُسْتَحيًا مِنْ أمْرٍ، فيقال: جاء كخاصي العير.

والعير: الحمار، يعنون جاء مستحياً. ويقال: عاج بالمكان، وعوّج به - أي: أقام وقَطَن، وفي حديث إسماعيلَ - على نبينا وعليه السلام -: "ها أنتم عائجون" أي مقيمون.

وأنشدوا للفرزدق: [الوافر]

هَلَ أَنْتُمْ عَائِجُونَ بنَا لَعَنَّا . . . نرَى الْعَرَصَاتِ أَوْ أَثَرَ الْخِيَامِ؟

كذا أنشد هذا البيت الهرويُّ، مستشهداً به على الإقامة - وليس بظاهر - بل المراد بـ "عائجون" في البيت: سائلون ومُلْتفتون.

وفي الحديث : " ثم عاج رأسه إليها " أي : التفت إليها .

والرجل الأعوج : السيّئ الخُلُق ، وهو بَيِّن العَوَج . والعوج من الخيل التي في رجلها تَجْنيب .

والأعوج من الخيل منسوبة إلى فرس كان في الجاهلية سابقاً ، ويقال : فرس مُجَنَّب إذا كان بعيد ما بين الساقين غير فَحَجٍ ، وهو مَدْح ويقال : الحنبة : اعوجاج .

قوله : ﴿ وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ﴾ حال ، إما من فاعل " تَصُدُّونَ " ، وإما من فاعل " تَبْغُونَهَا " ، وإما مستأنف وليس بظاهر و " شهداء " جمع شهيد أو شاهد كما تقدم . انتهى ا . هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 421.424 ﴾

(17/126)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا الله بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

قال الفخر :

المراد التهديد ، وهو كقول الرجل لعبده ، وقد أنكر طريقة لا يخفى على ما أنت عليه ولست غافلاً عن أمرك وإنما ختم الآية الأولى بقوله ﴿ وَاللَّهُ شَهِيدٌ ﴾ وهذه الآية بقوله ﴿ وَمَا الله بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وذلك لأنهم كانوا يظهرون الكفر بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وما كانوا يظهرون إلقاء الشبه في قلوب المسلمين ، بل كانوا يحتالون في ذلك بوجوه

الحيل فلا جرم قال فيما أظهروه ﴿ والله شهيدٌ ﴾ وفيما أضمروه ﴿ وَمَا اللهُ بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وإنما كرر في الآيتين قوله ﴿ قُلْ يا أهل الكتاب ﴾ لأن المقصود التوبيخ على ألطف الوجوه ، وتكرير هذا الخطاب اللطيف أقرب إلى التلطف في صرفهم عن طريقتهم في الضلال والإضلال وأدل على النصح لهم في الدين والإشفاق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 138 ﴾

(18/126)

من فوائد العلامة أبى السعود فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ يا أهل الكتاب ﴾ أمرٌ بتوبيخهم بالإضلال إثرَ توبيخِهم بالضلال ، والتكريرُ للمبالغة في حمله عليه السلام على تقريعهم وتوبيخِهم ، وتركُ عطفِه على الأمر السابقِ للإيذان باستقلالهم كما أن قطعَ قولِه تعالى : ﴿ لِمَ تَصُدُّونَ ﴾ عن قوله تعالى : ﴿ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴾ للإشعار بأن كلَّ واحدٍ من كُفرهم وصدِّهم شناعةٌ على حيالها مستقِلةٌ في استتباع اللائمةِ والتقريعِ ، وتكريرُ الخطابِ بعنوان أهليةِ الكتاب لتأكيد الاستقلالِ وتشديدِ التشنيع فإن ذلك العنوانَ كما يستدعي الإيمانَ بما هو مصدِّقٌ لما معهم يستدعي ترغيبَ الناسِ فيه ،

فصدُّهم عنه في أقصى مراتبِ القَباحةِ ولكون صدِّهم في بعض الصورِ بتحريف الكتابِ والكفرِ بالآياتِ الدالةِ على نبُوّته عليه السلام ، وقرئ تُصِدّون من أصدَّه ﴿ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي دينِه الحقِّ الموصلِ إلى السعادةِ الأبدية ، وهو التوحيدُ وملةُ الإسلام ﴿ مَنْ ءامَنَ ﴾ مفعولُ لتصُدُّون قُدِّم عليه الجارُّ والمجرورُ للاهتمام به . كانوا يفتِنون المؤمنين ويحتالون لصدهم عنه ويمنعون من أراد الدخولَ فيه بجُهدهم ، ويقولون : إن صفتَه عليه السلام ليست في كتابهم ولا تقدّمت البشارةُ به عندهم ، وقيل : أتت اليهودُ الأوسَ والخزرجَ فذكّروهم ما كان بينهم في الجاهلية من العداوات والحروبِ ليعودوا إلى ما كانوا فيه ﴿ تَبْغُونَهَا ﴾ على إسقاط الجارِّ وإيصالِ الفعل إلى الضمير كما في قوله :

فتولى غلامُهم ثم نادى . . . أظليماً أصيدكم أم حمارا

(19/126)

بمعنى أصيدُ لكم أي تطلُبون لسبيل الله التي هي أقومُ السبل ﴿ عِوَجًا ﴾ اعوجاجاً بأن تلْبسوا على الناس وتُوهِموا أن فيه ميلاً عن الحق بنفي النسخِ وتغييرِ صفةِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم عن وجهها ونحو ذلك . والجملةُ حالٌ من فاعل تصُدّون وقيل : من سبيل الله ﴿ وَأَنْتُمْ شُهَدَاء ﴾ حالٌ من فاعل تصُدون باعتبار تقييدِه بالحال الأولى أو من فاعل

تبغونها أي والحال أنكم شهداءُ تشهدون بأنها سبيلُ الله لا يحوم حولَها شائبةُ اعوجاجٍ وأن الصدَّ عنها إضلالٌ قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي شهداءُ (على) أن في التوراة إن دينَ الله الذي لا يُقبل غيرُه هو الإسلامُ أو وأنتم عدولٌ فيما بينكم يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم في القضايا وعظائمِ الأمور ﴿ وَمَا الله بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ اعتراضٌ تذييليٌ فيه تهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ ، قيل : لما كان صدُّهم للمؤمنين بطريق الخُفْية خُتمت الآيةُ الكريمة بما يحسِمُ مادةَ حيلتهم من إحاطة علمِه تعالى بأعمالهم كما أن كفرَهم بآياتِ الله تعالى لمّا كان بطريق العلانيةِ خُتمت الآية السابقةُ بشهادته تعالى على ما يعملون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 63. 64 ﴾

من لطائف العلامة أبى حيان

قال رحمه الله :

قال الراغب : وقد جاء ﴿ يا أهل الكتاب ﴾ دون قل ، وجاء هنا قل .

فبدون قل هو استدعاء منه تعالى لهم إلى الحق ، فجعل خطابهم منه استلانة للقوم ليكونوا أقرب إلى الانقياد .

ولما قصد الغض منهم ذكر قل تنبيهاً على أنهم غير متساهلين أنْ يخاطبهم بنفسه ، وإنْ كان كلا الخطابين وصل على لسان النبي صلى الله عليه وسلم .

وأطلق أهل الكتاب على المدح تارة ، وعلى الذّم أخرى .

وأهل القرآن والسنة لا ينطلق إلا على المدح، لأن الكتاب قد يراد به ما افتعلوه دون ما أنزل الله نحو: ﴿ يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾ وقد يراد به ما أنزل الله.

وأيضاً فقد يصحُّ أنْ يُقال على سبيل الذمّ والتهكم، كما لو قيل: يا أهل الكتاب لمن لا يعمل بمقتضاه، انتهى ما لخص من كلامه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 16 ﴾

فائدة

قال الجصاص:

قَوْله تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ﴾.

قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: "نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ الْيَهُودِ كَانُوا يُغْرُونَ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ بِذِكْرِهِمْ الْحُرُوبَ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ حَتَّى يَنْسَلِخُوا مِنْ الدِّينِ بِالْعَصَبِيَّةِ وَحَمِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ".

وَعَنْ الْحَسَنِ: "أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى جَمِيعًا فِي كِتْمَانِهِمْ صِفَتَهُ فِي كُتُبِهِمْ".

فَإِنْ قِيلَ: قَدْ سَمَّى اللَّهُ الْكُفَّارَ شُهَدَاءَ وَلَيْسُوا حُجَّةً عَلَى غَيْرِهِمْ، فَلَا يَصِحُّ لَكُمْ الِاحْتِجَاجُ بِقَوْلِهِ: ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ فِي صِحَّةِ إجْمَاعِ الْأُمَّةِ وَثُبُوتِ

حُجَّتِهِ .

قِيلَ لَهُ : إنَّهُ جَلَّ وَعَلَا لَمْ يَقُلْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ عَلَى غَيْرِكُمْ ، وَقَالَ هُنَاكَ : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ كَمَا قَالَ : ﴿ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ فَأَوْجَبَ ذَلِكَ تَصْدِيقَهُمْ وَصِحَّةَ إجْمَاعِهِمْ .

(21/126)

وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ﴾ وَمَعْنَاهُ غَيْرُ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ وَقَدْ قِيلَ فِي مَعْنَاهُ وَجْهَانِ .

أَحَدُهُمَا : ﴿ وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ﴾ أَنَّكُمْ عَالِمُونَ بِبُطْلَانِ قَوْلِكُمْ فِي صَدِّكُمْ عَنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى وَذَلِكَ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْهُمْ .

وَالثَّانِي : أَنْ يُرِيدَ بِقَوْلِهِ : ﴿ شُهَدَاءُ ﴾ عُقَلَاءَ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ يَعْنِي : وَهُوَ عَاقِلٌ (1) ؛ لِأَنَّهُ يَشْهَدُ الدَّلِيلَ الَّذِي يُمَيِّزُ بِهِ الْحَقَّ مِنْ الْبَاطِلِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 2 صـ 312.313 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ

بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (99) ﴾

كيف يصد غيره مَنْ هو مصدودٌ في نَفْسِه ؟ إنّ في هذا لَسِرًّا للربوبية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 265 ﴾

---

(1) الأولى حمل الآية على المعنى الأول لأنهم كما أخبر عنهم القرآن يعرفون رسول الله. صلى الله عليه وسلم. كما يعرفون أبناءهم وأما وصفهم بأنهم عقلاء فهذا مدح وسياق الآية يأباه لأن المقام مقام إنكار وتوبيخ لهم والقرآن قد وبخهم فى أكثر من موضع بقوله ﴿ أفلا تعقلون ﴾ والعاقل من شأنه أن لا يعادى الحق بل يسارع لقبوله واتباعه . والله أعلم .

(22/126)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي : عن دينه . وكانوا يحتالون لصدهم عن الإسلام : ﴿ مَنْ آمَنَ ﴾ مفعول تصدون قدم عليه الجار والمجرور للاهتمام به : ﴿ تَبْغُونَهَا ﴾ على الحذف والإيصال ، أي : تبغون لها ، أي : لسبيل الله التي هي أقوم السبل : ﴿ عِوَجاً ﴾ أي : اعوجاجا وزيغاً وتحريفاً . قال ابن الأنباري : البغي يقتصر له

على مفعول واحد إذا لم يكن معه اللام ، كقولك : بغيت المال والأجر والثواب ، وأريد ههنا : تبغون لها عوجاً ، ثم أسقطت اللام . كما قالوا : وهبتك درهماً ، أي : وهبت لك درهماً ومثله : صدتك ظبياً ، أي : صدت لك ظبياً ، وأنشد :

فتولى غلامهم ثم نادى أظليماً أصيدكم أم حمارا

أراد : أصيد لكم .

قال الرازي : وفي الآية وجه آخر ، وهو أن يكون عوجاً في موضع الحال . والمعنى : تبغونها ضالين ، وذلك أنهم كانوا يدعون أنهم على دين الله وسبيله ، فقال تعالى : إنكم تبغون سبيل الله ضالين ، وعلى هذا القول لا يحتاج إلى الحذف والإيصال .

وذكر ناصر الدين في " الانتصاف " وجها آخر قال : هو أتم معنى ، وهو أن تجعل الهاء هي المفعول به ، وعوجاً حال وقع فيها المصدر الذي هو عوجاً موقع الاسم ، وفي هذا الإعراب من المبالغة أنهم يطلبون أن تكون الطريقة المستقيمة نفس العوج ، على طريقة المبالغة في مثل رجل صوم ، ويكون ذلك أبلغ في ذمهم وتوبيخهم – والله أعلم – .

﴿ وَأَنتُمْ شُهَدَاء ﴾ بأنها سبيل الله والصد عنها ضلال وإضلال : ﴿ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد ووعيد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 4 صـ 416 ﴾

ومن فوائد صاحب المنار في الآيتين

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴾

أَقُولُ لَمَّا أَقَامَ - سُبْحَانَهُ - الْحُجَّةَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ، وَبَيَّنَ بُطْلَانَ شُبُهَاتِهِمْ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَوْنِهِ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَمَرَ أَنْ يُبَكِّتَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ الْإِيمَانِ، وَابْتِغَائِهِ عِوَجًا، وَضَلَالِهِمْ بِذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ. فَقَالَ: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ فِي بَيْتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى كَوْنِهِ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِعِبَادَتِهِ وَعَلَى بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ لَهُ

وَتَعَبُّدِهِ فِيهِ قَبْلَ وُجُودِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَيْتِ الْمَقْدِسِ، أَوْ بِآيَاتِهِ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ وَإِحْيَائِهِ لِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي تَعْتَرِفُونَ بِنُبُوَّتِهِ وَفَضْلِهِ - وَمِنْهَا مَا ذُكِرَ عَنِ الْبَيْتِ - وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ أَيْ وَالْحَالُ أَنَّ اللهَ - تَعَالَى - مُطَّلِعٌ عَلَى عَمَلِكُمْ هَذَا وَسَائِرِ أَعْمَالِكُمْ مُحِيطٌ بِهِ، أَفَلَا تَخَافُونَ أَنْ يَأْخُذَكُمْ بِهِ وَيُجَازِيَكُمْ عَلَيْهِ أَشَدَّ الْجَزَاءِ ؟

(24/126)

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ أَيْ لِأَيِّ شَيْءٍ تَصْرِفُونَ مَنْ آمَنَ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَاتَّبَعَهُ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ ، وَهُوَ سَبِيلُ اللهِ الْمُوصِّلَةُ إِلَى رِضْوَانِهِ وَرَحْمَتِهِ بِمَا تُرَقِّي مِنْ عَقْلِ الْمُؤْمِنِ بِالْعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ وَمِنْ نَفْسِهِ بِالْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، تَصُدُّونَ عَنْهَا بِالتَّكْذِيبِ كِبْرًا وَحَسَدًا ، وَإِلْقَاءِ الشُّبُهَاتِ الْبَاطِلَةِ مُكَابَرَةً وَبَغْيًا وَالْكَيْدِ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَالْمُؤْمِنِينَ بَغْيًا وَعُدْوَانًا تَبْغُونَهَا عِوَجًا أَيْ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْهَا قَاصِدِينَ بِصَدِّكُمْ أَنْ تَكُونَ مُعْوَجَّةً فِي نَظَرِ مَنْ يُؤْمِنُ لَكُمْ وَيَغْتَرُّ بِكَيْدِكُمْ وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ بِأَنَّهَا سَبِيلُ اللهِ الْمُسْتَقِيمَةُ ، لَا تَرَوْنَ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ، عَارِفُونَ بِمَا وَرَدَ فِيهَا مِنَ الْبِشَارَاتِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ وَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ مَنْ صَدَّ عَنْهَا

(25/126)

ضَالٌّ مُضِلٌّ . وَقِيلَ : الشُّهَدَاءُ فِي قَوْمِكَ ، تُوصَفُونَ فِيهِمْ بِالْعَدْلِ ، وَتُسْتَشْهَدُونَ فِي الْقَضَايَا ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ أَقْدَرَ عَلَى الصَّدِّ ، وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : الْمَعْنَى وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ عَلَى بَقَايَا الْكِتَابِ وَمَا يُؤْثَرُ عَنِ النَّبِيِّينَ ، فَكَانَ مِنْ حَقِّكُمْ أَنْ تَكُونُوا أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَى مَعْرِفَةِ هَذِهِ السَّبِيلِ : سَبِيلِ الْحَقِّ وَالسَّبْقِ إِلَيْهَا بِالْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – . وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ مِنْ هَذَا الصَّدِّ وَغَيْرِهِ فَهُوَ يُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ . فَالتَّذْيِيلُ تَهْدِيدٌ لَهُمْ

ووَعِيدٌ ، وَقَدْ جَاءَ بِنَفْيِ الْغَفْلَةِ ; لِأَنَّ صَدَّهُمْ عَنِ الْإِسْلَامِ كَانَ بِضُرُوبٍ مِنَ الْمَكَايِدِ وَالْحِيَالِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي لَا تَرُوجُ إِلَّا عَلَى الْغَافِلِ . كَمَا خَتَمَ الْآيَةَ السَّابِقَةَ بِكَوْنِهِ شَهِيدًا عَلَى عَمَلِهِمْ ; لِأَنَّ الْعَمَلَ الَّذِي ذَكَرَ فِيهَا هُوَ ظَاهِرٌ مَشْهُودٌ ، فَذَكَرَ فِي كُلِّ آيَةٍ مَا يُنَاسِبُ الْمَقَامَ .

(26/126)

أَخْرَجَ الْفِرْيَابِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : "كَانَتِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بَيْنَهُمَا شَرٌّ ، فَبَيْنَا هُمْ جُلُوسٌ ذَكَرُوا مَا (كَانَ) بَيْنَهُمْ حَتَّى غَضِبُوا وَقَامَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ بِالسِّلَاحِ فَنَزَلَتْ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ الْآيَةَ وَالْآيَتَانِ بَعْدَهَا " . وَأَخْرَجَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ : مَرَّ شَاسُ بْنُ قَيْسٍ - وَكَانَ يَهُودِيًّا - عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ يَتَحَدَّثُونَ ، فَغَاظَهُ مَا رَأَى مِنْ تَأَلُّفِهِمْ بَعْدَ الْعَدَاوَةِ ، فَأَمَرَ شَابًّا مَعَهُ مِنْ يَهُودَ أَنْ يَجْلِسَ بَيْنَهُمْ فَيُذَكِّرَهُمْ يَوْمَ بُعَاثٍ ، فَفَعَلَ ، فَتَنَازَعُوا وَتَفَاخَرُوا حَتَّى وَثَبَ رَجُلَانِ : أَوْسُ بْنُ قُرَظِيٍّ مِنَ الْأَوْسِ ، وَجَبَّارُ بْنُ صَخْرٍ مِنَ الْخَزْرَجِ فَتَقَاوَلَا ، وَغَضِبَ الْفَرِيقَانِ ، وَتَوَاثَبُوا لِلْقِتَالِ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَجَاءَ حَتَّى وَعَظَهُمْ وَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ ، فَسَمِعُوا وَأَطَاعُوا فَأَنْزَلَ اللهُ فِي أَوْسٍ وَجَبَّارٍ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

الْآيَةَ . وَفِي شَاسِ بْنِ قَيْسٍ : قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ الْآيَةَ . انْتَهَى مِنْ لُبَابِ النُّقُولِ لِلسُّيُوطِيِّ .

(27/126)

وَأَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي التَّفْسِيرِ مُفَصَّلًا عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ، قَالَ : مَرَّ شَاسُ بْنُ قَيْسٍ – وَكَانَ شَيْخًا قَدْ عَسَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، عَظِيمَ الْكُفْرِ شَدِيدَ الضِّغْنِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، شَدِيدَ الْحَسَدِ لَهُمْ – عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ فِي مَجْلِسٍ قَدْ جَمَعَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ فِيهِ ، فَغَاظَهُ مَا رَأَى مِنْ جَمَاعَتِهِمْ وَأُلْفَتِهِمْ وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ بَعْدَ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَقَالَ : قَدِ اجْتَمَعَ

(28/126)

مَلَأُ بَنِي قَيْلَةَ بِهَذِهِ الْبِلَادِ ، وَاللهِ مَا لَنَا مَعَهُمْ إِذَا اجْتَمَعَ مَلَؤُهُمْ بِهَا مِنْ قَرَارٍ ، فَأَمَرَ فَتًى شَابًّا مِنَ الْيَهُودِ – وَكَانَ مَعَهُ – فَقَالَ : اعْمَدْ إِلَيْهِمْ فَاجْلِسْ مَعَهُمْ وَذَكِّرْهُمْ يَوْمَ بُعَاثٍ وَمَا كَانَ قَبْلَهُ .

وأَنْشدُهُمْ بَعْضَ مَا كَانُوا تَقَاوَلُوا فِيهِ مِنَ الْأَشْعَار ، وكَانَ يَوْمُ بُعَاثٍ يَوْمًا اقْتَتَلَتْ فِيهِ الْأَوْسُ وَالْخزْرَجُ ، وكَانَ الظَّفرُ لِلْأَوْس عَلَى الْخَزْرَجِ ، ففعَل ، فَتَكَلَّمَ الْقوْمُ عِنْدَ ذَلِكَ ، فَتَنَازَعُوا وَتَفَاخرُوا ، حَتَّى تَوَاثَبَ رَجُلَانِ مِنَ الْحَيَّيْنِ عَلَى الرُّكَب - أَوْسُ بْنُ قُرظِيٍّ أَحَدُ بَنِي حَارِثَةَ بْنِ الْحَارِثِ مِنَ الْأَوْس وجَبَّارُ بْنُ صخْرٍ أَحَدُ بَنِي سَلِمَةَ مِنَ الْخَزْرَجِ - فَتَقَاوَلَا ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : إنْ شِئْتُمْ واللهِ رددْنَاهَا الْآنَ جَذَعَةً ، وَغَضِبَ الْفَرِيقَانِ وقَالُوا : قَدْ فَعَلْنَا ، السِّلَاحَ السِّلَاحَ ، مَوْعِدُكُمُ الظَّاهِرَةَ ، وَالظَّاهِرَةُ : الْحرَّةُ ، فَخَرَجُوا إلَيْهَا وَتَحَاوَرَ النَّاسُ ، فَانْضَمَّتِ الْأَوْسُ بَعْضُهَا إلَى بَعْضٍ وَالْخَزْرَجُ بَعْضُهَا إلَى بَعْضٍ عَلَى دَعْوَاهُمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَبَلَغَ ذلِكَ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَخَرَجَ إلَيْهِمْ فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى جَاءَهُمْ ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ اللهَ اللهَ ، أَتَدْعُونَ بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ بَعْدَ إذْ هَدَاكُمُ اللهُ إلَى الْإِسْلَامِ وَأَكْرَمَكُمْ بِهِ ، وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمْ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَاسْتَنْقَذَكُمْ

(29/126)

بِهِ مِنَ الْكُفْرِ ، وَأَلَّفَ بِهِ بَيْنَكُمْ ، تَرْجِعُونَ إلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ كُفَّارًا ! ؟ فَعَرَفَ الْقَوْمُ أَنَّهَا نَزْغَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ وَكَيْدٌ مِنْ عَدُوِّهِمْ ، فَأَلْقَوُا السِّلَاحَ مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَبَكَوْا وَعَانَقَ الرِّجَالُ مِنَ الْأَوْسِ

وَالْخَزْرَجِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، ثُمَّ انْصَرَفُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَامِعِينَ مُطِيعِينَ ، قَدْ أَطْفَأَ اللهُ عَنْهُمْ كَيْدَ عَدُوِّ اللهِ شَاسِ بْنِ قَيْسٍ وَمَا صَنَعَ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : فَأَنْزَلَ اللهُ فِي شَاسِ بْنِ قَيْسٍ وَمَا صَنَعَ : قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ ، قَالَ : وَأَنْزَلَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي أَوْسِ بْنِ قُرْظِيٍّ وَجَبَّارِ بْنِ صَخْرٍ وَمَنْ كَانَ مَعَهُمَا مِنْ قَوْمِهِمَا : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَى قَوْلِهِ : لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَأَوْرَدَ صَاحِبُ الْكَشَّافِ الرِّوَايَةَ مُخْتَصَرَةً ، وَقَالَ فِي آخِرِهَا : فَمَا كَانَ يَوْمٌ أَقْبَحَ أَوَّلًا وَأَحْسَنَ آخِرًا مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، فَعَلَى هَذَا تَكُونُ الْآيَتَانِ السَّابِقَتَانِ مُتَّصِلَتَيْنِ بِالْآيَاتِ الْآتِيَةِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿تفسير المنار حـ 4 صـ 14.12﴾

(30/126)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآيتين

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴾

وحين تسمع " قل " فهي أمر من الله لرسوله كما قلنا من قبل ؛ إنك إذا كلفت إنسانا أن يقول جملة لمن ترسله إليه فهل هذا الإنسان يأتي بالأمر " قل " أو يؤدي الجملة ؟ إنه يؤدي الجملة ،

ومثال ذلك حين تقول لابنك مثلا : " قل لعمك : إن أبي سيأتيك غدا " فابنك يذهب إلى عمه قائلا : " أبي يأتيك غدا " .

وقد يقول قائل : ألم يكن يكفي أن يقول الله للرسول : " قل يا محمد " فيبلغنا رسول الله يا أهل الكتاب لم تكفرون ؟ كان ذلك يكفي ، ولكن الرسول مبلغ الأمر نفسه من الله ، فكأنه قال ما تلقاه من الله ، والذي تلقاه الرسول من الله هو : ﴿ قُلْ يا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ وهذا يدل على أن الرسول يبلغ حرفيا ما سمعه عن الله وهناك آيات كثيرة في القرآن تبدأ بقول الحق : ﴿ يا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ ولا يأتي فيها قول الحق : " قل " . وهناك آيات تأتي مسبوقة بـ " قل " " ما الفرق بين الاثنين " ؟

نحن نجد أن الحق مرة يتلطف مع خلقه ، فيجعلهم أهلا لخطابه ، فيقول : ﴿ يا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ إنه خطاب من الله لهم مباشرة . ومرة يقول لرسوله : قل لهم يا محمد لأنهم لم يتساموا إلى مرتبة أن يُخاطبوا من الله مباشرة : فإذا ما وجدنا خطابا من الحق للخلق ، مرة مسبوقا بـ " قل " ومرة أخرى غير مسبوق فلْتعلم أن الحق سبحانه حين يخاطب خلقه الذين خلقهم يتلطف معهم مرة ، ويجعلهم أهلا لأن يخاطبهم ، ومرة حين يجد منهم اللجاج فإنه يبلغ رسول صلى الله عليه وسلم : قل لهم .

والمثال على ذلك - ولله المثل الأعلى - في حياتنا ، نجد الواحد منا يقول لمن بجانبه : قل لصاحب الصوت العالي أن يصمت . إن هذا القائل قد تَعَالَى عن أن يخاطب هذا الإنسان صاحب الصوت المرتفع فيطلب ممن يجلس بجانبه أن يأمر صاحب الصوت العالي بالسكوت . وحين يجيء الخطاب لأهل الكتاب فنحن نعرف أنهم اليهود أصحاب التوراة ، والنصارى أصحاب الإنجيل ، وهؤلاء هم من يقول عنهم الحق : ﴿ يا أَهْلَ الْكِتَاب ﴾ .

ولم يقل أحد لنا : "يا أهل القرآن" لماذا ؟ لأن الحق حين يقول لهم : ﴿ يا أَهْلَ الْكِتَاب ﴾ فنحن نعرف أن الكتاب يُطلق على كل مكتوب ، وكفرهم يعارض ما علم الله أنه موجود في الكتاب الذي أنزل عليهم ؛ لأنه هو الذي أنزل الكتاب ، ويعلم أن ما في الكتاب يدعو إلى الإيمان ، ولا يدعو إلى الكفر . وما دام هو الحق الذي نَزَّل الكتاب ، وهو الشاهد ، فيصبح من الحمق من أهل الكتاب أن يوقعوا أنفسهم في فخ الكفر ؛ لأنهم بذلك يكذبون على الله : والله - سبحانه - يسجل عليهم أنهم خالفوا ما هو مكتوب ومنزل عليهم في كتابهم .

إنهم - أهل الكتاب - إن استطاعوا تعمية أهل الأرض فلن يستطيعوا ذلك بالنسبة لخالق الأرض والسماء .

والحق حين يقول : ﴿ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ فهل نفهم من ذلك أن كفرهم بآيات الله هو سترهم آيات الله سترا أوليا أو أنهم آمنوا بها ، ثم كفروا بها ؟ لنرى ماذا حدث منهم ، لقد

كانت البشارات به صلى الله عليه وسلم مكتوبة في التوراة ، ومكتوبة في الإنجيل وهم قد آمنوا بها قبل أن يجيء سيدنا رسول الله ، فلما جاء رسول الله بالفعل كفروا بها . وفي هذا جاء القول الحكيم :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

[البقرة : 89]

(32/126)

لماذا كفروا به صلى الله عليه وسلم ؟ لأنه زحزح عنهم السلطة الزمنية ، فلم تعد لهم السلطة الزمنية التي كانوا يبيعون فيها الجنة ويبيعون فيها رضوان الله ويعملون ما يحقق لهم مصالحهم دون التفات لأحكام الله . وسبق أن قلت : إن قريشا قد امتنعت عن قول : " لا إله إلا الله " وهذا الامتناع دليل على أنها فهمت المراد من " لا إله إلا الله " ، فلو كانت مجرد كلمة تقال لقالوها ، لكنهم عرفوا وفهموا أنه لا معبود ولا مطاع ولا مشرع ، ولا مكلف إلا الله .

إن الحق يقول لأهل الكتاب : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا

عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

هب أنكم خبتم في ذواتكم، وحملتم وزر ضلالكم؛ فلماذا تحملون وزر إضلالكم للناس ؟. كان يكفي أن تحملوا وزر ضلالكم أنتم، لا أن تحملوا أيضا وزر إضلالكم للناس ؟

إن الحق – سبحانه – قال:

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾

[النحل: 25]

إنه سبحانه قال ذلك مع أنه قد قال:

﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾

[فاطر: 18]

إن الذي لا يحمل وزرا مع وزره هو الضال الذي لم يُضِل غيره، فهذا يتحمل إثمه فقط. أما الذي يحمل وزر نفسه، ووزر غيره فهو الضال المضل لغيره، وهنا يسألهم الحق سبحانه وتعالى على لسان رسوله: ﴿ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ ﴾ .

كأنه يقول لهم ماذا تريدون من الدين الذي يربط العبد بربه ؟ . إنكم لا تريدونه دينا قيما ، إنكم تريدون دينا معوجا ، والمعوج عن الاستقامة إنما يكون معوجا لِغرض ؛ لأن المعوج يطيل المسافة . إنّ الذي يسير في طريق مستقيم ما الذي يدعوه إلى أن ينحرف عن الطريق المستقيم ليطيل على نفسه السبيل ؟ . إن كان يريد الغاية مباشرة فإنه يفضل الطريق المستقيم . أما الذي ينحرف عن الطريق المستقيم فهو لا يبتغي الغاية المنشودة ، بل يطيل على نفسه المسافة ، وقد لا يصل إلى الغاية .

والحق يقول : ﴿ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ وساعة تسمع " عوجا " فإننا قد نسمعها مرة " عوج " بفتح العين . ومرة نسمعها " عوج " بكسر العين . حين نسمعها " عوج " بفتح العين ، فالعَوَج هو للشيء الذي له قيام ، كالحائط أو الرمح ، أما " العِوج " بكسر العين فهو في المعاني والقيم ، لذلك يقول لهم الحق عن انحرافهم في المعاني والقيم : ﴿ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَآءُ ﴾ .

إن الحق يبلغهم : أنتم تبغون الدين عوجا برغم أنكم شهداء على أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق ، إنه جاء مبلغا بالصدق ، وكنتم تبشرون برسالة محمد ، وكنتم تستفتحون على الذين أشركوا من أهل مكة وتقولون : سيأتي نبي نتبعه ثم نقتلكم معه قتل عاد وإرم . وأنتم - يا أهل الكتاب - شهود على صدق هذا الرسول .

لقد ارتكبوا سلسلة من المعاصي ؛ هم ضلوا وجهدوا أن يُضلوا غيرهم . ويا ليت ذلك يتم

عن جهل ، ولكنه أمر كان يتم بقصد وعن علم . وبلغت المسألة منهم مبلغ أنهم شهود على الحق . وبرغم ذلك أصروا على الضلال والإضلال . ومعنى " الشهود " ، أنهم عرفوا ما قالوا ورأوه رأي العين ، فالشهود هو رؤية لشيء تشهده ، وليس شيئا سمعته ، لذلك يذكرهم الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

إنَّ الرسالة التي جاء بها محمد مبلغا واضحة ، وهذا مذكور في كتبكم السماوية . فما الذي يجعلكم - يا أهل الكتاب - لا تلتزمون طريق الحق وأنتم شهود ؟ لا بد أنكم قد مستكم شبهة إن الله يغفل عن ذلك ، فقال لهم لا : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . وبعد ذلك يأتي قول الحق سبحانه : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى ص 1648.1644 ﴾

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (100) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (101) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تم إيذانه بالسخط على أعدائه وأبلغ في إنذارهم عظيم انتقامه إن داموا على إضلالهم ،أقبل بالبشر على أحبائه ، مواجهاً لهم بلذيذ خطابه وصفي غنائه ، محذراً لهم الاغترار بالمضلين ، ومنبهاً ومرشداً ومذكراً ودالاً على ما ختم به ما قبلها من إحاطة علمه بدقيق مكر اليهود ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إن تطيعوا فريقاً ﴾ أتى بهذا اللفظ لما كان المحذر منه الافتراق والمقاطعة الذي يأتي عيب أهل الكتاب به ﴿ من الذين أوتوا الكتاب ﴾ أي القاطعين بين الأحباب مثل شأس بن قيس الذي مكر بكم إلى أن أوقع الحرب بينكم ، فلولا النبي الذي رحمكم به ربكم لعدتم إلى شر ما كنتم فيه ﴿ يردوكم ﴾ وزاد في تقبيح هذا الحال بقوله مشيراً بإسقاط الجار إلى الاستغراق زمان البعد : ﴿ بعد إيمانكم كافرين ﴾ أي غريقين في صفة الكفر ، فيا لها من صفقة ما أخسرها وطريقة ما أجورها ! .

ولما حذرهم منهم عظم عليهم طاعتهم بالإنكار والتعجيب من ذلك مع ما هم عليه بعد اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم من الأحوال الشريفة فقال - عاطفاً على ما تقديره : فكيف تطيعونهم وأنتم تعلمون عداوتهم : ﴿ وكيف تكفرون ﴾ أي يقع منكم ذلك في وقت من الأوقات على حال من الأحوال ﴿ وأنتم تتلى ﴾ أي تواصل بالقراءة ﴿ عليكم آيات الله ﴾ أي علامات الملك الأعظم البينات ﴿ وفيكم رسوله ﴾ الهادي من الضلالة المنقذ من الجهالة ، فتكونون قد جمعتم إلى موافقة العدو مخالفة الولي وأنتم بعينه وفيكم أمينه ﴿ ومن ﴾ أي والحال أنه من ﴿ يعتصم ﴾ أي يجهد نفسه في ربط أموره ﴿ بالله ﴾ المحيط بكل شيء علماً وقدرةً في جميع أحواله كائناً من كان .

ولما كان من قصر نفسه على من له الكمال كله متوقعاً للفلاح عبر بأداة التوقع مقرونة بفاء السبب فقال : ﴿ فقد هدى ﴾ وعبر بالمجهول على طريقة كلام القادرين ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 130 . 131 ﴾

وقال العلامة أبو السعود :

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب يَرُدُّوكُم بَعْدَ إيمانكم كافرين ﴾ تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى المؤمنين تحذيراً لهم عن طاعة أهلِ الكتابِ والافتتانِ بفتنتهم إثرَ توبيخِهم بالإغواء والإضلالِ ردعاً لهم عن ذلك ، وتعليقُ الردِّ بطاعة

فريقٍ منهم للمبالغة في التحذير عن طاعتهم وإيجابِ الاجتنابِ عن مصاحبتهم بالكلية فإنه في قوة أن يُقال : لا تُطيعوا فريقاً الخ ، كما أن تعميمَ التوبيخِ فيما قبله للمبالغة في الزجر أو للمحافظة على سبب النزول . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 64 ﴾

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾

(37/126)

وقال ابن عاشور :

إقبال على خطاب المؤمنين لتحذيرهم من كيد أهل الكتاب وسوء دعائهم المؤمنين ، وقد تفضّل الله على المؤمنين بأن خاطبهم بغير واسطة خلاف خطابه أهل الكتاب إذ قال : ﴿ قل يا أهل الكتاب ﴾ [آل عمران : 98] ولم يقل : قل يأيّها الّذين آمنوا .

والفريق : الجماعة من النّاس ، وأشار به هنا إلى فريق من اليهود وهم شَاس بن قَيس وأصحابه ، أو أراد شاساً وحده ، وجعله فريقاً كما جعل أبا سفيان ناساً قي قوله : "إنّ النّاس قد جمعوا لكم" وسياق الآية مؤذن بأنّها جرت على حادثة حدثتْ وأنّ لنزولها سبباً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 171 ﴾

فصل

قال الفخر :

(38/126)

اعلم أنه تعالى لما حذر الفريق من أهل الكتاب في الآية الأولى عن الإغواء والإضلال حذر المؤمنين في هذه الآية عن إغوائهم وإضلالهم ومنعهم عن الالتفات إلى قولهم ، روي أن شاس بن قيس اليهودي كان عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد ، فاتفق أنه مرّ على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج فرآهم في مجلس لهم يتحدثون ، وكان قد زال ما كان بينهم في الجاهلية من العداوة ببركة الإسلام ، فشق ذلك على اليهودي فجلس إليهم وذكرهم ما كان بينهم من الحروب قبل ذلك وقرأ عليهم بعض ما قيل في تلك الحروب من الأشعار فتنازع القوم وتغاضبوا وقالوا : السلاح السلاح ، فوصل الخبر إلى النبي عليه السلام ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار ، وقال : أترجعون إلى أحوال الجاهلية وأنا بين أظهركم ، وقد أكرمكم الله بالإسلام وألف بين قلوبكم فعرف القوم أن ذلك كان من عمل الشيطان ، ومن كيد ذلك اليهودي ، فألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما كان يوم أقبح أولاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم ، فأنزل

الله تعالى هذه الآية فقوله ﴿ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ يحتمل أن يكون المراد هذه الواقعة ، ويحتمل أن يكون المراد جميع ما يحاولونه من أنواع الإضلال ، فبيّن تعالى أن المؤمنين إن لانوا وقبلوا منهم قولهم أدى ذلك حالاً بعد حال إلى أن يعودوا كفاراً ، والكفر يوجب الهلاك في الدنيا والدين ، أما في الدنيا فبوقوع العداوة والبغضاء وهيجان الفتنة وثوران المحاربة المؤدية إلى سفك الدماء ، وأما في الدين فظاهر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 139 ﴾

(39/126)

وقال الآلوسى :

خطاب للأوس والخزرج على ما يقتضيه سبب النزول ويدخل غيرهم من المؤمنين في عموم اللفظ ، وخاطبهم الله تعالى بنفسه بعد ما أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بخطاب أهل الكتاب إظهاراً لجلالة قدرهم وإشعاراً بأنهم هم الأحقاء بأن يخاطبهم الله تعالى ويكلمهم فلا حاجة إلى أن يقال المخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم بتقدير قل لهم . والمراد من الفريق بعض غير معين أو هو شاس بن قيس اليهودي ، وفي الاقتصار عليه مبالغة في التحذير ولهذا على ما قيل حذف متعلق الفعل ، وقال بعضهم : هو على معنى إن تطيعوهم في قبول

قولهم بإحياء الضغائن التي كانت بينكم في الجاهلية

و ﴿ كافرين ﴾ إما مفعول ثان ليردوكم على تضمين الردّ معنى التصيير كما في قوله :

رمى الحدثان نسوة آل سعد . . . بمقدار سمدن له سمودا فرد شعورهن السود بيضا

ورد وجوههن البيض سودا . . . أو حال من مفعوله ، قالوا : والأول : أدخل في تنزيه

المؤمنين عن نسبتهم إلى الكفر لما فيه من التصريح بكون الكفر المفروض بطريق القسر ،

و ﴿ بَعْدَ ﴾ يجوز أن يكون ظرفاً ليردوكم وأن يكون ظرفاً لكافرين وإيراده مع عدم الحاجة

إليه لإغناء ما في الخطاب عنه واستحالة الرد إلى الكفر بدون سبق الإيمان وتوسيطه بين

المنصوبين لإظهار كمال شناعة الكفر وغاية بعده من الوقوع إما لزيادة قبحه أو لممانعة

الإيمان له كأنه قيل : بعد إيمانكم الراسخ ، وفي ذلك من تثبيت المؤمنين ما لا يخفى وقدم

توبيخ الكفار على هذا الخطاب لأن الكفار كانوا كالعلة الداعية إليه . انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 16 ﴾

(40/126)

وقال الطبرى فى تأويل الآية :

يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ، وأقرُّوا بما جاءهم به نبيهم صلى الله عليه وسلم من عند

الله ، إن تطيعوا جماعة ممن ينتحل الكتابَ من أهل التوراة والإنجيل ، فتقبلوا منهم ما يأمرونكم به ، يُضِلُّوكم فيردّوكم بعد تصديقكم رسولَ ربكم ، وبعد إقراركم بما جاء به من عند ربكم ، كافرين يقول : جاحدين لما قد آمنتم به وصدّقتموه من الحقّ الذي جاءكم من عند ربكم . فنهاهم جَلّ ثناؤه : أن ينتصحوهم ، ويقبلوا منهم رأيا أو مشورةً ، ويعلِّمهم تعالى ذكره أنهم لهم منطوُون على غِلٍّ وغِش وحسد وبغض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 7 صـ 59 . 60 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ يَرُدُّوكُم ﴾ رَدَّ ، يجوز أن يُضمَّن معنى : " صَيَّر " فينصب مفعولَيْن .

ومنه قول الشاعر : [الوافر]

رَمَى الحَدَثَانُ نِسْوَةَ سَعْدٍ . . . بِمِقْدَارٍ سَمَدْنَ لَهُ سُمُوداً

فَرَدَّ شُعُورَهُنَّ السُّودَ بِيضاً . . . وَرَدَّ وُجُوهَهُنَّ البِيضَ سُودَا

ويجوز ألا يتضمن ، فيكون المنصوبُ الثاني حالاً .

قوله : ﴿ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ يجوز أن يكون منصوباً بـ " يَرُدُّوكُمْ " ، وأن يتعلق بـ " كَافِرِينَ " ، ويصير المعنى كالمعنى في قوله : ﴿ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [آل عمران : 86] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 426 ﴾

لطيفة

قال الإمام القشيري :

الوحشة ليست بلازمة لأصحابها ، بل هي متعدية إلى كل من يحوِّم حول أهلها ، فَمَنْ أطاع عدوَّ الله إلى شؤم صحبة (الأعداء) ألقاه في وهدته . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 1 صـ 265﴾

(41/126)

قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تتلى عَلَيْكُمْ ءايات الله وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾

قال الفخر :

كلمة ﴿كَيْفَ﴾ تعجب ، والتعجب إنما يليق بمن لا يعلم السبب ، وذلك على الله محال ، والمراد منه المنع والتغليظ وذلك لأن تلاوة آيات الله عليهم حالاً بعد حال مع كون الرسول فيهم الذي يزيل كل شبهة ويقرر كل حجة ، كالمانع من وقوعهم في الكفر ، فكان صدور الكفر على الذين كانوا بحضرة الرسول أبعد من هذا الوجه ، فقوله ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب يَرُدُّوكُم بَعْدَ إيمانكم كافرين﴾ تنبيه على أن المقصد الأقصى لهؤلاء اليهود والمنافقين أن يردوا المسلمين عن الإسلام ثم أرشد المسلمين إلى أنه يجب أن لا يلتفتوا

إلى قولهم ، بل الواجب أن يرجعوا عند كل شبهة يسمعونها من هؤلاء اليهود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، حتى يكشف عنها ويزيل وجه الشبهة فيها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 139 ﴾

(42/126)

وقال الآلوسى :

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ ﴾ أي على أيّ حال يقع منكم الكفر ﴿ وَأَنتُمْ تتلى عَلَيْكُمْ ءايات الله ﴾ الدالة على توحيده ونبوة نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم يعلمكم الكتاب والحكمة ويزكيكم بتحقيق الحق وإزاحة الشبه ، والجملة وقعت حالاً من ضمير المخاطبين في ﴿ تَكْفُرُونَ ﴾ والمراد استبعاد أن يقع منهم الكفر وعندهم ما يأباه . وقيل : المراد التعجيب أي لا ينبغي لكم أن تكفروا في سائر الأحوال لا سيما في هذه الحال التي فيها الكفر أفظع منه في غيرها ؛ وليس المراد إنكار الواقع كما في ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وَكُنتُمْ أمواتا ﴾ [البقرة : 28] الآية ؛ وقيل : المراد بكفرهم فعلهم أفعال الكفرة كدعوى الجاهلية فلا مانع من أن يكون الاستفهام لإنكار الواقع ، والأول أولى وفي الآية تأييس لليهود مما راموه ، والأكثرون على تخصيص هذا الخطاب

بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الأوس والخزرج منهم ، ومنهم من جعله عاماً لسائر المؤمنين وجميع الأمة ، وعليه معنى كونه صلى الله عليه وسلم فيهم إن آثاره وشواهد نبوته فيهم لأنها باقية حتى يأتي أمر الله ولم يسند سبحانه التلاوة إلى رسوله عليه الصلاة والسلام إشارة إلى استقلال كل من الأمرين في الباب ، وإيذاناً بأن التلاوة كافية في الغرض من أي تال كانت . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 16 ﴾

فصل

قال القرطبى :

ويدخل في هذه الآية مَن لم يَرَ النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأن ما فيهم من سُنّته يقوم مقام رؤيته .

قال الزّجاج : يجوز أن يكون هذا الخطاب لأصحاب محمد خاصةً ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيهم وهم يشاهدونه .

(43/126)

ويجوز أن يكون هذا الخطاب لجميع الأمة ؛ لأن آثاره وعلاماته والقرآن الذي أوتي فِينا مكانَ النبيّ صلى الله عليه وسلم فِينا وإن لم نشاهده .

وقال قَتادة : في هذه الآية عَلَمان بيّنان : كتابُ الله ونبيّ الله ؛ فأما نبي الله فقد مضى ، وأما كتاب الله فقد أبقاه الله بين أظهرهم رحمةً منه ونعمةً ؛ فيه حلالهُ وحرامهُ ، وطاعته ومعصيته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 156 ﴾

لطيفة

قال ابن عاشور :

﴿ وفيكم رسوله ﴾ حقيقيّة ومؤذنة بمنقبة عظيمة ، ومنّة جليلة ، وهي وجود هذا الرسول العظيم بينهم ، تلك المزيّة الّتي فاز بها أصحابه المخاطبون .

وبها يظهر معنى قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدْري : "لاَ تسبُّوا أصحابي فوالّذي نفسي بيده لَوْ أنّ أحدكم أنفق مثل أُحُد ذَهَباً مَا بَلَغ مُدّ أحدِهم ولا نصِيفه" النصيف نِصْف مدّ .

وفي الآية دلالة على عِظْم قدْر الصّحابة وأنّ لهم وازعين عن مواقعة الضّلال : سماعُ القرآن ، ومشاهدَة أنوار الرّسول عليه السّلام فإنّ وجوده عصمة من ضلالهم . انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 172 ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ ﴾ استفهامُ إنكاريٌّ بمعنى إنكارِ الوقوعِ كما في قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ ﴾ الخ لا بمعنى إنكار الواقعِ كما في قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أمواتا ﴾ الخ وفي توجيه الإنكارِ والاستبعادِ إلى كيفية الكفرِ من المبالغة ما ليس في توجيهه إلى نفسه بأن يقال : أتكفرون ؟ لأن كلَّ موجودٍ لا بد أن يكون وجودُه على حال من الأحوال فإذا أُنكِرَ ونُفي جميعُ أحوالِ وجودِه فقد انتفى وجودُه بالكلية على الطريق البرهاني وقوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ تتلى عَلَيْكُمْ آيات الله ﴾ جملةٌ وقعتْ حالاً من ضمير المخاطَبين في تكفُرون مؤكّدةٌ للإنكار والاستبعادِ بما فيها من الشؤون الداعيةِ إلى الثبات على الإيمان ، الرادعةِ عن الكفر ، وقوله تعالى : ﴿ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ معطوفٌ عليها داخلٌ في حكمها فإن تلاوةَ آياتِ الله تعالى عليهم وكونَ رسولِه عليه الصلاة والسلام بين أظهُرِهم يعلِّمهم الكتابَ والحِكمةَ ويزكّيهم بتحقيق الحقِّ وإزاحةِ الشُبَهِ من أقوى الزواجر عن الكفر ، وعدمُ إسنادِ التلاوة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم للإيذان باستقلالِ كلَ منهما في الباب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 65 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

قال الفخر :

المقصود : إنه لما ذكر الوعيد أردفه بهذا الوعد ، والمعنى : ومن يتمسك بدين الله ، ويجوز أن يكون حثاً لهم على الالتجاء إليه في دفع شرور الكفار والاعتصام في اللغة الاستمساك بالشيء وأصله من العصمة ، والعصمة المنع في كلام العرب ، والعاصم المانع ، واعتصم فلان بالشيء إذا تمسك بالشيء في منع نفسه من الوقوع في آفة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ ﴾ [يوسف : 32] قال قتادة : ذكر في الآية أمرين يمنعان عن الوقوع في الكفر أحدهما : تلاوة كتاب الله والثاني : كون الرسول فيهم ، أما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد مضى إلى رحمة الله ، وأما الكتاب فباق على وجه الدهر . وأما قوله ﴿ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فقد احتج به أصحابنا على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى ، قالوا : لأنه جعل اعتصامهم هداية من الله ، فلما جعل ذلك الاعتصام فعلاً لهم وهداية من الله ثبت ما قلناه ، أما المعتزلة فقد ذكروا فيه وجوهاً

الأول : أن المراد بهذه الهداية الزيادة في الألطاف المرتبة على أداء الطاعات كما قال تعالى : ﴿ يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتبع رِضْوَانَهُ سُبُلَ السلام ﴾ [المائدة : 16] وهذا اختاره القفال رحمه الله

والثاني : أن التقدير من يعتصم بالله فنعم ما فعل فإنه إنما هدي إلى الصراط المستقيم ليفعل

ذلك

الثالث : أن من يعتصم بالله فقد هدي إلى طريق الجنة

والرابع : قال صاحب "الكشاف" ﴿ فَقَدْ هُدِيَ ﴾ أي فقد حصل له الهدى لا محالة ، كما تقول : إذا جئت فلانا فقد أفلحت ، كأن الهدى قد حصل فهو يخبر عنه حاصلاً وذلك لأن المعتصم بالله متوقع للهدى كما أن قاصد الكريم متوقع للفلاح عنده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 139 . 140 ﴾

(46/126)

وقال الآلوسى :

وقوله تعالى : ﴿ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ جواب الشرط ولكونه ماضياً مع قد أفاد الكلام تحقق الهدى حتى كأنه قد حصل ، قيل : والتنوين للتفخيم ووصف الصراط بالاستقامة للتصريح بالرد على الذين يبغون له عوجاً ، والصراط المستقيم وإن كان هو الدين الحق في الحقيقة والاهتداء إليه هو الاعتصام به بعينه لكن لما اختلف الاعتباران وكان العنوان الأخير مما يتنافس فيه المتنافسون أبرز في معرض الجواب للحث والترغيب على طريقة قوله تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار وَأُدْخِلَ الجنة فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران :

185] انتهى .

وأنت تعلم أن هذا على ما فيه إنما يحتاج إليه على تقدير أن يكون المراد من الاعتصام بالله الإيمان به سبحانه والتمسك بدينه كما قاله ابن جريج ، وأما إذا كان المراد منه الثقة بالله تعالى والتوكل عليه والالتجاء إليه كما روي عن أبي العالية فيبعد الاحتياج ، وعلى هذا يكون المراد من الاهتداء إلى الصراط المستقيم النجاة والظفر بالمخرج ، فقد أخرج الحكيم الترمذي عن الزهري قال : أوحى الله تعالى (إلى) داود عليه السلام ما من عبد يعتصم بي من دون خلقي وتكيده السموات والأرض إلا جعلت له من ذلك مخرجاً ، وما من عبد يعتصم بمخلوق من دوني إلا قطعت أسباب السماء بين يديه وأسخت الأرض من تحت قدميه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 17 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَأَنْتُمْ تتلى عَلَيْكُمْ آيَاتُ الله ﴾ جملة حالية ، من فاعل : " تَكْفُرُونَ " .

وكذلك قوله : ﴿ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ أي : كيف يُوجَد منكم الكفرُ مع وجود هاتين الحالتين ؟

والاعتصام : الامتناع ، يقال : اعْتَصَمَ واسْتَعْصَمَ بمعنًى واحدٍ ، واعْتَصَمَ زَيْدٌ عَمْراً ، أي : هيَّأ له ما يَعْتَصِمُ به .

وقيل: الاعتصام: الاستمساك، واستعصم بكذا، أي: استمسك به.

ومعنى الآية: ومن يتمسك بدينِ الله وطاعته فقد هُدِي وأرْشِد إلى صراطٍ مستقيم.

وقيل: ومن يؤمن بالله. وقيل: ومن يتمسك بحبل الله وهو القرآن.

والعِصام: ما يُشدُّ به القربة، وبه يسمَّى الأشخاص، والعِصْمة مستعملة بالمعنيَيْن؛ لأنها مانعةٌ من الخطيئة وصاحبها متمسك بالحق - والعصمة - أيضاً - شِبْه السوار، والمِعْصَم: موضع العِصْمَة، ويُسَمَّى البياض الذي في الرسغ - عُصْمَة؛ تشبيهاً بها، وكأنهم جعلوا ضمةَ العينِ فارقةً، وأصل العُصْمة: البياض يكون في أيدي الخيل والظباء والوعول، والأعْصَم من الوعول: ما في معاصمها بياضٌ، وهي أشدُّها عَدْواً.

قال: [الكامل]

لَوْ أنَّ عُصْمَ عَمَامَتَيْن ويَذْبُلٍ ... سمعَا حَدِيثَكَ أنْزَلا الأوْعَالا

وعصمه الطعام: منع الجوع منه، تقول العرب: عَصَمَ فلاناً الطعامُ، أي: منعه من الجوع.

وقال أحمد بن يحيى: العرب تُسَمِّي الخبز عاصِماً، وجابراً.

قال: [الرجز]

فَلاَ تَلُومِينِي ولُومِي جَابِرا . . . فَجَابِرٌ كَلَّفَنِي الْهَوَاجِرَا

ويسمونه عامراً ، وأنشد : [الطويل]

أبُو مَالِكٍ يَعْتَادُنِي بِالظَّهَائِر . . . يَجِيءُ فَيُلْقِي رَحْلَهُ عِنْدَ عَامِرِ

وأبو مالك كنية الجوع.

وفي الحديث – في النساء : " لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْهُنَّ إلاَّ كَالْغُرَابِ الأعْصَمِ " وهو الأبيض الرجلين.

وقيل : الأبيض الجناحين.

قال صلى الله عليه وسلم : " المَرْأةُ الصَّالِحَةُ فِي النِّسَاءِ كَالْغُرَابِ الأعْصَمِ في الغِرْبَانِ " .

قيل : يا رسولَ الله ، وما الغراب الأعصم ؟ قال " الَّذِي فِي أحدِ جَنَاحَيْهِ بَيَاضٌ " .

(48/126)

وفي الحديث : كنا مع عمرو بن العاص ، فدخلنا شِعْباً ، فإذا نحن بغربان ، وفيهن غُرابٌ أحمرُ المنقار أحمر الرّجلين ، فقال عمرو : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ بِقَدْرِ هَذَا مِنَ الغِرْبَانِ " والمراد منه : التقليل.

قوله : " فقد هدي " جواب الشرط ، وجيء في الجواب بـ " قد " دلالةً على التوقُّع ؛ لأن

المعتصم متوقع الهداية .

والمعنى : ومن يمتنع بدينِ الله ، ويتمسك بدينه ، وطاعتِه ، فقد هُدِي إلى صراطِ مستقيم واضح . وفسره ابن جرير ومن يعتصم بالله أي : يؤمن بالله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 426 . 427 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

لا ينبغي لمن أشرقت في قلبه شموسُ العرفان أن يوقع الكفرُ عليه ظِلَّه ، فإنه إذا أقبل النهارُ من ها هنا أدبر الليل من ها هنا .

وقوله : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم ﴾ الآية إنما يعتصم بالله مَنَّ وَجَدَ العصمة من الله ، فأمّا مَنْ لم يَهْدِه الله فمتى يعتصم بالله ؟ فالهدايةُ منه في البداية توجِبُ اعتصامك في النهاية ، لا الاعتصام منك يوجب الهداية .

وحقيقةُ الاعتصام صدق اللُّجوء إليه ، ودوامُ الفرار إليه ، واستصحاب الاستغاثة إليه .

ومَنْ كشف عن سِرِّه غطاء التفرقة تحقق بأنه لا لغير الله ذرة أو منه سينة ، فهذا الإنسان يعتصم به ممن يُعْتَصَمُ به ؛ قال سيد الأولين والآخرين صلوات الله عليه وعلى آله : ﴿ أَعُوذُ بِكَ مِنْكَ ﴾ .

ومَنْ اعتصم بنفسه دون أن يكون محواً عن حوله وقوته في اعتصامه - فالشِرْكُ وطنُه وليس يشعر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 265 . 266 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآيتين

قال رحمه الله :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾

معنى ذلك أن الله نبّه الفئة المؤمنة إلى أن الذين يكفرون بآيات الله لن يهدأ بالهم ما دمتم أنتم – أيها المؤمنون – على الجادة ، وما دمتم مستقيمين ، ولن يهدأ للكافرين بآيات الله بال إلا أن يشككوا المؤمنين في دينهم ، وأن يبغوها عوجا ، وأن يكفروهم من بعد إسلامهم .

وهذه قضية يجب أن ينتبه لها الذين آمنوا ؛ لأن الذين يبغون الأمر عوجا قد ضلوا وأضلوا ، وهم يشهدون على هذا ، ويعلمون أنّ الله غير غافل عما يعملون ، فماذا يكون موقف الطائفة المؤمنة ؟ إن الحق سبحانه يوضحه بقوله : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

إن أهل الكتاب يحاولون أن يصدوا المؤمنين عن سبيل الله ، وليس المقصود بالصد ، أن هناك من يمنع المؤمنين من الإيمان ، لا ، بل هي محاولة من أهل الكتاب لإقناع المؤمنين بالرجوع والارتداد عن الإيمان الذي اعتنقوه ؛ فالمؤمنون هم الطائفة التي تلتزم بالتكليف من الله ، لذلك يحذرهم الحق سبحانه بقوله :

﴿ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ، يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ الحق يحدد قسما من الذين أوتوا الكتاب، وذلك تأريخ بنزاهة وصدق وحق ودون تحامل. كأن الحق سبحانه يبلغنا أن هناك فريقا من أهل الكتاب سيسلكون الطريق السوي، ويجيئون إلى المسلمين أرسالا وجماعات وأفرادا مع الإسلام؛ فالحق لا يتكلم عن كل الذين أوتوا الكتاب. لذلك يقول الحق ﴿ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ إن الحق يؤرخ وهو يحمى الحقيقة، ويقول سبحانه بعد ذلك:

(50/126)

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

إنه استعظام وتعجيب من أن يأتي الكفر مرة أخرى من المؤمنين وهم في نعيم المعرفة بالله، فآيات الله تُتلى عليهم، ورسول الله حق ومعهم وفيهم.

ويقول الحق سبحانه للمؤمنين: ﴿ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ إنّ لذلك قصة؛ فقد كان اليهود في المدينة يملكون السلطة الاقتصادية؛ لأنهم يجيدون التعامل في المال، وكل من يريد مالا يذهب إليهم ليقترض منهم بالربا. وكان لليهود أيضا التفوق والتميز

العلمي ؛ لأنهم يعلمون الكتاب ، بينما كان غالبية أهل مكة والمدينة من الأميين الذين لا يعرفون كتابا سماويا . وكذلك كان هناك تميز آخر لليهود هو خبرتهم بالحرب ؛ فلهم قلاع وحصون. هكذا كان لليهود ثلاثة أسباب للتميز :

المال يحقق الزعامة الاقتصادية ، والعلم . . بالكتاب وهو تفوق علمي ، ثم خبرتهم بفنون الحرب ، وكانوا فوق ذلك يحاولون إيجاد الخلاف بين الناس وتعميقه . مثل محاولتهم إثارة العداوات بين الأوس والخزرج. والمتاجرة بذلك حتى تظل الحروب قائمة ، وبذلك يضمنون رواج تجارة الأسلحة التي يصنعونها ويمدون بها كل فريق من المتحاربين .

ولما جاء الاسلام وحّد الرسول صلى الله عليه وسلم بين الأوس والخزرج وبذلك ضاع منهم التفوق الاقتصادي. وجاء الاسلام بدين وكتاب مهيمن على الكتب ، فضاعت من اليهود المنزلة العلمية . وكذلك ضاعت من اليهود المنزلة الحربية ؛ فقد رأوا قلة من المؤمنين هزموا الكفار وأنزلوا بهم هزيمة نكراء في بدر ، وهكذا ضاع كل سلطان لليهود في المدينة ، لذلك أرادوا أن يعيدوا الأمر إلى ما كان عليه قبل أن يجيء الإسلام ، فقالوا فلنؤجج ونشعل ما بين الأوس والخزرج من العداوات ونهيجها ، وقال شخص اسمه " شأس بن قيس " وقد

رأى نور الإيمان يعلو وجوه الأوس والخزرج ويشملهم الانسجام الإيماني . وتوجد بينهم المودة وابتسامات الصفاء ، هيَّج ذلك شأس بن قيس وقال : " والله لا بد أن نعيدها جذعة ونرجعهم إلى ما كانوا عليه من أحقاد وعداوات ، فلا استقرار لنا ما داموا قد اجتمعوا " . فأرسل فتى من اليهود وجلس بين الأوس والخزرج ، ثم تطرق الحديث منه إلى يوم يسمى يوم " بعاث " ، وهو اسم يوم من أيام العرب قبل الإسلام ، وكان بين الأوس والخزرج ، وكان النصر فيه للأوس على الخزرج ، وجلس الفتى اليهودي يذكر ويأتي بالشعر الذي قيل في هذا اليوم فهيّج حمية الأوس والخزرج وحدث النزاع ، وحصل التفاخر واستيقظ التباغض ، وقالوا : " السلاح . . السلاح " وهكذا نجحت المكيدة ، ونمى الخبر إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام صلى الله عليه وسلم ومعه صحابته ، حتى انتهَوْا إلى اجتماع الأوس والخزرج ، فوجدوا الحال على أشد درجات الهياج ، نزاع ، وتباغض ، وسلاح محمول ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : أبِدَعْوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ! !

أي كان من الواجب أن تخجلوا من أنفسكم ؛ لأن رسول الله بينكم ، وأضاف رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، وألف بين

قلوبكم ، فماذا كانت مواقع كلمات الرسول في نفوس القوم ؟ لقد دفعتهم كلماته صلى الله عليه وسلم إلى إلقاء السلاح ، وبكوا وعانق بعضهم بعضا وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما كان يوم أقبح أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم .

وعندما نتأمل ما فعله هؤلاء القوم من اليهود لإشعال الفتنة بين الأوس والخزرج نجد أنهم قد أدركوا طبيعة النزاع القديم بين الأوس والخزرج فأرادوا أن يهيجوا تلك العداوات والأحقاد القديمة ، وكذلك نجد أن تهييج المشاعر بين الأوس والخزرج جعل للانفلات بابا فكاد القتال يشتعل ، وعندما تكلم فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هدأت المواجيد ، وألقوا السلاح ، وندموا على ما فعلوا .

وإذا أردنا أن نرى الأمر بعمق التصور لِمَا حدث فإننا نجد أن إدراك العداوة بين الأوس والخزرج من اليهود هو الذي دفع اليهود لتحريك هذا الإدراك الخاطئ وإحياء الثارات القديمة ، ثم كان انفعال الأوس والخزرج بتلك الثارات القديمة قد فتح الباب لحمل السلاح للاقتتال .

وهكذا نجد أن الإدراك للشيء ، يمر بثلاث مراتب : أولا : الإحساس بالشيء ، ثانيا : انفعال النفس له ، ثالثا : النزوع السلوكي ، وعندما تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم ، أدرك الأوس والخزرج الأمر بطريقة عكسية فألقوا السلاح ، وهدأت مواجيد البغضاء ، وتركوا الإدراكات الخاطئة .

لقد ذكرهم النبي صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشياء هي : " أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم وقد أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية . وألف بين قلوبكم " . وقد استقبلوا ذلك بإلقاء السلاح أولا ، ثم البكاء ثانيا ، وهو أمر حركته المواجيد فيهم ثم تعانقوا أي صحبوا الإدراكات ثالثا ، وهكذا حدث النزوع بالعكس . ولما حدث ذلك أصاب اليهود الغيظ والخيبة والنكد . وقال المؤرخ لهذه القصة : فما كان يوم في الإسلام أسوأ أولا وأحسن آخراً إلاّ ذلك اليوم .

لقد بدأ اليوم بعبوس ، وانتهى بإشراق الطمأنينة ، وبعد ذلك وُجدت الخلية التي تكوّن المناعة في نفوس المؤمنين ، بعد أن قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك القول : " أبِدَعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذا أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم " .

لقد صار هذا القول الكريم مستحضرا عند كل نزع لشيطان ، أو كيد لعدو . لقد جعل الحق المناعة ضد فعل الكيد ، ونزغ الشيطان عند المؤمنين من الأوس والخزرج ، وهكذا نرى أن الله يسخر الكافر حتى في رفعة شأن الإيمان ، فلو لم تحدث هذه المسألة ويأتي

الرسول صلى الله عليه بمنطقه المؤثر وهو بين القوم ليقول ذلك القول لما أصبح لدى المسلمين هذه المناعة من الارتفاع عن البغضاء فيما بينهم ، ولو كان أحد من أتباع الرسول قد قال مثل هذه الكلمة فقد كان من المحتمل أن يحدث هذا الأثر ، لكن عندما قالها الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أوجدت المناعة لغيرها من الأحداث التي يأتي وقد لا يكون الرسول موجودا .

ولذلك فأنت أيها المؤمن إن نظرت إلى الكافرين . فإنك تجد عقولهم خائبة . لقد نشروا الإسلام – دون إرادتهم – بمواقفهم الحمقاء ، فمثلا حين قالوا : سيأتي نبي نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فما الذي حدث ؟

إن الأنصار ساعة أن سمعوا بالدين الجديد قال بعضهم لبعض : اسمعوا يا قوم ، إنه الدين الذي بشرتكم به يهود ، فقبل أن يسبقونا إليه هيا بنا نسبق نحن اليهود إليه .

لقد كان استعلاء اليهود وتفاخرهم على الأوس والخزرج دافعا للأوس والخزرج على الدخول في الإسلام ، وهكذا يجعل الحق سبحانه وتعالى كفر الكافر مؤثرا في تثبيت إيمان المؤمن .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ نفهم انه استعظام وتعجيب يأتي من الحق . فساعة تسمع : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ ﴾ فذلك أمر عجيب ، لأنه من المستبعد أن يكفر المؤمنون وكتاب الله يتلى عليهم ، ورسول الله فيهم .

ويجيء من بعد ذلك الدعوة إلى الاعتصام بالله ، ومعنى الاعتصام : التمسك ، ولا يتأتي إلا في علو ، فيقال : " اعتصمت بحبل الإيمان " لأن للإنسان ثقلا ذاتيا ، هذا الثقل الذاتي إن لم يرفعه سواه ، فإنه يقع بالإنسان . وهذا لا ينشأ إلا إذا كان الإنسان معلقا في الجو ويمسك بحبل ولا يوجد من يدفعه إلى أسفل ، بل الإنسان بثقله الخاص يهبط إلى الأرض . فمن يعتصم بالله ويمسك بحبل الإيمان فإنه يمنع نفسه من الهُوِيّ والسقوط .

وهنا نشعر أن الاعتصام بالله هو أن نتبع ما تُلِيَ علينا من الآيات ، وما سنه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن فباب الاعتصام هو كتاب الله وسنة رسوله ، وكذلك كان وجود الرسول بين أظهرهم هو الأمر الضروري ، لأنهم كانوا منغمسين في حمأة الجاهلية ، فلا بد أن توجد إشراقة الرسول بينهم حتى تضيء لهم ، فيروا أن الله قد أخرجهم من الظلمات إلى النور . ولم يقبض الحق رسوله إلا بعد أن أكمل لنا الدين ، وأتم علينا النعمة ورضي لنا الإسلام دينا . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : " تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي " .

هكذا نرى أن وجود آيات الله ، وسنة رسول الله هي العاصم الذي يهدي إلى صراط مستقيم . والهدى كما نعرف هو ما يوصل إلى الغاية المرجوة ، فهب أن غايتك أن تذهب إلى مكان معين فالذي يوصلك إلى ذلك المكان هو هدى ، وكل ما يدل إنسانا على الموصل للغاية اسمه هدى .

والحق سبحانه وتعالى خلق الخلق جميعا ، وجعل بعض الخلق مقهورا ، وبعض الخلق مخيرا .

والمقهور من خلق الله هو كافة المخلوقات في الكون ما عدا الإنسان إلا في بعض أموره فإنه مقهور فيها أيضا ولذلك قلنا : إن كل ما عدا الإنسان من خلق الله يؤدي مهمته كما طُلبت منه ، فما امتنعت الشمس أن تشرق على الناس يوما ، ولا امتنعت الريح أن تهب ، ولا امتنعت السماء عن أن تمطر ، ولم تقل الأرض للإنسان إنك تعصي الله فلا أنبت لك ، ولا جاء إنسان ليركب الدابة المسخرة فقالت : لا ؛ إنك عاصٍ ، ولذلك سأحرن فلا أمكنك من ركوب ظهري .

هكذا نرى أن كل شيء ما عدا الإنسان مسخر مقهور للغاية المرجوة منه ، وهو خدمة

ذلك الإنسان . والإنسان وحده هو الذي له اختيار . . ولذلك يجب أن نتنبه دائما إلى أن الله قد جعل للخلق تسخيرا وتسييرا ، وجعل الإجماع في كل الأجناس ، ولكن الانقسام جاء عند الإنسان فقال الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾

[الحج : 18]

(56/126)

إن الجمادات الساجدة المسخرة هي : " الشمس والقمر والنجوم " ، والنبات الساجد المسخر هو " الشجر " , وكذلك " الدواب " فهي ضمن الكائنات التي عليها حكم الحق بالإجماع ، بأنها كلها تسجد خاضعة مسخرة . أما الأنسان فقد قال الحق عنه : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ .

إذن فالانقسام جاء عند من ؟ لقد جاء الانقسام عند الإنسان . لماذا ؟ لأن الله خلق الإنسان مختارا . ألم يكن من الممكن أن يخلق الإنسان مسخرا كبقية الكائنات ؟ أليس

التسخير دليلاً على قدرة المسخر ، وأن شيئًا من خلقه لن يخرج من قدرته, هذا صحيح ، لكن الحق سبحانه كما أراد أن يثبت القدرة والقهر بالتسخير ، أراد أن يثبت المحبوبية بالاختيار . فمن كان مختارا أن يؤمن أو يعصي ، ثم اختار أن يؤمن ، فهذا الاختيار إنما يثبت به الإنسان المحبوبية لله .

هكذا صنف الله الخلق بين قسم قهري يثبت القدرة ، وقسم اختياري يثبت المحبوبية ، ولهذا أراد الله للإنسان أن يكون مختارا أن يفعل أو لا يفعل . فلماذا – إذن – لا يفعل الإنسان كل أفعاله وهي منسجمة مع الإيمان ؟ لأن للشهوة بريقا سطحيا ، وهذا البريق السطحي يجذب الإنسان كما تجذب النارُ الفَرَاش .

عندما يوقد الإنسان نارًا ما في الخلاء فضوؤها يجذب الفَرَاش ، ويحترق الفَراش بنيران الضوء ؛ فقد جذبه النور وأغراه ، ولكنه لم يعرف أن مصرعه في تلك النار .

والحكمة العربية تقول : " رب نفس عشقت مصرعها " كذلك في الشهوات ، تزين الشهوة للإنسان ، فتجذبه إليها فيكون فيها مصرع الإنسان .

لكن ما الحماية للإنسان من ذلك ؟

إن الحماية هي في منهج الله " افعل " . و " لا تفعل " فمن يرد أن ينقذ نفسه من كيد الشيطان وكيد النفس فعليه أن يخضع لمنهج الله في " افعل " و " لا تفعل " . وقد قلت قديما : إنه من الحمق أن يصنع صانع صنعةً ما ، ثم ينسى أن يضع لها قانون الصيانة . والإنسان في حدود صناعته لا ينسى ذلك ، فما بالنا بالحق سبحانه بطلاقة قدرته ؟

إن الخالق سبحانه وتعالى قد صنع الإنسان ، ووضع الحق سبحانه وتعالى قانون صيانة صنعته في الإنسان فقال جل وعلا : افعل كذا ولا تفعل كذا ، فمن أراد أن يعتصم بالحبل المتين فلا يأتي له نزغ شيطان أو كيد عدو ولا هوى نفس . فليعتصم بمنهج الله ؛ لأن الله هو الذي خلقه وهو الذي وضع منهجه كقانون لصيانة صنعته ، وهو قانون الموجز في " افعل ولا تفعل " .

ويقول الحق : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وكلمة الاعتصام أروع ما تكون عندما يكون الإنسان في الهواء معلقا في الفراغ ، وهو في أثناء وجوده في الفراغ فإن ثقله الذاتي هو الذين يوقعه ويسقطه ، لكن عندما يتمسك الإنسان بمنهج الله فإنه ينقذ نفسه من السقوط والهوى (بضم الهاء وكسر الواو) ومهمة الشيطان أن يزّين المعصية بالبريق ، فتندفع شهوات النفس هائجة إلى المعصية, ولذلك يأتي الشيطان يوم القيامة ويأخذ الحجة علينا . يقول الحق :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا

كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

[إبراهيم : 22]

(58/126)

والسلطان كما نعرف نوعان : النوع الأول هو أن يقهر الشيطانُ الإنسانَ ، والشيطان لا قدرة له على ذلك . والنوع الثاني هو أن يقنع الشيطان الإنسان بأن يفعل ذلك الخطأ .

ما الفرق بين الإقناع والقهر في هذا المجال ؟

إن القهر هو أن يجبر الشيطان الإنسان على أن يفعل شيئًا لا يريده الإنسان . أما الإقناع فهو أن يزين الشيطان الأمر للإنسان فيفعله الإنسان بالاختيار ويعلن الشيطان يوم القيامة : لم يكن لي سلطان أقهرك به أيها الإنسان حتى تعصي الله ، لقد زينت لك المعصية أيها الإنسان فاستجبت لي .

إن الشيطان يوم القيامة يقول : ﴿ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ ما معنى " مصرخكم " ؟ إنها مشتقة من " أصرخ " ، أي سمع صراخك فأغاثك وأنجدك ، فمصرخ

: مغيث ومنجد ، والشيطان يعلن أنه لن يستطيع نجدة الإنسان ، ولا الإنسان بمستطيع أن ينجد الشيطان .

إذن ، فثقل النفس البشرية هو ما يوقع الإنسان في الهاوية دون أن يلقيه أحد فيها ، ولا إنقاذ للإنسان من الهاوية إلا بالاعتصام بحبل الله . كأن منهج الله هو الحبل الممدود إلينا ، فمن يعتصم به ينجو من الهاوية .

وما دمنا نعتصم بحبل الله وهو القرآن المنزل من خالقنا والسنة النبوية المطهرة ، وسبحانه يعلم كيد النفس لصاحبها – فلا بد أن يهدينا الله إلى الصراط المستقيم . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 1648.1656 ﴾

(59/126)

" فصل "

قال السيوطى :

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (98) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (99) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ

كَافِرِينَ (100) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ
بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (101)

أخرج ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال: مر شاس بن قيس وكان شيخاً قد عسا في الجاهلية، عظيم الكفر، شديد

(60/126)

الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب رسول الله من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم، وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد. والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً معه من يهود فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم ذكرهم يوم بعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار. وكان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج. ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب أوس بن قيظي أحد بني حارثة من الأوس، وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم

والله رددناها الآن جذعة. وغضب الفريقان جميعاً وقالوا: قد فعلنا. السلاح السلاح... موعدكم الظاهرة، والظاهرة الحرة. فخرجوا إليها وانضمت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية.

(61/126)

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال: "يا معشر المسلمين الله الله... أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً؟!" فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوّهم لهم. فألقوا السلاح، وبكوا وعانق الرجال بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس، وأنزل الله في شأن شاس بن قيس وما صنع ﴿ قل يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ﴾ إلى قوله ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ وأنزل في أوس بن قيظي، وجبار بن صخر، ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد

إيمانكم كافرين ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك لهم عذاب عظيم ﴾ .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني من طريق أبي نعيم عن ابن عباس قال : كانت الأوس والخزرج في الجاهلية بينهم شر ، فبينما هم يوماً جلوس ، ذكروا ما بينهم حتى غضبوا وقام بعضهم إلى بعض بالسلاح ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكر له ذلك فركب إليهم .

فنزلت ﴿ وكيف تكفرون ﴾ الآية . والآيتان بعدها .

(62/126)

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : كان بين هذين الحيين من الأوس والخزرج قتال في الجاهلية فلما جاء الإسلام اصطلحوا وألف الله بين قلوبهم فجلس يهودي في مجلس فيه نفر من الأوس والخزرج فأنشد شعراً قاله أحد الحيين في حربهم ، فكأنهم دخلهم من ذلك فقال الآخرون : قد قال شاعرنا كذا وكذا . . . فاجتمعوا وأخذوا السلاح ، واصطفوا للقتال ، فنزلت هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب ﴾ إلى قوله ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ فجاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى قام بين الصفين ، فقرأهن ورفع صوته ، فلما سمعوا صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن أنصتوا له وجعلوا

يستمعون ، فلما فرغ ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضاً ، وجثوا يبكون .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : كان جماع قبائل الأنصار بطنين : الأوس والخزرج ، وكان بينهما في الجاهلية حرب ودماء وشنآن منّ الله عليهم بالإسلام وبالنبي صلى الله عليه وسلم ، فأطفأ الله الحرب التي كانت بينهم وألّف بينهم بالإسلام . فبينا رجل من الأوس ورجل من الخزرج قاعدان يتحدثان ومعهما يهودي جالس ، فلم يزل يذكرهما بأيامهم والعداوة التي كانت بينهم حتى استبا ثم اقتتلا ، فنادى هذا قومه وهذا قومه ، فخرجوا بالسلاح وصفّ بعضهم لبعض ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يزل يمشي بينهم إلى هؤلاء وهؤلاء ليسكنهم حتى رجعوا . فأنزل الله في ذلك القرآن ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال : نزلت في ثعلبة بن عنمة الأنصاري وكان بينه وبين أناس من الأنصار كلام ، فمشى بينهم يهودي من قينقاع ، فحمل بعضهم على بعض حتى همت الطائفتان من الأوس والخزرج أن يحملوا السلاح فيقاتلوا . فأنزل الله ﴿ إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ يقول : إن حملتم

السلاح فاقتتلتم كفرتم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ لِمَ تصدون عن سبيل الله ﴾ الآية . قال : كانوا إذا سألهم أحد هل تجدون محمداً ؟ قالوا : لا فصدوا الناس عنه وبغوا .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي جرير عن قتادة في الآية يقول : لم تصدون عن الإسلام وعن نبي الله من آمن بالله وأنتم شهداء فيما تقرأون من كتاب الله : أن محمداً رسول الله ، وأن الإسلام دين الله الذي لا يقبل غيره ولا يجزي إلا به ، يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة الإنجيل ؟ .

وأخرج ابن جرير عن الحسن في قوله ﴿ يا أهل الكتاب لم تصدون ﴾ قال : هم اليهود والنصارى .

نهاهم أن يصدوا المسلمين عن سبيل الله ، ويريدون أن يعدلوا الناس إلى الضلالة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً ﴾ الآية . قد تقدم الله إليكم فيهم كما تسمعون ، وحذركموهم وأنبأكم بضلالتهم ، فلا تأتمنوهم على دينكم ، ولا تنصحوهم على أنفسكم ، فإنهم الأعداء الحسدة الضلال . كيف تأتمنون قوماً كفروا بكتابهم ، وقتلوا رسلهم ، وتحيروا في دينهم ، وعجزوا عن أنفسهم ؟ أولئك والله أهل التهمة والعداوة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وكيف تكفرون وأنتم

تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ﴾ قال : علمان بينان : نبي الله ، وكتاب الله ، فأما نبي الله فمضى عليه الصلاة والسلام . وأما كتاب الله فأبقاه الله بين أظهركم رحمة من الله ونعمة . فيه حلاله ، وحرامه ، ومعصيته .

(64/126)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله ﴿ ومن يعتصم بالله ﴾ قال : يؤمن بالله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال " الاعتصام بالله " الثقة به .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع رفع الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " إن الله قضى على نفسه أن من آمن به هداه ، ومن وثق به أنجاه . قال الربيع : تصديق لك في كتاب الله ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هُدِيَ إلى صراط مستقيم ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد من طريق الربيع عن أبي العالية قال : إن الله قضى على نفسه ؛ أنه من آمن به هداه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن أقرضه جزاه ، ومن وثق به أنجاه ، ومن دعا استجاب له بعد أن يستجيب لله . قال الربيع : وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ ومن يؤمن

بالله يهد قلبه ﴾ [التغابن : 11] ، ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره ﴾ [الطلاق : 3] ، ﴿ ومن يقرض الله قرضاً حسناً يضاعفه له ﴾ ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴾ ، ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي ﴾ [البقرة : 186] .

وأخرج تمام في فوائده عن كعب بن مالك قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوحى الله إلى داود : يا داود ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكيده السموات بمن فيها إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً ، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف منه نيته إلا قطعت أسباب السماء من بين يديه ، وأسخت الهواء من تحت قدميه ".

وأخرج الحاكم وصححه وتعقبه الذهبي عن ابن عمر قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من طلب ما عند الله كانت السماء ظلاله ، والأرض فراشه ، لم يهتم بشيء من أمر الدنيا ، فهو لا يزرع الزرع وهو يأكل الخبز ، ولا يغرس الشجر ويأكل الثمار توكلاً على الله وطلب مرضاته ، فضمن الله السموات والأرض رزقه ، فهم يتعبون فيه ، ويأتون به حلالاً ،

ويستوفي هو رزقه بغير حساب حتى أتاه اليقين "

قال الحاكم : صحيح . قال الذهبي : بل منكراً أو موضوع فيه عمرو بن بكر السكسكي متهم عند ابن حبان وابنه إبراهيم . قال الدارقطني : متروك .

وأخرج الحاكم وصححه عن معقل بن يسار قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول ربكم : يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ قلبك غنى ، وأملأ يديك رزقاً . يا ابن أدم لا تباعد مني فأملأ قلبك فقراً ، واملأ يديك شغلا " . وأخرج الحكيم الترمذي عن الزهري قال : أوحى الله إلى داود : ما من عبد يعتصم بي دون خلقي وتكيده السموات والأرض إلا جعلت له من ذلك مخرجاً ، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني إلا قطعت أسباب السماء بين يديه ، وأسخت الأرض من تحت قدميه .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة ، ومن تشاعبت به الهموم لم يبالِ الله في أي أودية الدنيا هلك " . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 2 صـ 278 . 282﴾

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابوري فى الآيات السابقة :

﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (92) كُلُّ
الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا
بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (93) فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ
هُمُ الظَّالِمُونَ (94) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (95)
إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (96) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ
إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ
فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى
مَا تَعْمَلُونَ (98) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ
شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (99) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (100) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ
وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (101) ﴾

التفسير : إنه سبحانه لما ذكر أن الإنفاق لا ينفع الكافر ألبتة ، علّم المؤمنين كيفية الإنفاق الذين ينتفعون به في الآخرة وهو الإنفاق من أحب الأشياء إليهم . وههنا لطيفة وهي أنه سبحانه وتعالى سمى جوامع خصال الخير براً في قوله تعالى : ﴿ ولكن البر من آمن بالله ﴾ [البقرة : 177] الآية . وذكر في هذه الآية ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ فالمعنى أنكم وإن أتيتم بكل الخيرات لم تفوزوا بإحراز خصلة البر ولم تبلغوا حقيقتها حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها وتؤثرونها . وكان السلف رحمهم الله إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله . يروى أنها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال : يا رسول الله ، حائط لي بالمدينة - يعني بيرحاء - وهو أحب أموالي إليّ صدقة . فقال صلى الله عليه وسلم " بخ بخ . ذاك مال رابح وإني أرى أن تجعلها في الأقربين " . فقال أبو طلحة : افعل يا رسول الله . فقسمها صلى الله عليه وسلم في أقاربه . وروي أنه صلى الله عليه وسلم جعلها بين حسان بن ثابت وأبيّ بن كعب . وروي أن زيد بن حارثة جاء عند نزول الآية بفرس له كان يحبه وجعله في سبيل الله ، فجعله رسول الله صلى الله عليه وسلم لأسامة بن زيد . فوجد زيد في نفسه وقال : إنما أردت أن تصدق به . فقال صلى الله عليه وسلم " أما إن الله قد قبلها منك " . وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري أن يبتاع له جارية من سبى جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى ، فلما رآها أعجبته فقال : إن الله تعالى يقول : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ فأعتقها ولم يصب منها . ونزل بأبي ذرّ ضيف فقال للراعي : ائتني بخير

إبلي . فجاء بناقة مهزولة فقال : خنتني . فقال : وجدت خير الإبل فحلها فذكرت يوم حاجتك إليه . فقال : إن يوم حاجتي إليه ليوم أوضع في حفرتي . وفي تفسير البر قولان : أحدهما ما به يصيرون أبراراً ليدخلوا في قوله : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ﴾

(68/126)

[الانفطار : 13] فيكون المراد بالبر ما يصدر منهم من الأعمال المقبولة المذكورة في قوله : ﴿ ولكن البر من آمن ﴾ [البقرة : 177] وجملتها التقوى لقوله : ﴿ أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ [البقرة : 177] والثاني الجنة أي لن تنالوا ثواب البر . وقيل : المراد بر الله أولياءه وإكرامه إياهم من قول الناس " برني فلان بكذا وبر فلان لا ينقطع عني " . وقال تعالى : ﴿ أن تبروا وتتقوا ﴾ [البقرة : 224] و " من " في قوله : ﴿ مما تحبون ﴾ للتبعيض نحو : أخذت من المال . ويؤيده قراءة عبد الله بن مسعود ﴿ بعض ما تحبون ﴾ وفيه أن إنفاق كل المال غير مندوب بل غير جائز لمن يحتاج إليه . والمراد بما تحبون قال بعضهم : هو نفس المال لقوله تعالى : ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ [العاديات : 8] وقيل : هو ما يكون محتاجاً إليه كقوله : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ [الدهر : 8] ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ [الحشر : 9] وقيل :

هو أطيب المال وأرفعه كما مر . وعن ابن عباس أراد به الزكاة أي حتى تخرجوا زكاة أموالكم . ويريد عليه أنه لا يجب على المزكي أن يخرج أشرف أمواله وأكرمها ، وقال الحسن : هو كل ما أنفقه المسلم من ماله يطلب به وجه الله . ونقل الواحدي عن مجاهد والكلبي انها منسوخة بآية الزكاة . وضعف بأن إيجاب الزكاة لا ينافي الترغيب في بذل المحبوب لوجه الله . و " من " في ﴿ من شيء ﴾ للتبيين يعني من أي شيء كان ، طيب أو خبيث ﴿ فإن الله به عليم ﴾ فيجازيكم بحسبه أو يعلم الوجه الذي لأجله تنفقون من الإخلاص أو الرياء . ثم إنه سبحانه بعد تقرير الدلائل الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبعد توجيه الإلزامات الواردة على أهل الكتاب في هذا الباب ، أجاب عن شبهة للقوم وتقرير ذلك من وجوه : أحدها أنهم كانوا يعوّلون في إنكار شرع محمد صلى الله عليه وسلم على إنكار النسخ ، فأورد عليهم أن الطعام الذي حرمه إسرائيل على

نفسه كان حلالاً ثم صار حراماً عليه وعلى أولاده وهو النسخ . ثم إن اليهود لما توجه عليهم هذا السؤال زعموا أن ذلك كان حراماً من لدن آدم ولم يحدث نسخ ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يطالبهم بإحضار التوراة إلزاماً لهم وتفضيحاً ودلالة على صحة نبوة

محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان أمياً فامتنع أن يعرف هذه المسألة الغامضة من علوم التوراة إلا بخبر من السماء . وثانيها أن اليهود قالوا له : إنك تدعي أنك على ملة إبراهيم ، فكيف تأكل لحوم الإبل وألبانها وتفتي بحلها مع أن ذلك كان حراماً في دين إبراهيم ؟ فأجيبوا بأن ذلك كان حلالاً لإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب . إلا أن يعقوب حرمه على نفسه بسبب من الأسباب ، وبقيت تلك الحرمة في أولاده ، فأنكروا ذلك فأمروا بالرجوع الى التوراة . وثالثها لما نزل قوله تعالى : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ﴾

[النساء : 160] وقوله : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ﴾ [الأنعام : 146] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه إنما حرم عليهم كثير من الأشياء جزاء لهم على بغيهم وظلمهم . غاظهم ذلك واشمأزوا وامتعضوا من قبل أن ذلك يقتضي وقوع النسخ . ومن قبل أنه تسجيل عليهم بالبغي والظلم وغير ذلك من مساويهم . فقالوا : لسنا بأول من حرمت هي عليه وما هو إلا تحريم قديم فنزلت ﴿ كل الطعام ﴾ أي المطعومات كلها لدلالة كل على العموم وإن كان لفظه مفرداً سواء قلنا الاسم المفرد المحلى بالألف واللام

يفيد العموم أولا . والطعام اسم لكل ما يطعم ويؤكل . وعن بعض أصحاب أبي حنيفة : إنه اسم البر خاصة . ويرد عليه أن المستثنى في الآية من الطعام كان شيئاً سوى الحنطة وما يتخذ منها . قال القفال : لم يبلغنا أنه كانت الميتة مباحة لهم مع أنها طعام ، وكذا القول في الخنزير ، فيحتمل أن يكون المراد الأطعمة التي كان يدعي اليهود في وقت نبينا صلى الله عليه وسلم أنها كانت محرمة على إبراهيم صلى الله عليه وسلم . وعلى هذا يكون اللام في الطعام للعهد لا للاستغراق . والحل مصدر كالعز والذل ولذا استوى فيه الواحد والجمع . قال تعالى : ﴿ ا هن حل لهم ﴾ والوصف بالمصدر يفيد المبالغة ، وأما الذي حرم إسرائيل على نفسه فروى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أن يعقوب مرض مرضاً شديداً فنذر لئن عافاه الله ليحرّمن أحب الطعام والشراب إليه ، وكان أحب الطعام والشراب إليه لحمان الإبل وألبانها ، وهذا قول أبي العالية وعطاء ومقاتل . وقيل : كان به عرق النسا فنذر إن شفاه الله أن لا يأكل شيئاً من العروق . وجاء في بعض الروايات أن الذي حرمه على نفسه زوائد الكبد والشحم إلا ما على الظهر .

وههنا سؤال وهو أن التحريم والتحليل خطاب الله تعالى ، فكيف صار تحريم يعقوب سبباً للحرمة ؟ فأجاب المفسرون بأن الأطباء أشاروا إليه باجتنابه ففعل وذلك بإذن من الله فهو كتحريم الله ابتداء . وأيضاً لا يبعد أن يكون تحريم الإنسان سبباً لتحريم الله كالطلاق والعتاق في تحريم المرأة والجارية . وأيضاً الاجتهاد جائز على الأنبياء لعموم ﴿ فاعتبروا ﴾ [الحشر : 2] ولقوله في معرض المدح ﴿ لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ [النساء : 83] ولأن الاجتهاد طاعة شاقة فيلزم أن يكون للأنبياء منها نصيب أوفر لا سيما ومعارفهم أكثر ، وعقولهم أنور ، وأذهانهم أصفة ، وتوفيق الله وتسديده معهم أوفى . ثم إذا حكموا بحكم بسبب الاجتهاد يحرم على الأمة مخالفتهم في ذلك الحكم كما أن الإجماع إذا انعقد عن الاجتهاد فإنه يحرم مخالفته . والأظهر أن ذلك التحريم ما كان بالنص وإلا لقيل : إلا ما حرمه الله تعالى على إسرائيل . فلما نسب إلى إسرائيل دل على أنه باجتهاده كما يقال : الشافعي يحلل لحم الخيل ، وأبو حنيفة يحرّمه .

(72/126)

وقال الأصم : لعلّ نفسه كانت تتوق إلى هذه الأنواع فامتنع من أكلها قهراً للنفس كما يفعله الزهاد ، فعبر عن ذلك الامتناع بالتحريم . وزعم قوم من المتكلمين أنه يجوز من الله تعالى أن

يقول لعبده : احكم فإنك لا تحكم إلا بالصواب ، فلعل هذه الواقعة كانت من هذا الباب .

ومعنى قوله : ﴿ من قبل أن تنزل التوراة ﴾ إن هذا الاستثناء إنما كان قبل نزول التوراة ، أما بعده فلم يبق كذلك بل حرم الله لعيهم أنواعاً كثيرة بدليل قوله تعالى : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا ﴾ [النساء : 160] إلى آخر الآية . ثم إن القوم نازعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في إخباره عن الله تعالى فأمروا بالرجوع إلى كتابهم كما سبق تقريره ، فروي أنهم لم يجسروا على إخراج التوراة فبهتوا فلزمت الحجة عليهم وظهر إعجاز النبي صلى الله عليه وسلم وصدقه ، فلهذا قال : ﴿ فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك ﴾ الذي ظهر من الحجة الباهرة ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ الواضعون الباطل في موضع الحق ، والكذب في مقام الصدق والعناد في محل الإنصاف . وأيضاً إن تكذيبهم وافتراءهم ظلم منهم لأنفسهم ولمن يقتدي بهم من أشياعهم ﴿ قل صدق الله ﴾ في جواب الشبه الثلاث وفيه تعريض بكذبهم ﴿ فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ وهي التي عليه محمد صلى الله عليه وسلم ومن تبعه حتى تتخلصوا من اليهودية التي فيها فساد دينكم ودنياكم حيث ألجأتكم الى تحريف كتاب الله لأغراضكم الفاسدة وألزمتكم تحريم الطيبات التي أحلت لإبراهيم ولمن يقتدي به ﴿ وما كان من المشركين ﴾ وفيه تنبيه على أن محمداً صلى الله عليه وسلم على دين إبراهيم في الفروع لما ثبت أن الذي حكم صلى الله عليه وسلم بحله حكم إبراهيم بحله . وفي الأصول لأن محمداً وإبراهيم كليهما صلى الله عليهما وسلم لا

يدعوان إلا إلى التوحيد والبراءة عن كل معبود سوى الله تعالى ، خلاف اليهود والنصارى ، وخلاف عبدة الأوثان والكواكب .

(73/126)

قوله سبحانه : ﴿ إن أول بيت وضع للناس ﴾ قال مجاهد : هو جواب عن شبهة أخرى لليهود وذلك أنهم قالوا : بيت المقدس أفضل من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء وأرض المحشر وقبلة الأنبياء . فكان تحويل القبلة منه إلى الكعبة كالطعن في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن الآية المتقدمة سيقت لجواز النسخ ، وإن أعظم الأمور التي أظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم نسخها هو القبلة ، فذكر عقيب ذلك ما لأجله حولت القبلة إلى الكعبة . وقيل : لما انجر الكلام في الآية المتقدمة إلى قوله : ﴿ فاتبعوا ملة إبراهيم ﴾ وكان الحج من أعظم شعائر ملته ، أردفها بفضيلة البيت ليفرع عليها إيجاب الحج . وقيل : زعم كل من اليهود والنصارى أنه على ملة إبراهيم ، فبين الله تعالى ما يدل على كذبهم من حيث إن حج البيت كان من ملة إبراهيم وأهل الكتاب لا يحجون .

(74/126)

قالت العلماء : الأول هو الفرد السابق ، فلو قال : أول عبد أشتريه فهو حر . فلو اشترى عبدين في المرة الأولى لم يعتق واحد منهما لفقد قيد الفرد . ولو اشترى في المرة الثانية عبداً واحداً لم يعتق أيضاً لفقدان قيد السابق . ومعنى كونه موضوعاً للناس أنه جعل متعبدهم وموضع طاعتهم يتوجهون نحوه من جميع الأقطار ، وليس كل أول يقتضي أن يكون له ثانٍ فضلاً أن يشاركه في جميع خواصه ، فلا يلزم من كونه أول أن يكون بيت المقدس مثلاً ثانياً له ولا مشاركاً في وجوب الحج والاستقبال وغيرهما من الخواص . ثم إن كونه أول بيت وضع للناس يحتمل أن يكون المراد أنه أول في البناء والوضع ، ويحتمل أن يراد أنه أول في الوضع وإن كان متأخراً في البناء ، فلا جرم حصل فيه للمفسرين قولان : الأول أنه أول في بنائه ووضعه جميعاً . روى الواحدي رحمه الله في البسيط بإسناده عن مجاهد أنه قال : خلق الله هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرضين . وفي رواية أخرى : خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرض بألفي سنة ، وإن قواعده لفي الأرض السابعة السفلى ، وروى أيضاً عن محمد بن عبي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عن آبائه قال : إن الله تعالى بعث ملائكة فقال : ابنوا لي في الأرض بيتاً على مثال البيت المعمور . وأمر الله تعالى من في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور . وهذا كان قبل خلق آدم وقد ورد في سائر كتب التفسير عن عبد الله بن عمر ومجاهد والسدي أنه أول بيت ظهر على

وجه الماء عند خلق الأرض والسماء ، وقد خلقه الله قبل الأرض بألفي عام ، وكان زبدة بيضاء على الماء ثم دحيت الأرض من تحته . وعن الزهري قال : بلغني أنهم وجدوا في مقام إبراهيم ثلاثة صفوح في كل صفح منها كتاب . في الصفح الأول : " أنا الله ذو بكة وضعتها يوم وضعت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء وباركت لأهلها في اللحم واللبن " . وفي الثاني : " أنا الله ذو

بكة ، خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي . من وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته " . وفي الثالث : " أنا الله ذو بكة خلقت الجن والإنس فطوبى لمن كان الخير على يديه وويل لمن كان الشر على يديه " . وقد يستدل على صحة هذا القول بما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال يوم فتح مكة " ألا إن الله قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض " . وتحريم مكة لا يمكن إلا بعد وجودها ولأنه تعالى سماها أم القرى ، وهذا يقتضي سبقها على سائر البقاع ، ولأن تكليف الصلاة كان ثابتاً في أديان جميع الأنبياء .

وأيضاً قال تعالى في سورة مريم ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ﴾ [مريم : 58] إلى قوله : ﴿ خروا سجداً ﴾ [مريم : 58] والسجدة لا بد لها من قبلة فلو كانت قبلتهم غير الكعبة لم تكن هي أول بيت وضع للناس هذا محال خلف . القول الثاني : روي أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أول مسجد وضع للناس ؟ فقال : " المسجد الحرام ثم بيت المقدس فسئل كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة " وعن علي أن رجلاً قال له : هو أول بيت ؟ قال : لا . قد كان قبله بيوت ، ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً ، فيه الهدى والرحمة والبركة . واعلم أن الغرض الأصلي من ذكر هذه الأوّلية بيان الفضيلة وترجيحه على بيت المقدس . ولا تأثير لأولية البناء في هذا المقصود ، وإن كان الأرجح ثبوت تلك الأولية أيضاً كما روينا آنفاً ، وفي سورة البقرة أيضاً من الأخبار والآثار . فمن فضائل البيت أن الآمر ببنائه الرب الجليل ، والمهندس جبرائيل ، وبانية إبراهيم الخليل وتلميذة ابنه إسماعيل . ومنها أنه محل إجابة الدعوات ومهبط الخيرات والبركات ، ومصعد الصلوات والطاعات ، ومنها مقام إبراهيم كما يجيء ، ومنه قلة ما يجتمع من حصى الجمار فيه فإنه منذ ألف سنة يرمي في كل سنة خمسمائة ألف إنسان كل واحد منهم سبعين حصاة ثم لا يرى هناك إلا ما لو اجتمع في سنة واحدة لكان غير كثير . وليس الموضع الذي يرمي إليه الجمرات مسيل ماء أو مهب رياح شديدة ، وقد جاء في الآثار أن

كل من كانت حجته مقبولة رفعت جمراته إلى السماء . ومنها أن الطيور تترك المرور فوق الكعبة وتنحرف عنها ألبتة إذا وصلت إلى محاذاتها . ومنها أن الحيوانات المتضادة في الطبائع لا يؤذي بعضها بعضاً عنده كالكلاب والظباء ، ومنها أمن سكانها فلم ينقل ألبتة أن ظالماً هدم الكعبة أو خرب مكة بالكلية ، وأما بيت المقدس فقد هدمه بختنصر بالكلية ، وقصة أصحاب الفيل سوف تجيء في موضعها إن شاء العزيز ، ومنها أنه تعالى

وضعها بواد غير ذي زرع لفوائد منها : أنه قطع بذلك رجاء أهل حرمة وسدنة بيته عمن سواه حتى لا يتوكلوا إلا على الله . ومنها أنه مع كونه كذلك يجبى إليه ثمرات كل شيء وذلك بدعوة خليلة إبراهيم صلى الله عليه وسلم وإنه من أعظم الآيات ومنها أن لا يسكنها أحد من الجبابرة لأنهم يميلون إلى طيبات الدنيا ، فيبقى ذلك الموضع المنيف والمقام الشريف مطهراً عن لوث وجود أرباب الهمم الدنية . ومنها أن لا يقصدها الناس للتجارة بل يأتون لمحض العبادة والزيارة ، ومنها أنه تعالى أظهر بذلك شرف الفقر حيث وضع أشرف البيت في أقل المواضع نصباً من الدنيا فكأنه تعالى يقول : جعلت الفقراء في الدنيا أهل البلد الأمين لأجعلهم في الآخرة أهل المقام الأمين .

ومنها كأنه قيل : كما لم أجعل الكعبة إلا في موضع خال عن جميع نعم الدنيا فكذا لا أجعل كعبة المعرفة إلا في قلب خال عن محبة الدنيا ﴿ للذي ببكة ﴾ للبيت الذي ببكة قال في الكشاف : وهي علم للبلد الحرام . ومكة وبكة لغتان كراتب وراتم . وضربة لازم ولازب مما يعتقب فيه الميم والباء لتقارب مخرجهما . وقيل : مكة البلد وبكة موضع المسجد . وفي الصحاح بكة اسم لبطن مكة وأما اشتقاق بكة فمن قولهم بكة إذا زحمه ودفعه ، وعن سعيد بن جبير : سميت بكة لأنهم يتباكون فيها أي يزدحمون في الطواف وهو قول محمد بن علي الباقر ومجاهد وقتادة . قال بعضهم : رأيت محمد بن علي الباقر يصلي . فمرت امرأة بين يديه فذهبت أدفعها فقال : دعها فإنها سميت بكة لأنه يبك بعضهم بعضاً ، تمر المرأة بين يدي الرجل وهو يصلي والرجل بين يدي المرأة وهي تصلي ولا بأس بذلك في هذا المكان . ويؤكد هذا القول من قال : إن بكة موضع المسجد لأن المطاف هناك وفيه الازدحام . ولا شك أن بكة غير البيت لأن الآية تدل على أن البيت حاصل في بكة ، والشيء لا يكون ظرفاً لنفسه ، وقيل : سميت بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة أي تدقها ، لم يقصدها جبار بسوء إلا اندقت عنقه . وأما مكة فاشتقاقها من قولك أمتك الفصيل ضرع أمه إذا امتص

ما فيه واستقصى ، فسميت بذلك لأنها تجذب الناس من كل جانب وقطر أو لقلة مائها كأن أرضها امتصت ماءها . وقيل : إن مكة وسط الأرض ، والعيون والمياه تنبع من تحتها ، فكأن الأرض كلها تمك من ماء مكة ، ثم إنه تعالى وصف البيت بكونه مباركاً وهدى للعالمين ، أما انتصابه فعلى الحال عن الضمير المستكن في الظرف ، لأن التقدير للذي ببكة هو والعامل فيه معنى الاستقرار . وأما معناه فالبركة إما النمو والتزايد وكثرة الخير ، وإما البقاء والدوام وكل شي ثبت ودام فقد برك ، ومنه برك البعير إذا وضع صدره على الأرض والبركة شبه الحوض لثبوت الماء فيها ، وتبارك الله لثبوته لم يزل ولا

(79/126)

يزال ، والبيت مبارك لما يحصل لمن حجة واعتمره واعكف عنده وطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب . قال صلى الله عليه وسلم : " صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام " وقال صلى الله عليه وسلم : " الحج المرور ليس له جزاء إلا الجنة " ولو استحضر العاقل في نفسه أن الكعبة كالنقطة وصفوف المتوجهين إليها في الصلوات في أقطار الأرض وأكنافها ولعمري إنها غير محصورة كالدوائر المحيطة بالمركز ، ولا شك أنه يحصل فيما بين هؤلاء المصلين أشخاص أرواحهم علوية ، وقلوبهم قدسية ،

وأسرارهم نورانية ، وضمائرهم ربانية ، علم أنه إذا توجهت تلك الأرواح الصافية إلى كعبة المعرفة واستقبلت أجسادهم هذه الكعبة الحسية ، اتصلت أنوار أولئك الأرواح بنوره وعظم لمعان الأضواء الروحانية في سره .

(80/126)

قال القفاز : يجوز أن تكون بركته ما ذكر في قوله : ﴿ يجبى إليه ثمرات كل شيء ﴾ [القصص : 57] فيكون كقوله : ﴿ إلى الأرض ﴾ [الأنبياء : 71] المقدسة ﴿ التي باركنا فيها ﴾ [الأنبياء : 71] وإن فسرنا البركة بالدوام فلا شك أنه لا تنفك الكعبة من الطائفين والعاكفين والركع السجود . وإذا كانت الأرض كرة وكل آن يفرض فإنه صبح لقوم ظهر لآخرين وعصر لغيرهم أو مغرب أو عشاء ، فلا تخلو الكعبة عن توجه قوم إليها أبتة . وأيضاً بقاء الكعبة على هذه الحالة ألوفاً من السنين دوام . وأما كونه هدى للعالمين فلأنه قبلتهم ومتعبدهم أو لأنه يدل على وجود الصانع وصدق محمد صلى الله عليه وسلم بما فيه من الآيات والأعاجيب ، أو لأنه يهدي إلى الجنة . ومعنى هدى هادياً أو ذا هدى قاله الزجاج ، وجوز أن يكون محله رفعاً أي وهو هدى ﴿ فيه آيات بينات ﴾ يحتمل أن يراد بها ما عددنا من بعض فضائله ، ويكون قوله : ﴿ مقام إبراهيم ﴾ غير متعلق بما قبله ،

فكأنه قيل فيه آيات بينات ومع ذلك فهو مقام إبراهيم وموضعه الذي اختاره وعبد الله فيه . وقال الأكثرون إن الآيات بيانه وتفسيره قوله : ﴿ مقام إبراهيم ﴾ إما بأن يجعل وحده بمنزلة آيات كثيرة لأنه معجز رسول وكل معجز ففيه دليل أيضاً على علم الصانع وقدرته وإرادته وحياته وتعاليه عن مشابهة المحدثات ، فلقوة هذا الدليل عبر عنه بلفظ الجمع كقوله : ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾ [النحل : 120] وإما بأن يجعل المقام مشتملاً على آيات لأن أثر القدم في الصخرة الصماء آية ، وغوصه فيها إلى الكعبين آية ، وإلانة بعض الصخرة دون بعض آية وإبقاء هذا الأثر دون آثار سائر الأنبياء آية لإبراهيم خاصة ، وحفظة مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة ألوفاً من السنين آية . قال الزجاج : قوله : ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ من تتمة تفسير الآيات . وهذه الجملة وإن كانت من مبتدأ وخبر أو من شرط وجزاء إلا أنها في تقدير مفرد من حيث

المعنى . فكأنه قيل : فيه آيات بينات وأمن من دخله كما لو قلت : فيه آية بينة من دخله كان آمناً كان معناه فيه آية بينة أمن من دخله . وهذا التفسير بعد تصحيحه مبني على أن الاثنين جمع كما قال صلى الله عليه وسلم : " الاثنان فما فوقهما جماعة " وفي القرآن ﴿

هذان خصمان اختصموا ﴾ [الحج : 19] وقيل : ذكر آيتان وطوى ذكر غيرهما . دلالة على تكاثر الآيات كأنه قيل : فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن من دخله وكثير سواهما . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " حبب إليّ من دنيا كم ثلاث الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة "

(82/126)

ومنهم من تمم الثلاثة فقال : مقام إبراهيم وأمن من دخله وإن لله على الناس حجه . وقال المبرد : مقام مصدر فلم يجمع والمراد مقامات إبراهيم هي ما أقامه من المناسك ، فالمراد بالآيات شعائر الحج . وقرأ ابن عباس وأبي ومجاهد وأبو جعفر المدني في رواية قتيبة ﴿ آية بينة ﴾ على التوحيد قاله في الكشاف . وفيه توكيد لكون مقام إبراهيم وحده بياناً . وأما حديث " أمن من دخله " فقد مر اختلاف العلماء فيه في سورة البقرة في قوله : ﴿ وإذا جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ﴾ [البقرة : 125] وقيل : كان آمناً من النار لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم : " من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمناً " وعنه صلى الله عيله وسلم : " الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينثران في الجنة " وهما مقبرتا مكة والمدينة . وعن ابن مسعود : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثنية

الحجون وليس بها يومئذٍ مقبرة فقال : " يبعث الله من هذه البقعة ومن هذا الحرم كله سبعين ألفاً وجوههم كالقمر ليلة البدر يدخلون الجنة بغير حساب يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفاً وجوههم كالقمر ليلة البدر " وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " من صبر على حر مكة ساعة من نهار تباعدت منه جهنم مسيرة مائتي عام " ﴿ ولله على الناس حج البيت ﴾ لما ذكر فضائل البيت أردفه بإيجاب الحج وفيه لغتان : الفتح لغة الحجاز ، والكسر لغة نجد ، وكلاهما مصدر كالمدح والذم والذكر والعلم . وقيل : المكسور اسم للعمل ، والمفتوح مصدر . ومحل ﴿ من استطاع ﴾ خفض على البدل ﴿ من الناس ﴾ والمعنى : ولله على من استطاع من الناس حج البيت ، وقال الفراء : يجوز أن ينوي الاستئناف بمن والخبر ، أو الجزاء محذوف لدلالة ما قبله عليه والتقدير : من استطاع إليه سبيلاً فللّه عليه حج البيت . وقال ابن الأنباري : يحتمل أن يكون محله رفعاً على البيان كأنه قيل : من الناس الذين عليهم لله حج البيت ؟ فقيل : هم من استطاع .

والضمير في ﴿ إليه ﴾ للبيت أو الحج . واستطاعة السبيل إلى الشيء هي إمكان الوصول إليه واحتج أصحاب الشافعي بالآية على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع لأن

الناس يعم المؤمن والكفار وعدم الإيمان لا يصلح أن يكون معارضاً ومخصصاً لهذا العموم لأن الدهري مكلف بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم مع أن شرط صحة الإيمان بمحمد غير حاصل ، والمحدث مكلف بالصلاة مع أن الوضوء الذي هو شرط صحة الصلاة ليس بحاصل ، واحتج جمهور المعتزلة بالآية على أن الاستطاعة قبل الفعل لأنها لو كانت مع الفعل لكان من لم يحج لم يكن مستطيعاً للحج فلا يتناوله التكليف المذكور وذلك باطل بالاتفاق . أجاب الأشاعرة بأن هذا أيضاً لازم عليكم لأن القادر إما أن يكون مأموراً بالفعل قبل حصول الداعي إلى الفعل وهو محال لأنه تكليف بما لا يطاق ، أو بعد حصوله وحينئذٍ يكون الفعل واجب الحصول فلا يكون في التكليف به فائدة وإذا كانت الاستطاعة منتفية في الحالين وجب أن لا يتوجه التكليف .

والحق أن وجوب الفعل بالقدرة والإرادة لا ينافي توجيه التكليف إليه .

واعلم أن الحج لا يجب بأصل الشرع في العمر إلا مرة واحدة لما روي عن ابن عباس قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج . فقام الأقرع بن حابس فقال : أفي كل عام يا رسول الله ؟ فقال : لو قلتها لوجبت ولو وجبت لم

تعملوا بها الحج مرة فمن زاد فتطوع " وقد يجب أكثر من مرة واحدة لعارض كالنذور والقضاء . ولصحة الحج على الإطلاق شرط واحد وهو الإسلام ، فلا يصح حج الكافر كصومه وصلاته . ولا يشترط فيه التكليف بل يجوز للولي أن يحرم عن المجنون وعن الصبي الذي لا يميز وحينئذٍ يصح حجهما لما روي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بامرأة وهي في محفتها ، فأخذت بعضد صبي كان معها فقالت : ألهذا حج ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " نعم ولك أجر " . وعن جابر قال : حججنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ومعنا النساء والصبيان فلبينا عن الصبيان ورمينا عنهم . ولصحة المباشرة شرط زائد على الإسلام وهو التمييز . فلا تصح مباشرة الحج من المجنون والصبي الذي لا يميز كسائر العبادات ، ويصح من الصبي المميز أن يحرم ويحج بإذن الولي ، ولا يشترط فيها الحرية كسائر العبادات ، ولوقوعه عن حجة الإسلام شرطان زائدان : البلوغ والحرية لقوله صلى الله عليه وسلم : " أيما صبي حج ثم بلغ فعليه حجة الإسلام ، وأيما عبد حج ثم عتق فعليه حجة الإسلام " والمعنى فيه أن الحج عبادة عمر لا تتكرر فاعتبر وقوعها في حالة الكمال ، ولأن التكليف تابع للتمييز فشرط هذا الحكم إذن يعود إلى ثلاثة : الإسلام والتكليف والحرية . ولو تكلف الفقير الحج وقع حجه عن الفرض كما لو تحمل الغني خطر الطريق وحج ، وكما لو تحمل المريض المشقة وحضر الجمعة . ولوجوب حجة الإسلام شرط زائد على الثلاثة المذكورة آنفاً وهو الاستطاعة بالآية . والاستطاعة نوعان :

استطاعة مباشرته بنفسه واستطاعة تحصيله بغيره . النوع الأول يتعلق به أمور أربعة :

أحدها

(85/126)

الراحلة ، والناس قسمان : أحدهما من بينه وبين مكة مسافة القصر فلا يلزمه الحج إلا إذا وجد راحلة سواء كان قادراً على المشي أو لم يكن لما روي أنه صلى الله عليه وسلم فسر استطاعة السبيل إلى الحج بوجود الزاد والراحلة . نعم لو كان قادراً على المشي يستحب له أن لا يترك الحج .

وعند مالك القوي على المشي يلزمه الحج . ويعتبر مع وجدان الراحلة وجدان المحمل أيضاً إن كان لا يستمسك على الراحلة ويلحقه مشقة شديدة . ثم العادة جارية بركوب اثنين في المحمل . فإن وجد مؤنة محمل أو شق محمل ووجد شريكاً يجلس في الجانب الآخر لزمه الحج ، وإن لم يجد الشريك فلا . القسم الثاني من ليس بينه وبين مكة مسافة القصر . فإن كان قوياً على المشي لزمه الحج وإلا فلا يجب إلا مع الراحلة أو معها ومع المحمل كما في حق البعيد . والمراد بوجود الراحلة أن يقدر على تحصيلها ملكاً أو استئجاراً بثمن المثل أو بأجرة المثل وكذا في المحمل . المتعلق الثاني : الزاد وأوعيته وما يحتاج إليه في السفر مدة

ذهابه وإيابه سواء كان له أهل أو عشيرة يرجع إليهم أو لا فحب الوطن من الإيمان . وكذا الراحلة للإياب وأجره البذرقة . كل ذلك بعد قضاء جميع الديون ورد الودائع ونفقة من يلزمه نفقتهم حينئذٍ إلى العود ، وبعد مؤن النكاح إن خاف العنت ، وبعد مسكنه ودست ثوب يليق به وخادم يحتاج إليه لزمانته أو لمنصبه . ولو كان له رأس مال يتجر فيه وينفق من ربحه ولو نقص لبطلت تجارته ، أو كان له متسغلات يرتفق منها نفقته ، فالأصح عند الأئمة أنه يكلف بيعها لأن واحد للزاد والراحلة في الحال ولا عبرة لخوف الفقر في الاستقبال .

المتعلق الثالث : الطريق ويشترط فيه غلبة ظن الأمن على النفس من نحو سبع وعدو ، والأمن على المال من عدو أو رصديّ وإن رضي بشيء يسير ، والأمن على البضع للمرأة بخروج زوج أو محرم أو نسوة ثقات . وفي البحر يعتبر غلبة السلامة وفي البر وجود علف الدابة .

المتعلق الرابع : البدن ويشترط فيه أن يقوى على الاستمساك على الراحلة ، فإن ضعف عن ذلك لمرض أو غيره فهو غير مستطيع للمباشرة . ولا بد للأعمى من قائد ، وعند أبي حنيفة لا حج عليه . ويروى أنه يستنيب قال الأئمة : لا بد مع الشرائط من إمكان المسير

وهو أن يبقى من الزمان بعد الاستطاعة ما يمكنه المسير فيه إلى الحج به السير المعهود ، فإن احتاج إلى أن يقطع في يوم مرحلتين أو أكثر لم يلزمه الحج . ولو خرجت الرفقة قبل الوقت الذي جرت عادة أهل بلده بالخروج فيه لم يلزمه الخروج معهم . ووجوب الحج في العمر كالصلاة في وقتها ، فيجوز التراخي لكنه أن دامت الاستطاعة وتحقق الإمكان ولم يحج حتى مات عصى على الأظهر ون كان شاباً . وقال أحمد ومالك وأبو حنيفة في رواية : إنه على الفور . حجة الشافعي أن فريضة الحج نزلت سنة خمس من الهجرة وأخره النبي صلى الله عليه وسلم من غير مانع فإنه خرج إلى مكة سنة سبع لقضاء العمرة ولم يحج وفتح مكة سنة ثمان ، وبعث أبا بكر أميراً على الحاج سنة تسع وحج هو سنة عشر وعاش بعدها ثمانين يوماً .

(87/126)

وأما النوع الثاني فهو استطاعة الاستنابة فإنها جائزة في الحج وإن كانت العبادات بعيدة عن الاستنابة ، لأن المحجوج عنه قد يكون عاجزاً عن المباشرة بسبب الموت أو الكبر أو زمانة أو مرض لا يرجى زواله . وعن ابن عباس أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "يا رسول الله ، إن أختي نذرت أن تحج وماتت قبل أن تحج ، أفأحج عنها ؟ فقال :

لو كان على أختك دين أكنت قاضية ؟ قال : نعم قال : فاقضوا حق الله تعالى فهو أحق بالقضاء " وعنه أن امرأة من خثعم قالت : يا رسول الله إن فريضة الله تعالى على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يستمسك على الراحلة أفأحج عنه ؟ قال : نعم . وقد تكون الاستنابة بطريق الاستئجار لأنه عمل يدخله النيابة فيجري فيه الاستئجار كتفريق الزكاة . وعند أبي حنيفة وأحمد لا يجوز ولكن يرزق عليه . ولو استأجر كان ثواب النفقة للآمر وسقط عنه الخطاب بالحج ويقع الحج عن الحاج . والحج بالرزق أن يقول : حج عني وأعطيك نفقتك . وهذا أيضاً جائز عند الشافعي كالإجارة . ولكن لا يجوز أن يقول استأجرتك بالنفقة لأنها مجهولة . والأجر لا بد أن تكون معلومة . فهذا جملة الكلام في الاستطاعة عند الجمهور . وعن الضحاك : إذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع ، وقيل له في ذلك فقال : إن كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه بل كان ينطلق إليه ولو حبواً ، فكذلك يجب عليه الحج . وفي الآية أنواع من التوكيد والتغليظ منها قوله : ﴿ ولله على الناس حج البيت ﴾ أي حق واجب له عليهم لكونه إلهاً فيجب عليهم الانقياد سواء عرفوا وجه الحكمة فيها أم لم يعرفوا فإن كثيراً من أعمال الحج تعبد محض . ومنها بناء الكلام على الأبدال ليكون تثنية للمراد وتفصيلاً بعد الإجمال وإيراد للغرض في صورتين تقريراً له في الأذهان . ومنه ذكر من كفر مكان من لم يحج وفيه من التغليظ ما فيه ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من مات ولم يحج فليمت

إن شاء يهودياً أو نصرانياً " ونظيره قوله صلى الله عليه وسلم : " من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر " ومنها إظهار الغني وتهويل الخطب بذكر اسم الله دون أن يقول : " فإنه " أو " فإني " فإنه يدل على غاية السخط والخذلان . ومنه وضع المظهر مقام المضمر حيث قال : ﴿ عن العالمين ﴾ . ولم يقل " عنه " لأنه تعالى إذا كان غنياً عن كل العالمين فلأن يكون غنياً عن طاعة ذلك الواحد أولى . ومن العلماء من زعم أن هذا الوعيد عام في حق كل من كفر ولا تعلق له بما قبله ، ومنهم من حمله على اعتقاد عدم وجوب الحج ويؤكده ما روي عن سعيد بن المسيب إنها نزلت في اليهود قالوا : إن الحج إلى مكة غير واجب .

وعن الضحاك : لما نزلت آية الحج جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الأديان الستة . المسلمين واليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين - فخطبهم وقال : إن الله تعالى كتب عليكم الحج فحجوا . فآمن به المسلمون وكفرت به الملل الخمس وقالوا : لا نؤمن به ولا نصلي إليه ولا نحجه . فنزلت ﴿ ومن كفر ﴾ . ومن الأحاديث الواردة في تأكيد أمر الحج قوله صلى الله عليه وسلم : " حجوا قبل أن لا تحجوا فإنه قد هدم البيت مرتين ويرفع في الثالثة " وروي " حجوا قبل أن لا تحجوا حجوا قبل أن يمنع البر جانبه " أي

يتعذر عليكم الذهاب إلى مكة من جانب البر لعدم الأمن أو غيره . وعن ابن مسعود : حجوا هذا البيت قبل أن تنبت في البادية شجرة لا تأكل منها دابة إلا نفقت أي هلكت . وعن عمر : لو ترك الناس الحج عاماً واحداً ما نوظروا أي عجل عقوبتهم ويستأصلون .

(89/126)

ثم إنه سبحانه لاين أهل الكتاب في الخطاب فقال : ﴿ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ﴾ التي دلتكم على صدق محمد صلى الله عليه وسلم بعد ظهور البينات ودحوض الشبهات ، أو بعد معرفة فضيلة الكعبة ووجوب الحج ؟ ﴿ والله شهيد على ما تعملون ﴾ فيجازيكم عليه . وهذه الحال توجب أن لا تجسروا على الكفر بآياته ودلالتها على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . ثم إنه تعالى لما أنكر عليهم في ضلالهم وبخهم على إضلالهم فقال : ﴿ لم تصدون عن سبيل الله من آمن ﴾ قال المفسرون : وكان صدّهم عن سبيل الله إلقاء الشكوك والشبهات في قلوب ضعفة المسلمين ، وإنكار أن نعت محمد صلى الله عليه وسلم في كتابهم ، ومنع من أراد الدخول في الإسلام بجهدهم وكدهم ، أو بتذكير ما كان بينهم في الجاهلية من العداوات والحروب ليعودوا لمثله . ومحل ﴿ تبغونها عوجاً ﴾ أو اعوجاجاً نصب على الحال أو بدل وهو بكسر العين الميل عن الاستواء في كل

ما لا يرى كالدين والقول . وأما الشيء الذي يرى فيقال فيه " عوج " بالفتح كالحائط والقناة ، ولهذا قال الزجاج : العوج بالكسر في المعاني وبالفتح في الأعيان . وتبغون بمعنى تطلبون ويقتصر على مفعول واحد إذا لم يكن معها اللام مثل " بغيت المال والأجر " فإن أريد تعديته إلى مفعولين زيدت اللام . وفالتقدير تبغون لها عوجاً كما تقول : صدتك ظبياً أي صدت لك ظبياً . والضمير عائد إلى السبيل فإنها تذكر وتؤنث . والمعنى إنكم تلبسون على الناس حتى توهموهم أن فيها زيفاً كقولكم : إن النسخ يدل على البداء وإن شريعة موسى باقية إلى الأبد وإن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس بذلك المنعوت في كتابنا أو المراد أنكم تتبعون أنفسكم في إخفاء الحق وابتغاء ما لا يتأتى لكم من وجود العوج فيما هو أقوم من كل مستقيم .

ويحتمل أن يكون ﴿ عوجاً ﴾ حالاً بمعنى ذا عوج . وذلك أنهم كانوا يدعون أنهم على دين الله وسبيله فقيل لهم : إنكم تبغون سبيل الله ضالين ﴿ وأنتم شهداء ﴾ أنها سبيل الله التي لا يصد عنها إلا ضال مضل قاله ابن عباس . أو أنتم تشهدون ظهور المعجزات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو أنتم شهداء بين أهل دينكم عدول يصغون

لأقوالكم ويستشهدونكم في عظائم الأمور يعني الأحبار . وفيه أن من كان كذلك لا يليق بحاله الإصرار على الباطل والكذب والضلال والإضلال . ثم أوعدهم بقوله : ﴿ وما الله بغافل عاما تعملون ﴾ كقول السيد لعبده وقد أنكر طريقته . لا يخفى عليّ سيرتك ولست بغافل عنك . وإنما ختم الآية الأولى بقوله : ﴿ والله شهيد ﴾ وهذه بقوله : ﴿ وما الله بغافل ﴾ لأن ذلك فيما أظهروه من الكفر بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا فيما أضمروه وهو الصد بالاحتيال وإلقاء الشبهة . وفي تكرير الخطاب في الآيتين بقوله : ﴿ يا أهل الكتاب ﴾ توبيخ لهم على توبيخ بألطف الوجوه وألين المقال لعلهم يتفكرون فينصرفون عن سلوك سبيل الضلال والإضلال . عن عكرمة ويروى عن زيد بن أسلم وجابر أيضاً أن شاس بن قيس اليهودي – وكان عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين – مر على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون فغاظه ذلك حيث تألفوا واجتمعوا بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة وقال : ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار . فأمر شاباً من اليهود أني جلس إليهم ويذكرهم يوم بعاث ، وهو يوم اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج . ففعل وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار . فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين ، أوس بن قيظى أحد بني حارثة من الأوس ، وجبار بن صخر أحد بني سلمة

من الخزرج- فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئت والله رددتها الآن جذعة .

وغضب الفريقان جميعاً وقالا : قد فعلنا

(91/126)

السلاح السلاح موعدكم الظاهرة وهي الحرة . فخرجوا إليها وانضمت الأوس والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية واصطفوا للقتال فنزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ الآيات فجاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى قام بين الصفين فقرأها ورفع صوته ، فلما سمعوا صوته صلى الله عليه وسلم وأنصتوا له صلى الله عليه وسلم وجعلوا يستمعون ، فلما فرغ ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضاً وجثوا يبكون .

(92/126)

وفي رواية زيد بن أسلم : خرج إليهم رسول الله فيمن معه من المهاجرين فقال : يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر

الجاهلية وألف بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً ؟ الله الله . فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين فأنزل الله عز وجل الآيات . قال جابر بن عبد الله . ما كان من طالع أكره إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأومى إلينا بيده وكفنا وأصلح الله ما بيننا ، فما كان شخص أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فما رأيت يوماً قط أقبح ولا أوحش أوّلاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم . ﴿ وكيف تكفرون ﴾ استفهام بطريق الإنكار والعجب . والمعنى من أين يتطرق إليكم الكفر والحال أن آيات الله تتلى عليكم على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم في كل واقعة وبين أظهركم رسول الله يبين لكم كل شبهة ويزيح عنكم لكم علة ؟ ومع هذين النورين لا يبقى لظلمة الضلال عين ولا أثر ، فعليكم أن لا تلتفتوا إلى قوم المخالف وترجعوا فيما يعنّ لكم إلى الكتاب والنبي صلى الله عليه وسلم . قلت : أما الكتاب فإنه باق على وجه الدهر ، وأما النبي صلى الله عليه وسلم فإن كان قد مضى إلى رحمة الله في الظاهر ، ولكن نور سره باق بين المؤمنين ، فكأنه باقٍ على أن عترته صلى الله عليه وسلم وورثته يقومون مقامه بحسب الظاهر أيضاً . ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : " إني تارك فيكم الثقلين ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا كتاب الله وعترتي " وقال : " إن العلماء ورثة الأنبياء " اللّهم اجعلنا من زمرتهم بعصمتك وهدايتك . وفي هذا بشارة لهذه الأمة أنهم لا يضلون أبداً إلى يوم القيامة

. ثم بين أن الكل بعصمة الله وتوفيقه فقال : ﴿ ومن يعتصم بالله ﴾ يتمسك بدينه أو يلتجىء إليه في دفع شرور الكفار ﴿

(93/126)

فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴾ والاعتصام الاستمساك بالشيء في منع نفسه من الوقوع في افة . أما المتعزلة فحيث لم يجعلوا الاعتصام بخلق الله وهدايته بل قالوا : إنه بفعل العبد ، تأوّلوا الآية بأن المراد بالهداية الزيادة في الألطاف المرتبة على أداء الطاعات ، أو المراد بالهداية إلى الجنة . قال في الكشاف : ﴿ فقد هدي ﴾ أي فقد حصل له الهداية لا محالة كما تقول : إذا جئت فلاناً فقد أفلحت كأن الهدى قد حصل له ، فهو يخبر عنه حاصلاً . ومعنى التوقع في " قد " ظاهر لأن المعتصم بالله . متوقع للهدى ، كما أن قاصد الكريم متوقع للفلاح عنده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 2 صـ 207. 222 ﴾

(94/126)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ لن تنالوا البر ﴾ وهو صفة الله ﴿ حتى تنفقوا ﴾ أحب الأشياء إليكم وهو أنفسكم . إن الفراش لم ينل من بر الشمع وهو شعلته حتى أنفق مما أحبه وهو نفسه ﴿ كل الطعام كان حلاً ﴾ الخلق ثلاثة أصناف : الملك النوراني العلوي وغذاؤه الذكر وخلق للعبادة ، والحيوان الظلماني السفلي وغذاؤه الطعام وخلق للخدمة ، والإنسان المركب من القبيلين وغذاؤه لروحانيته الذكر ولجسمانيته الطعام وخلق للمعرفة والخلافة . وهذا الصنف على ثلاثة أقسام : منهم ظالم لنفسه وهو الذي بالغ في غذاء جسمانيته وقصر في غذاء روحانيته حتى مات روحه واستولت نفسه ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ [الأعراف : 179] ومنهم مقتصد وهو الذي تساوى طرفاه ﴿ خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ [التوبة : 102] ﴿ ومنهم سابق بالخيرات ﴾ [فاطر : 32] وهو الذي بالغ في غذاء روحانيته وهو المذكور ، وفرط في غذاء جسمانيته حتى ماتت نفسه وقوي روحه ﴿ أولئك هم خير البرية ﴾ [البينة : 7] فكان كل الطعام حلالاً للإنسان كما للحيوان إلا ما حرم الإنسان السابق بالخيرات على نفسه بموت النفس وحياة القلب واستيلاء الروح من قبل أن ينزل الوحي والإلهام كما قيل : المجاهدات تورث المشاهدات ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا ﴾ [العنكبوت : 69] فمن افترى على الله

الكذب بأن يريد أن يهتدي إلى الحق من غير جهاد النفس ﴿ قل صدق الله ﴾ في قوله : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا ﴾ ﴿ فاتبعوا ملة إبراهيم ﴾ وكان من ملته إنفاق المال على الضيفان ، وبذل الروح عند الامتحان ، وتسليم الولد للقربان ﴿ وما كان من المشركين ﴾ الذين يتخذون مع الله إلهاً آخر ﴿ إن أول بيت وضع للناس ﴾ لا لله لأنه غني عن العالمين . وإن أنموذج بيت الله في الإنسان وهو العالم الصغير القلب الذي وضع ببكة صدر الإسلام مباركاً عليه وهدى يهتدي به جميع أجزاء وجوده إلى الله بجوده . فإن النور الإلهي إذا وقع في القلب انفسح له واتسع ،

فبه يسمع وبه يبصر وبه يعقل وبه ينطق وبه يبطش وبه يمشي وبه يتحرك وبه يسكن ﴿ فيه آيات بينات ﴾ يصل بها الطالب إلى مطلوبه والقاصد إلى مقصوده ، ومنها مقام إبراهيم وهو الخلة التي توصل الخليل إلى خليله ﴿ ومن دخله ﴾ يعني مقام إبراهيم ببذل المال والنفس والولد وإرضاء خليله ﴿ كان آمناً ﴾ من نار القطيعة ومن عذاب الحجاب ، ثم أخبر عن وجوب زيارة بيت الخليل على الخليل إن استطاع إليه السبيل وذلك بأن وجد شرائط السلوك وإمكانه وآداب السير وأركانه . ومنها الإحرام بالخروج عن الرسوم

والعادات ، والتجرد عن الطيبات والمألوفات ، والتطهر عن الأخلاق المذمومات ، والتوجه إلى حضرة فاطر الأرض والسموات بخلوص النيات وصفاء الطويات ، ومنها الوقوف بعرفات المعرفة ، والعكوف على عتبة جبل الرحمة بصدق الالتجاء ، وحسن العهد والوفاء . ومنها الطواف بالخروج عن الأطوار البشرية السبعية بالأطواف السبعة حول الكعبة الربوبية . ومنها السعي بين صفا الصفات ومروة الذات . ومنها الحلق بمحو آثار العبودية بموسى الأنوار الإلهية . وقس سائر المناسك على هذا . ﴿ ومن كفر ﴾ بوجدان الحق ولا يتعرض لنفحات الألطاف ، ولا يترقب لجذبات الأعطاف التي توازي عمل الثقلين وهي الاستطاعة في الحقيقة ﴿ فإن الله غني عن العالمين ﴾ لا يستكمل هو منهم وإنما يستكملون هم منه . ﴿ قل يا أهل الكتاب ﴾ ظاهر الخطاب معهم وباطنه مع علماء السوء الذين يبيعون دينهم بدنياهم ولا يعملون بما يعلمون فيضلون ويضلون ، وما العصمة عن اتباع الهوى إلا منه تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 2 صـ 222. 223﴾

(96/126)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما انقضى هذا التحذير من أهل الكتاب والتعجيب والترغيب ، أمر بما يثمر ذلك من رضاه فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي ادعوا ذلك بألسنتهم ﴿ اتقوا الله ﴾ أي صدقوا دعواكم بتقوى ذي الجلال والإكرام ﴿ حق تقاته ﴾ فأديموا الانقياد له بدوام مراقبته ولا تقطعوا أمراً دونه ﴿ ولا تموتن ﴾ على حالة من الحالات ﴿ إلا وأنتم مسلمون ﴾ أي منقادون أتم الانقياد ، ونقل عن العارف أبي الحسن الشاذلي أن هذه الآية في أصل الدين وهو التوحيد ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ [التغابن : 16] في فروعه.

ولما كان عزم الإنسان فاتراً وعقله قاصراً ، دلهم - بعد أن أوقفتهم التقوى - على الأصل لجميع الخيرات المتكفل بالحفظ من جميع الزلات فقال : ﴿ واعتصموا ﴾ أي كلفوا أنفسكم الارتباط الشديد والانضباط العظيم ﴿ بحبل الله ﴾ أي طريق دين الملك الذي لا كفوء له التي نهجها لكم ومهدها ، وأصل الحبل السبب الذي يوصف به إلى البغية والحاجة ، وكل من يمشي على طريق دقيق يخاف أن تزلق رجله عنه إذا تمسك بحبل مشدود الطرفين بجانبي ذلك الطريق أمن الخوف ، ولا يخفى دقة الصراط بما ورد به النقل الصحيح وهذا الدين مثاله فصعوبته وشدته على النفوس بما لها من النوازع والحظوظ مثال دقته ، فمن قهر نفسه وحفظها على التمسك به حفظ عن السقوط عما هو مثاله .

ولما أفهم كل من الضمير والحبل والاسم الجامع إحاطة الأمر بالكل أكده بقوله :

﴿ جميعاً ﴾ لا تدعوا أحداً منكم يشذ عنها ، بل كلما عثرتم على أحد فارقها ولو قيد شبر فردوه إليها ولا تناظروه ولا تهملوا أمره ، ولا تغفلوا عنه فيختل النظام ، وتتعبوا على الدوام ، بل تزالوا كالرابط ربطاً شديداً حزمة نبل بحبل ، لا يدع واحدة منها تنفرد عن الأخرى ، ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ ولا تفرقوا ﴾ ثم ذكرهم نعمة الاجتماع ، لأن ذلك باعث على شكرها ، وهو باعث على إدامة الاعتصام والتقوى ، وبدأ منها بالدنيوية لأنها أس الأخروية فقال : ﴿ واذكروا نعمة الله ﴾ الذي له الكمال كله ﴿ عليكم ﴾ يا من اعتصم بعصام الدين ! ﴿ إذا كنتم أعداء ﴾ متنافرين أشد تنافر ﴿ فألف بين قلوبكم ﴾ بالجمع

على هذا الصراط القويم والمنهج العظيم ﴿ فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ قد نزع ما في قلوبكم من الإحن، وأزال تلك الفتن والمحن.

(98/126)

ولما ذكر النعمةت التي أنقذتهم من هلاك الدنيا ثنى بما تبع ذلك من نعمة الدين التي عصمت من الهلاك الأبدي فقال: ﴿ وكنتم على شفا ﴾ أي حرف وطرف ﴿ حفرة من النار ﴾ بما كنتم فيه من الجاهلية ﴿ فأنقذكم منها ﴾ .

ولما تم هذا البيان على هذا الأسلوب الغريب نبه على ذلك بقوله - جواباً لمن يقول: لله در هذا البيان! ما أغربه من بيان! - ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا البيان البعيد المنال البديع المثال ﴿ يبين الله ﴾ المحيط علمه الشاملة قدرته بعظمته ﴿ لكم آياته ﴾ وعظم الأمر بتخصيصهم به وإضافة الآي إليه.

ولما كان السياق لبيان دقائق الكفار في إرادة إضلالهم ختم الآية بقوله: ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أي ليكون حالكم عند من ينظركم حال من ترجى وتوقع هدايته، هذا الترجي حالكم فيما بينكم، وأما هو سبحانه وتعالى فقد أحاط علمه بالسعيد والشقي،

ثم الأمر إليه ، فمن شاء هداه ، ومن أراد أرداه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 132.131 ﴾

(99/126)

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما حذر المؤمنين من إضلال الكفار ومن تلبيساتهم في الآية الأولى أمر المؤمنين في هذه الآيات بمجامع الطاعات ، ومعاقد الخيرات ، فأمرهم أولاً : بتقوى الله وهو قوله ﴿ اتقوا الله ﴾ وثانياً : بالاعتصام بحبل الله ، وهو قوله ﴿ واعتصموا بِحَبْلِ الله ﴾ وثالثاً : بذكر نعم الله وهو قوله ﴿ واذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ ﴾ والسبب في هذا الترتيب أن فعل الإنسان لا بد وأن يكون معللاً ، إما بالرهبة وإما بالرغبة ، والرهبة مقدمة على الرغبة ، لأن دفع الضرر مقدم على جلب النفع ، فقوله ﴿ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ إشارة إلى التخويف من عقاب الله تعالى ، ثم جعله سبباً للأمر بالتمسك بدين الله والاعتصام بحبل الله ، ثم أردفه بالرغبة ، وهي قوله ﴿ واذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ ﴾ فكأنه قال : خوف عقاب الله يوجب ذلك ، وكثرة نعم الله توجب ذلك فلم تبق جهة من الجهات الموجبة للفعل إلا وهي حاصلة في وجوب انقيادكم لأمر الله ووجوب طاعتكم لحكم الله ، فظهر بما

ذكرناه أن الأمور الثلاثة المذكورة في هذه الآية مرتبة على أحسن الوجوه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 140 . 141 ﴾

وقال ابن عاشور :

انتقل مِن تحذير المخاطبين من الانخداع لوساوس بعض أهل الكتاب ، إلى تحريضهم على تمام التَّقوى ، لأنّ في ذلك زيادة صلاح لهم ورسوخاً لإيمانهم ، وهو خطاب لأصحاب محمَّد صلى الله عليه وسلم ويَسري إلى جميع من يكون بعدهم .

وهذه الآية أصل عظيم من أصول الأخلاق الإسلامية .

والتَّقوى تقدّم تفسيرها عند قوله تعالى : ﴿ هدى للمتقين ﴾ .

وحاصلها امتثال الأمر ، واجتناب المنهي عنه ، في الأعمال الظَّاهرة ، والنَّوايا الباطنة .

(100/126)

وحقّ التقوى هو أن لا يكون فيها تقصير ، وتظاهر بما ليس من عمله ، وذلك هو معنى قوله تعالى : ﴿ فاتَّقوا الله ما استطعتم ﴾ [التغابن : 16] لأنّ الاستطاعة هي القدرة ، والتَّقوى مقدورة للنَّاس .

وبذلك لم يكن تعارض بين الآيتين ، ولا نسخ ، وقيل : هاته منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فاتقوا

اللَّه ما استطعتم ﴾ لأنّ ها ته دلّت على تقوى كاملة كما فسَّرها ابن مسعود : أن يطاع فلا يعصى ، ويُشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا يُنْسى ، ورووا أنّ هذه الآية لمَّا نزلت قالوا : "يا رسول الله من يَقوى لهذا" فنزلت قوله تعالى : ﴿ فاتَّقوا الله ما استطعتم ﴾ فنسَخَ هذه بناء على أنّ الأمر في الآيتين للوجوب ، وعلى اختلاف المراد من التقويين .

والحقّ أنّ هذا بيان لا نسخ ، كما حقَّقه المحقِّقون ، ولكن شاع عند المتقدّمين إطلاق النَّسخ على ما يشمل البيان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 173 ﴾

(101/126)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ حق تقاته ﴾ بالإمالة : علي ﴿ ولا تفرقوا ﴾ بتشديد الراء : البزي وابن فليح .

الوقوف : ﴿ مسلمون ﴾ ه ﴿ ولا تفرقوا ﴾ ص لعطف المتفقتين ﴿ إخواناً ﴾ ج لاحتمال الواو وللحال والاستئناف ﴿ منها ﴾ ط ﴿ يهتدون ﴾ ه ﴿ المنكر ﴾ ط للعدول ﴿ المفلحون ﴾ ه ﴿ البينات ﴾ ط ﴿ عظيم ﴾ ه (لا) لتعلق الظرف بلهم

على الأصح . وقيل : مصنوب بإضمار " اذكر " . ﴿ وتسود وجوه ﴾ج ﴿ اسودت وجوههم ﴾ (لا) لأن التقدير : فيقال لهم : أكفرتم ؟ ﴿ تكفرون ﴾ 5 ﴿ ففي رحمة الله ﴾ ط ﴿ خالدون ﴾ 5 ﴿ بالحق ﴾ ط ﴿ للعالمين ﴾ 5 ﴿ ما في الأرض ﴾ ط ﴿ الأمور ﴾ ه ﴿ وتؤمنون بالله ﴾ ط ﴿ خيراً لهم ﴾ ط ﴿ الفاسقون ﴾ ه قيل : لا وقف عليه وعليه وقف لأن المعرف لا يتصف بالجملة ﴿ إلا أذى ﴾ طو ﴿ الأدبار ﴾ وقفة لأن " ثم " لترتيب الإخبار أي ثم هم لا ينصرون ، ولو كان عطفاً لكان ثم لا ينصروا .

﴿ لا ينصرون ﴾ ه . انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 2 صـ 223.224 ﴾

(102/126)

فصل

قال البغوى :

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ قال مقاتل بن حيان : كان بين الأوس والخزرج عداوة في الجاهلية وقتال حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فأصلح بينهم فافتخر بعده منهم رجلان : ثعلبة بن غنم من الأوس وأسعد بن زرارة من الخزرج ، فقال الأوسي : منّا خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين ، ومنّا حنظلة غسيل الملائكة ،

ومنا عاصم بن ثابت بن أفلح حميُّ الدبر ، ومنّا سعد بن معاذ الذي اهتز لموته عرش الرحمن ورضي الله بحكمه في بني قريظة .

وقال الخزرجي : منّا أربعة أحكموا القرآن : أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد ، ومنّا سعد بن عبادة خطيب الأنصار ورئيسهم ، فجرى الحديث بينهما فغضبا وأنشدا الأشعار وتفاخرا ، فجاء الأوس والخزرج ومعهم السلاح فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البغوى حـ 2 صـ 77 ﴾

فصل

قال القرطبى :

روى البخاري عن مُرة عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حقّ تقاته أن يطاع فلا يُعصَى وأن يُذكر فلا يُنْسى وأن يُشكر فلا يُكفر " وقال ابن عباس : هو ألاّ يُعصَى طَرْفة عَيْن .

وذكر المفسرون أنه لما نزلت هذه الآية قالوا : يا رسول الله ، من يَقْوى على هذا ؟ وشق عليهم فأنزل الله عز وجل ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ [التغابن : 16] فنسخت هذه الآيةَ ؛ عن قَتَادة والرّبيع وابن زيد .

قال مقاتل : وليس في آل عمران من المنسوخ شيء إلا هذه الآية .

وقيل : إن قوله ﴿ فاتقوا اللهَ مَا استطعتم ﴾ بيانٌ لهذه الآية .

والمعنى : فاتّقوا الله حق تُقاته ما استطعتم ، وهذا أصوب ؛ لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع والجمع ممكن فهو أَوْلَى .

وقد روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : قول الله عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [آل عمران : 102] لم تُنسخ ، ولكن "حقّ تُقاته" أن يُجاهد في سبيل الله حق جهاده ، ولا تأخذكم في الله لَوْمةُ لائم ، وتقوموا بالقسط ولو على أنفسكم وأبنائكم .

قال النحاس : وكلما ذكر في الآية واجبٌ على المسلمين أن يستعملوه ولا يقع فيه نسخ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 157 . 158 ﴾

قوله تعالى : ﴿ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾

فصل

قال الفخر :

قال بعضهم هذه الآية منسوخة وذلك لما يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين لأن حق تقاته : أن يطاع فلا يعصى طرفة عين ، وأن يشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى ، والعباد لا طاقة لهم بذلك ، فأنزل الله تعالى بعد هذه ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ ونسخت هذه الآية أولها ولم ينسخ آخرها وهو قوله ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ وزعم جمهور المحققين أن القول بهذا النسخ باطل واحتجوا عليه من وجوه الأول : ما روي عن معاذ أنه عليه السلام قال له : " هل تدري ما حق الله على العباد ؟ قال الله ورسوله أعلم ، قال : هو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً " وهذا لا يجوز أن ينسخ الثاني : أن معنى قوله ﴿ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ أي كما يحق أن يتقى ، وذلك بأن يجتنب جميع معاصيه ، ومثل هذا لا يجوز أن ينسخ لأنه إباحة لبعض المعاصي ، وإذا كان كذلك صار معنى هذا ومعنى قوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ [التغابن : 16] واحداً لأن من اتقى الله ما استطاع فقد اتقاه حق تقاته ، ولا يجوز أن يكون المراد بقوله ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ ما لا يستطاع من التقوى ، لأن الله سبحانه أخبر أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها والوسع دون الطاقة ونظير هذه الآية قوله ﴿ وجاهدوا فِى الله حَقَّ جهاده ﴾ [الحج : 78] .

فإن قيل : أليس أنه تعالى قال : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الأنعام : 91] .

قلنا : سنبين في تفسير هذه الآية أنها جاءت في القرآن في ثلاثة مواضع وكلها في صفة الكفار لا في صفة المسلمين ؛ أما الذين قالوا : إن المراد هو أن يطاع فلا يعصى فهذا صحيح والذي يصدر عن الإنسان على سبيل السهو والنسيان فغير قادح فيه لأن التكليف مرفوع في هذه الأوقات ، وكذلك قوله : أن يشكر فلا يكفر ، لأن ذلك واجب عليه عند خطور نعم الله بالبال ، فأما عند السهو فلا يجب ، وكذلك قوله : أن يذكر فلا ينسى ، فإن هذا إنما يجب عند الدعاء والعبادة وكل ذلك مما لا يطاق ، فلا وجه لما ظنوه أنه منسوخ.

قال المصنف رضي الله تعالى عنه ، أقول : للأولين أن يقرروا قولهم من وجهين

الأول : أن كنه الإلهية غير معلوم للخلق ، فلا يكون كمال قهره وقدرته وعزته معلوماً للخلق ، وإذا لم يحصل العلم بذلك لم يحصل الخوف اللائق بذلك فلم يحصل الاتقاء اللائق به

الثاني : أنهم أمروا بالاتقاء المغلظ والمخفف معاً فنسخ المغلظ وبقي المخفف ، وقيل : إن هذا باطل ، لأن الواجب عليه أن يتقي ما أمكن والنسخ إنما يدخل في الواجبات لا في النفي ، لأنه يوجب رفع الحجر عما يقتضي أن يكون الإنسان محجوراً عنه وإنه غير جائز . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 141 ﴾

قوله تعالى : ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ أي كما يجب أن يتقى يدل عليه قوله تعالى : ﴿ حَقُّ اليقين ﴾ [الواقعة : 95] ويقال : هو الرجل حقاً ، ومنه قوله عليه السلام : " أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب " وعن علي رضي الله عنه أنه قال : أنا علي لا كذب أنا ابن عبد المطلب ، والتقى اسم الفعل من قولك اتقيت ، كما أن الهدى اسم الفعل من قولك اهتديت . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 141 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

قال الفخر :

(105/126)

لفظ النهي واقع على الموت ، لكن المقصود الأمر بالإقامة على الإسلام ، وذلك لأنه لما كان يمكنهم الثبات على الإسلام حتى إذا أتاهم الموت أتاهم وهم على الإسلام ، صار الموت على الإسلام بمنزلة ما قد دخل في إمكانهم ، ومضى الكلام في هذا عند قوله ﴿ إِنَّ الله اصطفى لَكُمُ الدين فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : 132] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 142 ﴾

(106/126)

وقال الآلوسي :

﴿ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي مخلصون نفوسكم لله عز وجل لا تجعلون فيها شركة لسواه أصلاً ، وذكر بعض المحققين أن الإسلام في مثل هذا الموضع لا يراد به الأعمال بل الإيمان القلبي لأن الأعمال حال الموت مما لا تكاد تتأتى ولذا ورد في دعاء صلاة الجنازة اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ومن أمته منا فأمته على الإيمان فأخذ الإسلام أولاً والإيمان ثانياً لما أن لكل مقام مقالاً ، والاستثناء (مفرغ) من أعم الأحوال أي لا تموتن على حال من الأحوال إلا على حال تحقق إسلامكم وثباتكم عليه كما تفيده الجملة الاسمية ، ولو قيل : إلا مسلمين لم يقع هذا الموقع والعامل في الحال ما قبل ﴿ إلا ﴾ بعد النقض والمقصود النهي عن الكون على حال غير حال الإسلام عند الموت ، ويؤل إلى إيجاب الثبات على الإسلام إلى الموت إلا أنه وجه النهي إلى الموت للمبالغة في النهي عن قيده المذكور وليس المقصود النهي عنه أصلاً لأنه ليس بمقدور لهم حتى ينهوا عنه ، وفي التحبير للإمام السيوطي : ومن عجيب ما اشتهر في تفسير ﴿ مُّسْلِمُونَ ﴾ قول العوام : أي متزوجون وهو قول لا يعرف له أصل ولا يجوز الإقدام على تفسير كلام الله تعالى بمجرد ما يحدث في النفس أو يسمع ممن لا عهدة عليه انتهى ، وقرأ أبو عبد الله رضي الله تعالى عنه ﴿ مُّسْلِمُونَ ﴾ بالتشديد ومعناه مستسلمون لما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم

منقادون له ؛ وفي هذه الآية تأكيد للنهي عن إطاعة أهل الكتاب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 18 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ .

حقُّ التقوى أن يكون على وفق الأمر لا يزيد من قِبَلِ نَفْسِه ولا ينقص .

(107/126)

هذا هو المعتمد من الأقاويل فيه ، وأمره على وجهين : على وجه الحَتْم وعلى وجه الندب وكذلك القول في النهي على قسمين : تحريم وتنزيه ، فيدخل في جملة هذا أن يكون حق تقاته أولاً اجتناب الزلة ثم اجتناب الغفلة ثم التوقي عن كل خلة ثم التنقي من كل عِلَّة ، فإذا تَقِيتَ عن شهود تقواك بعد اتصافك بتقواك فقد اتَّقَيْت حقّ تقواك .

وحق التقوى رفض العصيان ونفي النسيان ، وصون العهود ، وحفظ الحدود ، وشهود الإلهية ، والانسلاخ عن أحكام البشرية ، والخمود تحت جريان الحكم بعد اجتناب كل جُرْمٍ وظلم ، واستشعار الأنفة عن التوسل إليه بشيء من طاعتك دون صرف كرمه ، والتحقق بأنه لا يَقْبل أحداً بعِلَّة ولا يُرُدُّ أحداً بعلة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

لا تُصَادِفنّكم الوفاة إلا وأنتم بشرط الوفاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 266 ﴾

قوله تعالى : ﴿ واعتصموا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً ﴾

قال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ ثَنّى أمرهم بما فيه صلاح أنفسهم لأخراهم ، بأمرهم بما فيه صلاح حالهم في دنياهم ، وذلك بالاجتماع على هذا الدّين وعدم التّفرّق ليكتسبوا باتّحادهم قوّة ونماء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 174 ﴾

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى لما أمرهم بالاتقاء عن المحظورات أمرهم بالتمسك بالاعتصام بما هو كالأصل لجميع الخيرات والطاعات ، وهو الاعتصام بحبل الله .

واعلم أن كل من يمشي على طريق دقيق يخاف أن تزلق رجله ، فإذا تمسك بحبل مشدود الطرفين بجانبي ذلك الطريق أمن من الخوف ، ولا شك أن طريق الحق طريق دقيق ، وقد انزلق رجل الكثير من الخَلْق عنه ، فمن اعتصم بدليل الله وبيناته فإنه يأمن من ذلك الخوف ، فكان المراد من الحبل ههنا كل شيء يمكن التوصل به إلى الحق في طريق الدين ، وهو أنواع كثيرة ، فذكر كل واحد من المفسرين واحداً من تلك الأشياء ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : المراد بالحبل ههنا العهد المذكور في قوله ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [البقرة : 40] وقال : ﴿ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ الله وَحَبْلٍ مِّنَ الناس ﴾ [آل عمران : 112] أي بعهد ، وإنما سمي العهد حبلاً لأنه يزيل عنه الخوف من الذهاب إلى أي موضع شاء ، وكان كالحبل الذي من تمسك به زال عنه الخوف ، وقيل : إنه القرآن ، روي عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أما إنها ستكون فتنة " قيل : فما المخرج منها ؟ قال : "كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم وحكم ما بينكم وهو حبل الله المتين "

وروي عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " هذا القرآن حبل الله "

وروي عن أبي سعيد الخُدْرِيّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إني تارك فيكم الثقلين ، كتاب الله تعالى حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي " وقيل : إنه دين الله ، وقيل : هو طاعة الله ، وقيل : هو إخلاص التوبة ، وقيل : الجماعة ، لأنه تعالى ذكر عقيب ذلك قوله ﴿ وَلاَ تَفَرَّقُواْ ﴾

وهذه الأقوال كلها متقاربة ، والتحقيق ما ذكرنا أنه لما كان النازل في البئر يعتصم بحبل تحرزاً من السقوط فيها ، وكان كتاب الله وعهده ودينه وطاعته وموافقته لجماعة المؤمنين حرزاً لصاحبه من السقوط في قعر جهنم جعل ذلك حبلاً لله ، وأمروا بالاعتصام به . انتهى

انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 142﴾

فائدة

قال الآلوسى :

وفي الكلام استعارة تمثيلية بأن شبهت الحالة الحاصلة للمؤمنين من استظهارهم بأحد ما ذكر ووثوقهم بحمايته بالحالة الحاصلة من تمسك المتدلي من مكان رفيع بحبل وثيق مأمون الانقطاع من غير اعتبار مجاز في المفردات ، واستعير ما يستعمل في المشبه به من الألفاظ للمشبه ، وقد يكون في الكلام استعارتان مترادفتان بأن يستعار الحبل للعهد مثلاً استعارة مصرحة أصلية والقرينة الإضافة ، ويستعار الاعتصام للوثوق بالعهد والتمسك به على طريق الاستعارة المصرحة التبعية والقرينة اقترانها بالاستعارة الثانية ، وقد يكون في ﴿اعتصموا﴾ مجاز مرسل تبعي بعلاقة الإطلاق والتقييد ، وقد يكون مجازاً بمرتبتين

لأجل إرسال المجاز وقد تكون الاستعارة في الحبل فقط ويكون الاعتصام باقياً على معناه ترشيحاً لها على أتم وجه ، والقرينة قد تختلف بالتصرف فباعتبار قد تكون مانعة وباعتبار آخر قد لا تكون ، فلا يرد أن احتمال المجازية يتوقف على قرينة مانعة عن إرادة الموضع له فمع وجودها كيف يتأتى إرادة الحقيقة ليصح الأمران في ﴿ اعتصموا ﴾ وقد تكون الاستعارتان غير مستقلتين بأن تكون الاستعارة في الحبل مكنية وفي الاعتصام تخييلية لأن المكنية مستلزمة للتخييلية قاله الطيبي ، ولا يخفى أنه أبعد من العيوق . وقد ذكرنا في "حواشينا على رسالة ابن عصام" ما يردّ على بعض هذه الوجوه مع الجواب عن ذلك فارجع إليه إن أردته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 19 ﴾

(110/126)

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾

فصل

قال الفخر :

في التأويل وجوه

الأول : أنه نهى عن الاختلاف في الدين وذلك لأن الحق لا يكون إلا واحداً ، وما عداه يكون

جهلاً وضلالاً ، فلما كان كذلك وجب أن يكون النهي عن الاختلاف في الدين ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الحق إِلاَّ الضلال ﴾ [يونس : 32]

والثاني : أنه نهى عن المعاداة والمخاصمة ، فإنهم كانوا في الجاهلية مواظبين على المحاربة والمنازعة فنهاهم الله عنها

الثالث : أنه نهى عما يوجب الفرقة ويزيل الألفة والمحبة .

واعلم أنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ستفترق أمتي على نيف وسبعين فرقة الناجي منهم واحد والباقي في النار فقيل : ومن هم يا رسول الله ؟ قال الجماعة " وروي " السواد الأعظم " وروي " ما أنا عليه وأصحابي " والوجه المعقول فيه : أن النهي عن الاختلاف والأمر بالاتفاق يدل على أن الحق لا يكون إلا واحداً ، وإذا كان كذلك كان الناجي واحداً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 142.143 ﴾

فائدة

قال ابن عطية :

﴿ ولا تفرقوا ﴾ يريد التفرق الذي لا يتأتى معه الائتلاف على الجهاد وحماية الدين وكلمة الله تعالى ، وهذا هو الافتراق بالفتن والافتراق في العقائد ، وأما الافتراق في مسائل الفروع والفقه فليس يدخل في هذه الآية ، بل ذلك ، هو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خلاف أمتي رحمة " ، وقد اختلف الصحابة في الفروع أشد اختلاف ، وهم يد

واحدة على كل كافر ، وأما الفتنة على علي بن أبي طالب رضي الله عنه فمن التفرق المنهي عنه ، أما أن التأويل هو الذي أدخل في ذلك أكثر من دخله من الصحابة رضي الله عن جميعهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 484 ﴾

(111/126)

فصل

قال ابن العربى :

التَّفَرُّقُ الْمَنْهِيُّ عَنْهُ يَحْتَمِلُ ثَلَاثَةَ أَوْجُهٍ : الْأَوَّلُ : التَّفَرُّقُ فِي الْعَقَائِدِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَاَلَّذِي أَوْحَيْنَا إلَيْك وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ الثَّانِي : قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا تَقَاطَعُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إخْوَانًا ﴾ ، وَيَعْضُدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخْوَانًا ﴾ الثَّالِثُ : تَرْكُ التَّخْطِئَةِ فِي الْفُرُوعِ وَالتَّبَرِّي فِيهَا ، وَلْيَمْضِ كُلٌّ أَحَدٍ عَلَى اجْتِهَادِهِ ؛ فَإِنَّ الْكُلَّ بِحَبْلِ اللَّهِ مُعْتَصِمٌ ، وَبِدَلِيلِهِ عَامِلٌ ؛ وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْعَصْرَ إلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ ﴾ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ حَضَرَتْ الْعَصْرُ فَأَخَّرَهَا حَتَّى بَلَغَ بَنِي قُرَيْظَةَ أَخْذًا بِظَاهِرِ قَوْلِ النَّبِيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: لَمْ يُرِدْ هَذَا مِنَّا يَعْنِي وَإِنَّمَا أَرَادَ الِاسْتِعْجَالَ فَلَمْ يُعَنِّفْ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحَدًا مِنْهُمْ.

وَالْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الِاخْتِلَافَ وَالتَّفَرُّقَ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ إنَّمَا هُوَ الْمُؤَدِّي إلَى الْفِتْنَةِ وَالتَّعَصُّبِ وَتَشْتِيتِ الْجَمَاعَةِ؛ فَأَمَّا الِاخْتِلَافُ فِي الْفُرُوعِ فَهُوَ مِنْ مَحَاسِنِ الشَّرِيعَةِ.

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ إذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ ﴾.

وَرُوِيَ أَنَّ لَهُ إنْ أَصَابَ عَشَرَةَ أُجُورٍ. انتهى انتهى. اهـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 1 صـ 381. 382﴾

(112/126)

فصل

قال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ (يعني في دينكم) كما افترقت اليهود والنصارى في أديانهم؛ عن ابن مسعود وغيره.

ويجوز أن يكون معناه ولا تفرقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة ، وكونوا في دِين الله إخوانا ؛ فيكون ذلك منعا لهم عن التقاطع والتدابر ؛ ودل عليه ما بعده وهو قوله تعالى ﴿ واذكروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ .

وليس فيه دليل على تحريم الاختلاف في الفروع : فإن ذلك ليس اختلافا إذ الاختلاف ما يتعذر معه الائتلاف والجمع ، وأما حكم مسائل الاجتهاد فإن الاختلاف فيها بسبب آستخراج الفرائض ودقائق معاني الشرع ؛ وما زالت الصحابة يختلفون في أحكام الحوادث ، وهم مع ذلك متآلفون .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اختلاف أمّتي رحمة " وإنما منع الله اختلافا هو سبب الفساد .

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فِرقة أو اثنتين وسبعين فِرقة والنصارى مثل ذلك وتفترق أمَّتي على ثلاث وسبعين فِرقة "

قال الترمذي : هذا حديث صحيح .

وأخرجه أيضاً عن ابن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " "ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حَذْوَ النعل بالنعل حتى لو كان منهم من يأتي أمّة علانية لكان من

أمتي من يصنع ذلك وإن بني إسرائيل تفرّقت آثنتين وسبعين مِلةً وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين مِلةً كلهم في النار إلا مِلة واحدة" قالوا : من هي يا رسول الله ؟ "ما أنا عليه وأصحابي" " أخرجه من حديث عبد الله بن زياد الأفريقي ، عن عبد الله بن يزيد عن ابن عمرو ، وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه .

(113/126)

قال أبو عمر : وعبد الله الأفريقي ثقة وثقة قومه وأثنوا عليه ، وضعّفه آخرون .

وأخرجه أبو داود في سننه من حديث معاوية بن أبي سفيان عن النبي صلى الله عليه وسلم : " قال ألا إنّ مَن قبلكم مِن أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين مِلة وإن هذه المِلة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة وإنه سيخرج من أمتي أقوامٌ تجارى بهم تلك الأهْواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يَبْقى منه عِرقٌ ولا مِفصَلٌ إلا دخله " وفي سنن ابن ماجه عن أنس ابن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة مات واللّهُ عنه راض " قال أنس : وهو دِين الله الذي جاءت به الرسل وبلّغوه عن ربهم قبل هَرَج الأحاديث واختلاف الأهْوَاء ، وتصديق ذلك في كتاب

الله في آخر ما نزل ، يقول الله : "فَإنْ تَابُوا" قال : خلعوا الأوثان وعبادتها ﴿ وَأَقَامُوا الصلاة وَآتَوُا الزكاة ﴾ ، وقال في آية أخرى : ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصلاة وَآتَوُا الزكاة فَإِخْوَانكُمْ فِي الدين ﴾ [التوبة : 11] أخرجه عن نصر بن علي الجَهْضَمي عن أبي أحمد عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أنس .

قال أبو الفِرج الجَوْزي : فإن قيل هذه الفِرق معروفة ؛ فالجواب أنا نعرف الافتراق وأصول الفِرق وأن كل طائفة من الفِرق انقسمت إلى فِرَق ، وإن لم نُحط بأسماء تلك الفرق ومذاهبها ، فقد ظهر لنا من أصول الفِرق الحَرُوريّة والقَدَرية والجَهْمية والمَرجئة والرافِضَة والجَبْرية .

وقال بعض أهل العلم : أصل الفِرق الضّالة هذه الفِرق السّتْ ، وقد انقسمت كل فِرقة منها اثنتي عشرة فِرقة ، فصارت آثنتين وسبعين فِرقة .

(114/126)

آنقسمت الحَرُوريّة آثنتي عشرة فرقة ؛ فأولهم الأَزْرَقِيّة قالوا : لا نعلم أحدا مؤمنا ؛ وكفّروا أهل القِبْلة إلاَ من دان بقولهم .

والإباضية قالوا : من أخذ بقولنا فهو مؤمن ، ومن أعرض عنه فهو منافق .

والثعلبية قالوا : إن الله عز وجل لم يقض ولم يُقَدّر .

والخازِميّة قالوا : لا ندري ما الإيمان ، والخلق كلهم معذورون .

والخَلفِيَة زعموا أن من ترك الجهاد من ذكر أو أنثى كفر .

والكوزية قالوا : ليس لأحد أن يَمسّ أحدا وأنه لا يعرف الطاهر من النّجس ولا أن يؤاكله حتى يتوب ويغتسل .

والكَنزيّة قالوا : لا يسع أحدا أن يعطي مالَه أحدا ؛ لأنه ربما لم يكن مستحقا بل يكنزه في الأرض حتى يظهر أهل الحق .

والشّمراخِيّة قالوا : لا بأس بمسِّ النساء الأجانب لأنهن رياحين .

والأخْنَسية قالوا : لا يلحق الميت بعد موته خير ولا شر .

والحكميّة قالوا : مَن حاكم إلى مخلوق فهو كافر .

والمعتزلة قالوا : اشتبه علينا أمر علي ومعاوية فنحن نتبرأ من الفريقين .

والميمونية قالوا : لا إمام إلا برضا أهل محبتنا .

وانقسمت القَدَرية اثنتى عشرة فرقة : الأحمرية وهي التي زعمت أن في شرط العدل من الله أن يملّك عباده أمورَهم ، ويحول بينهم وبين معاصيهم .

والثّنويّة وهي التي زعمت أن الخير من الله والشر من الشيطان .

والمعتزلة وهم الذين قالوا بخلق القرآن وجحدوا (صفات) الرّبوبيّة .

والكَيْسانية وهم الذين قالوا : لا ندري هذه الأفعال من الله أو من العباد ، ولا نعلم أيثاب

الناس بعدُ أو يعاقبون .

والشيطانية قالوا : إن الله تعالى لم يخلق الشيطان .

والشّريكية قالوا : إن السيئات كلها مقدّرة إلا الكفر .

والوَهْميّة قالوا : ليس لأفعال الخلق وكلامهم ذات ، ولا للحسنة والسيئة ذات .

والزِّبْرية قالوا : كل كتاب نزل من عند الله فالعمل به حق ، ناسخاً كان أو منسوخاً .

والمسعدية زعموا أن من عصى ثم تاب لم تقبل توبته والناكِثية زعموا أن من نكث بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا إثم عليه .

والقاسِطية تبعوا إبراهيم بن النظام في قوله : من زعم أن الله شيء فهو كافر .

وانقسمت الْجَهميّة اثنتى عشرة فرقة : المعطّلة زعموا أن كل ما يقع عليه وهم الإنسان فهو مخلوق ، وأن من ادعى أن الله يُرى فهو كافر .

والمريسية – قالوا : أكثر صفات الله تعالى مخلوقة .

والمُلْتَزِقَة جعلوا الباري سبحانه في كل مكان .

والوَارِدِيّة قالوا لا يدخل النار من عرف ربه ، ومن دخلها لم يخرج منها أبداً .

والزَنادِقَة قالوا : ليس لأحد أن يثبت لنفسه ربّاً ؛ لأن الإثبات لا يكون إلا بعد إدراك الحواس ، وما لا يُدرك لا يثبت .

والحَرْقِيَّة زعموا أن الكافر تحرقه النار مرّة واحدة ثم يبقى محترقاً أبداً لا يجد حرّ النار .

والمخْلُوقية زعموا أن القرآن مخلوق .

والفانية زعموا أن الجنة والنّار يفنيان ، ومنهم من قال لم يُخلقا .

والعبدِية جحدوا الرسل وقالوا إنما هم حكماء .

والواقفية قالوا : لا نقول إن القرآن مخلوق ولا غير مخلوق .

والقَبْرية ينكرون عذاب القبر والشفاعة .

واللفْظية قالوا : لفظنا بالقرآن مخلوق .

وانقسمت المرجئة اثنتى عشرة فرقة : التّارِكيّة قالوا ليس لله عز وجل على خلقه فريضة سوى الإيمان به ، فمن آمن به فليفعل ما شاء .

والسّائِبيّة قالوا : إن الله تعالى سيب خلقه ليفعلوا ما شاءوا .

والراجِيّة قالوا : لا يُسمّى الطائع طائعاً ولا العاصي عاصياً ، لأنَّا لا ندري ما لَه عند الله تعالى .

والسّالِبيّة قالوا : الطاعة ليست من الإيمان .

والبهيشية قالوا : الإيمان عِلْمٌ ومن لا يعلم الحق من الباطل والحلال من الحرام فهو كافر .

والعَمَلِيّة قالوا : الإيمان عَمَلٌ .

والمَنْقُوصيّة قالوا : الإيمان لا يزيد ولا ينقص .

(116/126)

والمسْتَثْنِية قالوا : الاستثناء من الإيمان .

والمشبِّهة قالوا : بَصَرٌ كبصرٍ ويَدٌ كيدٍ .

والحشوية قالوا : حكم الأحاديث كلها واحد ؛ فعندهم أن تارك النفل كتارك الفرض .

والظاهِرِية الذين نفوا القياس .

والبدْعِية أوّل من ابتدع هذه الأحداث في هذه الأُمة .

وانقسمت الرافضة اثنتي عشرة فرقة : العلوية قالوا : إن الرسالة كانت إلى عليّ وإن جبريل أخطأ .

والأمِرِيّة قالوا : إن عليّاً شريك محمد في أمره .

والشّيعة قالوا : إن عليّاً رضي الله عنه وصِيّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ووَلِيُّه من بعده ، وإن الأمّة كفرت بمبايعة غيره .

والإسحاقية قالوا : إن النبوّة متصلة إلى يوم القيامة ، وكلّ مَن يعلم علم أهل البيت فهو نبيّ .

والناوُوسيّة قالوا : عليّ أفضل الأمة ، فمن فضّل غيره عليه فقد كفر .

والإمامية قالوا : لا يمكن أن تكون الدنيا بغير إمام من ولد الحسين ، وإن الإمام يعلِّمه جبريل عليه السلام ، فإذا مات بدّل غيره مكانه .

والزيدِية قالوا : ولد الحسين كلهم أئمة في الصلوات ، فمتى وُجد منهم أحد لم تجز الصلاةُ خلف غيرهم ، برّهم وفاجرهم .

والعباسية زعموا أن العباس كان أولى بالخلافة من غيره .

والتناسخية قالوا : الأرواح تتناسخ ؛ فمن كان مُحسناً خرجت روحه فدخلت في خلق يسعد بعيشه .

والرَّجعية زعموا أن عليّاً وأصحابه يرجعون إلى الدنيا ، وينتقمون من أعدائهم .

واللاّعِنَة يلعنون عثمان وطلحة والزبير ومعاوية وأبا موسى وعائشةَ وغيرَهم .

والمتربّصة تشبهوا بزيّ النُّساك ونصبوا في كل عصر رجلاً ينسُبون إليه الأمر ، يزعمون أنه مَهدِيُّ هذه الأُمة ، فإذا مات نصبوا آخر .

ثم انقسمت الجَبْرية اثنتى عشرة فرقة : فمنهم المضطرية قالوا : لا فعل للآدميّ ، بل الله يفعل الكل .

والأفعالية قالوا : لنا أفعال ولكن لا استطاعة لنا فيها ، وإنما نحن كالبهائم نقاد بالحبل .

والمفروغية قالوا : كل الأشياء قد خُلقت ، والآن لا يُخلق شيء .

والنجارية زعمت أن الله تعالى يعذّب الناس على فعله لا على فعلهم .

والمنّانيّة قالوا : عليك بما يخطر بقلبك ، فافعل ما توسّمت منه الخير .

والكَسْبية قالوا : لا يكتسب العبد ثواباً ولا عقاباً .

والسّابقية قالوا : من شاء فليعمل ومن شاء (ف) لا يعمل ، فإن السعيد لا تضرّه ذنوبه والشّقي لا ينفعه بِرّه .

والحِبّية قالوا : من شرب كأس محبة الله تعالى سقطت عنه عبادة الأركان .

والخوفية قالوا : من أحبّ الله تعالى لم يسعه أن يخافه ؛ لأن الحبيب لا يخاف حبيبه .

والفكرية قالوا : من ازداد علماً أُسقط عنه بقدر ذلك من العبادة .

والخشبية قالوا : الدنيا بين العباد سواء ، لا تفاضُل بينهم فيما ورّثهم أبوهم آدم .

والمَنّيّه قالوا : منا الفعل ولنا الاستطاعة .

وسيأتي بيان الفرقة التي زادت في هذه الأُمة في آخر سورة "الأنعام" إن شاء الله تعالى .

وقال ابن عباس لسماك الحنفي : يا حنفي ، الجماعةَ الجماعةَ فإنما هلكت الأُمم الخالية لتفرّقها ؛ أما سمعت الله عز وجل يقول : ﴿ واعتصموا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ ﴾ .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ويكره لكم ثلاثاً قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال " فأوجب تعالى علينا التمسك بكتابه وسنة نبيه والرجوع إليهما عند الاختلاف، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقادا وعملاً، وذلك سبب اتفاق الكلمة وانتظام الشتات الذي يتم به مصالح الدنيا والدين، والسلامة من الاختلاف، وأمر بالاجتماع ونهى عن الافتراق الذي حصل لأهل الكتابين.

هذا معنى الآية على التمام، وفيها دليل على صحة الإجماع حسبما هو مذكور في موضعه من أُصول الفقه، والله أعلم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 159. 164 ﴾

لطيفة

قال السمرقندى:

قال بعض الحكماء: إن مثل من في الدنيا، كمثل من وقع في بئر، فيها من كل نوع من الآفات،

فلا يمكنه أن يخرج منها والنجاة من آفاتها إلا بحبل وثيق ، فكذلك الدنيا دار محنة ، وفيها كل نوع من الآفات ، فلا سبيل إلى النجاة منها إلا بالتمسك بحبل وثيق ، وهو كتاب الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 259 ﴾

فصل

قال الفخر :

استدلت نفاة القياس بهذه الآية ، فقالوا : الأحكام الشرعية إما أن يقال : إنه سبحانه نصب عليها دلائل يقينية أو نصب عليها دلائل ظنية ، فإن كان الأول امتنع الاكتفاء فيها بالقياس الذي يفيد الظن ، لأن الدليل الظني لا يكتفى به في الموضع اليقيني ، وإن كان الثاني كان الأمر بالرجوع إلى تلك الدلائل الظنية يتضمن وقوع الاختلاف ووقوع النزاع ، فكان ينبغي أن لا يكون التفرق والتنازع منهيا عنه ، لكنه منهي عنه لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَفَرَّقُواْ ﴾ وقوله ﴿ وَلاَ تنازعوا ﴾

ولقائل أن يقول : الدلائل الدالة على العمل بالقياس تكون مخصصة لعموم قوله ﴿ وَلاَ تَفَرَّقُواْ ﴾ ولعموم قوله ﴿ وَلاَ تنازعوا ﴾ والله أعلم . انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب

﴿ حـ 8 صـ 143 ﴾

قوله تعالى : ﴿ واذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن نعم الله على الخلق إما دنيوية وإما أُخروية وإنه تعالى ذكرهما في هذه الآية ، أما النعمة الدنيوية فهي قوله تعالى : ﴿ إِذْ كُنتُم أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 143 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ واذكروا نعمت الله عليكم ﴾ تصوير لحالهم الَّتي كانوا عليها ليحصل من استفظاعها انكشاف فائدة الحالة الَّتي أمروا بأن يكونوا عليها وهي الاعتصام جميعاً بجامعة الإسلام الَّذي كان سبب نجاتهم من تلك الحالة ، وفي ضمن ذلك تذكير بنعمة الله تعالى ، الّذي اختار لهم هذا الدّين ، وفي ذلك تحريض على إجابة أمره تعالى إياهم بالاّتفاق .

والتَّذكيرُ بنعمة الله تعالى طريق من طُرق مواعظ الرّسل .

قال تعالى حكاية عن هود : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ [الأعراف : 69] وقال عن شعيب : ﴿ واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثَّركم ﴾ [الأعراف : 86] وقال

الله لموسى : ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ [إبراهيم : 5] .

وهذا التَّذكير خاصّ بمن أسلم من المسلمين بعد أن كان في الجاهلية ، لأنّ الآية خطاب للصّحابة ولكن المنّة به مستمرة على سائر المسلمين ، لأن كُلّ جيل يُقَدّر أن لو لم يَسبق إسلام الجيل الَّذي قبله لكانوا هم أعداء وكانوا على شفا حفرة من النَّار . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 175 ﴾

(120/126)

فصل

قال الفخر :

قيل إن ذلك اليهودي لما ألقى الفتنة بين الأوس والخَزْرَج وهَمّ كلُّ واحد منهما بمحاربة صاحبه ، فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يزل يرفق بهم حتى سكنت الفتنة وكان الأوس والخزرج أخوين لأب وأم ، فوقعت بينهما العداوة ، وتطاولت الحروب مئة وعشرين سنة إلى أن أطفأ الله ذلك بالإسلام ، فالآية إشارة إليهم وإلى أحوالهم ، فإنهم قبل الإسلام كان يحارب بعضهم بعضاً ويبغض بعضهم بعضاً ، فلما أكرمهم الله تعالى بالإسلام صاروا إخواناً متراحمين متناصحين وصاروا إخوة في الله : ونظير هذه الآية قوله ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا

فِى الأَرض جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ولكن الله أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال : 63] .

واعلم أن كل من كان وجهه إلى الدنيا كان معادياً لأكثر الخلق ، ومن كان وجهه إلى خدمة الله تعالى لم يكن معادياً لأحد ، والسبب فيه أنه ينظر من الحق إلى الخلق فيرى الكل أسيراً في قبضة القضاء والقدر فلا يعادي أحداً ، ولهذا قيل : إن العارف إذا أمر أمر برفق ويكون ناصحاً لا يعنف ويعير فهو مستبصر بسر الله في القدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 143 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال الزّجّاج : أصل الأخ في اللُّغة من التوخي وهو الطلب ، فالأخ مقصده مقصد أخيه ، والصديق مأخوذ من أن يصدق كل واحد من الصديقين صاحبه ما في قلبه ، ولا يخفي عنه شيئاً وقال أبو حاتم قال أهل البصرة : الاخوة في النسب والإخوان في الصداقة ، قال وهذا غلط ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : 10] ولم يعن النسب ، وقال : ﴿ أَوْ بُيُوتِ إِخوانكم ﴾ [النور : 61] وهذا في النسب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 143 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ﴾

قال الفخر :

قوله ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ يدل على أن المعاملات الحسنة الجارية بينهم بعد الإسلام إنما حصلت من الله ، لأنه تعالى خلق تلك الداعية في قلوبهم وكانت تلك الداعية نعمة من الله مستلزمة لحصول الفعل ، وذلك يبطل قول المعتزلة في خلق الأفعال ، قال الكعبي : إن ذلك بالهداية والبيان والتحذير والمعرفة والألطاف .

قلنا : كل هذا كان حاصلاً في زمان حصول المحاربات والمقاتلات ، فاختصاص أحد الزمانين بحصول الألفة والمحبة لا بد أن يكون لأمر زائد على ما ذكرتم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 143.144 ﴾

فائدة

قال الثعالبى :

ويسَّر اللَّه تعالى الأنصار للإسلام بوجْهَيْن :

أحدهما : أنَّ بني إسرائيل كانُوا مجاورِينَ لهم ، وكانوا يقولُونَ لِمَنْ يتوعَّدونه من العَرَبِ : يُبْعَثُ لَنَا الآنَ نَبِيٌّ نَقْتُلُكُمْ معه قَتْلَ عَادٍ وإرَمَ ، فلمَّا رأى النَّفَرُ من الأَنْصَارِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال بعضُهم لبعضٍ : هذا ، واللَّهِ ، النَّبِيُّ الَّذِي تَذْكُرُهُ بَنُو إسرائيل ، فلا تُسْبَقُنَّ

إِلَيْهِ.

والوجْهُ الآخرُ: الحَرْبُ الَّتي كَانَتْ ضرَّسَتْهم، وأفْنَتْ سراتهم، فرَجوْا أنْ يجمع اللَّه به كلمتهم، فكان الأمر كما رَجَوْا، فعدَّد اللّه سبحانَهُ علَيْهم نعمَتَهُ في تأليفهم بعد العَدَاوة، وذَكَّرهم بها قال الفَخْر: كانَتِ الأنصارُ قَبْلَ الإِسلام أعداءً، فلما أكرمهم اللَّه [سبحانه] بالإِسلام، صاروا إخواناً في اللَّه متراحِمِينَ.

واعلم أنَّ كل مَنْ كان وجهه إلى الدنيا، كان معادياً لأكْثر الخَلْق، ومَنْ كان وجهه إلى خدمة المولى سبحانه، لَمْ يكُنْ معادِيا لأحدٍ؛ لأنه يَرى الكُلَّ أسيرا في قبضة القَضَاء والقَدَر، ولهذا قيل: إن العارف، إذا أَمرَ، أَمرَ برفْقٍ، ونَصَحَ لا بعُنْفٍ وعُسْر، وكيف، وهو مُسْتَبْصِرٌ باللَّه في القَدَر. انتهى انتهى. اهـ ﴿الجواهر الحسان حـ 1 صـ 296﴾

(122/126)

فائدة

قال فى الأمثل:

(واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً).

والملفت للنظر هو تكرار كلمة (نعمة) في هذه الآية مرتين وهو إشعار بأهمية الوحدة هذه

الموهبة الإلهية التي لا تحققّ إلاّ في ظل التعاليم الإسلامية والاعتصام بحبل الله .

والنقطة الأُخرى الجديرة بالاهتمام أيضاً هي أن الله نسب تأليف قلوب المؤمنين إلى نفسه فقال (فألف بين قلوبكم) أي أن الله ألف بين قلوبكم ، وبهذا التعبير يشير القرآن الكريم إلى معجزة اجتماعية عظيمة للإسلام ، لأننا لو لاحظنا ما كان عليه العرب والمجتمع الجاهلي من عداوات واختلافات وما كان يكمن في القلوب من أحقاد طويلة عميقة وما تراكم فيها من ضغائن مستحكمة ، وكيف أن أقل شرارة صغيرة أو مسألة جزئية كانت تكفي لتفجير الحروب ، واندلاع القتال في ذلك المجتمع المشحون بالأحقاد ، وخاصة بالنظر إلى تفشي الأمية والجهل الملازم عادة للإصابة باللجاج والعناد والعصبية ، فإن أفراداً من هذا النوع من الصعب أن يتناسوا أبسط أُمورهم فكيف بالأحداث الدامية الكبرى ؟ ومن هنا تتجلى أهمية المعجزة الاجتماعية التي حققها الإسلام حيث وحد الصفوف ، وألف بين القلوب ، وأنسى الأحقاد ، تلك المعجزة التي أثبتت أن تحقيق مثل هذه الوحدة وتأليف تلك القلوب المتنافرة المتباغضة ، وإيجاد أُمة واحدة متآخية من ذلك الشعب الممزق الجاهل ما كان ليتيسر في سنوات قليلة بالطرق والوسائل العادية .

اعتراف العلماء والمؤرخين :

وقد كانت أهمية هذا الموضوع (أي وحدة القبائل العربية المتباغضة بفضل الإسلام) إلى

درجة أنها لم تخف على العلماء والمؤرخين، حتّى غير المسلمين منهم، فقد اتفق الجميع في الإعجاب بهذه المسألة، وإظهارها في كتاباتهم، وها نحن نذكر نماذج من ذلك:

(123/126)

يقول "جان ديون پورث" العالم الإنجليزي المشهور: "لقد حول محمّد العربي البسيط، القبائل المتفرقة والجائعة، الفقيرة في بلدة إلى مجتمع متماسك منظم، امتازت، فيما بعد - بين جميع شعوب الأرض بصفات وأخلاق عظيمة وجديدة، واستطاع في أقل من ثلاثين عاماً وبهذا الطريق أن يتغلب على الإمبراطورية الرومانية، ويقضي على ملوك إيران، ويستولي على سوريا وبلاد ما بين النهرين، وتمتد فتوحاته إلى المحيط الأطلسي وشواطئ بحر الخزر وحتى نهر سيحان (في جنوب شرقي آسيا الوسطى).

ويقول توماس كارليل: "لقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور وأحيى به منها أمة خاملة لا يسمع لها صوت ولا يحس فيها حركة حتّى صار الخمول شهرة، والغموض نباهة، والضعة رفعة، والضعف قوّة، والشرارة حريقاً، وشمل نوره الأنحاء، وعم ضوؤه الأرجاء وما هو إلاّ قرن بعد إعلان هذا الدين حتّى أصبح له قدم في الهند، وأُخرى في الأندلس، وعم نوره ونبله وهداه نصف المعمورة".

ويقول الدكتور "غوستاف لوبون" : معترفاً بهذه الحقيقة : " . . . وإلى زمان وقوع هذه الحادثة المدهشة (يعني الإسلام) الذي أبرز العربي فجأة في لباس الفاتحين ، وصانعي الفكر والثقافة لم يكن يعد أن جزء من أرض الحجاز من التاريخ الحضاري ولا أنه كان يتراءى فيها للناظر أي شيء أو علامة للعلم والمعرفة ، أو الدين" .

ويكتب "نهرو" العالم والسياسي الهندي الراحل في هذا الصدد قائلاً :

"إن قصة انتشار العرب في آسيا وأوروبا وإفريقيا والحضارة الراقية والمدنية الزاهرة التي قدموها للعالم أعجوبة من أعجوبات التاريخ ، ولقد كان محمّد واثقاً بنفسه ورسالته ، وقد هيأ بهذه الثقة وهذا الإيمان لأُمته أسباب القوّة والعزّة والمنعة" .

لقد كان وضع العرب سيئاً إلى أبعد الحدود حتّى إن القرآن يصف تلك الحالة بأنهم كانوا على حافة الانهيار والسقوط إذ يقول : (وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) .

انتهى انتهى . اهـ ﴿الأمثل حـ 2 صـ 623. 625﴾

(124/126)

فصل

قال البغوى :

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ قال محمد بن إسحاق بن يسار وغيره من أهل الأخبار : كانت الأوس والخزرج أخوين لأب وأم فوقعتْ بينهما عداوةٌ بسبب قتيل ، فتطاولت تلك العداوة والحربُ بينهم عشرين ومائة سنة إلى أن أطفأ الله عز وجل ذلك بالإسلام وألف [بينهم] برسوله محمد صلى الله عليه وسلم وكان سبب ألفتهم أن سويد بن الصامت أخا بني عمرو بن عوف وكان شريفا يسميه قومه الكامل لجَلَدِهِ ونسبه ، قدم مكة حاجًا أو معتمرًا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بُعث وأُمر بالدعوة ، فتصدى له حين سمع به ودعاه إلى الله عز وجل وإلى الإسلام فقال له سويد : فلعلّ الذي معك مثل الذي معي ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : [وما الذي معك قال : مجلّة لقمان يعني حكمته فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم] اعرضها علي فعرضها ، فقال : إنّ هذا لكلامٌ حسن ، معي أفضل من هذا قرآن أنزله الله عليّ نورًا وهدىً فتلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام فلم [يَبْعُدْ] منه وقال : إن هذا [لقول] حسن ، ثم انصرف إلى المدينة فلم يلبث أن قتلته الخزرج قبل يوم بُعاث فإنّ قومه ليقولون : قد قتل وهو مسلم .

ثم قدم أبو الحيسر أنس بن رافع ومعه فئة من بني الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحِلْفَ من قريش على قوم من الخزرج ، فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم فجلس إليهم ، فقال : هل لكم إلى خيرٍ مما جئْتُم له ؟ فقالوا : وما ذلك ؟ قال : أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن لا يشركوا بالله شيئًا ، وأنزل علي الكتاب ، ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن ، فقال إياس بن معاذ وكان غلاما حدثا : أي قوم هذا والله خير مما جئتم له ، فأخذ أبو الحيسر حفنة من البطحاء فضرب بها وجه إياس وقال : دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا ، فصمت إياس وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ، وانصرفوا إلى المدينة وكانت وقعة بُعاث بين الأوس والخزرج ، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك .

فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإعزازَ نبيه خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموسم الذي لقي فيه النفر من الأنصار يعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم ، فلقي عند العقبة رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرًا ، وهم ستة نفر : أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث وهو ابن عفراء ، ورافع بن مالك العجلاني ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وعقبة بن عامر بن نابي ، وجابر بن عبد الله ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أنتم ؟ قالوا : نفرٌ من الخزرج ، قال : أمن موالي يهود ؟ قالوا : نعم : قال : أفلا

تجلسون حتى أكلّمكم ؟ قالوا : بلى ، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرضَ عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .

(126/126)

قالوا : وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام أن يهودًا كانوا معهم ببلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وهم كانوا أهل أوثان وشرك ، وكانوا إذا كان منهم شيء قالوا : إن نبيا الآن مبعوثٌ قد أظل زمانه نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرَم ، فلمّا كلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم إلى الله عز وجل قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلمون والله إنه النبي الذي تَوعَّدَكُم به يهود ، فلا يسبقُنَّكم إليه ، فأجابوه وصدقوه وأسلموا ، وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم وعسى الله أن يجمعهم بك ، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك .

ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى بلادهم قد آمنوا به صلى الله عليه وسلم ، فلما قدموا المدينة ذَكَرُوا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم فلم يبق دارٌ من دُور الأنصار إلا وفيها ذكرٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا وهم :

أسعد بن زرارة ، وعوف ، ومعاذ ابنا عفراء ، ورافع بن مالك بن العجلان ، وذكوان بن عبد القيس ، وعبادة بن الصامت ، ويزيد بن ثعلبة ، وعباس بن عبادة ، وعقبة بن عامر ، وقطبة بن عامر ، وهؤلاء خزرجيّون وأبو الهيثم بن التيهان ، وعويمر بن ساعدة من الأوس ، فلقوه بالعقبة وهي العقبة الأولى ، فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء ، على أن لا يشركوا بالله شيئًا ولا يسرقوا ولا يزنوا ، إلى آخر الآية فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم شيئًا من ذلك فأُخذتم بحدّه في الدنيا فهو كفارةٌ له ، وإن ستر عليكم فأمركم إلى الله إن شاء عذبكم وإن شاء غفر لكم ، قال : وذلك قبل أن يفرض عليهم الحرب .

(127/126)

قال : فلما انصرف القوم بعث معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مُصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويُفقههَم في الدين ، وكان مُصعب يُسمى بالمدينة المقرئ ، وكان منزله على أسعد بن زرارة ، ثم إن أسعد بن زرارة خرج بمصعب فدخل به حائطًا ، من حوائط بني ظفر ، فجلسا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم ، فقال سعد بن معاذ لأسيد بن حُضير : انطلق إلى هذين الرجلين اللذين

قد أتيا دارنا ليسفها ضعفاءَنا فازجرهما ، فإن أسعد بن زرارة ابن خالتي ولولا ذاك لكفيتكه ، وكان سعد بن معاذ وأُسَيْد بن حضير سَيِّدَيْ قومِهما من بني عبد الأشهل وهما مشركان ، فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إلى مصعب وأسعد وهما جالسان في الحائط ، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب : هذا سيد قومه قد جاءك فأصدق الله فيه ، قال مصعب : إن يجلسْ أكلمه قال : فوقف عليهما متشتِّمًا فقال : ما جاء بكم إلينا تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلا إن كانت لكما في أنفسكما حاجة ، فقال له مصعب : أوَ تجلس فتسمع ؟ فإن رضيت أمرا قبلته وإن كرهته كُفّ عنك ما تكره ، قال : أنصفتَ ثم ركز حربته وجلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن فقالا والله لعَرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم به ، في إشراقه وتسهله ، ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأجمله ! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟ قالا له : تغتسلُ وتُطهرُ ثوبَيك ثم تشهد شهادة الحق [ثم تصلي ركعتين فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق] ثم قام وركع ركعتين ثم قال لهما : إنّ ورائي رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن ، سعد بن معاذ ، ثم أخذ حربته فانصرف إلى سعد وقومه ، وهم جلوس في ناديهم فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلا قال : أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب من

عندكم ، فلما وقف على النادي قال له سعد : ما فعلت ؟ قال : كلمّتُ الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسًا وقد نهيتُهما فقالا فافعل ما أحببت ، وقد حُدثتُ أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زُرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك فقام سعد [مغضبًا] مبادرًا للذي ذكر له من بني حارثة ، فأخذ الحربة ثم قال : والله ما أراك أغنيت شيئًا فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدًا إنما أراد أن يسمع منهما فوقف عليهما مَتشتّمًا ثم قال لأسعد بن زرارة : لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني ، تغشانا في دارنا بما نكره وقد قال أسعد لمصعب : جاءك والله سيد قومه ، إن يتبعك لم يخالفك منهم أحد ، فقال له مصعب : أو تقعد فتسمع فإن رضيت أمرًا ورغبتَ فيه قبلتَه ، وإن كرهتَه عَزلنا عنك ما تكره ، قال سعد : أنصفت ، ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن قال فعرفنا والله في وجهه الإسلام : قبل أن يتكلم به في إشراقه وتسهله ، ثم قال لهما : كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين ؟ قالا تغتسل وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ثم [تصلي] ركعتين فقام واغتسل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق وركع ركعتين ، ثم أخذ حربته فأقبل عامدا إلى نادي قومه ومعه أُسَيْد بن حضير فلما رآه قومه مقبلا قالوا : نحلف بالله لقد رجع سعد إليكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم قال : يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأيًا

وأيمننا نقيبةً قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، قال : فما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجلُ ولا امرأةٌ إلا مسلم أو مسلمة ، ورجع أسعد بن زرارة ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة ، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء

مسلمات إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف ، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت الشاعر ، وكانوا يسمعون منه ويطيعونه فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ومضى بدرٌ وأُحد والخندق .

قالوا : ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة وخرج معه من الأنصار من المسلمين سبعون رجلا مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق وهي بيعة العقبة الثانية .

قال كعب بن مالك – وكان قد شهد ذلك –فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر أخبرناه وكنا نكتم عمن معنا من المشركين من قومنا أمرنا فكلمناه ، وقلنا له : يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا وإنا نرغب بك عمّا أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدا ، ودعوناه إلى الإسلام فأسلم ، وأخبرناه بميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهد معنا العقبة ، وكان نقيبا ، فبتنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم نتسلل مستخفين تسلل القطا ، حتى اجتمعنا في الشِّعب عند العقبة ، ونحن سبعون رجلا ومعنا امرأتان من نسائنا نسيبة بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بني النجار ، وأسماء بنت عمرو بن عدي أم منيع إحدى نساء بني سلمة ، فاجتمعنا بالشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ، ويتوثق له ، فلما جلسنا كان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب ، فقال : يا معشر الخزرج –وكانت العرب يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها –إن محمدًا صلى الله عليه وسلم منّا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا وهو في عزّ من قومه ومنعة في بلده ، وأنه قد أبى إلا الانقطاع إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون

أنكم مُسْلِمُوه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عزٍ ومنعةٍ .

قال : فقلنا قد سمعنا ما قلت : فتكلمْ يا رسول الله وخذْ لنفسك ولربِّك ما شئت .

(131/126)

قال : فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ، ثم قال أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه [أنفسكم ونساءكم] وأبناءكم ، قال : فأخذ البراء بن مَعْرُور بيدِهِ ثم قال : والذي بعثك بالحق نبيا لنمنعك مما نمنع منه أُزُرَنَا فبايعنا يا رسول الله ، فنحن أهل الحرب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر .

قال : [فاعترض] القول –والبراءَ يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم –أبو الهيثم بن التيهان ، فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الناس حبالا يعني العهود ، وإنا قاطعوها فهل عسيتَ إن فعلنا نحن ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ، فتبسّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : الدم الدم والهدم الهدم أنتم مني وأنا منكم أحاربُ من حاربتم وأسالم من سالمتم .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيبًا كفلاء على قومهم بما فيهم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم" فأخرجوا اثني عشر نقيبًا تسعةً من الخزرج

وثلاثةً من الأوس .

قال عاصم بن عمرو بن قتادة : إن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العباس بن عُبادة بن نَضْلة الأنصاري : يا معشر الخزرج هل تدرون علاما تبايعون هذا الرجل ؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة واشرافكم قتلى أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خِزْيٌ في الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتُموه إليه من تهلكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .

(132/126)

قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفَيّنا ؟ قال : "الجنة" قال : ابسطْ يَدكَ فبسطَ يده فبايعوه ، وأول من ضرب على يده البراء بن مَعْرُور ثم تتابع القوم ، فلما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت ما سمعتُه قط : يا أهل الجباجب هل لكم في مُذَمَّمٍ والصُّباة قد اجتمعوا على حربكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا عدو الله ، هذا أزبّ العقبة ، اسمع أي عدو الله أما والله لأفرغنّ لك ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ارفضوا إلى رحالكم .

فقال العباس بن عبادة بن نضلة : والذي بعثك بالحق لئن شئت [لنميلن] غدًا على أهل منًى بأسيافنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم نُؤْمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم .

قال فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا فلما أصبحنا غدت علينا جِلّةُ قريش حتى جاؤونا في منازلنا ، فقالوا : يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم [منكم] قال : فانبعث مَنْ هناك من مشركي قومنا يحلفون لهم بالله : ما كان من هذا شيء وما علمناه وصدقوا ، ولم يعلموا ، وبعضُنا ينظر إلى بعض ، وقام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة [المخزومي] وعليه نعلان جديدان ، قال فقلت له كلمة كأني أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا يا جابر أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من ساداتنا مثل نعلي هذا الفتى من قريش ، قال فسمعها الحارث فخلعهما من رجليه ثم رمى بهما إلي وقال : والله لتنتعلنهما قال يقول أبو جابر رضي الله عنه : مه والله أحْفَظْتَ الفتى فاردد إليه نعليه ، قال : لا أردهما فألٌ –والله– صالح والله لئن صدق الفأل [لأسلبنه] .

قال : ثم انصرف الأنصار إلى المدينة وقد شدّدوا العقد ، فلما قدموها أظهروا الإسلام بها وبلغ ذلك قريشا فآذوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : "إن الله تعالى قد جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون فيها" فأمرهم بالهجرة إلى المدينة واللحوق بإخوانهم من الأنصار .

فأول من هاجر إلى المدينة أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، ثم عامر بن ربيعة ثم عبد الله بن جحش ثم تتابع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أرْسالا إلى المدينة فجمع الله أهل المدينة أوسها وخزرَجَها بالإسلام ، وأصلح ذات بينهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم. ﴿ أخرج هذه القصة ابن إسحاق في المغازي 1 / 265 - 266 من سيرة ابن هشام مع الروض الأنف وعنه أخرجها الطبري في التفسير : 7 / 78 - 79 ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البغوى حـ 2 صـ 79. 81 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ على شَفَا حُفْرَةٍ مّنَ النار فَأَنقَذَكُمْ مّنْهَا ﴾

قال الفخر :

المعنى أنكم كنتم مشرفين بكفركم على جهنم ، لأن جهنم مشبهة بالحفرة التي فيها النار فجعل استحقاقهم للنار بكفرهم كالإشراف منهم على النار ، والمصير منهم إلى حفرتها ، فبيّن تعالى أنه أنقذهم من هذه الحفرة ، وقد قربوا من الوقوع فيها .

قالت المعتزلة : ومعنى ذلك أنه تعالى لطف بهم بالرسول عليه السلام وسائر ألطافه حتى آمنوا قال أصحابنا : جميع الألطاف مشترك فيه بين المؤمن والكافر ، فلو كان فاعل الإيمان وموجده هو العبد لكان العبد هو الذي أنقذ نفسه من النار ، والله تعالى حكم بأنه هو الذي أنقذهم من النار ، فدل هذا على أن خالق أفعال العباد هو الله سبحانه وتعالى . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 144 ﴾

لطيفة

قال ابن عاشور :

أرى أن شَفَا حفرة النَّار هنا تمثيل لحالهم في الجاهلية حين كانوا على وشك الهلاك والتَّفاني الَّذي عبَّر عنه زهير بقوله :

تفانَوا ودَقُّوا بينهم عِطْر مَنْشَم . . .

بحال قوم بلغ بهم المشي إلى شفا حفير من النَّار كالأُخدُود فليس بينهم وبين الهلاك السَّريع التَّام إلا خطوة قصيرة ، واختيار الحالة المشبَّه بها هنا لأن النَّار أشدّ المهلكات إهلاكاً ، وأسرعُها ، وهذا هو المناسب في حمل الآية ليكون الامتنان بنعمتين محسوستين هما : نعمة

الأخوة بعد العداوة، ونعمة السلامة بعد الخطر، كما قال أبو الطيب:

نَجاة من البأساءِ بعدَ وقوعِ...

والإنقاذ من حالتين شنيعتين.

وقال جمهور المفسرين: أراد نار جهنَّم.

وعلى قولهم هذا يكون قوله: ﴿ شفا حفرة ﴾ مستعاراً للاقتراب استعارة المحسوس للمعقول.

والنَّارُ حقيقة، ويبعد هذا المحمل قوله تعالى: ﴿ حفرة ﴾ إذ ليست جهنّم حفرة بل هي عالم عظيم للعذاب.

وورد في الحديث "فإذا هي مطوية كطي البئر وإذا لها قرنان" لكن ذلك رؤيا جاءت على وجه التمثيل وإلا فهي لا يحيط بها النّظر.

ويكون الامتنان على هذا امتناناً عليهم بالإيمان بعد الكفر وهم ليقينهم بدخول الكفرة النّارَ علموا أنَّهم كانوا على شفاها.

وقيل: أراد نار الحرب وهو بعيد جداً لأنّ نار الحرب لا توقد في حُفرة بل توقد في العلياء ليراها من كان بعيداً كما قال الحارث:

وبعينيك أوقدَتْ هند النَّارَ...

عِشاء تلْوي بها العَليَاء

فتنورتَ نَارها من بعيد . . .

بخَزَازَى أَيَّان منك الصِلاء

ولأنهم كانوا ملابسين لها ولم يكونوا على مقاربتها .

والضّمير في ﴿ منها ﴾ للنّار على التّقادير الثّلاثة .

ويجوز على التّقدير الأول أن يكون لشَفا حفرة وعاد عليه بالتأنيث لاكتسابه التّأنيث من المضاف إليه كقول الأعشى :

(135/126)

وتَشْرَقَ بالقَوْلِ الذي قد أذعتَه . . .

كما شرِقَتْ صَدْرُ القناة من الدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ 177 . 178﴾

فائدة

قال الفخر :

وفي قوله ﴿ فَأَنقَذَكُمْ مّنْهَا ﴾ سؤال وهو : أنه تعالى إنما ينقذهم من الموضع الذي كانوا فيه وهم كانوا على شفا حفرة ، وشفا الحفرة مذكر فكيف قال منها ؟ .

وأجابوا عنه من وجوه

الأول : الضمير عائد إلى الحفرة ولما أنقذهم من الحفرة فقد أنقذهم من شفا الحفرة لأن شفاها منها

والثاني : أنها راجعة إلى النار ، لأن القصد الإنجاء من النار لا من شفا الحفرة ، وهذا قول الزجاج

الثالث : أن شفا الحفرة ، وشفتها طرفها ، فجاز أن يخبر عنه بالتذكير والتأنيث . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 144 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَكُنتُمْ على شَفَا حُفْرَةٍ مّنَ النار ﴾ أي وكنتم على طرف حفرة من جهنم إذ لم يكن بينكم وبينها إلا الموت وتفسير الشفا بالطرف مأثور عن السدي في الآية ووارد عن العرب ويثني على شفوان ويجمع على أشفاء ويضاف إلى الأعلى كـ ﴿ شفا جرف هار ﴾ [التوبة : 109] وإلى الأسفل قيل : كما هنا وكون المراد من النار ما ذكرنا هو الظاهر وحملها على نار الحرب بعيد ﴿ فَأَنقَذَكُمْ مّنْهَا ﴾ أي بمحمد صلى الله عليه وسلم قاله ابن عباس والضمير المجرور عائد إما على ﴿ النار ﴾ ، أو على حفرة أو على شفا لأنه بمعنى الشفة ، أو لاكتسابه التأنيث من المضاف إليه كما في قوله :

وتشرق بالقول الذي قد أذعته . . . كما شرقت صدر القناة من الدم

فإن المضاف يكتسب التأنيث من المضاف إليه إذا كان بعضاً منه أو فعلاً له أو صفة كما صرحوا به وما نحن فيه من الأول ، ومن أطلق لزمه جواز قامت غلام هند ، واختار الزمخشري الاحتمال الأخير ، وقال ابن المنير : "وعود الضمير إلى الحفرة أتم لأنها التي يمتن بالانقاذ منها حقيقة ، وأما الامتنان بالانقاذ من الشفا قلما يستلزمه الكون على الشفا غالباً من الهوي إلى الحفرة فيكون الانقاذ من الشفا إنقاذاً من الحفرة التي يتوقع الهوي فيها فإضافة المنة إلى الإنقاذ من الحفرة (تكون) أبلغ وأوقع مع أن اكتساب التأنيث من المضاف إليه قد عده أبو علي في "التعاليق" من ضرورة الشعر خلاف رأيه في "الإيضاح" ، وما حمل الزمخشري على إعادة الضمير إلى الشفا إلا أنه هو الذي كانوا عليه ولم يكونوا في الحفرة حتى يمتن عليهم بالإنقاذ من الحفرة ، وقد علم أنهم كانوا صائرين إليها غالباً لولا الانقاذ الرباني (فبولغ في الامتنان بذلك) ألا ترى إلى قوله صلى الله عليه وسلم : "الراتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه" وإلى قوله تعالى : ﴿ أَمْ مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ [التوبة : 109] فانظر كيف جعل تعالى كون البنيان على الشفا سبباً مؤدياً إلى انهياره في نار جهنم مع تأكيد ذلك بقوله سبحانه : ﴿ هَارٍ ﴾ " انتهى ، ومنه يعلم ما في قول

أبي حيان (في البحر" 391) : من "أنه لا يحسن عوده إلا إلى الشفا لأن كينونتهم عليه هو أحد جزأي الإسناد فالضمير لا يعود إلا إليه لا على الحفرة لأنها غير محدث عنها ولا على النار لأنه إنما جيء بها لتخصيص الحفرة. وأيضاً فالإنقاذ من الشفا أبلغ من الإنقاذ من الحفرة ومن النار (لأن الإنقاد منه يستلزم الإنقاد من الحفرة ومن النار) ، والإنقاذ منهما لا يستلزم الانقاذ من

الشفا فعوده على الشفا هو الظاهر من حيث اللفظ ومن حيث المعنى ، نعم ما ذكره من أن عوده على الشفا هو الظاهر من حيث اللفظ ظاهر بناءاً على أن الأصل أن يعود الضمير على المضاف دون المضاف إليه إذا صلح لكل منهما ولو بتأويل إلا أنه قد يترك ذلك فيعود على المضاف إليه إما مطلقاً كما هو قول ابن المنير أو بشرط كونه بعضه أو كبعضه كقول جرير :

أرى مرّ السنين (أخذن) مني . . . فإن مرّ السنين من جنسها ، وإليه ذهب الواحدي والشرط موجود فيما نحن فيه. انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 4 صـ 20 ﴾

(137/126)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ هذه الآية الكريمة تدل على أن الأنصار ما كان بينهم وبين النار إلا أن يموتوا مع أنهم كانوا أهل فترة, والله تعالى يقول : ﴿ وما كنا معذّبين إلا أن نبعث رسولا ﴾ , ويقول : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ الآية, وقد بين الله هذه الحجة بقوله في سورة طه :

﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذابٍ من قبله لقالوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ , والآيات بمثل هذا كثيرة .

والذي يظهر في الجواب : – والله تعالى أعلم – أنه برسالة محمد صلى الله عليه وسلم لم يبق عذر لأحد , فكل من لم يؤمن به فليس بينه وبين النار إلا أن يموت, كما بينه تعالى بقوله :

﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ الآية .

وما أجاب به بعضهم من أن عندهم بقية من إنذار الرسل الماضين تلزمهم بها الحجة, فهو جواب باطل ؛ لأن نصوص القرآن مصرِّحة بأنهم لم يأتهم نذير كقوله تعالى : ﴿ لتنذر قوما ما أُنذر أباؤهم ﴾ , وقوله : ﴿ أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾ الآية, وقوله : ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾ , وقوله : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا

يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ﴾ الآية, وقوله تعالى :

﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 67.66 ﴾

(138/126)

فصل

قال الفخر :

إنهم لو ماتوا على الكفر لوقعوا في النار ، فمثلت حياتهم التي يتوقع بعدها الوقوع في النار بالقعود على حرفها ، وهذا فيه تنبيه على تحقير مدة الحياة ، فإنه ليس بين الحياة وبين الموت المستلزم للوقوع في الحفرة إلا ما بين طرف الشيء ، وبين ذلك الشيء ، ثم قال : ﴿ كذلك يُبَيِّنُ الله ﴾ الكاف في موضع نصب ، أي مثل البيان المذكور يبين الله لكم سائر الآيات لكي تهتدوا بها ،

قال الجبائي : الآية تدل على أنه تعالى يريد منهم الاهتداء ، أجاب الواحدي عنه في "البسيط" فقال : بل المعنى لتكونوا على رجاء هداية .

وأقول : وهذا الجواب ضعيف لأن على هذا التقدير يلزم أن يريد الله منهم ذلك الرجاء ومن

المعلوم أن على مذهبنا قد لا يريد ذلك الرجاء ، فالجواب الصحيح أن يقال كلمة (لعلّ) للترجي ، والمعنى أنا فعلنا فعلاً يشبه فعل من يترجى ذلك ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 144 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته ﴾ نعمة أخرى وهي نعمة التَّعليم والإرشاد ، وإيضاح الحقائق حتَّى تكمل عقولهم ، ويَتَبَيَّنوا مَا فيه صلاحهم .

والبيان هنا بمعنى الإظهار والإيضاح .

والآيات يجوز أن يكون المراد بها النعم ، كقول الحرث بن حلزة :

مَنْ لنا عنده من الخَيْر آيا . . .

تٌ ثلاث في كلّهن القضاء

ويجوز أن يراد بها دلائل عنايته تعالى بهم وتثقيف عقولهم وقلوبهم بأنوار المعارف الإلهية .

وأن يراد بها آيات القرآن فإنها غاية في الإفصاح عن المقاصد وإبلاغ المعاني إلى الأذهان .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 178 ﴾

من فوائد الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ .

رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَعْنَى الْحَبْلِ هَهُنَا : " أَنَّهُ الْقُرْآنُ " وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ وَقَتَادَةَ وَالسُّدِّيِّ .

وَقِيلَ : إنَّ الْمُرَادَ بِهِ دِينُ اللَّهِ .

وَقِيلَ : بِعَهْدِ اللَّهِ ؛ لِأَنَّهُ سَبَبُ النَّجَاةِ كَالْحَبْلِ الَّذِي يُتَمَسَّكُ بِهِ لِلنَّجَاةِ مِنْ غَرَقٍ أَوْ نَحْوِهِ .

وَيُسَمَّى الْأَمَانُ الْحَبْلَ ؛ لِأَنَّهُ سَبَبُ النَّجَاةِ ، وَذَلِكَ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ إلَّا بِحَبْلٍ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنْ النَّاسِ ﴾ يَعْنِي بِهِ الْأَمَانَ .

إلَّا أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾ أَمْرٌ بِالِاجْتِمَاعِ وَنَهْيٌ عَنْ الْفُرْقَةِ ، وَأَكَّدَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ مَعْنَاهُ التَّفَرُّقُ عَنْ دِينِ اللَّهِ الَّذِي أُمِرُوا جَمِيعًا بِلُزُومِهِ وَالِاجْتِمَاعِ عَلَيْهِ .

وَرُوِيَ نَحْوُ ذَلِكَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ وَقَتَادَةَ .

وَقَالَ الْحَسَنُ : " وَلَا تَفَرَّقُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " .

وَقَدْ يَحْتَجُّ بِهِ فَرِيقَانِ مِنَ النَّاسِ : أَحَدُهُمَا : نُفَاةُ الْقِيَاسِ وَالِاجْتِهَادِ فِي أَحْكَامِ الْحَوَادِثِ ، مِثْلُ النَّظَّامِ ، وَأَمْثَالِهِ مِنَ الرَّافِضَةِ .

(140/126)

وَالْآخَرُ مَنْ يَقُولُ بِالْقِيَاسِ وَالِاجْتِهَادِ ، وَيَقُولُ مَعَ ذَلِكَ : إِنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ مِنْ أَقَاوِيلِ الْمُخْتَلِفِينَ فِي مَسَائِلِ الِاجْتِهَادِ ، وَيُخَطِّئُ مَنْ لَمْ يُصِبْ الْحَقَّ عِنْدَهُ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ : ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ .

فَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ التَّفَرُّقُ وَالِاخْتِلَافُ دِينًا لِلَّهِ تَعَالَى مَعَ نَهْيِ اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُ .

وَلَيْسَ هَذَا عِنْدَنَا كَمَا قَالُوا ؛ لِأَنَّ أَحْكَامَ الشَّرْعِ فِي الْأَصْلِ عَلَى أَنْحَاءٍ : مِنْهَا مَا لَا يَجُوزُ الْخِلَافُ فِيهِ ، وَهُوَ الَّذِي دَلَّتْ الْعُقُولُ عَلَى حَظْرِهِ فِي كُلِّ حَالٍ أَوْ عَلَى إيجَابِهِ فِي كُلِّ حَالٍ ؛ فَأَمَّا مَا جَازَ أَنْ يَكُونَ تَارَةً وَاجِبًا وَتَارَةً مَحْظُورًا وَتَارَةً مُبَاحًا ، فَإِنَّ الِاخْتِلَافَ فِي ذَلِكَ سَائِغٌ يَجُوزُ وُرُودُ الْعِبَادَةِ بِهِ ، كَاخْتِلَافِ حُكْمِ الطَّاهِرِ وَالْحَائِضِ فِي الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ ، وَاخْتِلَافِ حُكْمِ الْمُقِيمِ وَالْمُسَافِرِ فِي الْقَصْرِ وَالْإِتْمَامِ .

وَمَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ .

فَمِنْ حَيْثُ جَازَ وُرُودُ النَّصِّ بِاخْتِلَافِ أَحْكَامِ النَّاسِ فِيهِ فَيَكُونُ بَعْضُهُمْ مُتَعَبَّدًا بِخِلَافِ مَا

تَعَبَّدَ بِهِ الْآخَرُ ، لَمْ يَمْتَنِعْ تَسْوِيغُ الِاجْتِهَادِ فِيمَا يُؤَدِّي إِلَى الْخِلَافِ الَّذِي يَجُوزُ وُرُودُ النَّصِّ بِمِثْلِهِ ؛ وَلَوْ كَانَ جَمِيعُ الِاخْتِلَافِ مَذْمُومًا لَوَجَبَ أَنْ لَا يَجُوزَ وُرُودُ الِاخْتِلَافِ فِي أَحْكَامِ الشَّرْعِ مِنْ طَرِيقِ النَّصِّ وَالتَّوْقِيفِ ، فَمَا جَازَ مِثْلُهُ فِي النَّصِّ جَازَ فِي الِاجْتِهَادِ .

(141/126)

وَقَدْ يَخْتَلِفُ الْمُجْتَهِدَانِ فِي نَفَقَاتِ الزَّوْجَاتِ وَقِيَمِ الْمُتْلَفَاتِ ، وَأُرُوشِ كَثِيرٍ مِنْ الْجِنَايَاتِ فَلَا يَلْحَقُ وَاحِدًا مِنْهَا لَوْمٌ ، وَلَا تَعْنِيفٌ ؛ وَهَذَا حُكْمُ مَسَائِلِ الِاجْتِهَادِ .

وَلَوْ كَانَ هَذَا الضَّرْبُ مِنْ الِاخْتِلَافِ مَذْمُومًا لَكَانَ لِلصَّحَابَةِ فِي ذَلِكَ الْحَظُّ الْأَوْفَرُ ، وَلَمَا وَجَدْنَاهُمْ مُخْتَلِفِينَ فِي أَحْكَامِ الْحَوَادِثِ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مُتَوَاصِلُونَ يُسَوِّغُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لِصَاحِبِهِ مُخَالَفَتَهُ مِنْ غَيْرِ لَوْمٍ ، وَلَا تَعْنِيفٍ فَقَدْ حَصَلَ مِنْهُمْ الِاتِّفَاقُ عَلَى تَسْوِيَةِ هَذَا الضَّرْبِ مِنْ الِاخْتِلَافِ .

وَقَدْ حَكَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِصِحَّةِ إجْمَاعِهِمْ وَثُبُوتِ حُجَّتِهِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ .

وَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ﴿ اخْتِلَافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ ﴾ وَقَالَ : ﴿ لَا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالٍ ﴾ ؛ فَثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَنْهَنَا بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ عَنْ هَذَا الضَّرْبِ مِنْ الِاخْتِلَافِ .

وأَنَّ النَّهْيَ مُنْصَرِفٌ إلى أَحَدِ وَجْهَيْنِ: إمَّا فِي النُّصُوصِ أَوْ فِيمَا قَدْ أُقِيمَ عَلَيْهِ دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ أَوْ سَمْعِيٌّ لَا يَحْتَمِلُ إلَّا مَعْنًى وَاحِدًا ؛ وَفِي فَحْوَى الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ هُوَ الِاخْتِلَافُ

(142/126)

وَالتَّفَرُّقُ فِي أُصُولِ الدِّينِ لَا فِي فُرُوعِهِ ، وَمَا يَجُوزُ وُرُودُ الْعِبَادَةِ بِالِاخْتِلَافِ فِيهِ ، وَهُوَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ يَعْنِي بِالْإِسْلَامِ . وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ التَّفَرُّقَ الْمَذْمُومَ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ فِي الْآيَةِ هُوَ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ لَا فِي فُرُوعِهِ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 2 صـ 313 . 315 ﴾

(143/126)

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

1- الالتفات [لما آتيتكم] فيه التفات من الغيبة الى الحاضر لأن قبله [ميثاق النبيين] .

2 - بين لفظ [اشهدوا] و[الشاهدين] جناس الاشتقاق وكذلك بين لفظ [كفروا] و[كفرا] وهو من المحسنات البديعية .

3 - الطباق بين [طوعا] و[كرها] وكذلك بوجد الطباق بين لفظ الكفر والايمان .

4 - [واولئك هم الضالون] قصر صفة على موصوف ومثله [فاولئك هم الفاسقون] .

5 - [وما أوتي موسى وعيسى والنبيون] هو من باب عطف العام على الخاص ، لتعميم الحكم وبيان وحدة المرسلين .

6 - [ولهم عذاب أليم] أى مؤلم والعدول الى صيغة " فعيل " للمبالغة .

(144/126)

---

7 - [قل فأتوا بالتوراة] الأمر للتبكيت والتوبيخ للدلالة على كمال القبح .

8 - [للذي ببكة] أى لبيت الله الحرام الذي بمكة الذي ببكة ، وفي ترك الموصوف من التفخيم ما لايخفى .

10 - [ومن كفر] وضع هذا اللفظ موضع " ومن لم يحج ، تأكيدا لوجوبه وتشديدا على تاركه ، قال أبو السعود : " ولقد حازت الأية الكريمة من فنون الاعتبارات ما لا مزيد عليه

وهي قوله [ولله على الناس حج البيت] حيث أوثرت صيغة الخبر الدالة على التحقيق ، وأبرزت في صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستمرار ، على وجه يفيد أنه حق واجب لله سبحانه في ذمم الناس ، وسلك بهم مسلك التعميم ثم التخصيص ، والإبهام ثم التبيين ، والإجمال ثم التفصيل " .

11 - [واعتصموا بحبل الله] شبه القرآن بالحبل واستعير اسم المشبه به وهو الحبل للمشبه وهو (القرآن) على سبيل الاستعارة التصريحية ، والجامع بينهما النجاة في كل

12 - [شفا حفرة] شبه حالهم الذي كانوا عليه بالجاهلية بحال من كان مشرفا على حفرة عميقة وهوة سحيقة ، ففيه (استعارة تمثيلية) والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 216 . 220 ﴾

(145/126)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ واعتصموا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً ﴾ الحبل - في الأصل - هو : السبب ، وكل ما وصلك إلى شيء فهو حبل ، وأصله في الأجرام واستعماله في المعاِني من باب المجاز .

ويجوز أن يكون – حينئذٍ – من باب الاستعارة ، ويجوز أن يكون من باب التمثيل ، ومن كلام الأنصار رضي الله عنهم : يا رسولَ الله ، إنَّ بيننا وبَيْنَ القوم حبالاً ونحن قاطعوها – يعْنُون العهود والحِلْف .

قال الأعشى : [الكامل]

وَإِذَا تُجَوِّزُهَا حِبَالُ قَبِيلَةٍ . . . أَخَذَتْ مِنَ الأُخْرَى إِلَيْكَ حِبَالَهَا

يعني العهود .

قيل : والسبب فيه أن الرجل كان إذا سافر خاف ، فيأخذ من القبيلة عَهداً إلى الأخرى ، ويُعْطَى سَهْماً وحَبْلاً ، ويكون معه كالعلامة ، فسُمِّيَ العهدُ حَبْلاً لذلك ، وهذا المعنى غير طائل ، بل سُمِّي العهد حبلاً للتوصُّل به إلى الغرض .

وقال آخر : [الكامل]

مَا زِلْتُ مُعْتَصِماً بِحَبْلٍ مِنْكُمُ . . . مَنْ حَلَّ سَاحَتَكُمْ بِأَسْبَابِ نَجَا

قال القرطبي : العِصْمة : المَنَعَة ، ومنه يقال للبَذْرَقة : عصمة ، والبذرقة : الخفارة للقافلة ، وهو من يُرسَل معها يحميها ممن يؤذيها ، قال ابنُ خالويه : " البذرقة ليست بعربيةٍ ، وإنَّما هي

كلمة فارسية عرّبتها العرب ، يقال : بعث السلطان بَذْرَقَةً مع القافلة " . والحبل لفظ مشترك ، وأصله – في اللغة : السبب الذي يُوصل به إلى البغية والحاجة ، والحبل : المستطيل من الرمل ، ومنه الحديث : " واللهَ مَا تَرَكتُ مِنْ حَبْلٍ إلاَّ وَقَفْتُ عَلَيْه ، فَهَلْ لِي مِنْ حَجٍّ " ؟ والحبل : الرَّسَن ، والحبل : الداهية .

قال كثير : [الطويل]

فَلاَ تَعْجَلِي يَا عَزَّ أنْ تتفهمي . . . بنُصْحٍ أتَى الوَاشُونَ أمْ بِحُبُولِ

والحبالة : حبالة الصائد ، وكلها ليس مراداً في الآية إلا الذي بمعنى العَهْد .

وقوله : ﴿ جَمِيعًا ﴾ أي : مجتمعين عليه ، فهو حال من الفاعل .

قوله : ﴿ وَلاَ تفرَّقُوا ﴾ قراءة البَزّيِّ بتشديد التاء وصلاً وقد تقدم توجيهه في البقرة عند قوله " ولا تيمموا " والباقون بتخفيفها على الحذف .

قوله : ﴿ واذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ ﴾ .

﴿ نِعْمَةَ الله ﴾ مصدر مضاف لفاعله ؛ إذ هو المُنْعِم ، ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ ، ويجوز أن يكون متعلقاً بنفس ﴿ نِعْمَتَ ﴾ ؛ لأن هذه المادةَ تتعدى بـ " على " قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ للذي أَنعَمَ الله عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب : 37] .

ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف على أنه حال من " نِعْمَةَ " ، فيتعلق بمحذوف ، أي : مستقرة ، وكائنة عليكم .

قوله : ﴿ إِذْ كُنْتُمْ ﴾ " إِذْ " منصوبة - بـ " نِعْمَةَ " ظرفاً لها ويجوز أن يكون متعلّقاً بالاستقرار الذي تضمنه ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ إذا قلنا : إن " عَلَيْكُمْ " حال من النعمة ، وأما إذا علقنا " عَلَيْكُمْ " بـ " نِعْمَةَ " تعيَّن الوجه الأول .

(147/126)

وجوز الحوفي أن يكون منصوباً بـ " اذْكُرُوا " يعني : مفعولاً به ، لا أنه ظرف له ؛ لفساد المعنى ؛ إذْ " اذْكُرُوا " مستقبل ، و " إذْ " ماضٍ .

﴿ فَأَصْبَحْتُمْ ﴾ أي : فصرتم . و " أصبح " من أخوات " كان " فإذا كانت ناقصة ، كانت مثل " كان " في رفع الاسم ونَصْب الخبر ، وإذا كانت تامة رفعت فاعلاً ، واستغنت به ، فإن وجد منصوب بعدها فهي حال ، وتكون تامة إذا كانت بمعنى دخل في الصباح ، تقول : أصبح زيد ، أي دخل في الصباح ، ومثلها - في ذلك - " أمسى " قال تعالى ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم : 17] وقال : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الصافات : 137] .

وفي أمثالهم : " إذا سمعت بسرى القين فاعلم أنه مصبح " ؛ لأن القين - وهو الحداد - ربما قلّت صناعته في أحياء العرب ، فيقول : أنا غداً مسافر ، فيأتيه الناس بحوائجهم ، ويقيم ،

ويترك السفر ، فأخرجوه مثلاً لمن يقول قولاً ويخالفه . والمعنى : فاعلم أنه مقيم في الصباح .

ويكون بمعنى " صار " عملاً ومعنًى . كقوله : [الخفيف]

فَأَصْبَحُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌ جَفْ . . . فَ فَأَلْوَتْ بِهِ الصَّبَا وَالدَّبُورُ

أي : صاروا .

و" إخواناً " خبرها ، وجوّزوا فيها – هنا – أن تكون على بابها – من دلالتها على اتصاف الموصوف بالصفة في وقت الصباح ، وتكون بمعنى : " صار " – وأن تكون تامة ، أي : دخلتم في الصباح ، فإذا كانت ناقصة على بابها – فالأظهر أن يكون " إخْنانا ً " خبرها ، و" بنعمته " متعلق به لما فيه من معنى الفعل ، أي : تآخيتم بنعمته ، والباء للسببية .

(148/126)

وجوَّز أبو حيان أن تتعلق بـ " أصْبَحْتم " ، وقد عُرف ما فيه من خلاف . وجوّز غيره أن تتعلق بمحذوف على أنه حال من فاعل " أَصْبَحْتُمْ " ، أي : فأصبحتم إخواناً ملتبسين بنعمته ، أو حال من " إخواناً " ؛ لأنه في الأصل – صفة له .

وجوَّزوا أن تكون " بِنِعْمَتِهِ " هو الخبر ، و" إخواناً " حال والباء بمعنى الظرفية ، وإذا كانت بمعنى : " صار " جرى فيها ما تقدم من جميع هذه الأوجه ، وإذا كانت تامة ، فإخواناً حال

، و" بِنعْمَتِهِ " فيه ما تقدم من الأوجه خلا الخبرية .

قال ابن عطية : " فأَصْبَحْتُمْ " عبارة عن الاستمرار – وإن كانت اللفظة مخصوصة بوقت – وإنما خُصَّت هذه اللفظة بهذا المعنى من حيث مبدأ النهار ، وفيه مبدأ الأعمال ، فالحال التي يحبها المرء من نفسه فيها هي التي يستمر عليها يومَه في الأغلب .

ومنه قول الربيع بن ضَبع : [المنسرح]

أَصْبَحْتُ لاَ أَحْمِلُ السِّلاَحَ وَلاَ . . . أَمْلِكُ رَأْسَ البَعِيرِ إِنْ نَفَرَا

قال أبو حيان : وهذا الذي ذكره – من أن " أصبح " للاستمرار وعلله بما ذكره – لم أر أحداً من النحويين ذهب إليه ، إنما ذكروا أنها تُسْتَعْمَل بالوجهين اللذين ذكرناهما .

قال شهاب الدين : وهذا – الذي ذكره ابن عطية – معنى حَسَنٌ ، وإذا لم يَنُصّ عليه النحويون لا يُدْفَع ؛ لأن النحاة – غالباً – إنما يتحدثون بما يتعلق بالألفاظ ، وأما المعاني المفهومة من فَحْوى الكلام ، فلا حاجة إلى الكلام عليها غالباً .

والإخوان : جمع أخ ، وإخوة اسم جمع عند سيبويه ، وعند غيره هي جمع .

وقال بعضهم : إن الأخ في النسب – يُجْمَع على : " إخوة " ، وفي الدين يُجْمَع على : " إخوان " ، هذا أغلب استعمالهم ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : 10]

ونفس هذه الآية تَرُدُّ ما قاله ؛ لأن المراد – هنا – ليس أُخُوَّة النسب إنما المراد أخوة الدين والصداقة .

قال أبو حاتم : قال أهل البصرة : الإخوة في النسب ، والإخوان في الصداقة ، قال : وهذا غلط ؛ يقال للأصدقاء والأنسباء : إخوة ، وإخوان ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : 10] ولم يَعْنِ النسب ، وقال تعالى : ﴿ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ ﴾ [النور : 61] وهذا في النسب .

وهذا الرد من أبي حاتم إنما يتّجِه على هذا النقل المُطْلَق ، ولا يرد على النقل الأول ؛ لأنهم قيدوه بالأغلب في الاستعمال .

قال الزجاج : أصل الأخ – في اللغة – من التوخي – وهو الطلب ؛ فإن الأخ مقصده مقصد أخيه ، والصديق مأخوذ من أن يصدق كل واحد من الصديقين ما في قلبه ، ولا يُخْفِي عنه شيئاً .

قوله : ﴿ وَكُنْتُمْ على شَفَا حُفْرَةٍ ﴾ شَفَا الشيء : طرفه وحرفه ، وهو مقصور من ذوات الواو ، ويُثَنَّى بالواو نحو : شَفَوَيْن ويكتب بالألف ، ويُجْمَع على أشفاء ، ويُسْتَعْمَل مضافاً إلى أعلى الشيء وإلى أسفله ، فمن الأول : ﴿ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾ [التوبة : 109] ومن

الثاني : هذه الآية .

وأشْفَى على كذا : قاربه ، ومنه : أشفى المريض على الموت . قال يعقوب : يقال للرجل عند موته ، وللقمر عند محاقه ، وللشمس عند غروبها : ما بقي منه ، أو منها ، إلا شَفاً ، أي : إلا قليل . وقال بعضهم : يقال لما بين الليل والنهار ، وعند غروب الشمس إذا غاب بعضها : شَفاً .

وأنشد : [الرجز]

أدْرَكْتُهُ بِلاَ شَفاً ، أوْ بِشَفَا . . . وَالشَّمْسُ قَدْ كَادَتْ تكونُ دَنَفَا

(150/126)

قوله بلا بشفا : أي : غابت الشمسُ ، وقوله : أو بشفا ، أي : بقيت منه بقية .

قال الراغب : والشفاء من المرض : موافاة شفا السلامة ، وصار اسماً للبُرْء والشفاء .

قال البخاري : قال النحاس : " الأصل في شفا – شَفَوٌ ، ولهذا يُكْتَب بالألف ، ولا يمال " .

وقال الأخفش : " لما لم تَجُز فيه الإمالة عُرِفَ أنه من الواو " ؛ لأن الإمالة من الياء .

قال المهدويّ : " وهذا تمثيل يُراد به خروجُهم من الكفر إلى الإيمان " .

قوله : ﴿ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ في عَود هذا الضمير وجوه :

أحدها : أنه عائد على " حُفْرَةٍ " .

والثاني : أنه عائد على " النَّارِ " .

قال الطبريّ : إن بعض الناس يُعيده على الشفا ، وأنث من حيث كان الشفا مضافاً إلى مؤنث ، كما قال جرير : [الوافر]

أرَى مَرَّ السِّنِينَ أخَذْنَ مِنّي . . . كَمَا أخَذَ السِّرَارُ مِنَ الْهِلاَلِ

قال ابن عطية : " وليس الأمر كما ذكروا ؛ لأنه لا يُحتاج - في الآية - إلى مثل هذه الصناعة ، إلا لو لم يجد للضمير مُعَاداً إلا الشفا ، أما ومعنا لفظ مؤنث يعود الضميرُ عليه ، ويُعَضِّده المعنى المتكلَّم فيه ، فلا يحتاج إلى تلك الصناعة " .

(151/126)

قال أبو حيان : " وأقول : لا يحسن عَوْدُه إلا على الشفا ؛ لأن كينونتهم على الشفا هو أحد جزأي الإسناد ، فالضمير لا يعود إلا عليه ، وأما ذِكْرُ الحفرة ، فإنما جاءت على سبيل الإضافة إليها ، ألا ترى أنك إذا قلت : كان زَيْدٌ غلامَ جَعْفَر ، لم يكن جعفر محدِّثاً عنه ، وليس أحد جُزْأي الإسناد ، وكذا لو قلتَ : زيد ضرب غلامَ هند ، لم تُحَدِّث عن هند بشيء ، وإنما ذكرت جعفراً وهنداً ؛ تخصيصاً للمحدَّث عنه ، وأما ذكر : " النَّارِ " فإنما

ذُكِرَ لتخصيص الحُفْرة ، وليست - أيضاً - أحد جزأي الإسناد ، وليست أيضاً محدَّثاً عنها ، فالإنقاذ من الشفا أبلغ من الإنقاذ من الحفرة من النار ؛ لأن الإنقاذ منه يستلزم من الحُفْرة ومن النار ، والإنقاذ منهما لا يستلزم الإنقاذ من الشفا ، فعَوْدُه على الشفا هو الظاهر من حيث اللفظ ومن حيث المعنى " .

قال الزجّاج : " وقوله : " مِنْهَا " الكناية راجعة إلى النار ، لا إلى الشّفَا ؛ لأنّ القصد الإنجاء من النار لا من شفا الحفرة " .

وقال غيره : " الضمير عائد إلى الحُفْرَة ؛ ولما أنقذهم من الحُفْرَة فقد أنقذهم من شفَا الحفرة ؛ لأن شفاها منها " .

قال الواحديّ : على أنه يجوز أن يذكر المضاف إليه ، ثم تعود الكناية إلى المضاف إليه - دون المضاف ، كقول جرير : [الوافر]

أرَى مَرَّ السِّنِينَ أخَذْنَ مِنّي . . . كَمَا أخَذَ السِّرَارُ مِنَ الْهِلاَلِ

كذلك قول العجاج : [الرجز]

طُولُ اللَّيَالِي أسْرَعَتْ فِي نَقْضِي . . . طَوَيْنَ طُولِي وَطَوَيْنَ عَرْضِي

قال : وهذا إذا كان المضاف من جنس المضاف إليه ، فإن مَرَّ السنين هو المسنون ، وكذلك شفا الحُفْرة من الحفرة ، فذكَّر الشّفَا ، وعادت الكناية إلى الحفرة .

وهذان القولان نَصٌّ في رَدِّ ما قاله أبو حيان ، إلا أن المعنى الذي ذكره أولَى ؛ لأنه إذا أنقذهم من طَرف الحفرة فهو أبلغ من إنقاذهم من الحفرة ، وما ذكره – أيضاً – من الصناعة واضح .

قال بعضهم : " شَفَا الحُفْرة ، وشفتها : طرفها ، فجاز أن يخبر عنها بالتذكير والتأنيث " .

والإنقاذ : التخليص والتنحِية .

قال الأزهَرِيُّ : " يقال : أنقذته ، ونقذته ، واستنقذته ، وتنقَّذْته بمعنًى ويقال : فرس نقيذ ، إذا كان مأخوذاً من قوم آخرين ؛ لأنه استُنْقِذَ منهم " .

والحفرة : فُعْلَة بمعنى : مفعولة ، كغُرْفة بمعنى : مغروفة .

قوله تعالى : ﴿ كذلك يُبَيِّنُ الله ﴾ نعت لمصدر محذوف ، أو حال من ضميره ، أي : يبين الله لكم تَبْييناً مثل تبيينه لكم الآيات الواضحة ، لكي تهتدوا بها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 430 . 449 ﴾ . بتصرف يسير .

لطيفة

رُوِيَ أن أعرابيّاً سمع ابن عباس يقرأ هذه الآية ، فقال الأعرابي : والله ما أنقذهم منها وهو يريد أن يوقعهم فيها ، فقال ابن عباس رضي الله عنه خذوها من غير فقيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 1 صـ 389 ﴾

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ ﴾

الحبل : إما بمعنى العهد ، كما قال تعالى في الآية بعدها : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾ [آل عِمْرَان : 112] . أي : بعهد وذمة ، وإما بمعنى القرآن ، كما في صحيح مسلم عن زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : < ألا وإني تارك فيكم ثقلين : أحدهما كتاب الله هو حبل الله ، من اتبعه كان على الهدى ، ومن تركه كان على ضلالة . . . > الحديث ، والوجهان متقاربان ، فإن عهده أي : شرعه ودينه كتابه حرز للمتمسك به من الضلالة ، كالحبل الذي يتمسك به خشية السقوط . وقوله : ﴿ وَلاَ تَفَرَّقُواْ ﴾ أي : لا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم . كما اختلف اليهود والنصارى ، أو كما كنتم متفرقين في الجاهلية ، متدابرين ، يعادي بعضكم بعضاً ، ويحاربه . أو ولا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ، ويزول معه الاجتماع والألفة التي أنتم عليها مما يأباه جامعكم والمؤلف بينكم ، وهو اتباع الحق والتمسك بالإسلام -

أفاده الزمخشري - : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ .

(154/126)

قال الزمخشري : كانوا في الجاهلية بينهم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة ، فألف الله بين قلوبهم بالإسلام ، وقذف فيها المحبة ، فتحابوا وتوافقوا وصاروا إخواناً متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد ، قد نظم بينهم وأزال الاختلاف ، وهو الأخوة في الله : ﴿ وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا ﴾ أي : طرف : ﴿ حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ ﴾ بما كنتم فيه من الجاهلية : ﴿ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ أي : بالإسلام .

قال ابن كثير : وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج ، فإنه كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية وعداوة شديدة وضغائن وإحن طال بسببها قتالهم ، والوقائع بينهم . فلما جاء الله بالإسلام ، فدخل فيه من دخل منهم ، صاروا إخواناً متحابين بجلال الله ، متواصلين في ذات الله ، متعاونين على البر والتقوى . قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [الأنفال : 62 - 63] الآية . وكانوا على شفا حفرة من النار ، بسبب كفرهم ، فأنقذهم الله منها ، إذ هداهم للإيمان . وقد امتن عليهم بذلك

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوم قسم غنائم حنين ، فعتب من عتب منهم ، بما فضل عليهم في القسمة ، بما أراه الله ، فخطبهم فقال : < يا معشر الأنصار ! ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي ؟ > فكلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمنّ – انتهى – .

لطيفة :

قال الزمخشري : الضمير في : منها للحفرة أو للنار أو للشفا ، وإنما أنث لإضافته إلى الحفرة ، وهو منها كما قال :

~كما شرقت صدر القناة من الدم

انتهى .

وقال أبو حيان : لا يحسن عوده إلا إلى الشفا ؛ لأنه المحدَّث عنه . انتهى .

(155/126)

وفي " الانتصاف " : يجوز عود الضمير إلى الحفرة ، فلا يحتاج إلى تأويله المذكور ، كما تقول : أكرمت غلام هند ، وأحسنت إليها ، والمعنى على عوده إلى الحفرة أتم ، لأنها التي يمتن بالإنقاذ منها حقيقة ، وأما الامتنان بالإنقاذ من الشفا ، فلما يستلزمه الكون على الشفا

غالباً من الهويّ إلى الحفرة ، فيكون الإنقاذ من الشفا إنقاذاً من الحفرة التي يتوقع الهويّ فيها . فإضافة المنة إلى الإنقاذ من الحفرة تكون أبلغ وأوقع . مع أن اكتساب التأنيث من المضاف إليه قد عده أبو علي في التعاليق من ضرورة الشعر ، خلاف رأيه في " الإيضاح " - نقله ابن يسعون - .

وما حمل الزمخشري على إعادة الضمير إلى الشفا إلا أنه هو الذي كانوا عليه ، ولم يكونوا في الحفرة حتى يمتن عليهم بالإنقاذ منها ، وقد بينا في أدراج هذا الكلام ما يسوغ الامتنان عليهم بالإنقاذ من الحفرة ، لأنهم كانوا صائرين إليها غالباً ، لولا الإنقاذ الرباني . ألا ترى إلى قوله صلى الله عليه وسلم : < الراتع حول الحمى يوشك أن يواقعه > وإلى قوله تعالى : ﴿ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ [التوبة : 109] . وانظر كيف جعل تعالى كون البنيان على الشفا سبباً مؤدياً إلى انهياره في نار جهنم ، مع تأكيد ذلك بقوله : ﴿ هَارٍ ﴾ . والله أعلم - انتهى - .

ثم قال الزمخشري : وشفا الحفرة وشفتها : حرفها ، بالتذكير والتأنيث ، ولامها واو إلا أنها في المذكر مقلوبة ، وفي المؤنث محذوفة ، ونحو الشفا والشفة ، الجانب والجانبة . انتهى . وحكى الزجاج في تثنية شفا : شفوان . قال الأخفش لما لم تجز فيه الإمالة عرف أنه من الواو ، لأنه الإمالة من الياء . كذا في الصحاح .

ثم قال الزمخشري : فإن قلت : كيف جعلوا على حرف حفرة من النار ؟ قلت : لو ماتوا على ما كانوا عليه وقعوا في النار ، فمثلت حياتهم التي يتوقع بعدها الوقوع في النار ، بالقعود على حرفها مشفين على الوقوع فيها .

قال الرازي : وهذا فيه تنبيه على تحقير مدة الحياة ، فإنه ليس بين الحياة وبين الموت المستلزم للوقوع في الحفرة ، إلا ما بين طرف الشيء وبين ذلك الشيء .

﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي : مثل ذلك البيان : ﴿ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ﴾ في كل مكان لإنقاذكم عن الضلال فيه : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ لرشدكم الديني والدنيوي فيه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 4 صـ 419. 422 ﴾

(157/126)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنْ صَحَّ مَا وَرَدَ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ فَالْمُرَادُ بِالْكُفْرِ فِي قَوْلِهِ -

تَعَالَى - : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ هُوَ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ الَّتِي كَانَ الْكُفْرُ سَبَبَهَا ، كَمَا أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِيمَانِ عَلَى هَذَا هُوَ الْأُلْفَةُ وَالْمَحَبَّةُ الَّتِي هِيَ ثَمَرَةٌ يَانِعَةٌ مِنْ ثَمَرَاتِ الْإِيمَانِ ، وَإِذَا لَمْ نَنْظُرْ إِلَى مَا وَرَدَ مِنَ السَّبَبِ فَالْمَعْنَى : وَضَعُوهَا لِأَنْفُسِهِمْ ، فَإِذَا أَطَعْتُمُوهُمْ وَسَلَكْتُمْ مَسَالِكَهُمْ فَإِنَّكُمْ تَكْفُرُونَ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ .

أَقُولُ : وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالْكُفْرِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ : حَقِيقَتُهُ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : إِنَّكُمْ إِذَا أَصْغَيْتُمْ إِلَى مَا يُلْقِيهِ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ مِنْ مُثِيرَاتِ الْفِتَنِ وَاسْتَجَبْتُمْ لِمَا يَدْعُونَكُمْ إِلَيْهِ فَكُنْتُمْ طَائِعِينَ لَهُمْ فَإِنَّهُمْ لَا يَقْنَعُونَ مِنْكُمْ بِالْعَوْدِ إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ ، بَلْ يَتَجَاوَزُونَ إِلَى مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ، وَهُوَ أَنْ يَرُدُّوكُمْ إِلَى الْكُفْرِ ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا قَوْلُهُ - تَعَالَى - : وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ [2 : 109] الْآيَةَ . وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ : وَدَّتْ

(158/126)

طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ [3 : 69] وَلَا يَمْنَعُ الْإِنْسَانَ مِنْ إِتْيَانِ مَا يَوَدُّ إِلَّا عَجْزُهُ . وَإِذَا كَانَ هَذَا جَائِزًا - وَهُوَ الظَّاهِرُ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ - فَهُوَ مُتَعَيِّنٌ عَلَى

الْوَجْهِ الثَّانِي . أَمَّا اتِّصَالُ الْآيَةِ بِمَا قَبْلَهَا عَلَى هَذَا فَظَاهِرٌ جَلِيٌّ ، فَإِنَّهُ بَعْدَ مَا وَبَّخَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ - وَهُوَ الْإِسْلَامُ ، أَثَرَ إِقَامَةِ الْحُجَجِ عَلَيْهِمْ وَإِزَالَةِ شُبُهَاتِهِمْ - نَاسَبَ أَنْ يُخَاطِبَ الْمُؤْمِنِينَ مُبَيِّنًا لَهُمْ أَنَّ مَنْ كَانَ هَذَا شَأْنُهُمْ فِي الْكُفْرِ ، وَهَذَا شَأْنُ مَا دَعَوْا إِلَيْهِ فِي ظُهُورِ حَقِيقَتِهِ ، لَا يَنْبَغِي أَنْ يُطَاعُوا وَلَا أَنْ يُسْمَعَ لَهُمْ قَوْلٌ ، فَإِنَّهُمْ دُعَاةُ الْفِتْنَةِ وَرُوَّادُ الْكُفْرِ ; وَلِذَلِكَ قَالَ : وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ بِطَاعَتِهِمْ وَاتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَهِيَ رُوحُ الْهِدَايَةِ وَحِفَاظُ الْإِيمَانِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ يُبَيِّنُ لَكُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَلَكُمْ فِي سُنَّتِهِ وَإِخْلَاصِهِ خَيْرُ أُسْوَةٍ تُغَذِّي إِيمَانَكُمْ وَتُنِيرُ بُرْهَانَكُمْ ، فَهَلْ يَلِيقُ بِمَنْ أُوتُوا هَذِهِ الْآيَاتِ ، وَوُجِدَ فِيهِمُ الرَّسُولُ الْحَكِيمُ الرَّءُوفُ الرَّحِيمُ أَنْ يَبْتَغُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا ، حَتَّى اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ، وَغَلَبَ عَلَيْهِمُ الْبَغْيُ وَالْعُدْوَانُ ، وَعُرِفُوا بِالْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ ؟ فَالِاسْتِفْهَامُ فِي الْآيَةِ لِلْإِنْكَارِ وَالِاسْتِبْعَادِ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ وَبِكِتَابِهِ يَكُونُ الِاعْتِصَامُ إِذَنْ هُوَ حَبْلُهُ الْمَمْدُودُ . وَرَسُولُهُ هُوَ الْوَسِيلَةُ إِلَيْهِ وَهُوَ وِرْدُهُ الْمَوْرُودُ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ لَا يَضِلُّ فِيهِ السَّالِكُ ، وَلَا يُخْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَهَالِكِ ، فَلَا تَرُوجُ عِنْدَهُ الشُّبُهَاتُ

(160/126)

، وَلَا تَرُوقُ فِي عَيْنِهِ التُّرَّهَاتُ ، وَقَدْ جَاءَ جَوَابُ الشَّرْطِ بِصِيغَةِ الْمَاضِي الْمُحَقَّقِ لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ مَنْ يَلْتَجِئُ إِلَيْهِ - تَعَالَى - وَيَعْتَصِمُ بِحَبْلِهِ فَقَدْ تَحَقَّقَتْ هِدَايَتُهُ وَثَبَتَتِ اسْتِقَامَتُهُ .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ أَيْ وَاجِبُ تَقْوَاهُ وَمَا يَحِقُّ مِنْهَا ، كَمَا فِي الْكَشَّافِ ، قَالَ : مِثْلُهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ [64 : 16] أَيْ بَالِغُوا فِي التَّقْوَى حَتَّى لَا تَتْرُكُوا مِنَ الْمُسْتَطَاعِ مِنْهَا شَيْئًا . اهـ .

هَذَا مَا فَسَّرَ بِهِ الْعِبَارَتَيْنِ فِي الْآيَتَيْنِ بِحَسَبِ ذَوْقِهِ السَّلِيمِ وَفَهْمِهِ الدَّقِيقِ ، ثُمَّ نَقَلَ بَعْضَ مَا وَرَدَ فِيهِمَا ، وَمَا قَالَهُ هُوَ الْمُتَبَادِرُ ، وَمَعْنَى الْعِبَارَتَيْنِ عَلَيْهِ وَاحِدٌ . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ فَهِمَ أَنَّ الْآيَتَيْنِ مُتَعَارِضَتَانِ ،

(161/126)

حَتَّى زَعَمُوا أَنَّ الثَّانِيَةَ نَسَخَتِ الْأُولَى ، وَرَوَوْا ذَلِكَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَوْقُوفًا وَمَرْفُوعًا . فَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ عَنْهُ : أَنَّ مَعْنَى اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ " أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى وَيُذْكَرَ فَلَا

يُنسَى ، ويُشْكَرُ فَلَا يُكْفَرُ " وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : إِنَّهَا لَمَّا نَزَلَتِ اشْتَدَّ عَلَى الْقَوْمِ الْعَمَلُ فَقَامُوا " فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ " حَتَّى وَرِمَتْ عَرَاقِيبُهُمْ وَتَقَرَّحَتْ جِبَاهُهُمْ فَأَنْزَلَ اللهُ تَخْفِيفًا عَلَيْهِمْ : فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَنَسَخَتِ الْآيَةَ الْأُولَى ، كَذَا فِي رُوحِ الْمَعَانِي . وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ النَّسْخَ عَنْ قَتَادَةَ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَالسُّدِّيِّ وَابْنِ زَيْدٍ . وَرُوِيَ عَدَمُ نَسْخِهَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَطَاوُسٍ وَأَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ فَسَّرَهَا بِأَنْ يُجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، وَلَا تَأْخُذُهُمْ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ ، وَيَقُومُوا لِلَّهِ بِالْقِسْطِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَآبَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ . أَيْ فَهِيَ بِمَعْنَى الْآيَاتِ الَّتِي تُقَرِّرُ هَذِهِ الْأُمُورَ الثَّلَاثَةَ وَهِيَ مِمَّا لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ بِنَسْخِهَا .

أَقُولُ : وَإِذَا كَانَتِ الرِّوَايَةُ بِالنَّسْخِ ضَعِيفَةً بِحَسَبِ الصِّنَاعَةِ ، فَهِيَ فِي اعْتِقَادِي مَوْضُوعَةٌ مِمَّنْ لَمْ يَفْهَمِ الْآيَةَ . وَلَوْ كَانَ مَعْنَاهَا مَا رَوَوْا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - لَكَانَتْ مِنْ تَكْلِيفِ مَا لَا يُطَاقُ وَهُوَ مَمْنُوعٌ ، وَبِهِ أَخَذَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي مَنْعِ النَّسْخِ .

(162/126)

أَمَّا قَوْلُهُ - تَعَالَى - : وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ فَمَعْنَاهُ عَلَى الْمُخْتَارِ عِنْدَ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ : اسْتَمِرُّوا عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَحَافِظُوا عَلَى أَعْمَالِهِ حَتَّى الْمَوْتِ . فَالْمُرَادُ بِالْإِسْلَامِ عَلَى هَذَا

الدِّينُ إِيمَانُهُ وَعَمَلُهُ ، وَوَجْهُ الِاخْتِيَارِ أَنَّهُ جَاءَ فِي مُقَابَلَةِ قَوْلِهِ : يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ وَبَعْدَ الْأَمْرِ بِالتَّقْوَى حَقَّ التَّقْوَى . وَقِيلَ إِنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْإِخْلَاصُ ، وَقِيلَ الْإِيمَانُ دُونَ الْعَمَلِ ; لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَسْتَمِرُّ إِلَى الْمَوْتِ . أَقُولُ : وَهَذَا النَّهْيُ مَبْنِيٌّ عَلَى قَاعِدَةِ أَنَّ الْمَرْءَ يَمُوتُ غَالِبًا عَلَى مَا عَاشَ عَلَيْهِ ، فَإِذَا عَاشَ عَلَى الْيَقِينِ حَقَّ التَّقْوَى وَالِاحْتِرَاسِ مِمَّا يُنَافِي الْإِسْلَامَ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ بِفَضْلِ اللهِ الَّذِي كَانَتْ تِلْكَ الْقَاعِدَةُ مِنْ سُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ .

ثُمَّ بَيَّنَ لَنَا - عَزَّ وَجَلَّ - مَا بِهِ يَتَحَقَّقُ ذَلِكَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ ، فَقَالَ : وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا حَبْلُ اللهِ : هُوَ الْقُرْآنُ ، كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ

(163/126)

ابْنِ مَسْعُودٍ ، وَرَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ مَرْفُوعًا : "كِتَابُ اللهِ هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ " عَلَّمَ عَلَيْهِ فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ بِالْحُسْنِ .

وَرَوَى الدَّيْلَمِيُّ مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ : " حَبْلُ اللهِ هُوَ الْقُرْآنُ " وَقِيلَ : هُوَ الطَّاعَةُ وَالْجَمَاعَةُ وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ، وَقِيلَ : إِنَّهُ الْإِسْلَامُ ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَقَالُوا : إِنَّ الْعِبَارَةَ اسْتِعَارَةٌ تَمْثِيلِيَّةٌ ، شُبِّهَتْ فِيهَا حَالَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي اهْتِدَائِهِمْ بِكِتَابِ اللهِ أَوْ فِي اجْتِمَاعِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ وَتَكَاتُفِهِمْ بِحَالَةِ اسْتِمْسَاكِ الْمُتَدَلِّي مِنْ مَكَانٍ عَالٍ بِحَبْلٍ مَتِينٍ يَأْمَنُ

مَعَهُ مِنَ السُّقُوطِ .

وَصوَّرَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ التَّمْثِيلَ بِمَا أَظْهَرَ مِنْ هَذَا ، قَالَ مَا مَعْنَاهُ : الْأَشْبَهُ أَنْ تَكُونَ الْعِبَارَةُ تَمْثِيلًا ، كَأَنَّ الدِّينَ فِي سُلْطَانِهِ عَلَى النُّفُوسِ وَاسْتِيلَائِهِ عَلَى الْإِرَادَاتِ وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ جَرَيَانِ الْأَعْمَالِ عَلَى حَسَبِ هَدْيِهِ حَبْلٌ مَتِينٌ يَأْخُذُ بِهِ الْآخِذُ فَيَأْمَنُ السُّقُوطَ ، كَأَنَّ الْآخِذِينَ بِهِ قَوْمٌ عَلَى نَشَزٍ مِنَ الْأَرْضِ يُخْشَى عَلَيْهِمُ السُّقُوطُ مِنْهُ . فَأَخَذُوا بِحَبْلٍ مُوَثَّقٍ جَمَعُوا بِهِ قُوَّتَهُمْ فَامْتَنَعُوا مِنَ السُّقُوطِ .

(164/126)

وَأَقُولُ : إِنَّ الْمُخْتَارَ هُوَ مَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ مِنْ تَفْسِيرِ حَبْلِ اللهِ بِكِتَابِهِ ، وَمَنِ اعْتَصَمَ بِهِ كَانَ آخِذًا بِالْإِسْلَامِ . وَلَا يَظْهَرُ تَفْسِيرُهُ بِالْجَمَاعَةِ وَالِاجْتِمَاعِ ، وَإِنَّمَا الِاجْتِمَاعُ هُوَ نَفْسُ الِاعْتِصَامِ ، فَهُوَ يُوجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَجْعَلَ أَنَّ اجْتِمَاعَنَا وَوَحْدَتَنَا بِكِتَابِهِ ، عَلَيْهِ نَجْتَمِعُ ، وَبِهِ نَتَّحِدُ ، لَا بِجِنْسِيَّاتٍ نَتَّبِعُهَا ، وَلَا بِمَذَاهِبَ نَبْتَدِعُهَا ، وَلَا بِمُوَاضَعَاتٍ نَضَعُهَا ، وَلَا بِسِيَاسَاتٍ نَخْتَرِعُهَا ، ثُمَّ نَهَانَا عَنِ التَّفَرُّقِ وَالِانْفِصَامِ بَعْدَ هَذَا الِاجْتِمَاعِ وَالِاعْتِصَامِ ، لِمَا فِي التَّفَرُّقِ مِنْ زَوَالِ الْوَحْدَةِ الَّتِي هِيَ مَعْقِدُ الْعِزَّةِ وَالْقُوَّةِ ، وَبِالْعِزَّةِ يَعْتَزُّ الْحَقُّ فَيَعْلُو فِي الْعَالَمِينَ ، وَبِالْقُوَّةِ يُحْفَظُ هُوَ وَأَهْلُهُ مِنْ هَجَمَاتِ الْمُوَاثِبِينَ وَكَيْدِ الْكَائِدِينَ ، فَهَذَا الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ فِي مَعْنَى

الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - : وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ [6 : 153] فَحَبْلُ اللهِ هُوَ صِرَاطُهُ وَسَبِيلُهُ ، وَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ هُنَا مِنْ بَيَانِ أَنْوَاعِ التَّفَرُّقِ هُوَ السُّبُلُ الَّتِي نُهِيَ عَنِ اتِّبَاعِهَا فِي تِلْكَ الْآيَةِ ، وَهِيَ قَدْ نَزَلَتْ قَبْلَ هَذِهِ الَّتِي نُفَسِّرُهَا ; لِأَنَّهَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ، وَسُورَةُ آلِ عِمْرَانَ مَدَنِيَّةٌ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : وَلَا تَفَرَّقُوا بِاتِّبَاعِ السُّبُلِ

(165/126)

غَيْرَ سَبِيلِ اللهِ الَّذِي هُوَ كِتَابُهُ . فَمِنْ تِلْكَ السُّبُلِ الْمُفَرِّقَةِ : إِحْدَاثُ الْمَذَاهِبِ وَالشِّيَعِ فِي الدِّينِ كَمَا قَالَ : إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ [6 : 159] وَمِنْهَا عَصَبِيَّةُ الْجِنْسِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ وَهِيَ الَّتِي نَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي نُفَسِّرُهَا وَمَا مَعَهَا فِيهَا ، لِمَا كَانَ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ مَا كَانَ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَوَرَدَ فِي النَّهْيِ عَنْهَا أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ صِحَاحٌ وَحِسَانٌ كَقَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللهِ ثَلَاثَةٌ : مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهْرِيقَ دَمَهُ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَقَوْلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ .

وَقَدِ اعْتَصَمَ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَهْلُ أُورُبَّا بِالْعَصَبِيَّةِ الْجِنْسِيَّةِ كَمَا كَانَتِ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَسَرَى سُمُّ ذَلِكَ إِلَى كَثِيرٍ مِنْ مُتَفَرْنِجَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَحَاوَلَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا فِي الْمُسْلِمِينَ جِنْسِيَّاتٍ وَطَنِيَّةً لِتَعَذُّرِ الْجِنْسِيَّةِ النَّسَبِيَّةِ، وَيُوجَدُ فِي مِصْرَ مَنْ يَدْعُو إِلَى هَذِهِ الْعَصَبِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ مُخَادِعِينَ لِلنَّاسِ بِأَنَّهُمْ بِذَلِكَ يَنْهَضُونَ بِالْوَطَنِ وَيُعْلُونَ شَأْنَهُ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَإِنَّ حَيَاةَ الْوَطَنِ وَارْتِقَاءَهُ بِاتِّحَادِ كُلِّ الْمُقِيمِينَ فِيهِ عَلَى إِحْيَائِهِ، لَا فِي تَفَرُّقِهِمْ وَوُقُوعِ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَهُمْ وَلَا سِيَّمَا الْمُتَّحِدِينَ مِنْهُمْ فِي اللُّغَةِ وَالدِّينِ أَوْ أَحَدِهِمَا، فَإِنَّ هَذَا مِنْ مُقَدِّمَاتِ الْخَرَابِ وَالدَّمَارِ، لَا مِنْ وَسَائِلِ التَّقَدُّمِ وَالْعُمْرَانِ، فَالْإِسْلَامُ يَأْمُرُ بِاتِّحَادِ اتِّفَاقِ كُلِّ قَوْمٍ تَضُمُّهُمْ أَرْضٌ وَتَحْكُمُهُمُ الشَّرِيعَةُ عَلَى الْخَيْرِ وَالْمَصْلَحَةِ فِيهَا - وَإِنِ اخْتَلَفَتْ أَدْيَانُهُمْ وَأَجْنَاسُهُمْ - وَيَأْمُرُ مَعَ ذَلِكَ بِاتِّفَاقٍ أَوْسَعَ، وَهُوَ الِاعْتِصَامُ بِحَبْلِ اللهِ بَيْنَ جَمِيعِ الْأَقْوَامِ وَالْأَجْنَاسِ، لِتَتَحَقَّقَ بِذَلِكَ الْأُخُوَّةُ فِي اللهِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالِاعْتِصَامِ وَالِاجْتِمَاعِ وَالنَّهْيِ عَنِ التَّفَرُّقِ:

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا يُشِيرُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ فِي عَصْرِ التَّنْزِيلِ مِنْ أُخُوَّةِ الْإِيمَانِ

(167/126)

الَّتِي بِهَا قَاسَمَ الْأَنْصَارُ الْمُهَاجِرِينَ

(168/126)

أَمْوَالَهُمْ وَدِيَارَهُمْ ، وَبِهَا كَانَ يُؤْثِرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالشَّيْءِ عَلَى نَفْسِهِ وَهُوَ فِي خَصَاصَةٍ وَحَاجَةٍ شَدِيدَةٍ إِلَى ذَلِكَ الشَّيْءِ ، بَعْدَ مَا كَانَ بَيْنَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ وَتَسَافُكِ الدِّمَاءِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي جُمْلَتِهِ لِلْجَمَاهِيرِ ، وَفِي تَفَاصِيلِهِ الْغَرِيبَةِ لِلْمُطَّلِعِينَ عَلَى أَخْبَارِهِمُ الْمَرْوِيَّةِ وَالْمُدَوَّنَةِ ، وَمِنْهَا أَنَّ الْحُرُوبَ تَطَاوَلَتْ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ مِائَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً حَتَّى أَطْفَأَهَا الْإِسْلَامُ ، وَأَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ بِرَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَهَذَا بَعْضُ مَا أَفَادَهُمُ الْإِسْلَامُ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا ، وَقَدْ أَنْقَذَهُمْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ مِمَّا هُوَ شَرٌّ وَأَدْهَى وَأَمَرُّ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا أَيْ كُنْتُمْ كَذَلِكَ بِوَثَنِيَّتِكُمْ وَشِرْكِكُمْ بِاللهِ - تَعَالَى - وَمَا يَتْبَعُهُ مِنَ الْخُرَافَاتِ وَالْمَفَاسِدِ الَّتِي أَطْفَأَتْ نُورَ الْفِطْرَةِ ، وَهَبَطَتْ بِالْأَرْوَاحِ إِلَى دَرْكٍ سَافِلٍ حَتَّى

كَانَتْ كَأَنَّهَا عَلَى طَرَفِ حُفْرَةٍ يُوشِكُ أَنْ تَنْهَارَ بِهَا فِي النَّارِ ، فَشَفَا الْحُفْرَةِ أَوِ الْبِئْرِ : طَرَفُهَا ، وَيُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْقُرْبِ مِنَ الْهَلَاكِ ، قَالَ الرَّاغِبُ : مِنْهُ أَشْفَى عَلَى الْهَلَاكِ ، أَيْ حَصَلَ عَلَى شَفَاهُ . وَلَيْسَ بَيْنَ الْمُشْرِكِ وَبَيْنَ الْهَلَاكِ فِي النَّارِ إِلَّا الْمَوْتُ ، وَالْمَوْتُ أَقْرَبُ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ اللَّهِ - تَعَالَى - عَلَى

(169/126)

الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ وَلَا سِيَّمَا الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ خُوطِبُوا بِهَذِهِ الْآيَةِ أَوَّلًا : أَنْ أَخْرَجَهُمْ بِالْإِسْلَامِ مِنَ الشِّرْكِ وَمَخَازِيهِ وَشَقَائِهِ ، وَأَلَّفَ بَيْنَهُمْ حَتَّى صَارُوا بِهَذِهِ الْأُلْفَةِ أَسْعَدَ النَّاسِ ، ثُمَّ صَارُوا سَادَاتِ الْأَرْضِ ، وَأَنْقَذَهُمْ بِذَلِكَ مِنَ النَّارِ فَكَانُوا بِهِ سُعَدَاءَ الدَّارَيْنِ وَالْفَائِزِينَ بِالْحُسْنَيَيْنِ . أَفَلَيْسَ أَوَّلَ وَاجِبٍ مِنْ شُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي لَا تَفْضُلُهَا نِعْمَةٌ أَنْ يُعْرِضُوا عَنْ وَسَاوِسِ وَدَسَائِسِ أُولَئِكَ الْمَغْرُورِينَ بِسَلَفِهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْ هِدَايَتِهِمْ ؟ بَلَى ، فَقَدْ وَضَحَ الْحَقُّ وَبَطَلَ الْإِفْكُ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : انْظُرْ آيَةَ اللَّهِ ، قَوْمٌ مُتَخَالِفُونَ بَيْنَ الْعَدَاوَاتِ وَالْإِحَنِ ، يَتَرَبَّصُ كُلٌّ وَاحِدٍ بِالْآخَرِ الْهَلَكَةَ عَلَى يَدِهِ ، فَيَأْتِي اللَّهُ بِهَذِهِ الْهِدَايَةِ فَيَجْمَعُهُمْ وَيُزِيلُ كُلَّ مَا فِي نُفُوسِهِمْ مِنَ التَّنَافُرِ وَيَجْعَلُهُمْ إِخْوَانًا تَرْجِعُ أَهْوَاؤُهُمْ كُلُّهَا إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ

لَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، وَهُوَ حُكْمُ اللَّهِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ: كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ أَيْ لِيُعِدَّكُمْ وَيُؤَهِّلَكُمْ بِهَا لِلِاهْتِدَاءِ الدَّائِمِ الْمُسْتَمِرِّ فَلَا تَعُودُوا إِلَى عَمَلِ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالْعُدْوَانِ .

(170/126)

ثُمَّ قَالَ: التَّفَرُّقُ وَالِاخْتِلَافُ قِسْمَانِ: قِسْمٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْلَمَ مِنْهُ الْبَشَرُ، فَالنَّهْيُ عَنْهُ مِنْ قَبِيلِ تَكْلِيفِ مَا لَا يُسْتَطَاعُ، وَلَيْسَ بِمُرَادٍ فِي الْآيَاتِ، وَقِسْمٌ يُمْكِنُ الِاحْتِرَاسُ مِنْهُ وَهُوَ الْمُرَادُ بِهَا .

أَمَّا الْأَوَّلُ: فَهُوَ الْخِلَافُ فِي الْفَهْمِ وَالرَّأْيِ، وَلَا مَفَرَّ مِنْهُ لِأَنَّهُ مِمَّا فُطِرَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، كَمَا قَالَ - تَعَالَى -: وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ [11: 118، 119]

فَاسْتِوَاءُ النَّاسِ

فِي الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ مِمَّا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ وَلَا مَطْمَعَ فِيهِ، إِذْ هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْحُبِّ وَالْبُغْضِ، فَالْإِخْوَةُ الْأَشِقَّاءُ فِي الْبَيْتِ الْوَاحِدِ تَخْتَلِفُ أَفْهَامُهُمْ فِي الشَّيْءِ كَمَا يَخْتَلِفُ حُبُّهُمْ لَهُ وَمَيْلُهُمْ إِلَيْهِ .

وَأَمَّا الثَّانِي: - وَهُوَ مَا جَاءَتِ الْأَدْيَانُ لِمَحْوِهِ - فَهُوَ تَحْكِيمُ الْأَهْوَاءِ فِي الدِّينِ وَالْأَحْكَامِ،

وَهُوَ أَشَدُّ الْأَشْيَاءِ ضَرَرًا فِي الْبَشَرِ ; لِأَنَّهُ يَطْمِسُ أَعْلَامَ الْهِدَايَةِ الَّتِي يَلْجَأُ إِلَيْهَا فِي إِزَالَةِ الْمَضَارِّ الَّتِي فِي النَّوْعِ الْأَوَّلِ مِنَ الْخِلَافِ .

(171/126)

أَمَّا كَوْنُ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ غَيْرُ ضَارٍّ فَهُوَ مَا يَعْرِفُهُ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ نَفْسِهِ ، ذَكَرَ ذَلِكَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ وَضَرَبَ لَهُ الْمَثَلَ بِنَفْسِهِ ، فَقَالَ مَا مِثَالُهُ : إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَ بَعْضِ أَصْحَابِي الصَّادِقِينَ فِي مَحَبَّتِي وَإِرَادَةِ الْخَيْرِ لِي خِلَافًا فِي إِلْقَاءِ هَذَا الدَّرْسِ هُنَا ، فَأَنَا أَعْتَقِدُ أَنَّ إِلْقَاءَ دَرْسِ التَّفْسِيرِ فِي الْأَزْهَرِ عَمَلٌ وَاجِبٌ عَلَيَّ وَخَيْرٌ لِي ، وَلَا أَشُكُّ فِي هَذَا كَمَا أَنَّنِي لَا أَشُكُّ فِي هَذَا الضَّوْءِ الَّذِي أَمَامِي ، وَيُوجَدُ مِنْ أَصْحَابِي مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ تَرْكَ هَذَا الدَّرْسِ خَيْرٌ لِي مِنْ قِرَاءَتِهِ ، وَيُحَاجُّونِي فِي ذَلِكَ قَائِلِينَ : إِنَّ تَأَخُّرِي لِأَجْلِ الدَّرْسِ إِلَى اللَّيْلِ ضَارٌّ بِصِحَّتِي وَإِنَّهُ مُثِيرٌ لِحَسَدِ الْحَاسِدِينَ لِي ، وَدَافِعٌ لَهُمْ إِلَى الْكَيْدِ وَالْإِيذَاءِ ، وَأَنَّ الدَّرْسَ نَفْسَهُ عَقِيمٌ ; لِأَنَّ أَكْثَرَ الَّذِينَ يَسْمَعُونَهُ لَا يَفْقَهُونَ مَا أَقُولُ وَلَا يَفْهَمُونَ ، وَمَنْ فَهِمَ لَا يُرْجَى أَنْ يَعْمَلَ بِهِ لِغَلَبَةِ فَسَادِ الْأَخْلَاقِ ، هَذِهِ حُجَّةُ بَعْضِ أَصْحَابِي فِي مُخَالَفَةِ رَأْيِي وَاعْتِقَادِي يُصَرِّحُونَ لِي بِهَا ، وَمَعَ ذَلِكَ أَلْقَاهُمْ وَيَلْقَوْنَنِي لَمْ يَنْقُصْ ذَلِكَ

(172/126)

مِنْ مودَّتنا شيْئًا ، فضْلًا عنْ أنْ يكُون مثارًا لِلْعداوةِ والْبغْضاءِ بيْننا ، فأنا أعْذرُهُمْ في رأْيِهِمْ مع اعْتِقادِي بِإِخْلاصِهِمْ ، وهُمْ يعْذرُونني كذلك ، ولْنفْرضْ أنَّ الْخِلاف بيْننا في مسْألةٍ دِينِيَّةٍ كأنْ أعْتقِد أنا أنَّ فِعْل كذا حرامٌ وهُمْ يعْتقِدُون حِلَّهُ ، أكان يكُونُ بيْننا تفرُّقٌ لِأجْلِهِ ؟ كلَّا لا ريْب عِنْدِي ، إِنَّهُ لا فرْق بيْن الْخِلافيْنِ وإِنَّنا نبْقى على هذا الْخِلافِ أصْدِقاءُ .

(173/126)

ثُمَّ قال ما مِثالُهُ مبْسُوطًا : كذلِك كان الْخِلافُ بيْن عُلماءِ السَّلفِ وأئِمَّةِ الْفُقهاءِ . فمالِكٌ قدْ نشأ فِي الْمدِينةِ ورأى ما كان عليْهِ أهْلُها مِنْ حُسْنِ الْحالِ وسلامةِ الْقُلُوبِ ، فقال : إِنَّ عمل أهْلِ الْمدِينةِ أصْلٌ مِنْ أُصُولِي ; لِأنَّهُمْ على حُسْنِ حالِهِمْ وقُرْبِ عهْدِهِمْ بِالنَّبِيِّ وأصْحابِهِ لا يتَّفِقُون على غيْرِ ما مضتْ عليْهِ السُّنَّةُ عملًا . وأمَّا أبو حنِيفة فنشأ في الْعِراقِ وأهْلُها - كما اشْتُهِر عنْهُمْ - أهْلُ شِقاقٍ ونِفاقٍ ، فهُو معْذُورٌ إِذْ لمْ يحْتجَّ بِعملِهِمْ ولا بِعملِ غيْرِهِمْ قِياسًا عليْهِمْ ، ولو اجْتمعا لعذر كُلٌّ مِنْهُما الْآخر ; لِأنَّهُ بذل جُهْدهُ في اسْتِبانةِ الْحقِّ مع الْإِخْلاصِ لِلَّهِ - تعالى - ، وإِرادةِ الْخيْرِ والطَّاعةِ ، وقدْ نُقِل عنِ الْأئِمَّةِ أنَّ كُلَّ واحِدٍ كان يعْذرُ الْآخرِين فِيما خالفُوهُ فِيهِ ، ولكِنْ تنكَّب هذِهِ الطَّرِيقة طوائِفُ جاءتْ

بَعْدَهُمْ تُقَلِّدُهُمْ فِيمَا نُقِلَ مِنْ مَذَاهِبِهِمْ لَا فِي سِيرَتِهِمْ ، حَتَّى صَارَ الْهَوَى هُوَ الْحَاكِمَ فِي الدِّينِ ، وَصَارَ الْمُسْلِمُونَ شِيَعًا ، يَتَعَصَّبُ كُلُّ فَرِيقٍ إِلَى رَأْيٍ مِنْ مَسَائِلِ

الْخِلَافِ ، وَيُعَادِي الْآخَرَ إِذَا خَالَفَهُ فِيهِ ، وَكَانَ مِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ مَا هُوَ مُدَوَّنٌ فِي التَّارِيخِ ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّ الْحَقَّ لَمْ يَكُنْ هُوَ مَطْلُوبَ هَؤُلَاءِ الْمُتَعَصِّبِينَ ، وَإِلَّا فَبِاللَّهِ كَيْفَ يُصَدَّقُ أَنْ يَكُونَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ مَثَلًا مُصِيبًا فِي كُلِّ مَا خَالَفَ بِهِ غَيْرَهُ ؟ وَإِذَا كَانَ الصَّوَابُ فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ الِاجْتِهَادِيَّةِ مَعَ غَيْرِهِ ؟ فَكَيْفَ يُعْقَلُ أَنْ يَمُرَّ أَكْثَرُ مِنْ أَلْفِ سَنَةٍ عَلَى فُقَهَاءِ مَذْهَبِهِ وَلَا يَظْهَرُ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَيَرْجِعُوا عَنْ قَوْلِهِ إِلَى مَا ظَهَرَ لَهُمْ أَنَّهُ الصَّوَابُ مِنْ مَذْهَبِ غَيْرِهِ كَأَبِي حَنِيفَةَ أَوْ مَالِكٍ ؟ وَهَذَا مَا يُقَالُ فِي أَتْبَاعِ كُلِّ مَذْهَبٍ .

هَذَا النَّوْعُ مِنَ الْخِلَافِ هُوَ الَّذِي ذَلَّتْ بِهِ الْأُمَمُ بَعْدَ عِزِّهَا ، وَهَوَتْ بَعْدَ رِفْعَتِهَا وَضَعُفَتْ بَعْدَ قُوَّتِهَا ، هُوَ الِافْتِرَاقُ فِي الدِّينِ وَذَهَابُ أَهْلِهِ مَذَاهِبَ تَجْعَلُهُمْ شِيَعًا تَتَحَكَّمُ فِيهِمُ الْأَهْوَاءُ كَمَا حَصَلَ مِنَ الْفِرَقِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، لَا يَكَادُ أَحَدُهُمْ يَعْلَمُ أَنَّ الْآخَرَ

خَالَفَهُ فِي رَأْيٍ إِلَّا وَيُبَادِرُ إِلَى الرَّدِّ عَلَيْهِ بِالتَّأْلِيفِ وَبَذْلِ الْجُهْدِ فِي تَضْلِيلِهِ وَتَفْنِيدِ مَذْهَبِهِ، وَيُقَابِلُهُ الْآخَرُ بِمِثْلِ ذَلِكَ، لَا يُحَاوِلُ أَحَدٌ مِنْهُمْ مُحَادَثَةَ الْآخَرِ وَالِاطِّلَاعَ عَلَى دَلَائِلِهِ وَوَزْنَهَا بِمِيزَانِ الْإِنْصَافِ وَالْعَدْلِ، فَالْوَاجِبُ أَوَّلًا: مُحَاوَلَةُ الْفَهْمِ وَالْإِفْهَامِ فِي الْبَحْثِ وَالْمُذَاكَرَةِ - أَيْ وَلَوْ كِتَابَةً - وَثَانِيًا: أَلَّا يَكُونَ الْخِلَافُ مُفَرِّقًا بَيْنَ الْمُخْتَلِفِينَ فِي الدِّينِ. قَالَ: فَمَا دَامَ الْمُسْلِمُ لَا يُخِلُّ بِنُصُوصِ كِتَابِ اللهِ وَلَا بِاحْتِرَامِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَهُوَ عَلَى إِسْلَامِهِ لَا يَكْفُرُ وَلَا يَخْرُجُ مِنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِذَا تَحَكَّمَ الْهَوَى فَلَعَنَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَكَفَّرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَقَدْ بَاءَ بِهَا مَنْ قَالَهَا كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ.

ثُمَّ قَالَ: وَمِثْلُ الِاخْتِلَافِ فِي الدِّينِ الِاخْتِلَافُ فِي الْمُعَامَلَةِ، لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُفَرِّقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، بَلْ يَرْجِعُونَ فِي النِّزَاعِ إِلَى حُكْمِ اللهِ وَأَهْلِ الذِّكْرِ مِنْهُمْ؛ يَعْنِي أُولِي الْأَمْرِ، وَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالرَّأْيِ فِي مَصَالِحِ الْأُمَّةِ. فَإِذَا امْتَثَلْنَا أَمْرَ اللهِ وَنَهْيَهُ فَاتَّقَيْنَا الْخِلَافَ الَّذِي لَنَا عَنْهُ مَنْدُوحَةٌ، وَحَكَّمْنَا كِتَابَ اللهِ وَمَنْ أَمَرَ اللهُ بِالرُّجُوعِ إِلَيْهِمْ فِي مَسَائِلِ النِّزَاعِ فِيمَا نَتَنَازَعُ فِيهِ أَمِنَّا مِنْ غَائِلَةِ الْخِلَافِ، وَكُنَّا مِنَ الْمُهْتَدِينَ.

وَيَدْخُلُ فِي كَلِمَةِ الْمُعَامَلَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ كُلُّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ مِنَ الْمَسَائِلِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ، فَالْمَرْجِعُ فِيهَا كُلِّهَا إِلَى هَدْيِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ وَسُنَّةِ الرَّسُولِ وَرَأْيِ أُولِي الْأَمْرِ، وَقَدْ وَسَّعْنَا الْقَوْلَ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ مِنْ قَبْلُ، وَذَكَرْنَا وَجْهَ الْخُرُوجِ مِنْهُ، فَارْجِعْ إِلَى ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ [2 : 253] الْآيَةَ.

انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير المنار حـ 4 صـ 15.21﴾

(177/126)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآيتين

قال رحمه الله:

﴿ يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

إن الله قد أعطى المؤمنين المناعة أولا بألا يسمعوا كلام أعداء الدين. وحين نسمع كلمة " اتقوا " فلنفهم أن هناك أشياء تسبب لك التعب والأذى، فعليك أن تجعل بينك وبينها وقاية، ولذلك قال الحق:

﴿ وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾

[آل عمران: 131]

إنه الحق يطلب من الإنسان أن يجعل بينه وبين النار وقاية وحجابا يقيه منها . والحق سبحانه وتعالى حين يقول على سبيل المثال :

﴿ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

[المائدة : 4]

إي اجعل بينك وبين الله حجابا يقيك من غضبه . وقد يقول قائل : كيف يكون ذلك وأنا كمؤمن أريد أن إعيش في معية الله ؟

نقول : إنك تجعل الوقاية لنفسك من صفات جلال الله ، وأنت تستظل بصفات الجمال ، فالمؤمن الحق هو من يجعل لنفسه وقاية من صفات جلال الله ، وهي القهر والجبروت وغيرها ، وكذلك النار إنّها من جنود صفات الجلال . فحين يقول الحق : ﴿ اتَّقُواْ النَّارَ ﴾ أو ﴿ اتَّقُواْ اللَّهَ ﴾ فالمعنى واحد . وعندما يسمع إنسان قول الحق سبحانه : ﴿ اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ ماذا تعني (حق تقاته) ؟ إن كلمة " حق " - كما نعرف - تعني الشيء الثابت الذي لا يزول ولا يتزحزح ، أي لا ينتهي ولا يتذبذب ، هذا هو الحق .

إذن ما حق التقي ؟ هو أن يكون إيمانك أيها المؤمن إيمانا راسخا لا يغادرك ولا تتذبذب معه ، واتقاء الله حق تقاته هو اتباع منهجه ، فيطاع الله باتباع المنهج فلا يعصي ، ويُذكر فلا ينسى ، ويُشكر ولا يُكفر . وطريق الطاعة يوجد في اتباع المنهج بـ " افعل " و " لا تفعل " ويذكر ولا ينسى ؛ لأن العبد قد يطيع الله ، وينفذ منهج الله ، ولكن النعم التي خلقها الله قد تشغل العبد عن الله ، والمنهج يدعوك أن تتذكر في كل نعمة من أنعم بها ، وإياك أن تنسيك النعمة المنعم .

ويشكر العبد الله ولا يكفر بالنعم التي وهبها له الله . وما دمت أيها العبد تستقبل كل نعمة وتردها إلى الله وتقول : " ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله " ولا تكفر بالنعم أي أنك تؤدي حق النعمة ، وكل نعمة يؤدي العبد حقها تعني أنها نعمة شكر العبد ربه عليها ، ولم يكفر بها .

وقيل في معنى : ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ أي أنه لا تأخذك في الله لومة لائم ، أو أن تقول الحق ولو على نفسك . هذا ما يقال عنه " حق التقى " ، أي التقى الحق الذي يعتبر تقى بحق وصدق . وقال العلماء : إن هذه الآية عندما نزلت وسمعها الصحابة ، استضعف الصحابة نفوسهم أمام مطلوبها ، فقال بعضهم : من يقدر على حق التقى ؟ ويقال : إن الله أنزل بعد ذلك :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾

[التغابن : 16]

فهل معنى هذا أن الله كلف الناس أولا ما لا يستطيعون ، ثم قال من بعد ذلك : ﴿ فَاتَّقُواْ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ ؟ لا ، إنه الحق سبحانه لا يكلف إلا بما في الوسع ، والناس قد تخطئ الفهم لقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُواْ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ فيقول العبد : أنا غير مستطيع أن أقوم بذلك التكليف ، ويظن هذا العبد أن التكليف يسقط عنه . لا ، إن هذا فهم خاطئ ؛ إن قوله الحق : ﴿ فَاتَّقُواْ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ أي إنك تتقي الله بما كان في استطاعتك من الوسع ، فما باستطاعتك أن تقوم به عليك أن تقوم به . فلا يهرب أحد إلى المعنى المناقض ويقول : أنا غير مستطيع ؛ لأن الله يعلم حدود استطاعتك .

وساعة تكون غير مستطيع فهو – سبحانه – الذي يخفف . . إنك لا تخفف أنت على نفسك أيها العبد ، فالخالق الحق هو الذي يعلم إذا كان الأمر خارجا عن استطاعتك أو لا ، وساعة يكون الأمر خارجاً عن استطاعتك فالله هو الذي يخفف عنك . ولذلك فعلى الإنسان ألا يستخدم القول الحق :

﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾

[البقرة : 286]

في غير موضعه؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يقدر الوسع، ثم يبني التكليف على الوسع. بل عليك أن تفهم أيها الإنسان أن الله هو الذي خلق النفس، وهو الذي أنزل التكليف لوسع النفس، وما دام الخالق للنفس هو الله فهو العليم بوسع النفس حينما قرر لها المنهج. إنه سبحانه الذي كلف، وهو العليم بأن النفس قد وسعت، ولذلك فهو لا يكلف نفسا إلا وسعها. فإن كان سبحانه قد كلف فأعلم أيها العبد أنه سبحانه قد كلف بما في وسعك، وعندما يحدث للإنسان ما يشق عليه أو يمنعه من أداء ما كلف به تامّاً فهو – سبحانه – يضع لنا التخفيف وينزل لنا الرخص. مثال ذلك: المريض أو الذي على سفر، له رخصة الإفطار في رمضان، والمسافر له أن يقصر الصلاة.

(180/126)

إذن فالله سبحانه هو الذي علم حدود وسع النفس التي خلقها، ولذلك لا تقدر وسعك أولا ثم تقدر التكليف عليه، ولكن قدّر التكليف أولا، وقل: ما دام الحق قد كلف فذلك في الوسع. وفي تذييل الآية الكريمة بقوله: ﴿ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ نجد أنفسنا أمام نهي عن فعل وهو: عدم الموت إلا والإنسان مسلم.

كيف ذلك؟ أيقول لك أحد: لا تمت؟ إن ذلك الأمر ليس لك فيه اختيار؛ لأنه أمر نازل

عليك . فإذا قيل لك : لا تمت ، فإنك تتعجب ؛ لأن أحدا لا يملك ذلك ، ولكن إذا قيل لك : لا تمت إلا وأنت مسلم ، فأنت تفكر ، وتصل بالتفكير إلى أن الفعل المنهي عنه : لا تمت ليس في قدرة الإنسان ؛ ولكن الحال الذي يقع عليه الفعل وهو : إلا وأنت مسلم ، في قدرة الإنسان ؛ لذلك تقول لنفسك : إن الموت يأتي بغير عمل مني ، ولكن كلمة : إلا وأنت مسلم ، فهي باستطاعتي ، لأن الإسلام يكون باختياري .

صحيح أنك لا تعرف متى يقع عليك الموت ؟ ولذلك تحتاط والاحتياط يكون بأن تظل مسلما حتى يصادفك الموت في أي لحظة وأنت مسلم .

إذن . . فقول الله : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ هو نهي عن الفعل الأول وهو ليس باختيارنا . والحال الذي لنا فيه اختيار هو ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ فكيف نوفق بين الأمرين ؟ إن الموت لا اختيار لأحد منا متى يقع عليه ، ولذلك نأتي إلى الأمر الذي لنا فيه اختيار ، وهو أن نحرص على أن نكون مسلمين ، ويظل كل منا متمسكا بأهداب الإسلام ، فإن صادف الموت في أي لحظة يكون مسلما وكأن الحق سبحانه يقول لنا : تمسكوا بإسلامكم ؛ لأنكم لا تدرون متى يقع عليكم الموت .

(181/126)

وإخفاء الموت عن الإنسان ليس إبهاما كما يظن البعض ، لا ؛ إنه منتهي البيان الواسع ؛ لأن إخفاء الموت ، وميعاده عن الإنسان زمنا وحالا ، وسنا وسببا ، كل ذلك يوضح الموت أوضح بيان . لماذا ؟ لأن الله حين استأثر بعلم الموت فالإنسان منا يترقب الموت في أي لحظة وما دام الإنسان مترقبا للموت في أي لحظة فهذا بيان واسع بل هو أوسع بيان . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

جاء هذا القول الكريم لينبه كل المؤمنين ، من خلال التنبيه للأوس والخزرج ، وكأنه يقول : اعلموا أن التفاخر قبل الإسلام كان وبأشياء ليست من الإسلام في شيء . لكن حين يجيء الإسلام فالتفاخر يكون بالإسلام وحده فإذا ما تغاضى إنسان بما قبل الإسلام بقوله : منا كذا . . ومنا كذا . فهنا يأتي الردّ : لا ؛ إن ذلك قبل الإسلام .

وقد حدث أن قال الأوس من بعد الإسلام : " منا خزيمة " فقال واحد من الخزرج : ومنا أبيّ بن كعب وزيد بن ثابت فقال واحد من الأوس : منا حنظلة ابن الراهب وحنظلة هذا هو غسيل الملائكة ، وخزيمة بن ثابت صحابي جليل جعل الرسول صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادتين ؛ لأن خزيمة صاحب إيمان نوراني . ونورانية اليقين هدته إلى الحكم

الصواب : " فقد اشترى النبي صلى الله عليه وسلم فرسا من أعرابي وذهب ليحضر له الثمن ، ولكن الأعرابي أنكر البيع لأن بعض الناس زاده في ثمن الفرس دون علم أن الرسول قد اشتراه فنادى الأعرابي الرسول وقال له إن كنت مبتاعا هذا الفرس فابتعه وإلا بعته .

(182/126)

فقال النبي للرجل : " ألست قد ابتعته منك " . فقال الرجل هات شاهدا يشهد بذلك . لقد انتهز الرجل فرصة أن النبي ابتاع منه دون وجود أحد في هذا الوقت ، وكان سيدنا خزيمة جالسا لحظة مطالبته للنبي بشاهد . فقال سيدنا خزيمة : أنا أشهد يا رسول الله أنك قد بايعته .

ولأن الرجل كاذب ، قال لنفسه : لعل خزيمة رآنا وأنا أبيع الفرس للنبّي فسكت الرجل وانصرف ، وبعد أن انصرف الرجل نادى الرسول خزيمة . وقال له : " يا خزيمة بم تشهد ولم تكن معنا ؟ " فقال : أنا أصدقك في خبر السماء ولا أصدقك بما تقول ؟ أعلم أنك لا تقول إلا حقاً قد آمناك على أفضل من ذلك ، على ديننا . فعلم الرسول أن لخزيمة نورانية التصديق وحسن الاستنباط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من شهد له خزيمة فحسبه " " .

فالأمر الذي يحتاج شاهدين تكفي فيه شهادة خزيمة ، وبذلك أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم الوسام لخزيمة وجعل شهادته شهادة رجلين ، ولنر كيف جمع الله بين الأوس والخزرج في جمع القرآن ، قال زيد بن ثابت : فآليت على نفسي ألاّ أكتب آية إلاّ إذا وجدتها مكتوبة وشهد عليها اثنان ، إلاّ آخر التوبة فوجدتها مكتوبة ولم يشهد عليها إلاّ خزيمة ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال في خزيمة : " من شهد له خزيمة فحسبه " ولنا أن نعرف أن زيد بن ثابت من الخزرج وأن خزيمة من الأوس . لقد جمعهما الله في جمع القرآن ، فنفع الأوسي الخزرجي ، وذلك ليدلنا الحق سبحانه دلالة جديدة ، وهي أن التفاخر قبل الإسلام كان بغير الإسلام ، لكن ساعة يجيء الإسلام فأي واحد من أي جنس ما دام قد أحسن الإسلام ، فله أن يفخر به ، فإياك يا أوسيّ أن تقول : " منا خزيمة " ؛ فالخزرجي له الفخر بخزيمة أيضا ، وليس للخزرجي أن يقول : " منا زيد بن ثابت " فللأوسي أيضا أن يفخر به ، لأن كُلاًّ منهما قد جمعه الله بالآخر في القرآن ، والإسلام ، وهكذا يكون الاعتصام بحبل الله .

(183/126)

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ إنّ الحرب ظلت مستعرة بين الأوس والخزرج مائة وعشرين عاما مع أن أصل القبيلتين واحد ، هما أخوان لأب وأم وعندما جاء الإسلام ألف الله بين قلوبهم وأصبحوا بنعمته إخوانا .

وهذا يدلنا على أن كل نزغةِ جارحةٍ من الجوارح لا بد أن يكون وراءها هبة قلب وثورته وهياجه ، فاليد لا تصفع أحدا من فراغ ، ولكن الصفعة توجد في القلب أولا ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ ، إن الحق سبحانه يقول : ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِّنْهَا ﴾ والشفا هي الحافة . ومرة يقال : " شفا " ومرة يقال : " شفة " . لقد كانوا على حافة النار ، ومن كان على الحافة فهو يوشك أن يقع ، فكأن الله يقول : لقد تداركتم بالإسلام ، ولولا الإسلام لهويتم في النار .

ويقول سبحانه : ﴿ كَذَالِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ وهكذا نرى نعمة الإسلام في الدنيا ، فقدرة الإيمان على إنقاذ الإنسان من النار لا تحتاج إلى انتظار بل يستطيع المؤمن أن يراها في الدنيا . ولقد كان العرب قبل الإسلام مؤرقين بالاختلافات ، وموزعين بالعصبية ، وكل يوم في شقاق . ولما جاء الإسلام صاروا إخوانا ، وهذه نعمة عاجلة في الدنيا , والدنيا كما نعرف ليست دار جزاء ، فما بالك بما يكون في الآخرة وهي دار الجزاء والبقاء .

(184/126)

وقوله الحق : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ المقصود به أن تظلوا على هدايتكم. لقد خاطبهم الحق : ﴿ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ وساعة يطلب التشريع منك ما أنت عليه، فاعلم أن التشريع يريد منك استدامته، فعندما يقول الحق (يا أيها الذين آمنوا) أي مع الإيمان الذي معكم قبل كلامي، جددوا إيمانا بعد كلامي ليستمر لكم الإيمان دائما . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ . . . ﴾ . انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1663.1657 ﴾

(185/126)

" فصل "

قال السيوطى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102)

أخرج ابن المبارك في الزهد وعبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في الناسخ والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن مسعود في قوله ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ قال : أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر .

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه من وجه آخر عن ابن مسعود قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى " .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ قال : أن يطاع فلا يعصى ، وان يذكر فلا ينسى . قال عكرمة : قال ابن عباس : فشق ذلك على المسلمين ، فأنزل الله بعد ذلك ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ [التغابن : 16] .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ أن يطاع فلا يعصى . فلم يستطيعوا قال الله ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم ، وتقرحت جباههم ، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ فنسخت الآية الأولى .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ قال : نسختها ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه من طريق علي عن ابن عباس في قوله ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ قال : لم تنسخ ولكن ﴿ حق تقاته ﴾ أن يجاهدوا في الله حق جهاده ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأمهاتهم .

(186/126)

وأخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس قال : لما نزلت ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ ثم نزل بعدها ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ نسخت هذه الآية التي في آل عمران .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ قال : نسختها الآية التي في التغابن ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا ﴾ وعليها بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فيما استطاعوا .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ قال : نزلت هذه الآية في الأوس والخزرج وكان بينهم قتال يوم بعاث قبيل مقدم النبي صلى الله عليه وسلم ، فقدم النبي صلى الله عليه وسلم فأصلح بينهم ، فأنزل هذه

الآيات .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس قال : لا يتقي اللَّهَ العبدُ حق تقاته حتى يخزن من لسانه .

وأخرج الطيالسي وأحمد والترمذي وصححاه والنسائي وابن ماجة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ولو أن قطرة من الزقوم قطرت لأمرت على أهل الأرض عيشهم ، فكيف بمن ليس له طعام إلا الزقوم ؟ " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن طاوس ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ﴾ وهو أن يطاع فلا يعصى ، فإن لم تفعلوا ولم تستطيعوا ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ قال : على الإسلام ، وعلى حرمة الإسلام " .

وأخرج الخطيب عن أنس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يتقي الله عبد ﴿ حق تقاته ﴾ حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه " .

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103)

أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبراني بسند صحيح عن ابن مسعود في قول الله ﴿ واعتصموا بحبل الله ﴾ قال: حبل الله القرآن.

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن الضريس وابن جرير وابن الأنباري في المصاحف والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال: إن هذا الصراط محتضر، تحضره الشياطين ينادون يا عبد الله هلمَّ هذا هو الطريق ليصدوا عن سبيل الله، فاعتصموا بحبل الله، فإن حبل الله القرآن.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض".

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي شريح الخزاعي قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن هذا القرآن سبب. طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا بعده أبداً".

وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني عن زيد بن أرقم قال "خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني تارك فيكم كتاب الله، هو حبل الله، من اتبعه كان على الهدى، ومن

تركه كان على الضلالة " .

وأخرج أحمد عن زيد بن ثابت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني تارك فيكم خليفتين : كتاب الله عز وجل حبل ممدود ما بين السماء والأرض ، وعترتي وأهل بيتي ، وإنهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض " .

(188/126)

وأخرج الطبراني عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني لكم فرط وإنكم واردون عليّ الحوض ، فانظروا تخلفوني في الثقلين قيل : وما الثقلان يا رسول الله ؟ قال : الأكبر كتاب الله عز وجل . سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم ، فتمسكوا به لن تزالوا ولا تضلوا ، والأصغر عترتي وأنهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض ، وسألت لهما ذاك ربي فلا تقدموهما لتهلكوا ، ولا تعلموهما فإنهما أعلم منكم " .

وأخرج ابن سعد وأحمد والطبراني عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أيها الناس إني تارك فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي أمرين . أحدهما أكبر من الآخر ، كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض ، وعترتي أهل بيتي ، وأنهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض " .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني من طريق الشعبي عن ابن مسعود ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ﴾ قال : حبل الله الجماعة " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق الشعبي عن ثابت بن فطنة المزني قال : سمعت ابن مسعود يخطب وهو يقول : أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة فإنهما حبل الله الذي أمر به .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سماك بن الوليد الحنفي . أنه لقي ابن عباس فقال : ما تقول في سلاطين علينا يظلموننا ، ويشتموننا ، ويعتدون علينا في صدقاتنا ، ألا نمنعهم ؟ قال : لا . أعطهم الجماعة الجماعة ، إنما هلكت الأمم الخالية بتفرقها ، أما سمعت قول الله ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا ﴾ .

وأخرج ابن ماجة وابن جرير وابن أبي حاتم عن أنس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : افترقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة ، وإن أمتي ستفترق على إثنتين وسبعين فرقة ، كلهم في النار إلا واحدة قالوا : يا رسول الله ومن هذه الواحدة ؟ قال : الجماعة . ثم قال ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ " .

وأخرج ابن ماجة وابن جرير وابن أبي حاتم عن أنس قال " قال يا رسول الله صلى الله عليه وسلم : افترقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة ، وأن أمتي ستفترق على إثنتين وسبعين فرقة ، كلهم في النار إلا واحدة قالوا : يا رسول الله ومن هذه الواحدة ؟ قال : الجماعة . ثم قال ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ " .

وأخرج ابن ماجة وابن جرير وابن أبي حاتم عن أنس قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : افترقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة ، وإن أمتي ستفترق على إثنتين وسبعين فرقة ، كلهم في النار إلا واحدة قالوا : يا رسول الله ومن هذه الواحدة ؟ قال : الجماعة . ثم قال ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ﴾ " .

وأخرج مسلم والبيهقي عن أبي هريرة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أن الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويسخط لكم ثلاثاً . يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وإن تناصحوا من ولاه الله أمركم . ويسخط لكم : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال " .

وأخرج أحمد وأبو داود عن معاوية بن سفيان : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على إثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ، يعني الأهواء كلها في النار إلا واحدة . وهي الجماعة " .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من خرج

من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام عن عنقه حتى يراجعه ، ومن مات وليس عليه إمام جماعة فإن موتته ميتة جاهلية " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية ﴿ واعتصموا بحبل الله ﴾ قال : بالإخلاص لله وحده ﴿ ولا تفرقوا ﴾ يقول : لا تعادوا عليه يقول على الإخلاص وكونوا عليه إخواناً " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ واعتصموا بحبل الله ﴾ قال : بطاعته .

وأخرج عن قتادة ﴿ واعتصموا بحبل الله ﴾ قال : بعهد الله وبأمره .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد ﴿ واعتصموا بحبل الله ﴾ قال : الإسلام .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع في قوله ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء ﴾ يقتل بعضكم بعضاً ، ويأكل شديدكم ضعيفكم حتى جاء الله بالإسلام ، فألف به بينكم ، وجمع جمعكم عليه ، وجعلكم عليه إخواناً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال " لقي النبي صلى الله عليه وسلم نفراً من الأنصار فآمنوا به وصدقوا وأراد أن يذهب معهم فقالوا : يا رسول الله إن بين قومنا حرباً ،

وإنا نخاف إن جئت على حالك هذه أن لا يتهيأ الذي تريد . فوادوه العام المقبل فقالوا : نذهب برسول الله فلعل الله أن يصلح تلك الحرب . وكانوا يرون أنها لا تصلح وهي يوم بعاث فلقوه من العام المقبل سبعين رجلاً قد آمنوا به ، فأخذ منهم النقباء إثني عشر رجلاً . فذلك حين يقول ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ﴾ وفي لفظ لابن جرير ، فلما كان من أمر عائشة ما كان ، فتشاور الحيان قال بعضهم لبعض : موعدكم الحرة ، فخرجوا إليها . فنزلت هذه الآية ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ﴾ الآية " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله ﴿ إذ كنتم أعداء ﴾ قال : ما كان بين الأوس والخزرج في شأن عائشة .

وأخرج ابن جرير عن ابن إسحق قال : كانت الحرب بين الأوس والخزرج عشرين ومائة حتى قام الإسلام ، فأطفأ الله ذلك ، وألف بينهم .

وأخرج ابن المنذر عن مقاتل بن حيان قال : بلغني أن هذه الآية أنزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار في رجلين ؛ أحدهما من الخزرج ، والآخر من الأوس ، اقتتلوا في الجاهلية زماناً طويلاً ، فقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، فأصلح بينهم ، فجرى الحديث بينهما في المجلس ، فتفاخروا واستبوا حتى أشرع بعضهم الرماح إلى بعض .

وأخرج ابن المنذر عن قتادة ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ إذ كنتم تذابحون فيها يأكل شديدكم ضعيفكم حتى جاء الله بالإسلام ، فآخى به بينكم ، وألف به بينكم . أما والله الذي لا إله إلا هو أن الألفة لرحمة ، وأن الفرقة لعذاب ، ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول " والذي نفس محمد بيده لا يتواد رجلان في الإسلام ، فيفرق بينهما من أول ذنب يحدثه أحداهما ، وإن أرادهما المحدث " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر الأنصار بمَ تمنون عليَّ أليس جئتكم ضلالاً فهداكم الله بي ، وجئتكم أعداء فألف الله بين قلوبكم بي ؟ قالوا : بلى . يا رسول الله " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار ﴾ يقول كنتم على طرف النار ، من مات منكم وقع في النار . فبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، فاستنقذكم به من تلك الحفرة .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس أنه قرأ ﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ قال : أنقذنا منها فأرجو أن لا يعيدنا فيها .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل ﴿

وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ قال: أنقذكم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم قال: وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال: نعم. أما سمعت عباس بن مرداس وهو يقول :

يكب على شفا الأذقان كبا... كما زلق التحتم عن جفاف. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 282.288 ﴾

(192/126)

قوله تعالى ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما عاب سبحانه وتعالى الكفار بالضلال ثم بالإضلال أمر المؤمنين بالهدى في أنفسهم، وأتبعه الأمر بهداية الغير بالاجتماع، وكان الأمر بالاجتماع المؤكد بالنهي عن التفرق ربما أفهم الوجوب لتفرد الجميع في كل جزئية من جزئيات العبادة في كل وقت على سبيل الاجتماع مع الإعراض عن كل عائق عن ذلك سواء كان وسيلة أو لا بالنسبة إلى كل فرد

فرد ؛ أتبعه بقوله – منبهاً على الرضى بإيقاع ذلك في الجملة سواء كان بالبعض أو الكل كما هو شأن فروض الكفايات – : ﴿ ولتكن منكم أمة ﴾ أي جماعة تصلح لأن يقصدها غيرها ، ويكون بعضها قاصداً بعضاً ، حتى تكون أشد شيء ائتلافاً واجتماعاً في كل وقت من الأوقات على البدل ﴿ يدعون ﴾ مجددين لذلك في كل وقت ﴿ إلى الخير ﴾ أي بالجهاد والتعليم والوعظ والتذكير .

ولما عم كل خير خص ليكون المخصوص مأموراً به مرتين دلالة على جليل أمره وعليّ قدره فقال : ﴿ ويأمرون بالمعروف ﴾ أي من الدين ﴿ وينهون عن المنكر ﴾ فيه بحيث لا يخلو وقت من الأوقات عن قوم قائمين بذلك ، وهو تنبيه لهم على أن يلازموا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من أصحابه رضي الله تعالى عنهم من أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر حين استفزهم الشيطان بمكر شأس بن قيس في التذكير بالأحقاد والأضغان والأنكاد ، وإعلام بأن الذكرى تنفع المؤمنين .

(193/126)

ولما كان هذا السياق مفهماً لأن التقدير : فإنهم ينالون بذلك خيراً كثيراً ، ولهم نعيم مقيم ؛ عطف عليه مرغباً : ﴿ وأولئك ﴾ أي العالون الرتبة العظيمو النفع ﴿ هم المفلحون ﴾

حق الإفلاح ، فبين سبحانه وتعالى أن الاجتماع المأمور به إنما هو بالقلوب الجاعلة لهم كالجسد الواحد ، ولا يضر فيه صرف بعض الأوقات إلى المعاش وتنعيم البدن ببعض المباحات ، وإن كان الأكمل صرف الكل بالنية إلى العبادة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ نظم الدرر جـ 2 صـ 132. 133 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى في الآيات المتقدمة عاب أهل الكتاب على شيئين أحدهما : أنه عابهم على الكفر ، فقال : ﴿ قُلْ يا أهل الكتاب لِمَ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران : 70] ثم بعد ذلك عابهم على سعيهم في إلقاء الغير في الكفر ، فقال : ﴿ قُلْ يا أهل الكتاب لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ [آل عمران : 99] فلما انتقل منه إلى مخاطبة المؤمنين أمرهم أولاً بالتقوى والإيمان ، فقال : ﴿ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ واعتصموا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً ﴾ [آل عمران : 102 ، 103] ثم أمرهم بالسعي في إلقاء الغير في الإيمان والطاعة ، فقال : ﴿ وَلْتَكُن مّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخير ﴾ وهذا هو الترتيب الحسن الموافق للعقل. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب جـ 8 صـ 145 ﴾

وقال ابن عاشور :

هذا مفرع عن الكلام السابق : لأنه لما أظهر لهم نعمة نقلهم من حالتي شقاء وشناعة إلى حالتي نعيم وكمال ، وكانوا قد ذاقوا بين الحالتين الأمرين ثم الأحلوين ، فحلبوا الدهر

أشطريه ، كانوا أحرياء بأن يسعوا بكل عزمهم إلى انتشال غيرهم من سوء ما هو فيه إلى حسنى ما هم عليه حتى يكون الناس أمة واحدة خيرة .

وفي غريزة البشر حب المشاركة في الخير لذلك تجد الصبي إذا رأى شيئًا أعجبه نادى من هو حوله ليراه معه .

(194/126)

ولذلك كان هذا الكلام حريا بأن يعطف بالفاء ، ولو عطف بها لكان أسلوبا عربيا إلا أنه عدل عن العطف بالفاء تنبيها على أن مضمون هذا الكلام مقصود لذاته بحيث لو لم يسبقه الكلام السابق لكان هو حريا بأن يؤمر به فلا يكون مذكورا لأجل التفرع عن غيره والتبع .

وفيه من حسن المقابلة في التقسيم ضرب من ضروب الخطابة : وذلك أنه أنكر على أهل الكتاب كفرهم وصدهم الناس عن الإيمان ، فقال : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : 98 ، 99] الآية .

وقابل ذلك بأن أمر المؤمنين بالإيمان والدعاء إليه إذ قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [آل عمران : 102] وقوله : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ الآية .

وصيغة ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ ﴾ صيغة وجوب لأنها أصرح في الأمر من صيغة افعلوا لأنها أصلها .

فإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير معلوم بينهم من قبل نزول هذه الآية ، فالأمر لتشريع الوجوب ، وإذا كان ذلك حاصلا بينهم من قبل كما يدل عليه قوله : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [آل عمران : 110] فالأمر لتأكيد ما كانوا يفعلونه ووجوبه ، وفيه زيادة الأمر بالدعوة إلى الخير وقد كان الوجوب مقررا من قبل بآيات أخرى مثل ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر : 3] ، أو بأوامر نبوية .

فالأمر لتأكيد الوجوب أيضا للدلالة على الدوام والثبات عليه ، مثل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ ﴾ [النساء : 136] .

(195/126)

والأمة الجماعة والطائفة كقوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف : 38] .

وأصل الأمة من كلام العرب الطائفة من الناس التي تؤم قصدا واحدا : من نسب أو موطن أو

دين ، أو مجموع ذلك ، ويتعين ما يجمعها بالإضافة أو الوصف كقولهم : أمة العرب وأمة غسان وأمة النصارى .

والمخاطب بضمير منكم إن كان هم أصحاب رسول الله كما هو ظاهر الخطابات السابقة آنفا جاز أن تكون من بيانية وقدم البيان على المبين ويكون ما صدق الأمة نفس الصحابة ، وهم أهل العصر الأول من المسلمين فيكون المعنى : ولتكونوا أمة يدعون إلى الخير فهذه الأمة أصحاب هذا الوصف قد أمروا بأن يكونوا من مجموعهم الأمة الموصوفة بأنهم يدعون إلى الخير ، والمقصود تكوين هذا الوصف لأن الواجب عليهم هو التخلق بهذا الخلق فإذا تخلقوا به تكونت الأمة المطلوبة .

وهي أفضل الأمم .

وهي أهل المدينة الفاضلة المنشودة للحكماء من قبل ، فجاءت الآية بهذا الأمر على هذا الأسلوب البليغ الموجز .

وفي هذا محسن التجريد : جردت من المخاطبين أمة أخرى للمبالغة في هذا الحكم كما يقال : لفلان من بنيه أنصار .

والمقصود : ولتكونوا آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر حتى تكونوا أمة هذه صفتها ، وهذا هو الأظهر فيكون جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خوطبوا بأن يكونوا دعاة إلى الخير ، ولا جرم فهو الذين تلقوا الشريعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم

مباشرة ، فهم أولى الناس بتبليغها .

وأعلم بمشاهدها وأحوالها ، ويشهد لهذا قوله صلى الله عليه وسلم في مواطن كثيرة "ليبلغ الشاهد الغائب ألا هل بلغت" وإلى هذا المحمل مال الزجاج وغير واحد من المفسرين ، كما قاله ابن عطية .

ويجوز أيضا ، على اعتبار الضمير خطابا لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، أن تكون من للتبعيض ، والمراد من الأمة الجماعة والفريق ، أي : وليكن بعضكم فريقا يدعون إلى الخير فيكون الوجوب على جماعة من الصحابة فقد قال ابن عطية : قال الضحاك ، والطبري : أمر المؤمنين أن تكون منهم جماعة بهذه الصفة .

فهم خاصة أصحاب الرسول وهم خاصة الرواة .

وأقول : على هذا يثبت حكم الوجوب على كل جيل بعدهم بطريق القياس لئلا يتعطل الهدى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ 178. 180﴾

(196/126)

اللغة :

[أمة] طائفة وجماعة

[البينات] الأيات الواضحات

[المعروف] ما أمر به الشرع واستحسنه العقل السليم

[المنكر] ما نهى عنه الشرع واستقبحه العقل السليم

[الأدبار] جمع دبر وهو مؤخر كل شيء ، يقال : ولاه دبره أى هرب من وجهه

[ثقفوا] وجدوا وصودفوا

[حبل من الله] الحبل معروف والمراد به هنا : العهد ، وسمي حبلا لأنه سبب يحصل به الأمن وزوال الخوف

[باءوا] رجعوا

[المسكنة] الفقر . انتهى انتهى . اهـ ﴿صفوة التفاسير حـ 1 صـ 221 ﴾

(197/126)

فصل

قال الفخر :

في قوله ﴿مّنكُمْ﴾ قولان

أحدهما : أن ﴿مِنْ﴾ ههنا ليست للتبعيض لدليلين

الأول : أن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل الأمة في قوله ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ﴾ [آل عمران : 110]

والثاني : هو أنه لا مكلف إلا ويجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إما بيده ، أو بلسانه ، أو بقلبه ، ويجب على كل أحد دفع الضرر عن النفس إذا ثبت هذا فنقول : معنى هذه الآية كونوا أمة دعاة إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر ، وأما كلمة ﴿ مِنْ ﴾ فهي هنا للتبيين لا للتبعيض كقوله تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ [الحج : 30] ويقال أيضاً : لفلان من أولاده جند وللأمير من غلمانه عسكر يريد بذلك جميع أولاده وغلمانه لا بعضهم ، كذا ههنا ، ثم قالوا : إن ذلك وإن كان واجباً على الكل إلا أنه متى قام به قوم سقط التكليف عن الباقين ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ انفروا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ [التوبة : 41] وقوله ﴿ إِلاَّ تنفِرُواْ يُعَذّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [التوبة : 39] فالأمر عام ، ثم إذا قامت به طائفة وقعت الكفاية وزال التكليف عن الباقين .

(198/126)

والقول الثاني : أن ﴿ مِنْ ﴾ ههنا للتبعيض ، والقائلون بهذا القول اختلفوا أيضاً على قولين

أحدهما : أن فائدة كلمة ﴿ مِنْ ﴾ هي أن في القوم من لا يقدر على الدعوة ولا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل النساء والمرضى والعاجزين

والثاني : أن هذا التكليف مختص بالعلماء ويدل عليه وجهان

الأول : أن هذه الآية مشتملة على الأمر بثلاثة أشياء : الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ومعلوم أن الدعوة إلى الخير مشروطة بالعلم بالخير وبالمعروف وبالمنكر ، فإن الجاهل ربما عاد إلى الباطل وأمر بالمنكر ونهى عن المعروف ، وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر ، وقد يغلظ في موضع اللين ويلين في موضع الغلظة ، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمادياً ، فثبت أن هذا التكليف متوجه على العلماء ، ولا شك أنهم بعض الأمة ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدين ﴾ [التوبة : 122]

والثاني : أنا جمعنا على أن ذلك واجب على سبيل الكفاية بمعنى أنه متى قام به البعض سقط عن الباقين ، وإذا كان كذلك كان المعنى ليقم بذلك بعضكم ، فكان في الحقيقة هذا إيجاباً على البعض لا على الكل ، والله أعلم .

وفيه قول رابع : وهو قول الضحاك : إن المراد من هذه الآية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم كانوا يتعلمون من الرسول عليه السلام ويعلمون الناس ، والتأويل على هذا

الوجه كونوا أمة مجتمعين على حفظ سنن الرسول صلى الله عليه وسلم وتعلم الدين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 145.146 ﴾

وقال القرطبى :

و"مِن" في قوله "مِنكم" للتبعيض ، ومعناه أن الآمِرِين يجب أن يكونوا علماء وليس كل الناس علماء .

(199/126)

وقيل : لبيان الجنس ، والمعنى لتكونوا كلكم كذلك .

قلت : القول الأوّل أصح ؛ فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف والنهيّ عن المنكر فرض على الكفاية ، وقد عيّنهم الله تعالى بقوله : ﴿ الذين إِنْ مّكَّنّاهُمْ فِي الأرض أَقَامُواْ الصلاة ﴾ [الحج : 41] الآية .

وليس كل الناس مُكّنُوا .

وقرأ ابن الزبير : "وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيَستَعينونَ اللَّهَ على ما أصابهم" .

قال أبو بكر الأنباري : وهذه الزيادة تفسير من ابن الزبير ، وكلام من كلامه غَلِط فيه بعض

الناقلين فألحقه بألفاظ القرآن ؛ يدلّ على صحة ما أَصِفُ الحديثُ الذي حدّثنيه أبي حدّثنا (حسن) بن عرفة حدّثنا وكيع عن أبي عاصم عن أبي عون عن صبيح قال : سمعت عثمان بن عفّان يقرأ "ويأمرون بِالمعروفِ وَيَنْهَوْنَ عن المنكرِ ويستعينون الله على ما أصابهم" فما يشكّ عاقل في أن عثمان لا يعتقد هذه الزيادة من القرآن ؛ إذ لم يكتبها في مصحفه الذي هو إمام المسلمين ، وإنما ذكرها واعظاً بها ومؤكّداً ما تقدمها من كلام رب العالمين جل وعلا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 165.166 ﴾

فصل

قال الفخر :

هذه الآية اشتملت على التكليف بثلاثة أشياء ، أولها : الدعوة إلى الخير ثم الأمر بالمعروف ، ثم النهي عن المنكر ، ولأجل العطف يجب كون هذه الثلاثة متغايرة ، فنقول : أما الدعوة إلى الخير فأفضلها الدعوة إلى إثبات ذات الله وصفاته وتقديسه عن مشابهة الممكنات وإنما قلنا إن الدعوة إلى الخير تشتمل على ما ذكرنا لقوله تعالى : ﴿ ادع إلى سَبِيلِ رَبّكَ بالحكمة ﴾ [النحل : 125] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هذه سَبِيلِى ادعوا إلى الله على بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتبعنى ﴾ [يوسف : 108] .

إذا عرفت هذا فنقول : الدعوة إلى الخير جنس تحته نوعان

أحدهما : الترغيب في فعل ما ينبغي وهو بالمعروف

والثاني : الترغيب في ترك ما لا ينبغي وهو النهي عن المنكر فذكر الجنس أولاً ثم أتبعه بنوعية مبالغة في البيان ، وأما شرائط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فمذكورة في كتب الكلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 146 ﴾

فائدة

قال السمرقندى :

يقال : إن الأمراء ، يجب عليهم الأمر والنهي باليد ، والعلماء باللسان ، والعوام بالقلب ، وهنا كما قال عليه الصلاة والسلام : " إذا رَأَى أَحَدٌ مُنْكَراً ، فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وذلك أَضْعَفُ الإِيمانِ "

وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال : بحسب امرىء إذا رأى منكراً ، لا يستطيع النكير أن يعلم الله من قلبه أنه كاره .

وروي عن بعض الصحابة أنه قال : إن الرجل إذا رأى منكراً ، لا يستطيع النكير عليه ، فليقل ثلاث مرات : اللهم إنَّ هذا منكر ، فإذا قال ذلك فقد فعل ما عليه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 261 ﴾

فصل

قال ابن عاشور :

إن الدعوة إلى الخير تتفاوت : فمنها ما هو بين يقوم به كل مسلم ، ومنها ما يحتاج إلى علم فيقوم به أهله ، وهذا هو المسمى بفرض الكفاية ، يعني إذ قام به بعض الناس كفى عن قيام الباقين ، وتتعين الطائفة التي تقوم بها بتوفر شروط القيام بمثل ذلك الفعل فيها ، كالقوة على السلاح في الحرب ، وكالسباحة في إنقاذ الغريق ، والعلم بأمور الدين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكذلك تعين العدد الذي يكفي للقيام بذلك الفعل مثل كون الجيش نصف عدد جيش العدو ، ولما كان الأمر يستلزم متعلقا فلمأمور في فرض الكفاية الفريق الذين فيهم الشروط ، ومجموع أهل البلد ، أو القبيلة ، لتنفيذ ذلك ، فإذا قام به العدد الكافي ممن فيهم الشروط سقط التكليف عن الباقين ، وإذا لم يقوموا به كان الإثم على البلد أو القبيلة ، لسكوت جميعهم ، ولتقاعس الصالحين للقيام بذلك ، مع سكوتهم أيضا ثم إذا قام به البعض فإنما يثاب ذلك البعض خاصة .

ومعنى الدعاء إلى الخير الدعاء إلى الإسلام ، وبث دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن

الخير اسم يجمع خصال الإسلام : ففي حديث حذيفة بن اليمان "قلت : يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر" الحديث ، ولذلك يكون عطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه من عطف الشيء على مغايره ، وهو أصل العطف .

وقيل : أريد بالخير ما يشمل جميع الخيرات ، ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فيكون العطف من عطف الخاص على العام للاهتمام به .

وحذفت مفاعيل يدعون ويأمرون وينهون لقصد التعميم أي يدعون كل أحد كما في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ [يونس : 25] .

(202/126)

والمعروف هو ما يعرف وهو مجاز في المقبول المرضي به ، لأن الشيء إذا كان معروفا كان مألوفا مقبولا مرضيا به ، وأريد به هنا ما يقبل عند أهل العقول ، وفي الشرائع ، وهو الحق والصلاح ، لأن ذلك مقبول عند انتفاء العوارض .

والمنكر مجاز في المكروه ، والكره لازم للإنكار لأن المنكر في أصل اللسان هو الجهل ومنه تسمية غير المألوف نكرة ، وأريد به هنا الباطل والفساد ، لأنهما من المكروه في الجبلة عند

انتفاء العوارض .

والتعريف في الخير ، والمعروف ، والمنكر تعريف الاستغراق ، فيفيد العموم في المعاملات بحسب ما ينتهي إليه العلم والمقدرة فيشبه الاستغراق العرفي .

ومن المفسرين من عين جعل من في قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ ﴾ للبيان ، وتأول الكلام بتقدير تقديم البيان على المبين فيصير المعنى : ولتكن أمة هي انتم أي ولتكونوا أمة يدعون ، محاولة للتسوية بين مضمون هذه الآية ، ومضمون قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [آل عمران : 110] ومساواة معنيي الآيتين غير متعينة لجواز أن يكون المراد من خير أمة هاته الأمة ، التي قامت بالأمر بالمعروف ، على ما سنبينه هنالك .

والآية أوجبت أن تقوم طائفة من المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولاشك أن الأمر والنهي من أقسام القول والكلام ، فالمكلف به هو بيان المعروف ، والأمر به ، وبيان المنكر ، والنهي عنه ، وأما امتثال المأمورين والمنهيين لذلك ، فموكول إليهم أو إلى ولاة الأمور الذين يحملونهم على فعل ما أمروا به ، وأما ما وقع في الحديث "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فأن لم يستطيع فبلسانه فأن لم يستطع فبقلبه" فذلك مرتبة التغيير ، والتغيير يكون باليد ، ويكون بالقلب أي تمني التغيير ، وأما الأمر والنهي فلا يكونان بهما .

والمعروف والمنكر إن كانا ضروريين كان لكل مسلم أن يأمر وينهي فيهما ، وان كانا نظريين ، فأنما يقوم بالأمر والنهي فيهما أهل العلم .

وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شروط مبينة في الفقه والآداب الشرعية ، ألا أني أنبه إلى شرط ساء فهم بعض الناس فيه وهو قول بعض الفقهاء : يشترط ألا يجر النهي إلى منكر أعظم .

وهذا شرط قد خرم مزية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأتخذه المسلمون ذريعة لترك هذا الواجب .

ولقد ساء فهمهم فيه إذ مراد مشترطه أن يتحقق الأمر أن أمره يجر إلى منكر أعظم لا أن يخاف أن يتوهم إذ الوجوب قطعي لا يعارضه إلا ظن أقوى .

ولما كان تعيين الكفاءة للقيام بهذا الفرض ، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لتوقفه على مراتب العلم بالمعروف والمنكر ، ومراتب القدرة على التغيير ، وإفهام الناس ذلك ، رأى أئمة المسلمين تعيين ولاة للبحث عن المناكر وتعيين كيفية القيام بتغييرها ، وسموا تلك الولاية بالحسبة ، وقد أولى عمر بن الخطاب في هاته الولاية أم الشفاء ،

وأشهر من وليها في الدولة العباسية أبن عائشة ، وكان رجلا صلبا في الحق ، وتسمى هذه الولاية في المغرب ولاية السوق وقد ولياها في قرطبة الأمام محمد بن خالد بن مرتنيل القرطبي

المعروف بالأشج من أصحاب ابن القاسم توفي سنة 220 .

وكانت في الدولة الحفصية ولاية الحسبة من الولايات النبيهة وربما ضمت إلى القضاء كما كان الحال في تونس بعد الدولة الحفصية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 183.181 ﴾

فصل

قال البغوى :

قال أبو سعيد رضي الله عنهما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان" . ﴿ أخرجه مسلم في الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان برقم (78) : 1 / 69 ﴾ .

(204/126)

عن حذيفة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "والذي نفسي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليوشِكَنَّ الله أن يبعث عليكم عذابًا من عنده ثم لتدْعُنّه فلا يستجاب لكم" . ﴿ أخرجه الترمذي في الفتن باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر : 6 / 391 وقال : هذا حديث حسن والإمام أحمد في المسند : 5 / 388 والبغوى في شرح السنة : 14 / 345 . قال الهيثمي : رواه الطبراني في الأوسط والبزار عن أبي هريرة وفيه حبان بن علي وهو متروك وقد وثقه ابن معين في رواية وضعفه في أخرى . مجمع الزوائد : 7 / 266 ﴾ .

(205/126)

عن قيس بن أبي حازم ، قال : سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يقول : يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الناس إذا رأوا منكرا فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعذابه" . ﴿ أخرجه أبو دواد في الملاحم باب الأمر والنهي : 6 / 187 ، وعزاه المنذري للنسائي ، وأخرجه الترمذي في الفتن باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغيروا المنكر : 6 / 388 - 389 وفي التفسير سورة المائدة 8 / 422 - 423 وقال : حديث حسن صحيح . وابن ماجه في الفتن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر برقم (4005) : 2 / 1327 وأحمد في المسند : 1 / 7 وابن حبان ص (455) من موارد الظمآن والمصنف في شرح السنة : 14 / 344 وأبو بكر المروزي

في مسند أبي بكر الصديق برقم (86 – 88) ص 130 – 131 وقال الحافظ ابن كثير في التفسير : 2 / 110 " وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة وابن حبان في صحيحه وغيرهم من طرق كثيرة عن جماعة كثيرة عن إسماعيل بن أبي خالد به متصلا مرفوعا ومنهم من رواه عنهم موقوفا على الصديق . وقد رجح رفعه الدارقطني وغيره" . وانظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني : 4 / 88 – 89 ﴾ .

(206/126)

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه يقول : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "مثل المداهن في حدود الله تعالى والواقع فيها ، كمثل قوم اسْتَهَمُوا على سفينة فصار بعضهم في أسفلها وصار بعضهم في أعلاها ، فكان الذين في أسفلها يمرون بالماء على الذين في أعلاها ، فتأذوا به فأخذ فأسا فجعل ينقر أسفل السفينة ، فأتوه فقالوا : مالك ؟ فقال تأذيتم بي ولا بد لي من الماء فإن أخذوا على يديه أنْجوه ونَجَّوا أنفسهم وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم" . ﴿ أخرجه البخاري في الشهادات باب القرعة في المشكلات : 5 / 292 بلفظه ، وأخرجه المصنف في شرح السنة : 14 / 342 بألفاظ مقاربة ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير البغوى حـ 2 صـ 85. 86 ﴾ . بتصرف يسير .

قوله تعالى : ﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾

فصل

قال الفخر :

(207/126)

منهم من تمسك بهذه الآية في أن الفاسق ليس له أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، قال لأن هذه الآية تدل على أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر من المفلحين ، والفاسق ليس من المفلحين ، فوجب أن يكون الآمر بالمعروف ليس بفاسق ، وأجيب عنه بأن هذا ورد على سبيل الغالب فإن الظاهر أن من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر لم يشرع فيه إلا بعد صلاح أحوال نفسه ، لأن العاقل يقدم مهم نفسه على مهم الغير ، ثم إنهم أكدوا هذا بقوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ الناس بالبر وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [التوبة : 44] قوله ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : 2 ، 3] ولأنه لو جاز ذلك لجاز لمن يزني بامرأة أن يأمرها بالمعروف في أنها لم كشفت وجهها ؟ ومعلوم أن ذلك في غاية القبح ، والعلماء قالوا : الفاسق له أن يأمر بالمعروف لأنه وجب عليه ترك ذلك المنكر ووجب عليه النهي عن ذلك المنكر ، فبأن ترك أحد الواجبين لا يلزمه ترك الواجب الآخر ،

وعن السلف : مروا بالخير وإن لم تفعلوا ، وعن الحسن أنه سمع مطرف بن عبد الله يقول : لا أقول ما لا أفعل ، فقال : وأينا يفعل ما يقول ؟ ودَّ الشيطان لو ظفر بهذه الكلمة منكم فلا يأمر أحد بمعروف ولا ينهى عن المنكر . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 147.146﴾

قال ابن عاشور :

وجملة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ معطوفة على صفات أمة وهي التي تضمنتها جمل ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ والتقدير : وهم مفلحون : لأن الفلاح لما كان مسببا على تلك الصفات الثلاث جعل بمنزلة صفة لهم ، ويجوز جعل جملة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ حالا من أمة ، والواو للحال .

(208/126)

والمقصود بشارتهم بالفلاح الكامل إن فعلوا ذلك .

وكان مقتضى الظاهر فصل هذه الجملة عما قبلها بدون عطف ، مثل فصل جملة ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة : 5] لكن هذه عطفت أو جاءت حالا لأن مضمونها جزاء عن الجمل التي قبلها ، فهي أجدر بأن تلحق بها .

ومفاد هذه الجملة قصر صفة الفلاح عليهم ، فهو أما قصر إضافي بالنسبة لمن لم يقم بذلك مع المقدرة عليه ، وأما قصر أريد به المبالغة لعدم الاعتداد في هذا المقام بفلاح غيرهم ، وهو معنى قصد الدلالة على معنى الكمال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ 183﴾

فصل

قال الفخر :

عن النبي صلى الله عليه وسلم : " من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر كان خليفة الله في أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه " وعن علي رضي الله عنه : أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقال أيضاً : من لم يعرف بقلبه معروفاً ولم ينكر منكراً نكس وجعل أعلاه أسفله ، وروى الحسن عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : يا أيها الناس ائتمروا بالمعروف وانتهوا عن المنكر تعيشوا بخير ، وعن الثوري : إذا كان الرجل محبباً في جيرانه محموداً عند إخوانه فاعلم أنه مداهن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 147﴾

فصل

قال الفخر :

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا على الأخرى فقاتلوا التى تَبْغِى حتى تَفِىء إلى أَمْرِ الله ﴾ [الحجرات : 9] قدم الإصلاح على القتال ، وهذا يقتضي أن يبدأ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالأرفق مترقياً إلى الأغلظ فالأغلظ ، وكذا قوله تعالى : ﴿ واهجروهن فِى المضاجع واضربوهن ﴾ [النساء : 34] يدل على ما ذكرناه ، ثم إذا لم يتم الأمر بالتغليظ والتشديد وجب عليه القهر باليد ، فإن عجز فباللسان ، فإن عجز فبالقلب ، وأحوال الناس مختلفة في هذا الباب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 147 ﴾

من فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

قرأ الحسن والزهري وأبو عبد الرحمن وعيسى بن عمر وأبو حيوة : " وِلتكن " بكسر اللام على الأصل ، إذ أصلها الكسر ، وكذلك قرؤوا لام الأمر في جميع القرآن ، قال الضحاك والطبري وغيرهما : أمر المؤمنون أن تكون منهم جماعة بهذه الصفة ، فهم خاصة أصحاب الرسول ، وهم خاصة الرواة .

قال القاضي : فعلى هذا القول " من " للتبعيض ، وأمر الله الأمة بأن يكون منها علماء يفعلون هذه الأفاعيل على وجوهها ويحفظون قوانينها على الكمال ، ويكون سائر الأمة

متبعين لأولئك، إذ هذه الأفعال لا تكون إلا بعلم واسع، وقد علم تعالى أن الكل لا يكون عالماً، وذهب الزجّاج وغير واحد من المفسرين، إلى أن المعنى: ولتكونوا كلكم أمة يدعون، " ومن " لبيان الجنس قال: ومثله من كتاب الله، ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ [الحج: 30] ومثله من الشعر قول القائل: [البسيط]

أَخُوا رَغَائِبَ يُعْطِيها وَيسْأَلُها . . . يأبى الظُّلامةَ مِنْهُ النَّوفَلَ الزّفرُ

(210/126)

قال القاضي: وهذه الآية على هذا التأويل إنما هي عندي بمنزلة قولك: ليكن منك رجل صالح، ففيها المعنى الذي يسميه النحويون، التجريد، وانظر أن المعنى الذي هو ابتداء الغاية يدخلها، وكذلك يدخل قوله تعالى: ﴿ من الأوثان ﴾ ذاتها ولا تجده يدخل قول الشاعر: منه النوفل الزفر، ولا تجده يدخل في " من " التي هي صريح بيان الجنس، كقولك ثوب من خز، وخاتم من فضة، بل هذه يعارضها معنى التبعيض، ومعنى الآية على هذا التأويل: أمر الأمة بأن يكونوا يدعون جميع العالم إلى الخير، الكفار إلى الإسلام، والعصاة إلى الطاعة، ويكون كل واحد من هذه الأمور على منزلته من العلم والقدرة، قال أهل العلم: وفرض الله بهذه الآية، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من فروض الكفاية إذا قام

به قائم سقط عن الغير، وللزوم الأمر بالمعروف شروط، منها أن يكون بمعروف لا بتخرق، فقد قال صلى الله عليه وسلم: من كان آمراً بمعروف، فليكن أمره ذلك بمعروف، ومنها أن لا يخاف الآمر أذى يصيبه، فإن فعل مع ذلك فهو أعظم لأجره، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان".

(211/126)

قال القاضي: والناس في تغيير المنكر والأمر بالمعروف على مراتب، ففرض العلماء فيه تنبيه الحكام والولاة، وحملهم على جادة العلم، وفرض الولاة تغييره بقوتهم وسلطانهم، ولهم هي اليد، وفرض سائر الناس رفعه إلى الحكام والولاة بعد النهي عنه قولاً، وهذا في المنكر الذي له دوام، وأما إن رأى أحد نازلة بديهة من المنكر، كالسلب والزنى ونحوه، فيغيرها بنفسه بحسب الحال والقدرة، ويحسن لكل مؤمن أن يحتمل في تغيير المنكر، وإن ناله بعض الأذى، ويؤيد هذا المنزع أن في قراءة عثمان بن عفان وابن مسعود وابن الزبير "يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويستعينون بالله على ما أصابهم"، فهذا وإن كان لم يثبت في المصحف، ففيه إشارة إلى التعرض لما يصيب عقب الأمر والنهي، كما هي في

قوله تعالى : ﴿ وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك ﴾ [لقمان : 17] وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ [المائدة : 105] معناه إذا لم يقبل منكم ولم تقدروا على تغيير منكره ، وقال بعض العلماء : " المعروف " التوحيد ، و﴿ المنكر ﴾ الكفر ، والآية نزلت في الجهاد .

قال الفقيه القاضي : ولا محالة أن التوحيد والكفر هما رأس الأمرين ، ولكن ما نزل عن قدر التوحيد والكفر ، يدخل في الآية ولا بد ، ﴿ المفلحون ﴾ الظافرون ببغيتهم ، وهذا وعد كريم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 485.486 ﴾

(212/126)

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخير ﴾ أمرهم سبحانه بتكميل الغير إثر أمرهم بتكميل النفس ليكونوا هادين مهديين على ضد أعدائهم فإن ما قص الله تعالى من حالهم فيما سبق يدل على أنهم ضالون مضلون ، والجمهور على إسكان لام الأمر ، وقرىء بكسرها على الأصل ، و(تكن) إما من كان التامة فتكون ﴿ أُمَّةٌ ﴾ فاعلاً وجملة ﴿ يَدْعُونَ ﴾ صفته

و ﴿ مّنكُمْ ﴾ متعلق بتكن أو بمحذوف على أن يكون صفة لأمة قدم عليها فصار حالاً .

وإما من كان الناقصة فتكون ﴿ أُمَّةٍ ﴾ اسمها ﴿ وَيُدْعَوْنَ ﴾ خبرها و ﴿ مّنكُمْ ﴾ إما حال من أمة أو متعلق بكان الناقصة ، والأمة الجماعة التي تؤم أي تقصد لأمر مّا ، وتطلق على أتباع الأنبياء لاجتماعهم على مقصد واحد وعلى القدوة ؛ ومنه ﴿ إِنَّ إبراهيم كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل : 120] وعلى الدين والملة ، ومنه ﴿ بَلْ قَالُواْ إِنَّا وَجَدْنَا ءابَاءنَا ﴾ [الزخرف : 22] وعلى الزمان ، ومنه ﴿ وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف : 54] إلى غير ذلك من معانيها .

والمراد من الدعاء إلى الخير الدعاء إلى ما فيه صلاح ديني أو دنيوي فعطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه في قوله سبحانه :

(213/126)

﴿ وَيَأْمُرُونَ بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ﴾ من باب عطف الخاص على العام إيذاناً بمزيد فضلهما على سائر الخيرات كذا قيل : وقال ابن المنير : "إن هذا ليس من تلك الباب لأنه ذكر بعد العام جميع ما يتناوله إذ الخير المدعو إليه إما فعل مأمور أو ترك منهي لا يعدو واحداً من هذين حتى يكون تخصيصهما بتميزهما عن بقية المتناولات ، فالأولى أن يقال

فائدة هذا التخصيص ذكر الدعاء إلى الخير عاماً ثم مفصلاً ، وفي تثنية الذكر على وجهين ما لا يخفى من العناية إلا إن ثبت عرف يخص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ببعض أنواع الخير وحينئذ يتم ما ذكر ، وما أرى هذا العرف ثابتاً" انتهى ، وله وجه وجيه لأن الدعاء إلى الخير لو فسر بما يشمل أمور الدنيا وإن لم يتعلق بها أمر أو نهي كان أعم من فرض الكفاية ولا يخفى ما فيه ، على أنه قد أخرج ابن مردويه عن الباقر رضي الله تعالى عنه قال : "قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخير ﴾ ثم قال : الخير اتباع القرآن وسنتي" وهذا يدل أن الدعاء إلى الخير لا يشمل الدعاء إلى أمور الدنيا .

(214/126)

ومن الناس من فسر الخير بمعروف خاص وهو الإيمان بالله تعالى وجعل المعروف في الآية ما عداه من الطاعات فحينئذ لا يتأتى ما قاله ابن المنير أيضاً ، ويؤيده ما أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل أن الخير الإسلام والمعروف طاعة الله والمنكر معصيته ، وحذف المفعول الصريح من الأفعال الثلاثة إما للإعلام بظهوره أي يدعون الناس ولو غير مكلفين ويأمرونهم وينهونهم ، وإما للقصد إلى إيجاد نفس الفعل على حدّ فلان يعطي أي يفعلون الدعاء والأمر والنهي ويوقعونها ، والخطاب قيل متوجه إلى من توجه الخطاب الأول إليه في رأي وهم

الأوس والخزرج ، وأخرج ابن المنذر عن الضحاك أنه متوجه إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة وهم الرواة ، والأكثرون على جعله عاماً ويدخل فيه من ذكر دخولاً أولياً ، و(من) هنا قيل : للتبعيض ، وقيل : للتبيين وهي تجريدية كما يقال لفلان من أولاده جند وللأمير من غلمانه عسكر يراد بذلك جميع الأولاد والغلمان .

(215/126)

ومنشأ الخلاف في ذلك أن العلماء اتفقوا على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات ولم يخالف في ذلك إلا النزر ، ومنهم الشيخ أبو جعفر من الإمامية قالوا : إنها من فروض الأعيان ، واختلفوا في أن الواجب على الكفاية هل هو واجب على جميع المكلفين ويسقط عنهم بفعل بعضهم أو هو واجب على البعض ؟ ذهب الإمام الرازي وأتباعه إلى الثاني للاكتفاء بحصوله من البعض ولو وجب على الكل لم يكتف بفعل البعض إذ يستبعد سقوط الواجب على المكلف بفعل غيره ، وذهب إلى الأول الجمهور وهو ظاهر نص الإمام الشافعي في "الأم" ، واستدلوا على ذلك بإثم الجميع بتركه ولو لم يكن واجباً عليهم كلهم لما أثموا بالترك . وأجاب الأولون عن هذا بأن إثمهم بالترك لتفويتهم ما قصد حصوله من جهتهم في الجملة لا للوجوب عليهم ، واعترض عليه من طرف الجمهور بأن هذا

هو الحقيق بالاستبعاد أعني إثم طائفة بترك أخرى فعلاً كلفت به . والجواب عنه بأنه ليس الإسقاط عن غيرهم بفعلهم أولى من تأثيم غيرهم بتركهم يقال فيه : بل هو أولى لأنه قد ثبت نظيره شرعاً من إسقاط ما على زيد بأداء عمرو ولم يثبت تأثيم إنسان بترك آخر فيتم ما قاله الجمهور .

واعترض القول بأن هذا هو الحقيق بالاستبعاد بأنه إنما يتأتى لو ارتبط التكليف في الظاهر بتلك الطائفة الأخرى بعينها وحدها لكنه ليس كذلك بل كلتا الطائفتين متساويتان في احتمال الأمر لهما وتعلقه بهما من غير مزية لإحداهما على الأخرى فليس في التأثيم المذكور تأثيم طائفة بترك أخرى فعلا كلفت به إذ كون الأخرى كلفت به غير معلوم بل كلتا الطائفتين متساويتان في احتمال كل أن تكون مكلفة به فالاستبعاد المذكور ليس في محله على أنه إذا قلنا بما اختاره جماعة من أصحاب المذهب الثاني من أن البعض مبهم آل الحال إلى أن المكلف طائفة لا بعينها فيكون المكلف القدر المشترك بين الطوائف الصادق بكل طائفة فجميع الطوائف مستوية في تعلق الخطاب بها بواسطة تعلقه بالقدر المشترك المستوي فيها فلا إشكال في اسم الجميع ولا يصير النزاع بهذا بين الطائفتين لفظياً حيث إن الخطاب

حينئذ عم الجميع على القولين وكذا الإثم عند الترك لما أن في أحدهما دعوى التعليق بكل واحد بعينه ، وفي الآخر دعوى تعلقه بكل بطريق السراية من تعلقه بالمشترك ، وثمرة ذلك أن من شك أن غيره هل فعل ذلك الواجب لا يلزمه على القول بالسراية ويلزمه على القول بالابتداء ولا يسقط عنه إلا إذا ظن فعل الغير ، ومن هنا يستغنى عن الجواب عما اعترض به من طرف الجمهور فلا يضرنا ما قيل فيه على أنه يقال على ما قيل : ليس الدين نظير ما نحن فيه كلياً لأن دين زيد واجب عليه وحده بحسب الظاهر ولا تعلق له بغيره فلذا صح أن يسقط عنه بأداء غيره ولم يصح أن يأثم غيره بترك أدائه بخلاف ما نحن فيه فإن نسبة الواجب في الظاهر إلى كلتا الطائفتين على السواء فيه فجاز أن يأثم كل طائفة بترك غيرها لتعلق الوجوب بها بحسب الظاهر واستوائها مع غيرها في التعلق .

(217/126)

وأما قولهم : ولم يثبت تأثيم إنسان بأداء آخر فهو لا يطابق البحث إذ ليس المدعي تأثيم أحد بأداء غيره بل تأثيمه بترك فالمطابق ولم يثبت تأثيم إنسان بترك أداء آخر ويتخلص منه حينئذ بأن التعلق في الظاهر مشترك في سائر الطوائف فيتم ما ذهب إليه الإمام الرازي وأتباعه وهو مختار ابن السبكي خلافاً لأبيه ، إذا تحقق هذا فاعلم أن القائلين بأن المكلف

البعض قالوا : إن من للتبعيض ، وأن القائلين بأن المكلف الكل قالوا : إنها للتبيين ، وأيدوا ذلك بأن الله تعالى أثبت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكل الأمة في قوله سبحانه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ﴾ [آل عمران : 110] ولا يقتضي ذلك كون الدعاء فرض عين فإن الجهاد من فروض الكفاية بالاجماع مع ثبوته بالخطابات العامة فتأمل .

(218/126)

﴿ وَأُوْلَئِكَ ﴾ أي الموصوفون بتلك الصفات الكاملة . ﴿ هُمُ المفلحون ﴾ أي الكاملون في الفلاح وبهذا صح الحصر المستفاد من الفصل وتعريف الطرفين ، أخرج الإمام أحمد وأبو يعلى عن درة بنت أبي لهب قالت : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم من خير الناس ؟ قال : " آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله تعالى وأوصلهم للرحم " وروى الحسن من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله تعالى وخليفة رسوله الله صلى الله عليه وسلم وخليفة كتابه ، وروى لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله تعالى عليكم سلطاناً ظالماً لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم ويدعو خياركم فلا يستجاب لهم وتستنصرون فلا تنصرون والأمر بالمعروف يكون واجباً ومندوباً على حسب ما يؤمر

به والنهي عن المنكر كذلك أيضاً إن قلنا إن المكروه منكر شرعاً ، وأما إن فسر بما يستحق العقاب عليه كما أن المعروف ما يستحق الثواب عليه فلا يكون إلا واجباً ، وبه قال بعضهم إلا أنه يرد أنهما ليسا على طرفي نقيض والأظهر أن العاصي يجب عليه أن ينهى عما يرتكبه لأنه يجب عليه نهي كل فاعل وترك نهي بعض وهو نفسه لا يسقط عنه وجوب نهي الباقي وكذا يقال في جانب الأمر ولا يعكر على ذلك قوله تعالى :

(219/126)

﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ [الصف : 2] لأنه مؤل بأن المراد نهيه عن عدم الفعل لا عن القول ولا قوله سبحانه : ﴿أَتَأْمُرُونَ الناس بالبر وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة : 44] لأن التوبيخ إنما هو على نسيان أنفسهم لا على أمرهم بالبر ، وعن بعض السلف مروا بالخير وإن لم تفعلوا ، نعم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شروط معروفة محلها والأصل فيهما افعل كذا ولا تفعل كذا ، والقتال ليمتثل المأمور والمنهي أمر وراء ذلك وليس داخلاً في حقيقتهما وإن وجب على بعض كالأمراء في بعض الأحيان لأن ذلك حكم آخر كما يشعر به قوله صلى الله عليه وسلم : " مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع " . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 4

صـ 23.20 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

هذه إشارة إلى أقوامٍ قاموا بالله لله ، لا تأخذهم لومة لائم ، ولا تقطعهم عن الله استنامة إلى علة ، وقفوا جملتهم على دلالات أمره ، وقصَرُوا أنفاسَهم واستغرقوا أعمارَهم على تحصيل رضاه ، عملوا لله ، ونصحوا الدين لله ، ودَعَوْا خَلْقَ الله إلى الله ، فَرَبِحَتْ تجارتهم ، وما خَسِرتْ صفقتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 268 ﴾

(220/126)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾ أي : جماعة ، سميت بذلك لأنها يؤمها فرق الناس ، أي يقصدونها ويقتدون بها : ﴿ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ وهو ما فيه صلاح ديني ودنيوي : ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أي : بكل معروف ، من واجب ومندوب يقربهم إلى الجنة ويبعدهم عن النار : ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ أي : عن كل منكر ، من حرام ومكروه يقربهم إلى النار ويبعدهم من الجنة : ﴿ وَأُوْلَئِكَ ﴾ الداعون الآمرون الناهون : ﴿ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون بأجور أعمالهم وأعمال من تبعهم .

قال بعضهم : الفلاح : هو الظفر وإدراك البغية . فالدنيوي هو إدراك السعادة التي تطيب بها الحياة ، والأخروي أربعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وعزّ بلا ذل ، وغنى بلا فقر ، وعلم بلا جهل .

لطيفة :

(221/126)

قيل : عطف : ﴿ وَيَأْمُرُونَ ﴾ على ما قبله ، من عطف الخاص على العام . كذا قاله الزمخشري . وناقشه في " الانتصاف " . وعبارته : عطف الخاص على العام يؤذن بمزيد اعتناء بالخاص لا محالة إذا اقتصر على بعض متناولات العام ، كقوله : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ [البقرة : 98] . وكقوله : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن : 68] . وكقوله : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى ﴾ [البقرة : 238] . وشبه ذلك ، لأن الاقتصار على تخصيص ما يفرد بالذكر يفيده تمييزاً عن غيره من بقية المتناولات . وأما هذه الآية فقد ذكر ، بعد العام فيها ، جميع ما يتناوله ، إذ الخير المدعوّ إليه إما فعل مأمور ، أو ترك منهي ، لا يعدو واحداً من هذين حتى يكون

تخصيصها يميزها عن بقية المتناولات ، فالأولى في ذلك أن يقال : فائدة هذا التخصيص ذكر الدعاء [في المطبوع : الدعاد] إلى الخير عامًّا ثم مفصلاً . وفيه تنبيه : أن الذكر على وجهين ما لا يخفى من العناية – والله أعلم – إلا أن يثبت عرف يخص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ببعض أنواع الخير ، فإن ذاك يتم مراد الزمخشري ، وما أرى هذا العرف ثابتاً – والله أعلم – انتهى .

تنبيه :

وفي الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة ، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة ، وأصل عظيم من أصولها ، وركن مشيد من أركانها ، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها – كذا في " فتح البيان " .

(222/126)

قال الغزالي رضي الله عنه : في هذه الآية بيان الإيجاب . فإن قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن ﴾ أمر . وظاهر الأمر الإيجاب ، وفيها بيان أن الفلاح منوط به ، إذ حَصَرَ وقال : ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين ، وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين ؛ إذ لم يقل : كونوا كلكم آمرين بالمعروف . بل قال : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ

أُمَّةٌ ﴾ . فإذاً ، مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين ، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين . وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون ، عم الحرج كافة القادرين عليه لا محالة . انتهى .

فإن قلت : فمن يباشره ؟ فالجواب : كل مسلم تمكن منه ولم يغلب على ظنه أنه إن أنكر لحقته مضرة عظيمة ، أو إن نهيه لا يأثر ، لأنه عبث ، إلا أنه يستحب لإظهار شعار الإسلام ، وتذكير الناس بأمر الدين . فإن قلت : فمن يؤمر وينهى ؟ قلت : كل مكلف ، وغير المكلف ، إذا همّ بضرر غير منع ، كالصبيان والمجانين ، وينهى الصبيان عن المحرمات حتى لا يتعودوها ، كما يؤخذون بالصلاة ليمرنوا عليها – ذكره الزمخشري – .

(223/126)

وتفصيل هذا البحث في " الإحياء " للغزالي قدس سره ، وقد قال ، قدس سره ، في طليعة ذلك البحث ما نصه : إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، هو القطب الأعظم في الدين ، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طوي بساطه وأهمل عمله لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمّت الفترة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، واتسع الخرق ، وخربت البلاد ، وهلك العباد ، وإن لم يشعروا بالهلاك إلا يوم

التناد ، وقد كان الذي خفنا أن يكون ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه ، وانمحى بالكلية حقيقته ورسمه ، واستولت على القلوب مداهنة الخلق ، وانمحت عنها مراقبة الخالق ، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم ، وعزّ على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم ، فمن سعى في تلافي هذه الفترة ، وسد هذه الثلمة ، إما متكفلاً بعملها ، أو متقلداً لتنفيذها ، مجدداً لهذه السنة الداثرة ، ناهضاً بأعبائها ، ومتشمراً في إحيائها ، كان مستأثراً من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها ، ومستبداً بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها . انتهى . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 4 صـ 422 .424 ﴾

(224/126)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

وكلمة " أمة " تطلق مرة ، ويراد بها الجماعة التي تنتسب إلى جنس ، كأمة العرب ، أو أمة

الفرس ، أو أمة الروم ، ومرة تطلق كلمة " أمة " ويراد بها الملة أي الدين ، ومرة ثالثة تطلق كلمة " أمة " ويراد بها الفترة الزمنية كقول الحق :

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾

[يوسف : 45]

إن الرجل الذي فسر له سيدنا يوسف الرؤيا تذكر سيدنا يوسف بعد أمة أي بعد فترة من الزمن ، ومرة تطلق كلمة " أمة " على الرجل الجامع لصفات الخير .

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

[النحل : 120]

لأن خصال الخير ليس من الضروري أن تجتمع في واحد ، ولكنها قد تجتمع في عدد من الأفراد فيكون هناك فلان المتميز بالصفة الطيبة ، وغيره متصف بصفة أخرى طيبة ، وثالث فيه صفة طيبة ثالثة ، ومن مجموع الأمة تظهر صورة الكمال ، لكن إبراهيم عليه السلام اجتمعت فيه كل خصال الخير المكتمل .

وساعة أن تأتي لإنسان وتقول له : ليكن منك شجاع فما ذلك ؟ إن معناه ، أن يجرد الإنسان من نفسه ويخرج منها شخصا شجاعا ، وذلك بتدريبها وتعويدها على ذلك حتى يكون الإنسان شجاعا ، أو تقول لآخر : ليكن منك كريم ، أي أخرج من نفسك رجلا

كريما .

وقوله الحق سبحانه : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ .

(225/126)

هذا القول يعني ان يكون منكم أيها المخاطبون أمة تدعو إلى الخير ، ومعناه أيضا أن تكونوا جميعا أمة تدعو إلى الخير ، وبعض العلماء يرى أن هذا القول يعني : أن تكون منكم جماعة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . ولكنّ هناك فهما أعمق من هذا ، وهو أن هذه الآية تأمر بأن تكون كل جماعة المسلمين أمة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، إي أن هذه الآية تطالب كُلَّ أُمة المسلمين بذلك ، فلا تختص جماعة منها فقط بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بل الواجب أن تكون أمة المسلمين كلها آمرة بالمعروف ، وناهية عن المنكر ، فمن يعرف حكما من الأحكام عليه أن يأمر به .

وهناك من العلماء من قال : إن الذي يأتي المنكر له حكم آخر أيضا وهو أن ينهي غيره عن المنكر ، أي أن الإنسان المؤمن مطالب بأمرين : الأول : ألاّ يصنع المنكر ، والثاني : أن ينهي عن المنكر . ولذلك إن جاء نصح من إنسان ينهاك عن المنكر ، وهو قد فعله ، فلا تقل له : أصلح نفسك واتبع أنت ما تنصح به أولا ، لا تقل له ذلك حتى لا يقول لك ما قاله الشاعر :

خذ بعلمي ولا تركن إلى عملي واجن الثمار وخل العود للنار

لكن الأجدر بمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون أول العاملين بقوله حتى لا يدخل في زمرة من قال الله فيهم :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾

[الصف : 2-3]

إذن فقوله الحق : ﴿ وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ أي جردوا من أنفسكم أمة مجتمعة على أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، واستمعوا إلى قوله تعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾

[العصر : 1-3]

(226/126)

إن السورة الكريمة توضح العقيدة ومطلوبها وهو الإيمان والعمل الصالح . وبعد ذلك قال الحق : " وتواصوا " ولم يقل " ووصوا " ما معنى " وتواصوا " ؟ أي أن يعرف كل مؤمن انه من الأغيار ، وكذلك أخوه المؤمن ، وقد يضعف أحدهما أمام معصية فيصنعها ، لكن

الآخر غير ضعيف أمام تلك المعصية ، لذلك يكون على غير الضعيف توصية الضعيف ، وعلى الضعيف أيضا ضرورة الانتباه حتى يتواصى مع غيره . فالإسلام لم يجعل جماعة يوصون غيرهم ، وجماعة أخرى تتلقى الوصاية ، بل كلنا موص - بكسر الصاد - حينما نجد مَنْ من يضعف أمام معصية . وكلنا موصىً ، - بفتح الصاد - حين يكون ضعيفا أمام المعصية ؛ فالتواصي يقتضي التفاعل بين جانبين . . فمرة تكون موصيا ، ومرة تكون موصىً ، وكذلك التواصي بالصبر .

فساعة تحدث كارثة لواحد من المسلمين يأتي أخوه ليصبره ، وكذلك إن حدثت كارثة للأخ المسلم يصبره أخوه المسلم ، فعندما يحتاج مسلم في وقت ما إلى أن يُصَبَّر ، يجد من إخوته من يصبره, فالأمة كلها مطالبة : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾ .

هكذا نفهم معنى قول الحق : ﴿ وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَائِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . والدعوة إلى الخير يفسرها الحق بأن يأمر الإنسان بالمعروف ، وأن ينهى عن المنكر .

ويقول الحق : ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أن كلمة ﴿ الْمُفْلِحُونَ ﴾ هي كلمة معها دليلها ، فالمفلح هو الذي أخذ الصفقة الرابحة . والكلمة مأخوذة ، من فلح الأرض . فالذي يفلح الأرض ويحرثها ثم يزرعها يجد الثمرة تجيئه في النهاية ، وقد جاء الحق بالمسألة المعنوية من أمر محس . وبعد ذلك يريد الحق أن يعطينا شيئا آخر فيقول : إياك أن تظن أن المشقة التي تصيبك حين تفعل خيرا لا تعود عليك بالراحة ، أو أن النقص الذي تفعل به الخير لا يعود عليك بالكمال ، فمثلا الإنسان الذي فلح الأرض وأخرج "كيلة" من القمح وبذرها فيها . هذا الإنسان قد تكون له زوجة حمقاء تقول له : إننا لا نملك إلا أربع "كيلات" من القمح فكيف تأخذ "كيلة" لترميها في الأرض ، إن هذه المرأة لا تعرف أن "الكيلة" التي أخذها الزوج هي التي ستأتي بعدد من الأرادب من القمح .

فإياك أن تفهم أن الإسلام يأخذ منك شيئا إلا وهو يريد أن يعطيك أشياء .

إن الفلاح الذي يشقى بالحرث وبالري ، وتراه وقد علا جبهته العرق وتراب الأرض وتغوص أقدامه في الطين والمياه ، إنك تراه يوم الحصاد وهو فرح مسرور بغلته . أما غيره الذي لم يشُقَ بالحرث ولم تعل جبهته حبات العرق ، فيأتي في هذا اليوم وهو حزين ونادم . فإياك أن تنظر إلى تكاليف الدين على أنها أمور تحرمك النفع ، إنّها أمور تربّب لك النفع أي تكثر لك النفع . وإياك أن تظن أن حكما من أحكام الله قد جاء ليجور على حريتك بل جاء ليمنع عنك اعتداء الآخرين .

وقلنا من قبل : إن الشرع حين كلف كل إنسان ألا يسرق مال أحد ، فهو تقييد من أجل حفظ أموال الملايين ، وهو أمر ضمني لكل الناس ألّا يسرقوا شيئًا من هذا الإنسان ، وهنا نجد الأمان ينتشر بالإيمان بين الجميع .

(228/126)

ولو نظرت إلى ما منع الدين الناس أن يمارسوه معك لعرفت قيمة التكاليف الإيمانية . إن التكليف حين يأمر ألا يمد أحد عيونه إلى محارم جاره ، هذا التكليف صادر للناس جميعا حتى يحمي الله لك محارمك من عيون الناس ، لقد قيّد التكليف حرية الآخرين من أجلك وهم كثيرون ، وقيد حريتك من أجل الآخرين وأنت واحد .

إذن فيجب أن نذكر أن كل تكليف يعطي صلاحا وفلاحا ، فالأرض تأخذ الحبة, وتعطيك سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، فلا تنظر إلى ما أخذه التكليف من حريتك ، لأنه أخذ لك من حريات الآخرين أيضا . ولا تقل : إن التكليف قد نقص حركتي لنفسي ، لأنه سيعطيك ثمرات أكثر مما أفقدك .

ويقول الحق من بعد ذلك : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1663 . 1667 ﴾

كلام نفيس لحجة الإسلام الغزالى

قال عليه الرحمة :

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد وهلك العباد ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد وقد كان الذي خفنا أن يكون فإنا لله وإنا إليه راجعون إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه فاستولت على القلوب مداهنة الخلق وانمحت عنها مراقبة الخالق واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم فمن سعى في تلافي هذه الفترة وسد هذه الثلمة إما متكفلا بعملها أو متقلدا لتنفيذها مجددا لهذه السنة الداثرة ناهضا بأعبائها ومتشمرا في إحيائها كان مستأثرا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها ومستبدا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها .

وقال أيضا :

قوله تعالى ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر

وأولئك هم

المفلحون ﴾

في الآية بيان الإيجاب فإن قوله تعالى ﴿ ولتكن ﴾ أمر وظاهر الأمر الإيجاب وفيها بيان أن

الفلاح منوط به إذ حصر وقال ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ وفيها بيان أنه فرض كفاية لا

فرض عين وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين إذ لم يقل كونوا كلكم آمرين بالمعروف

بل قال ولتكن منكم أمة فإذا مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين

واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون عم الحرج كافة

القادرين عليه لا محالة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ الإحياء حـ 2 صـ 206. 207 ﴾ .

بتصرف يسير

(230/126)

" فصل في ذكر الأمر بالمعروف "

قال ابن الجوزى :

المجلس التاسع في ذكر الأمر بالمعروف

الحمد لله مدبر الليالي والأيام ومصرف الشهور والأعوام المنفرد بالكمال والتمام الملك القدوس السلام تنزه جلاله عن درك الأفهام وتعالى كماله عن إحاطة الأوهام ليس بجسم فيشبه الأجسام ولا بمتجوف فيحتاج للشراب والطعام ارتدى برداء الكبرياء والإعظام وأبصر ما في بواطن العروق ودواخل العظام وسمع أخفى القول وألطف الكلام لا يعزب عن سمعه صريف الأقلام ولا يخفى على بصره دبيب النمل تحت سجف الظلام إله رحيم عظيم الإنعام ورب قدير شديد الانتقام قدر الأمور فأحسن إحكام الأحكام وصرف الحكم في فنون النقض والإبرام بقدرته هبوب الريح وتسيير الغمام (ومن آياته الجواري في البحر كالأعلام) أحمده حمدا يبقى على الدوام وأقر بوحدانيته كافرا بالأصنام وأصلي على رسوله محمد شفيع الأنام وعلى صاحبه أبي بكر أول سابق إلى الإسلام وعلى عمر الذي كان إذا رآه الشيطان هام وعلى عثمان الذي أنهض جيش العسرة بنفقته وأقام وعلى علي البحر الغطامط والأسد الضرغام وعلى عمه العباس أبي الخلفاء الأعلام اعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل الدين فإنه شغل الأنبياء وقد خلفهم فيه خلفاؤهم ولولاه شاع الجهل وبطل العلم أخبرنا محمد بن عبد الباقي البزار بسنده عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله شراركم على خياركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم)

أخبرنا علي بن عبد الله بسنده عن جرير عن رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ قال ما من قوم فيهم رجل يعمل بالمعاصي وهم أعز منه وأمنع لا يغيرون إلا أصابهم الله بعقاب واعلم أنه قد اضمحل في هذا الزمان الأمر بالمعروف حتى صار المعروف منكرا والمنكر معروفا وهذا زمن قوله عليه الصلاة والسلام بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ وقد ضرب رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ مثلا للمنكر والساكت عن الإنكار أخبرنا ابن الحصين بسنده إلى عامر قال سمعت النعمان بن بشير يخطب - وأومأ بإصبعه إلى أذنيه - سمعت رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ يقول إن مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والمداهن فيها مثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها وأصاب بعضهم أعلاها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فآذوهم فقالوا لو خرقنا في نصيبنا خرقا واستقينا منه ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعا أخرجاه في الصحيحين واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على الخلق وفي أفراد مسلم من حديث أبي سعيد عن

النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال من رأى منكم منكرا فاستطاع أن يغيره بيده فليفعل فإن لم يستطع بيده فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان

(232/126)

وفي حديث أبي سعيد أيضا عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه سئل ما أفضل الجهاد فقال كلمة عدل عند سلطان جائر وقال الشافعي رحمه الله أشد الأعمال ثلاثة الجود من قلة والورع في خلوة وكلمة حق عند من يرجى ويخاف وفي حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال إذا رأيتم أمتي تهاب الظالم أن تقول له أنت ظالم فقد تودع منهم وفي حديث ابن مسعود عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال إن من كان قبلكم كانوا إذا عمل العامل منهم بالخطيئة نهاه الناهي تعذيرا فإذا كان الغد جالسه وواكله وشاربه كأنه لم يره على خطيئته بالأمس فلما رأى الله عز وجل ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض ثم لعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد السفيه فلتأطرنه على الحق أطرا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم وفي حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال إن الناس إذا رأوا المنكر فلم

يغيروه أوشك أن يعمهم الله عز وجل بعقابه وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله شراركم على خياركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم

قال مالك بن دينار قرأت في التوراة من كان له جار يعمل بالمعاصي فلم ينهه فهو شريكه وقال مسعر أمر ملك أن يخسف بقرية فقال يا رب فيها فلان العابد فأوحى الله تعالى إليه أن به فابدأ فإنه لم يتمعر وجهه في ساعة قط وينبغي للآمر بالمعروف أن يلطف فقد قال الله تعالى (فقولا له قولا لينا) ومر أبو الدرداء برجل قد أصاب ذنبا وكانوا يسبونه فقال لهم أرأيتم لو وجدتموه في قليب ألم تكونوا مستخرجيه قالوا بلى قال فلا تسبوا أخاكم واحمدوا الله الذي عافاكم قالوا أفلا تبغضه قال إنما أبغض عمله فإذا تركه فهو أخي ورأى محمد بن المنكدر رجلا يكلم امرأة في موضع خرب فقال إن الله تعالى يراكما سترنا الله وإياكم أخبرنا ابن ناصر بسنده عن ثابت البناني قال كان صلة بن أشيم يخرج إلى الجبان فيتعبد فيها وكان يمر على شباب يلهون ويلعبون فيقول لهم أخبروني عن قوم أرادوا سفرا فحادوا بالنهار عن الطريق وناموا بالليل متى يقطعون سفرهم فكان كذلك يمر بهم فيعظهم فمر بهم ذات يوم

فقال لهم ذات يوم هذه المقالة فقال شاب منهم يا قوم إنه والله ما يعني بهذا غيرنا نحن بالنهار نلهو وبالليل ننام ثم اتبع صلة فلم يزل يختلف معه إلى الجبان ويتعبد معه حتى مات ومر بصلة بن أشيم فتى يجر ثوبه فهم أصحاب صلة أن يأخذوه بألسنتهم أخذا شديدا فقال صلة دعوني أكفكم أمره ثم قال له يا بن أخي إن لي إليك حاجة

قال وما هي قال أحب أن ترفع إزارك قال نعم ونعمى عين فرفع إزاره فقال صلة لأصحابه هذا أمثل مما أردتم لو شتمتموه وآذيتموه لشتمكم وقال سليمان التيمي ما أغضبت أحدا فقبل منك وقال فتح بن شخرف تعلق رجل بامرأة ومعه سكين لا يدنو منه أحد إلا عقره وكان شديد البدن فبينا الناس كذلك والمرأة تصيح مر بشر بن الحارث فدنا منه وحك كتفه بكتف الرجل فوقع الرجل إلى الأرض ومرت المرأة ومر بشر فدنوا من الرجل وهو يرشح عرقا فسألوه ما حالك فقال ما أدري ولكن حاكني شيخ وقال إن الله عز وجل ناظر إليك وإلى ما تعمل فضعفت لقوله وهبته هيبة شديدة لا أدري من ذلك الرجل فقالوا له ذاك بشر بن الحارث فقال واسوأتاه كيف ينظر إلي بعد اليوم وحم من يومه ذاك ومات يوم السابع وينبغي للآمر بالمعروف أن يحذر من فعل ما نهى عنه وترك ما أمر به فقد أخبرنا عبد الأول

بسنده عن أمامة قال سمعت رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ يقول يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه في النار فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون أي فلان ما شأنك أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر قال كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه أخرجاه في الصحيحين

واعلم أنه إذا هذب الآمر نفسه أثر قوله إما في زوال المنكر أو في إنكسار المذنب أو إلقاء الهيبة له في القلوب خرج إبراهيم الخواص لإنكار منكر فنبح عليه كلب فما قدر على الوصول إلى مكان المنكر فرجع إلى مسجده وتفكر ساعة ثم قام فجعل الكلب يتبصبص حوله ولا يؤذيه حتى أزال المنكر فسئل عما جرى له فقال إنما نبح علي لفساد دخل علي في عقد بيني وبين الله عز وجل فلما رجعت ذكرته فاستغفرت

(الكلام على البسملة

(يسر بصفو عيشته الجهول

وتعجبه الإقامة والحلول

(ودون مقامه حاد حثيث

عنيف السوق والموت السبيل

(سبيل ما توجه فيه سفر

فكان لهم إلى الدنيا قفول

(طريقي يستوي للخلق فيه

(235/126)

مسالكهم ويختلف المقيل

(تغرهم زخارف دار دنيا

غوائلها بمعمعهم تعول

(تطوف عليهم بكؤوس لهو

ومزج كؤوسها الداء الدخيل

(وتصقل وجهها لهم خداعا

وتحت صقالها السيف الصقيل

يا هذا قد صانك بالحلال فلا تبتذل وبالقناعة فلا تذل وطهرك من الأدناس فلا تتوسخ ودعاك إلى الأرباح فلا تتوقف ويحك إذا خدمت الدنيا رأت نفسها فتدللت وإذا أعرضت عنها عرفت قدرها فتذللت أخدمي من خدمني واستخدمي من خدمك يا جامع الدنيا لغيره جمعا يعوقه عن سيره (ماذا تؤمل لا أبالك في

مال تموت وأنت تمسكه

(أنفق فإن الله يخلفه

لا تمض مذموما وتتركه

(ما لم يكن لك فيه قط منفعة

مما جمعت فلست تملكه

يا هذا إنما فضل العاقل لنظره في العواقب فأما من لا يرى إلا الحاضر فطفل (تصفو الحياة

لجاهل أو غافل

عما مضى منها وما يتوقع

(ولمن يغالط في الحقيقة نفسه

ويسومها طمع المحال فتتبع

قد أعد لك كأسا لا يشبه الكؤوس موت يسلب الأرواح ويختلس النفوس ورحلة لا تدري بالسعود أو بالنحوس إلى لحد ضيق وعر ما مهدته الفؤوس تحط فيه ذليلا وأنت محسوب منكوس لا يشبه المطامير ولا يجانس الحبوس المدر فيه فراش والتراب فيه لبوس أترى يكون لك روضة أو يشبه الناموس كم محنة يلقى ذلك الملقي المرموس رفقا إذا وطئت الأحداث فالأجداث تدوس ثم ينفخ في الصور فتطير إلى الأكف الطروس وتجني ثمار الجزاء يومئذ من قديم الغروس وتشتد الشدائد في قمطرير عبوس وتذل العتاة الجبابرة المتغطرسون الشوس

ويتساوى في الخضوع الأتباع والرؤوس وتقسم بين الخلائق خلع السعود وملابس النحوس واعجبا لجمود ذهنك وأنت في الإعراض تنوس كم بهرج ورمل وكم تجلى عليك عروس أهذا الذي تسمعه كلام الخالق أو صوت الناقوس يا مؤثرا شهوة لحظة تجني له حرب البسوس يا من قد غلب الأطباء دواؤه أمريض أنت أم ممسوس تعني بعلاجك بقراط وتحير جالينوس سبحان من خلق قلبك

(236/126)

من حجارة تعالى الملك القدوس واعجبا لعقلك العرض مبذول والعرض محروس جل همك مع الدنيا وحظ الأخرى منك مبخوس ثوبك جديد صحيح ولكن القلب منكوس وبلوغ الخمسين منذر وفي الستين تضرب الكوؤس هذا قدر النصائح أفآخذك بالدنوس (أنت في

دنياك ضيف

والتواني منك حيف

(مر بالقر شتاء

وأتى بالحر صيف

(خاسر من نقده حين

تقوم السوق زيف

(فاغتنم أجرا وذكرا

حسنا فالوقت سيف

صح على فرس الجد وقد فرس الغاية مجالس الذكر فصول وتعبئة المواعظ شربات فاصبر على مرارة المركب لعل الأخلاق تحسن واعجبا تفيق في المجلس فتنطق بلفظ توبة كما يفيق المجنون فيتكلم بكلمة حكمة فإذا عادت السوداء خلط (أيفيق من مرض كئيب

إذا جن الظلام عليه أنا

متى كان مرض الجسد عن أخلاط مجتمعة سهلت مداواته ومتى كان مرض الجسد التغير عن فساد في القلب فيا قرب التلف مداواة العني ممكن وأما مداواة الجنون فيتعذر (جعلت لعراف اليمامة حكمه

وعراف نجد إن هما شفياني

(فقالا شفاك الله والله ما لنا

بما ضمنت منك الضلوع يدان

حظ قلبك من هذا الكلام حظ الصدى من سمعك علتك علة طريفة يتحير في مثلها المداوي تسرع في طلب الدنيا إسراع جواد وأنت في طلب الآخرة جبان إن لاح لك ذنب وثبت وثب فهد وإن حرضت على طاعة أخذك فالج ابن أبي دؤاد

خذ الوقت أخذ اللص واسرقه واختلس

فوائده قبل المنايا الدوائب

(ولا تتعلل بالأماني فإنها

عطايا أحاديث النفوس الكواذب

(ودونك ورد العمر ما دام صافيا

فخذ وتزود منه قبل الشوائب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التبصرة / لابن الجوزى حـ 2 صـ 335.327 ﴾

(237/126)

قوله تعالى ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أمر بذلك أكده بالنهي عما يضاده معرضاً بمن نزلت هذه الآيات فيهم من أهل الكتاب مبكتاً لهم بضلالهم واختلافهم في دينهم على أنبيائهم فقال : ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا ﴾

بما ابتدعوه في أصول دينهم وبما ارتكبوه من المعاصي ، فقادهم ذلك ولا بد إلى التخاذل والتواكل والمداهنة التي قصدوا بها المسالمة فجرتهم إلى المصارمة .

ولما كان التفرق ربما كان بالأبدان فقط مع الاتفاق في الآراء بيَّن أن الأمر ليس كذلك فقال :

﴿ واختلفوا ﴾ بما أثمر لهم الحقد الحامل على الاتصاف بحالة من يظن أنهم جميع وقلوبهم شتى .

ولما ذمهم بالاختلاف الذي دل العقل على ذمه زاد في تقبيحه بأنهم خالفوا فيه بعد نهي العقل واضح النقل فقال : ﴿ من ﴾ أي وابتدأ اختلافهم من الزمان الذي هو من ﴿ بعد ما جاءهم ﴾ وعظمه بإعرائه عن التأنيث ﴿ البينات ﴾ أي بما يجمعهم ويعليهم ويرفعهم ويوجب اتفاقهم وينفعهم ، فأرداهم ذلك الافتراق وأهلكهم .

ولما كان التقدير : فأولئك قد تعجلوا الهلاك في الدنيا فهم الخائبون ، عطف عليه قوله :

﴿ وأولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ لهم عذاب عظيم ﴾ أي في الدار الآخرة بعد عذاب الدنيا باختلافهم منابذين لما من شأنه الجمع ، والآية من الاحتباك : إثبات " المفلحون " أولاً يدل على " الخاسرون " ثانياً ، والعذاب العظيم ثانياً يدل على النعيم المقيم أولاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 133 ﴾

فصل

قال الفخر :

في النظم وجهان

الأول : أنه تعالى ذكر في الآيات المتقدمة أنه بيّن في التوراة والإنجيل ما يدل على صحة دين الإسلام وصحة نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر أن أهل الكتاب حسدوا محمداً صلى الله عليه وسلم واحتالوا في إلقاء الشكوك والشبهات في تلك النصوص الظاهرة ، ثم إنه تعالى أمر المؤمنين بالإيمان بالله والدعوة إلى الله ، ثم ختم ذلك بأن حذر المؤمنين من مثل فعل أهل الكتاب ، وهو إلقاء الشبهات في هذه النصوص واستخراج التأويلات الفاسدة الرافعة لدلالة هذه النصوص فقال : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ ﴾ أيها المؤمنون عند سماع هذه البينات ﴿ كالذين تَفَرَّقُواْ واختلفوا ﴾ من أهل الكتاب ﴿ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ ﴾ في التوراة والإنجيل تلك النصوص الظاهرة ، فعلى هذا الوجه تكون الآية من تتمة جملة الآيات المتقدمة

والثاني : وهو أنه تعالى لما أمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذلك مما لا يتم إلا إذا كان الآمر بالمعروف قادراً على تنفيذ هذا التكليف على الظلمة والمتغالين ، ولا تحصل هذه القدرة إلا إذا حصلت الإلفة والمحبة بين أهل الحق والدين ، لا جرم حذرهم تعالى من

الفرقة والاختلاف لكي لا يصير ذلك سبباً لعجزهم عن القيام بهذا التكليف ، وعلى هذا الوجه تكون هذه الآية من تتمة الآية السابقة فقط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 147 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ تَفَرَّقُواْ واختلفوا ﴾ فيه وجوه

الأول : تفرقوا واختلفوا بسبب اتباع الهوى وطاعة النفس والحسد ، كما أن إبليس ترك نص الله تعالى بسبب حسده لآدم

الثاني : تفرقوا حتى صار كل فريق منهم يصدق من الأنبياء بعضاً دون بعض ، فصاروا بذلك إلى العداوة والفرقة

الثالث : صاروا مثل مبتدعة هذه الأمة ، مثل المشبهة والقدرية والحشوية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 148 ﴾

وقال القرطبى :

يعني اليهود والنصارى في قول جمهور المفسرين .

وقال بعضهم : هم المبتدِعة من هذه الأمة .

وقال أبو أمامة : هم الحَرُورِيّة ؛ وتلا الآية .

وقال جابر بن عبد الله : "الّذِينَ تَفَرّقُوا واختلفوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّناتُ" اليهود والنصارى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 166 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

وقدم الافتراق على الاختلاف للإيذان بأن الاختلاف علة التفرق وهذا من المفادات الحاصلة من ترتيب الكلام وذكر الأشياء مع مقارنتها ، وفي عكسه قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة : 282] .

وفيه إشارة إلى أن الاختلاف المذموم والذي يؤدي إلى الافتراق ، وهو الاختلاف في أصول الديانة الذي يفضي إلى تكفير بعض الأمة بعضا ، أو تفسيقه ، دون الاختلاف في الفروع المبينة على اختلاف مصالح الأمة في الأقطار والأعصار ، وهو المعبر عنه بالاجتهاد .

ونحن إذا تقصينا تاريخ المذاهب الإسلامية لا نجد افتراقا نشأ بين المسلمين إلا عن اختلاف في العقائد والأصول ، دون الاختلاف في الاجتهاد في فروع الشريعة . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 183 . 184 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال بعضهم ﴿ تَفَرَّقُواْ واختلفوا ﴾ معناهما واحد وذكرهما للتأكيد وقيل : بل معناهما مختلف ، ثم اختلفوا فقيل : تفرقوا بالعداوة واختلفوا في الدين ، وقيل : تفرقوا بسبب استخراج التأويلات الفاسدة من تلك النصوص ، ثم اختلفوا بأن حاول كل واحد منهم نصرة قوله ومذهبه والثالث : تفرقوا بأبدانهم بأن صار كل واحد من أولئك الأحبار رئيساً في بلد ، ثم اختلفوا بأن صار كل واحد منهم يدعي أنه على الحق وأن صاحبه على الباطل ، وأقول : إنك إذا أنصفت علمت أن أكثر علماء هذا الزمان صاروا موصوفين بهذه الصفة فنسأل الله العفو والرحمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 148 ﴾

(240/126)

وقال الآلوسى

﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كالذين تَفَرَّقُواْ ﴾ وهم اليهود والنصارى قاله الحسن والربيع .

وأخرج ابن ماجه عن عوف بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "

افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة فواحدة في الجنة وسبعون في النار وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة فإحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة والذي نفسي بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة فواحدة في الجنة وثنتان وسبعون في النار قيل : يا رسول الله من هم ؟ قال : الجماعة " وفي رواية أحمد عن معاوية مرفوعاً " إن أهل الكتاب تفرقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة وتفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين كلها في النار إلا واحدة " ، وفي رواية له أخرى عن أنس مرفوعاً أيضاً " إن بني إسرائيل تفرقت إحدى وسبعين فرقة فهلكت سبعون فرقة وخلصت فرقة واحدة وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة تهلك إحدى وسبعون فرقة وتخلص فرقة " ولا تعارض بين هذه الروايات لأن الافتراق حصل لمن حصل على طبق ما وقع فيها في بعض الأوقات وهو يكفي للصدق وإن زاد العدد أو نقص في وقت آخر ﴿ واختلفوا ﴾ في التوحيد والتنزيه وأحوال المعاد ، قيل : وهذا معنى تفرقوا وكرره للتأكيد ، وقيل : التفرق بالعداوة والاختلاف بالديانة . ﴿ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ البينات ﴾ أي الآيات والحجج المبينة للحق الموجبة لاتحاد الكلمة ، وقال الحسن : التوراة ، وقال قتادة . وأبو أمامة : القرآن ﴿ وَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما في حيز الصلة ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يكتنه على تفرقهم واختلافهم المذكور ، وفي ذلك وعيد لهم وتهديد للمتشبهين بهم لأن التشبيه بالمغضوب عليه يستدعي الغضب .

(241/126)

ثم إن هذا الاختلاف المذموم محمول كما قيل على الاختلاف في الأصول دون الفروع ويؤخذ هذا التخصيص من التشبيه ، وقيل : إنه شامل للأصول والفروع لما نرى من اختلاف أهل السنة فيها كالماتريدي والأشعري فالمراد حينئذٍ بالنهي عن الاختلاف النهي عن الاختلاف فيما ورد فيه نص من الشارع أو أجمع عليه وليس بالبعيد .

واستدل على عدم المنع من الاختلاف في الفروع بقوله عليه الصلاة والسلام : " اختلاف أمتي رحمة " وبقوله صلى الله عليه وسلم : " مهما أوتيتم من كتاب الله تعالى فالعمل به لا عذر لأحد في تركه فإن لم يكن في كتاب الله تعالى فسنة مني ماضية فإن لم يكن سنة مني فما قال أصحابي إن أصحابي بمنزلة النجوم في السماء فأيما أخذتم به اهتديتم واختلاف أصحابي لكم رحمة " ، وأراد بهم صلى الله عليه وسلم خواصهم البالغين رتبة الاجتهاد والمقصود بالخطاب من دونهم فلا إشكال فيه خلافاً لمن وهم ، والروايات عن السلف في هذا المعنى كثيرة .

(242/126)

فقد أخرج البيهقي في "المدخل" عن القاسم بن محمد قال: اختلاف أصحاب محمد رحمة لعباد الله تعالى، وأخرجه ابن سعد في "طبقاته" بلفظ كان اختلاف أصحاب محمد رحمة للناس، وفي "المدخل" عن عمر بن عبد العزيز قال: ما سرني لو أن أصحاب محمد لم يختلفوا لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة، واعترض الإمام السبكي بأن اختلاف أمتي رحمة ليس معروفاً عند المحدثين ولم أقف له على سند صحيح ولا ضعيف ولا موضوع ولا أظن له أصلاً إلا أن يكون من كلام الناس بأن يكون أحد قال: اختلاف الأمة رحمة فأخذه بعضهم فظنه حديثاً فجعله من كلام النبوة وما زلت أعتقد أن هذا الحديث لا أصل له، واستدل على بطلانه بالآيات والأحاديث الصحيحة الناطقة بأن الرحمة تقتضي عدم الاختلاف والآيات أكثر من أن تحصى، ومن الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما هلكت بنو إسرائيل بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم" وقوله عليه الصلاة والسلام: "لا تختلفوا فتختلف قلوبكم" وهو وإن كان وارداً في تسوية الصفوف إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ثم قال: والذي نقطع به أن الاتفاق خير من الاختلاف وأن الاختلاف على ثلاثة أقسام. أحدها: في الأصول ولا شك أنه ضلال وسبب كل فساد وهو المشار إليه في القرآن، والثاني: في الآراء والحروب ويشير إليه قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن: "تطاوعا ولا تختلفا" ولا شك أيضاً أنه حرام لما فيه من تضييع المصالح الدينية والدنيوية، والثالث: في الفروع كالاختلاف في الحلال

والحرام ونحوهما والذي نقطع به أن الاتفاق خير منه أيضاً لكن هل هو ضلال كالقسمين الأولين أم لا ؟ فيه خلاف ، فكلام ابن حزم ومن سلك مسلكه ممن يمنع التقليد يقتضي الأول ، وأما نحن فإنا نجوز التقليد للجاهل والأخذ عند الحاجة بالرخصة

من أقوال بعض العلماء من غير تتبع الرخص وهو يقتضي الثاني ، ومن هذا الوجه قد يصح أن يقال : الاختلاف رحمة فإن الرخص منها بلا شبهة وهذا لا ينافي قطعاً القطع بأن الاتفاق خير من الاختلاف فلا تنافي بين الكلامين لأن جهة الخيرية تختلف وجهة الرحمة تختلف ، فالخيرية في العلم بالدين الحق الذي كلف الله تعالى به عباده وهو الصواب عنده والرحمة في الرخصة له وإباحة الإقدام بالتقليد على ذلك ، ورحمة نكرة في سياق الإثبات لا تقتضي العموم فيكتفي في صحته أن يحصل في الاختلاف رحمة مّا في وقت مّا في حالة مّا على وجه مّا فإن كان ذلك حديثاً فيخرج على هذا وكذا إن لم يكنه ، وعلى كل تقدير لا نقول إن الاختلاف مأمور به ، والقول بأن الاتفاق مأمور به يلتفت إلى أن المصيب واحد أم لا ؟ فإن قلنا : إن المصيب واحد وهو الصحيح فالحق في نفس الأمر واحد والناس كلهم مأمورون

بطلبه واتفاقهم عليه مطلوب والاختلاف حينئذٍ منهي عنه وإن عذر المخطىء وأثيب على اجتهاده وصرف وسعه لطلب الحق .

(244/126)

فقد أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث عمرو بن العاص "إذا حكم الحاكم فاجتهد وأصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر" وكذلك إذا قلنا بالشبه كما هو قول بعض الأصوليين ، وأما إذا قلنا : كل مجتهد مصيب فكل أحد مأمور بالاجتهاد وباتباع ما غلب على ظنه فلا يلزم أن يكونوا كلهم مأمورين بالاتفاق ولا أن لا يكون اختلافهم منهياً عنه ، وإطلاق الرحمة على هذا التقدير في الاختلاف أقوى من إطلاقها على قولنا : المصيب واحد ، هذا كله إذا حملنا الاختلاف في الخبر على الاختلاف في الفروع ، وأما إذا قلنا المراد الاختلاف في الصنائع والحرف فلا شك أن ذلك من نعم الله تعالى التي يطلب من العبد شكرها كما قال الحليمي في "شعب الإيمان" ، لكن كان المناسب على هذا أن يقال اختلاف الناس رحمة إذ لا خصوصية للأمة بذلك فإن كل الأمم مختلفون في الصنائع والحرف لا هذه الأمة فقط فلا بد لتخصيص الأمة من وجه ، ووجهه إمام الحرمين بأن المراتب والمناصب التي أعطيتها أمته صلى الله عليه

وسلم لم تعطها أمة من الأمم فهي من رحمة الله تعالى لهم وفضله عليهم لكنه لا يسبق من لفظ الاختلاف إلى ذلك ولا إلى الصنائع والحرف، فالحرفة الإبقاء على الظاهر المتبادر وتأويل الخبر بما تقدم.

(245/126)

هذه خلاصة كلامه ولا يخفى أنه مما لا بأس به، نعم كون الحديث ليس معروفاً عند المحدثين أصلاً لا يخلو عن شيء، فقد عزاه الزركشي في "الأحاديث المشتهرة" إلى كتاب "الحجة" لنصر المقدسي ولم يذكر سنده ولا صحته لكن ورد ما يقويه في الجملة مما نقل من كلام السلف، والحديث الذي أوردناه قبل وإن رواه الطبري والبيهقي في "المدخل" بسند ضعيف عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما على أنه يكفي في هذا الباب الحديث الذي أخرجه الشيخان وغيرهما، فالحق الذي لا محيد عنه أن المراد اختلاف الصحابة رضي الله تعالى عنهم ومن شاركهم في الاجتهاد كالمجتهدين المعتد بهم من علماء الدين الذين ليسوا بمبتدعين وكون ذلك رحمة لضعفاء الأمة، ومن ليس في درجتهم مما لا ينبغي أن ينتطح فيه كبشان ولا يتنازع فيه اثنان فليفهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 4 صـ 25.23﴾

فائدة

قال الفخر :

إنما قال : ﴿ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ البينات ﴾ ولم يقل ﴿ جَاءتْهُمْ ﴾ لجواز حذف علامة من الفعل إذا كان فعل المؤنث متقدماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 148 ﴾

وقال القرطبى :

"جاءهم" مذكر على الجمع ، وجاءتهم على الجماعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 166 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

قال الفخر :

﴿ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني الذين تفرقوا لهم عذاب عظيم في الآخرة بسبب تفرقهم ، فكان ذلك زجراً للمؤمنين عن التفرق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 148 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

هؤلاء أقوام أظهر عليهم في الابتداء رقومَ الطلب ، ثم وسمهم في الانتهاء بِكَيِّ الفُرقة ، فباتوا

في شق الأحباب، وأصبحوا في زمرة الأجانب. انتهى انتهى. ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 1 صـ 268﴾

(246/126)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله:

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

ينهى تعالى عباده أن يكونوا كاليهود في افتراقهم مذاهب، واختلافهم عن الحق بسبب اتباع الهوى، وطاعة النفس، والحسد، حتى صار كل فريق منهم يصدق من الأنبياء بعضاً دون بعض، ويدعو إلى ما ابتدعه في دينه، فصاروا إلى العداوة والفرقة من بعد ما جاءتهم الآيات الواضحة، المبينة للحق، الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة، وهي كلمة الحق، فالنهي متوجه إلى المتصدين للدعوة أصالة، وإلى أعقابهم تبعاً. وفي قوله تعالى: ﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ من التأكيد والمبالغة في وعيد المتفرقين، والتشديد في تهديد المشبهين بهم، ما لا يخفى.

تنبيهات :

الأول : ذكر الفخر الرازي من وجوه قوله تعالى : ﴿ اخْتَلَفُواْ ﴾ أي : بأن صار كل واحد منهم يدعي أنه على الحق ، وأن صاحبه على الباطل . ثم قال : وأقول إنك إذا أنصفت علمت أن أكثر علماء هذا الزمان صاروا موصوفين بهذه الصفة . فنسأل الله العفو والرحمة – انتهى كلامه – وقوله هذا الزمان إشارة إلى أن هذا الحال لم يكن في علماء السلف ، وما زالوا يختلفون في الفروع وفي الفتاوى بحسب ما قام لديهم من الدليل ، ما أداه إليه اجتهادهم ، ولم يضلل بعضهم بعضاً ، ولم يدّع أحدهم أنه على الصواب الذي لا يحتمل الخطأ وأن مخالفه على خطأ لا يحتمل الصواب ، وإنما نشأ هذا من جمود المقلدة المتأخرين وتعصبهم وظنهم عصمة مذهبهم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . وقد تفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في البلاد ، وصار عند كل قوم علم غير ما عند الآخرين ، وهم على وحدتهم وتناصرهم .

الثاني : قال القاشاني : يعني بالآيات : الحجج العقلية والشرعية الموجبة لاتحاد الوجهة ، واتفاق الكلمة ، فإن للناس طبائع وغرائز مختلفة ، وأهواء متفرقة ، وعادات وسيراً

متفاوتة ، مستفادة من أمزجتهم وأهويتهم ، ويترتب على ذلك فهوم متباينة ، وأخلاق متعادية ، فإن لم يكن لهم مقتدى وإمام ، تتحد عقائدهم وسرهم وآراؤهم بمتابعته ، وتتفق كلماتهم وعاداتهم وأهوائهم بمحبته وطاعته ، كانوا مهملين متفرقين ، فرائس للشيطان ، كشريدة الغنم ، تكون للذئب . ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام : لا بد للناس من إمام بر أو فاجر ، ولم يرسل نبي الله صلى الله عليه وسلم رجلين فصاعداً لشأن ، إلا وأمّر أحدهما على الآخر ، وأمَرَ الآخر بطاعته ومتابعته ، ليتحد الأمر وينتظم ، وإلا وقع الهرج والمرج ، واضطرب أمر الدين والدنيا ، واختل نظام المعاش والمعاد . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < من فارق الجماعة قيد شبر لم ير بحبوحة الجنة > . وقال : < الله مع الجماعة > . ألا ترى أن الجمعية الْإِنْسَانْية إذا لم تنضبط برئاسة القلب ، وطاعة العقل ، كيف اختل نظامها ، وآلت إلى الفساد والتفرق ، الموجب لخسار الدنيا والآخرة ، ولما نزل قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ ، خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً فقال : < هذا سبيل الرشد ، ثم خطّ عن يمينه وشماله خطوطاً فقال : هذه سبل ، على كل سبيل شيطان يدعو إليه > .

الثالث : قال شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية ، قدس سره ، في أول كتابه " رفع الملام عن الأئمة الأعلام " . وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً يعتقد مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء من سنته ، دقيق ولا جليل ، فإنهم متفقون اتفاقا يقينيا على وجوب اتباع الرسول ، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك ، إلا الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن إذا وجد الواحد منهم قول ، قد جاء حديث صحيح بخلافه ، فلا بد له من عذر في تركه . وجماع الأعذار ثلاثة أصناف :

أحدها : عدم اعتقاده أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله .

الثاني : عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول .

الثالث : اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ .

وهذه الأصناف الثلاثة تتفرع إلى أسباب متعددة . ثم أوسع المقال في ذلك .

(249/126)

وذكر قدس سره ، في بعض فتاويه ، أن السلف والأئمة الأربعة والجمهور يقولون : الأدلة بعضها أقوى من بعض في نفس الأمر . وعلى الإِنْسَانْ أن يجتهد ويطلب الأقوى . فإذا رأى دليلاً أقوى من غيره ، ولم ير ما يعارضه ، عمل به ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . وإذا

كان في الباطن ما هو أرجح منه كان مخطئاً معذوراً ، وله أجر على اجتهاده وعمله بما يين له رجحانه ، وخطؤه مغفور له ، وذلك الباطن هو الحكم ، لكن بشرط القدرة على معرفته ، فمن عجز عن معرفته لم يؤاخذ بتركه ، فإذا أريد بالخطأ الإثم ، فليس المجتهد بمخطئ ، بل كان مجتهد مصيب ، مطيع لله ، فاعل ما أمره الله به ، وإذا أريد له عدم العلم بالحق في نفس الأمر ، فالمصيب واحد ، وله أجران . كما في المجتهدين في جهة الكعبة ، إذا صلوا إلى أربع جهات ، فالذي أصاب الكعبة واحد ، وله أجران لاجتهاده وعمله ، كان أكمل من غيره ، والمؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، ومن زاده الله علماً وعملاً زاده الله أجراً بما زاده من العلم والعمل ، قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : 83] قال مالك عن زيد بن أسلم : بالعلم ، وكذلك قال في قصة يوسف : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 76] . وقد تبين بذلك أن جميع المجتهدين إنما قالوا بعلم ، واتبعوا العلم ، وأن الفقه من أجلّ العلوم ، وأنهم ليسوا من الذين لا يتبعون إلا الظن ، لكن بعضهم قد يكون عنده علم ليس عند الآخر ، إما بأن سمع ما لم يسمع الآخر ، وإما بأن فهم ما لم يفهم الآخر ، كما قال تعالى : ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ

وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ [الأنبياء : 78 – 79] . وهذه حال أهل الاجتهاد والنظر والاستدلال ، في الأصول والفروع .

ثم قال : وإذا تدبر الْإِنْسَانُ تنازع الناس وجد عند كل طائفة من العلم ما ليس عند الأخرى ، كما في مسائل الأحكام . ولم يستوعب الحق إلا من اتبع المهاجرين والأنصار ، وآمن بما جاء به الرسول كله على وجهه ، وهؤلاء هم أهل المرحمة الذين لا يختلفون . انتهى .

فعلم أن اختلاف الصحابة والتابعين والمجتهدين في الفروع ليس مما تشمله الآية ، فإن المراد منها الاختلاف عن الحق ، بعد وضوحه ، برفضه ، وشتان ما بين الاختلافين . ثم على طالب الحق أن يستعمل نظره فيما يؤثر من هذه الخلافيات ، فما وجده أقوى دليلاً أخذ به ، وإلا تركه . وحينئذ يكون ممن قال الله تعالى فيه : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [الزمر : 17 – 18] . وإذا اشتبه عليه مما قد اختلف فيه ، فليدعُ بما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول – إذا قام يصلي من الليل – < اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم > . فإن

الله تعالى قال فيما رواه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : < يا عبادي كلكم ضال إلا من هديت ، فاستهدوني أهدكم > . انتهى .

(251/126)

الرابع : ذكر بعض المفسرين ، هنا ، ما روي من حديث < اختلاف أمتي رحمة > ، ولا يعرف له سند صحيح ، ورواه الطبراني والبيهقي في " المدخل " بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعاً . قال بعض المحققين : هو مخالف لنصوص الآيات والأحاديث ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود : 118 - 119] .

ونحوه قوله صلى الله عليه وسلم : < لا تختلفوا فتختلف قلوبكم > وغيره من الأحاديث لكثيرة ، والذي يقطع به أن الاتفاق خير من الخلاف - انتهى - .

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود بسند هما عن أبي عامر عبد الله بن يحيى قال : حججنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : < إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعني الأهواء - كلها في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة ، وأنه سيخرج في أمتي أقوام تَجَارَى بهم تلك الأهواء ، كما يتجارى الكلب

بصاحبه ، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله ؛ والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء نبيكم صلى الله عليه وسلم ، لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به > .

قال ابن كثير : وقد روي هذا الحديث من طرق . انتهى .

نبذة في مبدأ الاختلاف في هذه الأمة من أهل الأهواء :

(252/126)

ذكر الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتاب " الفرقان بين الحق والباطل " أن المسلمين كانوا في خلافة أبي بكر وعمر ، وصدراً من خلافة عثمان في السنة الأولى من ولايته متفقين لا تنازع بينهم ، ثم حدث في أواخر خلافة عثمان أمور أوجبت نوعاً من التفرق ، وقام قوم من أهل الفتنة والظلم ، فقتلوا عثمان فتفرق المسلمون بعد مقتل عثمان . ولما اقتتل المسلمون بصِفّين واتفقوا على تحكيم حكمين خرجت الخوارج على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وفارقوه وفارقوا جماعة المسلمين . وحدث في أيامه الشيعة أيضاً ، لكن كانوا مختفين بقولهم لا يظهرونه لعلي وشيعته ، بل كانوا ثلاث طوائف .

طائفة : تقول إنه إله ، وهؤلاء ، لما ظهر عليهم ، أحرقهم بالنار .

والثانية : السابة وكان قد بلغه عن أبي السودا أنه كان يسب أبا بكر وعمر ، فطلبه قيل :

إنه طلبه ليقتله فهرب منه .

والثالثة : المفضِّلة الذي يفضلونه على الشيخين ، وقد تواتر عنه أنه قال : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر . وروى ذلك البخاري في صحيحه .

ثم في آخر عصر الصحابة حدثت القدرية ، ثم حدثت المرجئة ، ثم قال : وإن الناس في ترتيب أهل الأهواء على أقسام : منهم من يرتبهم على زمان حدوثهم ، فيبدأ بالخوارج ، ومنهم من يرتبهم بحسب خفة أمرهم وغلظه فيبدأ بالمرجئة ويختم بالجهمية ، كما فعله كثير من أصحاب أحمد رضي الله عنه ، كعبد الله ابنه ، ونحوه ، وكالخلاّل ، وأبي عبد الله بن بطة وأمثالهما ، وكأبي الفرج المقدسي . وكلا الطائفتين تختم بالجهمية ، لأنهم أغلظوا البدع . وكالبخاري في صحيحه . فإنه بدأ بكتاب الإيمان والرد على المرجئة ، وختمه بكتاب التوحيد والرد على الزنادقة والجهمية .

(253/126)

ثم قال قدس سره : إن السلف كان اعتصامهم بالقرآن والإيمان ، فلما حدث في الأمة ما حدث من التفرق والاختلاف ، صار أهل التفرق والاختلاف شيعاً ، وعمدتهم في الباطن ليست على القرآن والإيمان ، ولكن على أصول ابتدعها شيوخهم ، عليها يعتمدون في

التوحيد والصفات والقدرية والإيمان بالرسول وغير ذلك . وثم ما ظنوا أنه يوافقها من القرآن احتجوا به ، وما خالفهما تأولوه ، فلهذا تجدهم إذا احتجوا بالقرآن والحديث لم يعتنوا بتحرير دلالتهما ، ولم يستقصوا ما في القرآن من ذلك المعنى ، إذ كان اعتمادهم في نفس الأمر إلى غير ذلك . والآيات التي تخالفهم يشرعون في تأويلها شروع من قصد ردها كيف أمكن . ليس مقصوده أن يفهم مراد الرسول ، بل أن يدفع منازعه من الاحتجاج بها .

ثم قال قدس سره : فعلى كل مؤمن أن لا يتكلم في شيء من الدين إلا تبعاً لما جاء به الرسول ، ولا يتقدم بين يديه ، بل ينظر ما قال ، فيكون قوله تبعاً لقوله ، وعلمه تبعاً لأمره ، كما كان الصحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم بإحسان ، وأئمة المسلمين . فلهذا لم يكن أحد منهم يعارض النصوص بمعقوله ولا يوسوس ديناً غير ما جاء به الرسول . وإذا أراد معرفة شيء من الدين والكلام فيه ، نظر فيما قاله الله والرسول ، فمنه يتعلم وبه يتكلم ، وفيه ينظر ويتفكر ، وبه يستدل ، فهذا أصل أهل السنة .

وقال قدس سره في رسالته إلى جماعة الشيخ عدي بن مسافر ما نصه : وهذا التفريق الذي حصل من الأمة علمائها ومشايخها وأمرائها وكبرائها هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها

، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة : 14] ، فمتى ترك الناس بعضهم ما أمرهم الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء ، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا ، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا ، فإن الجماعة رحمة ، والفرقة عذاب ، وجماع ذلك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عِمْرَان : 102 – 104] . فمن الأمر بالمعروف الأمر بالائتلاف والاجتماع والنهي عن الاختلاف والفرقة ، ومن النهي عن المنكر : إقامة الحدود على من خرج من شريعة الله تعالى . ثم قال : ويجب على أولي الأمر ، وهم علماء كل طائفة وأمراؤها ومشايخها أن يقوّموا عامتهم ويأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر ، فيأمرونهم بما أمر الله به ورسوله ، وينهونهم عما نهى الله عنه ورسوله صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا . هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 4 صـ 424.430 ﴾

ومن فوائد صاحب المنار في الآيتين

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

(256/126)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - مَا مِثَالُهُ: إِنَّ اللهَ - تَعَالَى - قَدْ وَضَعَ لَنَا بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ قَاعِدَةً نَرْجِعُ إِلَيْهَا عِنْدَ تَفَرُّقِ الْأَهْوَاءِ وَاخْتِلَافِ الْآرَاءِ، وَهِيَ الِاعْتِصَامُ بِحَبْلِهِ; وَلِذَلِكَ نَهَانَا عَنِ التَّفَرُّقِ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالِاعْتِصَامِ، الَّذِي قُلْنَا فِي تَفْسِيرِهِ: إِنَّهُ تَمْثِيلٌ لِجَمْعِ أَهْوَائِهِمْ وَضَبْطِ إِرَادَتِهِمْ. وَمِنَ الْقَوَاعِدِ الْمُسَلَّمَةِ: أَنَّهُ لَا تَقُومُ لِقَوْمٍ قَائِمَةٌ إِلَّا إِذَا كَانَ لَهُمْ جَامِعَةٌ تَضُمُّهُمْ وَوَحْدَةٌ تَجْمَعُهُمْ وَتَرْبِطُ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ، فَيَكُونُونَ بِذَلِكَ أُمَّةً حَيَّةً كَأَنَّهَا جَسَدٌ وَاحِدٌ، كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ: مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى رَوَاهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ. وَحَدِيثِ: الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى. فَإِذَا كَانَتِ الْجَامِعَةُ الْمُوَحِّدَةُ لِلْأُمَّةِ هِيَ مَصْدَرُ حَيَاتِهَا - سَوَاءٌ أَكَانَتْ مُؤْمِنَةً أَمْ كَافِرَةً - فَلَا شَكَّ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلَى

بِالْوَحْدَةِ مِنْ غَيْرِهِمْ لِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ لَهُمْ إِلَهًا وَاحِدًا يَرْجِعُونَ فِي جَمِيعِ شُئُونِهِمْ إِلَى حُكْمِهِ الَّذِي يَعْلُو جَمِيعَ الْأَهْوَاءِ ، وَيَحُولُ دُونَ التَّفَرُّقِ وَالْخِلَافِ ، بَلْ هَذَا هُوَ يَنْبُوعُ الْحَيَاةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ لِمَا دُونَ الْأُمَمِ مِنَ الْجَمْعِيَّاتِ

(257/126)

حَتَّى الْبُيُوتِ (الْعَائِلَاتِ) وَلَمَّا كَانَ لِكُلِّ جَامِعَةٍ وَكُلِّ وَحْدَةٍ حِفَاظٌ يَحْفَظُهَا أَرْشَدَنَا - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - إِلَى مَا نَحْفَظُ بِهِ جَامِعَتَنَا الَّتِي هِيَ مَنَاطُ وَحْدَتِنَا - وَأَعْنِي بِهَا الِاعْتِصَامَ بِحَبْلِهِ - فَقَالَ : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

فَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ حِفَاظُ الْجَامِعَةِ وَسِيَاجُ الْوَحْدَةِ .

وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - : مِنْكُمْ هَلْ مَعْنَاهُ : بَعْضُكُمْ ، أَمْ " مِنْ " بَيَانِيَّةٌ ؟ ذَهَبَ مُفَسِّرُنَا (الْجَلَالُ) إِلَى الْأَوَّلِ ; لِأَنَّ ذَلِكَ فَرْضُ كِفَايَةٍ ، وَسَبَقَهُ إِلَيْهِ الْكَشَّافُ وَغَيْرُهُ .

(258/126)

وَقَالَ بَعْضُهُمْ بِالثَّانِي ، قَالُوا : وَالْمَعْنَى : وَلْتَكُونُوا أُمَّةً تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْكَلَامَ عَلَى حَدِّ " لِيَكُنْ لِي مِنْكَ صَدِيقٌ " فَالْأَمْرُ عَامٌّ ، وَيَدُلُّ عَلَى الْعُمُومِ قَوْلُهُ – تَعَالَى – : وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ [103 : 1 – 3] فَإِنَّ التَّوَاصِيَ هُوَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ ، وَقَوْلُهُ – عَزَّ وَجَلَّ – : لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [5 : 78 ، 79] وَمَا قَصَّ اللهُ عَلَيْنَا شَيْئًا مِنْ أَخْبَارِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ إِلَّا لِنَعْتَبِرَ بِهِ .

وَقَدْ أَشَارَ الْمُفَسِّرُ (الْجَلَالُ) إِلَى الِاعْتِرَاضِ الَّذِي يَرِدُ عَلَى الْقَوْلِ بِالْعُمُومِ وَهُوَ أَنَّهُ يُشْتَرَطُ فِيمَنْ يَأْمُرُ وَيَنْهَى أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِالْمَعْرُوفِ الَّذِي يَأْمُرُ بِهِ وَالْمُنْكَرِ الَّذِي يَنْهَى عَنْهُ ، وَفِي النَّاسِ جَاهِلُونَ لَا يَعْرِفُونَ الْأَحْكَامَ ، وَلَكِنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَا يَنْطَبِقُ عَلَى مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُ مِنَ الْعِلْمِ ، فَإِنَّ الْمَفْرُوضَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ عَلَيْهِ خِطَابُ التَّنْزِيلِ هُوَ أَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَجْهَلُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ مَأْمُورٌ بِالْعِلْمِ وَالتَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْمَعْرُوفِ وَالْمُنْكَرِ ، عَلَى أَنَّ الْمَعْرُوفَ عِنْدَ إِطْلَاقِهِ يُرَادُ بِهِ مَا

عرَفَتْهُ الْعُقُولُ وَالطِّبَاعُ السَّلِيمَةُ، وَالْمُنْكَرُ ضِدُّهُ وَهُوَ مَا أَنْكَرَتْهُ الْعُقُولُ وَالطِّبَاعُ السَّلِيمَةُ، وَلَا يَلْزَمُ لِمَعْرِفَةِ هَذَا قِرَاءَةُ حَاشِيَةِ ابْنِ عَابِدِينَ عَلَى الدُّرِّ، وَلَا فَتْحِ الْقَدِيرِ وَلَا الْمَبْسُوطِ، وَإِنَّمَا الْمُرْشِدُ إِلَيْهِ – مَعَ سَلَامَةِ الْفِطْرَةِ – كِتَابُ اللهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ الْمَنْقُولَةُ بِالتَّوَاتُرِ وَالْعَمَلِ، وَهُوَ مَا لَا يَسَعُ أَحَدًا جَهْلُهُ، وَلَا يَكُونُ الْمُسْلِمُ مُسْلِمًا إِلَّا بِهِ، فَالَّذِينَ مَنَعُوا عُمُومَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ جَوَّزُوا أَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُ جَاهِلًا لَا يَعْرِفُ الْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ، وَلَا يُمَيِّزُ بَيْنَ الْمَعْرُوفِ وَالْمُنْكَرِ، وَهُوَ لَا يَجُوزُ دِينًا .

(260/126)

ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الدَّعْوَةَ إِلَى الْخَيْرِ وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ لَهَا مَرَاتِبُ، فَالْمَرْتَبَةُ الْأُولَى: هِيَ دَعْوَةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَائِرَ الْأُمَمِ إِلَى الْخَيْرِ وَأَنْ يُشَارِكُوهُمْ فِيمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ النُّورِ وَالْهُدَى، وَهُوَ الَّذِي يَتَّجِهُ بِهِ قَوْلُ الْمُفَسِّرِ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْخَيْرِ: الْإِسْلَامُ . وَقَدْ فَسَّرْنَا الْإِسْلَامَ مِنْ قَبْلُ بِأَنَّهُ دِينُ اللهِ عَلَى لِسَانِ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ لِجَمِيعِ الْأُمَمِ، وَهُوَ الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ – تَعَالَى – وَالرُّجُوعُ عَنِ الْهَوَى إِلَى حُكْمِهِ، وَهَذَا مَطْلُوبٌ مِنَّا بِحُكْمِ جَعْلِنَا أُمَّةً وَسَطًا وَشُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ – كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ – وَخَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ – كَمَا سَيَأْتِي بَعْدَ آيَاتٍ مُقَيَّدًا بِكَوْنِنَا نَأْمُرُ

بِالْمَعْرُوفِ وَنَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ – وَبِحُكْمِ قَوْلِهِ – تَعَالَى – فِي وَصْفِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أُذِنَ لَهُمْ بِالْقِتَالِ : الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ [22 : 41]

(261/126)

فَالْوَاجِبُ دَعْوَةُ النَّاسِ إِلَى الْإِسْلَامِ أَوَّلًا ، فَإِنْ أَجَابُوا فَالْوَاجِبُ أَمْرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، قَالَ : وَأَمَّا كَوْنُ هَذَا حِفَاظًا لِلْوَحْدَةِ وَمَانِعًا مِنَ الْفُرْقَةِ فَهُوَ أَنَّ الْأُمَّةَ إِذَا اجْتَمَعَتْ عَلَى هَذَا الْمَقْصِدِ الْعَالِي الشَّرِيفِ وَهُوَ أَنْ تَكُونَ مُسَيْطِرَةً عَلَى الْأُمَمِ كُلِّهَا وَمُرَبِّيَةً لَهَا وَمُهَذِّبَةً لِنُفُوسِهَا فَلَا شَكَّ أَنَّ جَمِيعَ الْأَهْوَاءِ الشَّخْصِيَّةِ تَتَلَاشَى مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَإِذَا عَرَضَ الْحَسَدُ وَالْبَغْيُ لِأَحَدٍ مِنْ أَفْرَادِهِمْ تَذَكَّرُوا وَظِيفَتَهُمُ الْعَالِيَةَ الشَّرِيفَةَ الَّتِي لَا تَتِمُّ إِلَّا بِالتَّعَاوُنِ وَالِاجْتِمَاعِ ، فَأَزَالَتِ الذِّكْرَى مَا عَرَضَ ، وَشَفَتِ النُّفُوسُ قَبْلَ تَمَكُّنِ الْمَرَضِ .

(262/126)

وَالْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ فِي الدَّعْوَةِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ : هِيَ دَعْوَةُ الْمُسْلِمِينَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا إِلَى الْخَيْرِ وَتَأْمُرُهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهِيهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَالْعُمُومُ فِيهَا ظَاهِرٌ أَيْضًا ، وَلَهُ طَرِيقَانِ ، أَحَدُهُمَا : الدَّعْوَةُ الْعَامَّةُ الْكُلِّيَّةُ - قَالَ : كَهَذَا الدَّرْسِ - بِبَيَانِ طُرُقِ الْخَيْرِ وَتَطْبِيقِ ذَلِكَ عَلَى أَحْوَالِ النَّاسِ ، وَضَرْبِ الْأَمْثَالِ الْمُؤَثِّرَةِ فِي النُّفُوسِ الَّتِي يَأْخُذُ كُلُّ سَامِعٍ مِنْهَا بِحَسَبِ حَالِهِ . وَإِنَّمَا يَقُومُ عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ خَوَاصُّ الْأُمَّةِ الْعَارِفُونَ بِأَسْرَارِ الْأَحْكَامِ وَحِكْمَةِ الدِّينِ وَفِقْهِهِ ، وَهُمُ الْمُشَارُ إِلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ [9 : 122] وَمِنْ مَزَايَا هَؤُلَاءِ : تَطْبِيقُ أَحْكَامِ اللهِ - تَعَالَى - عَلَى مَصَالِحِ الْعِبَادِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، فَهُمْ يَأْخُذُونَ مِنَ الْأَمْرِ الْعَامِّ بِالدَّعْوَةِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ عَلَى مِقْدَارِ عِلْمِهِمْ .

وَالطَّرِيقُ الثَّانِي : الدَّعْوَةُ الْجُزْئِيَّةُ الْخَاصَّةُ ، وَهِيَ مَا يَكُونُ بَيْنَ الْأَفْرَادِ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ ، وَيَسْتَوِي فِيهِ الْعَالِمُ وَالْجَاهِلُ ، وَهُوَ مَا يَكُونُ بَيْنَ الْمُتَعَارِفِينَ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى الْخَيْرِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ عِنْدَ عُرُوضِهِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ الشَّرِّ وَالتَّحْذِيرِ مِنْهُ ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ التَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ يَأْخُذُ مِنَ الْفَرِيضَةِ الْعَامَّةِ بِقَدْرِهِ .

أَقُولُ : أَمَّا كَوْنُ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ حِفَاظًا لِلْوَحْدَةِ وَسِيَاجًا دُونَ الْفُرْقَةِ فَهُوَ ظَاهِرٌ عَلَى الطَّرِيقِ الْأَوَّلِ ، فَلَوْ كَانَ أَهْلُ الْبَصِيرَةِ وَالْفِقْهِ الْحَقِيقِيِّ فِي الدِّينِ يُعَمِّمُونَ دَعْوَتَهُمْ وَإِرْشَادَهُمْ فِي الْأُمَّةِ وَيُوَاصِلُونَهَا لَكَانُوا مَوَارِدَ لِحَيَاتِهَا وَمَعَاقِدَ لِرَابِطَةِ وَحْدَتِهَا ، وَكَذَلِكَ

عَلَى الطَّرِيقِ الثَّانِي ، فَإِنَّ أَفْرَادَ الْأُمَّةِ إِذَا قَامَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِنَصِيحَةِ الْآخَرِ - دَعْوَةً وَأَمْرًا وَنَهْيًا - امْتَنَعَ فُشُوُّ الشَّرِّ وَالْمُنْكَرِ فِيهِمْ ، وَاسْتَقَرَّ أَمْرُ الْخَيْرِ وَالْمَعْرُوفِ بَيْنَهُمْ . فَكَيْفَ تَجِدُ الْفُرْقَةُ مَنْفَذًا إِلَيْهِمْ ؟ أَمْ كَيْفَ يَسْتَقِرُّ الْخِلَافُ فِي الدِّينِ بَيْنَهُمْ ؟ وَنَاهِيكَ إِذَا قَامَ - كُلٌّ عَلَى طَرِيقِهِ الْمُسْتَقِيمِ - الْعُلَمَاءُ الْحُكَمَاءُ فِي مَسَاجِدِهِمْ وَمَعَابِدِهِمْ ، وَجَمِيعُ الْأَفْرَادِ فِي مَنَازِلِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ وَمَعَاهِدِهِمْ .

(264/126)

وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّنَا نَرَى التَّصَدِّيَ لِنَصِيحَةِ الْأَفْرَادِ وَأَمْرِهِمْ وَنَهْيِهِمْ مَجْلَبَةً لِلْخِلَافِ وَالْفُرْقَةِ ، لَا دَاعِيَةً إِلَى الْوِفَاقِ وَالْوَحْدَةِ ، وَقَدْ أَوْرَدَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ هَذِهِ الشُّبْهَةَ وَأَجَابَ عَنْهَا ، فَقَالَ مَا مِثَالُهُ : كَيْفَ يَكُونُ التَّآمُرُ وَالتَّنَاهِي حَافِظًا لِلْوَحْدَةِ وَنَحْنُ نَرَى الْأَمْرَ بِالْعَكْسِ ؟ نَرَى التَّنَاصُحَ سَبَبَ التَّخَاصُمِ وَالتَّدَابُرِ حَتَّى صَارَ مِنْ أَعْسَرِ الْأُمُورِ بَيْنَ الْإِخْوَانِ وَالْأَصْحَابِ أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ : إِنَّكَ فَعَلْتَ كَذَا وَهُوَ مُنْكَرٌ فَارْجِعْ عَنْهُ ، أَوْ إِنَّكَ قَادِرٌ عَلَى كَذَا

مِنَ الْمَعْرُوفِ فَائِتِهِ ، وَذَكَرَ عَنْ نَفْسِهِ – رَحِمَهُ اللَّهُ – أَنَّهُ صَارَ يَجِدُ مِنَ الصَّعْبِ جِدًّا – حَتَّى مَعَ مَنْ يَعُدُّهُ صَنِيعَةً لَهُ أَوْ وَلَدًا أَوْ أَخًا – أَنْ يَنْصَحَهُ فِي الْأَمْرِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ خَشْيَةَ أَنْ يَنْفِرَ وَيَحْمِلَهُ ذَلِكَ عَلَى قَطْعِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الرَّابِطَةِ . قَالَ : فَكَأَنَّ النُّصْحَ لَهُمْ مِنَ الْكُلِّيَّاتِ الَّتِي لَا يُوجَدُ لَهَا إِلَّا فَرْدٌ وَاحِدٌ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ لِهَذَا النُّفُورِ مِنَ النُّصْحِ يَسْلُكُ مَعَ أَصْحَابِهِ وَالْمُتَّصِلِينَ بِهِ مَسْلَكَ الْكِنَايَةِ وَالتَّعْرِيضِ فِي الْغَالِبِ . وَأَجَابَ عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّ هَذَا لَا يُعَدُّ حُجَّةً عَلَى اللَّهِ وَلَا شُبْهَةً عَلَى دِينِهِ ; لِأَنَّهُ مُنْتَهَى مَا تَصِلُ إِلَيْهِ الْأُمَمُ مِنَ الْفَسَادِ وَالْبُعْدِ عَنِ الْخَيْرِ ، وَاسْتِحْقَاقِ الْغَضَبِ الْإِلَهِيِّ .

(265/126)

وَتَكَادُ الْأُمَّةُ الَّتِي يَفْشُو هَذَا فِيهَا أَنْ تَكُونَ مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي تُوُدِّعَ مِنْهَا ، وَإِنَّمَا الْكَلَامُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الْخَيْرِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَشْعُرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِالتَّأْلِيفِ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَإِنْقَاذِهِمْ مِنَ النَّارِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا قَدْ أَشْفَوْا عَلَيْهَا ، وَمَعَ مَنْ يُشَارِكُونَهُمْ فِي شُعُورِهِمْ ذَاكَ وَيَتَّبِعُونَ سُنَّتَهُمْ فِي الِاهْتِدَاءِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ; كَمَا وَقَعَ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ فِي الرِّوَايَةِ الَّتِي سَبَقَ ذِكْرُهَا ، فَأَمْثَالُ هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يَصْدُقُ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ وَالضِّيَاءُ مِنْ حَدِيثِ

أَنَسٍ ، وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ ، وَأَبُو دَاوُدَ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِزِيَادَةِ وَالْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ يَكُفُّ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَيَحُوطُهُ مِنْ وَرَائِهِ .

(266/126)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنَّمَا نَحْنُ فِيهِ الْآنَ مِنْ سُوءِ الْحَالِ أَثَرُ تَفْرِيطٍ كَبِيرٍ تَمَادَى فِي زَمَنٍ طَوِيلٍ بَعْدَمَا عَظُمَ التَّسَاهُلُ فِي تَرْكِ التَّنَاصُحِ ، وَبَطَلَ رَدُّ مَا يَتَنَازَعُ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ - أَيْ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ - وَخَوَتِ الْقُلُوبُ مِنِ احْتِرَامِ الدِّينِ حَتَّى لَمْ يَعُدْ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الْإِرَادَةِ ، بَلْ صَارَ كُلُّ شَخْصٍ أَسِيرَ هَوَاهُ . وَمَتَى أَمْسَى النَّاسُ هَكَذَا - لَا دِينَ وَلَا مُرُوءَةَ وَلَا أَدَبَ - فَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ الطَّائِفَةِ مِنْهُمْ وَالْقَطِيعِ مِنَ الْمَعْزِ أَوِ الْبَقَرِ ؟

عِنْدَ هَذَا سَأَلَ سَائِلٌ عَنْ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ [5 : 105] فَأَجَابَ : إِنَّ هَذَا بَعْدَ الْقِيَامِ بِفَرِيضَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، أَيْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَضُرُّهُ ضَلَالُ غَيْرِهِ إِذَا هُوَ أَمَرَهُ وَنَهَاهُ ; فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ مُهْتَدِيًا مَعَ تَرْكِهِ لِهَذِهِ الْفَرِيضَةِ . ثُمَّ قَالَ : مِنَ الْعَجَبِ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ اشْتَرَطُوا لِهَذِهِ الْفَرِيضَةِ شَرْطًا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ وَلَمْ يُنْزِلْهُ فِي كِتَابِهِ ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَأْمُرُ وَلَا يَنْهَى إِلَّا مَنْ كَانَ مُؤْتَمِرًا وَمُنْهِيًّا ، فَالْمُخْتَارُ

عِنْدَهُ مَا حَقَّقَهُ الْإِمَامُ الْغَزَّالِيُّ مِنْ عَدَمِ اشْتِرَاطِ ذَلِكَ ، عَلَى أَنَّ الْإِمَامَيْنِ يَقُولَانِ بِوُجُوبِ كَوْنِ الْوَاعِظِ الْمُتَصَدِّي لِلْإِرْشَادِ وَالدَّعْوَةِ الْعَامَّةِ مُهْتَدِيًا عَامِلًا بِعِلْمِهِ مُتَّصِفًا بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ .

(267/126)

وَقَدْ قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ بِمَنْعِ أُولَئِكَ الْجَاهِلِينَ الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْصِبُونَ أَنْفُسَهُمْ لِلْوَعْظِ وَالْإِرْشَادِ مِنْ تَسَلُّقِ هَذِهِ الدَّرَجَةِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ يُشْتَرَطُ فِي فَرْضِيَّةِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ الِائْتِمَارُ

وَالِانْتِهَاءُ ، بَلْ لِأَنَّ الْمُرْشِدَ الْعَامَّ مَحَلٌّ لِقُدْوَةِ الْعَوَامِّ ، فَإِذَا كَانَ ضَالًّا يَكُونُ كَالْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ إِثْمُهُ أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِ ، فَهُوَ يُمْنَعُ مِنْهَا لِدَرْءِ الْمَفْسَدَةِ ، وَلَا يُمْنَعُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ وَنَهْيٍ .

فَحَاصِلُ رَأْيِهِ : أَنْ يُمْنَعَ مِنْ مَنْصِبِ الْإِرْشَادِ الَّذِي قَالَ إِنَّهُ خَاصٌّ بِالْعَارِفِينَ بِأَسْرَارِ الشَّرِيعَةِ وَفُقَهَاءِ النُّفُوسِ فِيهَا . وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَامِلًا بِعِلْمِهِ مُهْتَدِيًا بِمَا يَهْدِي إِلَيْهِ ; لِأَنَّ الْعِلْمَ الصَّحِيحَ يُوجِبُ الْعَمَلَ ، كَمَا قَرَّرْنَاهُ مِرَارًا ، وَقُلْنَا إِنَّهُ رَأْيُهُ وَرَأْيُ الْغَزَّالِيِّ ، وَلَا يَمْنَعُهُ مِنْ كُلِّ نَصِيحَةٍ وَأَيِّ أَمْرٍ وَنَهْيٍ بَلْ يَأْمُرُهُ بِذَلِكَ وَإِنْ

لَبِسَهُ الْعَارُ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ الشَّاعِرُ بِقَوْلِهِ :

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ . . . عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

(268/126)

وَلَيْسَ مُرَادُ الشَّاعِرِ نَهْيَ الْمُتَخَلِّقِ بِالْخُلُقِ السَّيِّءِ أَنْ يَأْمُرَ بِمِثْلِهِ ، بَلْ مُرَادُهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ الْجَمْعُ بَيْنَ النَّهْيِ وَالِانْتِهَاءِ . وَمِمَّا قَالَهُ الْغَزَّالِيُّ فِي الْإِحْيَاءِ : إِنَّهُ يَجِبُ عَلَى مَنْ يَزْنِي بِامْرَأَةٍ أَنْ يَأْمُرَهَا بِسَتْرِ بَدَنِهَا ، أَوْ قَالَ وَجْهِهَا ، وَإِلَّا كَانَ مُرْتَكِبًا لِمَعْصِيَةٍ زَائِدَةٍ عَنْ مَعْصِيَةِ الزِّنَا وَلَوَازِمِهِ ، وَهِيَ مَعْصِيَةُ تَرْكِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَكَانَ يَقُولُ : يَجِبُ عَلَى مُدِيرِ الْكَأْسِ أَنْ يَنْهَى الْجُلَّاسَ .

(269/126)

وَأَقُولُ : إِنَّ هَذِهِ الشُّبْهَةَ الَّتِي سُئِلَ عَنْهَا الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ قَدِيمَةٌ عَرَضَتْ لِلنَّاسِ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ . فَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَأَحْمَدُ وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْمَسَانِيدِ ، وَالتِّرْمِذِيُّ - وَصَحَّحَهُ - وَأَبُو يَعْلَى وَالْكَجِّيُّ مِنْ أَصْحَابِ السُّنَنِ ، وَابْنُ حِبَّانَ وَالدَّارَقُطْنِيُّ فِي الْأَفْرَادِ ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الشُّعَبِ وَغَيْرُهُمْ ، كُلُّهُمْ مِنْ طَرِيقِ قَيْسِ بْنِ حَازِمٍ قَالَ : " قَامَ أَبُو بَكْرٍ خَطِيبًا فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ

الْآيَةَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ وَإِنَّكُمْ تَضَعُونَهَا غَيْرَ مَوْضِعِهَا ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ : إِذَا رَأَى النَّاسُ الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ وَلِابْنِ مَرْدَوَيْهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَعَدَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَوْمَ سُمِّيَ خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ فَوَضَعَهَا عَلَى الْمَجْلِسِ الَّذِي كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَجْلِسُ عَلَيْهِ مِنْ مِنْبَرِهِ ، ثُمَّ قَالَ : سَمِعْتُ الْحَبِيبَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي هَذَا الْمَجْلِسِ يَتَأَوَّلُ هَذِهِ الْآيَةَ . . . . ثُمَّ فَسَّرَهَا ، فَكَانَ تَفْسِيرُهُ لَنَا أَنْ قَالَ : نَعَمْ لَيْسَ مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِمُنْكَرٍ

وَيُفْسَدُ فِيهِمْ بِقَبِيحٍ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ وَلَمْ يُنْكِرُوهُ إِلَّا حَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ يَعُمَّهُمْ بِالْعُقُوبَةِ جَمِيعًا ثُمَّ لَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ ، ثُمَّ أَدْخَلَ أُصْبُعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ فَقَالَ : أَلَّا أَكُونَ سَمِعْتُهُ مِنَ الْحَبِيبِ صُمَّتَا " .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَيَشْتَرِطُ بَعْضُهُمْ لِلْوُجُوبِ شَرْطًا آخَرَ ، وَهُوَ الْأَمْنُ عَلَى النَّفْسِ ، وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَقُولُوا : عَلَى الْآمِرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِي عَنِ الْمُنْكَرِ أَنْ يَدْعُوَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ

الْحَسَنَةِ حَتَّى لَا يَنْفِرَ النَّاسُ أَوْ لَا يَحْمِلَهُمْ عَلَى إِيذَائِهِ ، فَإِنَّ اللهَ يُبَيِّنُ أَنَّهُ لَا نَجَاةَ لِلنَّاسِ إِلَّا بِالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ . وَلَمْ يَشْتَرِطْ فِي ذَلِكَ شَرْطًا ، أَيْ فَيَجِبُ أَنْ نَأْخُذَ النُّصُوصَ عَلَى إِطْلَاقِهَا ، وَأَنْ نَقُومَ بِهَا بِقَدْرِ الِاسْتِطَاعَةِ أَوِ الطَّاقَةِ وَنَتَّقِي مَعَ ذَلِكَ مَا يَحُفُّ بِهَا مِنَ الْمَهَالِكِ .

(271/126)

أَقُولُ : وَقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَالسَّلَفِ الصَّالِحِينَ عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَى الْخَيْرِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ كَانَ مَحْفُوفًا بِالْمَكَارِهِ وَالْمَخَاوِفِ ، وَكَمْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ مِنْهُمْ مِنْ نَبِيٍّ وَصِدِّيقٍ فَكَانُوا أَفْضَلَ الشُّهَدَاءِ . وَفِي حَدِيثِ جَابِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، ثُمَّ رَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فِي ذَاتِ اللهِ - تَعَالَى - فَقَتَلَهُ عَلَى ذَلِكَ رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَقَالَ : صَحِيحُ الْإِسْنَادِ ، وَتَعَقَّبَهُ الذَّهَبِيُّ بِأَنَّ فِي سَنَدِهِ حَفِيدَ الْعَطَّارِ لَا يُدْرَى مَنْ هُوَ ، وَرَوَاهُ الدَّيْلَمِيُّ وَالضِّيَاءُ الْمَقْدِسِيُّ . وَرَوَى الطَّبَرَانِيُّ نَحْوَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، وَأَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ وَالطَّبَرَانِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ

، وَأَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الشُّعَبِ أَيْضًا عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ . ذَكَرَ ذَلِكَ فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ ، وَوَضَعَ بِجَانِبِهِ عَلَامَةَ الصَّحِيحِ .

(272/126)

أَقُولُ : وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا بِلَفْظِ أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ أَوْ أَمِيرٍ جَائِرٍ وَقَدْ وَرَدَ مِنْ تَصَدِّي عُلَمَاءِ السَّلَفِ لِنَصِيحَةِ الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ الظَّالِمِينَ وَإِيذَاءِ هَؤُلَاءِ لَهُمْ وَسَفْكِهِمْ دِمَاءَ بَعْضِهِمْ مَا يَرُدُّ شَرْطَ أُولَئِكَ الْمُشْتَرِطِينَ لِلْأَمْنِ عَلَيْهِمْ وَيَضْرِبُ بِهِ وُجُوهَهُمْ ، وَلَا يُنَافِي هَذَا كَوْنُ التَّوَقِّي مِنَ الْهَلَكَةِ وَاجِبًا لِذَاتِهِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ ، كَمَا يَجِبُ فِي حَالِ الْجِهَادِ بِالسَّيْفِ ، فَلَا نَتْرُكُ الدَّعْوَةَ إِلَى الْخَيْرِ وَلَا الْجِهَادَ دُونَهُ خَوْفًا عَلَى أَنْفُسِنَا وَحِرْصًا عَلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا نُفَرِّطُ بِأَنْفُسِنَا فِي أَثْنَاءِ دَعْوَتِنَا وَجِهَادِنَا فِيمَا لَا تَتَوَقَّفُ الدَّعْوَةُ وَلَا حِمَايَتُهَا عَلَيْهِ . وَقَدْ يَكُونُ أَكْثَرُ مَا يُصِيبُ الدَّاعِيَ إِلَى الْخَيْرِ مِنَ الْأَذَى نَاشِئًا عَنْ طَرِيقَةِ الدَّعْوَةِ

وَكَيْفِيَّةِ سَوْقِهَا إِلَى الْمَدْعُوِّ وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ مُسْلِمًا وَكَانَتِ الدَّعْوَةُ مُؤَيَّدَةً بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [16 : 125] .

(273/126)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: إِنَّ اللهَ - تَعَالَى - أَمَرَ النَّاسَ بِالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالدَّعْوَةِ إِلَى الْخَيْرِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُعِدُّوا لِذَلِكَ عُدَّتَهُ وَيَعْرِفُوا سُبُلَهُ وَهِيَ مَبْسُوطَةٌ فِي السُّنَّةِ، كَقِصَّةِ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ يُنَادِي فِي الطَّرِيقِ: أُرِيدُ أَنْ أَزْنِيَ، فَجَاءَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَضَرَبَ عَلَى

كَتِفِهِ وَقَالَ: أَتَفْعَلُ هَذَا بِأُمِّكَ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: أَتَفْعَلُهُ بِأُخْتِكَ؟ قَالَ: لَا، وَخَجِلَ الرَّجُلُ وَانْصَرَفَ. وَكَقِصَّةِ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي عَاهَدَ الرَّسُولَ عَلَى تَرْكِ الْكَذِبِ. فَهَذِهِ هِيَ الْحِكْمَةُ وَبِهَا تَجِبُ الْقُدْوَةُ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ [3: 31] وَإِنَّا لَنْ نَكُونَ مُتَّبِعِينَ لَهُ حَتَّى نَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى سُنَّتِهِ وَطَرِيقَتِهِ، أَيْ فِي اللُّطْفِ وَتَحَرِّي الْإِقْنَاعِ.

(274/126)

أَقُولُ : أَمَّا قِصَّةُ الرَّجُلِ الَّذِي يُرِيدُ الزِّنَا فَهِيَ كَمَا رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ " أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ لِي فِي الزِّنَا ، فَهَمَّ مَنْ كَانَ قُرْبَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يَتَنَاوَلُوهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : دَعُوهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَتُحِبُّ أَنْ تَفْعَلَ هَذَا بِأُخْتِكَ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : فَبِابْنَتِكَ ؟ قَالَ : لَا ، فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ فَبِكَذَا فَبِكَذَا كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ : لَا . فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : فَاكْرَهْ مَا كَرِهَ اللهُ وَأَحِبَّ لِأَخِيكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ كَذَا فِي كَنْزِ الْعُمَّالِ ، وَذَكَرَهُ الْغَزَّالِيُّ فِي بَابِ آدَابِ الْمُحْتَسِبِ مِنْ كِتَابِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنَ الْإِحْيَاءِ ، قَالَ : وَقَدْ رَوَى أَبُو أُمَامَةَ " أَنَّ غُلَامًا شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللهِ أَتَأْذَنُ لِي فِي الزِّنَا ؟ فَصَاحَ النَّاسُ بِهِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : قَرِّبُوهُ ، أُدْنُ . فَدَنَا حَتَّى جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ ؟ قَالَ : لَا ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ . قَالَ : كَذَلِكَ النَّاسُ لَا يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ ، أَتُحِبُّهُ

لِأُخْتِكَ ؟ وَزَادَ ابْنُ عَوْفٍ أَنَّهُ ذَكَرَ الْعَمَّةَ وَالْخَالَةَ وَهُوَ يَقُولُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ : لَا ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ " وَقَالَا جَمِيعًا فِي حَدِيثِهِمَا أَعْنِي ابْنَ عَوْفٍ وَالرَّاوِيَ الْآخَرَ : فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ -

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ وَقَالَ : اللهُمَّ طَهِّرْ قَلْبَهُ وَاغْفِرْ ذَنْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنْهُ – يَعْنِي مِنَ الزِّنَا – قَالَ الشَّارِحُ : قَالَ الْعِرَاقِيُّ : رَوَاهُ أَحْمَدُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ رِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ . أَقُولُ : أَمَّا سِيَاقُ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ فَلَا أَذْكُرُ أَنِّي رَأَيْتُهُ فَأَرْجِعُ إِلَيْهِ ، وَهُوَ قَدْ قَصَدَ الْمَعْنَى دُونَ نَصِّ الْحَدِيثِ . وَكَذَلِكَ حَدِيثُ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي عَاهَدَ عَلَى تَرْكِ الْكَذِبِ لَا أَتَذَكَّرُ مَخْرَجَهُ ، وَإِنَّمَا أَتَذَكَّرُ أَنَّهُ أَسْلَمَ عَلَى شَرْطِ أَنْ يَدَعَ لَهُ النَّبِيُّ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ اعْتَادَهَا : الْكَذِبَ ، وَالْخَمْرَ ، وَالزِّنَا – فَعَاهَدَهُ عَلَى تَرْكِ الْكَذِبِ فَكَانَ وَسِيلَةً إِلَى تَرْكِ الْخَمْرِ وَالزِّنَا .

وَفِي هَذَا الْمَقَامِ – مَقَامِ أَمْنِ الْمُتَصَدِّي لِلدَّعْوَةِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ عَلَى نَفْسِهِ وَمَالِهِ كَمَا قِيلَ – يَأْتِي بَحْثُ تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ بِالْفِعْلِ ، وَهُوَ مَرْتَبَةٌ غَيْرُ مَرْتَبَةِ التَّنَاصُحِ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ قُدْرَةٍ خَاصَّةٍ .

وَلِذَلِكَ قَالُوا : إِنَّهَا مِنْ خَصَائِصِ الْحُكَّامِ ، فَيُشْتَرَطُ فِيهَا إِذْنُهُمْ ، وَفِي قَوْلٍ آخَرَ : لَا يُشْتَرَطُ .

وَالْأَصْلُ فِي ذَلِكَ حَدِيثُ مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ الْخِطَابَ فِيهِ لِلْأُمَّةِ ، وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّهُ إِذْنٌ مِنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ حَاكِمُ الْمُسْلِمِينَ فِي زَمَنِهِ فَهُوَ تَشْرِيعٌ وَتَنْفِيذٌ . وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي الدَّرْسِ : هُنَا يَخْلِطُونَ بَيْنَ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ الَّذِي جَاءَ فِي حَدِيثِ مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ وَهَذَا شَيْءٌ آخَرُ غَيْرُ النَّهْيِ أَلْبَتَّةَ ، فَإِنَّ النَّهْيَ عَنِ الشَّيْءِ إِنَّمَا يَكُونُ قَبْلَ فِعْلِهِ وَإِلَّا كَانَ رَفْعًا لِلْوَاقِعِ أَوْ تَحْصِيلًا لِلْحَاصِلِ ، فَإِذَا رَأَيْتَ شَخْصًا يَغُشُّ السَّمْنَ - مَثَلًا - وَجَبَ عَلَيْكَ تَغْيِيرُ ذَلِكَ وَمَنْعُهُ مِنْهُ بِالْفِعْلِ إِنِ اسْتَطَعْتَ ، فَالْقُدْرَةُ وَالِاسْتِطَاعَةُ هُنَا مَشْرُوطَةٌ بِالنَّصِّ ، فَإِنْ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ وَجَبَ عَلَيْكَ التَّغْيِيرُ بِاللِّسَانِ وَهُوَ غَيْرُ خَاصٍّ بِنَهْيِ الْغَاشِّ وَوَعْظِهِ بَلْ يَدْخُلُ فِيهِ رَفْعُ أَمْرِهِ إِلَى الْحَاكِمِ الَّذِي يَمْنَعُهُ بِقُدْرَةٍ فَوْقَ قُدْرَتِكَ . أَمَّا التَّغْيِيرُ بِالْقَلْبِ فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ مَقْتِ الْفَاعِلِ وَعَدَمِ الرِّضَى بِفِعْلِهِ ، وَلِلنَّهْيِ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ

وَأَسَالِيبُ مُتَعَدِّدَةٌ وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ .

قَالَ: نَعَمْ إِنَّ دَعْوَةَ الْأُمَّةِ غَيْرَهَا مِنَ الْأُمَمِ إِلَى الْخَيْرِ الَّذِي هِيَ عَلَيْهِ لَا يُطَالَبُ بِهَا كُلُّ فَرْدٍ بِالْفِعْلِ إِذْ لَا يَسْتَطِيعُ كُلُّ فَرْدٍ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا يَجِبُ عَلَى كُلِّ فَرْدٍ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ نُصْبَ عَيْنَيْهِ حَتَّى إِذَا عَنَّ لَهُ بِأَنْ لَقِيَ أَحَدًا مِنْ أَفْرَادِ تِلْكَ الْأُمَمِ دَعَاهُ، لَا أَنَّهُ يَنْقَطِعُ لِذَلِكَ وَيُسَافِرُ لِأَجْلِهِ، وَإِنَّمَا يَقُومُ بِهَذَا طَائِفَةٌ يُعِدُّونَ لَهُ عُدَّتَهُ، وَسَائِرُ الْأَفْرَادِ يَقُومُونَ بِهِ عِنْدَ الِاسْتِطَاعَةِ، فَهُوَ يُشْبِهُ فَرِيضَةَ الْحَجِّ، هِيَ فَرْضُ عَيْنٍ وَلَكِنْ عَلَى الْمُسْتَطِيعِ، وَفَرِيضَةُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ آكَدُ مِنْ فَرِيضَةِ الْحَجِّ، وَلَمْ يُشْتَرَطْ فِيهَا الِاسْتِطَاعَةُ لِأَنَّهَا مُسْتَطَاعَةٌ دَائِمًا. عِنْدَ هَذَا قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ قَطْعًا، فَرَدَّ عَلَيْهِ قَوْلَهُ وَضَرَبَ لَهُ مَثَلًا طَائِفَةَ الشِّيعَةِ فَإِنَّهُمْ لَمَّا كَانَتِ الدَّعْوَةُ مُلْتَزَمَةً عِنْدَهُمْ صَارُوا كُلُّهُمْ دُعَاةً عِنْدَمَا يَعِنُّ لَهُمْ مَنْ يَدْعُونَهُ، وَذَكَرَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ فِي بَيْرُوتَ احْتَاجَ إِلَى ظِئْرٍ لِإِرْضَاعِ بِنْتٍ لَهُ فَجِيءَ بِظِئْرٍ شِيعِيَّةٍ مِنَ الْمُتَأَوِّلَةِ فَكَانَتْ فِي الدَّارِ تَدْعُو النِّسَاءَ إِلَى مَذْهَبِهَا. وَقَالَ: إِنَّ رُعَاةَ الْإِبِلِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ كَانُوا يَدْعُونَ كُلَّ أَحَدٍ إِلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأُمَّةَ إِذَا أَرَادَتِ الدَّعْوَةَ لَا يَقِفُ فِي سَبِيلِهَا شَيْءٌ، وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ: إِنَّ الْجَهْلَ

لَيْسَ بِعُذْرٍ لِلْمُسْلِمِ لِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا .

ثُمَّ قَالَ مَا حَاصِلُهُ : جُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى الْخَيْرِ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَرْضٌ حَتْمٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ كَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَةُ فِي ظَاهِرِهَا الْمُتَبَادِرِ ، وَغَيْرُهَا مِنَ الْآيَاتِ كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ [5 : 79] وَكَذَلِكَ عَمَلُ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَصْحَابُهُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - . وَكَوْنُ هَذَا حِفَاظًا لِلْأُمَّةِ وَحِرْزًا ظَاهِرٌ ; فَإِنَّ النَّاسَ إِذَا تَرَكُوا دَعْوَةَ الْخَيْرِ وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَلَى ارْتِكَابِ الْمُنْكَرَاتِ خَرَجُوا عَنْ مَعْنَى الْأُمَّةِ وَكَانُوا أَفْذَاذًا مُتَفَرِّقِينَ لَا جَامِعَةَ لَهُمْ ; وَلِهَذَا ضَرَبَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلْمُدَاهِنِ مِثْلَ رَاكِبٍ

فِي سَفِينَةٍ يَطُوفُ عَلَى جَمَاعَةٍ مَعَهُ بِمَاءٍ وَكُلٌّ يَنْفِرُ مِمَّا مَعَهُ فَقَالَ لَهُمْ : إِنِّي فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ وَذَهَبَ يَنْقُرُ فِي السَّفِينَةِ فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدِهِ نَجَوْا وَنَجَا مَعَهُمْ وَإِلَّا هَلَكَ وَهَلَكُوا جَمِيعًا . فَفُشُوُّ الْمُنْكَرَاتِ مَهْلَكَةٌ لِلْأُمَّةِ

(279/126)

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً [8 : 25] فَلَا بُدَّ لِلْمَرْءِ فِي حِفْظِ نَفْسِهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ لَا سِيَّمَا أُمَّهَاتُ الْمُنْكَرَاتِ الْمُفْسِدَةِ

لِلاجْتِماعِ كَالْكَذِبِ وَالْخِيانَةِ وَالْحسَدِ وَالْغِشِّ ، فَهذَا لَيْسَ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَةِ الَّتِي يَتَوَاكَلُ فِيهَا النَّاسُ كَصَلَاةِ الْجِنازَةِ إِذْ لَا يَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ عَلِمَ أَنَّ هُنَا مَيِّتًا أَنْ يَنْتَظِرَ غُسْلَهُ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ بَلْ يَكْفِي أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ يُوجَدُ مَنْ يُصَلِّي عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ إِذَا رَأَى مُنْكَرًا وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْهَى عَنْهُ وَلَا يَنْتَظِرُ غَيْرَهُ لِأَنَّهُ تَغْيِيرٌ عَلَى رَأْيِهِ .

أَقُولُ : وَيَظْهَرُ تَذْيِيلُ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مَا لَا يَظْهَرُ عَلَى الْوَجْهِ الْآتِي فَهُوَ يَقُولُ : إِنَّ الْقَائِمِينَ بِمَا ذُكِرَ هُمُ الْفَائِزُونَ بِمَا أَعَدَّهُ اللهُ مِنَ السَّعَادَةِ لِأَهْلِ الْحَقِّ دُونَ سِوَاهُمْ ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ خَاصًّا بِالْقَائِمِينَ بِفَرْضِ الْكِفَايَةِ ، وَفَسَّرَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ بِالْفَلَاحِ فِي الدُّنْيَا ، فَالْأُمَّةُ الَّتِي تَتْرُكُ ذَلِكَ تَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ لَا الْمُفْلِحِينَ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : بَقِيَ عَلَيْنَا بَيَانُ مَعْنَى الْآيَةِ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ " مِنْ " لِلتَّبْعِيضِ وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ طَائِفَةٌ مُتَمَيِّزَةٌ تَقُومُ بِالدَّعْوَةِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْمُخَاطَبُ بِهَذَا جَمَاعَةُ الْمُؤْمِنِينَ كَافَّةً ، فَهُمُ الْمُكَلَّفُونَ أَنْ يَنْتَخِبُوا مِنْهُمْ أُمَّةً تَقُومُ بِهَذِهِ الْفَرِيضَةِ ، فَهَاهُنَا فَرِيضَتَانِ إِحْدَاهُمَا عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ وَالثَّانِيَةُ عَلَى الْأُمَّةِ الَّتِي يَخْتَارُونَهَا لِلدَّعْوَةِ ، وَلَا يُفْهَمُ مَعْنَى هَذَا حَقَّ الْفَهْمِ إِلَّا بِفَهْمِ مَعْنَى لَفْظِ الْأُمَّةِ ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ الْجَمَاعَةَ - كَمَا قِيلَ - وَإِلَّا

لَمَا اخْتِيرَ هَذَا اللَّفْظُ ، وَالصَّوَابُ أَنَّ الْأُمَّةَ أَخَصُّ مِنَ الْجَمَاعَةِ ، فَهِيَ الْجَمَاعَةُ الْمُؤَلَّفَةُ مِنْ أَفْرَادٍ لَهُمْ رَابِطَةٌ تَضُمُّهُمْ وَوَحْدَةٌ يَكُونُونَ بِهَا كَالْأَعْضَاءِ فِي بِنْيَةِ الشَّخْصِ ، وَالْمُرَادُ بِكَوْنِ الْمُؤْمِنِينَ كَافَّةً مُخَاطَبِينَ بِتَكْوِينِ هَذِهِ الْأُمَّةِ لِهَذَا الْعَمَلِ هُوَ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ إِرَادَةٌ وَعَمَلٌ فِي إِيجَادِهَا وَإِسْعَادِهَا ، وَمُرَاقَبَةِ سَيْرِهَا بِحَسَبِ الِاسْتِطَاعَةِ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مِنْهَا خَطَأً أَوِ انْحِرَافًا أَرْجَعُوهَا إِلَى الصَّوَابِ ، وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ لَا سِيَّمَا زَمَنُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ عَلَى هَذَا النَّهْجِ مِنَ الْمُرَاقَبَةِ لِلْقَائِمِينَ بِالْأَعْمَالِ الْعَامَّةِ ، حَتَّى كَانَ الصُّعْلُوكُ مِنْ رُعَاةِ الْإِبِلِ يَأْمُرُ مِثْلَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - وَهُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - وَيَنْهَاهُ فِيمَا

(281/126)

يَرَى أَنَّهُ الصَّوَابُ ،

وَلَا بِدْعَ فَالْخُلَفَاءُ عَلَى نَزَاهَتِهِمْ وَفَضْلِهِمْ لَيْسُوا بِمَعْصُومِينَ ، وَقَدْ صَرَّحَ عُمَرُ بِخَطَئِهِ وَرَجَعَ عَنْ رَأْيِهِ غَيْرَ مَرَّةٍ .

قَالَ : وَمِنَ الْعِبَرِ فِي هَذَا الْمَقَامِ : تَنْفِيذُ بِلَالٍ الْحَبَشِيِّ الْعَتِيقِ لِأَمْرِ عُمَرَ بِمُحَاسَبَةِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ سَيِّدِ بَنِي مَخْزُومٍ بَعْدَ تَبْلِيغِهِ عَزْلَهُ عَنْ قِيَادَةِ الْجَيْشِ بِالشَّامِ . وَذَكَرَ مُجْمَلَ الْقِصَّةِ ، وَهِيَ أَنَّ عُمَرَ كَتَبَ عِنْدَمَا وَلِيَ الْخِلَافَةَ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ وَهُوَ فِي جَيْشٍ عَلَى الشَّامِ يُوَلِّيهِ

إِمَارَةَ الْجَيْشِ الْعَامَّةَ وَيَعْزِلُ خَالِدًا عَنْهَا ، وَكَانَ الْجَيْشُ عَلَى حِصَارِ دِمَشْقَ أَوْ فِي الْيَرْمُوكِ (رِوَايَتَانِ) فَكَتَمَ

(282/126)

أَبُو عُبَيْدَةَ الْأَمْرَ وَكَبُرَ عَلَيْهِ أَنْ يُظْهِرَهُ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ لَهُمُ النَّصْرُ ، وَلَمَّا أَبْطَأَ عَلَى عُمَرَ الْجَوَابَ كَتَبَ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ ثَانِيَةً يَأْمُرُهُ فِيهِ بِأَنْ يَقْرَأَهُ عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَفِيهِ الْإِذْنُ بِأَنْ يُعْتَقَلَ خَالِدٌ بِعِمَامَتِهِ وَيُحَاسَبَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ فِي إِمَارَتِهِ ، فَهَابَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ لِشَرَفِهِ وَشَجَاعَتِهِ وَبَلَائِهِ فِي الْحَرْبِ وَحُبِّ الْجَيْشِ لَهُ ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا قَرَأَ الْكِتَابَ قَامَ بِلَالٌ الْحَبَشِيُّ مِنْ فُقَرَاءِ الْمَوَالِي (الْعُتَقَاءِ) وَحَلَّ عِمَامَةَ خَالِدٍ وَاعْتَقَلَهُ بِهَا وَسَأَلَهُ عَمَّا أَمَرَ بِهِ عُمَرُ ، فَخَضَعَ وَأَجَابَ . فَانْظُرُوا مَا فَعَلَ هَدْيُ الْإِسْلَامِ بِهَؤُلَاءِ الْكِرَامِ ، يَقُومُ مَوْلًى مِنَ الْفُقَرَاءِ إِلَى السَّيِّدِ الْقُرَشِيِّ الْعَظِيمِ وَالْقَائِدِ الْكَبِيرِ فَيَعْقِلُهُ بِعِمَامَتِهِ عَلَى أَعْيُنِ الْمَلَأِ الَّذِينَ كَانَ أَمِيرَهُمْ وَقَائِدَهُمْ وَيُحَاسِبُهُ فَيُجِيبُهُ عَنْ كُلِّ مَا سَأَلَهُ ، وَرُوِيَ أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ أَطَاعَ وَأَجَابَ دَاعِيَ الْخَلِيفَةِ أَعَادَ إِلَيْهِ بِلَالٌ قَلَنْسُوَتَهُ وَعَمَّمَهُ بِيَدِهِ قَائِلًا : نَسْمَعُ وَنُطِيعُ وَنُفَخِّمُ مَوَالِيَنَا (جَمْعُ مَوْلًى وَهُوَ هُنَا بِمَعْنَى السَّيِّدِ) ، وَرُوِيَ أَيْضًا أَنَّ عُمَرَ اسْتَحْضَرَ خَالِدًا إِلَى الْمَدِينَةِ وَاعْتَذَرَ لَهُ بَعْدَ الْعِتَابِ بِأَنَّهُ لَمْ

يَعْزِلُهُ وَيَأْمُرْ فِيهِ بِمَا أَمَرَ لِرِيبَةٍ وَإِنَّمَا رَأَى أَنَّ النَّاسَ افْتَتَنُوا بِهِ وَخَافَ عَلَيْهِ أَنْ يَفْتَتِنَ بِهِمْ ، وَقِيلَ إِنَّهُ قَالَ لَهُ : خِفْتُ أَنْ يَعْبُدَكَ أَهْلُ الشَّامِ .

(283/126)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - مَا مِثَالُهُ مَعَ شَيْءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ : إِذَا كَانَ كُلُّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْمُسْلِمِينَ مُكَلَّفًا الدَّعْوَةَ إِلَى الْخَيْرِ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ بِمُقْتَضَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ، فَهُمْ مُكَلَّفُونَ بِمُقْتَضَى هَذَا الْوَجْهِ الثَّانِي أَنْ يَخْتَارُوا أُمَّةً مِنْهُمْ تَقُومُ بِهَذَا الْعَمَلِ لِأَجْلِ أَنْ تُتْقِنَهُ وَتَقْدِرَ عَلَى تَنْفِيذِهِ إِنْ لَمْ يُوجَدْ ذَلِكَ بِطَبْعِهِ كَمَا كَانَ فِي زَمَنِ الصَّحَابَةِ ، فَإِقَامَةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْخَاصَّةِ فَرْضُ عَيْنٍ

(284/126)

يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ أَنْ يَشْتَرِكَ فِيهِ مَعَ الْآخَرِينَ ، وَلَا مَشَقَّةَ فِي هَذَا عَلَيْنَا ، فَإِنَّهُ يَتَيَسَّرُ لِأَهْلِ كُلِّ قَرْيَةٍ أَنْ يَجْتَمِعُوا وَيَخْتَارُوا مِنْهُمْ مَنْ يَرَوْنَهُ أَهْلًا لِهَذَا الْعَمَلِ ، وَعِبَارَةُ الْأُسْتَاذِ : وَيَخْتَارُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ أَوْ أَكْثَرَ ، كَأَنَّهُ يُرِيدُ بِالْوَاحِدِ أَنْ يَنْضَمَّ إِلَى مَنْ يَخْتَارُ مِنْ سَائِرِ الْقُرَى

وَالْبِلَادِ لِأَجْلِ الضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ لِلدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ فِي غَيْرِ بِلَادِهِ ، أَوْ لِإِقَامَةِ بَعْضِ الْفَرَائِضِ وَالشَّعَائِرِ ، أَوْ إِزَالَةِ بَعْضِ الْمُنْكَرَاتِ مِنْ بَلَدٍ آخَرَ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِلَّا فَالْوَاجِبُ عَلَى أَهْلِ الْقَرْيَةِ أَنْ يَخْتَارُوا جَمَاعَةً يَصِحُّ أَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهِمْ لَفْظُ " الْأُمَّةِ " وَيَعْمَلُوا مَا تَعْمَلُهُ بِالِاتِّحَادِ وَالْقُوَّةِ لِيَتَوَلَّوْا إِقَامَةَ هَذِهِ الْفَرِيضَةِ فِيهَا ، كَمَا يَجِبُ ذَلِكَ فِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ إِسْلَامِيٍّ سَوَاءٌ كَانَ فِي الْحَوَاضِرِ أَوِ الْبَوَادِي ، فَإِنَّ مَعْنَى الْأُمَّةِ يَدْخُلُ فِيهِ مَعْنَى الِارْتِبَاطِ وَالْوَحْدَةِ الَّتِي تَجْعَلُ أَفْرَادَهَا عَلَى اخْتِلَافِ وَظَائِفِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ - حَتَّى فِي إِقَامَةِ هَذِهِ الْفَرِيضَةِ عِنْدَ تَشَعُّبِ الْأَعْمَالِ فِيهَا - كَأَنَّهُمْ شَخْصٌ وَاحِدٌ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ وَصَرَّحَ بِهِ الْأُسْتَاذُ فِي هَذَا الْمَقَامِ .

(285/126)

قَالَ : وَهَذِهِ الْأُمَّةُ يَدْخُلُ فِي عَمَلِهَا الْأُمُورُ الْعَامَّةُ الَّتِي هِيَ مِنْ شَأْنِ الْحُكَّامِ وَأُمُورُ الْعِلْمِ وَطُرُقُ إِفَادَتِهِ وَنَشْرِهِ ، وَتَقْرِيرُ الْأَحْكَامِ وَأُمُورُ الْعَامَّةِ الشَّخْصِيَّةِ ، وَيُشْتَرَطُ فِيهَا الْعِلْمُ بِذَلِكَ ، وَلِذَلِكَ جُعِلَتْ أُمَّةً ، وَفِي مَعْنَى الْأُمَّةِ الْقُوَّةُ وَالِاتِّحَادُ ، وَهَذِهِ الْأُمُورُ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِالْقُوَّةِ وَالِاتِّحَادِ ، فَالْأُمَّةُ الْمُتَّحِدَةُ لَا تُقْهَرُ وَلَا تُغْلَبُ مِنَ الْأَفْرَادِ ، وَلَا تَعْتَذِرُ بِالضَّعْفِ يَوْمًا مَا ، فَتَتْرُكُ مَا عُهِدَ

(286/126)

إِلَيْهَا وَهُوَ مَا لَوْ تُرِكَ لَتَسَرَّبَ الْفَسَادُ إِلَى مَجْمُوعِ الْمُسْلِمِينَ . وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ وَلَا سِيَّمَا عَلَى عَهْدِ الْخَلِيفَتَيْنِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ ، فَقَدْ كَانَتْ خَاصَّةُ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ عَاشَرُوا النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَتَلَقَّوْا عَنْهُ مُتَوَاصِلِينَ مُتَكَاتِفِينَ ، يَشْعُرُ كُلٌّ مِنْهُمْ بِمَا يَشْعُرُ بِهِ الْآخَرُ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى نَشْرِ الْإِسْلَامِ وَحِفْظِهِ ، وَمُقَاوَمَةِ كُلِّ مَا يَمَسُّ شَيْئًا مِنْ عَقَائِدِهِ وَآدَابِهِ وَأَحْكَامِهِ وَمَصَالِحِ أَهْلِهِ ، وَكَانَ سَائِرُ الْمُسْلِمِينَ تَبَعًا لَهُمْ ، وَلَا نَتَكَلَّمُ هُنَا فِيمَا طَرَأَ عَلَى الْإِسْلَامِ فَأَزَالَ تِلْكَ الْوَحْدَةَ وَلَكِنَّنَا نَذْكُرُ مَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ الدَّاعِيَةُ إِلَى الْخَيْرِ الْآمِرَةُ بِالْمَعْرُوفِ النَّاهِيَةُ عَنِ الْمُنْكَرِ ، أَيِ الْقَائِمَةُ بِالْوَاجِبَاتِ الَّتِي هِيَ قِوَامُ الْوَحْدَةِ وَحِفَاظُهَا ، فَإِنَّ أَعْمَالَهَا لَا تَتِمُّ إِلَّا بِأُمُورٍ كَثِيرَةٍ . أَقُولُ : وَذَكَرَ أُمُورًا مُجْمَلَةً عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ نُفَصِّلُهَا وَنَزِيدُ عَلَيْهَا فَنَقُولُ :

(287/126)

(1) الْعِلْمُ التَّامُّ بِمَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ - ذَكَرَ الْأُسْتَاذُ ذَلِكَ وَلَمْ يُبَيِّنْهُ هُنَا ، وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : إِنَّ أَوَّلَ مَا يَجِبُ عَلَى هَؤُلَاءِ الدُّعَاةِ الْعِلْمُ بِالْقُرْآنِ ، وَالْعِلْمُ بِالسُّنَّةِ وَسِيرَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - ، وَسَلَفِ الْأُمَّةِ الصَّالِحِ ، وَبِالْقَدْرِ

الْكَافِي مِنَ الْأَحْكَامِ ، فَهَذَا شَيْءٌ مِنَ الْبَيَانِ وَهُوَ فِي نَفْسِهِ يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ وَتَفْصِيلٍ ، أَهَمُّهُ أَنَّ الْعِلْمَ بِالْقُرْآنِ إِنَّمَا يُنْظَرُ فِيهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى كَوْنِهِ هُدًى وَعِبْرَةً وَمَوْعِظَةً عَلَى نَحْوِ تَفْسِيرِنَا هَذَا ، وَكَذَلِكَ السُّنَّةُ وَمَا صَحَّ مِنْ أَقْوَالِ الرَّسُولِ وَسِيرَتِهِ وَيُنْظَرُ فِي هَذَا أَيْضًا إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَ مَا تَوَاتَرَ عَمَلًا وَمَا صَحَّ سَنَدًا وَمَا لَيْسَ كَذَلِكَ .

(288/126)

---

(2) الْعِلْمُ بِحَالِ مَنْ تُوَجَّهُ إِلَيْهِمُ الدَّعْوَةُ فِي شُئُونِهِمْ وَاسْتِعْدَادِهِمْ وَطَبَائِعِ بِلَادِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ ، أَوْ مَا يُعَبَّرُ عَنْهُ فِي عُرْفِ الْعَصْرِ بِحَالِهِمُ الِاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ ارْتِضَاءِ الصَّحَابَةِ بِخِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ كَوْنَهُ أَنْسَبَ الْعَرَبِ ، وَلَيْسَ مَعْنَى كَوْنِهِ أَعْلَمَ بِالْأَنْسَابِ أَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُ كِتَابُ " بَحْرِ الْأَنْسَابِ " يُرَاجِعُ فِيهِ ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنَّهُ كَانَ أَعْلَمَهُمْ بِأَحْوَالِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَبُطُونِهَا ، وَتَارِيخِ كُلِّ قَبِيلَةٍ وَسَابِقِ أَيَّامِهَا ، وَأَخْلَاقِهَا كَالشَّجَاعَةِ وَالْجُبْنِ وَالْأَمَانَةِ وَالْخِيَانَةِ ، وَمَكَانِهَا مِنَ الضَّعْفِ وَالْقُوَّةِ وَالْغِنَى وَالْفَقْرِ ، وَمَا كَانَ إِقْدَامُهُ - مَعَ لِينِهِ وَسُهُولَةِ خُلُقِهِ الَّتِي يَعْرِفُهَا لَهُ كُلُّ أَحَدٍ حَتَّى الْإِفْرِنْجِ - عَلَى حَرْبِ أَهْلِ الرِّدَّةِ إِلَّا لِهَذَا الْعِلْمِ الَّذِي كَانَ بِهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ، فَلَمْ يَهَبْ وَلَمْ يَخَفْ ، وَقَدْ خَافَ عُمَرُ وَأَحْجَمَ عَلَى شِدَّتِهِ الْمَعْرُوفَةِ عَلَى الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ; أَيْ خَافَ أَنْ تَضْعُفَ بِمُحَارَبَتِهِمْ شَوْكَةُ الْإِسْلَامِ . . . حَتَّى قَالَ أَبُو بَكْرٍ : "

وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا مِمَّا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَيْهِ " فَهَذِهِ قُوَّةُ الْعِلْمِ لَا قُوَّةُ الْجَهْلِ ، وَأَقُولُ : إِنَّ الْعِلْمَ الْخَاصَّ بِحَالِ مَنْ تُوَجَّهُ إِلَيْهِمُ الدَّعْوَةُ مِنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فَرْعًا لِلْعِلْمِ بِهَذِهِ الْعُلُومِ فِي نَفْسِهَا ، وَسَأُبَيِّنُ ذَلِكَ .

(289/126)

---

(3) مَنَاشِئُ عِلْمِ التَّارِيخِ الْعَامِّ لِيَعْرِفُوا الْفَسَادَ فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْعَادَاتِ ، فَيَبْنُونَ الدَّعْوَةَ عَلَى أَصْلٍ صَحِيحٍ ، وَيَعْرِفُونَ كَيْفَ تَنْهَضُ الْحُجَّةُ وَيَبْلُغُ الْكَلَامُ غَايَتَهُ مِنَ التَّأْثِيرِ ، وَكَيْفَ يُمْكِنُ نَقْلُ هَؤُلَاءِ الْمَدْعُوِّينَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ ; وَلِهَذَا كَانَ الْقُرْآنُ مَمْلُوءًا بِعِبَرِ التَّارِيخِ .

(4) عِلْمُ تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ لِيُعِدَّ الدُّعَاةُ لِكُلِّ بِلَادٍ مِنْهَا عُدَّتَهَا إِذَا أَرَادُوا السَّفَرَ إِلَيْهَا ، وَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ – أَعْلَمَ أَهْلِ زَمَانِهِمْ بِالتَّارِيخِ وَمَا يُسَمَّى الْآنَ بِتَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ وَبِالْجُغْرَافِيَا ; وَلِذَلِكَ أَقْدَمُوا عَلَى الْفُتُوحِ وَمُحَارَبَةِ الْأُمَمِ فَانْتَصَرُوا عَلَيْهِمْ بِالْعِلْمِ لَا بِالْجَهْلِ ، فَلَوْ كَانُوا يَجْهَلُونَ مَسَالِكَ بِلَادِهِمْ وَطُرُقَهَا وَمَوَاقِعَ الْمِيَاهِ وَمَا يَصْلُحُ مَوْقِعًا لِلْقِتَالِ فِيهَا لَهَلَكُوا ، وَكَانَ الْجَهْلُ أَوَّلَ أَسْبَابِ هَلَاكِهِمْ ، وَمَنْ قَرَأَ مَا حُفِظَ مِنْ خُطَبِهِمْ وَكُتُبِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَتَرَاسَلُونَ بِهَا ، وَمُحَاوَرَاتِهِمْ فِي تَدْبِيرِ الْأَعْمَالِ يَظْهَرُ لَهُ ذَلِكَ بِأَجْلَى بَيَانٍ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مَا مِثَالُهُ: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَنْفِرُ مِنَ التَّارِيخِ وَتَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ الَّذِي هُوَ فَرْعٌ مِنْ فُرُوعِهِ، وَمَا أَضَرَّ هَؤُلَاءِ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَأُمَّتِهِمْ! فَقَدْ قَطَعُوا الصِّلَةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُدْوَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ سَلَفِهِمْ حَتَّى صَارَ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ لَا يَعْرِفُونَ مَبْدَأَ الْإِسْلَامِ وَلَا كَيْفِيَّةَ نَشْأَتِهِ وَلَا كَيْفَ انْتَسَبُوا إِلَيْهِ، فَالتَّارِيخُ يُعَرِّفُ الْإِنْسَانَ بِنَفْسِهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ مُتَدَيِّنٌ إِنْ كَانَ لَهُ دِينٌ، أَوْ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ إِنْ كَانَ مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ، وَمَا أَضَرَّ بِالْفِقْهِ شَيْءٌ كَالْجَهْلِ بِالتَّارِيخِ; لِأَنَّنَا لَوْ حَفِظْنَا تَارِيخَ النَّاسِ - وَمِنْهُ عَادَاتُهُمْ وَعُرْفُهُمْ وَمَصَالِحُهُمْ فِي الْبِلَادِ الَّتِي كَانَ فِيهَا الْمُجْتَهِدُونَ الْوَاضِعُونَ لِهَذَا الْفِقْهِ - لَكُنَّا نَعْرِفُ مِنْ أَسْبَابِ خِلَافِهِمْ وَمَدَارِكِ أَقْوَالِهِمْ مَا لَا نَعْرِفُهُ الْيَوْمَ، فَمَا كَانَ ذَلِكَ الْخِلَافُ جُزَافًا وَلَا عَبَثًا. أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّافِعِيَّ وَضَعَ بَعْدَ مَجِيئِهِ إِلَى مِصْرَ مَذْهَبًا جَدِيدًا غَيْرَ الْمَذْهَبِ الْقَدِيمِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ أَيَّامَ لَمْ يَكُنْ خَبِيرًا بِغَيْرِ الْحِجَازِ وَالْعِرَاقِ؟ وَكَذَلِكَ كَانَ مَا خَالَفَ بِهِ أَبُو يُوسُفَ أُسْتَاذَهُ أَبَا حَنِيفَةَ مِمَّا يَرْجِعُ الْكَثِيرُ مِنْهُ إِلَى مَا اخْتَبَرَهُ مِنْ حَالِ النَّاسِ فِي مَصَالِحِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ وَعُرْفِهِمْ، فَبِاللَّهِ كَيْفَ يَنْتَسِبُ امْرُؤٌ إِلَى إِمَامٍ وَيَشْتَغِلُ بِعِلْمِ مَذْهَبِهِ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ تَارِيخَهُ وَتَارِيخَ عَصْرِهِ! وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ: أَنَّ

(291/126)

الْجَاهِلَ بِالتَّارِيخِ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ فَرْدًا مِنَ الْأُمَّةِ الدَّاعِيَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ الْآمِرَةِ بِالْمَعْرُوفِ النَّاهِيَةِ عَنِ الْمُنْكَرِ فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُرْجَى قَبُولُهُ .

(5) عِلْمُ النَّفْسِ وَهُوَ يُسَاوِي عِلْمَ التَّارِيخِ فِي الْمَكَانَةِ وَالْفَائِدَةِ ، أَيِ الْعِلْمَ الْبَاحِثَ عَنْ قُوَى النَّفْسِ وَتَصَرُّفِهَا فِي عُلُومِهَا وَتَأْثِيرِ عُلُومِهَا فِي أَعْمَالِهَا الْإِرَادِيَّةِ . مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْأَصْلَ أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ تَابِعًا لِلْعِلْمِ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ عَمَلَ كَذَا ضَارٌّ وَيَأْتُونَهُ ، وَعَمَلَ كَذَا نَافِعٌ وَيَتْرُكُونَهُ (وَالْمُحَرَّمُ شَرْعًا كُلُّهُ ضَارٌّ وَالْحَلَالُ كُلُّهُ نَافِعٌ) فَمَا هُوَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ ؟ وَهَلْ يُحْسِنُ دَعْوَةَ هَؤُلَاءِ إِلَى الْخَيْرِ وَإِقْنَاعَهُمْ بِتَرْكِ الشَّرِّ مَنْ لَا يَعْرِفُ لِمَاذَا تَرَكُوا الْخَيْرَ وَاقْتَرَفُوا الشَّرَّ ؟ فَهَذِهِ الْمَعْرِفَةُ هِيَ مِنْ عِلْمِ النَّفْسِ الَّذِي يُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ مِنَ الْعِلْمِ مَا يَكُونُ صِفَةً لِلنَّفْسِ حَاكِمَةً عَلَى إِرَادَتِهَا مُصَرِّفَةً لَهَا فِي أَعْمَالِهَا ، وَمِنْهُ مَا هُوَ صُورَةٌ تَعْرِضُ لِلذِّهْنِ لَا أَثَرَ لَهَا فِي الْإِرَادَةِ

(292/126)

فَلَا تَبْعَثُ عَلَى الْعَمَلِ وَإِنَّمَا يَكُونُ مَظْهَرُهُ الْقَوْلَ أَحْيَانًا ، وَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ - عَلَيْهِمُ الرِّضْوَانُ - عَلَى حَظٍّ عَظِيمٍ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا بِسَلَامَةِ فِطْرَتِهِمْ وَذَكَاءِ قَرِيحَتِهِمْ وَبِمَا هَدَاهُمُ الْقُرْآنُ بِآيَاتِهِ وَالرَّسُولُ بِبَيَانِهِ وَسِيرَتِهِ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ - وَإِنْ لَمْ يَتَدَارَسُوهُ بِطَرِيقَةٍ صِنَاعِيَّةٍ - فَقَدْ كَانَ عِلْمُهُمْ بِهِ كَعِلْمِ الْوَاضِعِينَ لَهُ مِنَ الْحُكَمَاءِ أَوْ أَرْسَخُ ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا يُؤْثَرُ عَنْهُمْ مِنَ الْحِكَمِ ، وَمَا نَجَحُوا بِهِ فِي الدَّعْوَةِ ، وَظَهَرُوا فِي مَوَاطِنِ الْحُجَّةِ ، وَعِبَارَةُ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ : وَلَا تَظُنُّوا أَنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ إِذْ لَمْ يَكُونُوا يَدْرُسُونَهُ فِي الْكُتُبِ وَيَتَلَقَّوْنَهُ عَنِ الْمُعَلِّمِينَ ، فَإِنَّكُمْ إِذَا قَرَأْتُمُ التَّارِيخَ وَعَرَفْتُمْ كَيْفَ كَانُوا يَتَجَالَدُونَ فِي الْحَرْبِ ، وَيَتَجَادَلُونَ فِي مَوَاقِعِ الْخُطَبِ ، بِمُجَرَّدِ الْفِطْرَةِ الَّتِي بَعُدْنَا عَنْهَا أَمْكَنَكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا مَكَانَهُمْ مِنْهُ ، نَعَمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ فِي كُلِّ زَمَنٍ يَحْتَاجُ إِلَى نَوْعٍ مِنْ طُرُقِ التَّعْلِيمِ غَيْرَ مَا كَانَ فِي الزَّمَنِ الَّذِي قَبْلَهُ ، فَالْحَقِيقَةُ الْوَاحِدَةُ قَدْ تَخْتَلِفُ طُرُقُ الْعِلْمِ بِهَا بِاخْتِلَافِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالْأَحْوَالِ .

(293/126)

---

(6) عِلْمُ الْأَخْلَاقِ وَهُوَ الْعِلْمُ الَّذِي يُبْحَثُ فِيهِ عَنِ الْفَضَائِلِ وَكَيْفِيَّةِ تَرْبِيَةِ الْمَرْءِ عَلَيْهَا ، وَعَنِ الرَّذَائِلِ وَطُرُقِ تَوَقِّيهِ مِنْهَا وَهُوَ ضَرُورِيٌّ ، وَمَا وَرَدَ فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ وَآثَارِ

الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ يُغْنِي بِشُهْرَتِهِ وَاسْتِفَاضَتِهِ عَنْ إِطَالَةِ الْكَلَامِ فِيهِ ، وَقَدْ خَطَرَ بِبَالِي الْآنَ كَلِمَةُ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - فِي الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُورِدَهَا ، وَهِيَ قَوْلُهُ لِلْمَرْأَةِ الَّتِي صَرَّحَتْ لِزَوْجِهَا بِأَنَّهَا لَا تُحِبُّهُ : "إِذَا كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ لَا تُحِبُّ الرَّجُلَ مِنَّا فَلَا تُخْبِرْهُ بِذَلِكَ ، فَإِنَّ أَقَلَّ الْبُيُوتِ مَا يُبْنَى عَلَى الْمَحَبَّةِ ، وَإِنَّمَا النَّاسُ يَتَعَاشَرُونَ بِالْحَسَبِ وَالْإِسْلَامِ" فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ الْجَلِيلَةُ لَا تَخْرُجُ بِالْبَدَاهَةِ هَكَذَا

إِلَّا مِنْ فَمِ حَكِيمٍ قَدِ انْطَوَى فِي نَفْسِهِ عِلْمُ الْأَخْلَاقِ وَعِلْمُ الِاجْتِمَاعِ أَيْضًا ، وَوَقَفَ مَعَ ذَلِكَ عَلَى أَحْوَالِ النَّاسِ وَاخْتَبَرَهُمْ أَتَمَّ الِاخْتِبَارِ .

(294/126)

---

(7) عِلْمُ الِاجْتِمَاعِ . وَلَمْ يَذْكُرْهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ تَفْصِيلًا وَلَا إِجْمَالًا ، وَلَعَلَّ سَبَبَ ذَلِكَ عَدَمُ وُجُودِ كُتُبٍ فِيهِ بِالْعَرَبِيَّةِ يَرْغَبُ طُلَّابُ الْأَزْهَرِ فِيهَا إِلَّا مَا فِي مُقَدِّمَةِ ابْنِ خَلْدُونَ ، وَهُوَ الْعِلْمُ الَّذِي يُبْحَثُ فِيهِ عَنْ أَحْوَالِ الْأُمَمِ فِي بَدَاوَتِهَا وَحَضَارَتِهَا وَأَسْبَابِ ضَعْفِهَا وَقُوَّتِهَا وَتَدَلِّيهَا وَتَرَقِّيهَا ; عَلَى أَنَّ هَذَا الْعِلْمَ مُسْتَمَدٌّ مِنْ عِلْمِ التَّارِيخِ وَعِلْمِ الْأَخْلَاقِ ، فَمَنْ كَانَ لَهُ حَظٌّ عَظِيمٌ مِنْهُمَا فَإِنَّهُ قَدْ يَسْتَغْنِي بِهِ عَنْ هَذَا الْعِلْمِ فِي بِنَاءِ الدَّعْوَةِ وَالْإِرْشَادِ عَلَى قَوَاعِدِ الْحِكْمَةِ وَالسَّدَادِ ، وَإِنْ كَانَتْ دِرَاسَتُهُ مَزِيدَ كَمَالٍ فِيهِ وَفِي فَوَائِدِهِ الْعَظِيمَةِ . وَقَدْ ذَكَرْتُهُ

لِلتَّرْغِيبِ فِيهِ وَحَثِّ أَهْلِ الِاسْتِعْدَادِ مِنَّا عَلَى التَّصْنِيفِ فِيهِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِمَا صَنَّفَهُ الْغَرْبِيُّونَ عَلَى ذَلِكَ لِيَتَمَكَّنَ كُلُّ مُرِيدٍ لَهُ مِنْ تَنَاوُلِهِ ; إِذْ لَيْسَ كُلُّ مُطَّلِعٍ عَلَى التَّارِيخِ وَعِلْمِ الْأَخْلَاقِ أَهْلًا لِاسْتِنْبَاطِ قَوَاعِدِ عِلْمِ الِاجْتِمَاعِ مِنْهُمَا وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ لِلْأَقَلِّينَ مِنَ الْعُقَلَاءِ وَهُمْ لَا يَسْتَغْنُونَ عَنِ الْوُقُوفِ عَلَى مَا اهْتَدَى إِلَيْهِ مَنْ كَتَبُوا فِي ذَلِكَ مِنْ قَبْلِهِمْ . وَقَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ مِنْ قَوَاعِدِ هَذَا الْعِلْمِ فَغَفَلَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ عَنْهُ وَلَمْ

يَهْتَدِ إِلَى فِقْهِ بَعْضِهِ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ; إِذْ لَمْ يَكُنْ هَذَا الْعِلْمُ مُدَوَّنًا فِي عَهْدِهِمْ فَيُنَبِّهُهُمْ إِلَى ذَلِكَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِنَا هَذَا بَيَانُ كَثِيرٍ مِنْ تِلْكَ الْقَوَاعِدِ ، وَسَنَعْقِدُ لَهُ فَصْلًا حَافِلًا فِي مُقَدِّمَةِ التَّفْسِيرِ الَّتِي نُبَيِّنُ فِيهَا فِقْهَ الْقُرْآنِ فِي جُمْلَتِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ - تَعَالَى - .

(8) عِلْمُ السِّيَاسَةِ وَقَدْ ذَكَرَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ هُنَا مُجْمَلًا وَلَيْسَ مُرَادُهُ بِهِ السِّيَاسَةَ الشَّرْعِيَّةَ الَّتِي كَتَبَ فِيهَا ابْنُ تَيْمِيَةَ وَغَيْرُهُ ، وَإِنْ كَانَتْ مِمَّا لَا يُسْتَغْنَى عَنْهَا وَلَكِنَّهَا دَاخِلَةٌ فِي عِلْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْأَحْكَامِ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ الْعِلْمُ بِحَالِ دُوَلِ الْعَصْرِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْحُقُوقِ وَالْمُعَاهَدَاتِ وَمَا لَهَا مِنْ طُرُقِ الِاسْتِعْمَارِ . فَالْأُمَّةُ الَّتِي تُؤَلِّفُ لِلدَّعْوَةِ فِي بِلَادٍ غَيْرِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ الْمُسْتَقِلَّةِ لَا يَتَيَسَّرُ لَهَا ذَلِكَ إِذَا لَمْ تَكُنْ عَارِفَةً بِسِيَاسَةِ حُكُومَةِ تِلْكَ الْبِلَادِ ، وَهَذَا

شَيْءٌ غَيْرُ مَا تَقَدَّمَ مِنِ اشْتِرَاطِ مَعْرِفَةِ حَالِ مَنْ تُوَجَّهُ إِلَيْهِمُ الدَّعْوَةُ ، وَالسِّيَاسَةُ بِهَذَا الْمَعْنَى لَمْ تَكُنْ فِي عَصْرِ الصَّحَابَةِ .

(296/126)

---

(9) الْعِلْمُ بِلُغَاتِ الْأُمَمِ الَّتِي تُرَادُ دَعْوَتُهَا ، وَقَدْ وَرَدَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ : أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَمَرَ بَعْضَ الصَّحَابَةِ بِتَعَلُّمِ اللُّغَةِ الْعِبْرَانِيَّةِ لِأَجْلِ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا مُجَاوِرِينَ لَهُ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا قَدِ اسْتَعْرَبُوا ، فَمَا كَانَتْ مَعْرِفَةُ لُغَتِهِمُ الْأَصْلِيَّةِ إِلَّا مَزِيدَ كَمَالٍ فِي الْفَهْمِ عَنْهُمْ وَمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ شَأْنِهِمْ . وَلَا يُقَالُ : إِنَّ الْأُمَّةَ الَّتِي تُؤَلِّفُ لِلدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ يُمْكِنُهَا أَنْ تَسْتَغْنِيَ عَنْ تَعَلُّمِ لُغَاتِ الْأُمَمِ بِالْمُتَرْجِمِينَ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ ، فَإِنَّهَا إِنْ ظَفِرَتْ بِالْمُتَرْجِمِ الْأَجْنَبِيِّ الْأَمِينِ لَا يَتَيَسَّرُ لَهَا أَنْ تَفْهَمَهُ مِنْ حَقِيقَةِ الدِّينِ عِنْدَ التَّرْجَمَةِ مَا يَفْهَمُهُ الْعَالِمُ الْمُسْلِمُ ، وَإِنَّمَا يُلْجَأُ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ . أَمَّا إِذَا أَمْكَنَ تَأْلِيفُ جَمْعِيَّةٍ لِلدَّعْوَةِ فَالْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ فِيهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْعَارِفِينَ بِاللُّغَاتِ مَنْ يَكْفِيهَا الْحَاجَةَ إِلَى تَرْجَمَةِ الْأَجْنَبِيِّ كَمَا تَفْعَلُ جَمْعِيَّاتُ الدَّعْوَةِ إِلَى النَّصْرَانِيَّةِ فَإِنَّ أَفْرَادًا مِنْهَا يَتَعَلَّمُونَ لُغَاتِ جَمِيعِ الْأُمَمِ . وَلَمْ يُبَيِّنِ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ هَذَا فِي الدَّرْسِ ; لِأَنَّهُ لَمْ يَتَصَدَّ إِلَى بَيَانِ كُلِّ مَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ الْعَمَلُ

فِي تَعْمِيمِهِ وكَمَالِهِ ، وإِنَّمَا ذَكَرَ مَا ذَكَرَهُ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ لِتَنْبِيهِ الْأَذْهَانِ وَالتَّرْغِيبِ فِيمَا يَتَيَسَّرُ لِأَهْلِ الْأَزْهَرِ فِي هَذَا الزَّمَانِ ، وَلَوْ شَرَحَ فِي هَذَا

(297/126)

الْمَقَامِ فَوَائِدَ تَعَلُّمِ اللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ وَتَوَقُّفِ مَا يَجِبُ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ عَلَيْهَا لَقَامَ أَعْدَاءُ الْإِصْلَاحِ وَخَاذِلُو الدِّينِ الْقَاعِدُونَ لَهُ كُلَّ مَرْصَدٍ يَصِيحُونَ فِي الْجَرَائِدِ وَالْمَحَافِلِ بِأَنَّ الشَّيْخَ الْمُفْتِيَ يُرِيدُ أَنْ يَهْدِمَ الدِّينَ فِي الْأَزْهَرِ بِحَثِّ طُلَّابِهِ عَلَى تَعَلُّمِ اللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ كَمَا فَعَلُوا مِثْلَ ذَلِكَ عِنْدَ حَثِّهِ إِيَّاهُمْ عَلَى تَعَلُّمِ التَّارِيخِ وَتَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ وَبَعْضِ الْفُنُونِ الرِّيَاضِيَّةِ ، وَإِنَّ صِيَاحَهُمْ فِي مَسْأَلَةِ اللُّغَاتِ يَكُونُ أَوْضَحَ شُبْهَةً عِنْدَ الْجُمْهُورِ الْجَاهِلِ ، وَلَيْسَ هَذَا الْبَحْثُ بِأَجْنَبِيٍّ عَنِ التَّفْسِيرِ ، بَلْ هُوَ أَوْلَى مِنْ مَبَاحِثِ الرَّازِيِّ فِي عُلُومِ الْيُونَانِ وَتَوَسُّعِ غَيْرِهِ فِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ أَوِ اللُّغَوِيَّاتِ ; لِأَنَّ قَصْدَنَا مِنَ التَّفْسِيرِ بَيَانُ مَعْنَى الْقُرْآنِ وَطُرُقِ الِاهْتِدَاءِ بِهِ فِي هَذَا الزَّمَانِ ، وَلَنْ نَكُونَ مُهْتَدِينَ بِهِ حَتَّى تَكُونَ مِنَّا أُمَّةٌ تَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ وَتَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ مِنَ الطُّرُقِ الَّتِي يُرْجَى نَفْعُهَا وَذَلِكَ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ . فَوَجَبَ عَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَ خَطَأَ مَنْ يَصُدُّ عَنْهُ .

(10) الْعِلْمُ بِالْفُنُونِ وَالْعُلُومِ الْمُتَدَاوَلَةِ فِي الْأُمَمِ الَّتِي تُوَجَّهُ إِلَيْهَا الدَّعْوَةُ وَلَوْ بِقَدْرِ

مَا يَفْهَمُ بِهِ الدُّعَاةُ مَا يُورِدُ عَلَى الدِّينِ مِنْ شُبُهَاتِ تِلْكَ الْعُلُومِ ، وَالْجَوَابِ عَنْهَا بِمَا يَلِيقُ بِمَعَارِفِ الْمُخَاطَبِينَ بِالدَّعْوَةِ .

(298/126)

---

(11) مَعْرِفَةُ الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ وَمَذَاهِبِ الْأُمَمِ فِيهَا لِيَتَيَسَّرَ لِلدُّعَاةِ بَيَانُ مَا فِيهَا مِنَ الْبَاطِلِ ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ بُطْلَانُ مَا هُوَ عَلَيْهِ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى الْحَقِّ الَّذِي عَلَيْهِ غَيْرُهُ وَإِنْ دَعَاهُ إِلَيْهِ ، وَقَدْ كُنْتُ كَتَبْتُ فِي سَنَةِ الْمَنَارِ الثَّالِثَةِ مَقَالَةً فِي الدَّعْوَةِ وَطَرِيقِهَا وَآدَابِهَا جَعَلْتُ فِيهِ هَذَا الشَّرْطَ وَمَا قَبْلَهُ وَاحِدًا ، فَقُلْتُ فِيهِ (ص 484 م 3) " ثَالِثُهَا - أَيِ الشُّرُوطِ - الْوُقُوفُ عَلَى مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْمَذَاهِبِ وَالتَّقَالِيدِ الدِّينِيَّةِ ، وَالْعُلُومِ وَالْفُنُونِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، مَا يَتَعَلَّقُ مِنْهَا بِالدَّعْوَةِ وَيَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ شُبْهَةً ، وَمَنْ جَهِلَ هَذَا الْقَدْرَ كَانَ عَاجِزًا عَنْ إِزَالَةِ الشُّبُهَاتِ ، وَحَلِّ عُقَدِ الْمُشْكِلَاتِ ، وَمَنْ فَاتَهُ هَذَا الشَّرْطُ وَمَا قَبْلَهُ - وَهُوَ الْعِلْمُ بِالْأَخْلَاقِ وَالْعَادَاتِ - لَا يَقْدِرُ أَنْ يُخَاطِبَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ الْعُقُولِ وَالْأَحْلَامِ ، كَمَا كَانَ شَأْنُ سَادَةِ الدُّعَاةِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ، وَلَقَدْ عَلِمَ رُؤَسَاءُ الدِّيَانَةِ النَّصْرَانِيَّةِ أَنَّ مَا كَانَ مِنْ جَهْلِهِمْ بِالْعُلُومِ الْكَوْنِيَّةِ وَمُعَادَاتِهِمْ لَهَا ، وَتَحْكِيمِهِمُ الدِّينَ فِيهَا مُؤْذِنٌ بِاضْمِحْلَالِهَا ، وَمُفْضٍ إِلَى زَوَالِهَا ، فَأَخَذُوا

بِزِمَامِهَا ، وَقَادُوهَا بِخِطَامِهَا ، وَقَرَّبُوا بَيْنَ عَالَمَيِ الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ ، وَقَرَنُوا بَيْنَ عِلْمَيِ النَّاسُوتِ وَاللَّاهُوتِ ، وَبِهَذَا أَمْكَنَهُمْ حِفْظُ حُرْمَةِ الدِّينِ ، وَإِعْلَاءُ كَلِمَتِهِ بَيْنَ الْعَالَمِينَ .

(299/126)

وَدِينُنَا هُوَ الَّذِي رَبَطَ بَيْنَ الْعَالَمِينَ ، وَلَكِنَّنَا نَقْطَعُ الرَّوَابِطَ ، وَجَمَعَ بَيْنَ الْعِلْمَيْنِ وَلَكِنَّنَا نَهْدِمُ الْجَوَامِعَ ، وَلِهَذَا جَهِلْنَا وَتَعَلَّمُوا ، وَسَكَتْنَا وَتَكَلَّمُوا ، وَتَأَخَّرْنَا وَتَقَدَّمُوا ، وَنَقَصْنَا وَزَادُوا ، وَاسْتُعْبِدْنَا وَسَادُوا " . اهـ .

كُلُّ هَذَا مِنَ الشُّرُوطِ الْعِلْمِيَّةِ ، وَلِلدَّعْوَةِ شُرُوطٌ أُخْرَى تَتَعَلَّقُ بِتَرْبِيَةِ الدُّعَاةِ عَلَى الْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ الَّتِي تُشْتَرَطُ فِي الدُّعَاةِ إِلَى الْحَقِّ سَنَشْرَحُهَا فِي تَفْسِيرِ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ [16 : 125] إِنْ أَمْهَلَ الزَّمَانُ . وَإِنَّ لَنَا أَنْ نَأْخُذَ مِمَّا اسْتَدَلَّ بِهِ الْفُقَهَاءُ عَلَى وُجُوبِ تَعَلُّمِ فُنُونِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ

وَالْأُصُولِ لِأَجْلِ فَهْمِ الدِّينِ دَلِيلًا عَلَى وُجُوبِ تَعَلُّمِ طُرُقِ الدَّعْوَةِ وَمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي هَذَا الزَّمَانِ بِطَرِيقَةٍ صِنَاعِيَّةٍ ، فَإِذَا كَانَتِ الدَّعْوَةُ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ قَدْ تَيَسَّرَتْ بِغَيْرِ تَعْلِيمٍ صِنَاعِيٍّ وَلَا تَأْلِيفِ جَمْعِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ كَمَا كَانَ فَهْمُ الدِّينِ مُتَيَسِّرًا بِغَيْرِ تَعَلُّمٍ صِنَاعِيٍّ فَفِي هَذَا الزَّمَانِ يَتَوَقَّفُ فَهْمُ الدِّينِ عَلَى التَّعْلِيمِ الصِّنَاعِيِّ ، وَتَتَوَقَّفُ الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ وَالْأَمْرُ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ

الْمَعْرُوفِ وَمَا حَظَرَهُ مِنَ الْمُنْكَرِ عَلَى تَعْلِيمٍ خَاصٍّ وَتَأْلِيفِ جَمْعِيَّاتٍ خَاصَّةٍ تَقُومُ بِهَذَا الْعَمَلِ، وَلَا يَنْتَشِرُ الدِّينُ وَلَا يُحْفَظُ عَلَى وَجْهِهِ إِلَّا بِهَذَا كَمَا تَقَدَّمَ

(300/126)

التَّنْوِيهُ بِهِ، فَالْمُرَادُ بِالْأُمَّةِ الَّتِي تُقِيمُهَا الْأُمَّةُ لِذَلِكَ مَا يُعَبَّرُ عَنْهُ فِي عُرْفِ هَذَا الْعَصْرِ بِالْجَمْعِيَّةِ.

(301/126)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: وَمِنْ أَعْمَالِ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْأَخْذُ عَلَى أَيْدِي الظَّالِمِينَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ أَقْبَحُ الْمُنْكَرِ، وَالظَّالِمَ لَا يَكُونُ إِلَّا قَوِيًّا وَلِذَلِكَ اشْتُرِطَ فِي النَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَنْ يَكُونُوا أُمَّةً؛ لِأَنَّ الْأُمَّةَ لَا تُخَالَفُ وَلَا تُغْلَبُ كَمَا تَقَدَّمَ، فَهِيَ الَّتِي تُقَوِّمُ عِوَجَ الْحُكُومَةِ، وَالْمَعْرُوفُ أَنَّ الْحُكُومَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَصْلِ الشُّورَى، وَهَذَا صَحِيحٌ وَالْآيَةُ أَدَلُّ دَلِيلٍ عَلَيْهِ وَدَلَالَتُهَا أَقْوَى مِنْ قَوْلِهِ - تَعَالَى -: وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ [42: 38] لِأَنَّ هَذَا وَصْفٌ خَبَرِيٌّ لِحَالِ طَائِفَةٍ مَخْصُوصَةٍ أَكْثَرُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ هَذَا الشَّيْءَ مَمْدُوحٌ فِي نَفْسِهِ مَحْمُودٌ عِنْدَ اللَّهِ - تَعَالَى -

وَأَقْوَى مِنْ دَلَالَةِ قَوْلِهِ : وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ [3 : 159] فَإِنَّ أَمْرَ الرَّئِيسِ بِالْمُشَاوَرَةِ ، يَقْتَضِي وُجُوبَهُ عَلَيْهِ وَلَكِنْ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ ضَامِنٌ يَضْمَنُ امْتِثَالَهُ لِلْأَمْرِ فَمَاذَا يَكُونُ إِذَا هُوَ تَرَكَهُ ؟ وَأَمَّا هَذِهِ الْآيَةُ فَإِنَّهَا تَفْرِضُ أَنْ يَكُونَ فِي النَّاسِ جَمَاعَةٌ مُتَّحِدُونَ أَقْوِيَاءُ يَتَوَلَّوْنَ الدَّعْوَةَ إِلَى الْخَيْرِ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَهُوَ عَامٌّ فِي الْحُكَّامِ وَالْمَحْكُومِينَ ، وَلَا مَعْرُوفَ أَعْرَفُ مِنَ الْعَدْلِ وَلَا مُنْكَرَ أَنْكَرُ مِنَ الظُّلْمِ . وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ " لَا بُدَّ أَنْ يَأْطُرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا "

(302/126)

هَكَذَا نَقَلَ بَعْضُ الطُّلَّابِ هَذَا الْحَدِيثَ عَنِ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ وَفَسَّرَهُ عَنْهُ بِأَنَّ مَعْنَاهُ يُفْنُوهُمْ أَيِ الظَّالِمِينَ وَيُبِيدُوهُمْ وَهُوَ كَمَا فِي كَنْزِ الْعُمَّالِ مَعْزُوٌّ إِلَى أَبِي دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ : " إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ : يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ . كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا ، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ ثُمَّ يَلْعَنُكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ " وَعَنْهُ عِنْدَ أَحْمَدَ وَالتِّرْمِذِيِّ : " لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ

فِي الْمَعَاصِي فَنَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا فَجَالَسُوهُمْ وَآكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ فَضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ

بِبَعْضٍ وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَأْطُرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا " وَقَدْ أَوْرَدَ الْفِقْرَةَ الْأَخِيرَةَ مِنَ الرِّوَايَةِ الْأُولَى فِي لِسَانِ الْعَرَبِ بِضَمِيرِ الْمُفْرَدِ وَقَالَ : قَالَ أَبُو عَمْرٍو وَغَيْرُهُ قَوْلُهُ : " تَأْطُرُوهُ عَلَى الْحَقِّ " تَعْطِفُوهُ عَلَيْهِ . اهـ .

(303/126)

أَقُولُ : وَمَعْنَى الْآيَةِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ قُوَّةُ الْمُسْلِمِينَ تَابِعَةً لِهَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي تَقُومُ بِفَرِيضَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْخَيْرِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَهِيَ بِمَعْنَى مَجَالِسِ النُّوَّابِ فِي الْحُكُومَاتِ الْجُمْهُورِيَّةِ وَالْمَلَكِيَّةِ الْمُقَيَّدَةِ ، فَكَأَنَّ الْآيَةَ بَيَانٌ لِكَوْنِ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شُورَى بَيْنَهُمْ ، وَمَا ذَكَرَهُ فِي مَعْنَى وَأَمْرُهُمْ شُورَى وَمَعْنَى وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ لَعَلَّهُ يُرِيدُ بِهِ أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ فِيهِمَا كَذَا ، وَإِلَّا فَكُلٌّ مِنَ النَّصَّيْنِ دَالٌّ عَلَى وُجُوبِ كَوْنِ حُكُومَةِ الْمُسْلِمِينَ شُورَى ، وَمَجِيءُ النَّصِّ الْأَوَّلِ فِي الذِّكْرِ بِصِيغَةِ الْخَبَرِ يُؤَكِّدُ كَوْنَهُ فَرْضًا حَتْمًا ، كَمَا عُهِدَ نَظِيرُ ذَلِكَ فِي الْأَسَالِيبِ الْبَلِيغَةِ وَمَرَّ مَعَنَا كَثِيرٌ مِنْهَا رَاجِعْ تَفْسِيرَ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ

[2 : 228] الْآيَةَ ، وَالنَّصُّ الثَّانِي صَرِيحٌ فِي الْوُجُوبِ وَالضَّامِنُ لَهُ الْأُمَّةُ الْمُخَاطَبَةُ بِالتَّكَالِيفِ فِي أَكْثَرِ النُّصُوصِ . وَإِنَّمَا الْآيَةُ الَّتِي نُفَسِّرُهَا تَفْصِيلٌ لِكَيْفِيَّةِ الضَّمَانِ كَمَا يَأْتِي مُبَيَّنًا عَنْهُ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - .

(304/126)

قَالَ : وَمِمَّا يُنَاطُ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ - وَهُوَ أَصْلُ كُلِّ مَعْرُوفٍ - النَّظَرُ فِي تَعْلِيمِ الْجَاهِلِينَ ، فَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّ فِي مَكَانٍ مَا طَائِفَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ جَاهِلِينَ بِمَا يَجِبُ اتُّخِذَتِ الْوَسَائِلُ لِتَعْلِيمِهِمْ ، وَمِنْ هُنَا يُعْلَمُ فَسَادُ مَا يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ مِنْ أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَصَدَّوْا لِتَعْلِيمِ النَّاسِ مَا لَمْ يَسْعَوْا إِلَيْهِمْ وَيَسْأَلُوهُمْ ، وَلَا يَجْهَلُ أَحَدٌ أَنَّ الرَّسُولَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَدْ تَصَدَّى لِتَعْلِيمِ النَّاسِ وَلَمْ يَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ مُنْتَظِرًا سُؤَالَ النَّاسِ لِيُفِيدَهُمْ ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ الصَّحَابَةُ عَلَيْهِمُ الرِّضْوَانُ اهْتِدَاءً بِهَدْيِهِ .

(305/126)

قَالَ : ثُمَّ إِنَّ كَوْنَ الْقَائِمِينَ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ أُمَّةً يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ لَهَا رِيَاسَةٌ تُدَبِّرُهَا ; لِأَنَّ أَمْرَ الْجَمَاعَةِ بِغَيْرِ رِيَاسَةٍ يَكُونُ مُخْتَلًّا مُعْتَلًّا ، فَكُلُّ كَوْنٍ لَا رِيَاسَةَ فِيهِ فَاسِدٌ ، فَالرَّأْسُ هُوَ مَرْكَزُ تَدْبِيرِ الْبَدَنِ وَتَصْرِيفِ الْأَعْضَاءِ فِي أَعْمَالِهَا ، وَكَذَلِكَ يَكُونُ رَئِيسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَصْدَرَ النِّظَامِ وَتَوْزِيعِ الْأَعْمَالِ عَلَى الْعَامِلِينَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُوَجَّهُونَ إِلَى دَعْوَةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُوَجَّهُونَ إِلَى إِرْشَادِ الْمُسْلِمِينَ فِي بِلَادِهِمْ ، وَمَقَامُ الرِّيَاسَةِ يَخْتَارُ بِالْمُشَاوَرَةِ لِكُلِّ عَمَلٍ وَلِكُلِّ بِلَادٍ مَنْ يَكُونُونَ أَكْفَاءَ لِلْقِيَامِ بِالْوَاجِبِ فِيهَا ; لِتَكُونَ أَعْمَالُهُمْ مُؤَدِّيَةً إِلَى مَقْصِدِ الْأُمَّةِ الْعَامِّ ، فَإِنَّ مِنْ مَعْنَى الْأُمَّةِ أَنْ يَكُونَ لِلْأَفْرَادِ الَّذِينَ تَتَكَوَّنُ مِنْهُمْ وَحْدَةٌ فِي الْقَصْدِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَسَيْرِهِمْ فَإِذَا اخْتَلَفَتِ الْمَقَاصِدُ فَسَدَ الْعَمَلُ بِاخْتِلَافِ الْآرَاءِ وَتَنْكِيثِ الْقُوَى ; وَلِذَلِكَ جَاءَ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ النَّهْيُ عَنِ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ .

(306/126)

قَالَ : ثُمَّ إِنَّ كَوْنَ الْأُمَّةِ الْخَاصَّةِ مُنْتَخَبَةً مِنَ الْأُمَّةِ الْعَامَّةِ يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ لِلْعَامَّةِ رَقَابَةٌ وَسَيْطَرَةٌ عَلَى الْخَاصَّةِ تُحَاسِبُهَا عَلَى تَفْرِيطِهَا وَلَا تُعِيدُ انْتِخَابَ مَنْ يُقَصِّرُ فِي عَمَلِهِ لِمِثْلِهِ . فَالْأُمَّةُ الصُّغْرَى الْمُنْتَخَبَةُ (بِفَتْحِ الْخَاءِ) تَكُونُ مُسَيْطِرَةً عَلَى أَفْرَادِ الْأُمَّةِ الْكُبْرَى الْمُنْتَخِبَةِ (بِكَسْرِ الْخَاءِ) وَهَذِهِ تَكُونُ مُسَيْطِرَةً عَلَى الْأُمَّةِ الصُّغْرَى ، وَبِهَذَا يَكُونُ الْمُسْلِمُونَ فِي

تَكَافُلٍ وتَضَامُنٍ .

بَعْدَ أَنْ أَمَرَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وتَعَالَى - بأَنْ تَكُونَ مِنَّا أُمَّةٌ تَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ وتَأْمُرُ بالْمَعْرُوفِ وتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ ، وبَيَّنَ أَنَّ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ دُونَ سِوَاهُمْ - لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الدِّينَ ويَحْفَظُونَ سِيَاجَهُ ، وبِهِمْ تَتَحَقَّقُ الْوَحْدَةُ الْمَقْصُودَةُ مِنْهُ - نَهَانَا عَنِ التَّفَرُّقِ والِاخْتِلَافِ الَّذِي يَذْهَبُ بِتِلْكَ الْوَحْدَةِ ويَتَعَذَّرُ مَعَهُ الْقِيَامُ بِتِلْكَ الدَّعْوَةِ الصَّالِحَةِ فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ ، تَفَرَّقُوا فِي الدِّينِ وكَانُوا شِيَعًا كُلُّ شِيعَةٍ تَذْهَبُ مَذْهَبًا يُخَالِفُ مَذْهَبَ الْأُخْرَى ، وصَارَ كُلٌّ يَنْصُرُ مَذْهَبَهُ ويَدْعُو إِلَيْهِ

(307/126)

ويُخَطِّئُ مَا سِوَاهُ حَتَّى تَعَادَوْا واقْتَتَلُوا عَلَى ذَلِكَ ، رَاجِعْ تَفْسِيرَ آيَةِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ [2 : 253] فِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنَ التَّفْسِيرِ ، ولَوْ كَانُوا أُمَّةً أَوْ كَانَ فِيهِمْ أُمَّةٌ

تَأْمُرُ بالْمَعْرُوفِ وتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ مُعْتَصِمِينَ بِحَبْلٍ وَاحِدٍ مُتَوَجِّهِينَ إِلَى غَايَةٍ وَاحِدَةٍ لَمَا

تفرّقوا في المقاصد ، ولو لم يتفرّقوا لما اختلفوا في الدّين وتعدّدت فيهم المذاهب في أصوله وفروعه حتّى قتل بعضهم بعضًا ، فلا تكونوا مثلهم فيحلّ بكم ما حلّ بهم .

(308/126)

فهذه الآية متمّمة لقوله - تعالى - : واعتصموا بحبل الله وما بعدها ، فالاعتصام بحبل الله هو الأصل وبه يكون الاجتماع والاتّحاد الّذي يجعل الأمّة كالشّخص الواحد ، والدّعوة إلى الخير هي الّتي تغذو هذه الوحدة وتمدّها وتنميها ، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر تقوم به أمّة قويّة هو الّذي يحفظها ويؤيّدها ويشدّ أزرها . قال الأستاذ الإمام : إنّ هذه الآية كالدّليل على أنّه يجب أن تكون وجهة الأمّة الدّاعية الآمرة النّاهية واحدة ; لأنّ الّذين سبقوهم ما أفلحوا لعدم وحدتهم ، كأنّه يقول : لا يمكن أن تكون فيكم أمّة للدّعوة والأمر والنّهي إلّا إذا اجتمعت على مقصد واحد ، فالتّرتيب في الآيات طبيعيّ ، إذ من البديهيّ أنّ المتّفقين في المقصد لا يختلفون اختلافًا ضارًّا ينافيه ، وإنّما يقع الاختلاف بعد التّفرّق في المقاصد والتّباين في الأهواء بذهاب كلّ إلى تأييد مقصده وإرضاء هواه فيه ، والاختلاف في الرّأي لأجل تأييد المقصد المتّفق عليه لا يضرّ بل ينفع ، وهو طبيعيّ لا مندوحة عنه .

أَقُولُ : وَقَدْ أَوْرَدَ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ لِاتِّصَالِ هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا قَبْلَهَا قَوْلَيْنِ أَقْرَبُهُمَا ثَانِيهِمَا ، وَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ مِنْهُمَا صَحِيحًا فِي نَفْسِهِ فَقَالَ : "فِي النَّظْمِ وَجْهَانِ :

(309/126)

(الْأَوَّلُ) أَنَّهُ - تَعَالَى - ذَكَرَ فِي الْآيَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ أَنَّهُ بَيَّنَ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ مَا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ دِينِ الْإِسْلَامِ وَصِحَّةِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ حَسَدُوا مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَاحْتَالُوا فِي إِلْقَاءِ الشُّكُوكِ وَالشُّبُهَاتِ فِي تِلْكَ النُّصُوصِ الظَّاهِرَةِ ، ثُمَّ إِنَّهُ - تَعَالَى - أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ ، ثُمَّ خَتَمَ ذَلِكَ بِأَنْ حَذَّرَ مِنْ مِثْلِ فِعْلِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَهُوَ إِلْقَاءُ الشُّبُهَاتِ فِي هَذِهِ النُّصُوصِ وَاسْتِخْرَاجُ التَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ الرَّافِعَةِ لِدَلَالَةِ هَذِهِ النُّصُوصِ ، فَقَالَ : وَلَا تَكُونُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ عِنْدَ سَمَاعِ هَذِهِ الْبَيِّنَاتِ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ تِلْكَ النُّصُوصُ الظَّاهِرَةُ . فَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ تَكُونُ مِنْ تَتِمَّةِ جُمْلَةِ الْآيَاتِ .

وَ(الثَّانِي) وَهُوَ أَنَّهُ - تَعَالَى - لَمَّا أَمَرَ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَذَلِكَ مِمَّا لَا يَتِمُّ إِلَّا إِذَا كَانَ الْآمِرُ بِالْمَعْرُوفِ قَادِرًا عَلَى تَنْفِيذِ هَذَا التَّكْلِيفِ عَلَى الظَّلَمَةِ وَالْمُتَغَالِينَ ، وَلَا

تَحْصُل هَذِهِ الْقُدْرَةُ إِلَّا إِذَا حَصَلَتِ الْأُلْفَةُ وَالْمَحَبَّةُ بَيْنَ أَهْلِ الْحَقِّ وَالدِّينِ ، لَا جَرَمَ حَذَّرَهُمْ - تَعَالَى - مِنَ الْفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ ; لِكَيْلَا يَصِيرَ ذَلِكَ سَبَبًا لِعَجْزِهِمْ عَنِ الْقِيَامِ بِهَذَا التَّكْلِيفِ .

(310/126)

وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ تَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ تَتِمَّةِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ فَقَطْ " اهـ . وَمَا قَالَهُ صَحِيحٌ ، وَلَكِنَّ الْوَجْهَ فِي تَفْسِيرِهَا وَاتِّصَالِهَا بِمَا قَبْلَهُ هُوَ مَا جَرَيْنَا عَلَيْهِ آنِفًا .

(311/126)

وَعُلِمَ مِمَّا بَيَّنَّا أَنَّ الِاخْتِلَافَ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ هُوَ مَا كَانَ نَاشِئًا عَنِ التَّفَرُّقِ لَا كُلُّ اخْتِلَافٍ وَإِنْ كَانَ فِي وَسَائِلِ تَأْيِيدِ الْمَقْصِدِ مَعَ حُسْنِ النِّيَّةِ الَّذِي لَا يَدُومُ مَعَهُ خِلَافٌ ، وَإِذَا دَامَ فِي مَسْأَلَةٍ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ ; لِأَنَّهُ لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ اخْتِلَافٌ فِي الْعَمَلِ ، إِذِ الْمُتَّفِقُونَ الْمُخْلِصُونَ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى قَوْلِ مَنْ ظَهَرَ عَلَى لِسَانِهِ الْبُرْهَانُ مِنْهُمْ وَإِلَّا عَمِلُوا بِرَأْيِ الْأَكْثَرِينَ فِيمَا لَا يَظْهَرُ لِلْأَقَلِّينَ بُرْهَانُهُ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَلَا نَخُوضُ فِي أَقْوَالِ الْمُؤَوِّلِينَ الْمُتَحَكِّكِينَ بِالْأَلْفَاظِ عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي

يُعبِّرُونَ عَنْهَا بِالتَّحْقِيقِ وَالتَّدْقِيقِ كَحَمْلِ بَعْضِهِمُ التَّفَرُّقَ عَلَى مَا يَكُونُ فِي الْعَقَائِدِ ، وَالِاخْتِلَافَ عَلَى مَا يَكُونُ فِي الْأَحْكَامِ ، وَادِّعَاءِ بَعْضِهِمْ أَنَّهَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ ، فَالْآيَةُ ظَاهِرَةُ الْمَعْنَى . أَقُولُ : وَمِنَ الْأَقْوَالِ الَّتِي أَوْرَدَهَا الرَّازِيُّ أَنَّهُمْ تَفَرَّقُوا بِسَبَبِ التَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا بِأَنْ حَاوَلَ كُلٌّ مِنْهُمْ نُصْرَةَ مَذْهَبِهِ . وَهَذَا وَاقِعٌ وَلَكِنَّهُ تَفْسِيرُ الِاخْتِلَافِ فِي الْمَذَاهِبِ وَمَا يَنْشَأُ عَنْهُ وَكُلُّهُ أَثَرٌ لِلتَّفَرُّقِ . وَمِنْهَا أَنَّهُمْ تَفَرَّقُوا بِأَبْدَانِهِمْ بِأَنْ صَارَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أُولَئِكَ الْأَحْبَارِ رَئِيسًا فِي بَلَدٍ ثُمَّ اخْتَلَفُوا بِأَنْ صَارَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَدَّعِي أَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ وَأَنَّ صَاحِبَهُ عَلَى الْبَاطِلِ . قَالَ الْأُسْتَاذُ الرَّازِيُّ بَعْدَ إِيرَادِ هَذَا الْقَوْلِ : " وَأَقُولُ

(312/126)

إِنَّكَ إِذَا أَنْصَفْتَ عَلِمْتَ أَنَّ أَكْثَرَ عُلَمَاءِ هَذَا الزَّمَانِ صَارُوا مَوْصُوفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالرَّحْمَةَ " اهـ .

أَقُولُ : وَتَبِعَ الرَّازِيَّ فِي قَوْلِهِ هَذَا فِي الْعُلَمَاءِ نِظَامُ الدِّينِ الْحَسَنُ النَّيْسَابُورِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (كَعَادَتِهِ) فَقَالَ بَعْدَ ذِكْرِ تَفَرُّقِ الْأَحْبَارِ وَاخْتِلَافِهِمْ : " وَلَعَلَّ الْإِنْصَافَ أَنَّ أَكْثَرَ عُلَمَاءِ الزَّمَانِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ ، فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعِصْمَةَ وَالسَّدَادَ " اهـ . وَسَبَقَهُمَا حُجَّةُ الْإِسْلَامِ الْغَزَّالِيُّ إِلَى بَيَانِ سُوءِ حَالِ الْعُلَمَاءِ فِي الِاخْتِلَافِ مَا عَدَا الْأَفْرَادَ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ التَّقْلِيدَ وَيَقُولُونَ

بِوُجُوبِ الِاعْتِصَامِ بِحَبْلِ اللهِ – وَهُوَ كِتَابُهُ – وَعَدَمِ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ ، وَلَكِنْ صَوْتُ هَؤُلَاءِ الْأَفْرَادِ لَا يُسْمَعُ بَيْنَ جَلَبَةِ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ وَلَا سِيَّمَا أَصْحَابُ الْمَنَاصِبِ وَالْحُظْوَةِ عِنْدَ الْأُمَرَاءِ وَالْمُلُوكِ الَّذِينَ يُدَعِّمُونَ سُلْطَتَهُمْ بِجُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَتْبَعُهُمُ الْعَامَّةُ .

(313/126)

وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءَ الْأَفْرَادَ الَّذِينَ تَنَبَّهُوا فِي الْقُرُونِ الْوُسْطَى إِلَى سُوءِ حَالِ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ الَّذِينَ يُلَقِّبُهُمُ الْغَزَّالِيُّ بِعُلَمَاءِ السُّوءِ لَمْ يُحَاوِلُوا مُعَالَجَةَ هَذَا الدَّاءِ وَاصْطِلَامِ أَرُومَتِهِ ، وَهُوَ تَفَرُّقُ الْمَذَاهِبِ وَالتَّعَصُّبُ لَهَا بِالدَّوَاءِ الَّذِي وَصَفَهُ اللهُ – تَعَالَى – فِي كِتَابِهِ ، وَهُوَ تَأْلِيفُ أُمَّةٍ تَدْعُو إِلَى الِاعْتِصَامِ وَتَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ ، بَلِ اكْتَفَى بَعْضُهُمْ بِالشَّكْوَى مِنْ ذَلِكَ وَإِنْكَارِهِ فِي الْكُتُبِ الَّتِي يُؤَلِّفُهَا كَالْإِمَامِ الرَّازِيِّ ، أَوْ بِاللِّسَانِ لِبَعْضِ تَلَامِيذِهِ كَمَا نَقَلَ الرَّازِيُّ

عَنْ أَكْبَرِ شُيُوخِهِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ – تَعَالَى – : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا [9 : 31] فَإِنَّهُ بَعْدَ تَفْسِيرِ اتِّخَاذِهِمْ أَرْبَابًا بِطَاعَتِهِمْ فِيمَا يُحَلِّلُونَ وَيُحَرِّمُونَ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ قَالَ مَا نَصُّهُ :

(314/126)

قَالَ شَيْخُنَا وَمَوْلَانَا خَاتِمَةُ الْمُحَقِّقِينَ وَالْمُجْتَهِدِينَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - : قَدْ شَاهَدْتُ جَمَاعَةً مِنْ مُقَلِّدَةِ الْفُقَهَاءِ قَرَأْتُ عَلَيْهِمْ آيَاتٍ كَثِيرَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ - تَعَالَى - فِي بَعْضِ مَسَائِلَ وَكَانَتْ مَذَاهِبُهُمْ بِخِلَافِ تِلْكَ الْآيَاتِ فَلَمْ يَقْبَلُوا تِلْكَ الْآيَاتِ وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهَا وَبَقُوا يَنْظُرُونَ إِلَيَّ كَالْمُتَعَجِّبِ ! يَعْنِي كَيْفَ يُمْكِنُ الْعَمَلُ بِظَوَاهِرِ هَذِهِ الْآيَاتِ مَعَ أَنَّ الرِّوَايَةَ عَنْ سَلَفِنَا وَرَدَتْ عَلَى خِلَافِهَا ! وَلَوْ تَأَمَّلْتَ حَقَّ التَّأَمُّلِ وَجَدْتَ هَذَا الدَّاءَ سَارِيًا فِي عُرُوقِ الْأَكْثَرِينَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا " اهـ .

أَقُولُ : إِنَّ الرَّازِيَّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - كَانَ يُقَرِّرُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ عِنْدَمَا يُفَسِّرُ آيَاتِهَا وَيَنْسَاهَا فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى ، فَيَتَعَصَّبُ لِلْأَشْعَرِيَّةِ فِي أُصُولِ الْعَقَائِدِ وَلِلشَّافِعِيَّةِ فِي فُرُوعِ الْفِقْهِ ، لَا سِيَّمَا فِيمَا يُخَالِفُونَ فِيهِ الْحَنَفِيَّةَ . وَهَذَا هُوَ أُصُولُ الدَّاءِ الَّذِي يَشْكُو مِنْ بَعْضِ أَعْرَاضِهِ عِنْدَ الْكَلَامِ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ مَعَ الْغَفْلَةِ عَنْ سَبَبِهَا . أَمَّا الْإِمَامُ الْغَزَّالِيُّ فَقَدْ تَجَرَّدَ عَنِ التَّعَصُّبِ لِلْمَذَاهِبِ كُلِّهَا فِي نِهَايَتِهِ ، وَوَصَفَ الدَّوَاءَ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ كَالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (رَاجِعْ ذَلِكَ فِي ص 11 مِنَ الْجُزْءِ الثَّالِثِ طَبْعَةِ الْهَيْئَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْعَامَّةِ لِلْكِتَابِ) وَلَكِنَّهُ لَمْ يُوَفَّقْ إِلَى تَأْلِيفِ أُمَّةٍ تَدْعُو إِلَيْهِ وَتَقُومُ بِهِ .

وَإِذَا كَانَ الرَّازِيُّ وَشَيْخُهُ يَقُولَانِ فِي عُلَمَاءِ الْقَرْنِ السَّابِعِ، وَالْغَزَّالِيُّ يَقُولُ فِي عُلَمَاءِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ مَا قَالُوا فَمَاذَا نَقُولُ فِي أَكْثَرِ عُلَمَاءِ زَمَانِنَا وَهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِمَا نَعْرِفُهُ مِنْ كَوْنِهِمْ لَا يَشُقُّونَ لِأُولَئِكَ غُبَارًا؟ أَلَسْنَا الْآنَ أَحْوَجَ إِلَى الْإِصْلَاحِ مِنَّا إِلَيْهِ فِي تِلْكَ الْعُصُورِ الَّتِي اعْتَرَفَ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةُ بِأَنَّ الظُّلُمَاتِ فِيهَا غَشِيَتِ النُّورَ، حَتَّى ضَلَّ بِالِاخْتِلَافِ الْجُمْهُورُ؟ بَلَى، وَهُوَ مَا نُعَانِي فِيهِ مَا نُعَانِي وَإِلَى اللهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ.

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ يُفِيدُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُؤَاخَذُ عَلَى تَرْكِ الْحَقِّ أَوِ اتِّبَاعِ الْبَاطِلِ إِلَّا إِذَا بُيِّنَ لَهُ ذَلِكَ حَتَّى يَتَبَيَّنَ، أَوْ صَارَ بِحَيْثُ تَبَيَّنَ لَهُ لَوْ نَظَرَ فِيهِ، وَالْجَهْلُ لَيْسَ بِعُذْرٍ بَعْدَ الْبَيَانِ، كَمَا هُوَ الْمُقَرَّرُ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ وَالْحُكَّامِ فِي كُلِّ مَكَانٍ.

(316/126)

قَالَ - تَعَالَى - فِي الْمُتَفَرِّقِينَ الْمُخْتَلِفِينَ بَعْدَ مَجِيءِ الْبَيِّنَاتِ: وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فَهَذَا الْوَعِيدُ يُقَابِلُ الْوَعْدَ الْكَرِيمَ فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى - فِي الدَّاعِينَ إِلَى الْخَيْرِ الْآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ النَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ: وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ فَالْفَلَاحُ فِي ذَلِكَ الْوَعْدِ

يَشْمَلُ الْفَوْزَ بِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَالْعَذَابُ فِي هَذَا الْوَعِيدِ يَشْمَلُ خُسْرَانَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مَا مَعْنَاهُ : أَمَّا عَذَابُ الدُّنْيَا فَهُوَ أَنَّ الْمُتَفَرِّقِينَ الْمُخْتَلِفِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ، وَحَكَّمُوا فِي دِينِهِمْ آرَاءَهُمْ يَكُونُ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدًا ، فَيَشْقَى بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ثُمَّ يُبْتَلَوْنَ بِالْأُمَمِ الطَّامِعَةِ فِي الضُّعَفَاءِ فَتُذِيقُهُمُ الْخِزْيَ وَالنَّكَالَ ، وَتَسْلُبُهُمْ عِزَّةَ الِاسْتِقْلَالِ ، وَأَمَّا عَذَابُ الْآخِرَةِ فَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ أَنَّهُ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا وَأَبْقَى .

(317/126)

وَفِي هَذَا الْمَقَامِ أَوْرَدَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ هَذَا السُّؤَالَ : هَلْ قَامَ الْمُسْلِمُونَ بِذَلِكَ الْأَمْرِ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ وَانْتَهَوْا عَنْ هَذَا النَّهْيِ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا ؟ وَجَعَلَ ذَلِكَ مَجَالًا لِتَفَكُّرِ طُلَّابِ الْعِلْمِ ، وَأَمَّا جَوَابُهُ هُوَ فَكَمَا نَقَلْنَا لَكَ عَنِ الْإِمَامِ الرَّازِيِّ وَعَنْ شَيْخِهِ ، وَالْأَمْرُ ظَاهِرٌ فِي نَفْسِهِ وَفِي الْوَعِيدِ الْمَذْكُورَيْنِ آنِفًا ، وَإِذَا كَانَ لَا يَزَالُ فِي عُلَمَاءِ الرُّسُومِ مِنَّا مَنْ يَقُولُ وَيَعْتَقِدُ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ فِي فَلَاحٍ وَفَوْزٍ فَقَدْ عَلِمَ سَائِرُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ جَمِيعِ الطَّبَقَاتِ فِي أَكْثَرِ الْبِلَادِ أَنَّهُمْ قَدْ فَقَدُوا عِزَّهُمْ وَاسْتِقْلَالَهُمْ ، وَأَنَّهُمْ مُعَذَّبُونَ بِمَا فَقَدُوا وَبِمَا يَتَوَقَّعُونَ أَنْ يَفْقِدُوا مِمَّا بَقِيَ لَهُمْ ، وَأَنَّ أَذْكِيَاءَ شُعُوبِهِمْ يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى بُعْدِ الدَّارِ وَقُرْبِهِ عَنْ طَرِيقِ عِلَاجِ الدَّاءِ ، قَبْلَ الْإِبْدَاءِ ، وَالْتِمَاسِ الشِّفَاءِ قَبْلَ الْإِشْفَاءِ ، وَالْعِلَاجُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ فَمَتَى

يُبْصِرُونَ ! وَالطَّبِيبُ يُنَادِيهِمْ فَأَنَّى يَسْمَعُونَ ؟ عَسَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ قَرِيبًا .

ذَلِكَ الْعَذَابُ الْعَظِيمُ يَكُونُ لِلْمُتَفَرِّقِينَ الْمُخْتَلِفِينَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 4 صـ 42.22 ﴾

(318/126)

" فصل "

قال السيوطى :

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105)

أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن الأنباري في المصاحف عن عمرو بن دينار أنه سمع ابن الزبير يقرأ ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ ويستعينون بالله على ما أصابهم . فما أدري أكانت قراءته أو فسَّر .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي داود في المصاحف وابن الأنباري عن عثمان أنه قرأ " ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون

الله على ما أصابهم وأولئك هم المفلحون " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي جعفر الباقر قال : " قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ﴾ ثم قال " الخير أتباع القرآن وسُنَّتي " " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : كل آية ذكرها الله في القرآن في الأمر بالمعروف فهو الإسلام ، والنهي عن المنكر فهو عبادة الشيطان .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان في قوله ﴿ ولتكن منكم أمة ﴾ يقول : ليكن منكم قوم . يعني واحداً ، أو إثنين ، أو ثلاثة نفر فما فوق ، ذلك أمة يقول : إماماً يقتدى به يدعون إلى الخير قال : إلى الإسلام ، ويأمرون بالمعروف بطاعة ربهم ، وينهون عن المنكر عن معصية ربهم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ﴾ قال : هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة . وهم الرواة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس في قوله ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا ﴾ قال : أمر الله المؤمنين بالجماعة ، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة ،

وأخبرهم أنما هلك من كان قبلكم بالمراء والخصومات في دين الله .

وأخرج ابن جرير عن الربيع في قوله ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا ﴾ قال : أهل الكتاب . نهى الله أهل الإسلام أن يتفرقوا ويختلفوا كما تفرق واختلف أهل الكتاب .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا ﴾ قال : من اليهود والنصارى .

وأخرج أبو داود والترمذي وابن ماجة والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على إثنتين وسبعين فرقة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة " .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : كيف يصنع أهل هذه الأهواء الخبيثة بهذه الآية في آل عمران ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ﴾ قال : نبذوها ورب الكعبة وراء ظهورهم .

وأخرج أحمد وأبو داود والحاكم عن معاوية قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أهل الكتاب تفرقوا في دينهم على إثنتين وسبعين ملة ، وتفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين ملة ، كلها في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة ، ويخرج في أمتي أقوام تتجارى تلك الأهواء بهم كما يتجارى الكلب بصاحبه ، فلا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله " .

وأخرج الحاكم عن عبد الله بن عمرو قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يأتي

على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل ، حتى لو كان فيهم من نكح أمة علانية كان في أمتي مثله ، إن بني إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين ملة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة ، كلها في النار إلا ملة واحدة فقيل له : ما الواحدة ؟ قال : ما أنا عليه اليوم وأصحابي " .

(320/126)

وأخرج الحاكم عن كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لتسلكن سنن من قبلكم . إن بني إسرائيل افترقت " الحديث .

وأخرج ابن ماجة عن عوف بن مالك قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، فواحدة في الجنة وسبعون في النار ، وافترقت النصارى على إثنتين وسبعين فرقة ، فإحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة . والذي نفس محمد لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، فواحدة في الجنة وإثنتان وسبعون في النار . قيل : يا رسول الله من هم ؟ قال : الجماعة " .

وأخرج أحمد عن أنس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن بني إسرائيل تفرقت إحدى وسبعين فرقة ، فهلكت سبعون فرقة وخلصت فرقة واحدة ، وأن أمتي ستفترق

على إثنتين وسبعين فرقة ، تهلك إحدى وسبعون فرقة وتخلص فرقة قيل : يا رسول الله من تلك الفرقة ؟ قال : الجماعة الجماعة " .

وأخرج أحمد عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إثنان خير من واحد ، وثلاثة خير من إثنين ، وأربعة من ثلاثة ، فعليكم بالجماعة فإن الله لم يجمع أمتي إلا على هدى " .

وأخرج ابن مردويه عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ادخلوا عليَّ ، ولا يدخل عليَّ إلا قرشي فقال : يا معشر قريش أنتم الولاة بعدي لهذا الدين ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ﴾ ، ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ [البينة : 5] " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 2 صـ 288 . 291﴾

(321/126)

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (107) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما قدم ما لأهل الكتاب المقدمين على الكفر على علم يوم القيامة في قوله ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ﴾ [آل عمران : 77] وختم تلك الآية بأنهم لهم عذاب أليم واستمر حتى ختم هذه الآية بأنه مع ذلك عظيم ؛ بين ذلك اليوم بقوله - بادئاً بما هو أنكى لهم من تنعيم أضدادهم - : ﴿ يوم تبيض وجوه ﴾ أي بما لها من المآثر الحسنة ﴿ وتسود وجوه ﴾ بما عليها من الجرائر السيئة ﴿ فأما الذين اسودت وجوههم ﴾ بدأ بهم لأن النشر المشوش أفصح ، ولأن المقام للترهيب وزيادة النكاية لأهله ، فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً : ﴿ أكفرتم ﴾ يا سود الوجوه وعبيد الشهوات ! ﴿ بعد إيمانكم ﴾ بما جبلتم عليه من الفطر السليمة ومكنتم به من العقول المستقيمة من النظر في الدلائل ، ثم بما أخذ عليكم أنبياؤكم من العهود ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ أي الأليم العظيم ﴿ بما كنتم تكفرون ﴾ وأنتم تعلمون ، فإنكم في لعنة الله ماكثون ﴿ وأما الذين ابيضت وجوهم ﴾ إشراقاً وبهاء لأنهم آمنوا فأمنوا من العذاب ﴿ ففي رحمة الله ﴾ أي ثمرة فعل ذي الجلال والإكرام الذي هو فعل

الراحم.

لا في غير رحمته.

(322/126)

ثم أجاب عن سؤال من كأنه قال: هل تزول عنهم كما هو حال النعم في الدنيا ؟ بقوله – على وجه يفهم لزومها لهم في الدنيا والآخرة – : ﴿ هم ﴾ أي خاصة ﴿ فيها خالدون ﴾ فلذا كانوا يؤمنون، فالآية من الاحتباك: إثبات الكفر أولاً دل على إرادة الإيمان ثانياً، وإثبات الرحمة ثانياً دل على حذف اللعنة أولاً.

أهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 134 ﴾

وقال الفخر:

اعلم أنه تعالى لما أمر اليهود ببعض الأشياء ونهاهم عن بعض، ثم أمر المسلمين بالبعض ونهاهم عن البعض أتبع ذلك بذكر أحوال الآخرة، تأكيداً للأمر. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 148 ﴾

فصل

قال الفخر:

في نصب ﴿ يَوْمٍ ﴾ وجهان

الأول : أنه نصب على الظرف ، والتقدير : ولهم عذابٌ عظيم في هذا اليوم ، وعلى هذا التقدير ففيه فائدتان إحداهما : أن ذلك العذاب في هذا اليوم ، والأخرى أن من حكم هذا اليوم أن تبيض فيه وجوه وتسود وجوه

والثاني : أنه منصوب بإضمار (اذكر) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 148 ﴾

وقال ابن عادل :

في ناصب " يَوْمَ " أوجه :

أحدها : أنه الاستقرار الذي تضمنه " لَهُمْ " والتقدير : وأولئك استقر لهم عذاب يوم تبيضُّ وجوه .

وقيل : إن العامل فيه مضمر ، تدل عليه الجملة السابقة ، والتقدير : يُعَذَّبُونَ يوم تبيض وجوه .

وقيل : اعاملَ فيه " عَظِيمٌ " وضُعِّفَ هذا بأنه يلزم تقييد عِظَمِهِ بهذا اليوم .

وهذا التضعيف ضعيف ؛ لأنه إذا عظم في هذا اليوم ففي غيره أوْلَى .

قال شهابُ الدين : " وهذا غير لازم " ، قال : " وأيضاً فإنه مسكوت عنه فيما عدا هذا اليوم " .

وقيل : إن العامل " عَذَابٌ " . وهذا ممتنع ؛ لأن المصدر الموصوف لا يعمل بعد وصفه .

وقيل : إنه منصوب بإضمار " اذكر " .

وقرأ يحيى بن وثاب ، وأبو نهيك ، وأبو رُزَيْن العقيليّ : " تِبْيَضُّ " و " تِسْوَدُّ " - بكسر التاء - وهي لغة تميم .

(323/126)

وقرأ الحسن والزهري وابن مُحَيْصِن ، وأبو الجَوْزَاءِ : تِبياضّ وتسوادّ - بألف فيهما - وهي أبلغ ؛ فإن البياض أدلُّ على اتصاف الشيء بالبياض من ابيضَّ ، ويجوز كسر حرف المضارعة - أيضاً - مع الألف ، إلا أنه لم ينقل قراءةً لأحدٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 453 ﴾

فصل

قال الفخر :

هذه الآية لها نظائر منها قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى الله وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر : 60] ومنها قوله ﴿ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ ﴾ [يونس : 26] ومنها قوله ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضاحكة مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ

* تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ [عبسى : 38 41] ومنها قوله ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ [القيامة : 22 25] ومنها قوله ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النعيم ﴾ [المطففين : 24] ومنها قوله ﴿ يُعْرَفُ المجرمون بسيماهم ﴾ [الرحمن : 41] .

إذا عرفت هذا فنقول : في هذا البياض والسواد والغبرة والقترة والنضرة للمفسرين قولان أحدهما : أن البياض مجاز عن الفرح والسرور ، والسواد عن الغم ، وهذا مجاز مستعمل ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل : 58] ويقال : لفلان عندي يد بيضاء ، أي جلية سارة ، ولما سلم الحسن بن علي رضي الله عنه الأمر لمعاوية قال له بعضهم : يا مسود وجوه المؤمنين ، ولبعضهم في الشيب .

يا بياض القرون سودت وجهي . . عند بيض الوجوه سود القرون

فلعمري لأخفينك جهدي . . عن عياني وعن عيان العيون

بسواد فيه بياض لوجهي . . وسواد لوجهك الملعون

وتقول العرب لمن نال بغيته وفاز بمطلوبه : ابيض وجهه ومعناه الاستبشار والتهلل وعند التهنئة بالسرور يقولون : الحمد لله الذي بيض وجهك ، ويقال لمن وصل إليه مكروه : إربد وجهه واغبر لونه وتبدلت صورته ، فعلى هذا معنى الآية أن المؤمن يرد يوم القيامة على ما قدمت يداه فإن كان ذلك من الحسنات ابيض وجهه بمعنى استبشر بنعم الله وفضله ، وعلى ضد ذلك إذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة اسود وجهه بمعنى شدة الحزن والغم وهذا قول أبي مسلم الأصفهاني .

والقول الثاني : إن هذا البياض والسواد يحصلان في وجوه المؤمنين والكافرين ، وذلك لأن اللفظ حقيقة فيهما ، ولا دليل يوجب ترك الحقيقة ، فوجب المصير إليه ، قلت : ولأبي مسلم أن يقول : الدليل دل على ما قلناه ، وذلك لأنه تعالى قال : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ فجعل الغبرة والقترة في مقابلة الضحك والاستبشار ، فلو لم يكن المراد بالغبرة والقترة ما ذكرنا من المجاز لما صح جعله مقابلاً ، فعلمنا أن المراد من هذه الغبرة والقترة الغم والحزن حتى يصح هذا التقابل ، ثم قال القائلون بهذا القول : الحكمة في ذلك أن أهل الموقف إذا رأوا البياض في وجه إنسان عرفوا أنه من أهل الثواب فزادوا في تعظيمه فيحصل له الفرح بذلك من وجهين أحدهما : أن السعيد يفرح بأن يعلم قومه أنه من أهل السعادة ، قال تعالى مخبراً عنهم ﴿ ياليت قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ المكرمين ﴾ [يس : 26 ، 27]

الثاني : أنهم إذا عرفوا ذلك خصوه بمزيد التعظيم فثبت أن ظهور البياض في وجه المكلف سبب لمزيد سروره في الآخرة وبهذا الطريق يكون ظهور السواد في وجه الكفار سبباً لمزيد غمهم في الآخرة ، فهذا وجه الحكمة في الآخرة ، وأما في الدنيا فالمكلف حين يكون في الدنيا إذا عرف حصول هذه الحالة في الآخرة صار ذلك مرغباً له في الطاعات وترك المحرمات لكي يكون في الآخرة من قبيل من يبيض وجهه لا من قبيل من يسود وجهه ، فهذا تقرير هذين القولين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 148 ـ 149 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ يعني يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم تكون وجوهُ المؤمنين مبيضّة ووجُوه الكافرين مسْوَدّة .

ويقال : إن ذلك عند قراءة الكتاب ، إذا قرأ المؤمن كتابه فرأى في كتابه حسناته استبشر وابيض وجهُه ، وإذا قرأ الكافر والمنافق كتابه فرأى فيه سيئاته اسود وجهه .

ويقال : إن ذلك عند الميزان إذا رجحت حسناته ابيض وجهه ، وإذا رجحت سيئاته اسود وجهه .

ويقال : ذلك عند قوله تعالى : ﴿ وامتازوا اليوم أيُّها المجرمون ﴾ [يس : 59] .

ويقال : إذا كان يوم القيامة يُؤْمر كل فريق بأن يجتمع إلى معبوده ، فإذا انتهوا إليه حزِنوا واسودت وجوههم ، فيبقى المؤمنون وأهل الكتاب والمنافقون ؛ فيقول الله تعالى للمؤمنين : "من ربكم" ؟ فيقولون : ربنا الله عز وجل .

فيقول لهم : "أتعرفونه إذا رأيتموه" .

فيقولون : سبحانها إذا اعترف عرفناه .

فيرونه كما شاء الله .

فيخِرّ المؤمنون سُجَّدا لله تعالى ، فتصير وجوههم مثل الثلج بياضاً ، ويبقى المنافقون وأهل الكتاب لا يقدرون على السجود فيحزنوا وتسودّ وجوههم ؛ وذلك قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 166 . 167 ﴾

(326/126)

قال ابن عاشور :

والبياض والسواد بياض وسواد حقيقيان يوسم بهما المؤمن والكافر يوم القيامة ، وهما

بياض وسواد خاصان لأن هذا من أحوال الآخرة فلا داعي لصرفه عن حقيقته . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 185 ﴾

فائدة

قال العلامة الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ .

بين في هذه الآية الكريمة أن من أسباب اسوداد الوجوه يوم القيامة الكفر بعد الإيمان وذلك في قوله ﴿ فَأَمَّا الذين اسودت وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [آل عمران : 106] الآية .

وبين في موضع آخر أن من أسباب ذلك الكذب على الله وهو قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى الله وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر : 60] . وبين في موضع آخر أن من أسباب ذلك اكتساب السيئات وهو قوله : ﴿ والذين كَسَبُواْ السيئات جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِّنَ الله مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ الليل مُظْلِماً ﴾ [يونس : 27] وبين في موضع آخر أن من أسباب ذلك الكفر والفجور وهو قوله تعالى :

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أولئك هُمُ الكفرة الفجرة ﴾ [عبس : 40-42] .

وهذه الأسباب في الحقيقة شيء واحد عبر عنه بعبارات مختلفة ، وهو الكفر بالله تعالى ،

وبين في موضع آخر شدة تشويه وجوههم بزرقة العيون وهو قوله : ﴿ وَنَحْشُرُ المجرمين

يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [طه : 102] وأقبح صورة أن تكون الوجوه مسوداً والعيون زرقاً ، ألا ترى الشاعر لما أراد أن يصور علل البخيل في أقبح صورة وأشوهها اقترح لها زرقة العيون ، واسوداد الوجوه في قوله :

وللبخيل على أمواله علل . . . زرق العيون عليها أوجه سود . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ 205. 206 ﴾

(327/126)

فصل

قال الفخر :

احتج أصحابُنا بهذه الآية على أن المُكَلَّف إما مؤمن وإما كافر ، وأنه ليس ههنا منزلة بين المنزلتين كما يذهب إليه المعتزلة ، فقالوا : إنه تعالى قسم أهل القيامة إلى قسمين منهم من يبيض وجهه وهم المؤمنون ، ومنهم من يسود وجهه وهم الكافرون ولم يذكر الثالث ، فلو كان ههنا قسم ثالث لذكره الله تعالى قالوا وهذا أيضاً متأكد بقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضاحكة مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَئِكَ هُمُ الكفرة الفجرة ﴾ [عبس : 38 42] .

أجاب القاضي عنه بأن عدم ذكر القسم الثالث لا يدل على عدمه ، يبين ذلك أنه تعالى إنما قال : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ فذكرهما على سبيل التنكير ، وذلك لا يفيد العموم ، وأيضاً المذكور في الآية المؤمنون والذين كفروا بعد الإيمان ولا شبهة أن الكافر الأصلي من أهل النار مع أنه غير داخل تحت هذين القسمين ، فكذا القول في الفساق .

(328/126)

واعلم أن وجه الاستدلال بالآية هو أنا نقول : الآيات المتقدمة ما كانت إلا في الترغيب في الإيمان بالتوحيد والنبوّة وفي الزجر عن الكفر بهما ثم إنه تعالى اتبع ذلك بهذه الآية فظاهرها يقتضي أن يكون ابيضاض الوجه نصيباً لمن آمن بالتوحيد والنبوّة ، واسوداد الوجه يكون نصيباً لمن أنكر ذلك ، ثم دل ما بعد هذه الآية على أن صاحب البياض من أهل الجنة ، وصاحب السواد من أهل النار ، فحينئذ يلزم نفي المنزلة بين المنزلتين ، وأما قوله يشكل هذا بالكافر الأصلي فجوابنا عنه من وجهين الأول : أن نقول لم لا يجوز أن يكون المراد منه أن كل أحد أسلم وقت استخراج الذرية من صلب آدم ؟ وإذا كان كذلك كان الكل داخلاً فيه والثاني : وهو أنه تعالى قال في آخر الآية ﴿ فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ فجعل موجب العذاب هو الكفر من حيث إنه كفر لا الكفر من حيث أنه بعد الإيمان ، وإذا وقع

التعليل بمطلق الكفر دخل كل الكفار فيه سواء كفر بعد الإيمان ، أو كان كافراً أصلياً والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 149 . 150 ﴾

فصل

قال القرطبى :

اختلفوا في التعيين ؛ فقال ابن عباس : تبيضّ وجُوه أهلِ السنّة وتسودّ وجوه أهل البِدعة .

قلت : وقول ابن عباس هذا رواه مالك بن سليمان الهرويّ أخو غسّان عن مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله تعالى ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ قال : "يعني تبيض وجوه أهل السنة وتسودّ وجوه أهل البدعة" " ذكره أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب .

وقال فيه : منكر من حديث مالك .

قال عطاء : تبيض وجوه المهاجرين والأنصار ، وتسودّ وجوه بني قريظة والنضِير .

(329/126)

وقال أُبيّ بن كعب : الذين اسودت وجوههم هم الكفار ، وقيل لهم : أكفرتم بعد إيمانكم لإقراركم حين أخْرِجتم من ظهر آدم كالذرّ .

هذا اختيار الطبري .

الحسن : الآية في المنافقين .

قتادة هي في المرتدِّين .

عِكرمة : هم قوم من أهل الكتاب كانوا مصدِّقين بأنبيائهم مصدقين بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث فلما بُعث عليه السلام كفروا به ؛ فذلك قوله : ﴿ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ .

وهو اختيار الزجاج .

مالك بن أنس : هي في أهل الأهواء .

أبو أمامة الباهِليّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " هي في الحرورِية " وفي خبر آخر أنه عليه السلام قال : " هي في القدرية " روى الترمذيّ عن أبي غالب قال : رأى أبو أمامة رؤوساً منصوبة على درج مسجد دمشق ، فقال أبو أمَامة : "كلابُ النار شرُّ قتلى تحت أَدِيم السماء ، خيرُ قتلى من قتلوه ثم قرأ ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ " إلى آخر الآية .

قلت لأبي أمامة : أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لو لم أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً حتى عدّ سبعاً ما حدثتكموه .

قال : هذا حديث حسن .

وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنى فرطكم على الحوض من مرّ عليّ شرب ومن شرب لم يظمأ أبداً ليرِدنّ عليّ أقوام أعرِفهم ويعرِفوني ثم يحال بيني وبينهم " قال أبو حازم ؛ فسمعني النُّعمان بن أبي عياش فقال : أهكذا سمعتَ من سهل بن سعد ؟ فقلت نعم .

(330/126)

فقال : أشهد على أبي سعيدٍ الخدريّ لسمعته وهو يزيد فيها : " فأقول إنهم منِّي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول سحقاً سحقاً لمن غيّر بعدي " وعن أبي هريرة أنه كان يحدّث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يرِد عليّ الحوضَ يوم القيامة رهْطٌ من أصحابي فيُجْلَون عن الحَوْض فأقول يا ربِّ أصحابي فيقول إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقري " والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .

فمن بدّل أو غيّر أو ابتدع في دين الله ما لا يرضاه الله ولم يأذَنْ به الله فهو من المطْرُودين عن الحوض المبتَعِدين منه المسودّي الوُجُوه ، وأشدّهم طرداً وإبعاداً من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم ؛ كالخوارج على اختلاف فِرَقها ، والرَوافِض على تَباين ضلالها ، والمعتزلة على أصناف أهوائها ؛ فهؤلاء كلهم مبدِّلون ومبتدِعون ، وكذلك الظلمة

المسرفون في الجور والظلم وطمس الحق وقتل أهله وإذلالهم ، والمعلنون بالكبائر المستخِفّون بالمعاصي ، وجماعة أهل الزّيغ والأهْواء والبِدَع ؛ كلٌّ يُخاف عليهم أن يكونوا عُنُوا بالآية ، والخبر كما بيّنا ، ولا يَخلُد في النار إلا كافر جاحِدٌ ليس في قلبه مثقالُ حبّةِ خرْدلٍ من إيمان .

وقد قال ابن القاسم : وقد يكون من غير أهل الأهْواء من هو شرٌّ من أهل الأهواء .

وكان يقول : تمام الإخلاص تَجنّب المعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 168.167 ﴾

قوله : ﴿ فَأَمَّا الذين اسودت وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إيمانكم ﴾

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الذين اسودت وُجُوهُهُمْ ﴾ في الكلام حذف ، أي فيقال لهم ﴿ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ يعني يوم الميثاق حين قالوا بلى .

ويقال : هذا لليهود وكانوا مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث فلما بعث كفروا به .

وقال أبو العالية : هذا للمنافقين ، يقال : أكفرتم في السر بعد إقراركم في العلانية .

وأجمع أهل العربية على أنه لا بدّ من الفاء في جواب "أما" لأن المعنى في قولك : "أما زيد فمنطلق ، مهما يكن من شيء فزيد منطلق" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 169 ﴾

قال الطبرى :

وأولى الأقوال التي ذكرناها في ذلك بالصواب ، القولُ الذي ذكرناه عن أبي بن كعب أنه عنى بذلك جميع الكفار ، وأنّ الإيمان الذي يوبَّخون على ارتدادهم عنه ، هو الإيمان الذي أقروا به يوم قيل لهم : (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا) [سورة الأعراف : 172] .

وذلك أن الله جل ثناؤه جعل جميعَ أهل الآخرة فريقين : أحدهما سودًا وجوهه ، والآخر بيضًا وجوهه . فمعلوم -إذ لم يكن هنالك إلا هذان الفريقان- أن جميع الكفار داخلون في فريق من سُوِّد وجهه ، وأن جميع المؤمنين داخلون في فريق من بُيِّض وجهه . فلا وجه إذًا لقول قائل : "عنى بقوله : "أكفرتم بعد إيمانكم" ، بعض الكفار دون بعض" ، وقد عمّ الله جل ثناؤه الخبرَ عنهم جميعهم ، وإذا دخل جميعهم في ذلك ، ثم لم يكن لجميعهم حالة آمنوا فيها ثم ارتدوا كافرين بعدُ إلا حالة واحدة ، كان معلومًا أنها المرادة بذلك .

فتأويل الآية إذًا : أولئك لهم عذاب عظيمٌ في يوم تبيضُّ وجوه قوم وتسودُّ وجوه آخرين .

فأما الذين اسودت وجوههم ، فيقال : أجحدتم توحيد الله وعهدَه وميثاقَه الذي واثقتموه

عليه ، بأن لا تشركوا به شيئًا ، وتخلصوا له العبادة – بعد إيمانكم يعني : بعد تصديقكم به ؟ "فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 7 صـ 95 ـ 96﴾.

(332/126)

أسئلة وأجوبة للإمام الفخر

السؤال الأول : أنه تعالى ذكر القسمين أولاً فقال : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ فقدم البياض على السواد في اللفظ ، ثم لما شرع في حكم هذين القسمين قدم حكم السواد ، وكان حق الترتيب أن يقدم حكم البياض .

والجواب عنه من وجوه :

أحدها : أن الواو للجمع المطلق لا للترتيب

وثانيها : أن المقصود من الخلق إيصال الرحمة لا إيصال العذاب ، قال عليه الصَّلاة والسَّلام حاكياً عن ربّ العزة سبحانه : " خلقتهم ليربحوا علي لا لأربح عليهم " وإذا كان كذلك فهو تعالى ابتدأ بذكر أهل الثواب وهم أهل البياض ، لأن تقديم الأشرف على الأخس في الذكر أحسن ، ثم ختم بذكرهم أيضاً تنبيهاً على أن إرادة الرحمة أكثر من إرادة الغضب كما قال :

"سبقت رحمتي غضبي"

وثالثها : أن الفصحاء والشعراء قالوا : يجب أن يكون مطلع الكلام ومقطعه شيئاً يسر الطبع ويشرح الصدر ولا شك أن ذكر رحمة الله هو الذي يكون كذلك فلا جرم وقع الابتداء بذكر أهل الثواب والاختتام بذكرهم .

السؤال الثاني : أين جواب (أما) ؟ .

والجواب : هو محذوف ، والتقدير فيقال لهم : أكفرتم بعد إيمانكم ، وإنما حسن الحذف لدلالة الكلام عليه ومثله في التنزيل كثير قال تعالى : ﴿ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مّن كُلّ بَابٍ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ [الرعد : 23 ، 24] وقال : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهيم القواعد مِنَ البيت وإسماعيل رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾ [البقرة : 127] وقال : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُواْ رُؤُوسَهُمْ عِندَ رَبّهِمْ رَبَّنَا ﴾ [السجدة : 12] .

السؤال الثالث : من المراد بهؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم ؟ .

والجواب : للمفسرين فيه أقوال

أحدها : قال أُبيُّ بن كَعْب : الكل آمنوا حال ما استخرجهم من صلب آدم عليه السلام ، فكل من كفر في الدنيا ، فقد كفر بعد الإيمان ، ورواه الواحدي في "البسيط" بإسناده عن النبي صلى الله عليه وسلم وثانيها : أن المراد : أكفرتم بعد ما ظهر لكم ما يوجب الإيمان وهو الدلائل التي نصبها الله تعالى على التوحيد والنبوّة ، والدليل على صحة هذا التأويل ، قوله تعالى فيما قبل هذه الآية ﴿ يا أهل الكتاب لِمَ تَكْفُرُونَ بآيات الله وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ [آل عمران : 70] فذمهم على الكفر بعد وضوح الآيات ، وقال للمؤمنين ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كالذين تَفَرَّقُواْ واختلفوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البينات ﴾ [آل عمران : 105] .

ثم قال ههنا ﴿ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إيمانكم ﴾ فكان ذلك محمولاً على ما ذكرناه حتى تصير هذه الآية مقررة لما قبلها ، وعلى هذين الوجهين تكون الآية عامة في حق كل الكفار ، وأما الذين خصصوا هذه الآية ببعض الكفار فلهم وجوه

الأول : قال عكرمة والأصم والزجاج المراد أهل الكتاب فإنهم قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم كانوا مؤمنين به ، فلما بعث صلى الله عليه وسلم كفروا به

الثاني : قال قتادة : المراد الذين كفروا بعد الإيمان بسبب الارتداد

الثالث : قال الحسن : الذين كفروا بعد الإيمان بالنفاق

الرابع : قيل هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة

الخامس : قيل هم الخوارج ، فإنه عليه الصلاة والسلام قال فيهم : " إنهم يمرقون من الدين

كما يمرق السهم من الرمية" وهذان الوجهان الأخيران في غاية البعد لأنهما لا يليقان بما قبل هذه الآية، ولأنه تخصيص لغير دليل، ولأن الخروج على الإمام لا يوجب الكفر ألبتة.

السؤال الرابع: ما الفائدة في همزة الاستفهام في قوله ﴿أَكْفَرْتُمْ﴾ ؟ .

(334/126)

الجواب: هذا استفهام بمعنى الإنكار، وهو مؤكد لما ذكر قبل هذه الآية وهو قوله ﴿قُلْ يا أهل الكتاب لِمَ تكْفُرُونَ بِآياتِ الله والله شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ قُلْ يا أهل الكتاب لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله﴾ [آل عمران: 98، 99]. انتهى انتهى. ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 150.151﴾

فائدة

قال ابن عاشور:

وقدم عند وصف اليوم ذكر البياض، الذي هو شعار أهل النعيم، تشريفا لذلك اليوم بأنه يوم ظهور رحمة الله ونعمته، ولأن رحمة الله سبقت غضبه، ولأن في ذكر سمة أهل النعيم، عقب وعيد غيرهم بالعذاب، حسرة عليهم، إذ يعلم السامع أن لهم عذابا عظيما في يوم فيه نعيم عظيم.

ثم قدم في التفصيل ذكر سمة أهل العذاب تعجيلا بمساءتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 185 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ أَكَفَرْتُمْ ﴾ هذه الجملة في مَحَلِّ نصب بقول مُضْمَرٍ ، وذلك القول المضمر – مع فاء مضمرة – أيضاً – هو جواب " أما " ، وحذف الفاء مع القول مطرد ، وذلك أن القول يُضْمَر كثيراً ، كقوله تعالى : ﴿ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُم ﴾ [الرعد : 23-24] .

وقوله : ﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ ﴾ [الزمر : 3] ، وقوله : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القواعد مِنَ البيت وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ﴾ [البقرة : 127] ، وأما حذفها دون إضمار القول فلا يجوز إلا في ضرورة .

كقوله : [الطويل]

فَأَمَّا الْقِتَالُ لا قِتَالَ لَدَيْكُمُ . . . وَلَكِنَّ سَيْراً فِي عِرَاضِ الْمَوَاكِبِ

أي : فلا قتال .

وقال صاحب " أسرار التنزيل " : إنّ النحاة اعترض عليهم – في قولهم : لما حذف يقال : حُذِفت الفاء ؛ بقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الذين كفروا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تتلى عَلَيْكُمْ ﴾ [الجاثية : 31] ، فحذف يقال ، ولم يحذف الفاء ، فلما بطل هذا تعيَّن أن يكون الجواب في قوله : ﴿ فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ، فوقع ذلك جواباً له ، ولقوله : ﴿ أَكَفَرْتُم ﴾ ومن نظم العرب – إذا ذكروا حرفاً يقتضي جواباً له – أن يكتفوا عن جوابه حتى يذكروا حرفاً آخر يقتضي جواباً ، ثم يجعلون له جواباً واحداً ، كما في قوله : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : 38] ، فقوله : ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ جواب للشرطين معاً ، وليس " أفلم تكن آياتي " جواب " إما " بل الفاء عاطفة على مقدَّر ، والتقدير : أأهملتكم ، فلم أتل عليكم آياتي ؟

قال أبو حيان : وهو كلام أديب لا كلام نحويّ ، أما قوله : قد اعترض على النحاة ، فيكفي في بُطْلان هذا الاعتراض أنه اعتراض على جميع النحاة ؛ لأنه ما من نحويٍّ إلا خرَّج الآيةَ على إضمار : فيُقال لهم : أكفرتم ، وقالوا : هذا هو فَحْوَى الخطاب ، وهو أن يكون في الكلام شيء مقدَّر لا يستغني المعنى عنه ، فالقول بخلافه مخالف للإجماع ، فلا التفات إليه .

وأما ما اعترض به من قوله : ﴿ وَأَمَّا الذين كفروا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي ﴾ [الجاثية : 31] وأنهم قدروه : فيقال لهم : أفلم تكن آياتي ، فحذف فيقال ولم تحذف الفاء ، فدل على بطلان هذا التقدير – فليس بصحيح ، بل هذه الفاء التي بعد الهمزة في " أَفَلَمْ " ليست فاء " فيقال " التي هي جواب " أما " – حتى يقال : حذف " يقال " وبقيت الفاء ، بل الفاء التي هي جواب " أما " و " يقال " بعدها – محذوف ، وفاء " أفلم " يحتمل وجهين :

أحدهما : أن تكون زائدة .

وقد أنشد النحويون على زيادة الفاء قول الشاعر : [الطويل]

يَمُوتُ أُنَاسٌ أَوْ يَشِيبُ فَتَاهُمُ . . . وَيَحْدُثُ نَاسٌ ، والصَّغِيرُ فَيَكْبُرُ

أي : صغير يكبر ، وقول الآخر : [الكامل]

لَمَّا اتَّقَى بِيَدٍ عَظِيمٍ جِرْمُهَا . . . فَتَرَكْتُ ضَاحِيَ جِلْدِهَا يَتَذَبْذَبُ

أي : تركت ، وقول زُهير : [الطويل]

أَرَانِي إِذَا ما بِتُّ بِتُّ عَلَى هَوًى . . . فَثُمَّ إِذَا أَصْبَحْتُ أَصْبَحْتُ غَادِيَا

يريد ثم إذا .

وقال الأخفش : " وزعموا أنهم يقولون : أخوك فوجد ، يريدون : أخوك وجد " .

والوجه الثاني : أن تكون الفاء تفسيرية ، والتقدير : فيقال لهم ما يسوؤهم ، " أفلم " تكن

آياتي ، ثم اعتني بحرف الاستفهام ، فتقدمت على الفاء التفسيرية ، كما تتقدم على الفاء التي للتعقيب في قوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرض ﴾ [يوسف : 109] وهذا على رأي من يثبت أن الفاء تفسيرية ، نحو توضأ زيد فغسل وجهه ويديه . . إلى آخر أفعال الوضوء ، فالفاء – هنا – ليت مرتّبة ، وإنما هي مفسّرة للوضوء ، كذلك تكون في ﴿ أفلم تكن آياتي تتلى عليكم ﴾ مفسرة للقول الذي يسوؤهم .

(337/126)

وقوله : فلما بطل هذا تعين أن يكون الجواب : " تذوقوا " ، أي : تعيَّن بطلان حذف ما قدَّره النحويون ، من قوله : " فيقال لهم " ؛ لوجود هذه الفاء في " أفلم تكن " ، وقد بيَّنَّا أن ذلك التقدير لم يبطل ؛ وأنه سواء في الآيتين ، وإذا كان كذلك فجواب : " أما " هو فيقال – في الموضعين – ومعنى الكلام عليه ، وأما تقديره : أأهملتكم فلم تكن آياتي تتلى عليكم ؟ فهذه نزعة زمخشرية ، وذلك أن الزمخشريَّ يقدِّر بين همزة الاستفهام وبين الفاء فِعْلاً يصح عطف ما بعدها عليه ، ولا يعتقد أن الفاء والواو ، و" ثم " إذا دخلت عليها الهمزة – أصلهن التقديم على الهمزة ، لكن اعتني بالاستفهام ، فقدم على حرف العطف – كما ذهب إليه سيبويه وغيره من النحويين – وقد رجع الزمخشريّ إلى مذهب الجماعة في ذلك

، وبطلان قول الأول مذكور في النحو وقد تقدم – في هذا الكتاب – حكاية مذهب الجماعة في ذلك ، وعلى تقدير قول هذا الرجل – أأهملتكم فلم تكن آياتي ، لا بدّ من إذمار القول ، وتقديره : فيقال : أأهملتكم ؛ لأن هذا المقدَّر هو خبر المبتدأ ، والفاء جواب " أما " ، وهو الذي يدل عليه الكلام ، ويقتضيه ضرورة .

وقول هذا الرجل : فوعق ذلك جواباً له ولقوله : " أكفرتم " يعني : أن " فذوقوا العذاب " جواب ل " أما " ولقوله : " أكفرتم " والاستفهام – هنا – لا جواب له إنما هو استفهام على طريق التوبيخ والإرذال بهم .

وأما قول هذا الرجل : ومن نظم العرب إلى آخره ، فليس كلام العرب على ما زعم ، بل يُجْعَل لكُلّ جوابٌ ، إن لا يكن ظاهراً فمقدَّر ، ولا يجعلون لهما جواباً واحداً .

وأما دعواه ذلك في قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾ [البقرة : 38] وزعمه أن قوله تعالى : ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : 38] . انتهى .

(338/126)

والهمزة في " أَكَفَرْتُمْ " للإنكار عليهم ، والتوبيخ لهم ، والتعجُّب من حالهم .

وفي قوله : " أَكَفَرْتُمْ " نوع من الالتفات ، وهو المُسَمَّى عند علماء البيان بتلوين الخطاب ،

وذلك أن قوله : ﴿ فَأَمَّا الذين اسودت وُجُوهُهُمْ ﴾ في حكم الغيبة ، وقوله – بعد ذلك " أَكَفَرْتُمْ " خطاب مواجهة .

قوله : ﴿ فَذُوقُوا ﴾ من باب الاستعارة ، جعل العذاب شيئاً يُدْرَك بحاسَّةِ الأكْل ، والذوق ؛ تصويراً له بصورة ما يُذَاق .

وقوله : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ ﴾ الباء سببية ، و" ما " مصدرية ، ولا تكون بمعنى : الذي ؛ لاحتياجها إلى العائد ، وتقديره غير جائز ، لعدم الشروط المجوِّزة لحَذْفِه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 455 . 457 ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

فصل

قال الفخر :

فيه فوائد

الأولى : أنه لو لم يذكر ذلك لكان الوعيد مختصاً بمن كفر بعد إيمانه ، فلما ذكر هذا ثبت الوعيد لمن كفر بعد إيمانه ولمن كان كافراً أصلياً

الثانية : قال القاضي قوله ﴿ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إيمانكم ﴾ يدل على أن الكفر منه لا من الله وكذا قوله ﴿ فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

الثالثة : قالت المرجئة : الآية تدل على أن كل نوع من أنواع العذاب وقع معللاً بالكفر ، وهذا

ينفي حصول العذاب لغير الكافر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب جـ 8 صـ 151 ﴾

فصل

قال الخازن :

عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليردنَّ عليَّ الحوض رجال ممن صاحبني حتى إذا رفعوا إليّ اختلجوا دوني فلأقولن أي رب أصحابي أصحابي فيقال لي لا تدري ما أحدثوا " زاد في رواية فأقول : " سحقاً لمن بدل بعدي "

(339/126)

عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يرد على يوم القيامة رهط من أصحابي أو قال من أمتي فيجلون عن الحوض فأقول يا رب أصحابي فيقول : أنه لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدباهم القهقهرى " وقيل هم الخوارج الذين خرجوا على عليّ بن أبي طالب وقتلهم وهم الحرورية .

عن زيد بن وهب أنه كان في الجيش الذين كانوا مع علي لما ساروا إلى الخوارج فقال عليّ : أيها الناس إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يخرج قوم من أمتي يقرؤون

القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء ، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم لا تجاوز صلاتهم تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة "

بشير بن عمرو .

قال : قلت لسهل بن حنيف هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الخوارج شيئاً قال : سمعته يقول وأهوى بيده إلى العراق " يخرج منهم قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية " وقيل هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة كالقدرية ونحوهم ومن قال بهذا القول يقول كفرهم بعد إيمانهم هو خروجهم من الجماعة ومفارقتهم في الاعتقاد .

عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم يصبح لا رجل مؤمناً ويسمى مؤمناً ، ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا " وقال الحارث الأعور : سمعت على بن أبي طالب رضي الله عنه يقول : على المنبر إن الرجل

ليخرج من أهله فما يؤوب إليهم حتى يعمل عملاً يستوجب به الجنة وإن الرجل ليخرج من أهله فما يعود إليهم حتى يعمل عملاً يستوجب به النار ثم قرأ ﴿ يوم تبيض وجوه ﴾ الآية ثم نادى هم الذين كفروا بعد الإيمان ورب الكعبة . (1) انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن جـ 1 صـ 401. 402 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الذين ابيضت وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ الله هُمْ فِيهَا خالدون ﴾

قال الآلوسى :

﴿ وَأَمَّا الذين ابيضت وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ الله ﴾ أي الجنة فهو من التعبير بالحال عن المحل والظرفية حقيقية ، وقد يراد بها الثواب فالظرفية حينئذٍ مجازية كما يقال : في نعيم دائم وعيش رغد وفيه إشارة إلى كثرته وشموله للمذكورين شمول الظرف ولا يجوز أن يراد بالرحمة ما هو صفة له تعالى إذ لا يصح فيها الظرفية ويدل على ما ذكر مقابلتها بالعذاب ومقارنتها للخلود في قوله تعالى : ﴿ هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ وإنما عبر عن ذلك بالرحمة إشعاراً بأن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى فإنه لا ينال ما ينال إلا برحمته تعالى ولهذا ورد في الخبر "لن يدخل أحدكم الجنة عمله فقيل له : حتى أنت يا رسول الله ؟ فقال : حتى أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمته"

---

(1) ﴿ أخرجه مسلم في الإيمان باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن برقم (118) : 1 / 110 وأخرجه المصنف في شرح السنة : 15 / ﴾ .

وجملة هم فيها خالدون استئنافية وقعت جواباً عما نشأ من السياق كأنه قيل : كيف يكونون فيها ؟ فأجيب بما ترى وفيها تأكيد في المعنى لما تقدم ، وقيل : خبر بعد خبر وليس بشيء ، وتقديم الظرف للمحافظة على رؤوس الآي ، والضمير المجرور للرحمة ، ومن أبعد البعيد جعله للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خلافاً لمن قال به ، وجعل الكلام عليه بياناً لسبب كونهم في رحمة الله تعالى وكون مقابلهم في العذاب كأنه قيل : ما بالهم في رحمة الله تعالى ؟ فأجيب بأنهم كانوا خالدين في الخيرات ، وقرىء ابياضت واسوادت . انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 26 ﴾

أسئلة وأجوبة

السؤال الأول : ما المراد برحمة الله ؟ .

الجواب : قال ابن عباس : المراد الجنة ، وقال المحققون من أصحابنا : هذا إشارة إلى أن العبد وإن كثرت طاعته فإنه لا يدخل الجنة إلا برحمة الله ، وكيف لا نقول ذلك والعبد ما دامت داعيته إلى الفعل وإلى الترك على السوية يمتنع منه الفعل ؟ فإذن ما لم يحصل رجحان داعية الطاعة امتنع أن يحصل منه الطاعة وذلك الرجحان لا يكون إلا بخلق الله تعالى ،

فإذن صدور تلك الطاعة من العبد نعمة من الله في حق العبد فكيف يصير ذلك موجباً على الله شيئاً ، فثبت أن دخول الجنة لا يكون إلا بفضل الله وبرحمته وبكرمه لا باستحقاقنا .

السؤال الثاني : كيف موقع قوله ﴿ هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ بعد قوله ﴿ فَفِى رَحْمَةِ الله ﴾ .

الجواب : كأنه قيل : كيف يكونون فيها ؟ فقيل هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ولا يموتون .

السؤال الثالث : الكفار مخلدون في النار كما أن المؤمنين مخلدون في الجنة ، ثم إنه تعالى لم ينص على خلود أهل النار في هذه الآية مع أنه نص على خلود أهل الجنة فيها فما الفائدة ؟

.

(342/126)

والجواب : كل ذلك إشعارات بأن جانب الرحمة أغلب ، وذلك لأنه ابتدأ في الذكر بأهل الرحمة وختم بأهل الرحمة ، ولما ذكر العذاب ما أضافه إلى نفسه ، بل قال : ﴿ فَذُوقُواْ العذاب ﴾ مع أنه ذكر الرحمة مضافة إلى نفسه حيث قال : ﴿ فَفِى رَحْمَةِ الله ﴾ ولما ذكر العذاب ما نص على الخلود مع أنه نص على الخلود في جانب الثواب ، ولما ذكر العذاب علله

بفعلهم فقال : ﴿ فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ولما ذكر الثواب علله برحمته فقال : ﴿ فَفِى رَحْمَةِ الله ﴾ ثم قال في آخر الآية ﴿ وَمَا الله يُرِيدُ ظُلْماً للعالمين ﴾ وهذا جار مجرى الاعتذار عن الوعيد بالعقاب ، وكل ذلك مما يشعر بأن جانب الرحمة مغلب ، يا أرحم الراحمين لا تحرمنا من برد رحمتك ومن كرامة غفرانك وإحسانك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 151.152 ﴾

لطيفة

قال أبو حيان :

﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ انظر تفاوت ما بين التقسيمين هناك جمع لمن اسودّت وجوههم بين التعنيف بالقول والعذاب ، وهنا جعلهم مستقرّين في الرحمة ، فالرّحمة ظرف لهم وهي شاملتهم .

ولما أخبر تعالى أنَّهم مستقرّون في رحمة الله بيّن أنّ ذلك الاستقرار هو على سبيل الخلود لا زوال منه ولا انتقال ، وأشار بلفظ الرّحمة إلى سابق عنايته بهم ، وأن العبد وإنْ كثرت طاعته لا يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى .

وقال ابن عباس : المراد بالرحمة هنا الجنة ، وذكر الخلود للمؤمن ولم يذكر ذلك للكافر إشعاراً بأنَّ جانب الرحمة أغلب .

وأضاف الرحمة هنا إليه ولم يضف العذاب إلى نفسه ، بل قال : ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ ولما

ذكر العذاب علّله بفعلهم ، ولم ينص هنا على سبب كونهم في الرحمة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 27 . 28 ﴾

فائدة لغوية

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ ﴾ فيها وجهان :

(343/126)

أحدهما : أن الجارَّ متعلق بـ " خَالِدُونَ " ، و " فِيهَا " تأكيد لفظي للحرف ، والتقدير : فهم خالدون في رحمة الله فيها . وقد تقرر أنه لا يؤكد الحرف تأكيداً لفظياً ، إلا بإعادة ما دخل عليه ، أو بإعادة ضميره - كهذه الآية - ولا يجوز أن يعود - وحْدَه - إلا في ضرورةٍ .

كقوله : [الرجز]

حَتَّى تَرَاهَا وكَأنَّ وكأنْ . . . أعْنَاقَهَا مُشَدَّدَاتٌ بِقَرَنْ

كذا ينشدون هذا البيت .

وأصرح منه في الباب - قول الشاعر : [الوافر]

فَلاَ وَاللهِ لاَ يُلْفَى لِمَا بِي . . . ولاَ لِلِمَا بِهِمْ أبَداً دَوَاءُ

ويحسن ذلك إذا اختلف لفظهما .

كقوله : [الطويل]

فَأصْبَحْنَ لا يَسْألْنني عَنْ بِمَا بِهِ . . . أصَعَّدَ فِي عُلُوِ الْهَوَى أمْ تَصَوَّبَا

اللهم إلا أن يكون ذلك الحرفُ قائماً مقام جملة ، فيُكَرَّر - وحده - كحروف الجواب ، مثل : نَعَمْ نَعَمْ ، وبلى بلى ، ولا لا .

والثاني : أن قوله : ﴿ فَفِي رَحْمَةِ الله ﴾ : خبر لمبتدأ مُضْمَر ، والجملة - بأسْرِها - جواب : " أما " والتقدير : فهم مستقرون في رحمة الله ، وتكون الجملة - بعده - من قوله : ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ جملة مستقلة من مبتدأ وخبر ، دلت على أن الاستقرار في الرحمة على سبيل الخلود ، فلا تعلُّق لها بالجملة قبلها من حيث الإعراب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 459 ﴾

(344/126)

فصل

قال ابن عاشور :

ووقعت تأويلات من المسلمين وقعوا بها فيما حذرهم منه القرآن ، فتفرقوا واختلفوا من

بعد ما جاءهم البينات : الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم "فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض" مثل أهل الردة الذين ماتوا على ذلك ، فمعنى الكفر بعد الإيمان حينئذ ظاهر ، وعلى هذا المعنى تأول الآية مالك بن أنس فيما روى عنه ابن القاسم وهو في ثالثة المسائل من سماعه من كتاب المرتدين والمحاربين من العتبية قال ما آية في كتاب الله أشد على أهل الاختلاف من أهل الأهواء من هذه الآية يوم تبيض وجوه وتسود وجوه قال مالك : إنما هذه لأهل القبلة .

يعني أنها ليست للذين تفرقوا واختلفوا من الأمم قبلنا بدليل قوله : ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ .

ورواه أبو غسان مالك الهروي عن مالك عن ابن عمر ، وروي مثل هذا عن ابن عباس ، وعلة هذا الوجه فالمراد الذين أحدثوا بعد إيمانهم كفرا بالردة أو بشنيع الأقوال التي تفضي إلى الكفر ونقض الشريعة ، مثل الغرابية من الشيعة الذين قالوا بأن النبوة لعلي ، ومثل غلاة الإسماعيلية أتباع حمزة بن علي ، وأتباع الحاكم العبيدي ، بخلاف من لم تبلغ به مقالته إلى الكفر تصريحا ولا لزوما بينا مثل الخوارج والقدرية كما هو مفصل في كتب الفقه والكلام في حكم المتأولين ومن يؤول قولهم إلى لوازم سيئة .

وذوق العذاب مجاز للإحساس وهو مجاز مشهور علاقته التقييد . انتهى انتهى . اهـ

﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ 185.186﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

أرباب الدّعاوَى تسودُّ وجوههم ، وأصحابَ المعاني تبيض وجوههم ، وأهل الكشوفات غداً تبيضُّ بالإشراق وجوهُهُم ، وأصحاب الحجاب تسودُّ بالحجبة وجوهُهُم ، فتعلوها غَبَرة ، وترهقها قَتَرَة .

ويقال مَنْ ابيض – اليومَ – قلبُه ابيضَّ – غداً – وجهُه ، ومَنْ كان بالضد فحاله العكس .

ويقال مَنْ أعرض عن الخلق – عند سوانحه – ابيضَّ وجهه بروح التفويض ، ومَنْ علَّق بالأغيار قلبَه عند الحوائج اسودّ محيّاه بغبار الطمع ؛ فأمّا الذين ابيضت وجوههم ففي أُنْسٍ وروح ، وأمّا الذين اسودّت وجوههم ففي محن ونَوْح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 269 ﴾

(345/126)

لطيفة

قال الفيروزابادى :

وقد ورد الرّحمة فى القرآن على عشرين وجهاً :

الأوّل : بمعنى منشور القرآن : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

الثانى : بمعنى سيّد الرُسُل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ، وقال صلىّ الله عليه وسلَّم : "إِنَّما أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ" .

الثالث : بمعنى توفيق الطَّاعة والإحسان : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ .

الرَّابع : بمعنى بنوّة المرسلين : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ .

الخامس : بمعنى الإِسلام والإِيمان : ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ ﴾ .

السّادس : بمعنى نعمة العِرفان : ﴿ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ ﴾ أَى معرفة .

السّابع : بمعنى العصمة من العصيان : ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ .

الثامن : بمعنى أَرزاق الإِنسان والحيوان : ﴿ لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾ .

التاسع : بمعنى قطَرات ماءِ الغِيثان : ﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ .

العاشر : بمعنى العافية من الابتلاءِ والامتحان : ﴿ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ ﴾ .

الحادى عشر : بمعنى النجاة من عذاب النيران : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ .

الثانى عشر : بمعنى النُصْرة على أَهل العدوان : ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ .

الثالث عشر : بمعنى الأُلفة والموافقة بين أَهل الإِيمان : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ .

الرابع عشر : بمعنى الكتاب المنزل على موسى بن عمران : ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً ﴾ .

الخامس عشر : بمعنى الثناء على إبراهيم والولدان : ﴿ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ .

(346/126)

السّادس عشر : بمعنى إجابة دعوة زكريا مبتهلا إلى الله المنّان : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ .

السّابع عشر : بمعنى العفو عن ذوى العصيان : ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ .

الثامن عشر : بمعنى فتح أبواب الرَّوْحِ والرَّيحان : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ .

التاسع عشر : بمعنى الجنَّةِ دار السّلام والأَمان : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

العشرون : بمعنى صفة الرّحيم الرحمن : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ . وفى الخبر : "إِنَّ الله تعالى خلق الأَرواح قبل الأَجساد بأَربعة آلاف سنة ، وقدّر الأَرزاق قبل الأَرواح بأَربعة آلاف سنة ، وكَتَب الرّحمة على نفسه قبل الأَرزاق بأَربعة آلاف سنة .

ولهذا قال: سبقت رحمتى غضبى، وعفوى عقابى". انتهى انتهى. اهـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 55.58﴾

(347/126)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآيتين

قال رحمه الله:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾

وهنا يجب أن نعلم أن الاسوداد والابيضاض هما من آثار اختلاف البيئات في الدنيا، فالشخص الأسود يزيد الله في تكوينه عن الشخص الأبيض بما يناسب البيئة، لأن المادة الملونة للبشرة في جسده موجودة بقوة، لتعطيه اللون المناسب لمعايشة ظروف البيئة، أما أبيض البشرة فلا يملك جسده القدر الكافي من المادة الملونة، لأن بيئته لا تحتاج مثل هذه المادة الملونة.

إذن فالسواد في الدنيا لصالح المسود، أما في هذه الآية، فهي تتحدث عما سوف نراه في الآخرة حيث يكون السواد والبياض مختلفين، تماما كما تتبدل الأرض غير الأرض والسماوات، غير السماوات وكذلك يتبدل أمر السواد والبياض، إنه لن يكون سواداً أو

بياضا من أجل البيئات . ولذلك ستتعجب يوم القيامة ؛ لأنك قد ترى إنسانا كان أسود في الدنيا ، وتجده أبيض في الآخرة ، وتجد إنسانا آخر كان لونه أبيض في الدنيا ثم صار أسود في الآخرة .

فلا يظن ظان أن الإنسان الأسود في الدنيا مكروه من الله ، لا ، إن الله يعطي كل واحد ما يناسبه ، بدليل أن الله قد أمده باللون الذي يقويه على البيئة التي يحيا فيها . وفي مجالنا البشري ، نحن نعطي المصل لأي إنسان مسافر إلى مكان ما ، حتى نحميه من شر مرض في المكان الذي يذهب إليه ، كذلك خَلْقُ الله في الأرض فقد أعطى سبحانه لكل إنسان في تكوينه المناعة التي تحفظه ؛ فالله لا يكره السواد لأنه حماية للإنسان من البيئة . وهذه المسألة ستتبدل يوم القيامة كما تتبدل الأرض غير الأرض ، وتبيض الوجوه المؤمنة ، وتسود الوجوه الكافرة .

(348/126)

أو أن البياض والسواد كليهما ، أمر اعتباري ، بدليل أنك ترى واحدا أبيض ولكن وجهه عليه غبرة ترهقه قترة ، وترى واحدا آخر أسود اللون ، ولكن نور اليقين يملأ وجهه ، وبريق الصلاح يشع منه ، وأنت لا تقدر أن تمنع عينيك من أن تديم النظر إليه ، ولذلك قال الحق :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾

[القيامة: 22-23]

أي أن ما في داخل النفس إنما ينضح على قالب الإنسان؛ وتظهره ملامحه، فقد يكون الأسود مضئ الوجه بالبشر والإشراق والتجلي بالجاذبية الآسرة، وقد يكون الإنسان أبيض الوجه لكنه مظلم الروح.

وهكذا نفهم ان اسوداد بشرة إنسان في الدنيا، إنما هو لمساعدة الإنسان على التواؤم مع البيئة، ومثال ذلك سواد العين وبياضها، هل يستطيع أحد أن يقول: إن بياض العين أحسن من سوادها، أو العكس؟. لا؛ لأن كل شيء معد لمهمته.

ومثال آخر: عندما يأتي عامل البناء ليثني عمود الحديد المستقيم؛ ويلويه، فهل يقال: إن هذا الإنسان قد عوج الحديد؟. لا؛ إنه يريد أن يشكل عود الحديد ليكون صالحا لمهمة معينة. وكذلك الاسوداد أو الابيضاض في الدنيا، إنما أراده الله ليتناسب مع ظروف الحياة في البيئة، أما في الآخرة فالدنيا قد زالت وفنيت، والأرض لن تكون هي الأرض والسماء لن تكون هي السماء؛ فالحق يقول:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

[إبراهيم: 48]

فالمؤمن حين يرى ما أعده الله له من النعيم المقيم يقابل عطاء الله باستشراف نفس وسرور وانبساط ، أما الذي يرى مقعده من النار فلا بد أن يكون مظلم الوجه . والحق سبحانه يوجه سؤالا لهؤلاء : ﴿ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ أو كأن هذا أمر يُفاجئ من كان يعرف هؤلاء الناس في الدنيا ؛ فقد رأوهم في الدنيا بيض الوجوه ، ولكن يرونهم يوم القيامة وعلى وجوههم غبرة سوداء وترهقهم قترة ، فيقولون لهم : ﴿ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ ؟ . وكأن ذلك هو سمة من يكفر بعد الإيمان . هذه هي سمتهم وعلامتهم في الآخرة أي ما الذي صيركم إلى هذا اللون ؟ إنه الكفر بعد الإيمان .

فمن هم الذين كفروا بعد الإيمان ؟

هذا يعني أن الإيمان قد سبق ثم طرأ على الإيمان كفر ، وماتوا على ذلك الكفر ، وهذا قول ينطبق على الذين ارتدوا عن الإسلام مثل ابن الأسلت وغيره ، وهؤلاء كفروا بعد الإيمان . أو يكون ﴿ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ يجعلنا نقول : البعدية هنا لا بد أن يكون لها قبلية : ألم يأخذ الله على خلقه عهدا في عالم الذر حين استخرجهم من ظهر آدم ؟ وقال سبحانه : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ إنه إقرار إيماني موجود في عالم الذّر ، فمن جاء في الواقع لينقض هذه المسألة فقد كفر بعد إيمان . أو أكفرتم بعد إيمانكم بمحمد ، بعد أن جاءتكم به البشارات التي عرفتموها ، وقرأتموها في التوراة والإنجيل ، وقد تأكدتم أنه قادم لا محالة ،

وأنه رسول هذه الأمة وخاتم الرسل ، وانطبق عليكم قول الحق :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

[البقرة : 89]

(350/126)

إذن فهذا القول ، إما أن يكون في المرتدين ، وإما أن يكون الكفر في واقع الدنيا بعد الإيمان في عالم الذر عندما أخذ الله العهد على الناس جميعا ، أو يكون الكفر بعد الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاءت به البشارات في التوراة والإنجيل ، أو يكون ذلك من أهل الأهواء الذين أخذوا الدين وجعلوه شيعا ، كالفرق التي خرجت عن الإسلام ، وهي تدعى الانتساب إليه كالبهائية والقاديانية وغيرها . إن الآية تحتمل كل هذا ، وعندما نمعن النظر إلى النص القرآني نجده يستوعب كل هذه المعاني .

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه أورد فقط : ﴿ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ وهذا قول يختص بالكفار فقط يذوقون العذاب بسبب الكفر ، وذلك يعني أن المؤمن بإيمانه سينال ثواب عمله . يقول تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

ولنلاحظ دائما أن الله حين يبين جزاءً لمؤمن على إيمانه وطاعته فسبحانه يقول مرة :

﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

[الأعراف : 42]

ومرة أخرى يقول :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾

[النساء : 175]

ما الفرق بين الاثنين ؟ إن الناس في العبادة صنفان : منهم من يعبد الله ويريد نعيم الجنة ، فيعطيه الله الجنة جزاء لعبادته ولعمله الصالح . وآخر يعبد الله ؛ لأن الله يستحق العبادة ولا تمر الجنة على باله ، وهذا ينال ذات الرحمة ، إنه ينال لقاء وجه الله .

وما الفرق بين الجنة والرحمة ؟ إن الجنة مخلوقة لله ، فهي باقية بإبقاء الله لها ، ولكن الرحمة باقية ببقاء الله ، وهذا ضمان كاف ، فمن يرى الله فيه حسن العبادة لذاته – سبحانه – يضع الله في الرحمة .

وقلنا من قبل : إن هناك جنة من الجنات اسمها " عليّون " ليس فيها متعة من المتع التي سمعنا عنها في الجنة ، كلحم الطير وغير ذلك ، وليس فيها إلا أن ترى الله . وما دام العبد لا يأكل عن جوع في الآخرة ، فما الأفضل له ، جنة المتع ، أو متعة رؤية وجه الله ؟

أتتمتع بالنعمة أم بالمنعم ؟ لا جدال أن التمتع برؤية المنعم أرقى وأسمى من التمتع بالمتع الأخرى . والدقة الأدائية في القرآن توضح لنا أن الرحمة تكتنف هؤلاء العباد الصالحين ، وتحيط بهم ، إنهم ظرف للرحمة وداخلون فيها فلا تمسهم الرحمة فقط ، ولكن تحيط بهم ، وهم خالدون فيها ، ويؤكدها الحق بظرفية جديدة بقوله : ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ فكأن هناك رحمة يُدخل فيها العباد ، ثم يطمئننا على أنها لا تُنزع منا أبدا . فـ " فيها " الثانية للخلود ، " وفي " الأولى للدخول في الرحمة .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1667 . 1671 ﴾

(352/126)

قوله تعالى ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (108)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما حازت هذه الآيات من التهذيب وإحكام الترتيب وحسن السياق قصب السباق أشار إليها مع قربها بأداة البعد وأضافها إلى أعظم أسمائه فقال : ﴿ تلك آيات الله ﴾ أي هذه دلائل الملك الأعظم العالية الرتب البعيدة المتناول ، ثم استأنف الخبر عنها في مظهر العظمة قائلاً : ﴿ نتلوها ﴾ أي نلازم قصها ، وزاد في تعظيمها بعد المبتدأ بالمنتهي فقال : ﴿ عليك ﴾ ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ بالحق ﴾ أي ثابتة المعاني راسخة المقاصد صادقة الأقوال في كل مما أخبرت به من فوزكم وهلاكهم من غير أن نظلم أحداً منهم ﴿ وما الله ﴾ أي الحائز لجميع الكمال ﴿ يريد ظلماً ﴾ قلّ أو جلّ ﴿ للعالمين ﴾ أي ما ظلمهم ولا يريد ظلم أحد منهم ، لأنه سبحانه وتعالى متعالٍ عن ذلك ، لا يتصور منه وهو غني عنه ، لأن له كل شيء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 134 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

الإشارة في قوله ﴿ تلك ﴾ إلى طائفة من آيات القرآن السابقة من هذه السورة كما اقتضاه قوله : ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ .

(353/126)

والتلاوة اسم لحكاية كلام لإرادة تبليغه بلفظة وهي كالقراءة إلا أن القراءة تختص بحكاية كلام مكتوب فيتجه أن تكون الطائفة المقصودة بالإشارة هي الآيات المبدوئة بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ [آل عمران : 59] إلى هنا لأن ما قبله ختم بتذييل قريب من هذا التذييل ، وهو قوله : ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران : 58] فيكون كل تذييل مستقلا بطائفة الجمل التي وقع هو عقبها .

وخصت هذه الطائفة من القرآن بالإشارة لما فيها من الدلائل المثبتة صحة عقيدة الإسلام ، والمبطلة لدعاوى الفرق الثلاث من اليهود والنصارى والمشركين ، مثل قوله : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ [آل عمران : 59] وقوله : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [المائدة : 74] الآية .

وقوله : ﴿ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [آل عمران : 66] الآية .

وقوله : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ [آل عمران : 68] الآية .

وقوله : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ [آل عمران : 79] والحكم والنبوة الآية .

وقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ﴾ [آل عمران : 81] الآية .

وقوله : ﴿ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا ﴾ [آل عمران : 93] فاتلوها .

وقوله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً ﴾ [آل عمران : 96] وما تخلل ذلك من أمثال ومواعظ وشواهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 186 . 187 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ تِلْكَ ﴾ فيه وجهان

الأول : المراد أن هذه الآيات التي ذكرناها هي دلائل الله ، وإنما جاز إقامة ﴿ تِلْكَ ﴾ مقام ﴿ هذه ﴾ لأن هذه الآيات المذكورة قد انقضت بعد الذكر ، فصار كأنها بعدت فقيل فيها ﴿ تِلْكَ ﴾

والثاني : إن الله تعالى وعده أن ينزل عليه كتاباً مشتملاً على كل ما لابد منه في الدين ، فلما أنزل هذه الآيات قال : تلك الآيات الموعودة هي التي تتلوها عليك بالحق ، وتمام الكلام في هذه المسألة قد تقدم في سورة البقرة في تفسير قوله ﴿ ذلك الكتاب ﴾ [البقرة : 2] وقوله ﴿ بالحق ﴾ فيه وجهان الأول : أي ملتبسة بالحق والعدل من إجزاء المحسن والمسيء بما

يستوجبانه

الثاني : بالحق ، أي بالمعنى الحق ، لأن معنى التلوحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب جـ 8 صـ 152 ﴾

فائدة لغوية

قال ابن عادل :

قوله : " تلْكَ " مبتدأ ، ﴿ آياتُ الله ﴾ خبره ، و" نُلوهَا " جملة حالية .

وقيل : ﴿ آيَاتُ الله ﴾ بدل من " تِلْكَ " ، و" نَتْلُوها " جملة واقعة خبر المتبدأ ، و" بِالحَقّ " حال من فاعل " نتلُوهَا " ، أو مفعولة ، وهي حال مؤكدة ؛ لأنه – تعالى – لا ينزلها إلا على هذه الصفة .

وقال الزَّجَّاج : " في الكلام حذف ، تقديره : تلك آيات القرآن حُجَجُ الله ودلائله " .

قال أبو حيان : فعلى هذا الذي قدَّره يكون خبر المبتدأ محذوفاً ؛ لأنه عنده بهذا التقدير يتم معنى الآية ، وهذا التقدير لا حاجة إليه ؛ [إذ الكلام مُسْتَغْنٍ عنه ، تامٌّ بنفسه] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل جـ 5 صـ 460 ﴾

(355/126)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلعالمين ﴾

فصل

قال الفخر :

إنما حسن ذكر الظلم ههنا لأنه تقدم ذكر العقوبة الشديدة وهو سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين ، فكأنه تعالى يعتذر عن ذلك (1) وقال إنهم ما وقعوا فيه إلا بسبب أفعالهم المنكرة ، فإن مصالح العالم لا تستقيم إلا بتهديد المذنبين ، وإذا حصل هذا التهديد فلا بد من التحقيق دفعاً للكذب ، فصار هذا الاعتذار من أدل الدلائل ، على أن جانب الرحمة غالب ، ونظيره قوله تعالى في سورة (عم) بعد أن ذكر وعيد الكفار ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً وَكَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا كِذَّاباً ﴾ [النبأ : 27 ، 28] أي هذا الوعيد الشديد إنما حصل بسبب هذه الأفعال المنكرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 152 ﴾

---

(1) هذا اللفظ فيه تجرؤ وكان الأحرى والأولى مراعاة الأدب مع الله تعالى .

(356/126)

وقال أبو السعود :

وقوله : ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعالمين ﴾ تذييل مقرِّرٌ لمضمون ما قبله على أبلغ وجهٍ وآكَدِه

، فإن تنكيرَ الظلم وتوجيهَ النفي إلى إرادته بصيغة المضارعِ دون نفسِه وتعليقَ الحكمِ بآحاد الجمعِ المعروفِ ، والالتفات إلى الاسم الجليلِ إشعارٌ بعلة الحكمِ وبيانٌ لكمال نزاهتِه عز وجل عن الظلم بما لا مزيدَ عليه أي ما يريد فرداً من أفراد الظلم لفرد من أفراد العالمين في وقت من الأوقات فضلاً عن أن يظلِمَهم ، فإن المضارعَ كما يفيد الاستمرارَ في الإثبات يفيده في النفي بحسب المقامِ كما أن الجملةَ الاسميةَ تدلُّ بمعرفة المقامِ على دوام الثبوتِ ، وعند دخولِ حرفِ النفي تدل على دوامِ الانتفاءِ لا على انتفاء الدوامِ وفي سبك الجملةِ نوعُ إيماءٍ إلى التعريض بأن الكفرةَ هم الظالمون ظلموا أنفسَهم بتعريضها للعذاب الخالد كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 70 ﴾

فائدة

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ اللام – في "لِلْعَالَمِينَ" – زائدة – لا تعلُّق لها بشيء ، زيدت في مفعول المصدر وهو ظلم والفاعل محذوف ، وهو – في التقدير – ضمير الباري ، والتقدير : وما الله يريد أن يظلم العالمين ، فزيدت اللام ، تقوية للعامل ؛ لكونه فرعاً ، كقوله : ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج : 16] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 461 ﴾

فائدة

قال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ ؛ قَدْ اقْتَضَى ذَلِكَ نَفْيَ إرَادَةِ الظُّلْمِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ، فَلَا يُرِيدُ هُوَ أَنْ يَظْلِمَهُمْ ، وَلَا يُرِيدُ أَيْضًا ظُلْمَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ ؛ لِأَنَّهُمَا سَوَاءٌ فِي مَنْزِلَةِ الْقُبْحِ .

وَلَوْ جَازَ أَنْ يُرِيدَ ظُلْمَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ لَجَازَ أَنْ يُرِيدَ ظُلْمَهُ لَهُمْ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَا فَرْقَ فِي الْعُقُولِ بَيْنَ مَنْ أَرَادَ ظُلْمَ نَفْسِهِ لِغَيْرِهِ وَبَيْنَ مَنْ أَرَادَ ظُلْمَ إنْسَانٍ لِغَيْرِهِ ، وَأَنَّهُمَا سَوَاءٌ فِي الْقُبْحِ ؟ فَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ إرَادَتُهُ لِلظُّلْمِ مُنْتَفِيَةً مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 2 صـ 321 ﴾

(357/126)

فصل

قال الفخر :

قال الجُبّائي : هذه الآية تدل على أنه سبحانه لا يريد شيئاً من القبائح لا من أفعاله ولا من أفعال عباده ، ولا يفعل شيئاً من ذلك ، وبيانه : وهو أن الظلم إما أن يفرض صدوره من الله

تعالى ، أو من العبد ، وبتقدير صدوره من العبد ، فإما أن يظلم نفسه وذلك بسبب إقدامه على المعاصي أو يظلم غيره ، فأقسام الظلم هي هذه الثلاثة ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ نكرةٌ في سياق النّفي ، فوجب أن لا يريد شيئًا مما يكون ظلماً ، سواء كان ذلك صادراً عنه أو صادراً عن غيره ، فثبت أن هذه الآية تدل على أنه لا يريد شيئًا من هذه الأقسام الثلاثة ، وإذا ثبت ذلك وجب أن لا يكون فاعلاً لشيء من هذه الأقسام ، ويلزم منه أن لا يكون فاعلاً للظلم أصلاً ويلزم أن لا يكون فاعلاً لأعمال العباد ، لأن من جملة أعمالهم ظلمهم لأنفسهم وظلم بعضهم بعضاً ، وإنما قلنا : إن الآية تدل على كونه تعالى غير فاعل للظلم ألبتة لأنها دلت على أنه غير مريد لشيء منها ، ولو كان فاعلاً لشيء من أقسام الظلم لكان مريداً لها ، وقد بطل ذلك ، قالوا : فثبت بهذه الآية أنه تعالى غير فاعل للظلم ، وغير فاعل لأعمال العباد ، وغير مريد للقبائح من أفعال العباد ، ثم قالوا : إنه تعالى تمدح بأنه لا يريد ذلك ، والتمدح إنما يصح لو صح منه فعل ذلك الشيء وصح منه كونه مريداً له ، فدلت هذه الآية على كونه تعالى قادراً على الظلم وعند هذا تبجحوا وقالوا : هذه الآية الواحدة وافية بتقرير جميع أصول المعتزلة في مسائل العدل ، ثم قالوا : ولما ذكر تعالى أنه لا يريد الظلم ولا يفعل الظلم قال بعده ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأمور ﴾ وإنما ذكر هذه الآية عقيب ما تقدم لوجهين

الأول : أنه تعالى لما ذكر أنه لا يريد الظلم والقبائح استدل عليه بأن فاعل القبيح إنما يفعل القبيح إما للجهل ، أو العجز ، أو الحاجة ، وكل ذلك على الله محال لأنه مالك لكل ما في السموات وما في الأرض ، وهذه المالكية تنافي الجهل والعجز والحاجة ، وإذا امتنع ثبوت هذه الصفات في حقه تعالى امتنع كونه فاعلاً للقبيح

والثاني : أنه تعالى لما ذكر أنه لا يريد الظلم بوجه من الوجوه كان لقائل أن يقول : إنا نشاهد وجود الظلم في العالم ، فإذا لم يكن وقوعه بإرادته كان على خلاف إرادته ، فيلزم كونه ضعيفاً عاجزاً مغلوباً وذلك محال .

(359/126)

فأجاب الله تعالى عنه بقوله ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ أي أنه تعالى قادر على أن يمنع الظلمة من الظلم على سبيل الإلجاء والقهر ، ولما كان قادراً على ذلك خرج عن كونه عاجزاً ضعيفاً لا أنه تعالى أراد منهم ترك المعصية اختياراً وطوعاً ليصيروا بسبب ذلك مستحقين للثواب فلو قهرهم على ترك المعصية لبطلت هذه الفائدة ، فهذا تلخيص كلام المعتزلة في هذه الآية ، وربما أوردوا هذا الكلام من وجه آخر ، فقالوا : المراد من قوله

﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ ﴾ إما أن يكون هو لا يريد أن يظلمهم أو أنه لا يريد منهم أن يظلم بعضهم بعضاً فإن كان الأول فهذا لا يستقيم على قولكم ، لأن مذهبكم أنه تعالى لو عذب البريء عن الذنب بأشد العذاب لم يكن ظلماً ، بل كان عادلاً ، لأن الظلم تصرف في ملك الغير ، وهو تعالى إنما يتصرف في ملك نفسه فاستحال كونه ظالماً وإذا كان كذلك لم يكن حمل الآية على أنه لا يريد أن يظلم الخلق وإن حملتم الآية على أنه لا يريد أن يظلم بعض العباد بعضاً ، فهذا أيضاً لا يتم على قولكم لأن كل ذلك بإرادة الله وتكوينه على قولكم ، فثبت أن على مذهبكم لا يمكن حمل الآية على وجه صحيح والجواب : لم لا يجوز أن يكون المراد أنه تعالى لا يريد أن يظلم أحداً من عباده ؟ قوله الظلم منه محال على مذهبكم فامتنع التمدح به قلنا : الكلام عليه من وجهين

الأول : أنه تعالى تمدح بقوله ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴾ [البقرة : 255] وبقوله ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام : 14] ولا يلزم من ذلك صحة النوم والأكل عليه فكذا ههنا

(360/126)

الثاني : أنه تعالى إن عذب من لم يكن مستحقاً للعذاب فهو وإن لم يكن ظلماً في نفسه لكنه في صور الظلم ، وقد يطلق اسم أحد المتشابهين على الآخر كقوله ﴿ وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ

مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] ونظائره كثيرة في القرآن هذا تمام الكلام في هذه المناظرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 152.153 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

نُديمُ مخاطبتنا معك على دوام الأوقات في كل قليل وكثير ، عمارة لسبيل الوداد : ﴿ وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ وأَنَّى يجوز الظلم في وصفه تقديرا ووجوداً - والخلق كلُّهم خَلْقُه - والحكمُ عليهم حُكْمُه ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 269 ﴾

(361/126)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

إن آيات الله هي حججه وبراهينه وجزاءاته ، فمن اسود وجهه يوم القيامة نال العذاب ، ومن ابيض وجهه نال الرحمة وهو فيها خالد ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ ، فما الذي يجعل إنسانا لا يخبر بالحق ؟ لا بد أن هناك داعيا عند ذلك الإنسان ، فلأنّ الحق يُتبعه ، فهو يخبر بغير الحق . لكن هل هناك ما يتعب الخالق ؟ لا ؛ فسبحانه وتعالى منزه عن

ذلك وعن كل نقص أو عيب إذن فلا بد ألاّ يقول إلا الحق ، فلا شيء خارج عن ملكه بعد ذلك . يقول سبحانه : ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ . إنه سبحانه ينفي الظلم عن نفسه كما قال :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

[فصلت : 46]

والحق لا يريد الظلم على إطلاقه, من نفسه ومنكم أنتم أيها العباد . وكيف يأتي الظلم ؟ إن مظاهر الظلم هي – كما نعرف – أن تأخذ إنسانا بغير جرم . . هذا ظلم . أو ألا تعطي إنسانا مستوى إحسانه . . هذا ظلم . وماذا يفعل من يقوم بالظلم ؟ إنه يريد أن يعود الأمر بالنفع له ، فإن كان يريد أَخْذَ إنسانٍ بغير جرم فهو يفعل ذلك ليروي حقدا وغلا في نفسه ، وقد يلفق لإنسان جرما ؛ لأنه يرى أن هذا الإنسان قد يهدده في أي مصلحة من المصالح ، وهو يعلم انحرافه فيها ، فيعتقله مثلا ، أو يضعه في السجن حتى لا يفضحه .

إذن لا يمكن أن يذهب إنسان عن الحق إلى الظلم إلا وهو يريد أن يحقق منفعة أو يدفع عن نفسه ضررا ، والله لن يحقق لذاته منفعة بظلم ، أو يدفع ضررا يقع من خلقه عليه ؛ إنه منزه عن ذلك ؛ فهو القاهر فوق عباده . والحديث القدسي يقول : "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي . وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا " .

والظالم من البشر جاهل . لماذا ؟ لأنه قَوّى الذي ظلمه ، ولم يضعفه ، فالظالم يظلم ليضعف المظلوم أمامه ، فنقول له : أنت غبي ، قليل الذكاء ؛ لأنك قويته على نفسك وفعلت عكس ما تريد . ولنوضحْ ذلك – ولله المثل الأعلى – نحن جميعا عيال الله ، سننتقل إلى دائرة حياتنا اليومية ونرى عيالنا ، إن الواحد منا عندما يكون له أولاد ، وجاء ولد من الأولاد وظلم أخاه فَقَلْبُ الوالد يكون مع المظلوم ، ويحاول الوالد أن يترضّى ابنه المظلوم . إذن فالولد الظالم ضر أخاه ضررا يناسب طفولته ، ولكنه أعطاه نفعا يناسب قوة والده ، إنه يجهل حقيقة تقويته لأخيه .

وما دمنا جميعا عيال الله فماذا يفعل الله حين يرى سبحانه واحدا من خلقه يظلم آخر من خلقه ؟ لا بد أن الحق سيشمل المظلوم برعايته ، وهكذا يقوى الظالم المظلومَ ، والظالم بذلك يعلن عن غبائه ، فلو كان ذكيا ، لم ظلم ، ولضنّ على عدوه أن يظلمه ، ولقال : إنه لا يستأهل أن أظلمه ؛ لأنه عن طريق ظلمى له سيعطيه الله مكافأة كبرى ، وهي أن يجعله في كنفه ورعايته مباشرة .

وقد نجد واحدا يظلم من أجل نفع عاجل ، وينسى هذا الإنسان أنه لن يشرد أبدا ممن خلقه . ونقول لمثل هذا الإنسان : أنت لن تشرد ممن خلقك ، ولكنك شردت من المخلوق وداريت نفسك ، وحاولت أن تحقق النفع العاجل لنفسك ، لكن الخالق قيوم لا تأخذه سنة

ولا نوم. وكأن الحق سبحانه يطمئننا بأن ننام ملء جفوننا لأنه سبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم.

﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ لأن الظلم لا ينشأ إلا عن إرادة نفعية بغير حق، أو إرادة الضرر بغير جرم، والله غني عن ذلك، ولذلك نجد الحق يؤكد غناه عن الخلق وأنه مالك للكون كله فيقول: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ... ﴾. انتهى انتهى. اهـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 1672.1673 ﴾

(363/126)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والعشرون بعد المائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/127)

الجزء السابع والعشرون بعد المائة

من الآية ﴿ 109 ﴾ من سورة آل عمران

وحتى الآية ﴿ 115 ﴾ من نفس السورة

(4/127)

قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (109) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان أمرهم بالإقبال عليه ونهيهم عن الإعراض عنه ربما أوقع في وهم أنه غير قادر على ضبطهم أو محتاج إلى ربطهم أزال ذلك دالاً على أنه غني عن الظلم بقوله : ﴿ ولله ﴾ الملك الأعلى ﴿ ما ﴾ أي كل شيء ﴿ في السماوات و ﴾ كل ﴿ ما في الأرض ﴾ من جوهر وعرض مِلكاً ومُلكاً .

ولما كان المقصود سعة الملك لم يضمر لئلا يظن تخصيص الثاني بما في حيز الأول فقال :

﴿ وإلى الله ﴾ الذي لا أمر لأحد معه ﴿ ترجع الأمور ﴾ أي كلها ، التي فيهما والتي في غيرهما ، فلا داعي له إلى الظلم ، لأنه غني عن كل شيء وقادر على كل شيء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 134. 135 ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَللَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ قال المهدويّ : وجه اتصال هذا بما قبله أنه لما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين وأنه لا يريد ظلماً للعالمين ، وصله بذكر اتساع قدرته وغناه عن الظلم لكون ما في السموات وما في الأرض (في قبضته ، وقيل : هو ابتداء كلام ، بيّن لعباده أن جميع ما في السموات وما في الأرض) له حتى يسألوه ويعبدوه ولا يعبدوا غيره .
انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 169 ﴾

قال أبو السعود :

﴿ وَللَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ أي له تعالى وحده من غير شِرْكةٍ أصلاً ، ما

فيهما من المخلوقات الفائتة للحصر مُلكاً وخلقاً إحياءً وإماتة وإثابةً وتعذيباً ، وإيرادُ كلمةِ ﴿ مَا ﴾ إما لتغليب غيرِ العقلاءِ وإما لتنزيلهم منزلةَ غيرِهم إظهاراً لحقارتهم في مقام بيانِ عظمتِه تعالى ﴿ وإلى الله ﴾ أي إلى حُكمه وقضائِه لا إلى غيره شِركةً أو استقلالاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 70 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَللَّهِ مَا فِى السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ أي له سبحانه وحده ما فيهما من المخلوقات ملكاً وخلقاً وتصرفاً والتعبير بـ ﴿ ما ﴾ للتغليب أو للإيذان بأن غير العقلاء بالنسبة إلى عظمته كغيرهم ﴿ وَإِلَى الله تُرْجَعُ الامور ﴾ أي أمورهم فيجازي كلاًّ بما تقتضيه الحكمة من الثواب والعقاب ، وتقديم الجار للحصر أي إلى حكم الله تعالى وقضائه لا إلى غيره شركة أو استقلالاً ، والجملة مقررة لمضمون ما ورد في جزاء الفريقين ، وقيل : معطوفة على ما قبلها مقررة لمضمونه والإظهار في مقام الإضمار لتربية المهابة ، وقرأ يحيى بن وثاب (ترجع) بفتح التاء وكسر الجيم في جميع القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 27 ﴾

فصل

قال الفخر :

احتج أصحابنا بقوله ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأَرض ﴾ على كونه خالقاً لأعمال العباد ، فقالوا لا شك أن أفعال العباد من جملة ما في السموات والأرض ، فوجب كونها له بقوله ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأَرض ﴾ وإنما يصح قولنا : إنها له لو كانت مخلوقة له فدلت هذه الآية على أنه خالق لأفعال العباد .

أجاب الجبائي عنه بأن قوله ﴿ لِلَّهِ ﴾ إضافة ملك لا إضافة فعل ، ألا ترى أنه يقال : هذا البناء لفلان فيريدون أنه مملوكه لا أنه مفعوله ، وأيضاً المقصود من الآية تعظيم الله لنفسه ومدحه لإلهية نفسه ، ولا يجوز أن يتمدح بأن ينسب إلى نفسه الفواحش والقبائح ، وأيضاً فقوله ﴿ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأَرض ﴾ إنما يتناول ما كان مظروفاً في السموات والأرض وذلك من صفات الأجسام لا من صفات الأفعال التي هي أعراض .

أجاب أصحابنا عنه بأن هذه الإضافة إضافة الفعل بدليل أن القادر على القبيح والحسن لا يرجح الحسن على القبيح إلا إذا حصل في قلبه ما يدعوه إلى فعل الحسن ، وتلك الداعية حاصلة بتخليق الله تعالى دفعاً للتسلسل ، وإذا كان المؤثر في حصول فعل العبد هو مجموع القدرة والداعية ، وثبت أن مجموع القدرة والداعية بخلق الله تعالى ثبت أن فعل العبد مستند إلى الله تعالى خلقاً وتكويناً بواسطة فعل السبب ، فهذا تمام القول في هذه المناظرة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 154.153 ﴾

فصل

قال الفخر :

(6/127)

قوله تعالى ﴿ وَللَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ زعمت الفلاسفة أنه إنما قدم ذكر ما في السموات على ذكر ما في الأرض لأن الأحوال السماوية أسباب للأحوال الأرضية ، فقدم السبب على المسبب ، وهذا يدل على أن جميع الأحوال الأرضية مستندة إلى الأحوال السماوية ، ولا شك أن الأحوال السماوية مستندة إلى خلق الله وتكوينه فيكون الجبر لازماً أيضاً من هذا الوجه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 154 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قال تعالى : ﴿ وَللَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأمور ﴾ فأعاد ذكر الله في أول الآيتين والغرض منه تأكيد التعظيم ، والمقصود أن منه مبدأ المخلوقات وإليه معادهم ، فقوله ﴿ وَللَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ إشارة إلى أنه سبحانه هو الأول

وقوله ﴿ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأمور ﴾ إشارة إلى أنه هو الآخر ، وذلك يدل إحاطة حكمه وتصرفه وتديره بأولهم وآخرهم ، وأن الأسباب منتسبة إليه وأن الحاجات منقطعة عنده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 154 ﴾

فائدة

قال ابن عطية :

وذكر الطبري : أن بعض البصريين نظر قوله تعالى : ﴿ وإلى الله ﴾ فأظهر الاسم ، ولم يقل إليه بقول الشاعر :

لا أرى الموتَ يسبقُ الموتَ شيءٌ . . . نَغَّصَ الموتُ ذا الغنى والْفَقيرا

وما جرى مجراه ، وقاله الزجّاج ، وحكي أن العرب تفعل ذلك إرادة تفخيم الكلام والتنبيه على عظم المعنى .

قال القاضي أبو محمد : والآية تشبه البيت في قصد فخامة النظم ، وتفارقه من حيث الآية جملتان مفترقتان في المعنى ، فلو تكررت جمل كثيرة على هذا الحد لحسن فيها كلها إظهار الاسم ، وليس التعرض بالضمير في ذلك بعرف ، وأما البيت وما أشبهه فالضمير فيه هو

العرف ، إذ الكلام في معنى واحد ، ولا يجوز إظهار الاسم إلا في المعاني الفخمة في النفوس من التي يؤمن فيها اللبس على السامع ، وقرأ بعض السبعة ، " تَرجع الأمور " بفتح التاء على بناء الفعل للفاعل ، وقد تقدم ذكر ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 488 ﴾

فائدة

قال الفخر :

كلمة ﴿ إلى ﴾ في قوله ﴿ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأمور ﴾ لا تدل على كونه تعالى في مكان وجهة ، بل المراد أن رجوع الخلق إلى موضع لا ينفذ فيه حكم أحد إلا حكمه ولا يجري فيه قضاء أحد إلا قضاؤه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 154 ﴾

فوائد بلاغية

قال أبو حيان :

قالوا وتضمنت هذه الآيات الطباق : في تبيضّ وتسودّ ، وفي اسودّت وابيضّت ، وفي أكفرتم بعد إيمانكم ، وفي بالحق وظلماً .

والتفصيل : في فأمّا وأمّا .

والتجنيس : المماثل في أكفرتم وتكفرون .

وتأكيد المظهر بالمضمر في : ففي رحمة الله هم فيها خالدون .

والتكرار : في لفظ الله .

ومحسنه : أنه في جمل متغايرة المعنى ، والمعروف في لسان العرب إذا اختلفت الجمل أعادت المظهر لا المضمر ، لأن في ذكره دلالة على تفخيم الأمر وتعظيمه ، وليس ذلك نظير .

لا أرى الموت يسبق الموت شيء . . .

لاتحاد الجملة .

لكنه قد يؤتى في الجملة الواحدة بالمظهر قصداً للتفخيم .

والإشارة في قوله : تلك ، وتلوين الخطاب في فأمّا الذين اسودّت وجوههم أكفرتم ، والتشبيه والتمثيل في تبيض وتسودّ ، إذا كان ذلك عبارة عن الطلاقة والكآبة والحذف في مواضع .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 3 صـ 29 . 30﴾

(8/127)

" فصل "

قال السيوطى :

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ (107) تِلْكَ آَيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (108) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (109)

أخرج أحمد والترمذي وابن ماجة والطبراني وابن المنذر عن أبي غالب قال " رأى أبو أمامة رؤوس الأزارقة منصوبة على درج مسجد دمشق فقال أبو أمامة : كلاب النار شر قتلى تحت أديم السماء ، خير قتلى من قتلوه . ثم قرأ ﴿ يوم تبيضُّ وجوه وتسودُّ وجوه ﴾ الآية . قلت لأبي أمامة : أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لو لم أسمعه إلا مرة ، أو مرتين ، أو ثلاثاً ، أو أربعاً ، حتى عدَّ سبعاً ما حدثتكموه " .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو نصر في الإبانة والخطيب في تاريخه واللالكائي في السنة عن ابن عباس في هذه الآية قال ﴿ تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ قال : تبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، وتسود وجوه أهل البدع والضلالة .

وأخرج الخطيب في رواة مالك والديلمي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ قال : " تبيض وجوه أهل السنة ، وتسود وجوه أهل البدع " .

وأخرج أبو نصر السجزي في الإبانة عن أبي سعيد الخدري " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ قال : تبيض وجوه أهل الجماعات والسنة ، وتسود وجوه أهل البدع والأهواء " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي بن كعب في الآية قال : صاروا فرقتين يوم القيامة يقال لمن اسود وجهه ﴿ أكفرتم بعد إيمانكم ﴾ فهو الإيمان الذي كان في صلب آدم حيث كانوا أمة الذين ابيضت وجوههم فهم الذين استقاموا على إيمانهم ، وأخلصوا له الدين ، فبيَّض الله وجوههم ، وأدخلهم في رضوانه وجنته .

وأخرج الفريابي وابن المنذر عن عكرمة في الآية قال : هم من أهل الكتاب ، كانوا مصدقين بأنبيائهم ، مصدقين بمحمد ، فلما بعثه الله كفروا . فذلك قوله ﴿ أكفرتم بعد إيمانكم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي أمامة في قوله ﴿ فأما الذين اسودت وجوههم ﴾ قال : هم الخوارج .

وأخرج عبد حميد وابن جرير في الآية عن قتادة قال : لقد كفر أقوام بعد إيمانهم كما تسمعون ﴿ فأما الذين ابيضت وجوههم ﴾ فأهل طاعة الله والوفاء بعهد الله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ فأما الذين اسودت وجوههم ﴾ قال : هم المنافقون كانوا أعطوا كلمة الإيمان بألسنتهم ، وأنكروها بقلوبهم وأعمالهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ وتسود وجوه ﴾ قال : هم اليهود .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي في قوله ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ قال : هذا لأهل القبلة .

وأخرج ابن المنذر عن السدي بسند فيه من لا يعرف ﴿ يوم تبيض وجوه وتسودُّ وجوه ﴾ قال : بالأعمال والأحداث .

وأخرج ابن أبي حاتم بسند فيه من لا يعرف عن عائشة قالت " سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تأتي عليك ساعة لا تملك فيها لأحد شفاعة ؟ قال : نعم ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ حتى انظر ما يفعل بي . أو قال : بوجهي " .

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عن ابن عباس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المصيبة تبيض وجه صاحبها يوم تسود الوجوه " .

وأخرج أبو نعيم عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الغبار في سبيل الله إسفار الوجوه يوم القيامة " .

وأخرج الطبراني عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ليس من عبد يقول لا إله إلا الله مرة إلا بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر " .

وأخرج عبد بن حميد عن يحيى بن وثاب أنه قرأ كل شيء في القرآن ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ بنصب التاء وكسر الجيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 291 . 293 ﴾

(11/127)

بحث نفيس للعلامة الجصاص

قال عليه الرحمة :

بَاب فَرْضِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ ﴾

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ حَوَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مَعْنَيَيْنِ .

أَحَدُهُمَا : وُجُوبُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ .

وَالْآخَرُ : أَنَّهُ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ لَيْسَ بِفَرْضٍ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ فِي نَفْسِهِ إذَا قَامَ بِهِ غَيْرُهُ .

لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ ﴾ وَحَقِيقَتُهُ تَقْتَضِي الْبَعْضَ دُونَ الْبَعْضِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ فَرْضٌ الْكِفَايَةِ إذَا قَامَ بِهِ بَعْضُهُمْ سَقَطَ عَنْ الْبَاقِينَ .

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ هُوَ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ فِي نَفْسِهِ وَيَجْعَلُ مَخْرَجَ الْكَلَامِ مَخْرَجَ الْخُصُوصِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ ﴾ مَجَازًا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ وَمَعْنَاهُ : " ذُنُوبَكُمْ " .

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّهُ إذَا قَامَ بِهِ بَعْضُهُمْ سَقَطَ عَنْ الْبَاقِينَ ، كَالْجِهَادِ وَغُسْلِ الْمَوْتَى وَتَكْفِينِهِمْ وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ وَدَفْنِهِمْ ، وَلَوْلَا أَنَّهُ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ لَمَا سَقَطَ عَنْ الْآخَرِينَ بِقِيَامِ بَعْضِهِمْ بِهِ .

(12/127)

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنْ الْمُنْكَرِ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ مِنْ كِتَابِهِ ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ ﴾ وَقَالَ فِيمَا حَكَى عَنْ لُقْمَانَ : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمْ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَك إنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ .

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُد وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ

ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ فَهَذِهِ الْآيُ وَنَظَائِرُهَا مُقْتَضِيَةٌ لِإِيجَابِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَهِيَ عَلَى مَنَازِلَ : أَوَّلُهَا تَغْيِيرُهُ بِالْيَدِ إِذَا أَمْكَنَ ، فَإِنْ لَمْ يُمْكِنْ وَكَانَ فِي نَفْيِهِ خَائِفًا عَلَى نَفْسِهِ إِذَا أَنْكَرَهُ بِيَدِهِ فَعَلَيْهِ إِنْكَارُهُ بِلِسَانِهِ ، فَإِنْ تَعَذَّرَ ذَلِكَ لِمَا وَصَفْنَا فَعَلَيْهِ إِنْكَارُهُ بِقَلْبِهِ .

(13/127)

كَمَا حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ فَارِسٍ قَالَ : حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا شُعْبَةُ قَالَ : أَخْبَرَنِي قَيْسُ بْنُ مُسْلِمٍ قَالَ : سَمِعْت طَارِقَ بْنَ شِهَابٍ قَالَ : قَدَّمَ مَرْوَانُ الْخُطْبَةَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ : خَالَفْت السُّنَّةَ كَانَتْ الْخُطْبَةُ بَعْدَ الصَّلَاةِ ؛ قَالَ : تُرِكَ ذَلِكَ يَا أَبُو فُلَانٍ قَالَ شُعْبَةُ : وَكَانَ لَحَّانًا فَقَامَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ فَقَالَ : أَمَّا هَذَا الْمُتَكَلِّمُ فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ ، قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُنْكِرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيُنْكِرْهُ بِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيُنْكِرْهُ بِقَلْبِهِ وَذَاكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ ﴾ .

وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ الْبَصْرِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ إسْمَاعِيلَ بْنِ رَجَاءٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ، وَعَنْ

قَيْسِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ﴿ مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَاسْتَطَاعَ أَنْ يُغَيِّرَهُ بِيَدِهِ فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَاكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ ﴾ .

(14/127)

فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ إِنْكَارَ الْمُنْكَرِ عَلَى هَذِهِ الْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ عَلَى حَسَبِ الْإِمْكَانِ، وَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ تَغْيِيرَهُ بِيَدِهِ فَعَلَيْهِ تَغْيِيرُهُ بِلِسَانِهِ، ثُمَّ إِذَا لَمْ يُمْكِنْهُ ذَلِكَ فَلَيْسَ عَلَيْهِ أَكْثَرُ مِنْ إِنْكَارِهِ بِقَلْبِهِ.

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَرِيرٍ الْبَجَلِيِّ عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ﴿ مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ بَيْنَهُمْ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَكْثَرُ، وَأَعَزُّ مِمَّنْ يَعْمَلُهُ ثُمَّ لَمْ يُغَيِّرُوا إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ ﴾ .

(15/127)

وحَدَّثنا مُحمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قال : حدَّثَنا أَبو داوُد قال : حدّثنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحمَّدٍ النُّفَيْليُّ قال : حدَّثَنا يُونس بْنُ راشدٍ عَنْ عَليّ بْن بَذيمَة عَنْ أَبي عُبَيْدَة عَنْ عَبْد اللهِ بْن مَسْعُودٍ قال : قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ : ﴿ إنَّ أَوَّلَ ما دخلَ النَّقْصُ على بَني إسْرَائيل كان الرَّجُلُ يَلْقى الرَّجُل فيقول يا هذا اتّقِ اللَّهَ ودَعْ ما تَصْنَعُ فإِنَّهُ لا يَحِلّ لك ، ثُمَّ يَلْقاهُ مِنْ الغَدِ فلا يَمْنَعُهُ ذلك أَنْ يكونَ أَكِيلَهُ وشَرِيبَهُ وقَعِيدَهُ فلمَّا فعَلُوا ذلِكَ ضَربَ اللَّهُ تَعالى قُلُوبَ بَعْضِهِمْ ببعْضٍ ثمّ قال : ﴿ لُعِنَ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ بَني إسْرَائيل عَلى لِسانِ داوُد وعِيسى ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِما عَصَوْا وكانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ إلى قوْلِه : ﴿ فاسِقُونَ ﴾ .

ثُمَّ قال : كلَّا واللَّهِ لتأْمُرُنَّ بالْمَعْرُوفِ وتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ ولتأْخُذُنَّ على يَدَيْ الظَّالِمِ ولتأْطُرُنَّهُ على الْحَقِّ أَطْرًا وتَقْصُرُنَّهُ على الْحقّ قَصْرًا .

﴿ قال أَبو داوُد : حدَّثَنا خلفُ بْنُ هِشامٍ قال : حَدَّثَنا أَبو شِهابٍ الْحَنَّاطُ عَنْ الْعَلاءِ بْن الْمُسَيّب عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة عَنْ سالِمٍ عَنْ أَبي عُبَيْدَة عَنْ ابْن مَسْعُودٍ عَنْ النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ بِنَحْوِهِ ، وزادَ فِيهِ : ﴿ أَوْ ليَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ على بَعْضٍ ليَلْعَنَنَّكُمْ كما لَعَنَهُمْ ﴾ .

فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ مِنْ شَرْطِ

النَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ أَنْ يُنْكِرَهُ ثُمَّ لَا يُجَالِسَ الْمُقِيمَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، وَلَا يُؤَاكِلَهُ، وَلَا يُشَارِبَهُ.

وَكَانَ مَا ذَكَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ذَلِكَ بَيَانًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فَكَانُوا بِمُؤَاكَلَتِهِمْ إِيَّاهُمْ وَمُجَالَسَتِهِمْ لَهُمْ تَارِكِينَ لِلنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ مَعَ مَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ إنْكَارِهِ بِلِسَانِهِ إلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَنْفَعْهُ مَعَ مُجَالَسَتِهِ وَمُؤَاكَلَتِهِ وَمُشَارَبَتِهِ إيَّاهُ.

، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ أَيْضًا مَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ: حَدَّثَنَا وَهْبُ بْنُ بَقِيَّةَ قَالَ: أَخْبَرَنَا خَالِدٌ عَنْ إسْمَاعِيلَ عَنْ قَيْسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ وَتَضَعُونَهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا: ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ وَإِنَّا سَمِعْنَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ﴿ إنَّ النَّاسَ إذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ بِعِقَابٍ ﴾ .

وحدّثنا مُحمّدُ بْنُ بكرٍ قال: حدّثَنَا أبو داود قال: حدّثَنَا أبو الرّبيع سُلَيْمانُ بْنُ داوُد العَتَكِيُّ قَالَ: حدّثنا ابْنُ الْمُبارك عن عُتبَة بْن أبي حكيم قال: حدّثني عَمْرُو بْنُ جارية اللَّخمِيُّ قَالَ: حدّثني أبو أُمَيّة الشّعْبانِيُّ قَالَ: سألت أبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ فَقُلْت: ﴿يا أبا ثَعْلَبَةَ كَيْفَ تَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَة: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ فَقَال: أمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سألت عَنْهَا خَبِيرًا، سألت عَنْهَا رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ حَتَّى إذَا رَأَيت شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْك يَعْنِي بِنَفْسِك وَدَعْ عَنْك الْعَوَامَّ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ الصَّبْرُ فِيهِ كَقَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ.

قَالَ: وَزَادَنِي غَيْرُهُ: قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ ؟ قَالَ: أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ.

﴿ وَفِي هَذِهِ الْأَخْبَارِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنْ الْمُنْكَرِ لَهُمَا حَالَانِ: حَالٌ يُمْكِنُ فِيهَا تَغْيِيرُ الْمُنْكَرِ

(18/127)

وَإِزَالَتُهُ، فَفَرْضٌ عَلَى مَنْ أَمْكَنَهُ إزَالَةُ ذَلِكَ بِيَدِهِ أَنْ يُزِيلَهُ؛ وَإِزَالَتُهُ بِالْيَدِ تَكُونُ عَلَى وُجُوهٍ: مِنْهَا أَنْ لَا يُمْكِنَهُ إزَالَتُهُ إلَّا بِالسَّيْفِ، وَأَنْ يَأْتِيَ عَلَى نَفْسِ فَاعِلِ الْمُنْكَرِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ.

كَمَنْ رَأَى رَجُلًا قَصَدَهُ أَوْ قَصَدَ غَيْرَهُ بِقَتْلِهِ أَوْ بِأَخْذِ مَالٍ أَوْ قَصَدَ الزِّنَا بِامْرَأَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَنْتَهِي إنْ أَنْكَرَهُ بِالْقَوْلِ أَوْ قَاتَلَهُ بِمَا دُونَ السِّلَاحِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَقْتُلَهُ؛ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ مَنْ رَأَى مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ﴾، فَإِذَا لَمْ يُمْكِنْهُ تَغْيِيرُهُ بِيَدِهِ إلَّا بِقَتْلِ الْمُقِيمِ عَلَى هَذَا الْمُنْكَرِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَقْتُلَهُ فَرْضًا عَلَيْهِ.

وَإِنْ غَلَبَ فِي ظَنِّهِ أَنَّهُ إنْ أَنْكَرَهُ بِيَدِهِ وَدَفَعَهُ عَنْهُ بِغَيْرِ سِلَاحٍ انْتَهَى عَنْهُ لَمْ يَجُزْ لَهُ الْإِقْدَامُ عَلَى قَتْلِهِ، وَإِنْ غَلَبَ فِي ظَنِّهِ أَنَّهُ إنْ أَنْكَرَهُ بِالدَّفْعِ بِيَدِهِ أَوْ بِالْقَوْلِ امْتَنَعَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يُمْكِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ دَفْعُهُ عَنْهُ، وَلَمْ يُمْكِنْهُ إزَالَةُ هَذَا الْمُنْكَرِ إلَّا بِأَنْ يُقْدِمَ عَلَيْهِ بِالْقَتْلِ مِنْ غَيْرِ إنْذَارٍ مِنْهُ لَهُ فَعَلَيْهِ أَنْ يَقْتُلَهُ.

(19/127)

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ رُسْتُمَ عَنْ مُحَمَّدٍ فِي رَجُلٍ غَصَبَ مَتَاعَ رَجُلٍ: " وَسِعَك قَتْلُهُ حَتَّى تَسْتَنْقِذَ الْمَتَاعَ وَتَرُدَّهُ إلَى صَاحِبِهِ " وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ فِي السَّارِقِ إذَا أَخَذَ الْمَتَاعَ: " وَسِعَك أَنْ تَتْبَعَهُ حَتَّى تَقْتُلَهُ إنْ لَمْ يَرُدَّ الْمَتَاعَ ".

قَالَ مُحَمَّدٌ: وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ فِي اللِّصِّ الَّذِي يَنْقُبُ الْبُيُوتَ: " يَسَعُك قَتْلُهُ " وَقَالَ فِي رَجُلٍ يُرِيدُ قَلْعَ سِنِّك، قَالَ فَلَك أَنْ تَقْتُلَهُ إذَا كُنْت فِي مَوْضِعٍ لَا يُعِينُك النَّاسُ عَلَيْهِ " وَهَذَا الَّذِي

ذَكَرْنَاهُ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ فَأَمَرَ بِقِتَالِهِمْ. وَلَمْ يَرْفَعْهُ عَنْهُمْ إِلَّا بَعْدَ الْفَيْءِ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَرْكِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ الْبَغْيِ وَالْمُنْكَرِ.

وَقَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ﴾ يُوجِبُ ذَلِكَ أَيْضًا؛ لِأَنَّهُ قَدْ أَمَرَ بِتَغْيِيرِهِ بِيَدِهِ عَلَى أَيِّ وَجْهٍ أَمْكَنَ ذَلِكَ، فَإِذَا لَمْ يُمْكِنْهُ تَغْيِيرُهُ إِلَّا بِالْقَتْلِ فَعَلَيْهِ قَتْلُهُ حَتَّى يُزِيلَهُ.

وَكَذَلِكَ قُلْنَا فِي أَصْحَابِ الضَّرَائِبِ وَالْمُكُوسِ الَّتِي يَأْخُذُونَهَا مِنْ أَمْتِعَةِ النَّاسِ: إنَّ دِمَاءَهُمْ مُبَاحَةٌ وَوَاجِبٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ قَتْلُهُمْ.

(20/127)

وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ النَّاسِ أَنْ يَقْتُلَ مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ مِنْ غَيْرِ إنْذَارٍ مِنْهُ لَهُ، وَلَا التَّقَدُّمِ إلَيْهِمْ بِالْقَوْلِ؛ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ مِنْ حَالِهِمْ أَنَّهُمْ غَيْرُ قَابِلِينَ إذَا كَانُوا مُقْدِمِينَ عَلَى ذَلِكَ مَعَ الْعِلْمِ بِحَظْرِهِ، وَمَتَى أَنْذَرَهُمْ مَنْ يُرِيدُ الْإِنْكَارَ عَلَيْهِمْ امْتَنَعُوا مِنْهُ حَتَّى لَا يُمْكِنَ تَغْيِيرُ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ الْمُنْكَرِ، فَجَائِزٌ قَتْلُ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُقِيمًا عَلَى ذَلِكَ، وَجَائِزٌ مَعَ ذَلِكَ تَرْكُهُمْ لِمَنْ خَافَ إنْ أَقْدَمَ عَلَيْهِمْ بِالْقَتْلِ أَنْ يُقْتَلَ؛ إلَّا أَنَّ عَلَيْهِ اجْتِنَابَهُمْ وَالْغِلْظَةَ عَلَيْهِمْ بِمَا أَمْكَنَ وَهِجْرَانَهُمْ.

وَكَذَلِكَ حُكْمُ سَائِرِ مَنْ كَانَ مُقِيمًا عَلَى شَيْءٍ مِنْ الْمَعَاصِي الْمُوبِقَاتِ مُصِرًّا عَلَيْهَا مُجَاهِرًا

بِهَا فَحُكْمُهُ حُكْمُ مَنْ ذَكَرْنَا فِي وُجُوبِ النَّكِيرِ عَلَيْهِمْ بِمَا أَمْكَنَ وَتَغْيِيرِ مَا هُمْ عَلَيْهِ بِيَدِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيُنْكِرْهُ بِلِسَانِهِ ، وَذَلِكَ إذَا رَجَا أَنَّهُ إنْ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ بِالْقَوْلِ أَنْ يَزُولُوا عَنْهُ وَيَتْرُكُوهُ ، فَإِنْ لَمْ يَرْجُ ذَلِكَ ، وَقَدْ غَلَبَ فِي ظَنِّهِ أَنَّهُمْ غَيْرُ قَابِلِينَ مِنْهُ مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُ مُنْكِرٌ عَلَيْهِمْ وَسِعَهُ السُّكُوتُ عَنْهُمْ بَعْدَ أَنْ يُجَانِبَهُمْ وَيُظْهِرَ هِجْرَانَهُمْ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ فَلْيُغَيِّرْهُ بِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيُغَيِّرْهُ بِقَلْبِهِ ﴾ .

(21/127)

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ﴾ قَدْ فُهِمَ مِنْهُ أَنَّهُمْ إذَا لَمْ يَزُولُوا عَنْ الْمُنْكَرِ فَعَلَيْهِ إنْكَارُهُ بِقَلْبِهِ سَوَاءٌ كَانَ فِي تَقِيَّةٍ أَوْ لَمْ يَكُنْ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ : " إنْ لَمْ يَسْتَطِعْ " مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُهُ إزَالَتُهُ بِالْقَوْلِ فَأَبَاحَ لَهُ السُّكُوتَ فِي هَذِهِ الْحَالِ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ : مُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنْكَرِ مَا قُبِلَ مِنْك ، فَإِذَا لَمْ يُقْبَلْ مِنْك فَعَلَيْك نَفْسُك .

وَحَدِيثُ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ أَيْضًا الَّذِي قَدَّمْنَاهُ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ حَتَّى إذَا رَأَيْت شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى

مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ نَفْسَكَ وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ ﴾ يَعْنِي وَاَللَّهُ أَعْلَمُ : إذَا لَمْ يَقْبَلُوا ذَلِكَ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَآرَاءَهُمْ فَأَنْتَ فِي سَعَةٍ مِنْ تَرْكِهِمْ وَعَلَيْك نَفْسَك وَدَعْ أَمْرَ الْعَوَامِّ ، وَأَبَاحَ تَرْكَ النَّكِيرِ بِالْقَوْلِ فِيمَنْ هَذِهِ حَالُهُ .

(22/127)

وَرُوِيَ عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ لَهُ : قَدْ أَعْيَانِي أَنْ أَعْلَمَ مَا فُعِلَ بِمَنْ أَمْسَكَ عَنْ الْوَعْظِ مِنْ أَصْحَابِ السَّبْتِ ، فَقُلْت لَهُ : أَنَا أُعَرِّفُك ذَلِكَ ، اقْرَأْ الْآيَةَ الثَّانِيَةَ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنْ السُّوءِ ﴾ قَالَ : فَقَالَ لِي : أَصَبْت وَكَسَانِي حُلَّةً .

فَاسْتَدَلَّ ابْنُ عَبَّاسٍ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَهْلَكَ مَنْ عَمِلَ السُّوءَ وَمَنْ لَمْ يَنْهَهُ عَنْهُ ، فَجَعَلَ الْمُمْسِكِينَ عَنْ إنْكَارِ الْمُنْكَرِ بِمَنْزِلَةِ فَاعِلِيهِ فِي الْعَذَابِ .

وَهَذَا عِنْدَنَا عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا رَاضِينَ بِأَعْمَالِهِمْ غَيْرَ مُنْكِرِينَ لَهَا بِقُلُوبِهِمْ ، وَقَدْ نَسَبَ اللَّهُ تَعَالَى قَتْلَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ إلَى مَنْ كَانَ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا مُتَوَالِينَ لِأَسْلَافِهِمْ الْقَاتِلِينَ لِأَنْبِيَائِهِمْ ، بِقَوْلِهِ : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِاَلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَا قَتَلْتُمُوهُمْ ﴾ وَبِقَوْلِهِ : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فَأَضَافَ الْقَتْلَ إلَيْهِمْ وَإِنْ لَمْ يُبَاشِرُوهُ ، وَلَمْ يَقْتُلُوهُ ؛ إذْ كَانُوا رَاضِينَ بِأَفْعَالِ الْقَاتِلِينَ ؛ فَكَذَلِكَ

أُلْحِقَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ لَمْ يَنْهَ عَنْ السُّوءِ مِنْ أَصْحَابِ السَّبْتِ بِفَاعِلِيهِ ؛ إذْ كَانُوا بِهِ رَاضِينَ وَلَهُمْ عَلَيْهِ مُتَوَالِينَ .

(23/127)

فَإِذَا كَانَ مُنْكَرًا لِلْمُنْكَرِ بِقَلْبِهِ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَهُ عَلَى غَيْرِهِ فَهُوَ غَيْرُ دَاخِلٍ فِي وَعِيدِ فَاعِلِيهِ ، بَلْ هُوَ مِمَّنْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ وَحَدَّثَنَا مُكْرَمُ بْنُ أَحْمَدَ الْقَاضِي قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَطِيَّةَ الْكُوفِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحِمَّانِيُّ قَالَ : سَمِعْت ابْنَ الْمُبَارَكِ يَقُولُ : لَمَّا بَلَغَ أَبَا حَنِيفَةَ قَتْلُ إبْرَاهِيمَ الصَّائِغِ بَكَى حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيَمُوتُ ، فَخَلَوْت بِهِ فَقَالَ : كَانَ وَاَللَّهِ رَجُلًا عَاقِلًا ، وَلَقَدْ كُنْت أَخَافُ عَلَيْهِ هَذَا الْأَمْرَ ؛ قُلْت : وَكَيْفَ كَانَ سَبَبُهُ ؟ قَالَ : كَانَ يَقْدُمُ وَيَسْأَلُنِي ، وَكَانَ شَدِيدَ الْبَذْلِ لِنَفْسِهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَكَانَ شَدِيدَ الْوَرَعِ ، كُنْت رُبَّمَا قَدَّمْت إلَيْهِ الشَّيْءَ فَيَسْأَلُنِي عَنْهُ ، وَلَا يَرْضَاهُ ، وَلَا يَذُوقُهُ وَرُبَّمَا رَضِيَهُ فَأَكَلَهُ ، فَسَأَلَنِي عَنْ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ ، إلَى أَنْ اتَّفَقْنَا عَلَى أَنَّهُ فَرِيضَةٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى فَقَالَ لِي : مُدَّ يَدَك حَتَّى أُبَايِعَك فَأَظْلَمَتْ الدُّنْيَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ ؛ فَقُلْت : وَلِمَ ؟ قَالَ : دَعَانِي إلَى حَقٍّ مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ فَامْتَنَعْت عَلَيْهِ وَقُلْت لَهُ إنْ قَامَ

بِهِ رَجُلٌ وَحْدَهُ قُتِلَ ، وَلَمْ يَصْلُحْ لِلنَّاسِ أَمْرٌ ، وَلَكِنْ إِنْ وَجَدَ عَلَيْهِ أَعْوَانًا صَالِحِينَ وَرَجُلًا يَرْأَسُ عَلَيْهِمْ مَأْمُونًا عَلَى دِيْنِ اللَّهِ لَا يَحُولُ .

(24/127)

قَالَ : وَكَانَ يَقْتَضِي ذَلِكَ كُلَّمَا قَدِمَ عَلَى تَقَاضِي الْغَرِيمِ الْمُلِحِّ كُلَّمَا قَدِمَ عَلَيَّ تَقَاضَانِي ، فَأَقُولُ لَهُ : هَذَا أَمْرٌ لَا يَصْلُحُ بِوَاحِدٍ مَا أَطَاقَتْهُ الْأَنْبِيَاءُ حَتَّى عَقَدَتْ عَلَيْهِ مِنْ السَّمَاءِ ، وَهَذِهِ فَرِيضَةٌ لَيْسَتْ كَسَائِرِ الْفَرَائِضِ ؛ لِأَنَّ سَائِرَ الْفَرَائِضِ يَقُومُ بِهَا الرَّجُلُ وَحْدَهُ وَهَذَا مَتَى أُمِرَ بِهِ الرَّجُلُ وَحْدَهُ أَشَاطَ بِدَمِهِ وَعَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْقَتْلِ فَأَخَافُ عَلَيْهِ أَنْ يُعِينَ عَلَى قَتْلِ نَفْسِهِ .
وَإِذَا قُتِلَ الرَّجُلُ لَمْ يَجْتَرِئْ غَيْرُهُ أَنْ يُعَرِّضَ نَفْسَهُ وَلَكِنَّهُ يَنْتَظِرُ فَقَدْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ :
﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى مَرْوَ حَيْثُ كَانَ أَبُو مُسْلِمٍ ، فَكَلَّمَهُ بِكَلَامٍ غَلِيظٍ فَأَخَذَهُ ، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ فُقَهَاءُ أَهْلِ خُرَاسَانَ وَعِبَادُهُمْ حَتَّى أَطْلَقُوهُ ، ثُمَّ عَاوَدَهُ فَزَجَرَهُ ، ثُمَّ عَاوَدَهُ ثُمَّ قَالَ : مَا أَجِدُ شَيْئًا أَقُومُ بِهِ لِلَّهِ تَعَالَى أَفْضَلَ مِنْ جِهَادِكَ وَلَأُجَاهِدَنَّكَ بِلِسَانِي لَيْسَ لِي قُوَّةٌ بِيَدِي ، وَلَكِنْ يَرَانِي اللَّهُ ، وَأَنَا أُبْغِضُكَ فِيهِ فَقَتَلَهُ .

(25/127)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَمَّا ثَبَتَ بِمَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ مِنْ الْقُرْآنِ وَالْآثَارِ الْوَارِدَةِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وُجُوبُ فَرْضِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ ، وَبَيَّنَّا أَنَّهُ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ إذَا قَامَ بِهِ الْبَعْضُ سَقَطَ عَنْ الْبَاقِينَ ، وَجَبَ أَنْ لَا يَخْتَلِفَ فِي لُزُومِ فَرْضِهِ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ؛ لِأَنَّ تَرْكَ الْإِنْسَانِ لِبَعْضِ الْفُرُوضِ لَا يُسْقِطُ عَنْهُ فُرُوضَ غَيْرِهِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ تَرْكَهُ لِلصَّلَاةِ لَا يُسْقِطُ عَنْهُ فَرْضَ الصَّوْمِ وَسَائِرَ الْعِبَادَاتِ ؟ فَكَذَلِكَ مَنْ لَمْ يَفْعَلْ سَائِرَ الْمَعْرُوفِ ، وَلَمْ يَنْتَهِ عَنْ سَائِرِ الْمَنَاكِيرِ فَإِنَّ فَرْضَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ غَيْرُ سَاقِطٍ عَنْهُ .

(26/127)

وَقَدْ رَوَى طَلْحَةُ بْنُ عَمْرٍو عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : ﴿ اجْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْت إنْ عَمِلْنَا بِالْمَعْرُوفِ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْ الْمَعْرُوفِ شَيْءٌ إلَّا عَمِلْنَاهُ وَانْتَهَيْنَا عَنْ الْمُنْكَرِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ مِنْ الْمُنْكَرِ إلَّا انْتَهَيْنَا عَنْهُ ، أَيَسَعُنَا أَنْ لَا نَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلَا نَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ ؟ قَالَ : مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهِ كُلِّهِ ، وَانْهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَإِنْ لَمْ تَنْتَهُوا عَنْهُ كُلِّهِ ﴾ ، فَأَجْرَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرْضَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ مَجْرَى سَائِرِ الْفُرُوضِ فِي

لُزُومِ الْقِيَامِ بِهِ مَعَ التَّقْصِيرِ فِي بَعْضِ الْوَاجِبَاتِ .

وَلَمْ يَدْفَعْ أَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ وَفُقَهَائِهَا سَلَفِهِمْ وَخَلَفِهِمْ وُجُوبَ ذَلِكَ إِلَّا قَوْمٌ مِنَ الْحَشْوِ وَجُهَّالِ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ ، فَإِنَّهُمْ أَنْكَرُوا قِتَالَ الْفِئَةِ الْبَاغِيَةِ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ بِالسِّلَاحِ ، وَسَمَّوُا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فِتْنَةً إِذَا احْتِيجَ فِيهِ إِلَى حَمْلِ السِّلَاحِ وَقِتَالِ الْفِئَةِ الْبَاغِيَةِ ، مَعَ مَا قَدْ سَمِعُوا فِيهِ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ وَمَا يَقْتَضِيهِ اللَّفْظُ مِنْ وُجُوبِ قِتَالِهَا بِالسَّيْفِ وَغَيْرِهِ .

(27/127)

وَزَعَمُوا مَعَ ذَلِكَ أَنَّ السُّلْطَانَ لَا يُنْكَرُ عَلَيْهِ الظُّلْمُ وَالْجَوْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ وَإِنَّمَا يُنْكَرُ عَلَى غَيْرِ السُّلْطَانِ بِالْقَوْلِ أَوْ بِالْيَدِ بِغَيْرِ سِلَاحٍ ، فَصَارُوا شَرًّا عَلَى الْأُمَّةِ مِنْ أَعْدَائِهَا الْمُخَالِفِينَ لَهَا ؛ لِأَنَّهُمْ أَقْعَدُوا النَّاسَ عَنْ قِتَالِ الْفِئَةِ الْبَاغِيَةِ وَعَنْ الْإِنْكَارِ عَلَى السُّلْطَانِ الظُّلْمَ وَالْجَوْرَ .

حَتَّى أَدَّى ذَلِكَ إِلَى تَغَلُّبِ الْفُجَّارِ بَلْ الْمَجُوسِ ، وَأَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ حَتَّى ذَهَبَتْ الثُّغُورُ وَشَاعَ الظُّلْمُ وَخَرِبَتْ الْبِلَادُ وَذَهَبَ الدِّينُ وَالدُّنْيَا وَظَهَرَتْ الزَّنْدَقَةُ وَالْغُلُوُّ وَمَذَاهِبُ الثَّنَوِيَّةِ وَالْخُرَّمِيَّةِ وَالْمَزْدَكِيَّةِ وَالَّذِي جَلَبَ ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَيْهِمْ تَرْكُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ

وَالْإِنْكَارِ عَلَى السُّلْطَانِ الْجَائِرِ ؛ وَاَللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

وَقَدْ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ الْوَاسِطِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ قَالَ : أَخْبَرَنَا إسْرَائِيلُ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جُحَادَةَ عَنْ عَطِيَّةَ الْعَوْفِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ أَوْ أَمِيرٍ جَائِرٍ ﴾ .

(28/127)

وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ قَالَ : أَخْبَرَنِي أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ مُصْعَبٍ الْمَرْوَزِيّ قَالَ : سَمِعْت أَبَا عُمَارَةَ قَالَ : سَمِعْت الْحَسَنَ بْنَ رَشِيدٍ يَقُولُ : سَمِعْت أَبَا حَنِيفَةَ يَقُولُ : أَتَاَ حَدَّثْت إبْرَاهِيمَ الصَّائِغَ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَرَجُلٌ قَامَ إلَى إمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص جـ 2 صـ 315 . 321 ﴾ .

(29/127)

ومن فوائد العلامة الزمخشري في الآيات

قال رحمه الله :

﴿ كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلاَّ ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ ﴾

كُلُّ الطَّعامِ كل المطعومات أو كل أنواع الطعام . والحل مصدر . يقال : حل الشيء حلا كقولك : ذلت الدابة ذلا ، وعزّ الرجل عزاً ، وفي حديث عائشة رضى اللَّه عنها : كنت أطيبه لحله وحرمه «1» ولذلك استوى في الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع .

قال اللَّه تعالى :

لا هنّ حلٌّ لهم . والذي حرم إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام على نفسه لحوم الإبل وألبانها وقيل العروق . كان به عرق النسا ، فنذر إن شفى أن يحرّم على نفسه أحب الطعام إليه ، وكان ذلك أحبه إليه فحرّمه . وقيل : أشارت عليه الأطباء باجتنابه ، ففعل ذلك بإذن من اللَّه ، فهو كتحريم اللَّه ابتداء والمعنى أن المطاعم كلها لم تزل حلالا لبنى إسرائيل من قبل إنزال التوراة وتحريم ما حرم عليهم منها لظلمهم وبغيهم لم يحرم منها شيء قبل ذلك غير المطعوم الواحد الذي حرمه أبوهم إسرائيل على نفسه فتبعوه على تحريمه ، وهو رد على اليهود وتكذيب لهم ، حيث أرادوا براءة ساحتهم مما نعى عليهم في قوله تعالى : (فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ) إلى قوله تعالى (عَذاباً أَلِيماً) وفي قوله :

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ إلى قوله : ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ وجحود ما غاظهم واشمأزوا منه وامتعضوا «2» مما نطق به القرآن من تحريم الطيبات عليهم لبغيهم وظلمهم ، فقالوا : لسنا بأوّل من حرّمت عليه ، وما هو إلا تحريم قديم ، كانت محرّمة على نوح وعلى إبراهيم ومن بعده من بنى إسرائيل وهلم جرا ، إلى أن انتهى التحريم إلينا ، فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا . وغرضهم تكذيب شهادة اللَّه عليهم بالبغي والظلم والصدّ عن سبيل اللَّه وأكل الربا وأخذ أموال الناس بالباطل ،

---

(1) . متفق عليه من حديثها . [. . . . .]

(2) . قوله «واشمأزوا منه وامتعضوا» أى غضبوا منه وشق عليهم ، أفاده الصحاح .

(ع)

وما عدّد من مساويهم التي كلما ارتكبوا منها كبيرة حُرم عليهم نوع من الطيبات عقوبة لهم ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا﴾ أمر بأن يحاجهم بكتابهم ويبكتهم مما هو ناطق به من أن تحريم ما حرّم عليهم تحريم حادث بسبب ظلمهم وبغيهم ، لا تحريم قديم كما يدعونه ، فروى أنهم لم

يجسروا على إخراج التوراة وبهتوا وانقلبوا صاغرين، وفي ذلك الحجة البينة على صدق النبي صلى اللَّه عليه وسلم، وعلى جواز النسخ الذي ينكرونه فَمَنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ

بزعمه أن ذلك كان محرما على بنى إسرائيل قبل إنزال التوراة من بعد ما لزمهم من الحجة القاطعة فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

المكابرون الذين لا ينصفون من أنفسهم ولا يلتفتون إلى البينات.

[سورة آل عمران (3) : آية 95]

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (95)

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ تعريض بكذبهم كقوله: (ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصادِقُونَ) أى ثبت أن اللَّه صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وهي ملة الإسلام التي عليها محمد ومن آمن معه، حتى تتخلصوا من اليهودية التي ورطتكم في فساد دينكم ودنياكم، حيث اضطرتكم إلى تحريف كتاب اللَّه لتسوية أغراضكم، وألزمتكم تحريم الطيبات التي أحلها اللَّه لإبراهيم ولمن تبعه.

[سورة آل عمران (3) : الآيات 96 إلى 97]

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ (96) فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ

فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97)

وُضِعَ لِلنَّاسِ صفة لبيت، والواضع هو اللَّه عز وجلّ، تدل عليه قراءة من قرأ (وُضِعَ لِلنَّاسِ) بتسمية الفاعل وهو اللَّه. ومعنى وضع الله بيتا للناس، أنه جعله متعبداً لهم، فكأنه قال:

إن أوّل متعبد للناس الكعبة. وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه سئل عن أوّل مسجد وضع للناس فقال: «المسجد الحرام، ثم بيت المقدس» وسئل كم بينهما؟ قال: «أربعون «1» سنة». وعن علىّ رضى اللَّه عنه أن رجلا قال له: أهو أوّل بيت؟ قال: لا، قد كان قبله بيوت، ولكنه أوّل بيت وضع للناس مباركا فيه الهدى والرحمة والبركة. وأوّل من بناه إبراهيم ثم بناه قوم من

---

(1). متفق عليه من حديث أبى ذر رضى اللَّه عنه قال «سألت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عن أول مسجد وضع للناس قال: المسجد الحرام. قلت: ثم؟ قال: بيت المقدس. قلت: كم بينهما؟ قال أربعون عاما، ثم الأرض لك مسجد فحيث أدركتك الصلاة فصل».

العرب من جرهم ثم هدم فبنته العمالقة ثم هدم فبناه قريش. وعن ابن عباس: هو أوّل بيت حُجَّ بعد الطوفان. وقيل: هو أوّل بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والأرض، خلقه قبل الأرض بألفي عام، وكان زبدة بيضاء على الماء فدحيت الأرض تحته. وقيل: هو أوّل بيت بناه آدم في الأرض. وقيل: لما أهبط آدم قالت له الملائكة: طف حول هذا البيت فلقد طفنا قبلك بألفي عام، وكان في موضعه قبل آدم بيت يقال له الضراح، فرفع في الطوفان إلى السماء الرابعة تطوف به ملائكة السموات لَلَّذِي بِبَكَّةَ البيت الذي ببكة، وهي علم للبلد الحرام: ومكة وبكة لغتان فيه، نحو قولهم: النبيط والنميط، في اسم موضع بالدهناء: ونحوه من الاعتقاب: أمر راتب وراتم. وحمى مغمطة ومغبطة «1». وقيل: مكة: البلد، وبكة: موضع المسجد. وقيل: اشتقاقها من «بكه» إذا زحمه لازدحام الناس فيها. وعن قتادة: يبك الناس بعضهم بعضاً الرجال والنساء، يصلى بعضهم بين يدي بعض، لا يصلح ذلك إلا بمكة كأنها سميت ببكة وهي الزحمة. قال:

إذَا الشَّرِيبُ أَخَذَتْهُ الأَكَّهْ فَخَلِهِ حَتَّي يَبُكَّ بَكَّهْ «2»

وقيل: تبك أعناق الجبابرة أى تدقها. لم يقصدها جبار إلا قصمه اللَّه تعالى مُبارَكاً كثير الخير لما يحصل لمن حجه واعتمره وعكف عنده وطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب، وانتصابه على الحال من المستكن في الظرف، لأن التقدير للذي ببكة هو، والعامل فيه المقدر في الظرف من فعل الاستقرار وَهُدىً لِلْعالَمِينَ لأنه قبلتهم ومتعبدهم مَقامُ إِبْراهِيمَ

عطف بيان لقوله (آياتٌ بَيِّناتٌ) . فإن قلت : كيف صح بيان الجماعة بالواحد «3» ؟ قلت : فيه وجهان : أحدهما أن يجعل وحده بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالته على قدرة اللَّه ونبوة إبراهيم من تأثير قدمه في حجر صلد ، كقوله تعالى : (إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً) والثاني : اشتماله على آيات «4» لأنّ أثر

---

(1) . قوله «وحمي مغمطة ومغبطة» في الصحاح : أغمطت عليه الحمى لغة في أغبطت ، أى دامت اه . (ع)

(2) . يقول إذا أخذت «الأكة» وهي سوء الخلق «الشريب» الذي يشرب معك ، أو الذي يسقى إبله معك ، كأنها ملكته واستولت عليه «فخله» أى اتركه حتى يقتطع من الماء قطعة ، أو حتى يزدحم بإبله على الماء مرة ، من الازدحام . وهذا وصية بمكارم الأخلاق ، والحلم عند الغضب ، والسماحة .

(3) . قال محمود : «إن قلت : كيف صح بيان الجماعة بالواحد . . . الخ» ؟ قال أحمد : ونظير هذا التأويل ما تقدم لي عند قوله تعالى : (وَقالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ) قال محمود فيما تقدم «والذي صدر منهم أمنية واحدة ، فما وجه جمعها» وبينت فيها هذا بعينه ، وهو أن الشيء الواحد متى أريد تمكينه وامتيازه عن غيره من صفة جمع ، أفاد الجمع فيه ذلك ، وقد لاح لي الآن في جمع الأمانى . ثم وجه آخر ، وذلك أن كل واحد منهم صدرت منه هذه الأمنية ، فجمعها بهذا الاعتبار تنبيها على

تعددها بتعددهم ، والعجب أن الجمع في مثل هذا هو الأصل ، وأن الافراد إنما يقع فيه على نوع ما من الاختصار . ومنه : كلوا في بعض بطنكم تصحوا .

(4) . عاد كلامه . قال : الوجه الثاني اشتماله على آيات لأن أثر القدم في الصخرة الصماء آية ، وغوصه فيها إلى الكعبين آية ، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية ، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء آية ، وحفظه مع كثرة عدوه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة ألوف سنة آية ، ويجوز أن يريد مقام إبراهيم وأمن من دخله ، وكثيراً سواهما والله أعلم .

(32/127)

القدم في الصخرة الصماء آية ، وغوصه فيها إلى الكعبين آية ، وغوصه فيها إلى الكعبين آية ، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية ، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية لإبراهيم خاصة ، وحفظه مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة ألوف سنة آية . ويجوز أن يراد : فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، وأمن من دخله ، لأنّ الاثنين نوع من الجمع كالثلاثة والأربعاء . ويجوز أن تذكر هاتان الآيتان ويطوى ذكر غيرهما . دلالة على تكاثر الآيات ، كأنه قيل : فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، وأمن من دخله ، وكثير سواهما .

ونحوه في طيِّ الذكر قول جرير :

كَانَتْ حَنِيفَةُ أَثْلاثاً فَثُلْثُهُمُو مِنَ الْعَبِيدِ وَثُلْثٌ مِنْ مَوَالِيهَا «1»

ومنه قوله عليه السلام «حبب إلىّ من دنياكم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وقرة عيني في الصلاة «2» وقرأ ابن عباس وأبىّ ومجاهد وأبو جعفر المدني في رواية قتيبة : آية بينة ، على التوحيد . وفيها دليل على أنّ مقام إبراهيم واقع وحده عطف بيان . فإن قلت : كيف أجزت أن يكون مقام إبراهيم والأمن عطف بيان للآيات ؟ وقوله : (وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً) جملة مستأنفة إما ابتدائية وإما شرطية ؟ قلت : أجزت ذلك من حيث المعنى ، لأن قوله : (وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً) دلّ على أمن داخله ، فكأنه قيل : فيه آيات بينات : مقام إبراهيم ، وأمن داخله . ألا ترى أنك لو قلت : فيه آية بينة ، من دخله كان آمنا صحّ ، لأنه في معنى قولك : فيه آية بينة ، أمن من دخله . فإن قلت : كيف

---

(1) . لجرير يقول : كانت هذه القبيلة منقسمة أثلاثا ، فثلثها من العبيد الأرقاء ، وثلثها من عتقى القبيلة أو من عتقى العبيد . وعليه فالاضافة على معنى «من» ولم يذكر الثلث الثالث ، لأنه من المعلوم أنه لم يبق إلا السادة الأشراف ، بدليل الحصر في الأثلاث ، والترقي من العبيد إلى العتقى . وهذا يحتمل الذم ، وأن ثلث القبيلة فقط كرام والباقي لئام . ويحتمل المدح وأن خدمهم من العبيد كثير .

(2) . قد تقدم أنه أورده عند قوله تعالى : (وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ) مختصراً . وقد تقدم أن النسائي أخرجه من طريق سيار بن حاتم عن جعفر بن سليمان ومن طريق سلام

بن مسكين ، كلاهما عن ثابت عن أنس .

ومن طريق سيار . رواه أحمد في الزهد والحاكم في المستدرك . ومن طريق سلام أخرجه أحمد وابن أبى شيبة وابن سعد والبزار وأبو يعلى ، وابن عدى في الكامل ، وأعله به ، والعقيلي في الضعفاء كذلك . وقال الدارقطني في علله .

رواه أبو المنذر سلام . وسلام بن أبى الصهباء وجعفر بن سليمان ، فرووه عن ثابت عن أنس ، وخالفهم حماد بن زيد عن ثابت مرسلا . وكذا رواه محمد بن ثابت البصري . والمرسل أشبه بالصواب . وقد رواه عبد اللَّه بن أحمد في زيادات الزهد عن غير أبيه من طريق يوسف بن عطية ، عن ثابت مرسلا أيضا . ويوسف ضعيف . وله طريق أخرى معلولة عند الطبراني في الأوسط عن محمد بن عبد اللَّه الحضرمي عن يحيى بن عثمان الحربي عن الهقل بن زياد عن الأوزاعى عن إسحاق بن عبد اللَّه بن أبى طلحة عن أنس مثله قلت : ليس في شيء من طرقه لفظ «ثلاث» بل أوله عند الجميع «حبب إلى من دنياكم النساء – الحديث» وزيادة «ثلاث» تفسد المعنى . على أن الامام أبا بكر بن فورك شرحه في جزء مفرد بإثباتها ، وكذلك أورده الغزالي في الأحياء واشتهر على الألسنة .

كان سبب هذا الأثر ؟ قلت : فيه قولان : أحدهما أنه لما ارتفع بنيان الكعبة وضعف إبراهيم عن رفع الحجارة قام على هذا الحجر فغاصت فيه قدماه. وقيل : إنه جاء زائرا من الشام إلى مكة فقالت له امرأة إسماعيل : انزل حتى يغسل رأسك ، فلم ينزل ، فجاءته بهذا الحجر فوضعته على شقه الأيمن ، فوضع قدمه عليه حتى غسلت شق رأسه ، ثم حولته إلى شقه الأيسر حتى غسلت الشق الآخر ، فبقى أثر قدميه عليه. ومعنى (وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً) معنى قوله : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام (رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً) وكان الرجل لو جر كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يطلب. وعن عمر رضى اللَّه عنه «لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه» «1» وعند أبى حنيفة : من لزمه القتل في الحل بقصاص أو ردّة أو زنى فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له ، إلا أنه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج. وقيل : آمنا من النار. وعن النبي صلى اللَّه عليه وسلم «من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة «2» آمنا» وعنه عليه الصلاة والسلام «الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينثران في الجنة «3»» وهما مقبرتا مكة والمدينة. وعن ابن مسعود : وقف رسول اللَّه صلى اللَّه تعالى عليه وعلى آله وسلم على ثنية الحجون وليس بها يومئذ مقبرة ، فقال «يبعث اللَّه من هذه البقعة ومن هذا الحرم كله سبعين ألفا وجوههم كالقمر ليلة البدر ، يدخلون الجنة بغير حساب ، يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفا وجوههم كالقمر

ليلة البدر «4»» وعن النبي صلى اللَّه عليه وسلم «من صبر على حرّ مكة ساعة من نهار ، تباعدت منه جهنم مسيرة مائتي «5» عام» (من)

---

(1) . أخرجه عبد الرزاق في كتاب الحج من مصنفه وأبو الوليد الأزرقى في تاريخ مكة من طريقه عن ابن جريج ، سمعت ابن أبى حسين عن عكرمة بن خالد قال قال عمر بهذا وهذا منقطع .

(2) . قال إسحاق : أخبرنا عيسى ابن يونس حدثنا ثور بن يزيد حدثني شيخ عن أنس به . ورواه البيهقي في الشعب من طريق ابن أبى فديك عن سليمان بن يزيد الكعبي عن أنس به وزاد «من زارني محتسباً إلى المدينة كان في جواري يوم القيامة» وأخرجه أبو داود الطيالسي تاما من حديث عمر رضى اللَّه عنه بإسناد فيه ضعف ، وهو مجهول ، وقال عبد الرزاق في مصنفه ، أخبرنا يحيى بن العلاء وغيره ، وغالب بن عبيد اللَّه يرفعه ، فذكره ، ويحيى وغالب ضعيفان جداً وأخرجه الدارقطني من رواية هارون بن أبى قزعة عن رجل من آل حاطب عن حاطب بتمامه ، وهو معلول «ورواه الطبراني في الأوسط والصغير ، من وجهين عن عبد اللَّه بن المؤمل عن أبى الزبير عن جابر دون الزيادة ، وأورده ابن عدى في ترجمة عبد اللَّه بن المؤمل : وأخرجه البيهقي في الشعب والطبراني من حديث عبد الغفور ابن سعيد الأنصارى عن أبى هاشم الرماني عن زاذان عن سلمان قال البيهقي عبد الغفور ضعيف ، وقد روى بإسناد أحسن من هذا ، ثم ذكر طريق عبد اللَّه بن المؤمل

، وقد أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات من طريق عبد الغفور ونقل عن ابن حبان أنه قال : كان يضع الحديث . قلت : وهذا من غلط ابن الجوزي في تصرفه فانه لم يختص بعبد الغفور

(3) . لم أجده .

(4) . لم أجده .

(5) . هكذا ذكره أبو الوليد الأزرقى في تاريخ مكة ، لكن بغير إسناد . وقد أخرجه العقيلي في الضعفاء في ترجمة الحسن بن رشيد عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رفعه «من صبر في حر مكة ساعة باعد اللَّه منه جهنم سبعين خريفاً » ، وقال هذا باطل ، لا أصل له ، والحسن بن رشيد يحدث بالمناكير . وأورده أبو شجاع في الفردوس من حديث أنس ، بلفظ «تباعدت عنه جهنم مسيرة مائة عام وتقربت منه الجنة مائة عام» .

استطاع بدل من الناس . وروى أنّ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فسر الاستطاعة بالزاد والراحلة «1» ، وكذا عن ابن عباس وابن عمر وعليه أكثر العلماء . وعن ابن الزبير : هو على قدر القوّة . ومذهب مالك أن الرجل إذا وثق بقوته لزمه . وعنه : ذلك على قدر الطاقة ، وقد يجد الزاد والراحلة من لا يقدر على السفر ، وقد يقدر عليه من لا زاد له ولا

راحلة ، وعن الضحاك : إذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع . وقيل له في ذلك فقال : إن كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه ؟ بل كان ينطلق إليه ولو حبوا فكذلك يجب عليه الحج . والضمير في إِلَيْهِ للبيت أو للحج . وكل ما أتىّ إلى الشيء فهو سبيل إليه وفي هذا الكلام أنواع من التوكيد والتشديد ومنها قوله : (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ) «2» يعنى أنه حق واجب للّه في رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج من عهدته . ومنها أنه ذكر الناس ثم أبدل عنه من استطاع إليه سبيلا ، وفيه ضربان من التأكيد : أحدهما أن الإبدال تثنية للمراد وتكرير له ، والثاني أن الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال إيراد له في صورتين مختلفتين . ومنها قوله : (وَمَنْ كَفَرَ) مكان ومن لم يحج تغليظا على تارك الحج ولذلك قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا أو نصرانيا» «3» ونحوه من التغليظ «من ترك الصلاة متعمدا

---

(1) . أخرجه الترمذي وابن ماجة ، من حديث عمر ، بلفظ السبيل الزاد والراحلة» فيه ابراهيم بن يزيد الجوزي وهو ضعيف والحاكم من حديث أنس ، وهو معلول . وأخرجه الدارقطني والحاكم من رواية قتادة عن أنس ، لكن قال البيهقي : الصواب عن قتادة عن الحسن مرسلا ، وأخرجه ابن ماجة عن عباس ، وإسناده ضعيف ، والصحيح عنه قوله ، كما أخرجه ابن المنذر . وقال : لا يثبت مرفوعا . وفي الباب عن على وابن مسعود . وعائشة وجابر وعبد اللّه ابن عمر . وأخرجها الدارقطني بأسانيد ضعيفة . [. . . . .]

(2) . قال محمود : «وفي الكلام أنواع من التوكيد منها قوله : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ﴾ أي في رقابهم لا ينفكون عنه . . .

الخ» قال أحمد : قوله «إن المراد بمن كفر من ترك الحج وعبر عنه بالكفر تغليظا عليه» فيه نظر ، فان قاعدة أهل السنة توجب أن تارك الحج لا يكفر بمجرد تركه قولا واحداً ، فيتعين حمل الآية على تارك الحج جاحداً لوجوبه ، وحينئذ يكون الكفر راجعا إلى الاعتقاد لا إلى مجرد الترك . وأما الزمخشري فيستحل ذلك لأن تارك الحج بمجرد الترك يخرج من ربقة الايمان ومن اسمه ومن حكمه ، لأنه عنده غير مؤمن ومخلد تخليد الكفار . وعلى قاعدة السنة يتعين المصير إلى ما ذكرناه ، هذا إن كان المراد بمن كفر من ترك الحج . ويحتمل أن يكون استئناف وعيد للكافر ، فيبقى على ظاهره والله أعلم .

(3) . أخرجه الترمذي من رواية هلال بن عبد الله الباهلي : حدثنا أبو إسحاق عن الحارث عن على رفعه «من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا» وقال : غريب وفي إسناده مقال .

وهلال بن عبد الله مجهول . والحارث يضعف . وأخرجه البزار من هذا الوجه . وقال : لا نعلمه عن على إلا من هذا الوجه وأخرجه ابن عدى والعقيلي في ترجمة هلال ونقلا عن البخاري أنه منكر الحديث . وقال البيهقي في الشعب :

تفرد به هلال . وله شاهد من حديث أبى أمامة ، أخرجه الدرامى بلفظ «من لم يمنعه عن

الحج حاجة ظاهرة أو سلطان جائر أو مرض حابس فمات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانيا» أخرجه من رواية شريك عن ليث ابن أبى سليم عن عبد الرحمن بن سابط عنه. ومن هذا الوجه أخرجه البيهقي في الشعب. وقد أخرجه ابن أبى شيبة عن أبى الأحوص عن ليث عن عبد الرحمن مرسلا، لم يذكر أبا أمامة. وأورده ابن الجوزي في الموضوعات من طريق ابن عدى. وابن عدى أورده في الكامل في ترجمة أبى المهزوم يزيد بن سفيان عن أبى هريرة مرفوعا ونحوه. ونقل عن الفلاس أنه كذب أبا المهزم وهذا من غلط ابن الجوزي في تصرفه. لأن الطريق إلى أبى أمامة ليس فيه من اتهم بالكذب، فضلا عمن كذب.

(35/127)

فقد كفر» «1» ومنها ذكر الاستغناء عنه وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان، ومنها قوله (عَنِ الْعالَمِينَ) وإن لم يقل عنه، وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل فكان أدلّ على عظم السخط الذي وقع عبارة عنه. وعن سعيد بن المسيب نزلت في اليهود، فإنهم قالوا: الحج إلى مكة غير واجب وروى أنه لما نزل قوله تعالى: (وَلِلَّهِ عَلَى

النّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ) جمع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أهل الأديان كلهم «2» فخطبهم فقال، إن اللَّه كتب عليكم الحج فحجوا» فآمنت به ملة واحدة وهم المسلمون وكفرت به خمس ملل قالوا: لا نؤمن به ولا نصلى إليه ولا نحجه، فنزل (وَمَنْ كَفَرَ) وعن النبي صلى اللَّه عليه وسلم «حجوا قبل أن لا تحجوا، فإنه قد هدم البيت مرتين ويرفع في الثالثة» «3» وروى «حجوا قبل أن لا تحجوا، حجوا قبل أن يمنع البر جانبه» «4» وعن ابن مسعود: حجوا هذا البيت قبل أن تنبت

---

(1). أخرجه الدارقطني في العلل. من رواية أبى النضر هاشم بن القاسم عن أبى جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أنس قال: رواه على بن الجعد عن أبى جعفر عن الربيع مرسلا. وهو أشبه بالصواب. ورواه البزار من حديث أبى الدرداء قال «أوصانى ابو القاسم صلى اللَّه عليه وسلم أن لا أشرك باللَّه شيئاً وإن حرقت، ولا أترك صلاة مكتوبة متعمداً. فمن تركها متعمداً فقد كفر، ولا أشرب الخمر، فإنها مفتاح كل شر» أخرجه من رواية راشد الحنانى عن شهر بن حوشب. وقال: راشد بصرى ليس به بأس. وشهر مشهور. والحديث عند الترمذي والنسائي وأحمد وابن حبان والحاكم من حديث بريدة دون قوله «متعمداً» ولفظه «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر» قد تقدم في البقرة حديث جابر عند مسلم «بين العبد والكفر ترك الصلاة» وروى الترمذي من طريق عبد اللَّه بن شقيق قال «كان أصحاب محمد النبي صلى اللَّه عليه وسلم لا يرون

شيئا من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة» وإسناده صحيح . الحاكم من حديث أبى هريرة رضى اللَّه عنه

(2) . أخرجه الطبري من طريق جويبر عن الضحاك قال : «لما نزلت - فذكره» وهو معضل . وجويبر متروك الحديث ساقط

(3) . أخرجه ابن أبى شيبة أخبرنا يزيد بن هارون عن حميد عن بكر بن عبد اللَّه المزني عن عبد اللَّه بن عمر قال «تمتعوا من هذا البيت ، فانه - فذكره موقوفا» وقد روى مرفوعا : أخرجه ابن حبان والحاكم والبزار والطبراني من طريق سفيان بن حبيب عن حميد بهذا .

(4) . لم أره هكذا . والذي في الدارقطني في آخر كتاب الحج من السنن من رواية عبد اللَّه بن عيسى الجندي عن محمد ابن أبى محمد عن أبيه عن أبى هريرة - رفعه «حجوا قبل أن لا تحجوا . قالوا : وما شأن الحج يا رسول اللَّه ، قال : يفعله أعرابها على أذناب أوديتها ، فلا يصل إلى الحج أحد» وعبد اللَّه ومحمد مجهولان ، قاله العقيلي .

في البادية شجرة لا تأكل منها دابة إلا نفقت «1» . وعن عمر رضى اللَّه عنه : لو ترك الناس الحج عاما واحدا ما نوظروا «2» . وقرئ حج البيت بالكسر .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 98 إلى 99]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ (98) قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَداءُ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (99)

وَاللَّهُ شَهِيدٌ الواو للحال . والمعنى : لم تكفرون بآيات اللَّه التي دلتكم على صدق محمد صلى اللَّه عليه وسلم والحال أن اللَّه شهيد على أعمالكم فمجازيكم عليها ، وهذه الحال توجب أن لا تجسروا على الكفر بآياته . قرأ الحسن : تصدّون ، من أصدّه عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ عن دين حق علم أنه سبيل اللَّه التي أمر بسلوكها وهو الإسلام ، وكانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون لصدّهم عنه ، ويمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم . وقيل : أتت اليهود الأوس والخزرج فذكروهم ما كان بينهم في الجاهلية من العداوات والحروب ليعودوا لمثله تَبْغُونَها عِوَجاً تطلبون لها اعوجاجا «3» وميلا عن القصد والاستقامة . فإن قلت : كيف تبغونها عوجا «4» وهو محال ؟ قلت فيه معنيان : أحدهما أنكم تلبسون على الناس حتى توهموهم أنّ فيها عوجا بقولكم : إن شريعة موسى لا تنسخ ، وبتغييركم صفة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عن وجهها ونحو ذلك . والثاني : أنكم تتبعون أنفسكم في إخفاء

الحق وابتغاء ما لا يتأتى لكم من وجود العوج فيما هو أقوم من كل مستقيم وَأَنْتُمْ شُهَداءُ أنها سبيل اللَّه لا يصدّ عنها إلا ضال مضل، أو وأنتم شهداء بين أهل دينكم، عدول يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم في عظائم أمورهم، وهم الأحبار وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ وعيد، ومحل تبغونها نصب على الحال.

[سورة آل عمران (3) : آية 100]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ (100)

---

(1) . لم أجده.

(2) . لم أجده. وفي مصنف عبد الرزاق من رواية سالم بن أبى حفصة عن ابن عباس قال «لو ترك الناس زيارة هذا البيت عاما واحداً ما مطروا» وهو منقطع.

(3) . قال محمود: «أى تطلبون لها اعوجاجا ... الخ» قال أحمد: وفي تقديره الجار مع ضمير المفعول حيث قال: تطلبون لها اعوجاجا، تنقيص من المعنى، وأتم من إعرابه معنى أن تجعل الهاء هي المفعول به وعوجا حال وقع فيها المصدر الذي هو عوجا موقع الاسم. وفي هذا الإعراب من المبالغة أنهم يطلبون أن تكون الطريقة المستقيمة نفس العوج على طريقة المبالغة في مثل رجل صوم، ويكون ذلك أبلغ في ذمهم وتوبيخهم، واللَّه أعلم.

(4) . قوله «فان قلت كيف تبغونها عوجا» لعله : كيف قال تبغونها . أو لعله : كيف يبغونها . (ع)

(37/127)

قيل مرَّ شاس بن قيس اليهودي «1» - وكان عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم - على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون، فغاظه ذلك حيث تألفوا واجتمعوا بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة وقال : ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار، فأمر شابا من اليهود أن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بعاث «2» وينشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار، وكان يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس. ففعل فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا : السلاح السلاح، فبلغ النبي صلى اللَّه عليه وسلم، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال : أتدعون الجاهلية «3» وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم اللَّه بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم. فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوّهم، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فما كان يوم أقبح أوّلا وأحسن آخراً من ذلك اليوم.

[سورة آل عمران (3) : آية 101]

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (101)

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ معنى الاستفهام فيه الإنكار والتعجيب، والمعنى: من أين يتطرق إليكم الكفر والحال أن آيات اللَّه وهي القرآن المعجز تُتْلى عَلَيْكُمْ على لسان الرسول غضة طرية «4» وبين أظهركم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ينبهكم ويعظكم ويزيح شبهكم وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ ومن يتمسك بدينه. ويجوز أن يكون حثا لهم على الالتجاء إليه في دفع شرور الكفار ومكايدهم فَقَدْ هُدِيَ فقد حصل له الهدى لا محالة كما تقول: إذا جئت فلانا فقد أفلحت، كأن الهدى قد حصل فهو يخبر عنه حاصلا. ومعنى التوقع في «قد» ظاهر لأنّ المعتصم

---

(1) . أخرجه الطبري عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه بلفظه وأخرجه ابن إسحاق في المغازي، من طريق الطبري أيضا قال: حدثنا الثقة عن زيد بن أسلم مطولا. وذكره ابن هشام فلم يذكر إسناد إسحاق. وزاد في آخره «وكان يومئذ على الأوس حضير بن سماك والداً سيد، وكان على الخزرج عمرو بن النعمان البياضي، فقتلا جميعا. وأنزل اللَّه في شاس (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ) - الآية وذكره الثعلبي والواحدي في أسبابه عن زيد بن أسلم بغير

إسناد .

(2) . قوله «يوم بعاث» بعاث بالضم يوم وقعة للأوس والخزرج . (ع)

(3) . قوله «فقال أتدعون الجاهلية» في الشهاب على البيضاوي أنه محرف والرواية أبدعوى الجاهلية أى أتأخذون بها (ع)

(4) . قوله «على لسان الرسول غضة طرية» في الصحاح : شيء غض ، أى طرى ، وكل ناضر غض ، نحو الشباب وغيره . وفيه شيء طرى ، أى غض بين الطراوة . (ع)

[.....]

(38/127)

باللَّه متوقع للهدى ، كما أن قاصد الكريم متوقع للفلاح عنده .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 102 إلى 103]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103)

حَقَّ تُقاتِهِ واجب تقواه وما يحق منها ، وهو القيام بالمواجب واجتناب المحارم ، ونحوه (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) يريد : بالغوا في التقوى حتى لا تتركوا من المستطاع منها شيئًا .

وعن عبد اللَّه :

هو أن يطاع فلا يعصى ، ويشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسى «1»» وروى مرفوعا . وقيل :

هو أن لا تأخذه في اللَّه لومة لائم ، ويقوم بالقسط ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه . وقيل : لا يتقى اللَّه عبد حق تقاته حتى يخزن لسانه ، والتقاة من اتقى كالتؤدة من اتأد وَلا تَمُوتُنَّ معناه :

ولا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت ، كما تقول لمن تستعين به على لقاء العدوّ : لا تأتنى إلا وأنت على حصان ، فلا تنهاه عن الإتيان ولكنك تنهاه عن خلاف الحال التي شرطت عليه في وقت الإتيان . قولهم اعتصمت بحبله : يجوز أن يكون تمثيلا لاستظهاره به ووثوقه بحمايته ، بامتساك المتدلى من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه ، وأن يكون الحبل استعارة لعهده والاعتصام لوثوقه بالعهد ، أو ترشيحا لاستعارة الحبل بما يناسبه . والمعنى :

واجتمعوا على استعانتكم باللَّه ووثوقكم به ولا تفرقوا عنه . أو واجتمعوا على التمسك بعهده إلى عباده وهو الإيمان والطاعة أو بكتابه لقول النبي صلى اللَّه عليه وسلم «القرآن

حبل اللَّه المتين لا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الردّ ، من قال به صدق ومن عمل به رشد ، ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم» «2» . وَلا تَفَرَّقُوا ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف

---

(1) . قال المصنف وروى مرفوعا انتهى . فأما الموقوف فأخرجه الحاكم من طريق مسعر عن زيد عن مرة عنه ، وكذلك أخرجه عبد الرزاق ومن طريقه الطبري وابن أبى حاتم والطبراني ، وقال أبو نعيم في ترجمة مسعر من الحلية :

حدثنا سليمان بن أحمد ، وهو الطبراني - فذكره . ثم قال : هكذا رواه الناس عن زيد موقوفا . ورفعه النضر عن محمد بن طلحة عن زيد ثم ساقه مرفوعا . وأخرجه ابن مردويه من طريق ابن وهب عن سفيان الثوري عن زيد مرفوعا أيضا . وله شاهد عن ابن عباس مرفوعا . أخرجه البيهقي في الشعب من رواية ابن جرير عن عطاء عن ابن عباس . لكنه من نسخة عبد الغنى بن سعيد الثقفي عن موسى بن عبد الرحمن الصنعاني . وهي ساقطة .

(2) . أخرجه الترمذي في فضائل القرآن ، من حديث الحارث الأعور عن على رضى اللَّه عنه مطولا . وفيه قصة وقال : غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات . وإسناده مجهول انتهى . وأخرجه ابن أبى شيبة وإسحاق والدارمي والبزار من طريق الحارث . قال البزار : لا نعلمه إلا من طريق على . ولا نعلمه رواه عنه إلا الحارث انتهى . وله شاهد عن معاذ

بن جبل . أخرجه الطبراني من رواية عمرو بن واقد عن يونس بن ميسرة عن ابن إدريس بلفظ «ذكر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم الفتن فشددها . قال علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه : ما المخرج منها ؟

قال : كتاب اللَّه – فذكر الحديث بطوله . ورواه الحاكم من حديث ابن مسعود مرفوعا أيضا «إن هذا القرآن حبل اللَّه والنور المبين ، والشافع ، عصمة لمن تمسك به . . . الحديث» أخرجه من طريق صالح بن عمر عن إبراهيم البحري عن أبي الأحوص عنه . وإبراهيم ضعيف .

(39/127)

بينكم كما اختلفت اليهود والنصارى ، أو كما كنتم متفرقين في الجاهلية متدابرين يعادى بعضكم بعضا ويحاربه ، أو ولا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع والألفة التي أنتم عليها مما يأباه جامعكم والمؤلف بينكم ، وهو اتباع الحق والتمسك بالإسلام . كانوا في الجاهلية بينهم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة ، فألف اللَّه بين قلوبهم بالإسلام .

وقذف فيها المحبة فتحابوا وتوافقوا وصاروا إخْواناً متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد قد نظم بينهم وأزال الاختلاف ، وهو الأخوة في اللَّه : وقيل : هم الأوس والخزرج ،

كانا أخوين لأب وأم، فوقعت بينهما العداوة وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة إلى أن أطفأ اللّه ذلك بالإسلام وألف بينهم برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ وكنتم مشفين «1» على أن تقعوا في نار جهنم لما كنتم عليه من الكفر فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها بالإسلام. والضمير للحفرة أو للنار أو للشفا «2» وإنما أنث لإضافته إلى الحفرة وهو منها كما قال:

كَما شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَناةِ مِنَ الدَّمِ «3»

---

(1). قوله «وكنتم مشفين» أى مشرفين. أفاده الصحاح. (ع)

(2). قال محمود: «الضمير للشفا وهو مذكر وإنما أنثه للاضافة... الخ» قال أحمد: ويجوز عود الضمير إلى الحفرة فلا يحتاج إلى تأويله المذكور، كما تقول: أكرمت غلام هند، وأحسنت إليها. والمعنى على عوده إلى الحفرة أتم، لأنها التي يمتن بالانقاذ منها حقيقة. وأما الامتنان بالانقاذ من الشفا فلا يستلزمه الكون على الشفا غالبا، من الهوى إلى الحفرة، فيكون الانقاذ من الشفا إنقاذاً من الحفرة التي يتوقع الهوى فيها، فاضافة المنة إلى الانقاذ من الحفرة تكون أبلغ وأوقع، مع أن اكتساب التأنيث من المضاف إليه قد عده أبو على في التعاليق من ضرورة الشعر.

خلاف رأيه في الإيضاح. نقله ابن يسعون. وما حمل الزمخشري على إعادة الضمير إلى الشفا إلا أنه هو الذي كانوا عليه، ولم يكونوا في الحفرة حتى يمتن عليهم بالانقاذ منها، وقد

بينا في أدراج هذا الكلام ما يسوغ الامتنان عليهم بالانقاذ من الحفرة ، لأنهم كانوا صائرين إليها غالبا لولا الانقاذ الرباني . ألا ترى إلى قوله عليه السلام «المرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه» وإلى قوله تعالى : (أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ) وانظر كيف جعل تعالى كون البنيان على الشفا سببا مؤديا إلى انهياره في نار جهنم ، مع تأكيد ذلك بقوله : (هارٍ) واللَّه أعلم .

(3) فلو كنت في جب ثمانين قامة ورقيت أسباب السماء بسلم

ليستدرجنك القول حتى تهره وتعلم أنى عندكم غير مفحم

وتشرق بالقول الذي قد أذعته كما شرقت صدر القناة من الدم

للأعشى ميمون بن قيس وفيه وجهان : الأول أنه يصف رجلا بإفشاء السر ، وأنه لو تحيل لكتمه لم يقدر ، أى لو بالغت في الكتمان حتى كأنك كنت في بئر عميق . فالعدد كناية عن ذلك ، ثم رقيت من قعره وبلغت أسباب السماء ، أى أبوابها . وقوله «بسلم» مبالغة في التشبيه ، كأنه صعد حقيقة على سلم «ليستدرجنك» بالنون المخففة ، أى ليستنزلنك «القول» من السماء درجة درجة إلى قعر البئر كما كنت ويفسد تحيلك ، فتهره أى تقوله . ودرج الصبى : إذا قارب بين خطاه . ودرج القوم : مات بعضهم إثر بعض . وهر الكلب هريراً إذا صوت . وفيه إشعار بتشبيهه بالكلب النابح . وتعلم ، أى وأجيب أنا عن قولك فتعلم انى غير

عاجز عن الجواب فيما بينكم . وروى «عنكم» بدل «عندكم» وهي هي . ورجع إلى بيان استدراج القول له فقال : وتشرق بالقول الذي قد أذعته ونشرته عنى .

وشرق : إذا غص بريقه أو نحوه . وذاع الخبر ذيعا وذيوعا : انتشر . وأذاعه : نشره . أى لم تقدر على ابتلاعه وكتمانه كما لم يبلغ صدر القناة أى الرمح الدم الذي يكون عليه من القتيل . وشبه القول الذي لم يقدر على كتمانه بالشيء الذي لم يقدر على ابتلاعه ، فاستعار الشرق للعجز عن الكتمان على طريق التصريحية . وشبه الشرق الأول بالثاني ليفيد ضمنا أن قوله كالدم للمبالغة في عدم إمكان الكتمان . الوجه الثاني أن معناه لو كنت متباعداً عنى كأنك في قعر البئر ورقيت منه إلى السماء ليقربنك القول إلى شيئًا فشيئًا حتى تهره ، أى تكرهه وتبغضه ، وتعلم أنى عندكم غير عاجز عن الكلام الذي يقربك إلى ، وتشرق بالقول الذي قد أذعته أنا عنك فالتاء على هذا للمتكلم ، أى لم تقدر على استماعه ودخوله أذنك كما لم تقدر صدر القناة على ابتلاع الدم . وصدر القناة مذكر . ولكن اكتسب التأنيث من المضاف إليه ، فلذلك أنث فعله وقال شرقت ، وقيل القناة هنا مجرى الماء ، وأين هي من الدم .

وشفا الحفرة وشفتها : حرفها ، بالتذكير والتأنيث ، ولامها واو ، إلا أنها في المذكر مقلوبة وفي المؤنث محذوفة ، ونحو الشفا والشفة الجانب والجانبة . فإن قلت : كيف جعلوا على حرف حفرة من النار ؟ قلت : لو ماتوا على ما كانوا عليه وقعوا في النار ، فمثلت حياتهم التي يتوقع بعدها الوقوع في النار بالقعود على حرفها مشفين على الوقوع فيها كَذلِكَ مثل ذلك البيان البليغ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ إرادة أن تزدادوا هدى .

[سورة آل عمران (3) : آية 104]

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104)

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ من للتبعيض «1» ، لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفايات ، ولأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر ، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته وكيف يباشر ، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر ، وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر ، وقد يغلظ في موضع اللين ، ويلين في موضع الغلظة ، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تماديا ، أو على مَن الإنكار عليه عبث ،

---

(1) . قال محمود «من للتبعيض . . . الخ» قال أحمد : وفي هذا التبعيض وتنكير أمة تنبيه على قلة العاملين بذلك ، وأنه لا يخاطب به إلا الخواص . ومن هذا الأسلوب قوله تعالى : (اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ) فإنما وجه الخطاب على نفس منكرة تنبيها على قلة

الناظر في معاده ، وكذلك قوله : ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ واعِيَةٌ﴾

حتى ورد في التفسير أن المراد أذن واحدة مخصوصة وهي أذن على بن أبى طالب رضى اللَّه عنه .

(41/127)

كالإنكار على أصحاب المآصر «1» والجلادين وأضرابهم . وقيل «من» للتبيين ، بمعنى : وكونوا أمّة تأمرون ، كقوله تعالى : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ﴾ . وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ هم الأخصاء بالفلاح دون غيرهم . وعن النبي صلى اللَّه عليه وسلم أنه سئل وهو على المنبر : من خير الناس ؟ قال : آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر ، وأتقاهم للَّه وأوصلهم «2»» . وعنه عليه السلام :

«من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة اللَّه في أرضه ، وخليفة رسوله ، وخليفة كتابه «3»» وعن على رضى اللَّه عنه : أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ومن شنئ الفاسقين وغضب للَّه ، غضب اللَّه له «4» . وعن حذيفة : يأتى على الناس زمان تكون فيهم جيفة الحمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . وعن سفيان الثوري . إذا كان الرجل محببا في جيرانه محموداً عند إخوانه فاعلم أنه

مداهن . والأمر بالمعروف تابع للمأمور به ، إن كان واجبا فواجب ، وإن كان ندبا فندب . وأما النهى عن المنكر فواجب كله ، لأنّ جميع المنكر تركه واجب لاتصافه بالقبح . فإن قلت : ما طريق الوجوب ؟ قلت : قد اختلف فيه الشيخان ، فعند أبى على : السمع والعقل ، وعند أبى هاشم : السمع وحده . فإن قلت : ما شرائط النهى ؟

قلت : أن يعلم الناهي أن ما ينكره قبيح ، لأنه إذا لم يعلم لم يأمن أن ينكر الحسن ، وأن لا يكون ما ينهى عنه واقعا ، لأن الواقع لا يحسن النهى عنه ، وإنما يحسن الذم عليه والنهى عن أمثاله ، وأن لا يغلب على ظنه أن المنهي يزيد في منكراته ، وأن لا يغلب على ظنه أن نهيه لا يؤثر لأنه عبث .

فإن قلت : فما شروط الوجوب ؟ قلت : أن يغلب على ظنه وقوع المعصية نحو أن يرى الشارب

---

(1) . قوله «المآصر» جمع مأصر ، وهو المحبس أى السجن ، أفاده الصحاح. (ع)

(2) . أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبري والبيهقي في الشعب من رواية شريك عن سماك عن عبد اللَّه بن عميرة عن زوج درة بنت أبى لهب قالت «كنت عند عائشة ، فجيء برجل إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم كان ناداه وهو على المنبر فقال : يا رسول اللَّه ، أى الناس خير ؟ فذكره» .

(3) . أخرجه ابن عدى في الكامل في ترجمة كادح بن رحمة من روايته عن ابن لهيعة عن

يزيد بن أبى حبيب عن مسلم بن جابر عن عبادة بن الصامت . وكادح ساقط . وله شاهد مرسل أخرجه على بن معبد في كتاب الطاعة عن بقية عن حسان بن سليمان عن أبى نضرة عن الحسن البصري . ومن هذا الوجه أخرجه الثعلبي .

(4) . أخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة على مطولا ، من رواية خلاس بن عمرو قال : كنا جلوسا عند على ابن أبى طالب رضى اللَّه عنه إذ أتاه رجل من خزاعة فقال : يا أمير المؤمنين هل سمعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ينعت الإسلام ؟ قال : سمعته يقول : بنى الإسلام على أربعة أركان : الصبر واليقين والجهاد والعدل - فذكره - إلى أن قال : والجهاد أربع شعب : الأمر بالمعروف : والنهى عن المنكر . والصدق في مواطن الصبر . وشنآن الفاسقين .

فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن . ومن نهى عن المنكر أرغم أنف الكافر . ومن صدق في مواطن الصبر أحرز دينه . وقضى ما عليه . ومن شنئ الفاسقين فقد غضب للَّه . ومن غضب للَّه غضب اللَّه له» وهو من طريق إسحاق ابن بشر عن مقاتل . وهما ساقطان . قال : ورواية العلاء بن عبد الرحمن عن قبيصة بن جابر عن على رضى اللَّه عنه .

قد تهيأ لشرب الخمر بإعداد آلاته ، وأن لا يغلب على ظنه أنه إن أنكر لحقته مضرة عظيمة . فإن قلت : كيف يباشر الإنكار ؟ قلت : يبتدئ بالسهل ، فإن لم ينفع ترقى إلى الصعب ، لأنّ الغرض كف المنكر . قال اللَّه تعالى : فأصلحوا بينهما ، ثم قال : فقاتلوا ، فإن قلت : فمن يباشره ؟ قلت :

كل مسلم تمكن منه واختص بشرائطه ، وقد أجمعوا أن من رأى غيره تاركا للصلاة وجب عليه الإنكار ، لأنه معلوم قبحه لكل أحد . وأما الإنكار الذي بالقتال ، فالإمام وخلفاؤه أولى لأنهم أعلم بالسياسة ومعهم عدتها . فإن قلت : فمن يُؤمر ويُنهى ؟ قلت : كل مكلف ، وغير المكلف إذا همَّ بضرر غيره مُنع ، كالصبيان والمجانين ، وينهى الصبيان عن المحرمات حتى لا يتعوّدوها ، كما يؤخذون بالصلاة ليمرنوا عليها . فإن قلت : هل يجب على مرتكب المنكر أن ينهى عما يرتكبه قلت : نعم يجب عليه ، لأن ترك ارتكابه وإنكاره واجبان عليه فبتركه أحد الواجبين لا يسقط عنه الواجب الآخر . وعن السلف : مروا بالخير وإن لم تفعلوا . وعن الحسن أنه سمع مطرف بن عبد اللَّه يقول : لا أقول ما لا أفعل ، فقال : وأينا يفعل ما يقول ؟ ودّ الشيطان لو ظفر بهذه منكم فلا يأمر أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر . فإن قلت . كيف قيل (يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ) ؟ قلت : الدعاء إلى الخير «1» عامّ في التكاليف من الأفعال والتروك والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خاص ، فجيء بالعام ثم عطف عليه الخاص إيذانا بفضله ، كقوله : (وَالصَّلاةِ

الْوُسْطى) .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 105 إلى 107]

وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (105) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (107)

---

(1) . (عاد كلامه) قال: «و قوله يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر صدر الكلام بالدعاء . . . الخ» قال أحمد: عطف الخاص على العام يؤذن بمزيد اعتناء بالخاص لا محالة إذا اقتصر على بعض متناولات العام، كقوله: (مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكالَ) وكقوله: (فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ) وكقوله: (حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطى) وشبه ذلك، لأن الاقتصار على تخصيص ما يفرد بالذكر يفيده تمييزاً عن غيره من بقية المتناولات. وأما هذه الآية، فقد ذكر بعد العام فيها جميع ما يتناوله، إذ الخير المدعو إليه إما فعل مأمور أو ترك منهى، لا يعدو واحدا من هذين، حتى يكون تخصيصها يميزها عن بقية المتناولات، فالأولى في ذلك أن يقال: فائدة هذا التخصيص ذكر الدعاء إلى الخير عاما، ثم مفصلا. وفي تنبيه أن الذكر على وجهين ما لا

يخفى من العناية والله أعلم ، إلا أن يثبت عرف يخص الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ببعض أنواع الخير ، فإذ ذاك يتم مراد الزمخشري ، وما أرى هذا العرف ثابتا ، والله أعلم .

(43/127)

كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا وهم اليهود والنصارى مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة وهي كلمة الحق . وقيل : هم مبتدعو هذه الأمة ، وهم المشبهة والمجبرة والحشوية «1» وأشباههم يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ نصب بالظرف وهولهم ، أو بإضمار اذكر ،

وقرئ :

تبيض وتسود ، بكسر حرف المضارعة . وتبياض وتسوادّ ، والبياض من النور ، والسواد من الظلمة ، فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه ، وابيضت صحيفته وأشرقت ، وسعى النور بين يديه وبيمينه . ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكسوفه وكمده ، واسودّت صحيفته وأظلمت ، وأحاطت به الظلمة من كل جانب . نعوذ بالله وبسعة رحمته من ظلمات الباطل وأهله أَكَفَرْتُمْ فيقال لهم : أكفرتم ، والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم .

والظاهر أنهم أهل الكتاب . وكفرهم بعد الإيمان تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم

بعد اعترافهم به قبل مجيئه. وعن عطاء: تبيض وجوه المهاجرين والأنصار وتسودّ وجوه بني قريظة والنضير. وقيل هم المرتدون. وقيل أهل البدع والأهواء، وعن أبى أمامة: هم الخوارج، ولما رآهم على درج دمشق دمعت عيناه ثم قال كلاب النار هؤلاء شر قتلى تحت أديم السماء. وخير قتلى تحت أديم السماء: الذين قتلهم هؤلاء، فقال له أبو غالب: أشىء تقوله برأيك، أم شيء سمعته من رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم. قال: بل سمعته من رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم غير مرة.

قال: فما شأنك دمعت عيناك، قال: رحمة لهم، كانوا من أهل الإسلام فكفروا. ثم قرأ هذه الآية، ثم أخذ بيده فقال: إن بأرضك منهم كثيراً. فأعاذك اللَّه منهم «2». وقيل هم جميع الكفار لإعراضهم عما أوجبه الإقرار حين أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ ففي نعمته وهي الثواب المخلد، فإن قلت: كيف موقع قوله هُمْ فِيها خالِدُونَ بعد قوله: (فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ) ؟ قلت: موقع الاستئناف، كأنه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقيل: هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ولا يموتون.

[سورة آل عمران (3) : الآيات 108 إلى 109]

تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ (108) وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (109)

---

(1) . قوله «وهم المشبهة والمجبرة والحشوية» إن أراد بهم أهل السنة ومن وافقهم كعادته

، فقد أفرط في التعصب للمعتزلة . (ع)

(2) . أخرجه الثعلبي في تفسيره من طريق عكرمة بن عمار عن شداد عن أبى أمامة هكذا . ومن هذا الوجه أخرجه الحاكم . وقد أخرجه الترمذي وابن ماجة ، وعبد الرزاق وأحمد وإسحاق وأبو يعلى والطبراني كلهم من طريق أبى غالب . بتمامه . وله إسناد آخر أخرجه الطبراني من رواية شهر بن حوشب عن أبى أمامة .

(44/127)

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ الواردة في الوعد والوعيد نَتْلُوها عَلَيْكَ ملتبسة بِالْحَقِّ والعدل من جزاء المحسن والمسيء بما يستوجبانه وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً فيأخذ أحداً بغير جرم ، أو يزيد في عقاب مجرم ، أو ثواب محسن . ونكر ظلما وقال لِلْعالَمِينَ على معنى ما يريد شيئًا من الظلم لأحد من خلقه ، فسبحان من يحلم عمن يصفه بإرادة القبائح «1» والرضا بها . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 1 صـ 385 . 400﴾

(45/127)

ومن فوائد صاحب المنار في الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾

قِيلَ : إِنَّ بَيَاضَ الْوُجُوهِ وَسَوَادَهَا هُنَا مِنْ بَابِ الْحَقِيقَةِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَاصَّةً ، وَاحْتَجَّ صَاحِبُ هَذَا الْقَوْلِ بِمِثْلِ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ [39 : 60] وَقِيلَ - وَهُوَ الرَّاجِحُ - إِنَّهُ مِنْ بَابِ الْكِنَايَةِ . قَالَ الرَّاغِبُ فِي مَادَّةِ (بيض) مِنْ مُفْرَدَاتِهِ بَعْدَ ذِكْرِ الْآيَةِ " وَلَمَّا كَانَ الْبَيَاضُ أَفْضَلَ الْأَلْوَانِ عِنْدَهُمْ كَمَا قِيلَ : الْبَيَاضُ أَفْضَلُ وَالسَّوَادُ أَهْوَلُ ، وَالْحُمْرَةُ أَجْمَلُ وَالصُّفْرَةُ أَشْكَلُ : عَبَّرَ عَنِ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ بِالْبَيَاضِ حَتَّى قِيلَ لِمَنْ لَمْ يَتَدَنَّسْ بِمَعَابٍ هُوَ أَبْيَضُ الْوَجْهِ ، وَقَوْلُهُ - تَعَالَى - : يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ فَابْيِضَاضُ الْوُجُوهِ عِبَارَةٌ عَنِ الْمَسَرَّةِ وَاسْوِدَادُهَا عِبَارَةٌ عَنِ الْغَمِّ وَعَلَى ذَلِكَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا [16 : 58] وَعَلَى نَحْوِ الِابْيِضَاضِ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ [80 : 38 ، 39] اهـ .

(46/127)

وَقَالَ فِي مَادَّةِ (سَوَدَ) : " السَّوَادُ : اللَّوْنُ الْمُضَادُّ لِلْبَيَاضِ . يُقَالُ اسْوَدَّ وَاسْوَادَّ . قَالَ : يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَابْيِضَاضُ الْوُجُوهِ عِبَارَةٌ عَنِ الْمَسَرَّةِ وَاسْوِدَادُهَا عِبَارَةٌ عَنِ الْمَسَاءَةِ وَنَحْوُهُ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ [16 : 58] وَحَمَلَ بَعْضُهُمُ الِابْيِضَاضَ وَالِاسْوِدَادَ عَلَى الْمَحْسُوسِ ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى ; لِأَنَّ ذَلِكَ حَاصِلٌ لَهُمْ سُودًا كَانُوا فِي الدُّنْيَا أَوْ بِيضًا ، وَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي الْبَيَاضِ : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ [75 : 22] وَقَوْلُهُ فِي السَّوَادِ : وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ [75 : 24] وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ [80 : 40 ، 41] وَقَالَ : وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا [10 : 27] وَعَلَى هَذَا النَّحْوِ مَا رُوِيَ " أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُحْشَرُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ " اهـ .

وَأَوْرَدَ الرَّازِيُّ فِي تَأْيِيدِ هَذَا الِاسْتِعْمَالِ الشَّائِعِ شِعْرًا لِبَعْضِهِمْ فِي الشَّيْبِ :

يَا بَيَاضَ الْقُرُونِ سَوَّدْتَ وَجْهِي . . . عِنْدَ بِيضِ الْوُجُوهِ سُودِ الْقُرُونِ

فَلَعَمْرِي لَأُخْفِيَنَّكَ جَهْدِي . . . عَنْ عِيَانِي وَعَنْ عِيَانِ الْعُيُونِ

بِسَوَادٍ فِيهِ بَيَاضٌ لِوَجْهِي . . . وَسَوَادٍ لِوَجْهِكَ الْمَلْعُونِ

أَقُولُ: وَلَا يَزَالُ هَذَا الِاسْتِعْمَالُ شَائِعًا عِنْدَ كُلِّ نَاطِقٍ بِالضَّادِ وَلَا سِيَّمَا وَصْفُ الْكَاذِبِ بِسَوَادِ الْوَجْهِ (فَتَعَجَّبُوا لِسَوَادِ وَجْهِ الْكَاذِبِ) هَذَا هُوَ الرَّاجِحُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ وِفَاقًا لِلرَّاغِبِ وَلِأَبِي مُسْلِمٍ، وَالْمُخْتَارُ عِنْدَ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ; إِذْ حَمَلَ الْعَذَابَ فِي الْآيَةِ عَلَى عَذَابِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ جَمِيعًا. وَيَدُلُّ عَلَى مَا يَكُونُ فِي

الْآخِرَةِ الْآيَاتُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا آنِفًا فِي بَحْثِ اسْتِعْمَالِ السَّوَادِ وَالْبَيَاضِ فِي الْمَعَانِي; إِذْ فِيهَا التَّصْرِيحُ بِذِكْرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَأَمَّا مَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا فَقَدْ قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي بَيَانِهِ مَا مِثَالُهُ:

(48/127)

أَمَّا الْمُتَّفِقُونَ الَّذِينَ جَمَعُوا عَزَائِمَهُمْ وَإِرَادَتَهُمْ عَلَى الْعَمَلِ بِمَا فِيهِ مَصْلَحَةُ أُمَّتِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ، وَاعْتَصَمُوا وَاتَّفَقُوا عَلَى الْأَعْمَالِ النَّافِعَةِ الَّتِي فِيهَا عِزَّتُهُمْ وَشَرَفُهُمْ، وَأَصْبَحَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَوْنًا لِلْآخَرِ وَوَلِيًّا لَهُ فَأُولَئِكَ تَبْيَضُّ وُجُوهُهُمْ - أَيْ تَنْبَسِطُ وَتَتَلَأْلَأُ بَهْجَةً وَسُرُورًا - عِنْدَ ظُهُورِ أَثَرِ الِاتِّفَاقِ وَالِاعْتِصَامِ وَنَتَائِجِهِمَا، وَهِيَ السُّلْطَةُ وَالْعِزَّةُ وَالشَّرَفُ وَارْتِفَاعُ الْمَكَانَةِ وَسَعَةُ السُّلْطَانِ. وَهَذَا الْأَثَرُ ظَاهِرٌ فِي الْأُمَمِ الْمُتَّفِقَةِ الْمُتَّحِدَةِ الَّتِي يَتَأَلَّمُ مَجْمُوعُهَا إِذَا أُهِينَ وَاحِدٌ مِنْهَا فِي قُطْرٍ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ بَعِيدٍ أَوْ قَرِيبٍ، وَتُجَيِّشُ جَمِيعُهَا مُطَالِبَةً بِنَصْرِهِ وَالِانْتِقَامِ لَهُ; لِأَنَّهُ ظُلِمَ وَأُهِينَ وَلَا يَصِحُّ عِنْدَهَا أَنْ يَكُونَ مِنْهَا ثُمَّ يُظْلَمُ أَوْ يُهَانُ وَتَكُونُ هِيَ

رَاضِيَةً نَاعِمَةَ الْبَالِ ، أُولَئِكَ الْأَقْوَامُ تَرَى عَلَى وُجُوهِهِمْ لَأْلَاءُ الْعِزَّةِ وَتَأَلُّقُ الْبِشْرِ بِالشَّرَفِ وَالرِّفْعَةِ وَهُوَ مَا يُعَبَّرُ عَنْهُ بِبَيَاضِ الْوَجْهِ ، وَأَمَّا الْمُخْتَلِفُونَ لِافْتِرَاقِهِمْ فِي الْمَقَاصِدِ ، وَتَبَايُنِهِمْ فِي الْمَذَاهِبِ وَالْمَشَارِبِ ، الَّذِينَ لَا يَتَنَاصَرُونَ وَلَا يَتَعَاضَدُونَ وَلَا يَهْتَمُّ أَفْرَادُهُمْ بِالْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ الَّتِي فِيهَا شَرَفُ الْمِلَّةِ وَعِزَّةُ الْأُمَّةِ فَهُمُ الَّذِينَ تَسْوَدُّ وُجُوهُهُمْ بِالذِّلَّةِ وَالْكَآبَةِ يَوْمَ تَظْهَرُ عَاقِبَةُ تَفَرُّقِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ بِقَهْرِ الْأَجْنَبِيِّ لَهُمْ وَنَزْعِهِ السُّلْطَةَ مِنْ

(49/127)

أَيْدِيهِمْ ، وَالتَّارِيخُ شَاهِدٌ عَلَى صِدْقِ هَذَا الْجَزَاءِ فِي الْمَاضِينَ ، وَالْمُشَاهَدَةُ أَصْدَقُ وَأَقْوَى حُجَّةً فِي الْحَاضِرِينَ .

فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ فَيُقَالُ لَهُمْ : أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : يُقَالُ لَهُمْ هَذَا الْقَوْلُ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَلَا بُدَّ أَنْ يُوجَدَ فِي النَّاسِ مَنْ يَقُولُ لِلْأُمَّةِ الَّتِي وَقَعَ لَهَا ذَلِكَ مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ ، تَغْلِيظًا عَلَيْهَا لِأَنَّ عَمَلَهَا لَا يَصْدُرُ إِلَّا مِنَ الْكَافِرِينَ ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَيُوَبِّخُهُمُ اللَّهُ بِمِثْلِ هَذَا السُّؤَالِ .

وَأَقُولُ : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بَيَانَ الشَّأْنِ لَا الْحِكَايَةَ عَنْ قَوْلٍ لِسَانِيٍّ وَقَعَ بِالْفِعْلِ ، وَالْمَعْنَى أَنَّ شَأْنَهُمْ حِينَئِذٍ أَنْ يُقَالَ فِيهِمْ أَوْ لَهُمْ ذَلِكَ الْقَوْلُ ، بَلْ هَذَا هُوَ الْمُتَعَيِّنُ عِنْدِي ، وَالْكَلَامُ

فِي الْأُمَمِ لَا فِي الْأَفْرَادِ ، وَالْكُفْرُ فِي عُرْفِ الْقُرْآنِ لَيْسَ خَاصًّا بِمَا يَعُدُّهُ الْفُقَهَاءُ وَالْمُتَكَلِّمُونَ كُفْرًا كَمَا بَيَّنَّاهُ غَيْرَ مَرَّةٍ - رَاجِعْ تَفْسِيرَ وَالْكَافِرُونَ

(50/127)

هُمُ الظَّالِمُونَ [2 : 254] فِي أَوَائِلِ الْجُزْءِ الثَّالِثِ . فَمَنْ عُرْفِهِ أَنَّ الْمُتَفَرِّقِينَ فِي الدِّينِ يُعَدُّونَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ كَمَا قَالَ : وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [30 : 31 ، 32] وَقَالَ - عَزَّ وَجَلَّ - لِنَبِيِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ [6 : 159] فَمَنْ تَذَكَّرَ هَذَا لَا يَتَوَقَّفُ فِي فَهْمِ الْآيَةِ الَّتِي نُفَسِّرُهَا ، وَلَا يُجِيزُ لِنَفْسِهِ صَرْفَهَا عَنْ ظَاهِرِهَا لِأَجْلِ مُطَابَقَةِ عُرْفِ الْفُقَهَاءِ الَّذِينَ تَرْجِعُ مَسَائِلُ الْكُفْرِ بَعْدَ الْإِيمَانِ عِنْدَهُمْ إِلَى جَحْدِ الْمُجْمَعِ عَلَيْهِ الْمَعْلُومِ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ وَفِي مَعْنَاهُ كُلُّ مَا اعْتَقَدَ الْمُكَلَّفُ أَنَّهُ مِنَ الدِّينِ ثُمَّ كَذَّبَهُ ، وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ يَعُدُّ الْخُرُوجَ مِنْ مَقَاصِدِ الدِّينِ الْحَقِيقِيَّةِ بِالْعَمَلِ مِنَ الْكُفْرِ ، وَقَدْ فَهِمَ السَّلَفُ الصَّالِحُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَنَّ الْإِيمَانَ اعْتِقَادٌ وَقَوْلٌ وَعَمَلٌ وَلَهُ شُعَبٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَعْظَمِهَا تَحَرِّي الْعَدْلِ وَاجْتِنَابُ الظُّلْمِ (مَثَلًا) فَمَنِ اسْتَرْسَلَ فِي الظُّلْمِ حَتَّى صَارَ صِفَةً لَهُ كَانَ كَافِرًا كَمَا قَالَ - تَعَالَى - : وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ [2 : 254] فَإِذَا كَانَ

الظَّالِمُونَ كَافِرِينَ فِي عُرْفِهِ فَكَيْفَ لَا يَكُونُ الْمُتَفَرِّقُونَ الْمُخْتَلِفُونَ كَافِرِينَ ، وَالِاعْتِصَامُ بِالْوَحْدَةِ وَتَرْكُ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ مِنْ أَعْظَمِ شُعَبِهِ ، بَلْ ذَلِكَ هُوَ أَسَاسُهُ

الَّذِي لَا يَثْبُتُ بِنَاؤُهُ إِلَّا عَلَيْهِ ; وَلِذَلِكَ وَرَدَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا عَقِبَ قَوْلِهِ : وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ فَإِنَّ مَا قَرَّرْتُهُ مِنْ وُجُوبِ الِاعْتِصَامِ وَالنَّهْيِ عَنِ التَّفَرُّقِ أَوَّلًا وَآخِرًا ، وَإِنَاطَةِ الدَّعْوَةِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ بِأُمَّةٍ قَوِيَّةٍ مُتَّحِدَةٍ هُوَ بَيَانُ السَّبِيلِ الَّتِي يَجِبُ عَلَيْنَا سُلُوكُهَا لِنَمُوتَ مُسْلِمِينَ .

وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ الْمُرَادُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - هُنَا أَثَرُهَا مِنْ نِعْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنِ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ بِمَا تَقَدَّمَ شَرْحُهُ يَكُونُونَ خَالِدِينَ فِي النِّعْمَةِ بِالدُّنْيَا مَا دَامُوا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ وَالْأَعْمَالِ الَّتِي بِهَا ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ; لِأَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ مِنْ نِعْمَةٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ فَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ التَّغَيُّرُ فِي الْأَعْمَالِ .

وَتَرْتِيبُ الْخُلُودِ هُنَا عَلَى قَوْلِهِ : ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ يُؤْذِنُ بِأَنَّ ابْيِضَاضَ الْوُجُوهِ وَمَا كَانَ سَبَبًا فِيهِ عِلَّةٌ لَهُ ، وَالْمَعْلُومُ يَدُومُ بِدَوَامِ عِلَّتِهِ ، وَأَمَّا أَمْرُ الْخُلُودِ فِي الْآخِرَةِ فَهُوَ أَظْهَرُ .

تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

(52/127)

تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ أَيْ بِالْأَمْرِ الثَّابِتِ الْحَقِّ الَّذِي لَا مَجَالَ فِيهِ لِلشُّكُوكِ وَالشُّبُهَاتِ ، وَلَا لِلِاحْتِمَالَاتِ وَالتَّأْوِيلَاتِ ، فَلَا عُذْرَ لِأُمَّتِكَ إِذَا اتَّبَعَتْ سُنَنَ مَنْ قَبْلَهَا فَتَفَرَّقَتْ فِي الدِّينِ وَذَهَبَ فِيهِ مَذَاهِبَ وَصَارَتْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [30 : 32] ، وَبِخِلَافِ الْآخَرِينَ مُسْتَمْسِكُونَ ، فَمَا أُمِرُوا فِي هَذِهِ الْآيَاتِ بِمَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الِاعْتِصَامِ وَوُعِدُوا عَلَيْهِ بِالْفَلَاحِ الْعَظِيمِ ، وَلَا نُهُوا عَنْهُ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ وَأُوعِدُوا عَلَيْهِ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ إِلَّا لِيَكُونُوا أُمَّةً وَاحِدَةً مُتَّحِدَةً فِي الدِّينِ مُتَّفِقَةً فِي الْمَقَاصِدِ ، يَعْذُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِذَا فَهِمَ غَيْرَ مَا فَهِمَ مَعَ الْمُحَافَظَةِ عَلَى مَا لَا تَخْتَلِفُ فِيهِ الْأَفْهَامُ ، كَوُجُوبِ الِاتِّحَادِ وَالِاعْتِصَامِ ، وَتَوْحِيدِ اللهِ وَتَقْوَاهُ ، وَاجْتِنَابِ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ فِيمَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْهُ ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ بِهِ هِدَايَتَهُمْ إِلَى مَا تَكْمُلُ بِهِ فِطْرَتُهُمْ وَيَتِمُّ بِهِ نِظَامُ اجْتِمَاعِهِمْ ، فَإِذَا هُمْ فَسَقُوا عَنْ أَمْرِهِ وَحَلَّ بِهِمُ الْبَلَاءُ فَإِنَّمَا يَكُونُونَ هُمُ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ بِتَفَرُّقِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ ، وَكَذَا بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الذُّنُوبِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ . فَالْكَلَامُ فِي الْأُمَمِ

وَعُقُوبَتِهَا ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَحِلَّ بِهَا بَلَاءٌ إِلَّا بِذَنْبٍ فَشَا فِيهَا فَزَحْزَحَهَا عَنْ صِرَاطِ اللهِ الَّذِي بَيَّنَهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَغَيْرِهَا وَكَذَلِكَ

(53/127)

أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [11 : 102] .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ فَهُوَ مَالِكُ الْعِبَادِ وَالْمُتَصَرِّفُ فِي شُئُونِهِمْ وَإِلَى سُنَنِهِ الْحَكِيمَةِ تَرْجِعُ أُمُورُهُمْ وَلِكُلِّ سُنَّةٍ مِنْهَا غَايَةٌ تَنْتَهِي إِلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لَهَا وَلَا تَحْوِيلَ ، فَلَا يَطْمَعُ أَهْلُ التَّفَرُّقِ وَالْخِلَافِ بِالْوُصُولِ إِلَى غَايَةِ أَهْلِ الْوَحْدَةِ وَالِاتِّفَاقِ ، فَهَذِهِ الْآيَةُ وَرَدَتْ كَالدَّلِيلِ عَلَى مَا قَبْلَهَا . وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ فِيهَا عَلَى مَا جَرَيْنَا عَلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ مَا قَبْلَهَا ظَاهِرٌ ، فَإِنَّنَا بَيَّنَّا أَنَّ الْمُرَادَ بِالظُّلْمِ الْمَنْفِيِّ هُوَ الظُّلْمُ بِالتَّشْرِيعِ ; لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي تِلْكَ الْآيَاتِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَحْكَامِ فَهُوَ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ فِي أَحْكَامِ الصِّيَامِ : يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ [2 : 185] وَقَوْلِهِ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْوُضُوءِ وَالْغُسْلِ : مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ [5 : 6] إِلَخْ . وَالْأَمْرُ ظَاهِرٌ لَا مَجَالَ فِيهِ لِلْخِلَافِ وَكَثْرَةِ الْآرَاءِ لَوْلَا الْمَذَاهِبُ الَّتِي وُضِعَتْ أُصُولُهَا وَقَوَاعِدُهَا ثُمَّ نَظَرَ أَصْحَابُهَا فِي الْقُرْآنِ يَلْتَمِسُونَ تَأْيِيدَهَا بِهِ وَحَمْلَهُ عَلَيْهَا

. فَقَدْ قَالَتِ الْمُعْتَزِلَةُ : إِنَّ الظُّلْمَ فِي الْآيَةِ جَاءَ نَكِرَةً فِي سِيَاقِ النَّفْيِ فَهُوَ عَامٌّ ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يُرِيدُ الظُّلْمَ مُطْلَقًا مِنْ أَفْعَالِهِ وَلَا مِنْ

(54/127)

أَفْعَالِ عِبَادِهِ ، وَمَا لَا يُرِيدُهُ لَا يَقَعُ مِنْهُ حَتْمًا ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ أَنَّ مِنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ مَا هُوَ ظُلْمٌ ، فَتَعَيَّنَ أَنْ تَكُونَ أَفْعَالُهُمْ مِنْهُمْ لَا مِنْهُ ، وَوَجَّهُوا الْآيَةَ الثَّانِيَةَ عَلَى إِثْبَاتِ هَذَا .
وَقَالَتِ الْأَشْعَرِيَّةُ : إِنَّ وُقُوعَ الظُّلْمِ مِنْهُ - تَعَالَى - مُحَالٌ ; لِأَنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ تَصَرُّفِ الْإِنْسَانِ فِي مِلْكِ غَيْرِهِ وَلَيْسَ لِغَيْرِ اللهِ مِلْكٌ فَيَكُونُ ظَالِمًا بِتَصَرُّفِهِ فِيهِ ; وَلِذَلِكَ بَيَّنَ بَعْدَ نَفْيِ إِرَادَةِ الظُّلْمِ أَنَّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ . فَهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّهُ لَوْ عَذَّبَ الْأَتْقِيَاءَ الصَّالِحِينَ وَأَثَابَ الْفُجَّارَ الْمُفْسِدِينَ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْهُ ظُلْمًا بَلْ عَدْلًا ; لِأَنَّهُ تَصَرَّفَ فِي مُلْكِهِ .

(55/127)

وَنَحْنُ نَقُولُ – أَوَّلًا : إِنَّ الْآيَتَيْنِ فِي وَادٍ وَهَذِهِ الْمَسَائِلُ الْكَلَامِيَّةُ فِي وَادٍ آخَرَ ، وَثَانِيًا : إِنَّ الظُّلْمَ مُحَالٌ عَلَيْهِ – تَعَالَى – لَا لِأَنَّ الظُّلْمَ عِبَارَةٌ عَنْ تَصَرُّفِ الْمُتَصَرِّفِ فِي مِلْكِ غَيْرِهِ وَأَنَّ تَصَرُّفَهُ فِي مِلْكِهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ظُلْمًا فَإِنَّ هَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ . وَإِنَّمَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الظُّلْمُ ; لِأَنَّهُ يُنَافِي الْحِكْمَةَ وَالْكَمَالَ فِي النِّظَامِ وَفِي التَّشْرِيعِ ، وَمَنْ حَمَّلَ عَبِيدَهُ أَوْ دَوَابَّهُ مَا لَا تُطِيقُ يُقَالُ : إِنَّهُ قَدْ ظَلَمَهَا ، بَلْ قَالُوا فِيمَنْ حَفَرَ الْأَرْضَ وَلَمْ تَكُنْ مَوْضِعًا لِلْحَفْرِ : إِنَّهُ ظَلَمَهَا وَسَمَّوْهَا الْأَرْضَ الْمَظْلُومَةَ وَسَمَّوُا التُّرَابَ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْهُ الْمَظْلُومُ ، وَمَنْ نَقَصَ امْرَأً حَقَّهُ فَقَدْ ظَلَمَهُ قَالَ – تَعَالَى – : كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا [18 : 33] وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الْأَصْلُ فِي مَعْنَى الظُّلْمِ .

وَقَالَ الرَّاغِبُ : " الظُّلْمُ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ وَكَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ الْمُخْتَصِّ بِهِ إِمَّا بِنُقْصَانٍ أَوْ بِزِيَادَةٍ وَإِمَّا بِعُدُولٍ عَنْ وَقْتِهِ أَوْ مَكَانِهِ " فَالظُّلْمُ الَّذِي يَنْفِيهِ – تَعَالَى – عَنْ نَفْسِهِ فِي الْأَحْكَامِ هُوَ مَا يُنَافِي مَصْلَحَةَ الْعِبَادِ وَهِدَايَتَهُمْ لِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَفِي الْخَلْقِ مَا يُنَافِي النِّظَامَ وَالْإِحْكَامَ .

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ وَالنَّظْمِ فِي الْآيَاتِ أَنَّهُ جَعَلَ النَّشْرَ فِي آيَةِ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ إِلَخْ . عَلَى غَيْرِ تَرْتِيبِ اللَّفِّ إِذْ ذَكَرَ فِي اللَّفِّ الِابْيِضَاضَ قَبْلَ الِاسْوِدَادِ ، وَذَكَرَ فِي النَّشْرِ حُكْمَ مَنِ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ قَبْلَ حُكْمِ مَنِ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ، وَلَيْسَ اللَّفُّ وَالنَّشْرُ يُسَمُّونَهُ الْمُرَتَّبَ أَبْلَغَ مِمَّا يُسَمُّونَهُ الْمُشَوَّشَ ، وَإِنَّمَا يَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْكَلَامِ فَلَا يُرَجَّحُ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ إِلَّا بِمُرَجِّحٍ ، وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ نُكْتَةَ التَّرْجِيحِ هُنَا جَعْلُ مَطْلَعِ الْكَلَامِ وَمَقْطَعِهِ فِي بَيَانِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ وَجَزَائِهِمْ فَوَافَقَ ذَلِكَ اسْتِحْسَانَ الْبُلَغَاءِ جَعْلَهُمَا مِمَّا يَسُرُّ وَيَشْرَحُ الصَّدْرَ ، وَقِيلَ : إِنَّ نُكْتَةَ ذَلِكَ بَيَانُ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْخَلْقِ الرَّحْمَةُ دُونَ الْعَذَابِ ; وَلِذَلِكَ بَدَأَ بِذِكْرِ أَهْلِ الرَّحْمَةِ وَخَتَمَ بِذِكْرِ جَزَائِهِمْ وَأَدْمَجَ ذِكْرَ الْآخَرِينَ فِي الْأَثْنَاءِ . وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ تَرْجِيحٌ بِحَسَبِ اللَّفْظِ وَالثَّانِي تَرْجِيحٌ

بِحَسَبِ الْمَعْنَى ، وَمِمَّا يُقَوِّي هَذَا أَنَّهُ - تَعَالَى - ذَكَرَ أَنَّ أَهْلَ الرَّحْمَةِ خَالِدُونَ فِيهَا وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّ أَهْلَ الْعَذَابِ خَالِدُونَ فِيهِ . نَبَّهَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى الرَّازِيُّ ، وَبَيَّنَ أَنَّهُ - تَعَالَى - أَضَافَ الرَّحْمَةَ إِلَى نَفْسِهِ دُونَ الْعَذَابِ ، وَذَكَرَ عِلَّةَ الْعَذَابِ وَسَبَبَهُ وَهُوَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ قَالَ : " وَهَذَا جَارٍ مَجْرَى الِاعْتِذَارِ عَنِ الْوَعِيدِ بِالْعِقَابِ ،

وكُلُّ ذَلِكَ مِمّا يُشْعِرُ بِأَنّ جَانِبَ الرّحْمَةِ مُغَلّبٌ " فَيَا وَيْلَ الْمُتَفَرّقِينَ الْمُخْتَلِفِينَ الْمُتَعَادِينَ فِي دِينِ الرّحْمَةِ الّذِي يَأْخُذُ بِحُجُزِهِمْ أَنْ يَقْتَحِمُوا فِي الْعَذَابِ وَهُمْ يَتَهَافَتُونَ عَلَيْهِ بِجَهْلِهِمْ وَسُوءِ اخْتِيَارِهِمْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿تفسير المنار حـ 4 صـ 46.42﴾

(58/127)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾

إنه مالك الملك ، كل شيء له وبه وملكه ، وإليه يُرجع كل أمر . ونحن نعلم أن القرآن الكريم قد نزل من عند الله بقراءات متعددة وقد ورد وفي بعضها (تَرجِعُ الأمور) بفتح التاء بالبناء للفاعل ، وفي قراءة أخرى : (تُرجعُ الأمور) بضم التاء بالبناء للمفعول ، وكذلك (ترجعون) تأتي أيضا بضم التاء وفتحها ، وكلها - كما قلنا - قراءات من عند الله .

وعندما يقول الحق : ﴿ وَإِلَيْه تَرْجَعُونَ ﴾ بفتح التاء فمعنى ذلك أننا نعود إليه مختارين ؛ لأن المؤمن يُحبّ ويرغب أنْ يصل إلى الآخرة ، لأن عمله طيب في الدنيا ، فكأنه يجري ويسارع إلى الآخرة ، ومرة يقول تعالى : ﴿ وَإِلَيْه تُرْجَعُونَ ﴾ بضم التاء . وهذا ينطبق

على الكافر أو العاصي . إنّ كُلاًّ منهما يحاول ألا يذهب إلى الآخر ، لكن المسألة ليست بإرادته ، إنه مقهور على العودة إلى الآخرة ولذلك نجد التعبير القرآني :

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾

[الطور : 13]

هناك من يدفعهم إلى النار دفعا . وفي حياتنا – ولله المثل الأعلى – نجد الشرطي يمسك بالمجرم من ملابسة ويدفعه إلى السجن . . ذلك هو الدع . وهكذا يكون قول الحق : ﴿ وَإِلَيْه تُرْجَعُونَ ﴾ بضم التاء وفتح الجيم ، أي أنه مدفوع بقوة قاهرة إلى النهاية . أما المؤمن الواثق فهو يهرول إلى آخرته مشتاقا لوجه ربه .

(59/127)

وعندما تقرأ ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ . قد يقول قائل : ومتى خرجت الأمور منه حتى ترجع إليه ؟ ونقول : حين خلق الله الدنيا ، خلقها بقهر تسخيري لنفع الإنسان ، وجعل فيها أشياء بالأسباب ، فإن فعل الإنسان السبب فإنه يأخذ المسبب – بفتح الباء – المشددة ، فالشمس تشرق علينا جميعا ، والضوء والدفء والحرارة ، هي – بأمر الله – للمؤمن والكافر معا ، ولم يصدر الله لها أمرا أن تختص المؤمن وحده بمزاياها ، والهواء لا

يمر على المؤمن وحده ، إنما يمر على المؤمن والكافر ، وكذلك الماء ، والأرض يزرعها الكافر فيأخذ منها الثمار ، ويزرعها المؤمن كذلك .

إذن ففي الكون أشياء تسخيرية ، وهي التي لا تدخل فيها طاقة الإنسان ، وهناك أشياء سببية ، فإن فعلت السبب يأت لك المسبب ، والله قد جعل الأسباب للمؤمن والكافر .

وعندما يُمَلّك الله بعض الخلق أسباب الخلق فهو القيوم فوق الجميع ، لكن في الآخرة ، فلا أسباب ولا مسببات ؛ ولذلك يكون الأمر له وحده ، اقرأوا جيدا :

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

[غافر : 16]

(60/127)

إنّ في الدنيا أناسا – بإرادة الله – تملك أسبابا ، وتملك عبيدا ، وتملك سلطانا ؛ لأن الدنيا هي دنيا الأسباب . أما في الآخرة فلا مجال لذلك . لقد بدأت الدنيا بأسبابها مِنَّة منه ، ورجعت مِنْهُ إليه ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ ومن يعتز بالسببية نقول له : كن أسير السببية لو كنت تستطيع . ومن يعتز بالقوة لأنها – ظاهرا – سبب للحركة ، نقول له : احتفظ بقوتك إن كنت قادرا . ومن يعتز بالملك نقول له : لتحتفظ بالملك لو كنت تستطيع .

ولا أحد بقادر على أَنْ يحتفظ بأي شيء ، فكل شيء مرده إلى الله ، وإن كان في ظاهر الأمر أن بعض الأشياء لك الآن ، وفي الآخرة لله يكون كل أمر ، ويرجع إليه كل شيء ، لقد بدأت به ، ورجعت إليه . ويقول الحق بعد ذلك : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1674.1675 ﴾

(61/127)

قوله تعالى ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آَمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان من رجوع الأمور إليه هدايته من يشاء وإضلاله من يشاء قال - مادحاً لهذه الأمة ليمعنوا في رضاه حمداً وشكراً ومؤيساً لأهل الكتاب عن إضلالهم ليزدادوا حيرة وسكراً : ﴿ كنتم خير أمة ﴾ أي وجدتم على هذا الوصف الثابت لكم جبلة وطبعاً .

ثم وصف الأمة بما يدل على عموم الرسالة وأنهم سيقهرون أهل الكتاب فقال :

﴿ أخرجت للناس ﴾ ثم بين وجه الخيرية بما لم يحصل مجموعة لغيرهم على ما هم عليه من المكنة بقوله : ﴿ تأمرون ﴾ أي على سبيل التجدد والاستمرار ﴿ بالمعروف ﴾ أي كل ما عرفه الشرع وأجازه ﴿ وتنهون عن المنكر ﴾ وهو ما خالف ذلك ، ولو وصل الأمر إلى القتال ، مبشراً لهم بأنه قضى في الأزل أنهم يمتثلون ما أمرهم به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قوله : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ﴾ إراحة لهم من كلفة النظر في أنهم هل يمتثلون فيفلحوا ، وإزاحة لحملهم أعباء الخطر بكونهم يعانون عليه ليفوزوا ويربحوا ، فصارت فائدة الأمر كثيرة الثواب بقصد امتثال الواجب ، وللترمذي - وقال : حسن عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سمع النبي صلى الله عليه يقول في هذه الآية : " أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله سبحانه وتعالى " وللبخاري في التفسير عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : " أنتم خير الناس للناس ، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام " .

ولما أخبر عنهم بهذا الوصف الشريف في نفسه أتبعه ما زاده شرفاً ، وهو أنهم فعلوه في حال إيمانهم فهو معتبر به لوجود شرطه الذي هو أساس كل خير فقال ﴿ وتؤمنون ﴾ أي

تفعلون ذلك والحال أنكم تؤمنون ﴿ بالله ﴾ أي الملك الأعلى الذي تاهت الأفكار في معرفة كنه ذاته ، وارتدت نوافذ أبصار البصائر خاسئة عن حصر صفاته ، أي تصدقون أنبياءه ورسله بسببه في كل ما أخبروا به قولاً وفعلاً ظاهراً وباطناً ، وتفعلون جميع أوامره وتنهون عن جميع مناهيه ؛ وهذا يفهم أن من لم يؤمن كإيمانهم فليس من هذه الأمة أصلاً ، لأن الكون المذكور لا يحصل إلا بجميع ما ذكر ، وكرر الاسم الأعظم زيادة في تعظيمهم ، وقد صدق الله ومن أصدق من الله حديثاً !

قال الإمام أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري في خطبة كتاب الاستيعاب : روى ابن القاسم عن مالك أنه سمعه يقول : لما دخل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الشام نظر إليهم رجل من أهل الكتاب فقال : ما كان أصحاب عيسى ابن مريم الذين قطعوا بالمناشير وصلبوا على الخشب بأشد اجتهاداً من هؤلاء - انتهى .

ولما كان من المعلوم أن التقدير : وذلك خير لكم ، عطف عليه قوله : ﴿ ولو آمن أهل الكتاب ﴾ أي أوقعوا الإيمان كما آمنتم بجميع الرسل وجميع ما أنزل عليهم في كتابهم وغيره ، ولم يفرقوا بين شيء من ذلك ﴿ لكان ﴾ أي الإيمان ﴿ خيراً لهم ﴾ إشارة إلى تسفيه أحلامهم في وقوفهم مع ما منعهم عن الإيمان من العرض القليل الفاني والرئاسة التافهة ، وتركهم الغنى الدائم والعز الباهر الثابت .

ولما كان هذا ربما أوهم أنه لم يؤمن منهم أحد قال مستأنفاً : ﴿ منهم المؤمنون ﴾ أي الثابتون

في الإيمان ، ولكنهم قليل ﴿ وأكثرهم الفاسقون ﴾ أي الخارجون من رتبة الأوامر والنواهي خروجاً يضمحل معه خروج غيرهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 135 . 136 ﴾

فصل

قال الفخر :

(63/127)

في النظم وجهان

الأول : أنه تعالى لما أمر المؤمنين ببعض الأشياء ونهاهم عن بعضها وحذرهم من أن يكونوا مثل أهل الكتاب في التمرد والعصيان ، وذكر عقيبه ثواب المطيعين وعقاب الكافرين ، كان الغرض من كل هذه الآيات حمل المؤمنين المكلفين على الانقياد والطاعة ومنعهم عن التمرد والمعصية ، ثم إنه تعالى أردف ذلك بطريق آخر يقتضي حمل المؤمنين على الانقياد والطاعة فقال ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ والمعنى أنكم كنتم في اللوح المحفوظ خير الأمم وأفضلهم ، فاللائق بهذا أن لا تبطلوا على أنفسكم هذه الفضيلة ، وأن لا تزيلوا عن أنفسكم هذه الخصلة المحمودة ، وأن تكونوا منقادين مطيعين في كل ما يتوجه عليكم من التكاليف

الثاني : أن الله تعالى لما ذكر كمال حال الأشقياء وهو قوله ﴿ فَأَمَّا الذين اسودت وُجُوهُهُمْ ﴾ [آل عمران : 106] وكمال حال السعداء وهو قوله ﴿ وَأَمَّا الذين ابيضت وُجُوهُهُمْ ﴾ [آل عمران : 107] نبه على ما هو السبب لوعيد الأشقياء بقوله ﴿ وَمَا الله يُرِيدُ ظُلْماً للعالمين ﴾ [آل عمران : 108] يعني أنهم إنما استحقوا ذلك بأفعالهم القبيحة ، ثم نبه في هذه الآية على ما هو السبب لوعد السعداء بقوله ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ أي تلك السعادات والكمالات والكرامات إنما فازوا بها في الآخرة لأنهم كانوا في الدنيا ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 155 ﴾

فصل

قال الفخر :

(64/127)

لفظة ﴿ كَانَ ﴾ قد تكون تامة وناقصة وزائدة على ما هو مشروح في النحو واختلف المفسرون في قوله ﴿ كُنتُمْ ﴾ على وجوه الأول : أن (كان) ههنا تامة بمعنى الوقوع والحدوث وهو لا يحتاج إلى خبر ، والمعنى : حدثتم خير أمة ووجدتم وخلقتم خير أمة ،

ويكون قوله ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ بمعنى الحال وهذا قول جمع من المفسرين الثاني : أن (كان)
ههنا ناقصة وفيه سؤال : وهو أن هذا يوهم أنهم كانوا موصوفين بهذه الصفة وأنهم ما بقوا
الآن عليها .

والجواب عنه : أن قوله (كان) عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض على سبيل الإبهام ،
ولا يدل ذلك على انقطاع طارىء بدليل قوله ﴿ استغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ [نوح :
10] قوله ﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [الفتح : 14] إذا ثبت هذا فنقول : للمفسرين
على هذا التقدير أقوال

أحدها : كنتم في علم الله خير أمة

وثانيها : كنتم في الأمم الذين كانوا قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة وهو كقوله ﴿ أَشِدَّآءُ
عَلَى الكفار رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : 29] إلى قوله ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التوراة ﴾ [الفتح
: 29] فشدتهم على الكفار أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر

وثالثها : كنتم في اللوح المحفوظ موصوفين بأنكم خير أمة

ورابعها : كنتم منذ آمنتم خير أمة أخرجت للناس

وخامسها : قال أبو مسلم قوله ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ تابع لقوله ﴿ وَأَمَّا الذين ابيضت
وُجُوهُهُمْ ﴾ [آل عمران : 107] والتقدير : أنه يقال لهم عند الخلود في الجنة : كنتم في

دنياكم خير أمة فاستحقيتم ما أنتم فيه من الرحمة وبياض الوجه بسببه ، ويكون ما عرض بين أول القصة وآخرها كما لا يزال يعرض في القرآن من مثله

(65/127)

وسادسها : قال بعضهم : لو شاء الله تعالى لقال (أنتم) وكان هذا التشريف حاصلاً لكلنا ولكن قوله ﴿ كُنتُمْ ﴾ مخصوص بقوم معينين من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وهم السابقون الأولون ، ومن صنع مثل ما صنعوا وسابعها : كنتم مذ آمنتم خير أمة تنبيهاً على أنهم كانوا موصوفين بهذه الصفة مذ كانوا .

الاحتمال الثالث : أن يقال (كان) ههنا زائدة ، وقال بعضهم قوله ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ هو كقوله ﴿ واذكروا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾ [الأعراف : 86] وقال في موضع آخر ﴿ واذكروا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ ﴾ [الأنفال : 26] وإضمار كان وإظهارها سواء إلا أنها تذكر للتأكيد ووقوع الأمر لا محالة : قال ابن الأنباري : هذا القول ظاهر الاختلال ، لأن (كان) تلغى متوسطة ومؤخرة ، ولا تلغى متقدمة ، تقول العرب : عبد الله كان قائم ، وعبد الله قائم كان على أن كان ملغاة ، ولا يقولون : كان عبد الله قائم على إلغائها ، لأن سبيلهم أن يبدؤا بما تنصرف العناية إليه ، والمعنى لا يكون في محل العناية ، وأيضاً لا يجوز

إلغاء الكون في الآية لانتصاب خبره ، وإذا عمل الكون في الخبر فنصبه لم يكن ملغى .

الاحتمال الرابع : أن تكون (كان) بمعنى صار ، فقوله ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ معناه صرتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، أي صرتم خير أمة بسبب كونكم آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ومؤمنين بالله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 155.156 ﴾

(66/127)

وقال الآلوسى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ كلام مستأنف سيق لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الاتفاق على الحق والدعوة إلى الخير كذا قيل ، وقيل : هو من تتمة الخطاب الأول في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [آل عمران : 102] وتوالت بعد هذا خطابات المؤمنين من أوامر ونواهي واستطرد بين ذلك من يبيض وجهه ومن يسود وشيء من أحوالهم في الآخرة ، ثم عاد إلى الخطاب الأول تحريضاً على الانقياد والطواعية وكان ناقصة ولا دلالة لها في الأصل على غير الوجود في الماضي من غير دلالة على انقطاع أو دوام ، وقد تستعمل للأزلية كما في صفاته تعالى نحو ﴿ وَكَانَ الله بِكُلّ شَىْء عَلِيماً ﴾

[الأحزاب : 40] وقد تستعمل للزوم الشيء وعدم انفكاكه نحو ﴿ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَئ ءٍ جَدَلاً ﴾ [الكهف : 54] ، وذهب بعض النحاة إلى أنها تدل بحسب الوضع على الانقطاع كغيرها من الأفعال الناقصة والمصحح هو الأول وعليه لا تشعر الآية بكون المخاطبين ليسوا خير أمة الآن ، وقيل : المراد كنتم في علم الله تعالى أو في اللوح المحفوظ أو فيما بين الأمم أي في علمهم كذلك ، وقال الحسن : معناه أنتم خير أمة ، واعترض بأنه يستدعي زيادة كان وهي لا تزاد في أول الجملة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 27 ﴾

وقال ابن عاشور :

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر وَتُؤْمِنُونَ بالله ﴾ .

يتنزّل هذا منزلة التَّعليل لأمرهم بالدّعوة إلى الخير ، وما بعده فإن قوله ﴿ تأمرون بالمعروف ﴾ حال من ضمير كنتم ، فهو موذن بتعليل كونهم خيرَ أمَّة فيترتب عليه أنّ ما كان فيه خيريتهم يجدر أن يفرض عليهم ، إن لم يكن مفروضاً من قبل ، وأن يؤكد عليهم فرضه ، إن كان قد فرض عليهم من قبل .

والخطاب في قوله ﴿ كنتم ﴾ إمَّا لأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ونقل ذلك عن عمر بن الخطاب ، وابن عبَّاس .

قال عمر : هذه لأوّلنا ولا تكون لآخِرنا .

وإضافة خير إلى أمّة من إضافة الصفة إلى الموصوف : أي كنتم أمَّة خير أمَّة أخرجت للنَّاس ، فالمراد بالأمّة الجماعة ، وأهل العصر النبوي ، مثل القَرن ، وهو إطلاق مشهور ومنه قوله تعالى : ﴿ وادّكَر بعد أمَّة ﴾ [يوسف : 45] أي بعد مدة طويلة كمدة عصر كامل .

ولا شكّ أن الصحابة كانوا أفضل القرون التي ظهرت في العالم ، لأن رسولهم أفضل الرسل ، ولأن الهدى الذي كانوا عليه لا يماثله هدى أصحاب الرسل الذين مضوا ، فإن أخذت الأمة باعتبار الرسول فيها فالصحابة أفضل أمة من الأمم مع رسولها ، قال النبي صلى الله عليه وسلم " خير القرون قرني " والفضل ثابت للجموع على المجموع ، وإن أخذت الأمة من عدا الرسول ، فكذلك الصحابة أفضل الأمم التي مضت بدون رُسلها ، وهذا تفضيل للهدى الذي اهتدوا به ، وهو هدى رسولهم محمد صلى الله عليه وسلم وشريعته .

وإمّا أن يكون الخطاب بضمير ﴿ كنتم ﴾ للمسلمين كلّهم في كلّ جيل ظهروا فيه ، ومعنى تفضيلهم بالأمر بالمعروف مع كونه من فروض الكفايات لا تقوم به جميع أفراد الأمّة لا يخلو مسلم من القيام بما يستطيع القيام به من هذا الأمر ، على حسب مبلغ العلم ومنتهى القدرة ،

فمن التغيير على الأهل والولد ، إلى التغيير على جميع أهل البلد ، أو لأن وجود طوائف القائمين بهذا الأمر في مجموع الأمّة أوجب فضيلة لجميع الأمّة ، لكون هذه الطوائف منها كما كانت القبيلة تفتخر بمحامد طوائفها ، وفي هذا ضمان من الله تعالى بأنّ ذلك لا ينقطع من المسلمين إن شاء الله تعالى .

(68/127)

وفعل (كان) يدل على وجود ما يسند إليه في زمن مضى ، دون دلالة على استمرار ، ولا على انقطاع ، قال تعالى ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ [النساء : 96] أي وما زال ، فمعنى ﴿ كنتم خير أمة ﴾ وجدتم على حالة الأخيرية على جميع الأمم ، أي حصلت لكم هذه الأخيرية بحصول أسبابها ووسائلها ، لأنّهم اتّصفوا بالإيمان ، والدّعوة للإسلام ، وإقامته على وجهه ، والذبّ عنه النقصانَ والإضاعة لتحقّق أنّهم لمّا جُعل ذلك من واجبهم ، وقد قام كُلّ بما استطاع ، فقد تحقّق منهم القيام به ، أو قد ظهر منهم العزم على امتثاله ، كُلّما سنح سانح يقتضيه ، فقد تحقّق أنهم خير أمَّة على الإجمال فأخبر عنهم بذلك .

هذا إذا بنَينا على كون الأمر في قوله آنفاً ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون

بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ [آل عمران : 104] وما بعده من النهي في قوله ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا ﴾ [آل عمران : 105] الآية، لم يكن حاصلاً عندهم من قبل.

ويجوز أن يكون المعنى: ﴿ كنتم خير أمة ﴾ موصوفين بتلك الصّفات فيما مضى تفعلونها إمّا من تلقاء أنفسكم، حرصاً على إقامة الدّين واستحساناً وتوفيقاً من الله في مصادفتكم لمرضاته ومراده، وإمّا بوجوب سابق حاصل من آيات أخرى مثل قوله: ﴿ وتواصوا بالحق ﴾ [العصر : 3] وحينئذٍ فلمّا أمرهم بذلك على سبيل الجزم، أثنى عليهم بأنّهم لم يكونوا تاركيه من قبل، وهذا إذا بنَينا على أنّ الأمر في قوله ﴿ ولتكن منكم أمة ﴾ [آل عمران : 104] تأكيداً لما كانوا يفعلونه، وإعلام بأنّه واجب، أو بتأكيد وجوبه على الوجوه التي قدّمتها عند قوله ﴿ ولتكن منكم أمة ﴾.

(69/127)

ومن الحيرة التجاء جمع من المفسرين إلى جعل الإخبار عن المخاطبين بكونهم فيما مضى من الزمان أمة بمعنى كونهم كذلك في علم الله تعالى وقَدَره أو ثبوت هذا الكون في اللوح المحفوظ أو جعل كان بمعنى صار.

والمراد بأمّة عمومُ الأمم كلّها على ما هو المعروف في إضافة أفعل التفضيل إلى النكرة أن

تكون للجنس فتفيد الاستغراق. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ 187. 189﴾

فصل

قال الفخر:

احتج أصحابنا بهذه الآية على أن إجماع الأمة حُجَّة، وتقريره من وجهين

الأول: قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق﴾ [الأعراف: 159] ثم قال في هذه الآية ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ فوجب بحكم هذه الآية أن تكون هذه الأمة أفضل من أولئك الذين يهدون بالحق من قوم موسى، وإذا كان هؤلاء أفضل منهم وجب أن تكون هذه الأمة لا تحكم إلا بالحق إذ لو جاز في هذه الآية أن تحكم بما ليس بحق لامتنع كون هذه الأمة أفضل من الأمة التي تهدي بالحق، لأن المبطل يمتنع أن يكون خيراً من المحق، فثبت أن هذه الأمة لا تحكم إلا بالحق، وإذا كان كذلك كان إجماعهم حجة.

الوجه الثاني: وهو (أن الألف واللام) في لفظ ﴿المعروف﴾ ولفظ ﴿المنكر﴾ يفيدان الاستغراق، وهذا يقتضي كونهم آمرين بكل معروف، وناهين عن كل منكر ومتى كانوا كذلك كان إجماعهم حقاً وصدقاً لا محالة فكان حجة، والمباحث الكثيرة فيه ذكرناها في الأصول. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 156﴾

فائدة

قال الفخر :

قال الزجاج : قوله ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ ظاهر الخطاب فيه مع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكنه عام في كل الأمة ، ونظيره قوله ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام﴾ [البقرة : 183] ﴿كتب عَلَيْكُم القصاص﴾ [البقرة : 178] فإن كل ذلك خطاب مع الحاضرين بحسب اللفظ ، ولكنه عام في حق الكل كذا ههنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 156﴾

فصل

قال الفخر :

قال القفال رحمه الله : أصل الأمة الطائفة المجتمعة على الشيء الواحد فأمة نبينا صلى الله عليه وسلم هم الجماعة الموصوفون بالإيمان به والإقرار بنبوته ، وقد يقال لكل من جمعتهم دعوته أنهم أمته إلا أن لفظ الأمة إذا أطلقت وحدها وقع على الأول ، ألا ترى أنه إذا قيل أجمعت الأمة على كذا فهم منه الأول وقال عليه الصلاة والسلام : " أمتي لا تجتمع على ضلالة " وروي أنه عليه الصلاة والسلام يقول يوم القيامة " أمتي أمتي " فلفظ الأمة في هذه المواضع وأشباهها يفهم منه المقرون بنبوته ، فأما أهل دعوته فإنه إنما يقال لهم : إنهم أمة

الدعوة ولا يطلق عليهم إلا لفظ الأمة بهذا الشرط. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 156 ﴾

قوله تعالى ﴿ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

أما قوله ﴿ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ففيه قولان الأول : أن المعنى كنتم خير الأمم المخرجة للناس في جميع الأعصار ، فقوله ﴿ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ أي أظهرت للناس حتى تميزت وعرفت وفصل بينها وبين غيرها

والثاني : أن قوله ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ من تمام قوله ﴿ كُنتُمْ ﴾ والتقدير : كنتم للناس خير أمة ، ومنهم من قال : ﴿ أُخْرِجَتْ ﴾ صلة ، والتقدير : كنتم خير أمة للناس. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 156. 157 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله ﴿ أخرجت للناس ﴾ الإخراج مجاز في الإيجاد والإظهار كقوله تعالى ﴿ فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار ﴾ [طه : 88] أي أظهر بصوغه عجلاً جسداً.

والمعنى : كنتم خير الأمم التي وجدت في عالم الدنيا .

وفاعل ﴿ أخرجت ﴾ معلوم وهو الله موجد الأمم ، والسائق إليها ما به تفاضلها .

والمراد بالناس جميع البشر من أوّل الخليقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 189 ﴾

فصل

قال القرطبى :

وإذا ثبت بنَصِّ التنزيل أن هذه الأمة خير الأمم ؛ فقد روى الأئمّة من حديث عِمران بن حصين عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم " (الحديث) وهذا يدل على أن أوّل هذه الأمة أفضل ممن بعدهم ، وإلى هذا ذهب معظم العلماء ، وأن من صحب النبيّ صلى الله عليه وسلم ورآه ولو مرّة في عمره أفضل ممن يأتي بعده ، وأن فضيلة الصحبة لا يعدِلها عمل .

وذهب أبو عمر بن عبد البِر إلى أنه قد يكون فيمن يأتي بعد الصحابة أفضل ممن كان في جملة الصحابة ، وأن قوله عليه السَّلام : " خير الناس قرني " ليس على عمومه بدليل ما يجمع القرن من الفاضل والمفضول .

وقد جمع قرنه جماعة من المنافقين المظهِرين للإيمان وأهلِ الكبائر الذين أقام عليهم أو على بعضهم الحدود ، وقال لهم : ما تقولون في السارق والشارب والزاني .

وقال مُوَاجهةً لمن هو في قرنه : "لا تسبوا أصحابي " و" قال لخالد بن الوليد في عمّار : "لا تسب من هو خير منك" " وروى أبو أمَامة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " طوبى لمن رآني وآمن بي وطوبى سبع مرّات لمن لم يرني وآمن بي " وفي مسند أبي داود الطيالِسِيّ عن محمد بن أبي حميد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر قال : كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " "أتدرون أي الخلق أفضل إيماناً" قلنا الملائكة .

قال : "وحق لهم بل غيرهم" قلنا الأنبياء .

(72/127)

قال : "وحق لهم بل غيرهم" ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أفضل الخلق إيماناً قوم في أصلاب الرجال يؤمنون بي ولم يروني يجِدون ورقا فيعملون بما فيها فهم أفضل الخلق إيماناً" " وروى صالح بن جبير عن أبي جُمْعَة قال : " قلنا يا رسول الله ، هل أحد خير منا ؟ قال : "نعم قوم يجيِئون من بعدكم فيجدون كتاباً بين لوحين فيؤمنون بما فيه ويؤمنون بي ولم يروني" " وقال أبو عمر : وأبو جمعة له صحبة واسمه حَبِيب بن سِبَاع ، وصالح بن جبير من ثِقَات التابعين .

وروى أبو ثعلبة الخشِني عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " "إن أمامكم أياماً الصّابر

فيها على دينه كالقابض على الجَمْر للعامل فيها أجر خمسين رجلاً يعمل مثل عمله" قيل: يا رسول الله، منهم ؟ قال: "بل منكم" " قال أبو عمر: وهذه اللفظة ﴿ بَلِ مِّنكُمْ ﴾ قد سكت عنها بعض المحدّثين فلم يذكرها.

وقال عمر بن الخطاب في تأويل قوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قال: من فعل مثل فعِلكم كان مثلكم.

ولا تعارض بين الأحاديث؛ لأن الأوّل على الخصوص، والله الموفِّق.

(73/127)

وقد قيل في توجيه أحاديث هذا الباب: إن قرنه إنما فُضِّل لأنهم كانوا غُرَبَاء في إيمانهم لكثرة الكفار وصبرِهم على أذاهم وتمسكهم بدينهم، وإن أواخر هذه الأمّة إذا أقاموا الدِّين وتمسّكوا به وصبروا على طاعة ربهم في حين ظهور الشر والفسق والهَرَج والمعاصي والكبائر كانوا عند ذلك أيضاً غُرَبَاء، وزكت أعمالهم في ذلك الوقت كما زَكَتْ أعمال أوائلهم، و(مما) يشهد لهذا قوله عليه السَّلام: "بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء" ويشهد له أيضاً حديث أبي ثعلبة، ويشهد له أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم: "أُمَّتي كالمطر لا يُدْرَى أوّله خيرٌ أم آخره" ذكره أبو داود الطيالسِيّ وأبو عيسى

الترمذي ، ورواه هشام بن عبيد الله الرازي عن مالكٍ عن الزهري عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مثل أمتي مثل المطرِ لا يُدْرَى أوّله خيرٌ أم آخره " ذكره الدارقطنِي في مسند حديث مالك .

قال أبو عمر : هشام بن عبيد الله ثقة لا يختلفون في ذلك .

وروي أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة كتب إلى سالم بن عبد الله أن اكتب إليّ بسيرة عمر بن الخطاب لأعمل بها ؛ فكتب إليه سالم : إن عملت بسيرة عمر ؛ فأنت أفضل من عمر لأن زمانك ليس كزمان عمر ، ولا رجالك كرجال عمر .

وكتب إلى فقهاء زمانه ، فكلُّهم كتب إليه بمثل قول سالم .

وقد عارض بعض الجِلّة من العلماء قوله صلى الله عليه وسلم : " خير الناس قرنِي " بقوله صلى الله عليه وسلم : " خير الناس من طال عمره وحَسُن عملُه وشرُّ الناس من طال عمره وساء عمله " قال أبو عمر : فهذه الأحاديث تقتضي مع تَوَاتُر طرقها وحسنها التّسْوِيَةَ بين أوّلِ هذه الأمّة وآخرِها .

والمعنى في ذلك ما تقدّم ذكره من الإيمان والعمل الصالح في الزمان الفاسد الذي يرفع فيه من أهل العلم والدين ، ويكثر فيه الفسق والهَرَج ، ويُذَلّ المؤمنُ ويُعَزُّ الفاجر ويعود الدين غَرِيباً كما بدا غَرِيباً ويكون القائمُ فيه كالقابض على الجمر ، فيستوي حينئذ أوّل هذه الأمّة بآخرها في فضل العمل إلاّ أهل بدرٍ والحُديبية ، ومن تدبّر آثار هذا الباب بان له الصّواب ، والله يؤتي فضله من يشاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 171 . 173 ﴾

قوله تعالى : ﴿ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر وَتُؤْمِنُونَ بالله ﴾

قال الفخر :

اعلم أن هذا كلام مستأنف ، والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية ، كما تقول : زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم ، وتحقيق الكلام أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم مقروناً بالوصف المناسب له يدل على كون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف ، فهنا حكم تعالى بثبوت وصف الخيرية لهذه الأمة ، ثم ذكر عقيبه هذا الحكم وهذه الطاعات ، أعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان ، فوجب كون تلك الخيرية معللة بهذه العبادات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 157 ﴾

وقال الآلوسي :

﴿ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ﴾ فإنه وإن كان استئنافاً مبيناً لكونهم خير أمة أو صفة ثانية لأمة على ما قيل إلا أنه يفهم الشرطية والمتبادر من المعروف الطاعات ومن المنكر المعاصي التي أنكرها الشرع. وأخرج ابن المنذر وغيره عن ابن عباس في الآية أن المعنى تأمرونهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ويقرّوا بما أنزل الله تعالى وتقاتلونهم عليهم ولا إله إلا الله هو أعظم المعروف وتنهونهم عن المنكر والمنكر هو التكذيب وهو أنكر المنكر وكأنه رضي الله تعالى عنه حمل المطلق على الفرد الكامل وإلا فلا قرينة على هذا التخصيص.

(76/127)

﴿ وَتُؤْمِنُونَ بالله ﴾ أريد بالإيمان به سبحانه الإيمان بجميع ما يجب الإيمان به لأن الإيمان إنما يعتد به ويستأهل أن يقال له إيمان إذا آمن بالله تعالى على الحقيقة وحقيقة الإيمان بالله تعالى أن يستوعب جميع ما يجب الإيمان به فلو أخل بشيء منه لم يكن من الإيمان بالله تعالى في شيء ، والمقام يقتضيه لكونه تعريضاً بأهل الكتاب وأنهم لا يؤمنون بجميع ما يجب الإيمان به كما يشعر بذلك التعقيب بنفي الإيمان عنهم مع العلم بأنهم مؤمنون في الجملة وأيضاً المقام

مقام مدح للمؤمنين بكونهم خير أمة أخرجت للناس وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها المعلل للخيرية فلو لم يرد الإيمان بجميع ما يجب الإيمان به لم يكن مدحاً فلا يصلح للتعليل والعطف يقتضيه وإنما أخر الإيمان عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع تقدمه عليهما وجوداً ورتبة كما هو الظاهر لأن الإيمان مشترك بين جميع الأمم دون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهما أظهر في الدلالة على الخيرية ، ويجوز أن يقال قدمهما عليه للاهتمام وكون سوق الكلام لأجلهما ، وأما ذكره فكالتتميم ، ويجوز أيضاً أن يكون ذلك للتنبيه على أن جدوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الدين أظهر مما اشتمل عليه الإيمان بالله تعالى لأنه من وظيفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولو قيل قدما وأخر للاهتمام وليرتبط بقوله تعالى :

﴿ وَلَوْ ءامَنَ أَهْلُ الكتاب لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ لم يبعد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 28 ﴾

(77/127)

وقال ابن عاشور :

وإنّما قدّم ﴿ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ على قوله ﴿ وتؤمنون بالله ﴾

لأنهما الأهم في هذا المقام المسوق للتنويه بفضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الحاصلة من قوله تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ [آل عمران : 104] والاهتمام الذي هو سبب التقديم يختلف باختلاف مقامات الكلام ولا ينظر فيه إلى ما في نفس الأمر لأنّ إيمانهم ثابت محقّق من قبل .

وإنَّما ذكر الإيمان بالله في عداد الأحوال التي استحقوا بها التفضيل على الأمم ، لأنّ لكلّ من تلك الأحوال الموجبة للأفضلية أثراً في التَّفضيل على بعض الفرق ، فالإيمان قصد به التفضيل على المشركين الذين كانوا يفتخرون بأنهم أهل حرم الله وسدنة بيته وقد ردّ الله ذلك صريحاً في قوله : ﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله ﴾ [التوبة : 19] وذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قصد به التفضيل على أهل الكتاب ، الذين أضاعوا ذلك بينهم ، وقد قال تعالى فيهم ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ﴾ [المائدة : 79] .

فإن قلت إذا كان وجه التفضيل على الأمم هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله ، فقد شاركنا في هذه الفضيلة بعض الجماعات من صالحي الأمم الذين قبلنا ، لأَنَّهم آمنوا بالله على حسب شرائعهم ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، لتعذّر أن يترك الأمم بالمعروف لأنّ الغيرة على الدين أمر مرتكز في نفوس الصادقين من أتباعه .

قلت : لم يثبت أن صالحي الأمم كانوا يلتزمون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إمّا لأنه لم يكن واجباً عليهم ، أو لأنّهم كانوا يتوسعّون في حل التقية ، وهذا هارون في زمن موسى عبدت بنو إسرائيل العجل بمرأى منه ومسمع فلم يغيّر عليهم ، وقد حكى الله محاورة موسى معه بقوله ﴿ قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني أفعصيت أمري قال يا بن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي ﴾ [طه : 9492] وأما قوله تعالى ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ [آل عمران : 113 ، 114] الآية فتلك فئة قليلة من أهل الكتاب هم الذين دخلوا في الإسلام مثل عبد الله بن سلام ، وقد كانوا فئة قليلة بين قومهم فلم يكونوا جمهرة الأمّة .

(79/127)

وقد شاع عند العلماء الاستدلال بهذه الآية على حجيّة الإجماع وعصمته من الخطأ بناء على أن التعريف في المعروف والمنكر للاستغراق ، فإذا أجمعت الأمَّة على حكم ، لم يجز أن يكون ما أجمعوا عليه منكراً ، وتعيّن أن يكون معروفاً ، لأنّ الطائفة المأمورة بالأمر بالمعروف

والنّهي عن المنكر في ضمنهم ، ولا يجوز سكوتها منكر يقع ، ولا عن معروف يترك ، وهذا الاستدلال إن كان على حجية الإجماع بمعنى الشرع المتواتر المعلوم من الدين بالضرورة فهو استدلال صحيح لأن المعروف والمنكر في هذا النوع بديهي ضروري ، وإن كان استدلالاً على حجية الإجماعات المنعقدة عن اجتهاد ، وهو الذي يقصده المستدلون بالآية ، فاستدلالهم بها عليه سفسطائي لأنّ المنكر لا يعتبر منكراً إلاّ بعد إثبات حكمه شرعاً ، وطريق إثبات حكمه الإجماع ، فلو أجمعوا على منكر عند الله خطأ منهم لما كان منكراً حتّى ينهي عنه طائفة منهم لأنّ اجتهادهم هو غاية وسعهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 189 . 191 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ﴾ مدح هذه الأمّة ما أقاموا ذلك واتصفوا به .

فإذا تركوا التغيير وتَواطَئوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذَّمِّ ، وكان ذلك سبباً لهلاكهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 173 ﴾

فائدة

قال أبو حيان :

وحكم عليهم بأنهم خيرُ أمة ، ولم يبين جهة الخيرية في اللفظ وهي : سبقهم إلى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبدارهم إلى نصرته ، ونقلهم عنه علم الشريعة ، وافتتاحهم البلاد .

وهذه فضائل اختصوا بها مع ما لهم من الفضائل .

(80/127)

وكل من عمل بعدهم حسنة فلهم مثل أجرها ، لأنهم سببٌ في إيجادها ، إذْ هم الذين سنوها ، وأوضحوا طريقها " من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، لا ينقص ذلك من أجرهم شيئاً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 31.30 ﴾

أسئلة وأجوبة للإمام الفخر :

السؤال الأول : من أي وجه يقتضي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله كون هذه الأمة خير الأمم مع أن هذه الصفات الثلاثة كانت حاصلة في سائر الأمم ؟ .

والجواب : قال القفال : تفضيلهم على الأمم الذين كانوا قبلهم إنما حصل لأجل أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بآكد الوجوه وهو القتال لأن الأمر بالمعروف قد يكون بالقلب

وباللسان وباليد ، وأقواها ما يكون بالقتال ، لأنه إلقاء النفس في خطر القتل وأعرف المعروفات الدين الحق والإيمان بالتوحيد والنبوة ، وأنكر المنكرات : الكفر بالله ، فكان الجهاد في الدين محملاً لأعظم المضار لغرض إيصال الغير إلى أعظم المنافع ، وتخليصه من أعظم المضار ، فوجب أن يكون الجهاد أعظم العبادات ، ولما كان أمر الجهاد في شرعنا أقوى منه في سائر الشرائع ، لا جرم صار ذلك موجباً لفضل هذه الأمة على سائر الأمم ، وهذا معنى ما روي عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية : قوله ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ تأمرونهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ويقروا بما أنزل الله ، وتقاتلونهم عليه و"لا إله إلا الله" أعظم المعروف ، والتكذيب هو أنكر المنكر .

ثم قال القفال : فائدة القتال على الدين لا ينكره منصف ، وذلك لأن أكثر الناس يحبون أديانهم بسبب الألف والعادة ، ولا يتأملون في الدلائل التي تورد عليهم فإذا أكره على الدخول في الدين بالتخويف بالقتل دخل فيه ، ثم لا يزال يضعف ما في قلبه من حب الدين الباطل ، ولا يزال يقوى في قلبه حب الدين الحق إلى أن ينتقل من الباطل إلى الحق ، ومن استحقاق العذاب الدائم إلى استحقاق الثواب الدائم .

السؤال الثاني : لم قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله في الذكر مع أن الإيمان بالله لا بد وأن يكون مقدماً على كل الطاعات ؟ .

والجواب : أن الإيمان بالله أمر مشترك فيه بين جميع الأمم المحقة ، ثم إنه تعالى فضل هذه الأمة على سائر الأمم المحقة ، فيمتنع أن يكون المؤثر في حصول هذه الخيرية هو الإيمان الذي هو القدر المشترك بين الكل ، بل المؤثر في حصول هذه الزيادة هو كون هذه الأمة أقوى حالاً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من سائر الأمم ، فإذن المؤثر في حصول هذه الخيرية هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأما الإيمان بالله فهو شرط لتأثير هذا المؤثر في هذا الحكم لأنه ما لم يوجد الإيمان لم يصر شيء من الطاعات مؤثراً في صفة الخيرية ، فثبت أن الموجب لهذه الخيرية هو كونهم آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر ، وأما إيمانهم فذاك شرط التأثير ، والمؤثر ألصق بالأثر من شرط التأثير ، فلهذا السبب قدم الله تعالى ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ذكر الإيمان .

السؤال الثالث : لم اكتفى بذكر الإيمان بالله ولم يذكر الإيمان بالنبوة مع أنه لا بد منه .

والجواب : الإيمان بالله يستلزم الإيمان بالنبوّة ، لأن الإيمان بالله لا يحصل إلا إذا حصل الإيمان بكونه صادقاً ، والإيمان بكونه صادقاً لا يحصل إلا إذا كان الذي أظهر المعجز على وفق دعواه صادقاً لأن المعجز قائم مقام التصديق بالقول ، فلما شاهدنا ظهور المعجز على وفق دعوى محمد صلى الله عليه وسلم كان من ضرورة الإيمان بالله الإيمان بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان الاقتصار على ذكر الإيمان بالله تنبيهاً على هذه الدقيقة . انتهى انتهى .

اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 157.158﴾

(83/127)

" فصل "

قال ابن الجوزى :

المجلس الرابع والثلاثون في فضل أمة محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾

الحمد لله خالق الجامد والحساس ومبدع الأنواع والأجناس القوي في سلطانه الشديد الباس المنزه عن السنة والنعاس المخرج رطب الثمار من يابس الأغراس نفذ قضاؤه فلم يمتنع بأحراس وقهر عزه كل صعب المراس لا يعزب عن سمعه حركات الأضراس ولا دبيب ذر بالليل في مطاوي قرطاس نفذت مشيئته فكم مجتهد عاد باليأس يفعل ما يريد لا بمقتضى

تدبير الخلق والقياس قدم نبينا محمدا ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ عن كل نبي دبر وساس فسبحان من أجزل له العطا وجعله خير نبي حارب وسطا وقال لأمته (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) أحمده حمدا يدوم بدوام اللحظات والأنفاس وأصلي على رسوله محمد الذي شرعه مستقر ثابت الأساس وعلى صاحبه أبي بكر الثابت العزم وقد ارتد الناس وعلى عمر قاهر الجبابرة الأشواس وعلى عثمان الصابر يوم الشهادة على مرير الكاس وعلى علي أهدى الجماعة إلى نص أو قياس وعلى عمه وصنو أبيه العباس قال الله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) الكاف في قوله (كذلك) كاف التشبيه فالكلام معطوف على قوله تعالى (ولقد اصطفيناه في الدنيا) والتقدير فكما اخترنا إبراهيم وذريته واصطفيناهم كذلك جعلناكم أمة وسطا أي عدولا خيارا ومثله (قال أوسطهم) أي خيرهم وأعدلهم (هم وسط يرضى الأنام بحكمهم

إذا نزلت إحدى الليالي بمعظم

وأصل هذا أن خير الأشياء أوساطها وأن الغلو والتقصير مذمومان (لتكونوا شهداء على الناس) وفيه قولان أحدهما لتكونوا شهداء يوم القيامة للأنبياء على أممهم بأنهم قد بلغوا

أخبرنا ابن الحصين أنبأنا ابن المذهب أخبرنا أحمد بن جعفر حدثنا عبد الله ابن أحمد حدثني أبي حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ يدعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقال له هل بلغت فيقول نعم فيدعي قومه فيقال لهم هل بلغكم فيقولون ما أتانا من نذير فيقال لنوح من يشهد لك فيقول محمد وأمته فذلك قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) قال الوسط العدل قال فتدعون فتشهدون له بالبلاغ قال (ثم أشهد عليكم) قال أحمد وحدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعي قومه فيقال لهم هل بلغكم هذا فيقولون لا فيقال له هل بلغت قومك فيقول نعم فيقال له من يشهد لك فيقول محمد وأمته فيدعي محمد وأمته فيقال لهم هل بلغ هذا قومه فيقولون نعم فيقال وما علمكم فيقولون جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا قال فذلك قوله عز وجل (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) قال يقول عدلا (لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) القول الثاني لتكونوا شهداء لمحمد على الأمم اليهود والنصارى والمجوس ويكون الرسول شهيدا عليكم بأعمالكم قاله مجاهد

واعلم أنه كما فضل نبينا ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ على جميع الأنبياء فضلت أمتنا على سائر الأمم أخبرنا هبة الله بن محمد أنبأنا الحسين بن علي أنبأنا أحمد بن جعفر حدثنا عبد الله بن أحمد حدثني أبي حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له فهم لنا فيه تبع فاليوم لنا ولليهود غدا وللنصارى بعد غد قال أحمد وحدثنا يحيى عن شعبة حدثنا أبو إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله قال كنا مع رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ في قبة حمراء نحوا من أربعين فقال أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة قلنا نعم قال أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة قلنا نعم قال فوالذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد ثور أسود أو السوداء في جلد ثور أحمر قال أحمد وحدثنا إسماعيل أنبأنا أيوب عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ قال مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالا فقال من يعمل لي من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط ألا فعملت اليهود ثم قال من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط ألا فعملت النصارى ثم قال من يعمل لي من صلاة العصر

إلى غروب الشمس على قيراطين ألا فأنتم الذين عملتم فغضب اليهود والنصارى فقالوا نحن كنا أكثر عملا وأقل عطاء قال هل ظلمتكم من حقكم شيئًا قالوا لا قال إنما هو فضلي أوتيه من أشاء

(86/127)

واعلم أن فضيلة هذه الأمة على الأمم المتقدمة وإن كان ذلك باختيار الحق لها وتقديمه إياها إلا أنه جعل لذلك سببا كما جعل سبب سجود الملائكة لآدم علمه بما جهلوا فكذلك جعل لتقديم هذه الأمة سببا هو الفطنة والفهم واليقين وتسليم النفوس واعتبر حالهم بمن قبلهم فإن قوم موسى رأوا قدرة الخالق في شق البحر ثم قالوا (اجعل لنا إلها) ثم مال كثير منهم إلى عبادة العجل وعرضت لهم غزاة فقالوا (اذهب أنت وربك فقاتلا) ولم يقبلوا التوراة حتى نتق عليهم الجبل ولما اختار سبعين منهم فوقع في نفوسهم ما أوجب تزلزل الجبل بهم ولهذا لما صعد نبينا ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ إلى حراء في جماعة من أصحابه تزلزل الجبل فقال اسكن فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد فكأنه أشار إلى أنه ليس عليك من يشك كقوم موسى ومن تأمل حال بنى إسرائيل رآهم قد أمروا بقول حطة فقالوا حنطة وقيل لهم (ادخلوا الباب سجدا) فدخلوا زحفا وقالوا عن نبيهم هو آدر ومن

مذهبهم التشبيه والتجسيم وهذا من أعظم التغفيل لأن الجسم مؤلف ولا بد للمؤلف من مؤلف ومن غفلة النصارى اعتقادهم أن الله تعالى جوهر والجوهر يتماثل ولا مثل للخالق ثم يقولون عيسى ابنه وقد علم أن الابن بعض والخالق سبحانه لا يتجزأ فلا يتبعض ثم قد علموا أن عيسى لا يقوم إلا بالطعام والإله من قامت به الأشياء لا من قام بها وقد عرف يقين أمتنا وبذلهم أنفسهم في الحروب وطاعة الرسول وحفظهم للقرآن وأولئك كانوا لا يحفظون كتابهم فلهذا فضلوا فهم أول أمة يدخلون الجنة وقد قال عليه السلام أهل الجنة مائة وعشرون صفا أمتي منهم ثمانون صفا

أخبرنا ابن الحصين أنبأنا ابن المذهب أنبأنا أحمد بن جعفر حدثنا عبد الله ابن أحمد حدثني أبي حدثنا يزيد حدثنا بهز بن حكيم بن معاوية عن أبيه عن جده عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال ألا إنكم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى فالحمد لله الذي أعطانا بجوده وفضله ما لسنا من أهله

الكلام على البسملة

) للنقص من أعمارنا ما يكمل

والدهر يوئسنا ونحن نؤمل

(تمشي المنون رويدها لتغرنا

أبداً فتدركنا ونحن نهرول

(يا معجبا بالعيش طال بقاؤه

بطرا بقاؤك في المنية أطول

(عن جانبي دنياك فارغب إنه

أودى الحريص وما نجا المتوكل

(وإذا الجفون تخلصت من

مجمل الشبهات خلص نفسه من يعقل

(دنيا تسر بما يضر بمثله

واسم لها شهد ومعنى حنظل

يا هذا الدنيا دار المحن ودائرة الفتن ساكنها بلا وطن واللبيب قد فطن أين من مال إلى حب المال بالآمال وصبا وأصبح بين غبوقه وصبوحه لا يعرف وصبا وتقلب بجهله في روضتي هوى وصبا وأضحى علم شهواته على قباب عزه منتصبا وظل ربيع ربعه بوفور جمعه خصبا وكلما دعى إلى نفعه في عاقبته أبى أما شارك بمصرعه الفاجع له أما وأبا أما صار إذ رحل نبا أتراه تزود لمذهبه إذ أذهب ذهبا لقد لقي والله إذ نصب الموت شركه نصبا أين من

رضى ظلال البطالة بضلاله ربعا وفنا أما أدركه التلف في أسوأ حاله ثيابا وفنا لقد غادره جفاؤه لما ينفعه جفا لا يجد لمرضه إذ تمكن من جملته شفا أين من كان مجلسه بين الناس في الصدور أين من كانت همته نضار القصور أما استلبه الموت من المنازل والقصور أين من كانت تقوى بسقائه الظهور

(88/127)

أما عدم الظهير عند الموت حين الظهور حام الحمام حول حماه فلم ينفعه الحمى ورام راميه مراميه فرماه إذ رمى وصاحت به هاتفات الفراق بملء فيها ولفظته المنازل كأن لم يكن فيها كأن لم تعلق راحته براحة الهوى إذ زل قدمه في التلف وهوى وكأنه ما عزم على غرض ولا نوى إذ جذبته بأيديها النوى وكأنه ما تحرك من مراد ولا التوى حين أدركه سكون التلف والتوى أنبت والله حبل بقائه بأقطع المدى وانتثر منظوم حياته وانقطع المدى فأخرج عن الإنس كأنه ليس من الجنس وكف كفه في الرمس بعد تصرف الخمس وأصبحت منازله إذ لم يصبح بها ولم يمس كأن لم تغن بالأمس (أخي إنما الدنيا محلة تغصة

ودار غرور آذنت بفراق

(تزود أخي من قبل أن تسكن الثرى

ويلتف ساق للممات بساق

ما أقرب ما هو آت ما أبعد ما قد فات ما أغفل الأحياء عما حل بالأموات (يا غافلين عن

الفنا

ليس الفنا عنكم بغافل

أخبرنا يحيى بن علي المدير أخبرنا عبد الصمد بن المأمون أخبرنا الدارقطني حدثنا الحسين

بن إسماعيل حدثنا يوسف بن موسى حدثنا أبو أسامة عن بريد عن أبي بردة عن أبي

موسى عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ قال إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل

أتى قومه فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وأنا النذير العريان فالنجاء فأطاعه طائفة من

قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم

الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ومثل من عصاني

وكذب ما جئت به من الحق أخرجاه في الصحيحين وروى أبو هريرة عن النبي ﴿ صلى الله

عليه وسلم ﴾ أنه من أحد يموت إلا ندم قالوا

فما ندمه يا رسول الله قال إن كان محسنا ندم أن لا يكون ازداد وإن كان مسيئا ندم أن لا يكون نزع يا من لا يسمع قول ناصح أما هذا الشيب دليل واضح لمن نحدث والقلب غائب ليتنا نعلم مستقره فنكاتب قلنا له بياض الشيب قد فضحك فضحك يجمع التقصير إلى التفريط ويضم وينوي فعل الذنوب فيعزم ويهم ويحك تأمل هلال الهدى فما خفي ولا غم واسمع واعظ العبر فقد زعزع الجبال الشم وأيقظ قلبك الغافل وهيهات لا تسمع الصم وعم في بحر حزنك على ذنوب تعم فلقد بالغنا في زجرك يا من بالزجر قد أم فإذا رضيت أن تكون لنفسك مبيرا فلحى الله ظئرا أشفق من الأم

الكلام على قوله تعالى

(كنتم خير أمة أخرجت للناس) في (كنتم) قولان أحدهما أنه بمعنى الماضي ثم فيه خمسة أقوال أحدها كان وصفكم في البشارة بكم قبل وجودكم أنكم خير الناس قاله الحسن والثاني كنتم في سابق علم الله تعالى وحكمه قاله ابن مقسم والثالث كنتم في اللوح المحفوظ قد كتبتم خير أمة والرابع كنتم مذ كنتم والمعنى ما زلتم قاله ابن الأنباري والخامس وجدتم وخلقتم خير أمة القول الثاني أن معنى (كنتم) أنتم مثل قوله تعالى (وكان الله غفورا رحيما) قاله الزجاج وقال ابن قتيبة وقد يأتي الفعل على بنية الماضي وهو ذاهب أو مستقبل كقوله (كنتم) ومعناه أنتم ومثله (إذ قال الله) أي وإذ يقول ومثله (أتى

أمر الله) ومثله (من كان في المهد) ومثله (فسقناه إلى بلد ميت) أي فنسوقه قال أبو هريرة في قوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس) يجيئون بهم والأغلال في أعناقهم فيدخلون في الإسلام قال عطية يشهدون للأنبياء بالتبليغ اعلم أن الخيرية تشمل أمتنا أولها وآخرها وإن كان للأول فضل السبق أخبرنا الكروخي أنبأنا ابن عامر الأزدي وأبو بكر الغورجي قالا أنبأنا الجراحي حدثنا المحبوبي حدثنا الترمذي حدثنا قتيبة عن حماد عن ثابت البناني عن أنس عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال (مثل أمتي مثل المطر لا يدري أوله خير أم آخره) فإن قيل هذا يوجب ترددا في تفضيل الصحابة فالجواب أنه أراد تقريب آخر الأمة إلى أولها في الفضل كما تقول لا أدري أوجه هذا الثواب خير أم مؤخره وقد علم أن وجهه أفضل لكنك تريد تقريب مؤخره من وجهه في الجود ذكره ابن قتيبة فأما فضل الصحابة فلا يشك فيه إذ لهم صبر على الحق لا يشاركهم فيه أحد كان بلال يعذب في الرمضاء ويقولون له قل اللات والعزى وهو يقول أحد أحد وكان عم الزبير يعلق الزبير ويدخن عليه بالنار ويقول ارجع إلى الكفر فيقول لا أرجع أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد بن الخطيب أنبأنا أحمد بن يوسف أنبأنا الحسين بن صفوان أخبرنا أبو بكر القرشي أخبرنا علي ابن الجعد أخبرنا عمرو بن الشمر حدثني إسماعيل السدي قال سمعت أبا

أراكة قال صليت مع علي رضي الله عنه صلاة الفجر فلما سلم انفتل عن يمينه ثم مكث كأن

عليه كآبة حتى إذا كانت الشمس على حائط المسجد قيد رمح قلب يده فقال والله لقد رأيت أصحاب رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ فما أرى اليوم أحدا يشبههم لقد كانوا يصبحون شعثا غبرا بين أعينهم أمثال ركب المعزى قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم والله لكأن القوم باتوا غافلين ثم نهض فما رئي بعد ذلك مفترا يضحك حتى ضربه ابن ملجم ولقد جاء من بعد الصحابة سادات برزوا في العلم والعمل كان أبو مسلم الخولاني قد علق في مسجده سوطا يعذب به نفسه كلما فترت ويقول أتظن الصحابة أن يستأثروا بمحمد دوننا والله لأزاحمنهم عليه زحاما حتى يعلموا أنهم قد خلفوا رجالا وكان عامر بن عبد قيس يصلي كل يوم ألف ركعة وكان كهمس يختم في الشهر تسعين ختمة وصلى سليمان التيمي الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة وكان سفيان الثوري غاية في العلم والعمل فغلبه الخوف فصار يبول الدم فحمل ماؤه إلى الطبيب

فقال هذا لا يشبه ماء المسلمين هذا ماء الرهبان هذا رجل فتت الحزن كبده وحمل ماء سري السقطي إلى الطبيب فلما نظر إليه قال هذا بول عاشق قال حامله فصعقت وغشي علي ثم رجعت إلى سري فأخبرته فقال قاتله الله ما أبصره (إذا أنا واجهت الصبا عاد بردها

من حر أنفاسي عليه لهيب

(وقد أكثرت في الأطباء قولهم

ومالي إلا أن أراك طبيب

(يسالم قلبي الهم فهو حليفه

وبين جفوني والرقاد حروب

كان أبو عبيدة الخواص يقول واشوقاه إلى من يراني ولا أراه وكان ولهان المجنون يقول عدمت قلبا يحب غيرك وثكلت خواطر أنت بسواك وقيل لبعض عقلاء المجانين لم سميت مجنونا فقال لما طال حبسي عنه في الدنيا سميت مجنونا لخوف فراقه (قلبي يحبك ما يفيق

وجفن عيني ما ينام

(قد طال فيك الليل حتى

ما يقال له انصرام

(والنجم فيه راكد

والفجر يمنعه الظلام

(ليل بغير نهاية

ولكل مفتاح ختام

(92/127)

(في وصلك العيش الهني

وهجرك الموت الزؤام

قال الشبلي جزت براهب فقلت لمن تعبد فقال لعيسى قلت ولم قال لأنه بقي أربعين يوماً لا يأكل فقلت فعدها علي فأقمت تحت صومعته أربعين يوما لم آكل فأسلم أخبرنا أبو معمر الأنصاري أنبأنا محفوظ بن أحمد الفقيه قال قال لنا أبو علي الحسن بن غالب الحيري سمعت أبا سعيد أحمد بن المبارك البزاز يقول سمعت عمي محمد ابن أحمد يقول رأيت في المنام رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ في جامع الخليفة وإلى جانبه رجل مكتهل فسألت عنه فقيل هو عيسى بن مريم وهو يقول للنبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أليس من أمتي الرهبان أليس من أمتي الأحبار أليس من أمتي أصحاب الصوامع فدخل أبو الحسين بن سمعون فقال له رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ في أمتك مثل هذا فسكت فانتبهت

كانت قلوبهم بالحق متعلقة وأنوارهم على الظواهر متألقة كلما هدلت حمائم نوحهم هطلت غمائم شجوهم دموعهم في الدجى ذوارف لما بين أيديهم من المخاوف يغسلون بالبكاء ذنوب الصحائف خوفهم شديد وما فيهم مخالف إذا جن الليل فالقدم واقف يحنون إلى الحبيب حنين شارف الدمع مساعد والحزن مساعف يفزعون إلى التذكر إذا مسهم طائف أحوالهم عجاب وأمورهم طرائف كم بينهم وبين قوم موسى انقدوا يا صيارف (أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا

وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

(وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها

وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا

(وحدثتني يا سعد عنهم فزدتني

جنونا فزدني من حديثك يا سعد

(93/127)

علموا أن الدنيا متاع يفنى فعبروها وما عمروها للسكنى واشتغلوا بدار كلما نقضت هذه تبنى طرق الوعظ أسماعهم فتلمحوا المعنى يأخذون أهبة الرحيل ولا يأخذون عرض هذا

الأدنى لا كبر عندهم تراهم بين المساكين والزمني لو تأملتهم رأيت ضلوعا على المحبة تحنى

حلف صادقهم على هجر الهوى فلا والله ما استثنى وأقبلوا على قدم الفقر فلما رآهم

أغنى ذكروا الجنة فاشتاقوا ولا شوق قيس إلى لبنى قال النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾

اشتاقت الجنة إلى علي وعمار وسلمان (إلى الزهاد في الدنيا

جنان الخلد تشتاق

(عبيد من خطاياهم

إلى الرحمن أباق

(حدتهم نحوه الرغبة

والرهبة فاشتاقوا

(وراقت لهم الدنيا

وعاقتهم فما انعاقوا

(عليهم حين تلقاهم

سكينات وإطراق

(يضجون إلى الله

ودمع العين مهراق

(توهمهم وقد مالت

بسكر القوم أحداق

(وقد قاموا فلا يهجع

من قد ذاق ما ذاقوا

قال عبد الواحد بن زيد هجمنا مرة على نفر من العباد في بعض السواحل فتفرقوا حين رأونا فارتقينا على تلك الجزيرة وبتنا تلك الليلة فما كنا نسمع عامة الليل إلا الصراخ والنفور من النار فلما أصبحنا طلبناهم وتبعنا آثارهم فلم نر أحداً نفذت أبصار بصائرهم بنور الغيب إلى مشاهدة موصوف الوعد تعلقت أكف الآمال بما عاينت نواظر القلوب فأخمصوا البطون وغضوا الجفون وأهملوا الدموع على تململ ملسوع لو رأيتهم من خوف البين على أرجاء الرجا الدموع كالسيل والليل قد دجا ذكروا ظلم النفوس والظلام قد سجا فمال القلب إلى اليأس بفتوى الحجا فهب عليهم نسيم الظن فرجا فرجا (وقفنا فمن باك أجابت دموعه

ومعتصم بالصبر لم يملك الصبرا

(ومن سائر أجفانه بيمينه

وملق على أحشائه يده اليسرى

(ومن طائش لم يسعد الدمع وجده

وشر البكا ما استنفد الأدمع العزرا

(وقد ملقت خوص الركاب لبيننا

فلم تستطن ضعفاً لشاردها زجرا

(94/127)

قال بعض الصالحين لقيت غلاما في طريق مكة يمشي وحده فقلت له ما معك مؤنس قال بلى قلت أين هو قال أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي قلت أما معك زاد قال بلى قلت أين هو قال الإخلاص والتوحيد والإيمان والتوكل قلت هل لك في مرافقتي فقال الرفيق يشغل على الله عز وجل ولا أحب أن أرافق من يشغلني عنه طرفة عين قلت أما تستوحش في هذه البرية قال إن الأنس بالله قطع عني كل وحشة فلو كنت بين السباع ما خفتها قلت ألك

حاجة قال نعم إذا رأيتني فلا تكلمني فقلت ادع لي قال حجب الله طرفك عن كل معصية وألهم قلبك الفكر فيما يرضيه قلت حبيبي أين ألقاك قال أما في الدنيا فلا تحدث نفسك بلقائي وأما الآخرة فإنها تجمع المتقين فإن طلبتني هناك فاطلبني في زمرة الناظرين إلى الله عز وجل قلت وكيف علمت قال بغض طرفي له عن كل محرم واجتنابي فيه كل منكر ومأثم وقد سألته أن يجعل جنتي النظر إليه ثم صاح وأقبل يسعى حتى غاب عن بصري

وما تلوم جسمي عن لقائكم

إلا وقلبي إليكم شيق عجل

(وكيف يقعد مشتاق يحركه

إليكم الحافزان الشواق والأمل

(فإن نهضت فما لي غيركم وطر

وإن قعدت فما لي غيركم شغل

(وكم تعرض لي الأقوام بعدكم

يستأذنون على قلبي فما وصلوا

سجع

سبحان من قدمنا على جميع الناس وسقانا من معرفته أروى كاس وجعل نبينا أفضل نبي رعى وساس فلما فضله على الأمة وأنعم علينا بعلو الهمة قال لنا (كنتم خير أمة أخرجت للناس

أفي الأمم مثل أبي بكر الصديق أو عمر الذي أغص كسرى بالريق أو عثمان الصابر على مر المذيق أو علي بحر العلم الغمر العميق أو مثل حمزة والعباس أفيهم مثل طلحة والزبير القرينين أو سعد وسعيد هيهات من أين ألهم صبر خباب وخبيب ومن مثل الاثنين إن شبهناهم بهم أبعدنا القياس هل شجرة الرضوان في أشجارهم هل وقعة بدر من أسمارهم إنما عرضت لهم غزاة في جميع أعمارهم وجهادنا مع الأنفاس (كنتم خير أمة أخرجت للناس) أين أصحاب الأنبياء من أصحابنا هيهات ما القوم من أضرابنا ولا ثوابهم

في الأخرى مثل ثوابنا نتق الجبل فقالوا أقلنا ونحن قلنا في كتابنا على العينين والرأس (كنتم خير أمة أخرجت للناس) ردوا كتابهم وقد سطر وصك وطلبوا صنما وقيد الهجر قد فك وشكوا عند الجبل وما فينا من يشك إن تشبيه المسك باللك وسواس غمرهم التغفيل وتناهى فاعتقدوا للخالق أشباها فقالوا يوم اليم (اجعل لنا إلها) وما في عقائدنا نحن التباس آثر الصحابة الفقر والمجاعة واشتغلوا عن الدنيا بالطاعة وسألت النصارى مائدة للمجاعة إنما طلبوا قوت الأضراس أعند رهبانهم كزهد أويس أفي متعبديهم كعامر بن قيس أفي خايفهم كالفضيل هيهات ليس ضوء الشمس كالمقباس أفيهم مثل بشر ومعروف أفي زهادهم مذكور معروف أفي طوائفهم طائفة صلت وقد صلصلت السيوف ورنت الأقواس أفيهم مثل أبي حنيفة ومالك أو كالشافعي الهادي إلى المسالك كيف لا تمدحه وهو أجل من ذلك ما أحسن بنيانه والأساس أفيهم أعلى من الحسن وأنبل أو ابن سيرين

الذي بالورع تقبل أو كأحمد الذي بذل نفسه وسبل تا لله ما فيهم مثل ابن حنبل ارفع صوتك بهذا ولا باس (كنتم خير أمة أخرجت للناس) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التبصرة / لابن الجوزى حـ 1 صـ 488.501﴾

(96/127)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل :

في "كان" هذه – ستة أقوال :

أحدها : أنها ناقصة على بابها – وإذا كانت كذلك ، فلا دلالة لها على مُضِيٍّ وانقطاع ، بل تصلح للانقطاع نحو : كان زيدٌ قائماً ، وتصلح للدوام ، كقوله : ﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [النساء : 96] ، وقوله : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ [الإسراء : 32] ، فهي – هنا – بمنزلة : لم يزل ، وهذا بحسب القرائن .

وقال الزمخشري : "كان عبارة عن وجود الشيء في زمنٍ ماضٍ ، على سبيل الإبهام ، وليس فيه دليل على عدم سابق ، ولا على انقطاع طارئ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ ، وقوله : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : 110] .

كأنه قيل : وُجِدتم خيرَ أمة " .

قال أبو حيان : قوله : " لم يدل على عدم سابق " ، هذا إذا لم يكن بمعنى : " صار " ، فإذا كان بمعنى : " صار " دلت على عدم سابق ، فإذا قلتَ : كان زيدٌ عالماً – بمعنى : صار زيدٌ عالماً – دل على أنه نقل من حالة الجَهْل إلى حالة العلم .

وقوله : " ولا على انقطاع طارئ " ، قد ذكرنا – قبل – أن الصحيح أنها كسائر الأفعال ، يدل لفظ المُضِيّ منها على الانقطاع ، ثم قد يستعمل حيث لا انقطاع ، وفرق بين الدلالة والاستعمال ؛ ألا ترى أنك تقول : " هذا اللفظ يدل على العموم " ثم قد يستعمل حيث لا يراد العموم ، بل يراد الخصوص .

وقوله : كأنه قيل : " وجدتم خير أمة " ، هذا يعارض قوله : إنها مثل قوله : ﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ ؛ لأن تقديره : وجدتم خير أمة يدل على أنها التامة ، وأن ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ حال ، وقوله : ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ لا شك أنها – هنا – الناقصة ، فتعارضا .

قال شهابُ الدين : " لا تعرُضَ ؛ لأن هذا تفسير معنًى ، لا إعراب " .

الثاني : أنها بمعنى : " صرتم " ، و" كان " تأتي بمعنى : " صار " كثيراً .

كقوله : [الطويل]

بِتَيْهَاءَ قَفْرٍ وَالْمَطِيّ كَأَنَّهَا . . . قَطَا الْحَزْنِ قَدْ كَانَتْ فِرَاخاً بُيُوضُهَا

أي : صارت فراخاً .

الثالث : أنها تامة ، بمعنى : " وجدتم " ، و﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ - على هذا منصوب على الحال ، أي : وجدتم على هذه الحال .

الرابع : أنها زائدة ، والتقدير : أنتم خير أمة ، وهذا قول مرجوح ، أو غلط ، لوجهين :

أحدهما : أنها لا تزاد أولاً ، وقد نقل ابنُ مالك الاتفاق على ذلك .

الثاني : أنها لا تعمل في " خير " مع زيادتها .

وفي الثاني نظر ، إذ الزيادة لا تنافي العمل ، لما تقدم عند قوله : " وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله " ؟

الخامس : أنها على بابها ، والمراد : كنتم في علم الله ، أو في اللوح المحفوظ ، أو في الأمم السالفة ، مذكورين بأنكم خير أمة .

السادس : أن هذه الجملة متصلة بقوله : " ففي رحمة الله " ، أي : فيقال لهم يوم القيامة : " كنتم خير أمة " ، وهو بعيد جِداً .

قوله : ﴿ أُخْرِجَتْ ﴾ يجوز في هذه الجملة أن تكون في مَحَلّ جَرّ ؛ نعتاً لـ " أمةٍ " - وهو الظاهر - وأن تكون في محل نصب ؛ نعتاً لـ " خَيْر " ، وحينئذ يكون قد روعي لفظ الاسم الظاهر بعد وروده بعد ضمير الخطاب ، ولو روعي ضمير الخطاب لكان جائزاً - أيضاً - وذلك أنه إذا تقدم ضميرُ حاضرٍ - متكلّماً كان أو غائباً أو ماطباً - ثم جاء بعده خبره اسماً ظاهراً ، ثم جاء بعد ذلك الاسم الظاهر ما يصلح أن يكون وصفاً له كان للعرب فيه طريقان :

أحدهما : مراعاة ذلك الضمير السابق ، فيطابقه بما في تلك الجملة الواقعة صفة للاسم الظاهر .

الثانية : مراعاة ذلك الاسم الظاهر ، فيبعد الضمير عليه منها غائباً ، وذلك كقولك : أنت رجل يأمر بالمعروف ، بالخطاب ، مراعاة لـ " أنت " ، وبالغيبة ، مراعاة للفظ " رجل " ، وأنا امرؤ أقول الحق - بالمتكلم ؛ مراعاة لـ " أنا " ويقول الحقّ ، مراعاة لمرئٍ ، وبالغيبة مراعاة للفظ امرئ ، ومن مراعاة الضمير قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [النمل : 55] ، وقوله : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ [النمل : 47] ، وقوله صلى الله عليه وسلم : " إنَّكَ امْرُؤٌ فيكَ جَاهِلِيَّةٌ " .

وقول الشاعر : [الطويل]

وأَنْتَ امْرُؤٌ قَدْ كَثَّأَتْ لَكَ لِحْيَةٌ . . . كَأَنَّكَ مِنْهَا قَاعِدٌ فِي جُوَالِقِ

ولو قيل : – في الآية الكريمة – : أخْرِجْتُمْ ؛ مراعاة لـ " كُنْتُمْ " لكان جائزاً – من حيث اللفظ – ولكن لا يجوز أن يُقْرأ به ؛ لأن القراءة سنّة مُتّبَعَة ، فالأولَى أن تُجْعَل الجملة صفة لـ " أمّةٍ " ، لا لـ " خَيْرَ " ن لتناسب الخطاب في قوله : ﴿ تَأْمُرُونَ ﴾ .

قوله : ﴿ لِلنّاسِ ﴾ فيه أوجه :

(98/127)

أحدها : أن تتعلق بـ ﴿ أُخْرِجَتْ ﴾ ومعناه : ما أخرج الله أمة خيراً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي الحديث : " ألا وإنّ هَذِهِ الأمة تُوفِّي سبعين أمة ، أنتم خَيْرُهَا وَأكْرَمُهَا عَلَى اللهِ تَعَالَى " .

الثاني : أنه متعلق بـ " خَيْرَ " أي : أنتم خير الناس للناس .

قال أبو هريرة : معناه : كنتم خير الناس للناس ؛ تجيئون بهم في السلاسل ، فتُدْخلونهم في الإسلام .

وقال قتادة : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم يؤمر نبيٌّ قبله بالقتال ، فهم يقاتلون الكفار ، فيُدْخلونهم في الإسلام ، فهم خير أمةٍ للناس .

والفرق بينهما – من حيث المعنى – أنه لا يلزم أن يكونوا أفضلَ الأمم – في الوجه الثاني –

من هذا اللفظ بل من موضع آخرَ .

الثالث : أنه متعلِّق – من حيث المعنى ، لا من حيث الإعراب ، بـ " تَأْمُرُونَ " على أن مجرورَها مفعول به ، فلما تقدم ضعُفَ العامل ، فَقُوِّيَ بزيادة اللام ، كقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف : 43] أي : إن كنتم تعبرون الرؤيا .

قوله : ﴿ تَأْمُرُونَ ﴾ في هذه الجملة أوجُهٌ :

الأول : أنها خبر ثان لِ "كُنْتُمْ" ، ويكون قد راعى الضمير المتقدم – في "كُنْتُمْ" ، ولو راعى الخبر لقال : يأمرون – بالغيبة ، وقد تقدم تحقيقه .

الثاني : أنها في محل نصب على الحال ، قاله الراغب وابن عطية .

الثالث : أنها في محل نصب ؛ نعتاً لِ ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ ، وأتى بالخطاب لما تقدم ، قاله الحوفي .

(99/127)

الرابع : أنها مستأنفة ، بيَّن بها كونهم خير أمة ، كأنه قيل : السبب في كونكم خير الأمم هذه الخصال الحميدة ، والمقصود بيان علة تلك الخيرية – كقولك : زيد كريم ؛ يُطعِم الناسَ ويكسوهم – لأن ذِكْرَ الحكم مقروناً بالوصف المناسِب له يُشْعِر بالعلِّيَة ، فها هنا لما ذكر – عقيب الخيرية – أمْرَهم بالمعروف ، ونَهْيَهُم عن المنكر ، أوجب أن تكون تلك الخيرية لهذا

السبب ، وهذا أغرب الأوجه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 462 . 467 ﴾

فصل

قال الخازن :

عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم قال عمران : فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة ثم إن بعدهم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن "

زاد في رواية : " ويحلفون ولا يستحلفون "

عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته " قوله : " خير الناس قرني " يعني أصحابي القرن أهل كل زمان مأخوذ من الاقتران فكأنه الزمان الزمان الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم وأحوالهم ، وقيل القرن أربعون سنة وقيل ثمانون وقيل مائة .

عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تسبوا أصحابي فلو أن أحداً أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه " النصيف النصف .

وقال ابن عباس في رواية عطاء في قوله : كنتم خير أمة هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال الزّجاج قوله كنتم خير أمة الخطاب فيه مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه عام في كل أمة ونظيره قوله : "كتب عليكم الصيام ، كتب عليكم القصاص " فإن كل ذلك خطاب مع الحاضرين بحسب اللفظ ، ولكنه عام في حق الكل كذا ههنا عن " بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول في قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ قال أنتم الأمة تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن وأصل الأمة الجماعة المجتمعة على الشيء .

وأمة محمد صلى الله عليه وسلم هم الجماعة الموصوفين بالإيمان بالله عز وجل وبمحمد صلى الله عليه وسلم

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى .

قالوا : ومن يأبى ؟ قال من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى " عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله لا يجمع أمتي او قال أمة محمد صلى الله عليه وسلم على ضلالة ويد الله على الجماعة ومن شذ شذ في النار " أخرجه الترمذي عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أمتي أمة مرحومة ليس عليها

عذاب في الآخرة عذابها في الدنيا الفتن والزلازل والقتل " أخرجه أبو داود عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مثل أمتي كمثل المطر لا يدري آخره خير أم أوله " أخرجه الترمذي

(101/127)

وله عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أهل الجنة عشرون ومائة صف ، ثمانون من هذه الأمة ، وأربعون من سائر الأمم " وله عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " باب أمتي الذي يدخلون من الجنة عرضه مسيرة الراكب المسرع المجد ثلاثاً ثم إنهم يتضاغطون عليه حتى تكاد مناكبهم تزول " قال الترمذي سألت محمداً يعني البخاري عن هذا الحديث فلم يعرفه وقال لخالد بن أبي بكر مناكير عن سالم بن عبد الله زاد غيره في الحديث وهم شركاء الناس في سائر الأبواب عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أمتي من يشفع في الفئام من الناس ومنهم من يشفع في القبيلة ومنهم من يشفع للعصبة من يشفع للواحد " أخرجه الترمذي

عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً أو سبعمائة ألف سماطين متماسكين آخذ بعضهم ببعض حتى يدخل أولهم

وآخرهم الجنة وجوههم على صورة القمر ليلة البدر " عن أبي أمامة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " وعدني ربي أن يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب ومع كل ألف سبعون ألفاً وثلاث حثيات من حثيات ربي " أخرجه الترمذي .

وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي " وقوله تعالى : ﴿ أخرجت للناس ﴾ معناه كنتم خير الأمم المخرجة للناس في جميع الأعصار ومعنى أخرجت أظهرت للناس حتى تميزت وعرفت وقيل معناه كنتم للناس خير أمة أخرجت

عن أبي هريرة قال : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ قال : خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام ، وقيل : أخرجت صلة والتقدير كنتم خير أمة للناس وقيل معناه كنتم للناس خير أمة للناس وقيل معناه ما أخرج للناس أمة خير من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 403 . 404 ﴾

فصل نفيس فى فضل هذه الأمة

قال العلامة ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم فقال : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ .

قال البخاري : حدثنا محمد بن يوسف ، عن سفيان ، عن مَيْسَرة ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قال : خَيْرَ الناس للناس ، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام (1) .

وهكذا قال ابن عباس ، ومُجاهد ، وعِكْرِمة ، وعَطاء ، والربيع بن أنس ، وعطية العَوْفِيّ : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ يعني : خَيْرَ الناس للناس .

والمعنى : أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس ؛ ولهذا قال : ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا أحمد بن عبد الملك ، حدثنا شريك ، عن سِماك ، عن عبد الله بن عُمَيرة عن زوج [دُرّةَ] بنت أبي لَهَب ، [عن درة بنت أبي لهب] قالت : قام رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر ، فقال : يا رسول الله ، أيّ الناس خير ؟ فقال : "خَيْرُ النَّاسِ أَقْرَؤهُمْ وأتقاهم للهِ ، وآمَرُهُمْ بالمعروفِ ، وأَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأَوْصَلُهُمْ

لِلرَّحِمِ" (2) .

ورواه أحمد في مسنده ، والنسائي في سننه ، والحاكم في مستدركه ، من حديث سماك ، عن سعيد بن جُبَير عن ابن عباس في قوله : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قال : هم الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة (3) .

---

(1) صحيح البخاري برقم (4557) .

(2) المسند (432/6) .

(3) المسند (319/1) والنسائي في السنن الكبرى (11072) والمستدرك (294/2) وقال الحاكم : "صحيح الإسناد على شرط مسلم" ووافقه الذهبي .

(103/127)

والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة ، كل قَرْن بحسبه ، وخير قرونهم الذين بُعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم الذين يَلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أي : خيارا ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ [وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا] ﴾ الآية .

وفي مسند الإمام أحمد ، وجامع الترمذي ، وسنن ابن ماجة ، ومستدرك الحاكم ، من

رواية حكيم بن مُعَاوية بن حَيْدَة ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً ، أَنْتُمْ خَيْرُهَا ، وأَنْتُمْ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ عزَّ وجَلَّ" (1) .

وهو حديث مشهور ، وقد حَسَّنه الترمذي . ويروى من حديث معاذ بن جبل ، وأبي سعيد [الخدري] نحوه .

وإنما حازت هذه الأمة قَصَبَ السَّبْق إلى الخيرات بنبيها محمد صلى الله عليه وسلم فإنه أشرفُ خلق الله أكرم الرسل على الله ، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يُعْطه نبيًّا قبله ولا رسولا من الرسل . فالعمل [على] منهاجه وسبيله ، يقومُ القليلُ منه ما لا يقوم العملُ الكثيرُ من أعمال غيرهم مقامه ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا ابن زُهَير ، عن عبد الله -يعني ابن محمد بن عقيل- عن محمد بن علي ، وهو ابن الحنفية ، أنه سمع علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنْ الأَنْبِيَاءِ" . فقلنا : يا رسول الله ، ما هو ؟ قال : " نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الأَرْضِ ، وَسُمِّيتُ أَحْمَدَ ، وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهُورًا ، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الأمَمِ" . تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وإسناده حسن (2) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو العلاء الحسن بن سَوَّار ، حدثنا لَيْث ، عن معاوية عن بن أبي حُلَيْس يزيد بن مَيْسَرَةَ قال : سمعت أم الدرداء ، رضي الله عنها ، تقول : سمعت أبا

الدرداء يقول : سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم ، وما سمعته يكنيه قبلها ولا بعدها ، يقول إنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : يَا عِيسَى ، إِنِّي بَاعِثٌ بَعْدَكَ أُمَّةً ، إِنْ أَصَابَهُمْ مَا يُحِبُّونَ حَمِدُوا وشَكَرُوا ، وإِنْ أَصَابَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ احْتَسَبُوا وَصَبَرُوا ، وَلَا حِلْمَ وَلَا عِلْمَ" . قال : يَا رَبِّ ، كَيْفَ هَذَا لَهُمْ ، وَلَا حِلْمَ وَلَا عِلْمَ ؟ . قال : "أُعْطِيهِمْ مِنْ حِلْمِي وعلمي" (3) .

---

(1) المسند (447/4) وسنن الترمذي برقم (3001) وسنن ابن ماجة برقم (4287) والمستدرك (84/4) .

(2) المسند (98/1) وقال الهيثمي في المجمع (260/1) : "فيه عبد الله بن محمد بن عقيل وهو سيئ الحفظ . وقال الترمذي : صدوق وقد تكلم فيه بعض العلماء من قبل حفظه ، وسمعت محمد البخاري يقول : كان أحمد بن حنبل وإسحاق والحميدي يحتجون بحديث ابن عقيل . قلت : فالحديث حسن" .

(3) المسند (450/6) .

وقد وردت أحاديثُ يناسب ذكرُها هاهنا :

قال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا المسعودي ، حدثنا بُكَيْر بن الأَخْنَس

، عن رجل، عن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أُعْطِيتُ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَاسْتَزَدْتُ رَبِّي، عز وجل، فَزَادَنِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سبعين أَلْفًا". فقال أبو بكر، رضي الله عنه: فرأيت أن ذلك آتٍ على أهل القرى، ومصيبٌ من حافات البوادي (1).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن بكر السهمي، حدثنا هشام بن حسان، عن القاسم بن مهران، عن موسى بن عبيد، عن ميمون بن مهران، عن عبد الرحمن بن أبي بكر؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ رَبِّي أَعْطَانِي سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، بِغَيْرِ حِسَابٍ". فقال عمر: يا رسول الله، فهلا استزدته؟ فقال: "اسْتَزَدْتُهُ فَأَعْطَانِي مَعَ كُلِّ رَجُلٍ سَبْعِينَ أَلْفًا". قال عمر: فهلا استزدته؟ قال: "قَدِ اسْتَزَدْتُهُ فَأَعْطَانِي هكذا". وفرج عبد الله بن بكر بين يديه، وقال عبد الله: وبسط باعيه، وحثا عبد الله، قال هشام: وهذا من الله لا يدرى ما عدده (2).

---

(1) المسند (6/1) وقال الهيثمي في المجمع (410/10): "فيه المسعودي وقد اختلط وتابعيه لم يسم، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح".

(2) المسند (197/1) وفي إسناده القاسم بن مهران وموسى بن عبيد وهما مجهولان، وبقية رجاله رجال الصحيح.

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو اليَمان ، حدثنا إسماعيل بن عَيّاش ، عن ضَمْضم بن زُرْعة قال : قال شُرَيح بن عبيد : مَرِضَ ثَوْبَان بحِمْص ، وعليها عبد الله بن قُرْط الأزْدِي ، فلم يَعُدْه ، فدخل على ثوبان رجل من الكَلاعيين عائدًا ، فقال له ثوبان : [أتكتب ؟ قال : نعم : فقال : اكتب ، فكتب للأمير عبد الله بن قرط ، "من ثوبان] مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما بعد : فإنه لو كان لموسى وعيسى ، عليهما السلام ، بحضرتك خَادم لعدته" ثم طوى الكتاب وقال له : أتبلغه إياه ؟ فقال : نعم . فانطلقَ الرجلُ بكتابه فدفعه إلى ابن قرط ، فلما رآه قام فَزِعا ، فقال الناس : ما شأنه ؟ أحدث أمر ؟ فأتى ثوبان حتى دخل عليه فعاده ، وجلس عنده ساعة ثم قام ، فأخذ ثوبان بردائه وقال : اجلس حتى أحدثك حديثًا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته يقول : "لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا ، لا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلا عَذَابَ ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا" .

تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وإسناد رجاله كلهم ثقات شاميون حِمْصِيّون فهو حديث صحيح (1) ولله الحمد .

طريق أخرى : قال الطبراني : حدثنا عمرو بن إسحاق بن زِبْريق الحِمْصي ، حدثنا محمد بن

(1) المسند (280/5) .

(106/127)

إسماعيل -يعني ابن عَيَّاش- حدثنا أبي ، عن ضَمْضَم بن زُرْعة ، عن شُرَيح بن عبيد ، عن أبي أسماء الرَحَبيّ ، عن ثوبان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إنَّ رَبِّي ، عَزَّ وجلَّ ، وَعَدَنِي مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا لا يُحاسَبُونَ ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا" .

هذا لعله هو المحفوظ بزيادة أبي أسماء الرحبي ، بين شريح وبين ثوبان (1) والله أعلم .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمر ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن عمران بن حُصَين ، عن ابن مسعود قال : أكثرنا الحديث عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، ثم غدَوْنا إليه فقال : "عُرِضَتْ عَلَيَّ الأَنْبِيَاءُ اللَّيْلَةَ بِأُمَمِهَا ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ يَمُرُّ وَمَعَهُ الثَّلاثَةُ ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الْعِصَابَةُ ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ النَّفَرُ ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ ، حَتَّى مَرَّ عَلَيَّ مُوسَى ، عليه السلام ، وَمَعَهُ كَبْكَبَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَأَعْجَبُونِي ، فَقُلْتُ : مَنْ هَؤُلاءِ ؟ فَقِيلَ لِي : هَذَا أَخُوكَ مُوسَى ، مَعَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ" . قال :

"قُلْتُ : فَأَيْنَ أُمَّتِي ؟ فَقِيلَ : انْظُرْ عَنْ يَمِينِكَ . فَنَظَرْتُ فَإِذَا الظِّرَابُ قَدْ سُدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ ثُمَّ قِيلَ لِي انْظُرْ عَنْ يَسَارِكَ فَنَظَرْتُ فَإِذَا الأُفُقُ قَدْ سُدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ فَقِيلَ لِي : قَدْ رَضِيتَ ؟ فَقُلْتُ "رَضِيتُ يَا رَبِّ ، [رَضِيتُ يَا رَبِّ] " قَالَ : "فَقِيلَ لِي : إِنَّ مَعَ هَؤُلاءِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ" . فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "فِدَاكُمْ أَبِي وَأُمِّي إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا فَافْعَلُوا فَإِنْ قَصَّرْتُمْ فَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الظِّرَابِ فَإِنْ قَصَّرْتُمْ فَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الأُفُقِ ، فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ ثَمَّ أُنَاسًا يَتَهَاوَشُونَ" . فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ : ادع الله يا رسول الله أن يجعلني منهم . أي من السبعين ، فدعا له . فقام رجل آخر فَقَالَ : ادع الله يا رسول الله أن يجعلني منهم

---

(1) المعجم الكبير (92/2) ورواه أيضا في مسند الشاميين رقم (1682) .

(107/127)

فَقَالَ : "قَدْ سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ" . قَالَ : ثُمَّ تَحَدَّثْنَا فقلْنَا : لِمَنْ (6) تُرَوْنَ هؤلاء السبعين الألف ؟ قوم وُلِدُوا في الإسلام لم يُشْرِكُوا بالله شيئًا حتى ماتوا . فبلغ ذلك النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال : "هُمُ الَّذِينَ لا يَكْتَوُونَ وَلا يَسْتَرْقُونَ وَلا يَتَطَيَّرُونَ ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ" (1) .

هكذا رواه أحمد بهذا السَّنَد وهذا السياق، ورواه أيضا عن عبد الصمد، عن هشام، عن قتادة، بإسناده مثله، وزاد بعد قوله: "رَضِيتُ يَا رَبِّ رضيت يا رب" قال رَضِيتَ؟ قُلْتُ: "نَعَمْ". قَالَ: انْظُرْ عَنْ يَسَارِكَ قال: "فَنَظَرْتُ فَإِذَا الأُفُقُ قَدْ سُدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ". فقال: رَضِيتَ؟ قُلْتُ: "رَضِيتُ". وهذا إسناد صحيح من هذا الوجه، تفرد به أحمد ولم يخرجوه (2).

حديث آخر: قال أحمد بن مَنِيع: حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز، حدثنا حمّاد، عن عاصم، عن

---

(1) المسند (1/401).

(2) المسند (1/420).

(108/127)

زر، عن ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم: "عُرِضَتْ عَلَيَّ الأمَمُ بِالْمَوْسِمِ فَرَاثَتْ عَلَيَّ أُمَّتِي، ثُمَّ رَأَيْتُهُمْ فَأَعْجَبَتْنِي كَثْرَتُهُمْ وَهَيْئَاتُهُمْ، قَدْ مَلَؤوا السَّهْلَ وَالْجَبَلَ"، فَقَالَ: أَرَضِيتَ يَا مُحَمَّدُ؟ فَقُلْتُ: "نَعَمْ". قَالَ: فَإِنَّ مَعَ هَؤُلاءِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَهُمُ الَّذِينَ لا يَسْتَرْقُونَ وَلا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ". فَقَامَ عُكَاشَةُ

فَقَالَ: يَا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم فقال: "أَنْتَ مِنْهُمْ" فقام رجل آخر فقال: [ادع الله أن يجعلني منهم فقال] سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ". رواه الحافظ الضِّياء المقْدِسيّ، قال: هذا عندي على شرط مسلم (1).

حديث آخر: قال الطبراني: حدثنا محمد بن محمد الجُذُوعيّ القاضي، حدثنا عُقْبة بن مكْرم. حدثنا محمد بن أبي عَدِيّ عن هشام بنِ حسان عن محمد بن سِيرين، عن عِمْران بن حُصَين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يَدْخُل الجَنَّةَ مِنْ أمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بغَيْرِ حِسَاب ولَا عَذَاب". قيل: من هم؟ قال: "هُمْ الَّذِينَ لَا يَكْتَوُونَ ولَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ". رواه مسلم من طريق هشام بن حسان، وعنده ذكر عكاشة (2).

---

(1) ورواه ابن حبان في صحيحه برقم (2646) "موارد" وأبو يعلى في مسنده (233/9) والبزار في مسنده (204/4) كلهم من طريق حماد عن عاصم به.

(2) المعجم الكبير (183/18) وصحيح مسلم برقم (216).

حديث آخر : ثبَتَ في الصحيحين من رواية الزُّهْرِي ، عن سعيد بن الْمُسَيَّب ، أن أبا هريرة حدثه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ وَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا ، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ" . فقال أبو هريرة : فقام عُكَاشة بن مِحْصَن الأسدي يرفع ، نَمِرةً عليه فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ" . ثم قام رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم فقال : "سَبَقَكَ بِهَا عكاشَةُ" (1) .

حديث آخر : قال أبو القاسم الطبراني : حدثنا يحيى بن عثمان ، حدثنا سعيد بن أبي مريم ، حدثنا أبو غَسَّان ، عن أبي حازم ، عن سَهْل بن سَعْد ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لَيدخُلَنَّ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا -أَوْ سَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ- آخِذٌ بَعْضُهُمْ ببعض ، حَتَّى يدخل أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمُ الْجَنَّةَ ، وَوجُوهُهُم عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ" .

أخرجه البخاري ومسلم جميعًا ، عن قُتَيْبَة عن عبد العزيز بن أبي حازم ، عن أبيه ، عن سَهْل به (2) .

---

(1) صحيح البخاري برقم (6542) وصحيح مسلم برقم (216) .

(2) المعجم الكبير (142/6) وصحيح البخاري برقم (6554) وصحيح مسلم برقم (219) .

حديث آخر : قال مسلم بن الحجّاج في صحيحه : حدثنا سعيد بن منصور ، حدثنا هُشَيْم ، أخبرنا حُصَيْن بن عبد الرحمن قال : كنت عند سعيد بن جُبَير فقال : أيُّكم رأى الكوكب الذي انقضَّ البارحة ؟ قلتُ : أنا . ثم قُلتُ : أما إني لم أكن في صلاة ، ولكني لُدغْتُ : قال : فما صنعتَ ؟ قلتُ : استرقَيْتُ . قال : فما حملك على ذلك ؟ قلتُ : حديث حدَّثَنَاه الشعبي . قال : وما حدثكم الشعبي ؟ قلت : حَدَّثَنَا عن بُرَيْدَة بن الحُصَيب الأسلمي أنه قال : لا رُقْيَةَ إلا مِنْ عَيْنٍ أو حُمّة . فقال : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ، ولكن حدثنا ابنُ عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "عُرِضَتْ عَلَيَّ الأممُ ، فرَأَيتُ النَّبِيَّ ومَعَهُ الرُّهَيط والنَّبِيَّ ومَعَهُ الرَّجُل والرَّجُلان والنَّبِيَّ ولَيْسَ مَعَهُ أحَدٌ ، إذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ ، فظَنَنْتُ أنَّهُمْ أُمَّتِي ، فقِيلَ لي : هَذَا مُوسَى وقومُهُ ، ولَكِنِ انظُرْ إلى الأفق . فنَظَرتُ ، فإذا سَوَادٌ عظِيمٌ ، فقِيلَ لي : انْظُرْ إلى الأُفُقِ الآخَرِ ، فإذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ ، فقِيلَ لي : هَذِهِ أُمَّتُكَ ومعَهُم سَبْعُونَ ألْفًا يَدْخُلُونَ الجنة بغَيْرِ حِسَابٍ ، ولا عَذَابٍ" . ثم نَهَضَ فدخل منزله ، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، فقال بعضهم : فلعلهم الذين صَحِبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال بعضهم :

فلعلهم الذين وُلِدُوا في الإسلام فلم يُشْرِكوا بالله شيئًا ، وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ ؟ " فأخبروه ، فقال : "هُمُ الَّذِينَ لا يَرْقُونَ وَلا يَسْتَرْقُونَ وَلا يَتَطيرون ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ" . فقام عكاشة بن مِحصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم قال :

(111/127)

"أَنْتَ مِنْهُمْ" . ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم . قال : "سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ" .

وأخرجه البخاري عن أُسَيد بن زيد ، عن هُشَيم وليس عنده ، "لا يرقون" (1) .

حديث آخر : قال أحمد : حدثنا رَوْح بن عبادة . حدثنا ابن جُرَيج ، أخبرني أبو الزُّبَيْر ، أنه سمع جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر حديثًا ، وفيه : "فَتَنْجُو أَوَّلُ زُمْرَةٍ وُجُوهُهُمْ كَالقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ سَبْعُونَ أَلْفًا ، لا يُحَاسَبُونَ ثم الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، كَأَضْوَإِ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ ثُمَّ كَذَلِكَ" . وذكر بقيته ، رواه مسلم من حديث رَوْح ، غير أنه لم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم (2) .

حديث آخر : قال الحافظ أبو بكر بن أبي عاصم في كتاب السنن له : حدثنا أبو بكر بن أبي

شيبة، حدثنا إسماعيل بن عيّاش، عن محمد بن زياد، سمعت أبا أمامة الباهلي يقول: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "وَعَدنِي ربّي أن يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلفًا، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، لا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلا عَذابَ. وَثَلاثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيات ربِّي عزَّ وجَلَّ".

وكذا رواه الطبراني من طريق هشام بن عمار، عن إسماعيل بن عياش، به، وهذا إسناد جيد (3).

طريق أخرى عن أبي أمامة: قال ابن أبي عاصم: حدثنا دُحَيم، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا

---

(1) صحيح مسلم برقم (220) وصحيح البخاري برقم (5752، 3410، 5705، 6541، 6472).

(2) المسند (283/3).

(3) السنة لابن أبي عاصم برقم (589) والمعجم الكبير (129/8).

صفوان بن عَمرو ، عن سليم بن عامر ، عن أبي اليمان الهوزَني - واسمه عامر بن عبد الله بن لُحيّ ، عن أبي أمامة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إِنَّ اللهَ وَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ الْجنةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ" . قال يزيد بن الأخنس : والله ما أولئك في أمتك يا رسول الله إلا مثل الذباب الأصهب في الذباب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فَإِنَّ اللهَ وَعَدَنِي سَبْعِينَ أَلْفًا ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلفًا ، وَزَادَنِي ثَلاثَ حَثَيَاتٍ" . وهذا أيضًا إسناد حسن (1) .

حديث آخر : قال أبو القاسم الطبراني : حدثنا أحمد بن خُلَيْد ، حدثنا أبو توْبة ، حدثنا معاوية بن سلام ، عن زيد بن سلام أنه سمع أبا سلام يقول : حدثني عامر بن زيد البُكَالي أنه سمع عُتْبة بن عبْد السلمي ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ ، ثُمَّ يَشْفَعُ كُلُّ أَلْفٍ لِسَبْعِينَ أَلْفًا ، ثم يَحْثي رَبِّي ، عز وجل ، بِكَفَيْهِ ثَلاثَ حَثَيَات" . فكبر عمر وقال : إن السبعين الأول يُشفعهم الله في آبائهم وأبنائهم وعشائرهم ، وأرجو أن يجعلني الله في إحدى الحثيات الأواخر .

قال الحافظ الضياء المقدسي في كتابه صفة الجنة : لا أعلم لهذا الإسناد علة . والله أعلم (2) .

---

(1) السنة لابن أبي عاصم برقم (588) .

(2) المعجم الكبير (17/126 ، 127) ورواه الطبراني أيضا في المعجم الأوسط (1/254) بهذا الإسناد . وقال الهيثمي في المجمع (10/413) : "وفيه عامر بن زيد البكالي ، وقد ذكره ابن أبي حاتم ولم يجرحه ولم يوثقه ، وبقية رجاله ثقات" .

(127/113)

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا هشام -يعني الدَّستَوائي- حدثنا يحيى بن أبي كثير ، عن هلال بن أبي ميمونة ، حدثنا عطاء بن يَسَار أن رِفَاعة الجُهَنيّ حدّثه قال : أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كنا بالكُدَيد -أو قال بقُدَيْد- فذكر حديثا ، وفيه : ثم قال : وَعَدَنِي رَبِّي ، عَزَّ وَجَلَّ ، أَنْ يُدْخِلَ الْجَنةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَاب ، وَإِنِّي لأَرْجُو أَلا يَدْخُلُوهَا حَتَّى تبوؤُوا أَنْتُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وذرياتكم مَسَاكِنَ فِي الْجَنَّةِ" .

قال الضياء [المقدسي] وهذا عندي على شرط مسلم (1) .

حديث آخر : قال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، عن قتادة ، عن النَّضْر بن أنس ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنَّ اللهَ وَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ الجنةَ مِنْ أُمَّتِي أَرْبعمِائَةِ أَلْفٍ" . قال أبو بكر : زدنا يا رسول الله . قال : والله هكذا فقال عمر : حسبك يا

أبا بكر . فقال أبو بكر : دعني ، وما عليك أن يدخلنا الله الجنة كلنا فقال عمر : إن شاء الله أَدْخَلَ خَلْقه الجنة بكفٍّ واحد . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "صَدَقَ عُمَرُ" .

---

(1) المسند (16/4) .

(114/127)

هذا الحديث بهذا الإسناد انفرد به عبد الرزاق (1) قاله الضياء . وقد رواه الحافظ أبو نُعيم الأصبهاني :

حدثنا محمد بن أحمد بن مَخْلَد ، حدثنا إبراهيم بن الْهَيْثَم البَلَدِي ، حدثنا سليمان بن حَرْب ، حدثنا أبو هلال ، عن قتادة ، عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي مِائَةَ أَلْف" . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، زدنا قال : "وهكذا" –وأشار سليمان بن حرب بيده كذلك– قلت يا رسول الله ، زدنا . فقال عمر : إن الله قادر أن يدخل الناس الجنة بِحَفْنَةٍ واحدة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صَدَقَ عُمَرُ" . هذا حديث غريب من هذا الوجه وأبو هلال اسمه : محمد بن سُلَيْم الراسبي ، بصري (2) .

طريق أخرى عن أنس : قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا محمد بن أبي بكر ، حدثنا عبد

القاهر بن السُّرِّي السلمي ، حدثنا حُمَيد ، عن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا" . قالوا : زدنا يا رسول الله . قال : "لِكُلِّ رَجُلٍ سَبْعُونَ أَلْفًا" قالوا : زدنا –وكان على كثيب– فقال : هكذا ، وحثا بيده . قالوا : يا رسول الله ، أَبْعدَ الله من دخل النار بعد هذا ، وهذا إسناد جيد ، رجاله ثقات ، ما عدا عبد القاهر بن السري ، وقد سئل عنه ابن معين ، فقال : صالح (3) .

---

(1) المصنف لعبد الرزاق برقم (20556) ورواه من طريقه أحمد في المسند (165/3) وابن أبي عاصم في السنة برقم (590) .

(2) الحلية لأبي نعيم (344/2) ورواه أحمد في مسنده (193/3) من طريق أبي هلال عن قتادة به .

(3) مسند أبي يعلى (417/6) .

حديث آخر : روى الطبراني من حديث قتادة ، عن أبي بكر بن أنس ، عن أبي بكر بن عُمَير عن أبيه ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إنَّ اللهَ وَعَدَنِي أنْ يُدْخِلَ مِنْ أُمَّتِي ثَلاثَمائة أَلْفٍ الْجَنَّةَ" . فقال عمير : يا رسول الله ، زدنا . فقال هكذا بيده . فقال عمير يا

رسول الله ، زدنا . فقال عمر : حَسْبُك ، إنّ الله إنْ شاء أدخل الناس الجنة بِحفْنَةٍ –أو بِحَثْيَةٍ– واحدة . فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم : "صَدَقَ عُمَرُ" (1) .

حديث آخر : قال الطبراني : حدثنا أحمد بن خُلَيْد ، حدثنا أبو تَوْبة ، حدثنا معاوية بن سلام ، عن زيد بن سلام أنه سمع أبا سلام يقول : حدثني عبد الله بن عامر ، أن قيسا الكندي حَدّث أن أبا سعيد الأنماري حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَنِي أنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيرِ حِسَاب ، وَيَشْفَعُ كُلُّ أَلْفٍ لِسَبْعِينَ أَلْفًا ، ثم يَحْثِي رَبِّي ثَلاثَ حَثَيَاتٍ بِكَفَّيْهِ" . كذا قال قيس ، فقلت لأبي سعيد : أنت سمعتَ هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، بأذني ، ووعاه قلبي .

قال أبو سعيد : فقال –يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم– : "وَذَلِكَ إنْ شَاءَ اللهُ ، عز وجل ، يَسْتَوْعِبُ مُهَاجِرِي أمتي ، ويُوَفِّي الله بقيته مِنْ أعْرَابِنَا" .

وقد روى هذا الحديث محمد بن سهل بن عسكر ، عن أبي تَوْبَة الربيع بن نافع بإسناده ، مثله .

---

(1) المعجم الأوسط (257/1) وقال الهيثمي في المجمع (409/10) : "رجاله ثقات" .

وزاد : قال أبو سعيد : فحسب ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبلغ أربعمائة ألف ألف وتسعين ألف ألْف .

حديث آخر : قال أبو القاسم الطبراني : حدثنا هاشم بن مَرْثَد الطبراني ، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عَيّاش ، حدثني أبي ، حدثني ضَمْضَم بن زُرْعة ، عن شُرَيح بن عبيد ، عن أبي مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَمَا وَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّد بيَدِهِ لَيُبْعَثَنَّ مِنْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلَى الْجَنَّةِ مِثْلَ اللَّيْلِ الأسْوَدِ ، زُمْرَةٌ جَمِيعُهَا يَخْبطُونَ الأرضَ ، تَقُولُ الملائِكَةُ : لِمَ جَاءَ مَعَ مُحَمَّدٍ أكْثَرُ مِمَّا جَاءَ مَعَ الأنْبِيَاءِ ؟ " . وهذا إسناد حسن (1) .

نوع آخر من الأحاديث الدالة على فضيلة هذه الأمة وشرفها بكرامتها على الله ، وأنها خير الأمم في الدنيا والآخرة .

قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا ابن جُرَيج ، أخبرني أبو الزبير ، عن جابر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "إنِّي لأرْجُو أنْ يَكُونَ مَنْ يَتَّبِعُنِي مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ رُبْعَ الْجَنَّةِ" . قال : فكبَّرنا . ثم قال : "أَرْجُو أنْ يَكُونُوا ثلثَ النَّاسِ" . قال : فكبرنا . ثم قال : "أَرْجُو أنْ تَكُونُوا الشَّطْرَ" . وهكذا رواه عن رَوْح ، عن ابن جُرَيج ، به . وهو على شرط مسلم (2) .

(1) المعجم الكبير (297/3) وقال الهيثمي في المجمع (404/10) : "وفيه محمد بن إسماعيل بن عياش وهو ضعيف" .

(2) قال الهيثمي في المجمع (402/10) : "رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط ، ورجال البزار رجال الصحيح وكذا أحد أسانيد أحمد" .

(117/127)

وثبت في الصحيحين من حديث أبي إسحاق السَّبِيعي ، عن عَمْرو بن ميمون ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ " فكبرنا . ثم قال : "أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ " فكبرنا . ثم قال : "إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّة" (1) .

طريق أخرى عن ابن مسعود : قال الطبراني : حدثنا أحمد بن القاسم بن مُساور ، حدثنا عفان بن مسلم ، حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثني الحارث بن حَصِيرة ، حدثني القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كَيْفَ أَنْتُمْ وَرُبُعُ الْجَنَّةِ لَكُمْ وَلِسَائِرِ الناس ثلاثة أَرْبَاعِهَا ؟ " قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : "كَيْفَ أَنْتُمْ وَثُلُثُهَا ؟ " قالوا : ذاك أكثر . قال : "كَيْفَ أَنْتُمْ وَالشَّطْرُ لَكُمْ ؟ "

قالوا : ذاك أكثر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمَائَةُ صَفٍّ ، لَكُمْ مِنْهَا ثَمَانُونَ صَفًا" .

قال الطبراني : تفرد به الحارث بن حَصيرة (2) .

---

(1) صحيح البخاري برقم (6528 ، 6642) وصحيح مسلم برقم (221) .

(2) المعجم الكبير (10/208) ورواه أحمد في مسنده (1/453) من طريق عفان عن عبد الواحد بن زياد به . قال الهيثمي في المجمع (10/403) : "رجالهم رجال الصحيح غير الحارث بن حصيرة وقد وثق" .

(118/127)

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عبد العزيز بن مسلم ، حدثنا ضرار بن مُرَّة أبو سَنان الشيباني ، عن محارب بن دِثَار ، عن ابن بُرَيْدة ، عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ ، هَذِهِ الأمَّةُ مِنْ ذَلِكَ ثَمَانُون صَفَا" .

وكذلك رواه عن عفان ، عن عبد العزيز ، به . وأخرجه الترمذي من حديث أبي سنان ، به وقال : هذا حديث حسن . ورواه ابن ماجة من حديث سفيان الثوري ، عن عَلْقَمة بن

مَرْثَد ، عن سليمان بن بُرَيدة ، عن أبيه ، به (1) .

حديث آخر : رَوَى الطبراني من حديث سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي ، حدثنا خالد بن يزيد البَجَلي ، حدثنا سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس ، عن أبيه ، عن جده ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ ، ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ أُمَّتِي" .

تفرد به خالد بن يزيد البَجَلي ، وقد تكلم فيه ابن عَدِيّ (2) .

حديث آخر : قال الطبراني : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنا موسى بن غيلان ، حدثنا هاشم بن مَخْلَد ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن سفيان ، عن أبي عمرو ، عن أبيه عن أبي هريرة قال : لما نزلت ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ [الواقعة : 38 ، 39] ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَنْتُمْ رُبُعُ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، أَنْتُمْ ثُلُثُ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، أَنْتُمْ نِصْفُ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، أَنْتُمْ ثُلُثَا أَهْلِ الْجَنَّةِ" (3) .

---

(1) المسند (355/5 ، 347) وسنن الترمذي برقم (2546) وسنن ابن ماجة برقم (4289) .

(2) المعجم الكبير (348/10) ورواه ابن عدي في الكامل (13/3) وقال : "أحاديثه كلها لا يتابع عليها لا إسنادا ولا متنا ، ولم أر للمتقدمين فيه قولا ، بل غفلوا عنه وهو عندي ضعيف" .

(3) ورواه أبو نعيم في الحلية من طريق الطبراني به (101/7) ونقل عن الطبراني قوله: "تفرد برفعه ابن المبارك عن الثوري. وأبو عمرو اسمه محمد والد أسباط بن محمد الكوفي القرشي".

(119/127)

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "نَحْنُ الآخِرُونَ الأوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولا الْجَنَّةَ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَهَدَانَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَهَذَا الْيَوْمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، النَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ غَدًا لِلْيَهُودِ [و] للنصارى بَعْدَ غَدٍ".

رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعا بنحوه (1) ورواه مسلم أيضا عن طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نَحْنُ الآخِرُونَ الأوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ". وذكر تمام الحديث (2).

حديث آخر : روى الدارقطني في الأفراد من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن الزهري ،

---

(1) صحيح البخاري برقم (896 ، 3486 ، 3487) ومسلم برقم (855) .

(2) صحيح مسلم برقم (855) .

(120/127)

عن سعيد بن المسيَّب ، عن عمر بن الخطاب ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إِنَّ الْجَنَّةَ حُرِّمَتْ عَلَى الأَنْبِيَاءِ كُلُّهُمْ حَتَّى أَدْخُلَهَا ، وَحُرِّمَتْ عَلَى الأُمَمِ حَتَّى تَدْخُلَهَا أُمتِي" .

ثم قال : تفرد به ابن عقيل ، عن الزهري ، ولم يرو عنه سواه . وتفرد به زُهير بن محمد ، عن ابن عقيل ، وتفرد به عَمْرو بن أبي سلمة ، عن زهير .

وقد رواه أبو أحمد بن عَدِيّ الحافظ فقال : حدثنا أحمد بن الحسين بن إسحاق ، حدثنا أبو بكر الأعين محمد بن أبي عَتَّاب ، حدثنا أبو حفص التِّنيسي -يعني عمرو بن أبي سلمة- حدثنا صدقة الدمشقي . عن زهير بن محمد ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن الزهري .

ورواه الثَّعْلَبي : حدثنا أبو عباس المَخْلَدي ، أخبرنا أبو نُعْم عبد الملك بن محمد ، أخبرنا أحمد بن عيسى التنيسي ، حدثنا عمرو بن أبي سلمة ، حدثنا صدقة بن عبد الله ، عن زهير بن محمد ، عن ابن عقيل ، به (1) .

فهذه الأحاديث في معنى قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء عليهم والمدح لهم ، كما قال قتادة : بَلَغَنَا أن عمر بن الخطاب [رضي الله عنه] في حجة حجّها رأى من الناس سُرْعة فقرأ هذه الآية : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ثم قال : من سَرَّه أن يكون من تلك الأمة فَلْيؤدّ شَرْط الله فيها . رواه ابن جرير .

ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله : ﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ [لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ] [المائدة : 79] ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن كثير جـ 2 صـ 93. 103 ﴾

---

(1) أطراف الغرائب والأفراد (ق21) لابن القيسراني ، والكامل لابن عدي (129/4) ورواه البغوي في تفسيره (91/2) من طريق الثعلبي . ونقل ابن أبي حاتم في العلل (227/2) عن أبي زرعة : "هذا الحديث منكر لا أدري كيف هو" .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ ءامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾

قال الفخر :

فيه وجهان الأول : ولو آمن أهل الكتاب بهذا الدين الذي لأجله حصلت صفة الخيرية لأتباع محمد عليه الصلاة والسلام لحصلت هذه الخيرية أيضاً لهم ، فالمقصود من هذا الكلام ترغيب أهل الكتاب في هذا الدين

الثاني : إن أهل الكتاب إنما آثروا دينهم على دين الإسلام حباً للرياسة واستتباع العلوم ولو آمنوا لحصلت لهم هذه الرياسة في الدنيا مع الثواب العظيم في الآخرة ، فكان ذلك خيراً لهم مما قنعوا به .

واعلم أنه تعالى أتبع هذا الكلام بجملتين على سبيل الابتداء من غير عاطف إحداهما : قوله ﴿ مّنْهُمُ المؤمنون وَأَكْثَرُهُمُ الفاسقون ﴾ [آل عمران : 110] وثانيتهما : قوله ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يقاتلوكم يُوَلُّوكُمُ الأدبار ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴾

قال صاحب "الكشاف" : هما كلامان واردان على طريق الاستطراد عند إجراء ذكر أهل الكتاب ، كما يقول القائل : وعلى ذكر فلان فإن من شأنه كيت وكيت ، ولذلك جاء ﴿ آمن ﴾ غير عاطف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 158 ﴾

فائدة

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ ءامَنَ أَهْلُ الكتاب لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾

قال الفخر :

يعني كما أنكم اكتسبتم هذه الخيرية بسبب هذه الخصال ، فأهل الكتاب لو آمنوا لحصلت لهم أيضاً صفة الخيرية والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 156 ﴾

(122/127)

قوله تعالى ﴿ مّنْهُمُ المؤمنون وَأَكْثَرُهُمُ الفاسقون ﴾

قال الآلوسى :

﴿ مّنْهُمُ المؤمنون ﴾ كعبد الله بن سلام وأخيه وثعلبة بن شعبة . ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الفاسقون ﴾ أي الخارجون عن طاعة الله تعالى وعبر عن الكفر بالفسق إيذاناً بأنهم خرجوا عما أوجبه كتابهم ، وقيل : للإشارة إلى أنهم في الكفار بمنزلة الكفار في العصاة لخروجهم إلى الحال الفاحشة التي هي منهم أشنع وأفظع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 28 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ أي منهم من آمن بالنبي محمد صلى الله عليه

وسلم فصدق عليه لقب المؤمن ، مثل عبد الله بن سلام ، وكان اسمه حُصيناً وهو من بني قينقاع ، وأخيه ، وعمته خالدة ، وسعية أو سنعة بن غريض بن عاديا التيماوي ، وهو ابن أخي السموأل بن عاديا ، وثعلبة بن سعية ، وأسد بن سعية القرظي ، وأسد بن عبيد القرظي ، ومخيريق مِن بني النضير أو من بني قينقاع ، ومثل أصْحمة النَّجاشي ، فإنَّه آمن بقلبه وعوّض عن إظهاره إعمالَ الإسلام نصره للمسلمين ، وحمايته لهم ببلده ، حتَّى ظهر دين الله ، فقبل الله منه ذلك ، ولذلك أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه بأنَّه كان مؤمناً وصلّى عليه حين أوحي إليه بموته .

ويحتمل أن يكون المعنى من أهل الكتاب فريق متقّ في دينه ، فهو قريب من الإيمان بمحمَّد صلى الله عليه وسلم وهؤلاء مثل من بقي متردّداً في الإيمان من دون أن يتعرّض لأذى المسلمين ، مثل النَّصارى من نجران ونصارى الحبشة ، ومثل مخيريق اليهودي قبل أن يسلم ، على الخلاف في إسلامه ، فإنَّه أوصى بماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم فالمراد بإيمانهم صدق الإيمان بالله وبدينهم .

وفريق منهم فاسق عن دينه ، محرّف له ، مناوٍ لأهل الخير ، كما قال تعالى : ﴿ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ﴾ مثل الذين سَمُّوا الشاة لرسول الله يوم خيْبر ، والذين حاولوا أن يرموا عليه صخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 191 . 192 ﴾

سؤالان :

السؤال الأول : الألف واللام في قوله ﴿ المؤمنون ﴾ للاستغراق أو للمعهود السابق ؟ .

والجواب : بل للمعهود السابق ، والمراد : عبد الله بن سلاّم ورهطه من اليهود ، والنجاشي ورهطه من النصارى .

السؤال الثاني : الوصف إنما يذكر للمبالغة فأي مبالغة تحصل في وصف الكافر بأنه فاسق .

والجواب : الكافر قد يكون عدلاً في دينه وقد يكون فاسقاً في دينه فيكون مردوداً عند الطوائف كلهم ، لأن المسلمين لا يقبلونه لكفره ، والكفار لا يقبلونه لكونه فاسقاً فيما بينهم ، فكأنه قيل أهل الكتاب فريقان : منهم من آمن ، والذين ما آمنوا فهم فاسقون في أديانهم ، فليسوا ممن يجب الاقتداء بهم ألبتة عند أحد من العقلاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 158 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ لَكَانَ خَيْرًا ﴾ اسم "كان" ضمير يعود على المصدر المدلول عليه بفعله ، والتقدير لكان الإيمان خيراً لهم كقولهم : "من كذب كان شراً له" أي : كان الكذب شراً له ، كقوله تعالى : ﴿ اعدلوا هُوَ أَقْرَبُ للتقوى ﴾ [المائدة : 8] .

وقول الشاعر : [الوافر]

1573- إذَا نُهِيَ السَّفِيهُ جَرَى إلَيْهِ . . . وَخَالَفَ ، وَالسَّفِيهُ إلى خِلاَفِ

أي : جرى إليه السفه .

والمفضل عليه محذوف ، أي : خيراً لهم من كُفْرهم ، وبقائهم على جَهْلهم .

وقال ابن عطية : ولفظة "خير" صيغة تفضيل ، ولا مشاركة بين كُفْرهم وإيمانهم في الخير ، وإنما جاز ذلك لما في لفظه "خير" من الشياع وتشعب الوجوه ، وكذلك هي لفظة "أفضل" ، و"أحب" وما جرى مجراها .

قال أبو حيان : "وإبقاؤها على موضوعها الأصلي أوْلَى - إذا أمكن ذلك - وقد أمكن ذلك ؛ إذ الخيرية مطلقة ، فتحصل بأدْنى مشاركة" .

قوله : ﴿ مِّنْهُمُ المؤمنون وَأَكْثَرُهُمُ الفاسقون ﴾ جملة مستأنفة ، سِيقت للإخبار بذلك .

قال الزمخشريّ : " هما كلامان واردان على طريق الاستطراد ، عند إجراء ذِكْر أهل الكتاب ، كما يقول القائل – إذا ذكر فلاناً – من شأنه كيت وكيت – ولذلك جاء من غير عاطف " .

الألف واللام في قوله : ﴿ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ للعهد ، لا للاستغراق ، والمراد عبد الله بن سلام ورهطه من " الليهود " ، والنجاشي ورَهْطه من " النصارى " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 469 . 470 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قوله جلّ ذكره : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ .

لمّا كان المصطفى صلوات الله عليه أشرفَ الأنبياء كانت أُمَّتُه – عليه السلام – خيرَ الأمم . ولمَّا كانوا خيرَ الأمم كانوا أشرفَ الأمم ، ولمَّا كانوا أشرف الأمم كانوا أشْوَقَ الأمم ، فلمَّا كانوا أشوق الأمم كانت أعمارُهم أقْصَرَ الأعمار ، وخَلَقَهم آخِرَ الخلائق لئلا يطولَ مُكْثُهم تحت الأرض . وما حصلت خيريتُهم بكثرة صلواتهم وعبادتهم ، ولكن بزيادة إقبالهم ، وتخصيصه إياهم . ولقد طال وقوف المتقدمين بالباب ولكن لما خرج الإذنُ بالدخول تقدَّم المتأخرون :

وكم باسطين إلى وَصْلِنا . . . أكُفَّهُم لم ينالوا نصيبا

﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

لو دَخَلَ الكافة تحت أمرنا لوصلوا إلى حقيقة العزِّ في الدنيا والعقبى ، ولكن بَعُدُوا عن القبول في سابق الاختيار فصار أكثرُهم موسوماً بالشِّرْك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 169 . 270 ﴾ . بتصرف يسير .

(125/127)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

هذه الخيرية لها مواصفات وعناصر : ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ . فإن تخلف عنصر من هذه العناصر ، انحلت عنكم الخيرية ، فالخيرية لكم بأشياء هي : أمر بالمعروف . نهى عن المنكر . إيمان بالله .

وساعة تسمع كلمة " معروف " و " منكر " فإنك تجد أن اللفظ موضوع في المعنى الصحيح ، فـ " المعروف " هو ما يتعارف الناس عليه ويتفاخرون به ، ويَسُرُّ كل إنسان أن يعرف الآخرون عنه . " والمنكر " هو الذي ينكره الناس ويخجلون منه ، فمظاهر الخير يحب كل

إنسان أن يعرفها الآخرون عنه ، ومظاهر الشر ينكرها كل إنسان .

إن مظاهر الخير محبوبة ومحمودة حتى عند المنحرف . فاللص نفسه عندما يوجد في مجلس لا يعرفه فيه أحد ، ويسمع أن فلاناً قد سرق فإنه يعلن استنكاره لفعل اللص ، إنه أمر منكر ، حتى وإن كان هو يفعله . وهكذا تعرف أن " المعروف " و " المنكر " يخضعان لتقدير الفطرة . والفطرة السليمة تأتي للأمور الخيرة ، وتجعلها متعارفا عليها بين الناس ، وتنكر الفطرة السليمة الأمور المنكرة ، حتى ممن يفعلها .

(126/127)

ويورد الله مسألة الإيمان بالله من بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لماذا ؟ لأنه من الجائزة أن يوجد إنسان له صفات الأريحية والإنسانية ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، ويصنع الخير ، ويقدم الصدقات ، ويقيم مؤسسات رعاية للمحتاجين والعاجزين سواء كانت صحية أو اقتصادية ، لكنه يفعل ذلك من زاوية نفسه الإنسانية ، لا من زاوية منهج الله ، فيكون كل ما يفعله حابطا ولا يُعتَرفُ له بشيء لأنه لم يفعل ذلك في إطار الإيمان بالله ، ولذلك فلا تظن أن الذي يصنع الخير دون إيمان بالله ؛ فالله يجازي من كان على الإيمان به ، وأن يكون الله في بال العبد ساعة يصنع الخير . فمن صنع خيرا من أجل الشهامة والإنسانية

والجاه والمركز والسمعة فإنه ينال جزاءه ممن عمل له ، وما دام قد صنع ذلك من أجل أن يقال عنه ذلك فقد قيل ، وهو ما يبيّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : " إن أول الناس يُقضي يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها فقال : ما عملتَ فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها فقال : ما عملت فيها قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارئ فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت في سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقتُ فيها . قال : كذبت ولكنك فعلت ليُقال : هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر فسحب على وجهه ثم أُلقي في النار " .

إنه ينال جزاء عمله من قول الناس ، لكن الله يجازي في الآخرة من كان الله في باله ساعة أن عمل . لذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول :

(127/127)

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

[فصلت : 33]

إن المؤمن يفعل العمل الصالح ، ويعلن أنه يفعل ذلك لأنه من المسلمين ، إنه لا يفعل الخير ، لأنه شيوعي ، أو وجودي ، أو إنساني إلخ ، فمهما صنع إنسان من الخير ، وترك الاعتراف بالله فخيانة الكفر تفسد كل عمل . لأنه جحد وأنكر خالقه وكفر به ، والذي يعمل خيرا من أجل أحدٍ فلينل من هذا الأحد جزاء هذا العمل .

وهنا في هذه الآية, أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وإيمان بالله . ولكن ما الذي يجعلهم لا يؤمنون بالله وإن عملوا معروفا ؟ إنه حرصهم على الجاه الزائف ، فلمّا جاء الإسلام ، ظن أهل الجاه في الديانات الأخرى أن الإسلام سيسلبهم الجاه والسلطة والمكانة والمنافع التي كانوا يحصلون عليها ، وكان من حماقة بعضهم أن باعوا الجنة على الأرض وخافوا على المركز والجاه والمنافع ، وكان ذلك من قلة الفطنة ، فالحق يقول :

﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران : 110]

فلو آمنوا لظل لهم الجاه والسلطة في ضوء الإيمان بالله ، فلا تجارة بالدين ، وكانوا سيحصلون على أجرهم مرتين ، أجر في الدنيا ، وأجر في الآخرة ، أو أجر على إيمانهم بنبيهم ، وأجر آخر لإيمانهم برسول الله ، ولكن هل معنى هذا القول أن أهل الكتاب لم يؤمنوا ؟ لا ، إن

بعضهم قد آمن ، فالحق سبحانه وتعالى يؤرخ لهم تأريخا حقيقيا فيقول سبحانه : ﴿ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ وكان القياس أن يأتي وصف بعضهم بالإيمان ، وأن يكون غيرهم من أبناء ملتهم كافرين ، لأن الإيمان يقابله الكفر ، لكن الحق يحدد المعنى المناسب لفعلهم فيقول : ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

(128/127)

إن الحق سبحانه وتعالى الذي يتكلم فيورد كل كلمة بمنتهى الدقة ، فهناك فرق بين أن تكفر وليس عندك مقدمات الإيمان وأدلته ، وأن تكفر وأنت تعرف مقدمات الإيمان كقراءة التوراة والإنجيل .

لقد قرأ أهل الكتاب التوراة والإنجيل ورأوا الآيات البينات وعرفوا البشارات ؛ لذلك فهم عندما كفروا برسول الله ، فسقوا أيضا مع الكفر . إن الذي كفروا برسول الله من أهل الكتاب هم فاسقون حتى في كفرهم ، لأن مقتضى معرفتهم للبشارات والآيات أن يعلنوا الإيمان برسالة رسول الله ، فالواحد منهم ليس كافرا عاديا ، بل هو فاسق حتى في الكفر ؛ لأنه عرف الحق ، ثم خرج وفسق عنه .

وما دام الحق قد قال : ﴿ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ إذن ماذا يفعل المؤمن منهم

مع الفاسق ؟ سيتربص الفاسقون وهم الأكثرية في اليهودية والنصرانية بالأقلية المؤمنة ليوقعوا بهم الأذى والضرر ، ويقول الحق سبحانه : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1675 . 1678 ﴾

(129/127)

قوله تعالى : ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (111) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانت مخالفة الأكثر قاصمة خفف عن أوليائه بقوله : ﴿ لن يضروكم ﴾ ولما كان الضر - كما تقدم عن الحرالي - إيلام الجسم وما يتبعه من الحواس ، والأذى إيلام النفس وما يتبعها من الأحوال ، أطلق الضر هنا على جزء معناه وهو مطلق الإيلام ، ثم استثنى منه فقال : ﴿ إلا أذى ﴾ أي بألسنتهم ، وعبر بذلك لتصوير مفهومي الأذى والضر ليستحضر في الذهن ، فيكون الاستثناء أدل على نفي وصولهم إلى المواجهة ﴿ وإن يقاتلوكم ﴾ أي يوماً من الأيام ﴿ يولوكم ﴾ صرح بضمير المخاطبين نصاً في المطلوب ﴿ الأدبار ﴾ أي

انهزاماً ذلاً وجبناً .

ولما كان المولي قد تعود له كرة بعد فرة قال – عادلاً عن حكم الجزاء لئلا يفهم التقييد بالشرط مشيراً بحرف التراخي إلى عظيم رتبة خذلانهم – : ﴿ ثم لا ينصرون ﴾ أي لا يكون لهم ناصر من غيرهم أبداً وإن طال المدى ، فلا تهتموا بهم ولا بأحد يمالئهم من المنافقين ، وقد صدق الله ومن أصدق من الله قيلاً ! لم يقاتلوا في موطن إلا كانوا كذلك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 136 ﴾

(130/127)

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما رغب المؤمنين في التصلب في إيمانهم وترك الالتفات إلى أقوال الكفار وأفعالهم بقوله ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ رغبهم فيه من وجه آخر ، وهو أنهم لا قدرة لهم على الاضرار بالمسلمين إلا بالقليل من القول الذي لا عبرة به ، ولو أنهم قاتلوا المسلمين صاروا منهزمين مخذولين ، وإذا كان كذلك لم يجب الالتفات إلى أقوالهم وأفعالهم ، وكل ذلك تقرير لما تقدم من قوله ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ [آل عمران : 100] فهذا وجه النظم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 158.159 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قوله ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ معناه : أنه ليس على المسلمين من كفار أهل الكتاب ضرر وإنما منتهى أمرهم أن يؤذوكم باللسان ، إما بالطعن في محمد وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، وإما بإظهار كلمة الكفر ، كقولهم ﴿ عُزَيْرٌ ابن الله ﴾ [التوبة : 30] و ﴿ المسيح ابن الله ﴾ [التوبة : 30] و ﴿ الله ثالث ثلاثة ﴾ [المائدة : 73] وإما بتحريف نصوص التوراة والإنجيل ، وإما بإلقاء الشبه في الأسماع ، وإما بتخويف الضعفة من المسلمين ، ومن الناس من قال : إن قوله ﴿ إِلَّآ أَذًى ﴾ استثناء منقطع وهو بعيد ، لأن كل الوجوه المذكورة يوجب وقوع الغم في قلوب المسلمين والغم ضرر ، فالتقدير لا يضروكم إلا الضرر الذي هو الأذى ، فهو استثناء صحيح ، والمعنى لن يضروكم إلا ضرراً يسيراً ، والأذى وقع موقع الضرر ، والأذى مصدر أذيت الشيء أذى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 159 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ يعني كذبهم وتحريفهم وبُهْتَهم ؛ لا أَنَّه تكون لهم الغَلَبَة ؛ عن الحسن وقتادة .

فالاستثناء متَّصِل ، والمعنى لن يضروكم إلاَّ ضراً يسيراً ؛ فوقع الأذى موقع المصدر .

فالآية وعد من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، أن أهل الكتاب لا يغلبونهم وأنهم منصورون عليهم لا ينالهم منهم اصطلام إلاَّ إيذاء بالبهت والتحريف، وأما العاقبة فتكون للمؤمنين.

وقيل: هو منقطع، والمعنى لن يضروكم ألْبَتّة، لكن يؤذونكم بما يُسمِعّونكم.

قال مقاتل: إن رءوس اليهود: كعب وعديّ والنعمان وأبو رافع وأبو ياسر وكنانة وابن صوريا عمدوا إلى مؤمنيهم: عبد الله بن سلام وأصحابه فآذوهم لإسلامهم؛ فأنزل الله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى﴾ يعني باللسان، وتَمّ الكلام. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير القرطبى حـ 4 صـ 173. 174﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن يقاتلوكم يُوَلُّوكُمُ الأدبار ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾

قال الفخر:

﴿وَإِن يقاتلوكم يُوَلُّوكُمُ الأدبار ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾ وهو إخبار بأنهم لو قاتلوا المسلمين لصاروا منهزمين مخذولين ﴿ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾ أي إنهم بعد صيرورتهم منهزمين لا يحصل لهم شوكة ولا قوة ألبتة، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لاَ يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأدبار ثُمَّ لاَ

يُنصَرُونَ ﴾ [الحشر : 12] قوله ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ ﴾ [آل عمران : 12] وقوله ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 44 ، 45] وكل ذلك وعد بالفتح والنصرة والظفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 159 ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأدبار ﴾ يعني منهزمين ، وتمّ الكلام .

﴿ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ مستأنف ؛ فلذلك ثبتت فيه النون .

وفي هذه الآية معجزة للنبيّ عليه السّلام ؛ لأن من قاتله من اليهود ولاه دبره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 174 ﴾

وقال العلامة أبو حيان :

(132/127)

﴿ وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ﴾ ، هذه مبالغة في عدم مكافحة الكفار للمؤمنين إذا أرادوا قتالهم ، بل بنفس ما تقع المقابلة ولوا الأدبار ، فليسوا ممن يغلب ويقتل وهو مقبل على قرنه غير مدبر عنه .

وهذه الجملة جاءت كالمؤكدة للجملة قبلها ، إذ تضمنت الإخبار أنهم لا تكون لهم غلبة ولا قهر ولا دولة على المؤمنين ، لأنّ حصول ذلك إنما يكون سببه صدق القتال والثبات فيه ، أو النصر المستمد من الله ، وكلاهما ليس لهم .

وأتى بلفظ الإدبار لا بلفظ الظهور ، لما في ذكر الإدبار من الإهانة دون ما في الظهور ، ولأن ذلك أبلغ في الانهزام والهرب .

ولذلك ورد في القرآن مستعملاً دون لفظ الظهور لقوله تعالى : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ ثم لا ينصرون : هذا استئنافُ إخبار أنّهم لا ينصرون أبداً .

ولم يشرك في الجزاء فيجزم ، لأنه ليس مرتباً على الشرط ، بل التولية مترتبة على المقاتلة .

والنصر منفى عنهم أبداً سواء قاتلوا أم لم يقاتلوا ، إذ منع النصر سببه الكفر .

فهي جملة معطوفة على جملة الشرط والجزاء ، كما أن جملة الشرط والجزاء معطوفة على لن يضروكم إلا أذى .

وليس امتناع الجزم لأجلهم كما زعم بعضهم زعم أن جواب الشرط يقع عقيب المشروط .

قال :

وثم للتراخي ، فلذلك لم تصلح في جواب الشرط .

والمعطوف على الجواب كالجواب وما ذهب إليه هذا الذاهب خطأ ، لأن ما زعم أنه لا

يجوز قد جاء في أفصح كلام .

قال تعالى : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ فجزم المعطوف بثم على جواب الشرط .

وثمَّ هنا ليست للمهلة في الزمان ، وإنما هي للتراخي في الإخبار .

فالإخبار بتوليهم في القتال وخذلانهم والظفر بهم أبهج وأسرّ للنفس . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 32 . 33 ﴾

(133/127)

وقال الآلوسى :

وفي هذه الآية دلالة واضحة على نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم ولكونها من الإخبار بالغيب الذي وافقه الواقع لأن يهود بني قينقاع وبني قريظة والنضير ويهود خيبر حاربوا المسلمين ولم يثبتوا ولم ينالوا شيئاً منهم ولم تخفق لهم بعد ذلك راية ولم يستقم أمر ولم ينهضوا بجناح. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 29 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله ﴿ ثم لا ينصرون ﴾ احتراس أي يولوكم الأدبار تولية منهزمين لا تولية متحرّفين لقتال

أو متحيّزين إلى فئة ، أو متأمّلين في الأمر .

وفي العدول عن جعله معطوفاً على جملة الجواب إلى جعله معطوفاً على جملتي الشرط وجزائه معاً ، إشارة إلى أنّ هذا ديدنهم وهجيراهم .

لو قاتلوكم ، وكذلك في قتالهم غيركم .

وثمّ لترتيب الإخبار دالّة على تراخي الرتبة .

ومعنى تراخي الرتبة كون رتبة معطوفها أعظم من رتبة المعطوف عليه في الغرض المسوق له الكلام .

وهو غير التّراخي المجازي ، لأن التّراخي المجازي أن يشبّه ما ليس بمتأخّر عن المعطوف بالمتأخّر عنه .

وهذا كلّه وعيد لهم بأنهم سيقاتلون المسلمين ، وأنّهم ينهزمون ، وإغراء للمسلمين بقتالهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ 193﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذه الآية اشتملت على الإخبار عن غيوب كثيرة ، منها أن المؤمنين آمنون من ضررهم ، ومنها أنهم لو قاتلوا المؤمنين لانهزموا ، ومنها أنه لا يحصل لهم قوة وشوكة بعد الانهزام وكل هذه الأخبار وقعت كما أخبر الله عنها ، فإن اليهود لم يقاتلوا إلا انهزموا ، وما

أقدموا على محاربة وطلب رياسة إلا خذلوا ، وكل ذلك إخبار عن الغيب فيكون معجزاً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 159 ﴾

(134/127)

أسئلة وأجوبة

السؤال الأول : هب أن اليهود كذلك ، لكن النصارى ليسوا كذلك فهذا يقدح في صحة هذه الآيات قلنا : هذه الآيات مخصوصة باليهود ، وأسباب النزول على ذلك فزال هذا الإشكال .

السؤال الثاني : هلا جزم قوله ﴿ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ .

قلنا : عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء كأنه قيل أخبركم أنهم لا ينصرون ، والفائدة فيه أنه لو جزم لكان نفي النصر مقيداً بمقاتلتهم كتولية الأدبار ، وحين رفع كان نفي النصر وعداً مطلقاً كأنه قال : ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم لا يجدون النصرة بعد ذلك قط بل يبقون في الذلة والمهانة أبداً دائماً .

السؤال الثالث : ما الذي عطف عليه قوله ﴿ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ ؟ .

الجواب : هو جملة الشرط والجزاء ، كأنه قيل : أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا ، ثم أخبركم

أنهم لا ينصرون وإنما ذكر لفظ ﴿ ثُمَّ ﴾ لإفادة معنى التراخي في المرتبة، لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الأخبار بتوليتهم الأدبار. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 159 ﴾

من فوائد العلامة ابن عطية فى الآية

قال عليه الرحمة:

قوله تعالى: ﴿ لن يضروكم إلا أذى ﴾ معناه: لن يصيبكم منهم ضرر في الأبدان ولا في الأموال، وإنما هو أذى بالألسنة، فالاستثناء متصل، وقال الحسن، وقتادة وغيرهما: " الأذى " هو تحريفهم أمر محمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم إياه.

(135/127)

قال القاضي أبو محمد: وتنقصهم المؤمنين وطعنهم عليهم جملة وأفراداً، وهذا كله عظيم مقلق وبسببه استحقوا القتل والإجلاء، وضرب الجزية، لكن أراد الله تعالى بهذه الآية أن يلحظهم المؤمنون بعين الاحتقار حتى لا يصدوا أحداً عن دينه ولا يشغلوه عن عبادة ربه، وهكذا هي فصاحة العرب، ومن هذا المعنى في التحقير قول ثمامة بن أثال: يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن شئت المال فاسأل منه ما شئت، فقوله

: ذا دم ، روي بالذال منقوطة ، وبالدال غير منقوطة ، فذم بفتح الذال وبكسرها أراد بها الذمام ، وأما الدال غير المنقوطة ، فيحتمل أنه أرد التعظيم لأمر نفسه ، وذلك بأحد وجهين : إما أن يريد الوعيد ، أي تقتل ذا دم مطلوب بثأره له حماة فاحذر عاقبة ذلك ، وإما أن يريد تقتل ملكاً يستشفى بدمه ، كما كانت العرب تعتقد في دماء الملوك ، فهذا استعطاف لا وعيد ، أي لا ينبغي ذلك أن تفسد مثلي ، وهذا كما استعطف الأشعث بن قيس أبا بكر رضي الله عنه بهذا المعنى ، ويحتمل كلام ثمامة ، أنه أراد تحقير أمر نفسه وليذهب عن نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم المسرة بنيل مثل هذا الأمر العظيم ، ويجري ذلك مجرى قول أبي جهل لعبد الله بن مسعود : وهل أعمد من رجل قتلتموه ؟ ومثله قول الأسير لعمر بن عبد العزيز ، حين قال له : لأقتلنك ، قال إن ذلك لا ينقص من عدد الخزر شيئاً فكأن ثمامة أراد : إن تقتلني تقتل حيواناً حقيراً شأنه ، كما يقتل كل ذي دم فما بالك تفعل ذلك وتدع الإنعام عليّ ؟ فالآية تنظر إلى هذا المعنى من جهة أنه حقر عند المؤمنين ما هو عيظم في نفسه تنبيهاً لهم ، وأخبر الله تعالى في قوله : ﴿ وإن يقاتلوكم ﴾ الآية ، بخبر غيب صححه الوجود ، فهي من آيات محمد صلى الله عليه وسلم ، وفائدة الخبر هي في قوله : ﴿ ثم لا ينصرون

﴿ أي لا تكون حربهم معكم سجالاً وخص ﴿ الأدبار ﴾ بالذكر دون الظهر تخسيساً للفارّ، وهكذا هو حيث تصرف. انتهى انتهى. ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 1 صـ 490 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ إِلاَّ أَذًى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه متصل، وهو استثناء مفرَّغ من المصدر العام، كأنه قيل : لن يضروكم ضرراً ألبتة إلا ضرر أذى لا يبالى به - من كلمة سوء ونحوها - إمَّا بالطعن في محمد وعيسى - عليهما السلام - وَإمَّا بإظهار كلمة الكفر - كقولهم : عيسى ابنُ الله، وعُزَيْر ابن الله، وإن الله ثالث ثلاثة، وإما بتحريف نصوص التوراة والإنجيل، وإما بتخويف ضعفةِ المسلمين.

الثاني : أنه منقطع، أي : لن يضروكم بقتال وغَلَبَة، لكن بكلمة أذًى ونحوها.

قال بعض العلماء : وهذا بعيد، لأن الوجوه المذكورة توجب وقوع الغَمِّ في قلوب المسلمين، والغم ضرر. فالتقدير : لا يضروكم إلا الضرر الذي هو الأذى، فهو استثناء صحيح، والمعنى : لا يضروكم إلا ضَرَراً يَسِيراً.

أهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 470 ﴾. بتصرف يسير.

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

إن الحق سبحانه وتعالى لا يسلط على أوليائه إلا بمقدار ما يصدق إلى الله فرارهم ، فإذا حق فرارهم أكرم لديه قرارهم ، وإن استطالوا على الأولياء بموجب حسبانهم انعكس الحال عليهم بالصغار والهوان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 270 ﴾

(137/127)

ومن فوائد القاسمي في الآية

قال رحمه الله :

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى ﴾

أي : بألسنتهم لا يبالي به من طعن وتهديد : ﴿ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ ﴾ أي : يوماً من الأيام : ﴿ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ﴾ يعني منهزمين مخذولين : ﴿ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ يعني لا يكون لهم النصر عليكم ، بل تنصرون عليهم . وقد صدق الله ، ومن أصدق من الله قيلاً ؟ لم يقاتلوا في موطن إلا كانوا كذلك .

قال ابن كثير : فإنهم يوم خيبر أذلهم الله ، وأرغم أنوفهم ، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة : بني قيقناع ، وبني النضير ، وبني قريظة ، كلهم أذلّهم الله . وكذلك النصارى بالشام ،

كسرهم الصحابة في غير ما موطن وسلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين . ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم ، وهم كذلك ، ويحكم بملة الإسلام ، وشرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام .

لطائف :

قال الزمخشري : فإن قلت : هلا جزم المعطوف في قوله : ﴿ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ ؟

قلت : عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء ، كأنه قيل : ثم أخبركم أنهم لا ينصرون .

فإن قلت : فأي فرق بين رفعه وجزمه في المعنى ؟

قلت : لو جزم لكان نفي النصر مقيداً بمقاتلتهم ، كتولية الأدبار ، وحين رفع كان نفي النصر وعداً مطلقاً كأنه قال : ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتفٍ عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعدها بجناح ، ولا يستقيم لهم أمر ، وكان كما أخبر من حال بني قريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر .

فإن قلت : فما الذي عطف عليه هذا الخبر ؟

قلت : جملة الشرط والجزاء . كأنه قيل : أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا ، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون .

(138/127)

فإن قلت : فما معنى التراخي في ثم ؟

قلت : التراخي في المرتبة ، لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار .

قال الناصر بن المنير : وهذا من الترقي في الوعد عما هو أدنى إلى ما هو أعلى ، لأنهم وعدوا بتولية عدوهم الأدبار عند المقابلة ، ثم ترقى الوعد إلى ما هو أتم في النجاح من أن هؤلاء لا ينصرون مطلقاً ، ويزيد هذا الترقي بدخول ثم دون الواو . فإنها تستعار ههنا للتراخي في الرتبة لا في الوجود ، كأنه قال : ثم ههنا ما هو أعلى في الامتنان ، وأسمح في رتب الإحسان ، وهو أن هؤلاء قوم لا ينصرون البتة – والله أعلم – . انتهى انتهى . ا هـ

﴿محاسن التأويل حـ 4 صـ 434.435﴾

(139/127)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴾

لكن الحق سبحانه يطمئن هذه الأقلية من إضرار الأكثرية بهم فيقول : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى ﴾ . أي يا أيتها الأقلية التي آمنت من أهل الكتاب - مثل عبد الله بن سلام الذي أسلم وترك اليهودية - إياكم أن تظنوا أن الأكثرية الفاسقة قادرة على إنزال العذاب بكم ؛ فالحق - سبحانه - يعلن أن محاولة الأكثرية لإنزال الضرر بالأقلية التي آمنت منهم لن يتجاوز الأذى .

ما هو الضرر ؟ وما هو الأذى ؟

إن الأذى هو الحدث الذي يؤلم ساعة وقوعه ثم ينتهي ، أما الضرر فهو أذى يؤلم وقت وقوعه ، وتكون له آثار من بعد ذلك ، فعندما يصفع الإنسان إنسانا آخر صفعة بسيطة فالصفعة البسيطة تؤلم ، وألمها يذهب مباشرة ، لكن إذا كانت الصفعة قوية وتتسبب في كدمات وتورم فهذا هو الضرر . إذن فالأذى يؤلم ساعة يُباشر الفعل فقط ، وقد يكون الأذى بالكلمة كالاستهزاء ، فالفاسق قد يستهزئ بالذي آمن ، فينطق بكلمة الكفر أو الفُجْر ، هذه الكلمة ليس لها ضرر في ذات المؤمن ولكنها تؤذي سمعه . إن الحق سبحانه يطمئن المؤمنين

على أن أهل الكفر لن يضروا المؤمنين إلا الأذى ، وهذا أقصى ما في استطاعتهم ، وليس لهذا الأذى أثر .

(140/127)

إذن فقول الحق : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى ﴾ يعني أنهم لن يستطيعوا أن ينالوا منكم أبدا اللّهم إلا الاستهزاء أو الغمز واللمز ، أو إشارة بحركة تؤذي شعور المؤمن ، أو تمجد الكفر ، وتعظمه أو ينطق كلمة عهر أو فجر لا يوافق عليها الدين ، هذا أقصى ما يستطيعه أهل الفسق ، وهم لا يملكون الضرر لأهل الإيمان . وبعد ذلك نرى أن واقع الأمر قد سار على هذا المنوال مع الدعوة المحمدية ومع جنود سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد أطلقها الله كلمة : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى ﴾ فصارت الكلمة قانونا . فقد وقعت الوقائع بين جند رسول الله وأهل الفسق ، وثبت أن أهل الفسق لم يستطيعوا ضرر أهل الإيمان إلا أذى .

ولننظر إلى ما حدث لبني قينقاع ، ولما حدث لبني قريظة ، ولما حدث لبني النضير ، ولما حدث ليهود خيبر ، هل ضروا المؤمنين إلا أذى ؟ لقد قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوما أغرارا لا علم لهم بالحرب فانتصرت عليهم ، فإذا

أنت حاربتنا فستعرف مَن الرجال . وكان ذلك مجرد كلام باللسان .

إن التاريخ يحمل لنا ما حدث لهم جميعا ، لقد هزمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبعد هذا أرادوا أن يرتفعوا عن الأذى إلى الضرر الحقيقي فلم يمكنهم الله ؛ لأن الحق يقول : ﴿ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ ، فإن أراد أهل الفسق أن يُصَعِّدوا الأذى للمؤمنين ليوقعوا ضررا حقيقيا ، فإن الكافرين يولون الأدبار أمام المؤمنين ، فهزيمتهم أمر لا مناص منه .

ونحن نعرف في اللغة أن هناك ما نسميه " الشرط " وما نسميه " الجواب " فـ " إنْ " حرف شرط تجزم فعل الشرط وجوابه فإنْ كان الفعل من الأفعال الخمسة فإنّنا نحذف النون ، لذلك نجد القول الحق : ﴿ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ﴾ .

(141/127)

إن ﴿ يُقَاتِلُوكُمْ ﴾ فعل شرط محذوفه منه النون . و ﴿ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ﴾ أصلها يولونكم الأدبار . وهي جواب شرط حذفت منه النون ، وعندما يأتي العطف بعد ذلك ، فهل يكون بالرفع أو الجزم ؟ إن العادة أن يكون العطف بالجزم ! ! لكن الحق يعطف بالرفع فيأتي قوله : ﴿ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ . إنها كسرة إِعْرَابِيّة تجعل الذهن العربي يلتفت إلى أن هناك

أمرا جللا ، لأن المتكلم هو الله سبحانه . كيف جاءت " النون " ؟

هنا نقف وقفة فَلننطق الآية ككلام البشر : إن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصروا . وهذا القول يكون تأريخا لمعركة واحدة ، لكن ما الذي سوف يحدث من بعد ذلك ؟ ماذا يحدث عندما يقاتل المؤمنون أهل الكفر والفسق ؟ وتكون الإجابة هي : ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ إن هذا القول الحكيم يحمل قضية بعيدة عن الشرط والجزاء ، إنها حكم من الله على أهل الفسق بأنهم لا يُنصرون أبدا سواء أقاتلوا أن لم يقاتلوا إنها قضية ثابتة منفصلة ، وليست معطوفة على الشرط ، فعلة عدم النصر ، ليست القتال ، ولكنها الكفر .

وإذا دققنا الفهم في العبارة حروفا – بعد أن دققنا فيها الفهم جملا – لوجدنا معنى جديدا ، فقد يظن إنسان أن القول كان يفترض أن يتأتى على نحو مغاير ، هو " يولوكم الأدبار فلا ينصرون " لأن الذي يأتي بعد الـ " فاء " يعطي أنهم لا ينتصرون عليكم في بداية عهدكم ، وهذا ما تفيده الفاء لأنها للترتيب والتعقيب . لكن الحق أورد حرف " ثم " وهو يفيد التراخي ، وهذا يعني أنهم لا ينتصرون عليكم أيها المؤمنون حتى لو استعدوا بعد فترة لمعركة يَرُدُّن بها على توليهم الأدبار . إنه حكم تأبيدي ، لأن " ثم " تأتي للتعقيب مع التراخي ، والفاء تأتي للتعقيب المباشر بدون تراخ. لذلك فعندما نقرأ القرآن نجد وضع الفاء كالآتي :

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾

[عبس : 21]

لأن دخول القبر يكون بعد الموت مباشرة ، وبعدها يقول الحق :

(142/127)

﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ ﴾

[عبس : 22]

فإذا كان هناك تعقيب بعد مدّة زمنية فالحق يأتي بـ " ثم " , وإذا كان هناك تعقيب فوري بلا مدة يأتي الحق بـ " ف " . والتعقيب في الآية التي نتناولها يأتي بعد " ثم " ، وكأن هذا حكم مستمر من الحق بأن أهل الفسق لن ينتصروا على أهل الإيمان ، ولم بعد انتهاء المعركة القائمة الآن بينهم ، إنها هزيمة بحكم نهائي ، هذا هو القول الفصل : ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ وهو أشد وقعاً مما لو جاء " لا ينتصرون " لماذا ؟ لأن من الممكن ألاّ ينتصر أهل الكفر بذواتهم ، ولكن الإيضاح يؤكد أنهم – أهل الكفر – لا ينتصرون لا بذواتهم ، ولا يُنصرون بغيرهم أيضا .

إن ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ قضية دائمة فليست المسألة مقصورة على عهد رسول الله فقط ، ولكنها ستظل إلى أبد الآبدين .

ومن السطحية في الفهم أن نقول : إن الآية كانت تتطلب أن يكون القول " ثُمَّ لَا يُنصَرُوا " لأن الاعراب يقتضي ذلك . لكن المعنى اللائق بالمتكلم وهو الحق سبحانه وتعالى الذي يعطي الضمان والاطمئنان للأمة المسلمة أمام خصومها لا بد أن يقول : ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ وهي أكثر دقة حتى من " لَا ينتصرون " لأن " ينتصرون " فيها مدخلية الأسباب منهم ، أما ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ فهي تعني أن لا نصر لهم أبداً ، حتى وإن تعصب لأهل الفسق قوم غيرهم وحاولوا أن ينصروهم فلن يستطيعوا ذلك .

فإن رأيتم - أيها المسلمون - نصرا للكافرين عليكم منهم أو بتعصب قوم لهم فاعلموا أنكم دخلتم معهم على غير منهج الله . وقد يأتي إنسان ويقول : كيف ينتصر علينا اليهود ونحن مسلمون ؟ ونقول : هل نحن نتبع الآن منهج وروح الإسلام ؟ وماذا عندنا من الإسلام ومن الإيمان ؟ هل تحسب نفسك على ربك أثناء هزيمتك ؟ وهل دخلت معركتك كمعركة إسلامية ؟

لا ، لقد انتبهنا إلى كل شيء إلاّ الإسلام . , قدمنا الانتماء لعصبية وقومية وعرقية على الإيمان فكيف نطلب نصرا من الله ؟ لا يحق لنا أن نطلب نصرة لله إلا إذا دخلنا المعركة

ونحن من جند الله . والهزيمة تحدث عندما لا نكون جنداً لله ؛ لأن الله ضمن النصر والغلبة لجنوده فقال :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾

[الصافات : 173]

فإذا لم نغلب فتأكدوا أننا لسنا من جنود الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1682.1679 ﴾

(144/127)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103) وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ

بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ
فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ
(106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (107) تِلْكَ
آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (108) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (109) كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ
الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110) لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا
يُنْصَرُونَ (111) ﴾

(145/127)

التفسير : إنه سبحانه لما حذر المؤمنين إضلال الكفار أمرهم في هذه الآيات بمجامع الطاعات ومعاقد الخيرات ، فأولها لزوم سيرة التقوى . عن ابن عباس : لما نزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ﴾ وهو أن يطاع فلا يعصى طرفة عين ، وأن يشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى . أو هو القيام بالمواجب كلها والاجتناب عن المحارم بأسرها ، وأن لا يأخذه في الله لومة لائم ، ويقول بالقسط ولو على نفسه أو الوالدين والأقربين ، شق

ذلك على المسلمين فنزلت ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ [التغابن : 16] والجمهور على أنها منسوخة لأن معنى ﴿ حق تقاته ﴾ واجب تقواه وكما يحق أن يتقى وهو أن يجتنب جميع معاصيه ،

(146/127)

ومثل هذا لا يجوز أن ينسخ وإلا كان إباحة لبعض المعاصي . ولا يجوز أن يراد بقوله : ﴿ حق تقاته ﴾ ما لا يستطاع من التكاليف كالصادر على سبيل الخطأ والسهو والنسيان لقوله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ [البقرة : 286] فعلى هذا لم يبق فرق بين الآيتين . ولناصر القول الأول أن يقول : إن كنه الإلهية غير معلوم للخلق ، فلا يكون كمال قهره وقدرته وعزته معلوماً فلا يحصل الخوف اللائق بذلك فلا يحصل حق الاتقاء ، وإذا كان كذلك فيجوز أن يؤمر بالاتقاء الأغلظ والأخف ، ثم ينسخ الأغلظ ويبقى الأخف ، ونزول هذه الآية بعد قوله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ [البقرة : 286] ممنوع ﴿ ولا تموتن إلا وانتم مسلمون ﴾ ليس نهياً عن الموت وإنما هو نهي عن أن يدركهم الموت على خلاف حال الإسلام وقد مر في البقرة مثله . ثم إنه تعالى أمرهم بما هو كالأصل لجميع الخيرات وإصلاح المعاش والمعاد وهو الاجتماع على التمسك بدين الله واتفاق الآراء على

إعلاء كلمته فقال : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ﴾ حال كونهم مجموعين . وقولهم : اعتصمت بحبله يجوز أن يكون تمثيلاً لاستظهاره به ووثوقه بعناية باستمساك المتدلي من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه ، لأن وجه

(147/127)

الشبه وصف غير حقيقي ومنتزع من عدة أمور .

(148/127)

ويجوز أن يكون الحبل استعارة للعهد والاعتصام لوثوقه بالعهد بناء على أن في الكلام تشبيهين ، ويجوز أن تفرض الاستعارة في الحبل فقط ويكون الاعتصام ترشيحاً لها .

والحاصل أن طريق الحق دقيق والسائر عليه غير مأمون أن تزل قدمه عن الجادة ، فيراد بالحبل ههنا ما يتوصل به إلى الثبات على الحق وإن كانت عبارات المفسرين متخالفة . فعن ابن عباس : هو العهد كما يجيء ﴿ إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾ [آل عمران : 112] وقيل : إن هالقرآن كما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي

صلى الله عليه وسلم : " أما إنها ستكون فتنة . قيل : فما المخرج منها ؟ قال صلى الله عليه وسلم : كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو حبل الله المتين " وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم : " هذا القرآن حبل الله " وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله حبل متين ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي " وقيل : إنه دين الله . وقيل : إنه طاعة الله . وقيل : إخلاص التوبة . وقيل : الجماعة لقوله تعالى عقيب ذلك : ﴿ ولا تفرقوا ﴾ لأن الحق لا يكون إلا واحداً ، وما بعد الحق إلا الضلال . ويد الله مع الجماعة . قال صلى الله عليه وسلم : " ستفترق أمتي على نيف وسبعين فرقة الناجي منهم واحد فقيل : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : الجماعة " وروي " السواد الأعظم " وروي " ما أنا عليه وأصحابي " قال صلى الله عليه وسلم : " لا تجتمع أمتي على الضلالة " وقد يتمسك بالآية نفاة القياس قالوا : الأحكام الشرعية إن احتيج فيها إلى الدلائل اليقينية امتنع الاكتفاء فيها بالقياس ، وإن اقتصر فيها على الدلائل الظنية فالقول بجواز القياس لكل أحد يوجب التفرق والاختلاف وهو منهي عنه . وأجيب بأن الدلائل الدالة على وجوب العمل بالقياس مخصصه لعموم قوله : ﴿ ولا تفرقوا ﴾ . ثم إنه تعالى ذكرهم نعمته

عليهم وذلك أنهم كانوا في الجاهلية بينهم الإحن والبغضاء والحروب المتطاولة ، فألف الله بين قلوبهم ببكرة الإسلام فصاروا إخواناً في الله متراحمين متناصحين ، وذلك أن من كان وجهه إلى الدنيا فقلما يخلو من معاداة ومناقشة بسبب الأغراض الدنيوية ، أما العارف الناظر من الحق إلى الخلق فإنه يرى الكل اسيراً في قبضة القضاء فلا يعادي أحداً ألبتة لأنه مستبصر بسر الله في القدر . فإذا أمر أمر برفق ناصح لا بعنف معير وكان حبه لحزب الله ونظرائه في الدين ورفقائه في طلب اليقين أشد من حب الوالد لولده ، فكانوا كالأقربين والإخوان بل كجسد واحد وكنفس واحدة وقيل : يريد الإخوان في النسب .

وذلك أن الأوس والخزرج كانا أخوين لأب وأم ، وكان بينهما العداوة والحروب ، وبقيا على ذلك مائة وعشرين سنة إلى أن أطفأ الله ذلك بالإسلام ، وألف بينهم برسول الله ، فذكر الله تعالى تلك النعمة . وفيه دليل على أن المعاملات الحسنة الجارية فيما بينهم بعد الإسلام إنما حصلت من الله تعالى حيث خلق فيهم تلك الداعية المستلزمة لحصول الفعل . قال الكعبي : إن ذلك بالهداية والبيان والتحذير والمعونة والألطاف لا بخلق الفعل . وأجيب بأن كل هذا كان حاصلاً قبل ذلك . فاختصاص أحد الزمانين بحصول الألفة والمحبة لا بد أن يكون لأمر زائد على ما ذكرتم . هذا شرح النعم الدنيوية عليهم ، ثم ذكرهم النعم الأخروية بقوله : ﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ وشفا الحفرة وشفتها حرفها

بالتذكير والتأنيث ، ومنه يقال : أشفى على الشيء إذا أشرف عليه كأنه بلغ شفاه أي حده وطرفه . وأنقذه واستنقذه خلصه ونجاه . والضمير في ﴿ منها ﴾ للحفرة أو النار أو للشفاء إما لأنه في معنى الشفة وإما لإضافته إلى الحفرة وهو بعضها وهو كقوله :

(150/127)

كما شرقت صدر القناة من الدم . . . قال بعضهم : الشفة أصغر من الشفا وكذلك الضلالة والضلال لذلك قال نوح عليه السلام : ﴿ ليس بي ضلالة ﴾ [الأعراف : 61] حين قال له قومه ﴿ إنا لنراك في ضلال مبين ﴾ [الأعراف : 60] أي ليس بي صغير من الضلال فكيف الكبير منه ؟ ومعنى الآية إنكم كنتم مشرفين بكفركم على جهنم تشبيهاً لها بالحفر التي فيها النار وتمثيلاً لحياتهم التي يتوقع بعدها الوقوع في النار بالقعود على حرفها . وفيه تنبيه على تحقير مدة الحياة وإن طالت كأنه ليس بين الحياة وبين الموت المستلزم للوقوع في الحفرة إلا ما بين طرف الشيء وبين ذلك الشيء . قالت المعتزلة : معنى الإنقاذ أنه تعالى لطف بهم بالرسول صلى الله عليه وسلم وبسائر ألطافه حتى آمنوا . وقال أهل السنة : جميع الألطاف مشتركة بين المؤمن والكافر ، فلو كان فاعل الإيمان هو العبد لكان العبد هو الذي أنقذ نفسه من النار ، لكن الآية دلت على أن الله تعالى هو المنقذ فعلم أن خالق أفعال

العباد هو الله تعالى . ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك البيان البليغ ﴿ يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ إرادة أن تزدادوا هدى أو لتكونوا على رجاء هداية . فالأول قول المعتزلة والثاني لأهل السنة ، وقد مر في أوائل سورة البقرة . ثم رغب المؤمنين الكاملين في تكميل غيرهم فقال : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ﴾ وهو جنس تحته نوعان : الترغيب في فعل ما ينبغي من واجبات الشرع ومندوباته والكف عما لا ينبغي من محرماته ومكروهاته ، فلا جرم أتبعه النوعين زيادة في البيان فقال : ﴿ ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ واختلفوا في أن كلمة "من" في قوله : ﴿ منكم ﴾ للتبيين أو للتبعيض .

(151/127)

فذهب طائفة إلى أنها للتبيين لأنه ما من مكلف إلا ويجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إما بيده أو بلسانه أو بقلبه ، وكيف لا وقد وصفهم الله تعالى بذلك في قوله : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ فهذا كقولك : لفلان من أولاده جند وللأمير من غلمانه عسكر . وتريد جميع الأولاد والغلمان لا بعضهم . ثم قالوا : إن ذلك وإن كان واجباً على الكل إلا أنه متى قام به بعض سقط عن الباقين كسائر فروض الكفايات . وقال آخرون : إنها للتبعيض إما لأن في القوم من لا يقدر على الدعوة

وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالنساء والمرضى والعاجزين ، وإما لأن هذا التكليف مختص بالعماء الذين يعرفون الخير ما هو والمعروف والمنكر ما هما ، ويعلمون كيف يرتب الأمر في إقامتهما ، وكيف يباشر فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر ، وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر ، وقد يغلظ في موضع اللين ويلين في موضع الغلظة ، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمادياً . وأيضاً قد أجمعنا على أن ذلك واجب على الكفاية ، فكان هذا بالحقيقة إيجاباً على البعض الذي يقوم به . ثم إن نصب لذلك رجل تعين عليه بحكم الولاية وهو المحتسب .

(152/127)

واعلم أن الأمر بالمعروف على ثلاثة أضرب : أحدها ما يتعلق بحقوق الله تعالى وهو نوعان : أحدهما ما يؤمر به الجمع دون الأفراد كإقامة الجمعة حيث تجتمع شرائطها ، فإن كانوا عدداً يرون انعقاد الجمعة بهم والمحتسب لا يراه فلا يأمرهم بما لا يجوّزه ولا ينهاهم عما يرونه فرضاً عليهم ويأمرهم بصلاة العيد . والثاني ما يؤمر به الأفراد كما إذا أخر بعض الناس الصلاة عن الوقت . فإن قال : نسيتها . حثه على المراقبة . ولا يعترض على من أخرها والوقت باق . وثانيها ما يتعلق بحقوق الآدميين وينقسم إلى عام كالبلد إذا تعطل شربه أو

انهدم سوره أو طرقه أبناء السبيل المحتاجون وتركوا معونتهم . فإن كان في بيت المال مال لم يؤمر الناس بذلك ، وإن لم يكن أمر ذوو المكنة برعايتها والي خاص كمطل المدين الموسر بالدين . فالمحتسب يأمره بالخروج عنه إذا استعداه رب الدين وليس له الحبس . وثالثها الحقوق المشتركة كأمر الأولياء بإنكاح الأكفاء ، وإلزام النساء أحكام العدد ، وأخذ السادة بحقوق الأرقاء ، وأرباب البهائم بتعهدها وأن لا يستعملون فيما لا تطيق ، ومن يغير هيئات العبادات كالجهر في الصلاة السرية وبالعكس ، أو يزيد في الأذان يمنعه وينكر عليه ، من تصدى للتدريس والوعظ وهو ليس من أهله ولم يؤمن اغترار الناس به في تأويل أو تحريف ، فينكر المحتسب عليه ويظهر أمره لئلا يغتر به .

(153/127)

وإذا رأى رجلاً واقفاً مع امرأة في شارع يطرقه الناس لم ينكر عليه ، وإن كان في طريق خال فهو موضع ريبة فينكر ويقول : إن كانت ذات محرم فصنها عن مواضيع الريب ، وإن كانت أجنبية فخف الله معها في الخلوة . ولا ينكر في حقوق الآدميين كتعدي الجار في جدار الجار إلا باستعداء صاحب الحق ، وينكر على من يطيل الصلاة من أئمة المساجد المطروقة ، وعلى القضاة إذا حجبوا الخصوم وقصروا في النظر في الخصومات . والسوقي المختص

بمعاملة النساء يختبر أمانته فإن ظهرت منه خيانة منع من معاملتهن . وبالجملة : " الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق " فلينظر الداعي إلى الخير في حال كل مكلف وغير مكلف حتى الصبيان ، ليتمرنوا والمجانين كيلا يضروا ويدعوه إلى ما يليق به متدرجاً من الأسهل إلى الأصعب في الأمر والإنكار كل ذلك إيماناً واحتساباً لا سمعة ورياء ، ولا لغرض من الأغراض النفسانية والجسمانية ، وذلك أنّ هذه الدعوة منصب النبي وخلفائه الراشدين بعده ، ومن ههنا ذهب الضحاك إلى أن المراد من المذكورين في هذه الآية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين يتعلمون من الرسول ويعلمون الناس . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم " من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه وخليفة رسول الله وخليفة كتابه " وعن علي : أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن شنأ الفاسقين وغضب لله غضب الله له وكفى بقوله تعالى : ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ أي الأخصاء بالفلاح مدحاً لهم . وقد يتمسك بهذا في أن الفاسق ليس له أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لأنه ليس من أهل الفلاح . وأجيب بأن هذا ورد على سبيل الغالب ، فإن الظاهر أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لا يشرع فيه إلا بعد إصلاح أحوال نفسه ، لأن العاقل يقدم مهم نفسه على مهم الغير وقلما يتفق ممن يزني بامرأة أن يأمرها بالمعروف في أنها لم

كشفت عن وجهها . قال بعض العلماء : إن ترك ارتكاب المنهي عنه والنهي عن ارتكاب المنهي واجبان على الفاسق ، فبتركه أحد الواجبين لا يسقط عنه الواجب الآخر وعن بعض السلف : مروا بالخير وإن لم تفعلوا . وعن الحسن أنه سمع مطرف بن عبد الله يقول : لا أقول ما لا أفعل فقال : وأينا يفعل ما يقول؟ ود الشيطان لو ظفر بهذه منكم فلا يأمر أحد بمعروف ولا ينهي عن منكر . والحق في هذه القضية ما قيل :

وغير تقيّ يأمر الناس بالتقى . . . طبيب يداوي الناس وهو مريض

والقرآن ينعي عليه بقوله : ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ [الصف : 23] ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ [البقرة : 44] وقد سلف تقريره في البقرة .

وعن داود الطائي أنه سمع صوتاً من قبر : ألم أزكِ ألم أصلِ ألم أصم ألم أفعل كذا وكذا ؟ أجيب بلى يا عدو الله ولكن إنك إذا خلوت بارزته بالمعاصي ولم تراقبه .

قوله سبحانه : ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا ﴾ في النظم وجهان : أحدهما أنه تعالى ذكر في الآيات المتقدمة أنه بين في التوراة والإنجيل ما يدل على صحة دين الإسلام ، ثم إن أهل الكتاب حسدوا محمداً فاحتالوا لإلقاء الشكوك في تلك النصوص ، ثم انجز الكلام إلى أنه أمر المؤمنين بالدعاء إلى الخير ، فختم الكلام بتحذير المؤمنين من مثل فعل أهل الكتاب من إلقاء الشبهات في النصوص واستخراج التأويلات الفاسدة ، فعلى هذا تكون الآية من تتمة الآيات المتقدمة . وثانيهما أنه لما أمر الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن ضده وكان ذلك مما لا يتم إلا بالقدرة على تنفيذه ، كيف وفي الناس ظلمة ومتغلبون ، فلا جرم حذر أهل الحق أن يتفرقوا ويختلفوا كيلا يصير ذلك سبباً لعجزهم عن القيام بهذا التكليف ، وعلى هذا تكون الآية من تتمة الآية السابقة فقط . قال بعضهم : تفرقوا واختلفوا مؤداهما واحد والتكرير للتأكيد . وقيل : معناهما مختلف . تفرقوا بالعداوة واختلفوا في الدين . أو تفرقوا بسبب التأويلات الفاسدة للنصوص ، واختلفوا كل منهم نصرة قوله . أو تفرقوا بأبدانهم بأن صار كل من الأحبار رئيسا في بلد ، واختلفوا بأن صار كل منهم يدعي أنه على الحق وصاحبه على الباطل . ولعل الإنصاف أن أكثر علماء الزمان بهذه الصفة فنسأل الله العصمة والسداد . ﴿ وأولئك ﴾ اليهود والنصارى الذين اختلفوا من بعد ما جاءهم الدلالات الواضحة والنصوص الظاهرة ، أو أولئك الذين اقتفوا آثارهم من مبتدعه هذه الأمة ﴿ لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ وفي تعليق الظرف بقوله ﴿

لهم ﴾ فائدتان : إحداهما أن ذلك العذاب في هذا اليوم ، والأخرى أن من حكم هذا اليوم أن يبيض بعض الوجوه ويسود بعضها ونظير ذلك في القرآن : ﴿ وجوه يومئذٍ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة ﴾ [عبس : 38-41] وفي أمثال هذه الألوان للمفسرين قولان : أحدهما – وإليه ميل أبي مسلم – : أن البياض

مجاز عن الفرح والسواد عن الغم وهذا مجاز مستعمل قال تعالى : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودّاً ﴾ [النحل : 58] ولما سلم الحسن بن علي الأمر على معاوية قال له رجل : يا مسوّد وجوه المؤمنين . وتمام الخبر سوف يجيء إن شاء الله في تفسير سورة القدر ، ولبعض الشعراء في الشيب :

يا بياض القرون سودت وجهي . . . عند بيض الوجوه سود القرون .

وثانيهما : أن السواد والبياض محمولان على ظاهرهما وهما النور والظلمة ، إذ الأصل في الإطلاق الحقيقة . فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه وابيضت صحيفته وسعى النور بين يديه وبيمينه ، ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكمده واسودت صحيفته وأحاطت به الظلمة من كل جانب .

قالوا : والحكمة في ذلك أن يعرف أهل الموقف كل صنف فيعظمونهم أو يصغرون بحسب ذلك ويحصل لهم بسببه مزيد بهجة وسرور أو ويل وثبور . وأيضاً إذا عرف المكلف في الدنيا أنه يحصل له في الآخرة إحدى الحالتين ازدادت رغبته في الطاعات وترك المحرمات . قلت : والتحقيق فيه أن والهيئات والأخلاق الحميدة أنوار ، والملكات والعادات الذميمة ظلمات ، وكل منهما لا يظهر آثارهما كما هي إلا بعد المفارقة إلى الآخرة ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ﴾ [الحديد : 13] واحتج أهل السنة بالآية على أن المكلف إما مؤمن وإما كافر وإنه ليس ههنا منزلة بين المنزلتين ، لأنه قسم أهل القيامة إلى قسمين : مبيض الوجوه وهم المؤمنون ، ومسودها وهم الكافرون لقوله تعالى في آخر الآية ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ واعترض القاضي عليه بأن عدم ذكر القسم الثالث لا يدل على عدمه ، وأيضاً لفظ وجوه نكرة فلا يفيد العموم . وأيضاً المذكور في الآية هم المؤمنون والذين كفروا بعد الإيمان ، ولا شبهة أن الكافر الأصلي من أهل النار مع أنه غير داخل تحت هذين القسمين فكذا القول في الفساق . والواب لم لا يجوز أن يكون لامراد أن كل أحد أسلم وقت استخراج الذرية من صلب آدم ، فيكون الخطاب لجميع

الكفار ؟ وأنه أيضاً جعل موجب العذاب في آخر الآية هو الكفر من حيث إنه كفر لا الكفر من حيث إنه بعد الإيمان . فإن قيل : لم قدم البياض على السواد أوّلاً وعكس آخراً ؟ فالجواب بعد تسليم إفادة الواو الترتيب ، أنه بدأ بذكر أهل الثواب وختم بها أيضاً تنبيهاً على أن إرادة الرحمة أكثر من إرادة الغضب كما قال : " سبقت رحمتي غضبي " ولما في ذلك من رعاية حسن المطلع والمقطع وأنه فن بديع في الفصاحة . ومن المراد بهؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم ؟ قال أبي بن كعب : هم جميع الكفار لأنهم آمنوا وقت الميثاق ، ورواه الواحدي في البسيط بإسناده عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وقيل : المراد أكفرتم بعد ما ظهر لكم ما يوجب الإيمان وهو ما نصبه الله من دلائل التوحيد والنبوة ؟ وقال عكرمة والأصم والزجاج : إنهم أهل الكتاب آمنوا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وكفروا به بعد بعثه . وقال قتادة : إنهم المرتدون . وقال الحسن : هم المنافقون . وقيل : هم الخوارج الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية " ولما رأى أبو أمامة رؤوساً منصوبة على درج مسجد دمشق دمعت عيناه ثم قال : كلاب النار هؤلاء شر قتلى تحت أديم السماء ، وخير قتلى

تحت أديم السماء الذين قتلهم هؤلاء . فقال له أبو غالب : أشيء تقوله برأيك أم شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : بل سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم أسمعه ، إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً حتى عد سبعاً ما حدثتكموه .

(159/127)

قال : فما شأنك دمعت عيناك ؟ قال : رحمة لهم . كانوا من أهل الإسلام فكفروا ثم قرأ هذه الآية . ثم أخذ بيده فقال : إن بأرضك منهم كثيراً فأعاذ الله منهم . هذا مما أخرجه الإمام أبو عيسى الترمذي في جامعة . ولكن المشهور من مذهب أهل السنة أنّ الخروج على الإمام لا يوجب الكفر ألبتة ، والاستفهام في قوله تعالى : ﴿ أكفرتم ﴾ بمعنى الإنكار . قال القاضي : وفيه وكذا في قوله : ﴿ ما كنتم تكفرون ﴾ دليل على أن الكفر منهم لا من الله . وقالت المرجئة : فيه دلالة على أن العذاب لا يكون إلا للكفار . أما قوله : ﴿ ففي رحمة الله ﴾ فالمراد بها الجنة التي هي محل الرحمة . وموقع قوله : ﴿ هم فيها خالدون ﴾ موقع الاستئناف كأنه قيل : كيف يكونون فيها ؟ فأجيب بذلك أي لا يظعنون عنها ولا يموتون . وفي إقامة الرحمة مقام الجنة دليل على أن العبد وإن كثرت طاعته فإنه لا يدخل الجنة إلا بفضل الله وبرحمته . وفي إضافة الرحمة إلى نفسه وتعليل العذاب بكفرهم

والنص على خلود أهل الثواب دون أهل النار وإن كانوا مخلدين أيضاً دلائل وإشارات إلى أن جانب العفو والمغفرة والرحمة مغلب، وكيف لا وقد أردفه بقوله: ﴿ تلك ﴾ الأحكام التي وردت في حيز الوعيد والوعد وانقضى ذكرها ﴿ آيات الله نتلوها عليك ﴾ متلبسة ﴿ بالحق ﴾ العدل من جزاء المحسن بإحسانه وجزاء المسيء بإساءته، أو ملتبسه بالمعنى الحق لأن معنى المتلو حق ﴿ وما الله يريد ظلما للعالمين ﴾ ولكن مصالح الخلق لا تنتظم إلا بتهديد المذنبين، وإذا حصل التهديد فلا بد من التحقيق دفعاً للكذب عمن هو أصدق القائلين. قال الجبائي: قوله: ﴿ ظلماً ﴾ نكرة في سياق النفي فوجب أن لا يريد شيئاً مما يكون ظلماً سواء فرض منه أو من العبد على نفسه أو على غيره، وإذا لم يرد لم يفعل إذ لو كان فاعلاً لشيء من الأقسام الثلاثة كان مريداً له هذا خلف، فثبت بهذه الآية أنه تعالى غير فاعل للظلم وغير فاعل لأعمال العباد، إذ من

(160/127)

جملتها القبائح، وقد بينا أنه لا يريدها. ثم إنه تعالى تمدح بأنه لا يريد ذلك، والتمدح إنما يصح لو صح منه فعل ذلك الشيء وصح منه كونه مريداً له، فدلت الآية على أنه قادر عل الظلم وعلى أن يمنع الظلمة من الظلم على سبيل الإلجاء والقهر فلهذا قال: ﴿ ولله ما في

السموات وما في الأرض ﴾ وأيضاً لما ذكر أنه لا يريد الظلم والقبائح استدل عليه بأن فاعل القبيح إنما يفعل القبيح للجهل أو العجز أو الحاجة . وكل ذلك على الله تعالى محال لأنه مالك لكل ما في السموات وما في الأرض بل لكل ما في الوجود .

(161/127)

وربما يقال : معنى الآية إما أن يكون أنه لا يريد أن يظلمهم ، أو أنه لا يريد أن يظلم بعضهم بعضاً . والأول لا يستقيم على على مذهبكم لأن من مذهبكم أنه تعالى لو عذب البريء من الذنب أشد العذاب لم يكن ظالماً بل كان عادلاً لأن الظلم تصرف في ملك الغير وهو تعالى إنما يتصرف في ملك نفسه ، فتصور الظلم منه محال عندكم ، فلا يلزم منه مدح . والثاني أيضاً محال على قولكم لأن كلاً بإرادة الله وتكوينه عندكم ، فثبت أنه لا يمكن حمل الآية على وجه صحيح في مذهبكم . أجاب أهل السنة من وجهين : الأول أنه يتوقف المتدح بنفي صفة على إمكان تصور ذلك الشيء منه بدليل قوله : ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ [البقرة : 255] ﴿ وهو يطعم ولا يطعم ﴾ [الأنعام : 14] ولا يتوقف التمدح بذلك على صحة النوم والأكل عليه . الثاني أنه تعالى إن عذب من ليس بمستحق للظلم لم يكن ظالماً لكنه في صورة الظلم . وقد يطلق اسم أحد المتشابهين على الآخر كقوله : ﴿

وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ [الشورى : 40] والحق في هذا المقام أن الظلم وضع الشيء في غير موضعه . وإذا كان اللطف والقهر من ضرورات صفات الكمال ، فوضع كل منهما في مظهره يكون وضع الشيء في موضعه فلا يكون ظلماً . واحتجت الأشاعرة بقوله : ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ﴾ على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى لأنها من جملة ما في السموات وما في الأرض . أجابت المعتزلة بأن قوله : ﴿ لله ﴾ إضافة ملك لا إضافة فعل كما يقال : هذا البناء لفلان . يراد أنه مملوكه لا أنه مفعوله . وأيضاً الآية مسوقة في معرض المدح ولا مدح في نسبة الفواحش والقبائح إلى نفسه . وأيضاً قوله : ﴿ ما في السموات وما في الأرض ﴾ يتناول ما كان مظروفاً لهما وذلك من صفات الأجسام لا من صفات الأفعال التي هي أعراض ، والداعية المنتهية إلى تخليق الله دفعاً للتسلسل أو لترجيح من غير مرجح ، قالت الحكماء : تقديم السموات في الذكر على الأرض دليل على

(162/127)

أن جميع الأحوال الأرضية مستندة إلى الأسباب السموية ، ولا شك أن الأحوال السموية مستندة إلى خلقه وتكوينه تعالى فيكون الجبر أيضاً لازماً من هذا الوجه . ﴿ وإلى الله ﴾ أي إلى حيث لا مالك سواه ﴿ ترجع الأمور ﴾ فالأول إشارة إلى أنه تعالى مبدأ المخلوقات

كلها ، وهذا إشارة إلى أن معاد الكل إليه .

قوله عز من قائل : ﴿ كنتم خير أمة ﴾ في النظم وجهان : أحدهما أنه لما أمر المؤمنين بما أمر ونهاهم عما نهى ، عدل إلى طريق آخر يقتضي حملهم على الانقياد والطاعة لأن كونهم خير الأمم مما يقوّي داعتيهم في أن لا يبطلوا على أنفسهم هذه المزية ، وذلك إنما يكون بالتزام التكاليف الشرعية ، وثانيهما أنه لما ذكر حال الاشقياء وحال السعداء نبه أوّلاً على ما هو السبب لوعيد الأشقياء بقوله : ﴿ وما الله يريد ظلماً للعالمين ﴾ بمعنى أنهم استحقوا ذلك بأفعالهم القبيحة .

(163/127)

ثم نبه على سبب وعد السعداء بقوله : ﴿ كنتم خير أمة ﴾ أي تلك الكرامات والسعادات إنما فازوا بها في الآخرة لأنهم كانوا في الدنيا خير أمة ، وأقول : لما انجز الكلام في مخاطبة المؤمنين الى بيان أن كل ما في الوجود ملكه وملكه إبداعاً واختراعاً وأن منتهى الكل إليه ، أتبع ذلك مزية هذه الأمة ليعلم أنها بسابقة العناية الأزلية إذ جعلهم مظهر الألطفا ، وذكر بعدها رذيلة أهل الكتاب ليعرف أنها لوقوعهم في طريق القهر ولا اعتراض لأحد على ما يفعله المالك في ملكه . عن عكرمة ومقاتل أن مالك بن الصيف ووهب بن يهوديا

اليهوديين قالا لابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى حذيفة : إن ديننا خير مما تدعوننا إليه ، ونحن خير وأفضل منكم فأنزل الله هذه الآية . قال بعض المفسرين : "كان " ههنا تامة ، وانتصاب ﴿ خير أمة ﴾ على الحال حدثتم ووجدتم خير أمة . والأكثرون على أنها ناقصة ، فجاء إيهام أنهم كانوا موصوفين بالخيرية في الزمان الماضي دون ما يستقبل . فأجيب بأن "كان" لا تدل على عدم سابق ولا انقطاع طارىء بدليل قوله : ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ [النساء : 96] وقيل : المراد كنتم في علم الله أو في اللوح المحفوظ خير أمة ، أو كنتم في الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة كقوله : ﴿ ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل ﴾ [الفتح : 29] وقال أبو مسلم : هذا تابع لقوله : ﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ﴾ وما بينهما اعتراض والتقدير : أنه يقال لهم عند الخلود في الجنة : كنتم في دنياكم خير أمة فلهذا نلتم من الرحمة وبياض الوجه ما نلتم . وقال بعضهم : لو شاء الله لقال : أنتم . فكان هذا التشريف حاصلاً لكلنا ، ولكنه مخصوص بقوم معينين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم السابقون الأولون ومن صنع مثل صنيعهم . وقيل : إنها زائدة والمعنى : أنتم خير أمة . وزيفه ابن الأنباري بأن الزائدة لا تقع في أول الكلام ولا تعمل كقول العرب "

عبد الله كان قائم وعبد الله قائم كان " ولا يقولون : "كان عبد الله قائم " على أن "كان " زائدة . لأن البداءة بها دليل شدة العناية ، والملغى لا يكون في محل العناية . وقيل : إنها بمعنى صار أي صرتم خير أمة . وأصل الأمة الطائفة المجتمعة على الشيء الواحد ، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم هي الطائفة الموصوفة بالإيمان به والإقرار بنبوته . وإذا أطلقت الأمة في نحو قول العلماء " اجتمعت الأمة " وقعت عليهم . وقد يقال لكل من جمعتهم دعوته إنهم أمة الدعوة ولا يطلق عليهم لفظ الأمة إلا بهذا القيد .

(165/127)

قال الزجاج : ظاهر الخطاب في ﴿ كنتم ﴾ مع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولكنه عام في حق لكل الأمة . ونظيره ﴿ كتب عليكم القصاص ﴾ [البقرة : 178] ﴿ كتب عليكم القصاص ﴾ [البقرة : 183] وقوله : ﴿ للناس ﴾ إما أن يتعلق ب ﴿ أخرجت ﴾ والمعنى : كنتم خير الأمم المخرجة للناس في جميع الأعصار . ومعنى إخراجها أنها أظهرت للناس حتى تميزت وعرفت وفصل بينها وبين غيرها . وإما أن يتعلق ب ﴿ كنتم ﴾ أي كنتم للناس خير أمة . ثم بين سبب الخيرية على سبيل الاستئناف بقوله

: ﴿ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ كما تقول: زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بمصالحهم . وقد يستدل بالآية على أن إجماع هذه الأمة حجة لأنها لو لم تحكم بالحق لم تكن خيراً من المبطل، ولأن اللام في ﴿ المعروف ﴾ وفي ﴿ المنكر ﴾ للاستغراق فيقتضي كونهم آمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر فيكون إجماعهم حقاً وأما أنه من أي وجه يقتضي ذلك كون هذه الأمة خير الأمم مع أن الصفات الثلاثة كانت حاصلة لسائر الأمم فذلك أن الأمر بالمعروف قد يكون بالقلب وباللسان وباليد ، وأقواها ما يكون بالقتال لأنه إلقاء النفس في خطر القتل . وأعرف والمعروفات الدين الحق والإيمان بالتوحيد والنبوة، وأنكر المنكرات الكفر بالله، فكان الجهاد في الدين تحملاً لأعظم المضارّ لغرض إيصال الغير إلى أعظم المنافع وتخليصه من أعظم المضار ، فكان من أعظم العبادات . ولما كان أمر الجهاد في شرعنا أقوى منه في سائر الشرائع كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أنا نبي السيف أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله " فلاجرم صار لك موجباً لفضل هذه الأمة على سائر الأمم، وهذا معنى ما روي عن ابن عباس في تفسير قوله : ﴿ كنتم خير أمة ﴾ تأمرونهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويقروا بما أنزل الله، وتقاتلونهم عليه، ولا إله إلا الله أعظم المعروف والتكذيب أنكر المنكر . وفائدة القتل

على الدين لا ينكره منصف فإن أكثر الناس يحبون ما ألفوه من الأديان الباطلة ولا يتأملون في الدلائل التي تورد عليهم ، فإذا خوف بالقتل دخل في دين الحق مكرهاً إلى أن يألفه متدرجاً . وأما الإيمان بالله فلا شك أنه في هذه الأمة أكمل لأنهم آمنوا بكل ما يجب الإيمان به من رسول الله أو كتاب أو بعث أو حساب أو ثواب أو عقاب إلى غير ذلك ، ولا يقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض . وإنما اقتصر في وصف الأمة على الإيمان بالله لأنه يستلزم الإيمان بالنبوة وبسائر ما عددنا وإلا لم يكن في الحقيقة إيماناً ، ولهذا نفى عن أهل الكتاب في قوله : ﴿ ولو آمن أهل الكتاب ﴾ وإنما قدم الأمر بالمعروف على الإيمان بالله في الذكر مع أن الإيمان مقدم على كل الطاعات ، لأن الآية سيقت لبيان فضل الأمر بالمعروف وتأكد القيام به ولهذا كرر بعد قوله : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ﴾ فكانت العناية به أشد فكان تقديمه أهم .

(167/127)

وليعلم أن التكميل أفضل من الكمال نفسه ولهذا استلزم الأول الثاني دن العكس ، ولأن التكميل يتضمن الكمال فكان في تأخير الإيمان بالله تكريراً له مرة بالتضمن وأخرى

بالمطابقة على أن الواو لا تفيد الترتيب، وأيضاً أراد أن يبني عليه قوله: ﴿ ولو آمن ﴾ وفي التفسير الكبير: إن أصل الإيمان مشترك فيه بين الأديان فلا تتبين فيه الخيرية، لكن الآية سيقت لبيان الخيرية وليس ذلك إلا لأن هذه الأمة أقوى في باب الأمر بالمعروف فلهذا قدم، ثم أتبع ذكر الإيمان بالله ليعلم أن شرط تأثير الأمر بالمعروف في الخيرية حاصل. ولا يخفى أن هذا الجواب مبني على أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وعلى أن إيمان أهل الكتاب معتد به وليس كذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ ولو آمن أهل الكتاب ﴾ يعني إيماناً متعبراً وهو الإيمان بالله وبسائر ما لا بد منه من الأمور المعدودة ﴿ كان خيرا لهم ﴾ لحصلت لهم صفة الخيرية أيضاً لانضمامهم في زمرة هذه الأمة، أو لحصل لهم من الرياسة وحظوظ الدنيا ما هو خير مما تركوا هذا الدين لأجله، لأن الحاصل على هذا التقدير عزة الإسلام مع الفوز بما وعدوا من إيتاء الأجر في الآخرة مرتين، وعلى ما هم فيه ليس إلا استتباع بعض الجهلة من العوام وشيء نزر من الرشا، وبعد ذلك خلود في النار، ثم فصل أهل الكتاب على سبيل الاستئناف فقال: ﴿ منهم المؤمنون ﴾ كعبد الله بن سلام ورهطه وكالنجاشي وأصحابه، فاللام للمعهود السابق ﴿ وأكثرهم الفاسقون ﴾ الخارجون عن طاعة الله تعالى وعن دينه فيقارب الكفر أو يرادفه، أو المراد أنهم ليسوا بعدول في دينهم أيضاً فهم مردودون باتفاق الطوائف كلهم، فلا ينبغي أن يقتدى بهم ألبتة. ثم أخبر عن حالهم وكان كما قال وهو آية الإعجاز بجملة مستأنفة هي ﴿ لن يضروكم إلا أذى ﴾ الإضرار ألا

يجاوز أذى بقول كطعن في الدين أو تهديد أو تحريف نص أو إلقاء شبهة أو إظهار كلمة الكفر بإشراكهم عزيراً والمسيح . والأذى مصدر

(168/127)

كالأسى يقال : يفعلون أذاه يؤذيه أذى وأذاة وأذية . والأذى نوع من الضر فصح انصابه به والتقدير : لن يضروكم شيئاً من أنواع الضرر إلا ضرراً يسيراً . ومن هذا تبين أن الاستثناء ليس بمنقطع على ما ظن ﴿ وإن قاتلوكم يولوكم الأدبار ﴾ منهزمين ﴿ ثم لا ينصرون ﴾ وإنما لم يجزم بالعطف على ﴿ يولوكم ﴾ لئلا يصير نفي النصر مقيداً بمقاتلتهم بل يرفع ليكون نفي النصر وعداً مطلقاً ، وتكون هذه الجملة معطوفة على جملة الشرط والجزاء كأنه قيل : أخبركم أنهم إن يقاتلوكم وينهزموا ، ثم أخبركم وأبشركم أن النصر والقوة منتفٍ عنهم رأساً فلن يستقيم لهم أمر ألبتة .

ومعنى " ثم " إفادة التراخي في الرتبة لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أينما كانوا أعظم من الإخبار بانهزامهم عند القتال . فإن قيل : هب أن اليهود كذلك ، لكن النصارى قد يوجد لهم قوى وشوكة في ديارهم . قلنا : هذه الآيات مخصوصة باليهود وأسباب النزول تدل على ذلك ، فكان كما أخبر من حال بني قريظة والنضير وبني قينقاع وأهل خيبر ، أو

لعل نفي النصرة عنهم بعد القتال ولم يوجد نصراني بهذه الحالة . وفي الآية تشجيع للمؤمن وتثبيت لمن آمن من أهل التكاب كيلا يلتفتوا إلى تضليلاتهم وتحريفاتهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿غرائب القرآن حـ 2 صـ 224.236﴾

(169/127)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ لأهل العزائم وقوله : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ [التغابن : 16] لأهل الرخص . والمعنى : اتقوا عن وجودكم بالله وبوجوده ﴿ ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ لا ينتف وجودكم المجازي إلا وقد سلمتم لتصرفات الأحكام الإلهية والجذبات الربانية ، واستفدتم الوجود الحقيقي وهو البقاء بال . له ﴿ واعتصموا ﴾ أهل الاعتصام طائفتان : أهل الصورة وهم المتعلقون بالأسباب لأن مشربهم الأعمال فقيل لهم اعتصموا بحبل الله وهو كل سبب يتوصل به إلى الله من أعمال البر ، وأهل المعنى وهم المنقطعون عن الأسباب إذ مشربهم الأحوال فقيل لهم : واعتصموا بالله هو مولاكم مقصودكم أو ناصركم ، ولا تفرقوا في الظاهر وهو مفارقة الجماعة ، وفي الباطن وهو الميل

إلى البدع والأهواء . ﴿ وكنتم على شفا حفرة ﴾ وهي عداوة بعضكم لبعض وعداوتكم لله ولأنفسكم ﴿ فأنقذكم منها ﴾ بالهداية والإيمان وتأليف القلوب ﴿ كذلك ﴾ مثل ما بين آياته للأوس والخزرج حتى صاروا إخواناً ﴿ يبين لكم ﴾ أيها الطلاب ﴿ آياته ﴾ وهي الجذبة الإلهية وتجلي صفات الربوبية ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ﴾ بالأفعال دون الأقوال ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ من وعيد من يأمر بالمعروف ولا يأتيه ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ لأن الوجوه تحشر بلون القلوب كقوله : ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ [الطارق : 9] أي يجعل ما في الضمائر على الظواهر ﴿ أكفرتم بعد إيمانكم ﴾ هم أرباب الطلب السائرون إلى الله انقطعوا في بادية النفس واتبعوا غول الهوى وارتدوا على أعقابهم القهقرى . ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ لأن الناس نيام لا يذوقون ألم جراحات الانقطاع والإعراض عنه الله ، فإذا ماتوا انتبهوا وذاقوا ﴿ ففي رحمة الله ﴾ في الدنيا بالجمعية والوفاق مع أهل الله ﴿ هم فيها خالدون ﴾ في الآخرة ، ولأنه يموت على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه ﴿ تلك ﴾ الأحوال ﴿ آيات الله ﴾ مع خواصه ﴿ نتلوها عليك بالحق ﴾ نظهرها

على قلبك بالتحقيق ﴿ وما الله يريد ظلماً للعالمين ﴾ بأن يضع السواد والبياض في غير موضعهما ﴿ كنتم خير أمة أخرجت ﴾ من العدم إلى الوجود مستعدة لقبول كمالية الإنسان من جملة الخيرية تخفيف التكليف وضمان التضعيف ، ومنها عاقب مطيعهم بشؤم عصيانهم ، وغفر لعصاة هذه الأمة ببركة مطيعهم ، ومنها زلاتهم لعنة وزلاتنا رحمة ، ومنها شكا منهم إلينا وشكر منا إليهم قبل وجودنا ﴿ ولو آمن أهل الكتاب ﴾ يعني علماء السوء ﴿ لن يضروكم ﴾ أيها المحققون ﴿ إلا أذى ﴾ من طريق الإنكار والحسد ﴿ وإن يقاتلوكم ﴾ ينازعوكم ويخاصموكم ﴿ يولوكم الأدبار ﴾ من صدق نياتكم ﴿ لا ينصرون ﴾ لأنكم أهل الحق وحزب الله وإن حرب الله هم الغالبون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 2 صـ 236 ﴾

(171/127)

قوله تعالى ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (112) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أخبر عنهم سبحانه وتعالى بهذا الذل أتبعه الإخبار بأنه في كل زمان وكل مكان معاملة منه لهم بضد ما أرادوا ، فعوضهم عن الحرص على الرئاسة إلزامهم الذلة ، وعن الإخلاد إلى المال إسكانهم المسكنة ، وأخبر أن ذلك لهم طوق الحمامة غير مزائلهم إلى آخر الدهر باقٍ في أعقابهم بأفعالهم هذه التي لم ينا بذهم فيها الأعقاب فقال سبحانه وتعالى مستأنفاً :

﴿ ضربت عليهم الذلة ﴾ وهي الانقياد كرهاً ، وأحاطت بهم كما يحيط البيت المضروب بساكنه ﴿ أين ما ثقفوا ﴾ أي وجدهم من هو حاذق خفيف فطن في كل مكان وعلى كل حال ﴿ إلا ﴾ حال كونهم معتصمين ﴿ بحبل ﴾ أي عهد وثيق مسبب للأمان ، وهو عهد الجزية وما شاكله ﴿ من الله ﴾ أي الحائز لجميع العظمة ﴿ وحبل من الناس ﴾ أي قاطبة : الذي آمنوا وغيرهم ، موافقٍ لذلك الحبل الذي من الله سبحانه وتعالى .

(172/127)

ولما كان الذل ربما كان مع الرضى ولو من وجه قال : ﴿ وبآءو ﴾ أي رجعوا عما كانوا فيه من الحال الصالح ﴿ بغضب من الله ﴾ الملك الأعظم ، ملازمٍ لهم ، ولما كان الوصفان قد يصحبهما اليسار قال : ﴿ وضربت ﴾ أي مع ذلك ﴿ عليهم ﴾ أي كما يضرب البيت

﴿ المسكنة ﴾ أي الفقر ليكونوا بهذه الأوصاف أعرق شيء في الذل، فكأنه قيل: لم استحقوا ذلك ؟ فقيل: ﴿ ذلك ﴾ أي الإلزام لهم بما ذكر ﴿ بأنهم ﴾ أي أسلافهم الذي رضوا هم فعلهم ﴿ كانوا يكفرون ﴾ أي يجددون الكفر مع الاستمرار ﴿ بآيات الله ﴾ اي الملك الأعظم الذي له الكمال كله، وذلك أعظم الكفر لمشاهدتهم لها مع اشتمالها من العظم على ما يليق بالاسم الأعظم ﴿ ويقتلون الأنبياء ﴾ أي الآتين من عند الله سبحانه وتعالى حقاً على كثرتهم بما دل عليه جمع التكسير، فهو أبلغ مما في أولها الأبلغ مما في البقرة ليكون ذمهم على سبيل الترقي كما هي قاعدة الحكمة.

(173/127)

ولما كانوا معصومين ديناً ودنيا قال: ﴿ بغير حق ﴾ أي يبيح قتلهم؛ ثم علل إقدامهم على هذا الكفر بقوله: ﴿ ذلك ﴾ أي الكفر والقتل العظيمان ﴿ بما عصوا وكانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ يعتدون ﴾ أي يجددون تكليف أنفسهم الاعتداء، فإن الإقدام على المعاصي والاستهانة بمجاوزة الحدود يهوّن الكفر، فقال الأصفهاني: قال أرباب المعاملات: من ابتلى بترك الآداب وقع في ترك السنن، ومن ابتلى بترك السنن وقع في ترك الفرائض، ومن ابتلى بترك الفرائض وقع في استحقار الشريعة، ومن ابتلى بذلك وقع في الكفر، والآية دليل

على مؤاخذة الابن الراضي بذنب الأب وإن علا ، وذلك طبق ما رأيته في ترجمة التوراة التي بين أيديهم الآن ، قال في السفر الثاني : وقال الله سبحانه وتعالى جميع هذه الآيات كلها : أنا الرب إلهك الذي أصعدتك من أرض مصر من العبودية والرق ، لا تكون لك آلهة أخرى ، لا تعملن شيئاً من الأصنام والتماثيل التي مما في السماء فوق وفي الأرض من تحت ، ومما في الماء أسفل الأرض ، لا تسجدن لها ولا تعبدنها ، لأني أنا الرب إلهك إله غيور ، أجازي الأبناء بذنوب الآباء إلى ثلاثة أحقاب وأربعة خلوف ، وأثبت النعمة إلى ألف حقب لأحبائي وحافظي وصاياي. انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 137. 138 ﴾

قال الفخر :

قد ذكرنا تفسير هذه اللفظة في سورة البقرة ، والمعنى جعلت الذلة ملصقة ربهم كالشيء يضرب على الشيء فيلصق به ، ومنه قولهم : ما هذا علي بضربة لازب ، ومنه تسمية الخراج ضريبة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 160 ﴾

فصل

قال الفخر :

الذلة هي الذل ، وفي المراد بهذا الذل أقوال

الأول : وهو الأقوى أن المراد أن يحاربوا ويقتلوا وتغنم أموالهم وتسبى ذراريهم وتملك أراضيهم فهو كقوله تعالى : ﴿ اقتلوهم حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ [البقرة : 191] .

(174/127)

ثم قال تعالى : ﴿ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللَّهِ ﴾ والمراد إلا بعهد من الله وعصمة وذِمام من الله ومن المؤمنين لأن عند ذلك تزول الأحكام ، فلا قتل ولا غنيمة ولا سبي

الثاني : أن هذه الذلة هي الجزية ، وذلك لأن ضرب الجزية عليهم يوجب الذلة والصغار

والثالث : أن المراد من هذه الذلة أنك لا ترى فيهم ملكاً قاهراً ولا رئيساً معتبراً ، بل هم مستخفون في جميع البلاد ذليلون مهينون .

واعلم أنه لا يمكن أن يقال المراد من الذلة هي الجزية فقط أو هذه المهانة فقط لأن قول ﴿ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللَّهِ ﴾ يقتضي زوال تلك الذلة عند حصول هذا الحبل والجزية والصغار والدناءة لا يزول شيء منها عند حصول هذا الحبل ، فامتنع حمل الذلة على الجزية فقط ، وبعض من نصر هذا القول ، أجاب عن هذا السؤال بأن قال : إن هذا الاستثناء منقطع ، وهو قول محمد بن جرير الطبري ، فقال : اليهود قد ضربت عليهم الذلة ، سواء كانوا على عهد من الله أو لم يكونوا فلا يخرجون بهذا الاستثناء من الذلة إلى العزة ، فقوله ﴿ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللَّهِ ﴾ تقديره لكن قد يعتصمون بحبل من الله وحبل من الناس .

(175/127)

واعلم أن هذا ضعيف لأن حمل لفظ ﴿ إلا ﴾ على (لكن) خلاف الظاهر ، وأيضاً إذا حملنا الكلام على أن المراد : لكن قد يعتصمون بحبل من الله وحبل من الناس لم يتم هذا القدر فلا بد من إضمار الشيء الذي يعتصمون بهذه الأشياء لأجل الحذر عنه والإضمار خلاف الأصل ، فلا يصار إلى هذه الأشياء إلا عند الضرورة فإذا كان لا ضرورة ههنا إلى ذلك كان المصير إليه غير جائز ، بل ههنا وجه آخر وهو أن يحمل الذلة على كل هذه الأشياء أعني : القتل ، والأسر ، وسبي الذراري ، وأخذ المال ، وإلحاق الصغار ، والمهانة ، ويكون فائدة الاستثناء هو أنه لا يبقى مجموع هذه الأحكام ، وذلك لا ينافي بقاء بعض هذه الأحكام ، وهو أخذ القليل من أموالهم الذي هو مسمى بالجزية ، وبقاء المهانة والحقارة والصغار فيهم ، فهذا هو القول في هذا الموضع ، وقوله ﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُواْ ﴾ أي وجدوا وصودفوا ، يقال : ثقفت فلاناً في الحرب أي أدركته ، وقد مضى الكلام فيه عند قوله ﴿ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ [البقرة : 191] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 161.160 ﴾

قوله تعالى ﴿ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللهِ ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنْ اللهِ ﴾ فيه وجوه

الأول : قال الفرّاء : التقدير إلا أن يعتصموا بحبل من الله ، وأنشد على ذلك :

رأتني بحبلها فصدت مخافة . . وفي الحبل روعاء الفؤاد فروق

واعترضوا عليه ، فقالوا : لا يجوز حذف الموصول وإبقاء صلته ، لأن الموصول هو الأصل والصلة فرع فيجوز حذف الفرع لدلالة الأصل عليه ، أما حذف الأصل وإبقاء الفرع فهو غير جائز

الثاني : أن هذا الاستثناء واقع على طريق المعنى ، لأن معنى ضرب الذلة لزومها إياهم على أشد الوجوه بحيث لا تفارقهم ولا تنفك عنهم ، فكأنه قيل : لا تنفك عنهم الذلة ، ولن يتخلصوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس

(176/127)

الثالث : أن تكون الباء بمعنى (مع) كقولهم : اخرج بنا نفعل كذا ، أي معنا ، والتقدير : إلا مع حبل من الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 161 ﴾

فصل

قال الفخر :

المراد من حبل الله عهده ، وقد ذكرنا فيما تقدم أن العهد إنما سمي بالحبل لأن الإنسان لما كان قبل العهد خائفاً ، صار ذلك الخوف مانعاً له من الوصول إلى مطلوبه ، فإذا حصل العهد توصل بذلك العهد إلى الوصول إلى مطلوبه ، فصار ذلك شبيهاً بالحبل الذي من تمسك به تخلص من خوف الضرر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 161 ﴾

سؤال : فإن قيل : إنه عطف على حبل الله حبلاً من الناس وذلك يقتضي المغايرة فكيف هذه المغايرة ؟

قلنا : قال بعضهم : حبل الله هو الإسلام ، وحبل الناس هو العهد والذمة ، وهذا بعيد لأنه لو كان المراد ذلك لقال : أو حبل من الناس ، وقال آخرون : المراد بكلام الحبلين العهد والذمة والأمان ، وإنما ذكر تعالى الحبلين لأن الأمان المأخوذ من المؤمنين هو الأمان المأخوذ بإذن الله وهذا عندي أيضاً ضعيف ، والذي عندي فيه أن الأمان الحاصل للذمي قسمان أحدهما : الذي نص الله عليه وهو أخذ الجزية

والثاني : الذي فوض إلى رأي الإمام فيزيد فيه تارة وينقص بحسب الاجتهاد فالأول : هو المسمى بحبل الله والثاني : هو المسمى بحبل المؤمنين والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 161 ﴾

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

تضمنت الأيات الكريمة وجوها من البيا ن والبديع نوجزها فيما يلي :

1 - [ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر] فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة .

2 - [وأولئك هم المفلحون] فيه قصر صفة على موصوف حيث قصر الفلاح عليهم ، كانه يقول : هم المفلحون لا غيرهم .

3 - [تبيض وجوه وتسود وجوه] بين كلمتي [تبيض] و[تسود] طباق .

4 - [ففي رحمة الله] مجاز مرسل اطلق الحال واريد المحل أى ففي الجنة لأنها مكا ن تنزل الرحمة .

5 - [ضربت عليهم الذلة] فيه استعارة حيث شبه الذل بالخباء المضروب على اصحابه ، فالذذ . محيط بهم من كل جانب ، فهي استعارة لطيفة بديعة .

6 - [وباءو بغضب] التنكير للتفخيم والتهويل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 223 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا ﴾ ، " أينما " اسم شرط ، وهي ظرف مكان ، و" ما " مزيدة فيها ، ف " ثُقِفُوا " في محل جزم بها ، وجواب الشرط إما محذوف - أي : أينما ثُقِفُوا غلبوا وذلُّوا ، دلَّ عليه قوله : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ﴾ ، وإما نفس " ضُرِبَتْ " ، عند مَنْ يُجيز تقديم جواب الشرط عليه ، ف ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ﴾ لا محل له - على الأول ، ومحله جزم على الثاني .

قوله : ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ ﴾ هذا الجار في محل نَصْب على الحال ، وهو استثناء مفرَّغ من الأحوال العامة .

قال الزمخشري : " وهو استثناء من أعَمِّ عامّة الأحوال ، والمعنى : ضُرِبَتْ عليهم الذلة في عامة الأحوال ، إلا في حال اعتصامهم بحبل الله ، وحبل الناس ، فهو استثناء متصل " .

قال الزجّاج والفرّاء : هو استثناء منقطع ، فقدره الفراء : إلا أن يعتصموا بحبل من الله ، فحذف ما يتعلق به الجار .

كقول حميد بن ثور الهلالي : [الطويل]

1574- رَأَتْنِي بِحَبْلَيْهَا ، فَصَدَّتْ مَخَافَةً . . . وَفِي الْحَبْلِ رَوْعَاءُ الْفُؤَادِ ، فَرُوقُ

أراد : أقبلت بحبليها ، فحذف الفعل ؛ للدلالة عليه .

ونظَّره ابنُ عطية بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً ﴾ [النساء : 92] قال : " لأن بادئ الرأي يعطي أن له أن يقتل خطأً ، وأن الحبل من الله ومن الناس يزيل ضرب الذلة ، وليس الأمر كذلك ، وإنَّما في الكلام محذوف ، يدركه فَهْمُ السامع الناظر في الأمر ، وتقديره : - في أمتنا - فلا نجاة من الموت إلا بحبل " .

(179/127)

قال أبو حيان : " وعلى ما قدره لا يكون استثناءً منقطعاً ؛ لأنه مستثنًى من جملة مقدَّرة ، وهي : فلا نجاة من الموت ، وهو متصل على هذا التقدير ، فلا يكون استثناء المنقطع - كما قرره النحاة - على قسمين : منه ما يمكن أن يتسلط عليه العامل ، ومنه لا يمكن فيه ذلك - ومنه هذه الآية - على تقدير الانقطاع - إذ التقدير : لكن اعتصامهم بحبل من الله وحَبْل من الناس يُنَجيهم من القتل ، والأسر ، وسَبي الذراري ، واستئصال أموالهم ؛ ويدل على أنه منقطع الإخبار بذلك في قوله تعالى - في سورة البقرة - : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة

والمسكنة ﴿وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: 61]، فلم يستثنِ هناك". انتهى انتهى. ا هـ ﴿تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 472. 473﴾.

قوله تعالى: ﴿وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾

قال الفخر:

قد ذكرنا أن معناه: أنهم مكثوا، ولبثوا وداموا في غضب الله، وأصل ذلك مأخوذ من البوء وهو المكان، ومنه: تبوأ فلان منزل كذا وبوأته إياه، والمعنى أنهم مكثوا في غضب من الله وحلوا فيه، وسواء قولك: حل بهم الغضب وحلوا به. انتهى انتهى. ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 161﴾

قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المسكنة﴾

قال الفخر:

الأكثرون حملوا المسكنة على الجزية وهو قول الحسن قال وذلك لأنه تعالى أخرج المسكنة عن الاستثناء وذلك يدل على أنها باقية عليهم غير زائلة عنهم، والباقي عليهم ليس إلا الجزية، وقال آخرون: المراد بالمسكنة أن اليهودي يظهر من نفسه الفقر وإن كان غنياً موسراً، وقال بعضهم: هذا إخبار من الله سبحانه بأنه جعل اليهود أرزاقاً للمسلمين فيصيرون مساكين. انتهى انتهى. ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 161﴾

قوله تعالى : ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بآيات الله ويَقْتُلُونَ الانبياء بِغَيْرِ حَقّ ﴾

قال الفخر :

(180/127)

المعنى : أنه تعالى ألصق باليهود ثلاثة أنواع من المكروهات

أولها : جعل الذلة لازمة لهم

وثانياً : جعل غضب الله لازماً لهم

وثالثها : جعل المسكنة لازمة لهم ، ثم بيّن في هذه الآية أن العلة لإلصاق هذه الأشياء المكروهة بهم هي : أنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ، وهنا سؤالات :

السؤال الأول : هذه الذلة والمسكنة إنما التصقت باليهود بعد ظهور دولة الإسلام ، والذين قتلوا الأنبياء بغير حق هم الذين كانوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم بأدوار وأعصار ، فعلى هذا الموضع الذي حصلت فيه العلة وهو قتل الأنبياء لم يحصل فيه المعلول الذي هو الذلة والمسكنة ، والموضع الذي حصل فيه هذا المعلول لم تحصل فيه العلة ، فكان الإشكال لازماً .

والجواب عنه : أن هؤلاء المتأخرين وإن كان لم يصدر عنهم قتل الأنبياء عليهم السلام لكنهم كانوا راضين بذلك ، فإن أسلافهم هم الذين قتلوا الأنبياء وهؤلاء المتأخرون كانوا راضين بفعل أسلافهم ، فنسب ذلك الفعل إليهم من حيث كان ذلك الفعل القبيح فعلاً لآبائهم وأسلافهم مع أنهم كانوا مصوبين لأسلافهم في تلك الأفعال .

السؤال الثاني : لم كرر قوله ﴿ ذلك بِمَا عَصَواْ ﴾ وما الحكمة فيه ولا يجوز أن يقال التكرير للتأكيد ، لأن التأكيد يجب أن يكون بشيء أقوى من المؤكد ، والعصيان أقل حالاً من الكفر فلم يجز تأكيد الكفر بالعصيان ؟ .

والجواب من وجهين

(181/127)

الأول : أن علة الذلة والغضب والمسكنة هي الكفر وقتل الأنبياء ، وعلة الكفر وقتل الأنبياء هي المعصية ، وذلك لأنهم لما توغلوا في المعاصي والذنوب فكانت ظلمات المعاصي تتزايد حالاً فحالاً ، ونور الإيمان يضعف حالاً فحالاً ، ولم يزل كذلك إلى أن بطل نور الإيمان وحصلت ظلمة الكفر ، وإليه الإشارة بقوله ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : 14] فقوله ﴿ ذلك بِمَا عَصَواْ ﴾ إشارة إلى علة العلة ولهذا

المعنى قال أرباب المعاملات ، من ابتلي بترك الآداب وقع في ترك السنن ، ومن ابتلي بترك السنن وقع في ترك الفريضة ، ومن ابتلي بترك الفريضة وقع في استحقار الشريعة ، ومن ابتلي بذلك وقع في الكفر

الثاني : يحتمل أن يريد بقوله ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ من تقدم منهم ، ويريد بقوله ﴿ ذلك بِمَا عَصَواْ ﴾ من حضر منهم في زمان الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا لا يلزم التكرار ، فكأنه تعالى بيّن علة عقوبة من تقدم ، ثم بيّن أن من تأخر لما تبع من تقدم كان لأجل معصيته وعداوته مستوجباً لمثل عقوبتهم حتى يظهر للخلق أن ما أنزله الله بالفريقين من البلاء والمحنة ليس إلا من باب العدل والحكمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 162 ﴾

(182/127)

فائدة

قال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ ذلك بما عصوا ﴾ حمله المفسرون على أن الإشارة بذلك إلى الشيء الذي أشير إليه بذلك الأول ، قاله الطبري والزجّاج وغيرهما . والذي أقول : إن الإشارة بـ

﴿ ذلك ﴾ الأخير إنما هي إلى كفرهم وقتلهم ، وذلك أن الله تعالى ، استدرجهم فعاقبهم على العصيان والاعتداء بالمصير إلى الكفر وقتل الأنبياء ، وهو الذي يقول أهل العلم : إن الله تعالى يعاقب على المعصية بالإيقاع في معصية ، ويجازي على الطاعة بالتوفيق إلى الطاعة ، وذلك موجود في الناس إذا تؤمل ، وعصيان بني إسرائيل واعتداؤهم في السبت وغيره متقرر في غير ما موضع من كتاب الله ، وقال قتادة رحمه الله عندما فسر هذه الآية : اجتنبوا المعصية والعدوان فإن بها أهلك من كان قبلكم من الناس . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز جـ 1 صـ 491 ﴾

(183/127)

من فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة ﴾ أي ذلة هدر النفس والمال والأهل ، وقيل : ذلة التمسك بالباطل وإعطاء الجزية ، قال الحسن : أذلهم الله تعالى فلا منعة لهم وجعلهم تحت أقدام المسلمين وهذا من ضرب الخيام والقباب كما قاله أبو مسلم ، قيل : ففيه استعارة مكنية تخييلية ، وقد يشبه إحاطة الذلة واشتمالها عليهم بذلك على وجه الاستعارة التبعية ،

وقيل : هو من قولهم : ضرب فلان الضريبة على عبده أي ألزمها إياه فالمعنى ألزموا الذلة وثبتت فيهم فلا خلاص لهم منها ﴿ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ ﴾ أي وجدوا ، وقيل : أخذوا وظفر بهم ، و﴿ أَيْنَمَا ﴾ شرط ، وما زائدة وثقفوا في موضع جزم وجواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله أو هو بنفسه على رأي ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنْ اللهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَاس ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال ، والمعنى على النفي أي لا يسلمون من الذلة في حال من الأحوال إلا في حال أن يكونوا معتصمين بذمة الله تعالى أو كتابه الذي أتاهم وذمة المسلمين فإنهم بذلك يسلمون من القتل والأسر وسبي الذراري واستئصال الأموال . وقيل : أي إلا في حال أن يكونوا متلبسين بالإسلام واتباع سبيل المؤمنين فإنهم حينئذٍ يرتفع عنهم ذل التمسك والإعطاء ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي رجعوا به وهو كناية عن استحقاقهم له واستيجابهم إياه من قولهم باء فلان بفلان إذا صار حقيقاً أن يقتل به ، فالمراد صاروا أحقاء بغضبه سبحانه والتنوين للتفخيم والوصف مؤكد لذلك ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المسكنة ﴾ فهم في الغالب مساكين وقلما يوجد يهودي يظهر الغنى .

(184/127)

﴿ ذلك ﴾ أي المذكور من المذكورات ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيَقْتُلُونَ الانبياء بِغَيْرِ حَقّ ﴾ أصلاً ، ونسبة القتل إليهم مع أنه فعل أسلافهم على نحو ما مر غير مرة ﴿ ذلك بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ إشارة إلى كفرهم وقتلهم الأنبياء عليهم السلام على ما يقتضيه القرب فلا تكرار ، وقيل : معناه أن ضرب الذلة وما يليه كما هو معلل بكفرهم وقتلهم فهو معلل بعصيانهم واعتدائهم ، والتعبير بصيغة الماضي والمضارع لما مر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 29 . 30 ﴾

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة أَيْنَ مَا ثقفوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللهِ وَحَبْلٍ مِّنَ الناس وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المسكنة ﴾ .

يعود ضمير (عليهم) إلى ﴿ وأكثرهم الفاسقون ﴾ [آل عمران : 110] وهو خاص باليهود لا محالة ، وهو كالبيان لقوله ﴿ ثم لا ينصرون ﴾ .

والجملة بيَانيّة لذكر حال شديد من شقائهم في الدنيا .

ومعنى ضرب الذّلة اتّصالها بهم وإحاطتها ، ففيه استعارة مكنية وتبعية شبّهت الذّلة ، وهي أمر معقول ، بقبة أو خيمة شملتهم وشبّه اتّصالها وثباتها بضرب القبة وشدّ أطنابها ،

وقد تقدّم نظيره في البقرة .

و﴿ ثُقِفُوا ﴾ في الأصل أخذوا في الحرب ﴿ فإمّا تثقفنّهم في الحرب ﴾ [الأنفال : 57]

وهذه المادة تدلّ على تمكّن من أخذ الشيء ، وتصرّف فيه بشدّة ، ومنها سمي الأسْر ثِقافاً ، والثقاف آلة كالكُلُّوب تكسر به أنابيب قنا الرّماح .

قال النابغة :

عَضّ الثِّقَافِ على صُمّ الأَنابِيب

والمعنى هنا : أينما عثر عليهم ، أو أينما وجدوا ، أي هم لا يوجدون إلا محكومين ، شبّه حال ملاقاتهم في غير الحرب بحال أخذ الأسير لشدّة ذلّهم .

(185/127)

وقوله ﴿ إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾ الحبل مستعار للعهد ، وتقدّم ما يتعلق بذلك عند قوله تعالى ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ في سورة البقرة (256) وعهد الله ذمّته ، وعهد النّاس حلفهم ، ونصرهم ، والاستثناء من عموم الأحوال وهي أحوال دلّت عليها الباء التي للمصاحبة .

والتَّقدير : ضربت عليهم الذلّة متلبِّسين بكُلّ حال إلاّ متلبّسين بعهد من الله وعهد من النَّاس

، فالتَّقدير : فذهبوا بذلّة إلاّ بحبل من الله .

والمعنى لا يسلمون من الذلّة إلاّ إذا تلبّسُوا بعهد من الله ، أي ذمّة الإسلام ، أو إذا استنصروا بقبائل أولى بأس شديد ، وأمّا هم في أنفسهم فلا نصر لهم .

وهذا من دلائل النُّبوّة فإنّ اليهود كانوا أعزّة بيثربَ وخيبر والنضير وقريظة ، فأصبحوا أذلّة ، وعمَّتهم المذلّة في سائر أقطار الدنيا .

﴿ وباءوا بغضب من الله ﴾ أي رجعوا وهو مجاز لمعنى صاروا إذ لا رجوع هنَا .

والمسكنة الفقر الشَّديد مشتقة من اسم المسكين وهو الفقير ، ولعلّ اشتقاقه من السكون وهو سكون خيالي أطلق على قلّة الحيلة في العيش .

والمراد بضرب المسكنة عليهم تقديرها لهم وهذا إخبار بمغيّب لأن اليهود المخبر عنهم قد أصابهم الفقر حين أخذت منازلهم في خيبر والنَّضِير وقينُقاع وقُرِيظةَ ، ثُمّ بإجلائهم بعد ذلك في زمن عمر .

﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بآيات الله وَيَقْتُلُونَ الأنبياء بِغَيْرِ حَقٍّ ذلك بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ .

الإشارة إلى ضرب الذلّة المأخوذ من ﴿ ضربت عليهم الذلّة ﴾ .

ومعنى ﴿ يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء ﴾ تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ إنّ الذين يكفرون بآيات الله ﴾ [آل عمران : 21] أوائل هذه السورة .

(186/127)

وقوله : ﴿ ذلك بما عَصوا وكانوا يعتدون ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى كفرهم وقتلهم الأنبياء بغير حقّ ، فالباء سبب السبب ، ويحتمل أن يكون إشارة ثانية إلى ضرب الذلّة والمسكنة فيكون سبباً ثانياً .

(وما) مصدرية أي بسبب عصيانهم واعتدائهم ، وهذا نشر على ترتيب اللفّ فكفرهم بالآيات سببه العصيان ، وقتلهم الأنبياء سببه الاعتداء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 193.194 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

علَمُ الهجران لا ينكتم ، وسِمَةُ البُعْد لا تَخْفَى ، ودليل القطيعة لا يستتر ؛ فهم في صغار الطرد ، وذُلِّ الرد ، يعتبر بهم أولو الأبصار ، ويغترُّ بهم أضرابُهم من الكفار الفُجَّار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 271 ﴾

(187/127)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

بَعْدَ مَا أَمَرَ اللَّهُ - تَعَالَى - بِالِاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ وَذَكَّرَ بِنِعْمَتِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِتَأْلِيفِ الْقُلُوبِ وَأُخُوَّةِ الْإِسْلَامِ ، وَبَعْدَ مَا نَهَى عَنِ التَّفَرُّقِ فِي الْأَهْوَاءِ وَالِاخْتِلَافِ فِي الدِّينِ ، وَتَوَعَّدَ عَلَى ذَلِكَ بِالْعَذَابِ الْعَظِيمِ - بَيَّنَ فَضْلَ الْمُعْتَصِمِينَ بِحَبْلِهِ ، الْمُتَآخِينَ فِي دِينِهِ ، الْمُتَحَابِّينَ فِيهِ ، وَوَصَفَهُمْ بِهَذَا الْوَصْفِ الشَّرِيفِ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ فَعُلِمَ مِنْهُ أَنَّ خَيْرِيَّةَ الْأُمَّةِ وَفَضْلَهَا عَلَى غَيْرِهَا تَكُونُ بِهَذِهِ الْأُمُورِ : الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ - تَعَالَى - .

فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - : كُنتُمْ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ :

(الْوَجْهُ الْأَوَّلُ) أَنَّهَا تَامَّةٌ فَالْمَعْنَى وُجِدْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ كَأَنَّهُ قَالَ : أَنْتُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ فِي الْوُجُودِ الْآنَ ; لِأَنَّ جَمِيعَ الْأُمَمِ غَلَبَ عَلَيْهَا الْفَسَادُ فَلَا يُعْرَفُ فِيهَا الْمَعْرُوفُ وَلَا يُنْكَرُ فِيهَا الْمُنْكَرُ ، وَلَيْسَتْ عَلَى الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ الَّذِي يَزَعُ أَهْلَهُ عَنِ الشَّرِّ وَيَصْرِفُهُمْ إِلَى الْخَيْرِ وَأَنْتُمْ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ إِيمَانًا صَحِيحًا يَظْهَرُ أَثَرُهُ فِي الْعَمَلِ .

(الْوَجْهُ الثَّانِي) أَنَّهَا نَاقِصَةٌ وَالْمَعْنَى حِينَئِذٍ كُنْتُمْ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ كَمَا فِي كُتُبِهَا الْمُبَشِّرَةِ بِكُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ إِلَخْ . وَقَالَ أَبُو مُسْلِمٍ : إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ يُقَالُ لِمَنِ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ، وَالْمَعْنَى : كُنْتُمْ فِيمَا سَبَقَ مِنْ أَيَّامِ حَيَاتِكُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ شَأْنُكُمْ كَذَا وَكَذَا ; وَبِذَلِكَ كَانَ لَكُمْ هَذَا الْجَزَاءُ الْحَسَنُ ، فَالْكَلَامُ عِنْدَهُ تَتِمَّةٌ لِلْآيَاتِ السَّابِقَةِ فَكَمَا ذَكَرَ فِيهَا مَا يُقَالُ لِمَنِ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ذَكَرَ أَيْضًا مَا يُقَالُ لِمَنِ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ، وَقِيلَ عَلَى هَذَا - أَيْ كَوْنِهَا نَاقِصَةً - غَيْرُ ذَلِكَ .

(الْوَجْهُ الثَّالِثُ) أَنَّ "كَانَ" هُنَا بِمَعْنَى صَارَ أَيْ صِرْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ وَهَذَا أَضْعَفُ الْأَقْوَالِ .

(189/127)

إِذَا فُسِّرَتْ كَلِمَةُ كُنْتُمْ بِغَيْرِ مَا قَالَهُ أَبُو مُسْلِمٍ كَانَتِ الْجُمْلَةُ شَهَادَةً مِنَ اللهِ - تَعَالَى - لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ إِلَى زَمَنِ نُزُولِهَا بِأَنَّهَا خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ بِتِلْكَ الْمَزَايَا الثَّلَاثِ ، وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ فِيهَا كَانَ لَهُ حُكْمُهُمْ لَا مَحَالَةَ ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْخَيْرِيَّةَ لَا يَسْتَحِقُّهَا مَنْ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ وَاتِّبَاعِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَّا الدَّعْوَى وَجَعْلُ الدِّينِ جِنْسِيَّةً لَهُمْ ، بَلْ لَا يَسْتَحِقُّهَا مَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ وَحَجَّ الْبَيْتَ الْحَرَامَ وَالْتَزَمَ الْحَلَالَ وَاجْتَنَبَ الْحَرَامَ مَعَ الْإِخْلَاصِ الَّذِي هُوَ رُوحُ

الْإِسْلَامِ إِلَّا بَعْدَ الْقِيَامِ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَبِالِاعْتِصَامِ بِحَبْلِ اللهِ مَعَ اتِّقَاءِ التَّفَرُّقِ وَالْخِلَافِ فِي الدِّينِ .

(190/127)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مَا مَعْنَاهُ : هَذَا الْوَصْفُ يَصْدُقُ عَلَى الَّذِينَ خُوطِبُوا بِهِ أَوَّلًا ، وَهُمُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَصْحَابُهُ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ - عَلَيْهِمُ الرِّضْوَانُ - ، فَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا أَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فَكَانُوا بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ، وَهُمُ الَّذِينَ اعْتَصَمُوا بِحَبْلِ اللهِ وَلَمْ يَتَفَرَّقُوا فِي الدِّينِ فَيَذْهَبُوا فِيهِ مَذَاهِبَ تَتَعَصَّبُ لِكُلِّ مَذْهَبٍ شِيعَةٌ مِنْهُمْ ، وَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ لَا يَخَافُ فِي ذَلِكَ ضَعِيفٌ قَوِيًّا ، وَلَا يَهَابُ صَغِيرٌ كَبِيرًا ، وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ ذَلِكَ الْإِيمَانَ الَّذِي اسْتَوْلَى عَلَى عُقُولِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ وَمَشَاعِرِهِمْ ، وَمَلَكَ أَزِمَّةَ أَهْوَائِهِمْ حَتَّى كَانَ هُوَ الْمُسَيِّرَ لَهُمْ فِي عَامَّةِ أَحْوَالِهِمْ - ذَلِكَ الْإِيمَانُ الَّذِي بَيَّنَ - سُبْحَانَهُ - خَوَاصَّهُ وَصِفَاتِهِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ ، وَظَهَرَتْ فَوَائِدُهُ وَآثَارُهُ فِي تَغْيِيرِ هَيْئَةِ الْأَرْضِ عَلَى أَيْدِيهِمْ - ذَلِكَ الْإِيمَانُ الَّذِي قَالَ - تَعَالَى - فِي أَهْلِهِ : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ [49

: 15] وَقَالَ فِيهِمْ : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا

(191/127)

وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [8 : 2] إِلَى قَوْلِهِ : أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا [8 : 4] وَقَالَ فِيهِمْ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ [23 : 1 ، 2] إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ الَّتِي تَحَقَّقَ مَعْنَاهَا وَمَعْنَى أَمْثَالِهَا فِي أُولَئِكَ الْأَصْحَابِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

أَقُولُ : هَذَا مَا قَالَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي الْجُمْلَةِ إِلَّا أَنَّ كَلِمَةَ " وَأَصْحَابُهُ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ " هِيَ مِنْ لَفْظِهِ يُرِيدُ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْعَالِيَةَ وَالْمَزَايَا الْكَامِلَةَ لِذَلِكَ الْإِيمَانِ الْكَامِلِ لَمْ تَكُنْ لِكُلِّ مَنْ يُطْلِقُ عَلَيْهِ الْمُحَدِّثُونَ اسْمَ الصَّحَابِيِّ كَالْأَعْرَابِيِّ الَّذِي يُسْلِمُ وَيَرَى النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَوْ مَرَّةً وَاحِدَةً ، وَكَأَنَّهُ أَخَذَ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ [48 : 29] فَهُمُ الَّذِينَ تَصْدُقُ عَلَيْهِمْ تِلْكَ الصِّفَاتُ الْجَلِيلَةُ ، وَأَفْضَلُهَا وَأَعْلَاهَا الْجِهَادُ وَالْهِجْرَةُ إِلَى الْمَدِينَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهَا وَالْإِيوَاءُ وَالنَّصْرُ مِنْ أَهْلِهَا ; لِذَلِكَ قَالَ - تَعَالَى - فِي آخِرِ سُورَةِ الْأَنْفَالِ : وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ

آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ

(192/127)

[8 : 74 ، 75] وَلَمْ يُهَاجِرْ مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُنَافِقٌ ; لِأَنَّ الْهِجْرَةَ كَانَتْ فِي زَمَنِ الضَّعْفِ وَإِنَّمَا يَكُونُ النِّفَاقُ فِي زَمَنِ الْقُوَّةِ ، وَمُنَافِقُو الْمَدِينَةِ لَمْ يَنْصُرُوهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَإِنَّمَا كَانُوا يُخَذِّلُونَ وَيُثَبِّطُونَ الصَّادِقِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَيُغْرُونَ الْأَعْدَاءَ بِهِمْ ، قَالَ - تَعَالَى - فِيهِمْ : لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ [9 : 47 ، 48] . وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْآيَةِ الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ ، وَعَنْ عُمَرَ أَنَّهَا فِي خَاصَّةِ الصَّحَابَةِ وَمَنْ صَنَعَ مِثْلَ صَنِيعِهِمْ .

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ بَعْضَ أُولَئِكَ الصَّحَابَةِ الصَّادِقِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ قَدْ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا فِي الْفِتْنَةِ الَّتِي أَثَارَهَا مُعَاوِيَةُ عَلَى عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَهَلْ خَرَجَتِ الْأُمَّةُ بِذَلِكَ عَنْ كَوْنِهَا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ؟ فَالْجَوَابُ مِنْ ثَلَاثَةِ وُجُوهٍ :

(أَحدُهَا) أَنَّ ذَلِكَ الْخِلَافَ وَالتَّفَرُّقَ لَمْ يَكُنْ فِي الدِّينِ وَإِنَّمَا كَانَ فِي أَمْرٍ دُنْيَوِيٍّ لَمْ يَتَغَيَّرْ بِهِ اعْتِقَادُ أَهْلِ الْفَرِيقَيْنِ ، وَلَمْ يَحْدُثْ بِهِ مَذْهَبٌ جَدِيدٌ فِي الْإِسْلَامِ ، فَالدِّينُ نَفْسُهُ لَمْ يَطْرَأْ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ الْخِلَافِ .

(193/127)

(ثَانِيهَا) أَنَّ مُعَاوِيَةَ الَّذِي أَثَارَ ذَلِكَ التَّفَرُّقَ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ ; فَإِنَّهُ أَسْلَمَ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ الَّذِي انْقَطَعَتْ بِهِ الْهِجْرَةُ ، أَوْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ فِي ذَلِكَ الْعَامِ

كَمَا قَالَ الْوَاقِدِيُّ : إِنَّهُ أَسْلَمَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ ، وَأَنَّهُ كَانَ فِي عُمْرَةِ الْقَضَاءِ مُسْلِمًا . قَالَ الْحَافِظُ فِي الْإِصَابَةِ بَعْدَ نَقْلِ قَوْلِ الْوَاقِدِيِّ : وَهَذَا يُعَارِضُهُ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ أَنَّهُ قَالَ فِي الْعُمْرَةِ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ : "فَعَلْنَاهَا وَهَذَا يَوْمَئِذٍ كَافِرٌ" : يَعْنِي مُعَاوِيَةَ . وَسَوَاءٌ صَحَّ قَوْلُ الْوَاقِدِيِّ أَوْ لَا فَمُعَاوِيَةُ لَمْ يُهَاجِرْ ، وَنَقَلَ ابْنُ سَعْدٍ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : لَقَدْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ عُمْرَةِ الْقَضَاءِ وَلَكِنِّي كُنْتُ أَخَافُ أَنْ أَخْرُجَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِأَنَّ أُمِّي كَانَتْ تَقُولُ : إِنْ خَرَجْتَ قَطَعْنَا عَنْكَ الْقُوتَ ، وَمَا كَانَ مَعَ مُعَاوِيَةَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ إِلَّا قَلِيلٌ اعْتَقَدُوا أَنَّهُ يُطَالِبُ بِحَقٍّ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَنَالَهُ - وَهُوَ الْقِصَاصُ مِنْ قَاتِلِي عُثْمَانَ - ثُمَّ يَدْخُلُ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ مِنْ مُبَايَعَةِ عَلِيٍّ .

(194/127)

(ثَالِثُهَا) قَدْ عَرَفَ الْمُطَّلِعُونَ عَلَى التَّارِيخِ أَنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يُفَرِّطُوا فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مَا وُجِدُوا، وَإِنَّمَا ضَعُفَ ذَلِكَ بَعْدَ انْقِرَاضِ أَكْثَرِهِمْ، وَهَذَانِ الرُّكْنَانِ هُمَا بَعْدَ الْإِيمَانِ أَعْظَمُ أَرْكَانِ خَيْرِيَّةِ الْأُمَّةِ، فَمَا عَرَضَ مِنَ التَّفَرُّقِ الدُّنْيَوِيِّ وَالْخِلَافِ بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ زَالَ بَعْدَ قَتْلِ عَلِيٍّ؛ لِأَنَّ التَّفَرُّقَ وَالْخِلَافَ لَا يَدُومُ فِي أُمَّةٍ تُقِيمُ هَذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ وَلَوْ بِغَيْرِ
نِظَامٍ، وَلَوْ كَانَ لَهُمَا نِظَامٌ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ لَمَا وَقَعَ كُلُّ ذَلِكَ الَّذِي وَقَعَ. أَلَمْ يَهْدِ لَكَ كَيْفَ كَانَ النَّاسُ يُغْلِظُونَ لِمُعَاوِيَةَ فِي إِنْكَارِ مَا يُنْكِرُونَهُ عَلَيْهِ حَتَّى غَيْرِ الصَّحَابَةِ مِنْهُمْ؟

(195/127)

الْحَقَّ أَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ مَا فَتِئَتْ خَيْرَ أُمَّةٍ خَرَجَتْ لِلنَّاسِ حَتَّى تَرَكَتِ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَمَا تَرَكَتْهُمَا رَغْبَةً عَنْهُمَا أَوْ تَهَاوُنًا بِأَمْرِ اللهِ - تَعَالَى - بِإِقَامَتِهِمَا، بَلْ مُكْرَهَةً بِاسْتِبْدَادِ الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَمَنْ سَارَ عَلَى طَرِيقِهِمْ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ، وَقَدْ

كَانَ أَوَّلَ أَمِيرٍ مِنْهُمْ أَظْهَرَ هَذِهِ الْفِتْنَةَ جَهْرًا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ إِذْ قَالَ عَلَى الْمِنْبَرِ : " مَنْ قَالَ لِي اتَّقِ اللَّهَ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ " فَقَدْ كَانَتْ شَجَرَةُ بَنِي مَرْوَانَ الْخَبِيثَةِ هِيَ الَّتِي سَنَّتْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ سُنَّةَ الِاسْتِبْدَادِ ، فَمَا زَالَ يَعْظُمُ وَيَتَفَاقَمُ حَتَّى سَلَبَ الْأُمَّةَ أَفْضَلَ مَزَايَاهَا فِي دِينِهَا وَدُنْيَاهَا بَعْدَ الْإِيمَانِ .

وَقَدْ بَيَّنَ (الْفَخْرُ الرَّازِيُّ) فِي تَفْسِيرِهِ نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ كَوْنِ وَصْفِ الْأُمَّةِ هُنَا بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْإِيمَانِ عِلَّةً لِكَوْنِهَا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ فَقَالَ :

" وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ مُسْتَأْنَفٌ وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ بَيَانُ عِلَّةِ تِلْكَ الْخَيْرِيَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ : زَيْدٌ كَرِيمٌ يُطْعِمُ النَّاسَ وَيَكْسُوهُمْ وَيَقُومُ بِمَا يُصْلِحُهُمْ . وَتَحْقِيقُ الْكَلَامِ

(196/127)

أَنَّهُ ثَبَتَ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ أَنَّ ذِكْرَ الْحُكْمِ مَقْرُونًا بِالْوَصْفِ الْمُنَاسِبِ لَهُ يَدُلُّ عَلَى كَوْنِ ذَلِكَ الْحُكْمِ مُعَلَّلًا بِذَلِكَ الْوَصْفِ ، فَهَاهُنَا حَكَمَ - تَعَالَى - بِثُبُوتِ وَصْفِ الْخَيْرِيَّةِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ ، ثُمَّ ذَكَرَ عَقِيبَهُ هَذَا الْحُكْمَ وَهَذِهِ الطَّاعَاتِ ; أَعْنِي الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْإِيمَانَ ، فَوَجَبَ كَوْنُ تِلْكَ الْخَيْرِيَّةِ مُعَلَّلَةً بِهَذِهِ الْعِبَادَاتِ " ثُمَّ أَوْرَدَ سُؤَالًا وَذَكَرَ الْجَوَابَ عَنْهُ فَقَالَ :

(197/127)

"مِنْ أَيِّ وجْهٍ يقْتَضِي الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْإِيمَانُ بِاللهِ كَوْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ خَيْرَ الْأُمَمِ مَعَ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ كَانَتْ حَاصِلَةً فِي سَائِرِ الْأُمَمِ ؟ وَالْجَوَابُ : قَالَ الْقَفَّالُ : تَفْضِيلُهُمْ عَلَى الْأُمَمِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُمْ إِنَّمَا حَصَلَ لِأَجْلِ أَنَّهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ بِآكَدِ الْوُجُوهِ وَهُوَ الْقِتَالُ ; لِأَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ قَدْ يَكُونُ بِالْقَلْبِ وَبِاللِّسَانِ وَبِالْيَدِ وَأَقْوَاهَا مَا يَكُونُ بِالْقِتَالِ لِأَنَّهُ إِلْقَاءُ النَّفْسِ فِي خَطَرِ الْقَتْلِ ، وَأَعْرَفُ الْمَعْرُوفَاتِ الدِّينُ الْحَقُّ وَالْإِيمَانُ بِالتَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ ، وَأَنْكَرُ الْمُنْكَرَاتِ الْكُفْرُ بِاللهِ ، فَكَانَ الْجِهَادُ فِي الدِّينِ مَحْمَلًا لِأَعْظَمِ الْمَضَارِّ لِغَرَضِ إِيصَالِ الْغَيْرِ إِلَى أَعْظَمِ الْمَنَافِعِ وَتَخْلِيصِهِ مِنْ أَعْظَمِ الْمَضَارِّ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْجِهَادُ أَعْظَمَ الْعِبَادَاتِ . وَلَمَّا كَانَ أَمْرُ الْجِهَادِ فِي شَرْعِنَا أَقْوَى مِنْهُ فِي سَائِرِ الشَّرَائِعِ لَا جَرَمَ صَارَ ذَلِكَ مُوجِبًا لِفَضْلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ . وَهَذَا مَعْنَى مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلَهُ : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَهُمْ أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَيُقِرُّوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَتُقَاتِلُونَهُمْ عَلَيْهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ أَعْظَمُ الْمَعْرُوفِ ، وَالتَّكْذِيبُ هُوَ أَنْكَرُ الْمُنْكَرِ .

(198/127)

ثمَّ قَالَ الْقَفَّالُ : (فَائِدَةُ) الْقِتَالُ عَلَى الدِّينِ لَا يُنْكِرُهُ مُنْصِفٌ ; وَذَلِكَ لِأَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يُحِبُّونَ أَدْيَانَهُمْ بِسَبَبِ الْإِلْفِ وَالْعَادَةِ ، وَلَا يَتَأَمَّلُونَ فِي الدَّلَائِلِ الَّتِي تُورَدُ عَلَيْهِمْ فَإِذَا أُكْرِهَ [الْمَرْءُ] عَلَى الدُّخُولِ فِي الدِّينِ بِالتَّخْوِيفِ بِالْقَتْلِ دَخَلَ فِيهِ ، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَضْعُفُ مَا فِي قَلْبِهِ مِنْ حُبِّ الدِّينِ الْبَاطِلِ وَلَا يَزَالُ يَقْوَى فِي قَلْبِهِ حُبُّ الدِّينِ الْحَقِّ إِلَى أَنْ يَنْتَقِلَ مِنَ الْبَاطِلِ إِلَى الْحَقِّ ، وَمِنِ اسْتِحْقَاقِ الْعَذَابِ الدَّائِمِ إِلَى اسْتِحْقَاقِ الثَّوَابِ الدَّائِمِ " اهـ . مَا أَوْرَدَهُ (الرَّازِيُّ) عَنْ (الْقَفَّالِ) وَأَقَرَّهُ .

أَقُولُ : إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ الْبَاطِلَ مَبْنِيٌّ عَلَى قَوَاعِدَ غَيْرِ ثَابِتَةٍ (مِنْهَا) تَوَهُّمُ الْقَفَّالِ وَالرَّازِيِّ أَنَّ الْأُمَمَ السَّابِقَةَ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهَا جِهَادٌ دِينِيٌّ قَوِيٌّ وَلَا إِكْرَاهٌ عَلَى الدِّينِ ، وَذَلِكَ لِقِلَّةِ اطِّلَاعِهِمَا عَلَى الْأَدْيَانِ وَالتَّارِيخِ ، وَالصَّوَابُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ كَانُوا أَشَدَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي حُرُوبِهِمُ الدِّينِيَّةِ

وَوَرَدَ عَنْهُمْ فِي الْإِكْرَاهِ عَلَى الدِّينِ مَا لَمْ يَرِدْ مِثْلُهُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ .

(وَمِنْهَا) أَنَّ الْإِكْرَاهَ عَلَى الدِّينِ مَنْفِيٌّ مِنَ الْإِسْلَامِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ، وَلَمْ يُحَارِبِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَحَدًا مِنَ الْعَرَبِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ لِأَجْلِ الْإِكْرَاهِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَإِنَّمَا حَارَبَ دِفَاعًا، وَكَيْفَ يُحَاوِلُ الْإِكْرَاهَ وَاللَّهُ - تَعَالَى - يَقُولُ لَهُ: أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ [10: 99] وَمَنْ أَرَادَ التَّفْصِيلَ فِي ذَلِكَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى تَفْسِيرِ آيَاتِ الْقِتَالِ فِي الْبَقَرَةِ وَآيَةِ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ [2: 256].

(200/127)

(وَمِنْهَا) أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ يَجْعَلُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ عِبَارَةً عَنِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْإِلْزَامِ بِهِ، وَالْآيَةُ السَّابِقَةُ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ غَيْرَ تِلْكَ الدَّعْوَةِ وَغَيْرَ الْإِلْزَامِ بِقَبُولِهِ بِهَا وَهُوَ عَمَلٌ لَا إِرْشَادٌ وَتَعْلِيمٌ. [وَمِنْهَا] أَنَّ فَرِيضَتَيِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ غَيْرُ فَرِيضَةِ تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ الَّذِي وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ. [وَمِنْهَا] أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مُخَالِفٌ لِقَوْلِهِ - تَعَالَى - فِي سُورَةِ الْحَجِّ فِي وَصْفِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ الْإِذْنِ لَهُمْ بِقِتَالِ الْمُعْتَدِينَ عَلَيْهِمْ: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ [22:

41] فَجَعَلَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنْ أَوْصَافِهِمْ بَعْدَ التَّمَكُّنِ فِي الْأَرْضِ ; وَذَلِكَ لَا يَكُونُ بِالْجِهَادِ بَلْ بَعْدَهُ .

(201/127)

فَيَا لِلْعَجَبِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ يَأْخُذُونَ الْمَسْأَلَةَ التَّقْلِيدِيَّةَ قَضِيَّةً مُسَلَّمَةً ثُمَّ يُحَكِّمُونَهَا فِي كِتَابِ اللهِ - تَعَالَى - ، وَيَجْعَلُونَهَا قَاعِدَةً لِتَفْسِيرِهِ وَإِنْ كَانَتْ مُخَالِفَةً لِآيَاتِهِ الصَّرِيحَةِ ، ثُمَّ هُمْ يَأْتُونَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَعْظَمَ مَا يَمْتَازُ بِهِ الْإِسْلَامُ هُوَ اتِّبَاعُ الدَّلِيلِ وَنَزْعُ قَلَائِدِ التَّقْلِيدِ ، وَهُمْ مُصِرُّونَ عَلَى تَقَلُّدِ هَذِهِ الْقَلَائِدِ . أَلَمْ تَتَأَمَّلْ مَا قَالَهُ (الْقَفَّالُ) فِي فَائِدَتِهِ وَأَنَّهُ لَا يَعْنِي بِأَكْثَرِ النَّاسِ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَدْيَانَهُمْ بِحَسَبِ الْإِلْفِ وَالْعَادَةِ إِلَّا غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ ، يَعْنِي أَنَّ الْمُسْلِمِينَ وَحْدَهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَتَمَسَّكُونَ بِالدَّلَائِلِ فَلَا يَقْبَلُونَ فِي دِينِهِمْ شَيْئًا بِغَيْرِ دَلِيلٍ وَبِهَذَا كَانَ لَهُمُ الْحَقُّ عِنْدَهُ بِإِكْرَاهِ غَيْرِهِمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ لِيَكُونَ مِثْلَهُمْ فِي الْخَيْرِيَّةِ . وَأَيْنَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ هَذِهِ الْمَزِيَّةِ الْيَوْمَ وَفِي زَمَنِ (الْقَفَّالِ) أَيْضًا ؟ !

ثُمَّ إِنَّ السُّؤَالَ الَّذِي أَوْرَدَهُ (الرَّازِيُّ) وَارْتَضَى فِي جَوَابِهِ مَا قَالَهُ (الْقَفَّالُ) مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ - تَعَالَى - : خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ مَعْنَاهُ خَيْرَ أُمَّةٍ ظَهَرَتْ لَهُمْ مُنْذُ وُجِدُوا ، وَهُوَ

أَحَدُ الْأَقْوَالِ الَّتِي أَوْرَدَهَا فِي مَعْنَى الْعِبَارَةِ قَالَ : وَالثَّانِي أَنَّ قَوْلَهُ : لِلنَّاسِ مِنْ تَمَامِ قَوْلِهِ : كُنْتُمْ وَالتَّقْدِيرُ : كُنْتُمْ

(202/127)

لِلنَّاسِ خَيْرَ أُمَّةٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : أُخْرِجَتْ صِلَةٌ ، وَالتَّقْدِيرُ : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ لِلنَّاسِ اهـ .

وَهَذَا الْأَخِيرُ أَضْعَفُ الْأَقْوَالِ .

وَالْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ لَمْ يَتَعَرَّضْ لِهَذَا السُّؤَالِ ، وَالظَّاهِرُ عِنْدِي أَنَّ تَعْلِيلَ الْخَيْرِيَّةِ بِمَا ذُكِرَ هُنَا لَيْسَ لِأَنَّهُ كُلُّ السَّبَبِ فِي كَوْنِ هَذِهِ الْأُمَّةِ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، بَلْ لِأَنَّ مَا كَانَتْ بِهِ خَيْرَ أُمَّةٍ لَا يُحْفَظُ وَلَا يَدُومُ إِلَّا بِإِقَامَةِ هَذِهِ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ ; وَلِذَلِكَ اشْتُرِطَ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ يَكُونَ مِنْ غَرَضِهَا فِي الدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهَا وَحِفْظِ وُجُودِهَا الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ ، كَأَنَّهَا لَوْلَا ذَلِكَ لَا تَكُونُ مُسْتَحِقَّةً لِلْبَقَاءِ فِي الْأَرْضِ ، وَأَكَّدَ الْأَمْرَ بِهَذِهِ الْفَرِيضَةِ فِي آيَاتِ هَذِهِ السُّورَةِ بِمَا لَمْ يُعْرَفْ لَهُ نَظِيرٌ فِي كِتَابٍ مِنَ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ ، وَلَمْ تَقُمْ بِهِ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ، فَقَوْلُ الرَّازِيِّ : " إِنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ الثَّلَاثَ كَانَتْ حَاصِلَةً فِي سَائِرِ الْأُمَمِ " غَيْرُ صَحِيحٍ عَلَى إِطْلَاقِهِ .

(203/127)

وَقَدْ أَوْرَدَ (الرَّازِيُّ) هُنَا سُؤَالًا آخَرَ وَأَجَابَ عَنْهُ فَقَالَ: "لِمَ قُدِّمَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللهِ فِي الذِّكْرِ مَعَ أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللهِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُقَدَّمًا عَلَى كُلِّ الطَّاعَاتِ؟ وَالْجَوَابُ: أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللهِ أَمْرٌ مُشْتَرَكٌ فِيهِ بَيْنَ جَمِيعِ الْأُمَمِ الْمُحِقَّةِ، ثُمَّ إِنَّهُ - تَعَالَى - فَضَّلَ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ الْمُحِقَّةِ فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الْمُؤَثِّرُ فِي حُصُولِ هَذِهِ الْخَيْرِيَّةِ هُوَ الْإِيمَانُ الَّذِي هُوَ الْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ بَيْنَ الْكُلِّ، بَلِ الْمُؤَثِّرُ فِي حُصُولِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ هُوَ كَوْنُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَقْوَى حَالًا فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ، فَإِذَنِ الْمُؤَثِّرُ فِي حُصُولِ هَذِهِ الْخَيْرِيَّةِ هُوَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَمَّا الْإِيمَانُ بِاللهِ فَهُوَ شَرْطٌ لِتَأْثِيرِ هَذَا الْمُؤَثِّرِ فِي هَذَا الْحُكْمِ؛ لِأَنَّهُ مَا لَمْ يُوجَدِ الْإِيمَانُ لَمْ يَصِرْ شَيْءٌ مِنَ الطَّاعَاتِ مُؤَثِّرًا فِي صِفَةِ الْخَيْرِيَّةِ، فَثَبَتَ أَنَّ الْمُوجِبَ لِهَذِهِ الْخَيْرِيَّةِ هُوَ كَوْنُهُمْ آمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ نَاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَمَّا إِيمَانُهُمْ فَذَاكَ شَرْطُ التَّأْثِيرِ وَالْمُؤَثِّرُ أَلْصَقُ بِالْأَثَرِ مِنْ شَرْطِ التَّأْثِيرِ؛ فَلِهَذَا السَّبَبِ قَدَّمَ اللهُ - تَعَالَى - ذِكْرَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى ذِكْرِ الْإِيمَانِ" اهـ. بِمَا فِيهِ مِنْ تَكْرَارٍ.

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: أَمَّا تَقْدِيمُ ذِكْرِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ عَلَى الْإِيمَانِ فَالْحِكْمَةُ فِيهِ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ (الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ) مَحْمُودَةٌ فِي عُرْفِ جَمِيعِ النَّاسِ: مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ، يَعْتَرِفُونَ لِصَاحِبِهَا بِالْفَضْلِ وَلَمَّا كَانَ الْكَلَامُ فِي خَيْرِيَّةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ قَدَّمَ الْوَصْفَ الْمُتَّفَقَ عَلَى حُسْنِهِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، وَهُنَاكَ حِكْمَةٌ أُخْرَى وَهِيَ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ سِيَاجُ الْإِيمَانِ وَحِفَاظُهُ (كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ) فَكَانَ تَقْدِيمُهُ فِي الذِّكْرِ مُوَافِقًا لِمَعْهُودٍ عِنْدَ النَّاسِ فِي جَعْلِ سِيَاجِ كُلِّ شَيْءٍ مُقَدَّمًا عَلَيْهِ.

أَقُولُ: كُلُّ ذَلِكَ حَسَنٌ، وَالْمُتَبَادِرُ عِنْدِي أَنَّ تَقْدِيمَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لِلتَّعْرِيضِ بِأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ كَانُوا يَدَّعُونَ الْإِيمَانَ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى ادِّعَاءِ الْقِيَامِ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ; لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي مَجْمُوعِهِمْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ، وَادِّعَاءُ مَا تُكَذِّبُهُ الْمُشَاهَدَةُ يَفْضَحُ صَاحِبَهُ، فَقَدَّمَ ذِكْرَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لِأَنَّهُمْ لَا مَجَالَ لَهُمْ فِي دَعْوَى مُشَارَكَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِيهِ، وَأَخَّرَ ذِكْرَ الْإِيمَانِ الَّذِي يَدَّعُونَهُ لِيُرَتِّبَ عَلَيْهِ بَيَانَ أَنَّهُ إِيمَانٌ غَيْرُ صَحِيحٍ ; لِأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِثَمَرِ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ ; وَلِذَلِكَ قَالَ:

وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ أَيْ لَوْ آمَنُوا الْإِيمَانَ الصَّحِيحَ الَّذِي يَسْتَوْلِي عَلَى النُّفُوسِ وَيَمْلِكُ أَزِمَّةَ الْأَهْوَاءِ فَيَكُونُ مَصْدَرًا لِأَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ كَمَا تُؤْمِنُونَ أَنْتُمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّا يَدَّعُونَ مِنَ الْإِيمَانِ التَّقْلِيدِيِّ الَّذِي لَا يَزَعُ عَنِ الشُّرُورِ، وَلَا يَرْفَعُ صَاحِبَهُ إِلَى مَعَالِي الْأُمُورِ، وَبِهَذَا التَّفْسِيرِ يَنْدَفِعُ سُؤَالٌ ثَالِثٌ لِلرَّازِيِّ وَهُوَ: لِمَ اكْتُفِيَ بِذِكْرِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَلَمْ يَذْكُرِ الْإِيمَانَ بِالنُّبُوَّةِ؟ فَإِذَا كَانَ الْكَلَامُ تَعْرِيضًا بِأَنَّ الْقَوْمَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ إِيمَانًا صَحِيحًا فَأَيُّ حَاجَةٍ إِلَى ذِكْرِ الْإِيمَانِ بِغَيْرِهِ، عَلَى أَنَّهُ لَوْ ذَكَرَ غَيْرَ ذَلِكَ لَكَانَ الْمُنَاسِبُ أَنْ يَذْكُرَ الْإِيمَانَ بِرَسُولِهِ وَهُوَ مَحَلُّ خِلَافٍ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، أَوِ الْإِيمَانَ بِالرُّسُلِ كَافَّةً وَأَهْلُ الْكِتَابِ اشْتَهَرُوا بِذَلِكَ، وَجَوَابُ الرَّازِيِّ تَكَلُّفٌ ظَاهِرٌ. ثُمَّ صَرَّحَ بَعْدَ التَّعْرِيضِ بِأَنَّهُمْ لَوْ آمَنُوا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَلَمْ يَقُلْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ بَلْ أَطْلَقَ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ إِيمَانَهُمْ بِكُلِّ مَا يُؤْمِنُونَ بِهِ غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِثَمَرَاتِ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ كَمَا قُلْنَا آنِفًا.

(206/127)

وَجَعَلَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ هَذِهِ الْجُمْلَةَ مُتَعَلِّقَةً بِمَجْمُوعِ الْكَلَامِ السَّابِقِ فَقَالَ: إِنَّهُ بَعْدَ مَا نَهَانَا - سُبْحَانَهُ - عَنِ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ كَمَا تَفَرَّقَ أَهْلُ الْكِتَابِ بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ، وَأَمَرَنَا بِالدَّعْوَةِ إِلَى الْخَيْرِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ. وَذَكَرَ أَنَّنَا خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

لِلنَّاسِ بِهَذَا أَوْ بِالْإِيمَانِ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي يَقْتَرِنُ بِالْإِذْعَانِ النَّفْسِيِّ وَالِاتِّبَاعِ الْعَمَلِيِّ - نَاسَبَ أَنْ يَذْكُرَ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ الْمُخْتَلِفِينَ لَيْسُوا مُؤْمِنِينَ هَذَا الْإِيمَانَ الْخَالِصَ الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ - تَعَالَى - وَيَرْضَاهُ، وَهُوَ الَّذِي يَكُونُ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ ثَمَرَةً مِنْ ثِمَارِهِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ أَثَرًا مِنْ آثَارِهِ، فَعَلِمْنَا أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا الْإِيمَانِ

(207/127)

شَيْءٌ أَخَصُّ مِنَ الْإِيمَانِ الْعُرْفِيِّ الَّذِي يَدَّعِيهِ كُلُّ أَحَدٍ لَهُ دِينٌ وَكِتَابٌ بَلْ هُوَ مَا عَرَّفْنَاهُ آنِفًا وَقَبْلَ ذَلِكَ، وَالْكَلَامُ يُشْعِرُ بِأَنَّهُ لَا يُوجَدُ فِيهِمْ مُؤْمِنٌ هَذَا الْإِيمَانَ الْإِذْعَانِيَّ الَّذِي يَصْحَبُهُ الْإِخْلَاصُ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، مَعَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَعْرَى مِنْهُ أُمَّةٌ لَهَا دِينٌ سَمَاوِيٌّ، وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ مُؤْمِنُونَ مُخْلِصُونَ ; وَلِذَلِكَ قَالَ - تَعَالَى - : مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ فَعُلِمَ أَنَّ الْحُكْمَ الْأَوَّلَ عَلَى الْأُمَّةِ إِنَّمَا هُوَ حُكْمٌ عَلَى أَكْثَرِ أَفْرَادِهَا فَهُمُ الَّذِينَ فَسَقُوا عَنْ حَقِيقَةِ الدِّينِ وَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلَّا بَعْضُ الرُّسُومِ وَالتَّقَالِيدِ الظَّاهِرَةِ، فَالْكَلَامُ اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ لَا اسْتِطْرَادٌ كَمَا قِيلَ .

هَذَا مَا يُؤْخَذُ مِنْ كَلَامِ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ . وَجُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى : وَلَوْ آمَنَ

(208/127)

أَهْلُ الْكِتَابِ بِمَا آمَنْتُمْ بِهِ كَمَا آمَنْتُمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلَكِنْ آمَنَ بَعْضُهُمْ فَمِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ وَرَهْطِهِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّجَاشِيِّ وَرَهْطِهِ مِنَ النَّصَارَى وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ عَنْ دِينِهِمْ أَيْ خَارِجُونَ مِنْهُ ، أَوْ فَاسِقُونَ فِي دِينِهِمْ غَيْرُ عُدُولٍ فِيهِ فَلَا حَصَّلُوا الْإِسْلَامَ وَهُوَ أَكْمَلُ الْأَدْيَانِ وَلَا تَمَسَّكُوا بِمَا عِنْدَهُمْ ، أَوْ أَكْثَرُهُمْ مُتَمَرِّدُونَ فِي الْكُفْرِ . هَكَذَا اخْتَلَفَ تَعْبِيرُهُمْ فَيُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ أَحَدٌ مُتَمَسِّكٌ بِدِينِهِ مُخْلِصًا فِيهِ ، عَامِلًا بِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ ، وَهَذَا غَيْرُ مَعْقُولٍ وَلَا مُوَافِقٌ لِمَا عُرِفَ مِنْ طَبِيعَةِ الْبَشَرِ مِنْ مَيْلِ أُنَاسٍ مِنْهُمْ إِلَى الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ وَاعْتِدَالِ أُنَاسٍ آخَرِينَ وَمَيْلِ غَيْرِ هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ إِلَى الْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ ، فَمَا مِنْ أَهْلِ دِينٍ إِلَّا وَفِيهِمُ الْفِرَقُ الثَّلَاثُ ، وَإِنَّمَا يَكْثُرُ الِاسْتِمْسَاكُ بِالدِّينِ فِي أَوَائِلِ ظُهُورِهِ ، وَيَكْثُرُ الْفِسْقُ بَعْدَ طُولِ الْأَمَدِ عَلَيْهِ . قَالَ - تَعَالَى - : أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ [57 : 16] فَمَا عَدَا هَذَا الْكَثِيرِ هُمُ الْمُسْتَمْسِكُونَ بِدِينِهِمْ ، وَالْقُرْآنُ لَمْ يَحْكُمْ عَلَى أُمَّةٍ بِالضَّلَالِ وَالْفِسْقِ بِنَصٍّ عَامٍّ يَسْتَغْرِقُ جَمِيعَ الْأَفْرَادِ ، بَلْ يُعَبِّرُ

تَارَةً بِالْكَثِيرِ وَتَارَةً بِالْأَكْثَرِ، وَإِذَا أَطْلَقَ أَدَاةَ الْعُمُومِ يَسْتَثْنِي بِمِثْلِ قَوْلِهِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ [2 : 83] وَقَوْلِهِ فِيهِمْ: فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا [4 : 155] أَوْ يَحْكُمُ عَلَى الْبَعْضِ ابْتِدَاءً كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ:

(210/127)

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ [3 : 75] الْآيَةَ. وَقَالَ - تَعَالَى - فِيهِمْ: وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ [7 : 159] وَقَالَ فِيهِمْ وَفِي النَّصَارَى: مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ [5 : 66] وَسَيَأْتِي تَفْسِيرُهَا، فَقَدْ أَثْبَتَ لِبَعْضِهِمُ الْإِيمَانَ وَالِاقْتِصَادَ أَيِ الِاعْتِدَالَ فِي الدِّينِ وَالْهِدَايَةَ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَقَالَ: لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ [4 : 162] فَجَعَلَ أَهْلَ الْعِلْمِ الَّذِينَ يَفْهَمُونَ الدَّلَائِلَ وَالْبَرَاهِينَ، وَأَهْلَ الْإِيمَانِ الْمُخْلِصِينَ الَّذِينَ يَتَحَرَّوْنَ الْحَقَّ هُمُ الَّذِينَ يَقْبَلُونَ دَعْوَةَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِقُوَّةِ اسْتِعْدَادِهِمْ. وَلَكِنَّ الْمُفَسِّرَ الْمُتَشَبِّعَ بِأَحْوَالِ أُمَّتِهِ الَّذِي لَمْ يَخْتَبِرْ غَيْرَهَا وَلَمْ يَكُنْ عَارِفًا بِطَبَائِعِ الْمِلَلِ وَحَقَائِقِ الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ لَا يَكَادُ يَتَصَوَّرُ أَنَّ الْإِيمَانَ وَالْإِخْلَاصَ

وَالتَّقْوَى تُوجَدُ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِ مِلَّتِهِ ، فَهُوَ يُطَبِّقُ الْآيَاتِ عَلَى اخْتِبَارِهِ وَاعْتِقَادِهِ ، وَقَدْ تَذَكَّرْتُ الْآنَ مَا قَالَتْهُ تِلْكَ الْمَرْأَةُ الْإِفْرِنْجِيَّةُ لِلْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ فِي مَدِينَةِ جِنِيف عَاصِمَةِ سويسْرَا ، وَكَانَتِ امْرَأَةً عَالِمَةً تَقِيَّةً رَاقَبَتْ سَيْرَ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ فِي مَصِيفِهِ هُنَاكَ لِغَرَابَةِ زِيِّهِ وَدِينِهِ ، ثُمَّ

(211/127)

قَالَتْ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ : إِنَّنِي لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ وَلَا يَخْطُرُ فِي بَالِي قَبْلَ مَعْرِفَتِكَ أَنَّ الْقَدَاسَةَ وَالتَّقْوَى فِي غَيْرِ الْمَسِيحِيَّةِ .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ الْقُرْآنَ يُبَيِّنُ حَقَائِقَ مَا عَلَيْهِ الْأُمَمُ فِي عَقَائِدِهَا وَأَخْلَاقِهَا وَأَعْمَالِهَا ، يَزِنُ ذَلِكَ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَالدِّقَّةُ الَّتِي نَرَاهَا فِي تَحَرِّيهِ الْحَقِيقَةَ لَمْ نَعْهَدْهَا فِي كِتَابِ عَالِمٍ وَلَا مُؤَرِّخٍ ، فَإِذَا نَحْنُ جَمَعْنَا مَا حَكَمَ بِهِ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ وَعَرَضْنَاهُ عَلَى عُلَمَائِهِمْ

وَفَلَاسِفَتِهِمْ وَمُؤَرِّخِيهِمْ فَإِنَّهُمْ يُذْعِنُونَ بِأَنَّهُ لُبَابُ الْحَقِيقَةِ ، بَلْ هُمْ يُصَرِّحُونَ بِأَنَّهُ لَوْلَا غَلَبَةُ الضَّلَالِ وَالْفِسْقِ وَالْكُفْرِ عَلَيْهِمْ فِي عَصْرِ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ لَمَا انْتَشَرَ ذَلِكَ الِانْتِشَارَ السَّرِيعَ .

وَلَكِنْ وُجِدَ فِينَا مَنْ طَمَسَ هَذِهِ الْمَزِيَّةَ وَجَعَلُوا كُلَّ مَا يُنْكِرُهُ الْقُرْآنُ مِنْ فَسَادِ الْأُمَمِ مِنْ قَبِيلِ هَجْوِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَكُلَّ مَا يَحْمَدُهُ هُوَ خَاصٌّ بِالْمُسْلِمِينَ ، حَتَّى كَأَنَّهُ شِعْرٌ لَا يُقْصَدُ مِنْهُ إِلَّا

مَدْحُ أُنَاسٍ وَذَمُّ آخَرِينَ ، وَبِهَذَا يُنَفِّرُونَ غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْإِسْلَامِ ، وَيَحُولُونَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ الْعِبْرَةِ وَالِاتِّعَاظِ وَفَهْمِ الْحَقَائِقِ . وَلِهَذَا الْبَحْثِ بَقِيَّةٌ تَأْتِي فِي تَفْسِيرِ لَيْسُوا سَوَاءً إِلَخْ ، وَاسْتَدَلَّ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ بِالْآيَةِ عَلَى حُجِّيَّةِ الْإِجْمَاعِ الْمَعْرُوفِ فِي الْأُصُولِ فَحَمَّلَهَا مَا لَا تَحْمِلُ .

(212/127)

ثُمَّ قَالَ - تَعَالَى - فِي أُولَئِكَ الْفَاسِقِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ : لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى أَيْ إِنَّهُمْ يَقْدِرُونَ عَلَى إِيقَاعِ الضَّرَرِ بِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْذُونَكُمْ بِنَحْوِ الْكَلَامِ الْقَبِيحِ كَالْخَوْضِ فِي النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، أَوْ إِلَّا ضَرَرًا خَفِيفًا لَيْسَ لَهُ كَبِيرُ تَأْثِيرٍ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ تَوْلِيَةُ الْأَدْبَارِ : كِنَايَةٌ عَنِ الِانْهِزَامِ لِأَنَّ الْمُنْهَزِمَ يُحَوِّلُ ظَهْرَهُ إِلَى جِهَةِ مُقَاتِلِهِ وَيَسْتَدْبِرُهُ فِي هَرَبِهِ مِنْهُ ، فَيَكُونُ دُبُرُهُ أَيْ قَفَاهُ إِلَى جِهَةِ وَجْهِ مَنِ انْهَزَمَ هُوَ مِنْهُ . ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ عَلَيْكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ ، أَوْ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَا يُنْصَرُونَ عَلَيْكُمْ قَطُّ مَا دَامُوا عَلَى فِسْقِهِمْ وَدُمْتُمْ عَلَى خَيْرِيَّتِكُمْ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . وَعَلَى هَذَا تَكُونُ الْجُمْلَةُ إِخْبَارِيَّةً مُسْتَقِلَّةً لَا تَدْخُلُ فِي جَوَابِ الشَّرْطِ وَلِذَلِكَ وَرَدَتْ بِنُونِ الرَّفْعِ . وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ ثَلَاثُ بِشَارَاتٍ مِنَ الْإِخْبَارِ بِالْغَيْبِ ، وَكُلُّهَا تَحَقَّقَتْ وَصَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ .

(213/127)

وَقَدْ أَوْرَدَ " الرَّازِيُّ " عَلَى الْوَعْدِ بِأَنَّهُمْ لَا يُنْصَرُونَ : أَنَّهُ يَصْدُقُ فِي الْيَهُودِ دُونَ النَّصَارَى أَيْ إِنَّ الْيَهُودَ هُمُ الَّذِينَ لَمْ يُنْصَرُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ مَا كَانَ مِنِ انْكِسَارِهِمْ فِي الْحِجَازِ ، وَأَمَّا النَّصَارَى فَقَدْ كَانَتِ الْحَرْبُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ سِجَالًا ثُمَّ صَارُوا هُمُ الْمَنْصُورِينَ ، وَأَجَابَ (الرَّازِيُّ) عَنْ ذَلِكَ : بِأَنَّ الْآيَةَ خَاصَّةٌ بِالْيَهُودِ ، نَعَمْ وَمَا قُلْنَاهُ يَصْلُحُ جَوَابًا مُطْلَقًا ، وَيُؤَيِّدُهُ تَقْيِيدُهُ - تَعَالَى - نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرِهِمْ إِيَّاهُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ [47 : 7] وَبِالْقِيَامِ بِمَا أَمَرَ بِهِ وَمِنْهُ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ ، كَمَا وَرَدَ فِي سُورَةِ الْحَجِّ وَذَكَرْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ . وَمِثْلُهُ وَصْفُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ بِقَوْلِهِ : الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ [9 : 112] وَقَدْ شَرَحْنَا هَذَا الْمَعْنَى غَيْرَ مَرَّةٍ وَسَنُفَصِّلُهُ - إِنْ شَاءَ اللهُ - فِي مُقَدِّمَةِ التَّفْسِيرِ تَفْصِيلًا .

(214/127)

ثُمَّ قَالَ جَلَّ شَأْنُهُ : ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ثُقِفُوا : وُجِدُوا . وَالذِّلَّةُ بِكَسْرِ الذَّالِ : ضَرْبٌ مَخْصُوصٌ مِنَ الذُّلِّ لِأَنَّهَا مِنَ الصِّيَغِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْهَيْئَةِ ، قِيلَ : الْمُرَادُ بِهَا هُنَا الْجِزْيَةُ ، وَقِيلَ : مَا يُحْدِثُهُ فِي النَّفْسِ مِنْ فَقْدِ السُّلْطَةِ وَهَذَا هُوَ

(215/127)

الصَّحِيحُ ، وَقَدْ فَرَّقَ (الرَّاغِبُ) بَيْنَ الذُّلِّ بِضَمِّ الذَّالِ وَالذِّلِّ بِكَسْرِهَا فَقَالَ فِي الْأَوَّلِ : إِنَّهُ مَا كَانَ عَنْ قَهْرٍ ، وَفِي الثَّانِي : مَا كَانَ بَعْدَ تَصَعُّبٍ وَشِمَاسٍ ، وَمِنْهُ تَذْلِيلُ الدَّوَابِّ . وَضَرْبُ الذِّلَّةِ عَلَيْهِمْ أَيْ عَلَى الْيَهُودِ عِبَارَةٌ عَنْ إِلْصَاقِهَا بِهِمْ وَظُهُورِ أَثَرِهَا فِيهِمْ كَمَا يَكُونُ مِنْ ضَرْبِ السِّكَّةِ بِمَا يُنْقَشُ فِيهَا ، أَوْ عَنْ إِحَاطَتِهَا بِهِمْ كَإِحَاطَةِ الْخَيْمَةِ

(216/127)

الْمَضْرُوبَةِ بِمَنْ فِيهَا ، وَتَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ كُلِّهِ لِلْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ فِي تَفْسِيرِ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ [2 : 61] الْآيَةَ فَلْيُرَاجَعْ ; فَإِنَّ مَا هُنَا لَا يُغْنِي عَنْهُ . وَالْحَبْلُ : يُطْلَقُ عَلَى الْعَهْدِ ; لِأَنَّ النَّاسَ يَرْتَبِطُونَ بِالْعُهُودِ كَمَا يَقَعُ الِارْتِبَاطُ الْحِسِّيُّ بِالْحِبَالِ ، وَذَلِكَ

قَوْلُ أَبِي الْهَيْثَمِ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حِينَ أَتَتْهُ الْأَنْصَارُ فِي الْعَقَبَةِ : " أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّا قَاطِعُونَ فِيكَ حِبَالًا بَيْنَنَا وَبَيْنَ النَّاسِ " وَيُسَمَّى السَّبَبُ فِي اللُّغَةِ حَبْلًا وَالْحَبْلُ سَبَبًا . قِيلَ : إِنَّ الْمَعْنَى " إِلَّا بِعَهْدٍ " أَوْ سَبَبٍ يَأْمَنُونَ بِهِ فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ كَمَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَقِيلَ : السَّبَبُ مِنَ اللهِ الْإِسْلَامُ ، وَالسَّبَبُ مِنَ النَّاسِ الْعَهْدُ أَوِ التَّأْمِينُ . وَاخْتَارَ (الرَّازِيُّ) أَنَّ الْحَبَلَ مِنَ اللهِ هُوَ الْجِزْيَةُ ، أَيِ الذِّمَّةُ الَّتِي تَحْصُلُ بِقَبُولِهِمْ دَفْعَ الْجِزْيَةِ . وَالْحَبْلُ مِنَ النَّاسِ هُوَ مَا فُوِّضَ إِلَى رَأْيِ الْإِمَامِ فَيَزِيدُ فِيهِ تَارَةً وَيَنْقُصُ بِحَسَبِ الِاجْتِهَادِ . وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : أَيْ إِنَّ حَالَهُمْ مَعَكُمْ أَنْ يَكُونُوا أَذِلَّاءَ مَهْضُومِي الْحُقُوقِ رَغْمَ أُنُوفِهِمْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَا قَرَّرَتْهُ شَرِيعَتُهُ لَهُمْ إِذَا دَخَلُوا فِي حُكْمِكُمْ مِنَ الْمُسَاوَاةِ فِي الْحُقُوقِ وَالْقَضَاءِ وَتَحْرِيمِ إِيذَائِهِمْ وَهَضْمِ شَيْءٍ مِنْ حُقُوقِهِمْ ، وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَهُوَ مَا تَقْتَضِيهِ الْمُشَارَكَةُ فِي الْمَعِيشَةِ مِنِ احْتِيَاجِكُمْ إِلَيْهِمْ

(217/127)

وَاحْتِيَاجِهِمْ إِلَيْكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ ; أَيْ فَهَذَا الْقَدْرُ الْمُسْتَثْنَى مِنْ عُمُومِ الذِّلَّةِ لَمْ يَأْتِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَإِنَّمَا جَاءَهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ ، فَهُمْ لَا عِزَّةَ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ لِأَنَّ السُّلْطَانَ وَالْمُلْكَ قَدْ فُقِدَا مِنْهُمْ .

وأنت ترى أن هذا الذي قاله الأستاذ الإمام أظهر وأشد انطباقا على الواقع ، فلقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يحسن معاملتهم ويقترض منهم ، وكذلك كان الخلفاء الراشدون يفعلون ، وقضية علي مع اليهودي عند عمر مشهورة ، وفيها أن عليا أنكر على عمر مخاطبته أمام خصمه اليهودي بالكنية وفيها تعظيم ينافي المساواة بينهما . وقد تقدم أيضا تفسير وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة في آية البقرة المشار إليها آنفا . باءوا بالغضب : كانوا أحقاء به من البواء وهو المساواة ، يقال باء فلان بدم فلان أو بفلان إذا كان حقيقا أن يقتل به لمساواته له ، أو أقاموا فيه ولبثوا من المباءة أي حلوا مبوأ أو بيئة من الغضب . وقد فسر بعضهم المسكنة بالفقر ، وإن تعجب فعجب قول البيضاوي : إن اليهود في الغالب أهل فقر ومسكنة ! وليست المسكنة هي الفقر وإنما هي سكون عن ضعف أو حاجة . قال الأستاذ الإمام هنا : إن المسكنة حالة للشخص منشؤها استصغاره لنفسه حتى لا يدعي له حقا ، والذلة حالة تعتري الشخص من سلب غيره لحقه وهو يتمناه ، فمنشؤها
وسببها غيره لا نفسه

كَالْمَسْكَنَةِ ، وَكَأَنَّ الْبَيْضَاوِيَّ أَخَذَ عِبَارَتَهُ مِنْ قَوْلِ الْكَشَّافِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : " فَالْيَهُودُ صَاغِرُونَ أَذِلَّاءُ أَهْلُ مَسْكَنَةٍ وَمَدْقَعَةٍ إِمَّا عَلَى الْحَقِيقَةِ وَإِمَّا لِتَصَاغُرِهِمْ وَتَفَاقُرِهِمْ خِيفَةَ أَنْ تُضَاعَفَ الْجِزْيَةُ عَلَيْهِمْ " وَهَذَا الْوَصْفُ أَكْثَرُ انْطِبَاقًا عَلَيْهِمْ فِي أَكْثَرِ الْبِلَادِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ . وَنَقَلَ الرَّازِيُّ أَنَّ الْأَكْثَرِينَ فَسَّرُوا الْمَسْكَنَةَ بِالْجِزْيَةِ ; لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي بَقِيَتْ مَضْرُوبَةً عَلَيْهِمْ ، أَخَذُوا هَذَا مِنْ ذِكْرِهَا بَعْدَ الِاسْتِثْنَاءِ ، أَيْ أَنَّ الذِّلَّةَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ لَا تَرْتَفِعُ عَنْهُمْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ، فَاسْتَثْنَى مِنَ الذِّلَّةِ ثُمَّ ذَكَرَ الْمَسْكَنَةَ وَلَمْ يَسْتَثْنِ فَاقْتَضَى ذَلِكَ بَقَاءَهَا عَلَيْهِمْ . وَإِذَا كَانَ الْمُرَادُ مِنَ الْجِزْيَةِ كَوْنُهُمْ تَابِعِينَ لِغَيْرِهِمْ يُؤَدُّونَ إِلَيْهِ مَا يَضْرِبُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَالِ وَادِعِينَ سَاكِنِينَ فَهَذَا الْوَصْفُ صَادِقٌ عَلَى الْيَهُودِ إِلَى الْيَوْمِ فِي كُلِّ بِقَاعِ الْأَرْضِ ، وَأَمَّا الذُّلُّ فَقَدْ كَانَ ارْتَفَعَ عَنْهُمْ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ ، وَهُوَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ وُجُوبِ مُعَامَلَتِهِمْ بِالْمُسَاوَاةِ وَاحْتِرَامِ دِمَائِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَالْتِزَامِ حِمَايَتِهِمْ وَالذَّوْدِ عَنْهُمْ بَعْدَ إِنْقَاذِهِمْ مِنْ ظُلْمِ حُكَّامِهِمُ السَّابِقِينَ الظَّالِمِينَ ، وَبِحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ ، ثُمَّ ارْتَفَعَ عَنْهُمْ فِيمَا عَدَا رُوسْيَا مِنْ بِلَادِ أُورُبَّا بِحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ، وَهِيَ قَوَانِينُهُمُ الَّتِي

تُساوي بين رَعَايهُمْ فِي بِلَادِهِمْ ، عَلَى أَنّ لَهُمْ أَعْدَاءً فِي أُورُبّا وَقَدْ يَبْخُلُونَ عَلَيْهِمْ فِي أَلْمَانْيَا بِلَقَبِ الْأَلْمَانِيّ وَيُعَبِّرُونَ عَنْهُمْ بِلَقَبِ الْيَهُودِيّ .

(221/127)

وَهَلْ تَرْتَفِعُ عَنْهُمُ الْمَسْكَنَةُ فَيَكُونُ لَهُمْ مُلْكٌ وَسُلْطَانٌ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ ؟ الْجَوَابُ عَنْ هَذَا يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى بَسْطٍ ، فَأَمَّا مِنَ الْجِهَةِ الدِّينِيَّةِ فَهُمْ يَقُولُونَ بِأَنَّهُمْ مُبَشَّرُونَ بِذَلِكَ بِظُهُورِ مَسِيحِ " مسيا " فِيهِمْ وَمَعْنَاهُ ذُو الْمُلْكِ وَالشَّرِيعَةِ ، وَالنَّصَارَى يَقُولُونَ : إِنَّ هَذَا الْمَوْعُودَ بِهِ هُوَ الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَالْمُرَادُ بِالْمُلْكِ الَّذِي يَجِيءُ بِهِ : الْمُلْكُ الرُّوحَانِيُّ الْمَعْنَوِيُّ . وَفِي إِنْجِيلِ بَرْنَابَا عَنِ الْمَسِيحِ : أَنَّ ذَلِكَ الْمَوْعُودَ بِهِ هُوَ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَيْ فَهُوَ الَّذِي جَاءَ بِالنُّبُوَّةِ الَّتِي اسْتَتْبَعَتِ الْمُلْكَ . وَمَحَلُّ هَذَا الْبَحْثِ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ - تَعَالَى - فِيهِمْ : عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا [17 : 8] فَإِنَّهُ ذَكَرَ هَذَا بَعْدَ ذِكْرِ إِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَتَسْلِيطِ الْأُمَمِ عَلَيْهِمْ ، وَأَمَّا مِنَ الْجِهَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ فَيُبْحَثُ فِيهِ عَنْ تَفَرُّقِهِمْ فِي الْأَرْضِ عَلَى قِلَّتِهِمْ ، وَعَنِ انْصِرَافِهِمْ عَنْ فُنُونِ الْحَرْبِ وَأَعْمَالِهِمْ ، وَضَعْفِهِمْ فِي الْأَعْمَالِ الزِّرَاعِيَّةِ لِعِنَايَتِهِمْ بِجَمْعِ الْمَالِ مِنْ أَقْرَبِ الْمَوَارِدِ

وَأَكْثَرِهَا نَمَاءً وَأَقَلِّهَا عَنَاءً كَالرِّبَا . وَلَا مَحَلَّ هُنَا لِتَفْصِيلِ ذَلِكَ وَبَيَانِ عَلَاقَتِهِ بِالْمُلْكِ .
ثُمَّ عَلَّلَ - تَعَالَى - هَذَا الْجَزَاءَ وَبَيَّنَ سَبَبَهُ فَقَالَ : ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ

(222/127)

وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَتَقَدَّمَ مِثْلُهُ فِي الْبَقَرَةِ : أَيْ ذَلِكَ الَّذِي ذُكِرَ مِنْ ضَرْبِ الذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ عَلَيْهِمْ ، وَخِلَافَتِهِمْ بِالْغَضَبِ الْإِلَهِيِّ ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ تَعْطِيهِمْ إِيَّاهُ شَرِيعَتُهُمْ . وَفِي التَّنْصِيصِ عَلَى كَوْنِ ذَلِكَ بِغَيْرِ حَقٍّ مَعَ الْعِلْمِ بِهِ تَغْلِيظٌ عَلَيْهِمْ وَتَشْنِيعٌ عَلَى تَحَرِّيهِمُ الْبَاطِلَ وَكَوْنِ ذَلِكَ عَنْ عَمْدٍ لَا عَنِ الْخَطَأِ . ثُمَّ بَيَّنَ سَبَبَ هَذَا الْكُفْرِ وَالْعُدْوَانِ الشَّنِيعِ فَقَالَ : ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ أَيْ جَرَّأَهُمْ عَلَى ذَلِكَ سَبْقُ الْمَعَاصِي وَالِاسْتِمْرَارُ عَلَى الِاعْتِدَاءِ فَتَدَرَّجُوا مِنَ الصَّغَائِرِ إِلَى الْكَبَائِرِ إِلَى أَكْبَرِ الْمُوبِقَاتِ وَهُوَ الْكُفْرُ وَقَتْلُ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْشِدِينَ وَالْهُدَاةِ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَصَارَ هَذَا الْعِصْيَانُ وَالِاعْتِدَاءُ خُلُقًا لِلْأُمَّةِ وَطَبْعًا لَهَا يَتَوَارَثُهُ الْأَبْنَاءُ عَنِ الْآبَاءِ بِلَا نَكِيرٍ ; وَلِهَذَا نُسِبَ إِلَى مُتَأَخِّرِيهِمْ عَمَلُ مُتَقَدِّمِيهِمْ ، وَالْأُمَمُ مُتَكَافِلَةٌ يُنْسَبُ إِلَى مَجْمُوعِهَا مَا فَشَا فِيهِمْ وَإِنْ ظَهَرَ بَعْضُ آثَارِهِ فِي زَمَنٍ دُونَ زَمَنٍ ، وَتَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ غَيْرَ مَرَّةٍ .

(223/127)

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ فِي الْآيَةِ : إِعْرَابُ قَوْلِهِ – تَعَالَى – : إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : هُوَ فِي مَحَلِّ النَّصْبِ عَلَى الْحَالِ بِتَقْدِيرِ " إِلَّا مُعْتَصِمِينَ أَوْ مُتَمَسِّكِينَ أَوْ مُتَلَبِّسِينَ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مِنْ أَعَمِّ الْأَحْوَالِ " وَالْمَعْنَى : ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ فِي عَامَّةِ الْأَحْوَالِ إِلَّا فِي حَالِ اعْتِصَامِهِمْ بِحَبْلِ اللهِ وَحَبْلِ النَّاسِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 4 صـ 58.47 ﴾

(224/127)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ ﴾

ونحن نستخدم كلمة " ضرب " في النقود ، عندما نقول : ضرب هذا الجنيه في مصر ، ومعنى ذلك أن الصانع يقوم بصنع قالب من مادة أكثر صلابة ، من المادة التي يصنع منها النقد ويرسم فيها الحفريات التي تبرز الكتاب والصور على وجهي الجنيه ، ثم يصب المادة في ذلك القالَب ، وتخضع للقالب فتبرز الكتابة والصور ، ولا تتأبى المادة على القالب . كأن "

ضُرب " معناها " أُلْزم " بالبناء للمجهول فيهما ، وكأن المادة المصنوعة تلْزَمُ القالبَ الذي تصب فيه ولا تتأبى عليه ولا يمكن أن تتشكل إلاّ به .

إذن فالضرب معناه الإلزام والقسر على الفعل . وعندما يقول الحق : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ﴾ أي لزمتهم الذلة لا يستطيعون الانفكاك عنها أبدا ، كما لا يستطيع المعدن المضروب نقدا أن ينفك عن القالب الذي صك عليه ، وكأن الذلة قبة ضربت عليهم ، وقالب لهم ، وقول الحق : ﴿ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا ﴾ تفيد أنهم أذلاء أينما وُجدوا في أي مكان .

ولكن هناك استثناء لذلك ، ما هو ؟

إنه قول الحق : ﴿ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ ﴾ إنهم لا يعانون من الذلة في حالة وجود عهدٍ من الله أو عهد من أناس أقوياء أن يقدموا لهم الحماية : فلما كانوا في عهد الله أولاً وعهد رسوله ساعة دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وأعطاهم العهد ، فكانوا آمنين ، ولما خانوا العهد ، ولم يُوفوا به ؛ ماذا حدث ؟ ضُربت عليهم الذلة مرة أخرى .

إذن لقد كانوا في عهد الله آمنين لكنهم خانوا العهد ، وانقطع حبل الله عنهم ، فهيجوا الهيجة التي عرفناها ونزل بهم ما نزل ، وهو ما حدث لبني قينقاع ولبني النضير وبني قريظة ويهود خيبر.

إذن فهم قبل ذلك كانوا في عهد مع الله. وأنتم تعرفون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما نزل المدينة بنى المسجد وعقد العهد بينه وبين اليهود وعاشوا في اطمئنان إلى أن خانوا العهد ، فضربت عليهم الذلة. وطُردوا من المدينة ، كما يقول الحق : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ ﴾ .

لقد أخذوا العهد من الله من خلال من له الولاية على الناس ، فالرسول في عهده كان قائما على أمر المسلمين ، وكذلك يكون الأمر معهم في ظل القائمين على أمر الإسلام ، ويحدث هذا عندما تسير الأمور بمنهج الإسلام.

أما عن حبل الناس فذلك لأنهم لا يملكون أي عزة ذاتية ، إنهم دائما في ذلة إلا أن يبتغوا العزة من جانب عهد وحبل من الله ، أو من جانب حماية من الناس. ونحن نراهم على هذا الحال في حياتنا المعاصرة ، لا بد لهم من العيش في كنف أحد ؛ لذلك فعندما حاربنا " إسرائيل " في حرب أكتوبر ، انتصرنا عليهم إلى أن تدخلت أمريكا بثقلها العسكري.

فقال رئيس الدولة المصري : " لا جَلْدَ لي أن أحارب أمريكا " .

إذن لو كانت الحرب بيننا وبينهم فقط لا نتهت قوتهم ؛ فهم بلا عزة ذاتية ، وتكون لهم عزة لو

كانوا في جانب حبل من الله ، أو حبل من الناس . يقول الحق سبحانه عنهم من بعد ذلك :

﴿ وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ﴾ ولنا أن نلاحظ أن الذلة له استثناء ، فهم ينالون العزة لو كانوا بجانب حبل من الله أو حبل من الناس ، أما المسكنة ، فلا استثناء فيها ، وقد قال الحق عنهم في موضع آخر في القرآن الكريم :

(226/127)

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾

[البقرة : 61]

لأن المسكنة أمر ذاتي في النفس ، إنهم مساكين بأمر من الله ، أما الذلة فقد يأتي لهم من ينصرهم ويقف بجانبهم ؛ فالذلة أمر من خارج ، أما المسكنة فهي في ذاتيتهم ، وعندما تكون المسكنة ذاتية ، فلا إنقاذ لهم منها ؛ لأنه لا حبل من الله يأتيهم فينجيهم منها ، ولا حبل من الناس يعصمهم من آثارها . ويقول الحق : ﴿ وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ وهل رأى أحد منا غضبا أكبر من أن الحق قد قطعهم في الأرض ؟ ولنقرأ قول الله :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً ﴾

[الأعراف : 168]

المكان الوحيد الذي آواهم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الجزيرة العربية في يثرب ، واستقروا قليلا ، وصارت لهم سيادة علمية ؛ لأنهم أهل كتاب ، وصارت لهم سيادة اقتصادية ، وكذلك سيادة حربية ، وهذا المكان الذي أواهم من الشتات في الأرض هو المكان نفسه الذي تمردوا عليه . لقد كان السبب الذي من أجله قد جاءوا إلى يثرب هو ما كانوا يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة ؛ ففي التوراة جاء ما يفيد أن نبيا سيأتي في هذا المكان ولا بد أن يتبعوه كالميثاق الذي قلنا عليه من قبل :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾

[آل عمران : 81]

(227/127)

وهذا الميثاق يقضي بأن يتولى الرسل بلاغ الأمم التي بُعِثوا إليها ، وأن يُبلغ أهلُ الإيمان القادمين من بعدهم بأن هناك رسولا قادما من عند الله بالمنهج الكامل . - واليهود - لم يأتوا إلى يثرب إلا على أمل أن يتلقفوا النبي المنتظر ليؤمنوا به ، ومن بعد ذلك يكونون حربا

على الكافرين بالله ، لكن ما الذي حدث ؟ إنه سبحانه يخبرنا بما حدث منهم في قوله :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ ﴾

[البقرة : 89]

فماذا بعد أن باءوا بغضب من الله . وبعد أن ختم الله قالبهم بالمسكنة ؟ وما السبب ؟

تكون الإجابة من الحق سبحانه : ﴿ ذِلكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ لقد أرسل الله لهم آيات عجيبة ولكنهم كفروا بها ، تلك الآيات التي جاءنا ذكر منها في قوله الحق :

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾

[البقرة : 57]

كثير من الآيات أرسلها الحق لبني إسرائيل ، منها ما جاء في قوله الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

[البقرة : 63]

ولكنهم تولوا عن الإيمان وأمامهم ضرب موسى عليه السلام الحجر بالعصا فانفجرت منه عيون المياه ليشربوا .

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ

عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾

[البقرة: 60]

(228/127)

وبرغم ذلك فقد قاموا بقتل الأنبياء بغير حق. وادعوا الكذب على أنبيائهم وقتلوهم، وفي شأنهم يقول الحق: ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ كان العصيان سبباً لأن تُضرب عليهم الذلة، وأن يبوءوا بغضب من الله، وأن تُضرب عليهم المسكنة، وكل ذلك ناشئ من فعلهم. وهناك فرق بين أن يبدأهم الله بفعل، وبين أن يعاقبهم الله على فعل، وحتى نفهم ذلك فلنقرأ قوله الحق:

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً ﴾

[النساء: 160]

لقد حرم الله عليهم الطيبات بظلم منهم لأنفسهم، لأن معنى تحريم الطيبات أن الله حرمهم متعة في طيب، وذلك لأنهم استحلوا متعة في غير طيب؛ لأن مرادات الشارع تأتي على عكس مرادات الخارجين عن أمر الشارع. وكما قلنا من قبل: إنّ الحق سبحانه وتعالى

يؤرخ للحق وللواقع ولا يشملهم كلهم بحديث يجمعهم جميعا ، فقد كان منهم أناس تراودهم فكرة الإيمان بالرسول ، وفكرة الإيمان بالقرآن ، ومنهم من آمن فعلا ؛ لذلك كان من عدل الله أن يفصل بين الذين يفكرون في الإيمان والمصرين على الكفر . لذلك يقول سبحانه : ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ . . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 1686.1682 ﴾

(229/127)

" فصل "

قال السيوطى :

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110) لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (111) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (112)

أخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والفريابي وأحمد والنسائي وابن جرير

وابن أبي حاتم وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه عن ابي عباس في قوله ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ قال : هم الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال : قال عمر بن الخطاب : لو شاء الله لقال : أنتم . فكنا كلنا ، ولكن قال ﴿ كنتم ﴾ في خاصة أصحاب محمد ، ومن صنع مثل صنيعهم كانوا ﴿ خير أمة أخرجت للناس ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي عمن حدثه عن عمر في قوله ﴿ كنتم خير أمة ﴾ قال : تكون لأوّلنا ، ولا تكون لآخرنا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة في الآية قال : نزلت في ابن مسعود ، وعمار بن يسار ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وأبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل .

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ الآية . ثم قال : يا أيها الناس من سرَّه أن يكون من تلكم الأمة فليؤدِّ شرط الله منها .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ يقول : على هذا الشرط : أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر ، وتؤمنوا بالله . يقول : لمن أنتم بين ظهرانيه كقوله ﴿ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴾ [الدخان : 32] .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد والبخاري والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم عن أبي هريرة في قوله ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ قال : خير الناس للناس ، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام .

وأخرج ابن المنذر من طريق عكرمة عن ابن عباس ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ قال : خير الناس للناس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب قال : لم تكن أمة أكثر استجابة في الإسلام من هذه الأمة ، فمن ثم قال ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأحمد والترمذي وحسنه وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه عن معاوية بن حيدة . أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ قال " إنكم تتمون سبعين أمة ، أنتم خيرها ، وأكرمها على الله " .

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال " ذكر لنا نبي الله صلى لله عليه وسلم قال ذات يوم وهو

مسند ظهره إلى الكعبة : نحن نكمل يوم القيامة سبعين أمة ، نحن آخرها وخيرها " .

وأخرج أحمد بسند حسن عن علي قال :

" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء : نصرت بالرعب ، وأعطيت مفاتيح الأرض ، وسميت أحمد ، وجعل التراب لي طهوراً ، وجعلت أمتي خير الأمم " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفر ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ قال : أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عطية في الآية قال : خير الناس للناس . شهدتم للنبيين الذين كذبهم قومهم بالبلاغ .

(231/127)

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في الآية قال : لم تكن أمة دخل فيها من أصناف الناس غير هذه الأمة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف ﴾ يقول : تأمرونهم أن يشهدوا

أن لا إله إلا الله ، والإقرار بما أنزل الله ويقاتلونهم عليه . ولا إله إلا الله هو أعظم المعروف ﴿ وتنهونهم عن المنكر ﴾ والمنكر هو التكذيب وهو أنكر المنكر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ منهم المؤمنون ﴾ قال : استثنى الله منهم ثلاثة كانوا على الهدى والحق .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وأكثرهم الفاسقون ﴾ قال : ذم الله أكثر الناس .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ لن يضروكم إلا أذى ﴾ قال : تسمعونه منهم .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج ﴿ لن يضروكم إلا أذى ﴾ قال : إشراكهم في عزير ، وعيسى ، والصليب .

وأخرج عن الحسن ﴿ لن يضروكم إلا أذى ﴾ قال : تسمعون من كذباً على الله ، يدعونكم إلى الضلالة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ضربت عليهم الذلة ﴾ قال : هم أصحاب القبالات .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ ضربت عليهم الذلة ﴾ قال : أذلهم الله فلا منعة لهم ، وجعلهم الله تحت أقدام المسلمين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن قال: أدركتهم هذه الأمة، وأن المجوس لتجتنيهم الجزية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن وقتادة ﴿ ضربت عليهم الذلة ﴾ قال: يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون.

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك ﴿ ضربت عليهم الذلة ﴾ قال: الجزية.

وأخرج ابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم من طريقين عن ابن عباس ﴿ إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾ قال: بعهد من الله وعهد من الناس.

(232/127)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ قال اجتنبوا المعصية والعدوان، فإن بهما هلك من هلك قبلكم من الناس.

انتهى انتهى. ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 2 صـ 293. 296 ﴾

(233/127)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة : ﴿ لَن تَنَالُواْ البر ﴾ الذي هو القرب من الله ﴿ حتى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ أي بعضه ، والإشارة به إلى النفس فإنها إذا أنفقت في سبيل الله زال الحجاب الأعظم وهان إنفاق كل بعدها ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْء فَإِنَّ الله بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : 92] فينبغي تحرّي ما يرضيه ، ويحكى عن بعضهم أنه قال : المنفقون على أقسام : فمنهم من ينفق على ملاحظة الجزاء والعوض ومنهم من ينفق على مراقبة رفع البلاء والمحن ومنهم من ينفق اكتفاءاً بعلمه ولله تعالى در من قال :

ويهتز للمعروف في طلب العلا . . .

لتذكر يوماً عند سلمى شمائله

(234/127)

﴿ كُلُّ الطعام كَانَ حِلاًّ لّبَنِى إسرائيل إِلاَّ مَا حَرَّمَ إسرائيل على نَفْسِهِ ﴾ [آل عمران : 93] قيل : فائدة الإخبار بذلك تعليم أهل المحبة أن يتركوا ما حبب إليهم من الأطعمة الشهية واللذائذ الدنيوية رغبة فيما عند الله تعالى ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾

وهو الكعبة التي هي من أعظم المظاهر له تعالى حتى قالوا : إنها للمحمديين كالشجرة لموسى عليه السلام ﴿ مُبَارَكاً ﴾ بما كساه من أنوار ذاته ﴿ وهدى ﴾ بما كساه من أنوار صفاته ﴿ للعالمين ﴾ [آل عمران : 96] على حسب استعدادهم ﴿ فِيهِ ءايات بينات مَّقَامُ إبراهيم ﴾ المشتمل على الرضا والتسليم والانبساط واليقين والمكاشفة والمشاهدة والخلة والفتوة أو المعرفة والتوحيد والفناء والبقاء والسكر والصحو ، أو جميع ذلك ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءامِناً ﴾ من غوائل نفسه لأنه مقام التمكين وتطبيق ذلك على ما في الأنفس أن البيت إشارة إلى القلب الحقيقي ، ويحمل ما ورد أن البيت أول ما ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والأرض وخلق قبل الأرض بألفي عام وكان زبدة بيضاء على وجه الماء فدحيت الأرض تحته على ذلك وظهوره على الماء حينئذٍ تعلقه بالنطفة عند خلق سماء الروح الحيوان وأرض البدن ، وخلقه قبل الأرض إشارة إلى قدمه وحدوث البدن ، وتقييد ذلك بألفي عام إشارة إلى تقدمه على البدن بطورين طور النفس وطور القلب تقدماً بالرتبة إذ الألف رتبة تامة ، وكونه زبدة بيضاء إشارة إلى صفاء جوهره ، ودحو الأرض تحته إشارة إلى تكون البدن من تأثيره وكون أشكاله وصور أعضائه تابعة لهيئاته ولا يخفى أن محل تعلق الروح بالبدن واتصال القلب الحقيقي به أولا هو القلب الصنوبري وهو أول ما يتكون من الأعضاء وأول عضو يتحرك وأخر عضو يسكن فيكون (

أول بيت وضع للناس للذي ببكة) الصدر صورة ، أو أول متعبد وضع لهم للقلب الحقيقي الذي هو ببكة الصدر المعنوي الذي هو أشرف مقام في

(235/127)

النفس وموضع ازدحام القوى إليه ، ومعنى كونه (مباركاً) أنه ذو بركة إلهية بسبب فيض الخير عليه ، وكونه (هدى) أنه يهتدي به إلى الله تعالى والآيات التي فيه هي العلوم والمعارف والحكم والحقائق ، و(مقام إبراهيم) إشارة إلى العقل الذي هو مقام قدم إبراهيم الروح يعني محل اتصال نوره من القلب ولا شك أن من دخل ذلك (كان آمناً) من أعداء سعالى المتخيلة وعفاريت أحاديث النفس واختطاف شياطين الوهم وجن الخيالات واغتيال سباع القوى النفسانية وصفاتها

﴿ وَللّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ (آل عمران : 97) وهم أهل معرفته عز شأنه ، وأما الجاهلون به فلا قاموا ولا قعدوا ، يحكى عن بعضهم أنه قال : قلت للشبلي : إني حججت فقال : كيف فعلت ؟ فقلت : اغتسلت وأحرمت وصليت ركعتين ولبيت فقال لي : عقدت به الحج ؟ فقلت : نعم قال : فسخت بعقدك كل عقد

عقدت منذ خلقت مما يضاد هذا العقد ؟ قلت : لا قال : فما عقدت ، ثم قال نزعت ثيابك ؟ قلت : نعم قال : تجردت عن كل فعل فعلت ؟ قلت : لا قال : ما نزعت ، فقال .

(236/127)

تطهرت ؟ قال : نعم قال : أزلت عنك كل علة ؟ فقلت : لا قال فما تطهرت ، قال لبيت ؟ قلت : نعم قال : وجدت جواب التلبية مثلاً بمثل ؟ قلت : لا قال : ما لبيت ، قال دخلت الحرم ؟ قلت : نعم قال : اعتقدت بدخولك ترك كل محرم ؟ قلت : لا قال : ما دخلت ، قال : أشرفت على مكة ؟ قلت : نعم قال : أشرف عليك حال من الله تعالى ؟ قلت لا قال : ما أشرفت ، قال : دخلت المسجد الحرام ؟ قلت : نعم قال : دخلت الحضرة ؟ قلت : لا قال : ما دخلت المسجد الحرام ، قال : رأيت الكعبة ؟ قلت : نعم قال : رأيت ما قصدت له ؟ قلت : لا قال ما رأيت الكعبة ، قال رملت وسعيت ؟ قلت : نعم قال : هربت من الدنيا ووجدت أمناً مما هربت ؟ قلت : لا قال : ما فعلت شيئاً ، قال : صافحت الحجر ؟ قلت : نعم قال : من صافح الحجر فقد صافح الحق ومن صافح الحق ظهر عليه أثر الأمن أفظهر عليك ذلك ؟ قلت : لا قال : ما صافحت ؛ قال : أصليت ركعتين بعد ؟ قلت : نعم قال : أوجدت نفسك بين يدي الله تعالى ؟ قلت : لا قال : ما صليت .

قال : خرجت إلى الصفا ؟ قلت : نعم قال : أكبرت ؟ قلت : نعم فقال : أصفا سرك وصغرت في عينك الأكوان ؟ قلت : لا قال : ما خرجت ولا كبرت .

(237/127)

قال : هرولت في سعيك ؟ قلت : نعم قال : هربت منه إليه ؟ قلت : لا قال : ما هرولت ، قال : وقفت على المروة ؟ قلت : نعم قال : رأيت نزول السكينة عليك وأنت عليها : قلت لا قال : ما وقفت على المروة ، قال : خرجت إلى منى ؟ قلت : نعم قال : أعطيت ما تمنيت ؟ قلت : لا قال : ما خرجت ، قال : دخلت مسجد الخيف ؟ قلت : نعم قال : تجدد لك خوف ؟ قلت : لا قال : ما دخلت ، قال : مضيت إلى عرفات ؟ قلت : نعم قال : عرفت الحال الذي خلقت له والحال الذي تصير إليه ؟ وهل عرفت من ربك ما كنت منكراً له ؟ وهل تعرف الحق إليك بشيء ؟ قلت : لا قال : ما مضيت ، قال : نفرت إلى المشعر الحرام ؟ قلت : نعم قال : ذكرت الله تعالى فيه ذكراً أنساك ذكر ما سواه ؟ قلت لا قال : ما نفرت ، قال : ذبحت ؟ قلت : نعم قال : أفنيت شهواتك وإراداتك في رضاء الحق ؟ قلت : لا قال : ما ذبحت ، قال : رميت ؟ قلت : نعم قال : رميت جهلك منك بزيادة علم ظهر عليك ؟ قلت : لا قال : ما رميت ، قال : زرت ؟ قلت : نعم قال :

كوشفت عن الحقائق ؟ قلت : لا قال : ما زرت ، قال : أحللت ؟ قلت : نعم قال : عزمت على الأكل من الحلال قدر ما تحفظ به نفسك ؟ قلت : لا قال : ما أحللت ، قال : ودعت ؟ قلت نعم قال : خرجت من نفسك وروحك بالكلية ؟ قلت : لا قال : ما ودعت ولا حججت وعليك العود إن أحببت وإذا حججت فاجتهد أن تكون كما وصفت لك انتهى .

(238/127)

فهذا الذي ذكره الشبلي هو الحج الذي يستأهل أن يقال له حج ، ولله تعالى عباد أهّلهمْ لذلك وأقدرهم على السلوك في ها تيك المسالك فحجهم في الحقيقة منه إليه وله فيه فمطافهم حظائر القربة على بساط الحشمة وموقفهم عرفة العرفان على ساق الخدمة ليس لهم غرض في الجدران والأحجار وهيهات هيهات ما غرض المجنون من الديار إلا الديار ، ومن كفر وأعرض عن المولى بهوى النفس ﴿ فإن الله غني عن العالمين ﴾ [آل عمران : 97] فهو سبحانه غني عنه لا يلتفت إليه ﴿ قُلْ يا أهل أَهْلِ الكتاب لَمَن تَكْفُرُونَ بئيات الله ﴾ الدالة على توحيده ﴿ والله شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران : 98] إذ هو أقرب من حبل الوريد ﴿ قُلْ يا أهل أَهْلِ الكتاب لَمَن تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ بالإنكار

على المؤمنين ﴿ مَنْ ءامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ بإيراد الشبه الباطلة ﴿ وَأَنْتُمْ شُهَدَاء ﴾ عالمون بأنها حق لا اعوجاج فيها ﴿ وَمَا اللهُ بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران : 99] فيجازيكم به ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ الإيمان الحقيقي ﴿ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ خوفاً من إنكارهم ما أنتم عليه من الحقيقة والطريق الموصل إليه سبحانه ﴿ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمانكم ﴾ الراسخ فيكم ﴿ كافرين ﴾ [آل عمران : 100] لأن إنكار الحقيقة كفر كإنكار الشريعة ،

(239/127)

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بالله فَقَدْ هُدِىَ إلى صراط مّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران : 101] أي من يعتصم به منه فقد اهتدى إليه به ، قال الواسطي : ومن زعم أنه يعتصم به من غيره فقد جهل عظمة الربوبية ، وحقيقة الاعتصام عند بعضهم انجذاب القلب عن الأسباب التي هي الأصنام المعنوية والتبري إلى الله تعالى من الحول والقوة ، وقيل : الاعتصام للمحبين هو اللجأ بطرح السوي ، ولأهل الحقائق رفع الاعتصام لمشاهدتهم أنهم في القبضة ﴿ مّسْتَقِيمٍ يا أيها الذين ءامَنُواْ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ بصون العهود وحفظ الحدود والخمود تحت جريان القضاء بنعت الرضا ، وقيل : حق التقوى عدم رؤية التقوى ﴿ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم

مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : 102] أي لا تموتن إلا على حال إسلام الوجود له أي ليكن
موتكم هو الفناء في التوحيد ﴿ واعتصموا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً ﴾ [آل عمران : 103]
وهو عهده الذي أخذه على العباد يوم ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : 172] ﴿ وَلاَ
تَفَرَّقُواْ ﴾ باختلاف الأهواء ﴿ واذكروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ بالهداية إلى معالم التوحيد
المفيد للمحبة في القلوب ﴿ إِذْ كُنتُم أَعْدَاءً ﴾ لاحتجابكم بالحجب النفسانية والغواشي
الطبيعية ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ بالتحاب في الله تعالى لتنورها بنوره ﴿ فَأَصْبَحْتُم
بِنِعْمَتِهِ ﴾ عليكم ﴿ إِخْوَاناً ﴾ في الدين ﴿ وَكُنتُمْ على شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النار ﴾ وهي
مهوى الطبيعة الفاسقة وجهنم الحرمان ﴿ فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا ﴾ [آل عمران : 103]
بالتواصل الحقيقي بينكم إلى سدرة مقام الروح وروح جنة الذات ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾
كالعلماء العارفين أرباب الاستقامة في الدين ﴿ يَدْعُونَ إِلَى الخير ﴾ أي يرشدون الناس
إلى الكمال المطلق من معرفة الحق تعالى والوصول إليه ﴿ وَيَأْمُرُونَ بالمعروف ﴾ المقرب
إلى الله تعالى ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ﴾

المبعد عنه تعالى ﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ [آل عمران : 104] الذين لم يبق لهم حجاب وهم خلفاء الله تعالى في أرضه ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كالذين تَفَرَّقُوا۟ ﴾ واتبعوا الأهواء والبدع ﴿ واختلفوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البينات ﴾ الحجج العقلية والشرعية الموجبة للاتحاد واتفاق الكلمة ﴿ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : 105] وهو عذاب الحرمان من الحضرة ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ قالوا : ابيضاض الوجه عبارة عن تنور وجه القلب بنور الحق المتوجه إليه والإعراض عن الجهة السفلية النفسانية المظلمة ولا يكون ذلك إلا بالتوحيد واسوداده ظلمة وجه القلب بالإقبال على النفس الطالبة لحظوظها والإعراض عن الجهة العلوية النورانية ﴿ فَأَمَّا الذين اسودت وُجُوهُهُمْ ﴾ فيقال لهم ﴿ أَكْفَرْتُمْ ﴾ أي احتجبتم عن الحق بصفات النفس ﴿ بَعْدَ إيمانكم ﴾ أي تنوركم بنور الاستعداد وصفاء الفطرة وهداية العقل ﴿ فَذُوقُوا۟ العذاب ﴾ وهو عذاب الاحتجاب عن الحق ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران : 106] به ﴿ وَأَمَّا الذين ابيضت وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ الله ﴾ الخاصة التي هي شهود الجمال ﴿ هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ [آل عمران : 107] باقون بعد الفناء ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ ﴾ من مكامن الأزل ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ أي لنفعهم ﴿ تَأْمُرُونَ بالمعروف ﴾ الموصل إلى مقام التوحيد ﴿ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ﴾ وهو القول بتحقق الكثرة على الحقيقة ﴿ وَلَوْ ءامَنَ أَهْلُ الكتاب ﴾ كإيمانكم ﴿ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ مما هم عليه ﴿ مّنْهُمُ المؤمنون ﴾ كإيمانكم ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ

الفاسقون ﴾ [آل عمران : 110] الخارجون عن حرم الحق ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى ﴾
وهو الإنكار عليكم بالقول ﴿ وَإِن يقاتلوكم ﴾ ولم يكتفوا بذلك الإيذاء ﴿ يُوَلُّوكُمُ الادبار
﴾ ولا ينالون منكم شيئاً لقوة بواطنكم وضعفهم ﴿ ثُمَّ

(241/127)

لاَ يُنصَرُونَ ﴾ [آل عمران : 111] لا ينصرهم أحد أصلاً بل يبقون مخذولين لعدم ظهور
أنوار الحق عليهم ، والله تعالى الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 30 .
33 ﴾

(242/127)

قوله تعالى ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ
يَسْجُدُونَ (113) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (115) ﴾

مناسبة الآيات لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان السياق ربما أفهم أنهم كلهم كذلك قال مستأنفاً نافياً لذلك : ﴿ ليسوا سوآء ﴾ أي في هذه الأفعال ، يثني سبحانه وتعالى على من أقبل على الحق منهم وخلع الباطل ولم يراع سلفاً ولا خلفاً بعيداً ولا قريباً .

ثم استأنف قوله بياناً لعدم استوائهم : ﴿ من أهل الكتاب ﴾ فأظهر لئلا يتوهم عود الضمير على خصوص من حكم بتكفيرهم ﴿ أمة ﴾ أي جماعة يحق لها أن تؤم ﴿ قائمة ﴾ أي مستقيمة على ما أتاها به نبيها في الثبات على ما شرعه ، متهيئة بالقيام للانتقال عنه عند مجيء الناسخ الذي بشر به ووصفه .

غير زائغة بالإيمان ببعضه والكفر ببعضه .

ثم ذكر الحامل على الاستقامة فقال : ﴿ يتلون ﴾ أي يتعابعون مستمرين ﴿ آيات الله ﴾ أي علامات ذي الجلال والإكرام المنزلة الباهرة التي لا لبس فيها ﴿ آناء الليل ﴾ أي ساعاته ﴿ وهم يسجدون ﴾ أي يصلون في غاية الخضوع .

ثم ذكر ما أثمر لهم التهجد فقال : ﴿ يؤمنون ﴾ وكرر الاسم الأعظم إشارة إلى استحضارهم لعظمته فقال : ﴿ بالله ﴾ أي الذي له من الجلال وتناهي الكمال ما حير العقول .

وأتبعه اليوم الذي تظهر فيه عظمته كلها ، لأنه الحامل على كل خير فقال : ﴿ واليوم الآخر ﴾ أي إيماناً يعرف أنه حق بتصديقهم له بالعمل الصالح بما يرد عليهم من المعارف التي ما لها من نفاد ، فيتجدد تهجدهم فتثبت استقامتهم .

ولما وصفهم بالاستقامة في أنفسهم وصفهم بأنهم يقوّمون غيرهم فقال :

﴿ ويأمرون بالمعروف ﴾ أي مجددين ذلك مستمرين عليه ﴿ وينهون عن المنكر ﴾ لذلك ، ولما ذكر فعلهم للخير ذكر نشاطهم في جميع أنواعه فقال : ﴿ ويسارعون في الخيرات ﴾

ولما كان التقدير : فأولئك من المستقيمين ، عطف عليه : ﴿ وأولئك ﴾ أي العالو الرتبة ﴿ من الصالحين ﴾ إشارة إلى أن من لم يستقم لم يصلح لشيء ، وأرشد السياق إلى أن التقدير : وأكثرهم ليسوا بهذه الصفات .

ولما كان التقدير : فما فعلوا من خير فهو بعين الله سبحانه وتعالى ، يشكره لهم ، عطف عليه قوله : ﴿ وما تفعلوا ﴾ أي أنتم ﴿ من خير ﴾ من إنفاق أو غيره ﴿ فلن تكفروه ﴾ بل هو مشكور لكم بسبب فعلكم ، وبني للمجهول تأدباً معه سبحانه وتعالى ، وليكون على طريق المتكبرين .

وعطف على ما تقديره : فإن الله عليم بكل ما يفعله الفاعلون ، قوله : ﴿ والله ﴾ أي المحيط بكل شيء ﴿ عليم بالمتقين ﴾ من الفاعلين الذين كانت التقوى حاملة لهم على كل خير ، فهو يثيبهم أعظم الثواب ، ويغيرهم فهو يعاقبهم بما يريد من العقاب ، هذا على قراءة الخطاب ، وأما على قراءة الغيبة فأمرها واضح في نظمها بما قلته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 138 . 139 ﴾

(244/127)

اللغة :

[آناء] أوقات وساعات مفردها " إنى " على وزن " معى "

[يكفروه] يجحدوه من الكفر بمعنى الجحود ، سمي منع الجزاء كفرا لأنه بمنزلة الجحد والستر

[صر] الصر : البرد الشديد ، قاله ابن عباس ، وأصله من الصرير الذي هو الصوت ، ويراد به الريح الشديدة الباردة

[حرث] زرع وأصله من حرث الأرض إذا شقها للزرع والبذر

[بطانة] بطانة الرجل : خاصته الذين يفضي إليهم باسراره ، شبه ببطانة الثوب لأنه يلي

البدن

[لا يألونكم] اى لا يقصرون، قال الزمخشري: يقال: الأ في الأمر يألو إذا قصر فيه

[خبالا] الخبال: الفساد والنقصان، ومنه رجل مخبول إذا كان ناقص العقل

[عنتم] العنت: شدة الضرر والمشقة

[الأنامل] اطراف الأصابع. انتهى انتهى. اهـ ﴿صفوة التفاسير حـ 1 صـ 223. 224﴾

(245/127)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله:

القراءات: ﴿ويسارعون﴾ وبابه ﴿سارعوا﴾ [آل عمران: 133] و ﴿نسارع﴾ [المؤمنون: 56] ممالة: قتيبة وأبو عمرو طريق بن عبدوس. ﴿ما يفعلوا﴾ ﴿فلن يكفروه﴾ بياء الغيبة: حمزة وعلي وخلف وحفص أبو عمرو مخير. الباقون: بتاء الخطاب ﴿تسؤهم﴾ وبابه من كل همزة مجزومة بغير همزة: الأعشى وأوقية، والأصفهاني عن ورش وحمزة في الوقف ﴿لا يضركم﴾ من الضير: أبو عمرو وسهل

ويعقوب وابن كثير ونافع . وقرأ المفضل ﴿ لا يضركم ﴾ بالفتح الباقون : ﴿ لا يضركم ﴾ بالضم كلاهما من الضر مجزوماً ثم محركاً للساكنين فالفتح للخفة والضم للإتباع ﴿ تعملون محيط ﴾ بتاء الخطاب : سهل . الباقون : بياء الغيبة .

الوقوف : ﴿ المسكنة ﴾ ط ﴿ بغير حق ﴾ ط ﴿ يعتدون ﴾ ه قيل : لا وقف عليه لأن ضمير ﴿ ليسوا ﴾ يعود إلى ما يعود إليه ضمير ﴿ منهم المؤمنون ﴾ لبيان الفصل بين الفريقين ، والذين عصوا واعتدوا أحد الفريقين ﴿ سواء ﴾ ط ﴿ يسجدون ﴾ ه قيل : لا وقف على جعل ﴿ يؤمنون ﴾ حالاً لضمير ﴿ يسجدون ﴾ ولا يصح بل الإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أوصاف لهم مطلقة غير مختصة بحال السجود ﴿ الخيرات ﴾ ط ﴿ الصالحين ﴾ ه ﴿ يكفروه ﴾ ط ﴿ المتقين ﴾ 5 ﴿ شيئاً ﴾ ط ﴿ النار ﴾ ج ﴿ خالدون ﴾ 5 ﴿ فأهلكته ﴾ ط ﴿ يظلمون ﴾ ج ﴿ خبالاً ﴾ ط ﴿ ما عنتم ﴾ ج لاحتمال كون قد بدت حالا ﴿ أكبر ﴾ ط ﴿ تعقلون ﴾ ه ﴿ كله ﴾ ج للعطف مع الحذف أي وهم لا يؤمنون بكتابكم ﴿ آمنا ﴾ ق قد قيل : والوصل أولى لأن المقصود بيان تناقض حاليهم في النفاق ﴿ من الغيظ ﴾ ط ﴿ يغيظكم ﴾ ط ﴿ الصدور ﴾ ه ﴿ تسؤهم ﴾ ز للابتداء بشرط آخر والوصل أجوز إذ الغرض تقرير تضاد الحالين منهم . ﴿ يفرحوا بها ﴾ ط لتناهي وصف الذم لهم وابتداء شرط على المؤمنين

﴿ شيئاً ﴾ ط ﴿ محيط ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 2 صـ 237 . 238 ﴾

(246/127)

فصل

قال الفخر :

اعلم أن في قوله ﴿ لَيْسُواْ سَوَاء ﴾ قولين أحدهما : أن قوله ﴿ لَيْسُواْ سَوَاء ﴾ كلام تام ، وقوله ﴿ مّنْ أَهْلِ الكتاب أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ كلام مستأنف لبيان قوله ﴿ لَيْسُواْ سَوَاء ﴾ كما وقع قوله ﴿ تَأْمُرُونَ بالمعروف ﴾ [آل عمران : 110] بياناً لقوله ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ [آل عمران : 110] والمعنى أن أهل الكتاب الذين سبق ذكرهم ليسوا سواء ، وهو تقرير لما تقدم من قوله ﴿ مّنْهُمُ المؤمنون وَأَكْثَرُهُمُ الفاسقون ﴾ ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ مّنْ أَهْلِ الكتاب أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ وعلى هذا القول احتمالان أحدهما : أنه لما قال : ﴿ مّنْ أَهْلِ الكتاب أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ كان تمام الكلام أن يقال : ومنهم أمة مذمومة ، إلا أنه أضمر ذكر الأمة المذمومة على مذهب العرب من أن ذكر أحد الضدين يغني عن ذكر الضد الآخر وتحقيقه أن الضدين يعلمان معاً ، فذكر أحدهما يستقل بإفادة العلم بهما ، فلا جرم يحسن إهمال الضد

الآخر .

قال أبو ذؤيب :

دعاني إليها القلب إني لامرؤ . . مطيع فلا أدري أرشد طلابها

أراد (أم غي) فاكتفى بذكر الرشد عن ذكر الغي ، وهذا قول الفراء وابن الأنباري ، وقال الزجاج : لا حاجة إلى إضمار الأمة المذمومة ، لأن ذكر الأمة المذمومة قد جرى فيما قبل هذه الآيات فلا حاجة إلى إضمارها مرة أخرى ، لأنا قد ذكرنا أنه لما كان العلم بالضدين معاً كان ذكر أحدهما مغنياً عن ذكر الآخر ، وهذا كما يقال زيد وعبد الله لا يستويان زيد عاقل دّين زكي ، فيغني هذا عن أن يقال : وعبد الله ليس كذلك ، فكذا ههنا لما تقدم قوله ﴿ لَيْسُواْ سَوَاء ﴾ أغنى ذلك عن الإضمار .

(247/127)

والقول الثاني : أن قوله ﴿ لَيْسُواْ سَوَاء ﴾ كلام غير تام ولا يجوز الوقف عنده ، بل هو متعلق بما بعده ، والتقدير : ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة وأمة مذمومة ، فأمة رفع بليس وإنما قيل ﴿ لَّيْسُواْ ﴾ على مذهب من يقول : أكلوني البراغيث ، وعلى هذا التقدير لا بد من إضمار الأمة المذمومة وهو اختيار أبي عبيدة إلا أن أكثر النحويين أنكروا هذا

القول لاتفاق الأكثرين على أن قوله أكلوني البراغيث وأمثالها لغة ركيكة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 163 ﴾

فصل

قال الآلوسى

﴿ لَيْسُواْ سَوَاء ﴾ أخرج ابن إسحق والطبراني والبيهقي وغيرهم عن ابن عباس قال : لما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن شعبة وأسيد بن شعبة وأسيد بن عبيد ومن أسلم من يهود معهم فآمنوا وصدقوا ورغبوا في الإسلام قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم : ما آمن بمحمد وتبعه إلا أشرارنا ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره فأنزل الله تعالى في ذلك ﴿ لَيْسُواْ سَوَاء ﴾ إلى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصالحين ﴾ (آل عمران ؛ 114) والجملة على ما قاله مولانا شيخ الإسلام تمهيد لتعداد محاسن مؤمني أهل الكتاب ، وضمير الجمع لأهل الكتاب جميعاً لا للفاسقين (منهم) خاصة وهو اسم ليس وسواء خبره ، وإنما أفرد لكونه في الأصل مصدراً والوقف هنا تام على الصحيح والمراد بنفي المساواة نفي المشاركة في أصل الاتصاف بالقبائح المذكورة لا نفي المساواة في الاتصاف بمراتبها مع تحقق المشاركة في أصل الاتصاف ومثله كثير في الكلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 33 ﴾

فصل

قال الفخر :

في المراد بأهل الكتاب قولان

(248/127)

الأول : وعليه الجمهور : أن المراد منه الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام ، روي أنه لما أسلم عبد الله بن سلاّم وأصحابه قال لهم بعض كبار اليهود : لقد كفرتم وخسرتم ، فأنزل الله تعالى لبيان فضلهم هذه الآية ، وقيل : إنه تعالى لما وصف أهل الكتاب في الآية المتقدمة بالصفات المذمومة ذكر هذه الآية لبيان أن كل أهل الكتاب ليسوا كذلك ، بل فيهم من يكون موصوفاً بالصفات الحميدة والخصال المرضية ، قال الثوري : بلغني أنها نزلت في قوم كانوا يصلون ما بين المغرب والعشاء ، وعن عطاء : أنها نزلت في أربعين من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثلاثة من الروم كانوا على دين عيسى وصدقوا بمحمد عليه الصلاة والسلام .

(249/127)

والقول الثاني : أن يكون المراد بأهل الكتاب كل من أوتي الكتاب من أهل الأديان ، وعلى هذا القول يكون المسلمون من جملتهم ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر : 32] ومما يدل على هذا ما روى ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم أخر صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد ، فإذا الناس ينتظرون الصلاة ، فقال : " أما إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله تعالى هذه الساعة غيركم " وقرأ هذه الآية ، قال القفال رحمه الله : ولا يبعد أن يقال : أولئك الحاضرون كانوا نفراً من مؤمني أهل الكتاب ، فقيل ليس يستوي من أهل الكتاب هؤلاء الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم فأقاموا صلاة العتمة في الساعة التي ينام فيها غيرهم من أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا ، ولم يبعد أيضاً أن يقال : المراد كل من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فسماهم الله بأهل الكتاب ، كأنه قيل : أولئك الذين سموا أنفسهم بأهل الكتاب حالهم وصفتهم تلك الخصال الذميمة والمسلمون الذين سماهم الله بأهل الكتاب حالهم وصفتهم هكذا ، يستويان ؟ فيكون الغرض من هذه الآية تقرير فضيلة أهل الإسلام تأكيداً لما تقدم من قوله ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ [آل عمران : 110] وهو كقوله ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾ [السجدة : 18] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 164 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ مِّنْ أَهْلِ الكتاب أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ﴾ استئناف مبين لكيفية عدم التساوي ومزيل لما فيه من الإبهام ، وقال أبو عبيدة : إنه مع الأول كلام واحد ، وجعل أمة اسم ليس والخبر سواء فهو على حد أكلوني البراغيث ، وقيل : أمة مرفوع بسواء وضعف كلا القولين ظاهر ، ووضع ﴿ أَهْلِ الكتاب ﴾ موضع الضمير زيادة في تشريفهم والاعتناء بهم والقائمة من قام اللازم بمعنى استقام أي : أمة مستقيمة على طاعة الله تعالى ثابتة على أمره لم تنزع عنه وتتركه كما تركه الآخرون وضيعوه ، وحكي عن ابن عباس وغيره ، وزعم الزجاج أن الكلام على حذف مضاف والتقدير ذو أمة قائمة أي ذو طريقة مستقيمة ، وفيه أنه عدول عن الظاهر من غير دليل . والمراد من هذه الأمة من تقدم في سبب النزول ، وجعل بعضهم أهل الكتاب عاماً لليهود والنصارى وعد من الأمة المذكورة نحو النجاشي وأصحابه ممن أسلم من النصارى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 33 ﴾

فصل

قال ابن عاشور :

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾

استئناف قصد به إنصاف طائفة من أهل الكتاب ، بعد الحكم على معظمهم بصيغة تعمّهم

، تأكيداً لِما أفاده قولُه ﴿ منهم المؤمنون وأكثرُهم الفاسقون ﴾ [آل عمران : 110]

فالضمير في قوله ﴿ ليسوا ﴾ لأهل الكتاب المتحدّث عنهم آنفاً ، وهم اليهود ، وهذه الجملة تتنزّل من التي بعدها منزلة التمهيد .

و(سواء) اسم بمعنى المماثل وأصله مصدر مشتق من التسوية .

وجملة ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة الخ . . .

مبيّنة لإبهام ليسوا سواء ﴾ والإظهار في مقام الإضمار للاهتمام بهؤلاء الأمة ، فالأمّة هنا بمعنى الفريق .

(251/127)

وإطلاق أهل الكتاب عليهم مجاز باعتبار ما كان كقوله تعالى : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ﴾ [النساء : 2] لأنهم صاروا من المسلمين .

وعدل عن أن يقال : منهم أمّة قائمة إلى قوله من أهل الكتاب : ليكون ذا الثناء شاملاً لصالحي اليهود ، وصالحي النّصارى ، فلا يختصّ بصالحي اليهود ، فإن صالحي اليهود قبل بعثة عيسى كانوا متمسّكين بدينهم ، مستقيمين عليه ، ومنهم الّذين آمنوا بعيسى واتّبعوه ، وكذلك صالحو النّصارى قبل بعثة محمّد صلى الله عليه وسلم كانوا مستقيمين على شريعة

عيسى وكثير منهم أهل تهجّد في الأديرة والصّوامع وقد صاروا مسلمين بعد البعثة المحمدية .

والأمّة : الطائفة والجماعة .

ومعنى قائمة أنه تمثيل للعمل بدينها على الوجه الحقّ ، كما يقال : سوق قائمة وشريعة قائمة .

والآناء أصله أأْناء بهمزتين بوزن أفعال ، وهو جمع إنى بكسر الهمزة وفتح النُّون مقصوراً ويقال أنى بفتح الهمزة قال تعالى : ﴿ غير ناظرين إنَاه ﴾ [الأحزاب : 53] أي منتظرين وقته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 195 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى مدح الأمة المذكورة في هذه الآية بصفات ثمانية .

الصفة الأولى : أنها قائمة وفيها أقوال

الأول : أنها قائمة في الصلاة يتلون آيات الله آناء الليل فعبّر عن تهجدهم بتلاوة القرآن في ساعات الليل وهو كقوله ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وقياما ﴾ [الفرقان : 64] وقوله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدنى مِن ثُلُثَىِ الليل ﴾ [المزمل : 20] وقوله ﴿ قُمِ الليل ﴾ [المزمل : 2] وقوله ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قانتين ﴾ [البقرة : 238] والذي يدل على أن المراد من

هذا القيام في الصلاة قوله ﴿ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ والظاهر أن السجدة لا تكون إلا في الصلاة.

(252/127)

والقول الثاني: في تفسير كونها قائمة: أنها ثابتة على التمسك بالدين الحق ملازمة له غير مضطربة في التمسك به كقوله ﴿ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ [آل عمران: 75] أي ملازماً للاقتضاء ثابتاً على المطالبة مستقصياً فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿ قَائِمًا بالقسط ﴾ [آل عمران: 18].

وأقول: إن هذه الآية دلّت على كون المسلم قائماً بحق العبودية وقوله ﴿ قَائِمًا بالقسط ﴾ يدل على أن المولى قائم بحق الربوبية في العدل والإحسان فتمت المعاهدة بفضل الله تعالى كما قال: ﴿ أَوْفُواْ بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [البقرة: 40] وهذا قول الحسن البصري، واحتج عليه بما روي أن عمر بن الخطاب قال يا رسول الله: إن أناساً من أهل الكتاب يحدثوننا بما يعجبنا فلو كتبناه، فغضب صلى الله عليه وسلم وقال: "أمتهوكون أنتم يا ابن الخطاب كما تهوكت اليهود"، قال الحسن: متحيرون مترددون "أما والذي نفسي بيده لقد أتيتكم بها بيضاء نقية" وفي رواية أخرى قال عند ذلك: "إنكم لم تكلفوا أن تعملوا بما

في التوراة والإنجيل وإنما أمرتم أن تؤمنوا بهما وتفوضوا علمهما إلى الله تعالى ، وكلفتم أن تؤمنوا بما أنزل علي في هذا الوحي غدوةً وعشياً والذي نفس محمد بيده لو أدركني إبراهيم وموسى وعيسى لآمنوا بي واتبعوني " فهذا الخبر يدل على أن الثبات على هذا الدين واجب وعدم التعلق بغيره واجب ، فلا جرم مدحهم الله في هذه الآية بذلك فقال : ﴿ مِّنْ أَهْلِ الكتاب أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ .

القول الثالث : ﴿ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ أي مستقيمة عادلة من قولك : أقمت العود فقام بمعنى استقام ، وهذا كالتقرير لقوله ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 164.165 ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَتْلُونَ ءايات الله ءَانَاء الليل ﴾

قال الفخر :

(253/127)

آيات الله قد يراد بها آيات القرآن ، وقد يراد بها أصناف مخلوقاته التي هي دالة على ذاته وصفاته والمراد ههنا الأولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 165 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾

فصل

قال الفخر :

الصفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ وفيه وجوه

الأول : يحتمل أن يكون حالاً من التلاوة كأنهم يقرؤن القرآن في السجدة مبالغة في الخضوع والخشوع إلا أن القفال رحمه الله روى في "تفسيره" حديثاً : أن ذلك غير جائز ، وهو قوله عليه السلام : " ألا إني نهيت أن أقرأ راكعاً أو ساجداً "

الثاني : يحتمل أن يكون كلاماً مستقلاً والمعنى أنهم يقومون تارة يبتغون الفضل والرحمة بأنواع ما يكون في الصلاة من الخضوع لله تعالى وهو كقوله ﴿ وَالَّذِينَ يِبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وقياما ﴾ [الفرقان : 64] وقوله ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاء الليل ساجدا وَقَائِماً يَحْذَرُ الأخرة وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبّهِ ﴾ [الزمر : 9] قال الحسن : يريح رأسه بقدميه وقدميه برأسه ، وهذا على معنى إرادة الراحة وإزالة التعب وإحداث النشاط

الثالث : يحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ أنهم يصلون وصفهم بالتهجد بالليل والصلاة تسمى سجوداً وسجدة وركوعاً وركعة وتسبيحاً وتسبيحة ، قال تعالى : ﴿ واركعوا مَعَ الراكعين ﴾ [البقرة : 43] أي صلوا وقال : ﴿ فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم : 17] والمراد الصلاة

الرابع : يحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ أي يخضعون ويخشعون لله لأن

العرب تسمي الخشوع سجوداً كقوله ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ [النحل : 49] وكل هذه الوجوه ذكرها القفال رحمه الله. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 165 ﴾

(254/127)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

الظاهر في هذه أنّ الوقف على " سَوَاءً " تام ؛ فإن الواو اسم " ليس " و" سواء " خبر ، والواو تعود على أهل الكتاب المتقدم ذكرهم .

ولا معنى : أنهم منقسمون إلى مؤمن وكافر ؛ لقوله : ﴿ مِّنْهُمُ المؤمنون وَأَكْثَرُهُمُ الفاسقون ﴾ [آل عمران : 110] ، فانتفى استواؤهم .

و" سواء " - في الأصل - مصدر ، ولذلك وُحِّدَ ، وقد تقدم تحقيقه أول البقرة .

قال أبو عبيدة : الواو في " لَيْسُوا " علامة جمع ، وليست ضميراً ، واسم " ليس " - على هذا - " أمة " و" قَائِمَةٌ " صفتها ، وكذا " يَتْلُونَ " ، وهذا على لغة " أكلوني البراغيث " .

كقول الآخر : [المتقارب]

يَلُومونَنِي فِي اشْتِرَاءِ النَّخِي . . . لِ أَهْلِي ، فَكُلُّهُمْ بعَذْلِ أُلُومُ

قالوا : وهي لغة ضعيفة ، ونازع السُّهَيْلِيّ النحويين في كونها ضعيفةً ، ونسبها بعضُهم إلى شنوءة ، وكثيراً ما جاء عليها الحديث ، وفي القرآن مثلُها . وسيأتي تحقيقها في المائدة .

قال ابنُ عطية : وما قاله أبو أبو عبيدةَ خطأٌ مردودٌ ، ولم يبيّن وَجْهَ الخطأ ، وكأنه توهم أن اسم "ليس" هو ﴿ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ﴾ فقط ، وأنه لا محذوفَ ثَمَّ ؛ إذ ليس الغرض تفاوت الأمة القائمة التالية ، فإذا قُدِّر – ثَمَّ – محذوف لم يكن قول أبي عبيدةَ خطأً مردوداً إلا أن بعضهم رد قوله بأنها لغة ضعيفة وقد تقدم ما فيها . والتقدير الذي يصح به المعنى : أي : ليس سواء من أهل الكتاب أمة قائمة ، موصوفة بما ذُكِرَ ، وأمة كافرة ، فبهذا التقدير يصح به المعنى الذي نحا إليه أبو عُبَيْدَةَ .

(255/127)

وقال الفرّاءُ : إن الوقفَ لا يتم على "سَوَاءً" فجعل الواو اسم "ليس" ، و"سَوَاءً" خبرها – كما قال الجمهور – و"أمّةٌ" مرتفعة بـ "سَوَاءً" ارتفاع الفاعل ، أي : ليس أهل الكتاب مستوياً ، من أهل الكتاب أمة قائمة ، موصوفة بما ذُكِر ، وأمة كافرة ، فبهذا التقدير يصح به المعنى الذي نحا إليه أبو عُبَيْدَةَ .

وقال الفرّاءُ : إن الوقفَ لا يتم على " سَوَاءً " فجعل الواو اسم " ليس " ، و" سَوَاءً " خبرها - كما قال الجمهور - و" أمَّةٌ " مرتفعة بـ " سَوَاءً " ارتفاع الفاعل ، أي : ليس أهل الكتاب مستوياً ، من أهل الكتاب أمة قائمة ، موصوفة بما ذُكِر ، وأمة كافرة ، فحُذِفَت هذه الجملةُ المعادلة ؛ لدلالة القسم الأول عليها ؛ فإن مذهب العرب إذا ذُكِرَ أحد الضدين ، أغْنَى عن ذِكرِ الضِّدّ الآخَر .

قال أبو ذُؤَيب : [الطويل]

دَعَانِي إلَيْهَا القَلْبُ إنِّي لأمْرِهَا ... سَمِيعٌ ، فَمَا أدْرِي أرُشْدٌ طِلابُها ؟

والتقدير : أم غي ، فحذف الغيّ ؛ لدلالة ضِدّه عليه .

ومثله قول الآخر : [الطويل]

أرَاكَ ، فَمَا أدْرِي أهَمٌّ هَمَمْتُهُ ... وَذُو الهَمِّ قِدْماً خَاشِعٌ مُتَضَائِلُ

أي أهم هممته أم غيره ؟ فحذف ؛ للدلالة ، وهو كثير .

قال الفراء : " لأن المساواة تقتضي شيئين " ، كقوله : ﴿ سَوَآءً العاكف فِيهِ والباد ﴾ [الحج : 25] ، وقوله : ﴿ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ [الجاثية : 21] .

وقد ضُعِّفَ قَوْلُ الفراء من حيث الحذف ، ومن حيث وَضع الظاهر مَوْضِعَ المُضْمَر ؛ إذ الأصل : منهم أمة قائمة ، فوضع أهل الكتاب موضع المضمر .

والوجه أن يكون ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً ﴾ جملة تامة، وقوله: ﴿ مِّنْ أَهْلِ الكتاب أُمَّةٌ ﴾ جملة برأسها، وقوله: ﴿ يَتْلُونَ ﴾ جملة أخرى، مبينة لعدم استوائهم - كما جاءت الجملة من قوله: ﴿ تَأْمُرُونَ بالمعروف ﴾ [آل عمران: 110] مبيّنة للخيريَّةِ.

ويجوز أن يكون ﴿ يَتْلُونَ ﴾ في محل رفع، صفة لـ "أمَّةٌ".

ويجوز أن يكون حالاً من "أمَّةٌ"؛ لتخصُّصِها بالنعت.

ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في "قَائِمة"، وعلى كونها حالاً من "أمَّةٌ" يكون العامل فيها الاستقرار الذي تضمنه الجار.

ويجوز أن يكون حالاً من الضميرِ المستكن في هذا الجار، لوقوعه خبراً لـ "أمَّة".

قوله: ﴿ آنَآءَ الليل ﴾ ظرف لـ "يتلون"، والآناء: الساعات، واحده: أَنَى - بفتح الهمزة والنون، بزنة عصا - أو إِنَى بكسر الهمزة، وفتح النون، بزنة مِعًى، أو أَنْي - بالفتح والسكون بزنة ظَبْي، أو إِنْي - بالكسر والسكون، بزنة نِحْي - أو إِنْو - بالكسر والسكون مع الواو، بزنة جرو - فالهمزة في "آناء" منقلبة عن ياء، على الأقوال الأربعة - كرداء - وعن واو على القول الأخير، نحو كساء.

قال القفال: كأن التَّأَنِّيَ مأخوذ منه، لأنه انتظار الساعات والأوقات، وفي الحديث أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال للرجل الذي أخر المجيء إلى الجمعة - : "آذيت وآنيت" أي:

دافعت الأوقات . وستأتي بقية هذه المادة في مواضعها .

ولا يجوز أن يكون "آناء الليل" ظرفاً لـ "قَائِمَةٌ" .

(257/127)

قال أبو البقاءِ : "لأن "قَائِمَةٌ" قد وُصِفَتْ ، فلا يجوز أن تعمل فيما بعد الصفة" ، وهذا على تقدير أن يكون "يَتْلُونَ" وَصْفاً لِـ "قائمة" ، وفيه نظر ؛ لأن المعنَى ليس على جَعْل هذه الجملةِ صفة لما قبلها ، بل على الاستئناف للبيان المتقدم ، وعلى تقدير جَعْلها صفة لما قبلها ، فهي صفة لـ "أمَّةٌ" ، لا لِـ "قَائِمَةٌ" ؛ لأن الصفة لا توصَف إلا أن يكون معنى الصفة الثانية لائقاً بما قبلها ، نحو : مررت برجل ناطقٍ فصيح ، ففصيح صفة لناطق ؛ لأن معناه لائق به ، وبعضهم يجعله وَصْفاً لرجل .

وإنما المانع من تعلُّق هذا الظرف بـ "قَائِمَةٌ" ما ذكرناه من استئناف جملته .

قوله : ﴿ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ يجوز أن يكون حالاً من فاعل "يَتْلُونَ" أي : يَتْلُونَ القرآن ، وهم ساجدون ، وهذا قد يكون في شريعتهم – مشروعية التلاوة في السجود – بخلاف شرعنا ، قال عليه السلام "ألاَ إنِّي نُهِيتُ أن أقرأ القُرآنَ رَاكِعاً ، أو سَاجِداً" ، وبهذا يرجح قول من يقول إنهم غير أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في " قَائِمَةٌ " قاله أبو البقاء .

وفيه ضعف ؛ للاستئناف المذكور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 475.479 ﴾ . بتصرف يسير .

من فوائد العلامة ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

لما مضت الضمائر في الكفر والقتل والعصيان والاعتداء عامة في جميع أهل الكتاب ، عقب ذلك بتخصيص الذين هم على خير وإيمان ، وذلك أن أهل الكتاب لم يزل فيهم من هو على استقامة ، فمنهم من مات قبل أن يدرك الشرائع فذلك من الصالحين ، ومنهم من أدرك الإسلام فدخل فيه .

(258/127)

قال القاضي أبو محمد : ويعترض هذا النظر أن جميع اليهود على عوج من وقت عيسى ، وتجيء الآية إشارة إلى من أسلم فقط ، أو يكون اليهود في معنى الأمة القائمة إلى وقت عيسى ، ثم ينتقل الحكم في النصارى ، ولفظ ﴿ أهل الكتاب ﴾ يعم الجميع ، والضمير في ﴿ ليسوا ﴾ لمن تقدم ذكره في قوله ﴿ منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ [آل عمران :

110] وما قال أبو عبيدة من أن الآية نظيرة قول العرب أكلوني البراغيث خطأ مردود ،

وكذلك أيضاً ما حكي عن الفراء أن ﴿ أمة ﴾ مرتفعة بـ ﴿ سواء ﴾ على أنها فاعلة

كأنه قال : لا تستوي أمة كذا وإن في الآخر الكلام محذوفاً معادلاً تقديره وأمة كافرة ،

فأغنى القسم الأول عن ذكرها ودل عليه كما قال أبو ذؤيب :

عَصَيْتُ إليْها القَلْبَ إنّي لأَمْرِها . . . سَمِيعٌ فما أدري أَرُشْدٌ طِلابُها ؟

المعنى أم غيّ ، فاقتصر لدلالة ما ذكر عليه .

قال القاضي أبو محمد : وإنما الوجه أن الضمير في ﴿ ليسوا ﴾ يراد به من تقدم ذكره ،

و﴿ سواء ﴾ خبر ليس ، و﴿ من أهل الكتاب ﴾ مجرور فيه خبر مقدم ، و﴿ أمة ﴾

رفع بالابتداء قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية

وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد ومن أسلم من اليهود ، معهم ، قال الكفار من أحبار اليهود

ما آمن بمحمد إلا شرارنا ولو كانوا خياراً ما تركوا دين آبائهم ، فأنزل الله تعالى في ذلك ﴿

ليسوا سواء ﴾ الآية ، وقال مثله قتادة وابن جريج .

قال القاضي أبو محمد : وهو أصح التأويلات ، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

معنى الآية : ليس اليهود وأمة محمد سواء ، وقاله السدي .

قال القاضي أبو محمد : فمن حيث تقدم ذكر هذه الآمة في قوله ﴿ كنتم خير أمة ﴾ [آل عمران : 110] وذكر أيضاً اليهود قال الله لنبيه ﴿ ليسوا سواء ﴾ و﴿ الكتاب ﴾ على هذا جنس كتب الله وليس بالمعهود من التوراة والإنجيل فقط ، والمعنى : ﴿ من أهل الكتاب ﴾ وهم أهل القرآن أمة قائمة : واختلف عبارة المفسرين في قوله ﴿ قائمة ﴾ فقال مجاهد : معناه عادلة ، وقال قتادة والربيع وابن عباس : معناه قائمة على كتاب الله وحدوده مهتدية ، وقال السدي : القائمة القانتة المطيعة .

قال القاضي أبو محمد : وهذا كله يرجع إلى معنى واحد من الاعتدال على أمر الله ، ومنه قيل للدنانير أو الدراهم الوازنة قائمة وهذه الآية تحتمل هذا المعنى وأن لا تنظر اللفظة إلى هيئة الأشخاص وقت تلاوة آيات الله ، ويحتمل أن يراد بـ ﴿ قائمة ﴾ وصف حال التالين في ﴿ آناء الليل ﴾ ، ومن كانت هذه حاله فلا محالة أنه معتدل على أمر الله ، وهذه الآية في هذين الاحتمالين مثل ما تقدم في قوله : ﴿ إلا ما دمت عليه قائماً ﴾ [آل عمران : 75] و﴿ يتلون ﴾ معناه : يسردون ، و﴿ آيات الله ﴾ في هذه الآية هي كتبه ، و" الآناء " : الساعات واحدها " إني " بكسر الهمزة وسكون النون ، ويقال فيه " أني " بفتح الهمزة ، ويقال " إنَى " بكسر الهمزة وفتح النون والقصر ، ويقال فيه " أنى " بفتح الهمزة ويقال " إنْو "

بكسر الهمزة وسكون النون وبواو مضمومة ومنه قول الهذيلي : [البسط]

حُلْوٌ وَمُرٌّ كَعَطْفِ الْقِدْحِ مِرَّتُهُ . . . في كلِّ إنْيٍ قضاه الليل ينتعل

(260/127)

وحكم هذه الآية لا يتفق في شخص بأن يكون كل واحد يصلي جميع ساعات الليل وإنما يقوم هذا الحكم من جماعة الأمة ، إذا بعض الناس يقوم أول الليل ، وبعضهم آخره ، وبعضهم بعد هجعة ثم يعود إلى نومه ، فيأتي من مجموع ذلك في المدن والجماعات عبارة ﴿ آناء الليل ﴾ بالقيام ، وهكذا كان صدر هذه الأمة ، وعرف الناس القيام في أول الثلث الآخر من الليل أو قبله بشيء ، وحينئذ كان يقوم الأكثر ، والقيام طول الليل قليل وقد كان في الصالحين من يلتزمه ، وقد ذكر الله تعالى القصد من ذلك في سورة المزمل ، وقيام الليل لقراءة العلم المبتغى به وجه الله داخل في هذه الآية ، وهو أفضل من التنفل لمن يرجى انتفاع المسلمين بعلمه ، وأما عبارة المفسرين في ﴿ آناء الليل ﴾ ، فقال الربيع وقتادة وغيرهما : ﴿ آناء الليل ﴾ ساعات الليل ، وقال عبد الله بن كثير : سمعنا العرب تقول ﴿ آناء الليل ﴾ ساعات الليل ، وقال السدي : ﴿ آناء الليل ﴾ جوف الليل .

(261/127)

قال القاضي أبو محمد : وهذا قلق ، أما أن جوف الليل جزء من الآناء ، وقال ابن مسعود : نزلت هذه الآية بسبب أن النبي صلى الله عليه وسلم احتبس عنا ليلة عن صلاة العشاء وكان عند بعض نسائه فلم يأت حتى مضى ليل ، فجاء ومنا المصلي ومنا المضطجع ، فقال : أبشروا فإنه ليس أحد من أهل الكتاب يصلي هذه الصلاة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ليسوا سواء ﴾ الآية ، فالمراد بقوله : ﴿ يتلون آيات الله آناء الليل ﴾ صلاة العشاء ، وروى سفيان الثوري عن منصور أنه قال : بلغني أن هذه الآية نزلت في المصلين بين العشاءين وقوله تعالى : ﴿ وهم يسجدون ﴾ ذهب بعض الناس إلى أن السجود هنا عبارة عن الصلاة ، سماها بجزء شريف منها كما تسمى في كثير من المواضع ركوعاً ، فهي على هذا جملة في موضع الحال ، كأنه قال : يتلون آيات الله آناء الليل مصلين ، وذهب الطبري وغيره إلى أنها جملة مقطوعة من الكلام الأول ، أخبر عنهم أنهم أيضاً أهل سجود .

قال القاضي أبو محمد : ويحسن هذا من جهة أن التلاوة آناء الليل قد يعتقد السامع أن ذلك في غير الصلاة ، وأيضاً فالقيام في قراءة العلم يخرج من الآية على التأويل الأول ، وثبت فيها على هذا الثاني ف ﴿ هم يسجدون ﴾ على هذا نعت عدد بواو العطف ، كما تقول : جاءني زيد الكريم والعاقل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 492 .

493 ﴾

(262/127)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ مِّنْ أَهْلِ الكتاب أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ الله آنَآءَ الليل وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ .

ذكر هنا من صفات هذه الطائفة المؤمنة من أهل الكتاب أنها قائمة . أي : مستقيمة على الحق وأنها تتلو آيات الله آناء الليل وتصلي وتؤمن بالله وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

(263/127)

وذكر في موضع آخر أنها تتلو الكتاب حق تلاوته وتؤمن بالله وهو قوله : ﴿ الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَتْلُونَهُ حَقَّ تلاوَتِهِ أولئك يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [البقرة : 121] .

وذكر في موضع آخر أنهم يؤمنون بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليهم وأنهم خاشعون لله لا يشترون بآياته ثمنا قليلاً . وهو قوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكتاب لَمَن يُؤْمِنُ بالله وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للَّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ الله ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ [آل عمران : 199] .

وذكر في موضع آخر أنهم يفرحون بإنزال القرآن وهو قوله تعالى : ﴿ والذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الرعد : 36] ، وذكر في موضع آخر أنهم يعلمون أن إنزال القرآن من الله حق ، وهو قوله : ﴿ والذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بالحق ﴾ [الأنعام : 114] الآية ، وذكر في موضع آخر أنهم إذا تلي عليهم القرآن خروا لأذقانهم سجداً وسبحوا ربهم وبكوا ، وهو قوله : ﴿ إِنَّ الذين أُوتُواْ العلم مِن قَبْلِهِ إِذَا يتلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ [الإسراء : 107-109] .

(264/127)

وقال في بكائهم عند سماعه أيضاً : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرسول ترى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الحق ﴾ [المائدة : 83] وذكر في موضع آخر أن هذه الطائفة من أهل الكتاب ، تؤتى أجرها مرتين وهو قوله : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القول لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يتلى عَلَيْهِمْ قالوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أولئك يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [القصص : 51-54] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ 206 . 207 ﴾

فصل

قال العلامة الثعالبى :

روى أبو هريرةَ ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ أَنَّهُ قَالَ : "يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وتعالى كُلَّ لَيْلَةٍ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يبقى ثلثُ اللَّيْلِ الآخِرُ ، فَيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي ؛ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، مَنْ يَسْأَلُنِي ؛ فَأُعْطِيهُ ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي ؛ فَأَغْفِرَ لَهُ" رواه الجماعة ، أعني : الكتبَ الستَّة ؛ البخاريَّ ، ومُسْلِماً ، وأبا داوُدَ ، والتِّرمذيَّ ، والنَّسائيَّ ، وابْنَ مَاجَة ، وفي بعضِ الطُّرُق : "حتى يَطْلُعَ الفَجْرُ" ، زاد ابْنُ ماجَة : "فَلِذَلِكَ كَانُوا يَسْتَحِبُّونَ الصَّلاَةَ آخِرَ اللَّيْلِ على أَوَّلِه" .

(265/127)

وعن عمرو بْنِ عَبَسَةَ أَنَّهُ سَمِعَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : "أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ العَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ ، فإن استطعت أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ ، فَكُنْ" رواه أبو داوُد ، والتِّرمذيُّ ، والنَّسائِيُّ ، والحَاكِمُ في "المستدرك" ، واللفظ للتِّرمذيِّ ، وقال : حَسَنٌ صَحِيحٌ ، وقال الحاكمُ : صحيحٌ على شرطِ مُسْلِمٍ . اه من "السلاح" .

وعن أبي أُمَامَةَ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أيُّ الدُّعَاءِ أَسْمَعُ ؟ قَالَ : "جَوْفَ اللَّيْلِ الآخِرَ ،

ودُبُرَ الصَّلَوَاتِ المَكْتُوبَاتِ " ، رواه الترمذيُّ والنسائيُّ ، وقال الترمذيُّ : هذا حديثٌ حسنٌ ، وفي روايةٍ : " جَوْفَ اللَّيْلِ الآخِرَ أرجى " ، أو نحو هذا . انتهى انتهى . ا هـ من "السلاح" .

ومما يدْخُلُ في ضِمْنِ قوله سبحانه : ﴿ ويسارعون فِي الخيرات ﴾ ؛ أن يكون المرءُ مغْتَنِماً للخَمْس ؛ كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : " اغتنم خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ : شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغُلِكَ ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ " ؛ فَيَكُونُ متى أَرَادَ أَنْ يَصْنَعَ خَيْراً ، بادر إليه ، ولم يسوِّف نفسه بالأمل ، فهذه أيضاً مسارعةٌ في الخيرات ، وذكر بعض النَّاس قال : دخلْتُ مع بَعْضِ الصَّالحين في مَرْكَبٍ ، فقُلْتُ له : ما تقُولُ (أصْلَحَكَ اللَّه) في الصَّوْمِ في السَّفر ؟ فقال لي : إنها المبادرةُ ، يا ابْنَ الأَخِ ، قال المحدِّث : فجاءني ، واللَّهِ ، بجوابٍ ليس من أجوبة الفُقَهَاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ 201 . 202 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

كما غَايَرَ بين النور والظلام مغايرة تضاد فكذلك أثبت منافاة بين أحوال الأولياء وأحوال الأعداء ، ومتى يستوي الضياء والظلمة ، واليقين والتُّهمة ، والوصلة والفرقة ، والبعاد والألفة ، والمعتكف على البِساط والمنصرف عن الباب ، والمتصف بالولاء والمنحرف

عن الوفاء ؟ هيهات يلتقيان ! فكيف يتفقان أو يستويان ؟ ! انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 271 ﴾

(266/127)

فائدة

قال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ ﴾ صِفَةٌ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ؛ لِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ وَدَعَوْا النَّاسَ إلَى تَصْدِيقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ فَكَانُوا مِمَّنْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ ؛ ، وَقَدْ بَيَّنَّا مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ وُجُوبِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ .

فَإِنْ قِيلَ فَهَلْ تَجِبُ إزَالَةُ الْمُنْكَرِ مِنْ طَرِيقِ اعْتِقَادِ الْمَذَاهِبِ الْفَاسِدَةِ عَلَى وَجْهِ التَّأْوِيلِ كَمَا وَجَبَ فِي سَائِرِ الْمَنَاكِيرِ مِنْ الْأَفْعَالِ ؟ قِيلَ لَهُ : هَذَا عَلَى وَجْهَيْنِ : فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ دَاعِيًا إلَى مَقَالَتِهِ فَيُضِلُّ النَّاسَ بِشُبْهَتِهِ فَإِنَّهُ تَجِبُ إزَالَتُهُ عَنْ ذَلِكَ بِمَا أَمْكَنَ .

وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُعْتَقِدًا ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ غَيْرَ دَاعٍ إلَيْهَا فَإِنَّمَا يُدْعَى إلَى الْحَقِّ بِإِقَامَةِ الدَّلَالَةِ

عَلَى صِحَّةِ قَوْلِ الْحَقّ وَتَبَيُّنِ فَسَادِ شُبْهَتِهِ مَا لَمْ يَخْرُجْ عَلَى أَهْلِ الْحَقّ بِسَيْفِهِ وَيَكُونُ لَهُ أَصْحَابٌ يَمْتَنِعُ بِهِمْ عَنْ الْإِمَامِ فَإِنْ خَرَجَ دَاعِيًا إلَى مَقَالَتِهِ مُقَاتِلًا عَلَيْهَا فَهَذَا الْبَاغِي الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِقِتَالِهِ حَتَّى يَفِيءَ إلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى .

(267/127)

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ أَنَّهُ كَانَ قَائِمًا عَلَى الْمِنْبَرِ بِالْكُوفَةِ يَخْطُبُ فَقَالَ الْخَوَارِجُ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ : لَا حُكْمَ إلَّا لِلَّهِ ، فَقَطَعَ خُطْبَتَهُ وَقَالَ : "كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ ، أَمَا إنَّ لَهُمْ عِنْدَنَا ثَلَاثًا أَنْ لَا نَمْنَعَهُمْ حَقَّهُمْ مِنْ الْفَيْءِ مَا كَانَتْ أَيْدِيهِمْ مَعَ أَيْدِينَا ، وَلَا نَمْنَعَهُمْ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يَذْكُرُوا فِيهَا اسْمَهُ ، وَلَا نُقَاتِلَهُمْ حَتَّى يُقَاتِلُونَا " .

فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَجِبُ قِتَالُهُمْ حَتَّى يُقَاتِلُونَا وَكَانَ

ابْتَدَأَهُمْ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ بِالدُّعَاءِ حِينَ نَزَلُوا حَرُورَاءَ وَحَاجَّهُمْ حَتَّى رَجَعَ بَعْضُهُمْ وَذَلِكَ أَصْلٌ فِي سَائِرِ الْمُتَأَوِّلِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَذَاهِبِ الْفَاسِدَةِ أَنَّهُمْ مَا لَمْ يَخْرُجُوا دَاعِينَ إلَى مَذَاهِبِهِمْ لَمْ يُقَاتَلُوا ، وَأُقِرُّوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الْمَذْهَبُ كُفْرًا ، فَإِنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ إقْرَارُ أَحَدٍ مِنْ الْكُفَّارِ عَلَى كُفْرِهِ إلَّا بِجِزْيَةٍ .

وَلَيْسَ يَجُوزُ إِقْرَارُ مَنْ كَفَرَ بِالتَّأْوِيلِ عَلَى الْجِزْيَةِ ؛ لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْمُرْتَدِّ لِإِعْطَائِهِ بَدِيًّا جُمْلَةَ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِالرَّسُولِ ، فَمَتَى نَقَضَ ذَلِكَ بِالتَّفْصِيلِ صَارَ مُرْتَدًّا .

(268/127)

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَجْعَلُهُمْ بِمَنْزِلَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، كَذَلِكَ كَانَ يَقُولُ أَبُو الْحَسَنِ ، فَتَجُوزُ عِنْدَهُ مُنَاكَحَاتُهُمْ ، وَلَا يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يُزَوِّجُوهُمْ وَتُؤْكَلُ ذَبَائِحُهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ مُنْتَحِلُونَ بِحُكْمِ الْقُرْآنِ .

وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا مُسْتَمْسِكِينَ بِهِ ، كَمَا أَنَّ مَنْ انْتَحَلَ النَّصْرَانِيَّةَ أَوْ الْيَهُودِيَّةَ فَحُكْمُهُ حُكْمُهُمْ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَمْسِكًا بِسَائِرِ شَرَائِعِهِمْ ؛ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ وَقَالَ مُحَمَّدٌ فِي الزِّيَادَاتِ : " لَوْ أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ فِي بَعْضِ الْأَهْوَاءِ الَّتِي يَكْفُرُ أَهْلُهَا ، كَانَ فِي وَصَايَاهُ بِمَنْزِلَةِ الْمُسْلِمِينَ ، يَجُوزُ مِنْهَا مَا يَجُوزُ مِنْ وَصَايَا الْمُسْلِمِينَ وَيَبْطُلُ مِنْهَا مَا يَبْطُلُ مِنْ وَصَايَاهُمْ " .

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مُوَافَقَةِ الْمَذْهَبِ الَّذِي يَذْهَبُ إلَيْهِ أَبُو الْحَسَنِ فِي بَعْضِ الْوُجُوهِ .

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَجْعَلُهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُقِرُّوا عَلَى نِفَاقِهِمْ مَعَ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِكُفْرِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ .

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَجْعَلُهُمْ كَأَهْلِ الذِّمَّةِ ؛ وَمَنْ أَبَى ذَلِكَ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا بِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَوْ وَقَفْنَا عَلَى نِفَاقِهِمْ لَمْ نُقِرَّهُمْ عَلَيْهِ ، وَلَمْ نَقْبَلْ مِنْهُمْ إلَّا الْإِسْلَامَ أَوْ السَّيْفَ .

(269/127)

وَأَهْلُ الذِّمَّةِ إنَّمَا أُقِرُّوا بِالْجِزْيَةِ ، وَغَيْرُ جَائِزٍ أَخْذُ الْجِزْيَةِ مِنْ الْكُفَّارِ الْمُتَأَوِّلِينَ الْمُنْتَحِلِينَ لِلْإِسْلَامِ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَرُّوا بِغَيْرِ جِزْيَةٍ ، فَحُكْمُهُمْ فِي ذَلِكَ مَتَى وَقَفْنَا عَلَى مَذْهَبِ وَاحِدٍ مِنْهُمْ اعْتِقَادُ الْكُفْرِ لَمْ يَجُزْ إقْرَارُهُ عَلَيْهِ ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ أَحْكَامُ الْمُرْتَدِّينَ ، وَلَا يَقْتَصِرُ فِي إجْرَائِهِ حُكْمَ الْكُفَّارِ عَلَى إطْلَاقِ لَفْظٍ عَسَى أَنْ يَكُونَ غَلَطُهُ فِيهِ دُونَ الِاعْتِقَادِ دُونَ أَنْ يُبَيِّنَ عَنْ ضَمِيرِهِ فَيُعْرِبَ لَنَا عَنْ اعْتِقَادِهِ بِمَا يُوجِبُ تَكْفِيرَهُ ، فَحِينَئِذٍ يَجُوزُ عَلَيْهِ أَحْكَامُ الْمُرْتَدِّينَ مِنْ الِاسْتِتَابَةِ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ ؛ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 2 صـ 222 . 224﴾

(270/127)

قوله تعالى ﴿ يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر ﴾

فصل

قال الفخر :

الصفة الرابعة : قوله ﴿ يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر ﴾ واعلم أن اليهود كانوا أيضاً يقومون في الليالي للتهجد وقراءة التوراة ، فلما مدح المؤمنين بالتهجد وقراءة القرآن أردف ذلك بقوله ﴿ يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر ﴾ وقد بينا أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بجميع أنبيائه ورسله والإيمان باليوم الآخر يستلزم الحذر من المعاصي ، وهؤلاء اليهود ينكرون أنبياء الله ولا يحترزون عن معاصي الله ، فلم يحصل لهم الإيمان بالمبدأ والمعاد .

واعلم أن كمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته ، والخير لأجل العمل به ، وأفضل الأعمال الصلاة وأفضل الأذكار ذكر الله ، وأفضل المعارف معرفة المبدأ ومعرفة المعاد ، فقوله ﴿ يَتْلُونَ ءايات الله ءَانَاء الليل وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ إشارة إلى الأعمال الصالحة الصادرة عنهم وقوله ﴿ يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر ﴾ إشارة إلى فضل المعارف الحاصلة في قلوبهم فكان هذا إشارة إلى كمال حالهم في القوة العملية وفي القوة النظرية ، وذلك أكمل أحوال الإنسان ، وهي المرتبة التي يقال لها : إنها آخر درجات الإنسانية وأول درجات الملكية .

انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 166 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر وَيَأْمُرُونَ بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ﴾ إمَّا استئناف ، وإما أحوال ، وجيء بالجملة الأولى اسمية ؛ دلالةً على الاستقرار ، وصُدِّرَتْ بضميرٍ ، وثَنَّى عليه جملة فعلية ، ليتكرر الضمير ، فيزداد بتكراره توكيداً .

وجيء بالخبر مضارعاً ؛ دلالةً على تجدُّدِ السجود في كل وقت ، وكذلك جيء بالجُمَل التي بعدها أفعالاً مضارعة .

ويحتمل أن يكون ﴿ يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر ﴾ خبراً ثانياً ، لقوله : " هُمْ " ، ولذلك ترك العاطف ولو ذكره لكان جائزاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 479 ﴾ .

قوله تعالى ﴿ وَيَأْمُرُونَ بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ﴾

فصل

قال الفخر :

الصفة الخامسة : قوله ﴿ وَيَأْمُرُونَ بالمعروف ﴾ .

الصفة السادسة : قوله ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ﴾ واعلم أن الغاية القصوى في الكمال أن

يكون تاماً وفوق التمام فكون الإنسان تاماً ليس إلا في كمال قوته العملية والنظرية وقد تقدم ذكره، وكونه فوق التمام أن يسعى في تكميل الناقصين، وذلك بطريقين، إما بإرشادهم إلى ما ينبغي وهو الأمر بالمعروف، أو بمنعهم عما لا ينبغي وهو النهي عن المنكر، قال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ يَأْمُرُونَ بالمعروف ﴾ أي بتوحيد الله وبنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ﴾ أي ينهون عن الشرك بالله، وعن إنكار نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، واعلم أن لفظ المعروف والمنكر مطلق فلم يجز تخصيصه بغير دليل، فهو يتناول كل معروف وكل منكر. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 166﴾

قوله تعالى ﴿ ويسارعون فِى الخيرات ﴾

فصل

قال الفخر :

الصفة السابعة : قوله ﴿ ويسارعون فِى الخيرات ﴾ وفيه وجهان

أحدهما : أنهم يتبادرون إليها خوف الفوت بالموت، والآخر : يعملونها غير متثاقلين.

فإن قيل : أليس أن العجلة مذمومة قال عليه الصلاة والسلام : " العجلة من الشيطان والتأني من الرحمن " فما الفرق بين السرعة وبين العجلة ؟ قلنا : السرعة مخصوصة بأن يقدم ما ينبغي تقديمه ، والعجلة مخصوصة بأن يقدم ما لا ينبغي تقديمه ، فالمسارعة مخصوصة بفرط الرغبة فيما يتعلق بالدين ، لأن من رغب في الأمر ، آثر الفور على التراخي ، قال تعالى : ﴿ وَسَارِعُواْ إِلى مَغْفِرَةٍ مّن رَّبّكُمْ ﴾ [آل عمران : 133] وأيضاً العجلة ليست مذمومة على الإطلاق بدليل قوله تعالى : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبّ لترضى ﴾ [طه : 84] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 166 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصالحين ﴾

فصل

قال الفخر :

الصفة الثامنة : قوله ﴿ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصالحين ﴾ والمعنى وأولئك الموصوفون بما وصفوا به من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله تعالى ورضيهم ،

واعلم أن الوصف بذلك غاية المدح ويدل عليه القرآن والمعقول ، أما القرآن ، فهو أن الله تعالى مدح بهذا الوصف أكابر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقال : بعد ذكر إسماعيل وإدريس وذي الكفل وغيرهم ﴿ وأدخلناهم فِى رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مّنَ الصالحين ﴾ [الأنبياء : 86] وذكر حكاية عن سليمان عليه السلام أنه قال : ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ

الصالحين﴾ [النمل : 19] وقال : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مولاه وَجِبْرِيل وصالح الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التحريم : 4] وأما المعقول فهو أن الصلاح ضد الفساد ، وكل ما لا ينبغي أن يكون فهو فساد ، سواء كان ذلك في العقائد ، أو في الأعمال ، فإذا كان كل ما حصل من باب ما ينبغي أن يكون ، فقد حصل الصلاح ، فكان الصلاح دالاً على أكمل الدرجات . انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 166.167 ﴾

(273/127)

من فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر ﴾ صفة أخرى لأمة ، وجوز أن تكون حالاً على طرز ما قبلها وإن شئت كما قال أبو البقاء استأنفتها ، والمراد بهذا الإيمان الإيمان بجميع ما يجب الإيمان به على الوجه المقبول ، وخص الله تعالى اليوم الآخر بالذكر إظهاراً لمخالفتهم لسائر اليهود فيما عسى أن يتوهم متوهم مشاركتهم لهم فيه لأنهم يدّعون أيضاً الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر لكن لما كان ذلك مع قولهم : ﴿ عُزَيْرٌ ابن الله ﴾ [التوبة : 30] وكفرهم ببعض الكتب والرسل ووصفهم اليوم الآخر بخلاف ما نطقت به الشريعة المصطفوية جعل

هو والعدم سواء .

﴿ وَيَأْمُرُونَ بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ﴾ إشارة إلى وفور نصيبهم من فضيلة تكميل الغير إثر الإشارة إلى وفوره من فضيلة تكميل النفس ، وفيه تعريض بالمداهنين الصادين عن سبيل الله تعالى ﴿ ويسارعون فِى الخيرات ﴾ أي يبادرون إلى فعل الخيرات والطاعات خوف الفوات بالموت مثلا ، أو يعملون الأعمال الصالحة راغبين فيها غير متثاقلين لعلمهم بجلالة موقعها وحسن عاقبتها وهذه صفة جامعة لفنون الفضائل والفواضل وفي ذكرها تعريض بتباطؤ اليهود وتثاقلهم عن ذلك ، وأصل المسارعة المبادرة وتستعمل بمعنى الرغبة ، واختيار صيغة المفاعلة للمبالغة ، وقيل : ولم يعبر بالعجلة للفرق بينها وبين السرعة فإن السرعة التقدم فيما يجوز أن يتقدم فيه وهي محمودة وضدها الإبطاء وهو مذموم ، والعجلة التقدم فيما لا ينبغي أن يتقدم فيه وهي مذمومة وضدها اوناة وهي محمودة ، وإيثار (في) على إلى وكثيراً ما تتعدى المسارعة بها للإيذان كما قال شيخ الإسلام : بأنهم مستقرون في أصل الخير متقلبون في فنونه لا أنهم خارجون (عنها) منتهون إليها ؛ وصيغة جمع القلة هنا تغني عن جمع الكثرة كما لا يخفى .

﴿ وَأُوْلَئِكَ ﴾ أي الموصوفون بتلك الصفات الجليلة الشأن بسبب اتصافهم بها كما يشعر به العدول عن الضمير ﴿ مِّنَ الصالحين ﴾ أي من عداد الذين صلحت عند الله تعالى حالهم وهذا رد لقول اليهود : ما آمن به إلا شرارنا . وقد ذهب الجل إلى أن في الآية استغناءاً بذكر أحد الفريقين عن الآخر على عادة العرب من الاكتفاء بذكر أحد الضدين عن الآخر ، والمراد ومنهم من ليسوا كذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 35.34 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ والله عَلِيمٌ بالمتقين ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ﴾ بالياء على المغايبة ، لأن الكلام متصل بما قبله من ذكر مؤمني أهل الكتاب ، يتلون ويسجدون ويؤمنون ويأمرون وينهون ويسارعون ، ولن يضيع لهم ما يعلمون ، والمقصود أن جهال اليهود لما قالوا لعبد الله بن سلاّم إنكم خسرتم بسبب هذا الإيمان ، قال تعالى بل فازوا بالدرجات العظمى ، فكان المقصود تعظيمهم ليزول عن قلبهم أثر كلام أولئك الجهال ، ثم هذا وإن كان بحسب اللفظ يرجع إلى كل ما تقدم ذكره من مؤمني أهل الكتاب ، فإن سائر الخلق يدخلون فيه نظراً إلى العلة .

وأما الباقون فإنهم قرؤا بالتاء على سبيل المخاطبة فهو ابتداء خطاب لجميع المؤمنين على معنى أن أفعال مؤمني أهل الكتاب ذكرت ، ثم قال : وما تفعلوا من خير معاشر المؤمنين الذين من جملتكم هؤلاء ، فلن تكفروه ، والفائدة أن يكون حكم هذه الآية عاماً بحسب اللفظ في حق جميع المكلفين ، ومما يؤكد ذلك أن نظائر هذه الآية جاءت مخاطبة لجميع الخلائق من غير تخصيص بقوم دون قوم كقوله ﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ ﴾ [البقرة : 197] ﴿ وما تفعلوا من خير يوف إليكم ﴾ ﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ ﴾ (1) وأما أبو عمرو فالمنقول عنه أنه كان يقرأ هذه الآية بالقراءتين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 167 ﴾

قال الطبرى :

والصواب من القراءة في ذلك عندنا : "وما يفعلوا ، من خير فلن يُكفروه" ، بالياء في الحرفين كليهما ، يعني بذلك الخبرَ عن الأمة القائمة ، التالية آيات الله .

وإنما اخترنا ذلك ، لأن ما قبل هذه الآية من الآيات ، خبر عنهم . فإلحاق هذه الآية إذْ كان لا دلالة فيها تدل على الانصراف عن صفتهم بمعاني الآيات قبلها ، أولى من صرفها عن معاني

ما قبلها . وبالذي اخترنا من القراءة كان ابن عباس يقرأ . (2)

فتأويل الآية إذاً ، على ما اخترنا من القراءة : وما تفعل هذه الأمة من خير ، وتعمل من عملٍ لله فيه رضًى ، فلن يكفُرهم الله ذلك ، يعني بذلك : فلن يبطل الله ثوابَ عملهم ذلك ، ولا يدعهم بغير جزاء منه لهم عليه ، ولكنه يُجزل لهم الثواب عليه ، ويسني لهم الكرامة والجزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 7 صـ 131.132 ﴾ . بتصرف يسير .

---

(1) ليست هذه آية إنما المثبت في المصحف وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ [البقرة : 110] .

(2) تقدم الرد على مثل هذا القول فلا يجوز الترجيح بين القراءات المتواترة وهى من بلاغات القرآن وفصاحته التى تبهر العقول وتأخذ بمجامع القلوب لمن تأمل . والله أعلم .

(276/127)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَلَنْ تكفروه ﴾ أي لن تمنعوا ثوابه وجزاءه وإنما سمي منع الجزاء كفر لوجهين

الأول : أنه تعالى سمى إيصال الثواب شكراً قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 158] وقال : ﴿ فأولئك كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء : 19] فلما سمى إيصال الجزاء شكراً سمى منعه كفراً والثاني : أن الكفر في اللغة هو الستر فسمي منع الجزاء كفراً ، لأنه بمنزلة الجحد والستر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 167 ﴾

سؤال : فإن قيل : لم قال : ﴿ فَلَنْ تكفروه ﴾ فعداه إلى مفعولين مع أن شكر وكفر لا يتعديان إلا إلى واحد يقال شكر النعمة وكفرها ؟ .

قلنا : لأنا بينا أن معنى الكفر ههنا هو المنع والحرمان ، فكان كأنه قال : فلن تحرموه ، ولن تمنعوا جزاءه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 167 ﴾

فصل

قال الفخر :

احتج القائلون بالموازنة من الذاهبين إلى الإحباط بهذه الآية فقال : صريح هذه الآية يدل على أنه لا بد من وصول أثر فعل العبد إليه ، فلو انحبط ولم ينحبط من المحبط بمقداره شيء لبطل مقتضى هذه الآية ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7 ، 8] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 167 ﴾

سؤال : فإن قيل : " شكر " و " كفر " لا يتعديان إلا إلى واحد ، يقال : شكر النعمة ،

وكفرها - فكيف تعدّى - هنا - لاثنين أولهما قام مقام الفاعل ، والثاني : الهاء في " يكفروه " ؟ .

فقيل : إنه ضُمِّن معنى فعل يتعدى لاثنين - كحرم ومنع ، فكأنه قيل : فلن يُحْرَموه ، ولن يُمْنَعُوا جزاءه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 482 ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ والله عَلِيمٌ بالمتقين ﴾

قال الفخر :

(277/127)

﴿ والله عَلِيمٌ بالمتقين ﴾ والمعنى أنه تعالى لما أخبر عن عدم الحرمان والجزاء أقام ما يجري مجرى الدليل عليه وهو أن عدم إيصال الثواب والجزاء إما أن يكون للسهو والنسيان وذلك مُحالٌ في حقّه ؛ لأنه عليم بكل المعلومات ، وإما أن يكون للعجز والبخل والحاجة وذلك محال لأنه إله جميع المحدثات ، فاسم الله تعالى يدل على عدم العجز والبخل والحاجة ، وقوله ﴿ عَلِيمٌ ﴾ يدل على عدم الجهل ، وإذا انتفت هذه الصفات امتنع المنع من الجزاء ، لأن منع الحق لا بد وأن يكون لأجل هذه الأمور والله أعلم ، إنما قال : ﴿ عَلِيمٌ بالمتقين ﴾ مع أنه عالم بالكل بشارة للمتقين بجزيل الثواب ودلالة على أنه لا يفوز عنده إلا أهل التقوى .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 168.167 ﴾

وقال العلامة الطبرى :

فتأويل الآية إذاً ، على ما اخترنا من القراءة : وما تفعل هذه الأمة من خير ، وتعمل من عمل لله فيه رضًى ، فلن يكفُرهم الله ذلك ، يعني بذلك : فلن يبطل الله ثوابَ عملهم ذلك ، ولا يدعهم بغير جزاء منه لهم عليه ، ولكنه يُجزل لهم الثواب عليه ، ويسني لهم الكرامة والجزاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 7 صـ 132 ﴾

وقال العلامة أبو السعود :

﴿ والله عَلِيمٌ بالمتقين ﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ ما قبله ، فإن علمَه تعالى بأحوالهم يستدعي توْفيةَ أجورِهم لا محالة ، والمرادُ بالمتقين إما الأمةُ المعهودةُ ، وضع موضِعَ الضميرِ العائدِ إليهم مدحاً لهم وتعييناً لعُنوان تعلّقِ العلمِ بهم وإشعاراً بمناط إثابتِهم هو التقوى المنطويةُ على الخصائص السالفةِ وإما جنسُ المتقين عموماً وهم مندرجون تحت حُكمِه اندراجاً أولياً .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 74 ﴾

لطيفة

قال البيضاوى :

﴿ والله عَلِيمٌ بالمتقين ﴾ بشارة لهم وإشعار بأن التقوى مبدأ الخير وحسن العمل ، وأن الفائز عند الله هو أهل التقوى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 81 ﴾

من فوائد العلامة ابن عاشور فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾

تذييل للجمل المفتتحة بقوله تعالى : ﴿ من أهل الكتاب أمّة قائمة ﴾ [آل عمران : 113] إلى قوله ﴿ من الصالحين ﴾ [آل عمران : 114] وقرأ الجمهور : تفعلوا بالفوقية فهو وعد للحاضرين ، ويعلم منه أنّ الصّالحين السّابقين مثلهم ، بقرينة مقام الامتنان ، ووقوعه عقب ذكرهم ، فكأنَّه قيل : وما تفعلوا من خير ويَفعلوا .

ويجوز أن يكون إلتفاتاً لخطاب أهل الكتاب .

وقرأه حمزة ، والكسائي ، وحفص ، وخلف بياء الغيبة عائداً إلى أمّة قائمة .

والكفر : ضد الشكر أي هو إنكار وصول النّعمة الواصلة .

قال عنترة :

نبئْتُ عَمْرا غيرَ شاكر نعمتي

والكفْرُ مَخْبَثَةٌ لِنَفْسسِ المنعم . . .

وقال تعالى ﴿ واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ وأصل الشكر والكفر أن يتعديا إلى واحد ،

ويكون مفعولهما النّعمة كما في البيت .

وقد يجعل مفعولهما المنعم على التوسّع في حذف حرف الجرّ ، لأن الأصل شكرت له

وكفرت له .

قال النابغة :

شكرتُ لك النعمي

وقد جمع بين الاستعمالين قوله تعالى ﴿ واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ [البقرة : 152]

وقد عدّي ﴿ تُكْفَروه ﴾ هنا إلى مفعولين : أحدهما نائب الفاعل ، لأن الفعل ضمّن معنى

الحرمان .

والضّمير المنصوب عائد إلى خير بتأويل خير بجزاء فعل الخير على طريقة الاستخدام

وأطلق الكفر هنا على ترك جزاء فعل الخير ، تشبيهاً لفعل الخير بالنّعمة .

(279/127)

كأنّ فاعل الخير أنعم على الله تعالى بنعمته مثل قوله ﴿ إن تقُرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ [التغابن : 17] فحذف المشبّه ورمز إليه بما ه من لوازم العرفية .

وهو الكفر ، على أنّ في القرينة استعارة مصرّحة مثل ﴿ ينقضون عهدَ الله ﴾ [البقرة : 27] .

وقد أمتنّ الله علينا إذ جعل طاعتنا إيّاه كنعمة عليه تعالى ، وجعل ثوابها شُكراً ، وتَرْك ثوابها كفراً فنفاه .

وسمّى نفسه الشكور .

وقد عدّي الكفر أن هنا إلى النعمة على أصل تعديته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 196 . 197 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (115)

لن يخيبَ عن بابه قاصد ، ولم يخسر عليه (تاجر) ، ولم يستوحش معه مصاحب ، ولم يَذِلّ له طالب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 271 ﴾

(280/127)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾

وهذا ما حدث بالفعل ، لكن أي آيات لله كانوا يتلونها ؟ إنها الآيات المهيمنة ، آيات القرآن ولماذا يقول الحق : ﴿ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ وهل هناك قراءة للقرآن ساعة السجود ؟ حتى نعرف تفسير ذلك لا بد لنا أن نعرف أن اليهود لا يصلون العتمة ، أي الصلاة في الليل ، وحتى يعطيهم الله السمة الإسلامية قال عنهم : ﴿ يَسْجُدُونَ ﴾ ويُعَرِّفهم بأنهم يقيمون صلاة العتمة ، - العشاء - وهي صلاة المسلمين ، وما داموا يصلون صلوات المسلمين ويسجدون ، إذن فهم مسلمون أو نفهم من قوله : ﴿ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ أن الصلاة عنوان الخضوع ، والسجود أقوى سمات الخضوع في الصلاة . ما داموا يصلون فلا بد أنهم يتلون آيات الله آناء الليل وهم يؤدون الصلاة بخشوع كامل . ونعرف أن من حسن العبادة في الإسلام ، ومن السنن المعروفة قراءة القرآن ليلا ، وصلاة التهجد ، وهذه في مدارج العملية الإيمانية التي يدخل بها الإنسان إلى مقام الإحسان .

و ﴿ آنَآءَ ﴾ جمع "إني" مثلها مثلٍ "أمعاء" جمع "معي" . و "آنَآءَ" هي مجموع الأوقات في الليل ، وليست في "إني" واحد . فهناك مؤمن يقرأ القرآن في وقت من الليل ، ومؤمن آخر يقرأ القرآن في وقت آخر ، وكأن المؤمنين يقطعون الليل في قراءة للقرآن ، والذي يدخل مع ربه في مقام الإحسان ، فهو لا يصلي فقط صلاة العتمة وهي ستأخذ "إِنّي" واحدا ، أي وقتا واحدا ، ولكنه عندما يصلي في آناء الليل فذلك دليل على أنه يكرر الصلاة ، وزاد عن المفترض عليه ، وما دام قد زاد عن المفترض ، فهو لا يكتفي بتلاوة القرآن لأنه يريد أن يدخل في مقام الإحسان ، أي أنه وجد ربه أهلا لأن يصلي له أكثر مما افترض عليه ، كأنه قد قال لنفسه : أنت كلفتني يا رب بخمس صلوات لكنك يا رب تستحق أكثر من ذلك وكأن هذا البعض من أهل الكتاب لم يكتفوا بإعلان الإيمان بالإسلام فقط ، ولكنهم دخلوا بثقلهم ، فصلوا آناء الليل . وأحبوا أن ينطبق عليهم قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ [الذاريات : 15-16]

ما معنى "محسن" ؟ إنها وصف للإنسان الذي آمن بربه فعبد الله بأكثر مما افترض تعبدنا الله بخمس صلوات فنزيدها لتصل إلى عشرين مَثَلاً ، ونحن تعبدنا الله بصيام شهر في العام ومنا من يصوم في كل شهر عددا من الأيام .

العام ومنا من يصوم في كل شهر عددا من الأيام .

وتعبدنا بالزكاة بالنصاب ، ومنا من يزيد على النصاب ، وتعبدنا سبحانه بالحج مرة ، ومنا من يزيد عدد مرات الحج . فحين يريد العبد أن يدخل في مقام الإحسان فبابه هو أداء عبادات من جنس ما تعبده الله به ؛ فالعبد لا يخترع أو يقترح العبادة التي يعبد بها الله ، ولكنه يزيد فيما افترضه الله .

(282/127)

وهؤلاء الذين آمنوا بالله من أهل الكتاب ويتحدث عنهم القرآن ، لقد دخلوا بثقلهم في الإسلام فصلوا آناء الليل وقرءوا القرآن ، ودخلوا مقام الإحسان ، وأرادوا أن يطبقوا القول الحق :

﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾

[الذاريات : 17]

أي أنهم ما داموا قد صلوا في الليل ، وقليلا ما هجعوا فلا بد أنهم قد أدوا الصلاة في آناء كثيرة من الليل . ونحن حين ندخل في مقام الإحسان ونصلي في الليل ، ونكون بارزين إلى السماء فلا يفصلنا شيء عنها ، وننظر فنجد نجوما لامعة تحت السماء الدنيا ، وأهل السماء ينظرون للأرض فيجدون مثلما نجد من النجوم المتلألئة اللامعة في الأرض ،

ويسألون عنها فيقال لهم : إنها البيوت التي يصلي أهلها آناء الليل وهم يسجدون ، وكل بيت فيه هذا يضيء كالنجوم لأهل السماء. . ويضيف الحق في صفات هؤلاء : ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ وهل فرض الله على خلقه بأن يصلوا آناء الليل فلا يهجعون إلا قليلا من الليل ؟ لا ، ولكن من يريد أن يدخل في مقام الإحسان ، فهو يفعل ذلك . أما المسلم العادي فيكتفي بصلاة العشاء ، وعندما يأتي الصبح فهو يؤدي الفريضة . لكن من يدخل في مقام الإحسان فقليلا من الليل ما يهجع . وينطبق عليه القول الحق :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾

[الذاريات : 15-19]

وهذه دقة البيان القرآني التي توضح مقام الإحسان ، فيكون في ما لهم حق للسائل والمحروم ، وليس هناك قدر معلوم للمال الذي يخرج ، لأن المقام هنا مقام الإحسان الذي يعلو مقام الإيمان ، ومقام الإيمان - كما نعرف - قد جاء ذكره في قوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾

[المعارج: 24-26]

فالإنسان في مقام الإيمان قد يقيد الإخراج من ماله بحدود الزكاة أو فوقها قليلا ، لكن في مقام الإحسان فلا حدود لما يخرج من المال . وهكذا نعرف أن أهل الكتاب ليسوا سواء ؛ فمنهم من دخل الإسلام من باب الإحسان ، فقال فيهم الحق : ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَآءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ ، وكأن الحق بهذا الاستثناء الواضح . ويؤكد لنا أننا لا يصح أن نظن أن أهل الكتاب جميعهم هم الذين جاء فيهم قوله : ﴿ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ لا ؛ فأهل الكتاب ليسوا سواء ، ولذلك لا يكون حكم الله منسحبا عليهم جميعا ، فمن أهل الكتاب جماعة قائمة بتلاوة القرآن آناء الليل وهم يسجدون ، إنهم أمة قائمة ، وكلمة " قائم " هي ضد " قاعد " ، والقعود غير الجلوس ، فالجلوس يكون عن الاضطجاع فيقال : كان مضطجعا فجلس .

لكن عندما نقول : "كان قائما " فإننا نقول فقعد ، فالقعود يكون بعد القيام . والقعود في الصلاة مريح ، أما القيام فهو غير مريح ، ونحن نعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقف في الصلاة حتى تتورم قدماه ؛ لأن الثقل كله على القدمين ، ولكن عندما نقعد فنحن نوزع الثقل على جملة أعضاء الجسم . وعندما يصفهم الحق : ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ﴾ فمعنى ذلك أنهم أخذوا أمانة أداء الفروض بكل إخلاص ، وكانوا يؤدون الصلاة باستدامة وخشوع . ويستمر الحق في وصفهم في الآية التالية : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَائِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وهم بالإيمان بالله واليوم الآخر ، وبالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، إنما يتصفون بالصفات التي أوردها الله صفة لخير أمة أُخرجت للناس وهي أمة محمد صلى الله عليه وسلم . لقد دخل هذا البعض من أهل الكتاب بثقلهم – ومن أول الأمر – في مقام الإحسان ، وما داموا قد دخلوا في مقام الإحسان فهم بحق كانوا مستشرفين لظهور النبي الجديد . وبمجرد أن جاء النبي الجديد تلقفوا الخيط وآمنوا برسالته ، وصاروا من خير أمة أخرجت للناس . ويكمل الحق سبحانه صفاتهم بقوله : ﴿ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ وهذا كمثل قوله سبحانه وتعالى في حق المؤمنين :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

[آل عمران : 133]

ونحن نعرف أن هناك فرقا بين " السرعة " و " العجلة " فـ " السرعة " و " العجلة " يلتقيان في تقليل الزمن بالنسبة للحدث ، ومثال ذلك أن يقطع إنسان المسافة من مكان إلى مكان في زمن معين ، والذي يسرع في قطع المسافة هو الذي يستغرق من الزمن أقل وقت ممكن ولكن هناك اختلاف بين السرعة والعجلة ، وأول خلاف بينهما يتضح في المقابل ، فمقابل السرعة الإبطاء ، ويقال : فلان أسرع ، وعلان أبطأ ومقابل " العجلة " هو " الأناة " فيقال : فلان تأنى في اتخاذ القرار . فالسرعة ممدوحة ومقابلها وهو " الإبطاء " مذموم ، " والعجلة " مذمومة ، ومقابلها هو التأني ممدوح ؛ لأن السرعة هي التقدم فيما ينبغي التقدم فيه ، والعجلة هي التقدم فيما لا ينبغي التقدم فيه ، ولذلك قيل في الأمثال : " في العجلة الندامة وفي التأني السلامة " وقال الحق :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

[آل عمران : 133]

وهو سبحانه : هنا يقول ﴿ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ أي كلما لمحت لهم بارقة في الخير فهم يسرعون إليها ، أي أنهم يتقدمون فيما ينبغي التقدم فيه ، إنهم يعلمون أن الإسراع إلى

الخير حدث ، وكل حدث يقتضي حركة ، والحركة تقتضي متحركا . والمتحرك يقتضي حياة ، فما الذي يضمن للإنسان أن تظل له حياة ، لذلك يجب أن تسرع إلى الخيرات ، وسيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وأرضاه كان ينام القيلولة ، وكان حاجبه يمنع الناس من إيقاظ الخليفة ، فجاء ابن عمر بن عبد العزيز وقال للحاجب :

(286/127)

أريد أن أدخل على أمير المؤمنين الساعة ، فمنعه الحاجب قائلا : إنها ساعة يستريح فيها وهو لا يستريح من الليل أو النهار إلاّ فيها ، فدعه ليستريح . وسمع سيدنا عمر بن عبد العزيز الضجة ، فسأل الحاجب . قال الحاجب : إنه ابنك ، ويريد أن يدخل عليك وأنا أطالبه ألا يدخل حتى تستريح . قال عمر بن عبد العزيز للحاجب : دعه يدخل . فلما دخل الابن على أبيه ، قال الابن : يا أبي بلغني أنك ستخرج ضيعة كذا لتقفها في سبيل الله . قال عمر بن عبد العزيز ؛ أفعل إن شاء الله . غدا نبرمها . قال الابن متسائلا : هل يبقيك الله إلى غد ؟ فقال عمر بن عبد العزيز وهو يبكي : الحمد لله الذي جعل من أولادي من يعينني على الخير .

لقد أراد الابن من أبيه أن يسارع إلى الخير ، فما دامت هبة الخير قد هبّت عليه فعلى

الإنسان أن يأخذ بها ؛ لأن الإنسان لا يدري أغيار الأحداث في نفسه ، لذلك فعليه أن يسارع إلى اقتناص هبة الخير ، وها هو ذا ابن عمر بن عبد العزيز يعين والده على الخير ، لكننا في زمننا قد نجد من الأبناء من يطلب الحَجْر على أبيه إن فكر الأب في فعل الخير ، متناسين قول الحق : ﴿ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

وهنا يبرز سؤال هو : لأي عمل هم صالحون ؟

والإجابة تقتضي قليلا من التأمل ، إننا نقول في حياتنا : "إن فلانا رجل صالح" ومقابله "رجل طالح" . والإنسان صالح للخلافة ، فقد جعل الله آدم وذريته خلفاء في الأرض ، والرجل الصالح يرى الشيء الصالح في ذاته فيترك هذا الشيء على ما هو عليه أو يزيده صلاحا . أما الرجل الطالح أو المفسد فهو يأتي إلى الشيء الصالح فيفسده ، ولا يفعل صلاحا .

(287/127)

إن الرجل – على سبيل المثال – قد يجد بئرا يأخذ منه الناس الماء ، فإن لم يكن من أهل العزم فإنه يتركه على حاله . وإن كان طالحا فقد يردم البئر بالتراب . أما إن كان الرجل من أهل الصلاح والعزم فهو يحاول أن يبدع في خدمة الناس التي تستقي من البئر ، فيفكر ليبني

خزانا عاليا ويسحب الماء من البئر بآلة رافعة ، ويخرج من الخزان أنابيب ويمدها إلى البيوت ، فيأخذ الناس المياه وهم في المنازل ، إن هذا الرجل قد استخدم فكره في زيادة صلاح البئر .

إذن فكلمة " رجل صالح " تعني أنه صالح لأن يكون خليفة في الأرض وصالح لاستعمار الأرض أي أن يجعلها عامرة ، فيترك الصالح في ذاته ، أو يزيده صالحا ، ويحاول أن يصلح أي أمر غير صالح . الرجل الصالح عندما يعمل فهو يحاول أن يجعل عمله عن عمق علم ، فلا يقدم على العمل الذي يعطي سطحية نفع ثم يسبب الضرر من بعد ذلك .

ومثال ذلك حين اخترعوا المبيدات الحشرية ظنوا أنهم تغلبوا على الآفات في الزراعة ، لكنهم لم يعرفوا أنهم قد أضروا بالزراعة وبالبيئة أكثر مما أفادوا ، لذلك عادوا يقولون : لا تستعملوا هذه المبيدات ؛ لأنها ذات أضرار جمة ، ولهذا لا بد أن يكون كل عمل قائما على قواعد علمية سليمة ، ولنقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾

[الإسراء : 36] وقوله سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾

[الكهف : 103-104]

(288/127)

إذن فقد كرم الله من آمن من أهل الكتاب فوصفهم الوصف الحقيقي ، فهم يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، ويؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويسارعون في الخيرات ، ثم يحكم الحق عليهم حكما عاما بأنهم من الصالحين لعمارة الكون والخلافة في الأرض .

ومن بعد ذلك يضيف الحق : ﴿ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ .

إنه سبحانه يعطيهم الجزاء العادل ، وإن شيئا لا يضيع عنده وهو الحق ؛ فالخير الذي يفعلونه لن يُجحد لهم أو يستتر عن الناس ؛ لأنه سبحانه عليم بالمتقين ، فمن الجائز أن يصنع إنسان الأعمال ولا يراها أحد ، أما الحق فهو يرى كل عمل ، وهو الذي يملك حسن الجزاء . وبعد ذلك يعود الحق لتبيان حال الذين كفروا فيقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1687 . 1693 ﴾

(289/127)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرَيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والعشرون بعد المائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثامن والعشرون بعد المائة

من الآية ﴿ 116 ﴾ من سورة آل عمران

وحتى الآية ﴿ 120 ﴾ من نفس السورة

(4/128)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (116) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما رغبهم في الإنفاق بما يشمل كل خير وأخبرهم بأنه عالم بدقة وجله ، وأخبر أن ذلك كان دأب إسرائيل عليه الصلاة والسلام على وجه أنتج أن بنيه كاذبون في ادعائهم أنهم على ملة جده إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ثم حذر منهم وختم ما ختمه بالمتقين بالترغيب في الخير بما اندرج فيه الإنفاق الذي قدم أول السورة أنه من صفة المتقين المستغفرين بالأسحار التي هي أشرف آناء الليل وكان مما يمنع منه خوفُ الفقر والنزول عن حال الموسرين من الكفار المفاخرين بالإكثار المعيرين بالإقلال من المال والولد وقوفاً مع الحال الدنيوي ، وكان

قد أخبر أنه لا يقبل من أحد منهم في الآخرة ملء الأرض ذهباً ، أعقب هذا بمثل ذلك على وجه أعم فقال - واصفاً أضداد من تقدم ، نافياً ما يعتقدون من أن أعمالهم الصورية تنفعهم - : ﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي بالله بالميل عن المنهج القويم وإن ادعوا الإيمان به نفاقاً أو غيره ﴿ لن تغني عنهم أموالهم ﴾ أي وإن كثرت ﴿ ولا أولادهم ﴾ وإن عظمت ﴿ من الله ﴾ أي الملك الذي لا كفوء له ﴿ شيئاً ﴾ أي من الإغناء تأكيداً لما قرر من عدم نصرة أهل الكتاب الذين حملهم على إيثار الكفر على الإيمان استجلاب الأموال والرئاسة على الأتباع على وجه يعم جميع الكفار - كما قال في أول السورة - سواءً .

ولما كان التقدير : فأولئك هم الخاسرون ، عطف عليه قوله : ﴿ وأولئك أصحاب النار ﴾ أي هم مختصون بها ، ثم استأنف ما يفيد ملازمتها فقال : ﴿ هم فيها خالدون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 139 ﴾

وقال الفخر :

(5/128)

اعلم أنه تعالى ذكر في هذه الآيات مرة أحوال الكافرين في كيفية العقاب ، وأخرى أحوال المؤمنين في الثواب جامعاً بين الزجر والترغيب والوعد والوعيد ، فلما وصف من آمن من

الكفار بما تقدم من الصفات الحسنة أتبعه تعالى بوعيد الكفار ، فقال : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أموالهم وَلاَ أولادهم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 168 ﴾

فصل

قال الفخر :

في قوله ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ قولان

الأول : المراد منه بعض الكفار ثم القائلون بهذا القول ذكروا وجوهاً

أحدها : قال ابن عباس : يريد قريظة والنضير ، وذلك لأن مقصود رؤساء اليهود في معاندة الرسول ما كان إلا المال والدليل عليه قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ وَلاَ تَشْتَرُواْ بآياتي ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ [البقرة : 41]

وثانيها : أنها نزلت في مشركي قريش ، فإن أبا جهل كان كثير الافتخار بماله ولهذا السبب نزل فيه قوله ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً ورئيا ﴾ [مريم : 74] وقوله ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزبانية ﴾ [العلق : 17 ، 18]

وثالثها : أنها نزلت في أبي سفيان ، فإنه أنفق مالاً كثيراً على المشركين يوم بدر وأحد في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم . (1)

---

(1) لا يخفى ما فى هذا الوجه من الفساد والبطلان فإن أبا سفيان قد أسلم وحسن

إسلامه فصار من أهل السعادة وهذا يتنافى ما عجز الآية وهو قوله تعالى ﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ والأولى . والله أعلم . حمل الآية على من مات كافرا .

(6/128)

والقول الثاني : أن الآية عامة في حق جميع الكفار ، وذلك لأنهم كلهم كانوا يتعززون بكثرة الأموال ، وكانوا يعيرون الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه بالفقر ، وكان من جملة شبههم أن قالوا : لو كان محمد على الحق لما تركه ربه في هذا الفقر والشدة ولأن اللفظ عام ، ولا دليل يوجب التخصيص فوجب إجراؤه على عمومه ، وللأولين أن يقولوا : إنه تعالى قال بعد هذه الآية ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ ﴾ [آل عمران : 177] فالضمير في قوله ﴿ يُنفِقُونَ ﴾ عائد إلى هذا الموضع ، وهو قوله ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ ثم إن قوله ﴿ يُنفِقُونَ ﴾ مخصوص ببعض الكفار ، فوجب أن يكون هذا أيضاً مخصوصاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 168 ﴾

(7/128)

فصل

قال الفخر :

إنما خص تعالى الأموال والأولاد بالذكر لأن أنفع الجمادات هو الأموال وأنفع الحيوانات هو الولد ، ثم بيّن تعالى أن الكافر لا ينتفع بهما ألبتة في الآخرة ، وذلك يدل على عدم انتفاعه بسائر الأشياء بطريق الأولى ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : 88 ، 89] وقوله ﴿ واتقوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾ [البقرة : 48] الآية وقوله ﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مّلْء الأرض ذَهَبًا وَلَوِ افتدى بِهِ ﴾ [آل عمران : 91] وقوله ﴿ وَمَا أموالكم وَلاَ أولادكم بالتى تُقَرّبُكُمْ عِندَنَا زلفى ﴾ [سبأ : 37] ولما بيّن تعالى أنه لا انتفاع لهم بأموالهم ولا بأولادهم ، قال : ﴿ وَأُوْلَئِكَ أصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 169.168 ﴾

وقال ابن عطية :

وخص الله تعالى " الأموال والأولاد " بالذكر لوجوه .

منها أنها زينة الحياة الدنيا ، وعظم ما تجري إليه الآمال ، ومنها أنها ألصق النصرة بالإنسان وأيسرها ، ومنها أن الكفار يفخرون بالآخرة لا همة لهم إلا فيها هي عندهم غاية المرء وبها كانوا يفخرون على المؤمنين ، فذكر الله أن هذين اللذين هما بهذه الأوصاف لا غناء فيهما

من عقاب الله في الآخرة ، فإذا لم تغن هذه فغيرها من الأمور البعيدة أحرى أن لا يغني .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 494 ﴾

فائدة

قال البغوى :

﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وإنما جعلهم من أصحابها لأنهم أهلها لا يخرجون منها ولا يفارقونها ، كصاحب الرجل لا يفارقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البغوى حـ 2 صـ 94 ﴾

(8/128)

فصل

قال الفخر :

واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن فساق أهل الصلاة لا يبقون في النار أبداً فقالوا قوله ﴿ وَأُوْلَئِكَ أَصحاب النار ﴾ كلمة تفيد الحصر فإنه يقال : أولئك أصحاب زيد لا غيرهم وهم المنتفعون به لا غيرهم ولما أفادت هذه الكلمة معنى الحصر ثبت أن الخلود في النار ليس إلا للكافر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 169 ﴾

من فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أموالهم وَلاَ أولادهم مّنَ الله شَيْئاً ﴾ مؤكداً لذلك ولهذا فصل .

والمراد من الموصول إما سائر الكفار فإنهم فاخروا بالأموال والأولاد حيث قالوا : ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أموالا وأولادا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ : 35] فرد الله تعالى عليهم بما ترى عليهم ، وإما بنو قريظة وبنو النضير حيث كانت معالجتهم بالأموال والأولاد . وروي هذا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وقيل : مشركو قريش وقيل وقيل ولعل من ادعى العموم وهو الظاهر قال بدخول المذكورين دخولاً أولياً ، والمراد من الإغناء الدفع ، ويقال : أغنى عنه إذا دفع عنه ضرراً لولاه لنزل به أي لن تدفع عنهم يوم القيامة أموالهم التي عولوا عليها في المهمات ولا من هو أرجى من ذلك وأعظم عندهم وهم أولادهم من عذاب الله تعالى لهم شيئاً يسيراً منه ، وقال بعضهم : المراد بالاغناء الإجزاء ، ويقال : ما يغني عنك هذا أي ما يجزي عنك وما ينفعك ، ومن للبدل أو الابتداء ، وشيئاً مفعول مطلق أي لن يجزي عنهم ذلك من عذاب الله تعالى شيئاً من الإجزاء ، وعلى التفسير الأول للإغناء وجعل هذا معنى حقيقياً له دونه يقال بالتضمين وأمر المفعولية عليه ظاهر لتعديه حينئذ .

﴿ وَأُوْلَئِكَ ﴾ أي الموصوفون بالكفر بسبب كفرهم ﴿ أصحاب النار ﴾ أي ملازموها وهو معنى الأصحاب عرفاً . ﴿ هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ تأكيد لما يراد من الجملة الأولى واختيار الجملة الاسمية للايذان بالدوام والاستمرار وتقديم الظرف محافظة على رؤوس الآي. انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 35 . 36 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

استئناف ابتدائي للانتقال إلى ذكر وعيد المشركين بمناسبة ذكر وعد الذين آمنوا من أهل الكتاب .

وإنَّما عطف الأولاد هنا لأن الغَناء في متعارف النّاس يكون بالمال والولد ، فالمال يدفع به المرءُ عن نفسه في فداء أو نحوه ، والولد يدافعون عن أبيهم بالنصر ، وقد تقدّم القول في مثله في طالعة هذه السورة .

وكرّر حرف النّفي مع المعطوف في قوله ﴿ ولا أولادهم ﴾ لتأكيد عدم غناء أولادهم عنهم لدفع توّهم ما هو متعارف من أن الأولاد لا يقعدون عن الذبّ عن آبائهم .

ويتعلق ﴿ من الله ﴾ بفعل ﴿ لن تغني ﴾ على معنى (من) الابتدائية أي غناء يصدر

من جانب الله بالعفو عن كفرهم .

وانتصب (شيئًا) على المفعول المطلق لفعل ﴿ لن تغني ﴾ أي شيئًا من غِناء .

وتنكير شيئًا للتقليل .

وجملة ﴿ وأولئك أصحاب النار ﴾ عطف على جملة ﴿ لن تغني عنه أموالهم ولا أولادهم ﴾ .

وجيء بالجملة معطوفة ، على خلاف الغالب في أمثالها أن يكون بدون عطف ، لقصد أن تكون الجملة منصبّاً عليها التّأكيد بحرف (إنّ) فيكمل لها من أدلّة تحقيق مضمونها خمسة أدلة هي : التّأكيد بـ ﴿ إن ﴾ ، وموقع اسم الإشارة ، والإخبار عنهم بأنّهم أصحاب النّار ، وضمير الفصل ، ووصف خالدون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 197 ﴾

(10/128)

وقال العلامة الطبرى :

وهذا وعيدٌ من الله عز وجل للأمة الأخرى الفاسقة من أهل الكتاب ، الذين أخبر عنهم بأنهم فاسقون ، وأنهم قد باؤوا بغضب منه ، ولمن كان من نظرائهم من أهل الكفر بالله

ورسوله وما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله .

يقول تعالى ذكره : "إن الذين كفروا" ، يعني : الذين جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكذبوا به وبما جاءهم به من عند الله "لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا" ، يعني : لن تدفع أمواله التي جمعها في الدنيا ، وأولاده الذين ربَّاهم فيها ، شيئًا من عقوبة الله يوم القيامة إن أخرها لهم إلى يوم القيامة ، ولا في الدنيا إنْ عجَّلها لهم فيها .

وإنما خصّ أولاده وأمواله ، لأن أولاد الرجل أقربُ أنسبائه إليه ، وهو على ماله أقدر منه على مال غيره ، وأمرُه فيه أجوز من أمره في مال غيره . فإذا لم يغن عنه ولده لصلبه ، وماله الذي هو نافذ الأمر فيه ، فغير ذلك من أقربائه وسائر أنسبائه وأموالهم ، أبعد من أن تغني عنه من الله شيئًا .

ثم أخبر جل ثناؤه أنهم هم أهل النار الذين هم أهلها بقوله : "وأولئك أصحاب النار" .

وإنما جعلهم أصحابها ، لأنهم أهلها الذين لا يخرجون منها ولا يفارقونها ، كصاحب الرجل الذي لا يفارقه ، وقرينه الذي لا يزايله .

ثم وكد ذلك بإخباره عنهم إنهم "فيها خالدون" ، أنّ صحبتهم إياها صحبة لا انقطاع لها ، إذْ كان من الأشياء ما يفارق صاحبه في بعض الأحوال ، ويزايله في بعض الأوقات ، وليس كذلك صحبة الذين كفروا النارَ التي أصْلوها ، ولكنها صحبة دائمة لا نهاية لها ولا

انقطاع. نعوذ بالله منها ومما قرَّب منها من قول وعمل. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 7 صـ 133. 134 ﴾

(11/128)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾

يظن الكافرون أن الأموال والأولاد قد تغني من الله، إنهم لا يحسنون التقدير، فالأموال والأولاد هما من مظان الفتنة مصداقا لقوله تعالى:

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

[الأنفال: 28]

وما دامت الأموال والأولاد فتنة فلا بد أن نفهم الأمر على حقيقته؛ فالفتنة ليست مذمومة في ذاتها؛ لأن معناها اختبار وامتحان، وقد يمر الإنسان بالفتنة، وينجح. كأن يكون عنده الأموال والأولاد، وهم فتنة بالفعل فلا يغره المال بل إنه استعمله في الخير، والأولاد لم يصيبوه بالغرور بل علمهم حمل منهج الله وجعلهم ينشأون على النماذج السلوكية في الدين،

لذلك فساعة يسمع الإنسان أي أمر فيه فتنة فلا يظن أنها أمر سيء بل عليه أن يتذكر أن الفتنة هي اختبار وابتلاء وامتحان، وعلى الإنسان أن ينجح مع هذه الفتنة ؛ فالفتنة إنما تضر من يخفق ويضعف عند مواجهتها . والكافرون لا ينجحون في فتنة الأموال والأولاد ، بل سوف يأتي يوم لا يملكون فيه هذا المال، ولا أولئك الأولاد ، وحتى إن ملكوا المال فلن يشتروا به في الآخرة شيئا ، وسيكون كل واحد من أولادهم مشغولا بنفسه ، مصداقا لقول الحق :

﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾

[لقمان : 33]

(12/128)

إن كل امرئ له يوم القيامة شأن يلهيه عن الآخرين، والكافرون في الدنيا مشغولون بأموالهم وأولادهم وعندما نتأمل قوله : ﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ ﴾ نجد أننا نقول : أغناه عن كذا أي جعله في استغناء فمن هو الغنيّ إذن ؟ الغني هو من تكون له ذاتية غير محتاجة إلى غيره ، فإن كان جائعا فهو لا يأكل من يد الغير، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : " ليس الغني عن

كثرة العرض، ولكن الغني غنى النفس".

والمقصود بالعَرَض هو متاع الحياة الدنيا قلّ أو كثر، ومتاع، وعرض الدنيا كالماء المالح، كلما شربت منه ازددت ظمأ. إن الكافر من هؤلاء يخدع نفسه ويغشها، ويغتر بالمال والأولاد وينسى أن الحياة تسير بأمر من يملك الملك كله، إن الكافر يأخذ مسألة الحياة في غير موقعها، فالغرور بالمال والأولاد في الحياة أمر خادع، فالإنسان يستطيع أن يعيش الحياة بلا مال أو أولاد. ومن يغتر بالمال أو الأولاد في الحياة يأتي يوم القيامة ويجد أمواله وأولاده حسرة عليه, لماذا ؟ لأنه كلما تذكر أن المال والأولاد أبعداه عما يؤهله لهذا الموقف فهو يعاني من الأسى ويقع في الحسرة.

ويقول الحق سبحانه عن هذا المغتر بالمال والأولاد وهو كافر بالله: ﴿ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وهذا مصير يليق بمن يقع في خديعة نفسه بالمال أو الأولاد.

وكيف يكون الإنسان صاحباً للنار ؟ لنعرف أولا معنى كلمة "الصاحب"، إن الصاحب هو الملازم؛ فنحن نقول: فلان صاحب فلان أي ملازمه، لكن من أين تبدأ الصحبة ؟. إن الذي يبدأ الصحبة هو "فلان" الأول، لـ "فلان الثاني" الذي يقبل الصحبة أو يرفضها، وهذا أمر قد نعرفه وقد لا نعرفه، وعن الصحبة مع النار نرى أن الإنسان يلوم نفسه ويؤنبها على أنه اختار النار وصاحبها.

ألسنا نرى في الحياة إنسانا قد ارتكب ذنبا وأصابه ضرر ، فيضرب نفسه ويقول : أنا الذي استأهل ما نزل بي وأستحقه ، وكذلك الإنسان الكافر يجد نفسه يوم القيامة ، وهو يدخل النار ، ويقول لنفسه : أنا أستحق ما فعلته بنفسي ، وتقول النار لحظتها ردا على سؤال الحق لها :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾

[ق : 30]

وفي الآخرة نرى أبعاض الإنسان الكافر وهي تبغض صاحبها ، فإذا كان للإنسان ولاية على أبعاضه في الدنيا ، وهي خاضعة لإرادته إلا أن هذه الأبعاض تأتي يوم القيامة وصاحبها خاضع لإرادتها . إن الظالم يقول ليده في الدنيا ، " اضربي فلانا وشددى الصفعة " فلم تعصه يده في الدنيا ؛ لأن الله خلقها خاضعة لإرادته ، والظالم لنفسه بالكفر يأمر لسانه أن ينطق كلمة الكفر ، فلا يعصاه اللسان في الدنيا ، لماذا ؟ لأن أبعاضه خاضعة لإرادته في الحياة الدنيا ، لكن ذلك الكافر يأتي يوم القيامة وتنعزل عن إرادته ، فتتحرر أبعاضه ، ولا تكون مرغمة على أن تفعل الأفعال التي لا ترتضيها ، وتتمرد الأبعاض على صاحبها ، وتشهد عليه . قد يقول قائل : ولكن الأبعاض هي التي تتعذب . نعم ، ولكنها تقبل العذاب تكفيرا عما فعلت .

إذن فالصحبة تبدأ من الأبعاض للنار ﴿ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ فإن رأينا كفارا يعملون خيرا في الدنيا فليحذر كل منا نفسه قائلا : إياك يا نفس أن تنخدعي بذلك الخير . لماذا ؟ لأن الكافر يعيش كفر القمة ، وكل عمل مع كفر القمة هو عمل حابط عند الله ، وإن كان غير حابط عند الناس . وبعد ذلك يقول الحق عن هؤلاء الكافرين :

﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَاذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1694 . 1696 ﴾

(14/128)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (116) ﴾

لا في الحال لهم بدل ولا في المآل عنهم خلف . في عاجلهم خسِروا ، وفي آجلهم في قطعٍ وهجْرٍ ، وبلاءٍ وخُسْرٍ ، وعذابٍ ونُكْر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 272 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (115) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (116)

أخرج ابن إسحق وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن ابن عباس قال : لما أسلم عبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سعية ، وأسيد بن سعية ، وأسد بن عبيد ، ومن أسلم من يهود معهم . فآمنوا وصدقوا ورغبوا في الإسلام قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم : ما آمن بمحمد وتبعه إلاّ شرارنا ، ولو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره . فأنزل الله في ذلك ﴿ ليسوا سواء ﴾ إلى قوله ﴿ وأولئك من الصالحين ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ ليسوا سواء ﴾ الآية . يقول : ليس كل القوم هلك ، قد كان لله فيهم بقية .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج في قوله ﴿ أمة قائمة ﴾ قال : عبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سلام أخوه ، وسعية ، ومبشر ، وأسيد ، وأسد ابنا كعب .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في الآية يقول : هؤلاء اليهود ليسوا كمثل هذه الأمة التي هي قانتة لله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ أمة قائمة ﴾ يقول : مهتدية ، قائمة على أمر الله لم تنزع عنه وتتركه كما تركه الآخرون وضيعوه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ أمة قائمة ﴾ قال : عادلة .

(16/128)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع ﴿ أمة قائمة ﴾ يقول : قائمة على كتاب الله ، وحدوده ، وفرائضه .

وأخرج ابن جرير عن الربيع ﴿ آناء الليل ﴾ قال : ساعات الليل .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله

﴿ آناء الليل ﴾ قال : جوف الليل .

وأخرج الفريابي والبخاري في تاريخه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله ﴿ ليسوا من أهل الكتاب أمة قائمة ﴾ قال : لا يستوي أهل الكتاب وأمة محمد ﴿ يتلون آيات الله آناء الليل ﴾ قال : صلاة العتمة هم يصلونها ، ومن سواهم من أهل الكتاب لا يصلونها .

وأخرج أحمد والنسائي والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني بسند حسن عن ابن مسعود قال : أخر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة صلاة العشاء ، ثم خرج إلى المسجد ، فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال " أما أنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم . ولفظ ابن جرير ، والطبراني ، وقال : إنه لا يصلي هذه الصلاة أحد من أهل الكتاب . قال : وأنزلت هذه الآية ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة ﴾ حتى بلغ ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في قوله ﴿ يتلون آيات الله آناء الليل ﴾ قال : قال بعضهم صلاة العتمة يصليها أمة محمد ولا يصليها غيرهم من أهل الكتاب .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والبيهقي في سننه عن معاذ بن جبل قال " أخر رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العتمة ليلة حتى ظن الظان أن قد صلى ، ثم خرج فقال : اعتموا بهذه الصلاة فإنكم فضلتم بها على سائر الأمم ، ولم تصلها أمة قبلكم " .

وأخرج الطبراني بسند حسن عن المنكدر عن النبي صلى الله عليه وسلم " أنه خرج ذات ليلة وقد أخر صلاة العشاء حتى ذهب من الليل هنيهة أو ساعة والناس ينتظرون في المسجد فقال : أما أنكم لن تزالوا في صلاة ما انتظرتموها ، ثم قال : أما إنها صلاة لم يصلها أحد ممن كان قبلكم من الأمم " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبزار بسند حسن عن ابن عمر " أن النبي صلى الله عليه وسلم أعتم بالعشاء ؛ فناداه عمر نام النساء والصبيان فقال : ما ينتظر هذه الصلاة أحد من أهل الأرض غيركم " .

وأخرج الطبراني بسند حسن عن ابن عباس " أن النبي صلى الله عليه وسلم أخر صلاة العشاء ثم خرج فقال : ما يحبسكم هذه الساعة ؟ قالوا : يا نبي الله انتظرناك لنشهد الصلاة معك فقال لهم : ما صلى صلاتكم هذه أمة قط قبلكم ، وما زلتم في صلاة بعد " .

وأخرج الطبراني بسند حسن عن عبد الله بن المستورد قال " احتبس النبي صلى الله عليه وسلم ليلة حتى لم يبق في المسجد إلا بضعة عشر رجلاً ، فخرج إليهم فقال : ما أمسى أحد ينتظر الصلاة غيركم " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن منصور قال : بلغني أنها نزلت ﴿ يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ فيما بين المغرب والعشاء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله ﴿ يتلون آيات الله آناء الليل ﴾ قال : هي صلاة الغفلة .

وأخرج ابن جرير عن أبي عمرو بن العلاء في قوله ﴿ وما تفعلوا من خير فلن تكفروه ﴾ قال : بلغني عن ابن عباس أنه كان يقرؤهما جميعاً بالتاء .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ فلن تكفروه ﴾ قال : لن يضل عنكم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ فلن تكفروه ﴾ قال : لن تظلموه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 296 ـ 298 ﴾

(18/128)

قوله تعالى ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (117) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ربما قيل : فما حال ما يبذلونه في المكارم ويواسون به في المغارم ؟ ضرب لذلك مثلاً جعله هباء منثوراً ، ضائعاً وإن كثر بوراً ، كأن لم يكن شيئاً مذكوراً ، بقوله سبحانه وتعالى جواباً لهذا السؤال : ﴿ مثل ما ينفقون ﴾ أي من المال ، وحقر قصدهم بتحقير محطه فقال : ﴿ في هذه الحياة الدنيا ﴾ أي على وجه القربة أو غيرها ، لكونهم ضيعوا الوجه الذي به يقبل ، وهو الإخلاص .

(19/128)

ومثل إنفاقهم له ومثل حرث أصيب بالريح ﴿ كمثل ريح فيها صر ﴾ أي برد شديد ﴿ أصابت حرث قوم ﴾ موصوفين بأنهم ﴿ ظلموا أنفسهم ﴾ أي بالبناء على غير أساس الإيمان ﴿ فأهلكته ﴾ فمثل ما ينفقون في كونه لم ينفعهم في الدنيا بإنتاج ما أرادوا في الدنيا وضرهم في الدارين ، أما في الدنيا فبضياعه في غير شيء ، وأما في الآخرة فبالمعاقبة عليه لتضييع أساسه وقصدهم الفاسد به ، مثل الزرع الموصوف فإنه لم ينفع أهله الموصوفين ، بل ضرهم في الدنيا بضياعه ، وفي الآخرة بما قصدوا به من المقصود الفاسد ، ومثل إنفاقهم له في كونه ضرهم ولم ينفعهم مثل الريح في كونها ضرت الزرع ولم تنفعه ، فلما كانت الريح الموصوفة أمراً مشاهداً جلياً جعلت في إهلاكها مثلاً لضياع أنفاقهم الذي هو أمر معنوي

خفي ، ولما كان الزرع المحترق أمراً محسوساً جعل فيما حصل له بعد التعب من العطب مثالاً لأمر معقول ، وهو أموالهم في كون إنفاقهم إياها لم يثمر لهم شيئاً غير الخسارة والتعب ، فالمثلان ضياع الرزع والإنفاق ، وضياع الزرع أظهر فهو مثل لضياع الإنفاق لأنه أخفى ، وقد بان أن الآية من الاحتباك : حذف أولاً مثل الإنفاق لدلالة الريح عليه ، وثانياً الحرث لدلالة ما ينفق عليه .

(20/128)

ولما كان سبحانه وتعالى موصوفاً بأنه الحكم العدل القائم بالقسط وأنه لا ينسى خيراً فعل قال دفعاً لتوهم أن ذلك بخس : ﴿ وما ظلمهم ﴾ أي الممثل بهم والممثل لهم ﴿ الله ﴾ الملك الأعظم الغنيّ الغِنى المطلق لأنه المالك المطلق ، وقد كفروا ، أما الممثل لهم فبكونهم أنفقوا على غير الوجه الذي شرعه ، وأما الممثل بهم فبكونهم لم يحرسوا زرعهم بالطاعات ، وفي الآية دليل على أن أهل الطاعات تحرس ضوائعهم من الآفات وتخرق فيها العادات ، ثم قال : ﴿ ولكن ﴾ لوما كان الممثل لأجلهم الذين كفروا أعم من أن يموتوا عليه أو يسلموا لم يعبر في الظلم بما تقتضيه الجبلة من فعل الكون وقال : الأساس بكفرهم ، وأن ظلمهم مقصور على أنفسهم ، لا يتعداها إلى غيرها وإن ظهر لإنفاقهم نكاية في عدوهم ، فإن

العاقبة لما كانت للمؤمنين كانت نكايتهم كالعدم ، بل هي زيادة في وبالهم ، فهي من ظلمهم لأنفسهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 139.140 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بيّن أن أموال الكفار لا تغني عنهم شيئاً ، ثم إنهم ربما أنفقوا أموالهم في وجوه الخيرات ، فيخطر ببال الإنسان أنهم ينتفعون بذلك ، فأزال الله تعالى بهذه الآية تلك الشبهة ، وبيّن أنهم لا ينتفعون بتلك الإنفاقات ، وإن كانوا قد قصدوا بها وجه الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 169 ﴾

فصل

قال الفخر :

المثل الشبه الذي يصير كالعلم لكثرة استعماله فيما يشبه به ، وحاصل الكلام أن كفرهم يبطل ثواب نفقتهم ، كما أن الريح الباردة تهلك الزرع .

فإن قيل : فعلى هذا التقدير مثل إنفاقهم هو الحرث الذي هلك ، فكيف شبه الإنفاق بالريح الباردة المهلكة .

قلنا : المثل قسمان : منه ما حصلت فيه المشابهة بين ما هو المقصود من الجملتين وإن لم تحصل المشابهة بين أجزاء الجملتين ، وهذا هو المسمى بالتشبيه المركب ، ومنه ما حصلت المشابهة فيه بين المقصود من الجملتين ، وبين أجزاء كل واحدة منهما ، فإذا جعلنا هذا المثل من القسم الأول زال السؤال ، وإن جعلناه من القسم الثاني ففيه وجوه الأول : أن يكون التقدير : مثل الكفر في إهلاك ما ينفقون ، كمثل الريح المهلكة للحرث الثاني : مثل ما ينفقون ، كمثل مهلك ريح ، وهو الحرث الثالث : لعلّ الإشارة في قوله ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ ﴾ إلى ما أنفقوا في إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في جمع العساكر عليه ، وكان هذا الإنفاق مهلكاً لجميع ما أتوا به من أعمال الخير والبر ، وحينئذ يستقيم التشبيه من غير حاجة إلى إضمار وتقديم وتأخير ، والتقدير : مثل ما ينفقون في كونه مبطلاً لما أتوا به قبل ذلك من أعمال البر كمثل ريح فيها صر في كونها مبطلة للحرث ، وهذا الوجه خطر ببالي عند كتابتي على هذا الموضع ، فإن انفاقهم في إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم من أعظم أنواع الكفر ومن أشدها تأثيراً في إبطال آثار أعمال البر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 169 . 170 ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في تفسير هذا الإنفاق على قولين

الأول: أن المراد بالإنفاق ههنا هو جميع أعمالهم التي يرجون الانتفاع بها في الآخرة سماه الله إنفاقاً كما سمى ذلك بيعاً وشراء في قوله ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ﴾ [التوبة: 111] إلى قوله ﴿ فاستبشروا بِبَيْعِكُمُ الذى بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ [التوبة: 111] ومما يدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: 92] والمراد به جميع أعمال الخير وقوله تعالى: ﴿ لاَ تَأْكُلُواْ أموالكم بَيْنَكُمْ بالباطل ﴾ [البقرة: 188] والمراد جميع أنواع الانتفاعات.

والقول الثاني: وهو الأشبه أن المراد إنفاق الأموال، والدليل عليه ما قبل هذه الآية وهو قوله ﴿ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أموالهم وَلاَ أولادهم ﴾ [آل عمران: 10]. انتهى انتهى. اهـ

﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 170﴾

فائدة

قال ابن عاشور:

ضَرَبَ لأعمالهم المتعلّقة بالأموال مثلاً، فشبّه هيئة إنفاقهم المعجب ظاهرُها، المخيِّب آخِرُها، حين يحبطها الكفر، بهيئة زرع أصابته ريح باردة فأهلكته، تشبيه المعقول

بالمحسوس .

ولمَّا كان التَّشبيه تمثيلياً لم يُتَوخ فيه مُوالاةُ ما شبّه به إنفاقهم لأداةِ التَّمثيل ، فقيل : كمثل ريح ، ولم يُقل : كمثل حَرْث قوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 198 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ ﴾ المراد منه جميع الكفار أو بعضهم ، فيه قولان :

الأول : المراد بالإخبار عن جميع الكفار ، وذلك لأن إنفاقهم إما أن يكون لمنافع الدنيا أو لمنافع الآخرة فإن كان لمنافع الدنيا لم يبقَ منه أثر ألبتة في الآخرة في حق المسلم فضلاً عن الكافر وإن كان لمنافع الآخرة لم ينتفع به في الآخرة لأن الكفر مانع من الانتفاع به ، فثبت أن جميع نفقات الكفار لا فائدة فيها في الآخرة ، ولعلّهم أنفقوا أموالهم في الخيرات نحو بناء الرباطات والقناطر والإحسان إلى الضعفاء والأيتام والأرامل ، وكان ذلك المنفق يرجو من ذلك الإنفاق خيراً كثيراً فإذا قدم الآخرة رأى كفره مبطلاً لآثار الخيرات ، فكان كمن زرع زرعاً وتوقع منه نفعاً كثيراً فأصابته ريح فأحرقته فلا يبقى معه إلا الحزن والأسف ، هذا

إذا أنفقوا الأموال في وجوه الخيرات ، أما إذا أنفقوها فيما ظنوه أنه الخيرات لكنه كان من المعاصي مثل إنفاق الأموال في إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم وفي قتل المسلمين وتخريب ديارهم ، فالذي قلناه فيه أسد وأشد ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23] وقال : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أموالهم لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ الله فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ [الأنفال : 36] وقوله ﴿ والذين كَفَرُواْ أعمالهم كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ [النور : 39] فكل ذلك يدل على الحسنات من الكفار لا تستعقب الثواب ، وكل ذلك مجموع في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ الله مِنَ المتقين ﴾ [المائدة : 27] وهذا القول هو الأقوى والأصح .

(24/128)

واعلم أنا إنما فسرنا الآية بخيبة هؤلاء الكفار في الآخرة ، ولا يبعد أيضاً تفسيرها بخيبتهم في الدنيا ، فإنهم أنفقوا الأموال الكثيرة في جمع العساكر وتحملوا المشاق ، ثم انقلب الأمر عليهم ، وأظهر الله الإسلام وقواه فلم يبق مع الكفار من ذلك الإنفاق إلا الخيبة والحسرة .

والقول الثاني : المراد منه الإخبار عن بعض الكفار ، وعلى هذا القول ففي الآية وجوه

الأول : أن المنافقين كانوا ينفقون أموالهم في سبيل الله ولكن على سبيل التقية والخوف من

المسلمين ، وعلى سبيل المداراة لهم ، فالآية فيهم ،

الثاني : نزلت هذه الآية في أبي سفيان وأصحابه يوم بدر عند تظاهرهم على الرسول عليه السلام

الثالث : نزلت في إنفاق سفلة اليهود على أحبارهم لأجل التحريف والرابع : المراد ما ينفقون ويظنون أنه تقرب إلى الله تعالى مع أنه ليس كذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 170 . 171 ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في ﴿ الصر ﴾ على وجوه

الأول : قال أكثر المفسرين وأهل اللغة : الصر البرد الشديد وهو قول ابن عباس وقتادة والسدي وابن زيد

والثاني : أن الصر : هو السموم الحارة والنار التي تغلي ، وهو اختيار أبي بكر الأصم وأبي بكر ابن الأنباري ، قال ابن الأنباري : وإنما وصفت النار بأنها ﴿ فِيهَا صِرٌّ ﴾ لتصويتها عند الالتهاب ، ومنه صرير الباب ، والصرصر مشهور ، والصرة الصيحة ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امرأته فِى صَرَّةٍ ﴾ [الذاريات : 29] وروى ابن الأنباري بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما في ﴿ فِيهَا صِرٌّ ﴾ قال فيها نار ، وعلى القولين فالمقصود من

التشبيه حاصل، لأنه سواء كان برداً مهلكاً أو حراً محرقاً فإنه يصير مبطلاً للحرث والزرع فيصح التشبيه به. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 171﴾

(25/128)

فائدة

قال ابن عاشور:

وفي قوله ﴿ فيها صرّ ﴾ إفادة شدّة برد هذه الريح، حتّى كأنّ جنس الصر مظروف فيها، وهي تحمله إلى الحرث.

والحرث هنا مصدر بمعنى المفعول: أي محروث قوم أي أرضاً محروثة والمراد أصابت زرعَ حرث.

وتقدّم الكلام على معاني الحرث عند قوله تعالى ﴿ والأنعام والحرث ﴾ [آل عمران: 14] في أول السورة.

وقوله ﴿ ظلموا أنفسهم ﴾ إدماج في خلال التمثيل يكسب التمثيل تفظيعاً وتشويهاً وليس جُزءاً من الهيئة المشبّه بها.

وقد يذكر البلغاء مع المُشبَّه به صفات لا يقصدون منها غير التحسين أو التقبيح كقول كعب

بن زهير :

شُجَّت بذي شبم من ماء مَحْنِيَة . . .

صافٍ بأبطحَ أضحى وهو مشمول

تنفي الرّياحُ القذى عنه وأفرطهُ . . .

من صَوْب سَارِيَةٍ بيض يعاليل

فأجرى على الماء الذي هو جزء المشبّه به صفات لا أثر لها في التشبيه .

والسامعون عالمون بأن عقاب الأقوام الذين ظلموا أنفسهم غاية في الشدّة ، فذكر وصفهم بظلم أنفسهم لتذكير السامعين بذلك على سبيل الموعظة ، وجيء بقوله ﴿ مثل ما ينفقون ﴾ غير معطوف على ما قبله لأنّه كالبيان لقوله ﴿ لن تغني عنهم أموالهم ﴾ .

وقوله ﴿ وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾ الضمائر فيه عائدة على الذين كفروا . والمعنى أنّ الله لم يظلمهم حين لم يتقبل نفقاتهم بل هم تسبّبوا في ذلك ، إذ لم يؤمنوا لأن الإيمان جعله الله شرطاً في قبول الأعمال ، فلما أعلمهم بذلك وأنذرهم لم يكن عقابه بعد ذلك ظلماً لهم ، وفيه إيذان بأنّ الله لا يخالف وعده من نفي الظلم عن نفسه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 198 . 199 ﴾

فصل

قال الفخر :

المعتزلة احتجوا بهذه الآية على صحة القول بالإحباط ، وذلك لأنه كما أن هذه الريح تهلك الحرث فكذلك الكفر يهلك الإنفاق ، وهذا إنما يصح إذا قلنا : إنه لولا الكفر لكان ذلك الإنفاق موجباً لمنافع الآخرة وحينئذ يصح القول بالإحباط ، وأجاب أصحابنا عنه بأن العمل لا يستلزم الثواب إلا بحكم الوعد ، والوعد من الله مشروط بحصول الإيمان ، فإذا حصل الكفر فات المشروط لفوات شرطه ؛ لأن الكفر أزاله بعد ثبوته ، ودلائل بطلان القول بالإحباط قد تقدمت في سورة البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 171 ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾

سؤال : لم لم يقتصر على قوله ﴿ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ﴾ وما الفائدة في قوله ﴿ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ ؟ .

قلنا : في تفسير قوله ﴿ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ وجهان

الأول : أنهم عصوا الله فاستحقوا هلاك حرثهم عقوبة لهم ، والفائدة في ذكره هي أن الغرض تشبيه ما ينفقون بشيء يذهب بالكلية حتى لا يبقى منه شيء ، وحرث الكافرين الظالمين

هو الذي يذهب بالكلية ولا يحصل منه منفعة لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فأما حرث المسلم المؤمن فلا يذهب بالكلية لأنه وإن كان يذهب صورة فلا يذهب معنى ، لأن الله تعالى يزيد في ثوابه لأجل وصول تلك الأحزان إليه

والثاني : أن يكون المراد من قوله ﴿ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ هو أنهم زرعوا في غير موضع الزرع أو في غير وقته ، لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، وعلى هذا التفسير يتأكد وجه التشبيه ، فإن من زرع لا في موضعه ولا في وقته يضيع ، ثم إذا أصابته الريح الباردة كان أولى بأن يصير ضائعاً ، فكذا ههنا الكفار لما أتوا بالإنفاق لا في موضعه ولا في وقته ثم أصابه شؤم كفرهم امتنع أن لا يصير ضائعاً ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 171 ﴾

(27/128)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ الله ولكن أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

قال الفخر :

والمعنى أن الله تعالى ما ظلمهم حيث لم يقبل نفقاتهم ، ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث أتوا بها مقرونة بالوجوه المانعة من كونها مقبولة لله تعالى ،

قال صاحب "الكشاف" : قرئ ﴿ ولكن ﴾ بالتشديد بمعنى ولكن أنفسهم يظلمونها ، ولا يجوز أن يراد ، ولكنه أنفسهم يظلمون على إسقاط ضمير الشأن ، لأنه لا يجوز إلا في الشعر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 171 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

والمثل : الشبه الذي يصير كالعلم ؛ لكثرة استعماله فيما يشبه به . و" ما " يجوز أن تكون موصولة اسمية وما بعدها محذوف لاستكمال الشروط أي " ينفقونه " . وحاصل الكلام أن كفرهم يبطل ثواب نفقتهم ، كما أن الريح الباردة تهلك الزرع .

قوله : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ ﴾ خبر المبتدأ ، وعلى هذا الظاهر - أعني : تشبيه الشيء المنفق بالريح - استشكل التشبيه ؛ لأن المعنى على تشبيهه بالحرث - أي : الزرع - لا بالريح ، وقد أجيب عن ذلك بوجوه :

أحدها : أنه من باب التشبيه المركب ، بمعنى أنه تقابل الهيئة المجتمعة بالهيئة المجتمعة ، وليس تقابل الأفراد بالأفراد كما مر في أول سورة البقرة عند قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ﴾ وهذا اختيار الزمخشري .

ثانيها : أنه من باب التشبيه بين شيئين بشيئين ، فذكر أحد المشبَّهين ، وترك ذكر الآخر وذكر أحد المشبهين به ، فقد حذف من كل اثنين ما يدل عليه نظيره ، كما مر في قوله تعالى :

﴿ وَمَثَلُ الذين كَفَرُواْ كَمَثَلِ الذي يَنْعِقُ ﴾ [البقرة : 171] ، وهو اختيار ابن عطية ، قال : "وهذا غاية البلاغة والإعجاز" .

(28/128)

وثالثها : أنه على حذف مضاف ، إمّا من الأول ، تقديره : مثل مهلك ما ينفقونه ، وإما من الثاني ، تقديره : كمثل مهلك ريح ، وهذا الثاني أظهر ؛ لأنه يؤدِّي - في الأول - إلى تشبيه الشيء المُنْفَق - المُهْلَك - بالريح ، وليس المعنى عليه ، ففيه عَوْدٌ لما فرَّ منه .

وذكر أبو حيان التقدير المشار إليه ، ولم ينبه عليه اللهم إلا أن يريد بـ "مهلك" اسم مصدر ، أي : مثل إهلاك ما ينفقون ، ولكن يحتاج إلى تقدير مثل هذا المضاف - أيضاً - قبل "رِيح" تقديره : مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح .

وقيل : التقدير : مثل الكفر - في إهلاك ما ينفقون - كمثل الريح المهلكة للحرث .

وقال ابن الخطيب : "لعل الإشارة في قوله : ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ ﴾ إلى ما أنفقوا في إنذار رسول الله صلى الله عليه وسلم في جَمْع العساكر عليه ، فكان هذا الإنفاق مهلكاً لجميع ما أتَوْا به من أعمال البر والخير ، حينئذ يستقيم التشبيه من غير حاجة إلى إضمار ، وتقديم وتأخير ، والتقدير : مثل ما ينفقون في كونه مبطلاً لما أتوا به - قبل ذلك - من أعمال البر

كمثل ريح فيها صر في كونها مبطلة للحرث " .

وهذا فيه نظر ؛ لأن الكفار لا يثبت لهم عمل بِرٍّ ، حتى تحبطه النفقة المذكورة ، قال تعالى :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾ [الفرقان : 23] .

وقد يمكن أن يجاب عنه بأنه إن كان المراد بالذين كفروا : أهل الكتاب ، فقد كانت لهم أعمال بر قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم .

وإن كان المراد : المشركين ، فلا يُحْكم عليهم إلا بعد البعثة ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] .

(29/128)

ويجوز في " ما " أن تكون موصولة اسمية ، وعائدها محذوف – أي : مثل ما ينفقونه – وأن تكون ما مصدرية ، وحينئذ يكون قد شبه إنفاقهم – في عدم نفعه – بالريح الموصوفة بهذه الصفة ، وهو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس .

قوله : ﴿ فِيهَا صِرٌّ ﴾ في محل جر ، نعتاً لـ " ريح " ، ويجوز أن يكون ﴿ فِيهَا صِرٌّ ﴾ : جملة من مبتدأ وخبر ، ويجوز أن يكون " فيها " – وحده – هو الصفة ، و" صِرٌّ " فاعل له – وجاز ذلك ؛ لاعتماد الجار على الموصوف – وهذا أحسن ؛ لأن الأصل في الأوصاف

: الإفراد ، وهذا قريب منه .

والصِّرّ : قال ابْنُ عبَّاسٍ ، وقَتَادَةُ ، والسُّدّيُّ ، وابْنُ زَيْدٍ ، وأكثر أهل اللغة : إنه البرد الشديد ، المُحْرِق .

قال الشاعر : [البسيط]

لا تَعْدِلِينَ أتَاوِيِّينَ تَضْرِبُهُمْ . . . نَكْبَاءُ صِرٌّ بأَصْحَابِ الْمُحِلاَّتِ

وقيل : الصِّرّ بمعنى : الصرصر – وهو البرد – .

قالت ليلى الأخيلية : [الطويل]

وَلَمْ يَغْلِبِ الْخَصْمَ الألَدَّ وَيَمْلأ ال . . . جِفَانَ سَرِيعاً يَوْمَ نَكْبَاءَ صَرْصَرِ

مأخوذ من الشد والتعقيد ، ومنه الصُّرَّة – للعُقْدة – وأصَرَّ على كذا : لَزِمَه .

وقال أبو بَكْرٍ الأصَمُّ ، وابْنُ الأنْبَارِي : هي السَّمُومُ الحَارَّة .

وقال الزجاج : الصَّرْصَرَ : صوت لهيب النار – في الريح – من صَرَّ الشيءُ ، يَصِرُّ ، صَرِيراً – أي : صَوَّت بهذا الحِسّ المعروف ، ومنه صرير الباب ، والصرة : الصيحة ، قال تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امرأته فِي صَرَّةٍ ﴾ [الذاريات : 29] .

وروى ابْنُ الأَنْبَارِيِّ - بإسناده - عن ابْنِ عَبَّاسٍ، في قوله: ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ قال: فيها نار. وعلى القولين، فالمقصود من التشبيه حاصل؛ لأنه - سواء كان بَرْدًا مُهْلِكًا، أو حَرًّا مُحْرِقًا - يبطل الحرث والزرع، وإذا عُرِف هذا، فإن قلنا: الصِرّ: البَرْد الشديد، أو هو صوت النار، أو هو صوت الريح، فظَرْفِيَّة الريح له واضحة، وإن كان الصِّرُّ صفة الريح - كالصرصر - فالمعنى: فيها قِرَّة صر - كما تقول: برد بارد - وحُذِفَ الوصوف، وقامت الصفة مقامه، أو تكون الظرفية مجازاً جعل الموصوف ظرفاً للصفة.

كقوله: [الوافر]

. . . . وَفِي الرَّحْمَنِ لِلضُّعَفَاءِ كَافِي

ومنه قوله: إن ضيعني فلان، ففي الله كافٍ، المعنى: الرحمن كافٍ، الله كافٍ، وهذا فيه بُعْد.

قوله: "أَصَابَتْ" هذه الجملة في محل جرّ - أيضاً - صفة لـ "ريح".

ولا يجوز أن يكون صفة لـ "صر"؛ لأنه مذكَّر، وبدأ أولاً بالوَصْف بالجار؛ لأنه قريب من المفرد، ثم بالجملة، هذا إن أعربنا "فِيهَا" - وحده - صفة، ورفعنا به "صِرٌّ"، أما إذا أعربناه خبراً مقدماً، أو "صِرٌّ" مبتدأ، فهما جملة - أيضاً -.

قوله : ﴿ ظَلَمُوا ﴾ صفة لـ " قوم " ، والضمير في ﴿ ظَلَمَهُمُ ﴾ يعود على القوم ذوي الحرث ، أي : ما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم ، ولكنهم ظلموا أنفسهم بارتكابهم المعاصي التي كانت سبباً في إهلاكهم ؛ أو لأنهم زرعوا في غير موضع الزرع ، أو في غير وقته ؛ لأن الظلم : وضع الشيء في غير موضعه ، وبهذا يتأكد وَجْه الشبه ؛ لأن الزرع – لا في موضعه ، ولا في وقته – يضيع ، ثم أصابته الريح الباردة ، فكان أولى بالضياع ، وكذا – هاهنا – الكفار لما أتَوْا بالإنفاق لا في موضعه ولا في وقته ثم أصابه شؤم كُفْرِهم ، فصار ضائعاً ، والله أعلم .

وجوَّزَ الزَّمَخْشَرِيُّ وغيره : أن يعود الضمير على المنفقين ، وإليه نَحَا ابْنُ عَطِيَّةَ ، ورجحه بأن أصحاب الحرث لم يُذْكَروا للرد عليهم ، ولا لتبيين ظلمهم ، بل لمجرد التشبيه .

وقوله : ﴿ ولكن أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ العامَّة على تخفيف " لكن " ، وهي استدراكية ، و" أَنْفُسَهُمْ " مفعول مقدَّم ، قُدِّم للاختصاص ، أي : لم يقع وبالُ ظلمهم إلاَّ بأنفسهم خاصَّة ، لا يتخطاهم ، ولأجل الفواصل – أيضاً – .

وقرأها بعضُهم مشدَّدة ، ووجهها أن تكون " أَنْفُسَهُمْ " اسمها ، و" يَظْلِمُونَ " الخبر ، والعائد من الجملة الخبريَّة على الاسم محذوف ، تقديره : ولكن أنفسهم يظلمونها ، فحذف ، وحسَّنَ حذفَه كَوْنُ الفعلِ فاصلة ، فلو ذكر مفعوله ، لفات هذا الغرض .

وقد خرجه بعضهم على أن يكون اسمها ضمير الأمر والقصة – حُذِفَ للعلم به ، و" أَنْفُسَهُمْ " مفعول مقدم لـ "يَظْلِمُونَ " كما تقدم والجملة خبر لها .

وقد رُدَّ هذا بأن حذف اسم هذه الحروف لا يجوز إلا ضرورة.

كقوله : [الخفيف]

إنَّ مَنْ يَدْخُلِ الْكَنِيسَةَ يَوْماً . . . يَلْقَ فِيهَا جَآذِراً وَظِبَاءَ

(32/128)

على أن بعضهم لا يُقصره على الضرورة ، مستشهداً بقوله – عليه السلام– : " إنَّ مِنْ أشَدِّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ المُصَوِّرون " .

قال : تقديره : إنه ، ويعزى هذا للكسائي .

وقد ردَّه بعضُهم ، وخرّج الحديثَ على زيادة " من " والتقدير : إن أشد الناس .

والبصريون لا يُجيزون زيادة " من " في مثل هذا التركيب لما تقدم وإنما يُجيزها الأخفش .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 483. 487 ﴾ . بتصرف يسير .

من فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

وقوله تعالى : ﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا ﴾ الآية ، معناه : المثال القائم في النفوس من إنفاقهم الذي يعدونه قربة وحسبة وتحنثاً ومن حبطه يوم القيامة وكونه هباء منثوراً ، وذهابه كالمثال القائم في النفوس من زرع قوم نبت واخضرّ وقوي الأمر فيه فهبت عليه ﴿ ريح فيها صر ﴾ محرق فأهلكته ، فوقع التشبيه بين شيئين وشيئين ، ذكر الله عز وجل أحد الشيئين المشبهين وترك ذكر الآخر ثم ذكر أحد الشيئين المشبه بهما وليس الذي يوازي المذكور الأول ، وترك ذكر الآخر ، ودل المذكور أن على المتروكين ، وهذه غاية البلاغة والإيجاز ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع ﴾ [البقرة : 171] ، وقرأ عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، " تنفقون " بالتاء على معنى قل لهم يا محمد ، و﴿ مثل ﴾ رفع بالابتداء وخبره في محذوف به تتعلق الكاف من قوله ﴿ كمثل ﴾ ، و﴿ ما ﴾ بمعنى الذي وجمهور المفسرين على أن ﴿ ينفقون ﴾ يراد به الأموال التي كانوا ينفقونها في التحنث وفي عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك عندهم قربة ، وقال السدي : ﴿ ينفقون ﴾ معناه من أقوالهم التي يبطنون ضدها .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ، لأنه يقتضي أن الآية في منافقين والآية إنما هي في كفار يعلنون مثل ما يبطنون ، وذهب بعض المفسرين إلى أن ﴿ ينفقون ﴾ يراد به أعمالهم من الكفر ونحوه ، أي هي "كالريح التي فيها صر " ، فتبطل كل ما لهم من صلة رحم وتحنث بعتق ونحوه ، كما تبطل الريح الزرع ، وهذا قول حسن لولا بعد الاستعارة في الإنفاق ، و" الصر " البرد الشديد ، المحرق لكل ما يهب عليه وهو معروف قال ابن عباس وجمهور المفسرين : " الصر " البرد ، وتسميه العرب الضريب ، وذهب الزجّاج وغيره : إلى أن اللفظة من التصويت ، من قولهم صر الشيء ، ومنه الريح الصرصر ، قال الزجاج ، فالصر صوت النار التي في الريح .

قال القاضي : " الصر " هو نفس جهنم الذي في الزمهرير يحرق نحواً مما تحرق النار ، و" الحرث " شامل للزرع والثمار ، لأن الجميع مما يصدر عن إثارة الأرض ، وهي حقيقة الحرث ، ومنه الحديث لا زكاة إلا في عين أو حرث أو ماشية ، وقال عز وجل : ﴿ ظلموا أنفسهم ﴾ فما بال هذا التخصيص والمثل صحيح ، وإن كان الحرث لمن لم يظلم نفسه ؟ فالجواب أن ظلم النفس في هذه الآية تأوله جمهور المفسرين بأنه ظلم بمعاصي الله ، فعلى هذا وقع التشبيه بحرث من هذه صفته ، إذ عقوبته أوخى واخذ الله له أشد والنقمة إليه أسرع وفيه أقوى ، كما روي في جوف العير وغيره ، وأيضاً فمن أهل العلم من يرى أن كل مصائب الدنيا فإنما هي بمعاصي العبيد ، وينتزع ذلك من غير ما آية في القرآن ، فيستقيم على قوله : إن كل

حرث تحرقه ريح فإنما هو لمن قد ظلم نفسه ، وذهب بعض الناس ونحا إليه المهدوي : إلى أن قوله تعالى : ﴿ حرث قوم ظلموا أنفسهم ﴾ معناه زرعوا في غير أوان الزرعة .

(34/128)

قال أبو محمد : وينبغي أن يقال في هذا : ﴿ ظلموا أنفسهم ﴾ بأن وضعوا أفعال الفلاحة غير موضعها من وقت أو هيئة عمل ، ويخص هؤلاء بالذكر لأن الحرق فيما جرى هذا المجرى أوعب وأشد تمكناً ، وهذا المنزع يشبه من جهة ما قول امرىء القيس : [المتقارب]

وسالفة كَسحوقِ اللَّيا . . . نِ أَضرمَ فيها الغويُّ السعرُ

فخصص الغويّ لأنه يلقي النار في النخلة الخضراء الحسنة التي لا ينبغي أن تحرق ، فتطفىء النار عن نفسها رطوبتها بعد أن تتشذب وتسود ، فيجيء الشبه حسناً ، والرشيد لا يضرم النار إلا فيما يبس واستحق فهو يذهب ولا يبقى منه ما يشبه به ، والضمير في ﴿ ظلمهم ﴾ للكفار الذين تقدم ضميرهم في ﴿ ينفقون ﴾ وليس هو للقوم ذوي الحرث لأنهم لم يذكروا ليرد عليهم ، ولا ليبين ظلمهم وأيضاً فقوله : ﴿ ولكن أنفسهم يظلمون ﴾ ، يدل

على فعل الحال في حاضرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 1 صـ 494 . 495﴾

(35/128)

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِى هذه الحياة الدنيا ﴾ كالدليل لعدم إغناء الأموال ، ولعل عدم بيان إغناء الأولاد ظاهر لأنهم إن كانوا كفاراً وهو الظاهر كان حكمهم وإن كانوا مسلمين كانوا عليهم لا لهم في الدنيا ، وبغضهم لهم في الآخرة ﴿ يَوْمَ تبلى السرائر ﴾ [الطارق : 9] و﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ [القلم : 42] وتبريهم منهم حين يفر المرء من أمه وأبيه أظهر من أن يخفى ، وما موصولة والعائد محذوف أي ينفقونه والإشارة للتحقير ، والمراد تمثيل جميع صدقات الكفار ونفقاتهم كيف كانت وهو المروي عن مجاهد وقيل : مثل لما ينفقه الكفار مطلقاً في عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقيل : لما أنفقه قريش يوم بدر وأحد لما تظاهروا عليه عليه الصلاة والسلام ، وقيل : لما أنفقه سفلة اليهود على علمائهم المحرفين أي حال ذلك وقصته العجيبة .

﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ أي برد شديد قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وجماعة ، وقال الزجاج الصر صوت لهيب النار وقد كانت في تلك الريح ، وقيل أصل الصر كالصرصر الريح الباردة ، وعليه يكون معنى النظم ريح فيها ريح باردة وهو كما ترى محتاج إلى التوجيه ، وقد ذكر فيه أنه وارد على التجريد كقوله :

ولولا ذاك قد سومت مهري . . . وفي الرحمن للضعفاء كاف

أي هو كاف ومنع بعضهم كونه في الأصل الريح الباردة وإنما هو مصدر بمعنى البرد كما قال الحبر واستعماله فيما ذكر مجاز وليس بمراد ، وقيل : إنه صفة بمعنى بارد إلا أن موصوفه محذوف أي برد بارد فهو من الإسناد المجازي كظل ظليل وفيه بعد لأن المعروف في مثله ذكر الموصوف وأما حذفه وتقديره فلم يعهد ، وقيل : هو في الأصل صوت الريح الباردة من صر القلم والباب صريرا إذا صوت ، أو من الصرة الضجة والصيحة وقد استعمل هنا على أصله ، وفيه أن هذا المعنى مما لم يعهد في الاستعمال ، والريح واحدة الرياح ، وفي "الصحاح" والأرياح ، وقد تجمع على أرواح لأن أصلها الواو ، وإنما جاءت بالياء لانكسار ما قبلها فإذا رجعوا إلى الفتح عادت إلى الواو كقولك : أروح الماء وتروحت بالمروحة ،

ويقال أيضاً : ريح وريحة كما قالوا : دار ودارة ، وسيأتي إن شاء الله تعالى للعلماء من الكلام في هذا المقام ، وأفرد الريح لما في "البحر" أنها مختصة بالعذاب والجمع مختص بالرحمة ولذلك روي اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً .

(37/128)

﴿ أَصَابَتْ حَرْثَ ﴾ أي زرع . ﴿ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ بالكفر والمعاصي فباءوا بغضب من الله تعالى وإنما وصفوا بذلك لما قيل : إن الإهلاك عن سخط أشد وأفظع أو لأن المراد الإشارة إلى عدم الفائدة في الدنيا والآخرة وهو إنما يكون في هلاك مال الكافر وأما غيره فقد يثاب على ما هلك له لصبره ، وقيل : المراد ظلموا أنفسهم بأن زرعوا في غير موضع الزراعة وفي غير وقتها ﴿ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾ عن آخره ولم تدع له عيناً ولا أثراً عقوبة لهم على معاصيهم ، وقيل : تأديباً من الله تعالى لهم في وضع الشيء في غير موضعه الذي هو حقه وهذا من التشبيه المركب الذي توجد فيه الزبدة من الخلاصة والمجموع ولا يلزم فيه أن يكون ما يلي الأداة هو المشبه به كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الحياة الدنيا كَمَاء أَنْزَلْنَاهُ ﴾ [يونس : 24] وإلا لوجب أن يقال : كمثل حرث لأنه المشبه به المنفق ، وجوز أن يراد مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح ، أو مثل ما ينفقون كمهلك ريح والمهلك اسم مفعول هو

الحرث ، والوجه عند كونه مركباً قلة الجدوى والضياع ، ويجوز أن يكون من التشبيه المفرق فيشبه إهلاك الله تعالى بإهلاك الريح ، والمنفق بالحرث وجعل الله تعالى أعمالهم هباءاً منثوراً بما في الريح الباردة من جعله حطاماً ، وقرىء تنفقون بالتاء .

(38/128)

﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ الله ﴾ الضمير إما للمنفقين أي ما ظلمهم بضياع نفقاتهم التي أنفقوها على غير الوجه اللائق المعتدّ به ، وإما للقوم المذكورين أي ما ظلم الله تعالى أصحاب الحرث بإهلاكه لأنهم استحقوا ذلك وحينئذ يكون هذا النفي مع قوله تعالى : ﴿ ولكن أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ تأكيداً لما فهم من قبل إشعاراً وتصريحاً ، وقرىء (ولكن) بالتشديد على أن (أنفسهم) اسمها ، وجملة يظلمون خبرها والعائد محذوف ، والتقدير يظلمونها وليس مفعولاً مقدماً كما في قراءة التخفيف ، واسمها ضمير الشأن لأنه لا يحذف إلاّ في الشعر كقوله :

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه . . . ولكن من يبصر جفونك يعشق

وتعين حذفه فيه لمكان من الشرطية التي لا تدخل عليها النواسخ وتقديم ﴿ أَنفُسِهِمْ ﴾ على الفعل للفاصلة لا للحصر وإلا لا يتطابق الكلام لأن مقتضاه وما ظلمهم الله ولكن هم يظلمون أنفسهم لا أنهم يظلمون أنفسهم لا غيرهم وهو في الحصر لازم ، وصيغة المضارع

للدلالة على التجدد والاستمرار . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 4 صـ 36.

37﴾

(39/128)

فصل

قال الطبرى فى معنى الآية :

قال أبو جعفر : يعني بذلك جل ثناؤه : شَبَهُ ما ينفق الذين كفروا ، أي : شَبَهُ ما يتصدق به الكافر من ماله ، فيعطيه من يعطيه على وجه القُربة إلى ربّه وهو لوحدانية الله جاحد ، ولمحمد صلى الله عليه وسلم مكذب ، في أن ذلك غير نافعه مع كفره ، وأنه مضمحلّ عند حاجته إليه ، ذاهبٌ بعد الذي كان يرجو من عائدة نفعه عليه كشبه ريح فيها برد شديد ، أصابت هذه الريح التي فيها البرد الشديد "حرثَ قوم" ، يعني : زرع قوم قد أمّلوا إدراكه ، ورجَوْا ريْعه وعائدة نفعه "ظلموا أنفسهم" ، يعني : أصحاب الزرع ، عصوا الله ، وتعدّوا حدوده "فأهلكته" ، يعني : فأهلكت الريح التي فيها الصرُّ زرعهم ذلك ، بعد الذي كانوا عليه من الأمل ورجاء عائدة نفعه عليهم .

يقول تعالى ذكره : فكذلك فعل الله بنفقة الكافر وصدقته في حياته ، حين يلقاه ، يبطل

ثوابها ويخيب رجاؤه منها . وخرج المَثَل للنفقة ، والمراد بـ "المثل" صنيع الله بالنفقة ، فبيَّن ذلك قوله : "كمثل ريح فيها صرٌّ" ، فهو كما قد بيّنا في مثله قوله : (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا) [سورة البقرة : 17] وما أشبه ذلك .

فتأويل الكلام ، : مثل إبطال الله أجرَ ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا ، كمثل ريح فيها صر .

وإنما جاز ترك ذكر "إبطال الله أجر ذلك" ، لدلالة آخر الكلام عليه ، وهو قوله : "كمثل ريح فيها صرٌّ" ، ولمعرفة السامع ذلك معناه .

قوله : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (117) ﴾

(40/128)

قال أبو جعفر : يعني بذلك جل ثناؤه : وما فعل الله بهؤلاء الكفار ما فعل بهم ، من إحباطه ثواب أعمالهم وإبطاله أجورها ظلمًا منه لهم يعني : وضعًا منه لما فعل بهم من ذلك في غير موضعه وعند غير أهله ، بل وضَع فعله ذلك في موضعه ، وفعل بهم ما هم أهله . لأن عملهم الذي عملوه لم يكن لله وهم له بالوحدانية دائنون ، ولأمره مُتبعون ، ولرسله مصدقون ، بل كان ذلك منهم وهم به مشركون ، ولأمره مخالفون ، ولرسله مكذبون ، بعد تقدُّم منه إليهم أنه لا يقبل عملا من عامل إلا مع إخلاص التوحيد له ، والإقرار بنبوة أنبيائه ، وتصديق

ما جاءوهم به ، وتوكيده الحجج بذلك عليهم . فلم يكن بفعله ما فعل بمن كفر به وخالف أمره في ذلك بعد

الإعذار إليه ، من إحباط وَفْرِ عمله له ظالمًا ، بل الكافرُ هو الظالم نفسه ، لإكسابها من معصية الله وخلاف أمره ، ما أوردها به نار جهنم ، وأصلاها به سعير سقَرَ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 7 صـ 134.138 ﴾ . بتصرف يسير .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

ما وجدوا ميراث ما بذلوا لغير الله إلا حسراتٍ متتابعة ، وما حصلوا من حسباناتهم إلا على محن مترادفة ، وذلك جزاء من أعرض وتولّى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 272 ﴾

(41/128)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

قَوْلُهُ – تَعَالَى – : لَيْسُوا سَوَاءً

كَلَامٌ تَامٌّ ، أَيْ لَيْسَ أَهْلُ الْكِتَابِ مُتَسَاوِينَ فِي هَذِهِ الْأَوْصَافِ وَالْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ الَّتِي ذُكِرَتْ

آنِفًا ، بَلْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَهُمُ الْأَقَلُّونَ ، وَمِنْهُمُ الْفَاسِقُونَ وَهُمُ الْأَكْثَرُونَ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ : مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ فَهُوَ بَيَانٌ لَهُ بَعْدَ وَصْفِ الْفَاسِقِينَ وَذِكْرِ مَا اسْتَحَقَّتِ الْأُمَّةُ بِسُوءِ عَمَلِهِمْ . وَلَمَّا بَيَّنَ وَصْفَ فَاسِقِيهِمْ كَانَ مِنَ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ أَنْ يُبَيِّنَ وَصْفَ مُؤْمِنِيهِمْ ; وَلِذَلِكَ قَالَ : مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ

الْآيَاتِ ، قِيلَ : إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ جَمَاعَةٌ أَسْلَمُوا مِنَ الْيَهُودِ

(42/128)

كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ ، وَثَعْلَبَةَ بْنِ سَعِيدٍ ، وَأُسَيْدِ بْنِ سَعِيدٍ ، وَأُسَيْدِ بْنِ عُبَيْدٍ - رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي الْآيَةِ : " لَيْسَ كُلُّ الْقَوْمِ هَلَكَ قَدْ كَانَ لِلَّهِ فِيهِمْ بَقِيَّةٌ " بَلْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ فِي الْأُمَّةِ الْقَائِمَةِ : " أُمَّةٌ مُهْتَدِيَةٌ قَائِمَةٌ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ لَمْ تَنْزِعْ عَنْهُ وَتَتْرُكْهُ كَمَا تَرَكَهُ الْآخَرُونَ وَضَيَّعُوهُ " وَحَمَلَ ابْنُ جَرِيرٍ هَذَا الْقَوْلَ عَلَى تِلْكَ الرِّوَايَةِ ، أَيْ أَنَّ هَذَا مَقُولٌ فِيمَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ وَلَكِنَّهُ لَا يَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ فِي حَالِ الْإِسْلَامِ ، لِأَنَّ مَا قَامُوا عَلَيْهِ هُوَ مَا ضَيَّعَهُ الْآخَرُونَ وَهُوَ مِنْ دِينِهِمْ وَكِتَابِهِمْ ، فَالظَّاهِرُ أَنَّ الرِّوَايَاتِ اخْتَلَطَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، أَوِ الْمُرَادُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وُصِفُوا بِالتَّمَسُّكِ بِمَا حَفِظُوا مِنْ كِتَابِهِمْ وَالْقِيَامِ بِمَا

عَرَفُوا مِنْ دِينِهِمْ هُمُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا بَعْدَ ذَلِكَ فَيَكُونُ هَذَا الْوَصْفُ لَمْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ . وَقَدْ نَقَلَ (الرَّازِيُّ) فِي الْآيَةِ قَوْلَيْنِ ، أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ الْقَائِمَةِ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ وَأَصْحَابُهُ ، وَالثَّانِي أَنَّ الْمُرَادَ بِأَهْلِ الْكِتَابِ كُلُّ مَنْ أُوتِيَ الْكِتَابَ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ قَالَ : " وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ يَكُونُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ جُمْلَتِهِمْ " ! وَأَيُّ حَاجَةٍ إِلَى إِدْخَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ عِنْدَ إِطْلَاقِهِ وَهُوَ مُخَالِفٌ لِعُرْفِ الْقُرْآنِ ؟ وَالْمُسْلِمُونَ مُسْتَغْنُونَ عَنْ هَذَا الْإِدْخَالِ

(43/128)

بِقَوْلِهِ : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ الْآيَةَ وَمَا هِيَ مِنْ هَذِهِ بِبَعِيدٍ ، إِلَّا أَنَّ أَكْثَرَ مُفَسِّرِينَا قَدْ صَعُبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونَ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ أَحَدٌ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيَفْعَلُ الْخَيْرَ فَلِذَلِكَ اضْطَرَبُوا فِي الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا وَهِيَ ظَاهِرَةٌ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : هَذِهِ الْآيَةُ مِنَ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ الْوَاقِعِ وَإِزَالَةِ الْإِيهَامِ السَّابِقِ ، وَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ دِينَ اللهِ وَاحِدٌ عَلَى أَلْسِنَةِ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَنَّ كُلَّ مَنْ أَخَذَهُ بِإِذْعَانٍ ، وَعَمِلَ فِيهِ بِإِخْلَاصٍ فَأَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَهُوَ مِنَ الصَّالِحِينَ ، وَفِي هَذَا الْعَدْلِ قَطْعٌ لِاحْتِجَاجِ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمُ الْإِيمَانَ وَالْإِخْلَاصَ فِي الْعَمَلِ وَالْأَمْرِ

بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ - يَعْنِي الْأُسْتَاذ : أَنَّهُ لَوْلَا مِثْلُ هَذَا النَّصِّ لَكَانَ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا : لَوْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ مِنْ عِنْدِ اللهِ لَمَا سَاوَانَا بِغَيْرِنَا مِنَ الْفَاسِقِينَ وَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِهِ مُخْلِصُونَ لَهُ - وَفِيهِ اسْتِمَالَةٌ لَهُمْ وَثَنَاءٌ عَنِ التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْأُمَمِ وَالْمِلَلِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ يَعْتَرِفُ فِيهَا أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ بِفَضِيلَةٍ وَلَا مَزِيَّةٍ لِلْآخَرِ ، كَأَنَّهُ بِمُجَرَّدِ مُخَالَفَتِهِ لَهُ فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ - وَإِنْ كَانَ مَعْذُورًا - تَتَبَدَّلُ حَسَنَاتُهُ

(44/128)

سَيِّئَاتٍ ، وَظَاهِرٌ أَنَّ هَذَا كَالَّذِي قَبْلَهُ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ حَالَ كَوْنِهِمْ عَلَى دِينِهِمْ خِلَافًا لِمُفَسِّرِنَا (الْجَلَالِ) وَغَيْرِهِ الَّذِينَ حَمَلُوا الْمَدْحَ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ ، فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَا يُمْدَحُونَ بِوَصْفِ أَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ وَإِنَّمَا يُمْدَحُونَ بِعُنْوَانِ الْمُؤْمِنِينَ .

ثُمَّ إِنَّهُ ذَكَرَ اخْتِلَافَ الْمُفَسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ : قَائِمَةٌ وَرَجَّحَ أَنَّ مَعْنَاهَا مَوْجُودَةٌ ثَابِتَةٌ عَلَى الْحَقِّ ، قَالَ : وَفِي ذَلِكَ تَعْرِيضٌ بِالْمُنْحَرِفِينَ عَنِ الْحَقِّ بِأَنَّهُمْ لَا يُعَدُّونَ مِنْ أَهْلِ الْوُجُودِ وَإِنَّمَا حُكْمُهُمْ حُكْمُ الْعَدَمِ ، وَأَطَالَ فِي وَصْفِ مَنْ لَا خَيْرَ فِي وُجُودِهِمُ الَّذِينَ قَالَ فِي مِثْلِهِمُ الشَّاعِرُ :

خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا لِمَكْرُمَةٍ . . . فَكَأَنَّهُمْ خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا

رُزِقُوا وَمَا رُزِقُوا سَمَاحَ يَدٍ . . . فَكَأَنَّهُمْ رُزِقُوا وَمَا رُزِقُوا

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْكَلِمَةِ فِي الْكَشَّافِ : أُمَّةٌ قَائِمَةٌ مُسْتَقِيمَةٌ عَادِلَةٌ مِنْ قَوْلِكَ : أَقَمْتُ الْعُودَ فَقَامَ بِمَعْنَى اسْتَقَامَ .

(45/128)

وَأَقُولُ : إِنَّ اسْتِقَامَةَ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى الْحَقِّ مِنْ دِينِهِمْ لَا يُنَافِي مَا حَقَّقْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ مِنْ ضَيَاعِ بَعْضِ كُتُبِهِمْ وَتَحْرِيفِ بَعْضِهِمْ لِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْهَا ، فَإِنَّ مَنْ يَعْرِفُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَعْضَ السُّنَّةِ وَيَحْفَظُ بَعْضَ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ فَيَعْمَلُ بِمَا عَلِمَ مُسْتَمْسِكًا بِهِ مُخْلِصًا فِيهِ يُقَالُ : إِنَّهُ قَائِمٌ بِالسُّنَّةِ السَّنِيَّةِ عَامِلٌ بِالْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُ الْأَحَادِيثِ قَدْ نُقِلَ بِالْمَعْنَى وَبَعْضُهَا ضَعِيفٌ أَوْ مَوْضُوعٌ وَبَعْضُ النَّاسِ كَالْحَشْوِيَّةِ حَرَّفُوهَا بَلْ حَرَّفُوا بَعْضَ آيَاتِ الْقُرْآنِ تَحْرِيفًا مَعْنَوِيًّا لِيُدَعِّمُوا بِهَا مَذَاهِبَهُمْ وَآرَاءَهُمْ .

(46/128)

أَمَّا قَوْلُهُ - تَعَالَى - : يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ فَمَعْنَاهُ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِمْ مَنْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ ظَاهِرٌ ، وَعَلَى الْقَوْلِ الْآخَرِ الْمُخْتَارِ أَنَّهُمْ يَتْلُونَ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ

مُناجاةِ اللهِ ودُعائِهِ لَهُ والثَّناءِ عَلَيْهِ – عزَّ وجلَّ – وَهِي كَثِيرَةٌ فِي كُتُبِهِمْ لَا سِيَّمَا زُبُورُ (مزَامِيرِ) داوُدَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – ، كَقَوْلِهِ فِي الْمَزْمُورِ السَّادِسِ والثَّلاثِينَ : ([5] يا ربِّ فِي السَّماواتِ رَحْمَتُكَ أَمانَتُكَ إِلَى الْغَمامِ [6] عَدْلُكَ مِثْلُ جِبالِ اللهِ وأَحْكامُكَ لُجَّةٌ عَظِيمَةٌ . النَّاسُ والْبَهائِمُ تُخَلِّصُ يا ربِّ . [7] ما أَكْرَمَ رَحْمَتَكَ يا اللهُ فَبَنُو الْبَشَرِ فِي ظِلِّ جَناحَيْكَ يَحْتَمُونَ [8] يَرْوُونَ مِنْ دَسَمِ بَيْتِكَ وَمِنْ نَهْرِ نِعْمَتِكَ تَسْقِيهِمْ [9] لِأَنَّ عِنْدَكَ يَنْبُوعَ الْحَياةِ . بِنُورِكَ نَرَى نُورًا [10] أَدِمْ رَحْمَتَكَ لِلَّذِينَ يَعْرِفُونَكَ وَعَدْلَكَ لِلْمُسْتَقِيمِي الْقَلْبِ [11] لَا تَأْتِنِي رِجْلُ الْكِبْرِياءِ وَيَدُ الْأَشْرارِ لَا تُزَحْزِحُنِي [12] هُنَاكَ سَقَطَ فاعِلُو الْإِثْمِ دُحِرُوا فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا الْقِيامَ . " وَقَوْلِهِ فِي الْمَزْمُورِ الْخامِسِ والْعِشْرِينَ : " [1] إِلَيْكَ يا ربِّ أَرْفَعُ نَفْسِي [2] يا إِلَهِي عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ .

(47/128)

فَلَا تَدَعْنِي أُخْزَى . لَا تُشْمِتْ بِي أَعْدائِي [3] أَيْضًا كُلُّ مُنْتَظِرِيكَ لَا يُخْزَوْا . لِيُخْزَ الْغادِرُونَ بِلَا سَبَبٍ [4] طُرُقَكَ يا ربِّ عَرِّفْنِي . سُبُلَكَ عَلِّمْنِي [5] دَرِّبْنِي فِي حَقِّكَ وَعَلِّمْنِي . لِأَنَّكَ أَنْتَ إِلَهُ خَلاصِي . إِيَّاكَ انْتَظَرْتُ الْيَوْمَ كُلَّهُ [6] أُذْكُرْ مَراحِمَكَ يا ربِّ وَإِحْسانَاتِكَ لِأَنَّها مُنْذُ الْأَزَلِ هِيَ [7] لَا تَذْكُرْ خَطَايَا صِبايَ وَلَا مَعاصِيَّ . كَرَحْمَتِكَ

اذْكُرْنِي أَنْتَ مِنْ أَجْلِ جُودِكَ يَا رَبُّ " .

وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْأَدْعِيَةِ وَالْمُنَاجَاةِ كَثِيرَةٌ جِدًّا وَإِذَا رَآهَا الْعَرَبِيُّ الْبَلِيغُ غَرِيبَةَ الْأُسْلُوبِ فَلْيَذْكُرْ أَنَّهَا تَرْجَمَةٌ ضَعِيفَةٌ وَأَنَّ قِرَاءَتَهَا بِلُغَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَشَدُّ تَأْثِيرًا فِي النَّفْسِ مِنْ قِرَاءَةِ تَرْجَمَتِهَا هَذِهِ .

أَمَّا السُّجُودُ الَّذِي أَسْنَدَهُ إِلَيْهِمْ فَهُوَ إِمَّا عِبَارَةٌ عَنْ صَلَاتِهِمْ ، وَإِمَّا اسْتِعْمَالٌ لَهُ بِمَعْنَاهُ اللُّغَوِيِّ وَهُوَ التَّطَامُنُ وَالتَّذَلُّلُ كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ - تَعَالَى - فِي خِطَابِ مَرْيَمَ : وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ [3 : 43] .

(48/128)

ثُمَّ قَالَ فِيهِمْ : يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَيْ يُؤْمِنُونَ إِيمَانًا إِذْعَانِيًّا وَهُوَ مَا يُثْمِرُ الْخَشْيَةَ لِلَّهِ وَالِاسْتِعْدَادَ لِذَلِكَ الْيَوْمِ لَا إِيمَانًا جِنْسِيًّا لَا حَظَّ لِصَاحِبِهِ مِنْهُ إِلَّا الْغُرُورُ وَالدَّعْوَى كَمَا هُوَ شَأْنُ الْأَكْثَرِينَ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِمْ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ صَوْتٌ فِي جُمْهُورِ أُمَّتِهِمْ لِغَلَبَةِ الْفِسْقِ وَالْفَسَادِ عَلَيْهَا كَمَا هُوَ مُدَوَّنٌ فِي التَّارِيخِ ، وَبِذَلِكَ تَتَّفِقُ الْآيَاتُ الْوَارِدَةُ فِيهِمْ ، وَلَا غَرَابَةَ فِي ذَلِكَ فَقَدِ اتَّبَعْنَا سُنَنَهُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى تَرَكَ سَوَادُنَا الْأَعْظَمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ بِحَيْثُ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ :

إِنَّ الْأُمَّةَ تَرَكَتْهُ إِلَّا أَفْرَادًا قَلِيلِينَ لَا تَأْثِيرَ لَهُمْ فِي الْمَجْمُوعِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْمُؤْمِنِ الْمُخْلِصِ لَا يَتَبَاطَأُ عَمَّا يَعِنُّ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ وَإِنَّمَا يَتَبَاطَأُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ كَمَا قَالَ - تَعَالَى - فِي الْمُنَافِقِينَ: وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا [4 : 142] فَلَا غَرْوَ أَنْ يَقُولَ فِيهِمْ بَعْدَ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الَّتِي كَانُوا يُوَاظِبُونَ عَلَيْهَا: وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ صَلُحَتْ نُفُوسُهُمْ فَاسْتَقَامَتْ أَحْوَالُهُمْ وَحَسُنَتْ أَعْمَالُهُمْ.

ثُمَّ قَالَ: وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ أَيْ فَلَنْ يَضِيعَ ثَوَابُهُ كَمَا يُكْفَرُ

(49/128)

الشَّيْءُ أَيْ يُسْتَرُ حَتَّى كَأَنَّهُ غَيْرُ مَوْجُودٍ، وَقَدْ سَمَّى اللهُ - تَعَالَى - إِثَابَتَهُ لِلْمُحْسِنِينَ شُكْرًا وَسَمَّى نَفْسَهُ شَكُورًا فَحَسُنَ فِي مُقَابَلَةِ هَذَا أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ عَدَمِ الْإِثَابَةِ بِالْكُفْرِ الَّذِي يُقَابِلُ الشُّكْرَ. وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: إِنَّ "كَفَرَ" عُدِّيَ هُنَا إِلَى مَفْعُولَيْنِ لِتَضْمِينِهِ مَعْنَى الْحِرْمَانِ، فَالْمَعْنَى: لَنْ يُحْرَمُوا جَزَاءَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ وَإِنَّمَا يَجْزِي الْعَامِلِينَ بِحَسَبِ مَا يَعْلَمُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ نُفُوسُهُمْ مِنْ نِيَّاتِهِمْ وَسَرَائِرِهِمْ، فَمَنْ آمَنَ إِيمَانًا صَحِيحًا وَاتَّقَى مَا يُفْسِدُ عَلَيْهِ ثَمَرَاتِ إِيمَانِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ، فَلَا عِبْرَةَ بِجِنْسِيَّاتِ الْأَدْيَانِ وَإِنَّمَا الْعِبْرَةُ بِالتَّقْوَى مَعَ الْإِيمَانِ.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

قَالَ (الرَّازِيُّ) فِي وَجْهِ الِاتِّصَالِ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَمَا قَبْلَهَا : اعْلَمْ أَنَّ اللهَ - تَعَالَى - ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مَرَّةً أَحْوَالَ الْكَافِرِينَ فِي كَيْفِيَّةِ الْعِقَابِ ، وَأُخْرَى أَحْوَالَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الثَّوَابِ ، جَامِعًا بَيْنَ الزَّجْرِ وَالتَّرْغِيبِ ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، فَلَمَّا وَصَفَ مَنْ آمَنَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِمَا تَقَدَّمَ

(50/128)

مِنَ الصِّفَةِ الْحَسَنَةِ أَتْبَعَهُ - تَعَالَى - بِوَعِيدِ الْكُفَّارِ فَقَالَ : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَأَقُولُ : قَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ بِالَّذِينَ كَفَرُوا ، فَقِيلَ : هُمْ بَنُو قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ مِنَ الْيَهُودِ ، وَرُوِيَ هَذَا الْقَوْلُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) وَهُوَ الْمُلَائِمُ لِلسِّيَاقِ مِنْ حَيْثُ كَانَتِ الْآيَاتُ قَبْلَهُ فِي مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَمِنْ حَيْثُ حِرْصُ الْيَهُودِ عَلَى الْمَالِ وَالْحَيَاةِ وَأَعَزُّهَا وَآثَرُهَا حَيَاةُ الْأَوْلَادِ ، وَقِيلَ : هُمْ مُشْرِكُو

قُرَيْشٍ عَامَّةً ، وَقِيلَ : بَلْ هُمْ أَبُو سُفْيَانَ وَرَهْطُهُ خَاصَّةً ، وَوَجَّهُوهُ بِمَا نُقِلَ مِنْ إِنْفَاقِهِ الْمَالَ الْكَثِيرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ

(51/128)

وَيَوْمَ أُحُدٍ ، وَقِيلَ : إِنَّ الْكَلَامَ فِي الْكُفَّارِ عَامَّةً لِعُمُومِ اللَّفْظِ فَهُوَ عَلَى إِطْلَاقِهِ وَيَدْخُلُ فِيهِ الْيَهُودُ الَّذِينَ كَانُوا مُجَاوِرِينَ لِلْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ وَكَذَا مُشْرِكُو مَكَّةَ دُخُولًا أَوَّلِيًّا ، قَالُوا : إِنَّهُمْ كُلَّهُمْ كَانُوا يَتَعَزَّزُونَ بِكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ وَيُعَيِّرُونَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَتْبَاعَهُ بِالْفَقْرِ وَيَقُولُونَ : لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ عَلَى الْحَقِّ مَا تَرَكَهُ رَبُّهُ فِي هَذَا الْفَقْرِ وَالشِّدَّةِ ، وَقِيلَ : هُمُ الْمُنَافِقُونَ إِذْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ ، وَمَنْ كَانَ كَثِيرَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ قَلَّمَا يَشْعُرُ بِحَاجَتِهِ إِلَى مَا عِنْدَ غَيْرِهِ مِنْ هِدَايَةٍ أَوْ عِلْمٍ أَوْ أَدَبٍ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى [96 : 6 ، 7] وَقَدْ سَبَقَ لَنَا بَيَانُ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ - تَعَالَى - مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا [3 : 10] الْآيَةَ .

(52/128)

وَقَدْ فَسَّرَ (الْجَلَالُ) كَغَيْرِهِ (تُغْنِيَ) بِتَدْفَعَ، أَيْ لَا تَدْفَعُ شَيْئًا مِنَ الْعَذَابِ عَنْهُمْ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْغَنَاءِ بِمَعْنَى الْكِفَايَةِ، وَلِذَلِكَ رَدَّ هَذَا الْقَوْلَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ وَاخْتَارَ أَنَّ (شَيْئًا) هُوَ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ قَالَ: أَيْ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ الْغَنَاءِ، أَوْ لَا تُغْنِي غَنَاءً مَا، قَالَ: وَذَكَرَ الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ لِأَنَّ الْمَغْرُورَ إِنَّمَا يَصُدُّهُ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ أَوِ النَّظَرِ فِي دَلِيلِهِ الِاسْتِغْنَاءُ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ وَأَعْظَمُهَا الْأَمْوَالُ وَالْأَوْلَادُ، فَالَّذِي يَرَى نَفْسَهُ مُسْتَغْنِيًا بِمِثْلِ ذَلِكَ قَلَّمَا يُوَجِّهُ نَظَرَهُ إِلَى طَلَبِ الْحَقِّ أَوْ يُصْغِي إِلَى الدَّاعِي إِلَيْهِ: أَيْ وَمَنْ لَمْ يُوَجِّهْ نَظَرَهُ إِلَى الْحَقِّ لَا يُبْصِرُهُ، وَمَنْ لَمْ يُبْصِرْهُ تَخَبَّطَ فِي دَيَاجِيرِ الضَّلَالِ عُمْرَهُ حَتَّى يَتَرَدَّى فَيَهْلِكَ الْهَلَاكَ الْأَبَدِيَّ، وَلَا يَنْفَعُهُ فِي الْآخِرَةِ مَالُهُ فَيَفْتَدِي بِهِ أَوْ يَنْتَفِعُ بِمَا كَانَ أَنْفَقَهُ مِنْهُ وَلِذَلِكَ قَالَ: وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ لِأَنَّ طَبِيعَةَ أَرْوَاحِهِمُ اقْتَضَتْ أَنْ يَكُونُوا فِي تِلْكَ الْهَاوِيَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُسْتَعِرَةِ، ثُمَّ مَثَّلَ حَالَهُمْ فِي إِنْفَاقِ أَمْوَالِهِمُ الَّتِي فَتَنَتْهُمْ فَشَغَلَتْهُمْ عَنِ الْحَقِّ أَوْ أَغْرَتْهُمْ بِمُقَاوَمَتِهِ فَقَالَ: مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ قَالَ (الرَّاغِبُ): مَثَلُ الشَّيْءِ - بِالتَّحْرِيكِ: مِثْلُهُ

وَشِبْهُهُ ، وَيُطْلَقُ عَلَى صِفَةِ الشَّيْءِ ، وَالْمَثَلُ فِي الْكَلَامِ : عِبَارَةٌ عَنْ قَوْلٍ فِي شَيْءٍ يُشْبِهُ قَوْلًا فِي

شَيْءٍ آخَرَ لِيُبَيِّنَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ وَيُصَوِّرَهُ : أَيْ وَلَوْ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ ; لِأَنَّ بَيَانَ الْحَقَائِقِ يَكُونُ عَلَى حَسَبِ

الْمَقَاصِدِ . وَالصِّرُّ - بِالْكَسْرِ - وَالصِّرَّةُ : شِدَّةُ الْبَرْدِ ، وَقِيلَ : هُوَ الْبَرْدُ عَامَّةً - حُكِيَتِ الْأَخِيرَةُ عَنْ ثَعْلَبٍ - وَقَالَ (اللَّيْثُ) : الصِّرُّ الْبَرْدُ الَّذِي يَضْرِبُ النَّبَاتَ وَيَحُسُّهُ اهـ . مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ ، وَفِي الْكَشَّافِ الصِّرُّ : الرِّيحُ الْبَارِدَةُ نَحْوَ الصَّرْصَرِ قَالَ :

لَا تَعْدِلَنَّ أَتَاوِيِّينَ تَضْرِبُهُمْ . . . نَكْبَاءُ صِرٌّ بِأَصْحَابِ الْمُحِلَّاتِ

كَمَا قَالَتْ لَيْلَى الْأَخْيَلِيَّةُ :

وَلَمْ تَغْلِبِ الْخَصْمَ الْأَلَدَّ وَتَمْلَأُ الْ . . . جِفَانَ سَدِيفًا يَوْمَ نَكْبَاءَ صَرْصَرِ

(54/128)

ثُمَّ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ : كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ قُلْتُ : فِيهِ أَوْجُهٌ .

(أَحَدُهَا) : أَنَّ الصِّرَّ فِي صِفَةِ الرِّيحِ بِمَعْنَى الْبَارِدَةِ فَوَصَفَ بِهَا الْقِرَّةَ بِمَعْنَى " فِيهَا قِرَّةٌ صِرٌّ " كَمَا تَقُولُ " بَرْدٌ بَارِدٌ " عَلَى الْمُبَالَغَةِ . (وَالثَّانِي) : أَنْ يَكُونَ الصِّرُّ مَصْدَرًا فِي الْأَصْلِ بِمَعْنَى

الْبَرْدِ فَجِيءَ بِهِ عَلَى أَصْلِهِ (وَالثَّالِثُ) : أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ [33 : 21] وَمِنْ قَوْلِكَ : إِنْ ضَيَّعَنِي فُلَانٌ فَفِي اللهِ كَافٍ وَكَافِلٌ . قَالَ : وَفِي الرَّحْمَنِ لِلضُّعَفَاءِ كَافِي اهـ . وَنَقَلَ اللِّسَانُ عَنِ ابْنِ الْأَنْبَارِيِّ الْآيَةَ فِي ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ أَحَدُهَا فِيهَا صِرٌّ أَيْ بَرْدٌ ، وَالثَّانِي فِيهَا تَصْوِيتٌ وَحَرَكَةٌ . وَنُقِلَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلٌ آخَرُ : فِيهَا صِرٌّ قَالَ : فِيهَا نَارٌ اهـ . يَعْنِي حَرًّا شَدِيدًا ، وَهُوَ أَحَدُ قَوْلَيْنِ عَنْهُ . وَمِنْ هُنَا أَخَذَ الْجَلَالُ قَوْلَهُ فِي تَفْسِيرِ الصِّرِّ : حَرٌّ وَبَرْدٌ ، وَأَنْكَرَ عَلَيْهِ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ كَلِمَةَ الْحَرِّ ، وَقَالَ : إِنَّهُ لَا يَهْلِكُ الْحَرْثُ بِمُجَرَّدِ إِصَابَتِهِ وَإِنَّمَا يُهْلِكُهُ الْبَرْدُ فَهُوَ الْمُرَادُ حَتْمًا . أَقُولُ : وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي مَعْنَى أَصْلِ مَادَّةِ الصِّرِّ هَلْ هُوَ الصَّوْتُ أَوِ الشِّدَّةُ ؟ وَالصَّوَابُ أَنَّهُ الشِّدَّةُ تَكُونُ فِي الصَّوْتِ وَمِنْهُ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ [51 : 29] كَمَا تَكُونُ فِي الْبَرْدِ ، فَالصِّرُّ هُنَا هُوَ الْبَرْدُ الشَّدِيدُ حَتْمًا ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ الَّذِي رَوَاهُ عَنْهُ

(55/128)

وَعَنْ غَيْرِهِ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَلَعَلَّهُمْ أَخَذُوا قَوْلَهُمْ فِيهَا نَارٌ مِنْ إِحْرَاقِ الزَّرْعِ .

أَمَّا الْمَعْنَى فَقَدْ قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنَّ الرِّيحَ الْمُهْلِكَةَ مِثَالٌ لِلْمَالِ الَّذِي يُنْفِقُونَهُ فِي لَذَّاتِهِمْ وَجَاهِهِمْ وَنَشْرِ سُمْعَتِهِمْ وَتَأْيِيدِ كَلِمَتِهِمْ فَيَصُدُّهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنَّ الْعُقُولَ

وَالْأَخْلَاقَ الْحَسَنَةَ الَّتِي هِيَ أَصْلُ جَمِيعِ الْمَنَافِعِ هِيَ مِثَالُ الْحَرْثِ ، أَيْ إِنَّ الْمَالَ الَّذِي يُنْفِقُونَهُ فِيمَا ذُكِرَ هُوَ الَّذِي أَفْسَدَ أَخْلَاقَهُمْ وَأَهْلَكَ عُقُولَهُمْ بِمَا صَرَفَهَا عَنِ النَّظَرِ الصَّحِيحِ وَلَفَتَهَا عَنِ التَّفَكُّرِ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ ، ثُمَّ أَشَارَ إِلَى مَا قَالُوهُ فِي جَعْلِ التَّشْبِيهِ فِي الْمَثَلِ مُرَكَّبًا وَهُوَ أَنَّ حَالَهُمْ فِيمَا يُنْفِقُونَهُ وَإِنْ كَانَ فِي الْخَيْرِ كَحَالِ الرِّيحِ ذَاتِ الصِّرِّ الْمُهْلِكَةِ لِلزَّرْعِ ، فَهُمْ لَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْ نَفَقَتِهِمْ شَيْئًا . وَمِنَ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ جَعَلَ هَذَا فِيمَا يُنْفِقُونَهُ فِي عَدَاوَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمُقَاوَمَةِ دَعْوَتِهِ سَوَاءٌ كَانَ الْمُنْفِقُونَ هُمُ الْيَهُودُ أَوْ أَهْلُ مَكَّةَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ ذَلِكَ فِيمَا يُنْفِقُ

(56/128)

الْمُنَافِقُونَ رِيَاءً أَوْ تَقِيَّةً ، وَقَدْ خَابَ الْفَرِيقَانِ وَخَسِرُوا بِنَصْرِ اللهِ نَبِيَّهُ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَبِفَضِيحَةِ الْمُنَافِقِينَ فِي سُورَةِ (بَرَاءَةَ) . وَبَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ يَخُصُّ هَذَا الْإِنْفَاقَ بِمَا يَفْعَلُهُ الْكَافِرُ عَلَى سَبِيلِ الْبِرِّ وَهُوَ لَا يُفِيدُهُ فِي الْآخِرَةِ شَيْئًا ، إِذِ الْإِيمَانُ شَرْطٌ لِقَبُولِ الْأَعْمَالِ وَنَفْعِهَا فِي تِلْكَ الدَّارِ .

أَمَّا وَصْفُ الْقَوْمِ الَّذِينَ أَهْلَكَتِ الرِّيحُ حَرْثَهُمْ بِكَوْنِهِمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَقَدْ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَّافِ مُبَيِّنًا نُكْتَتَهُ مَا نَصُّهُ : " فَأُهْلِكَ عُقُوبَةً لَهُمْ لِأَنَّ الْإِهْلَاكَ عَنْ سُخْطٍ أَشَدُّ وَأَبْلَغُ "

وَفِي هَامِشِهِ كَتَبَ بِإِمْلَائِهِ فِي ذَلِكَ : أَنَّ النُّكْتَةَ فِي ذَلِكَ هِيَ إِفَادَةُ أَنَّ أُولَئِكَ الْمُنْفِقِينَ لَا يَسْتَفِيدُونَ شَيْئًا مِنْهُ ; لِأَنَّ حَرْثَ الْكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ هُوَ الَّذِي يَذْهَبُ عَلَى الْكُلِّيَّةِ إِذْ لَا مَنْفَعَةَ لَهُمْ فِيهِ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ، فَأَمَّا حَرْثُ الْمُسْلِمِ الْمُؤْمِنِ فَلَا يَذْهَبُ عَلَى الْكُلِّيَّةِ لِأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ يَذْهَبُ صُورَةً إِلَّا أَنَّهُ لَا يَذْهَبُ مَعْنًى لِمَا فِيهِ مِنْ حُصُولِ أَغْرَاضٍ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَالثَّوَابِ بِالصَّبْرِ عَلَى الذَّهَابِ " اهـ .

(57/128)

وَأَقُولُ : إِنَّ الْوَصْفَ يُشْعِرُ بِأَنَّ الْجَوَائِحَ قَدْ تَنْزِلُ بِأَمْوَالِ النَّاسِ مِنْ حَرْثٍ وَنَسْلٍ عُقُوبَةً عَلَى ذُنُوبٍ اقْتَرَفُوهَا وَلَكِنَّهُ لَيْسَ نَصًّا فِي ذَلِكَ لِمَا عَلِمْتَ مِنْ تَعْلِيلِ الْكَشَّافِ آنِفًا ، وَلَا يُعَارِضُ ذَلِكَ مَا ثَبَتَ مِنَ الْأَسْبَابِ الطَّبِيعِيَّةِ لَهَا لِأَنَّهُ لَا يُسْتَنْكَرُ عَلَى الْبَارِئِ الْحَكِيمِ الَّذِي وَضَعَ سُنَنَ ارْتِبَاطِ الْأَسْبَابِ بِالْمُسَبَّبَاتِ فِي عَالَمِ الْحِسِّ أَنْ يُوَفِّقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ سُنَنِهِ الْخَفِيَّةِ فِي إِقَامَةِ مِيزَانِ الْقِسْطِ فِي الْبَشَرِ لِهِدَايَتِهِمْ إِلَى مَا بِهِ كَمَالُهُمْ مِنْ طَرِيقِ الْعُلُومِ الْحِسِّيَّةِ الَّتِي يَسْتَفِيدُونَهَا مِنَ النَّظَرِ وَالتَّجْرِبَةِ ، وَمِنْ طَرِيقِ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ الَّذِي يُرْشِدُ إِلَيْهِ الْوَحْيُ الْإِلَهِيُّ ، وَيُسَمَّى مَا تَرَتَّبَ عَلَيْهِ حُدُوثُ الشَّيْءِ سَبَبًا لَهُ وَمَا قَارَنَ

الْمُسَبِّبَ مِنْ نَفْعِ الْعِبَادِ وَضُرِّ بَعْضِهِمْ بِهِ حِكْمَةٌ لَهُ ، وَكُلٌّ مِنْ سَبَبِ الشَّيْءِ وَحِكْمَتِهِ أَوْ حُكْمِهِ مَقْصُودٌ لِلْخَالِقِ الْحَكِيمِ .

(58/128)

رَأَيْنَا فِي مَذْهَبِ (دَارْوِن) الْعَالِمِ الطَّبِيعِيِّ الشَّهِيرِ أَنَّ الْحِكْمَةَ فِي أَلْوَانِ الثِّمَارِ كَالْمِشْمِشِ وَالْخَوْخِ وَالْبُرْقُوقِ هِيَ إِغْرَاءُ أَكَلَتِهَا مِنَ الطَّيْرِ وَالنَّاسِ بِهَا لِتَأْكُلَهَا فَيَسْقُطَ عَجَمُهَا عَلَى الْأَرْضِ لِيَنْبُتَ فِيهَا بِسُهُولَةٍ فَيَحْفَظَ نَوْعَهُ بِتَجَدُّدِ النَّسْلِ أَوْ مَا هَذَا حَاصِلُهُ . وَمِنَ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ لِتِلْكَ الْأَلْوَانِ أَسْبَابًا طَبِيعِيَّةً تَتَعَلَّقُ بِاسْتِعْدَادِ نَبَاتِهَا وَتَأْثِيرِ النُّورِ فِيهِ . فَهَلَّا تُسْتَنْكَرُ عَلَى حِكْمَةِ مَنْ وَفَّقَ بَيْنَ أَسْبَابِ تِلْكَ الْأَلْوَانِ ذَاتِ الْبَهْجَةِ فِي الثِّمَارِ وَبَيْنَ مَصْلَحَةِ الطَّيْرِ بِهِدَايَتِهِ إِلَيْهَا وَحِفْظِ النِّظَامِ الْعَامِّ بِبَقَاءِ أَنْوَاعِهَا أَنْ يُوَفِّقَ بَيْنَ أَسْبَابِ إِرْسَالِ الْعَوَاصِفِ وَالْأَعَاصِيرِ وَبَيْنَ عُقُوبَةِ الظَّالِمِينَ مِنَ الْبَشَرِ لِيَكُونَ لَهُمْ زَاجِرَانِ عَنِ الذُّنُوبِ ، أَحَدُهُمَا : حَذَرُ آثَارِهَا الطَّبِيعِيَّةِ الضَّارَّةِ بِهِمْ فَإِنَّ لِكُلِّ ذَنْبٍ ضَرَرًا لِأَجْلِهِ كَانَ مُحَرَّمًا ، إِذْ لَا يُحَرِّمُ اللهُ عَلَى عِبَادِهِ

شَيْئًا لِإِعَانَتِهِمْ . وَثَانِيهِمَا : مَا يَتَخَوَّفُ الْمُؤْمِنُ مِنْ إِصَابَةِ الْعُقُوبَاتِ الْآفَاقِيَّةِ إِيَّاهُ بِذَهَابِ الْجَوَائِحِ بِمَالِهِ إِذَا هُوَ بَغَى وَظَلَمَ ؟ .

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ : مَا سَأَلَنِي عَنْهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْبَحْثِ ، وَهُوَ مَا مَعْنَى جَعْلِ الشُّهُبِ رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَمَنْعِهَا إِيَّاهُمْ مِنِ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ لِمَعْرِفَةِ الْوَحْيِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ لِلشُّهُبِ أَسْبَابًا طَبِيعِيَّةً ؟ وَجَوَابُهُ : أَنَّ الْحَكِيمَ الْخَبِيرَ - الَّذِي يُوَفِّقُ أَقْدَارًا لِأَقْدَارٍ فَيَجْمَعُ بَيْنَ السَّبَبِ وَمُسَبَّبِهِ وَبَيْنَ أُمُورٍ أُخْرَى تَسُوقُهَا أَسْبَابٌ خَاصَّةٌ بِهَا لِحِكْمَةٍ وَرَاءَ تِلْكَ الْأَسْبَابِ - هُوَ الَّذِي جَعَلَ لِهَذِهِ الظَّاهِرَةِ الطَّبِيعِيَّةِ تِلْكَ الْحِكْمَةَ الْغَيْبِيَّةَ الَّتِي بَيَّنَهَا الْوَحْيُ وَنَطَقَ بِهَا الذِّكْرُ ، وَمِثْلُهَا فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ كَثِيرٌ ، وَلَعَلَّ لِبَعْضِ الْمَادِّيَّاتِ تَأْثِيرًا فِي الْأَرْوَاحِ الْغَيْبِيَّةِ كَتَأْثِيرِهَا فِي أَرْوَاحِنَا وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا [17 : 85] أَكْتَفِي هُنَا بِهَذَا التَّنْبِيهِ إِلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الَّتِي لَمْ أَرَ فِي كِتَابٍ وَلَمْ أَسْمَعْ مِنْ لِسَانِ أَحَدٍ قَوْلًا فِيهَا وَإِنَّ لَهَا لِمَوَاضِعَ أُخْرَى مِنَ التَّفْسِيرِ كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ [42 : 30] وَسَنَعْقِدُ لَهَا فَصْلًا فِي الْمُقَدِّمَةِ ، وَهُنَالِكَ نُجِيبُ عَمَّا يَرِدُ عَلَيْهَا مِنَ الشُّبُهَاتِ .

قَالَ - تَعَالَى - : وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ يَعْنِي أُولَئِكَ الَّذِينَ أَهْلَكَتِ الرِّيحُ ذَاتُ الصِّرِّ حَرْثَهُمْ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ كَمَا تَقَدَّمَ ، فَكَانَ هَلَاكُ زَرْعِهِمْ عُقُوبَةً لَهُمْ لَا إِيذَاءً آنِفًا ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَوْلُهُ : وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ تَأْكِيدًا ذَاهِبًا بِكُلِّ شُبْهَةٍ . وَالظَّاهِرُ الْمُخْتَارُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ : وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ لِلْمُنْفِقِينَ الَّذِينَ ضُرِبَ الْمَثَلُ لِبَيَانِ حَالِهِمْ ، فَهُمُ الْمَقْصُودُونَ بِالذَّاتِ . وَالْمَعْنَى مَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ بِأَنْ لَمْ يَنْفَعْهُمْ بِنَفَقَاتِهِمْ بَلْ هُمْ هُمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَحْدَهَا دُونَ غَيْرِهَا بِإِنْفَاقِ تِلْكَ الْأَمْوَالِ فِي الطُّرُقِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى الْخَيْبَةِ وَالْخُسْرَانِ بِحَسَبِ سُنَّةِ اللَّهِ فِي أَعْمَالِ الْإِنْسَانِ .

(61/128)

أَمَّا كَوْنُهُمْ يَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ دُونَ غَيْرِهَا أَوْ دُونَ أَنْ يَظْلِمَهُمْ أَحَدٌ - كَمَا تَقَدَّمَ أَخْذًا مِنْ تَقْدِيمِ أَنْفُسَهُمْ عَلَى عَامِلِهِ - فَهُوَ ظَاهِرٌ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيمَا كَانَ يُنْفِقُهُ أَهْلُ مَكَّةَ كُلُّهُمْ أَوْ بَعْضُهُمْ أَوِ الْيَهُودُ فِي عَدَاوَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمُقَاوَمَتِهِ ، إِذْ كَانُوا هُمُ الَّذِينَ اخْتَارُوا ذَلِكَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلَمْ يَضُرُّوهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَنْ مَعَهُ بِهِ ، بَلْ كَانُوا سَبَبَ سِيَادَتِهِ عَلَيْهِمْ وَتَمَكُّنِهِ مِنْهُمْ ، وَظَاهِرٌ أَيْضًا عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِتِلْكَ النَّفَقَاتِ مَا كَانَ يَضَعُهُ الْمُنَافِقُونَ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْبِرِّ رِيَاءً وَسُمْعَةً أَوْ تَقِيَّةً ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا لَا يُنْتَفَعُ بِهَا فِي

الْآخِرَةِ ، وَيَقُولُونَ مِثْلَ هَذَا فِي الْكَافِرِ الَّذِي يُنْفِقُ فِي طُرُقِ الْبِرِّ حُبًّا فِي الْبِرِّ وَرَغْبَةً فِي الْخَيْرِ ، فَإِنَّهُ - وَإِنْ كَانَ أَحْسَنَ حَالًا مِنَ الْمُرَائِي - لَا تُفِيدُهُ نَفَقَتُهُ فِي الْآخِرَةِ لِأَنَّ شَرْطَهَا الْإِيمَانُ ، وَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ بِتَرْكِ النَّظَرِ فِي الْآيَاتِ وَالْبَيِّنَاتِ عَلَيْهِ بَعْدَمَا ظَهَرَتْ لَهُ ، أَوْ بِالْجُحُودِ بَعْدَ النَّظَرِ وَنُهُوضِ الْحُجَّةِ ، وَإِنَّمَا يَعْنُونَ بِقَوْلِهِمْ : إِنَّ نَفَقَتَهُ لَا تُفِيدُهُ فِي الْآخِرَةِ أَنَّهَا لَا تَجْعَلُهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ . وَلَا يُوجَدُ عَاقِلٌ قَطُّ يَقُولُ : إِنَّ الْكَافِرِينَ فِي الْآخِرَةِ كُلَّهُمْ سَوَاءٌ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْمُحْسِنِ عَمَلًا وَالْمُسِيءِ ، وَبَيْنَ فَاعِلِ الْخَيْرِ وَمُقْتَرِفِ الْإِثْمِ . وَسَنَعُودُ إِلَى هَذَا الْبَحْثِ فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى. انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 4 صـ 58. 66 ﴾

(62/128)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾

إن الحق يصف ما ينفقه هؤلاء الكافرون في أثناء الحياة الدنيا وهم بعيدون عن منهج الله إنه - سبحانه - يشبهه بريح فيها صر ، أي شدة ، فمادة " الصاد والراء " تدل على الشدة

والضجة والصخب ، ومثال ذلك ما قاله الحق عن إمرأة إبراهيم :

﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾

[الذاريات : 29]

إنها أتت وجاءت بضجيج ؛ لأنها عجوز وعقيم ويستحيل عادة أن تلد . ومثل قوله الحق :

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾

[الحاقة : 6]

والريح الصرصر هي التي تحمل الصقيع ولها صوت مسموع .

وقوله الحق : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ أي أن الريح جعلت البرد شائعا وشديدا ، فالبرد قد يكون في منطقة لا ريح فيها ، ويظل باقيا في منطقته تلك ، وعندما تأتي الريح فإنها تنقل هذا البرد من مكان إلى مكان آخر ، فتتسع دائرة الضرر به . وماذا تفعل الريح التي فيها شدة برد ؟ إنها تفعل الكوارث ، ويقول عنها الحق : ﴿ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾ وساعة نسمع كلمة " حرث " فنحن نعرف أنه الزرع ، وقد سماه الله حرثاً ، ليعرف الإنسان إنه إن لم يحرث فلن يحصد ، يقول الحق :

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾

[الواقعة : 63-65]

كأن الريح العارمة تفسد الحرث ، وهو العملية اللازمة للإنبات ؛ فالحرث إثارة للأرض ، أي جعل الأرض هشة لتنمو فيها الجذور البسيطة ، وتقوى على اختراقها ، وأخذ الغذاء منها ، وهذه الجذور تستطيع – أيضا – من خلال هشاشة الأرض المحروثة أن تأخذ الهواء اللازم للإنبات .

إن الحق سبحانه يريد أن يضرب لنا المثل وهو عن جماعة غير مؤمنين أنفقوا أموالهم في الخير ، لكن ذلك لا ينفعهم ولا جدوى منه . مصداقا لقوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ وهكذا يكون مصير الإنفاق على نية غير مؤمنة ، كهيئة الحرث الذي هبت عليه ريح فيها صوت شديد مصحوب ببرد ، فالـ " صر " فيه الشدة والبرودة والعنف ، وحاتم الطائي كريم العرب يقول لعبده : أوقد ؛ فإن الليل ليل قر والريح يا غلام ريح صر

عَلّ يرى نارك من يمر إن جلبت ضيفا فأنت حر

إن هذا الرجل الكريم يطلق سراح العبد إذا ما هدى ضيفاّ إلى منزل حاتم الطائي . " والليل القر " : هو الليل الشديد البرودة . و " الريح الصر " : هي الريح الشديدة المصحوبة بالبرد .

ونعرف في قُرآنا أن الصقيع ينزل على بعض المزروعات، فيتلفها. ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه قد جاء بهذه الآية الكريمة بعد أن أوضح لنا في الآية السابقة عليها أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئًا ومصيرهم النار، وهو سبحانه يدفع أي شبهة تطرأ على السامع، وهي أن هذه الأموال التي أنفقها الكافرون لعمل الخير، لن تغني عنهم شيئًا في الآخرة؛ لأنهم لا يملكونها.

لماذا؟

(64/128)

لأن العمل إنما يراد للثواب عليه، والنية دائما هي التي تحدد الهدف من كل حركة.. فهل كان في نية الكفار حين أنفقوا أموالهم في الخير الذي يعلمه الناس كالمساعدات، وتفريج الكرب، وإنشاء المستشفيات هل كان في بال هؤلاء الكفار رَبُّ هذه النعم، أو كانوا يعملونها طمعا في جاه الدنيا، وتقدير التاريخ وذكر الإنسانية؟

لا شك أنهم كانوا يعملونها للجاه، أو للتاريخ، أو للإنسانية؛ لأنهم لا يؤمنون بما وراء ذلك، فهم لا يؤمنون بوجود إله، ولا يؤمنون بوجود يوم آخر يُحَاسبون فيه على ما قدموا. وقلنا من قبل: إن الذي يعمل عملا فليطلب أجره ممن عمل له، وما داموا قد عملوا للدنيا وذكرها،

وجاهها ، والفخر فيها ، فقد أعطتهم الدنيا كل شيء .

الحق سبحانه وتعالى يضرب لنا مثلا ، وهو الذي يضرب الأمثال للناس لعلهم يتذكرون .

ومعنى المثل : أن يأتي إلى أمر معنوي قد يغيب عن بعض العقول فهمه ، فيشخصه ويمثله بأمر حسي يعرفه الجميع ، ونحن نعرف أن المحسات هي أصل المعنويات في الفهم . ونعرف أن الطفل أول ما تتفتح إدراكاته يدرك الشيء المحس أولا ، ثم بعد ذلك يكوّن من المحسات المعقولات .

فالطفل – على سبيل المثال – يرى نارا فيمسكها فتحرقه ، فيتكون عند الطفل اقتناع بأن النار محرقة . ويشرب الطفل عسلا ، فيجده حلوا ، فيتكون عنده اقتناع بأن العسل حلو الطعم ، ويأكل الطفل شيئا مرا كالحنظل ، فتتكون عنده قضية معلومة وهي أن هذا الشيء مر الطعم ، فكل المعلومات التي يعرفها الإنسان بوسائل إدراكه المتعددة إنما تأتي من الأمور المحسة أولا .

والأمور المحسة – كما علمنا – وسائلها الحواس الخمس الظاهرة ، وهي : العين لترى ، والأذن لتسمع ، والأنف ليشم ، واللسان ليذوق ، والأنامل لتلمس ، وهكذا نعرف أن كل حاسة ظاهرة لها غاية في الإدراك . والإنسان يتمتع بحواس أخرى ندرك أعمالها ، ولكنا لا ندرك أجهزتها أو آلاتها .

مثال ذلك : حاسة البعد وهي أن يعرف الإنسان هل الشيء الذي يراه قريب منه أو بعيد عنه ؟ وكذلك حاسة الثقل فيحمل الإنسان الشيء فيعرف مدى ثقله ، إنه يدرك ذلك الثقل بحاسة غير الحواس الخمس الظاهرة ، هذه الحاسة هي حاسة الثقل يكتشف بها الإنسان أن شيئًا أثقل من شيء آخر ؛ ذلك أن العضلات التي تحمل الشيء تعرف قدر الجهد المبذول في الحمل . وهناك حاسة أخرى غير ظاهرة هي حاسة " البَين " فيمسك الإنسان القماش بأنامله ليعرف هل سمك هذا القماش أكبر من سمك قماش آخر ؟ ولمعرفة سمك الشيء لا بد أن يكون واقعا بين لامسين .

إذن فهناك حواس كثيرة تربي المعاني عندنا ؛ فكل الإدراكات بنت الحس ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

[النحل : 78]

هذه هي الوسائل للإدراك ، وقد أورد سبحانه السمع والأبصار أولا لأنهما الوسيلتان الأساسيتان ، وأورد من بعد ذلك " الأفئدة " وهي المختصة بالمعاني والقلبيات وغيرها ، فإذا أراد الله أن يضرب مثلا في أمر معنوي قد تختلف فيه العقول فهو سبحانه يأتي بأمر

حسيّ تتفق فيه الحواس . ونعلم أن في اللغة أمرا اسمه " التشبيه " ، فعندما يجهل إنسان شيئًا يقول لمعلمه : شبه لي الأمر الذي أجهله بأمر أعرفه . والإنسان منا قد يسأل صاحبه : أتعرف فلانا ؟ فيقول الصاحب : لا أعرفه ، فيقول الإنسان منا لصاحبه : إن فلانا الذي لا تعرفه يساوي فلانا في الطول ، ويساوي فلانا في اللون . وهكذا ينتقل الإنسان من أمر لا يعرفه إلى أمر يعرفه . والحق سبحانه يضرب لنا المثل بالأمور الحسية ، لنفهم الأمور المعنوية ، والله يوضح لنا أن الذين كفروا ساعة تكون لهم آلهة متعددة فملكاتهم تصاب بالاضطراب يقول – سبحانه – :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ للَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾

[الزمر : 29]

إنه سبحانه يوضح لنا بالمثل الواضح مصير وحال رجل مملوك لعدد من الشركاء ، والشركاء الذين يملكون هذا العبد ليسوا متفقين ، بل بينهم نزاع وشقاق ، وبطبيعة الحال لا بد أن يكون هذا العبد مرهقا ، وهكذا تكون قضية الشرك بالله ، إن العبد في مثل هذه الحالة

يكون مُشتّتاً وموزع النفس بين الذين يملكونه وهم متشاكسون ، أما قضية التوحيد فالحق يشبهها بالقول : ﴿ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ ﴾ .

وهكذا ينقلنا الحق سبحانه - رحمة بنا - من المعنى العقدي العالي إلى معنى محس من الجميع ، لنرى أن الرجل المملوك لسيد واحد يتلقى أوامره من واحد فقط ، وكذلك يريد الله في هذه الآية أن يضرب مثلا لمن ينفق شيئًا على غير نية إرضاء الله في طاعته ، فمهما أنفق هذا الإنسان فإن إنفاقه حابط . ونحن عندما نقرأ أمثال القرآن الكريم علينا ألا نأخذ جزئية فقط ، لا ، لكن يجب أن نأخذ الجملة كلها لنفهم المثل كله كصورة مؤتلفة مثلما ضرب الله لنا مثلا بالشركاء المتشاكسين الذين يملكون رجلا ، فعلينا إذن ألاّ نأخذ المثل بحرفيته ، ولكن نأخذ الأمر بمجموع المثل . مثال آخر ، يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً ﴾

[الكهف : 45]

فهل الحياة الدنيا كالماء ؟ لا ، ولكن قصة الحياة كلها ، تشبه القصة التي يضربها الحق كمثل ، الماء حين ينزل يختلط بالأرض ، وبعد ذلك تهتز ، فتعطى نباتا ، والنبات ينتج الزهر الجميل ، وبعد ذلك ينتهي إلى هشيم ، هكذا هي الدنيا في زخرفتها ؛ فالبداية مزهرة ، فيها نضارة وخضرة وبهجة ، ونهاية مؤلمة ومدمرة .

إذن فالحق سبحانه ينقل لنا معنى الحياة الدنيا ويشبهها بالأزهار والنبات ونهايته أن يصبح هشيما تذروه الرياح ، وهو ما يقوله في موضع آخر من القرآن الكريم .

﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَالِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس : 24]

وعندما نمعن النظر في قوله الحق :

﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَاذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَاكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : 117]

نجد في هذه الآية " مشبها " و " مشبها به " ، المُشَبَّه هم القوم الذي ينفقون أموالهم بغير نية الله ، أي كافرون بالله ، والمُشَبَّه به : هو الزرع الذي أصابته الريح وفيها الصر ، والنتيجة أنه لا جدوى هنا ، ولا هناك .

ولماذا تصيب الريح حرث قوم ظلموا أنفسهم ، وهل لا تصيب الريح حرث قوم لم يظلموا أنفسهم ؟

إن الذين ظلموا أنفسهم تنزل بهم هذه الكارثة كعقوبة، مثلهم في ذلك مثل أصحاب الجنة الذين يقول فيهم الحق سبحانه:

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾

[القلم: 17-20]

(68/128)

لقد جزاهم الله بظلمهم، ولكن ألا نرى رجلا لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة؟ إننا نرى ذلك في الحياة، والرجل الذي لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة، ويصبر على كارثته، يأخذ الجزاء والثواب من الله، ولعل الله قد أهلك بها مالا كانت الغفلة قد أدخلته في ماله من طريق غير مشروع.

هكذا تكون الكارثة بالنسبة للمؤمن لها ثواب وجزاء، أو تكون تطهيرا للمال. أما الذي ينفق على غير نية الله وهو كافر، فلا ثواب له.

ويذيل الحق الآية بقوله ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَاكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ فهو سبحانه لم يظلم الكافرين حين جعل نفقتهم بدون جدوى ولا حصيلة لها عنده، ولكنهم هم الذين ظلموا

أنفسهم ، لأنهم أنفقوا النفقة على غير هيئة القبول ، وهم الذين صنعوا ذلك عندما ظلموا أنفسهم بالكفر فَحَبطت أعمالهم ، وتلك هي عدالة الحق سبحانه وتعالى :

ويقول الحق من بعد ذلك : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1696 . 1701 ﴾

(69/128)

" فصل "

قال السيوطى :

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (117)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا ﴾ قال : مثل نفقة الكافر في الدنيا .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في الآية يقول : مثل ما ينفق المشركون ولا يتقبل منهم ، كمثل هذا الزرع إذا زرعه القوم الظالمون . فأصابته ريح فيها صر فأهلكته ،

فكذلك أنفقوا فأهلكهم شركهم .

وأخرج سعيد بن منصور والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس ﴿ فيها صر ﴾ قال : برد شديد .

أخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس . أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ فيها صر ﴾ قال برد . قال : فهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول نابغة بني ذبيان :

لا يبردون إذا ما الأرض للها . . . أصر الشتاء من الأمحال كالأدم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 299 ﴾

(70/128)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآَيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (118) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (119) ﴾

مناسبة الآيتين لما قبلهما

قال البقاعى :

ولما كان الجمال بالمال لا سيما مع الإنفاق من أعظم المرغبات في الموالاة ، وكانت هذه الآية قد صيرت جميلة قبيحاً وبَذوله شحيحاً ؛ قال سبحانه وتعالى - مكرراً التنبيه على مكر ذوي الأموال والجمال الذين يريدون إيقاع الفتنة بينهم من اليهود والمنافقين ليضمحل أمرهم وتزول شوكتهم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي إيماناً صحيحاً مصدقاً ادعاؤه بالعمل الصالح الذي من أعظمه الحب في الله والبغض في الله ﴿ لا تتخذوا بطانة ﴾ أي من تباطنونهم بأسراركم وتختصونهم بالمودة والصفاء ومبادلة المال والوفاء ﴿ من دونكم ﴾ أي ليسوا منكم أيها المؤمنون ، وعبر بذلك إعلاماً بأنهم يهضمون أنفسهم وينزلونها عن علّي درجتها بموادتهم .

ثم وصفهم تعليلاً للنهي بقوله : ﴿ لا يألونكم خبالاً ﴾ أي يقصرون بكم من جهة الفساد ، ثم بين ذلك بقوله على سبيل التعليل أيضاً : ﴿ ودّوا ما عنتم ﴾ أي تمنوا مشقتكم .

(71/128)

ولما كان هذا قد يخفى بيّنه بقوله معللاً : ﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم ﴾ أي هي بينة في حد ذاتها مع اجتهادهم في إخفائها ، لأن الإنسان إذا امتلأ من شيء غلبه بفيضه ،

ولكنكم لحسن ظنكم وصفاء نياتكم لا تتأملونها فتأملوا .

ثم أخبر عن علمه سبحانه قطعاً وعلم الفطن من عباده بالقياس ظناً بقوله : ﴿ وما تخفي صدورهم أكبر ﴾ مما ظهر على سبيل الغلبة .

ثم استأنف على طريق الإلهاب والتهييج قوله : ﴿ قد بيَّنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ لكم ﴾ أي بهذه الجمل ﴿ الآيات ﴾ أي الدالات على سعادة الدارين ومعرفة الشقي والسعيد والمخالف والمؤالف .

وزادهم إلهاباً بقوله : ﴿ إن كنتم ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ تعقلون ﴾ ثم استانف الإخبار عن ملخص حالهم معهم فقال منبهاً أو مبدلاً الهاء من همزة الإنكار : ﴿ ها أنتم أولاء ﴾ أي المؤمنون المسلمون المستسلمون ﴿ تحبونهم ﴾ أي لاغتراركم بإقرارهم بالإيمان لصفاء بواطنكم ﴿ ولا ﴾ أي والحال أنهم لا ﴿ يحبونكم ﴾ لمخالفتهم لكم في الدين ، فإنهم كاذبون في إقرارهم بالإيمان ﴿ وتؤمنون ﴾ أي أنتم ﴿ بالكتاب كله ﴾ أي ويكفرون هم به كله ، إما بالقصد الأول وإما بالإيمان بالبعض والكفر بالبعض ﴿ وإذا لقوكم قالوا ﴾ أي لكم ﴿ آمنا ﴾ لتغتروا بهم ﴿ وإذا خلوا ﴾ أي منكم ، وصوّر شدة حنقهم بقوله : ﴿ عضّوا عليكم ﴾ لما يرون من ائتلافكم وحسن أحوالكم ﴿ الأنامل من الغيظ ﴾ أي المفرط منكم ، ومن جعل الهاء في ﴿ ها أنتم ﴾ بدلاً عن همزة الاستفهام فالمراد عنده : أأنتم يا هؤلاء القرباء مني تحبونهم والحال أنهم على ما هم عليه من منابذتكم وأنتم على ما أنتم

عليه من الفطنة بصفاء الأفكار وعليّ الآراء بقبولكم الحق كله ، لأن المؤمن كيس فطن ؛ فهو استفهام – وإن كان من وادي التوبيخ – المراد به التنبيه والتهييج المنقل من سافل الدركات إلى عالي الدرجات – والله الموفق .

(72/128)

ولما كانوا كأنهم قالوا : فما نفعل ؟ قال مخاطباً للرأس المسموع الأمر المجاب الدعاء : ﴿ قل ﴾ أي لهم ﴿ موتوا بغيظكم ﴾ أي ازدراء بهم ودعاء عليهم بدوام الغيظ من القهر وزيادته حتى يميتهم .

ولما كانوا يحلفون على نفي هذا ليرضوهم قال تعالى مؤكداً لما أخبر به لئلا يظن أنه أريد به غير الحقيقة : ﴿ إن الله ﴾ أي الجامع لصفات الكامل ﴿ عليم بذات الصدور ﴾ أي فلا تظنوا أنه أراد بعض ما يتجوز بالغيظ عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 142.141 ﴾

وقال ابن عاشور :

الآن إذ كشف الله دخائل مَنْ حولَ المسلمين من أهل الكتاب ، أتمّ كشف ، جاء موقع التحذير من فريق منهم ، والتحذير من الاغترار بهم ، والنهي عن الإلقاء إليهم بالمودة ،

وهؤلاء هم المنافقون، للإخبار عنهم بقوله: ﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا ﴾ [آل عمران: 119] الخ...

وأكثرهم من اليهود، دون الذين كانوا مشركين من الأوس والخزرج.

وهذا موقع الاستنتاج في صناعة الخطابة بعد ذكر التمهيدات والإقناعات.

وحقّه الاستئناف الابتدائي كما هنا. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ 199﴾

فصل

قال الفخر:

اختلفوا في أن الذين نهى الله المؤمنين عن مخالطتهم من هم؟ على أقوال:

الأول: أنهم هم اليهود وذلك لأن المسلمين كانوا يشاورونهم في أمورهم ويؤانسونهم لما كان بينهم من الرضاع والحلف ظناً منهم أنهم وإن خالفوهم في الدين فهم ينصحون لهم في أسباب المعاش فنهاهم الله تعالى بهذه الآية عنه، وحجة أصحاب هذا القول أن هذه الآيات من أولها إلى آخرها مخاطبة مع اليهود فتكون هذه الآية أيضاً كذلك

الثاني : أنهم هم المنافقون ، وذلك لأن المؤمنين كانوا يغترون بظاهر أقوال المنافقين ويظنون أنهم صادقون فيفشون إليهم الأسرار ويطلعونهم على الأحوال الخفية ، فالله تعالى منعهم عن ذلك ، وحجة أصحاب هذا القول أن ما بعد هذه الآية يدل على ذلك وهو قوله ﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ [آل عمران : 119] ومعلوم أن هذا لا يليق باليهود بل هو صفة المنافقين ، ونظيره قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَإِذَا لَقُواْ الذين ءَامَنُواْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إلى شياطينهم قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهزِؤن ﴾ [البقرة : 14]

الثالث : المراد به جميع أصناف الكفار ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ بِطَانَةً مّن دُونِكُمْ ﴾ فمنع المؤمنين أن يتخذوا بطانة من غير المؤمنين فيكون ذلك نهياً عن جميع الكفار وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء ﴾ [الممتحنة : 1] ومما يؤكد ذلك ما روي أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : ههنا رجل من أهل الحيرة نصراني لا يعرف أقوى حفظاً ولا أحسن خطاً منه ، فإن رأيت أن تتخذه كاتباً ، فامتنع عمر من ذلك وقال : إذن اتخذت بطانة من غير المؤمنين ، فقد جعل عمر رضي الله عنه هذه الآية دليلاً على النهي عن اتخاذ بطانة ، وأما ما تمسكوا به من أن ما بعد الآية مختص بالمنافقين فهذا لا يمنع عموم أول الآية ، فإنه ثبت في أصول الفقه أن أول الآية إذا كان عاماً وآخرها إذا كان خاصاً لم يكن خصوص آخر الآية مانعاً من عموم أولها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 172 ﴾

فصل

قال الفخر :

(74/128)

قال أبو حاتم عن الأصمعي : بطن فلان بفلان يبطن به بطوناً وبطانة ، إذا كان خاصاً به داخلاً في أمره ، فالبطانة مصدر يسمى به الواحد والجمع ، وبطانة الرجل خاصته الذين يبطنون أمره وأصله من البطن خلاف الظهر ، ومنه بطانة الثوب خلاف ظهارته ، والحاصل أن الذي يخصه الإنسان بمزيد التقريب يسمى بطانة لأنه بمنزلة ما يلي بطنه في شدة القرب منه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 172 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً ﴾ نكرة في سياق النفي فيفيد العموم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 173 ﴾

قوله تعالى ﴿ مّن دُونِكُمْ ﴾

قال الفخر :

من دونكم أي من دون المسلمين ومن غير أهل ملتكم ولفظ ﴿ مِّن دُونِكُمْ ﴾ يحسن حمله على هذا الوجه كما يقول الرجل : قد أحسنتم إلينا وأنعمتم علينا ، وهو يريد أحسنتم إلى إخواننا ، وقال تعالى : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ حَقّ ﴾ [آل عمران : 21] أي آباؤهم فعلوا ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 173 ﴾

فصل

قال القرطبى :

نهى الله عزّ وجلّ المؤمنين بهذه الآية أن يَتَّخِذوا من الكفار واليهود وأهل الأَهْوَاء دُخَلاءَ ووُلَجاء ، يفاوضونهم في الآراء ، ويسندون إليهم أمورهم .

ويُقال : كل من كان على خلاف مَذْهَبك ودينك فلا ينبغي لك أن تحادثه ؛ قال الشاعر :

عن الْمَرءِ لا تَسْأَلْ وَسَلْ عن قَرِينِهِ . . .

فَكلُّ قَرِينٍ بالمُقارن يَقْتَدِي

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل " وروي عن ابن مسعود أنه قال : اعتبروا الناس بإخوانهم . أهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 178. 179 ﴾

فائدة

قال الفخر :

في قوله ﴿ مِّن دُونِكُمْ ﴾ احتمالان

أحدهما : أن يكون متعلقاً بقوله ﴿ لَا تَتَّخِذُوا ﴾ أي : لا تتخذوا من دونكم بطانة

(75/128)

والثاني : أن يجعل وصفاً للبطانة والتقدير : بطانة كائنات من دونكم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 173 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ مِّن دُونِكُمْ ﴾ أي من سواكم .

قال الفرّاء : ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي سِوى ذلك .

وقيل : ﴿ مِن دُونِكم ﴾ يعني في السير وحسن المذهب .

ومعنى ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ لا يقصِّرون فيما فيه الفسادُ عليكم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 180 ﴾

سؤال : فإن قيل : ما الفرق بين قوله : لا تتخدوا من دونكم بطانة ، وبين قوله ﴿ لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ ؟ .

قلنا : قال سيبويه : إنهم يقدمون الأهم والذي هم بشأنه أعني وههنا ليس المقصود اتخاذ البطانة إنما المقصود أن يتخذ منهم بطانة فكان قوله : لا تتخذوا من دونكم بطانة أقوى في إفادة المقصود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 173 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قيل ﴿ مِنْ ﴾ زائدة ، وقيل للنبيّين : لا تتخذوا بطانة من دون أهل ملتكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 173 ﴾

فصل

قال القرطبى :

بيّن تعالى المعنى الذي لأجله نهى عن المواصلة فقال : ﴿ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ يقول فساداً .

يعني لا يتركون الجهد في فسادكم ، يعني أنهم وإن لم يقاتلوكم في الظاهر فإنهم لا يتركون الجهد في المكر والخديعة ، على ما يأتي بيانه .

وروي عن أبي أمَامَة " عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : في قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ قال : "هم الخوارج" " ورُوي أن أبا موسى الأشعري استكتب ذِمّياً فكتب إليه عمر يعنّفه وتلا عليه هذه الآية .

وقدِم أبو موسى الأشعري على عمر رضي الله عنهما بحساب فرفعه إلى عمر فأعجبه ، وجاء عمر كتابٌ فقال لأبي موسى : أين كاتبك يقرأ هذا الكتاب على الناس ؟ فقال : إنه لا يدخل المسجد .

فقال : لِم أجُنُبٌ هو ؟ قال : إنه نصراني ؛ فانتهره وقال : لا تُدنِهم وقد أقصاهم الله ، ولا تُكرمهم وقد أهانهم الله ، ولا تأْمَنهم وقد خوّنهم الله .

وعن عمر رضي الله عنه قال : لا تستعملوا أهل الكتاب إنهم يستحلون الرُّشا ، واستعينوا على أموركم وعلى رعيتكم بالذين يخشون الله تعالى .

وقيل لعمر رضي الله عنه : إن ها هنا رجلاً من نصارى الحِيرة لا أحد أكتب منه ولا أخط بقلم أفلا يكتب عنك ؟ فقال : لا آخذ بِطانة من دون المؤمنين .

فلا يجوز استكتاب أهل الذِّمة ، ولا غير ذلك من تصرفاتهم في البيع والشراء والاستنابة إليهم .

قلت : وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبةً وأمناء وتَسوَّدُوا بذلك عند الجَهَلة الأغْبِياء من الوُلاة والأمراء .

روى البخاريّ عن أبي سعيدٍ الخدرِيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ما بعث الله مِن نبيّ ولا استخلف مِن خليفةٍ إلاَّ كانت له بطانتانِ بطانة تأمره بالمعروف وتحضُّه عليه وبِطانة تأمره بالشر وتحضّه عليه فالمعصوم من عَصَمَ اللَّهُ تعالى " وروى أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تستضِيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا في خواتيمكم عَرَبِيّاً " فسّره الحسن بن أبي الحسن فقال : أراد عليه السّلام لا تستشيروا المشركين في شيء من أموركم ، ولا تنقشوا في خواتيمكم محمداً .

قال الحسن : وتصديق ذلك في كتاب اللَّهِ عزّ وجلّ : ﴿ يا أَيُّها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 179. 180 ﴾

(77/128)

سؤال : فإن قيل : هذه الآية تقتضي المنع من مصاحبة الكفار على الإطلاق ، وقال تعالى : ﴿ لاَّ ينهاكم الله عَنِ الذين لَمْ يقاتلوكم فِى الدين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مّن دياركم أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ [الممتحنة : 8] ﴿ إِنَّمَا ينهاكم الله عَنِ الذين قاتلوكم ﴾ [الممتحنة : 9] فكيف الجمع بينهما ؟

قلنا : لا شك أن الخاص يقدم على العام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ

﴿ 173 ﴾

فصل فى سبب نزول الآية

قال السمرقندى :

نزلت الآية في شأن جماعة من الأنصار ، كانت بينهم وبين اليهود مواصلة وخاصية ، وكانوا على ذلك بعد الإسلام ، فنهاهم الله عزّ وجلّ عن ذلك .

ويقال : كل من كان على خلاف مذهبه ودينه لا ينبغي له أن يحادثه ، لأنه يقال في المثل :

عن المَرْءِ لا تَسْأَلْ وَأَبْصِرْ قرينه .

. . فَإِنَّ القَرِينَ بالمقارن يَقْتَدِي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 266 ﴾

وقال الآلوسى

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مّن دُونِكُمْ ﴾ أخرج ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس قال : كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من يهود لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية فأنزل الله تعالى فيهم ينهاهم عن مباطنتهم تخوف الفتنة عليهم هذه الآية ،

وأخرج عبد بن حميد أنها نزلت في المنافقين من أهل المدينة نهي المؤمنون أن يتولوهم ، وظاهر ما يأتي يؤيده ، والبطانة خاصة الرجل الذين يستبطنون أمره مأخوذ من بطانة الثوب للوجه الذي يلي البدن لقربه وهي نقيض الظهارة ويسمى بها الواحد والجمع والمذكر والمؤنث و(من) متعلقة بـ لا تتخذوا أو بمحذوف وقع صفة لبطانة ، وقيل : زائدة ، و(دون) إما بمعنى غير أو بمعنى الأدون والدنيء ، وضمير الجمع المضاف إليه للمؤمنين والمعنى لا تتخذوا الكافرين كاليهود والمنافقين أولياء وخواص من غير المؤمنين أو ممن لم تبلغ منزلته منزلتكم في الشرف والديانة ، والحكم عام وإن كان سبب النزول خاصاً فإن اتخاذ المخالف ولياً مظنة الفتنة والفساد ولهذا ورد تفسير هذه البطانة بالخوارج. انتهى انتهى .

اهـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 37 ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾

فصل

قال الفخر :

قال صاحب "الكشاف" : يقال (ألا) في الأمر يألوا ، إذا قصر فيه ، ثم استعمل معدى إلى مفعولين في قولهم : لا آلوك نصحاً ، ولا آلوك جهداً على التضمين ، والمعنى لا أمنعك نصحاً ولا أنقصك جهداً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 173 ﴾

فصل

قال الفخر :

الخبال : الفساد والنقصان ، وأنشدوا :

لستم بيد إلا يداً أبدا مخبولة العضد . . أي : فاسدة العضد منقوضتها ، ومنه قيل : رجل مخبول ومخبل ومختبل لمن كان ناقص العقل ، وقال تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ [التوبة : 47] أي فساداً وضرراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 173 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قوله ﴿ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ أي لا يدعون جهدهم في مضرتكم وفسادكم ، يقال : ما ألوته نصحاً ، أي ما قصرت في نصيحته ، وما ألوته شراً مثله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 173 ﴾

(79/128)

قوله تعالى : ﴿ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ ﴾

فصل

قال الفخر :

ما مصدرية كقوله ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الأرض بِغَيْرِ الحق وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ [غافر : 75] أي بفرحكم ومرحكم وكقوله ﴿ والسماء وَمَا بناها * والأرض وَمَا طحاها ﴾ [الشمس : 5 ، 6] أي بنائه إياها وطحيه إياها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 174 ﴾

فائدة

قال أبو حيان :

وقال الراغب : المعاندة والمعانتة يتقاربان ، لكن المعاندة هي الممانعة ، والمعانتة أن تتحرّى مع الممانعة المشقة انتهى .

ويقال : عِنت بكسر النون ، وأصله انهياض العظم بعد جبره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 42 ﴾

قال الفخر :

تقدير الآية : أحبوا أن يضروكم في دينكم ودنياكم أشد الضرر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 174 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال الواحدي رحمه الله : لا محل لقوله ﴿ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ ﴾ لأنه استئناف بالجملة وقيل : إنه صفة لبطانة ، ولا يصح هذا لأن البطانة قد وصفت بقوله ﴿ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ فلو كان هذا صفة أيضاً لوجب إدخال حرف العطف بينهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 174 ﴾

فصل

قال الفخر :

الفرق بين قوله ﴿ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ وبين قوله ﴿ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ ﴾ في المعنى من وجوه

الأول : لا يقصرون في إفساد دينكم ، فإن عجزوا عنه ودوا إلقاءكم في أشد أنواع الضرر

الثاني : لا يقصرون في إفساد أموركم في الدنيا ، فإذا عجزوا عنه لم يزل عن قلوبهم حب إعناتكم

والثالث : لا يقصرون في إفساد أموركم ، فإن لم يفعلوا ذلك لمانع من خارج ، فحب ذلك غير زائل عن قلوبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 174 ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ بَدَتِ البغضاء مِنْ أفواههم ﴾

فصل

قال الفخر :

الأفواه جمع الفم ، والفم أصله فوه بدليل أن جمعه أفواه ، يقال : فوه وأفواه كسوط وأسواط ، وطوق وأطواق ، ويقال رجل مفوه إذا أجاد القول ، وأفوه إذا كان واسع الفم ، فثبت أن أصل الفم فوه بوزن سوط ، ثم حذفت الهاء تخفيفاً ثم أقيم الميم مقام الواو لأنهما حرفان شفويان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 174 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَدْ بَدَتِ البغضآءَ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ يعني ظهرت العداوة والتكذيب لكم من أفواههم .

والبغضاء : البغض ، وهو ضدّ الحُبِ .

والبغضاء مصدر مؤنث .

وخصّ تعالى الأفواه بالذِّكر دون الألسنة إشارة إلى تَشدُّقهم وثَرْثَرتهم في أقوالهم هذه ، فهم فوق المتستر الذي تبدو البغضاء في عينيه .

ومن هذا المعنى نهيه عليه السَّلام أن يشتحِي الرجل فاه في عِرض أخيه .

معناه أن يفتح ؛ يُقال : شحى الحمار فاه بالنهيق ، وشحى الفَمُ نفسه .

وشحى اللِّجَامُ فَمَ الفرس شَحْياً ، وجاءت الخيل شَوَاحِيَ : فاتحاتٍ أفواهَها .

ولا يفهم من هذا الحديث دليلُ خطاب على الجواز فيأخذ أحدٌ في عِرض أخيه هَمْساً ؛

فإن ذلك يُحرمُ باتفاق من العلماء .

وفي التنزيل ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ [الحجرات : 12] الآية .

وقال صلى الله عليه وسلم : " إن دِماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام " فذِكر الشَّحْو إنما هو إشارة إلى التشدّق والانبساط ، فاعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 180 . 181 ﴾

وقال النسفى :

﴿ قَدْ بَدَتِ البغضاء مِنْ أفواههم ﴾ لأنهم لا يتمالكون مع ضبطهم أنفسهم أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضه للمسلمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 1 صـ 117 ﴾

(81/128)

وقال الطبرى :

قوله تعالى : ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه : قد بدت بغضاء هؤلاء الذين نهيتكم أيها المؤمنون ، أن تتخذوهم بطانة من دونكم لكم "من أفواههم" ، يعني بألسنتهم . والذي بدا لهم منهم بألسنتهم ،

إقامتهم على كفرهم ، وعداوتهم من خالف ما هم عليه مقيمونَ من الضلالة . فذلك من أوكد الأسباب في معاداتهم أهل الإيمان ، لأن ذلك عداوة على الدين ، والعداوة على الدين العداوة التي لا زوال لها إلا بانتقال أحد المتعادين إلى ملة الآخر منهما ، وذلك انتقال من هدى إلا ضلالة كانت عند المنتقل إليها ضلالة قبل ذلك . فكان في إبدائهم ذلك للمؤمنين ، ومقامهم عليه ، أبينُ الدلالة لأهل الإيمان على ما هم عليه من البغضاء والعداوة .

وقد قال بعضهم : معنى قوله : "قد بدت البغضاء من أفواههم" ، قد بدت بغضاؤهم لأهل الإيمان ، إلى أوليائهم من المنافقين وأهل الكفر ، بإطلاع بعضهم بعضًا على ذلك . وزعم قائلو هذه المقالة أنّ الذين عنوا بهذه الآية أهل النفاق ، دون من كان مصرحًا بالكفر من اليهود وأهل الشرك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 7 صـ 145 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ قَدْ بَدَتِ البغضاء مِنْ أفواههم ﴾ إن حملناه على المنافقين ففي تفسيره وجهان

الأول : أنه لا بد في المنافق من أن يجري في كلامه ما يدل على نفاقه ومفارقته لطريق المخالصة في الود والنصيحة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ القول ﴾ [محمد : 30]

الثاني : قال قتادة : قد بدت البغضاء لأوليائهم من المنافقين والكفار لاطلاع بعضهم بعضاً على ذلك ، أما إن حملناه على اليهود فتفسير قوله ﴿ قَدْ بَدَتِ البغضاء مِنْ أفواههم ﴾ فهو أنهم يظهرون تكذيب نبيّكم وكتابكم وينسبونكم إلى الجهل والحمق ، ومن اعتقد في غيره الإصرار على الجهل والحمق امتنع أن يحبه ، بل لا بد وأن يبغضه ، فهذا هو المراد بقوله ﴿ قَدْ بَدَتِ البغضاء مِنْ أفواههم ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 174 ﴾

قال الآلوسى :

﴿ قَدْ بَدَتِ البغضاء مِنْ أفواههم ﴾ أي ظهرت أمارات العداوة لكم من فلتات ألسنتهم وفحوى كلماتهم لأنهم لشدة بغضهم لكم لا يملكون أنفسهم ولا يقدرون أن يحفظوا ألسنتهم ، وقال قتادة : ظهور ذلك فيما بينهم حيث أبدى كل منهم ما يدل على بغضه للمسلمين لأخيه ، وفيه بعد إذ لا يناسبه ما بعده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 38 ﴾

فصل

قال القرطبى :

وفي هذه الآية دليل على أن شهادة العدوّ على عدوّه لا يجوز ، وبذلك قال أهل المدينة وأهل

الحجاز ؛ ورُوِي عن أبي حنيفة جواز ذلك .

وحكى ابن بَطّال عن ابن شعبان أنه قال : أجمع العلماء على أنه لا تجوز شهادة العدوّ على عدوّه في شيء وإن كان عدلاً ، والعداوة تزيل العدالة فكيف بعداوة كافر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 181 ﴾

وقال ابن الجوزى :

قال القاضي أبو يعلى : وفي هذه الآية دلالة على أنَّه لا يجوز الاستعانة بأهل الذمة في أمور المسلمين من العمالات والكتبة ، ولهذا قال أحمد : لا يستعين الإمام بأهل الذّمة على قتال أهل الحرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 447 ﴾

(83/128)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾

قال الفخر :

يعني الذي يظهر على لسان المنافق من علامات البغضاء أقل مما في قلبه من النفرة ، والذي يظهر من علامات الحقد على لسانه أقل مما في قلبه من الحقد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 174 ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الأيات إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

قال الفخر :

﴿ قَدْ بيَّنَّا لَكُمُ الأيات إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي من أهل العقل والفهم والدراية ، وقيل : ﴿ إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ الفصل بين ما يستحقه العدو والولي ، والمقصود بعثهم على استعمال العقل في تأمل هذه الآية وتدبر هذه البينات ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 174 ﴾

وقال ابن عاشور :

(والآيات) في قوله : ﴿ قد بينا لكم الآيات ﴾ بمعنى دلائل سوء نوايا هذه البطانة كما قال : ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ [الحجر : 75] ولم يزل القرآن يربّي هذه الأمّة على إعمال الفكر ، والاستدلال ، وتعرّف المسبّبات من أسبابها في سائر أحوالها : في التّشريع ، والمعاملة ليُنشئها أمّة علم وفطنة .

ولكون هذه الآيات آياتِ فراسةٍ وتوسّم ، قال : ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ ولم يقل : إن كنتم تعلمون أو تفقهون ، لأنّ العقل أعمّ من العلم والفقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 201 ﴾

فائدة

قال الآلوسى :

﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي إن كنتم من أهل العقل ، أو إن كنتم تعلمون الفضل بين الولي والعدو ، أو إن كنتم تعلمون مواعظ الله تعالى ومنافعها ، وجواب (إن) محذوف لدلالة الكلام عليه ، ثم إن هذه الجمل ما عدا وما تخفي صدورهم أكبر لأنها حال لا غير جاءت مستأنفات جواباً عن السؤال عن النهي وترك العطف بينها إيذاناً باستقلال كل منها في ذلك ، وقيل : إنها في موضع النعت لبطانة إلا قد بينا لظهور أنها لا تصلح لذلك ، والأول أحسن لما في الاستئناف من الفوائد وفي الصفات من الدلالة على خلاف المقصود أو إيهامه لا أقل وهو تقييد النهي وليس المعنى عليه ، وقيل : إن ودوا ما عنتم بيان وتأكيد لقوله : ﴿ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ فحكمه حكمه وما عدا ذلك مستأنف للتعليل على طريق الترتيب بأن يكون اللاحق علة للسابق إلى أن تكون الأولى علة للنهي ويتم التعليل بالمجموع أي لا تتخذوهم بطانة لأنهم لا يألونكم خبالاً لأنهم يودّون شدّة ضرركم بدليل أنهم قد تبدو البغضاء من أفواههم وإن كانوا يخفون الكثير ولا بد على هذا من استثناء قد بينا إذ لا يصلح تعليلا لبدو البغضاء ويصلح تعليلاً للنهي فافهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 38 ﴾

وقال الطبرى :

"إن كنتم تعقلون" ، يعني : إن كنتم تعقلون عن الله مواعظه وأمره ونهيه ، وتعرفون مواقع نفع ذلك منكم ، ومبلغ عائدته عليكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 7 صـ 148 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ مِّن دُونِكُمْ ﴾ يجوز أن يكون صفةً لـ " بِطَانَةً " ، فيتعلق بمحذوف ، أي : كائنة من غيركم .

وقدره الزمخشريّ : من غير أبناء جنسكم وهم المسلمون .

ويجوز أن يتعلق بفعل النهي ، وجوّز بعضُهم أن تكون " من " زائدة ، والمعنى : دونكم في العمل والإيمان .

وبطانة الرجل : خاصّته الذين يُبَاطنهم في الأمور ، ولا يُظْهِر غيرَهم عليها ، مشتقة من البطن ، والباطن دون الظاهر ، وهذا كما استعاروا الشعارَ والدِّثار في ذلك ، قال صلى

الله عليه وسلم : " النّاسُ دثار ، والأَنْصارُ شِعَار " .

والشعَارُ : ما يلي الجسد من الثياب . ويقال : بَطَنَ فلانٌ بفلانٍ ، بُطُوناً ، وبِطَانة .

قال الشاعر : [الطويل] .

أولَئِكَ خُلْصَانِي ، نَعَمْ وبِطَانَتِي . . . وَهُمْ عَيْبَتي مِنْ دُونِ كُلِّ قَرِيبِ

فالبطانة مصدر يُسمَّى به الواحد والجمع ، وأصله من البطن ، ومنه : بطانة الثوب غير ظهارته .

فإن قيل : قوله : ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً ﴾ نكرة في سياق النفي ، فيقتضي العموم في النهي عن مصاحبة الكفار ، وقد قال تعالى : ﴿ لاَّ يَنْهَاكُمُ الله عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ ﴾ [الممتحنة : 8] فكيف الجمع فيهما .

فالجواب : أن الخاص مقدَّم على العام .

قوله : ﴿ لاَ يَأْلُونَكُمْ ﴾ لما منع المؤمنين من أن يتخذوا بطانة من الكافرين ذَكَرَ علَّة النهي ، وهي أمور :

أحدها : قوله : ﴿ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ يقال : ألا في الأمر ، يَألُو فيه ، أي : قصَّر – نحو غزا يغزو – فأصله أن يتعدى بحرف الجر كما ترى . واختلف في نصب " خَبَالاً " على وجوه :

أحدها : أنه مفعول ثانٍ ، وإنما تعدَّى لاثنين ؛ للتضمين .

قال الزمخشري : يقال : ألا في الأمر ، يألو فيه – أي : قصَّر – ثم استُعْمِل مُعَدًّى إلى مفعولين

في قولهم : لا آلوك نُصْحاً ، ولا آلوك جُهْداً ، على التضمين ، والمعنى : لا أمنعك نُصْحاً ولا أنقُصُكَهُ .

(86/128)

الثاني : أنه منصوب على إسقاط الخافض ، والأصل : لا يألونكم في خبال ، أو في تخبيلكم ، أو بالخبال ، كما يقال : أوجعته ضرباً ، وهذا غير منقاسٍ ، بخلاف التضمين ؛ فإنه ينقاس ، وإن كان فيه خلافٌ واهٍ .

الثالث : أن ينتصب على التمييز ، وهو - حينئذ - تمييز منقول من المفعولية ، والأصل : لا يألون خبالكم ، أي : في خبالكم ، ثم جعل الضمير - المضاف إليه - مفعولاً بعد إسقاط الخافض فنُصِبَ الخبال - الذي كان مضافاً - تمييزاً ، ومثله قوله : ﴿ وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً ﴾ [القمر : 12] على أن " عُيُوناً " بدل بعض من كل ، وفيه حذف العائد ، أي : عيوناً منها ، وعلى هذا التخريج ، يجوز أن يكون " خَبَالاً " بدل اشتمال من "كم " والضمي رأيضاً محذوف أي : " خبالاً منكم " وهذا وَجْه رابع .

الخامس : أنه مصدر في موضع الحال ، أي : متخبلين .

السادس : قال ابْنُ عَطِيَّةَ : معناه : لا يقصرون لكم فيما فيه الفساد عليكم .

فعلى هذا - الذي قدره - يكون المضمر، و" خَبَالاً " منصوبين على إسقاط الخافض، وهو اللام، وهذه الجملة فيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أنها جُمْلة استئنافية، لا محل لها من الإعراب، وإنما جِيء بها، وبالجُمَل التي بعدها، لبيان حال الطائفة الكافرة، حتى ينفروا منها، فلا يتخذوها بطانة، وهو وجه حسن.

الثاني: أنها جملة في موضع نصب؛ حال من الضمير المستكن في " دُونِكُمْ " على أن الجار صفة لبطانة.

الثالث: أنها في محل نصب؛ نعتاً لـ " بِطَانَةً " - أيضاً -.

والأْلو - بزنة الغزو - التقصير - كما تقدم -.

قال زهير: [الطويل]

سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمُ ... فَلَمْ يَفْعَلُوا، وَلَمْ يُلِيمُوا، وَلَمْ يَأْلُوا

وقال امرؤ القيس: [الطويل]

وَمَا المَرْءُ مَا دَامَتْ حُشَاشَةُ نَفْسِهِ . . . بِمُدْرِكِ أَطْرَافِ الخُطُوبِ وَلَا آلِي

يقال : آلَى ، يُولِي – بزنة أكرم ، فأبدِلَت الهمزةُ الثانية ألفاً .

وأنشدوا : [الوافر]

. . . . فَمَا آلَى بَنِيَّ وَلَا أَسَاءُوا

ويقال : ائتَلى ، يأتلي – بزنة اكتسب يكتسب – .

قال امرؤ القيس : [الطويل]

أَلَا رُبَّ خَصْمٍ فِيكِ أَلْوَى رَدَدْتُهُ . . . نَصِيحٍ عَلَى تَعْذَالِهِ غَيْرِ مُؤْتَلِي

فيتحد لفظ آلى بمعنى قصَّر ، وآلى بمعنى حلَفَ – وإن كان الفرق بينهما ثابتاً من حيث المادة ؛ لأن لامه من معنى الحلف ياء ، ومن معنى التقصير واو .

قال الراغب : وألَوْتُ فلاناً ، أي : أوْليته تقصيرا – نحو كسبته ، أي : أوْليته كَسْباً – وما ألوته جهداً ، أي : ما أوليته تقصيراً بحسب الجهد ، فقولك : جهداً ، تمييز .

وقوله : ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ [آل عمران : 118] أي : لا يُقَصِّرون في طلب الخبال ، ولا يدعون جهدهم في مضرتكم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الفضل مِنكُمْ ﴾ [النور : 22] .

قيل : هو " يفتعل " من ألوت .

وقيل : هو من آليت ، أي : حلفت .

والخبال : الفساد ، وأصله ما يلحق الحيوان من مَرَض ، وفتور ، فيورثه فساداً واضطراباً ، يقال منه : خبله وخبّله – بالتخفيف والتشديد ، فهو خابل ، ومُخبَّل ، ومخبول ، والمخبل : الناقص العقل ، قال تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ [التوبة : 47] ، ويقال : خَبْل ، وخَبَل ، وخبَال وفي الحديث : " مَنْ شَرِبَ الْمُرَ ثَلاثاً كَانَ حَقّاً على الله أن يَسقيه مِنْ طِينَةِ الخَبَال " .

وقال زهير بن أبي سُلْمى : [الطويل]

(88/128)

هُنَالِكَ إنْ يُسْتَخْبَلُوا الْمَالَ يُخْبِلُوا . . . وَإنْ يُسْألُوا يُعْطُوا ، وَإن يُيْسِرُوا يُغْلُوا

والمعنى في هذا البيت : أنهم إذا طُلِب منهم إفساد شيء من إبلهم أفسدوه ، وهذا كناية عن كرمهم .

قوله : ﴿ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ ﴾ هذه العلة الثانية ، وفي هذه الجملة ثلاثة أوجه :

أحدها : وهو الأظهر – أن تكون مستأنفة ، لا محل لها من الإعراب – كما هو الظاهر في التي قبلها .

والثاني : أنها نعت لـ " بِطَانَةً " فمحلُّها نصب .

قال الواحدي : " ولا يصح هذا ؛ لأن البطانة قد وُصِفَت بقوله : ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ ، ولو كان هذا صفة – أيضاً – ، لوجب إدخال حرف العطف بينهما " .

والثالث : أنها حال من الضمير في "يَأْلُونَكُمْ" ، و"ما" مصدرية ، و"عَنِتُّمْ" صلتها ، وهي وصلتها مفعول الودادة ، أي : عنتكم ، أي : مقتكم .

وقال الراغب : " المعاندة ، والمعانتة ، يتقاربان ، لكن المعاندة هي الممانعة ، والمعانتة : أن يتحرى مع الممانعة المشقة " .

قوله : ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ ﴾ هذه الجملة كالتي قبلها ، وقرأ عبد الله "بَدَا" – من غير تاء – لأن الفاعل مؤنَّث مجازيّ ؛ ولأنها في معنى البغض ، والبغضاء : مصدر – كالسراء والضراء – يقال منه : بَغُضَ الرجل ، فهو بغيض ، كظَرُفَ فهو ظَرِيفٌ .

(89/128)

قوله : ﴿ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ متعلق بـ "بَدَتْ" و"مِنْ" لابتداء الغاية ، وجوَّز ابو البقاء أن يكون حالاً ، أي : خارجة من أفواههم ، والأفواه : جمع فَم ، وأصله فوه ، فلامه هاء ، يدل على ذلك جمعه على أفواه ، وتصغيره على "فُوَيْه" ، والنسب إليه على فوهي ، وهل وزنه فَعْل – بسكون العين – أو "فَعَل" – بفتح العين – ؟ خلاف للنحويين ، ثم حذفوا لامه

تخفيفاً ، فبقي آخرهُ حرف علة ، فأبدلوه ميماً ؛ لقُرْبِهِ منها ؛ لأنهما من الشفة ، وفي الميم هُوِيٌّ في الفم يضارع المد الذي في الواو .

وهذا كله إذا أفردوه عن الإضافة ، فإن أضافوه لَمْ يُبْدلوا حرفَ العلة .

كقوله : [البسيط]

فَوهُ كَشقِّ الْعَصَا لأْياً تُبَيِّنُهُ . . . أسَكُّ مَا يَسْمَعُ الأَصْوَا مَصْلُومُ

عكس الأمر في الطرفين ، فأتى بالميم في حال الإضافة ، وبحرف العلة في القطع عنها . فمن الأول قوله : [الرجز]

يُصْبِحُ ظَمْآنَ وَفِي الْبَحْرِ فَمُهُ . . . وخصّه الفارسيُّ وجماعة بالضرورة ، وغيرهم جوّزه سعة ، وجعل منه قوله : " لخلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك " .

ومن الثاني قوله : [الرجز]

خَالَطَ مِنْ سَلْمَى خَيَاشِيمَ وَفَا . . . أي : وفاها ، وإنما جاز ذلك ؛ لأن الإضافة كالمنطوق بها .

وقالت العرب : رجل مفوّه – إذا كان يجيد القولَ – وأَفْوَه : إذا كان واسعَ الفم .

قال لبيد : [الوافر]

. . . . وَمَا فَاهُوا بِهِ أَبَداً مُقِيمُ

وفي الفم تسع لغات ، وله أربع مواد : ف م ه . ف م و . ف م ي . ف م م ؛ بدليل أفواه ، وفموين ، وفميين ، وأفمام .

(90/128)

قوله : ﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ يجوز أن تكون " ما " بمعنى : الذي ، والعائد محذوف – أي : تخفيه فحذف – وأن تكون مصدرية – أي : وإخفاء صدورهم – وعلى كلا التقديرين ، ف " ما " مبتدأ و " أكبر " خبره ، والمفضَّل عليه محذوف ، أي : أكبر من الذي أبدَوْهُ بأفواههم .

قوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ شرط ، حذف جوابه ، لدلالة ما تقدم عليه ، أو هو ما تقدم – عند من يرى جوازه – .

والمعنى : إن كنتم من أهل العقل ، والفهم ، والدراية .

وقيل : إن كنتم تعقلون الفَصْل بين ما يستحقه الوِليّ والعدُوّ ، والمقصود منه : استعمال العقل في تأمل هذه الآيات ، وتدبُّر هذه البينات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 488. 495 ﴾ . بتصرف يسير .

من فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

نهى الله تعالى المؤمنين بهذه الآية عن أن يتخذوا من الكفار واليهود أخلاء يأنسون بهم في الباطن من أمورهم ويفاوضونهم في الآراء ويستنيمون إليهم ، وقوله : ﴿ من دونكم ﴾ يعني من دون المؤمنين ، ولفظة " دون " تقتضي فيما أضيف إليه أنه معدوم من القصة التي فيها الكلام ، فشبه الأخلاء بما يلي بطن الإنسان من ثوبه ، ومن هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : ما من خليفة ولا ذي إمرة إلا وله بطانتان ، بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه والمعصوم من عصم الله ، وقوله : ﴿ لا يألونكم خبالاً ﴾ معناه لا يقصرون لكم فيما فيه الفساد عليكم ، تقول : ما ألوت في كذا أي ما قصرت بل اجتهدت ومنه قول زهير :

جرى بعدهم قوم لكي يلحقوهم . . . فلم يلحقوا ولم يليموا ولم يألوا

(91/128)

أي لم يقصروا ، والخبل والخبال : الفساد ، وقال ابن عباس : كان رجال من المؤمنين يواصلون رجالاً من اليهود للجوار والحلف الذي كان بينهم في الجاهلية ، فنزلت الآية في ذلك ، وقال أيضاً ابن عباس وقتادة والربيع والسدي : نزلت في المنافقين : نهى الله المؤمنين عنهم

، وروى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا في خواتيمكم عربياً " فسره الحسن بن أبي الحسن ، فقال أراد عليه السلام ، لا تستشيروا المشركين في شيء من أموركم ولا تنقشوا في خواتيمكم (محمداً) .

(92/128)

قال القاضي : ويدخل في هذه الآية استكتاب أهل الذمة وتصريفهم في البيع والشراء والاستنامة إليهم ، وروي أن أبا موسى الأشعري استكتب ذمياً فكتب إليه عمر يعنفه ، وتلا عليه هذه الآية ، وقيل لعمر : إن هاهنا رجلاً من نصارى الحيرة لا أحد أكتب منه ولا أخط بقلم ، أفلا يكتب عنك ؟ فقال : إذاً أتخذ بطانة من دون المؤمنين ، و﴿ ما ﴾ في قوله ، ﴿ ما عنتّم ﴾ مصدرية ، فالمعنى : ﴿ ودوا ﴾ عنتكم ، و" العنت " : المشقة والمكروه يلقاه المرء وعقبة عنوت : أي شاقة ، وقوله تعالى : ﴿ ذلك لمن خشي العنت ﴾ [النساء : 35] معناه المشقة إما في الزنا وإما في ملك الإرب قال السدي : معناه " ودوا " ما ضللتم ، وقال ابن جريج : المعنى " ودوا " أن تعنتوا في دينكم ويقال عنت الرجل يعنت بكسر النون في الماضي ، وقوله تعالى : ﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم ﴾ يعني بالأقوال ، فهم فوق المتستر الذي تبدوا البغضاء في عينيه وخص تعالى الأفواه بالذكر دون الألسنة

إشارة إلى شدقهم وثرثرتهم في أقوالهم هذه ، ويشبه هذا الذي قلناه ما في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يتشحى الرجل في عرض أخيه ، معناه : أن يفتح فاه به يقال شحّى الحمار فاه بالنهيق وشحّى اللجام في الفرس ، والنهي في أن يأخذ أحد عرض أخيه همساً راتب ، فذكر التشحي إنما هو إشارة إلى التشدق والانبساط وقوله : ﴿ وما تخفي صدورهم أكبر ﴾ إعلام بأنهم يبطنون من البغضاء أكثر مما يظهرون بأفواههم ، وفي قراءة عبد الله بن مسعود : " قد بدا البغضاء " بتذكير الفعل ، لما كانت ﴿ البغضاء ﴾ بمعنى البغض ، ثم قال تعالى للمؤمنين ، ﴿ قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾ تحذيراً وتنبيهاً ، وقد علم تعالى أنهم عقلاء ولكن هذا هز للنفوس كما تقول : إن كنت رجلاً فافعل كذا وكذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 1 صـ 496 ـ 497 ﴾

(93/128)

فصل

قال ابن كثير فى معنى الآية :

يقول تبارك وتعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة ، أي : يُطْلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم ، والمنافقون بجهدهم وطاقتهم لا يألون المؤمنين خَبَالا أي

: يَسْعَوْنَ في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن ، وبما يستطيعونه من المكر والخديعة ، ويودون ما يُعْنتُ المؤمنين ويخرجهم ويَشُقّ عليهم .

وقوله : ﴿ لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ ﴾ أي : من غيركم من أهل الأديان ، وبطانة الرجل : هم خاصّة أهله الذين يطلعون على داخل أمره .

وقد روى البخاري ، والنسائي ، وغيرهما ، من حديث جماعة ، منهم : يونس ، ويحيى بن سعيد ، وموسى بن عقبة ، وابن أبي عتيق -عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن أبي سعيد ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبي وَلا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَة إلا كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَان : بِطَانَة تَأْمُرُهُ بِالْخير وتَحُضّهُ عَلَيْه ، وَبِطَانَة تَأْمُرُهُ بِالسُّوءِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْه ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللهُ" . (1)

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو أيوب محمد بن الوَزّان ، حدثنا عيسى بن يونس ، عن أبي حَيّان التيمي عن أبي الزِّنْباع ، عن ابن أبي الدّهْقانة قال : قيل لعمر بن الخطاب ، رضي الله عنه : إن هاهنا غُلاما من أهل الحِيرة ، حافظ كاتب ، فلو اتخذته كاتبا ؟ فقال : قد اتخذت إذًا بطانة من دون المؤمنين . (2)

---

(1) صحيح البخاري برقم (6611 ، 7198) والنسائي في الكبرى برقم (8755) .

(2) تفسير ابن أبي حاتم (550/2) ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (658/8) من طريق أبي حيان التيمي به ورواه عبد بن حميد في تفسيره كما في الدر (300/2) .

(94/128)

ففي هذا الأثر مع هذه الآية دلالة على أن أهل الذِّمَّة لا يجوز استعمالهم في الكتابة ، التي فيها استطالة على المسلمين واطِّلاع على دَوَاخل أمُورهم التي يُخْشَى أن يُفْشوها إلى الأعداء من أهل الحرب ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ﴾ .

وقد قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا إسحاق بن إسرائيل ، حدثنا هُشَيم ، حدثنا العَوَّام ، عن الأزهر بن راشد قال : كانوا يأتون أَنَسًا ، فإذا حَدّثهم بحديث لا يدرون ما هو ، أتَوا الحسن -يعني البصري- فيفسره لهم . قال : فحدّث ذات يوم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا تَسْتَضِيئوا بنَارِ الْمُشْرِكِينَ ، ولا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبيا فلم يدروا ما هو ، فأتوا الحسن فقالوا له : إن أنسا حَدّثنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تَسْتَضِيئوا بنَارِ الشِّرْكِ ولا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبيا فقال الحسن : أما قوله : "ولا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبيا : محمد صلى الله عليه وسلم . وأما قوله : "لا تَسْتَضِيئوا بنَارِ الشِّرْكِ" يقول : لا تستشيروا المشركين في أموركم . ثم قال الحسن : تصديق ذلك في كتاب

الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ ﴾ .

هكذا رواه الحافظ أبو يعلى ، رحمه الله ، وقد رواه النسائي عن مجاهد بن موسى ، عن هشيم . ورواه الإمام أحمد ، عن هُشَيم بإسناده مثله ، من غير ذكر تفسير الحسن البصري . (1)

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (9375) والطبري في تفسيره (142/7) من طريق هشيم بسياق أبي يعلى به ، ورواه أحمد في مسنده (99/3) والنسائي في السنن (176/8) من غير ذكر تفسير الحسن البصري .

(95/128)

وهذا التفسير فيه نظر ، ومعناه ظاهر : "لا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًا أي : بخط عربي ، لئلا يشابه نقش خاتم النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنه كان نَقْشُه محمد رسول الله ؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح أنه نهى أن يَنْقُشَ أحد على نقشه . وأما الاستضاءة بنار المشركين ، فمعناه : لا تقاربوهم في المنازل بحيث تكونون معهم في بلادهم ، بل تَبَاعَدُوا منهم وهَاجروا من بلادهم ؛ ولهذا روى أبو داود [رحمه الله] لا تَتَرَاءَى نَارَاهُمَا " وفي الحديث الآخر : "مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ أَوْ سَكَنَ مَعَهُ ، فَهُوَ مِثْلُهُ" ؛ فحَمْلُ الحديث على ما

قاله الحسن ، رحمه الله ، والاستشهاد عليه بالآية فيه نظر ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ أي : قد لاح على صَفَحات وجوههم ، وفلتات ألسنتهم من العداوة ، مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ، ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل ؛ ولهذا قال : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 108.106 ﴾ . بتصرف يسير .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

الركون إلى الضد – بعد تبين المشاق – إعانة على الحال بما لا يبلغه كيد العدو ، فأشار الحقُّ – سبحانه – على المسلمين بالتحرز عن الاعتراض ، وإظهار البراءة عن كل غير ، ودوام الخلوص للحق – سبحانه – بالقلب والسر . وأخبر أن مضادات القوم للرسول صلى الله عليه وسلم أصلية غير طارئة عليهم ، وكيف لا ؟ وهو صلوات الله عليه محلُّ الإقبال وهم محل الإعراض . ومتى يجتمع الليلُ والنهار ؟ ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 273.272 ﴾

قوله تعالى ﴿ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (119) ﴾

قال ابن عاشور :

قوله تعالى ﴿ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾

استئناف ابتدائي ، قصد منه المقابلة بين خُلق الفريقين ، فالمؤمنون يحبّون أهل الكتاب ، وأهل الكتاب يبغضونهم ، وكلّ إناء بما فيه يرشح ، والشأن أنّ المحبّة تجلب المحبّة إلاّ إذا اختلفت المقاصد والأخلاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير جـ 3 صـ 201 ﴾

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ ﴾ يعني المنافقين ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا ﴾ ؛ قاله أبو العالية ومقاتل .

والمحبة هنا بمعنى المصافاة ، أي أنتم أيها المسلمون تُصافونهم ولا يُصافونكم لِنفاقهم .

وقيل : المعنى تريدون لهم الإسلام وهم يريدون لكم الكفر .

وقيل : المراد اليهود ؛ قاله الأكثر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى جـ 4 صـ 181 ﴾

فصل

قال الفخر :

إنه تعالى ذكر في هذه الآية أموراً ثلاثة ، كل واحد منها على أن المؤمن لا يجوز أن يتخذ غير المؤمن بطانة لنفسه فالأول : قوله ﴿ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ ﴾ وفيه وجوه :

أحدها : قال المفضل ﴿ تُحِبُّونَهُمْ ﴾ تريدون لهم الإسلام وهو خير الأشياء ﴿ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ ﴾ لأنهم يريدون بقاءكم على الكفر ، ولا شك أنه يوجب الهلاك

(97/128)

الثاني : ﴿ تُحِبُّونَهُمْ ﴾ بسبب ما بينكم وبينهم من الرضاعة والمصاهرة ﴿ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ ﴾ بسبب كونكم مسلمين الثالث : ﴿ تُحِبُّونَهُمْ ﴾ بسبب أنهم أظهروا لكم الإيمان ﴿ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ ﴾ بسبب أن الكفر مستقر في باطنهم

الرابع : قال أبو بكر الأصم ﴿ تُحِبُّونَهُمْ ﴾ بمعنى أنكم لا تريدون إلقاءهم في الآفات والمحن ﴿ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ ﴾ بمعنى أنهم يريدون إلقاءكم في الآفات والمحن ويتربصون بكم الدوائر

الخامس : ﴿ تُحِبُّونَهُمْ ﴾ بسبب أنهم يظهرون لكم محبة الرسول ومحب المحبوب محبوب ﴿ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ ﴾ لأنهم يعلمون أنكم تحبون الرسول وهم يبغضون الرسول ومحب المبغوض مبغوض

السادس : ﴿ تُحِبُّونَهُمْ ﴾ أي تخالطونهم ، وتفشون إليهم أسراركم في أمور دينكم ﴿ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ ﴾ أي لا يفعلون مثل ذلك بكم .

واعلم أن هذه الوجوه التي ذكرناها إشارة إلى الأسباب الموجبة لكون المؤمنين يحبونهم ولكونهم يبغضون المؤمنين ، فالكل داخل تحت الآية ، ولما عرفهم تعالى كونهم مبغضين للمؤمنين وعرفهم أنهم مبطلون في ذلك البغض صار ذلك داعياً من حيث الطبع ، ومن حيث الشرع إلى أن يصير المؤمنون مبغضين لهؤلاء المنافقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 175 ﴾

وقال الآلوسى :

والمراد بمحبة المؤمنين لهم المحبة العادية الناشئة من نحو الإحسان والصداقة ، ومثلها وإن كان غريباً يلام عليه إذا وقع من المؤمنين في حق أعداء الدين الذين يتربصون بهم ريب المنون لكن لا يصل إلى الكفر وإنما لم يصل إليه باعتبار آخر لا يكاد يقع من أولئك المخاطبين ، وقيل : المراد : تحبونهم لأنكم تريدون الإسلام لهم وتدعونهم إلى الجنة ولا يحبونكم لأنهم يريدون لكم الكفر والضلال وفي ذلك الهلاك ، ولا يخفى ما فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 39 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

وتركيب ها أنتم أولاء ونظائره مثل ها أنا تقدم في قوله تعالى في سورة [البقرة : 85] : ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ﴾ ولّما كان التعجيب في الآية من مجموع الحالين قيل : ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ﴾ فالعَجب من محبّة المؤمنين إيّاهم في حال بغضهم المؤمنين ، ولا يذكر بعد اسم الإشارة جملة في هذا التركيب إلاّ والقصد التعجّب من مضمون تلك الجملة .

وجملة ﴿ ولا يحبونكم ﴾ جملة حال من الضمير المرفوع في قوله : ﴿ تحبونهم ﴾ لأنّ محلّ التّعجيب هو مجموع الحالين .

وليس في هذا التعجيب شيء من التغليط ، ولكنّه مجرد إيقاظ ، ولذلك عقّبه بقوله : ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾ فإنّه كالعذر للمؤمنين في استبطانهم أهل الكتاب بعد إيمان المؤمنين ، لأنّ المؤمنين لمّا آمنوا بجميع رسل الله وكتبهم كانوا ينسبون أهل الكتاب إلى هدى ذهب زمانه ، وأدخلوا فيه التّحريف بخلاف أهل الكتاب إذ يرمقون المسلمين بعين الازدراء والضلالة واتّباع ما ليس بحقّ .

وهذان النظران ، منّا ومنهم ، هما أصل تسامح المسلمين مع قوّتهم ، وتصلُّب أهل الكتابين

مع ضعفهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 202.201 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾

فائدة

قال الفخر :

في الآية إضمار ، والتقدير : وتؤمنون بالكتاب كله وهم لا يؤمنون به ، وحسن الحذف لما بينا أن الضدين يعلمان معاً فكان ذكر أحدهما مغنياً عن ذكر الآخر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 175 ﴾

قال القرطبى :

والكتاب اسم جنس ؛ قال ابن عباس : يعنى بالكُتُب .

واليهود يؤمنون بالبعض ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾ [البقرة : 91] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 182.181 ﴾

فائدة

قال الفخر :

ذكر (الكتاب) بلفظ الواحد لوجوه

أحدها : أنه ذهب به مذهب الجنس كقولهم : كثر الدرهم في أيدي الناس

وثانيها : أن المصدر لا يجمع إلا على التأويل ، فلهذا لم يقل الكتب بدلاً من الكتاب ، وإن كان لو قاله لجاز توسعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 175 ﴾

فصل

قال الفخر :

تقدير الكلام : أنكم تؤمنون بكتبهم كلها وهم مع ذلك يبغضونكم فما بالكم مع ذلك تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم ، وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ ﴾ [النساء : 104] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 176 ﴾

فائدة

قال ابن عطية :

وقوله ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾ يقتضي أن الآية في منافقي اليهود لا في منافقي العرب ، ويعترضها أن منافقي اليهود لم يحفظ عنهم أنهم كانوا يؤمنون في الظاهر إيماناً مطلقاً ويكفرون

في الباطن ، كما كان المنافقون من العرب يفعلون ، إلا ما روي من أمر زيد بن الصيت القينقاعي فلم يبق إلا أن قولهم : ﴿ آمنا ﴾ معناه : صدقنا أنه نبي مبعوث إليكم ، أي فكونوا على دينكم ونحن أولياؤكم وإخوانكم ولا نضمر لكم إلا المودة ، ولهذا كان بعض المؤمنين يتخذهم بطانة ، وهذا منزع قد حفظ أن كثيراً من اليهود كان يذهب إليه ، ويدل على هذا التأويل أن المعادل لقولهم ﴿ آمنا ﴾ ، "عض الأنامل من الغيظ" ، وليس هو ما يقتضي الارتداد كما هو في قوله تعالى : ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم ﴾ [البقرة : 14] بل هو ما يقتضي البغض وعدم المودة ، وكان أبو الجوزاء إذا تلا هذه الآية قال : هم الإباضية .

قال القاضي أبو محمد : وهذه الصفة قد تترتب في أهل بدع من الناس إلى يوم القيامة . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 1 صـ 497 ﴾

(100/128)

قال أبو حيان :

وما ذكر من أن منافقي اليهود لم يحفظ عنهم أنهم كانوا يؤمنون في الظاهر إيماناً مطلقاً ويكفرون في الباطن إلاَّ ما روي من أمر زيد فيه نظر ، فإنه قد روى أن جماعة منهم كانوا

يعتمدون ذلك ، ذكره البيهقي وغيره .

ولو لم يرو ذلك إلا عن زيد القينقاعي لكان في ذلك مذمة لهم بذلك ، إذ وجد ذلك في جنسهم .

وكثيراً ما تمدح العرب أو تذم بفعل الواحد من القبيلة ، ويؤيد صدور ذلك من اليهود قوله تعالى : ﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره 43 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾

قال الفخر :

المعنى : أنه إذا خلا بعضهم ببعض أظهروا شدة العداوة ، وشدة الغيظ على المؤمنين حتى تبلغ تلك الشدة إلى عض الأنامل ، كما يفعل ذلك أحدنا إذا اشتد غيظه وعظم حزنه على فوات مطلوبه ، ولما كثر هذا الفعل من الغضبان ، صار ذلك كناية عن الغضب حتى يقال في الغضبان : إنه يعض يده غيظاً وإن لم يكن هناك عض ، قال المفسرون : وإنما حصل لهم هذا الغيظ الشديد لما رأوا من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم وصلاح ذات بينهم .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ﴾ وهو دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به ، والمراد من ازدياد الغيظ ازدياد ما يوجب لهم ذلك الغيظ من قوة الإسلام وعزة أهله وما لهم في ذلك من الذل والخزي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 176 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

وعضّ الأنامل كناية عن شدّة الغيظ والتحسّر .

(101/128)

وإن لم يكن عَضّ أنامل محسوساً ، ولكن كنّي به عن لازمه في المتعارف ، فإنّ الإنسان إذا اضطرب باطنه من الانفعال صدرت عنه أفعال تناسب ذلك الانفعال ، فقد تكون مُعِينة على دفع انفعاله كقتل عدوّه ، وفي ضدّه تقبيل من يحبّهُ ، وقد تكون قاصرة عليه يشفي بها بعض انفعاله ، كتخبّط الصّبي في الأرض إذا غضب ، وضَرب الرجل نفسه من الغضب ، وعضّه أصابعه من الغيظ ، وقرعه سنّه من النّدم ، وضرب الكفّ بالكفّ من التحسّر ، ومن ذلك التأوّه والصّياح ونحوها ، وهي ضروب من علامات الجزع ، وبعضها جبلّي كالصياح ، وبعضها عادي يتعارفه النّاس ويكثر بينهم ، فيصيرون يفعلونه بدون تأمّل ، وقال الحارث بن ظالم المري :

فأقبل أقوام لئام أذلّة

يعضّون من غيظ رؤوس الأباهم . . .

وقوله : ﴿ عليكم ﴾ على فيه للتَّعليل ، والضّمير المجرور ضمير المسلمين ، وهو من تعليق الحكم بالذات بتقدير حالة معيّنة ، أي على التّأمكم وزوال البغضاء ، كما فعل شاس بن قيس اليهودي فنزل فيه قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ [آل عمران : 100] ، ونظير هذا التعليق قول الشاعر :

لتقرعِنّ على السنّ من ندم

إذا تذكرتِ يوما بعضَ أخلاقي . . .

و﴿ من الغيظ ﴾ (من) للتعليل .

والغيظ : غضب شديد يلازمه إرادة الانتقام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 203.202 ﴾

(102/128)

قال الآلوسى :

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد بلسانك ، وقيل : المراد حدث نفسك بإذلالهم وإعزاز الإسلام من غير أن يكون هناك قول ، وقيل : هو خطاب لكل مؤمن وتحريض لهم على عداوتهم وحث لهم

على خطابهم خطاب الخصماء فإنه لا أقطع للمحبة من جراحة اللسان فالمقصود على هذا من قوله تعالى : ﴿ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ﴾ مجرد الخطاب بما يكرهونه ، والصحيح الذي اتفقت عليه كلمتهم أنه دعاء عليهم وكون ذلك مما فيه خفاء إذ لا يخاطب المدعو عليه بل الله تعالى ويسأل منه ابتلاؤه لا خفاء في خفائه وأنه غفلة عن قولهم قاتلك الله تعالى ، وقولهم : دم بعز ، وبت قرير عين ، وغيره مما لا يحصى ، والمراد كما قيل : الدعاء بدوام الغيظ وزيادته بتضاعف قوة الإسلام وأهله حتى يهلكوا به ، وهذا عند العلامة الثاني من كناية الكناية حيث عبر بدعاء موتهم بالغيظ عن ملزومه الذي هو دعاء ازدياد غيظهم إلى حين الهلاك وبه عن ملزومه الذي هو قوة الإسلام وعز اسمه وذلك لأن مجرد الموت بالغيظ أو ازدياده ليس مما يحسن أن يطلب ويدعى به .

وتعقب بأن المجاز على المجاز مذكور وأما الكناية على الكناية فنادرة وقد صرح بها السبكي في "قواعده الأصولية" ونقل فيها خلافاً ، ومع هذا الفرق بين الكناية بالوسائط والكناية على الكناية مما يحتاج إلى التأمل الصادق ولعله فرق اعتباري ، وأيضاً ما ذكره من أن مجرد الموت بالغيظ الخ مدفوع بأنه يمكن أن يكون المحسن لذلك ما فيه من الإشارة إلى ذمهم حيث إنهم قد استحقوا هذا الموت الفظيع والحال الشنيع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 40 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ قل موتوا بغيظكم ﴾ كلام لم يقصد به مخاطبون معيّنون لأنّه دعاء على الّذين يعضّون الأنامل من الغيظ ، وهم يفعلون ذلك إذا خلوا ، فلا يتصوّر مشافهتهم بالدّعاء على التّعيين ولكنّه كلام قصد إسماعه لكلّ من يعلم من نفسه الاتّصاف بالغيظ على المسلمين وهو قريب من الخطاب الّذي يقصد به عموم كُل مخاطب نحو : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم ﴾ [السجدة : 12] .

والدعاء عليهم بالموت بالغيظ صريحهُ طلب موتهم بسبب غيظهم ، وهو كناية عن ملازمة الغيظ لهم طول حياتهم إن طالت أو قصرت ، وذلك كناية عن دوام سبب غيظهم ، وهو حسن حال المسلمين ، وانتظام أمرهم ، وازدياد خيرهم ، وفي هذا الدعاء عليهم بلزوم ألم الغيظ لهم ، وبتعجيل موتهم به ، وكلّ من المعنيين المكني بهما مراد هنا ، والتكنّي بالغيظ وبالحسد عن كمال المغيظ منه المحسود مشهور ، والعرب تقول : فلان محسَّد ، أي هو في حالة نعمة وكمال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير جـ 3 صـ 203 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ﴾ يقول موتوا بحنقكم على وجه الدعاء ، والطرد واللعن ، لا على وجه الأمر والإيجاب ، لأنه لو كان على وجه الإيجاب ، لماتوا من ساعتهم .

كما قال في موضع آخر : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين خَرَجُواْ مِن ديارهم وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الموت فَقَالَ لَهُمُ الله مُوتُواْ ثُمَّ أحياهم إِنَّ الله لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : 243] ، فماتوا من ساعتهم ، فهاهنا لم يرد به الإيجاب .

وقال الضحاك : ﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ﴾ ، يعني أنكم تخرجون من الدنيا بهذه الحسرة ، والغيظ يعني اللفظ لفظ الأمر ، والمراد به الخبر ، يعني أنكم تموتون بغيظكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 267 ﴾

(104/128)

سؤال : فإن قيل : قوله ﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ﴾ أمر لهم بالإقامة على الغيظ ، وذلك الغيظ كفر ، فكان هذا أمراً بالإقامة على الكفر وذلك غير جائز .

قلنا : قد بينا أنه دعاء بازدياد ما يوجب هذا الغيظ وهو قوة الإسلام فسقط السؤال وأيضاً فإنه دعاء عليهم بالموت قبل بلوغ ما يتمنون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 176 ﴾

وقال القرطبى :

إن قيل : كيف لم يموتوا والله تعالى إذا قال لشيء : كن فيكون .

قيل عنه جوابان : أحدهما قال فيه الطبريّ وكثير من المفسرين : هو دعاء عليهم .

أي قل يا محمد أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا .

فعلى هذا يتجه أن يدعو عليهم بهذا مُوَاجهةً وغيرَ مواجهة بخلاف اللّعْنَة .

الثاني : أن المعنى أخبرهم أنهم لا يدركون ما يؤملون ، فإن الموت دون ذلك .

فعلى هذا المعنى زال معنى الدعاء وبقي معنى التقْرِيع والإغَاظَة .

ويجري هذا المعنى مع قول مسافر ابن أبي عمرو :

ويتمنّى في أُرُومتنا . . .

ونَفْقَأ عينَ من حسدا

وينظر إلى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدنيا والآخرة فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السمآء ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 183.182 ﴾

لطيفة

قال أبو حيان :

قال بعض شيوخنا : هذا ليس بأمر جازم ، لأنه لو كان أمراً لماتوا من فورهم كما جاء فقال لهم الله : موتوا .

وليس بدعاء ، لأنه لو أمره بالدعاء لماتوا جميعهم على هذه الصفة ، فإن دعوته لا ترد .

وقد آمن منهم بعد هذه الآية كثير ، وليس بخبر لأنه لو كان خبر الوقع على حكم ما أخبر به يعني ولم يؤمن أحد بعد ، وإنما هو أمر معناه التوبيخ والتقريع كقوله : اعملوا ما شئتم ، إذا لم تستح فاصنع ما شئت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 45.44 ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾

فصل

قال الفخر :

(105/128)

(ذات) كلمة وضعت لنسبة المؤنث كما أن (ذو) كلمة وضعت لنسبة المذكر والمراد بذات الصدور الخواطر القائمة بالقلب والدواعي والصوارف الموجودة فيه وهي لكونها حالة في القلب منتسبة إليه فكانت ذات الصدور ، والمعنى أنه تعالى عالم بكل ما حصل في قلوبكم من الخواطر والبواعث والصوارف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 176 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال صاحب "الكشاف" يحتمل أن تكون هذه الآية داخلة في جملة المقول وأن لا تكون

أما الأول : فالتقدير : أخبرهم بما يسرونه من عضهم الأنامل غيظاً إذا خلوا وقل لهم : إن الله عليم بما هو أخفى مما تسرونه بينكم ، وهو مضمرات الصدور ، فلا تظنوا أن شيئاً من أسراركم يخفى عليه

أما الثاني : وهو أن لا يكون داخلاً في المقول فمعناه : قل لهم ذلك يا محمد ولا تتعجب من إطلاعي إياك على ما يسرون ، فإني أعلم ما هو أخفى من ذلك ، وهو ما أضمروه في صدورهم ولم يظهروه بألسنتهم ويجوز أن لا يكون ، ثم قول وأن يكون قوله ﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ﴾ أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بطيب النفس وقوة الرجاء والاستبشار بوعد الله إياه أنهم يهلكون غيظاً بإعزاز الإسلام وإذلالهم به ، كأنه قيل : حدث نفسك بذلك ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 176 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ هَآأَنْتُمْ أُولاء تُحِبُّونَهُمْ ﴾ قد تقدم نظيره .

قال الزَّمَخْشَرِيُّ : " ها " للتنبيه ، و " أَنْتُمْ " مبتدأ و " أولاءِ " خبره ، و " تُحِبُّونَهُمْ " في موضع نصب على الحال من اسم الإشارة .

ويجوز أن يكون " أولاء " بمعنى : الذي ، و " تُحِبُّونَهُمْ " صلة له ، والموصول مع الصلة خبر .

قال الفرّاء : " أولاَءِ " خبر ، و " يحبونهم " خبر بعد خبر .

ويجوز أن يكون " أولاء " في موضع نصب بفعل محذوف ، فتكون المسالة من باب الاشتغال ، نحو : أنا زيداً ضربته .

قوله : ﴿ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ ﴾ يحتمل أن يكون استئناف إخبار ، وأن يكون جملة حالية .

قوله : ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ متعلق بـ " عَضوا " ، وكذلك ﴿ مِنَ الغيظ ﴾ و " مِنْ " فيه لابتداء الغاية ، ويجوز أن يكون بمعنى اللام ، فيفيد العِلّيَّة – أى : من أجل الغيظ – .

وجوز أبو البقاء – في " عَلَيْكُمْ " ، وفي ﴿ مِنَ الغيظ ﴾ – أن يكونا حالين ، فقال : " ويجوز أن يكون حالاً ، أي : حنقين عليكم من الغيظ . ﴿ وِمنَ الغيظ ﴾ متعلق بـ " عَضُّوا " أيضاً ، و " مِنْ " لابتداء الغاية ، أي : من أجل الغيظ ، ويجوز أن يكون حالاً ، أي : مغتاظين " . انتهى .

وقوله : و " من " لابتداء الغاية – أي : من أجل الغيظ كلام متنافر ؛ لأن التي للابتداء لا تفسَّر بمعنى : " من أجل " ، فإنه معنى العلة ، والعلة والابتداء متغايران ، وعلى الجملة ، فالحالية

- فيهما - لا يظهر معناها ، وتقديره الحال ليس تقديراً صناعيًّا ؛ لأن التقدير الصناعي إنما يكون بالأكوان المطلقة .

والعَضّ : الأزم بالأسنان ، وهو تحامُل الأسنان بعضها على بعض ، يقال : عَضِضْتُ قال امرؤ القيس : [الطويل]

. . . . كَفَحْلِ الْهِجَانِ يَنْتَحِي لِلْعَضِيضِ

جعل الباء زائدة في المفعول ؛ إذ الأصل : يعضون خلفنا الأنامل .

وقال آخر : [المتقارب]

قَدَافْنَى أَنَامِلَهُ أَزْمُهُ . . . فَأَضْحَى يَعَضُّ عَلَيّ الْوَظِيفَا

وقال الحارث بن ظالم المري : [الطويل]

وَأَقْتُلُ أَقْوَاماً لِئَاماً أَذِلَّةً . . . يَعُضُّونَ مِنْ غَيْظٍ رُءُوسَ الأَبَاهِمِ

وقال آخر : [البسيط]

إذَا رَأَوْنِي - أَطَالَ اللهُ غَيْظَهُمُ . . . عَضُّوا مِنَ الْغَيظِ أَطْرَافَ الأَبَاهِيمِ

والعَضّ كله بالضاد ، إلا في قولهم : عَظَّ الزمان – أي : اشتد – وعظت الحرب ، فإنهما بالظاء – أخت الطاء – .

قال الشاعر : [الطويل]

وَعَظُّ زَمَانٍ – يَا بْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدَعْ . . . مِنَ الْمَالِ إلاَّ مُسْحَتاً أوْ مُجَلَّفُ

قال شهاب الدين : " وقد رأيته بخط جماعة من الفضلاء : وعضُّ زمان – بالضاد " .

والعُضُّ – بضم الفاء – عَلَف من نوًى مرضوض وغيره ، ومنه : بَعير عُضَاضِيّ – أي : سمين – كأنه منسوب إليه ، وأعَضّ القومُ – إذا أكلت إبلُهم ذلك ، والعِضّ – بكسر الفاء – الرجل الداهية ، كأنهم تصوروا عَضَّه وشدته .

وزمن عضوض – أي : جدب ، والتَّعْضوض : نوع من التمر ، سُمِّيَ بذلك لشدة مضغه وصعوبته .

والأنامل : جمع أنملة – وهي رؤوس الأصابع .

قال الرُّماني : واشتقاقها من النمل – هذا الحيوان المعروف – شبهت به لدقتها ، وسرعة تصرفها وحركتها ، ومنه قالوا للنمام : " نمل ومنمل " لذلك .

قال الشاعر : [المتقارب]

وَلَسْتُ بِذِي نَيْربٍ فِيهِمُ . . . وَلاَ مُنْمِشٍ فِيهِمُ مُنْمِلِ

وفي ميمها الضم والفتح .

والغيظ : مصدر غاظه ، يغيظه - أي : أغضبه - . وفسره الراغب بأنه أشد الغضب ، قال : وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من ثوران دَمِ قلبه . وإذا وصف به الله تعالى ، فإنما يراد به الانتقام . والتغيظ : إظهار الغيظ ، وقد يكون مع ذلك صوت ، قال تعالى : ﴿ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ [الفرقان : 12] ، والجملة من قوله : ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾ معطوفة على ﴿ تُحِبُّونَهُمْ ﴾ ، ففيها ما فيها من الأوجه المعروفة .

(108/128)

قال الزمخشري : والواو في ﴿ وَتُؤْمِنُونَ ﴾ للحال ، وانتصابها من ﴿ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ ﴾ أي : لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابكم كله ، وهم - مع ذلك - يبغضونكم ، فما بالكم تحبونهم ، وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم .

قال أبو حيان : " وهو حسن ، إلا أن فيه من الصناعة النحوية ما يخدشه ، وهو أنه جعل الواو في ﴿ وَتُؤْمِنُونَ ﴾ للحال ، وانتصابها من ﴿ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ ﴾ والمضارع المثبت - إذا وقع حالاً - لا تدخل عليه واو الحال ، تقول : جاء زيد يضحك ، ولا يجوز : ويضحك ، فأما قولهم : قمت وأصُكُّ عينه ، ففي غاية الشذوذ ، وقد أوِّل على إضمار مبتدأ ، أي : وأنا أصُكّ عينه ، فتصير الجملة اسمية ، ويحتمل هذا التأويل هنا : ولا يحبونكم وأنتم

تؤمنون بالكتاب كله ، لكنّ الأولَى ما ذكرنا من كونها للعطف " .

يعني : فإنه لا يُحْوِج إلى حَذْف ، بخلاف تقديره مبتدأ ، فإنه على خلاف الأصل .

قوله : ﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ﴾ يجوز أن تكون الباء للحال ، أي : موتوا ملتبسين بغيظكم لا يزايلكم ، وهو كناية عن كثرة افسلام وفُشُوِّه ؛ لأنه كلما ازداد الإيمان ازداد غيظهم ، ويجوز أن تكون للسببية أي : بسبب غَيْظكم ، وليس بالقويّ .

وقوله : ﴿ مُوتُواْ ﴾ صورته أمر ومعناه الدعاء ، فيكون دُعَاءً عليهم بأن يزداد غَيْظُهم ، حتى يهلكوا به ، والمراد من ازدياد الغيظ : ازدياد ما يوجب لهم ذلك الغيظ من قوة الإسلام ، وعِزّ أهْلِه ، وما لهم في ذلك من الذُّلِّ ، والخِزْي ، والعار .

وقيل : معناه الخبر ، أي : أن الأمر كذلك .

(109/128)

وقد قال بعضهم : إنه لا يجوز أن يكون بمعنى : الدعاء ؛ لأنه لو كان أمره بأن يدعو عليهم بذلك لماتوا جميعاً على هذه الصفة ؛ فإنَّ دعوته لا ترد ، وقد آمن منهم كثيرون بعد هذه الآيةِ ، [وليس بخبر] ؛ لأنه لو كان خبراً لوقع على حكم ما أخبره ، ولم يؤمن أحدٌ بعدُ ، وإذا انتفى هذان المعنيان فلم يَبْقَ إلا أن يكون معناه التوبيخ ، والتهديد ، كقوله تعالى : ﴿ اعملوا

مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت : 40] و" إذَا لَمْ تَستَحْي فاصْنَعْ مَا شِئْتَ " .

وهذا – الذي قاله – ليس بشيء ؛ لأن مَنْ آمن منهم لم يدخل تحت الدعاء – إن قُصِد به الدعاء – ولا تحت الخبر ، إن قُصِد به الإخبار .

قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ يحتمل أن تكون هذه الجملة مستأنفة ، أخبر – تعالى – بذلك ؛ لأنهم كانوا يُخفون غيظَهم ما أمكنهم ، فذكر ذلك لهم على سبيل الوعيد ، ويحتمل أن يكون من جملة المقول ، أي : قُلْ لهم : كذا ، وكذا ، فيكون في محل نصب بالقول ، ومعنى قوله : ﴿ بِذَاتِ ﴾ أي : بالمُضْمَرات ، ذوات الصدور ، ف " ذَات " – هنا – تأنيث " ذي " بمعنى صاحب ؛ فحُذِف الموصوف ، وأقيمت صفته مقامه ، أي : عَلِيمٌ بالمضمرات صاحبة الصدُور ، و" ذو " جعلت صاحبة للصدور لملازمتها لها ، وعدم انفكاكها عنها ، نحو أصحاب النار ، وأصحاب الجنة .

والمراد بذات الصدور : الخواطر القائمة بالقلب من الدواعي ، والصوارف الموجودة فيه .

واختلفوا في الوقف على هذه اللفظة ، هل يوقف عليها بالتاء ، أو بالهاء ؟ .

فقال الأخفش ، والفرَّاءُ ، وابن كيسان : الوقف عليها بالتاء اتباعاً لرسم المصحف .

وقال الكسائي ، والجَرْمِيّ : يوقف عليها بالهاء ، لأنها تاء تأنيث ، كهي في صاحبة ، وموافقة الرسم أوْلَى ؛ فإنَّهُ قد ثبت لنا الوقف على تاء التّأنيث الصريحة بالتّاء ، فإذا وقفنا - هنا - بالتّاء ، وافقنا تلك اللغة ، والرسم ، بخلاف عكسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 495 . 500 ﴾ . بتصرف يسير .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قوله جلّ ذكره : ﴿ هَا أَنْتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ .

أنتم بقضية كرمكم تصفو - عن الكدورات - قلوبكم ؛ فتغلبكم الشفقة عليهم ، وهم - لعتوّهم وخُلْفِهم - يكيدون لكم ما استطاعوا ، ولفرط وحشتهم لا تترشح منهم إلا قطرات غيظهم . ففَرِّغْ - يا محمد - قلبك منهم .

﴿ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

دَعْهُمْ ينفردوا بمقاساة ما تداخلهم من الغيظ ، واستريحوا بقلوبكم عمَّا يَحِلُّ بهم ، فإن الله أولى بعباده ؛ يوصل إلى مَنْ يشاء ما يشاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 273 ﴾

موعظة

قال حجة الإسلام عليه الرحمة :

واحذر صحبة أكثر الناس فإنهم لا يقيلون عثرة ولا يغفرون زلة ولا يسترون عورة ويحاسبون على النقير والقطمير ويحسدون على القليل والكثير ينتصفون ولا ينصفون ويؤاخذون على الخطأ والنسيان ولا يعفون يغرون الإخوان على الإخوان بالنميمة والبهتان فصحبة أكثرهم خسران وقطيعتهم رجحان إن رضوا فظاهرهم الملق وإن سخطوا فباطنهم الحنق لا يؤمنون في حنقهم ولا يرجون في ملقهم ظاهرهم ثياب وباطنهم ذئاب يقطعون بالظنون ويتغامزون وراءك بالعيون ويتربصون بصديقهم من الحسد ريب المنون يحصون عليك العثرات في صحبتهم ليواجهوك بها في غضبهم ووحشتهم ولا تعول على مودة من لم تخبره حق الخبرة بأن تصحبه مدة في دار أو موضع واحد فتجربه في عزله وولايته وغناه وفقره أو تسافر معه أو تعامله في الدينار والدرهم أو تقع في شدة فتحتاج إليه فإن رضيته في الأحوال فاتخذه أبا لك إن كان كبيرا أو ابنا لك إن كان صغيرا أو أخاك إن كان مثلك

فهذه جملة آداب المعاشرة مع أصناف الخلق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الإحياء ج 2 ص 212 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآيتين

قال رحمه الله :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾

حين يخاطب الله المؤمنين ويناديهم بقوله : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فلتعلم أن ما يجيء بعد ذلك هو تكليف من الحق سبحانه . فساعة ينادي الحق المؤمنين به ، فإنه ينادي ليكلف ، وهو سبحانه لا يكلف إلا من آمن به ، أما حين يدعو غير المؤمن به إلى رحاب الإيمان ، فإنه يثير فيه القدرة على التفكير ، فيقول له :

فكّر في السماء ، فكّر في الأرض ، فكّر في مظاهر الكون ، حتى تؤمن أن للكون إلها واحدا . فإذا آمن الإنسان بالإله الواحد ، فإن الحق سبحانه وتعالى يقول له ما دمت قد آمنت بالإله الواحد ، فَتَلَقَّ عن الإله الحكم .

إن الحق حين يقول : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فهو سبحانه يخاطب بالتكليف المؤمنين به ، وهو لا يكلف بـ " افعل " و " لا تفعل " إلا من آمن ، أما من لم يؤمن فيناديه الله ليدخل في حظيرة الإيمان : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ فإذا ما دخل الإنسان في حظيرة الإيمان

فالحق سبحانه وتعالى يكرم هذا المؤمن بالتكليف بـ " افعل " و " لا تفعل " وما دام العبد قد آمن بالإله القادر الحكيم الخالق ، القيوم ، فليسمع من الإله ما يصلح حياته . ويجيء في بعض الأحيان ما ظاهره أن الله ينادي مؤمنا به ، ثم يأمره بالإيمان كقول الحق : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ .

ويتساءل الإنسان كيف ينادي الله مؤمنا به ، ثم يأمره بالإيمان ؟ وهنا نرى أن المطلوب من كل مؤمن أن يؤدي أفعال الإيمان دائما ويضيف لها ليستمر ركب الإيمان قويا ، فالحق حين يطلب من المؤمن أمراً موجودا فيه ؛ فلنعلم أن الله يريد من المؤمن الاستدامة على هذا اللون من السلوك الذي يحبه الله ، وكأن الحق حين يقول : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ إنما يحمل هذا القول الكريم أمراً بالاستدامة على الإيمان ، لأن البشر من الأغيار . ونحن نعرف أن الله أفسح بالاختيار مجالا لقوم آمنوا فارتدوا ، فليس الأمر مجرد إعلان الإيمان ثم تنتهي المسألة ، لا ، إن المطلوب هو استدامة الإيمان .

وحين نقرأ قول الحق : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ فلنفهم أن هناك تكليفا جديدا ، وما دام في الأمر تكليف فعنصر الاختيار موجود ، إذن فحيثية كل حكم تكليفي من الله له مقدمة

هي : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ ولا تبحث أيها المؤمن في علة الحكم ، وتسأل : لماذا كلفتني يارب بهذا الأمر ؟ فليس من حقك أيها المؤمن أن تسأل : " لماذا " ما دمت قد آمنت ؛ فالحق سبحانه لم يكلف إلا من آمن به ، فإذا كنت - أيها المؤمن - قد آمنت بأنه إله صادق قادر حكيم فأمن الله على نفسك ، ونفذ مطلوب الله بـ " افعل " و " لا تفعل " سواء فهمت العلة أم لم تفهمها .

وسبق أن ضربنا المثل وما زلنا نكرره .

إن المريض الذي يشكو من سوء الهضم بعد تناول الطعام يفكر أن جهازه الهضمي مصاب بعلة ، ويفكر في اختيار الطبيب المعالج ويختار طبيبا متخصصا في الجهاز الهضمي ، ويذهب إلى هذا الطبيب . وهنا ينتهي عمل العقل بالنسبة للمريض ؛ فقد اختار طبيبا وقرر الذهاب إليه ، والطبيب يجري الفحص الدقيق ، ويطلب التحاليل اللازمة إن احتاج الأمر ، ويشخص الداء ، ثم يكتب الدواء ، وحين يكتب الطبيب الدواء للمريض ، فإن المريض لا يصح أن يقول للطبيب لن آخذ هذا الدواء إلا إذا أقنعتني بحكمته . بل عليه أن ينفذ كلام الطبيب ، وهكذا يطيع المريض الطبيب ، وكلاهما مساوٍ للآخر في البشرية ،

فكيف يكون أدب الإنسان مع خالقه ؟ إن كل عمل العقل عند المؤمن هو أن يؤمن بالله ، وبعد أن آمنت – أيها المؤمن – بالله حكيما ، فَتَلَقَّ عن الله الحكم ؛ لأنه مأمون على أن يوجهك لأنك أنت صنعته .

إن الحق يأمر المؤمن بالصلاة ، وعلى المؤمن أن يؤديها ، ولا يبحث عن علة الصلاة كأنها رياضة مثلا ، لا ، إن الأمر صادر من الحق بالصلاة ، وحين تصلي ، فإنك تلتفت إلى أن نفسك قد انشرحت بالصلاة وشعرت بالراحة ، فتقول لنفسك : ما أحلى راحة الإيمان ؛ هذه هي علة الحكم الإيماني . إن علة الحكم الإيماني يعرفها المؤمن بعد أن ينفذه ، ولذلك نجد الحق من فضل كرمه ، يقول لنا :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[البقرة : 282]

(115/128)

فأنت ساعة أن تتقي الله في الحكم ، يعطيك العلة ، ويعطيك راحة الإيمان ، إنك أيها العبد لا تسأل أولا عن الاقتناع بالعلة حتى تنفذ حكما لله ، لأن الحق سبحانه قد يؤجل بعض حيثيات الأحكام لخلقه قرونا طويلة ، ومثال ذلك أننا ظللنا لا نعرف علة حكم من

الأحكام لمدة أربعة عشر قرنا من الزمان مثل تحريم أكل لحم الخنزير ، فهل كان على العباد المؤمنين أن يؤجلوا أكل لحم الخنزير أربعة عشر قرنا إلى أن يمتلكوا معامل للتحليل حتى نعرف المضار التي فيه ؟ تلك المضار التي ثبتت معمليا . . لا .

إن العباد المؤمنين لم يؤجلوا تنفيذ الحكم ، ولكنهم نفذوه ، واكتشف أحفاد الأحفاد أن فيه ضرراً ، وهذا يدفعنا إلى تنفيذ كل حكم لا نعرف له علة ، إن هذا الحكم له حكمة عند الله قد لا يستطيع عقل الإنسان أن يفهمها ، ولكن ستأتي أشياء توضح بعض الأحكام فيما لم يكن يعرفه الإنسان ، وتعطينا تلك الإيضاحات الثقة في كل حكم لا تعرف له علة ، وتصبح علة كل حكم هي : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

إن الحق بهذا القول ينادي كل عبد من عباده : يا من آمنت بي إلها خذ مني هذا التكليف .

ومثال ذلك – ولله المثل الأعلى – عندما يقول الطبيب : يا من صدقت أني طبيب لمرضك خذ هذا الدواء وستشفى بإذن الله .

وعندما يزور الإنسان مريضا ويسأله : لماذا تأخذ هذا الدواء ؟ فالمريض يجيب : لقد كتب الطبيب لي هذا الدواء ، فما بالنا بتنفيذ أحكام الله ؟ إنه يجب أن ننفذها لأن الله قالها ، ولذلك فالعاقلون بعمق وجدية يختلفون عن مُدعى العقل بسطحية ، هؤلاء العاقلون الجادون يقولون : إن هذا العقل مطية يوصلك إلى باب السلطان ولكن لا يدخل

معك عليه . فكأن العقل يوصلك إلى أن تؤمن بالله ، ولكنه لا يحشر نفسه فيما ليس له قدرة عليه .

(116/128)

إن الحق سبحانه في هذا التكليف القادم : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ أي أنكم ما دمتم قد آمنتم ، فعليكم الحفاظ على هذا الإيمان بأن تبعدوا عنه نزغ الشيطان وكيد الأعداء . إن نزغ الشيطان وكيد الأعداء إنما يأتي من البطانة التي تتداخل مع الإنسان .

ولنفهم كلمة " بطانة " جيدا ، إن بطانة الرجل هم خاصته ، أي الناس الذين يصاحبهم ويجلسون معه ويعرفون أسراره ، وكلمة " بطانة " مأخوذة أيضا من بطانة الثوب ؛ فنحن عندما نمسك أي قطعة من ثياب نرى أن الثوب خشن ، ولذلك فالصانع يضع للثوب الخشن بطانة ناعمة ويختارها كذلك ؛ لأنها متصلة بالجسم ، والبطانة من الأصدقاء تدخل على الناس بالنعومة وتستميلهم وتستعبدهم . ولذلك نجد النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " الأنصار شعار ، والناس دثار " .

" والشعار " هو الثوب الذي يلامس شعر الجسد ، والنبي صلى الله عليه وسلم يُعلي من

قيمة الذين استقبلوا الدعوة الإسلامية بمودة وحب . وهكذا نعرف أن كلمة " بطانة " مأخوذة – كما قلنا – من بطانة الثوب ، لأنها التي تلتحم بالجسم حتى تحميه ؛ فنحن نرتدي الصوف ليعطينا الدفء ، ونضع بينه وبين الجسم بطانة لنبعد عن الجسم خشونة الصوف ، ويسمون البطانة بالوليجة ، أي التي تدخل في حياة الناس ، وكل شر في الوجود من هذه البطانة .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معصوم وموحى إليه وله من الصحابة ما يطمح أي عبد مؤمن أن يتخذه قدوة له ، هذا الرسول الكريم نجد بعضا من وصفه في حوار بين سيدنا الحسين رضوان الله عليه وأبيه سيدنا علي كرم الله وجهه قال الحسين :

يا أبي قل لي عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال علي كرم الله وجهه :

كان رسول الله لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر . وفي الحديث : "كان رسول الله يكثر الذكر ".

لماذا ؟ لأن الجلوس والقيام هو إبطال حركة بحركة ، فمن كان قائما فقعد فقد أدى حركة هي القعود ، ومن كان جالسا فقام ، فقد أدى حركة هي القيام . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يذكر الله في كل حركة ، شاكرا نعمة الخالق عز وجل ، والإنسان منا يستطيع أن يسأل نفسه : كم عضلة يحركها الإنسان حتى يقعد أو يقوم ؟

إنها أعداد كبيرة من العضلات تتحرك لتوازن ارتفاع الجسم أو جلوسه ، وهي أعداد لا يعرفها الإنسان .

فما الذي جعل هذه الأجهزة الصماء تفهم مراد الإنسان ، وبمجرد أن يحاول الإنسان القيام ، فإنه يقوم ، وبمجرد أن يحاول الإنسان القعود ، فإنه يقعد ؟ إنك إذا رفعت يدك لا تعرف ما هي العضلات التي تتحرك لترفع اليد ، وتلك إدارة عالية يقول عنها الشاعر : " وفيك انطوى العالم الأكبر "

كأن العالم الكبير قد انطوى وصار في داخلك أنت . إنك إن أردت أن تنام فإنك تنام ، وتحب أن تقوم فتقوم . ويبين لك الحق أن أوامرك لعضلاتك وتحكمك في مملكة جسدك ، هي من تسخير الله ؛ تدرك ذلك حين تنظر حولك فتجد أنه سبحانه قد سلب أحدا غيرك القدرة على رفع الذراع . وإياك أن تظن أن الحركة قد واتتك لمجرد أن لك يدا ، لا ، إن غيرك قد تكون له يد ؛ لكنه لا يستطيع أن يأمرها فتتحرك . وهكذا نعرف أن كل الإرادات في النفس إنما تتحرك بتسخير الحق لها لخدمة الإنسان .

قال صلى الله عليه وسلم : " إذا استيقظ أحدكم فليقل : الحمد لله الذي ردّ عليّ روحي وعافاني في جسدي وأذِن لي بذكره " .

انه يُوجه الإنسان إلى ذكر خالقه عند كل قيام أو قعود ، ورسولنا صلى الله عليه وسلم يعلمنا أنه عند كل انفعال بكل حركة من الحركات علينا أن نذكر الذي خلقنا وخلق فينا القدرة على الحركة .

(118/128)

وليسأل كل منا نفسه : كم حركة يتطلبها أمر من الإنسان بأن يحك ظهره مثلا ؟ إنه عدد غير معروف من الحركات . وهكذا علينا أن نحسن الأدب مع الله بأن نذكره في كل حركة فهو الذي خلق كل إنسان منا صالحا لكل هذه القدرات .

ونعود إلى وصف علي كرم الله وجهه مجلسَ الرسول صلى الله عليه وسلم : كان لا يجلس ولا يقوم إلا عن ذكر .

ولنتنبه إلى دقة الرسول في التعامل مع البطانة من البشر ، فها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها . ويوطن المكان ، أي أن يخصص مكانا لفلان ليجلس فيه ، لقد كان الرسول يجلس حيث انتهى به المجلس ، وكذلك كان صحابته

، فلا أحد يجلس دائما بجانبه حتى لا يأخذ أحد من مكانته عند الرسول فرصة يتخيل معها الآخرون أنه صاحب حظوة ؛ فكلهم سواسية ونحن نرى في عصرنا أن هناك من يتخذ لنفسه مكانا في المسجد ، وهذا منهي عنه . فعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نقرة الغراب وافتراش السبع وأن يوطّن الرجل المكان في المسجد كما يوطن البعير) .

ويضيف علي كرم الله وجهه في وصف مجلس رسول الله : وكان إذا ذهب إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ، " وكان يجلس على الأرض ويأكل على الأرض ، يعتقل الشاة ويجيب دعوة المملوك " .

أهناك أدب أكثر من هذا ؟ إنه الرسول الكريم ، يجلس حيث ينتهي به المجلس ، لقد أراد أن يضرب لنا المثل حتى تتنوع اللقاءات ؛ فاليوم قد يجلس مؤمن بجانب مؤمن من مكان بعيد ، وغدا يجلس كلاهما بجانب اثنين جاء كل منهما من مكان آخر ، وهكذا تتحقق اندماجية الإيمان بتنوع اللقاءات .

ويقول علي كرم الله وجهه : وكان رسول الله يعطي كل جلسائه نصيبهم من مجلسه حتى لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما يعطي نظرة لواحد ، فهو ينظر كذلك لكل واحد في مجلسه ، وإن تكلم كلمة إلى ناحية فهو يعطي كلمة أخرى إلى الناحية المقابلة ؛ لذلك حتى يعرف كل جليس للرسول أن المؤمنين سواسية ، وأنّه صلى الله عليه وسلم رسول إلى الناس كافة ؛ وليس رسولا إلى قوم بعينهم ، وحتى يعرف كل واحد من جلسائه أنه يجلس إلى رسوله الذي بعثه الله إليه .

هكذا كان سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يعطي القدوة للناس ، وحتى يعرف كل إنسان أن التحام الناس بعضهم ببعض ؛ قد يسبب لواحد استغلال الالتحام في غير صالح الإيمان .

لذلك يقول الحق سبحانه : يا أيها المؤمنون تنبهوا إلى أنكم في معسكر من غير المؤمنين يقاتلكم ويعاند إيمانكم ، وهؤلاء لا يمكن أن يتركوكم على إيمانكم ، بل لا بد أن يكيدوا لكم ، وهذا الكيد يتجلى في أنهم يدسون لكم أشياء ، وينفذون إليكم .

ونعرف جميعا أن الإسلام عندما جاء كان كثير ممن آمن له ارتباطات بمن لم يسلم ؛ فهناك القرابة ، والصداقة ، والإلف القديم والجوار ، والأخوة من الرضاعة ، لذلك يحذر الحق من هذه المسائل ، فلا يقولن مؤمن هذا قريبي ، أو هذا صديقي ، أو هذا حليفي ، أو هذا أخي من الرضاعة ، فالإسلام يحقق لكم أخوة إيمانية تفوق كل ذلك ، ولهذا فإياكم أن تتخذوا

أناسا يتداخلون معكم بالود ؛ لأن الشر يأتي من هذا المجال ، وإياكم أن تعتقدوا أن فجوة الإيمان والكفر بينكم ستذهب أو تضيق ؛ لأن الكفار لن يتورعوا أن يدخلوا عليكم من باب الكيد لكم ولدينكم بكل لون من الألوان ، وهم - الكفار - لا يقصرون في هذا أبدا ، لذلك يأتي الأمر من الحق :

(120/128)

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ ، احموا هذا الإيمان فلا تتداخلوا مع غير المؤمنين تداخلا يفسد عليكم أمور دينكم ؛ لأنهم لن يهدأوا ، لماذا ؟ لأن حال هذه البطانة معكم سيكون كما يلي : ﴿ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ أي لا يقصرون أبدا في الكيد لكم ، والخبال : هو الفساد للهيئة المدبرة للجسم وهو العقل ، ونحن نسمى اختلال العقل " خبلا " .

إن الحق يقول :

﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران : 118]

فالمنهي عنه ليس أن تتخذ بطانة من المؤمنين ، ولكن المنهي عنه هو أن تتخذ بطانة من غير

المؤمنين ؛ لأن المؤمن له إيمان يحرسه ، أما الكافر فليس له ما يحرسه ، والبطانة من غير المؤمنين لا تقصر في لحظة واحدة في أنها تريد للمؤمنين الخبال والفساد ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إنهم يحبون العنت والمشقة للمؤمنين ﴿ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ ﴾ والحق سبحانه وتعالى لا يريد لنا العنت ، وفي هذا يقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[البقرة : 220]

أي أنه سبحانه لو أراد ، لكلفكم بأمور كثيرة تحمل المشقة ، لكن الحق سبحانه يَسّر لكم أيها المؤمنون ، لكن أهل الكفر لا يودون إلا الخبال للمؤمنين ، ويحبون المشقة لهم .

ومن أين تنشأ المشقة ؟ إنك حين تكون مؤمنا فأنت تقوم بما فرضه عليك الدين ، وهم يحاولون أن ينفخوا في المؤمن بغير ما يقتضيه هذا الدين ، فتتوزع نفس المؤمن ، وبهذا النفخ تنقسم ملكات المؤمن على نفسها ، وعندما تنقسم الملكات على نفسها فإن القلق والاضطراب يسيطران على الإنسان ، فالقلق والاضطراب ينشآن عندما لا تعيش الملكات النفسية في سلام وانسجام .

ونحن نرى ذلك في المجتمعات التي وصلت إلى أرقى حياة اقتصادية وأمورهم المادية ميسرة كلها ، فالشيخوخة مُؤَمَّنة ، وكذلك التأمينات الصحية والاجتماعية ، ودخل الإنسان مرتفع ، لكنهم مع ذلك يعيشون في تعب ، وترتفع بينهم نسبة الانتحار ، وينتشر بينهم الشذوذ ، والسبب وراء كل ذلك هو أن ملكاتهم النفسية غير منسجمة ، وسلام الملكات النفسية لا يتحقق إلا عندما يؤمن الإنسان ، ويطبق تعاليم ما يؤمن به . فالرجل - على سبيل المثال - حين ينظر إلى حلاله ، أي زوجته ، ينظر إليها براحة ويشعر باطمئنان ؛ لأن ملكاته النفسية منسجمة ، أما عندما تتجه عيناه إلى امرأة ليست زوجته ، فإنه يراقب كل من حوله حتى يعرف هل هناك من يراه أو لا ؟ وهل ضبطه أحد أو لا ؟ وعندما يضبطه أحد فهو يفزع وتتخبط ملكاته .

لذلك يحذر الحق سبحانه المؤمنين : إياكم من البطانة من غير المؤمنين ، لأنهم لا يقصرون أبدا ولا يتركون جهدا من الجهود إلا وهم يحاولون فيه أن يدخلوكم في مشقة . والمشقة إنما تنشأ من أن الكافر يحاول أن يجذب المؤمن إلى الانحراف والاضطراب النفسي وتشتت الملكات مستغلا القرابة والصداقة ، مطالبا أن يرضيه المؤمن بما يخالف الدين ، ولا يستطيع المؤمن التوفيق بين ما يطلبه الدين وما يطلبه الكافر ؛ لذلك تنقسم ملكات المؤمن ويحس بالمشقة . والكافرون لا يتركون أي فرصة تأتي بالفساد للمؤمنين إلا انتهزوها واغتنموها .

وما دامت البغضاء قد بدت من أفواههم فكيف تتخذهم بطانة ؟ إنك حين تصنع لنفسك

جماعة من غير المؤمنين ، فإنها تضم بعضا من المنافقين غير المنسجمين مع أنفسهم .

والمنافق له لسان يظهر خلاف ما يبطن . وعندما يذهب المنافق إلى غير المؤمنين فإن لسان المنافق ينقل بالسخرية كلام المؤمن .

(122/128)

هكذا تظهر البغضاء من أفواه المنافقين المذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، إنهم لا ينتمون إلى الإيمان ولا ينتمون إلى الكفر ، والذي يصل المؤمنين من بغضاء هؤلاء قليل ، لأن ما تخفي صدورهم أكبر . وحين تبدوا البغضاء من أفواههم ، فإما أن يقولوها أمام منافقين ، وإما أن يقولها بعضهم لبعض ، فيتبادلوا الاستهزاء والسخرية بالمؤمن ، والله أعلم بمن قيل فيه هذا الكلام ، ولذلك فعندما يتحدث الكافرون بكلام فيما بينهم فالله يكشفهم ويفضحهم لنا نحن المؤمنين .

إن الله تعالى يكشف بطلاقة علمه كل الخبايا ، وكان على الكافرين والمنافقين أن يعلموا أن هناك إلها يرقب عملية الإيمان في المؤمن حتى ينبهه إلى أدق الأشياء ، لكنهم كأهل كفر ونفاق في غباء ، لقد كان مجرد نزول قول الحق : ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ كان ذلك فرصة أمامهم ليدفعوا عن أنفسهم لو كانت صدورهم

خالية من الحقد . لكنهم عرفوا ان الله قد علم ما في صدورهم . إن الغيظ الذي في قلوب هؤلاء الجاحدين الحاقدين قد نضح على ألسنتهم ، ولكن مَن الذي نقل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ما في صدور الكافرين مما هو أكثر من ذلك ؟

إنه الله – جلت قدرته – قد فضحهم بما أنزل من قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ إذن لم يعد لمن آمن بالله حجة ؛ لأن الله أعطاه المناعات القوية لصيانة ذلك الإيمان ، وأوضح الحق للمؤمنين أن أعداءهم لن يدخروا وسعا أبدا في إفساد انتمائهم لهذا الدين ، فيجب أن ينتبه المؤمنون .

(123/128)

وإذا ما دققنا التأمل في تذييل الآية نجد أن الحق قال : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ إذن ، فالآيات المنزلة من الله تعالى توضح ذلك ، وقد قلنا من قبل : إن الآيات ، إما أن تكون آيات قرآنية ، وإما أن تكون آيات كونية ، فالقرآن له آيات ، والكون له آيات . ولنسمع قول الحق بالنسبة للقرآن :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾

[النحل : 101]

وفي مجال الكون يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾

[فصلت : 37]

وهكذا نعلم أن الآية هي الشيء العجيب اللافت الذي يجب أنه ننتبه إليه لنأخذ منه دستورا لحياتنا . وعلى ذلك ، فالآيات القرآنية تعطي المنهج ، والآيات الكونية تؤيد صدق الآيات المنهجية . ويجب أن تتفطنوا أيها المؤمنون إلى هذه الآيات . والذي يدل على أن المؤمنين قد عقلوا وتفطنوا ، أن الآية الأولى بينت أنهم قد نهوا عن أن يتخذوا بطانة من دونهم – أي من غير المؤمنين – وها هي ذي الآية التالية تقول : ﴿ هَاأَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ . . . ﴾

وما زال الحديث والكلام عن البطانة ، وهو يدل على أن البطانة لم تستطع أن تلوي المؤمنين عن الإيمان ، بل إن المؤمنين الذين ذاقوا حلاوة الإيمان حاولوا أن يغيروا من الكافرين . ولم

يفلح الكافرون أن يغيروا من المؤمنين ، وكذلك لم يفلح الكافرون أيضا أن يسيطروا على أنفسهم ، ولم يكن أمام هؤلاء الكافرين إلا النفاق ، لذلك قالوا : " آمنا " . إن الآية تدلنا على أن المؤمنون قد عقلوا آيات الحق . ولماذا – إذن – جاء الحق بقوله : " تحبونهم ولا يحبونكم " ؟

لقد أحب المؤمنون الكافرين حين شرحوا لهم قضية الحق في منهج الإسلام ، وأرادوا المؤمنون أن يجنبوا الكافرين متاعب الكفر في الدنيا والآخرة ، وهذا هو الحب الحقيقي ، فهل بَادَلَهُم الكافرون الحب ؟ لا ؛ لأن هؤلاء الكافرون أرادو أخذ المؤمنين إلى الكفر ، وهذا دليل عدم المودة . ولم يستطع الكافرون تحقيق هذا المأرب ، ولذلك قالوا : " آمنا " ومعنى قولهم : " آمنا " يدلنا على أن موقف المسلمين كان موقفا صُلبا قويا ؛ لذلك لم يجد الكافرون بداً من نفاقهم ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا ﴾ قالوا ذلك على الرغم من ظهور البغضاء في أفواههم ، ولم يكن سلوكهم مطابقا لما يقولون . وهنا بدأ المسلمون في تحجيم وتقليل مودتهم للكافرين ؛ ولذلك قال أهل الكفر : لو استمر الأمر هكذا فسوف يتركنا هؤلاء المسلمون . . وحتى يتجنبوا هذا الموقف ادعوا الإيمان في الظاهر ، وينقلب موقفهم إذا خلوا لأنفسهم ، ويصور الحق هذا الموقف في قوله : ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ فما هو العض ؟

إن العضّ لغويا ، هو التقاء الفكين على شيء ليقضماه . وما الأنامل ؟ إنها أطراف الأصابع ، والأنامل فيها شيء من الدقة، وشيء من خفة الحركة المأخوذة من خلية النمل ، ويسمون الأنامل أيضا البنان ، وعملية عض الأنامل عندما نراها نجدها عملية انفعالية قسرية . أي أن الفكر لا يرتبها ؛ فليس هناك من يرضي أن يظل مرتكبا لعملية عض أصابعه ، فعض الأصبع يسبب الألم ، لكن الامتلاء بالغيظ يدفع الإنسان إلى عض الأصابع كمسألة قسرية نتيجة اضطراب وخلل في الانفعال .

ومن أين يجيء الغيظ ؟ .

لقد جاء الغيظ إلى الكافرين لأنهم لم يستطيعوا أن يزحزحوا المؤمنين قيد شعرة عن منهج الله ، بل حدث ما هو العكس ، لقد حاول المؤمنون أن يجذبوا الكافرين إلى نور الإيمان ، وكان الكافرون يريدون أن يصنعوا من أنفسهم بطانة يدخلون منها إلى المؤمنين لينشروا مفاسدهم ؛ ولذلك وقعوا في الغيظ عندما لم يمكنهم المؤمنون من شيء من مرادهم .

إن الإنسان يقع أحيانا فريسة للغيظ حين لا يتمكن من إعلان غضبه على خصمه ؛ ولهذا إذا أراد إنسان من أهل الإيمان أن يواجه حسد واحد من خصومه فعليه أن يزيد في فضله على هذا الإنسان ، وهنا يزداد هذا الخصم غيظا ومرارة ، أيضا نجد أن من تعاليم الإسلام أن الإنسان المؤمن لا يقابل السيئة التي يصنعها فيه آخر بسيئة ، وذلك حتى لا يرتكب

الذنب نفسه ، ولكن يتَبع القول المأثور :

" إننا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه "

إنهم بإحسان المسلمين إليهم يزدادون خصومة ، وغيظا وحقدا على الإسلام وكان المسلمون الأوائل يتصرفون بذلك الأسلوب لقد كانوا جبالا إيمانية راسخة .

فخصوم الإسلام يعصون الله بسوء معاملتهم للمسلمين ، لكنْ المسلمون يردون على سوء المعاملة بحسن المعاملة ، وساعة يرى خصوم الإسلام أن كيدهم لا يحقق هدفه فإنهم يقعون في بئر وحمأة الغيظ . وعندما يخلون الكافرون لأنفسهم فأول أعمالهم هو عض الأصابع من الغيظ ، وهو كما أوضحت نتيجة الانفعال القسري التابع للغضب والعجز عن تحقيق المأرب ؛ ذلك أن كل تأثير إدراكي في النفس البشرية إنما يطرق مجالا وجدانيا فيها .

والمجال الوجداني لا بد أن يعبر عن نفسه بعملية نزوعية تظهر بالحركة ؛ فالإنسان عندما يسبب لواحد يعرفه لونا من الغضب فهو ينفعل بسرعة ويثور بالكلمات ، هذا دليل على طيبة الإنسان الغاضب . أمَّا الذي لا يظهر انفعاله فيجب الحذر منه ؛ لأنه يخزن انفعالاته ، ويسيطر عليها ، فلا تعرف متى تظهر ولا على أية صورة تبدو ؛ ولذلك يقول الأثر : " اتقوا

غيظ الحليم " فعندما تتجمع انفعالات جديدة فوق انفعالات قديمة متراكمة في قلب الحليم فلا أحد يعرف متى يفيض به الكيل .

إذن فالإدراك ينشأ عنه وجدان ، فينفعل الإنسان بالنزوع الحركي . والتشريع الإسلامي لا يريد من الإنسان أن يكون حجرا أصم لا ينفعل ، لكنه يطلب من المسلم أن ينفعل انفعالا مهذبا ؛ ولذلك يضع الحق للمؤمن منهجا ، فيقول سبحانه :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

[آل عمران : 134]

إن القرآن يعترف بأن هناك من الأحداث ما يستدعي غيظ الإنسان ، والذي لا يغضب على الإطلاق إنما يسلك طريقا لا يتوافق مع طبيعة البشر السوية ، والله يريد من الإنسان أن يكون إنساناً ، له عواطفه وشعوره وانفعالاته ، ولكن الله المربي الحق يهذب انفعالات هذا الإنسان ، ولنا في النبي صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة ، فحين مات ولده إبراهيم :

قال عليه الصلاة والسلام : " إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون " .

إن النبي صلى الله عليه وسلم يمزج بين العاطفة والإيمان ، فالعين تدمع ، والقلب يحزن ، والإنسان لا يكون أصمَّ أمام الأحداث ، إنما على الإنسان أن يكون منفعلا انفعالا مهذبا .

وعندما يعبّر القرآن عن الإنسان السويّ فهو لا يضع المؤمن في قالب حديدي بحيث لا يستطيع أن يتغير فيقول سبحانه :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

[المائدة : 54]

إذن فليس المؤمن مطبوعا على الذلة ، ولا مطبوعا على العزة ، لكنه ينفعل للمواقف المختلفة ، فهذا موقف يتطلب ذلة وتواضعا للمؤمنين فيكون المؤمن ذليلا ، وهناك موقف آخر يتطلب عزة على الكافرين المتكبرين فيكون المؤمن عزيزا ، والحق سبحانه يقول عن المؤمنين :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً ﴾

[الفتح : 29]

إن الرحمة ليست خلقا ثابتا ، ولا الشدة خلقا ثابتا ولكنّ المؤمنين ينفعلون للأحداث ، فحين يكون المؤمن مع المؤمنين فهو رحيم ، وحين يكون في مواجهة الكفار فهو قوي وشديد . والله سبحانه لا يريد المؤمن على قالب واحد متجمد ، لذلك يقول الحق :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

[آل عمران : 134]

وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾

[النحل : 126]

(128/128)

إذن فالحق لم يمنع المؤمن من أن يعاقب أحدا على خطأ ، وذلك لأنه خلق الخلق وعليم بهم ، ولا يمكن أن يصادم طباعهم ، وذلك حتى لا يتهدد المؤمن في إيمانه فيما بعد ، فالمؤمن لو ترك حقوقه فإن الكفار سيصولون ويجولون في حقوق المسلمين ؛ ولهذا فالمؤمن يتدرب على توقيع العقاب حتى على المؤمن المخطئ ، وذلك ليعرف المؤمن كيف يعاقب أي مجترئ على حق من حقوق الله . والمؤمن أيضا مطالب بأن يرتقي بعقابه ، فهو إما أن يعاقب بمثل ما عوقب به ، وإما أن يرتقي أكثر ، ويستمع لقول الحق :

﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾

[النحل : 126]

لقد وضع الحق منهج الارتقاء بعد أن أعطى المؤمن الحق في توقيع العقاب قصاصا ، وهكذا لم يقسر الله طبع الإنسان ولو أراد سبحانه ذلك لما خلق هذا الطبع إنه سبحانه يوضح لنا أن هناك انفعالا بالغيظ ، وأن المؤمن عليه أن يحاول كظم الغيظ أي لا يعبر عن الغيظ نزوعيا ، فإن أخرج المؤمن هذا الأمر من قلبه فمعناه أنه قد برئ وشُفِيَ منه وارتقى .

إذن فكظم الغيظ هو ألا يعبر المؤمن عن الغيظ نزوعيا ، فإن سبّك أحدٌ فأنت لا تسبّه ، وهذا الكظم يعني كتمان الانفعال في القلب ، فإذا ارتقى المؤمن أكثر وتجاهل حتى الانفعال بذلك ، فإنه يُخرج الغيظ من قلبه ، وهو بذلك يرتقي ارتقاء أعلى ، ويصفه الحق بأنه دخول إلى مرتبة الإحسان ، فهو القائل : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وهكذا يحسن المؤمن إلى المسبب للغيظ بكلمة طيبة .

فماذا يكون موقف الذي تسبب في غيظك أيها المؤمن وأنت قد كظمت الغيظ في المرحلة الأولى وعفوت في المرحلة الثانية وإن أخرجت الانفعال من قلبك ، وصلت إلى المرحلة الثالثة وهي التي تمثل قمة الإيمان إنها الإحسان . . ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ لا بد أن يراجع المسبب للغيظ نفسه ويندم على ما فعل .

(129/128)

إن الإسلام لم يتجاهل المشاعر الإنسانية عندما طالب المؤمنين أن يحسنوا لمن أساء إليهم، فالذي يمعن النظر ويدقق الفهم يعرف أن الإسلام قد أعطى المؤمن الحق في الطبع البشرى حين قال: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ ولكنه ارتقى بالمؤمن.

وعندما ننظر إلى هذا الأمر كقضية اقتصادية وتحسبها بـ "منه" و "له" فسنجد أنّ المؤمن قد كسب.. ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - ساعة يجد الأب ابنا من أبنائه قام بظلم أخ له فإن قلب الأب يكون مع المظلوم, فهب أن إنسانا أساء لعبد من عباد الله فإن الله كربّ مربٍّ يغار له ونحن نعرف أن واحد قال لعارف بالله:

أتحسن لمن أساء إليك؟ فقال العارف بالله: أفلا أحسن لمن جعل الله في جانبي؟

ولنعد الآن إلى غيظ الكافرين من المؤمنين، إن غيظ الكافر ناتج من أن خصمه المؤمن يحب له الإيمان وليس في قلبه ضغينة بينما الكافر يغلي من الحقد، وبسبب هذا الأمر يكاد يفقد صوابه؛ لذلك يقول الحق: ﴿ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾.

و "خلوا" المقصود بها. أن الكافرين إذا ما أصبحوا في مجتمع كفرى وليس معهم مسلم أعلنوا الغيظ من المؤمنين، ولقد فعلوا هذا الأمر - عض الأنامل من الغيظ - في غيبة الإيمان والمؤمنين بالله، لو كان عند هؤلاء الكافرين ذرة من تعقل لفكروا كيف فضحهم القرآن، وهم الذين ارتكبوا هذا الفعل بعيدا عن المؤمنين؟

ألم يكن لتفكيرهم أن يصل إلى أن هناك ربًّا للمؤمنين يقول الخافيَ من الأمور لرسوله ، ويبلغها الرسول للمؤمنين .

(130/128)

لكنهم مع ذلك لم يفهموا هذا الفضح لهم ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ وهنا ينبغي أنْ نفهم أنَّ هناك أمراً قد يغيظ ، ولكن الإنسان قد يجبن أن ينفث غيظه ، فإذا غاظك أحد فقد تذهب إليه وتنفعل عليه ، أو قد تنفعل على نفسك وذلك هو ما يسمى بـ " تحويل النزوع " . فالغاضب يمتلئ بطاقة غضبية ، ومن يغضب عليه قد يكون قويا وصاحب نفوذ ، فيخاف أن ينفعل عليه ، فينفث الغاضب طاقة غضبه على نفسه بأن يعض على أنامله ، وما دامت المسألة هكذا ، فقد قال الحق :

﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران : 119]

ومعنى ذلك أن إغاظة المؤمنين لكم أيها الكافرون ستستمر إلى أن تموتوا من الغيظ ؛ لذلك فلا طائل من محاولتكم جذب المؤمنين إلى الكفر : ﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ﴾ .

ونحن قد عرفنا أنه ساعة يؤمر الإنسان بشيء ليس في اختياره - لأن الموت ليس في اختيارهم - وأن يختار بينه وبين شيء في اختياره كالغيظ ، فمعنى ذلك أن الأمر قد

صدر إليه ليظل أسير الأمر الذي يقدر عليه وهو الغيظ حتى يدركه الموت .

وعندما يقول الحق : ﴿ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ﴾ فهذا يعني أن الكافرين لن يستطيعوا الموت ، ولكن سيظلون في حالة الغيظ إلى أن يموتوا ؛ لأنهم لا يعرفون متى يموتون ، وهكذا يظلون على حالهم من الغيظ من المؤمنين وما دام الكافرون في حالة غيظ من المؤمنين فهذا دليل على أن المؤمنين يطبقون منهجهم بأسلوب صحيح .

وفي هذه الآية بشارة طيبة للمؤمنين ونذارة مؤلمة للكافرين ﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ إن الحق يعلمنا أنه عليم بذات الصدور ، أي بالأمور التي تطرأ على الفكر ، ولم تخرج بعد إلى مجال القول . وهو سبحانه القائل :

﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾

[آل عمران : 118]

(131/128)

وما دام هو الحق العليم بما تخفي الصدور فهو قادر ليس فقط على الجزاء بما يفعلونه من عمل نزوعي ولكنه قادر على أن يجازيهم أيضا بأن يفضح الأعمال غير النزوعية الكامنة في صدروهم ، وبعد ذلك يقول سبحانه : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ

سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 1702. 1720 ﴾

(132/128)

قوله تعالى ﴿ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (120) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ما أخبرت به هذه الجمل من بغضهم وشدة عداوتهم محتاجاً ليصل إلى المشاهدة إلى بيان دل عليه بقوله : ﴿ إن تمسسكم ﴾ أي مجرد مس ﴿ حسنة تسؤهم ﴾ ولما كان هذا دليلاً شهودياً ولكنه ليس صريحاً أتبعه الصريح بقوله : ﴿ وإن تصبكم ﴾ أي بقوة مرها وشدة وقعها وضرها ﴿ سيئة يفرحوا بها ﴾ ولما كان هذا أمراً مبكتاً غائظاً مؤلماً داواهم بالإشارة إلى النصر مشروطاً بشرط التقوى والصبر فقال : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا ﴾ أي تكونوا من أهل الصبر والتقوى ﴿ لا يضركم كيدهم شيئاً ﴾ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إن الله ﴾ أي ذا الجلال والإكرام ﴿ بما يعملون محيط ﴾ أي فهو يعد لكل كيد ما

يبطله ، والمعنى على قراءة الخطاب : بعملكم كله ، فمن صبر واتقى ظفرته ، ومن عمل على غير ذلك انتقمت منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 142 ﴾

وقال الفخر :

واعلم أن هذه الآية من تمام وصف المنافقين ، فبيّن تعالى أنهم مع ما لهم من الصفات الذميمة والأفعال القبيحة مترقبون نزول نوع من المحنة والبلاء بالمؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 177 ﴾

فصل

قال الفخر :

(133/128)

المس أصله باليد ثم يسمى كل ما يصل إلى الشيء (ماساً) على سبيل التشبيه فيقال : فلان مسّه التعب والنصب ، قال تعالى : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : 38] وقال : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِى البحر ﴾ [الإسراء : 67]

قال صاحب "الكشاف" : المس ههنا بمعنى الإصابة ، قال تعالى : ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ ﴾ [التوبة : 50] وقوله ﴿ مَّا أصابك مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله وَمَا

أصابك مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء : 79] وقال : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً ﴾ [المعارج : 20 ، 21] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 177 ﴾

وقال ابن عطية :

ذكر الله تعالى المس في الحسنة ليبين أن بأدنى طروء الحسنة تقع المساءة بنفوس هؤلاء المبغضين ، ثم عادل ذلك في السيئة بلفظ الإصابة ، وهي عبارة عن التمكن .

لأن الشيء المصيب لشيء هو متمكن منه ، أو فيه .

فدل هذا النوع البليغ على شدة العداوة ، إذ هو حقد لا يذهب عند نزول الشدائد ، بل يفرحون بنزول الشدائد بالمؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 498 ﴾

فصل

قال الفخر :

المراد من الحسنة ههنا منفعة الدنيا على اختلاف أحوالها ، فمنها صحة البدن وحصول الخصب والفوز بالغنيمة والاستيلاء على الأعداء وحصول المحبة والأُلفة بين الأحباب والمراد بالسيئة أضدادها ، وهي المرض والفقر والهزيمة والانهزام من العدو وحصول التفرق بين الأقارب ، والقتل والنهب والغارة ، فبيّن تعالى أنهم يحزنون ويغتمون بحصول نوع

من أنواع الحسنة للمسلمين ويفرحون بحصول نوع من أنواع السيئة لهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 177 ﴾

(134/128)

فائدة

قال الفخر :

يقال ساء الشيء يسوء فهو سيء ، والأنثى سيئة أي : قبح ، ومنه قوله تعالى : ﴿ سَاء مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : 66] والسوأى ضد الحسنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 177 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ قرأ السُّلَمِيّ بالياء والباقون بالتاء .

واللفظ عام في كل ما يحسُن ويسوء .

وما ذكره المفسرون من الخِصْب والجَدْب واجتماع المؤمنين ودخول الفرقة بينهم إلى غير ذلك من الأقوال أمثلة وليس باختلاف .

والمعنى في الآية : أن من كانت هذه صفته من شدّة العداوة والحِقد والفرح بنزول الشدائد

على المؤمنين ، لم يكن أهلاً لأن يتخذ بطانة ، لا سِيما في هذا الأمر الجسيم من الجهاد الذي هو مِلاك الدنيا والآخرة ؛ ولقد أحسن القائل في قوله :

كلّ العداوةِ قد تُرجَى إفاقتُها . . .

إلاّ عداوة مَن عاداك مِنْ حسدِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 183 ﴾

(135/128)

وقال الآلوسى :

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ نعمة من ربكم كالألفة واجتماع الكلمة والظفر بالأعداء ﴿ تَسُؤْهُمْ ﴾ أي تحزنهم وتغظهم ﴿ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيّئَةٌ ﴾ أي محنة كإصابة العدو منكم واختلاف الكلمة فيما بينكم ﴿ يَفْرَحُواْ ﴾ أي يبتهجوا ﴿ بِهَا ﴾ وفي ذلك إشارة إلى تناهي عداوتهم إلى حد الحسد والشماتة ، والمس قيل : مستعار للإصابة فهما هنا بمعنى ، وقد سوى بينهما في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ ﴾ [التوبة : 50] وقوله سبحانه : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً ﴾ [المعارج : 20 ، 21] والتعبير هنا بالمسّ مع الحسنة

وبالإصابة مع السيئة لمجرد التفنن في التعبير ، وقال بعض المحققين : الأحسن والأنسب بالمقام ما قيل : إنه للدلالة على إفراطهم في السرور والحزن لأن المسّ أقل من الإصابة كما هو الظاهر فإذا ساءهم أقلّ خير نالهم فغيره أولى منه ، وإذا فرحوا بأعظم المصائب مما يرثي له الشامت ويرق الحاسد فغيره أولى فهم لا ترجى موالاتهم أصلاً فكيف تتخذونهم بطانة ؟! والقول بأنه لا يبعد أن يقال : إن ذلك إشارة إلى أن ما يصيبهم من الخير بالنسبة إلى لطف الله تعالى معهم خير قليل وما يصيبهم من السيئة بالنسبة لما يقابل به من الأجر الجزيل عظيم بعيد كما لا يخفى. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 40 ﴾

لطيفة

قال أبو حيان :

والنكرة هنا في سياق الشرط بأن تعم عموم البدل ، ولم يأت معرفاً لإيهام التعيين بالعهد ، ولإيهام العموم الشمولي .

وقابل الحسنة بالسيئة ، والمساءة بالفرح وهي مقابلة بديعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 45 ﴾

لطيفة

قال ابن عادل :

قال أبو العباس : وردت الحسنةُ على خمسةِ أوجُه :

الأول : بمعنى : النصر والظفر ، قال تعالى : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ [آل عمران : 120] أي : نَصْر وَظَفَر .

الثاني : بمعنى : التوحيد ، قال تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة ﴾ [الأنعام : 160] أي : بالتوحيد .

الثالث : الرَّخَاء : قال تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هذه مِنْ عِندِ الله ﴾ [النساء : 78] أي : رخاء .

الرابع : بمعنى : العاقبة ، قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة ﴾ [الرعد : 6] أي بالعذاب قبل العاقبة .

الخامس : القول بالمعروف ، قال تعالى : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بالحسنة السيئة ﴾ [الرعد : 22] أي : بالقول المعروف .

فصل

والسيئة – أيضاً – على خمسة أوجه :

الأول : بمعنى : الهزيمة – كما تقدم – كقوله : ﴿ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ﴾ [آل

عمران: 120]أي: هزيمة.

الثاني: الشرك، قال تعالى: ﴿ وَمَن جَآءَ بالسيئة ﴾ [الأنعام: 160]أي: بالشرك.

الثالث: القحط، قال تعالى: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هذه مِنْ عِندِكَ ﴾ [النساء: 78]أي: قحط، ومثله قوله: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بموسى وَمَن مَّعَهُ ﴾ [الأعراف: 131].

الرابع: العذاب، قال تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة ﴾ [الرعد: 6].

الخامس: القول الرديء، قال تعالى: ﴿ وَيَدْرَءُونَ بالحسنة السيئة ﴾ [الرعد: 22].

انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 500.501 ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾

قال الفخر:

(137/128)

﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ ﴾ يعني على طاعة الله وعلى ما ينالكم فيها من شدة وغم ﴿ وَتَتَّقُواْ ﴾ كل ما نهاكم عنه وتتوكلوا في أموركم على الله ﴿لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 177 ﴾

وقال ابن عاشور :

وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ .

أرشد الله المؤمنين إلى كيفية تلقّي أذى العدوّ : بأن يتلقوه بالصّبر والحذر ، وعبّر عن الحذر بالاتّقاء أي اتّقاء كيدهم وخداعهم ، وقوله ﴿ لا يَضِركم كيدهم شيئاً ﴾ أي بذلك ينتفي الضرّ كلّه لأنّه أثبت في أوّل الآيات أنّهم لا يضرّون المؤمنين إلاّ أذى ، فالأذى ضرّ خفيف ، فلمّا انتفى الضرّ الأعظم الّذي يحتاج في دفعه إلى شديدِ مقاومة من القتال وحراسة وإنفاق ، كان انتفاء ما بَقي من الضرّ هيّناً ، وذلك بالصّبر على الأذى ، وقلّة الاكتراث به ، مع الحذر منهم أن يتوسّلوا بذلك الأذى إلى ما يوصل ضرّاً عظيماً .

وفي الحديث : " لا أحد أصبر على أذى يسمعه من اللّهِ يدعون له نِدّاً وهو يرزقهم " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 204 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿ لاَ يَضُرُّكُمْ ﴾ بفتح الياء وكسر الضاد وسكون الراء ، وهو من ضاره يضيره ، ويضوره ضوراً إذا ضرّه ، والباقون ﴿ لاَ يَضُرُّكُمْ ﴾ بضم الضاد والراء المشددة وهو من الضر ، وأصله يضرركم جزماً ، فأدغمت الراء في الراء ونقلت ضمة الراء الأولى إلى الضاد وضمت الراء الأخيرة ، اتباعاً لأقرب الحركات وهي ضمة الضاد ،

وقال بعضهم : هو على التقديم والتأخير تقديره : ولا يضركم كيدهم شيئاً إن تصبروا وتتقوا ،

قال صاحب "الكشاف" : وروى المفضل عن عاصم ﴿ لاَ يَضرُّكُمْ ﴾ بفتح الراء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 177 ﴾

(138/128)

وقال ابن عادل :

وقرأ الباقون : ﴿ يَضرُّكُمْ ﴾ بضم الضاد ، وتشديد الراء مرفوعة ، وفي هذه القراءة أوجه :

الأول : أن الفعل مرتفع ، وليس بجواب للشرط ، وإنما هو دالٌّ على جواب الشرط ، وذلك أنه على نية التقديم ؛ إذ التقدير : لا يضركم إن تصبروا وتتقوا ، فلا يضركم ، فحذف فلا يضركم الذي هو الجواب ، لدلالة ما تقدم عليه ، ثم أخر ما هو دليل على الجواب ، وهذا تخريج سيبويه وأتباعه ، إنما احتاجوا إلى ارتكاب ذلك ، لما رأوا من عدم الجزم في فعل مضارع لا مانع من إعمال الجزم ، ومثله قول الراجز :

يا أَقْرَعُ بْنَ حَابسٍ يَا أَقْرَعُ . . . إنَّكَ إنْ يُصرَعُ أَخُوكَ تُصرَعُ

برفع " تصرع " الأخير - .

وكذلك قوله : [البسيط]

وَإِنْ أَتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْأَلَةٍ . . . يَقُولُ : لَا غَائِبٌ مَالِي وَلَا حَرِمُ

برفع " يقول " - إلاّ أن هذا النوع مطّرد ، بخلاف ما قبله - أعني : كون فعل الشرط والجزاء مضارعين - فإن المنقول عن سيبويه ، وأتباعه وجوب الجزم ، إلا في ضرورة .

كقوله : [الرجز]

. . . . إنَّك إنْ يُصْرَعْ أخُوكَ تُصْرَعُ

وتخريجه هذه الآية على ما تقدم عنه يدل على أن ذلك لا يُخصّ بالضرورة

الوجه الثاني : أن الفعل ارتفع لوقوعه بعد فاء مقدّرة ، وهي وما بعدها الجواب في الحقيقة ، والفعل متى وقع بعد الفاء رُفع ليس إلاّ كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ﴾ [المائدة : 95] .

والتقدير : فلا يضركم ، والفاء حذفت في غير محل النزاع .

كقوله : [البسيط]

مَنْ يَفْعَلِ الْحَسَنَاتِ اللهُ يَشْكُرُهَا . . . وَالشَّرُّ بِالشَّرِّ عِنْدَ اللهِ مِثْلَانِ

أي : فالله يشكرها ، وهذا الوجه نقله بعضهم عن المبرد ، وفيه نظر ؛ من حيث إنهم ، لما أنشدوا البيت المذكور ، نقلوا عن المبرد أنه لا يُجوّز حَذْفَ هذه الفاء – ألبتة – لا ضرورة ، ولا غيرها – وينقلون عنه أنه يقول : إنما الرواية في هذا البيت : [البسيط]

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ فَالرَّحْمنُ يَشْكُرُهُ . . . وردوا عليه بأنه إذا صحَّت روايةٌ ، فلا يقدح فيها غيرُها ، ونقله بعضُهم عن الفراء والكسائي ، وهذا أقرب .

الوجه الثالث : أن الحركة حركة إتباع ؛ وذلك أن الأصل : "لاَ يَضْرُرْكُمْ" . بالفك وسكون الثاني جزْماً ، وسيأتي أنه إذا التقى مِثْلان في آخر فعل سكن ثانيهما – جزْماً ، أو وَقْفاً – فللعرب فيه مذهبان :

الجزم : وهو لغة تميم .

والفك : وهو لغة الحجاز .

لكن لا سبيل إلى الإدغام إلا في متحرك ، فاضطررنا إلى تحريك المِثْل الثاني ، فحَرّكْناه بأقرب الحركات إليه ، وهي الضمة التي على الحرف قبله ، فحرّكناه بها ، وأدْغمنا ما قبله فيه ، فهو مجزوم تقديراً ، وهذه الحركة – في الحقيقة – حركة إتباع ، لا حركة إعراب ، بخلافها في الوجهين السابقين ، فإنها حركة إعراب .

واعلم أنه متى أدغم هذا النوع ، فإما أن تكون فاؤُه مضمومةً ، أو مفتوحةً ، أو مكسورةً ،

فإن كانت مضمومة - كالآية الكريمة .

وقولهم : مُدَّ - ففيه ثلاثة أوجه حالة الإدغام :

الضم للإتباع ، والفتح للتخفيف ، والكسر على أصل التقاء الساكنين ، فتقول : مُدَّ ومُدُّ ومُدِّ .

وينشدون على ذلك قول الشاعر : [الوافر]

فغُضّ الطَّرْفَ إنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ . . . فلاَ كَعْباً بَلَغْتَ وَلاَ كِلاَبَا

بضم الضاد ، وفتحها ، وكسرها - على ما تقرر - وسيأتي أن الآية قُرِئَ فيها بالأوجه الثلاثة .

(140/128)

وإن كانت فاؤه مفتوحةً ، نحو عَضّ ، أو مكسورة ، نحو فِرّ ، كان في اللام وجهان : الفتح ، والكسر ؛ إذ لا وَجْهَ للضمّ ، لكن لك في نحو فِرّ أن تقول : الكسر من وجهين : إما الإتباع ، وإما التقاء الساكنين ، وكذلك لك في الفتح - نحو عَضّ - وجهان - أيضاً - : إما الإتباع ، وإمّا التخفيف .

هذا كله إذا لم يتصل بالفعل ضمير غائب ، فأما إذا اتصل به ضمير الغائب - نحو رُدُّه -

ففيه تفصيل ولغات ليس هذا موضعها .

وقرأ عاصم - فيما رواه المفضَّل - : بضم الضاد ، وتشديد الراء مفتوحة - على ما تقدم من التخفيف - وهي عندهم أوجه من ضم الراء .

وقرأ الضحاك بن مزاحم : "لا يَضرِّكُمْ" بضم الضاد ، وتشديد الراء المكسورة - على ما تقدم من التقاء الساكنين . وكأن ابْنُ عَطِيَّةَ لم يحفظها قراءةً ؛ فإنه قال : فأما الكسر فلا أعرفه قراءةً .

وعبارة الزجَّاج في ذلك متجوِّز فيها ؛ إذْ يظهر من روح كلامه أنها قراءة وقد بينا أنها قراءة .

وقرأ أبيّ : "لا يَضْرُرْكُمْ" بالفكّ ، وهي لغة الحجاز .

والكيد : المكر والاحتيال .

وقال الراغب : هو نوع من الاحتيال ، وقد يكون ممدوحاً ، وقد يكون مذموماً ، وإن كان استعماله في المذموم أكثر .

قال ابْنُ قُتَيْبَةَ : وأصله من المشقة ، من قولهم : فلان يكيد بنفسه ، أي : يجود بها في غمرات الموت ، ومشقاته .

ويقال : كِدْتُ فلاناً ، أكيده - كبعته أبيعُه .

قال الشاعر : [الخفيف]

مَنْ يَكِدْنِي بِسَيِّءٍ كُنْتُ مِنْهُ . . . كَالشَّجَى بَيْنَ حَلْقِهِ وَالْوَرِيدِ

و" شَيْئاً " منصوب نصب المصادر ، أي : شيئاً من الضرر ، وقد تقدم نظيره . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 501.504 ﴾ .

فائدة

قال الفخر :

الكيد هو أن يحتال الإنسان ليوقع غيره في مكروه ، وابن عباس فسّر الكيد ههنا بالعداوة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 177 ﴾

(141/128)

فصل

قال الفخر :

معنى الآية : أن كل من صبر على أداء أوامر الله تعالى واتقى كل ما نهى الله عنه كان في حفظ الله فلا يضره كيد الكافرين ولا حيل المحتالين .

وتحقيق الكلام في ذلك هو أنه سبحانه إنما خلق الخلق للعبودية كما قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] فمن وفى بعهد العبودية في ذلك فالله

سبحانه أكرم من أن لا يفي بعهد الربوبية في حفظه عن الآفات والمخافات ، وإليه الإشارة بقوله ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : 2 ، 3] إشارة إلى أنه يوصل إليه كل ما يسره ، وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن تكبت من يحسد فاجتهد في اكتساب الفضائل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 177 178. ﴾

فائدة

قال النسفى :

وهذا تعليم من الله وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى .

وقال الحكماء : إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلاً في نفسك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 1 صـ 178 ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

قال الطبرى :

وقوله : "إنّ الله بما يعملون محيطٌ" ، يقول جل ثناؤه : إن الله بما يعمل هؤلاء الكفار في عباده وبلاده من الفساد والصدّ عن سبيله ، والعداوة لأهل دينه ، وغير ذلك من معاصي الله "محيط" بجميعه ، حافظ له ، لا يعزب عنه شيء منه ، حتى يوفيهم جزاءهم على ذلك كله ، ويذيقهم عقوبته عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 7 صـ 158 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرئ بما يعملون بالياء على سبيل المغايبة بمعنى أنه عالم بما يعملون في معاداتكم فيعاقبهم عليه ، ومن قرأ بالتاء على سبيل المخاطبة ، فالمعنى أنه عالم محيط بما تعملون من الصبر والتقوى فيفعل بكم ما أنتم أهله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 178 ﴾

(142/128)

فصل

قال الفخر :

إطلاق لفظ المحيط على الله مجاز ، لأن المحيط بالشيء هو الذي يحيط به من كل جوانبه ، وذلك من صفات الأجسام ، لكنه تعالى لما كان عالماً بكل الأشياء قادراً على كل الممكنات ، جاز في مجاز اللغة أنه محيط بها ، ومنه قوله ﴿ واللهُ مِن وَرَائِهِمْ مُّحِيطٌ ﴾ [البروج : 20] وقال : ﴿ واللهُ مُحِيطٌ بالكافرين ﴾ [البقرة : 19] وقال : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ [طه : 110] وقال : ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وأحصى كُلَّ شَىْءٍ عَدَدَاً ﴾ [الجن : 28] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 178 ﴾

فائدة

قال الفخر :

إنما قال : ﴿ إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ ولم يقل إن الله محيط بما يعملون لأنهم يقدمون الأهم والذي هم بشأنه ، أعني وليس المقصود ههنا بيان كونه تعالى عالماً ، بينا أن جميع أعمالهم معلومة لله تعالى ومجازيهم عليها ، فلا جرم قد ذكر العمل ، والله أعلم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 178 ﴾

فوائد بلاغية

قال أبو حيان :

قالوا : وتضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة والفصاحة .

منها : الوصل والقطع في ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة ﴾ .

والتكرار : في أصحاب النار هم .

والعدول عن اسم الفاعل إلى غيره : في يتلون وما بعده ، وفي يظلمون .

والاكتفاء بذكر بعض الشيء عن كله إذا كان فيه دلالة على الباقي في : يؤمنون بالله واليوم الآخر .

والمقابلة : في تأمرون وتنهون ، وفي المعروف والمنكر .

ويجوز أن يكون طباقاً معنوياً ، وفي حسنة وسيئة ، وفي تسؤهم ويفرحوا .

والاختصاص : في عليم بالمتقين ، وفي أموالهم ولا أولادهم ، وفي كمثل ريح ، وفي حرث قوم ظلموا أنفسهم ، وفي بذات الصدور .

والتشبيه : في مثل ما ينفقون ، وفي بطانة ، وفي عضوا عليكم الأنامل من الغيظ على أحد التأويلين ، وفي تمسسكم حسنة وتصبكم سيئة .

(143/128)

شبه حصولهما بالمس والإصابة ، وهو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس ، والصحيح أن هذه استعارة .

وفي محيط شبه القدرة على الأشياء والعلم بها بالشيء المحدق بالشيء من جميع جهاته ، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس .

والتجنيس المماثل : في ظلمهم ويظلمون ، وفي تحبونهم ولا يحبونكم ، وفي تؤمنون وآمنا ، وفي من الغيظ ويغيظكم .

والالتفات : في وما تفعلوا من خير فلن تكفروه على قراءة من قرأ بالتاء ، وفي ما تعملون محيط على أحد الوجهين .

وتسمية الشيء باسم محله : في من أفواههم عبر بها عن الألسنة لأنها محلها .

والحذف في مواضع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 46. 47 ﴾

(144/128)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ ﴾

بظهوركم على العدو ، ونيلكم الغنيمة ، وخصب معاشكم ، وتتابع الناس في دينكم : ﴿ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ بإصابة العدو منكم ، أو اختلاف بينكم ، أو جدب أو بلية : ﴿ يَفْرَحُواْ بِهَا ﴾ ولا يعلمون ما لله تعالى في ذلك من الحكمة .

لطيفة :

المس أصله باليد ، ثم يسمى كل ما يصل إلى الشيء مسّا . والتعبير به في جانب الحسنة ، وبالإصابة في جانب السيئة للتفنن . وقد سوى بينهما في غير هذا الموضع كقوله : ﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ ﴾ [التوبة : 50] وقوله : ﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء : 79] . وقال : ﴿ إذا

مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ﴾ [المعارج 20 - 21] .

قال ناصر الدين في " الانتصاف " : يمكن أن يقال : المس أقل تمكناً من الإصابة ، وكأنه أقل درجاتها ، فكأن الكلام - والله أعلم - إن تصبكم الحسنة أدنى إصابة تسؤهم ويحسدوكم عليها . وإن تمكنت الإصابة منكم وانتهى الأمر فيها إلى الحد الذي يرثي الشامت عنده منها ، فهم لا يرثون لكم ولا ينفكّون عن حسدهم ، ولا في هذه الحال ، بل يفرحون ويسرون . والله أعلم - انتهى - .

(145/128)

وهذا من أسرار بلاغة التنزيل . فدل التعبير على إفراطهم في السرور والحزن . فإذا ساءهم أقل خيرنا ، فغيره أولى ، وإذا فرحوا بأعظم المصائب مما يرثي له الشامت فهم لا يرجى موالاتهم أصلاً . فكيف تتخذونهم بطانة ؟ . قال البقاعي : ولما كان هذا الأمر منكياً غائظاً مؤلماً داواهم بالإشارة إلى النصر بشرط التقوى والصبر فقال : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾ أي : تصبروا على ما يبتليكم الله به من الشدائد والمحن والمصائب ، وتثبتوا على الطاعة وتنفوا الاستعانة بهم في أموركم ، والالتجاء إلى ولايتهم : ﴿ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ لأن المتوكل على الله الصابر على بلائه ، المستعين به لا بغيره : ظافر في

طلبته ، غالب على خصمه ، محفوظ بحسن كلاءة ربه . والمستعين بغيره : مخذول موكول إلى نفسه ، محروم عن نصرة ربه ، أفاده القاشاني .

وقيل : المراد بنفي الضرر عدم المبالاة به ، لأن المتدرب بالاتقاء والصبر يكون قليل الانفعال ، جريئاً على الخصم . الكيد : الاحتيال على إيقاع الغير في مكروه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ قرئ بياء الغيبة ، على معنى أنه عالم بما يعملون في معاداتكم من الكيد فيعاقبهم عليه . وبتاء الخطاب ، أي : بما تعملون من الصبر والتقوى فيجازيكم بما أنتم أهله .

تنبيه مهم :

قال الرازي : إطلاق لفظ المحيط على الله مجاز ، لأن المحيط بالشيء هو الذي يحيط به من كل جوانبه ، وذلك من صفات الأجسام ، لكنه تعالى لما كان عالماً بكل الأشياء ، قادراً على كل الممكنات ، جاز في مجاز اللغة أنه محيط بها ، ومنه قوله : ﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ [البروج: 20] . انتهى .

(146/128)

أقول : ما ذكره شبهة جهمية مبناها قياس صفة القديم على الحوادث ، وأخذ خاصتها به ، وهو قياس مع الفارق . والسمعيات تتلقى من عرف المتكلم بالخطاب ، لا من الوضع

المحدث . فليس لأحد أن يجعل الألفاظ التي جاءت في القرآن موضوعة لمعاني ، ثم يريد أن يفسر مراد الله تعالى بتلك المعاني ، وتتمة هذا البحث تقدمت في تفسير " الرحمن الرحيم " من البسملة أول التنزيل الجليل . فارجع إليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 4 صـ 444 . 446 ﴾

(147/128)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنَّ الْآيَاتِ السَّابِقَةَ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ كَانَتْ فِي الْحِجَاجِ مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَكَذَا مَعَ الْمُشْرِكِينَ بِالتَّبَعِ وَالْمُنَاسَبَةِ ، وَإِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ وَمَا بَعْدَهَا إِلَى آخِرِ السُّورَةِ فِي بَيَانِ أَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ وَمُعَامَلَةِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ وَإِرْشَادِهِمْ فِي أَمْرِهِمْ ، أَيْ إِنَّ أَكْثَرَ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ وَاللَّاحِقَةِ فِي ذَلِكَ .

ثُمَّ ذَكَرَ لِبَيَانِ اتِّصَالِ هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا قَبْلَهَا ثَلَاثَ مُقَدِّمَاتٍ :

(1) أَنَّهُ كَانَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَغَيْرِهِمْ صِلَاتٌ كَانَتْ مَدْعَاةً إِلَى الثِّقَةِ بِهِمْ وَالْإِفْضَاءِ إِلَيْهِمْ بِالسِّرِّ

وَإِطْلَاعِهِمْ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ ، مِنْهَا الْمُحَالَفَةُ وَالْعَهْدُ ، وَمِنْهَا النَّسَبُ وَالْمُصَاهَرَةُ ، وَمِنْهَا الرَّضَاعَةُ .

(2) إِنَّ الْغِرَّةَ مِنْ طَبْعِ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَبْنِي أَمْرَهُ عَلَى الْيُسْرِ وَالْأَمَانَةِ وَالصِّدْقِ وَلَا يَبْحَثُ عَنِ الْعُيُوبِ ; وَلِذَلِكَ يَظْهَرُ لِغَيْرِهِ مِنَ الْعُيُوبِ وَإِنْ كَانَ بَلِيدًا مَا لَا يَظْهَرُ لَهُ هُوَ وَإِنْ كَانَ ذَكِيًّا .

(148/128)

---

(3) إِنَّ الْمُنَاصِبِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ كَانَ هَمُّهُمُ الْأَكْبَرُ إِطْفَاءَ نُورِ الدَّعْوَةِ وَإِبْطَالَ مَا جَاءَ بِهِ الْإِسْلَامُ ، وَكَانَ هَمُّ الْمُؤْمِنِينَ الْأَكْبَرَ نَشْرَ الدَّعْوَةِ وَتَأْيِيدَ الْحَقِّ ، فَكَانَ الْهَمَّانِ مُتَبَايِنَيْنِ ، وَالْقَصْدَانِ مُتَنَاقِضَيْنِ . ثُمَّ قَالَ : فَإِذَا كَانَتْ حَالَةُ الْفَرِيقَيْنِ عَلَى مَا ذُكِرَ فَهِيَ لَا شَكَّ مُقْتَضِيَةٌ لِأَنْ يُفْضِيَ النَّسِيبُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى نَسِيبِهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ، وَالْمُحَالِفُ مِنْهُمْ لِمُحَالِفِهِ مِنْ غَيْرِهِمْ بِشَيْءٍ مِمَّا فِي نَفْسِهِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَسْرَارِ الْمِلَّةِ الَّتِي هِيَ مَوْضُوعُ التَّبَايُنِ وَالْخِلَافِ بَيْنَهُمْ ، وَفِي ذَلِكَ تَعْرِيضُ مَصْلَحَةِ الْمِلَّةِ لِلْخَبَالِ ، لِذَلِكَ جَعَلَ اللَّهُ - تَعَالَى - لِلصِّلَاتِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَغَيْرِهِمْ حَدًّا لَا يَتَعَدُّونَهُ فَقَالَ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ .

(149/128)

بطَانَةُ الرَّجُلِ : وَلِيجَتُهُ وَخَاصَّتُهُ الَّذِينَ يَسْتَبْطِنُونَ أَمْرَهُ وَيَتَوَلَّوْنَ سِرَّهُ ، مَأْخُوذٌ مِنْ بطَانَةِ الثَّوْبِ وَهُوَ الْوَجْهُ الْبَاطِنُ مِنْهُ ، كَمَا يُسَمَّى الْوَجْهُ الظَّاهِرُ : ظِهَارَةً ، وَمِنْ دُونِكُمْ مَعْنَاهُ مِنْ غَيْرِكُمْ ، وَيَأْلُونَكُمْ مِنَ الإِلْوِ : وَهُوَ التَّقْصِيرُ وَالضَّعْفُ ، وَ" الْخَبَالُ " فِي الْأَصْلِ الْفَسَادُ الَّذِي يَلْحَقُ الْحَيَوَانَ فَيُورِثُهُ اضْطِرَابًا كَالْأَمْرَاضِ الَّتِي تُؤَثِّرُ فِي الْمُخِّ فَيَخْتَلُّ إِدْرَاكُ الْمُصَابِ بِهَا ، أَيْ لَا يُقَصِّرُونَ وَلَا يَنُونَ فِي إِفْسَادِ أَمْرِكُمْ ، وَالْأَصْلُ فِي اسْتِعْمَالِ فِعْلِ " أَلَا " أَنْ يُقَالَ فِيهِ نَحْوُ : " لَا آلُو فِي نُصْحِكَ " وَسُمِعَ مِثْلُ " لَا آلُوكَ نُصْحًا " عَلَى مَعْنَى لَا أَمْنَعُكَ نُصْحًا ، وَهُوَ مَا يُسَمُّونَهُ التَّضْمِينَ . وَعَنِتُّمْ مِنَ الْعَنَتِ وَهُوَ الْمَشَقَّةُ الشَّدِيدَةُ ، وَالْبَغْضَاءُ : شِدَّةُ الْبُغْضِ .

(150/128)

أَمَّا سَبَبُ النُّزُولِ : فَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : "كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُوَاصِلُونَ رِجَالًا مِنْ يَهُودَ لِمَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْجِوَارِ وَالْحِلْفِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ - يَنْهَاهُمْ عَنْ مُبَاطَنَتِهِمْ خَوْفَ الْفِتْنَةِ عَلَيْهِمْ - هَذِهِ الْآيَةَ " . وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ

أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ . وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ الْقَوْلَيْنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَذَكَرَ الرَّازِيُّ وَجْهًا ثَالِثًا : أَنَّهَا فِي الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ عَامَّةً . قَالَ : " وَأَمَّا مَا تَمَسَّكُوا بِهِ مِنْ أَنَّ مَا بَعْدَ الْآيَةِ مُخْتَصٌّ بِالْمُنَافِقِينَ فَهَذَا ثَبَتَ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ أَنَّ أَوَّلَ الْآيَةِ إِذَا كَانَ عَامًّا وَآخِرَهَا إِذَا كَانَ خَاصًّا لَمْ يَكُنْ خُصُوصُ آخِرِ الْآيَةِ مَانِعًا عُمُومَ أَوَّلِهَا " وَسَيَأْتِي عَنِ ابْنِ جَرِيرٍ تَرْجِيحُ الْأَوَّلِ .

(151/128)

وَأَمَّا الْمَعْنَى فَهُوَ نَهْيُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِأَنْفُسِهِمْ بِطَانَةً مِنَ الْكَافِرِينَ الْمَوْصُوفِينَ بِتِلْكَ الْأَوْصَافِ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ قَوْلَهُ : لَا يَأْلُونَكُمْ إِلَخْ نُعُوتٌ لِلْبِطَانَةِ هِيَ قُيُودٌ لِلنَّهْيِ ، وَكَذَا عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهُ كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ مَسُوقٌ لِلتَّعْلِيلِ ، فَالْمُرَادُ وَاحِدٌ ، وَهُوَ أَنَّ النَّهْيَ خَاصٌّ بِمَنْ كَانُوا فِي عَدَاوَةِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا ذُكِرَ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ لَا يَأْلُونَهُمْ خَبَالًا وَإِفْسَادًا لِأَمْرِهِمْ مَا اسْتَطَاعُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا . فَهَذَا هُوَ الْقَيْدُ الْأَوَّلُ ، وَالثَّانِي قَوْلُهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ أَيْ تَمَنَّوْا عَنَتَكُمْ ، أَيْ وُقُوعَكُمْ فِي الضَّرَرِ الشَّدِيدِ وَالْمَشَقَّةِ . وَالثَّالِثُ وَالرَّابِعُ قَوْلُهُ : قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ أَيْ قَدْ ظَهَرَتْ عَلَامَاتُ بَغْضَائِهِمْ لَكُمْ مِنْ كَلَامِهِمْ ، فَهِيَ لِشِدَّتِهَا مِمَّا يُعُوزُهُمْ كِتْمَانُهَا وَيَعِزُّ عَلَيْهِمْ إِخْفَاؤُهَا ، عَلَى أَنَّ مَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ

(152/128)

مِنْهَا أَكْبَرُ مِمَّا يَفِيضُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَيْهِ ، وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْبَغْضَاءِ وَالْعَدَاوَةِ مِمَّا يَلْقَاهُ الْقَائِمُونَ بِكُلِّ دَعْوَةٍ جَدِيدَةٍ فِي الْإِصْلَاحِ مِمَّنْ يَدْعُونَهُمْ إِلَيْهِ ، وَمَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ الْأَوَّلُونَ يَعْرِفُونَ سُنَّةَ الْبَشَرِ فِي ذَلِكَ ، إِذَا لَمْ يَكُونُوا عَلَى عِلْمٍ بِطَبَائِعِ الْمِلَلِ وَقَوَانِينِ الِاجْتِمَاعِ وَحَوَادِثِ التَّارِيخِ حَتَّى أَعْلَمَهُمُ اللهُ بِهِ ; وَلِذَلِكَ قَالَ : قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ يَعْنِي بِالْآيَاتِ هُنَا : الْعَلَامَاتِ الْفَارِقَةَ بَيْنَ مَنْ يَصِحُّ أَنْ يُتَّخَذَ بِطَانَةً وَمَنْ لَا يَصِحُّ أَنْ يُتَّخَذَ لِخِيَانَتِهِ وَسُوءِ عَاقِبَةِ مُبَاطَنَتِهِ ، أَيْ إِنْ كُنْتُمْ تُدْرِكُونَ حَقَائِقَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَالْفُصُولَ الْفَارِقَةَ بَيْنَ الْأَعْدَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ فَاعْتَبِرُوا بِهَا وَلَا تَتَّخِذُوا أُولَئِكَ بِطَانَةً .

(153/128)

وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ الَّتِي وُصِفَ بِهَا مَنْ نُهِيَ عَنِ اتِّخَاذِهِمْ بِطَانَةً لَوْ فُرِضَ أَنِ اتَّصَفَ بِهَا مَنْ هُوَ مُوَافِقٌ ذَلِكَ فِي الدِّينِ وَالْجِنْسِ وَالنَّسَبِ لَمَا جَازَ لَكَ أَنْ تَتَّخِذَهُ بِطَانَةً لَكَ إِنْ كُنْتَ تَعْقِلُ ، فَمَا أَعْدَلَ هَذَا الْقُرْآنَ الْحَكِيمَ وَمَا أَعْلَى هَدْيَهُ وَأَسْمَى إِرْشَادَهُ ! لَقَدْ خَفِيَ

عَلَى بَعْضِ النَّاسِ هَذِهِ التَّعْلِيلَاتُ وَالْقُيُودُ فَظَنُّوا أَنَّ النَّهْيَ عَنِ الْمُخَالِفِ فِي الدِّينِ مُطْلَقًا ، وَلَوْ جَاءَ هَذَا النَّهْيُ مُطْلَقًا لَمَا كَانَ أَمْرًا غَرِيبًا ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا إِلْبًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي أَوَّلِ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ إِذْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ وَلَا سِيَّمَا الْيَهُودُ الَّذِينَ نَزَلَتْ فِيهِمْ عَلَى رَأْيِ الْمُحَقِّقِينَ ، وَلَكِنَّ الْآيَاتِ جَاءَتْ مُقَيَّدَةً بِتِلْكَ الْقُيُودِ لِأَنَّ اللهَ - تَعَالَى - وَهُوَ مُنَزِّلُهَا - يَعْلَمُ مَا يَعْتَرِي الْأُمَمَ وَأَهْلَ الْمِلَلِ مِنَ التَّغَيُّرِ فِي الْمُوَالَاةِ وَالْمُعَادَاةِ كَمَا وَقَعَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ فَإِنَّهُمْ بَعْدَ أَنْ كَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي أَوَّلِ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ قَدِ انْقَلَبُوا فَصَارُوا عَوْنًا لِلْمُسْلِمِينَ فِي بَعْضِ فُتُوحَاتِهِمْ (كَفَتْحِ الْأَنْدَلُسِ) وَكَذَلِكَ كَانَ الْقِبْطُ عَوْنًا لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى الرُّومِ فِي مِصْرَ فَكَيْفَ يَجْعَلُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْحُكْمَ عَلَى هَؤُلَاءِ وَاحِدًا فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ أَبَدَ الْآبِيدِ ؟ أَلَا إِنَّ هَذَا مِمَّا تَنْبِذُهُ الدِّرَايَةُ . وَلَا تَرْوِي غُلَّتَهُ الرِّوَايَةُ ، فَإِنَّ أَرْجَحَ التَّفْسِيرِ

الْمَأْثُورِ يُؤَيِّدُ مَا قُلْنَاهُ .

قَالَ (ابْنُ جَرِيرٍ) يَرُدُّ عَلَى (قَتَادَةَ) الْقَائِلِ بِأَنَّ الْآيَةَ فِي الْمُنَافِقِينَ وَيُؤَيِّدُ رَأْيَهُ الْمُوَافِقَ لِمَا اخْتَرْنَاهُ مَا نَصُّهُ : " إِنَّ اللهَ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - إِنَّمَا نَهَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِمَّنْ قَدْ عَرَفُوهُ

بِالْغِشِّ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ وَالْبَغْضَاءِ إِمَّا بِأَدِلَّةٍ ظَاهِرَةٍ دَالَّةٍ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ صِفَتِهِمْ ، وَإِمَّا بِإِظْهَارِ الْمَوْصُوفِينَ بِتِلْكَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّنَآنِ وَالْمُنَاصَبَةِ لَهُمْ ، فَأَمَّا مَنْ لَمْ يَتَأَسَّوْهُ - مَعْرِفَةً أَنَّهُ الَّذِي نَهَاهُمُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَنْ مُخَالَّتِهِ وَمُبَاطَنَتِهِ - وَإِمَّا جَائِزٌ أَنْ يَكُونُوا نُهُوا عَنْ مُخَالَّتِهِ وَمُصَادَقَتِهِ إِلَّا بَعْدَ تَعْرِيفِهِمْ إِيَّاهُمْ إِمَّا بِأَعْيَانِهِمْ وَأَسْمَائِهِمْ ، وَإِمَّا بِصِفَاتٍ قَدْ عَرَّفُوهُمْ بِهَا ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ وَكَانَ إِبْدَاءُ الْمُنَافِقِينَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ بَغْضَاءِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى إِخْوَانِهِمُ الْكُفَّارِ - أَيْ كَمَا قَالَ قَتَادَةُ - غَيْرَ مُدْرِكٍ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ مَعْرِفَةَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مَعَ إِظْهَارِهِمُ الْإِيمَانَ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَالتَّوَدُّدِ إِلَيْهِمْ عَلَى مَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ - تَعَالَى - بِهِ ، فَعَرَفَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ بِالصِّفَةِ الَّتِي نَعَتَهُمُ اللَّهُ بِهَا . وَأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ وَصَفَهُمْ - اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ - بِأَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

(155/128)

مِمَّنْ كَانَ لَهُمْ ذِمَّةٌ وَعَهْدٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَصْحَابِهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ; لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا الْمُنَافِقِينَ لَكَانَ الْأَمْرُ مِنْهُمْ عَلَى مَا بَيَّنَّا ، وَلَوْ كَانَ الْكُفَّارُ مِمَّنْ نَاصَبَ الْمُسْلِمِينَ الْحَرْبَ لَمْ يَكُنِ الْمُؤْمِنُونَ مُتَّخِذِينَ لِأَنْفُسِهِمْ بِطَانَةً مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ اخْتِلَافِ بِلَادِهِمْ وَافْتِرَاقِ أَمْصَارِهِمْ ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ كَانُوا بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَيَّامَ

رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِمَّنْ كَانَ لَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَهْدٌ وَعَقْدٌ مِنْ يَهُودِ بَنِي إِسْرَائِيلَ " اهـ . فَهَذَا شَيْخُ الْمُفَسِّرِينَ وَأَشْهَرُهُمْ يَجْعَلُ هَذَا النَّهْيَ فِيمَنْ ظَهَرَتْ عَدَاوَتُهُمْ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَلِلْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ مِمَّنْ كَانَ لَهُمْ عَهْدٌ فَخَانُوا فِيهِ كَبَنِي النَّضِيرِ الَّذِينَ حَاوَلُوا قَتْلَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَثْنَاءَ ائْتِمَانِهِ لَهُمْ لِمَكَانِ الْعَهْدِ وَالْمُحَالَفَةِ ، وَيَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِهِ جَمِيعَ الْكَافِرِينَ أَوِ الْمُنَافِقِينَ ، فَهَذَا حُكْمٌ مِنْ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ فِي الْمُخَالِفِينَ أَيَّامَ كَانَ جَمِيعُ النَّاسِ حَرْبًا لِلْمُسْلِمِينَ ، فَهَلْ يُنْكِرُ أَحَدٌ لَهُ مُسْكَةٌ مِنَ الْإِنْصَافِ أَنَّهُ فِي هَذِهِ الْقُيُودِ الَّتِي قُيِّدَ بِهَا يُعَدُّ مُنْتَهَى التَّسَاهُلِ وَالتَّسَامُحِ مَعَ الْمُخَالِفِينَ ، إِذْ لَمْ يَمْنَعِ اتِّخَاذَ الْبِطَانَةِ إِلَّا مِمَّنْ ظَهَرَتْ عَدَاوَتُهُمْ وَبَغْضَاؤُهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ ،

(156/128)

فَهُمْ لَا يُقَصِّرُونَ فِي إِفْسَادِ أَمْرِهِمْ وَيَتَمَنَّوْنَ لَهُمُ الشَّرَّ فَوْقَ ذَلِكَ . لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْقُيُودُ لِلنَّهْيِ عَنِ اسْتِعْمَالِ الْمُخَالِفِينَ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَمُشَارَكَتِهِمْ فِي كُلِّ عَمَلٍ لَكَانَ وَجْهُ الْعَدْلِ فِيهَا زَاهِرًا ، وَطَرِيقُ الْعُذْرِ فِيهَا ظَاهِرًا ، فَكَيْفَ وَهِيَ قُيُودٌ لِاتِّخَاذِهِمْ بِطَانَةً يُسْتَوْدَعُونَ الْأَسْرَارَ وَيُسْتَعَانُ بِرَأْيِهِمْ

وَعَمَلِهِمْ عَلَى شُئُونِ الدِّفَاعِ عَنِ الْمِلَّةِ وَصَوْنِ حُقُوقِهَا وَمُقَاوَمَةِ أَعْدَائِهَا ؟

مَا أَشْبَهَ هَذَا النَّهْيَ فِي قُيُودِهِ بِالنَّهْيِ عَنِ اتِّخَاذِ الْكُفَّارِ أَنْصَارًا وَأَوْلِيَاءَ ، إِذْ قُيِّدَ بِقَوْلِهِ - عَزَّ وَجَلَّ - : لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [60 : 8 ، 9] وَقَدْ شَرَحْنَا هَذَا الْبَحْثَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ [3 : 28] .

(157/128)

هَذَا التَّسَاهُلُ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ هُوَ الَّذِي أَرْشَدَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ إِلَى جَعْلِ رِجَالِ دَوَاوِينِهِ مِنَ الرُّومِ ، وَجَرَى الْخَلِيفَتَانِ الْآخَرَانِ وَمُلُوكُ بَنِي أُمَيَّةَ مِنْ بَعْدِهِ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ نَقَلَ الدَّوَاوِينَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ مِنَ الرُّومِيَّةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ . وَبِهَذِهِ السِّيرَةِ وَذَلِكَ الْإِرْشَادِ عَمِلَ الْعَبَّاسِيُّونَ وَغَيْرُهُمْ مِنْ مُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ فِي نَوْطِ أَعْمَالِ الدَّوْلَةِ بِالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ ، وَمِنْ ذَلِكَ جَعْلُ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ أَكْثَرَ سُفَرَائِهَا وَوُكَلَائِهَا فِي بِلَادِ الْأَجَانِبِ مِنَ النَّصَارَى . وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ يَقُولُ مُتَعَصِّبُو أُورُبَّا : إِنَّ الْإِسْلَامَ لَا تَسَاهُلَ فِيهِ ! ! " رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَانْسَلَّتْ " أَلَا إِنَّ التَّسَاهُلَ قَدْ خَرَجَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ حَدِّهِ ، حَتَّى كَتَبَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي ذَلِكَ مَقَالَةً

فِي الْعُرْوَةِ الْوُثْقَى

صَدَّرَهَا بِالْآيَةِ الَّتِي نُفَسِّرُهَا نُورِدُهَا هُنَا بِرُمَّتِهَا لِأَنَّهَا تَدْخُلُ فِي بَابِ تَفْسِيرِ الْآيَةِ وَالِاعْتِبَارِ بِهَا عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ وَهَذَا نَصُّهَا (نَقْلًا مِنَ الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ تَارِيخِهِ) :

(158/128)

" قَالُوا : تُصَانُ الْبِلَادُ وَيُحْرَسُ الْمُلْكُ بِالْبُرُوجِ الْمُشَيَّدَةِ وَالْقِلَاعِ الْمَنِيعَةِ وَالْجُيُوشِ الْعَامِلَةِ وَالْأُهَبِ الْوَافِرَةِ وَالْأَسْلِحَةِ الْجَيِّدَةِ . قُلْنَا : نَعَمْ ، هِيَ أَحْرَازٌ وَآلَاتٌ لَا بُدَّ مِنْهَا لِلْعَمَلِ فِيمَا يَقِي الْبِلَادَ ، وَلَكِنَّهَا لَا تَعْمَلُ بِنَفْسِهَا وَلَا تَحْرُسُ بِذَاتِهَا فَلَا صِيَانَةَ بِهَا وَلَا حِرَاسَةَ إِلَّا أَنْ يَتَنَاوَلَ أَعْمَالَهَا رِجَالٌ ذَوُو خِبْرَةٍ وَأُولُو رَأْيٍ وَحِكْمَةٍ يَتَعَهَّدُونَهَا بِالْإِصْلَاحِ زَمَنَ السِّلْمِ وَيَسْتَعْمِلُونَهَا فِيمَا قُصِدَتْ لَهُ زَمَنَ الْحَرْبِ ، وَلَيْسَ بِكَافٍ حَتَّى يَكُونَ رِجَالٌ

(159/128)

مِنْ ذَوِي التَّدْبِيرِ وَالْحَزْمِ وَأَصْحَابِ الْحِذْقِ وَالدِّرَايَةِ يَقُومُونَ عَلَى سَائِرِ شُئُونِ الْمَمْلَكَةِ ، يُوَطِّئُونَ طُرُقَ الْأَمْنِ وَيَبْسُطُونَ بِسَاطَ الرَّاحَةِ وَيَرْفَعُونَ بِنَاءَ الْمُلْكِ عَلَى قَوَاعِدِ الْعَدْلِ

وَيُوقِفُونَ الرَّعِيَّةَ عِنْدَ حُدُودِ الشَّرِيعَةِ ، ثُمَّ يُرَاقِبُونَ رَوَابِطَ الْمَمْلَكَةِ مَعَ سَائِرِ الْمَمَالِكِ الْأَجْنَبِيَّةِ لِيَحْفَظُوا لَهَا الْمَنْزِلَةَ الَّتِي تَلِيقُ بِهَا بَيْنَهَا ، بَلْ يَحْمِلُوهَا عَلَى أَجْنِحَةِ السِّيَاسَةِ الْقَوِيمَةِ إِلَى أَسْمَى مَكَانَةٍ تُمْكِنُ لَهَا ، وَلَنْ يَكُونُوا أَهْلًا لِلْقِيَامِ عَلَى هَذِهِ الشُّؤُونِ الرَّفِيعَةِ حَتَّى تَكُونَ قُلُوبُهُمْ فَائِضَةً بِمَحَبَّةِ الْبِلَادِ طَافِحَةً بِالْمَرْحَمَةِ وَالشَّفَقَةِ عَلَى سُكَّانِهَا ، وَحَتَّى تَكُونَ الْحَمِيَّةُ ضَارِبَةً فِي نُفُوسِهِمْ آخِذَةً بِطِبَاعِهِمْ ، يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مُنَبِّهًا عَلَى مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ وَزَاجِرًا عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِمْ ، وَغَضَاضَةً وَأَلَمًا مُوجِعًا عِنْدَمَا يَمَسُّ مَصْلَحَةَ الْمَمْلَكَةِ ضَرَرٌ وَيُوجَسُ عَلَيْهَا مِنْ خَطَرٍ ؛ لِيَتَيَسَّرَ لَهُمْ بِهَذَا الْإِحْسَاسِ وَتِلْكَ الصِّفَاتِ أَنْ يُؤَدُّوا أَعْمَالَ وَظَائِفِهِمْ - كَمَا يَنْبَغِي - وَيَصُونُوهَا مِنَ الْخَلَلِ رُبَّمَا يُفْضِي إِلَى فَسَادٍ كَبِيرٍ فِي الْمُلْكِ .

فَهَؤُلَاءِ الرِّجَالُ بِهَذِهِ الْخِلَالِ هُمُ الْمَنَعَةُ الْوَاقِيَةُ وَالْقُوَّةُ الْغَالِبَةُ .

(160/128)

"يَسْهُلُ عَلَى أَيِّ حَاكِمٍ فِي أَيِّ قَبِيلٍ لَأَنْ يُكَتِّبَ الْكَتَائِبَ وَيَجْمَعَ الْجُنُودَ وَيُوَفِّرُ الْعَدَدَ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ بِنَقْدِ النُّقُودِ وَبَذْلِ النَّفَقَاتِ ، وَلَكِنْ مِنْ أَيْنَ يُصِيبُ بِطَانَةً مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشَرْنَا إِلَيْهِمْ : عُقَلَاءَ رُحَمَاءَ أُبَاةً أَصْفِيَاءَ تُهِمُّهُمْ حَاجَاتُ الْمُلْكِ كَمَا تُهِمُّهُمْ ضَرُورَاتُ حَيَاتِهِمْ ؟ لَا بُدَّ أَنْ يُتَّبَعَ فِي هَذَا الْأَمْرِ الْخَطِيرِ قَانُونُ الْفِطْرَةِ ، وَيُرَاعَى نَامُوسُ الطَّبِيعَةِ ، فَإِنَّ مُتَابَعَةَ هَذَا النَّامُوسِ

تَحْفَظُ الْفِكْرَ مِنَ الْخَطَأِ وَتَكْشِفُ لَهُ خَفِيَّاتِ الدَّقَائِقِ ، وَقَلَّمَا يُخْطِئُ فِي رَأْيِهِ أَوْ يَتَأَوَّدُ فِي عَمَلِهِ مَنْ أَخَذَ بِهِ دَلِيلًا وَجَعَلَ لَهُ مِنْ هَدْيِهِ مُرْشِدًا . وَإِذَا نَظَرَ الْعَاقِلُ فِي أَنْوَاعِ الْخَطَأِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي الْعَالَمِ الْإِنْسَانِيِّ مِنْ كُلِّيَّةٍ وَجُزْئِيَّةٍ وَطَلَبَ أَسْبَابَهَا لَا يَجِدُ لَهَا مِنْ عِلَّةٍ سِوَى الْمَيْلِ عَنْ قَانُونِ الْفِطْرَةِ وَالِانْحِرَافِ عَنْ سُنَّةِ اللهِ فِي خَلْقِهِ .

مِنْ أَحْكَامِ هَذَا النَّامُوسِ الثَّابِتِ أَنَّ الشَّفَقَةَ وَالْمَرْحَمَةَ وَالنَّعْرَةَ عَلَى الْمُلْكِ وَالرَّعِيَّةِ ، إِنَّمَا تَكُونُ لِمَنْ لَهُ فِي الْأُمَّةِ أَصْلٌ رَاسِخٌ وَوَشِيجٌ يَشُدُّ صِلَتَهُ بِهَا . هَذِهِ فِطْرَةُ فَطَرَ اللهُ النَّاسَ عَلَيْهَا ، إِنَّ الْمُلْتَحِمَ مَعَ الْأُمَّةِ بِعَلَاقَةِ الْجِنْسِ يُرَاعِي نِسْبَتَهُ إِلَيْهَا وَنِسْبَتَهَا إِلَيْهِ ، وَيَرَاهَا لَا تَخْرُجُ عَنْ سَائِرِ نِسْبَةِ الْخَاصَّةِ بِهِ فَيُدَافِعُ الضَّيْمَ عَنِ الدَّاخِلِينَ مَعَهُ فِي تِلْكَ النِّسْبَةِ دِفَاعَهُ عَنْ

حَوْزَتِهِ وَحَرِيمِهِ " رَاجِعْ رَأْيَكَ فِيمَا تَشْهَدُهُ كَثِيرًا حَتَّى بَيْنَ الْعَامَّةِ عِنْدَمَا يَرْمِي أَحَدُهُمْ أَهْلَ الْبَلَدِ الْآخَرِ أَوْ دِينَهُ بِسُوءٍ عَلَى وَجْهٍ عَامٍّ "كِسُورِيٍّ" "يَنْتَقِدُ الْمِصْرِيِّينَ أَوْ مِصْرِيٍّ يَنْتَقِدُ السُّورِيِّينَ" هَذَا إِلَى مَا يَعْلَمُهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْأُمَّةِ أَنَّ مَا تَنَالُهُ أُمَّةٌ مِنَ الْفَوَائِدِ يَلْحَقُهُ حَظٌّ مِنْهَا وَمَا يُصِيبُهَا مِنَ الْأَرْزَاءِ يُصِيبُهُ سَهْمٌ مِنْهُ ، خُصُوصًا إِنْ كَانَ بِيَدِهِ هَامَاتُ أُمُورِهَا وَفِي قَبْضَتِهِ زِمَامُ التَّصَرُّفِ فِيهَا ، فَإِنَّ حَظَّهُ " حِينَئِذٍ " مِنَ الْمَنْفَعَةِ أَوْفَرُ

وَمُصِيبَتُهُ بِالْمَضَرَّةِ أَعْظَمُ وَسَهْمُهُ مِنَ الْعَارِ الَّذِي يَلْحَقُ الْأُمَّةَ أَكْبَرُ ، فَيَكُونُ اهْتِمَامُهُ بِشُئُونِ الْأُمَّةِ الَّتِي هُوَ مِنْهَا وَحِرْصُهُ عَلَى سَلَامَتِهَا بِمِقْدَارِ مَا يُؤَمِّلُهُ مِنَ الْمَنْفَعَةِ أَوْ يَخْشَاهُ مِنَ الْمَضَرَّةِ .

(162/128)

" فَعَلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ فِي مَمْلَكَةٍ أَلَّا يَكِلَ شَيْئًا مِنْ عَمَلِهِ إِلَّا لِأَحَدِ رَجُلَيْنِ : إِمَّا رَجُلٌ يَتَّصِلُ بِهِ فِي جِنْسِيَّةٍ سَالِمَةٍ مِنَ الضَّعْفِ وَالتَّمْزِيقِ مُوَقَّرَةٍ فِي نُفُوسِ الْمُنْتَظِمِينَ فِيهَا مُحْتَرَمَةٍ فِي قُلُوبِهِمْ يَحْمِلُهُمْ تَوْقِيرُهَا وَاحْتِرَامُهَا عَلَى التَّغَالِي فِي وِقَايَتِهَا مِنْ كُلِّ شَيْنٍ يَدْنُو مِنْهَا ، وَلَمْ تُوهِنْ رَوَابِطَهَا اخْتِلَافَاتُ الْمَشَارِبِ وَالْأَدْيَانِ ، وَإِمَّا رَجُلٌ يَجْتَمِعُ مَعَهُ فِي دِينٍ قَامَتْ جَامِعَتُهُ مَقَامَ الْجِنْسِيَّةِ ، بَلْ فَاقَتْ مَنْزِلَتُهُ مِنَ الْقُلُوبِ مَنْزِلَتَهَا كَالدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ الَّذِي حَلَّ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ - وَإِنِ اخْتَلَفَتْ شُعُوبُهُمْ - مَحَلَّ كُلِّ رَابِطَةٍ نَسَبِيَّةٍ ؛ فَإِنَّ كُلًّا مِنَ الْجَامِعَتَيْنِ " الْجِنْسِيَّةِ عَلَى النَّحْوِ السَّابِقِ وَالدِّينِيَّةِ " مَبْدَآنِ لِلْحَمِيَّةِ عَلَى الْمُلْكِ وَمَنْشَآنِ لِلْغَيْرَةِ عَلَيْهِ .

(163/128)

" أَمَّا الْأَجَانِبُ الَّذِينَ لَا يَتَّصِلُونَ بِصَاحِبِ الْمُلْكِ فِي جِنْسٍ وَلَا فِي دِينٍ تَقُومُ رَابِطَتُهُ مَقَامَ الْجِنْسِ فَمَثَلُهُمْ فِي الْمَمْلَكَةِ كَمَثَلِ الْأَجِيرِ فِي بِنَاءِ بَيْتٍ لَا يُهِمُّهُ إِلَّا اسْتِيفَاءُ أُجْرَتِهِ ، ثُمَّ لَا يُبَالِي أَسَلِمَ الْبَيْتُ أَوْ جَرَفَهُ السَّيْلُ أَوْ دَكَّتْهُ الزَّلَازِلُ ، هَذَا إِذَا صَدَقُوا فِي أَعْمَالِهِمْ يُؤَدُّونَ مِنْهَا بِمِقْدَارِ مَا يَأْخُذُونَ مِنَ الْأَجْرِ ، وَاقِفِينَ فِيهَا عِنْدَ الرَّسْمِ الظَّاهِرِ ; فَإِنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ لَا يَشْرُفُ بِشَرَفِ الْأُمَّةِ الَّذِي هُوَ خَادِمٌ فِيهَا وَلَا يَمَسُّهُ شَيْءٌ مِمَّا يَمَسُّهَا مِنَ الضَّعَةِ لِأَنَّهُ مُنْفَصِلٌ عَنْهَا ، إِذَا فَقَدَ الْعَيْشَ فِيهَا فَارَقَهَا وَارْتَدَّ إِلَى مَنْبَتِهِ الَّذِي يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ ، بَلْ هُوَ فِي حَالِ عَمَلِهِ وَخِدْمَتِهِ لِغَيْرِ جِنْسِهِ لَاصِقٌ بِمَنْبَتِهِ فِي جَمِيعِ شُئُونِهِ مَا عَدَا الْأَجْرَ الَّذِي يَأْخُذُهُ - وَهَذَا مَعْلُومٌ بِبَدَاهَةِ الْعَقْلِ - فَلَا يَجِدُ فِي طَبِيعَتِهِ وَلَا فِي خَوَاطِرِ قَلْبِهِ مَا يَبْعَثُهُ عَلَى الْحَذَرِ الشَّدِيدِ مِمَّا يُفْسِدُ الْمُلْكَ أَوِ الْحِرْصَ الزَّائِدَ عَلَى مَا يُعْلِي شَأْنَهُ ، بَلْ لَا يَجِدُ بَاعِثًا عَلَى الْفِكْرِ فِيمَا يُقَوِّمُ مَصْلَحَتَهُ مِنْ أَيِّ وَجْهٍ . هَذِهِ حَالُهُمْ هِيَ لَهُمْ بِمُقْتَضَى الطَّبِيعَةِ لَوْ فَرَضْنَا صِدْقَهُمْ وَبَرَاءَتَهُمْ مِنْ أَغْرَاضٍ أُخَرَ ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْأَجَانِبِ لَوْ كَانُوا نَازِحِينَ مِنْ بِلَادِهِمْ فِرَارًا مِنَ الْفَقْرِ وَالْفَاقَةِ وَضَرَبُوا فِي أَرْضِ

غَيْرِهِمْ طَلَبًا لِلْعَيْشِ مِنْ أَيِّ طَرِيقٍ ، وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ فِي تَحْصِيلِهِ صَدَقُوا أَوْ كَذَبُوا ، وَسَوَاءٌ وَفَوْا أَوْ قَصَّرُوا ، وَسَوَاءٌ رَاعَوُا الذِّمَّةَ أَوْ خَانُوا ، أَوْ لَوْ كَانُوا مَعَ هَذَا كُلِّهِ يَخْدِمُونَ مَقَاصِدَ لِأُمَمِهِمْ يُمَهِّدُونَ لَهَا طُرُقَ الْوِلَايَةِ وَالسِّيَادَةِ عَلَى الْأَقْطَارِ الَّتِي يَتَوَلَّوْنَ الْوَظَائِفَ فِيهَا - كَمَا هُوَ حَالُ الْأَجَانِبِ فِي الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ لَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَامِلًا عَلَى الصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ وَلَكِنْ

يَجِدُونَ مِنْهَا الْبَاعِثَ عَلَى الْغِشِّ وَالْخِيَانَةِ - وَمَنْ تَتَبَّعَ التَّوَارِيخَ الَّتِي تُمَثِّلُ لَنَا أَحْوَالَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ، وَتَحْكِي لَنَا عَنْ سُنَّةِ اللهِ فِي خَلِيقَتِهِ وَتَصْرِيفِهِ لِشُئُونِ عِبَادِهِ رَأَى أَنَّ الدُّوَلَ فِي نُمُوِّهَا وَبَسْطَتِهَا مَا كَانَتْ مَصُونَةً إِلَّا بِرِجَالٍ مِنْهَا يَعْرِفُونَ لَهَا حَقَّهَا كَمَا تَعْرِفُ لَهُمْ حَقَّهُمْ ، وَمَا كَانَ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِهَا بِيَدِ أَجْنَبِيٍّ عَنْهَا ، وَأَنَّ تِلْكَ الدُّوَلَ مَا انْخَفَضَ مَكَانُهَا وَلَا سَقَطَتْ فِي هُوَّةِ الِانْحِطَاطِ إِلَّا عِنْدَ دُخُولِ الْعُنْصُرِ الْأَجْنَبِيِّ فِيهَا وَارْتِقَاءِ الْغُرَبَاءِ إِلَى الْوَظَائِفِ السَّامِيَةِ فِي أَعْمَالِهَا ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي كُلِّ دَوْلَةٍ آيَةَ الْخَرَابِ وَالدَّمَارِ ، خُصُوصًا إِذَا كَانَ بَيْنَ الْغُرَبَاءِ وَبَيْنَ الدَّوْلَةِ الَّتِي يَتَنَاوَلُونَ أَعْمَالَهَا مُنَافَسَاتٌ وَأَحْقَادٌ مُزِجَتْ بِهَا دِمَاؤُهُمْ وَعُجِنَتْ بِهَا طِينَتُهُمْ مِنْ أَزْمَانٍ طَوِيلَةٍ .

"نَعَمْ كَمَا يَحْصُلُ الْفَسَادُ فِي بَعْضِ الْأَخْلَاقِ وَالسَّجَايَا الطَّبِيعِيَّةِ بِسَبَبِ الْعَوَارِضِ الْخَارِجِيَّةِ كَذَلِكَ يَحْصُلُ الضَّعْفُ وَالْفُتُورُ فِي حَمِيَّةِ أَبْنَاءِ الدِّينِ أَوِ الْأُمَّةِ ، وَيَطْرَأُ النَّقْصُ عَلَى شَفَقَتِهِمْ وَمَرْحَمَتِهِمْ فَيَنْقُصُ بِذَلِكَ اهْتِمَامُ الْعُظَمَاءِ مِنْهُمْ بِمَصَالِحِ الْمُلْكِ إِذَا كَانَ وَلِيُّ الْأَمْرِ لَا يُقَدِّرُ أَعْمَالَهُمْ حَقَّ قَدْرِهَا ، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ يُقَدِّمُونَ مَنَافِعَهُمُ الْخَاصَّةَ عَلَى فَرَائِضِهِمُ الْعَامَّةِ فَيَقَعُ الْخَلَلُ فِي نِظَامِ الْأُمَّةِ وَيَضْرِبُ فِيهَا الْفَسَادُ ، وَلَكِنْ مَا يَكُونُ مِنْ ضَرَرِهِ أَخَفُّ وَأَقْرَبُ إِلَى التَّلَافِي مِنَ الضَّرَرِ الَّذِي يَكُونُ سَبَبُهُ اسْتِلَامَ الْأَجَانِبِ لِهَامَاتِ الْأُمُورِ فِي الْبِلَادِ ; لِأَنَّ صَاحِبَ اللُّحْمَةِ فِي الْأُمَّةِ وَإِنْ مَرِضَتْ أَخْلَاقُهُ وَاعْتَلَّتْ صِفَاتُهُ إِلَّا أَنَّ مَا أَوْدَعَتْهُ الْفِطْرَةُ وَثَبَتَ فِي الْجِبِلَّةِ لَا يُمْكِنُ مَحْوُهُ بِالْكُلِّيَّةِ ، فَإِذَا أَسَاءَ فِي عَمَلِهِ مَرَّةً أَزْعَجَهُ مِنْ نَفْسِهِ صَائِحُ الْوَشِيجَةِ الدِّينِيَّةِ أَوِ الْجِنْسِيَّةِ فَيَرْجِعُ إِلَى الْإِحْسَانِ مَرَّةً أُخْرَى ، وَإِنَّ مَا شُدَّ بِالْقَلْبِ مِنْ عَلَائِقِ الدِّينِ أَوِ الْجِنْسِ لَا يَزَالُ يَجْذِبُهُ آوِنَةً بَعْدَ آوِنَةٍ لِمُرَاعَاتِهَا وَالِالْتِفَاتِ إِلَيْهَا وَيُمِيلُهُ إِلَى الْمُتَّصِلِينَ مَعَهُ بِتِلْكَ الْعَلَائِقِ وَإِنْ بَعُدُوا .

وَلِهَذَا يَحِقُّ لَنَا أَنْ نَأْسَفَ غَايَةَ الْأَسَفِ عَلَى أُمَرَاءِ الشَّرْقِ وَأَخُصُّ مِنْ بَيْنِهِمْ

أُمَرَاءَ الْمُسْلِمِينَ حَيْثُ سَلَّمُوا أُمُورَهُمْ وَوَكَّلُوا أَعْمَالَهُمْ مِنْ كِتَابَةٍ وَإِدَارَةٍ وَحِمَايَةٍ لِلْأَجَانِبِ عَنْهُمْ ، بَلْ زَادُوا فِي مُوَالَاةِ الْغُرَبَاءِ وَالثِّقَةِ بِهِمْ حَتَّى وَلَّوهُمْ خِدْمَتَهُمُ الْخَاصَّةَ بِهِمْ فِي بُطُونِ بُيُوتِهِمْ ، بَلْ كَادُوا يَتَنَازَلُونَ لَهُمْ عَنْ مُلْكِهِمْ فِي مَمَالِكِهِمْ بَعْدَمَا رَأَوْا كَثْرَةَ الْمَطَامِعِ فِيهَا لِهَذَا الزَّمَانِ ، وَأَحَسُّوا بِالضَّغَائِنِ وَالْأَحْقَادِ الْمَوْرُوثَةِ مِنْ أَجْيَالٍ بَعِيدَةٍ بَعْدَ مَا عَلَّمَتْهُمُ التَّجَارِبُ أَنَّهُمْ إِذَا ائْتُمِنُوا خَانُوا ، وَإِذَا عَزَّزُوا أَهَانُوا . يُقَابِلُونَ الْإِحْسَانَ بِالْإِسَاءَةِ وَالتَّوْقِيرَ بِالتَّحْقِيرِ ، وَالنِّعْمَةَ بِالْكُفْرَانِ ، وَيُجَازُونَ عَلَى اللُّقْمَةِ بِاللَّطْمَةِ ، وَالرُّكُونَ إِلَيْهِمْ بِالْجَفْوَةِ ، وَالصِّلَةَ بِالْقَطِيعَةِ ، وَالثِّقَةَ فِيهِمْ بِالْخُدْعَةِ .

"أَمَا آنَ لِأُمَرَاءِ الشَّرْقِ أَنْ يَدِينُوا لِأَحْكَامِ اللهِ الَّتِي لَا تُنْقَضُ ؟ أَلَمْ يَأْنِ لَهُمْ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى حِسِّهِمْ وَوِجْدَانِهِمْ ؟ أَلَمْ يَأْتِ وَقْتٌ يَعْمَلُونَ فِيهِ بِمَا أَرْشَدَتْهُمُ الْحَوَادِثُ وَدَلَّتْهُمْ عَلَيْهِ الرَّزَايَا

وَالْمَصَائِبُ ؟ أَلَمْ يَحِنْ لَهُمْ أَنْ يَكُفُّوا عَنْ تَخْرِيبِ بُيُوتِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي أَعْدَائِهِمْ ؟ أَلَا أَيُّهَا الْأُمَرَاءُ الْعِظَامُ مَا لَكُمْ وَلِلْأَجَانِبِ عَنْكُمْ ؟ أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ قَدْ عَلِمْتُمْ شَأْنَهُمْ ، وَلَمْ تَبْقَ رِيبَةٌ فِي أَمْرِهِمْ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا سَارِعُوا إِلَى أَبْنَاءِ أَوْطَانِكُمْ وَإِخْوَانِ دِينِكُمْ وَمِلَّتِكُمْ ، وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ بِبَعْضِ مَا تُقْبِلُونَ بِهِ

عَلَى غَيْرِهِمْ تَجِدُونَ فِيهِمْ خَيْرَ عَوْنٍ وَأَفْضَلَ نَصِيرٍ ، اتَّبِعُوا سُنَّةَ اللهِ فِيمَا أَلْهَمَكُمْ وَفَطَرَكُمْ عَلَيْهِ كَمَا فَطَرَ النَّاسَ أَجْمَعِينَ ، وَرَاعُوا حِكْمَتَهُ الْبَالِغَةَ فِيمَا أَمَرَكُمْ وَمَا نَهَاكُمْ كَيْلَا تَضِلُّوا وَيَهْوِي بِكُمُ الْخَطَلُ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ ، أَلَمْ تَرَوْا ، أَلَمْ تَعْلَمُوا ، أَلَمْ تَحْسَبُوا ، أَلَمْ تُجَرِّبُوا ؟ إِلَى مَتَى إِلَى مَتَى ؟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ " اهـ .

هَذَا بَيَانٌ يُرِيكَ بِالْحُجَجِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ النَّاهِضَةِ أَنَّ الْغَرِيبَ عَنِ الْمِلَّةِ لَا يُتَّخَذُ بِطَانَةً لِلْقَائِمِينَ بِأَمْرِ الْمِلَّةِ ، وَالْغَرِيبُ عَنِ الدَّوْلَةِ لَا يُتَّخَذُ بِطَانَةً لِرِجَالِ الدَّوْلَةِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَؤُلَاءِ الْغُرَبَاءُ مُتَّصِفِينَ بِمَا ذُكِرَ فِي الْآيَةِ مِنَ الْعُدْوَانِ وَالْبَغْضَاءِ فَكَيْفَ إِذَا كَانُوا كَذَلِكَ ؟

(168/128)

بَيَّنَتْ لَنَا الْآيَةُ الَّتِي فَسَّرْنَاهَا بَعْضَ حَالِ أُولَئِكَ الَّذِينَ نُهِيَ الْمُؤْمِنُونَ عَنِ اتِّخَاذِ الْبِطَانَةِ مِنْهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَدُونَكَ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي تُبَيِّنُ حَالَ الْمُؤْمِنِينَ مَعَهُمْ .

هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ فَالْقُرْآنُ يَنْطِقُ بِأَفْصَحِ عِبَارَةٍ وَأَصْرَحِهَا وَاصِفًا الْمُسْلِمِينَ بِهَذَا الْوَصْفِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَثَرِ الْإِسْلَامِ وَهُوَ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لَهُمُ الَّذِينَ لَا يُقَصِّرُونَ فِي إِفْسَادِ أَمْرِهِمْ وَتَمَنِّي عَنَتِهِمْ عَلَى أَنَّ بَغْضَاءَهُمْ لَهُمْ ظَاهِرَةٌ وَمَا خَفِيَ مِنْهَا أَكْبَرُ مِمَّا ظَهَرَ ، أُولَئِكَ الْمُبْغِضُونَ هُمُ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ أَوْ فِي طَائِفَةٍ مِنْهُمْ : لَتَجِدَنَّ

أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ [5 : 82] إِلَخْ . يَعْنِي أُولَئِكَ الْيَهُودَ الْمُجَاوِرِينَ لَهُمْ فِي الْحِجَازِ .

أَلَيْسَ حُبُّ الْمُؤْمِنِينَ لِأُولَئِكَ الْيَهُودِ الْغَادِرِينَ الْكَائِدِينَ وَإِقْرَارُ الْقُرْآنِ إِيَّاهُمْ عَلَى ذَلِكَ ; لِأَنَّهُ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ الْإِسْلَامِ فِي نُفُوسِهِمْ ، هُوَ أَقْوَى الْبَرَاهِينِ ، عَلَى أَنَّ هَذَا الدِّينَ دِينُ حُبٍّ وَرَحْمَةٍ وَتَسَاهُلٍ وَتَسَامُحٍ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُصَوِّبَ الْعَقْلُ نَظَرَهُ إِلَى أَعْلَى مِنْهُ فِي ذَلِكَ ؟ بَلَى ، وَلَكِنْ وُجِدَ فِي النَّاسِ مَنْ يُنْكِرُ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَيَصِفُهُ بِضِدِّهِ زُورًا وَبُهْتَانًا ، بَلْ تَعَصُّبًا خَرُّوا عَلَيْهِ صُمًّا وَعُمْيَانًا .

(169/128)

مَنْ هُمُ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْإِسْلَامَ بِأَنَّهُ دِينُ بُغْضٍ وَعُدْوَانٍ ؟ لَا أَقُولُ إِنَّهُمُ النَّصَارَى الَّذِينَ كَانُوا أَجْدَرَ بِحُبِّنَا وَوُدِّنَا مِنَ الْيَهُودِ لِقَوْلِهِ - تَعَالَى - فِي تَتِمَّةِ الْآيَةِ اسْتَشْهَدْنَا بِهَا آنِفًا : وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى بَلْ هُمْ قُسُوسُ أُورُوبَّا الْمُتَعَصِّبُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ مِنْ حَيْثُ هُوَ دِينٌ ، وَسَاسَتُهَا الْمُتَعَصِّبُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ مِنْ حَيْثُ هُوَ شَرْعٌ وَنِظَامٌ قَامَتْ بِهِ دُوَلٌ وَمَمَالِكُ . فَأُورُوبَّا الَّتِي تَتَّهِمُ الْإِسْلَامَ - وَالشَّرْقَ الْأَدْنَى كُلَّهُ لِأَجْلِ الْإِسْلَامِ - بِالتَّعَصُّبِ وَالْبَغْضَاءِ لِلْمُخَالِفِ هِيَ الَّتِي أَبَادَتْ مِنْ بِلَادِهَا كُلَّ مُخَالِفٍ لِدِينِهَا إِلَّا التُّرْكَ ،

فَإِنَّهَا لَمْ تَقْوَ عَلَى إِبَادَتِهِمْ حَتَّى الْآنَ ، وَلَوْلَا مَا بَيْنَ دُوَلِهَا مِنَ التَّنَازُعِ السِّيَاسِيِّ لَقَضَتْ عَلَيْهِمْ ، فَنَصَارَى الشَّرْقِ وَمُسْلِمُوهُ وَكَذَا وَثَنِيُّوهُ إِنَّمَا اغْتَرَفُوا غَرْفَةً مِنْ بَحْرِ تَعَصُّبِ أُورُوبَّا وَلَكِنَّهُمْ لَا قُوَّةَ لَهُمْ عَلَى الدِّفَاعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ أَمَامَ أُولَئِكَ الْمُعْتَدِينَ .

(170/128)

أَمَّا قَوْلُهُ - تَعَالَى - : وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ فَمَعْنَاهُ أَنَّكُمْ تُؤْمِنُونَ بِجَمِيعِ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ سَوَاءٌ مِنْهُ مَا نَزَلَ عَلَيْكُمْ وَمَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ ، فَلَيْسَ فِي نُفُوسِكُمْ مِنَ الْكُفْرِ بِبَعْضِ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ أَوِ النَّبِيِّينَ الَّذِينَ جَاءُوا بِهَا مَا يَحْمِلُكُمْ عَلَى بُغْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَأَنْتُمْ تُحِبُّونَهُمْ بِمُقْتَضَى إِيمَانِكُمْ هَذَا ، وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّ جُمْلَةَ تُؤْمِنُونَ حَالِيَّةٌ مِنْ قَوْلِهِ : وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَكُمْ مَعَ أَنَّكُمْ تُؤْمِنُونَ بِكِتَابِهِمْ وَكِتَابِكُمْ

فَكَيْفَ لَوْ كُنْتُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِكِتَابِهِمْ كَمَا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِكِتَابِكُمْ ؟ فَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِبُغْضِهِمْ ، أَيْ وَمَعَ ذَلِكَ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ .

(171/128)

قَالَ (ابْنُ جَرِيرٍ) : " فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِبَانَةٌ مِنَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - عَنْ حَالِ الْفَرِيقَيْنِ ، أَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ وَرَحْمَةُ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَرَأْفَتُهُمْ بِأَهْلِ الْخِلَافِ لَهُمْ ، وَقَسَاوَةُ قُلُوبِ أُولَئِكَ وَغِلْظَتُهُمْ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ ، كَمَا حَدَّثَنَا بِشْرٌ قَالَ حَدَّثَنَا يَزِيدُ قَالَ حَدَّثَنَا سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ : قَوْلُهُ : هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ فَوَاللهِ إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُحِبُّ الْمُنَافِقَ وَيَأْوِي إِلَيْهِ وَيَرْحَمُهُ وَلَوْ أَنَّ الْمُنَافِقَ يَقْدِرُ مِنَ الْمُؤْمِنِ عَلَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُ مِنْهُ لَأَبَادَ خَضْرَاءَهُ " . حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ قَالَ حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ قَالَ حَدَّثَنِي حَجَّاجٌ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ : " الْمُؤْمِنُ خَيْرٌ لِلْمُنَافِقِ مِنَ الْمُنَافِقِ لِلْمُؤْمِنِ يَرْحَمُهُ ، وَلَوْ يَقْدِرُ الْمُنَافِقُ مِنَ الْمُؤْمِنِ عَلَى مِثْلِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُ مِنْهُ لَأَبَادَ خَضْرَاءَهُ " . اهـ .

(172/128)

فَهَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ التَّفْسِيرِ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ يَقُولُونَ : إِنَّ الْمُسْلِمَ خَيْرٌ لِلْكَافِرِ وَلِلْمُنَافِقِ مِنْهُمَا لَهُ حُبًّا وَرَحْمَةً وَمُعَامَلَةً . وَكَذَلِكَ قَالُوا فِي السُّنِّيِّ مَعَ الْمُبْتَدِعِ كَمَا بَيَّنَ ذَلِكَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ ، قَالُوا : إِنَّ مِنْ عَلَامَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنْ يَرْحَمُوا الْمُخَالِفَ لَهُمْ وَلَا يَقْطَعُوا أُخُوَّتَهُ فِي الدِّينِ ؛ وَلِذَلِكَ يَذْكُرُونَ فِي كُتُبِ الْعَقَائِدِ " لَا نُكَفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ " بَلْ كَانَ رُوَاةُ الْحَدِيثِ مِنْ أَئِمَّةِ أَهْلِ السُّنَّةِ كَالْإِمَامِ أَحْمَدَ وَالْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَأَصْحَابِ السُّنَنِ يَرْوُونَ عَنِ الْخَوَارِجِ

وَالشِّيعَةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ لَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى مَذْهَبِ الرَّاوِي بَلْ إِلَى عَدَالَتِهِ فِي نَفْسِهِ . وَنَتِيجَةُ هَذَا كُلِّهِ : أَنَّ الْإِنْسَانَ يَكُونُ فِي التَّسَاهُلِ وَالْمَحَبَّةِ وَالرَّحْمَةِ لِإِخْوَانِهِ الْبَشَرِ عَلَى قَدْرِ تَمَسُّكِهِ بِالْإِيمَانِ الصَّحِيحِ وَقُرْبِهِ مِنَ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ فِيهِ ، وَكَيْفَ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ وَاللَّهُ يَقُولُ لِخِيَارِ الْمُؤْمِنِينَ : هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ فَبِهَذَا نَحْتَجُّ عَلَى مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ دِينَنَا يُغْرِينَا بِبُغْضِ الْمُخَالِفِ لَنَا كَمَا نَحْتَجُّ

عَلَى بَعْضِ الْجَاهِلِينَ مِنَّا بِدِينِهِمُ الَّذِينَ يَطْعَنُونَ بِبَعْضِ عُلَمَائِهِمْ وَفُضَلَائِهِمْ ، لِمُخَالَفَتِهِمْ إِيَّاهُمْ فِي مَذَاهِبِهِمْ وَآرَائِهِمْ ، أَوْ فِي ظُنُونِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ ، وَالَّذِينَ سَرَتْ إِلَيْهِمْ عَدْوَى الْمُتَعَصِّبِينَ ، فَاسْتَحَلُّوا هَضْمَ حُقُوقِ الْمُخَالِفِينَ لَهُمْ فِي الدِّينِ .

(173/128)

ثُمَّ قَالَ – تَعَالَى – شَأْنُهُ مُبَيِّنًا لِشَأْنِ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ أَسْنَدَهَا إِلَيْهِمْ فِي الْجُمْلَةِ عَلَى قَاعِدَةِ تَكَافُلِ الْأُمَّةِ

(174/128)

وكَوْنِهَا كَشَخْصٍ واحِدٍ : وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ كَانَ بَعْضُ الْيَهُودِ يُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْمُؤْمِنِينَ نِفَاقًا وَخِدَاعًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُظْهِرُهُ ثُمَّ يَرْجِعُ عَنْهُ لِيُشَكِّكَ الْمُسْلِمِينَ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي آيَةِ " 72 " مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ أَظْهَرُوا مَا فِي نُفُوسِهِمْ مِنَ الْغَيْظِ وَالْحِقْدِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُونَ مَعَهُ إِلَى التَّشَفِّي سَبِيلًا ، وَعَضُّ الْأَنَامِلِ : كِنَايَةٌ عَنْ شِدَّةِ الْغَيْظِ ، وَيُكَنَّى بِهِ أَيْضًا عَنِ النَّدَمِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ فَإِنَّ الْإِسْلَامَ الَّذِي هُوَ سَبَبُ غَيْظِكُمْ لَا يَزْدَادُ بِاعْتِصَامِ أَهْلِهِ بِهِ إِلَّا عِزَّةً وَقُوَّةً وَانْتِشَارًا ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : " مُوتُوا بِغَيْظِكُمُ الَّذِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ لِاجْتِمَاعِ كَلِمَتِهِمْ وَائْتِلَافِ جَمَاعَتِهِمْ " فَلْيَعْتَبِرِ الْمُسْلِمُونَ الْيَوْمَ بِهَذَا لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ أَنَّهُ مَا حَلَّ بِهِمْ مَا حَلَّ مِنَ الْأَرْزَاءِ إِلَّا بِزَوَالِ هَذَا الِاجْتِمَاعِ وَالِائْتِلَافِ وَبِالتَّفَرُّقِ بَعْدَ الِاعْتِصَامِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ فَهُوَ يَعْلَمُ مَا تَضُمُّ صُدُورُكُمْ مِنْ شُعُورِ الْغَيْظِ وَالْبَغْضَاءِ وَمَوْجِدَةِ الْحِقْدِ وَالْحَسَدِ ، فَكَيْفَ يَخْفَى عَلَيْهِ مَا تَقُولُونَ فِي خَلَوَاتِكُمْ وَمَا يُبْدِيهِ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ مِنْ ذَلِكَ وَيَعْلَمُ كَذَلِكَ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ صُدُورُنَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حُبِّ الْخَيْرِ وَالنُّصْحِ لَكُمْ .

ثُمَّ قَالَ مُبَيِّنًا حَسَدَهُمْ وَسُوءَ طَوِيَّتِهِمْ : إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا الْمَسُّ فِي الْأَصْلِ : كَاللَّمْسِ ، وَالْمُرَادُ بِـ تَمْسَسْكُمْ هُنَا تُصِبْكُمْ ، وَلَعَلَّ اخْتِيَارَ لَفْظِ الْمَسِّ فِي جَانِبِ الْحَسَنَةِ وَالْإِصَابَةِ فِي جَانِبِ السَّيِّئَةِ لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ أُولَئِكَ الْكَافِرِينَ يَسُوءُهُمْ مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ خَيْرٍ وَإِنْ قَلَّ ، بِأَنْ كَانَ لَا يَزِيدُ عَلَى مَا يُمَسُّ بِالْيَدِ وَإِنَّمَا يَفْرَحُونَ بِالسَّيِّئَةِ إِذَا أَصَابَتِ الْمُسْلِمِينَ إِصَابَةً يَشُقُّ احْتِمَالُهَا . هَذَا مَا كَانَ يَتَبَادَرُ إِلَى فَهْمِي وَلَكِنْ رَأَيْتُ صَاحِبَ الْكَشَّافِ يَجْعَلُهُمَا هُنَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ وَيَسْتَدِلُّ بِاسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِ لِكُلٍّ مِنْهَا فِي مَوْضِعِ الْآخَرِ ، وَيَقُولُ : إِنَّ الْمَسَّ مُسْتَعَارٌ لِلْإِصَابَةِ ، ثُمَّ خَطَرَ لِي أَنْ أُرَاجِعَ تَفْسِيرَ (أَبِي السُّعُودِ) فَإِذَا هُوَ يَقُولُ : " وَذِكْرُ الْمَسِّ مَعَ الْحَسَنَةِ وَالْإِصَابَةِ مَعَ السَّيِّئَةِ لِلْإِيذَانِ بِأَنَّ مَدَارَ مَسَاءَتِهِمْ أَدْنَى مَرَاتِبِ إِصَابَةِ الْحَسَنَةِ وَمَنَاطَ فَرَحِهِمْ تَمَامُ إِصَابَةِ السَّيِّئَةِ ، وَإِمَّا لِأَنَّ الْيَأْسَ مُسْتَعَارٌ لِمَعْنَى الْإِصَابَةِ " وَالْأَوَّلُ هُوَ الْوَجْهُ ، وَهُوَ مِنْ دَقَائِقِ الْبَلَاغَةِ الْعُلْيَا ، وَالْحَسَنَةُ : الْمَنْفَعَةُ سَوَاءٌ كَانَتْ حِسِّيَّةً

أَوْ مَعْنَوِيَّةً ، وَأَعْظَمُهَا انْتِشَارُ الْإِسْلَامِ وَدُخُولُ النَّاسِ فِيهِ وَانْتِصَارُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُعْتَدِينَ عَلَيْهِمُ الْمُقَاوِمِينَ لِدَعْوَتِهِمْ . قَالَ (قَتَادَةُ) فِي بَيَانِ ذَلِكَ كَمَا رَوَاهُ عَنْهُ ابْنُ جَرِيرٍ : " فَإِذَا رَأَوْا

مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ أُلْفَةً وَحِمَايَةً وَظُهُورًا عَلَى عَدُوِّهِمْ غَاظَهُمْ ذَلِكَ وَسَاءَهُمْ ، وَإِذَا رَأَوْا مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فُرْقَةً وَاخْتِلَافًا أَوْ أُصِيبَ طَرَفٌ مِنْ أَطْرَافِ الْمُسْلِمِينَ سَرَّهُمْ ذَلِكَ وَأُعْجِبُوا بِهِ وَابْتَهَجُوا بِهِ ، فَهُمْ كُلَّمَا خَرَجَ مِنْهُمْ قَرْنٌ أَكْذَبَ اللَّهُ أُحْدُوثَتَهُ وَأَوْطَأَ مَحَلَّتَهُ ، وَأَبْطَلَ حُجَّتَهُ وَأَظْهَرَ عَوْرَتَهُ ; فَذَلِكَ قَضَاءُ اللَّهِ فِيمَنْ مَضَى مِنْهُمْ وَفِيمَنْ بَقِيَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ " .

(177/128)

ثُمَّ أَرْشَدَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَا إِنْ تَمَسَّكُوا بِهِ سَلِمُوا مِنْ كَيْدِهِمُ الَّذِي يَدْفَعُهُمْ إِلَيْهِ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ فَقَالَ : وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ : وَإِنْ تَصْبِرُوا عَلَى عَدَاوَتِهِمْ وَتَتَّقُوا اتِّخَاذَهُمْ بِطَانَةً وَمُوَالَاتَهُمْ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ لِكَوْنِهِمْ بِمَعْزِلٍ عَنْكُمْ . وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ : وَإِنْ تَصْبِرُوا عَلَى مَشَاقِّ التَّكَالِيفِ وَامْتِثَالِ الْأَوَامِرِ عَامَّةً وَتَتَّقُوا مَا نُهِيتُمْ عَنْهُ وَخُطِرَ عَلَيْكُمْ - وَمِنْهُ اتِّخَاذُ الْبِطَانَةِ مِنْهُمْ - لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ . وَيَضُرُّكُمْ بِتَشْدِيدِ الرَّاءِ مِنَ الضَّرَرِ ، وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَنَافِعٌ وَأَبُو عَمْرٍو وَيَعْقُوبُ " يَضِرْكُمْ " بِكَسْرِ الضَّادِ وَسُكُونِ الرَّاءِ الْمُخَفَّفَةِ مِنْ ضَارَهُ يَضِيرُهُ ، وَالضَّيْرُ بِمَعْنَى الْمَضَرَّةِ . وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنَّ الصَّبْرَ يُذْكَرُ فِي الْقُرْآنِ فِي مَقَامِ مَا يَشُقُّ عَلَى النَّفْسِ ، وَحَبْسُ الْإِنْسَانِ سِرَّهُ عَنْ وَدِيدِهِ وَعَشِيرِهِ وَمُعَامِلِهِ وَقَرِيبِهِ مِمَّا يَشُقُّ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ مِنْ

لِذَاتِ النُّفُوسِ أَنْ تُفْضِيَ بِمَا فِي الضَّمِيرِ إِلَى مَنْ تَسْكُنُ إِلَيْهِ وَتَأْنَسُ بِهِ، فَلَمَّا نُهُوا عَنِ اتِّخَاذِ بِطَانَةٍ مِمَّنْ دُونَهُمْ مِنْ خُلَطَائِهِمْ وَعُشَرَائِهِمْ وَحُلَفَائِهِمْ وَعَلَّلَ بِمَا عَلَّلَ بِهِ مِنْ بَيَانِ بَغْضَائِهِمْ وَكَيْدِهِمْ حَسُنَ أَنْ يُذَكَّرُوا بِالصَّبْرِ عَلَى هَذَا لِتَكْلِيفِ الشَّاقِّ عَلَيْهِمْ، وَبِاتِّقَاءِ مَا يَجِبُ اتِّقَاؤُهُ لِأَجْلِ السَّلَامَةِ

مِنْ عَاقِبَةِ كَيْدِهِمْ. وَيَصِحُّ أَنْ يُرَادَ بِالتَّقْوَى: الْأَخْذُ بِوَصَايَاهُ وَامْتِثَالِ أَمْرِهِ - تَعَالَى - فِي الْبِطَانَةِ وَغَيْرِهَا.

أَقُولُ: وَمِنَ الِاعْتِبَارِ فِي الْآيَةِ أَنَّهُ - تَعَالَى - أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّبْرِ عَلَى عَدَاوَةِ أُولَئِكَ الْمُبْغِضِينَ الْكَائِدِينَ وَبِاتِّقَاءِ شَرِّهِمْ وَلَمْ يَأْمُرْهُمْ بِمُقَابَلَةِ كَيْدِهِمْ وَشَرِّهِمْ بِمِثْلِهِ، وَهَكَذَا شَأْنُ الْقُرْآنِ لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِالْمَحَبَّةِ وَالْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ وَدَفْعِ السَّيِّئَةِ بِالْحَسَنَةِ إِنْ أَمْكَنَ كَمَا قَالَ: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ [41 : 34] فَإِنْ لَمْ يُمْكِنْ تَحْوِيلُ الْعَدُوِّ إِلَى مُحِبٍّ بِدَفْعِ سَيِّئَاتِهِ بِمَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْهَا فَإِنَّهُ يُجِيزُ دَفْعَ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا مِنْ غَيْرِ بَغْيٍ وَلَا اعْتِدَاءٍ، كَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي مُعَامَلَةِ بَنِي النَّضِيرِ الَّذِينَ نَزَلَتِ الْآيَةُ فِيهِمْ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ; فَإِنَّهُ حَالَفَهُمْ وَوَادَّهُمْ فَنَكَثُوهُمْ وَخَانُوا غَيْرَ مَرَّةٍ:

أَعانُوا عَلَيْهِ قُرَيْشًا يَوْمَ بَدْرٍ وادَّعَوْا أَنَّهُمْ نَسُوا الْعَهْدَ ، ثُمَّ أَعانُوا الْأَحْزابَ الَّذِينَ تَحَزَّبُوا لِإِبادَةِ الْمُسْلِمِينَ ، ثُمَّ حاوَلُوا قَتْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،

فَتَعَذَّرَتْ مُوادَّتُهُمْ واسْتِمالَتُهُمْ بِالْمَحَبَّةِ وَحُسْنِ الْمُعامَلَةِ ، فَكانَ اللَّجْأُ إِلَى قِتالِهِمْ وَإِجْلائِهِمْ ضَرْبَةَ لازِبٍ .

(179/128)

ثُمَّ قالَ : إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ قالَ الْأُسْتاذُ الْإِمامُ ما مِثالُهُ : الْمُحِيطُ بِالْعَمَلِ هُوَ الْواقِفُ عَلَى دَقائِقِهِ ، فَهُوَ إِذا دَلَّ عَلَى طَرِيقِ النَّجاةِ لِعامِلٍ مِنْ كَيْدِ الْكائِدِينَ وَالْوَسِيلَةِ لِلْخَلاصِ مِنْ ضَرَرِهِمْ فَإِنَّما يَدُلُّ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُوصِلِ لِلنَّجاةِ حَتْمًا ، وَالْوَسِيلَةِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى النَّجاحِ قَطْعًا ، فَالْكَلامُ كالتَّعْلِيلِ لِكَوْنِ الِاسْتِعانَةِ بِالصَّبْرِ وَالتَّمَسُّكِ بِالتَّقْوَى شَرْطَيْنِ لِلنَّجاحِ . وَهُناكَ وَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ أَنَّ الْخِطابَ بِـ " تَعْمَلُونَ " عامٌّ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكافِرِينَ جَمِيعًا - يَعْنِي عَلَى قِراءَةِ الْحَسَنِ وَأَبِي حاتِمٍ " تَعْمَلُونَ " بِالْمُثَنّاةِ الْفَوْقِيَّةِ أَوْ عَلَى الِالْتِفاتِ - وَمَنْ كانَ عالِمًا بِعَمَلِ فَرِيقَيْنِ مُتَحادَّيْنِ مُحِيطًا بِأَسْبابِ ما يَصْدُرُ عَنْ كُلٍّ مِنْهُما وَمُقَدِّماتِهِ ، وَنَتائِجِهِ وَغاياتِهِ ، فَهُوَ الَّذِي يُعْتَمَدُ عَلَى إِرْشادِهِ فِي مُعامَلَةِ أَحَدِهِما لِلْآخَرِ ، وَلا يُمْكِنُ أَنْ يَعْرِفَ أَحَدُهُما مِنْ

نَفْسِهِ فِي حَاضِرِهَا وَآتِيهَا مَا يَعْرِفُهُ ذَلِكَ الْمُحِيطُ بِعَمَلِهِ وَعَمَلِ مَنْ يُنَاهِضُهُ وَيُنَاصِبُهُ ، فَهِدَايَةُ اللهِ - تَعَالَى - لِلْمُؤْمِنِينَ خَيْرُ مَا يَبْلُغُونَ بِهِ الْمَآرِبَ وَيَنْتَهُونَ بِهِ إِلَى أَحْسَنِ الْعَوَاقِبِ .

(180/128)

وَأَقُولُ : إِنَّ الْإِحَاطَةَ إِحَاطَتَانِ إِحَاطَةُ عِلْمٍ وَإِحَاطَةُ قُدْرَةٍ وَمَنْعٍ ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ الْإِحَاطَةَ عِلْمٌ لِتَعَلُّقِهَا بِالْعَمَلِ ; وَذَلِكَ مِنَ الْمَجَازِ الَّذِي وَرَدَ فِي التَّنْزِيلِ كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا [65 : 12] وَقَوْلِهِ : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ [10 : 39] وَأَمَّا الْإِحَاطَةُ بِالشَّخْصِ أَوْ بِالشَّيْءِ قُدْرَةً فَهِيَ تَأْتِي بِمَعْنَى مَنْعِهِ مِمَّا يُرَادُ بِهِ وَهَذَا لَيْسَ بِمُرَادٍ هُنَا ، وَبِمَعْنَى مَنْعِهِ مَا يُرِيدُهُ ، وَبِمَعْنَى التَّمَكُّنِ مِنْهُ ، وَمِنْهُ الْإِحَاطَةُ بِالْعَدُوِّ ، أَيْ أَخْذُهُ مِنْ

جَمِيعِ جَوَانِبِهِ بِالْفِعْلِ وَالتَّمَكُّنِ مِنْ ذَلِكَ وَمِنْهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ [2 : 81] وَقَوْلُهُ : إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ [11 : 92] وَقَوْلُهُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ [10 : 22] كُلُّ هَذَا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَإِنْ فُسِّرَ كُلُّ قَوْلٍ بِمَا يَلِيقُ بِهِ . فَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ مَا نَحْنُ فِيهِ ، وَالْمَعْنَى حِينَئِذٍ : أَنَّ اللهَ قَدْ دَلَّكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا يُنْجِيكُمْ مِنْ كَيْدِ عَدُوِّكُمْ فَعَلَيْكُمْ بَعْدَ الِامْتِثَالِ أَنْ تَعْلَمُوا أَنَّهُ مُحِيطٌ بِأَعْمَالِهِمْ إِحَاطَةَ قُدْرَةٍ تَمْنَعُهُمْ مِمَّا يُرِيدُونَ مِنْكُمْ

مَعُونَةً مِنْهُ لَكُمْ كَقَوْلِهِ : وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا [48 : 21] فَعَلَيْكُمْ بَعْدَ الْقِيَامِ بِمَا يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَثِقُوا بِهِ وَتَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ .

(181/128)

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ فِي الْآيَاتِ : قَوْلُهُ : هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ أَصْلُهُ " أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ " فَقُدِّمَتْ أَدَاةُ التَّنْبِيهِ الَّتِي تَلْحَقُ اسْمَ الْإِشَارَةِ أُولَاءِ عَلَى الضَّمِيرِ وَيُقَالُ فِي الْمُفْرَدِ : " هَا أَنَا ذَا " وَعَلَى ذَلِكَ فَقِسْ . وَإِعْرَابُهُ : هَا لِلتَّنْبِيهِ وَأَنْتُمْ مُبْتَدَأٌ وَأُولَاءِ خَبَرُهُ وَتُحِبُّونَهُمْ فِي مَوْضِعِ النَّصْبِ عَلَى الْحَالِ أَوْ خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ ، وَجَوَّزَ بَعْضُهُمْ أَنْ تَكُونَ (أُولَاءِ) اسْمًا مَوْصُولًا وَتُحِبُّونَهُمْ صِلَتُهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 4 صـ 66.78 ﴾

(182/128)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾

والقرآن كلام الله وله – سبحانه – الطلاقة التامة والغني الكامل ، والعبارات في المعنى الواحد قد تختلف لأن كل مقام له قوله ، وسبحانه يحدد بدقة متناهية اللفظ المناسب . .

إنه هو سبحانه الذي قال :

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلاَّ الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾

[المعارج : 19-23]

وهو سبحانه الذي قال :

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾

[النساء : 79]

إنه جل وعلا يتكلم عن المس في الشر والخير ، ومرة يتكلم عما يحدث للإنسان كإصابة في الخير أو في الشر ، وفي الآية التي نحن بصدد الخواطر عنها تجد خلافا في الأسلوب فسبحانه يقول : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ﴾ إنه لم يورد الأمر كله مَسًّا ، ولم يورده كله " إصابة " إنه كلام رب حكيم وعندما نتمعن في المعنى فإن الواحد منا يقول : هذا كلام لا يقوله إلا رب حكيم .

ولنتعرف الأن على " المس " و " الإصابة " بعض العلماء قال : إن المس والإصابة بمعنى

واحد ، بدليل قوله الحق :

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ﴾

[المعارج: 19-21]

(183/128)

ولكننا نقول إن المس هو إيجاد صلة بين الماس والممسوس فإذا مس الرجل امرأته ، فنحن نأمره بالوضوء فقط, لأنه مجرد التقاء الماس بالممسوس والأمر ليس أكثر من التقاء لا تحدث به الجنابة فلا حاجة للغسل ، أما الإصابة فهي التقاء وزيادة ؛ فالذي يضرب واحدا صفعة فإنه قد يورم صدغة ، فالكف يلتقي بالخد ، ويصيب الصدغ ، وهكذا نعرف أن هناك فرقا بين المس والإصابة ، وحين يقول الحق : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ . فمعنى ذلك أن الحسنة الواقعة بسيطة ، وليست كبيرة إنها مجرد غنيمة أو قليل من الخير . . وفي حياتنا اليومية نجد من يمتلئ غيظا لأن خصمه قد كسب عشرة قروش ، وقد يجد من يقول له : لماذا لا تدخر غيظك إلى أن يكسب مائة جنيه مثلا ؟ ومثل هذا الغيظ من الحسنة الصغيرة هو دليل على أن أي خير يأتي للمؤمنين إنما يسبب التعب والكدر للكافرين . فبمجرد مس الخير للمؤمنين يتعب الكافرين فماذا عن أمر السيئة ؟

إن الحق يقول : ﴿ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ إن الكافرين يفرحون لأي سوء يصيب المؤمنين مع أنه كان مقتضى الإنسانية أن ينقلب الحاسد راحما : وحسبك من حادث بامرئ ترى حاسديه له راحمينا

يعني حسبك من حادث ومصيبة تقع على إنسان أن الذي كان يحسده ينقلب راحما له ويقول : والله أنا حزنت من أجله .

إذن فلمّا تشتد إصابة المؤمنين أكانت تغير من موقف الكافرين ؟ لا ، كان أهل الكفر يفرحون في أهل الإيمان ، وإذا جاء خير أي خير للمؤمنين يحزنون فالحق يقول : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ والحسنة هي أي خير يمسهم مساً خفيفاً ، ﴿ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ ، فأنت مهما كادوا لك فلن يصيبوك بأذى .

(184/128)

إن المطلوب منك أن تصبر على عداوتهم ، وتصبر على شرّهم ، وتصبر على فرحهم في المصائب ، وتصبر على حزنهم من النعمة تصيبك أو تمسك ، اصبر فيكون عندك مناعة ؛ وكيدهم لن ينال منك اصبر واتق الله : لتضمن أن يكون الله في جانبك ، ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا

وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ .

وما الكيد ؟ الكيد هو أن تبيت وتحتال على إيقاع الضرر بالغير بحيث يبدو أنه كيدٌ من غيرك ، أي تدبر لغيرك لتضره . وأصل الكيد مأخوذ من الكيد والكبد ، وهما بمعنى واحد ، فما يصيب الكبد يؤلم ؛ لأن الكبد هو البضع القوي في الإنسان ، إذا أصابه شيء أعيى الإنسان وأعجزه ، ويقولون : فلان أصاب كبد الحقيقة أي توصل إلى نقطة القوة في الموضع الذي يحكي عنه .

وما معنى يبيتون ؟ قالوا : إن التبييت ليس دليل الشجاعة ، وساعة ترى واحداً يبيت ويمكر فاعرف أنه جبان ؛ لأن الشجاع لا يكيد ولا يمكر ، إنما يمكر ويكيد الضعيف الذي لا يقدر على المواجهة ، فإن تصبروا على مقتضيات عداواتهم وتتقوا الله لا يضركم كيدهم شيئا ؛ لأن الله يكون معكم .

ويذيل الحق الآية بالقول الكريم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ . وساعة ترى كلمة " محيط " فهذا يدلك على أنه عالم بكل شيء . والإحاطة : تعني ألا تشرد حاجة منه . وها هي ذي تجربة واقعية في تاريخ الإسلام ؛ يقول الحق فيها مؤكدا : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ وعلى كل منا أن يذكر صدق هذه القضية . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1720 .1723 ﴾

"فصل"

قال السيوطى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (118) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (119) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (120)

أخرج ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من يهود لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية ، فأنزل الله فيهم ينهاهم عن مباطنتهم تخوف الفتنة عليهم منهم ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ لا تتخذوا بطانة من دونكم ﴾ قال : هم المنافقون .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال : نزلت

في المنافقين من أهل المدينة . نهى المؤمنين أن يتولَّوهم .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني بسند جيد عن حميد بن مهران المالكي الخياط قال : سألت أبا غالب عن قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم . . . ﴾ الآية قال " حدثني أبو أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه قال : هم الخوارج " .

(186/128)

وأخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " لا تنقشوا في خواتيمكم عربياً ، ولا تستضيئوا بنار المشركين . فذكر ذلك للحسن فقال : نعم . لا تنقشوا في خواتيمكم محمداً ، ولا تستشيروا المشركين في شيء من أموركم " قال الحسن : وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب ، أنه قيل له إن هنا غلاماً من أهل الحيرة حافظاً كاتباً ، فلو اتخذته كاتباً قال : قد اتخذت إذن بطانة من دون المؤمنين .

وأخرج ابن جرير عن الربيع ﴿ لا تتخذوا بطانة ﴾ يقول : لا تستدخلوا المنافقين تتولوهم

دون المؤمنين .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي ﴿ ودوا ما عنتم ﴾ يقول : ما ضللتم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل ﴿ ودوا ما عنتم ﴾ يقول : ودّ المنافقون ما عنت المؤمنون في دينهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم ﴾ يقول : من أفواه المنافقين إلى إخوانهم من الكفار من غشهم للإسلام وأهله وبغضهم إياهم ﴿ وما تخفي صدورهم أكبر ﴾ يقول : ما تكنُّ صدورهم أكبر مما قد أبدوا بألسنتهم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ﴾ قال المؤمن خير للمنافق من المنافق للمؤمن يرحمه في الدنيا . لو يقدر المنافق من المؤمن على مثل ما يقدر عليه منه لأباد خضراءه .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة . مثله .

وأخرج إسحق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾ أي بكتابكم وكتابهم ، وبما مضى من الكتب قبل ذلك ، وهم يكفرون بكتابكم ، فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود ﴿ وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل ﴾ قال : هكذا ووضع أطراف أصابعه في فيه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ وإذا لقوكم . . . ﴾ الآية . قال : إذا لقوا المؤمنين ﴿ قالوا آمنا ﴾ ليس بهم إلا مخافة على دمائهم وأموالهم فصانعوهم بذلك ﴿ وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ يقول : مما يجدون في قلوبهم من الغيظ والكراهة لما هم عليه ، لو يجدون ريحاً لكانوا على المؤمنين .

وأخرج ابن جرير عن السدي ﴿ عضوا عليكم الأنامل ﴾ قال : الأصابع .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي الجوزاء قال : نزلت هذه الآية في الأباضية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل ﴿ إن تمسسكم حسنة ﴾ يعني النصر على العدوّ ، والرزق ، والخير ، يسؤهم ذلك ﴿ وإن تصبكم سيئة ﴾ يعني القتل والهزيمة والجهد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : إذا رأوا من أهل الإسلام إلفة وجماعة وظهوراً على عدوّهم غاظهم ذلك وساءهم ، وإذا رأوا من أهل الإسلام فرقة واختلافاً أو أصيب طرف من أطراف المسلمين سرهم ذلك وابتهجوا به .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم ﴾ مشددة برفع الضاد والراء. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 299. 301 ﴾

(188/128)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (112) لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (115) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (116) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (117) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ

خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (118) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (119) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (120) ﴾

(189/128)

التفسير : هذا خبر آخر من مستقبلات أحوال اليهود المعلومة بالوحي . والمعنى ضربت عليهم الذلة والهوان في عامة الأحوال بالقتل والسبي والنهب أينما وجدوا إلا معتصمين أو متلبسين أي إلا في حال اعتصامهم ﴿ بحبل من الله وحبل من الناس ﴾ يعني ذمة الله وذمة المسلمين ، فهما في حكم واحد أي لا عزلهم قط إلا هذه الواحدة وهي التجاؤهم إلى الذمة بقبول الجزية ، فحينئذٍ يكون دمهم محقوناً وما لهم مصوناً وهو نوع من العزة وقيل : حبل الله الإسلام ،

(190/128)

وحبل الناس الذمة . فعلى هذا يكون الواو بمعنى " أو " . وقيل : ذمة الله الجزية المنصوص عليها ، وذمة الناس ما يزيد الإمام عليها أو ينقص بالاجتهاد . وإنما صح الاستثناء المفرغ من الموجب نظراً إلى المعنى لأن ضرب الذلة عليهم معناه لا تنفك عنهم ﴿ وباؤا بغضب من الله ﴾ قيل : إنه من قولك " تبوأ فلان منزل كذا " والمعنى مكثوا في غضب الله . وسواء قولك حل بهم الغضب وحلوا بالغضب . ﴿ وضربت عليهم المسكنة ﴾ عن الحسن أن المراد بها الجزية ، وإنما أفردت بالذكر بعد الاستثناء ليعلم أنها باقية غير زائلة بعد اعتصامهم بالذمة .

وقال آخرون : المراد أنك لا ترى منهم ملكاً قاهراً ولا رئيساً مطاعاً لكنهم مستخفون في جميع النواحي والأكناف ، يظهرون من أنفسهم الفقر والمدقعة ألبتة . وباقي الآية قد مر تفسيره في البقرة إلا أنه سبحانه قال في هذا الموضع من هذه السورة وفي النساء ﴿ الأنبياء بغير حق ﴾ لأن جمع التكسير يفيد التكثير فذكر في الموضعين أعني في البقرة وفي أول السورة ما ينبىء عن القلة مع أن ذلك موافق لما بعده من جموع السلامة كالذين والصابئين

وغيرهما . ثم تدرج إلى ما هو نص في الكثرة في الموضعين الآخرين نعياً عليهم وتفظيعاً لشأنهم، ولمثل هذا عرّف الحق في البقرة إشارة إلى الحق الذي أذن الله أن تقتل النفس به وهو قوله: ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ [الأنعام: 151] ثم نكر في المواضع الباقية أي بغير ما حق أصلاً لا في نفس الأمر ولا بحسب معتقدهم وتدينهم . ﴿ لسوا سواء ﴾ كلام تام وما بعده كلام مستأنف للبيان . قال الفراء وابن الأنباري: تقديره من أهل الكتاب أمة قائمة ومنهم أمة مذمومة، إلا أنه أضمر ذكر هذا القسم على مذهب العرب من الاكتفاء بأحد الضدين لخطورهما بالبال معاً غالباً . قال أبو ذؤيب:

عاني إليها القلب إني لأمرها . . . مطيع فما أدري أرشد طلابها؟

(192/128)

أراد أم غيّ فاكتفى بذكر الرشد عن ضده . وتقول: زيد وعبد الله لا يستويان، زيد عاقل دين ذكي . فيغني هذا عن أن يقال: وعبد الله ليس كذلك . وقيل: وهو اختيار أبي عبيدة أن ﴿ أمة ﴾ مرفوعة ب ﴿ ليس ﴾ على لغة من قال: أكلوني البراغيث . أو هو بدل من الضمير على نحو ﴿ أسروا النجوى الذين ظلموا ﴾ [الأنبياء: 3] والتقدير: ليسوا سواء أمة قائمة وأمة مذمومة . وفي تفسير أهل الكتاب قولان: الأول وعليه الجمهور

أنهم اليهود والنصارى . قال ابن عباس ومقاتل : لما أسلم عبد الله بن سلام وأضرابه قالت أحبار اليهود : ما آمن بمحمد إلا شرارنا ، ولو كانوا من خيارنا لما تركوا دين آبائهم وقالوا لهم : لقد خسرتم حين استبدلتم بدينكم دنياً غيره فنزلت . وعن عطاء أنها نزلت في أربعين من أهل نجران ، واثنين وثلاثين من الحبشة ، وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى وصدقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم الثاني أنهم كل من أوتي الكتاب من أهل الأديان فعلى هذه يكون المسلمون منهم . عن ابن مسعود قال : أخر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة صلاة العشاء ، ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال : إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله في هذه الساعة غيركم . وفي رواية : فبشر صلى الله عليه وسلم أنه لا يصلي هذه الصلاة أحد من أهل الكتاب فأنزل الله هذه الآيات ﴿ ليسوا سواء ﴾ إلى قوله : ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ قال القفال رحمه الله : لا يبعد أن يقال : أولئك الحاضرون كانوا نفراً من مؤمني أهل الكتاب .

(193/128)

فقيل : ليس يستوي من أهل الكتاب هؤلاء الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم فأقاموا صلاة العشاء في الساعة التي ينام فيها غيرهم مع أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا . ولا يبعد

أيضاً أن يقال : المراد كل من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فسماهم الله أهل الكتاب كأنه قيل : أولئك الذين سموا أنفسهم بأهل الكتاب حالهم وصفتهم تلك الخصال الذميمة ، والمسلمون الذين سماهم الله تعالى أهل الكتاب حالهم وصفتهم كذا فكيف يستويان ؟ فيكون الغرض من هذه الآية تقرير فضيلة أهل الإسلام تأكيداً ما تقدم من قوله : ﴿ كنتم خير أمة ﴾ [آل عمران : 110] كقوله : ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾ [السجدة : 18] ثم إنه تعالى مدح الأمة المذكورة بصفات ثمان : الأولى : أنها قائمة . قيل : أي في الصلاة . وقيل : ثابتة على التمسك بدين الحق ملازمة له غير مضطربة . وقيل : أي مستقيمة عادلة من قولك : " أقمت العود فقام " بمعنى استقام . وههنا نكتة وهي أن الآية دلت على أن المسلم قائم بحق العبودية . وقوله : ﴿ قائما بالقسط ﴾ [آل عمران : 18] دل على أن المولى قام بحق الربوبية وهذه حقيقة قوله : ﴿ وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ﴾ [البقرة : 40] الصفة الثانية : ﴿ يتلون ﴾ أي أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل . فالتلاوة القراءة . وأصل الكلمة الإتباع . فكأن التلاوة هي إتباع اللفظ ، وآيات الله القرآن . وقد يراد بها أصناف مخلوقاته الدالة على صانعها . وآناء الليل ساعاته واحدها أنى مثل " معاً " و " أني " و " أنوا " مثل " نحى " و " تلو " . الصفة الثالثة : ﴿ وهم يسجدون ﴾ يحتمل أن يكون حالاً من ﴿ يتلون ﴾ كأنهم يقرأون في القرآن السجدة تخشعاً إلا أن ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم : " ألا إني نهيت أن أقرأ راكعاً

وساجداً " يأباه وأن يكون كلاماً مستقلاً أي يقومون تارة ويسجدون أخرى ويبتغون الفضل والرحمة بكل ما يمكن كقوله : ﴿ يبيتون لربهم سجداً

(194/128)

وقياماً ﴾ [الفرقان : 64] قال الحسن : يريح رأسه بقدميه وقدميه برأسه وذلك لإحداث النشاط والراحة ، وأن يكون المراد : وهم يصلون ويتهجدون . والصلاة تسمى سجدة وركعة وسبحة ، وأن يراد وهم يخضعون لله كقوله : ﴿ ولله يسجد من في السموات والأرض ﴾ [الرعد : 15] وعلى هذين الاحتمالين لا منع من كونه حالاً .

الصفة الرابعة : ﴿ يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ فالصفات المتقدمة إشارة إلى كمال حالهم في القوة العملية . وهذه إشارة إلى كمالهم بحسب القوة النظرية ، فإن حاصل المعارف معرفة المبدأ والمعاد . ولا يخفى أن غير مؤمني أهل الكتاب ليسوا من القبيلين في شيء بسبب تحريفاتهم واعتقاداتهم الفاسدة . الخامسة والسادسة : ﴿ ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ وهاتان الصفتان إشارة إلى أنهم فوق التمام وذلك لسعيهم في تكميل الناقصين بإرشادهم إلى ما ينبغي ومنعهم عما لا ينبغي .

وفيه تعريض بالأمة المذمومة أنهم كانوا مداهنين . وعن سفيان الثوري : إذا كان الرجل

محبباً في جيرانه محموداً عند إخوانه فاعلم أنه مداهن . الصفة السابعة ﴿ يسارعون في الخيرات ﴾ أي المذكورات كلها وهي من صفات المدح لأن المسارعة في الخير دليل فرط الرغبة فيه حتى لا يفوت ففي التأخير آفات . وما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : " العجلة من الشيطان " مخصوص بهذه الآية . على أنها لا تفيد كلية الحكم لأن القضية أهملت إهمالاً ، كيف لا والأمور متفاوتة .

(195/128)

منها ما يحمد فيه التأخير لكونه مما يحصل على مهل وتدريج فلو طلب منه خلاف وضعه فات الغرض وضاع السعي ، أو لكونه غير معلوم العاقبة فيفتقر إلى مزيد تدبر وتأمل . ومنها ما يحمد فيه التعجيل لضد ما قلنا فتنتهز فيه الفرصة وتغتنم ، فإن الفرص تمر مر السحاب . قال صلى الله عليه وسلم : " اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك " الصفة الثامنة : ﴿ أولئك من الصالحين ﴾ وذلك أن الأمور بخواتيمها والعاقبة غير معلومة إلا في علم الله تعالى فإذا أخبر عنهم بانخراطهم في سلك الصالحين فذلك المقصود وقصارى المجهود . ثم شرط للأمة الموصوفة بل بجميع المكلفين إيصال الجزاء إليهم ألبتة تأكيداً

للإخبار عنهم بقوله : ﴿ وأولئك من الصالحين ﴾ فقال : ﴿ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ﴾ أي لن يحرموا ثوابه ولن يمنعوه . فضمن الكفران معنى الحرمان ولهذا يعدى إلى مفعولين ، مع أن الأصل فيه التعدية إلى واحد نحو : شكر النعمة وكفرها . وسمى منع الجزاء كفراً كما سمى إيصال الثواب شكراً في قوله : ﴿ فإن الله شاكر عليم ﴾ [البقرة : 158] ثم ختم الكلام بقوله : ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ مع أنه عالم بكل الأشياء بشارة لهم بجزيل الثواب ، ولدلالة على أنه لا يفوز عنده بالكرامة إلا أهل التقوى ، وتنبيهاً على أن الملتزم لوعدهم هو معبودهم الحق القادر الغني الحميد الخبير الذي لا غاية لكرمه ولا نهاية لعلمه ، فما ظنك بمثيب هذا شأنه ؟ ! ثم بين أحوال أهل الشقاء بقوله : ﴿ إن الذين كفروا ﴾ الآية . وقد سبق تفسير مثله من أول السورة . ثم إنه لما بين أن أموال الكفار لا تغني عنهم شيئاً أمكن أن يخطر ببال أحد أن الذي ينفقون منه في وجوده الخيرات لعلهم ينتفعون بذلك فأزال ذلك الوهم بقوله : ﴿ مثل ما ينفقون ﴾ الآية . قال أكثر المفسرين وأهل اللغة : الصر البرد الشديد . وهو منقول عن ابن عباس وقتادة والسدي وابن

زيد . وفي الصحاح: الصر بالكسر برد يضر بالنبات والحرث . وعلى هذا فمعنى الآية: كمثل ريح فيها برد وذلك ظاهر . وجوز في الكشاف أن يكون الصر صفة معناه البارد فيكون موصوفة محذوفاً بمعنى فيها قرّة صر كما تقول: برد بارد على المبالغة، أو تكون " في " تجريدية كما يقال: رأيت فيك أسداً أي أنت أسد، وإن ضيعني فلان ففي الله كافٍ وكافل .

(197/128)

وقيل: الصر السموم الحارة . وروى ابن الأنباري بإسناده عن ابن عباس ﴿ فيها صر ﴾ قال: فيها نار . وعلى القولين، الغرض من التشبيه حاصل سواء كان برداً مهلكاً أو حرّاً محرقاً فإنه يصير مبطلاً للحرث فيصح التشبية . وهذا في التشبية المركب الذي مر ذكره في أول سورة البقرة . ويجوز أن يراد مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح، أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح وهو الحرث . والمراد ما كانوا ينفقون من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس لا يبتغون بها وجه الله، ولهذا قيده بقوله: ﴿ في هذه الحياة الدنيا ﴾ فشبه ذلك بالزرع الذي حسه البرد فصار حطاماً . وقيل: مثل ما ينفقون يعني أبا سفيان وأصحابه من سفلة اليهود المنفقين على أحبارهم في إيذاء رسول

الله صلى الله عليه وسلم وفي جمع العساكر عليه صلى الله عليه وسلم في كونه مبطلاً لما أتوا به قبل ذلك من أعمال البر، كمثل ريح فيها صر في كونه مبطلاً للحرث . والظاهر أن الضمير في ﴿ ينفقون ﴾ عائد إلى جميع الكفار . وذلك أن إنفاقهم إما أن يكون لمنافع الدنيا فلا يبقى له أثر في الآخرة في حق المسلم فضلاً عن الكافر، وإما أن يكون لمنافع الآخرة فالكفر مانع عن الانتفاع، ولعلهم كانوا ينفقون في الخيرات نحو بناء الرباطات والقناطر والإحسان إلى الضعفاء والأرامل راجين خيراً كثيراً في المعاد، لكنهم إذا قدموا الآخرة رأوا كفرهم مبطلاً لآثار تلك الخيرات، فكان كمن زرع زرعاً وتوقع منه نفعاً كبيراً فأصابه جائحة فلا يبقى معه إلا الحزن والأسف . ولعلهم كانوا ينفقون فيما ظنوه خيراً وهو معصية كإنفاق الأموال في إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم وفي تخريب ديار المسلمين . ولا يبعد أيضاً تفسير الآية بخيبتهم في الدنيا فإنهم أنفقوا أموالاً كثيرة في تجهيز الجيوش والإغراء على المسلمين وتحملوا المتاعب ثم انقلب الأمر عليهم وأظهر الله الإسلام وأعز أهله، فلم يبق مع الكفار

من ذلك الإنفاق إلا الحيرة والحسرة . وقيل : المراد بالإنفاق ههنا هو جميع أعمالهم التي يرجون الانتفاع بها في الآخرة كقوله : ﴿ لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ [البقرة : 188] والمراد جميع الانتفاعات . أما فائدة قوله : ﴿ ظلموا أنفسهم ﴾ وعدم الاقتصار على قوله : ﴿ أصابت حرث قوم ﴾ فهي أن الغرض تشبيه ما ينفقون بشيء يذهب بالكلية حتى لا يبقى منه أثر ولا عثر ، وحرث المسلم المطيع ليس كذلك لأنه إذا أصابته جائحة في الدنيا أبدله الله خيراً منه في الدنيا أو في الآخرة . فإن المسلم مثاب على كل ألم يصيبه حتى الشوكة يشاكها ، أما الذين عصوا الله فاستحقوا إهلاك حرثهم عقوبة لهم فحرثهم هو الذي لا يتصور منه بعد الإهلاك فائدة أصلاً .

(199/128)

ويحتمل أن يراد بالظلم ههنا وضع الزرع في غير موضعه . فإن من زرع لا في موضعه وفي غير أوانه ثم أصابته الآفة كان أولى بأن يصير ضائعاً . والضمير في ﴿ وما ظلمهم ﴾ للمنفقين أي ما ظلمهم بأن لم يقبل نفقاتهم ، ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث لم يأتوا بها مستحقة للقبول ، أو لأصحاب الحرث أي ما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم ، ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما ستحقوا به العقوبة . ثم إنه تعالى لما بالغ في شرح احوال المؤمنين والكافرين شرع في تحذير

المؤمنين من مخالطة الكافرين . قال ابن عباس ومجاهد : نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يصافون المنافقين ويواطؤن رجالاً من اليهود لما كان بينهم من القرابة والصداقة والحلف والجوار والرضاع ، فنهاهم الله عن مباطنتهم خوف الفتنة منهم عليهم وبطانة الرجل خصيصه وصفيه الذي يفضي إليه بشقوره أي أموره اللاصقة بالقلب المهمة له . الواحد شقر وأصله من البطن خلاف الظهر ، ومنه بطانة الثوب للذي يلي منه الجسد خلاف الظهارة ، نهاهم عن مودة كل كافر لأن قوله : ﴿ بطانة ﴾ نكرة في سياق النفي . وقوله : ﴿ من دونكم ﴾ يؤكد ذلك . وهو إما أن يتعلق ب ﴿ لا تتخذوا ﴾ ويكون صفة لبطانة أي بطانة كائنة من دونكم مجاوزة لكم والأول أولى ، لأن الغرض ليس هو النهي عن اتخاذ البطانة وإنما المقصود النهي عن الاتخاذ من غير أبناء جنسهم وأهل ملتهم بطانة ، وأنهم يقدمون الأهم والذي هم بشأنه أعنى . و " من " للتبيين وقيل : زائدة . ثم ذكر علة النهي فقال : ﴿ لا يألونكم خبالاً ﴾ يقال : ألا في الأمر يألو إذا قصر فيه ، ثم استعمل معدى إلى مفعولين في قولهم : " لا آلوك نصحاً أو جهداً " على التضمين أي لا أمنعك نصحاً . والخبال الفساد والنقصان ومنه رجل مخبول ومخبل ناقص العقل فاسدة . وقيل : خبالاً نصب على التمييز ، وقيل : مصدر في موضع الحال . والمعنى لا يتركون جهدهم في مضرتكم وفساد حالكم . ﴿ ودّوا ما عنتم ﴾ أي عنتكم على أن " ما " مصدرية

. والعنت الوقوع في أمر شاق ومنه يقال للعظم المجبور إذا أصابه شيء فهاضه قد أعنته . والمراد أحبوا وتمنوا أن يضروكم في دينكم ودنياكم أشد الضرر . والحاصل من الجملتين أنهم لا يقصرون في إفساد أموركم فإن لم يمكنهم ذلك لمانع من خارج فحب ذلك غير زائل عن قلوبهم ﴿ قد بدت البغضاء ﴾ هي شدة البغض كالضراء شدة الضر . والأفواه جمع الفم وأصله فوه بدليل تكسيره كسوط وأسواط . فحذفت الهاء تخفيفاً وأقيمت الميم مقام الواو لأنهما حرفان شفويان . وظهور البغضاء من اليهود واضح لقشرهم العصا وكشرهم عن الأنياب وعدم التقية في تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم والكتاب .

(201/128)

وأما من المنافقين فذلك أن المداجي لا بد أن ينفلت من لسانه ما يكشف عن نفاقه وخبث طويته . وعن قتادة قد بدت البغضاء لأوليائهم من المنافقين والكفار لاطلاع بعضهم بعضاً على ذلك . ﴿ وما تخفي صدورهم أكبر ﴾ لأن فلتات اللسان متناهية وكوامن الصدور تكاد تكون غير متناهية . ثم بيّن أن إظهار هذه الأسرار للمؤمنين من غاية العناية وحثهم على إعمال العقل في مدلولات هذه النصائح فقال : ﴿ قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون

﴾ من أهل العقول . وقيل : إن كنتم تعقلون الفصل بين ما يستحقه العدوّ والولي . ثم إن سياق هذه الجمل يحتمل أن يكون على سبيل تنسيق الصفات للبطانة كأنه قيل : لا تتخذوا بطانة غير آليكم خبالاً وادّين عنتكم بادية بغضاؤهم . وأما ﴿ قد بينا ﴾ فكلام مبتدأ ، أو أحسن من ذلك وأبلغ أن تكون الجمل مستأنفات كلها على جهة التعليل للنهي كما قلنا ، فكأنه قيل : لم لا نتخذهم بطانة ، فقيل : لأنهم لا يقصرون فقيل : لم يفعلون ذلك ؟ فقيل : لأنهم يودون عنتكم . ثم قيل : وما آية ودادة العنت ؟ فقيل : قد بدت والله أعلم . أما كون هذا التقدير أحسن فلأن الجمل المتعاقبة على سبيل التنسيق يتوسط بينها العاطف ولا عاطف ههنا ، وأما كونه أبلغ فلبناء الكلام على السؤال والجواب ولتقليل اللفظ وتكثير المعنى ولإثبات الدعاوى بالبراهين ، ولا يخفى جلالة قدر هذه الفوائد . ثم استأنف للتحذير نمطاً آخر من البيان مشتملاً على التوبيخ فقال : ﴿ ها أنتم أولاء ﴾ الخاطئون في موالاة منافقي أهل الكتاب ، ثم ذيله ببيان الخطأ وهو قوله : ﴿ تحبونهم ولا يحبونكم ﴾ لأنكم تريدون لهم الإسلام وهو خير الأشياء ويريدون لكم الكفر وهو أقبح الأشياء ، أو تحبونهم لما بينكم وبينهم من الرضاعة والقرابة ولا يحبونكم لاختلاف الدين ، أو تحبونهم لأنهم أظهروا لكم الإيمان ولا يحبونكم لتمكن الكفر في باطنهم ، أو تحبونهم لأنهم يظهرون لكم محبة الرسول ومحب المحبوب محبوب ولا

يحبونكم لأنكم تحبون الرسول وهم يبغضونه ومحب المبغوض مبغوض ، أو تحبونهم فتفشون إليهم أسراركم في أمور دينكم ولا يبحونكم لأنهم لا يفعلون مثل ذلك بكم ، أو تحبونهم لأنكم لا تريدون وقوعهم في المحن ولا يحبونكم لأنهم يتربصون بكم الدوائر . والحق أن هذه الاعتبارات وأمثالها مما لا تكاد تنحصر داخلة في الآية . ثم ذكر سبباً آخر مما يأبى أن يكون بينهما جامع فقال : ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾ وأضمر قرينه وهو " وهم لا يؤمنون به " لأن ذكر أحد الضدين يغني عن الآخر غالباً . والمراد بالكتاب الجنس كقولهم "كثر الدرهم في أيدي الناس " . وفي الكشاف : إن الواو في ﴿ وتؤمنون ﴾ للحال ، واللام في ﴿ الكتاب ﴾ للعهد أي لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم كله . وفيه توبيخ شديد لأنهم في باطنهم أصلب منكم في حقكم .

(203/128)

ثم ذكر مضادة أخرى فقال : ﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا ﴾ أحدثنا الدخول في الإيمان ﴿ وأذا خلوا عضوا ﴾ ويوصف المغتاظ أو النادم بعض الأنامل والبنان والإبهام لأن هذا الفعل كثيراً ما يصدر منهما فجعل كناية عن الغضب والندم ، وإن لم يكن هناك عض وإنما

حصل لهم هذا الغيظ وهو شدة الغضب لما رأوا من ائتلاف المؤمنين وعلو دينهم وارتفاع شأنهم ﴿ قل موتو بغيظكم ﴾ دعاء عليهم بأن يزداد ما يوجب غيظهم من قوة الإسلام وعز أهله ، فإن ذلك يتضمن ذلهم وخزيهم . والحاصل أنه أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بأن الله تعالى أتاح أن يظهر دين الإسلام على الأديان كلها والمقدر كائن ، فإن كان هذا سبباً لغيظكم فلا محالة يكون موتكم على هذا الغيظ . ثم إن قوله : ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ أي بصواحباتها وهي الخواطر القائمة بالقلب والدواعي والصوارف الموجودة فيه . إن كان داخلاً في جمل المقول ، فمعناه أخبرهم بما يسرونه من الغيظ وقل لهم : إن غيظكم سيزداد إلى أن يذيبكم أو تموتوا عليه ، وقل لهم : إن الله يعلم ما هو أخفى مما تسرونه وهو مضمرات القلوب وخفياتها . وإن كان خارجاً فالمعنى قل لهم ذلك يا محمد ولا تتعجب من إطلاعي إياك على أسرارهم فإني أعلم ما أضمره الخلائق ولم يظهروه على ألسنتهم أصلاً . ويجوز أن لا يكون أمراً بالقول لفظاً بل يراد حدّث نفسك بأنهم سيهلكون غيظاً وحسداً ، فيكون أمراً للرسول بطيب النفس وقوة الرجاء والاستبشار بوعد الله ونصره . ثم ذكر نوعاً آخر من مضادتهم ومعاداتهم فقال : ﴿ إن تمسسكم حسنة ﴾ أي حسنة كانت من منافع الدنيا كالصحة والخصب والغنيمة والظفر على الأعداء والائتلاف بين الأحباء ﴿ تسؤهم ﴾ ساره يسوءه نقيض سره يسره ﴿ وإن تصبكم سيئة ﴾ ضد من أضداد ما عددنا . ﴿ يفرحوا بها ﴾ ولم يفرق صاحب الكشاف ههنا بين المس

والإصابة وجعل المعنى واحداً . وأقول : يشبه أن يكون المس أقل من الإصابة وأنه أدخل في بيان شدة العداوة

(204/128)

، وذلك أن الحسد لا ينهض لقليل من الخير إلا أن يكون هناك كمال البغض ، والشماتة قلما توجد إذا أصاب العدوّ بلية عظمى كما قيل :

عند الشدائد تذهب الأحقاد . . . إلا أن يكون ثمة غاية الحقد . وإذا كان حال القوم مع المسلمين في القضيتين بالخلاف دل ذلك على شدة بغضهم ونهاية حقدهم ، وعلى هذا فلا يبعد أن يقال التنوين في ﴿ حسنة ﴾ للتقليل وفي ﴿ سيئة ﴾ للتعظيم ﴿ وإن تصبروا ﴾ على عداوتهم ﴿ وتتقوا ﴾ ما نهيتم عنه من موالاتهم ، أو إن تصبروا على أوامر الله تعالى وتتقوا محارمه ﴿ لا يضركم كيدهم ﴾ وهو احتيال الإنسان لإيقاع غيره في مكروه . وقال ابن عباس : هو العداوة . ﴿ شيئاً ﴾ من الضرر بل كنتم في كنف الله وحفظه . وفيه إرشاد من الله تعالى إلى أن يستعان على دفع مكايد الأعداء بالصبر والتقوى ، فمن كان لله كان الله له .

وفي كلام الحكماء إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلاً في نفسك . وقال بعضهم :

إذا ما شئت إرغام الأعادي . . . بلا سيف يسل ولا سنان

فزد في مكرماتك فهي أعدى . . . على الأعداء من نوب الزمان

﴿ إن الله بما يعملون ﴾ في عداوتكم أو بما تعملون أنتم من الصبر والتقوى . ﴿ محيط ﴾ فيجازي كل أحد بما هو أهله .

أهـ ﴿غرائب القرآن حـ 2 صـ 238.245 ﴾

(205/128)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (93) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (120) ﴾

في هذا الدرس تبلغ المعركة ذروتها . معركة الجدل والمناظرة مع أهل الكتاب . وهذه

الآيات غير داخلة في نطاق مناظرة وفد نجران - كما ذكرت الروايات - ولكنها متساوقة، معها ومكملة لها، والموضوع واحد. وإن كانت آيات هذا الدرس تتمحض للحديث عن اليهود خاصة، وتواجه كيدهم ودسهم للجماعة المسلمة في المدينة. وتنتهي إلى الحسم القاطع، والمفاصلة الكاملة. حيث يتجه السياق بعد جولة قصيرة في هذا الدرس إلى الجماعة المسلمة يخاطبها وحدها؛ فيبين لها حقيقتها، ومنهجها، وتكاليفها. على نحو ما سار السياق في سورة البقرة بعد استيفاء الحديث عن بني إسرائيل.. وفي هذه الظاهرة تشابه السورتان.

ويبدأ الدرس بتقرير أن كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل - إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة - ويبدو أن هذا التقرير كان رداً على اعتراض بني إسرائيل على إباحة القرآن لبعض المحرمات اليهودية من الطعام. مع أن هذه المحرمات إنما حرمت عليهم وحدهم، في صورة عقوبة على بعض مخالفاتهم.

ثم يرد كذلك على اعتراضهم على تحويل القبلة - ذلك الموضوع الذي استغرق مساحة واسعة في سورة البقرة من قبل - فيبين لهم أن الكعبة هي بيت إبراهيم؛ وهي أول بيت وضع للناس في الأرض للعبادة، فالاعتراض عليه مستنكر ممن يدعون وراثة إبراهيم!

وعقب هذا البيان يندد بأهل الكتاب لكفرهم بآيات الله، وصدهم عن سبيل الله؛ ورفضهم الاستقامة، وميلهم إلى الخطة العوجاء، ورغبتهم في سيطرتها على الحياة، وهم يعرفون الحق ولا يجهلونه.

ومن ثم يدعو أهل الكتاب جملة؛ ويتجه إلى الجماعة المسلمة، يحذرها طاعة أهل الكتاب.. فإنها الكفر.. ولا يليق بالمسلمين الكفر وكتاب الله يتلى عليهم، وفيهم رسوله يعلمهم. ويدعوهم إلى تقوى الله، والحرص على الإسلام حتى الوفاة ولقاء الله. ويذكرهم نعمة الله عليهم بتأليف قلوبهم، وتوحيد صفوفهم تحت لواء الإسلام، بعد ما كانوا فيه من فرقة وخصام، وهم يومئذ على شفا حفرة من النار أنقذهم منها الله بالإسلام. ويأمرهم بأن يكونوا الأمة التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، محافظة على تحقيق منهج الله، مع تحذيرهم الاستماع لدسائس أهل الكتاب فيهم، فيهلكوا بالفرقة كما تفرق هؤلاء فهلكوا في الدنيا والآخرة.. وتذكر الروايات أن هذا التحذير نزل بمناسبة فتنة معينة بين الأوس والخزرج قام بها اليهود.

ثم يعرّف الله المسلمين حقيقة مكانهم في هذه الأرض، وحقيقة دورهم في حياة البشر:

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾.. فيدلهم بهذا على أصالة دورهم، وعلى سمة مجتمعهم..

يلي ذلك التهوين من شأن عدوهم فهم لن يضروهم في دينهم ، ولن يظهروا عليهم ظهوراً تاماً مستقراً .

(207/128)

إنما هو الأذى في جهادهم وكفاحهم ، ثم النصر ما استقاموا على منهجهم . وهؤلاء الأعداء قد ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ، بسبب ما اقترفوه من الآثام والمعصية وقتل الأنبياء بغير حق . . ويستثني من أهل الكتاب طائفة جنحت للحق ، فآمنت ، واتخذت منهج المسلمين منهجاً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسعي في الخيرات . . ﴿ وأولئك من الصالحين ﴾ . . ويقرر مصير الذين كفروا فلم يجنحوا للإسلام ؛ فهم مأخوذون بكفرهم ، لا تنفعهم أموال ينفقونها ، ولا تغني عنهم أولاد ، وعاقبتهم البوار .

وينتهي الدرس بتحذير الذين آمنوا من اتخاذ بطانة من دونهم ، يودون لهم العنت . وتنفث أفواههم البغضاء ، وما تخفي صدورهم أكبر ، ويعضون عليهم الأنامل من الغيظ .

ويفرحون لما ينزل بساحتهم من السوء ؛ ويسوؤهم الخير ينال المؤمنين . . ويعدهم الله بالكلاءة والحفظ من كيد هؤلاء الأعداء ما صبروا واتقوا ﴿ إن الله بما يعملون محيط

﴾ . .

ويدل هذا التوجيه الطويل، المنوّع الإيحاءات، على ما كانت تعانيه الجماعة المسلمة حينذاك من كيد أهل الكتاب ودسهم في الصف المسلم؛ وما كان يحدثه هذا الدس من بلبلة. كما أنه يشي بحاجة الجماعة إلى التوجيه القوي، كي يتم لها التميز الكامل، والمفاصلة الحاسمة، من كافة العلاقات التي كانت تربطها بالجاهلية وبأصدقاء الجاهلية! ثم يبقى هذا التوجيه يعمل في أجيال هذه الأمة، ويبقى كل جيل مطالباً بالحذر من أعداء الإسلام التقليديين. وهم هم تختلف وسائلهم، ولكنهم لا يختلفون!

﴿كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل - إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة - قل: فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين. فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾.

(208/128)

لقد كان اليهود يتصيدون كل حجة، وكل شبهة، وكل حيلة، لينفذوا منها إلى الطعن في صحة الرسالة المحمدية، وإلى بلبلة الأفكار وإشاعة الاضطراب في العقول والقلوب. .

فلما قال القرآن: إنه مصدق لما في التوراة برزوا يقولون: فما بال القرآن يحلل من الأطعمة ما

حرم على بني إسرائيل ؟ وتذكر الروايات أنهم ذكروا بالذات لحوم الإبل وألبانها . . وهي محرمة على بني إسرائيل . وهناك محرمات أخرى كذلك أحلها الله للمسلمين .

وهنا يردهم القرآن إلى الحقيقة التاريخية التي يتجاهلونها للتشكيك في صحة ما جاء في القرآن من أنه مصدق للتوراة ، وأنه مع هذا أحل للمسلمين بعض ما كان محرماً على بني إسرائيل . . هذه الحقيقة هي أن كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل - إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة - وإسرائيل هو يعقوب - عليه السلام - وتقول الروايات إنه مرض مرضاً شديداً ، فنذر لله لئن عافاه ليمتنعن - تطوعاً - عن لحوم الإبل وألبانها وكانت أحب شيء إلى نفسه . فقبل الله منه نذره .

وجرت سنة بني إسرائيل على اتباع أبيهم في تحريم ما حرم . . كذلك حرم الله على بني إسرائيل مطاعم أخرى عقوبة لهم على معصيات ارتكبوها . وأشير إلى هذه المحرمات في آية " الأنعام " : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ، ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾ وكانت قبل هذا التحريم حلالاً لبني إسرائيل .

يردهم الله سبحانه إلى هذه الحقيقة ، ليبين أن الأصل في هذه المطاعم هو الحل ، وأنها إنما حرمت عليهم لملابسات خاصة بهم . فإذا أحلها للمسلمين فهذا هو الأصل الذي لا يثير الاعتراض ، ولا الشك في صحة هذا القرآن ، وهذه الشريعة الإلهية الأخيرة .

ويتحداهم أن يرجعوا إلى التوراة ، وأن يأتوا بها ليقرأوها ، وسيجدون فيها أن أسباب التحريم خاصة بهم ، وليست عامة .

(209/128)

﴿ قل : فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ . .

ثم يهدد من يفتري الكذب منهم على الله بأنه إذن ظالم ، لا ينصف الحقيقة ، ولا ينصف نفسه ، ولا ينصف الناس . وعقاب الظالم معروف ، فيكفي أن يوصموا بهذه الوصمة ، ليتقرر نوع العذاب الذي ينتظرهم . وهم يفترون الكذب على الله . وهم إليه راجعون . .

كذلك كان اليهود يبدئون ويعيدون في مسألة تحويل القبلة إلى الكعبة ، بعد أن صلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى بيت المقدس حتى الشهر السادس عشر أو السابع عشر من الهجرة . . ومع أن هذا الموضوع قد نوقش مناقشة كاملة وافية في سورة البقرة من قبل ، وتبين أن اتخاذ الكعبة قبلة للمسلمين هو الأصل وهو الأولى ، وأن اتخاذ بيت المقدس هذه الفترة كان لحكمة معينة بينها الله في حينها . . مع هذا فقد ظل اليهود يبدئون في هذا الموضوع ويعيدون ، ابتغاء البلبلة والتشكيك واللبس للحق الواضح الصريح - على مثال ما يصنع اليوم أعداء هذا الدين بكل موضوع من موضوعات هذا الدين ! وهنا يرد الله

عليهم كيدهم ببيان جديد .

﴿ قل : صدق الله ، فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين . إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين . فيه آيات بينات : مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا . ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ . .

ولعل الإشارة هنا في قوله : ﴿ قل صدق الله . . ﴾ تعني ما سبق تقريره في هذا الأمر ، من أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل ليكون مثابة للناس وأمناً ، وليكون للمؤمنين بدينه قبلة ومصلى : ومن ثم يجيء الأمر باتباع إبراهيم في ملته . وهي التوحيد الخالص المبرأ من الشرك في كل صورة :

﴿ فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين ﴾ .

واليهود كانوا يزعمون أنهم هم ورثة إبراهيم . فها هو ذا القرآن يدلهم على حقيقة دين إبراهيم ؛ وأنه الميل عن كل شرك .

ويؤكد هذه الحقيقة مرتين: مرة بأنه كان حنيفاً . ومرة بأنه ما كان من المشركين . فما بالهم هم مشركين ! !

ثم يقرر أن الاتجاه للكعبة هو الأصل . فهي أول بيت وضع في الأرض للعبادة وخصص لها ، مذ أمر الله إبراهيم أن يرفع قواعده . . وأن يخصصه للطائفين والعاكفين والركع السجود . وجعله مباركاً وجعله هدى للعالمين ، يجدون عنده الهدى بدين الله ملة إبراهيم . وفيه علامات بينة على أنه مقام إبراهيم . . (ويقال : إن المقصود هو الحجر الأثري الذي كان إبراهيم – عليه السلام – يقف عليه في أثناء البناء . وكان ملصقاً بالكعبة فأخره عنها الخليفة الراشد عمر – رضي الله عنه – حتى لا يشوش الذين يطوفون به على المصلين عنده . وقد أمر المسلمون أن يتخذوه مصلى بقوله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ . .)

(211/128)

ويذكر من فضائل هذا البيت أن من دخله كان آمناً . فهو مثابة الأمن لكل خائف . وليس هذا لمكان آخر في الأرض . وقد بقي هكذا مذ بناه إبراهيم وإسماعيل . وحتى في جاهلية العرب ، وفي الفترة التي انحرفوا فيها عن دين إبراهيم ، وعن التوحيد الخالص الذي

يمثله هذا الدين . . حتى في هذه الفترة بقيت حرمة هذا البيت سارية ، كما قال الحسن البصري وغيره : "كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة ، ويدخل الحرم ، فيلقاه ابن المقتول ، فلا يهيجه حتى يخرج" . . وكان هذا من تكريم الله سبحانه لبيته هذا ، حتى والناس من حوله في جاهلية ! وقال - سبحانه - يمتن على العرب به : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ؟ ﴾ وحتى إنه من جملة تحريم الكعبة حرمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره ، وحرمة قطع شجرها . . وفي الصحيحين - واللفظ لمسلم - عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم فتح مكة : "إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ، ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار . فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها ، ولا يختلى خلاه . . . إلخ"

فهذا هو البيت الذي اختاره الله للمسلمين قبلة . . هو بيت الله الذي جعل له هذه الكرامة . وهو أول بيت أقيم في الأرض للعبادة . وهو بيت أبيهم إبراهيم ، وفيه شواهد على بناء إبراهيم له . والإسلام هو ملة إبراهيم . فبيته هو أولى بيت بأن يتجه إليه المسلمون . وهو مثابة الأمان في الأرض . وفيه هدى للناس ، بما أنه مثابة هذا الدين .

ثم يقرر أن الله فرض على الناس أن يحجوا إلى هذا البيت ما تيسر لهم ذلك .

وإلا فهو الكفر الذي لا يضر الله شيئاً :

﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا . ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ .

(212/128)

ويلفت النظر - في التعبير - هذا التعميم الشامل في فرضية الحج : ﴿ على الناس ﴾ . . ففيه أولاً إيحاء بأن هذا الحج مكتوب على هؤلاء اليهود الذين يجادلون في توجه المسلمين إليه في الصلاة . على حين أنهم هم أنفسهم مطالبون من الله بالحج إلى هذا البيت والتوجه إليه ، بوصفه بيت أبيهم إبراهيم ، وبوصفه أول بيت وضع للناس للعبادة . فهم - اليهود - المنحرفون المقصرون العاصون ! وفيه ثانياً إيحاء بأن الناس جميعاً مطالبون بالإقرار بهذا الدين ، وتأدية فرائضه وشعائره ، والاتجاه والحج إلى بيت الله الذي يتوجه إليه المؤمنون به . . هذا وإلا فهو الكفر . مهما ادعى المدعون أنهم على دين ! والله غني عن العالمين . فما به من حاجة - سبحانه - إلى إيمانهم وحجهم . إنما هي مصلحتهم وفلاحهم بالإيمان والعبادة . .

والحج فريضة في العمر مرة ، عند أول ما تتوافر الاستطاعة . من الصحة وإمكان السفر

وأمن الطريق . . ووقت فرضها مختلف فيه . فالذين يعتمدون رواية أن هذه الآيات نزلت في عام الوفود - في السنة التاسعة - يرون أن الحج فرض في هذه السنة . ويستدلون على هذا بأن حجة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كانت فقط بعد هذا التاريخ . . وقد قلنا عند الكلام على مسألة تحويل القبلة في الجزء الثاني من الظلال : إن حجة الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا دليل فيها على تأخر فرضية الحج . فقد تكون لملابسات معينة . منها أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت عرايا ، ما يزالون يفعلون هذا بعد فتح مكة . فكره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يخالطهم ، حتى نزلت سورة براءة في العام التاسع ، وحرم على المشركين الطواف بالبيت . . ثم حج - صلى الله عليه وسلم - حجته في العام الذي يليه . . ومن ثم فقد تكون فرضية الحج سابقة على ذلك التاريخ ، ويكون نزول هذه الآية في الفترة الأولى من الهجرة بعد غزوة أحد أو حواليها .

(213/128)

وقد تقررت هذه الفريضة على كل حال بهذا النص القاطع ، الذي يجعل لله - سبحانه - حق حج البيت على ﴿ الناس ﴾ من استطاع إليه سبيلا .

والحج مؤتمر المسلمين السنوي العام . يتلاقون فيه عند البيت الذي صدرت لهم الدعوة

منه . والذي بدأت منه الملة الحنيفية على يد أبيهم إبراهيم . والذي جعله الله أول بيت في الأرض لعبادته خالصاً . فهو تجمع له مغزاه ، وله ذكرياته هذه ، التي تطوف كلها حول المعنى الكريم ، الذي يصل الناس بخالقهم العظيم . . معنى العقيدة . استجابة الروح لله الذي من نفخة روحه صار الإنسان إنساناً .

وهو المعنى الذي يليق بالأناسي أن يتجمعوا عليه ، وأن يتوافدوا كل عام إلى المكان المقدس الذي انبعث منه النداء للتجمع على هذا المعنى الكريم . .

بعد هذا البيان يلقن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يتجه إلى أهل الكتاب بالتنديد والتهديد ، على موقفهم من الحق الذي يعلمونه ، ثم يصدون عنه ، ويكفرون بآيات الله .

وهم شهداء على صحتها ، وهم من صدقها على يقين :

﴿ قل : يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ، والله شهيد على ما تعملون ؟ قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء ؟ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ . .

وقد تكرر مثل هذا التنديد في هذه السورة ، وفي سور غيرها كثيرة . وأول ما يتركه هذا التنديد من أثر هو مجابهته أهل الكتاب بحقيقة موقفهم ، ووصفهم بصفتهم ، التي يدارونها بمظهر الإيمان والتدين ، بينما هم في حقيقتهم كفار . فهم يكفرون بآيات الله القرآنية . ومن يكفر بشيء من كتاب الله فقد كفر بالكتاب كله . ولو أنهم آمنوا بالنصيب الذي معهم لآمنوا

بكل رسول جاء من عند الله بعد رسولهم . فحقيقة الدين واحدة . من عرفها عرف أن كل ما يجيء به الرسل من بعد حق ، وأوجب على نفسه الإسلام لله على أيديهم . . وهي حقيقة من شأنها أن تهزهم وأن تخوفهم عاقبة ما هم فيه .

(214/128)

ثم إن المخدوعين من الجماعة المسلمة بكون هؤلاء الناس أهل كتاب ، يسقط هذا الخداع عنهم ، وهم يرون الله – سبحانه – يعلن حقيقة أهل الكتاب هؤلاء ، ويدمغهم بالكفر الكامل الصريح . فلا تبقى بعد هذا ريبة لمستريب .

وهو – سبحانه – يهددهم بما يخلع القلوب :

﴿ والله شهيد على ما تعملون ﴾ . . ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ . .

وهو تهديد رعيب ، حين يحس إنسان أن الله يشهد عمله . وأنه ليس بغافل عنه . بينما عمله هو الكفر والخداع والإفساد والتضليل !

ويسجل الله تعالى عليهم معرفتهم بالحق الذي يكفرون به ، ويصدون الناس عنه :

﴿ وأنتم شهداء ﴾ . .

مما يجزم بأنهم كانوا على يقين من صدق ما يكذبون به ، ومن صلاح ما يصدون الناس عنه .

وهو أمر بشع مستنكر ، لا يستحق فاعله ثقة ولا صحبة ، ولا يستأهل إلا الاحتقار والتنديد !

ولا بد من وقفة أمام وصفة تعالى لهؤلاء القوم بقوله :

﴿ لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً . . . ؟ ﴾

إنها لفتة ذات مغزى كبير . . إن سبيل الله هو الطريق المستقيم . وما عداه عوج غير مستقيم . وحين يصد الناس عن سبيل الله ؛ وحين يصد المؤمنون عن منهج الله ، فإن الأمور كلها تفقد استقامتها ، والموازين كلها تفقد سلامتها ، ولا يكون في الأرض إلا العوج الذي لا يستقيم .

إنه الفساد . فساد الفطرة بانحرافها . وفساد الحياة باعوجاجها . . وهذا الفساد هو حصيلة صد الناس عن سبيل الله ، وصد المؤمنين عن منهج الله .

(215/128)

. وهو فساد في التصور . وفساد في الضمير . وفساد في الخلق . وفساد في السلوك . وفساد في الروابط . وفساد في المعاملات . وفساد في كل ما بين الناس بعضهم وبعض من ارتباطات . وما بينهم وبين الكون الذي يعيشون فيه من أواصر . . وإما أن يستقيم الناس

على منهج الله فهي الاستقامة والصلاح والخير ، وإما أن ينحرفوا عنه إلى أية وجهة فهو العوج والفساد والشر . وليس هنالك إلا هاتان الحالتان ، تتعاوران حياة بني الإنسان : استقامة على منهج الله فهو الخير والصلاح ، وانحراف عن هذا المنهج فهو الشر والفساد !

وحين يصل السياق إلى هذا الحد ينهي الجدل مع أهل الكتاب ، ويغفل شأنهم كله . ويتجه إلى الجماعة المسلمة بالخطاب ، والتحذير ؛ والتنبيه والتوجيه . وبيان خصائص الجماعة المسلمة وقواعد منهجها وتصورها وحياتها ؛ وطبيعة وسائلها لتحقيق المنهج الذي ناطه الله بها :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ؟ ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴾ . .

لقد جاءت هذه الأمة المسلمة لتنشىء في الأرض طريقها على منهج الله وحده ، متميزة متفردة ظاهرة . لقد انبثق وجودها ابتداء من منهج الله ؛ لتؤدي في حياة البشر دوراً خاصاً لا ينهض به سواها . لقد وجدت لإقرار منهج الله في الأرض ، وتحقيقه في صورة عملية ، ذات معالم منظورة ، تترجم فيها النصوص إلى حركات وأعمال ، ومشاعر وأخلاق ، وأوضاع وارتباطات .

وهي لا تحقق غاية وجودها ، ولا تستقيم على طريقها ، ولا تنشىء في الأرض هذه

الصورة الوضيئة الفريدة من الحياة الواقعية الخاصة المتميزة ، إلا إذا تلقت من الله وحده ، وإلا إذا تولت قيادة البشرية بما تتلقاه من الله وحده . قيادة البشرية . . لا التلقي من أحد من البشر ، ولا اتباع أحد من البشر ، ولا طاعة أحد من البشر . . إما هذا وإما الكفر والضلال والانحراف . .

(216/128)

هذا ما يؤكده القرآن ويكرره في شتى المناسبات . وهذا ما يقيم عليه مشاعر الجماعة المسلمة وأفكارها وأخلاقها كلما سنحت الفرصة . . وهنا موضع من هذه المواضع ، مناسبته هي المناظرة مع أهل الكتاب ، ومواجهة كيدهم وتآمرهم على الجماعة المسلمة في المدينة . . ولكنه ليس محدوداً بحدود هذه المناسبة ، فهو التوجيه الدائم لهذه الأمة ، في كل جيل من أجيالها ، لأنه هو قاعدة حياتها ، بل قاعدة وجودها .

لقد وجدت هذه الأمة لقيادة البشرية . فكيف تتلقى إذن من الجاهلية التي جاءت لتبدلها ولتصلها بالله ، ولتقودها بمنهج الله ؟ وحين تتخلى عن مهمة القيادة فما وجودها إذن ، وليس لوجودها – في هذه الحال – من غاية ؟ !

لقد وجدت للقيادة : قيادة التصور الصحيح . والاعتقاد الصحيح . والشعور الصحيح .

والخلق الصحيح. والنظام الصحيح. والتنظيم الصحيح.. وفي ظل هذه الأوضاع الصحيحة يمكن أن تنمو العقول، وأن تتفتح، وأن تتعرف إلى هذا الكون، وأن تعرف أسراره، وأن تسخر قواه وطاقاته ومدخراته.

. ولكن القيادة الأساسية التي تسمح بهذا كله، وتسيطر على هذا كله وتوجهه لخير البشر لا لتهديدهم بالخراب والدمار، ولا لتسخيره في المآرب والشهوات.. ينبغي أن تكون للإيمان، وأن تقوم عليها الجماعة المسلمة، مهتدية فيها بتوجيه الله. لا بتوجيه أحد من عبيد الله.

وهنا في هذا الدرس يحذر الأمة المسلمة من اتباع غيرها، ويبين لها كذلك طريقها لإنشاء الأوضاع الصحيحة وصيانتها. ويبدأ بتحذيرها من اتباع أهل الكتاب، وإلا فسيقودونها إلى الكفر لا مناص.

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين. وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله؟ ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴾..

(217/128)

إن طاعة أهل الكتاب والتلقي عنهم ، واقتباس مناهجهم وأوضاعهم ، تحمل ابتداء معنى الهزيمة الداخلية ، والتخلي عن دور القيادة الذي من أجله أنشئت الأمة المسلمة . كما تحمل معنى الشك في كفاية منهج الله لقيادة الحياة وتنظيمها والسير بها صعداً في طريق النماء والارتقاء . وهذا بذاته دبيب الكفر في النفس ، وهي لا تشعر به ولا ترى خطره القريب .

هذا من جانب المسلمين . فأما من الجانب الآخر ، فأهل الكتاب لا يحرصون على شيء حرصهم على إضلال هذه الأمة عن عقيدتها . فهذه العقيدة هي صخرة النجاة ؛ وخط الدفاع ، ومصدر القوة الدافعة للأمة المسلمة . وأعداؤه يعرفون هذا جيداً . يعرفونه قديماً ويعرفونه حديثاً ، ويبذلون في سبيل تحويل هذه الأمة عن عقيدتها كل ما في وسعهم من مكر وحيلة ، ومن قوة كذلك وعُدة . وحين يعجزهم أن يحاربوا هذه العقيدة ظاهرين يدسون لها ماكرين . وحين يعييهم أن يحاربوها بأنفسهم وحده ، يجندون من المنافقين المتظاهرين بالإسلام ، أو ممن ينتسبون - زوراً - للإسلام ، جنوداً مجندة ، لتنخر لهم في جسم هذه العقيدة من داخل الدار ، ولتصد الناس عنها ، ولتزين لهم مناهج غير منهجها ، وأوضاعاً غير أوضاعها ، وقيادة غير قيادتها . .

فحين يجد أهل الكتاب من بعض المسلمين طواعية واستماعاً واتباعاً ، فهم ولا شك سيستخدمون هذا كله في سبيل الغاية التي تؤرقهم ، وسيقودونهم ويقودون الجماعة كلها

من ورائهم إلى الكفر والضلال .

ومن ثم هذا التحذير الحاسم المخيف :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ . .

(218/128)

وما كان يفزع المسلم - حينذاك - ما يفزعه أن يرى نفسه منتكساً إلى الكفر بعد الإيمان . وراجعاً إلى النار بعد نجاته منها إلى الجنة . وهذا شأن المسلم الحق في كل زمان ومن ثم يكون هذا التحذير بهذه الصورة سوطاً يلهب الضمير ، ويوقظه بشدة لصوت النذير . .

ومع هذا فإن السياق يتابع التحذير والتذكير . . فيا له من منكر أن يكفر الذين آمنوا بعد إيمانهم ، وآيات الله تتلى عليهم ، ورسوله فيهم .

ودواعي الإيمان حاضرة ، والدعوة إلى الإيمان قائمة ، ومفرق الطريق بين الكفر والإيمان مسلط عليه هذا النور :

﴿ وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ؟ ﴾

أجل . إنها لكبيرة أن يكفر المؤمن في ظل هذه الظروف المعينة على الإيمان . . وإذا كان

رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد استوفى أجله، واختار الرفيق الأعلى، فإن آيات الله باقية، وهدى رسوله – صلى الله عليه وسلم – باق.. ونحن اليوم مخاطبون بهذا القرآن كما خوطب به الأولون، وطريق العصمة بين، ولواء العصمة مرفوع:

﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴾..

أجل. إنه الاعتصام بالله يعصم. والله سبحانه باق. وهو – سبحانه – الحي القيوم.

ولقد كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يتشدد مع أصحابه – رضوان الله عليهم – في أمر التلقي في شأن العقيدة والمنهج، بقدر ما كان يفسح لهم في الرأي والتجربة في شؤون الحياة العملية المتروكة للتجربة والمعرفة، كشؤون الزرع، وخطط القتال، وأمثالها من المسائل العملية البحتة التي لا علاقة لها بالتصور الاعتقادي، ولا بالنظام الاجتماعي، ولا بالارتباطات الخاصة بتنظيم حياة الإنسان.. وفرق بين هذا وذلك بين. فمنهج الحياة شيء، والعلوم البحتة والتجريبية والتطبيقية شيء آخر. والإسلام الذي جاء ليقود الحياة بمنهج الله، هو الإسلام الذي وجه العقل للمعرفة والانتفاع بكل إبداع مادي في نطاق منهجه للحياة..

(219/128)

قال الإمام أحمد : " حدثنا عبد الرازق ، أنبأنا سفيان ، عن جابر ، عن الشعبي ، عن عبد الله بن ثابت . قال : " جاء عمر إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله . إني أمرت بأخ يهودي من بني قريظة ، فكتب لي جوامع من التوراة . ألا أعرضها عليك ؟ قال : فتغير وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال عبد الله بن ثابت : قلت له : ألا ترى ما وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ فقال عمر : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولاً . قال : فسري عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وقال : والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى - عليه السلام - ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم . إنكم حظي من الأمم ، وأنا حظكم من النبيين " .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا حماد عن الشعبي عن جابر . قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء . فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا . وإنكم إما أن تصدقوا بباطل ، وإما أن تكذبوا بحق . وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني . . " وفي بعض الأحاديث : " لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي " .

هؤلاء هم أهل الكتاب . وهذا هو هدى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في التلقي عنهم في أي أمر يختص بالعقيدة والتصور ، أو بالشريعة والمنهج . . ولا ضير - وفق روح الإسلام وتوجيهه - من الانتفاع بجهود البشر كلهم في غير هذا من العلوم البحتة ، علماً

وتطبيقاً . . مع ربطها بالمنهج الإيماني : من ناحية الشعور بها ، وكونها من تسخير الله للإنسان . ومن ناحية توجيهها والانتفاع بها في خير البشرية ، وتوفير الأمن لها والرخاء . وشكر الله على نعمة المعرفة ونعمة تسخير القوى والطاقات الكونية . شكره بالعبادة . وشكره بتوجيه هذه المعرفة وهذا التسخير لخير البشرية . .

(220/128)

فأما التلقي عنهم في التصور الإيماني ، وفي تفسير الوجود ، وغاية الوجود الإنساني . وفي منهج الحياة وأنظمتها وشرائعها ، وفي منهج الأخلاق والسلوك أيضاً . . أما التلقي في شيء من هذا كله ، فهو الذي تغير وجه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأيسر شيء منه . وهو الذي حذر الله الأمة المسلمة عاقبته . وهي الكفر الصراح . .

هذا هو توجيه الله – سبحانه – وهذا هو هدى رسوله – صلى الله عليه وسلم – فأما نحن الذين نزعم أننا مسلمون ، فأرانا نتلقى في صميم فهمنا لقرآننا وحديث نبينا – صلى الله عليه وسلم – عن المستشرقين وتلامذة المستشرقين ! وأرانا نتلقى فلسفتنا وتصوراتنا للوجود والحياة من هؤلاء وهؤلاء ، ومن الفلاسفة والمفكرين : الإغريق والرومان والأوروبيين والأمريكان ! وأرانا نتلقى نظام حياتنا وشرائعنا وقوانيننا من تلك المصادر

المدخولة ! وأرانا نتلقى قواعد سلوكنا وآدابنا وأخلاقنا من ذلك المستنقع الآسن ، الذي انتهت إليه الحضارة المادية المجردة من روح الدين . . أي دين . . ثم نزعم - والله - أننا مسلمون ! وهو زعم إثمه أثقل من إثم الكفر الصريح . فنحن بهذا نشهد على الإسلام بالفشل والمسخ . حيث لا يشهد عليه هذه الشهادة الآثمة من لا يزعمون - مثلنا - أنهم مسلمون !

إن الإسلام منهج . وهو منهج ذو خصائص متميزة : من ناحية التصور الاعتقادي ، ومن ناحية الشريعة المنظمة لارتباطات الحياة كلها . ومن ناحية القواعد الأخلاقية ، التي تقوم عليها هذه الارتباطات ، ولا تفارقها ، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية . وهو منهج جاء لقيادة البشرية كلها . فلا بد أن تكون هناك جماعة من الناس تحمل هذا المنهج لتقود به البشرية . ومما يتناقض مع طبيعة القيادة - كما أسلفنا - أن تتلقى هذه الجماعة التوجيهات من غير منهجها الذاتي . .

(221/128)

ولخير البشرية جاء هذا المنهج يوم جاء . ولخير البشرية يدعو الدعاة لتحكيم هذا المنهج اليوم وغداً . بل الأمر اليوم ألزم ، والبشرية بمجموعها تعاني من النظم والمناهج التي انتهت

إليها ما تعاني . وليس هناك منقذ إلا هذا المنهج الإلهي ، الذي يجب أن يحتفظ بكل خصائصه كي يؤدي دوره للبشرية وينقذها مرة أخرى .

(222/128)

لقد أحرزت البشرية انتصارات شتى في جهادها لتسخير القوى الكونية . وحققت في عالم الصناعة والطب ما يشبه الخوارق - بالنسبة للماضي - وما تزال في طريقها إلى انتصارات جديدة . . ولكن ما أثر هذا كله في حياتها ؟ ما أثره في حياتها النفسية ؟ هل وجدت السعادة ؟ هل وجدت الطمأنينة ؟ هل وجدت السلام ؟ كلا ! لقد وجدت الشقاء والقلق والخوف . . والأمراض العصبية والنفسية ، والشذوذ والجريمة على أوسع نطاق ! . . إنها لم تتقدم كذلك في تصور غاية الوجود الإنساني وأهداف الحياة الإنسانية . . وحين تقاس غاية الوجود الإنساني وأهداف الحياة الإنسانية في ذهن الرجل المتحضر المعاصر ، إلى التصور الإسلامي في هذا الجانب ، تبدو هذه الحضارة في غاية القزامة ! بل تبدو لعنة تحط من تصور الإنسان لنفسه ومقامه في هذا الوجود وتسفل به ، وتصغر من اهتماماته ومن أشواقه ! . . والخواء يأكل قلب البشرية المكدود ، والحيرة تهد روحها المتعبة . . إنها لا تجد الله . . لقد أبعدتها عنه ملابسات نكدة . والعلم الذي كان من شأنه ، لو سار تحت

منهج الله ، أن يجعل من كل انتصار للبشرية في ميدانه خطوة تقربها من الله ، هو ذاته الذي تبعد به البشرية أشواطا بسبب انطماس روحها ونكستها . . إنها لا تجد النور الذي يكشف لها غاية وجودها الحقيقية فتنطلق إليها مستعينة بهذا العلم الذي منحه الله لها ووهبها الاستعداد له . ولا تجد المنهج الذي ينسق بين حركتها وحركة الكون ، وفطرتها وفطرة الكون ، وقانونها وناموس الكون . ولا تجد النظام الذي ينسق بين طاقاتها وقواها ، وآخرتها ودنياها ، وأفرادها وجماعاتها ، وواجباتها وحقوقها . . تنسيقاً طبيعياً شاملاً مريحاً . .

(223/128)

وهذه البشرية هي التي يعمل ناس منها على حرمانها من منهج الله الهادي . وهم الذين يسمون التطلع إلى هذا المنهج " رجعية ! " ويحسبونه مجرد حنين إلى فترة ذاهبة من فترات التاريخ . . وهم بجهالتهم هذه أو بسوء نيتهم يحرمون البشرية التطلع إلى المنهج الوحيد الذي يمكن أن يقود خطاها إلى السلام والطمأنينة ، كما يقود خطاها إلى النمو والرقي . . ونحن الذين نؤمن بهذا المنهج نعرف إلى ماذا ندعو . إننا نرى واقع البشرية النكد ، ونشم رائحة المستنقع الآسن الذي تتمرغ فيه . ونرى . نرى هنالك على الأفق الصاعد راية النجاة تلوح

للمكدودين في هجير الصحراء المحرق والمرتقى الوضيء النظيف يلوح للغارقين في المستنقع ؛ ونرى أن قيادة البشرية إن لم ترد إلى هذا المنهج فهي في طريقها إلى الارتكاس الشائن لكل تاريخ الإنسان ، ولكل معنى من معاني الإنسان !

وأولى الخطوات في الطريق أن يتميز هذا المنهج ويتفرد ، ولا يتلقى أصحابه التوجيه من الجاهلية الطامة من حولهم . . كيما يظل المنهج نظيفاً سليماً . إلى أن يأذن الله بقيادته للبشرية مرة أخرى . والله أرحم بعباده أن يدعهم لأعداء البشر ، الداعين إلى الجاهلية من هنا ومن هناك ! .

. وهذا ما أراد الله سبحانه أن يلقنه للجماعة المسلمة الأولى في كتابه الكريم ؛ وما حرص رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يعلمها إياه في تعليمه القويم . .

(224/128)

وبعد هذا التحذير من التلقي عن أهل الكتاب وطاعتهم واتباعهم ينادي الله الجماعة المسلمة ويوجهها إلى القاعدتين الأساسيتين اللتين تقوم عليهما حياتها ومنهجها . واللتين لا بد منهما لكي تستطيع أن تضطلع بالأمانة الضخمة التي ناطها الله بها ، وأخرجها للوجود من أجلها . . هاتان القاعدتان المتلازمتان هما : الإيمان . والأخوة . . الإيمان بالله وتقواه

ومراقبته في كل لحظة من لحظات الحياة . والأخوة في الله ، تلك التي تجعل من الجماعة المسلمة بنية حية قوية صامدة ، قادرة على أداء دورها العظيم في الحياة البشرية ، وفي التاريخ الإنساني : دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وإقامة الحياة على أساس المعروف وتطهيرها من لوثة المنكر :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم : إذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً . وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم . يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . فأما الذين اسودت وجوههم : أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ . .

إنهما ركيزتان تقوم عليهما الجماعة المسلمة ، وتؤدي بهما دورها الشاق العظيم . فإذا انهارت واحدة منهما لم تكن هناك جماعة مسلمة ، ولم يكن هنالك دور لها تؤديه :

ركيزة الإيمان والتقوى أولاً . . التقوى التي تبلغ أن توفي بحق الله الجليل . . التقوى الدائمة

اليقظة التي لا تغفل ولا تفتر لحظة من لحظات العمر حتى يبلغ الكتاب أجله :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ﴾ . .

(225/128)

اتقوا الله - كما يحق له أن يتقى - وهي هكذا بدون تحديد تدع القلب مجتهداً في بلوغها كما يتصورها وكما يطيقها . وكلما أوغل القلب في هذا الطريق تكشفت له آفاق ، وجدّت له أشواق . وكلما اقترب بتقواه من الله ، تيقظ شوقه إلى مقام أرفع مما بلغ ، وإلى مرتبة وراء ما ارتقى . وتطلع إلى المقام الذي يستيقظ فيه قلبه فلا ينام !

﴿ ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ . .

والموت غيب لا يدري إنسان متى يدركه . فمن أراد ألا يموت إلا مسلماً فسبيله أن يكون منذ اللحظة مسلماً ، وأن يكون في كل لحظة مسلماً . وذكر الإسلام بعد التقوى يشي بمعناه الواسع : الاستسلام . الاستسلام لله ، طاعة له ، واتباعاً لمنهجه ، واحتكاماً إلى كتابه . وهو المعنى الذي تقرره السورة كلها في كل موضع منها ، على نحو ما أسلفنا .

هذه هي الركيزة الأولى التي تقوم عليها الجماعة المسلمة لتحقق وجودها وتؤدي دورها . إذ أنه بدون هذه الركيزة يكون كل تجمع تجمعاً جاهلياً . ولا يكون هناك منهج لله تتجمع

عليه أمة ، إنما تكون هناك مناهج جاهلية . ولا تكون هناك قيادة راشدة في الأرض للبشرية ، إنما تكون القيادة للجاهلية .

فأما الركيزة الثانية فهي ركيزة الأخوة . . الأخوة في الله ، على منهج الله ، لتحقيق منهج الله :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً . وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ . .

فهي أخوة إذن تنبثق من التقوى والإسلام . . من الركيزة الأولى . . أساسها الاعتصام بحبل الله - أي عهده ونهجه ودينه - وليست مجرد تجمع على أي تصور آخر ، ولا على أي هدف آخر ، ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة !

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ . .

(226/128)

هذه الأخوة المعتصمة بحبل الله نعمة يمتن الله بها على الجماعة المسلمة الأولى . وهي نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائماً . وهو هنا يذكرهم هذه النعمة . يذكرهم كيف كانوا في

الجاهلية " أعداء " . . وما كان أعدى من الأوس والخزرج في المدينة أحد . وهما الحيان العربيان في يثرب . يجاورهما اليهود الذين كانوا يوقدون حول هذه العداوة وينفخون في نارها حتى تأكل روابط الحيين جميعاً . ومن ثم تجد يهود مجالها الصالح الذي لا تعمل إلا فيه ، ولا تعيش إلا معه . فألف الله بين قلوب الحيين من العرب بالإسلام . . وما كان إلا الإسلام وحده يجمع هذه القلوب المتنافرة . وما كان إلا حبل الله الذي يعتصم به الجميع فيصبحون بنعمة الله إخواناً . وما يمكن أن يجمع القلوب إلا أخوة في الله ، تصغر إلى جانبها الأحقاد التاريخية ، والثارات القبلية ، والأطماع الشخصية والرايات العنصرية . ويتجمع الصف تحت لواء الله الكبير المتعال . .

﴿ واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ . .

ويذكرهم كذلك نعمته عليهم في إنقاذهم من النار التي كانوا على وشك أن يقعوا فيها ، إنقاذهم من النار بهدايتهم إلى الاعتصام بحبل الله - الركيزة الأولى - وبالتأليف بين قلوبهم ، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً - الركيزة الثانية - :

﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ .

والنص القرآني يعمد إلى مكمن المشاعر والروابط : " القلب " . . فلا يقول : فألف بينكم . إنما ينفذ إلى المكمن العميق : ﴿ فألف بين قلوبكم ﴾ فيصور القلوب حزمة مؤلفة متآلفة

بيد الله وعلى عهده وميثاقه . كذلك يرسم النص صورة لما كانوا فيه . بل مشهداً حياً متحركاً تتحرك معه القلوب : ﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار ﴾ .

(227/128)

. وبينما حركة السقوط في حفرة النار متوقعة ، إذا بالقلوب ترى يد الله ، وهي تدرك وتنقذ ! وحبل الله وهو يمتد ويعصم . وصورة النجاة والخلاص بعد الخطر والترقب ! وهو مشهد متحرك حي تتبعه القلوب واجفة خافقة ! وتكاد العيون تتملاه من وراء الأجيال ! وقد ذكر محمد بن إسحاق في السيرة وغيره أن هذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج. وذلك " أن رجلا من اليهود مر بملأ من الأوس والخزرج ، فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة ، فبعث رجلاً معه ، وأمره أن يجلس بينهم ، ويذكر لهم ما كان من حروبهم يوم " بُعاث " ! وتلك الحروب . ففعل . فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم ، وغضب بعضهم على بعض ، وتثاوروا ، ونادوا بشعارهم . وطلبوا أسلحتهم . وتوعدوا إلى " الحرّة " فبلغ ذلك النبي – صلى الله عليه وسلم – فأتاهم ، فجعل يسكنهم ، ويقول : " أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم " وتلا عليهم هذه الآية ، فندموا على ما كان منهم ، واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح رضي الله عنهم " .

وكذلك بين الله لهم فاهتدوا ، وحق فيهم قول الله سبحانه في التعقيب في الآية :

﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ .

فهذه صورة من جهد يهود لتقطيع حبل الله بين المتحابين فيه ، القائمين على منهجه ، لقيادة البشرية في طريقه . . هذه صورة من ذلك الكيد الذي تكيده يهود دائما للجماعة المسلمة ، كلما تجمعت على منهج الله واعتصمت بحبله . وهذه ثمرة من ثمار طاعة أهل الكتاب . كادت ترد المسلمين الأولين كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض . وتقطع بينهم حبل الله المتين ، الذي يتآخون فيه مجتمعين . وهذه صلة هذه الآية بالآيات قبلها في هذا السياق .

(228/128)

على أن مدلول الآية أوسع مدى من هذه الحادثة . فهي تشي - مع ما قبلها في السياق وما بعدها - بأنه كانت هناك حركة دائبة من اليهود لتمزيق شمل الصف المسلم في المدينة ، وإثارة الفتنة والفرقة بكل الوسائل . والتحذيرات القرآنية المتوالية من إطاعة أهل الكتاب ، ومن الاستماع إلى كيدهم ودسهم ، ومن التفرق كما تفرقوا . . هذه التحذيرات تشي بشدة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من كيد اليهود في المدينة ، ومن بذرهم لبذور الشقاق والشك والبلبلة باستمرار . . وهو دأب يهود في كل زمان . وهو عملها اليوم وغدا في

الصف المسلم ، في كل مكان !

فأما وظيفة الجماعة المسلمة التي تقوم على ها تين الركيزتين لكي تنهض بها . . هذه الوظيفة الضرورية لإقامة منهج الله في الأرض ، ولتغليب الحق على الباطل ، والمعروف على المنكر ، والخير على الشر . . هذه الوظيفة التي من أجلها أنشئت الجماعة المسلمة بيد الله وعلى عينه ، ووفق منهجه . . فهي التي تقررها الآية التالية :

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ﴾ .

.

فلا بد من جماعة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . لا بد من سلطة في الأرض تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . والذي يقرر أنه لا بد من سلطة هو مدلول النص القرآني ذاته . فهناك " دعوة " إلى الخير . ولكن هناك كذلك " أمر " بالمعروف . وهناك " نهي " عن المنكر . وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذي سلطان ، فإن " الأمر والنهي " لا يقوم بهما إلا ذو سلطان . .

(229/128)

هذا هو تصور الإسلام للمسألة . . إنه لا بد من سلطة تأمر وتنهى . . سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر . . سلطة تتجمع وحداتها وترتبط بحبل الله وحبل الأخوة في الله . . سلطة تقوم على هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج الله في حياة البشر . . وتحقيق هذا المنهج يقتضي "دعوة" إلى الخير يعرف منها الناس حقيقة هذا المنهج . ويقتضي سلطة "تأمر" بالمعروف "وتنهى" عن المنكر . . فتطاع . . والله يقول : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾ فمنهج الله في الأرض ليس مجرد وعظ وإرشاد وبيان . فهذا شطر . أما الشطر الآخر فهو القيام بسلطة الأمر والنهي ، على تحقيق المعروف ونفي المنكر من الحياة البشرية ، وصيانة تقاليد الجماعة الخيرة من أن يعبث بها كل ذي هوى وكل ذي شهوة وكل ذي مصلحة ، وضمانة هذه التقاليد الصالحة من أن يقول فيها كل امرىء برأيه وبتصوره ، زاعماً أن هذا هو الخير والمعروف والصواب !

والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – من ثم – تكليف ليس بالهين ولا باليسير ، إذا نظرنا إلى طبيعته ، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم ، ومصالح بعضهم ومنافعهم ، وغرور بعضهم وكبريائهم . وفيهم الجبار الغاشم . وفيهم الحاكم المتسلط . وفيهم الهابط الذي يكره الصعود . وفيهم المسترخي الذي يكره الاشتداد . وفيهم المنحل الذي يكره الجد . وفيهم الظالم الذي يكره العدل . وفيهم المنحرف الذي يكره الاستقامة . . وفيهم وفيهم ممن ينكرون المعروف ، ويعرفون المنكر . ولا تفلح الأمة ، ولا

تفلح البشرية ، إلا أن يسود الخير ، وإلا أن يكون المعروف معروفاً ، والمنكر منكراً . .

وهذا ما يقتضي سلطة للخير وللمعروف تأمر وتنهى . . وتطاع . .

(230/128)

ومن ثم فلا بد من جماعة تتلاقى على هاتين الركيزتين : الإيمان بالله والأخوة في الله ، لتقوم على هذا الأمر العسير الشاق بقوة الإيمان والتقوى ثم بقوة الحب والألفة ، وكلتاهما ضرورة من ضرورات هذا الدور الذي ناطه الله بالجماعة المسلمة ، وكلفها به هذا التكليف .

وجعل القيام به شريطة الفلاح . فقال عن الذين ينهضون به :

﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ . .

إن قيام هذه الجماعة ضرورة من ضرورات المنهج الإلهي ذاته . فهذه الجماعة هي الوسط الذي يتنفس فيه هذا المنهج ويتحقق في صورته الواقعية . هو الوسط الخير المتكافل المتعاون على دعوة الخير .

المعروف فيه هو الخير والفضيلة والحق والعدل . والمنكر فيه هو الشر والرذيلة والباطل والظلم . . عمل الخير فيه أيسر من عمل الشر . والفضيلة فيه أقل تكاليف من الرذيلة . والحق فيه أقوى من الباطل . والعدل فيه أنفع من الظلم . . فاعل الخير فيه يجد على الخير

اعواناً . وصانع الشر فيه يجد مقاومة وخذلاناً . . ومن هنا قيمة هذا التجمع . . إنه البيئة التي ينمو فيها الخير والحق بلا كبير جهد ، لأن كل ما حوله وكل من حوله يعاونه . والتي لا ينمو فيها الشر والباطل إلا بعسر ومشقة ، لأن كل ما حوله يعارضه ويقاومه .

والتصور الإسلامي عن الوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشياء والأشخاص . . يختلف في هذا كله عن التصورات الجاهلية اختلافاً جوهرياً أصيلاً . فلا بد إذن من وسط خاص يعيش فيه هذا التصور بكل قيمه الخاصة . لا بد له من وسط غير الوسط الجاهلي ، ومن بيئة غير البيئة الجاهلية .

(231/128)

هذا الوسط الخاص يعيش بالتصور الإسلامي ويعيش له ؛ فيحيا فيه هذا التصور ، ويتنفس أنفاسه الطبيعية في طلاقة وحرية ، وينمو نموه الذاتي بلا عوائق من داخله تؤخر هذا النمو أو تقاومه . وحين توجد هذه العوائق تقابلها الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وحين توجد القوة الغاشمة التي تصد عن سبيل الله تجد من يدافعها دون منهج الله في الحياة .

هذا الوسط يتمثل في الجماعة المسلمة القائمة على ركيزتي الإيمان والأخوة . الإيمان بالله

كي يتوحد تصورها للوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشياء والأشخاص ، وترجع إلى ميزان واحد تقوم به كل ما يعرض لها في الحياة ، وتتحاكم إلى شريعة واحدة من عند الله ، وتتجه بولائها كله إلى القيادة القائمة على تحقيق منهج الله في الأرض . . والأخوة في الله . كي يقوم كيانها على الحب والتكافل اللذين تختفي في ظلالهما مشاعر الأثرة ، وتتضاعف بهما مشاعر الإيثار . الإيثار المنطلق في يسر ، المندفع في حرارة ، المطمئن الواثق المرتاح .

وهكذا قامت الجماعة المسلمة الأولى - في المدينة - على هاتين الركيزتين . . على الإيمان بالله : ذلك الإيمان المنبثق من معرفة الله - سبحانه - وتَمَثُّلِ صفاته في الضمائر ؛ وتقواه ومراقبته ، واليقظة والحساسية إلى حد غير معهود إلا في الندرة من الأحوال . وعلى الحب . الحب الفياض الرائق والود . الود العذب الجميل ، والتكافل . التكافل الجاد العميق . . وبلغت تلك الجماعة في ذلك كله مبلغاً ، لولا أنه وقع لعد من أحلام الحالمين !

وقصة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قصة من عالم الحقيقة ، ولكنها في طبيعتها أقرب إلى الرؤى الحالمة ! وهي قصة وقعت في هذه الأرض . ولكنها في طبيعتها من عالم الخلد والجنان !

وعلى مثل ذلك الإيمان ومثل هذه الأخوة يقوم منهج الله في الأرض في كل زمان . .

ومن ثم يعود السياق فيحذر الجماعة المسلمة من التفرق والاختلاف ؛ وينذرها عاقبة الذين حملوا أمانة منهج الله قبلها - من أهل الكتاب - ثم تفرقوا واختلفوا ، فنزع الله الراية منهم ، وسلمها للجماعة المسلمة المتآخية .

. فوق ما ينتظرهم من العذاب ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه :

﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم . يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . فأما الذين اسودت وجوههم : أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ . .

وهنا يرسم السياق مشهداً من المشاهد القرآنية الفائضة بالحركة والحيوية . . فنحن في مشهد هول . هول لا يتمثل في ألفاظ ولا في أوصاف . ولكن يتمثل في آدميين أحياء في وجوه وسمات . . هذه وجوه قد أشرقت بالنور ، وفاضت بالبشر ، فابيضت من البشر والبشاشة ، وهذه وجوه كمدت من الحزن ، وغبرت من الغم ، واسودت من الكآبة . . وليست مع هذا متروكة إلى ما هي فيه . ولكنه اللذع بالتبكيت والتأنيب :

﴿ أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ! ﴾ . .

﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ .

وهكذا ينبض المشهد بالحياة والحركة والحوار . . على طريقة القرآن .

وهكذا يستقر في ضمير الجماعة المسلمة معنى التحذير من الفرقة والاختلاف . ومعنى النعمة الإلهية الكريمة . . بالإيمان والائتلاف .

وهكذا ترى الجماعة المسلمة مصير هؤلاء القوم من أهل الكتاب ، الذين تحذر أن تطيعهم . كي لا تشاركهم هذا المصير الأليم في العذاب العظيم . يوم تبيض وجوه ، وتسود وجوه . .

(233/128)

ويعقب على هذا البيان لمصائر الفريقين تعقيباً قرآنياً يتمشى مع خطوط السورة العريضة ، يتضمن إثبات صدق الوحي والرسالة . وجدية الجزاء والحساب يوم القيامة . والعدل المطلق في حكم الله في الدنيا والآخرة . وملكية الله المفردة لما في السماوات وما في الأرض . ورجعة الأمر إليه في كل حال :

﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، وما الله يريد ظلماً للعالمين . ولله ما في السماوات وما في الأرض . وإلى الله ترجع الأمور ﴾ . .

تلك الصور . تلك الحقائق . تلك المصائر . . تلك آيات الله وبيناته لعباده : نتلوها عليك بالحق . فهي حق فيما تقرره من مبادىء وقيم ؛ وهي حق فيما تعرضه من مصائر

وجزاءات. وهي تتنزل بالحق ممن يملك تنزيلها؛ وممن له الحق في تقرير القيم، وتقرير المصائر، وتوقيع الجزاءات. وما يريد بها الله أن يوقع بالعباد ظلماً. فهو الحكم العدل. وهو المالك لأمر السماوات والأرض. ولكل ما في السماوات وما في الأرض. وإليه مصير الأمور. إنما يريد الله بترتيب الجزاء على العمل أن يحق الحق، وأن يجري العدل، وأن تمضي الأمور بالجد اللائق بجلال الله.. لا كما يدعي أهل الكتاب أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودات!

بعدئذ يصف الأمة المسلمة لنفسها! ليعرفها مكانها وقيمتها وحقيقتها؛ ثم يصف لها أهل الكتاب - ولا يبخسهم قدرهم، إنما يبين حقيقتهم ويطمعهم في ثواب الإيمان وخيره - ويطمئن المسلمين من جانب عدوهم.

فهم لن يضروهم في كيدهم لهم وقتالهم ولن ينصروا عليهم. وللذين كفروا منهم عذاب النار في الآخرة، لا ينفعهم فيه ما أنفقوا في الحياة الدنيا بلا إيمان ولا تقوى:

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس. تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله. ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم. منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون. لن

يضروكم إلا أذى ، وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون . ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا - إلا بحبل من الله وحبل من الناس - وباءوا بغضب من الله ، وضربت عليهم المسكنة . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . ليسوا سواء . من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات ، وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ، والله عليم بالمتقين . إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر ، أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته . وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾ . .

إن شطر الآية الأولى في هذه المجموعة يضع على كاهل الجماعة المسلمة في الأرض واجباً ثقيلاً ، بقدر ما يكرم هذه الجماعة ويرفع مقامها ، ويفردها بمكان خاص لا تبلغ إليه جماعة أخرى :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله . . ﴾ .

إن التعبير بكلمة ﴿ أخرجت ﴾ المبني لغير الفاعل ، تعبير يلفت النظر . وهو يكاد يشي باليد المدبرة اللطيفة ، تخرج هذه الأمة إخراجاً ؛ وتدفعها إلى الظهور دفعاً من ظلمات

الغيب، ومن وراء الستار السرمدي الذي لا يعلم ما وراءه إلا الله. . إنها كلمة تصور حركة خفية المسرى، لطيفة الدبيب. حركة تخرج على مسرح الوجود أمة. أمة ذات دور خاص. لها مقام خاص، ولها حساب خاص:

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ . .

(235/128)

وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة؛ لتعرف حقيقتها وقيمتها، وتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة، ولتكون لها القيادة، بما أنها هي خير أمة. والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض. ومن ثم لا ينبغي لها أن تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية. إنما ينبغي دائماً أن تعطي هذه الأمم مما لديها. وأن يكون لديها دائماً ما تعطيه. ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح، والتصور الصحيح، والنظام الصحيح، والخلق الصحيح، والمعرفة الصحيحة، والعلم الصحيح. . هذا واجبها الذي يحتمه عليها مكانها، وتحتمه عليها غاية وجودها. واجبها أن تكون في الطليعة دائماً، وفي مركز القيادة دائماً. ولهذا المركز تبعاته، فهو لا يؤخذ ادعاء، ولا يسلم لها به إلا أن تكون هي أهلاً له.

. وهي بتصورها الاعتقادي، وبنظامها الاجتماعي أهل له. فيبقى عليها أن تكون

بتقدمها العلمي، وبعمارتها للأرض - قياماً بحق الخلافة - أهلاً له كذلك.. ومن هذا يتبين أن المنهج الذي تقوم عليه هذه الأمة يطالبها بالشيء الكثير؛ ويدفعها إلى السبق في كل مجال.. لو أنها تتبعه وتلتزم به، وتدرك مقتضياته وتكاليفه.

وفي أول مقتضيات هذا المكان. أن تقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد.. وأن تكون لها القوة التي تمكنها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فهي خير أمة أخرجت للناس. لا عن مجاملة أو محاباة، ولا عن مصادفة أو جزاف - تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً - وليس توزيع الاختصاصات والكرامات كما كان أهل الكتاب يقولون: "نحن أبناء الله وأحباؤه".. كلا! إنما هو العمل الإيجابي لحفظ الحياة البشرية من المنكر، وإقامتها على المعروف، مع الإيمان الذي يحدد المعروف والمنكر:

﴿ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾..

(236/128)

فهو النهوض بتكاليف الأمة الخيرة، بكل ما وراء هذه التكاليف من متاعب، وبكل ما في طريقها من أشواك.. إنه التعرض للشر والتحريض على الخير وصيانة المجتمع من عوامل الفساد.. وكل هذا متعب شاق، ولكنه كذلك ضروري لإقامة المجتمع الصالح وصيانته

؛ ولتحقيق الصورة التي يحب الله أن تكون عليها الحياة . .

ولا بد من الإيمان بالله ليوضع الميزان الصحيح للقيم ، والتعريف الصحيح للمعروف والمنكر . فإن اصطلاح الجماعة وحده لا يكفي . فقد يعم الفساد حتى تضطرب الموازين وتختل . ولا بد من الرجوع إلى تصور ثابت للخير وللشر ، وللفضيلة والرذيلة ، وللمعروف والمنكر . يستند إلى قاعدة أخرى غير اصطلاح الناس في جيل من الأجيال .

وهذا ما يحققه الإيمان ، بإقامة تصور صحيح للوجود وعلاقته بخالقه . وللإنسان وغاية وجوده ومركزه الحقيقي في هذا الكون . . ومن هذا التصور العام تنبثق القواعد الأخلاقية . ومن الباعث على إرضاء الله وتوقي غضبه يندفع الناس لتحقيق هذه القواعد . ومن سلطان الله في الضمائر ، وسلطان شريعته في المجتمع تقوم الحراسة على هذه القواعد كذلك .

ثم لا بد من الإيمان أيضا ليملك الدعاة إلى الخير ، الآمرون بالمعروف ، الناهون عن المنكر ، أن يمضوا في هذا الطريق الشاق ، ويحتملوا تكاليفه . وهم يواجهون طاغوت الشر في عنفوانه وجبروته ، ويواجهون طاغوت الشهوة في عرامتها وشدتها ، ويواجهون هبوط الأرواح ، وكلل العزائم ، وثقلة المطامع . . وزادهم هو الإيمان ، وعدتهم هي الإيمان . وسندهم هو الله . . وكل زاد سوى زاد الإيمان ينفد . وكل عدة سوى عدة الإيمان تُفلّ ، وكل سند غير سند الله ينهار !

وقد سبق في السياق الأمر التكليفي للجماعة المسلمة أن ينتدب من بينها من يقومون بالدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما هنا فقد وصفها الله سبحانه بأن هذه صفتها.

(237/128)

ليدلها على أنها لا توجد وجوداً حقيقياً إلا أن تتوافر فيها هذه السمة الأساسية، التي تعرف بها في المجتمع الإنساني. فإما أن تقوم بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - مع الإيمان بالله - فهي موجودة وهي مسلمة. وإما أن لا تقوم بشيء من هذا فهي غير موجودة. وغير متحققة فيها صفة الإسلام.

وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة تقرر هذه الحقيقة. ندعها لمواضعها. وفي السنة كذلك طائفة صالحة من أوامر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتوجيهاته نقتطف بعضها:

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان "

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "

لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم ، فلم ينتهوا ، فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله تعالى قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وسليمان وعيسى بن مريم . . ثم جلس – وكان متكئاً – فقال : لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً " أي تعطفوهم وتردوهم .

وعن حذيفة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً ، منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم " .

وعن عرس ابن عميرة الكندي – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرضيها كمن شهدها " .

وعن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر " .

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "سيد الشهداء حمزة. ورجل قام إلى سلطان جائر ، فأمره ونهاه ، فقتله" .

وغيرها كثير . . وكلها تقرر أصالة هذه السمة في المجتمع المسلم ، وضروراتها لهذا المجتمع أيضاً . وهي تحتوي مادة توجيه وتربية منهجية ضخمة . وهي إلى جانب النصوص القرآنية زاد نحن غافلون عن قيمته وعن حقيقته .

ثم نعود إلى الشطر الآخر من الآية الأولى في هذه المجموعة . .

﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم . منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ . .

وهو ترغيب لأهل الكتاب في الإيمان .

فهو خير لهم . خير لهم في هذه الدنيا ، يستعصمون به من الفرقة والهلهلة التي كانوا عليها في تصوراتهم الاعتقادية ، والتي ما تزال تحرمهم تجمع الشخصية . إذ تعجز هذه التصورات عن أن تكون قاعدة للنظام الاجتماعي لحياتهم ، فتقوم أنظمتهم الاجتماعية - من ثم - على غير أساس ، عرجاء أو معلقة في الهواء ككل نظام اجتماعي لا يقوم على أساس اعتقادي شامل ، وعلى تفسير كامل للوجود ، ولغاية الوجود الإنساني ، ومقام الإنسان في هذا الكون . . وخير لهم في الآخرة يقيهم ما ينتظر غير المؤمنين من مصير .

ثم هو بيان كذلك لحالهم ، لا يبخس الصالحين منهم حقهم :

﴿ منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ . .

وقد آمن من أهل الكتاب جماعة وحسن إسلامهم . منهم عبد الله بن سلام ، وأسد بن عبيد ، وثعلبة بن شعبة ، وكعب بن مالك . . وإلى هؤلاء تشير الآية هنا بالإجمال – وفي آية تالية بالتفصيل – أما الأكثرون فقد فسقوا عن دين الله ، حين لم يفوا بميثاق الله مع النبيين : أن يؤمن كل منهم بأخيه الذي يجيء بعده ، وأن ينصره . وفسقوا عن دين الله وهم يأبون الاستسلام لإرادته في إرسال آخر الرسل من غير بني إسرائيل ، واتباع هذا الرسول وطاعته ولاحتكام إلى آخر شريعة من عند الله ، أرادها للناس أجمعين .

(239/128)

ولما كان بعض المسلمين ما يزالون على صلات منوعة باليهود في المدينة ، ولما كانت لليهود حتى ذلك الحين قوة ظاهرة : عسكرية واقتصادية يحسب حسابها بعض المسلمين ، فقد تكفل القرآن بتهوين شأن هؤلاء الفاسقين في نفوس المسلمين ، وإبراز حقيقتهم الضعيفة بسبب كفرهم وجرائمهم وعصيانهم ، وتفرقهم شيعاً وفرقاً ، وما كتب الله عليهم من الذلة والمسكنة .

﴿ لن يضروكم إلا أذى . وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار . ثم لا ينصرون ، ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا – إلا بحبل من الله وحبل من الناس – وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم

المسكنة . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ .

بهذا يضمن الله للمؤمنين النصر وسلامة العاقبة ، ضمانة صريحة حيثما التقوا بأعدائهم هؤلاء ، وهم معتصمون بدينهم وربهم في يقين :

﴿ لن يضروكم إلا أذى . وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ . .

فلن يكون ضرراً عميقاً ولا أصيلاً يتناول أصل الدعوة ، ولن يؤثر في كينونة الجماعة المسلمة ، ولن يجليها من الأرض . . إنما هو الأذى العارض في الصدام ، والألم الذاهب مع الأيام . .

فأما حين يشتبكون مع المسلمين في قتال ، فالهزيمة مكتوبة عليهم – في النهاية – والنصر ليس لهم على المؤمنين ، ولا ناصر لهم كذلك ولا عاصم من المؤمنين . . ذلك أنه قد ﴿ ضربت عليهم الذلة ﴾ وكتبت لهم مصيراً . فهم في كل أرض يذلون ، لا تعصمهم إلا ذمة الله وذمة المسلمين – حين يدخلون في ذمتهم فتعصم دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وتنيلهم الأمن والطمأنينة – ولم تعرف يهود منذ ذلك الحين الأمن إلا في ذمة المسلمين .

ولكن يهود لم تعاد أحداً في الأرض عداءها للمسلمين ! . . ﴿ وباءوا بغضب من الله ﴾ . . كأنما رجعوا من رحلتهم يحملون هذا الغضب . ﴿ وضربت عليهم المسكنة ﴾ تعيش في ضمائرهم وتكمن في مشاعرهم . .

ولقد وقع ذلك كله بعد نزول هذه الآية . فما كانت معركة بين المسلمين وأهل الكتاب إلا كتب الله فيها للمسلمين النصر - ما حافظوا على دينهم واستمسكوا بعقيدتهم ، وأقاموا منهج الله في حياتهم - وكتب لأعدائهم المذلة والهوان إلا أن يعتصموا بذمة المسلمين أو أن يتخلى المسلمون عن دينهم .

ويكشف القرآن عن سبب هذا القدر المكتوب على يهود . فإذا هو سبب عام يمكن أن تنطبق آثاره على كل قوم ، مهما تكن دعواهم في الدين : إنه المعصية والاعتداء :

﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ .

فالكفر بآيات الله - سواء بإنكارها أصلاً ، أو عدم الاحتكام إليها وتنفيذها في واقع الحياة - وقتل الأنبياء بغير حق . وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس كما جاء في آية أخرى في السورة - والعصيان والاعتداء . . هذه هي المؤهلات لغضب الله ، وللهزيمة والذلة والمسكنة . . وهذه هي المؤهلات التي تتوافر اليوم في البقايا الشاردة في الأرض من ذراري المسلمين . الذين يسمون أنفسهم - بغير حق - مسلمين ! هذه هي المؤهلات التي يتقدمون بها إلى ربهم اليوم ، فينالون عليها كل ما كتبه الله على اليهود من الهزيمة والذلة والمسكنة .

فإذا قال أحد منهم : لماذا نغلب في الأرض ونحن مسلمون ؟ فلينظر قبل أن يقولها : ما هو

الإسلام ، ومن هم المسلمون ؟ ! ثم يقول !

وإنصافاً للقلة الخيرة من أهل الكتاب ، يعود السياق عليهم بالاستثناء ، فيقرر أن أهل الكتاب ليسوا كلهم سواء . فهناك المؤمنون . يصور حالهم مع ربهم ، فإذا هي حال المؤمنين الصادقين . ويقرر جزاءهم عنده فإذا هو جزاء الصالحين .

﴿ ليسوا سواء . من أهل الكتاب أمة قائمة ، يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويسارعون في الخيرات . وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ، والله عليم بالمتقين ﴾ . .

(241/128)

وهي صورة وضيئة للمؤمنين من أهل الكتاب . فقد آمنوا إيماناً صادقاً عميقاً ، وكاملاً شاملاً ، وانضموا للصف المسلم ، وقاموا على حراسة هذا الدين . . آمنوا بالله واليوم الآخر . . وقد نهضوا بتكاليف الإيمان ، وحققوا سمة الأمة المسلمة التي انضموا إليها – خير أمة أخرجت للناس – فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . . وقد رغبت نفوسهم في الخير جملة ، فجعلوه الهدف الذي يسابقون فيه ، فسارعوا في الخيرات ، ومن ثم هذه

الشهادة العلوية لهم أنهم من الصالحين. وهذا الوعد الصادق لهم أنهم لن يُبخسوا حقاً، ولن يُكفروا أجراً.

مع الإشارة إلى أن الله – سبحانه – علم أنهم من المتقين..

وهي صورة تُرفع أمام الراغبين في هذه الشهادة، وفي هذا الوعد، ليحققها في ذات نفسه كل من يشتاق إلى نورها الوضيء في أفقها المنير.

هذا في جانب.. وفي الجانب الآخر، الكافرون. الكافرون الذين لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم؛ ولن تنفعهم نفقة ينفقونها في الدنيا ولن ينالهم شيء منها في الآخرة لأنها لم تتصل بخط الخير الثابت المستقيم. الخير المنبثق من الإيمان بالله، على تصور واضح، وهدف ثابت، وطريق موصول. وإلا فالخير نزوة عارضة لا ثبات لها، وجنوح يصرفه الهوى، ولا يرجع إلى أصل واضح مدرك مفهوم، ولا إلى منهج كامل شامل مستقيم..

﴿ إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً. وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر، أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته. وما ظلمهم الله، ولكن أنفسهم يظلمون ﴾..

وهكذا ترتسم هذه الحقيقة في مشهد ينبض بالحركة ويفيض بالحياة على طريقة التعبير القرآني الجميل..

إن أموالهم وأولادهم ليست بمانعتهم من الله ، ولا تصلح فدية لهم من العذاب ، ولا تنجيهم من النار . . وهم أصحاب النار وكل ما ينفقونه من أموالهم فهو ذاهب هالك ، حتى ولو أنفقوه فيما يظنونه خيراً . فلا خير إلا أن يكون موصولاً بالإيمان ، ونابعاً من الإيمان . ولكن القرآن لا يعبر هكذا كما نعبر . إنما يرسم مشهداً حياً نابضاً بالحياة . . .

إننا ننظر فإذا نحن أمام حقل قد تهيأ للإخصاب . فهو حرث . ثم إذا العاصفة تهب . إنها عاصفة باردة ثلجية محرقة ! تحرق هذا الحرث بما فيها من صِرّ . واللفظة ذاتها كأنها مقذوف يلقى بعنف ، فيصور معناه بجرسه النفاذ . وإذا الحرث كله مدمر خراب ! إنها لحظة يتم فيها كل شيء . يتم فيها الدمار والهلاك . وإذا الحرث كله يباب ! ذلك مثل ما ينفق الذين كفروا في هذه الدنيا – ولو كان ينفق فيما ظاهره الخير والبر – ومثل ما بأيديهم من نعم الأولاد والأموال . . كلها إلى هلاك وفناء . . دون ما متاع حقيقي ودون ما جزاء . .

﴿ وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾ .

فهم الذين تنكبوا المنهج الذي يجمع مفردات الخير والبر ، فيجعلها خطاً مستقيماً ثابتاً وأصلاً . له هدف مرسوم ، وله دافع مفهوم ، وله طريق معلوم . . فلا يترك للنزوة العارضة ، والرغبة الغامضة ، والفلتة التي لا ترجع إلى منهج ثابت مستقيم . .

هم الذين اختاروا لأنفسهم الشرود والضلال والانفلات من عصمة الحبل الممدود . فإذا ذهب عملهم كله هباء – حتى ما ينفقونه فيما ظاهره الخير – وإذا أصاب حرثهم كله الدمار ، فلم يغن عنهم مال ولا ولد . . فما في هذا ظلم من الله – تعالى – لهم .

إنما هو ظلمهم لأنفسهم بما اختاروه لأنفسهم من تنكب وشرود .

وهكذا يتقرر أن لا جزاء على بذل وأن لا قيمة لعمل إلا أن يرتبط بمنهج الإيمان وإلا أن يكون باعثه الإيمان . . يقول الله هذا ويقرره فلا تبقى بعده كلمة لإنسان ؛ ولا يجادل في هذا القرار إلا الذين يجادلون في آيات الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . .

وفي نهاية الدرس الذي ابتدأ بياناً لما في سلوك أهل الكتاب من انحراف ، وكشفاً لما في جدالهم من مغالطة ، وفضحاً لما يريدونه بالمسلمين من سوء ، وتوجيها للجماعة المسلمة لتنهض بتكاليفها ، دون أن تلقي بالاً إلى المجادلين المنحرفين الفاسقين . . في نهاية هذا الدرس ، ونهاية هذا المقطع الطويل من السورة كلها يجيء التحذير للجماعة المسلمة من أن تتخذ من أعدائها الطبيعيين بطانة ، وأن تجعل منهم أمناء على أسرارها ومصالحها ، وهم للذين آمنوا عدو . . يجيء هذا التحذير في صورة شاملة خالدة ، ما نزال نرى مصداقها في

كل وقت ، وفي كل أرض . صورة رسمها هذا القرآن الحي ، فغفل عنها أهل هذا القرآن .

فأصابهم من غفلتهم وما يزال يصيبهم الشر والأذى والمهانة :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا . ودوا ما عنتم . قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفي صدورهم أكبر . قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا : آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ . قل : موتوا بغيظكم ، إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها . وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً . إن الله بما يعملون محيط ﴾ . .

(244/128)

إنها صورة كاملة السمات ، ناطقة بدخائل النفوس ، وشواهد الملامح ، تسجل المشاعر الباطنة ، والانفعالات الظاهرة ، والحركة الذاهبة الآيبة . وتسجل بذلك كله نموذجاً بشرياً مكروراً في كل زمان وفي كل مكان . ونستعرضها اليوم وغدا فيمن حول الجماعة المسلمة من أعداء . يتظاهرون للمسلمين – في ساعة قوة المسلمين وغلبتهم – بالمودة . فتكذبهم كل خالجة وكل جارحة . وينخدع المسلمون بهم فيمنحونهم الود والثقة وهم لا يريدون

للمسلمين إلا الاضطراب والخبال ، ولا يقصرون في إعنات المسلمين ونثر الشوك في طريقهم ، والكيد لهم والدس ، ما واتتهم الفرصة في ليل أو نهار .

وما من شك أن هذه الصورة التي رسمها القرآن الكريم هذا الرسم العجيب ، كانت تنطبق ابتداء على أهل الكتاب المجاورين للمسلمين في المدينة ؛ وترسم صورة قوية للغيظ الكظيم الذي كانوا يضمرونه للإسلام والمسلمين ، وللشر المبيت ، وللنوايا السيئة التي تجيش في صدورهم ؛ في الوقت الذي كان بعض المسلمين ما يزال مخدوعاً في أعداء الله هؤلاء ، وما يزال يفضي إليهم بالمودة ، وما يزال يأمنهم على أسرار الجماعة المسلمة ؛ ويتخذ منهم بطانة وأصحاباً وأصدقاء ، لا يخشى مغبة الإفضاء إليهم بدخائل الأسرار .

. فجاء هذا التنوير ، وهذا التحذير ، يبصر الجماعة المسلمة بحقيقة الأمر ، ويوعيها لكيد أعدائها الطبيعيين ، الذين لا يخلصون لها أبداً ، ولا تغسل أحقادهم مودة من المسلمين وصحبة . ولم يجيء هذا التنوير وهذا التحذير ليكون مقصوراً على فترة تاريخية معينة ، فهو حقيقة دائمة ، تواجه واقعاً دائماً . . كما نرى مصداق هذا فيما بين أيدينا من حاضر مكشوف مشهود . .

والمسلمون في غفلة عن أمر ربهم: ألا يتخذوا بطانة من دونهم. بطانة من ناس هم دونهم في الحقيقة والمنهج والوسيلة. وألا يجعلوهم موضع الثقة والسر والاستشارة.. المسلمون في غفلة عن أمر ربهم هذا يتخذون من أمثال هؤلاء مرجعاً في كل أمر، وكل شأن، وكل وضع، وكل نظام، وكل تصور، وكل منهج، وكل طريق!

والمسلمون في غفلة من تحذير الله لهم، يوادون من حاد الله ورسوله؛ ويفتحون لهم صدورهم وقلوبهم. والله سبحانه يقول للجماعة المسلمة الأولى كما يقول للجماعة المسلمة في أي جيل:

﴿ ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ﴾..

والله سبحانه يقول:

﴿ ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم، وتؤمنون بالكتاب كله، وإذا لقوكم قالوا: آمنا، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾..

والله سبحانه يقول:

﴿ أن تمسسكم حسنة تسؤهم، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ﴾..

ومرة بعد مرة تصفعنا التجارب المرة، ولكننا لا نفيق.. ومرة بعد مرة نكشف عن المكيدة والمؤامرة تلبس أزياء مختلفة ولكننا لا نعتبر. ومرة بعد مرة تنفلت ألسنتهم فتنم عن أحقادهم التي لا يذهب بها ود يبذله المسلمون، ولا تغلسها سماحة يعلمها لهم الدين..

ومع ذلك نعود ، فنفتح لهم قلوبنا ونتخذ منهم رفقاء في الحياة والطريق ! . . وتبلغ بنا المجاملة ، أو تبلغ بنا الهزيمة الروحية أن نجاملهم في عقيدتنا فنتحاشى ذكرها ، وفي منهج حياتنا فلا نقيمه على أساس الإسلام ، وفي تزوير تاريخنا وطمس معالمه كي نتقي فيه ذكر أي صدام كان بين أسلافنا وهؤلاء الأعداء المتربصين ! ومن ثم يحل علينا جزاء المخالفين عن أمر الله . ومن هنا نذل ونضعف ونستخذي . ومن هنا نلقى العنت الذي يوده أعداؤنا لنا ، ونلقى الخبال الذي يدسونه في صفوفنا . .

وها هو ذا كتاب الله يعلمنا - كما علم الجماعة المسلمة الأولى - كيف نتقي كيدهم ، وندفع أذاهم ، وننجو من الشر الذي تكنه صدورهم ، ويفلت على ألسنتهم منه شواظ :

(246/128)

﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً . إن الله بما يعملون محيط ﴾ . .

فهو الصبر والعزم والصمود أمام قوتهم إن كانوا أقوياء ؛ وأمام مكرهم وكيدهم إن سلكوا طريق الوقيعة والخداع . الصبر والتماسك لا الانهيار والتخاذل ؛ ولا التنازل عن العقيدة كلها أو بعضها اتقاء لشرهم المتوقع أو كسبا لودهم المدخول . . ثم هو التقوى : الخوف من الله وحده . ومراقبته وحده .

. هو تقوى الله التي تربط القلوب بالله ، فلا تلتقي مع أحد إلا في منهجه ، ولا تعتصم بحبل إلا حبله . . وحين يتصل القلب بالله فإنه سيحقر كل قوة غير قوته ؛ وستشد هذه الرابطة من عزيمته ، فلا يستسلم من قريب ، ولا يواد من حاد الله ورسوله ، طلباً للنجاة أو كسباً للعزة !

هذا هو الطريق : الصبر والتقوى . . التماسك والاعتصام بحبل الله . وما استمسك المسلمون في تاريخهم كله بعروة الله وحدها ، وحققوا منهج الله في حياتهم كلها . . إلا عزوا وانتصروا ، ووقاهم الله كيد أعدائهم ، وكانت كلمتهم هي العليا . وما استمسك المسلمون في تاريخهم كله بعروة أعدائهم الطبيعيين ، الذين يحاربون عقيدتهم ومنهجهم سراً وجهراً ، واستمعوا إلى مشورتهم ، واتخذوا منهم بطانة وأصدقاء وأعواناً وخبراء ومستشارين . . إلا كتب الله عليهم الهزيمة ، ومكن لأعدائهم فيهم ، وأذل رقابهم ، وأذاقهم وبال أمرهم . . والتاريخ كله شاهد على أن كلمة الله خالدة ؛ وأن سنة الله نافذة . فمن عمي عن سنة الله المشهودة في الأرض ، فلن ترى عيناه إلا آيات الذلة والإنكسار والهوان . .

بهذا ينتهي هذا الدرس ، وينتهي كذلك المقطع الأول في السورة . وقد وصل السياق إلى ذروة المعركة ؛ وقمة المفاصلة الكاملة الشاملة .

ويحسن قبل أن ننهي هذا الدرس أن نقرر حقيقة أخرى، عن سماحة الإسلام في وجه كل هذا العداء. فهو يأمر المسلمين ألا يتخذوا بطانة من هؤلاء. ولكنه لا يحرضهم على مقابلة الغل والحقد والكراهية والدس والمكر بمثلها. إنما هي مجرد الوقاية للجماعة المسلمة وللصف المسلم، وللكينونة المسلمة.. مجرد الوقاية ومجرد التنبيه إلى الخطر الذي يحيطها به الآخرون.. أما المسلم فبسماحة الإسلام يتعامل مع الناس جميعا؛ وبنظافة الإسلام يعامل الناس جميعاً؛ وبمحبة الخير الشامل يلقى الناس جميعاً؛ يتقي الكيد ولكنه لا يكيد، ويحذر الحقد ولكنه لا يحقد. إلا أن يحارب في دينه، وأن يفتن في عقيدته، وأن يصد عن سبيل الله ومنهجه. فحينئذ هو مطالب أن يحارب، وأن يمنع الفتنة، وأن يزيل العقبات التي تصد الناس عن سبيل الله، وعن تحقيق منهجه في الحياة. يحارب جهاداً في سبيل الله لا انتقاماً لذاته. وحباً لخير البشر لا حقداً على الذين آذوه. وتحطيماً للحواجز الحائلة دون إيصال هذا الخير للناس. لا حباً للغلب والاستعلاء والاستغلال.. وإقامة للنظام القويم الذي يستمتع الجميع في ظله بالعدل والسلام. لا لتركيز راية قومية ولا لبناء امبراطورية!

هذه حقيقة تقررها النصوص الكثيرة من القرآن والسنة؛ ويترجمها تاريخ الجماعة المسلمة الأولى، وهي تعمل في الأرض وفق هذه النصوص.

إن هذا المنهج خير . وما يصد البشرية عنه إلا أعدى أعداء البشرية . الذين ينبغي لها أن تطاردهم ، حتى تقصيهم عن قيادتها . . وهذا هو الواجب الذي انتدبت له الجماعة المسلمة ، فأدته مرة خير ما يكون الأداء . وهي مدعوة دائماً إلى أدائه ، والجهاد ماض إلى يوم القيامة . . تحت هذا اللواء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 1 صـ 432 . 454 ﴾

(248/128)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى .رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والعشرون بعد المائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/129)

الجزء التاسع والعشرون بعد المائة

من الآية ﴿ 121 ﴾ من سورة آل عمران

وحتى الآية ﴿ 132 ﴾ من نفس السورة

(4/129)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (121) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ما تضمنته هذه الآية من الإخبار ومن الوعد ومن الوعيد منطوقاً ومفهوماً محتاجاً

إلى الاجتلاء في صور الجزئيات ذكرهم سبحانه وتعالى بالوقائع التي شوهدت فيها أحوالهم من النصر عند العمل بمنطوق الوعد من الصبر والتقوى وعدمه عند العمل بالمفهوم، وشوهدت فيها أحوال عدوهم من المساءة عند السرور والسرور عد المساءة، وذلك غني عن دليل لكونه من المشاهدات، مشيراً إلى ذلك بواو العطف على غير مذكور، مخاطباً لأعظم عباده فطنة وأقربهم إليه رتبة، تهييجاً لغيره إلى تدقيق النظر واتباع الدليل من غير أدنى وقوف مع المألوف فقال تعالى: ﴿وإذ﴾ أي اذكر ما يصدق ذلك من أحوالكم الماضية حين صبرتم واتقيتم فنصرتم، وحين ساءهم نصركم في كل ذلك في سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة، ثم في بدر، ثم في غزوة بني قينقاع ونحو ذلك، واذكر إذ لم يصبر أصحابك فأصيبوا ، وإذ سرتهم مصيبتكم في وقعة أحد إذ ﴿غدوت﴾ أي يا خاتم الأنبياء وأكرم المرسلين! ﴿من أهلك﴾ أي بالمدينة الشريفة صبيحة يوم الجمعة إلى أصحابك في مسجدك لتستشيرهم في أمر المشركين.

وقد نزلوا بأحد في أواخر يوم الأربعاء، أو في يوم الخميس لقتالكم.

وبنى من ﴿غدوت﴾ حالاً إعلاماً بأن الشروع في السبب شروع في مسببه فقال:

﴿تبوىء﴾ أي تنزل ﴿المؤمنين﴾ أي صبيحة يوم السبت وعبر بقوله: ﴿مقاعد﴾ إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم تقدم إلى كل أحد بالثبات في مركزه، وأوعز إليه في أن لا يفعل شيئاً إلا بأمره لا سيما الرماة، ثم ذكر علة ذلك فقال: ﴿للقتال﴾.

ولما كان التقدير : وتتقدم إليهم بأبلغ مقال في تشديد الأقوال والأفعال ، أشار تعالى إلى أنه وقع في غضون ذلك منه ومنهم كلام كثير خفي وجلي بقوله : ﴿ والله ﴾ أي والحال أن الملك الأعظم الذي أنتم في طاعته ﴿ سميع ﴾ أي لأقوالكم ﴿ عليم ﴾ أي بنياتكم في ذلك وغيره فاحذروه ، ولعله خص النبي صلى الله عليه وسلم بلذيذ الخطاب في التذكير تحريضاً لهم مع ما تقدمت الإشارة إليه على المراقبة تعريضاً لهم بأنهم خفوا مع الذين ذكرهم أمر بعاث حتى تواثبوا حين تغاضبوا إلى السلاح - كما ذكر في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب ﴾ [آل عمران : 100] ، فوقفوا عن نافذ الفهم وصافي الفكر خفة إلى ما أراد بهم عدوهم فاقتضى هذا التحذير كله ، ويؤيد ذلك إقباله في الخطاب عليهم عند نسبة الفشل إليها - كما يأتي قريباً ، ولعله إنما خص هذه الغزوة بالذكر دون ما ذكرت أن واو عطفها دلت عليه مما أبدوا فيه بالنصر لأن الشماتة بالمصيبة أدل على البغضاء والعداوة من الحزن بما يسر ، ودل ذكرها على المحذوف لأن المدعي فيما قبلها شيئان : المساءة بالحسنة ، والفرح والمسرة بالمصيبة ، فإذا برهن المتكلم على الثاني عليم ولا بد أنه حذف برهان الأول ، وأنه إنما حذفه - وهو حكيم -

لنكتة، وهي هنا عدم الاحتياج إلى ذكره لوضوحه بدلالة السياق مع واو العطف عليه، وما تقدم من كونه غير صريح الدلالة في أمر البغض على أنه تعالى قد ذكر بدراً - كما ترى - بعد محكمة ستذكر، وأطلق سبحانه وتعالى - كما عن الطبري وغيره - التبوء على ابتداء القتال بالاستشارة فإن الكفار لما نزلوا يوم الأربعاء ثاني عشر شوال سنة ثلاث من الهجرة في سفح أحد مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظر فيهم ما يأتيه من الوحي بقية يوم الأربعاء ويوم الخميس وليلة

(6/129)

الجمعة وباتت وجوه الأنصار في المسجد بباب النبي صلى الله عليه وسلم يحرسونه صلى الله عليه وسلم وحرست المدينة الشريفة، ثم دعا الناس صبيحة يوم الجمعة فاستشارهم في أمرهم وأخبرهم برؤياه تلك الليلة: البقر المذبوحة، والثلم في سيفه، وإدخال يده في الدرع الحصينة، وكان رأيه مع رأي كثير من الصحابة المكث في المدينة، فإن قاتلوهم فيها قاتلهم الرجال مواجهة والنساء والصبيان من فوق الأسطحة، وكان عبد الله بن أبيّ المنافق على هذا الرأي، فلم يزل ناس ممن أكرمهم الله بالشهادة - منهم أسد الله وأسد رسوله عمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه - يلحون عليه صلى الله عليه وسلم في

الخروج إليهم حتى أجاب فدخل بيته ولبس لأمته بعد أن صلى الجمعة فندموا على استكراههم له صلى الله عليه وسلم وهو يأتيه الوحي ، فلما خرج إليهم أخبروه وسألوه في الإقامة إن شاء فقال : " ما كان ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه " .

(7/129)

وفي رواية " حتى يلاقي " فأتى الشيخين – وهما أطمان – فعرض بهما عسكره ففرغ مع غياب الشمس ، ورآه المشركون حين نزل بهما ، واستعمل تلك الليلة على حرسه محمد ابن مسلمة ، واستعمل المشركون على حرسهم عكرمة بن أبي جهل ، ثم أدلج من سحر ليلة السبت ، وندب الأدلاء ليسيروا أمامه ، وحانت صلاة الصبح في الشوط وهم بحيث يرون المشركين ، فأمر بلالاً رضي الله عنه فأذن وأقام ، وصلى بأصحابه صلى الله عليه وسلم الصبح صفوفاً ، فانخزل عبد الله بن أبيّ بثلث العسكر فرجع وقال : أطاع الولدان ، ومن لا رأي له وعصاني ، وما ندري علام نقتل أنفسنا ! وتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر ابن عبد الله –أحد بني سلمة وأحد من استشهد في ذلك اليوم وكلمه الله قبلاً – يناشدهم الله في الرجوع ، فلم يرجعوا فقال : أبعدكم الله ! سيغني الله نبيه صلى الله عليه

وسلم عنكم ، ورجع فوافق النبي صلى الله عليه وسلم يصف أصحابه ، وكادت طائفتان من الباقين – وهما بنو سلمة عشيرة عبد الله بن عمرو وبنو حارثة – أن تفشلا لرجوع المنافقين ، ثم ثبتهم الله تعالى ؛ ونزل صلى الله عليه وسلم الشعب من أحد ، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد وعبأ أصحابه وقال :

" لا يقاتلن أحد حتى نأمره ! " وعين طائفة من الرماة وأنزلهم بعينين – جبيل هناك من ورائهم – وأوعز إليهم في أن لا يتغيروا منه حتى يأمرهم إن كانت له أو عليه ، حتى قال لهم : " إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تعينونا ، وإن رأيتمونا هزمناهم فلا تشركونا في الغنيمة ، وانضحوا الخيل عنا إذا أتت من ورائنا " وبرز صاحب لواء المشركين وطلب المبارزة ، فبرز إليه رجل من المسلمين فقتله المسلم فحمله آخر وبرر فقتل ، وفعلوا ذلك واحداً بعد واحد حتى تموا عشرة كلهم يقتل ، فلما انكسرت قلوب المشركين بتوالي القتل في أصحاب اللواء أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه فشدوا فهزموا المشركين وخلوا عسكرهم ونساءهم ، وكان الخيل كلما أتت من وراء المسلمين نضحهم الرماة بالنبل فرجعوا فلما وقع الصحابة رضي الله عنهم في نهب العسكر خلى الرماة ثغرهم ، فنهاهم أميرهم وحذرهم

مخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يطعه منهم إلا نحو العشرة ، فأتى أصحاب الخيل فقتلوا من بقي من الرماة ، ثم أتوا الصحابة رضي الله عنهم من ورائهم وهم ينتهبون ، فأسرعوا فيهم القتل ونادى إبليس : إن محمداً قد قتل ، فانهزم الصحابة رضوان الله عليهم ، ولم يثبت مع النبي صلى الله عليه وسلم منهم إلا قليل ما بين العشرة إلى الثلاثين – على اختلاف الأقوال ، فاستمر يحاول بهم العدو ، والله تعالى يحفظه ويدافع عنه حتى دنت الشمس للمغرب ، وصرف الله العدو ، فدفن النبي صلى الله عليه وسلم الشهداء وصف أصحابه رضي الله عنهم فأثنى على الله عز وجل ثناء عظيماً ، ذكر فيه فضله سبحانه وعدله ، وأن الملك ملكه يتصرف فيه كيف يشاء ، ورجع إلى المدينة الشريفة وقد أصابته الجراحة في مواضع من وجهه بنفسي هو وأبي وأمي ووجهي وعيني . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 142 . 145 ﴾

(9/129)

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاً ﴾ [آل عمران : 120] أتبعه بما يدلهم على سنة الله تعالى فيهم في باب النصرة والمعونة ودفع مضار العدو

إذا هم صبروا واتقوا ، وخلاف ذلك فيهم إذا لم يصبروا فقال : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ يعني أنهم يوم أحد كانوا كثيرين للقتال ، فلما خالفوا أمر الرسول انهزموا ، ويوم بدر كانوا قليلين غير مستعدين للقتال فلما أطاعوا أمر الرسول غلبوا واستولوا على خصومهم ، وذلك يؤكد قولنا ، وفيه وجه آخر وهو أن الانكسار يوم أحد إنما حصل بسبب تخلف عبد الله بن أُبي بن سلول المنافق ، وذلك يدل على أنه لا يجوز اتخاذ هؤلاء المنافقين بطانة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 178. 179 ﴾

وقال ابن عاشور :

وجود حرف العطف في قوله : ﴿ وإذ غدوت ﴾ مانع من تعليق الظرف ببعض الأفعال المتقدّمة مثل ﴿ ودوا ما عنتم ﴾ [آل عمران : 118] ومثل ﴿ يفرحوا بها ﴾ [آل عمران : 120] وعليه فهو آت كما أَتتْ نظائره في أوائل الآي والقِصص القرآنية ، وهو من عطف جملة على جملة وقصة على وذلك انتقال اقتضابي فالتقدير : واذكر إذ غدوت . ولا يأتي في هذا تعلّق الظرف بفعل ممّا بعده لأنّ قوله : ﴿ تبوىء ﴾ لاَ يستقيم أن يكون مبدأ الغرض ، وقوله : ﴿ همت ﴾ لا يصلح لتعليق ﴿ إذ غدوت ﴾ لأنَّه مدخول (إذْ) أخرى .

ومناسبة ذكر هذه الوقعة عقب ما تقدّم أنَّها من أوضح مظاهر كيد المخالفين في الدّين ، المنافقين ، ولمَّا كان شأن المنافقين من اليهود وأهل يثرب واحداً ، ودخيلتهما سواء ، وكانوا

يعملون على ما تدبّره اليهود ، جمع الله مكائد الفريقين بذكر غزوة أحُد ، وكان نزول هذه السورة عقب غزوة أحُد كما تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 204 ـ 205 ﴾.

(10/129)

اللغة :

[غدوت] خرجت غدوة وهي الساعات الأولى من الصبح

[تفشلا] الفشل : الجبن والضعف

[تبوىء] تنزل ، يقال : بوأته منزلا وبوأت له منزلا أى أنزلته فيه ، وأصل التبوىء اتخاذ المنزل .

[أذلة] أى قلة في العدد والسلاح

[فورهم] الفور : السرعة ، وأصله شدة الغليان من فارت القدر إذا غلت ، ثم استعمل اللفظ للسرعة تقول : من فوره أى من ساعته

[مسومين] بفتح الواو بمعنى معلمين على القتال ، وبكسرها بمعنى لهم علامة ، وكانت سيماهم يوم بدر عمائم بيضاء

[طرفا] طائفة وقطعة

[يكبتهم] الكبت : الهزيمة والإهلاك وقد يأتى بمعنى الغيظ والإذلال

[خانبين] الخيبة : عدم الظفر بالمطلوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿صفوة التفاسير حـ 1 صـ 227﴾

(11/129)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ تبوّى المؤمنين ﴾ بغير همز : أبو عمرو غير شجاع وورش والأعشى وحمزة في الوقف . ﴿ منزلين ﴾ بالتشديد وفتح الزاي : ابن عامر . الباقون : بالتخفيف والفتح أيضاً . ﴿ مسوّمين ﴾ بكسر الواو : أبو عمرو وابن كثير وعاصم وسهل ورويس .

الباقون . بالفتح .

الوقوف : ﴿ للقتال ﴾ ط ﴿ عليم ﴾ ه لأن " إذ " بدل من ﴿ إذ غدوت ﴾ أو يتعلق بالوصفين أو بقوله ﴿ تبوىء ﴾ ﴿ أن تفشلا ﴾ (لا) لأن الواو للحال ﴿ وليهما ﴾ ط ﴿ المؤمنون ﴾ ه ﴿ أذلة ﴾ ج للفاء ﴿ تشكرون ﴾ ه ﴿ منزلين ﴾ ط لتمام القول ﴾

بلى ﴾ (لا) لاتحاد مع ما بعده ﴿ مسوّمين ﴾ ه ﴿ قلوبكم به ﴾ ط ﴿ الحكيم ﴾ (لا) لتعلق اللام بمعنى الفعل في النصر ﴿ خائبين ﴾ ه ﴿ ظالمون ﴾ ه ﴿ وما في الأرض ﴾ ط ﴿ من يشاء ﴾ ط ﴿ رحيم ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 2 صـ 246﴾

(12/129)

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

الأول : تقديره واذكر إذ غدوت

والثاني : قال أبو مسلم : هذا كلام معطوف بالواو على قوله ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التقتا فِئَةٌ تقاتل فِى سَبِيلِ الله وأخرى كَافِرَةٌ ﴾ [آل عمران : 13] يقول : قد كان لكم في نصر الله تلك الطائفة القليلة من المؤمنين على الطائفة الكثيرة من الكافرين موضع اعتبار لتعرفوا به أن الله ناصر المؤمنين ، وكان لهم مثل ذلك من الآية إذ غدا الرسول صلى الله عليه وسلم يبوىء المؤمنين مقاعد للقتال

والثالث : العامل فيه محيط : تقديره والله بما يعملون محيط وإذ غدوت . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 179 ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في أن هذا اليوم أي يوم هو ؟ فالأكثرون : أنه يوم أحد : وهو قول ابن عباس والسدي وابن إسحاق والربيع والأصم وأبي مسلم ، وقيل : إنه يوم بدر ، وهو قول الحسن ، وقيل إنه يوم الأحزاب وهو قول مجاهد ومقاتل ، حجة من قال هذا اليوم هو يوم أحد وجوه

الأول : أن أكثر العلماء بالمغازي زعموا أن هذه الآية نزلت في وقعة أُحد

الثاني : أنه تعالى قال بعد هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ ﴾ [آل عمران : 123] والظاهر أنه معطوف على ما تقدم ، ومن حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه ، وأما يوم الأحزاب ، فالقوم إنما خالفوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم يوم أحد لا يوم الأحزاب ، فكانت قصة أحد أليق بهذا الكلام لأن المقصود من ذكر هذه القصة تقرير قوله ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ فثبت أن هذا اليوم هو يوم أحد

الثالث : أن الانكسار واستيلاء العدو كان في يوم أحد أكثر منه في يوم الأحزاب لأن في يوم أحد قتلوا جمعاً كثيراً من أكابر الصحابة ولم يتفق ذلك يوم الأحزاب فكان حمل الآية على يوم أحد أولى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 179 ﴾

وقال أبو حيان :

وقال الحسن : كان هذا الغدو في غزوة الأحزاب .

وهو قول : مجاهد ، ومقاتل ، وهو ضعيف .

لأن يوم الأحزاب كان فيه ظفر المؤمنين ، ولم يجر فيه شيء مما ذكر في هذه الآيات بل قصتاهما متباينتان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 48 ﴾

فائدة

قال ابن عطية :

ذهب الطبري رحمه الله إلى أن هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدمها من الآيات والظاهر أنها استقبال أمر آخر ، لأن تلك مقاولة في شأن منافقي اليهود ، وهذا ابتداء عتب المؤمنين في أمر أحد ، فالعامل في ﴿ إذ ﴾ فعل مضمر تقديره واذكر ، وقال الحسن : هذا الغدو المذكور في هذه الآية "لتبوىء المؤمنين" الذي كان في غزوة الأحزاب .

قال القاضي أبو محمد : وخالفه الناس ، والجمهور على أن ذلك كان في غزوة أحد ، وفيها نزلت هذه الآيات كلها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 499 ﴾

فصل

قال الفخر :

روي أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ودعا عبد الله بن أبي بن سلول ولم يدعه قط قبلها فاستشاره فقال عبد الله وأكثر الأنصار : يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم والله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ولا دخل عدو علينا إلا أصبنا منه ، فكيف وأنت فينا ؟ فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر موضع وإن دخلوا قتلهم الرجال في وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة ، وإن رجعوا رجعوا خائبين وقال آخرون : أخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب لئلا يظنوا أنا قد خفناهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : " إني قد رأيت في منامي بقراً تذبح حولي فأولتها خيراً ورأيت في ذباب سيفي ثلماً فأوّلته هزيمة ورأيت كأني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم " فقال قوم من المسلمين من الذين فاتتهم (بدر) وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد أخرج بنا إلى أعدائنا فلم يزالوا به حتى دخل فلبس لأمته ، فلما لبس ندم القوم ، وقالوا : بئسما صنعنا نشير على رسول الله

والوحي يأتيه ، فقالوا له اصنع يا رسول الله ما رأيت ، فقال : " لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل " فخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال ، فمشى على رجليه وجعل يصف أصحابه للقتال كأنما يقوم بهم القدح إن رأى صدراً خارجاً قال له تأخر ، وكان نزوله في جانب الوادي ، وجعل ظهره وعسكره إلى أُحد وأمر عبد الله بن جبير على الرماة ، وقال : ادفعوا عنا بالنبل حتى لا يأتونا من ورائنا ، وقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه : " اثبتوا في هذا المقام ، فإذا عاينوكم ولوكم الأدبار ، فلا تطلبوا المدبرين ولا تخرجوا من هذا المقام " ، ثم إن الرسول عليه الصلاة والسلام لما خالف

رأي عبد الله بن أُبَيّ شق عليه ذلك ، وقال : أطاع الولدان وعصاني ، ثم قال لأصحابه : إن محمداً إنما يظفر بعدوه بكم ، وقد وعد أصحابه أن أعداءهم إذا عاينوهم انهزموا ، فإذا رأيتم أعداءهم فانهزموا فيتبعوكم ، فيصير الأمر على خلاف ما قاله محمد عليه السلام ، فلما التقى الفريقان انهزم عبد الله بالمنافقين ، وكان جملة عسكر المسلمين ألفاً ، فانهزم عبد الله بن أُبي مع ثلثمائة ، فبقيت سبعمائة ، ثم قواهم الله مع ذلك حتى هزموا

المشركين ، فلما رأى المؤمنون انهزام القوم ، وكان الله تعالى بشرهم بذلك ، طمعوا أن تكون هذه الواقعة كواقعة بدر ، فطلبوا المدبرين وتركوا ذلك الموضع ، وخالفوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن أراهم ما يحبون ، فأراد الله تعالى أن يفطمهم عن هذا الفعل لئلا يقدموا على مخالفة الرسول عليه السلام وليعلموا أن ظفرهم إنما حصل يوم بدو و ببركة طاعتهم لله ولرسوله ، ومتى تركهم الله مع عدوهم لم يقوموا لهم فنزع الله الرعب من قلوب المشركين ، فكثر عليهم المشركون وتفرق العسكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى : ﴿ إِذَا تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ على أَحَدٍ والرسول يَدْعُوكُمْ فِى أُخْرَاكُمْ ﴾ [آل عمران : 153] وشج وجه الرسول صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيته وشلت يد طلحة دونه ، ولم يبق معه إلا أبو بكر وعلي والعباس وسعد ، ووقعت الصيحة في العسكر أن محمداً قد قتل ، وكان رجل يكنى أبا سفيان من الأنصار نادى الأنصار وقال : هذا رسول الله ، فرجع إليه المهاجرون والأنصار ، وكان قتل منهم سبعون وكثر فيهم الجراح ، فقال صلى الله عليه وسلم : " رحم الله رجلاً ذب عن إخوانه " وشد على المشركين بمن معه حتى كشفهم عن القتلى والجرحى والله أعلم .

والمقصود من القصة أن الكفار كانوا ثلاثة آلاف والمسلمون كانوا ألفاً وأقل ، ثم رجع عبد الله بن أُبي مع ثلثمائة من أصحابه فبقي الرسول صلى الله عليه وسلم مع سبعمائة ، فأعانهم الله حتى هزموا الكفار ، ثم لما خالفوا أمر الرسول واشتغلوا بطلب الغنائم انقلب الأمر عليهم وانهزموا ووقع ما وقع ، وكل ذلك يؤكد قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ [آل عمران : 120] وأن المقبل من أعانه الله ، والمدبر من خذله الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 179 . 180 ﴾

فصل

قال الفخر :

يقال : بوأته منزلاً وبوأت له منزلاً أي أنزلته فيه ، والمباءة والباءة المنزل وقوله ﴿ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ أي مواطن ومواضع ، وقد اتسعوا في استعمال المقعد والمقام بمعنى المكان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ [القمر : 55] وقال : ﴿ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ [النمل : 39] أي من مجلسك وموضع حكمك وإنما عبر عن الأمكنة ههنا بالمقاعد لوجهين

الأول : وهو أنه عليه السلام أمرهم أن يثبتوا في مقاعدهم لا ينتقلوا عنها ، والقاعد في مكان لا ينتقل عنه فسمى تلك الأمكنة بالمقاعد ، تنبيهاً على أنهم مأمورون بأن يثبتوا فيها ولا ينتقلوا عنها ألبتة

والثاني : أن المقاتلين قد يقعدون في الأمكنة المعينة إلى أن يلاقيهم العدو فيقوموا عند الحاجة إلى المحاربة فسميت تلك الأمكنة بالمقاعد لهذا الوجه. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 180 ﴾

(17/129)

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

1 - [من أهل الكتاب أمة] جيء بالجملة الاسمية للدلالة على الاستمرار كما جيء بعدها بصيغة المضارع [يتلون آيات الله] للدلالة على التجدد ومثله في [يسجدون] .

2 - [وأولئك من الصالحين] الإشارة بالبعيد عن القريب، لبيان علو درجتهم وسمو منزلتهم في الفضل

3 - [كمثل ريح فيها صر] فيه (التشبيه التمثيلى) شبه ما كانوا ينفقونه من أجل المفاخر وكسب الثناء، بالزرع الذي أصابته الريح العاصفه الباردة، فدمرته وجعلته حطاما .

4 - [لا تتخذوا بطانة] شبه دخلاء الرجل وخواصه بالبطانة، ففيه استعارة بديعة

لطيفة ، تشبيها لهم ببطانة الثوب ، التي تكون من الداخل ، فكأنهم ملاصقون لأجسامهم .

5 - [عضوا عليكم الأنامل]

قال أبو حيان : يوصف المغتاظ والنادم بعض الأنامل فيكون حقيقة ، ويحتمل أنه من مجاز التمثيل عبر بذلك عن شدة الغيظ والتأسف لما يفوتهم من إذاية المؤمنين أقول : عض الأنامل عادة العاجز النادم ، الذي لا يستطيع أن يفعل شيئًا أمام ما يعرض له من متاعب ومصاعب ، فيعض على أصابعه حسرة وندما ، وهذا من مجاز الإمثال .

6 - في الآيات من المحسنات البديعية ما يسمى (بالمقابلة) وذلك في قوله [إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها] حيث قابل الحسنة بالسيئة والمساءة بالفرح وهي مقابلة بديعة ، كما أن فيها جناس الإشتقاق في [ظلمهم] و[يظلمون] وفي [الغيظ] و[غيظكم] وفي [تؤمنون] و[آمنا] . انتهى انتهى . اهـ ﴿صفوة التفاسير حـ 1 صـ 226﴾

(18/129)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال أبو حيان :

وظاهر قوله : وإذ غدوت ، خروجه غدوة من عند أهله .

وفسر ذلك بخروجه من حجرة عائشة يوم الجمعة غدوة حين استشار الناس ، فمِنْ مشير

بالإقامة وعدم الخروج إلى القتال .

وأن المشركين إنْ جاؤوا قاتلوهم بالمدينة ، وكان ذلك رأيه صلى الله عليه وسلم .

ومن مشير بالخروج وهم : جماعة من صالحي المؤمنين فأتتهم وقعة بدر وتبوئة المؤمنين

مقاعد للقتال ، على هذا القول هو أن يقسمَ أفطار المدينة على قبائل الأنصار .

وقيل : غدوه هو نهوضه يوم الجمعة بعد الصلاة وتبوئته في وقت حضور القتال .

وسماه غدواً إذ كان قد عزم عليه غدوة .

وقيل : غدوه كان يوم السبت للقتال .

ولما لم تكن تلك الليلة موافقة للغدو وكأنه كان في أهله ، والعامل في إذا ذكر .

وقيل : هو معطوف على قوله : ﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتا ﴾ أي وآية إذ غدوت ،

وهذا في غاية البعد .

ولولا أنه مسطور في الكتب ما ذكرته .

وكذلك قول مَنْ جعل من في معنى مع ، أي : وإذ غدوت مع أهلك .

وهذه تخريجات يقولها وينقلها على سبيل التجويز من لا بصر له بلسان العرب .

ومعنى تبوّيء تنزل ، من المباءة وهي المرجع ومنه ﴿ لنبوئنهم من الجنة غرفاً ﴾ فليتبوأ

مقعده من النار ، وقال الشاعر :

كم صاحب لي صالح . . .

بوّأته بيديّ لحدا

وقال الأعشى :

وما بوّأ الرحمن بيتك منزلا . . .

بشرقيّ أجياد الصفا والمحرم

ومقاعد : جمع مقعد ، وهو هناك مكان القعود .

والمعنى : مواطن ومواقف .

وقد استعمل المقعد والمقام في معنى المكان .

ومنه : ﴿ في مقعد صدق ﴾ ﴿ قبل أن تقوم من مقامك ﴾

وقال الزمخشري : وقد اتسع في قعد وقام حتى أجريا مجرى صار انتهى .

أمّا إجراء قعد مجرى صار فقال أصحابنا : إنما جاء في لفظة واحدة وهي شاذة لا تتعدى ، وهي في قولهم : شحذ شفرته حتى قعدت كأنها حربة ، أي صارت .

وقد نقد على الزمخشري تخريج قوله تعالى : ﴿ فتقعد ملوماً ﴾ على أن معناه : فتصير ، لأن ذلك عند النحويين لا يطرد .

وفي اليواقيت لأبي عمر الزاهد قال ابن الأعرابي : القعد الصيرورة ، والعرب تقول : قعد فلان أميراً بعدما كان مأموراً أي صار .

(19/129)

وأمّا إجراء قام مجرى صار فلا أعلم أحداً عدّها في أخوات كان ، ولا ذكر أنها تأتي بمعنى صار ، ولا ذكر لها خبراً إلا أبا عبد الله بن هشام الحضراوي فإنه قال في قول الشاعر :

على ما قام يشتمني لئيم . . .

إنها من أفعال المقاربة

وقال ابن عطية : لفظة القعود أدل على الثبوت ، ولا سيما أنّ الرماة إنما كانوا قعوداً ، وكذلك كانت صفوف المسلمين أولاً ، والمبارزة والسرعان يجولون .

وجمع المقاعد لأنه عيّن لهم مواقف يكونون فيها : كالميمنة والميسرة ، والقلب ، والشاقة .

وبيّن لكل فريق منهم موضعهم الذي يقفون فيه .

خرج صلى الله عليه وسلم بعد صلاة الجمعة ، وأصبح بالشعب يوم السبت للنصف من شوال ، فمشى على رجليه ، فجعل يصفّ أصحابه للقتال كأنما يقوم بهم القدح .

إنْ رأى صدراً خارجاً قال : " تأخر " ، وكان نزوله في غدوة الوادي ، وجعل ظهره

وعسكره إلى أحد .

وأمر عبد الله بن جبير على الرماة وقال لهم : " انصحوا عنا بالنبل " لا يأتونا من ورائنا " .

وتبوىء جملة حالية من ضمير المخاطب .

فقيل : هي حال مقدرة ، أي خرجت قاصد التبوئة ، لأن وقت الغدوّ لم يكن وقت التبوئة .

وقرأ الجمهور تبوىء من بوّأ .

وقرأ عبد الله : تبوِّىء من أبوأ ، عداه الجمهور بالتضعيف ، وعبد الله بالهمزة .

وقرأ يحيى بن وثاب : تبوى بوزن تحيا ، عداه بالهمزة ، وسهل لام الفعل بإبدال الهمزة ياء نحو : يقرى في يقرىء .

وقرأ عبد الله : للمؤمنين بلام الجر على معنى : ترتب وتهيىء .

ويظهر أنّ الأصل تعديته لواحد بنفسه ، وللآخر باللام لأن ثلاثيه لا يتعدى بنفسه ، إنما يتعدى بحرف جر .

وقرأ الأشهب : مقاعد القتال على الإضافة ، وانتصاب مقاعد على أنه مفعول ثان لتبوى .

ومَنْ قرأ للمؤمنين كان مفعولاً لتبوىء ، وعداه باللام كما في قوله : ﴿ وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ وقيل : اللام في لابراهيم زائدة ، واللام في للقتال لام العلة تتعلق بتبوىء .

وقيل : في موضع الصفة لمقاعد .

وفي الآية دليل على أن الأئمة هم الذين يتولون أمر العساكر ويختارون لهم المواضع للحرب ، وعلى الأجناد طاعتهم قاله : الماتريدي .

وهو ظاهر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 48. 50 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوّىء المؤمنين مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ يروى أنه عليه السلام غدا من منزل عائشة رضي الله عنها فمشى على رجليه إلى أحد ، وهذا قول مجاهد والواقدي ، فدل هذا النص على أن عائشة رضي الله عنها كانت أهلاً للنبي صلى الله عليه وسلم وقال تعالى : ﴿ الطيبات لِلطَّيّبِينَ والطيبون للطيبات ﴾ [النور : 26] فدل هذا النص على أنها مطهرة مبرأة عن كل قبيح ، ألا ترى أن ولد نوح لما كان كافراً قال : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [هود : 46] وكذلك امرأة لوط . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 180. 181 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

العامل في " إذْ " مضمَر ، تقديره : واذكر إذْ غدوت ، فينتصب المفعول به لا على الظرف ، وجوَّز أبو مسلم أن يكون معطوفاً على ﴿ فِئَتَيْنِ ﴾ في قوله : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ﴾ [آل عمران : 13] أي : قد كان لكم آية في فئتين ، وفي إذْ غَدَوْتَ ، وهذا لا ينبغي أن يعرَّج عليه .

وقال بعضهم : العامل في " إذْ " " محيط " تقديره : بما يعملون محيط إذْ غَدَوْتَ .

قال بعضهم : وهذا لا يَصِحّ ؛ لأن الواو في (وَإِذْ) يمنع في عمل (مُحِيطٌ) فيها .

(21/129)

والغُدوّ : الخروج أول النهار ، يقال : غدا يغدو ، أي : خرج غدوة ، وفي هذا دليل على جواز صلاة الجمعة قبل الزوال ؛ لأن المفسِّرين أجمعوا على أنه إنما خرج بعد أن صَلَّى الجمعة .

ويُسْتَعْمَل بمعنى : " صار " عند بعضهم ، فيكون ناقصاً ، يرفع الاسم ، وينصب الخبر ، وعليه قوله صلى الله عليه وسلم : " لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى الله حَقَّ توكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصاً ، وتَرُوحُ بِطَاناً " .

قوله : " من أهلك " متعلق بـ " غَدَوْتَ " ، وفي " مِنْ " وجهان :

أحدهما : أنها لابتداء الغاية ، أي : من بين أهلك .

قال أبو البقاء : " وموضعه نصب ، تقديره فارقت أهلَك " .

قال شهابُ الدِّينِ : " وهذا الذي قاله ليس تفسير إعراب ، ولا تفسير معنى ؛ فإن المعنى على غير ما ذكر " .

الثاني : أنها بمعنى : " مع " أي : مع أهْلك ، وهذا لا يساعده لفظ ، ولا معنى .

قوله : " تبوئ " يجوز أن تكون الجملة حالاً من فاعل : " غَدَوْتَ " ، وهي حال مقدرة ، أي : قاصداً تَبْوئَةَ المؤمنين ؛ لأن وقت الغدو ليس وقتاً للتبوئة ، ويُحْتَمَل أن تكون حالاً مقارنة ؛ لأن الزمان متسع .

و" تبوئ " أي تُنزل ، فهو يتعدى لمفعولين ، إلى أحدهما بنفسه ، وإلى الآخر بحرف الجر ، وقد يُحْذَف - كهذه الآية - ومن عدم الحذف قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البيت ﴾ [الحج : 26] وأصله من المباءة - وهي المرجع - .

قال الشاعر : [الطويل]

وَمَا بَوَّأَ الرَّحْمَنُ بَيْتَكَ مَنْزِلاً . . . بِشَرْقِيِّ أَجْيَادِ الصَّفَا وَالْمُحَرَّمِ

وقال آخر : [مجزوء الكامل]

كَمْ صَاحِبٍ لِي صَالِحٍ . . . بَوَّأْتُهُ بِيَدَيَّ لَحْدَا

وقد تقدم اشتقاقه .

وقيل : اللام في قوله "لإبراهيم" مزيدة ، فعلى هذا يكون متعدياً لاثنين بنفسه .

(22/129)

و "مقَاعِدَ" جمع مَقْعَد ، والمراد به – هنا – مكان القعود ، و"قعد " قد يكون بمعنى : " صار " في المثل خاصة .

قال الزمخشري : " وقد اتُّسِعَ في قَامَ ، وقَعَدَ ، حتى أجْرِيَا مُجْرَى صار " .

قال أبو حيان : أما إجراء قَعَدَ مُجْرَى صار ، فقال بعض أصحابنا : إنما جاء ذلك في لفظة واحدة شاذة في المثل قولهم : شَحَذَ شَفْرَتَه حتَّى قَعَدَتْ كأنَّهَا حَرْبَةٌ ، ولذلك نُقِد على الزمخشري تخريجُه قوله تعالى : ﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً ﴾ [الإسراء : 22] بمعنى تصير ؛ لأنه لا يَطَّرِد إجراء قَعَدَ مُجْرَى صار .

قال شهابُ الدين : " وهذا – الذي ذكره الزمخشري – صحيح ، من كون قَعَد بمعنى : صار في غير ما أشار إليه هذا القائل ؛ حكى أبو عمر الزاهد – عن ابن الأعرابي – أن العرب تقول : قعد فلان أميراً بعد أن كان مأموراً ، أي : صار " .

ثم قال أبو حيان : وأما إجراء قام مُجْرَى صار ، فلا أعلم أحداً عدّها في أخَوَاتِ "كان " ،

ولا جعلها بمعنى "صار" إلا ابن هشام الخَضْراوي، فإنه ذكر - في قول الشاعر: [الوافر]

عَلَى مَا قَامَ يَشْتِمُنِي لَئِيمٌ... كَخِنْزِيرٍ تَمَرَّغَ فِي رَمَادِ

أنها من أفعال المقاربة.

قال شهابُ الدين: "وغيرُه من النحويين من يجعلها زائدةً، وهو شاذٌّ، أيضاً".

وقرأ العامة: "تبوّئ" بعدَّوْه بالتضعيف، وقرأ عبد الله: "تُبْوِئ"، بسكون الباء فعدَّاه بالهمزة، فهو مضارع أبْوأ - كأكرم.

وقرأ يحيى بن وثّاب "تُبْوِي" كقراءة عبد الله، إلا أنه سَهَّل بإبدالها ياءً، فصار لفظه كلفظ: يُحيي.

(23/129)

وقرأ عبد الله: للمؤمنين - بلام الجر - كقوله: "وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت" وقد تقدم أن في هذه اللام قولين، والظاهر أنها معدية؛ لأنه قبل التضعيف، والهمزة غيرُ متعدٍّ بنفسه. ويحتمل أن يكون قد ضمَّنه - هنا - تهيِّئ، وترتِّب.

وقرأ الأشهب "مقاعد القتال" - بإضافتها للقتال - واللام في "لِلْقِتَالِ" - في قراءة الجمهور - فيها وجهان:

أوّلهما : – وهو أظهر – : أنها متعلقة بـ " تبوئ " على أنها لام العلة .

والثاني : أنها متعلقة بمحذوف ؛ لأنها صفة لِ " مَقَاعِدَ " أي : مقاعد كائنة ، ومُهَيَّأة للقتال ، ولا يجوز تعلقها بـ " مقاعد " ، وإن كانت مشتقة ؛ لأنها مكان ، والأمكنة لا تعمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 505. 507 ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

قال الفخر :

﴿ والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي سميع لأقوالكم عليم بضمائركم ونياتكم ، فإنا ذكرنا أنه عليه السلام شاور أصحابه في ذلك الحرب ، فمنهم من قال له : أقم بالمدينة ، ومنهم من قال : اخرج إليهم ، وكان لكل أحد غرض آخر فيما يقول ، فمن موافق ، ومن مخالف فقال تعالى : أنا سميع لما يقولون عليم بما يضمرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 181 ﴾

(24/129)

من فوائد العلامة أبى السعود فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ ﴾ كلامٌ مستأنفٌ سيق للاستشهاد بما فيه من استتباع عدمِ الصبرِ والتقوى للضرر ، على أن وجودَهما مستتبعٌ لما وُعِد من النجاة من مضرّة كيدِ الأعداءِ وإذْ نُصبَ على المفعولية بمضمر خوطب به النبيُّ صلى الله عليه وسلم خاصة مع عموم الخطابِ فيما قبله وما بعده له وللمؤمنين لاختصاص مضمونِ الكلامِ به عليه السلام أي واذكر لهم وقت غُدُوِّك ليتذكروا ما وقع فيه من الأحوال الناشئةِ عن عدم الصبرِ فيعلموا أنهم إن لزِموا الصبرَ والتقوى لا يضرُهم كيدُ الكفرة ، وتوجيهُ الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودةُ بالذات للمبالغةِ في إيجابها كُرْهاً واستحضارِ الحادثةِ بتفاصيلها كما سلف بيانُه في تفسير قولِه تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلملائكة ﴾ الخ والمرادُ به خروجُه عليه السلام إلى أُحد وكان ذلك من منزل عائشةَ رضي الله عنها وهو المرادُ بقوله تعالى : ﴿ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أي من عند أهلِك ﴿ تبوئ المؤمنين ﴾ أي تنْزِلُهم أو تهيّيءُ وتسوّي لهم ﴿ مقاعد ﴾ ويؤيده قراءتُه من قرأ تبويءُ المؤمنين ، والجملة حالٌ من فاعل غدوتَ لكن لا على أنها حالٌ مقدرةٌ أي ناوياً وقاصداً للتبْوئة كما قيل بل على أن المقصودَ تذكيرُ الزمانِ الممتدّ المتسعِ لابتداء الخروجِ والتبْوِئة وما يترتب عليها إذْ هو المُذكِّرُ للقصة ، وإنما عُبّر عنه بالغدو الذي هو الخروجُ غُدوةً مع كون خروجه عليه السلام بعد صلاةِ الجمعةِ كما ستعرفه ، إذْ حينئذٍ وقعت التبوئةُ التي هي العُمدةُ في الباب إذِ المقصودُ بتذكير الوقت تذكيرُ مخالفتِهم لأمر النبيِّ صلى الله عليه وسلم وتزايُلهم عن أحيازهم المعيَّنةِ لهم

عند التبوئة وعدمِ صبرِهم ، وبهذا يتبين خللُ رأي من احتج به على جواز أداءِ صلاةِ الجمعة قبل الزوال ،

(25/129)

واللام في قوله تعالى : ﴿ لِلْقِتَالِ ﴾ إما متعلقةٌ بتبوّيِء أي لأجل القتالِ وإما بمحذوف وقع صفةً لمقاعدَ أي كائنةً .

ومقاعدُ القتالِ أماكنُه ومواقِفُه فإن استعمالَ المقعدِ والمقامِ بمعنى المكانِ اتساعاً شائعٌ ذائعٌ كما في قوله تعالى : ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 77 . 78 ﴾

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ ﴾ أي واذكر إذ خرجت غدوة ﴿ مِنْ ﴾ عند ﴿ أَهْلِكَ ﴾ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة والكلام مستأنف سيق للاستشهاد بما فيه من استتباع عدم الصبر والتقوى للضرر على أن وجودهما مستتبع لما وعد من النجاة عن مضرة كيد الأعداء وكان الخروج من حجرة عائشة رضي الله تعالى عنها ﴿ تُبَوّىء المؤمنين ﴾ أي

توطنهم قاله ابن جبير وقيل : تنزلهم ، وقيل : تسوي وتهيء لهم ، ويؤيده قراءة للمؤمنين إذ ليس محل التقوية والزيادة غير فصيحة ﴿ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ أي مواطن ومواقف ومقامات له ، وأصل المقعد والمقام محل القعود والقيام ثم توسع فيه فأطلق بطريق المجاز على المكان مطلقاً وإن لم يكن فيه قيام وقعود ، وقد يطلق على من به كقولهم المجلس السامي والمقام الكريم وجملة ﴿ تُبَوِّىءُ ﴾ حال من فاعل ﴿ غَدَوْتَ ﴾ ولكون المقصود تذكير الزمان الممتد المتسع لابتداء الخروج والتبوئة وما يترتب عليها إذ هو المذكر للقصة لم يحتج إلى القول بأنها حال مقدرة أي ناوياً وقاصداً للتبوئة ، ومقاعد مفعول ثان لتبوىء والجار والمجرور متعلق بالفعل قبله أو بمحذوف وقع صفة لمقاعد ، ولا يجوز كما قال أبو البقاء أن يتعلق به لأن المراد به المكان وهو لا يعمل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 41 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (121) ﴾

أقامَه – صلى الله عليه وسلم – بتبوئه الأماكن للقتال ، فانْتُدِب لذلك بأمره ثم أظهر في ذلك الباب مكنونات سِرِّه ، فالمدار على قضائه وقَدَرِه ، والاعتبار بإجرائه واختياره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 274 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

إنه في هذه المرة – في غزوة أحد – جاء الكفار بثلاثة آلاف وكان المسلمون قلة ، سبعمائة مقاتل فقط ، وحتى يبين الحق صدق قضاياه في قوله : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ وليس المقصود هنا الكيد التبييتي بل عملهم العلني ، أي واذكر صدق هذه القضية :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ ، والغدوة هي : أول النهار ، والرواح : آخر النهار ، والأهل : تطلق ويراد بها الزوجة ، والمقصود هنا حجرة عائشة ؛ لأن الرسول كان فيها في هذا الوقت الذي أراد فيه كفار قريش أن يثأروا لأنفسهم من قتلى بدر وأسراهم ، لقد جمعوا حشودهم ، فكل موتور من معركة بدر كان له فرسان وله رجال ، حتى انهم بعد معركة بدر قال زعيمهم أبو سفيان لأصحابه : قل للنساء لا تبكين قتلاكم فإن البكاء يذهب الحزن ، فالدموع يسمونها غسل الحزن ، أو ذوب المواجيد ، فساعة يبكي إنسان حزين يقول من حوله : دعوه يرتاح.

فلو حزنت النساء وبكين على قتلى بدر لهبطت جذوة الانتقام ؛ لذلك قال أبو سفيان : قل

لهن لا يبكين . إنه يريد أن يظل الغيظ في مسألة بدر موجوداً إلى أن يأخذوا الثأر . وفعلاً اجتمع معسكر الكفر في ثلاثة آلاف مقاتل عند أحد ، وبعد ذلك استشار النبي صلى الله عليه وسلم في هذه المسألة أصحابه وأرسل إلى واحد من أكبر المنافقين هو عبد الله بن أبي بن سلول ، وما استدعاه إلا في هذه المعركة ، فقال عبد الله بن أبي بن سلول وأكثر الأنصار :

يا رسول الله نحن لم نخرج إلى عدو خارج المدينة إلا نال منا ، ولم يدخل علينا عدو إلا نلنا منه ، فإنا نرى ألا تخرج إليهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين

وأشار آخرون من الصحابة بالخروج إليهم ، وقالوا :

"يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جَبُنا عنهم وضعفنا ، ولم يترك أصحاب هذا الرأي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وافقهم على ما أرادوا "

فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته فلبس درعه وأخذ سلاحه ، وظن الذي ألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج أنهم قد استكرهوه على ما لا يريد فندموا

على ما كان منهم ، ولما خرج عليهم قالوا : استكرهناك يا رسول الله ولم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما ينبغي لنبي لبس لأُمَتَهُ أن يضعها حتى يقاتل " .

وخرجوا إلى الحرب ، وهذا هو الذي يُذَكِّرُ به القرآن صدقا للقضية التي جاءت في الآية السابقة : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ .

اذكر يا محمد :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ [آل عمران : 121]

و ﴿ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ أي توطن المؤمنين في أماكن للقتال ، وبوأت فلانا يعني : وطنته في مكان يبوء إليه أي يرجع ، واسمه وطن ؛ لأن الوطن يرجع إليه الإنسان .

(28/129)

انظر إلى الدقة الأدائية لقول الحق : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ أي تجعل لهم مباءة ووطنا . وكلمة " مقاعد " أي أماكن للثبات ، والحرب كرّ وفرّ وقيام ، والذي يحارب يثبته الله في المعركة ، فكأنه مُوَطَّنٌ في الميدان ، فكأن أمر الرسول إلى المقاتلين يتضمن ألا يلتفت أي منهم إلى موطن آخر غير موطنه الذي ثبته وبوّأته فيه أي إن

هذا هو وطنك الآن؛ لأن مصيرك الإيماني سيكون رهناً به.

إذن فقوله: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ﴾ أي توطن "المؤمنين" وتقول لهم: إن وطنكم هو مقاعدكم التي ثبتكم بها. ورسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بالرماة؛ وأمّر عليهم "عبد الله بن جبير" وهم يومئذ خمسون رجلا وقال رسول الله لهم: "قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا فإن رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا".

لكنهم لم يقدروا على هذه لأن نفوسهم مالت إلى الغنيمة؛ وشاء الله أن يجعل التجربة في محضر من رسوله صلى الله عليه وسلم: حتى يبين للمؤمنين في كل المعارك التي تلك أن اتباع أمر القائد يجب أن يكون هو الأساس في عملية الجندية. وإنكم إن خالفتم الرسول فلا بد أن تنهزموا.

وقد يقول قائل: الإسلام انهزم في أُحد. ونقول: لا، إن الإسلام انتصر. ولو أن المسلمين انتصروا في "أحد" مع مخالفة الرماة لأمر النبي صلى الله عليه وسلم، أكان يستقيم لرسول الله أمر؟

إذن فقد انهزم المسلمون الذين لم ينفذوا الأمر ، وكان لا بد من أن يعيشوا التجربة وهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فحينما هبت ريح النصر على المؤمنين في أول المعركة ، ابتدأ المقاتلون في الانشغال بالأسلاب والغنائم ، فقال الرماة : سيأخذ الأسلاب غيرنا ويتركوننا ونزلوا ليأخذوا الغنائم ، فانتهز خالد بن الوليد وكان على دين قومه انتهز الفرصة وطوقهم وحدث ما حدث وأذيع وفشا في الناس خبر قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكفأوا وانهزموا فجعل رسول الله يدعو ويقول : "إليّ عباد الله" حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على هربهم فقالوا : يا رسول الله : فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، أتانا خبر قتلك فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين

إن التحقيق التاريخي لمعركة أُحد قد أكد أن المسألة لا تُعتبر هزيمة ولا انتصاراً ؛ لأن المعركة كانت لا تزال مائعة .

وبعدها دعا الرسول من كان معه في غزوة أحد إلى الخروج في طلب العدو ، وأدركهم في حمراء الأسد وفَرّ الكافرون . إنّ الله أراد أن يعطي المؤمنين درساً في التزام أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال الحق : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ .

إن الحق يذكر بمسئوليات القائد ، الذي يوزع المهام ، فهذا جناح أيمن وذاك جناح أيسر ، وهذا مقدمة وهذا مؤخرة . ويذيل الحق هذا بقوله : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ حتى يعرف

المؤمنين أنه سبحانه قد شهد أن رسوله قد بوأ المؤمنين مقاعد القتال ، وسبحانه " عليم " بما يكون في النيات ؛ لأن المسألة في الحرب دفاع عن الإيمان وليست انقياد قوالب ، ولكنها انقياد قلوب قبل انقياد القوالب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1723 . 1726 ﴾

(30/129)

قوله تعالى : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (122) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان رجوع عبد الله بن أبي المنافق - كما يأتي في صريح الذكر آخر القصة - من الأدلة على أن المنافقين فضلاً عن المصارحين بالمصارمة متصفون بما أخبر الله تعالى عنهم من العداوة والبغضاء مع أنه كان سبباً في هم الطائفتين من الأنصار بالفشل كان إيلاء هذه القصة للنهي عن اتخاذ بطانة السوء الذين لا يقصرون عن فساد في غاية المناسبة ، ولذلك افتتحها سبحانه وتعالى بقوله - مبدلاً من ﴿ إذ غدوت ﴾ دليلاً على ما قبله من أن بطانة

السوء لا تألوهم خبالاً وغير ذلك - : ﴿ إذ همت طائفتان ﴾ وكانا جناحي العسكر ﴿ منكم ﴾ أي بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس ﴿ أن تفشلا ﴾ أي تكسلاً وتراخياً وتضعفاً وتجبناً لرجوع المنافقين عن نصرهم وولايتهم فترجعا ، كما رجع المنافقون ﴿ والله ﴾ أي والحال أن ذا الجلال والإكرام ﴿ وليهما ﴾ وناصرهما لأنهما مؤمنتان فلا يتأتى وقوع الفشل وتحققه منهما لذلك ، فليتوكلا عليه وحده لإيمانهما ، أو يكون التقدير : فالعجب منهما كيف تعتمدان على غيره سبحانه وتعالى لتضعفا بخذلانه ﴿ و ﴾ الحال أنه ﴿ على الله ﴾ أي الذي له الكمال كله وحده ﴿ فليتوكل المؤمنون ﴾ أي الذين صار الإيمان صفة لهم ثابتة ، أجمعون لينصرهم ، لا على كثرة عدد ولا قوة جلد ، والأحسن تنزيل الآية على الاحتباك ويكون أصل نظمها : والله وليهما لتوكلهما وإيمانهما فلم يمكن الفشل منهما ، فتولوا الله وتوكلوا عليه ليصونكم من الوهن ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون كلهم ليفعل بهم ذلك ، فالأمر بالتوكل ثانياً دال على وجوده أولاً ، وإثبات الولاية أولاً دال على الأمر بها ثانياً ، وفي البخاري في التفسير عن جابر رضي الله عنه قال : فينا نزلت ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ قال : نحن الطائفتان : بنو حارثة وبنو سلمة ، وما نحب أنها لم تنزل لقول الله عز وجل : ﴿ والله وليهما ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 145.146 ﴾

فصل

قال الفخر :

العامل في قوله ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ ﴾ فيه وجوه

الأول : قال الزجاج : العامل فيه التبوئة ، والمعنى كانت التبوئة في ذلك الوقت

الثاني : العامل فيه قوله ﴿ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

الثالث : يجوز أن يكون بدلاً من ﴿ إِذْ غَدَوْتَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 181 ﴾

فصل

قال الفخر :

الطائفتان حيان من الأنصار : بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس لما انهزم عبد الله بن أُبي همت الطائفتان باتباعه ، فعصمهم الله ، فثبتوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن العلماء من قال : إن الله تعالى أبهم ذكرهما وستر عليهما ، فلا يجوز لنا أن نهتك ذلك الستر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 181 ﴾

فصل

قال الفخر :

الفشل : الجبن والخور ، فإن قيل : الهم بالشيء هو العزم ، فظاهر الآية يدل على أن الطائفتين عزمتا على الفشل والترك وذلك معصية فكيف بهما أن يقال والله وليهما ؟ .

والجواب : الهم قد يراد به العزم ، وقد يراد به الفكر ، وقد يراد به حديث النفس ، وقد يراد به ما يظهر من القول الدال على قوة العدو وكثرة عدده ووفور عدده ، لأن أي شيء ظهر من هذا الجنس صح أن يوصف من ظهر ذلك منه بأنه هم بأن يفشل من حيث ظهر منه ما يوجب ضعف القلب ، فكان قوله ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ ﴾ لا يدل على أن معصية وقعت منهما ، وأيضاً فبتقدير أن يقال : إن ذلك معصية لكنها من باب الصغائر لا من باب الكبائر ، بدليل قوله تعالى : ﴿ والله وَلِيُّهُمَا ﴾ فإن ذلك الهم لو كان من باب الكبائر لما بقيت ولاية الله لهما . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 181 ﴾

(32/129)

فائدة

قال الماوردى :

وفي سبب همّهم بالفشل قولان :

أحدهما : أن عبد الله بن أبي سلول دعاهما إلى الرجوع عن لقاء المشركين يوم أحد ، فهمّا

به ولم يفعلا ، وهذا قول السدي وابن جريج .

والثاني : أنهم اختلفوا في الخروج في الغدو والمقام حتى همّا بالفشل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 420 ﴾

قوله تعالى : ﴿ والله وَلِيُّهُمَا ﴾

فصل

قال الفخر :

في المعنى وجوه

الأول : أن المراد منه بيان أن ذلك الهم ما أخرجهما عن ولاية الله تعالى

الثاني : كأنه قيل : الله تعالى ناصرهما ومتولي أمرهما فكيف يليق بهما هذا الفشل وترك التوكل على الله تعالى ؟

الثالث : فيه تنبيه على أن ذلك الفشل إنما لم يدخل في الوجود لأن الله تعالى وليهما فأمدهما بالتوفيق والعصمة ، والغرض منه بيان أنه لولا توفيقه سبحانه وتسديده لما تخلص أحد عن ظلمات المعاصي ، ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى بعده هذه الآية ﴿ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 181 ﴾

سؤال : فإن قيل : ما معنى ما روي عن بعضهم عند نزول هذه الآية أنه قال : والله ما يسرنا أنا لم نهم بما همت الطائفتان به ، وقد أخبرنا الله تعالى بأنه وليهما ؟ .

قلنا : معنى ذلك فرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله تعالى ، وإنزاله فيهم آية ناطقة بصحة الولاية ، وأن تلك الهمة ما أخرجتهم عن ولاية الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 182.181 ﴾

قوله : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾

قال الفخر :

التوكل : تفعل ، من وكل أمره إلى فلان إذا عتمد فيه كفايته عليه ولم يتوله بنفسه ، وفي الآية إشارة إلى أنه ينبغي أن يدفع الإنسان ما يعرض له من مكروه وآفة بالتوكل على الله ، وأن يصرف الجزع عن نفسه بذلك التوكل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 182 ﴾

(33/129)

فائدة

قال أبو السعود :

وإظهارُ الاسمِ الجليلِ للتبرك والتأميل فإن الألوهيةَ من موجبات التوكلِ عليه تعالى ، واللامُ في المؤمنين للجنس فيدخل فيه الطائفتان دخولاً أولياً ، وفيه إشعارٌ بأن وصفَ الإيمان من

دواعي التوكلِ وموجباتِه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 79 ﴾

فصل

قال القرطبى :

التوكل في اللغة إظهار العجز والاعتماد على الغير.

وواكل فلان إذا ضَيّع أمرَه مُتّكلاً على غيره.

واختلف العلماء في حقيقة التوكل ؛ فسئل عنه سهل ابن عبد الله فقال : قالت فرقة الرضا بالضّمان ، وقطع الطّمَع من المخلوقين.

وقال قوم : التوكّل ترك الأسباب والركون إلى مُسبِّب الأسباب ؛ فإذا شغله السبب عن المسبِّب زال عنه اسم التوكل.

قال سَهْلٌ : من قال إن التوكل يكون بترك السبب فقد طعن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله عز وجل يقول : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً ﴾ [الأنفال : 69] فالغنيمة اكتساب.

وقال تعالى : ﴿ فاضربوا فَوْقَ الأعناق واضربوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال : 12] فهذا عَمَلٌ.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله يحب العبد المحترِف " وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقْرِضون على السرِية.

وقال غيره : وهذا قول عامّة الفقهاء ، وأنّ التوكل على الله هو الثقة بالله والإيقان بأن قضاءه ماض ، واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم في السعي فيما لا بدّ منه من الأسباب من مَطعم ومَشرب وتحرّزٍ من عدوّ وإعدادِ الأسلحة واستعمال ما تقتضيه سنة الله تعالى المعتادة .

(34/129)

وإلى هذا ذهب محققو الصوفية ، لكنه لا يستحق اسم التوكل عندهم مع الطمأنينة إلى تلك الأسباب والالتفات إليها بالقلوب ؛ فإنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً ، بل السبب والمسبَّب فعل الله تعالى ، والكل منه وبمشيئته ؛ ومتى وقع من المتوكِّل ركونٌ إلى تلك الأسباب فقد انسلخ عن ذلك الاسم .

ثم المتوكلون على حالين : الأول حال المتمَكِّن في التوكُّل فلا يلتفت إلى شيء من تلك الأسباب بقلبه ، ولا يتعاطاه إلا بحكم الأمر .

الثاني حال غير المتمَكِّن وهو الذي يقع له الالتفات إلى تلك الأسباب أحياناً غير أنه يدفعها عن نفسه بالطرق العلمية ، والبراهين القطعية ، والأذواق الحالية ؛ فلا يزال كذلك إلى أن يُرَقِّيه الله بجوده إلى مقام المتوكلين المتمكنين ، ويلحقه بدرجات العارفين . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبي حـ 4 صـ 189. 190 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ إِذْ هَمَّتْ ﴾ في هذا الظرف أوجه :

أحدها : أنه ظَرْف لـ ﴿ غَدَوْتَ ﴾ .

الثاني : أنه بدل من ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ ﴾ ، فالعامل ، فيه هو العامل في المُبْدَل منه .

الثالث : أنه ظرف لـ ﴿ تُبَوِّىءُ ﴾ .

وهذه الأوجه تحتاج إلى نقل تاريخي في اتحاد الزمانين .

الرابع : أن الناصب له " عَليمٌ " وحده - ذكره أبو البقاء .

الخامس : أن العامل فيه إما " سَمِيعٌ " ، وإما " عَلِيمٌ " على سبيل التنازع ، وتكون المسألة - حينئذ - من إعمال الثاني ، إذ لو أعمل الأول ، لأضمر في الثاني .

قال الزمخشري : أو عمل فيه معنى : ﴿ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

قال أبو حيان : " وهذا غير محرَّر ؛ لأن العامل لا يكون مركباً من وصفين ، فتحريره أن يقال : عمل فيه معنى سميع ، أو عليم ، وتكون المسألة من التنازع " .

قال شهاب الدين : " لم يرد الزمخشري بذلك إلا ما ذكرناه من إرادة التنازع ، ويصدق أن يقول : عمل فيه هذا وهذا بالمعنى المذكور ؛ لا أنهما عملا فيه معاً ، على أنه لو قيل به لم يكن مبتدعاً قولاً ؛ إذ الفراء يرى ذلك ، ويقول - في نحو : ضربتُ وأكرمتُ زيداً : إن زيداً منصوب بهما ، وإنهما سُلِّطَا عليه معاً " .

قوله : ﴿ أن تَفْشَلاَ ﴾ متعلق بـ " هَمَّتْ " ؛ لأنه يتعدى بالباء ، والأصل : بأن تفشلا ، فيجري في محل " أن " الوجهان المشهوران .

والفشل : الجبن والخَوَر .

وقال بعضهم : الفشل في الرأي : العجز ، وفي البدن : الإعياء ، وعدم النهوض ، وفي الحرب الجُبْن والخَوَر ، والفعل منه فَشِل - بكسر العين - وتفاشل الماء - إذا سال .

وقرأ عبد الله : والله وليهم ، كقوله : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا ﴾ [الحجرات : 9] .

قوله : ﴿ وَعَلَى الله ﴾ متعلق بقوله : ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ ﴾ ، قدم للاختصاص ، ولتناسب رؤوس الآي . وتقدم القول في نحو هذه الفاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 512.510 ﴾ . بتصرف يسير .

فصل

قال القرطبى :

قال الواقِديّ بإسناده عن نافع بن جبير قال : سمعت رجلاً من المهاجرين يقول : شهدت أحُداً فنظرت إلى النبل تأتي من كل ناحية ورسول الله صلى الله عليه وسلم وسطها كل (ذلك) يصرف عنه .

ولقد رأيت عبد الله ابن شِهاب الزّهْرِيّ يقول يومئذٍ : دلُّونِي على محمد دلوني على محمد ، فلا نجوت إن نجا .

(وإنّ) رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه ما معه أحد ثم جاوزه ، فعاتبه في ذلك صفوان فقال : والله ما رأيته ، أحلِف بالله إنه مِنّا ممنوع خرجنا أربعةً فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله (فلم نخلص إلى ذلك) .

(36/129)

وأَكَبّت الحجارة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سقط في حفرة ، كان أبو عامر الرّاهب قد حفرها مكيدة للمسلمين ، فخرّ عليه السلام على جنبه واحتضنه طلحة حتى قام ، ومَصّ مالك بن سِنان والد أبي سعيد الخدرِيّ من جُرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الدّم ، وتشبّثت حلقتان من دِرع المِغفَر في وجهه صلى الله عليه وسلم

فانتزعهما أبو عبيدة بن الجرّاح وعَضّ عليهما بثَنِيتيه فسقطتا ؛ فكان أهْتَم يزينه هَتَمُه رضي الله عنه .

وفي هذه الغزاة قُتل حمزةُ رضي الله عنه ، قتله وحشِي ، وكان وَحْشِيّ مملوكاً لجبير بن مُطْعِم .

وقد كان جبير قال له : إن قتلت محمداً جعلنا لك أعِنّة الخيل ، وإن أنت قتلت عليّ بن أبي طالب جعلنا لك مائة ناقة كلُّها سُود الحَدَق ، وإن أنت قتلت حمزة فأنت حُرٌّ .

فقال وحشِيّ : أما محمد فعليه حافظٌ من الله لا يخلُص إليه أحدٌ .

وأما عليّ ما برز إليه أحد إلاّ قتله .

وأما حمزة فرجل شجاع ، وعسى أن أُصادفه فأقتله .

وكانت هِنْد كلما تهيّأ وَحْشِيٌّ أو مرّت به قالت : إيْهاً أبا دَسَمَة اشف واستشف .

فكَمِن له خلف صَخْرة ، وكان حمزة حمل على القوم من المشركين ؛ فلما رجع من حملته ومرّ بوحشِيّ زرَقه بالمِزْرَاق فأصابه فسقط مَيّتاً ، رحمه الله ورضي عنه .

قال ابن إسحاق : فبقرت هِنْدٌ عن كبد حمزة فلاكتها ولم تستطع أن تسيغها فلفظتها ثم علت على صخرة مُشْرفة فصرخت بأعلى صوتها فقالت :

نحنُ جزَيْناكم بيوْم بَدْر . . .

والحربُ بعد الحرب ذاتُ سُعْرِ

ما كان عن عُتْبَة لي من صَبْرٍ . . .

ولا أخِي وعَمّه وبَكْري

شَفَيْتُ نفسي وقضَيْتُ نَذْرِي . . .

شفيت وَحْشِيُّ غَلَيل صَدْرِي

فشكْرُ وحْشِي عليّ عَمْرِي . . .

حتى تَرِمّ أعْظُمِي في قَبْرِي

فأجابتها هِنْدُ بنت أُثَاثة بن عَبّاد بن عبد المطلب فقالت :

(37/129)

خَزيتِ في بدْرٍ وبعد بدر . . .

يا بنت وَقّاعٍ عظيم الكُفْرِ

صبّحكِ اللَّهُ غَداةَ الفجرِ . . .

مِلْهَا شِمِيّين الطّوَال الزُّهْرِ

بكل قَطّاعٍ حُسَامٍ يَفْرِي . . .

حمزةُ لَيْثي وعَليٌّ صَقْرِي

إذْ رَامَ شَيْبَ وأبوكِ غَدْرِي . . .

فَخَضَبَا منه ضَوَاحِي النّحْرِ

ونَذْركِ السّوءَ فشرّ نَذْرِ . . .

وقال عبد الله بن رواحة يبكي حمزة رضي الله عنه :

بكت عيني وحق لها بُكاها . . .

وما يغني البكاء ولا العَوِيل

على أسَدِ الإله غَداة قالوا . . .

أحَمْزَةُ ذاكم الرّجل القَتِيل

أُصيب المسلمون به جميعا . . .

هناك ، وقد أُصيب به الرّسول

أبا يَعْلَى لك الأركان هُدّت . . .

وأنت الماجد البَرّ الوَصُول

عليك سلام ربك في جنانٍ . . .

مخالِطها نعيم لا يزول

ألا يا هاشم الأخيارِ صبراً . . .

فكل فعالِكم حسن جميل

رسول اللَّه مصطبر كريم . . .

بأمر الله ينطِق إذ يقول

ألا من مُبْلِغ عنى لُؤَيّاً . . .

فبعد اليومِ دَائِلَة تَدُول

وقبل اليوم ما عرفوا وذاقوا . . .

وقائِعنا بها يُشْفى الغَلِيل

نَسَبْتُم ضربَنا بِقَلِيب بَدْرٍ . . .

غداةَ أتاكم الموتُ العَجِيل

غَداةَ ثَوَى أبو جهل صريعاً . . .

عليه الطَّيْر حَائِمَةً تجُول

وعُتْبَة وابنه خرّاً جميعا . . .

وشَيْبَة عَضّه السيفُ الصّقِيل

ومَتْركُنا أُمَيّةَ مُجْلَعِبّاً . . .

وفي حَيْزُومِه لَدْنٌ نبيل

وهَامَ بَنِي ربيعة سائِلوها . . .

ففي أسيافِنا منها فُلُول

ألا يا هِنْدُ لا تبدي شَمَاتا . . .

بحمزةَ إن عِزّكم ذَليل

ألا يا هِنْدُ فابكي لا تَمَلّي . . .

فأنتِ الوَالِهِ العَبْرَى الهَبُول

ورَثَتْه أيضاً أُخْتُه صفية ، وذلك مذكور في السيرة ، رضي الله عنهم أجمعين . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 187.189 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (122) ﴾

يُبْرِزُ الجميعَ في صدار الاختيار ؛ كأنَّ الأمر إليهم في نفيهم وإتيانهم ، وفعلهم وتركهم ، وفي الحقيقة لا يتقلبون إلا بتصريف القبضة ، وتقليب القدرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 274 ﴾

فصل

قال العلامة الفيروزابادى :

(بصيرة فى التوكل)

وهو يقال على وجهين : يقال : توكَّلت لفلان بمعنى تولَّيت له . يقال : وكَّلته توكيلاً ، فتوكَّل لى . وتوكَّلت عليه بمعنى اعتمدته .

وقد أَمر الله تعالى بالتَّوكُّل فى خمسة عشر موضعاً من القرآن .

الأَوّل : إِن طلبتم النَّصر والفرج فتوكَّلوا علىّ : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ ﴾ إِلى قوله : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

الثانى : إِذا أَعرضتَ عن أَعدائى فليكن رفيقك التَّوكُّل : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ .

الثَّالث : إِذا أَعرض عنك الخلقُ اعْتَمِدْ على التَّوكُّل : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا اله إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ .

الرابع : إِذا تُلِى القرآن عليك ، أَو تلوته ، فاستَنِدْ على التوكُّل : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

الخامس : إِذا طلبت الصّلح والإِصلاح بين قومٍ لا تتوسّل إِلى ذلك إِلاَّ بالتَّوكُّل : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ .

السّادس : إذا وصلت قوافل القضاءِ استقبلْها بالتَّوكُّل : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ﴾ الآية.

السّابع : إذا نصبتِ الأَعداءُ حِبالات المكر ادخُلْ أَنت فى أَرض التوكُّل ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ إِلى قوله : ﴿ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ .

الثامن : وإِذا عرفت أَنَّ مرجع الكلّ إِلينا ، وتقدير الكلّ منّا ، وطِّنْ نفسك على فَرْش التوكُّل : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ .

التاسع : إِذا علمت أَنى الواحدُ على الحقيقة ، فلا يكن اتِّكالك إِلاَّ علينا : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لا اله إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ .

العاشر : إِذا عرفت أَنَّ هذه الهداية من عندى ، لاقِها بالشُّكر ، والتَّوكُّل : ﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ إِلى قوله : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

الحادى عشر : إِذا خشيت بأْس أَعداءِ الله ، والشيطان الغدّار ، لا تلتجئ إِلاَّ إِلى بابنا : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

الثانى عشر : إِن أَردتَ أَن أَكون أَنا وكيلك فى كلّ حال ، فتمسّك بالتَّوكُّل فى كل حالٍ :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ .

الثالث عشر : إن أردتَ أن يكون الفردوس الأعلى منزلك انزل فى مقام التوكُّل : ﴿ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

الرابع عشر : إن شئت النزول محلّ المحبّة اقصد أولاً طريق التوكُّل : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

الخامس عشر : إن أردتَ أن أكونَ لكَ ، وتكون لى ، فاستقرّ على تَخْت التوكُّل : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ، ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ ، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ . ثمّ اعلم أنَّ التَّوكُل نصف الدّين ، والنصف الثانى الإنابة . فإنَّ الدّين استعانة ، وعبادة . فالتَّوكُّل هو الاستعانة ، والإنابة هى العبادة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 313.315 ﴾

(40/129)

من نفائس العلامة ابن القيم

قال عليه الرحمة والرضوان :

منزلة التوكل

فصل" ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة التوكل

قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائده : 23] وقال : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [إبراهيم : 11] وقال : ﴿ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : 3] وقال عن أوليائه : ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة : 4] وقال لرسوله : ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك : 29] وقال لرسوله : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ [النمل : 79] وقال له : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ [النساء : 81] وقال له : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ [الفرقان : 58] وقال له : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : 159] وقال عن أنبيائه ورسله : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم : 12] وقال عن أصحاب نبيه ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : 173] وقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : 2]

(41/129)

والقرآن مملوء من ذلك وفي الصحيحين في حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : "حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقي في النار وقالها محمد حين قالوا له : ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ " [آل عمران : 173]

وفي الصحيحين : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : " اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت : أن تضلني أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون"

وفي الترمذي عن عمر رضي الله عنه مرفوعا : "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا"

وفي السنن عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قال يعني إذا خرج من بيته بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له : هديت ووقيت وكفيت فيقول الشيطان لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي"

التوكل نصف الدين والنصف الثاني الإنابة فإن الدين استعانة وعبادة فالتوكل هو الاستعانة والإنابة هي العبادة ومنزلته : أوسع المنازل وأجمعها ولا تزال معمورة بالنازلين لسعة متعلق التوكل وكثرة حوائج العالمين وعموم التوكل ووقوعه من المؤمنين والكفار والأبرار والفجار

والطير والوحش والبهائم فأهل السموات والأرض المكلفون وغيرهم في مقام التوكل وإن تباين متعلق توكلهم فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في حصول ما عليه في الإيمان ونصرة دينه وإعلاء كلمته وجهاد أعدائه وفي محابه وتنفيذ أوامره

(42/129)

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه وحفظ حاله مع الله فارغا عن الناس

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه من رزق أو عافية أو نصر على عدو أو زوجة أو ولد ونحو ذلك

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في حصول الإثم والفواحش فإن أصحاب

هذه المطالب لا ينالونها غالبا إلا باستعانتهم بالله وتوكلهم عليه بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك معتمدين على الله أن يسلمهم ويظفرهم بمطالبهم فأفضل التوكل : التوكل في الواجب أعني واجب الحق وواجب الخلق وواجب النفس وأوسعه وأنفعه : التوكل في التأثير في الخارج فى مصلحة دينية أو في دفع مفسدة دينية وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله ودفع فساد المفسدين في الأرض وهذا توكل ورثتهم ثم الناس بعد في التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم فمن

متوكل على الله في حصول الملك ومن متوكل في حصول رغيف ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله فإن كان محبوبا له مرضيا كانت له فيه العاقبة المحمودة وإن كان مسخوطا مبغوضا كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه وإن كان مباحا حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه إن لم يستعن به على طاعاته والله أعلم

فصل : فلنذكر معنى التوكل ودرجاته وما قيل فيه

قال الإمام أحمد : التوكل عمل القلب ومعنى ذلك : أنه عمل قلبي ليس بقول اللسان ولا عمل الجوارح ولا هو من باب العلوم والإدراكات

ومن الناس : من يجعله من باب المعارف والعلوم فيقول : هو علم القلب بكفاية الرب للعبد

ومنهم : من يفسره بالسكون وخمود حركة القلب فيقول : التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب كانطراح الميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء وهو ترك الاختيار والاسترسال مع مجاري الأقدار

قال سهل : التوكل الاسترسال مع الله مع ما يريد

ومنهم : من يفسره بالرضى فيقول : هو الرضى بالمقدور قال بشر الحافي : يقول أحدهم : توكلت على الله يكذب على الله لو توكل على الله رضي بما يفعل الله

وسئل يحيى بن معاذ : متى يكون الرجل متوكلا فقال : إذا رضي بالله وكيلا ومنهم : من يفسره بالثقة بالله والطمأنينة إليه والسكون إليه

قال ابن عطاء : التوكل أن لا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدة فاقتك إليها ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها قال ذو النون : هو ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة وإنما يقوي العبد على التوكل إذا علم أن الحق سبحانه يعلم ويرى ما هو فيه

وقال بعضهم : التوكل التعلق بالله في كل حال وقيل : التوكل أن ترد عليك موارد الفاقات فلا تسمو إلا إلى من إليه الكفايات

وقيل : نفي الشكوك والتفويض إلى مالك الملوك وقال ذو النون : خلع الأرباب وقطع الأسباب يريد قطعها من تعلق القلب بها لا من ملابسة الجوارح لها ومنهم : من جعله مركبا من أمرين أو أمور فقال أبو سعيد الخراز : التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب يريد : حركة ذاته في الأسباب بالظاهر والباطن وسكون إلى المسبب وركون إليه ولا يضطرب قلبه معه ولا تسكن حركته عن الأسباب الموصلة إلى رضاه

وقال أبو تراب النخشبي : هو طرح البدن في العبودية وتعلق القلب بالربوبية والطمأنينة إلى

الكفاية فإن أعطى شكر وإن منع صبر فجعله مركبا من خمسة أمور : القيام بحركات

العبودية وتعلق القلب بتدبير

الرب وسكونه إلى قضائه وقدره وطمأنينته وكفايته له وشكره إذا أعطى وصبره إذا منع

قال أبو يعقوب النهرجوري : التوكل على الله بكمال الحقيقة كما وقع لإبراهيم الخليل عليه

السلام في الوقت الذي قال لجبريل عليه السلام : أما إليك فلا لأنه غائب عن نفسه بالله فلم

ير مع الله غير الله

وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها وإلا فهو

بطالة وتوكل فاسد

قال سهل بن عبد الله : من طعن في الحركة فقد طعن في السنة ومن طعن في التوكل فقد طعن

في الإيمان فالتوكل حال النبي صلى الله عليه وسلم والكسب سنته فمن عمل على حاله فلا

يتركن سنته وهذا معنى قول أبي سعيد : هو اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب

وقول سهل أبين وأرفع وقيل : التوكل قطع علائق القلب بغير الله وسئل سهل عن التوكل فقال

: قلب عاش مع الله بلا علاقة وقيل : التوكل هجر العلائق ومواصلة الحقائق وقيل : التوكل

أن يستوي عندك الإكثار والإقلال

وهذا من موجباته وآثاره لأنه حقيقته وقيل : هو ترك كل سبب يوصلك إلى مسبب حتى يكون الحق هو المتولي لذلك وهذا صحيح من وجه باطل من وجه فترك الأسباب المأمور بها : قادح في التوكل وقد تولى الحق إيصال العبد بها وأما ترك الأسباب المباحة : فإن تركها لما هو أرجح منها مصلحة فممدوح وإلا فهو مذموم وقيل : هو إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية

يريد : استرسالها مع الأمر وبراءتها من حولها وقوتها وشهود ذلك بها بل بالرب وحده

ومنهم : من قال : التوكل هو التسليم لأمر الرب وقضائه ومنهم من قال : هو التفويض إليه في كل حال ومنهم : من جعل التوكل بداية والتسليم واسطة والتفويض نهاية

قال أبو علي الدقاق : التوكل ثلاث درجات : التوكل ثم التسليم ثم التفويض فالمتوكل يسكن إلى وعده وصاحب التسليم يكتفي بعلمه وصاحب التفويض يرضى بحكمه فالتوكل بداية والتسليم واسطة والتفويض نهاية فالتوكل صفة المؤمنين والتسليم صفة الأولياء والتفويض صفة الموحدين

التوكل صفة العوام والتسليم صفة الخواص والتفويض صفة خاصة الخاصة التوكل صفة الأنبياء والتسليم صفة إبراهيم الخليل والتفويض صفة نبينا محمد وعليهم أجمعين هذا كله كلام الدقاق ومعنى هذا التوكل : اعتماد على الوكيل وقد يعتمد الرجل على وكيله مع نوع اقتراح عليه وإرادة وشائبة منازعة فإذا سلم إليه زال عنه ذلك ورضي بما يفعله وكيله وحال المفوض فوق هذا فإنه طالب مريد ممن فوض إليه ملتمس منه أن يتولى أموره فهو رضى واختيار وتسليم واعتماد فالتوكل يندرج في التسليم وهو والتسليم يندرجان في التفويض والله سبحانه وتعالى أعلم

فصل وحقيقة الأمر : أن التوكل حال مركبة من مجموع أمور لا تتم حقيقة التوكل إلا بها وكل أشار إلى واحد من هذه الأمور أو اثنين أو أكثر

فأول ذلك : معرفة بالرب وصفاته : من قدرته وكفايته وقيوميته وانتهاء الأمور إلى علمه وصدورها عن مشيئته وقدرته وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل قال شيخنا رضي الله عنه : ولذلك لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف ولا من القدرية النفاة القائلين : بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء ولا يستقيم أيضا من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات

فأي توكل لمن يعتقد أن الله لا يعلم جزئيات العالم سفليه وعلويه ولا هو فاعل باختياره ولا له إرادة ومشيئة ولا يقوم به صفة فكل من كان بالله وصفاته أعلم وأعرف : كان توكله أصح

وأقوى والله سبحانه وتعالى أعلم

فصل : الدرجة الثانية : إثبات في الأسباب والمسببات فإن من نفاها

فتوكله مدخول وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأي : أن إثبات الأسباب يقدح في التوكل وأن نفيها تمام التوكل فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل ألبتة لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه فهو كالدعاء الذي جعله الله سببا في حصول المدعو به فإذا اعتقد العبد أن توكله لم ينصبه الله سببا ولا جعل دعاءه سببا لنيل شيء فإن المتوكل فيه المدعو بحصوله : إن كان قد قدر حصل توكل أو لم يتوكل دعا أو لم يدع وإن لم يقدر لم يحصل توكل أيضا أو ترك التوكل

وصرح هؤلاء : أن التوكل والدعاء عبودية محضة لا فائدة لهما إلا ذلك ولو ترك العبد التوكل والدعاء ما فاته شيء مما قدر له ومن غلاتهم من يجعل الدعاء بعدم المؤاخذة على الخطإ والنسيان عديم الفائدة إذ هو مضمون الحصول ورأيت بعض متعمقي هؤلاء في كتاب له لا يجوز الدعاء بهذا وإنما يجوزه تلاوة لا دعاء قال لأن الدعاء به يتضمن الشك في وقوعه لأن الداعي بين الخوف والرجاء والشك في وقوع ذلك شك في خبر الله فانظر إلى ما قاد إنكار

الأسباب من العظائم وتحريم الدعاء بما أثنى الله على عباده وأوليائه بالدعاء به وبطلبه ولم يزل المسلمون من عهد نبيهم وإلى الآن يدعون به في مقامات الدعاء وهو من أفضل الدعوات وجواب هذا الوهم الباطل أن يقال : بقي قسم ثالث غير ما ذكرتم من القسمين لم تذكروه وهو الواقع وهو أن يكون قضى بحصول الشيء عند حصول سببه من التوكل والدعاء فنصب الدعاء والتوكل سببين لحصول المطلوب وقضى بحصوله إذا فعل العبد سببه فإذا لم يأت بالسبب امتنع المسبب وهذا كما قضى بحصول الولد إذا جامع الرجل من يحبلها فإذا لم يجامع لم يخلق الولد وقضى بحصول الشبع إذا أكل والري إذا شرب فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو وقضى بحصول الحج والوصول إلى مكة إذا سافر وركب الطريق فإذا جلس في بيته لم يصل إلى مكة وقضى بدخول الجنة إذا أسلم وأتى بالأعمال الصالحة فإذا ترك الإسلام ولم يعمل الصالحات : لم يدخلها أبدا وقضى بإنضاج الطعام بإيقاد النار تحته وقضى بطلوع الحبوب التي تزرع بشق الأرض وإلقاء البذر فيها فما لم يأت بذلك لم يحصل إلا الخيبة فوزان ما قاله منكرو الأسباب : أن يترك كل من هؤلاء السبب الموصل ويقول : إن كان قضى لى وسبق في الأزل حصول الولد والشبع والري والحج ونحوها فلا بد أن يصل إلي

تحركت أو سكنت وتزوجت أو تركت سافرت أو قعدت وإن لم يكن قد قضى لي لم يحصل لي أيضا فعلت أو تركت

فهل يعد أحد هذا من جملة العقلاء وهل البهائم إلا أفقه منه فإن البهيمة تسعى في السبب بالهداية العامة

فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب ويندفع بها المكروه فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل ولكن من تمام التوكل : عدم الركون إلى الأسباب وقطع علاقة القلب بها فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها وحال بدنه قيامه بها

فالأسباب محل حكمة الله وأمره ودينه والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية والله سبحانه وتعالى أعلم

فصل : الدرجة الثالثة : رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل

فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده بل حقيقة التوكل : توحيد القلب فما دامت فيه علائق الشرك فتوكله معلول مدخول وعلى قدر تجريد التوحيد : تكون صحة

التوكل فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة ومن ههنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب وهذا حق لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب وتعلق الجوارح بها فيكون منقطعا منها متصلا بها والله سبحانه وتعالى أعلم

فصل : الدرجة الرابعة : اعتماد القلب على الله واستناده إليه وسكونه

إليه بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب ولا سكون إليها بل يخلع السكون إليها من قلبه ويلبسه السكون إلى مسببها وعلامة هذا : أنه لا يبالي بإقبالها وإدبارها ولا يضطرب قلبه ويخفق

(49/129)

عند إدبار ما يحب منها وإقبال ما يكره لأن اعتماده على الله وسكونه إليه واستناده إليه قد حصنه من خوفها ورجائها فحاله حال من خرج عليه عدو عظيم لا طاقة له به فرأى حصنا مفتوحا فأدخله ربه إليه وأغلق عليه باب الحصن فهو يشاهد عدوه خارج الحصن فاضطراب قلبه وخوفه من عدوه في هذه الحال لا معنى له وكذلك من أعطاه ملك درهما

فسرق منه فقال له الملك : عندي أضعافه فلا تهتم متى جئت إلي أعطيتك من خزائني أضعافه فإذا علم صحة قول الملك ووثق به واطمأن إليه وعلم أن خزائنه مليئة بذلك لم يحزنه فوته وقد مثل ذلك بحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه وطمأنينته بثدي أمه لا يعرف غيره وليس في قلبه التفات إلى غيره كما قال بعض العارفين : المتوكل كالطفل لا يعرف شيئا يأوي إليه إلا ثدي أمه كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه

فصل الدرجة الخامسة : حسن الظن بالله عز وجل فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله والتحقيق : أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به ولا التوكل على من لا ترجوه والله أعلم

فصل الدرجة السادسة : استسلام القلب له وانجذاب دواعيه كلها إليه وقطع منازعاته وبهذا فسره من قال : أن يكون العبد بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف أراد لا يكون له حركة ولا تدبير

وهذا معنى قول بعضهم : التوكل إسقاط التدبير يعني الاستسلام لتدبير الرب لك وهذا في غير باب الأمر والنهي بل فيما يفعله بك لا فيما أمرك بفعله

فالاستسلام كتسليم العبد الذليل نفسه لسيده وانقياده له وترك منازعات نفسه وإرادتها

مع سيده والله سبحانه وتعالى أعلم

فصل الدرجة السابعة: التفويض وهو روح التوكل ولبه وحقيقته وهو إلقاء

(50/129)

أموره كلها إلى الله وإنزالها به طلبا واختيارا لا كرها واضطرارا بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره: كل أموره إلى أبيه العالم بشفقته عليه ورحمته وتمام كفايته وحسن ولايته له وتدبيره له فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه وقيامه بمصالحه وتوليه لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليه لها فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويضه أموره كلها إلى أبيه وراحته من حمل كلفها وثقل حملها مع عجزه عنها وجهله بوجوه المصالح فيها وعلمه بكمال علم من فوض إليه وقدرته وشفقته

فصل: فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة انتقل منها إلى درجة الرضى وهي

ثمرة التوكل ومن فسر التوكل: بها فإنما فسره بأجلع ثمراته وأعظم فوائده فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله

وكان شيخنا رضي الله عنه يقول: المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله والرضى بعده فمن توكل على الله قبل الفعل ورضي بالمقضي له بعد الفعل فقد قام بالعبودية أو معنى هذا

قلت : وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم فى دعاء الاستخارة : اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فهذا توكل وتفويض ثم قال : فإنك تعلم ولا أعلم وتقدر ولا أقدر وأنت علام الغيوب فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة وتوسل إليه سبحانه بصفاته التي هي أحب ما توسل إليه بها المتوسلون ثم سأل ربه أن يقضي له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته عاجلا أو آجلا وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته عاجلا أو آجلا فهذا هو حاجته التي سألها فلم يبق عليه إلا الرضى بما يقضيه له فقال : واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به

(51/129)

فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الإلهية والحقائق الإيمانية التي من جملتها : التوكل والتفويض قبل وقوع المقدور والرضى بعده وهو ثمرة التوكل والتفويض علامة صحته فإن لم يرض بما قضى له فتفويضه معلول فاسد

فباستكمال هذه الدرجات الثمان يستكمل العبد مقام التوكل وتثبت قدمه فيه وهذا معنى قول بشر الحافي : يقول أحدهم : توكلت على الله يكذب على الله لو توكل على الله لرضي بما يفعله الله به وقول يحيى بن معاذ وقد سئل : متى يكون الرجل متوكلا فقال : إذا

رضي بالله وكيلا

فصل وكثيرا ما يشتبه في هذا الباب المحمود الكامل بالمذموم الناقص

فيشتبه التفويض بالإضاعة فيضيع العبد حظه ظنا منه أن ذلك تفويض وتوكل وإنما هو

تضييع لا تفويض فالتضييع في حق الله والتفويض في حقك

ومنه : اشتباه التوكل بالراحة وإلقاء حمل الكل فيظن صاحبه أنه متوكل وإنما هو عامل على

عدم الراحة

وعلامة ذلك : أن المتوكل مجتهد في الأسباب المأمور بها غاية الاجتهاد مستريح من غيرها

لتعبه بها والعامل على الراحة آخذ من الأمر مقدار ما تندفع به الضرورة وتسقط به عنه

مطالبة الشرع فهذا لون وهذا لون

ومنه : اشتباه خلع الأسباب بتعطيلها فخلعها توحيد وتعطيلها إلحاد وزندقة فخلعها عدم

اعتماد القلب عليها ووثوقه وركونه إليها مع قيامه بها وتعطيلها إلغاؤها عن الجوارح

ومنه : اشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز والفرق بينهما : أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله

به ووثق بالله في طلوع ثمرته وتنميتها وتزكيتها كغارس الشجرة وباذر الأرض والمغتر العاجز

: قد فرط فيما أمر به وزعم أنه واثق بالله والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود

ومنه : اشتباه الطمأنينة إلى الله والسكون إليه بالطمأنينة إلى المعلوم وسكون القلب إليه ولا يميز بينهما إلا صاحب البصيرة كما يذكر عن أبي سليمان الداراني : أنه رأى رجلا بمكة لا يتناول شيئا إلا شربة من ماء زمزم فمضى عليه أيام فقال له أبو سليمان يوما : أرأيت لو غارت زمزم أي شيء كنت تشرب فقام وقبل رأسه وقال : جزاك الله خيرا حيث أرشدتني فإني كنت أعبد زمزم منذ أيام ثم تركه ومضى

وأكثر المتوكلين سكونهم وطمأنينتهم إلى المعلوم وهم يظنون أنه إلى الله وعلامة ذلك : أنه متى انقطع معلوم أحدهم حضره همه وبثه وخوفه فعلم أن طمأنينته وسكونه لم يكن إلى الله

ومنه : اشتباه الرضى عن الله بكل ما يفعل بعبده مما يحبه ويكرهه بالعزم على ذلك وحديث النفس به وذلك شيء والحقيقة شيء آخر كما يحكى عن أبي سليمان أنه قال : أرجو أن أكون أعطيت طرفا من الرضى لو أدخلني النار لكنت بذلك راضيا

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : هذا عزم منه على الرضى وحديث نفس به ولو أدخله النار لم يكن من ذلك شيء وفرق بين العزم على الشيء وبين حقيقته

ومنه : اشتباه علم التوكل بحال المتوكل فكثير من الناس يعرف التوكل وحقيقته وتفاصيله فيظن أنه متوكل وليس من أهل التوكل فحال التوكل : أمر آخر من وراء العلم به وهذا كمعرفة المحبة والعلم بها وأسبابها ودواعيها وحال المحب العاشق وراء ذلك وكمعرفة علم

الخوف وحال الخائف وراء ذلك وهو شبيه بمعرفة المريض ماهية الصحة وحقيقتها وحاله بخلافها فهذا الباب يكثر اشتباه الدعاوى فيه بالحقائق والعوارض بالمطالب والآفات القاطعة بالأسباب الموصلة والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم

فصل التوكل من أعم المقامات تعلقا بالأسماء الحسنى فإن له تعلقا

(53/129)

خاصا بعامة أسماء الأفعال وأسماء الصفات فله تعلق باسم الغفار والتواب والعفو والرؤوف والرحيم وتعلق باسم الفتاح والوهاب والرزاق والمعطي والمحسن وتعلق باسم المعز المذل الحافظ الرافع المانع من جهة توكله عليه في إذلال أعداء دينه وخفضهم ومنعهم أسباب النصر وتعلق بأسماء القدرة والإرادة وله تعلق عام بجميع الأسماء الحسنى ولهذا فسره من فسره من الأئمة بأنه المعرفة بالله وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد يصح له مقام التوكل وكلما كان بالله أعرف كان توكله عليه أقوى

فصل وكثير من المتوكلين يكون مغبونا في توكله وقد توكل حقيقة التوكل وهو مغبون كمن صرف توكله إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله ويمكنه نيلها بأيسر شيء وتفريغ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان والعلم ونصرة الدين والتأثير في العالم خيرا

فهذا توكل العاجز القاصر الهمة كما يصرف بعضهم همته وتوكله ودعاءه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء أو جوع يمكن زواله بنصف

رغيف أو نصف درهم ويدع صرفه إلى نصرة الدين وقمع المبتدعين وزيادة الإيمان ومصالح المسلمين والله أعلم

فصل : قال صاحب المنازل : التوكل : كلة الأمر إلى مالكه والتعويل على وكالته وهو من أصعب منازل العامة عليهم وأوهى السبل عند الخاصة لأن الحق تعالى قد وكل الأمور كلها إلى نفسه وأيأس العالم من ملك شيء منها

قوله : كلة الأمر إلى مالكه أي تسليمه إلى من هو بيده والتعويل على وكالته أي الاعتماد على قيامه بالأمر والاستغناء بفعله عن فعلك وبإرادته عن إرادتك

والوكالة يراد بها أمران أحدهما : التوكيل وهو الاستنابة والتفويض والثاني : التوكل وهو التعرف بطريق النيابة عن الموكل وهذا من الجانبين فإن الله تبارك وتعالى يوكل العبد ويقيمه في حفظ ما وكله فيه والعبد يوكل الرب ويعتمد عليه

فأما وكالة الرب عبده ففي قوله : تعالى ﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ [الأنعام :] قال قتادة : وكلنا بها الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرناهم يعني قبل هذه الآية وقال أبو رجاء العطاردي : معناه إن يكفر بها أهل الأرض فقد وكلنا بها أهل السماء وهم الملائكة وقال ابن عباس ومجاهد : هم الأنصار أهل المدينة والصواب : أن المراد من قام بها إيمانا ودعوة وجهادا ونصرة فهولاء هم الذين وكلهم الله بها فإن قلت : فهل يصح أن يقال : إن أحدا وكيل الله قلت : لا فإن الوكيل من يتصرف عن موكله بطريق النيابة والله عز وجل

لا نائب له ولا يخلفه أحد بل هو الذي يخلف عبده كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل على أنه لا يمتنع أن يطلق ذلك باعتبار أنه مأمور بحفظ ما وكله فيه ورعايته والقيام به وأما توكيل العبد ربه : فهو تفويضه إليه وعزل نفسه عن التصرف وإثباته لأهله ووليه ولهذا قيل في التوكل : إنه عزل النفس عن الربوبية وقيامها بالعبودية وهذا معنى كون الرب وكيل عبده أي كافيه والقائم بأموره ومصالحه لأنه نائبه في التصرف فوكالة الرب عبده أمر وتعبد وإحسان له وخلعة منه عليه لا عن حاجة منه وافتقار إليه كموالاته وأما توكيل العبد ربه : فتسليم لربوبيته وقيام بعبوديته

وقوله وهو : من أصعب منازل العامة عليهم لأن العامة لم يخرجوا عن نفوسهم ومألوفاتهم ولم يشاهدوا الحقيقة التي شهدها الخاصة وهي التي تشهد التوكيل فهم في رق الأسباب فيصعب عليهم الخروج عنها وخلو القلب منها والاشتغال بملاحظة المسبب وحده وأما كونه أوهي السبل عند الخاصة فليس على إطلاقه بل هو من أجل السبل عندهم وأفضلها وأعظمها قدرا وقد تقدم في صدر الباب : أمر الله رسوله بذلك وحضه عليه هو والمؤمنين ومن أسمائه المتوكل وتوكله أعظم توكل وقد قال الله له : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ [النمل : 79] وفي ذكر أمره بالتوكل مع إخباره بأنه على الحق : دلالة على أن الدين بمجموعه في هذين الأمرين : أن يكون العبد على الحق في قوله وعمله واعتقاده ونيته وأن يكون متوكلا على الله واثقا به فالدين كله في هذين المقامين وقال رسل الله وأنبياؤه ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم : 12] فالعبد آفته : إما من عدم الهداية وإما من عدم التوكل فإذا جمع التوكل إلى الهداية فقد جمع الإيمان كله

نعم التوكل على الله في معلوم الرزق المضمون والاشتغال به عن التوكل في نصرة الحق والدين : من أوهى منازل الخاصة أما التوكل عليه في حصول ما يحبه ويرضاه فيه وفي الخلق فهذا توكل الرسل والأنبياء عليهم السلام فكيف يكون من أوهى منازل الخاصة

قوله : لأن الحق قد وكل الأمور إلى نفسه وأيأس العالم من ملك شيء منها

جوابه: أن الذي تولى ذلك أسند إلى عباده كسبا وفعلا وإقدارا واختيارا وأمرا ونهيا استعبدهم به وامتحن به من يطيعه ممن يعصيه ومن يؤثره ممن يؤثر عليه وأمر بتوكلهم عليه فيما أسنده إليهم وأمرهم به وتعبدهم به وأخبر: أنه يحب المتوكلين عليه كما يحب الشاكرين وكما يحب المحسنين وكما يحب الصابرين وكما يحب التوابين

وأخبر: أن كفايته لهم مقرونة بتوكلهم عليه وأنه كاف من توكل عليه وحسبه وجعل لكل عمل من أعمال البر ومقام من مقاماته جزاء معلوما وجعل نفسه جزاء المتوكل عليه وكفايته فقال ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ﴾ ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ﴾ ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾ [الطلاق : 4] ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ ﴾ الآية [النساء : 69] ثم قال في التوكل : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : 3] فانظر إلى هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل ولم يجعله لغيره وهذا يدل على أن التوكل أقوى السبل عنده وأحبها إليه وليس كونه وكل الأمور إلى نفسه بمناف لتوكل العبد عليه بل هذا تحقيق كون الأمور كلها موكولة إلى نفسه لأن العبد إذا علم ذلك وتحققه معرفة: صارت حاله التوكل قطعا على من هذا شأنه لعلمه بأن الأمور

كلها موكولة إليه وأن العبد لا يملك شيئًا منها فهو لا يجد بدا

من اعتماده عليه وتفويضه إليه وثقته به من الوجهين : من جهة فقره وعدم ملكه شيئًا ألبتة

ومن جهة كون الأمر كله بيده وإليه والتوكل ينشأ من هذين العلمين

فإن قيل : فإذا كان الأمر كله لله وليس للعبد من الأمر شيء فكيف يوكل المالك على ملكه وكيف يستنيبه فيما هو ملك له دون هذا الموكل فالخاصة لما تحققوا هذا نزلوا عن مقام التوكل وسلموه إلى العامة وبقي الخطاب بالتوكل لهم دون الخاصة

قيل : لما كان الأمر كله لله عز وجل وليس للعبد فيه شيء ألبتة كان توكله على الله تسليم الأمر إلى من هو له وعزل نفسه عن منازعات مالكه واعتماده عليه فيه وخروجه عن تصرفه بنفسه وحوله وقوته وكونه به إلى تصرفه بربه وكونه به سبحانه دون نفسه وهذا مقصود التوكل

وأما عزل العبد نفسه عن مقام التوكل : فهو عزل لها عن حقيقة العبودية

وأما توجه الخطاب به إلى العامة : فسبحان الله هل خاطب الله بالتوكل في كتابه إلا خواص خلقه وأقربهم إليه وأكرمهم عليه وشرط في إيمانهم أن يكونوا متوكلين والمعلق على الشرط

يعدم عند عدمه

وهذا يدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل فمن لا توكل له : لا إيمان له قال الله تعالى :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائده : 23] وقال تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : 2] وهذا يدل على انحصار المؤمنين فيمن كان بهذه الصفة

(58/129)

وأخبر تعالى عن رسله بأن التوكل ملجأهم ومعاذهم وأمر به رسوله في أربع مواضع من كتابه

وقال : وقال موسى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [يونس : 8485] فكيف يكون من أوهي السبل وهذا شأنه والله سبحانه وتعالى أعلم

فصل قال : وهو على ثلاث درجات كلها تسير مسير العامة الدرجة الأولى : التوكل مع الطلب ومعاطاة السبب على نية شغل النفس بالسبب مخافة ونفع الخلق وترك الدعوى يقول : إن صاحب هذه الدرجة يتوكل على الله ولا يترك الأسباب بل يتعطاها

على نية شغل النفس بالسبب مخافة أن تفرغ فتشتغل بالهوى والحظوظ فإن لم يشغل نفسه بما ينفعها شغلته بما يضره لا سيما إذا كان الفراغ مع حدة الشباب وملك الجدة وميل النفس إلى الهوى وتوالي الغفلات كما قيل :

إن الشباب والفراغ والجدة . . . مفسدة للمرء أي مفسدة

ويكون أيضا قيامه بالسبب على نية نفع النفس ونفع الناس بذلك فيحصل له نفع نفسه ونفع غيره

وأما تضمن ذلك لترك الدعوى : فإنه إذا اشتغل بالسبب تخلص من إشارة الخلق إليه الموجبة لحسن ظنه بنفسه الموجب لدعواه فالسبب ستر لحاله ومقامه وحجاب مسبل عليه

ومن وجه آخر وهو أن يشهد به فقره وذله وامتهانه امتهان العبيد والفعلة فيتخلص من رعونة دعوى النفس فإنه إذا امتهن نفسه بمعاطاة الأسباب : سلم من هذه الأمراض فيقال : إذا كانت الأسباب مأمورا بها ففيها فائدة أجل من هذه الثلاث وهي المقصودة بالقصد الأول وهذه مقصودة قصد الوسائل وهي القيام بالعبودية والأمر الذي خلق له العبد وأرسلت به الرسل وأنزلت لأجله الكتب وبه قامت السموات والأرض وله وجدت الجنة والنار

فالقيام بالأسباب المأمور بها : محض العبودية وحق الله على عبده الذي توجهت به نحوه المطالب وترتب عليه الثواب والعقاب والله سبحانه أعلم

فصل قال : الدرجة الثانية : التوكل مع إسقاط الطلب وغض العين عن

السبب اجتهادا لتصحيح التوكل وقمعا لشرف النفس وتفرغا إلى حفظ الواجبات قوله : مع إسقاط الطلب أي من الخلق لا من الحق فلا يطلب من أحد شيئًا وهذا من أحسن الكلام وأنفعه للمريد فإن الطلب من الخلق فى الأصل محظور وغايته : أن يباح للضرورة كإباحة الميتة للمضطر ونص أحمد على أنه لا يجب وكذلك كان شيخنا يشير إلى أنه لا يجب الطلب والسؤال

وسمعته يقول في السؤال : هو ظلم في حق الربوبية وظلم في حق الخلق وظلم في حق النفس أما في حق الربوبية : فلما فيه من الذل لغير الله وإراقة ماء الوجه لغير خالقه والتعوض عن سؤاله بسؤال المخلوقين والتعرض لمقته إذا سأل وعنده ما يكفيه يومه

وأما في حق الناس : فبمنازعتهم ما في أيديهم بالسؤال واستخراجه منهم وأبغض ما إليهم : من يسألهم ما في أيديهم وأحب ما إليهم : من لا يسألهم فإن أموالهم محبوباتهم ومن سألك محبوبك فقد تعرض لمقتك وبغضك

وأما ظلم السائل نفسه : فحيث امتهنها وأقامها في مقام ذل السؤال ورضي لها بذل الطلب

ممن هو مثله أو لعل السائل خير منه وأعلى قدرا وترك سؤال من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فقد أقام السائل نفسه مقام الذل وأهانها بذلك ورضي أن يكون شحاذا من شحاذ مثله فإن من تشحذه فهو أيضا شحاذ مثلك والله وحده هو الغني الحميد فسؤال المخلوق للمخلوق سؤال الفقير للفقير والرب تعالى كلما سألته كرمت عليه ورضي عنك وأحبك والمخلوق كلما سألته هنت عليه وأبغضك ومقتك وقلاك كما قيل :

الله يغضب إن تركت سؤاله . . . وبني آدم حين يسأل يغضب

(60/129)

وقبيح بالعبد المريد : أن يتعرض لسؤال العبيد وهو يجد عند مولاه كل ما يريد وفي صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال : ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنا حديثي عهد ببيعة فقلنا قد بايعناك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم فبسطنا أيدينا وقلنا قد بايعناك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلام نبايعك فقال أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا والصلوات الخمس وأسر كلمة خفية ولا تسألوا الناس شيئا قال : ولقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط

أحدهم فما يسأل أحدا أن يناوله إياه

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم

وفيهما أيضا عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو على المنبر وذكر الصدقة والتعفف عن المسألة : واليد العليا خير من اليد السفلى واليد العليا : هي المنفقة والسفلى : هي السائلة

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من سأل الناس تكثرا فإنما يسأل جمرا فليستقل أو ليستكثر"

وفي الترمذي عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن المسألة كد يكد بها الرجل وجهه إلا أن يسأل الرجل سلطانا أو في الأمر الذي لا بد منه" قال الترمذي : حديث صحيح

وفيه عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا : من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ومن أنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل وفي السنن والمسند عن ثوبان رضي

الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من تكفل لي أن لا يسأل الناس شيئا أتكفل له بالجنة" فقلت : أنا فكان لا يسأل أحدا شيئا

وفي صحيح مسلم عن قبيصة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : "إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش أو قال : سدادا من عيش ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجى من قومه : لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش أو قال سدادا من عيش فما سواهن من المسألة يا قبيصة فسحت يأكلها صاحبها سحتا"

فالتوكل مع إسقاط هذا الطلب والسؤال هو محض العبودية قوله : وغض العين عن التسبب اجتهادا في تصحيح التوكل معناه : أنه يعرض عن الاشتغال بالسبب لتصحيح التوكل بامتحان النفس لأن المتعاطي للسبب قد يظن أنه حصل التوكل ولم يحصله لثقته بمعلومه فإذا أعرض عن السبب صح له التوكل

وهذا الذي أشار إليه : مذهب قوم من العباد والسالكين وكثير منهم كان يدخل البادية بلا زاد ويرى حمل الزاد قدحا في التوكل ولهم في ذلك حكايات مشهورة وهؤلاء في خفارة صدقهم وإلا فدرجتهم ناقصة عن العارفين ومع هذا فلا يمكن بشرا ألبتة ترك الأسباب جملة

فهذا إبراهيم الخواص كان مجردا في التوكل يدقق فيه ويدخل البادية بغير زاد وكان لا تفارقه الإبرة والخيط والركوة والمقراض فقيل له : لم تحمل هذا وأنت تمنع من كل شيء فقال : مثل هذا لا ينقص من التوكل لأن لله علينا فرائض والفقير لا يكون عليه إلا ثوب واحد فربما تخرق ثوبه فإذا لم يكن

معه إبرة وخيوط تبدو عورته فتفسد عليه صلاته وإذا لم يكن معه ركوة فسدت عليه طهارته وإذا رأيت الفقير بلا ركوة ولا إبرة ولا خيوط فاتهمه في صلاته

أفلا تراه لم يستقم له دينه إلا بالأسباب أو ليست حركة أقدامه ونقلها في الطريق والاستدلال على أعلامها إذا خفيت عليه من الأسباب

فالتجرد من الأسباب جملة ممتنع عقلا وشرعا وحسا

نعم قد تعرض للصادق أحيانا قوة ثقة بالله وحال مع الله تحمله على ترك كل سبب مفروض عليه كما تحمله على إلقاء نفسه في مواضع الهلكة ويكون ذلك الوقت بالله لا به فيأتيه مدد من الله على مقتضى حاله ولكن لا تدوم له هذه الحال وليست في مقتضى الطبيعة فإنها كانت هجمة هجمت عليه بلا استدعاء فحمل عليها فإذا استدعى مثلها وتكلفها لم

يجب إلى ذلك وفي تلك الحال : إذا ترك السبب يكون معذورا لقوة الوارد وعجزه عن الاشتغال بالسبب فيكون في وارده عون له ويكون حاملا له فإذا أراد تعاطي تلك الحال بدون ذلك الوارد وقع في المحال وكل تلك الحكايات الصحيحة التي تحكي عن القوم فهي جزئية حصلت لهم أحيانا ليست طريقا مأمورا بسلوكها ولا مقدورة وصارت فتنة لطائفتين

وطائفة ظنتها طريقا ومقاما فعملوا عليها فمنهم من انقطع ومنهم من رجع ولم يمكنه الاستمرار عليها بل انقلب على عقبيه وطائفة قدحوا في أربابها وجعلوهم مخالفين للشرع والعقل مدعين لأنفسهم حالا أكمل من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إذ لم يكن فيهم أحد قط يفعل ذلك ولا أخل بشيء من الأسباب وقد ظاهر بين درعين يوم أحد ولم يحضر الصف قط عريانا كما يفعله من لا علم

عنده ولا معرفة واستأجر دليلا مشركا على دين قومه يدله على طريق الهجرة وقد هدى الله به العالمين وعصمه من الناس أجمعين وكان يدخر لأهله قوت سنة وهو سيد المتوكلين وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد وجميع أصحابه وهم أولو التوكل

حقا وأكمل المتوكلين بعدهم : هو من اشتم رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة أو لحق أثرا من غبارهم فحال النبي صلى الله عليه وسلم وحال أصحابه محك الأحوال وميزانها بها يعلم صحيحها من سقيمها فإن هممهم كانت في التوكل أعلى من همم من بعدهم فإن توكلهم كان في فتح بصائر القلوب وأن يعبد الله في جميع البلاد وأن يوحده جميع العباد وأن تشرق شموس الدين الحق على قلوب العباد فملؤا بذلك التوكل القلوب هدى وإيمانا وفتحوا بلاد الكفر وجعلوها دار إيمان وهبت رياح روح نسمات التوكل على قلوب أتباعهم فملأتها يقينا وإيمانا فكانت همم الصحابة رضى الله عنهم أعلى وأجل من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده على الله في شيء يحصل بأدنى حيلة وسعى فيجعله نصب عينيه ويحمل عليه قوى توكله قوله : وقمعا لشرف النفس يريد : أن المتسبب قد يكون متسببا بالولايات الشريفة في العبادة أو التجارات الرفيعة والأسباب التي له بها جاه وشرف في الناس فإذا تركها يكون تركها قمعا لشرف نفسه وإيثارا للتواضع

وقوله : وتفرغا لحفظ الواجبات أي يتفرغ بتركها لحفظ واجباتها التي تزاحمها تلك الأسباب والله أعلم

فصل قال : الدرجة الثالثة : التوكل مع معرفة التوكل النازعة إلى

الخلاص من علة التوكل وهي أن يعلم أن ملكة الحق تعالى للأشياء هي ملكة عزة

لا يشاركه فيها مشارك فيكل شركته إليه فإن من ضرورة العبودية : أن يعلم العبد : أن الحق سبحانه هو مالك الأشياء وحده يريد أن صاحب هذه الدرجة متى قطع الأسباب والطلب وتعدى تينك الدرجتين فتوكله فوق توكل من قبله وهو إنما يكون بعد معرفته بحقيقة التوكل وأنه دون مقامه فتكون معرفته به وبحقيقته نازعة أي باعثة وداعية إلى تخلصه من علة التوكل أي لا يعرف علة التوكل حتى يعرف حقيقته فحينئذ يعرف التوكل المعرفة التي تدعوه إلى التخلص من علته ثم بين المعرفة التي يعلم بها علة التوكل فقال : أن يعلم أن ملكة الحق للأشياء ملكة عزة أي ملكة امتناع وقوة وقهر تمنع أن يشاركه في ملكه لشيء من الأشياء مشارك فهو العزيز في ملكه الذي لا يشاركه غيره في ذرة منه كما هو المنفرد بعزته التي لا يشاركه فيها مشارك فالمتوكل يرى أن له شيئًا قد وكل الحق فيه وأنه سبحانه صار وكيله عليه وهذا مخالف لحقيقة الأمر إذ ليس لأحد من الأمر مع الله شيء فلهذا قال : لا يشاركه فيه مشارك فيكل شركته إليه فلسان الحال يقول لمن جعل الرب تعالى وكيله : فيماذا وكلت ربك أفيما هو له وحده أو لك وحدك أو بينكما فالثاني والثالث ممتنع بتفرده بالملك وحده والتوكيل في الأول ممتنع فكيف توكله فيما ليس لك منه شيء ألبتة فيقال ههنا أمران : توكل وتوكيل فالتوكل : محض الاعتماد والثقة والسكون إلى من له الأمر كله وعلم العبد بتفرد الحق تعالى وحده بملك الأشياء كلها وأنه ليس له مشارك في ذرة من ذرات

الكون : من أقوى أسباب توكله وأعظم دواعيه

فإذا تحقق ذلك علما ومعرفة وباشر قلبه حالا : لم يجد بدا من اعتماد قلبه على الحق وحده وثقته به وسكونه إليه وحده وطمأنينته به وحده لعلمه أن

(65/129)

حاجاته وفاقاته وضروراته وجميع مصالحه كلها بيده وحده لا بيد غيره فأين يجد قلبه مناصا من التوكل بعد هذا فعلة التوكل حينئذ : التفات قلبه إلى من ليس له شركة في ملك الحق ولا يملك مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض هذه علة توكله فهو يعمل على تخليص توكله من هذه العلة نعم ومن علة أخرى وهي رؤية توكله فإنه التفات إلى عوالم نفسه وعلة ثالثة : وهي صرفه قوة توكله إلى شيء غيره أحب إلى الله منه فهذه العلل الثلاث : هي علل التوكيل وأما التوكل : فليس المراد منه إلا مجرد التفويض وهو من أخص مقامات العارفين كما ن كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم إني أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك وقال تعالى عن مؤمن آل فرعون : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [غافر : 4445] فكان جزاء هذا التفويض قوله : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾ فإن كان التوكل معلولا بما ذكره فالتفويض أيضا كذلك وليس فليس ولولا أن الحق لله ورسوله وأن

كل ما عدا الله ورسوله فمأخوذ من قوله ومتروك وهو عرضة الوهم والخطأ : لما اعترضنا على من لا نلحق غبارهم ولا نجري معهم في مضمارهم ونراهم فوقنا في مقامات الإيمان ومنازل السائرين كالنجوم الدراري ومن كان عنده علم فليرشدنا إليه ومن رأى في كلامنا زيغا أو نقصا وخطأ فليهد إلينا الصواب نشكر له سعيه ونقابله بالقبول والإذعان والانقياد والتسليم والله أعلم وهو الموفق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مدارج السالكين حـ 2 صـ 112 . 137 ﴾

(66/129)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِذْ هَمَّتْ طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

والفشل هو الجبن ، والطائفتان هما " بنو حارثة " من الأوس ، " وبنو سلمة " من الخزرج ، وهؤلاء كانوا الجناح اليمين والجناح اليسار ، فجاءوا في الطريق إلى المعركة, وسمعوا كلام المنافق ابن سلول ، إذ قال لهم : لن يحدث قتال ؛ لأنه بمجرد أن يرانا مقاتلو قريش سيهربون .

وقال ابن سلول المنافق للرسول : لو نعلم قتالاً لاتبعناكم . إلا أن عبد الله ابن حارثة قال : أنشدكم الله وأنشدكم رسول الله وأنشدكم دينكم . فساروا إلى القتال وثبتوا بعد أن همّوا في التراجع .

وما معنى " الهمّ " هنا ؟ إن الهم هو تحرك الخاطر نحو عملية ما ، وهذا الخاطر يصير في مرحلة ثانية قصداً وعزماً ، إذن فالذي حدث منهم هو مجرد هَمّ بخاطر الإنسحاب ، لكنهم ثبتوا .

ولماذا ذلك ؟ لقد أراد الله بهذا أن يُثبت أن الإسلام منطقي في نظرته إلى الإنسان ، فالإنسان تأتيه خواطر كثيرة . لذلك يورد الحق هذه المسألة ليعطينا العلاج . فقال : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ ﴾ .

وقد قال واحد من الطائفتين : والله ما يسرني أني لم أهم - أي لقد انشرح قلبي لأني هممت - لأني ضمنت أني من الذين قال الله فيهم : ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ ، وحسبي ولاية الله . لقد فرح لأنه أخذ الوسام ، وهو ولاية الله .

وهكذا نلتقط العبر الموحية من الآيات الكريمات حول غزوة أحُد ، ونحن نعلم أن هذه الغزوة التالية لغزوة بدر الكبرى . وغزوة بدر الكبرى انتهت بنصر المسلمين وهم قلة في العدد والعُدة ، ففي بدر لم يذهب المسلمون إلى المعركة ليشهدوا حرباً ، وإنما ليصادروا أموال قريش في العِير تعويضاً لأموالهم التي تركوها في مكة . ومع ذلك شاء الله ألاّ يواجهوا العير المحملة، ولكن ليواجهوا الفئة ذات الشوكة ، وجاء النصر لهم .

ولكن هذا النصر ، وإن يكن قد ربّى المهابة للمسلمين في قلوب خصومهم ، فإنه قد جمّع همم أعداء الإسلام ليتجمعوا لتسديد ضربة يردون بها اعتبار الكفر ؛ ولذلك رأينا رءوس قريش وقد منعت نساءها أن يبكين على قتلاهم ؛ لأن البكاء يُريح النفس المتعبة ، وهم يريدون أن يظل الحزن مكبوتاً ليصنع مواجيد حقدية تحرك النفس البشرية للأخذ بثأر هؤلاء ، هذا من ناحية العاطفة التي يحبون أن تظل مؤججة ، ومن ناحية المال فإنهم احتفظوا بمال العير الذي نجا ليكون وسيلة لتدبير معركة يردون فيها اعتبارهم .

وقد حاولوا قبل أحُد أن يفعلوا شيئاً ، ولكنهم كانوا يُرَدّون على أعقابهم . فمثلاً قاد أبو سفيان حملة مكونة من مائة ، وأراد أن يهاجم بها المدينة فلما نمى خبرها إلى سيدنا رسول الله نهض بصحابته إليهم ، فبلغ أبو سفيان خروج رسول الله ، ففرّ هارباً وألقى ما عنده من مؤنة في الطريق ليخفف الحمل على الدواب لتسرع في الحركة ، ولذلك يسمونها " غزوة السويق " لأنهم تركوا طعامهم من السويق .

كما حاول بعض الكفار أن يُغيروا على المدينة بعد ذلك أكثر من مرة ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذهب إليهم على رأس مقاتلين, فمرة عددهم مائة ومرة مائة وخمسون ومرة مائتان ، وفعلاً شتت الرسول صلى الله عليه وسلم شملهم . وكان من خطته صلى الله عليه وسلم حين يذهب إلى قوم كان يبلغه أنهم يُريدون أن يتآمروا لغزو المدينة أن يظل في بلدهم وفي معسكرهم وقتا ليس بالقليل .

كل ذلك سبق غزوة أُحد . وبعد ذلك تجمعوا ليجيئوا لغزوة أُحد ، وكان ما كان ، والآيات التي تعالج هذه الغزوة فيها إيحاءات بما جاء في المعركة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم بوأ للمقاتلين مقاعد للقتال ، وأمرهم بالثبات في تلك المواقع لكن بعضا من المقاتلين ترك مكانه ، والبعض الآخر همّ بالانسحاب ، لكنه ثبت أخيراً ، وفرّ كفار قريش . وقد تجلت في هذه المعركة آيات الله الكبيرة .

فحين نصر الله سبحانه وتعالى المسلمين " ببدر " وهم قلة ، لم يخرجوا لمعركة وإنما خرجوا لمصادرة عير . وربما ظن أناس أنهم بمجرد نسبتهم إلى الله وإلى الإسلام سينصرون على هذه الوتيرة ، ويتركون الأسباب فأراد الله أن يعلمهم أنه لا بد من استنفاد الأسباب ،

إعداداً لعدة ولعدد ، وطاعة لتوجيه قائد .

فلما خالفوا كان ولا بد أن يكون ما كان . والمخالفة لم تنشأ إلا بعد استهلال بالنصر ، ولذلك سيجيء فيما بعد ستون آية حول هذه الغزوة ؛ لتبين لنا مناط العبرة في كل أطوارها لنستخرج منها العظة والدرس . ونعلم أن المنتصرين عادةً يكون الجو معهم رخاءً . ولكن الكلام هنا عن هزيمة من لا يأخذون بأسباب الله ، وهذا أمر يحتاج إلى وقفة ، فجاء القرآن هنا ليقص علينا طرفاً من الغزوة لنستخرج منها العبرة والعظة ، العبرة الأولى :

أنهّم حينما خرجوا ، تخلف المنافقون بقيادة ابن أُبَيّ ، إذن فالمعركة إنما جاءت لتمحص المؤمنين . والتمحيص يأتي للمؤمن ويعركه عركا ، ويبين منه مقدار ما هو عليه من الثبات ومن اليقين ، والحق إنما يمحص الفئة المؤمنة لأنها ستكون مأمونة في التاريخ كله إلى أن تقوم الساعة على حماية هذه العقيدة ، فلا يمكن أن يتولى هذا الأمر إلا أناس لهم قلوب ثابتة ، وجأش قوي عند الشدائد ، وهمة دونها زخارف الدنيا كلها .

وبعد ذلك يعالج النفس البشرية في أوضاعها البشرية ، فعقائد الإيمان لا تنصب في قلوب المسلمين بمجرد إعلان الإيمان ، ولكن كل مناسبة تعطي دفعة من العقيدة يتكون بعد ذلك

الأمر العقدي كله . ولذلك يبين لنا الحق أن طائفتين من المؤمنين قد همت بالتراجع ، فهم نفوس بشرية ، ولكن أنفّذت الطائفتان ذلك الهم أم رجعت وفاءت إلى أمر الله ؟ لقد رجعت الطائفتان .

وهكذا رأينا بين الذين أعلنوا إيمانهم فئة نكصت من أول الأمر وفئة خرجت ثم عادت . لقد تحدثت النفوس ولكن أفراد تلك الفئة لم يقفوا عند حديث النفس بل ثبتوا إلى نهاية الأمر ، ومنهم من ثبت إلى الغاية السطحية من الأمر كالرماة الذين رأوا النصر أولا ، وهؤلاء من الذين ثبتوا ، ما فرّوا أولاً مع ابن أبيّ ، وما كانوا من الطائفة التي همت ، ولكنهم كانوا من الذين ثبتوا . لكنهم عند بريق النصر الأول اشتاقوا للغنائم ، وخالفوا أمر الرسول ، ولنقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾

[آل عمران : 152]

وبعد ذلك تأتي لقطة أخرى وهي ألا نفتن في أحد من البشر ، فخالد بن الوليد بطل معسكر الكفر في أُحد ، وهو الذي استغل فرصة نزول الرماة عن أماكنهم ، وبعد ذلك طوق جيش المؤمنين ، وكان ما كان ، من خالد قبل أن يسلم ، ألم يكن في غزوة الخندق ؟ لقد كان في غزوة الخندق . وكان في غزوات كثيرة غيرها مع جند الشرك ، فأين كانت عبقريته في هذه الغزوات ؟ . .

إن عبقرية البشر تتصارع مع عبقرية البشر ، ولكن لا توجد عبقرية بشرية تستطيع أن تصادر ترتيباً ربانياً ، ولذلك لم يظهر دور خالد في معركة الخندق ، لقد ظهر دوره في معركة أُحد ؛ لأن المقابلين لخالد خالفوا أمر القيادة فبقيت عبقرية بشر لعبقرية بشر ، ولكنهم لو ظلوا في حضن المنهج الإلهي في التوجيه لما استطاعت عبقرية خالد أن تطفو على تدبيرات ربه أبدا .

والتحقيق التاريخي لكل العسكريين الذين درسوا معركة أُحد قالوا : لا هزيمة للمسلمين ولا انتصار للكفار ؛ لأن النصر يقتضي أن يُجلي فريق فريقاً عن أرض المعركة ، ويظل الفريق الغالب في أرض المعركة . فهل قريش ظلت في أرض المعركة أو فرّت ؟ لقد فرّت قريش .

ويُفسر النصر أيضاً بأن يؤسر عدد من الطائفة المقابلة ، فهل أسرت قريش واحداً من المسلمين ؟ لا . ولقد علموا أن المدينة خالية من المؤمنين جميعا وليس فيها إلا من تخلف من المنافقين والضعاف من النساء والأطفال ، ولم يؤهلهم فوزهم السطحي لأن يدخلوا

المدينة .

إذن فلا أسروا ، ولا أخذوا غنيمة ، ولا دخلوا المدينة ، ولا ظلوا في أرض المعركة ، فكيف تسمي هذا نصراً ؟ فلنقل : إن المعركة ماعت . وظل المسلمون في أرض المعركة .

(71/129)

وهنا تتجلّى البطولة الحقة ؛ لأننا كما قلنا في حالة النصر يكون الأمر رخاء ، حتى من لم يُبْلِ في المعركة بلاءً حسناً ينتهز فرصة النصر ويصول ويجول ، ولكن المهزومين والذين أصيب قائدهم صلى الله عليه وسلم ، وضعف أن يصعد الجبل ، حتى أن طلحة بن عبيد الله يطأطئ ظهره لرسول الله ليمتطيه فيصعد على الصخرة .

ورسول الله يسيل منه الدم بعد أن كسرت رباعيته وتأتي حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، بعد هذا ماذا يكون الأمر ؟ حتى لقد أرجف المرجفون وقالوا : إن رسول الله قد قُتل .

وكل هذا هو من التمحيص ، فمن يثبت مع هذا ، فهو الذي يؤتمن أن يحمل السلاح لنصرة كلمة الله إلى أن تقوم الساعة . ويتفقد رسول الله صلى الله عليه وسلم بطلاً من أبطال المسلمين كان حوله فلا يجده ، إنه " سعد بن الربيع " .

يقول عليه الصلاة والسلام : " مَن رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع ؟ أفي الأحياء هو أم

في الأموات ؟ " فقال رجل من الأنصار هو أُبَيُّ بن كعب : فذهبت لأتحسسه ، فرأيته وقد طُعن سبعين طعنة ما بين ضربة سيف وطعنة رمح ورمية قوس . فلما رآه قال له : رسول الله يقرئك السلام ، ويقول لك : كيف تجدك - أي كيف حالك - ؟

قال سعد بن الربيع : قل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جزاك الله عنّا خير ما جزى نبيا عن أمته ، وقل للأنصار ليس لكم عند الله عُذر إن خَلص إلى رسول الله وفيكم عين تطرف . ثم فاضت روحه .

انظروا آخر ما كان منه ، حين أُثخن في المعركة فلم يقو على أن يحارب بنصاله ، انتهز بقية الحياة ليحارب بمقاله ، ولتصير كلماته دوياً في آذان المسلمين . وليعلم أن هؤلاء الذين أثخنوه جراحاً ما صنعوا فيه إلا أن قربوه إلى لقاء ربه ، وأنه ذاهب إلى الجنة . وتلك هي الغاية التي يرجوها كل مؤمن .

ونجد أيضاً أن الذين يعذرهم القرآن في أن يشهدوا معارك الحرب ، يتطوعون للمعارك !

فمثلا عمرو بن الجموح ، كان أعرج ، والعرج عذر أقامه الله مع المرض والعمى ؛ لأنه سبحانه هو القائل :

﴿ لَّيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾

[النور : 61]

وكان لعمرو بن الجموح بنون أربعة مثل الأسْد قد ذهبوا إلى المعركة ، ومع ذلك يطلب من رسول الله أن يذهب إلى المعركة ويقول له : يا رسول الله إن بَنيّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فيه ، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمّا أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك . وقال لبنيه : ما عليكم ألاّ تمنعوه ، لعل الله أن يرزقه الشهادة ، فخرج معه فقتل .

وهذا مؤمن آخر يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله إن ابني الذي استشهد ببدر رأيته في الرؤيا يقول لي : " يا أبت أقبل علينا " فأرجو أن تأذن لي بالقتال في " أحُد " فأذن له فقاتل فقتل فصار شهيداً . وتتجلى الروعة الايمانية والنسب الاسلامي في حذيفة بن اليمان ، لقد كان ابوه شيخاً كبيراً مسلماً فأخذ سيفه ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم لعل الله يرزقه الشهادة في سبيل الله ، فدخل في المعركة ولا يعلم به أحد فقتله المسلمون ولا يعرفونه ، فقال ابنه حذيفة ، أبي والله .

فقالوا والله ما عرفناه ، وصدقوا ، قال حذيفة : يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤدي ديته ، فقال له حذيفة بن اليمان : وأنا تصدقت بها على المسلمين .

هذه الأحداث التي دارت في المعركة تدلنا على أن غزوة أُحد كان لا بد أن تكون هكذا ، لتمحص المؤمنين تمحيصاً يؤهلهم لأن يحملوا كلمة الله ويعلوها في الأرض . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 1727 . 1733 ﴾

(73/129)

" فصل "

قال السيوطى :

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (121)

أخرج ابن إسحق والبيهقي في الدلائل عن ابن شهاب وعاصم بن عمر بن قتادة ومحمد بن يحيى بن حبان والحصين بن عبد الرحمن بن سعد بن معاذ قالوا : كان يوم أحد يوم بلاء وتمحيص ، اختبر الله به المؤمنين ، ومحق به الكافرين ممن كان يظهر الإسلام بلسانه وهو مستخفٍ بالكفر ، ويوم أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته ، فكان مما نزل من القرآن في يوم أحد ستون آية من آل عمران فيها صفة ما كان في يومه ذلك ، ومعاتبة من عاتب منهم . يقول الله لنبيه ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم ﴾ .

وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب قال " قاتل النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر في رمضان سنة اثنتين ، ثم قاتل يوم أحد في شوّال سنة ثلاث ، ثم قاتل يوم الخندق وهو يوم الأحزاب وبني قريظة في شوّال سنة أربع " .

وأخرج عبد الرزاق والبيهقي في الدلائل عن عمروة قال : كانت وقعة أحد في شوّال على رأس سنة من وقعة بدر ، ولفظ عبد الرزاق : على رأس ستة أشهر من وقعة بني النضير ، ورئيس المشركين يؤمئذ أبو سفيان بن حرب .

وأخرج البيهقي عن قتادة قال : كانت وقعة أحد في شوّال يوم السبت لإحدى عشرة ليلة مضت من شوّال ، وكان أصحابه يومئذ سبعمائة والمشركون ألفين أو ما شاء الله من ذلك .

(74/129)

وأخرج أبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم عن المسور بن مخرمة قال : قلت لعبد الرحمن بن عوف يا خال أخبرني عن قصتكم يوم أحد ؟ قال : اقرأ بعد العشرين ومائة من آل عمران تجد قصتنا ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوّئ المؤمنين مقاعد للقتال ﴾ إلى قوله ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ [آل عمران : 122] قال : هم الذين طلبوا الأمان من

المشركين إلى قوله ﴿ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه ﴾ [آل عمرن : 143] قال : هو تمني المؤمنين لقاء العدو إلى ﴿ أَفَإِنْ مات أو قتل انقلبتم ﴾ [آل عمران : 144] قال : هو صياح الشيطان يوم أحد : قتل محمد إلى قوله ﴿ أمنة نعاساً ﴾ [آل عمران عمران : 154] قال : ألقي عليهم النوم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال ﴾ قال : يوم أحد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ تبوّئ المؤمنين ﴾ قال : توطئ .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ تبوّئ المؤمنين ﴾ قال : توطن المؤمنين لتسكن قلوبهم قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول الأعشى الشاعر :

وما بوّأ الرحمن بيتك منزلاً . . . بأجياد غربي الفنا والمحرم

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوّئ المؤمنين مقاعد للقتال ﴾ قال : مشى النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ على رجليه يبوّئ المؤمنين .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ وإذ غدوت من أهلك ﴾ قال يعني محمداً صلى الله عليه وسلم يبوّئ المؤمنين مقاعد للقتال يوم الأحزاب .

وأخرج إسحق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن شهاب ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ وغيرهم . كل حدث بعض الحديث عن يوم قالوا : لما أصيبت قريش أو من ناله منهم يوم بدر من كفار قريش ، ورجع قلهم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بعيره . مشى عبد الله بن أبي ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم واخوانهم ببدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأراً بمن أصاب ، ففعلوا فأجمعت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرجت بجدتها وجديدها ، وخرجوا معهم بالظعن التماس الحفيظة ولئلا يقروا . وخرج أبو سفيان وهو قائد الناس ، فأقبلوا حتى نزلوا بعينين جبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مما يلي المدينة ، فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وأنهم قد نزلوا حيث نزلوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إني رأيت بقراً تنحر ، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً ، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها

المدينة ، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا بشر مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها " .

(76/129)

ونزلت قريش منزلها أحداً يوم الأربعاء ، فأقاموا ذلك اليوم ، ويوم الخميس ، ويوم الجمعة ، وراح رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صلى الجمعة فأصبح بالشعب من أحد ، فالتقوا يوم السبت للنصف من شوّال سنة ثلاث ، وكان رأي عبد الله بن أبي مع رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى رأيه في ذلك ؛ أن لا يخرج إليهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره الخروج من المدينة فقال رجال من المسلمين ممن أكرم الله بالشهادة يوم أحد وغيرهم ممن كان فاته يوم بدر وحضوره : يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أَنَّا جُبُنَّا عنهم وضعفنا فقال عبد الله بن أبي : يا رسول الله أقم بالمدينة فلا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوّ لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منهم ، فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر ، وإن دخلوا قاتلهم النساء والصبيان والرجال بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا خائبين كما جاؤوا .

فلم يزل الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم حتى

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلبس لامته وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة ثم خرج عليهم . وقد ندم الناس وقالوا : استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن لنا ذلك فإن شئت فاقعد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل " .

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألف رجل من أصحابه ، حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد تحوّل عنه عبد الله بن أبي بثلث الناس ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سلك في حرة بني حارثة ، فذب فرس بذنبه فأصاب ذباب سيفه فاستلّه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يحب الفأل ولا يعتاف لصاحب السيف " شمَّ سيفك فإني أرى السيوف ستستل اليوم " .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بالشعب من أحد من عدوة الوادي إلى الجبل ، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد ، وتعبَّأ رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتال وهو في سبعمائة رجل ، وأمّر رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرماة عبد الله بن جبير والرماة خمسون رجلاً فقال : " انضح عنا الجبل بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كان علينا أو لنا

فأنت مكانك لنؤتين من قبلك وظاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين " .

وأخرج ابن جرير عن السدي " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوم أحد أشيروا عليّ ما أصنع ؟ فقالوا : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم اخرج إلى هذه الأكلب فقالت الأنصار : يا رسول الله ما غلبنا عدوّ لنا أتانا في ديارنا فكيف وأنت فينا . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي بن سلول ولم يدعه قط قبلها فاستشاره فقال : يا رسول الله اخرج بنا إلى هذه الأكلب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه أن يدخلوا عليه المدينة فيقاتلوا في الأزقة ، فأتى النعمان بن مالك الأنصاري فقال : يا رسول الله لا تحرمني الجنة فقال له : بم ؟ قال : بأني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، واني لا أفر من الزحف قال : صدقت . فقتل يومئذ .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بدرعه فلبسها ، فلما رأوه وقد لبس السلاح ندموا وقالوا : بئسما صنعنا نشير على رسول الله صلى الله عليه وسلم والوحي يأتيه ، فقاموا واعتذروا إليه وقالوا : اصنع ما رأيت فقال : رأيت القتال وقال رسول صلى الله عليه وسلم : لا ينبغي لنبي أن يلبس لامته فيضعها حتى يقاتل " .

وأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد في ألف رجل ، وقد وعدهم الفتح أن يصبروا . فرجع عبد الله بن أبي في ثلاثمائة ، فتبعهم أبو جابر السلمي يدعوهم فأعيوه وقالوا له : ما نعلم قتالاً ، ولئن أطعتنا لترجعن معنا وقال ﴿ وإذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ وهم بنو سلمة ، وبنو حارثة ، هموا بالرجوع حين رجع عبد الله بن أبي ، فعصمهم الله . وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعمائة " .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ وإذ تبوئ المؤمنين ﴾ قال : ذاك يوم أحد ، غدا نبي الله من أهله إلى أحد ﴿ تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال ﴾ وأحد بناحية المدينة . أ هـ

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (122)

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن جابر بن عبد الله قال : فينا نزلت . في بني حارثة ، وبني سلمة ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ وما يسرني أنها لم تنزل لقول الله ﴿ والله وليهما ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ إذ همت طائفتان ﴾ قال : بنو حارثة كانوا نحو أحد ، وبنو سلمة نحو سلع .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ إذ همَّت طائفتان ﴾ قال : ذلك يوم أحد ﴿ والطائفتان ﴾ بنو سلمة ، وبنو حارثة ، حيان من الأنصار هموا بأمر فعصمهم الله من

ذلك ، وقد ذكر لنا أنه لما أنزلت هذه الآية قالوا : ما يسرنا أنَّا لم نهم بالذي هممنا به وقد أخبرنا الله أنه ولينا .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ إذ همَّت طائفتان ﴾ قال : هم بنو حارثة ، وبنو سلمة .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال : نزلت في بني سلمة من الخزرج ، وبني حارثة من الأوس ﴿ إذ همت طائفتان ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج قال ابن عباس : الفشل الجبن والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 2 صـ 302. 306 ﴾

(79/129)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ظاهر الحال فيما أصاب الكفار من المسلمين في هذه الغزوة ربما كان سبباً في شك من لم يحقق بواطن الأمور ولا له أهلية النفوذ في الدقائق من عجائب المقدور في قوله تعالى :

﴿ إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴾ [آل عمران : 10]

﴿ قل للذين كفروا ستغلبون ﴾ [آل عمران : 12] ذكرهم الله تعالى نصره لهم في غزوة بدر ، وهم في القلة دون ما هم الآن بكثير ، مشيراً لهم إلى ما أثمره توكلهم من النصر ، وحالهم إذ ذاك حال الآيس منه ، ولذلك كانوا في غاية الكراهة للّقاء بخلاف ما كانوا عليه في هذه الكرة ، حثاً على ملازمة التوكل ، منبهاً على أنه لا يزال يريهم مثل ذلك النصر ويذيق الكفار أضعاف ذلك الهوان حتى يحق الحق ويبطل الباطل ويظهر دينه الإسلام على الدين كله فقال - عاطفاً على ما تقديره : فمن توكل عليه نصره وكفاه وإن كان قليلاً فلقد نصركم الله أول النهار في هذه الغزوة حيث صبرتم واتقيتم بطاعتكم للرسول صلى الله عليه وسلم في ملازمة التعب والإقبال على الحرب وغير ذلك بما أمركم به صلى الله عليه وسلم ولم تضركم قلتكم ولا ضعفكم بمن رجع عنكم شيئاً - : ﴿ ولقد نصركم الله ﴾ بما له من صفات الجلال والجمال ﴿ ببدر ﴾ المشار إليها أول السورة بقوله تعالى : ﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتا ﴾ [آل عمران : 13] لما صبرتم واتقيتم .

ولما كانوا في عدد يسير أشار إليه بجمع القلة فقال: ﴿وأنتم أذلة﴾ أي فاذكروا ذلك واجعلوه نصب أعينكم لينفعكم، وكان الإتيان بأمر بدر بعد آية الفشل المختتمة بالحث على التوكل في الغاية من حسن النظم، وهو دليل أيضاً على منطوق قوله تعالى: ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾ [آل عمران: 120] كما كان أمر أحد دليلاً على منطوقها ومفهومها معاً: دل على منطوقها بنصرهم أول النهار عند صبرهم، وعلى مفهومها بإدالة العدو عليهم عند فشلهم آخره - والله الموفق؛ على أنك إذا أنعمت التأمل في قصة أحد من السير وكتب الأخبار علمت أن الظفر فيها ما كان إلا للنبي صلى الله عليه وسلم كما سيأتي الخبر به في قوله تعالى: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه﴾ [آل عمران: 52]، فإن الصحابة رضي الله عنهم هزموهم - كما مضى - في أول النهار حتى لم يبق في عسكرهم أحد ولا بقي عند نسائهم حامٍ، فلما خالف الرماة أمره صلى الله عليه وسلم وأقبلوا على الغنيمة أراد الله تأديبهم وتعريفهم أن نصرته لنبيه صلى الله عليه وسلم غير محتاجة في الحقيقة إليهم حين انهزموا حتى لم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم منهم غير نفر يسير ما يبلغون الخمسين، والكفار ثلاثة آلاف وخيلهم مائتان، فاستمر عليه الصلاة والسلام في نحورهم يحاولهم ويصاولهم، يرامونه مرة ويطاعنون أخرى، ويجتمعون عليه كرة ويفترقون عنه أخرى، والله تعالى يمنعه منهم بأيده ويحفظه بقوته حتى تدلت الشمس للغروب، وقتل بيده صلى الله عليه وسلم أُبي بن خلف مبارزة، تصديقاً لما كان

أوعده به قبل الهجرة ، وخالطوه غير مرة ولم يمكنهم الله منه ولا أقدرهم على أسر أحد من أصحابه ، ثم ردهم خائبين بعد أن تراجع إليه من أصحابه في أثناء النهار ، ولم يرجع صلى الله عليه وسلم من أحد إلا بعد

(81/129)

انصرافهم ودفن من استشهد من أصحابه ، وأما هم فاستمروا راجعين ولم يلووا على أحد ممن قتل منهم ، وهم اثنان وعشرون رجلاً من سرواتهم وحمال راياتهم ، وقال الجلال الخجندي في كتابه فردوس المجاهدين : إنه صح النقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ما نصر النبي صلى الله عليه وسلم في موطن من المواطن نصرته في يوم أحد - انتهى .

(82/129)

كفى على ذلك دليلاً ما نقل موسى بن عقبة - وسيرته أصح السير في غزوة الفتح - عن قائد الجيش بأحد أبي سفيان بن حرب أنه قال عندما عرض عليه النبي صلى الله عليه وسلم الإسلام : يا محمد ! قد استنصرت إلهي واستنصرت إلهك ، فوالله ما لقيتك من مرة

إلا ظهرت علي ، فلو كان إلهي محقاً وإلهك مبطلاً لقد ظهرت عليك ، وإنما كانت الهزيمة وقتل من قتل لحكم ومصالح لا تخفى على من له رسوخ في الشريعة وثبات قدم في السنن ، ويمكن أن تكون هذه القصة مندرجة في حكم النهي في القصة التي قبلها عن طاعة فريق من أهل الكتاب عطفاً على قوله تعالى : ﴿ نعمة ﴾ في قوله : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ﴾ [آل عمران : 103] لتشابه القصتين في الإصغاء إلى الكفار قولاً أو فعلاً ، المقتضي لهدم الدين من أصله ، لأن همّ الطائفتين بالفشل إنما كان من أجل رجوع عبد الله بن أبي المنافق حليف أهل الكتاب ومواليهم ومصادقهم ومصافيهم ، ويؤيد ذلك نهيه تعالى في أثناء هذه عن مثل ذلك بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ﴾ [آل عمران : 149] ، ويكون إسناد الفعل في ﴿ غدوت ﴾ ، وأمثاله إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد الإسناد إلى الجمع ، لأنه الرئيس فخطابه خطابهم ، ولشرف هذا الفعل ، فكان الأليق إفراده به صلى الله عليه وسلم ، وأما الفشل ونحوه فأسند إليهم وقصر - كما هو الواقع - عليهم .

ولما امتن الله سبحانه عليهم بالنصرة في تلك الكرة سبب عن ذلك أمرهم بالتقوى إشارة إلى أنها السبب لدوام النعمة فقال : ﴿ فاتقوا الله ﴾ أي في جمع أوامره ونواهيه بأن التقوى التنزه عن المعاصي ، والشكر فعل ينبىء عن تعظيم المنعم ، وشكر الله صرف جميع ما أنعم به في طاعاته فحينئذ التقوى من الشكر فإن أريد العموم انحل الكلام إلى : اشكروا لعلكم تشكرون ، ولا يتحرر الجواب إلا بعد معرفة حقيقة التقوى لغة ؛ قال الإمام عبد الحق في كتابه الواعي : الواقية ما وقاك الشر ، وكل شيء وقيت به شيئاً فهو وقاء له ووقاية ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ قال ابن عرفة - أي لعلكم أن تجعلوا بقبول ما أمركم به وقاية بينكم وبين النار - انتهى .

فاتضح أن حقيقة ﴿ واتقوا ﴾ : اجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية ، وأن سبب اتخاذ الوقاية الخوف من ضاره فالظاهر - والله أعلم - أن اتقوا بمعنى : خافوا - مجازاً مرسلاً من إطلاق اسم المسبب على السبب ، فالمعنى : خافوا الله لتكونوا على رجاء من أن يحملكم خوفه على طاعته على سبيل التجديد والاستمرار ، ولئن سلمنا أن التقوى من الشكر فالمعنى : اشكروا هذا الشكر الخاص ليحملكم على جميع الشكر ، وغايته أنه نبه على أن هذا الفرد من الشكر هو أصل الباب الذي يثمر باقيه ، وهو المراد بقول ابن هشام في السيرة : إن المعنى : فاتقوني ، فإنه شكر نعمتي ، ويجوز أن يكون : لعلكم تزدادون نعماً فتشكرون عليها - إقامة للمسبب مقام السبب - والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2

صـ 149.146 ﴿

وقال الفخر :

في كيفية النظم وجهان

(84/129)

الأول : أنه تعالى لما ذكر قصة أحد أتبعها بذكر قصة بدر ، وذلك لأن المسلمين يوم بدر كانوا في غاية الفقر والعجز ، والكفار كانوا في غاية الشدة والقوة ، ثم إنه تعالى سلّط المسلمين على المشركين فصار ذلك من أقوى الدلائل على أن العاقل يجب أن لا يتوسل إلى تحصيل غرضه ومطلوبه إلا بالتوكل على الله والاستعانة به والمقصود من ذكر هذه القصة تأكيد قوله ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ [آل عمران : 120] وتأكيد قوله ﴿ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ [آل عمران : 122]

الثاني : أنه تعالى حكى عن الطائفتين أنهما همتا بالفشل .

ثم قال : ﴿ والله وَلِيُّهُمَا وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ يعني من كان الله ناصراً له ومعيناً له فكيف يليق به هذا الفشل والجبن والضعف ؟ ثم أكد ذلك بقصة بدر فإن المسلمين كانوا في غاية الضعف ولكن لما كان الله ناصراً لهم فازوا بمطلوبهم وقهروا خصومهم فكذا ههنا ،

فهذا تقرير وجه النظم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 182 ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ الله بِبَدْرٍ ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ سيقت لإيجاب الصبرِ والتقوى بتذكيرِ ما ترتب عليهما من النصر إثرَ تذكيرِ ما ترتب على عدمهما من الضرر ، وقيل : لإيجاب التوكلِ على الله تعالى بتذكيرِ ما يوجبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 79 ﴾

فائدة

قال الفخر :

في بدر أقوال

الأول : بدر اسم بئر لرجل يقال له بدر ؛ فسميت البئر باسم صاحبها هذا قول الشعبي

الثاني : أنه اسم للبئر كما يسمى البلد باسم من غير أن ينقل إليه اسم صاحبه وهذا قول الواقدي وشيوخه ، وأنكروا قول الشعبي وهو ماء بين مكة والمدينة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 182 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ أَذِلَّةٍ ﴾ جمع ذليل قال الواحديّ : الأصل في الفعيل إذا كان صفة أن يجمع على فعلاء كظريف وظرفاء وكثير وكثراء وشريك وشركاء إلا أن لفظ فعلاء اجتنبوه في التضعيف لأنهم لو قالوا : قليل وقللاء وخليل وخللاء لاجتمع حرفان من جنس واحد فعدل إلى أفعلة لأن من جموع الفعيل : الأفعلة ، كجريب وأجربة ، وقفيز وأقفزة فجعلوه جمع ذليل أذلة ، قال صاحب "الكشاف" : الأذلة جمع قلة ، وإنما ذكر جمع القلة ليدل على أنهم مع ذلهم كانوا قليلين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 182 ﴾

فائدة

قال النسفى :

وجاء بجمع القلة وهو "أذلة" ليدل على أنهم على ذلتهم كانوا قليلاً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير النسفى حـ 1 صـ 180 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ في موضع الحال ، وإنما كانوا أذلة لوجوه

الأول : أنه تعالى قال : ﴿ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : 8] فلا بد من

تفسير هذا الذل بمعنى لا ينافي مدلول هذه الآية ، وذلك هو تفسيره بقلة العدد وضعف الحال وقلة السلاح والمال وعدم القدرة على مقاومة العدو ومعنى الذل الضعف عن المقاومة ونقيضه العز وهو القوة والغلبة ، روي أن المسلمين كانوا ثلثمائة وبضعة عشر ، وما كان فيهم إلا فرس واحد ، وأكثرهم كانوا رجالة ، وربما كان الجمع منهم يركب جملاً واحداً ، والكفار قريبين من ألف مقاتل ومعهم مائة فرس مع الأسلحة الكثيرة والعدة الكاملة

الثاني : لعل المراد أنهم كانوا أذلة في زعم المشركين واعتقادهم لأجل قلة عددهم وسلاحهم ، وهو مثل ما حكى الله عن الكفار أنهم قالوا ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل ﴾ [المنافقون : 8]

(86/129)

الثالث : أن الصحابة قد شاهدوا الكفار في مكة في القوة والثروة وإلى ذلك الوقت ما اتفق لهم استيلاء على أولئك الكفار ، فكانت هيبتهم باقية في قلوبهم واستعظامهم مقرراً في نفوسهم فكانوا لهذا السبب يهابونهم ويخافون منهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 182.183 ﴾

وقال القرطبى :

و"أذِلة" جمع ذليل.

واسم الذل في هذا الموضع مستعار، ولم يكونوا في أنفسهم إلاَّ أعِزّة، ولكن نسبتهم إلى عدوّهم وإلى جميع الكفار في أقطار الأرض تقتضي عند التأمل ذِلّتهم وأنهم يُغلبون.

والنصر العون؛ فنصرهم الله يوم بَدْرٍ، وقتل فيه صناديد المشركين، وعلى ذلك اليوم ابتني الإسلام، وكان أوّل قتال قاتله النبيّ صلى الله عليه وسلم.

وفي صحيح مسلم عن بُريدة قال: غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع عشرة غزوة، قاتل في ثمان منهنّ.

وفيه.

عن أبي إسحاق قال: لقيت زيد بن أرْقَم فقلت له: كم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال تسع عشرة غزوة.

فقلت: فكم غزوتَ أنت معه؟ فقال: سبع عشرة غزوة.

قال فقلت: فما أوّل غزوة غزاها؟ قال: ذات العُسَير أو العشير.

وهذا كله مخالف لما عليه أهل التواريخ والسير.

قال محمد بن سعد في كتاب الطبقات له: إن غزواتِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم سبع وعشرون غزوة، وسراياه ست وخمسون، وفي رواية ست وأربعون، والتي قاتل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بَدْرٌ واحُد والمَرْيسِيع والخَنْدَق وخَيْبَر وقُرَيْظَة والفَتْحُ

وحُنَيْن والطائف .

قال ابن سعد : هذا الذي اجتمع لنا عليه .

وفي بعض الروايات أنه قاتل في بني النضير وفي وادي القُرى مُنصرفه من خَيْبَر وفي الغَابَة .

وإذا تقرّر هذا فنقول : زيد وبُريدة إنما أخبر كل واحد منهما بما في علمه أو شاهده .

(87/129)

وقول زيد : "إن أوّل غزاة غزاها ذات العسيرة" مخالف أيضاً لما قال أهل التواريخ والسير .

قال محمد بن سعد : كان قبل غزوة العشيرة ثلاث غزوات ، يعني غزاها بنفسه .

وقال ابن عبد البر في كتاب الدرر في المغازي والسير .

أوّل غزاةٍ غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة وَدّان غزاها بنفسه في صَفَر ؛

وذلك أنه وصل إلى المدينة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأوّل ، أقام بها بقيةَ ربيع الأوّل ،

وباقي العام كله إلى صفر من سنة اثنتين من الهجرة : ثم خرج في صفر المذكور واستعمل

على المدينة سعد بن عبادة حتى بلغ وَدّان فوادع بني ضَمْرة ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق

حَرْباً ، وهي المسماة بغزوة الأبواء .

ثم أقام بالمدينة إلى (شهر) ربيع الآخر من السنة المذكورة ، ثم خرج فيها واستعمل على

المدينة السائب بن عثمان بن مظعون حتى بلغ بَوَاط من ناحية رَضْوَى ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حرباً ، ثم أقام بها بقية ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى ، ثم خرج غازياً واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد ، وأخذ على طريق مِلْكٍ إلى العُسَيْرة .

قلت : ذكر ابن إسحاق " عن عمّار بن ياسر قال : كنت أنا وعليّ بن أبي طالب رفيقين في غزوة العشيرة من بطن يَنْبُع فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام بها شهراً فصالح بها بني مُدْلِج وحلفاءَهم من بني ضَمْرة فوادعهم ، فقال لي علي بن أبي طالب : هل لك أبا اليقظان أن تأتي هؤلاء ؟ نفر من بني مُدْلِج يعملون في عين لهم ننظر كيف يعملون .

(88/129)

فأتيناهم فنظرنا إليهم ساعة ثم غشِينا النوم فعمدنا إلى صور من النخل في دَقْعَاء من الأرض فَنِمْنا فيه ؛ فوالله ما أهبنا إلاّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدمه ؛ فجلسنا وقد تتربنا من تلك الدقعاء فيومئذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي : "ما بالك يا أبا تراب" ؛ فأخبرناه بما كان من أمرنا فقال : "ألا أُخبركم بأشقى الناس رجيلن" قلنا : بلى يا رسول الله ؛ فقال : "أُحَيْمِر ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك يا عليّ على هذه ووضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على رأسه حتى يَبَلّ منها هذه" ووضع يده على

لحيته .

فقال أبو عمر : فأقام بها بقية جمادي الأولى وليالي من جمادي الآخرة ، ووادع فيها بني مُدْلِج ثم رجع ولم يلق حرباً .

ثم كانت بعد غزوة بدرٍ الأولى بأيام قلائل ، هذا الذي لا يشك فيه أهل التواريخ والسير ، فزيد بن أرقم إنما أخبر عما عنده . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 190.192 ﴾

(89/129)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلة ﴾ وصف الله المؤمنين في هذه الآية بكونهم أذلة حال نصره لهم ببدر, وقد جاء في آية أخرى وصفه تعالى لهم بأن لهم العزة, وهي قوله تعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ , ولا يخفى ما بين العزة والذلة من التنافي والتضاد . والجواب ظاهر وهو أنّ معنى وصفهم بالذلة هو قلة عَددهم وعُددهم يوم بدر, وقوله تعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ نزل في غزوة المريسيع, وهي غزوة

بني المصطلق, وذلك بعد أن قويت شوكة المسلمين, وكثر عَددهم, مع أن العزة والذلة يمكن الجمع بينهما باعتبار آخر وهو أن الذلة باعتبار حال المسلمين من قلة العَدد والعُدد, والعزة باعتبار نصر الله وتأييده, كما يشير إلى هذا قوله تعالى : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات ﴾ , وقوله : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾ , فإنّ زمن الحال هو زمن عاملها , فزمان النصر هو زمان كونهم أذلة, فظهر أنّ وصف الذلة باعتبار , ووصف العزة والنصر باعتبار آخر, فانفكت الجهة, والعلم عند الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 68 ﴾

(90/129)

قوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

قال الفخر :

﴿ فاتقوا الله ﴾ أي في الثبات مع رسوله ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ بتقواكم ما أنعم به عليكم من نصرته أو لعلّ الله ينعم عليكم نعمة أخرى تشكرونها ، فوضع الشكر موضع الإنعام ، لأنه سبب له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 183 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فاتقوا الله ﴾ باجتناب معاصيه والصبر على طاعته ولم يصرح بالأمر بالصبر اكتفاءاً بما سبق وما لحق مع الإشعار على ما قيل بشرف التقوى وأصالتها وكون الصبر من مباديها اللازمة لها وفي ترتيب الأمر بها على الإخبار بالنصر إعلام بأن نصرهم المذكور كان بسبب تقواهم فمعنى قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ لعلكم تقومون بشكر ما أنعم به عليكم من النصر القريب بسبب تقواكم إياه ، ويحتمل أن يكون كناية أو مجازاً عن نيل نعمة أخرى توجب الشكر كأنه قيل : فاتقوا الله لعلكم تنالون نعمة من الله تعالى فتشكرونه عليها فوضع الشكر موضع الإنعام لأنه سبب له ومستعد إياه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 44 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ بِبَدْرٍ ﴾ متعلق بـ ﴿ نَصَرَكُمُ ﴾ ، وفي الباء – حينئذ – قولان :

أحدهما : – وهو الأظهر – : أنها ظرفية ، أي : في بدر ، كقولك : زيد بمكة ، أي : في مكة .

الثاني : أن تتعلق بمحذوف على أنها باء المصاحبة ، فمحلُّها النصب على الحال ، أي : مصاحبين لبدر ، و" بدر " : اسم لماء بين مكة والمدينة ، سُمِّي بذلك لصفائه كالبدر .

وقيل : لاستدارته وقيل : اسم بئر لرجل يقال له : بدر ، وهو بدر بن كلدة ، قاله الشعبي ، وأنكر عليه بذكر الله – تعالى – مِنَّتَه عليهم بالنُّصْرَةِ يوم بدر وقيل : إنه اسم للبئر كما يسمى البلد باسم من غير أن ينقل إليه اسم صاحبه . قاله الواقدي وشيوخه .

وقيل : اسم وادٍ ، وكان يوم بدر السابع عشر من رمضان وكان يوم الجمعة ، لثمانية وعشرين شهراً من الهجرة .

(91/129)

قوله : ﴿ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ في محل نصب على الحال من مفعول : ﴿ نَصَرَكُمُ ﴾ و ﴿ أَذِلَّةٌ ﴾ جمع ذليل وهو جمع قلة ؛ إشعاراً بقلتهم مع هذه الصفة ، و" فعيل " الوصف – قياس جمعه على فعلاء ، كظريف وظرفاء ، وشريف وشرفاء ، غلاأنه تُرِكَ في المضعَّف ؛ تخفيفاً ألا ترى إلى ما يؤدي إليه جمع ذليل وخليل على ذُللاء وخُللاء من الثقل ؟ انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 514 ﴾ .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123) ﴾

تذكير ما سَلَفَ من الإنْعام فتحٌ لباب التملق في اقتضاء أمثاله في المُسْتَأنَف . انتهى . ا . هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 274 ﴾

(92/129)

فصل

قال الثعلبى :

ذكر مغازي رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾

جميع ما غزا رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ بنفسه ستّ وعشرون غزوة ،

فأول غزوة غزاها غزوة ودّان ،

وهي عزوة الأبواء ،

ثم غزوة بواط إلى ناحية رضوى ،

ثم غزوة العشيرة من بطن ينبع ،

ثم غزوة بدر الأُولى بطلب كرز بن جابر ،

ثم غزوة بدر الكبرى التي قتل الله فيها صناديد قريش ،

ثم غزوة بني سليم حتى بلغ الكدر ماءً لبني سليم ،

ثم غزوة السويق يطلب أبا سفيان بن حرب حتى بلغ قرقرة الكدر ،

ثم غزوة ذي أمر وهي غزوة غطفان إلى نجد ،

ثم غزوة نجران : موضع بالحجاز فوق الفرع ،

ثم غزوة أُحد ثم غزوة الأسد ،

ثم غزوة بني النضير ،

ثم غزوة ذات الرقاع من نجد ،

ثم غزوة بدر الأخيرة ،

ثم غزوة دومة الجندل ،

ثم غزوة الخندق ،

ثم غزوة بني قريظة ،

ثم غزوة بني لحيان ،

ثم غزوة بني قردة ،

ثم غزوة بني المصطلق من بني خزاعة لقي فيها ،

ثم غزوة الحديبية لا يريد قتالا فصده المشركون ،

ثم غزوة خيبر ،

ثم غزوة الفتح : فتح مكة ،

ثم غزوة حنين لقي فيها ،

ثم غزوة الطائف حاصر فيها ،

ثم غزوة تبوك .

قاتل منها في تسع غزوات : غزوة بدر الكبرى ،

وهو يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة ،

وأُحد في شوال سنة ثلاث ،

والخندق ،

وبني قريظة في شوال سنة أربع ،

وبني المصطلق ،

وبني لحيان في شعبان سنة خمس ،

وخيبر سنة ست ،

والفتح في رمضان سنة ثمان ،

وحنين في شوال سنة ثمان . فأوّل غزوة غزاها بنفسه وقاتل فيها بدر وآخرها تبوك .

ذكر سراياه ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾

روي عن مقسم قال : كانت السرايا ستّاً وثلاثين ،

وهي غزوة عبيدة بن الحارث إلى حنا من أسفل ثنية المرة وهو ما بالحجارة ، ثم غزوة حمزة

بن عبد المطلب إلى ساحل البحر من ناحية الفايض وبعض الناس يقدم غزوة حمزة على غزوة عبيدة وغزوة سعد بن أبي وقاص إلى الخرار من أرض الحجاز ،

(93/129)

ثم غزوة عبد الله بن جحش إلى نخلة ،

وغزوة زيد بن حارثة القردة ماء من مياه نجد ،

وغزوة مرثد بن أبي مرثد الغنوي الرجيعَ لقوا فيها ،

وغزوة منذر بن عمرو بئر معونة لقوا فيها ،

وغزوة أبي عبيدة الجراح إلى ذي القصة من طريق العراق ،

وغزوة عمر بن الخطاب تربة من أرض بني عامر ،

وغزوة علي بن أبي طالب اليمن ،

وغزوة غالب بن عبد الله الكلبي كلبِ ليث الكديدَ لقوا فيها الملوح ،

وغزوة علي بن أبي طالب إلى أبي عبد الله بن سعد من أهل فدك ،

وغزوة ابن أبي العوجاء السلمي أرض بني سليم أُصيب بها هو وأصحابه جميعاً ،

وغزوة عكاشة بن محصن العمرة ،

وغزوة أبي سلمة بن عبد الأسد قطن ماء من مياه بني أسد من ناحية نجد لقوا فيها فقتل فيها مسعود بن عروة ،

وغزوة محمد بن مسلمة أخي بني حارثة إلى القرطاء موضع من هوزان ،

وغزوة بشير بن سعد بن كعب بن مرة لفدك ،

وغزوة بشير بن سعد أيضاً إلى حيان بلد من أرض خيبر ،

وغزوة زيد بن حارثة الجموم من أرض بني سليم ،

وغزوة زيد أيضاً جذام من أرض حسمي لقوا فيها ،

وغزوة زيد أيضاً إلى طرف من ناحية نخل من طريق العراق ،

وغزوة زيد أيضاً وادي القرى لقي بني فزارة ،

وغزوة عبد الله بن رواحة خيبر مرتين

إحداهما التي أصاب فيها بشراً اليهودي ،

وغزوة عبد الله بن عتيك إلى حنين فأصاب بها أبا رافع بن أبي الحقيق .

وكان رسول الله ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ بعث محمد بن مسلمة وأصحابه فيها من أُحد وبدر إلى كعب بن الأشرف فقتلوه ،

وبعث عبد الله بن أنيس إلى خالد بن سفيان الهذلي وهو بنخلة لرسول الله ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ ليغزوه فقتله ،

وغزوة الأُمراء : زيد بن حارثة ،

وجعفر بن أبي طالب ،

وعبد الله بن رواحة إلى مؤتة من أرض الشام فأُصيبوا بها ،

وغزوة كعب بن عمرو الغفاري ذات الطلاح من أرض الشام فأُصيب بها هو وأصحابه

جميعاً ،

(94/129)

وغزوة عيينة بن حذيفة بن بدر الفزاري العنبر من بني تميم ،

وغزوة غالب بن عبد الله الكلبي كلب ليث أرض بني مرة فأصاب بها مرداس بن نهيك

وحليفاً لهم من جهينة ،

قتله أُسامة بن زيد ،

وهو الذي قال النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ لأسامة فيه : "من لك ؟

من لك لا إله إلاّ الله ؟

" .

وغزوة عمرو بن العاص ذات السلاسل من أرض بُلَي وعذرة وغزوة ،

(أبي قتادة) وأصحابه إلى بطن إضم قبل الفتح لقوا فيها ،

وغزوة الخيط إلى سيف البحر وعليهم أبو عبيدة الجراح وغزوة عبد الرحمن بن عوف .

انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشف والبيان حـ 3 صـ 140.141﴾

(95/129)

قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (124) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125) ﴾

مناسبة الآيتين لما قبلهما

قال البقاعى :

ولما اشتملت هذه القصة على المصيبة التي سيقص الله كثيراً منها ، وهي مستوفاة في السير كان أنسب من قصها وبيان ما اتفق لها - لوعظ من يأتي - البداءةُ بتذكير من باشرها بما وعدهم الله به على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم قبل وقوع القتال من النصر المشروط بالصبر والتقوى تنبيهاً لهم على أن الخلل من جهتهم أتى ، ثم وعظهم بالنهي عما منعهم النصر ، والأمر بما يحصله لهم كما سيحثهم على ذلك بما يقص عليهم من نبأ من قاتل

مع الأنبياء قبلهم بأنهم لما أصابهم القتل لم يهنوا وعلموا أن الخلل من أنفسهم ، فبادروا إلى إصلاحه بأفعال المتقين من الصبر والتضرع والإقرار بالذنب ، فقال - مبدلاً من ﴿ إذ غدوت ﴾ عوداً على بدء تعظيماً للأمر حثاً على النظر في موارده ومصادره والتدبر لأوائله وأواخره - : ﴿ إذ تقول للمؤمنين ﴾ أي الذين شاورتهم في أمر أحد - وفي غمارهم المنافقون - لما زلزلوا برجوع أكثر المنافقين به ، حتى كاد بعض الثابتين أن يرجع ضعفاً وجبناً ، مع ما كان النبي صلى الله عليه وسلم أخبرهم به من تلك الرؤيا التي أولها بذبح يكون في أصحابه ، ليكون إقدامهم على بصيرة ، أو يصدهم ذلك عن الخروج إلى العدو كما كان ميل النبي صلى الله عليه وسلم في أكثر أصحابه وإعلامهم إلى المكث في المدينة قال منكراً آتياً بأداة التأكيد للنفي : ﴿ ألن يكفيكم ﴾ أي أيها المؤمنون ﴿ أن يمدكم ﴾ إمداداً خفياً - بما أشار إليه الإدغام ﴿ ربكم ﴾ أي المتولي لتربيتكم ونصر دينكم ﴿ بثلاثة آلاف ﴾ ثم عظم أمرهم بقوله : ﴿ من الملائكة ﴾ ثم زاد في إعظامهم بأنهم من السماء بقوله : ﴿ منزلين ﴾ ثم تولى سبحانه وتعالى هو الجواب عنهم تحقيقاً للكفاية فقال : ﴿ بلى ﴾ أي يكفيكم ذلك ، ثم استأنف قوله : ﴿ إن تصبروا وتتقوا ﴾ أي توقعوا الصبر والتقوى لله ربكم ، فتفعلوا ما يرضيه وتنتهوا عما يسخطه

﴿ ويأتوكم ﴾ أي الكفار ﴿ من فورهم ﴾ أي وقتهم ، استعير للسرعة التي لا تردد فيها ، من : فارت القدر – إذا غلت ﴿ هذا ﴾ أي في هذه الكرة ﴿ يمددكم ﴾ أي إمداداً جلياً – بما أشار إليه إشارة لفظية : الفك ، وإشارة معنوية : التسويم ﴿ ربكم ﴾ أي المحسن إليكم بأكثر من ذلك ﴿ بخمسة آلاف من الملائكة ﴾ ثم بين أنهم من أعيان الملائكة بقوله : ﴿ مسومين ﴾ أي معلمين بما يعرف به مقامهم في الحرب ، والظاهر من التعبير بالتسويم إفهام القتال ، ومن الاقتصار على الإنزال عدمه ، ويكون فائدة نزولهم البركة بهم وإرهاب الكفار بمن يرونه منهم .

قال البغوي : قال ابن عباس ومجاهد : لم يقاتل الملائكة في المعركة إلا يوم بدر ، وفيما سوى ذلك يشهدون القتال ولا يقاتلون ، إنما يكونون عدداً ومدداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 149 ﴾

فصل نفيس

قال الفخر :

اختلف المفسرون في أن هذا الوعد حصل يوم بدر ، أو يوم أُحد ويتفرع على هذين القولين بيان العامل في ﴿ إِذْ ﴾ فإن قلنا هذا الوعد حصل يوم بدر كان العامل في ﴿ إِذْ ﴾ قوله ﴿ نَصَرَكُمُ الله ﴾ [آل عمران : 123] والتقدير : إذ نصركم الله ببدر وأنتم أذلة تقول

للمؤمنين ، وإن قلنا إنه حصل يوم أحد ، كان ذلك بدلاً ثانياً من قوله ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ ﴾ .

إذا عرفت هذا فنقول :

القول الأول : أنه يوم أحد ، وهو مروي عن ابن عباس والكلبي والواقدي ومقاتل ومحمد بن إسحاق ، والحجة عليه من وجوه :

الحجة الأولى : أن يوم بدر إنما أمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بألف من الملائكة قال تعالى في سورة الأنفال : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فاستجاب لَكُمْ إِنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الملائكة ﴾ [الأنفال : 9] فكيف يليق ما ذكر فيه ثلاثة آلاف وخمسة آلاف بيوم بدر ؟ .

(97/129)

الحجة الثانية : أن الكفار كانوا يوم بدر ألفاً أو ما يقرب منه والمسلمون كانوا على الثلث منهم لأنهم كانوا ثلثمائة وبضعة عشر ، فأنزل الله تعالى يوم بدر ألفاً من الملائكة ، فصار عدد الكفار مقابلاً بعدد الملائكة مع زيادة عدد المسلمين فلا جرم وقعت الهزيمة على الكفار فكذلك يوم أحد كان عدد المسلمين ألفاً ، وعدد الكفار ثلاثة آلاف ، فكان عدد المسلمين على الثلث من عدد الكفار في هذا اليوم ، كما في يوم بدر ، فوعدهم الله في هذا اليوم أن ينزل ثلاثة آلاف من الملائكة ليصير عدد الكفار مقابلاً بعدد الملائكة مع زيادة عدد

المسلمين ، فيصير ذلك دليلاً على أن المسلمين يهزمونهم في هذا اليوم كما هزموهم يوم بدر ثم جعل الثلاثة آلاف خمسة آلاف لتزداد قوة قلوب المسلمين في هذا اليوم ويزول الخوف عن قلوبهم ، ومعلوم أن هذا المعنى إنما يحصل إذا قلنا إن هذا الوعد إنما حصل يوم أحد .

الحجة الثالثة : أنه تعالى قال في هذه الآية ﴿ وَيَأْتُوكُمْ مِّن فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاف من الملائكة مُسَوِمين ﴾ [آل عمران : 125] والمراد ويأتوكم أعداؤكم من فورهم ، ويوم أحد هو اليوم الذي كان يأتيهم الأعداء ، فأما يوم بدر فالأعداء ما أتوهم ، بل هم ذهبوا إلى الأعداء .

فإن قيل : لو جرى قوله تعالى : ﴿ أَلَنْ يَكْفِيكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاَثَةِ آلافٍ مِنَ الملائكة ﴾ في يوم أحد ، ثم إنه ما حصل هذا الإمداد لزم الكذب .

والجواب عنه من وجهين

الأول : أن إنزاله خمسة آلاف من الملائكة كان مشروطاً بشرط أن يصبروا ويتقوا في المغانم ثم أنهم لم يصبروا ولم يتقوا في المغانم بل خالفوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلما فات الشرط لا جرم فات المشروط وأما إنزال ثلاثة آلاف من الملائكة فإنما وعد الرسول بذلك

للمؤمنين الذين بوأهم مقاعد للقتال وأمرهم بالسكون والثبات في تلك المقاعد ، فهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم إنما وعدهم بهذا الوعد بشرط أن يثبتوا في تلك المقاعد ، فلما أهملوا هذا الشرط لا جرم لم يحصل المشروط .

الوجه الثاني : في الجواب : لا نسلم أن الملائكة ما نزلت ، روى الواقدي عن مجاهد أنه قال : حضرت الملائكة يوم أُحد ولكنهم لم يقاتلوا ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى اللواء معصب بن عمير فقتل مصعب فأخذه ملك في صورة مصعب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تقدم يا مصعب فقال الملك لست بمصعب فعرف الرسول صلى الله عليه وسلم أنه ملك أمد به ، وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال : كنت أرمي السهم يومئذ فيرده على رجل أبيض حسن الوجه وما كنت أعرفه ، فظننت أنه ملك ، فهذا ما نقوله في تقرير هذا الوجه .

إذا عرفت هذا فنقول : نظم الآية على هذا التأويل أنه تعالى ذكر قصة أحد ، ثم قال : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ أي يجب أن يكون توكلهم على الله لا على كثرة عددهم وعددهم فلقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فكذلك هو قادر على مثل هذه النصرة في سائر المواضع ، ثم بعد هذا أعاد الكلام إلى قصة أحد فقال : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاَثَةِ ءالافٍ مّنَ الملئكة ﴾ .

القول الثاني : أن هذا الوعد كان يوم بدر ، وهو قول أكثر المفسرين ، واحتجوا على صحته بوجوه .

(99/129)

الحجة الأولى : أن الله تعالى قال : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران : 123] ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيكُمْ ﴾ كذا وكذا ، فظاهر هذا الكلام يقتضي أن الله تعالى نصرهم ببدر حينما قال الرسول للمؤمنين هذا الكلام ، وهذا يقتضي أنه عليه الصلاة والسلام قال هذا الكلام يوم بدر .

الحجة الثانية : أن قلة العدد والعدد كانت يوم بدر أكثر وكان الاحتياج إلى تقوية القلب ذلك اليوم أكثر ، فكان صرف هذا الكلام إلى ذلك اليوم أولى .

الحجة الثالثة : أن الوعد بإنزال ثلاثة آلاف من الملائكة كان مطلقاً غير مشروط بشرط ، فوجب أن يحصل ، وهو إنما حصل يوم بدر لا يوم أُحد ، وليس لأحد أن يقول إنهم نزلوا لكنهم ما قاتلوا لأن الوعد كان بالإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة ، وبمجرد الإنزال لا يحصل الإمداد بل لا بد من الإعانة ، والإعانة حصلت يوم بدر ولم تحصل يوم أحد ، ثم القائلون بهذا القول أجابوا عن دلائل الأولين فقالوا :

أما الحجة الأولى : وهي قولكم : الرسول صلى الله عليه وسلم إنما أمد يوم بدر بألف من الملائكة .

فالجواب عنها : من وجهين

الأول : أنه تعالى أمد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم بألف ثم زاد فيهم ألفين فصاروا ثلاثة آلاف ، ثم زاد ألفين آخرين فصاروا خمسة آلاف ، فكأنه عليه الصلاة والسلام قال لهم : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بألف من الملائكة فقالوا بلى ، ثم قال : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف فقالوا بلى ، ثم قال لهم : إن تصبروا وتتقوا يمددكم ربكم بخمسة آلاف ، وهو كما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه :

" أيسركم أن تكونوا ربع أهل الجنة قالوا نعم قال أيسركم أن تكونوا ثلث أهل الجنة قالوا نعم قال فإني أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة " .

الوجه الثاني في الجواب : أن أهل بدر إنما أمدوا بألف على ما هو مذكور في سورة الأنفال ، ثم بلغهم أن بعض المشركين يريد إمداد قريش بعدد كثير فخافوا وشق عليهم ذلك لقلة عددهم ، فوعدهم الله بأن الكفار إن جاءهم مدد فأنا أمدكم بخمسة آلاف من الملائكة ،

ثم إنه لم يأت قريشاً ذلك المدد ، بل انصرفوا حين بلغهم هزيمة قريش ، فاستغنى عن إمداد المسلمين بالزيادة على الألف .

وأما الحجة الثانية : وهي قولكم : إن الكفار كانوا يوم بدر ألفاً فأنزل الله ألفاً من الملائكة ويوم أحد ثلاثة آلاف فأنزل الله ثلاثة آلاف .

فالجواب : إنه تقريب حسن ، ولكنه لا يوجب أن لا يكون الأمر كذلك ، بل الله تعالى قد يزيد وقد ينقص في العدد بحسب ما يريد .

وأما الحجة الثالثة : وهي التمسك بقوله ﴿ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ ﴾ [آل عمران : 125] .

فالجواب عنه : أن المشركين لما سمعوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد تعرضوا للعير ثار الغضب في قلوبهم واجتمعوا وقصدوا النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم إن الصحابة لما سمعوا ذلك خافوا فأخبرهم الله تعالى : أنهم إن يأتوكم من فورهم يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة فهذا حاصل ما قيل في تقرير هذين القولين ، والله أعلم بمراده .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 183. 185 ﴾

فائدة

قال أبو السعود :

﴿ إِذْ تَقُولُ ﴾ تلوينٌ للخطاب بتخصيصه برسول الله صلى الله عليه وسلم لتشريفه والإيذانِ بأن وقوعَ النصرِ كان ببشارته عليه السلام ﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وإذ ظرفٌ لنصرَكم قدّم

عليه الأمرُ بالتقوى لإظهار كمالِ العنايةِ به ، والمرادُ به الوقتُ الممتدُ الذي وقع فيه ما ذكر بعده وما طُوِيَ ذكرُه تعويلاً على شهادة الحالِ مما يتعلق به وجودُ النصرِ ، وصيغةُ المضارعِ لحكاية الحالِ الماضيةِ لاستحضار صورتِها أي نصركم وقت قولك : ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ حين أظهروا العجزَ عن المقاتلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 79 . 80 ﴾

(101/129)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيَكم أن يُمدكُم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة ﴾ الآية, هذه الآية تدل على أنّ المدد يوم بدر من الملائكة من ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف, وقد ذكر تعالى في سورة الأنفال أنّ هذا المدد ألف بقوله : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنِّي ممدكم بألف من الملائكة ﴾ الآية .

والجواب عن هذا من وجهين :

الأول : أنه وعدهم بألف ثم صارت ثلاثة آلاف ثم صارت خمسة كما في هذه الآية .

الثاني : أن آية الأنفال لم تقتصر على الألف, بل أشارت إلى الزيادة المذكورة في آل عمران, ولا سيما في قراءة نافع : ﴿ بألف من الملائكة مردَفين ﴾ بفتح الدال على صيغة اسم المفعول, لأن معنى (مردفين) : متبوعين بغيرهم, وهذا هو الحق, وأما على قول من قال : "إن المدد المذكور في آل عمران في يوم أحد , والمذكور في الأنفال في يوم بدر" فلا إشكال على قوله, إلا أن غزوة أحد لم يأت فيها مدد الملائكة . والجواب : أن إتيان المدد فيها على القول به مشروط بالصبر والتقوى في قوله : ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم ﴾ الآية, ولمّا لم يصبروا ولم يتقوا لم يأت المدد , وهذا قول مجاهد وعكرمة والضحاك والزهري وموسى بن عقبة وغيرهم, قاله بن كثير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 68.69 ﴾

(102/129)

فصل

قال ابن الجوزى :

وفي عدد الملائكة يوم بدر خسمة أقوال .

أحدها : خمسة آلاف ، قاله الحسن .

وروى جبير بن مطعم عن علي رضي الله عنه ، قال : بينا أنا أمتح من قليب بدر ، جاءت ريح شديدة لم أر أشد منها ، ثم جاءت ريح شديدة لم أر أشد منها إلا التي كانت قبلها ، ثم جاءت ريح شديدة لم أر أشد منها ، فكانت الريح الأولى جبريل نزل في ألفين من الملائكة ، وكان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت الريح الثانية ميكائيل نزل في ألفين من الملائكة عن يمين رسول الله ، وكانت الريح الثالثة إسرافيل نزل في ألف من الملائكة عن يسار رسول الله ، وكنت عن يساره ، وهزم الله أعداءه .

والثاني : أربعة آلاف : قاله الشعبي .

والثالث : ألف ، قاله مجاهد .

والرابع : تسعة آلاف ، ذكره الزجاج.

والخامس : ثمانية آلاف ، ذكره بعض المفسرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 453 ﴾

وقال الفخر :

اختلفوا في عدد الملائكة ، وضبط الأقوال فيها أن من الناس من ضم العدد الناقص إلى

العدد الزائد ، فقالوا : لأن الوعد بإمداد الثلاثة لا شرط فيه ، والوعد بإمداد الخمسة مشروط بالصبر والتقوى ومجيء الكفار من فورهم ، فلا بد من التغاير وهو ضعيف ، لأنه لا يلزم من كون الخمسة مشروطة بشرط أن تكون الثلاثة التي هي جزؤها مشروطة بذلك الشرط ومنهم من أدخل العدد الناقص في العدد الزائد ، أما على تقدير الأول : فإن حملنا الآية على قصة بدر كان عدد الملائكة تسعة آلاف لأنه تعالى ذكر الألف ، وذكر ثلاثة آلاف ، وذكر خمسة آلاف ، والمجموع تسعة آلاف ، وإن حملناها على قصة أحد ، فليس فيها ذكر الألف ، بل فيها ذكر ثلاثة آلاف ، وخمسة آلاف ، والمجموع : ثمانية آلاف ، وأما على التقدير الثاني : وهو إدخال الناقص في الزائد فقالوا : عدد الملائكة خمسة آلاف ، ثم ضم إليها ألفان آخران ، فلا جرم وعدوا بالألف ثم ضم إليه ألفان فلا جرم وعدوا بثلاثة آلاف ، ثم ضم إليها ألفان آخران فلا جرم وعدوا بخمسة آلاف ، وقد حكينا عن بعضهم أنه قال أمد أهل بدر بألف فقيل : إن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين فشق ذلك على المسلمين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لهم : ألن يكفيكم يعني بتقدير أن يجيء المشركين مدد فالله تعالى يمدكم أيضاً بثلاثة آلاف وخمسة آلاف ، ثم إن المشركين ما جاءهم المدد ، فكذا ههنا الزائد على الألف ما جاء المسلمين فهذه وجوه كلها محتملة ، والله أعلم بمراده . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 185.186﴾

فصل

قال القرطبى :

نزول الملائكةِ سبب من أسباب النصر لا يحتاج إليه الرب تعالى ، وإنما يحتاج إليه المخلوق فلْيَعْلَق القلب بالله ولْيَثِق به ، فهو الناصر بسبب وبغير سبب ؛ ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] .

لكن أخبر بذلك ليمتثل الخلقُ ما أمرهم به من الأسباب التي قد خلت من قبل ، ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح : 23] ، ولا يَقْدح ذلك في التوكُّل .

وهو ردّ على من قال : إن الأسباب إنما سُنّت في حق الضعفاء لا للأقوياء ؛ فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا الأقوياء وغيرهم هم الضعفاء ؛ وهذا واضِحٌ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 195 ﴾

فصل

قال الفخر :

أجمع أهل التفسير والسير أن الله تعالى أنزل الملائكة يوم بدر وأنهم قاتلوا الكفار ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم تقاتل الملائكة سوى يوم بدر وفيما سواه كانوا عدداً ومدداً لا يقاتلون ولا يضربون ، وهذا قول الأكثرين ، وأما أبو بكر الأصم ، فإنه أنكر ذلك أشد

الإنكار ، واحتج عليه بوجوه :

الحجة الأولى : إن الملك الواحد يكفي في إهلاك الأرض ، ومن المشهور أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت المدائن الأربع لقوم لوط وبلغ جناحه إلى الأرض السابعة ، ثم رفعها إلى السماء وقلب عاليها سافلها ، فإذا حضر هو يوم بدر ، فأي حاجة إلى مقاتلة الناس مع الكفار ؟ ثم بتقدير حضوره ، فأي فائدة في إرسال سائر الملائكة ؟ .

الحجة الثانية : أن أكابر الكفار كانوا مشهورين وكل واحد منهم مقابله من الصحابة معلوم وإذا كان كذلك امتنع إسناد قتله إلى الملائكة .

الحجة الثالثة : الملائكة لو قاتلوا لكانوا إما أن يصيروا بحيث يراهم الناس أو لا يراهم الناس فإن رآهم الناس فإما أن يقال إنهم رأوهم في صورة الناس أو في غير صورة الناس ، فإن كان الأول فعلى هذا التقدير صار المشاهد من عسكر الرسول ثلاثة آلاف ، أو أكثر ، ولم يقل أحد بذلك ، ولأن هذا على خلاف قوله تعالى : ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ ﴾ [الأنفال : 44] وإن شاهدوهم في صورة غير صور الناس لزم وقوع الرعب الشديد في قلوب الخلق فإن من شاهد الجن لا شك أنه يشتد فزعه ولم ينقل ذلك ألبتة .

وأما القسم الثاني : وهو أن الناس ما رأوا الملائكة فعلى هذا التقدير : إذا حاربوا وحزوا الرؤوس ، ومزقوا البطون وأسقطوا الكفار عن الأفراس ، فحينئذ الناس كانوا يشاهدون حصول هذه الأفعال مع أنهم ما كانوا شاهدوا أحداً من الفاعلين ، ومثل هذا يكون من أعظم المعجزات ، وحينئذ يجب أن يصير الجاحد لمثل هذه الحالة كافراً متمرداً ، ولما لم يوجد شيء من ذلك عرف فساد هذا القسم أيضاً .

الحجة الرابعة : أن هؤلاء الملائكة الذين نزلوا ، إما أن يقال : إنهم كانوا أجساماً كثيفة أو لطيفة ، فإن كان الأول وجب أن يراهم الكل وأن تكون رؤيتهم كرؤية غيرهم ، ومعلوم أن الأمر ما كان كذلك ، وإن كانوا أجساماً لطيفة دقيقة مثل الهواء لم يكن فيهم صلابة وقوة ، ويمتنع كونهم راكبين على الخيول وكل ذلك مما ترونه .

واعلم أن هذه الشبهة إنما تليق بمن ينكر القرآن والنبوّة ، فأما من يقر بهما فلا يليق به شيء من هذه الكلمات ، فما كان يليق بأبي بكر الأصم إنكار هذه الأشياء مع أن نص القرآن ناطق بها وورودها في الأخبار قريب من التواتر ، روى عبد الله بن عمر قال لما رجعت قريش من أحد جعلوا يتحدثون في أنديتهم بما ظفروا ، ويقولون : لم نر الخيل البلق ولا الرجال

البيض الذين كنا نراهم يوم بدر والشبهة المذكورة إذا قابلناها بكمال قدرة الله تعالى زالت وطاحت فإنه تعالى يفعل ما يشاء لكونه قادراً على جميع الممكنات ويحكم ما يريد لكونه منزّهاً عن الحاجات. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 186. 187﴾

وقال القرطبى:

وتظاهرت الروايات بأنّ الملائكة حضرت يوم بَدر وقاتلت؛ ومن ذلك قول أبي أُسيدٍ مالكِ بنِ ربيعة وكان شهيد بدر: لوكنتُ معكم الآن بِبَدْر وَمَعِي بصرى لأريتُكم الشِّعْب الذي خرجتْ منه الملائكة، لا أشك ولا أمْتَرِي.

رواه عقيل عن الزُّهريّ عن أبي حازم سلمَة بنِ دينار.

قال ابن أبي حاتم: لا يُعرف للزّهريّ عن أبي حازم غيرُ هذا الحديث الواحد، وأبو أُسَيدٍ يُقال إنه آخر من مات من أهل بدر؛ ذكره أبو عمر في الاستيعاب وغيره.

(107/129)

وفي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بَدْر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم أُلْفٌ، وأصحابه ثلاثُمائةٍ وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مدّ يديْه فجعل يَهْتف بربِّه: "اللَّهُمَّ أنجِزْ لي

مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ إن تَهْلك هذه العِصَابَةُ مِن أهل الإسلام لَا تُعْبَدُ فِي الأَرْضِ " فما زال يَهْتِف بربه مادّاً يديْه مُستقبلَ القِبلة حتى سقط رداؤُه عن مَنْكِبَيْه ، فأتاه أبو بكر أخذَ رداءَه فألقاه على مَنْكِبَيْه ، ثم الْتَزَمَه من وَرائه وقال : يا نبيّ اللَّهِ ، كفاك مناشدَتُك ربَّك ، فإنه سيُنْجزُ لك ما وَعدَك ؛ فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال : 9] فأمدّه الله تعالى بالملائكة .

قال أبو زُمَيْل : فحدّثني ابن عباس قال : بيْنما رجلٌ من المسلمين يومئذ يَشْتَدّ في أثر رجل من المشركين أمامَه إذْ سمع ضربةً بالسَّوْط فوقَه وصوتَ الفارس يقول : أَقدمْ حَيْزُومُ ، فنظر إلى المشرِك أمامه فَخرّ مستلقياً ، فنظر إليه فإذا هو قدْ خُطِم أنفُه وشُقّ وجهُه (كضربة السوط) فاخْضَرّ ذلك أجْمَعُ .

فجاء الأنصاريّ فحدّث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " صدقتَ ذلك من مَدَد السَّماء الثالثة " فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين .

وذكر الحديث .

وسيأتي تمامُه في آخر "الأنفال" إن شاء الله تعالى .

فتظاهرت السنة والقرآن على ما قاله الجمهور ، والحمد لله .

وعن خارجة بن إبراهيم عن أبيه قال: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لِجبْرَيل: "مَنِ القائلُ يوم بدر من الملائكة أقدم حَيْزُوم" ؟ فقال جبريل: "يا محمد ما كل أهل السماء أعرف" " وعن عليّ رضي الله عنه أنه خطب الناس فقال: بينا أنا أمْتَح من قَلِيب بَدْر جاءت ريحٌ شديدة لم أرَ مثلها قَطّ، ثم ذهبت، ثم جاءت ريحٌ شديدة لم أرَ مثلها قط إلاَّ التي كانت قبلها.

قال: وأظنه ذكر: ثم جاءت ريحٌ شديدة، فكانت الرِّيح الأولى جبريل نزل في ألف من الملائكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت الريح الثانية مِيكَائِيل نزل في ألف من الملائكة عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أبو بكر عن يمينه، وكانت الريح الثالثة إسْرَافِيل نزل في ألف من الملائكة عن مَيْسَرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا في الميسرة.

وعن سَهل بن حُنَيف رضي الله عنه قال: لقد رأيتُنا يوم بَدْر وأنّ أحدَنا يُشِير بسيفه إلى رأس المشرك فيقع رأسُه عن جسده قبل أن يَصِل إليه.

وعن الرّبيع بن أنس قال: كان الناس يوم بَدْر يعرفون قتلى الملائكة مِمَّن قتلوهم بضربٍ فوقَ الأعْناق وعلى البَنان مثل سِمَة النار قد أُحرِق به؛ ذكر جميعه البَيْهَقِيّ رحمه الله.

وقال بعضهم: إن الملائكة كانوا يقاتلون وكانت علامة ضربهم في الكفار ظاهرة؛ لأن كلَّ

موضع أصابتْ ضربتهم اشتعلت النار في ذلك الموضع ، حتى إن أبا جهل قال لابن مسعود : أنت قتلتني ؟ إنما قتلني الذي لم يصل سِنَانِي إلى سُنْبُك فرسه وإن اجتهدت .

وإنما كانت الفائدة في كثرة الملائكة لتسكين قلوب المؤمنين ؛ ولأنّ الله تعالى جعل أُولئك الملائكة مجاهدين إلى يوم القيامة ؛ فكل عسكر صَبَرَ واحتسب تأتيهم الملائكة ويقاتلون معهم .

(109/129)

وقال ابن عباس ومجاهد : لم تقاتل الملائكةُ إلاّ يوم بَدْر ، وفيما سوى ذلك يشهدون ولا يقاتلون إنما يكونون عدداً أو مدداً .

وقال بعضهم : إنما كانت الفائدة في كثرة الملائكة أنهم كانوا يَدْعُون ويسبِّحون ، ويكثرون الذين يقاتلون يومئذ ؛ فعلى هذا لم تقاتل الملائكةُ يوم بدر وإنما حضروا للدعاء بالتّثبِيت ، والأوّل أكثر .

قال قتادة : كان هذا يوم بدر ، أمدّهم الله بألفٍ ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الملائكة مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال : 9] وقوله : ﴿ أَلَنْ يَكْفِيكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ

الملائكة مُنزَلِينَ ﴾ وقوله : ﴿ بلى إن تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا ويَأْتُوكُمْ مِّن فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاف مِّنَ الملائكة مُسَوِّمِينَ ﴾ فصبرَ المؤمنون يوم بَدْر واتقوا الله فأمدّهم الله بخمسة آلاف من الملائكة على ما وَعَدَهُم ؛ فهذا كله يوم بدر .

وقال الحسن : فهؤلاء الخمسة آلاف رِدْءٌ للمؤمنين إلى يوم القيامة .

قال الشعبيّ : بلغ النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه يوم بدر أن كُرْز بن جابر المُحارِبيّ يريد أن يُمدّ المشركين فشق ذلك على النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين ؛ فأنزل الله تعالى ﴿ أَلَنْ يَكْفِيكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾ فبلغ كُرْزاً الهزيمة فلم يُمدّهم ورجع ، فلم يمدهم الله أيضاً بالخمسة آلاف ، وكانوا قد مدّوا بألف .

وقيل : إنما وعد الله المؤمنين يوم بدر إن صبروا على طاعته ، واتقوا محارمه أن يمدّهم أيضاً في حروبهم كلها ، فلم يصبروا ولم يتقوا محارمه إلاّ في يوم الأحزاب ، فأمدّهم حين حاصروا قُرَيْظة .

(110/129)

وقيل : إنما كان هذا يوم أُحُد ، وعدهم الله المدد إن صبروا ، فما صبروا فلم يُمدّهم بملَك واحد ، ولو أُمِدّوا لما هُزِمُوا ؛ قاله عكرمة والضحاك .

فإن قيل : فقد ثبت عن سعد بن أبي وَقّاص أنه قال : رأيت عن يَمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن يساره يومَ بَدْر رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه أشدّ القتال ، ما رأيتهما قبلُ ولا بعدُ .

قيل له : لعل هذا مختص بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، خصّه بملكين يقاتلان عنه ، ولا يكون هذا إمداداً للصحابة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 192 ـ 195. ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

وإنَّما جيء في النَّفي بحرف لَن الَّذي يفيد تأكيد النَّفي للإشعار بأنَّهم كانوا يوم بدر لقلّتهم ، وضعفهم ، مع كثرة عدوّهم ، وشوكته ، كالآيسين من كفاية هذا المدد من الملائكة ، فأوقع الاستفهام التَّقريري على ذلك ليكون تلقيناً لِمن يخالج نفسَه اليأس من كفاية ذلك العدد من الملائكة ، بأن يصرّح بما في نفسه ، والمقصود من ذلك لازمهُ ، وهذا إثبات أنّ ذلك العدد كاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 207 ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في كيفية نصرة الملائكة قال بعضهم : بالقتال مع المؤمنين ، وقال بعضهم : بل بتقوية

نفوسهم وإشعارهم بأن النصرة لهم وبإلقاء الرعب في قلوب الكفار ، والظاهر في المدد أنهم يشركون الجيش في القتال إن وقعت الحاجة إليهم ، ويجوز أن لا تقع الحاجة إليهم في نفس القتال وأن يكون مجرد حضورهم كافياً في تقوية القلب ، وزعم كثير من المفسرين أنهم قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا في سائر الأيام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 187 ﴾

(111/129)

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ أَلَنْ يَكْفِيكُمْ ﴾ معنى الكفاية هو سد الخلة والقيام بالأمر ، يقال كفاه أمر كذا إذا سد خلته ، ومعنى الإمداد إعطاء الشيء حالاً بعد حال قال المفضل : ما كان على جهة القوة والإعانة قيل فيه أمده يمده ، وما كان على جهة الزيادة قيل فيه : مده يمده ومنه قوله ﴿ والبحر يَمُدُّهُ ﴾ [لقمان : 27] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 187 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال صاحب "الكشاف" : إنما قدم لهم الوعد بنزول الملائكة لتقوى قلوبهم ويعزموا على الثبات ويثقوا بنصر الله ومعنى ﴿ أَلَنْ يَكْفِيكُمْ ﴾ إنكار أن لا يكفيكم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة وإنما جيء بلن التي هي لتأكيد النفي للاشعار بأنهم كانوا لقلتهم وضعفهم وكثرة عددهم كالآيسين من النصر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 187 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ إِذْ تَقُولُ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه منصوب بإضمار اذكر .

الثاني : إن قلنا : إن هذا الوعد حصل يوم بَدْر ، فالعامل في " إذْ " قوله : ﴿ نَصَرَكُمُ اللهُ ﴾ والتقدير : إذ نصركم الله ببدر ، وأنتم أذلة إذ تقول للمؤمنين .

وإن قلنا : إن هذا الوعد حصل يوم أُحُد ، فيكون بَدَلاً من قوله : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَآئِفَتَانِ ﴾ [آل عمران : 122] ، فهذه ثلاثة أوجه .

قوله : ﴿ أَلَنْ يَكْفِيكُمْ ﴾ معنى الكفاية : هو سَدُّ الخلة ، والقيام بالأمر .

يقال : كَفَاهُ أمر كذا ، أي : سَدَّ خلته .

والإمداد : إعانة الجيش بالجيش ، وهو في الأصل إعطاء الشيء حالاً بعد حال .

قال المفضَّل : ما كان على جهة القوة والإعانة ، قيل فيه : أَمَدَّه يُمِدُّه ، وما كان على جهة

الزيادة ، قيل فيه : مَدَّه يَمُدُّه مَدًّا ومنه : ﴿ والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ [لقمان : 27] .

(112/129)

وقيل : المَدُّ في الشر ، والإمداد في الخير ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة : 15] وقوله : ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العذاب مَدّاً ﴾ [مريم : 79] وقال في الخير : ﴿ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ ﴾ [الأنفال : 9] وقال : ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ [الإسراء : 6] .

قوله : ﴿ أَن يُمِدَّكُمْ ﴾ فاعل ، ﴿ أَلَنْ يَكْفِيكُمْ ﴾ أي : ألن يكفيكم إمداد ربكم ، والهمزة لما دخلت على النفي قررته على سبيل الإنكار ، وجيء بـ " لن " دون " لا " ؛ لأنها أبلغ في النفي ، وفي مصحف أبيّ " ألا " بدون " لن " وكأنه قصد تفسير المعنى .

و " بثلاثة " متعلق بـ ﴿ يُمِدَّكُمْ ﴾ .

وقرأ الحسن البصريّ " ثلاثة آلافٍ " - بهاء - ساكنة في الوصل - وكذلك " بخمسة آلافٍ " كأنه أجْرَى الوصل مُجْرَى الوقف ، وهي ضعيفة ؛ لأنها في متضايفين تقتضيان الاتصال .

قال ابن عطية : ووجْه هذه القراءة ضعيف ؛ لأن المضاف والمضاف إليه كالشيء الواحد

يقتضيان الاتصال إذْ هما كالاسم الواحد ، وإنما الثاني كمال الأول ، والهاء إنما هي أمارة وقف ، فيتعلق الوقف في موضع إنما هو للاتصال ، لكن قد جاء نحو هذا للعرب في مواضعَ ، من ذلك ما حكاه الفرَّاء من قولهم : أكلت لحما شاةٍ – يريدون لحم شاة – فَمَطلُوا الفتحة ، حتى نشأت عنها اَلِفٌ ، كما قالوا في الوقف قالا – يريدون قال – ثم مَطَلُوا الفتحة في القوافي ، ونحوها من مواضع الرؤية والتثبيت .

ومن ذلك في الشعر قوله : [الكامل]

يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ . . . زَيَّافَةٍ مِثْلِ الْفَنِيقِ الْمُكْدَمِ

يريد : " ينبع " ، فمطل ومثله قول الآخر : [الرجز]

أَقُولُ إِذْ خَرَّتْ عَلَى الْكَلْكَالِ . . . يَا نَاقَتَا مَا جُلْتُ مِنْ مَجَالِ

يريد : " الكلكل " ، فمطل ومثله قول الشاعر : [الوافر]

فَأَنْتَ مِنَ الْغَوَائِلِ حِينَ تُرْمَى . . . وَمَنْ ذَمِّ الرِّجَالِ بِمُنْتَزَاحِ

يريد : بمنتزح .

قال أبو الفتح : " فإذا جاز أن يعترض هذا [الفتور] والتمادي بين أثناء الكلمة الواحدة ،

جاز التمادي بين المضاف والمضاف إليه ، إذ هما اثنان " .

قال أبو حيان – بعد نقل كلام ابن عطية – : " وهو تكثير وتنظير بغير ما يناسب ، والذي يناسب توجيه هذه القراءة الشاذة أنها من إجراء الوَصْل مُجْرَى الوَقْف ، وإجراء الوَقْف مُجْرَى الوصل والوصل مجرى الوقف موجود في كلامهم وأما قوله : لكن قد جاء نحو هذا للعرب في مواضع ، وجميع ما ذكر إنما هو من باب إشباع الحركة ، وإشباع الحركة ليس نحو إبدال التاء هاء في الوَصْل ، وإنما نظير هذا قولهم : ثلاثة اربعة ، أبدل التاء هاء ، ثم نقل حركة همزة أربعة إليها ، وحذف الهمزة ، فأجْرَى الوصل مُجْرَى الوقف في الإبدال ، ولأجل الوصل نقل فأجرى الوصل مُجْرى الوقف ؛ إذْ لا يكون هذا النقل إلا في الوَصْل " .

وقرئ شاذاً – أيضاً – : بثلاثةْ آلاف – بتاء ساكنة ، وهي أيضاً من إجراء الوصل مجرى الوقف من حيث السكون واختلفوا في هذه التاء الموقوف عليها الآن ، أهي تاء التأنيث التي كانت ، فسكنت فقط ، أو هي بدل من هاء التأنيث المبدلة من التاء ؟ ولا طائل تحته .

قوله : ﴿ مِّنَ الملائكة ﴾ يجوز أن تكون " مِنْ " للبيان ، وأن تكون " مِنْ " ومجرورها في موضع الجر صفة لـ " ثَلاَثَةِ " أو لـ " آلافٍ " .

قوله : ﴿ مُنْزِلِينَ ﴾ صفة لـ " ثلاثة آلاف " ، ويجوز أن يكون حالاً من " الْمَلاَئِكَةِ " والأول أظهر . وقرأ ابن عامر " مُنزَّلِين " - بالتضعيف - وكذلك شدد قوله في سورة العنكبوت : ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ على أَهْلِ هذه القرية رِجْزاً مِّنَ السمآء ﴾ [العنكبوت : 34] إلا أنه هنا - اسم مفعول ، وهناك اسم فاعل .

والباقون خفَّفوها وقرأها ابن أبي عَبْلَة - هنا - مُنَزِّلِين - بالتشديد مكسور الزاي ، مبنياً للفاعل .

وبعضهم قرأه كذلك ، إلا أنه خفف الزاي ، جعله من أنزل - كأكرم - والتضعيف والهمزة كلاهما للتعدية ، ففعَّل وأفْعل بمعنًى ، وقد تقدم أن الزمخشري جعل التشديد دالاًّ على التنجيم وتقدم البحث معه في ذلك وفي القراءتين الأخيرتين يون المفعول محذوفاً ، أي : منزلين النصر على المؤمنين ، والعذاب على الكافرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 515.522 ﴾ . بتصرف يسير .

قوله تعالى : ﴿ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125) ﴾

فصل

قال الفخر :

بلى : إيجاب لما بعد (لن) يعني بل يكفيكم الإمداد فأوجب الكفاية ، ثم قال : ﴿ إِن

تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُمْ مِّن فَوْرِهِمْ هذا ﴾ يعني والمشركون يأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بأكثر من ذلك العدد وهو خمسة آلاف، فجعل مجيء خمسة آلاف من الملائكة مشروطة بثلاثة أشياء، الصبر والتقوى ومجيء الكفار على الفور، فلما لم توجد هذه الشرائط لا جرم لم يوجد المشروط. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 187﴾

فصل

قال الفخر:

الفور مصدر من: فارت القدر إذا غلت، قال تعالى: ﴿حتى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التنور﴾ [هود: 40] قيل إنه أول ارتفاع الماء منه ثم جعلوا هذه اللفظة استعارة في السرعة، يقال جاء فلان ورجع من فوره، ومنه قول الأصوليين الأمر للفور أو التراخي، والمعنى حدة مجيء العدو وحرارته وسرعته. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 187﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾ بكسر الواو أي معلمين علموا أنفسهم بعلامات مخصوصة ، وأكثر الأخبار أنهم سوموا خيولهم بعلامات جعلوها عليها ، والباقون بفتح الواو ، أي سومهم الله أو بمعنى أنهم سوموا أنفسهم ، فكان في المراد من التسويم في قوله ﴿ مُسَوَّمِينَ ﴾ قولان

الأول : السومة العلامة التي يعرف بها الشيء من غيره ، ومضى شرح ذلك في قوله ﴿ والخيل المسومة ﴾ [آل عمران : 14] وهذه العلامة يعلمها الفارس يوم اللقاء ليعرف بها ، وفي الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر : " سوموا فإن الملائكة قد سومت " قال ابن عباس : كانت الملائكة قد سوموا أنفسهم بالعمائم الصفر ، وخيولهم وكانوا على خيل بلق ، بأن علقوا الصوف الأبيض في نواصيها وأذنابها ، وروي أن حمزة بن عبد المطلب كان يعلم بريشة نعامة ، وأن علياً كان يعلم بصوفة بيضاء وأن الزبير كان يتعصب بعصابة صفراء وأن أبا دجانة كان يعلم بعصابة حمراء .

القول الثاني : في تفسير المسومين إنه بمعنى المرسلين مأخوذاً من الإبل السائمة المرسلة في الرعي ، تقول أسمت الإبل إذا أرسلتها ، ويقال في التكثير سومت كما تقول أكرمت وكرمت ، فمن قرأ ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾ بكسر الواو فالمعنى أن الملائكة أرسلت خيلها على الكفار لقتلهم وأسرهم ، ومن قرأ بفتح الواو فالمعنى أن الله تعالى أرسلهم على المشركين ليهلكوهم كما تهلك الماشية النبات والحشيش . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 188 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ بلى ﴾ حرف جواب ، وهو إيجاب للنفي في قوله : ﴿ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ ﴾ وقد تقدم الكلام عليه وجواب الشرط قوله : ﴿ يُمْدِدْكُمْ ﴾ .

والفوز : العجلة والسرعة ، ومنه : فارت القِدْرُ ، إذا اشتد غلبانها وسارع ما فيها إلى الخروج ، والفوز مصدر ، يقال : فَار يفورُ فَوْراً ، قال تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التنور ﴾ [هود : 40] ، ثم جعلوا هذه اللفظة استعارة في السرعة ، يقال : جاء فلان من فوره وفيه قول الأصوليين الأمر للفور ويعبّر به عن الغضب والحِدة ؛ لأن الغضبان يسارع إلى البطش بمن يغضب عليه ، فالفَوْز - في الأصل - : مصدر ، ثم يُعَبَّر به عن الحالة التي لا ريث فيها ولا تعريج على شيء سواها وقال ابن عباس والحسن وقتادة وأكثر المفسرين :

معنى " مِنْ فَوِرهِم هَذَا " : من وجههم هذا .

وقال مجاهد والضَّحَّاكُ : من غضبهم هذا ؛ لأنهم إنَّما رجعوا للحرب يوم أُحُد من غَضَبِهِم ليوم بدر .

(117/129)

قوله : ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾ كقوله : ﴿ مُنزَلِينَ ﴾ ، وقرأ ابْنُ كَثِيرٍ وأبو عَمْرٍو وعَاصِمُ بكسر الواو ، على اسم الفاعل ، والباقون بفتحها على اسم المفعول ، فأما القراءة الأولى ، فيحتمل أن تكون من السوم – وهو ترك الماشية ترعى – والمعنى : أنهم سَوَّمُوا خَيْلَهم ، أي أعطوها سَوْمَهَا من الجَرْي والجَوَلان ، وتركوها كذلك ، كما يفعل من يسيم ماشيته في المرعى .

ويحتمل أن تكون من السومة – وهي العلامة – على معنى أنهم سوموا أنفسهم ، أو خيلهم .

روي أنهم كانوا على خَيْلٍ بُلْقٍ ، قال عروة بن الزبير : كانت الملائكة على خَيْلٍ بُلْقٍ ، عليهم عمائمُ بيضٌ ، قد أرسلوها بين أكتافهم .

وقال هشام بن عروة : عمائم صفر .

وروي أنهم كانوا بعمائم بيضٍ ، إلا جبريل فبعمامة صفراء ، على مثال الزبير بن العوام .

قال قتادةُ والضَّحَّاكُ : كانوا قد علموا بالعهن في نواصي الخيل وأذنابها .

ورُوِيَ أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوم بدر : " تسوموا ، فإنَّ الملائكة قد تسومت بالصوف الأبيض في قلانسهم ومغافرهم " وأما القراءة الثانية ، فواضحة بالمعنيين المذكورين ، فمعنى السوم فيها : أن الله أرسلهم ، إذ الملائكة كانوا مرسلين من عند الله لنُصْرة نبيه والمؤمنين .

قال أبو زيد : سوم الرجل خَيْلَه ، أي أرسلها .

وحكى بعضهم : سومت غلامي ، أي : أرسلته ، ولهذا قال الأخفش : معنى " مُسَوَّمِينَ " مُرْسَلِين .

ومعنى السومة فيها : أن الله – تعالى – سومهم ، أي جعل عليهم علامة ، وهي العمائم ، أو أن الملائكة جعلوا خيلهم نوعاً خاصاً – وهي البلق – فقد سوموا خيلهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 522 . 523 ﴾ .

من فوائد القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

ورُوي عن ابن عباس : تسوّمَت الملائكة يوم بدر بالصّوف الأبيض في نَوَاصي الخيل وأذنابها .

وقال عَبّاد بن عبد الله بن الزبير وهِشام ابن عُروة والكلبي : نزلت الملائكة في سِيما الزُّبَير عليهم عمائم صُفْر مُرْخَاة على أكتافهم .

وقال ذلك عبد الله وعروة ابنا الزبير .

وقال عبد الله : كانت ملاءة صفراء اعتم بها الزبير رضي الله عنه .

قلت : ودلت الآية على اتخاذ (الشارة والعلامة للقبائل والكتائب يجعلها السلطان لهم ؛ لتميّز كل قبيلة وكِتيبة من غيرها عند الحرب ، وعلى فضل الخيل البُلْق لنزول الملائكة عليها .

قلت : ولعلها نزلت عليها مُوافَقة لفرس المِقْدَاد ، فإنه كان أبْلَق ولم يكن لهم فرس غيره ، فنزلت الملائكة على الخيل البُلْق إكراماً للمقداد ؛ كما نزل جبريل مُعْتَجِراً بعمامة صفراء على مِثال الزبير ، والله أعلم .

ودلّت الآية أيضاً .

على لِباس الصّوف وقد لَبِسه الأنبياء والصالحون .

ورَوى أبو داود وابن ماجه واللفظ له عن أبي بُرْدة عن أبيه قال قال لي أبي : لو شهدتنا ونحن

مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصابتنا السماء لحسِبت أن رِيحنا ريح الضأن .

ولبس صلى الله عليه وسلم جُبّة رُومِيّة من صوفٍ ضيِّقة الكُمّين ؛ رواه الأئمة .

ولبِسها يُونُس عليه السَّلام ؛ رواه مسلم .

وسيأتي لهذا المعنى مزِيد بيان في "النحل" إن شاء الله تعالى .

قلت : وأما ما ذكره مجاهد من أن خيلهم كانت مَجْزوزة الأذناب والأَعْراف فبعيدٌ ؛ فإن في مصنف أبي داود عن عُتْبة بن عبدٍ السُّلمي أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا تقُصّوا نواصي الخيل ولا معارفها ولا أذنابها فإن أذنابها مَذَابُّها ومعارفها دفاؤها ونواصيها معقود فيها الخير" فقول مجاهد يحتاج إلى توقيف من أن خيل الملائكة كانت على تلك الصفة ، والله أعلم .

(119/129)

ودلّت الآية على حُسْن الأبيض والأصفر من الألوان لنزول الملائكة بذلك ، وقد قال ابن عباس : من لبس نَعلاً أصْفَر قضيت حاجته .

وقال عليه السَّلام : "البسوا من ثيابكم البياض فإنه من خير ثيابكم وكفّنوا فيه موتاكم وأما العمائم فتيجان العرب ولباسها " وروى رُكَانة وكان صارع النبيَّ صلى الله عليه وسلم

فَصرعه النبيُّ صلى الله عليه وسلم قال رُكَانَة : وسمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول :

" فرق ما بيننا وبين المشركين العمائم على القلانس " أخرجه أبو داود .

قال البخاري : إسناده مجهول لا يعرف سماع بعضه من بعض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 196. 197 ﴾ . بتصرف يسير .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

كان تسكينُ الحقِّ سبحانه لقلبِ المصطفى – صلى الله عليه وسلم – بلا واسطة من الله – سبحانه ، والربطُ على قلوب المؤمنين بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم – فلولا بقية بقيت عليهم ما ردّهم في حديث النصرة إلى إنزال المَلَك ، وأنَّى بحديث المَلَك – والأمرُ كلُّه بيَدِ المَلِك ؟ ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 274. 275 ﴾

(120/129)

قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (126) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (127) ﴾

مناسبة الآيتين لما قبلهما

قال البقاعى :

ولما كان التقدير : وليس الإمداد بهم موجود للنصر ، وكان قد قدم في أول السورة قوله : ﴿ والله يؤيد بنصره من يشاء ﴾ [آل عمران : 13] قال هنا قاصراً للأمر عليه : ﴿ وما جعله الله ﴾ أي الإمداد المذكور وذكره لكم على ما له من الإحاطة بصفات الكمال التي لا يحتاج مراقبها إلى شيء أصلاً ﴿ إلا بشرى ﴾ .

وما كانت الهزيمة عليهم في هذه الكرة ، وكان المقتول منهم أكثر قال : ﴿ لكم ﴾ لئلا يتوهم أن ذلك بشرى لضدهم ، ولمثل هذا قدم القلوب فقال : ﴿ ولتطمئن ﴾ وعلم أن التقدير - لتكون الآية من الاحتباك : لتستبشر نفوسكم به وطمأنينة لكم لتطمئن ﴿ قلوبكم به ﴾ أي الإمداد ، فحكم هنا بأنه بشرى مقيداً بلكم ، فكانت العناية بضمير أشد حتى كأنه قيل : إلا وبشرى لكم وطمأنينتكم ، فوجب تأخير ضميره عنهم ، والمعنى أنهم كانوا أولاً خائفين ، فلما وردت البشرى اطمأنوا بها رجاء أن يفعل بهم مثل ما فعل في بدر ، فلما اطمأنوا بها وقع النصر كما وقع به الوعد ثم لما اطمأنت قلوبهم إلى شيء ألزّ قوتها لأنه قد سبق لها نصر وسرور بضرب وطعن في بدر وغيرها فلمحت نحو شيء من ذلك ؛ حصلت الهزيمة ليصيروا إلى حق اليقين بأنه لا حول لهم ولا قوة ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وما النصر ﴾ أي في ذلك غيره ﴿ إلا من عند الله ﴾ أي المستجمع لصفات الكمال ، لا بمدد ولا غيره فلا تجدوا في أنفسكم من رجوع من رجع ولا تأخر من تأخر ولا هزيمة من انهزم .

ولما قدم أمر بدر هنا وأول السورة ، وتحقق بذلك ما له من العزة والحكمة قال :

﴿ العزيز ﴾ الذي لا يغالب ، فلا يحتاج إلى قتال أحد ولا يحتاج في نصره - إن قاتل - إلى معونة أحد ﴿ الحكيم ﴾ الذي يضع الأشياء في أتقن محالها من غير تأكيد أي الذي نصركم قبل هذه الغزوة وفي أول النهار فيها ، ليس لكم ولا لغيركم ناصر غيره ، فمتى التفت أحد إلى سواه وكله إليه فخذل ، فاحذروه لتطيعوه طاعة أولي الإحسان في كل أوان ، وهذا بخلاف ما في قصة بدر في الأنفال وسيأتي إن شاء الله ما يتعلق بها من المقال مما اقتضاه هناك الحال ، والحكيم رأس آية بإجماع أهل العلم - كما في الأنفال ، ولما قرر الوعد ذكر ثمرته فقال معلقاً الجار بيمددكم : ﴿ ليقطع ﴾ أي بالقتل ﴿ طرفاً ﴾ أي طائفة من كرامهم ، يهنون بهم ﴿ من الذين كفروا ﴾ أي ويهزم الباقين ﴿ أو يكبتهم ﴾ أي يكسرهم ويردهم بغيظهم مع الخزي أذلاء ، وأصل الكبت صرع الشيء على وجهه ﴿ فينقلبوا ﴾ أي كلهم مهزومين ﴿ خائبين ﴾ وذلك في كلتا الحالتين بقوتكم عليهم بالمد وضعفهم عنكم به ، ويجوز تعليق ﴿ ليقطع ﴾ بفعل التوكل ، أي فليتوكلوا عليه ليفعل بأعدائهم ما يشاءه من نصرهم عليهم ، فيقبل بهم إلى الإسلام رغبة أو رهبة ، أو يميتهم على كفرهم فيديم عذابهم

مع عافيتهم منهم ؛ ورأيت في سير الإمام محمد بن عمر الواقدي ما يدل على تعليقه بجعل من قوله : ﴿ وما جعله الله إلا بشرى ﴾ أو بقوله : ﴿ ولتطمئن ﴾ وهو حسن أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 150 . 151 ﴾

فصل

قال الفخر :

(122/129)

الكناية في قوله ﴿ وَمَا جَعَلَهُ الله ﴾ عائدة على المصدر ، كأنه قال : وما جعل الله المدد والإمداد إلا بشرى لكم بأنكم تنصرون فدل ﴿ يُمْدِدْكُمْ ﴾ على الإمداد فكنى عنه ، كما قال : ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ [الأنعام : 121] معناه : وإن أكله لفسق فدل ﴿ تَأْكُلُواْ ﴾ على الأكل فكنى عنه وقال الزجاج ﴿ وَمَا جَعَلَهُ الله ﴾ أي ذكر المدد ﴿ إِلاَّ بشرى ﴾ والبشرى اسم من الإبشار ومضى الكلام في معنى التبشير في سورة البقرة في قوله ﴿ وَبَشّرِ الذين ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة : 25] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 188 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ﴾

سؤال : قوله ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ ﴾ فعل وقوله ﴿ إِلَّا بشرى ﴾ اسم وعطف الفعل على الاسم مستنكر ، فكان الواجب أن يقال إلا بشرى لكم واطمئناناً ، أو يقال إلا ليبشركم ولتطمئن قلوبكم به فلم ترك ذلك وعدل عنه إلى عطف الفعل على الاسم .

والجواب عنه من وجهين

الأول : في ذكر الإمداد مطلوبان ، وأحدهما أقوى في المطلوبية من الآخر ، فأحدهما إدخال السرور في قلوبهم ، وهو المراد بقوله ﴿ إِلَّا بشرى ﴾

والثاني : حصول الطمأنينة على أن إعانة الله ونصرته معهم فلا يجبنوا عن المحاربة ، وهذا هو المقصود الأصلي ففرق بين هاتين العبارتين تنبيهاً على حصول التفاوت بين هذين الأمرين في المطلوبية فكونه بشرى مطلوب ولكن المطلوب الأقوى حصول الطمأنينة ، فلهذا أدخل حرف التعليل على فعل الطمأنينة ، فقال : ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ ﴾ ونظيره قوله ﴿ والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ [النحل : 8] ولما كان المقصود الأصلي هو الركوب أدخل حرف التعليل عليها ، فكذا ههنا الثاني ؛

قال بعضهم في الجواب : الواو زائدة والتقدير وما جعله الله إلا بشرى لكم لتطمئن به قلوبكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 188 . 189 ﴾

قال ابن عادل :

قال أبو حيان : " ويناقش في قوله : عطف الفعل على الاسم ؛ إذْ ليس من عطف الفعل على الاسم وفي قوله : أدخل حرف التعليل ، وليس ذلك كما ذكره " . انتهى .

قال شهَابُ الدِّينِ : " إن عنى الشيخ أنه لم يدخل حرف التعليل ألبتة ، فهذا لا يمكن إنكاره ألبتة ، وإن عنى أنه لم يدخله بالمعنى الذي قصده الإمام فسَهْل " .

وقال الجُرْجَانِيُّ في نظمه : " هذا على تأويل : وما جعله الله إلا ليبشركم ولتطمئن ، ومن أجاز إقحام الواو – وهو مذهب الكوفيين – جعلها مقحمة في ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ ﴾ فيكون التقدير : وما جعله الله إلا بشرى لكم ؛ لتطمئنَّ قلوبكم به " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 525 ﴾ . بتصرف يسير .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا النصر إِلاَّ مِنْ عِندِ الله ﴾

قال الفخر :

﴿ وَمَا النصر إِلاَّ مِنْ عِندِ الله ﴾ والغرض منه أن يكون توكلهم على الله لا على الملائكة وهذا تنبيه على أن إيمان العبد لا يكمل إلا عند الإعراض عن الأسباب والإقبال بالكلية على مسبب الأسباب

وقوله ﴿ العزيز الحكيم ﴾ فالعزيز إشارة إلى كمال قدرته ، والحكيم إشارة إلى كمال علمه ، فلا يخفى عليه حاجات العباد ولا يعجز عن إجابة الدعوات ، وكل من كان كذلك لم يتوقع النصر إلا من رحمته ولا الإعانة إلا من فضله وكرمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 189 ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ تذييل أي كلّ نصر هو من الله لا من الملائكة .

وإجراء وصفي العزيز الحكيم هنا لأنّهما أولى بالذكر في هذا المقام ، لأنّ العزيز ينصر من يريد نصره ، والحكيم يعلم من يستحق نصره وكيف يُعطاه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 212 ﴾

(124/129)

وقال العلامة أبو حيان :

﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ حصر كينونة النصر في جهته ، لا أنَّ ذلك يكون من تكثير المقاتلة ، ولا من إمداد الملائكة .

وذكر الإمداد بالملائكة تقوية لرجاء النصر لهم ، وتثبيتاً لقلوبهم .

وذكر وصف العزة وهو الوصف الدال على الغلبة ، ووصف الحكمة وهو الوصف الدال على وضع الأشياء مواضعها من : نصرٍ وخذلان وغير ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 55 ﴾

فصل

قال ابن عادل :

قال في هذه الآية : " لَكُمْ " وتركها في سورة الأنفال ؛ لأن تيك مختصر هذه ، فكان الإطناب - هنا - أوْلَى ؛ لأن القصة مكملة هنا ، فناسب إيناسهم بالخطاب المواجه ، وأخر - هنا - " به " وقدمه في سورة الأنفال ؛ لأن الخطاب - هنا - موجود في " لَكُمْ " فأتبع الخطاب الخطاب ، وهنا جاء بالصفتين تابعتين في قوله : ﴿ العزيز الحكيم ﴾ وجاء بهما في جملة مستأنفة في سورة الأنفال ، في قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : 10] ؛ لأنه لما خاطبهم - هنا - حسن تعجيل بشارتهم بأنه عزيز حكيم ، أي : لا يغالب ، وأن أفعاله كلها متقنة حكمة وصواب ، فالنصر من عنده فاستعينوا به ، وتوكلوا عليه ؛ لأن العز والحُكْم له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 525 . 526 ﴾ .

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بشرى ﴾ الكناية في " جَعَلَهُ " عائدة على المصدر ، أي : ما

جعل الإمداد إلا بشرى لكم بأنكم تُنصرون ، وهذا الاستثناء فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه مفعول من أجله ، وهو استثناء مفرغ ؛ إذ التقدير : وما جعله لشيء من الأشياء إلا للبُشْرَى ، وشروط نصبه موجودة ، وهي اتحاد الفاعل ، والزمان ، وكونه مصدراً سبق للعلة .

والثاني : أنه مفعول ثانٍ لِ "جَعَلَ" على أنها تصييرية .

(125/129)

والثالث : أنه بدل من الهاء في "جَعَلَهُ" قاله الحوفيّ وجعل الهاء عائدةً على الوعد بالمدد .

والبشرى : مصدر على "فُعْلَى" كالرُّجْعَى .

وقيل : اسم من الإبشار ، وتقدَّم الكلام في معنى البُشْرَى في قوله تعالى : ﴿ وَبَشّرِ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [البقرة : 25] .

قوله : ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنَّه معطوف على "بُشْرَى" هذا إذا جعلناها مفعولاً من أجله ، وإنما جُرَّ باللام ؛ لاختلال شرط من شروط النصب - وهو عدم اتحاد الفاعل - فإن فاعل الجَعْل هو الله - تعالى - وفاعل الاطمئنان القلوب ، فلذلك نصب المعطوف عليه لاستكمال الشروط ،

وجر المعطوف باللام لاختلال شرطه، وقد تقدم، والتقدير: وما جعله إلا للبشرى وللطمأنينة.

والثاني: أنها متعلقة بمحذوف، أي: ولتطمئن قلوبكم، فعلى ذلك، أو كان كيت وكيت.

وقال أبو حيان: و"تطمئن" منصوب بإضمار "أن" بعد لام "كي"، فهو من عطف الاسم على توهم موضع اسم آخر.

ثم نقل عن ابن عطية أنه قال: "اللام في ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ ﴾ متعلقة بفعل مضمر يدل عليه "جَعَلَهُ" ومعنى الآية: وما كان هذا الإمداد إلا لتستبشروا به، ولتطمئن به قلوبكم.

قال أبو حيان: "وكأنه رأى أنه لا يمكن - عنده - أن يُعطف ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ ﴾ على ﴿ بشرى ﴾، على الموضع؛ لأن من شرط العطف على الموضع - عند أصحابنا - أن يكون ثَمَّ مُحْرِز للموضع، ولا محرز هنا؛ لأن عامل الجَرِّ مفقود، ومَنْ لم يشترط المحرز، فيجوز ذلك على مذهبه وسيكون من باب العطف على التوهُّم".

قال شهاب الدين : " وقد جعل بعضهم الواو في ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ ﴾ زائدة ، وهو لائق بمذهب الأخفش ، وعلى هذا فتتعلق اللام بالبشرى ، أي : أن البشرى عِلَّة للجَعْل ، والطمأنينة علة للبُشْرَى ، فهي علة العلة " .

والضميران في قوله ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ﴾ ، و" بِهِ " يعودان على الإمداد المفهومِ من الفعل المتقدم ، وهو قوله : " يمددكم " .

وقيل : يعودان على النصر .

وقيل : على التسويم .

وقيل : على التنزيل .

وقيل : على المدد .

وقيل : على الوعد . انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 524 . 525 ﴾ .

(127/129)

من فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ ﴾ أي الإمداد المفهوم من الفعل المقدر المدلول عليه بقوة الكلام كأنه قيل

: فأمدكم الله تعالى بما ذكر وما جعل الله تعالى ذلك الإمداد ﴿ إِلَّا بشرى لَكُمْ ﴾ وقيل : الضمير للوعد بالإمداد ، وقيل : للتسويم أو للتنزيل أو للنصر المفهوم من نصركم السابق ومتعلق البشارة غيره ، وقيل : للإمداد المدلول عليه بأحد الفعلين ، والكل ليس بشيء كما لا يخفى ، والبشرى إما مفعول له ، و(جعل) متعدية لواحد أو مفعول لها إن جعلت متعدية لاثنين ، وعلى الأول : الاستثناء مفرغ من أعم العلل أي وما جعل إمدادكم بإنزال الملائكة لشيء من الأشياء إلا للبشارة لكم بأنكم تنصرون ، وعلى الثاني : مفرغ من أعم المفاعيل أي وما جعله الله تعالى شيئًا من الأشياء إلا بشرى لكم . والجملة ابتداء كلام غير داخل في حيز القول بل مسوق من جنابه تعالى لبيان أن الأسباب الظاهرة بمعزل عن التأثير بدون إذنه سبحانه وتعالى ، فإن حقيقة النصر مختص به عز اسمه ليثق به المؤمنون ولا يقنطوا منه عند فقدان أسبابه وأماراته وهي معطوفة على فعل مقدر كما أشرنا إليه ، ووجه الخطاب نحو المؤمنين تشريفاً لهم وإيذاناً بأنهم هم المحتاجون لما ذكر ، وأما رسوله صلى الله عليه وسلم فغني عنه بما منّ به عليه من التأييد الروحاني والعلم الرباني .

﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ﴾ أي ولتسكن قلوبكم بالإمداد فلا تخافوا كثرة عدد العدو وقلة عددكم وهذا إما معطوف على ﴿ بُشْرىً ﴾ باعتبار الموضع وهو كالمعطوف عليه علة غائية للجعل إلا أنه نصب الأول لاجتماع شرائطه ولم ينصب الثاني لفقدانها ، وقيل : للإشارة أيضاً إلى أصالته في العلية وأهميته في نفسه كما في قوله تعالى : ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ [النحل : 8] وإما متعلق بمحذوف معطوف على الكلام السابق أي ولتطمئن قلوبكم به ، فعل ذلك وهو أولى من تقدير بشركم كما فعل أبو البقاء ، والثاني متعين على الاحتمال الثاني في الأول .

﴿ وَمَا النصر ﴾ أي على الإطلاق فيندرج فيه النصر المعهود دخولاً أولياً ﴿ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ المودع في الأسباب بمقتضى الحكمة قوة لا تأثر إلا به أو وما النصر المعهود إلا من عنده سبحانه وتعالى لا من الملائكة لأن قصارى أمرهم ما ذكر من البشارة وتقوية القلوب ولم يقاتلوا أو لأن قصارى أمرهم أنهم قاتلوا بتمكين الله تعالى لهم ولم يكن لهم فعل استقلالاً ولو شاء الله تعالى ما فعلوا على أن مجرد قتالهم لا يستدعي النصر بل لا بد من انضمام ضعف المقابلين المقاتلين ولو شاء الله تعالى لسلطهم عليهم فحيث أضعف وقوى ومكن وما مكن وبه حصل النصر كان ذلك منه سبحانه وتعالى .

والآية على هذا لا تكون دليلاً لمن زعم أن المسببات عند الأسباب لا بها وقد مر تحقيقه

فتذكر ، وكذا لا دليل فيها على وقوع قتالهم ولا على عدمه لاحتمالها الأمرين ، وبكل قال بعض .

(129/129)

والمختار ما روي عن مجاهد أن الملائكة لم يقاتلوا في غزواته صلى الله عليه وسلم إلا في غزوة بدر وإنما حضروا في بعضها بمقتضى ما علم الله تعالى من المصلحة مثل حضورهم حلق أهل الذكر ، وربما أعانوا بغير القتال كما صنعوا في غزوة أحد على قول ، فعن ابن إسحاق أن سعد بن مالك كان يرمي في غزوة أحد وفتى شاب كان ينبل له كلما فني النبل أتاه به وقال له : ارم أبا إسحاق ارم أبا إسحاق ، فلما انجلت المعركة سأل عن ذلك الرجل فلم يعرف ، وأنكر أبو بكر الأصم الإمداد بالملائكة ، وقال : إن الملك الواحد يكفي في إهلاك سائر أهل الأرض كما فعل جبريل عليه السلام بمدائن قوم لوط فإذا حضر هو مأموراً بالقتال فأي حاجة إلى مقاتلة الناس مع الكفار ، وأيضاً أي فائدة في إرسال سائر الملائكة معه وهو القوي الأمين ، وأيضاً إن أكابر الكفار الموجودين في غزوة القتال قاتل كل منهم من الصحابة معلوم ولم يعلم أن أحداً من الملائكة قتل أحداً منهم ، وأيضاً لو قاتلوا فإما أن يكونوا بحيث يراهم الناس أو لا ، وعلى الأول : يكون المشاهد من عسكر الرسول صلى الله عليه

وسلم في غزوة بدر ألوفاً عديدة ولم يقل بذلك أحد ، وهو أيضاً خلاف قوله تعالى : ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ ﴾ [الأنفال : 44] ولو كانوا في غير صورة ابن آدم لزم وقوع الرعب الشديد في قلوب الخلق ولم ينقل ذلك ولو كان لنقل ألبتة ، وعلى الثاني : يلزم حز الرؤوس وتمزيق البطون ونحو ذلك من الكفار من غير مشاهدة فاعل لهذه الأفعال ومثل هذا يكون من أعظم المعجزات وقد وقع بين جمعين سالم ومكسر فكان يجب أن يتواتر ويشتهر لدى الموافق والمخالف فحيث إنه لم يشتهر دلّ على أنه لم يكن ، وأيضاً أنهم لو كانوا أجساماً كثيفة وجب أن يراهم الكل وإن كانوا أجساماً لطيفة هوائية تعذر ثبوتهم على الخيل انتهى .

(130/129)

ولا يخفى أن هذه الشبه لا يليق إيرادها بقوانين الشريعة ولا بمن يعترف بأنه تعالى قادر على ما يشاء فعال لما يريد فما كان يليق بالأصم إلا أن يكون أخرس عن ذلك إذ نص القرآن ناطق بالإمداد ؛ ووروده في الأخبار قريب من المتواتر فكأن الأصم أصم عن سماعه أو أعمى عن رؤية رباعه ، وقد روى عبد بن عمير قال : لما رجعت قريش من أحد جعلوا يتحدثون في أنديتهم بما ظفروا ويقولون لم نر الخيل البلق ولا الرجال البيض الذين كنا نراهم يوم بدر ،

والتحقيق في هذا المقام كما قال بعض المحققين : إن التكليف ينافي الإلجاء وأنه تعالى شأنه وإن كان قادراً على إهلاك جميع الكفار في لحظة واحدة بملك واحد بل بأدنى من ذلك بل بلا سبب ، وكذا هو قادر على أن يجبرهم على الإسلام ويقسرهم لكنه سبحانه أراد إظهار هذا الدين على مهل وتدريج وبواسطة الدعوة وبطريق الابتلاء والتكليف فلا جرم أجرى الأمور على ما أجرى فله الحمد على ما أولى وله الحكم في الآخرة والأولى ، وبهذا يندفع كثير من تلك الشبه ، وإهلاك قوم لوط عليه الصلاة والسلام كان بعد انقضاء تكليفهم وهو حين نزول البأس فلا جرم أظهر الله تعالى القدرة وجعل عاليها سافلها ، وفي غزوة أحد كان الزمان زمان تكليف فلا جرم أظهر الحكمة ليتميز الموافق عن المنافق والثابت عن المضطرب ولو أجري الأمر فيها كما أجري في بدر أشبه أن يفضي الأمر إلى حد الإلجاء ونافى التكليف ونوط الثواب والعقاب ، ثم لا يخفى أن الملائكة إما أجسام لطيفة نورانية وإما أرواح شريفة قدسية .

وعلى التقديرين لهم الظهور في صور بني آدم مثلاً من غير انقلاب العين وتبدل الماهية كما قال ذلك العارفون من المحققين في ظهور جبريل عليه السلام في صورة دحية الكلبي ومثل

هذا من وجه ولله تعالى المثل الأعلى ما صح من تجلي الله تعالى لأهل الموقف بصورة فيقول لهم : أنا ربكم فينكرونه فإن الحكم في تلك القضية صادق مع أن الله تعالى وتقدس وراء ذلك وهو سبحانه في ذلك التجلي باق على إطلاقه حتى عن قيد الإطلاق ، ومن سلم هذا ولا يسلمه إلا ذو قلب سليم لم يشكل عليه الإمداد بالملائكة وظهورهم على خيول غيبية ثابتين عليهما حسبما تقتضيه الحكمة الإلهية والمصلحة الربانية ولا يلزم من ذلك رؤية كل ذي بصر لهم لجواز إحداث أمر مانع عنها إما في الرائي أو في المرئي ولا مانع من أنهم يرون أحياناً ويخفون أحياناً ويرى البعض ويخفى البعض ، وزمام ذلك بيد الحكيم العليم فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن والشيء متى أمكن وورد به النص عن الصادق وجب قبوله ومجرد الاستبعاد لا يجدي نفعاً ولو ساغ التأويل لذلك لزم تأويل أكثر هذه الشريعة بل الشرائع بأسرها وربما أفضى ذلك إلى أمر عظيم ، فالواجب تسليم كل ممكن جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وتفويض تفصيل ذلك وكيفيته إلى الله تعالى .

﴿ العزيز ﴾ أي الغالب الذي لا يغالب فيما قضى به ، وقيل : القادر على انتقامه من الكفار بأيدي المؤمنين وفي إجراء هذا الوصف هنا عليه تعالى إيذان بعلة اختصاص النصر به سبحانه . ﴿ الحكيم ﴾ أي الذي يضع الأشياء مواضعها ويفعل على ما تقتضيه الحكمة في سائر أفعاله ومن ذلك نصره للمؤمنين بواسطة إنزال الملائكة ، وفي الاتيان بهذا

الوصف رد على أمثال الأصم في إنكارهم ما نطقت به الظواهر فسبحانه من عليم حكيم وعزيز حليم. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 4 صـ 46. 48﴾

(132/129)

فائدة

قال فى ملاك التأويل:

قوله تعالى: "وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم" وفى سورة الأنفال: "وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم". للسائل أن يسأل فيقول: مقصود الآيتين واحد فى الموضعين من حيث المعنى وهما لقوم بأعيانهم وهم أهل بدر رضى الله عنهم فما وجه زيادة "لكم" فى آية آل عمران ولم تزد فى الأخرى؟ وتقديم القلوب على المجرور هنا وتأخيرها عنه فى آية الأنفال؟ واستئناف تأكيد الإخبار بالصفتين العليتين فى سورة الأنفال بـ "إن" ولم تردا جاريتين على اسم الله سبحانه كما فى آل عمران؟ فهذه ثلاث سؤالات.

والجواب عم الأول والثانى والله أعلم: أن آية آل عمران لما تقدم فيها قوله تعالى: "ويأتوكم

من فورهم" والإخبار عن عدوهم فاختلط ذكر الطائفتين وضمهما كلام واحد فجردت البشارة لمن هدى منهما وأنها لأولياء الله المؤمنين فجيئ بضمير خطابهم متصلا بلام الجر المقتضية الاستحقاق فقيل "بشرى لكم" وبين أن قلوبهم هى المطمئنة بذلك فقيل "ولتطمئن قلوبكم به" ، فقدمت القلوب على المجرور اعتناء وبشارة ليمتاز أهلها ممن ليس لهم نصيب .

أما آية الأنفال فلم يتقدم فيها ذكر لغير المؤمنين فلم يحتج إلى الضمير الخطابى فى ﴿لكم﴾ وأيضا فإن آية الأنفال قد تقدم قبلها قوله تعالى : "وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم" فأغنى عن عودته فيما بعده اكتفاء بما قد حصل مما تقدم من تخصيصهم بذلك .

(133/129)

والجواب عن السؤال الثالث : أن آية الأنفال تقدم فيها أوعاد جليلة كقوله تعالى : "وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم" ثم قال : "ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين" ثم قال : "ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون" فهذه أوعاد علية لم يتقدم إفصاح بمثلها فى آية آل عمران فناسبها تأكيد الوصفين العظيمين من قدرته جل وتعالى على كل شئ وحكمته فى أفعاله فقال : "إن الله عزيز حكيم" ، ولما لم يقع فى آية آل عمران

إفصاح بما فى آية الأنفال وردت الصفتان تابعتين دون تأكيد وجاء كل على ما يناسب ولم يكن عكس الوارد فى تعقيب الآيتين ليناسب وذلك واضح والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ ملاك التأويل صـ 89.90 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ ﴾ .

أجرى الله – سبحانه – سُنَّتَه مع أوليائه أنه إذا ضعفت نِيَّاتُهم ، أو تناقصت إرادتهم أو أشْرفت قلوبهم على بعض فترة – أراهم من الألطاف ، وفنون الكرامات ما يُقَوِّي به أسباب عِرْفانهم ، وتتأكد به حقائق يقينهم .

فعلى هذه السُّنَّة أنزل هذا الخطاب . ثم قطع قلوبهم وأسرارهم عن الأغيار بالكلية فقال : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 275 ﴾

(134/129)

قوله تعالى : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (127) ﴾

فصل

قال الفخر :

اللام في ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفاً ﴾ متعلق بقوله ﴿ وَمَا النصر إِلاَّ مِنْ عِندِ الله العزيز الحكيم ﴾ والمعنى أن المقصود من نصركم بواسطة إمداد الملائكة هو أن يقطعوا طرفاً من الذين كفروا ، أي يهلكوا طائفة منهم ويقتلوا قطعة منهم ، قيل : إنه راجع إلى قوله ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ﴾ ، ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفاً ﴾ ولكنه ذكر بغير حرف العطف لأنه إذا كان البعض قريباً من البعض جاز حذف العاطف ، وهو كما يقول السيد لعبده : أكرمتك لتخدمني لتعينني لتقوم بخدمتي حذف العاطف ، لأن البعض يقرب من البعض ، فكذا ههنا ، وقوله ﴿ طَرَفاً ﴾ أي طائفة وقطعة وإنما حسن في هذا الموضع ذكر الطرف ولم يحسن ذكر الوسط لأنه لا وصول إلى الوسط إلا بعد الأخذ من الطرف ، وهذا يوافق قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُمْ ﴾ [التوبة : 123] وقوله ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الرعد : 41] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 189 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ﴾ الطرف : من قتل ببدر هم سبعون من رؤساء قريش ، أو من قتل بأحد وهم اثنان وعشرون رجلاً على الصحيح .

وقال السدي : ثمانية عشر ، أو مجموع المقتولين في الوقعتين ثلاثة أقوال .

وكنى عن الجماعة بقوله : طرفاً ، لأن من قتله المسلمون في حرب هم طرف من الكفار ، إذ هم الذين يلون القاتلين ، فهم حاشية منهم .

فكان جميع الكفار رفقة ، وهؤلاء المقتولون طرفاً منها .

قيل : ويحتمل أن يراد بقوله : طرفاً دابراً أي آخراً ، وهو راجع لمعنى الطرف ، لأن آخر الشيء طرف منه ﴿ أو يكبتهم ﴾ : أي ليخزيهم ويغيظهم ، فيرجعوا غير ظافرين بشيء مما أملوه .

ومتى وقع النصر على الكفار ، فإما بقتل ، وإما بخيبة ، وإما بهما .

وهو كقوله : ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 55 ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴾

قال الفخر :

الكبت في اللغة صرع الشيء على وجهه ، يقال : كبته فانكبت هذا تفسيره ، ثم قد يذكر

والمراد به الإخزاء والإهلاك واللعن والهزيمة والغيظ والإذلال ، فكل ذلك ذكره المفسرون في تفسير الكبت ، وقوله ﴿ خَائِبِينَ ﴾ الخيبة هي الحرمان والفرق بين الخيبة وبين اليأس أن الخيبة لا تكون إلا بعد التوقع ، وأما اليأس فإنه قد يكون بعد التوقع وقبله ، فنقيض اليأس الرجاء ، ونقيض الخيبة الظفر ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 189 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

وتنكير (طرفاً) للتفخيم ، ويقال : هو من أطراف العرب ، أي من أشرافها وأهل بيوتاتها .

ومَعنى ﴿ أو يكبتهم ﴾ يصيبهم بغمّ وكمد ، وأصل كبت كَبَد بالدال إذا أصابه في كَبده .

كقولهم : صُدِرَ إذا أصيب في صدره ، وكُلِيَ إذا أصيب في كُلْيَته ، ومُتِنَ إذا أصيب في مَتْنه ، ورُئي إذا أصيب في رِئته ، فأبدلت الدال تاء وقد تبدل التاء دالاً كقولهم : سَبَد رأسَه وسبَتَه أي حلقه .

والعرب تتخيّل الغمّ والحزن مقرّه الكبد ، والغضب مقرّه الصّدر وأعضاء التنفّس .

قال أبو الطيب يمدح سيف الدّولة حِين سفره عن أنطاكية :

لأَكْبِتَ حَاسداً وأرِي عَدُواً . . .

كأَنَّهُمَا ودَاعُكَ والرَّحيلُ

وقد استقرى أحوال الهزيمة فإنّ فريقاً قتلوا فقطع بهم طرف من الكافرين ، وفريقاً كبتُوا وانقلبوا خائبين ، وفريقاً مَنَّ الله عليهم بالإسلام ، فأسلموا ، وفريقاً عُذّبوا بالموت على الكفر بعد ذلك ، أو عذبوا في الدنيا بالذلّ ، والصغار ، والأسر ، والمَنّ عليهم يوم الفتح ، بعد أخذ بلدهم و "أو" بين هذه الأفعال للتقسيم .

وهذا القطع والكبت قد مضيا يوم بدر قبل نزول هذه الآية بنحو سنتين ، فالتَّعبير عنهما بصيغة المضارع لقصد استحضار الحالة العجيبة في ذلك النصر المبين العزيز النظير . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 212 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ لِيَقْطَعَ ﴾ في متعلق هذه اللام سبعة أوجه :

أحدها : أنها متعلقة بقوله : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ الله ﴾ قاله الحوفيّ ، وفيه بُعْدٌ ؛ لطول الفَصْل .

الثاني : أنها متعلقة بالنصر في قوله : ﴿ وَمَا النصر إِلاَّ مِنْ عِندِ الله ﴾ والمعنى : أن

المقصود من نصركم ، هو أن تقطعوا طرفاً من الذين كفروا ، أي : تملكوا طائفة منهم ، وتقتلوا قطعة منهم ، وفي هذا نظر من حيث إنه قد فصل بين المصدر ومتعلقه بأجنبيّ ، وهو الخبر.

الثالث : أنها متعلقة بما تعلَّق به الخبر ، وهو قوله : ﴿ مِنْ عِندِ اللهِ ﴾ ، والتقدير : وما النصر إلا كائن ، أو إلا مستقر من عند الله ليقطع .

(137/129)

والرابع : أنها متعلقة بمحذوف ، تقديره : أمَدَّكم ، أو نصَرَكم ، ليقطعَ .

الخامس : أنها معطوفة على قوله : " ولتطمئن " حذف حرف لعطف لفهم المعنى ؛ لأنه إذا كان البعض قريباً من البعض جاز حذف العاطف ، كقوله : ﴿ ثلاثة رابعهم كلبهم ﴾ وقول السيد لعبده : أكرمتك لتخدمني ، لتعينني ، لتقوم بخدمتي ، فحذف العاطف لقُرْب البعض من البعض ، فكذا هنا وعلى هذا فتكون الجملة في قوله : ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه ، وهو ساقط الاعتبار .

السادس : أنها متعلقة بالجَعْل قاله ابن عطية .

السابع : أنها متعلقة بقوله : ﴿ يُمْدِدْكُمْ ﴾ وفيه بُعْدٌ ؛ للفواصل بينهما .

والطرف: المراد به: جماعة، وطائفة، وإنما حَسُنَ ذِكْرُ الطرف – هنا – ولم يحسن ذكر الوسط؛ لأنه لا وصول إلى الوَسَطِ إلا بعد الأخذ من الطرف، وهذا يوافق قوله تعالى: ﴿ قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُمْ ﴾ [التوبة: 123] وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الرعد: 41].

قوله: ﴿ مِّنَ الذين ﴾ يجوز أن يكون متعلّقاً بالقَطْع، فتكون "مِنْ" لابتداء الغاية، ويجوز أن يتعلق بمحذوف، على أنه صفة لـ "طَرَفاً" وتكون "مِنْ" للتبعيض.

قوله: ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾ عطف على "لِيَقْطَعَ".

و"أو"؛ قيل: على بابها من التفصيل، أي: ليقطع طرفاً من البعض، ويكبت بعضاً آخرين.

وقيل: بل هي بمعنى الواو، أي: يجمع عليهم الشيئين.

والكبت: الإصابة بمكروه.

وقيل: هو الصَّرع للوجْه واليدين، وعلى هذين فالتاء أصلية، ليست بدلاً من شيء، بل هي مادة مستقلة.

(138/129)

وقيل : أصله من كبده ، إذا أصابه بمكروه أثر في كبده وَجَعاً ، كقولك : رأسته ، أي : أصبت رأسه ، ويدل على ذلك قراءة لاحق بن حُمَيد : أو يكبدَهم - بالدال - والعرب تُبْدِل التاء من الدال ، قالوا : هرَتَ الثوبَ ، وهرده ، وسَبَتَ رأسه ، وسَبَدَه - إذا حلَقَه- .

وقد قيل : إنّ قراءة لاحق أصلها التاء ، وإنما أُبدِلت دالاً ، كقولهم : سبد رأسه ، وهرد الثوب ، والأصل فيهما التاء .

قوله : ﴿ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴾ لن ينالوا خيراً مما كانوا يرجون من الظفر بكم .

والخيبة لا تكون إلا بعد التوقُّع ، وأما اليأس فإنه يكون بعد التوقُّع وقبلَه ، فنقيض اليأس الرجاء ، ونقيض الخيبة : الظفر يقال : خَابَ يَخِيبُ خَيْبَةً .

و﴿ خَآئِبِينَ ﴾ نُصِبَ على الحال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 526.528 ﴾ . بتصرف يسير .

(139/129)

من فوائد أبو السعود فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ لِيَقْطَعَ ﴾ متعلقٌ بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ﴾ ، وما بينهما تحقيقٌ لحقيقته وبيانٌ لكيفية وقوعِه والمقصورُ على التعليل بما ذُكر من البُشرى والاطمئنانِ إنما هو الإمدادُ بالملائكة على الوجه المذكورِ فلا يقدحُ ذلك في تعليل أصلِ النصرِ بالقطع وما عُطف عليه أو بما تعلق به الخبرُ في قوله عز وعلا : ﴿ وَمَا النصر إِلاَّ مِنْ عِندِ الله ﴾ على تقدير كونِه عبارةً عن النصر المعهودِ ، وقد أُشير إلى أن المعلَّلَ بالبشارة والاطمئنانِ إنما هو الإمدادُ الصوريُّ لا ما في ضِمنه من النصر المعنويِّ الذي هو مَلاكُ الأمر ، وأما تعلقُه بنفس النصرِ كما قيل فمع ما فيه من الفصل بين المصدرِ ومعمولِه بأجنبي هو الخبرُ مُخلٌّ بسَداد المعنى ، كيف لا ومعناه قصرُ النصرِ المخصوصِ المعلَّلِ بعللٍ معيّنةٍ على الحصول من جهته تعالى ، وليس المرادُ إلا قصرَ حقيقةِ النصرِ أو النصرِ المعهودِ على ذلك ، والمعنى لقد نصركم الله يومئذ أو وما النصرُ الظاهرُ عند إمدادِ الملائكةِ إلا ثابتٌ من عند الله ليقطعَ أي يُهلِكَ وينْقُصَ ﴿ طَرَفاً مّنَ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي طائفةً منهم بقتل وأسر وقد وقع ذلك حيث قُتل من رؤسائهم وصناديدِهم سبعون وأُسر سبعون ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾ أي يخزيَهم ويُغيظَهم بالهزيمة ، فإن الكبتَ شدةُ غيظٍ أو وهنٌ يقع في القلب من كَبَتَه بمعنى كَبده إذا ضرب كِبدَه بالغيظ والحُرقة ، وقيل : الكبتُ الإصابةُ بمكروه ، وقيل : هو الصرعُ للوجه واليدين ، فالتاء حينئذ غيرُ مُبْدلةٍ وأو للتنويع ﴿ فَيَنقَلِبُواْ خَائِبِينَ ﴾ أي فينهزموا منقطعي الآمالِ غيرَ

فائزين من مبتغاهم بشيء كما في قوله تعالى : ﴿ وَرَدَّ اللهُ الذين كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 82 ﴾

(140/129)

فصل

قال ابن كثير فى معنى الآيتين :

وقوله : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ﴾ أي : وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالها إلا بشارةً لكم وتطييبا لقلوبكم وتطمينا ، وإلا فإنما النصر من عند الله ، الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم ، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم ، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال : ﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ . وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ . ﴾ [محمد : 4-6] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ أي : هو ذو العزة التي لا تُرام ، والحكمة في قَدَره والإحكام .

ثم قال تعالى : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : أمركم بالجهاد والجلاد ، لما له في

ذلك من الحكمة في كل تقدير، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار المجاهدين. فقال: ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا ﴾ أي: ليهلك أمة ﴿ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾ أي: يخزيهم ويردهم بغيظهم لَمّا لم ينالوا منكم ما أرادوا؛ ولهذا قال: ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا ﴾ أي: يرجعوا ﴿ خَائِبِينَ ﴾ أي: لم يحصلوا على ما أمَّلوا. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 114 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (127) ﴾

إنَّ الله لا يُشْمِتُ بأوليائه عدواً؛ فالمؤمن وإن أصابته نكبة، فعدوُّه لا محالة يكبه الله في الفتنة والعقوبة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 275 ﴾

(141/129)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآيتين

قال رحمه الله:

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾

فإياك أن تظن أن المدد بالثلاثة آلاف أو الخمسة آلاف ، الذين أنزلهم الله وأمدكم بهم أو بالملائكة المدربين على القتال . . إياكم أن تظنوا أن هذا المدد ، هو شرط في نصر الله لك . بذاتك أو بالملائكة ؛ إنه قادر على أن ينصرك بدون ملائكة ، ولكنها بشرى لتؤنس المادة البشرية ، فساعة يرى المؤمنين أعداداً كبيرة من المدد ، والكفار كانوا متفوقين عليهم في العدد ، فإن أسباب المؤمنين تطمئن وتثق بالنصر . إذن فالملائكة مجرد بُشرى ، ولكن النصر من عند الله العزيز الذي لا يُغلب . وكل الأمور تسير بحكمته التي لا تعلوها حكمة أبداً . ويقول الحق من بعد ذلك : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَآئِبِينَ ﴾ .

وقطع الطرف يتحدد بمعرفة ما هو طرف لماذا ؟ فإن كان الطرف هو العدد الكثير فقطع الطرف أن يُقتل بعضه . وإن كان الطرف هو أرضا واسعة فقطع الطرف أن يأخذ من أرضهم . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

[الرعد : 41]

لقد كانت الأرض الكُفْرِيّة تخسر كل يوم جزءاً منها لينضم هذا الجزء إلى الأرض الإيمانية ، هذا بالنسبة لسعة الأرض ، وافرض أن الطرف هو المال ، فقطع الطرف هنا يكون بأن نأخذ بعض المال كغنائم ، ثم هناك المنزلة التي كانت تهابها الجزيرة كلها ، كل الجزيرة تهاب قريشاً ، وقوافلها التجارية للشمال والجنوب لا تستطيع قبيلة أن تتعرض لها ؛ لأن كل القبائل تعرف أنها ستذهب إلى البيت في موسم الحج ، فلا توجد قبيلة تتعرض لها لأنها غداً ستذهب إلى قريش ، إذن فالسيادة والعظمة كانت لقريش ، وساعة تعلم القبائل أن رجال قريش قد كسروا وانهزموا ، وأن رحلتهم إلى الشام أصبحت مهددة ، فإنهم يبحثون عن فريق آخر يذهبون إليه .

إن قطع الطرف كان على أشكال متعددة ، فإن كان طرفَ عددٍ فيقتل بعضهم ، وإن كان طرف أرض فبعضها يؤخذ وتذهب إلى أرض إيمانية ، وإن كانت عظمة وقهرا تأتهم الهزيمة ، وإن كان نفوذاً في الجزيرة فهو يتزلزل ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ .

ولنلحظ أن الحق قد قال : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفاً ﴾ - لم يقل ليستأصل - لأن الله سبحانه وتعالى أبقى على بعض الكفار لأن له في الإيمان دوراً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ممتلئا بالعطف والرحمة والحنان على أمته ، وكان يحسن الظن بالله أن يهديهم ، ولذلك تعددت آيات القرآن التي تتحدث في هذا الأمر . ها هو ذا الحق يقول :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَاذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾

[الكهف : 6]

وفي موقع آخر بالقرآن الكريم يقول الحق :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾

[الشعراء : 3-4]

(143/129)

والله يقول لرسول صلى الله عليه وسلم : " فإنّما عليك البلاغ " والرسول يحب أن يهتدي إلى الإيمان كل فرد في أمته ، فقال الحق : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1736 . 1738 ﴾

(144/129)

"فصل"

قال السيوطي :

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123)

أخرج أحمد وابن حبان عن عياض الأشعري قال : شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء : أبو عبيدة ، ويزيد بن أبي سفيان ، وابن حسنة ، وخالد بن الوليد ، وعياض . وليس عياض هذا قال : وقال عمر : إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة . . . فكتبنا إليه أنه قد حاس إلينا الموت واستمددناه . فكتب ألينا أنه جاءني كتابكم تستمدونني ، وإني أدلكم على من هو أعز نصراً وأحضر جنداً ، الله عز وجل ، فاستنصروه فإن محمداً صلى الله عليه وسلم قد نصر يوم بدر في أقل من عدتكم ، فإذا جاءكم كتابي هذا فقاتلوهم ولا تراجعوني . فقاتلناهم فهزمناهم أربعة فراسخ .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ ولقد نصركم الله ببدر ﴾ إلى ﴿ ثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ﴾ [آل عمران : 124] في قصة بدر .

وأخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال : بدر بئر .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر عن الشعبي قال : كانت بدر بئراً لرجل من جهينة يقال له بدر فسميت به .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : بدر ماء عن يمين مكة ، بين مكة والمدينة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : بدر ماء بين مكة والمدينة ، التقى عليه النبي صلى الله عليه وسلم والمشركون ، وكان أوّل قتال قاتله النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر لنا أنه قال لأصحابه يومئذ : إنهم اليوم بعدة أصحاب طالوت يوم لقي جالوت ، وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، وألف المشركون يومئذ أو راهقوا ذلك .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : كانت بدر متجراً في الجاهلية .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ وأنتم أذلَّة ﴾ يقول : وأنتم قليل ، وهم يومئذ بضعة عشر وثلاثمائة .

(145/129)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن ماجة وابن أبي حاتم عن رافع بن خديج قال : قال جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم " ما تعدون من شهد بدراً فيكم ؟ قال : خيارنا . قال : وكذلك نعد من شهد بدراً من الملائكة فينا " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان بن عيينة قال : على كل مسلم أن يشكر الله في نصره ببدر . يقول الله ﴿ لقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن الزهري قال : سمعت ابن المسيب يقول : غزا النبي

صلى الله عليه وسلم ثماني عشرة غزوة قال : وسمعته مرة أخرى يقول أربعاً وعشرين غزوة ، فلا أدري أكان وهماً منه أو شيئاً سمعه بعد ذلك ؟ قال الزهري : وكان الذي قاتل فيه النبي صلى الله عليه وسلم كل شيء ذكر في القرآن .

وأخرج ابن أبي شيبة عن قتادة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا تسع عشرة ، قاتل في ثمان : يوم بدر ، ويوم أحد ، ويوم الأحزاب ، ويوم قديد ، ويوم خيبر ، ويوم فتح مكة ، ويوم ماء لبني المصطلق ، ويوم حنين . أ هـ

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (124) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (126) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (127)

(146/129)

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الشعبي أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز جابر المحاربي يمد المشركين ، فشق ذلك عليهم ، فانزل الله ﴿ ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف ﴾ إلى قوله ﴿ مسوّمين ﴾ قال : فبلغت كرزاً الهزيمة فلم يمد

المشركين ؛ ولم يمد المسلمون بالخمسة .

وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال : لما كان يوم بدر بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر نحوه إلا أنه قال ﴿ ويأتوكم من فورهم هذا ﴾ يعني كرزاً وأصحابه ﴿ يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين ﴾ فبلغ كرزاً وأصحابه الهزيمة فلم يمدهم ولم تنزل الخمسة ، وأمدوا بعد ذلك بألف فهم أربعة آلاف من الملائكة مع المسلمين .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ إذ تقول للمؤمنين ﴾ الآية . قال : هذا يوم بدر .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في الآية قال : أمدوا بألف ، ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف . وذلك يوم بدر .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة في قوله ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا . . . ﴾ الآية . قال هذا يوم أحد فلم يصبروا ولم يتقوا فلم يمدوا يوم أحد ، ولو مدوا لم يهزموا يومئذ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : لم يمد النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد ولا بملك واحد لقول الله ﴿ إن تصبروا وتتقوا ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ إن تصبروا وتتقوا ﴾ الآية . قال : كان هذا موعداً من الله يوم أحد عرضه على نبيه صلى الله عليه وسلم ، أن

المؤمنين إن اتقوا وصبروا أيدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين ، ففر المسلمون يوم أحد وولوا مدبرين فلم يمدهم الله .

(147/129)

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال " قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهم ينتظرون المشركين : يا رسول الله أليس يمدنا الله كما أمدنا يوم بدر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ﴾ فإنما أمدكم يوم بدر بألف قال : فجاءت الزيادة من الله على أن يصبروا ويتقوا " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ويأتوكم من فورهم هذا ﴾ يقول : من سفرهم هذا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة قال ﴿ من فورهم ﴾ من وجههم .

وأخرج ابن جرير عن الحسن والربيع وقتادة والسدي . مثله .

وأخرج ابن جرير من وجه آخر عن عكرمة ﴿ من فورهم ﴾ قال : فورهم ذلك كان يوم أحد ، غضبوا ليوم بدر مما لقوا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ من فورهم ﴾ قال : من غضبهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي صالح مولى أم هانئ. مثله.

وأخرج ابن جرير عن الضحاك ﴿ ويأتوكم من فورهم ﴾ يقول: وجههم وغضبهم.

وأخرج الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ مسوّمين ﴾ قال: معلمين، وكانت سيما الملائكة يوم بدر عمائمَ سوداً، ويوم أحد عمائمَ حمراً ".

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير، أن الزبير كان عليه يوم بدر عمامة صفراء معتمراً أو مُعْتَماً بها فنزلت الملائكة عليهم عمائم صفر.

وأخرج ابن إسحق والطبراني عن ابن عباس قال: كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضاً، قد أرسلوها في ظهورهم. ويوم حنين عمائم حمراً، ولم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر، وكانوا يكونون عدداً ومدداً لا يضربون.

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله تعالى ﴿ مسوّمين ﴾ قال: الملائكة عليهم عمائم بيض مسوّمة فتلك سيما الملائكة قال: وهل

تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت الشاعر يقول :

ولقد حميت الخيل تحمل شكة . . . جرداء صافية الأديم مسوّمة

وأخرج ابن جرير عن أبي أسيد وكان بدرياً أنه كان يقول : لو أن بصري معي ثم ذهبتم معي إلى أحد لأخبرتكم بالشعب الذي خرجت منه الملائكة في عمائم صفر ، قد طرحوها بين أكتافهم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن عروة قال : نزلت الملائكة يوم بدر على خيل بلق ، وكان على الزبير يومئذ عمامة صفراء .

وأخرج أبو نعيم في فضائل الصحابة عن عروة قال : نزل جبريل يوم بدر على سيما الزبير ، وهو معتم بعمامة صفراء .

وأخرج أبو نعيم وابن عساكر عن عباد بن عبد الله بن الزبير ، أنه بلغه أن الملائكة نزلت يوم بدر ، وهم طير بيض عليهم عمائم صفر ، وكان على رأس الزبير يومئذ عمامة صفراء من بين الناس فقال النبي صلى الله عليه وسلم " نزلت الملائكة على سيما أبي عبد الله . وجاء النبي صلى الله عليه وسلم عمامة صفراء " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن عمير بن إسحق قال : إن أول ما كان الصوف ليوم بدر . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " تسوّموا فإن الملائكة قد تسوّمت . فهو أول يوم وضع الصوف " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال : كان سيما الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض في نواصي الخيل وأذنابها .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي هريرة في قوله ﴿ مسوّمين ﴾ قال : بالعهن الأحمر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ مسوّمين ﴾ قال : أتوا مسوّمين بالصوف ، فسوّم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أنفسهم وخيلهم على سيماهم بالصوف .

(149/129)

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ مسوّمين ﴾ قال : معلمين مجزوزة أذناب خيولهم ونواصيها ، فيها الصوف والعهن .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ مسوّمين ﴾ قال : ذكر لنا أن سيماهم يومئذ الصوف بنواصي خيلهم وأذنابهم ، وأنهم على خيل بلق .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة ﴿ مسوّمين ﴾ قال عليهم سيما القتال .

وأخرج ابن جرير عن الربيع قال : كانوا يومئذ على خيل بلق .

وأخرج عبد بن حميد عن عمير بن إسحق قال " لما كان يوم أحد أجلى الله الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بقي سعد من مالك يرمي ، وفتى شاب ينبل به كلما فني النبل أتاه به فنثره فقال : ارم أبا إسحق ، ارم أبا إسحق . فلما انجلت المعركة سئل عن ذلك الرجل فلم يعرف " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وما جعله الله بشرى لكم ﴾ يقول : إنما جعلهم لتستبشروا بهم ولتطمئنوا إليهم ، ولم يقاتلوا معهم يومئذ لا قبله ولا بعده ، إلا يوم بدر .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ قال : لو شاء أن ينصركم بغير الملائكة فعل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ ليقطع طرفاً من الذين كفروا ﴾ قال : قطع الله يوم بدر طرفاً من الكفار ، وقتل صناديدهم ورؤوسهم وقادتهم في الشر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ ليقطع طرفاً ﴾ قال : هذا يوم بدر ، قطع الله طائفة منهم وبقيت طائفة .

وأخرج ابن جرير عن السدي قال : ذكر الله قتلى المشركين بأحد ، وكانوا ثمانية عشر رجلاً

فقال ﴿ ليقطع طرفاً من الذين كفروا ﴾ ثم ذكر الشهداء فقال ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ﴾ الآية .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد ﴿ أو يكبتهم ﴾ قال : يخزيهم .

وأخرج ابن جرير عن قتادة والربيع . مثله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 311.306 ﴾

(150/129)

قوله تعالى ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (128) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان صلى الله عليه وسلم حريصاً على طلب الإدالة عليهم ليمثل بهم كما مثلوا بعمه حمزة وعدة من أصحابه رضي الله عنهم قال تعالى : ﴿ ليس لك من الأمر ﴾ أي فيهم ولا غيرهم ﴿ شيء ﴾ موسطاً له بين المتعاطفات ، يعني من الإدالة عليهم بقتل أو هزيمة تدرك بهما ما تريد ، بل الأمر له كله ، إن أراد فعل بهم ما تريد ، وإن أراد منعك منه بالتوبة عليهم أو إماتتهم على الكفر حتف الأنف فيتولى هو عذابهم ، وذلك معنى قوله : ﴿ أو يتوب

عليهم ﴾ أي كلهم بما يكشف عن قلوبهم من حجاب الغفلة فيرجعوا عما هم عليه من الظلم ﴿ أو يعذبهم ﴾ كلهم بأيديكم بأن تستأصلوهم فلا يفلت منهم أحد ، أو يعذبهم هو من غير واسطتكم بما يستدرجهم به مما يوجب إصرارهم حتى يموتوا على الكفر مع النصر عليكم وغيره مما هو لهم في صورة النعم الموجب لزيادة عقابهم .

ثم علل الأقسام الأربعة بقوله : ﴿ فإنهم ظالمون ﴾ وفي المغازي من صحيح البخاري معلقاً عن حنظلة بن أبي سفيان قال : سمعت سالم بن عبد الله قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام فنزلت ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ -إلى قوله : ﴿ ظالمون ﴾ " ورواه موصولاً في المغازي والتفسير والاعتصام عن سالم عن أبيه بغير هذا اللفظ ، وفيه " اللهم العن فلاناً وفلاناً " . انتهى

انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 2 صـ 151 ﴾

فصل

قال الفخر :

في سبب نزول هذه الآية قولان

الأول : وهو المشهور : أنها نزلت في قصة أحد ، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا على ثلاثة أوجه

أحدها : أنه أراد أن يدعو على الكفار فنزلت هذه الآية والقائلون بهذا ذكروا احتمالات

أحدها : روي أن عتبة بن أبي وقاص شجه وكسر رباعيته فجعل يمسح الدم عن وجهه وسالم مولى أبي حذيفة يغسل عن وجهه الدم وهو يقول : "كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم" ثم أراد أن يدعو عليهم فنزلت هذه الآية

وثانيها : ما روى سالم بن عبد الله عن أبيه عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن أقواماً فقال : " اللّهم العن أبا سفيان ، اللّهم العن الحرث بن هشام ، اللّهم العن صفوان بن أُمية " فنزلت هذه الآية ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ فتاب الله على هؤلاء وحسن إسلامهم (1)

وثالثها : أنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم لما رآه ورأى ما فعلوا به من المثلة قال : " لأمثلن منهم بثلاثين " فنزلت هذه الآية ، قال القفال رحمه الله ، وكل هذه الأشياء حصلت يوم أحد ، فنزلت هذه الآية عند الكل فلا يمتنع حملها على كل الاحتمالات

الثاني : في سبب نزول هذه الآية أنها نزلت بسبب أنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يلعن المسلمين الذين خالفوا أمره والذين انهزموا فمنعه الله من ذلك وهذا القول مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما .

الوجه الثالث : أنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يستغفر للمسلمين الذين انهزموا وخالفوا أمره ويدعو عليهم فنزلت الآية ، فهذه الاحتمالات والوجوه كلها مفرعة على قولنا إن هذه الآية نزلت في قصة أحد .

---

(1) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

قَوْله : (اِلْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا)

سَمَّاهُمْ فِي الرِّوَايَة الَّتِي بَعْدهَا .

قَوْله : (وَعَنْ حَنْظَلَة بْن أَبِي سُفْيَان)

هُوَ مَعْطُوف عَلَى قَوْله . " أَخْبَرَنَا مَعْمَر إِلَخْ " وَالرَّاوِي لَهُ عَنْ حَنْظَلَة هُوَ عَبْد اللَّه بْن الْمُبَارَك ، ووَهَمَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُعَلَّق . وَقَوْله : " سَمِعْت سَالِم بْن عَبْد اللَّه يَقُول : كَانَ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو إِلَخْ " وَهُوَ مُرْسَل ، وَالثَّلَاثَة الَّذِينَ سَمَّاهُمْ قَدْ أَسْلَمُوا يَوْم الْفَتْح ، وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ السِّرّ فِي نُزُول قَوْله تَعَالَى : (لَيْسَ لَك مِنْ الْأَمْر شَيْء) وَوَقَعَ فِي رِوَايَة يُونُس عَنْ الزُّهْرِيّ عَنْ سَعِيد وَأَبِي سَلَمَة عَنْ أَبِي هُرَيْرَة نَحْو حَدِيث اِبْن عُمَر ، لَكِنْ فِيهِ " اللَّهُمَّ اِلْعَنْ لِحْيَان وَرِعْلًا وَذَكْوَان وَعُصَيَّة " قَالَ : " ثُمَّ بَلَغَنَا أَنَّهُ تَرَكَ ذَلِكَ لَمَّا نَزَلَتْ : لَيْسَ لَك مِنْ الْأَمْر شَيْء " . قُلْت : وَهَذَا إِنْ كَانَ مَحْفُوظًا اِحْتَمَلَ أَنْ يَكُون نُزُول الْآيَة تَرَاخَى عَنْ قِصَّة أُحُد ، لِأَنَّ قِصَّة رِعْل وَذَكْوَان كَانَتْ بَعْدهَا كَمَا سَيَأْتِي تِلْوَ هَذِهِ الْغَزْوَة وَفِيهِ بُعْد ، وَالصَّوَاب أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْن الَّذِينَ دَعَا عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ قِصَّة أُحُد ، وَاَللَّه أَعْلَم . وَيُؤَيِّد ذَلِكَ

ظَاهِر قَوْله فِي صَدْر الْآيَة (لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا) أَيْ يَقْتُلهُمْ (أَوْ يَكْبِتهُمْ) أَيْ يُخْزِيَهُمْ ، ثُمَّ قَالَ : (أَوْ يَتُوب عَلَيْهِمْ) أَيْ فَيُسْلِمُوا (أَوْ يُعَذِّبهُمْ) أَيْ إِنْ مَاتُوا كُفَّارًا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح البارى حـ 7 صـ 366 ﴾

(152/129)

القول الثاني : أنها نزلت في واقعة أخرى وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث جمعاً من خيار أصحابه إلى أهل بئر معونة ليعلموهن القرآن فذهب إليهم عامر بن الطفيل مع عسكره وأخذهم وقتلهم فجزع من ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم جزعاً شديداً ودعا على الكفار أربعين يوماً ، فنزلت هذه الآية ، هذا قول مقاتل وهو بعيد لأن أكثر العلماء اتفقوا على أن هذه الآية في قصة أحد ، وسياق الكلام يدل عليه وإلقاء قصة أجنبية عن أول الكلام وآخره غير لائق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 189.190 ﴾

وقال القرطبى :

ثبت في صحيح مسلم : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كُسِرت رَبَاعِيته يوم أُحُد ، وشُجّ في رأسه ، فجعل يسْلِتُ الدمَ عنه ويقول : "كيف يُفلح قوم شَجّوا رأس نبِيهم وكسروا رباعِيته وهو يدعوهم إلى الله تعالى" .

فأنزل الله تعالى ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَيْءٌ ﴾ .

الضحاك : هَمَّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يدعو على المشركين فأنزل الله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَيْءٌ ﴾ .

وقيل : استأذن في أن يدعو في استئصالهم ، فلما نزلت هذه الآية علم أن منهم من سيُسلِم وقد آمن كثير منهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعِكرمة بن أبي جهل وغيرهم .

وروى الترمذي عن ابن عمر قال : وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يدعو على أربعة نفر فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَيْءٌ ﴾ فهداهم الله للإسلام .

وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 199 ﴾

(153/129)

إشكال وجوابه

قال الفخر :

ظاهر هذه الآية يدل على أنها وردت في أمر كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل فيه فعلاً ، وكانت هذه الآية كالمنع منه ، وعند هذا يتوجه الإشكال ، وهو أن ذلك الفعل إن كان بأمر

الله تعالى ، فكيف منعه الله منه ؟ وإن قلنا إنه ما كان بأمر الله تعالى وبإذنه ، فكيف يصح هذا مع قوله ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ [النجم : 3] وأيضاً دلت الآية على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فالأمر الممنوع عنه في هذه الآية إن كان حسناً فلم منعه الله ؟ وإن كان قبيحاً ، فكيف يكون فاعله معصوماً ؟ .

والجواب من وجوه

الأول : أن المنع من الفعل لا يدل على أن الممنوع منه كان مشتغلاً به فإنه تعالى قال للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 65] وأنه عليه الصلاة والسلام ما أشرك قط وقال : ﴿ يا أيها النبى اتق الله ﴾ [الأحزاب : 1] فهذا لا يدل على أنه ما كان يتقي الله ، ثم قال : ﴿ وَلاَ تُطِعِ الكافرين ﴾ وهذا لا يدل على أنه أطاعهم ، والفائدة في هذا المنع أنه لما حصل ما يوجب الغم الشديد ، والغضب العظيم ، وهو مثلة عمه حمزة ، وقتل المسلمين ، والظاهر أن الغضب يحمل الإنسان على ما لا ينبغي من القول والفعل ، فلأجل أن لا تؤدي مشاهدة تلك المكاره إلى ما لا يليق من القول والفعل نص الله تعالى على المنع تقوية لعصمته وتأكيداً لطهارته

والثاني : لعله عليه الصلاة والسلام إن فعل لكنه كان ذلك من باب ترك الأفضل والأولى ، فلا جرم أرشده الله إلى اختيار الأفضل والأولى ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصابرين واصبر وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بالله ﴾ [النحل : 126 ، 127] كأنه تعالى قال : إن كنت تعاقب ذلك الظالم فاكتف بالمثل ، ثم قال ثانياً : وإن تركته كان ذلك أولى ، ثم أمره أمراً جازماً بتركه ، فقال : ﴿ واصبر وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بالله ﴾ .

الوجه الثالث : في الجواب : لعلّه صلى الله عليه وسلم لما مال قلبه إلى اللعن عليهم استأذن ربه فيه ، فنص الله تعالى على المنع منه ، وعلى هذا التقدير لا يدل هذا النهي على القدح في العصمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 190 . 191 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَيْءٌ ﴾ فيه قولان

الأول : أن معناه ليس لك من قصة هذه الواقعة ومن شأن هذه الحادثة شيء وعلى هذا فنقل عن المفسرين عبارات

أحدها : ليس لك من مصالح عبادي شيء إلا ما أوحي إليك

وثانيها : ليس لك من مسألة إهلاكهم شيء ، لأنه تعالى أعلم بالمصالح فربما تاب عليهم

وثالثها : ليس لك في أن يتوب الله عليهم ، ولا في أن يعذبهم شيء .

والقول الثاني : أن المراد هو الأمر الذي يضاد النهي ، والمعنى : ليس لك من أمر خلقي شيء إلا إذا كان على وفق أمري ، وهو كقوله ﴿ أَلاَ لَهُ الحكم ﴾ [الأنعام : 62] وقوله ﴿لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ [الروم : 4] وعلى القولين فالمقصود من الآية منعه صلى الله عليه وسلم من كل فعل وقول إلا ما كان بإذنه وأمره وهذا هو الإرشاد إلى أكمل درجات العبودية ، ثم اختلفوا في أن المنع من اللعن لأي معنى كان ؟ منهم من قال الحكمة فيه أنه تعالى ربما علم من حال بعض الكفار أنه يتوب ، أو إن لم يتب لكنه علم أنه سيولد منه ولد يكون مسلماً براً تقياً ، وكل من كان كذلك ، فإن اللائق برحمة الله تعالى أن يمهله في الدنيا وأن يصرف عنه الآفات إلى أن يتوب أو إلى أن يحصل ذلك الولد فإذا حصل دعاء الرسول عليهم بالإهلاك ، فإن قبلت دعوته فات هذا المقصود ، وإن لم تقبل دعوته كان ذلك كالاستخفاف بالرسول صلى الله عليه وسلم ، فلأجل هذا المعنى منعه الله تعالى من اللعن وأمره بأن يفوض الكل إلى علم الله تعالى ، ومنهم من قال : المقصود منه إظهار عجز العبودية

وأن لا يخوض العبد في أسرار الله تعالى في ملكه وملكوته ، هذا هو الأحسن عندي والأوفق لمعرفة الأصول الدالة على حقيقة الربوبية والعبودية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 191 ﴾

فصل

قال القرطبى :

قال علماؤنا : قوله عليه السّلام : "كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم " استبعاد لِتوفيق مَن فَعل ذلك به .

(156/129)

وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَيْءٌ ﴾ تقريب لما استبعده وإطماع في إسلامهم ، ولما أُطْمِع في ذلك قال صلى الله عليه وسلم : " اللَّهُمَّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " كما في صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : كأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : " رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " قال علماؤنا : فالحاكي في حديث ابن مسعود هو الرسول عليه الصّلاة والسّلام ، وهو المحكي عنه ؛ بدليل ما قد جاء صريحاً مبيِّناً .

أنه عليه الصَّلاة والسَّلام لما كُسرت رَباعيته وشُجّ وجهه يوم أحُد شقّ ذلك على أصحابه شقّاً شديداً وقالوا : لو دعوت عليهما فقال : " إني لم أبعث لَعّاناً ولكني بعثت داعِياً ورحمة ، اللَّهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " فكأنه عليه السَّلام أوحي إليه بذلك قبل وقوع قضية أحُد ، ولم يعيّن له ذلك النّبيّ ؛ فلما وقع له ذلك تعَيّن أنه المعنيُّ بذلك بدليل ما ذكرنا .

ويُبيِّنه أيضاً ما قاله عمر له في بعض كلامه : بأبي أنت وأمّي يا رسول الله ! لقد دعا نوح على قومه فقال : ﴿ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ [نوح : 26] الآية .

ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا من عند آخرنا ؛ فقد وُطِيء ظهرك وأدْمي وجهك وكُسِرت رَبَاعيتك فأبيت أن تقول إلاَّ خيراً ، فقلت : " رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " .

وقوله : " اشتد غضب الله على قوم كسروا رباعية نبيهم " يعني بذلك المباشرَ لذلك ، وقد ذكرنا اسمه على اختلاف في ذلك ، وإنما قلنا إن خصوص في المباشر ؛ لأنه قد أسلم جماعة ممن شهد أحُداً وحسن إسلامهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 199 . 200 ﴾

فصل

قال الفخر :

ذكر الفرّاء والزجاج وغيرهما في هذه الآية قولين

أحدهما : أن قوله ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ عطف على ما قبله ، والتقدير : ليقطع طرفاً من الذين كفروا ، أو يكبتهم ، أو يتوب عليهم ، أو يعذبهم ، ويكون قوله ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَىْءٌ ﴾ كالكلام الأجنبي الواقع بين المعطوف والمعطوف عليه ، كما تقول : ضربت زيداً ، فاعلم ذلك عمراً ، فعلى هذا القول هذه الآية متصلة بما قبلها .

والقول الثاني : أن معنى ﴿ أَوْ ﴾ ههنا معنى حتى ، أو إلا أن كقولك : لألزمنك أو تعطيني حقي والمعنى : إلا أن تعطيني أو حتى تعطيني ، ومعنى الآية ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم ، أو يعذبهم فتتشفى منهم . انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 191 ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ مفسر عند أصحابنا بخلق التوبة فيهم وذلك عبارة عن خلق الندم فيهم على ما مضى ، وخلق العزم فيهم على أن لا يفعلوا مثل ذلك في المستقبل قال أصحابنا : وهذا المعنى متأكد ببرهان العقل وذلك لأن الندم عبارة عن حصول إرادة في المضي متعلقة بترك فعل من الأفعال في المستقبل ، وحصول الإرادات والكراهات في

القلب لا يكون بفعل العبد ، لأن فعل العبد مسبوق بالإرادة ، فلو كانت الإرادات فعلاً للعبد لافتقر العبد في فعل تلك الإرادة إلى إرادة أخرى ويلزم التسلسل وهو محال ، فعلمنا أن حصول الإرادة والكراهات في القلب ليس إلا بتخليق الله تعالى وتكوينه إبتداء ، ولما كانت التوبة عبارة عن الندم والعزم ، وكل ذلك من جنس الإرادات والكراهات ، علمنا أن التوبة لا تحصل للعبد إلا بخلق الله تعالى ، فصار هذا البرهان مطابقاً لما دل عليه ظاهر القرآن ، هو قوله ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾

(158/129)

وأما المعتزلة فإنهم فسروا قوله ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ إما بفعل الألطاف أو بقبول التوبة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 191.192 ﴾

فصل

قال القرطبى :

زعم بعض الكوفيين أن هذ الآية ناسخة للقُنُوت الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعله بعد الركوع في الركعة الأخيرة من الصبح ، واحتج .

بحديث ابن عمر أنه سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول في صلاة الفجر بعد رفع رأسه من

الركوع فقال : " اللَّهُمَّ ربنا ولك الحمد في الآخرة ثم قال اللَّهُمَّ العن فلاناً وفلاناً " فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ الآية .

أخرجه البخاريّ ، وأخرجه مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة أتّم منه .

وليس هذا موضع نسخ وإنما نَبّه الله تعالى نبيه على أن الأمر ليس إليه ، وأنه لا يعلم من الغيب شيئاً إلاَّ ما أعلمه ، وأن الأمر كله لله يتوب على من يشاء ويعجل العقوبة لمن يشاء .

والتقدير : ليس لك من الأمر شيء ولله ما في السموات وما في الأرض دونك ودونهم يغفر لمن يشاء ويتوب على من يشاء .

فلا نسخ ، والله أعلم ، وبيّن بقوله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَيْءٌ ﴾ أن الأمور بقضاء الله وقدره رَدّاً على القدرية وغيرهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 200 ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ ظالمون ﴾

فصل

قال الفخر :

إن كان الغرض من الآية منعه من الدعاء على الكفر صح الكلام وهو أنه تعالى سماهم ظالمين ، لأن الشرك ظلم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] وإن كان الغرض منها منعه من الدعاء على المسلمين الذين خالفوا أمره صح الكلام أيضاً ، لأن من

عصى الله فقد ظلم نفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 192 ﴾

فائدة

قال الفخر :

(159/129)

يحتمل أن يكون المراد من العذاب المذكور في هذه الآية عذاب الدنيا ، وهو القتل والأسر وأن يكون عذاب الآخرة ، وعلى التقديرين فعلم ذلك مفوض إلى الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 192 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ ظالمون ﴾ جملة مستقلة ، إلا أن المقصود من ذكرها تعليل حسن التعذيب ، والمعنى : أو يعذبهم فإنه إن عذبهم إنما يعذبهم لأنهم ظالمون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 192 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ أَوْ يَتُوبَ ﴾ في نصبه أوجهٌ :

أحدها : أنه معطوف على الأفعال المنصوبة قبلَه ، تقديره : لِيقطَعَ ، أو يتوبَ عليهم ، أو يكبتهم ، أو يعذبهم .

وعلى هذا فيكون قوله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمرِ شَيْءٌ ﴾ جملة معترضة بين المتعاطِفَيْن ، والمعنى : إن الله تعالى هو المالك لأمرهم ، فإنْ شاء قطع طرفاً منهم ، أو هزمهم ، أو يتوب عليهم إن أسلموا ورجعوا ، أو يعذبهم إن تمادَوْا على كُفْرهم ، وإلى هذا التخريج ذهب جماعة من النحاة كالفراء ، والزجاج .

الثاني : أن "أو" هنا بمعنى "إلا أن" كقولهم : لألزمنك أو تقضين حقي أي : إلا أن تقتضينه .

الثالث : "أوْ" بمعنى : "حتى" ، أي : ليس لك من الأمر شيء حتى يتوب وعلى هذين القولين فالكلام متصل بقوله : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ ، والمعنى : ليس لك من الأمر شيء إلا أن يتوب عليهم بالإسلام ، فيحصل لك سرور بهدايتهم إليه ، أو يعذبهم بقتل ، أو نار في الآخرة ، فتشفى بهم ، وممن ذهب إلى ذلك الفراء ، وأبو بكر بن الأنباري ، قال الفراء : ومثل هذا من الكلام : لألزمنك أو تعطيني ، على معنى إلا أن تُعطيني وحتى تعطيني

وأنشدوا في ذلك قول امرئ القيس : [الطويل]

فَقُلْتُ لَهُ : لاَ تَبْكِ عَيْنُكَ إنَّمَا . . . تُحَاوِلُ مُلْكاً ، أوْ تَمُوتَ ، فَنُعْذَرَا

أراد : حتى تموت ، أو : إلا أن تموت .

قال شهاب الدين : " وفي تقدير بيت امرئ القيس بـ " حتى " نظر ؛ إذ ليس المعنى عليه ؛ لأنه لم يفعل ذلك لأجل هذه الغاية ، والنحويون لم يقدروه إلا بمعنى : إلا أنْ " .

الثالث : منصوب بإضمار : " أنْ " عطفاً على قوله : " الأمر " ، كأنه قيل : ليس لك من الأمر أو من توبته عليهم ، أو تعذيبهم شيء ، فلما كان في تأويل الاسم عُطِفَ على الاسم قبلَه ، فهو من باب قوله : [الطويل]

فَلَوْلاَ رِجَالٌ مِنْ رِزَامٍ أعِزَّةٌ . . . وَآلُ سُبَيْعٍ ، أوْ أسُوءَكَ عَلْقَمَا

وقوله : [الوافر]

لَلُبْسُ عَبَاءَةٍ ، وَتَقَرَّ عَيْنِي . . . أحَبُّ إلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ

الرابع : أنه معطوف - بالتأويل المذكور - على " شَيْءٌ " ، والتقدير : ليس لك من الأمر شيء ، أو توبة الله عليهم ، أو تعذيبهم ، أي : ليس لك - أيضاً - توبتهم ولا تعذيبهم ، إنما ذلك راجع إلى الله عز وجل .

وقرأ أُبَيّ : أو يتوبُ ، أو يعذبهم ، برفعهما على الاستئناف في جملة اسمية ، أضْمِر مبتدؤُها

، أي : هو يتوبُ ، ويعذبُهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 530 .

531 ﴾

من فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

وجملة ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ معترضة بين المتعاطفات ، والخطاب للنَّبيء صلى الله عليه وسلم فيجوز أن تُحْمَل على صريح لفظها ، فيكون المعنى نفي أن يكون للنَّبيء ، أي لقتاله الكفارَ بجيشه من المسلمين ، تأثير في حصول النَّصر يوم بدر ، فإن المسلمين كانوا في قلّة من كُلّ جانب من جوانب القتال ، أي فالنصر حصل بمحض فضل الله على المسلمين ، وهذا من معنى قوله : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ [الأنفال : 17] .

(161/129)

ولفظ (الأمر) من قوله : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ معناه الشأن ، و(أل) فيه للعهد ، أي من الشأن الذي عرفتموه وهو النَّصر .

ويجوز أن تحمل الجملة على أنَّها كناية عن صرف النَّبيء عليْه الصلاة والسلام عن الاشتغال

بشأن ما صنع الله بالّذين كفروا ، من قطع طرَفهم ، وكبْتِهم أو توبة عليهم ، أو تعذيب لهم : أي فذلك موكول إلينا نحقّقُه متى أردنا ، ويتخلّف متى أردنا على حسب ما تقتضيه حكمتنا ، وذلك كالاعتذار عن تخلّف نصر المُسلمين يوم أُحُد .

فلفظ (الأمر) بمعنى شأن المشركين .

والتعريفُ فيه عوض عن المضاف إليه ، أي ليس لك من أمرهم اهتمام .

وهذا تذكير بما كان للنّبيء صلى الله عليه وسلم يوم بدر من تخوّف ظهور المشركين عليه ، وإلحاحه في الدّعاء بالنّصر .

ولعلّ النّبيء صلى الله عليه وسلم كان يوَدّ استئصال جميع المشركين يوم بدر حيث وجد مقتضى ذلك وهو نزول الملائكة لإهلاكهم ، فذكّره الله بذلك أنّه لم يقدّر استيصالهم جميعاً بل جعل الانتقام منهم ألواناً فانتقم من طائفة بقطع طرَف منهم ، ومن بقيّتهم بالكَبْتِ ، وهو الحزن على قتلاهم ، وذهاب رؤسائهم ، واختلال أمورهم ، واستبقى طائفة ليتوب عليهم ويهديهم ، فيكونوا قوّة للمسلمين فيؤمنوا بعد ذلك ، وهم من آمن من أهل مكّة قبل الفتح ، ويوم الفتح : مثل أبي سفيان ، والحارث بن هشام أخي أبي جهل ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، وخالد بن الوليد ، وعذّب طائفة عذاب الدنيا بالأسر ، أو بالقتل : مثل ابن خَطل ، والنضْر بن الحارث ، فلذلك قيل له : "ليس لك من الأمر شيء" .

ووضعت هذه الجملة بين المتعاطفات ليظهر أنّ المراد من الأمر هو الأمر الدائر بين هذه الأحوال الأربعة من أحوال المشركين، أي ليس لك من أمر هذه الأحوال الأربعة شيء ولكنّه موكول إلى الله، هو أعلم بما سيصيرون إليه وجَعل هذه الجملة قبل قوله: ﴿ أو يتوب عليهم ﴾ استئناس للنَّبيء صلى الله عليه وسلم إذ قُدّم ما يدلّ على الانتقام منهم لأجله، ثُمّ أردف بما يدلّ على العفو عنهم، ثُمّ أردف بما يدلّ على عقابهم، ففي بعض هذه الأحوال إرضاء له من جانب الانتصار له، وفي بعضها إرضاء له من جانب تطويعهم له.

ولأجل هذا المقصد عاد الكلام إلى بقية عقوبات المشركين بقوله تعالى: ﴿ أو يعذبهم ﴾.

ولكون التَّذكير بيوم بدر وقع في خلال الإشارة إلى وقعة أُحُد، كأنّ في هذا التَّقسيم إيماء إلى ما يصلح بياناً لِحكمة الهزيمة اللاحقة المسلمين يوم أُحُد، إذ كان في استبقاء كثير من المشركين، لم يصبهم القتلُ يومئذ، ادّخار فريق عظيم منهم للإسلام فيما بعد، بَعْد أن حصل رعبهم من المسلمين بوقعة بدر، وإن حسِبوا للمسلمين أي حساب بما شاهدوه من شجاعتهم يوم أُحُد، وإن لم ينتصروا.

ولا يستقيم أن يكون قوله: ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ متعلّقاً بأحوال يوم أُحُد: لأنّ سياق الكلام ينبو عنه، وحال المشركين يوم أُحُد لا يناسبه قولُه: ﴿ ليقطع طرفاً من الذين

كفروا ﴾ إلى قوله : ﴿ خائبين ﴾ .

ووقع في "صَحِيح مسلم" ، عن أنس بن مالك : أنّ النَّبي ء صلى الله عليه وسلم شُجّ وجهه ، وكُسرت رباعيته يوم أحُد ، وجاء المسلمون يمسحون الدم عن وجه نبيّهم ، فقال النَّبي ء عليْه السَّلام : "كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيّهم وهو يدعوهم إلى ربّهم " أي في حال أنَّه يدعوهم إلى الخير عند ربّهم ، فنزلت الآية ، ومعناه : لا تستَبْعِد فلاحهم .

(163/129)

ولا شكّ أن قوله فنزلت هذه الآية مُتأوّل على إرادة : فذُكّر النَّبي ء صلى الله عليه وسلم بهذه الآية ، لظهور أن ما ذكروه غير صالح لأن يكون سبباً لأنّ النَّبي ء تعجّب من فلاحهم أو استبعده ، ولم يدّع لنفسه شيئًا ، أو عملاً ، حتَّى يقال : "ليس لك من الأمر شيء" .

وروى الترمذي : أنّ النَّبي ء صلى الله عليه وسلم دعا على أربعة من المشركين ، وسمّى أناساً ، فنزلت هذه الآية لنهيه عن ذلك ، ثُمّ أسلموا .

وقيل : إنَّه همّ بالدعاء ، أو استأذن الله أن يدعو عليهم بالاستيصال ، فنهى .

ويردّ هذه الوجوه ما في "صحيح مسلم" ، عن ابن مسعود ، قال : كأنِّي أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبيئًا من الأنبياء ضربه قومه ، وهو يمسح الدم عن وجهه ،

وهو يقول : ربّ اغفر لقومي فإنَّهم لا يعلمون .

وورد أنَّه لمَّا شجّ وجهه يوم أحُد قال له أصحابه : لو دعوت عليهم ، فقال : إنِّي لم أبعث لَعَّاناً ، ولكِنِّي بعثت داعياً ورحمة ، اللَّهُمّ اهْدِ قومي فإنَّهم لا يعلمون .

وما ثبت من خُلقه صلى الله عليه وسلم أنَّه كان لا ينتقم لنفسه .

وأغرَبَ جماعة فقالوا نزل قوله : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ نسخاً لما كان يدعو به النَّبيء صلى الله عليه وسلم في قنوته على رِعْل ، وذكْوان ، وعُصية ، ولِحْيان ، الَّذين قتلوا أصحاب بئر معونة ، وسندهم في ذلك ما وقع في "البخاري" أنّ النَّبيء صلى الله عليه وسلم لم يزل يدعو عليهم ، حتَّى أنزل الله : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ .

قال ابن عطية : وهذا كلام ضعيف كله وليس هذا من مواضع الناسخ والمنسوخ.

وكيف يصحّ أن تكون نزلت لنسخ ذلك وهي متوسطة بين علل النَّصر الواقع يوم بدر .

(164/129)

وتفسيرُ ما وقع في "صحيح البخاري" من حديث أبي هريرة : أنّ النبي صلى الله عليه وسلم ترك الدعاء على المشركين بعد نزول هذه الآية أخذاً بكامل الأدب ، لأنّ الله لمَّا أعلمه في هذا بما يدلّ على أن الله أعلَمُ بما فيه نفع الإسلام ، ونقمة الكفر ، ترك الدعاء

عليهم إذ لعلّهم أن يسلموا .

وإذ جعلنا دعاءه صلى الله عليه وسلم على قبائل من المشركين في القنوت شرعاً تقرّر بالاجتهاد في موضع الإباحة لأن أصل الدعاء على العدوّ مباح ، فتركه لذلك بعد نزول هذه الآية ، من قبيل النسخ بالقياس ، نسخت حكم الإباحة التي هي استواء الفعل والترك بإثبات حكم أولوية الفعل .

ومنهم من أبعد المرمى ، وزعم أن قوله : ﴿ أو يتوب عليهم ﴾ منصوب بأن مضمرة وجوباً ، وأنّ (أو) بمعنى حتّى : أي ليس لك من أمر إيمانهم شيء حتّى يتوب الله عليهم ، أي لا يؤمنون إلاّ إذا تاب عليهم ، وهل يجهل هذا أحد حتّى يحتاج إلى بيانه ، على أن الجملة وقعت بين علل النصر ، فكيف يشتّت الكلام ، وتنتثر المتعاطفات .

ومنهم من جعل ﴿ أو يتوب عليهم ﴾ عطفاً على قوله ﴿ الأمر ﴾ أو على قوله ﴿ شيء ﴾ ، من عطف الفعل على اسم خالص بإضمار أنْ على سبيل الجواز ، أي ليس لك من أمرهم أو توبتهم شيء ، أو ليس لك من الأمر شيء أو توبة عليهم .

فإن قلت : هلاّ جمع العقوبات متوالية : فقال ليقطع طرفاً من الّذين كفروا ، أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ، أو يتوبَ عليهم ، أو يعذّبهم ، قلت : روعي قضاء حقّ جمع النظير أولاً ، وجمع الضدّين ثانياً ، بجمع القَطْع والكبْتِ ، ثم جمع التوبة والعذاب ، على نحو ما أجاب به أبو الطيب عن نقد من نقد قوله في سيف الدّولة :

وقفتَ وما في الموت شَكّ لواقف . . .

كأَنَّك في جفن الردى وهو نائم

تَمُرّ بك الأبطال كَلْمى حزينة . . .

ووَجْهُك وَضّاح وثَغرك باسم

(165/129)

إذ قدّم من صفتيه تشبيهه بكونه في جفن الردى لمناسبة الموت ، وأخَّر الحال وهي ووجهك وضّاح لمضادّة قوله كلمى حزينة ، في قصة مذكورة في كتب الأدب .

واللام الجارّة لام الملك ، وكاف الخطاب لمعيّن ، وهو الرسول عليه الصّلاة والسّلام .

وهذه الجملة تجري مجرى المثل إذ ركبت تركيباً وجيزاً محذوفاً منه بعض الكلمات ، ولم أظفر ، فيما حفظت من غير القرآن ، بأنَّها كانت مستعملة عند العرب ، فلعلّها من مبتكرات القرآن ، وقريب منها قوله : ﴿ وما أملك لك من اللَّه من شيء ﴾ [الممتحنة : 4] وسيجيء قريب منها في قوله الآتي : ﴿ يقولون هل لنا من الأمر من شيء ﴾ [آل عمران : 154] و ﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾ [آل عمران : 154] فإن كانت حكاية قولهم بلفظه ، فقد دلّ على أنّ هذه الكلمة مستعملة عند

العرب، وإن كان حكاية بالمعنى فلا.

وقوله: ﴿ فإنهم ظالمون ﴾ إشارة إلى أنَّهم بالعقوبة أجدر، وأنّ التّوبة عليهم إن وقعت فضل من الله تعالى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 213. 216 ﴾

(166/129)

وقال العلامة أبو السعود:

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَيْءٌ ﴾ اعتراضٌ وُسّط بين المعطوف عليه المتعلّقِ بالعاجل والمعطوفِ المتعلّقِ بالآجل لتحقيق أن لا تأثيرَ للمنصورين إثرَ بيانِ أن لا تأثيرَ للناصرين، وتخصيصُ النفيِ برسول الله صلى الله عليه وسلم على طريق تلوينِ الخطابِ للدلالة على الانتفاءِ من غيره بالطريق الأولى، وإنما خُصّ الاعتراضُ بموقعه لأن ما قبله من القطع والكبْتِ من مظانّ أن يكونَ فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولسائر مباشري القتالِ مدخلٌ في الجملة ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذّبَهُمْ ﴾ عطفٌ على يكبتَهم والمعنى أن مالِكَ أمرِهم على الإطلاق هو الله عز وجل نصركم عليهم ليُهلكَهم أو يكبتَهم أو يتوبَ عليهم إن أسلموا أو يعذبَهم إن أصرّوا (على الكفر) وليس لك من أمرهم شيءٌ إنما أنت عبدٌ مأمورٌ بإنذارهم وجهادِهم والمرادُ بتعذيبهم التعذيبُ الشديدُ الأخرويُّ المخصوصُ بأشد الكفَرة

كفراً ، وإلا فمطلقُ التعذيبِ الأخرويّ متحققٌ في الفريقين الأولين أيضاً ، ونظمُ التوبةِ والتعذيبِ المذكورِ في سلك العلةِ الغائيةِ للنصر المترتبةِ عليه في الوجود من حيث إن قبولَ توبتِهم فرْعُ تحققِها الناشئِ من علمهم بحقية الإسلامِ بسبب غلبةِ أهلِه المترتبةِ على النصر ، وأن تعذيبَهم بالعذاب المذكورِ مترتبٌ على إصرارهم على الكفر بعد تبيُّنِ الحقّ على الوجه المذكورِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 83.82 ﴾

(167/129)

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذّبَهُمْ ﴾ عطف إما على ﴿ الأمر ﴾ أو على ﴿ شَىْء ﴾ بإضمار أن أي ليس لك من أمرهم شيء أو من التوبة عليهم أو من تعذيبهم شيء ، أو ليس لك من أمرهم شيء أو التوبة عليهم أو تعذيبهم ، وفرقوا بين الوجهين بأنه على الأول : سلب ما يتبع التوبة والتعذيب منه صلى الله عليه وسلم بالكلية من القبول والرد والخلاص من العذاب والمنع من النجاة .

وعلى الثاني : سلب نفس التوبة والتعذيب منه عليه الصلاة والسلام يعني لا يقدر أن

يجبرهم على التوبة ولا يمنعهم عنها ولا يقدر أن يعذبهم ولا أن يعفو عنهم فإن الأمور كلها بيد الله تعالى ، وعلى التقديرين هو من عطف الخاص على العام كما قال العلامة الثاني لكن في مجيء مثل هذا العطف بكلمة ﴿ أَوْ ﴾ نظر ، وتعقبه بعضهم بأن هذا إذا كان الأمر بمعنى الشأن ولك أن تجعله بمعنى التكليف والإيجاب أي ليس ما تأمرهم به من عندك وليس الأمر بيدك ولا التوبة ولا التعذيب فليس هناك عطف الخاص على العام ، وفيه أن الحمل على التكليف تكلف ، والحمل على الشأن أرفع شأناً .

(168/129)

ونقل عن الفراء وابن الأنباري أن ﴿ أَوْ ﴾ بمعنى إلا أن ، والمعنى ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله تعالى عليهم بالإسلام فتفرح أو يعذبهم فتشتفي بهم وأياً مّا كان فالجملة كلام مستأنف سيق لبيان بعض الأمور المتعلقة بغزوة أحد أو ما يشبهها إثر بيان ما يتعلق بغزوة بدر لما بينهما من التناسب من حيث إن كلاًّ منهما مبني على اختصاص الأمر كله بالله تعالى ومبني على سلبه عمن سواه ، وقيل : إن كل ما في هذه الآيات في غزوة أحد على ما أشرنا إليه ، وقيل : إن قوله تعالى : ﴿ أَوْيَتُوبَ ﴾ الخ عطف على ﴿ فَيَنقَلِبُواْ ﴾ [آل عمران : 127] أي يكون ثمرة خزيهم انقلابهم خائبين أو التوب عليهم أو تعذيبهم ، أو

عطف على ﴿ يَكْبِتَهُمْ ﴾ [آل عمران : 127] و﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَىْءٌ ﴾ اعتراض وسط بين المعطوف عليه المتعلق بالعاجل والمعطوف المتعلق بالآجل لتحقيق أن لا تأثير للمنصورين إثر بيان أن لا تأثير للناصرين وتخصيص النفي برسول الله صلى الله عليه وسلم على طريق تلوين الخطاب للدلالة على الانتفاء من غيره من باب أولى وإنما خص الاعتراض بموقعه لأن ما قبله من القطع والكبت من مظان أن يكون فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولسائر مباشري القتال مدخل في الجملة ، والمعنى إن مالك أمرهم على الإطلاق وهو الله تعالى نصركم عليهم ليهلكهم أو يكبتهم أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذبهم إن أصروا ، وليس لك من أمرهم شيء إن أنت إلا عبد مأمور بإنذارهم وجهادهم .

(169/129)

والمراد بتعذيبهم التعذيب الشديد الأخروي المخصوص بأشد الكفرة كفراً وإلا فمطلق التعذيب الأخروي متحقق في الفريقين الأولين وحمله على التعذيب الدنيوي بالأسر واستيلاء المؤمنين عليهم خلاف المتبادر من التعذيب عند الإطلاق وكذا لا يلائم ظاهر قوله سبحانه : ﴿ فَإِنَّهُمْ ظالمون ﴾ فإنه في مقام التعليل لهذا التعذيب وأكثر ما يعلل به

التعذيب الأخروي ، نعم حمله على التعذيب الدنيوي أوفق بالمعنى الذي ذكره الفراء وابن الأنباري لأن التشفي في الغالب إنما يكون في الدنيا ونظم التوبة والتعذيب الأخروي في سلك العلة الغائية للنصر المترتبة عليه في الوجود من حيث إن قبول توبتهم فرع تحققها الناشىء من علمهم بحقية الإسلام بسبب غلبة أهله المترتبة على النصر الذي هو من الآيات الغر المحجلة وأن تعذيبهم المذكور شيء مسبب على إصرارهم على الكفر بعد تبين الحق على الوجه المذكور كما ينبىء عن ذلك قوله تعالى :

(170/129)

﴿ لّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيّنَةٍ ويحيى مَنْ حَىَّ عَن بَيّنَةٍ ﴾ [الأنفال : 42] وإن فسر بالأسر مثلاً كان أمر التسبب مكشوفاً لا مرية فيه ، واستشكلت هذه الآية بناءاً على أنها تدل على ما في بعض الروايات على أنه صلى الله عليه وسلم كان فعل فعلاً ومنع منه بأنه إن كان ذلك الفعل من الله تعالى فكيف منعه منه وإن لم يكن فهو قادح بالعصمة ومناف لقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ [النجم : 3] ، وأجيب بأن ما وقع كان من باب خلاف الأولى نظراً إلى منصبه صلى الله عليه وسلم ، والنهي المفهوم من الكلام من باب الإرشاد إلى اختيار الأفضل ولا يعد ذلك من الهوى في شيء بناءاً على القول بأنه يصح للنبي أن

يجتهد ويعمل بما أدى إليه اجتهاده المأذون به. وجوز أن يكون ذلك الفعل نفسه عن وحي وإذن من الله تعالى له صلى الله عليه وسلم به وأن النهي عن ذلك كان نسخاً لذلك الإذن وأياً مّا كان لا ينافي العصمة الثابتة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام فافهم. انتهى انتهى. اهـ

﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 50. 51 ﴾

(171/129)

ومن فوائد البيضاوى فى الآية

قال رحمه الله:

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَيْءٌ ﴾ اعتراض. ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ عطف على قوله أو يكبتهم، والمعنى أن الله مالك أمرهم فإما أن يهلكهم أو يكبتهم أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذبهم إن أصروا وليس لك من أمرهم شيء، وإنما أنت عبد مأمور لإنذارهم وجهادهم. ويحتمل أن يكون معطوفاً على الأمر أو شيء بإضمار أن، أي ليس لك من أمرهم أو من التوبة عليهم أو من تعذيبهم شيء. أو ليس لك من أمرهم شيء، أو التوبة عليهم أو تعذيبهم. وأن تكون أو بمعنى إلا أن. أي ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتسر به أو يعذبهم فتشفي منهم. روي (أن عتبة بن أبي وقاص شجهُ يوم أحد

وكسر رباعيته ، فجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول "كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم" فنزلت . وقيل هم أن يدعوا عليهم فنهاه الله لعلمه بأن فيهم من يؤمن . ﴿ فَإِنَّهُمْ ظالمون ﴾ قد استحقوا التعذيب بظلمهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 90 ﴾

(172/129)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾

أي ليس لك يا محمد من الأمر شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بتوبتهم ، إو يعذبهم ، فلا يحزنك ذلك لأنهم ظالمون أي ما عليك يا محمد إلاّ البلاغ فقط . أما هم فقد ظلموا أنفسهم بالكفر . والظلم كما نعرف هو أخذ الحق من ذي الحق وإعطاؤه لغيره . وقمة الظلم هو إضفاء صفة الألوهية على غير الله, وهو الشرك . ولذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

[لقمان : 13]

إن الحق يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [آل عمران : 128]

وهذه مسألة لم تخرج عن ملك الله ، لماذا ؟ لأن السماوات والأرض وما فيهن ملك لله : قيل أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم – بعد أن خضّب المشركون وجهه بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم – أراد عليه الصلاة والسلام أن يدعو عليهم فنهاه الله لعلمه – سبحانه – أن فيهم من يؤمن وأنزل قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص 1739.1738 ﴾

(173/129)

قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (129) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان التقدير : بل الأمر له سبحانه وحده عطف عليه قوله - مبيناً لقدرته على ما قدم من فعله بهم على وجه أعم - : ﴿ ولله ﴾ أي الملك الأعظم وحده ﴿ ما في السماوات ﴾ أي كلها على عظمها من عاقل وغيره ، وعبر بـ " ما " لأن غير العاقل أكثر وهي به أجدر ﴿ وما في الأرض ﴾ كذلك مِلكاً ومُلكاً فهو يفعل في مِلكه ومُلكه ما يشاء ، وفي التعبير بـ " ما " أيضاً إشارة إلى أن الكفرة الذين السياق لهم في عداد ما لا يعقل .

ولما كانت الأقسام كلها راجعة إلى قسمين : عافية وعذاب ، قال - مترجماً لذلك مقرراً لقوله : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ [آل عمران : 128] : ﴿ يغفر لمن يشاء ﴾ أي منهم ومن غيرهم فيعطيه ما يشاء من خيري الدنيا والآخرة ويغنيه عن الربا وغيره ﴿ ويعذب من يشاء ﴾ بالمنع عما يريد من خيري الدارين ، لا اعتراض عليه ، فلو عذب الطائع ونعّم العاصي لحسن منه ذلك ، ولا يقبح منه شيء ، ولا اعتراض بوجه عليه ، هذا مدلول الآية وهو لا يقتضي أنه يفعل أو لا يفعل .

ولما كان صلى الله عليه وسلم لشدة غيظه عليهم في الله جديراً بالانتقام منهم بدعاء أو غيره أشار له سبحانه إلى العفو للحث على التخلق بأخلاق الله الذي سبقت رحمته غضبه بقوله : ﴿ والله ﴾ أي المختص بالجلال والإكرام ﴿ غفور رحيم ﴾ أي محاء للذنوب عيناً وأثراً ، مكرم بعد ذلك بأنواع الإكرام ، فانطبق ذلك على إيضاح ﴿ ليس لك ﴾ [آل عمران : 128] وإفهامه الموجب لاعتقاد أن يكون له سبحانه وتعالى الأمر

وحده .

ولما أنزل عليه ذلك وما في آخر النحل مما للصابرين والعافين حرم المثلة واشتد نهيه صلى الله عليه وسلم عنها ، فكان لا يخطب خطبة إلا منع منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 151.152 ﴾

وقال الفخر :

إن المقصود من هذا تأكيد ما ذكره أولاً من قوله ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَىْء ﴾ [آل عمران : 28] والمعنى أن الأمر إنما يكون لمن له الملك ، وملك السموات والأرض وليس إلا الله تعالى فالأمر في السموات والأرض ليس إلا لله ، وهذا برهان قاطع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 192 ﴾

(174/129)

وقال الآلوسى :

﴿ وَللَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان اختصاص ملكية جميع الكائنات به تعالى إثر بيان اختصاص طرف من ذلك به عز شأنه تقريراً لما سبق وتكملة له ؛ وتقديم الخبر للقصر ، و﴿ مَا ﴾ عامة للعقلاء وغيرهم تغليباً أي له سبحانه

ما في هذين النوعين ، أو ما في هاتين الجهتين مُلكاً ومِلكاً وخلقاً واقتداراً لا مدخل لأحد معه في ذلك فالأمر كله له يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 51 ﴾

فائدة

قال الفخر :

إنما قال : ﴿ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ ولم يقل (من) لأن المراد الإشارة إلى الحقائق والماهيات ، فدخل فيه الكل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 192 ﴾

قوله تعالى ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذّبُ مَن يَشَاء ﴾

قال السمرقندى :

﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء ﴾ وقال الضحاك : يغفر لمن يشاء الذنب العظيم ، ﴿ وَيُعَذّبُ مَن يَشَاء ﴾ على الذنب الصغير إذا أصرّ على ذلك ﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 270 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ لما تقدّم قوله : أو يتوب عليهم أو يعذبهم ، أتى بهذه الجملة موضحةً أن تصرفاته تعالى على وفق مشيئته ، وناسب البداءة بالغفران ،

والإرداف بالعذاب ما تقدم من قوله : أو يتوب عليهم أو يعذبهم ، ولم يشرط في الغفران هنا التوبة .

إذ يغفر تعالى لمن يشاء من تائب وغير تائب ، ما عدا ما استثناه تعالى من الشرك .

وقال الزمخشري ما نصه عن الحسن رحمه الله : يغفر لمن يشاء بالتوبة ، ولا يشاء أن يغفر إلا للتائبين .

ويعذب من يشاء ، ولا يشاء أن يعذب إلا المستوجبين للعذاب .

وعن عطاء : يغفر لمن يتوب إليه ، ويعذب من لقيه ظالماً وأتباعه قوله : أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ، تفسير بين لمن يشاء ، فإنهم المتوب عليهم أو الظالمون .

(175/129)

ولكن أهل الأهواء والبدع يتصامون ويتعامون عن آيات الله تعالى ، فيخبطون خبط عشواء ، ويطيبون أنفسهم بما يفترون .

عن ابن عباس من قولهم : يهب الذنب الكبير لمن يشاء ، ويعذب من يشاء على الذنب الصغير .

انتهى كلامه .

وهو مذهب المعتزلة .

وذلك أن من مات مصراً على كبيرة لا يغفر الله له .

وما ذكره عن الحسن لا يصح ألبتّة .

ومذهب أهل السنة ؛ أنّ الله تعالى يغفر لمن يشاء وإنْ مات مصرًّا على كبيرة غير تائب منها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 57 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن أصحابنا يحتجون بهذه الآية على أنه سبحانه له أن يدخل الجنة بحكم إلهيته جميع الكفار والمردة ، وله أن يدخل النار بحكم إلهيته جميع المقربين والصدّيقين وأنه لا اعتراض عليه في فعل هذه الأشياء ودلالة الآية على هذا المعنى ظاهرة والبرهان العقلي يؤكد ذلك أيضاً ، وذلك أن فعل العبد يتوقف على الإرادة وتلك الإرادة مخلوقة لله تعالى ، فإذا خلق الله تلك الإرادة أطاع ، وإذا خلق النوع الآخر من الإرادة عصى ، فطاعة العبد من الله ومعصيته أيضاً من الله ، وفعل الله لا يوجب على الله شيئاً ألبتة ، فلا الطاعة توجب الثواب ، ولا المعصية توجب العقاب ، بل الكل من الله بحكم إلهيته وقهره وقدرته ، فصح ما ادعيناه أنه لو شاء يعذب جميع المقربين حسن منه ، ولو شاء يرحم جميع الفراعنة حسن

منه ذلك ، وهذا البرهان هو الذي دل عليه ظاهر قوله تعالى : ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 192 . 193 ﴾

(176/129)

من فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

وظاهر الآية يدل على أن مغفرة الله تعالى وتعذيبه غير مقيدين بشيء بل قد يدّعي أن التقييد مناف للسوق إذ هو لإثبات أنه سبحانه المالك على الإطلاق فله أن يفعل ما يشاء لا مانع له من مشيئته ولو كانت مغفرته مقيدة بالتوبة وتعذيبه بالظلم لم يكن فاعلاً لما يشاء بل لما تستدعيه التوبة أو الظلم ، فالآية ظاهرة في نفي الوجوب على الله تعالى وأنه يجوز أن يغفر سبحانه للمذنب ويعذب المصلح وهو مذهب الجماعة وذهب المعتزلة إلى أن المغفرة مشروطة بالتوبة فمن لم يتب لا يجوز أن يغفر له أصلاً ، وتمسكوا في ذلك بوجهين : الأول : الآيات والأحاديث الناطقة بوعيد العصاة ،

(177/129)

الثاني : أن المذنب إذا علم أنه لا يعاقب على ذنبه كان ذلك تقريراً له وإغراءاً للغير عليه وهذا ينافي حكمة إرسال الرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم ، وحملوا هذه الآية على التقييد وخصوا أمثالها من المطلقات بالصغائر أو الكبائر المقرونة بالتوبة ، وقالوا : إن المراد يغفر لمن يشاء إذا تاب وجعلوا القرينة على ذلك أنه تعالى عقب قوله سبحانه : ﴿ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ [آل عمران : 128] بقوله جل شأنه : ﴿ فَإِنَّهُمْ ظالمون ﴾ [آل عمران : 128] وهو دليل على أن الظلم هو السبب الموجب فلا تعذيب بدونه ولا مغفرة مع وجوده فهو مفسر ﴿ لِمَن يَشَاء ﴾ وأيدوا كون المراد ذلك بما روي عن الحسن في الآية ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء ﴾ بالتوبة ولا يشاء أن يغفر إلا للتائبين ﴿ وَيُعَذّبُ مَن يَشَاء ﴾ ولا يشاء أن يعذب إلا للمستوجبين ، وبما روي عن عطاء ﴿ يَغْفِرُ لِمَن ﴾ يتوب عليه ﴿ وَيُعَذّبُ مَن ﴾ لقيه ظالماً ؛ والجماعة تمسكوا بإطلاق الآيات ، وأجابوا عن متمسك المخالف ، أما عن الأول : فبأن تلك الآيات والأحاديث على تقدير عمومها إنما تدل على الوقوع دون الوجوب ، والنزاع فيه على أن كثرة النصوص في العفو تخصص المذنب المغفور عن عمومات الوعيد ، وأما عن الثاني : فبأن مجرد جواز العفو لا يوجب ظن عدم العقاب فضلاً عن الجزم به ، وكيف يوجب جواز العفو العلم بعدم العقاب والعمومات الواردة في الوعيد

المقرونة بغاية من التهديد ترجح جانب الوقوع بالنسبة إلى كل واحد وكفى به زاجراً فكيف يكون العلم بجواز العفو تقريرا وإغراءاً على الذنب مع هذا الزاجر .

(178/129)

وأيضاً إن الكثير من المعتزلة خصوا مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ﴾ [الزمر : 53] بالصغائر فلو كان جواز العفو مستلزماً كما زعموا للعلم بعدم العقاب لزم اشتراك الإلزام بأن يقال : إن المرتكب للصغائر إذا علم أنه لا يعاقب على ذنبه كان ذلك تقريراً له وإغراءاً للغير عليه وفيه من الفساد ما فيه ، وما جعلوه قرينة على التقييد معارض بما يدل على الإطلاق أعني قوله : ﴿ وَللَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ فإنه معطوف معنى على قوله جل اسمه : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَىْء ﴾ [آل عمران : 128] ويدل ذلك على أن له سبحانه التصرف المطلق وهو على خلاف ما يقولون حيث جعلوا تصرفه ومشيئته مقيداً بأن يكون على مقتضى الحكمة والحكمة تقتضي عدم غفران من لم يتب ولا يخفى أنه في حيز المنع لأن المشيئة والحكمة كلاهما من صفاته تعالى لا تتبع إحداهما الأخرى وبتقدير الاستتباع لا نسلم أن الحكمة تقتضي عدم غفران من لم يتب على أن تعقيب أو يعذبهم بقوله عز وجل : ﴿ فَإِنَّهُمْ ظالمون ﴾ [آل عمران : 128] لا يدل على

أكثر من أن الظلم مفض إلى التعذيب ومن يمنع الإفضاء إنما المنع على أن يكون تفسيراً ﴿ لِمَن يَشَاء ﴾ وأين الدلالة على أن كل ظلم كذلك ولا عموم للفظ ولا هو من قبيل مفهوم الصفة ليصلح متمسكاً في الجملة ، وما نقل عن الحسن وعطاء لا يعرف له سند أصلاً ومن ادعاه فليأت به إن كان من الصادقين ، ومما يدل على كذبه أن فيه حجراً على الرحمة الواسعة وتضييق مسالكها من غير دليل قطعي ولا يظن بمثل الحسن هذا القبيح سلمنا الصدق وعدم لزوم ما ذكر لكن قول الحسن ونحوه لا يترك له ظاهر الكتاب والحق أحق بالاتباع . فإن قال الخصم : نحن نتمسك في هذا المطلب بلزوم الخلف قلنا : يكون رجوعاً إلى الاستدلال بالمعقول ، وقد

(179/129)

أذقناكم الموت الأحمر فيه لا بالآيات فتبقى دلالة هذه الآية على عمومها ، وهو مطلوبنا هنا على أن هذه الآية واردة في الكفار على أكثر الروايات ، ومعتقد الجماعة أن المغفرة في حقهم مشروطة بالتوبة من الكفر والرجوع إلى الإيمان كما يفصح عنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ [النساء : 48] وليسوا محل خلاف بين الطائفتين فمن استدل بها من المعتزلة على غرضه الفاسد فقد ضل سواء السبيل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 53.51 ﴾

سؤال : فإن قيل : أليس أنه ثبت أنه لا يغفر للكفار ولا يعذب الملائكة والأنبياء ؟ .

قلنا : مدلول الآية أنه لو أراد لفعل ولا اعتراض عليه ، وهذا القدر لا يقتضي أنه يفعل أو لا يفعل ، وهذا الكلام في غاية الظهور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 193 ﴾

فصل

قال الطبرى فى معنى الآية :

يعني بذلك تعالى ذكره : ليس لك يا محمد ، من الأمر شيء ، ولله جميع ما بين أقطار السموات والأرض من مشرق الشمس إلى مغربها ، دونك ودونهم ، يحكم فيهم بما يشاء ، ويقضي فيهم ما أحب ، فيتوب على من أحب من خلقه العاصين أمرَه ونهيه ، ثم يغفر له ، ويعاقب من شاء منهم على جرمه فينتقم منه ، وهو الغفور الذي يستر ذنوب من أحب أن يستر عليه ذنوبه من خلقه بفضله عليهم بالعفو والصفح ، والرحيم بهم في تركه عقوبتهم عاجلا على عظيم ما يأتون من المآثم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 7 صـ 203 ﴾

قوله تعالى ﴿ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

قال الفخر :

المقصود بيان أنه وإن حسن كل ذلك منه إلا أن جانب الرحمة والمغفرة غالب لا على سبيل الوجوب بل على سبيل الفضل والإحسان. انتهى انتهى. ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 8 صـ 193﴾

(180/129)

وقال الآلوسى :

﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ تذييل مقرر لمضمون قوله تعالى : ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء ﴾ مع زيادة ، وفي تخصيص التذييل به إشارة إلى ترجيح جهة الإحسان والإنعام ، وفيه ما يؤيد مذهب الجماعة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿روح المعانى حـ 4 صـ 53﴾

فائدة

قال أبو حيان :

﴿ والله غفور رحيم ﴾ في هذه الجملة ترجيح لجهة الإحسان والإنعام. انتهى انتهى. ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 3 صـ 57﴾

فصل

قال أبو السعود :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ كلامٌ مستأنفٌ سيق لبيان اختصاصِ ملكوتِ كلِّ الكائناتِ به عز وجل إثرَ بيانِ اختصاصِ طرَفٍ من ذلك به سبحانه تقريراً لما سبق وتكملةً له. وتقديمُ الجارِّ للقصر، وكلمةُ ﴿ مَا ﴾ شاملةٌ للعقلاء أيضاً تغليباً أي له ما فيهما من الموجودات خلقاً ومُلكاً لا مدخَلَ فيه لأحد أصلاً فله الأمرُ كلُّه ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء ﴾ أن يغفرَ له مشيئةً مبنيةً على الحِكمة والمصلحة ﴿ وُيُعَذّبُ مَن يَشَاء ﴾ أن يعذِّبَه بعمله مشيئةً كذلك. وإيثارُ كلمة ﴿ مِنْ ﴾ في الموضعين لاختصاص المغفرةِ والتعذيبِ بالعقلاء، وتقديمُ المغفرة على التعذيب للإيذان بسبق رحمتِه تعالى غضبَه وبأنها من مقتَضيات الذاتِ دونه فإنه من مقتضيات سيئاتِ العُصاة، وهذا صريحٌ في نفي وجوبِ التعذيب، والتقييدُ بالتوبة وعدمِها كالمنافي له ﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ تذييلٌ مقرر لمضمون قوله تعالى: ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء ﴾ مع زيادة، وفي تخصيص التذييلِ به دون قرينةٍ من الاعتناء بشأن المغفرة والرحمةِ ما لا يخفى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 84 ﴾

(181/129)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (128) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (129) ﴾

الإله من له الأمر والنهي ، فلمّا لم يكن له في الإلهية نظير لم يكن له – (صلى الله عليه وسلم) – من الأمر والنهي شيء .

ويقال جرّده – بما عرّفه وخاطبه – عن كلِّ غيرٍ ونصيب ودعوى ، حيث أخبر أنه ليس له من الأمر شيء ، فإذا لم يجُزْ أن يكون لسيِّد الأولين والآخرين شيء من الأمر فَمَنْ نزلت رتبتُه عن منزلته فمتى يكون له شيء من الأمر ؟

ويقال استأثر (بسَتْرِ عباده في حكمه) فقال أنا الذي أتوب على من أشاء من عبادي وأعذِّب من أشاء ، والعواقب عليك مستورة ، وإنك – يا محمد – لا تدري سرى فيهم .

ويقال أقامه في وقتٍ مقاماً فقالت : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى ﴾ [الأنفال : 17] رمى بقبضة من التراب فأصاب جميع الوجوه ، وقال له في وقت آخر : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ ثم زاد في البيان فقال : ﴿ وَللهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴾ .

فإذا كان المُلْك ملكه ، والأمر أمره ، والحكم حكمه – فَمَنْ شاء عذَّبه ، ومن شاء قرَّبه ،

ومن شاء هداه، ومن شاء أغواه. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 1 صـ 276﴾

(182/129)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾

إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ وَعَشَرَاتٍ بَعْدَهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ غَزْوَةِ أُحُدٍ وَيَتَوَقَّفُ فَهْمُهَا عَلَى الْوُقُوفِ عَلَى قِصَّةِ تِلْكَ الْغَزْوَةِ وَلَوْ إِجْمَالًا . فَوَجَبَ لِذَلِكَ أَنْ نَأْتِيَ قَبْلَ تَفْسِيرِهَا مَا يُعِينُ الْقَارِئَ عَلَى فَهْمِهَا وَيُبَيِّنُ لَهُ مَوَاقِعَ تِلْكَ الْأَخْبَارِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْحِكَمِ وَالْأَحْكَامِ ، فَنَقُولُ :

غَزْوَةُ أُحُدٍ لَمَّا خَذَلَ اللهُ الْمُشْرِكِينَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَرَجَعَ فَلُّهُمْ إِلَى مَكَّةَ مَقْهُورِينَ مَوْتُورِينَ نَذَرَ

(183/129)

أَبو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ أَلَّا يمسَّ رَأْسَهُ مَاءٌ مِنْ جَنَابَةٍ حَتَّى يَغْزُوَ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَخَرَجَ فِي مِائَةِ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ حَتَّى أَتَى بَنِي النَّضِيرِ لَيْلًا وَبَاتَ لَيْلَةً وَاحِدَةً عِنْدَ سَلَّامِ بْنِ مِشْكَمٍ الْيَهُودِيِّ سَيِّدِ بَنِي النَّضِيرِ وَصَاحِبِ كَنْزِهِمْ فَسَقَاهُ الْخَمْرَ وَبَطَّنَ لَهُ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ ، ثُمَّ خَرَجَ فِي عَقِبِ لَيْلَتِهِ وَأَرْسَلَ أَصْحَابَهُ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ الْمَدِينَةِ . يُقَالُ لَهَا الْعُرَيْضُ ، فَقَطَّعُوا وَحَرَّقُوا صُورًا مِنَ النَّخْلِ ، وَرَأَوْا رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ وَحَلِيفًا لَهُ فَقَتَلُوهُمَا ، وَنَذِرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَخَرَجَ فِي طَلَبِهِمْ ، فَلَمْ يُدْرِكْهُمْ ; لِأَنَّهُمْ فَرُّوا وَأَلْقَوْا سَوِيقًا كَثِيرًا مِنْ أَزْوَادِهِمْ يَتَخَفَّفُونَ بِهِ فَسُمِّيَتْ غَزْوَةُ السَّوِيقِ . وَكَانَتْ بَعْدَ بَدْرٍ بِشَهْرَيْنِ ، وَإِنَّمَا ذَكَرْنَاهَا قَبْلَ ذِكْرِ أُحُدٍ لِيَعْلَمَ الْقَارِئُ أَنَّ الْعُدْوَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ كَانَ مُتَّصِلًا مُتَلَاحِقًا ! ! .

وَلَمَّا رَجَعَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى مَكَّةَ أَخَذَ يُؤَلِّبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْمُسْلِمِينَ ، وَكَانَ

بَعْدَ قَتْلِ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ فِي بَدْرٍ هُوَ السَّيِّدَ الرَّئِيسَ فِيهِمْ ، لِذَلِكَ كَلَّمَهُ - فِي أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ - الْمَوْتُورُونَ مِنْ عُظَمَاءِ قُرَيْشٍ ، كَعَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَعِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ وَصَفْوَانَ بْنِ

أُمَيَّةَ لِيَبْذُلَ مَالَ الْعِيرِ الَّتِي كَانَ جَاءَ بِهَا مِنَ الشَّامِ فِي أَخْذِ الثَّأْرِ ، فَرَضِيَ هُوَ وَأَصْحَابُ الْعِيرِ بِذَلِكَ ، وَكَانَ مَالُ الْعِيرِ - كَمَا فِي السِّيرَةِ الْحَلَبِيَّةِ - خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ رَبِحَتْ مِثْلَهَا ، فَبَذَلُوا الرِّبْحَ فِي هَذِهِ الْحَرْبِ ، فَاجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ لِلْحَرْبِ حِينَ فَعَلَ ذَلِكَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ وَخَرَجَتْ بِحَدِّهَا وَأَحَابِيشِهَا وَمَنْ أَطَاعَهَا مِنْ قَبَائِلِ كِنَانَةَ وَأَهْلِ تِهَامَةَ ، فَكَانُوا نَحْوَ ثَلَاثَةِ آلَافٍ وَأَخَذُوا مَعَهُمْ نِسَاءَهُمُ الْتِمَاسَ الْحَفِيظَةِ وَأَلَّا يَفِرُّوا ; فَإِنَّ الْفِرَارَ بِالنِّسَاءِ عَسِرٌ وَالْفِرَارَ دُونَهُنَّ عَارٌ ، وَكَانَ مَعَ أَبِي سُفْيَانَ - وَهُوَ الْقَائِدُ - زَوْجُهُ هِنْدُ ابْنَةُ عُتْبَةَ ، فَكَانَتْ تُحَرِّضُ الْغُلَامَ وَحْشِيًّا الْحَبَشِيَّ الَّذِي أَرْسَلَهُ مَوْلَاهُ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ لِيَقْتُلَ حَمْزَةَ عَمَّ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِعَمِّهِ طُعْمَةَ بْنِ عَدِيٍّ الَّذِي قُتِلَ بِبَدْرٍ ، وَقَدْ عَلَّقَ عِتْقَهُ عَلَى قَتْلِهِ . وَكَانَ هَذَا الْحَبَشِيُّ مَاهِرًا فِي الرَّمْيِ بِالْحَرْبَةِ عَلَى بُعْدٍ قَلَّمَا يُخْطِئُ ، فَكَانَتْ هِنْدُ كُلَّمَا رَأَتْهُ فِي الْجَيْشِ تَقُولُ لَهُ : " وَيْهًا أَبَا دَسَمَةَ اشْفِ وَاشْتَفِ " تُخَاطِبُهُ بِالْكُنْيَةِ تَكْرِيمًا لَهُ .

وَذَكَرَ الْحَلَبِيُّ أَنَّهُمْ سَارُوا أَيْضًا بِالْقِيَانِ

(185/129)

وَالدُّفُوفِ وَالْمَعَازِفِ وَالْخُمُورِ .

نَزَلَ أَبُو سُفْيَانَ بِجَيْشِهِ قَرِيبًا مِنْ أُحُدٍ فِي مَكَانٍ يُقَالُ لَهُ " عِينَيْنِ " عَلَى شَفِيرِ الْوَادِي

مُقَابِلَ الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الثَّالِثَةِ . فَلَمَّا عَلِمَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِذَلِكَ اسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ كَعَادَتِهِ أَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ أَمْ يَمْكُثُ فِي الْمَدِينَةِ ؟ وَكَانَ رَأْيُهُ هُوَ أَنْ يَتَحَصَّنُوا بِالْمَدِينَةِ فَإِنْ دَخَلَهَا الْعَدُوُّ عَلَيْهِمْ قَاتَلُوهُ عَلَى أَفْوَاهِ الْأَزِقَّةِ وَالنِّسَاءُ مِنْ فَوْقِ الْبُيُوتِ ، وَوَافَقَهُ عَلَى هَذَا الرَّأْيِ أَكَابِرُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ - كَمَا فِي السِّيرَةِ الْحَلَبِيَّةِ - وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ، وَكَانَ هُوَ الرَّأْيَ . وَأَشَارَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ أَكْثَرُهُمْ مِنَ الْأَحْدَاثِ وَمِمَّنْ كَانَ فَاتَهُمُ الْخُرُوجُ يَوْمَ بَدْرٍ بِأَنْ يَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لِشِدَّةِ رَغْبَتِهِمْ فِي الْقِتَالِ فَمَا زَالُوا

(186/129)

يُلِحُّونَ عَلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَتَّى دَخَلَ فَلَبِسَ لَأْمَتَهُ بَعْدَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ ، وَكَانَ قَدْ أَوْصَاهُمْ فِي خُطْبَتِهَا وَوَعَدَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ النَّصْرَ مَا صَبَرُوا ، ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْهِمْ وَقَدْ نَدِمَ النَّاسُ ، وَقَالُوا : اسْتَكْرَهْنَا رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَمْ يَكُنْ لَنَا ذَلِكَ ، وَقَالُوا لَهُ : اسْتَكْرَهْنَاكَ وَلَمْ يَكُنْ لَنَا ذَلِكَ ، فَإِنْ شِئْتَ فَاقْعُدْ فَقَالَ : مَا كَانَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ أَيْ لِمَا فِي فَسْخِ الْعَزِيمَةِ بَعْدَ إِحْكَامِهَا وَتَوْثِيقِهَا مِنَ الضَّعْفِ وَمَبَادِئِ الْفَشَلِ وَسُوءِ الْأُسْوَةِ . وَفِي سَحَرِ يَوْمِ السَّبْتِ

خَرَجَ بِأَلْفٍ مِنْ أَصْحَابِهِ وَاسْتَعْمَلَ بِالْمَدِينَةِ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى عَلَى الصَّلَاةِ بِمَنْ بَقِيَ فِيهَا .

(187/129)

فَلَمَّا كَانُوا بِالشَّوْطِ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَأُحُدٍ انْعَزَلَ عَنْهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ رَئِيسُ الْمُنَافِقِينَ بِنَحْوِ ثُلُثِ الْعَسْكَرِ (وَهُمْ 300) وَقَالَ : أَطَاعَهُمْ وَعَصَانِي – وَفِي رِوَايَةٍ أَطَاعَ الْوِلْدَانَ وَمَنْ لَا رَأْيَ لَهُ – فَمَا نَدْرِي عَلَامَ نَقْتُلُ أَنْفُسَنَا هَاهُنَا أَيُّهَا النَّاسُ ، فَرَجَعَ بِمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ قَوْمِ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالرَّيْبِ ، فَتَبِعَهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ أَخُو بَنِي سَلِمَةَ يَقُولُ : يَا قَوْمِ أُذَكِّرُكُمُ اللهَ أَلَّا تَخْذُلُوا قَوْمَكُمْ وَنَبِيَّكُمْ ، تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا . قَالُوا : لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكُمْ تُقَاتِلُونَ لَمْ نَرْجِعْ وَلَكِنْ نَرَى أَنَّهُ لَا يَكُونُ قِتَالٌ . وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ نَحْوَ ثُلُثِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ خَرَجُوا إِلَيْهِمْ فَأَمْسَوْا وَقَدْ ذَهَبَ مِنَ الثُّلُثِ نَحْوُ ثُلُثِهِ ، وَهَمَّتْ بَنُو سَلِمَةَ مِنَ الْأَوْسِ وَبَنُو حَارِثَةَ مِنَ الْخَزْرَجِ أَنْ تَفْشَلَا فَعَصَمَهُمَا اللهُ – تَعَالَى – .

(188/129)

وَقَدْ كَانَ خُرُوجُ الْمُنَافِقِينَ مِنْهُمْ خَيْرًا لَهُمْ كَمَا قَالَ – تَعَالَى – فِي مِثْلِ ذَلِكَ يَوْمَ تَبُوكَ : لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا [9 : 47] الْآيَةَ ، وَإِنَّمَا ارْتَأَى عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ عَدَمَ الْخُرُوجِ لِيَكْتَفِيَ أَمْرَ الْقِتَالِ أَوْ خَطَرَهُ حِرْصًا عَلَى الْحَيَاةِ وَإِيثَارًا لَهَا عَلَى إِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ . فَكَانَ عَلَى مُوَافَقَتِهِ لِلرَّسُولِ فِي الرَّأْيِ مُخَالِفًا لَهُ فِي سَبَبِهِ وَعِلَّتِهِ ، فَالرَّسُولُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَانَ يُرَاعِي فِي جَمِيعِ حُرُوبِهِ الَّتِي كَانَتْ كُلُّهَا دِفَاعًا قَاعِدَةَ ارْتِكَابِ أَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ وَأَبْعَدِ الْأَمْرَيْنِ عَنِ الْعُدْوَانِ رَحْمَةً بِالنَّاسِ وَإِيثَارًا لِلسَّلَامِ ، وَتَعَزَّزَ رَأْيُهُ الْمَبْنِيُّ عَلَى هَذِهِ السُّنَّةِ بِرُؤْيَا رَآهَا قَبْلَ ذَلِكَ – وَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ – رَأَى أَنَّ فِي سَيْفِهِ ثُلْمَةً وَرَأَى أَنَّ بَقَرًا تُذْبَحُ وَأَنَّهُ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ ، فَتَأَوَّلَ الثُّلْمَةَ فِي سَيْفِهِ بِرَجُلٍ يُصَابُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فَكَانَ ذَلِكَ

الرَّجُلُ حَمْزَةَ عَمَّهُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – وَتَأَوَّلَ الْبَقَرَ بِنَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يُقْتَلُونَ ، وَتَأَوَّلَ الدِّرْعَ بِالْمَدِينَةِ .

وَلَكِنَّهُ عَلَى هَذَا كُلِّهِ عَمِلَ بِرَأْيِ الْجُمْهُورِ مِنْ أَصْحَابِهِ إِقَامَةً لِقَاعِدَةِ الشُّورَى الَّتِي أَمَرَهُ اللهُ بِهَا وَهُوَ لَمْ يُخَالِفْ بِذَلِكَ قَاعِدَةَ ارْتِكَابِ أَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ بَلْ جَرَى عَلَيْهَا ; لِأَنَّ مُخَالَفَةَ رَأْيِ

الْجُمْهُورِ وَلَوْ إِلَى خَيْرِ الْأَمْرَيْنِ هَضْمٌ لِحَقِّ الْجَمَاعَةِ وَإِخْلَالٌ بِأَمْرِ الشُّورَى الَّتِي هِيَ أَسَاسُ الْخَيْرِ كُلِّهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ يَكُونُ الْمُكْثُ فِي الْمَدِينَةِ خَيْرًا مِنَ الْخُرُوجِ إِلَى الْعَدُوِّ فِي أُحُدٍ لَوْ لَمْ يَكُنْ مُخِلًّا بِقَاعِدَةِ الشُّورَى - كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ - فَكَيْفَ تَرَكَ الْمُسْلِمُونَ هَذَا الْهَدْيَ النَّبَوِيَّ الْأَعْلَى وَرَضُوا بِأَنْ يَكُونَ مُلُوكُهُمْ وَأُمَرَاؤُهُمْ مُسْتَبِدِّينَ بِالْأَحْكَامِ وَالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ يُدِيرُونَ دُولًا بِهَا بِأَهْوَائِهِمُ الَّتِي لَا تَتَّفِقُ مَعَ الدِّينِ وَلَا مَعَ الْعَقْلِ ؟

وَسَأَلَ قَوْمٌ مِنَ الْأَنْصَارِ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يَسْتَعِينُوا بِحُلَفَائِهِمْ مِنَ الْيَهُودِ فَأَبَى ، وَكَانَ فِي الْحَقِيقَةِ ضِلَعُ الْيَهُودِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ ، وَلَمْ يَكُونُوا فِي عُهُودِهِمْ بِمُوفِينَ .

(190/129)

وَمَضَى النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِأَصْحَابِهِ حَتَّى مَرَّ بِهِمْ فِي حَرَّةِ بَنِي حَارِثَةَ وَقَالَ لَهُمْ : " مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ بِنَا عَلَى الْقَوْمِ مِنْ كَثَبٍ - قُرْبٍ - لَا يَمُرُّ بِنَا عَلَيْهِمْ " ؟ فَقَالَ أَبُو خَيْثَمَةَ أَخُو بَنِي حَارِثَةَ بْنِ الْحَارِثِ : أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ ، فَنَفَذَ بِهِ فِي حَرَّةِ قَوْمِهِ بَنِي حَارِثَةَ وَبَيْنَ أَمْوَالِهِمْ حَتَّى سَلَكَ فِي مَالٍ لِمِرْبَعِ بْنِ قَيْظِيٍّ - وَكَانَ رَجُلًا مُنَافِقًا ضَرِيرَ الْبَصَرِ - فَلَمَّا سَمِعَ حِسَّ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَصْحَابِهِ قَامَ يَحْثُو فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ وَيَقُولُ : إِنْ كُنْتَ رَسُولَ اللهِ فَلَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ حَائِطِي . قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : وَقَدْ ذُكِرَ لِي

أَنَّهُ أَخَذَ حَفْنَةً مِنْ تُرَابٍ فِي يَدِهِ ثُمَّ قَالَ : وَاللهِ لَوْ أَنِّي أَعْلَمُ لَا أُصِيبُ بِهَا غَيْرَكَ يَا مُحَمَّدُ لَضَرَبْتُ بِهَا وَجْهَكَ ، فَابْتَدَرَهُ الْقَوْمُ لِيَقْتُلُوهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : لَا تَقْتُلُوهُ فَهَذَا الْأَعْمَى أَعْمَى الْقَلْبِ أَعْمَى الْبَصَرِ وَفِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مِنْ عِلْمِ النَّبِيِّ بِفَنِّ الْحَرْبِ : الْإِرْشَادُ إِلَى اخْتِيَارِ أَقْرَبِ الطُّرُقِ إِلَى الْعَدُوِّ وَأَخْفَاهَا عَنْهُ ، وَذَلِكَ يَتَوَقَّفُ عَلَى الْعِلْمِ بِخَرْتِ الْأَرْضِ الَّذِي يُعْرَفُ الْيَوْمَ بِعِلْمِ الْجُغْرَافِيَةِ . وَإِبَاحَةُ الْمُرُورِ فِي مِلْكِ النَّاسِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى ذَلِكَ لِتَقْدِيمِ الْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ عَلَى الْمَصْلَحَةِ الْخَاصَّةِ . وَفِيهَا مِنْ رَحْمَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

(191/129)

أَنَّهُ لَمْ يَأْذَنْ بِقَتْلِ ذَلِكَ الْمُنَافِقِ الْمُجَاهِرِ بِعَدَائِهِ بَلْ رَحِمَهُ وَعَذَرَهُ ، وَلَمْ تَكُنِ الْمَصْلَحَةُ الْعَامَّةُ تَتَوَقَّفُ عَلَى قَتْلِهِ .

وَلَمْ تَكُنِ الْعَرَبُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ تُرَاعِي هَذِهِ الدِّقَّةَ فِي حِفْظِ الدِّمَاءِ بَلْ قَلَّمَا تُرَاعِيهِ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ .

وَمَضَى رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَتَّى نَزَلَ الشِّعْبَ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ فِي عُدْوَةِ الْوَادِي إِلَى الْجَبَلِ ، فَجَعَلَ ظَهْرَهُ وَعَسْكَرَهُ إِلَى أُحُدٍ وَقَالَ : " لَا يُقَاتِلَنَّ أَحَدٌ حَتَّى نَأْمُرَ

بِالْقِتَالِ " وَفِي ذَلِكَ مِنْ أَحْكَامِ الْحَرْبِ أَنَّ الرَّئِيسَ هُوَ الَّذِي يَفْتَحُهَا ، وَمَا كَانَتِ الْعَرَبُ تُرَاعِي ذَلِكَ دَائِمًا لَا سِيَّمَا إِذَا حَدَثَ مَا يُثِيرُ حَمِيَّتَهُمْ ، وَقَدِ امْتَثَلُوا الْأَمْرَ عَلَى اسْتِشْرَافٍ ، وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ

الْأَنْصَارِ - وَقَدْ رَأَى قُرَيْشًا قَدْ سَرَّحَتِ الظَّهْرَ وَالْكُرَاعَ فِي زُرُوعِ الْمُسْلِمِينَ - أَتَرْعَى زُرُوعُ بَنِي قَيْلَةَ وَلَمَّا نُضَارِبْ ؟ وَفِيهِ مِنَ الْفَوَائِدِ مَا لَا مَحَلَّ لِشَرْحِهِ هُنَا .

(192/129)

فَلَمَّا أَصْبَحَ يَوْمُ السَّبْتِ تَعَبَّى لِلْقِتَالِ وَهُوَ فِي سَبْعِمِائَةٍ فِيهِمْ خَمْسُونَ فَارِسًا ، وَظَاهَرَ بَيْنَ دِرْعَيْنِ ; أَيْ لَبِسَ دِرْعًا فَوْقَ دِرْعٍ ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الرُّمَاةِ - وَكَانُوا خَمْسِينَ - عَبْدَ اللهِ بْنَ جُبَيْرٍ أَخَا بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ، وَهُوَ مُعَلَّمٌ يَوْمَئِذٍ بِثِيَابٍ بِيضٍ وَقَالَ : " انْضَحِ الْخَيْلَ عَنَّا بِالنَّبْلِ لَا يَأْتُونَا مِنْ خَلْفِنَا ، إِنْ كَانَتْ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا فَاثْبُتْ مَكَانَكَ لَا نُؤْتَيَنَّ مِنْ قِبَلِكَ " وَدَفَعَ اللِّوَاءَ إِلَى مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ أَخِي بَنِي عَبْدِ الدَّارِ ، وَجَعَلَ عَلَى إِحْدَى الْمُجَنِّبَتَيْنِ الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ وَعَلَى الْأُخْرَى الْمُنْذِرَ بْنَ عَمْرٍو .

ثُمَّ اسْتَعْرَضَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الشُّبَّانَ يَوْمَئِذٍ ، فَرَدَّ مَنِ اسْتَصْغَرَهُ عَنِ الْقِتَالِ وَهُمْ سَبْعَةَ عَشَرَ ، وَأَجَازَ أَفْرَادًا مِنْ أَبْنَاءِ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ ، قِيلَ : لِسِنِّهِمْ ، وَقِيلَ : لِبِنْيَتِهِمْ

وَطَاقَتِهِمْ وَلَعَلَّهُ الصَّوَابُ ; فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ رَدَّ سَمُرَةَ بْنَ جُنْدُبٍ وَرَافِعَ بْنَ خَدِيجٍ وَلَهُمَا خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ، فَقِيلَ لَهُ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ رَافِعًا رَامٍ فَأَجَازَهُ ، فَقِيلَ لَهُ فَإِنَّ سَمُرَةَ يَصْرَعُ رَافِعًا فَأَجَازَهُ ، وَرُوِيَ أَنَّهُمَا تَصَارَعَا أَمَامَهُ . وَرَدَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ وَعَمْرَو بْنَ حَزْمٍ وَأُسَيْدَ بْنَ ظُهَيْرٍ وَالْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ ثُمَّ أَجَازَهُمْ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَهُمْ أَبْنَاءُ خَمْسَ عَشْرَةَ ، إِذْ كَانُوا يُطِيقُونَ الْقِتَالَ فِي هَذِهِ السِّنِّ كَمَا هُوَ الْغَالِبُ فِي الْعَرَبِ يَوْمَئِذٍ .

(193/129)

وَتَعَبَّتْ قُرَيْشٌ وَهُمْ ثَلَاثَةُ آلَافِ رَجُلٍ مَعَهُمْ مِائَتَا فَرَسٍ قَدْ جَنَّبُوهَا ، فَجَعَلُوا عَلَى مَيْمَنَةِ الْخَيْلِ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، وَعَلَى مَيْسَرَتِهَا عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ ، وَابْتَدَأَتِ الْحَرْبُ بِالْمُبَارَزَةِ . وَلَمَّا اشْتَبَكَ الْقِتَالُ وَالْتَقَى النَّاسُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ قَامَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ فِي النِّسْوَةِ اللَّاتِي مَعَهَا وَأَخَذْنَ الدُّفُوفَ يَضْرِبْنَ خَلْفَ الرِّجَالِ وَيُحَرِّضْنَهُمْ فَقَالَتْ هِنْدٌ فِيمَا تَقُولُ :

وَيْهًا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ . . . وَيْهًا حُمَاةَ الْأَدْبَارِ . . . ضَرْبًا بِكُلِّ بَتَّارِ

إِنْ تُقْبِلُوا نُعَانِقْ . . . وَنَفْرِشِ النَّمَارِقْ

أَوْ تُدْبِرُوا نُفَارِقْ . . . فِرَاقَ غَيْرِ وَامِقْ

وَرُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَانَ يَقُولُ عِنْدَ سَمَاعِ نَشِيدِ النِّسَاءِ : اللهُمَّ بِكَ أَحُولُ وَبِكَ أَصُولُ ، وَفِيكَ أُقَاتِلُ ، حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

(194/129)

وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ بَدَرَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَبُو عَامِرٍ عَبْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ صَيْفِيٍّ وَكَانَ رَأْسَ الْأَوْسِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ شَرِقَ بِهِ وَجَاهَرَ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِالْعَدَاوَةِ وَخَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ يُؤَلِّبُ قُرَيْشًا عَلَى قِتَالِهِ ، وَيَزْعُمُ أَنَّ قَوْمَهُ إِذَا رَأَوْهُ أَطَاعُوهُ وَمَالُوا مَعَهُ ، وَكَانَ يُسَمَّى الرَّاهِبَ فَسَمَّاهُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِالْفَاسِقِ . وَلَمَّا بَرَزَ نَادَى قَوْمَهُ وَتَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ ، قَالُوا لَهُ : لَا أَنْعَمَ اللهُ بِكَ عَيْنًا يَا فَاسِقُ . فَقَالَ : لَقَدْ أَصَابَ قَوْمِي بَعْدِي شَرٌّ ، وَقَاتَلَ قِتَالًا شَدِيدًا ، وَقَدْ كَانَ الظَّفَرُ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْمُبَارَزَةِ ثُمَّ فِي الْمُلَاحَمَةِ ، وَأَبْلَى يَوْمَئِذٍ

أَبُو دُجَانَةَ الْأَنْصَارِيُّ الَّذِي أَعْطَاهُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – سَيْفَهُ ، وَحَمْزَةُ أَسَدُ اللهِ وَأَسَدُ رَسُولِهِ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَالنَّضْرُ بْنُ أَنَسٍ ، وَسَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ وَغَيْرُهُمْ بَلَاءً عَظِيمًا حَتَّى انْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ وَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ . وَرُوِيَ أَنَّ حَمْزَةَ قَتَلَ 31 مُشْرِكًا .

(195/129)

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : حدَّثَنِي غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ قَالَ : وَجَدْتُ فِي نَفْسِي حِينَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – السَّيْفَ فَمَنَعَنِيهِ وَأَعْطَاهُ أَبَا دُجَانَةَ ، وَقُلْتُ : أَنَا ابْنُ صَفِيَّةَ عَمَّتِهِ وَمِنْ قُرَيْشٍ ، وَقَدْ قُمْتُ إلَيْهِ فَسَأَلْتُهُ إيَّاهُ قَبْلَهُ وَأَعْطَاهُ وَتَرَكَنِي ، وَاللهِ لَأَنْظُرَنَّ مَاذَا يَصْنَعُ ، فَاتَّبَعْتُهُ ، فَأَخْرَجَ عِصَابَةً لَهُ حَمْرَاءَ فَعَصَبَ بِهَا رَأْسَهُ ، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ : أَخْرَجَ أَبُو دُجَانَةَ عِصَابَةَ الْمَوْتِ ، وَهَكَذَا كَانَتْ تَقُولُ لَهُ إذَا تَعَصَّبَ بِهَا ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ :

أَنَا الَّذِي عَاهَدَنِي خَلِيلِي . . . وَنَحْنُ بِالسَّفْحِ لَدَى النَّخِيلِ

أَلَّا أَقُومَ الدَّهْرَ فِي الْكَيُّولِ . . . أَضْرِبُ بِسَيْفِ اللهِ وَالرَّسُولِ

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ فَجَعَلَ لَا يَلْقَى أَحَدًا إلَّا قَتَلَهُ . إلَى آخِرِ مَا قَالَ . وَمِمَّا كَانَ مِنْهُ أَنَّهُ وَصَلَ إلَى هِنْدٍ امْرَأَةِ أَبِي سُفْيَانَ قَائِدِ الْمُشْرِكِينَ فَوَضَعَ السَّيْفَ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهَا وَلَمْ يَقْتُلْهَا .

قَالَ : رَأَيْتُ إنْسَانًا يَحْمُشُ حَمْشًا شَدِيدًا فَصَمَدْتُ لَهُ فَلَمَّا حَمَلْتُ

عَلَيْهِ ولَوَلَ فإذا امْرأَةٌ ، فأَكْرَمْتُ سَيْفَ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ أَقْتُلَ بِهِ امْرأَةً . ومِنْ فَوائِدِ مَسْأَلَةِ إِعْطَاءِ السَّيْفِ أَبَا دُجانَةَ : أَنَّ مِنْ سِيَاسَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُحابِي قَوْمَهُ ولَا ذِي الْقُرْبَى عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُهاجِرِينَ ولَا الْمُهاجِرِينَ عَلَى الْأَنْصارِ ، ولَوْلَا ذَلِكَ لَمَا انْتُزِعَتْ مِنْ قُلُوبِهِمْ عَصَبِيَّةُ الْجِنْسِيَّةِ الْجاهِلِيَّةِ .

(197/129)

لَمَّا انْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ ووَلَّوْا إِلَى نِسَائِهِمْ مُدْبِرِينَ ورَأَى الرُّمَاةُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ هَزِيمَتَهُمْ تَرَكَ الرُّمَاةُ مَرْكَزَهُمُ الَّذِي أَمَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِحِفْظِهِ وأَلَّا يدعوه سَوَاءٌ كَانَ الظَّفَرُ لِلْمُسْلِمِينَ أَوْ عَلَيْهِمْ " وإِنْ رَأَوُا الطَّيْرَ تَتَخَطَّفُ الْعَسْكَرَ " لِئَلَّا يَكُرَّ عَلَيْهِمُ الْمُشْرِكُونَ ويَأْتُوهُمْ مِنْ ورَائِهِمْ ، وهُوَ مَا يُعَبَّرُ عَنْهُ فِي الِاصْطِلاحِ الْعَسْكَرِيِّ بِخَطِّ الرَّجْعَةِ . وقَالُوا : يَا قَوْمِ الْغَنِيمَةَ الْغَنِيمَةَ ، فَذَكَّرَهُمْ أَمِيرُهُمْ عَهْدَ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَلَمْ يَرْجِعُوا وظَنُّوا أَنْ لَيْسَ لِلْمُشْرِكِينَ رَجْعَةٌ ، فَذَهَبُوا فِي طَلَبِ الْغَنِيمَةِ وأَخْلُوا الثَّغْرَ ، فَلَمَّا رَأَى فُرْسَانُ الْمُشْرِكِينَ الثَّغْرَ قَدْ خَلَا مِنَ الرُّمَاةِ كَرُّوا حَتَّى أَقْبَلَ آخِرُهُمْ فَأَحَاطُوا بِالْمُسْلِمِينَ وأَبْلَوْا فِيهِمْ ، حَتَّى خَلَصُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَجَرَحُوا وَجْهَهُ الشَّرِيفَ وكَسَرُوا رُبَاعِيَّتَهُ الْيُمْنَى مِنْ ثَنَايَاهُ السُّفْلَى وهَشَّمُوا الْبَيْضَةَ الَّتِي عَلَى رَأْسِهِ ودَثُّوهُ

بِالْحِجَارَةِ حَتَّى سَقَطَ لِشِقِّهِ وَوَقَعَ فِي حُفْرَةٍ مِنَ الْحُفَرِ الَّتِي كَانَ أَبُو عَامِرٍ الْفَاسِقُ يَكِيدُ بِهَا الْمُسْلِمِينَ، فَأَخَذَ عَلِيٌّ بِيَدِهِ وَاحْتَضَنَهُ طَلْحَةُ

ابْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ . وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى أَذَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَمِئَةَ وَعُتْبَةُ بْنُ أَبِي وَقَّاص، وَقُتِلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ بَيْنَ يَدَيْهِ فَدَفَعَ اللِّوَاءَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِب، وَنَشِبَتْ حَلْقَتَانِ مِنْ حِلَقِ الْمِغْفَرِ فِي وَجْنَتِهِ فَانْتَزَعَهُمَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، عَضَّ عَلَيْهِمَا حَتَّى سَقَطَتْ ثَنِيَاهُ مِنْ شِدَّةِ غَوْصِهِمَا فِي وَجْهِهِ، وَامْتَصَّ مَالِكُ بْنُ سِنَانٍ وَالِدُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ الدَّمَ مِنْ وَجْنَتِهِ، وَطَمِعَ فِيهِ الْمُشْرِكُونَ فَأَدْرَكُوهُ يُرِيدُونَ مِنْهُ مَا اللَّهُ عَاصِمُهُ إِيَّاهُ مِنْهُ بِقَوْلِهِ: وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ [5 : 67] وَحَالَ دُونَهُ نَفَرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَحْوُ عَشَرَةٍ حَتَّى قُتِلُوا، ثُمَّ جَالَدَهُمْ طَلْحَةُ حَتَّى أَجْهَضَهُمْ عَنْهُ، وَتَرَّسَ عَلَيْهِ أَبُو دُجَانَةَ بِنَفْسِهِ فَكَانَ يَقَعُ النَّبْلُ عَلَى ظَهْرِهِ وَهُوَ لَا يَتَحَرَّكُ حَتَّى كَثُرَ فِيهِ، وَدَافَعَ عَنْهُ أَيْضًا بَعْضُ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي شَهِدْنَ الْقِتَالَ .

قَالَ ابْنُ هِشَام: وَقَاتَلَتْ أُمُّ عُمَارَةَ نَسِيبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ الْمَازِنِيَّةُ يَوْمَ أُحُدٍ فَذَكَرَ سَعِيدُ بْنُ أَبِي زَيْدٍ الْأَنْصَارِيُّ أَنَّ أُمَّ سَعْدٍ بِنْتَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ كَانَتْ تَقُولُ:

دَخَلْتُ عَلَى أُمِّ عُمَارَةَ فَقُلْتُ لَهَا : يَا خَالَهْ أَخْبِرِينِي خَبَرَكِ ، فَقَالَتْ : خَرَجْتُ أَوَّلَ النَّهَارِ وَأَنَا أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُ النَّاسُ وَمَعِي سِقَاءٌ فِيهِ مَاءٌ ، فَانْتَهَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَهُوَ فِي أَصْحَابِهِ وَالدَّوْلَةُ وَالرِّيحُ لِلْمُسْلِمِينَ ، فَلَمَّا انْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ انْحَزْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقُمْتُ أُبَاشِرُ الْقِتَالَ وَأَذُبُّ عَنْهُ بِالسَّيْفِ وَأَرْمِي عَنِ الْقَوْسِ حَتَّى خَلَصَتِ الْجِرَاحُ إِلَيَّ – فَرَأَيْتُ عَلَى عَاتِقِهَا جُرْحًا أَجْوَفَ لَهُ غَوْرٌ فَقُلْتُ : مَنْ أَصَابَكِ بِهَذَا ؟ فَقَالَتْ : ابْنُ قَمِئَةَ أَقْمَأَهُ اللهُ ، لَمَّا وَلَّى النَّاسُ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَقْبَلَ يَقُولُ : دُلُّونِي عَلَى مُحَمَّدٍ فَلَا نَجَوْتُ إِنْ نَجَا ، فَاعْتَرَضْتُ لَهُ أَنَا وَمُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَأُنَاسٌ مِمَّنْ ثَبَتَ مَعَ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَضَرَبَنِي هَذِهِ الضَّرْبَةَ وَلَكِنْ ضَرَبْتُهُ عَلَى ذَلِكَ ضَرَبَاتٍ ، وَلَكِنَّ عَدُوَّ اللهِ كَانَتْ عَلَيْهِ دِرْعَانِ ، وَأَعْطَتِ امْرَأَةٌ ابْنَهَا السَّيْفَ فَلَمْ يُطِقْ حَمْلَهُ فَشَدَّتْهُ عَلَى سَاعِدِهِ بِنِسْعَةٍ وَأَتَتْ بِهِ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا ابْنِي يُقَاتِلُ عَنْكَ . فَقَالَ " أَيْ بُنَيَّ ! ! احْمِلْ هَاهُنَا " فَجُرِحَ : فَأَتَى النَّبِيَّ فَقَالَ لَهُ : " لَعَلَّكَ جَزِعْتَ ؟ " قَالَ : لَا يَا رَسُولَ اللهِ .

قَالُوا : وَصَرَخَ صَارِخٌ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ . قَالَ الزُّبَيْرُ فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ هِشَامٍ عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ مِنْ وَصْفِهِ لِهَزِيمَةِ الْمُشْرِكِينَ : وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُنِي أَنْظُرُ خَدَمَ هِنْدِ بِنْتِ عُتْبَةَ وَصَوَاحِبِهَا مُشَمِّرَاتٍ هَوَارِبَ مَا دُونَ أَخْذِهِنَّ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ إِذْ مَالَتِ الرُّمَاةُ إِلَى الْعَسْكَرِ حِينَ كَشَفْنَا الْقَوْمَ عَنْهُ وَخَلَّوْا ظُهُورَنَا لِلْخَيْلِ فَأُتِينَا مِنْ خَلْفِنَا وَصَرَخَ صَارِخٌ : " أَلَا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ " فَانْكَفَأَ عَلَيْنَا الْقَوْمُ بَعْدَ أَنْ أَصَبْنَا أَصْحَابَ اللِّوَاءِ حَتَّى مَا يَدْنُو مِنْهُ أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ ، وَوَقَعَ ذَلِكَ فِي نُفُوسِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَانْهَزَمُوا وَكُسِرَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَمَرَّ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ بِقَوْمٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ عُمَرُ وَطَلْحَةُ قَدْ أَلْقَوْا بِأَيْدِيهِمْ فَقَالَ : مَا تَنْظُرُونَ ؟ فَقَالُوا : قُتِلَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ : مَا تَصْنَعُونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدَهُ ؟ قُومُوا فَمُوتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ النَّاسَ وَلَقِيَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ فَقَالَ : يَا سَعْدُ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ الْجَنَّةِ مِنْ دُونِ أُحُدٍ ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ، وَوُجِدَ بِهِ سَبْعُونَ ضَرْبَةً ، وَجُرِحَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ نَحْوَ عِشْرِينَ جِرَاحَةً .

وَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَحْوَ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ عَرَفَهُ تَحْتَ الْمِغْفَرِ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ فَصَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَبْشِرُوا هَذَا رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

(202/129)

فَأَشَارَ بِيَدِهِ أَنِ اسْكُتْ ، وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ وَنَهَضُوا مَعَهُ إِلَى الشِّعْبِ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ وَفِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعَلِيٌّ وَالْحَارِثُ بْنُ الصِّمَّةِ الْأَنْصَارِيُّ وَغَيْرُهُمْ ، وَأَنْزَلَ اللهُ النُّعَاسَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَمَنَةً وَرَحْمَةً فَكَانُوا يُقَاتِلُونَ وَلَا يَشْعُرُونَ بِأَلَمٍ وَلَا خَوْفٍ ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أُفْرِدَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي سَبْعَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَرَجُلَيْنِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ - الْحَدِيثَ ، وَفِيهِ أَنَّ السَّبْعَةَ قُتِلُوا دُونَهُ إِذْ كَانَ يَنْبَرِي لِلدِّفَاعِ عَنْهُ وَاحِدٌ بَعْدَ وَاحِدٍ وَلَمْ يَخْرُجِ الْقُرَشِيَّانِ ، فَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا وَفِي صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ انْصَرَفَ النَّاسُ كُلُّهُمْ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَاءَ إِلَيْهِ ، فَرَأَيْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ رَجُلًا يُقَاتِلُ فَقُلْتُ : كُنْ طَلْحَةَ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي " مَرَّتَيْنِ " فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ أَدْرَكَنِي أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَهُوَ يَشْتَدُّ كَأَنَّهُ طَيْرٌ فَدَفَعْنَا إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَإِذَا طَلْحَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ

صَرِيعًا ، فَقَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – دُونَكُمْ أَخَاكُمْ فَقَدْ أَوْجَبَ أَيْ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ .

وَقَدْ زُلْزِلَ كُلُّ أَحَدٍ سَاعَتَئِذٍ إِلَّا رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَإِنَّهُ لَمْ يَتَحَرَّكْ مِنْ مَكَانِهِ .

(203/129)

وَأَدْرَكَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ وَهُوَ مُقَنَّعٌ بِالْحَدِيدِ عَلَى جَوَادٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ الْعُودُ ، كَانَ يَعْلِفُهُ فِي مَكَّةَ وَيَقُولُ : أَقْتُلُ عَلَيْهِ مُحَمَّدًا . وَكَانَ قَدْ بَلَغَ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – خَبَرُهُ فَقَالَ : بَلْ أَنَا أَقْتُلُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ فَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْهُ اسْتَقْبَلَهُ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ فَقَتَلَ مُصْعَبًا ، وَجَعَلَ يَقُولُ : أَيْنَ هَذَا الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ؟ فَلْيَبْرُزْ لِي فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ نَبِيًّا قَتَلَنِي ، فَتَنَاوَلَ رَسُولُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الْحَرْبَةَ مِنَ الْحَارِثِ بْنِ الصِّمَّةِ فَطَعَنَهُ بِهَا فَجَاءَتْ فِي تَرْقُوَتِهِ مِنْ فُرْجَةٍ بَيْنَ سَابِغَةِ الدِّرْعِ وَالْبَيْضَةِ فَكَرَّ الْخَبِيثُ مُنْهَزِمًا ، فَقَالَ لَهُ الْمُشْرِكُونَ : وَاللهِ مَا بِكَ مِنْ بَأْسٍ ، فَقَالَ : وَاللهِ لَوْ كَانَ مَا بِي بِأَهْلِ ذِي الْمَجَازِ لَمَاتُوا أَجْمَعُونَ ، وَمَاتَ مِنْ ذَلِكَ الْجُرْحِ بِـ " سَرِفَ " مَرْجِعَهُ إِلَى مَكَّةَ – كَذَا فِي سِيرَةِ ابْنِ هِشَامٍ وَالسِّيرَةِ الْحَلَبِيَّةِ – وَذَكَرَ الْأَوَّلُ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَمَّا أَخَذَ الْحَرْبَةَ

مِنْهُ انْتَفَضَ انْتِفَاضَةً تَطَايَرْنَا عَنْهُ تَطَايُرَ الشُّعَرَاءِ عَنْ ظَهْرِ الْبَعِيرِ ثُمَّ طَعَنَهُ طَعْنَةً تَدَأْدَأَ مِنْهَا عَنْ فَرَسِهِ مِرَارًا . وَفِي زَادِ الْمَعَادِ

(204/129)

أَنَّهُ مَاتَ بِرَابِغٍ . أَقُولُ : وَلَمْ يَقْتُلِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي حَيَاتِهِ أَحَدًا سِوَاهُ ; لِأَنَّهُ عَلَى كَوْنِهِ كَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ وَأَثْبَتَهُمْ فِي مَوَاقِفِ الْقِتَالِ كَانَ أَرْحَمَهُمْ وَأَرْأَفَهُمْ ، وَلِذَلِكَ كَانَ يَكْتَفِي بِالتَّدْبِيرِ وَالتَّثْبِيتِ وَالدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ ، وَلَعَلَّهُ لَوْ رَأَى مَنْدُوحَةً عَنْ قَتْلِ أُبَيٍّ لَمَا قَتَلَهُ .

وَقَدْ كَانَ بِهِ ذَلِكَ الْيَوْمَ مِنْ أَلَمِ الْجِرَاحِ أَنْ عَجَزَ عَنِ الصُّعُودِ إِلَى صَخْرَةٍ أَرَادَ أَنْ يَعْلُوهَا فَوَضَعَ لَهُ طَلْحَةُ ظَهْرَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ فَنَهَضَ بِهِ حَتَّى صَعِدَهَا ، وَحَانَتِ الصَّلَاةُ فَصَلَّى بِالنَّاسِ جَالِسًا تَحْتَ لِوَاءِ الْأَنْصَارِ .

(205/129)

وَقُتِلَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ - ، قَتَلَهُ وَحْشِيٌّ الْحَبَشِيُّ الرَّاصِدُ لَهُ ، وَقَدْ عَرَفَهُ وَهُوَ خَائِضٌ الْمَعْمَعَةَ كَالْجَمَلِ الْأَوْرَقِ يَقُطُّ الرِّقَابَ وَيُجَنْدِلُ الْأَبْطَالَ لَا يَقِفُ فِي وَجْهِهِ أَحَدٌ ، فَرَمَاهُ بِحَرْبَتِهِ عَنْ بُعْدٍ عَلَى طَرِيقَةِ الْحَبَشَةِ وَكَانَ قَدْ أَتْقَنَهَا وَلَوْ قَرُبَ مِنْهُ لَمَا نَالَ إِلَّا حَتْفَهُ ، وَقَدْ شَقَّ عَلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَتْلُ عَمِّهِ ؛ إِذْ كَانَ - عَلَى قُرْبِهِ - مِنَ السَّابِقِينَ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ وَالْمَانِعِينَ لَهُ ، وَكَانَ أَشَدَّ أَهْلِهِ بَأْسًا وَأَعْظَمَهُمْ شَجَاعَةً ، بَلْ لَوْ قُلْنَا إِنَّهُ كَانَ أَشْجَعَ الْمُسْلِمِينَ أَوِ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ لَمْ نَكُنْ مُبَالِغِينَ ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ لَمَّا أَقْبَلَ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَوْمَ إِسْلَامِهِ خَافَهُ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا حَمْزَةَ فَإِنَّهُ وَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى قَتْلِهِ بِلَا مُبَالَاةٍ ، وَخَلَفَ حَمْزَةَ فِي بَأْسِهِ وَشَجَاعَتِهِ عَلِيٌّ - كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ - .

(206/129)

وَقَدِ انْتَهَتِ الْحَرْبُ بِصَرْفِ اللهِ الْمُشْرِكِينَ عَمَّا كَانُوا يُرِيدُونَ مِنِ اسْتِئْصَالِ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا أُولَاهُمُ الْغَالِبِينَ بِحُسْنِ تَدْبِيرِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ وَتَمَحُّضِ الْقَصْدِ إِلَى الدِّفَاعِ عَنْ دِينِ اللهِ وَأَهْلِهِ ، فَلَمَّا أَخْرَجَهُمُ الظَّفَرُ عَنِ الْتِزَامِ طَاعَةِ رَسُولِهِمْ وَقَائِدِهِمْ ، وَدَبَّ إِلَى قُلُوبِ فَرِيقٍ مِنْهُمُ الطَّمَعُ فِي الْغَنِيمَةِ فَشِلُوا وَتَنَازَعُوا فِي

الْأَمْرِ كَمَا سَيَأْتِي فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ : وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَزَادَهُمْ فَشَلًا إِشَاعَةُ قَتْلِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَتَّى فَرَّ كَثِيرُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْهُمْ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَالْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ وَخَارِجَةُ بْنُ زَيْدٍ ، وَلَكِنَّهُمُ اسْتَحْيَوْا مِنْ دُخُولِهَا فَرَجَعُوا بَعْدَ ثَلَاثٍ .

وَاخْتَلَطَ الْأَمْرُ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ ثَبَتَ ، وَلَمَّا جَاءَهُمْ خَالِدٌ بِالْفُرْسَانِ مِنْ وَرَائِهِمْ صَارَ يَضْرِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى غَيْرِ هُدًى ، فَمِنْهُمُ الَّذِينَ اسْتَبْسَلُوا وَأَرَادُوا أَنْ يَمُوتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَمِنْهُمُ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَفْدُونَهُ بِأَنْفُسِهِمْ وَيَتَلَقَّوْنَ السِّهَامَ وَالسُّيُوفَ دُونَهُ حَتَّى كَانَ يَعِزُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَرَوْهُ نَاظِرًا إِلَى جِهَةِ الْمُشْرِكِينَ لِئَلَّا يُصِيبَهُ سَهْمٌ ، فَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُ نِضَالِهِ عَنْهُ يَقُولُ لَهُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي لَا تَنْظُرْ يُصِبْكَ

سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ الْقَوْمِ ، نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ . وَلَمَّا عَلِمَ سَائِرُ الْمُسْلِمِينَ بِبَقَاءِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نُفِخَتْ فِيهِمْ رُوحٌ جَدِيدَةٌ مِنَ الْقُوَّةِ فَاجْتَمَعَ أَمْرُهُمْ حَتَّى يَئِسَ الْمُشْرِكُونَ مِنْهُمْ وَصَرَفَهُمُ

اللَّهُ عَنْهُمْ - كَمَا صَرَّحَ بِهِ الْقُرْآنُ الْعَزِيزُ فِيمَا يَأْتِي - فَهَذَا مَا كَانَ مِنْ حَرْبِ الثَّلَاثَةِ الْآلَافِ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ لِلسَّبْعِمِائَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

وَلَمَّا انْقَضَتِ الْحَرْبُ أَشْرَفَ أَبو سُفْيَانَ عَلَى الْجَبَلِ فَنَادَى : أَفِيكُمْ مُحَمَّدٌ ؟ فَلَمْ يُجِيبُوهُ فَقَالَ : أَفِيكُمُ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ ؟ فَلَمْ يُجِيبُوهُ فَقَالَ : أَفِيكُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ؟ فَلَمْ يُجِيبُوهُ . فَقَالَ : أَمَّا هَؤُلَاءِ فَقَدْ كُفِيتُمُوهُمْ . فَلَمْ يَمْلِكْ عُمَرُ نَفْسَهُ أَنْ قَالَ : يَا عَدُوَّ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ ذَكَرْتَهُمْ أَحْيَاءٌ وَقَدْ أَبْقَى اللهُ لَكَ مَا يَسُوءُكَ . فَقَالَ : قَدْ كَانَ فِي الْقَوْمِ مُثْلَةٌ لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي ، ثُمَّ قَالَ : اعْلُ هُبَلُ . فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : أَلَا تُجِيبُونَهُ ؟ فَقَالُوا : فَمَا نَقُولُ ؟ قَالَ : قُولُوا : اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ ثُمَّ قَالَ أَبو سُفْيَانَ : لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ . قَالَ : أَلَا تُجِيبُونَهُ ؟ قَالُوا : مَا نَقُولُ ؟ قَالَ : قُولُوا : اللهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ ثُمَّ قَالَ أَبو سُفْيَانَ : يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ وَالْحَرْبُ سِجَالٌ . فَأَجَابَهُ عُمَرُ : لَا سَوَاءَ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ .

وَانْصَرَفَ الْفَرِيقَانِ .

أَقُولُ : إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَنْكَسِرُوا فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ وَلَمْ يَنْتَصِرُوا بَلْ نَالَ الْعَدُوُّ مِنْهُمْ وَنَالُوا مِنْهُ ، وَإِنَّمَا كَبُرَتْ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ حُرِمُوا النَّصْرَ وَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ وَكَانُوا يَرْجُونَ أَنْ يَهْزِمُوا الْمُشْرِكِينَ وَيَرُدُّوهُمْ مَدْحُورِينَ - وَسَيَأْتِي فِي الْآيَاتِ بَيَانُ الْأَسْبَابِ وَالْحِكَمِ فِيمَا كَانَ - وَقَالَ ابْنُ

الْقَيِّمِ فِي زَادِ الْمَعَادِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " مَا نُصِرَ رَسُولُ اللهِ فِي مَوْطِنٍ نَصْرَهُ يَوْمَ أُحُدٍ " فَأُنْكِرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ فَقَالَ : بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ أَنْكَرَ كِتَابُ اللهِ أَنَّ اللهَ يَقُولُ : وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ [3 : 152] وَسَيَأْتِي .

وَالْتَمَسُوا الْقَتْلَى فَرَأَوْا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَدْ مَثَّلُوا بِهِمْ ، وَكَانَ التَّمْثِيلُ بِحَمْزَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - شَرَّ تَمْثِيلٍ ، وَرُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَلَفَ لَيُمَثِّلَنَّ بِهِمْ عِنْدَمَا يُظْفِرُهُ اللهُ بِهِمْ ، فَنَهَاهُ اللهُ عَنْ ذَلِكَ فَكَفَّرَ عَنْ يَمِينِهِ ، وَكَانَ يَنْهَى عَنِ التَّمْثِيلِ بِالْقَتْلَى فَلَمْ يَفْعَلْهُ الْمُسْلِمُونَ .

وَخَرَجَ نِسَاءٌ مِنَ الْمَدِينَةِ لِمُسَاعَدَةِ الْجَرْحَى ، وَكَانَتْ فَاطِمَةُ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - هِيَ الَّتِي دَاوَتْ جُرْحَ وَالِدِهَا - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - ، فَإِنَّهُ بَعْدَ أَنْ مَصَّ الدَّمَ مِنْهُ وَالِدُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ حَتَّى أَنْقَاهُ تَوَلَّتْهُ هِيَ ، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي حَازِمٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ جُرْحِ

(209/129)

رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ : وَاللهِ إِنِّي لَأَعْرِفُ مَنْ كَانَ يَغْسِلُ جُرْحَ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَنْ كَانَ يَسْكُبُ الْمَاءَ وَبِمَ دُووِيَ ، كَانَتْ فَاطِمَةُ ابْنَتُهُ تَغْسِلُهُ وَعَلِيٌّ يَسْكُبُ الْمَاءَ بِالْمِجَنِّ (التُّرْسِ) فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ أَنَّ الْمَاءَ لَا يَزِيدُ الدَّمَ إِلَّا كَثْرَةً

أَخذَتْ قِطْعَةً مِنْ حَصِيرٍ فَأَحْرَقَتْهَا فَأَلْصَقَتْهَا فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ .

وَلَمَّا انْكَفَأَ الْمُشْرِكُونَ رَاجِعِينَ ظَنَّ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْمَدِينَةَ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِعَلِيٍّ : اخْرُجْ فِي آثَارِ الْقَوْمِ فَانْظُرْ مَاذَا يَصْنَعُونَ وَمَاذَا يُرِيدُونَ ؟ فَإِنْ هُمْ جَنَّبُوا الْخَيْلَ وَامْتَطَوُا الْإِبِلَ فَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ مَكَّةَ ، وَإِنْ كَانُوا رَكِبُوا الْخَيْلَ وَسَاقُوا الْإِبِلَ فَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْمَدِينَةَ ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَئِنْ أَرَادُوهَا لَأَسِيرَنَّ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ لَأُنَاجِزَنَّهُمْ فِيهَا فَرَآهُمْ عَلِيٌّ قَدْ جَنَّبُوا الْخَيْلَ وَامْتَطَوُا الْإِبِلَ وَوَجَّهُوا إِلَى مَكَّةَ . وَلَمَّا عَزَمُوا عَلَى الرُّجُوعِ أَشْرَفَ أَبُو سُفْيَانَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَنَادَاهُمْ مَوْعِدُكُمُ الْمَوْسِمُ بِبَدْرٍ ، فَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : قُولُوا نَعَمْ قَدْ فَعَلْنَا .

(210/129)

وَلَمَّا كَانَ الْمُشْرِكُونَ فِي الطَّرِيقِ تَلَاوَمُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : لَمْ تَصْنَعُوا شَيْئًا أَصَبْتُمْ شَوْكَتَهُمْ وَحَدَّهُمْ وَتَرَكْتُمُوهُمْ وَقَدْ بَقِيَ مِنْهُمْ رُءُوسٌ يَجْمَعُونَ لَكُمْ فَارْجِعُوا حَتَّى نَسْتَأْصِلَ شَأْفَتَهُمْ . فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَنَادَى النَّاسَ وَنَدَبَهُمْ إِلَى الْمَسِيرِ إِلَى لِقَاءِ عَدُوِّهِمْ وَقَالَ : لَا يَخْرُجْ مَعَنَا إِلَّا مَنْ شَهِدَ الْقِتَالَ فَاسْتَجَابَ لَهُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى مَا بِهِمْ مِنَ الْجُرْحِ الشَّدِيدِ وَالْخَوْفِ وَقَالُوا : " سَمْعًا وَطَاعَةً " وَذَلِكَ مِنْ خَوَارِقِ قُوَّةِ

الْإِيمَانِ وَآيَاتِهِ الْكُبْرَى ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَجِيبِينَ كَانَ قَدْ بَرَّحَ بِهِمُ التَّعَبُ وَالْجِرَاحُ تَبْرِيحًا .

فَسَارَ بِهِمْ حَتَّى بَلَغُوا حَمْرَاءَ الْأَسَدِ وَأَقْبَلَ مَعْبَدٌ الْخُزَاعِيُّ إِلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَسْلَمَ فَأَمَرَهُ أَنْ يَلْحَقَ بِأَبِي سُفْيَانَ فَيُخَذِّلَهُ ، فَلَحِقَهُ بِالرَّوْحَاءِ فَقَالَ : مَا وَرَاءَكَ يَا مَعْبَدُ ؟ فَقَالَ : مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ قَدْ تَحَرَّقُوا عَلَيْكُمْ وَخَرَجُوا فِي جَمْعٍ لَمْ يَخْرُجُوا فِي مِثْلِهِ وَقَدْ نَدِمَ مَنْ كَانَ تَخَلَّفَ عَنْهُمْ مِنْ أَصْحَابِهِمْ ، فَقَالَ : مَا تَقُولُ ؟ قَالَ : مَا أَرَى أَنْ تَرْتَحِلَ حَتَّى يَطْلُعَ أَوَّلُ الْجَيْشِ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ الْأَكَمَةِ .

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : وَاللهِ لَقَدْ أَجْمَعْنَا الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ لِنَسْتَأْصِلَهُمْ ، قَالَ : فَلَا تَفْعَلْ فَإِنِّي لَكَ نَاصِحٌ .

(211/129)

فَرَجَعُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ إِلَى مَكَّةَ . وَلَقِيَ أَبُو سُفْيَانَ بَعْضَ الْمُشْرِكِينَ يُرِيدُ الْمَدِينَةَ فَقَالَ : هَلْ لَكَ أَنْ تُبَلِّغَ مُحَمَّدًا رِسَالَةً وَأُوَقِّرُ لَكَ رَاحِلَتَكَ زَبِيبًا إِذَا أَتَيْتَ إِلَى مَكَّةَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : أَبْلِغْ مُحَمَّدًا أَنَّا قَدْ أَجْمَعْنَا الْكَرَّةَ لِنَسْتَأْصِلَهُ وَنَسْتَأْصِلَ أَصْحَابَهُ ، فَلَمَّا بَلَغَ النَّبِيَّ وَالْمُؤْمِنِينَ قَوْلُهُ قَالُوا : " حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ " .

وَقَدْ كَانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَدْفِنُ الرَّجُلَيْنِ وَالثَّلَاثَةَ مِنْ شُهَدَاءِ أُحُدٍ فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ

. ورُبَّمَا كَانَ يُلَفُّونَ بِثَوْبٍ وَاحِدٍ لِقِلَّةِ الثِّيَابِ ، ولَمْ يُغَسَّلُوا وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِمْ - كَمَا فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ - وَإِنْ زَعَمَ بَعْضُ أَهْلِ السِّيَرِ أَنَّهُ صَلَّى عَلَيْهِمْ .

(212/129)

وَلَمَّا أَرَادَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الرُّجُوعَ إِلَى الْمَدِينَةِ رَكِبَ فَرَسَهُ وَأَمَرَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَصْطَفُّوا خَلْفَهُ وَعَامَّتُهُمْ جَرْحَى ، وَاصْطَفَّ خَلْفَهُمُ النِّسَاءُ وَهُنَّ أَرْبَعَ عَشْرَةَ امْرَأَةً كُنَّ بِأَصْلِ أُحُدٍ ، فَقَالَ : اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّي ، فَاسْتَوَوْا فَقَالَ : اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ ، وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ ، وَلَا هَادِيَ لِمَنْ أَضْلَلْتَ ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ ، وَلَا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ ، وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ ، اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْعَيْلَةِ ، وَالْأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ ، اللَّهُمَّ إِنِّي عَائِذٌ

(213/129)

بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا وَمِنْ شَرِّ مَا مَنَعْتَ مِنَّا ، اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا ، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ ، اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ - إِلَهَ الْحَقِّ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ ، وَلَكِنْ قَالَ الذَّهَبِيُّ : إِنَّهُ عَلَى نَظَافَةِ إِسْنَادِهِ مُنْكَرٌ ، وَأَخْشَى أَنْ يَكُونَ مَوْضُوعًا . وَلَمَّا رَجَعُوا قَالَ الْمُنَافِقُونَ فِيمَنْ قُتِلَ : لَوْ كَانُوا أَطَاعُونَا وَلَمْ يَخْرُجُوا لَمَا قُتِلُوا .

إِذَا تَمَهَّدَ هَذَا فَلْنَشْرَعْ فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ ، وَنَقُولُ أَوَّلًا : إِنَّ وَجْهَ اتِّصَالِهَا بِمَا قَبْلَهَا هُوَ أَنَّهُ - تَعَالَى - نَهَاهُمْ فِي تِلْكَ عَنِ اتِّخَاذِ بِطَانَةٍ مِنَ الْأَعْدَاءِ الْمَعْرُوفِينَ بِالْعَدَاوَةِ لَهُمْ ، وَأَعْلَمَهُمْ

(214/129)

بِبَعْضِهِمْ إِيَّاهُمْ وَإِنْ خَادَعَهُمْ أَفْرَادٌ مِنْهُمْ بِدَعْوَى الْإِيمَانِ ، وَأَنَّهُمْ إِنْ يَصْبِرُوا وَيَتَّقُوا مَا يَجِبُ اتِّقَاؤُهُ لَا يَضُرُّهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ، وَبَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ ذَكَّرَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ بِوَقْعَةِ أُحُدٍ وَمَا كَانَ فِيهَا مِنْ كَيْدِ الْمُنَافِقِينَ إِذْ قَالُوا مَا قَالُوا أَوَّلًا وَآخِرًا ، وَإِذْ خَرَجُوا ثُمَّ انْشَقُّوا وَرَجَعُوا لِيَخْذُلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَيُوقِعُوا الْفَشَلَ فِيهِمْ ، وَمِنْ كَيْدِ الْمُشْرِكِينَ وَتَأَلُّبِهِمُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ دَافِعٍ

إِلَّا الصَّبْرُ حَتَّى عَنِ الْغَنِيمَةِ الَّتِي طَمِعَ فِيهَا الرُّمَاةُ فَتَرَكُوا مَوْقِعَهُمْ وَإِلَّا التَّقْوَى ، وَمِنْهَا – بَلْ أَهَمُّهَا – طَاعَةُ الرَّسُولِ فِيمَا أَمَرَ بِهِ هَؤُلَاءِ الرُّمَاةَ ، وَذَكَّرَهُمْ أَيْضًا بِوَقْعَةِ بَدْرٍ إِذْ نَصَرَهُمْ عَلَى قِلَّتِهِمْ بِصَبْرِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ . قَالَ – تَعَالَى – : وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ أَيْ وَاذْكُرْ بَعْدَ هَذَا يَا مُحَمَّدُ إِذْ خَرَجْتَ مِنْ بَيْتِ أَهْلِكَ غَدْوَةً ، وَذَلِكَ سَحَرَ يَوْمِ السَّبْتِ سَابِعَ شَوَّالٍ مِنْ سَنَةِ ثَلَاثٍ لِلْهِجْرَةِ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ أَيْ تُوَطِّنُهُمْ وَتُنْزِلُهُمْ أَمَاكِنَ وَمَوَاضِعَ فِي الشِّعْبِ مِنْ أُحُدٍ لِأَجْلِ الْقِتَالِ فِيهَا ، فَمِنْهَا مَوْضِعٌ لِلرُّمَاةِ وَمَوْضِعٌ لِلْفُرْسَانِ وَمَوْضِعٌ لِسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَالْمَقَاعِدُ : جَمْعُ مَقْعَدٍ وَهُوَ فِي الْأَصْلِ مَكَانُ الْقُعُودِ كَالْمَجْلِسِ لِمَكَانِ الْجُلُوسِ وَالْمَقَامِ لِمَكَانِ الْقِيَامِ ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَتْ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ كُلُّهَا بِمَعْنَى الْمَكَانِ تَوَسُّعًا . وَقِيلَ : تَبْوِئَةُ الْمَقَاعِدِ

تَسْوِيَتُهَا وَتَهْيِئَتُهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ لَمْ يَخْفَ عَنْهُ شَيْءٌ مِمَّا قِيلَ فِي مُشَاوَرَتِكَ لِمَنْ مَعَكَ فِي أَمْرِ الْخُرُوجِ إِلَى لِقَاءِ الْمُشْرِكِينَ فِي أُحُدٍ أَوِ انْتِظَارِهِمْ فِي الْمَدِينَةِ ، فَهُوَ قَدْ سَمِعَ أَقْوَالَ الْمُشِيرِينَ وَعَلِمَ نِيَّةَ كُلِّ قَائِلٍ ، وَأَنَّ مِنْهُمُ الْمُخْلِصَ فِي قَوْلِهِ وَإِنْ أَخْطَأَ فِي رَأْيِهِ كَالْقَائِلِينَ بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِمْ ، وَمِنْهُمْ غَيْرُ الْمُخْلِصِ فِي قَوْلِهِ – وَإِنْ كَانَ صَوَابًا – كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ وَمَنْ

مَعَهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْوَصْفَانِ الْكَرِيمَانِ مُتَعَلِّقًا لِلظَّرْفِ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ - كَمَا نُبَيِّنُهُ فِي تَفْسِيرِهَا .

وَذَهَبَ ابْنُ جَرِيرٍ إِلَى أَنَّ الْخِطَابَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِلنَّبِيِّ ، وَالْمُرَادُ بِهِ أَصْحَابُهُ ، يَضْرِبُ لَهُمْ مَثَلًا أَوْ مَثَلَيْنِ عَلَى صِدْقِ وَعْدِهِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا بِتَذْكِيرِهِمْ بِمَا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ مِنْ وُقُوعِ الْمُصِيبَةِ بِهِمْ عِنْدَ تَرْكِ الرُّمَاةِ الصَّبْرَ وَالتَّقْوَى ، وَذَنْبُ

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (122) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (124)

(216/129)

الْجَمَاعَةِ أَوِ الْأُمَّةِ لَا يَكُونُ عِقَابُهُ قَاصِرًا عَلَى مَنِ اقْتَرَفَهُ بَلْ يَكُونُ عَامًّا ، وَبِمَا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ إِذْ نَصَرَهُمْ عَلَى قِلَّتِهِمْ وَذِلَّتِهِمْ ،

وَهَذَا الرَّأْيُ يَتَّفِقُ مَعَ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي وَجْهِ الِاتِّصَالِ بَيْنَ الْآيَاتِ .

(217/129)

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ حِينَ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا . وَالْهَمُّ : حَدِيثُ النَّفْسِ وَتَوَجُّهُهَا إِلَى الشَّيْءِ ، وَالْفَشَلُ ضَعْفٌ مَعَ جُبْنٍ . وَقِيلَ : إِنَّ هَذَا بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ : وَإِذْ غَدَوْتَ وَقِيلَ : مُتَعَلِّقٌ بِـ تُبَوِّئُ أَيْ كَانَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَتَّخِذُ الْمُعَسْكَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَيُنْزِلُ كُلَّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ مَنْزِلًا فِي وَقْتٍ هَمَّتْ فِيهِ طَائِفَتَانِ مِنْهُمْ بِالْفَشَلِ افْتِتَانًا بِكَيْدِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ رَجَعُوا مِنَ الْعَسْكَرِ . وَالطَّائِفَتَانِ هُمَا بَنُو سَلِمَةَ وَبَنُو حَارِثَةَ مِنَ الْأَنْصَارِ – كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْقِصَّةِ – وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا أَيْ مُتَوَلِّي أُمُورِهِمَا لِصِدْقِ إِيمَانِهِمَا ، لِذَلِكَ صَرَفَ الْفَشَلَ عَنْهُمَا وَثَبَّتَهُمَا فَلَمْ يُجِيبَا دَاعِيَ الضَّعْفِ الَّذِي أَلَمَّ بِهِمَا عِنْدَ رُجُوعِ نَحْوِ ثُلُثِ الْعَسْكَرِ بَلْ تَذَكَّرُوا وِلَايَةَ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ فَوَثِقَا بِهِ وَتَوَكَّلَا عَلَيْهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ أَمْثَالُهُمْ ، لَا عَلَى حَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ ، وَلَا عَلَى أَعْوَانِهِمْ وَأَنْصَارِهِمْ ، وَإِنَّمَا يَبْذُلُونَ حَوْلَهُمْ وَقُوَّتَهُمْ وَيَأْخُذُونَ أُهْبَتَهُمْ وَعُدَّتَهُمْ إِقَامَةً لِسُنَنِ اللَّهِ – تَعَالَى – فِي خَلْقِهِ إِذْ جَعَلَ الْأَسْبَابَ مُفْضِيَةً إِلَى الْمُسَبَّبَاتِ ، وَهُوَ الْفَاعِلُ الْمُسَخِّرُ لِلسَّبَبِ وَالْمُسَبَّبِ وَالْمُوَفِّقُ بَيْنَهُمَا ، فَيَنْصُرُ الْفِئَةَ الْقَلِيلَةَ عَلَى الْكَثِيرَةِ إِنْ شَاءَ كَمَا نَصَرَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ بَدْرٍ

; وَلِذَلِكَ قَالَ :

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَهُوَ مَاءٌ أَوْ بِئْرٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ كَانَ لِرَجُلٍ اسْمُهُ بَدْرٌ فَسُمِّيَ بِاسْمِهِ ثُمَّ أَطْلَقَ اللَّفْظَ عَلَى الْمَكَانِ الَّذِي هُوَ فِيهِ . وَقَدْ كَانَتْ فِيهِ أَوَّلُ غَزْوَةٍ قَاتَلَ فِيهَا النَّبِيُّ الْمُشْرِكِينَ فِي 17 رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ فَنَصَرَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ نَصْرًا مُؤَزَّرًا وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ أَيْ نَصَرَكُمْ فِي حَالَةِ ذِلَّةٍ كُنْتُمْ فِيهَا عَلَى قِلَّتِكُمْ - كَمَا يُفِيدُهُ لَفْظُ أَذِلَّةٍ ، إِذْ هُوَ جَمْعُ قِلَّةٍ - وَقَدْ كَانُوا ثَلَاثَمِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا . وَالْمُرَادُ بِكَوْنِهِمْ أَذِلَّةً أَنَّهُمْ لَا مَنَعَةَ لَهُمْ إِذْ كَانُوا قَلِيلِي الْعُدَّةِ مِنَ السِّلَاحِ وَالظَّهْرِ (أَيْ مَا يُرْكَبُ) وَالزَّادِ . وَلَا غَضَاضَةَ فِي الذُّلِّ إِلَّا إِذَا كَانَ عَنْ قَهْرٍ مِنَ الْبُغَاةِ وَالظَّالِمِينَ ، وَلَمْ يَكُنِ الْمُؤْمِنُونَ بِمَقْهُورِينَ وَلَا مُسْتَذَلِّينَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَإِنَّمَا كَانَتْ قُوَّتُهُمْ فِي أَوَائِلِ تَكَوُّنِهَا فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ فَإِنَّ التَّقْوَى هِيَ الَّتِي تُعِدُّكُمْ لِلْقِيَامِ فِي مَقَامِ الشُّكْرِ عَلَى النِّعَمِ الَّتِي يُسْدِيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ لَمْ يُرَضِّ نَفْسَهُ بِالتَّقْوَى غَلَبَ عَلَيْهِ اتِّبَاعُ الْهَوَى فَلَا يُرْجَى لَهُ أَنْ يَكُونَ شَاكِرًا يَصْرِفُ النِّعْمَةَ إِلَى مَا وُهِبَتْ لِأَجْلِهِ مِنَ الْحِكَمِ وَالْمَنَافِعِ .

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ قِيلَ : إِنَّ هَذَا مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ : وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَقِيلَ : إِنَّهُ خَاصٌّ بِوَقْعَةِ أُحُدٍ الَّتِي وَرَدَ فِيهَا هَذَا السِّيَاقُ كَقَوْلِهِ : إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا مُتَعَلِّقٌ بِـ (تُبَوِّئُ) أَوْ بِـ (سَمِيعٌ) أَوْ بَدَلٌ مِنْ (إِذْ) الْأُولَى وَالتَّقْدِيرُ : تُبَوِّئُهُمْ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي هَمَّ فِيهِ بَعْضُهُمْ بِالْفَشَلِ مَعَ أَنَّ اللهَ نَصَرَكُمْ بِبَدْرٍ - عَلَى قِلَّةٍ وَذِلَّةٍ ، وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي كُنْتَ تَقُولُ فِيهِ لِلْمُؤْمِنِينَ : أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ وَهَذَا هُوَ الْمُخْتَارُ .

وَالتَّقْدِيرُ عَلَى الْأَوَّلِ : إِنَّ اللهَ نَصَرَكُمْ بِبَدْرٍ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الَّذِي كُنْتَ

(220/129)

تَقُولُ فِيهِ لَهُمْ : أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ إِلَخْ . أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَغَيْرُهُمَا عَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ بَلَغَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ أَنَّ كُرْزَ بْنَ جَابِرٍ الْمُحَارِبِيَّ يُرِيدُ أَنْ يُمِدَّ الْمُشْرِكِينَ ; فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَأَنْزَلَ اللهُ : أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ إِلَخْ . فَبَلَغَتْ كُرْزًا الْهَزِيمَةُ فَلَمْ يُمِدَّ الْمُشْرِكِينَ . وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ وَعَنْ غَيْرِهِ ، وَذَكَرَ الْخِلَافَ فِي حُصُولِ هَذَا الْإِمْدَادِ بِالْفِعْلِ وَأَنَّ بَعْضَهُمْ يَقُولُ : إِنَّهُ لَمْ يَحْصُلْ ، وَبَعْضُهُمْ قَالَ : إِنَّهُ حَصَلَ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَنُقِلَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّ الْوَعْدَ بِالْإِمْدَادِ - وَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ بِبَدْرٍ - عَامٌّ فِي كُلِّ الْحُرُوبِ ، وَأَنَّهُمْ أُمِدُّوا فِي حَرْبِ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ وَالْأَحْزَابِ ، وَلَمْ يُمَدُّوا يَوْمَ أُحُدٍ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَصْبِرُوا وَلَمْ يَتَّقُوا . وَرُوِيَ عَنِ الضَّحَّاكِ أَنَّ هَذَا كَانَ

مَوْعِدًا مِنَ اللهِ يَوْمَ أُحُدٍ عَرَضَهُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِنِ اتَّقَوْا وَصَبَرُوا أَمَدَّهُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ . وَرُوِيَ نَحْوُهُ عَنِ ابْنِ زَيْدٍ قَالَ : " قَالُوا لِرَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَهُمْ يَنْظُرُونَ الْمُشْرِكِينَ : أَلَيْسَ اللهُ يُمِدُّنَا كَمَا أَمَدَّنَا يَوْمَ بَدْرٍ ؟ فَقَالَ رَسُولُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ وَإِنَّمَا أَمَدَّكُمْ يَوْمَ بَدْرٍ بِأَلْفٍ . قَالَ : فَجَاءَتِ الزِّيَادَةُ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا

(221/129)

وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ الْفَوْرُ : فِي الْأَصْلِ فَوَرَانُ الْقِدْرِ وَنَحْوِهَا ، ثُمَّ اسْتُعِيرَ الْفَوْرُ لِلسُّرْعَةِ ، ثُمَّ سُمِّيَتْ بِهِ الْحَالَةُ الَّتِي لَا رَيْثَ فِيهَا وَلَا تَعْرِيجَ مِنْ صَاحِبِهَا عَلَى شَيْءٍ ، فَمَعْنَى وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ مِنْ سَاعَتِهِمْ هَذِهِ بِدُونِ إِبْطَاءٍ وَمُسَوِّمِينَ مِنَ التَّسْوِيمِ ، قَرَأَهَا ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَعَاصِمٌ وَيَعْقُوبُ

(222/129)

بِكَسْرِ الْوَاوِ الْمُشَدَّدَةِ، وَالْبَاقُونَ بِفَتْحِهَا . وَقَدْ وَرَدَ سَوَّمَهُ الْأَمْرَ بِمَعْنَى كَلَّفَهُ إِيَّاهُ، وَسَوَّمَ فُلَانًا : خَلَّاهُ، وَسَوَّمَهُ فِي مَالِهِ : حَكَّمَهُ وَصَرَّفَهُ، وَسَوَّمَ الْخَيْلَ : أَرْسَلَهَا ، وَكُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي ظَاهِرَةٌ عَلَى قِرَاءَةِ فَتْحِ الْوَاوِ مِنْ (مُسَوَّمِينَ) فَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةَ يَكُونُونَ مُكَلَّفِينَ مِنَ اللهِ تَثْبِيتَ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَوْ مُحَكَّمِينَ وَمُصَرَّفِينَ فِيمَا يَفْعَلُونَهُ فِي النُّفُوسِ مِنْ إِلْهَامِ النَّصْرِ بِتَثْبِيتِ الْقُلُوبِ وَالرَّبْطِ عَلَيْهَا . أَوْ مُرْسَلِينَ مِنْ عِنْدِهِ - تَعَالَى - . وَأَمَّا قِرَاءَةُ كَسْرِ الْوَاوِ (مُسَوِّمِينَ) فَهِيَ مِنْ قَوْلِهِمْ سَوَّمَ عَلَى الْقَوْمِ إِذَا أَغَارَ فَفَتَكَ بِهِمْ وَلَوْ بِالْإِعَانَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ عَلَى ذَلِكَ . وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّهُ مِنَ التَّسْوِيمِ بِمَعْنَى إِظْهَارِ سِيمَا الشَّيْءِ أَيْ عَلَامَتِهِ ، أَيْ مُعَلِّمِينَ أَنْفُسَهُمْ أَوْ خَيْلَهُمْ وَهُوَ كَمَا تَرَى - لَوْلَا الرِّوَايَةُ - لَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ : مُسَوِّمِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَظْهَرُ عَلَيْهِمْ مِنْ سِيمَا تَثْبِيتِهِمْ إِيَّاهُمْ .

(223/129)

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ بَعْدَ ذِكْرِ الْخِلَافِ فِي هَذَا الْإِمْدَادِ مَا نَصُّهُ : " وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ اللهَ أَخْبَرَ عَنْ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ لِلْمُؤْمِنِينَ : أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، ثُمَّ وَعَدَهُمْ بَعْدَ الثَّلَاثَةِ الْآلَافِ

خَمْسَةَ آلَافٍ إِنْ صَبَرُوا لِأَعْدَائِهِمْ وَاتَّقَوْا ، وَلَا دَلَالَةَ فِي الْآيَةِ عَلَى أَنَّهُمْ أُمِدُّوا بِالثَّلَاثَةِ الْآلَافِ وَلَا بِالْخَمْسَةِ الْآلَافِ

وَلَا عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يُمَدُّوا بِهِمْ ، وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اللهُ أَمَدَّهُمْ عَلَى نَحْوِ مَا رَوَاهُ الَّذِينَ أَثْبَتُوا أَنَّ اللهَ أَمَدَّهُمْ ، وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اللهُ لَمْ يُمِدَّهُمْ عَلَى نَحْوِ الَّذِي ذَكَرَهُ مَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ وَلَا خَبَرَ عِنْدَنَا صَحَّ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي يُثْبِتُ أَنَّهُمْ أُمِدُّوا بِالثَّلَاثَةِ الْآلَافِ وَلَا بِالْخَمْسَةِ الْآلَافِ وَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يُقَالَ فِي ذَلِكَ قَوْلٌ إِلَّا بِخَبَرٍ تَقُومُ الْحُجَّةُ بِهِ ، وَلَا خَبَرَ بِهِ فَنُسَلِّمُ لِأَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ قَوْلَهُ ، غَيْرَ أَنَّ فِي الْقُرْآنِ دَلَالَةً عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ أُمِدُّوا يَوْمَ بَدْرٍ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَذَلِكَ قَوْلُهُ : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ [8 : 9] أَمَّا فِي أُحُدٍ فَالدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يُمَدُّوا أَبْيَنُ مِنْهَا فِي أَنَّهُمْ أُمِدُّوا ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَوْ أُمِدُّوا لَمْ يُهْزَمُوا وَيُنَلْ مِنْهُمْ مَا نِيلَ مِنْهُمْ " اهـ .

(224/129)

أَقُولُ : مَا مَعْنَى هَذَا الْإِمْدَادِ بِالْمَلَائِكَةِ فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ إِمْدَادِ الْعَسْكَرِ بِمَا يَزِيدُ عَدَدَهُمْ أَوْ عُدَّتَهُمْ وَقُوَّتَهُمْ وَلَوِ النَّفْسِيَّةَ وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ وَهَاكَ بَيَانَهُ .

إِمْدَادٌ : مِنَ الْمَدِّ . وَالْمَدُّ فِي الْأَصْلِ : عِبَارَةٌ عَنْ بَسْطِ الشَّيْءِ كَمَدِّ الْيَدِ وَالْحَبْلِ ، أَوْ عَنِ

(225/129)

الزِّيَادَةِ فِي مَادَّتِهِ كَمَدِّ النَّهْرِ بِنَهْرٍ أَوْ سَيْلٍ آخَرَ . قَالَ - تَعَالَى - : أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ [23 : 55 ، 56] فَالْإِمْدَادُ يَكُونُ بِالْمَالِ وَهُوَ مَا يُتَمَوَّلُ وَيُنْتَفَعُ بِهِ ، وَيَكُونُ بِالْأَشْخَاصِ . وَالْإِمْدَادُ بِالْمَلَائِكَةِ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَبِيلِ الْإِمْدَادِ بِالْمَالِ الَّذِي يَزِيدُ فِي قُوَّةِ الْقَوْمِ وَأَنْ يَكُونَ مِنَ الْإِمْدَادِ بِالْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يُنْتَفَعُ بِهِمْ وَلَوْ نَفْعًا مَعْنَوِيًّا ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَرْوَاحٌ تُلَابِسُ النُّفُوسَ فَتُمِدُّهَا بِالْإِلْهَامَاتِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تُثَبِّتُهَا وَتُقَوِّي عَزِيمَتَهَا ، وَلِذَلِكَ قَالَ - عَزَّ وَجَلَّ - : وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَعْنِي - تَعَالَى ذِكْرُهُ - وَمَا جَعَلَ اللَّهُ وَعْدَهُ إِيَّاكُمْ مَا وَعَدَكُمْ بِهِ مِنْ إِمْدَادِهِ إِيَّاكُمْ بِالْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ ذَكَرَ عَدَدَهُمْ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ يُبَشِّرُكُمْ بِهَا وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ يَقُولُ : وَكَيْ تَطْمَئِنَّ بِوَعْدِهِ الَّذِي وَعَدَكُمْ مِنْ ذَلِكَ قُلُوبُكُمْ فَتَسْكُنَ إِلَيْهِ وَلَا تَجْزَعَ مِنْ كَثْرَةِ عَدَدِ عَدُوِّكُمْ وَقِلَّةِ عَدَدِكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَعْنِي وَمَا ظَفَرُكُمْ إِنْ ظَفِرْتُمْ بِعَدُوِّكُمْ إِلَّا بِعَوْنِ اللَّهِ لَا مِنْ قِبَلِ الْمَدَدِ الَّذِي يَأْتِيكُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ اهـ .

(226/129)

وَأَقُولُ: الظَّاهِرُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ وَمَا جَعَلَ اللهُ ذَلِكَ الْقَوْلَ الَّذِي قَالَهُ لَكُمُ الرَّسُولُ وَهُوَ (أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ) إِلَخْ إِلَّا بُشْرَى يَفْرَحُ بِهَا رَوْعُكُمْ وَتَنْبَسِطُ بِهَا أَسَارِيرُ وُجُوهِكُمْ وَطُمَأْنِينَةً لِقُلُوبِكُمُ الَّتِي طَرَقَهَا الْخَوْفُ مِنْ كَثْرَةِ عَدُوِّكُمْ وَاسْتِعْدَادِهِمْ. أَيْ إِنَّ قَوْلَ الرَّسُولِ لَهُ هَذَا التَّأْثِيرُ فِي تَقْوِيَةِ الْقُلُوبِ وَتَثْبِيتِ النُّفُوسِ. وَإِنَّمَا أَرْجَعْنَا ضَمِيرَ (جَعَلَهُ) إِلَى قَوْلِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَا إِلَى وَعْدِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لِأَنَّ الْآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ لَيْسَتَا وَعْدًا مِنَ اللهِ بِالْإِمْدَادِ بِالْمَلَائِكَةِ، وَإِنَّمَا هُمَا إِخْبَارٌ عَمَّا قَالَهُ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَقَدْ أَخْبَرَ - تَعَالَى - فِي تَيْنَكَ الْآيَتَيْنِ أَنَّ رَسُولَهُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ ذَلِكَ الْقَوْلَ، وَبَيَّنَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَائِدَةَ ذَلِكَ الْقَوْلِ

(227/129)

وَمَنْفَعَتَهُ مَعَ بَيَانِ الْحَقِيقَةِ، وَهِيَ أَنَّ النَّصْرَ بِيَدِ اللهِ الْعَزِيزِ، أَيِ الْقَوِيِّ الَّذِي لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ الْحَكِيمِ الَّذِي يُدِيرُ الْأَمْرَ عَلَى خَيْرِ سَنَنٍ، وَيُقِيمُهُ بِأَحْسَنِ سُنَنٍ، فَيَهْدِي لِأَسْبَابِ النَّصْرِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ مَنْ يَشَاءُ، وَيَصْرِفُ عَنْهُمَا مَنْ يَشَاءُ. فَإِنْ حَصَلَ الْإِمْدَادُ بِالْمَلَائِكَةِ فِعْلًا فَمَا يَكُونُ إِلَّا جُزْءًا مِنْ أَجْزَاءِ سَبَبِ النَّصْرِ أَوْ فَرْدًا مِنْ أَفْرَادِهِ، وَمِنْهُ إِلْقَاءُ

الرُّعْبِ وَالْخَوْفِ فِي قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ ، وَمِنْهُ سَائِرُ الْأَسْبَابِ الْمَعْرُوفَةِ مِنَ الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ وَحُسْنِ التَّدْبِيرِ وَمَعْرِفَةِ الْمَوَاقِعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَإِنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَلَكَ إِلَى أُحُدٍ أَقْرَبَ الطُّرُقِ وَأَخْفَاهَا عَنِ الْعَدُوِّ ، وَعَسْكَرَ فِي أَحْسَنِ مَوْضِعٍ وَهُوَ الشِّعْبُ (الْوَادِي) ، وَجَعَلَ ظَهْرَ عَسْكَرِهِ إِلَى الْجَبَلِ ، وَجَعَلَ الرُّمَاةَ مِنْ وَرَائِهِمْ ، فَلَمَّا اخْتَلَّ بَعْضُ هَذِهِ التَّدْبِيرَاتِ لَمْ يَنْتَصِرُوا .

(228/129)

وَذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ السِّيَرِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَاتَلَتْ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَهُوَ مَا نَفَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَقَدْ ذَكَرْنَا عِبَارَتَهُ ، بَلْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمْ تُقَاتِلْ إِلَّا يَوْمَ بَدْرٍ ، وَفِيمَا عَدَاهُ كَانُوا عَدَدًا وَمَدَدًا لَا يُقَاتِلُونَ . وَأَنْكَرَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُّ قِتَالَ الْمَلَائِكَةِ وَقَالَ : إِنَّ الْمَلَكَ الْوَاحِدَ يَكْفِي فِي إِهْلَاكِ أَهْلِ الْأَرْضِ كَمَا فَعَلَ جِبْرِيلُ بِمَدَائِنِ قَوْمِ لُوطٍ ; فَإِذَا حَضَرَ هُوَ يَوْمَ بَدْرٍ فَأَيُّ حَاجَةٍ إِلَى مُقَاتَلَةِ النَّاسِ مَعَ الْكُفَّارِ ؟ وَبِتَقْدِيرِ حُضُورِهِ أَيُّ فَائِدَةٍ فِي إِرْسَالِ سَائِرِ الْمَلَائِكَةِ ؟ وَأَيْضًا فَإِنَّ أَكَابِرَ الْكُفَّارِ كَانُوا مَشْهُورِينَ ، وَقَاتِلُ كُلٍّ مِنْهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْلُومٌ ، وَأَيْضًا لَوْ قَاتَلُوا فَإِمَّا أَنْ يَكُونُوا بِحَيْثُ يَرَاهُمُ النَّاسُ أَوَّلًا ، وَعَلَى الْأَوَّلِ يَكُونُ الْمُشَاهَدُ مِنْ عَسْكَرِ الرَّسُولِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَأَكْثَرَ وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ بِذَلِكَ ، وَأَنَّهُ خِلَافُ قَوْلِهِ : وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ [8 : 44] وَلَوْ

كَانُوا فِي غَيْرِ صُورَةِ النَّاسِ لَزِمَ وُقُوعُ الرُّعْبِ الشَّدِيدِ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ وَلَمْ يُنْقَلْ ذَلِكَ أَلْبَتَّةَ ، وَعَلَى الثَّانِي كَانَ يَلْزَمُ جَزُّ الرُّءُوسِ وَتَمَزُّقُ الْبُطُونِ وَإِسْقَاطُ الْكُفَّارِ مِنْ غَيْرِ مُشَاهَدَةِ فَاعِلٍ ، وَمِثْلُ هَذَا يَكُونُ مِنْ أَعْظَمِ الْمُعْجِزَاتِ ، فَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَتَوَاتَرَ وَيَشْتَهِرَ بَيْنَ الْكَافِرِ وَالْمُسْلِمِ وَالْمُوَافِقِ وَالْمُخَالِفِ .

(229/129)

وَأَيْضًا إِنَّهُمْ لَوْ كَانُوا أَجْسَامًا كَثِيفَةً وَجَبَ أَنْ يَرَاهُمُ الْكُلُّ ، وَإِنْ كَانُوا أَجْسَامًا لَطِيفَةً هَوَائِيَّةً فَكَيْفَ ثَبَتُوا عَلَى الْخُيُولِ ؟ اهـ . ذَكَرَ ذَلِكَ الرَّازِيُّ وَالنَّيْسَابُورِيُّ ، فَالرَّازِيُّ أَوْرَدَ هَذَا عَنِ الْأَصَمِّ وَذَكَرَ حُجَجَهُ مُفَصَّلَةً كَعَادَتِهِ بِقَوْلِهِ : الْحُجَّةُ الْأُولَى - الْحُجَّةُ الثَّانِيَةُ إِلَخْ ، وَلَخَّصَهُ النَّيْسَابُورِيُّ عَنْهُ بِمَا ذَكَرْنَاهُ . وَاعْتَرَضَ الرَّازِيُّ عَلَيْهِ بِأَنَّ مِثْلَ هَذَا إِنَّمَا يَصْدُرُ مِنْ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ بِمَا يَدْفَعُ هَذِهِ الْحُجَجَ أَوْ يُبَيِّنُ لَهَا مَخْرَجًا .

لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ نَصٌّ نَاطِقٌ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَاتَلَتْ بِالْفِعْلِ فَيَحْتَجَّ بِهِ الرَّازِيُّ عَلَى أَبِي بَكْرٍ الْأَصَمِّ ، وَإِنَّمَا جَاءَ ذِكْرُ الْمَلَائِكَةِ فِي سِيَاقِ الْكَلَامِ عَنْ غَزْوَةِ بَدْرٍ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ عَلَى أَنَّهَا وَعْدٌ مِنَ اللهِ - تَعَالَى - بِإِمْدَادِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ،

وَفَسَّرَ هَذَا الْإِمْدَادَ بِقَوْلِهِ - عَزَّ وَجَلَّ - : إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ

آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ [8 : 12] قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي مَعْنَى التَّثْبِيتِ (ج 9 ص 197)

(230/129)

"يَقُولُ قَوُّوا عَزْمَهُمْ وَصَحِّحُوا نِيَّاتِهِمْ فِي قِتَالِ عَدُوِّهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَقِيلَ : كَانَ ذَلِكَ مَعُونَتَهُمْ إِيَّاهُمْ بِقِتَالِ أَعْدَائِهِمْ " فَأَنْتَ تَرَى أَنَّهُ جَزَمَ بِأَنَّ عَمَلَ الْمَلَائِكَةِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِنَّمَا كَانَ مَوْضُوعُهُ الْقُلُوبَ بِتَقْوِيَةِ عَزِيمَتِهَا ، وَتَصْحِيحِ نِيَّتِهَا ، وَذَكَرَ قَوْلَ مَنْ قَالَ : إِنَّ ذَلِكَ كَانَ بِمَعُونَتِهِمْ فِي الْقِتَالِ بِصِيغَةٍ تَدُلُّ عَلَى ضَعْفِهِ " قِيلَ " وَجَعَلَ قَوْلَهُ - تَعَالَى - : سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ إِلَخْ مِنْ تَتِمَّةِ خِطَابِ اللهِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ الظَّاهِرُ . وَبَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ يَجْعَلُهُ بَيَانًا لِمَا تُثَبِّتُ بِهِ الْمَلَائِكَةُ النُّفُوسَ ، أَيْ إِنَّهَا تُلْقِي فِيهَا اعْتِقَادَ إِلْقَاءِ اللهِ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ إِلَخْ .

وَبِهَذَا يَنْدَفِعُ مَا قَالَهُ الْأَصَمُّ وَلَا يَبْقَى مَحَلٌّ لِحُجَجِهِ فَإِنَّهُ لَا يُنْكِرُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَرْوَاحٌ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لَهَا اتِّصَالٌ مَا بِأَرْوَاحِ بَعْضِ الْبَشَرِ وَتَأْثِيرٌ فِيهَا بِالْإِلْهَامِ أَوْ تَقْوِيَةِ الْعَزَائِمِ ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى كَمَا قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ .

(231/129)

هَذَا مَا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَسَيَأْتِي بَسْطُهُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْفَالِ - إِنْ أَحْيَانَا اللهُ تَعَالَى - وَأَمَّا يَوْمُ أُحُدٍ فَالْمُحَقِّقُونَ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَحْصُلْ إِمْدَادٌ بِالْمَلَائِكَةِ وَلَا وَعْدٌ مِنَ اللهِ بِذَلِكَ ، وَإِنَّمَا أَخْبَرَ اللهُ عَنْ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ ذَكَرَ ذَلِكَ لِأَصْحَابِهِ وَجَعَلَ الْوَعْدَ بِهِ مُعَلَّقًا عَلَى ثَلَاثَةِ أُمُورٍ : الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى وَإِتْيَانِ الْأَعْدَاءِ مِنْ فَوْرِهِمْ ، وَلَمْ تَتَحَقَّقْ هَذِهِ الشُّرُوطُ فَلَمْ يَحْصُلِ الْإِمْدَادُ - كَمَا تَقَدَّمَ - وَلَكِنَّ الْقَوْلَ أَفَادَ الْبِشَارَةَ وَالطُّمَأْنِينَةَ .

وَبَقِيَ أَنْ يُقَالَ : مَا الْحِكْمَةُ وَمَا السَّبَبُ فِي إِمْدَادِ اللهِ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ بَدْرٍ بِمَلَائِكَةٍ يُثَبِّتُونَ قُلُوبَهُمْ وَحِرْمَانِهِمْ مِنْ ذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ حَتَّى أَصَابَ الْعَدُوُّ مِنْهُمْ مَا أَصَابَ ؟ .

وَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ يُعْلَمُ مِنِ اخْتِلَافِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَيْنِكَ الْيَوْمَيْنِ فَنَذْكُرُهُ هُنَا مُجْمَلًا مَعَ بَيَانِ فَلْسَفَتِهِ الرُّوحَانِيَّةِ ، وَنَدَعُ التَّفْصِيلَ فِيهِ إِلَى تَفْسِيرِ الْآيَاتِ هُنَا وَفِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ ، فَإِنَّ مَا هُنَا تَفْصِيلٌ لِمَا فِي وَقْعَةِ أُحُدٍ مِنَ الْحِكَمِ ، وَمَا فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ تَفْصِيلٌ لِمَا كَانَ فِي وَقْعَةِ بَدْرٍ مِنْ ذَلِكَ .

كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ بَدْرٍ فِي قِلَّةٍ وَذِلَّةٍ مِنَ الضَّعْفِ وَالْحَاجَةِ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ اعْتِمَادٌ إِلَّا عَلَى اللهِ - تَعَالَى - وَمَا وَهَبَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ فِي أَبْدَانِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ ، وَمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنَ الثَّبَاتِ وَالذِّكْرِ إِذْ قَالَ : إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [8 : 45] فَبَذَلُوا كُلَّ قُوَاهُمْ وَامْتَثَلُوا أَمْرَ رَبِّهِمْ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي نُفُوسِهِمُ اسْتِشْرَافٌ إِلَى شَيْءٍ مَا غَيْرَ نَصْرِ اللهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ وَالذَّوْدِ عَنْ نَبِيِّهِ لَا فِي أَوَّلِ الْقِتَالِ وَلَا فِي أَثْنَائِهِ ، فَكَانَتْ أَرْوَاحُهُمْ بِهَذَا الْإِيمَانِ وَهَذَا الصَّفَاءِ قَدْ عَلَتْ وَارْتَقَتْ حَتَّى اسْتَعَدَّتْ لِقَبُولِ الْإِلْهَامِ مِنْ أَرْوَاحِ الْمَلَائِكَةِ وَالتَّقْوَى بِنَوْعٍ مَا مِنَ الِاتِّصَالِ بِهَا .

وَأَمَّا يَوْمَ أُحُدٍ فَقَدْ كَانَ بَعْضُهُمْ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنَ الِافْتِتَانِ بِمَا كَانَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَلِذَلِكَ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْهُمْ أَنْ تَفْشَلَا ، ثُمَّ إِنَّهُمْ لَمَّا تَثَبَّتُوا وَبَاشَرُوا الْقِتَالَ انْتَصَرُوا وَهَزَمُوا الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ هُمْ أَكْثَرُ مِنْهُمْ ، فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ خَرَجَ بَعْضُهُمْ عَنِ التَّقْوَى وَخَالَفُوا أَمْرَ الرَّسُولِ ، وَطَمِعُوا فِي الْغَنِيمَةِ وَفَشِلُوا وَتَنَازَعُوا فِي الْأَمْرِ فَضَعُفَ اسْتِعْدَادُ أَرْوَاحِهِمْ ، فَلَمْ تَرْتَقِ إِلَى أَهْلِيَّةِ الِاسْتِمْدَادِ مِنْ أَرْوَاحِ الْمَلَائِكَةِ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْهُمْ مَدَدٌ ; لِأَنَّ الْإِمْدَادَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى حَسَبِ الِاسْتِعْدَادِ .

هَذَا هُوَ السَّبَبُ لِمَا حَصَلَ بِحَسَبِ مَا يَظْهَرُ لَنَا، وَأَمَّا حِكْمَتُهُ فَهِيَ تَمْحِيصُ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا سَيَأْتِي فِي قَوْلِهِ: وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ [3: 141] إِلَخْ. وَتَرْبِيَتُهُمْ بِالْفِعْلِ عَلَى إِقَامَةِ سُنَنِ اللَّهِ - تَعَالَى - فِي الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ كَمَا سَيَأْتِي فِي قَوْلِهِ: قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ [3: 137] وَبَيَانُ أَنَّ هَذِهِ السُّنَنَ حَاكِمَةٌ حَتَّى عَلَى الرَّسُولِ، وَأَنَّ قَتْلَ الرَّسُولِ أَوْ مَوْتَهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُثَبِّطًا لِلْهِمَمِ وَلَا دَاعِيَةً إِلَى الِانْقِلَابِ عَلَى الْأَعْقَابِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مِنْ أَمْرِ الْعِبَادِ شَيْءٌ، وَأَنَّ كُلَّ مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْمَصَائِبِ فَهُوَ نَتِيجَةُ عَمَلِهِمْ إِذْ هُوَ عُقُوبَةٌ طَبِيعِيَّةٌ لَهُمْ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا بَيَّنَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - فِي قَوْلِهِ: أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ [3: 165] إِلَخْ، وَقَوْلِهِ: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ [3: 144] إِلَخْ وَغَيْرِهِمَا فَلَا نَتَعَجَّلُهُ قَبْلَ الْكَلَامِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ النَّاطِقَةِ بِهِ وَمَا هِيَ بِبَعِيدٍ.

وَمِنْ نُكَتِ الْبَلَاغَةِ الْمُؤَيِّدَةِ لِمَا ذَكَرْنَا مِنِ اخْتِلَافِ الْحَالَيْنِ فِي الْوَقْعَتَيْنِ: أَنَّهُ - تَعَالَى - قَالَ هُنَا: وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَقَالَ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ: وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ [8: 10] وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ مَا تَطْمَئِنُّ بِهِ قُلُوبُهُمْ غَيْرُ وَعْدِ اللَّهِ وَبِشَارَتِهِ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ وَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ دُعَائِهِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ

أَنجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ أَنجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ فَلَنْ تُعْبَدَ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا قَالَ عُمَرُ رَاوِي هَذَا الْحَدِيثِ : فَمَا زَالَ يَسْتَغِيثُ رَبَّهُ وَيَدْعُوهُ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَرَدَّاهُ ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ لِرَبِّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ . وَأَنْزَلَ اللَّهُ يَوْمَئِذٍ : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ [8 : 9] الْآيَةَ . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا . فَكَانَ بِهَذَا الْوَعْدِ اطْمِئْنَانُ قُلُوبِهِمْ لَا بِسِوَاهُ ; فَلِذَلِكَ قَدَّمَ (بِهِ) عَلَى (قُلُوبُكُمْ) وَأَمَّا فِي يَوْمِ أُحُدٍ فَلَمْ تَكُنِ الْحَالُ كَذَلِكَ - كَمَا عُلِمَ مِمَّا تَقَدَّمَ آنِفًا - فَلَمْ تَعُدِ الْبِشَارَةُ أَنْ تَكُونَ مِمَّا يَطْمَئِنُّ بِهِ الْقَلْبُ فَقَالَ : وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ مِنْ غَيْرِ قَصْرٍ . ثُمَّ قَالَ - تَعَالَى - :

(235/129)

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ هَذَا مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ : وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَبَعْضٌ آخَرُ إِلَى أَنَّهُ مِنَ الْكَلَامِ فِي وَقْعَةِ أُحُدٍ الْمَقْصُودَةِ بِالذَّاتِ ، فَإِنَّ ذِكْرَ النَّصْرِ بِبَدْرٍ إِنَّمَا جَاءَ اسْتِطْرَادًا ; وَلِذَلِكَ أَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ ذِكْرُ الْمَلَائِكَةِ الثَّلَاثَةِ الْآلَافِ وَالْخَمْسَةِ الْآلَافِ مُتَعَلِّقًا بِهِ - وَهَذَا هُوَ الْمُخْتَارُ عِنْدَنَا ; أَيْ إِنَّهُ فَعَلَ مَا فَعَلَ لِيَقْطَعَ طَرَفًا ، أَوْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ لِيَقْطَعَ طَرَفًا . وَمَعْنَى قَطْعِ الطَّرَفِ مِنْهُمْ إِهْلَاكُ

طَائِفَةٍ مِنْهُمْ ، يُقَالُ : " قُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ " إِذَا هَلَكُوا ، وَقَدْ نَطَقَ بِهِ التَّنْزِيلُ ، وَعَبَّرَ عَنِ الطَّائِفَةِ بِالطَّرَفِ لِأَنَّهُمُ الْأَقْرَبُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْوَسَطِ ، أَوْ أَرَادَ بِهِمُ الْأَشْرَافَ مِنْهُمْ - كَذَا قِيلَ - وَالْمُتَبَادِرُ الْأَوَّلُ لَا لِأَنَّهُ مِنْ بَابِ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ [9 : 123] كَمَا قِيلَ ، بَلْ لِأَنَّ الطَّرَفَ هُوَ أَوَّلُ مَا يُوصَلُ إِلَيْهِ مِنَ الْجَيْشِ ، وَقَدْ أَهْلَكَ اللهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ أُحُدٍ طَائِفَةً فِي أَوَّلِ الْحَرْبِ ، رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ السُّدِّيِّ أَنَّهُ قَالَ : ذَكَرَ اللهُ قَتْلَى الْمُشْرِكِينَ - يَعْنِي بِأُحُدٍ - وَكَانُوا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ رَجُلًا فَقَالَ : لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَخْ . وَنَقُولُ : قَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ السِّيَرِ أَنَّ قَتْلَى الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ أُحُدٍ كَانُوا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ رَجُلًا ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ آخَرُونَ

(236/129)

بِأَنَّ حَمْزَةَ وَحْدَهُ قَتَلَ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ ، وَصَرَّحَ بَعْضُهُمْ بِأَنَّ سَبَبَ غَلَطِ مَنْ قَالَ ذَلِكَ الْقَوْلَ هُوَ مَا رُوِيَ أَنَّ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ أَرَادَ عَدَّ قَتْلَى الْمُشْرِكِينَ فَعَدَّ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ ، وَصَرَّحَ بَعْضُهُمْ بِأَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَخَذُوا قَتْلَاهُمْ أَوْ دَفَنُوهُمْ لِئَلَّا يُمَثِّلَ بِهِمُ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ الْمَعْرَكَةِ كَمَا مَثَّلُوا هُمْ بِالْمُسْلِمِينَ عِنْدَمَا أَصَابُوا الْغِرَّةَ مِنْهُمْ ، وَهَذَا هُوَ
الْمَعْقُولُ . وَانْتَظِرْ أَيُّهَا الْقَارِئُ قَوْلَهُ - تَعَالَى - : أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا [9 : 165] الْآيَةَ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ: أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَقَدْ فَسَّرُوهُ بِأَقْوَالٍ: مِنْهَا أَنَّ مَعْنَاهُ يُخْزِيهِمْ، وَمِنْهَا أَنَّ مَعْنَاهُ يَصْرَعُهُمْ لِوُجُوهِهِمْ وَفِي الْأَسَاسِ: كَبَتَ اللَّهُ عَدُوَّهُ: أَكَبَّهُ وَأَهْلَكَهُ، وَلَكِنَّ صَاحِبَ الْأَسَاسِ فَسَّرَ الْكَلِمَةَ فِي الْكَشَّافِ بِقَوْلِهِ: "لِيُخْزِيَهُمْ، وَيَغِيظَهُمْ بِالْهَزِيمَةِ" . وَقَالَ الرَّاغِبُ: الْكَبْتُ: الرَّدُّ بِعُنْفٍ وَتَذْلِيلٍ . وَقَالَ الْبَيْضَاوِيُّ: "أَوْ يُخْزِيهِمْ . وَالْكَبْتُ شِدَّةُ الْغَيْظِ أَوْ وَهَنٌ يَقَعُ فِي الْقَلْبِ" وَكُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي وَرَدَتْ فِي كُتُبِ اللُّغَةِ، وَصَرَّحَ الْبَيْضَاوِيُّ بِأَنَّ (أَوْ) هُنَا لِلتَّنْوِيعِ لَا لِلتَّرْدِيدِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يَقْطَعُ طَرَفًا وَطَائِفَةً وَيَكْبِتُ طَائِفَةً أُخْرَى، أَيْ وَيَتُوبُ عَلَى طَائِفَةٍ وَيُعَذِّبُ طَائِفَةً كَمَا فِي الْآيَةِ الْآتِيَةِ .

(237/129)

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ جُمْلَةُ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ هَذَا التَّقْسِيمِ، وَمَا بَعْدَهَا مَعْطُوفٌ عَلَى مَا قَبْلَهَا . وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مِمَّا نَزَلَ فِي وَقْعَةِ أُحُدٍ كَمَا رُوِيَ فِي الصَّحِيحِ تَعَيَّنَ أَنْ تَكُونَ الَّتِي قَبْلَهَا كَذَلِكَ وَإِلَّا كَانَتْ غَيْرَ مَفْهُومَةٍ إِلَّا بِتَكَلُّفٍ يُنَزَّهُ الْقُرْآنُ عَنْ مِثْلِهِ عَلَى كَوْنِهِ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ .

أَمَّا كَوْنُهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ وَقْعَةِ أُحُدٍ فَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا وَرَدَ فِي سَبَبِ نُزُولِهَا . رَوَى أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَوْمَ أُحُدٍ : اللهُمَّ الْعَنْ أَبَا سُفْيَانَ ، اللهُمَّ الْعَنِ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ ، اللهُمَّ الْعَنْ سُهَيْلَ

(238/129)

ابْنَ عَمْرٍو ، اللهُمَّ الْعَنْ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فَتِيبَ عَلَيْهِمْ . وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ نَحْوَهُنَّ ، وَرَوَى أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كُسِرَتْ رُبَاعِيَتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَشُجَّ فِي وَجْهِهِ حَتَّى سَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ فَقَالَ : كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ الْآيَةَ ، ذَكَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ السُّيُوطِيُّ فِي لُبَابِ النُّقُولِ وَلَمْ يَعْزُ الْأَوَّلَ إِلَى التِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ اكْتِفَاءً بِمَنْ هُوَ أَصَحُّ مِنْهُمَا رِوَايَةً ، وَقَدْ رَوَى ذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ ، وَمَا رُوِيَ غَيْرُ ذَلِكَ لَا يُعْتَدُّ بِهِ . وَلَا تَنَافِيَ بَيْنَ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو وَحَدِيثِ أَنَسٍ لِأَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَهُمَا ظَاهِرٌ ، وَهُوَ أَنَّهُ قَالَ مَا قَالَ فِيهِمْ حِينَ أَدْمَوْهُ ، ثُمَّ لَعَنَ رُؤَسَاءَهُمْ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ عَقِبَ ذَلِكَ كُلِّهِ .

(239/129)

وأَمَّا الْمَعْنَى فقَدْ قَالَ ابْنُ جرِيرٍ : يَعْنِي بذَلِكَ – تَعَالَى – ذِكْرُهُ : لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ، لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ . فَقَوْلُهُ : أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ مَنْصُوبٌ عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ : أَوْ يَكْبِتَهُمْ وقَدْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ تَأْوِيلُهُ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ حَتَّى يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، فَيَكُونُ نَصْبُ يَتُوبَ بِمَعْنَى "أَوْ" الَّتِي هِيَ فِي مَعْنَى "حَتَّى" وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَوْلَى بِالصَّوَابِ ; لِأَنَّهُ لَا شَيْءَ مِنْ أَمْرِ الْخَلْقِ إِلَى أَحَدٍ سِوَى خَالِقِهِمْ قَبْلَ تَوْبَةِ الْكُفَّارِ ، وَعِقَابُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ . وتَأْوِيلُ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ لَيْسَ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ أَمْرِ خَلْقِي إِلَّا أَنْ تُنَفِّذَ فِيهِمْ أَمْرِي وتَنْتَهِيَ فِيهِمْ إِلَى طَاعَتِي ، وَإِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَيَّ وَالْقَضَاءُ فِيهِمْ بِيَدِي دُونَ غَيْرِي . أَقْضِي فِيهِمْ وَأَحْكُمُ بِالَّذِي أَشَاءُ مِنَ التَّوْبَةِ عَلَى مَنْ كَفَرَ بِي وَعَصَانِي وَخَالَفَ أَمْرِي ، أَوِ الْعَذَابِ إِمَّا فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالنِّقَمِ الْمُبِيرَةِ ، وَإِمَّا فِي آجِلِ الْآخِرَةِ بِمَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِ الْكُفْرِ بِي ، انْتَهَى قَوْلُ ابْنِ جرِيرٍ وَقَدْ أَوْرَدَ بَعْدَهُ مَا عِنْدَهُ مِنَ الرِّوَايَاتِ فِي الْآيَةِ .

وَأَقُولُ : لَوْ لَمْ يَكُنْ لِمَا جَرَى فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ حِكْمَةٌ إِلَّا نُزُولُ هَذِهِ الْآيَةِ لَكَفَى ، فَكَيْفَ وَقَدْ جُمِعَ إِلَيْهَا مَا سَيَأْتِي مِنَ الْحِكَمِ الدِّينِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْحَرْبِيَّةِ ؟ !

كَانَ الْمُؤْمِنُونَ السَّابِقُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ وَعْدِ اللهِ - تَعَالَى - بِنَصْرِ نَبِيِّهِ وَإِظْهَارِ دِينِهِ لَمْ يُزَلْزِلْ إِيمَانَهُمْ بِذَلِكَ ضَعْفُهُمْ وَقِلَّتُهُمْ ، وَلَا إِخْرَاجُ الْمُشْرِكِينَ لِلْمُهَاجِرِينَ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَكَانَتْ وَقْعَةُ بَدْرٍ أَوَّلَ تَبَاشِيرِ هَذَا النَّصْرِ ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّ اللهَ - تَعَالَى - نَصَرَهُمْ عَلَى قِلَّتِهِمْ وَضَعْفِهِمْ بَعْدَ مَا كَانَ مِنْ دُعَاءِ الرَّسُولِ وَتَضَرُّعِهِ وَاسْتِغَاثَتِهِ رَبَّهُ زَادَهُمْ ذَلِكَ إِيمَانًا

بِأَنَّهُمْ هُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَلَكِنْ وَقَعَ فِي نُفُوسِ الْكَثِيرِينَ - إِنْ لَمْ نَقُلْ فِي نُفُوسِ الْجَمِيعِ - أَنَّ نَصْرَهُمْ سَيَكُونُ بِالْآيَاتِ وَالْعِنَايَةِ الْخَاصَّةِ مِنْ غَيْرِ الْتِزَامٍ لِلسُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ فِي الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ ، وَأَنَّ وُجُودَ الرَّسُولِ فِيهِمْ وَدُعَاءَهُ عَلَى أَعْدَائِهِمْ هُمَا أَفْعَلُ فِي التَّنْكِيلِ بِالْكُفَّارِ مِنِ الْتِزَامِ الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي أَهَمُّهَا طَاعَةُ الْقَائِدِ وَالْتِزَامُ النِّظَامِ الْعَسْكَرِيِّ وَغَيْرُ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّ الْإِسْلَامَ دِينُ الْفِطْرَةِ لَا الْخَوَارِقِ .

كَانَتْ عَاقِبَةُ ذَلِكَ أَنْ قَصَّرُوا فِي هَذِهِ الْأَسْبَابِ يَوْمَ أُحُدٍ حَتَّى ظَهَرَ عَلَيْهِمُ الْعَدُوُّ وَجُرِحَ الرَّسُولُ نَفْسُهُ - وَإِنْ لَمْ يُقَصِّرْ هُوَ - وَلَمْ يَنْهَزِمْ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، كَمَا هِيَ السُّنَّةُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ الَّتِي

بَيَّنَهَا – تَعَالَى – قَبْلَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ بِقَوْلِهِ : وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً [8 : 25] – وَإِنْ تَبَرَّمَ الرَّسُولُ مِنَ الْكَافِرِينَ وَدَعَا عَلَى رُؤَسَائِهِمْ – فَكَانَ ذَلِكَ فُرْصَةً لِإِعْلَامِ الْمُؤْمِنِينَ بِحَقِيقَةٍ مِنْ حَقَائِقِ دِينِ الْفِطْرَةِ ، وَهِيَ أَنَّ الرَّسُولَ بَشَرٌ لَيْسَ لَهُ مِنْ أَمْرِ الْعِبَادِ وَلَا مِنْ أَمْرِ الْكَوْنِ شَيْءٌ ، وَإِنَّمَا هُوَ مُعَلِّمٌ وَأُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيمَا يُعَلِّمُهُ ، وَالْأَمْرُ كُلُّهُ لَهُ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي الْآيَةِ (154) يُدَبِّرُهُ بِمُقْتَضَى سُنَنِهِ كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ فِي الْآيَةِ (137) وَكِلَا الْآيَتَيْنِ مِنْ هَذَا السِّيَاقِ .

(242/129)

هَذَا الْبَيَانُ الْإِلَهِيُّ فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ يَتَمَكَّنُ فِي النُّفُوسِ مَا لَا يَتَمَكَّنُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مَقْرُونًا بِوَاقِعَةٍ مَشْهُورَةٍ لَا مَجَالَ مَعَهَا لِتَأْوِيلِهِ وَلَا لِتَخْصِيصِهِ أَوْ تَقْيِيدِهِ ، فَهُوَ مِنْ أَقْوَى دَعَائِمِ التَّوْحِيدِ فِي الْقُرْآنِ ، وَدَلَائِلِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِذْ لَوْ كَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مُؤَسِّسَ مُلْكٍ ، وَزَعِيمَ سِيَاسَةٍ يُدِيرُهَا بِالرَّأْيِ لَمَا قَالَ مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ ، فَأَيُّ نَصِيبٍ مِنْ هَذَا الدِّينِ لِلَّذِينَ يَجْعَلُونَ أَمْرَ الْعِبَادِ وَتَدْبِيرَ شُئُونِ الْكَوْنِ لِطَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ أَوِ الْأَحْيَاءِ الَّذِينَ يُلَقَّبُونَ بِالْمَشَايِخِ وَالْأَوْلِيَاءِ فَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَنْصُرُونَ وَيَخْذُلُونَ ، وَيُسْعِدُونَ وَيُشْقُونَ ، وَيُمِيتُونَ وَيُحْيُونَ ، وَيُغْنُونَ وَيُفْقِرُونَ ، وَيُمْرِضُونَ وَيَشْفُونَ

، وَيَفْعَلُونَ كُلَّ مَا يَشَاءُونَ ؟ هَلْ يُعَدُّ هَؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَأَتْبَاعِ الْقُرْآنِ الَّذِي يُخَاطِبُ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ - حِينَ لَعَنَ رُؤَسَاءَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ حَارَبُوهُ حَتَّى خَضَّبُوا بِالدَّمِ مُحَيَّاهُ وَكَسَرُوا إِحْدَى ثَنَايَاهُ - بِقَوْلِهِ : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ وَقَوْلِهِ : قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ؟ هَذَا تَعْلِيمُ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ وَهَذَا هَدْيُهُ الْقَوِيمُ ، فَهَلْ كَانَ أَهْلُ بُخَارَى مُهْتَدِينَ بِهِ عِنْدَمَا كَانُوا يَقُولُونَ وَقَدْ عَلِمُوا بِعَزْمِ رُوسْيَا عَلَى الِاسْتِيلَاءِ عَلَى بِلَادِهِمْ : إِنَّ " شَاهْ نَقْشَبَنْدَ " هُوَ حَامِي هَذِهِ

(243/129)

الْبِلَادِ فَلَنْ يَسْتَطِيعَهَا أَحَدٌ ؟ هَلْ كَانَ أَهْلُ فَاسَ مُهْتَدِينَ بِهِ عِنْدَمَا لَجَئُوا إِلَى قَبْرِ وَلِيِّهِمْ " إِدْرِيسَ "
يَسْتَغِيثُونَهُ وَيَسْتَفْتِحُونَ بِهِ عَلَى الْفَرَنْسِيسِ ؟ هَلْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ هُدَى هَذَا الدِّينِ عِنْدَمَا كَانُوا يَسْتَنْصِرُونَ بِقِرَاءَةِ الْبُخَارِيِّ أَوْ يَسْتَغِيثُونَ بِالْأَوْلِيَاءِ فِي بِلَادٍ كَثِيرَةٍ ؟ أَيَزْعُمُونَ أَنَّ تِلْكَ النَّزَعَاتِ الْوَثَنِيَّةَ تُعَدُّ مِنَ الدُّعَاءِ الْمَشْرُوعِ ؟ أَلَمْ يَعْتَبِرُوا بِهَذِهِ الْآيَةِ وَمَا رَوَاهُ أَهْلُ الصَّحِيحِ فِي سَبَبِهَا وَهُوَ دُعَاءُ النَّبِيِّ عَلَى رُؤَسَاءِ الْمُشْرِكِينَ حِينَ فَعَلُوا مَا فَعَلُوا ؟ أَلَمْ يَتَعَلَّمُوا مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الِاسْتِعْدَادَ بِالْفِعْلِ مُقَدَّمٌ

(244/129)

عَلَى الدُّعَاءِ بِالْقَوْلِ ؟ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّ سَلَفَهُمْ كَانُوا يُنْصَرُونَ أَيَّامَ لَمْ يَكُونُوا دَائِمًا يَقُولُونَ : " اللَّهُمَّ نَكِّسْ أَعْلَامَهُمْ ، اللَّهُمَّ زَلْزِلْ أَقْدَامَهُمْ ، اللَّهُمَّ يَتِّمْ أَطْفَالَهُمْ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهُمْ غَنِيمَةً لِلْمُسْلِمِينَ " وَأَنَّهُمْ بَعْدَ اللَّهَجِ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ غَيْرُ مَنْصُورِينَ فِي جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ ؟ فَالْعَمَلَ الْعَمَلَ ، الِاسْتِعْدَادَ الِاسْتِعْدَادَ ، الْأُهْبَةَ الْأُهْبَةَ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ [8 : 60] وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالْعِلْمِ وَالْمَالِ ، وَلَا مَالَ إِلَّا بِالْعَدْلِ ، وَلَا عَدْلَ مَعَ حُكْمِ الِاسْتِبْدَادِ ، ثُمَّ بَعْدَ كَمَالِ الِاسْتِعْدَادِ يَكُونُ الذِّكْرُ وَالِاسْتِمْدَادُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا [8 : 45 ، 46] هَذَا هُدَى الْإِسْلَامِ وَقَدْ تَمَثَّلَ لَهُمْ صِدْقُهُ فِي النَّبِيِّ وَصَالِحِي الْمُؤْمِنِينَ ، أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ [23 : 68] ؟

(245/129)

ثُمَّ أَكَّدَ - تَعَالَى - هَذِهِ الْحَقِيقَةَ وَأَيَّدَهَا بِقَوْلِهِ : وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ فَمَنْ كَانَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كَانَ حَقِيقًا بِأَنْ يَكُونَ لَهُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِهِمَا شَرِكَةٌ مَعَهُ وَلَا رَأْيٌ وَلَا وَسَاطَةُ تَأْثِيرٍ فِي تَدْبِيرِهِمَا وَإِنْ كَانَ مَلَكًا مُقَرَّبًا أَوْ نَبِيًّا مُرْسَلًا إِلَّا مَنْ سَخَّرَهُ - تَعَالَى - لِلْقِيَامِ بِشَيْءٍ فَإِنَّهُ يَكُونُ خَاضِعًا لِذَلِكَ التَّسْخِيرِ لَا يَسْتَطِيعُ الْخُرُوجَ فِيهِ عَنِ السُّنَنِ الْعَامَّةِ الَّتِي قَامَ بِهَا نِظَامُ الْكَوْنِ وَنِظَامُ الِاجْتِمَاعِ ، وَفِي ذَلِكَ تَأْدِيبٌ مِنَ اللهِ - تَعَالَى - لِرَسُولِهِ وَإِعْلَامٌ بِأَنَّ ذَلِكَ اللَّعْنَ وَالدُّعَاءَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مِمَّا لَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ : "يَعْنِي بِذَلِكَ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - لَيْسَ لَكَ يَا مُحَمَّدُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ وَلِلَّهِ جَمِيعُ مَا بَيْنَ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ مَشْرِقِ الشَّمْسِ إِلَى مَغْرِبِهَا ، دُونَكَ وَدُونَهُمْ يَحْكُمُ فِيهِمْ بِمَا شَاءَ ، وَيَقْضِي فِيهِمْ مَا أَحَبَّ ، فَيَتُوبُ عَلَى مَنْ أَحَبَّ مِنْ خَلْقِهِ الْعَاصِينَ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ ثُمَّ يَغْفِرُ لَهُ ، وَيُعَاقِبُ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ عَلَى جُرْمِهِ فَيَنْتَقِمُ مِنْهُ غَفُورٌ الْغَفُورُ : الَّذِي يَسْتُرُ ذُنُوبَ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْتُرَ عَلَيْهِ ذُنُوبَهُ مِنْ خَلْقِهِ بِفَضْلِهِ عَلَيْهِمْ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ وَرَحِيمٌ بِهِمْ فِي تَرْكِهِ

عُقُوبَتُهُمْ - عَاجِلًا - عَلَى عَظِيمِ مَا يَأْتُونَ مِنَ الْمَآثِمِ اهـ . وَلَا تَنْسَ أَنَّ مَشِيئَتَهُ الْمَغْفِرَةَ أَوِ التَّعْذِيبَ جَارِيَةٌ عَلَى سُنَنٍ حَكِيمَةٍ مُطَّرِدَةٍ كَمَا تَقَدَّمَ غَيْرَ مَرَّةٍ - رَاجِعْ ص 223 مِنَ الْجُزْءِ الثَّالِثِ [طَبْعَةِ الْهَيْئَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْعَامَّةِ لِلْكِتَابِ] . انتهى انتهى . اهـ ﴿تفسير المنار حـ 4 صـ 100.78﴾

(247/129)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وبما أننا نتحدث عن ملامح في غزوة أحد أريد أن أقول : " جبل أُحدٍ رضي الله عنه " ؛ لأننا سمعنا بعض العارفين بالله حين تذكر كلمة " أحد " قال : أحد رضي الله عنه - فتعجب القوم لقول الشيخ عبد الله الزيدان الذي قال ذلك ، فما رأى عجبهم قال لهم : ألم يخاطبه رسول الله بقوله : " اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان " ، ألم يقل فيه رسول الله : " أحد جبل يحبنا ونحبه " أتريدون أحسن من ذلك في الصحبة !, قل : أحد

رضي الله عنه.

وقلنا سابقاً: إنك إذا وقف عقلك في حاجة فلا تأخذها بمقاييسك أنت، بل خذها بالمقاييس الأعلى. ونحن نقول هذا الكلام لأن العلم الآن يجري ويسعى سعياً حثيثا مسرعاً حول استخراج بعض أسرار الله في الكون، فبين لنا أن الحيوانات لها لغات تتفاهم بها, ويحاولون الآن أن يضعوا قاموسا للغة الأسماك. والحق سبحانه وتعالى ذكر لنا حكاية النملة مع سليمان – عليه السلام – فقال:

﴿ يا أَيُّها النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾

[النمل: 18]

هذا القول يدل على أنّ نملة خرجت وقامت بعمل (وردية) كي تحافظ على من معها ثم عادت لتتكلم مع أبناء فصيلتها، وسمعها سيدنا سليمان، فتبسم من قولها. إذن العلم يتسابق ويجد ويُسَارع الآن ليثبت أن لكل جنس في الوجود لغة يتفاهم بها، وكل جنس في الوجود له انفعال، وكل جنس في الوجود له تكاثر، ولذلك قال الحق لنا على لسان سيدنا سليمان:

﴿ يا أَيُّها النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾

[النمل: 16]

وكانت هذه خصوصية لسيدنا سليمان عليه السلام ، إذن فللطير منطق . وعندما تتسامى ونذهب إلى الجماد نسمع قول الحق سبحانه في آل فرعون وعدم بكاء الجماد عليهم :

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾

[الدخان : 25-29]

هل تبكي السماء والأرض ؟ إنه أمر عجيب ؛ فالجماد من سماء وأرض لا تتفاهم فقط ولكن لها عواطف أيضاً ؛ لأن البكاء إنما ينشأ عن إنفعال عاطفي وجداني . هذا يعني أن الجمادات لا تتكلم فقط ، ولكنها تحس أيضاً . فالأرض تخرج أثقالها ، وتحدث أخبارها ، كيف ؟

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾

[الزلزلة : 5]

والسماء والأرض أتيا إلى الله في منتهى الطاعة والخشوع :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾

[فصلت : 11]

إذن فهناك ما هو أكثر من التفاهم ، إن لها عواطف مثلك تماما ، وكما تحزنك حاجة فالأرض أيضاً تبكي ، وما دامت تبكي إذن فلها مقابل بأن يفرح ، ويقول الله تعالى عن أرض فرعون : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالأَرْضُ ﴾ فلو أنها لم تبك مع بعض الناس ؛ لما كان لهذا الكلام ميزة .

لذلك قال الإمام علي – كرم الله وجهه – : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع مصلاه ؛ لأنه سيحرم من نعمة الإيمان ، ومصعد عمله ، موضع في الأرض وموضع في السماء . إذن فلا بد أن نفهم أن لكل شيء شعوراً . وقال صلى الله عليه وسلم : " إذا مات المؤمن استبشرت له بقاع الأرض فليس من بقعة إلا وهي تتمنى أن يدفن فيها " .

(249/129)

لماذا نقول هذا الكلام الآن ؟ نقول ذلك حتى إذا ثبت بالعلم أن لكل شيء لغة ، ولكل شيء في أجناس الكون تفاهما ، يقال إن فيه ناساً هبت عليهم نسمات الإيمان فأدركوها وأحسوها من القرآن ، فلا يدعي أحد أنه ابتكر من ذات نفسه لأنها في القرآن وإن كنا لا نعرف كيف تأتي .

وهذه المعركة - معركة أُحد - التي أخذت ستين آية، نجد أن الحق تكلم عنها هنا فقال:

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ و ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَّآئِفَتَانِ ﴾, وقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾، وبعد ذلك يترك الغزوة في حرارتها ويأتينا بأشياء يضعها هنا، ثم يأتي ليكمل الغزوة. لو أن هذه لقطة من الغزوة وتنتهي ثم يأتي موضوع آخر، لما شغلنا أنفسنا، إنما الغزوة ستأتي فيها ستون آية، فكيف ينهي الكلام في الغزوة ولا يعطينا إلا استهلال الغزوة، وبعد ذلك ينصب القرآن على معانٍ بعيدة عن الغزوة؟ فما الذي يجعله - سبحانه - يترك أمر الغزوة ليقول:

(250/129)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّآءِ وَالضَّرَّآءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن

تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

[آل عمران : 130-138]

لماذا لم يعطنا الحق إلا استهلاك الغزوة وبعد ذلك انصب على قضايا أولها قضية الربا ، ما العلاقة بين هذه القضايا وتلك الغزوة ؟ . وأقول : رحم الله صاحب الظلال الوارفة الشيخ سيد قطب فقد استطاع أن يستخلص من هذه النقلة مبادئ إيمانية عقدية لو أن المسلمين في جميع بقاع الأرض جعلوها نصب أعينهم لما كان لأي دولة من دول الكفر غلبة علينا .

ونريد أن نفهم هذه اللقطات ، ولماذا استهلت بمسألة الربا ؟ لأن الذي كان سبباً في الهزيمة أو عدم النصر في معركة أُحد أنهم طمعوا في الغنيمة . والغنيمة مال زائد ، والربا فيه طمع في مال زائد .

(251/129)

والقرآن حين يعالج هنا قضية حدثية ، والأحداث أغيار تمر وتنتهي ، فهو سبحانه يريد أن يستبقي عطاء الحدث ليشيع في غير زمان الحدث ، وإلا فالحدث قد يمر بعظاته وعبره

وينتهي ولا تكون له فائدة. والنفس حين تمر بالأحداث تكون ملكاتها متفتحة؛ لأن الحدث - كما قال المغفور له الشيخ سيد قطب - يكون ساخناً، فحين يستغل القرآن الحدث قبل أن يبرد فإن القضية التي تتعرض لها الموعظة تتمكن من النفس البشرية. وهو سبحانه لم يرد أن تمر أحداث أُحد بما فيها من العبر والعظات إلا ويستغلها القرآن الكريم ليثبت بها قضايا إيمانية تشيع في غير أزمنة الحدث من الحروب وغيرها لتنتظم أيضاً وقت السلام. فآية الربا هنا كأنما سقطت وسط النصوص التي تتعرض لغزوة أحد.

والسطحيون قد يقولون: ما الذي جعل القرآن ينتقل من الكلام عن أُحد إلى أن يتكلم في الربا مرة ثانية بعد أن تكلم عنه أولاً؟

ونقول: إن القرآن لا يؤرخ الأحداث، وإنما يُريد أن يستغل أحداثاً ليبسط ويوضح ما فيها من المعاني التي تجعل الحدث له عرض وله طول وله عمق؛ لأن كل حدث في الكون يأخذ من الزمن قدر الحدث، والحدث له طول هو قدر من الزمن، يكون ساعة أو ساعتين أو ليلة مثلا، هذا هو طول الحدث.

والأحداث التي يجريها الله لها طول يحدده عمر الحدث الزمني، ولها عرض يعطيها الاتساع، فبعد أن كانت خطاً مستقيماً صارت مساحة، ويجعلها الحق شاملة لأشياء كثيرة، فهو لا يريد للحدث أن يسير كخط مستقيم، بل يريده طريقا واسعاً له مساحة وله عرض.

هذا العرض يعطيه رقعة مساحية تأخذ كثيراً من الأشياء، وهذا أيضا قد ينتهي مع

الحدث ، لذلك يريد الله أن يعطي للحدث بعداً ثالثاً وهو العمق في التاريخ فيعطي عطاءه ، كما نستفيد نحن الآن من عطاء حدث هو غزوة أُحد .

(252/129)

إذن فالحدث له حجم أيضاً ، وهذا ما يجعل الناس تقف لتقول : إن صلة الرحم تطيل العمر ، والعمر له حد زمني محدد وهو الخط المستقيم له ، فهناك واحد يزيد من عرض عمره ، فبدلاً من أن ينفع الناس في مجال صغير فهو يعمل وينفع في مجال أوسع ، إذن فهو يعطي لعمره مساحة .

وهناك إنسان آخر يريد أن يكون أقوى في العمر ، فماذا يعمل ؟ إنه يعطي لعمره عمقاً ، فبدلاً من أن يعمل لمجرد حياته وينتهي عمره مهما كانت رقعته واسعة ، فهو يزيد من عمله الصالح ويترك أثراً من علم أو خير يستمر من بعد حياته كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له " .

ولذلك يقول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ
* تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

[إبراهيم : 24-25]

هي كلمة طيبة قيلت ، لكنّها مثل الشجرة الطيبة ؛ لأنها ترسخ في أذن من يسمعها فتصير حركة خاضعة للكلمة ، وكلما فعل السامع لهذه الكلمة فعلاً ناتجاً من تأثير هذه الكلمة فإن بعض الثواب يعود إلى من قال هذه الكلمة حتى ولو كان قد مات .

فكأن قائل هذه الكلمة ما زال يعيش ، وكأن عمره قد طال بكلمته الطيبة, إذن فأعمال الخير التي تحدث من الإنسان ليس معناها أنها تطيل العمر ؛ لأن العمر محدود بأجل ، ولكنْ هناك إنسان يعطي عمره عرضاً ، وآخر يعطيه عمقاً ويظل العطاء منه موصولاً إلى أن تقوم الساعة ، فكأنه أعطى لنفسه عمراً خالداً . ويقولون : والذكر للإنسان عمر ثان .

(253/129)

والحق سبحانه وتعالى يوضح الدروس المستفادة من غزوة أُحد ، إن أول مخالفة كانت سبباً ليس في الهزيمة ، ولكن دعنا نقل : "في عدم إتمام النصر" ، لأنهم بدأوا منتصرين ، ولم يتم النصر لأنه قد حدثت مخالفة ، ودوافع هذه المخالفة انهم ساعة رأوا الغنائم ، اندفعوا

إليها ، إذن فدوافعها هي طلب المال من غير وجه مشروع ؛ لأن النبي قال لهم : " انضحوا عنا الخيل ولا نؤتين من قبلكم ، الزموا أماكنكم إن كانت النوبة لنا أو علينا ، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم " وبهذا صارت مبارحة المكان أمراً غير مشروع ، فتطلع النفس إلى شيء في غير ما أمر به رسول الله يعتبر أمراً غير مشروع والتطلع هنا كان للمال ، وهكذا الربا .

وأراد الحق أن تكون سخونة الحدث ، والأثر الذي نشأ من الحدث في أن المسلمين لم يتم نصرهم ، وتعبوا ، وكان مصدر التعب أن قليلاً منهم أحبوا المال الزائد من غير وجهه المشروع. فأراد – سبحانه – أن يكون ذلك مدخلا لبيان الأثر السيء للتعامل بالربا .

إذن فهذه مناسبة في أننا نجد آية الربا هنا وهي توضح الآثار السيئة للطمع في المال الزائد عن طريق غير مشروع ، والقرآن فيه الكثير من المواقف التي توضح آثاراً تبدو في ظاهرها غير مترابطة ، ولكن النظرة العميقة تؤكد الترابط .

وقلنا من قبل في قول الله تعالى :

﴿ حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلَّهِ قَانِتِينَ * فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾

[البقرة : 238-239]

قد يقول أحد السطحيين: إن الحق سبحانه وتعالى كان يتكلم عن الطلاق قبل هاتين الآيتين فقال سبحانه:

(254/129)

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

[البقرة: 237]

ويترك الحق الحديث عن الطلاق ويأمر بالحفاظ على الصلاة بقوله الحكيم: ﴿ حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾.

وبعد ذلك يعود الحق لاستكمال حديث الطلاق والفراق بالموت.

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[البقرة: 240]

إنه يتكلم عن الطلاق، والوفاة، ثم ينزل بينهما آية الصلاة، لماذا؟ ليتضح لنا أن المنهج

الإسلامي منهج متكامل . إياك أن تقول : إن الطلاق غير الصلاة ، غير الوفاة ، أبداً ، إنه منهج متكامل . ولأنه – سبحانه وتعالى – يريد أن ينبهنا إلى أن الطلاق عملية تأتي والنفس فيها غضب, وتأتي والزوج والزوجة وأهل الزوج وأهل الزوجة في كدر ، فيقول لهم المنهج : لو كنتم تحسنون الفهم لفزعتم إلى الصلاة حين تواجهكم هذه الأمور التي فيها كدر .

وساعة تكون في كدر قم وتوضأ وصَلِّ ، لأن النبي علمنا أنه إذا حَزَبه أمر قام إلى الصلاة ، فساعة تجد الجو المشحون بالتوتر بين الزوج والزوجة وأهلهما قل لهم : المسألة صارت أكبر من حيلنا ، فهيا نصل ليساعدنا الله على حل هذه المسائل الصعبة, وأنا أتحدى ألا يوجد الله حلاً لمشكلة لجأ فيها المسلم إلى الصلاة قبلها .

(255/129)

وهكذا نفهم أن الحق قال : ﴿ حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى ﴾ لأن محافظتكم عليها هي التي ستنهي كل الخلافات ؛ لأن الله لا يكون في بالكم ساعة ضيقكم وفي ساعة شدتكم فتستسلمون للضيق والشدة وتنسون الصلاة ، في الوقت الذي يكون فيه الإنسان أحوج ما يكون إلى الصلاة . إنك في وقت الضيق والشدة عليك أن تذهب إلى ربك ، وأقول هذا المثل – ولله المثل الأعلى – إن الولد الذي يضربه أصحابه يذهب إلى

أبيه ، كذلك زوجتك إذا أغضبتها تذهب إلى أهلها ، فكيف لا تذهب إلى ربك وقت شدتك وكربك ؟ .

وهكذا نجد أن قوله الحق : ﴿ حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى ﴾ جاء في المكان الصحيح ، وهكذا آية الربا ، جاءت في مكانها هنا وخصوصاً أنه تكلم عن الربا أولاً ، فتأتي الحادثة وسخونة الحدث وينزل هذا القرآن الكريم . كي يعرف كل من يريد مالاً زائداً على غير ما شرع الله أنّه سيأتي منه البلاء على نفسه وعلى غيره ، فالبلاء في أُحد شمل الجميع : الرماة وغير الرماة أيضا .

إذن فكل الدنيا تتعب عندما تخالف منهج الله ، والمال الزائد من غير ما شرع الله إن لم يترك فقد آذن الله من يأكله بحرب من الله ومن رسول الله . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1739. 1747 ﴾

(256/129)

" فصل "

قال السيوطى :

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (128) وَلِلَّهِ مَا فِي

السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (129)

أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه والبيهقي في الدلائل عن أنس ، "أن النبي صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته يوم أحد ، وشج في وجهه حتى سال الدم على وجهه فقال "كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ فأنزل الله ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبه فإنهم ظالمون ﴾ " " .

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا أن هذه الآية أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وقد جرح في وجهه ، وأصيب بعض رباعيته وفوق حاجبه فقال وسالم مولى أبي حذيفة يغسل الدم عن وجهه "كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ فأنزل الله ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ الآية " .

وأخرج ابن جرير عن الربيع قال : نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وقد شج في وجهه وأصيبت رباعيته ، فهمَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو عليهم فقال "كيف يفلح قوم أدموا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى الله ويدعونه إلى الشيطان ، ويدعوهم إلى الهدى ويدعونه إلى الضلالة ، ويدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار ؟ فهمَّ أن يدعو عليهم . فأنزل الله ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ الآية فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء عليهم " .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انكشف عنه أصحابه يوم أحد ، كسرت رباعيته وجرح وجهه فقال وهو يصعد على أحد "كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ فأنزل الله مكانه ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ الآية " .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ، ان رباعية رسول الله صلى الله عليه وسلم أصيبت يوم أحد ، أصابها عتبة بن أبي وقاص وشجه في وجهه ، فكان سالم مولى أبي حذيفة يغسل الدم والنبي صلى الله عليه وسلم يقول "كيف يفلح قوم صنعوا هذا بنبيهم ؟ فانزل الله ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ الآية " .

وأخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد : اللهم العن أبا سفيان ، اللهم العن الحرث بن هشام ، اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن أمية . فنزلت هذه الآية ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ فتيب عليهم كلهم " .

وأخرج الترمذي وصححه وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو على أربعة نفر . فانزل الله ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ الآية فهداهم الله للإسلام .

(258/129)

وأخرج البخاري ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه والبيهقي في سننه عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع " اللهم أنج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين . اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف يجهر بذلك وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر اللهم العن فلاناً وفلاناً . . . لأحياء من أحياء العرب يجهر بذلك حتى أنزل الله ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ وفي لفظ اللهم العن لحيان ، ورعلا ، وذكوان ، وعصية ، عصت الله ورسوله . ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما نزل قوله ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ الآية " .

وأخرج عبد بن حميد والنحاس في ناسخه عن ابن عمر ، أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن في صلاة الفجر بعد الركوع في الركعة الآخرة فقال " اللهم العن فلاناً وفلاناً ناساً من

المنافقين دعا عليهم فأنزل الله ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ الآية " .

وأخرج ابن إسحق والنحاس في ناسخه عن سالم بن عبد الله بن عمر قال : جاء رجل من قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنك تنهى عن السبي يقول : قد سبى العرب . ثم تحول قفاه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكشف استه فلعنه ودعا عليه . فأنزل الله ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ الآية . ثم أسلم الرجل فحسن إسلامه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 311 . 313 ﴾

(259/129)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (121) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (122) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (124) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا

بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (126) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (127) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (128) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (129) ﴾

(260/129)

التفسير : أنه سبحانه لما وعدهم النصر على الأعداء إن هم صبروا واتقوا وخلاف ذلك إن لم يصبروا ، أتبعه قوله : ﴿ وإذا غدوت من أهلك ﴾ ﴿ ولقد نصركم الله ببدر ﴾ يعني أنهم يوم أحد كانوا كثيرين مستعدين للقتال ، فلما خالفوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم انهزموا ، ويوم بدر كانوا قليلين غير متسعدين لكنهم أطاعوا أمر الرسول فغلبوا واستولوا على خصومهم . ووجه آخر في النظر وهو أن الانكسار يوم أحد إنما حصل بسبب تخلف عبد الله بن أبيّ بن سلول المنافق ، وذلك يدل على أنه لا يجوز اتخاذ المنافقين بطانة . قال أبو مسلم : هذا كلام معطوف بالواو عل قوله : ﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتا ﴾ [آل عمران : 13] أي قد كان لكم مثل تلك الآية إذ غدا الرسول يبوىء المؤمنين . والجمهور على أنه منصوب بإضمار " اذكر " وعن الحسن أن هذا الغدو كان يوم بدر .

وعن مجاهد أنه يوم الأحزاب . وأكثر العلماء بالمغازي على أن هذه الآية نزلت في واقعة أحد . وهو قول ابن عباس والسدي وابن إسحق والربيع والأصم وأبي مسلم . " روي أن المشركين أن نزلوا بأحد يوم الأربعاء ، فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ودعا صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبيّ ولم يدعه قط قبلها فاستشاره . فقال عبد الله وأكثر الأنصار : يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوّ قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فكيف وأنت فينا ؟ فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة ، وإن رجعوا رجعوا خائبين . وقال بعضهم : يا رسول الله اخرج بنا إلى هؤلاء إلا كلب لا يرون أنا قد جبنا عنهم . وقال صلى الله عليه وسلم : إني رأيت في منامي بقراً مذبحة حولي فأوّلتها خيراً ، أو رأيت في ذباب سيفي ثلماً فأولته هزيمة ، ورأيت كأني أدخلت يدي في درع حصينة فأوّلتها المدينة . فإن رأيتم أن تقيموا

بالمدينة وتدعوهم ، فقال رجال من المسلمين – قد فاتتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد – : اخرج بنا إلى أعدائنا فلم يزالوا به صلى الله عليه وسلم حتى دخل فلبس لأمته .

فلما رأوه قد لبس لأمته ندموا وقالوا : بئسما صنعنا ، نشير على رسول الله صلى الله عليه وسلم والوحي يأتيه . فقالوا : اصنع يا رسول الله ما رأيت . فقال : لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل . فخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة من المدينة . قالوا من منزل عائشة وهو المراد بقوله : ﴿ من أهلك ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 2 صـ 247 ﴾

(262/129)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ضربت عليهم ذلة الطمع ومسكنة الحرص إلا أن يعتصموا بمحبة الله وطلبه وحبل من الناس يعني متابعة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته . ويقتلون الأنبياء يميتون سنتهم وسيرهم . ليسوا أي العلماء الربانيون والمداهنون . فلن تكفروه لأنه من تقرب إليه شبراً تقرب إليه ذراعاً . ثم أخبر عن نفقات أهل الشهوات في استيفاء اللذات الجسمانية بقوله : ﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح ﴾ هي هواء الهوى ﴿ فيها صر ﴾ الشهوة ﴿ أصابت حرث قوم ﴾ هو الحرث الروحاني ﴿ ظلموا أنفسهم ﴾ بإبطال

الاستعداد الإنساني . ثم نهي أهل المحبة عن مباطنة أهل السلو من هذا الحديث فقال : ﴿ لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ﴾ لا يقصرون في إنكاركم والاعتراض عليكم والطعن فيكم ﴿ ودّوا ﴾ من نعيم الدنيا ومشتهياتها ﴿ ما عنتم ﴾ ما مقتموه وتركتموه لدناءة همتهم وعلو همتكم ، أو فرحوا بما قاسيتم من المجاهدات والتزام الفقر والصبر على المكاره ﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم ﴾ اعتراضاتهم الفاسدة ﴿ وما تخفي صدورهم ﴾ الحاسدة من الغل والحقد ﴿ أكبر ﴾ ﴿ تحبونهم ﴾ محبة الرحمة والشفقة ﴿ ولا يحبونكم ﴾ لتناكر الأرواح واختلاف حال الأشباح ﴿ ويؤتون بالكتاب كله ﴾ بجميع ما في القرآن من ترك الدنيا وجهاد النفس ﴿ عليم بذات الصدور ﴾ بالقلوب التي في الصدور أن موتها في الغيظ والحسد . ﴿ إن تمسسكم حسنة ﴾ كرامة من الله وقبول من الخلق . سيئة إنكار من الجهال وطعن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 2 صـ 245 . 246 ﴾

(263/129)

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة : ﴿ لَيْسُواْ سَوَاءَ ﴾ من حيث الاستعداد وظهور الحق فيهم ﴿ مّنْ

أَهْلِ الكتاب ﴾ الذين ظهرت فيهم نقوش الكتاب الإلهي الأزلي ﴿ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ بالله تعالى له ﴿ يَتْلُونَ ءايات الله ﴾ أي يظهرون للمستعدين ما فاض عليهم من الأسرار ﴿ أَمَّنْ هُوَ ﴾ أوقات ليل الجهالة وظلمة الحيرة ﴿ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران : 113] أي يخضعون لله تعالى ولا يحدث فيهم الأنانية إنهم عالمون وأن من سواهم جاهلون ﴿ يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر ﴾ أي بالمبدأ والمعاد ﴿ وَيَأْمُرُونَ بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ﴾ حسبما اقتضاه الشرع ولكون ما تقدم نظراً للخصوص لأن إيداع الأسرار عند الأحرار ، وهذا بالنظر إلى العموم لأن الشريعة أوسع دائرة من الحقيقة قدم وأخر ﴿ ويسارعون فِى الخيرات ﴾ من تكميل أنفسهم وغيرهم ﴿ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصالحين ﴾ [آل عمران : 114] القائمين بحقوق الحق والخلق ﴿ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ ﴾ يقربكم إلى الله تعالى ﴿ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ﴾ فقد جاء « من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ومن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة » ﴿ والله عَلِيمٌ بالمتقين ﴾ [آل عمران : 115] أي الذين اتقوا ما يحجبهم عنه فيتجلى لهم بقدر زوال الحجاب ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ واحتجبوا عن الحق برؤية الأغيار وأشركوا بالله تعالى ما لا وجود له في عير ولا نفير ﴿ لَن تُغْنِىَ ﴾ لن تدفع ﴿ عَنْهُمْ أموالهم وَلاَ أولادهم مّنَ الله ﴾ أي عذابه ﴿ شَيْئاً ﴾ من الدفع لأنها من جملة أصنامهم التي عبدوها ﴿ وَأُوْلَئِكَ أصحاب النار ﴾ وهي الحجاب والبعد عن الحضرة ﴿ هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ [آل عمران : 116] لاقتضاء صفة الجلال

مع استعدادهم ذلك ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِى هذه الحياة الدنيا ﴾ الفانية الدنية ولذاتها السريعة الزوال طلباً للشهوات ومحمدة الناس لا يطلبون به وجه الله تعالى ﴿

(264/129)

كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ أي برد شديد ﴿ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ بالشرك والكفر ﴿ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾ عقوبة لهم من الله تعالى لظلمهم ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ ﴾ بإهلاك حرثهم ﴿ ولكن أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : 117] لسوء استعدادهم الغير المقبول ﴿ يَظْلِمُونَ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً ﴾ أي خاصة تطلعونه على أسراركم ﴿ مّن دُونِكُمْ ﴾ كالمنكرين المحجوبين إذ المحبة الحقيقية لا تكون إلا بين الموحدين لكونها ظل الوحدة ولا تكون بين المحجوبين لكونهم في عالم التضاد والظلمة ولا يتأتى الصفاء والوفاق الذي هو ثمرة المحبة في ذلك العالم فلذا ترى محبة غير أهل الله تعالى تدور على الأغراض ؛ ومن هنا تتغير لأن اللذات النفسانية لا تدوم فإذا كان هذا حال المحجوبين بعضهم مع بعض فكيف تتحقق المحبة بينهم وبين من يخالفهم في الأصل والوصف ، وأنى يتجانس النور والظلمة ، وكيف يتوافق مشرق ومغرب ؟! .

أيها المنكح الثريا سهيلا . . .

عمرك الله كيف يلتقيان هي شامية إذا ما استقلت

وسهيل إذا استقل يماني . . .

(265/129)

ففي الحقيقة بينهما عداوة حقيقية وبعد كلي إلى حيث لا تتراءى ناراهما ، وآثار ذلك ظاهرة كما بين الله تعالى بقوله سبحانه : ﴿ قَدْ بَدَتِ البغضاء مِنْ أفواههم ﴾ لامتناع إخفاء الوصف الذاتي ﴿ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ لأنه المنشأ لذلك فهو نار وذاك شرار وهو جبل والظاهر غبار ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الايات ﴾ وهي العلامات الدالة على المحبة والعداوة وأسبابهما ﴿ إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران : 118] وتفهمون من فحوى الكلام ﴿ تَعْقِلُونَ هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ ﴾ بمقتضى ما عندكم من التوحيد لأن الموحد يحب الناس كلهم بالحق للحق ويرى الكل مظهراً لحبيبه جل شأنه فيرحم الجميع ويعلم أن البعض منهم قد اشتغل بباطل نظراً إلى بعض الحيثيات وابتلى بالقدر ، وهذا لا ينافي ما قدمنا آنفاً عند التأمل ﴿ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ ﴾ بمقتضى الحجاب والظلمة التي ضربت عليهم ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بالكتاب ﴾ أي جنسه ﴿ كُلِّهِ ﴾ لما أنتم عليه من التوحيد المقتضى لذلك وهم لا يؤمنون بذلك للاحتجاب بما هم عليه ﴿ هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ ﴾ لما

فيهم من النفاق المستجلب للأغراض العاجلة ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الانامل مِنَ الغيظ ﴾ [آل عمران : 119] الكامن في صدورهم ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ ﴾ كآثار تجلي الجمال ﴿ تَسُؤْهُمْ ﴾ ويحزنوا لها ﴿ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أي ما يظنون أنه سيئة كآثار تجلي الجلال ﴿ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ ﴾ على ما ابتليتم به وتثبتوا على التوحيد ﴿ وَتَتَّقُواْ ﴾ الاستعانة بالسوي ﴿ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ لأن الصابر على البلاء المتوكل على الله تعالى المستعين به المعرض عمن سواه ظافر بطلبته غالب على خصمه محفوف محفوظ بعناية الله تعالى، والمخذول من استعان بغيره وقصده سواه كما قيل :

من استعان بغير الله في طلب . . .

(266/129)

فإن (ناصره عجز وخذلان)

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ من المكايد ﴿ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران : 120] فيبطلها ويطفىء نارها ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ لله تعالى تحت ظل الكبرياء والعظمة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران : 123] ذلك وبالشكر تزاد النعم ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لما رأيت من حالهم ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم

بِثَلاَثَةِ ءالاَفٍ ﴾ [آل عمران : 124] على صيغة اسم الفاعل السكينة عليكم ، أو ﴿ مُنزَلِينَ ﴾ على صيغة اسم المفعول من جانب الملكوت إليكم ﴿ بَلَى إِن تَصْبِرُواْ ﴾ على صدمات تجلية سبحانه ﴿ وَتَتَّقُواْ ﴾ من سواه ﴿ وَيَأْتُوكُمْ مِّن فَوْرِهِمْ هذا ﴾ أي بلا بطء ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءالاَفٍ مِّنَ الملائكة مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران : 125] على صيغة الفاعل أي معلمين أرواحكم بعلائم الطمأنينة ، أو ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾ على صيغة المفعول بعمائم بيض ، وهي إشارة إلى الأنوار الإلهية الظاهرة عليهم ، وتخصيص الخمسة آلاف بالذكر لعله إشارة إلى إمداد كل لطيفة من اللطائف الخمس بألف والألف إشارة إلى الإمداد الكامل حيث أنها نهاية مراتب الأعداد وشرط ذلك بالصبر والتقوى لأن النصر على الأعداء وأعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك لا يكون إلا عند تقوى القلب وكذا سائر جنود الروح بل والروح نفسها أيضاً بتأييد الحق والتنور بنور اليقين فتحصل المناسبة بين القلب مثلاً وبين ملكوت السماء وبذلك التناسب يستنزل قواها وأوصافها في أفعاله وربما يستمد من قوى قهرها على من يغضب عليه وذلك عبارة عن نزول الملائكة وهذا لا يكون إلا بالصبر على تحمل المكروه طلباً لرضا الله تعالى والتقوى من مخالفة أمر الحق والميل إلى نحو النفع الدنيوي واللذات الفانية .

وأما إذا جزع وهلع ومال إلى الدنيا فلا يحصل له ذلك لأن النفس حينئذٍ تستولي عليه وتحجبه بظلمة صفاتها عن النور فلم تبق تلك المناسبة وانقطع المدد ولم تنزل الملائكة ، ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بشرى لَكُمْ ﴾ أي إلا لتستبشروا به فيزداد نشاطكم في التوجه إلى الحق ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾ فيتحقق الفيض بقدر التصفية ﴿ وَمَا النصر إِلاَّ مِنْ عِندِ الله ﴾ لا من عند الملائكة فلا تحتجبوا بالكثرة عن الوحدة وبالخلق عن الحق فالكل منه تعالى وإليه ﴿ العزيز ﴾ فلا يعجزه الظهور بما شاء وكيف شاء ﴿ الحكيم ﴾ [آل عمران : 126] الذي ستر نصره بصور الملائكة لحكمة ﴿ لِيَقْطَعَ ﴾ أي يهلك ﴿ طَرَفاً مّنَ الذين كَفَرُواْ ﴾ وهم أعداء الله تعالى ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾ يخزيهم ويذلهم ﴿ فَيَنقَلِبُواْ خَائِبِينَ ﴾ [آل عمران : 127] فيرجعوا غير ظافرين بما أملوا ﴿ لَيْسَ لَكَ ﴾ من حيث أنت ﴿ مِنَ الأمر شَيْءٌ ﴾ وكله لك من حيثية أخرى ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ إذا أسلموا فتفرح لأنك المظهر للرحمة الواسعة ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ ﴿ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ لأجلك فتشتفي بهم من حيث أنهم خالفوا الأمر الذي بعثت به إلى الناس كافة ﴿ فَإِنَّهُمْ ظالمون ﴾ [آل عمران : 128] بتلك المخالفة ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى السموات ﴾ من عالم الأرواح ﴿ وَمَا فِى الأرض ﴾ من عالم الطبيعيات يتصرف فيهما كيفما يشاء ويختار ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذّبُ مَن يَشَاء ﴾ لأن له التصرف المطلق في الملك والملكوت ﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ

﴾ [آل عمران : 129] كثير المغفرة والرحمة نسأل الله تعالى أن يغفر لنا ويرحمنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 4 صـ 54.52 ﴾

(268/129)

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (130) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (131) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (132) ﴾

مناسبة الآيات لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان الختم بهاتين الصفتين ربما أطمع في انتهاك الحرمات لاتباع الشهوات فكان مبعداً لمتعاطيه من الرحمة مدنياً من النقمة ، وكان أعظم المقتضيات للخذلان تضييعهم للثغر الذي أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بحفظه بسبب إقبالهم قبل إتمام هزيمة العدو على الغنائم للزيادة في الأعراض الدنيوية التي هي معنى الربا في اللغة إذ هو مطلق الزيادة أقبل تعالى عليهم بقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي أقروا بالإيمان ، صدقوا إيمانكم بأن ﴿ لا تأكلوا الربا ﴾ أي المقبح فيما تقدم أمره غاية التقبيح ، وهو كما ترى إقبال متلطف منادٍ لهم

باسم الإيمان الناظر إلى الإنفاق المعرض عن التحصيل ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [البقرة : 3] ؛ ﴿ والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴾ [آل عمران : 17] ؛ ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ [آل عمران : 92] ناهٍ عن الالتفات إلى الدنيا بالإقبال على غنيمة أو غيرها بطريق الإشارة بدلالة التضمن ، إذ المطلق جزء المقيد ، ففي هذه العبارة التي صريحها ناهٍ عن الإقبال على الدنيا إقبالاً يوجب الإعراض عن الآخرة باستباحة أكل الربا المتقدم في البقرة من النهي عنه من المبالغة ما يردع من له أدنى تقوى ، ويوجب لمن لم يتركه وما يقاربه الضمان بالخذلان في كل زمان ﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ [البقرة : 278] ، ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾ [البقرة : 86] .

(269/129)

ولما كان في تركه الإثخان في العدو بعد زوال المانع منه بالهزيمة مع أن فيه من حلاوة الظفر ما يجل عن الوصف لأجل الغنيمة التي هي لمن غلب ، وليس في المبادرة إلى حوزها كبير فائدة ، دلالة على تناهي الحب للتكاثر ، ناسب المقام ربا التضعيف فقال : - أو يقال : لما كان سبب الهزيمة طلبهم الزيادة بالغنيمة ، وكان حب الزيادة حلالاً قد يجر إلى حبها حراماً ،

فيجر إلى الربا المضاعف ، لأن من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه قال - : ﴿ أضعافاً مضاعفة ﴾ أي لا تهيؤوا لذلك بإقبالكم على مطلق الزيادة ، فإن المطلوب منكم بذل المال فضلاً عن الإعراض عنه فضلاً عن الإقبال عليه ، فالحاصل أنه دلت على الربا بمطابقتها ، وعلى مطلق الزيادة بتضمنها ، وهي من وادي قوله صلى الله عليه وسلم : " من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه "

(270/129)

وختام الآية بقوله : ﴿ واتقوا الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ مشير إلى ذلك ، أي واجعلوا بينكم وبين مخالفة نهيه عن الربا وقاية بالإعراض عن مطلق محبة الدنيا والإقبال عليها ، لتكونوا على رجاء من الفوز بالمطالب ، فمن له ملك الوجود وملكه فإنه دير بأن يعطيكم من ملكه إن اتقيتم ، ويمنعكم إن تساهلتم ، فهو نهي عن الربا بصريح العبارة ، وتحذير من أن يعودوا إلى ما صدر منهم من الإقبال على الغنائم قبل انفصال الحرب فعلاً وقوة بطريق الإشارة ، وهي من أدلة إمامنا الشافعي على استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه ، والذي دلنا على إرادة المعنى التضمني المجازي نظمها ، والناظم حكيم في سلك هذه القصة ووضعها في هذا الموضع ، فلا يقدح في ذلك أنه قد كان في هذه القصة أمر يصلح

أن يكون سبباً لنزول هذه الآية ووضعها عنا ، لأن ذلك غير لازم ولا مطرد ، فقد كان حلفه صلى الله عليه وسلم أنه يمثل بسبعين منهم كما مثلوا بعمه حمزة رضي الله عنه سبباً لنزول آخر سورة النحل ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ [النحل : 126] إلى آخرها ، ولم توضع هنا ، والأمر الصالح لأن يكون سبباً لها ما روى أبو داود في سننه بسند رجاله رجال الصحيح عن أبي هريرة أن عمروا بن أقيش رضي الله عنه كان له ربا في الجاهلية ، فكره أن يسلم حتى يأخذه ، فجاء يوم أحد فقال : أين بنو عمي ؟ قالوا : بأحد ، قال : أين فلان ؟ قالوا : بأحد ، قال : فأين فلان ؟ قالوا : بأحد ؛ فلبس لأمته وركب فرسه ثم توجه قبلهم ، فلما رآه المسلمون قالوا : إليك عنا يا عمرو ! قال : إني قد آمنت ، فقاتل حتى جرح ، فحمل إلى أهله جريحاً ، فجاءه سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال لأخته : سليه : حمية لقومك أو غضباً لهم ، أم غضباً لله عز وجل ؟ فقال : بل غضباً لله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فمات

فدخل الجنة وما صلى لله عز وجل صلاة .

والقصة في جزء عبيد الله بن محمد بن حفص العيشي - بالمهملة ثم التحتانية ثم المعجمة -

تخريج أبي القاسم عبد الله ابن محمد بن عبد العزيز البغوي ، والجزء السابع عشر من المجالسة للدينوري من طريق حماد بن سلمة شيخ أبي داود ، ولفظ العيشي : إن عمرو بن وقش – وقال الدينوري : أقيش – كان له ربا في الجاهلية ، وكان يمنعه ذلك الربا من الإسلام حتى يأخذه ثم يسلم ، فجاء ذات يوم ورسول الله صلى الله عليه وسلم – زاد الدينوري : وأصحابه بأحد فقال : أين سعد ابن معاذ ؟ وقال العيشي : فقال لقومه : أين سعد بن معاذ ؟ قالوا : هو بأحد ، قال الدينوري : فقال : أين بنو أخيه ؟ قالوا : بأحد ، فسأل عن قومه ، فقالوا : بأحد ، فأخذ سيفه ورمحه ولبس لأمته ، ثم أتى أحداً ؛ وقال الدينوري : ثم ذهب إلى أحد ، فلما رآه السلمون قالوا : إليك عنا يا عمرو ! قال : إني قد آمنت ! فقاتل فحمل إلى أهله جريحاً ، فدخل عليه سعد بن معاذ فقال – يعني لامرأته – : سليه ! وقال العيشي : فقال لأخته : ناديه ، فقولي ؛ وقال الدينوري : فقالت : أجئت غضباً لله ورسوله أم حمية وغضباً لقومك ؟ فنادته ، فقال : جئت غضباً لله ورسوله ! فمات فدخل الجنة ولم يصل لله قط ؛ وقال الدينوري : قال أبو هريرة : ودخل الجنة ، وما صلى لله صلاة .

ورواها ابن إسحاق والواقدي عن أبي هريرة رضي الله عنهم أنه كان يقول : حدثوني عن رجل دخل الجنة لم يصلِّ قط ؛ وقال الواقدي : أخبروني برجل يدخل الجنة لم يسجد لله قط ، فيسكت الناس ، فيقول أبو هريرة رضي الله عنه : هو أخو بني عبد الأشهل ؛ وقال ابن إسحاق : فإذا لم يعرفه الناس سألوا : من هو ؟ فيقول : أصيرم بني عبد الأشهل عمرو بن ثابت بن وقش رضي الله تعالى عنه ؛ زاد ابن إحساق : قال الحصين – يعني شيخه : فقلت لمحمود بن لبيد : كيف كان شأن الأصيرم ؟ قال : كان يأبى الإسلام على قومه ، فلما كان يوم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد بدا له في الإسلام فأسلم ، ثم أخذ سيف فغدا حتى دخل في عرض الناس ، فقاتل حتى أثبتته الجراحة ، فبينما رجال من بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة إذا هم به ، فقالوا : والله إن هذا للأصيرم ! ما جاء به ؟ لقد تركناه وإنه لمنكر بذا الحديث ! فسألوه ما جاء به ، فقالوا : ما جاء بك يا عمرو ؟ أحدب على قومك أم رغبة في الإسلام ؟ فقال : بل رغبة في الإسلام ، آمنت بالله وبرسوله وأسلمت ، ثم أخذت سيفي فغدوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قاتلت حتى أصابني ما أصابني .

ثم لم يلبث أن مات في أيديهم ، فذكروه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إنه لمن أهل الجنة " والمعنى على هذا : يا أيها الذين يريدون الإيمان ! لا تفعلوا مثل فعل الأصيرم في تأخير إيمانه لأجل الربا ، بل سابقوا الموت لئلا يأتيكم بغتة فتهلكوا ، أو يا أيها الذين أخبروا عن أنفسهم بالإيمان ورسوخ الإذعان في أنفسهم والإيقان بمر الزمان ! افعلوا مثل فعله ساعة أسلم في صدق الإيمان وإسلام نفسه إلى ربه بركوب الأهوال في غمرات القتال من غير خوف ولا توقف ولا التفات إلى أمر دنيوي وإن عظم ؛ فقد بان أنه نبه بالإشارة إلى قصة بدر ثم بهذه الآية على أن من أعرض عن الدنيا حصلت له بعز وإن كان قليلاً ، ومن أقبل عليها فاتته بذل وإن كان كثيراً جليلاً ، لأن مَن له ملك السماوات والأرض يفعل ما يشاء ، ولا تفيد الآية إباحة مطلق الفضل في الربا ما لم ينته إلى الأضعاف المضاعفة ، لأن إفهامها لذلك معارض لمنطوق آيات البقرة الناهية عن مطلق الربا ، والمفهوم لا يعمل به إذا عارض منطوق نص آخر ، وهذا من مزيد الاعتناء بشأن الربا إذ حرم كل نوع منه في آية تخصه ، فحرم ربا الفضل في آيات البقرة ، ويلزم من ترحيمه تحريم ربا الأضعاف ، ثم نص عليه في هذه الآية ، فصار محرماً مرتين : مفهوماً ومنطوقاً ، مع ما أفاد ذكره من النكت التي تقدم التنبيه عليها .

ولما كان الفائز بالمطالب قد لا يوقي المعاطب قال تعالى : ﴿ واتقوا النار ﴾ أي إن لم تكونوا

ممن يتقيه سبحانه لذاته ﴿ التي أعدت ﴾ أي هيئت ﴿ للكافرين ﴾ أي بالله باستحلال الربا وغيره بالذات ، وللكافرين بالنعمة عصياناً بالعرض .

(274/129)

ولما كان الفائز السالم قد لا يكون مقرباً قال اتباعاً للوعيد بالوعد : ﴿ وأطيعوا الله ﴾ ذا الجلال والإكرام ﴿ والرسول ﴾ أي الكامل في الرسلية كمالاً ليس لأحد مثله ، أي في امتثال الأوامر واجتناب النواهي بالإخلاص ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ أي لتكونوا على رجاء وطمع في أن يفعل بكم فعل المرحوم بالتقريب والمحبة وإنجاز كل ما وعد على الطاعة من نصره وغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 152.156 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن من الناس من قال : إنه تعالى لما شرح عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بارشادهم إلى الأصلح لهم في أمر الدين وفي أمر الجهاد ، أتبع ذلك بما يدخل في الأمر والنهي والترغيب والتحذير فقال : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الربا ﴾ وعلى هذا التقدير تكون هذه الآية ابتداء كلام ولا تعلق لها بما قبلها ، وقال القفال رحمه الله : يحتمل أن يكون

ذلك متصلا بما تقدم من جهة أن المشركين إنما أنفقوا على تلك العساكر أموالا جمعوها بسبب الربا ، فلعل ذلك يصير داعياً للمسلمين إلى الاقدام على الربا حتى يجمعوا المال وينفقوه على العسكر فيتمكنون من الانتقام منهم ، فلا جرم نهاهم الله عن ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 3﴾

(275/129)

وقال أبو السعود :

﴿يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الربا﴾ كلامٌ مبتدأٌ مشتمِلٌ على ما هو مَلاكُ الأمرِ في كل باب لا سيما في باب الجهادِ من التقوى والطاعةِ وما بعدهما من الأمور المذكورةِ على نهج الترغيبِ والترهيبِ جيء به في تضاعيفِ القصةِ مسارعةً إلى إرشاد المخاطَبين إلى ما فيه ، وإيذاناً بكمالِ وجوبِ المحافظةِ عليه فيما هم فيه من الجهاد ، فإن الأمورَ المذكورةَ فيه مع كونها مناطاً للفوز في الدارين على الإطلاق عُمدةٌ في أمر الجهادِ ، عليها يدورُ فلكُ النُّصرةِ والغَلَبة ، كيف لا ولو حافظوا على الصبر والتقوى وطاعةِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم لما لقُوا ما لقُوا ، ولعل إيرادَ النهي عن الربا في أثنائها لِما أن الترغيبَ في الإنفاق في السراء والضراءِ الذي عُمدتُه الإنفاقُ في سبيل الجهادِ متضمنٌ للترغيب في تحصيل المالِ فكان

مظِنةَ مبادرةِ الناسِ طرق الاكتساب ومن جملتها الربا ، فنُهوا عن ذلك ، والمرادُ بأكله أخذهُ ، وإنما عُبر عنه بالأكل لما أنه مُعظم ما يقصَد بالأخذ ، ولشيوعه في المأكولات مع ما فيه من زيادة تشنيعٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 84 ﴾

وقال ابن عاشور :

قال ابن عطية : ولا أحفظ سبباً في ذلك مروياً .

وقال الفخر : من النّاس من قال : لمّا أرشد الله المؤمنين إلى الأصلح لهم في أمر الدين والجهاد أتبع ذلك بما يدخل في الأمر والنّهي فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربوا ﴾ فلا تعلّق لها بما قبلها .

وقال القفّال : لمّا أنفق المشركون على جيوشهم أموالاً جمعوها من الربا ، خيف أن يدعُو ذلك المسلمين إلى الإقدام على الرّبا .

وهذه مناسبة مستبعدة .

وقال ابن عرفة : لمّا ذكر الله وعيد الكفار عقّبه ببيان أن الوعيد لا يخصّهم بل يتناول العصاة ، وذكر أحد صور العصيان وهي أكل الربا .

وهو في ضعف ما قبله ، وعندي بادىء ذي بدء أن لا حاجة إلى اطّراد المناسبة ، فإن مدّة نزول السورة قابلة ، لأن تحدث في خلالها حوادث ينزل فيها قرآن فيكون من جملة تلك السورة ، كما بيّناه في المقدّمة الثّامنة ، فتكون هاته الآية نزلت عقب ما نزل قبلها فكتبت هنا ولا تكون بَينهما مناسبة إذ هو ملحق إلحاقاً بالكلام. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 216.217 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

وإنما خص الربا من بين سائر المعاصي ؛ لأنه الذي أذن الله فيه بالحرب في قوله : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [البقرة : 279] والحرب يؤذِن بالقتل ؛ فكأنه يقول : إن لم تتقوا الربا هُزِمتم وقُتلتم .

فأمرهم بترك الربا ؛ لأنه كان معمولاً به عندهم ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 202 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

ويتّجه أن يسأل سائل عن وجه إعادة النّهي عن الربا في هذه السورة بعد ما سبق من آيات سورة البقرة بما هو أوفى ممّا في هذه السورة ، فالجواب : أنّ الظاهر أنّ هذه الآية نزلت قبل

نزول آية سورة البقرة فكانت هذه تمهيداً لتلك ، ولم يكن النّهي فيها بالغاً ما في سورة البقرة وقد روي أن آية البقرة نزلت بعد أن حَرّم الله الربا وأن ثقيفاً قالوا : كيف ننهى عن الربا ، وهو مثل البيع ، ويكون وصف الربا بـ ﴿ أضعافاً مضاعفة ﴾ نهياً عن الربا الفاحش وسَكت عمّا دون ذلك ممّا لا يبلغ مبلغ الأضعاف ، ثمّ نزلت الآية الّتي في سورة البقرة ويحتمل أن يكون بعض المسلمين داين بعضاً بالمراباة عقب غزوة أحُد فنزل تحريم الرّبا في مدّة نزول قصّة تلك الغزوة . انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 217 ﴾

(277/129)

قوله تعالى ﴿ أضعافا مضاعفة ﴾ .

فائدة

قال الفخر :

كان الرجل في الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم إلى أجل ، فإذا جاء الأجل ولم يكن المديون واجدا لذلك المال قال زد في المال حتى أزيد في الأجل فربما جعله مائتين ، ثم إذا حل الأجل الثاني فعل ذلك ، ثم إلى آجال كثيرة ، فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها فهذا هو المراد من قوله : ﴿ أضعافا مضاعفة ﴾ . انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ

فائدة

قال الآلوسى :

وقال بعض المحققين : الضعف اسم ما يضعف الشيء كالثنى اسم ما يثنيه من ضعفت الشيء بالتخفيف فهو مضعوف على ما نقله الراغب بمعنى ضعفته ، وهو اسم يقع على العدد بشرط أن يكون معه عدد آخر فأكثر ، والنظر فيه إلى فوق بخلاف الزوج فإن النظر فيه إلى ما دونه فإذا قيل : ضعف العشرة لزم أن تجعلها عشرين بلا خلاف لأنه أول مراتب تضعيفها ، ولو قال : له عندي ضعف درهم لزمه درهمان ضرورة الشرط المذكور كما إذا قيل : هو أخو زيد اقتضى أن يكون زيد أخاه وإذا لزم المزاوجة دخل في الإقرار ، وعلى هذا له ضعفا درهم منزل على ثلاثة دراهم وليس ذلك بناءاً على ما يتوهم أن ضعف الشيء موضوعه مثلاه وضعفيه ثلاثة أمثاله ، بل ذلك لأن موضوعه المثل بالشرط المذكور .

وهذا مغزى الفقهاء في الأقارير والوصايا ، ومن البين أنهم ألزموا في ضعفي الشيء ثلاثة أمثاله ولو كان موضوع الضعف المثلين لكان الضعفان أربعة أمثال وليس مبناه العرف العامي بل الموضوع اللغوي كما قال الأزهري .

ومن هنا ظهر أنه لو قال : له عليَّ الضعفان درهم ودرهم أو الضعفان من الدراهم لم يلزم إلا درهمان كما لو قال الأخوان ، ثم قال والحاصل أن تضعيف الشيء ضم عدد آخر إليه وقد يزاد وقد ينظر إلى أول مراتبه لأنه المتيقن ، ثم إنه قد يكون الشيء المضاعف مأخوذاً معه فيكون ضعفاه ثلاثة وقد لا يكون فيكون اثنين وهذا كله موضوع له في اللغة لا العرف ، وليس هذه الحال لتقييد المنهي عنه ليكون أصل الربا غير منهي بل لمراعاة الواقع ، فقد روى غير واحد أنه كان الرجل يربي إلى أجل فإذا حل قال للمدين : زدني في المال حتى أزيدك بالأجل فيفعل وهكذا عند (محل) كل أجل فيستغرق بالشيء الطفيف ماله بالكلية فنهوا عن ذلك ونزلت الآية ، وقرىء مضعفة بلا ألف مع تشديد العين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 55 ﴾

وقال ابن عطية :

وقوله ﴿ أضعافاً ﴾ نصب في موضع الحال ، ومعناه : الربا الذي كانت العرب تضعف فيه الدين ، فكان الطالب يقول : أتقضي أم تربي ؟ وقوله : ﴿ مضاعفة ﴾ إشارة إلى تكرار التضعيف عاماً بعد عام ، كما كانوا يصنعون ، فدلت هذه العبارة المؤكدة على شنعة فعلهم وقبحه ، ولذلك ذكرت حال التضعيف خاصة ، وقد حرم الله جميع أنواع الربا ، فهذا هو مفهوم الخطاب إذ المسكوت عنه من الربا في حكم المذكور ، وأيضاً فإن الربا يدخل جميع

أنواعه التضعيف والزيادة على وجوه مختلفة من العين أو من التأخير ونحوه . انتهى . ا

هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 507 ﴾

(279/129)

فائدة

قال ابن عاشور :

وحكمة تحريم الرّبا هي قصد الشَّريعة حملَ الأمَّة على مواساة غنيِّها محتاجَها احْتياجاً عارضاً موقّتاً بالقرض ، فهو مرتبة دون الصدقة ، وهو ضرب من المواساة إلا أن المواساة منها فرض كالزكاة ، ومنها ندب كالصّدقة والسلفِ ، فإن انتدب لها المكلّف حرّم عليه طلب عوض عنها ، وكذلك المعروف كلُّه ، وذلك أن العادة الماضية في الأمم ، وخاصّة العرب ، أنّ المرء لا يتداين إلاّ لضرورة حياته ، فلذلك كان حقّ الأمَّة مواساته .

والمواساة يظهر أنَّها فرض كفاية على القادرين عليها ، فهو غير الَّذي جاء يريد المعاملة للربح كالمتبايعيْن والمتقارضين : للفرق الواضح في العرف بين التعامل وبين التداين إلاّ أن الشرع ميّز هاته الواهي بعضها عن بعض بحقائقها الذاتية ، لا باختلاف أحوال المتعاقدين ، فلذلك لم يسمح لصاحب المال في استثماره بطريقة الرّبا في السلف ، ولو كان المستسلف غير محتاج

، بل كان طالبَ سعة وإثراءٍ بتحريك المال الَّذي يتسلّفه في وجوه الربح والتجارة ونحو ذلك ، وسمَح لصاحب المال في استثماره بطريقة الشركة والتِّجارة ودين السَّلَم ، ولو كان الرّبح في ذلك أكثر من مقدار الرّبا تفرقة بين المواهي الشرعية .

ويمكن أن يكون مقصد الشريعة من تحريم الرّبا البعدَ بالمسلمين عن الكسل في استثمار المال ، وإلجاؤهم إلى التشارك والتعاون في شؤون الدنيا ، فيكون تحريم الرّبا ، ولو كان قليلاً ، مع تجويز الربح من التِّجارة والشركات ، ولو كان كثيراً تحقيقاً لهذا المقصد .

(280/129)

ولقد قضى المسلمون قروناً طويلة لم يروا أنفسهم فيها محتاجين إلى التعامل بالرّبا ، ولم تكن ثروتهم أيّامئذ قاصرة عن ثروة بقية الأمم في العالم ، أزمان كانت سيادة العالم بيدهم ، أو أزمان كانوا مستقّلين بإدارة شؤونهم ، فلمّا صارت سيادة العالم بيد أمم غير إسلامية ، وارتبط المسلمون بغيرهم في التِّجارة والمعاملة ، وانتظمت سوق الثَّروة العالمية على قواعد القوانين الَّتي لا تتحاشى المراباة في المعاملات ، ولا تعْرف أساليب مواساة المسلمين ، دهش المسلمون ، وهم اليوم يتساءلون ، وتحريم الربا في الآية صريح ، وليس لما حرّمه الله مبيح .

ولا مخلص من هذا المضيق إلا أن تجعل الدول الإسلامية قوانين مالية تُبنى على أصول

الشريعة في المصارف، والبيوع، وعقود المعاملات المركبة من رؤوس الأموال وعمل العمّال.

وحوالات الديون ومقاصّتها وبيعها.

وهذا يقضي بإعمال أنظار علماء الشريعة والتدارس بينهم في مجمع يحوي طائفة من كلّ فرقة كما أمر الله تعالى.

وقد تقدّم ذكر الربا والبيوع الربوية عند تفسير قوله تعالى: ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس الآيات الخمس ﴾ من سورة [البقرة: 275]. انتهى انتهى. اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 218. 219 ﴾

قوله تعالى ﴿ واتقوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

فصل

قال الفخر:

اعلم أن اتقاء الله في هذا النهي واجب، وأن الفلاح يتوقف عليه، فلو أكل ولم يتق زال الفلاح وهذا تنصيص على أن الربا من الكبائر لا من الصغائر وتفسير قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ تقدم في سورة البقرة في قوله: ﴿ اعبدوا رَبَّكُمُ الذى خَلَقَكُمْ والذين مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 21] وتمام الكلام في الربا أيضا مر في سورة البقرة. انتهى انتهى. اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 3 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ واتقوا الله ﴾ أي فيما نهيتم عنه ومن جملته أكل الربا ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي لكي تفلحوا أو راجين الفلاح ، فالجملة حينئذٍ في موضع الحال قيل : ولا يخفى أن اقتران الرجاء بالتخويف يفيد أن العبد ينبغي أن يكون بين الرجاء والخوف فهما جناحاه اللذان يطير بهما إلى حضائر القدس . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 55 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ واتقوا النار التي أعدت للكافرين ﴾ تحذير وتنفير من النّار وما يوقع فيها ، بأنَّها معدودة للكافرين وإعدادها للكافرين .

عَدل من الله تعالى وحكمة لأنّ ترتّب الأشياء على أمثالها من أكبر مظاهر الحكمة ، ومَن أشركوا بالله مخلوقاته ، فقد استحقّوا الحرمان من رحماته ، والمسلمون لا يرضَون بمشاركة الكافرين لأنّ الإسلام الحقّ يوجب كراهية ما ينشأ عن الكفر .

وذاك تعريض واضح في الوعيد على أخذ الربا .

ومقابل هذا التنفير الترغيب الآتي في قوله : ﴿ وجنة عرضها السموات والأرض أُعدت

للمتقين ﴾ [آل عمران: 133]، والتّقوى أعلى درجات الإيمان.

وتعريف النار بهذه الصّلة يُشعر بأنّه قد شاع بين المسلمين هذا الوصف للنّار بما في القرآن من نحو قوله تعالى: ﴿ يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة ﴾ [التحريم: 6]، وقوله: ﴿ وبرزت الجحيم للغاوين ﴾ [الشعراء: 91] الآية.

(282/129)

وقال ابن عطية:

و﴿ النار ﴾ في قوله: ﴿ واتقوا النار ﴾ هي اسم الجنس، ويحتمل أن تكون للعهد، ثم ذكر أنها ﴿ أعدت للكافرين ﴾، أي إنهم هم المقصود والمراد الأول، وقد يدخلها سواهم من العصاة، فشنع أمر النار بذكر الكفر، وحسن للمؤمن أن يحذرها ويبعد بطاعة الله عنها وهذا كما قال في الجنة: أعدت للمتقين، أي هم المقصود، وإن كان يدخلها غيرهم من صبي ومجنون ونحوه ممن لا يكلف ولا يوصف بتقوى، هذا مذهب أهل العلم في هذه الآية، وحكى الماوردي وغيره، عن قوم أنهم ذهبوا إلى أن أكلة الربا إنما توعدهم الله بنار الكفرة، إذ النار سبع طبقات، العليا منها وهي جهنم للعصاة، والخمس للكفار والدرك الأسفل للمنافقين، قالوا: فأكلة الربا إنما يعذبون يوم القيامة بنار الكفرة لا بنار

العصاة ، وبذلك توعدوا ، فالألف واللام على هذا في قوله ﴿ واتقوا النار ﴾ إنما هي للعهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 507 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ لما نهاهم عن أمر صعب عليهم فراقه وهو الربا ، أمر بتقوى الله إذ هي الحاملة على مخالفة ما تعوده المرء مما نهى الشرع عنه .

ثم ذكر أنّ التقوى سبب لرجاء الفلاح وهو الفوز ، وأمر بها مطلقاً لا مقيداً بفعل الربا ، لأنه لما نهى عن الربا كان المؤمنون أسرع شيء لطواعية الله تعالى ، فلم يأت واتقوا الله في أكل الربا بل أمروا بالتقوى ، لا بالنسبة إلى شيء خاص منعوه من جهة الشريعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 58 ﴾

فائدة لغوية

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ أَضْعَافاً ﴾ جمع ضعف ، ولما كان جمع قلة – والمقصود : الكثرة – أتبعه بما يدل على الكثرة وهو الوصف بقوله : ﴿ مُّضَاعَفَةً ﴾ .

وقال أبو البقاء : ﴿ أَضْعَافاً ﴾ مصدر في موضع الحال من " الرِّبا " ، تقديره : مضاعفاً ، وتقدم الكلام على ﴿ أَضْعَافاً ﴾ ومفرده في البقرة .

وقرأ ابنُ كثير وابنُ عامر : " مضعَّفة " – مشددة العين ، دون ألف .

والباقون بالألف والتخفيف ، وتقدم الكلام على ذلك في البقرة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 532 ـ 533 ﴾

قوله تعالى ﴿ واتقوا النار التى أُعِدَّتْ للكافرين ﴾

فصل

قال القرطبى :

قال كثير من المفسرين : وهذا وعيد لمن استحل الربا ، ومن استحل الربا فإنه يكْفُر (ويُكَفَّر) .

وقيل : معناه اتقوا العمل الذي ينزع منكم الإيمان فتستوجبون النار ؛ لأن من الذنوب ما يستوجب به صاحبه نزع الإيمان ويخاف عليه ؛ من ذلك عقوق الوالدين .

وقد جاء في ذلك أثر : أن رجلا كان عاقا لوالديه يقال له عَلْقَمَة ؛ فقيل له عند الموت : قل لا إله إلا الله ، فلم يقدر على ذلك حتى جاءته أمه فرضيت عنه .

ومن ذلك قطيعة الرحم وأكل الربا والخيانة في الأمانة .

وذكر أبو بكر الورّاق عن أبي حنيفة أنه قال : أكثر ما ينزع الإيمان من العبد عند الموت .

ثم قال أبو بكر : فنظرنا في الذنوب التي تنزع الإيمان فلم نجد شيئاً أسرع نزعا للإيمان من ظلم العباد .

وفي هذه الآية دليل على أن النار مخلوقة رداً على الجَهْمِية ؛ لأن المعدوم لا يكون مُعَداً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 202 . 203 ﴾

(284/129)

وقال الآلوسى :

﴿ واتقوا النار ﴾ أي احترزوا عن متابعة المرابين وتعاطي ما يتعاطونه من أكل الربا المفضي إلى دخول النار ﴿ التى أُعِدَّتْ ﴾ أي هيئت ﴿ للكافرين ﴾ وهي الطبقة التي اشتد حرها وتضاعف عذابها وهي غير النار التي يدخلها عصاة أمة محمد صلى الله عليه وسلم فإنها دون ذلك ، وفيه إشارة إلى أن أكلة الربا على شفا حفرة الكفرة ، ويحتمل أن يقال : إن النار مطلقاً مخلوقة للكافرين معدّة لهم أوّلاً وبالذات ، وغيرهم يدخلها على وجه التبع فالصفة ليست للتخصيص ، وإلى هذا ذهب الجل من العلماء ، روي عن الإمام الأعظم رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول : إن هذه الآية هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله تعالى المؤمنين بالنار المعدّة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه وليس بنص في

التخصيص . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 4 صـ 55. 56 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ واتقوا النار التي أعدت للكافرين ﴾ تحذير وتنفير من النّار وما يوقع فيها ، بأنَّها معدودة للكافرين وإعدادها للكافرين .

عَدل من الله تعالى وحكمة لأنّ ترتّب الأشياء على أمثالها من أكبر مظاهر الحكمة ، ومَن أشركوا بالله مخلوقاته ، فقد استحقّوا الحرمان من رحماته ، والمسلمون لا يرضَون بمشاركة الكافرين لأنّ الإسلام الحقّ يوجب كراهية ما ينشأ عن الكفر .

وذاك تعريض واضح في الوعيد على أخذ الربا .

ومقابل هذا التنفير الترغيب الآتي في قوله : ﴿ وجنة عرضها السموات والأرض أُعدت للمتقين ﴾ [آل عمران : 133] ، والتَّقوى أعلى درجات الإيمان .

(285/129)

وتعريف النار بهذه الصّلة يُشعر بأنَّه قد شاع بين المسلمين هذا الوصف للنّار بما في القرآن من نحو قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة ﴾ [التحريم : 6] ، وقوله : ﴿ وبرزت الجحيم للغاوين ﴾ [الشعراء : 91] الآية .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 219 ﴾

فائدة

قال الخازن :

وقال الواحدي : في الآية تقوية لرجاء المؤمنين رحمة من الله تعالى لأنه قال أعدت للكافرين فجعلها معدة للكافرين دون المؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 1 صـ 418 ﴾

أسئلة وأجوبة

السؤال الأول : أن النار التي أعدت للكافرين تكون بقدر كفرهم وذلك أزيد مما يستحقه المسلم بفسقه ، فكيف قال : ﴿ واتقوا النار التى أُعِدَّتْ للكافرين ﴾ .

والجواب : تقدير الآية : اتقوا أن تجحدوا تحريم الربا فتصيروا كافرين .

السؤال الثاني : ظاهر قوله : ﴿ أُعِدَّتْ للكافرين ﴾ يقتضي أنها ما أعدت إلا للكافرين ، وهذا يقتضي القطع بأن أحدا من المؤمنين لا يدخل النار وهو على خلاف سائر الآيات .

والجواب من وجوه : الأول : أنه لا يبعد أن يكون في النار دركات أعد بعضها للكفار وبعضها للفساق فقوله : ﴿ النار التى أُعِدَّتْ للكافرين ﴾ إشارة إلى تلك الدركات المخصوصة التي أعدها الله للكافرين ، وهذا لا يمنع ثبوت دركات أخرى في النار أعدها الله لغير الكافرين .

الثاني : أن كون النار معدة للكافرين ، لا يمنع دخول المؤمنين ، فيها لأنه لما كان أكثر أهل النار هم الكفار فلأجل الغلبة لا يبعد أن يقال : انها معدة لهم ، كما أن الرجل يقول : لدابة ركبها لحاجة من الحوائج ، إنما أعددت هذه الدابة للقاء المشركين ، فيكون صادقا في ذلك وان كان هو قد ركبها في تلك الساعة لغرض آخر فكذا ههنا .

(286/129)

الوجه الثالث : في الجواب : أن القرآن كالسورة الواحدة فهذه الآية دلت على أن النار معدة للكافرين وسائر الآيات دالة أيضا على أنها معدة لمن سرق وقتل وزنا وقذف ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ [الملك : 8] وليس لجميع الكفار يقال ذلك ، وأيضا قال تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ والغاوون ﴾ [الشعرا : 94] إلى قوله : ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبّ العالمين ﴾ [الشعرا : 98] وليس هذا صفة جميعهم ولكن لما كانت هذه الشرائط مذكورة في سائر السور ، كانت كالمذكورة ههنا ، فكذا فيما ذكرناه والله أعلم .

الوجه الرابع : أن قوله : ﴿ أُعِدَّتْ للكافرين ﴾ إثبات كونها معدة لهم ولا يدل على الحصر كما أن قوله : في الجنة ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : 133] لا يدل على أنه لا

يدخلها سواهم من الصبيان والمجانين والحور العين .

الوجه الخامس : أن المقصود من وصف النار بأنها أعدت للكافرين تعظيم الزجر ، وذلك لأن المؤمنين الذين خوطبوا باتقاء المعاصي اذا علموا بانهم متى فارقوا التقوى أدخلوا النار المعدة للكافرين ، وقد تقرر في عقولهم عظم عقوبة الكفار ، كان انزجارهم عن المعاصي أتم ، وهذا بمنزلة أن يخوف الوالد ولده بأنك إن عصيتني أدخلتك دار السباع ، ولا يدل ذلك على أن تلك الدار لا يدخلها غيرهم فكذا ههنا .

السؤال الثالث : هل تدل الآية على أن النار مخلوقة الآن أم لا ؟

الجواب : نعم لأن قوله : ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ إخبار عن الماضي فلا بد أن يكون قد دخل ذلك الشيء في الوجود . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 4.3 ﴾

(287/129)

من لطائف الإمام القشيري فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (130) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (131) ﴾

حرَّم الربا على العِباد ومنه إقراض الواحد باثنين تستردهما ، وسأل منك القرض الواحد بسبعمائة إلى ما لا نهاية له ، والإشارة فيه أن الكرم لا يليق بالخَلْق وإنما هو صفة الحق سبحانه .

﴿ واتَّقُوا النَّارَ الَّتِى أُعِدَّتْ لِلكَافِرِينَ ﴾ : دليل الخطاب أنّ المؤمن لا يُعذّب بها ، وإن عُذِّب بها مُدّةً فلا يُخلَّدُ فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 276 ﴾

(288/129)

قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُواْ اللهَ والرسول لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

قال الفخر :

ولما ذكر الوعيد ذكر الوعد بعده على ما هو العادة المستمرة في القرآن ، وقال : محمد بن إسحاق بن يسار هذه الآية معاتبة للذين عصوا الرسول صلى الله عليه وسلم حين أمرهم بما أمرهم يوم أحد ، وقالت المعتزلة هذه الآية دالة على أن حصول الرحمة موقوف على طاعة الله وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا عام فيدل الظاهر على أن من عصى الله ورسوله في شيء من الأشياء أنه ليس أهلا للرحمة وذلك يدل على قول

أصحاب الوعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 4 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴾ قيل : أطيعوا الله في الفرائض ، والرسول في السنن .

وقيل : في تحريم الربا ، والرسول فيما بلغكم من التحريم .

وقيل : وأطيعوا الله والرسول فيما يأمركم به وينهاكم عنه .

فإن طاعة الرسول طاعة الله قال تعالى : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ وقال المهدوي : ذكر الرسول زيادة في التبيين والتأكيد والتعريف بأن طاعته طاعة الله .

وقال ابن إسحاق : هذه الآية هي ابتداء المعاتبة في أمر أحد ، وانهزام من فرَّ ، وزوال الرماة من مركزهم .

وقيل : صيغتها الأمر ومعناها العتب على المؤمنين فيما جرى منهم من أكل الربا ، والمخالفة يوم أحد .

والرحمة من الله إرادة الخير لعبيده ، أو ثوابهم على أعمالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 58 ﴾

لطيفة

قال أبو السعود :

وإيرادُ ﴿ لَعَلَّ ﴾ في الموضعين للإشعار بعزة منالِ الفلاحِ والرحمة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 85 ﴾

(289/129)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (132) ﴾

قَرَنَ طاعة الرسول صلوات الله عليه بطاعة نفسه تشريفاً لِقَدْره ، وتخفيفاً على الأمة حيث ردَّهم إلى صحبة شخص من أنفسهم ، فإنَّ الجنسَ إلى الجنسِ أسكنُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 277 ﴾

فوائد بلاغية

قال أبو حيان :

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من الفصاحة والبديع .

من ذلك العام المراد به الخاص : في من أهلك ، قال الجمهور : أراد به بيت عائشة .

فالاختصاص في : والله سميع عليم ، وفي : فليتوكل المؤمنون ، وفي : ما في السموات وما في

الأرض ، وفي : يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء خص نفسه بذلك كقوله : ﴿ ومن يغفر الذنوب إلا الله ﴾ ﴿ نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾ وفي ﴿ العزيز الحكيم ﴾ لأن العز من ثمرات النصر ، والتدبير الحسن من ثمرات الحكمة .

والتشبيه : في ليقطع طرفاً ، شبه من قتل منهم وتفرّق بالشيء المقتطع الذي تفرقت أجزاؤه وانخرم نظامه ، وفي : ولتطمئن قلوبكم شبه زوال الخوف عن القلب وسكونه عن غليانه باطمئنان الرّجل الساكن الحركة .

وفي : فينقلبوا خائبين شبه رجوعهم بلا ظفر ولا غنيمة بمن أمل خيراً من رجل فأمّه ، فأخفق أمله وقصده .

والطباق : في نصركم وأنتم أذلة ، النصر إعزاز وهو ضد الذل .

وفي : يغفر ويعذب ، الغفران ترك المؤاخذة والتعذيب المؤاخذة بالذنب .

والتجوز بإطلاق التثنية على الجمع في : أن يفشلا .

وبإقامة اللام مقام إلى في : ليس لك أي إليك ، أو مقام على : أي ليس عليك .

والحذف والاعتراض في مواضع اقتضت ذلك والتجنيس المماثل في : أضعافاً مضاعفة .

وتسمية الشيء بما يؤول إليه في : لا تأكلوا سمّى الأخذ أكلاً ، لأنه يؤول إليه . انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 58 . 59 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الربا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً ﴾

والربا زيادة في المال ، فهل يؤكل ؟ نعم ؛ لأن كل المسائل المالية من أجل اللقمة التي تأكلها ، هذا هو الأصل . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " من أصبح منكم آمناً في سِرْبِهِ مُعَافىً في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا " .

ونعرف أنه عندما يكون الواحد منا في منطقة ليس فيها رغيف خبز ، فلن تنفعه ملكية جبل من الذهب . ﴿ لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ أَضْعَافاً ﴾ و ﴿ مُّضَاعَفَةً ﴾ هو كلام اقتصادي على أحدث نظام ، فالأضعاف هي : الشيء الزائد بحيث إذا قارنته بالأصل صار الأصل ضعيفاً ، فعندما يكون أصل المال مائة – على سبيل المثال – وسيؤخذ عليها عشرون بالمائة كفائدة فيصبح المجموع مائة وعشرين . إذن فالمائة والعشرون تجعل المائة ضعيفة ، هذا هو معنى أضعاف .

فماذا عن معنى " مضاعفة " ؟ إننا سنجد أن المائة والعشرين ستصبح رأس مال جديداً ، وعندما تمر سنة ستأخذ فائدة على المائة وعلى العشرين أيضا ، إذن فالأضعاف ضوعفت أيضاً ، وهذا ما يسمى بالربح المركب ، وهل معنى هذا أننا نأكله بغير أضعاف

مضاعفة ؟ ! لا ؛ لأن الواقع في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان هكذا .

وقد يقول لك واحد : أنا أفهم القرآن وأن المنهي هو الأضعاف المضاعفة ، فإذا لم تكن أضعافاً مضاعفة فهل يصح أن تأخذ ربحاً بسيطاً يتمثل في نسبة فائدة على أصل المال فقط ؟ ولكن مثل هذا القائل نرده إلى قول الله :

﴿ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

[البقرة : 279]

(291/129)

إن هذا القول الحكيم يوضح أن التوبة تقتضي أن يعود الإنسان إلى حدود رأس ماله ولا يشوب ذلك ربح بسيط أو مركب . وعندما نجد كلمة ﴿ أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً ﴾ فهي قد جاءت فقط لبيان الواقع الذي كان سائداً في أيامها .

وبعد ذلك يقول الحق تذييلاً للآية : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ونقول دائماً ساعة نرى كلمة " اتقوا " يعني اجعلوا بينكم وبين الله وقاية ، وهل تكون الوقاية بينكم وبين الله بكل صفات جماله وجلاله ؟ لا ، فالوقاية تكون مما يتعب ومما يؤلم ويؤذي ، إذن فاتقوا الله يعني : اجعلوا بينكم وبين صفات جلاله من جبروت وقهر وانتقام وقاية ، وعندما يقول الحق : ﴿

وَاتَّقُواْ اللَّهَ ﴾ فهي مثل قوله : ﴿ وَاتَّقُواْ اللَّهَ ﴾ ، لأن النار جند من جنود صفات الجلال .

وعندما يقول الحق : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ نعرف أن كلمة " الفلاح " هذه تأتي لترغيب المؤمن في منهج الله ، وقد جاء الحق بها من الشيء المحس الذي نراه في كل وقت ، ونراه لأنه متعلق ببقاء حياتنا ، وهو الزرع والفلاحة ، أنت تحرث وتبذر وتروي ، وبعد ذلك تحصد .

إذن فهو يريد أن يوضح لك أن المتاعب التي في الحرث ، والمتاعب التي في البذر ، والمتاعب التي في السقى كلها متى ترى نتيجتها ؟ أنت ترى النتيجة ساعة الحصاد ، فالفلاح يأخذ (كيلتين) من القمح من مخزنه كي يزرع ربع فدان ، ولا نقول له : أنت أنقصت المخزن ؛ لأنه أنقص المخزن للزيادة ، ولذلك فالذي لم ينقص من مخزنه ولم يزرع ، يأتي يوم الحصاد يضع يده على خده نادماً ولا ينفع الندم حينئذ !

إن الحق يريد أن يقول لنا : إن المنهج وإن أتعبك ، وإن أخذ من حركتك شيئاً كثيراً إلا أنه سيعود عليك بالخير حسب نيتك وإقبالك على العمل ، ولقد ضرب لنا الله المثل في قوله :

﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

[البقرة: 261]

هذا أمر واضح، حبة نأخذها منك فتنقص ما عندك، لكنها تعطيك سبعمائة، إذن فساعة تؤخذ منك الحبة لا تقل: إنك نقصت، إنما قَدِّرْ أنك ستزيد قدر كذا. ويعطينا الله ذلك المثل في خلق من خلقه وهو الأرض، الأرض الصماء، أنت تعطيها حبة فتعطيك سبعمائة. فإذا كان خلق من خلق الله وهو الأرض يعطيك أضعاف أضعاف ما أعطيت. أفلا يعطيك ربّ هذه الأرض أضعافاً مضاعفة؟ إنه قادر على أجزل العطاء، هذا هو الفَلاحُ على حقيقته، وبعد ذلك فإنه ساعة يتكلم عن الفلاح يقول لك: إنك لن تأخذ الفلاح فقط ولكنك تتقي النار أيضاً.

فيقول الحق سبحانه: ﴿ وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾.

إذن ففيه مسألتان: سلبٌ لمضرة، وإيجابُ منفعة، إنه يوجب لك منفعة الفلاح ويسلب منك مضرّة النار. ولذلك يقول تعالى:

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾

[آل عمران: 185]

لأنه إذا زُحزح عن النار وأُدخل الجنة؟ إن هذا هو الفوز الكبير، وهذا السبب في أن ربنا

سبحانه وتعالى ساعة السير على الصراط سيُرينا النار ونمرُّ عليها ، لماذا ؟ كي نعرف كيف نجانا الإيمان من هذه ، وما الوسيلة كي نفلح ونتقي النار ؟ إن الوسيلة هي اتباع منهج الله الذي جاء به على لسان رسوله : ﴿ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

و" الرحمة " تتجلى في ألا يوقعك في المتعبة ، أما الشفاء فهو أن تقع في المتعبة ثم تزول عنك ، لذلك فنحن إذا ما أخذنا المنهج من البدء فسنأخذ الرحمة .

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾

[الإسراء : 82]

(293/129)

إن الشفاء هو إزالة للذنب الذي تورطنا فيه ويكون القرآن علاجاً ، والرحمة تتجلى إذا ما أخذنا المنهج في البداية فلا تأتي لنا أية متاعب . ويقول الحق من بعد ذلك : ﴿ وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1747 . 1751 ﴾

(294/129)

" فصل "

قال السيوطى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (130) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (131) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (132)

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : كانوا يتبايعون إلى الأجل . فإذا حل الأجل زادوا عليهم وزادوا في الأجل ، فنزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عطاء قال : كانت ثقيف تداين بني المغيرة في الجاهلية ، فإذا حل الأجل قالوا : نزيدكم وتؤخرون عنا . فنزلت ﴿ لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في الآية قال : إن الرجل كان يكون له على الرجل المال ، فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه فيقول المطلوب : أخِّر عني وأزيدك في مالك فيفعلان ذلك . فذلك ﴿ الربا أضعافاً مضاعفة ﴾ فوعظهم الله ﴿ واتقوا الله ﴾ في أمر الربا فلا تأكلوا ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ لكي تفلحوا ﴿ واتقوا النار التي أعدَّت للكافرين ﴾ فخوف آكل الربا من المؤمنين بالنار التي أعدت للكافرين ﴿ وأطيعوا الله والرسول ﴾ يعني

في تحريم الربا ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ يعني لكي ترحموا فلا تعذبون.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن معاوية بن قرة قال: كان الناس يتأولون هذه الآية ﴿ واتقوا النار التي أعدّت للكافرين ﴾ اتقوا لا أعذبكم بذنوبكم في النار التي أعددتها للكافرين. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المنثور حـ 2 صـ 313.314 ﴾

(295/129)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله:

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

«كان» عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض على سبيل الإبهام، وليس فيه دليل على عدم سابق ولا على انقطاع طارئ، ومنه قوله تعالى: (وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) ومنه قوله تعالى كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ كأنه قيل: وجدتم خير أمّة، وقيل: كنتم في علم الله خير أمّة. وقيل: كنتم في الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمّة، موصوفين به أُخْرِجَتْ أظهرت، وقوله تَأْمُرُونَ كلام مستأنف يبن به كونهم خير أمّة، كما تقول زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ جعل الإيمان بكل ما يجب الإيمان به إيمانا بالله، لأنّ من آمن

ببعض ما يجب الإيمان به من رسول أو كتاب أو بعث أو حساب أو عقاب أو ثواب أو غير ذلك لم يعتد بإيمانه، فكأنه غير مؤمن بالله (وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا) والدليل عليه قوله تعالى وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ مع إيمانهم بالله لَكانَ خَيْراً لَهُمْ لكان الإيمان خيرا لهم مما هم عليه، لأنهم إنما آثروا دينهم على دين الإسلام حبا للرئاسة واستتباع العوام، ولو آمنوا لكان لهم من الرياسة والأتباع وحظوظ الدنيا ما هو خير مما آثروا دين الباطل لأجله، مع الفوز بما وعدوه على الإيمان من إيتاء الأجر مرتين مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ كعبد الله بن سلام وأصحابه وَأَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ المتمرّدون في الكفر لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً

---

(1) . قوله «فسبحان من يحلم عمن يصفه بإرادة القبائح» يريد أهل السنة القائلين: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، كما أجمع عليه السلف. (ع) [.....]

(296/129)

إلا ضررا مقتصرا على أذى بقول من طعن في الدين أو تهديد أو نحو ذلك وَإِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ منهزمين ولا يضروكم بقتل أو أسر ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ ثم لا يكون لهم نصر من أحد ولا يمنعون منكم. وفيه تثبيت لمن أسلم منهم، لأنهم كانوا يؤذونهم بالتلهي بهم وتوبيخهم

وتضليلهم وتهديدهم بأنهم لا يقدرون أن يتجاوزوا الأذى بالقول إلى ضرر يبالى به ، مع أنه وعدهم الغلبة عليهم والانتقام منهم وأنّ عاقبة أمرهم الخذلان والذل . فإن قلت : هلا جزم المعطوف في قوله : (ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ) ؟ «1» قلت عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء ، كأنه قيل : ثم أخبركم أنهم لا ينصرون . فإن قلت : فأى فرق بين رفعه وجزمه في المعنى ؟ قلت :

لو جزم لكان نفى النصر مقيداً بمقاتلتهم ، كتولية الأدبار . وحين رفع كان نفى النصر وعدا مطلقا ، كأنه قال : ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوّة لا ينهضون بعدها بجناح ولا يستقيم لهم أمر وكان كما أخبر من حال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع ويهود خيبر . فإن قلت : فما الذي عطف عليه هذا الخبر ؟ قلت : جملة الشرط والجزاء كأنه قيل : أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا ، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون . فإن قلت : فما معنى التراخي في ثمّ ؟ قلت : التراخي في المرتبة لأنّ الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار . فإن قلت : ما موقع الجملتين أعنى (مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ) و(لَنْ يَضُرُّوكُمْ) ؟ قلت : هما كلامان واردان على طريق الاستطراد عند إجراء ذكر أهل الكتاب ، كما يقول القائل : وعلى ذكر فلان فإنّ من شأنه كيت وكيت ، ولذلك جاءا من غير عاطف .

[سورة آل عمران (3) : آية 112]

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَباؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ (112)

بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ في محل النصب على الحال، بتقدير: إلا معتصمين أو متمسكين أو ملتبسين بحبل من اللَّه وهو استثناء من أعم عام الأحوال. والمعنى: ضربت عليهم الذلة في عامّة الأحوال إلا في

---

(1) . قال محمود: «إن قلت هلا جزم المعطوف في قوله ثم لا ينصرون . . . الخ» ؟ قال أحمد: وهذا من الترقي في الوعد عما هو أدنى إلى ما هو أعلى، لأنهم وعدوا بتولية عدوهم الأدبار عند المقاتلة، ثم ترقى الوعد إلى ما هو أتم في النجاح من أن هؤلاء لا ينصرون مطلقاً. ويزيد هذا الترقي بدخول ثم دون الواو، فإنها تستعار هاهنا للتراخي في الرتبة لا في الوجود، كأنه قال: ثم هاهنا ما هو أعلى في الامتنان وأسمح في رتب الإحسان، وهو أن هؤلاء قوم لا ينصرون البتة، واللَّه أعلم.

حال اعتصامهم بحبل اللَّه وحبل الناس ، يعنى ذمّة اللَّه وذمّة المسلمين ، أى لا عز لهم قط

إلا هذه الواحدة وهي التجاؤهم إلى الذمّة لما قبلوه من الجزية وَباؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ

استوجبوه وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ كما يضرب البيت على أهله ، فهم ساكنون في

المسكنة غير ظاعنين عنها ، وهم اليهود عليهم لعنة اللَّه وغضبه ذلِكَ إشارة إلى ما ذكر من

ضرب الذلة والمسكنة والبواء بغضب اللَّه أى ذلك كائن بسبب كفرهم بآيات اللَّه وقتلهم

الأنبياء ، ثم قال ذلِكَ بِما عَصَوْا أى ذلك كائن بسبب عصيانهم للَّه واعتدائهم لحدوده ليعلم

أنّ الكفر وحده ليس بسبب في استحقاق سخط اللَّه ، وأنّ سخط اللَّه يستحق بركوب

المعاصي كما يستحق بالكفر . ونحوه (مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا) ، (وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَقَدْ نُهُوا

عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ) .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 113 إلى 116]

لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113)

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ

وَأُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114) وَما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ

(115) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولئِكَ أَصْحابُ

النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (116)

الضمير في لَيْسُوا لأهل الكتاب ، أى ليس أهل الكتاب مستوين . وقوله مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ

قائِمَةٌ كلام مستأنف لبيان قوله : ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ كما وقع قوله : ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بيانا لقوله : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ ، أمّة قائمة : مستقيمة عادلة ، من قولك : أقمت العود فقام ، بمعنى استقام ، وهم الذين أسلموا منهم . وعبر عن تهجدهم بتلاوة القرآن في ساعات الليل مع السجود ، لأنه أبين لما يفعلون وأدل على حسن صورة أمرهم . وقيل عنى صلاة العشاء ، لأن أهل الكتاب لا يصلونها .

وعن ابن مسعود رضى اللَّه عنه : أخر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم صلاة العشاء ، ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة ، فقال : أما إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر اللَّه في هذه الساعة غيركم «1» ، وقرأ هذه الآية . وقوله يَتْلُونَ ويُؤْمِنُونَ في محل الرفع صفتان لأمّة ، أى أمّة قائمة تالون مؤمنون ، وصفهم بخصائص ما كانت في اليهود من تلاوة آيات اللَّه بالليل

---

(1) . أخرجه النسائي وابن حبان وأحمد وابن أبى شيبة وأبو يعلى والبزار ، كلهم من رواية عاصم عن زرعة .

ساجدين ، ومن الإيمان باللَّه ، لأن إيمانهم به كلا إيمان لإشراكهم به عزيراً ، وكفرهم ببعض الكتب والرسل دون بعض . ومن الإيمان باليوم الآخر ، لأنهم يصفونه بخلاف صفته . ومن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لأنهم كانوا مداهنين . ومن المسارعة في الخيرات ، لأنهم كانوا متباطئين عنها غير راغبين فيها . والمسارعة في الخير : فرط الرغبة فيه لأن من رغب في الأمر سارع في توليه والقيام به وآثر الفور على التراخي وَأُولئِكَ الموصوفون بما وصفوا به مِنَ جملة الصَّالِحِينَ الذين صلحت أحوالهم عند اللَّه ورضيهم واستحقوا ثناءه عليهم . ويجوز أن يريد بالصالحين المسلمين فَلَنْ يُكْفَرُوهُ لما جاء وصف اللَّه عز وعلا بالشكر في قوله : (وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ) في معنى توفيه الثواب نفى عنه نقيض ذلك . فإن قلت : لم عدى إلى مفعولين . وشكر وكفر لا يتعديان إلا إلى واحد ، تقول شكر النعمة وكفرها ؟ قلت : ضمن معنى الحرمان ، فكأنه قيل : فلن تحرموه بمعنى فلن تحرموا جزاءه . وقرئ يفعلوا ، ويكفروه ، بالياء والتاء وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ بشارة للمتقين بجزيل الثواب ، ودلالة على أنه لا يفوز عنده إلا أهل التقوى .

[سورة آل عمران (3) : آية 117]

مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (117)

الصرُّ : الريح الباردة «1» نحو : الصرصر . قال :

لَا تَعْدِلَنَّ أَتَاوِيِّينَ تَضْرِبُهُمْ نَكْبَاءَ صِرٍّ بِأَصْحَابِ الْمَحَلَّاتِ «2»

---

(1) . قال محمود : «الصر الريح الباردة . . . الخ» قال أحمد : كلها أوجه وجيهة ، وهذا الأخير أحسنها وأوجهها ، لكن لم يبين الزمخشري وجه الظرفية في الأمثلة المذكورة ، ونحن نبينها فنقول : إذا قلت مثلا : إن ضيعتي زيد ففي عمرو بعد اللّه كاف ، فقولك «كاف» أثبت به منكراً مجرداً من القيود المشخصة المخصصة ، ثم جعلت المعين الذي هو عمرو محلا له ، فشخصت ذلك المطلق المجرد بهذا المعنى ، فهي ظرفية صحيحة ، إذ كل مقيد ظرف لمطلقه ، إذ المطلق بعض المقيد ، فتنبه لهذه النكتة فإنها لطيفة ، واللّه الموفق .

(2) . الأتاوى : الغريب البعيد ، كأنه منسوب إلى الأتاوة وهي الرشوة والخفالة ، لأنه قد يبذلها على إقامته في غير وطنه . والنكباء : الريح الشديدة . والصر الحارة ، وقيل الباردة . وقال الزجاج : صوت النار في الريح . وقيل :

صوت الريح . وقيل : الجو . وقيل : البرد . وعلى هذا لو روى بالجر على الاضافة لكان وجيها . والمحلات قيل هي أدوات البيت كالفأس والقدر والغربال والدلو . ويجوز أنها البيوت وهو الظل من البيت . يقول : لا تسو بين الغرباء وبين أصحاب البيوت . وروى : لا يعدلن أتاويون ، بالبناء للمجهول ، وما بعده نائب فاعل . ورواه الجوهري بالبناء الفاعل ، وقال : أى لا يعدلن أتاويون أحداً بأصحاب المحلات ، فحذف المفعول وهو مدان ، وفسر

المحلات فحذف الموصول وهو مدان ، وفسر المحلات فيه بالأدوات كافة ، لأن الأتاوي يستعيرها من أصحابها . وعلى كل فالنون للتوكيد .

(299/129)

كما قالت ليلى الأخيلية :

وَلَمْ يَغلِبِ الْخَصْمَ الأَلَدَّ وَيَمْلأِ الْجِفَانَ سَدِيفاً يَوْمَ نَكْبَاءَ صَرْصَرِ «1»

فإن قلت : فما معنى قوله مَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ

؟ قلت : فيه أوجه : أحدهما أنّ الصرّ في صفة الريح بمعنى الباردة ، فوصف بها القرّة بمعنى فيها قرة صرّ ، كما تقول : برد بارد على المبالغة . والثاني : أن يكون الصر مصدراً في الأصل بمعنى البرد فجيء به على أصله . والثالث : أن يكون من قوله تعالى (لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) ومن قولك : إن ضيعني فلان ففي الله كاف وكافل . قال :

وَفِى الرَّحْمنِ لِلضُّعَفَاءِ كَافِى «2»

---

(1) كأن فتى الفتيان توبة لم ينخ بنجد ولم يطلع من المتغور

ولم يغلب الخصم الألد ويملأ الجفان سديفا يوم نكباء صرصر

لليلى الأخيلية ترثى صاحبها توبة بن الحمير وتتذكر أحواله وتعد مناقبه . وفتى الفتيان : أى هو الفتى من بينهم وليسوا فتيانا بالنسبة له وإن كانوا فتيانا في أنفسهم ، وتوبة بدل . ولم ينخ من أناخ بعيره ، خبر كأن ، أى كأنه لم ينخ بعيره بمحل مرتفع . ويروى : لم يسر بنجد ، ولم يطلع من أطلع بمعنى طلع ، أو لم يطلع بعيره من المتغور على اسم المفعول ، أى المكان المنخفض ما فيه ، وكأنه لم يغلب الخصم الشديد الخصومة . ويروى الخصم الصحاح بفتح الصاد ، بمعنى الصحيح ، وكأنه لم يملأ الجفان سديفاً ، أى قطعاً بيضا من السنام في زمن الريح الشديدة الباردة ، أو كثيرة الصرير وهو التصويت تعنى أنه كان يفعل ذلك كله ، ثم كأنه اليوم لم يفعل لموته .

(2) لقد زاد الحياة إلى حبا بنانى إنهن من الضعاف

أحاذر أن يرين البؤس بعدي وأن يشربن رنقا بعد صاف

وأن يعرين إن كسى الجواري فتنبو العين عن كرم عجاف

ولولا هن قد سويت مهري وفي الرحمن للضعفاء كافى

لأبى خالد الخارجي . وقيل : لمحمد بن عبد اللّه الأزدى . وقيل : لعمران بن حطان . وقيل غير ذلك لامه قطري ابن الفجاءة عن التخلف عن الحرب فاعتذر بذلك . وبناتي فاعل زاد . وأحاذر أى أخاف أن يدركهن الفقر بعد موتى ، وكنى عن ذلك برؤيتهن له مبالغة ، لأنه إذا خاف الرؤية خاف اللحوق . ويروى مخافة أن يذقن البؤس ، أى الشدة ، فشبهه

بمطعوم على سبيل المكنية والذوق تخييل . ورنق الماء كدر ، وترنق تكدر ، ورنقه وأرنقه كدره ، والرنق بالتحريك مصدر كالكدر فسكن وأريد منه الماء الكدر . وروى «زيفا» أي مغشوشا مكدرا ، فالمراد واحد ، فشبه العيش المنغص به ، وشبه العيش الناعم بالماء الصافي على طريق التصريح والشرب ترشيح ، وكسى بوزن فرح لازم ضد عرى . ويجوز هنا بناؤه للمجهول ، من كسى المتعدي كدعا . وإن للشرط المجرد عن الشك أو بمعنى إذ . وتنبو ترتفع عنهن ، كناية عن عدم التزوج بهن . والكرم بالسكون ، وقيل – بالكسر – وصف من الكرم يقع على الواحد والمتعدد مذكراً ومؤنثا . ويروى «عن رم» أي باليات ، وهو أشبه بالسياق . والعجاف جمع عجفاء ، أي مهزولة ، أي لا يلتفت إليهن مع كونهن كريمات لهزالهن ورثاثة حالهن . وسويت مهري : وضعت عليه آلات الحرب ومهدته وهيأته لها . ويروى «قد سموت مهري» ولعله بتخفيف الميم بمعنى علوت عليه وركبته وقيل : بمعنى وضعت عليه سمات الحرب ، فلعله مقلوب . و«سمت» وروى سومت بالتشديد ، وهو الذي يصلح أنه بمعنى جعلت عليه علامات الحرب لا ذاك ، وجود من جانب اللَّه عز وجل شخصا كافيا ، ولا حجر في المبالغة لا سيما على العرب . وفيه نوع استرجاع إلى اللَّه وتفويض إليه وتوكل عليه ، وأنه هو الرزاق ذو القوة المتين .

شبه ما كانوا ينفقون من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس لا يبتغون به وجه اللَّه ، بالزرع الذي حسه البرد فذهب حطاما . وقيل : هو ما كانوا يتقربون به إلى اللَّه مع كفرهم . وقيل : ما أنفقوا في عداوة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فضاع عنهم ، لأنهم لم يبلغوا بإنفاقه ما أنفقوه لأجله . وشبه بحرث قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فأهلك عقوبة لهم على معاصيهم ، لأنّ الهلاك عن سخط أشدّ وأبلغ . فإن قلت : الغرض تشبيه ما أنفقوا في قلة جدواه «1» وضياعه بالحرث الذي ضربته الصر ، والكلام غير مطابق للغرض حيث جعل ما ينفقون ممثلا بالريح .

قلت : هو من التشبيه المركب الذي مر في تفسير قوله : (كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً) ويجوز أن يراد : مثل إهلاك ما ينفقون مثل إهلاك ريح ، أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح وهو الحرث وقرئ :

تنفقون ، بالتاء ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ

الضمير للمنفقين على معنى : وما ظلمهم اللَّه بأن لم يقبل نفقاتهم ، ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث لم يأتوا بها مستحقة للقبول ، أو لأصحاب الحرث الذين ظلموا أنفسهم ، أى : وما ظلمهم اللَّه بإهلاك حرثهم ، ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة . وقرئ (ولكن) بالتشديد ، بمعنى ولكنّ أنفسهم يظلمونها هم . ولا يجوز أن يراد :

ولكن أنفسهم يظلمون، على إسقاط ضمير الشأن، لأنه إنما يجوز في الشعر.

[سورة آل عمران (3): الآيات 118 إلى 119]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وَما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (118) ها أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ وَإِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (119)

---

(1). قال محمود «فان قلت: الغرض تشبيه ما أنفقوا في قلة جدواه... الخ» قال أحمد: أما إيراد السؤال فلا ترتضي صيغته لما فيها من حيف بالأدب، إذ جزم السائل المقدر بأن كلام اللَّه تعالى غير مطابق لمراده، واللائق بالسؤال الوارد عن كتاب اللَّه تعالى أن يذكر بصيغة الاسترشاد الصريحة، لا بصيغة الاعتراض المحضة والعبارة الصحيحة أن يقال: فما وجه مطابقة الكلام للغرض. ولا ينبغي التساهل في ذلك، فان أحدنا لو أورد سؤالا على كلام إمام معتبر بمرأى منه ومسمع، تحيل في أنواع التلطف في إيراده وبعد عن أمثال هذه العبارة. ولعل الاعتراض على ذلك الامام يكون واردا لا يمكن عنه جواب، فكيف يليق التسامح في إيراد الأسئلة على كتاب اللَّه تعالى بصيغ الاعتراضات، وإنما يسئل عن كتاب اللَّه تعالى بمرأى منه ومسمع على علم بأنه كلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من

خلفه تنزيل من حكيم حميد . فما أجدره أن يتوفر في الاسترشاد وأن يتأدب في الإيراد ثم نعود إلى جواب الزمخشري الثاني وهو قوله «إن المراد مثل إهلاك ما ينفقون» فنقول : لم يكشف الغطاء بهذا الجواب عن المطابقة المسئول عنها ، والسؤال باق . وذلك أن الريح المشبه بها ليست الإهلاك وإنما هي المهلكة . ولا مطابقة بين المصدر والاسم إلا بتأويل آخر ، وحينئذ يبعد هذا الوجه . وأقرب معه أن يقول : أصل الكلام والله أعلم : مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم فأصابته ريح فيها صر فأهلكته . ولكن خولف هذا النظم في المثل المذكور لفائدة جليلة وهو تقديم ما هو أهم لأن الريح التي هي مثل العذاب ذكرها في سياق الوعيد والتهديد أهم من ذكر الحرث ، فقدمت عناية بذكرها واعتمادا على أن الأفهام الصحيحة تستخرج المطابقة برد الكلام إلى أصله على أيسر وجه .

ومثل هذا في تحويل النظم لمثل هذه الفائدة قوله تعالى : (فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ، مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا . . .) الآية ومثله أيضاً : أعددت هذه الخشبة أن يميل الحائط فأدعمه . والأصل : أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت ، وأن أدعم بها الحائط إذا مال ، وأمثال ذلك كثيرة ، والله الموفق .

بطانة الرجل وولجيته : خصيصه وصفيه الذي يفضى إليه بشقوره «1» ثقة به شبه ببطانة الثوب كما يقال : فلان شعاري . وعن النبي صلى اللَّه عليه وسلم «الأنصار شعار والناس دثار «2»» مِنْ دُونِكُمْ من دون أبناء جنسكم وهم المسلمون . ويجوز تعلقه بلا تتخذوا ، وببطانة على الوصف ، أى بطانة كائنة من دونكم مجاوزة لكم لا يَأْلُونَكُمْ خَبالًا يقال : ألا في الأمر يألو ، إذا قصر فيه ، ثم استعمل معدّى إلى مفعولين في قولهم : لا آلوك نصحا ، ولا آلوك جهدا ، على التضمين .

والمعنى : لا أمنعك نصحا ولا أنقصكه . والخبال : الفساد وَدُّوا ما عَنِتُّمْ ودّوا عنتكم ، على أنّ «ما» مصدرية . والعنت : شدّة الضرر والمشقة . وأصله انهياض العظم بعد جبره ، أى تمنوا أن يضروكم في دينكم ودنياكم أشدّ الضرر وأبلغه قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ لأنهم لا يتمالكون مع ضبطهم أنفسهم وتحاملهم عليها أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين .

وعن قتادة : قد بدت البغضاء لأوليائهم من المنافقين والكفار لإطلاع بعضهم بعضا على ذلك .

وفي قراءة عبد اللَّه قد بدأ البغضاء قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ الدالة على وجوب الإخلاص في الدين وموالاة أولياء اللَّه ومعاداة أعدائه إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ما بين لكم فعملتم به . فإن قلت :

كيف موقع هذه الجمل؟ قلت يجوز أن يكون لا يَأْلُونَكُمْ صفة للبطانة وكذلك قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ كأنه قيل: بطانة غير آليكم خبالا بادية بغضاؤهم. وأما قَدْ بَيَّنَّا فكلام مبتدأ، وأحسن منه وأبلغ أن تكون مستأنفات كلها على وجه التعليل للنهى عن اتخاذهم بطانة ها للتنبيه. وأَنْتُمْ مبتدأ. وأُولاءِ خبره. أى أنتم أولاء الخاطئون في موالاة منافقي أهل الكتاب. وقوله تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ بيان لخطئهم في موالاتهم حيث يبذلون محبتهم لأهل البغضاء. وقيل أُولاءِ موصول (تُحِبُّونَهُمْ) صلته. والواو في وَتُؤْمِنُونَ للحال، وانتصابها من لا يحبونكم

---

(1). قوله «بشقوره» في الصحاح الشقور بالضم الأمور اللاصقة بالقلب المهمة له الواحد شقر (ع)

(2). متفق عليه من حديث عبد اللَّه بن زيد بن عاصم المازني في أثناء حديث طويل، أوله «أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لما فتح جنينا قسم المغانم».

أى لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم كله، وهم مع ذلك يبغضونكم. فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم. وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم

في حقكم. ونحوه (فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ) ويوصف المغتاظ والنادم بعضّ الأنامل والبنان والإبهام. قال الحرث بن ظالم المري:

فَأَقْتُلُ أَقْوَاماً لِئَاماً أَذِلَّةً يَعُضُّونَ مِنْ غَيْظٍ رُؤُسَ الأَبَاهِمِ «1»

قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به والمراد بزيادة الغيظ زيادة ما يغيظهم من قوّة الإسلام وعز أهله وما لهم في ذلك من الذل والخزي والتبار إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ فهو يعلم ما في صدور المنافقين من الحنق والبغضاء، وما يكون منهم في حال خلوّ بعضهم ببعض، وهو كلام داخل في جملة المقول أو خارج منها. فإن قلت: فكيف معناه على الوجهين؟ قلت: إذا كان داخلا في جملة المقول فمعناه: أخبرهم بما يسرونه من عضهم الأنامل غيظا إذا خلوا، وقل لهم إنّ اللَّه عليم بما هو أخفى مما تسرونه بينكم وهو مضمرات الصدور، فلا تظنوا أنّ شيئًا من أسراركم يخفى عليه. وإذا كان خارجا فمعناه: قل لهم ذلك يا محمد ولا تتعجب من اطلاعى إياك على ما يسرون فإنى أعلم ما هو أخفى من ذلك وهو ما أضمروه في صدورهم ولم يظهروه بألسنتهم. ويجوز أن لا يكون ثمَّ قول، وأن يكون قوله: (قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ) أمراً لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بطيب النفس وقوة الرجاء والاستبشار بوعد اللَّه أن يهلكوا غيظاً بإعزاز الإسلام وإذلالهم به، كأنه قيل: حدث نفسك بذلك.

[سورة آل عمران (3): آية 120]

إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (120)

الحسنة: الرخاء والخصب والنصرة والغنيمة ونحوها من المنافع. والسيئة: ما كان ضدّ ذلك.

وهذا بيان لفرط معاداتهم حيث يحسدونهم على ما نالهم من الخير ويشمتون بهم فيما أصابهم من الشدّة. فإن قلت: كيف وصفت الحسنة بالمس والسيئة بالإصابة؟ «2»

قلت: المس

---

(1) . للحرث بن ظالم المري. وعض الأنامل من الغيظ: كناية عن شدته، وأطلق الأباهم وأراد مطلق الأصابع مجازاً مرسلا لأنه لا داعى للتخصيص المخالف للواقع عادة. ويحتمل أنها حقيقة.

(2) . قال محمود: «إن قلت: كيف وصفت الحسنة بالمس والسيئة بالاصابة ... الخ» قال أحمد: يمكن أن يقال: المس أقل تمكنا من الاصابة، وكأنه أقل درجاتها، فكأن الكلام والله أعلم: إن تصبكم الحسنة أدنى إصابة تسؤهم ويحسدوكم عليها، وإن تمكنت الاصابة منكم وانتهى الأمر فيها إلى الحد الذي يرثى الشامت عنده منها فهم لا يرثون لكم ولا ينفكون عن حسدهم ولا في هذه الحال، بل يفرحون ويسرون، والله أعلم.

مستعار لمعنى الإصابة فكان المعنى واحداً . ألا ترى إلى قوله : (إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ) ، (ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) ، (إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً) . وَإِنْ تَصْبِرُوا على عداوتهم وَتَتَّقُوا ما نهيتم عنه من موالاتهم . أو وإن تصبروا على تكاليف الدين ومشاقه وتتقوا اللَّه في اجتنابكم محارمه كنتم في كنف اللَّه فلا يضركم كيدهم . وقرئ (لا يَضُرُّكُمْ) من ضاره يضيره . ويضركم على أن ضمة الراء لإتباع ضمة الضاد ، كقولك مدّ يا هذا . وروى المفضل عن عاصم (لا يَضُرُّكُمْ) بفتح الراء ، وهذا تعليم من اللَّه وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى . وقد قال الحكماء :

إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلا في نفسك إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ من الصبر والتقوى وغيرهما مُحِيطٌ ففاعل بكم ما أنتم أهله . وقرئ بالياء بمعنى أنه عالم بما يعملون في عداوتكم فمعاقبهم عليه .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 121 إلى 122]

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (121) إِذْ هَمَّتْ

طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُما وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (122)

وَاذكر إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ بالمدينة وهو غدوّه إلى أحد من حجرة عائشة رضى اللَّه عنها. روى أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء، فاستشار النبي صلى اللَّه عليه وسلم أصحابه ودعا عبد اللَّه بن أبىّ ابن سلول ولم يدعه قط قبلها، فاستشاره، فقال عبد اللَّه وأكثر الأنصار:

يا رسول اللَّه، أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فو اللَّه ما خرجنا منها إلى عدوّ قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فكيف وأنت فينا، فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين وقال بعضهم: يا رسول اللَّه، اخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب لا يرون أنا قد جبنا عنهم. فقال صلى اللَّه عليه وسلم: إنى قد رأيت في منامي بقراً مذبحة حولي، فأوّلتها خيراً، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً فأولته هزيمة، ورأيت كأنى أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم. فقال رجال من المسلمين قد فاتتهم بدر وأكرمهم اللَّه بالشهادة يوم أحد:

اخرج بنا إلى أعدائنا. فلم يزالوا به حتى دخل فلبس لأمته. فلما رأوه قد لبس لأمته ندموا وقالوا:

بئسما صنعنا، نشير على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم والوحى يأتيه، وقالوا: اصنع

يا رسول ما رأيت ، فقال : لا ينبغي لنبيّ أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل ، فخرج يوم الجمعة بعد صلاة

(304/129)

الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال فمشى على رجليه فجعل يصف أصحابه للقتال كأنما يقوّم بهم القدح «1» . إن رأى صدراً خارجا قال : تأخر ، وكان نزوله في عدوة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وأمّر عبد اللَّه بن جبير على الرماة وقال لهم : «انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا» «2» تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ تنزلهم. وقرأ عبد اللَّه للمؤمنين ، بمعنى تسوى لهم وتهيئ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ مواطن ومواقف. وقد اتسع في قعد وقام حتى أجريا مجرى صار . واستعمل المقعد والمقام في معنى المكان. ومنه قوله تعالى : (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ) ، (قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ) من مجلسك وموضع حكمك وَاللَّهُ سَمِيعٌ لأقوالكم عليم بنياتكم وضمائركم إِذْ هَمَّتْ بدل من (إِذْ غَدَوْتَ) أو عمل فيه معنى (سَمِيعٌ عَلِيمٌ) . والطائفتان حيان من الأنصار : بنو سلمة من الخزرج ، وبنو حارثة من الأوس ، وهما الجناحان . خرج رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في ألف ، وقيل في تسعمائة وخمسين ، والمشركون في ثلاثة آلاف ووعدهم الفتح إن صبروا ، فانخزل عبد اللَّه

بن أبيّ بثلث الناس وقال : يا قوم ، علام نقتل أنفسنا وأولادنا ؟ فتبعهم عمرو بن حزم الأنصاري فقال : أنشدكم اللَّه في نبيكم وأنفسكم ، فقال عبد اك :

لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، فهمّ الحيان باتباع عبد اللَّه فعصمهم اللَّه فمضوا مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم «3» . وعن ابن عباس رضى اللَّه عنه : أضمروا أن يرجعوا ، فعزم اللَّه لهم على الرشد فثبتوا .

والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس ، وكما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع ، ثم يردها صاحبها إلى الثبات والصبر ويوطنها على احتمال المكروه ، كما قال عمرو بن الأطنابة :

أَقُولُ لَهَا إذَا جَشَأَتْ وَجَاشَتْ مَكَانَكِ تُحْمَدِى أَوْ تَسْتَرِيحِى «4»

---

(1) . قوله «كأنما يقوم بهم القدح» في الصحاح : القدح - بالكسر - السهم قبل أن يراش ويركب نصله . (ع)

(2) . أخرجه ابن إسحاق في المغازي ، قال : حدثني محمد بن شهاب وعاصم بن عمر ومحمد بن يحيى بن حبان والحصين ابن عبد الرحمن وغيرهم من علمائنا ، كلهم قد حدث عن غزوة أحد . وكان من حديثهم قالوا : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم للمسلمين يوم أحد «إنى رأيت بقراً وأولتها خيراً . ورأيت في ذباب سيفي ثلماً - فذكر الحديث بطوله وفيه : ومات في ذلك اليوم رجل من الأنصار يقال له : مالك بن عمرو . وفيه : ذكرا للأمة

وغير ذلك. ومن طريق ابن إسحاق أخرجه البيهقي في الدلائل وأورد منه الطبري من طريقه قطعة. وساقه عبد الرزاق عن معمر عن ابن شهاب عن عروة مطولا وأخرجه الطبري من رواية أسباط عن السدى بلفظ المصنف، إلى قوله «وأصبح بالشعب» وبقية ذلك هو من كلام ابن إسحاق «قوله فيه حتى يقوم بها القداح» وقع في رواية الواقدي عن ابن أخي الزهري عن عروة عن المسور بن مخرمة، وقد ساقه الواقدي بهذا الاسناد مطولا.

(3). هو في الذي قبله. وذكره ابن هشام في تهذيب السيرة بتمامه عن ابن إسحاق.

[.....]

(4) أبت لي عفتي وأبى تلادى وأخذى الحمد بالثمن الربيح

وإقحامى على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

لأدفع عن مآثر صالحات وأحمى بعد عن عرض صحيح

لعمرو بن الأطنابة وهي أمه، وأبوه يزيد بن مناة بن ثعلبة من باهلة. والتلاد: المال القديم الموروث. ويروى بلائي أى بأسى في الحروب. واستعار الثمن لما يبذله في المكارم على طريق التصريح. والربيح: الزائد. والاقحام:

تكليف الدخول في المكروه. ويروى: وإقدامى. ويروى «وأضرب» بدل «ضربي» وفيه دلالة على تجدد الضرب وإبرازه في صورة إلى أمر المشاهد وهو من عطف المصدر

المؤول على المصدر الصريح . ويحتمل أنها جملة حالية والتقدير : وأنا أضرب . والهامة أعلى الرأس . والمشيح : الجاد في القتال ، من أشاح إذا جد واجتهد .

وجشأت : تحركت واضطربت ، وجاشت : غلت وارتفعت ، وكل شيء يغلى فهو يجيش . ومكانك : اسم فعل .

أى الزمى يا نفس مكانك ، يحمدك الناس إن ظفرت ، أو تستريحي إن مت . ولأدفع : متعلق بالقول أو باسم الفعل أو بأبت لي ، أى منعتني عفتي وما عطف عليها من الفرار . وإسناد الفعل لذلك مجاز عقلى من الاسناد للسبب .

وشبه سلامة العرض من الطعن بسلامة البيضة مثلا من الكسر فاستعار لها الصحة على طريق التصريح .

(305/129)

حتى قال معاوية : عليكم بحفظ الشعر ، فقد كدت أضع رجلي في الركاب يوم صفين ، فما ثبت منى إلا قول عمرو بن الأطنابة . ولو كانت عزيمة لما ثبتت معها الولاية ، والله تعالى يقول وَاللَّهُ وَلِيُّهُما ويجوز أن يراد : والله ناصرهما ومتولى أمرهما ، فما لهما تفشلان ولا تتوكلان على الله فإن قلت ، فما معنى ما روى من قول بعضهم عند نزول الآية . والله ما

يسرنا أنا لم نهم بالذي هممنا به وقد أخبرنا اللَّه بأنه ولينا ؟ قلت : معنى ذلك فرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء اللَّه وإنزاله فيهم آية ناطقة بصحة الولاية ، وأن تلك الهمة غير المأخوذ بها - لأنها لم تكن عن عزيمة وتصميم - كانت سببا لنزولها .

والفشل : الجبن والخور . وقرأ عبد اللَّه : واللَّه وليهم كقوله (وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا) .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 123 إلى 127]

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ (124) بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125) وَما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (126) لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ (127)

أمرهم بألا يتوكلوا إلا عليه ولا يفوّضوا أمورهم إلا إليه ثم ذكرهم ما يوجب عليهم التوكل

مما يسر لهم من الفتح يوم بدر وهم في حالة قلة وذلة . والأذلة : جمع قلة والذلان جمع الكثرة ، وجاء بجمع القلة ليدل على أنهم على ذلتهم كانوا قليلا ، وذلتهم : ما كان بهم من ضعف الحال وقلة السلاح والمال والمركوب ، وذلك أنهم خرجوا على النواضح يعتقب النفر منهم على البعير الواحد وما كان معهم إلا فرس واحد . وقلتهم أنهم كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر ، وكان عدوّهم في حال كثرة زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس والشكة والشوكة «1» . وبدر : اسم ماء بين مكة والمدينة كان لرجل يسمى بدراً فسمى به فَاتَّقُوا اللَّهَ في الثبات مع رسوله لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ بتقواكم ما أنعم به عليكم من نصرته . أو لعلكم ينعم اللّه عليكم نعمة أخرى تشكرونها ، فوضع الشكر موضع الإنعام لأنه سبب له إِذْ تَقُولُ ظرف لنصركم ، على أن يقول لهم ذلك يوم بدر ، أو بدل ثان من (إِذْ غَدَوْتَ) على أن يقوله لهم يوم أحد . فإن قلت . كيف يصح أن يقول لهم يوم أحد ولم تنزل فيه الملائكة ؟ قلت : قاله لهم مع اشتراط الصبر والتقوى ، فلم يصبروا عن الغنائم ولم يتقوا ، حيث خالفوا أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فلذلك لم تنزل الملائكة ولو تموا على ما شرط عليهم لنزلت . وإنما قدم لهم الوعد بنزول الملائكة لتقوى قلوبهم ويعزموا على الثبات ويثقوا بنصر اللّه . ومعنى أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ إنكار أن لا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة . وإنما جيء بلن الذي هو لتأكيد النفي ، للإشعار بأنهم كانوا لقلتهم وضعفهم وكثرة عدوّهم وشوكته كالآئسين من النصر . وبَلى إيجاب لما بعد لن ، بمعنى : بل يكفيكم الإمداد بهم ، فأوجب الكفاية ثم قال

إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا يمددكم بأكثر من ذلك العدد مسوّمين للقتال وَيَأْتُوكُمْ يعنى المشركين مِنْ فَوْرِهِمْ هذا من قولك : قفل من غزوته وخرج من فوره إلى غزوة أخرى ، وجاء فلان ورجع من فوره .

ومنه قول أبى حنيفة رحمه اللَّه : الأمر على الفور لا على التراخي ، وهو مصدر من : فارت القدر ، إذا غلت ، فاستعير للسرعة ، ثم سميت به الحالة التي لا ريث فيها - ولا تعريج على شيء من صاحبها فقيل : خرج من فوره ، كما تقول : خرج من ساعته ، لم يلبث .

والمعنى : أنهم إن يأتوكم من ساعتهم هذه يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بالملائكة في حال إتيانهم لا يتأخر نزولهم عن إتيانهم ، يريد : أنّ اللَّه يعجل نصرتكم وييسر فتحكم إن صبرتم واتقيتم .

وقرئ (منزلين) بالتشديد . ومنزلين بكسر الزاى ، بمعنى : منزلين النصر . و(مُسَوِّمِينَ) بفتح الواو وكسرها ، بمعنى : معلمين . ومعلمين أنفسهم أو خيلهم . قال الكلبي : معلمين بعمائم صفر مرخاة على أكتافهم . وعن الضحاك : معلمين بالصوف الأبيض في نواصي الدواب وأذنابها . وعن مجاهد :

مجزوزة أذناب خيلهم . وعن قتادة : كانوا على حيل بلق . وعن عروة بن الزبير : كانت عمامة

---

(1) . قوله «والشكة والشوكة» في الصحاح : الشكة - بالكسر - السلاح . والشوكة : شدة البأس . (ع)

الزبير يوم بدر صفراء ، فنزلت الملائكة كذلك ، وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال لأصحابه «تسوّموا فإنّ الملائكة قد تسوّمت» «1» وَما جَعَلَهُ اللَّهُ الهاء لأن يمدكم.

أى : وما جعل اللّه إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم بأنكم تنصرون وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ كما كانت السكينة لبنى إسرائيل بشارة بالنصر وطمأنينة لقلوبهم وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لا من عند المقاتلة إذا تكاثروا ، ولا من عند الملائكة والسكينة ، ولكن ذلك مما يقوى به اللّه رجاء النصرة والطمع في الرحمة ، ويربط به على قلوب المجاهدين الْعَزِيزِ الذي لا يغالب في حكمه الْحَكِيمِ الذي يعطى النصر ويمنعه لما يرى من المصلحة لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ليهلك طائفة منهم بالقتل والأسر ، وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من رؤساء قريش وصناديدهم أَوْ يَكْبِتَهُمْ أو يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ غير ظافرين بمبتغاهم.

ونحوه (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً) ويقال : كبته ، بمعنى كبده إذا ضرب كبده بالغيظ والحرقة. وقيل في قول أبى الطيب :

لِأَكْبِتَ حَاسِداً وَأَرِى عَدُوًّا «2»

هو من الكبد والرئة ، واللام المتعلقة بقوله : (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ) أو بقوله : (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ) . أَوْ يَتُوبَ عطف على ما قبله .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 128 إلى 129]

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ (128) وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (129)

---

(1) . أخرجه ابن أبى شيبة . حدثنا أبو أمامة عن ابن عون . عن ابن عمير ، وابن إسحاق بهذا . وهو مرسل وزاد : قال «فهو أول يوم وضع فيه الصوف» ورواه الطبري من وجه آخر عن ابن عون به . وقال الواقدي : حدثني محمد بن صالح عن عاصم بن عمر . عن محمود بن لبيد فذكره . قال : فأعلموا بالصوف في مغافرهم» ولم يذكر الزيادة . ورواه ابن سعد من طرق في قصة «وفيه فقال لأصحابه يومئذ : تسوموا فان الملائكة قد تسومت . قال فأعلموا بالصوف في مغافرهم وقلانسهم»

(2) رويدك أيها الملك الجليل تأن وعده مما تنيل

وجودك بالمقام ولو قليلا فما فيما تجود به قليل

لأكبت حاسداً وأرى عدواً كأنهما وداعك والرحيل

لأبى الطيب . يقول تمهل يا أيها الملك عن السفر ، واجعل ذلك التأنى مما تحسن به إلينا ،

وجودك علينا بالاقامة ، ولو كانت قليلة عندك أو في ذاتها فهي كثيرة عندنا ، فانه ليس فيما تجود به قليل . وقوله «لأكبت» متعلق بتأن .

وأصله : لأكبد ، قلبت الدال تاء لقرب مخرجيهما ، أى لأصيب كبد الحاسد بالغيظ .

وأرى : أى أصيب رئة العدو به أيضا ، كأنهما : أى الحاسد والعدو ، شبه الأول بالوداع ، والثاني بالرحيل ، في أن كلا يحزنه . وخص الثاني بالثاني لأنه أشد كراهة . وفيه لف ونشر مرتب ، وهو حسن .

(308/129)

وَلَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ اعتراض . والمعنى أنّ اللَّه مالك أمرهم ، فإما يهلكهم أو يهزمهم أو يتوب عليهم إن أسلموا ، أو يعذبهم إن أصروا على الكفر ، وليس لك من أمرهم شيء ، إنما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم . وقيل إنّ (يَتُوبَ) منصوب بإضمار «أن» و«وأن يتوب» في حكم اسم معطوف بأو على الأمر أو على شيء ، أى ليس لك من أمرهم شيء ، أو من التوبة عليهم ، أو من تعذيبهم . أو ليس لك من أمرهم شيء ، أو التوبة عليهم ، أو تعذيبهم ، وقيل «أو» بمعنى «إلا أن» كقولك : لألزمنك أو تعطيني حقي ، على معنى ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب اللَّه عليهم فتفرح بحالهم ، أو يعذبهم فتتشفى منهم . وقيل

: شجه عتبة ابن أبى وقاص يوم أحد وكسر رباعيته ، فجعل يمسح الدم عن وجهه ، وسالم مولى أبى حذيفة يغسل عن وجهه الدم ، وهو يقول :

كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم «1» ، فنزلت . وقيل : أراد أن يدعو اللَّه عليهم فنهاه اللّه تعالى ، لعلمه أن فيهم من يؤمن . وعن الحسن يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ بالتوبة «2» ، ولا يشاء أن يغفر إلا للتائبين «3» وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ ولا يشاء أن يعذب إلا

---

(1) . أخرجه عبد الرزاق . ومن طريقه الطبري . أخبرنا معمر عن قتادة : أن عتبة . فذكره ومن طريق معمر أخرجه ابن سعد سواء . والحديث في الصحيحين من حديث سهل بن سعد «كسرت رباعية النبي صلى اللَّه عليه وسلم يوم أحد وشج رأسه . فجعل يسلت الدم عن وجهه ويقول : كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم ، وهو يدعوهم إلى اللَّه ؟ فأنزل اللَّه تعالى : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) قال : وكانت فاطمة تغسل الدم عن وجهه - الحديث» وسيأتى قريباً أن الذي شجه عبد اللَّه بن قمئة . وقال الواقدي : المثبت عندنا أن الذي رمى وجه النبي صلى اللَّه عليه وسلم عبد اللَّه ابن قمئة : والذي رمى شفته وأصاب رباعيته . عتبة بن أبى وقاص . وفي السيرة لابن هشام من حديث أبى سعيد الخدري أن عتبة بن أبى وقاص رمى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يومئذ فكسر رباعيته اليمنى السفلى . وجرح شفته السفلى ، وأن عبد اللَّه بن شهاب شجه في وجهه ، وأن ابن

قمئة جرح وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، ووقع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في حفرة من الحفر فأخذ علي بيده ورفعه طلحة حتى استوى قائما ومص مالك بن سنان أبو أبى سعد الدم عن وجه النبي صلى اللَّه عليه وسلم ثم ازدرده . فقال النبي صلى اللَّه عليه وسلم : من مس دمه دمى لم تصبه النار» .

(2) . قال محمود : «معناه يغفر لمن يشاء بالتوبة . . . الخ» قال أحمد : هذه الآية واردة في الكفار . ومعتقد أهل السنة أن المغفرة في حقهم مشروطة بالتوبة من الكفر والرجوع إلى الايمان ، وليسوا محل خلاف بين الطائفتين وعندهم أن المؤمن النائب من كفره هو المعنى في قوله : (يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ) كما قاله الزمخشري . وأما تسلقه من ذلك على تعميم هذا الحكم وتعديته إلى الموحدين ، فمن التعامي والتصام حقيقة ، وإلا فهو أحذق من ذلك . وأما نسبته إلى أهل السنة التعامى والتصام والهوى والبدعة والافتراء ، فاللَّه حسيبه في ذلك والسلام .

(3) . قوله «ولا يشاء أن يغفر إلا للتائبين» هذا عند المعتزلة . (ع)

(309/129)

المستوجبين للعذاب. وعن عطاء: يغفر لمن يتوب إليه ويعذب من لقيه ظالما. وإتباعه قوله أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ تفسير بين لمن يشاء، وأنهم المتوب عليهم، أو الظالمون، ولكن أهل الأهواء والبدع يتصامتون ويتعامون «1» عن آيات اللَّه فيخبطون خبط عشواء، ويطيبون أنفسهم بما يفترون على ابن عباس من قولهم. يهب الذنب الكبير لمن يشاء، ويعذب من يشاء على الذنب الصغير.

[سورة آل عمران (3) : الآيات 130 إلى 132]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (130) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ (131) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (132)

لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً نهى عن الربا مع توبيخ بما كانوا عليه من تضعيفه كان الرجل منهم إذا بلغ الدين محله زاد في الأجل فاستغرق بالشيء الطفيف مال المديون «2».

وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ كان أبو حنيفة رحمه اللَّه يقول: هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد اللَّه المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه. وقد أمدّ ذلك بما أتبعه من تعليق رجاء المؤمنين لرحمته بتوفرهم على طاعته وطاعة رسوله. ومن تأمّل هذه الآية وأمثالها لم يحدث نفسه بالأطماع الفارغة والتمني على اللَّه تعالى، وفي ذكره تعالى «لعلّ» و«عسى» في نحو هذه المواضع - وإن قال الناس ما قالوا - ما لا يخفى على العارف الفطن من دقة مسلك التقوى، وصعوبة إصابة رضا اللَّه، وعزة التوصل إلى رحمته

وثوابه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ الكشاف حـ 1 صـ 414.400 ﴾

---

(1) . قوله «ولكن أهل الأهواء والبدع يتصامون» يريد أهل السنة وتحقيق المبحث في علم التوحيد . (ع)

(2) . قوله «مال المديون» لعله المدين ، أو هو لغة شاذة . (ع)

(310/129)

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

1 - [إذ تقول] صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها في الذهن

2 - [أن يمدكم ربكم] التعرض لعنوان الربوبية مع إضافته للمخاطبين لإظهار كمال العناية بهم .

3- [يغفر ويعذب] بينهما طباق .

4 - [أضعافا مضاعفة] جناس الإشتقاق .

5 - [لا تأكلوا الربا] سمي الإخذ أكلا لأنه يئول إليه فهو (مجاز مرسل) . انتهى انتهى. ا هـ

﴿صفوة التفاسير جـ 1 صـ 229﴾

(311/129)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثلاثون بعد المائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/130)

الجزء الثلاثون بعد المائة

من الآية ﴿ 133 ﴾ من سورة آل عمران

وحتى الآية ﴿ 141 ﴾ من نفس السورة

(4/130)

قوله تعالى ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما نهى عما منع النصر بالنهي عن الربا ، المراد بالنهي عنه الصرف عن مطلق الإقبال على الدنيا ، المشار إلى ذمها في قوله تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ﴾ [آل عمران : 14] ، وأمر بما تضمن الفوز والنجاة والقرب ، وكان ذلك قد يكون مع

التواني أمر بالمسارعة فيه توصلاً إلى ما أعد للذين اتقوا الموعودين بالنصر المشروط بتقواهم وصبرهم في قوله : ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ﴾ [آل عمران : 125] ، ﴿ وإن تصبرو وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ﴾ [آل عمران : 120] الموصوفين بما تقدم في قوله تعالى في المقصد الثالث من دعائم هذه السورة ﴿ قل أأنبئكم بخير من ذلك للذين اتقوا ﴾ [آل عمران : 15] ، على وجه أبلغ من ذلك بالمسارعة إلى ما يوجب المغفرة من الرب اللطيف بعباده ، وإلى ما يبيح الجنة أعدت للمتقين الذين تقدمت الإشارة إليهم في قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ [آل عمران : 130] الذين يتخلون عن الأموال وجميع مصانع الدنيا فلا تمتد أعينهم إلى الازدياد من شيء منها ويتحلون بالزهد فيها والإنفاق لها في سبيل الله في مرضاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجهاد وغيره في السراء والضراء ، لا بالإقبال على الدنيا من غنيمة أو غيرها إقبالاً يخلّ ببعض الأوامر ، وبالصبر بكظم الغيظ عمن أصيب منهم بقتل او جراحة ، والعفو عمن يحسن العفو عنه في التمثيل بالقتل في أحد أو غير ذلك إرشاداً إلى أن لا يكون جهادهم إلا غضباً لله تعالى ، لا مدخل فيه لحظ من حظوظ النفس أصلاً ، وبالصبر أيضاً على حمل النفس على الإحسان إلى من أساء بذلك أو غيره كما فعل صلى الله عليه وسلم في فتح مكة بعد أن كان حلف ليمثلن بسبعين منهم مكان تمثيلهم بسيد الشهداء أسد الله وأسد رسوله عمه حمزة ابن ساقي الحجيج عبد المطلب ،

فإنه وقف صلى الله عليه وسلم في ذلك اليوم الذي كان أعظم أيام الدنيا الذي أثبت فيه نور الإسلام عل مشرق الأرض ومغربها ، فهزم ظلام الكفر وضرب أوتاده في كل قطر على درج الكعبة وهم في قبضته فقال : "ما تظنون إني فاعل بكم يا معشر قريش ؟ قالوا : خيراً ! أخ وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء " ، وبالاستغفار عنعمل الفاحشة من خذلان المؤمنين أو أكل الربا أو التولي عن قتال الأعداء ، وعن ظلم النفس من محبة الدنيا الموجب للإقبال على الغنائم التي كانت سبب الانهزام أو يغر ذلك مما أراد الله تعالى فقال تعالى :

﴿ وسارعوا ﴾ أي بأن تفعلوا في الطاعات فعل من يسابق خصماً ﴿ إلى مغفرة من ربكم ﴾ أي المحسن إليكم بإرسال الرسل وإنزال الكتب بعمل ما يوجبها من التوبة والإخلاص وكل ما يزيل العقاب ﴿ وجنة ﴾ أي عظيمة جداً بعمل كل ما يحصل الثواب ، ثم بين عظمها بقوله : ﴿ عرضها السماوات والأرض ﴾ أي كعرضهما ، فكيف بطولها ، ويحتمل أن يكون كطولهما ، فهي أبلغ من آية الحديد - كما يأتي لما يأتي ، وعلى قراءة ﴿ سارعوا ﴾ بحذف الواو ويكون التقدير : سارعوا بفعل ما تقدم ، فهو في معناه ، لا مغائر له . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدررحـ 2 صـ 157.156 ﴾

اللغة :

[وسارعوا] بادروا

[السراء] الرخاء

[الضراء] الشد ة والضيق

[والكاظمين ، كظم الغيظ : رده في الجوف يقال : كظم غيظه أى لم يظهره مع قدرته على ايقاعه بالعدو

[فاحشة] الفاحشة : العمل الذي تناهى في القبح

[خلت] مضت

[سنن] السنن : جمع سنة وهي الطريقة التي يقتدى بها ، والمراد بها هنا الوقائع التي حصلت للمكذبين

[قرح] جرح بالفتح والضم ، قال الفراء : هو بالفتح الجرح وبالضم ألمه ، وأصل الكلمة الخلوص ، ومنه ماقى قراح

[نداولها] نصرفها والمدأولة : نقل الشيء من واحد إلى آخر يقال : تدأولته الإيدي إذا

انتقل من شخص إلى شخص

[وليمحص] التمحيص : التخليص يقال : محصته إذا خلصته من كل عيب ، وأصله في اللغة : التنقية والإزالة [ويمحق] المحق : نقص الشيء قليلا قليلا

[أعقابكم] جمع عقب وهو مؤخر الرجل يقال : انقلب على عقبه أى رجع إلى ما كان عليه

[مؤجلا] له وقت محدد لا يتقدم ولا يتأخر

[وكأين] بمعنى كم ، وهي للتكثير وأصلها " أى " دخلت عليها كاف التشبيه فأصبح معناها التكثير

[ربيون] جمع ربي نسبة إلى الرب كالربانيين وهم العلماء الإتقياء العابدون لربهم

[استكانوا] خضعوا وذلوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 230 ﴾

(7/130)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ سارعوا ﴾ بغير واو العطف : أبو جعفر ونافع وابن عامر . ﴿ قرح ﴾ بالضم حيث كان : حمزة وعلي وخلف وعاصم غير حفص وجبلة . الباقون بالفتح .

الوقوف : ﴿ مضاعفة ﴾ ص لعطف المتفقتين ﴿ تفحلون ﴾ ه ج للعطف ﴿ للكافرين ﴾ ه ﴿ ترحمون ﴾ ه ومن قرأ ﴿ سارعوا ﴾ بغير واو فوقه مطلق ﴿ والأرض ﴾ ص لأن ما بعده صفة لجنة أيضاً أي جنة واسعة معدّة . ﴿ للمتقين ﴾ لا لأن الذين صفتهم . ﴿ عن الناس ﴾ ط ﴿ المحسنين ﴾ ج ه لأن والذين يصلح مبتدأ وخبره ﴿ أولئك جزاؤهم ﴾ فلا وقف على ﴿ يعلمون ﴾ ويصلح معطوفاً لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له فيوقف على ﴿ يعلمون ﴾ لينصرف عموم أولئك إلى المتقين السابقين منهم بعصمة الله واللاحقين بهم برحمة الله . والوقف لطول الكلام على ﴿ لذنوبهم ﴾ للابتداء بالاستفهام وعلى ﴿ إلا الله ﴾ لاعتراض الاستفهام ولزوم الجواب بأن يقول الروح : لا أحد يغفر الذنوب إلا أنت ﴿ خالدين فيها ﴾ ط ﴿ العاملين ﴾ ه ﴿ سنن ﴾ لا لتعقب الأمر بالاعتبار بعد الإخبار بالتبار . ﴿ المكذبين ﴾ ه ﴿ للمتقين ﴾ ه ﴿ مؤمنين ﴾ ه ﴿ مثله ﴾ ط ﴿ بين الناس ﴾ ج لأن الواو مقحمة أو عاطفة على محذوفة أي ليعتبروا ﴿ وليعلم شهداء ﴾ ط ﴿ الظالمين ﴾ لا للعطف على ﴿ ليعلم ﴾ ﴿ الكافرين ﴾ ه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 2 صـ 257 ﴾

(8/130)

وقال الآلوسى :

﴿ وَسَارِعُواْ ﴾ عطف على ﴿ أَطِيعُواْ ﴾ [آل عمران : 132] أو ﴿ اتقوا ﴾ [آل عمران : 131] .

وقرأ نافع وابن عامر بغير واو على وجه الاستئناف وهي قراءة أهل المدينة والشام ، والقراءة المشهورة قراءة أهل مكة والعراق أي بادروا وسابقوا ، وقرىء بالأخير ﴿ إلى مَغْفِرَةٍ مّن رَّبّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾ أي أسبابهما من الأعمال الصالحة ، وعن علي كرم الله تعالى وجهه سارعوا إلى أداء الفرائض ، وعن ابن عباس إلى الإسلام ، وعن أبي العالية إلى الهجرة ، وعن أنس بن مالك إلى التكبيرة الأولى ، وعن سعيد بن جبير إلى أداء الطاعات ، وعن يمان إلى الصلوات الخمس ؛ وعن الضحاك إلى الجهاد ، وعن عكرمة إلى التوبة ، والظاهر العموم ويدخل فيه سائر الأنواع ، وتقديم المغفرة على الجنة لما أن التخلية مقدمة على التحلية ، وقيل : لأنها كالسبب لدخول الجنة ، و﴿ مِنْ ﴾ متعلقة بمحذوف وقع نعتاً لمغفرة والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار مزيد اللطف بهم ووصف المغفرة بكونها من الرب دون الجنة تعظيماً لأمرها وتنويهاً بشأنها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 4 صـ 56 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ نافع وابن عامر ﴿ سارعوا ﴾ بغير واو ، وكذلك هو في مصاحف أهل المدينة والشام ، والباقون بالواو ، وكذلك هو في مصاحف مكة والعراق ومصحف عثمان ، فمن قرأ بالواو عطفها على ما قبلها والتقدير أطيعوا الله والرسول وسارعوا ، ومن ترك الواو فلأنه جعل قوله : ﴿ سارعوا ﴾ وقوله : ﴿ أَطِيعُواْ اللهَ ﴾ [آل عمران : 132] كالشيء الواحد ، ولقرب كل واحد منها من الآخر في المعنى أسقط العاطف .

والتنوين في ﴿ مَغْفِرَةٍ ﴾ للتعظيم ويؤيده الوصف ، وكذا في ﴿ جَنَّةُ ﴾ ويؤيده أيضاً وصفها بقوله سبحانه : ﴿ عَرْضُهَا السماوات والأرض ﴾ . انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 5 ﴾ . بتصرف يسير .

(9/130)

فصل

قال الفخر :

قالوا : في الكلام حذف والمعنى : وسارعوا إلى ما يوجب مغفرة من ربكم ولا شك أن الموجب للمغفرة ليس إلا فعل المأمورات وترك المنهيات ، فكان هذا أمرا بالمسارعة إلى فعل المأمورات وترك المنهيات ، وتمسك كثير من الأصوليين بهذه الآية في أن ظاهر الأمر

يوجب الفور ويمنع من التراخي ووجهه ظاهر ، وللمفسرين فيه كلمات :

إحداها : قال ابن عباس : هو الإسلام أقول وجهه ظاهر ، لأنه ذكر المغفرة على سبيل التنكير ، والمراد منه المغفرة العظيمة المتناهية في العظم وذلك هو المغفرة الحاصلة بسبب الإسلام .

الثاني : روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : هو أداء الفرائض ، ووجهه أن اللفظ مطلق فيجب أن يعم الكل .

والثالث : أنه الإخلاص وهو قول عثمان بن عفان رضي الله عنه : ووجهه أن المقصود من جميع العبادات الإخلاص ، كما قال : ﴿ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [البينة : 5]

الرابع : قال أبو العالية : هو الهجرة .

والخامس : أنه الجهاد وهو قول الضحاك ومحمد بن اسحاق ، قال : لأن من قوله : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [آل عمران : 121] إلى تمام ستين آية نزل في يوم أحد فكان كل هذه الأوامر والنواهي مختصة بما يتعلق بباب الجهاد .

السادس : قال سعيد بن جبير : انها التكبيرة الأولى .

والسابع : قال عثمان : انها الصلوات الخمس .

والثامن : قال عكرمة : إنها جميع الطاعات .

لأن اللفظ عام فيتناول الكل .

والتاسع : قال الأصم : سارعوا ، أي بادروا إلى التوبة من الربا والذنوب ، والوجه فيه أنه تعالى نهى أولا عن الربا ، ثم قال : ﴿ وَسَارِعُواْ إلى مَغْفِرَةٍ مّن رَّبّكُمْ ﴾ فهذا يدل على أن المراد منه المسارعة في ترك ما تقدم النهي عنه ،

(10/130)

والأولى ما تقدم من وجوب حمله على أداء الواجبات والتوبة عن جميع المحظورات ، لأن اللفظ عام فلا وجه في تخصيصه ، ثم أنه تعالى بين أنه كما تجب المسارعة إلى المغفرة فكذلك تجب المسارعة إلى الجنة ، وإنما فصل بينهما لأن الغفران معناه إزالة العقاب ، والجنة معناها إيصال الثواب ، فجمع بينهما للإشعار بأنه لا بد للمكلف من تحصيل الأمرين ، فأما وصف الجنة بأن عرضها السموات : فمعلوم أن ذلك ليس بحقيقة ؛ لأن نفس السموات لا تكون عرضا للجنة ، فالمراد كعرض السموات والأرض . انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 5 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السماوات والأرض ﴾ تقديره كعرض فحذف المضاف ؛

كقوله : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان : 28] أي إلا كخلق نفس واحدة وبعثها .

قال الشاعر :

حَسَبْتَ بُغَامَ رَاحِلَتِي عَنَاقاً . . .

وما هي وَيْبَ غَيْرِكَ بالعَنَاقِ

يريد صوت عناق .

نظيره في سورة الحديد ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السمآء والأرض ﴾ [الحديد : 21] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 203 . 204 ﴾

(11/130)

فصل

قال الثعالبى :

وقوله سبحانه : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السموات والأرض ﴾ ، أي : كعرض السموات والأرض ، قال ابنُ عبَّاس في تفسير الآية : تقرن السمواتُ والأَرَضُونَ بعضها إلى بعض ؛ كما

تبسطُ الثيابُ ، فذلك عَرْضُ الجَنَّة ؛ ولا يَعْلَمُ طولَهَا إلا اللَّه سبحانه ؛ وفي الحديثِ الصحيحِ عَنِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : " إنَّ بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ أَبْوابِ الجَنَّةِ مَسِيرَةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَسَيَأْتِي عَلَيْهَا يَوْمٌ يَزْدَحِمُ النَّاسُ فِيهَا كَمَا تَزْدَحِمُ الإبِلُ ، إذَا وَرَدَتْ خُمُصاً ظِمَاءً " وفي الصحيح : " إنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ المُجِدُّ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا " فهذا كُلُّه يقوِّي قولَ ابْنِ عبَّاس ، وهو قولُ الجُمْهور : "إنَّ الجَنَّة أَكْبَرُ من هذه المخلوقاتِ المذْكُورة ، وهي ممتدَّة على السَّماء ؛ حيْثُ شاء اللَّه تعالى ، وذلك لاَ يُنْكَرُ ، فإن في حديث النبيِّ صلى الله عليه وسلم : " مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُونَ السَّبْعُ فِي الكُرْسِيِّ إلاَّ كَدَرَاهِمَ أُلْقِيَتْ فِي فَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ ، وَمَا الكُرْسِيُّ فِي العَرْشِ إلاَّ كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ فِي فَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ " . قال *ع* : فهذه مخلوقاتٌ أعظم بكثير جداً من السمواتِ والأرض ، وقدرةُ اللَّه أعْظَمُ مِنْ ذلك كلِّه ، قلتُ : قال الفَخْر وفي الآية وجْه ثانٍ ؛ أنَّ الجَنَّة التي عرضُها مثْلُ عَرْضِ السمواتِ والأرضِ ، إنما تكونُ للرَّجُلِ الواحدِ ؛ لأن الإنسانَ يرْغَبُ فيما يكون مِلْكاً له ، فلا بُدَّ أَنْ تصير الجَنَّة المملوكة لكلِّ أحد مقْدارُها هكذا . اه .

وقُدْرَةُ اللَّه تعالى أوسع ، وفَضْلُه أعظم ، وفي "صحيح مسلم" ، والترمذيّ ، مِنْ حديث المُغيرة بْنِ شُعْبَة (رضي اللَّه عنه) : " في سُؤَال موسى ربَّهُ عَنْ أدنى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزلَةً ، وأنَّهُ رَجُلٌ يأْتِي بَعْدَ مَا يَدْخُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّة ، فَيُقَالُ لَهُ : أترضى أَنْ يَكُونَ لَكَ مَا كَانَ لِمَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا ؟ فيَقُولُ : رَضِيتُ ، أَيْ رَبِّ ، فيُقَالُ لَهُ : لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ ، فقَالَ فِي الخَامِسَةِ : رَضِيتُ ، أيْ رَبِّ ، فيُقَالُ لَهُ : لَكَ ذَلِكَ ، وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ ، فيَقُولُ : رَضِيتُ ، أَيْ رَبِّ ، فيُقَالُ لَهُ : فإنَّ لَكَ مَعَ هَذَا مَا اشتهت نَفْسُكَ ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ " ، قال أبو عيسى : هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

وفي البخاريِّ من طريقِ ابْنِ مسعودٍ (رَضِيَ اللَّه عنه) : " إنَّ آخِرَ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُولاً الجَنَّة ، وآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجاً مِنَ النَّارِ رجلٌ يَخْرُجُ حَبْوا ، فيَقُولُ لَهُ رَبُّهُ : ادخل الجَنَّة ، فيَقُولُ : رَبِّ ، الجَنَّةُ ملأى ، فيَقُولُ لَهُ : إنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا عَشْرَ مَرَّاتٍ " انتهى انتهى . اهـ .

(13/130)

وفي "جامع التِّرمذيّ" ، عن ابن عُمَرَ (رضي اللَّه عنهما) ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : " إنَّ أدنى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً لَمَنْ يَنْظُرُ إلى جِنَانِهِ وأَزْوَاجِهِ وَنَعِيمِهِ وَخَدَمِهِ وَسُرُرِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ ، وأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ مَنْ يَنْظُرُ إلى وَجْهِهِ غُدْوَةً وَعَشِيَّةً " الحديث ،

قال أبو عيسى ، وقد رُوِيَ هذا الحديثُ مِنّ غير وَجْهٍ ، مرفوعًا وموقوفًا ، وفي الصَّحيحِ ما معناه : " إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّة ، تبقى فِيهَا فَضْلَةٌ ، فَيُنْشِيءُ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا " ، أَوْ كما قال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ 210 . 211 ﴾

أسئلة وأجوبة :

السؤال الأول : ما معنى أن عرضها مثل عرض السموات والأرض وفيه وجوه :

الأول : أن المراد لو جعلت السموات والأرضون طبقا طبقا بحيث يكون كل واحدة من تلك الطبقات سطحا مؤلفا من أجزاء لا تتجزأ ، ثم وصل البعض بالبعض طبقا واحدا لكان ذلك مثل عرض الجنة ، وهذا غاية في السعة لا يعلمها إلا الله .

والثاني : أن الجنة التي يكون عرضها مثل عرض السموات والأرض إنما تكون للرجل الواحد لأن الإنسان إنما يرغب فيما يصير ملكا ، فلا بد وأن تكون الجنة المملوكة لكل واحد مقدارها هذا .

الثالث : قال أبو مسلم : وفيه وجه آخر وهو أن الجنة لو عرضت بالسموات والأرض على سبيل البيع لكانتا ثمنا للجنة ، تقول إذا بعت الشيء بالشيء الآخر : عرضته عليه وعارضته به ، فصار العرض يوضع موضع المساواة بين الشيئين في القدر ، وكذا أيضا معنى القيمة لأنها مأخوذة من مقاومة الشيء بالشيء حتى يكون كل واحد منهما مثلا للآخر .

الرابع : المقصود المبالغة في وصف سعة الجنة وذلك لأنه لا شيء عندنا أعرض منهما ونظيره قوله : ﴿ خالدين فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض ﴾ [هود : 107] فان أطول الأشياء بقاء عندنا هو السموات والأرض ، فخوطبنا على وفق ما عرفناه ، فكذا ههنا .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 6 ﴾

وقال القرطبى :

واختلف العلماء في تأويله ؛ فقال ابن عباس : تُقرن السموات والأرض بعضها إلى بعض كما تبسط الثياب ويوصل بعضها ببعض ؛ فذلك عرض الجنة ، ولا يعلم طولها إلا الله .

وهذا قول الجمهور ، وذلك لا ينكر ؛ فإن في حديث أبي ذرّ عن النبي صلى الله عليه وسلم : " ما السموات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كدراهم ألقيت في فلاةٍ من الأرض وما الكرسي في العرش إلا كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض " فهذه مخلوقات أعظم بكثير جداً من السموات والأرض ، وقدرة الله أعظم من ذلك كله .

وقال الكلبي : الجِنَان أربعة : جنة عدن وجنة المأوى وجنة الفردوس وجنة النعيم ، وكل جنة منها كعرض السماء والأرض لو وصل بعضها ببعض .

وقال إسماعيل السدي : لو كسرت السموات والأرض وصرن خردلا ، فبِكل خردلة جنة عرضها كعرض السماء والأرض .

وفي الصحيح : " إن أدنى أهل الجنة منزلة من يتمنَّى ويتمنَّى حتى إذا انقطعت به الأماني قال الله تعالى : لك ذلك وعشرة أمثاله " رواه أبو سعيد الخدري ، خرجه مسلم وغيره .

(15/130)

و " قال يعلى بن أبي مُرّة : لقيتُ التَّنُوخي رسول هِرقْلَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم بِحمْص شيخا كبيرا قال : قدِمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب هرقل ، فناول الصحيفة رجلا عن يساره ، قال : فقلت من صاحبكم الذي يقرأ ؟ قالوا : معاوية ؛ فإذا كتاب صاحبي : إنك كتبت تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار" "

وبمثل هذه الحجة استدل الفاروق على اليهود حين قالوا له : أرأيت قولكم "وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ" فأين النار ؟ فقالوا له : لقد نزعت بما في التوراة .

ونَبّه تعالى بالعرض على الطول لأن الغالب أن الطول يكون أكثر من العرض ، والطول إذا ذكر لا يدل على قدر العرض .

قال الزُّهري : إنما وصف عرضها .

فأما طولها فلا يعلمه إلا الله ؛ وهذا كقوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ

إِسْتَبْرَقٍ ﴾ فوصف البِطَانَة بأحسن ما يعلم من الزينة ، إذ معلوم أن الظواهر تكون أحسن وأتقن من البطائن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى جـ 4 صـ 204 . 205 ﴾

السؤال الثاني : لم خص العرض بالذكر .

والجواب فيه وجهان :

الأول : أنه لما كان العرض ذلك فالظاهر أن الطول يكون أعظم ونظيره قوله : ﴿ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الرحمن : 54] وإنما ذكر البطائن لأن من المعلوم أنها تكون أقل حالا من الظهارة ، فاذا كانت البطانة هكذا فكيف الظهارة ؟ فكذا ههنا اذا كان العرض هكذا فكيف الطول

والثاني : قال القفال : ليس المراد بالعرض ههنا ما هو خلاف الطول ، بل هو عبارة عن السعة كما تقول العرب : بلاد عريضة ، ويقال هذه دعوى عريضة ، أي واسعة عظيمة ، والأصل فيه أن ما اتسع عرضه لم يضق ، وما ضاق عرضه دق ، فجعل العرض كناية عن السعة .

(16/130)

السؤال الثالث : أنتم تقولون : الجنة في السماء فكيف يكون عرضها كعرض السماء ؟

والجواب من وجهين :

الأول : أن المراد من قولنا انها فوق السموات وتحت العرش ، قال عليه السلام : في صفة الفردوس " سقفها عرش الرحمن " وروي أن رسول هرقل سأل النبي صلى الله عليه وسلم وقال : إنك تدعو إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين فأين النار ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار .

" والمعنى والله أعلم أنه إذا دار الفلك حصل النهار في جانب من العالم والليل في ضد ذلك الجانب ، فكذا الجنة في جهة العلو والنار في جهة السفل ، وسئل أنس بن مالك عن الجنة أفي الأرض أم في السماء ؟ فقال : وأي أرض وسماء تسع الجنة ، قيل فأين هي ؟ قال : فوق السموات السبع تحت العرش .

والوجه الثاني : أن الذين يقولون الجنة والنار غير مخلوقتين الآن ، بل الله تعالى يخلقهما بعد قيام القيامة ، فعلى هذا التقدير لا يبعد أن تكون الجنة مخلوقة في مكان السموات ، والنار في مكان الأرض ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 6 ﴾

قوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

قال الآلوسى :

﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي هيئت للمطيعين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وإنما

أضيفت إليهم للإيذان بأنهم المقصودون بالذات وإن دخول غيرهم كعصاة المؤمنين والأطفال والمجانين بطريق التبع وإذا حملت التقوى في غير هذا الموضع ، وأما فيه فبعيد على التقوى عن الشرك لا ما يعمه وسائر المحرمات لم نستغن عن هذا القول أيضاً لأن المجانين مثلاً لا يتصفون بالتقوى حقيقة ولو كانت عن الشرك كما لا يخفى .

(17/130)

وجوز أن يكون هناك جنات متفاوتة وأن هذه الجنة للمتقين الموصوفين بهذه الصفات لا يشاركهم فيها غيرهم لا بالذات ولا بالتبع ولعلها الفردوس المصرح بها في قوله صلى الله عليه وسلم : " إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس " وفيه تأمل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 57 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

ظاهره يدل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن وقد سبق تقرير ذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 6 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قرأ نافعُ ، وابْنُ عَامِرٍ : سارعوا - بدون واو - وكذلك هي في مصاحف المدينة والشام .

والباقون بواو العطف ، وكذلك هي في مصاحف مكةَ والعراقِ ومصحف عثمانَ .

فمن أسقطها استأنف الأمر بذلك ، أو أراد العطف ، لكنه حذف العاطفَ ؛ لقُرْب كل واحد منهما من الآخر في المعنى - كقوله تعالى : ﴿ ثَلاَثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف : 22] ، فإن قوله : ﴿ وسارعوا ﴾ ، وقوله : ﴿ وأطيعوا ﴾ كالشيء الواحد ، وقد تقدم ضعف هذا المذهب .

ومن أثبت الواو عطف جملة أمريةً على مثلها ، وبعد إتباع الأثر في التلاوة ، أتبع كل رسم مصحفه .

ورَوَى الكِسَائِيُّ : الإمالة في ﴿ وسارعوا ﴾ ، و﴿ أولئك يُسَارِعُونَ ﴾ [المؤمنون : 61] ، و﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخيرات ﴾ [المؤمنون : 56] وذلك لمكان الراء المكسورة .

قوله : ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ صفة لِ " مَغْفِرَةٍ " ، و" مِنْ " للابتداء مجازاً .

فصل

قال بعضهم : في الكلام حذف ، والتقدير : وسارعوا إلى ما يوجب مغفرة من ربكم .

وفيه نظر ؛ لأن الموجب للمغفرة ، ليس إلا أفعال المأمورات ، وترك المنهيات ، فكان هذا أمراً بالمسارعة إلى فعل المأمورات ، وترك المنهيات .

(18/130)

فصل

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض . .الآية" ، وفى سورة الحديد : "سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض . .الآية" ، والمراد فى الموضعين الحث على المبادرة إلى أفعال البر وجزيل الثواب للممتثل وقد اختلفت عبارة الأمر بذلك فى الموضعين فحذف المضاف فى الأولى وجئ فى الثانية بكاف التشبيه عوضا منه وقيل فى الأولى : "عرضها السماوات" على الجميع وأفرد فى الثانية فقيل : "عرضها كعرض السماء والأرض" فيها ثلاثة أسئلة .

والجواب عن الأول والله أعلم : أن المسارعة إلى الشئ قبل مسابقته قال تعالى : "أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون" وقد أوضحنا فى كتاب البرهان أن ترتيب السور بتوقيف على أصح المأخذين وأما ترتيب الآى فلا توقف فيه وأن ذلك كله معتمد على فيه

غير ترتيب النزول ، وإذا ثبت هذا فوجه تقديم لفظ "سارعوا" تقديم المسارعة ووجه تأخير سابقوا بناء المسابقة على المسارعة ، ألا ترى أن المسارع إلى الشئ قد يحصل له ما سارع اليه وقد لا يحصل ولا يقال فى الغالب سبق إلا فيمن تحصل له مطلوبه هذا هو الأكثر والمسارعة متقدمة فى الرتبة قال تعالى : "أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون" وقال تعالى : "إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون" أى ثبتت وحقت لهم وعن على رضى الله عنه : سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم وثنى أبو بكر وثلث عمر . . . ، وقيل فى قوله تعالى : "فالسابقات سبقا" أنها الملائكة تسبق الجن [إيصال الوحى إلى الأنبياء] فلما كانت المسارعة والمسابقة على ما ذكرنا ورد المتقدم فى الترتيب أولا والمتأخر ثانيا مراعاة للترتيب .

(19/130)

والجواب عن الثانى : أن آية آل عمران على حذف المضاف كما تقدم أى عرضها مثل عرض السماوات والأرض وقد أفصحت آية الحديد بما يقوم مقام هذا المضاف ويحصل معناه وهو كاف التشبيه إذ معناها معنى مثل وحذف المضاف مما يكون كثيرا عند قصد المبالغة وكذا جعل الشئ نفس الشئ وهو مما يتقدم فى آية آل عمران وهو نحو قول

الشاعر[رؤبة] :

إن الربيع الجود والخريفا يدا أبى العباس والصيوفا

وهذا كثير واليه يرجع الوارد فى قولهم : نهارك صائم وليلك قائم وباب ذلك مما يقصد به المبالغة فيجعل نفس الشئ وأنشد سيبويه رحمه الله نحوا من ذلك .

أما النهار ففى قيد وسلسلة والليل فى بطن منحوت من الساج

فجعل النهار فى قيد وسلسلة وجعل الليل فى بطن منحوت من السج مبالغة وإنما المجعول الشخص وقوله تعالى : "عرضها السماوات والأرض" يمكن إلحاقه بهذا القبيل وإن ظن أنه يباينه .

والجامع قصد المبالغة كأن السماوات والأرض إذا أوصل بعضها ببعض مصطفا نفس عرض الجنة ومن أبيات الكتاب :

لقد لمتنا يا أم غيلان فى السرى ونمت وما ليل المطي بنائم

فنفى النوم عن الليل حين جعله نفس الشخص مبالغة كما فى البيت قبل ويمكن فى هذا كله حذف المضاف أى ذو ليل المطى وذو النهار وذو الليل .

قال الإمام[سيبويه]رحمه الله لما أنشد هذا البيت جعله للاسم ومن هذا الضرب ما يتخرج على حذف المضاف ويمتنع ما سواه نحو قوله[النابغة الجعدى] :

كأن غديرهم بجنوب سلى نعام قاق فى بلد قفار

أى كأن غديرهم غدير نعام قاق ، والغدير الصوت

(20/130)

وتخريج آية آل عمران على هذا أوضح وكلا الضربين يحرز المبالغة وبالجملة فقصد المبالغة فى مثل ما تقدم يستلزم فى الغالب الإيجاز إما بالحذف وإما بجعل الشئ نفس الشئ أو بتكرر لفظ يفهم بتكرره التهويل والتعظيم ويقوم مقام أوصاف وذكر أهوال كقوله تعالى : "الحاقة ما الحاقة" و"القارعة ما القارعة" ، وقد ذكر سيبويه رحمه الله هذه الضروب فى أبواب شتى لافتراقها فى أحكام تقتضى تفصيل التبويب مع اتفاقها فى ما ذكرنا وفى جرى الإيجاز فى جميعها ولما اتصل بقوله "عرضها" فى آية آل عمران وهو مبتدأ والخبر عنه مجموع فقيل "السماوات" فأفصح الجمع ما مهدناه من قصد المبالغة والتعظيم ثم أتبع ذلك ما يحرز مقصود ذلك من التعظيم والمبالغة أيضا وهو وصف من أعدت له الجنة الموصوفة ووسمهم بالمتقين وهو الذين وفوا بالإيمان وتوابعه التى بها يكمل مما ذكر فى آية "ليس البر" من لدن قوله تعالى : "ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر" إلى قوله "أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون" ، ولم يكن قوله تعالى : "عرضها السماوات" بالجمع كقوله فى آية الحديد "كعرض

السماء" فأفرد ولا قوله"أعدت للمتقين" كقوله فى آية الحديد "أعدت للذين آمنوا بالله ورسله" فلما تضمنت آية آل عمران من قصد المبالغة من هذه الجهات والقرائن التى ذكرنا ما لم تتضمن آية الحديد ناسب ذلك جعل العرض نفس السماوات والأرض من غير إفصاح بالمضاف المقدر الذى لابد منه عند بيان المعنى على ما تقدم ولما لم يقصد فى آية الحديد ذلك أفصح فيها بما يعطى معنى مثل وهى كاف التشبيه وورد كل على ما يناسب ويلائم .

(21/130)

فإن قيل : لم خصت آية آل عمران بما تمهد من قصد المبالغة والتعظيم دون آية الحديد قلت : لبنائها على الحض على الجهاد وعظيم فضله وذكر قصة بدر واحد من لدن قوله"وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال" إلى ما بعد الآية المتكلم فيها ولما يكن فى آية الحديد شئ من ذلك ناسب كلاما ما ورد فيه والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ملاك التأويل صـ 92.90﴾

(22/130)

قوله : ﴿ عَرْضُهَا السماوات والأرض ﴾ [لا بد فيه من حَذْف ؛ لأن نفس السموات] لا تكون عرضاً للجنة ، فالتقدير : عرضها مثل عرض السموات والأرض ، يدل على ذلك قوله : "كعرض " ، والجملة في محل جر صفة لِ " جَنَّةٍ " .

قوله : ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ يجوز أن يكون محلها الجَرّ ، صفة ثانية لِ " جَنَّةٍ " ، ويجوز أن يكون محلها النصب على الحال من " جَنَّةٍ " ؛ لأنها لما وُصِفَتْ تخصَّصت ، فقَرُبَت من المعارف .

قال أبو حيان : " ويجوز أن يكون مستأنفاً ، ولا يجوز أن يكون حالاً من المضاف إليه ؛ لثلاثة أشياء :

أحدها : أنه لا عامل ، وما جاء من ذلك متأوّل على ضَعْفه .

والثاني : أن العرض – هنا – لا يراد به : المصدر الحقيقي ، بل يراد به : المسافة .

الثالث : أن ذلك يلزم منه الفصل بين الحال ، وصاحبه بالخبر " .

يعني بالخبر : قوله : ﴿ السماوات ﴾ ، وهو ردٌّ صحيح . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 534.539 ﴾ . بتصرف يسير .

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

والسرعة - كما عرفنا - مقابلها العجلة ، إن السرعة هي : التقدم فيما ينبغي ، ومعنى أن تتقدم فيما ينبغي : أنك تجعل الحدث يأخذ زمناً أقل ، والمثال على ذلك عندما يسرع الإنسان بسيارته من القاهرة إلى الإسكندرية فهو يحاول أن يقطع المائتين والعشرة كيلو مترات في زمن أقل ، فبدلاً من أن تأخذ منه ثلاث ساعات في السيارة فهو يسرع كي تأخذ منه ساعتين . إذن فالسرعة هي : التقدم فيما ينبغي ، وهي محمودة ، وضدها : الإبطاء . فالسرعة محمودة ، والإبطاء مذموم .

لكن " العجلة " تقدم فيما لا ينبغي ، وهي مذمومة ، مقابلها " التأني " ، والتأني ممدوح ، إذن فالسرعة محمودة ، ومقابلها الإبطاء مذموم ، والعجلة مذمومة ، ومقابلها التأنّي ممدوح ، والمثل الشعبي يقول : في التأني السلامة وفي العجلة الندامة .

إن الحق يقول : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي : خذوا المغفرة وخذوا الجنة بسرعة ، لأنك لا تعرف كم ستبقى في الدنيا ، إياك أن تؤجل عملاً من أعمال الدين أو عملا من أعمال الخير ؛ لأنك لا تعرف أتبقى له أم لا . فانتهز فرصة حياتك وخذ المغفرة وخذ الجنة ، هذا هو المعنى الذي يأتي فيه الأثر الشائع " اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل

لآخرتك كأنك تموت غداً " .

الناس تفهمها فهماً يؤدي مطلوباتهم النفسية بمعنى : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً : يعني اجمع الكثير من الدنيا كي يكفيك حتى يوم القيامة ، وليس هذا فهماً صحيحاً لكن الصحيح هو أن ما فاتك من أمر الدنيا اليوم فاعتبر أنك ستعيش طويلاً وتأخذه غداً ، أمّا أمر الآخرة فعليك أن تعجل به .

(24/130)

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾ ونحن نعرف أن المساحات لها طولٌ وعرض ، لأن الذي طوله كعرضه يكون مربعاً ، إنما الذي عرضه أقل من طوله فنحن نسميه " مستطيلا " ، وحين يقول الحق ﴿ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾ نعرف أن العرض هو أقل البعدين ، أي أنها أوسع مما نراه ، فكأنه شبّه البعد الأقل في الجنة بأوسع البعد لما نعرفه وهو السموات والأرض ملتصقة مع بعضها بعضا فأعطانا أوسع مَمَّا نراه . فإذا كان عرضها أوسع مِمَّا نعرف فما طولها ؟ أنه حد لا نعرفه نحن .

قد يقول قائل لماذا بيّن عرضها فقال : ﴿ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾ . فأين طولها إذن ؟ ونقول : وهل السموات والأرض هي الكون فقط ؟ إنّه سبحانه يقول :

﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾

[البقرة: 255]

ويقول صلى الله عليه وسلم: " ما السموات والأرض وما بينهما إلا كحلقة ألقاها ملك في فلاة". أليست هذه من ملك الله؟

وهكذا نرى أن هذه الجنة قد أُعدت للمتقين، ومعنى "أُعدت" أي هيئت وصُنعت وانتهت المسألة! يؤكد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول:

" عرضت عليّ الجنة ولو شئت أن آتيكم بقطاف منها لفعلت".

لماذا؟ لأن الإخبار بالحدث قد يعني أن الحدث غير موجود وسيوجد من بعد ذلك، ولكن الوجود للحدث ينفي أن لا يوجد؛ لأن وجوده صار واقعا، فعندما يقول: "أُعدت" فمعناها أمر قد انتهى الحق من إعداده، ولن يأخذ من خامات الدنيا وينتظر إلى أن ترتقي الدنيا عندكم ويأخذ وسائل وموادّ مما ارتقيتم ليعد بها الجنة، لا.

(25/130)

لقد أخبر سبحانه عنها فقال: " فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"، وأعد سبحانه الجنة كلها بـ "كن"، فعندما يقول: "أُعدت" تكون مسألة مفروغاً

منها . وما دامت مسألة مفروغاً منها إذن فالمصير إليها أو إلى مقابلها مفروغ منه ، والجنة أُعدت للمتقين ، فمن هم المتقون ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1751 . 1753 ﴾

(26/130)

" فصل فى المبادرة بالعمل الصالح "

قال ابن عبد ربه :

قال الله عزّ وجلّ : " وَسَارِعُوا إلى مَغفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُم وجَنة " وقال تعالى : " والسَّابقُونَ السَّابِقونَ أُولَئك المُقرَّبون " . وقال الحسن : بادروا بالعمل الصالح قبل حُلول الأجل ، فإنّ لكم ما أَمضيتم لا ما أَبْقيتم . وقالوا : ثلاثة لا أناة فيهن : المُبادرة بالعمل الصالح ، ودفْن الميّت ، وإنكاح الكُفء . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : ابن آدم ، اغْتنم خَمَساً قبل خَمْس : شبابك قبل هَرَمك ، وصِحّتك قبل سَقَمك ، وفَراغك قبل شُغلك ، وحياتَك قبل مَوْتك ، وغِناك قبل فَقْرك . وقال الحسن : " ابن آدم " ، صُمْ قبل أن لا تَقْدر على يومٍ تَصُومه ، كأنك إذا ظَمِئْت لم تَكُن رَوِيت ، وكأنك إذا رَوِيتْ لم تكن ظَمِئت . وكان يزيد الرَّقاشيّ يقول : يا يزيدُ ، مَن يَصوم عنك أو يُصلِّي لك أو يَترَضَّى لك ربك إذا مِتّ ؟ وكان

خالدُ بن مَعْدان يقول :

إذا أنت لم تَزْرَع وأَبصرْتَ حاصداً . . . نَدِمْتَ عَلَى التَّفْريط في زَمن البَذْرِ

وقال ابن المُبارك : رَكِبْتُ مع محمد بن النَّضْر في سفينة ، فقلتُ : بأي شيء أَسْتَخْرِجُ منه الكلامَ ؟ فقلتُ له : ما تقول في الصَّوم في السفر ؟ فقال : إنما هي المبادرة يا بن أخي .

فجاءني والله بفُتْيا غير فُتْيا إبراهيم والشعبي .

ومن قولنا في هذا المعنى :

بادرْ إلى التَّوْبة الخَلْصاء مُجْتهداً . . . والموتُ وَيْحك لم يَمْدُد إليك يَدَا

وأرقبْ من الله وَعْداً لَيس يُخْلِفُه . . . لا بُدَّ لله من إنجاز ما وَعَدَا

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأصحابه : فيم أنتم ؟ قالوا : نَرْجُو ونَخاف ؟ قال : مَن رجا شيئاً طَلَبه ، ومن خافَ شيئاً هَرَب منه .

وقال الشاعر :

تَرْجُو النَّجاةَ ولَم تَسْلُك مَسَالكها . . . إنّ السَّفِينَةَ لا تَجْري عَلَى اليَبس

وقال آخر :

اعمل وأنتَ من الدُنيا على حَذَرٍ . . . وآعلم بأنكَ بعد المَوْت مَبْعُوثُ

واعلم بأنك ما قَدَمْت من عَمَل . . . يُحْصى عَليك وما خَلّفْتَ مَوْرُوث

وقَدّمَت عائشةُ رضي الله عنها إلى النبي صلى الله عليه وسلم صَحْفَة فيها خُبز شَعِير وقطعة من كَرِش ، وقالت : يا رسولَ الله ، ذَبَحْنا اليوم شاةً فما أَمسكنا منها غيرَ هذا ؟ فقال : بل كلّها أمسكتم غير هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ العقد الفريد جـ 3 صـ 142. 143 ﴾

(28/130)

" فصل فى العجز عن العمل "

قال ابن عبد ربه :

قال رجل لمُؤرِّق العِجْلي : أشكُو إليك نفسي ، إنها لا تُريد الصلاة ولا تَسْتَطيع الصبرَ على الصّيام؛ قال : بئس الثناء أثنيت به على نفسك ، فإذا ضَعُفت عن الخير فاضْعُف عن الشرّ ، فإنّ الشاعر قال :

احْزَنْ عَلى أَنكَ لا تَحْزَنُ . . . ولا تُسِئ إن كُنْتَ لا تُحْسِنُ

واضعُفْ عن الشر كما تدعى . . . ضَعْفاً عن الخير وقد يُمْكِنُ

وقال بكرُ بن عبد الله : اجتهدوا في العملِ ، فإن قَصرَّ بكم ضَعْفُ فأمسكوا عن المعاصي . وقال الحسنُ رحمه الله : من كان قوياً فَلْيعتمد على قُوته في طاعة الله ، ومَن كان ضعيفاً فلْيَكُفّ عن معاصي الله . وقال عليُ " بن أبي طالب عليه السلام " : لا تَكُنْ كمن يَعْجِزُ عن شُكر ما أُوتِي ، ويَبْتَغي الزيادة فيما بَقى ، وينْهَى الناسَ ولا ينتهي .

وكان الحسنُ إذا وَعظ يقول : يا لها موعظةً لو صادفت من القلوب حياةً ، أَسْمَع حَسِيساً ولا أَرَى أنيساً ، ما لهم تَفاقدوا عقولَهم ، فَرَاش نار وذُباب طَمَع . وكان ابن السمّاك إذا فرَغ من مَوْعظته يقول : أَلسِنَة تَصِف ، وقلوب تَعْرِف ، وأعمال تخالِف . وقال : الحسنة نورٌ في القَلْب وقُوّة في العمل ، والسيِّئة ظُلْمة في القلب وضَعْف في العمل .

وقال بعض الحُكماءِ : يا أَيُّها المشيَخَة الذين لم يَتْرُكوا الذنوب حتى تَركَتْهُم الذُّنوب ، ثمّ ظَنُّوا أنّ تَرْكها لهم توبة ، وليتهم إذ ذهبتْ عنهم لم يَتَمَنَوا عَوْدَها إليهم . وكان مالكُ بن دينار يقول : ما أشدّ فِطَامَ الكبير ويُنشد :

وتَرُوض عِرْسَك بعدما هَرِمَت . . . ومن العَناء رياضة الهَرِم

ومن حديث محمد بن وَضّاح قال : إذا بلغَ الرجل أُربعين سنة ولم يَتُب مَسح إبليسُ بيده على وجهه وقال : بأَبي وَجْهٌ لا أَفْلح أبداً . قال الشاعر :

فإذا رأى إبليسُ غُرّةَ وَجْهِه . . . حيا وقال فَديتُ من لا يُفْلِحُ

وقال رجل للحسن : أبا سعيد ، أردتُ أن أُصَلِّي فلم أستطع ؛ قال : قَيَّدَتْك ذنوبك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ العقد الفريد حـ 3 صـ 145.143 ﴾

(29/130)

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما وصف الجنة بين أهلها بقوله : ﴿ أعدت ﴾ أي الآن وفرغ منها ﴿ للمتقين ﴾ وهم الذين صارت التقوى شعارهم ، فاستقاموا واستمروا على الاستقامة ، ثم وصف المتقين بما تضمن تفصيل الطاعة المأمور بها قبل إجمالاً على وجه معرف بأسباب النصر إلى آخر ما قص من خبر الأنبياء الماضين ومن معهم من المؤمنين بادئاً بما هو أشق الأشياء ولا سيما في ذلك الزمان من التبر ومن المال الذي هو عديل الروح فقال : ﴿ الذين ينفقون ﴾ أي مما آتاهم الله ، وهو تعريض بمن أقبل على الغنيمة ﴿ في السراء والضراء ﴾ أي في مرضاة الله في حال الشدة والرخاء .

ولما ذكر أشق ما يترك ويبذل أتبعه أشق ما يحبس فقال : ﴿ والكاظمين ﴾ أي الحابسين ﴿ الغيظ ﴾ عن أن ينفذوه بعد أن امتلؤوا منه .

ولما كان الكاظم غيظه عن أن يتجاوز في العقوبة قد لا يعفو حثه على العفو بقوله :

﴿ والعافين ﴾ وعمم في الحكم بقوله : ﴿ عن الناس ﴾ أي ظلمهم لهم ولو كانوا قد قتلوا منهم أو جرحوهم .

ولما كان التقدير : فإن الله يحبهم لإحسانهم عطف عليه تنويهاً بدرجة الإحسان قوله :

﴿ والله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ يحب المحسنين ﴾ أي يكرمهم بأنواع الإكرام على سبيل التجديد والاستمرار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 157 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بين أن الجنة معدة للمتقين ذكر صفات المتقين حتى يتمكن الإنسان من اكتساب الجنة بواسطة اكتساب تلك الصفات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 7 ﴾

قوله تعالى : ﴿ الذين يُنفِقُونَ فِى السَّرَّاء والضراء ﴾

فصل

قال الفخر :

فيه وجوه :

الأول : أن المعنى أنهم في حال الرخاء واليسر والقدرة والعسر لا يتركون الإنفاق ، وبالجملة فالسراء هو الغنى ، والضراء هو الفقر .

يحكى عن بعض السلف أنه ربما تصدق ببصلة ، وعن عائشة رضي الله عنها أنها تصدقت بحبة عنب ،

والثاني : أن المعنى أنهم سواء كانوا في سرور أو في حزن أو في عسر أو في يسر فإنهم لا يدعون الإحسان إلى الناس ،

الثالث : المعنى أن ذلك الإحسان والإنفاق سواء سرهم بأن كان على وفق طبعهم ، أو ساءهم بأن كان على خلاف طبعهم فإنهم لا يتركونه ، وإنما افتتح الله بذكر الإنفاق لأنه طاعة شاقة ولأنه كان في ذلك الوقت أشرف الطاعات لأجل الحاجة اليه في مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 7﴾

(30/130)

وقال الآلوسى :

﴿فِى السَّرَّآء والضراء ﴾ أي في اليسر والعسر قاله ابن عباس ؛ وقيل : في حال السرور والاغتمام ، وقيل : في الحياة وبعد الموت بأن يوصي ، وقيل : فيما يسر كالنفقة على الولد

والقريب وفيما يضر كالنفقة على الأعداء ، وقيل : في ضيافة الغني والإهداء إليه وفيما ينفقه على أهل الضر ويتصدق به عليهم ، وأصل السراء الحالة التي تسر والضراء الحالة التي تضر ، والمتبادر ما قاله الحبر ، والمراد إما ظاهرهما أو التعميم كما عهد في أمثاله أي أنهم لا يخلون في حال مّا بإنفاق ما قدروا عليه من كثير أو قليل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 58 ﴾

وقال ابن الجوزى :

ومعنى الآية : أنهم رغبوا في معاملة الله ، فلم يبطرهم الرخاء ، فينسيهم ، ولم تمنعهم الضراء فيبخلوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 1 صـ 460 ﴾

قوله تعالى : ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾

قال الفخر :

ومعنى قوله : ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ الذين يكفون غيظهم عن الإمضاء ويردون غيظهم في أجوافهم ، وهذا الوصف من أقسام الصبر والحلم وهو كقوله : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى : 37] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 7 ﴾

لطيفة

قال القرطبى :

الغيظ أصل الغضب ، وكثيرا ما يتلازمان لكن فُرْقَانُ ما بينهما .

أنّ الغيظ لا يظهر على الجوارح، بخلاف الغضب فإنه يظهر في الجوارح مع فعل مّا ولا بدّ؛ ولهذا جاء إسناد الغضب إلى الله تعالى إذ هو عبارة عن أفعاله في المغضوب عليهم. وقد فسر بعض الناس الغيظ بالغضب؛ وليس بجيد، والله أعلم. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 207 ﴾

فائدة

قال أبو السعود:

﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ عطفٌ على الموصول، والعدولُ إلى صيغة الفاعلِ للدِلالة على الاستمرار، وأما الإنفاقُ فحيث كان أمراً متجدداً عبّر عنه بما يفيد الحدثَ وهو التجدد. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 85 ﴾

(31/130)

فصل

قال الفخر:

قال النبي صلى الله عليه وسلم: " من كظم غيظا وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا " وقال عليه السلام: لأصحابه " تصدقوا " فتصدقوا بالذهب والفضة والطعام،

وأتاه الرجل بقشور التمر فتصدق به ، وجاءه آخر فقال والله ما عندي ما أتصدق به ، ولكن أتصدق بعرضي فلا أعاقب أحدا بما يقوله في حديثه ، فوفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوم ذلك الرجل وفد ، فقال عليه السلام : " لقد تصدق منكم رجل بصدقة ولقد قبلها الله منه تصدق بعرضه " وقال عليه السلام : " من كظم غيظا وهو يستطيع أن ينفذه زوجه الله من الحور العين حيث يشاء " وقال عليه السلام :

" ما من جرعتين أحب إلى الله من جرعة موجعة يجرعها صاحبها بصبر وحسن عزاء ومن جرعة غيظ كظمها " وقال عليه السلام " ليس الشديد بالصرعة لكنه الذي يملك نفسه عند الغضب " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 7 ﴾

قوله تعالى : ﴿ والعافين عَنِ الناس ﴾

فصل

قال الفخر :

قال القفال رحمه الله : يحتمل أن يكون هذا راجعا إلى ما ذم من فعل المشركين في أكل الربا ، فنهي المؤمنون عن ذلك وندبوا إلى العفو عن المعسرين .

قال تعالى : عقيب قصة الربا والتداين ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 280] ويحتمل أن يكون كما قال في الدية : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ [البقرة : 178] إلى قوله : ﴿ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 280] ويحتمل أن يكون هذا بسبب غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مثلوا بحمزة وقال : " لأمثلن بهم " فندب إلى كظم هذا الغيظ والصبر عليه والكف عن فعل ما ذكر أنه يفعله من المثلة ، فكان تركه فعل ذلك عفوا ، قال تعالى : في هذه القصة ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصابرين ﴾ [النحل : 126] قال صلى الله عليه وسلم : " لا يكون العبد ذا فضل حتى يصل من قطعه ويعفو عمن ظلمه ويعطي من حرمه " وروي عن عيسى بن مريم صلوات الله عليه : ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك ذلك مكافأة إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء اليك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 8 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والعافين عَنِ الناس ﴾ العفو عن الناس أَجلّ ضُرُوب فعل الخير ؛ حيث يجوز للإنسان أن يعفو وحيث يتّجه حقه .

وكل من استحق عقوبة فتُرِكت له فقد عُفي عنه .

واختلف في معنى "عَنِ النَّاسِ" فقال أبو العالية والكلبي والزجاج : ﴿ والعافين عن الناس

﴿ يريد عن المماليك .

قال ابن عطية : وهذا حسن على جهة المثال ؛ إذ هُم الخَدَمَة فهم يذنبون كثيرا والقدرة عليهم متيسرة ، وإنفاذ العقوبة سهل ؛ فلذلك مثل هذا المفسَّر به .

(33/130)

ورُوي عن ميمون بن مهران أن جاريته جاءت ذات يوم بصحفة فيها مَرَقَة حارّة ، وعنده أضياف فعثرت فصبت المرقة عليه ، فأراد ميمون أن يضربها ، فقالت الجارية : يا مولاي ، استعمل قول الله تعالى : ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ .

قال لها : قد فعلت ، فقالت : اعمل بما بعده ﴿ والْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ .

فقال : قد عَفوتُ عنك .

فقالت الجارية : ﴿ والله يُحِبُّ المحسنين ﴾ .

قال ميمون : قد أحسنت إليكِ ، فأنت حرّة لوجه الله تعالى .

ورُوي عن الأحنف بن قيس مثله .

وقال زيد ابن سلم : ﴿ والعافين عَنِ الناس ﴾ عن ظلمهم وإساءتهم .

وهذا عام ، وهو ظاهر الآية .

وقال مقاتل بن حيان في هذه الآَية : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عند ذلك : " إنّ هؤلاء من أمتي قليل إلا من عصمه الله وقد كانوا كثيرًا في الأمم التي مضت " فمدح الله تعالى الذين يغفرون عند الغضب وأثنى عليهم فقال : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى : 37] وأثنى على الكاظمين الغيظ بقوله : ﴿ والعافين عَنِ الناس ﴾ ، وأخبر أنه يحبهم بإحسانهم في ذلك .

ووردت في كظم الغيظ والعفو عن الناس وملْك النفس عند الغضب أحاديثُ ؛ وذلك من أعظم العبادة وجِهادِ النفس ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : " ليس الشديد بالصُّرَعَةِ ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب " وقال عليه السلام : " ما من جرعة يتجرّعها العبد خير له وأعظم أجراً من جرعةِ غيظٍ في الله " وروى أنس أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما أشدّ من كل شيء ؟ قال : "غضب الله" .

قال فما ينجي من غضب الله ؟ قال : "لا تغضب" قال العرجي :

وإذا غضبت فكن وَقُوراً كاظما . . .

للغيظ تَبْصُر ما تقول وتسمع

فكفى به شرفا تَصبُّر ساعة . . .

يرضى بها عنك الإله وتُرفع

وقال عروة بن الزبير في العفو :

لن يبلغ المجدَ أقوامٌ وإن شرفوا . . .

(34/130)

حتى يُذِلوا وإن عَزوا لأقوام

ويُشْتَموا فترى الألوانَ مُشرِقَة . . .

لا عَفْوَ ذلٍ ولكن عَفْوَ إكرامِ

وروى أبو داود وأبو عيسى الترمذي عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من كظم غيظا وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحورِ شاء " قال : هذا حديث حسن غريب .

وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا كان يوم القيامة ناد منادٍ من كان أجره على الله فليدخل الجنة فيقال من ذا الذي أجره على الله فيقوم العافون عن الناس يدخلون الجنة بغير حساب " ذكره الماوردي .

وقال ابن المبارك : كنت عند المنصور جالسا فأمر بقتل رجل ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ بين يدي الله عز وجل

من كانت له يد عند الله فليتقدّم فلا يتقدّم إلا من عفا عن ذنب " فأمر بإطلاقه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 207 . 208 ﴾

قوله تعالى : ﴿ والله يُحِبُّ المحسنين ﴾

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ والله يُحِبُّ المحسنين ﴾ فاعلم أنه يجوز أن تكون اللام للجنس فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المذكورون ، وأن تكون للعهد فيكون إشارة إلى هؤلاء .

واعلم أن الإحسان إلى الغير إما أن يكون بإيصال النفع اليه أو بدفع الضرر عنه .

(35/130)

أما إيصال النفع اليه فهو المراد بقوله : ﴿ الذين يُنفِقُونَ فِى السَّرَّاء والضراء ﴾ ويدخل فيه انفاق العلم ، وذلك بأن يشتغل بتعليم الجاهلين وهداية الضالين ، ويدخل فيه إنفاق المال في وجوه الخيرات والعبادات وأما دفع الضرر عن الغير فهو إما في الدنيا وهو أن لا يشتغل بمقابلة تلك الاساءة باساءة أخرى ، وهو المراد بكظم الغيظ ، وإما في الآخرة وهو أن يبرىء ذمته عن التبعات والمطالبات في الآخرة ، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ والعافين عَنِ الناس ﴾ فصارت هذه الآية من هذا الوجه دالة على جميع جهات الإحسان إلى الغير ، ولما

كانت هذه الأمور الثلاثة مشتركة في كونها إحسانا إلى الغير ذكر ثوابها فقال : ﴿ والله يُحِبُّ المحسنين ﴾ فان محبة الله للعبد أعم درجات الثواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 8 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والله يُحِبُّ المحسنين ﴾ أي يثيبهم على إحسانهم .

قال سَري السّقَطي : الإحسان أن تحسن وقت الإمكان ، فليس كل وقت يمكنك الإحسان ؛ قال الشاعر :

بادِرْ بخَيَرٍ إذا ما كنت مُقْتَدراً . . .

فليس في كلّ وقتٍ أنت مُقتِدرُ

وقال أبو العباس الجُمّاني فأحسن :

ليس في كُل ساعةٍ وأوَانٍ . . .

تَتَهيّأُ صنائعُ الإحسان

وإذا أَمْكنَتْ فبادِر إليها . . .

حذَراً من تعَذُّر الإمكان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 208 .

209 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ واللهُ يُحِبُّ المحسنين ﴾ تذييل لمضمون ما قبله "وأل" إما للجنس والمذكورون داخلون فيه دخولاً أولياً وإما للعهد عبر عنهم بالمحسنين على ما قيل : إيذاناً بأن النعوت المعدودة من باب الإحسان الذي هو الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفي المستلزم لحسنها الذاتي وقد فسره النبي صلى الله عليه وسلم بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ويمكن أن يقال : الإحسان هنا بمعنى الإنعام على الغير على وجه عار عن وجوه القبح ، وعبر عنهم بذلك للإشارة إلى أنهم في جميع تلك النعوت محسنون إلى الغير لا في الانفاق فقط .

ومما يؤيد كون الإحسان هنا بمعنى الإنعام ما أخرجه البيهقي أن جارية لعلي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما جعلت تسكب عليه الماء ليتهيأ للصلاة فسقط الإبريق من يدها فشجه فرفع رأسه إليها فقالت : إن الله تعالى يقول : ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ فقال لها : قد كظمت غيظي قالت : ﴿ والعافين عَنِ الناس ﴾ قال : قد عفا الله تعالى عنك قالت : ﴿ واللهُ يُحِبُّ المحسنين ﴾ قال : اذهبي فأنت حرة لوجه الله تعالى ، ورجح بعضهم العهد على الجنس بأنه أدخل في المدح وأنسب بذكره قبل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 59 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ الذين يُنفِقُونَ ﴾ يجوز في محله الألقاب الثلاثة ، فالجر على النعت ، أو البدل ، أو البيان ، والنصب والرفع على القطع المشعر بالمدح ، ولما أخبر بأن الجنة مُعَدَّة للمتقين وصفهم بصفات ثلاث ، حتى يُقْتَدَى بهم في تلك الصفات .

قوله : ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ يجوز فيه الجر والنَّصب على ما تقدم قبله .

والكَظْم : الحبس ، يقال : كظم غيظه ، أي : حبسه ، وكَظَم القربة والسقاء كذلك ، والكظم – في الأصل – مخرج النفس ، يقال : أخذ بكظمه ، أي : أخذ بمجرى نفسه .

(37/130)

والكُظوم : احتباس النفس ، ويُعَبَّر به عن السكوت ، قال المبرد : تأويله أنه كتمه على امتلاء به منه ، يقال : كَظَمْتُ السِّقَاءَ ، إذا ملأته وسددت عليه ، وكل ما سددت من مجرى ماء ، أو باب ، أو طريق ، فهو كَظْم ، والذي يُسَدّ به يقال له : الكظامة والسدادة ، ويقال للقناة التي تجري في بطن الأرض : كظامة ، لامتلائها بالماء كامتلاء القربة المكظومة ، والمَكْظُوم : الممتلئ غيظاً ، وكأنه – لغيظه لا يستطيع أن يتكلم ، ولا يُخرج نفسه ، والكظيم

: الممتلئ أسَفاً .

قال أبو طالب : [الكامل]

فَحَضَضْتُ قَوْمِي ، وَاحْتَسَبْتُ قِتَالَهُمْ . . . وَالْقَوْمُ مِنْ خَوْفِ المَنَايَا كُظَّزُ

وكظم البعيرُ جِرَّتَه ، إذا رَدَّها في جَوْفه ، وترك الاجترار .

ومنه قول الراعي : [الكامل]

فَأَفَضْنَ بَعْدَ كُظُومِهِنَّ بِجِرَّةٍ . . . مِنْ ذِي الأَبَاطِحِ إِذْ رَعَيْنَ حَقِيلا

الحقيل ، قيل : نبت .

وقيل : موضع ، فعلى الأول هو مفعول به ، وعلى الثاني هو ظرف ، ويكون قد شذ جره بـ " في " ؛ لأنه ظرف مكان مختص ، ويكون المفعول محذوفاً ، أي : إذْ رعين الكلأ في حقيل ، ولا تقطع الإبلُ جِرَّتَها إلا عند الجهد والفزع فلا تجترّ .

ومنه قول أعشى باهلة يصف رجلاً يكثر نحر الإبل : [البسيط]

قَدْ تَكْظِمُ البُزْلُ مِنْهُ حِينَ تُبْصِرُهُ . . . حَتَّى تَقَطَّعَ فِي أَجْوَافِهَا الْجِرَرُ

والجرر جمع جِرَّة . والكظامة : حلقة من حديد تكون في طرف الميزان تجمع فيها خيوطه ، وهي - أيضاً - السير الذي يُوصَل بوتر القَوْس .

والكظائم : خروق بين البئرين يجري منها الماء إلى الأخرى ، كل ذلك تشبيه بمجرى النفَس

وتردّده فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 539 . 541 ﴾ . بتصرف يسير .

(38/130)

من فوائد ابن عاشور فى الآيتين

قال رحمه الله :

قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ﴿ سارعوا ﴾ دون واو عطف .

تتنزّل جملة ﴿ سارعوا ﴾ منزلة البيان ، أو بدل الاشتمال ، لِجملة ﴿ وأطيعوا الله والرسول ﴾ لأنّ طاعة الله والرّسول مسارعة إلى المغفرة والجنَّة فلذلك فُصلت .

ولكون الأمر بالمسارعة إلى المغفرة والجنّة يؤول إلى الأمر بالأعمال الصّالحة جاز عطف الجملة على الجملة الأمر بالطّاعة ، فلذلك قرأ بقية العشرة ﴿ وسارعوا ﴾ .

بالعطف وفي هذه الآية ما ينبئنا بأنَّه يجوز الفصل والوصل في بعض الجمل باعتبارين .

والسرعة المشتقّ منها سارعوا مجاز في الحرص والمنافسة والفور إلى عمل الطاعات التي هي سبب المغفرة والجنة ، ويَجوز أن تكون السرعة حقيقة ، وهي سرعة الخروج إلى الجهاد عند النفير كقوله في الحديث : " وإذا استُنْفِرْتُمْ فانفِرُوا " .

والمسارعة، على التقادير كلّها تتعلّق بأسباب المغفرة وأسباب دخول الجنة، فتعليقها بذات المغفرة والجنة من تعليق الأحكام بالذوات على إرادة أحوالها عند ظهور عدم الفائدة في التعلّق بالذات.

وجيء بصيغة المفاعلة، مجرّدة عن معنى حصول الفعل من جانبين، قصد المبالغة في طلب الإسراع، والعرب تأتي بما يدلّ في الوضع على تكرّر الفعل وهم يريدون التأكيد والمبالغة دون التكرير، ونظيره التثنية في قولهم: لبيك وسعديك، وقوله تعالى: ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ﴾ [الملك: 4].

وتنكير (مغفرة) ووصلها بقوله: ﴿ من ربكم ﴾ مع تأتّي الإضافة بأن يقال إلى مغفرة ربّكم، لقصد الدّلالة على التّعظيم، ووصف الجنة بأنّ عرضها السماوات والأرض على طريقة التشبيه البليغ، بدليل التّصريح بحرف التّشبيه في نظيرتها في آية سورة الحديد.

والعَرض في كلام العرب يطلق على ما يقابل الطول، وليس هو المراد هنا، ويطلق على الاِتّساع لأنّ الشيء العريض هو الواسع في العرف بخلاف الطويل غير العريض فهو ضيق، وهذا كقول العُديل:

ودونَ يدِ الحَجّاج منْ أنْ تنالني

بساط بأيدِي الناعِجاتِ عرِيضُ . . .

وذِكر السماوات والأرض جار على طريقة العرب في تمثيل شدّة الاتّساع .

وليس المراد حقيقة عرض السماوات والأرض ليوافق قول الجمهور من علمائنا بأن الجنَّة مخلوقة الآن ، وأنَّها في السماء ، وقيل : هو عرضها حقيقة ، وهي مخلوقة الآن لكنّها أكبر من السماوات وهي فوق السماوات تحت العرش ، وقد رُوي : العرش سقف الجنة .

وأما من قال : إن الجنّة لم تخلق الآن وستخلق يوم القيامة ، وهو قول المعتزلة وبعض أهل السنّة منهم مُنذر بن سعيد البَلُّوطي الأندلسي الظاهري ، فيجوز عندهم أن تكون كعرض السماوات والأرض بأن تخلق في سعة الفضاء الَّذي كان يملؤه السماوات والأرض أو في سعة فضاء أعظم من ذلك .

وأدلّة الكتاب والسنّة ظاهرة في أنّ الجنَّة مخلوقة ، وفي حديث رؤيا رآها النّبيء صلى الله عليه وسلم وهو الحديث الطويل الذي فيه قوله : " إنّ جبريل وميكاييل قالا له : ارفع رأسك ، فرفع فإذا فوقه مثل السحاب ، قالا : هذا منزلك ، قال : فقلت : دَعاني أدخُل منزلي ، قالا : إنَّه بقي لك عُمُر لم تستكمله فلو استكملت أتيت منزلك " .

أعقب وصف الجنَّة بذكر أهلها لأنّ ذلك ممّا يزيد التَّنويه به ، ولم يزل العقلاء يتخيّرون حسن الجوار كما قال أبو تمام :

مَنْ مُبْلِغٌ أَفْنَاءَ يعرُب كلّها

أني بَنيت الجارَ قبل المنزلِ . . .

(40/130)

وجملةُ ﴿ أعدّت للمتّقين ﴾ استئناف بياني لأنّ ذكر الجنَّة عقب ذكر النّار الموصوفة بأنَّها أعدّت للكافرين يثير في نفوس السامعين أن يتعرّفوا مَن الذين أعدّت لهم : فإن أريد بالمتَّقين أكمل ما يتحقّق فيه التَّقوى ، فإعدادها لهم لأنَّهم أهلها فضلاً من الله تعالى الّذين لا يلجون النار أصلاً عدلاً من الله تعالى فيكون مقابلَ قوله : ﴿ واتقوا النار التي أُعدت للكافرين ﴾ [آل عمران : 131] ، ويكون عصاة المؤمنين غير التَّائبين قد أخذوا بحظّ من الدارين ، لمشابهة حالهم حالَ الفريقين عدلاً من الله وفضلاً ، وبمقدار الاقتراب من أحدهما يكون الأخذ بنصيب منه ، وأريد المتّقون في الجملة فالإعداد لهم باعتبار أنَّهم مقدّرون من أهلها في العاقبة .

وقد أجرى على المتَّقين صفات ثناءٍ وتنويه ، هي ليست جماع التَّقوى ، ولكن اجتماعها في محلّها مؤذن بأنّ ذلك المحلّ الموصوف بها قد استكمل ما به التقوى ، وتلك هي مقاومة الشحّ المُطاع ، والهوى المتَّبع .

الصفة الأولى : الإنفاق في السَّراء والضّراء .

والإنفاق تقدّم غير مرّة وهو الصدقة وإعطاء المال والسلاح والعُدة في سبيل الله .

والسرّاء فَعْلاء ، اسم لمصدر سرّه سَرّاً وسُروراً .

والضّراء كذلك من ضرّه ، أي في حالي الاتّصاف بالفرح والحزن ، وكأنّ الجمعَ بينهما هنا لأنّ السرّاء فيها ملهاة عن الفكرة في شأن غيرهم ، والضرّاء فيها ملهاة وقلّة مَوجدة .

فملازمة الإنفاق في هذين الحالين تَدلّ على أنّ محبَّة نفع الغير بالمال ، الَّذي هو عزيز على النَّفس ، قد صارت لهم خلقاً لا يحجبهم عنه حاجب ولا ينشأ ذلك إلاّ عن نفس طاهرة .

الصفة الثّانية : الكاظمين الغيظ .

(41/130)

وكظم الغيظ إمساكه وإخفاؤه حتّى لا يظهر عليه ، وهو مأخوذ من كظم القربة إذا ملأها وأمسك فمها ، قال المبرّد : فهو تمثيل للإمساك مع الامتلاء ، ولا شكّ أن أقوى القوى تأثيراً على النَّفس القوّة الغاضبة فتشتهي إظهار آثار الغضب ، فإذا استطاع إمساكَ مظاهرها ، مع الامتلاء منها ، دلّ ذلك على عزيمة راسخة في النّفس ، وقهرِ الإرادةِ للشهوة ، وهذا من أكبر قوى الأخلاق الفاضلة .

الصفّة الثالثة : العفو عن النّاس فيما أساؤوا به إليهم .

وهي تكملة لصفة كظم الغيظ بمنزلة الاحتراس لأنّ كظم الغيظ قد تعترضه ندامة فيستعدي على من غاظه بالحقّ ، فلمّا وصفوا بالعفو عمّن أساء إليهم دلّ ذلك على أنّ كظم الغيظ وصف متأصّل فيهم ، مستمرّ معهم .

وإذا اجتمعت هذه الصفّات في نفسٍ سهل ما دونها لديها .

وبجماعها يجتمع كمال الإحسان ولذلك ذيل الله تعالى ذكرها بقوله : ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ لأنه دال على تقدير أنهم بهذه الصفات محسنون والله يحبّ المحسنين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 220 . 222 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

معناه سارعوا إلى علم يوجب لكم المغفرة ، فتقسمت القلوب وتوهمت أن ذلك أمرٌ شديد فقال صلى الله عليه وسلم : " الندم توبة " وإنما توجب المغفرةَ التوبةُ لأن العاصي هو الذي يحتاج إلى الغفران .

والناس في المسارعة على أقسام : فالعابدون يسارعون بقَدَمِهم في الطاعات ، والعارفون يسارعون بهممهم في القربات ، والعاصون يسارعون بندمهم بتجرُّع الحسرات . فَمَنْ سارع بقَدَمِه وجد مثوبته ، ومن سارع بهممه وجد قربته ، ومن سارع بندمه وجد رحمته .

ولمَّا ذكر الجنة وصفها بسعة العرض، وفيه تنبيه على طولها لأن الطول في مقابلة العَرْض، وحين ذكر المغفرة لم يذكر الطول والعرض، فقومٌ قالوا: المغفرة من صفات الذات وهي بمعنى الرحمة فعلى هذا فمغفرته حُكْمُه بالتجاوز عن العبد وهو كلامه، وصفة الذات تتقدس عن الطول والعرض.

ومن قال: مغفرته من صفات فِعْلِه قال لكثرة الذنوب لم يصف الغفران بالنهاية، إشارةً إلى استغراقه جميع الذنوب.

قوله جلّ ذكره: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى السَّرَّآءِ وَالضَّرَّآءِ ﴾.

لا يدَّخِرُونَ عن الله شيئاً، ويؤثرونه على جميع الأشياء، ينفقون أبدانهم على الطاعات وفنون الأوراد والاجتهاد، وأموالهم في إفشاء الخيرات وابتغاء القربات بوجوه الصدقات، وقلوبهم في الطلب ثم دوام المراعاة، وأرواحهم على صفاء المحبَّات والوفاء على عموم الحالات، وينفقون أسرارهم على المشاهدات في جميع الأوقات؛ ينتظرون إشارات المطالبات، متشمرين للبدار إلى دقيق المطالعات.

قوله: ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾: يتجاوزون عن الخَلْق لملاحظاتهم إياهم بعين النسبة،

وأقوام يَحْلُمون على الخلق علماً بأن ذلك بسبب جُرْمِهم فيشهدونهم بعين التسلط ، وآخرون يكظمون الغيظ تحققاً بأن الحق سبحانه يعلم ما يقاسون فيهون عليهم التحمل ، وآخرون فنوا عن أحكام البشرية فوجدوا صافِيَ الدرجات في الذُّلِّ لأن نفوسهم ساقطة فانية ، وآخرون لم يشهدوا ذرة من الأغيار في الإنشاء والإجراء ؛ فعلموا أنَّ المنشئ الله ؛ فزالت خصوماتهم ومنازعاتهم مع غير الله لأنهم لمَّا أفردوه بالإبداع انقادوا لحكمه ؛ فلم يروا معه وجهاً غير التسليم لحكمه ، فأكرمهم الحق سبحانه بِبَرْدِ الرضاء ، فقاموا له بشرط الموافقة .

قوله : ﴿ والعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ فرضاً رأوه على أنفسهم لا فضلاً منهم على الناس ، قال قائلهم :

رُبَّ رام لي بأحجار الأذى . . . لم أجِدْ بُدّاً من العطف عليه

﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه . . هذا في معاملة الحق ، وأما في معاملة الخلق فالإحسان أن تَدَعَ جميع حقِّك بالكلية كم كان على من كان ، وتقبل (. . .) منه ولا تقلده في ذلك مِنَّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 278.277 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّآءِ وَالضَّرَّآءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

هذه بعض من صفات المتقين ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ لأن المعركة – معركة أُحد – ستعطينا هذه الصورة أيضاً . فحمزة وهو سيد الشهداء وعم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقتل . وليته يُقتل فقط ولكنه مُثِّل به ، وأُخِذ بضع منه وهو كبد فلاكته " هند " ، وهذا أمر أكثر من القتل . وهذه معناها ضغن دنيء .

وحينما جاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم خبر مقتل حمزة وقالوا له : إن " هنداً " أخذت كبده ومضغتها ثم لفظتها ، إذ جعلها الله عَصِيَّة عليها ، قال : " ما كان الله ليعذب بعضاً من حمزة في النار "كأنها ستذهب إلى النار ، ولو أكلتها لتمثلت في جسمها خلايا ، وعندما تدخل النار فكأن بعضاً من حمزة دخل النار ، فلا بد أن ربها يجعل نفسها تجيش وتتهيأ للقيء وتلفظ تلك البضعة التي لاكتها من كبد سيد الشهداء .

وقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم هذه الحادثة بأنها أفظع ما لقي . إنها مقتل حمزة فقال : " لئن أظفرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم " .

وهنا جاء كظم الغيظ ليأخذ ذروة الحدث وقمته عند رسول الله في واحد من أحب البشر إليه وفي أكبر حادث أغضبه، وينزل قول الحق:

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾

[النحل: 126]

كي نعرف أن ربنا -جل جلاله- لا ينفعل لأحد؛ لأن الانفعال من الأغيار، وهذا رسوله فأنزل -سبحانه- عليه: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ ويأتي هنا الأمر بكظم الغيظ، وهو سبحانه يأتي بهذا الأمر في مسألة تخص الرسول وفي حدث "أُحد".

وبعد ذلك يُشيعها قضية عامة لتكون في السلم كما كانت في الحرب. وتكون مع الناس دون رسول الله؛ لأنها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ ونعرف أن كل الأمور المعنوية مأخوذة من الحسّيات. وأصل الكظم أن تملأ القِربة، والقِرَب -كما نعرف- كان يحملها "السقا" في الماضي، وكانت وعاء نقل الماء عند العرب، وهي من جلد مدبوغ، فإذا مُلئت القربة بالماء شُدّ على رأسها أي رُبِط رأسها ربطاً محكماً بحيث لا يخرج شيء ممّا فيها، ويقال عن هذا الفعل:

"كظم القربة" أي ملأها وربطها ، والقربة لينة وعندما توضع على ظهر واحد أو على ظهر الدابة فمن ليونتها تخرج الماء فتكظم وتربط بإحكام كي لا يخرج منها شيء .

كذلك الغيظ يفعل في النفس البشرية ، إنه يهيجها ، والله لا يمنع الهياج في النفس لأنه انفعال طبيعي ، والانفعالات الطبيعية لو لم يردها الله لمنع أسبابها في التكوين الإنساني .

إنما هو يريدها لأشياء مثلا : الغريزة الجنسية ، هو يريدها لبقاء النوع ، ويضع من التشريع ما يهذبها فقط ، وكذلك انفعال الغيظ ، إن الإسلام لا يريد من المؤمن أن يُصَبَّ في قالب من حديد لا عواطف له ، لا ، هو سبحانه يريد للمؤمن أن ينفعل للأحداث أيضاً ، لكن الانفعال المناسب للحدث ، الانفعال السامي الانفعال المثمر ، ولا يأتي بالانفعال المدمر .

لذلك يقول الحق :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً ﴾

(45/130)

[الفتح : 29]

فالمؤمن ليس مطبوعاً على الشدة ، ولا على الرحمة ، ولكن الموقف هو الذي يصنع

عواطف الإنسان ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

[المائدة : 54]

وهل هناك من هو ذليلٌ عزيزٌ معاً ؟ نقول : المنهج الإيماني يجعل المؤمن هكذا ، ذلة على أخيه المؤمن وعزة على الكافر . إذن فالإسلام لا يصب المؤمنين في قالب كي لا ينفعلوا في الأحداث .

ومثال آخر : ألم ينفعل الرسول صلى الله عليه وسلم حين مات ابنه إبراهيم ؟ لقد انفعل وبكى وحزن . إن الله لا يريد المؤمن من حجر . بل هو يريد المؤمن أن ينفعل للأحداث ولكن يجعل الانفعال على قدر الحدث ، ولذلك قال سيدنا رسول الله عند فراق ابنه : " إن العين تدمع وإن القلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون " .

ولا نقول لحظة الانفعال ما يسخط الرب . بل انفعال موجّه ، والغيظ يحتاج إليه المؤمن حينما يهيج دفاعاً عن منهج الله ، ولكن على المؤمن أن يكظمه . . أي لا يجعل الانفعال غالبا على حسن السلوك والتدبير . والكظم – كما قلنا – مأخوذ من أمر محس . مثال ذلك : نحن نعرف أن الإبل أو العجماوات التي لها معدتان ، واحدة يُختزن فيها الطعام ، وأخرى يتغذى منها مباشرة كالجمل مثلاً ، إنه يجتر .

ومعنى : يجتر الجمل أي يسترجع الطعام من المعدة الإضافية ويمضغه ، هذا هو الاجترار .

فإذا امتنع الجمل عن الاجترار يقال : إن الجمل قد كظم . والحق سبحانه يقول : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ .

(46/130)

وقلنا : إن هناك فرقاً بين الانفعال في ذاته ، فقد يبقى في النفس وتكظمه ، ومعنى كظم الانفعال : أن الإنسان يستطيع أن يخرجه إلى حيز النزوع الانفعالي ، ولكنّه يكبح جماح هذا الانفعال . أما العفو فهو أن تخرج الغيظ من قلبك ، وكأن الأمر لم يحدث ، وهذه هي مرتبة ثانية . أما المرتبة الثالثة فهي : أن تنفعل انفعالاً مقابلاً ؛ أي أنك لا تقف عند هذا الحد فحسب ، بل إنك تستبدل بالإساءة الإحسان إلى من أساء إليك . إذن فهناك ثلاث مراحل : الأولى : كظم الغيظ . والثانية : العفو . والثالثة : أن يتجاوز الإنسان الكظم والعفو بأن يحسن إلى المسيء إليه .

وهذا هو الارتقاء في مراتب اليقين ؛ لأنك إن لم تكظم غيظك وتنفعل ، فالمقابل لك أيضاً لن يستطيع أن يضبط انفعاله بحيث يساوي انفعالك ، ويمتلئ تجاهك بالحدة والغضب ، وقد يظل الغيظ نامياً وربما ورّث أجيالا من أبناء وأحفاد .

لكن إذا ما كظمت الغيظ ، فقد يخجل الذي أمامك من نفسه وتنتهي المسألة .

﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ مأخوذة من " عفّى على الأثر " والأثر ما يتركه سير الناس في الصحراء مثلا ، ثم تأتي الريح لتمحو هذا الأثر . ويقول الحق في تذييل الآية : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وقلنا في فلسفة ذلك : إننا جميعاً صنعة الله ، والخلق كلهم عيال الله . وما دمنا كلنا عيال الله فعندما يُسيء واحد لآخر فالله يقف في صف الذي أسيء إليه ، ويعطيه من رحمته ومن عفوه ومن حنانه أشياء كثيرة . وهكذا يكون المُساء إليه قد كسب . أليس من واجب المُسَاء إليه أن يُحسِن للمسيء ؟ .

لكن العقل البشري يفقد ذكاءه في مواقف الغضب ؛ فالذي يسيء إلى إنسان يحسبه عدواً . لكن على الواحد منا أن يفهم أن الذي يسيء إليك إنما يجعل الله في جانبك ؛ فالذي نالك من إيذائه هو أكثر مما سلبك هذا الإيذاء . هنا يجب أن تكون حسن الإيمان وتعطي المسيء إليك حسنة .

ويضيف الحق من بعد ذلك في صفات أهل الجنة : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا . هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1757.1753 ﴾

(48/130)

" فصل "

قال السيوطى :

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عطاء بن أبي رباح قال " قال المسلمون يا رسول الله بنو إسرائيل كانوا أكرم على الله منا . كانوا إذا أذنب أحدهم ذنباً أصبح وكفارة ذنبه مكتوبة في عتبة بابه . أجدع أنفك ، اجدع أذنك ، افعل كذا وكذا . فسكت . فنزلت هذه الآيات ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ إلى قوله ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألا أخبركم بخير من ذلكم ثم تلا هؤلاء الآيات عليهم " .

وأخرج ابن المنذر عن أنس بن مالك في قوله ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ قال

التكبيرة الأولى.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ وسارعوا ﴾ يقول: سارعوا بالأعمال الصالحة ﴿ إلى مغفرة من ربكم ﴾ قال: لذنوبكم ﴿ وجنة عرضها السماوات والأرض ﴾ يعني عرض سبع سموات وسبع أرضين، لو لصق بعضهم إلى بعض فالجنة في عرضهن.

وأخرج ابن جرير من طريق السدي عن ابن عباس في الآية قال: تقرن السموات السبع، والأرضون السبع كما تقرن الثياب بعضها إلى بعض. فذاك عرض الجنة.

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن كريب قال: أرسلني ابن عباس إلى رجل من أهل الكتاب أسأله عن هذه الآية ﴿ جنة عرضها السماوات والأرض ﴾ فأخرج أسفار موسى، فجعل ينظر قال: سبع سموات وسبع أرضين تلفق كما تلفق الثياب بعضها إلى بعض، هذا عرضها؛ وأما طولها فلا يقدر قدره إلا الله.

وأخرج ابن جرير عن التنوخي رسول هرقل قال " قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب هرقل وفيه: إنك كتبت تدعوني إلى ﴿ جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ﴾ فأين النار؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله. . . ! فأين الليل إذا جاء النهار؟ ".

وأخرج البزار والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال " جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت قوله ﴿ وجنة عرضها السماوات والأرض ﴾ فأين النار ؟ قال : أرأيت الليل إذا لبس كل شيء فأين النهار ؟ قال : حيث شاء الله قال : فكذلك حيث شاء الله " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن طارق بن شهاب ، أن ناساً من اليهود سألوا عمر بن الخطاب عن جنة عرضها السموات والأرض فأين النار ؟ فقال عمر : إذا جاء الليل فأين النهار ؟ وإذا جاء النهار أين الليل ؟ فقالوا : لقد نزعت مثلها من التوراة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن يزيد بن الأصم ، أن رجلاً من أهل الأديان قال لابن عباس : تقولون ﴿ جنة عرضها السماوات والأرض ﴾ فأين النار ؟ فقال له ابن عباس : إذا جاء الليل فأين النهار ؟ وإذا جاء النهار فأين الليل ؟ .

وأخرج مسلم وابن المنذر والحاكم وصححه عن أنس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر " قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض فقال عمير بن الحمام الأنصاري : يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض ؟ قال : نعم . قال : بخٍ بخٍ . . . لا والله يا رسول الله لا بد أن أكون من أهلها قال : فإنك من أهلها . فأخرج تميرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال : لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة . فرمى بما كان

معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قتل " . أ هـ

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء ﴾ يقول : في العسر واليسر ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ يقول : كاظمون على الغيظ كقوله ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ [الشورى : 37] يغضبون في الأمر لو وقعوا فيه كان حراماً فيغفرون ويعفون ، يلتمسون وجه الله بذلك ﴿ والعافين عن الناس ﴾ كقوله ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة . . . ﴾ [النور : 22] الآية . يقول : تقسموا على أن لا تعطوهم من النفقة واعفوا واصفحوا .

وأخرج ابن الأنباري في كتاب الوقف والابتداء عن ابن عباس ، أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قول الله والكاظمين الغيظ ما الكاظمون ؟ قال : الحابسون الغيظ قال عبد المطلب بن هاشم :

فخشيت قومي واحتبست قتالهم . . . والقوم من خوف قتالهم كظم

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله ﴿ والعافين عن الناس ﴾ قال عن المملوكين .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان في قوله ﴿ والعافين عن الناس ﴾ قال : يغيظون في الأمر فيغفرون ويعفون عن الناس ، ومن فعل ذلك فهو محسن ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عند ذلك " هؤلاء في أمتي قليل إلا من عصمه الله ، وقد كانوا كثيراً في الأمم التي مضت " .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن أبي هريرة في قوله ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " من كظم غيظاً وهو يقدر على انفاذه ملأه الله أمنا وإيماناً " .

وأخرج أحمد والبيهقي في الشعب بسند حسن عن ابن عباس قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد . ما كظم عبد الله إلا ملأ الله جوفة إيماناً " .

وأخرج البيهقي عن ابن عمر . مثله .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وأبو داود والترمذي وحسنه والبيهقي في الشعب عن معاذ بن أنس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي الحوَر شاء " .

وأخرج عبد بن حميد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ليس الشديد بالصرعة ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب " .

وأخرج البيهقي عن عامر بن سعد " أن النبي صلى الله عليه وسلم مرَّ بناس يتحادون مهراساً فقال : أتحسبون الشدة في حمل الحجارة ؟ إنما الشدة أن يمتلئ الرجل غيظاً ثم يغلبه " .

وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : يقال يوم القيامة ليقم من كان له على الله أجر ، فما يقوم إلا إنسان عفا .

وأخرج الحاكم عن أبي بن كعب : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من سره أن يشرف له البنيان ، وترفع له الدرجات فليعف عمن ظلمه ، ويعطِ من حرمه ، ويصل من قطعه " .

وأخرج البيهقي عن علي بن الحسين ، أن جارية جعلت تسكب عليه الماء يتهيأ للصلاة ، فسقط الإبريق من يدها على وجهه فشجه ، فرفع رأسه إليها فقالت : إن الله يقول ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ قال : قد كظمت غيظي قالت ﴿ والعافين عن الناس ﴾ قال : قد

عفا الله عنك قالت ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ قال : اذهبي فأنت حرة .

وأخرج الأصبهاني في الترغيب عن عائشة " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : وجبت محبة الله على من أغضب فحلم " .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن عمرو بن عبسة " أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم ما الإيمان ؟ فقال : الصبر ، والسماحة ، وخلق حسن " .

وأخرج البيهقي عن كعب بن مالك " أن رجلاً من بني سلمة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام فقال : حسن الخلق . ثم راجعه الرجل فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : حسن الخلق . حتى بلغ خمس مرات " .

(52/130)

وأخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي وضعفه عن جابر قال " قالوا : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الشؤم ؟ قال : سوء الخلق " .

وأخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب وضعفه عن عائشة مرفوعاً قال " الشؤم سوء الخلق " .

وأخرج الخرائطي في مكارم الأخلاق عن أنس بن مالك قال " قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : إن حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد " .

وأخرج البيهقي عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم " الخلق السوء يفسد الإيمان كما يفسد الصبر الطعام " قال أنس : وكان يقال : إن المؤمن أحسن شيء خلقاً .

وأخرج ابن عدي والطبراني والبيهقي وضعفه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " حسن الخلق يذيب الخطايا كما تذيب الشمس الجليد ، وان الخلق السيء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل " .

وأخرج البيهقي وضعفه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن حسن الخلق يذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد ، وإن سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الصبر العسل " .

وأخرج البيهقي وضعفه عن طريق سعيد بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " حسن الخلق زمام من رحمة الله في أنف صاحبه ، والزمام بيد الملك ، والملك يجره إلى الخير ، والخير يجره إلى الجنة . وسوء الخلق زمام من عذاب الله في أنف صاحبه ، والزمام بيد الشيطان ، والشيطان يجره إلى الشر ، والشر يجره إلى النار " .

وأخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي عن أبي هريرة : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الدعاء يقول : والله ما حسن الله خلق رجل ولا خلقه فتطعمه النار " .

وأخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي عن أبي هريرة : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من سعادة ابن آدم حسن الخلق ، ومن شقوته سوء الخلق " .

(53/130)

وأخرج الخرائطي والبيهقي عن ابن عمرو قال "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الدعاء يقول : اللهم إني أسألك الصحة ، والعفة ، والأمانة ، وحسن الخلق ، والرضا بالقدر " .

وأخرج أحمد والبيهقي بسند جيد عن عائشة قالت "كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم : اللَّهم كما حسنت خلقي فاحسن خلقي " .

وأخرج الخرائطي والبيهقي عن أبي مسعود البدري قال "كان من النبي صلى الله عليه وسلم يقول : اللَّهم حسنت خلقي فاحسن خلقي " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبزار وأبو يعلى والحاكم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنكم لا تسعون الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق " .

وأخرج ابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي هريرة : " ان رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال : كرم المرء دينه ، ومروءته عقله ، وحسبه خلقه " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والترمذي والحاكم وصححاه والبيهقي عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً " .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريره عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " من كان هيناً قريباً حرمه الله على النار " .

وأخرج البخاري والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال " مرني ولا تكثر فلعلي أعقله فقال : لا تغضب . فأعاد عليه فقال : لا تغضب " .

وأخرج الحاكم والبيهقي عن جارية بن قدامة قال " قلت : يا رسول الله قل لي قولاً ينفعني واقلل لعلي أعقله قال : لا تغضب " .

وأخرج البيهقي عن عبد الله بن عمرو قال " سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبعدني من غضب الله ؟ قال : لا تغضب " .

وأخرج الطيالسي وأحمد والترمذي وحسنه والحاكم والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال "خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة إلى مغيربان الشمس ، حفظها ونسيها من نسيها ، وأخبر ما هو كائن إلى يوم القيامة ، حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإن الدنيا خضرة حلوة ، وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون . ألا فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء . ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى ، فمنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً ، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت كافراً ، ومنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافراً ، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت مؤمناً . ألا إن الغضب جمرة توقد في جوف ابن آدم . ألم تروا إلى حمرة عينيه ، وانتفاخ أوداجه ؟ فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فليلزق بالأرض . ألا إن خير الرجال من كان بطيء الغضب ، سريع الفيء . وشر الرجال من كان بطيء الفيء ، سريع الغضب . فإذا كان الرجل سريع الغضب سريع الفيء فانها بها ، وإذا كان بطيء الغضب بطيء الفيء فإنها بها . ألا وإن خير التجار من كان حسن القضاء حسن الطلب ، وشر التجار من كان سيء القضاء سيء الطلب . فإذا كان الرجل حسن القضاء سيء الطلب فإنها بها ، وإذا كان الرجل سيء القضاء حسن الطلب فإنها بها . ألا لا يمنعن رجلاً مهابة الناس أن يقول بالحق إذا علمه . ألا إن لكل غادر لواء بقدر غدرته يوم القيامة . ألا وإن أكبر الغدر أمير العامة . ألا وإن أفضل الجهاد من قال كلمة الحق عند سلطان جائر . فلما كان عند مغرب الشمس قال : ألا إن ما بقي من الدنيا

فيما مضى منه كمثل ما بقي من يومكم هذا فيما مضى " .

وأخرج الحكيم في نوادر الأصول والبيهقي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال " قلت : يا رسول الله أخبرني بوصية قصيرة فألزمها قال : لا تغضب يا معاوية بن حيدة ، ان الغضب ليفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل " .

(55/130)

وأخرج الحكيم عن ابن مسعود قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الغضب ميسم من نار جهنم يضعه الله على نياط أحدهم . ألا ترى أنه إذا غضب احمرت عيناه ، واربَدَّ وجهه ، وانتفخت أوداجه ؟ " .

وأخرج البيهقي عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم . ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه ، وحمرة عينيه ؟ فمن حس من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليقعد ، وان كان قاعداً فليضطجع " .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة والبيهقي عن الحسن قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ كظمها رجل ، أو جرعة صبر عند مصيبة . وما قطرة أحب إلى الله من قطرة دمع من خشية الله أو قطرة دم في سبيل الله

" .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر : ثلاث كلهن حق : ما من أحد يظلم مظلمة فيغض عنها إلا زاده الله بها عزا ، وما من أحد يفتح باب مسألة ليزداد بها كثرة إلا زاده الله بها قلة ، وما من أحد يفتح باب عطية أو صلة إلا زاده الله بها كثرة " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي عن ابن عمرو قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشاً ، ولا متفحشاً ، وكان يقول " إن من خياركم أحاسنكم أخلاقاً " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والترمذي وصححه والبزار وابن حبان والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي الدرداء " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من أعطيَ حظه من الرفق أعطي حظه من الخير ، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من الخير ، وقال : ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن الله يبغض الفاحش البذيء ، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة " .

وأخرج الترمذي وصححه وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في الزهد عن أبي هريرة قال " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال : تقوى الله وحسن الخلق . وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال : الأجوفان . الفم والفرج " .

وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وحسنه والحاكم وصححه عن عائشة قالت " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله " .

وأخرج أحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم وصححه عن عائشة " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجات القائم الليل الصائم النهار " .

وأخرج الطبراني في الأوسط والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله ليبلغ العبد بحسن الخلق درجة الصوم والصلاة " .

وأخرج الطبراني والخرائطي عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرفات المنازل وأنه لضعيف العبادة وأنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة في جهنم " .

وأخرج أحمد والطبراني والخرائطي عن ابن عمرو " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أن المسلم المسدد ليدرك درجة الصوّام القوّام بآيات الله بحسن خلقه وكرم ضريبته " .

وأخرج ابن أبي الدنيا في الصمت عن صفوان بن سليم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن . الصمت وحسن الخلق " .

(57/130)

وأخرج محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة عن العلاء بن الشخير " أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم من قبل وجهه فقال : يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ قال : حسن الخلق . ثم أتاه عن يمينه فقال : أي العمل أفضل ؟ قال : حسن الخلق ثم أتاه عن شماله فقال : أي العمل أفضل ؟ قال : حسن الخلق ، ثم أتاه من بعده يعني من خلفه فقال : يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما لك لا تفقه . . . ! حسن الخلق أفضل . لا تغضب إن استطعت " .

وأخرج أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجة عن أبي أُمامة قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً ، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً ، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه " .

وأخرج الترمذي وحسنه والخرائطي في مكارم الأخلاق عن جابر " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً

" .

وأخرج الطبران عن عمار بن ياسر قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حسن الخلق خلق الله الأعظم " .

وأخرج الطبراني عن أبي هريرة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام : يا خليلي حسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مع الأبرار ، فإن كلمتي سبقت لمن حسن خلقه أن أظله تحت عرشي ، وأن أسقيه من حظيرة قدسي ، وأن أدنيه من جواري " .

وأخرج أحمد وابن حبان عن ابن عمرو أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة ؟ قالوا : نعم . يا رسول الله قال : أحسنكم خلقاً " .

وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو يعلى والطبراني بسند جيد عن أنس قال " لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا ذر فقال : يا أبا ذر ألا أدلُّك على خصلتين هما أخف على الظهر ، وأثقل في الميزان من غيرهما ؟ قال : بلى يا رسول الله قال : عليك بحسن الخلق ، وطول

الصمت ، فوالذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلهما " .

وأخرج أبو الشيخ بن حيان في الثواب بسند رواه عن أبي ذر قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا ذر ألا أدلك على أفضل العبادة ، وأخفها على البدن ، وأثقلها في الميزان ، وأهونها على اللسان ؟ قلت : بلى ، فذاك أبي وأمي قال : عليك بطول الصمت ، وحسن الخلق ، فإنك لست بعامل بمثلهما " .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي الدرداء قال " قال النبي صلى الله عليه وسلم : يا أبا الدرداء ألا أنبئك بأمرين خفيفةٍ مؤنتهما عظيم أجرُهما ، لم تلق الله عز وجل بمثلهما ؟ طول الصمت ، وحسن الخلق " .

وأخرج البزار وابن حبان عن أبي هريرة قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أخبركم بخياركم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله قال : اطولكم اعماراً ، وأحسنكم اخلاقاً " .

وأخرج الطبراني وابن حبان عن اسامة بن شريك قال " قالوا : رسول الله ما خير ما أُعطي الإنسان ؟ قال : خلق حسن " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والطبراني بسند جيد عن جابر بن سمرة قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء ، وإن أحسن الناس إسلاماً أحسنهم خلقاً " .

وأخرج ابن حبان والحاكم وصححه والخرائطي في مكارم الأخلاق عن ابن عمرو أن معاذ

بن جبل أراد سفراً فقال " يا نبي الله أوصني قال : اعبد الله ولا تشرك به شيئاً قال : يا نبي الله زدني قال : إذا أسأت فأحسن . قال : يا نبي الله زدني قال : استقم ولتحسن خلقك " .

وأخرج أحمد والترمذي والحاكم وصححاه والخرائطي عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اتقِ الله حيثما كنت ، وأتبعِ السيئة الحسنة تمحُها ، وخالقِ الناس بخلق حسن " .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن هذه الأخلاق من الله ، فمن أراد به خيراً منحه خلقاً حسناً ، ومن أراد به سوءاً منحه خلقاً سيئاً " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن حبان والطبراني عن أبي ثعلبة الخشني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أحبكم إليَّ وأقربكم مني في الآخرة أحاسنكم أخلاقاً ، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني في الآخرة أسوأكم أخلاقاً الثرثارون ، المتشدقون ، المتفيقهون " .

وأخرج البزار والطبراني والخرائطي عن أنس قال " قالت أم حبيبة " : يا رسول الله المرأة يكون لها زوجان ثم تموت فتدخل الجنة هي وزوجاها لأيهما تكون . للأوّل أو للآخر ؟ قال : تخير فتختار أحسنهما خلقاً كان معها في الدنيا يكون زوجها في الجنة ، يا أم حبيبة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة " .

وأخرج الطبراني في الصغير عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ما من شيء إلا له توبة إلا صاحب سوء الخلق ، فإنه لا يتوب من ذنب إلا عاد في شر منه " .

وأخرج أبو داود والنسائي عن أبي هريرة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو : اللهمَّ إني أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق " .

وأخرج الخرائطي عن جرير بن عبد الله قال " قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فحسن خلقك " .

وأخرج الخرائطي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خياركم أحاسنكم أخلاقاً " .

وأخرج الخرائطي عن عائشة قالت :

" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو كان حسن الخلق رجلاً يمشي في الناس لكان رجلاً صالحاً " .

وأخرج الخرائطي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم : " ثلاث من لم تكن فيه أو واحدة منهن فلا يعتدن بشيء من عمله . تقوى تحجزه عن معاصي الله عز وجل ، أو حلم يكف به السفيه ، أو خلق يعيش به في الناس " .

وأخرج الخرائطي عن عائشة قالت " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اليمن حسن الخلق " .

وأخرج الخرائطي عن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن جده قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من سعادة ابن آدم حسن الخلق " .

وأخرج القضاعي في مسند الشهاب عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أحسن الحسن الخلق الحسن " .

وأخرج الخرائطي عن الفضيل بن عياض قال : " إذا خالطت الناس فخالط الحسن الخلق فإنه لا يدعو إلا إلى خير " .

وأخرج أحمد عن عائشة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها : إنه من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة ، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الدنيا والآخرة ، وصلة الرحم . وحسن الخلق ، وحسن الجوار ، يعمران الديار ويزيدان في الاعمار " .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن عائشة قالت " قال النبي صلى الله عليه وسلم : الرفق يمن ، والخرق شؤم ، وإذا أراد الله بأهل بيت خيراً أدخل عليهم باب الرفق . إن الرفق لم يكن في شيء قط إلا زانه ، وإن الخرق لم يكن في شيء قط إلا شانه ، وإن الحياء من الإيمان ، وإن الإيمان في الجنة . ولو كان الحياء رجلاً كان رجلاً صالحاً ، وإن الفحش من الفجور ، وإن الفجور في النار ، ولو كان الفحش رجلاً يمشي في النار لكان رجلاً سوءاً " .

وأخرج أحمد في الزهد عن أم الدرداء قالت : بات أبو الدرداء ليلة يصلي ، فجعل يبكي ويقول : اللهمَّ أحسنت خلقي فاحسن خلقي . حتى إذا أصبح فقلت : يا أبا الدرداء أما كان دعاؤك منذ الليلة إلا في حسن الخلق ؟ فقال : يا أم الدرداء إن العبد المسلم يحسن خلقه حتى يدخله حسن خلقه الجنة ، ويسوء خلقه حتى يدخله سوء خلقه النار .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكمل الناس إيماناً أحسنهم خلقاً ، وأفضل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، وخياركم خياركم لنسائهم " .

وأخرج تمام في فوائده وابن عساكر عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال

" خيار أمتي خمسمائة والابدال أربعون ، فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأربعون ينقصون ، وكلما مات بدل ادخل الله عز وجل من الخمسمائة مكانه وادخل في الأربعين مكانهم ، فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأربعون ينقصون فقالوا : يا رسول الله دلنا على أعمال هؤلاء فقال : هؤلاء يعفون عمن ظلمهم ، ويحسنون إلى من أساء إليهم ، ويواسون مما آتاهم الله . قال : وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ " .

وأخرج ابن لال والديلمي عن أنس قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأيت ليلة أسري بي قصوراً مستوية على الجنة فقلت : يا جبريل لمن هذا ؟ فقال ﴿ للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ " انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 325.314 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أخبر أنها للمحسنين إلى الغير ومن قاربهم أخبر أناه لمن دونهم في الرتبة من التائبين المحسنين إلى أنفسهم استجلاباً لمن رجع عن أحد من المنافقين ولغيرهم من العاصين فقال :

﴿ والذين إذا فعلوا ﴾ أي باشروا عن علم أوجهل فعله ﴿ فاحشة ﴾ أي من السيئات الكبار ﴿ أو ظلموا أنفسهم ﴾ أي بأي نوع كان من الذنوب ، لتصير الفاحشة موعوداً بغفرانها بالخصوص وبالعموم ﴿ ذكروا الله ﴾ أي بما له من كمال العظمة فاستحيوه وخافوه ﴿ فاستغفروا ﴾ الله ، أي فطلبوا المغفرة بالتوبة بشرطها ﴿ لذنوبهم ﴾ أي فإنه يغفر لهم لأنه غفار لمن تاب .

ولما كان هذا مفهماً لأنه تعالى يغفر كل ذنب أتبعه تحقيق ذلك ونفي القدرة عليه عن غيره ، لأن المخلوق لا يمضي غفرانه لذنب إلا إذا كان مما شرع الله غفرانه ، فكان لا غافر في الحقيقة إلا الله قال مرغباً في الإقبال عليه بالاعتراض بين المتعاطفين : ﴿ ومن يغفر الذنوب ﴾ أي يمحو آثارها حتى لا تذكر ولا يجازى عليها ﴿ إلا الله ﴾ أي الملك الأعلى .

(63/130)

ولما كان سبحانه وتعالى قد تفضل برفع القلم عن الغافل قال : ﴿ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ أي إنهم على ذنب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 158 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أن وجه النظم من وجهين :

الأول : أنه تعالى لما وصف الجنة بأنها معدة للمتقين بين أن المتقين قسمان :

أحدهما : الذين أقبلوا على الطاعات والعبادات ، وهم الذين وصفهم الله بالانفاق في السراء والضراء ، وكظم الغيظ ، والعفو عن الناس .

وثانيهما : الذين أذنبوا ثم تابوا وهو المراد بقوله : ﴿ والذين إِذَا فَعَلُواْ فاحشة ﴾ وبين تعالى أن هذه الفرقة كالفرقة الأولى في كونها متقية ، وذلك لأن المذنب إذا تاب عن الذنب صار حاله كحال من لم يذنب قط في استحقاق المنزلة والكرامة عند الله .

والوجه الثاني : أنه تعالى ندب في الآية الأولى إلى الإحسان إلى الغير ، وندب في هذه الآية إلى الإحسان إلى النفس ، فان المذنب العاصي إذا تاب كانت تلك التوبة إحساناً منه إلى نفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 8 ﴾

فصل فى سبب نزول الآية

قال الفخر :

روى ابن عباس : أن هذه الآية نزلت في رجلين ، أنصاري وثقفي ، والرسول صلى الله عليه

وسلم كان قد آخى بينهما ، وكانا لا يفترقان في أحوالهما ، فخرج الثقفي مع الرسول صلى الله عليه وسلم بالقرعة في السفر ، وخلف الأنصاري على أهله ليتعاهدهم ، فكان يفعل ذلك .

ثم قام إلى امرأته ليقبلها فوضعت كفها على وجهها ، فندم الرجل ، فلما وافى الثقفي مع الرسول صلى الله عليه وسلم لم ير الأنصاري ، وكان قد هام في الجبال للتوبة ، فلما عرف الرسول صلى الله عليه وسلم سكت حتى نزلت هذه الآية .

(64/130)

وقال ابن مسعود : قال المؤمنون للنبي صلى الله عليه وسلم : كانت بنو إسرائيل أكرم على الله منا ، فكان أحدهم إذا أذنب ذنباً أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة على عتبة داره : اجدع أنفك ، افعل كذا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية وبين أنهم أكرم على الله منهم حيث جعل كفارة ذنبهم الاستغفار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 9 ﴾

وقال القرطبى :

قال ابن عباس في رواية عطاء : نزلت هذه الآية في نَبْهَان التَّمار وكنيته أبو مُقْبِل أَتَتْه امرأة حَسْنَاء باع منها تمراً ، فضمّها إلى نفسه وقبلها فندم على ذلك ، فأتى النبي صلى الله عليه

وسلم فذكر ذلك له ، فنزلت هذه الآية .

وذكر أبو داود الطيالسي في مسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : حدّثني أبو بكر وصَدَقَ أبو بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما مِن عبد يذنب ذنبا ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر له ثم تلا هذه الآية ﴿ والذين إذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذنُوبِهم ﴾ الآية ، والآية الأخرى ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَو يَظْلِمْ نَفْسَهُ ﴾ " وخرّجه الترمذي وقال : حديث حسن . وهذا عامٌّ .

وقد تنزل الآية بسبب خاص ثم تتناول جميع مَن فعل ذلك أو أكثر منه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 209 ﴾

فصل

قال الفخر :

الفاحشة ههنا نعت محذوف والتقدير : فعلوا فعلة فاحشة ، وذكروا في الفرق بين الفاحشة وبين ظلم النفس وجوها :

الأول : قال صاحب "الكشاف" : الفاحشة ما يكون فعله كاملا في القبح ، وظلم النفس : هو أي ذنب كان مما يؤاخذ الإنسان به .

والثاني : أن الفاحشة هي الكبيرة ، وظلم النفس .

هي الصغيرة ، والصغيرة يجب الاستغفار منها ، بدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مأموراً بالاستغفار وهو قوله : ﴿ واستغفر لذَنبِكَ ﴾ [محمد : 19] وما كان استغفاره دالا على الصغائر بل على ترك الأفضل .

الثالث : الفاحشة : هي الزنا ، وظلم النفس : هي القبلة واللمسة والنظرة ، وهذا على قول من حمل الآية على السبب الذي رويناه ، ولأنه تعالى سمى الزنا فاحشة ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ [الإسراء : 32] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 9 ﴾

وقال أبو حيان :

قال ابن عباس : الفاحشة الزنا ، وظلم النفس ما دونه من النظر واللمسة .

وقال مقاتل : الفاحشة الزنا ، وظلم النفس سائر المعاصي .

وقال النخعي : الفاحشة القبائح ، وظلم النفس من الفاحشة وهو لزيادة البيان .

وقيل : جميع المعاصي وظلم النفس العمل بغير علم ولا حجة .

وقال الباقر : الفاحشة النظر إلى الأفعال ، وظلم النفس رؤية النجاة بالأعمال .

وقيل : الفاحشة الكبيرة ، وظلم النفس الصغيرة .

وقيل : الفاحشة ما تظوهر به من المعاصي ، وقيل : ما أخفى منها .

وقال مقاتل والكلبي : الفاحشة ما دون الزنا من قبله أو لمسة أو نظرة فيما لا يحل ، وظلم النفس بالمعصية ، وقيل : الفاحشة الذنب الذي فيه تبعة للمخلوقين ، وظلم النفس ما بين العبد وبين ربه .

وهذه تخصيصات تحتاج إلى دليل .

وكثر استعمال الفاحشة في الزنا ، ولذلك قال جابر حين سمع الآية : زنوا ورب الكعبة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 3 صـ 64﴾

قوله تعالى : ﴿ذَكَرُواْ اللهَ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ذَكَرُواْ اللهَ﴾ ففيه وجهان :

أحدهما : أن المعنى ذكروا وعيد الله أو عقابه أو جلاله الموجب للخشية والحياء منه ، فيكون من باب حذف المضاف ، والذكر ههنا هو الذي ضد النسيان وهذا معنى قول الضحاك ، ومقاتل ، والواقدي ، فان الضحاك قال : ذكروا العرض الأكبر على الله ، ومقاتل

، والواقدي.

قال: تفكروا أن الله سائلهم، وذلك لأنه قال: بعد هذه الآية ﴿ فاستغفروا لِذُنُوبِهِمْ ﴾

وهذا يدل على أن الاستغفار كالأثر، والنتيجة لذلك: الذكر، ومعلوم أن الذكر الذي يوجب الاستغفار ليس إلا ذكر عقاب الله، ونهيه ووعيده، ونظير هذه الآية قوله: ﴿ إِنَّ الذين اتقوا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰئِفٌ مِّنَ الشيطان تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: 201]

والقول الثاني: أن المراد بهذا الذكر ذكر الله بالثناء والتعظيم والاجلال، وذلك لأن من أراد أن يسأل الله مسألة، فالواجب أن يقدم على تلك المسألة الثناء على الله، فهنا لما كان المراد الاستغفار من الذنوب قدموا عليه الثناء على الله تعالى، ثم اشتغلوا بالاستغفار عن الذنوب. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 9 ﴾

وقال الماوردى:

﴿ ذَكَرُواْ اللهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِم ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنهم ذكروه بقلوبهم فلم ينسوه، ليعينهم ذكره على التوبة والاستغفار.

والثاني: ذكروا الله قولاً بأن قالوا: اللهم اغفر لنا ذنوبنا، فإن الله قد سهل على هذه الأمة ما شدد على بني إسرائيل، إذ كانوا إذا أذنب الواحد منهم أصبح مكتوباً على بابه من

كفارة ذنبه : اجدع أنفك ، اجدع أذنك ونحو ذلك ، فجعل الاستغفار ، وهذا قول ابن مسعود وعطاء بن أبي رباح. انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 1 صـ 424 ﴾

(67/130)

قوله تعالى : ﴿ فاستغفروا لِذُنُوبِهِمْ ﴾

قال الفخر :

المراد منه الإتيان بالتوبة على الوجه الصحيح ، وهو الندم على فعل ما مضى مع العزم على ترك مثله في المستقبل ، فهذا هو حقيقة التوبة ، فأما الاستغفار باللسان ، فذاك لا أثر له في إزالة الذنب ، بل يجب إظهار هذا الاستغفار لإزالة التهمة ، ولإظهار كونه منقطعاً إلى الله تعالى ، وقوله : ﴿لِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي لأجل ذنوبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 10.9 ﴾

وقال القرطبى :

وقد تقدم في صدر هذه السورة سيد الاستغفار ، وأن وقته الأسحار .

فالاستغفار عظيم وثوابه جسيم ، حتى لقد روى الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر له وإن كان قد

فرّ من الزحف " وروى مَكْحُول عن أبي هريرة قال : ما رأيت أكثر استغفار من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال مكحول : ما رأيت أكثر استغفارا من أبي هريرة .

وكان مكحول كثير الاستغفار .

قال علماؤنا : الاستغفار المطلوب هو الذي يَحُلّ عَقْدَ الإصرار ويثبت معناه في الجنان ، لا التلفظ باللسان .

فأما من قال بلسانه : آستغفر الله ، وقلبه مِصرّ على معصيته فاستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار ، وصغيرته لاحقة بالكبائر .

وروي عن الحسن البِصَري أنه قال : استغفارنا يحتاج إلى استغفار .

قلت : هذا يقوله في زمانه ، فكيف في زماننا هذا الذي يُرى فيه الإنسانُ مُكِبّاً على الظلم ! حريصاً عليه لا يُقلِع ، والسُّبْحَة في يده زاعماً أنه يستغفر الله من ذنبه وذلك استهزاء منه واستخفاف .

وفي التنزيل ﴿ وَلاَ تتخذوا آيَاتِ الله هُزُواً ﴾ [البقرة : 231] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 210 . 211 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذنوب إِلاَّ الله ﴾

قال الفخر :

المقصود منه أن لا يطلب العبد المغفرة إلا منه ، وذلك لأنه تعالى هو القادر على عقاب العبد في الدنيا والآخرة ، فكان هو القادر على إزالة ذلك العقاب عنه ، فصح أنه لا يجوز طلب الاستغفار إلا منه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب جـ 9 صـ 10 ﴾

وقال الخازن :

﴿ ومن يغفر الذنوب إلاّ الله ﴾ وصف نفسه بسعة الرحمة وقرب المغفرة وأن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له ، وأنه لا مفزع للمذنبين إلاّ إلى فضله وكرمه وإحسانه وعفوه ورحمته وفيه تنبيه على أن العبد لا يطلب المغفرة إلاّ منه وأنه القادر على عقاب المذنب وكذلك هو القادر على إزالة ذلك العقاب عنه فثبت أنه لا يجوز طلب المغفرة إلاّ منه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن جـ 1 صـ 422 ﴾

وقال النسفى :

﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذنوب إِلاَّ الله ﴾ "من" مبتدأ و"يغفر" خبره ، وفيه ضمير يعود إلى "من" و"إلا الله" بدل من الضمير في "يغفر" والتقدير : ولا أحد يغفر الذنوب إلا الله ، وهذه جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه ، وفيه تطييب لنفوس العباد ، وتنشيط للتوبة ،

وبعث عليها ، وردع عن اليأس والقنوط ، وبيان لسعة رحمته وقرب مغفرته من التائب ، وإشعار بأن الذنوب وإن جلّت فإن عفوه أجل وكرمه أعظم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 1 صـ 183 ﴾

وقال أبو حيان :

قال الزمخشري : وصف ذاته بسعة الرحمة وقرب المغفرة ، وأنَّ التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له ، وأنّه لا مفزع للمذنبين إلا فضله وكرمه ، وأنّ عدله يوجب المغفرة للتائب ، لأنّ العبد إذا جاء في الاعتذار والتنصل بأقصى ما يقدر عليه وجب العفو والتجاوز .

وفيه تطييب لنفوس العباد ، وتنشيط للتوبة وبعث عليها ، وردع عن اليأس والقنوط .

وأنّ الذنوب وإنْ جلت فإنَّ عفوه أجل ، وكرمه أعظم .

والمعنى : أنه وحده معه مصححات المغفرة انتهى .

(69/130)

وهو كلام حسن ، غير أنه لم يخرج عن ألفاظ المعتزلة في قوله : وإنّ عدله يوجب المغفرة للتائب .

وفي قوله : وجب العفو والتجاوز ، ولو لم نعلم أن مذهبه الاعتزال لتأولنا كلامه بأن هذا

الوجوب هو بالوعد الصادق ، فهو من جهة السمع لا من جهة العقل فقط . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 65.64 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ على مَا فَعَلُواْ ﴾

قال القرطبى :

﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ على مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

الإصرار هو العزم بالقلب على الأمر وترك الإقلاع عنه .

ومنه صَرّ الدنانيرِ أي الرّبط عليها ؛ قال الحطيئة يصف الخيل :

عوابس بالشُّعْثِ الكُماة إذا ابتغوا . . .

عُلالَتها بالمُحْصَدَات أصَرَّتِ

أي ثبتت على عَدْوِها .

وقال قتادة : الإصرار الثبوت على المعاصي ؛ قال الشاعر :

يُصِرّ بالليل ما تُخْفِي شَوَاكِلُه . . .

يا ويحَ كلِّ مُصِرّ القلبِ خَتّار

قال سهل بن عبد الله : الجاهل ميّتٌ ، والناسي نائمٌ ، والعاصي سكْران ، والمصِرّ هالك ، والإصرار هو التسويف ، والتسويف أن يقول : أتوب غداً ؛ وهذا دعوى النفس ، كيف يتوب غداً وغداً لا يملكه ! .

وقال غير سهل : الإصرار هو أن ينوي ألا يتوب فإذا نوى التوبة (النصوح) خرج عن الإصرار .

وقول سهلٍ أحسن .

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا توبة مع إصرار" . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 211 ﴾

قال الطبرى :

(70/130)

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندنا ، قول من قال : "الإصرار" ، الإقامة على الذنب عامدًا ، وترك التوبة منه .

ولا معنى لقول من قال : "الإصرار على الذنب هو مواقعته" ، لأن الله عز وجل مدح بترك الإصرار على الذنب مُواقع الذنب ، فقال : "والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفرُ الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون" ، ولو كان المواقع الذنب مصرًّا بمواقعته إياه ، لم يكن للاستغفار وجه مفهوم . لأن الاستغفار من الذنب إنما هو التوبة منه والندم ، ولا يعرف للاستغفار من ذنب لم يواقعه

صاحبه، وجهٌ.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما أصرَّ من استغفر، وإن عاد في اليوم سبعين مرة".

فلو كان مواقع الذنب مصرًّا، لم يكن لقوله "ما أصرَّ من استغفر، وإن عاد في اليوم سبعين مرة"، معنى لأن مواقعةَ الذنب إذا كانت هي الإصرار، فلا يزيل الاسمَ الذي لزمه معنى غيره، كما لا يزيل عن الزاني اسم "زان" وعن القاتل اسم "قاتل"، توبته منه، ولا معنى غيرها. وقد أبان هذا الخبر أن المستغفر من ذنبه غير مصرٍّ عليه، فمعلوم بذلك أن "الإصرار" غير المواقعة، وأنه المقام عليه، على ما قلنا قبل. انتهى انتهى. ا هـ

﴿تفسير الطبرى حـ 7 صـ 225. 226﴾. بتصرف يسير.

فائدة

قال الفخر:

اعلم أن قوله: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذنوب إِلاَّ الله﴾ جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه، والتقدير: فاستغفروا لذنوبهم ولم يصروا على ما فعلوا. انتهى انتهى. ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 10﴾

فصل

قال القرطبى :

قال علماؤنا : الباعث على التّوبة وحلّ الإصرار إدامةُ الفكر في كتاب الله العزيز الغفّار ، وما ذكره الله سبحانه من تفاصيل الجنة ووعد به المطِيعين ، وما وصفه من عذاب النار وتهدّد به العاصِين ، ودام على ذلك حتى قوِي خوفه ورجاؤه فدعا الله رَغَبا ورَهَبا ؛ والرّغْبَة والرّهبة ثمرة الخوف والرجاء ، يخاف من العِقاب ويرجو الثواب ، والله الموفق للصواب .

وقد قيل : إن الباعث على ذلك تنبيه إلِهيٌّ يُنَبّه به من أراد سعادته ؛ لِقبح الذنوب وضررها إذ هي سُموم مهلكة .

قلت : وهذا خلاف في اللفظ لا في المعنى ، فإن الإنسان لا يتفكر في وعد الله ووعِيده إلا بتَنْبيهه ؛ فإذا نظر العبد بتوفيق الله تعالى إلى نفسه فوجدها مشْحُونة بذنوب اكتسبها وسيئات اقترفها ، وانبعث منه الندمُ على ما فرّط ، وترك مثلَ ما سبق مخافةً عقوبة الله تعالى صَدَق عليه أنه تائب ، فإن لم يكن كذلك كان مِصرّاً على المعصية وملازِماً لأسباب الهلكة .

قال سهل بن عبد الله : علامة التائب أن يشغله الذنب على الطعام والشراب : كالثلاثة

الذين خُلِّفوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 212.211 ﴾

فصل

قال القرطبى :

في قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ ﴾ حُجَّةٌ واضحة ودلالة قاطعة لما قاله سيف السنة ، ولسان الأمة القاضي أبو بكر بن الطيب : أن الإنسان يؤاخذ بما وطَّنَ عليه بضميره ، وعزم عليه بقلبه من المعصية .

قلت : وفي التنزيل ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وقال ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ .

فعوقبوا قبل فعلهم بعزمهم وسيأتي بيانه .

وفي البخاري .

(72/130)

" "إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار" قالوا : يا رسول الله هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : "إنه كان حريصاً على قتل صاحبه" " فعلق الوعيد على الحرص وهو العزم وألغى إظهار السِّلاح ، وأنَصُّ من هذا ما خرّجه الترمذيّ من حديث أبي كبشة

الأنماريّ وصححه مرفوعاً .

" إنما الدنيا لأربعةِ نفر رجل أعطاه الله مالاً وعِلماً فهو يتّقي فيه ربّه ويصِلُ فيه رحمه ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل ، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً فهو (صادق النية) يقول لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو نيته فأجرهما سواء ، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته عِلماً فهو (يخبط في ماله بغير علم) لا يتقي فيه ربه ولا يصِل به رحمه ولا يعلم لله فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل ، ورجل لم يؤته الله مالاً ولا علماً فهو يقول لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو نيته فوزرهما سواء " وهذا الذي صار إليه القاضي هو الذي عليه عامّة السلف وأهل العلم من الفقهاء والمحدّثين والمتكلّمين ، ولا يُلتفت إلى خلاف من زعم أن ما يَهُمُّ الإنسانُ به وإن وَطَّن عليه لا يؤاخذ به .

ولا حجة (له) في قوله عليه السلام : " من همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه فإن عمِلها كتبت سيئة واحدة " لأن معنى "فلم يعملها" فلم يعزم على عملها بدليل ما ذكرنا ، ومعنى "فإن عملها" أي أظهرها أو عزم عليها بدليل ما وصفنا . وبالله توفيقنا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 215 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

قال الفخر :

وقوله : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فيه وجهان :

الأول : أنه حال من فعل الإصرار ، والتقدير : ولم يصروا على ما فعلوا من الذنوب حال ما كانوا عالمين بكونها محظورة محرمة لأنه قد يعذر من لا يعلم حرمة الفعل ، أما العالم بحرمته فإنه لا يعذر في فعله ألبتة .

الثاني : أن يكون المراد منه العقل والتمييز والتمكين من الاحتراز من الفواحش فيجري مجرى قوله صلى الله عليه وسلم : " رفع القلم عن ثلاث " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 10 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فيه أقوال .

فقيل : أي يذكرون ذنوبهم فيتوبون منها .

قال النحاس : وهذا قول حسن .

وقيل : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أني أُعاقب على الإصرار .

وقال عبد الله بن عبيد ابن عُمير ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم إن تابوا تاب الله عليهم .

وقيل : ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم إن استغفروا غفر لهم .

وقيل: ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ بما حرّمتُ عليهم؛ قاله ابن إسحاق.

وقال ابن عباس والحسن ومقاتل والكلبي: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أن الإصرار ضار، وأن تركه خير من التمادِي.

وقال الحسن بن الفضل: ﴿ وَهُمْ يَعلَمُونَ ﴾ أن لهم رباً يغفر الذنب.

قلت: وهذا أخذه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يَحكِي عن ربه عز وجل قال: "أذنبَ عبدٌ ذنباً فقال اللّهم اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالى أذنب عبدي ذنباً فعَلِم أن له ربّاً يغفِر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب فقال أيْ ربِّ اغفر لي ذنبي فذكر مثله مرتين، وفي آخره: اعمل ما شئتَ فقد غفرتُ لك" أخرجه مسلم.

(74/130)

وفيه دليلٌ على صحة التوبة بعد نَقْضها بمُعاوَدة الذّنب؛ لأن التوبة الأُولى طاعةٌ وقد انقضت وصحَّتْ، وهو محتاج بعد مواقعة الذنب الثاني إلى توبة أُخرى مستأنفة، والعود إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه؛ لأنه أضاف إلى الذنب نقض التوبة، فالعود إلى التوبة أحسن من ابتدائها؛ لأنه أضاف إليها ملازمة الإلْحاح بباب الكريم، وأنه لا غافر للذنوب

سواه.

وقوله في آخر الحديث "اعمل ما شئت" أمرٌ معناه الإكرام في أحد الأقوال؛ فيكون من باب قوله: ﴿ ادخلوها بِسَلامٍ ﴾ [الحجر: 46].

وآخر الكلام خَبَرٌ عن حال المخاطب بأنه مغفور له ما سلف من ذنبه، ومحفوظ إن شاء الله تعالى فيما يستقبل من شأنه.

ودلّت الآية والحديثُ على عظيم فائدة الاعتراف بالذنب والاستغفار منه، قال صلى الله عليه وسلم: "إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه" أخرجاه في الصحيحين.

وقال:

يستوجبُ العفوَ الفتى إذَا اعتَرفْ . . .

بما جَنَى من الذنوب واقترفْ

وقال آخر:

أقرِرْ بذنبك ثم اطلُبْ تجاوُزَه . . .

إن الجُحُودَ جُحُودَ الذّنب ذنبان

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده لو لم تُذْنِبُوا لذهب الله بكم ولَجَاء بقوم يُذنبون ويستغفرون فيغفر لهم" وهذه

فائدة اسم الله تعالى الغفّار والتوّاب ، على ما بيناه في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 212. 213 ﴾

فائدة

قال أبو حيان نقلا عن الزمخشرى :

وفي هذه الآيات بيان قاطع أن الذين آمنوا على ثلاث طبقات : متقون ، وتائبون ، ومصرّون .

وأن الجنة للمتقين والتائبين منهم دون المصرين ، ومن خالف في ذلك فقد كابر عقله وعاند ربه انتهى كلامه .

(75/130)

وآخره على طريقته الاعتزالية من : أن من مات مصراً دخل النار ولا يخرج منها أبداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 65 ﴾

فائدة

قال الخطيب الشربينى :

تنبيه : لا يلزم من إعداد الجنة للمتقين والتائبين جزاء لهم أن لا يدخلها المصرون كما لا يلزم

من إعداد النار للكافرين جزاء لهم أن لا يدخلها غيرهم ، فقول الزمخشري في "الكشاف"

وفي هذه الآيات بيان قاطع على أنّ الذين آمنوا على ثلاث طبقات : متقون وتائبون

ومصرون وأنّ الجنة للمتقين والتائبين منهم دون المصرين ومن خلف في ذلك فقد كابر عقله

وعاند ربه جار على طريق الاعتزال من أن مرتكب الكبيرة إذا مات مصرّاً لا يدخل الجنة

ونعوذ بالله من ذلك بل كل من مات على الإسلام يدخل الجنة وهو تحت المشيئة إن شاء الله

عذبه ، وإن شاء عفا عنه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 1 صـ 389 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة ﴾

يجوز أن يكون معطوفاً على الموصول قبله ، ففيه ما فيه من الأوجه السابقة ، وتكون الجملةُ

من قوله : ﴿ والله يُحِبُّ المحسنين ﴾ [آل عمران : 134] جملة اعتراض بين

المتعاطفين .

ويجوز أن يكون " والذين " مرفوعاً بالابتداء ، و" أولَئِكَ " مبتدأ ثانٍ ، و" جَزَاؤهُمْ " مبتدأ

ثالث ، و" مَغْفِرَةٌ " خبر الثالث ، والثالث وخبره خبر الثاني ، والثاني وخبره خبر الأول .

وقوله : ﴿ إِذَا فَعَلُوْا ﴾ شرط ، وجوابه : ﴿ ذَكَرُوْا ﴾ .

قوله : ﴿ فاستغفروا ﴾ عطف على الجواب ، والجملة الشرطية وجوابها صلة الموصول

، والمفعول الأول لـ " اسْتَغْفَرُوا " محذوف ، أي : استغفروا الله لذنوبهم ، وقد تقدم الكلام على " استغفر " ، وأنه تعدى لاثنين ، ثانيهما بحرف الجر ، وليس هو هذه اللام ، بل " من " وقد يُحْذَف .

الفاحشة – هنا – نعت محذوف ، تقديره : فعلوا فِعْلَةً فاحشةً .

وأصل الفُحْش : القُبْح الخارج عن الحد ، فقوله : ﴿ فَاحِشَةً ﴾ يعني : قبيحة ، خارجة عما أذن الله فيه .

قال جَابِر : الفاحشة : الزنا ؛ لقوله تعالى : ﴿ واللاتي يَأْتِينَ الفاحشة مِن نِّسَآئِكُمْ ﴾ [النساء : 15] ، وقوله : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ [الإسراء : 32] .

قوله : ﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ ﴾ استفهام بمعنى : النفي ، ولذلك وقع بعده الاستثناء .

(76/130)

قوله : ﴿ إِلاَّ الله ﴾ بدل من الضمير المستكن في "يَغْفِرُ" ، والتقدير : لا يغفر أحد الذنوب إلا الله تعالى ، والمختار – هنا – الرفع على البدل ، لكَوْن الكلام غيرَ إيجاب . وقد تقدم تحقيقه عند قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة : 130] .

وقال أبو البقاء "مَنْ" مبتدأ ، "يَغْفِرُ" خبره ، و﴿ إلاَّ اللهُ ﴾ فاعل "يَغْفِرُ" ، أو بدل من المضمر فيه ، وهو الوجه ؛ لأنك إذا جعلت "اللهُ" فاعلاً ، احتجْتَ إلى تقدير ضمير ، أي : ومَنْ يغفر الذنوب له غير الله .

قال شهَابُ الدين : "وهذا الذي قاله - أعني : جعله الجلالة فاعلاً - يقرب من الغلط ؛ فإن الاستفهام - هنا - لا يُراد به حقيقته ، إنما يرادُ "النفي" ، والوجه ما تقدم من كون الجلالة بدلاً من ذلك الضمير المستتر ، والعائد على "من" الاستفهامية" .

ومعنى الكلام أن المغفرة لا تُطْلب إلا من الله ؛ لأنه القادر على عقاب العبد في الدنيا والآخرة ، فكان هو القادر على إزالة العقاب عنه .

قوله : ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ ﴾ يجوز أن تكون جملة حالية من فاعل ﴿ فاستغفروا ﴾ أي : ترتب على فعلهم الفاحش ذكر الله تعالى ، والاستغفار لذنوبهم ، وعدم إصرارهم عليها ، وتكون الجملة من قوله : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذنوب إِلاَّ الله ﴾ - على هذين الوجهين معترضة بين المتعاطفين على الوجه الثاني ، وبين الحال وذي الحال على الوجه الأول .

فصل

وأصْل الإصرار : الثبات على الشيء .

قال الحسن : إتيان العبد ذَنْباً عَمْداً إصرار ، حتى يتوب .

وقال السُّدِّي : الإصرار : السكوت وتَرْك الاستغفار .

وعن أبي نُصيرة قال : لقيت مولّى لأبي بكر ، فقلتُ له : أَسَمِعْتَ من أبي بكر شيئًا ؟

قال : نعم ، سمعته يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَا أَصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ ، وَإِنْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبعِين مَرَّةً " . وقيل : الإصرار : المداومة على الشيء ، وتَرْك الإقلاع عنه ، وتأكيد العزم على ألا يتركه ، من قولهم : صر الدنانير ، إذا ربط عليها ، ومنه : صُرَّة الدراهم – لما يربط منها – .

قال الحُطَيْئة : يصف خيلاً : [الطويل]

عوَابِسُ بِالشُّعْثِ الكُمَاةِ إذا ابْتَغَوْا . . . عُلاَلَتَها بِالْمُحْصَدَاتِ أَصرَّتِ

أي : ثبتت ، وأقامت ، مداغومة على ما حملت عليه .

وقال الشاعر : [البسيط]

يُصِرُّ بِاللَّيلِ مَا تُخْفِي شَوَاكِلُهُ . . . يَا وَيْحَ كُلِّ مُصِرِّ القَلْبِ خَتَّارِ

و" ما " في قوله : ﴿ على مَا فَعَلُواْ ﴾ يجوز أن تكون اسمية بمعنى : الذي ، ويجوز أن تكون مصدرية .

قوله: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يجوز أن يكون حالاً ثانية من فاعل ﴿ فاستغفروا ﴾، وأن يكون حالاً من فاعل ﴿ يُصِرُّوا ﴾، والتقدير: ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا من الذنوب بحال ما كانوا عالمين بكونها محرمة؛ لأنه قد يُعْذَر مَنْ لا يعلم حرمة الفعل، أما العالم بالحرمة، فإنه لا يعذر.

ومفعول ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ محذوف للعلم به.

فقيل: تقديره: يعلمون أن الله يتوب على مَنْ تاب، قاله مجاهد.

وقيل: يعلمون أن تَرْكه أوْلَى، قاله ابنُ عباس والحسن.

وقيل: يعلمون المؤاخذة بها، أو عفو الله عنها.

وقال ابْنُ عَبَّاسٍ، ومُقَاتِلٍ، والحَسَنُ، والكَلْبِيُّ: وهم يعلمون أنها معصية.

وقيل: وهم يعلمون أن الإصرار ضَار.

وقال الضَّحَّاكُ: وهم يعلمون أن الله يملك مغفرةَ الذنوب، وقال الحسن بن الفضل: وهم يعلمون أن لهم رباً يغفر الذنوب.

وقيل: وهم يعلمون أن الله تعالى، لا يتعاظمه العَفْو عن الذنوب - وإن كثرت -.

وقيل : وهم يعلمون أنهم إن استغفروا غُفِرَ لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 543. 547 ﴾ . بتصرف يسير .

فصل

قال القرطبى :

الذنوب التي يُتاب منها إمّا كُفْرٌ أو غيره ، فتوبة الكافر إيمانُه مع ندمِه على ما سلف من كفره ، وليس مجرّدُ الإيمان نفسَ توبة ، وغير الكفر إمّا حقٌّ لله تعالى ، وإمّا حقٌّ لغيره ، فحق الله تعالى يكفي في التوبة منه التَّركُ ؛ غير أن منها ما لم يكتف الشرع فيها بمجرّد الترك بل أضاف إلى ذلك في بعضها قضاءً كالصلاة والصوم ، ومنها ما أضاف إليها كفارة كالْحِنث في الأيمانِ والظّهار وغير ذلك ، وأمّا حقوقُ الآدميّين فلا بدّ من إيصالها إلى مستحقيها ، فإن لم يوجَدوا تُصدّق عنهم ، ومن لم يجد السبيل لخروج ما عليه لإعسارٍ فعفو الله مأمولٌ ، وفضله مبذولٌ ؛ فكم ضمِن من التبِعات وبدّل من السيئات بالحسنات .

وستأتي زيادة بيان لهذا المعنى . أ هـ

وقال رحمه الله أيضا :

ليس على الإنسان إذا لم يذكر ذَنْبه ويعلمْه أن يتوب منه بعينه ، ولكن يلزمه إذا ذكر ذنباً تاب منه .

وقد تأوّل كثير من الناس فيما ذكر شيخنا أبو محمد عبد المعطي الأسكندرانيّ رضي الله

عنه أن الإمام المحاسبيّ رحمه الله يرى أن التوبة من أجناس المعاصي لا تصح ، وأن الندم على جملتها لا يكفي ، بل لا بدّ أن يتوب من كل فعلٍ بجارحته وكل عقد بقلبه على التعيين .

(79/130)

ظنوا ذلك من قوله ، وليس هذا مراده ، ولا يقتضيه كلامه ، بل حكم المكلَّف إذا عرف أفعاله ، وعرف المعصية من غيرها ، صحّتْ منه التوبة من جملة ما عرف ؛ فإنه إن لم يعرف كون فعله الماضي معصية لا يمكنه أن يتوب منه لا على الجملة ولا على التفصيل ؛ ومثاله رجل كان يتعاطى باباً من أبواب الربا ولا يعرف أنه ربا فإذا سمع كلام الله عز وجل : ﴿ يا أَيُّها الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الربا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ ﴾ [البقرة : 279-278] عظم عليه هذا التهديد ، وظن أنه سالم من الربا ، فإذا علم حقيقة الربا الآن ، ثم تفكر فيما مضى من أيامه وعلم أنه لابسَ منه شيئاً كثيراً في أوقات متقدّمة ، صحّ أن يندم عليه الآن جملة ، ولا يلزمه تعيينُ أوقاته ، وهكذا كل ما واقع من الذنوب والسيئات كالغيبة والنّميمة وغيرِ ذلك من المحرّمات التي لم يعرف كونها محرّمة ، فإذا فقُه العبد وتفقّد ما مضى من كلامه تاب من ذلك جملةً ، ونَدِمَ على ما فرّط فيه من حق الله تعالى ، وإذا استحلّ مَن كان ظلمه فحالَّهُ على الجملة وطابت نفسه بترك

حقه جاز ؛ لأنه من باب هبة المجهول ، هذا مع شُحِّ العبد وحرصه على طلب حقه ، فكيف بأكرم الأكرمين المتفضل بالطاعات وأسبابها والعفوِّ عن المعاصي صغارها وكبارها .

(80/130)

قال شيخنا رحمه الله تعالى : هذا مراد الإمام ، والذي يدل عليه كلامه لمن تفقَّده ، وما ظنه به الظّانّ من أنه لا يصح الندم إلا على فِعلٍ فِعلٍ وحركةٍ حركةٍ وسكنةٍ سكنةٍ على التعيين هو من باب تكْلِيف ما لا يُطاق ، الذي لم يقع شرعاً وإن جاز عقلاً ، ويلزم عنه أن يعرف كم جرعة جرعها في شرب الخمر ، وكم حركة تحركها في الزنا ، وكم خطوة مَشاها إلى محرّم ، وهذا ما لا يطيقه أَحدٌ ، ولا تتأتّى منه توبة على التفصيل .

وسيأتي لهذا الباب مزيدُ بيان من أحكام التوبة وشروطها في "النساء" وغيرها إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿تفسير القرطبى حـ 4 صـ 214.213﴾ . بتصرف يسير .

من فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

إن كان عطفَ فريقٍ آخر ، فهم غيرُ المتّقين الكاملين ، بل هم فريق من المتّقين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً ، وإن كان عطفَ صفات ، فهو تفضيل آخر لحال المتَّقين بأن ذُكر أوّلاً حال كمالهم ، وذكر بعده حال تداركهم نقائصهم .

والفاحشة الفَعلة المتجاوزة الحدّ في الفساد ، ولذلك جمعت في قوله تعالى : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ﴾ [النجم : 32] واشتقاقها من فَحُش بمعنى قال قولاً ذميماً ، كما في قول عائشة : "لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحّشاً" ، أو فعل فعلاً ذميماً ، ومنه ﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ [الأعراف : 28] .

ولا شك أنّ التَّعريف هنا تعريف الجنس ، أي فعلوا الفواحش ، وظلمُ النفس هو الذنوب الكبائر ، وعطفها هنا على الفواحش كعطف الفواحش عليها في قوله : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ﴾ [النجم : 32] .

(81/130)

فقيل : الفاحشة المعصية الكبيرة ، وظلم النَّفس الكبيرة مطلقاً ، وقيل : الفاحشة هي الكبيرة المتعدية إلى الغير ، وظلم النَّفس الكبيرة القاصرة على النّفس ، وقيل : الفاحشة

الزنا ، وهذا تفسير على معنى المثال .

والذكر في قوله : ﴿ ذكروا الله ﴾ ذكر القلب وهو ذِكر ما يجب لله على عبده ، وما أوصاه به ، وهو الّذي يتفرّع عنه طلب المغفرة ؛ وأمّا ذكر اللّسان فلا يترتّب عليه ذلك .

ومعنى ذكر الله هنا ذكر أمره ونهيه ووعده ووعيده .

والاستغفار : طلب الغَفْر أي الستر للذنوب ، وهو مجاز في عدم المؤاخذة على الذنب ، ولذلك صار يعدّي إلى الذنب باللام الدالة على التّعليل كما هنا ، وقوله تعالى : ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ [غافر : 55] .

ولمّا كان طلب الصفح عن المؤاخذة بالذنب لا يصدر إلا عن ندامة ، ونية إقلاع عن الذنب ، وعدم العودة إليه ، كان الاستغفار في لسان الشارع بمعنى التوبة ، إذ كيف يطلب العفو عن الذنب من هو مستمرّ عليه ، أو عازم على معاودته ، ولو طلب ذلك في تلك الحالة لكان أكثر إساءة من الذنب ، فلذلك عدّ الاستغفار هنا رتبة من مراتب التّقوى .

وليس الاستغفار مجرّد قول (أستغفر الله) باللّسان والقائلُ ملتبس بالذنوب .

وعن رابعة العدوية أنّها قالت : "استغفارنا يحتاج إلى الاستغفار" وفي كلامها مبالغة فإنّ الاستغفار بالقول مأمور به في الدّين لأنّه وسيلة لتذكّر الذنب والحيلة للإقلاع عنه .

وجملة ﴿ ومن يغفر الذنوب إلاّ الله ﴾ معترضة بين جملة ﴿ فاستغفروا ﴾ وجملة ﴿ ولم يُصِرّوا على ما فعلوا ﴾ .

والاستفهام مستعمل في معنى النَّفي ، بقرينة الاستثناء منه ، والمقصود تسديد مبادرتهم إلى استغفار الله عقب الذنب ، والتعريض بالمشركين الَّذين اتّخذوا أصنامهم شفعاء لهم عند الله ، وبالنَّصارى في زعمهم أنّ عيسى رفع الخطايا عن بني آدم ببلية صَلبه .

وقوله : ﴿ ولم يصروا ﴾ إتمام لركني التَّوبة لأنّ قوله : ﴿ فاستغفروا لذنوبهم ﴾ يشير إلى الندم ، وقوله : ﴿ ولم يصروا ﴾ تصريح بنفي الإصرار ، وهذان ركنا التَّوبة .

وفي الحديث : "النَّدم توبة" ، وأما تدارك ما فرّط فيه بسبب الذنب فإنَّما يكون مع الإمكان ، وفيه تفصيل إذا تعذّر أو تعسّر ، وكيف يؤخذ بأقصى ما يمكن من التدارك .

وقوله : ﴿ ولم يصروا على ما فعلوا ﴾ حال من الضّمير المرفوع في "ذكروا" أي : ذكروا الله في حال عدم الإصرار .

والإصرار : المُقام على الذنب ، ونفيُه هو معنى الإقلاع .

وقوله : ﴿ وهم يعلمون ﴾ حال ثانية ، وحذف مفعول يعلمون لظهوره من المقام أي يعلمون سوء فعلهم ، وعظم غضب الربّ ، ووجوبَ التوبة إليه ، وأَنَّه تفضّل بقبول التَّوبة فمحا بها الذنوب الواقعة .

وقد انتظم من قوله : ﴿ ذكروا الله فاستغفروا ﴾ وقوله : ﴿ ولم يصروا ﴾ وقوله : ﴿ وهم يعلمون ﴾ الأركان الثلاثة الّتي ينتظم منها معنى التّوبة في كلام أبي حامد الغزالي في كتاب التّوبة من "إحياء علوم الدّين" إذ قال : "وهي عِلْم ، وحال ، وفعل .

فالعلم هو معرفة ضرّ الذنوب ، وكونها حجاباً بين العبد وبين ربِّه ، فإذا علم ذلك بيقين ثار من هذه المعرفة تألّم للقلب بسبب فوات ما يحبّه من القرب من ربِّه ، ورضاه عنه ، وذلك الألم يسمّى ندماً ، فإذا غلب هذا الألم على القلب انبعثت منه في القلب حالة تسمّى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلّق بالحال والماضي والمستقبل ، فتعلّقه بالحال هو ترك الذنب (الإقلاع) ، وتعلّقه بالمستقبل هو العزم على ترك الذنب في المستقبل (نفي الإصرار) ، وتعلّقه بالماضي بتلافي ما فات" .

فقوله تعالى : ﴿ ذكروا الله ﴾ إشارة إلى انفعال القلب .

وقوله : ﴿ ولم يصروا ﴾ إشارة إلى الفعل وهو الإقلاع ونفي العزم على العودة .

وقوله : ﴿ وهم يعلمون ﴾ إشارة إلى العلم المثير للانفعال النفساني .

وقد رتّبت هاته الأركان في الآية بحسب شدّة تعلّقها بالمقصود : لأنّ ذكر الله يحصل بعد

الذنب ، فيبعث على التَّوبة ، ولذلك رتّب الاستغفار عليه بالفاء ، وأمّا العلم بأنَّه ذنب ، فهو حاصل من قبل حصول المعصية ، ولولا حصوله لما كانت الفعلة معصية .

فلذلك جيء به بعد الذكر ونفي الإصرار ، على أنّ جملة الحال لا تدلّ على ترتيب حصول مضمونها بعد حصول مضمون ما جيء به قبلَها في الأخبار والصّفات .

ثُمّ إن كان الإصرار ، وهو الاستمرار على الذنب ، كما فُسِّر به كان نفيه بمعنى الإقلاع لأجل خَشية الله تعالى ، فلم يدلّ على أنَّه عازم على عدم العود إليه ، ولكنَّه بحسب الظاهر لا يرجع إلى ذنب ندِمَ على فعله ، وإن أريد بالإصرار اعتقاد العود إلى الذنب فنفيه هو التَّوبة الخالصة ، وهو يستلزم حصول الإقلاع معه إذ التلبّس بالذنب لا يجتمع مع العزم على عدم العود إليه ، فإنَّه متلبّس به من الآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ 222 . 225﴾

(84/130)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام " قل للظلمة حتى لا يذكروني فإني أوجبت أن أذكر من ذكرني وذكري للظلمة باللعنة " . (1)

وقال لظَلَمَةِ هذه الأمة .

﴿ أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾ ثم قال في آخر الآية : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ .

ويقال فاحشة كُلّ أحد على حسب حاله ومقامه ، وكذلك ظلمهم وإن خطور المخالفات ببال الأكابر كفِعْلها من الأغيار ، قال قائلهم :

أنت عيني وليس من حق عيني . . . غضّ أجفانها على الأقذاء

فليس الجُرْم على البساط كالذَّنب على الباب .

ويقال فعلوا فاحشة بركونهم إلى أفعالهم ، أو ظلموا أنفسهم بملاحظة أحوالهم ، فاستغفروا لذنوبهم بالتبري عن حركاتهم وسكناتهم علماً منهم بأنه لا وسيلة إليه إلا به ، فخلصهم من ظلمات نفوسهم . وإن رؤية الأحوال والأفعال لَظُلُمَاتٌ عند ظهور الحقائق ، ومَنْ طَهَّره الله بنور العناية صانه عن التورط في المغاليط البشرية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 279 ﴾

---

(1) هذا الكلام يحتاج إلى سند . والله أعلم .

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾

والفاحشة هي : الذنب الفظيع . فهل معنى ذلك أن الرماة في غزوة أحد حين تركوا مواقعهم ، قد خرجوا من الإيمان ؟ لا ، إنها زلة فقط ، لكنها اعتبرت كبيرة من الكبائر لمن أشار على المؤمنين أن ينزلوا ، واعتبرت صغيرة لمن حُرّض - بالبناء للمفعول - على أن ينزل من موقعه .

إذن فهو قول مناسب : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾ وجاء الحق هنا بـ " ذكروا الله " كتنبيه لنا إلى أن من يفعل الفاحشة أو يظلم نفسه هو من نسي الله ، فلحظة فعل الفاحشة أو ظلم النفس لا يكون الله على بال الإنسان الفاعل للفاحشة أو على بال من ظلم نفسه ، والذي يُجرّئ الإنسان على المعصية ليحقق لنفسه شهوة ، أنّه لم ير الله ولم ير جزاءه وعقابه في الآخرة ماثلا أمامه ، ولو تصور هذا لا متنع عن الفاحشة .

وكذلك الذي يهمل في الطاعة أيضاً ، لم يذكر الله وعطاءه للمتقين . ولو ذكر الله وعطاءه للمتقين لما تكاسل عن طاعة الله . ولذلك يقول الحق : ﴿ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ فمن يستغفر لذنبه فقد ذكر الله .

وموقف العلماء من الفاحشة فيه اختلاف . بعض العلماء قال : إنها الكبيرة من الكبائر ،

وظلم النفس صغيرة من الصغائر . وقال بعض آخر من العلماء : إن الفاحشة هي الزنا ؛ لأن القرآن نص عليها ، وما دون ذلك هو الصغيرة .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا كبيرة مع الاستغفار . ولا صغيرة مع الإصرار " .

(86/130)

فلا يجوز للإنسان أن يتجاوز عن أخطائه ويقول : هذه صغيرة وتلك صغيرة لأن الصغيرة مع الصغيرة تصير كبيرة . وحين ننظر إلى قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ نجد أن الذي فعل الفاحشة ظالم لنفسه أيضا لأنه حقق لنفسه شهوة عارضة ، وأبقى على نفسه عذاباً خالداً .

ولماذا لم يقل الحق إذن : والذين ظلموا أنفسهم فقط ؟ أي يكون العطف بـ " الواو " لا بـ " أو " ؛ لأن الحق يريد أن يوضح لنا الاختلاف بين فعل الفاحشة وظلم النفس .

لأن الذي يفعل الفاحشة إنما يحقق لنفسه شهوة أو متعة ولو عاجلة ، لكن الذي يظلم نفسه يذنب الذنب ولا يعود عليه شيء من النفع ؛ فالذي يشهد الزور – على سبيل المثال – إنه لا يحقق لنفسه النفع ، ولكن النفع يعود للمشهود له زوراً . إن شاهد الزور يظلم نفسه لأنه

لبّى حاجة عاجلة لغيره، ولم ينقذ نفسه من عذاب الآخرة. أما الإنسان الذي يرتكب الفاحشة فهو قد أخذ متعة في الدنيا، وبعد ذلك ينال العقاب في الآخرة.

لكن الظالم لنفسه لا يفيد نفسه، بل يضر نفسه؛ فالذي هو شر أن تبيع دينك بدنياك؛ إنك في هذه الحالة قد تأخذ متعة من الدنيا وأمد الدنيا قليل.

والحق لم ينه عن متاع الدنيا، ولكنه قال عنه: ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾. وهناك من يبيع دينه بدنيا غيره، وهو لا يأخذ شيئاً ويظلم نفسه.

ويقول الحق: ﴿ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾. ومعنى "ذنب" هو مخالفة لتوجيه منهج. فقد جاء أمر من المنهج ولم ينفذ الأمر. وجاء نهي من المنهج فلم يُلتزم به. ولا يسمى ذّنباً إلا حين يعرفنا الله الذنوب، ذلك هو تقنين السماء. وفي مجال التقنين البشري نقول: لا تجريم إلا بنص ولا عقوبة إلا بتجريم.

(87/130)

وهذا يعني ضرورة إيضاح ما يعتبر جريمة؛ حتى يمكن أن يحدث العقاب عليها، ولا تكون هناك جريمة إلا بنص عليها. أي أنه يتم النص على الجريمة قبل أن يُنص على العقوبة، فما بالنا بمنهج الله؟ إنه يعرفنا الذنوب أولاً، وبعد ذلك يحدد العقوبات التي يستحقها مرتكب

الذنب .

ولننتبه إلى قول الحق : ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ إذن فالاستغفار ليس أن تردف الذنب بقولك : أستغفر الله لا . إن على الإنسان أن يردف الذنب بقوله : أستغفر الله وأن يصر على ألا يفعل الذنب أبداً .

وليس معنى هذا ألا يقع الذنب منك مرة أخرى ؛ إن الذنب قد يقع منك ، ولكن ساعة أن تستغفر تصر على عدم العودة ، إن الذنب قد يقع ، ولكن بشرط ألا يكون بنيّة مُسبقة ، وتقول لنفسك : سأرتكب الذنب ، وأستغفر لنفسي بعد ذلك . إنك بهذا تكون كالمستهزئ بربّك ، فضلا على أنك قد تصنع الذنب ولا يمهلك الله لتستغفر . قوله الحق : ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يوضح لنا أنه لا عقوبة إلا تجريم إلا بنص . إن الحق يعلمنا يعرفنا أولاً ما هو الذنب ؟ وما هو العقاب ؟ وكيفية الاستغفار ؟ ويقول الحق بعد ذلك : ﴿ أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1757 . 1760 ﴾

(88/130)

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (136) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أتم وصف السابقين وهم المتقون واللاحقين وهم التائبون قال - معلماً بجزائهم الذين سارعوا إليه من المغفرة والجنة مشيراً إليهم بأداة البعد تعظيماً لشأنهم على وجه معلم بأن أحداً لا يقدر الله حق قدره - : ﴿ أولئك ﴾ أي العالو الرتبة ﴿ جزآؤهم مغفرة ﴾ أي لتقصيرهم أو لهفواتهم أو لذنوبهم ، وعظمها بقوله : ﴿ من ربهم ﴾ أي المسحن إليهم بكل إحسان ، وأتبع ذلك للإكرام فقال : ﴿ وجنات ﴾ أيّ جنات ، ثم بين عظمها بقوله : ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ حال كونكم ﴿ خالدين فيها ﴾ هي أجرهم على عملهم ﴿ ونعم أجر العاملين ﴾ هي ، هذا على تقدير أن تكون الإشارة لجميع الموصوفين ، وإن كانت للمستغفرين خاصة فالأمر واضح في نزول رتبتهم عمن قبلهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 158 ﴾

قوله تعالى : ﴿ أولئك جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مّن رَّبّهِمْ وجنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾

قال الفخر :

والمعنى أن المطلوب أمران :

الأول : الأمن من العقاب وإليه الاشارة بقوله : ﴿ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾

والثاني : إيصال الثواب اليه وهو المراد بقوله : ﴿ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا ﴾ ثم بين تعالى أن الذي يحصل لهم من ذلك وهو الغفران والجنات يكون أجراً لعملهم وجزاء عليه بقوله : ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ قال القاضي : وهذا يبطل قول من قال إن الثواب تفضل من الله وليس بجزاء على عملهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 10 ﴾

(89/130)

فائدة

قال ابن عاشور :

وجيء باسم الإشارة لإفادة أنّ المشار إليهم صاروا أحرياء بالحكم الوارد بعد اسم الإشارة ، لأجل تلك الأوصاف الّتي استوجبوا الإشارة لأجلها .

وهذا الجزاء وهو المغفرة وعد من الله تعالى ، تفضّلا منه : بأن جعل الإقلاع عن المعاصي سبباً في غفران ما سلف منها .

وأمّا الجنّات فإنّما خلصت لهم لأجل المغفرة ، ولو أخذوا بسالف ذنوبهم لما استحقّوا

الجنَّات فالكلّ فضل منه تعالى .

وقوله : ﴿ ونعم أجر العالمين ﴾ تذييل لإنشاء مدح الجزاء .

والمخصوص بالمدح محذوف تقديره هو .

والواو للعطف على جملة ﴿ جزاؤهم مغفرة ﴾ فهو من عطف الإنشاء على الإخبار ،

وهو كثير في فصيح الكلام ، وسمِّي الجزاء أجراً لأنَّه كان عن وعد للعامل بما عمل .

والتَّعريف في (العاملين) للعهد أي : ونعم أجر العاملين هذا الجزاء ، وهذا تفضيل له والعمل

المجازي عليه أي إذا كان لأصناف العاملين أجور ، كما هو المتعارف ، فهذا نعم الأجر

لعامل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 225 ﴾

(90/130)

فائدة

قال أبو حيان :

وقال الزمخشري : قال أجر العاملين بعد قوله جزاؤهم ، لأنهما في معنى واحد ، وإنما

خالف بين اللفظين لزيادة التنبيه على أن ذلك جزاء واجب على عمل ، وأجر مستحق

عليه ، لا كما يقول المبطلون .

وروي أن الله عزّ وجل أوحى إلى موسى عليه السلام : ما أقلَّ حياء من يطمعُ في جنتي بغير عمل ، كيف أجود برحمتي على من يبخل بطاعتي ؟ وعن شهر بن حوشب : طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب ، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور ، وارتجاء الرحمة ممن لا يطاع حمق وجهالة .

وعن الحسن يقول الله يوم القيامة : جوزوا الصراط بعفوي ، وادخلوا الجنة برحمتي ، واقتسموها بأعمالكم .

وعن رابعة البصرية أنها كانت تنشد :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها . . .

إن السفينة لا تجري على اليبس

انتهى ما ذكره ، والبيت الذي كانت رابعة تنشده هو لعبد الله بن المبارك .

وكلام الزمخشري جار على مذهبه الاعتزال من أن الإيمان دون عمل لا ينفع في الآخرة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 66 ﴾

فصل

قال الآلوسى :

﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ المخصوص بالمدح محذوف أي وَنِعمَ أجر العاملين الجنة ، وعلى ذلك اقتصر مقاتل ، وذهب غير واحد أنه ذلك أي ما ذكر من المغفرة والجنات .

وفي الجملة على ما نص عليه بعض المحققين وجوه من المحسنات:

أحدها: أنها كالتذييل للكلام السابق فيفيد مزيد تأكيد للاستلذاذ بذكر الوعد،

وثانيها: في إقامة الأجر موضع ضمير الجزاء لأن الأصل ونعم هو أي جزاؤهم إيجاب إنجاز هذا الوعد وتصوير صورة العمل في العمالة تنشيطاً للعامل،

وثالثها: في تعميم العاملين وإقامته مقام الضمير الدلالة على حصول المطلوب للمذكورين بطريق برهاني.

(91/130)

والمراد من الكلام السابق الذي جعل هذا كالتذييل له إما الكلام الذي في شأن التائبين، أو جميع الكلام السابق على الخلاف الذي ذكرناه آنفاً، ومن ذهب إلى الأول قال: وكفاك في الفرق بين القبيلين وهما المتقون الذين أتوا بالواجبات بأسرها واجتنبوا المعاصي برمتها، والمستغفرون لذنوبهم بعدما أذنبوا وارتكبوا الفواحش والظلم أنه تعالى فصل آية الأولين بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ والله يُحِبُّ المحسنين ﴾ [آل عمران: 134] المشعر بأنهم محسنون محبوبون عند الله تعالى، وفصل آية الآخرين بقوله جلّ وعلا: ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ المشعر بأن هؤلاء أجراء وأن ما أعطوا من الأجر جزاء لتداركهم بعض ما فوتوه

على أنفسهم ، وأين هذا من ذاك ؟ وبعيد ما بين السمك والسماك ، ولا يخفى أنه على تقدير كون النعتين نعت رجل واحد كما حكي عن الحسن يمكن أن يقال : إن ذكر هذه الجملة عقيب تلك لما ذكره بعض المحققين وأي مانع من الإخبار بأنهم محبوبون عند الله تعالى وأن الله تعالى منجز ما وعدهم به ولا بدّ ، وكونهم إذا أذنبوا استغفروا وتابوا لا ينافي كونهم محسنين أما إذا أريد من الإحسان الإنعام على الغير فظاهر ، وأما إذا أريد به الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق أو أن تعبد الله تعالى كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك كما صرح به في الصحيح فلأن ذلك لو نافى لزم أن لا يصدق المحسن إلا على نحو المعصوم ولا يصدق على من عبد الله تعالى وأطاعه مدة مديدة على أليق وجه وأحسنه ثم عصاه لحظة فندم أشد الندم واستغفر سيد الاستغفار ؛ ولا أظن أحداً يقول بذلك فتدبر .

(92/130)

ثم إن في هذه الآيات على ما ذهب إليه المعظم دلالة على أن المؤمنين ثلاث طبقات ، متقين وتائبين ومصرين ، وعلى أن غير المصرين تغفر ذنوبهم ويدخلون الجنة ، وأما أنها تدل على أن المصرين لا تغفر ذنوبهم ولا يدخلون الجنة كما زعمه البعض فلا ؟ لأن السكوت عن الحكم ليس بياناً لحكمهم عند بعض ودالّ على المخالفة عند آخرين وكفى في تحققها أنهم

مترددون بين الخوف والرجاء وأنهم لا يخلون عن تعنيف أقله تعييرهم بما أذنبوه مفصلا ويا

له من فضيحة وهذا ما لا بد منه على ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وحينئذ لم يتم

لهم المغفرة الكاملة كما للتائبين على أن مقتضى ما في الآيات أن الجنة لا تكون جزاء للمصر

؛ وكذلك المغفرة أما نفي التفضل بهما فلا ، وهذا على أصل المعتزلة واضح للفرق بين

الجزاء والتفضل وجوباً وعدم وجوب ، وأما على أصل أهل السنة فكذلك لأن التفضل

قسمان : قسم مترتب على العمل ترتب الشبع على الأكل يسمى أجراً وجزاءاً وقسم لا

يترتب على العمل فمنه ما هو تتميم للأجر كماً أو كيفاً كما وعده من الاضعاف وغير ذلك

، ومنه ما هو محض التفضل حقيقة واسماً كالعفو عن أصحاب الكبائر ورؤية الله تعالى في

دار القرار وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى قاله بعض المحققين ، وذكر العلامة الطيبي أن

قوله تعالى : ﴿ واتقوا النار التى أُعِدَّتْ للكافرين ﴾ [آل عمران : 131] وردت خطاباً

لآكلي الربا من المؤمنين وردعاً لهم عن الإصرار على ما يؤديهم إلى دركات الهالكين من

الكافرين وتحريضاً على التوبة والمسارعة إلى نيل الدرجات مع الفائزين من المتقين والتائبين ،

فإدراج المصرين في هذا المقام بعيد المرمى لأنه إغراء وتشجيع على الذنب لا زجر ولا

ترهيب فبين بالآيات معنى المتقين للترغيب والترهيب ومزيد تصوير مقامات الأولياء

ومراتبهم ليكون حثاً لهم على

الانخراط في سلكهم ولا بدّ من ذكر التائبين واستغفارهم وعدم الإصرار ليكون لطفاً لهؤلاء وجميع الفوائد التي ذكرت في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذنوب إِلاَّ الله ﴾ [آل عمران : 135] تدخل في المعنى ، فعلم من هذا أن دلالة ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ على مَا فَعَلُواْ ﴾ [آل عمران : 135] مهجورة لأن مقام التحريض والحث أخرج المصرين ، والحاصل أن شرط دلالة المفهوم هنا منتف فلا يصح الاحتجاج بذلك للمعتزلة أصلاً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 63.65 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ في محل رفع ؛ نعتاً لِ " مَغْفِرَةٌ " ، و" مِنْ " للتبعيض ، أي : من مغفرات ربهم .

قوله : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ حال من الضمير في ﴿ جَزَآؤُهُمْ ﴾ ؛ لأنه مفعول به في المعنى ؛ لأن المعنى : يجزيهم الله جنات في حال خلودهم ويكون حالاً مقدراً ، ولا يجوز أن تكون حالاً من " جَنَّاتٌ " في اللفظ ، وهي لأصحابها في المعنى ؛ إذْ لو كان ذلك لبرز الضمير ، لجَرَيان الصفة على غير مَنْ هي له ، والجملة من قوله : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ في محل رفع ؛ نعتاً لِ " جَنَّاتٌ " . وتقدم إعراب نظير هذه الجمل .

قوله : ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ المخصوص بالمدح محذوف ، تقديره : ونِعْمَ أجر العاملين الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 547 ﴾ .

(94/130)

من فوائد العلامة أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إلى المذكورين آخِراً باعتبار اتصافِهم بما مرّ من الصفات الحميدةِ ، وما فيه من معنى البُعد للإشعار ببعيد منزلِتهم وعلوّ طبقتِهم في الفضل ، وهو مبتدأٌ وقوله تعالى : ﴿ جَزَآؤُهُمْ ﴾ بدلُ اشتمالٍ منه وقوله تعالى : ﴿ مَغْفِرَةٌ ﴾ خبرُه أو جزاؤهم مبتدأٌ ثانٍ ومغفرةٌ خبرُه ، والجملةُ خبرٌ لأولئك ، وهذه الجملةُ خبرٌ لقوله تعالى ﴿ والذين إِذَا فَعَلُواْ ﴾ الخ على الوجه الأولِ وهو الأظهرُ الأنسبُ بنظم المغفرةِ المنبئةِ عن سابقة الذنبِ في سلك الجزاءِ ، إذ على الوجهين يكون قولُه تعالى : ﴿ أولئك ﴾ الخ جملةً مستأنفةً مبينةً لما قبلها كاشفةً عن حال كلا الفريقين المحسنين والتائبين ، ولم يُذكَرْ من أوصاف الأولين ما فيه شائبةُ الذنب حتى يُذكَرَ في مطلَع الجزاءِ الشاملِ لهما المغفرةُ ، وتخصيصُ الإشارةِ بالآخِرين مع اشتراكهما في حكم إعدادِ الجنةِ لهما تعسُّفٌ ظاهر ﴿ مّن رَّبّهِمُ ﴾ متعلقٌ

بمحذوف وقع صفةً لمغفرةٌ مؤكدةً لما أفاده التنوينُ من الفخامة الذاتيةِ بالفخامة الإضافيةِ

أي كائنةٌ من جهته تعالى . والتعرضُ لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميرهم للإشعار بعلة

الحُكمِ والتشريفِ ﴿ وجنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الانهار ﴾ عطفٌ على مغفرةٌ ، والتنكيرُ

المُشعِرُ بكونها أدنى من الجنة السابقةِ مما يؤيد رُجحانَ الوجهِ الأول ﴿ خالدين فِيهَا ﴾

حالٌ مقدّرةٌ من الضمير في جزاؤهم لأنه مفعولٌ به في المعنى لأنه في قوة يجزيهم الله جناتٌ

خالدين فيها ، ولا مَساغَ لأن يكون حالاً من جناتٌ في اللفظ وهي لأصحابها في المعنى إذ

لو كان كذلك لبرز الضمير .

﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ المخصوصُ بالمدح محذوفٌ أي ونعم أجرُ العاملين ذلك ، أي ما

ذُكر من المغفرة والجناتِ ، والتعبيرُ عنهما بالأجر المشعرِ بأنهما يُستحقان بمقابلة العمل وإن

كان بطريق التفضُّل لمزيد الترغيبِ في الطاعات والزجرِ عن المعاصي ، والجملةُ تذييلٌ

مختصٌ بالتائبين حسبَ اختصاصِ التذييلِ السابقِ بالأولين وناهيك مضمونُهما دليلاً على ما

بين الفريقين من التفاوت النيِّرِ والتباُينِ البيّنِ ، شتانَ بين المحسنين الفائزين بمحبة الله عز وجل

وبين العاملين الحائزين لأُجرتهم وعمالتِهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 2

صـ 87 ﴾ .

" فصل "

قال السيوطى :

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (136)

أخرج ابن جرير عن الحسن أنه قرأ ﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء . . . ﴾ [آل عمران : 134] الآية . ثم قرأ ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة . . . ﴾ الآية فقال : إن هذين النعتين لعنت رجل واحد .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في الآية قال : هذان ذنبان . فعلوا فاحشة ذنب ، وظلموا أنفسهم ذنب .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن جابر بن زيد في قوله ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة ﴾ قال : زنا القوم ورب الكعبة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ فعلوا فاحشة ﴾ قال : الزنا .

وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود أنه ذكر عنده بنو إسرائيل وما فضلهم الله به فقال : كان بنو إسرائيل إذا أذنب أحدهم ذنباً أصبح وقد كتبت كفارته على أسكفة بابه ، وجعلت

كفارة ذنوبكم قولاً تقولونه تستغفرون الله فيغفر لكم . والذي نفسي بيده لقد أعطانا الله آية لهي أحب إليَّ من الدنيا وما فيها ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة . . . ﴾ الآية .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والطبراني وابن أبي الدنيا وابن المنذر والبيهقي عن ابن مسعود قال : إن في كتاب الله لآيتين ما أذنب عبد ذنباً فقرأهما فاستغفر الله إلا غفر له ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة . . . ﴾ الآية . وقوله ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه . . . ﴾ [النساء : 110] الآية .

(96/130)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن ثابت البناني قال : بلغني أن إبليس حين نزلت هذه الآية بكى ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة . . . ﴾ الآية .

وأخرج الحكيم الترمذي عن عطاف بن خالد قال : بلغني أنه لما نزل قوله ﴿ ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا ﴾ صاح إبليس بجنوده ، وحثا على رأسه التراب ، ودعا بالويل والثبور حتى جاءته جنوده من كل بر وبحر . فقالوا : ما لك يا سيدنا ؟ قال : آية نزلت في كتاب الله لا يضر بعدها أحداً من بني آدم ذنب قالوا : ما هي ؟ فاخبرهم قالوا : نفتح لهم باب الأهواء فلا يتوبون ولا يستغفرون ولا يرون إلا أنهم على الحق ، فرضي منهم

ذلك .

وأخرج الطيالسي وأحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن حبان والدارقطني والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن أبي بكر الصديق سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من رجل يذنب ذنباً ثم يقوم فيذكر ذنبه ، فيتطهر ثم يصلي ركعتين ، ثم يستغفر الله من ذنبه ذلك إلا غفر الله له . ثم قرأ هذه الآية ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله ﴾ إلى آخر الآية .

وأخرج البيهقي في الشعب عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أذنب عبد ذنباً ثم توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى بزار من الأرض فصلى فيه ركعتين ، واستغفر الله من ذلك الذنب إلا غفر الله له " .

وأخرج البيهقي عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " كل شيء يتكلم به ابن آدم فانه مكتوب عليه ، فإذا أخطأ خطيئة وأحب أن يتوب إلى الله فليأت بقعة رفيعة ، فليمدد يديه إلى الله ثم ليقل : إني أتوب إليك فيها لا أرجع إليها أبداً ، فانه يغفر له ما لم يرجع في عمله ذلك " .

وأخرج البيهقي في الشعب عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " اللهمَّ اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا ، وإذا أساؤوا استغفروا " .

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " أربعة في حديقة قدس الجنة : المعتصم بلا إله إلا الله لا يشك فيها ، ومن إذا عمل حسنة سرته وحمد الله عليها ، ومن إذا عمل سيئة ساءته واستغفر الله منها ، ومن إذا أصابته مصيبة قال : إنا لله وإنا إليه راجعون " .

وأخرج عبد بن حميد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن رجلاً أذنب ذنباً فقال : رب إني أذنبت ذنباً فاغفره فقال الله : عبدي عمل ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ، ثم عمل ذنباً آخر فقال : رب إني عملت ذنباً فاغفره فقال تبارك وتعالى : علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ، ثم عمل ذنباً آخر فقال : رب إني عملت ذنباً فاغفره فقال الله : علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، أشهدكم إني قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء " .

وأخرج أحمد ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم " .

وأخرج أحمد عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " قال إبليس يا

رب وعزتك لا أزال أغوي بني آدم ما كانت أرواحهم في أجسادهم فقال الله : وعزتي ، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني " .

وأخرج أبو يعلى عن أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار ، فأكثروا منهما فإن إبليس قال : أهلكت الناس بالذنوب ، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء وهم يحسبون أنهم مهتدون " .

وأخرج البزار والبيهقي في الشعب عن أنس قال : " جاء رجل فقال : يا رسول الله إني أذنبت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا أذنبت فاستغفر ربك قال : فإني استغفر ثم أعود فأذنب فقال : إذا أذنبت فاستغفر ربك ، ثم عاد فقال في الرابعة : استغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المحسور " " .

وأخرج البيهقي عن عقبة بن عامر الجهني أن رجلاً قال " يا رسول الله أحدنا يذنب قال : يكتب عليه قال : ثم يستغفر منه ويتوب قال : يغفر له ويتاب عليه قال : فيعود ويذنب قال : يكتب عليه قال : ثم يستغفر منه ويتوب قال : يغفر له ويتاب عليه قال : فيعود ويذنب قال : يكتب عليه قال : ثم يستغفر منه ويتوب قال : يغفر له ويتاب عليه ، ولا يمل الله حتى تملوا

" .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ ولم يصروا على ما فعلوا ﴾ قال : لم يقيموا على ذنب وهم يعلمون أنه يغفر لمن استغفر ، ويتوب على من تاب .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : إياكم والإصرار ، فإنما هلك المصرون الماضون قدماً ، لا ينهاهم مخافة الله عن حرام حرمه الله عليهم ، ولا يتوبون من ذنب أصابوه حتى أتاهم الموت وهم على ذلك .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري في الأدب المفرد وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ارحموا تُرحموا ، واغفروا يُغفر لكم . ويل لأقماع القول يعني الآذان ويل للمصِرّين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون " .

وأخرج ابن أبي الدنيا في التوبة والبيهقي عن ابن عباس قال : كل ذنب أصر عليه العبد كبر وليس بكبير ما تاب منه العبد .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن قال : إتيان الذنب عمداً إصرار حتى يتوب .

وأخرج البيهقي عن الأوزاعي قال : الإصرار أن يعمل الرجل الذنب فيحتقره .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي ﴿ ولم يصروا على ما فعلوا ﴾ فينكبوا ولا يستغفروا وهم يعلمون أنهم قد أذنبوا ، ثم أقاموا ولم يستغفروا .

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والترمذي وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن أبي بكر الصديق قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل ﴿ ونعم أجر العاملين ﴾ بطاعة الله الجنة . انتهى ا . هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 325 . 329 ﴾

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها

ونعم أجر العاملين" ، وفى سورة العنكبوت : "لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين" .

للسائل أن يسأل عن وجه العطف فى الأولى وقوله فى الثانية : "نعم أجر العاملين" غير معطوف على ما قبله .

ووجه ذلك والله أعلم أن الآية الأولى لما وقع فيها ذكر الجزاء مفصلا معطوفا فقيل : " أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها" ناسبه أن عطفت الجملة الممدوح بها الجزاء فقيل : "ونعم أجر العاملين" ولما لم يفصل الجزاء فى سورة العنكبوت ولا وقع فيه عطف جاءت جملة المدح غير معطوفة ليتناسب النظم والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 92.93 ﴾ .

(101/130)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

اعْلَمْ أَنَّ وَضْعَ هَذِهِ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي التَّرْهِيبِ وَالتَّرْغِيبِ وَالْإِنْذَارِ وَالتَّبْشِيرِ فِي سِيَاقِ

الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي قِصَّةِ أُحُدٍ هُوَ مِنْ سُنَّةِ الْقُرْآنِ فِي مَزْجِ فُنُونِ الْكَلَامِ وَضُرُوبِ الْحِكَمِ وَالْأَحْكَامِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ ، وَمَحَلُّ بَيَانِ سَبَبِ ذَلِكَ وَحِكْمَتِهِ مُقَدِّمَةُ التَّفْسِيرِ ، وَقَدْ نُشِيرُ إِلَى بَعْضِهَا أَحْيَانًا فِي تَفْسِيرِ بَعْضِ الْآيَاتِ ، عَلَى أَنَّ هَذِهِ السُّنَّةَ لَا تُنَافِي أَنْ يَكُونَ لِاتِّصَالِ كُلِّ آيَةٍ أَوْ آيَاتٍ بِمَا قَبْلَهَا وَجْهٌ وَجِيهٌ تَتَقَبَّلُهُ الْبَلَاغَةُ بِقَبُولٍ حَسَنٍ كَمَا عُلِمَ مِمَّا سَبَقَ .

قَالَ الرَّازِيُّ هُنَا : " اعْلَمْ أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ قَالَ إِنَّهُ - تَعَالَى - لَمَّا شَرَحَ عَظِيمَ نِعَمِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِإِرْشَادِهِمْ إِلَى الْأَصْلَحِ لَهُمْ فِي أَمْرِ الدِّينِ وَفِي الْجِهَادِ أَتْبَعَ ذَلِكَ بِمَا يَدْخُلُ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّحْذِيرِ ، فَقَالَ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ تَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ ابْتِدَاءَ كَلَامٍ وَلَا تَعَلُّقَ لَهَا بِمَا

قَبْلَهَا ، وَقَالَ الْقَفَّالُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مُتَّصِلًا بِمَا تَقَدَّمَ ، مِنْ جِهَةِ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَنْفَقُوا عَلَى تِلْكَ الْعَسَاكِرِ أَمْوَالًا جَمَعُوهَا

بِسَبَبِ الرِّبَا ، فَلَعَلَّ ذَلِكَ يَصِيرُ دَاعِيًا لِلْمُسْلِمِينَ إِلَى الْإِقْدَامِ عَلَى الرِّبَا حَتَّى يَجْمَعُوا الْمَالَ وَيُنْفِقُوهُ عَلَى الْعَسْكَرِ فَيَتَمَكَّنُونَ مِنَ الِانْتِقَامِ مِنْهُمْ . فَلَا جَرَمَ نَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ اهـ . وَالْأَوَّلُ قَوْلُ بَعْضِ الْمُعْتَزِلَةِ ، وَيُقَالُ فِي الثَّانِي : إِنَّ الْمَرْوِيَّ فِي السِّيَرِ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَنْفَقُوا فِي حَرْبِ

أُحُدٍ مَا رَبِحُوا فِي تِجَارَةِ الْعِيرِ الَّتِي جَاءَتْ مِنَ الشَّامِ عَامَ بَدْرٍ - كَمَا تَقَدَّمَ - فَمَا أَوْرَدَهُ الرَّازِيُّ غَيْرُ وَجِيهٍ .

(103/130)

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَجْهُ الِاتِّصَالِ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَمَا قَبْلَهَا أَنَّ مَا قَبْلَهَا فِي بَيَانِ أَنَّ اللهَ نَصَرَ الْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ أَذِلَّةٌ ، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا نُصِرُوا بِتَقْوَى اللهِ وَامْتِثَالِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ; وَلِذَلِكَ خُذِلُوا فِي أُحُدٍ عِنْدَ الْمُخَالَفَةِ وَالطَّمَعِ فِي الْغَنِيمَةِ ، وَقَدْ جَاءَ هَذَا بَعْدَ النَّهْيِ عَنِ اتِّخَاذِ الْبِطَانَةِ مِنَ الْيَهُودِ وَبَيَانِ أَنَّهُ لَا يَضُرُّ الْمُؤْمِنِينَ كَيْدُ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ مَا اعْتَصَمُوا بِالصَّبْرِ وَالتَّقْوَى ، وَقَدْ كَانَ مِنْ مُوَادَّاتِ الْمُؤْمِنِينَ لِلْيَهُودِ وَاتِّخَاذِ الْبِطَانَةِ مِنْهُمْ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ رَابَى كَمَا كَانُوا يُرَابُونَ ، وَكَانَ الْبَعْضُ الْآخَرُ مَظِنَّةَ أَنْ يُرَابِيَ تَوَسُّلًا لِجَلْبِ الْمَالِ الْمَحْبُوبِ بِسُهُولَةٍ ، فَكَانَ التَّرْتِيبُ فِي الْآيَاتِ هَكَذَا : نَهَاهُمْ عَنِ اتِّخَاذِ الْبِطَانَةِ مِنَ الْيَهُودِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِشُرُوطِهَا الَّتِي هِيَ مَثَارُ الضَّرَرِ ، ثُمَّ بَيَّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ بِهِ ضَرَرَهُمْ وَشَرَّ كَيْدِهِمْ وَهُوَ تَقْوَى اللهِ وَطَاعَتُهُ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ ، ثُمَّ ذَكَّرَهُمْ بِمَا يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ ذَلِكَ طَرْدًا وَعَكْسًا بِذِكْرِ وَقْعَةِ بَدْرٍ وَوَقْعَةِ أُحُدٍ ، ثُمَّ نَهَاهُمْ عَنْ عَمَلٍ آخَرَ مِنْ شَرِّ أَعْمَالِ أُولَئِكَ الْيَهُودِ وَمَنِ اقْتَدَى بِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

وَأَشَدّهَا ضَرَرًا وَهُوَ أَكْلُ الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً (قَالَ) : وَقَدْ كَانَ مَا تَقَدَّمَ تَمْهِيدًا لِهَذَا النَّهْيِ وَحُجَّةً عَلَى أَنَّ الرِّبْحَ الْمُتَوَقَّعَ مِنْهُ لَيْسَ هُوَ سَبَبَ السَّعَادَةِ وَإِنَّمَا سَبَبُهَا مَا ذُكِرَ مِنَ

التَّقْوَى وَالِامْتِثَالِ .

أَقُولُ : وَيُقَوِّي رَأْيَ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ أَنَّ السِّيَاقَ كُلَّهُ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى نَحْوِ سَبْعِينَ آيَةً فِي مُحَاجَّةِ النَّصَارَى ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الْيَهُودِ ، وَوَرَدَتْ قِصَّةُ أُحُدٍ وَمَا فِيهَا مِنَ الْعِبَرِ فِي سِيَاقِ الْكَلَامِ عَنِ الْيَهُودِ ، ثُمَّ بَعْدَ انْتِهَائِهَا يَعُودُ الْكَلَامُ إِلَى الْيَهُودِ وَلَا سِيَّمَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ الْمَالِ وَالنَّفَقَاتِ ، فَلَا غَرْوَ إِذَا ذُكِرَ فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ

الْغَزْوَةِ شَيْءٌ يَتَعَلَّقُ بِالْمَالِ وَإِنْفَاقِهِ وَفِي آخِرِهَا شَيْءٌ يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا مُنَاسَبَةٌ وَاشْتِبَاكٌ بِصِلَةِ الْمُسْلِمِينَ بِالْيَهُودِ ، وَالْحَرْبُ مِمَّا يُسْتَعَانُ عَلَيْهِ بِالْمَالِ ، وَحَالُ الْيَهُودِ فِيهِ مَعْلُومَةٌ . وَالْغَرَضُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْحَثُّ عَلَى بَذْلِ الْمَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَالدِّفَاعِ عَنِ الْمِلَّةِ وَالْأُمَّةِ ، وَالتَّنْفِيرُ عَنِ الطَّمَعِ فِيهِ ، وَشَرُّهُ أَكْلُ الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ; وَلِذَلِكَ قَدَّمَ النَّهْيَ عَنْ هَذَا الشَّرِّ عَلَى الْأَمْرِ بِذَلِكَ الْخَيْرِ تَقْدِيمًا لِلتَّخْلِيَةِ عَلَى التَّحْلِيَةِ فَقَالَ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً هَذَا أَوَّلُ مَا نَزَلَ فِي تَحْرِيمِ الرِّبَا ، وَآيَاتُ الْبَقَرَةِ فِي الرِّبَا نَزَلَتْ بَعْدَ هَذِهِ ، بَلْ هِيَ آخِرُ آيَاتِ الْأَحْكَامِ نُزُولًا ، وَالْمُرَادُ بِالرِّبَا فِيهَا رِبَا الْجَاهِلِيَّةِ الْمَعْهُودُ عِنْدَ الْمُخَاطَبِينَ عِنْدَ نُزُولِهَا لَا مُطْلَقُ الْمَعْنَى اللُّغَوِيِّ الَّذِي هُوَ الزِّيَادَةُ ، فَمَا كُلُّ مَا يُسَمَّى زِيَادَةً مُحَرَّمٌ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : "يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا فِي إِسْلَامِكُمْ ، بَعْدَ إِذْ هَدَاكُمْ لَهُ كَمَا كُنْتُمْ تَأْكُلُونَهُ

فِي جَاهِلِيَّتِكُمْ ، وَكَانَ أَكْلُهُمْ ذَلِكَ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَكُونُ لَهُ عَلَى الرَّجُلِ مَالٌ إِلَى أَجَلٍ ، فَإِذَا حَلَّ الْأَجَلُ طَلَبَهُ مِنْ صَاحِبِهِ ، فَيَقُولُ لَهُ الَّذِي عَلَيْهِ الْمَالُ : أَخِّرْ عَنِّي دَيْنَكَ وَأَزِيدُكَ عَلَى مَالِكَ ، فَيَفْعَلَانِ ذَلِكَ ، فَذَلِكَ هُوَ الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ، فَنَهَاهُمُ اللَّهُ – عَزَّ وَجَلَّ – فِي إِسْلَامِهِمْ عَنْهُ" ثُمَّ ذَكَرَ بَعْضَ الرِّوَايَاتِ فِي ذَلِكَ فَمِنْهَا عَنْ عَطَاءٍ : كَانَتْ ثَقِيفُ تُدَايِنُ فِي بَنِي الْمُغِيرَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَإِذَا حَلَّ الْأَجَلُ قَالُوا : نَزِيدُكُمْ وَتُؤَخِّرُونَ . وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ فِي الْآيَةِ : " رِبَا الْجَاهِلِيَّةِ " وَعَنِ ابْنِ زَيْدٍ قَالَ : كَانَ أَبِي زَيْدٌ (الْعَالِمُ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ) يَقُولُ : " إِنَّمَا كَانَ الرِّبَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فِي التَّضْعِيفِ وَفِي السِّنِّ : يَكُونُ

لِلرَّجُلِ فَضْلُ دَيْنٍ فَيَأْتِيهِ إِذَا حَلَّ الْأَجَلُ فَيَقُولُ لَهُ : تَقْضِينِي أَوْ تَزِيدُنِي ; فَإِذَا كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ يَقْضِيهِ قَضَى وَإِلَّا حَوَّلَهُ إِلَى السِّنِّ الَّتِي فَوْقَ ذَلِكَ إِنْ كَانَتِ ابْنَةَ مَخَاضٍ يَجْعَلُهَا ابْنَةَ لَبُونٍ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ ثُمَّ حِقَّةً ثُمَّ جَذَعَةً ثُمَّ رُبَاعِيًّا ثُمَّ هَكَذَا إِلَى فَوْقٍ . وَفِي الْعَيْنِ (النُّقُودِ) يَأْتِيهِ فَإِنْ

لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ أَضْعَفَهُ فِي الْعَامِ الْقَابِلِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ أَضْعَفَهُ أَيْضًا فَتَكُونُ مِائَةً فَيَجْعَلُهَا إِلَى قَابِلٍ مِائَتَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ جَعَلَهَا أَرْبَعَمِائَةٍ يُضْعِفُهَا لَهُ كُلَّ سَنَةٍ أَوْ يَقْضِيهِ قَالَ : فَهَذَا قَوْلُهُ - تَعَالَى - : لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً .

فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ هَذَا الَّذِي فَسَّرَ بِهِ زَيْدٌ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) الْآيَةَ هُوَ مِنَ الرِّبَا الْفَاحِشِ الْمَعْرُوفِ فِي هَذَا الزَّمَانِ بِالْمُرَكَّبِ ، وَتَرَى أَنَّ مَا قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَمَنْ رُوِيَ عَنْهُمْ مِنَ السَّلَفِ فِي تَصْوِيرِ الرِّبَا كُلِّهِ فِي اقْتِضَاءِ الدَّيْنِ بَعْدَ حُلُولِ الْأَجَلِ وَلَا شَيْءَ مِنْهُ فِي الْعَقْدِ الْأَوَّلِ كَأَنْ يُعْطِيَهُ الْمِائَةَ بِمِائَةٍ وَعَشَرَةٍ ، أَوْ أَكْثَرَ أَوْ أَقَلَّ ، وَكَأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْتَفُونَ فِي الْعَقْدِ الْأَوَّلِ بِالْقَلِيلِ فَإِذَا حَلَّ الْأَجَلُ وَلَمْ يَقْضِ الْمَدِينُ - وَهُوَ فِي قَبْضَتِهِمْ - اضْطَرُّوهُ إِلَى قَبُولِ التَّضْعِيفِ فِي مُقَابَلَةِ الْإِنْسَاءِ وَمَا قَالُوهُ هُوَ الْمَرْوِيُّ عَنْ عَامَّةِ أَهْلِ الْأَثَرِ وَمِنْهُ عِبَارَةُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ الشَّهِيرَةُ الَّتِي أَوْرَدْنَاهَا فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْبَقَرَةِ ص95 ج3 [طَبْعَةُ الْهَيْئَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْعَامَّةِ لِلْكِتَابِ] وَهِيَ أَنَّهُ لَمَّا سُئِلَ عَنِ

الرِّبَا الَّذِي لَا يُشَكُّ فِيهِ قَالَ : " هُوَ أَنْ يَكُونَ لَهُ دَيْنٌ فَيَقُولَ لَهُ : أَتَقْضِي أَمْ تُرْبِي ؟ فَإِنْ لَمْ يَقْضِ زَادَهُ فِي الْمَالِ وَزَادَهُ هَذَا فِي الْأَجَلِ " وَهَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ فِي الشَّرْعِ بِرِبَا النَّسِيئَةِ .

(108/130)

وَذَكَرَ ابْنُ حَجَرٍ الْمَكِّيُّ فِي الزَّوَاجِرِ : أَنَّ رِبَا الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ الْإِنْسَاءُ فِيهِ بِالشُّهُورِ فَإِنَّهُ قَالَ بَعْدَ ذِكْرِ أَنْوَاعِ الرِّبَا : " وَرِبَا النَّسِيئَةِ هُوَ الَّذِي كَانَ مَشْهُورًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ; لِأَنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْفَعُ مَالَهُ لِغَيْرِهِ إِلَى أَجَلٍ عَلَى أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ كُلَّ شَهْرٍ قَدْرًا مُعَيَّنًا وَرَأْسُ الْمَالِ بَاقٍ بِحَالِهِ

(109/130)

فَإِذَا حَلَّ طَالَبَهُ بِرَأْسِ مَالِهِ ، فَإِنْ تَعَذَّرَ عَلَيْهِ الْأَدَاءُ زَادَهُ فِي الْحَقِّ وَالْأَجَلِ ، وَتَسْمِيَةُ هَذَا نَسِيئَةً مَعَ أَنَّهُ يَصْدُقُ عَلَيْهِ رِبَا الْفَضْلِ أَيْضًا ; لِأَنَّ النَّسِيئَةَ هِيَ الْمَقْصُودَةُ مِنْهُ بِالذَّاتِ ، وَهَذَا النَّوْعُ مَشْهُورٌ الْآنَ بَيْنَ النَّاسِ وَوَاقِعٌ كَثِيرًا . وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - لَا يُحَرِّمُ إِلَّا رِبَا النَّسِيئَةِ مُحْتَجًّا بِأَنَّهُ الْمُتَعَارَفُ بَيْنَهُمْ فَيَنْصَرِفُ النَّصُّ إِلَيْهِ " انْتَهَى الْمُرَادُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ حَجَرٍ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْأَحَادِيثَ صَحَّتْ بِتَحْرِيمِ سَائِرِ أَنْوَاعِ الرِّبَا ، وَمَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ مِنْ أَنَّ

نَصَّ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ يَنْصَرِفُ إِلَى رِبَا النَّسِيئَةِ الَّذِي كَانَ مَعْرُوفًا عِنْدَهُمْ مُتَعَيِّنٌ ، وَهُوَ مَا جَرَيْنَا عَلَيْهِ هُنَا وَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، إِذْ جَعَلْنَا حَرْفَ التَّعْرِيفِ فِيهِ لِلْعَهْدِ وَهُوَ الْمُرَادُ أَيْضًا بِحَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ إِنَّمَا الرِّبَا فِي النَّسِيئَةِ وَفِي لَفْظٍ لَا رِبَا إِلَّا فِي النَّسِيئَةِ وَكَانَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ يُبِيحُ رِبَا الْفَضْلِ كَأُسَامَةَ وَابْنِ عُمَرَ ، وَمَنْ حَرَّمَهُ حَرَّمَهُ بِالْحَدِيثِ لَا بِنَصِّ الْقُرْآنِ .

وَأَمَّا رِبَا الْفَضْلِ فَإِنَّمَا حُرِّمَ لِسَدِّ الذَّرِيعَةِ كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ ، وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : لَا تَبِيعُوا الدِّرْهَمَ بِالدِّرْهَمَيْنِ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ الرَّمَاءَ .

وَقَدْ غَفَلَ عَنْ هَذَا الْفُقَهَاءُ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ الرِّبَا قِسْمَانِ : أَحَدُهُمَا مَعْقُولُ الْمَعْنَى وَالْآخَرُ تَعَبُّدِيٌّ ، أَيْ إِنَّ الْأَوَّلَ مُحَرَّمٌ لِمَا فِيهِ مِنَ الضَّرَرِ الْعَظِيمِ وَهُوَ رِبَا النَّسِيئَةِ - وَقَدْ بَيَّنَّا وَجْهَ ضَرَرِ الرِّبَا فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِالتَّفْصِيلِ - وَالثَّانِي لَا يُعْرَفُ سَبَبُ تَحْرِيمِهِ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ ضَرَرٌ وَهُوَ مَا يُعَبِّرُونَ عَنْهُ بِالتَّعَبُّدِيِّ ، أَيْ أَنَّهُ حَرُمَ عَلَيْنَا لِنَتْرُكَهُ عِبَادَةً لِلَّهِ وَامْتِثَالًا لِأَمْرِهِ فَقَطْ ، وَهَذَا غَلَطٌ ظَاهِرٌ ، وَالصَّوَابُ مَا قَالَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي إِعْلَامِ الْمُوَقِّعِينَ وَهُوَ :

الرِّبَا نَوْعَانِ: جَلِيٌّ وَخَفِيٌّ. فَالْجَلِيُّ حُرِّمَ لِمَا فِيهِ مِنَ الضَّرَرِ الْعَظِيمِ، وَالْخَفِيُّ حُرِّمَ لِأَنَّهُ ذَرِيعَةٌ إِلَى الْجَلِيِّ، فَتَحْرِيمُ الْأَوَّلِ قَصْدٌ وَتَحْرِيمُ الثَّانِي وَسِيلَةٌ، فَأَمَّا الْجَلِيُّ فَرِبَا النَّسِيئَةِ وَهُوَ الَّذِي كَانُوا يَفْعَلُونَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِثْلَ أَنْ يُؤَخِّرَ دَيْنَهُ وَيَزِيدَهُ فِي الْمَالِ، وَكُلَّمَا أَخَّرَهُ زَادَ فِي الْمَالِ حَتَّى

تَصِيرَ الْمِائَةُ آلَافًا مُؤَلَّفَةً، وَفِي الْغَالِبِ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا مُعْدِمٌ مُحْتَاجٌ، فَإِذَا رَأَى الْمُسْتَحِقَّ يُؤَخِّرُ

(111/130)

مُطَالَبَتَهُ وَيَصْبِرُ عَلَيْهِ بِزِيَادَةٍ يَبْذُلُهَا لَهُ; تَكَلَّفَ بَذْلَهَا لِيَفْتَدِيَ مِنْ أَسْرِ الْمُطَالَبَةِ وَالْحَبْسِ، وَيُدَافِعُ مِنْ وَقْتٍ إِلَى وَقْتٍ، فَيَشْتَدُّ ضَرَرُهُ وَتَعْظُمُ مُصِيبَتُهُ، وَيَعْلُوهُ الدَّيْنُ حَتَّى يَسْتَغْرِقَ جَمِيعَ مَوْجُودِهِ، فَيَرْبُو الْمَالُ عَلَى الْمُحْتَاجِ مِنْ غَيْرِ نَفْعٍ يَحْصُلُ لَهُ، وَيَزِيدُ مَالُ الْمُرَابِي مِنْ غَيْرِ نَفْعٍ يَحْصُلُ مِنْهُ لِأَخِيهِ فَيَأْكُلُ مَالَ أَخِيهِ بِالْبَاطِلِ وَيَحْصُلُ أَخُوهُ عَلَى غَايَةِ الضَّرَرِ، فَمِنْ رَحْمَةِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ وَحِكْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى خَلْقِهِ أَنْ حَرَّمَ الرِّبَا وَلَعَنَ آكِلَهُ وَمُوكِلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدَيْهِ، وَآذَنَ مَنْ لَمْ يَدَعْهُ بِحَرْبِهِ وَحَرْبِ رَسُولِهِ، وَلَمْ يَجِئْ مِثْلُ هَذَا الْوَعِيدِ فِي كَبِيرَةٍ غَيْرِهِ; وَلِهَذَا كَانَ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ" اهـ. ثُمَّ ذَكَرَ عَقِبَ هَذَا كَلِمَةَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي الرِّبَا

الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ - وَقَدْ ذَكَرْنَاهَا آنِفًا - وَيَعْنِي بِذِكْرِهَا هُنَا أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الرِّبَا الَّذِي يُعَدُّ أَكْبَرَ الْكَبَائِرِ لَا الرِّبَا الَّذِي حُرِّمَ لِسَدِّ الذَّرِيعَةِ كَرِبَا الْفَضْلِ ; فَإِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا كَالْفَرْقِ بَيْنَ الزِّنَا وَالنَّظَرِ إِلَى الْأَجْنَبِيَّةِ بِشَهْوَةٍ أَوْ لَمْسِ يَدِهَا كَذَلِكَ أَوِ الْخَلْوَةِ بِهَا وَلَوْ مَعَ عَدَمِ الشَّهْوَةِ ; لِأَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ لَيْسَتْ مُحَرَّمَةً لِذَاتِهَا بَلْ لِسَدِّ الذَّرِيعَةِ، أَيْ لِئَلَّا تَكُونَ وَسِيلَةً إِلَى الزِّنَا الْمُحَرَّمِ لِذَاتِهِ ، وَالْوَعِيدُ الشَّدِيدُ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى الْمُحَرَّمِ الشَّدِيدِ ضَرَرُهُ كَالزِّنَا وَأَكْلِ الرِّبَا

(112/130)

الْمُضَاعَفِ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَسِفًا تَائِبًا مِنْ ذَنْبٍ ارْتَكَبَهُ - وَهُوَ تَقْبِيلُ امْرَأَةٍ فِي الطَّرِيقِ - وَسَأَلَهُ عَنْ كَفَّارَةِ ذَلِكَ فَأَخْبَرَهُ بِأَنَّ صَلَاةَ الْجَمَاعَةِ كَفَّارَةٌ لَهُ أَيْ مَعَ التَّوْبَةِ ، قَالُوا وَفِي ذَلِكَ نَزَلَ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ [11 : 144] وَلَوْ كَانَ زَنَا بِهَا لَأَقَامَ عَلَيْهِ الْحَدَّ وَلَمْ يَرْحَمْهُ . فَقَوْلُ ابْنِ حَجَرٍ إِنَّ مَا وَرَدَ مِنَ الْوَعِيدِ عَلَى الرِّبَا شَامِلٌ لِجَمِيعِ أَنْوَاعِهِ خَطَأٌ ; فَإِنَّ مِنْهَا عِنْدَهُ بَيْعَ قِطْعَةٍ مِنَ الْحُلِيِّ كَسِوَارٍ بِأَكْثَرَ مِنْ وَزْنِهَا دَنَانِيرَ، أَوْ بَيْعَ كَيْلٍ مِنَ التَّمْرِ الْجَيِّدِ بِكَيْلٍ وَحَفْنَةٍ مِنَ التَّمْرِ الرَّدِيءِ مَعَ تَرَاضِي الْمُتَبَايِعَيْنِ وَحَاجَةِ كُلٍّ مِنْهُمَا إِلَى مَا أَخَذَهُ ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يَدْخُلُ فِي نَهْيِ الْقُرْآنِ وَلَا فِي وَعِيدِهِ وَلَا يَصِحُّ أَنْ يُقَاسَ عَلَيْهِ ، كَمَا لَا يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ خَلْوَةَ الرَّجُلِ بِامْرَأَةٍ لَا

يَشْتَهِيهَا وَلَا تَشْتَهِيهِ كَالزِّنَا فِي حُرْمَتِهِ وَوَعِيدِهِ . وَقَدْ صَرَّحَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِأَنَّهُ إِنَّمَا نَهَى عَنْ رِبَا الْفَضْلِ ; لِأَنَّهُ يَخْشَى أَنْ يَكُونَ ذَرِيعَةً لِلرِّبَا الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَتَوَعَّدَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ تَسْمِيَتُهُ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ الْأُخْرَى رِبًا ، فَقَدْ أَطْلَقَ اسْمَ الرِّبَا عَلَى الْمَعَاصِي الْقَوْلِيَّةِ الَّتِي لَا دَخْلَ لِلْمُعَامَلَاتِ الْمَالِيَّةِ فِيهَا كَالْغِيبَةِ

، فَفِي حَدِيثِ الْبَزَّارِ .

بِسَنَدٍ قَوِيٍّ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي الزَّوَاجِرِ مِنْ أَرْبَى الرِّبَا اسْتِطَالَةُ الْمَرْءِ فِي عِرْضِ أَخِيهِ أَيْ غِيبَتُهُ . وَحَدِيثُ أَبِي يَعْلَى بِسَنَدٍ صَحِيحٍ كَمَا صَرَّحَ بِهِ أَيْضًا أَتَدْرُونَ أَرْبَى الرِّبَا عِنْدَ اللَّهِ ؟ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ فَإِنَّ أَرْبَى الرِّبَا عِنْدَ اللَّهِ اسْتِحْلَالُ عِرْضِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا [33 : 58] وَفِي مَعْنَاهُمَا أَحَادِيثُ أُخْرَى عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ وَابْنِ أَبِي الدُّنْيَا وَالطَّبَرَانِيِّ

وَالْبَيْهَقِيِّ . بَلْ فَسَّرَ بَعْضُهُمُ الرِّبَا فِي قَوْلِهِ : وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا [30 : 39] بِالْهَدِيَّةِ وَالْعَطِيَّةِ الَّتِي يُتَوَقَّعُ بِهَا مَزِيدُ مُكَافَأَةٍ .

الْمُحَرَّمُ لِذَاتِهِ لَا يُبَاحُ إلَّا لِضَرُورَةٍ كَأَكْلِ الْمَيْتَةِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ ، وَمَا كُلُّ مُحَرَّمٍ تُلْجِئُ إلَيْهِ الضَّرُورَةُ ، وَالْمُحَرَّمُ لِسَدِّ الذَّرِيعَةِ قَدْ يُبَاحُ لِلْحَاجَةِ . قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي إعْلَامِ الْمُوَقِّعِينَ : " وَأَمَّا رِبَا الْفَضْلِ فَأُبِيحَ مِنْهُ مَا تَدْعُو إلَيْهِ الْحَاجَةُ كَالْعَرَايَا فَإِنَّهُ مَا حُرِّمَ تَحْرِيمَ الْمَقَاصِدِ " ثُمَّ أَفَاضَ الْقَوْلَ فِي حِلِّ بَيْعِ الْحُلِيِّ الْمُبَاحِ بِأَكْثَرَ مِنْ وَزْنِهِ مِنْ جِنْسِهِ وَحَقَّقَ أَنَّ لِلصَّنْعَةِ قِيمَةً فِي نَفْسِهَا ثُمَّ قَالَ : "يُوَضِّحُهُ أَنَّ تَحْرِيمَ رِبَا الْفَضْلِ إنَّمَا كَانَ لِسَدِّ الذَّرِيعَةِ - كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ - وَمَا حُرِّمَ سَدًّا لِلذَّرِيعَةِ أُبِيحَ لِلْمَصْلَحَةِ الرَّاجِحَةِ ، كَمَا أُبِيحَتِ الْعَرَايَا مِنْ رِبَا الْفَضْلِ وَكَمَا أُبِيحَتْ ذَوَاتُ الْأَسْبَابِ مِنَ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ ، وَكَمَا أُبِيحَ النَّظَرُ - أَيْ إلَى الْمَرْأَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ - لِلْخَاطِبِ وَالشَّاهِدِ وَالطَّبِيبِ وَالْعَامِلِ مِنْ جُمْلَةِ النَّظَرِ الْمُحَرَّمِ ، وَكَذَلِكَ تَحْرِيمُ الذَّهَبِ وَالْحَرِيرِ عَلَى الرِّجَالِ حُرِّمَ لِسَدِّ ذَرِيعَةِ التَّشَبُّهِ بِالنِّسَاءِ الْمَلْعُونِ فَاعِلُهُ وَأُبِيحَ مِنْهُ مَا تَدْعُو إلَيْهِ الْحَاجَةُ ، وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يُبَاحَ بَيْعُ الْحِلْيَةِ الْمَصُوغَةِ صِيَاغَةً مُبَاحَةً بِأَكْثَرَ مِنْ وَزْنِهَا لِأَنَّ الْحَاجَةَ تَدْعُو إلَى ذَلِكَ ، وَتَحْرِيمُ التَّفَاضُلِ إنَّمَا كَانَ لِسَدِّ الذَّرِيعَةِ ; فَهَذَا مَحْضُ الْقِيَاسِ وَمُقْتَضَى أُصُولِ الشَّرْعِ وَلَا تَتِمُّ مَصْلَحَةُ النَّاسِ إلَّا بِهِ أَوْ بِالْحِيَلِ ،

وَالْحِيَلَ بَاطِلَةٌ فِي الشَّرْعِ" إِلَى آخِرِ مَا قَالَهُ، وَقَدْ أَوْرَدْنَاهُ بِرُمَّتِهِ فِي الْمَنَارِ (ص 540 م 9) إِنَّمَا تَعَرَّضْتُ هُنَا لِرِبَا الْفَضْلِ وَهُوَ لَيْسَ مِمَّا تَتَنَاوَلُهُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ لِلتَّفْرِقَةِ، وَلِأَنَّ مَسْأَلَةَ الرِّبَا قَدْ قَامَتْ لَهَا الْبِلَادُ الْمِصْرِيَّةُ وَقَعَدَتْ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ، وَاقْتَرَحَ كَثِيرُونَ إِنْشَاءَ بَنْكٍ إِسْلَامِيٍّ وَأُلْقِيَتْ فِيهَا خُطَبٌ كَثِيرَةٌ فِي نَادِي دَارِ الْعُلُومِ بِالْقَاهِرَةِ خَالَفَ فِيهَا بَعْضُ الْخُطَبَاءِ بَعْضًا فَمَالَ بَعْضُهُمْ إِلَى مَنْعِ كُلِّ مَا عَدَّهُ الْفُقَهَاءُ مِنَ الرِّبَا، وَأَنْحَى بَعْضُهُمْ عَلَى الْفُقَهَاءِ وَلَمْ يَعْتَدَّ بِقَوْلِهِمْ، وَمَالَ آخَرُونَ إِلَى عَدَمِ مَنْعِ رِبَا الْفَضْلِ أَوِ الْمُضَاعَفِ، فَغَلَا بَعْضُهُمْ وَتَوَسَّطَ بَعْضٌ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِتَحْرِيرِ الْبَحْثِ وَإِقْنَاعِ النَّاسِ بِشَيْءٍ يَسْتَقِرُّ عَلَيْهِ الرَّأْيُ، وَفِي اللَّيْلَةِ الَّتِي خُتِمَ فِيهَا هَذَا الْبَحْثُ أَلْقَى كَاتِبُ هَذَا خِطَابًا وَجِيزًا فِي الْمَسْأَلَةِ قَالَ رَئِيسُ النَّادِي حِفْنِي بِكْ نَاصِفْ فِي خُطْبَتِهِ الْخِتَامِيَّةِ: إِنَّهُ فَصْلُ الْخِطَابِ وَرَغِبَ إِلَيْنَا هُوَ (رَئِيسُ النَّادِي) وَغَيْرُهُ أَنْ نُدَوِّنَهُ، وَهَذَا هُوَ بِالْمَعْنَى:

إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قَدْ حَرَّمَ رِبَا النَّسِيئَةِ الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِ الْجَاهِلِيَّةُ تَحْرِيمًا صَرِيحًا وَنَهَى عَنْهُ نَهْيًا مُؤَكَّدًا، وَوَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ تَحْرِيمُ رِبَا الْفَضْلِ وَالنَّهْيُ عَنْهُ، فَالْبَحْثُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

(الْوَجْهُ الْأَوَّلُ) النَّظَرُ فِيهَا مِنَ الْجِهَةِ النَّظَرِيَّةِ الْمَعْقُولَةِ فَنَقُولُ : إِنَّ كُلَّ مَا جَاءَ بِهِ الْإِسْلَامُ مِنَ الْأَحْكَامِ الثَّانِيَةِ ! الْمُحْكَمَةِ فَهُوَ خَيْرٌ وَإِصْلَاحٌ لِلْبَشَرِ وَمُوَافِقٌ لِمَصَالِحِهِمْ مَا تَمَسَّكُوا بِهِ ، وَلَكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَظُنُّ الْيَوْمَ أَنَّ إِبَاحَةَ الرِّبَا رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْمَدَنِيَّةِ لَا تَقُومُ بِدُونِهِ ، فَالْأُمَّةُ الَّتِي لَا تَتَعَامَلُ بِالرِّبَا لَا تَرْتَقِي مَدَنِيَّتُهَا وَلَا يُحْفَظُ كِيَانُهَا ، وَهَذَا بَاطِلٌ فِي نَفْسِهِ ، إِذْ لَوْ فَرَضْنَا أَنْ تَرَكَتْ جَمِيعُ الْأُمَمِ أَكْلَ الرِّبَا فَصَارَ الْوَاجِدُونَ فِيهَا يُقْرِضُونَ الْعَادِمِينَ قَرْضًا حَسَنًا ، وَيَتَصَدَّقُونَ عَلَى الْبَائِسِينَ وَالْمُعْوِزِينَ ، وَيَكْتَفُونَ بِالْكَسْبِ مِنْ مَوَارِدِهِ الطَّبِيعِيَّةِ كَالزِّرَاعَةِ وَالصِّنَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ وَالشَّرِكَاتِ وَمِنْهَا الْمُضَارَبَةُ لَمَا زَادَتْ مَدَنِيَّتُهُمْ إِلَّا ارْتِقَاءً بِبِنَائِهَا عَلَى أَسَاسِ الْفَضِيلَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالتَّعَاوُنِ الَّذِي يُحَبِّبُ الْغَنِيَّ إِلَى الْفَقِيرِ وَلَمَا وُجِدَ فِيهَا الِاشْتِرَاكِيُّونَ الْغَالُونَ ، وَالْفَوْضَوِيُّونَ الْمُتَغَالُونَ ، وَقَدْ قَامَتْ لِلْعَرَبِ مَدَنِيَّةٌ إِسْلَامِيَّةٌ لَمْ يَكُنِ الرِّبَا مِنْ أَرْكَانِهَا فَكَانَتْ خَيْرَ مَدَنِيَّةٍ فِي زَمَنِهِمْ ، فَمَا شَرَعَهُ الْإِسْلَامُ مِنْ مَنْعِ الرِّبَا عَنِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْمَدَنِيَّةِ وَالْفَضِيلَةِ ، وَهُوَ أَفْضَلُ هِدَايَةٍ لِلْبَشَرِ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا .

(الْوَجْهُ الثَّانِي) النَّظَرُ فِيهَا مِنَ الْجِهَةِ الْعَمَلِيَّةِ بِحَسَبِ حَالِ الْمُسْلِمِينَ الْآنَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْبِلَادِ فَإِنَّنَا نَرَى كَثِيرِينَ يُوَافِقُونَنَا عَلَى أَنَّهُ لَوْ وُجِدَ لِلْإِسْلَامِ دُوَلٌ قَوِيَّةٌ وَأُمَمٌ عَزِيزَةٌ تُقِيمُ الشَّرْعَ وَتَهْتَدِي بِهَدْيِ الْقُرْآنِ لَأَمْكَنَهَا الِاسْتِغْنَاءُ عَنِ الرِّبَا ، وَلَكَانَتْ مَدَنِيَّتُهَا بِذَلِكَ أَفْضَلَ ، فَلَا اعْتِرَاضَ عَلَى الْإِسْلَامِ فِي تَحْرِيمِ الرِّبَا ، لِأَنَّ شَرْعَهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُبِيحَ الرِّبَا ، وَهُوَ دِينٌ غَرَضُهُ تَهْذِيبُ النُّفُوسِ وَإِصْلَاحُ حَالِ الْمُجْتَمَعِ لَا تَوْفِيرُ ثَرْوَةِ بَعْضِ الْأَفْرَادِ مِنْ أَهْلِ الْأَثَرَةِ ، وَلَكِنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّنَا نَعِيشُ فِي زَمَنٍ لَيْسَ فِيهِ أُمَمٌ إِسْلَامِيَّةٌ ذَاتُ دُوَلٍ قَوِيَّةٍ تُقِيمُ الْإِسْلَامَ وَتَسْتَغْنِي عَمَّنْ يُخَالِفُهَا فِي أَحْكَامِهَا ، وَإِنَّمَا زِمَامُ الْعَالَمِ فِي أَيْدِي أُمَمٍ مَادِّيَّةٍ قَدْ قَبَضَتْ عَلَى أَزِمَّةِ الثَّرْوَةِ فِي الْعَالَمِ حَتَّى صَارَ سَائِرُ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ عِيَالًا عَلَيْهَا . فَمَنْ جَارَاهَا مِنْهُمْ فِي طُرُقِ كَسْبِهَا - وَالرِّبَا مِنْ أَرْكَانِهِ - فَهُوَ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يَحْفَظَ وُجُودَهُ مَعَهَا . وَمَنْ لَمْ يُجَارِهَا فِي ذَلِكَ انْتَهَى أَمْرُهُ بِأَنْ يَكُونَ مُسْتَعْبَدًا لَهَا ، فَهَلْ يُبِيحُ الْإِسْلَامُ لِشَعْبٍ مُسْلِمٍ - هَذِهِ حَالُهُ مَعَ الْأُورُوبِّيِّينَ كَالشَّعْبِ الْمِصْرِيِّ - أَنْ يَتَعَامَلَ بِالرِّبَا لِيَحْفَظَ ثَرْوَتَهُ وَيُنَمِّيَهَا فَيَكُونَ أَهْلًا لِلِاسْتِقْلَالِ أَمْ يُحَرِّمُ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَالْحَالَةُ حَالَةُ ضَرُورَةٍ - وَيُوجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى بِاسْتِنْزَافِ الْأَجْنَبِيِّ

لِثَرْوَتِهِ وَهِيَ مَادَّةُ حَيَاتِهِ ؟

هَذَا مَا يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنْ مُسْلِمِي مِصْرَ الْآنَ .

وَالْجَوَابُ عَنْهُ - بَعْدَ تَقْرِيرِ قَاعِدَةِ أَنَّ الْإِسْلَامَ يُوَافِقُ مَصَالِحَ الْآخِذِينَ بِهِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ - مِنْ وَجْهَيْنِ يُوَجَّهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى فَرِيقٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

أَمَّا الْأَوَّلُ فَيُوَجَّهُ إِلَى فَرِيقِ الْمُقَلِّدِينَ - وَهُمْ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ - فَيُقَالُ لَهُمْ : إِنَّ فِي مَذَاهِبِكُمُ الَّتِي تَتَقَلَّدُونَهَا مَخْرَجًا مِنْ هَذِهِ الضَّرُورَةِ الَّتِي تَدَّعُونَهَا ، وَذَلِكَ بِالْحِيلَةِ الَّتِي أَجَازَهَا الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ الَّذِي يَنْتَمِي إِلَى مَذْهَبِهِ أَكْثَرُ أَهْلِ هَذَا الْقُطْرِ ، وَالْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ الَّذِي يَتَحَاكَمُونَ عَلَى مَذْهَبِهِ كَافَّةً ، وَمِثْلُهُمْ فِي ذَلِكَ أَهْلُ الْمَمْلَكَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ الَّتِي أُنْشِئَتْ فِيهَا مَصَارِفُ (بُنُوكُ) الزِّرَاعَةِ بِأَمْرِ السُّلْطَانِ ، وَهِيَ تُقْرِضُ بِالرِّبَا الْمُعْتَدِلِ مَعَ إِجْرَاءِ حِيلَةِ الْمُبَايَعَةِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْمُبَايَعَةَ الشَّرْعِيَّةَ .

وَأَمَّا الثَّانِي فَيُوَجَّهُ إِلَى أَهْلِ الْبَصِيرَةِ فِي الدِّينِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الدَّلِيلَ وَيَتَحَرَّوْنَ مَقَاصِدَ الشَّرْعِ فَلَا يُبِيحُونَ لِأَنْفُسِهِمُ الْخُرُوجَ عَنْهَا بِحِيلَةٍ وَلَا تَأْوِيلٍ ، فَيُقَالُ لَهُمْ : إِنَّ

الْإِسْلَامَ كُلَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى قَاعِدَةِ الْيُسْرِ وَرَفْعِ الْحَرَجِ وَالْعُسْرِ الثَّابِتَةِ بِنَصِّ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ [2 : 185] وَقَوْلِهِ : مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ [5 : 6] وَإِنَّ الْمُحَرَّمَاتِ فِي الْإِسْلَامِ قِسْمَانِ : الْأَوَّلُ مَا هُوَ مُحَرَّمٌ لِذَاتِهِ لِمَا فِيهِ مِنَ الضَّرَرِ وَهُوَ لَا يُبَاحُ إِلَّا لِضَرُورَةٍ ، وَمِنْهُ رِبَا النَّسِيئَةِ الْمُتَّفَقُ عَلَى تَحْرِيمِهِ ، وَهُوَ مِمَّا لَا تَظْهَرُ الضَّرُورَةُ إِلَى أَكْلِهِ ، أَيْ إِلَى أَنْ يُقْرِضَ الْإِنْسَانُ غَيْرَهُ فَيَأْكُلَ مَالَهُ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ، كَمَا تَظْهَرُ فِي أَكْلِ الْمَيْتَةِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ أَحْيَانًا . وَالثَّانِي مَا هُوَ مُحَرَّمٌ لِغَيْرِهِ كَرِبَا الْفَضْلِ الْمُحَرَّمِ لِئَلَّا يَكُونَ ذَرِيعَةً وَسَبَبًا لِرِبَا النَّسِيئَةِ وَهُوَ يُبَاحُ لِلضَّرُورَةِ بَلْ وَلِلْحَاجَةِ كَمَا قَالَهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ وَأَوْرَدَ لَهُ الْأَمْثِلَةَ مِنَ الشَّرْعِ فَقَسَّمَ الرِّبَا إِلَى جَلِيٍّ وَخَفِيٍّ وَعَدَّهُ مِنَ الْخَفِيِّ (وَقَدْ ذَكَرْنَا عِبَارَتَهُ آنِفًا) .

(120/130)

فَأَمَّا الْأَفْرَادُ مِنْ أَهْلِ الْبَصِيرَةِ فَيَعْرِفُ كُلٌّ مِنْ نَفْسِهِ هَلْ هُوَ مُضْطَرٌّ أَوْ مُحْتَاجٌ إِلَى أَكْلِ هَذَا الرِّبَا وَإِيكَالِهِ غَيْرَهُ فَلَا كَلَامَ لَنَا فِي الْأَفْرَادِ ، وَإِنَّمَا الْمُشْكِلُ تَحْدِيدُ ضَرُورَةِ الْأُمَّةِ أَوْ حَاجَتِهَا فَهُوَ الَّذِي فِيهِ التَّنَازُعُ ، وَعِنْدِي أَنَّهُ لَيْسَ لِفَرْدٍ مِنَ الْأَفْرَادِ أَنْ يَسْتَقِلَّ بِذَلِكَ ، وَإِنَّمَا يُرَدُّ مِثْلُ هَذَا الْأَمْرِ إِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنَ الْأُمَّةِ ، أَيْ أَصْحَابِ الرَّأْيِ وَالشَّأْنِ فِيهَا وَالْعِلْمِ بِمَصَالِحِهَا عَمَلًا

بقَوْلِه – تَعَالَى – فِي مِثْلِه مِنَ الْأُمُورِ الْعَامَّةِ : وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ [4 : 83] فَالرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ يَجْتَمِعَ أُولُو الْأَمْرِ مِنْ مُسْلِمِي هَذِهِ الْبِلَادِ – وَهُمْ كِبَارُ الْعُلَمَاءِ الْمُدَرِّسِينَ وَالْقُضَاةُ وَرِجَالُ الشُّورَى وَالْمُهَنْدِسُونَ وَالْأَطِبَّاءُ وَكِبَارُ الْمُزَارِعِينَ وَالتُّجَّارُ – وَيَتَشَاوَرُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَسْأَلَةِ ثُمَّ يَكُونُ الْعَمَلُ بِمَا يُقَرِّرُونَ أَنَّهُ قَدْ مَسَّتْ إِلَيْهِ الضَّرُورَةُ أَوْ أَلْجَأَتْ إِلَيْهِ حَاجَةُ الْأُمَّةِ .

هَذَا هُوَ مَعْنَى مَا قُلْتُهُ فِي نَادِي دَارِ الْعُلُومِ .

هَذَا وَإِنَّ مُسْلِمِي الْهِنْدِ قَدْ سَبَقُوا مُسْلِمِي مِصْرَ إِلَى الْبَحْثِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَأَكْثَرُوا الْكِتَابَةَ فِيهَا فِي الْجَرَائِدِ وَلَكِنَّهُمْ طَرَقُوا بَابًا لَمْ يَطْرُقْهُ الْمِصْرِيُّونَ وَهُوَ مَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْمَذَاهِبِ مِنْ إِبَاحَةِ

(121/130)

جَمِيعِ الْمُعَامَلَاتِ الْبَاطِلَةِ وَالْعُقُودِ الْفَاسِدَةِ فِي غَيْرِ دَارِ الْإِسْلَامِ ، وَالْأَصْلُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَنَّ الْإِسْلَامَ لَمْ يُحَرِّمِ الرِّبَا وَلَا غَيْرَهُ مِنَ الْمُعَامَلَاتِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ صَارَ لَهُ سُلْطَةٌ وَحُكْمٌ فِي دَارِ الْهِجْرَةِ ، وَكَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ الْمَجَالَ وَاسِعًا لِلْبَحْثِ فِي بِلَادِ الْهِنْدِ هَلْ هِيَ دَارُ إِسْلَامٍ أَمْ لَا ؟ دُونَ بِلَادِ مِصْرَ الَّتِي لَا تَزَالُ حُكُومَتُهَا الرَّسْمِيَّةُ إِسْلَامِيَّةً بِحَسَبِ

قَوَانِينِ الدُّوَلِ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنَ السُّلْطَانِ صَاحِبِ السِّيَادَةِ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ وَالْأَمِيرِ وَالْقَاضِي النَّائِبِينَ عَنْهُ فِيهَا لَا يَسْتَطِيعُونَ مَنْعَ الرِّبَا مِنْهَا وَلَا غَيْرَ الرِّبَا مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي أَبَاحَهَا الْقَانُونُ الْمِصْرِيُّ .

(122/130)

وَالْأَضْعَافُ جَمْعُ قِلَّةٍ لِضِعْفٍ (بِكَسْرِ الضَّادِ) وَضِعْفُ الشَّيْءِ مِثْلُهُ الَّذِي يُثْنِيهِ فَضِعْفُ الْوَاحِدِ وَاحِدٌ فَهُوَ إِذَا أُضِيفَ إِلَيْهِ ثَنَّاهُ، وَهُوَ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْمُتَضَايِفَةِ، أَيِ الَّتِي يَقْتَضِي وُجُودُهَا وُجُودَ آخَرَ مِنْ جِنْسِهَا كَالنِّصْفِ وَالزَّوْجِ وَيَخْتَصُّ بِالْعَدَدِ، فَإِذَا ضَاعَفْتَ الشَّيْءَ ضَمَمْتَ إِلَيْهِ مِثْلَهُ مَرَّةً فَأَكْثَرَ . قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِذَا قُلْنَا إِنَّ الْأَضْعَافَ الْمُضَاعَفَةَ فِي الزِّيَادَةِ فَقَطْ (الَّتِي هِيَ الرِّبَا) يَصِحُّ مَا قَالَهُ الْمُفَسِّرُ (الْجَلَالُ) فِي تَصْوِيرِ الْمَسْأَلَةِ بِتَأْخِيرِ أَجَلِ الدَّيْنِ وَالزِّيَادَةِ فِي الْمَالِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي كَانَ مَعْرُوفًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَيَصِحُّ أَيْضًا أَنْ تَكُونَ الْأَضْعَافُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى رَأْسِ الْمَالِ وَهَذَا وَاقِعٌ الْآنَ، فَإِنَّنِي رَأَيْتُ فِي مِصْرَ مَنِ اسْتَدَانَ بِرِبًا ثَلَاثَةٍ فِي الْمِائَةِ كُلَّ يَوْمٍ، فَانْظُرْ كَمْ ضِعْفًا يَكُونُ فِي السَّنَةِ ! وَقَدْ قَالَ : (مُضَاعَفَةً) بَعْدَ ذِكْرِ الْأَضْعَافِ كَأَنَّ الْعَقْدَ قَدْ يَكُونُ ابْتِدَاءً عَلَى الْأَضْعَافِ ثُمَّ تَأْتِي الْمُضَاعَفَةُ بَعْدَ ذَلِكَ بِتَأْخِيرِ الْأَجَلِ وَزِيَادَةِ الْمَالِ .

وَأَقُولُ: حَاصِلُ الْمَعْنَى لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا حَالَ كَوْنِهِ أَضْعَافًا تُضَاعَفُ بِتَأْخِيرِ أَجَلِ الدَّيْنِ الَّذِي هُوَ رَأْسُ الْمَالِ، وَزِيَادَةُ الْمَالِ ضِعْفُ مَا كَانَ كَمَا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ؛ فَإِنَّ الْإِسْلَامَ لَا يُبِيحُ لَكُمْ ذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنَ الْقَسْوَةِ وَالْبُخْلِ وَاسْتِغْلَالِ ضَرُورَةِ الْمُعْوِزِ أَوْ حَاجَتَهُ وَاتَّقُوا اللهَ فِي أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْبُؤْسِ فَلَا تُحَمِّلُوهُمْ مِنَ الدَّيْنِ هَذِهِ الْأَثْقَالَ الَّتِي تَرْزَحُهُمْ وَرُبَّمَا تُخَرِّبُ بُيُوتَهُمْ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ فِي دُنْيَاكُمْ بِالتَّرَاحُمِ وَالتَّعَاوُنِ فَتَتَحَابُّونَ، وَالْمَحَبَّةُ أُسُّ السَّعَادَةِ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَاسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الطَّمَعُ وَالْبُخْلُ فَكَانُوا فِتْنَةً لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَأَعْدَاءِ الْبَائِسِينَ وَالْمُعْوِزِينَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فِيمَا نَهَيَا عَنْهُ مِنْ أَكْلِ الرِّبَا وَمَا أَمَرَا بِهِ مِنَ الصَّدَقَةِ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ فِي الدُّنْيَا بِمَا تُفِيدُكُمُ الطَّاعَةُ مِنْ صَلَاحِ حَالِ مُجْتَمَعِكُمْ، وَفِي الْآخِرَةِ بِحُسْنِ الْجَزَاءِ عَلَى أَعْمَالِكُمْ؛ فَإِنَّ الرَّاحِمِينَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ عِنْدَ أَحْمَدَ وَأَبِي دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيِّ، وَقَدْ رَوَيْنَاهُ مُسَلْسَلًا.

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: قَوْلُهُ : وَاتَّقُوا النَّارَ إِلَخْ وَعِيدٌ لِلْمُرَابِينَ بِجَعْلِهِمْ مَعَ الْكَافِرِينَ إِذَا عَمِلُوا فِيهِ عَمَلَهُمْ ، وَفِيهِ تَنْبِيهٌ إِلَى أَنَّ الرِّبَا قَرِيبٌ مِنَ الْكُفْرِ . وَهَذَا الْقَوْلُ بَعْدَ قَوْلِهِ : وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ تَأْكِيدٌ بَعْدَ تَأْكِيدٍ ، ثُمَّ أَكَّدَهُ أَيْضًا بِالْأَمْرِ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ الرَّسُولِ ، فَمُؤَكِّدَاتُ التَّنْفِيرِ مِنَ الرِّبَا أَرْبَعَةٌ . وَقَدْ قُلْنَا مِنْ قَبْلُ : إِنَّ مَسْأَلَةَ الرِّبَا لَيْسَتْ مَدَنِيَّةً مَحْضَةً بَلْ هِيَ دِينِيَّةٌ أَيْضًا ، وَالْغَرَضُ الدِّينِيُّ مِنْهَا التَّرَاحُمُ الْمُفْضِي إِلَى التَّعَاوُنِ ، فَالْمُقْرِضُ الْيَوْمَ قَدْ يَكُونُ مُقْتَرِضًا غَدًا ، فَمَنْ أَعَانَ جَدِيرٌ بِأَنْ يُعَانَ .

(125/130)

ثُمَّ ذَكَرَ جَزَاءَ الْمُتَّقِينَ بَعْدَ الْأَمْرِ الْمُؤَكَّدِ بِاتِّقَاءِ النَّارِ اتِّبَاعًا لِلْوَعِيدِ بِالْوَعْدِ وَقَرْنًا لِلتَّرْهِيبِ بِالتَّرْغِيبِ كَمَا هِيَ سُنَّتُهُ فَقَالَ : وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الْمُسَارَعَةُ إِلَى الْمَغْفِرَةِ وَالْجَنَّةِ هِيَ الْمُبَادَرَةُ إِلَى أَسْبَابِهَا وَمَا يُعِدُّ الْإِنْسَانَ لِنَيْلِهِمَا مِنَ التَّوْبَةِ عَنِ الْإِثْمِ كَالرِّبَا وَالْإِقْبَالِ عَلَى الْبِرِّ كَالصَّدَقَةِ . وَقَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ " سَارِعُوا " بِغَيْرِ وَاوٍ . وَالْمُرَادُ بِكَوْنِ عَرْضِ الْجَنَّةِ كَعَرْضِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْمُبَالَغَةُ فِي وَصْفِهَا بِالسَّعَةِ وَالْبَسْطَةِ تَشْبِيهًا لَهَا بِأَوْسَعِ مَا عَلِمَهُ النَّاسُ ، وَخَصَّ الْعَرْضَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ يَكُونُ عَادَةً أَقَلَّ مِنَ الطُّولِ . وَقَالَ الْبَيْضَاوِيُّ : إِنَّ هَذَا الْوَصْفَ عَلَى طَرِيقَةِ التَّمْثِيلِ . وَقَالَ

فِي قَوْلِهِ : أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ : هُيِّئَتْ لَهُمْ ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْجَنَّةَ مَخْلُوقَةٌ وَأَنَّهَا خَارِجَةٌ عَنْ هَذَا الْعَالَمِ اهـ .

وَهُوَ مَا احْتَجَّ بِهِ الْأَشَاعِرَةُ عَلَى مَنْ قَالَ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ : إِنَّهَا لَيْسَتْ بِمَخْلُوقَةٍ الْآنَ كَمَا فِي كُتُبِ الْعَقَائِدِ . قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي الْجَنَّةِ هَلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ بِالْفِعْلِ أَمْ تُوجَدُ بَعْدُ فِي الْآخِرَةِ ؟ وَلَا مَعْنَى لِهَذَا الْخِلَافِ وَلَا هُوَ مِمَّا يَصِحُّ التَّفَرُّقُ وَاخْتِلَافُ الْمَذَاهِبِ فِيهِ ، ثُمَّ وَصَفَ الْمُتَّقِينَ بِالصِّفَاتِ الْخَمْسِ الْآتِيَةِ فَقَالَ :

(126/130)

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ أَيْ فِي حَالَةِ الرَّخَاءِ وَالسَّعَةِ وَحَالَةِ الضِّيقِ وَالْعُسْرَةِ ، كُلُّ حَالَةٍ بِحَسَبِهَا كَمَا قَالَ - تَعَالَى - فِي بَيَانِ حُقُوقِ النِّسَاءِ الْمُعْتَدَّاتِ : لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا [65 : 7] وَالسَّرَّاءُ مِنَ السُّرُورِ أَيِ الْحَالَةُ الَّتِي تَسُرُّ ، وَالضَّرَّاءُ مِنَ الضَّرَرِ أَيِ الْحَالَةُ الضَّارَّةُ ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ تَفْسِيرُهُمَا بِالْيُسْرِ وَالْعُسْرِ .

وَقَدْ بَدَأَ وَصْفُ الْمُتَّقِينَ بِالْإِنْفَاقِ لِوَجْهَيْنِ :

(أَحَدُهُمَا) مُقَابَلَتُهُ بِالرِّبَا الَّذِي نُهِيَ عَنْهُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ ; فَإِنَّ الرِّبَا هُوَ اسْتِغْلَالُ الْغَنِيِّ

حَاجَةَ الْمُعْوِزِ وَأَكْلُ مَالِهِ

بِلَا مُقَابِلٍ ، وَالصَّدَقَةُ إِعَانَةٌ لَهُ وَإِطْعَامُهُ مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ فَهِيَ ضِدُّ الرِّبَا ، وَلَمْ يَرِدْ فِي الْقُرْآنِ ذِكْرُ الرِّبَا إِلَّا وَقُبِّحَ وَمُدِحَتْ مَعَهُ الزَّكَاةُ وَالصَّدَقَةُ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الرُّومِ :

وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ [30 : 39] وَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ . [2 : 276]

(ثَانِيهِمَا) أَنَّ الْإِنْفَاقَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ أَدَلُّ عَلَى التَّقْوَى وَأَشَقُّ عَلَى النُّفُوسِ وَأَنْفَعُ لِلْبَشَرِ مِنْ سَائِرِ الصِّفَاتِ وَالْأَعْمَالِ ، قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مَا مِثَالُهُ : إِنَّ الْمَالَ عَزِيزٌ عَلَى النَّفْسِ لِأَنَّهُ الْآلَةُ لِجَلْبِ الْمَنَافِعِ وَالْمَلَذَّاتِ ، وَدَفْعِ الْمَضَارِّ وَالْمُؤْلِمَاتِ ، وَبَذْلُهُ فِي طُرُقِ الْخَيْرِ وَالْمَنَافِعِ الْعَامَّةِ الَّتِي تُرْضِي اللهَ - تَعَالَى - يَشُقُّ عَلَى النَّفْسِ ، أَمَّا فِي السَّرَّاءِ فَلِمَا يُحْدِثُهُ السُّرُورُ وَالْغِنَى مِنَ الْأَشَرِ وَالْبَطَرِ وَالطُّغْيَانِ وَشِدَّةِ الطَّمَعِ وَبُعْدِ الْأَمَلِ ، وَأَمَّا فِي الضَّرَّاءِ فَلِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَرَى نَفْسَهُ فِيهَا جَدِيرًا بِأَنْ يَأْخُذَ وَمَعْذُورًا إِنْ لَمْ يُعْطِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعْذُورًا بِالْفِعْلِ ، إِذْ مَهْمَا كَانَ فَقِيرًا لَا يَعْدَمُ وَقْتًا يَجِدُ فِيهِ فَضْلًا يُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَوْ قَلِيلًا ، وَدَاعِيَةُ الْبَذْلِ فِي

النَّفسِ هِيَ الَّتِي تُنَبِّهُ الْإِنْسَانَ إِلَى هَذَا الْعَفْوِ الَّذِي يَجِدُهُ أَحْيَانًا لِيَبْذُلَهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنِ الدَّاعِيَةُ مَوْجُودَةً فِي أَصْلِ الْفِطْرَةِ فَأَمْرُ الدِّينِ الَّذِي وَضَعَهُ اللهُ لِتَعْدِيلِ الْفِطْرَةِ الْمَائِلَةِ وَتَصْحِيحِ مِزَاجِ الْمُعْتَلَّةِ يُوجِدُهَا وَيَكُونُ نِعْمَ الْمُنَبِّهُ لَهَا ، وَقَدْ فَسَّرَ بَعْضُهُمُ الضَّرَّاءَ بِمَا يُخْرِجُ الْفُقَرَاءَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ مِنْ صِفَاتِ الْمُتَّقِينَ وَلَيْسَ بِسَدِيدٍ .

(128/130)

يَقُولُ مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ : إِنَّ تَكْلِيفَ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ الْبَذْلَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا مَعْنَى لَهُ وَلَا غَنَاءَ فِيهِ وَرُبَّمَا يَقُولُ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا - يَعْنِي أَنَّهُ يَنْتَقِدُ ذَلِكَ مِنَ الدِّينِ ، وَالْعِلْمُ الصَّحِيحُ يُفِيدُنَا أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ نَفْسُ الْفَقِيرِ كَرِيمَةً فِي ذَاتِهَا وَأَنْ يَتَعَوَّدَ صَاحِبُهَا الْإِحْسَانَ بِقَدْرِ الطَّاقَةِ ، وَبِذَلِكَ تَرْتَفِعُ نَفْسُهُ وَتَطْهُرُ مِنَ الْخِسَّةِ وَهِيَ الرَّذِيلَةُ الَّتِي تَعْرِضُ لِلْفُقَرَاءِ فَتَجُرُّهُمْ إِلَى رَذَائِلَ كَثِيرَةٍ ، ثُمَّ إِنَّ النَّظَرَ يَهْدِينَا إِلَى أَنَّ الْقَلِيلَ مِنَ الْكَثِيرِ كَثِيرٌ ، فَلَوْ أَنَّ كُلَّ فَقِيرٍ فِي الْقُطْرِ الْمِصْرِيِّ مَثَلًا يَبْذُلُ فِي السَّنَةِ قِرْشًا وَاحِدًا لِأَجْلِ التَّعْلِيمِ لَاجْتَمَعَ مِنْ ذَلِكَ أُلُوفُ الْأُلُوفِ وَتَيَسَّرَ بِهِ عَمَلٌ فِي الْبِلَادِ كَبِيرٌ ، فَكَيْفَ إِذَا أَنْفَقَ كُلُّ أَحَدٍ عَلَى قَدْرِهِ ، كَمَا قَالَ - تَعَالَى - : لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ إِلَخْ .

إِذَا كَانَ اللهُ - تَعَالَى - قَدْ جَعَلَ الْإِنْفَاقَ فِي سَبِيلِهِ عَلَامَةً عَلَى التَّقْوَى أَوْ أَثَرًا مِنْ آثَارِهَا

حَتَّى فِي حَالِ الضَرَّاءِ ، وَكَانَ انْتِفَاؤُهُ عَلَامَةً عَلَى عَدَمِ التَّقْوَى الَّتِي هِيَ سَبَبُ دُخُولِ الْجَنَّةِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ أَهْلِ السَّرَّاءِ الَّذِينَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ؟ وَهَلْ يُغْنِي عَنْ هَؤُلَاءِ مِنْ شَيْءٍ أَدَاءُ الرُّسُومِ الدِّينِيَّةِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي يَتَمَرَّنُونَ عَلَيْهَا عَادَةً مَعَ النَّاسِ ؟

(129/130)

---

2 - وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ قَالَ الرَّاغِبُ : الْغَيْظُ أَشَدُّ الْغَضَبِ وَهُوَ الْحَرَارَةُ الَّتِي يَجِدُهَا الْإِنْسَانُ مِنْ فَوَرَانِ دَمِ قَلْبِهِ . وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : الْغَيْظُ أَلَمٌ يَعْرِضُ لِلنَّفْسِ إِذَا هُضِمَ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِهَا الْمَادِّيَّةِ كَالْمَالِ ، أَوِ الْمَعْنَوِيَّةِ كَالشَّرَفِ ، فَيُزْعِجُهَا إِلَى التَّشَفِّي وَالِانْتِقَامِ ، وَمَنْ أَجَابَ دَاعِيَ الْغَيْظِ إِلَى الِانْتِقَامِ لَا يَقِفُ عِنْدَ حَدِّ الِاعْتِدَالِ وَلَا يَكْتَفِي بِالْحَقِّ بَلْ يَتَجَاوَزُهُ إِلَى الْبَغْيِ ; فَلِذَلِكَ كَانَ مِنَ التَّقْوَى كَظْمُهُ ، وَفِي رُوحِ الْمَعَانِي : إِنَّ الْغَيْظَ هَيَجَانُ الطَّبْعِ عِنْدَ رُؤْيَةِ مَا يُنْكَرُ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْغَضَبِ عَلَى مَا قِيلَ أَنَّ الْغَضَبَ يَتْبَعُهُ إِرَادَةُ الِانْتِقَامِ أَلْبَتَّةَ وَلَا كَذَلِكَ الْغَيْظُ ، وَقِيلَ : الْغَضَبُ مَا يَظْهَرُ عَلَى الْجَوَارِحِ وَالْغَيْظُ لَيْسَ كَذَلِكَ اهـ .

وَالِاقْتِصَارُ فِي سَبَبِ الْغَيْظِ عَلَى رُؤْيَةِ مَا يُنْكَرُ غَيْرُ مُسَلَّمٍ ، وَأَمَّا الْكَظْمُ فَقَدْ قَالَ فِي الْأَسَاسِ : كَظَمَ الْبَعِيرُ جِرَّتَهُ ازْدَرَدَهَا وَكَفَّ عَنِ الِاجْتِرَارِ . . وَكَظَمَ الْقِرْبَةَ مَلَأَهَا وَسَدَّ رَأْسَهَا ، وَكَظَمَ

الْبَابَ سَدَّهُ . وَهُوَ كِظَامُ الْبَابِ لِسِدَادِهِ . وَمِنَ الْمَجَازِ كَظْمُ الْغَيْظِ ، وَعَلَى الْغَيْظِ ، فَهُوَ كَاظِمٌ .

(130/130)

وَكَظَمَهُ الْغَيْظُ وَالْغَمُّ : أَخَذَ بِنَفَسِهِ فَهُوَ مَكْظُومٌ وَكَظِيمٌ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ [68 : 48] ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ [16 : 58] وَ : مَا كَظَمَ فُلَانٌ عَلَى جِرَّتِهِ : إِذَا لَمْ يَسْكُتْ عَلَى مَا فِي جَوْفِهِ حَتَّى تَكَلَّمَ بِهِ . وَ : غَمَّنِي وَأَخَذَ بِكَظَمِي ، وَهُوَ مَخْرَجُ النَّفَسِ وَبِأَكْظَامِي اهـ .

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : أَصْلُ الْكَظْمِ مَخْرَجُ النَّفَسِ ، وَالْغَيْظُ وَإِنْ كَانَ مَعْنًى لَهُ أَثَرٌ فِي الْجِسْمِ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ عَمَلٌ ظَاهِرٌ ، فَإِنَّهُ يَثُورُ بِنَفْسِ الْإِنْسَانِ حَتَّى يَحْمِلَهُ عَلَى مَا لَا يَجُوزُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ .

فَلِذَلِكَ سَمَّى حَبْسَهُ وَإِخْفَاءَ أَثَرِهِ كَظْمًا . وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَّافِ بَعْدَ الْإِشَارَةِ إِلَى أَصْلِ مَعْنَى الْكَظْمِ : وَمِنْهُ كَظْمُ الْغَيْظِ وَهُوَ أَنْ يُمْسِكَ عَلَى مَا فِي نَفْسِهِ مِنْهُ بِالصَّبْرِ وَلَا يُظْهِرُ لَهُ أَثَرًا .

وَيُرْوَى عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ خَادِمًا لَهَا غَاظَهَا فَقَالَتْ : " لِلَّهِ دَرُّ التَّقْوَى مَا تَرَكَتْ لِذِي غَيْظٍ شِفَاءً

" .

3 – وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ الْعَفْوُ عَنِ النَّاسِ : هُوَ التَّجَافِي عَنْ ذَنْبِ الْمُذْنِبِ مِنْهُمْ وَتَرْكِ مُؤَاخَذَتِهِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا ، وَتِلْكَ مَرْتَبَةٌ فِي ضَبْطِ النَّفْسِ وَالْحُكْمِ عَلَيْهَا وَكَرَمِ الْمُعَامَلَةِ قَلَّ مَنْ يَتَبَوَّأُهَا ، فَالْعَفْوُ مَرْتَبَةٌ فَوْقَ مَرْتَبَةِ كَظْمِ الْغَيْظِ ، إِذْ رُبَّمَا يَكْظِمُ الْمَرْءُ غَيْظَهُ عَلَى حِقْدٍ وَضَغِينَةٍ .

(131/130)

---

4 – وَهُنَاكَ مَرْتَبَةٌ أَعْلَى مِنْهُمَا وَهِيَ مَا أَفَادَهُ قَوْلُهُ – تَعَالَى – : وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ فَالْإِحْسَانُ وَصْفٌ مِنْ أَوْصَافِ الْمُتَّقِينَ ، وَلَمْ يَعْطِفْهُ عَلَى مَا سَبَقَهُ مِنَ الصِّفَاتِ بَلْ صَاغَهُ بِهَذِهِ الصِّيغَةِ تَمْيِيزًا لَهُ بِكَوْنِهِ مَحْبُوبًا عِنْدَ اللَّهِ – تَعَالَى – لَا لِمَزِيدِ مَدْحِ مَنْ ذَكَرَ مِنَ الْمُتَّقِينَ الْمُتَّصِفِينَ بِالصِّفَاتِ السَّابِقَةِ ، وَلَا مُجَرَّدَ مَدْحِ الْمُحْسِنِينَ الَّذِي يَدْخُلُ فِي عُمُومِهِ أُولَئِكَ الْمُتَّقُونَ كَمَا قِيلَ – فَالَّذِي يَظْهَرُ لِي هُوَ مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ مِنْ أَنَّهُ وَصْفٌ رَابِعٌ لِلْمُتَّقِينَ كَمَا يَتَّضِحُ مِنَ الْوَاقِعَةِ الْآتِيَةِ : يُرْوَى أَنَّ بَعْضَ السَّلَفِ غَاظَهُ غُلَامٌ لَهُ فَجْأَةً غَيْظًا شَدِيدًا فَهَمَّ بِالِانْتِقَامِ مِنْهُ فَقَالَ الْغُلَامُ : وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ فَقَالَ : كَظَمْتُ غَيْظِي ، قَالَ الْغُلَامُ : وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ قَالَ

: عفَوْتُ عَنْكَ ، قَالَ : وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ قَالَ : اذْهَبْ فَأَنْتَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ . فَهَذِهِ الْوَاقِعَةُ تُبَيِّنُ لَكَ تَرَتُّبَ الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثِ .

(132/130)

---

5 – وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ ؟ الْفَاحِشَةُ : الْفَعْلَةُ الشَّدِيدَةُ الْقُبْحِ ، وَظُلْمُ النَّفْسِ : يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ ذَنْبٍ ، قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ : " وَقِيلَ : الْفَاحِشَةُ: الْكَبِيرَةُ ، وَظُلْمُ النَّفْسِ : الصَّغِيرَةُ ، وَلَعَلَّ الْفَاحِشَةَ مَا تَتَعَدَّى ، وَظُلْمُ النَّفْسِ مَا لَيْسَ كَذَلِكَ " وَذِكْرُ اللهِ عِنْدَ الذَّنْبِ يَكُونُ بِتَذَكُّرِ نَهْيِهِ وَوَعِيدِهِ أَوْ عِقَابِهِ أَوْ تَذَكُّرِ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ ، وَهُمَا مَرْتَبَتَانِ : مَرْتَبَةٌ دُنْيَا لِعَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ الْمُسْتَحِقِّينَ لِلْجَنَّةِ ، وَهِيَ أَنْ يَتَذَكَّرُوا عِنْدَ الذَّنْبِ النَّهْيَ وَالْعُقُوبَةَ فَيُبَادِرُوا إِلَى التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ ، وَمَرْتَبَةٌ عُلْيَا لِخَوَاصِّ الْمُتَّقِينَ وَهِيَ أَنْ يَذْكُرُوا – إِذَا فَرَطَ مِنْهُمْ ذَنْبٌ – ذَلِكَ الْمَقَامَ الْإِلَهِيَّ الْأَعْلَى الْمُنَزَّهَ عَنِ النَّقْصِ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ كُلِّ كَمَالٍ ، وَمَا يَجِبُ مِنْ طَلَبِ قُرْبِهِ بِالْمَعْرِفَةِ وَالتَّخَلُّقِ الَّذِي هُوَ مُنْتَهَى الْآمَالِ ، فَإِذَا هُمْ تَذَكَّرُوا انْصَرَفَ عَنْهُمْ طَائِفُ الشَّيْطَانِ ، وَوَجَدُوا نَفَسَ الرَّحْمَنِ ،

فَرَجَعُوا إِلَيْهِ طَالِبِينَ مَغْفِرَتَهُ ، رَاجِينَ رَحْمَتَهُ ، مُلْتَزِمِينَ سُنَّتَهُ ، وَارِدِينَ شِرْعَتَهُ ، عَالِمِينَ أَنَّهُ لَا

يَغْفِرُ الذُّنُوبَ سِوَاهُ ، وَأَنَّهُ يَضِلُّ مَنْ يَدْعُونَ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَّا إِيَّاهُ ; لِأَنَّ الْكُلَّ مِنْهُ وَإِلَيْهِ ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ بِسُنَنِهِ فِيهِ ،

(133/130)

وَالْحَاكِمُ بِسُلْطَانِهِ عَلَيْهِ ، وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : أُعِيدَ الْمَوْصُولُ لِإِفَادَةِ التَّنْوِيعِ ، فَهَؤُلَاءِ نَوْعٌ مِنَ الْمُتَّقِينَ غَيْرُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ إِلَخْ . وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ لَا يُصِرُّ الْمُؤْمِنُ الْمُتَّقِي مِنْ أَهْلِ الدَّرَجَةِ الدُّنْيَا عَلَى ذَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - نَهَى عَنْهُ وَتَوَعَّدَ عَلَيْهِ ، وَلَا يُصِرُّ كَذَلِكَ بِالْأَوْلَى صَاحِبُ الدَّرَجَةِ الْعُلْيَا مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الذُّنُوبَ فُسُوقٌ عَنْ نِظَامِ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ ، وَاعْتِدَاءٌ عَلَى قَانُونِ الشَّرِيعَةِ الْقَوِيمَةِ وَبُعْدٌ عَنْ مَقَامِ النِّظَامِ الْعَامِّ الَّذِي يَعْرُجُ عَلَيْهِ الْبَشَرُ إِلَى قُرْبِ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ، وَمِثَالُ ذَلِكَ : مَنْ يَخْضَعُ لِقَوَانِينِ الْحُكَّامِ الْوَضْعِيَّةِ خَوْفًا مِنَ الْعُقُوبَةِ ، وَمَنْ يَخْضَعُ لَهَا احْتِرَامًا لِلنِّظَامِ ، وَمَا أَبْعَدَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ . قَالَتْ رَابِعَةُ الْعَدَوِيَّةُ رَحِمَهَا اللَّهُ - تَعَالَى - :

كُلُّهُمْ يَعْبُدُونَ مِنْ خَوْفِ نَارٍ . . . وَيَرَوْنَ النَّجَاةَ حَظًّا جَزِيلَا
أَوْ لِأَنْ يَسْكُنُوا الْجِنَانَ فَيَحْظَوْا . . . بِقُصُورٍ وَيَشْرَبُوا سَلْسَبِيلَا
لَيْسَ لِي فِي الْجِنَانِ وَالنَّارِ حَظٌّ . . . أَنَا لَا أَبْتَغِي سِوَاكَ بَدِيلَا

فَالْآيَةُ هَادِيَةٌ إِلَى أَنَّ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ أَعَدَّ اللهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ لَا يُصِرُّونَ عَلَى ذَنْبٍ يَرْتَكِبُونَهُ صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا ; لِأَنَّ ذِكْرَهُ - عَزَّ وَجَلَّ - يَمْنَعُ الْمُؤْمِنَ بِطَبِيعَتِهِ أَنْ يُقِيمَ عَلَى الذَّنْبِ . وَقَدْ بَيَّنَّا فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ التَّفْسِيرِ أَنَّ الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ بِمُقْتَضَاهُ مُتَلَازِمَانِ ، وَقَدْ قَالُوا إِنَّ الْإِصْرَارَ عَلَى الصَّغِيرَةِ يَجْعَلُهَا كَبِيرَةً ، وَهَذَا أَقَلُّ مَا يُقَالُ فِيهَا ، وَرُبَّ كَبِيرَةٍ أَصَابَهَا الْمُؤْمِنُ بِجَهَالَةٍ وَبَادَرَ إِلَى التَّوْبَةِ مِنْهَا - فَكَانَتْ دَائِمًا مُذَكِّرَةً لَهُ بِضَعْفِهِ الْبَشَرِيِّ وَسُلْطَانِ الْغَضَبِ أَوِ الشَّهْوَةِ عَلَيْهِ ، وَوُجُوبِ مُقَاوَمَةِ هَذَا السُّلْطَانِ طَلَبًا لِلْكَمَالِ بِالْقُرْبِ مِنَ الرَّحْمَنِ ، خَيْرٌ مِنْ صَغِيرَةٍ يَقْتَرِفُهَا الْمَرْءُ مُسْتَهِينًا بِهَا مُصِرًّا عَلَيْهَا فَتَأْنَسُ نَفْسُهُ بِالْمَعْصِيَةِ ، وَتَزُولُ مِنْهَا هَيْبَةُ الشَّرِيعَةِ ، فَيَتَجَرَّأُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى الْكَبَائِرِ فَيَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ ، وَرَأَيْتُ الْمُفَسِّرِينَ يُورِدُونَ هُنَا حَدِيثَ مَا أَصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً وَهُوَ حَدِيثٌ ضَعِيفٌ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - . وَمِنَ الْجَاهِلِينَ مَنْ يَرَاهُ فَيَغْتَرُّ بِهِ ظَانًّا أَنَّ الِاسْتِغْفَارَ بِاللِّسَانِ كَافٍ فِي التَّوْبَةِ وَمُنَافَاةِ الْإِصْرَارِ ، وَأَنَّ الْحَدِيثَ كَالْمُفَسِّرِ لِلْآيَةِ فَيَتَجَرَّأُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَكُلَّمَا أَصَابَ مِنْهَا شَيْئًا حَرَّكَ لِسَانَهُ بِكَلِمَةِ " أَسْتَغْفِرُ اللهَ " مَرَّةً أَوْ مَرَّاتٍ

وَرُبَّمَا عدَّ مِائَةً أَوْ أَكْثَرَ وَاعْتَقَدَ أَنَّ ذَلِكَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَالصَّوَابُ أَنَّ الِاسْتِغْفَارَ فِي الْحَدِيثِ عِبَارَةٌ عَنِ التَّوْبَةِ لَا عَنْ كَوْنِ اللَّفْظِ كَفَّارَةً . عَلَى أَنَّهُ لَا حُجَّةَ فِيهِ لِضَعْفِهِ . وَرَاجِعْ بَحْثَ الِاسْتِغْفَارِ

فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ [3 : 17] وَأَمَّا الْآيَةُ فَقَدْ فَهِمْتَ مَعْنَاهَا وَأَنَّهَا جَعَلَتْ كُلًّا مِنْ

الِاسْتِغْفَارِ وَعَدَمِ الْإِصْرَارِ أَثَرًا طَبِيعِيًّا لِذِكْرِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بِالْمَعْنَى بَيَّنَّاهُ لِأَهْلِ الْمَرْتَبَتَيْنِ مِنَ الْمُتَّقِينَ ، وَحَاسِبْ نَفْسَكَ هَلْ تَجِدُكَ مِنَ الذَّاكِرِينَ ؟

(136/130)

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا يَعْنِي بِقَوْلِهِ : أُولَئِكَ الْمُتَّقِينَ الْمَوْصُوفِينَ بِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الصِّفَاتِ الْخَمْسِ وَفِيهِ تَأْكِيدٌ لِلْوَعْدِ وَتَفْصِيلُ مَا لِلْمَوْعُودِ بِهِ . وَقِيلَ : هُوَ خَبَرٌ لِقَوْلِهِ : وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً إِلَخْ . بِنَاءً عَلَى أَنَّهُمْ قِسْمٌ مُسْتَقِلٌّ وَأَنَّ الَّذِينَ مُبْتَدَأٌ ، لَا مَعْطُوفٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ . وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ [2 : 25] فَلَا نُعِيدُهُ . وَأَمَّا قَوْلُهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ فَهُوَ نَصٌّ

فِي أَجْزَاءٍ إِنَّمَا هُوَ عَلَى تِلْكَ الْأَعْمَالِ الَّتِي مِنْهَا مَا هُوَ إِصْلَاحٌ لِحَالِ الْأُمَّةِ كَإِنْفَاقِ الْمَالِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ إِصْلَاحٌ لِنَفْسِ الْعَامِلِ ، وَكُلُّهَا مِمَّا يُرَقِّي النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ ، حَتَّى تَكُونَ أَهْلًا لِتِلْكَ الْمَرَاتِبِ الْعَلِيَّةِ ، أَيْ وَنِعْمَ ذَلِكَ الْجَزَاءُ الَّذِي ذُكِرَ مِنَ الْمَغْفِرَةِ وَالْجَنَّاتِ أَجْرًا لِلْعَامِلِينَ تِلْكَ الْأَعْمَالَ الْبَدَنِيَّةَ كَالْإِنْفَاقِ ، وَالنَّفْسِيَّةَ كَعَدَمِ الْإِصْرَارِ ، وَإِنْ كَانُوا يَتَفَاوَتُونَ فِيهِ لِتَفَاوُتِهِمْ فِي التَّقْوَى وَالْأَعْمَالِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 4 صـ 100 . 113 ﴾

(137/130)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾

﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ إشارة إلى ما تقدم في قوله سبحانه :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

[آل عمران : 133]

مع بيان أوصاف المتقين في قوله :

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّآءِ وَالضَّرَّآءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

[آل عمران : 134]

إنهم ينفقون في السراء نفقة الشكر . وينفقون في الضراء نفقة الذكر والتضرع ، لأن النعمة حين توجد بسرّاء تحتاج إلى شكر لهذه النعمة ، والنعمة حين تنفق في الضراء تقتضي ضراعة إلى الله ليزحزح عن المنفق آثار النقمة والضراء . إذن فهم ينفقون سواء أكانوا في عسر ، أم كانوا في يسر .

إن كثيراً من الناس ينسيهم اليسر أن الله أنعم عليهم ويظنون أن النعمة قد جاءت عن علم منهم . وبعض الناس تلهيهم النعمة عن أن يحسوا بآلام الغير ويشغلوا بآلام أنفسهم . لكن المؤمنين لا ينسون ربهم أبداً . وأمره بالإنفاق في العسر واليسر . ولذلك قولوا : فلان لا يقبض يده في يوم العرس ولا في يوم الحبس .

وتتابع أوصاف المتقين :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

[آل عمران : 135]

وفي ذلك لون من تطمين المؤمن على أغيار نفسه ، وعلى أنه عندما يستجيب مرة لنزغات الشيطان ، فهذه لا تخرجه من حظيرة التقوى ، لأن الله جعل ذلك من أوصاف المتقين .

فالفاحشة التي تكون من نزغ الشيطان وذكر العباد لله بعدها ، واستغفارهم مع الإصرار على عدم العودة ، لا تخرجهم أبداً عن وصفهم بأنهم متقون . لأن الحق هو الغفور : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ .

إنهم قد أُخبروا بذلك ، فلم يجرم الحق أحداً إلا بنص ، ولم يعاقب إلا بجريمة . وقول الحق سبحانه : ﴿ أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ هو إشارة لكل ما سبق . ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى جعل للعاملين بهذا العمل من التقوى قوسين : القوس الأول الذي ابتدأ به هو قوله الحق : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

والقوس الثاني هو الذي أنهى الأمر : ﴿ أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ .

فالجنة الأولى التي ذكرها الله إلهاباً للعواطف النفسية لتقبل على ما يؤدي لهذه الجنة ، وبعد ذلك ذكر الأوصاف والأصناف وجعل الجنة أجراً . ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ .

والأجر عادة هو ما يأخذه العامل نتيجة العمل . والأجر حين يأخذه العامل نتيجة لعمل

يتوقف على تقييم العمل عند صاحب العمل نفسه . فزيادة الأجر ونقصه تقدير من صاحب العمل ، وأيضاً تقدير للعامل . فإن طلب أصحاب عمل متعدد دون عاملاً محدداً فله أن يطلب زيادة وإن لم يطلبه أحد فهو يقبل أول عرض من الأجر نظير أداء العمل .

إذن فالمسألة مسألة حاجة من صاحب عمل ، أو حاجة من عامل ، وحين ننظر إلى الصفقة في الآخرة نجد أنها بين إله لا يحتاج إلى عملك . ومع أنه لا يحتاج إلى عملك جعل لعملك أجراً .

(139/130)

ما هذه المسألة ؟ هو ليس محتاجاً إلى عملك ، ويعطيك أجراً على عملك ويقول لك : إن هذا الأجر هو الحد الأدنى ، لكن لي أنا أن أضاعف هذا الأجر ، ولي أن أتفضل عليك بما فوق الأجر . فكم مرحلة إذن ؟ إنها ثلاث مراحل ، مع أنه سبحانه لا يستفيد من هذا العمل إلا أنه وضع ثلاث مراتب للأجر .

إذن فالحاجة من جهة واحدة هي جهتك أنت أيها العبد ، أنت تحتاج إلى خالقك وهو لا يحتاج إليك ، ومع ذلك يعطيك الإله الحق الأجر لا على قدر العمل فقط ، ولكن فوق ذلك بكثير . إن الذي تعمل له يوماً من العباد قد يعطيك – على سبيل المثال – ما يكفيك قوت

يوم ، أو قوت يوم ونصف يوم . ولكنك حين تأخذ الأجر من يد الله فإنه يعطيك أجراً لا تنتهي مدة إنفاقه ؛ فهو القائل : ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ .

هذا هو الأجر الذي يقال فيه : نعم هذا الأجر ؛ لأنه أجر لا يتناسب مع مجهودي ، بل يفوق كل ما بذلت من جهد وقادم من جهة لا تحتاج إلى هذا المجهود .

إنه سبحانه متفضل على أولاً . ومتفضل على أخيراً ، ليدل الحق سبحانه وتعالى على أنك - أيها العبد - حين تعمل الطاعة يَعود أثر الطاعة على نفسك ومع ذلك فهو يعطيك أجراً على ما فعلت .

وأوضحنا أن هذه الآيات جاءت بين آيات معركة أُحُد إرشاداً واستثمارا للأحداث التي وقعت في أُحُد ، حتى إذا عاش الإنسان في تصور الأحداث فالأحداث تكون ساخنة ، ويكون التقاط العبرة منها قريباً إلى النفس ؛ لأن واقعاً يُحتّمها ويؤكدها . والحق سبحانه وتعالى يقول من بعد ذلك : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1760 . 1763 ﴾

(140/130)

قوله تعالى ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما فرغ من بيان الزلل الذي وقع لهم به الخلل ، والترهيب مما يوقع فيه ، والترغيب فيما ينجى منه في تلك الأساليب التي هي أحلى من رائق الزلال ولذيذ الوصال بعد طول المطال أخذ يشجعهم على الجهاد لذوي الفساد ، فبدأ بالسبب الأقوى ، وهو الأمر بمشاهدة مصارع من مضى من المكذبين برؤية ديارهم وتتبع آثارهم مع أنهم كانوا أشد خلقاً وأقوى همماً وأكثر عدداً وأحكم عدداً ، فقال تعالى معللاً للأمر بالمسارعة إلى المغفرة : ﴿ قد خلت ﴾ ولما كان العلم بالقريب في الزمان والمكان أتم ، وكان الذين وقعت فيهم السنن جميع أهل الأرض ، ولا في جميع الزمان ، أثبت الجار فقال : ﴿ من قبلكم ﴾ اي فلا تظنوا بما أملى لهم بهذه الإدالة أن نعمته انقطعت عنهم ﴿ سنن ﴾ أي وقائع سنها الله في القرون الماضية والأمم الخالية في المؤمنين والمكذبين ، وأحوال وطرائق كانت للفريقين ، فتأسوا بالمؤمنين وتوقعوا لأعدائكم مثل ما للمكذبين ، فانظروا وأنعموا التأمل في أحوال الفريقين وإن لم يحصل ذلك إلا بالسير في الكد والتعب الشديد ﴿ فسيروا في الأرض ﴾ أي للاتعاظ بأحوال تلك الأمم برؤية آثارهم لتضموا الخير إلى الخير ، وتعتبروا من العين بالأثر ، وتقرنوا بين

النقل والنظر ، ولما كان الرجوع عن الهفوة واجباً على الفور عقب بالفاء قوله :

﴿ فانظروا ﴾ أي نظر اعتبار ، ونبه على عظمة المنظور فيه بأنه أهل لأن يستفهم عنه لأنه خرج عن العوائد فتعاظم إشكاله فقال : ﴿ كيف كان عاقبة ﴾ أي آخر أمر ﴿ المكذبين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 158. 159 ﴾

(141/130)

وقال الفخر :

اعلم أن الله تعالى لما وعد على الطاعة والتوبة من المعصية الغفران والجنات ، أتبعه بذكر ما يحملهم على فعل الطاعة وعلى التوبة من المعصية وهو تأمل أحوال القرون الخالية من المطيعين والعاصين فقال : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 10 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

ابتدئت هاته المقدّمة بحقيقة تاريخية : وهي الاعتبار بأحوال الأمم الماضية .

وجيء ب (قد) ، الدّالة على تأكيد الخبر ، تنزيلاً لهم منزلة من ينكر ذلك لما ظهر عليهم

من انكسار الخواطر من جراء الهزيمة الحاصلة لهم من المشركين ، مع أنّهم يقاتلون لنصر دين الله ، وبعد أن ذاقوا حلاوة النَّصر يوم بدر ، فبيّن الله لهم أنّ الله جعل سنّة هذا العامل أن تكون الأحوال فيه سجالاً ومداولة ، وذكّرهم بأحوال الأمم الماضية ، فقال : ﴿ قد خلت من قبلكم سنن ﴾ .

والله قادر على نصرهم ، ولكن الحكمة اقتضت ذلك لئلاّ يغترّ من يأتي بعدهم من المسلمين ، فيحسب أنّ النَّصر حليفهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 225 . 226 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال الواحدي : أصل الخلو في اللغة الانفراد والمكان الخالي هو المنفرد عمن يسكن فيه ويستعمل أيضا في الزمان بمعنى المضي لأن ما مضى انفرد عن الوجود وخلا عنه ، وكذا الأمم الخالية ، وأما السنة فهي الطريقة المستقيمة والمثال المتبع ، وفي اشتقاق هذه اللفظة وجوه :

الأول : أنها فعلة من سن الماء يسنه اذا والى صبه ، والسن الصب للماء ، والعرب شبهت الطريقة المستقيمة بالماء المصبوب فإنه لتوالي أجزاء الماء فيه على نهج واحد يكون كالشيء الواحد ، والسنة فعلة بمعنى مفعول ،

وثانيها : أن تكون من : سننت النصل والسنان أسنه سنا فهو مسنون إذا حددته على المسن ، فالفعل المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم سمي سنة على معنى أنه مسنون ،

(142/130)

وثالثها : أن يكون من قولهم : سن الابل اذا أحسن الرعي ، والفعل الذي داوم عليه النبي صلى الله عليه وسلم سمي سنة بمعنى أنه عليه الصلاة والسلام أحسن رعايته وإدامته .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 10.11 ﴾

فصل

قال القرطبى :

هذا تسلية من الله تعالى للمؤمنين ، والسُّنَن جمع سُنَّة وهي الطريق المستقيم .

وفلان على السنة أي على طريق الاسْتِوَاء لا يَميل إلى شيء من الأَهْواء ، قال الهذلِيّ :

فلا تَجْزَعَنّ مِنْ سُنَّة أنت سِرْتَها . . .

فأوّلُ راضٍ سُنَّةً مَن يَسيرها

والسنة : الإمام المتّبع المؤتَمّ به ، يقال : سنّ فلانٌ سنة حسنة وسيئةً إذا عمل عملاً اقتُدِي به فيه من خيرٍ أو شر ، قال لبيد :

مِن مَعشرٍ سَنَّت لهم آباؤهم . . .

ولكلِّ قومٍ سنةٌ وإمامُها

والسنة الأُمّة ، والسنن الأُمَمُ ؛ عن المفضل .

وأنشد :

ما عايَنَ الناسُ من فَضْلٍ كفضلِهم . . .

ولا رأُوا مِثْلهم في سالِفِ السُّنَنِ

وقال الزجاج : والمعنى أهل سنن ، فحذف المضاف .

وقال أبو زيد : أمثال .

عطاء : شرائع .

مجاهد : المعنى ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ يعني بالهلاك فيمن كذّب قبلكم كعادٍ وثمود .

والعاقبة : آخر الأمر ، وهذا في يوم أُحد .

يقول فأنا أمهلهم وأمْلي لهم وأستَدْرجهُم حتى يبلغ الكتاب أجله ، يعني بنصرة النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وهلاك أعدائهم الكافرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 216 ﴾

وقال الآلوسى

﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ أي مضت ﴿ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ أي وقائع في الأمم المكذبة أجراها الله تعالى حسب عادته ، وقال المفضل : إن المراد بها الأمم ، وقد جاءت السنة بمعنى الأمة في كلامهم ، ومنه قوله :

ما عاين الناس من فضل كفضلكم . . .

ولا رأوا مثلكم في سالف السنن

وقال عطاء : المراد بها الشرائع والأديان ، فالمعنى قد مضت من قبلكم سنن وأديان نسخت ، ولا يخفى أن الأول أنسب بالمقام لأن هذا إما مساق لحمل المكلفين أو آكلي الربا على فعل الطاعة أو على التوبة من المعصية أو على كليهما بنوع غير ما سبق كما قيل وإما عود إلى تفصيل بقية القصة بعد تمهيد مبادي الرشد والصلاح وترتيب مقدمات الفوز والفلاح على رأي ، وذكر مضي الأديان ليس له كثير ارتباط بذلك ، وإن زعم بعضهم أن فيه تثبيتاً للمؤمنين على دين النبي صلى الله عليه وسلم لئلا يهنوا بقول اليهود أن دين موسى عليه السلام لا ينسخ ولا يجوز النسخ على الله تعالى لأنه بداء وتحريضاً لليهود وحثاً على قبول دين الإسلام وإنذاراً لهم من أن يقع عليهم مثل ما وقع على المكذبين وتقوية لقلوب

المؤمنين بأنه سينصرهم على المكذبين ، نعم إطلاق السنة على الشريعة أقرب من إطلاقها على الوقعة لأنها في الأصل الطريقة والعادة ، ومنه قولهم : سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، والجار والمجرور إما متعلق بخلت أو بمحذوف وقع حالاً من ﴿ سُنَنَ ﴾ أي سنن كائنة من قبلكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 4 صـ 65﴾

فصل

قال الفخر :

المراد من الآية : قد انقضت من قبلكم سنن الله تعالى في الأمم السالفة ، واختلفوا في ذلك ، فالأكثرون من المفسرين على أن المراد سنن الهلاك والاستئصال بدليل قوله تعالى :

﴿ فانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المكذبين ﴾ وذلك لأنهم خالفوا الأنبياء والرسل للحرص على الدنيا وطلب لذاتها ، ثم انقرضوا ولم يبق من دنياهم أثر وبقي اللعن في الدنيا والعقاب في الآخرة عليهم ، فرغب الله تعالى أمة محمد صلى الله عليه وسلم في تأمل أحوال هؤلاء الماضين ليصير ذلك داعيا لهم الى الايمان بالله ورسله والاعراض عن الرياسة في الدنيا وطلب الجاه ،

وقال مجاهد : بل المراد سنن الله تعالى في الكافرين والمؤمنين ؛ فإن الدنيا ما بقيت لا مع المؤمن ولا مع الكافر ، ولكن المؤمن يبقى له بعد موته الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في العقبى ، والكافر بقي عليه اللعنة في الدنيا والعقاب في العقبى ثم إنه تعالى قال : ﴿ فانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المكذبين ﴾ لأن التأمل في حال أحد القسمين يكفي في معرفة حال القسم الآخر ، وأيضاً يقال الغرض منه زجر الكفار عن كفرهم وذلك إنما يعرف بتأمل أحوال المكذبين والمعاندين ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 171 173] وقوله : ﴿ والعاقبة لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : 128 ، القصص : 83] وقوله : ﴿ أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون ﴾ [الأنبياء : 105] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 11 ﴾

وقال ابن عاشور :

والمعنى : قد مضت من قبلكم أحوال للأمم ، جارية على طريقة واحدة ، هى عادة الله في الخلق ، وهي أنّ قوّة الظالمين وعتوهم على الضعفاء أمر زائل ، والعاقبة للمتّقين المحقّين ، ولذلك قال : ﴿ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ أي المكذّبين برسل ربّهم وأريد النظر في آثارهم ليحصل منه تحقّق ما بلغ من أخبارهم ، أو السؤال عن أسباب هلاكهم ، وكيف كانوا أولي قوة ، وكيف طغوا على المستضعفين ، فاستأصلهم الله

أو لتطمئنّ نفوس المؤمنين بمشاهدة المخبر عنهم مشاهدةَ عيان ، فإنّ للعيان بديع معنى لأنّ بَلَغتهم أخبار المكذّبين ، ومن المكذّبين عاد وثمود وأصحاب الأيكة وأصحاب الرسّ ، وكلّهم في بلاد العرب يستطيعون مشاهدة آثارهم ، وقد شهدها كثير منهم في أسفارهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ 226 . 227﴾

(145/130)

فصل

قال الفخر :

ليس المراد بقوله ﴿فَسِيرُواْ فِى الأرض فانظروا﴾ الأمر بذلك لا محالة ، بل المقصود تعرف أحوالهم ، فإن حصلت هذه المعرفة بغير المسير في الأرض كان المقصود حاصلا ، ولا يمتنع أن يقال أيضا : إن لمشاهدة آثار المتقدمين أثراً أقوى من أثر السماع كما قال الشاعر :

إن آثارنا تدل علينا . . فانظروا بعدنا إلى الآثار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 11﴾

وقال الآلوسى :

﴿كَيْفَ كَانَ عاقبة المكذبين﴾ أي آخر أمرهم الذي أدى إليه تكذيبهم لأنبيائهم ، والفاء

للإيذان بسببية الخلو للسير والنظر أو الأمر بهما ، وقيل : المعنى على الشرط أي إن شككتم فسيروا الخ ، والخطاب على كل تقدير مساق للمؤمنين ، وقال النقاش : للكفار وفيه بعد و ﴿ كَيْفَ ﴾ خبر مقدم لكان معلق لفعل النظر ، والجملة في محل النصب بعد نزع الخافض لأن الأصل استعماله بالجار وتجريد الفعل عن تاء التأنيث لأن المرفوع مجازي التأنيث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 65 ﴾

فصل

قال ابن عاشور :

وفي الآية دلالة على أهمِّيّة علم التَّاريخ لأنّ فيه فائدة السير في الأرض ، وهي معرفة أخبار الأوائل ، وأسباب صلاح الأمم وفسادها .

قال ابن عرفة : "السير في الأرض حسّي ومعنوي ، والمعنوي هو النظر في كتب التَّاريخ بحيث يحصل للنَّاظر العلم بأحوال الأمم ، وما يقرب من العلم ، وقد يحصل به من العلم ما لا يحصل بالسير في الأرض لعجز الإنسان وقصوره" .

وإنَّما أمر الله بالسير في الأرض دون مطالعة الكتب لأنّ في المخاطبين مَن كانوا أمِّيين ، ولأنّ المشاهدة تفيد من لم يقرأ علماً وتقوّي عِلْم من قرأ التَّاريخ أو قصّ عليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 227 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

أي أنتم لستم بدعاً في هذه المسألة . و " خلت " تعني " مضت " ، أي حصلت واقعا في أزمان سبقت هذا الكلام . وعادة فالأخبار التي يتكلم بها الإنسان مرة تكون خبراً يحتمل الصدق والكذب ، لكن هذه المسألة لا تحتاج إلى صدق أو كذب ؛ لأن الواقع ليس أمراً مستقبلاً ، ولكنه أمر قد سبق ، فبمجرد أن يجيء الكلام لا ننتظر واقعا يؤكد صدق الكلام ، لأنَّ الواقع قد حدث من قبل ، فيقول سبحانه : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ .

والسنن هي الطرق التي يصرف الله بها كونه بما يحقق مصلحة ذلك الكون ؛ ليضمن للإنسان – السيد في هذا الكون – ما يحقق مصلحته ، ومصلحة الإنسان تتمثل في أن يسود الحق في حياة الإنسان المختار كما ساد الحق في الكون المسيّر قبل الإنسان .

وقد قلنا إن في هذا الكون تسخيراً : أي لا إرادة له ، لا إرادة للجماد ولا للنبات . ولا للحيوان في أن يفعل الخير لك أو لا تفعل . فلم يحدث أن جاء إنسان لأرض صالحة للزراعة ، ووضع فيها بذوراً ، فلم تنبت الأرض وقالت له : لن أعطيك ، ولم تقل الأرض يوماً عن

إنسان : إنه كافر فلن أعطى له الرزق .

إن الأرض مسخرة لخدمة الإنسان ما دام يأخذ بأسبابها ؛ فهي تؤدي له . والحيوانات أيضا مسخرة لخدمتك لا باختيارك ، ولا بقدرة تسخيرك لها ، ولكن بتسخير الله لها أن تفعل .

وقلنا : إن الإنسان قد تكون عنده مطية ، مثل بعض الفلاحين ، فمرة يجعلها صاحبها تحمل أكوام السباخ من روث الحيوان وفضلاته ، وبعد ذلك يلوح له أن يخرجها من عملها هذا ويجعلها ركوبة له ، ويدللها بالأشياء التي تعرفونها من لجام جميل وسرج أجمل ، ويرفهها في حياتها وينظفها .

(147/130)

هل في الحالة الأولى امتنعت المطية عن حمل السباخ أو امتنعت في الحالة الثانية عن حمل الإنسان ؟ لا ؛ أنت تسيرها مثلما تريد أنت ، فليس لها اختيار . ولا نبات له اختيار ، ولا جماد له اختيار ، ولا الحيوان أيضاً ، إنما الاختيار للإنسان .

وقد حكم الله اختيار الإنسان بمقادير يكون الإنسان مسخراً فيها حتى لا يظن أنه استقل بالسيادة فأصبحت له قدرة ذاتية . والحق يحكم الإنسان بأشياء يجعلها قهرية على الإنسان كي يظل في إطار التسخير . ويترك الحق للإنسان أشياء ليبقى له فيها الاختيار .

فإذا ما نظرنا إلى الكون وجدنا أن ما لا اختيار فيه لشيء يسير على أحداث نظام ولا تصادم فيه، والذي فيه اختيار للإنسان هو الذي يختل، لماذا ؟ .

لأن الإنسان قد يختار على غير منهج الذي خَلَق وهو الله – سبحانه وتعالى – فإذا أردت أن يستقيم لك الأمر أيها المختار فاجعل اختيارك في إطار منهج الله .

وحين تجعل اختيارك في إطار منهج الله تكون قد أصبحت سويًّا كبقيّة الأجناس وتسير الأمور معك بانتظام .

وعندما تقارن بين شيء للإنسان فيه اختيار وعمل، وشيء لا اختيار للإنسان فيه ولا عمل، فأنت تجد أن الشيء الذي لا اختيار للإنسان فيه مستقيم الأمر، ولا خلاف فيه أبداً، أما الشيء الذي فيه اختيار للإنسان، فأنت تجد فيه الخلاف .

مثال ذلك : لو نظرنا إلى وسيلة مواصلات من الحيوانات كالجمال أو الخيل أو الحمير، فإننا نجدها تسير في طريق واحد، وتتقابل جيئة وذهابا فلا يحدث تصادم بين حمار وحمار، ولا قتل لراكب أحد الحمارين .

إن الحيوانات يتفادى ويتحامى بعضها بعضاً حتى لو كان الراكب نائماً . ومهما كان الطريق مزدحماً فالحيوانات لا تتصادم ؛ لأن ذلك من نطاق تسخير الحق للحيوان .

ولننظر إلى الإنسان حين تدخّل ليصنع وسيلة مواصلات ، صنع الإنسان ألوان السيارات ، يقودها الإنسان ، ومع أن الإنسان هو الذي يقود السيارات ، وبرغم ذلك بدأت تأتي المخالفات والمصادمات والحوادث ؛ لأن للإنسان يداً في ذلك .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يدلك على أن ما خلق مسخراً بأمر الله وتوجيهه لا يتأتى منه فساد أبداً ، إنما يتأتى الفساد مما لك فيه اختيار ، فحاول أن تختار في إطار منهج الله .

فعندما يقول الحق لك : " افعل كذا ولا تفعل كذا " فعليك أن تصدق وتطيع ؛ لأن الحق سبحانه عندما سخر الأشياء للإنسان سارت بانتظام رائع ، وأنت أيها العبد عندما تطيع الله فإن الأمور في حياتك تمشي بيسر .

ولذلك قلنا : إن الناس لم تشتك قط أزمة شمس , ولم يشتكوا أزمة هواء ، لكن لماذا اشتكوا أزمة طعام ؟ إن الإنسان له دخل في إنتاج الطعام . فما للإنسان فيه دخل يجب أن يحكمه قانون التكليف من الله : " افعل كذا ولا تفعل كذا " .

الكون مخلوق بحق . ومعنى أنه مخلوق بحق أن كل شيء في الوجود يؤدي مهمته كما أرادها الله ، وكما سُخِّر من أجله , إذا ما قام الإنسان بتنفيذ التكليف فكل شيء يسير بحق . وإن ترك الإنسان التكليف وأخذ باختياره فإنه يصير إلى باطل ونتج ما هو باطل ، والكون مبني على الحق . ﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان : 39] إن

الحق جعل للكون قضايا ثابتة ، فلا شيء يعتدي على شيء آخر أبداً . واختيار الإنسان هو الذي يأتي بمقابل الحق وهو الباطل ، ولذلك يصون الله الكون بأن يبين أن الحق يصطدم بالباطل ، والباطل يصطدم بالحق لكن الحق يجيء ويبقى ، والباطل يزهق ويزول ، ويظهر الله لنا ذلك أمام أعيننا يقول تعالى :

﴿ وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾

[الإسراء : 81]

(149/130)

إذن فقوله سبحانه : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ يعني : اعتبروا بما سبقكم وانظروا إلى اصطدام الباطل بالحق ، أدام وبقى اصطدام الباطل بالحق ؟ لا ؛ لأن الباطل كان زهوقا .

ولذلك نحن نرى أمثلة عملية لذلك لا أقول في مواكب الناس بعضهم مع بعض ، ولكن في موكب الباطل مع حق السماء . وحق السماء يمثله الرسل والمناهج التي جاءت من عند الله وكل حق جاء من السماء وجاء من مناهج الله قابلة قوم مبطلون .

لماذا ؟ لأن السماء دائماً لا تدخل إلا حين يشيع الفساد ، وما دام الفساد يشيع فإن هناك

طائفة منتفعة بالفساد ، وهذه الطائفة المنتفعة بالفساد وبالباطل تدافع عنه وبعد ذلك يأتي موكب السماء ليصادم هذا الباطل والفئة المنتصرة للباطل ، فتنشأ معركة ، فقال الحق حينئذ : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ . قالها الحق لنعرف أن الباطل زهوق ، وأن كل معارك أهل الأرض مع منهج السماء قد انتصر فيها الحق . ولذلك تأتي سورة العنكبوت لتبين لنا ذلك ، بداية من قوله سبحانه :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَارْجُواْ الْيَوْمَ الأَخِرَ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾

[العنكبوت : 36-37]

هذه هي الصورة الأولى ، وتأتي الصورة الثانية :

﴿ وَعَاداً وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾

[العنكبوت : 38]

إذن فانظروا إلى مساكنهم الباقية لتدلكم على ما حدث لهم . والصورة الثالثة :

﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُواْ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَابِقِينَ ﴾

[العنكبوت : 39]

وساعة تسمع ﴿ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾ . أي كأن هناك حاجة تلاحقهم ، والذي يلاحقه شيء فإنه يحاول أن يسبقه ، لكنهم لا يستطيعون . وتأتي السنن واضحة بعد ذلك :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

[العنكبوت : 40]

إذن فصراع الحق والباطل قد تقدم ووقع في أمم قد سبقتكم وبقيت لها مساكن ، فمن شاء أن يذهب إليها ليتأكد فليذهب ، ولا تزال مدائن صالح ، ولا تزال هناك آثار عاد ، وكل مكان فيه أثر من الآثار . ولذلك يوضح الحق : فإن كنتم تريدون التأكد من ذلك فأنا قد أخبرت ، ومن آمن بي فليصدق خبري ، ولغير المؤمن ولمن يريد اطمئنان قلبه يقول سبحانه :

﴿ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

[النحل : 36]

إن الحق سبحانه وتعالى يمثل صراع الحق – وهو الشيء الثابت – مع الباطل ، وهذه

القضية موجودة حتى فيما لا اختيار له . ويصنعها الحق فيهم ، صراعا بين حق وباطل فيما لا اختيار له لمصلحة الإنسان أيضاً . وقد جعل سبحانه الصراع بين الحق والباطل في أشياء ليست من الإنسان ولكنها تخدم الإنسان ، وهذه نراها في الأمور المادية . أما في القيم فالحق يقول :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾

[الرعد : 17]

(151/130)

إنه سبحانه أنزل من السماء ماء فسال في الأودية ، والأودية كما نعرفها هي المكان المنحصر بين جبلين ، فإذا نزلت الأمطار على الأعالي فإنها تنحدر إلى الأسفل وتسيل في الأودية . والوديان هي محل الخصب ؛ لأن الغرين والطمى الذي ينزل من الجبال مع مياه المطر ويترسب ويصير ترابا خصباً يخرج منه الزرع . وكل وادٍ من الوديان يأخذ على قدر سعته ، وباقي المياه يبحث له عن مسلك آخر ، ولو إلى باطن الأرض ، وذلك كان مظهراً مألوفاً في

الجزيرة العربية, فعندما يأتي السيل فإن الأودية تمتلئ ماءً ، كل وادٍ يأخذ على قدر سعته .

﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً ﴾ ونحن نراه في الحقول ونسميه " الريم " الذي يطفو على سطح الماء ، ما الذي يحدث لهذا الريم ؟ إنه يتجمع ويطفو ثم يركن ويميل جانباً . ألم تر القدْر بها لحم تفور ؟ . إننا نجد الريم قد طفا على السطح . وهذا الريم فيه أشياء خارجة عن عنصر الشيء الموجود في القدر ، فإذا ما جاءت حرارة النار أخرجته على السطح ، فإما أن يخرجه الإنسان خارج القدر ، وإما أن يتركه فيتجمد على الجوانب وينتهي .

ومن أين جاء هذا الزبد ؟ إنه يأتي من الأرض, والأرض فيها أشياء كثيرة ، كجذور النبات وبقايا ما حمله الهواء وتتخلل هذه الأشياء مسام الأرض ، هذه الأشياء عندما توجد في المسام ، وتأتي الجذور الصغيرة لتنمو فتعوقها عن أخذ غذائها ؛ لذلك فعندما ينزل الحق الماء من السماء فإن الماء يجعل هذه الأشياء تطفو على السطح ؛ ليجعل هناك منفذاً للجذور الصغيرة .

وينزل الله المطر ليغسل التربة كلها ، ويجعل هذه الأشياء تطفو ؛ لأنها غثاء ، ويطفو الغثاء . وساعة أن يطفو الغثاء فإياك أن تفهم أن ذلك علو ، إنه علو إلى انتهاء ، كذلك فورة الباطل .

(152/130)

إياك أنن تظن أن الزَبَد له فائدة ، أو أنَّ ارتفاع الريم كان علواً على ما في القدر ، لا . إنه تطهيرٌ لما في القدر أو الإناء ، ولهذا قال الحق : ﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً ﴾ .

وإن لم تذهب آثار الريم بحركة الماء التموجية فإنها ستذهب بطريقة أو بأخرى . ولننظر إلى الأشياء القذرة التي تلقي في البحر نجد أنها بعد مدة قد خرجت إلى الشاطئ .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾

[المدثر : 31]

إنها تخرج على الشاطيء ويجمعها المكلفون بتنظيف الشاطئ . وإلا كيف تتم صيانة الماء ؟ إنه سبحانه يجعل الماء ينظف نفسه بحركته الذاتية . إذن فالماء عندما ينزل سيلاً ، فإنه ينقي التربة من العوائق التي تعوق غذاء الجذيرات الصغيرة ، وقد لا يكتفي بعضنا بهذا المثل ، فيضرب لنا الله مثلاً آخر :

﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَالِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾

[الرعد : 17]

ونحن نرى هذه الحكاية عندما يضعون أي معدن في النار ، فإن المعدن ينصهر ويصير كالعجينة وتخرج منه فقاقيع ونحن نسميها خبث المعدن وعندما نخرج الخبث من المعدن فانه يصير قوياً إذن فالنار قد صهرت المعدن ، وأخرجت منه الخبث الضار فيه ، أو الذي

يجعله لا يؤدي مهمته بكفاءة عالية ، فأنا قد أصنع من الحديد درعاً قوية أو أريد أن أستخرج منه الصلب ، وهذه العمليات معناها أننا نصْهر الحديد بالنار لنزيل خبثه ليزداد قوة . وكذلك الذهب والفضة ساعة نريد أن نخلصهما من هذه الآثار فإننا نصهرهما لنخرج منهما الأشياء الخارجة عنهما أي التي تختلط بهما وتشوبهما وهي ليست منهما .

(153/130)

لماذا إذن يا ربيّ هذا التمثيل الحسي في المياه ؟ والحلية التي لا تؤدي ضرورة ، والمتاع وهو الذي يؤدي ضرورة ؟ إنه سبحانه يقول : ﴿ كَذَالِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾ .

إن الحق كالماء ، والحق كالنار ، والماء يحمل الزبد الرابي بعيداً عن مسام الأرض ، والنار تخرج الزبد والخَبث من المعادن ، وتجعل المعادن خالصة للمنفعة المطلوبة لنا ، كذلك يضرب الله الحق والباطل : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ﴾ .

وجفاءً أي مطروحاً مرمياً ، ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ . ذلك هو صراع الحق والباطل في المبادئ والقيم ويصوره الله في الأمور المادية . ومن العجيب أنه يصوره بمتناقضين ولكنهما متناقضان ويؤديان مهمة واحدة ، ماء ونار ، فإياك حين ترى شيئاً يناقض شيئاً أن تقول : هذا يناقض ذاك ، لا . لأن هذا الشيء مطلوب لمهمة ، وذاك

الشيء مطلوب لمهمة أخرى .

إذن فقول الحق سبحانه : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ هو لفت لنا إلى صراع الحق مع الباطل ، وأن الإنسان قد يرى الباطل مرة وله فورة وعلو ، ونقول : هذا إلى جُفاء . وهذه سنة من سنن الحياة . وإن أردتم أن تتأكدوا منهما ، فالتفتوا إلى دقة قول الحق تعالى :

﴿ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

وهنا ملحظ عام ، وملحظ خاص ، الملحظ العام : أننا نفهم أن المقصود بذلك السير على الأرض ، وتلك هي حدود رؤيتنا ، لكن حين يتكلم الله فرؤية الله أشمل فهو الخالق لهذا الكون ، ونحن ما زلنا نجهل جزيئات في هذا الكون ، ولم نعرف بعضها إلا أخيراً ، وخالق الكون هو الذي يعلم كل الخبايا .

نحن نقول : إننا نسير على الأرض ؛ لأننا كنا نفهم أن هذه الأرض ليس عليها إلاّ نحن فقط ، ثم تبين لنا – بعد أن أخذ العلم حظه – أنه لولا وجود الهواء في الأرض لما صلحت للحياة . ولذلك فعندما تدور الأرض . فالهواء الذي حولها يدور معها ويسمونه الغلاف الجوي إذن فالغلاف الجوي جزء من الأرض وله امتداد كبير ، فالإنسان عندما يسير فإنه يسير في

الأرض ، أما الذي يسير على الأرض فهو الذي يسير فوق الغلاف الجوي ، أما السائر على اليابسة ، والغلاف الجوي ما زال فوقه فهو يسير في الأرض لا على الأرض .

وما دامت المسألة هي سنن تقدمت ، ويريد الله منا أن نعتبر بالسنن المتقدمة ، لذلك يقول لنا : ﴿ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ ﴾ نسير بماذا ؟ . إما أن نسير بالانتقال ، أو نسير بالأفكار ؛ لأن الإنسان قد لا يملك القدرة على السير ويترك هذه المهمة للرحالة ، والرحالة – مثلاً – هم الذين ذهبوا إلى جنوب الجزيرة ، ورأوا وادي الأحقاف ووجدوا أن عاصفة رمل واحدة تطمر قافلة بتمامها .

إذن ففيه عواصف وارت الكثير من الأشياء ، فعاصفة واحدة تطمر قافلة . فكم من العواصف قد هبت على مرّ هذه القرون ؟ والحق سبحانه يخبرنا بإرم ذات العماد فيقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْاْ فِي الْبِلاَدِ * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾

[الفجر : 6–13] .

إنه سبحانه يخبرنا أن إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد أي متفوقة على حضارة مصر القديمة . وهي عجيبة وفيها أكثر من عجيبة فأين هي الآن ؟ .

وما دامت الرمال بعاصفة واحدة - كما قلنا - تطمر قافلة، فكم عاصفة مرت على هذه البلاد؟. ولذلك نجد أننا لا نزال جميعاً إلى الآن حين نريد أن ننقب عن الآثار فلا بد أن نحفر تحت الأرض. لماذا هذا الحفر وقد كانت هذه الآثار فوق الأرض؟ لقد غطتها العواصف الرملية.

والمثال على ذلك: أنَّك تغيب عن بيتك شهراً واحداً وتعود لتجد من التراب الناعم ما يغطي أرض البيت على الرغم من إغلاق النوافذ. فماذا تجد من حجم التراب لو غبت عن بيتك عاماً، أو عامين، أو ثلاثة أعوام، رغم إحكام وإغلاق النوافذ والفتحات بالمطاط وخلافه؟ ولكن التراب الناعم يتسرب ويغطي الأثاث والأرض. وإذا كانت هذه الأمور تحدث في منازلنا فما بالك بالمنطقة التي فيها أعاصير وعواصف رملية؟ هل تطمر المدن أو لا؟

إن المدن والحضارات تطمر تحت الرمال؛ لذلك فعندما ننقب عن الآثار فنحن نحفر في الأرض، وهذا لون من السير في الأرض للرؤية والعظة. وحين يقول الحق: ﴿ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ فماذا يعني بعاقبة المكذبين؟ حين تكون أمة قد تحضرت حضارة كبيرة يقول عنها الحق:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ *

وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُواْ الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْاْ فِي الْبِلاَدِ * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الْفَسَادَ ﴾

[الفجر : 6-12] .

إن الذي أقام هذه الحضارات ألا يستطيع أن يجعل لهذه الحضارة ما يصونها ؟ كيف يتم القضاء على هذه الحضارات الواسعة واندثارها وذهابها ؟ .

(156/130)

لا بد أن ذلك يتم بقوة أعلى منها ، فهذه الحضارات رغم تقدمها الرهيب لم تستطع أن تحفظ نفسها من الفناء . إنها القوة الأعلى منها ، وهكذا نصدق قوله الحق : ﴿ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ . إنه القّيوم الذي يرى كل الخلق ، فمن يطغى ويفسد فليلق النهاية نفسها . إذن فقوله سبحانه يحمل كل الصدق :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1763 . 1773 ﴾

(157/130)

" فصل "

قال السيوطى :

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137)

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله ﴿ قد خلت ﴾ يعني مضت .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ قد خلت من قبلكم سنن ﴾ يعني تداول من الكفار والمؤمنين في الخير والشر .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ قال : عاقبة الأولين والأمم قبلكم ، كان سوء عاقبتهم متعهم الله قليلاً ثم صاروا إلى النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 329 ﴾

(158/130)

قوله تعالى ﴿ هذا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (138) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تكفلت هذه الجمل بالهداية إلى سعادة الدارين نبه على ذلك سبحانه وتعالى بقوله على طريق الاستفتاح: ﴿ هذا بيان ﴾ أي يفيد إزالة الشبه ﴿ للناس ﴾ أي المصدقين والمكذبين ﴿ وهدى ﴾ أي إرشاد بالفعل ﴿ وموعظة ﴾ أي ترقيق ﴿ للمتقين ﴾ .

انتهى انتهى. اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 159 ﴾

فصل

قال الفخر:

قوله تعالى: ﴿ هذا بَيَانٌ لّلنَّاسِ ﴾

ويعني بقوله: ﴿ هذا ﴾ ما تقدم من أمره ونهيه ووعده ووعيده وذكره لأنواع البينات والآيات، ولا بد من الفرق بين البيان وبين الهدى وبين الموعظة، لأن العطف يقتضي المغايرة فنقول فيه وجهان:

الأول: أن البيان هو الدلالة التي تفيد إزالة الشبهة بعد أن كانت الشبهة حاصلة، فالفرق أن البيان عام في أي معنى كان، وأما الهدى فهو بيان لطريق الرشد ليسلك دون طريق الغي.

وأما الموعظة فهي الكلام الذي يفيد الزجر عما لا ينبغي في طريق الدين، فالحاصل أن البيان جنس تحته نوعان: أحدهما: الكلام الهادي إلى ما ينبغي في الدين وهو الهدى.

الثاني: الكلام الزاجر عما لا ينبغي في الدين وهو الموعظة.

الوجه الثاني : أن البيان هو الدلالة ، وأما الهدى فهو الدلالة بشرط كونها مفضية إلى الاهتداء ، وقد تقدم هذا البحث في تفسير قوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] في سورة البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 11 ﴾

فصل

قال الفخر :

في تخصيص هذا البيان والهدى والموعظة للمتقين وجهان .

أحدهما : أنهم هم المنتفعون به ، فكانت هذه الأشياء في حق غير المتقين كالمعدومة ونظيره قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يخشاها ﴾ [النازعات : 45] ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَّنِ اتبع الذكر ﴾ [يس : 11] ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ [فاطر : 28] وقد تقدم تقريره في تفسير قوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

(159/130)

الثاني : أن قوله : ﴿ هذا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾ كلام عام ثم قوله : ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ ﴾ للمتقين مخصوص بالمتقين ، لأن الهدى اسم للدلالة بشرط كونها موصلة إلى البغية ، ولا شك أن هذا المعنى لا يحصل إلا في حق المتقين ، والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح

الغيب جـ 9 صـ 12.11 ﴾

وقال الطبري :

اختلف أهل التأويل في المعنى الذي أشير إليه بـ "هذا" .

فقال بعضهم : عنى بقوله "هذا" ، القرآن .

وقال آخرون : إنما أشير بقوله "هذا" ، إلى قوله : "قد خلت من قبلكم سُنن فسيروا في الأرض فانظرُوا كيف كان عاقبه المكذبين" ، ثم قال : هذا الذي عرَّفتكم ، يا معشر أصحاب محمد ، بيان للناس .

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب ، قولُ من قال : قوله : "هذا" ، إشارةٌ إلى ما تقدم هذه الآية من تذكير الله جل ثناؤه المؤمنين ، وتعريفهم حدوده ، وحضِّهم على لزوم طاعته والصبر على جهاد أعدائه وأعدائهم . لأن قوله : "هذا" ، إشارة إلى حاضر : إما مرئيّ وإما مسموع ، وهو في هذا الموضع إلى حاضر مسموع من الآيات المتقدمة .

فمعنى الكلام : هذا الذي أوضحتُ لكم وعرفتكموه ، بيانٌ للناس يعني بـ "البيان" ، الشرح والتفسير . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الطبري جـ 7 صـ 232.231 ﴾ . بتصرف يسير .

وقال العلامة ابن عطية :

كونه بياناً للناس ظاهر ، وهو في ذاته أيضاً هدى منصوب وموعظة ، لكن من عمي بالكفر

وضل وقسا قلبه لا يحسن أن يضاف إليه القرآن ، وتحسن إضافته إلى " المتقين " الذين فيهم نفع وإياهم هدى ، وقال ابن إسحاق والطبري وجماعة : الإشارة ب ﴿ هذا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ قد خلت من قبلكم سنن ﴾ الآية ، قال ابن إسحاق : المعنى هذا تفسير للناس إن قبلوه ، قال الشعبي : المعنى ، هذا بيان للناس من العمى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 512 ﴾

(160/130)

من فوائد العلامة أبى السعود فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ هذا ﴾ إشارةٌ إلى ما سلف من قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ إلى آخره ﴿ بَيَانٌ لّلنَّاسِ ﴾ أي تبيينٌ لهم ، على أن اللامَ متعلقةٌ بالمصدر أو كائنٌ لهم على أنها متعلقةٌ بمحذوف وقع صفةً له ، وتعريفُ الناس للعهد وهم المكذبون أي هذا إيضاحٌ لسوء عاقبةِ ما هم عليه من التكذيب فإن الأمرَ بالسير والنظرِ وإن كان خاصاً بالمؤمنين لكن العملَ بموجبه غيرُ مختصَ بواحد دون واحدٍ ففيه حملٌ للمكذبين أيضاً على أن ينظُروا في عواقب مَنْ قبلَهم من أهل التكذيبِ ويعتبروا بما يعانون من آثار دمارِهم وإن لم يكن الكلامُ مَسوقاً لهم ﴿ وَهُدًى

وَمَوْعِظَةٌ ﴾ أي وزيادةُ بصيرةٍ وموعظةٍ لكم وإنما قيل : ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ للإيذان بعلة الحُكمِ فإن مدارَ كونِه هدىً وموعظةً لهم إنما هو تقواهم . ويجوز أن يُرادَ بالمتقين الصائرين إلى التقوى والهدى والموعظة على ظاهرهما ، أي هذا بيانٌ لمآل أمرِ الناسِ وسوءِ مَغَبّته ، وهدايةٌ لمن اتقى منهم وزجرٌ لهم عما هم عليه من التكذيب ، وأن يُراد به ما يعُمّهم ويعُم غيرَهم من المتقين بالفعل ، ويُرادَ بالهدى والموعظةِ أيضاً ما يعُم ابتداءَهما والزيادةَ فيهما ، وإنما قُدّم كونُه بياناً للمكذبين مع أنه غيرُ مَسوق له على كونه هدىً وموعظةً للمتقين ، مع أنه المقصودُ بالسياق لأن أولَ ما يترتب على مشاهدة آثارِ هلاكِ أسلافِهم ظهورُ حالِ أخلافِهم ، وأما زيادةُ الهدى أو أصلِه فأمرٌ مترتبٌ عليه ، وتخصيصُ البيانِ للناس مع شموله للمتقين أيضاً لما أن المرادَ به مجردُ البيانِ العاري عن الهدى والعظةِ ، والاقتصار عليهما في جانب المتقين مع ترتّبهما على البيان لما أنهما المقصِدُ الأصليُّ ، ويجوز أن يكون تعريفُ الناسِ للجنس أي هذا بيانٌ للناس كافة ، وهدى وموعظةٌ للمتقين منهم خاصة . وقيل : كلمةُ هذا

إشارةٌ إلى ما لُخّص من أمر المتقين والتائبين والمُصِرّين . وقوله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ الآية ، اعتراضٌ للحث على الإيمان وما يُستحَقّ به ما ذُكر من أجر العاملين . وأنت خبيرٌ بأن الاعتراضَ لا بد أن يكون مقرِّراً لمضمون ما وقع في خلاله ، ومعاينةُ آثارِ هلاكِ المكذبين مما لا تعلقَ له بحال أحدِ الأصنافِ الثلاثةِ للمؤمنين وإن كان باعثاً على الإيمان زاجراً عن التكذيب ، وقيل : إشارةٌ إلى القرآن ولا يخفى بُعدُه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 88 ﴾

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

الإشارة إما إلى القرآن وهو المروي عن الحسن وقتادة وخدش بأنه بعيد عن السياق وإما إلى ما لخص من أمر الكفار والمتقين والتائبين ، وقوله سبحانه : ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ [آل عمران : 137] الآية اعتراض للبعث على الإيمان والتقوى والتوبة كما قيل ووجه الاعتراض لدفع الاعتراض بأن المعترضة مؤكدة للمعترض فيه وهنا ليس كذلك بأن تلك الآيات واردة على سبيل الترغيب والترهيب لآكلي الربا وهذه الآية دلت على الترهيب ومعناه راجع إلى الترغيب بحسب التضاد كما أن بعض الآيات الواردة في الرحمن للوعيد تعدّ من الآلاء بحسب الزجر عن المعاصي فيتأتى التوكيد دون نقص ، واعترض عليه بأنه

تعسف، وإما إلى ما سلف من قوله سبحانه: ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ الخ، وهو المروي عن أبي إسحاق، واختاره الطبري والبلخي وكثير من المتأخرين.

(162/130)

وأل في الناس للعهد، والمراد بهم المكذبون، والظرف إما متعلق ببيان أو بمحذوف وقع صفة لهم أي هذا إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب فإن الأمر (بالسير والنظر) السابق وإن كان خاصاً بالمؤمنين على المختار لكن العمل بموجبه غير مختص بهم ففيه حمل للمكذبين أيضاً على أن ينظروا في عاقبة أسلافهم ليعتبروا بذلك، والموعظة ما يلين القلب ويدعو إلى التمسك بما فيه طاعة، والهدى بيان طريق الرشد ليسلك دون طريق الغي، والفرق بينه وبين البيان أن الثاني إظهار المعنى كائناً ما كان ولكون المراد به هنا ما كان عارياً عن الهدى والعظة خصه بالناس مع أن ظاهره شامل للمتقين.

والمراد بهم مقابل المكذبين وكأنه وضع موضع الضمير بناءاً على أن المعنى وزيادة بصيرة وموعظة لكم للإيذان بعلة الحكم فإن مدار ذلك كونه هدى وموعظة لهم إنما هو تقواهم وعدم تكذيبهم، وقدم بيان كونه بياناً للمكذبين مع أنه غير مسوق له على بيان كونه هدى للمتقين مع أنه المقصود بالسياق لأن أول ما يترتب على مشاهدة آثار هلاك أسلافهم ظهور

حال أخلافهم ، وأما الهدى فأمر مترتب عليه والاقتصار على الأمرين في جانب المتقين مع ترتبهما على البيان لما أنهما المقصد الأصلي .

وقيل : أل في الناس للجنس .

(163/130)

والمراد بيان لجميع الناس لكن المنتفع به المتقون لأنهم يهتدون به وينتجعون بوعظه وليس بالبعيد وجوز بعضهم أن يراد من المتقين الصائرون إلى التقوى فيبقى الهدى والموعظة بلا زيادة ، وإن يراد بهم ما يعمهم وغيرهم من المتقين بالفعل فيحتاج الهدى وما عطف عليه إلى اعتبار ما يعم الابتداء والزيادة فيه ، ولا يخفى ما في الثاني من زيادة البعد لارتكاب خلاف الظاهر في موضعين وأما الأول : ففيه بعد من جهة الارتكاب في موضع واحد وهو وإن شارك ما قلناه من هذه الحيثية إلا أن ما ارتكبناه يهدي إليه في الجملة التنوين الذي في الكلمة ولا كذلك ما ارتكبوه بل اعتبار الكمال المشعر به الإطلاق ربما يأباه ولعله لمجموع الأمرين هان أمر نزع الخف . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 4 صـ 66.65﴾

وقال ابن عاشور :

الإشارة إمَّا إلى ما تقدّم بتأويل المذكور ، وإمَّا إلى حاضر في الذهن عند تلاوة الآية وهو

القُرآن .

والبيانُ : الإيضاح وكشف الحقائق الواقعة .

والهدى : الإرشاد إلى ما فيه خير النَّاس في الحال والاستقبال .

والموعظة : التحذير والتخويف .

فإن جعلت الإشارة إلى مضمون قوله : ﴿ قد خلت من قبلكم سنن ﴾ [آل عمران : 137] الآية فإنَّها بيان لما غفلوا عنه من عدم التَّلازم بين النَّصر وحسن العاقبة ، ولا بين الهزيمة وسوء العاقبة ، وهي هدى لهم لينتزعوا المسببات من أسبابها ، فإن سبب النجاح حقاً هو الصلاح والاستقامة ، وهي موعظة لهم ليحذروا الفساد ولا يغترّوا كما اغترّت عاد إذ قالوا : "مَنْ أَشَدّ مِنَّا قوّة" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ 227 ﴾

(164/130)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

انظر إلى الكلمة ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾ إن البيانات عندما تتأتى تأخذ قوتها وسطوتها وعظمتها من قوة من أصدر البيان ؛ أنت ساعة تجد ثورة في مجتمع ما فإننا نسمع كلمة " بيان رقم واحد " تهتز له الدنيا وهو بيان قادم من بشر فما بالنا بالبيان القادم من الله ؟

إنه إيضاح من الله : أنا لن آخذكم على غرة ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ و " الهدى " : كما نعرف هو الطريق الموصل للغاية المرجوة . و " الموعظة " معناها : حمل النفس ترغيباً وترهيباً ، لعمل الخير بالترغيب ، والبعد عن الشر بالترهيب ، تلك هي الموعظة .

وكل هذه الأشياء عندما جاءت في ثنايا آيات أُحُد بعد أن أخذنا منها العبرة والحدث ما زال ساخناً . لذلك فقبل أن يكمل لنا قصة أُحُد استثار النفوس بهذه المسألة ، ووضع لنا الأشياء المادية والقيمية ؛ لنأخذ بها في حياتنا ، وحتى لا تنتهي قصة أُحُد وينصرف الناس عن العظات التي كانت فيها .

وما دامت المسألة هكذا ، وكان المقاتلون في سبيل الله هم جنود الحق ، وعرفوا ذلك بتأييد الله لهم ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بينهم . وهو حامل المعجزة الدالة على صدقه ؛ لذلك فالذي حدث في معركة أُحُد لا يصح أن يضعفكم ؛ لأنكم تعرفون كيف يسند الله الحق ويقويه . وتعرفون حملة الله على الباطل . وقد أوضحنا لكم السنن والبيان ، ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم

مُّؤْمِنِينَ ﴾

. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1774.1773 ﴾

(165/130)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ يجوز أن يتعلق بـ " خَلَتْ " ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من ﴿ سُنَنٌ ﴾ ؛ لأنه - في الأصل - يجوز أن يكون وَصْفاً ، فلما قُدِّمَ نُصِبَ حالاً .

والسُّنَن : جمع سُنَّة ، وهي الطريقة التي يكون عليها الإنسان ويلازمها ، ومنه سُنَّة الأنبياء .

قال خالد الهُذَلِي لخاله أبي ذُؤيب : [الطويل]

فَلاَ تَجْزَعَنْ مِنْ سُنَّةٍ أنْتَ سِرْتَهَا . . . فَأوَّلُ رَاضٍ سُنَّةً مَنْ يَسِيرُهَا

وقال آخر : [الطويل]

وَإنَّ الأُلَى بِالطَّفِّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ . . . تَأَسَّوْا ، فَسَنُّوا لِلْكِرَامِ التَّآسِيَا

وقال لبيد : [الكامل]

مِنْ أمَّةٍ سَنَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ . . . وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإمامُهَا

وقال المفضَّل: السُّنَّة: الأمة، وأنشد: [البسيط]

مَا عَايَنَ النَّاسُ مِنْ فَضْلٍ كَفَضْلِكُمُ . . . وَلا رَأَوْا مِثْلَكم فِي سَالِفِ السُّنَنِ

ولا دليل فيه؛ لاحتمال أن يكون معناه: أهل السنن.

وقال الخليل: سَنَّ الشيء بمعنى: صوره، ومنه: ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: 28] أي: مُصَوَّر وقيل: سن الماء والدرع إذا صبهما، وقوله: ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ يجوز أن يكون منه، ولكن نسبة الصب إلى الطين بعيدة.

وقيل: مسنون، أي: متغير.

وقال بعض أهل اللغة: هي فُعْلَة من سَنَّ الماء، يسنه، إذا والى صَبَّه، والسَّنُّ: صَبُّ الماء والعرق نحوهما.

وأنشد لزهير: [الوافر]

نُعَوِّدُهَا الطراد كُلَّ يَوْمٍ . . . تُسَنُّ عَلَى سَنَابِكِهَا الْقُرُونُ

أي: يُصب عليها من العرق، شبَّه الطريقة بالماء المصبوب، فإنه يتوالى جرْيُ الماء فيه على نَهْج واحد، فالسُّنَّة بمعنى: مفعول، كالغُرْفَةِ.

وقيل: اشتقاقها من سننت النَّصْل، أسنّه، سنًّا، إذا حددته [على المِسَن]، والمعنى: أن الطريقةَ الحسنةَ، يُعْتَنَى بها، كما يُعْتَنَى بالنَّصْل ونحوه.

وقيل : من سَنَّ الإبل ، إذا أحسن رعايتها ، والمعنى : أن صاحب السنة يقوم على أصحابه ، كما يقوم الراعي على إبله ، والفعل الذي سَنَّه النبي سُمِّيَ سُنَّةً بمعنى : أنه صلى الله عليه وسلم أحسن رعايته وإدامته . وقد مضى من ذلك جملة صالحة في البقرة .

قوله : ﴿ فَسِيرُواْ ﴾ جملة معطوفة على ما قبلها ، والتسبُّب في هذه الفاء ظاهر ، أي : سبب الأمر بالسير لتنظروا – نَظَرَ اعتبار – خُلُوَّ مَنْ قبلكم من الأمم وطرائقهم .

وقال أبو البقاء : " ودخلت الفاء في " فَسِيرُوا " ؛ لأن المعنى على الشرط ، أي : إن شككتم فسيروا " .

وقوله : ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكذبين ﴾ "كيف " خبر مقدم ، واجب التقديم ، لتضمُّنه معنى " الاستفهام " ، وهو معلق لـ " انْظُرُوا " قبله ، فالجملة في محل نصب بعد إسقاط الخافض ؛ إذ الأصل : انظروا في كذا .

قوله : " للناس " يجوز أن يتعلقَ بالمصدر قبلَه ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه وَصْف له .

قوله : ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يجوز أن يكون وَصْفاً – أيضاً – ويجوز أن يتعلق بما قبله ، وهو محتمل لأن يكونَ من التنازع ، وهو على إعمال الثاني للمحذوف من الأول . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 548.550 ﴾ . بتصرف يسير .

" فصل في مواعظ الحكماء "

قال ابن عبد ربه :

قال عليّ بن أبي طالب كرّم الله وَجْهَه : أُوصيكم بخَمس لو ضرَبتم عليها آباط الإبل لكان قليلاً : لا يَرْجُوَن أحدكم إلا ربّه ، ولا يخافنَ إلا ذنبه ، ولا يستحي إذا سُئل عما لا يَعلم أن يقول : لا أعلم . وإذا لم يعلم الشيء أن يتعلّمه واعلموا أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا قُطع الرأس ذهب الجسد . وقال أيضاً : من أراد الغِنَى بغير مال ، والكثرةَ بلا عَشية ، فليتحوّل من ذُلّ المَعصية إلى عزِّ الطاعة " أبى الله إلا أن يُذِلّ مَن عصاه . وقال الحسنُ : مَن خاف اللهّ أخاف اللهّ منه كل شيء ، ومن خاف الناسَ أخافه الله من كل شيء .

وقال بعضُهم : من عَمِلَ لأخرته كَفَاه الله أمرَ دنياه ، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح اللهّ ما بينه وبين الناس ، ومَن أخلص سريرتَه أخلص الله علانيَته . قال العُتْبيّ : اجتمعت العربُ والعجم على أربع كلمات : قالوا : لا تَحْملنّ على قلبك ما لا يُطِيق ، ولا تعملنَّ عملاً ليس لك فيه مَنْفعة ، ولا تَثِقْ بامرأة ، ولا تغتر بمال وإن كثُر .

(168/130)

وقال أبو بكر الصدّيق لعُمَر بن الخطّاب رضي الله عنهما عند مَوته حين استخْلفه :

أُوصيك بتقوى الله ، إن لله عملاً بالليل لا يَقْبَلُه بالنهار ، وعملا بالنهار لا يَقْبَله بالليل ، وإنه لا يقبل نافلة حتى تُؤَدّى الفرائض ، وإنما ثَقُلَتْ موازين مَن ثقُلت موازينهم يومَ القيامة باتباعهم الحقّ وثقَلِه عليهم ، وحُقّ لميزان لا يُوضعِ فيه إلا الحقُّ أن يكون ثقيلا ، وإنما خَفّت موازينُ من خَفّت موازينهم يومَ القيامة باْتباعهم الباطل في الدُّنيا وخِفّته عليهِم ، وحُقّ لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً ، وإن الله ذَكَر أهلَ الجنَّة فذَكَرهم بأحسن أعمالهم ، وتجاوزَ عن سيئاتهم ؛ فإذا سمعتَ بهم قُلْت : إني أخاف أن لا أكون من هؤلاء ؛ وذكَرَ أهل النار بأقبح أعمالهم ، وأمسك عن حَسَناتهم ، فإذا سمعتَ بهم قلتَ : أنا خيرٌ من هؤلاء ، وذكر آية الرّحمة مع آية العذاب ليكونَ العبدُ راغباً راهباً لا يتمنى على الله غيرَ الحق . فإذا حفظت وصيَّتي فلا يكون غائبٌ أحبَّ إليك من الموت ، وهو آتيك ؟ وإن ضيّعْت وصيَّتي فلا يكون غائبٌ أكرَه إليك من الموت ، ولن تُعْجزه .

(169/130)

ودخل الحسن بن أبي الحسن على عبد الله بن الأهتم يعوده في مرضه ، فرآه يُصَوِّب بصره في صُندوق في بيته ويُصَعّده ، ثم قال : أبا سَعِيد ، ما تقول في مائة ألف في هذا الصندوق لم أُؤَدّ منها زكاةً ، ولم أصِل منها رَحِماً ؟ قال : ثَكِلَتْكَ أُمك ، ولمن كنتَ تَجْمعها ؟ قال : لرَوْعة الزمان ، وجَفْوة السلطان ، ومُكاثرة العَشيرة . قال : ثم مات ، فشَهده الحسنُ ، فلما فَرَغ من دَفْنِه ، قال : انظروا إلى هذا المِسكين ، أتاه شيطانُه فحذّره رَوْعة زَمانه ، وجفوة سُلطانه ، ومُكاثرة عشيرته ، عما رزقه اللّه إياه وغَمره فيه ، انظروا كيف خرج منها مَسْلوباً محروباً . ثم التفتَ إلى الوارث فقال : أيها الوارث ، لا تُخْدَعَنّ كما خُدِعَ صويْحبك بالأمس ، أتاك هذا المال حلالاً ، فلا يكونن عليك وبالا ، أتاك عفواً صفواً ، ممن كان له جمُوعا مَنُوعا ، من باطل جمَعه ، ومن حقّ مَنَعه ، قطع فيه لُجَجَ البحار ، ومفاوزَ القِفار ، لم تَكْدح فيه بيَمين ، ولم يَعْرَق لك فيه جَبين . إنّ يوم القيامة يوم ذو حَسَرَات ، وإن من أعظم الحسرات غداً أن ترى مالك في ميزان غيرك ، فيالها عَثَرة لا تُقال ، وتوبة لا تُنال .

(170/130)

ووعظَ حكيم قوماً فقال : يا قوم ، استَبْدِلوا العَوارِيَ بالهِبات تَحْمَدوا العُقْبَى ، واستَقْبِلوا المصائب بالصَبْر تستحِقُّوا النُّعْمى ، واستَدِيموا الكَرَامة بالشّكر تَسْتَوْجبوا الزِّيادة ،

واعرفوا فَضْل البَقاء في النّعمة ، والغِنَى في السلامة ، قبل الفِتْنَة الفاحِشَة ، والمَثُلَة البينة ، وانتقال العَمَل ، وحُلول الأجَل ، فإنما أنتم في الدُّنيا أَغراض المَنايا ، وأَوطان البلايا ، ولن تنالوا نِعْمَة إلا بِفِراق أُخرى ، ولا يَسْتقبل مُعَمَّر مِنكم يوماً من عُمره إلا بانتقاص آخر من أجله ، ولا يَحيا له أثر إلا مات له أثر . فأنتم أعوان الحُتُوف على أنفسكم ، وفي معايشكم أسبابُ مَنَاياكم ، لا يَمنعكم شيء منها ، ولا يَشْغَلكم شيء عنها . فأنتم الأَخْلاف بعد الأسلاف ، وستكونون أَسلافاً بعد الأخلاف . بكل سبيل منكم صَرِيعٌ مُنْعَفر ، وقائم يَنْتظر ، فمن أيّ وجه تَطْلُبون البَقاء وهذان الليل والنهار ، لم يرْفعا شيئاً قَطّ إلا أسرَعا الكرَّة في هَدْمه ، ولا عقدا أمراً قطُّ إلاَّ رجَعا في نقضه .

وقال أبو الدَّرْداء : يا أَهل دِمَشق ، ما لكم تَبْنون ما لا تسكنون ، وتأمُلون ما لا تُدرِكون ، وتَجمعون ما لا تأكلون ، هذه عادٌ وثمود قد مَلَئُوا ما بين بُصْرَى وعَدَن أموالاً وأولاداً ، فمن يَشْتري مني ما تركوا بدرهمين ؟ وقال ابن شُبْرُمَة : إذا كان البَدَن سقيماً لم يَنجع فيه الطعام ولا الشراب ، وإذا كان القلب مُغْرَماً بِحُبّ الدنيا لم تَنْجع فيه الموعظة . وقال الرَّبيع بن خُثَيم : أَقْلِل الكلام إلا من تِسع : تكبيرٍ وتهليل وتسبيح وتَحْميد وسؤالِكَ الخير وتَعوّذِك من الشرّ وأمرِك بالمعروف ونَهْيك عن المُنْكر وقراءتك القرآن .

قال رجل لبعض الحكماء : عِظْني . قال : لا يراك اللّه بحيث نَهاك ، ولا يَفقِدك من حيثُ أمرَك . وقيل لحكيم : عِظْني . قال : جميعُ المواعظ كلّها مُنتظمة في حرف واحد ؟ قال : وما هو ؟ قال : تُجْمِع على طاعة الله ، فإذا أنت قد حَوَيت المواعظ كُلَّها . وقال أبو جعفر لسُفْيان عِظْني . قال : وما عَمِلتَ فيما عَلِمْتَ فأَعِظَك فيما جهلتَ ؟ . قال هارون لابن السمّاك : عِظني . قال : كفي بالقرآن واعظاً ؛ يقول الله تبارك وتعالى : " ألَمْ تر كيفَ فَعَلَ رَبكَ بعَاد . إرَمَ ذَاتِ العِماد التي لمْ يُخْلَق مثلُها في البِلاد " . إلى قوله " فصَبّ عليهم ربك سَوْط عَذَاب . إنَّ ربك لبَالمِرْصاد " .

مكاتبة جرت بين الحكماء

عَتَبَ حَكيمٌ على حكيم ، فَكَتَبَ المَعْتُوبُ عليه إلى العاتب : يا أخي ، إنّ أيام العُمْر أقصرُ من أن تحتمل الهَجْر . فَرَجع إليه .

وكتب الحسنُ إلى عُمَر بن عبد العزيز : أما بعد ، فكأنك بالدنيا لم تكُن ، وبالآخرة لم تَزَل . والسلام . وكتب إليه عُمر : أما بعد ، فكأنّ آخر من كُتِبَ عليه الموت قد مات ، والسلام .

ابن المُبارك قال : كتب سَلْمان الفارسيّ إلى أبي الدّرداء : أما بعد ، فإنك لن تنال ما تُريد إلا بترْكِ ما تشتهي ، ولن تنال ما تأمُل إلا بالصَّبر على ما تَكْره . فَلْيكن كلامُك ذِكْراً ، وصَمْتك فِكْرا ، ونظرك عِبَرا ، فإنّ الدُّنيا تتقلب ، وبهجتها تتغيّر ، فلا تغترّ بها ، وليكن

بيتُك المسجدَ ، والسلام . فأجابه أبو الدَّرداء : سلامٌ عليك ، أما بعد ، فإنّي أُوصيك بتَقْوَى اللّه ، وأن تأخذ من صِحَّتِك لِسَقَمِك ، ومن شبابك لِهرَمك ، ومن فراغك لِشُغلك ، ومن حياتك لمَوْتك ، ومن جفائك لمودّتك ، واذكر حياةً لا موتَ فيها في إحدى المنزلتين : إما في الجنة ، وإما في النار ، فإنك لا تَدْري إلى أيهما تَصير .

(172/130)

وكتب أبو موسى الأشعريّ إلى عامر بن عبد القَيْس : أما بعد ، فإني عاهدتُكَ على أمر وبَلغني أنك تغيَّرت ، فإن كنتَ على ما عَهدْتُك فاتق الله ودُمْ ، وإن كنتَ على ما بلغني فاتقِ الله وعُدْ .

وكتب محمد بن النَّضر إلى أخٍ له : أما بعدُ ، فإنك على مَنْهج ، وأمامك منزلان لا بد لك من نُزول أحدهما ، ولم يَأتك أمانٌ فتَطْمَئنَّ ، ولا براءة فتتَّكل .

وكتب حكيم إلى آخر : اعلم حَفِظك الله ، أنّ النفوس جُبلت على أخذ ما أُعْطِيتْ ومَنْع ما سُئِلتْ ، فاحمِلها على مَطيّة لا تُبطىء إذا رَكبت ، ولا تُسْبَق إذا قُدّمَتْ ، فإنما تحفظ النفوسُ على قدْر الخوف ، وتَطْلُب على قَدْرِ الطمع ، وتطْمع على قدر السبب . فإذا استطعت أن يكون معك خوْف المُشْفِق وقناعة الرّاضي فافعل .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجاء بن حَيْوة : أما بعد ، فإنه مَن أكثر من ذِكْر الموت اكتفى باليَسِير : ومن عَلِمَ أن الكلامَ عمل قلّ كلامهُ إلا فيما يَنْفعه . وكتب عمر بن الخطّاب إلى عُتبة بن غزوان عامِله على البَصْرة : أما بعد ، فقد أصبحتَ أميراً تقول فيُسمع لك ، وتأمر فينفّذ أمرُك ، فيالها نعمةً إن لم ترَفْعك فوق قدْرك ، وتُطْغِك على مَن دونك ، فاحترَس من النّعمة أشدّ من احتراسك من المُصيبة ، وإياك أن تَسْقُط سَقْطَة لا لعاً لها - أي لا إقالة لها - وتَعْز عَثْرة لا تُقالها ، والسلام .

وكتب الحسن إلى عمَر : إن فيما أمرك الله به شُغلا عما نهاك عنه ، والسلام .

(173/130)

وكتب عمرُ بن عبد العزيز إلى الحسن : اجمع لي أَمْر الدنيا وصِفْ لي أَمرَ الآخرة . فكتب إليه : إنما الدُّنيا حُلْم والآخرة يَقَظَة والموت متوسّط ؛ ونحن في أضغاث أحْلام ، من حاسَبَ نَفْسَه ربح ، ومن غَفَلَ عنها خَسِر ، ومن نَظَر في العواقِب نَجَا ، ومن أطاعَ هواه ضَلّ ، ومن حَلُم غَنِم ، ومن خاف سَلِمَ ، ومن اعتبر أَبْصَرَ ، ومن أبصر فَهِمَ ، ومن فَهِمَ عَلِمَ ، ومن عَلِم عَمِلَ ، فإذا زلَلْت فارْجِع ، وإذا نَدِمْت فأَقْلِع ، وإذا جَهِلْت فاسأل ، وإذا غَضِبْت فأمْسِك

، واْعلم أن أفضل الأعمال ما أُكْرِهَت النفوس عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ العقد الفريد حـ 3 صـ 111.107 ﴾

(174/130)

" فصل فى مواعظ الآباء للأبناء "

قال ابن عبد ربه :

قال لُقمانُ لابنه : إذا أتيت مجلس َقومٍ فاْرمِهمْ بسَهْم السلام ثم اجلس ، فإن أفاضوا في ذِكر اللّه فأَجِل ْسَهمْك مع سِهامهم ، وإن أفاضوا في غير ذلك فتَخَلَّ عنهم وانهض . وقال : يا بني ، استَعِذ باللّه من شِرَار الناس وكُنْ من خِيارهم على حَذَر . ومثلُ هذا قول أُكْثَم بن صَيْفي : احذر الأمين ولا تأتمن الخائن ، فإنّ القُلوب بيد غيرك . وقال لقمان لابنه : لا تركَنْ إلى الدنيا ، ولا تَشْغَل قلبك بها ، فإنك لم تُخْلَق لها ، وما خَلَق الله خَلْقاً أهون عليه منها ، فإنه لم يجعل نعيمَها ثواباً للمُطيعين ، ولا بلاءَها عُقوبة للعاصين . يا بني ، لا تضحك من غير عجب ، ولا تَمْش في غير أرب ، ولا تسأل عما لا يَعْنيك . يا بني ، لا تُضَيِّع مالَك وتُصلِحْ مالَ غيرك ، فإنّ مالَك ما قدّمت ، ومال غيرك ما تركت . يا بني ، إنه من يَرْحم يُرْحَم ، ومن يَصْمُت يَسْلم ، ومن يَقل الخير يَغْنَم ، ومَنْ يقل الباطل يأثَم ، ومن لا يملك لِسانَه يَندم . يا بني ،

زاحم العلماء برُكْبَتَيْك ، وأنصت إليهم بأُذَنَيك ، فإِنّ القلب يَحيا بنُور العُلماء كما تحيا الأَرض المَيتة بمطر السماء .

(175/130)

وقال خالدُ بن صفْوان لابنه : كُن أحسنَ ما تكون في الظاهر حالاً ، أقلّ ما تكون في الباطن ، مآلاً ، ودَعْ من أعمال السرِّ ما لا يَصْلُح لك في العلاَنِيَة . وقال أعرابي لابنه : يا بني ، إنه قد أَسْمَعك الدّاعي ، وأعذر إليك الطالب ، وانتهى الأمرُ فيك إلى حَدّه ، ولا أعرِفُ أعظمَ رزيّة ممن ضيَّعَ اليقين وأَخطأه الأمَلً . وقال عليًّ بن الحسين لابنه ، وكان من أفضل بني هاشم : يا بني ، اصبر على النّوائب ، ولا تَعرّض للحُتوف ، ولا تجبْ أخاك من الأمر إلى ما مَضرّتُه عليك أكثر من مَنْفعَته لك . وقال حكيم لبنيه : يا بني ، إياكم أن تكونوا بالأحداث مُغْتَرّين ، ولها آمنين ، فإني والله ما سَخِرْت من شيء إلا نزل بي مثله ، فاحذَروها وتوقَّعوها ، فإنما الإنسان في الدُّنيا غرَضٌ تتَعَاوره السّهام ، فمُجَاوزٌ له ومُقصِّر عنه وواقعٌ عن يمينه وشماله ، حتى يُصيبه بعضها ؛ واعلموا أن لكل شيء جراءَ ولكل عمل ثواباً .

وقد قالوا : كما تَدِين تُدَان ، ومن بَرّ يوماً بُرّ به . وقال الشاعر :

إذا ما الدّهر جرّ على أُناس . . . حوادثَه أناخ بآخَرِينا

فقُلْ للشّامتين بنا أَفيقوا . . . سيَلقى الشامِتون كما لقِينا

وقال حكيم لابنه : يا بني ، إني مُوصيك بوصيّة ، فإن لم تحفظ وصيتي عنّي لم تَحْفَظها عن غيري : اتّق الله ما استطعتَ ، وإن قَدَرْت أن تكون اليومَ خيراً منك أمس وغداً خيراً منك اليومَ فافعل ، وإياك والطمعَ فإنه فَقْرٌ حاضِر ، وعليك باليأسِ فإنك لن تيأسِ من شيء قطُّ إلا أغناك اللّه عنه ، وإياك وما يُعْتَذر منه فإنك لن تَعْتذر من خير أبداَ ، وإذا عَثر عاثر فاحمد اللّه أن لا تكون هو . يا بني ، خذِ الخيرَ من أهله ، ودع الشرَّ لأهله ، وإذا قُمتَ إلى صَلاتك فَصلِّ صلاة مُودع ، وأنت ترى أن لا تُصَلّي بعدها " أبداَ " .

(176/130)

وقال عليَّ بن الحُسن عليهما السلام لابنه : يا بني ، إن الله لم يَرْضَك لي فأَوْصاك بي ، ورَضيَنى لك فَحذَّرني منك ، واعلم أنّ خيرَ الآباء للأبناء مَن لم تَدْعُه المودة إلى التفريط فيه ، وخيرَ الأبناء للآباء من لم يَدْعُه التقصيرُ إلى العُقوق له . وقال حكيم لابنه : يا بني ، إن أشدَّ الناس حسرةً يومَ القيامة رجل كْسَب مالاً من غير حِله فأدخله النارَ ، وأوْرثه مَنْ عَمِل فيه بطاعة الله فأدخله الجنة .

عَمْرو بن عُتْبَة قال : لما بلغتُ خمسَ عشرةَ سنة قال لي أبي : يا بني ، قد تَقَطعتْ عنك

شرائع الصِبَا فالزَم الحياء تكن من أهله ، ولا تُزَايِلْه فَتَبِين منه ، ولا يَغرَّنك من اغترَّ بالله فيك فمَدحك بما تعلم خلافه من نفسك ، فإنه من قال فيك من الخير ما لم يعْلَم إذا رَضي ، قال فيك من الشرّ مثله إذا سَخِط . فاستأنس بالوُحْدَة من جُلساء السَّوء تَسْلَم من غِبّ عواقبهم .

وقال عبد الملك بن مَرْوَان لبَنيه : كُفّوا الأذى ، وابذُلوا المعروف ، واعْفوا إذا قَدرْتم ! ، ولا تَبْخَلوا إذا سئلتم ، ولا تُلْحِفوا إذا سألتم ، فإنه من ضيّق ضُيّق عليه ، ومن أعطى أخْلَفَ اللّه عليه . وقال الأشعثُ بن قيس لبنيه : " يا بني " ، " لا " تَذِلُّوا في أعراضكم ، وانخدعوا في أموالكم ، ولتَخِفَّ بُطونكم من أموال الناس ، وظُهوركم من دمائهم ، فإنّ لكلّ امرئ تَبِعة ؛ وإياكم وما يُعتَذَر " منه " أو يُستحى ، فإنما يُعتذر من ذنب ، ويستحى من عَيب ؛ وأصْلِحوا المالَ لجفوة السُّلطان وتَغيُّر الزمان ، وكُفُّوا عند الحاجة عن المسألة ، فإنه كَفي بالردّ مَنْعا ، وأجملُوا في الطلب حتى يوافق الرّزْق قدرَا ، وامنعوا النساءَ من غير الأكفاء ، فإنكم أهل بُيْت يتأسىّ بكم الكريمُ ، ويتشرَف بكم اللئيم ؛ وكونوا في عوامّ الناس ما لم يَضْطرب الحبْلُ فإذا اضطرب الحبل ، فالحقوا بعشائركم .

وكتب عمرُ بن الخطّاب إلى ابنه عبد الله في غَيْبة غابها : أمَّا بعد ، فإنّ مَنِ اتقى اللّه وَقاه ، ومن اتْكل عليه كفاه ، ومن شكَرَله زاده ، ومن أقْرَضه جزاه ؛ فاجعل التّقوى عِمارة قلبك وجَلاءَ بَصرك ، فإنه لا عمَلَ لمن لا نِيّة له ، ولا خيرَ لمن لا خَشْيَة له ، ولا جديد لمن لا خلق له .

(178/130)

وكتب عليُّ بن أبي طالب إلى وَلده الحَسن عليهما السلام : من عليّ أمير المؤمنين الوالدِ الفان ، المقرّ للزّمان ، المستَسْلم للحدَثان : المُدْبر العُمر ، المُؤمّل ما لا يُدْرك ، السالك سبيلَ مَن قد هَلَك ، غرَض الأسقام ، ورهينة الأيام ، وعبْد الدنيا ، وتاجر الغُرور ، وأسير المنَايَا ، وقرين الرّزايا ، وصريع الشهوات ، ونُصْب الآفات ، وخليفة الأموات ، أما بعد ، يا بني ، فإن فيما تَفكرّت فيه من إدبار الدّنُيا عني ، وإقبال الآخرة إليّ ، وجُموح الدهر عليّ ، ما يُرَغّبنى عن ذكر سواي ، والاهتمام بما ورائي ، غيرَ أنه حين تفرّد بي همّ نفسي دون همّ الناس ، فَصدَقني رأيي " وصرَفني عن هواي " ، وصرزَح بي مَحْضُ أمري ، فأفْضى بي إلى جدّ لا يُزْري به لَعِب ، وصِدْق لا يَشوبه كَذِب ، وَوَجَدْتك يا بُنيّ بَعْضي ، بل وجدتك كُلِّي ، حتى كأنّ شيئاً لو أصابك لأصابني ، وحتى كأنّ الموت لو أتاك أتاني ، فعند ذلك عَنَاني

من أمرك ما عَنَاني من أمر نَفْسي . كتبتُ إليك كتابي هذا يا بُني "مُستظهراً به " إن " أنا " بَقيت " لك " أو فَنِيت ، فإني مُوصيك بتقوى الله وعِمَارة قلبك بذكره ، والاعتصام بِحَبْله ، فإنَّ الله تعالى يقول : " وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً " وأيُّ سبب يا بُني أوْثق من سبب بينك وبين الله تعالى " إن أنت أخذت به " . أَحْي قلبك بالموْعظة ، ونَوِّره بالحكمة ، وأَمِّنه بالزُّهْد ، وذَلِّلهُ بالموت ، وقَوِّه بالغِنَى عن الناس ، وحَذِّرْه صولةَ الدَّهر ، وتقلُّبَ الأيام والليالي . واعرض عليه أخبارَ الصين ، وسِرْ في ديارهم وآثارهم فانظرُ ما فعلوه وأين حلُّوا ، فإنك تَجِدهم قد انْتقلوا عن دار الأحبّة ونزلوا دارَ الغُرْبة ، وكأنك عن قليل يا بنيّ قد صرت كأحدهم ، فبعْ دنياكَ بآخرتك ،

(179/130)

ولا تبعْ آخرتك بدُنياك ؛ ودَع القولَ فيما لا تَعْرِف ، والأمرَ فيما لا تكلَّف ، وأْمُر بالمعروف بيَدِك ولسانك ، وَانْهَ عن المنكر بيدك ولسانك ، وبايِنْ مَن فعَلَه ؛ وخُض الغَمَراتِ للحق ، ولا تأخُذْك في الله لومةُ لائم ، واحفظ وَصيّتي ولا تَذْهَب عنك صَفْحاً ، فلا خير في عِلْم لا ينفع . واعلم " أنَّ أمامك طريقاً ذا مسافة بعيدة ، ومشقة شديدة " ، وأنه لا غِنى لك فيه

عن حُسْن الارتياد ، مَع بلاغك مِن الزّاد . فإن أصبتَ من أهلِ الفاقة مَنْ يحمل عنك زادك فيُوافيك به في مَعارك فاغْتنِمه ، فإن أَمامك عَقَبَةً كَؤُداً لا يُجاوزها إلا أخفُّ الناس حمْلاً ، فأَجْمل في الطلب ، وأحسِن المكتسب ، فرُب طَلَب قد جرَّ إلى حَرَب ، وإنما المحْرُوب من حُرِب دِينُه ، والمسلوبُ من سُلِب يقينه . واعلم أنه لا غِنى يَعْدِل الجَنَّة ، ولا فقْر يَعْدِل النار . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

وكتب إلى ابنه محمد بن الحنفية : أنْ تَفَقّه في الدّين ، وعوّد نفسَك الصبر على المَكْروه ، وكِلْ نَفْسَك في أمورك كلِّها إلى الله عزَّ وجلّ ، فإنك تَكِلُها إلى كهف .

(180/130)

وأخلِص المسألة لربّك فإنّ بيده العَطاء والحِرمان . وأكثر الاسْتخارة له ، واعلم أنّ من كانت مَطيّته الليلَ والنهار " فإنه "يُسار به وإن كان لا يسير ، فإنّ الله تعالى قد أبى إلا خرابَ الدنيا وعمارة الآخرة . فإن قدَرتَ أن تَزْهد فيها زُهْدَك كلّه فافعل ذلك ، وإن كنتَ غير قابل نَصِيحتي إياك فاعلم عِلْماً يَقيناً أنك لن تَبْلُغ أملك ، ولن تَعْدو أجلك ، وأنك في سَبيل مَن كان قَبْلك ، فأكْرم نفسَك عن كل دَنِيَّة ، وإن ساقتك إلى الرغائب ، فإنك لن تَعتاض بما تَبْذُل من نفسك " عوضاً " . وإيّاك أن تُوجِف بك مَطايا للطمع وتقول : متى ما

أخِّرت نزعتُ ، فإنَّ هذا أهْلَك مَن هلك قَبْلك . وأمسِك عَليك لسانك ، فإنَ تَلافِيكَ ما فرط من صَمْتك أيسر عليك من إدراك ما فات من مَنْطقك ، واحفَظْ ما في الوِعاء بشدّ الوكاء ، فحُسْن التَّدبير مع الاقتصاد أبْقى لك من الكثير مع الفَساد ، والحُرْفة مع العِفّة خير من الغِنَى مع الفجور والمَرْء أحفظُ لسِرّه ، ولربما سَعى فيما يَضره . إياك والاّتكالَ على الأماني ، فإنها بضائع النّوكي وتُثبط عن الآخرة والأولى . ومن خير حظّ الدنيا القَرين الصالح ، فقارنْ أهل الخَير تكُن منهم ، وباين أهلَ الشر تَبنْ عنهم ، ولا يَغلبْنَ عليك سوء الظنّ ، فإنه لن يَدعَ بينك وبين خليل صُلْحاً . أذك قلبك بالأدب كما تذكى النار الحطب واعلم أنّ كُفْر النّعمة لُؤم ، وصُحْبة الأحمق شُؤم ، ومن الِكرَم مَنْع الحُرَم ، ومَن حَلُم ساد ، ومَن تَفهّم ازداد . اْمحَض أخاك النصيحةَ ، حسنةً كانت أو قبيحةً . لا تَصرِمْ أخاك على ارتياب ، ولا تَقْطعه دون استعتاب ، وليس جزاء من سرّك أن تَسُوءه . الرزق رِزْقان : رِزْق تَطْلبه ورزْق يَطلبك ، فإن لم تأته أتاك . واعلم يا بُني أن مالَك من دُنياك إلا ما أصلحت به من مَثْواك ، فأنْفق من خَيْرك ، ولا تَكن خازناً لِغَيرك ، وإن جَزعْت على ما يُفلت من يديك فاجزع على ما لم يَصِل

إليك . ربما أخطأ البصيرُ قَصْدَه ، وأبصر الأَعمى رُشْدَه ، ولم يَهْلك أمرؤ اقتصد ، ولم يَفْتقر من زَهد . مَن ائتمن الزمانَ خانه ، ومن تَعظّم عليه أهانه . رأسُ الدين اليقين ، وتمام الإخلاص اجتناب المَعاصي ، وخيرُ المَقال ما صَدّقته الفِعَال . سَلْ عن الرَّفيق قبل الطريق ، وعن الجار قبل الدّار ، واحمل لِصَديقك عليك ، واقْبل عُذْر مَن اعتذر إليك ، وأخر الشرّ ما استطعت ، فإنك إذا شِئْت تَعجّلته . لا يكن أخوك على قَطِيعتك أقوى منك على صِلَته ، وعلى الإساءة أقوى منك على الإحسان . لا تُمَلّكن المرأة من الأمر ما يًجاوز نفسها ، فإنّ المرأة رَيْحانة ، وليست بقَهْرمانة ، فإنّ ذلك أدوم لحالها ، وأرخَى لبالها . واغضُض بصرَها بسِتْرك ، واكفُفْها بحجابك ، وأكرم الذين بهم تَصُول ، وإذا تطاولتَ بهم تَطُول . اسأل الله أن يُلْهمك الشكر والرّشد ، ويُقَوّيك على العمل بكل خَيْر ، ويَصرف عنك كل مَحْذور برحمته ، والسلامُ عليك ورحمة الله وبركاته . انتهى انتهى . ا هـ ﴾

العقد الفريد حـ 3 صـ 116.111 ﴾

(182/130)

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أمرهم بالمسارعة وأتبعها علتها ونتيجتها نهاهم عما يعوق عنها من قبل الوهن الذي عرض لهم عند رؤيتهم الموت فقال – ويجوز أن يعطف على ما تقديره : فتبينوا واهتدوا واتعظوا إن كنتم متقين ، وانظروا أخذنا لمن كان قبلكم من أهل الباطل وإن كان لهم دول وصولات ومكر وحيل – : ﴿ ولا تهنوا ﴾ أي في جهاد أعدائكم الذين هم أعداء الله ، فالله معكم عليهم ، وإن ظهروا يوم أحد نوع ظهور فسترون إلى من يؤول الأمر ﴿ ولا تحزنوا ﴾ أي على ما أصابكم منهم ولا على غيره مما عساه ينوبكم ﴿ و ﴾ الحال أنكم ﴿ أنتم الأعلون ﴾ أي في الدارين ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي إن كان الإيمان – وهو التصديق بكل ما يأتي عن الله – لكم صفة راسخة ، فإنهم لا يهنون ؛ لأنكم بين إحدى الحسنيين – كما لم يهن من سيقص عليكم نبأهم ممن كانوا مع الأنبياء قبلكم لعلوكم عدوكم ، أما في الدنيا فلأن دينكم حق ودينهم باطل ، ومولاكم العزيز الحكيم الذي قد وعدكم الحق الملكَ الكبير لمن قتل ، والنصر والتوزر لمن بقي ، وهو حي قيوم ، ولا يخفى عليه شيء من أحوالكم ، فهو ناصركم وخاذلكم ، وأما في الآخرة فلأنكم في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وهم في النار عند ملائكة العذاب الغلاظ الشداد أبداً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 160.159 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أن الذي قدمه من قوله : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ [آل عمران : 137] وقوله : ﴿ هذا بيان للناس ﴾ [آل عمران : 138] كالمقدمة لقوله : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا ﴾ كأنه قال إذا بحثتم عن أحوال القرون الماضية علمتم أن أهل الباطل وإن اتفقت لهم الصولة ، لكن كان مآل الأمر إلى الضعف والفتور ، وصارت دولة أهل الحق عالية ، وصولة أهل الباطل مندرسة ، فلا ينبغي أن تصير صولة الكفار عليكم يوم أحد سبباً لضعف قلبكم ولجبنكم وعجزكم ، بل يجب أن يقوى قلبكم فإن الاستعلاء سيحصل لكم والقوة والدولة راجعة إليكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 12 ﴾

فصل

قال الآلوسى :

﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا ﴾ أخرج الواحدي عن ابن عباس أنه قال : "انهزم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد فبينما هم كذلك إذ أقبل خالد بن الوليد بخيل المشركين يريدون أن يعلوا عليهم الجبل فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "اللهم لا قوة لنا إلا بك اللهم ليس يعبدك بهذه البلدة غير هؤلاء النفر فأنزل الله تعالى هذه الآية : وثاب نفر من

المسلمين فصعدوا الجبل ورموا خيل المشركين حتى هزموهم" وعن الزهري وقتادة أنها نزلت تسلية للمسلمين لما نالهم يوم أحد من القتل والجراح.

وعن الكلبي أنها نزلت بعد يوم أحد حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه رضي الله تعالى عنهم بطلب القوم وقد أصابهم من الجراح ما أصابهم وقال صلى الله عليه وسلم : "لا يخرج إلا من شهد معنا بالأمس فاشتد ذلك على المسلمين فأنزل الله هذه الآية" ، وأياً ما كان فهي معطوفة على قوله تعالى : ﴿ فَسِيرُواْ فِى الأرض ﴾ [آل عمران : 137] بحسب اللفظ ومرتبطة به بحسب المعنى إن قلنا إنه عود إلى التفصيل ، وبما تقدم من قصة أحد إن لم نقل ذلك وبه قال جمع ، وجعلوا توسيط حديث الربا استطراداً أو إشارة إلى نوع آخر من عداوة الدين ومحاربة المسلمين ، وبه يظهر الربط وقد مر توجيهه بغير ذلك أيضاً .

ومن الناس من جعل ارتباط هذه الآية لفظاً بمحذوف أي كونوا مجدين ولا تهنوا ، ومضى على الخلاف وهو تكلف مستغنى عنه ، والوهن الضعف أي لا تضعفوا عن قتال أعدائكم والجهاد في سبيل الله تعالى بما نالكم من الجراح ولا تحزنوا على ما أصبتم به من قتل الأعزة

وقد قتل في تلك الغزوة خمسة من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعبد الله بن جحش ابن عمة النبي صلى الله عليه وسلم وعثمان بن شماس ، وسعد مولى عتبة رضي الله تعالى عنهم ، وسبعون من الأنصار ، وقيل : لا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة ولا يخفى بعده والظاهر أن حقيقة النهي غير مرادة هنا بل المراد التسلية والتشجيع وإن أريدت الحقيقة فلعل ذلك بالنسبة إلى ما يترتب على الوهن والحزن من الآثار الاختيارية أي لا تفعلوا ما يترتب على ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 66 . 67 ﴾

(185/130)

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ وَلاَ تَهِنُواْ ﴾ أي لا تضعفوا عن الجهاد ، والوهن الضعف قال تعالى : حكاية عن زكريا عليه السلام ﴿إِنّى وَهَنَ العظم مِنّى ﴾ [مريم : 4] وقوله : ﴿ وَلاَ تَحْزَنُواْ ﴾ أي على من قتل منكم أو جرح

وقوله : ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ فيه وجوه :

الأول : أن حالكم أعلى من حالهم في القتل لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد ، وهو كقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمَّا أصابتكم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أنى هذا ﴾ [آل عمران : 165] أو لأن قتالكم لله وقتالهم للشيطان ، أو لأن قتالهم للدين الباطل وقتالكم للدين الحق ، وكل ذلك يوجب كونكم أعلى حالا منهم .

الثاني : أن يكون المراد وأنتم الأعلون بالحجة والتمسك بالدين والعاقبة الحميدة .

الثالث : أن يكون المعنى وأنتم الأعلون من حيث إنكم في العاقبة تظفرون بهم وتستولون عليهم وهذا شديد المناسبة لما قبله ، لأن القوم انكسرت قلوبهم بسبب ذلك الوهن فهم كانوا محتاجين الى ما يفيدهم قوة في القلب ، وفرحا في النفس ، فبشرهم الله تعالى بذلك ، فأما قوله : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ففيه وجوه :

الأول : وأنتم الأعلون إن بقيتم على إيمانكم ، والمقصود بيان أن الله تعالى إنما تكفل باعلاء درجتهم لأجل تمسكهم بدين الإسلام .

الثاني : وأنتم الأعلون فكونوا مصدقين لهذه البشارة إن كنتم مصدقين بما يعدكم الله ويبشركم به من الغلبة .

والثالث : التقدير : ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ، فإن الله تعالى وعد بنصرة هذا الدين ، فإن كنتم من المؤمنين علمتم أن هذه الواقعة لا تبقى بحالها ، وأن الدولة

تصير للمسلمين والاستيلاء على العدو ويحصل لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 12 ﴾

(186/130)

وقال الثعالبى :

وقوله سبحانه : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ : المقصدُ هزُّ النفوس ، وإقامتها ، ويترتَّب من ذلك الطَّعْنُ على من نجم في ذلك اليَوْمِ نفَاقَهُ أو اضطرب يقينه ، أي : لا يتحصَّل الوعد إلاَّ بالإيمان ، فالزموه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ 314 ﴾

فصل

قال القرطبى :

عزّاهم وسَلاّهم بما نالهم يوم أحد من القتل والجراح ، وحثّهم على قتال عدوّهم ونهاهم عن العجز والفشل فقال ﴿ وَلاَ تَهِنُوا ﴾ أي لا تضعفوا ولا تجبنُوا يا أصحاب محمد عن جهاد أعدائكم لما أصابكم .

﴿ وَلاَ تَحْزَنُوا ﴾ على ظهورهم ، ولا على ما أصابكم من الهزيمة والمصيبة .

﴿ وأَنتُم الأَعْلَوْنَ ﴾ أي لكم تكون العاقبة بالنصر والظفر ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي

بصدق وَعْدِي .

وقيل : "إن" بمعنى "إذ" .

قال ابن عباس : " انهزم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحد فبينا هم كذلك إذ أقبل خالد بن الوليد بخيل من المشركين ، يريد أن يعلُوا عليهم الجبل ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "اللّهم لا يعلُنّ علينا اللّهم لا قوة لنا إلا بك اللّهم ليس يعبدك بهذه البلدة غير هؤلاء النفر" " فأنزل الله هذه الآيات .

وثاب نفر من المسلمين رماة فصعِدوا الجبل ورموا خيل المشركين حتى هزموهم ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ يعني الغالبين على الأعداء بعد أُحد .

فلم يُخرِجوا بعد ذلك عسكراً إلاّ ظفِروا في كل عسكر كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي كل عسكر كان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان فيه واحدٌ من الصحابة كان الظفر لهم ، وهذه البلدان كلها إنما افتِتحت على عهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ثم بعد انقراضهم ما افتِتحت بلدة على الوجه كما كانوا يفتتحون في ذلك الوقت .

وفي هذه الآية بيان فضلِ هذه الأُمة ؛ لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه ؛ لأنه قال لموسى :

﴿ إِنَّكَ أَنتَ الأعلى ﴾ [طاه : 68] وقال لهذه الأُمة : ﴿ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ .

وهذه اللفظة مشتقة من اسمه الأعلى فهو سبحانه العلي ، وقال للمؤمنين : ﴿ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 216.217 ﴾

من فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

قوله : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا ﴾ نهي للمسلمين عن أسباب الفشل .

والوهن : الضعف ، وأصله ضعف الذات : كالجسم في قوله تعالى : ﴿ ربِّ إِنِّي وهَن العظم منِّي ﴾ [مريم : 4] ، والحبْل في قول زهير

فأصبح الحَبْل منها خَلَقا . . .

وهو هنا مجاز في خور العزيمة وضعف الإرادة وانقلاب الرجاء يأساً ، والشّجاعة جبناً ، واليقين شكّاً ، ولذلك نهوا عنه .

وأمّا الحزن فهو شدّة الأسف البالغة حدّ الكآبة والانكسار .

والوهنُ والحزن حالتان للنفس تنشآن عن اعتقاد الخيبة والرزء فيترتّب عليهما الاستسلام وترك المقاومة .

فالنهي عن الوهن والحزن في الحقيقة نهي عن سببهما وهو الاعتقاد ، كما يُنهى عن النسيان

، وكما يُنهى أحد عن فعل غيره في نحو لا أرَيَنّ فلاناً في موضع كذا أي لا تَتْرُكه يحلّ فيه ،

ولذلك قدّم على هذا النّهي قوله : ﴿ قد خلت من قبلكم سنن ﴾ [آل عمران : 137]

إلخ . . .

وعقب بقوله : ﴿ وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ .

وقوله : ﴿ وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ ، الواو للعطف وهذه بشارة لهم بالنَّصر

المستقبل ، فالعلوّ هنا علوّ مجازيّ وهو علوّ المنزلة .

(188/130)

والتَّعليق بالشرط في قوله : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ قصد به تهييج غيرتهم على الإيمان إذ

قد عِلم الله أنَّهم مؤمنون ولكنّهم لمّا لاح عليهم الوهن والحزن من الغلبة ، كانوا بمنزلة من

ضعف يقينه فقيل لهم : إن علمتم من أنفسكم الإيمان ، وجيء بإن الشرطية الَّتي من شأنها

عدم تحقيق شرطها ، إتماماً لِهذا المقصد . انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ

228.227﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله ﴿ ولا تهنوا ﴾

الأصل : تُوْهِنوا ، فحُذِفت الواو ؛ لوقوعها بين تاء وكسرة في الأصل ، ثم أجْريت حروف المضارعة مُجْراها في ذلك ، ويقال : وَهَنَ - بالفتح في الماضي - يَهِنُ - بالكسر في المضارع .

ونُقِل أنه يُقال : وَهُن ، ووَهِنَ - بضم الهاء وكسر في الماضي - و" وَهَنَ "يُستعمل لازماً ومتعدياً ، تقول : وَهَنَ زيدٌ ، أي : ضَعُفَ ، قال تعالى : ﴿ وَهَنَ العظم مِنّي ﴾ [مريم : 4] ، ووَهَنْتُه وأضعفته ، ومنه الحديث : " وَهَنَتْهُمْ حُمَّى يَثْرِبَ " ، والمصدر على الوهَن - بفتح الهاء وسكونها .

وقال زهير : [البسيط]

. . . . فأَصْبَحَ الْحَبْلُ مِنْهَا وَاهِناً خَلَقَا

أي : ضعيفاً .

قوله : ﴿ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ جملة حالية من فاعل ﴿ تَهِنُوا ﴾ ، أو ﴿ تَحْزَنُوا ﴾ ، والاستئناف فيها غير ظاهر ، و﴿ الأَعْلَوْنَ ﴾ جمع أعْلَى ، والأصل : أعْلَيُوْنَ ، فتحرَّكت الياء ، وانفتح ما قبلها ، فقُلِبَت ألفاً فحُذِفت لالتقاء الساكنين ، وبقيَت الفتحة لتدلَّ عليها .

وإن شئت قُلْتَ : استثقلت الضمةُ على الياء ، فحُذِفت ، فالتقى ساكنان أيضاً - الياء

والواو – فحُذِفتَ الياء ؛ لالتقاء الساكنين ، وإنَّما احتجنا إلى ذلك ؛ لأن واو الجمع لا يكون ما قبلها إلا مضموماً ، لفظاً ، أو تقديراً . وهذا من مثال التقدير . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 551 ﴾

(189/130)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قوله تعالى ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139) ﴾

يعني إذا قلتم بالله (ووصلتم) بالله فلا ينبغي أن تخافوا من غير الله ، ولا تَهِنوا ولا تضعفوا فإن النصرة من عند الله ، والغالب الله ، وما سوى الله فليس منهم ذرة ولا منهم سينة .

قوله : ﴿ إن كُنُتم مُّؤمِنِينَ ﴾ أي ينبغي للمؤمن ألا تظله مهابةٌ من غير الله . انتهى . ا . هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 280 ﴾

فصل فى ذكر قصة غزوة أحد

قال السمرقندى عليه الرحمة :

وكانت القصة في ذلك أنهم لما غَلَبُوا المشركين يوم بدر ، وأصابوا منهم ما أصابوا وسنذكر قصة بدر في سورة الأنفال إن شاء الله تعالى فرجع أبو سفيان بن حرب إلى مكة بالعير ،

وانهزم المشركون ، وذهب عكرمة بن أبي جهل ، ورجال أُصِيب أبناؤهم وآباؤهم وإخوانهم ببدر إلى أبي سفيان بن حرب وهو رئيس مكة فكلموه ، وأتاه كل من كان له في ذلك العير مال ، فقالوا : إن محمداً قد قتل خياركم ، فاستعينوا بهذه الأموال على حربه ففعلوا .

قال الضحاك : فأعانهم أبو سفيان بمائة راحلة وما يصلحها من الزاد والسلاح ، فسارت قريش وهم ثلاثة آلاف رجل ، وعليهم أبو سفيان بن حرب ، وكان في القوم خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبي جهل ، وذلك قبل دخولهم في الإسلام ، فلم يبقَ أحد من قريش إلا وخرج أهله معه وولده يجعلهم خلف ظهره ليقاتل عنهم .

(190/130)

فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس ، وقال في خطبته : "إنِّي رَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ كَأَنَّ فِي سَيْفِي ثلمَةً فَأَوَّلْتُهَا مصِيبَةً فِي نَفْسِي ، وَرَأَيْتُ بُقُوراً قَدْ ذُبِحَتْ ، فَأَوَّلْتُهَا قَتْلَى فِي أَصْحَابِي ، وَرَأَيْتُ كَأَنِّي أَدْخَلْتُ يَدِي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ ، فَأَوَّلْتُهَا المَدِينَةَ فَأَشِيرُوا عَلَيَّ" وكره الخروج إليهم ، فكان رأي عبد الله بن أبي ابن سلول مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن لا يخرج إليهم ، ولكنه كان منافقاً فقال : يا رسول الله لا تخرج

إليهم فأنا ما خرجنا إلى عدوّ قط إلا أصاب منا ، ولا دخل علينا إلا أصبنا منه .

فقال رجال من المسلمين ممن أكرمهم الله بالشهادة وغيرهم ممن فاتته بدر : اخرج لهم يا رسول الله ، لكي لا يرى أعداء الله أنا قد جَبُنَّا عنهم وضعفنا عن قتالهم .

فلم يزالوا به حتى دخل ولبس لأمته ، ثم خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم إليهم وقد خرج الناس فقالوا : استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقالوا : يا رسول الله : قد استكرهناك وما كان لنا ذلك ، فإن شئت فاخرج ، وإن شئت فاقعد .

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "مَا يَنْبَغِي لِلنَّبِيِّ أَنْ يَضَعَ سِلاَحَهُ إِذَا لَبِسَهُ حَتَّى يُقَاتِلَ"

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسار إلى أُحدٍ ، فانخذل عبد الله بن أبي ابن سلول .

قال في رواية الكلبي : فرجع معه ثلاثمائة من الناس ، وبقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو سبعمائة رجل .

وقال في رواية الضحاك : فانخذل في ستمائة رجل من اليهود ، وبقي مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ألف رجل من المؤمنين الطيبين .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بالشّعب من أحد ، وأمر عبد الله بن جبير على الرُّمَاة وقال لهم : " لا تَبْرَحُوا مِنْ هَذَا المَوْضِعِ ، وَاثْبُتُوا ها هنا إِنْ كَانَ الأَمْرُ عَلَيْنَا أَوْ لَنَا " وقال في رواية الكلبي : كان الرماةُ خمسين رجلاً .

وقال في رواية الضحاك : كانوا سبعين رجلاً .

فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ظهره إلى أُحد ، ودنا المشركون وأخذوا في الحرب ، فقامت هند امرأة أبي سفيان وصواحبتها حين حميت الحرب ، يضربن بالدُّفوف خلف قريش ويقلن :

نَحْنُ بَنَاتُ طَارِق .

. . نَمْشِي على النّمَارق

إِن تُقْبِلُوا نُعَانِق .

. . أَو تُدْبِرُوا نفارق

فِرَاقَ غَيْرَ وَامِق .

. . فقاتل أبو دجانة في نفر من المسلمين قتالاً شديداً ، وقاتل علي بن أبي طالب حتى انكسر سيفه ، وقاتل سعد بن أبي وقاص ، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول لسعد : " ارْمِ فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي " فقتلوا جماعة من المشركين ، وَصَدَقَهم الله وعده وأنزل نصره ، حتى كانت هزيمة القوم لا شكّ .

فكشفوهم عن عسكرهم قال الزبير : رأيت هنداً وصواحبتها هوارب ، فلما نظر الرماة إلى القوم وانهزموا ، أقبلوا على النهب فقال لهم عبد الله بن جُبَيْر : لا تَبْرحوا عن هذا الموضع ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عَهِدَ إليكم .

فلم يلتفتوا إلى قوله ، وظنوا أن المشركين قد انهزموا ؛ فبقي عبد الله بن جبير مع ثمانية نفر ، فخرج خالد بن الوليد مع خمسين ومائتي فارس من قِبَل الشّعب ، فقتلوا من بقي من الرماة ، ودخلوا خلف أقفية المسلمين ، وتفرق المسلمون ورجع المشركون ، وحملوا حملةً واحدة ، فصار المسلمون ثلاثة أنواع : بعضهم جريح ، وبعضهم قتيل ، وبعضهم منهزم .

(192/130)

وكان مصعب بن عمير يَذُبُّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قُتِلَ دونه ، ثم قاد زياد بن السكن فقاتل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قُتِلَ ، وخلص الحرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقذف بالحجارة حتى وقع بشفتيه ، وأصيبت رباعيتُه ، وكُلِمَتْ شفته ، وأدمي ساقه .

فقال سفيان بن عيينة : لقد أصيب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو ثلاثين رجلاً ، كلهم جثوا بين يديه .

أو قال : كلهم يتقدم بين يديه .

ثم يقول : وجهي لوجهك الوفاء ، ونفسي لنفسك الفداء ، وعليك سلام الله غير مودع .

فرجع الذي قتل مصعب بن عمير ، فظن أنه قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال للمشركين : قتلت محمداً .

فصرخ صارخ : ألا إن محمداً قد قُتل .

ويقال : كان ذلك إبليس لعنه الله ، فولى المسلمون هاربين متحيّرين ، وجاء إبليس لعنه الله ونادى بأعلى صوته في المدينة : ألا إن محمداً قد قتل وأَخَذَت النسوة في البكاء في البيوت ، فأقبل أَنَس بن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب ، وطلحة بن عبيد الله في رِجَالٍ من المهاجرين والأنصار ، فقال : ما يُجْلسكم ؟ قالوا : قتل محمد .

فقال : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ موتوا كراماً على ما مات عليه نبيُّكم .

ثم أقبل نحو العدو ، فقاتل حتى قتل .

قال كعب بن مالك : فأوّل من كنت عرفت رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسلمين ، عرفت عينيه من تحت المغفر تزهران ، فناديت بأعلى صوتي : يا معشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فأشار إليّ أَن اسكت .

وقال أنس بن مالك : قد شجّ وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل الدم يسيل

على وجهه وهو يمسح الدم ويقول : "كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَّبُوا وَجْهَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم بِالدَّمِ" وهو يدعوهم إلى ربهم .

(193/130)

ويقال : إن أصحابه لما اجتمعوا قالوا : يا رسول الله ، لو دعوت الله على هؤلاء الذين صنعوا بك ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لَمْ أُبْعَثْ طَعَّاناً وَلا لَعَّاناً ، وَلَكِنْ بُعِثْتُ دَاعِياً وَرَحْمَةً اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ"

فجاءه أُبَيّ بن خلف الجمحي ، فقال : يا محمد لا نَجوتُ إن نجوتَ مني .

فهمَّ المسلمون بقتله ، فقال لهم .

"دَعُوهُ" حتى دنا منه ، فتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة من الحارث بن الصمة ورماه بها ، فخدشه في عنقه خدشاً غير كبير ، وقد كان ذلك لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وقال : عندي فرس أعلفه كل يوم فرق ذرة ، أقتلك عليه .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بَلْ أَنَا أَقْتُلُكَ إِنْ شَاءَ الله" فلما خدشه رسول الله صلى الله عليه وسلم في عنقه رجع إلى قريش وهو يقول : قتلني محمد .

فقالوا له : ما بك من طعن .

فقال : بلى ، لقد قال لي أنا أقتلك ، والله لو بصق علي بعد تلك المقالة لقتلني .

فمات قبل أن يصل إلى مكة في طريقها .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفاً عند أحد ، وقد اجتمع عليه بعض أصحابه ، فعلت عليه فرقة من قريش في الجبل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لاَ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَعْلُونَا " فأقبل عمر ورهط من المهاجرين ، فقاتلوهم حتى أهبطوهم من الجبل .

وقد كان جبير بن مطعم قال لمملوك له يقال له وحشي : إن أنت قتلت محمداً جعلت لك أعنة الخيل ، وإن أنت قتلت علي بن أبي طالب جعلت لك مائة ناقة كلها سود الحدقة ، وإن أنت قتلت حمزة فأنت حرٌّ .

فقال وَحْشي : أما محمد فعليه حافظ من الله تعالى لا يخلص إليه أحد ، وأما عَلَيٌّ فما برز إليه رجل إلا قتله ؛ وأما حمزة فرجل شجاع ، فعسى أن أُصَادفه في غِرَّته فاقتله مكانه .

(194/130)

وكانت هند كلما مرّ بها وَحْشي أو مرّت به هند قالت له : إيهاً أبا دسمة اشف واستشف .

فكمن وحشي خلف صخرة ، وكان حمزة حمل على قوم من المشركين ، فلما رجع من

حملته مرّ بوحشي وهو خلف الصخرة ، فزرقه بمزراق فأصابه فسقط ، فذهبت هند ابنة عتبة والنسوة اللاتي معها يمثلن بالقتلى ، يجدعن الآذان والأنوف ، وشَقَّت هند بطن حمزة وأخذت كبده ومضغته ، ثم صعدت هند على صخرة وهي تنادي بأعلى صوتها : نَحْنُ جَزَيْنَاكم بيوم بَدْر .

وأقبل أبو سفيان وهو يصرخ بأعلى صوته : اعلُ هبل يوماً بيوم بدر .

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لعمر : "أَجِبْهُ يَا عُمَرَ" فأجابه عمر : الله أعلى وأجل لا سواه ، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار .

ثم ركب النبيّ صلى الله عليه وسلم بغلته ، وظاهر بين درعيه ، وأخرج يده من جيب الدرع ، وسلّ سيفه ذا الفقار ، وباشر القتال بنفسه ، وحمل على المشركين والتأم إليه المسلمون فأعانوه ، وهزم الله جمع المشركين ، وقُتل يومئذ من المسلمين سبعون رجلاً : أربعة نفر من المهاجرين ، وستة وستون من الأنصار .

وقتل يومئذ من المشركين تسعة عشر رجلاً أو أكثر ، وكثرت القروح في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعزَّاهم الله تعالى : في ذلك بقوله تعالى : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم جـ 1 صـ 274 . 277 ﴾

(195/130)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

والمقصود بقوله : ﴿ وَلَا تَهِنُوا ﴾ أي لا تضعفوا ، وهي أمر خاص بالمسألة البدنية ؛ لأن الجراحات أنهكت الكثيرين في موقعة أُحُد لدرجة أن بعضهم أقعد ، ولدرجة أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقدر أن يصعد الجبل ، وحمله طلحة بن عبيد الله على ظهره ليقوم ، لذلك قال الحق : ﴿ وَلَا تَهِنُوا ﴾ ، لأنك عندما تستحضر أنك مؤمن وأن الله لن يخلي بينك وبين جنود الباطل لأنك نصير للحق ، والحق من الله وهو الحق لا يسلم نبيه وقومه لأعدائهم فيوم تأتي لك هذه المعاني إياك أن تضعف . والضعف هو نقصان قوة البدن .

﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ والحزن مواجيد قلبية ، وهم قد حزنوا فقد مات منهم كثير . مات منهم خمسة وسبعون شهيداً ، خمسة من المهاجرين ، وسبعون من الأنصار ، وهذه عملية صعبة وشاقة ، وقد حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم على الشهداء ، وغضب لمقتل حمزة – رضي الله عنه – وقال : " لن أُصاب بمثلك أبداً ! وما وقفت موقفا قط أغيظ إليّ من هذا " ثم قال : " لئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم مكانك " .

فقال الحق : ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ ؛ لماذا ؟ لأنك يجب أن تقارن الحدث بالغاية من الحدث . صحيح أن القتل صعب وإزهاق للنفس ، ولكن انظر إلى أين ذهب . وانظر ماذا خلف من بعده . أما هو فقد ذهب إلى حياة عند ربه وهي ليست كالحياة عندكم . إن الحياة عندنا لها مقاييس ، والحياة عند ربنا لها مقاييس ، فهل مقاييسنا أعلى من مقاييسه ؟ لا ، حاشا لله .

(196/130)

إذن فإذا نظرت إليه هو فاعلم أنه ذهب لخير مما ترك ، فلا تحزن عليه بل تفرح له ؛ لأنه ما دامت الغاية ستصل إلى هذه المسألة . إذن فقد قصر له مسافة الحياة ، وما دامت الغاية أن يصل إلى رحمة الله وإلى حياة عند الله بكافة معانيها ، فهو سعيد بجوار ربه ، ونحن في الغايات الدنيوية عندما نريد أن نذهب إلى مكان نُسر ممن يعجل لنا الزمن لنصل إلى هذا المكان .

فبدلاً من أن أذهب إلى الإسكندرية ماشياً أذهب راكباً حصاناً أو أذهب راكباً سيارة ، والمترفه يذهب راكباً طائرة ، فإذا كانت الغاية مرجوّة ومحببّة إلى النفس ، وبعد ذلك يجيء لك حدث يقرب لك المسافة من الغاية ، فلماذا تحزن إذن ؟ لقد استشهد . إياك أن تقول :

إنّ الله حرمني قوته في نصرة الحق ، لا . هو أعطى قوة أخرى لكثير من خلقه نصر بهم الحق ، إنك عندما تعرف أن إنساناً باع نفسه لله ، لا بد أن تعرف أن الغاية عظيمة ؛ ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم في معركة بدر ، يقدم أهله ؛ لأنه يعرف أنه إن قُتل واحد منهم إلى أين سيذهب ، إذن فهو يحب أهله ، لكنه يحبهم الحب الكبير ، والناس تحب أهلها هنا أيضاً لكن الحب الدنيوي .

﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ على ما فاتكم من الغنائم أو لا تحزنوا على ما فاتكم من النصر لماذا ؟ وتأتي الإجابة ، ﴿ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾ . . ولذلك جاء مصداق ذلك حينما نادى أبو سفيان فقال : " اعل هبل " أي أن إلههم صار عالياً ، فقال الرسول لأصحابه : ألا تردون عليهم ؟ ، قالوا : بماذا نرد قال : قولوا لهم : الله أعلى وأجلّ فقال أبو سفيان : " لنا العزى ولا عزى لكم " ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أجيبوه " قالوا : ما نقول ؟ قال : " قولوا الله مولانا لا مولى لكم " ثم قال أبو سفيان : إن موعدكم " بدر " العام المقبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه : " قل نعم هو بيننا وبينك موعد "

ف ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فما دمتم على الإيمان فأنتم الأعلون ، وإذا أردتم أن تعرفوا معنى " الأعوان " حقاً ، فقارنوا معركة " أُحُد " بمعركة " بدر " ، هم قتلوا منكم في أُحُد ، وأنتم قتلتم منهم في بدر . ولكنكم أسرتم منهم في بدر ، ولم يأسروا منكم أحداً في " أُحُد " . وأنتم غنمتم في بدر ، ولم يغنموا شيئاً في أُحُد .

وأنتم الأعلون لأن الله حمى مدينتكم مع أنه لا محامية فيها ممن يكون فيه معنى الجندية . كل ذلك وأنتم الأعلون ، هذا إذا نظرنا إلى معركة بمعركة . وإن نظرنا إلى المعركة نفسها " أُحُد " وندع بدراً وحدها ، في ظل قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ لقد ثبتت تلك القضية لأنكم حينما كنتم مؤمنين – ومن شرط الإيمان اتباع أمر الذي لا ينطق عن الهوى – انتصرتم . وانتصرتم انتصاراً رائعا ؛ لأنكم قتلتم في أول جولة للحرب بضعاً وعشرين من صناديدهم وفيهم صاحب الراية . ولكنكم حينما خالفتم أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، تلخلخ الإيمان في قلوبكم .

إذن فالعملية التي حدثت تؤكد صدق ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ . فأنتم علوتم في أول الأمر ، وعندما خالفتم الأمر صار لكم ما صار ؛ فقد صدقت القضية في قول الله :

﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

وأيضا فإنكم لو نظرتم إلى المعركة نفسها لوجدتم أن عدوّكم لم يبق في أرض المعركة ، بل أنتم الذين بقيتم في موضع المعركة . وأين ذهب هو ؟ أذهب إلى موقع آخر ينال فيه غلبة ونصرا

؟ لم يكن هناك إلا المدينة ، والمدينة ليس فيها أحد ، ولم يذهب عدوكم إلى هناك ، وإنما ذهب ناحية مكة ، إذن فهو الذي هرب .

وبعد ذلك ماذا حدث ؟ ألم يؤذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس ويطلب العدوّ مرهباً له ليظنوا به القوة ، وإن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم ؟

(198/130)

ولقد خرج رسول الله ، مع من ؟ أجاء بحامية لم تشهد المعركة ؟ لا .

بل قال عليه الصلاة والسلام مناديا المسلمين : "إليّ عباد الله" ، فالذين شهدوا المعركة سبعمائة ، جرح منهم الكثير وقتل منهم خمسة وسبعون ، فمنهم حمزة ، ومصعب بن عمير ، وعبد الله بن جحش ، وشماس بن عثمان ، وسعد مولى عتبة ، هؤلاء خمسة من المهاجرين ، والباقي من الأنصار , هؤلاء مطروحون من العدد الذي شاهد أول الموقعة ، حتى أن رسول الله لم يأخذ بدلاً منهم من المدينة من القوم الذين عرضوا أنفسهم ليكونوا مع الجيش الذي يطارد قريشاً ، بل آثر الرسول أن يذهب بمن ذهب معه إلى المعركة أنفسهم ، ولم يكن منهم بطبيعة الحال الشهداء أو الجرحى .

لم يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم ممن لم يشهد المعركة إلا واحداً . وهو سيدنا جابر بن

عبد الله . الذي لم يخرج في معركة أُحُد واعتذر إلى رسول الله بأن أباه عبد الله بن عمرو بن حرام قد خلّفه على بنات له سبع وقال له :

يا بنيّ إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رَجَل فيهن ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسي فتخلّفْ على أخواتك فتخلف عليهن فقبل رسول الله عذره, وأذن له فخرج معه وطاردهم رسول الله ومن معه إلى حمراء الأسد ، أما والده عبد الله بن عمرو فقد استشهد في أُحُد ومع ذلك فقد طلب من رسول الله على الرغم من استشهاد أبيه أن يخرج إلى حمراء الأسد . وذلك لنعلم أن الله يقول :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

[المدثر : 31]

(199/130)

هذا وإن واحداً من المشركين الذين كانوا موضع سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن حلفائه وهو معبد الخزاعي ، مَرَّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أُحد وقال له : يا محمد : أما والله لقد عز علينا ما أصابك ، ثم لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال له أبو

سفيان : ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله ، ولم يزل بهم حتى ثنى أبا سفيان ومن معه فولوا وجوههم إلى مكة خائفين مسرعين ، وقد ذهب رسول الله إلى حمراء الأسد فلم يجد أحداً فعسكر رسول الله ثلاثة أيام هناك ، ومعنى ذلك أنهم هم الذين فروا من المعركة . إذن فأنتم الأعلون ، ولكن لاحظوا الشرط ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ . ثم بعد ذلك يسلى الله المؤمنين فيقول : ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1774 ـ 1778 ﴾

(200/130)

قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما نهاهم عما تقدم وبشرهم سلاهم وبصرهم بقوله : ﴿ إن يمسسكم قرح ﴾ أي مصيبة بإدالتهم عليكم اليوم ﴿ فقد مس القوم ﴾ أي الذين لهم من قوة المحاولة ما قد علمتم ، أي في

يوم أحد نفسه وفي يوم بدر ﴿ قرح مثله ﴾ أي في مطلق كونه قرحاً وإن كان أقل من قرحكم في يوم أحد وأكثر منه في يوم بدر ، على أنه كما أنه ظفرهم – بعدما أصابهم وأنكأهم يوم بدر بالزهد الذي ليس بعده وهن – بقتل مثل من قتل منكم وأسر مثلكم ، ويوم أحد بالقتل والهزيمة أول النهار وهم أعداؤه ، فهو جدير بأن يظفركم بعد وهنكم وأنتم أولياؤه ، فكما لم يضعفهم وهنهم وهم على الباطل فلا تضعفوا أنتم وأنتم على الحق ، ترجون من الله ما لا يرجون ، فقد أدلناكم عليهم يوماً وأدلناهم عليكم آخر ﴿ وتلك الأيام ﴾ ولما نبه على تعظيمها بأداة البعد ، وكانت إنما تعظم بعظم أحوالها ذكر الحال المنبه عليها بقوله : ﴿ نداولها بين الناس ﴾ أي بأن نرفع من نشاء تارة ونرفع عليه أخرى .

(201/130)

ولما كان التقدير : ليدال على من كانت له الدولة ، فيعلم كل أحد أن الأمر لنا بلا شريك ولا منازع عطف عليه قوله : ﴿ وليعلم الله ﴾ أي المحيط بجميع الكمال ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي بتصديق دعوى الإيمان بنية الجهاد فيكرمهم ، ومعنى ﴿ ليعلم ﴾ أنه يفعل فعل من يريد علم ذلك بأن يبرز ما يعلمه غيباً إلى عالم الشهادة ليقيم الحجة على الفاعلين على ما يتعارفه الناس بينهم ﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾ أي بأن يجعل قتلهم عين الحياة التي هي الشهادة ، لا

غيبة فيها ، فهو سبحانه وتعالى يزيد في إكرامهم بما صدقوا في إيمانهم بأن لا يكونوا مشهوداً عليهم أصلاً بفتنة في قبورهم ولا غيرها ولا يغفلوا بخوف ولا صعق ولا غيره ، فإن الله يحب المؤمنين ، وليعلم الذين ظلموا ويمحق منهم أهل الجحد والاعتداء ﴿ والله ﴾ أي الملك الأعلى ﴿ لا يحب الظالمين ﴾ أي الذين يخالف فعلهم قولهم ، فهو لا يستشهدهم ، وإنما يجعل قتلهم أول خيبتهم وعذابهم ، وفيه بشارة في ترغيب بأنه لا يفعل مع الكفرة فعل المحب ، لئلا يحزنوا على ما أصابهم ، ونذارة في تأديب بأنهم ما أخذوا إلا بتضييعهم الثغر الذي أمرهم به من التزموا طاعته وأمر الله بها في المنشط والمكره بحفظه ، وأقبلوا على الغنائم قبل أن يفرغوا من العدو ، والآية من الاحتباك : إثبات الاتخاذ أولاً دال على نفيه ثانياً ، وإثبات الكراهة ثانياً دال على المحبة أولاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 160 ﴾

(202/130)

وقال الفخر :

واعلم أن هذا من تمام قوله : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾ [آل عمران : 139] فبين تعالى أن الذي يصيبهم من القرح لا يجب أن يزيل جدهم واجتهادهم في جهاد العدو ،

وذلك لأنه كما أصابهم ذلك فقد أصاب عدوهم مثله قبل ذلك ، فاذا كانوا مع باطلهم ، وسوء عاقبتهم لم يفتروا لأجل ذلك في الحرب ، فبأن لا يلحقكم الفتور مع حسن العاقبة والتمسك بالحق أولى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 13 ﴾

لطيفة

قال الماوردى :

الفرق بيت المس واللمس فهو أن اللمس مباشرة بإحساس ، والمس مباشرة بغير إحساس . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 426 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿ قُرْحٌ ﴾ بضم القاف وكذلك قوله : ﴿ مِن بَعْدِ مَا أصابهم القرح ﴾ [آل عمران : 172] والباقون بفتح القاف فيهما واختلفوا على وجوه :

فالأول : معناهما واحد ، وهما لغتان : كالجهد والجهد ، والوجد والوجد ، والضعف والضعف .

والثاني : أن الفتح لغة تهامة والحجاز والضم لغة نجد .

والثالث : أنه بالفتح مصدر وبالضم اسم .

والرابع : وهو قول الفرّاء أنه بالفتح الجراحة بعينها وبالضم ألم الجراحة .

والخامس : قال ابن مقسم : هما لغتان إلا أن المفتوحة توهم أنها جمع قرحة . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 13 ﴾

قال الطبرى :

وأولى القراءتين بالصواب قراءة من قرأ : "إن يمسسكم قَرح فقد مس القوم قَرْح مثله" ،

بفتح "القاف" في الحرفين ، لإجماع أهل التأويل على أن معناه : القتل والجراح ، فذلك يدل

على أن القراءة هي الفتح .

وكان بعض أهل العربية يزعُمُ أن "القَرح" و"القُرح" لغتان بمعنى واحد . والمعروف عند أهل

العلم بكلام العرب ما قلنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 7 صـ 237 ﴾

(203/130)

قال ابن عطية ولله دره :

هذه القراءات لا يظن إلا أنها مروية عن النبي عليه السلام : وبجميعها عارض جبريل عليه

السلام مع طول السنين توسعة على هذه الأمة ، وتكملة للسبعة الأحرف حسب ما بيناه

في صدر هذا التعليق ، وعلى هذا لا يقال : هذه أولى من جهة نزول القرآن بها ، وإن

رجحت قراءة فبوجه غير وجه النزول ، قال أبو الحسن الأخفش : " القَرح " و " القُرح " مصدران بمعنى واحد ، ومن قال القَرح بالفتح الجراحات بأعيانها ، والقُرح بضم القاف ألم الجراحات قبل منه إذا أتى برواية ، لأن هذا مما لا يعلم بقياس ، وقال بهذا التفسير الطبري ، وقرأ الأعمش " إن تمسسكم " : بالتاء من فوق ، " قروح " بالجمع ، " فقد مس القوم قرح مثله " ، وقرأ محمد بن السميفع اليماني " قَرَح " بفتح القاف والراء ، قال أبو الفتح : هي لغة في القرح كالشل والشلل والطرد والطرد . هذا مذهب البصريين ، وليس هذا عندهم من تأثير حرف الحلق ، وأنا أميل في هذا إلى قول أصحابنا البغداديين ، في أن لحرف الحلق في مثل هذا أثراً معتمداً ، وقد سمعت بعض بني عقيل يقول : نحوه بفتح الحاء ، يريد نحوه ، ولو كانت الكلمة مبنية على فتح الحاء لأعلت الواو وكعصاة وفتاة ، وسمعت غيره يقول : أنا محموم بفتح الحاء قال ابن جني : ولا قرابة بيني وبين البصريين ولكنها بيني وبين الحق ، والحمد لله . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 1 صـ 512﴾

فصل

قال الفخر :

في الآية قولان :

أحدهما : إن يمسسكم قرح يوم أحد فقد مسهم يوم بدر ، وهو كقوله تعالى : ﴿أَوَلَمَّا أصابتكم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أنى هذا ﴾ [آل عمران : 165]

والثاني : أن الكفار قد نالهم يوم أحد مثل ما نالكم من الجرح والقتل ، لأنه قتل منهم نيف وعشرون رجلا ، وقتل صاحب لوائهم والجراحات كثرت فيهم وعقر عامة خيلهم بالنبل ، وقد كانت الهزيمة عليهم في أول النهار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 13 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القوم قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الايام نُدَاوِلُهَا بَيْنَ الناس ﴾ .

تسلية عمّا أصاب المسلمين يوم أُحُد من الهزيمة بأن ذلك غير عجيب في الحرب ، إذ لا يخلو جيش من أن يغلب في بعض مواقع الحرب ، وقد سبق أنّ العدوّ غُلب .

والمسّ هنا الإصابة كقوله في سورة [البقرة : 214] ﴿ مستهم البأساء والضراء ﴾

والقَرح بفتح القاف في لغة قريش الجرح ، وبضمّها في لغة غيرهم ، وقرأه الجمهور : بفتح القاف ، وقرأه حمزة والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم ، وخلف : بضمّ القاف ، وهو هنا مستعمل في غير حقيقته ، بل هو استعارة للهزيمة الّتي أصابتهم ، فإنّ الهزيمة تشبّه بالثلمة

وبالانكسار ، فشبّهت هنا بالقرح حين يصيب الجسد ، ولا يصحّ أن يراد به الحقيقة لأنّ الجراح الَّتي تصيب الجيش لا يعبأ بها إذا كان معها النصر ، فلا شكّ أنّ التسلية وقعت عمّا أصابهم من الهزيمة .

والقوم هم مشركو مكة ومن معهم .

والمعنى إن هُزِمتم يوم أُحُد فقد هزم المشركون يوم بدر وكنتم كفافاً .

ولذلك أعقبه بقوله : وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ .

والتَّعبير عمَّا أصاب المسلمين بصيغة المضارع في ﴿ يمسسكم ﴾ لقُربه من زمن الحال ، وعمّا أصاب المشركين بصيغة الماضِي لبعده لأنَّه حصل يوم بدر .

(205/130)

فقوله : ﴿ فقد مس القوم قرح ﴾ ليس هو جواب الشرط في المعنى ولكنّه دليل عليه أغنى عنه على طريقة الإيجاز ، والمعنى : إن يمسسكم قرح فلا تحْزنوا أو فلا تهنوا وهَنا بالشكّ في وعد الله بنصر دينه إذ قد مسّ القومَ قرح مثله فلم تكونوا مهزومين ولكنّكم كنتم كفافاً ، وذلك بالنّسبة لقلّة المؤمنين نصر مبين .

وهذه المقابلة بما أصاب العدوّ يوم بدر تعيّن أن يكون الكلام تسلية وليس إعلاماً بالعقوبة

كما قاله جمع من المفسّرين .

وقد سأل هرقل أبا سفيان : كيف كان قتالكم له قال "الحرب بيننا سِجَال يَنَالُ مِنَّا وننال منه ، فقال هرقل : وكذلك الرسل تبتَلى وتكون لهم العاقبة" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 228 . 229 ﴾

سؤال : فإن قيل كيف قال : ﴿ قَرْحٌ مّثْلُهُ ﴾ وما كان قرحهم يوم أحد مثل قرح المشركين ؟

قلنا : يجب أن يفسر القرح في هذا التأويل بمجرد الانهزام لا بكثرة القتلى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 13 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأيام نُدَاوِلُهَا بَيْنَ الناس ﴾

فصل

قال الفخر :

قال القفال : المداولة نقل الشيء من واحد إلى آخر ، يقال : تداولته الأيدي إذا تناقلته ومنه قوله تعالى : ﴿ كَى لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأغنياء مِنكُمْ ﴾ [الحشر : 7] أي تتداولونها ولا تجعلون للفقراء منها نصيباً ، ويقال : الدنيا دول ، أي تنتقل من قوم الى آخرين ، ثم عنهم إلى غيرهم ، ويقال : دال له الدهر بكذا إذا انتقل اليه ، والمعنى أن أيام الدنيا هي دول بين الناس لا يدوم مسارها ولا مضارها ، فيوم يحصل فيه السرور له والغم لعدوه ، ويوم آخر بالعكس من ذلك ، ولا يبقى شيء من أحوالها ولا يستقر أثر من آثارها .

واعلم أنه ليس المراد من هذه المداولة أن الله تعالى تارة ينصر المؤمنين وأخرى ينصر الكافرين وذلك لأن نصرة الله منصب شريف وإعزاز عظيم، فلا يليق بالكافر، بل المراد من هذه المداولة أنه تارة يشدد المحنة على الكفار وأخرى على المؤمنين والفائدة فيه من وجوه: الأول: أنه تعالى لو شدد المحنة على الكفار في جميع الأوقات وأزالها عن المؤمنين في جميع الأوقات لحصل العلم الاضطراري بأن الايمان حق وما سواه باطل، ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب فلهذا المعنى تارة يسلط الله المحنة على أهل الايمان، وأخرى على أهل الكفر لتكون الشبهات باقية والمكلف يدفعها بواسطة النظر في الدلائل الدالة على صحة الإسلام فيعظم ثوابه عند الله.

والثاني: أن المؤمن قد يقدم على بعض المعاصي، فيكون عند الله تشديد المحنة عليه في الدنيا أدباً له وأما تشديد المحنة على الكافر فإنه يكون غضبا من الله عليه.

والثالث: وهو أن لذات الدنيا وآلامها غير باقية وأحوالها غير مستمرة، وإنما تحصل السعادات المستمرة في دار الآخرة، ولذلك فإنه تعالى يميت بعد الاحياء، ويسقم بعد الصحة، فاذا حسن ذلك فلم لا يحسن أن يبدل السراء بالضراء، والقدرة بالعجز، وروي

أن أبا سفيان صعد الجبل يوم أحد ثم قال : أين ابن أبي كبشة أين ابن أبي قحافة أين ابن الخطاب ، فقال عمر : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا أبو بكر ، وها أنا عمر ، فقال أبو سفيان : يوم بيوم والأيام دول والحرب سجال ، فقال عمر رضي الله عنه لا سواء ، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار ، فقال : إن كان كما تزعمون ، فقد خبنا إذن وخسرنا .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 13.14 ﴾

(207/130)

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ الواو اعتراضية ، والإشارة بتلك إلى ما سيُذكر بعدُ ، فالإشارة هنا بمنزلة ضمير الشأن لقصد الاهتمام بالخبر وهذا الخبر مكنّى به عن تعليل للجواب المحذوف المدلول عليه بجملة : ﴿ فقد مس القوم قرح مثله ﴾ .

و ﴿ الأَيام ﴾ يجوز أن تكون جمع يوم مراد به يوم الحرب ، كقولهم : يوم بدر ويوم بُعاث ويوم الشّعْثَمَيْن ، ومنه أيّام العرب ، ويجوز أن يكون أطلق على الزّمان كقول طرفة :

وما تَنْقُصِ الأَيَامُ والدهرُ يَنْفَدِ . . .

أي الأزمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 229 ﴾

فصل

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ ﴾ القرح الجرح.

والضم والفتح فيه لغتان عن الكسائي والأخفش ؛ مثل عَقْر وعُقْر .

الفراء : هو بالفتح الجرح ، وبالضم ألَمُه .

والمعنى : إن يمسسكم يوم أُحُدٍ قَرْح فقد مَسّ القوم يوم بَدْرٍ قَرْح مثله .

وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع "قرح" بفتح القاف والراء على المصدر .

﴿ وَتِلْكَ الأَيام نُداوِلُهَا بَيْنَ الناس ﴾ قيل : هذا في الحرب ، تكون مرة للمؤمنين لينصر الله عز وجل دينه ، ومرة للكافرين إذا عصى المؤمنون ليبتليهم ويُمَحِّصَ ذنوبهم ؛ فأما إذا لم يَعْصوا فإنّ حزب الله هم الغالبون .

وقيل : ﴿ نُداوِلُهَا بَيْنَ النّاسِ ﴾ من فَرَحٍ وَغمّ وصحّةٍ وسُقْم وغِنًى وفقْرٍ .

والدُّولَة الكَرَّة ؛ قال الشاعر :

فيومٌ لنا ويومٌ علينا . . .

ويومٌ نُساءُ ويَوْمٌ نُسَرّ

قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الذين آمَنُواْ ﴾ معناه ، وإنما كانت هذه المداوَلَة لِيُرَى المؤمنُ من المنافق فيُمَيَّز بعضُهم من بعض ؛ كما قال : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الجمعَانِ فَبِإذْنِ اللَّهِ

وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ .

وَلِيَعْلَمَ الّذِينَ نَافَقُوا ﴾ .

(208/130)

وقيل : ليعلَم صبر المؤمنين ، العلمَ الذي يقع عليه الجزاء كما علمه غَيْباً قبل أن كَلّفَهم .

وقد تقدّم في "البقرة" هذا المعنى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 217 .

218 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلِيَعْلَمَ الله الذين ءامَنُواْ ﴾

فصل

قال الفخر :

الواو في قوله : ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ﴾ نظائره كثيرة في القرآن ، قال تعالى : ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الموقنين ﴾ [الأنعام : 75] وقال تعالى : ﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : 113] والتقدير : وتلك الأيام نداولها بين الناس ليكون كيت وكيت وليعلم الله ، وإنما حذف المعطوف عليه للإيذان بأن المصلحة في هذه المداولة ليست بواحدة ، ليسليهم عما جرى ، وليعرفهم أن تلك الواقعة وأن شأنهم فيها ، فيه من وجوه المصالح ما لو عرفوه

لسرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 14 ﴾

فائدة

قال السمرقندى :

﴿ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الذين ءامَنُواْ ﴾ يعني يتبين المؤمن من المنافق أنهم يشكون في دينهم أم لا ، لأن المؤمن المخلص يتبين حالُه عند الشدة والبلايا .

وهذا كما روي عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه : إن الذهب والفضة يختبران بالنار ، والمؤمن يختبر بالبلايا ، والاختبار من الله تعالى إظهار ما علم منه من قبل فذلك قوله تعالى :

﴿ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الذين ءامَنُواْ ﴾ يعني ليبين لهم الله الذي يعلم إيمانه ، لأنه يعطى الثواب بما يظهر منه لا بما يعلم منه ، وكذلك العقوبة .

أَلاَ ترى أنه عَلِم من إبليس المعصية في المستقبل ثم لم يلعنه ما لم يظهر منه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 277. 278 ﴾

(209/130)

وقال أبو السعود :

: ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الذين ءامَنُواْ ﴾ إما من باب التمثيلِ أي ليعامِلَكم معاملةَ من يريد أن يَعلمَ

المخلِصين الثابتين على الإيمان من غيرهم ، أو العلمُ فيه مجازٌ عن التمييز بطريق إطلاقِ اسمِ السببِ على المسبَّب أي ليُميِّزَ الثابتين على الإيمان من غيرهم كما في قوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ المؤمنين على مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حتى يَمِيزَ الخبيث مِنَ الطيب ﴾ أو هو على حقيقته معتبَرٌ من حيث تعلقُه بالمعلوم من حيث إنه موجودٌ بالفعل إذ هو الذي يدور عليه فلكُ الجزاءِ لا من حيث أنه موجودٌ بالقوة .

وإطلاقُ الإيمانِ مع أن المرادَ هو الرسوخُ والإخلاصُ فيه للإيذان بأن اسمَ الإيمانِ لا ينطلق على غيره ، والالتفاتُ إلى الغيبة بإسناده إلى اسم الذاتِ المستجمعِ للصفات لتربية المهابةِ والإشعارِ بأن صدورَ كلِ واحدٍ مما يُذكر بصدد التعليلِ من أفعاله تعالى باعتبار منشإٍ معيّنٍ من صفاته تعالى مغايرٌ لمنشإ الآخَر ، والجملةُ علةٌ لما هو فردٌ من أفراد مُطلقِ المداولةِ التي نطقَ بها قولُه تعالى : ﴿ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاس ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 89.90 ﴾

(210/130)

فصل

قال الفخر :

ظاهر قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الله الذين ءامَنُواْ ﴾ مشعر بأنه تعالى إنما فعل تلك المداولة ليكتسب هذا العلم ، ومعلوم أن ذلك محال على الله تعالى ، ونظير هذه الآية في الإشكال قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جاهدوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصابرين ﴾ [آل عمران : 142] وقوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذبين ﴾ [العنكبوت : 3] وقوله : ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أحصى لِمَا لَبِثُواْ أَمَدًا ﴾ [الكهف : 12] وقوله : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتى نَعْلَمَ المجاهدين مِنكُمْ والصابرين ﴾ [محمد : 31] وقوله : ﴿ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرسول ﴾ [البقرة : 143] وقوله ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [هود : 7 ، الملك : 2] وقد احتج هشام بن الحكم بظواهر هذه الآيات على أن الله تعالى لا يعلم حدوث الحوادث إلا عند وقوعها ، فقال : كل هذه الآيات دالة على أنه تعالى إنما صار عالما بحدوث هذه الأشياء عند حدوثها .

أجاب المتكلمون عنه : بأن الدلائل العقلية دلت على أنه تعالى يعلم الحوادث قبل وقوعها ، فثبت أن التغيير في العلم محالا إلا أن اطلاق لفظ العلم على المعلوم والقدرة على المقدور مجاز مشهور ، يقال : هذا علم فلان والمراد معلومه ، وهذه قدرة فلان والمراد مقدوره ، فكل آية يشعر ظاهرها بتجدد العلم ، فالمراد تجدد المعلوم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 15.14 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلِيَعْلَمَ الله الذين ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ والله لاَ يُحِبُّ الظالمين ﴾ ﴿ وَلِيُمَحِّصَ الله الذين ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ الكافرين ﴾ .

(211/130)

عطف على جملة ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ ، فمضمون هذه علّة ثانية لجواب الشرط المحذوف المدلول عليه بقوله : ﴿ فقد مس القوم قرح مثله ﴾ وعلم الله بأنّهم مؤمنون متحقق من قبل أن يمسهم القرح.

فإن كان المراد من ﴿ الَّذين آمنوا ﴾ هنا معنى الَّذين آمنوا إيماناً راسخاً كاملاً فقد صار المعنى : أنّ علم الله برسوخ إيمانهم يحصل بعد مَسِّ القرح إيّاهم ، وهو معنى غير مستقيم ، فلذلك اختلف المفسّرون في المراد من هذا التَّعليل على اختلاف مذاهبهم في صفة العِلم ، وقد تقرّر في أصول الدّين أن الفلاسفة قالوا : إنّ الله عالم بالكلّيات بأسرها ، أي حقائق الأشياء على ما هي عليه ، علماً كالعِلم المبحوث عنه في الفلسفة لأنّ ذلك العلم صفة كمال ، وأنّه يعلم الجزئيات من الجواهر والأعراض علماً بوجه كلّي .

ومعنى ذلك أنَّه يعلمها من حيث إنَّها غير متعلّقة بزمان ، مِثالُه : أن يعلم أنّ القمر جسم

يوجد في وقت تكوينه ، وأنّ صفته تكون كذا وكذا ، وأنّ عوارضه النورانية المكتسبة من الشَّمس والخسوف والسَّير في أمد كذا .

أمّا حصوله في زمانه عندما يقع تكوينه ، وكذلك حصول عوارضه ، فغير معلوم لله تعالى ، قالوا : لأنّ الله لو علم الجزئيات عند حصولها في أزمنتها للزم تغيّر علمه فيقتضي ذلك تغيّر القديم ، أو لزم جهل العالِم ، مثاله : أنّه إذا علم أنّ القمر سيخسف ساعة كذا علماً أزلياً ، فإذا خسف بالفعل فلا يخلو إمّا أن يزول ذلك العلم فيلزم تغيّر العلم السابق فيلزم من ذلك تغيّر الذات الموصوفةِ به من صفة إلى صفة ، وهذا يستلزم الحدوث إذ حدوث الصّفة يستلزم حدوث الموصوف ، وإمّا أن لا يزول العلم الأول فينقلب العلمُ جهلاً ، لأنّ الله إنّما علم أنّ القمر سيخسف في المستقبل والقمر الآن قد خسف بالفعل .

(212/130)

ولأجل هذا قالوا : إنّ علم الله تعالى غير زماني .

وقال المسلمون كلّهم : إنّ الله يعلم الكلّيات والجزئيات قبل حصولها ، وعند حصولها .

وأجابوا عن شبهة الفلاسفة بأن العلم صفة من قبيل الإضافة أي نسبة بين العالِم والمعلوم ، والإضافات اعتباريات ، والاعتباريات عدميات ، أو هو من قبيل الصّفة ذات الإضافة :

أي صفة وجودية لها تعلّق ، أي نسبة بينها وبين معلومها .

فإن كان العلم إضافة فتغيّرها لا يستلزم تغيّر موصوفها وهو العالم ، ونظّروا ذلك بالقديم يوصف بأنّه قبل الحادث ومعه وبعده ، من غير تغيّر في ذات القديم ، وإن كان العلم صفة ذات إضافة أي ذات تعلّق ، فالتغيّر يعتري تعلّقها ولا تتغيّر الصّفة فضلاً عن تغيّر الموصوف ، فعلمُ اللّهِ بأن القمر سيخسف ، وعلمُه بأنّه خاسف الآن ، وعلمُه بأنّه كان خاسفاً بالأمس ، علم واحد لا يتغيّر موصوفة ، وإن تغيّرت الصّفة ، أو تغيّر متعلّقها على الوجهين ، إلاّ أن سلف أهل السنّة والمعتزلة أبوا التّصريح بتغيّر التعلُّق ولذلك لم يقع في كلامهم ذكر تعلقين للعلم الإلهي أحدهما قديم والآخر حادث ، كما ذكروا ذلك في الإرادة والقدرة ، نظراً لكون صفة العلم لا تتجاوز غيرَ ذات العالم تجاوزاً محسوساً .

فلذلك قال سلفهم : إنّ الله يعلم في الأزل أنّ القمر سيخسف في سنتنا هذه في بلد كذا ساعة كذا ، فعند خسوف القمر كذلك عَلِمَ الله أنّه خسف بذلك العلم الأوّل لأنّ ذلك العلم مجموع من كون الفعل لم يحصل في الأزل ، ومن كونه يحصل في وقته فيما لا يزال ، قالوا : ولا يقاس ذلك على علمنا حين نعلم أنّ القمر سيخسف بمقتضى الحساب ثمّ عند خسوفه نعلم أنّه تحقّق خسوفه بعلم جديد ، لأنّ احتياجنا لعلم متجدّد إنّما هو لطريان الغفلة عن الأول .

وقال بعض المعتزلة مثل جَهْم بن صَفْوَان وهِشام بن الحَكم : إنّ الله عالم في الأزل بالكلّيات والحقائق ، وأمَّا علمه بالجزئيات والأشخاص والأحوال فحاصل بعد حدوثها لأنّ هذا العلم من التصديقات ، ويلزمه عَدم سبق العلم .

وقال أبو الحُسين البصري من المعتزلة ، رادّاً على السلف : لا يجوز أن يكون علم الله بأنّ القمر سيخسف عين علمه بعد ذلك بأنَّه خسف لأمور ثلاثة : الأوّل التغايُر بينهما في الحقيقة لأنّ حقيقة كونه سيقع غيرُ حقيقة كونه وقع ، فالعلمُ بأحدهما يغاير العلم بالآخر ، لأنّ اختلاف المتعلّقين يستدعي اختلاف العالم بهما .

الثَّاني التغاير بينهما في الشرط فإنّ شرط العلم بكون الشيء سيقع هو عدم الوقوع ، وشرط العلم بكونه وقَع الوقوعُ ، فلو كان العلمان شيئاً واحداً لم يختلف شرطاهُما .

الثَّالث أنّه يمكن العلم بأنّه وقع الجهل بأنَّه سيقع وبالعكس وغير المعلوم غير المعلوم (هكذا عبّر أبو الحسين أي الأمر الغير المعلوم مغاير للمعلوم) ولذلك قال أبو الحسين بالتزام وقوع التَّغير في علم الله تعالى بالمتغيِّرات ، وأنّ ذاته تعالى تقتضي اتّصافه بكونه عالماً بالمعلومات الَّتي ستقع ، بشرط وقوعها ، فيحدث العلم بأنَّها وجدت عند وجودها ، ويزول عند زوالها ، ويحصل علم آخر ، وهذا عين مذهب جهم وهشام .

ورُدّ عليه بأنَّه يلزم أن لا يكون الله تعالى في الأزل عالماً بأحوال الحوادث ، وهذا تجهيل .

وأجاب عنه عبد الحكيم في "حاشية المواقف" بأنّ أبا الحسين ذهب إلى أنَّه تعالى يعلم في الأزل أنّ الحادث سيقع على الوصف الفلاني، فلا جهل فيه، وأنّ عدم شهوده تعالى للحوادث قبل حدوثها ليس بجهل، إذ هي معدومة في الواقع، بل لو علمها تعالى شهودياً حينَ عدمها لكان ذلك العلم هو الجهل، لأنّ شهود المعدوم مخالف للواقع، فالعلم المتغيّر الحادث هو العلم الشهودي.

فالحاصل أنّ ثمة علمين: أحدهما قديم وهو العلم المشروط بالشروط، والآخر حادث وهو المعلوم الحاصلة عند حصول الشروط وليست بصفة مستقلّة، وإنَّما هي تعلّقات وإضافات، ولذلك جرى في كلام المتأخّرين، من علمائنا وعلماء المعتزلة، إطلاق إثبات تعلّقٍ حادثٍ لعلم الله تعالى بالحوادث.

وقد ذكر ذلك الشَّيخ عبد الحكيم في "الرسالة الخاقانية" الَّتي جعلها لِتحقيق علم الله تعالى غير منسوب لقائل، بل عبّر عنه بقيل، وقد رأيت التفتزاني جرى على ذلك في "حاشية الكشّاف" في هذه الآية فلعل الشَّيخ عبد الحكيم نسي أن ينسبه.

وتأويل الآية على اختلاف المذاهب: فأمّا الّذين أبوا إطلاق الحدوث على تعلّق العلم فقالوا

في قوله: ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ﴾ أطلق العلم على لازمه وهو ثبوت المعلوم أي تميّزه على طريقة الكناية لأنَّها كإثبات الشيء بالبرهان، وهذا كقول إياس بن قبيصة الطائي:

وأقبلت والخطيّ يخطِر بيننا . . .

لأَعْلَمَ مَن جبَانَها مِنْ شجاعها

أي ليظهر الجبان والشُّجاع فأطلق العلم وأريد ملزومه.

ومنهم من جعل قوله: ﴿ وليعلم الله ﴾ تمثيلاً أي فعل ذلك فِعْلَ من يريد أن يعلم وإليه مال في "الكشاف"، ومنهم من قال: العلّة هي تعلّق علم الله بالحادث وهو تعلّق حادث، أي ليعلم الله الَّذين آمنوا موجودين.

قاله البيضاوي والتفتزاني في "حاشية الكشّاف".

(215/130)

وإن كان المراد من قوله: ﴿ الذين آمنوا ﴾ ظاهرَهُ أي ليعلم من اتَّصف بالإيمان، تعيّن التأويل في هذه الآية لا لأجل لزوم حدوث علم الله تعالى، بل لأنّ علم الله بالمؤمنين من أهل أُحُد حاصل من قبلِ أن يمسّهم القرح، فقال الزجاج: أراد العِلمَ الَّذي يترتّب عليه الجزاء وهو ثباتهم على الإيمان، وعدم تزلزلهم في حال الشدّة، وأشار التفتزاني إلى أنّ تأويل

صاحب "الكشاف" ذلك بأنّه وارد مورد التمثيل ، ناظر إلى كون العلم بالمؤمنين حاصلاً من قبل ، لا لأجل التحرّز عن لزوم حدوث العلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 230.232 ﴾

فصل

قال الفخر :

في هذه الآية وجوه :

أحدها : ليظهر الإخلاص من النفاق والمؤمن من الكافر .

والثاني : ليعلم أولياء الله ، فأضاف الى نفسه تفخيما .

وثالثها : ليحكم بالامتياز ، فوضع العلم مكان الحكم بالامتياز ، لأن الحكم بالامتياز لا يحصل إلا بعد العلم .

ورابعها : ليعلم ذلك واقعاً منهم كما كان يعلم أنه سيقع ، لأن المجازاة تقع على الواقع دون المعلوم الذي لم يوجد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 15 ﴾

(216/130)

فصل

قال الفخر :

العلم قد يكون بحيث يكتفى فيه بمفعول واحد ، كما يقال : علمت زيداً ، أي علمت ذاته وعرفته ، وقد يفتقر إلى مفعولين ، كما يقال : علمت زيداً كريما ، والمراد منه في هذه الآية هذا القسم الثاني ، إلا أن المفعول الثاني محذوف والتقدير : وليعلم الله الذين آمنوا متميزين بالإيمان من غيرهم ، أي الحكمة في هذه المداولة أن يصير الذين آمنوا متميزين عمن يدعي الإيمان بسبب صبرهم وثباتهم على الإسلام ، ويحتمل أن يكون العلم ههنا من القسم الأول ، بمعنى معرفة الذات ، والمعنى وليعلم الله الذين آمنوا لما يظهر من صبرهم على جهاد عدوهم ، أي ليعرفهم بأعيانهم إلا أن سبب حدوث هذا العلم ، وهو ظهور الصبر حذف ههنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 15 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء ﴾

قال الفخر :

المراد منه ذكر الحكمة الثانية في تلك المداولة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 15 ﴾

في هذه الآية قولان :

الأول : يتخذ منكم شهداء على الناس بما صدر منهم من الذنوب والمعاصي ، فإن كونهم

شهداء على الناس منصب عال ودرجة عالية .

والثاني : المراد منه وليكرم قوماً بالشهادة ، وذلك لأن قوما من المسلمين فاتهم يوم بدر ، وكانوا يتمنون لقاء العدو وأن يكون لهم يوم كيوم بدر يقاتلون فيه العدو ويلتمسون فيه الشهادة ، وأيضا القرآن مملوء من تعظيم حال الشهداء قال تعالى :

(217/130)

﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ الله أمواتا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : 169] وقال : ﴿ وَجِىء بالنبيين والشهداء ﴾ [الزمر : 69] وقال : ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مّنَ النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴾ [النساء : 69] فكانت هذه المنزلة هي المنزلة الثالثة للنبوة ، وإذا كان كذلك فكان من جملة الفوائد المطلوبة من تلك المداولة حصول هذا المنصب العظيم لبعض المؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 15 ﴾

فصل

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ أي يكرمكم بالشهادة ؛ أي لِيُقتلَ قومٌ فيكونوا

شهداء على الناس بأعمالهم .

وقيل : لهذا قيل شهيد : وقيل : سمي شهيداً لأنه مشهود له بالجنة وقيل : سمى شهيداً لأن أرواحهم احتضرت دار السلام ، لأنهم أحياء عند ربهم ، وأرواح غيرهم لا تصل إلى الجنة ؛ فالشهيد بمعنى الشاهد أي الحاضر للجنة ، وهذا هو الصحيح على ما يأتي والشهادة فضلها عظيم ، ويكفيك في فضلها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ ﴾ [التوبة : 111] الآية .

وقوله : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [الصف : 10] إلى قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الفوز العظيم ﴾ [الصَّف : 12] .

(218/130)

وفي صحيح البُسْتِيّ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما يجد الشهيد من القتل إلا كما يجد أحدكم من القُرْحة " وروى النسائي عن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً قال : يا رسول الله ، ما بال المؤمنين يُفتنون في قبورهم إلا الشهيد ؟ قال : "كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة " وفي

البخاري : "من قُتل من المسلمين يوم أُحد" منهم حمزةُ واليَمَان والنضر بن أنس ومصعب بن عُمير.

حدّثني عمرو بن عليّ أن معاذ بن هشام قال حدّثني أبي عن قتادة قال : "ما نعلم حيّاً من أحياء العرب أكثر شهيداً أعزّ يوم القيامة من الأنصار قال قتادة : وحدّثنا أنس بن مالك أنه قُتل منهم يوم أُحُد سبعون ، ويوم بِئْر مَعُونَة سبعون ، ويوم اليَمَامَة سبعون.

قال : وكان بئر معونة على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ويوم اليَمَامة على عهد أبي بكر يوم مُسَيْلِمة الكذّاب" وقال أنس : "أتي النبي صلى الله عليه وسلم بعليّ بن أبي طالب وبه نيف وسِتون جراحة من طعنةٍ وضربةٍ ورمْيَةٍ ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يمسحها وهي تَلْتَئم بإذن الله تعالى كأن لم تكن". انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 218.219 ﴾

فصل

قال الفخر :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أن جميع الحوادث بإرادة الله تعالى فقالوا : منصب الشهادة على ما ذكرتم ، فإن كان يمكن تحصيلها بدون تسليط الكفار على المؤمنين لم يبق لحسن التعليل وجه ، وإن كان لا يمكن فحينئذ يكون قتل الكفار للمؤمنين من لوازم تلك الشهادة ، فاذا كان تحصيل تلك الشهادة للعبد مطلوباً لله تعالى وجب أن يكون ذلك القتل مطلوباً لله تعالى ، وأيضاً فقوله : ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء ﴾ تنصيص على أن ما به حصلت تلك الشهادة هو من الله تعالى ، وذلك يدل على أن فعل العبد خلق الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب جـ 9 صـ 15 ﴾

وقال القرطبى :

في قوله تعالى : ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ دليل على أن الإرادة غير الأمر كما يقوله أهل السنة ؛ فإن الله تعالى نهى الكفار عن قتل المؤمنين : حمزةَ وأصحابِه وأراد قتلهم ، ونهى آدم عن أكل الشجرة وأراده فواقَعه آدم ، وعكسه أنه أمر إبليس بالسجود ولم يرِده فامتنع منه ؛ وعنه وقعت الإشارة بقوله الحق : ﴿ ولكن كَرِهَ الله انبعاثهم فَثَبَّطَهُمْ ﴾ [التوبة : 46].

وإِن كان قد أمر جميعهم بالجهاد ، ولكنه خلق الكَسَل والأسباب القاطعة عن المسِير فقعدوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى جـ 4 صـ 219 ﴾

فصل

قال الفخر :

الشهداء جمع شهيد كالكرماء والظرفاء ، والمقتول من المسلمين بسيف الكفار شهيداً ،

وفي تعليل هذا الاسم وجوه :

الأول : قال النضر بن شميل : الشهداء أحياء لقوله : ﴿ بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : 169] فأرواحهم حية وقد حضرت دار السلام ، وأرواح غيرهم لا تشهدها ،

الثاني : قال ابن الانباري : لأن الله تعالى وملائكته شهدوا له بالجنة ، فالشهيد فعيل بمعنى مفعول ،

(220/130)

الثالث : سموا شهداء لأنهم يشهدون يوم القيامة مع الأنبياء والصديقين ، كما قال تعالى : ﴿ لّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى الناس ﴾ [البقرة : 143]

الرابع : سموا شهداء لأنهم كما قتلوا أدخلوا الجنة ، بدليل أن الكفار كما ماتوا أدخلوا النار بدليل قوله : ﴿ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ﴾ [نوح : 25] فكذا ههنا يجب أن يقال : هؤلاء الذين قتلوا في سبيل الله ، كما ماتوا دخلوا الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9

صـ 16.15 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

رُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : " جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر فقال له : "خَيِّر أصحابك في الأسارى إن شاءوا القتل وإن شاءوا الفِداء على أن يقتل منهم عام المقبِل مثلهم فقالوا الفداء ويقتل منا " " أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن .

فأنجز الله وعده بشهادة أوليائه بعد أن خَيَّرهم فاختاروا القتل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 219 ﴾

قوله تعالى : ﴿ والله لاَ يُحِبُّ الظالمين ﴾

قال الفخر :

﴿ والله لاَ يُحِبُّ الظالمين ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي المشركين ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] وهو اعتراض بين بعض التعليل وبعض ، وفيه وجوه : الأول : والله لا يحب من لا يكون ثابتاً على الايمان صابراً على الجهاد .

الثاني : فيه إشارة إلى أنه تعالى إنما يؤيد الكافرين على المؤمنين لما ذكر من الفوائد ، لا لأنه يحبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 16.15 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ والله لاَ يُحِبُّ الظالمين ﴾ أي يبغضهم ، والمراد من الظالمين إما المنافقون كابن أبيّ وأتباعه الذين فارقوا جيش الإسلام على ما نقلناه فيما قبل فهم في مقابلة المؤمنين فيما تقدم المفسر بالثابتين على الإيمان الراسخين فيه الذين توافق ظواهرهم بواطنهم ، وإما بمعنى الكافرين المجاهرين بالكفر ، وأياً ما كان فالجملة معترضة لتقرير مضمون ما قبلها ، وفيها تنبيه على أنه تعالى لا ينصر الكافر على الحقيقة وإنما يغلبه أحياناً استدراجاً له وابتلاءاً للمؤمن ، وأيضاً لو كانت النصرة دائماً للمؤمنين لكان الناس يدخلون في الإيمان على سبيل اليمن والفأل ، والمقصود غير ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 69 ﴾

فصل

قال الشيخ الشنفيطى :

قوله تعالى : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القوم قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾ .

المراد بالقرح الذي مس المسلمين هو ما أصابهم يوم أحد من القتل والجراح ، كما أشار له تعالى في هذه السورة الكريمة في مواضع متعددة كقوله : ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الموت مِن قَبْلِ

أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [آل عمران : 143] وقوله : ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ [آل عمران : 140] الآية وقوله : ﴿ حتى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأمر وَعَصَيْتُمْ مِّن بَعْدِ مَآ أَرَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخرة ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ [آل عمران : 152] وقوله : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ على أحَدٍ والرسول يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ ﴾ [آل عمران : 153] ونحو ذلك من الآيات .

(222/130)

وأما المراد بالقرح الذي مس القوم المشركين فيحتمل أنه هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والأسر ، وعليه فإليه الإشارة بقوله : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الملائكة أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الذين آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الذين كَفَرُواْ الرعب فاضربوا فَوْقَ الأعناق واضربوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ذلك بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ الله وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ الله وَرَسُولَهُ فَإِنَّ الله شَدِيدُ العقاب ﴾ [الأنفال : 12-13]

ويحتمل أيضاً أنه هزيمة المشركين أولاً يوم أحد كما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى ، وقد أشار إلى القرحين معاً بقوله : ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا ﴾ [آل عمران : 165] فالمراد بمصيبة المسلمين القرح الذي مسهم يوم أُحُد ، والمراد بمصيبة الكفار

بمثليها قبل القرح الذي مسهم يوم بدر . لأن المسلمين يوم أحد قتل منهم سبعون والكفار يوم بدر قتل منهم سبعون ، وأسر سبعون .

وهذا قول الجمهور وذكر بعض العلماء أن المصيبة التي أصابت المشركين هي ما أصابهم يوم أحد من قتل وهزيمة ، حيث قتل حملة اللواء من بني عبد الدار ، وانهزم المشركون في أول الأمر هزيمة منكرة وبقي لواؤهم ساقطاً حتى رفعته عمرة بنت علقمة الحارثية وفي ذلك يقول حسان :

فلولا لواء الحارثية أصبحوا . . . يباعون في الأسواق بيع الجلائب

وعلى هذا الوجه : فالقرح الذي أصاب القوم المشركين يشير إليه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ [آل عمران : 152] الآية . ومعنى تحسونهم : تقتلونهم وتستأصلونهم وأصله من الحس الذي هو الإدراك بالحاسة فمعنى حسه أذهب حسه بالقتل ومنه قول جرير :

تحسهم السيوف كما تسامى . . . حريق النار في أجم الحصيد

وقول الآخر :

حسناهم بالسيف حساً فأصبحت . . . بقيتهم قد شردوا وتبددوا

وقول رؤبة :

إذا شكونا سنة حسوسا . . . تأكل بعد الأخضر اليبيسا

يعني بالسنة الحسوس : السنة المجدبة التي تأكل كل شيء ، وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب أن الآية قد يكون فيها احتمالان وكل منهما يشهد له قرآن ، وكلاهما حق فنذكرهما معاً ، وما يشهد لكل واحد منهما .

قال بعض العلماء : وقرينة السياق تدل على أن القرح الذي أصاب المشركين ما وقع بهم يوم أحد .

لأن الكلام في وقعة أحد ولكن التثنية في قوله مثليها تدل على أن القرح الذي أصاب المشركين ما وقع بهم يوم بدر . لأنه لم ينقل أحد أن الكفار يوم أحد أصيبوا بمثلي ما أصيب به المسلمون ، ولا حجة في قوله : ﴿ تَحُسُّونَهُمْ ﴾ [آل عمران : 152] . لأن ذلك الحس والاستئصال في خصوص الذين قتلوا من المشركين ، وهم أقل ممن قتل من المسلمين يوم أحد ، كما هو معلوم .

فإن قيل : ما وجه الجمع بين الإفراد في قوله : ﴿ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾ [آل عمران : 140] وبين التثنية في قوله : ﴿ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا ﴾ [آل عمران : 165] فالجواب والله تعالى أعلم أن المراد بالتثنية قتل سبعين وأسر سبعين يوم بدر ، في مقابلة سبعين يوم أحد ، كما عليه

جمهور العلماء .

والمراد بإفراد المثل : تشبيه القرح بالقرح في مطلق النكاية والألم ، والقراءتان السبعيتان في قوله : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القوم قَرْحٌ ﴾ [آل عمران : 140] بفتح القاف وضمها في الحرفين معناهما واحد فهما لغتان كالضعف والضعف .

وقال الفراء : القرح بالفتح الجرح وبالضم ألمه اه . ومن إطلاق العرب القرح على الجرح قول متمم بن نويرة التميمي :

قعيدك ألا تسمعيني ملامة . . . ولا تنكئي قرح الفؤاد فييجعا . انتهى انتهى . اهـ

﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ 207 . 209 ﴾

(224/130)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾

وقد تكلمنا – من قبل – عن " المس " وهو : إصابة بدون حس . . أي لمس لكنك لا تحس بحرارة أو نعومة مثلا ، إنما " اللمس " هو أن تحس في الشيء حرارة أو نعومة ويحتاج

إلى الالتصاق المؤقت، إنما " المس " هو ما لا تكاد تدرك به شيئاً ، " والقَرْح " هو : الجراح، وفي لغة أخرى تقول " القُرح " – بضم القاف – وأقول : القُرح وهو الألم الناشئ من الجراح، كي يكون لفظ معنى .

وأنت قد ترى بعض الألفاظ فتظن أن معناها واحد في الجملة، إلا أن لكل معنى منها ملحظاً ، أنت تسمع مثلاً : رأى، ونظر، ولمح، ورمق، ورنا . كل هذه تدل على البصر . لكن لكل لفظ له معنى :

رمق : رأى بمؤخر عينيه، ولمح : أي شاهد من بعد ، ورنا : نظر بإطالة، وهكذا . ويقال أيضاً : جلس، وقعد ، فالمعنى العام يكاد يكون واحداً ، لكن المعنى الدقيق يوضح أن الجلوس يكون عن اضطجاع. والقعود عن قيام، كان قائماً فقعد ، والاثنان ينتهيان إلى وضع واحد ، فكذلك " قَرح " و " قُرح "كل لفظ له معنى دقيق .

ويقولون – مثلاً – : إن للأسد أسماء كثيرة، فقال : " الأسد " و " الغضنفر " و " الرئبال " و " الوَرْد " و " القسْورة " . وصحيح هذه أسماء للأسد ، ولكن لكل اسم معنى محدد ، ف " الأسد " هو اللفظ العام والعَلَم على هذا الحيوان، و " الغضنفر " هو الأسد عندما ينفش لبدته، و " الوَرْد " هو حالة الأسد عندما يكون قد مط صلبه، فكل موقف للأسد له معنى خاص به .

وقوله الحق : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾ لاحظ أن المتكلم هو الله فافطن جيداً إلى مرارات كلامه . ونعرف أنه في الشرط والجواب ، أن الشرط يأتي أولا ثم يأتي الجواب من بعد ذلك مترتبا عليه ونتيجه له ، كقولنا " إن تذاكر تنجح " إن النجاح هو جواب لشرط وهو الاستذكار .

وقوله الحق : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾ فهل المعنى المراد من هذه الجملة الشرطية أن مس القرح للكافرين الذي حدث في بدر كان كجزاء لمس القرح للمؤمنين في أحد ؟ لا ، إنه لا يكون أبداً جواباً لشرط ؛ لأنه لو كان جواب شرط لقال الحق : إن يمسسكم قرح فسيمس القوم قرح مثله . ولكنه لم يقل ذلك لأن القرح الذي أصاب المشركين في بدر كان أسبق من القرح الذي أصاب المؤمنين في أحد .

وكأن الحق يقول : إن يمسسكم قرح فلا تبتئسوا ؛ فقد مس القوم قرح مثله ، وليس ذلك جواب الشرط ، ولكنه جاء ليُستدل به على جواب الشرط ، أي أنه تعليل لجواب الشرط ، أقول ذلك حتى لا يتدخل دعيّ من الأدعياء ويتهم القرآن – والعياذ بالله – بما ليس فيه . إنه – سبحانه – يثبت المؤمنين ويسلّيهم . ومثال ذلك ما نقوله نحن لواحد إذا أصابته كارثة :

إن كان قد حدث لك كذا ، فقد حدث لخصمك مثله . إذن فنحن نسليه . والمقصود هنا

أن الحق يسلّي المؤمنين : إن يمسسكم قرح فلا تبتئسوا ، فليكن عندكم سُلُوّ ولْتجتازوا هذا الأمر ولترض به نفوسكم ؛ لأن القوم قد مسهم قرح مثله .

والأسوة والتسلية ، هل تأتي بما وقع بالفعل أم بما سيقع ؟ . إنها تأتي بما وقع بالفعل ، إذن فهي تعلل تعليلاً صحيحاً : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾ .

(226/130)

وأطلق الحق سبحانه من بعد ذلك قضية عامة : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ . ما معنى المداولة ؟ داول أي نقل الشيء من واحد لآخر . ونحن هنا أمام موقعتين : غزوة بدر وغزوة أُحُد . وكان النصر للمسلمين في غزوة بدر بالإجماع ، أما غزوة أُحُد فلم يكن فيها هزيمة بالإجماع ولم يكن فيها نصر .

إذن فقوله الحق : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ أي مع التسليم جدلاً بأن الكفار قد انتصروا – رغم أن هذا لم يحدث – فإننا نقلنا النصر منكم أيها المؤمنون إليهم .

وإياك أن تفوتك هذه الملاحظة ، بأن النصر لم ينتقل إليهم إلا بمخالفة منكم أيها المؤمنون .

ومعنى مخالفة منكم ، أي أنكم طرحتم المنهج ، أي أنكم أصبحتم مجرد " ناس " مثلهم .

وما دمتم قد صرتم مجرد ناس بدون منهج مثلهم ومتساوين معهم ، فإن النصر لكم يوم ،

ولهم يوم . ولنلحظ ان الحق لم يقل : إن المداولة بين الناس هي مداولة بين مؤمنين وكافرين . فإن ظللتم مؤمنين فلا يمكن أن ينتقل النصر إلى الكفار ، إنما النصر يكون لكم ، انظر ماذا قال : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ ولم يقل بين المؤمنين والكافرين ، أي بينكم وبين قريش .

وليس المقصود بالأيام ما هو معروف لدى الناس من أوقات تضم الليل والنهار ، ولكن المقصود بـ " الأيام " هنا هو أوقات النصر أو أوقات الغلبة . ويقال أيضاً : " يوم فلان على فلان " إذن ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ لم تتضمن المداولة بين المؤمنين والكافرين ، ولكنها مداولة بين الذين مالت أبصارهم إلى الغنائم فتخلخل إيمانهم ، ففازت قريش ظاهرياً . فلو ظللتم على إيمانكم لما حدث ذلك أبداً . لكنكم تخليتم عن منهج ربكم ، وبذلك استويتم وتساويتم مع غير المؤمنين ، وبذلك تكون الأيام لذلك مرة ولهذا مرة أخرى ، إنها مطلق عدالة .

علينا أن نتذكر الشرط السابق ، لا لعدم الهزيمة . بل للعلو والنصر :

(227/130)

﴿ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

إن الحق سبحانه في مسألة مداولة الأيام ينبه المؤمنين الذين تخلخل إيمانهم : ما دمتم اشتركتم معهم في كونكم مجرد " أناس " فيصبح النصر يوماً لهم ويوماً لكم ، والذكي العبقريّ الفطن الذي يحسن التصرف هو من يغلب ؛ لأن المعركة هنا تدور بين قوة بشر مقابل قوة البشر .

ما دام المسلمون قد تخلوا عن منهج الله فقد صاروا مجرد بشر في مواجهة بشر . ولذلك قلنا : إنه عندما تخلى الرماة عن إنفاذ أمر القائد الأعلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ظهرت عبقرية خالد بن الوليد على عبقرية المقاتلين المسلمين .

ويجب أن نلحظ في قوله الحق : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ أننا لا يمكن أن نقول : إن مداولة الأيام تكون بين المؤمنين والكافرين ، إنما هي بين الناس ؛ لأن الناس هم مجموعة الإنسان ، فإن تجردوا عن منهج السماء فهم سواسية ، وصاحب الحيلة يغلب ، أو صاحب القوة يغلب ، أو صاحب العدد أو العُدّة يغلب .

ولكن ما الذي يعوض كل تلك الإمكانات ويحقق النصر ؟ إنك إن تأخذ الله في جانبك فلن يجرؤ مخلوق أن يكون في مواجهة الحق في معركة . لقد قلنا قديماً وعلينا أن نعيها جيداً : إن الولد الصغير حينما يضطهده زملاؤه فيلجأ إلى حِضن أبيه ، عندئذ ينصرف كل منهم إلى حاله ، لكن أقرانه يستطيعون أن يهزموه عندما يبتعد عن أبيه . فما بالنا ونحن عيال الله ؟

وكذلك شأن الكفار مع المؤمنين.

إن الكفار قادرون على الانفراد بالمؤمنين حينما يتخلى المؤمنون عن منهج الله؛ لأن الله لن ينصر أناساً ليسوا على منهجه، فلو نصر الله أناساً على غير منهجه فإن ذلك يبطل قضية الإيمان. وعندما نستقرئ القرآن الكريم؛ نجد أن كل خبر عن الإنسان وهو معزول عن المنهج الإلهي هو خبر كله شر.

فسبحانه يقول:

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾

[العصر: 1-2]

(228/130)

إن الإنسان على اطلاقه لفي خسر، ولكن من الذي ينجو من الخسران؟ وتأتي الإجابة من الحق فيقول:

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾

[العصر: 3]

وتتأكد القضية في موضع آخر من القرآن الكريم فيقول – سبحانه –

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴾

[المعارج: 19-22]

إذن كل كلام – في القرآن – عن الإنسان على إطلاقه يأتي من ناحية الشر . وما الذي ينجيه من ذلك ؟ إنه المنهج الإلهي .

إذن فقول الحق : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ تحمل تأنيبا ولذعة خفيفة لمن أعلنوا الإيمان ولكنهم تخلفوا عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في أُحُد .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ .

ففي وقت النصر نجد حتى الذي لم يشترك في المعركة يريد أن يُدخل نفسه ضِمن المنتصرين .

لكن وقت الهزيمة فالحق يَظهر ، والذي يظل في جانب الهزيمة معترفا بأنه شارك في نزولها بالمسلمين وان لم يكن شارك فقد عذر أو لام من كان سببا فيها ، وهو مع ذلك يسهم في حمل أوزارها وآثارها الضارة ، ويتحمل ويشارك في المسئولية ، إنه بذلك يكون صادقا .

وقد يقول قائل : هل الله لا يعلم الذين آمنوا ؟ لا ، إنه سبحانه وتعالى يعلم الذين آمنوا سواء حدثت معركة أو لم تحدث . لكن علم الله الأزلي الغيبيّ لا نرى نحن به الحُجَّة ، ولذلك لا

تكون الحجَّة ظاهرة بيننا ، ولكن حين يبرز عِلم الله إلى الوجود أمامنا فإنه علم تقوم به الحُجة واضحة على من آمن ، وعلى من لم يحسن الإيمان ، وذلك حتى لا يدِّعي أحد لنفسه أنه كان سيفعل ، لكن الفرصة لم تواته .

(229/130)

وهكذا تأتي المواقف الاختبارية والابتلاءات ليعلم كل منا نفسه وتبرز الحُجة علينا جميعا . إذن : فهناك فرق بين علم الله الأزليّ للأشياء كما سوف تحدث ، ولكن لا تقوم به الحُجّة علينا . فقد يدعى البعض أنه لو قامت معركة شديدة فإنهم سوف يصمدون ، ولكن عندما تقوم المعركة بالفعل فنحن نرى مَنْ الصّامد ومَنْ هو غير ذلك من المتخاذلين الفارين ؟ ولنضرب لذلك مثلا ولله المثل الأعلى : نحن في حياتنا العادية نجد أن عميد إحدى الكليات يأتي إلى المدرس ويقول له : نحن نريد أن نعقد امتحانا لنتعرف على المتفوقين من الطلاب ، ونمنح كُلا منهم جائزة .

فيرد المدرس : لماذا الامتحان ؟ إنني أستطيع أن أقول لك : من هم المتفوقون ، وأن أرتبهم لك من الأول ومن الثاني وهكذا .

لكن عميد الكلية يصر على أن يعقد امتحانا حتى لا يكون لأحد حجة ، ويختار العميد

مدرساً آخر ليضع هذا الامتحان . وتظهر النتيجة ويكون توقع المدرس الأول هو الصائب ، وهكذا يكون تفوُق هؤلاء الطلاب تفوقا بحُجة . وإذا كان ذلك يحدث في المستوى البشري فما بالنا بعلم الله الأزلي المطلق ؟

إن الحق بعلمه الأزلي يعلم كل شيء ومُحيط بكل شيء ، وهو سبحانه لا يقول لنا : أنا كنت أعلم أنكم لو دخلتم معركة ستفعلون كذا وكذا . .

وكان يمكن أن يجادلوا ويدعوا لأنفسهم أشياء ليست فيهم ، لكن الحق يضع المعركة وتكون النتيجة مطابقة لما يعلمه الله أزلا . إذن فالتغيير هنا لا يكون في علم الله ، لكن التغيير يكون في المعلوم لله ، ليس في العالِم بل في المعلوم بحيث نراه حُجة علينا .

ويقول الحق : ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ وساعة تسمع كلمة "يتخذ" هذه ؛ اعرف أنها اصطفاء واختيار . وسبحانه يقول :

﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾

[النساء : 125]

أي أنه جل وعلى قد آثر إبراهيم واصطفاه ، إذن فالاتخاذ دائما هو أن يَأخذه إلى جانبه لمزية له ورفعة لمكانته .

وحين يقول الحق : ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ فنحن نعرف أن " شهداء " هي جمع شهيد ، وكلمة شهيد لها معانٍ متعددة ، فالشهيد في القتال هو الذي يُقتل في المعركة ، وهذا سيكون حيا ويرزق عند ربه .

وإياك أن تقول : إننا عندما نفتح قبر الشهيد سنجده عظاما وترابا . وهذا يعني أنه سلب الحياة. . لا ، إن الله وضح أن الشهيد حيّ عنده ، وليس حيا عند البشر . وإذا فتح أحد من الناس القبر على الشهيد فسيراه عظاما وترابا ؛ فقد جعل الله سبحانه للشهيد حياة عنده لا عندنا .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾

[آل عمران : 169]

إذن فللشهداء عند ربهم حياة لا نعرف كنهها ، ويوم نفتح عليهم قبورهم تصير أمرا مُحسا ، ولكن الله نبهنا أن الشهداء أحياء عند ربهم . وعندما نتأمل كلمة " شهداء " نجد أنها تعني أيضا الشهادة على الحق الذي قامت من أجله المعركة ، وكل إنسان يُحب الخير لنفسه ، فلو لم يعلم هؤلاء أن إقدامهم على ما يؤدي إلى قتلهم خير لهم من بقائهم على حياتهم لما فعلوا .

وبذلك يكون الواحد منهم شاهدا للدعوة وشهيدا عليها . وقد ينصرف المعنى في "

شهداء "إلى أنهم بَلَّغوا الدعوة حتى انتهت دماؤهم, ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ .

(231/130)

ومعنى هذا التذييل أن المعركة يجب أن تدور في إطار الحق ، ومثلما قلنا : ما دام الناس متخلفين عن المنهج فإن الله لا يظلمهم بل ستدور المعركة صراع بشر لبشر ، والقادر من الطرفين هو الذي يغلب . فالحق سبحانه بالرغم من كراهيته للكفر إلا انه لا يُحابي المسلم الذي لا يتمسك بمطلوب الإيمان ؛ لذلك قد يغلب الكافر المسلم الذي لا يمسك بمطلوب الإيمان ، ولكن إن تمسك المؤمنون بمطلوب الإيمان فالنصر مضمون لهم بأمر الله . وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1785.1778 ﴾

(232/130)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل :

قرأ الأخوان ، وأبو بكر : قُرْح - بضم القاف - وكذلك "القُرْحُ" معرَّفاً .

والباقون بالفتح فيهما .

فقيل : هما بمعنى واحد ، ثم اختلف القائلون بهذا .

فقال بعضهم : المراد بهما : الجُرْح نفسه ، وقال بعضهم - منهم الأخفش - المراد بهما المصدر ، يقال : قَرِحَ الجُرح ، يَقْرَحُ ، قَرْحاً ، وقُرْحاً .

قال امرؤ القيس : [الطويل]

وَبُدِّلْتُ قَرْحاً دَامِياً بَعْدَ صِحَّةٍ . . . لَعَلَّ مَنَايَانَا تَحَوَّلْنَ أَبْؤُسَا

والفتح لغة الحجاز ، والضم لغة تميم ، فهما كالضَّعْف والضُّعْف ، والكَرْه والكُرْه ، والوَجْد والوُجْد .

وقال بعضهم : المفتوح : الجُرْح ، والمضموم : أَلَمُه ، وهو قول الفراء .

وقرأ ابن السميفع بفتح القاف والراء ، كالطرْد والطرَد .

وقال أبو البقاءِ : "وهو مصدر قَرِحَ يَقْرَح ، إذا صار له قُرْحَة ، وهو بمعنى : دَمِيَ" .

وقُرِئَ قُرُح - بضمهما - .

قيل : وذلك على الإتباع كاليُسْر واليُسُر ، والطُّنْب والطُّنُب .

وقرأ الأعمش : " إن تمسسكم قروح " - بالتاء من فوق ، [وصيغة الجمع في الفاعل] ،

وأصل المادة : الدلالة على الخُلُوص ، ومنه الماء القَرَاح ، الذي لا كُدُورةَ فيه .

قال الشاعر : [الوافر]

فَسَاغَ لِيَ الشَّرَابُ ، وكُنْتُ قبْلاً . . . أكَادُ أغصُّ بالْمَاءِ الْقرَاحِ

وأرض قرحة - أي : خالصة الطين - ومنه قريحة الرجل - أي : خالص طَبْعه - .

وقال الراغب : " القَرْحُ الأثر من الجراحة من شيء يُصيبه من خارج ، والقُرْحُ - يعني : بالضم - أثرها من شيء داخل - كالبشرة ونحوها - يقال : قَرَحْتُه ، نحو جَرَحْتُه .

قال الشاعر : [البسيط]

لا يُسْلِمُونَ قَرِيحاً حَلَّ وَسْطَهُمُ . . . يَوْمَ اللِّقَاءِ ، ولا يُشْوُونَ مَنْ قَرَحُوا

أي : جرحوا . وقرح : خرج به قرح.

(233/130)

ويقال : قَرِحَ قلبُه ، وأقرحه الله - يعني : فَعَل وأَفْعَل فيه بمعنًى - والاقتراح : الابتداع والابتكار ومنه : اقترح عليَّ فلانٌ كذا ، واقترحْتُ بِئْراً : استخرجت منها ماءً قَرَاحاً .

والقريحة - في الأصل - المكان الذي يجمع فيه الماء المستنبط - ومنه استُعِيرت قريحة

الإنسان - وفرس قارح، إذا أصابه أثَرٌ من ظُهور نَابِهِ، والأُنْثَى قارحة، وروضة قرحاء، إذا كان في وسطها نَوْر؛ وذلك لتشبيهها بالفرس القرحاء ".

قوله: ﴿ فَقَدْ مَسَّ القوم قَرْحٌ ﴾ للنحويين - في مثل هذا - تأويل، وهو أن يُقدِّرُوا شيئاً مستقبلاً؛ لأنه لا يكون التعليق إلا في المستقبل - وقوله: ﴿ فَقَدْ مَسَّ القوم قَرْحٌ مِثْلُهُ ﴾ ماضٍ مُحقَّق - وذلك التأويل هو التبيين، أي: فقد تَبَيَّن مَسُّ القرح للقوم وسيأتي له نظائر، نحو: ﴿ إن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ ﴾ [يوسف: 26] و﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ ﴾ [يوسف: 27].

وقال بعضهم: جواب الشرط محذوف، تقديره: فتأسَّوا، ونحو ذلك.

وقال أبو حيان: " ومَنْ زعم أن جواب الشرط هو " فَقَدْ مَسَّ "، فهو ذاهل ".

قال شهابُ الدين: " غالب النحويين جعلوه جواباً، متأولين له بما ذكرت ".

(234/130)

قوله: ﴿ وَتِلْكَ الأيام نُدَاوِلُهَا بَيْنَ الناس ﴾ يجوز في " الأَيَّامُ " أن تكون خبراً لـ " تِلْكَ " و" نُدَاوِلُهَا " جملة حالية، العامل فيها معنى اسم الإشارة، أي: إشيرُ إليها حال كونها مداولةً، ويجوز أن تكون " الأَيَّامُ " بدلاً، أو عَطْفَ بيان، أو نَعْتاً لاسم الإشارة، والخبر هو الجملة

من قوله : ﴿ نُدَاوِلُهَا ﴾ وقد مر نحوه في قوله : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا ﴾ [آل عمران : 108] إلا أن هناك لا يجيء القول بالنعت ؛ لما عرفت أنَّ اسم الإشارة لا ينعت إلا بذي أل و " بَيْنَ " متعلق بـ " نُدَاوِلُهَا " ، وجوَّزَ أبو البقاءِ أن يكون حالاً من مفعول " نُدَاوِلُهَا " وليْسَ بشَيءٍ .

والمداوَلة : المناوبة على الشيء ، والمُعَاودة ، وتعهّده مرةً بعد أخْرَى ، يقال : دَاوَلْتُ بينهم الشيء فتداولوه ، كأن " فَاعَلَ " بمعنى : " فَعَلَ " .

قال الشاعر : [الكامل]

تَرِدُ الْمِيَاهَ ، فَلاَ تَزَالُ تُدَاوُلاً . . . في النَّاسِ بَيْنَ تَمَثُّلٍ وَسَمَاعِ

وأدال فلانٌ فلاناً : جعل له دولة .

وقال القفَّال : المداولة : نَقْلُ الشيء من واحد إلى آخر ، يقال : تداولته الأيدي - إذا تناولته ومنه قوله تعالى : ﴿ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأغنياءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر : 7] أي : تداولونها ، ولا تجعلون للفقراء منها نصيباً ، ويقال : الدُّنيا دول ، أي : تنتقل من قوم إلى آخرين .

ويقال دال له الدهرُ بكذا - إذا انتقل إليه .

ويقال : دُولة ، ودَوْلة - بفتح الفاء وضمها - وقد قُرِئَ بهما في سورة الحشر كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

واختلفوا ، هل اللفظتان بمعنًى ، أو بينهما فَرْقٌ .

فقال الراغب : " إنهما سِيَّانِ ، فيكون في المصدر لغتان " .

وفرَّق بعضُهم بينهما ، واختلف هؤلاء في الفرق .

(235/130)

فقال بعضُهم : الدَّوْلَة - بالفتح - في الحرب والجاه ، وبالضم : في المال ، وهذا تردُّه القراءتان في سورة الحشر .

وقيل : بالضم اسم الشيء المتداوَل ، وبالفتح نفس المصدر ، وهذا قريب .

وقيل : بالضم هي المصدر ، وبالفتح الفَعْلة الواحدة ، فلذلك يقال : في دَوْلة فلان ؛ لأنها مرة في الدهر .

والدَّوْر والدَّوْل متقاربان في المعنى ، ولكن بينهما عموم وخصوص ؛ فإن الدولة لا تقال إلا في الحظ الدنيويّ .

والدَّؤلُولُ : الداهية ، والجمع الدآليل والدُّؤْلات .

وقرئ شاذّاً : "يُدَاوِلَهَا " - بياء الغيبة - وهو موافق لما قبله ، ولما بعده .

وقرأ العامةُ على الالتفات المفيد للتعظيم .

قوله : " وليعلم الله " ذكر أبو بكر بن الأنباري في تعلُّق هذه اللام وجهين :

أحدهما : أن اللام صلة لفعل مُضْمَر ، يدل عليه أول الكلم ، تقديره : وليعلم الله الذين آمنوا نُدَاوِلها .

الثاني : أن العامل فيها (نُدَاوِلُهَا) المذكور ، بتقدير : نداولها بين الناس ليظهر أمرهم ، ولنبين أعمالهم ، وليعلم الله الذين آمنوا ، فلما ظهر معنى اللام المضمر في " ليظهر " ، و" لتتبين " جرت مجرى الظاهرة ، فجاز العطف عليها .

وَجَوَّزَ أبو البقاء أن تكون الواو زائدة ، وعلى هذا ، فاللام متعلقة بـ (نُدَاوِلُهَا) من غير تقدير شيء ، ولكن هذا لا حاجة إليه .

ولم يَجْنَحْ إلى زيادة الواو إلا الأخفش في مواضع – ليس هذا منها – ووافقه بعض الكوفيين على ذلك .

وقدَّرَه الزَّمَخْشَرِيُّ : " فعلنا ذلك ليكون كيت وكيت ، وليعلم " . فقدر عاملاً ، وعلق به علة محذوفة ، عطف عليها هذه العلة .

قال أبو حيان : " ولم يُعَيِّن فاعل العلة المحذوفة ، إنما كَنَّى عنه بـ "كيت وكيت" ، ولا يُكَنَّى عن الشيء حتى يُعْرَف ، ففي هذا الوجه حذف العلة ، وحذف عاملها ، وإبهام فاعلها ، فالوجه الأول أظهر ؛ إذْ ليس فيه غير حذف العامل " . ويعني بالوجه الأول أنه قَدَّره : وليعلم الله فعلنا ذلك – وهو المداولة ، أو نَيْل الكفار منكم – .

وقال بعضهم : " اللام المتعلقة بفعل مُضْمَر ، إما بعده ، أو قبلَه ، أما الإضمار بعده فبتقدير : وليعلمَ الله الذين آمنوا فعلنا هذه المداولةَ ، وأما الإضمار قبلَه فعلى تقدير : وتلك الأيام نداولها بين الناس لأمور : منها : ليعلم الله الذين آمنوا ، ومنها : ليتخذ منكم شهداء ، ومنها : ليمحص الله الذي آمنوا ، ومنها : ليمحق الكافرين . فكل ذلك كالسبب والعِلَّةِ في تلك المداولة " . والعلم هنا – يجوز أن يتعدَّى لواحد ، قالوا : لأنه بمعنى : عَرَفَ – وهو مشكل ؛ لأنه لا يجوز وَصْف الله تعالى بذلك لما تقدم أن المعرفة تستدعي جَهْلاً بالشيء – أو أنَّها متعلقة بالذات دون الأحوال .

ويجوز أن يكون متعدياً لاثنين ، فالثاني محذوف ، تقديره : وليعلم الله الذين آمنوا مميزين بالإيمان من غيرهم .

والواو في قوله : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللهُ ﴾ لها نظائر كثيرة في القرآن ، كقوله : ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الموقنين ﴾ [الأنعام : 75] وقوله : ﴿ ولتصغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : 113] .

قوله : ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ الظاهر أن " مِنْكُمْ " متعلِّق بالاتخاذ ، وجوزوا فيه أن يتعلق بمحذوف ، على أنه حال من " شُهَدَاءَ " ؛ لأنه – في الأصل – صفة له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 553.559 ﴾ . بتصرف .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140) ﴾

إن نالكم فينا مشقة فالذين تقدموكم لقوا مثل ما لقيتم ، ومُنوا بمثل ما به مُنيتم ، فمن صبر منهم ظفر ، ومَنْ ضجر مِنْ حَمْلِ ما لقي خَسِر ، والأيام نُوَبٌ والحالات دُوَلٌ ، ولا يخفى على الحق شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 280 ﴾

(237/130)

فصل فى عدد شهداء أحد

قال الإمام الذهبى رحمه الله :

عدد الشهداء

قد مر أن البخاري أخرج من حديث البراء أن المشركين أصابوا منا سبعين

وقال حماد بن سملة عن ثابت عن أنس قال : يا رب السبعين من الأنصار سبعين يوم أحد وسبعين يوم بئر معونة وسبعين يوم مؤتة وسبعين يوم اليمامة

وقال عبد الرحمن بن حرملة عن سعيد بن المسيب قال : قتل من الأنصار في ثلاثة مواطن سبعون سبعون : يوم أحد ويوم اليمامة ويوم جسر أبي عبيد

وقال ابن جريج : أخبرني عمر بن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى : " قد أصبتم مثليها " قال : قتل المسلمون من المشركين يوم بدر سبعين وأسروا سبعين وقتل المشركون يوم أحد من المسلمين سبعين

وأما ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة فقال : جميع من قتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد من قريش والأنصار : أربعة وأربعون أو قال : سبعة وأربعون رجلا وجميع من قتل يوم أحد يعني من المشركين تسعة عشر رجلا

وقال موسى بن عقبة : جميع من استشهد من المسلمين من قريش والأنصار تسعة أو سبعة وأربعون رجلا

وقال ابن إسحاق : جميع من استشهد من المسلمين من المهاجرين والأنصار يوم أحد خمسة وستون رجلا . وجميع قتلى المشركين اثنان وعشرون

قلت : قول من قال سبعين أصح . ويحمل قول أصحاب المغازي هذا عدد من عرف اسمه من الشهداء فإنهم عدوا أسماء الشهداء وأنسابهم

قال ابن إسحاق : استشهد من المهاجرين : حمزة وعبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي حليف بني عبد شمس وهو ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد دفن مع حمزة في قبر واحد

ومصعب بن عمير وعثمان بن عثمان ولقبه شماس وهو عثمان ابن عثمان بن الشريد بن سويد بن هرمي بن عامر بن مخزوم القرشي المخزومي ابن أخت عتبة بن ربيعة هاجر إلى الحبشة وشهد بدرا . ولقب شماسا لملاحته

(238/130)

ومن الأنصار : عمرو بن معاذ بن النعمان الأوسي أخو سعد وابن أخيه الحارث بن أوس بن معاذ والحارث بن أنس بن رافع وعمارة بن زياد بن السكن وسلمة وعمرو ابنا ثابت بن وقش

وعمهما : رفاعة بن وقش وصيفي بن قيظي وأخوه : حباب وعباد بن سهل وعبيد بن التيهان وحبيب بن زيد وإياس بن أوس الأشهيلون . واليمان أبو حذيفة حليف لهم .

ويزيد بن حاطب بن أمية الظفري وأبو سفيان بن الحراث بن قيس وغسيل الملائكة حنظلة بن أبي عامر الراهب ومالك بن أمية ؛ وعوف بن عمرو وأبو حية بن عمرو ابن ثابت وعبد

الله بن جبير بن النعمان أمير الرماة وأنس بن قتادة وخيثمة والد سعد بن خيثمة وحليفه :

عبد الله بن سلمة العجلاني وسبيع بن حاطب بن الحارث وحليفه : مالك بن أوس وعمير بن عدي الخطمي

وكلهم من الأوس

واستشهد من الخزرج : عمرو بن قيس النجاري وابنه : قيس وثابت بن عمرو بن زيد وعامر بن مخلد وأبو هبيرة بن الحارث بن علقمة وعمرو بن مطرف وإياس بن عيد وأوس أخو حسان بن ثابت . وهو والد شداد بن أوس وأنس بن النضر بن ضمضم وقيس بن مخلد

وعشرتهم من بني النجار

وعبد لهم اسمه : كيسان وسلمة بن الحارث ونعمان بن عبد عمرو وهما من بني دينار بن النجار

ومن بني الحارث بن الخزرج : خارجة بن زيد بن أبي زهير وسعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير وأوس بن أرقم بن زيد أخو زيد بن أرقم

ومن بني خدرة : مالك بن سنان وسعيد بن سويد وعتبة بن ربيع

ومن بني ساعدة : ثعلبة بن سعد بن مالك . وثقف بن فروة وعبد الله بن عمرو بن وهب . وضمرة حليف لهم من جهينة

ومن بني عوف بن الخزرج ثم من بني سالم : عمرو بن إياس ونوفل بن عبد الله وعبادة بن الخشخاش والعباس بن عبادة بن نضلة . والنعمان بن مالك . والمجذر ابن ذياد البلوي حليف لهم

ومن بني الحبلي : رفاعة بن عمرو

(239/130)

ومن بني سواد بن مالك : مالك بن إياس

ومن بني سلمة : عبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح بن زيد بن حرام . وكانا متآخيين وصهرين فدفنا في قبر واحد

وخلاد بن عمرو بن الجموح

ومولاه أسير أبو أيمن مولى عمرو

ومن بني سواد بن غنم : سليم بن عمرو بن حديدة

ومولاه عنترة وسهيل بن قيس

ومن بني زريق : ذكوان بن عبد قيس وعبيد بن المعلى بن لوذان

قال ابن إسحاق : وزعم عاصم بن عمر بن قتادة أن ثابت بن وقش قتل يومئذ مع ابنيه

وذكر الواقدي جماعة قتلوا سوى من ذكرنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تاريخ الإسلام حـ 2 صـ 204.199 ﴾

(240/130)

قوله تعالى : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (141) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما قدم التنفير من الظلم دلالة على الاهتمام به أكمل ثمرات المداولة بقوله :

﴿ وليمحص ﴾ أي وليطهر ﴿ الله ﴾ أي ذو الجلال والإكرام ﴿ الذين أمنوا ﴾ أي إن أصيبوا ، ويجعل مصيبتهم سبباً لقوتهم ﴿ ويمحق الكافرين ﴾ أي شيئاً فشيئاً في تلك الحالتين بما يلحقهم من الرجس ، أما إذا كانت لهم فبالنقص بالقوة بالبطر الموجب للعكس ، وأما إذا كانت عليهم فبالنقص بالفعل الموجب للقطع بالنار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 161.160 ﴾

قال الفخر :

﴿ وَلِيُمَحّصَ الله الذين ءَامَنُواْ ﴾ أي ليطهرهم من ذنوبهم ويزيلها عنهم ، والمحص : في اللغة

التنقية ، والمحق في اللغة النقصان ، وقال المفضل : هو أن يذهب الشيء كله حتى لا يرى منه شيء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَمْحَقُ الله الربا ﴾ [البقرة : 276] أي يستأصله .

(241/130)

قال الزجاج : معنى الآية أن الله تعالى جعل الأيام مداولة بين المسلمين والكافرين ، فإن حصلت الغلبة للكافرين على المؤمنين كان المراد تمحيص ذنوب المؤمنين ، وإن كانت الغلبة للمؤمنين على هؤلاء الكافرين كان المراد محق آثار الكافرين ومحوهم ، فقابل تمحيص المؤمنين بمحق الكافرين ، لأن تمحيص هؤلاء بإهلاك ذنوبهم نظير محق أولئك بإهلاك أنفسهم ، وهذه مقابلة لطيفة في المعنى .

والأقرب أن المراد بالكافرين ههنا طائفة مخصوصة منهم وهم الذين حاربوا الرسول صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وإنما قلنا ذلك لعلمنا بأنه تعالى لم يمحق كل الكفار ، بل كثير منهم بقي على كفره ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 16 ﴾

وقال العلامة أبو حيان :

﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ﴾ أي يطهرهم من الذنوب ، ويخلصهم من العيوب ، ويصفيهم .

قال ابن عباس والحسن ومجاهد والسدي ومقاتل وابن قتيبة في آخرين : التمحيص الابتلاء والاختبار .

قال الشاعر :

رأيت فضيلاً كان شيئاً ملففا . . .

فكشفه التمحيص حتى بداليا

وقال الزجاج : التنقية والتخليص ، وذكره عن : المبرد ، وعن الخليل .

وقيل : التطهير .

وقال الفراء : هو على حذف مضاف ، أي وليمحص الله ذنوب الذين آمنوا .

﴿ ويمحق الكافرين ﴾ أي يهلكهم شيئاً فشيئاً .

والمعنى : أن الدولة إن كانت للكافرين على المؤمنين كانت سبباً لتمييز المؤمن من غيره ، وسبباً لاستشهاد من قتل منهم ، وسبباً لتطهير المؤمن من الذنب .

فقد جمعت فوائد كثيرة للمؤمنين ، وإن كان النصر للمؤمنين على الكافرين كان سبباً لمحقهم بالكلية واستئصالهم قاله : ابن عباس .

وقال ابن عباس أيضاً : ينقصهم ويقللهم ، وقاله : الفراء .

وقال مقاتل : يذهب دعوتهم .

وقيل : يحبط أعمالهم ، ذكره الزجاج ، فيكون على حذف مضاف .

والظاهر أن المراد بالكافرين هنا طائفة مخصوصة ، وهم الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لأنه تعالى لم يمحق كل كافر ، بل كثير منهم باق على كفره .

فلفظة الكافرين عام أريد به الخصوص .

قيل : وقابل تمحيص المؤمن بمحق الكافر ، لأن التمحيص إهلاك الذنوب ، والمحق إهلاك النفوس ، وهي مقابلة لطيفة في المعنى انتهى .

وفي ذكر ما يلحق المؤمن عند إدالة الكفار تسلية لهم وتبشير بهذه الفوائد الجليلة ، وأن تلك الإدالة لم تكن لهوانٍ بهم ، ولا تحط من أقدارهم ، بل لما ذكر تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 69 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَلِيُمَحّصَ اللهُ الذين آمَنُواْ ﴾ التمحيص : التخليص من الشيء .

وقيل : المَحْص كالفَحْص ، لكن الفَحْص يقال في إبراز الشيء من أثناء ما يختلط به وهو

منفصل ، والمَحْص : يقال في إبرازه عما هو متصل به ، يقال : مَحَصْتُ الذهب ، ومحّصته – إذا أزلْت عنه ما يشوبه من خَبَث ، ومَحَص الثوب : إذا زال عنه زئبره ومَحَصَ الحَبْل – إذا أخلق حتى ذهب عنه زئبره ، ومحص الظَّبْيُ : عدا . ف " محص " – بالتخفيف – يكون قاصرا ومتعدياً ، هكذا روى الزجاج هذه اللفظةَ – الحبل – ورواها النقاش : مَحَص الجمل – إذا ذهب وَبَرُه وامَّلَسَ – والمعنيان واضحان .

وقال الخليل : التمحيص : التخليصُ من الشيء المعيب .

وقيل : هو الابتلاء والاختبار .

قال الشاعر : [الطويل]

رَأَيْتُ فُضَيْلاً كَانَ شَيْئاً مُلَفَّفاً . . . فَكَشَّفَهُ التَّمْحِيصُ حَتَّى بَدَا لِيَا

وروى الواحِديُّ عن المبرد بسند متصل : مَحَصَ الحبلُ يمحص مَحْصاً – إذا ذهب زئبره حتى يتملص ، وحبل محيص ومليص بمعنًى واحدٍ ، قال : ويستحب في الفرس أن تُمَحَّصَ قوائمُه أي : تُخَلَّص من الرَّهَل .

[وأنشد ابن الأنباريّ على ذلك] – يصف فرساً – : [البسيط]

صُمُّ النُّسُورِ ، صِحَاحٌ ، غَيْرُ عَاثِرَةٍ . . . رُكِّبْنَ فِي مَحِصَاتٍ مُلْتَقَى العَصَبِ

أي : في قوائم متجرّدات من اللحم ، ليس فيها إلا العظم والجلد .

قال المبرد : ومعنى قول الناس مَحّصْ عنا ذُنوبَنَا : أذهِب عنا ما تعلَّق من الذنوب .

قال الواحديُّ : " وهذا – الذي قاله المبردُ – تأويل المَحص – بفتح الحاء – وهو واقع ، والمَحْص – بسكون الحاء – " مصنوع " – وقال الخليل : يقال : مَحَصْتُ الشيء أمحصه مَحْصاً – إذا أخلصته من كل عيب " .

وفي جعله مَحْصاً – بتسكين الحاء – مصنوعاً نظر ؛ لأن أهل اللغة نقلوه ساكنها ، وهو قياس مصدر الثلاثي . ومَحَصْتُ السيف والسنان : جَلَوتُهما حتى ذهب صدأهما .

قال أسامة الهذليّ : [الطويل]

وَشَقُّوا بِمَمْحُوصِ السِّفَانِ فُؤادَهُ . . . لَهُمْ قُتُرَاتٌ قَدْ بُنِيْنَ مَحَاتِد

أي : بمجلوٍّ ، ومنه استُعِير ذلك في وَصْف الحبل بالملاسة والبريق .

قال العجاج : [الرجز]

شَدِيدُ جَلْزِ الصُّلْبِ مَمْحُوصُ الشَّوَى . . . كَالْكَرِّ ، لا شَخْتٌ وَلا فِيهِ لَوَى

والشوى : الظهر ، قَصَره ضرورةً ، سُمِع : فعلتُه حتى انقطع شوَاي ، أي : ظَهْري . والمحق – في اللغة – النقصان .

وقال المفضَّل : هو أن يذهب الشيء كُلُّه ، حتَّى لا يُرَى منه شيء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَمْحَقُ اللهُ الربا ﴾ [البقرة : 276] أي : يستأصله ، وقد تقدم الكلام عليه في البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 560 . 561 ﴾ .

(244/130)

من فوائد العلامة أبى السعود فى الآية

قال رحمه الله :

وقوله تعالى : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الذين ءامَنُواْ ﴾ أي لِيُصَفِّيَهم ويُطهرَهم من الذنوب ، عطفٌ على يتخذ ، وتكريرُ اللامِ لتذكيرِ التعليلِ لوقوعِ الفصلِ بينهما بالاعتراض ، وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في موقعِ الإضمارِ لإبرازِ مزيدِ الاعتناءِ بشأنِ التمحيصِ ، وهذه الأمورُ الثلاثة عللٌ للمداولة المعهودةِ باعتبارِ كونِها على المؤمنين قُدِّمت في الذكر لأنها المحتاجةُ إلى البيان . ولعل تأخيرَ العلةِ الأخيرةِ عن الاعتراض لئلا يُتوَهَّمَ اندراجُ المذنبين في الظالمين ، أو ليقترنَ بقوله عز وجل : ﴿ وَيَمْحَقَ الكافرين ﴾ فإن التمحيصَ فيه محوُ الآثارِ وإزالةُ الأوضارِ كما أن المَحْقَ عبارةٌ عن النقض والإذهابِ . قال المفضّلُ : هو أن يذهبَ الشيءُ بالكلية حتى لا يرى منه شيءٌ ومنه قولُه تعالى : ﴿ يَمْحَقُ اللهُ الربا ﴾ أي يستأصله وهذه

علة للمداولة باعتبار كونها على الكافرين والمرادُ بهم الذين حاربوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يومَ أحُدٍ وأصرّوا على الكفر وقد محقَهم الله عز وجل جميعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 2 صـ 90 . 91 ﴾

فوائد بلاغية

قال أبو حيان :

وقد تضمنت هذه الآيات فنوناً من الفصاحة والبديع والبيان : من ذلك الاعتراض في : والله يحب المحسنين ، وفي : ومن يغفر الذنوب إلا الله ، وفي : والله لا يحب الظالمين .

وتسمية الشيء باسم سببه في : إلى مغفرة من ربكم .

والتشبيه في : عرضها السموات والأرض .

وقيل : هذه استعارة وإضافة الحكم إلى الأكثر في أعدّت للمتقين ، وهي معدة لهم ولغيرهم من العصاة .

والطباق في : السرّاء والضرّاء ، وفي : ولا تهنوا والأعلون ، لأن الوهن والعلو ضدان .

وفي آمنوا والظالمين ، لأن الظالمين هنا هم الكافرون ، وفي : آمنوا ويمحق الكافرين .

والعام يراد به الخاص في : والعافين عن الناس يعني من ظلمهم أو المماليك .

والتكرار في : واتقوا الله ، واتقوا النار ، وفي لفظ الجلالة ، وفي والله يحب ، وذكروا الله ، وفي وليعلم الله ، والله لا يحب ، وليمحص الله ، وفي الذين ينفقون ، والذين إذا فعلوا .

والاختصاص في : يحب المحسنين ، وفي : وهم يعلمون ، وفي : عاقبة المكذبين ، وفي : موعظة للمتقين ، وفي : إن كنتم مؤمنين ، وفي : لا يحب الظالمين ، وفي : وليمحص الله الذين آمنوا ، وفي : ويمحق الكافرين .

والاستعارة في : فسيروا ، على أنه من سير الفكر لا القدم ، وفي : وأنتم الأعلون ، إذا لم تكن من علو المكان ، وفي : تلك الأيام نداولها ، وفي : وليمحص ويمحق ، والإشارة في هذا بيان .

وفي : وتلك الأيام .

وإدخال حرف الشرط في الأمر المحقق في : إن كنتم مؤمنين ، إذا علق عليه النهي والحذف في عدة مواضع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 69.70 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (141) ﴾

اختبارات الغيب سبك للعبد فباختلاف الأطوار يخلصه من المشائب فيصير كالذهب الخالص لا خَبَثَ فيه ، كذلك يصفو عن العلل فيتخلص لله .

﴿ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ في أودية التفرقة . ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ [الرعد : 17] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 281 ﴾

(246/130)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (130)
وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (131) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (132)
وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133)
الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ (134) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135) أُولَئِكَ
جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ
(136) قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ
(137) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (138) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ

الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ
نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ
(140) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (141) ﴾

(247/130)

التفسير : قال القفال : يحتمل أن يكون هذا الكلام متصلاً بما قبله من جهة أن أكثر أموال المشركين كانت قد اجتمعت من الربا ، وكانوا ينفقون تلك الأموال على العساكر ، وكان من الممكن أن يصير ذلك داعياً للمسلمين إلى الإقدام على الربا كي يجمعوا الأموال وينفقوها على العساكر ويتمكنوا من الانتقام منهم ، فورد النهي عن ذلك نظراً لهم ورحمة عليهم . وقيل : إن هذه الآيات ابتداء أمر ونهي وترغيب وترهيب تتميماً لما سلف من الإرشاد إلى الأصلح في أمر الدين وفي باب الجهاد . وليس المراد النهي عن الربا في حال كونه أضعافاً لما علم أنه منهي عنه مطلقاً ، وإنما هو نهي عنه مع توبيخ بما كانوا عليه في الغالب والمعتاد من تضعيفه . كان الرجل منهم إذا بلغ الدين محله زاد في الأجل ، وهكذا مرة بعد أخرى حتى استغرق بالشيء الطفيف مال المديون ﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ فيه أن اتقاء الله في هذا النهي واجب ، وأن الفلاح يقف عليه . فلو أكل ولم يتق زال الفلاح . ويعلم منه أن الربا

من الكبائر لا من الصغائر ويؤكد قوله : ﴿ واتقوا النار التي أعدت للكافرين ﴾ كان أبو حنيفة يقول : هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه . وكون النار معدّة للكافرين لا يمنع دخول الفساق وهم مسلمون فيها لأن أكثر أهل النار الكفار فغلب جانبهم كما لو قلت : أعددت هذه الدابة للقاء المشركين .

لم يمتنع من أن تركبها لبعض حوائجك . ومثله قوله في صفة الجنة : ﴿ أعدت للمتقين ﴾ فإنه لا يدل على أنه لا يدخلها سواهم من الصبيان والمجانين وغيرهم كالملائكة والحور .

(248/130)

﴿ وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴾ فيه أن رجاء الرحمة موقوف على طاعة الله وطاعة الرسول فلهذا يتمسك به أصحاب الوعيد في أن من عصى الله ورسوله في شيء من الأشياء فهو ليس أهلاً للرحمة . وغيرهم يحمل الآية على الزجر والتخويف ﴿ وسارعوا ﴾ معطوف على ما قبله . ومن قرأ بغير الواو فلأنه جعل قوله : ﴿ سارعوا ﴾ وقوله : ﴿ أطيعوا الله ﴾ كالشيء الواحد لأنهما متلازمان . وتمسك كثير من الأصوليين به في أن ظاهر الأمر يوجب الفور قالوا : في الكلام محذوف والتقدير : سارعوا إلى ما

يوجب مغفرة من ربكم . ونكر المغفرة ليفيد المغفرة العظيمة المتناهية في العظم وليس ذلك إلا المغفرة الحاصلة بسبب الإسلام والإتيان بجميع الطاعات والاجتناب عن كل المنهيات وهذا قول عكرمة . وعن علي بن أبي طالب : هو أداء الفرائض . وعن عثمان بن عفان أنه الإخلاص لأنه المقصود من جميع العبادات . وعن أبي العالية أنه الهجرة . وقال الضحاك ومحمد بن إسحق : إنه لاجهاد لأنه من تمام قصة أحد . وقال الأصم : بادروا إلى التوبة من الربا لأنه ورد عقيب النهي عن الربا . ثم عطف عليه المسارعة إلى الجنة لأن الغفران ظاهره إزالة العقاب . والجنة معناها حصول الثواب ، ولا بد للمكلف من تحصيل الأمرين . ثم وصف الجنة بأن عرضها السموات ، ومن البيّن أن نفس السموات لا تكون عرضاً للجنة ، فالمراد كعرض السموات لقوله في موضع آخر ﴿ عرضها كعرض السماء ﴾ [الحديد : 21] والمراد المبالغة في وصف سعة الجنة فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه وأبسطه ونظيره ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ﴾ [هود : 107] لأنها أطول الاشياء بقاء عندنا . وقيل : المراد أنه لو جعلت السموات والأرضون طبقاً طبقاً بحيث يكون كل واحد من تلك الطبقات سطحا مؤلفاً من أجزاء لا تتجزأ ، ثم وصل البعض بالبعض طبقاً واحداً لكان ذلك مثل عرض الجنة ، وهذه غاية من السعة لا يعلمها إلا الله تعالى . وقيل : إن الجنة

التي عرضها عرض السموات والأرض إنما تكون للرجل الواحد لأن الإنسان إنما يرغب فيما يصير ملكاً له ، فلا بد أن تكون الجنة المملوكة لكل أحد مقدارها هكذا . وقال أبو مسلم : معنى العرض القيمة ، ومنه عارضت الثوب بكذا . معناه لو عرضت السموات والأرض على سبيل البيع لكانتا ثمناً للجنة . والأكثرون على أن المراد بالعرض ههنا خلاف الطول . وخص بالذكر لأنه في العادة أدنى من الطول ، وإذا كان العرض هكذا فما ظنك بالطول . ونظيره ﴿ بطائنها من استبرق ﴾ [الرحمن : 54] لأن البطائن في العادة تكون أدون حالاً من الظهائر وإذا كانت البطانة كذلك فكيف الظهارة ؟ وقال القفال : العرض عبارة عن السعة . تقول العرب : بلاد عريضة أي واسعة .

والأصل فيه أن ما اتسع عرضه لم يضق ولم يدق ، وما ضاق عرضه دق . فجعل العرض كناية عن السعة . وسئل ههنا إنكم تقولون الجنة في السماء فكيف يكون عرضها كعرض السماء ؟ وأجيب بعد تسليم كونها الآن مخلوقة أنها فوق السموات وتحت العرش . قال صلى الله عليه وسلم في صفة الفردوس " سقفها عرش الرحمن " وروي أن رسول هرقل

سأل النبي صلى الله عليه وسلم وقال : إنك تدعو الجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين فأين النار ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم " سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار " والمعنى – والله ورسوله أعلم – أنه إذا دار الفلك حصل النهار في جانب من العالم والليل في ضد ذلك الجانب ، فكذا الجنة في جهة العلو والنار في جهة السفل . وسئل أنس بن مالك عن الجنة أفي الأرض أم في السماء ؟ فقال : وأي أرض وسماء تسع الجنة ؟ قيل : فأين هي ؟ قال : فوق السموات السبع تحت العرش . ثم ذكر صفات المتقين حتى يتمكن الإنسان من الجنة بواسطة اكتساب تلك الصفات . منها قوله : ﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء ﴾ في حال الغنى والفقر لا يخلون بأن ينفقوا ما قدروا عليه . عن بعض السلف أنه ربما تصدق ببصلة . وعن عائشة أنها تصدقت بحبة عنب فكان الفقير أنكر عليها فقالت : احسب كم هي من مثقال ذرة . وقيل : في عرس أو حبس . والمراد في جميع الأحوال لأنها لا تخلو من حال مسرة ومضرة ، فهم لا يدعون الإحسان إلى الناس في حالتي فرح وحزن . وقيل : إن ذلك الإحسان والإنفاق سواء سرهم بأن كان على وفق طبعهم ، أو ساءهم بأن كان مخالفاً له ، فإنهم لا يتركونه . وفي افتتاحه بذكر الإنفاق دليل على عظم وقعه عند الله لأنه طاعة شاقة أو لأنه كان أهم في ذلك الوقت لأجل الحاجة إليه في الجهاد ومواساة فقراء المسلمين . ومنها قوله ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ كظم القربة إذا ملأها

وشد فاها . ويقال : كظم غيظه إذا سكت عليه ولم يظهره لا بقول ولا بفعل كأنه كتمه على امتلائه ، ورد غيظه في

(251/130)

جوفه ، وكف غضبه عن الإمضاء ، وهو من أقسام الصبر والحلم . قال صلى الله عليه وسلم : من كظم غيظاً وهو يقدر على انقاذ ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً وقال أيضاً : " ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب " ومنها قوله : ﴿ والعافين عن الناس ﴾ قيل : يحتمل أن يراد العفو عن المعسرين لأنه ورد عقيب قصة الربا كما قال في البقرة : ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم ﴾ [البقرة : 280] ويحتمل أنه صلى الله عليه وسلم غضب على المشركين حين مثلوا بحمزة فقال : لأمثلن بهم . فندب إلى كظم هذا الغيظ والصبر عليه والعفو عنهم .

(252/130)

والظاهر أنه عام لجميع المكلفين في الأحوال إذا جنى عليهم أحد لم يؤاخذوه . قال صلى الله عليه وسلم : "لا يكون العبد ذا فضل حتى يصل من قطعه ويعفو عمن ظلمه ويعطي من حرمه" وعن عيسى ابن مريم عليه السلام : ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك ذاك مكافأة ، إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ يجوز أن يكون اللام للجنس فيتناول كل محسن ويدخل فيه هؤلاء المذكورون ، وأن يكون للعهد فيكون إشارة إلى هؤلاء . وذلك أن من أنواع الإحسان إيصال النفع إلى الغير وهو المعنى بالإنفاق في السراء والضراء في وجوه الخيرات . ويدخل فيه الإنفاق بالعلم وبالنفس ، والجود بالنفس أقصى غاية الجود . ومنها دفع الضرر عن الغير إما في الدنيا بأن لا يشتغل بمقابلة الإساءة بإساءة أخرى وهو المعبر عنه بكظم الغيظ ، وإما في الآخرة بأن يبرىء ذمته عن التبعات والمطالبات الأخروية وهو المقصود بالعفو . فإذن الآية دالة على جميع جهات الإحسان إلى الغير . فذكر ثواب المجموع بقوله : ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ فإن محبة الله للعبد أعظم درجات الثواب . قال ابن عباس في رواية عطاء : إن منهالاً التمار أتته امرأة حسناء تبتاع منه تمراً فضمها إلى نفسه وقبلها ثم ندم على ذلك ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وذكر ذلك له فنزلت ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة ﴾ الآية . وقال في رواية الكلبي : إن رجلين أنصارياً وثقفياً آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما ، فكانا لا يفترقان في احوالهما . فخرج الثقفي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرعة في السفر وخلف

الأنصاري في أهله وحاجته . فأقبل ذات يوم فأبصر امراة صاحبه قد اغتسلت وهي ناشرة شعرها ، فوقعت في نفسه فدخل ولم يستأذن حتى انتهى إليها . ذهب ليلثمها فوضعت كفها على وجهها فقبل ظاهر كفها ثم ندم واستحى فأدبر راجعاً فقال : سبحان الله خنت أمانتك وعصيت ربك ولم تصب حاجتك . قال : وندم على صنيعه فخرج

(253/130)

يسيح ي الجبال ويتوب الى الله من ذنبه حتى وافى الثقفي فأخبرته أهله بفعله ، فخرج يطلبه حتى دل عليه فوافقه ساجداً وهو يقول : رب ذنبي ذنبي . قد خنت أخي فقال له : يا فلان قم فانطلق الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسأله عن ذنبك لعل الله أن يجعل لك فرجاً وتوبة . فأقبل معه حتى رجع إلى المدينة ، وكان ذات يوم عند صلاة العصر فنزل جبريل عليه السلام بتوبته فتلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة ﴾ إلى قوله : ﴿ ونعم أجر العاملين ﴾ فقال عمر : يا رسول الله أخاص هذا لهذا أم للناس عامة ؟ فقال : بل للناس عامة في التوبة .

(254/130)

وعن ابن مسعود أن المسلمين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : أبنوا إسرائيل كانوا أكرم على الله منا ؟ كانوا إذا أذنب أحدهم أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة في عتبة بابه اجدع أذنك اجدع أنفك افعل كذا . فسكت النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألا أخبركم بخير من ذلك فقرأها عليهم ، وبيّن أنهم أكرم على الله منهم حيث جعل كفارة ذنبهم الاستغفار . والفاحشة نعت محذوف أي فعلوا فعلة فاحشة متزايدة القبح ﴿ أو ظلموا أنفسهم ﴾ أذنبوا أي ذنب كان مما يؤاخذ الإنسان به . وقيل : الفاحشة هي الزنا لقوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ﴾ [الإسراء : 32] وظلم النفس ما دونه من القبلة واللسمة . وهذا القول أنسب بسبب النزول الذي رويناه . وقيل : الفاحشة هي الكبيرة وظلم النفس هي الصغيرة والصغيرة يجب الاستغفار منها لأنه صلى الله عليه وسلم كان مأموراً بالاستغفار ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ [محمد : 19] وما كان استغفاره إلا عن الصغائر بل ترك الأولى ﴿ ذكروا الله ﴾ أي وعيده أو عقابه وأنه سائلهم أو نهيه ، أو جلاله الموجب للخشية والحياء منه ، أو ذكروا العرض الأكبر على الله . وعلى جميع التقادير فلا بد من مضاف محذوف . ويكون الذكر بمعنى ضد النسيان وإليه ذهب الضحاك ومقاتل والواقدي . ونظيره ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ [الأعراف : 201] وقيل : المراد ذكروا الله

بالثناء والتعظيم والإجلال ، فإن من آداب المسألة والدعاء تقديم التعظيم والثناء ﴿ فاستغفروا لذنوبهم ﴾ يقال : استغفر الله لذنبه ومن ذنبه بمعنى . والمراد بالاستغفار الإتيان بالتوبة على الوجه الصحيح ، وهو الندم على فعل ما مضى مع العزم على ترك مثله في المستقبل . فأما الاستغفار بمجرد اللسان فذاك لا أثر له في إزالة الذنب وإنما يجب إظهار هذا الاستغفار لإزالة التهمة ولإظهار كونه منقطعاً إلى الله تعالى ﴿ ومن يغفر

الذنوب إلا الله ﴾ لأن كمال قدرته وغناه كما أنه يقتضي إيقاع العبد في العقاب ، فكمال رحمته وعفوه يقتضي إزالة ذلك العقاب عنه ، لكن صدور الرحمة عنه بالذات " سبقت رحمتي غضبي " فجانب العفو والمغفرة أرجح ولا سيما إذا اقترن الذنب بالتوبة والاعتذار والتنصل بأقصى ما يمكن للعبد . وفي كتاب مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم " وعن أنس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قال الله يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي . يا ابن

آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي . يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرضين خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة "

(256/130)

وعن علي رضي الله عنه قال : حدثني أبو بكر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من رجل يذنب ذنباً ثم يقوم فيتطهر فيصلي ثم يستغفر الله إلا غفر له " ثم قرأ ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة ﴾ إلى قوله : ﴿ ومن يغفر الذنوب إلا الله ﴾ وهذه الجملة معترضة والتقدير : فاستغفروا لذنوبهم ﴿ ولم يصروا ﴾ لم يقيموا على قبيح فعلهم غير مستغفرين . والتركيب يدل على الشدة ، ومنه صررت الصرة شددتها ، وصر الفرس أذنيه ضمهما إلى رأسه . وأصر أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم : " ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة " وروي " لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار " ﴿ وهم يعلمون ﴾ حال من فاعل يصروا ، وحرف النفي منصب عليها معاً كما لو قلت : ما جاءني زيد وهو راكب . وأردت نفي المجيء والركوب معاً . وذلك أن المقام مقام مدح لهم بعدم الإصرار . والمعنى ليسوا ممن يصرون على الذنوب وهم عالمون بقبحها وبالنهي عنها والوعيد عليها لأنه قد يعذر الجاهل ولا يعذر العالم ، ويحتمل أن يراد

بالعلم العقل والتمييز والتمكن من الاحتراز عن الفواحش فيجري مجرى قوله صلى الله عليه وسلم : " رفع القلم عن ثلاث " وعلى هذا يجوز أن يراد نفي الإصرار في حالة العلم لا نفيه مطلقاً كما لو أردت في المثال المذكور نفي المجيء في حال الركوب لا نفي المجيء على الإطلاق ﴿ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم ﴾ وهي إشارة إلى إزالة العقاب ﴿ وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ وهذه إشارة إلى إيصال لاثواب ﴿ ونعم أجر العاملين ﴾ ذلك الجزاء . قال القاضي : وهذا يبطل قول من قال : إن الثواب تفضل من الله وليس جزاء على عملهم ، وذلك أنه سمى الجزاء أجراً والأجر واجب مستحق فكذلك الجزاء . ولقائل أن يقول : إنه على وجه التشبيه لا التحقيق . واستدلوا أيضاً بالآية على أن أهل الجنة هم المتقون والتائبون دون المصرين لقوله : ﴿ ولم يصروا ﴾ والجواب ما مر أن كون الجنة

معدة للمتقين الموصوفين لا يوجب أن لا يدخلها غيرهم بفضل الله وبرحمته . ثم ذكر ما يحمل المكلفين على فعل الطاعة وعلى التوبة من المعصية وهو تأمل أحوال القرون الخالية فقال : ﴿ قد خلت من قبلكم سنن ﴾ وأصل الخلو الانفراد ، والمكان الخالي هو المنفرد

عمن يسكن فيه ، وكل ما انقرض ومضى فقد انفرد عن الوجود ، والسنة الطريقة المستقيمة . والمثال المتبع وهي "فعلة" بمعنى "مفعولة" من سن الماء يسنه إذا والى صبه فكأنه أجراه على نهج واحد ، أو من سننت النصل أحددته ، أو من سن الإبل إذا حسن الرعي . والمراد قد مضت من قبلكم سنن الله تعالى في الأمم السالفة يعني سنن الهلاك والاستئصال بدليل قوله : ﴿ فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ فإنهم خالفوا رسلهم للحرص على الدنيا وطلب لذاتها ، ثم انقرضوا ولم يبق من دنياهم أثر وبقي عليهم اللعن في الدنيا والعقاب في الآخرة هذا قول أكثر المفسرين .

قال مجاهد : المراد سنن الله في الكافرين والمؤمنين فإن الدنيا ما بقيت لا مع المؤمن ولا مع الكافر ، ولكن المؤمن بقي له الثناء الجميل والثواب الجزيل والكافر له اللعن والعقاب . ثم قال ﴿ فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ لأن التأمل في حال أحد القسمين يكفي في معرفة حال القسم الآخر ، أو لأن الغرض زجر الكفار عن كفرهم وذلك إنما يحصل بتأمل أحوال أمثالهم وليس المراد من قوله ﴿ فسيروا في الأرض ﴾ الأمر بالسير بل المقصود تعرّف أحوالهم . فإن حصلت هذه المعرفة بغير المسير في الأرض كان المقصود حاصلاً . ولا يبعد أن يقال : ندب إلى السير لأن لمشاهدة آثار الأقدمين أثراً أقوى من أثر السماع كما قيل :

إن آثارنا تدل علينا . . . فانظروا بعدنا إلى الآثار

﴿ هذا بيان ﴾ المشار إليه بهذا إما أن يكون جميع ما تقدم من الأمر والنهي والوعد والوعيد للمتقين والتائبين والمصرين ويكون قوله : ﴿ قد خلت ﴾ جملة معترضة للبعث على الإيمان وما يستحق من الأجر ، وإما أن يكون ما حثهم عليه من النظر في سوء عواقب المكذبين ومن الاعتبار بما يعاينون من آثار هلاكهم . أما البيان والهدى والموعظة فلا بد من الفرق بينها لأن العطف يقتضي المغايرة ، فقيل : البيان كالجنس وهو إزالة الشبهات وتحته نوعان : أحدهما الكلام الذي يهدي المكلف إلى ما ينبغي في الدين وهو الهدى ، وثانيهما الكلام الزاجر عما لا ينبغي في طريق الدين وهو الموعظة . وخص الهدى والموعظة بالمتقين لأنهم هم المنتفعون به . وقيل : البيان عام للناس والهدى والموعظة خاصان بالمتقين ، لأن الهدى اسم للدلالة بشرط كونها موصلة إلى البغية وأقول : يشبه أن يكون البيان عاماً لجميع المكلفين وبأي طريق كان من طرق الدلالة . والهدى يراد به الكلام البرهاني والجدلي ، والموعظة يراد بها الكلام الإقناعي الخطابي كقوله : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ [النحل : 125] وخص المتقون بالذكر لأن البيان في حق غيرهم غير مثمر . ثم لما بيّن هذه المقدمات ومهدها ذكر المقصود وهو

قوله : ﴿ ولا تهنوا ﴾ . كأنه قال : إذا بحثتم عن أحوال القرون الخالية علمتم أن صولة الباطل تضحمل ، وأن العاقبة والغلبة لأرباب الحق . والوهن الضعف أي لا تضعفوا عن الجهاد ولا يورثنكم ما أصابكم يوم أحد وهناً وجبناً ﴿ ولا تحزنوا ﴾ على من قتل منكم وجرح ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ وحالكم أنكم أعلى منهم وأغلب لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد أو أنتم الأعلون شأنا لأن قتالكم لله وقتالهم للشيطان وقتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار ، أو أنتم الأعلون بالحجة والعاقبة الحميدة كقوله :

(259/130)

﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ [الأعراف : 128] وفي هذا تسلية لهم وبشارة . وقوله : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ إما أن يكون قيداً لقوله : ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ أي إن كنتم مصدقين بما يعدكم الله ويبشركم به من الغلبة ، وإما أن يكون قيداً لقوله : ﴿ ولا تهنوا ﴾ أي إن صح إيمانكم بالله وبحقية هذا الدين فلا تضعفوا لثقتكم بأن الله سيتم هذا الأمر . قال ابن عباس : انهزم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد . فبينما هم كذلك إذ أقبل خالد بن الوليد بخيل المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل . فقال النبي صلى الله عليه وسلم " اللهم لا يعلون علينا ، اللهم لا قوة لنا إلا بك ، اللهم ليس يعبدك بهذه البلدة غير هؤلاء

النفر " . فأنزل الله تعالى هذه الآية . وثاب نفر من المسلمين رماة فصعدوا الجبل ورموا خيل المشركين حتى هزموهم فذلك قوله ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ وقال راشد بن سعد : لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد كئيباً حزيناً جعلت المرأة تجيء بزوجها وأبيها وابنها مقتولين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أهكذا تفعل برسولك ؟ فنزلت ﴿ إن يمسسكم قرح ﴾ بفتح القاف وبضمها وهما لغتان كالضعف والضعف ، والجهد والجهد . وقيل بالفتح لغة تهامة والحجاز . وقيل بالفتح مصدر ، وبالضم اسم . وقال الفراء : إنه بالفتح الجراحة بعينها ، وبالضم ألم الجراحة . وقال ابن مقسم : هما لغتان إلا أن المفتوحة توهم أنها جمع قرحة . ومعنى الآية إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبل ذلك في قوم بدر . ثم لم يثبطهم ذلك عن معاودة القتال فأنتم أولى بأن لا تفرقوا ولا تجبنوا ونظيره ﴿ فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ﴾ [النساء : 104] وقيل : القرحان في يوم أحد وذلك أنه قتل يومئذٍ خلق من الكفار نيف وعشرون رجلاً ، وقتل صاحب لوائهم ، وكثرت الجراحات فيهم ، وعقرت عامة خيلهم بالنبل ، وقد كانت الهزيمة عليهم في أول النهار كما يجيء من قوله تعالى :

﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم ﴾ [آل عمران : 152] والمماثلة في عدد القتلى والجرحى غير لازمة وإنما تكفي المثلية في نفس القتل والجراحة ﴿ وتلك الأيام ﴾ موصوفاً وصفته مبتدأ خبره ﴿ نداولها ﴾ وتلك مبتدأ أو الأيام خبره كقولك : " هي الأيام تبلي كل جديد " فإن الضمير لا يوصف ويكون ﴿ تلك ﴾ إشارة إلى الوقائع والأحوال العجيبة التي يعرفها أهل التجارب من أبناء الزمان . والمراد بالأيام ما في تلك الأوقات من الظفر والغلبة والحالات الغريبة . وقوله ﴿ نداولها ﴾ كالتفسير لما تقدمه . والمداولة نقل الشيء من واحد إلى آخر . ويقال : تداولته الأيدي أي تناقلته . والدنيا دول أي تنتقل من قوم إلى آخرين لا تدوم مسارّها ومغامها ، فيوم يحصل فيه السرور له والغم لعدوّه ، ويوم آخر بالعكس فلا يبقي شيء من أحوالها ولا يستقر أثر من آثارها ونظيره قولهم : " الحرب السجال " .

شبهت بالدلاء لكونها تارة مملوءة وأخرى فارغة ، وليس المراد من هذه المداولة أنه تعالى تارة ينصر المؤمنين وأخرى ينصر الكافرين ، فإن نصرة الله منصب شريف لا يناله الكافرون . بل المراد أنه تارة يشدد المحنة على الكافرين وأخرى على المؤمنين وذلك أنه لو شدد

المحنة على الكفار في جميع الأوقات وأزالها عن المؤمنين في جميعها لحصل العلم الاضطراري بأن الإيمان حق وما سواه باطل ، ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب .

فالحكمة في المداولة أن تكون الشبهات باقية والمكلف يدفعها بواسطة النظر في الدلائل الدالة على صحة الإسلام ، فيعظم ثوابه عند الله وإلى هذا يشير قوله سبحانه : ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ﴾ وحذف المعطوف عليه ليذهب الوهم كل مذهب ويقرر الفوائد .

والتقدير نداولها بين الناس ليكون كيت وكيت وليعلم . وفي إيذان بأن المصلحة في هذه المداولة ليست بواحدة ولكن في ضمنها مصالح جمة لو عرفوها انقلبت مساءتهم مسرة منها أن يعلم الله . وقد احتج هشام بن الحكم بظاهر هذه الآية ونحوها كقوله : ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا ﴾ [آل عمران : 142] على أنه تعالى لا يعلم الحوادث إلا عند وقوعها وقد سبق الأجوبة عنها في تفسير قوله تعالى : ﴿ وإذا ابتلى إبراهيم ربه ﴾ [البقرة : 124] وتأويل الآية أن إطلاق لفظ العلم على المعلوم والقدرة على المقدور مجاز مشهور ، يقال : هذا علم فلان أو قدرته والمراد معلومه أو مقدوره . فكل آية يشعر ظاهرها بتجدد العلم فالمراد تجدد المعلوم لأن التغير في علم الله تعالى محال . فمعنى الآية ليظهر معلومنا وهو المخلص من المنافق والمؤمن من الكفار . وقيل : معناه ليحكم بالامتياز ، فوضع العلم مقام الحكم . وقيل : ليعلمهم علماً يتعلق به الجزاء وهو أن يعلمهم موجوداً

منهم الثبات ، لأن المجازاة تقع على الواقع دون المعلوم الذي لم يوجد . وقيل : ليعلم أولياء الله فأضاف إلى نفسه تفخيماً لهم . وعلى الأقوال

(262/130)

العلم بمعنى العرفان ولهذا تعدى إلى مفعول واحد . وقيل : إنه بمعنى فعل القلب الذي يتعدى الى مفعولين والتقدير : وليعلمهم مميزين عن غيرهم . ويحتمل على جميع التقادير أن يضمر متعلق وليعلم بعده ومعناه : وليتميز الثابتون على الإيمان من المضطربين فعلنا ما فعلنا . ومن حكم المداولة قوله : ﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾ من يصلح للشهادة على الأمم يوم القيامة كقوله : ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ [البقرة : 143] فإن كونهم كذلك منصب شريف لا يناله إلا هذه الأمة ، ولن يكونوا من الأمة إلا بالصبر على ما ابتلوا به من الشدائد . أو المراد ليكرم ناساً منكم بالشهادة . والشهداء جمع شهيد كالكرماء والظرفاء . والمقتول من المسلمين بسيف الكفار يسمى شهيداً . قال النضر بن شميل : لأنهم أحياء حضروا دار السلام كما ماتوا بخلاف غيرهم . وقال ابن الأنباري : لأن الله وملائكته شهدوا له بالجنة ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ أي المشركين

﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : 13] قال ابن عباس : وقيل : لا يحب من ليس من

هؤلاء الثابتين على الإيمان الصابرين على البلوى ، وهو اعتراض بين بعض المعللات وبعض . وفيه أن دولة الكافرين على المؤمنين للفوائد المذكورة لا لأنه يحبهم . ومن الحكم قوله : ﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ والمحص في اللغة التنقية والمحق النقصان . وقال المفضل : هو أن يذهب الشيء كله حتى لا يرى منه شيء . وقال الزجاج : معنى الآية أنه أن حصلت الغلبة للكافرين على المؤمنين كان المراد تمحيص ذنوب المؤمنين أي تطهيرهم وتصفيتهم ، وإن كان بالعكس فالمراد محو آثار الكفار . وهذه مقابلة لطيفة لأن تمحيص هؤلاء بإهلاك ذنوبهم نظير محق أولئك بإهلاك أنفسهم لا بالكلية ، فإن ذلك غير واقع بل بتدريج ومهل لا يقطع طرفاً ننقصها من أطرافها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 2 صـ 257 . 266 ﴾

(263/130)

" فصل فى كلام الزهاد وأخبار العباد "

قال ابن عبد ربه :

قيل لقوم من العُبَّاد : ما أقامكم في الشّمس ؟ قالوا : طلَب الظِّل .

قال علقمة لأُسودَ بن يِزيد : كم تُعذِّب هذا الجسدَ الضَّعيف ؟ قال : لا تنال الراحة إلا

بالتَّعب . وقيل لآخر : لو رفقتَ بنفسك ؟ قال : الخيرُ كلُّه فيما أُكْرِهت النفوسُ عليه ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : حُفّت الجنَّة بالمكاره .

وقيل لَمسروق بن الأجْدع : لقد أضررتَ ببدنك ؟ قال : كرامتَه أُريد . وقالت له امرأته فَيْروز لما رأْته لا يُفْطِر من صيام ولا يَفْترً عن صلاة : ويلك يا مسروق ! أما يعْبد الله غيرُك ؟ أما خُلقت النارُ إلا لك ؟ قال لها : وَيحْك يا فيروز ! إن طالب الجنة لا يسأَم ، وهاربَ النار لا ينام . وشكت أم الدرداء إلى أبي الدَّرداء الحاجة ، فقال لها : تصبَّري فإنّ أمامَنا عَقَبةً كَؤُوداً لا يجاوزها إلا أخفُّ الناس حِمْلاً .

ومر أبو حازم بسُوق الفاكهة ، فقال : مَوْعدك الجنّة . ومرَّ بالجزّارين ، فقالوا له : يا أبا حازم ، هذا لحم سمين فاشتَر ؛ قال : ليس عندي ثَمَنُه ؛ قالوا : نؤخرك ؛ قال : أنا أُؤخر نفسي . وكان رجل من العُبّاد يأكل الرُّمان بِقشرْه ، فقيل له : لمَ تَفْعل هذا ؟ فقال : إنما هو عدوّ فأثْخن فيه ما أمكنك .

وكان عليّ بن الحُسين عليهما السلام إذا قام للصلاة أخذتْه رِعْدةٌ ، فسُئِل عن ذلك ، فقال : وَيحْكم ! أَتَدْرُون إلى من أَقُوم ومَن أُرِيد أن أُناجي ؟ وقال رجل ليونس بن عُبيد : هل تَعلم أَحداً يَعمل بعَمل الحسن ؟ قال : لا والله ، ولا أحداً يقول بقَوْله . وقيل لمحمد بن عليّ بن الحُسين ، أو لعليّ بن الحُسين عليهم السلام : ما أَقلَّ وَلَدَ أبيك ؟ قال : العجبُ كيف وُلدْتُ

له ! وكان يصلّي في اليوم والليلة ألفَ ركعة ، فمتى كان يَتَفَرغ للنساء ؟ وحَجَّ خمسة وعشرين حِجَّة راجلا .

(264/130)

ولما ضُرِب سعيدُ بن المُسَيِّب وأُقيم للناس قالت له امرأة : " يا شيخ " ، لقد أُقمت مُقام خزْية ؛ فقال : من مُقام الخزية فررتُ . وشكا الناسُ إلى مالك ابن دينار القحطَ ، فقال : أنتم تستبطئون المَطر وأنا أستبطئ الحِجارة . وشكا أهل الكوفة إلى الفُضيل بن عِياض القحطَ ؟ فقال : أمُدَبِّراً غيرَ الله تريدون ؟ .

وذكر أبو حنيفة أيوبَ السَّخْتيانيّ ، فقال : رحمه الله تعالى ، ثلاثاً ، لقد قَدمَ المدينة مرة وأنا بها ، فقلت : لأقعدنّ إليه لعلي أتعلَّق منه بسقْطة ، فقام بين يدي القبر مَقاماً ما ذكرتُه إلا اقشعرَّ له جلْدِي . وقيل لأهل مكة : كيف كان عطاءُ بن أبي رَبَاح فيكم ؟ قالوا : كان مثل العافية التي لا يُعرف فضلُها حتى تُفْقد . وكان عطاء أفْطس أشَلّ أعرج ثم عَمِي ، وأمه سَوداء تسمَّى بَركة . وكان الأوقص المَخْزُوميّ قاضياً بمكة فما رُئى مثلُه في عَفافه وزُهْده ، فقال يوماً لِجُلسائه : قالت لي أُمي : يا بني ، إنك خُلقت خِلْقة لا تصلح معها لمَجَامع الفِتْيان عند القيان ، " إنك لا تكون مع أحدٍ إلا تَخطَتْك إليه العيون " ، فعليك بالدِّين فإنّ

اللهُ يَرْفَع به الخَسِيسة ، وُيتمُّ به النّقيصة . فنفعني اللهّ تعالى بكلامها ، وأطعتها فوليتُ القضاء .

الفُضَيل بن عِياض قال : اجتمع محمد بن واسع ومالكُ بن دينار في مجلس بالبصرة ، فقال مالكُ بن دينار : ما هو إلا طاعة اللهّ أو النار . فقال محمد بن واسع : ما هو كما تقول ، ليس إلا عَفْو الله أو النار . قال مالك : صدقتَ . ثم قال مالك : إنه يُعجبني أن يكون للرجل مَعِيشة على قدر ما يَقوته . قال محمد بن واسع : ولا هو كما تقول ، ولكن يُعْجبني أن يُصبح الرجل ، وليس له غَدَاء ، ويُمسى وليس له عَشَاء ، وهو مع ذلك راضٍ عن اللّه . قال مالك : ما أحْوَجني إلى أن يُعَلّمني مثلك .

(265/130)

جعفر بن سُليمان قال : سمعتُ عبد الرحمن بن مهَديّ يقول : ما رأيتُ أحداً أقْشَف من شعبَة ، ولا أعبدَ من سُفيان الثوري ، ولا أحفظَ من ابن المُبارك ، وما أُحِبُّ أن أَلْقَى الله بصحيفة أحد إلا بصحيفة بِشر بن مَنصور ، مات ولم يَدع قليلاً ولا كثيراً . عبد الأعلى بن حمّاد قال : دخلت على بِشر بن مَنصور وهو في الموت ، فإذا به من السرور في أمر عظيم ، فقلت له : ما هذا السّرور ؟ قال : سُبحان اللّه ! أخرجُ من بين الظالمين والباغين

والحاسدين والمُغْتابين وأَقْدَم على أرحم الراحمين ولا أُسرَّ ؟ .

حَجّ هارون الرّشيد ، فَبلغه عن عابدٍ بمكة مُجاب الدّعوة مُعْتزل في جبَال تِهامة ، فأتاه هارون الرشيدُ فسأله عن حاله ، ثم قال له : أوْصِني ومُرْني بما شِئْت ، فواللّه لا عَصَيتك . فَسكت عنه ولم يَرُدَّ عليه جواباً . فخرج عنه هارون ، فقال له أصحابُه : ما مَنعك إذ سألك أن تأْمرَه بما شِئْتَ – وقد حَلَف أن لا يَعْصيك – أن تأمره بتقوى الله والإحسان إلى رعيّته ؟ فَخَطّ لهم في الرّمل : إنيّ أعظمتُ الله أن يكون يَأمره فيَعْصِيه وآمرُه أنا فيطيعني .

عليّ بن حمزة ابن " أُخت " سُفيان الثوري قال : لما مَرِض سُفيان مَرَضه الذي مات فيه ذهبتُ ببَوْله إلى دَيْراني ، فأريتُه إياه فقال : ما هذا ببول حَنِيفيّ ؟ قلت : بلى واللّه ، من خِيارهم . قال : فأنا أذهب معك إليه . قال : فدخل عليه وجَسّ عِرْقه ، فقال : هذا رجُل قطّع الحُزن كَبده . مُوَرّق العِجْليّ قال : ما رأيتُ أحداً أفقه في وَرعه ولا أورَعَ لا فِقْهه من محمد بن سيرين ، ولقد قال يوماً : ما غَشِيتُ امرأة قط في نوم ولا يقظة ، إلا امرأتي أم عبد الله ، فإني أرى المرأة في النوم ، فاعلم أنها لا تَحِل لي ، فأَصْرف بَصري عنها .

الأصمعي عن ابن عَوْن قال : رأيت ثلاثة لم أَرَ مثلَهم : محمدَ بن سيرين بالعراق ، والقاسمَ بن محمد بالحجاز ، ورجاءَ بن حَيْوة بالشام . العُتْبيّ قال : سمعت أشياخنا يقولون : انتهى الزُّهْد إلى ثمانية من التابعين : عامر بن عبد القيس ، والحسن بن أبي الحسنِ البَصْرِيّ ، وهَرِم بن حيّان ، وأبي مُسْلِم الخَوْلاني ، وأُوَيس القَرَنيّ ، والربيع بن خثيمْ ، ومَسْرُوق بن الأَجْدَع ، والأَسْوَد بن يزيد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ العقد الفريد حـ 3 صـ 125. 128 ﴾

(267/130)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ لا تأكلوا الربا ﴾ ما يؤدي إلى الحرص إلى طلب الدنيا ﴿ أضعافاً مضاعفة ﴾ إلى ما لا يتناهى فلا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب . ﴿ واتقوا الله ﴾ خطاب للخواص أي اتقوا بالله عن غير الله في طلب الله ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ عن حجب ما سوى الله ، وتظفرون بالوصول إلى الله . ثم خاطب العوام الذين هم ارباب الوسائط بقوله : ﴿ واتقوا ﴾ أي بالقناعة ﴿ النار ﴾ أي نار الحرص التي توري عنها نار القطيعة ، وجوزوا بقدمي طاعة الله وطاعة رسوله . ثم أخبر عن المسارعة إلى الجنان بمصارعة النفس والجنان ﴿

عرضها السموات والأرض ﴾ أي المسافة بين العبد وبينها هذا القدر لأن الوصول إليها بعد العبور عما في السموات والأرض وهو عالم المحسوسات كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن عيسى أنه قال : لن يلج ملكوت السموات والأرض من لم يولد مرتين . فالولادة الثانية هي الخروج عن الصفات الحيوانية بتزكية النفس عنها . وولوج الملكوت هو التحلية بالصفات الروحانية ﴿ ينفقون أموالهم في السراء ﴾ وأرواحهم في الضراء بل من سوى الله في طلب الله ﴿ فعلوا فاحشة ﴾ هي رؤية غير الله ﴿ أوظلموا أنفسهم ﴾ بالتعليق بما سوى الله ﴿ وذكروا الله ﴾ بالنظر إليه وبرؤيته ﴿ ومن يغفر ﴾ ومن يستر بكنف عواطفه ذنوب وجود الأغيار ﴿ إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا ﴾ من رؤية الوسائط والتعلق بها ﴿ وهم يعلمون ﴾ أن كل شيء ما خلا الله باطل ﴿ أولئك جزاؤهم مغفرة ﴾ أي هم مستحقون لمقامات القرب ﴿ من ربهم وجنات ﴾ من أصناف ألطافه ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ العناية ﴿ ونعم أجر العاملين ﴾ لأن نيل المقصود في بذل المجهود ﴿ قد خلت من قبلكم أمم ﴾ لهم ﴿ سنن فسيروا في الأرض ﴾ نفوسكم الحيوانية بالعبور على أوصافها الدنية لتبلغوا سماء قلوبكم الروحانية ﴿ فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ بهذه المقامات الروحانية والمكاشفات الربانية ﴿ ولا تهنوا ﴾ أيها السائرون في السر إلى الله ﴿ ولا تحزنوا ﴾ على

ما فاتكم من اللذات الفانية ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ من أهل الدنيا والآخرة لأنكم من أهل الله ﴿ إن يمسسكم ﴾ في أثناء المجاهدات ﴿ قرح ﴾ ابتلاء وامتحان ﴿ فقد مس القوم ﴾ من الأنبياء والأولياء ﴿ قرح ﴾ محن ﴿ مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ السائرين يوماً نعمة ويوماً نقمة، ويوما منحة ويوماً محنة ﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾ أرباب المشاهدات والمكاشفات ﴿ وليمحص الله ﴾ فيه إشارة إلى أن كل ألم ونصب يصيب المؤمن فهو تطهير لقلبه وتكفير لسره، وما يصيب الكافر من نعمة ودولة وغنى ومنى فهو سبب لكفرانه ومزيد لطغيانه .

وبوجه آخر البلاء لأهل الولاء تمحيص للقلوب عن ظلمات العيوب وتنويرها بأنوار الغيوب ومحق صفات نفوسهم الكافرة ومحو سمات أخلاقهم الفاجرة ليتخلصوا عن قفص الأشباح إلى حظائر الأرواح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 2 صـ 266. 267 ﴾

(269/130)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فِى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والثلاثون بعد المائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الحادى والثلاثون بعد المائة

من الآية ﴿ 142 ﴾ من سورة آل عمران

وحتى الآية ﴿ 148 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان السياق يرشد إلى أن المعنى : أحسبتم أنه لا يفعل ذلك ، عادله بقوله : ﴿ أم حسبتم ﴾ أي يا من استكره نبينا على الخروج في هذا الوجه ﴿ أن تدخلوا الجنة ﴾ أي التي أعدت للمتقين ﴿ ولما يعلم الله ﴾ أي يفعل المحيط علماً وقدرة بالامتحان فعل من يريد أن يعلم ﴿ الذين جاهدوا منكم ﴾ أي أوقعوا الجهاد بصدق العزيمة ، ثم أمضوه بالفعل تصديقاً للدعوى ﴿ ويعلم الصابرين ﴾ أي الذين شأنهم الصبر عند الهزاهز والثبات عند جلائل المصائب تصديقاً لظاهر الغرائز ، فإن ذلك أعظم دليل على الوثوق بالله ووعده الذي هو صريح الإيمان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 161 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى الوجوه التي هي الموجبات والمؤثرات في مداولة الأيام ذكر في هذه الآية ما هو السبب الأصلي لذلك ، فقال ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة ﴾ بدون تحمل المشاق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 16 ﴾

فصل

قال الفخر :

أم : منقطعة ، وتفسير كونها منقطعة تقدم في سورة البقرة .

(5/131)

قال أبو مسلم : في ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ إنه نهي وقع بحرف الاستفهام الذي يأتي للتبكيت ، وتلخيصه : لا تحسبوا أن تدخلوا الجنة ولم يقع منكم الجهاد ، وهو كقوله : ﴿ الم * أَحَسِبَ الناس أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ ءامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت : 21] وافتتح الكلام بذكر "أم" التي هي أكثر ما تأتي في كلامهم واقعة بين ضربين يشك في أحدهما لا بعينه ، يقولون : أزيداً ضربت أم عمرواً ، مع تيقن وقوع الضرب بأحدهما ، قال : وعادة العرب يأتون بهذا الجنس من الاستفهام توكيداً ، فلما قال : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا ﴾ [آل عمران : 139] كأنه قال : أفتعلمون أن ذلك كما تؤمرون به ، أم تحسبون أن تدخلوا الجنة من غير مجاهدة وصبر ، وإنما استبعد هذا لأن الله تعالى أوجب الجهاد قبل هذه الواقعة ، وأوجب الصبر على تحمل متاعبها ، وبين وجوه المصالح فيها في الدين وفي الدنيا ، فلما كان كذلك ، فمن البعيد أن يصل الإنسان إلى السعادة والجنة مع إهمال هذه الطاعة . انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 17.16 ﴾

وقال القرطبى :

"أم" بمعنى بل .

وقيل : الميم زائدة ، والمعنى أحسبتم يا من انهزم يوم أحد أن تدخلوا الجنة كما دخل الّذين قُتلوا وصبروا على أَلَم الجِراح والقتل من غير أن تَسْلُكوا طريقهم وتصبروا صبرهم لا ؛ حتى ﴿ يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ ﴾ أي عِلْم شهادة حتى يقع عليه الجزاء .

والمعنى : ولم تجاهدوا فيعلم ذلك منكم ؛ فلما بمعنى لم .

وفرق سيبويه بين "لم" و"لما" ، فزعم أن "لم يَفعلْ" نفى فَعَل ، وأن "لَمّا يفعلْ" . نفى قد فَعَل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 220 ﴾

(6/131)

وقال ابن عاشور :

﴿ أم ﴾ هنا منقطعة ، هي بمعنى (بل) الانتقالية ، لأنّ هذا الكلام انتقال من غرض إلى آخر ، وهي إذا استعملت منقطعة تؤذن بأنّ ما بعدها استفهام ، لملازمتها للاستفهام ، حتَّى قال الزمخشري والمحقّقون : إنَّها لا تفارق الدلالة على الاستفهام بعدها ، وقال غيره :

ذلك هو الغالب وقد تفارقه، واستشهدوا على مفارقتها للاستفهام بشواهد تقبل التّأويل.

فقوله: ﴿ أم حسبتم ﴾ عطف على جملة ﴿ ولا تهنوا ﴾ [آل عمران: 139] وذلك أنّهم لمّا مسّهم القرح فحزنوا واعتراهم الوهن حيث لم يشاهدوا مثل النّصر الّذي شاهدوه يوم بدر، بيّن الله أنّ لا وجه للوهن للعلل الّتي تقدّمت، ثُمّ بيّن لهم هنا: أن دخول الجنَّة الّذي هو مرغوبهم لا يحصل إذا لم يبذلوا نفوسهم في نصر الدّين فإذا حسبوا دخول الجنّة يحصل دون ذلك، فقد أخطأوا.

والاستفهام المقدّر بعد (أم) مستعمل في التّغليط والنّهي، ولذلك جاء ب (أم) للدلالة على التغليط: أي لا تحسبوا أن تدخلوا الجنّة دون أن تجاهدوا وتصبروا على عواقب الجهاد. انتهى انتهى. اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 233. 234 ﴾

وقال الآلوسى:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة ﴾ خطاب للمنهزمين يوم أحد وهو كلام مستأنف (سيق) لبيان ما هي الغاية القصوى من المداولة والنتيجة لما ذكر من العلل الثلاث الأول، و﴿ أَمْ ﴾ منقطعة مقدرة ببل وهمزة الاستفهام الإنكاري، وكونها متصلة وعديلها مقدر تكلف، والإضراب عن التسلية ببيان العلل فيما لقوا من الشدة إلى تحقيق أنها من مبادىء الفوز بالمطلب الأسنى والمقام الأعلى، والمعنى بل لا ينبغي منكم أن تظنوا أنكم تدخلون الجنة

وتفوزون بنعيمها وما أعد الله تعالى لعباده فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 70 ﴾

(7/131)

فصل

قال الفخر :

ظاهر الآية يدل على وقوع النفي على العلم ، والمراد وقوعه على نفي المعلوم ، والتقدير : أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يصدر الجهاد عنكم ، وتقريره أن العلم متعلق بالمعلوم ، كما هو عليه ، فلما حصلت هذه المطابقة لا جرم .

حسن إقامة كل واحد منهما مقام الآخر ، وتمام الكلام فيه قد تقدم . انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 17 ﴾

فصل

قال الآلوسى :

﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جاهدوا مِنكُمْ ﴾ حال من ضمير ﴿ تَدْخُلُواْ ﴾ مؤكدة للإنكار فإن رجاء الأجر من غير عمل ممن يعلم أنه منوط به مستبعد عن العقول ، ولهذا قيل :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها . . .

إن السفينة لا تجري على اليبس

وورد عن شهر بن حوشب طلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب ، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور ، وارتجاء الرحمة ممن لا يطاع حمق وجهالة ، ونفي العلم باعتبار تعلقه التنجيزي كما مر في الإثبات على رأي .

(8/131)

ويجوز أن يكون الكلام كناية عن نفي تحقق ذلك لأن نفي العلم من لوازم نفي التحقق إذ التحقق ملزوم علم الله تعالى ، ونفي اللازم لازم نفي الملزوم وكثيراً ما يقال : ما علم الله تعالى في فلان خيراً ويراد ما فيه خير حتى يعلمه ، وهل يجري ذلك في نفي علمنا أم لا ؟ فيه تردد والذي قطع به صاحب "الانتصاف" الثاني ، وإيثار الكناية على التصريح للمبالغة في تحقيق المعنى المراد وهو عدم تحقق الجهاد الذي هو سبب للفوز الأعظم منهم لما أن الكلام عليها كدعوى الشيء ببينة ، وفي ذلك رمز أيضاً إلى ترك الرياء ، وأن المقصود علم الله تعالى لا الناس ، وإنما وجه النفي إلى الموصوفين مع أن المنفي هو الوصف الذي هو الجهاد للمبالغة في بيان انتفاء ذلك ، وعدم تحققه أصلاً وكيف تحقق صفة بدون موصوف ، وفي

اختيار ﴿ لَّمَّاً ﴾ على لم إشارة إلى أن الجهاد متوقع منهم فيما يستقبل بناءاً على ما يفهم من كلام سيبويه أن (لما) تدل على توقع الفعل المنفي بها ، وقد ذكر الزجاج أنه إذا قيل : قد فعل فلان فجوابه لما يفعل ، وإذا قيل : فعل ؟ فجوابه لم يفعل ، فإذا قيل : لقد فعل ، فجوابه ما فعل كأنه قال : والله لقد فعل فقال المجيب : والله ما فعل ، وإذا قيل : هو يفعل يريد ما يستقبل ، فجوابه لا يفعل ، وإذا قيل : سيفعل ، فجوابه لن يفعل ، فقول أبي حيان : "إن القول بأن لما تدل على توقع الفعل المنفي بها فيما يستقبل لا أعلم أحداً من النحويين ذكره" غير متعدّ به ، نعم هذا التوقع هنا غير معتبر في تأكيد الإنكار ، وقرىء ، ﴿ وَيَعْلَمَ ﴾ بفتح الميم على أن أصله يعلمن بنون خفيفة فحذفت في الدرج ، وقد أجازوا حذفها إما بشرط ملاقاة ساكن بعدها أو مطلقاً ، ومن ذلك قوله :

إذا قلت قدني قال بالله حلفة . . .

لتغني عني ذا أنائك أجمعا

(9/131)

على رواية فتح اللام ؛ وقيل : إن فتح الميم لاتباع اللام ليبقى تفخيم اسم الله عز اسمه ، و ﴿ مّنكُمْ ﴾ حال من ﴿ الذين ﴾ و (من) فيه للتبعيض ، فيؤذن بأن الجهاد فرض كفاية .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 71.70 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

و(لَمَّا) حرف نفي أختُ (لم) إلاّ أنَّها أشدّ نفياً من (لم) ، لأنّ (لم) لِنفي قول القائل فَعَل فلان ، و(لمّا) لنفي قوله قد فعل فلان .

قاله سيبويه ، كما قال : إنّ (لا) لنفي يفعل و(لن) لنفي سيفعل و(ما) لنفي لقد فعل و(لا) لنفي هو يفعل .

فتدلّ (لَمَّا) على اتِّصال النَّفي بها إلى زمن التكّلم ، بخلاف (لم) ، ومن هذه الدلالة استفيدت دلالة أخرى وهي أنّها تؤذن بأنّ المنفي بها مترقّب الثبوت فيما يستقبل ، لأنَّها قائمة مقام قولك استمرّ النّفي إلى الآن ، وإلى هذا ذهب الزمخشري هنا فقال : و(لمّا) بمعنى (لم) إلاّ أنّ فيها ضرباً من التوقُّع وقال في قوله تعالى : ﴿ ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ سورة [الحجرَات : 14] : فيه دلالة على أنّ الأَعراب آمنوا فيما بعد .

والقول في علم الله تقدّم آنفاً في الآية قبل هذه .

وأريد بحالة نفي علم الله بالَّذين جاهدوا والصَّابرين الكناية عن حالة نفي الجهاد والصّبر عنهم ، لأنّ الله إذا علم شيئاً فذلك المعلوم محقّق الوقوع فكما كنّى بعلم الله عن التّحقق في قوله : ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ﴾ [آل عمران : 140] كنّى بنفي العلم عن نفي

الوقوع .

وشرط الكناية هنا متوفّر وهو جواز إرادة المعنى الملزوم مع المعنى اللازم لجواز إرادة انتفاء علم الله بجهادهم مع إرادة انتفاء جهادهم .

(10/131)

ولا يرد ما أورده التفتزاني ، وأجاب عنه بأنّ الكناية في النفي بنيت على الكناية في الإثبات ، وهو تكلّف ، إذ شأن التراكيب استقلالها في مفادها ولوازمها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 234 ـ 235 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمَ الصابرين ﴾

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ وَيَعْلَمَ الصابرين ﴾ فاعلم أنه قرأ الحسن ﴿ وَيَعْلَمَ الصابرين ﴾ بالجزم عطفاً على ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ الله ﴾ وأما النصب فبإضمار أن ، وهذه الواو تسمى واو الصرف ، كقولك : لا تأكل السمك وتشرب اللبن ، أي لا تجمع بينهما ، وكذا ههنا المراد أن دخول الجنة وترك المصابرة على الجهاد مما لا يجتمعان ، وقرأ أبو عمرو ﴿ وَيَعْلَمَ ﴾ بالرفع على تقدير أن الواو للحال .

كأنه قيل : ولما تجاهدوا وأنتم صابرون .

واعلم أن حاصل الكلام أن حب الدنيا لا يجتمع مع سعادة الآخرة ، فبقدر ما يزداد أحدهما ينتقص الآخر ، وذلك لأن سعادة الدنيا لا تحصل إلا باشتغال القلب بطلب الدنيا ، والسعادة في الآخرة لا تحصل إلا بفراغ القلب من كل ما سوى الله وامتلائه من حب الله ، وهذان الأمران مما لا يجتمعان ، فلهذا السر وقع الاستبعاد الشديد في هذه الآية من اجتماعهما ، وأيضاً حب الله وحب الآخرة لا يتم بالدعوى ، فليس كل من أقر بدين الله كان صادقا ، ولكن الفصل فيه تسليط المكروهات والمحبوبات ، فإن الحب هو الذي لا ينقص بالجفاء ولا يزداد بالوفاء ، فإن بقي الحب عند تسليط أسباب البلاء ظهر أن ذلك الحب كان حقيقياً ، فلهذه الحكمة قال : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة ﴾ بمجرد تصديقكم الرسول قبل أن يبتليكم الله بالجهاد وتشديد المحنة ، والله أعلم . انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 17 ﴾

(11/131)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَعْلَمَ الصابرين ﴾ نصب بإضمار أن ، وقيل : بواو الصرف ، والكلام على طرز لا

تأكل السمك وتشرب اللبن أي أم حسبتم أن تدخلوا الجنة والحال أنه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر أي الجمع بينهما ، وإيثار الصابرين على الذين صبروا للإيذان بأن المعتبر هو الاستمرار على الصبر وللمحافظة على رؤوس الآي ، وقيل : الفعل مجزوم بالعطف على المجزوم قبله وحرك لالتقاء الساكنين بالفتحة للخفة والاتباع ، ويؤيد ذلك قراءة الحسن ﴿ وَيَعْلَمَ الصابرين ﴾ بكسر الميم ، وقرىء ﴿ وَيَعْلَمَ ﴾ بالرفع على أن الواو للاستئناف أو للحال بتقدير وهو يعلم ، وصاحب الحال الموصول كأنه قيل : ولما تجاهدوا وأنتم صابرون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 71 ﴾

فصل

قال الشيخ الشنقيطى :

أنكر الله في هذه الآية على من ظن أنه يدخل الجنة دون أن يبتلى بشدائد التكاليف التي يحصل بها الفرق بين الصابر المخلص في دينه ، وبين غيره وأوضح هذا المعنى في آيات متعددة كقوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ البأساء والضرآء وَزُلْزِلُواْ حتى يَقُولَ الرسول والذين آمَنُواْ مَعَهُ متى نَصْرُ الله ألا إِنَّ نَصْرَ الله قَرِيب ﴾ [البقرة : 214] وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ الله وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ المؤمنين وَلِيجَةً والله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : 16] وقوله : ﴿ الم أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا أَن يقولوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ

يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذبين ﴾ [العنكبوت : 1-3] .

(12/131)

وفي هذه الآيات سر لطيف وعبرة وحكمة ، وذلك أن أبانا آدم كان في الجنة يأكل منها رغداً حيث شاء في أتم نعمة وأكمل سرور ، وأرغد عيش . كما قال له ربه : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تعرى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تضحى ﴾ [طه : 118-119] ولو تناسلنا فيها لكنا في أرغد عيش وأتم نعمة ، ولكن إبليس عليه لعائن الله احتال بمكره وخداعه على أبوينا حتى أخرجهما من الجنة ، إلى دار الشقاء والتعب .

وحينئذ حكم الله تعالى أن جنته لا يدخلها أحد إلا بعد الابتلاء بالشدائد وصعوبة التكاليف . فعلى العاقل منا – معاشر بني آدم – أن يتصور الواقع ويعلم أننا في الحقيقة سبي سباه إبليس بمكره وخداعه من وطنه الكريم إلى دار الشقاء والبلاء ، فيجاهد عدوه إبليس ونفسه الأمارة بالسوء حتى يرجع إلى الوطن الأول الكريم ، كما قال العلامة ابن القيم تغمده الله برحمته :

ولكننا سبي العدو فهل ترى . . . نرد إلى أوطاننا ونسلم

ولهذه الحكمة أكثر الله تعالى في كتابه من ذكر قصة إبليس مع آدم لتكون نصب أعيننا دائماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ 209.210 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى ﴿ أم حسبتم ﴾

وفي " أم " – هذه – أوجه :

أظهرها : أنها منقطعة ، مقدَّرة بـ " بل " ، وهمزة الاستفهام ويكون معناه الإنكار عليهم .

وقيل : " أمْ " بمعنى الهمزة وحدها ، ومعناه كما تقدم التوبيخ والإنكار .

وقيل : هذا الاستفهام معناه النهي .

(13/131)

قال أبو مسلم : " إنه نهي وقع بحرف الاستفهام الذي يأتي للتبكيت ، وتلخيصه : لا تحسبوا أن تدخلوا الجنة ، ولم يقع منكم الجهاد ، وهو كقوله : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت : 2] وافتتح الكلام بذكر " أم " التي هي أكثر ما تأتي في كلامهم واقعة بين ضربين يشك في أحدهما ، لا يعينه ، يقولون : أزيد ضربت أم عمراً ؟ مع

تيقُّن وقوع الضرب بأحدهما ، قال : وعادة العرب أن يأتوا بهذا الجنس من الاستفهام توكيداً ، فلما قال : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا ﴾ [آل عمران : 139] كأنه قال : أفتعلمون أن ذلك كما تؤمَرون به أم تحسبون أن تدخلوا الجنة من غير مجاهدةٍ وَصَبْر ؟ " .

وقيل : هي متصلة .

قال ابن بَحْر : " هي عديلة همزة تقدر من معنى ما تقدم ، وذلك أن قوله : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ ﴾ [آل عمران : 140] و﴿ وَتِلْكَ الأيام نُدَاوِلُهَا بَيْنَ الناس ﴾ [آل عمران : 140] إلى آخر القصة يقتضي أن نتبع ذلك أتعلمون أن التكليف يوجب ذلك أم حسبتم أن تدخلوا الجنة من غير اختبار وتحمُّل مشقة ، وأن تجاهدوا ، فيعلم الله ذلك منكم واقعاً " .

و" أحسب " - هنا - على بابها من ترجيح أحد الطرفين ، و﴿ أَن تَدْخُلُواْ ﴾ ساد مسد المفعولين - على رأي سيبويه - ومسد الأول ، والثاني : محذوف - على رأي الأخفش .

قوله : ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ الله ﴾ جملة حالية .

قال الزَّمَخْشَرِي : " و" لما " بمعنى " لم " ، إلا أنَّ فيه ضرباً من التوقُّع ، فدلَّ على نفي الجهاد فيما مضى ، وعلى توقُّعه فيما يستقبل ، وتقول : وعدتني أن تفعل كذا ولمَّا ، تريد : ولم تفعل ، وأنا أتوقَّع فِعْلَه " .

قال أبو حيان : " وهذا الذي قاله في " لما " – من أنها تدل على توقُّع الفعل المنفي بها فيما يستقبل – لا أعلم أحداً من النحويين ذكره ، بل ذكروا أنك إذا قلت : لما يخرج زيد ، دل ذلك على انتفاء الخروج فيما مضى ، متصلاً نفيه إلى وقت الإخبار ، أما أنها تدل على توقُّعه في المستقبل فلا ، لكنني وجدت في كلام الفراء شيئاً يُقارب ما قاله الزمخشري ، قال : " لما " لتعريض الوجود بخلاف " لم " .

قال شِهَابُ الدين : والنحاة إنما فرّقوا بينهما من جهة أن المنفي بـ " لَمْ " هو فعل غير مقرون بـ " قد " ، والمنفي بـ " لما " فعل مقرون بها ، و " قد " تدل على التوقُّع ، فيكون كلام الزمخشري صحيحاً من هذه الجهة ، ويدل على ما قلته – من كون " لم " لنفي فعل فلان ، و " لما " لنفي قد فعل – نصُّ سيبويه فمن دونه .

قال الزجاج إذا قيل فعل فلان ، فجوابه : لم يفعل ، وإذا قيل : قد فعل فلان ، فجوابه لما يفعل ؛ لأنه لما أُكِّد في جانب الثبوت بـ " قد " لا جرم أنه أكد في جانب النفي بكلمة " لما " ، وقد تقدم نظير هذه الآية في " البقرة " وظاهر الآية يدل على وقوع النفي على العلم ، والمراد : وقوعه على نفي المعلوم ، والتقدير : أم حسبتم أن تدخلوا الجنةَ ، ولمَّا يصدر الجهادُ عنكم

؟

وتقريره : أن العلم متعلق بالمعلوم ، كما هو عليه ، فلما حَصَلَتْ هذه المطابقة - لا جرم - حَسُن إقامة كلِّ واحدٍ منهما مقامَ الآخر .

قوله : " مِنْكُمْ " حال من " الَّذِينَ " .

وقرأ العامة ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ ﴾ بكسر الميم - على أصل التقاء الساكنين .

وقرأ النخعي وابن وثاب بفتحها ، وفيها وجهان :

الأول : أن الفتحة فتحة إتباع الميم لـ " اللام " قبلها .

(15/131)

الثاني : أنه على إرادة النون الخفيفة ، والأصل : ولما يعلمن ، والمنفي بـ " لما " قد جاء مؤكداً بها ، كقول الشاعر : [الرجز]

يَحْسَبُهُ الْجَاهِلُ مَا لَمْ يَعْلَمَا . . . شَيْخاً عَلَى كُرْسِيِّهِ مُعَمَّمَا

فلما حذفت النون بقي آخر الفعل مفتوحاً ، كقول الشاعر : [الخفيف]

لا تُهِينَ الْفَقِيرَ عَلَّكَ أنْ تَرْ . . . كَعَ يَوْماً وَالدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهْ

وعليه تُخَرَّج قراءةُ : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحَ ﴾ [الشرح : 1] - بفتح الحاء - .

وقول الآخر : [الرجز]

مِنْ أيِّ يَوْمَيَّ مِنَ الْمَوْتِ أفِرْ . . . مِنْ يَوْمِ لَمْ يُقْدَرَ أوْ يَوْمِ قُدِرْ

قوله : " ويَعْلَمَ " العامة على فتح الميم ، وفيها تخريجان :

أحدهما : وهو الأشهر – أن الفعل منصوب ، ثم هل نصبه بـ " أن " مقدَّرة بعد الواو المقتضية للجمع كهي في قولك : لا تأكل السمك وتشرب اللبن ، أي : لا تجمع بينهما – وهو مذهب البصريين – أو بواو الصرف – وهو مذهب الكوفيين – يعنون أنه كان من حق الفعل أن يُعْرَب بإعراب ما قبله ، فلما جاءت الواو صرفته إلى وجهٍ آخر من الإعراب .

الثاني : أن الفتحة فتحة التقاء الساكنين ، والفعل مجزوم ، فلما وقع بعده ساكنٌ آخر ، احتيج إلى تحريك آخره ، فكانت الفتحة أوْلَى ؛ لأنها أخف ، وللإتباع لحركة اللام ، كما قيل ذلك في أحد التخريجين في قراءة " وَلَمَّا يَعْلَمَ اللهُ " بفتح الميم – والأول هو الوجه .

وقرأ الحسنُ وأبو حيوةَ وابنُ يَعْمُرَ : بكسر الميم ؛ عطفاً على " يَعْلَم " المجزوم بـ " لَمَّا " .

وقرأ عَبْدُ الوَارِثِ – عن أبي عَمْرو بْنِ العَلاَءِ – " ويَعْلَمُ " بالرفع ، وفيها وجهان :

أظهرهما : أنه مستأنف ، أخبر – تعالى – بذلك .

وقال الزّمَخْشَرِيّ : " على أن الواو للحال ، كأنه قيل : ولما تجاهدوا وأنتم صابرون " .

قال أبو حَيَّانَ : " ولا يصح ما قال ؛ لأن واو الحال لا تدخل على المضارع ، لا يجوز : جاء زيد ويضحك – تريد : جاء زيد يضحك ، لأن المضارع واقع موقع اسم الفاعل ، فكما لا يجوز : جاء زيد وضاحكاً ، كذلك لا يجوز : جاء زيد ويضحك فإن أولَ على أن المضارع خبر لمبتدأ محذوف ، أمكن ذلك ، التقدير : وهو يعلم الصابرين .

كما أولوا قول الشاعر : [المتقارب]

. . . . نَجَوْتُ وَأَرْهَنُهُمْ مَالِكا

أي : وأنا أرهنهم " .

قال شهابُ الدين : " قوله : لا تدخل على المضارع ، هذا ليس على إطلاقه ، بل ينبغي أن يقول : على المضارع المثبت ، أو المنفي بـ " لا " ؛ لأنها تدخل على المضارع المنفي بـ " لم ولمَّا " . وقد عُرِف ذلك مراراً " .

ومعنى الآية : أن دخول الجنة ، وترك المصابرة على الجهاد مما لا يجتمعان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 562 . 565 ﴾ . بتصرف يسير .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142) ﴾

من ظنَّ أنه يصل إلى محل عظيم من دون مقاساة الشدائد ألقته أمانيه في مهواة الهلاك ، وإنَّ من عرف قَدْر مطلوبه سَهُلَ عليه بَذْل مجهوده : (. . . .) وهو بلذاته على من يظن يخلع العذار وقال قائلهم :

إذا شام الفتى برق المعاني . . . فأهونُ فائتٍ طِيبُ الرُّقاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 281 ﴾

(17/131)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾

إن الإيمان ليس مجرد كلمة تقال هكذا ، بل لا بد من تجربة تثبت أنكم فُتِنْتُم ونجحتم في الفتنة ، والفتنة هي الامتحان ، إذن فلا تحسبوا أن المسألة سوف تمر بسهولة ويكتفي منكم أن تقولوا نحن نحمل دعوة الحق ، لا . إذا كنتم صادقين في قولكم يلزمكم أن تكونوا أسوة حين يكون الحق ضعيفا ؛ فالحق حين يكون قويا فهو لا يحتاج إلى أسوة . بل قضية الإيمان الحق تحتاج إلى الأسوة وقت الضعف . ودخول الجنة له اختبار يجب أن يجتازه المؤمن .

والحق يقول : ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ وعندما نسمع ذلك فعلينا أن نعرف أن الله يعلم علما أزليا من المجاهد ومن الصابر ، ولكنه علم لا تقوم به الحُجة على الغير ، فإذا حدث له واقع صار حُجة على الغير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1786 ﴾

(18/131)

" فصل "

قال السيوطى :

هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (138)

أخرج ابن أبي شيبة في كتاب المصاحف عن سعيد بن جبير قال : أول ما نزل من آل عمران ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ ثم أنزل بقيتها يوم أحد .

وأخرج ابن جرير عن الحسن في قوله ﴿ هذا بيان للناس ﴾ قال : هذا القرآن .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ هذا بيان ﴾ الآية . قال : هو هذا القرآن جعله الله بياناً للناس عامة ﴿ وهدى وموعظة للمتقين ﴾ خصوصاً .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الشعبي

في الآية قال ﴿ بيان ﴾ من العمى ﴿ وهدى ﴾ من الضلالة ﴿ وموعظة ﴾ من الجهل .

أ هـ

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139)

أخرج ابن جرير عن الزهري قال : كثر في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم القتل والجراح حتى خلص إلى كل امرئ منهم البأس . فأنزل الله القرآن ، فآسى فيه بين المؤمنين بأحسن ما آسى به قوماً كانوا قبلهم من الأمم الماضية فقال ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا ﴾ إلى قوله ﴿ لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾ .

وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال : أقبل خالد بن الوليد يريد أن يعلو عليهم الجبل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " اللهمّ لا يعلون علينا . فأنزل الله ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج قال : انهزم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب يوم أحد ، فسألوا ما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ، وما فعل فلان ؟ فنعى بعضهم لبعض ، وتحدثوا أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل ، فكانوا في

هم وحزن. فبينما هم كذلك علا خالد بن الوليد بخيل المشركين فوقهم على الجبل، وكان على أحد مجنبتي المشركين وهم أسفل من الشعب، فلما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم فرحوا فقال النبي صلى الله عليه وسلم "اللهم لا قوّة لنا إلا بك، وليس أحد يعبدك بهذا البلد غير هؤلاء النفر، فلا تهلكهم" وثاب نفر من المسلمين رماة، فصعدوا فرموا خيل المشركين حتى هزمهم الله، وعلا المسلمون الجبل، فذلك قوله ﴿ وأنتم الأَعْلَوْنَ إن كنتم مؤمنين ﴾.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ ولا تهنوا ﴾ قال: لا تضعفوا.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ قال: وأنتم الغالبون. أ هـ

إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (141) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142)

وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس ﴿ إن يمسسكم ﴾ قال: أن يصبكم.

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ﴾ برفع القاف فيهما.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ إن يمسسكم قرح ﴾ قال : جراح وقتل .

(20/131)

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ﴾ قال : إن يقتل منكم يوم أحد فقد قتلتم منهم يوم بدر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : نام المسلمون وبهم الكلوم يعني يوم أحد قال عكرمة : وفيهم أنزلت ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ وفيهم أنزلت ﴿ إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ﴾ [النساء : 104] .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ فانه كان يوم أحد بيوم بدر . قتل المؤمنون يوم أحد اتخذ الله منهم شهداء ، وغلب رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين يوم بدر ، فجعل له الدولة عليهم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ قال : فانه أدال المشركين على النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وبلغني أن

المشركين قتلوا من المسلمين يوم أحد بضعة وسبعين رجلاً، عدد الأسارى الذين أسروا يوم بدر من المشركين، وكان عدد الأسارى ثلاثة وسبعين رجلاً.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ قال: جعل الله الأيام دولاً. مرة لهؤلاء، ومرة لهؤلاء. أدال الكفار يوم أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

وأخرج ابن جرير عن قتادة في الآية قال: والله لولا الدول ما أوذي المؤمنون، ولكن قد يدال للكافر من المؤمن ويُبْتَلى المؤمن بالكافر، ليعلم الله من يطيعه ممن يعصيه، ويعلم الصادق من الكاذب.

وأخرج عن السدي ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ يوماً لكم ويوماً عليكم.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي حاتم عن ابن سيرين ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ يعني الأمراء.

(21/131)

وأخرج ابن المنذر عن أبي جعفر قال: إن للحق دولة وإن للباطل دولة من دولة الحق. إن إبليس أمر بالسجود لأدم فأديل آدم على إبليس، وابتلي ادم بالشجرة فأكل منها فأديل

إبليس على آدم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ﴾ قال : إن المسلمين كانوا يسألون ربهم اللهم : ربنا أرنا يوماً كيوم بدر ، نقاتل فيه المشركين ، ونبليك فيه خيراً ، ونلتمس فيه الشهادة .

فلقوا المشركين يوم أحد ، فاتخذ منهم شهداء .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك في الآية قال : كان المسلمون يسألون ربهم أن يريهم يوماً كيوم بدر . يبلون فيه خيراً ، ويرزقون فيه الشهادة ، ويرزقون الجنة والحياة والرزق . فلقوا يوم أحد ، فاتخذ الله منهم شهداء ، وهم الذين ذكرهم الله تعالى فقال ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتاً ﴾ [البقرة : 154] الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ﴾ قال : يكرم الله أولياءه بالشهادة بأيدي عدوهم ، ثم تصير حواصل الأمور وعواقبها لأهل طاعة الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبيدة ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ﴾ يقول : أن لا تقتلوا لا تكونوا شهداء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي الضحى قال : نزلت ﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾ فقتل منهم يومئذ سبعون ، منهم أربعة من المهاجرين : منهم حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير

أخو بني عبد الدار ، والشماس بن عثمان المخزومي ، وعبد الله بن جحش الأسدي ، وسائرهم من الأنصار .

(22/131)

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : لما أبطأ على النساء الخبر خرجن يستخبرن فإذا رجلان مقتولان على دابة أو على بعير فقالت امرأة من الأنصار : من هذان ؟ قالوا : فلان وفلان . أخوها وزوجها . أو زوجها وابنها ، فقالت : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : حي . . . قالت : فلا أبالي يتخذ الله من عباده الشهداء . ونزل القرآن على ما قالت ﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق ابن جريج عن ابن عباس ﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ﴾ قال : يبتليهم ﴿ ويمحق الكافرين ﴾ قال : ينقصهم .

وأخرج ابن سعد عن محمد بن سيرين . إنه كانت إذا تلا هذه الآية قال : اللهمَّ محصناً ولا تجعلنا كافرين .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن إسحق ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ﴾ وتصيبوا من ثوابي الكرامة ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ﴾ يقول : ولمَ اختبركم

بالشدة وأبتليكم بالمكاره ؟ حتى أعلم صدق ذلك منكم . الإيمان بي ، والصبر على ما أصابكم فيّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 329 . 333 ﴾

(23/131)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (143) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أرشد السياق إلى أن التقدير : فلقد كنتم تقولون : لئن خرجت بنا ليبتلين الله بلاء حسناً ، عطف عليه قوله : ﴿ ولقد ﴾ ويجوز أن يكون حالاً من فاعل ﴿ حسبتم ﴾ ﴿ كنتم تمنون الموت ﴾ أي الحرب ، عبر عنها به لأنها سببه ، ولقد تمنى بعضهم الموت نفسه بتمني الشهادة ﴿ من قبل أن تلقوه ﴾ أي رغبة فيما أعد الله للشهداء ﴿ فقد رأيتموه ﴾ أي برؤية قتل إخوانكم ، والضمير يصلح أن يكون للموت المعبر به عن الحرب ، وللموت نفسه برؤية أسبابه القريبة ، وقوله : ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ بمعنى رؤية العين ، فهو تحقيق لإرادة الحقيقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 161 ﴾

فصل

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الموت ﴾ أي الشهادة من قبل أن تلقوه .

وقرأ الأعمش ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تلاَقُوهُ ﴾ أي من قبل القتل .

وقيل : من قبل أن تلقوا أسباب الموت ؛ وذلك أن كثيراً ممن لم يحضروا بدراً كانوا يَتَمَنّون يوماً يكون فيه قِتال ، فلما كان يوم أُحُد انهزموا ، وكان منهم من تجلّد حتى قُتل ، ومنهم أنس بن النضر عم أنس بن مالك ، فإنه قال لما انكشف المسلمون : اللّهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ، وباشر القتال وقال : إِيهاً إنها ريح الجنة إني لأجدها ، ومضى حتى استشهد .

قال أنس : فما عرفناه إلا ببنانه ووجدنا فيه بِضعاً وثمانين جراحة .

وفيه وفي أمثاله نزل ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب : 23] .

فالآية عِتاب في حق من انهزم ، لا سِيّما وكان منهم حَمْلٌ للنبيّ صلى الله عليه وسلم على الخروج من المدينة ، وسيأتي .

وتَمنّي الموت يرجع من المسلمين إلى تَمنّي الشهادة المبنية على الثبات والصبر على الجهاد ، لا إلى قتل الكفار لهم ؛ لأنه معصيةٌ وكفرٌ ولا يجوز إرادة المعصية ، وعلى هذا يحمل سؤال المسلمين من الله أن يرزقهم الشهادة ، فيسألون الصبر على الجهاد وإن أدّى إلى القتل .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ قال الأخفش : هو تكرير بمعنى التأكيد لقوله : ﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ ﴾ مثل ﴿ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام : 38] .

وقيل : معناه وأنتم بُصَرَاء ليس في أعينكم عِلَلٌ ؛ (كما) تقول : قد رأيت كذا وكذا وليس في عينيك عِلّة ، أي فقد رأيته رؤية حقيقة ؛ وهذا راجع إلى معنى التوكيد .

وقال بعضهم : ﴿ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

وفي الآية إضمار ، أي فقد رأيتموه وأنتم تنظرون فِلمَ انهزمتم ؟ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 220 . 221 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الموت ﴾ خطاب لطائفة من المؤمنين لم يشهدوا غزوة بدر لعدم ظنهم الحرب حين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها فلما وقع ما وقع ندموا فكانوا يقولون : ليتنا نقتل كما قتل أصحاب بدر ونستشهد كما استشهدوا فلما أشهدهم الله تعالى أحداً لم يلبث إلا من شاء الله تعالى منهم .

فالمراد بالموت هنا الموت في سبيل الله تعالى وهي الشهادة ولا بأس بتمنيها ولا يرد أن في تمني ذلك تمني غلبة الكفار لأن قصد المتمني الوصول إلى نيل كرامة الشهداء لا غير، ولا يذهب إلى ذلك وهمه كما أن من يشرب دواء النصراني مثلاً يقصد الشفاء لا نفعه ولا ترويج صناعته، وقد وقع هذا التمني من عبد الله بن رواحة من كبار الصحابة ولم ينكر عليه، ويجوز أن يراد بالموت الحرب فإنها من أسبابه، وبه يشعر كلام الربيع وقتادة فحينئذ المتمنى الحرب لا الموت.

﴿ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ ﴾ متعلق بتمنون ﴾ مبين لسبب إقدامهم على التمني أي من قبل أن تشاهدوا وتعرفوا هوله، وقرىء بضم اللام على حذف المضاف إليه ونية معناه وأن تلقوه حينئذ بدل من الموت بدل اشتمال أي كنتم تمنون الموت أن تلقوه من قبل ذلك، وقرىء (تلاقوه) من المفاعلة التي تكون بين اثنين وما لقيك فقد لقيته، ويجوز أن يكون من باب سافرت والضمير عائد إلى (الموت) ، وقيل: إلى العدو المفهوم من الكلام وليس بشيء.

﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ ﴾ أي ما تمنيتموه من الموت بمشاهدة أسبابه أو أسبابه ، والفاء فصيحة كأنه قيل : إن كنتم صادقين في تمنيكم ذلك فقد رأيتموه ، وإيثار الرؤية على الملاقاة إما للإشارة إلى انهزامهم أو للمبالغة في مشاهدتهم له كتقييد ذلك بقوله سبحانه : ﴿ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ لأنه في موضع الحال من ضمير المخاطبين أي رأيتموه معاينين له ، وهذا على حد قولك : رأيته وليس في عيني علة أي رأيته رؤية حقيقية لا خفاء فيها ولا شبهة ، وقيل : تنظرون بمعنى تتأملون وتتفكرون أي وأنتم تتأملون الحال كيف هي ، وقيل : معناه وأنتم تنظرون إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى كل حال فالمقصود من هذا الكلام عتاب المنهزمين على تمنيهم الشهادة وهم لم يثبتوا حتى يستشهدوا ، أو على تمنيهم الحرب وتسببهم لها ثم جبنهم وانهزامهم لا على تمني الشهادة نفسها لأن ذلك مما لا عتاب عليه كما وهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 71. 72 ﴾

(27/131)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ رايتموه ﴾ بغير همزة يعني بالتليين ونحوه ﴿ رأوك ﴾ [الفرقان : 41] و

﴿ رأوه ﴾ [الملك : 27] روى هبة الله بن جعفر الأصفهاني عن ورش وحمزة في الوقف ﴿ يرد ثواب ﴾ وبابه مدغماً : أبو عمروا وشان بن عامر وسهل وحمزة وعلي وخلف .

﴿ نؤته ﴾ مثل ﴿ يؤده ﴾ [آل عمران : 75] ﴿ وكائن ﴾ بالمد والهمز مثل "كاعن" حيث كان : ابن كثير . وقرأ يزيد ﴿ وكاين ﴾ بالمد بغير همزة . وقرأ أبو عمرو وسهل ويعقوب وعلي بغير نون في الوقف ﴿ وكأي ﴾ الباقون : ﴿ وكأين ﴾ في الحالين ﴿ قتل ﴾ أبو عمرو وسهل ويعقوب وابن كثير ونافع وقتيبة والمفضل . الباقون . ﴿ قاتل ﴾ .

الوقوف : ﴿ الصابرين ﴾ ه ﴿ تلقوه ﴾ ص لطول الكلام ﴿ رسول ﴾ ج لأن ما بعده يصلح صفة واستئنافاً ﴿ الرسل ﴾ ط ﴿ أعقابكم ﴾ ط لتناهي الاستفهام ﴿ شيئاً ﴾ ط ﴿ الشاكرين ﴾ ه ﴿ مؤجلاً ﴾ ج لابتداء الشرط ﴿ منها ﴾ ج للعطف ﴿ منها ﴾ ط ﴿ الشاكرين ﴾ ه ﴿ قتل ﴾ ط ليكون قتل النبي صلى الله عليه وسلم إلزاماً للحجة على من اعتذر في الانهزام بما سمع من نداء إبليس ألا إن محمداً قد قتل . والتقدير ومعه ربيون كثير . ولو وصل كان الربيون مقتولين . ومن قرأ ﴿ قاتل ﴾ فله أن لا يقف ﴿ كثير ﴾ ج لابتداء النفي مع فاء التعقيب ﴿ وما استكانوا ﴾ ط ﴿ الصابرين ﴾ ه ﴿ الكافرين ﴾ ه ﴿ الآخرة ﴾ ط ﴿ المحسنين ﴾ ه ﴿ خاسرين ﴾ ه ﴿ مولاكم ﴾ ج ﴿ الناصرين ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 2 صـ 268 ﴾

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال عليه الرحمة :

كلام ألقي إليهم بإجمال بالغ غاية الإيجاز ، ليكون جامعاً بين الموعظة ، والمعذرة ، والملام ، والواو عاطفة أو حالية .

والخطاب للأحياء ، لا محالة ، الّذين لم يذوقوا الموت ، ولم ينالوا الشهادة ، والّذين كان حظّهم في ذلك اليوم هو الهزيمة ، فقوله : ﴿ كنتم تمنّون الموت ﴾ أريد به تمنّي لقاء العدوّ يوم أُحُد ، وعدم رضاهم بأن يتحصّنوا بالمدينة ، ويقفوا موقف الدّفاع ، كما أشار به الرسول عليه الصلاة والسلام ولكنّهم أظهروا الشجاعة وحبّ اللّقاء ، ولو كان فيه الموت ، نظراً لقوة العدوّ وكثرته ، فالتمنّي هو تمنّي اللّقاء ونصر الدّين بأقصى جهدهم ، ولمّا كان ذلك يقتضي عدم اكتراث كُلّ واحد منهم بتلف نفسه في الدّفاع ، رجاء أن يكون قبل هلاكه قد أبلى في العدوّ ، وهيّأ النّصر لمن بقي بعده ، جعل تمنّيهم اللّقاء كأنّه تمنّي الموت من أوّل الأمر ، تنزيلاً لغاية التمنّي منزلة مبدئه .

وقوله : ﴿ من قبل أن تلقوه ﴾ تعريض بأنّهم تمنّوا أمراً مع الإغضاء عن شدّته عليهم ، فتمنّيهم إيّاه كتمنّي شيء قد جهلوا ما فيه من المصائب .

وقوله : ﴿ فقد رأيتموه ﴾ أي رأيتم الموت ، ومعنى رؤيته مشاهدة أسبابه المحقّقة ، الّتي

رؤيتها كمشاهدة الموت ، فيجوز أن يكون قوله : ﴿ فقد رأيتموه ﴾ تمثيلاً ، ويجوز أن تطلق الرؤية على شدّة التوقّع ، كإطلاق الشمّ على ذلك في قول الحارث بن هشام المخزومي :

وشممتُ ريح الموت من تلقائهم . . .

في مأزق والخيل لم تتبدّد

وكإطلاقه في قول ابن معد يكرب يوم القادسية : فضمّني ضمّة وَجَدْت منها ريحَ الموت .

والفاء في قوله : ﴿ فقد رأيتموه ﴾ فاء الفصيحة عن قوله : ﴿ كنتم تمنون ﴾ والتقدير : وأجبتم إلى ما تمنّيتم فقد رأيتموه ، أو التقدير : فإن كان تمنّيكم حقّاً فقد رأيتموه ، والمعنى : فأين بلاء من يتمنّى الموت ، كقول عباس بن الأحنف :

قالُوا خُراسانُ أقصى ما يُراد بنا . . .

ثُمّ القُفول فقدْ جِئْنا خُراسانا

(29/131)

ومنه قوله تعالى : ﴿ فقد كذّبوكم بما تقولون ﴾ [الفرقان : 19] وقوله في سورة الروم (56) : ﴿ فهذا يوم البعث ﴾

﴿ وجملة وأنتم تنظرون ﴾ حال مؤكّدة لمعنى ﴿ رأيتُموه ﴾ ، أو هو تفريع أي : رأيتم الموت وكان حظّكم من ذلك النظر ، دون الغَناء في وقت الخطر ، فأنتم مبهوتون .

ومحلّ الموعظة من الآية : أنّ المرء لا يطلب أمراً حتّى يفكّر في عواقبه ، ويسبر مقدار تحمّله لمصائبه .

ومحلّ المعذرة في قوله : ﴿ من قبل أن تلقوه ﴾ وقوله : ﴿ فقد رأيتموه ﴾ ومحلّ الملام في قوله : ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ .

ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ تمنون الموت ﴾ بمعنى تتمنَّوْن موت الشهادة في سبيل الله فقد رأيتم مشارفة الموت إياكم ، وأنتم تنظرون من مات من إخوانكم ، أي فكيف وجدتم أنفسكم حين رأيتم الموت ، وكأنّه تعريض بهم بأنّهم ليسوا بمقام من يتمنّى الشهادة .

إذ قد جبنوا وقت الحاجة ، وخفّوا إلى الغنيمة ، فالكلام ملام محض على هذا ، وليس تمنّي الشهادة بملوم عليه ، ولكن اللّوم على تمنّي ما لا يستطيع كما قيل : (إذا لم تستطع شيئاً فدعه) .

كيف وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ولوددت أنّي أقتل في سبيل الله ، ثمّ أُحيا ثمّ أُقتل ثمّ أحيا ، ثمّ أُقْتل " وقال عمر : " اللّهم إنّي أسألك شهادة في سبيلك " وقال ابن رواحة :

لكنّني أسأل الرّحمانَ مغفرة . . .

وضربةً ذات فرغ تقذِف الزبدا

حتَّى يقولوا إذا مَرّوا على جدَثي . . .

أرشدَكَ اللهُ من غازٍ وقد رشدا

وعلى هذا الاحتمال فالضّمير راجع إلى الموت ، بمعنى أسبابه ، تنزيلاً لرؤية أسبابه منزلة رؤيته ، وهو كالاستخدام ، وعندي أنَّه أقرب من الاستخدام لأنَّه عاد إلى أسباب الموت باعتبار تنزيلها منزلة الموت . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 235.

237 ﴾

(30/131)

وقال ابن كثير :

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ أي : قد كنتم -أيها المؤمنون- قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو وتتحرقون عليهم ، وتودون مناجزتهم ومصابرتهم ، فها قد حصل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه ، فدونكم فقاتلوا وصابروا .

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ ،

وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ ، فَإِذَا لقيتموهم فَاصْبِرُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ" .

(1)

ولهذا قال : ﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ ﴾ يعني : الموت شاهدتموه في لَمَعان السيوف وحدّ الأسِنّة واشتباك الرِّماح ، وصفوف الرجال للقتال .

والمتكلمون يعبرون عن هذا بالتخْييل ، وهو مشاهدة ما ليس بمحسوس كالمحسوس كما تَتَخَيل الشاة صداقة الكبش وعداوة الذئب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 127 ﴾

سؤال : فإن قلت : كيف يجوز تمني الشهادة وفي تمنيها تمني غلبة الكافر المسلم ؟

قلت : قصد متمني الشهادة إلى نيل كرامة الشهداء لا غير ، ولا يذهب وهمه إلى ذلك المتضمن ، كما أن من يشرب دواء الطبيب النصراني قاصد إلى حصول المأمول من الشفاء ، ولا يخطر بباله أنّ فيه جرّ منفعة وإحسان إلى عدوّ الله وتنفيقا لصناعته .

ولقد قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه حين نهض إلى مؤتة وقيل له ردكم الله :

لِكِنَّني أَسْأَلُ الرَّحْمنَ مَغْفِرَةً . . .

وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا

أو طَعْنَةً بِيَدَي حَرَّانَ مُجْهِزَةً . . .

بِحَرْبَةٍ تَنفذُ الأَحْشَاءَ وَالكَبِدَا

حَتَّى يَقُولُوا إِذَا مَرُّوا عَلَى جَدَثِي . . . أَرشدكَ اللَّهُ مِنْ غَازٍ وَقَد رَشَدا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشاف حـ 1 صـ 421 ﴾

---

(1) صحيح البخاري معلقا برقم (3021) وصحيح مسلم برقم (1741)

(31/131)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الموت ﴾ قرأ البزي : بتشديد تاء " تَمَنَّوْنَ " ، ولا يمكن ذلك إلا في الوصل ، وقاعدته : أنه يصل ميم الجمع بواو ، وقد تقدم تحرير هذا عند قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الخبيث مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ [البقرة : 267] .

قوله : " مِن قَبْلِ " الجمهور على كسر اللام ؛ لأنها مُعْرَبة ؛ لإضافتها إلى " أنْ " وصلتها .

وقرأ مجاهد وابن جُبير : ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ بضم اللام ، وقطعها عن الإضافة ، كقوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ [الروم : 4] وعلى هذا فَ " أنْ " وَصِلَتُهَا بدل اشتمال من " الْمَوْتَ " في محل نصب ، أي : تَمَنَّوْنَ لقاء الموت ، كقولك : رَهِبْتُ العَدُوَّ لقاءه ،

والضمير في " تَلْقَوْهُ " فيه وجهان :

أظهرهما : عوده على " الْمَوْتَ " .

والثاني : عوده على العدو ، وإن لم يجر له ذِكْر – لدلالة الحال عليه .

وقرأ الزُّهَرِيُّ ، والنخعيّ " تلاقُوه " ، ومعناه معنى " تَلْقَوْه " ؛ لأن " لقي " يستدعي أن يكون بين اثنين – بمادته – وإن لم يكن على المفاعلة .

قوله : ﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ ﴾ الظاهر أن الرؤية بصرية ، فيكتفى بمفعول واحد .

وجوَّزوا أن تكون علمية ، فتحتاج إلى مفعولٍ ثانٍ ، هو محذوف ، أي : فقد علمتموه حاضراً – أي : الموت – .

إلا أن حَذْف أحد المفعولين في باب " ظن " ليس بالسَّهْل ، حتى إن بعضهم يَخُصُّه بالضرورة ، كقول عنترة : [الكامل]

وَلَقَدْ نَزَلْتِ ، فَلاَ تَظُنِّي غَيْرَهُ . . . مِنِّي بِمَنْزِلَةِ الْمُحَبِّ الْمُكْرَمِ

أي : فلا تظني غيره واقعاً مني .

(32/131)

قوله : ﴿ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ يجوز أن تكون جملة حالية – وهي حال مؤكِّدة – رفعت ما تحتمله الرؤية من المجاز ، أو الاشتراك بينها وبين رؤية القلب ، ويجوز أن تكون مستأنفة ،

بمعنى : وأنتم تنظرون في فعلكم – الآن – بعد انقضاء الحرب ، هل وَفَّيْتُمْ ، أو خالفتم ؟

وقال ابنُ الأَنْبَارِي : " رَأَيْتُمُوهُ " ، أي : قابلتموه ﴿ وَأَنُتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ بعيونكم ، ولهذه العلة

ذكر النظر بعد الرؤية حيث اختلف معناهما ؛ لأن الأول بمعنى : المقابلة والمواجهة ،

والثاني بمعنى : رؤية العين .

وهذا – أعني : إطلاق الرؤية على المقابلة والمواجهة – غير معروف عند أهل اللسان ،

وعلى تقدير صحته ، فتكون الجملة من قوله : ﴿ وَأَنُتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ جملة حالية مبيِّنة – لا

مؤكِّدة – لأنها أفادت معنًى زائداً على معنى عاملها .

ويجوز أن يقدَّر لِ " تَنْظُرُونَ " مفعولاً ، ويجوز أن لا يُقَدَّر ؛ إذ المعنى : وأنتم من أهل النظر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 565 . 566 ﴾

فصل

قال الثعالبى :

(33/131)

فائدة

قال ابن عطية :

قوله ﴿ ولقد كنتم تمنون الموت ﴾ والسبب في ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج في غزوة بدر يريد عير قريش مبادراً فلم يوعب الناس معه ، إذ كان الظن أنه لا يلقى حرباً ، فلما قضى الله ببدر ما قضى وفاز حاضروها بالمنزلة الرفيعة ، كان المتخلفون من المؤمنين عنها يتمنون حضور قتال الكفار مع النبي صلى الله عليه وسلم ليكون منهم في ذلك غناء يلحقهم عند ربهم ونبيهم بمنزلة أهل بدر ، ولأنس بن النضر في ذلك كلام محفوظ ، فلما جاء أمر أحد –وحضر القتال لم يصدق كل المؤمنين ، فعاتبهم الله بهذه الآية وألزمهم تعالى تمني الموت من حيث تمنوا لقاء الرجال بالحديد ومضاربتهم به ، وهي حال في ضمنها في الأغلب الموت ، ولا يتمناها إلا من طابت نفسه بالموت ، فصار الموت كأنه المتمنى ، وإلا فنفس قتل المشرك للمسلم لا يجوز أن يتمنى من حيث هو قتل ، وإنما تتمنى لواحقه من الشهادة والتنعيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 515 ﴾

قال الثعالبى :

وفي كلام *ع* (1) : بعضُ إجمالٍ ، وقد ترجم البخاريُّ تَمَنِّيَ الشهادةِ ، ثم أسند عن أبي هريرة ، قال : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَوْلاَ أَنَّ رِجَالاً مِنَ المُؤْمِنِينَ لاَ تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ ؛ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي ، وَلاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ ، مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَوَدِدتُّ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ثُمَّ أَحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ ، ثُمَّ أَحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ ، ثُمَّ أَحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ " وخرَّجه أيضاً مسلمٌ ، وخرَّج

البخاريُّ ومسلمٌ مِنْ حديث أنسٍ ، عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : " مَا مِنْ عَبْدٍ يَمُوتُ ، لَهُ عِنْدَ اللَّهِ (عَزَّ وجَلَّ) خَيْرٌ ، يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا ، وأَنَّ الدُّنْيَا لَهُ وَمَا فِيهَا ، إِلاَّ الشَّهِيدَ ، لِمَا يرى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ ، فَإِنَّهُ يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا ، فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ ؛ لِمَا يرى مِنَ الكَرَامَةِ " اهـ .

فقد تبيَّن لك تمنِّي القَتْلِ في سبيل اللَّه بهذه النُّصُوص ؛ لما فيه من الكرامة .

وصَوَابُ كلام *ع* : أنْ يقول : وإنما يتمنَّى القتلُ ؛ للواحقه ؛ من الشَّهادةِ والتَّنْعِيمِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ 316 ﴾

(34/131)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (143) ﴾

طوارق التمني بعد الصبر على احتمال المشاق ولكن :

إذا انسكبت دموعٌ في خُدُودٍ . . . تبيَّن من بكى ممن تباكى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 281 ﴾

(35/131)

بحث نفيس

قال في الميزان :

كلام في الامتحان وحقيقته

لا ريب أن القرآن الكريم يخص أمر الهداية بالله سبحانه غير أن الهداية فيه لا تنحصر في الهداية الاختيارية إلى سعادة الآخرة أو الدنيا فقد قال تعالى فيما قال ﴿ "الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى" : طه - 50 ﴾

فعمم الهداية لكل شئ من ذوي الشعور والعقل وغيرهم وأطلقها أيضا من جهة الغاية وقال أيضا ﴿ الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى : الأعلى - 3 ﴾ والآية من جهة الإطلاق كسابقتها .

ومن هنا يظهر أن هذه الهداية غير الهداية الخاصة التي تقابل الإضلال فإن الله سبحانه نفاها وأثبت مكانها الضلال في طوائف والهداية العامة لا تنفى عن شئ من خلقه قال تعالى ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين : الجمعة - 5 ﴾ وقال ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين : الصف - 5 ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة .

وكذا يظهر أيضا أن الهداية المذكورة غير الهداية بمعنى إراءة الطريق العامة للمؤمن والكافر كما في قوله تعالى ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا : الدهر - 3 ﴾ وقوله

﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى : حم السجدة - 17 ﴾ فإن ما في هاتين الآيتين ونظائرهما من الهداية لا يعم غير أرباب الشعور والعقل وقد عرفت أن ما في قوله ﴿ ثم هدى ﴾ وقوله ﴿ والذى قدر فهدى ﴾ عام من حيث المورد والغاية جميعا على أن الآية الثانية تفرع الهداية على التقدير والهداية الخاصة لا تلائم التقدير الذى هو تهيئة الأسباب والعلل لسوق الشئ إلى غاية خلقته وإن كانت تلك الهداية أيضا من جهة النظام العام في العالم داخلة في حيطة التقدير لكن النظر غير النظر فافهم ذلك .

(36/131)

وكيف كان فهذه الهداية العامة هي هدايته تعالى كل شئ إلى كمال وجوده وإيصاله إلى غاية خلقته وهى التى بها نزوع كل شئ إلى ما يقتضيه قوام ذاته من نشوء واستكمال وأفعال وحركات وغير ذلك وللكلام ذيل طويل سنشرحه إن ساعدنا التوفيق إن شاء الله العزيز .

والغرض أن كلامه تعالى يدل على أن الأشياء إنما تنساق إلى غاياتها وآجالها بهداية عامة إلهية لا يشذ عنها شاذ وقد جعلها الله تعالى حقا لها على نفسه وهو لا يخلف الميعاد كما قال تعالى ﴿ إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى : الليل - 13 ﴾ والآية كما ترى تعم

بإطلاقها الهداية الاجتماعية للمجتمعات والهداية الفردية مضافة إلى ما تدل عليه الآيتان السابقتان.

فمن حق الأشياء على الله تعالى هدايتها تكوينا إلى كمالها المقدر لها وهدايتها إلى كمالها المشرع لها وقد عرفت فيما مر من مباحث النبوة أن التشريع كيف يدخل في التكوين وكيف يحيط به القضاء والقدر فإن النوع الإنساني له نوع وجود لا يتم أمره إلا بسلسلة من الأفعال الاختيارية الإرادية التى لا تقع إلا عن اعتقادات نظرية وعملية فلابد أن يعيش تحت قوانين حقة أو باطلة جيدة أو ردية فلابد لسائق التكوين أن يهيئ له سلسلة من الأوامر والنواهي الشريعة وسلسلة أخرى من الحوادث الاجتماعية والفردية حتى يخرج بتلاقيه معهما ما في قوته إلى الفعل فيسعد أو يشقى ويظهر ما في مكمن وجوده وعند ذلك ينطبق على هذه الحوادث وهذا التشريع اسم المحنة والبلاء ونحوهما.

توضيح ذلك أن من لم يتبع الدعوة الإلهية واستوجب لنفسه الشقاء فقد حقت عليه كلمة العذاب إن بقى على تلك الحال فكل ما يستقبله من الحوادث المتعلقة بها الأوامر والنواهي الإلهية ويخرج بها من القوة إلى الفعل تتم له بذلك فعلية جديدة من الشقاء وإن كان راضيا

بما عنده مغرورا بما يجده فليس ذلك إلا مكرا إلهيا فإنه يشقيهم بعين ما يحسبونه سعادة لأنفسهم ويخيب سعيهم في ما يظنونه فوزا لأنفسهم قال تعالى ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين : آل عمران – 54 ﴾ وقال ﴿ ولا يحيق المكر السئ إلا بأهله : فاطر – 43 ﴾ وقال ﴿ ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون : الأنعام – 123 ﴾ وقال ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم إن كيدى متين : الاعراف – 183 ﴾ فما يتبجح به المغرور الجاهل بأمر الله أنه سبق ربه في ما أراده منه بالمخالفة والتمرد فإنه يعينه على نفسه فيما أراده قال تعالى ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون : العنكبوت – 4 ﴾ ومن أعجب الآيات في هذا الباب قوله تعالى ﴿ فلله المكر جميعا : الرعد – 42 ﴾ .

فجميع هذه المماكرات والمخالفات والمظالم والتعديات التى تظهر من هؤلاء بالنسبة إلى الوظائف الدينية وكل ما يستقبلهم من حوادث الأيام ويظهر بها منهم ما أضمروه في قلوبهم ودعتهم إلى ذلك أهواؤهم مكر إلهي وإملاء واستدراج فإن من حقهم على الله أن يهديهم إلى عاقبة أمرهم وخاتمته وقد فعل والله غالب على أمره .

وهذه الأمور بعينها إذا نسبت إلى الشيطان كانت أقسام الكفر والمعاصي إغواء منه لهم والنزوع إليها دعوة ووسوسة ونزعة ووحيا وإضلالا والحوادث الداعية وما يجرى مجراها

زينة له ووسائل وحبائل وشبكات منه على ما سيجئ بيانه في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى .

(38/131)

وأما المؤمن الذى رسخ في قلبه الإيمان فما تظهر منه من الطاعات والعبادات وكذا الحوادث التى تستقبله فيظهر منه عندها ذلك ينطبق عليها مفهوم التوفيق والولاية الإلهية والهداية بالمعنى الأخص نوع انطباق قال تعالى ﴿ والله يؤيد بنصره من يشاء : آل عمران - 13 ﴾ وقال ﴿ والله ولى المؤمنين : آل عمران - 68 ﴾ وقال ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور : البقرة - 257 ﴾ وقال ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم : يونس - 9 ﴾ وقال ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به في الناس : الأنعام - 122 ﴾ هذا إذا نسبت هذه الأمور إلى الله سبحانه ، وأما إذا نسبت إلى الملائكة فتسمى تأييدا وتسديدا منهم قال تعالى ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه : المجادلة - 22 ﴾ .

ثم إنه كما أن الهداية العامة تصاحب الأشياء من بدء كونها إلى آخر أحيان وجودها ما دامت سالكة سبيل الرجوع إلى الله سبحانه كذلك المقادير تدفعها من ورائها كما هو

ظاهر قوله تعالى ﴿ والذى قدر فهدى : الأعلى - 3 ﴾ فإن المقادير التى تحملها العلل والأسباب المحتفة بوجود الشئ هي التى تحول الشئ من حال أولى إلي حال ثانية وهلم جرا فهى لا تزال تدفع الأشياء من ورائها .

وكما أن المقادير تدفعها من ورائها كذلك الآجال وهى آخر ما ينتهى إليه وجود الأشياء تجذبها من أمامها كما يدل عليه قوله تعالى ﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون : الاحقاف - 3 ﴾ فإن الآية تربط الأشياء بغاياتها وهى الآجال والشيأن المرتبطان إذا قوى أحدهما على الآخر كان حاله بالنسبة إلى قرينه هو المسمى جذبا والآجال المسماة امور ثابتة غير متغيرة فهى تجذب الأشياء من أمامها وهو ظاهر .

(39/131)

فالأشياء محاطة بقوى إلهية قوة تدفعها وقوة تجذبها وقوة تصاحبها وتربيها وهى القوى الأصلية التى تثبتها القرآن الكريم غير القوى الحافظة والرقباء والقرناء كالملائكة والشياطين وغير ذلك .

ثم إنا نسمى نوع التصرفات في الشئ إذا قصد به مقصد لا يظهر حاله بالنسبة إليه هل له

صلوحه أو ليس له بالامتحان والاختبار فإنك إذا جهلت حال الشئ أنه هل يصلح لأمر كذا أو لا يصلح أو علمت باطن أمره ولكن أردت أن يظهر منه ذلك أوردت عليه أشياء مما يلائم المقصد المذكور حتى يظهر حاله بذلك هل يقبلها لنفسه أو يدفعها عن نفسه وتسمى ذلك امتحانا واختبارا واستعلاما لحاله أو ما يقاربها من الألفاظ.

وهذا المعنى بعينه ينطبق على التصرف الإلهي بما يورده من الشرائع والحوادث الجارية على أولي الشعور والعقل من الأشياء كالإنسان فإن هذه الأمور يظهر بها حال الإنسان بالنسبة إلى المقصد الذى يدعى إليه الإنسان بالدعوة الدينية فهى امتحانات إلهية.

وإنما الفرق بين الامتحان الإلهي وما عندنا من الامتحان أنا لا نخلو غالبا عن الجهل بما في باطن الأشياء فنريد بالامتحان استعلام حالها المجهول لنا والله سبحانه يمتنع عليه الجهل وعنده مفاتح الغيب فالتربية العامة الإلهية للإنسان من جهة دعوته إلى حسن العاقبة والسعادة امتحان لأنه يظهر ويتعين بها حال الشئ أنه من أهل أي الدارين دار الثواب أو دار العقاب.

ولذلك سمى الله تعالى هذا التصرف الإلهى من نفسه أعنى التشريع وتوجيه الحوادث بلاء وابتلاء وفتنة فقال بوجه عام ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا : الكهف - 7 ﴾ وقال ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا : الدهر - 2 ﴾ وقال ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة : الأنبياء - 35 ﴾ وكأنه يريد به ما يفصله قوله ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن : الفجر - 16 ﴾ وقال ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة : التغابن - 15 ﴾ وقال ﴿ ولكن ليبلو بعضكم ببعض : محمد - 4 ﴾ وقال ﴿ كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون : الأعراف - 163 ﴾ وقال ﴿ وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا : الأنفال - 17 ﴾ وقال ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين : العنكبوت - 3 ﴾ وقال في مثل إبراهيم ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات : البقرة - 124 ﴾ وقال في قصة ذبح إسماعيل ﴿ إن هذا لهو البلاء المبين : الصافات - 106 ﴾ وقال في موسى ﴿ وفتناك فتونا : طه - 40 ﴾ إلى غير ذلك من الآيات .

والآيات كما ترى تعمم المحنة والبلاء لجميع ما يرتبط به الإنسان من وجوده وأجزاء وجوده كالسمع والبصر والحياة والخارج من وجوده المرتبط به بنحو كالأولاد والأزواج والعشيرة والأصدقاء والمال والجاه وجميع ما ينتفع به نوع انتفاع وكذا مقابلات هذه الأمور كالموت

وسائر المصائب المتوجهة إليه وبالجملة الآيات تعد كل ما يرتبط به الإنسان من أجزاء العالم وأحوالها فتنة وبلاءا من الله سبحانه بالنسبة إليه .

(41/131)

وفيها تعميم آخر من حيث الأفراد فالكل مفتنون مبتلون من مؤمن أو كافر وصالح أو طالح ونبى أو من دونه فهى سنة جارية لا يستثنى منها أحد .

فقد بان أن سنة الامتحان سنة إلهية جارية وهى سنة عملية متكئة على سنة أخرى تكوينية وهى سنة الهداية العامة الإلهية من حيث تعلقها بالمكلفين كالإنسان وما يتقدمها وما يتأخر عنها أعنى القدر والأجل كما مر بيانه .

ومن هنا يظهر أنها غير قابلة للنسخ فإن انتساخها عين فساد التكوين وهو محال ويشير إلى ذلك ما يدل من الآيات على كون الخلقة على الحق وما يدل على كون البعث حقا كقوله تعالى ﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى : الاحقاف - 3 ﴾ وقوله تعالى ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون : المؤمنون - 115 ﴾ وقوله تعالى ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون : الدخان - 39 ﴾ وقوله تعالى ﴿ من كان يرجو لقاء الله

فإن أجل الله لآت : العنكبوت – 5 ﴾ إلى غيرها فإن جميعها تدل على أن الخلقة بالحق وليست باطلة مقطوعة عن الغاية وإذا كانت أمام الأشياء غايات وآجال حقة ومن ورائها مقادير حقة ومعها هداية حقة فلا مناص عن تصادمها عامة وابتلاء أرباب التكليف منها خاصة بأمور يخرج بالاتصال بها ما في قوتها من الكمال والنقص والسعادة والشقاء إلى الفعل وهذا المعنى في الإنسان المكلف بتكليف الدين امتحان وابتلاء فافهم ذلك .

ويظهر مما ذكرناه معنى المحق والتمحيص أيضا فإن الامتحان إذا ورد على المؤمن فأوجب امتياز فضائله الكامنة من الرذائل أو ورد على الجماعة فاقتضى امتياز المؤمنين من المنافقين والذين في قلوبهم مرض صدق عليه اسم التمحيص وهو التمييز .

(42/131)

وكذا إذا توالت الامتحانات الإلهية على الكافر والمنافق وفي ظاهرهما صفات وأحوال حسنة مغبوطة فأوجبت تدريجا ظهور ما في باطنهما من الخبائث وكلما ظهرت خبيثة أزالت فضيلة ظاهرية كان ذلك محقا له أي إنفادا تدريجيا لمحاسنها قال تعالى ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين : آل عمران – ﴾ 141 .

وللكافرين محق آخر من جهة ما يخبره تعالى أن الكون ينساق إلى صلاح البشر وخلوص الدين لله قال تعالى ﴿ والعاقبة للتقوى : طه – 132 ﴾ وقال ﴿ أن الأرض يرثها عبادي الصالحون : الأنبياء – 105 ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الميزان حـ 4 صـ 36.31 ﴾

(43/131)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

هَذِهِ الْآيَاتُ وَمَا بَعْدَهَا فِي قِصَّةِ أُحُدٍ وَمَا فِيهَا مِنَ السُّنَنِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْحِكَمِ وَالْأَحْكَامِ ، فَهِيَ مُتَّصِلَةٌ بِقَوْلِهِ – عَزَّ وَجَلَّ – : وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ إِلَخْ . الْآيَاتِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ ، وَذَكَرْنَا حِكْمَةَ النَّهْيِ عَنِ الرِّبَا وَالْأَمْرِ بِالْمُسَارَعَةِ إِلَى الْمَغْفِرَةِ وَوَصْفِ الْمُتَّقِينَ فِي سِيَاقِ الْكَلَامِ عَلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ . وَقَالَ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ فِي بَيَانِ وَجْهِ الِاتِّصَالِ : " إِنَّ اللهَ – تَعَالَى – لَمَّا وَعَدَ عَلَى الطَّاعَةِ وَالتَّوْبَةِ مِنَ الْمَعْصِيَةِ الْغُفْرَانَ وَالْجَنَّاتِ أَتْبَعَهُ بِذِكْرِ مَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَةِ وَعَلَى التَّوْبَةِ

مِنَ الْمَعْصِيَةِ ، وَهُوَ تَأَمُّلُ أَحْوَالِ الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ مِنَ الْمُطِيعِينَ وَالْعَاصِينَ " وَإِنَّمَا هَذَا الَّذِي

قَالَهُ بِيَانُ لِاتِّصَالِ الْآيَةِ الْأُولَى مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ بِمَا قَبْلَهَا مُبَاشَرَةً مَعَ صَرْفِ النَّظَرِ عَنِ السِّيَاقِ وَالِاتِّصَالِ بَيْنَ مَجْمُوعِ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ وَاللَّاحِقَةِ .

ذَكَرَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ خَبَرَ وَقْعَةِ " أُحُدٍ " وَأَهَمَّ مَا وَقَعَ فِيهَا مَعَ التَّذْكِيرِ بِوَقْعَةِ " بَدْرٍ " وَمَا بَشَّرُوا بِهِ فِي ذَلِكَ . وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَمَا بَعْدَهَا يَذْكُرُ السُّنَنَ وَالْحِكَمَ فِي ذَلِكَ . وَيُعَلِّمُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ عِلْمِ الِاجْتِمَاعِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ ; وَلِذَلِكَ افْتَتَحَهَا بِقَوْلِهِ الْحَكِيمِ : قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ .

(44/131)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنَّ بَعْضَ الْمُفَسِّرِينَ يَجْعَلُ الْآيَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ تَمْهِيدًا لِمَا بَعْدَهَا مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْوَهَنِ وَالْحَزَنِ وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ ، وَعَلَى هَذَا جَرَى (الْجَلَالُ) كَأَنَّهُ يَقُولُ : إِنَّ هَذَا الَّذِي وَقَعَ لَا يَصِحُّ أَنْ يُضْعِفَ عَزَائِمَكُمْ فَإِنَّ السُّنَنَ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ تُبَيِّنُ لَكُمْ كَيْفَ كَانَتْ مُصَارَعَةُ الْحَقِّ لِلْبَاطِلِ ، وَكَيْفَ ابْتُلِيَ أَهْلُ الْحَقِّ أَحْيَانًا بِالْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَالِانْكِسَارِ فِي الْحَرْبِ ثُمَّ كَانَتِ الْعَاقِبَةُ لَهُمْ ، فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ الْمُقَاوِمِينَ لَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا هُمُ الْمَخْذُولِينَ الْمَغْلُوبِينَ ، وَكَانَ جُنْدُ اللهِ هُمُ الْمَنْصُورِينَ الْغَالِبِينَ ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا لِمَا أَصَابَكُمْ فِي أُحُدٍ .

ثُمَّ قَالَ مَا مِثَالُهُ مَعَ إِيضَاحٍ وَزِيَادَةٍ : هَذَا رَأْيٌ ضَعِيفٌ فَإِنَّ ذِكْرَ السُّنَنِ بَعْدَ آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ فِي مَوْضُوعَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ تُفِيدُ مَعَانِيَ كَثِيرَةً ، فَإِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - نَهَى الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِ بِطَانَةٍ مِنَ الْأَعْدَاءِ الَّذِينَ بَدَتْ لَهُمْ بَغْضَاؤُهُمْ ، وَبَيَّنَ هُوَ لَهُمْ مَجَامِعَ خُبْثِهِمْ وَكَيْدِهِمْ ، ثُمَّ ذَكَّرَ النَّبِيَّ وَالْمُؤْمِنِينَ بِوَقْعَةِ " أُحُدٍ " وَمَا كَانَ فِيهَا بِالْإِجْمَالِ ، وَذَكَّرَهُمْ

(45/131)

بِنَصْرِهِ لَهُمْ بِبَدْرٍ ، ثُمَّ ذَكَرَ الْمُتَّقِينَ وَأَوْصَافَهُمْ وَمَا وُعِدُوا بِهِ ، ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ مُضِيَّ السُّنَنِ فِي الْأُمَمِ وَأَنَّهُ بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ، فَذِكْرُ السُّنَنِ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ يُفِيدُ مَعَانِيَ كَثِيرَةً تَحْتَاجُ إِلَى شَرْحٍ طَوِيلٍ جِدًّا لَا مَعْنًى وَاحِدًا كَمَا قِيلَ . وَإِنَّ فِي الْقُرْآنِ مِنْ إِفَادَةِ الْمَبَانِي الْقَلِيلَةِ لِلْمَعَانِي الْكَثِيرَةِ بِمَعُونَةِ السِّيَاقِ وَالْأُسْلُوبِ مَا لَا يَخْطُرُ فِي بَالِ أَحَدٍ مِنْ كُتَّابِ الْبَشَرِ وَعُلَمَائِهِمْ ، وَمِثْلُ هَذَا مِمَّا تَجِبُ الْعِنَايَةُ بِبَيَانِهِ ، يَقُولُ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَاهِرِ فِي دَلَائِلِ الْإِعْجَازِ : إِنَّ كَوْنَ الْقُرْآنِ مُعْجِزًا بِبَلَاغَتِهِ يُوجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَجْعَلَ أُسْلُوبَهُ الَّذِي كَانَ مُعْجِزًا بِهِ فَنًّا لِيَبْقَى دَالًّا عَلَى وَجْهِ إِعْجَازِهِ . وَكَذَلِكَ أَقُولُ : إِنَّ إِرْشَادَ اللَّهِ إِيَّانَا إِلَى أَنَّ لَهُ فِي خَلْقِهِ سُنَنًا يُوجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَجْعَلَ هَذِهِ السُّنَنَ عِلْمًا مِنَ الْعُلُومِ الْمُدَوَّنَةِ لِنَسْتَدِيمَ مَا فِيهَا مِنَ الْهِدَايَةِ وَالْمَوْعِظَةِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ ، فَيَجِبُ عَلَى الْأُمَّةِ فِي مَجْمُوعِهَا أَنْ يَكُونَ فِيهَا قَوْمٌ يُبَيِّنُونَ لَهَا

سُنَنَ اللهِ فِي خَلْقِهِ كَمَا فَعَلُوا فِي غَيْرِ هَذَا الْعِلْمِ مِنَ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ الَّتِي أَرْشَدَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ بِالْإِجْمَالِ وَقَدْ بَيَّنَهَا الْعُلَمَاءُ بِالتَّفْصِيلِ عَمَلًا بِإِرْشَادِهِ، كَالتَّوْحِيدِ وَالْأُصُولِ وَالْفِقْهِ. وَالْعِلْمُ بِسُنَنِ اللهِ - تَعَالَى - مِنْ أَهَمِّ الْعُلُومِ وَأَنْفَعِهَا، وَالْقُرْآنُ سَجَّلَ

(46/131)

عَلَيْهِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، وَقَدْ دَلَّنَا عَلَى مَأْخَذِهِ مِنْ أَحْوَالِ الْأُمَمِ إِذْ أَمَرَنَا أَنْ نَسِيرَ فِي الْأَرْضِ لِأَجْلِ اجْتِلَائِهَا وَمَعْرِفَةِ حَقِيقَتِهَا، وَلَا يُحْتَجُّ عَلَيْنَا بِعَدَمِ تَدْوِينِ الصَّحَابَةِ لَهَا فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يُدَوِّنُوا غَيْرَ هَذَا الْعِلْمِ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي وُضِعَتْ لَهَا الْأُصُولُ وَالْقَوَاعِدُ، وَفُرِّعَتْ مِنْهَا الْفُرُوعُ وَالْمَسَائِلُ، (قَالَ) وَإِنَّنِي لَا أَشُكُّ فِي كَوْنِ الصَّحَابَةِ كَانُوا مُهْتَدِينَ بِهَذِهِ السُّنَنِ وَعَالِمِينَ بِمُرَادِ اللهِ مِنْ ذِكْرِهَا. يَعْنِي أَنَّهُمْ بِمَا لَهُمْ مِنْ مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ وَالشُّعُوبِ الْقَرِيبَةِ مِنْهُمْ وَمِنَ التَّجَارِبِ وَالْأَخْبَارِ فِي الْحَرْبِ وَغَيْرِهَا وَبِمَا مُنِحُوا مِنَ الذَّكَاءِ وَالْحِذْقِ وَقُوَّةِ الِاسْتِنْبَاطِ كَانُوا يَفْهَمُونَ الْمُرَادَ مِنْ سُنَنِ اللهِ - تَعَالَى - وَيَهْتَدُونَ بِهَا فِي حُرُوبِهِمْ وَفُتُوحَاتِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ لِلْأُمَمِ الَّتِي اسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا ; لِذَلِكَ قَالَ: وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ بِالتَّجْرِبَةِ وَالْعَمَلِ أَنْفَعُ مِنَ الْعِلْمِ النَّظَرِيِّ الْمَحْضِ وَكَذَلِكَ كَانَتْ عُلُومُهُمْ كُلُّهَا، وَلَمَّا اخْتَلَفَتْ حَالَةُ الْعَصْرِ اخْتِلَافًا احْتَاجَتْ مَعَهُ الْأُمَّةُ إِلَى تَدْوِينِ عِلْمِ الْأَحْكَامِ وَعِلْمِ الْعَقَائِدِ وَغَيْرِهِمَا

كَانَتْ مُحْتَاجَةً أَيْضًا إِلَى تَدْوِينِ هَذَا الْعِلْمِ، وَلَكَ أَنْ تُسَمِّيَهُ عِلْمَ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ أَوْ عِلْمَ الِاجْتِمَاعِ أَوْ عِلْمَ السِّيَاسَةِ الدِّينِيَّةِ .

سَمِّ بِمَا شِئْتَ فَلَا حَرَجَ فِي التَّسْمِيَةِ .

(47/131)

ثُمَّ قَالَ : وَمَعْنَى الْجُمْلَةِ : انْظُرُوا إِلَى مَنْ تَقَدَّمَكُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَالْمُكَذِّبِينَ ; فَإِذَا أَنْتُمْ سَلَكْتُمْ سَبِيلَ الصَّالِحِينَ فَعَاقِبَتُكُمْ كَعَاقِبَتِهِمْ ، وَإِنْ سَلَكْتُمْ سُبُلَ الْمُكَذِّبِينَ فَعَاقِبَتُكُمْ كَعَاقِبَتِهِمْ . وَفِي هَذَا تَذْكِيرٌ لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي أُحُدٍ ، فَفِي الْآيَةِ مَجَارِي أَمْنٍ وَمَجَارِي خَوْفٍ ، فَهُوَ عَلَى بِشَارَتِهِ لَهُمْ فِيهَا بِالنَّصْرِ وَهَلَاكِ عَدُوِّهِمْ يُنْذِرُهُمْ عَاقِبَةَ الْمَيْلِ عَنْ سُنَنِهِ ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا سَارُوا فِي طَرِيقِ الضَّالِّينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَنْتَهُونَ إِلَى مِثْلِ مَا انْتَهَوْا إِلَيْهِ ، فَالْآيَةُ خَبَرٌ وَتَشْرِيعٌ ، وَفِي طَيِّهَا وَعْدٌ وَوَعِيدٌ .

وَأَقُولُ : السُّنَنُ جَمْعُ سُنَّةٍ وَهِيَ الطَّرِيقَةُ الْمُعَبَّدَةُ وَالسِّيرَةُ الْمُتَّبَعَةُ أَوِ الْمِثَالُ الْمُتَّبَعُ ، قِيلَ إِنَّهَا مِنْ قَوْلِهِمْ : سَنَّ الْمَاءَ إِذَا وَالَى صَبَّهُ ، فَشَبَّهَتِ الْعَرَبُ الطَّرِيقَةَ الْمُسْتَقِيمَةَ بِالْمَاءِ الْمَصْبُوبِ ، فَإِنَّهُ لِتَوَالِي أَجْزَائِهِ عَلَى نَهْجٍ وَاحِدٍ يَكُونُ كَالشَّيْءِ الْوَاحِدِ . وَمَعْنَى (خَلَتْ) : مَضَتْ وَسَلَفَتْ .

أَيْ إِنَّ أَمْرَ الْبَشَرِ فِي اجْتِمَاعِهِمْ وَمَا يَعْرِضُ فِيهِ مِنْ مُصَارَعَةِ الْحَقِّ لِلْبَاطِلِ وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنَ الْحَرْبِ وَالنِّزَالِ وَالْمُلْكِ وَالسِّيَادَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ قَدْ جَرَى عَلَى طُرُقٍ قَوِيمَةٍ وَقَوَاعِدَ ثَابِتَةٍ اقْتَضَاهَا النِّظَامُ الْعَامُّ وَلَيْسَ الْأَمْرُ أُنُفًا كَمَا يَزْعُمُ الْقَدَرِيَّةُ ، وَلَا تَحَكُّمًا وَاسْتِبْدَادًا كَمَا يَتَوَهَّمُ الْحَشْوِيَّةُ .

(48/131)

جَاءَ ذِكْرُ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ ، كَقَوْلِهِ فِي سِيَاقِ أَحْكَامِ الْقِتَالِ وَمَا كَانَ فِي وَقْعَةِ بَدْرٍ : قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ [8 : 38] وَقَوْلِهِ فِي سِيَاقِ أَحْوَالِ الْأُمَمِ مَعَ أَنْبِيَائِهِمْ : وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ [15 : 13] وَقَوْلِهِ فِي سِيَاقِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ : وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا [18 : 55] وَقَوْلِهِ فِي مِثْلِ هَذَا السِّيَاقِ : فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا [35 : 43] وَصَرَّحَ فِي سُوَرٍ أُخْرَى كَمَا صَرَّحَ هُنَا بِأَنَّ سُنَنَهُ لَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَحَوَّلُ كَسُورَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَسُورَةِ الْأَحْزَابِ وَسُورَةِ الْفَتْحِ .

هَذَا إِرْشَادٌ إِلَهِيٌّ ، لَمْ يُعْهَدْ فِي كِتَابٍ سَمَاوِيٍّ ، وَلَعَلَّهُ أُرْجِئَ إِلَى أَنْ يَبْلُغَ الْإِنْسَانُ كَمَالَ اسْتِعْدَادِهِ الِاجْتِمَاعِيِّ ، فَلَمْ يَرِدْ إِلَّا فِي الْقُرْآنِ ، الَّذِي خَتَمَ اللهُ بِهِ الْأَدْيَانَ .

(49/131)

كَانَ الْمِلِّيُّونَ مِنْ جَمِيعِ الْأَجْيَالِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَفْعَالَ اللهِ - تَعَالَى - فِي خَلْقِهِ تُشْبِهُ أَفْعَالَ الْحَاكِمِ الْمُسْتَبِدِّ فِي حُكُومَتِهِ ، الْمُطْلَقِ فِي سُلْطَتِهِ ، فَهُوَ يُحَابِي بَعْضَ النَّاسِ فَيَتَجَاوَزُ لَهُمْ عَمَّا يُعَاقِبُ لِأَجْلِهِ غَيْرَهُمْ ، وَيُثِيبُهُمْ عَلَى الْعَمَلِ الَّذِي لَا يَقْبَلُهُ مِنْ سِوَاهُمْ ، لِمُجَرَّدِ دُخُولِهِمْ فِي عُنْوَانٍ مُعَيَّنٍ ، وَانْتِمَائِهِمْ إِلَى نَبِيٍّ مُرْسَلٍ ، وَيَنْتَقِمُ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُطْلَقْ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ الْعُنْوَانُ ، أَوْ لَمْ يَتَّفِقْ لَهُمُ الِانْتِمَاءُ إِلَى ذَلِكَ الْإِنْسَانِ .

(50/131)

هَذَا مَا كَانُوا يَظُنُّونَ فِي دِينِهِمْ وَيُسْنِدُونَهُ إِلَى مَشِيئَةِ اللهِ الْمُطْلَقَةِ ، مِنْ غَيْرِ تَفْكِيرٍ فِي حِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ ، وَتَطْبِيقِهَا عَلَى سُنَنِهِ الْعَادِلَةِ ، فَإِنْ نَبَّهَهُمْ مُنَبِّهٌ إِلَى مَا يُصِيبُهُمْ بَلْ مَا أَصَابَ أَنْبِيَاءَهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ ، قَالُوا إِنَّهُ - تَعَالَى - يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، وَذَلِكَ رَفْعُ دَرَجَاتٍ أَوْ تَكْفِيرٌ

لِلسَّيِّئَاتِ وَأَشْبَاهُ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي يَشْتَبِهُ عَلَيْهِمْ حَقُّهُ بِبَاطِلِهِ ، وَيَلْتَبِسُ عَلَيْهِمْ حَالِيهِ بِعَاطِلِهِ ، وَقَدْ كَانَ وَمَا زَالَ عِلَّةَ غُرُورِ أَصْحَابِهِ بِدِينِهِمْ ، وَاحْتِقَارِهِمْ لِكُلِّ مَا عَلَيْهِ غَيْرُهُمْ ، فَجَاءَ الْقُرْآنُ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ أَنَّ مَشِيئَةَ اللهِ - تَعَالَى - فِي خَلْقِهِ إِنَّمَا تَنْفُذُ عَلَى سُنَنٍ حَكِيمَةٍ وَطَرَائِقَ قَوِيمَةٍ ، فَمَنْ سَارَ عَلَى سُنَّتِهِ فِي الْحَرْبِ - مَثَلًا - ظَفِرَ بِمَشِيئَةِ اللهِ وَإِنْ كَانَ مُلْحِدًا أَوْ وَثَنِيًّا ، وَمَنْ تَنَكَّبَهَا خَسِرَ وَإِنْ كَانَ صِدِّيقًا أَوْ نَبِيًّا ، وَعَلَى هَذَا يَتَخَرَّجُ انْهِزَامُ الْمُسْلِمِينَ فِي وَقْعَةِ أُحُدٍ حَتَّى وَصَلَ الْمُشْرِكُونَ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَشَجُّوا رَأْسَهُ ، وَكَسَرُوا سِنَّهُ ، وَأَرْدَوْهُ فِي تِلْكَ الْحُفْرَةِ ; كَمَا بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ ، وَسَيَأْتِي بَسْطُهُ فِي الْآيَاتِ اللَّاحِقَةِ ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ أَجْدَرُ النَّاسِ بِمَعْرِفَةِ سُنَنِ اللهِ - تَعَالَى - فِي الْأُمَمِ ، وَأَحَقُّ النَّاسِ بِالسَّيْرِ عَلَى طَرِيقِهَا بَيْنَ الْأُمَمِ ; لِذَلِكَ لَمْ يَلْبَثْ أَصْحَابُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

أَنْ ثَابُوا يَوْمَئِذٍ إِلَى رُشْدِهِمْ ، وَتَرَاجَعُوا لِلدِّفَاعِ عَنْ نَبِيِّهِمْ ، وَثَبَتُوا حَتَّى انْجَلَى عَنْهُمُ الْمُشْرِكُونَ ، وَلَمْ يَنَالُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَقْصِدُونَ .

وَكَأَنَّ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَكُونُوا قَدْ حَفِظُوا مَا وَرَدَ فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ مِنْ إِثْبَاتِ سُنَنِ اللهِ فِي

خَلْقِهِ وَكَوْنِهَا لَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَحَوَّلُ كَسُورَةِ الْحِجْرِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفِ وَالْمَلَائِكَةِ أَوْ فَاطِرٍ وَهِيَ الَّتِي ذَكَرْنَا بَعْضَهَا آنِفًا وَأَشَرْنَا إِلَى بَعْضٍ - أَوْ حَفِظُوا وَلَمْ يَفْقَهُوهُ وَلَمْ يَظْهَرْ لَهُمُ انْطِبَاقُهُ عَلَى مَا وَقَعَ لَهُمْ فِي أُحُدٍ كَمَا يُعْلَمُ مِنْ قَوْلِهِ الْآتِي : أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ [3 : 165] لِذَلِكَ صَرَّحَ لَهُمْ فِي بَدْءِ الْآيَاتِ الَّتِي تُبَيِّنُ لَهُمْ سُنَنَهُ أَنَّ لَهُ

سُنَنًا عَامَّةً جَرَى عَلَيْهَا نِظَامُ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلُ . وَأَنَّ مَا وَقَعَ لَهُمْ مِمَّا يَقُصُّ حِكْمَتَهُ عَلَيْهِمْ هُوَ مُطَابِقٌ لِتِلْكَ السُّنَنِ الَّتِي لَا تَتَحَوَّلُ وَلَا تَتَبَدَّلُ .

وَلَمَّا كَانَ التَّعْلِيمُ بِالْقَوْلِ وَحْدَهُ مِنْ غَيْرِ تَطْبِيقٍ عَلَى الْوَاقِعِ مِمَّا يُنْسَى أَوْ يَقِلُّ الِاعْتِبَارُ

(52/131)

بِهِ نَبَّهَهُمْ عَلَى هَذَا التَّطْبِيقِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى تَطْبِيقِهِ عَلَى أَحْوَالِ الْأُمَمِ الْأُخْرَى فَقَالَ : فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : أَيْ إِنَّ الْمُصَارَعَةَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ قَدْ وَقَعَتْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ، وَكَانَ أَهْلُ الْحَقِّ يَغْلِبُونَ أَهْلَ الْبَاطِلِ وَيُنْصَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالصَّبْرِ وَالتَّقْوَى (أَيِ اتِّقَاءِ مَا يَجِبُ اتِّقَاؤُهُ فِي الْحَرْبِ بِحَسَبِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَدَرَجَةِ اسْتِعْدَادِ الْأَعْدَاءِ) وَكَانَ ذَلِكَ يَجْرِي بِأَسْبَابٍ مُطَّرِدَةٍ وَعَلَى

طَرَائِقَ مُسْتَقِيمَةٍ ، يُعْلَمُ مِنْهَا أَنَّ صَاحِبَ الْحَقِّ إِذَا حَافَظَ عَلَيْهِ يُنْصَرُ وَيَرِثُ الْأَرْضَ ، وَإِنَّ مَنْ يَنْحَرِفُ عَنْهُ وَيَعِيثُ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا يُخْذَلُ وَتَكُونُ عَاقِبَتُهُ الدَّمَارَ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ وَاسْتَقْرُوا مَا حَلَّ بِالْأُمَمِ لِيَحْصُلَ لَكُمُ الْعِلْمُ الصَّحِيحُ التَّفْصِيلِيُّ بِذَلِكَ هُوَ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ الْيَقِينُ وَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الْعَمَلُ ، وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : أَيْ إِنْ لَمْ تُصَدِّقُوا فَسِيرُوا . وَهَذَا قَوْلٌ بَاطِلٌ .

(53/131)

قَالَ : وَالسَّيْرُ فِي الْأَرْضِ وَالْبَحْثُ عَنْ أَحْوَالِ الْمَاضِينَ وَتَعَرُّفُ مَا حَلَّ بِهِمْ هُوَ الَّذِي يُوصِلُ إِلَى مَعْرِفَةِ تِلْكَ السُّنَنِ وَالِاعْتِبَارِ بِهَا كَمَا يَنْبَغِي . نَعَمْ : إِنَّ النَّظَرَ فِي التَّارِيخِ الَّذِي يَشْرَحُ مَا عَرَفَهُ الَّذِينَ سَارُوا فِي الْأَرْضِ وَرَأَوْا آثَارَ الَّذِينَ خَلَوْا يُعْطِي الْإِنْسَانَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ مَا يَهْدِيهِ إِلَى تِلْكَ السُّنَنِ وَيُفِيدُهُ عِظَةً وَاعْتِبَارًا وَلَكِنْ دُونَ اعْتِبَارِ الَّذِي يَسِيرُ فِي الْأَرْضِ بِنَفْسِهِ وَيَرَى الْآثَارَ بِعَيْنِهِ وَلِذَلِكَ أَمَرَ بِالسَّيْرِ وَالنَّظَرِ ثُمَّ أَتْبَعَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(54/131)

هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مَا مِثَالُهُ مَعَ زِيَادَةٍ تَتَخَلَّلُهُ: كَأَنَّهُ يَقُولُ إِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ لَهُ عَقْلٌ يَعْتَبِرُ بِهِ، فَهُوَ يَفْهَمُ أَنَّ السَّيْرَ فِي الْأَرْضِ يَدُلُّهُ عَلَى تِلْكَ السُّنَنِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ الْمُتَّقِيَ أَجْدَرُ بِفَهْمِهَا لِأَنَّ كِتَابَهُ أَرْشَدَهُ إِلَيْهَا وَأَجْدَرُ كَذَلِكَ بِالِاهْتِدَاءِ وَالِاتِّعَاظِ بِهِ، وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ الْفَاتِحَةِ أَنَّ لِسَيْرِ النَّاسِ فِي الْحَيَاةِ سُنَنًا يُؤَدِّي بَعْضُهَا إِلَى الْخَيْرِ وَالسَّعَادَةِ وَبَعْضُهَا إِلَى الْهَلَاكِ وَالشَّقَاءِ وَأَنَّ مَنْ يَتَّبِعُ تِلْكَ السُّنَنَ فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى غَايَتِهَا سَوَاءٌ كَانَ مُؤْمِنًا أَوْ كَافِرًا، كَمَا قَالَ سَيِّدُنَا عَلِيٌّ: إِنَّ هَؤُلَاءِ قَدِ انْتَصَرُوا بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَخُذِلْتُمْ بِتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ. وَمِنْ هَذِهِ السُّنَنِ أَنَّ اجْتِمَاعَ النَّاسِ وَتَوَاصُلَهُمْ وَتَعَاوُنَهُمْ عَلَى طَلَبِ مَصْلَحَةٍ مِنْ مَصَالِحِهِمْ يَكُونُ - مَعَ الثَّبَاتِ - مِنْ أَسْبَابِ نَجَاحِهِمْ وَوُصُولِهِمْ إِلَى مَقْصِدِهِمْ سَوَاءٌ كَانَ مَا اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ حَقًّا أَوْ بَاطِلًا، وَإِنَّمَا يَصِلُونَ إِلَى مَقْصِدِهِمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَيَكُونُ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ

الْبَاطِلِ قَدْ ثَبَتَ بِاسْتِنَادِهِ إِلَى مَا مَعَهُمْ مِنَ الْحَقِّ وَهُوَ فَضِيلَةُ الِاجْتِمَاعِ وَالتَّعَاوُنِ وَالثَّبَاتِ، فَالْفَضَائِلُ لَهَا عِمَادٌ مِنَ الْحَقِّ، فَإِذَا قَامَ رَجُلٌ بِدَعْوَى بَاطِلَةٍ وَلَكِنْ رَأَى جُمْهُورٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّهُ مُحِقٌّ يَدْعُو إِلَى شَيْءٍ نَافِعٍ وَأَنَّهُ يَجِبُ نَصْرُهُ فَاجْتَمَعُوا

عَلَيْهِ وَنَصَرُوهُ وَثَبَتُوا عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ يَنْجُونَ مَعَهُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ . وَلَكِنَّ الْغَالِبَ أَنَّ الْبَاطِلَ لَا يَدُومُ ، بَلْ لَا يَسْتَمِرُّ زَمَنًا طَوِيلًا لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي الْوَاقِعِ مَا يُؤَيِّدُهُ بَلْ لَهُ مَا يُقَاوِمُهُ فَيَكُونُ صَاحِبُهُ دَائِمًا مُتَزَلْزِلًا ، فَإِذَا جَاءَ الْحَقُّ وَوَجَدَ أَنْصَارًا يَجْرُونَ عَلَى سُنَّةِ الِاجْتِمَاعِ فِي التَّعَاوُنِ وَالتَّنَاصُرِ ، وَيُؤَيِّدُونَ الدَّاعِيَ إِلَيْهِ بِالثَّبَاتِ وَالتَّعَاوُنِ ; فَإِنَّهُ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَدْمَغَ الْبَاطِلَ وَتَكُونَ الْعَاقِبَةُ لِأَهْلِهِ ، فَإِنْ شَابَتْ حَقَّهُمْ شَائِبَةٌ مِنَ الْبَاطِلِ ، أَوِ انْحَرَفُوا عَنْ سُنَنِ اللهِ فِي تَأْيِيدِهِ ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ تُنْذِرُهُمْ بِسُوءِ الْمَصِيرِ . فَالْقُرْآنُ يَهْدِينَا فِي مَسَائِلِ الْحَرْبِ وَالتَّنَازُعِ مَعَ غَيْرِنَا إِلَى أَنْ نَعْرِفَ أَنْفُسَنَا وَكُنْهَ اسْتِعْدَادِنَا لِنَكُونَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ حَقِّنَا وَمِنَ السَّيْرِ عَلَى سُنَنِ اللهِ فِي طَلَبِهِ وَفِي حِفْظِهِ ، وَأَنْ نَعْرِفَ كَذَلِكَ حَالَ خَصْمِنَا ، وَنَضَعَ الْمِيزَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ وَإِلَّا كُنَّا غَيْرَ مُهْتَدِينَ وَلَا مُتَّعِظِينَ .

(56/131)

وَأَقُولُ : إِيضَاحُ النُّكْتَةِ فِي جَعْلِ الْبَيَانِ لِلنَّاسِ كَافَّةً ، وَالْهُدَى وَالْمَوْعِظَةِ لِلْمُتَّقِينَ خَاصَّةً هُوَ بَيَانُ أَنَّ الْإِرْشَادَ عَامٌّ ، وَأَنَّ جَرَيَانَ الْأُمُورِ عَلَى السُّنَنِ الْمُطَّرِدَةِ حُجَّةٌ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ ، تَقِيِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ ، وَهِيَ تَدْحَضُ مَا وَقَعَ لِلْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ مِنَ الشُّبْهَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ إِذْ قَالُوا : لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَسُولًا مِنْ عِنْدِ اللهِ لَمَا نِيلَ

مِنْهُ ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ : إِنَّ سُنَنَ اللهِ حَاكِمَةٌ عَلَى رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ كَمَا هِيَ حَاكِمَةٌ عَلَى سَائِرِ خَلْقِهِ . فَمَا مِنْ قَائِدِ عَسْكَرٍ يَكُونُ فِي الْحَالَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ فِي أُحُدٍ ، وَيُعْمَلُ مَعَهُ مَا عَمِلُوا إِلَّا وَيُنَالُ مِنْهُ ; أَيْ يُخَالِفُهُ جُنْدُهُ ، وَيَتْرُكُونَ حِمَايَةَ الثَّغْرِ الَّذِي يُؤْتَوْنَ مِنْ قِبَلِهِ ، وَيُخَلُّونَ بَيْنَ عَدُوِّهِمْ وَبَيْنَ ظُهُورِهِمْ وَمَا يُعَبَّرُ عَنْهُ بِخَطِّ الرَّجْعَةِ مِنْ مَوَاقِعِهِمْ وَالْعَدُوُّ مُشْرِفٌ عَلَيْهِمْ إِلَّا وَيَكُونُونَ عُرْضَةً لِلِانْكِسَارِ إِذَا هُوَ كَرَّ عَلَيْهِمْ مِنْ وَرَائِهِمْ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ ذَلِكَ بَعْدَ فَشَلٍ وَتَنَازُعٍ كَمَا يَأْتِي بَيَانُهُ ، فَمَا ذُكِرَ مِنْ أَنَّ لِلَّهِ - تَعَالَى - سُنَنًا فِي الْأُمَمِ هُوَ بَيَانٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ لِاسْتِعْدَادِ كُلِّ عَاقِلٍ لِفَهْمِهِ ، وَاضْطِرَارِهِ إِلَى قَبُولِ الْحُجَّةِ الْمُؤَلَّفَةِ مِنْهُ ، إِلَّا أَنْ يَتْرُكَ النَّظَرَ أَوْ يُكَابِرَ وَيُعَانِدَ ، وَأَمَّا كَوْنُهُ هُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ خَاصَّةً فَهُوَ أَنَّهُمْ هُمُ

الَّذِينَ يَهْتَدُونَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ ، وَيَتَّعِظُونَ بِمَا يَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْوَقَائِعِ فَيَسْتَقِيمُونَ عَلَى الطَّرِيقَةِ ، هُمُ الَّذِينَ

تَكْمُلُ لَهُمُ الْفَائِدَةُ وَالْمَوْعِظَةُ لِأَنَّهُمْ يَتَجَنَّبُونَ وَيَتَّقُونَ نَتَائِجَ الْإِهْمَالِ الَّتِي يَظْهَرُ لَهُمْ أَنَّ عَاقِبَتَهَا ضَارَّةٌ ، فَلْيَزِنْ مُسْلِمُو هَذَا الزَّمَانِ إِيمَانَهُمْ وَإِسْلَامَهُمْ بِهَذِهِ الْآيَاتِ ، وَلْيَنْظُرُوا أَيْنَ مَكَانُهُمْ مِنْ هِدَايَتِهَا ، وَمَا هُوَ حَظُّهُمْ مِنْ مَوْعِظَتِهَا ؟

أَمَا إِنَّهُمْ لَوْ فَعَلُوا فَبَدَءُوا بِالسَّيْرِ فِي الْأَرْضِ لِمَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْأُمَمِ الْبَائِدَةِ وَأَسْبَابِ هَلَاكِهَا ، ثُمَّ اعْتَبَرُوا بِحَالِ الْأُمَمِ الْقَائِمَةِ وَبَحَثُوا عَنْ أَسْبَابِ عِزِّهَا وَثَبَاتِهَا ، لَعَلِمُوا أَنَّهُمْ أَمْسَوْا مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ بِسُنَنِ اللهِ ، وَأَبْعَدِهِمْ عَنْ مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ خَلْقِ اللهِ ، وَلَرَأَوْا أَنَّ غَيْرَهُمْ أَكْثَرُ مِنْهُمْ سَيْرًا فِي الْأَرْضِ ، وَأَشَدُّ مِنْهُمُ اسْتِنْبَاطًا لِسُنَنِ الِاجْتِمَاعِ ، وَأَعْرَقُ مِنْهُمْ فِي الِاعْتِبَارِ بِمَا أَصَابَ الْأَوَّلِينَ ، وَالِاتِّعَاظِ بِجَهْلِ الْمُعَاصِرِينَ ، فَهَلْ يَلِيقُ بِمَنْ هَذَا كِتَابُهُمْ ، أَنْ يَكُونَ مَنْ يَسِمُونَهُ بِسِمَةِ الْعَدَاوَةِ لَهُ أَقْرَبَ إِلَى هِدَايَتِهِ هَذِهِ مِنْهُمْ ؟

(58/131)

كَلَّا إِنَّ الْمُؤْمِنَ بِهَذَا الْكِتَابِ هُوَ مَنْ يَهْتَدِي بِهِ وَيَتَّعِظُ بِمَوَاعِظِهِ وَلِذَلِكَ جَعَلَ الْهِدَايَةَ وَالْمَوْعِظَةَ مِنْ شُئُونِ الْمُتَّقِينَ الثَّابِتَةِ لَهُمْ ، وَالْمُتَّقُونَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْقَائِمُونَ بِحُقُوقِ الْإِيمَانِ ، كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ : ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ إِلَخْ . وَقَدْ مَرَّ وَصْفُ الْمُتَّقِينَ وَذِكْرُ جَزَائِهِمْ فِي الْآيَاتِ الَّتِي قَبْلَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ، وَهَذَا التَّعْبِيرُ أَبْلَغُ مِنَ الْأَمْرِ بِالْهُدَى وَالْمَوْعِظَةِ وَهُوَ يَتَضَمَّنُ الْأَمْرَ بِالثَّبَاتِ فِيهِ وَالْحَثَّ عَلَى الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ قِوَامُ التَّقْوَى الَّتِي هِيَ قِوَامُ الْإِيمَانِ ; وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَهُ :

(59/131)

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ الْوَهَنُ: الضَّعْفُ فِي الْعَمَلِ وَفِي الْأَمْرِ، وَكَذَا فِي الرَّأْيِ، وَالْحُزْنُ: أَلَمٌ يَعْرِضُ لِلنَّفْسِ إِذَا فَقَدَتْ مَا تُحِبُّ، أَيْ تَضْعُفُوا عَنِ الْقِتَالِ وَمَا يَلْزَمُهُ مِنَ التَّدْبِيرِ بِمَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْجُرْحِ وَالْفَشَلِ فِي أُحُدٍ وَلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ هَذَا النَّهْيُ إِنْشَاءً بِمَعْنَى الْخَبَرِ، أَيْ إِنَّ مَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْقَرْحِ فِي أُحُدٍ لَيْسَ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُوهِنًا لِأَمْرِكُمْ وَمُضْعِفًا لَكُمْ فِي عَمَلِكُمْ وَلَا مُوجِبًا لِحُزْنِكُمْ وَانْكِسَارِ قُلُوبِكُمْ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَصْرًا تَامًّا لِلْمُشْرِكِينَ عَلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا هُوَ تَرْبِيَةٌ لَكُمْ عَلَى مَا وَقَعَ مِنْكُمْ مِنْ مُخَالَفَةِ قَائِدِكُمْ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي تَدْبِيرِهِ الْحَرْبِيِّ الْمُحْكَمِ، وَفَشَلِكُمْ وَتَنَازُعِكُمْ فِي الْأَمْرِ، وَذَلِكَ خُرُوجٌ عَنْ سُنَّةِ اللهِ فِي أَسْبَابِ الظَّفَرِ، وَبِهَذِهِ التَّرْبِيَةِ تَكُونُونَ أَحِقَّاءَ بِأَلَّا تَعُودُوا إِلَى مِثْلِ

تِلْكَ الذُّنُوبِ، فَتَكُونُ التَّرْبِيَةُ خَيْرًا لَكُمْ مِنْ عَدَمِهَا بَلْ يَجِبُ أَنْ تَزِيدَكُمُ الْمَصَائِبُ قُوَّةً وَثَبَاتًا بِمَا تُرَبِّيكُمْ عَلَى اتِّبَاعِ سُنَنِ اللهِ فِي الْحَزْمِ وَالْبَصِيرَةِ وَإِحْكَامِ الْعَزِيمَةِ وَاسْتِيفَاءِ الْأَسْبَابِ فِي الْقِتَالِ وَغَيْرِهِ، وَأَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا مِنْكُمْ شُهَدَاءُ وَذَلِكَ مَا كُنْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهُ كَمَا سَيَأْتِي،

فَتُذَكِّرُهُ مِمَّا يَذْهَبُ بِالْحُزْنِ مِنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ (وَهَاتَانِ الْعِلَّتَانِ قَدْ ذُكِرَتَا فِي الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَ هَذِهِ) وَكَيْفَ تَهِنُونَ وَتَحْزَنُونَ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ بِمُقْتَضَى سُنَنِ اللهِ - تَعَالَى - فِي جَعْلِ الْعَاقِبَةِ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ الْحَيَدَانَ عَنْ سُنَنِهِ، وَفِي نَصْرِ مَنْ يَنْصُرُهُ وَيَتَّبِعُ سُنَنَهُ بِإِحْقَاقِ الْحَقِّ وَإِقَامَةِ الْعَدْلِ، وَالْمُؤْمِنُونَ أَجْدَرُ بِذَلِكَ مِنَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ لِمَحْضِ الْبَغْيِ وَالِانْتِقَامِ، أَوِ الطَّمَعِ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ، فَهِمَّةُ الْكَافِرِينَ تَكُونُ عَلَى قَدْرِ مَا يَرْمُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْغَرَضِ الْخَسِيسِ، وَمَا يَطْلُبُونَهُ مِنَ الْغَرَضِ الْقَرِيبِ، فَهِيَ لَا تَكُونُ كَهِمَّةِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي غَرَضُهُ إِقَامَةُ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ فِي الدُّنْيَا، وَالسَّعَادَةُ الْبَاقِيَةُ فِي الْآخِرَةِ، أَيْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِصِدْقِ وَعْدِ اللهِ بِنَصْرِ مَنْ يَنْصُرُهُ، وَجَعْلِ الْعَاقِبَةِ لِلْمُتَّقِينَ الْمُتَّبِعِينَ لِسُنَنِهِ فِي نِظَامِ الِاجْتِمَاعِ بِحَيْثُ صَارَ هَذَا الْإِيمَانُ وَصْفًا ثَابِتًا لَكُمْ حَاكِمًا فِي ضَمَائِرِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ فَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَإِنْ

أَصَابَكُمْ مَا أَصَابَكُمْ. وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا فَإِنَّ مَا أَصَابَكُمْ يُعِدُّكُمْ لِلتَّقْوَى، فَتَسْتَحِقُّونَ تِلْكَ الْعَاقِبَةَ وَهِيَ عُلُوُّ

السِّيَادَةِ عَلَيْهِمْ. وَقِيلَ: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ مُتَعَلِّقٌ بِالنَّهْيِ وَجُمْلَةُ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ حَالٌ مُعْتَرِضَةٌ. أَيْ فَلَا تَضْعُفُوا وَلَا تَحْزَنُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ; لِأَنَّ مِنْ مُقْتَضَى الْإِيمَانِ الصَّبْرَ وَالثَّبَاتَ وَالرَّغْبَةَ

فِي إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ - الظَّفَرِ أَوِ الشَّهَادَةِ - عَلَى أَنَّ مَجْمُوعَ الْأُمَّةِ مَوْعُودٌ بِالْحُسْنَيَيْنِ جَمِيعًا ، وَإِنَّمَا يَطْلُبُ إِحْدَاهُمَا الْأَفْرَادُ .

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مَا مَعْنَاهُ : إِنَّ الْحُزْنَ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى مَا فَاتَ الْإِنْسَانَ وَخَسِرَهُ مِمَّا يُحِبُّهُ ، وَسَبَبُهُ أَنَّهُ يَشْعُرُ أَنَّهُ قَدْ فَاتَهُ بِفَوْتِهِ شَيْءٌ مِنْ قُوَّتِهِ وَفَقَدَ بِفَقْدِهِ شَيْئًا مِنْ عَزِيمَتِهِ أَوْ أَعْضَائِهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّ صِلَةَ الْإِنْسَانِ بِمَحْبُوبَاتِهِ مِنَ الْمَالِ وَالْمَتَاعِ وَالنَّاسِ كَالْأَصْدِقَاءِ وَذِي الْقُرْبَى تُكْسِبُهُ قُوَّةً وَتُعْطِيهِ غِبْطَةً وَسُرُورًا ، فَإِذَا هُوَ فَقَدَ شَيْئًا مِنْهَا بِلَا عِوَضٍ فَإِنَّهُ يَعْرِضُ لِنَفْسِهِ أَلَمُ الْحُزْنِ الَّذِي يُشْبِهُ الظُّلْمَةَ وَيُسَمُّونَهُ كَدَرًا كَأَنَّ النَّفْسَ كَانَتْ صَافِيَةً رَائِقَةً فَجَاءَ ذَلِكَ الِانْفِعَالُ فَكَدَّرَهَا بِمَا أَزَالَ مِنْ صَفْوِهَا . وَقَدْ يُقَالُ هُنَا : لِمَاذَا نَهَاهُمْ عَنِ الْوَهَنِ

بِمَا عَرَضَ لَهُمْ وَالْحُزْنِ عَلَى مَا فَقَدُوا فِي " أُحُدٍ " ، وَكُلٌّ مِنَ الْوَهَنِ وَالْحُزْنِ كَانَ قَدْ وَقَعَ وَهُوَ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ فِي مِثْلِ الْحَالِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهِ ؟ وَالْجَوَابُ : أَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّهْيِ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِهِ الْكَسْبُ مِنْ مُعَالَجَةِ وِجْدَانِ النَّفْسِ بِالْعَمَلِ وَلَوْ تَكَلُّفًا ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : انْظُرُوا فِي سُنَنِ مَنْ قَبْلَكُمْ تَجِدُوا أَنَّهُ مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ عَلَى حَقٍّ وَأَحْكَمُوا أَمْرَهُمْ وَأَخَذُوا أُهْبَتَهُمْ وَأَعَدُّوا لِكُلِّ أَمْرٍ عُدَّتَهُ وَلَمْ يَظْلِمُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الْعَمَلِ لِنُصْرَتِهِ إِلَّا وَظَفِرُوا بِمَا طَلَبُوا ، وَعُوِّضُوا مِمَّا

خَسِرُوا ، فَحَوِّلُوا وُجُوهَكُمْ عَنْ جِهَةِ مَا خَسِرْتُمْ ، وَوَلُّوهَا جِهَةَ مَا يَسْتَقْبِلُكُمْ ، وَانْهَضُوا بِهِ بِالْعَزِيمَةِ وَالْحَزْمِ ، مَعَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – ، وَالْحُزْنُ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى فَقْدِ مَا لَا عِوَضَ مِنْهُ وَأَنَّ لَكُمْ خَيْرَ عِوَضٍ مِمَّا فَقَدْتُمْ ، وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ بِرُجْحَانِكُمْ عَلَيْهِمْ فِي مَجْمُوعِ الْوَقْعَتَيْنِ – بَدْرٍ وَأُحُدٍ – إِذِ الَّذِينَ قُتِلُوا مِنْهُمْ أَكْثَرُ مِنَ الَّذِينَ قُتِلُوا مِنْكُمْ ، عَلَى كَثْرَتِهِمْ وَقِلَّتِكُمْ ، أَوْ جُمْلَةُ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ مُعْتَرِضَةٌ يُرَادُ بِهَا التَّبْشِيرُ بِمَا يَكُونُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِنَ النَّصْرِ ، وَهُمَا قَوْلَانِ لِلْمُفَسِّرِينَ وَسَوَاءٌ كَانَتْ لِلتَّسْلِيَةِ أَوْ لِلْبِشَارَةِ فَهِيَ مُرْتَبِطَةٌ بِالْإِيمَانِ الصَّحِيحِ الَّذِي لَا شَائِبَةَ فِيهِ فَإِنَّ مَنِ اخْتَرَقَ هَذَا الْإِيمَانُ فُؤَادَهُ وَتَمَكَّنَ مِنْ سُوَيْدَائِهِ ، يَكُونُ عَلَى يَقِينٍ مِنَ الْعَاقِبَةِ ،

بَعْدَ الثِّقَةِ مِنْ مُرَاعَاةِ السُّنَنِ الْعَامَّةِ وَالْأَسْبَابِ الْمُطَّرِدَةِ وَلِذَلِكَ قَالَ : إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمِثْلُ هَذَا الشَّرْطِ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ وَهُوَ لَيْسَ لِلشَّكِّ ، وَإِنَّمَا يُرَادُ بِهِ تَنْبِيهُ الْمُؤْمِنِ إِلَى حَالِهِ وَمُحَاسَبَةُ نَفْسِهِ عَلَى أَعْمَالِهِ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي الدَّرْسِ : رَأَيْتُ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَيْلَةَ الْخَمِيسِ الْمَاضِيَةِ (غُرَّةَ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ 1320) فِي الرُّؤْيَا مُنْصَرِفًا مَعَ أَصْحَابِهِ مِنْ أُحُدٍ وَهُوَ

يَقُولُ : " لَوْ خُيِّرْتُ بَيْنَ النَّصْرِ وَالْهَزِيمَةِ لَاخْتَرْتُ الْهَزِيمَةَ " أَيْ لِمَا فِي الْهَزِيمَةِ مِنَ التَّأْدِيبِ الْإِلَهِيِّ لِلْمُؤْمِنِينَ وَتَعْلِيمِهِمْ أَنْ يَأْخُذُوا بِالِاحْتِيَاطِ وَلَا يَغْتَرُّوا بِشَيْءٍ يَشْغَلُهُمْ عَنِ الِاسْتِعْدَادِ وَتَسْدِيدِ النَّظَرِ ، وَأَخْذِ الْأُهْبَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ وَالسُّنَنِ .

ثُمَّ بَيَّنَ - تَعَالَى - وَجْهَ جَدَارَتِهِمْ بِأَلَّا يَهِنُوا وَلَا يَحْزَنُوا فَقَالَ : إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ قَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَابْنُ عَيَّاشٍ عَنْ عَاصِمٍ " قُرْحٌ " بِضَمِّ الْقَافِ وَالْبَاقُونَ بِفَتْحِهَا ، قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّ الْقَرْحَ بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ وَاحِدٌ فَهُوَ كَالضَّعْفِ فِيهِ اللُّغَتَانِ ، وَمَعْنَاهُ الْجُرْحُ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ الْقَرْحَ بِالْفَتْحِ هُوَ الْجِرَاحُ وَبِالضَّمِّ أَثَرُهَا وَأَلَمُهَا . وَرَجَّحَ ابْنُ جَرِيرٍ قِرَاءَةَ الْفَتْحِ قَالَ : " لِإِجْمَاعِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ عَلَى أَنَّ مَعْنَاهُ الْقَتْلُ

(64/131)

وَالْجِرَاحُ ، فَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقِرَاءَةَ هِيَ بِالْفَتْحِ ، وَكَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ يَزْعُمُ أَنَّ الْقَرْحَ وَالْقُرْحَ لُغَتَانِ بِمَعْنًى وَاحِدٍ ، وَالْمَعْرُوفُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِكَلَامِ الْعَرَبِ مَا قُلْنَاهُ " أَيْ مِنْ أَنَّ الْقَرْحَ بِالْفَتْحِ يَشْمَلُ الْجُرْحَ وَالْقَتْلَ وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي حَصَلَ . وَفِي لِسَانِ الْعَرَبِ " الْقَرْحُ وَالْقُرْحُ لُغَتَانِ : عَضُّ السِّلَاحِ وَنَحْوُهُ مِمَّا يَجْرَحُ الْجَسَدَ . وَقِيلَ : الْقَرْحُ الْآثَارُ وَالْقُرْحُ الْأَلَمُ "

أَقُولُ : وَإِذَا كَانَ الْأَصْلُ فِيهِ عَضَّ السِّلَاحِ وَتَأْثِيرَهُ ، فَلَا غَرْوَ أَنْ يَشْمَلَ الْقَتْلَ وَالْجَرْحَ وَابْنُ

جَرِيرٍ ثِقَةٌ فِي نَقْلِهِ عَنْ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ كَنَقْلِهِ عَنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالتَّفْسِيرِ وَغَيْرِهِ . وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُ أَنْ يَمْنَعَ كَوْنَ الْقِرَاءَتَيْنِ لُغَتَيْنِ فِي هَذَا الْمَعْنَى . وَنَقَلَ الرَّازِيُّ أَنَّ الْفَتْحَ لُغَةُ تِهَامَةَ وَالْحِجَازِ وَالضَّمَّ لُغَةُ نَجْدٍ . وَيَمْسَسْكُمْ مِنَ الْمَسِّ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَعْنَاهُ يُصِبْكُمْ . قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : عَبَّرَ بِالْمُضَارِعِ بَدَلَ الْمَاضِي فَلَمْ يَقُلْ " إِنْ مَسَّكُمْ قَرْحٌ " لِيُحْضِرَ صُورَةَ الْمَسِّ فِي أَذْهَانِ الْمُخَاطَبِينَ .

(65/131)

أَقُولُ : وَالْمَعْنَى إِنْ يَكُنِ السِّلَاحُ قَدْ عَضَّكُمْ وَعَمِلَ فِيكُمْ عَمَلَهُ يَوْمَ أُحُدٍ فَقَدْ أَصَابَ الْمُشْرِكِينَ أَيْضًا مِثْلُ مَا أَصَابَكُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَوْ فِي يَوْمِ بَدْرٍ ، وَاعْتُرِضَ عَلَى الْأَوَّلِ بِأَنَّ قَرْحَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ أُحُدٍ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ قَرْحِ الْمُؤْمِنِينَ . وَأَجَابَ فِي الْكَشَّافِ عَنْ هَذَا فَقَالَ : بَلَى كَانَ مِثْلَهُ وَلَقَدْ قُتِلَ يَوْمَئِذٍ خَلْقٌ مِنَ الْكُفَّارِ ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ : وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ [3 : 152] الْآيَةَ - وَسَتَأْتِي ، أَقُولُ : وَهَذَا هُوَ الَّذِي اخْتَرْنَاهُ كَمَا تَقَدَّمَ فِي مُلَخَّصِ الْقِصَّةِ ، أَيْ إِنَّ الْمُشْرِكِينَ قَدْ أُصِيبُوا بِمِثْلِ مَا أُصِيبَ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ أُحُدٍ وَلَمْ يَكُونُوا غَالِبِينَ ، وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنَّ اعْتِبَارَ الْمُسَاوَاةِ فِي الْمَثَلِ مِنَ التَّدْقِيقِ الْفَلْسَفِيِّ الَّذِي لَمْ تَكُنْ تَقْصِدُهُ الْعَرَبُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْعِبَارَةِ ، وَهَذَا الْقَوْلُ صَحِيحٌ عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ .

وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ الْأَيَّامُ : جَمْعُ يَوْمٍ وَهُوَ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ بِمَعْنَى الزَّمَنِ وَالْوَقْتِ ، فَالْمُرَادُ بِالْأَيَّامِ هُنَا أَزْمِنَةُ الظَّفَرِ وَالْفَوْزِ . وَنُدَاوِلُهَا بَيْنَهُمْ : نُصَرِّفُهَا فَنُدِيلُ تَارَةً لِهَؤُلَاءِ وَتَارَةً لِهَؤُلَاءِ فَالْمُدَاوَلَةُ بِمَعْنَى الْمُعَاوَرَةِ ، يُقَالُ : دَاوَلْتُ الشَّيْءَ بَيْنَهُمْ فَتَدَاوَلُوا ، تَكُونُ الدَّوْلَةُ فِيهِ لِهَؤُلَاءِ مَرَّةً وَهَؤُلَاءِ مَرَّةً ، وَدَالَتِ الْأَيَّامُ دَارَتْ ، وَالْمَعْنَى أَنَّ مُدَاوَلَةَ الْأَيَّامِ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ ، فَلَا غَرْوَ أَنْ تَكُونَ الدَّوْلَةُ مَرَّةً لِلْمُبْطِلِ وَمَرَّةً لِلْمُحِقِّ . وَإِنَّمَا الْمَضْمُونُ لِصَاحِبِ الْحَقِّ أَنْ تَكُونَ الْعَاقِبَةُ لَهُ ، وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ .

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : هَذِهِ قَاعِدَةٌ كَقَاعِدَةِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ أَيْ

هَذِهِ سُنَّةٌ مِنْ تِلْكَ السُّنَنِ ، وَهِيَ ظَاهِرَةٌ بَيْنَ النَّاسِ بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنِ الْمُحِقِّينَ وَالْمُبْطِلِينَ ، وَالْمُدَاوَلَةُ فِي

الْوَاقِعِ تَكُونُ مَبْنِيَّةً عَلَى أَعْمَالِ النَّاسِ . فَلَا تَكُونُ الدَّوْلَةُ لِفَرِيقٍ دُونَ آخَرَ جُزَافًا ، وَإِنَّمَا تَكُونُ لِمَنْ عَرَفَ أَسْبَابَهَا وَرَعَاهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا . أَيْ إِذَا عَلِمْتُمْ أَنَّ ذَلِكَ سُنَّةٌ فَعَلَيْكُمْ أَلَّا تَهِنُوا وَتَضْعُفُوا بِمَا أَصَابَكُمْ لِأَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الدَّوْلَةَ تَدُولُ . وَالْعِبَارَةُ تُومِئُ إِلَى شَيْءٍ مَطْوِيٍّ كَانَ مَعْلُومًا لَهُمْ ، وَهُوَ أَنَّ لِكُلِّ دَوْلَةٍ سَبَبًا ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : إِذَا كَانَتِ الْمُدَاوَلَةُ مَنُوطَةً بِالْأَعْمَالِ الَّتِي تُفْضِي إِلَيْهَا كَالِاجْتِمَاعِ وَالثَّبَاتِ وَصِحَّةِ النَّظَرِ وَقُوَّةِ الْعَزِيمَةِ وَأَخْذِ الْأُهْبَةِ وَإِعْدَادِ مَا يُسْتَطَاعُ مِنَ الْقُوَّةِ فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَقُومُوا بِهَذِهِ الْأَعْمَالِ وَتُحْكِمُوهَا أَتَمَّ الْإِحْكَامِ . وَفِي الْجُمْلَةِ مِنَ الْإِيجَازِ وَجَمْعِ الْمَعَانِي الْكَثِيرَةِ فِي الْأَلْفَاظِ الْقَلِيلَةِ مَا لَا يُعْهَدُ مِثْلُهُ فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ .

(68/131)

ثُمَّ قَالَ - عَزَّ وَجَلَّ - : وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا أَيْ فَعَلَ ذَلِكَ لِيُقِيمَ سُنَّتَهُ فِي مُدَاوَلَةِ الْأَيَّامِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ [3 : 167] أَيْ يُمَيِّزُهُمْ مِنْهُمْ . وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ فِي إِجْمَالِ الْقِصَّةِ وَسَيَأْتِي ذِكْرُ لَهُمْ فِي الْآيَاتِ ، فَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى مَحْذُوفٍ تَذْهَبُ الْعُقُولُ فِي تَعْيِينِهِ كُلَّ مَذْهَبٍ ، وَتَبْحَثُ عَنْ حَقِيقَتِهِ فِي كُلِّ فَجٍّ ، أَوْ تَلْتَمِسُهُ فِي فَوَائِدِ قَاعِدَةِ جَعْلِ الْأَيَّامِ دُوَلًا بَيْنَ النَّاسِ ، وَعَدَمِ حَصْرِ الظَّفَرِ وَالنَّصْرِ فِي قَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ ، فَكُلُّ مَا وَجَدْتَهُ يَصْلُحُ حِكْمَةً وَعِلَّةً لِهَذِهِ الْقَاعِدَةِ عَدَدْتَهُ مِنَ الْمَطْوِيِّ الْمَحْذُوفِ

، وَأَعَمُّهُ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ آنِفًا وَهُوَ أَنْ يُقَالَ فِي التَّقْدِيرِ : وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ لِيَقُومَ بِذَلِكَ الْعَدْلُ وَيَسْتَقِرَّ النِّظَامُ ، وَيَعْلَمَ النَّاظِرُ فِي السُّنَنِ الْعَامَّةِ ، وَالْبَاحِثُ فِي الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْبَالِغَةِ ، أَنَّهُ لَا مُحَابَاةَ فِي هَذِهِ الْمُدَاوَلَةِ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ; لِأَنَّ الْجِهَادَ الِاجْتِمَاعِيَّ الَّذِي يُدَالُ بِهِ قَوْمٌ عَلَى قَوْمٍ مِمَّا يَظْهَرُ وَيَتَمَيَّزُ بِهِ الْإِيمَانُ الصَّحِيحُ مِنْ غَيْرِهِ .

(69/131)

وَقَالَ فِي الْكَشَّافِ : " فِيهِ وَجْهَانِ أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ الْمُعَلَّلُ مَحْذُوفًا مَعْنَاهُ : وَلِيَتَمَيَّزَ الثَّابِتُونَ عَلَى الْإِيمَانِ مِنَ الَّذِينَ عَلَى حَرْفٍ فَعَلْنَا ذَلِكَ ، وَهُوَ مِنْ بَابِ التَّمْثِيلِ ، بِمَعْنَى فَعَلْنَا ذَلِكَ فِعْلَ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَعْلَمَ مَنِ الثَّابِتُ مِنْكُمْ عَلَى الْإِيمَانِ مِنْ غَيْرِ الثَّابِتِ ، وَإِلَّا فَإِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - لَمْ يَزَلْ عَالِمًا بِالْأَشْيَاءِ قَبْلَ كَوْنِهَا . وَقِيلَ مَعْنَاهُ : لِيَعْلَمَهُمْ عِلْمًا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْجَزَاءُ وَهُوَ أَنْ يَعْلَمَهُمْ مَوْجُودًا مِنْهُمُ الثَّبَاتُ . وَالثَّانِي أَنْ تَكُونَ الْعِلَّةُ مَحْذُوفَةً وَهَذَا عَطْفٌ عَلَيْهِ مَعْنَاهُ وَفَعَلْنَا ذَلِكَ (أَيْ مُدَاوَلَةَ الْأَيَّامِ) لِيَكُونَ كَيْتَ وَكَيْتَ (أَيْ
مِنَ الْمَصَالِحِ) وَلِيَعْلَمَ اللهُ . وَإِنَّمَا حُذِفَ لِلْإِيذَانِ بِأَنَّ الْمَصْلَحَةَ فِيمَا فَعَلَ لَيْسَتْ بِوَاحِدَةٍ لِيُسَلِّيَهُمْ عَمَّا جَرَى عَلَيْهِمْ وَلِيُبَصِّرَهُمْ أَنَّ الْعَبْدَ يَسُوؤُهُ مَا يَجْرِي عَلَيْهِ مِنَ الْمَصَائِبِ وَلَا يَشْعُرُ أَنَّ لِلَّهِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ مَا هُوَ غَافِلٌ عَنْهُ " اهـ . وَجَعَلَ ابْنُ جَرِيرٍ التَّقْدِيرَ هَكَذَا :

وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ يُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُ هَذَا التَّعْبِيرِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَوَجْهُ الْإِشْكَالِ فِيهِ ، وَقَوْلُ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ : إِنَّ الْمُرَادَ بِعِلْمِ اللَّهِ فِيهِ عِلْمُ عِبَادِهِ وَأَنَّهُمْ يُفَسِّرُونَهُ بِعِلْمِ الظُّهُورِ أَيْ لِيُظْهِرَ عِلْمَهُ بِذَلِكَ ،

(70/131)

وَقَالَ هُنَا مُوَضِّحًا قَوْلَ الْجُمْهُورِ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالْعِلْمِ عِلْمُ الظُّهُورِ ، قَالُوا : إِنَّ الْعِلْمَ بِالشَّيْءِ عَلَى أَنَّهُ سَيَقَعُ ثَابِتٌ فِي الْأَزَلِ فَإِذَا وَقَعَ ذَلِكَ الشَّيْءُ حَصَلَ تَغَيُّرٌ فِي ذَلِكَ الْمَعْلُومِ فَصَارَ حَالًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مُسْتَقْبَلًا ، فَهَلْ تَعَلُّقُ الْعِلْمِ بِهِ عِنْدَ الْوُقُوعِ هُوَ عَيْنُ تَعَلُّقِهِ بِهِ مِنَ الْأَزَلِ إِلَى قُبَيْلِ وُقُوعِهِ ؟ قَالَ الْحُكَمَاءُ : إِنَّ الزَّمَنَ لَيْسَ بِشَيْءٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللَّهِ فَلَيْسَ هُنَاكَ تَقَدُّمٌ وَلَا تَأَخُّرٌ وَلَا مُتَقَدِّمٌ وَلَا مُتَأَخِّرٌ ، فَتَعَلُّقُ الْعِلْمِ بِالْمَعْلُومِ وَاحِدٌ فِي الْأَزَلِ وَالْأَبَدِ . فَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ يَكُونُ مَعْنَى وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ لِيُظْهِرَ عِلْمَهُ لِلنَّاسِ بِظُهُورِ الْمَعْلُومِ لَهُ ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ : لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ [8 : 37] أَيْ يَعْلَمُ النَّاسُ ذَلِكَ وَيُمَيِّزُونَهُ .

وَأَمَّا جُمْهُورُ الْمُتَكَلِّمِينَ فَيَقُولُونَ : إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ أَزَلًا وَأَبَدًا ، وَلَكِنَّ تَعَلُّقَ عِلْمِهِ بِالْأَشْيَاءِ عَلَى أَنَّهَا سَتَقَعُ غَيْرُ تَعَلُّقِ عِلْمِهِ بِهَا وَهِيَ وَاقِعَةٌ ، فَذَلِكَ عِلْمٌ غَيْرُ ظَاهِرٍ فِيهِ الْمَعْلُومُ فِي الْوُجُودِ ، وَهَذَا عِلْمٌ ظَهَرَ مُتَعَلَّقُهُ وَوُجِدَ . وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : " وَلِيَعْلَمَ " الثَّانِي .

أَقُولُ : وكُنْتُ أُقَرِّرُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ مِنْ قَبْلُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ وأُعَبِّرُ تَارَةً بِعِلْمِ الْغَيْبِ وَعِلْمِ الشَّهَادَةِ مُفَسِّرًا عِلْمَ الْغَيْبِ بِمَا لَمْ يُوجَدْ فِيهِ الْمَعْلُومُ وَعِلْمَ الشَّهَادَةِ بِمَا ظَهَرَ فِيهِ الْمَعْلُومُ وَوُجِدَ . وَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلأُسْتَاذِ فِي الدَّرْسِ ، فَقَالَ : إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ بِعِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ مَعْنًى آخَرَ وكُنْتُ عَازِمًا عَلَى مُرَاجَعَتِهِ فِي ذَلِكَ بَعْدَ الدَّرْسِ فَنَسِيتُ . ثُمَّ قَالَ : إِنَّ الْعِبَارَةَ ظَاهِرَةُ الصِّحَّةِ وَإِيهَامُ تَجَدُّدِ الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ مَدْفُوعٌ ، وَلَكِنْ مَا النُّكْتَةُ فِي اخْتِيَارِ هَذِهِ الْعِبَارَةِ وَأَمْثَالِهَا كَقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ : وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا وَلِمَ لَمْ يُبَيِّنِ الْمُرَادَ بِعِبَارَةٍ لَا إِبْهَامَ فِيهَا ؟ قَالَ مَا نَصُّهُ : " النُّكْتَةُ بَيَانُ أَنَّ الْعِلْمَ إِذَا لَمْ يُصَدِّقْهُ الْعَمَلُ لَا يُعْتَدُّ بِهِ " وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ كَثِيرًا مَا يَتَصَوَّرُ الشَّيْءَ وَيَحْكُمُ بِصِحَّتِهِ فَيَرَى أَنَّهُ يَعْتَقِدُهُ ، وَلَكِنْ إِذَا عَرَضَ الْعَمَلُ كَذَّبَهُ فِي اعْتِقَادِهِ وَتَبَيَّنَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ

مُتَحَقِّقًا بِهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ صُورَةً انْطَبَعَتْ فِي مُخِّهِ مَعَ الْغَفْلَةِ عَمَّا يُعَارِضُهَا مِنْ سَائِرِ عَقَائِدِهِ الْمُتَمَكِّنَةِ الَّتِي لَهَا سُلْطَانٌ عَلَى وِجْدَانِهِ وَأَثَرٌ فِي عَمَلِهِ وَأَخْلَاقِهِ وَعَادَاتِهِ الَّتِي تَجْرِي عَلَيْهَا أَعْمَالُهُ ، مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِأَنَّهُ شُجَاعٌ ، وَيَعْتَقِدُ ذَلِكَ لِعَدَمِ وُجُودِ مَا يُعَارِضُهُ فِي نَفْسِهِ حَتَّى إِذَا مَا عَرَضَ لَهُ مَا تَظْهَرُ بِهِ حَقِيقَةُ الشَّجَاعَةِ بِالْفِعْلِ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى رُكُوبِ الْخَطَرِ وَخَوْضِ غَمَرَاتِ الْمَوْتِ دِفَاعًا عَنِ الْحَقِّ أَوِ الْحَقِيقَةِ جَبُنَ وَجَزِعَ وَظَهَرَ غُرُورُهُ بِنَفْسِهِ وَانْخِدَاعُهُ لِوَهْمِهِ ، وَمِثْلُهُ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِأَنَّهُ لِقُوَّةِ إِيمَانِهِ عَظِيمُ الثِّقَةِ بِاللَّهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ، حَتَّى تُظْهِرَ الْحَوَادِثُ وَالْوَقَائِعُ أَنَّهُ هَلُوعٌ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ كَانَ مَنُوعًا ، لَا يَثِقُ بِرَبِّهِ وَلَا بِنَفْسِهِ . فَأَرَادَ – تَعَالَى – أَنْ يُرْشِدَنَا بِقَوْلِهِ : وَلِيَعْلَمَ إِلَى أَنَّ الْعِلْمَ لَا يَكُونُ عِلْمًا وَالْإِيمَانَ لَا يَكُونُ إِيمَانًا إِلَّا إِذَا صَدَّقَهُمَا الْعَمَلُ وَظَهَرَ أَثَرُهُمَا بِالْفِعْلِ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : لِيَتَبَيَّنَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى طَرِيقِ التَّمْثِيلِ . أَقُولُ : وَأَظْهَرُ مِنْ هَذَا فِي تَقْرِيرِ هَذَا الْوَجْهِ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ عِلْمَ

اللَّهِ – تَعَالَى – لَا يَكُونُ إِلَّا مُطَابِقًا لِلْوَاقِعِ ، فَمَا لَا يَعْلَمُهُ – تَعَالَى – هُوَ الَّذِي لَيْسَ لَهُ حَقِيقَةٌ ثَابِتَةٌ وَكُلُّ مَا لَهُ حَقِيقَةٌ ثَابِتَةٌ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَعْلُومًا لَهُ – تَعَالَى – ، فَيَكُونُ مَعْنَى وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ

الَّذِينَ آمَنُوا لِيَثْبُتَ وَيَتَحَقَّقَ بِالْفِعْلِ إِيمَانُ الَّذِينَ آمَنُوا أَوْ صِدْقُهُمْ فِي إِيمَانِهِمْ ، فَإِنَّهُ مَتَى ثَبَتَ وَتَحَقَّقَ كَانَ اللَّهُ عَالِمًا بِهِ عَلَى أَنَّهُ حَقِيقَةٌ ثَابِتَةٌ ، فَأَطْلَقَ أَحَدَ الْمُتَلَازِمَيْنِ وَأَرَادَ بِهِ الْآخَرَ عَلَى طَرِيقِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ فَفِيهِ وَجْهَانِ أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ مِنَ الشَّهَادَةِ فِي الْقِتَالِ وَهِيَ أَنْ يُقْتَلَ الْمُؤْمِنُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَيْ مُدَافِعًا عَنِ الْحَقِّ قَاصِدًا إِعْلَاءَ كَلِمَتِهِ . وَالثَّانِي : أَنَّهُ مِنَ الشَّهَادَةِ عَلَى النَّاسِ بِالْمَعْنَى الَّذِي تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ - عَزَّ وَجَلَّ - : لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ [2 : 143] وَالْأَوَّلُ هُوَ الَّذِي يَسْبِقُ إِلَى الذِّهْنِ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ هَؤُلَاءِ الْمَقْتُولُونَ شُهَدَاءَ لِأَنَّهُمْ يُشَاهِدُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنَ الْمَلَكُوتِ وَنَعِيمِهِ مَا لَا يَكُونُ لِغَيْرِهِمْ أَوْ لِأَنَّهُمْ بِبَذْلِ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَكُونُونَ مِنَ الشُّهَدَاءِ عَلَى النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْمَعْنَى الْمُشَارِ إِلَيْهِ آنِفًا ، أَوْ لِأَنَّهُ مَشْهُودٌ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ أَوْ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَشْهَدُ مَوْتَهُمْ . أَقُولُ :

(74/131)

وَقَوْلُهُ : وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ مَسُوقَةٌ لِبَيَانِ أَنَّ الشُّهَدَاءَ يَكُونُونَ مِمَّنْ خَلَصُوا لِلَّهِ وَأَخْلَصُوا فِي إِيمَانِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ فَلَمْ يَظْلِمُوا أَنْفُسَهُمْ بِمُخَالَفَةِ الْأَمْرِ أَوِ النَّهْيِ ، وَلَا بِالْخُرُوجِ عَنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ وَأَنَّهُ - تَعَالَى - لَا يَصْطَفِي لِلشَّهَادَةِ الظَّالِمِينَ مَا دَامُوا

عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَفِي ذَلِكَ بِشَارَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ، وَإِنْذَارٌ لِلْمُقَصِّرِينَ ، فَالنَّاسُ قَبْلَ الِابْتِلَاءِ بِالْمِحَنِ وَالْفِتَنِ يَكُونُونَ سَوَاءً ، فَإِذَا ابْتُلُوا تَبَيَّنَ الْمُخْلِصُ وَالصَّادِقُ وَالظَّالِمُ وَالْمُنَافِقُ وَمَا أَسْهَلَ ادِّعَاءَ الْإِخْلَاصِ وَالصِّدْقِ إِذَا كَانَتْ آيَاتُهُمَا مَجْهُولَةً ، فَبَيَانُ السَّبَبِ مُؤَدِّبٌ لِلْمُقَصِّرِينَ وَقَاطِعٌ لِأَلْسِنَةِ الْمُدَّعِينَ ، إِلَّا أَنْ يَكُونُوا مَعَ الْأَغْنِيَاءِ الْجَاهِلِينَ .

أَقُولُ : وَفِيهِ أَيْضًا أَنَّ أَعْدَاءَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لَا يُحِبُّهُمُ اللهُ ، أَيْ لَا يُعَامِلُهُمْ مُعَامَلَةَ الْمُحِبِّ لِلْمَحْبُوبِ ، لِأَنَّهُمْ يَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيُسَفِّهُونَهَا بِعِبَادَةِ الْمَخْلُوقَاتِ وَاجْتِرَاحِ السَّيِّئَاتِ وَيَظْلِمُونَ غَيْرَهُمْ بِالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ وَالْبَغْيِ عَلَى النَّاسِ وَهَضْمِ حُقُوقِهِمْ ، وَالظَّالِمُ لَا تَدُومُ لَهُ سُلْطَةٌ ، وَلَا تَثْبُتُ لَهُ دَوْلَةٌ ، فَإِذَا أَصَابَ غِرَّةً مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ فَكَانَتْ لَهُ دَوْلَةٌ فِي حَرْبٍ أَوْ حُكْمٍ ، فَإِنَّمَا تَكُونُ دَوْلَتُهُ سَرِيعَةَ الزَّوَالِ ، قَرِيبَةَ الِانْحِلَالِ وَالِاضْمِحْلَالِ ، وَفِيهِ تَعْرِيضٌ أَيْضًا بِالْمُنَافِقِينَ فَإِنَّهُمْ أَظْلَمُ الظَّالِمِينَ .

ثُمَّ قَالَ - تَعَالَى - : وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ قَالَ فِي الْأَسَاسِ : مَحَّصَ الشَّيْءَ مَحْصًا وَمَحَّصَهُ تَمْحِيصًا خَلَّصَهُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ ، وَمَحَّصَ الذَّهَبَ بِالنَّارِ خَلَّصَهُ مِمَّا يَشُوبُهُ ،

ثُمَّ قَالَ : وَمِنَ الْمَجَازِ مَحَّصَ اللهُ التَّائِبَ مِنَ الذُّنُوبِ ، وَمَحَّصَ قَلْبَهُ وَتَمَحَّصَتْ ذُنُوبُهُ وَتَمَحَّصَتِ الظَّلْمَاءُ تَكَشَّفَتْ قَالَ :

حَتَّى بَدَتْ قَمْرَاؤُهُ وَتَمَحَّصَتْ . . . ظَلْمَاؤُهُ وَرَأَى الطَّرِيقَ الْمُبْصِرَ

أَقُولُ : وَأَصْلُ الْمَحْقِ النُّقْصَانُ كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ وَمِنْهُ الْمِحَاقُ لِآخِرِ الشَّهْرِ ، وَقَالَ فِي الْأَسَاسِ : " مَحَقَ الشَّيْءَ مَحَاهُ وَذَهَبَ بِهِ . . وَسَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ فِي كُلِّ شَيْءٍ لَا يُحْسِنُ الْإِنْسَانُ عَمَلَهُ : قَدْ مَحَقَهُ ، وَيَقُولُونَ لِلْهَلَكَةِ : الْمَحْقَةُ " قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّ تَمْحِيصَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَارَةٌ عَنْ تَكْفِيرِ ذُنُوبِهِمْ وَمَحْوِ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَعَبَّرَ عَنْهُ بَعْضُهُمْ بِالتَّطْهِيرِ وَالتَّزْكِيَةِ . وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِمَا مِنَ السَّلَفِ تَفْسِيرُ التَّمْحِيصِ بِالِابْتِلَاءِ وَالِاخْتِبَارِ . وَكَأَنَّهُ بَيَانٌ لِمَبْدَئِهِ دُونَ غَايَتِهِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : يُمَحِّصُ اللهُ بِالْمَصَائِبِ ذُنُوبَ الْمُؤْمِنِينَ وَيَمْحَقُ نُفُوسَ الْكَافِرِينَ . وَرَدَّ الْأُسْتَاذُ قَوْلَ مَنْ قَالَ : إِنَّ التَّمْحِيصَ تَكْفِيرُ الذُّنُوبِ بِأَنَّ الْمَعْهُودَ مِنَ الْقُرْآنِ التَّعْبِيرُ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى بِالتَّكْفِيرِ ، وَأَنَّ لِلتَّمْحِيصِ هُنَا مَعْنًى آخَرَ يَتَّفِقُ مَعَ

مَا قَالَهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ فِي جُمْلَتِهِ لَا فِي تَصْوِيرِهِ . وَصَوَّرَهُ هُوَ بِنَحْوِ مَا يَأْتِي :

كُلُّ إنسانٍ يحكمُ لنفسِهِ في نَفْسِهِ بأُمورٍ كثيرةٍ يُصدّقُهُ فيها الْحقُّ الْواقعُ أَوْ يُكذّبُهُ ، فَالْمُعْتقدُ حقّيّةَ الدّينِ قدْ يتصوّرُ وقتَ الرّخاءِ أنّهُ يسْهُلُ عليْهِ بذْلُ مالِهِ ونفْسِهِ في سبيلِ اللهِ ليحْفظَ شرفَ دينِهِ ويدْفعَ عنْهُ كيْدَ الْمُعْتدينَ ، فإذا جاءَ الْبأْسُ ظهرَ لهُ منْ نفْسِهِ خلافُ ما كانَ يتصوّرُ (وتقدّمَ الْكلامُ في هذِهِ الْمسْألةِ آنفًا) . فَالْإنسانُ يلْتبسُ عليْهِ أمْرُ نفْسِهِ فلا يتجلّى كمالَ التّجلّي إلّا بالتّجاربِ الْكثيرةِ والامْتحانِ بالشّدائدِ الْعظيمةِ ، فالتّجاربُ والشّدائدُ كتمْحيصِ الذّهبِ يظْهرُ بهِ زيْفُهُ ونضارُهُ . ثمّ إنّها أيْضًا تنْفي خبثهُ وزغلهُ . كذلك كانَ الْأمْرُ في أُحدٍ : تميّزَ الْمؤْمنونَ الصّادقونَ منَ الْمنافقينَ وتطهّرتْ نفوسُ بعْضِ ضعفاءِ الْمؤْمنينَ منْ كدورتِها فصارتْ تبْرًا خالصًا ، وهؤُلاءِ همُ الّذينَ خالفوا أمْرَ النّبيّ - صلّى اللّهُ عليْهِ وسلّمَ - وطمعوا في الْغنيمةِ ، والّذينَ انْهزموا وولّوا وهمْ مدْبرونَ ، محّصَ الْجميعَ بتلْكَ الشّدّةِ فعلموا أنّ الْمسْلمَ ما خُلقَ ليلْهوَ ويلْعبَ ، ولا ليكْسلَ ويتواكلَ ، ولا لينالَ الظّفرَ والسّيادةَ بخوارقِ الْعاداتِ وتبْديلِ سُننِ اللهِ في الْمخْلوقاتِ بلْ خُلقَ ليكونَ أكْثرَ النّاسِ جدًّا في الْعملِ ، وأشدّهمْ محافظةً على النّواميسِ والسّننِ .

أَقُولُ : وَقَدْ تَجَلَّى أَثَرُ هَذَا التَّمْحِيصِ أَكْمَلَ التَّجَلِّي فِي غَزْوَةِ حَمْرَاءِ الْأَسَدِ إِذْ أَمَرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَلَّا يَتْبَعَ الْمُشْرِكِينَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ الْقِتَالَ بِأُحُدٍ ، فَامْتَثَلُوا الْأَمْرَ بِقُلُوبٍ مُطْمَئِنَّةٍ وَعَزَائِمَ شَدِيدَةٍ وَهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ تَبْرِيحِ الْجِرَاحِ بِهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ . فَلْيَعْتَبِرْ بِهَذَا مُسْلِمُو هَذَا الزَّمَانِ وَلْيَعْلَمُوا مَا هُوَ مِقْدَارُ حَظِّهِمْ مِنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ ، وَأَمَّا مَحْقُ الْكَافِرِينَ بِالشَّدَائِدِ فَلَيْسَ مَعْنَاهُ فَنَاؤُهُمْ وَهَلَاكُهُمْ ، وَإِنَّمَا هُوَ الْيَأْسُ يَسْطُو عَلَيْهِمْ وَفَقْدُ الرَّجَاءِ يَذْهَبُ بِعَزَائِمِهِمْ لِعَدَمِ الْإِيمَانِ الَّذِي يُثَبِّتُ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ فِي الشَّدَائِدِ حَتَّى يُذْهِبَ مَا كَانَ قَدْ بَقِيَ مِنْ نُورِ الْفَضِيلَةِ فِي نُفُوسِهِمْ فَلَا تَبْقَى لَهُمْ شَجَاعَةٌ وَلَا بَأْسٌ وَلَا شَيْءٌ مِنْ عِزَّةِ النَّفْسِ فَيَكُونُ أَحَدُهُمْ كَالْهِلَالِ فِي الْمُحَاقِ لَا نُورَ لَهُ ، بَلْ يَكُونُ وُجُودُهُ كَالْعَدَمِ ; لِأَنَّهُ لَا أَثَرَ لَهُ وَلَا فَائِدَةَ فِيهِ ، فَذَلِكَ مَحْقُهُ إِذَا غُلِبَ عَلَى أَمْرِهِ ، وَإِذَا هُوَ انْتَصَرَ طَغَى وَتَجَبَّرَ وَبَغَى وَظَلَمَ ، وَذَلِكَ مَحْقٌ مَعْنَوِيٌّ تَكُونُ عَاقِبَتُهُ الْمَحْقُ الصُّورِيُّ ، كَذَلِكَ لَا يَثْبُتُ لِلْكَافِرِينَ الْمُبْطِلِينَ وُجُودٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ ، وَإِنَّمَا يَبْقَوْنَ ظَاهِرِينَ إِذَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ مَنْ يُنَازِعُهُمْ وَيُقَاوِمُ بَاطِلَهُمْ .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

(80/131)

الْكَلَامُ مُتَّصِلٌ بِمَا قَبْلَهُ، وَالْخِطَابُ فِيهِ لِمَنْ شَهِدَ وَقْعَةَ " أُحُدٍ " مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُ - تَعَالَى - أَرْشَدَهُمْ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ إِلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَضْعُفُوا أَوْ يَحْزَنُوا، وَبَيَّنَ لَهُمْ حِكْمَةَ مَا أَصَابَهُمْ وَأَنَّهُ مُنْطَبِقٌ عَلَى سُنَّتِهِ فِي مُدَاوَلَةِ الْأَيَّامِ بَيْنَ النَّاسِ وَفِي تَمْحِيصِ أَهْلِ الْحَقِّ بِالشَّدَائِدِ، وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْهِدَايَةِ وَالْإِرْشَادِ وَالتَّسْلِيَةِ مَا يُرَبِّي الْمُؤْمِنَ عَلَى الصِّفَاتِ الَّتِي يَنَالُ

بِهَا الْغَلَبَ وَالسِّيَادَةَ بِالْحَقِّ ، ثُمَّ بَيَّنَ لَهُمْ هَذَا أَنَّ سَعَادَةَ الْآخِرَةِ لَا تُنَالُ أَيْضًا إِلَّا بِالْجِهَادِ وَالصَّبْرِ فَهِيَ كَسَعَادَةِ الدُّنْيَا بِإِقَامَةِ الْحَقِّ وَالسِّيَادَةِ فِي الْأَرْضِ سُنَّةُ اللَّهِ فِيهِمَا وَاحِدَةٌ فَقَالَ : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا

مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ وَهَذِهِ الْآيَةُ كَالْآيَةِ (214) مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَالْمَعْنَى عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي اخْتَارَهَا الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ هُنَاكَ مِنْ أَنَّ (أَمْ) لِلِاسْتِفْهَامِ الْمُجَرَّدِ أَوْ لِلْمُعَادَلَةِ أَنَّهُ - تَعَالَى - يَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ ذَلِكَ التَّنْبِيهِ وَالْإِرْشَادِ لِسُنَّتِهِ وَحُكْمِهِ فِيمَا حَصَلَ الْمُتَضَمِّنِ لِلَّوْمِ وَالْعِتَابِ فِي مِثْلِ : إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَقَوْلِهِ : إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ إِلَخْ . هَلْ جَرَيْتُمْ عَلَى تِلْكَ السُّنَنِ ؟ هَلْ تَدَبَّرْتُمْ تِلْكَ الْحِكَمَ ؟ أَمْ حَسِبْتُمْ كَمَا يَحْسَبُ أَهْلُ الْغُرُورِ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَأَنْتُمْ إِلَى الْآنِ لَمْ تَقُومُوا بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ حَقَّ الْقِيَامِ وَلَمْ تَتَمَكَّنْ صِفَةُ الصَّبْرِ مِنْ نُفُوسِكُمْ تَمَامَ التَّمَكُّنِ ! وَالْجَنَّةُ إِنَّمَا تُنَالُ بِهِمَا ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى دُخُولِهَا بِدُونِهِمَا . لَوْ قُمْتُمْ بِذَلِكَ لَعَلِمَهُ - تَعَالَى - مِنْكُمْ وَجَازَاكُمْ عَلَيْهِ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ فِي غَزْوَتِكُمْ هَذِهِ ، وَكَانَ ذَلِكَ آيَةً عَلَى أَنَّهُ سَيُجَازِيكُمْ بِالْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ ، وَهَذَا الْمُخْتَارُ فِي مَعْنَى (أَمْ) هُوَ مَا جَرَى عَلَيْهِ أَبُو مُسْلِمٍ الْأَصْفَهَانِيُّ ، فَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ : " قَالَ أَبُو مُسْلِمٍ فِي (أَمْ حَسِبْتُمْ) إِنَّهُ نَهْيٌ وَقَعَ بِحَرْفِ الِاسْتِفْهَامِ الَّذِي

يَأْتِي لِلتَّبْكِيتِ ، وَتَلْخِيصُهُ : لَا تَحْسَبُوا أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمْ يَقَعْ مِنْكُمُ الْجِهَادُ ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ : الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ [29 : 1 ، 2] وَافْتَتَحَ الْكَلَامَ

(82/131)

بِذِكْرِ (أَمْ) الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ مَا تَأْتِي فِي كَلَامِهِمْ وَاقِعَةً بَيْنَ ضَرْبَيْنِ يُشَكُّ فِي أَحَدِهِمَا لَا بِعَيْنِهِ ، يَقُولُونَ : أَزَيْدًا ضَرَبْتَ أَمْ عَمْرًا ؟ مَعَ تَيَقُّنِ وُقُوعِ الضَّرْبِ بِأَحَدِهِمَا . قَالَ : وَعَادَةُ الْعَرَبِ يَأْتُونَ بِهَذَا الْجِنْسِ مِنَ الِاسْتِفْهَامِ تَوْكِيدًا ، فَلَمَّا قَالَ : وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا فَكَأَنَّهُ قَالَ : أَفَتَعْلَمُونَ أَنَّ ذَلِكَ كَمَا تُؤْمَرُونَ ، أَمْ تَحْسَبُونَ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ مِنْ غَيْرِ مُجَاهَدَةٍ وَصَبْرٍ ؟ انْتَهَى الْمُرَادُ مِنْهُ " .

وَقَدْ جَرَيْنَا فِي هَذَا عَلَى أَنَّ نَفْيَ الْعِلْمِ هُنَا بِمَعْنَى نَفْيِ الْمَعْلُومِ ، كَنَفْيِ اللَّازِمِ وَإِرَادَةِ الْمَلْزُومِ وَهُوَ أَحَدُ الْوُجُوهِ الَّتِي بَيَّنَّاهَا مِنْ قُرْبٍ فِي تَفْسِيرِ : وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُوَ الَّذِي جَرَى عَلَيْهِ الْكَشَّافُ هُنَا وَقَالَ : " هُوَ بِمَعْنَى لَمَّا تُجَاهِدُوا ; لِأَنَّ الْعِلْمَ مُتَعَلِّقٌ بِالْمَعْلُومِ فَنَزَلَ نَفْيُ الْعِلْمِ مَنْزِلَةَ نَفْيِ مُتَعَلَّقِهِ ; لِأَنَّهُ مُنْتَفٍ بِانْتِفَائِهِ . يَقُولُ الرَّجُلُ : مَا عَلِمَ اللَّهُ فِي فُلَانٍ خَيْرًا ، يُرِيدُ مَا فِيهِ خَيْرٌ حَتَّى يَعْلَمَهُ . وَلَمَّا بِمَعْنَى " لَمْ " إِلَّا أَنَّ فِيهَا ضَرْبًا مِنَ التَّوَقُّعِ فَدَلَّ عَلَى نَفْيِ الْجِهَادِ فِيمَا

مَضَى وَعَلَى تَوَقُّعِهِ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ . وَتَقُولُ : وَعَدَنِي أَنْ يَفْعَلَ وَلَمَّا يَفْعَلْ . تُرِيدُ وَلَمْ يَفْعَلْ وَأَنَا أَتَوَقَّعُ فِعْلَهُ " اهـ . وَقَدِ اعْتَرَضَهُ مَنْ لَمْ يَفْهَمْهُ حَقَّ الْفَهْمِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ النُّكْتَةَ فِي إِيثَارِ ذِكْرِ الْعِلْمِ وَإِرَادَةِ الْمَعْلُومِ هِيَ الْإِشْعَارُ بِأَنَّ الْعِلْمَ إِنَّمَا يَكُونُ عِلْمًا صَحِيحًا بِظُهُورِ مُتَعَلِّقِهِ بِالْفِعْلِ ، وَهَاهُنَا نُكْتَةٌ أُخْرَى فِي الْبَالِ وَهِيَ أَنَّ التَّعْبِيرَ عَنْ نَفْيِ ذَلِكَ بِنَفْيِ عِلْمِ اللهِ بِهِ عِبَارَةٌ عَنْ دَعْوَى مَقْرُونَةٍ بِالدَّلِيلِ وَالْبُرْهَانِ ، كَأَنَّهُ قَالَ : إِنَّ كُلًّا مِنَ الْجِهَادِ وَالصَّبْرِ اللَّذَيْنِ هُمَا وَسِيلَةٌ إِلَى دُخُولِ الْجَنَّةِ لَمَّا يَقَعْ مِنْكُمْ ، أَيْ لَمْ يَقَعْ إِلَى الْآنَ مِنْ مَجْمُوعِكُمْ أَوْ أَكْثَرِكُمْ بِحَيْثُ صَارَ يُعَدُّ مِنْ شَأْنِ الْأُمَّةِ ، فَلَا يُنَافِي ذَلِكَ وُقُوعُهُ مِنْ بَعْضِ الْأَفْرَادِ الَّذِينَ ثَبَتُوا مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَلَمْ يُخَالِفُوا وَلَمْ يَنْهَزِمُوا ، إِذْ لَوْ وَقَعَ لَعَلِمَهُ اللهُ - تَعَالَى - الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا يَعْلَمْهُ فَهُوَ لَمْ يَتَحَقَّقْ قَطْعًا ، وَيُؤَيِّدُ تَفْسِيرَ الْآيَةِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ قَوْلُهُ - تَعَالَى - فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ [2 : 214] إِلَخْ .

أَيْ وَإِلَى الْآنَ لَمْ تَصِلُوا إِلَى حَالِهِمْ وَلَمْ يُصِبْكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ ، وَقَدْ كَانَتْ حَالُهُمْ تِلْكَ مَثَلًا فِي الشِّدَّةِ ، وَوَجْهُ التَّأْيِيدِ أَنَّ الْمَنْفِيَّ هُنَاكَ هُوَ الْعَمَلُ وَالْحَالُ الَّتِي يَسْتَحِقُّونَ بِهَا الْجَنَّةَ . ثُمَّ إِنْ يُوَافِقْ أَحَدَ الْوُجُوهِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ : وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْمُرَادَ بِالذَّوَاتِ وَصْفُهَا ، فَالْمَعْنَى هُنَاكَ وَلِيَعْلَمَ اللهُ إِيمَانَ الَّذِينَ آمَنُوا - وَهُنَا - وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ جِهَادَ الَّذِينَ جَاهَدُوا وَصَبْرَ الصَّابِرِينَ ، أَيْ وَاقِعَيْنِ ثَابِتَيْنِ ، وَيَصِحُّ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ الْعِلْمُ هُنَا بِمَعْنَى التَّمْيِيزِ - كَمَا تَقَدَّمَ هُنَاكَ فِي وَجْهٍ آخَرَ - وَيَكُونُ الْمَعْنَى : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ جَمِيعًا وَلَمَّا يُمَيِّزِ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ مِنْ غَيْرِهِمْ .

(85/131)

وَالْجِهَادُ هُنَا أَعَمُّ مِنَ الْحَرْبِ لِلدِّفَاعِ عَنِ الدِّينِ وَأَهْلِهِ وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ ، قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : رُبَّمَا يَقُولُ قَائِلٌ : إِنَّ الْآيَةَ تُفِيدُ أَنَّ مَنْ لَمْ يُجَاهِدْ وَيَصْبِرْ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ ، مَعَ أَنَّ الْجِهَادَ فَرْضُ كِفَايَةٍ . وَنَقُولُ : نَعَمْ ، إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَمْ يُجَاهِدْ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ ، وَلَكِنَّ الْجِهَادَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يُسْتَعْمَلَانِ بِمَعْنَاهُمَا اللُّغَوِيِّ - وَهُوَ احْتِمَالُ الْمَشَقَّةِ فِي مُكَافَحَةِ الشَّدَائِدِ - وَمِنْهُ جِهَادُ النَّفْسِ الَّذِي رُوِيَ عَنِ السَّلَفِ التَّعْبِيرُ عَنْهُ بِالْجِهَادِ الْأَكْبَرِ ، وَذَكَرَ مِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ مُجَاهَدَةَ الْإِنْسَانِ لِشَهَوَاتِهِ لَا سِيَّمَا فِي سِنِّ الشَّبَابِ ، وَجِهَادَهُ بِمَالِهِ ، وَمَا

(86/131)

يُبْتَلَى بِهِ الْمُؤْمِنُ مِنْ مُدَافَعَةِ الْبَاطِلِ وَنُصْرَةِ الْحَقّ . وَقَالَ : إِنَّ لِلَّهِ فِي كُلِّ نِعْمَةٍ عَلَيْكَ وَلِلنَّاسِ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَأَدَاءُ هَذِهِ الْحُقُوقِ يَشُقُّ عَلَى النَّفْسِ فَلَا بُدَّ مِنْ جِهَادِهَا لِيَسْهُلَ عَلَيْهَا أَدَاؤُهَا ، وَرُبَّمَا يَفْضُلُ بَعْضُ جِهَادِ النَّفْسِ جِهَادَ الْأَعْدَاءِ فِي الْحَرْبِ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُثَبِّتَ فِكْرَةً صَالِحَةً فِي النَّاسِ أَوْ يَدْعُوَهُمْ إِلَى خَيْرِهِمْ مِنْ إِقَامَةِ سُنَّةٍ أَوْ مُقَاوَمَةِ بِدْعَةٍ أَوِ النُّهُوضِ بِمَصْلَحَةٍ فَإِنَّهُ يَجِدُ أَمَامَهُ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُقَاوِمُهُ وَيُؤْذِيهِ إِيذَاءً قَلَّمَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ . وَنَاهِيكَ بِالتَّصَدِّي لِإِصْلَاحِ عَقَائِدِ الْعَامَّةِ وَعَادَاتِهِمْ ، وَمَا الْخَاصَّةُ فِي ضَلَالِهِمْ إِلَّا أَصْعَبُ مِرَاسًا مِنَ الْعَامَّةِ .

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ فِي الْآيَةِ مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ مِنْ مَعْنَى أَمْ وَلَمَّا ، وَمِنْهَا أَنَّ قَوْلَهُ : وَيَعْلَمَ مَنْصُوبٌ بِإِضْمَارِ " أَنْ " عَلَى أَنَّ الْوَاوَ لِلْجَمْعِ ، كَقَوْلِهِمْ : لَا تَأْكُلِ السَّمَكَ وَتَشْرَبَ اللَّبَنَ أَيْ لَا يَكُنْ أَكْلُ السَّمَكِ وَشُرْبُ اللَّبَنِ مَعًا ، فَالتَّقْدِيرُ فِي الْآيَةِ عَلَى هَذَا : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَالْحَالُ أَنَّهُ لَمْ يَتَحَقَّقْ مِنْكُمُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْجِهَادِ وَالصَّبْرِ .

(87/131)

بَعْدَ مَا بَيَّنَ - تَعَالَى - لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّ الْفَوْزَ وَالظَّفَرَ فِي الدُّنْيَا وَدُخُولَ الْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ لَا يَكُونَانِ بِالْأَمَانِي وَالْغُرُورِ، وَلَا يُنَالَانِ بِالْمُحَابَاةِ وَالْكَيْلِ الْجُزَافِ، بَلْ بِالْجِهَادِ وَمُكَافَحَةِ الْأَيَّامِ وَمُصَابَرَةِ الشَّدَائِدِ وَالْأَهْوَالِ، وَاتِّبَاعِ سُنَنِ اللهِ فِي هَذَا الْعَالَمِ - وَبَعْدَ مَا بَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ دَعْوَى الْإِيمَانِ وَدَعْوَى الْجِهَادِ وَالصَّبْرِ لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِمَا الْجَزَاءُ بِالنَّصْرِ وَدُخُولِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّمَا يَتَرَتَّبُ ذَلِكَ عَلَى تَحَقُّقِهِمَا بِحَسَبِ عِلْمِ اللهِ الْمُطَابِقِ لِلْوَاقِعِ لَا بِحَسَبِ ظَنِّ النَّاسِ وَشُعُورِهِمْ - بَعْدَ هَذَا وَذَاكَ أَرْشَدَهُمْ إِلَى أَمْرٍ وَاقِعٍ يَظْهَرُ لَهُمْ بِهِ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَقَوْلِهِ: وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ إِلَخْ. وَطَرِيقُ الْجَمْعِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ شُعُورِهِمْ وَاعْتِقَادِهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يُقَصِّرُوا فِي الْجِهَادِ وَالصَّبْرِ فَيَتَعَلَّمُونَ كَيْفَ يُحَاسِبُونَ أَنْفُسَهُمْ وَلَا يَغْتَرُّونَ بِشُعُورِهِمْ وَخَوَاطِرِهِمْ فَقَالَ:

(88/131)

وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ الْخِطَابُ لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ شَهِدُوا وَقْعَةَ أُحُدٍ، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي تَلْخِيصِ الْقِصَّةِ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يَرَى أَلَّا يَخْرُجَ لِلْمُشْرِكِينَ بَلْ يَسْتَعِدُّ لِمُدَافَعَتِهِمْ فِي الْمَدِينَةِ، وَكَانَ عَلَى

هَذَا الرَّأْيِ جَمَاعَةٌ مِنْ كُبَرَاءِ الصَّحَابَةِ ، وَبِهِ صَرَّحَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيِّ بْن سَلُول زَعِيمُ الْمُنَافِقِينَ وَأَنَّ أَكْثَرَ الصَّحَابَةِ أَشَارُوا بِالْخُرُوجِ إِلَى أُحُدٍ حَيْثُ عَسْكَرَ الْمُشْرِكُونَ

وَمُنَاجَزَتِهِمْ هُنَاكَ ، وَأَنَّ الشُّبَّانَ وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْ بَدْرًا كَانُوا يُلِحُّونَ فِي الْخُرُوجِ ; لِهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ : إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عِتَابٌ لِرِجَالٍ غَابُوا عَنْ بَدْرٍ فَكَانُوا يَتَمَنَّوْنَ مِثْلَ يَوْمِ بَدْرٍ أَنْ يَلْقَوْهُ فَيُصِيبُوا مِنَ الْخَيْرِ وَالْأَجْرِ مِثْلَ مَا أَصَابَ أَهْلُ بَدْرٍ ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَلَّى مِنْهُمْ مَنْ وَلَّى فَعَاتَبَهُمُ اللهُ ، وَرُوِيَ نَحْوُ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِهِ مِنْهُمُ الرَّبِيعُ وَالسُّدِّيُّ . وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ : بَلَغَنِي أَنَّ رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانُوا يَقُولُونَ : لَئِنْ لَقِينَا الْعَدُوَّ مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَنَفْعَلَنَّ وَلَنَفْعَلَنَّ ، فَابْتُلُوا بِذَلِكَ فَلَا وَاللهِ مَا كُلُّهُمْ صَدَقَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ فَأَطْلَقَ الْحَسَنُ وَلَمْ يَخُصَّ مَنْ لَمْ يَشْهَدْ بَدْرًا وَهُوَ الصَّوَابُ ، فَإِنَّ الَّذِينَ كَانُوا يَتَمَنَّوْنَ الْقِتَالَ كَثِيرُونَ .

قُلْنَا : إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أَظْهَرَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ تَأْوِيلَ قَوْلِهِ - تَعَالَى - فِي إِيمَانِهِمْ وَجِهَادِهِمْ وَصَبْرِهِمْ ، وَعَلَّمَتْهُمْ كَيْفَ يُحَاسِبُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيَمْتَحِنُونَ قُلُوبَهُمْ ; وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ تَمَنَّوُا الْقِتَالَ أَوِ الْمَوْتَ فِي الْقِتَالِ لِيَنَالُوا مَرْتَبَةَ الشَّهَادَةِ ، وَقَدْ أَثْبَتَ اللهُ لَهُمْ هَذَا التَّمَنِّيَ وَأَكَّدَهُ بِقَوْلِهِ : وَلَقَدْ فَلَمْ

يَكُنْ ذَلِكَ مِنْهُمْ دَعْوَى قَوْلِيَّةً وَلَا صُورَةً فِي الذِّهْنِ خَيَالِيَّةً بَلْ كَانَ حَقِيقَةً وَاقِعَةً فِي النَّفْسِ وَلَكِنَّهَا زَالَتْ عِنْدَ مَجِيءِ دَوْرِ الْفِعْلِ ، وَهَذِهِ مَرْتَبَةٌ مِنْ مَرَاتِبِ النَّفْسِ فِي شُعُورِهَا وَعِرْفَانِهَا هِيَ دُونَ مَرْتَبَةِ الْكَمَالِ الَّذِي يُصَدِّقُهُ الْعَمَلُ ، وَفَوْقَ مَرْتَبَةِ التَّصَوُّرِ وَالتَّخَيُّلِ مَعَ الِانْصِرَافِ عَنْ تَمَنِّي الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ أَوْ مَعَ كَرَاهَتِهِ وَالْهَرَبِ مِنْهُ - كَمَا يَتَوَهَّمُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُ يُحِبُّ مِلَّتَهُ وَوَطَنَهُ وَلَكِنَّهُ يَهْرُبُ مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ يَخْشَى أَنْ يُطَالَبَ فِيهِ بِعَمَلٍ يَأْتِيهِ لِأَجْلِهِمَا أَوْ مَالٍ يُعَاوِنُ بِهِ الْعَامِلِينَ لَهُمَا ، أَوْ يَكُونُ خَالِيَ الذِّهْنِ مِنَ الْفِكْرِ فِي الْعَمَلِ أَوِ الْبَذْلِ لِإِعْلَاءِ شَأْنِ هَذَا الْمَحْبُوبِ أَوْ كَفِّ الْعُدْوَانِ أَوِ الشَّرِّ عَنْهُ . فَهَاتَانِ مَرْتَبَتَانِ دُونَ مَرْتَبَةِ مَنْ يَتَصَوَّرُ أَنَّهُ يُحِبُّ مِلَّتَهُ وَوَطَنَهُ وَيُفَكِّرُ فِي خِدْمَتِهِمَا وَيَتَمَنَّى لَوْ يُتَاحُ لَهُ ذَلِكَ ، حَتَّى إِذَا احْتِيجَ إِلَى خِدْمَتِهِ الَّتِي كَانَ يُفَكِّرُ فِيهَا وَيَتَمَنَّاهَا وَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ الضَّعْفَ فَأَعْرَضَ عَنِ الْعَمَلِ قَبْلَ الشُّرُوعِ أَوْ بَعْدَ أَنْ ذَاقَ مَرَارَتَهُ وَكَابَدَ مَشَقَّتَهُ ، وَإِنَّمَا الْمَطْلُوبُ فِي الْإِيمَانِ مَا هُوَ أَعْلَى مِنْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ ، الْمَطْلُوبُ فِيهِ مَرْتَبَةُ الْيَقِينِ وَالْإِذْعَانِ النَّفْسِيِّ الَّتِي مِنْ مُقْتَضَاهَا الْعَمَلُ مَهْمَا كَانَ شَاقًّا ، وَالْجِهَادُ مَهْمَا كَانَ عَسِرًا ، وَالصَّبْرُ عَلَى الْمَكَارِهِ وَإِيثَارُ

الْحقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَقَدْ تقدَّمَ فِي تفْسِيرِ : وَلِيَعْلَمَ اللهُ وتَفْسِيرِ : وَلِيُمَحِّصَ اللهُ مِنَ الْآيَتَيْنِ السَّابقَتَيْنِ أَمْثِلَةٌ تزِيدُ الْمَبْحَثَ وُضُوحًا .

وَقَدْ كَانَ فِي مَجْمُوعِ الْمُخَاطَبِينَ بِالْآيَةِ عِنْدَ نُزُولِهَا مَنْ هُمْ فِي الْمَرْتَبَةِ الْعُلْيَا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُجَاهِدُونَ الصَّابِرُونَ الَّذِينَ ثَبَتُوا مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثَبَاتَ الْجِبَالِ لَا ثَبَاتَ الْأَبْطَالِ ، وَهُمْ نَحْوُ ثَلَاثِينَ رَجُلًا ، وَقَدْ ذَكَرْنَا أَسْمَاءَ بَعْضِهِمْ فِي تَلْخِيصِ الْقِصَّةِ ، وَإِنَّمَا جُعِلَ الْخِطَابُ عَامًّا لِيَكُونَ تَرْبِيَةً عَامَّةً ; فَإِنَّ أَصْحَابَ الْمَرَاتِبِ الْعَلِيَّةِ يَتَّهِمُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالتَّقْصِيرِ فَيَزْدَادُونَ كَمَالًا .

فَهَذِهِ الْآيَةُ تُنَبِّهُ كُلَّ مُؤْمِنٍ إِلَى الْغُرُورِ بِحَدِيثِ النَّفْسِ وَالتَّمَنِّي وَالتَّشَهِّي ، وَتَهْدِيهِ إِلَى امْتِحَانِ نَفْسِهِ بِالْعَمَلِ الشَّاقِّ ، وَعَدَمِ الثِّقَةِ بِمَا دُونَ الْجِهَادِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَكَارِهِ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ ، حَتَّى يَأْمَنَ الدَّعْوَى الْخَادِعَةَ ، بَلْهَ الدَّعْوَى الْبَاطِلَةَ ، وَإِنَّمَا الْخَادِعَةُ أَنْ تَدَّعِيَ مَا تَتَوَهَّمُ أَنَّكَ صَادِقٌ فِيهِ مَعَ الْغَفْلَةِ أَوِ الْجَهْلِ بِعَجْزِكَ عَنْهُ ، وَالْبَاطِلَةُ لَا تَخْفَى عَلَيْكَ ، وَإِنَّمَا تَظُنُّ أَنَّهَا تَخْفَى عَلَى سِوَاكَ .

قَدْ أَشَرْنَا إِلَى أَنَّ الظَّاهِرَ مِنْ تَمَنِّي الْمَوْتِ هُوَ تَمَنِّي الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالْمَوْتِ الْحَرْبُ لِأَنَّهَا سَبَبُهُ ، وَعَدَّ بَعْضُهُمْ تَمَنِّيَ الشَّهَادَةِ الْمَأْثُورَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مُشْكِلًا ; لِأَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ انْتِصَارَ الْكُفَّارِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، وَلَا إِشْكَالَ إِلَّا فِي مُخِّ مَنِ اخْتَرَعَ هَذِهِ الْعِبَارَةَ ، فَإِنَّ الَّذِي يَتَمَنَّى الشَّهَادَةَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يُلْقِي بِنَفْسِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَلَا يُقَصِّرُ فِي الدِّفَاعِ وَالصِّدَامِ حَتَّى يُقَالَ إِنَّهُ مَكَّنَ الْأَعْدَاءَ مِنْهُ وَمَهَّدَ لَهُمْ سَبِيلَ الظَّفَرِ بِالْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ أَقْوَى جِهَادًا وَأَشَدَّ جِلَادًا وَأَجْدَرَ بِأَنْ يَنْصُرَ قَوْمَهُ وَيَخْذُلَ مَنْ يُحَارِبُهُمْ ، ثُمَّ إِنَّهُ لَا يَقْصِدُ لَازِمَ الْمَوْتِ وَالشَّهَادَةِ مِنْ نَقْصِ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ ضَعْفِهِمْ ; عَلَى أَنَّ هَذَا اللَّازِمَ إِنَّمَا يَتْبَعُ اسْتِشْهَادَ الْكَثِيرِ أَوِ الْأَكْثَرِ مِنْهُمْ ، وَمَنْ يَتَمَنَّى الشَّهَادَةَ فَإِنَّمَا يَتَمَنَّاهَا لِنَفْسِهِ دُونَ الْعَدَدِ الْكَثِيرِ مِنْ قَوْمِهِ .

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنَّ تَمَنِّيَ الشَّهَادَةِ الَّذِي وَقَعَ لَيْسَ تَمَنِّيًا مُطْلَقًا وَإِنَّمَا هُوَ تَمَنِّي مَنْ يُقَاتِلُ لِنُصْرَةِ الْحَقِّ أَنْ تَذْهَبَ نَفْسُهُ دُونَهُ ، فَإِذَا هُوَ وَصَلَ إِلَى مَا يَبْغِي مِنْ نُصْرَةِ الْحَقِّ وَإِعْزَازِهِ بِانْهِزَامِ أَهْلِ الْبَاطِلِ وَخِذْلَانِهِمْ فَبِهَا وَنِعْمَتْ ، وَإِلَّا فَضَّلَ الْمَوْتَ فِي سَبِيلِ إِعْزَازِ الْحَقِّ وَرَآهُ

خَيْرًا مِنَ الْبَقَاءِ مَعَ إِذْلالِهِ وَغَلَبَةِ الْبَاطِلِ عَلَيْهِ ، وقَالَ : إِنَّ الْخِطَابَ لِمَنْ يَسْبِقْ لَهُمْ تَمَنِّي الْمَوْتِ بَعْدَ أَنْ فَاتَهُمْ حُضُورُ وَقْعَةِ بَدْرٍ أَوِ الشَّهَادَةُ فِيهَا لِبَعْضِ مَنْ

(94/131)

حضرَهَا ، ثُمَّ جَاءَتْ وَقْعَةُ أُحُدٍ فَكَانَ مِنْهُمْ مَنِ انْكَسَرَتْ نَفْسُهُ فِي أَثْنَاءِ الْوَقْعَةِ وَوَهَنَ عَزْمُهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ وَهَنَ وَضَعُفَ بَعْدَهَا عِنْدَمَا نَدَبَهُمُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِلَى اتِّبَاعِ الْمُشْرِكِينَ مَعَهُ فِي حَمْرَاءِ الْأَسَدِ . كَأَنَّهُ يَقُولُ : يَا سُبْحَانَ اللهِ لَقَدْ كُنْتُمْ تَتَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ قَبْلَ أَنْ تَلَاقُوا الْقَوْمَ فِي الْحَرْبِ ، فَهَا أَنْتُمْ أُولَاءِ قَدْ رَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيْهِ لَا تَغْفُلُونَ عَنْهُ فَمَا بَالُكُمْ دَهِشْتُمْ عِنْدَمَا وَقَعَ الْمَوْتُ فِيكُمْ ؟ وَمَا بَالُكُمْ تَحْزَنُونَ وَتَضْعُفُونَ عِنْدَ لِقَاءِ مَا كُنْتُمْ تُحِبُّونَ وَتَتَمَنَّوْنَ ؟ وَمَنْ تَمَنَّى الشَّيْءَ وَسَعَى إِلَيْهِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْزِنَهُ لِقَاؤُهُ وَيَسُوءَهُ فَقَوْلُهُ : وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ لِلتَّأْكِيدِ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَرَى الشَّيْءَ أَحْيَانًا وَلَكِنَّهُ لَا نشْغالِهِ عَنْهُ رُبَّمَا لَا يَتَبَيَّنُهُ ، فَأَرَادَ أَنْ يَقُولَ : إِنَّكُمْ قَدْ رَأَيْتُمُوهُ رُؤْيَةً كَانَ لَهَا الْأَثَرُ الثَّابِتُ فِي نُفُوسِكُمْ لَا رُؤْيَةً مِنْ قَبِيلِ لَمْحِ الشَّيْءِ مَعَ الْغَفْلَةِ عَنْهُ وَعَدَمِ الْمُبَالَاةِ بِهِ ، قَالَ : وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّ الْجُمْلَةَ مُسْتَأْنَفَةٌ ، أَيْ أَبْصَرْتُمُوهُ وَأَنْتُمُ الْآنَ تَنْظُرُونَ وَتَتَأَمَّلُونَ فِيمَا رَأَيْتُمُوهُ وَتُفَكِّرُونَ فِي عَلَاقَتِهِ بِشُؤُونِكُمْ ، وَالَّذِي يَظْهَرُ هُوَ صِحَّةُ التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ يَعْنِي أَنَّهَا مُؤَكِّدَةٌ .

(95/131)

أَقُولُ : وَقَدْ جرَى صَاحِبُ الْكَشَّافِ وَالْبَيْضَاوِيُّ وَأَبو السُّعُودِ عَلَى أَنَّهَا حَالِيَّةٌ ، وَأَنَّ مَعْنَاهُ : رَأَيْتُمُ الْمَوْتَ نَاظِرِينَ إِلَى وُقُوعِهِ بِكُمْ ، وَاغْتِيَالِهِ لإِخْوَانِكُمْ مُتَوَقِّعِينَ أَنْ يَحِلَّ بِكُمْ مَا حَلَّ بِهِمْ ، قَالَ جَمَاعَةٌ وَهُوَ تَوْبِيخٌ لَهُمْ عَلَى تَمَنِّيهِمُ الْمَوْتَ وَإِلْحَاحِهِمْ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْخُرُوجِ إِلَى الْحَرْبِ ، وَنَقُولُ : إِنَّهُ تَذْكِيرٌ لِمَنِ انْهَزَمَ وَعَصَى مِنْهُمْ بِأَنَّ مَا سَبَقَ مِنْ تَمَنِّيهِمُ الْمَوْتَ لَمْ يَكُنْ عَنْ رُسُوخٍ وَيَقِينٍ وَتَفْضِيلٍ لِلشَّهَادَةِ وَلِقَاءِ اللهِ عَلَى الْحَيَاةِ ، وَإِنَّمَا كَانَ فِيهِ شَائِبَةٌ مِنَ الْغُرُورِ وَالزَّهْوِ ، وَإِرْشَادٌ تَوْبِيخِيٌّ لَهُمْ وَلِأَمْثَالِهِمْ إِلَى أَنْ يُحَاسِبُوا أَنْفُسَهُمْ وَيُطَالِبُوهَا بِالْكَمَالِ الَّذِي تَأْتِي فِيهِ الْأَعْمَالُ مُصَدِّقَةً لِخَوَاطِرِ النَّفْسِ وَتَمَنِّيَاتِهَا كَمَا تَقَدَّمَ شَرْحُهُ. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 4 صـ 113. 131 ﴾

(96/131)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

وكان القوم الذي فاتهم شرف الاشتراك في بدر قد أرادوا ان يذهبوا مع الرسول للمشاركة في غزوة أُحُد ، ويوضح لهم الحق : أكنتم تظنون أن تمنى المعارك وحده يحقق النصر ، وهل كنتم تظنون أن كل معركة يدخلها المؤمنون لا بد أن تكون منتصرة ؟ وإن كنتم تظنون أن المسألة هي نصر لمجرد التمني ، فمعنى ذلك أنكم دخلتم إلى معسكر الإيمان من أجل الفأل واليُمن والنصر ، ونحن نريد ان نعرف من الذي يدخل معسكر الإيمان وهو بائع روحه وهو مُحتسب حياته في سبيل الله .

فلو أن الأمر يمر رخاء ، لدخل كل واحد إلى معسكر الإيمان ، لذلك يقول الحق : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ . فهل ظننتم أنكم تدخلون الجنة بدون أن يُخرج الحق على الملأ ما علمه غيبا ، وتترجمه الأحداث التي يجريها سبحانه فيصير واقعا وحُجة عليكم ، ويبرز الله سبحانه من الذين جاهدوا ؛ أي دخلوا في زُمرة الحق ، والذين صبروا على الأذى في الحق .

ويقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ أي إن ما كنتم تتمنونه قديما صار أمامكم ، فلو أن التمني كان صحيحا لأقبلتم على الموت كما تقبلون على الحياة . ويقول سبحانه من بعد ذلك : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ

مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1786 .

1787 ﴾

(97/131)

" فصل "

قال السيوطى :

وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (143)

أخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس . أن رجالاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون : ليتنا نقتل كما قتل أصحاب بدر ونستشهد . أو ليت لنا يوماً كيوم بدر نقاتل فيه المشركين ، ونبلى فيه خيراً ، ونلتمس الشهادة والجنة والحياة والرزق .

فأشهدهم الله أحداً ، فلم يلبثوا إلا من شاء منهم فقال الله ﴿ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في الآية قال : غاب رجال عن بدر ، فكانوا يتمنون مثل بدر أن يلقوه فيصيبوا من الأجر والخير ما أصاب أهل بدر ، فلما كان يوم أحدٍ ولى من ولّى ، فعاتبهم الله على ذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الربيع وقتادة قالا : أن أناساً من المؤمنين لم يشهدوا يوم بدر والذي أعطاهم الله من الفضل ، فكانوا يتمنون أن يروا قتالاً فيقاتلوا ، فسيق إليهم القتال حتى إذا كان بناحية المدينة يوم أحد ؛ فأنزل الله ﴿ ولقد كنتم تمنون الموت . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : بلغني أن رجالاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون : لئن لقينا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، لنفعلن ولنفعلن . . . فابتلوا بذلك ، فلا والله ما كلهم صدق الله . فأنزل الله ﴿ ولقد كنتم تمنون الموت . . . ﴾ الآية .

وأخرج عن السدي قال : كان ناس من الصحابة لم يشهدوا بدراً ، فلما رأوا فضيلة أهل بدر قالوا : اللهم إنا نسألك أن ترينا يوماً كيوم بدر ، نبليك فيه خيراً . فرأوا أُحداً فقال لهم ﴿ ولقد كنتم تمنون الموت . . . ﴾ الآية . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ2 صـ333.334 ﴾

(98/131)

قوله تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان التقدير : فانهزمتم عندما صرخ الشيطان كذباً : ألا إن محمداً قد قتل ! ولم يكن لكم ذلك فإنكم إنما تعبدون رب محمد الحي القيوم وتقاتلون له ، وأما محمد فما هو بخالد لكم في الدنيا قال : ﴿ وما محمد إلا رسول ﴾ أي من شأنه الموت ، لا إله ، ثم قرر المراد من السياق بقوله : ﴿ قد خلت ﴾ أي بمفارقة أممهم ، إما بالموت أو الرفع إلى السماء ، ولما كان المراد أن الخلو منهم إنما كان في بعض الزمان الماضي لما مضى أثبت الجار فقال : ﴿ من قبله الرسل ﴾ أي فيسلك سبيلهم ، فاسلكوا أنتم سبيل من نصح نفسه من أتباعهم فاستمسك بنورهم .

(99/131)

ولما سبب عن ذلك إنكار انهزامهم ودعتهم على تقدير فقده أنكر عليهم بقوله :

﴿ أفإن ﴾ ولما كان الملك القادر على ما يريد لا يقول شيئاً وإن كان فرضاً إلا فعله ولو على أقل وجوهه ، وكان في علمه سبحانه أنه صلى الله عليه وسلم يموت موتاً - لكونه على فراشه ، وقتلاً - لكونه بالسم ، قال : ﴿ مات ﴾ أي موتاً على الفراش ﴿ أو قتل ﴾ أي

قتلاً ﴿ انقلبتم ﴾ أي عن الحال التي فارقكم عليها فأضعتم مشاعر الدين وتركتم مشاريع المرسلين ! ثم قرر المعنى بقوله : ﴿ على أعقابكم ﴾ لئلا يظن أن المراد مطلق الانتقال وإن كان على الاستواء والانتقال إلى أحسن ﴿ ومن ﴾ أي انتقلتم والحال أنه من ﴿ ينقلب على عقبيه ﴾ أي بترك ما شرعه له نبيه أو التقصير فيه ﴿ فلن يضر الله ﴾ أي المحيط بجميع العظمة ﴿ شيئاً ﴾ لأنه متعالٍ عن ذلك بأن الخلق كلهم طوع أمره ، لا يتحركون حركة إلا على وفق مراده ، فلو أراد لهداهم أجمعين ، ولو أراد أضلهم أجمعين ، وإنما يضر ذلك المنقلب نفسه لكفره بالله ، وسيجزي الله الشاكرين ، ومن سار ثابتاً على المنهج السوي فإنما ينفع نفسه لشكره لله ﴿ وسيجزي الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ﴿ الشاكرين ﴾ أي كلهم ، فالآية من الاحتباك : أثبت الانقلاب وعدم الضر أولاً دليلاً على حذف ضده ثانياً ، والجزاء ثانياً دليلاً على حذف مثله أولاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 162.161 ﴾

(100/131)

وقال ابن عطية :

هذا استمرار في عتبهم ، وإقامة لحجة الله عليهم ، المعنى : أن محمداً صلى الله عليه وسلم

رسول كسائر الرسل ، قد بلغ كما بلغوا ، ولزمكم أيها المؤمنون العمل بمضمن الرسالة وليست حياة الرسول وبقاؤه بين أظهركم شرطاً في ذلك ، لأن الرسول يموت كما مات الرسل قبله ، و ﴿ خلت ﴾ معناه مضت وسفلت ، وصارت إلى الخلاء من الأرض.

وقرأ جمهور الناس " الرسل " بالتعريف ، وفي مصحف ابن مسعود " رسل " دون تعريف ، وهي قراءة حطان بن عبد الله ، فوجه الأولى تفخيم ذكر الرسل ، والتنويه ، بهم على مقتضى حالهم من الله تعالى ، ووجه الثانية ، أنه موضع تيسير لأمر النبي عليه السلام في معنى الحياة ، ومكان تسوية بينه وبين البشر في ذلك ، فجي تنكير " الرسل " جارياً في مضمار هذا الاقتصاد به صلى الله عليه وسلم ، وهكذا يفعل في مواضع الاقتصاد بالشي ، فمنه قوله تعالى : ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ [سبأ : 13] وقوله تعالى : ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ [هود : 40] إلى غير ذلك من الأمثلة ، ذكر ذلك أبو الفتح ، والقراءة بتعريف " الرسل " أوجه في الكلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 1 صـ 516﴾

فصل

قال الفخر :

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك : لما نزل النبي صلى الله عليه وسلم بأحد أمر الرماة أن يلزموا أصل الجبل ، وأن لا ينتقلوا عن ذلك سواء كان الأمر لهم أو عليهم ، فلما وقفوا وحملوا على الكفار وهزموهم وقتل علي طلحة بن أبي طلحة صاحب لوائهم ، والزبير والمقداد شدا على المشركين ثم حمل الرسول مع أصحابه فهزموا أبا سفيان ، ثم إن بعض القوم لما أن رأوا انهزام الكفار بادر قوم من الرماة إلى الغنيمة وكان خالد بن الوليد صاحب ميمنة الكفار ، فلما رأى تفرق الرماة حمل على المسلمين فهزمهم وفرق جمعهم وكثر القتل في المسلمين ، ورمى عبد الله بن قميئة الحارثي رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه ، وأقبل يريد قتله ، فذب عنه مصعب بن عمير وهو صاحب الراية يوم بدر ويوم أحد حتى قتله ابن قميئة ، فظن أنه قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال قد قتلت محمدا ، وصرخ صارخ ألا إنَّ محمدا قد قتل ، وكان الصارخ الشيطان ، ففشا في الناس خبر قتله ، فهنالك قال بعض المسلمين : ليت عبد الله بن أبي يأخذ لنا أمانا من أبي سفيان .

وقال قوم من المنافقين : لو كان نبيا لما قتل ، ارجعوا إلى إخوانكم والى دينكم ، فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك : يا قوم إن كان قد قتل محمد فإن رب محمد حي لا يموت وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه ، ثم قال : اللهم اني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء ، ثم سل سيفه فقاتل حتى قتل رحمه الله تعالى ، ومر بعض المهاجرين بأنصاري يتشحط في دمه ، فقال : يا فلان أشعرت أن محمدا قد قتل ، فقال : إن كان قد قتل فقد بلغ ، قاتلوا على دينكم ، ولما شج ذلك الكافر وجه الرسول صلى الله عليه وسلم وكسر رباعيته ، احتمله طلحة بن عبيد الله ، ودافع عنه أبو بكر وعلي رضي الله عنهم ونفر آخرون معهم ، ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل ينادي ويقول : إلى عباد الله حتى انحازت اليه طائفة من أصحابه فلامهم على هزيمتهم ، فقالوا يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، أتانا خبر قتلك فاستولى الرعب على قلوبنا فولينا مدبرين ، ومعنى الآية ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرسل ﴾ فسيخلو كما خلوا ، وكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوهم ، فعليكم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه ، لأن الغرض من بعثة الرسل تبليغ الرسالة والزام الحجة ، لا وجودهم بين أظهر قومهم أبدا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 ص 18.17 ﴾

لطيفة

قال القرطبى :

أكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم (وصفيّه) باسمين مشتقّيْن من اسمه : محمَّد وأحْمَدُ ،

تقول العرب : رجل مَحْمُودٌ ومُحَمَّد إذا كثُرت خصاله المحمودة ، قال الشاعر :

إلى الماجِد القَرْمِ الجَوَاد المحَمّدِ . . .

وقد مضى هذا في الفاتحة .

وقال عباس بن مِرداس :

يا خاتِم النُّبَاءِ إنّك مُرْسَلٌ . . .

(103/131)

بالخَيْر كلُّ هُدَى السَّبِيل هُداكا

إن الإله بنَى عليك مَحبَّةً . . .

في خَلْقِه ومُحَمّداً سَمّاكا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 222 ﴾ .

بتصرف يسير .

وقال الآلوسى :

ومحمد علم لنبينا صلى الله عليه وسلم منقول من اسم المفعول من حمد المضاعف لغة سماه به جده عبد المطلب لسابع ولادته لموت أبيه قبلها ولما سئل عن ذلك قال لرؤية رآها : رجوت أن يحمد في السماء والأرض ، ومعناه قبل النقل من يحمد كثيراً وضده المذمم ، وفي الخبر أنه صلى الله عليه وسلم قال : "ألم تروا كيف صرف الله تعالى عني لعن قريش وشتمهم يشتمون مذمماً وأنا محمد" .

وقد جمع هذا الاسم الكريم من الأسرار ما لا يحصى حتى قيل : إنه يشير إلى عدة الأنبياء كإشارته إلى المرسلين منهم عليهم الصلاة والسلام وعبر عنه صلى الله عليه وسلم بهذا الاسم هنا لأنه أول أسمائه وأشهرها وبه صرخ الصارخ. انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 4 صـ 73﴾

وقال ابن عاشور :

ومحمد اسم رسول الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم سمَّاه به جدّه عبد المطلب وقيل له : لِمَ سَمّيتَه محمّداً وليس من أسماء آبائك ؟ فقال : رجوت أن يحمده النَّاس .

وقد قيل : لم يسمّ أحد من العرب محمداً قبل رسول الله .

ذكر السهيلي في "الروض" أنّه لم يُسمّ به من العرب قبل ولادة رسول الله إلاّ ثلاثة : محمد بن سفيان بن مجاشع ، جدّ جدّ الفرزدق ، ومحمد بن أُحَيْحَةَ بن الجُلاَح الأوسي .

ومحمد بن حمران مِن ربيعة .

وهذا الاسم منقول من اسم مفعول حَمَّده تحميداً إذا أكثر من حمده ، والرسول فَعول بمعنى مَفعول مثل قولهم : حَلُوب وركوب وجَزور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 237 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال أبو علي : الرسول جاء على ضربين :

أحدهما : يراد به المرسل ، والآخر الرسالة ، وههنا المراد به المرسل بدليل قوله : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ [البقرة : 252] وقوله : ﴿ يا أيها الرسول بَلّغْ ﴾ [المائدة : 67] وفعول قد يراد به المفعول ، كالركوب والحلوب لما يركب ويحلب والرسول بمعنى الرسالة كقوله :

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم .. بسر ولا أرسلتهم برسول

أي برسالة ، قال : ومن هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّا رَسُولاَ رَبّكَ ﴾ [طه : 47] ونذكره في موضعه إن شاء الله تعالى . انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 18 ﴾

كلام نفيس لابن القيم

قال عليه الرحمة :

فَصْلٌ فِي شَرْحِ مَعَانِي أَسْمَائِهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ

اسْمُ مَفْعُولٍ مِنْ حَمِدَ فَهُوَ مُحَمّدٌ إذَا كَانَ كَثِيرَ الْخِصَالِ الّتِي يُحْمَدُ عَلَيْهَا وَلِذَلِكَ كَانَ أَبْلَغَ مِنْ مَحْمُودٍ فَإِنّ مَحْمُودًا مِنْ الثّلَاثِيّ الْمُجَرّدِ وَمُحَمّدٌ مِنْ الْمُضَاعَفِ لِلْمُبَالَغَةِ فَهُوَ الّذِي يُحْمَدُ أَكْثَرَ مِمّا يُحْمَدُ غَيْرُهُ مِنْ الْبَشَرِ وَلِهَذَا - وَاَللّهُ أَعْلَمُ - سُمّيَ بِهِ فِي التّوْرَاةِ لِكَثْرَةِ الْخِصَالِ الْمَحْمُودَةِ الّتِي وُصِفَ بِهَا هُوَ وَدِينُهُ وَأُمّتُهُ فِي التّوْرَاةِ حَتّى تَمَنّى مُوسَى عَلَيْهِ الصّلَاةُ وَالسّلَامُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ وَقَدْ أَتَيْنَا عَلَى هَذَا الْمَعْنَى بِشَوَاهِدِهِ هُنَاكَ وَبَيّنّا غَلَطَ أَبِي الْقَاسِمِ السّهَيْلِيّ حَيْثُ جَعَلَ الْأَمْرَ بِالْعَكْسِ وَأَنّ اسْمَهُ فِي التّوْرَاةِ أَحْمَدُ .

[هَلْ أَحْمَدُ تَفْضِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ أَوْ مَفْعُولٌ]

وَأَمّا أَحْمَدُ فَهُوَ اسْمٌ عَلَى زِنَةِ أَفْعَلِ التّفْضِيلِ مُشْتَقّ أَيْضًا مِنْ الْحَمْدِ . وَقَدْ اخْتَلَفَ النّاسُ فِيهِ هَلْ هُوَ بِمَعْنَى فَاعِلٍ أَوْ مَفْعُولٍ ؟ فَقَالَتْ طَائِفَةٌ هُوَ بِمَعْنَى الْفَاعِلِ أَيْ حَمْدُهُ لِلّهِ أَكْثَرُ مِنْ حَمْدِ غَيْرِهِ لَهُ فَمَعْنَاهُ أَحْمَدُ الْحَامِدِينَ لِرَبّهِ وَرَجّحُوا هَذَا الْقَوْلَ بِأَنّ قِيَاسَ أَفْعَلِ التّفْضِيلِ أَنْ

يُصاغ مِنْ فِعْلِ الْفَاعِلِ لَا مِنْ الْفِعْلِ الْوَاقِعِ عَلَى الْمَفْعُولِ قَالُوا : وَلِهَذَا لَا يُقَالُ مَا أَضْرَبَ زَيْدًا وَلَا زَيْدٌ أَضْرَبَ مِنْ عَمْرٍو بِاعْتِبَارِ الضَّرْبِ الْوَاقِعِ عَلَيْهِ وَلَا : مَا أَشْرَبَهُ لِلْمَاءِ وَآكَلَهُ وَنَازَعَهُمْ فِي ذَلِكَ آخَرُونَ وَقَالُوا : يَجُوزُ صَوْغُهُمَا مِنْ فِعْلِ الْفَاعِلِ وَمِنْ الْوَاقِعِ عَلَى الْمَفْعُولِ وَكَثْرَةُ السَّمَاعِ بِهِ مِنْ أَبْيَنِ الْأَدِلَّةِ عَلَى جَوَازِهِ تَقُولُ الْعَرَبُ : مَا أَشْغَلَهُ بِالشَّيْءِ وَهُوَ مِنْ شُغِلَ فَهُوَ مَشْغُولٌ وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ مَا أَوْلَعَهُ بِكَذَا وَهُوَ مِنْ أُولِعَ بِالشَّيْءِ فَهُوَ مُولَعٌ بِهِ مَبْنِيٌّ لِلْمَفْعُولِ لَيْسَ إلَّا وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ مَا أَعْجَبَهُ بِكَذَا فَهُوَ مِنْ أُعْجِبَ بِهِ وَيَقُولُونَ مَا أَحَبَّهُ إلَيَّ فَهُوَ تَعَجُّبٌ مِنْ فِعْلِ الْمَفْعُولِ وَكَوْنُهُ مَحْبُوبًا لَكَ وَكَذَا : مَا أَبْغَضَهُ إلَيَّ وَأَمْقَتَهُ إلَيَّ . وَهَاهُنَا مَسْأَلَةٌ مَشْهُورَةٌ ذَكَرَهَا سِيبَوَيْهِ وَهِيَ أَنَّكَ تَقُولُ مَا أَبْغَضَنِي لَهُ وَمَا أَحَبَّنِي لَهُ وَمَا أَمْقَتَنِي لَهُ إذَا كُنْتَ أَنْتَ الْمُبْغِضَ الْكَارِهَ وَالْمُحِبَّ الْمَاقِتَ فَتَكُونُ

مُتَعَجِّبًا مِنْ فِعْلِ الْفَاعِلِ وَتَقُولُ مَا أَبْغَضَنِي إلَيْهِ وَمَا أَمْقَتَنِي إلَيْهِ وَمَا أَحَبَّنِي إلَيْهِ إذَا كُنْتَ أَنْتَ الْبَغِيضُ الْمَمْقُوتُ أَوْ الْمَحْبُوبُ فَتَكُونُ مُتَعَجِّبًا مِنْ الْفِعْلِ الْوَاقِعِ عَلَى الْمَفْعُولِ فَمَا كَانَ بِاللَّامِ فَهُوَ لِلْفَاعِلِ وَمَا كَانَ بِ إلَى فَهُوَ لِلْمَفْعُولِ . وَأَكْثَرُ النُّحَاةِ لَا يُعَلِّلُونَ بِهَذَا . وَاَلَّذِي يُقَالُ فِي عِلَّتِهِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ إنَّ اللَّامَ فَيُقَالُ لِزَيْدٍ فَيُؤْتَى بِاللَّامِ . وَأَمَّا إلَى فَتَكُونُ لِلْمَفْعُولِ فِي الْمَعْنَى فَتَقُولُ

إِلَى مَنْ يَصِلُ هَذَا الْكِتَابَ ؟ فَتَقُولُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ وَسِرُّ ذَلِكَ أَنَّ اللَّامَ فِي الْأَصْلِ لِلْمِلْكِ وَالِاخْتِصَاصِ وَالِاسْتِحْقَاقِ إِنَّمَا يَكُونُ لِلْفَاعِلِ الَّذِي يَمْلِكُ وَيَسْتَحِقُّ وَإِلَى لِانْتِهَاءِ الْغَايَةِ وَالْغَايَةُ مُنْتَهَى مَا يَقْتَضِيهِ الْفِعْلُ فَهِيَ بِالْمَفْعُولِ أَلْيَقُ لِأَنَّهَا تَمَامُ مُقْتَضَى الْفِعْلِ وَمِنْ التَّعَجُّبِ مِنْ فِعْلِ الْمَفْعُولِ قَوْلُ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَهُوَ أَخْوَفُ عِنْدِي إِذْ أُكَلِّمُهُ وَقِيلَ إِنَّكَ مَحْبُوسٌ وَمَقْتُولُ

مِنْ خَادِرٍ مِنْ لُيُوثِ الْأُسْدِ مَسْكَنُهُ بِبَطْنِ عَثَّرَ غِيلٌ دُونَهُ غِيلُ

(107/131)

فَأَخْوَفُ هَاهُنَا مِنْ خِيفَ فَهُوَ مَخُوفٌ لَا مِنْ خَافَ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ مَا أَجَنَّ زَيْدًا مِنْ جُنَّ فَهُوَ مَجْنُونٌ هَذَا مَذْهَبُ الْكُوفِيِّينَ وَمَنْ وَافَقَهُمْ . قَالَ الْبَصْرِيُّونَ : كُلُّ هَذَا شَاذٌّ لَا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ فَلَا نُشَوِّشُ بِهِ الْقَوَاعِدُ وَيَجِبُ الِاقْتِصَارُ مِنْهُ عَلَى الْمَسْمُوعِ قَالَ الْكُوفِيُّونَ : كَثْرَةُ هَذَا فِي كَلَامِهِمْ نَثْرًا وَنَظْمًا يَمْنَعُ حَمْلَهُ عَلَى الشُّذُوذِ لِأَنَّ الشَّاذَّ مَا خَالَفَ اسْتِعْمَالَهُمْ وَمُطَّرِدَ كَلَامِهِمْ وَهَذَا غَيْرُ مُخَالِفٍ لِذَلِكَ قَالُوا : وَأَمَّا تَقْدِيرُكُمْ لُزُومَ الْفِعْلِ وَنَقْلَهُ إِلَى فَعُلَ فَتَحَكُّمٌ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَمَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِ مِنْ التَّعْدِيَةِ بِالْهَمْزَةِ إِلَى آخِرِهِ فَلَيْسَ الْأَمْرُ فِيهَا كَمَا ذَهَبْتُمْ إِلَيْهِ وَالْهَمْزَةُ فِي هَذَا الْبِنَاءِ لَيْسَتْ لِلتَّعْدِيَةِ وَإِنَّمَا هِيَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَى التَّعَجُّبِ وَالتَّفْضِيلِ فَقَطْ كَأَلِفِ فَاعِلٍ

وَمِيمِ مَفْعُولٍ وَوَاوِهِ وَتَاءِ الِافْتِعَالِ وَالْمُطَاوَعَةِ وَنَحْوِهَا مِنْ الزَّوَائِدِ الَّتِي تَلْحَقُ الْفِعْلَ الثُّلَاثِيَّ لِبَيَانِ مَا لَحِقَهُ مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَى مُجَرَّدِهِ فَهَذَا هُوَ السَّبَبُ الْجَالِبُ لِهَذِهِ الْهَمْزَةِ لَا تَعْدِيَةُ الْفِعْلِ . قَالُوا : وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى هَذَا أَنَّ الْفِعْلَ الَّذِي يُعَدَّى بِالْهَمْزَةِ يَجُوزُ أَنْ يُعَدَّى بَاءَ التَّعْدِيَةِ نَحْوُ أَكْرِمْ بِهِ وَأَحْسِنْ بِهِ وَلَا يُجْمَعُ عَلَى الْفِعْلِ بَيْنَ تَعْدِيَتَيْنِ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا أَعْطَاهُ لِلدَّرَاهِمِ وَأَكْسَاهُ لِلثِّيَابِ وَهَذَا مِنْ أَعْطَى وَكَسَا

(108/131)

الْمُتَعَدِّي وَلَا يَصِحُّ تَقْدِيرُ نَقْلِهِ إلَى عطو : إذَا تَنَاوَلَ ثُمَّ أُدْخِلَتْ عَلَيْهِ هَمْزَةُ التَّعْدِيَةِ لِفَسَادِ الْمَعْنَى فَإِنَّ التَّعَجُّبَ إنَّمَا وَقَعَ مِنْ إعْطَائِهِ لَا مِنْ عَطْوِهِ وَهُوَ تَنَاوُلُهُ وَالْهَمْزَةُ الَّتِي فِيهِ هَمْزَةُ التَّعَجُّبِ وَالتَّفْضِيلِ وَحُذِفَتْ هَمْزَتُهُ الَّتِي فِي فِعْلِهِ فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ هِيَ لِلتَّعْدِيَةِ . قَالُوا : وَأَمَّا قَوْلُكُمْ إنَّهُ عُدِّيَ بِاللَّامِ فِي نَحْوِ مَا أَضْرَبَهُ لِزَيْدٍ . . . إلَى آخِرِهِ فَالْإِتْيَانُ بِاللَّامِ هَا هُنَا لَيْسَ لِمَا ذَكَرْتُمْ مِنْ لُزُومِ الْفِعْلِ وَإِنَّمَا أُتِيَ بِهَا تَقْوِيَةً لَهُ لَمَّا ضَعُفَ بِمَنْعِهِ مِنَ التَّصَرُّفِ وَأُلْزِمَ طَرِيقَةً وَاحِدَةً خَرَجَ بِهَا عَنْ سُنَنِ الْأَفْعَالِ فَضَعُفَ عَنْ اقْتِضَائِهِ وَعَمَلِهِ فَقَوِيَ بِاللَّامِ كَمَا يَقْوَى بِهَا عِنْدَ تَقَدُّمِ مَعْمُولِهِ عَلَيْهِ وَعِنْدَ فَرْعِيَّتِهِ وَهَذَا الْمَذْهَبُ هُوَ الرَّاجِحُ كَمَا تَرَاهُ . فَلْنَرْجِعْ إلَى الْمَقْصُودِ فَنَقُولُ تَقْدِيرُ أَحْمَدَ عَلَى قَوْلِ الْأَوَّلِينَ أَحْمَدُ النَّاسِ لِرَبِّهِ وَعَلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ أَحَقُّ

النّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِأَنْ يَحْمَدَ فَيَكُونُ كَمُحَمّدٍ فِي الْمَعْنَى إلّا أَنّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا أَنّ مُحَمّدًا هُوَ كَثِيرُ الْخِصَالِ الّتِي يُحْمَدُ عَلَيْهَا وَأَحْمَدُ هُوَ الّذِي يَحْمَدُ أَفْضَلَ مِمّا يَحْمَدُ غَيْرُهُ فَمُحَمّدٌ فِي الْكَثْرَةِ وَالْكَمّيّةِ وَأَحْمَدُ فِي الصّفَةِ وَالْكَيْفِيّةِ فَيَسْتَحِقّ مِنْ الْحَمْدِ أَكْثَرَ مِمّا يَسْتَحِقّ غَيْرُهُ وَأَفْضَلَ مِمّا يَسْتَحِقّ غَيْرُهُ فَيُحْمَدُ أَكْثَرَ حَمْدٍ وَأَفْضَلَ

(109/131)

حَمْدٍ حَمِدَهُ الْبَشَرُ . فَالِاسْمَانِ وَاقِعَانِ عَلَى الْمَفْعُولِ وَهَذَا أَبْلَغُ فِي مَدْحِهِ وَأَكْمَلُ مَعْنًى . وَلَوْ أُرِيدَ مَعْنَى الْفَاعِلِ لَسُمّيَ الْحَمّادَ أَيْ كَثِيرُ الْحَمْدِ فَإِنّهُ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ كَانَ أَكْثَرَ الْخَلْقِ حَمْدًا لِرَبّهِ فَلَوْ كَانَ اسْمُهُ أَحْمَدَ بِاعْتِبَارِ حَمْدِهِ لِرَبّهِ لَكَانَ الْأَوْلَى بِهِ الْحَمّادُ كَمَا سُمّيَتْ بِذَلِكَ أُمّتُهُ . وَأَيْضًا : فَإِنّ هَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ إنّمَا اُشْتُقّا مِنْ أَخْلَاقِهِ وَخَصَائِصِهِ لِأَجْلِهَا اسْتَحَقّ أَنْ يُسَمّى مُحَمّدًا صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَأَحْمَدُ وَهُوَ الّذِي يَحْمَدُهُ أَهْلُ السّمَاءِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ وَأَهْلُ الدّنْيَا وَأَهْلُ الْآخِرَةِ لِكَثْرَةِ خَصَائِلِهِ الْمَحْمُودَةِ الّتِي تَفُوقُ عَدّ الْعَادّينَ وَإِحْصَاءَ الْمُحْصِينَ وَقَدْ أَشْبَعْنَا هَذَا الْمَعْنَى فِي كِتَابِ الصّلَاةِ وَالسّلَامِ عَلَيْهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَإِنّمَا ذَكَرْنَا هَاهُنَا كَلِمَاتٍ يَسِيرَةً اقْتَضَتْهَا حَالُ الْمُسَافِرِ وَتَشَتّتُ قَلْبِهِ

وَتَفَرّقُ هِمّتِهِ وَبِاَللّهِ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التّكْلَانُ .

[تفسير معنى المتوكل]

وَأَمّا اسْمُهُ الْمُتَوَكّلُ فَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيّ عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ قَرَأْتُ فِي التّوْرَاةِ صِفَةَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مُحَمّدٌ رَسُولُ اللّهِ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمّيْته الْمُتَوَكّلَ لَيْسَ بِفَظّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يَجْزِي بِالسّيّئَةِ السّيّئَةَ بَلْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ وَلَنْ أَقْبِضَهُ حَتّى أُقِيمَ بِهِ الْمِلّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا : لَا إلَهَ إلّا اللّهُ وَهُوَ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَحَقّ النّاسِ بِهَذَا الِاسْمِ لِأَنّهُ تَوَكّلَ عَلَى اللّهِ فِي إقَامَةِ الدّينِ تَوَكّلًا لَمْ يُشْرِكْهُ فِيهِ غَيْرُهُ .

[تَفْسِيرُ الْمَاحِي]

وَأَمّا الْمَاحِي وَالْحَاشِرُ وَالْمُقَفّي وَالْعَاقِبُ فَقَدْ فُسّرَتْ فِي حَدِيثِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ فَالْمَاحِي : هُوَ الّذِي مَحَا اللّهُ بِهِ الْكُفْرَ وَلَمْ يُمْحَ الْكُفْرُ بِأَحَدٍ مِنْ الْخَلْقِ مَا مُحِيَ بِالنّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَإِنّهُ بُعِثَ وَأَهْلُ الْأَرْضِ كُلّهُمْ كُفّارٌ إلّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَهُمْ مَا بَيْنَ عُبّادِ أَوْثَانٍ وَيَهُودَ مَغْضُوبٍ عَلَيْهِمْ وَنَصَارَى ضَالّينَ وَصَابِئَةٍ دَهْرِيّةٍ لَا يَعْرِفُونَ رَبّا وَلَا مَعَادًا وَبَيْنَ عُبّادِ الْكَوَاكِبِ وَعُبّادِ النّارِ وَفَلَاسِفَةٍ لَا يَعْرِفُونَ شَرَائِعَ الْأَنْبِيَاءِ وَلَا يُقِرّونَ بِهَا فَمَحَا اللّهُ

سُبْحَانَهُ ظَهَرَ دِينُ اللَّهِ عَلَى كُلِّ دِينٍ وَبَلَغَ دِينُهُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَسَارَتْ دَعْوَتُهُ مَسِيرَ الشَّمْسِ فِي الْأَقْطَارِ .

[تَفْسِيرُ الْحَاشِرِ]

وَأَمَّا الْحَاشِرُ فَالْحَشْرُ هُوَ الضَّمُّ وَالْجَمْعُ فَهُوَ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِهِ فَكَأَنَّهُ بُعِثَ لِيُحْشَرَ النَّاسُ .

[تَفْسِيرُ الْعَاقِبِ]

وَالْعَاقِبُ الَّذِي جَاءَ عَقِبَ الْأَنْبِيَاءِ فَلَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ فَإِنَّ الْعَاقِبَ هُوَ الْآخِرُ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْخَاتَمِ وَلِهَذَا سُمِّيَ الْعَاقِبَ عَلَى الْإِطْلَاقِ أَيْ عَقِبَ الْأَنْبِيَاءِ جَاءَ بِعَقِبِهِمْ .

[تَفْسِيرُ الْمُقَفِّي]

وَأَمَّا الْمُقَفِّي فَكَذَلِكَ وَهُوَ الَّذِي قَفَّى عَلَى آثَارِ مَنْ تَقَدَّمَهُ فَقَفَّى اللَّهُ بِهِ عَلَى آثَارِ مَنْ سَبَقَهُ مِنَ الرُّسُلِ وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْقَفْوِ يُقَالُ قَفَاهُ يَقْفُوهُ إِذَا تَأَخَّرَ عَنْهُ وَمِنْهُ قَافِيَةُ الرَّأْسِ وَقَافِيَةُ الْبَيْتِ فَالْمُقَفِّي : الَّذِي قَفَّى مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ فَكَانَ خَاتَمَهُمْ وَآخِرَهُمْ .

[نَبِيُّ التَّوْبَةِ]

وَأَمَّا نَبِيّ التَّوْبَة فَهُوَ الَّذِي فَتَحَ اللَّهُ بِهِ بَابَ التَّوْبَة عَلَى أَهْل الْأَرْض فَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ تَوْبَة لَمْ يَحْصُلْ مِثْلُهَا لِأَهْلِ الْأَرْض قَبْلَهُ . وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْثَرُ النَّاس اسْتِغْفَارًا وَتَوْبَةً حَتَّى كَانُوا يَعُدُّونَ لَهُ فِي الْمَجْلِس الْوَاحِد مِائَة مَرَّة رَبّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّك أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ وَكَانَ يَقُول يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ رَبّكُمْ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ فِي الْيَوْم مِائَة مَرَّة وَكَذَلِكَ تَوْبَة أُمَّتِهِ أَكْمَل مِنْ تَوْبَة سَائِر الْأُمَم وَأَسْرَعُ وَكَانَتْ تَوْبَة مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ أَصْعَب الْأَشْيَاء حَتَّى كَانَ مِنْ تَوْبَة بَنِي إِسْرَائِيل مِنْ عِبَادَة الْعِجْل قَتْلُ أَنْفُسِهِمْ وَأَمَّا هَذِهِ الْأُمَّة فَلِكَرَامَتِهَا عَلَى اللَّه تَعَالَى جَعَلَ تَوْبَتهَا النَّدَم وَالْإِقْلَاع .

[نَبِيّ الْمَلْحَمَة]

وَأَمَّا نَبِيّ الْمَلْحَمَة فَهُوَ الَّذِي بُعِثَ بِجِهَادِ أَعْدَاء اللَّه فَلَمْ يُجَاهِدْ نَبِيّ وَأُمَّتُهُ قَطّ مَا جَاهَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتُهُ وَالْمَلَاحِمُ الْكِبَارُ الَّتِي وَقَعَتْ وَتَقَعُ بَيْنَ أُمَّتِهِ وَبَيْنَ الْكُفَّار لَمْ يُعْهَدْ مِثْلُهَا قَبْلَهُ فَإِنّ أُمَّتَهُ يَقْتُلُونَ الْكُفَّار فِي أَقْطَار الْأَرْض عَلَى تَعَاقُب الْأَعْصَار وَقَدْ أَوْقَعُوا بِهِمْ مِنْ الْمَلَاحِم مَا لَمْ تَفْعَلْهُ أُمَّة سِوَاهُمْ .

[نَبِيّ الرَّحْمَة]

وَأَمَّا نَبِيُّ الرَّحْمَةِ فَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ فَرُحِمَ بِهِ أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَنَالُوا النَّصِيبَ الْأَوْفَرَ مِنَ الرَّحْمَةِ وَأَمَّا الْكُفَّارُ فَأَهْلُ الْكِتَابِ مِنْهُمْ عَاشُوا فِي ظِلِّهِ وَتَحْتَ حَبْلِهِ وَعَهْدِهِ وَأَمَّا مَنْ قَتَلَهُ مِنْهُمْ هُوَ وَأُمَّتُهُ فَإِنَّهُمْ عَجَّلُوا بِهِ إِلَى النَّارِ وَأَرَاحُوهُ مِنَ الْحَيَاةِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي لَا يَزْدَادُ بِهَا إِلَّا شِدَّةَ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ .

[الْفَاتِحُ]

وَأَمَّا الْفَاتِحُ فَهُوَ الَّذِي فَتَحَ اللَّهُ بِهِ بَابَ الْهُدَى بَعْدَ أَنْ كَانَ مُرْتَجًا وَفَتَحَ بِهِ الْأَعْيُنَ الْعُمْيَ وَالْآذَانَ الصُّمَّ وَالْقُلُوبَ الْغُلْفَ وَفَتَحَ اللَّهُ بِهِ أَمْصَارَ الْكُفَّارِ وَفَتَحَ بِهِ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ وَفَتَحَ بِهِ طُرُقَ الْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فَفَتَحَ بِهِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ وَالْقُلُوبَ وَالْأَسْمَاعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَمْصَارَ .

[الْأَمِينُ]

وَأَمَّا الْأَمِينُ فَهُوَ أَحَقُّ الْعَالَمِينَ بِهَذَا الِاسْمِ فَهُوَ أَمِينُ اللَّهِ عَلَى وَحْيِهِ وَدِينِهِ وَهُوَ أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَأَمِينُ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَلِهَذَا كَانُوا يُسَمُّونَهُ قَبْلَ النُّبُوَّةِ الْأَمِينَ .

[الضَّحُوكُ الْقَتَّالُ]

وَأَمّا الضّحُوكُ الْقَتّالُ فَاسْمَانِ مُزْدَوِجَانِ لَا يُفْرَدُ أَحَدُهُمَا عَنْ الْآخَرِ اللّهِ لَا تَأْخُذُهُ فِيهِمْ لَوْمَةُ لَائِمٍ .

[الْبَشِيرُ]

(114/131)

وَأَمّا الْبَشِيرُ فَهُوَ الْمُبَشّرُ لِمَنْ أَطَاعَهُ بِالثّوَابِ وَالنّذِيرُ الْمُنْذِرُ لِمَنْ عَصَاهُ بِالْعِقَابِ وَقَدْ سَمّاهُ اللّهُ عَبْدَهُ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ مِنْهَا قَوْلُه : ﴿ وَأَنّهُ لَمّا قَامَ عَبْدُ اللّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الْجِنّ : 20] وَقَوْلُهُ ﴿ تَبَارَكَ الّذِي نَزّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ [الْفُرْقَانُ : 1] وَقَوْلُهُ ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ [النّجْمُ 10] وَقَوْلُهُ ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمّا نَزّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ [الْبَقَرَةُ 23] وَثَبَتَ عَنْهُ فِي الصّحِيحِ أَنّهُ قَالَ أَنَا سَيّدُ وَلَدِ آدَمَ [يَوْمَ الْقِيَامَةِ] وَلَا فَخْرَ وَسَمّاهُ اللّهُ سِرَاجًا مُنِيرًا وَسَمّى الشّمْسَ سِرَاجًا وَهّاجًا .

[الْمُنِير]

وَالْمُنِيرُ هُوَ الّذِي يُنِيرُ مِنْ غَيْرِ إحْرَاقٍ بِخِلَافِ الْوَهّاجِ فَإِنّ فِيهِ نَوْعُ إحْرَاقٍ وَتَوَهّجٍ . انتهى انتهى . اهـ ﴿زاد المعاد جـ 1 صـ 87.94﴾

(115/131)

فصل

قال ابن عاشور :

ومعنى ﴿ خلت ﴾ مضت وانقرضت كقوله : ﴿ قد خلت من قبلكم سنن ﴾ [آل عمران : 137] وقول امرىء القيس : (مَن كان في العصر الخالي) وقَصر محمداً على وصف الرسالة قَصْرَ موصوف على الصفة .

قصراً إضافياً ، لردّ ما يخالف ذلك ردّ إنكار ، سواء كان قصر قلب أو قصر إفراد .

والظاهر أنّ جملة ﴿ قد خلت من قبله الرسل ﴾ صفة "لرسول" ، فتكون هي محطّ القصر : أي ما هو إلاّ رسول موصوف بخلوّ الرسل قبله أي انقراضهم .

وهذا الكلام مسوق لردّ اعتقاد من يعتقد انتفاء خلوّ الرسلِ من قبله ، وهذا الاعتقاد وإن لم يكن حاصلاً لأحد من المخاطبين ، إلاّ أنَّهم لمّا صدر عنهم ما من شأنه أن يكون أثراً لهذا الاعتقاد ، وهو عزمهم على ترك نصرة الدّين والاستسلام للعدوّ كانوا أحرياء بأن ينزلوا منزلة من يعتقد انتفاء خلوّ الرسل مِن قبله ، حيث يجدون أتباعهم ثابتين على مللهم حتّى الآن فكان حال المخاطبين حال من يتوهّم التلازم بين بقاء الملّة وبقاء رسولها ، فيستدلّ بدوام الملّة على دوام رسولها ، فإذا هلك رسول ملّة ظنّوا انتهاء شرعه وإبطال اتّباعه .

فالقصر على هذا الوجه قصر قلب ، وهو قلب اعتقادهم لوازم ضدّ الصّفة المقصور عليها ، وهي خلوّ الرسل قبله ، وتلك اللوازم هي الوهَن والتردّد في الاستمرار على نشر دعوة الإسلام ، وبهذا يشعر كلام صاحب "الكشّاف" .

وجعَل السكاكي المقصور عليه هو وصف الرسالة فيكون محطّ القصر هو قوله : "رسول" دون قوله : ﴿ قد خلت من قبله الرسل ﴾ ويكون القصر قصرَ إفْراد بتنزيل المخاطبين منزلة من اعتقد وصفه بالرسالة مع التنزّه عن الهلاك ، حين رتَّبوا على ظنّ موته ظنوناً لا يفرضها إلاّ من يعتقد عصمته من الموت ، ويكون قوله : ﴿ قد خلت من قبله الرسل ﴾ على هذا الوجه استئنافاً لا صفة ، وهو بعيد ، لأنّ المخاطبين لم يصدر منهم ما يقتضي استبعاد خبر موته ، بل هم ظنّوه صدقاً .

وعلى كلا الوجهين فقد نُزّل المخاطبون منزلَة من يَجهل قصر الموصوف على هذه الصفة وينكره ، فلذلك خوطبوا بطريق النّفي والاستثناء ، الَّذي كثر استعماله في خطاب من يجهل الحكم المقصورَ عليه وينكره دون طريق ، إنَّما كما بيّنه صاحب "المفتاح" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 237 . 238 ﴾

قوله تعالى : ﴿ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾

فصل

قال الفخر :

حرف الاستفهام دخل على الشرط وهو في الحقيقة داخل على الجزاء ، والمعنى أتنقلبون على أعقابكم إن مات محمد أو قتل ، ونظيره قوله : هل زيد قائم ، فأنت إنما تستخبر عن قيامه ، إلا أنك أدخلت هل على الاسم والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 18 ﴾

(117/131)

فصل

قال الفخر :

إنه تعالى بين في آيات كثيرة أنه عليه السلام لا يقتل قال : ﴿ إِنَّكَ مَيّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيّتُونَ ﴾ [الزمر : 30] وقال : ﴿ والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس ﴾ [المائدة : 67] وقال : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلّهِ ﴾ [الصف : 9] فليس لقائل أن يقول : لما علم أنه لا يقتل فلم قال ﴿ أو قتل ﴾ ؟

فإن الجواب عنه من وجوه :

الأول : أن صدق القضية الشرطية لا يقتضي صدق جزأيها ، فإنك تقول : إن كانت الخمسة زوجا كانت منقسمة بمتساويين ، فالشرطية صادقة وجزآها كاذبان ، وقال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] فهذا حق مع أنه ليس فيهما آلهة ، وليس فيهما فساد ، فكذا ههنا .

والثاني : أن هذا ورد على سبيل الإلزام ، فإن موسى عليه السلام مات ولم ترجع أمته عن ذلك ، والنصارى زعموا أن عيسى عليه السلام قتل وهم لا يرجعون عن دينه ، فكذا ههنا ،

والثالث : أن الموت لا يوجب رجوع الأمة عن دينه ، فكذا القتل وجب أن لا يوجب الرجوع عن دينه ، لأنه فارق بين الأمرين ، فلما رجع إلى هذا المعنى كان المقصود منه الرد على أولئك الذين شكوا في صحة الدين وهموا بالارتداد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 18. 19 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ انقلبتم على أعقابكم ﴾ أي صرتم كفارا بعد إيمانكم ، يقال لكل من عاد إلى ما كان عليه رجع وراءه وانقلب على عقبه ونكص على عقبيه ، وذلك أن المنافقين قالوا

لضعفة المسلمين : إن كان محمد قتل فالحقوا بدينكم ، فقال بعض الأنصار : إن كان محمد قتل فإن رب محمد لم يقتل ، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد .

وحاصل الكلام أنه تعالى بين أن قتله لا يوجب ضعفا في دينه بدليلين :

الأول : بالقياس على موت سائر الأنبياء وقتلهم ،

والثاني : أن الحاجة إلى الرسول لتبليغ الدين وبعد ذلك فلا حاجة اليه ، فلم يلزم من قتله فساد الدين ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 19 ﴾

فائدة

قال الفخر :

ليس لقائل أن يقول : إن قوله : ﴿ أفإن مات أو قتل ﴾ شك وهو على الله تعالى لا يجوز ، فإنا نقول : المراد أنه سواء وقع هذا أو ذاك فلا تأثير له في ضعف الدين ووجوب الارتداد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 19 ﴾

فصل

قال القرطبى :

هذه الآية أدلّ دليل على شجاعة الصديق وجراءته ، فإن الشجاعة والجرأة حدّهما ثبوت القلب عند حلول المصائب ، ولا مصيبة أعظم من موت النبيّ صلى الله عليه وسلم كما تقدّم بيانه في "البقرة" فظهرت عنده شجاعته وعلمه .

قال الناس : لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم عمر ، وخرس عثمان ، واستخفى عليّ ، واضطرب الأمر فكشفه الصديق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسُّنْح ، الحديث ؛ كذا في البخاري .

وفي سنن ابن ماجه عن عائشة قالت : "لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر عند امرأته ابنة خارجة بالعَوالي ، فجعلوا يقولون : لم يمت النبيّ صلى الله عليه وسلم إنما هو بعض ما كان يأخذه عند الوحي .

فجاء أبو بكر فكشف عن وجهه وقبّل بين عينيه وقال : أنت أكرم على الله من أن يميتك ! مرتين ، قد والله مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر في ناحية المسجد يقول : والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يموت حتى يقطع أيدي أُناس من المنافقين كثيرٍ وأرجلهم .

فقام أبو بكر فصعِد المنبر فقال : من كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لم يمت ، ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرسل أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقلبتم على أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ على عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ الله شَيْئاً وَسَيَجْزِي الله الشاكرين ﴾ .

قال عمر : "فلكأَنِّي لم أقرأها إلا يومئذ" .

ورجع عن مقالته التي قالها فيما ذكر الوَائلي أبو نصر عبيد الله في كتابه الإبانة : عن أنس بن مالك أنه سمع عمر بن الخطاب حين بويع أبو بكر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم واستوى على مِنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تشهد قبل أبي بكر فقال : أمّا بعد فإني قلت لكم أمس مقالة وأَنها لم تكن كما قلتُ ، وإِني والله ما وجدت المقالة التي قلت لكم في كتاب أنزله الله ولا في عهد عهِده إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكني كنت أرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يَدْبُرَنا يريد أن يقول حتى يكون آخرنا موتا فاختار الله عز وجل لرسوله الذي عنده على الذي عندكم ، وهذا الكتاب الذي هدى الله به رسوله فخذوا به تهتدوا لما هدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الوَائلي أبو نصر : المقالة التي قالها ثم رجع عنها هي "أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يمت ولن يموت حتى يقطع أيدي رجال وأرجلهم" وكان قال ذلك لعظيم ما ورد عليه ، وخشِي الفتنة وظهور المنافقين ، فلما شاهد قوّة يقينِ الصدّيقِ الأكبرِ أبي بكر ، وتفوّهه

يقول الله عز وجل : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوتِ ﴾ [آل عمران : 85] وقوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : 30] وما قاله ذلك اليوم تَنَبَّهَ وتثبّتَ وقال : كأني لم أسمع بالآية إلا من أبي بكر .

وخرج الناس يتلونها في سِكك المدينة ، كأنها لم تنزل قط إلا ذلك اليوم .

ومات صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين بلا اختلاف ، في وقت دخوله المدينة في هجرته حين اشتدّ الضحاء ، ودفن يوم الثلاثاء ، وقيل ليلة الأربعاء .

وقالت صفية بنت عبد المطلب ترثي رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا . . .

وكنت بِنا بَرّاً ولم تك جافِياً

وكنت رحيماً هادياً ومُعلّما . . .

لِيَبْكِ عليك اليومَ من كان باكِيا

لعمرك ما أبكِي النبيِّ لفقده . . .

ولكن لما أخشى من الهَرْجِ آتيا

كأنّ على قلبي لِذِكرِ محمدٍ . . .

وما خِفت من بعد النبي المكاوِيا

أفاطم صلى اللَّه رب محمدٍ . . .

على جَدَثٍ أمسى بيَثْرب ثَاوِيا

فِدًى لرسول اللَّه أُمِّي وخالتي . . .

وعمى وآبائي ونفسي وما لِيا

صدَقْتَ وبلّغتَ الرسالة صادقا . . .

ومتّ صَلِيبَ العودِ أَبْلَجَ صافِيا

فلو أن رب الناس أبقى نبينا . . .

سعِدنا ، ولكن أمره كان ماضِيا

عليك من اللَّه السلام تحيةً . . .

وأُدْخِلت جناتٍ من العَدْن راضِيا

أرى حسنا أيتَمته وتركَته . . .

يُبَكِّي ويدعو جده اليوم ناعِيا

فإن قيل : فلِم أُخِر دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال لأهل بيت أخَّروا دفن ميتهم : " عجلوا دفن جيفتكم ولا تؤخروها "

فالجواب من ثلاثة أوجه : الأوّل ما ذكرناه من عدم اتفاقهم على موته .

الثاني لأنهم لا يعلمون حيث يدفنونه .

قال قوم في البَقِيع ، وقال آخرون في المسجد ، وقال قوم : يحبس حتى يحمل إلى أبيه إبراهيم .

حتى قال العالم الأكبر : سمعته يقول : "ما دفن نبيّ إلا حيث يموت" ذكره ابن ماجه والموطأ وغيرهما .

(121/131)

الثالث أنهم اشتغلوا بالخلاف الذي وقع بين المهاجرين والأنصار في البيعة ، فنظروا فيها حتى استتب الأمر وانتظم الشمل واستوثقت الحال ، واستقرّت الخلافة في نصابها فبايعوا أبا بكر ، ثم بايعوه من الغد بيعة أُخرى عن ملأ منهم ورِضا ؛ فكشف الله به الكُرْبة من أهل الردّة ، وقام به الدّين ، والحمد لله رب العالمين .

ثم رجعوا بعد ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فنظروا في دفنه وغسّلوه وكفّنوه ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 222 . 224 ﴾ . بتصرف يسير .

بحث نفيس

قال الآلوسى

وظاهر الآية يؤيد مذهب أهل السنة القائلين أن المقتول ميت بأجله أي بوقته المقدر له وأنه لو لم يقتل لجاز أن يموت في ذلك الوقت وأن لا يموت من غير قطع بامتداد العمر ولا بالموت بدل القتل إذ على تقدير عدم القتل لا قطع بوجود الأجل وعدمه فلا قطع بالموت ولا بالحياة ، وخالف في ذلك المعتزلة فذهب الكعبي منهم إلى أن المقتول ليس بميت لأن القتل فعل العبد والموت فعل الله سبحانه أي مفعوله وأثر صفته ، وأن للمقتول أجلين : أحدهما : القتل والآخر : الموت وأنه لو لم يقتل لعاش إلى أجله الذي هو الموت ، وذهب أبو الهذيل إلى أن المقتول لو لم يقتل لمات ألبتة في ذلك الوقت .

وذهب الجمهور منهم إلى أن القاتل قد قطع على المقتول أجله وأنه لو لم يقتل لعاش إلى أمد هو أجله الذي علم الله تعالى موته فيه لولا القتل ، وليس النزاع بين الأصحاب والجمهور لفظياً كما رآه الأستاذ وكثير من المحققين حيث قالوا : إنه إذا كان الأجل زمان بطلان الحياة في علم الله تعالى لكان المقتول ميتاً بأجله بلا خلاف من المعتزلة في ذلك إذ هم لا ينكرون كون

المقتول ميتاً بالأجل الذي علمه الله تعالى وهو الأجل بسبب القتل ، وإن قيد بطلان الحياة بأن لا يترتب على فعل من العبد لم يكن كذلك بلا خلاف من الأصحاب فيه إذ هم يقولون بعدم كون المقتول ميتاً بالأجل غير المرتب على فعل العبد لأنا نقول حاصل النزاع أن المراد بأجل المقتول المضاف إليه زمان بطلان حياته بحيث لا محيص عنه ولا تقدم ولا تأخر على ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : 34] ويرجع الخلاف إلى أنه هل تحقق ذلك في حق المقتول أم المعلوم في حقه أنه إن قتل مات وإن لم يقتل يعش كذا في "شرح المقاصد" ، ولعله جواب باختيار الشق الأول ، وهو أن المراد زمان بطلان الحياة في علم الله تعالى لكنه لا مطلقاً بل على ما علمه تعالى وقدره بطريق القطع وحينئذٍ يصلح محلاً للخلاف لأنه لا يلزم من عدم تحقق ذلك في المقتول كما يقوله المعتزلة تخلف العلم عن المعلوم لجواز أن يعلم تقدم موته بالقتل مع تأخر الأجل الذي لا يمكن تخلفه عنه ، وقد يقال : إنه يمكن أن يكون جواباً باختيار شق ثالث وهو المقدر بطريق القطع إذ لا تعرض في تقرير الجواب للعلم والمقدر أخص من الأجل المعلوم مطلقاً والفرق بينه وبين كونه جواباً باختيار الأول لكن لا مطلقاً اعتبار قيد العلم في الأجل الذي هو محل النزاع على تقدير

اختيار الأول وعدم اعتباره فيه على اختيار الثالث وإن كان معلوماً في الواقع أيضاً فافهم ، ثم إن أبا الحسين ومن تابعه يدعون الضرورة في هذه المسألة وكذا الجمهور في رأي البعض ، وعند البعض الآخر هي عندهم استدلالية .

واحتجوا على مذهبهم بالأحاديث الواردة في أن بعض الطاعات تزيد في العمر وبأنه لو كان المقتول ميتاً بأجله لم يستحق القاتل ذماً ولا عقاباً ولم يتوجه عليه قصاص ولا غرم دية ولا قيمة في ذبح شاة الغير لأنه لم يقطع أجلاً ولم يحدث بفعله موتاً ، وبأنه ربما يقتل في الملحمة والحرب ألوف تقضي العادة بامتناع اتفاق موتهم في ذلك الوقت بآجالهم ، وتمسك أبو الهذيل بأنه لو لم يمت المقتول لكان القاتل قاطعاً لأجل قدره الله تعالى ومغيراً لأمر علمه وهو محال ، والكعبي بقوله تعالى : ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ [آل عمران : 144] حيث جعل القتل قسيماً للموت بناءاً على أن المراد بالقتل المقتولية وأنها نفس بطلان الحياة وأن الموت خاص بما لا يكون على وجه القتل ومتى كان الموت غير القتل كان للمقتول أجلان : أحدهما : القتل ، والآخر : الموت .

وأجيب عن متمسك الأولين : الأول : بأن تلك الأحاديث أخبار آحاد فلا تعارض الآيات القطعية كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : 34] أو بأن المراد من أن الطاعة تزيد في العمر أنها تزيد فيما هو المقصود الأهم منه وهو اكتساب الكمالات والخيرات والبركات التي بها تستكمل النفوس الإنسانية وتفوز بالسعادة الأبدية ، أو بأن العمر غير الأجل لأنه لغة الوقت ، وأجل الشيء يقال لجميع مدته ولآخرها كما يقال أجل الدين شهران أو آخر شهر كذا ، ثم شاع استعماله في آخر مدة الحياة ، ومن هنا يفسر بالوقت الذي علم الله تعالى بطلان حياة الحيوان عنده على ما قررناه .

والعمر لغة مدة الحياة كعمر زيد كذا ومدة البقاء كعمر الدنيا وكثيراً ما يتجوز به عن مدة بقاء ذكر الناس الشخص للخير بعد موته ، ومنه قولهم : ذكر الفتى عمره الثاني ؛ ومن هنا يقال لمن مات وأعقب ذكراً حسناً وأثراً جميلاً : ما مات ، فلعله أراد صلى الله عليه وسلم أن تلك الطاعات تزيد في هذا العمر لما أنها تكون سبباً للذكر الجميل ، وأكثر ما ورد ذلك في الصدقة وصلة الرحم وكونهما مما يترتب عليهما ثناء الناس مما لا شبهة فيه قيل : ولهذا لم يقل صلى الله عليه وسلم في ذلك إنه يزيد في الأجل ، أو بأن الله تعالى كان يعلم أن هذا المطيع لو لم يفعل هذه الطاعة لكان عمره أربعين مثلاً لكنه علم أنه يفعلها ويكون عمره سبعين

سنة فنسبة هذه الزيادة إلى تلك الطاعة بناءاً على علم الله تعالى أنه لولاها لما كانت هذه الزيادة .

(125/131)

ومحصل هذا أنه سبحانه قدر عمره سبعين بحيث لا يتصور التقدم والتأخر عنه لعلمه بأن طاعته تصير سبباً لثلاثين فتصير مع أربعين من غير الطاعة سبعين ، وليس محصل ذلك أنه تعالى قدره سبعين على تقدير وأربعين على تقدير حتى يلزم تعدد الأجل والأصحاب لا يقولون به .

والثاني : بأن استحقاق الذم والعقاب وتوجه القصاص أو غرم الدية مثلاً على القاتل ليس بما يثبت في المحل من الموت بل هو بما اكتسبه وارتكبه من الإقدام على الفعل المنهي عنه الذي يخلق الله تعالى به الموت كما في سائر الأسباب والمسببات لا سيما عند ظهور أمارات البقاء وعدم ما يظن معه حضور الأجل حتى لو علم موت شاة بإخبار صادق معصوم ، أو ظهرت الإمارات المفيدة لليقين لم يضمن عند بعض الفقهاء ، والثالث : بأن العادة منقوضة أيضاً بحصول موت ألوف في وقت واحد من غير قتال ولا محاربة كما في أيام الوباء مثلاً على أن التمسك بمثل هذا الدليل في مثل هذا المطلب في غاية السقوط .

وأجيب عن متمسك أبي الهذيل بأن عدم القتل إنما يتصور على تقدير علم الله تعالى بأنه لا يقتل وحينئذٍ لا نسلم لزوم المحال وبأنه لا استحالة في قطع الأجل المقدر الثابت لولا القتل لأنه تقرير للمعلوم لا تغيير له ، وعن متمسك الكعبي المخالف للمعتزلة والأشاعرة في إثبات الأجلين بأن القتل قائم بالقاتل وحال له لا للمقتول وإنما حاله الموت وانزهاق الروح الذي هو بإيجاد الله تعالى وإذنه ومشيئته وإرادة المقتولية المتولدة عن قتل القاتل بالقتل وهي حال المقتول إذ هي بطلان الحياة والتخصيص بما لا يكون على وجه القتل على ما يشعر به ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ [آل عمران : 144] خلاف مذهبه من إنكار القضاء والقدر في أفعال العباد إذ بطلان الحياة المتولد من قتل القاتل أجل قدره الله تعالى وعينه وحدده ، ومعنى الآية كما أشرنا إليه أفئن مات حتف أنفه بلا سبب ، أو مات بسبب القتل ، فتدل على أن مجرد بطلان الحياة موت ومن هنا قيل : إن في المقتول معنيين قتلاً هو من فعل الفاعل وموتاً هو من الله تعالى وحده .

وذهبت الفلاسفة إلى مثل ما ذهب إليه الكعبي من تعدد الأجل فقالوا : إن للحيوان أجلاً طبيعياً بتحلل رطوبته وانطفاء حرارته الغريزيتين وآجالاً اخترامية تتعدد بتعدد أسباب لا

تحصى من الأمراض والآفات ، وبيانه أن الجواهر التي غلبت عليها الأجزاء الرطبة ركبت مع الحرارة الغريزية فصارت لها بمنزلة الدهن للفتيلة المشعلة وكلما انتقصت تلك الرطوبات تبعتها الحرارة الغريزية في ذلك حتى إذا انتهت في الانتقاص وتزايد الجفاف انطفأت الحرارة كانطفاء السراج عند نفاد دهنه فحصل الموت الطبيعي وهو مختلف بحسب اختلاف الأمزجة وهو في الإنسان في الأغلب تمام مائة وعشرين سنة .

(127/131)

وقد يعرض من الآفات مثل البرد المجمد والحرب المذوب وأنواع السموم وأنواع تفرق الاتصال وسوء المزاج ما يفسد البدن ويخرجه عن صلاحه لقبول الحياة إذ شرطها اعتدال المزاج فيهلك بسببه وهذا هو الأجل الاحترامي ، ويرد ذلك أنه مبني على قواعدهم من تأثير الطبيعة والمزاج وهو باطل عندنا إذ لا تأثير إلا له سبحانه وتلك الأمور عندنا أسباب عادية لا عقلية كما زعموا .

وادعى بعض المحققين أن النزاع بيننا وبين الفلاسفة كالنزاع بيننا وبين المعتزلة على رأي الأستاذ لفظي إذ هم لا ينكرون القضاء والقدر فالوقت الذي علم الله تعالى بطلان الحياة فيه بأي سبب كان واحد عندهم أيضاً ، وما ذكروه من الأجل الطبيعي نحن لا ننكره أيضاً

لكنهم يجعلون اعتدال المزاج واستقامة الحرارة والرطوبة ونحو ذلك شروطاً حقيقة عقلية لبقاء الحياة ونحن نجعلها أسباباً عادية وذلك بحث آخر وسيأتي تتمة الكلام على هذه المسألة إذ الأمور مرهونة لأوقاتها ولكل أجل كتاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 76 . 78 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ على عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ الله شَيْئاً ﴾

قال الفخر :

﴿ وَمَن يَنقَلِبْ على عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ الله شَيْئاً ﴾ والغرض منه تأكيد الوعيد ، لأن كل عاقل يعلم أن الله تعالى لا يضره كفر الكافرين ، بل المراد أنه لا يضر إلا نفسه ، وهذا كما إذا قال الرجل لولده عند العتاب : إن هذا الذي تأتي به من الأفعال لا يضر السماء والأرض ، ويريد به أنه يعود ضرره عليه فكذا ههنا . انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 19 ﴾

(128/131)

قوله تعالى : ﴿ وَسَيَجْزِى الله الشاكرين ﴾

قال الفخر :

المراد أنه لما وقعت الشبهة في قلوب بعضهم بسبب تلك الهزيمة ولم تقع الشبهة في قلوب

العلماء الأقوياء من المؤمنين ، فهم شكروا الله على ثباتهم على الإيمان وشدة تمسكهم به ، فلا جرم مدحهم الله تعالى بقوله : ﴿ وَسَيَجْزِى اللهُ الشاكرين ﴾

وروى محمد ابن جرير الطبري عن علي رضي الله عنه أنه قال : المراد بقوله : ﴿ وَسَيَجْزِى الله الشاكرين ﴾ أبو بكر وأصحابه ، وروي عنه أنه قال أبو بكر من الشاكرين وهو من أحباء الله ، والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 19 ﴾

وقال ابن عطية :

وعد الشاكرين وهم الذين صدقوا وصبروا ولم ينقلب منهم أحد على عقبيه بل مضى على دينه قدماً حتى مات ، فمنهم سعد بن الربيع وتقضي بذلك وصيته إلى الأنصار ، ومنهم أنس بن النضر ، ومنهم الأنصاري الذي ذكر الطبري عنه بسند أنه مر عليه رجل من المهاجرين ، والأنصاريّ يتشحط في دمه ، فقال : يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل : فقال الأنصاري : إن كان محمد قد قتل فإنه قد بلغ ، فقاتلوا عن دينكم .

(129/131)

قال الفقيه أبو محمد : فهؤلاء أصحاب النازلة يومئذ صدق فعلهم قولهم : ثم يدخل في الآية الشاكرون إلى يوم القيامة : قال ابن إسحاق معنى ﴿ وسيجزي الله الشاكرين ﴾ أي من

أطاعه وعمل بأمره ، وذكر الطبري بسند عن علي بن أبي طالب وذكر غيره : أنه قال في تفسير هذه الآية : " الشاكرون " : الثابتون على دينهم ، أبو بكر وأصحابه وكان يقول : أبو بكر أمير الشاكرين ، وهذه عبارة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه إنما هي إلى صدع أبي بكر رضي الله عنه بهذه الآية في يوم موت النبي عليه السلام وثبوته في ذلك الموطن ، وثبوته في أمر الردة ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قبض وشاع موته ، هاج المنافقون وتكلموا ، وهموا بالاجتماع والمكاشفة ، أوقع الله تعالى في نفس عمر رضي الله عنه أن النبي لم يقبض فقام بخطبته المشهورة المخوفة للمنافقين برجوع النبي عليه السلام ، ففت ذلك في أعضاد المنافقين وتفرقت كلمتهم ثم جاء أبو بكر بعد أن نظر إلى النبي عليه السلام فسمع كلام عمر فقال له : اسكت ، فاستمر عمر في كلامه فتشهد أبو بكر فأصغى الناس إليه ، فقال : أما بعد فإنه من كان يعبد الله تعالى ، فإن الله حي لا يموت ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ ، وتلا الآية كلها ، فبكى الناس ولم يبق أحد إلا قرأ الآية كأن الناس ما سمعوها قبل ذلك اليوم ، قالت عائشة رضي الله عنها في البخاري : فنفع الله بخطبة عمر ، ثم بخطبة أبي بكر .

قال الفقيه الإمام أبو محمد : فهذا من المواطن التي ظهر فيها شكر أبي بكر وشكر الناس بسببه . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 1 صـ 517 ﴾

لطيفة

قال أبو حيان :

﴿ وسيجزي الله الشاكرين ﴾ وعد عظيم بالجزاء .

(130/131)

وجاء بالسين التي هي في قول بعضهم : قرينة التفسير في الاستقبال ، أي : لا يتأخر جزاء الله إياهم عنهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 3 صـ 75﴾

فصل

قال القرطبى :

في تغيير الحال بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ، عن أنس قال : لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كلّ شيء ، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كلّ شيء ، وما نَفَضْنا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا .

أخرجه ابن ماجه ، وقال : حدّثنا محمد بن بشّار أخبرنا عبد الرحمن بن مهديّ حدّثنا سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : كنا نتّقِي الكلام والانبساط إلى نسائنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مخافةَ أن ينزل فينا القرآن ، فلما مات رسول الله

صلى الله عليه وسلم تَكلّمنا .

وأسند عن أُم سلمَة بنت أبي أُمية زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم (أنها قالت) : كان الناس في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام المُصلّي (يصلي) لم يَعْدُ بصرُ أحدهم موضع قدميْه ، فلما تُوفّي رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو بكر ، فكان الناس إذا قام أحدهُم يصلي لم يَعْدُ بصر أحدهم موضع جبينه ، فتوفى أبو بكر وكان عمر ، فكان الناس إذا قام أحدهم يصلي لم يعْدُ بصر أحدهم موضع القبلة ، فكان عثمان بن عفان فكانت الفتنة فتلفت الناس في الصلاة يميناً وشمالاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 225 . 226 ﴾

(131/131)

" فصل "

قال ابن الجوزى :

المجلس السابع والعشرون في قصة نبينا ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ في ابتداء أمره

الحمد لله قاهر المتجبر ومذله ورافع المتواضع ومجله القريب من عبده فهو أقرب من ظله وهو عند المنكسر لا جله حال ذله لا يعزب عن سمعه وقع القطر في أضعف طله ولا بغام

ظبي البر وكشيش صله ولا يغيب عن بصره في الدجى دبيب نمله رفع من شاء بإعزازه كما

حط من شاء بذله اختار محمداً من الخلق فكأن الكل خلقوا من أجله (هو الذي أرسل

رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) أحمده على أجل الإنعام وأقله وأشهد

بوحدانيته شهادة مصدق قوله بفعله وأن محمداً عبده ورسوله أرسله لنقض الكفر وحله

فقام معجزه ينادي (فائتوا بسورة من مثله) ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ وعلى أبي بكر

الصديق واصل حبله وعلى عمر الذي كان يفرق الشيطان من ظله وعلى عثمان مجهز

جيس العسرة وعاقد شمله وعلى علي أخيه وابن عمه ومقدم أهله وعلى عمه العباس

صنو أبيه وأصله اللهم يا من جميع الخلائق مفتقرون إلى فضله يا منعماً بالجزيل على من ليس

من أهله سامح كلا منا في جده وهزله وارزقنا إقدام شجاع ولي العدو وجمعه ولم يوله

وارحمنا يوم يذهل كل خليل عن خله وانفعني والحاضرين بما اجتمعنا لأجله قال الله تعالى (

هو الذي أرسل رسوله بالهدى) اعلموا أن نبينا ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ المصطفى

على الخلق كلهم صان الله أباه من زلة الزنا

أخبرنا محمد بن عبد الباقي البزار أنبأنا أبو محمد الجوهري أخبرنا أبو عمر بن حيوية أنبأنا أحمد بن معروف أنبأنا الحارث بن أبي أسامة أنبأنا محمد بن سعد أنبأنا محمد ابن عمر الأسلمي أنبأنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة عن عبد المجيد بن سهل عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح قال علماء السير لما حملت به آمنة قالت ما وجدت له ثقلاً وكانت ولادته يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول وقال بعضهم لعشر خلون منه فلما ظهر خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب وتوفي أبوه وهو حمل فخلف له خمسة أجمال وقطعة غنم وأم أيمن كانت تحضنه وماتت أمه وهو ابن ست سنين وكفله جده عبد المطلب ومات وهو ابن ثمان سنين وأوصى به أبا طالب وكان يسمى في صغره الأمين وكانت آيات النبوة تظهر عليه قبل النبوة فكان يرى النور والضوء ولا يمر بحجر ولا شجر إلا قال السلام عليك يا رسول الله وقال إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن ثم رميت الشياطين بالشهب لمبعثه فأما نسبه ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف ابن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب

ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة من مدركة ابن إلياس ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدد بن الهميسع بن حمل بن النبت ابن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام واسمه ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ محمد وأحمد والحاشر والمقفي والماحي والخاتم والعاقب ونبي الرحمة ونبي التوبة ونبي الملاحم والشاهد والبشير والنذير والضحوك والقتال والمتوكل والفاتح والأمين والمصطفى والرسول والأمي والقثم فالحاشر الذي يحشر الناس وهو يقدمهم والمقفي آخر الأنبياء وكذلك العاقب والملاحم الحروب والضحوك اسمه في التوراة وذلك أنه ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ كان طيب النفس فكهاً والقثم من القثم وهو الإعطاء وكان أجود الناس فأما صفته ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ فإنه كان ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير أزهر اللون أشعر أدعج العينين أجرد ذو مسربة وكان أجود الناس وأصدقهم لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة أرضعته ثويبة مولاة أبي لهب أياماً ثم قدمت حليمة فأكملت رضاعته تزوجته خديجة وله خمس وعشرون سنة فأتت منه بزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة والقاسم والطاهر والطيب وقيل ولدت له عبد الله في الإسلام فلقب بالطاهر والطيب وولدت مارية إبراهيم وبعث لأربعين سنة فنزل الملك عليه بحراء يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان وكان إذا نزل عليه كرب له وتربد وجهه وعرق جبينه

ورميت الشياطين بعد عشرين يوماً من مبعثه وبقي ثلاث سنين يستتر بالنبوة ثم نزل عليه (فاصدع بما تؤمر) فأعلن الدعاء ولقي الشدائد من قومه وهو صابر وأمر أصحابه أن يخرجوا إلى أرض الحبشة فخرجوا وفي الصحيحين أنه كان يصلي وسلا جزور قريب منه فأخذه عقبة ابن أبي معيط فألقاه على ظهره فلم يزل ساجداً حتى جاءت فاطمة فأخذته عن ظهره فقال حينئذ اللهم عليك بالملأ من قريش وفي أفراد البخاري أن عقبة بن أبي معيط أخذ يوماً بمنكبه ولوى ثوبه في عنقه فخنقه به خنقاً شديداً فجاء أبو بكر فدفعه عنه وقال أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله فلما مات أبو طالب وماتت خديجة بعده خرج إلى الطائف وعاد إلى مكة وكان في كل موسم يخرج فيعرض نفسه على القبائل ويقول من يؤويني من ينصرني فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي ثم أسري به في سنة ثنتي عشرة من النبوة وبايعه أهل العقبة وتسلل أصحابه إلى المدينة ثم خرج هو وأبو بكر إلى الغار فأقاما فيه ثلاثاً وعمي أمرهم على قريش ثم دخل المدينة فتلقاه أهلها بالرحب والسعة فبنى مسجده ومنزله وغزا سبعاً وعشرين غزاة قاتل منها في تسع بدر وأحد والمريسيع والخندق وقريظة

وخيبر والفتح وحنين والطائف وبعث ستاً وخمسين سرية وما زال يلطف بالخلق ويريهم المعجزات فانشق له القمر ونبع الماء من بين أصابعه

وحن إليه الجذع وأخبر بالغايبات فكان كما قال وفضل على الأنبياء فصلى بهم في ليلة المعراج وهو المتقدم عليهم يوم الشفاعة أنبأنا عبد الأول أنبأنا الداودي حدثنا ابن أعين حدثنا الفربري حدثنا البخاري حدثنا محمد بن سنان حدثنا هشيم أنبأنا سيار عن يزيد الفقير أنبأنا جابر ابن عبد الله أن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ قال أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس كافة أخرجاه في الصحيحين وفي أفراد مسلم من حديث أنس عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال أنا أول الناس يشفع يوم القيامة وأنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة وأنا أول من يقرع باب الجنة وفي أفراده من حديث أبي هريرة عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع أنبأنا الكروخي أنبأنا أبو عامر الأزدي

وأبو بكر الغورجي أنبأنا الجراحي حدثنا المحبوبي حدثنا الترمذي حدثنا الحسين بن يزيد الكوفي حدثنا عبد السلام ابن حرب عن ليث بن الربيع عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا أيسوا لواء الحمد بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر قال ابن الأنباري أراد لا أتبجح بهذه الأوصاف لكن أقولها شكراً ومنبها على إنعام ربي علي

(136/131)

وفي حديث جابر أن رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ قال والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني أخبرنا ابن الحصين أنبأنا ابن المذهب أنبأنا القطيعي حدثنا عبد الله بن أحمد حدثني أبي حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابتنى بيوتاً فأحسنها وأكملها وأجملها إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان فيقولون ألا وضعت ها هنا لبنة فيتم بنيانك فكنت أنا اللبنة أخرجاه في الصحيحين وفيهما من حديث عائشة قالت كان رسول

الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ يقوم حتى تتفطر قدماه قالت وكان ضجاعه الذي كان ينام عليه في الليل من أدم محشوا ليفاً وفيهما من حديث أبي هريرة قال ما شبع رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ ثلاثة أياماً تباعاً من خبز حنطة حتى فارق الدنيا وفي أفراد مسلم من حديث عمر رضي الله عنه قال لقد رأيت رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ يظل اليوم يلتوي ما يجد دقلا يملأ به بطنه أخبرنا محمد بن عبد الباقي أنبأنا الجوهري أنبأنا ابن حيويه أنبأنا ابن معروف أنبأنا الحارث بن أبي أسامة حدثنا محمد بن سعد أنبأنا هشام بن عبد الملك حدثنا أبو هاشم صاحب الزعفران عن محمد بن عبد الله أن أنس بن مالك حدثه أن فاطمة جاءت بكسرة خبز إلى النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ فقال ما هذه الكسرة قالت قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك منه بهذه الكسرة فقال أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام

(137/131)

أخبرنا هبة الله بن محمد عن حميد بن هلال عن أبي بردة قال أخرجت إلينا عائشة كساء ملبداً وإزاراً غليظاً فقالت قبض رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ في هذين أخرجاه في الصحيحين ما ضره من الدنيا ما فات وهو سيد الأحياء والأموات وفي أفراد مسلم من

حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشراً وفي حديث أنس عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشر صلوات وحط عنه عشر خطيئات وفي حديث ابن مسعود عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال إن لله عز وجل ملائكة سياحين يبلغوني من أمتي السلام فالحمد لله الذي جعلنا من أمته وحشرنا الله على كتابه وسنته

الكلام على البسملة

(عجبت لحر النفس كيف يضام

وحر يخاف العتب وهو ينام

(وراض بأوساط الأمور تقاعداً

وفيه إلى غاياتهن قيام

(يسمون عيشاً في الخمول سلامة

وصحة أيام الخمول سقام

(ويستبعدون الرزق طالت به يد

إذا أسمن الأجسام وهو سمام

(جزى الله خيراً عارفاً بزمانه

تجاربه قد شبن وهو غلام

(دع الناس فيما أجمعوا بعض واحد

فنقصك مما لا يعد تمام

ألا قرين عزم يبادر ألا خدين حزم يحاذر ألا شريف الهمة يأنف ألا متجاف عن الرذائل يتجانف

إخواني الدنيا دار قلعة لا حصن قلعة فرحها يحول وترحها يطول لو صحت فكرة عشاقها في مقابح أخلاقها لرفضوها لعيوبها وهجروها لذنوبها ولكنهم لم ينظروا عيب عيبها ولم يعلموا خضاب شيبها (تبت إلى خالقي أفر من الدنيا

وإني بها لمغتر

(تضحك لي خدعة لأتبعها

وهي عن الموبقات تفتر

من نزل بساحة القناعة ذاق حلاوة الغنى من قرع بأنامل التفكر باب الحزن فتح له عن رياض الأنس مراعاة الأسرار من علامات التيقظ لكل باب مفتاح ومفتاح الحكمة طرد الهوى

إخواني فيكم من يترك ما يهوى لما يأمل (وحتم قسمة الأرزاق فينا

وإن ضعف اليقين من القلوب

(وكم من طالب رزقاً بعيداً

أتاه الرزق من أمر قريب

(فأجمل في الطلاب وكن رفيقاً

بنفسك في معالجة الخطوب

(فما الإنسان إلا مثل شلو

تواكله النوائب بالنيوب

(فغربان المنية إن نعتها

فليس بفائت رجم المشيب

قال أبو ذر لك في المال شركاء ثلاثة القدر لا يستأمرك أن يذهب بخير أو شر من هلاك أو موت والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقه وأنت ذميم وأنت الثالث فإن استطعت أن لا تكون أعجز الثلاثة فلا تكن قال علي بن عبيدة لولا لهب من الحرص ينشأ في القلوب لا يملك الاعتبار أطفأ توقده ما كان في الدنيا عوض من يوم يضيع فيها يمكن فيه العمل الصالح (

الرأي أخذك بالحزامة في الذي

تبغي فقصرك ميتة وذهاب

(غلب الفساد على العقول فكذبت

صدق الأنام وصدق الكذاب

(ضربوا الجماجم بالسيوف على الذي

يفنى وطال عن الهوى الإضراب

(وتغرنا آمالنا فنخالها

ماء يموج وكلهن سراب

يا ناسياً مهلاً عن قليل حادث حادث قلبك بما بين يديك حادث يا راحلاً وهو يظن أنه مقيم لابث يا نائماً قد أزعجته المقلقات البواعث يا لاعباً والليالي في سيره حثائث يا ساهياً قد علقت به براثن الموت الضوابث يا معجباً بزخارف في ضمنها الحوادث يا مقبلاً على سحار من الهوى نافث يا مخموراً بالمنى الخمر أم الخبائث يا مطلوباً بالجد وفعله فعل عابث يا حريصاً على المال ماله حظ وارث إياك والدنيا فإن حلفها حلف حانث لا تسمعن قولها فالعزم عزم ناكث (قد أصبحت ونعاتها نعاتها

وكذلك الدنيا تخيب سعاتها

(كدارة أحزانها ضرارة

أشجانها مرارة ساعاتها

(فمتى ينبه من رقاد مهلك

من قد أضر بعينه هجعاتها

) من يغتبط بمعيشة وأمامه

نوب تطيل عناءه فجعاتها

) وإذا رجعت إلى النهى فذواهب الأيام

غير مؤمل رجعاتها

) أوما تفيق من الغرام بعارك

مشهورة مع غيرنا وقعاتها

(139/131)

يا من عمره كلما زاد نقص يا من يأمن الموت وكم قد قنص يا مائلاً إلى الدنيا هل سلمت من نغص يا مفرطاً في الوقت هلا بادرت الفرص يا من إذا ارتقى في سلم الهدى فلاح له الهوى نكص من لك يوم الحشر إذا نشرت القصص ذنوبك كثيرة جمة ونفسك بغير الصلاح مهتمة وأنت في المعاصي إمام وأمة يا من إذا طلب في المتقين لم يوجد ثمة يا من سيلحق في مصرعه وإن أباه أباه وأمه متى تنقشع هذه الظلمة

والغمة متى تنشق أكمة أكمه ذي كمه يا من قد أعماه الهوى ثم أصمه يا من لا يفرق بين المديح والمذمة يا من باع فرحه ثم اشترى غمه يا عقلاً خرباً يحتاج إلى مرمة

يا آدمي أتدري ما منيت به

أم دون ذهنك ستر ليس ينجاب

(يوم ويوم ويفنى العمر منطوياً

عام جديب وعام فيه إخصاب

غيره (فلا تغرنك الدنيا بزخرفها

فأريها إن بلاها غافل صاب

(والحزم يجني أموراً كلها شرف

والحرص يجني أموراً كلها عاب

الكلام على قوله تعالى

(إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم

قال الزجاج المعنى إذا ذكرت عظمته وقدرته وما خوف به من عصاه فزعت قلوبهم يقال وجل يوجل وياجل وييحل وييجل وقال السدي هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر الله فينزع عنها كان الحسن يقول إن لله عباداً كمن رأى أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وكان سميط يقول أتاهم من الله وعيد وقذهم فناموا على خوف وأكلوا على تنغيص وقال سري أكلهم أكل المرضى ونومهم نوم الفرقى قال أبو طارق شهدت ثلاثين رجلاً ماتوا في مجالس الذكر يمشون بأرجلهم

صحاحاً إلى المجلس وأجوافهم قريحة فإذا سمعوا الموعظة تصدعت قلوبهم فماتوا وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه الخوف يمنعني من أكل الطعام والشراب فما أشتهيه وقيل صلى زرارة بن أبي أوفى بالناس فقرأ المدثر فلما بلغ (فإذا نقر في الناقور) خر ميتاً وكان إبراهيم التيمي يذكر وأبو وائل ينتفض انتفاض الطير وقال يوسف بن أسباط لما أتى ذو القرنين السد قال دلوني على أعبد رجل فيكم فقالوا في هذا الوادي رجل يبكي حتى نبت من دموعه الشجر فهبط الوادي فأتاه فوجده ساجداً وهو يقول إلهي اقبض روحي في الأرواح وادفن جسدي في التراب واتركني هملاً لا تبعثني يوم الحساب وقال مالك بن دينار رأيت جويرية تطوف بالبيت وتقول يا رب كم من شهوة ذهبت لذتها وبقيت تبعتها يا رب ما كان لك عقوبة إلا بالنار فما زالت كذلك إلى الصباح يا عجباً تنام عين مع مخافة أم كيف تلهو نفس مع ذكر المحاسبة كان داود الطائي يقول في ظلام الليل همك عطل على الهموم وحالف بيني وبين السهاد فأنا في سجنك أيها الكريم مطلوب وقيل كان عتبة الغلام طويل البكاء فقيل له ارفق بنفسك فقال إنما أبكي على تقصيري

وقيل لعبد الواحد بن زيد ما نفهم كلامك من بكاء عتبة فقال أيبكي عتبة على نفسه وأنهاه

أنا لبئس واعظ قوم وكان يزيد بن مرثد دائم البكاء فكانت زوجته تقول ويحي ما

خصصت به من طول الحزن معك ما تقر لي عين (ما كان يقرأ واش سطر كتماني

لو أن دمعي لم ينطق بتبيان

(ماء ولكنه ذوب الهموم وهل

ماء يولده نيران أحزاني

(ليت النوى إذ سقتني سم أسودها

سدت سبيل امرئ في الحب يلحاني

(قد قلت بالجزع لما أنكروا جزعي

ما أبعد الصبر ممن شوقه داني

(عجناً على الربع نستسقي له مطراً

ففاض دمعي فأرواه وأظماني

لما خفيت العواقب على المتقين فزعوا إلى القلق واستراحوا إلى البكاء قال مالك بن دينار

وددت أن الله عز وجل أذن لي يوم القيامة إذا وقفت بين يديه أن أسجد سجدة فأعلم أنه

قد رضي عني ثم يقول يا مالك كن تراباً (قد أوبقتني ذنوب لست أحصرها

فاجعل تغمدها من بعض إحسانك

(وارفق بنفسي يا ذا الجود إن جهلت

مقدار زلتها مقدار غفرانك

أعقل الناس محسن خائف وأحمق الناس مسيء آمن كان بشر الحافي لا ينام الليل ويقول

أخاف أن يأتي أمر الله وأنا نائم (وكلما هم بذوق الكرى

صاح به الهجران قم لا تنم

ذكرت نفوس القوم العذاب فأنت وتفكرت في شدة العتاب فأرنت تذكرت ما جنت مما

تجنت فجنت أزعجها الحذر ولولا الرجاء ما اطمأنت آه لنفس ضنت بما بذلوه ثم رجت

ما نالوه بئس ما ظنت ما نفس سابقت كنفس تأنت

طربت لذكرى منك هزت جوانحي

كما يطرب النشوان كأس مدام

(وما ذكرتك النفس إلا أصابها

كلذع ضرام أو كوخز سهام

(وإن حديثاً منك أحلى مذاقه

من الشهد ممزوجاً بماء غمام

كيف لا يخاف من قلبه بيد المقلب من ظن أن عمي يسلم من ظن أن برصيصاً يكفر رب غرس من المنى أثمر وكم من مستحصد تلف كرة القلب بحكم صولجان التقليب إن وقفت الكرة طردت وإن بعدت طلبت ليبين سر لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا نادى نادي البعد ألا { تقنطوا

(142/131)

ويقال للمذنبين { ويحذركم الله نفسه } لما قرب جبريل وميكائيل اهتزت الملائكة فخراً بقرب جنسها من جناب العزة فقطع من أغصانها شجرة هاروت وكسر غصن ماروت وأخذ من لبها كرة { وإن عليك لعنتي } فتزودت في سفر العبودية زاد الحذر وقادت في سبيل معروفها نجب التطوع للمنقطعين { ويستغفرون لمن في الأرض } نودي من نادى الإفضال { من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها } فسارت نجائب الأعمال إلى باب الجزاء فصيح بالدليل { لولا أن ثبتناك } فقال { ما منكم من ينجيه عمله } رحم الله أعظماً طالما نصبت وانتصبت جن عليها الليل فلما تمكن وثبت وثبت إن ذكرت عدله ذهبت وهربت وإن تصورت فضله فرحت وطربت اعترفت إذ نبت عن طاعته أنها قد أذنبت وقفت شاكرة لمن لحمها على جوده نبت هبت على أرض

القلوب عقيم الحذر فاقشعرت وندبت فبكت عليها سحائب الرجاء فاهتزت وربت

بحسبك أن قوماً موتى تحيا بذكرهم النفوس وأن قوماً أحياء تقسو برؤيتهم القلوب رحل

القوم وبقيت الآثار في الآثار سألوا طلول التعبد عنهم فقالت خلت الديار (إذا دمعي شكا

البين بينها

شكا غير ذي نطق إلى غير ذي فهم

جال الفكر في قلوبهم فلاح صوابهم وذكروا التوفيق فمحا التذكر إعجابهم وما دوا للمخافة

فأصبحت دموعهم شرابهم وترنموا بالقرآن فأمسى مزهرهم وربابهم وكلفوا بطاعة الإله

فألفوا محرابهم وخدموه مبتذلين في خدمته شبابهم فيا حسنهم وريح الأسحار قد حركت

أثوابهم وحملت قصيص القصص ثم ردت جوابهم (نسيم الصبا إن زرت أرض أحبتي

فخصهم عني بكل سلام

(وبلغهم أني رهين صبابة

وأن غرامي فوق كل غرام

(وإني ليكفيني طروق خيالهم

لو أن جفوني متعت بمنام

(ولست أبالي بالجنان وباللظى

إذا كان في تلك الديار مقامي

(وقد صمت عن لذات دهري كلها

ويوم لقاكم ذاك فطر صيامي

لا يطمعن البطال في منازل الأبطال إن لذة الراحة لا تنال بالراحة من زرع حصد ومن جد وجد (وكيف ينال المجد والجسم وادع

وكيف يجاء الحمد والوفر وافر

(143/131)

أي مطلوب نيل من غير مشقة وأي مرغوب لم تبعد على طالبة الشقة المال لا يحصل إلا بالتعب والعلم لا يدرك إلا بالنصب واسم الجواد لا يناله بخيل ولقب الشجاع لا يحصل إلا بعد تعب طويل (لا يدرك المجد إلا سيد فطن

لما يشق على السادات فعال

أمضى الفريقين في أقرانه ظبة

والبيض هادية والسمر ضلال

(يريك مخبره أضعاف منظره

بين الرجال ففيها الماء والآل

(لولا المشقة ساد الناس كلهم

الجود يفقر والإقدام قتال

(وإنما يبلغ الإنسان طاقته

ما كل ماشية بالرحل شملال

(إنا لفي زمن ترك القبيح به

من أكثر الناس إحسان وإجمال

(ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته

ما فاته وفضول العيش أشغال

سبحان من أيقظ المتقين وخلع عليهم خلع اليقين وألحقهم بتوفيقه بالسابقين فباتوا في جلباب الجد متسابقين

سجع على قوله تعالى

(وجلت قلوبهم

كلما أذهب الأعمار طلوعهم وغروبهم سالت من الأجفان جزعاً غروبهم وكلما لاحت لهم في مرآة الفكر ذنوبهم تجافت عن المضاجع خوفاً جنوبهم وكلما نظروا فساءهم مكتوبهم (وجلت قلوبهم) دموعهم على الدوام تجري وعزتي لأربحنهم في معاملتي وتجري عظمت قدرتي في صدورهم وقدري فاستعاذوا بوصلي من هجري عاملوا معاملة من

يفهم ويدري فنومهم على فراش القلق وهبوبهم (إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) أموات عن الدنيا ما دفنوا أغمضوا عنها عيونهم وحزنوا ولو فتحوا أجفان الشره لفتنوا باعوها بما يبقى فلا والله ما غبنوا تالله لقد حصل مطلوبهم (إذا ذكر الله وجلت قلوبهم)

(144/131)

حبسوا النفوس في سجن المحاسبة وبسطوا عليها ألسن المعاتبة ومدوا نحوها أكف المعاقبة وتحق لمن بين يديه المناقشة والمطالبة فارتفعت بالمعاتبة عيوبهم (إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) شاهدوا الأخرى باليقين كرأي العين فباعوا العقار وأخرجوا العين وعلموا بمقتضى الدين أن التقى دين فدنياهم خراب وأخراهم على الزين قد قنعوا بكسرتين وجرعتين هذا مأكولهم وهذا مشروبهم (إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) والحمد لله وحده . انتهى ا . هـ ﴿ التبصرة / لابن الجوزى حـ 1 صـ 380. 395 ﴾

(145/131)

"فصل"

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى ذكر نبينا صلى الله عليه وسلم)

ذكر المعينىّ فى تفسيره أنّ الله تعالى لمّا أَراد إِيجادَ محمد صلّى الله عليه وسلّم من مَعْدِنِ الشّرف أَوْقَفَ جَوْهَر وجوده فى مائة مَقامٍ من مَقامات العِزّ ، ثمّ جَلاهُ على الخَلْق ودعاهُ بمائةِ اسمٍ شريف ، وجَلاه بمائةِ مُعْجِزَةٍ ، وذَكَر له فى الكتّاب العزيز مائةَ شيءٍ ممّا يتعلّق بذاته وصفاتِه ، وخَلَع عليه فى الدّارَيْن مائة خِلْعَة ، وقَرنَ اسمه باسمه العظيم فى خَمْسِين شَيْئاً ، وأَقْسَم بخَمْسِين شيئًا من ذاتِه وصفاتِه ومضافاتِه ، وحَلّى ظاهرَه بخمسين حِلْيَة وحَلّى قَلْبَه بخمسين حِلْيَة .

أَمّا المَقاماتُ المائةُ فمنها اثْنَا عَشَرَ حِجاباً ، وأَربعون بَحْراً ، وخَمْسُون صُلْباً ، وهى أَصلابُ آبائه .

/أَمّا الحُجُب فرُوِىَ عن جَعْفَر بن مُحَمّدٍ أَنّه قال : خَلَقَ الله قَبْلَ خَلْق العالَم اثْنَىْ عَشَر حِجاباً ، أَوّلها : حِجابُ الإِرادة ، ووقف فيه نورُ محمّد صلّى الله عليه وسلّم اثْنَى عَشَرَ أَلْف سَنَة ، وكان تسبيحه فى ذلك الحِجاب : سُبْحانَ عالِم السرِّ وأَخْفَى .

ثم نَقَلَه إِلى حِجاب المَشِيئَة وأَوقفه فيه أَحَدَ عَشَرَ سَنَة ، وكان تسبيحه فيه : سُبْحانَ الرَّفِيع الأَعْلَى .

ثمّ نقَلَه إلى حجاب الرَّحْمة، وبقى فيه عَشَرَةَ آلاف سَنَةٍ، وتسبيحُه: سُبْحانَ اللهِ وتَعالى.

ثم انتقل إلى حِجابِ الكَرامة، ولَبثَ فيه تسعةَ آلافِ سَنَة، وتَسْبيحُه: سُبْحانَ مَنْ هُوَ عَدْلٌ لا يجُورُ.

ثمّ انتقل إلى حجاب السّعادَة، ولبث فيه ثمانيةَ آلافِ سَنَة، وتسبيحُه سُبْحانَ مَنْ هو عالِمٌ لا يَسْهُو.

ثمّ انتَقَلَ إلى حِجابِ الفَضْل، وبقى سبعةَ آلافِ سَنَة، وتسبيحُه: سُبحانَ من هُوَ غَنِيٌّ لا يَفْتَقِرُ.

ثم صار إلى حِجابِ المِنَّةِ، وبقى فيه ستةَ آلافِ سنة، وتسبيحه، سُبْحانَ العَلِيم الحَكِيم.

(146/131)

ثمّ انتقل إلى حِجابِ الهِدَايَة، وبقى فيه خَمْسَةَ آلافِ سَنَةٍ، وتسبيحُه سُبْحانَ رَبّ العَرْشِ العظيم.

ثم انتقل إلى حِجابِ اللُّطف، ولَبِثَ أَربعةَ آلافِ سَنَة، وتسبيحُه: سُبحانَ الأَوَّلِ المُبْدِئ.

ثم صار إلى حِجاب الكَرَم ولبث فيه ثلاثة آلاف سَنَة ، وتسبيحُه : سُبْحانَ الباقِى المُغْنِى .

ثمّ دَخَل فى حِجاب العِنايَة ومكث أَلْفَىْ سنة ، وتسبيحه : سُبْحانَ الحَىّ الَّذى لا يمُوت .

ثمّ انتقل إلى حِجاب الكِفايَة وبقى أَلف سنة ، وتسبيحُه سُبْحان المَلِكِ الذى لا يزُول .

ثمّ أَخرجَه من الحُجُب وعَرَضه على أَرْبعين بَحراً : وهى : بَحْرُ العَظَمة ، وبحر القُدْرةِ ، وبحر العِزّة ، وبحر الجَلالِ ، وبحر الجَمالِ ، وبحر الكَمالِ ، وبحر الرّأْفَةِ ، وبحر الجُود ، وبحر الزّيْنِ ، وبحر الصّدق ، وبحر الصّفاء ، وبحر الرّضاء ، وبحر الرّجاء ، وبحر الوَفاءِ ، وبحر السّخاء ، وبحر الخُشُوع ، وبَحْر الخُضُوع ، وبحر التّواضُع ، وبحر المَعْرفَة ، وبحر العِبْرة ، وبحر الحِكْمَة ، وبحر المَحبّة ، وبحر العِصْمة ، وبحر السّكِينة ، وبحر العِلْم ، وبحر العَقْل ، وبحر الرِّفْق ، وبحر الصّبْر ، وبحر الخَوْفِ ، وبحر التّقْوَى ، وبحر اليَقِين وبحر الكَرَم ، وبحر اللُّطْفِ ، وبحر الشّرَفِ ، وبحر الإيمانِ ، وبحر العِبْرَة ، وبحر الفِطْنَة ، وبحر الفِكْرَة ، وبحر الشُكْرِ ، وبحر الرَّحْمَة ، فلمّا عرضه على هذه البحار انتقل خصالها إلى جبلّته ، وتحلّى بجلالِها .

وحين خرج من البحار نَفض نفسَه انتفاضةً انفصلت منه بها قطراتٌ نحوُ من مائةِ أَلفِ وأَرْبع وعشرين أَلف قَطْرة ، خلق الله تعالى من كلّ قطرة منها رُوحَ نبىٍّ من الأَنبياء .

ثم جعل الله تعالى ذلك النورَ بعَينيه فى العناصر الأَربعة .

ثمّ نقله إلى صُلْب آدمَ ، وانتقل منه إلى صُلْب شِيث ، ومنه إلى أَنُوش ، ومنه إلى قَيْنانَ ، ومنه إلى مَهْلاَئِيل ، ومنه إلى يَرَد وقيل يارِدْ ، ومنه إلى خَنُوخ ويقال أَخْنُوخ ، وهو إدريس عليه السّلام ، ومنه إلى مَتُّوشَلَحْ .

ويقال مَتُوشَلَخْ ، ومنه إلى لامَكْ ويقال لَمَك ، ومنه إلى نُوحٍ عليه السّلام ، ومنه إلى سام ، ومنه إلى أَرفَخْشَذْ ويقال الْفَخْشَذ ، ومنه إلى راعُو ويقال أَرْغُو ، ومنه إلى عابَرَ ، ويقال عَبِير ، ومنه إلى شالَخْ ومنه إلى ايشوع ومنه إلى ناحُورَ ؛ ومنه إلى تارَحْ ويقال تيرح ، ومنه آزرْ ومنه إلى إِبْراهِيم ومنه إلى إِسْماعِيل / ومنه إلى قَيْذارَ ومنه إلى حَمَل ، ومنه إلى نابت ، ومنه إلى يَشْجُب ومنه إلى يَعْرب ، ومنه إلى أُدَد ، ومنه إلى أُدّ ، ومنه إلى عدنان جدّ العرب ، ومنه إلى مَعَدّ ، ومنه إلى نِزار ، ومنه إلى مُضرَ ، ومنه إلى الْياس ، ومنه إلى هَمَيْسع ومنه إلى طَابخَة ومنه إلى مُدْركَة ، ومنه إلى خُزَيْمَة ، ومنه إلى كِنانَة ، ومنه إلى النَّضْرِ واسمه قَيْس ، وقيل إنَّه قُرَيْش ، ومنه إلى مالك ، ومنه إلى فِهْر ، ومنه إلى غالِب ، ومنه إلى لُؤَيٍّ ، ومنه إلى كَعْب ، ومنه إلى مُرَّةَ ، ومنه إلى كِلاب ، ومنه إلى قُصَيٍّ واسمه زَيْدٌ ويُدْعَى مُجَمْعا ، ومنه إلى عَبْد مَناف واسمُه المُغيرة ، ومنه إلى هاشِمٍ ، ومنه إلى عَبْد المطلب واسمُه شَيْبَةَ الحَمْدِ

، ومنه إلى عَبْدِ الله ، ومنه إلى صحراء العالم .

قال :

*مُحَمَّدٌ أَفْدِيه من سَيِّدٍ *يَسْتَعْبدُ العالَمَ من فِطْنَتِهْ*

*آدَمُ لَوْ صُوِّرَ فى حُسْنِه *لَمَا زَهِى إِبْليسُ عن سَجْدَتِه*

*لَوْ أَنَّ يَعْقُوبَ رَأَى وَجْهَهُ *أَسْلاهُ عَنْ يوسُفَ فى غَيْبَتِه*

*امْتَحَنَ اللهُ بِهِ خَلْقَه *والنَّارُ والجَنَّةُ فى قَبْضَتِه*

(148/131)

وأَمّا الأَسماء المائة التى ذكرها الله فى القرآن : نَبىٌّ ﴿ يا أَيُّها النَبيُّ ﴾ ، رَسولٌ ﴿ يا أَيُّها الرَّسُولُ ﴾ ، خاتم ﴿ وَخاتَمَ النَّبيِّينَ ﴾ ، أُمِّىٌّ ﴿ النَّبيَّ الأُمِّيَّ ﴾ ، رءُوفٌ رحِيمٌ ﴿ بالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، مُبَشِّرٌ ونَذِيرٌ وشاهِدٌ وداعِى ﴿ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً *وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِه ﴾ ، سِراجٌ مُنِيرٌ ﴿ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴾ ، بَشِيرٌ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بالْحَقِّ بَشِيراً ﴾ ، منْذِرٌ وهادٍ ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ ﴾ ، صاحِبٌ ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ ، عَبْدٌ ﴿ أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ ، كَرِيمٌ ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ ، وَلِىٌّ وَنَصِيرٌ ﴿ واجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً واجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيراً ﴾ ، الأَوْلَى ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى

بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، العَزِيز ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ ، الرَّحْمَة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً ﴾ ، نورٌ ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ ﴾ ، شَهِيدٌ ﴿ عَلَى هؤلاء شَهِيداً ﴾ ، مُبِينٌ ﴿ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ ، مُرْسَلٌ ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، مُدَّثِّرٌ ﴿ يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ ، مُزَّمِّلٌ ﴿ يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ ، مُذَكِّرٌ ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ ، أَمِينٌ ﴿ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ ، ذِكْرٌ ﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً ﴾ ، أُذُنٌ ﴿ قُلْ أُذُنُ ﴾ بَيِّنَةٌ ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ هدًى ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾ ، حَقٌّ ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ ، صِدْقٌ ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾ ، حاكِمٌ ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ قَاضِي ﴿ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً ﴾ طه ﴿ طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ يس ﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ سَلامٌ ﴿ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ ، عالِمٌ ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا اله إلا اللَّهُ ﴾ ، مُسْتَقِيمٌ ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ مُسْلِمٌ ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ شاكِرٌ ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ مُصْطَفَى

﴿ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ، مُجْتَبَى ﴿ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ ﴾ ، مُخْتَارٌ ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ ، زرعٌ ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ ، نِعْمَة ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ ،

مُرْشِدٌ ﴿ وَلِيّاً مُّرْشِداً ﴾ ، سَعِيدٌ ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ ﴾ حَبِيبٌ ﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ﴾ مُطَهَّرٌ ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ طَيِّبٌ ﴿ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ ﴾ ، شَفِيعٌ ﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ مُبارَكٌ ﴿ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ ، مُصَدِّقٌ ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ، أَنْفَس ﴿ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ ، بُرْهَانٌ ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ ﴾ ، نَاسٌ ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ / النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ ﴾ ، تَالِي ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ ، مُخْرِجٌ ﴿ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ ، رَجُلٌ ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ ، قَدَمُ صِدْقٍ ﴿ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ ، حَمِيدٌ وَمَحْمُودٌ ﴿ حم ﴾ ، عَزِيزٌ وَسَيِّدٌ وَقَادِرٌ ﴿ عسق ﴾ ، تَذْكِرَةٌ ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ، مَبْعُوثٌ ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ ﴾ ، مَعْصُومٌ ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ ، مُؤَيَّدٌ ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ مَنْصُورٌ ﴿ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ ﴾ ، مَغْفُورٌ ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ ﴾ غَالِبٌ ﴿ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ، مَعْفُوٌّ ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ ﴾ ، مُنْبِئٌ ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي ﴾ ، رَضِيٌّ ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ ، مُسَبِّحٌ ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ، سَاجِدٌ ﴿ وَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ ، عَابِدٌ ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ ﴾ ، مُقْتَدِى ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ ، مَحْفُوظٌ ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾

، مُنادِى ﴿ سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ ﴾ ، مُجاهِدٌ ﴿ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ مُسْتَغْفِرٌ ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ ، مَرْفُوعٌ ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ ، مُصَلٍّ ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ ، آمِرٌ وناهٍ ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ مُتَهَجِّدٌ ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ ﴾ ، مُهْتَدِى ﴿ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ ﴾ ، مُتَوَكِّلٌ ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ ، حاشِرٌ وعاقِبٌ ومَاحى وفى الحديث "أَنَا الحاشِرُ يَحْشُرُ اللهُ الخَلْقَ على قَدَمِى ، وأَنَا العاقِبُ كُنْتُ عَقِيبَ الأَنبياءِ ، وأَنَا الماحِى مَحَى اللهُ بِىَ الكُفْرَ" أَوَّلُ ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أَحْمَدُ ﴿ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ ، مُحَمَّدٌ ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ﴾ .

واسمه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم فى الإنجيل : طاب طاب ، أَى طَيِّب ، وفى التوراة : ماذماذ ، أَى المرْجُوّ ، وفى الزَّبور : فارْقَلِيطا ، أَى الفارِقُ بين الحقّ والباطل ، وفى صحف إبراهيمَ : "اخرايا قدما" أَى السابِق الآخر ، وفى صُحُفِ شِيث : "صام صام" أَى القَطَّاع بالحُجَّة ، وفى صُحُفِ آدم : "مُقَنَّع" ، وفى صحف شِعْيا وأَرْميا : قانِعٌ ، وبين طوائف الطيور عَبْد الجبّار ، وبين البَهائم : "عَبْدُ الغَفَّار" ، وعند الجنّ : "نبىُّ الرَّحْمة" ، وعند الشَّياطين : "نَبىّ المَلْحَمة" .

وأَمّا مُعْجِزاتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقد حصَرها جماعة فى مائة معجزة ، وهى أَكْثر من

ذلك، وقال بعضهم هى أكثر من الألف، وهو الصّحيح، وقد ذكرنا أكثرها فى محلّها من المبسوطات.

(151/131)

وأمّا المائة المذكورة فى نصّ القرآن من أقواله وأفعاله وأحواله: فأقسم بعمره بقوله تعالى ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾، وذكر عينيه بقوله: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾، ونظره بقوله: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ ﴾ ورؤيته بقوله: ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾، وأذنه بقوله: ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾، وكلامه بقوله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ ولسانه بقوله: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾، ووجهه بقوله: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾، وعنقه بقوله: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾، وقلبه بقوله: ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾، وصدره بقوله: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾، وظهره بقوله: ﴿ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ ويده بقوله: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾، ويمينه بقوله: ﴿ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾، وجنبه بقوله: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ ﴾، وقامته بقوله: ﴿ حِينَ تَقُومُ ﴾، وتقلّبه بقوله: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ وصوته بقوله: ﴿ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾، ورجله بقوله: ﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا ﴾، وأيّام نبوّته / بقوله: ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾، وحياته ومماته

وصلواته وعبادته بقوله : ﴿ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي ﴾ ولباسه وملبسه بقوله : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ، وعِلمهُ بقوله : ﴿ رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ وأمرهُ وحُكمه بقوله : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ ، وذكره بقوله : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ ونومه بقوله : ﴿ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً ﴾ ، وليله وتهجده بقوله : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ ﴾ ونهاره بقوله : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً ﴾ وضحوته بقوله : ﴿ وَالضُّحَى ﴾ وصُبحه بقوله : ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ ،

(152/131)

وغُدوته بقوله : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ ، ودُخوله بقوله : ﴿ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ ، وخُروجه بقوله : ﴿ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ ، ونَفْسه بقوله ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ ودينه بقوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً ﴾ ، وقوله بقوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً ﴾ وكتابه بقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ ، وأُمّته بقوله : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ ، وأصحابه بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ ﴾ ، وأنصاره بقوله : ﴿ وَالأَنْصَارِ ﴾ ، وأهل بيته بقوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ ، وأهله وأزواجه بقوله : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ وبناته بقوله : ﴿ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ ﴾ ومَسجده بقوله : ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾ ومقامه بقوله : ﴿ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ وقبلته بقوله :

﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ ، وبَيْعَتَه بقوله : ﴿ إِذْ يُبَايِعُونَكَ ﴾ واسْتِغَاثَتَه بقوله : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ ، واسْتِعَانَتَه بقوله : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، واستقامَتَه بقوله : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ ومَعادَه بقوله : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ ، وبَلَدَه بقوله : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ ﴾ ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ ، وعطاءه بقوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ ، وحُكْمَه بقوله : ﴿ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ ﴾ ، وقضاءه بقوله : ﴿ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ ، وجُنْدَه وعَسْكَرَه بقوله : ﴿ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وأَحِبَّاءَه بقوله : ﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ ، واسْتِغْفَارَه بقوله : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ وحُكْمَه وعِلْمَه ومِنْبَرَه وسِنانَهُ وقَدْرَه بقوله : ﴿ عسق ﴾ ، وكِفَايَتَه وهِدَايَتَه ويَمِينَه وعِصْمَتَه وصِدْقَهُ بقوله : ﴿ كهيعص ﴾ ، ونزولَه بقوله : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ ، ونورَه بقوله : ﴿ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ ، وجَرْيَ خَيْلِه بقوله : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً ﴾ وعِزَّهُ بقوله : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ﴾ ، وولايَتَهُ بقوله :

(153/131)

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ وعِصْمَتَه بقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ ، وغِناه وفَقْرَه بقوله : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ ، ورضاه بقوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ

فَتَرْضَى ﴾ ومأْواه بقوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾ ، ودَعْوَته بقوله : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ ومِيثاقه بقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ ، ورِجاله بقوله : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا ﴾ وقَرابَته بقوله : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ وتَواضعه بقوله : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وسلامه بقوله : ﴿ فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ ، وتَرتيل تِلاوته بقوله : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ وخُلُقه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وقَدّه وقامَته بقوله : ﴿ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ ونِعْمَته بقوله : ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ ، وأَجْره بقوله : ﴿ وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً ﴾ وتَذْكِيره بقوله : ﴿ وَذَكِّرْ ﴾ ، ومجاهَدته بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ ﴾ ووَحْيُهُ بقوله : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ وقُرْبَته بقوله : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ ، ووُصْلَته بقوله : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ ، ومُعَلِّمه بقوله : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ ، ووَعْظه وحِكْمَته بقوله : ﴿ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ ، وجِداله بقوله : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ، وحَياءُه بقوله : ﴿ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ﴾ وبَيْته ومَنْزِله بقوله : ﴿ لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ ، ورَحْمَته بقوله : ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾ ، وعُبُودِيَّته بقوله : ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ ﴾ ، ومِعْراجه بقوله : ﴿ أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ ، وتَحوّل أَحْواله بقوله : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ

طَبَقاً عَن طَبقٍ ﴾ ،

وعَجائِبَه بقوله : ﴿ أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ ، وعَفْوُه بقوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ ، وصَفْحَه بقوله : ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ ، وشَرِيعَتَه بقوله : ﴿ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ ﴾ ، وسُنَّتَه بقوله : ﴿ وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ وكذا على هذا ذكره الله تعالى فى سبعة آلافِ مَوْضع من هذا الكتاب الكريم ، الَّذى هو أَفضل الكتب ، تصريحاً وتعريضاً وكناية ، وإِشارة وإِخباراً وخطاباً وحكاية ، لِيَعْلَم العالِمون أنه أَفضلُ الأَنبياء ، وأَشرف الأَصفياء ، ومالِكُ ممالكِ الاصطِفاء والاجْتِبَاء ، قال :

*مِنَ النَّاسِ بين النَّاسِ ما سارِ سائِرٌ * أَجَلّ وأَعْلَى قِمَّةً من مُحَمَّدِ *

*وما وَطِئَتْ رِجلان هامَةَ أَرْضِنا * أَجَلّ وأَهْدَى هِمَّةً من مُحَمَّدِ *

*وما حَمَلَتْ من ناقةٍ فَوْقَ كُورِها * أَعزّ وأَوْفَى ذِمَّةً من مُحَمَّدِ *

*وما مِنْ إِمامٍ أَمَّه النَّاسُ بُرْهةً * أَبرّ وأَرْبَى أُمَّةً من مُحَمَّدِ *

(155/131)

وأَما الخمسون التى أَقْسَمَ الله تعالى بها من ذاتِه وصفاته وأَحواله : فبعُمره بقوله :

﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ وبعَصْره بقوله ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ وبِنُون جمالِه بقوله ﴿ ن وَالْقَلَمِ ﴾ ، وبقَدْره وكَمالِه بقوله : ﴿ ق وَالْقُرْآنِ ﴾ ، وبِصِدْقه وصَفائه ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ﴾ ، وبِحُكْمِه وعِلْمِه وسَنائه ومِنْبَرِه وقَهْرِه وقَدْرِه ﴿ حم * عسق ﴾ ، وبكفايَتِه وهدايَتِه ويُمْنِه وعِزّه وصِدْقه ﴿ كهيعص ﴾ ، وببلَدِه ومَحَلّه ووالِدِه ووَلَدِه ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِهذا الْبَلَدِ ﴾ إِلى قوله ﴿ وَمَا وَلَدَ ﴾ ، وبلَيْلِه ونَهاره ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ ، وبِوَجْهه وشَعَره ﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ وبدِينِه وانْتِشار شَرْعِه ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ ، وبِسَناءِ سنَّتِه ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تلاَهَا ﴾ ، وبصُبْح دَعْوته ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ وبنُجوم كِتابه المنَزّل ﴿ وَالنَّجْمِ ﴾ ،

وبجَرْى جيادِه ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً ﴾ وبإِغارة صَباح أَصْحابه ﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً ﴾ ، وبنَزْعِ غزاته أَقْواسَهم ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً ﴾ وبِطهارتِه وهَيْبَتِه ﴿ طه ﴾ ، وبِملائكة وَحْيِه ﴿ وَالْمُرْسَلاَتِ عُرْفاً ﴾ ، وبِرياح نَصْرِه ﴿ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً ﴾ ، وبآياتِ كِتابه ﴿ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً ﴾ ، وبصفوف جماعَتِه ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾ ، وبمحْتَسِبى أُمَّتة ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً ﴾ ، وبالتّالِينَ والقرّاء من صَحابَتِه : ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً ﴾ ، وبجوامعِ كِتابه ﴿ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴾ وبِحُجَرِ مخَدّراته ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ ،

وبحر علمه أعنى صدره ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ ، وبسقف مسجده ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ .

(156/131)

وأمّا الخمسون الّتى اقترن فيها ذِكْرُه بذكر الله عزّ وجلّ فقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ﴾ ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ، ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، / ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ، ﴿ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ، ﴿ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ ، ﴿ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ ، ﴿ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ﴾ ، ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، ﴿ لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ ، ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ ، ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ ، ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ ، ﴿ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ ، ﴿ فَاللَّهُ أَوْلَى

(157/131)

بهمَا ﴾ ، ﴿ النَّبيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ ﴾ ، ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ ﴾ ، ﴿ يُبَايِعونكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ ، ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أنزَلَ اللَّهُ ﴾ ، ﴿ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ ﴾ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، ﴿ وكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ﴾ , ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ، ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ ، ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ ، ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ، ﴿ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هؤلاءِ شَهِيداً ﴾ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ ﴾ ، ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾ ، ﴿ فَاسْتَغْفَرُواْ اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﴾ ، ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ ﴾ ، ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ ﴾ ، ﴿ وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ، ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ ، ﴿ مَّآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ ، ﴿ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ ، ﴿ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ ﴾ ، ﴿ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ ، ﴿ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ ﴾ ، ﴿ فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ ، ﴿ قَدْ جَآءَكُمُ الْحَقُّ ﴾ ، ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ ، ﴿ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ ، ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾ ، ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ، ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ ، ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، ﴿ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ ، ﴿ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، ﴿ آمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، ﴿ اذْكُرُواْ اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً ﴾ ، ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ ، ﴿ إِنَّنِي

أَنَا اللَّهُ ﴾ ، ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ ، ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ ﴾ ، ﴿ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، ﴿ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ، ﴿ نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ ﴾ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ .

وأَمّا الخصالُ المائة التى كانت زينةَ أَفعالِه وأَحواله وسِيرَته وسريرته ، فخمسون منها خِصالٌ ظاهرةٌ محسوسة ، وخمسون منها حِلْيَة قَلْبه الطَّاهر .

فأَمّا الظَّاهِرُ منها : الخِدْمة ، والطَّاعة ، والعِبَادة ، والطَّهارة ، والصَّلاة ، والتَيَمُّم ، والصَّوْمُ ، والزكَاة ، والصَّدَقة ، والحَجُّ ، والعُمْرَة ، والجُمُعَة ، والجَماعَة ، والثَّباتُ ، والأَناة ، والقرآن ، والوَقار ، والسَّكِينة ، والدُّعاء ، والتَّضرُّع ، وحُسْنُ السِّيرَة ، والغزْو ، والجهادُ ، والشجاعة والقُوَّة ، والقُدْرة ، والجَلادَة ، ونَظر العِبْرة ، واستماعُ الحِكْمَة ، والنُّطْقُ والبيانُ ، والعِبارَة ، والفَصاحَة ، والجُودُ ، والسَّخاء ، وقَضاءُ حاجاتِ الناس ، والمشْىُ إلى العِبادَة ، وتَحْصِيل الزِّيادَة ، وحُسْنُ الصُّحْبَة ، والحُرْمة ، والمُجامَلة فى المعامَلَة ، وصِلَة الرَّحِم ، والنَّذْرُ ، والقُرْبانُ ، ونَصْرُ دِين الحَقّ .

وأَمّا الخمسون التى هى حِلْيَة قلْبه الطَّاهر : فالعَقْلُ ، والعِلْمُ ، والأَدَبُ ، والحِلْم ، والرِّفْقُ

والخُلقُ ، والمُداراةُ ، والمَجْدُ ، والشّرَفُ ، والدّيَانَةُ ، والصّيانَة ، وإنْجازُ الوَعدِ ، وإكْرامُ الضَّيْفِ ، والصَّمْتُ ، وكِتْمانُ السرّ ، والمُرُوءة ، والفُتُوَّة ، والحَياء ، والكَرَمُ ، والجُودُ ، والسَّخاءُ ، والعَزْمُ ، والحَزْمُ ، والرأى الصّائب ، والنّصيحَة ، والهَيْبَة والمُراقَبَة واغْتِنامُ وقْتِ التَّوْبَة ، والإنابَة ، والقَناعَة ، والزُّهْدُ ، والتَّوَكُّل ، والرّضا

(159/131)

بالقَضاءِ ، ومُجاهَدة النَفْس / والتَّقْوَى ، والخَوْف ، والخَشْيَة ، والخُشُوعُ ، والخُضُوعُ ، والبُكاء ، والحُزْنُ ، والرَّجاءُ ، والذِّكْرُ ، والشُّكْرُ ، والصَّبْر ، والإرادَةُ ، والشَّوْقُ ، والتَّوق ، والصّدْقُ ، واليَقِينُ ، والإخْلاصُ ، والأُنْسُ ، والقُرْبُ ، والحِيرَةُ ، والمَحَبّة ، والمَوَدَّةُ ، وتَعْظِيم أَمْرِ الله ، والشّفَقَة على الأُمّة .

وقال بعضُ المحدّثين :

*كان النبىّ جَمِيعَ اللّيل أَوّاهَا * والخَوْفُ يَسْكُبُ من عَيْنَيْهِ أَمْواهَا *

*باليومِ يَدْعُو عِبادَ الله فى لَطَفٍ * باللَّيْل يَبْكِى عَلَى إشْفاقِه اللّهَ*

*تَوَرَّمَتْ قَدَماهُ فى تَقَدُّمِه * عَلَى قِيامِ اللَّيالِى يَطْلُبُ الجاهَا *

*يا جبْرَئيل أُجبْ وَحْيًا وطِرْ عَجِلاً * وقُلْ لسَيِّد سادات الورَى طَاهَا * . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 6 صـ 21.8 ﴾

(160/131)

" فوائد بلاغية "

قال فى صفوة التفاسير :

البلاغة :

تضمنت الآيات الكريمة وجوها من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

1 - [عرضها السموات والأرض] أى كعرض السموات والأرض حذقت أداة التشبيه ووجه الشبه ، وسمى هذا ب " التشبيه البليغ " .

2 - [سارعوا إلى مغفرة] من باب تسمية الشيء باسم سببه أى إلى موجبات المغفرة .

3 - [السراء والضراء] فيه الطباق وهو من المحسنات البديعية .

4 - [ومن يغفر الذنوب إلا الله] استفهام يقصد منه النفي أى لا يغفر .

5 - [أولئك جزاؤهم مغفرة] الإشارة بالبعيد للإشعار ببعد منزلتهم وعلو طبقتهم في الفضل ، وعظم الإجر .

6 - [ونعم أجر العاملين] المخصوص بالمدح محذوف أي ونعم أجر العاملين ذلك النعيم الخالد .

7 - [وليعلم الله] هو من باب الإلتفات لأنه جاء بعد لفظ [نداولها] فهو التفات من الحاضر إلى الغيبة ، والسر تعظيم شأن الجهاد في سبيل الله .

8 - [وما محمد إلا رسول] فيه قصر موصوف على صفة .

9 - [انقلبتم على أعقابكم] هذه استعارة لطيفة ، شبه سبحانه الرجوع في الإرتياب بالرجوع على الإعقاب ، أي من يرجع عن دينه فقد خاب وشقي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 233.234 ﴾

(161/131)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" ما " نافية ، ولا عمل لها هنا مطلقاً – أعني : على لغة الحجازين والتميميّين ؛ لأن التميميين لا يعملونها – ألبتة – والحجازين يُعْملونها بشروط ، منها : ألا يَنْتَقِضَ النفي بـ " إلا " إذْ يزول السبب الذي عَمِلَتْ لأجله – وهو شبهها بـ " ليس " في نفي الحال – فيكون

مُحَمَّدٌ" مبتدأ ، و" رَسُولٌ" خبر .

هذا – [أعني : إهمالها إذا نُقِضَ نفيُها] – مذهب الجمهور ، وقد أجاز يونس إعمالها مُنْتَقَضَةَ النَّفْيِ بـ " إلا " .

وأنشد : [الطويل]

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا مَنْجُونا بِأَهْلِهِ . . . وَمَا صَاحِبُ الْحَاجَاتِ إِلَّا مُعَذَّبا

فنصب " منجوناً " ، و" مُعَذَّباً " على خبر " ما " – وهما بعد " إلا " – .

ومثله قول الآخر : [الوافر]

وَمَا حَقُّ الَّذِي يَعْثُو نَهَاراً . . . وَيَسْرِقُ لَيْلَهُ إِلَّا نَكَالا

ف " حق " اسم " ما " و" نكالا " خبرها .

وتأول الجمهورُ هذه الشواهدَ على أنَّ الخبر محذوف ، وهذا المنصوب مَعْمُولٌ لذلك الخبر المحذوفِ ، والتقدير : وما الدَّهر إلا يدور دورانَ منجونٍ ، فحُذف الفعلُ الناصبُ لـ " دَوَرَانَ " ثم حُذِفَ المضافُ ، وأقيمَ المضافُ إليه مقامه في الإعراب ، وكذا : " إلا مُعَذَّباً " تقديره : يُعَذَّبُ تعذيباً ، فحُذِفَ الفعلُ ، وأقيم " معذَّباً " مقام " تَعْذِيب " ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ [سبأ : 19] أي : كل تمزيق . وكذا : " إلا نَكَالاً " ، وفيه من التكلُّف ما ترى .

و" مُحَمَّدٌ " هو المستغرق لجميع المحامد ؛ لأن الحَمْد لا يستوجبه إلا الكامل ، والتحميد

فوق الحمد ، فلا يستحقه إلا المُستَوْلِي على الأمَد في الكمال . وأكرم الله نبيه باسمين مشتقَّيْن من اسمه – جل جلاله – وهما محمد وأحمد .

(162/131)

قال أهل اللغة : كل جامع لصفات الخير يُسَمَّى " محمدا " .

قوله : ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ في هذه الجملة وجهان :

أظهرهما : أنها في محل رفع ؛ صفة لِ " رَسُولٌ " .

الثاني : أنها في محل نصب على الحال من الضمير المستكن في " رَسُولٌ " ، وفيه نظر ؛ لجريان هذه الصفة مجرى الجوامد ، فلا تتحمل ضميراً .

قوله : " من قبله " فيه وجهان – أيضاً – :

أظهرهما : أنه معلق بـ " خلت " .

والثاني : أنه متعلق بمحذوفٍ ؛ حال من " الرُّسُل " مقدَّماً عليها ، وهي – حينئذ – حال مؤكّدة ؛ لأن ذِكْرَ الخُلُوّ مُشْعِرٌ بالقَبْلِيَّة .

وقرأ ابنُ عَبَّاسٍ " رُسُلٌ " – بالتنكير – .

قال أبو الفَتْحِ : ووجها أنَّه موضع تيسير لأمر النبي صلى الله عليه وسلم في أمر الحياة ومكان

تسوية بينه وبين البشر في ذلك ، وكذلك يفعل في أماكن الاقتصاد ، كقوله : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشكور ﴾ [سبأ : 13] .

وقوله : ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [هود : 40] .

وقال أبو البَقَاءِ : " وهو قريب من معنى " المعرفة . كأنه يريد أن المراد بالرسل " الجنس " ، فالنكرة قريب منه بهذه الحيثية " .

وقراءة الجمهور أولى ؛ لأنها تدل على تفخيم الرسل وتعظيمهم .

قوله : ﴿ أَفإِنْ مَّاتَ ﴾ الهمزة لاستفهام الإنكار ، والفاء للعطف ، ورتبتها التقديم ؛ لأنها حرف عطف ، وإنما قُدِّمت الهمزة ؛ لأن لها صَدر الكلام ، وقد تقدم تحقيقه وأن الزمخشري يقدِّر بينهما فعلاً محذوفاً تعطف الفاء عليه ما بعدها .

قال ابن الخطيب كَمَالُ الدِّينِ الزَّمَلْكَانِيُّ : " الأوجه : أن يقدر محذوف بعد الهمزة ، وقبل الفاء ، تكون الفاء عاطفة عليه ، ولو صُرِّحَ به لقيل : أتؤمنون به مدة حياته فإن مات ارتددتم ، فتخالفوا سُنَنَ أتباع الأنبياء قبلكم في ثباتهم على مِلَلِ أنبيائهم بعد وفاتهم .

(163/131)

وهذا هو مذهب الزَّمَخْشَرِيّ ، إلا أنَّ الزمخشريَّ – هنا – عبر بعبارة لا تقتضي مذهبه الذي هو حذف جملة بعد الهمزة ؛ فإنه قال : الفاء معلقة للجملة الشرطية بالجملة قَبْلَها على معنى " التسبيب " ، والهمزة لإنكار أن يجعلوا خُلُوَّ الرُّسُل قبله سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه – بموتٍ أو قَتْل – مع علمهم أن خُلُوَّ الرُّسُل قبله ، وبقاء دينهم متمسكاً به يجب أن يجعل سبباً للتمسُّك بدين محمد صلى الله عليه وسلم لا للانقلاب عنه " .

فظاهر هذا الكلام أن الفاء عطفت هذه الجملة المشتملة على الإنكار على ما قبلها من قوله : ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ من غير تقدير جملة أخرى .

وقال أبو البقاء قريباً من هذا ؛ فإنه قال : " الهمزة عند سيبويه في موضعها ، والفاء تدل على تعلُّق الشرط بما قبله " .

لا يقال : إنه جعل الهمزة في موضعها ، فيوهم هذا أن الفاء ليست مقدمة عليها ؛ لأنه جعل هذا مقابلاً لمذهب يونس ؛ فإن يونس يزعم أن هذه الهمزة – في مثل هذا التركيب – داخلة على جواب الشرط ، فهي في مذهبه في غير موضعها وسيأتي تحريره .

و" إن " شرطية ، و" مَاتَ " و" انْقَلَبْتُمْ " شرط وجزاء ، ودخول الهمزة على أداة الشرط لا يُغَيِّر سبباً من حكمها .

وزعم يونس أن الفعل الثاني – الذي هو جزاء الشرط – ليس هو جزاء للشرط ، وإنما هو المستفْهَم عنه ، وأن الهمزة داخلة عليه تقديراً ، فينوى به التقرير ، وحينئذ لا يكون جواباً ، بل الجواب محذوف ، ولا بد – إذ ذاك – من أن يكون فعل الشرط ماضياً ، إذْ لا يُحْذَف الجواب إلا والشرط ماضٍ ، ولا اعتبار بالشعر ؛ فإنه ضرورة ، فلا يجوز عنده أن تقول : إن تكرمني أكرمك ولا يجزنهما ، ولا بجزم الأول ورفع الثاني ، لأن الشرط مضارع. ولا أإن أكرمتني أكرمك – بجزم أكرمك ؛ لأنه ليس الجواب ، بل دال عليه ، والنية به التقديم ، فإن رفعت " أكرمك " وقلت : أإن أكرمتني أكرمك ، صح عنده .

فالتقدير عند يونس : أنقلبتم على أعقابكم إن مات محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الغرض إنكار انقلابهم على أعقابهم بعد موته ، وبقول يونس قال كثير من المفسِّرين ؛ فإنهم يقولون : ألف الاستفهام دخلت في غير موضعها ؛ لأن الغرض إنما هو أتنقلبون إن مات محمد ؟

وقال أبو البقاء : " وقال يونس : الهمزة في مثل هذا حقها أن تدخل على جواب الشرط ، تقديره : أتنقلبون إن مات ؟ لأن الغرض التنبيه ، أو التنبيخ على هذا الفعل المشروط " .

ومذهب سيبويه الحقُّ ؛ لوجهَيْن :

أحدهما : أنك لو قدمتَ الدجواب ، لم يكن للفاء وجه ؛ إذ لا يصح أن تقول : أتزورني فإن

زرتك . ومنه قوله : ﴿ أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الخالدون ﴾ [الأنبياء : 34] .

والثاني : أنَّ الهمزة لها صدر الكلام ، و" إنْ " لها صدر الكلام ، وقد وقعا في موضعهما ، والمعنى يتم بدخول الهمزة على جملة الشرط والجواب ؛ لأنهما كالشيء الواحد .

(165/131)

وقد رد النحويون على يونس بقوله : ﴿ أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الخالدون ﴾ ، فإنَّ الفاء في قوله : " فَهُمْ " تعين أن يكون جواباً للشرط ، وأتى – هنا – بـ " إن " التي تقتضي الشك ، والموت أمر محقق ، إلاَّ أنه أورده مورد المشكوك فيه ؛ للتردد بين الموت والقتل .

قوله : ﴿ على أَعْقَابِكُمْ ﴾ فيه وجهان :

أظهرهما : أنه متعلق بـ " انْقَلَبْتُمْ " .

والثاني : أنه حال من فاعل " انْقَلَبْتُمْ " ، كأنه قيل : انقلبتم راجعين .

قوله : ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ على عَقِبَيْهِ ﴾ .

قرأ ابنُ أبي إسحاق " على عقبه " – بالإفراد ، و" شَيْئاً " نصب على المصدر أي : شيئاً من الضرر ، لا قليلاً ولا كثيراً . والمراد منه : تأكيد الوعيد ، وأن المنقلب بارتداده لا يضر الله شيئاً ، وإنما يضر نفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 567 .

574 ﴾ . بتصرف .

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144) ﴾

إن الرسل موقوفون حيثما وُقِفُوا ، ومخبرون عمَّا عُرِّفوا بمقدار ما عَرفُوا ؛ فإذا أُيِّدُوا بأنوار البصائر اطَّلعوا على مكنونات السرائر بلطائف التلويح بمقدار ما أُعْطُوا من الإشراق بوظائف البلوغ .

(166/131)

﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ لما تُوُفِّي المصطفى – صلى الله عليه وسلم – سقمت البصائر إلا بصيرة الصديق رضي الله عنه فأمدَّه الله بقوة السكينة ، وأفرغ عليه قوة التولي فقال : " من كان يعبد محمدا فإنَّ محمداً قد مات " فصار الكل مقهورين تحت سلطان قالته لِمَا انبسط عليهم من نور حالته ، كالشمس بطلوعها تندرج في شعاعها أنوارُ الكواكب فيستتر فيها مقادير مطارح شعاع كل نجم .

وإنما قال: ﴿ أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ لأنه صلى الله عليه وسلم مات. وقيل أيضاً لأنه قال: " ما زالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان قطعت أبهري ". انتهى انتهى. ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 282 ﴾

(167/131)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾

ونحن نعرف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه الأول هو " محمد "، وله اسم ثانٍ عرفناه من القرآن وجاء في الإنجيل هو " أحمد ":

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُواْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

[الصف: 6]

وقد ورد اسمه صلى الله عليه وسلم " مُحمد " في القرآن أربع مرات، و " أحمد " وردت

مرة واحدة .

والآية التي نحن بصددها ، وهي آية ذكر فيها اسم محمد : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ . ولنقرأ قول الحق :

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

[الأحزاب : 40]

وقوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾

[محمد : 2]

وها هو ذا القول الكريم :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾

[الفتح : 29]

والاسم هو ما وُضع عَلَماً على المسَمَّى ؛ بحيث إذا ذُكر الاسم جاء إلى الذهن المسمى ، فإذا اشترك اثنان في بيئة واحدة في اسم ؛ فلا بد من التمييز بينهما بوصف . فإذا كان في أسرة واحدة ولدان اسم كل واحد منهما مُحمد ، فلا بد أن نميز بين الاثنين بصفة ، وفي الريف نجد من يسمى " مُحمداً الكبير " و " مُحمداً الصغير " .

وكلمة " مُحمد " وكلمة " أحمد " مشتركتان في أصل المادة ؛ لأنهما من " الحاء والميم والدال " فالمادة هي الحمد ، إلا أن التوجيه الاشتقاقي في محمد غير التوجيه في أحمد ، لأن الاسم قبل أن يكون علماً إذا خرجت به عن معناه الأصلي ، انحل عن معناه الأصلي ، وصار علما على الشخص .

ولذلك قد نجد رجلا له جارية سوداء فيسميها " قمرا " وقد يكون للرجل عبد شقي فيسميه : " سعيدا " . فإذا صار الاسم علما على شيء فإنه ينتقل من معناه الأصلي ويصير عَلَماً على المسمَّى ، لكن الناس حين تُسمى أبناءها تلمح التفاؤل في أن يصير المعنى الأصلي واقعا .

والدميمة التي يسميها صاحبها " قمرا " افتقدت جمال المسمى ، ولذلك فهو يريد لها أن تأخذ جمال الاسم . . وكلمة " مُحمد " حين ننظر إليها في الاشتقاق نجد انها ذاتٌ يقع عليها الحَمْد من غيرها ، مثلما تقول : فلان مكرَّم أي وقع التكريم من الغير عليه .

وكلمة " أحمد " نجدها ذاتا وقع عليها الحمد لغيرها .

وعندما نقول : مُكرِّم – بضم الميم وفتح الكاف مع تشديد الراء مكسورة – أي وقع التكريم منه لغيره . ونحن عندنا اسمان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، في القرآن وكلاهما من مادة " الحمد " فـ " محمد " ملحوظ فيه أن الحمد وقع عليه كثيرا من غيره . لكن لو كان المراد أن الحمد وقع عليه دون الكثرة فيه لكان اسم " محمود " هو الذي يطلق عليه فقط .

(169/131)

أما " أحمد " فقد قلنا إنه ملحوظ فيها أن الحمد وقع منه لغيره . و " أحمد " تتطابق مع أفعل التفضيل فنحن نقول : " فلان كريم وفلان أكرم من فلان " . إذن فـ " أحمد " أي وقع منه الحمد لغيره كثيرا ، فلو كان الحمد قد وقع منه بقدر محدود لقلنا " حامد " . إذن فـ " أحمد " مبالغة في " حامد " وقع منه الحمد لغيره كثيراً فصار أحمد . و " محمد " مبالغة في " محمود " ، وقع عليه الحمد من غيره كثيرا فصار محمداً .

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم جمع له الله بين الأمرين ؛ فهو محمد من الله وحامد لله ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع الله له بين مقامين : مقام الاصطفاء ومقام المجاهدة ، فبالاصطفاء كان " محمدا " و " محمود " ، وبالمجاهدة كان " حامدا " و " أحمد

" . إذن نحن هنا أمام مقامين اثنين لرسول الله صلى الله عليه وسلم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أنا محمد وأحمد والمقفى والحاشر ونبي التوبة ونبي الرحمة" .

وسيكون لذلك كلام ونحن نتناول هنا بالخواطر معركة أحُد ، فبعد أن انحل القوم من الرماة عن أمره ، وحدثت الكرَّة عليهم من المشركين القرسيين ، بعد ذلك يتجه الصحابة هنا وهناك ليفروا ، ويتكتل المشركون على رسول الله لدرجة أن ابن قمئة يمسك حجرا ويضرب به حضرة النبي عليه الصلاة والسلام فيكسر ربَاعِيَّته . وتنغرز في وجنتي الرسول حلقتا المغفر ، ويسيل منه الدم ، ويحاول الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصعد على صخرة من الجبل ليعلوها فلم يستطع فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها . وكلها مجاهدات بشرية .

(170/131)

أما كان الله بقادر أن يُجنِّب رسوله كل ذلك ؟ إنه سبحانه قادر . ولكن كل ذلك كان تكريما من الله ، ولم يرد سبحانه أن يحرم رسوله من لذة المجاهدة ، وحتى يعرِّف الله المؤمنين بمحمد نقول : إن الله لم يأت بمحمد ليدلله على خلقه ، ولكن ليدُلَّ كُلَّ مؤمن على أن رسول الله حينما حدث له ما حدث قد ذاق المجاهدة ؛ فقد فر بعض المقاتلين من المعركة في أحد

، وكادت ريح الهزيمة تهب على معسكر الإيمان ، ها هو ذا سيدنا أبو عبيدة رضي الله عنه يذهب إلى رسول الله فيجد حلقتي المغفر في وجنتيه صلى الله عليه وسلم ، فيحاول سيدنا أبو بكر أن يخلع حلقتي المغفر ، فيتألم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقول سيدنا أبو عبيدة :

– إليك يا أبا بكر .

بالله دعني .

ويمسك أبو عبيدة بإحدى الحلقتين وينزعها من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت ثنيته ، ثم نزع الحلقة الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى فكان أبو عبيدة – رضي الله عنه – ساقط الثنيتين ، وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح " . وينزف دمه صلى الله عليه وسلم ، وسيدتنا فاطمة يلهمها الله أن تأتي بقطعة من حصير وتحرقها ، وتأخذ التراب الباقي من الحريق وتضمد به الجرح. إن الله لم يشأ أن يحرم رسوله لذة المجاهدة .

ويأتي أنس بن النضر ويجد الصحابة وفيهم عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله وقد ألقوا ما بأيديهم ، فيسألهم أنس : ما يجلسكم ؟ فيقولون : قُتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول : فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثم استقبل القوم من المشركين فقاتل حتى قِتل .

هذه كلها مواقف لم تكن تأتي وتظهر إلا بهذه المعركة. ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ ﴾ أي اسمعوا. هذا محمد وهذه منزلته، هو رسول من الله جاء بعد عيسى بن مريم، وكان من الواجب أن نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم مؤكد على بشريته. ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ .

وهل انقلب أتباع الرسل السابقين على أعقابهم حينما ماتت رسلهم؟ فكيف تكونون أقل شأنا من هذه الأمم؟ هبوا أن ذلك قد حدث، فلماذا لا يبقى الخير الذي بلغه فيكم رسول الله إلى يوم القيامة؟ الرجل الذي يكون قد صنع خيرا يموت بموته، أيكون قد صنع شيئًا؟ لا؛ فالذي يريد أن يصنع خيرا فعليه أن يصنع خيرا يخلفه.

لذلك فالزعامات الفاشلة هي التي يكون الفرد فيها زعيما، ثم يموت ونبحث عن زعيم بعده فلا نجد ونتساءل: لماذا خنق الزعيم أصحابه وزملاءه؟ أكان خائفا منهم؟ ونظل نتمنى أن يكون قد ربّى الزعيم أناسا، فإذا ما ذهب نجد من يخلفه، فلا يوجد إنسان يضمن حياته؛ لذلك يقول الحق: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ .

وساعة تسمع القول الكريم: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ ﴾ فهذا أسلوب اسمه أسلوب

القصر . إنه سبحانه وتعالى يقصر محمدا على الرسالة . فإذا قصر محمد صلى الله عليه وسلم على الرسالة فهذا يعني أن بعض المعاصرين له كانوا يعتقدون أن محمدا أكبر من رسول ولا يموت .

فأوضح الله سبحانه أن محمدا رسول ، وقد خلت من قبله الرسل ، ولن يخلد الله أحدا . وهل غاب ذلك عن الذهن ؟ نعم كان ذلك يغيب عن الذهن بدليل أنه حتى بعد أن نزلت هذه الآية وصارت قرآنا يُتلى ، نجد أن سيدنا عمر رضي الله عنه وكانت له فطرة صافية توافق وحي الله ، إنه محدَّث مُلْهَم .

(172/131)

ها هو ذا عمر بن الخطاب حينما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتقل إلى رحاب الله يقول : والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يموت حتى يقطع أيدي أناس من المنافقين كثير وأرجلهم . قال عمر بن الخطاب ذلك من هول الفاجعة ونسي الآية فيأتي سيدنا أبو بكر فيقول : من كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لم يمت ، ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، وتلا قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ

الشَّاكِرِينَ ﴾ . فقال عمر بن الخطاب : " فلكأني لم أقرأها إلا يومئذ " .

ثم إن عمر بعد أن بايع المسلمون أبا بكر بالخلافة قال : أما بعد فإني قلت لكم أمس مقالة ، وإنها لم تكن كما قلت ، وإني والله ما وجدت المقالة التي قلت لكم في كتاب أنزله الله ، ولا في عهد عهده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكني كنت أرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يَدْبُرنا فاختار الله عز وجل لرسوله الذي عنده على الذي عندكم ، وهذا الكتاب الذي هدى الله به رسوله فخذوا به تهتدوا كما هَدِيَ له رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذه تعطينا أمرين اثنين :

الأمر الأول : هو عِشق الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

والأمر الثاني : هو حاجة إيمان ؛ فالعشق لا يستقيم ولا يصح أن يخرجنا عن طور التصور الإيماني ؛ فعمر بن الخطاب قال : عندما سمعت أبا بكر يتلو هذه الآية عرفت حتى ما تقلني رجلاي ، وحتى هويت على الأرض .

إذن فقوله سبحانه : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ يعني لا ترتفعوا به أنتم أيها المؤمنون برسالته فوق ما رفعته أنا .

ومعنى ﴿ يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾ أي يرجع . فهل هذا الرجوع رجوع عن المعركة ؟ أو رجوع عن أصل التشريع وأصل الديانة وأصل الرسالة التي جاء بها محمد ؟ إن هذا يصح ، وذلك يصح . وقوله الحق : ﴿ أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ قول واضح ، وسبق أن تعرضنا إلى الموت وإلى القتل ، وقلنا : إن الموت والقتل مؤداهما واحد ، وهو الذهاب بالحياة ، إلا أن الذهاب بالحياة مرة يكون بنقض البنية التي لا تسكن الروح فيها إلاّ بمواصفاتها ، فإن نقضت البنية ولم تجد الروح المسكن الملائم لها تتركه ، لكن الموت على إطلاقه : هو أن تذهب الحياة بدون نقض البنية ، فالإنسان يذهب حتف أنفه ، أي نجده قد مات وحده . إذن فنقض البنية يؤدي إلى ذهاب الحياة بالقتل ؛ لأن الروح لا تسكن في مادة إلا بمواصفات خاصة ، فإذا انتهت هذه المواصفات ذهبت الروح . لكن عندما تذهب الروح بمفردها بدون نقض للبنية فهذا هو الموت لا القتل .

والله سبحانه يقول : ﴿ أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ ذلك أنهم أشاعوا أن النبي قد قتل . وكيف يجوز ذلك على الصحابة والله قد قال :

﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾

[المائدة : 67]

وهنا نقول : هل أنت علمت أن هذه الآية قد نزلت قبل أُحد أو بعدها ؟ وهل أنت حسن

الظن بأن كل صحابي يكون مستحضرا لكل آيات القرآن في بؤرة شعوره ؟ ألا ترى أنهم عندما سمعوا خبر قتله هربوا ، وإذا كان سيدنا عمر قد نسي هذه الآية : ﴿ أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ كما أنه يحتمل أن يكون المراد من عصمة الله رسوله من الناس أنه – سبحانه – يحفظه من فتنة الناس وإذلالهم .

(174/131)

هكذا أراد الله أن تمثل لنا معركة أُحد كل الطوائف والأصناف التي تُنسب إلى الإيمان تمثيلا يتضح في موقف ابن أُبيّ حيث انخذل وانقطع عن رسول الله بثلث القوم ، ومرحلة أقل منها ، تتمثل في طائفتين هَمَّتَا ، ثم شاء الله أن يربط على قلوبهما فيظلا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما نشبت المعركة كان للرماة موقف في المعركة الأُحدية .

فحين رأوا النصر أولا ورأوا الغنائم سال لعاب بعضهم على الغنائم ، فحصل انشقاق فيهم ، فعبد الله بن جبير وهو رئيس الرماة ومعه من القلة يُصر على تنفيذ أمر رسول الله فيقاتل حتى استشهد ، واستشهدوا وهؤلاء هم الذين أرادوا الآخرة . بينما كان هناك قوم آخرون أرادوا الغنائم ، وحيما أشيع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُتل فرت البقية الباقية من الرماة وغيرهم من المعركة ، ورسول الله ينادي القوم : " إليّ عباد الله إليّ عباد

الله " .

كل هذه مصاف إيمانية تمثل لنا كيف يُصفى الله مواقف المنسوبين إليه . وتظهر وتوضح موقف كل واحد ، وأنه مفضوح إيمانيا إن وقف موقفا يخالف منهج الله . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم – في هذا الوقت – في موقف الإنهاك لقوته البشرية لدرجة أننا قلنا : إنه أراد أن يصعد فلم تَقو مادته البشرية ، فطأطأ طلحة ظهره ليصعد النبي عليه ، وهو في هذه المرحلة من الإنهاك المادي البشري يريد الحق سبحانه وتعالى أن يعطيه من القوة في هذا الضعف وفي هذا الإنهاك ما يقف به أمام جبار من جبابرة قريش .

كان هذا الجبار يتهدده .

ولو أن الموقف كان موقف قوة لرسول الله أكان من المعقول أن ينتصر رسول الله على جبار قريش ؟

(175/131)

ولكن الله يريد أن يُرينا تأييد الله لرسوله ، في موقف إنهاكه وكيف يقف من جبار قريش هذا الموقف ، هذا الجبار هو " أبي بن خلف الجمحي " وكانت عنده رَمَكة فيقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه الرمكة أنا أعلفها كل يوم فَرَقاً من ذرة لأقتلك عليها . فيقول

له رسول الله قولة الواثق من أن ربه لن يخذله : " بل أنا أقتلك إن شاء الله " .

لم يلتق هذا الرجل مع رسول الله وهو في قوته ، ولكنه جاء لرسول الله وهو في هذا الموقف الذي أثخنته فيه الجراح وكسرت رباعيته ودخلت خلقتا المغفر في وجنتيه وسال دمه .

وبعد ذلك يأتي إليه هذا الرجل " أبي بن خلف الجمحي " وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجوت إن نجا ، فقال القوم : يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا ؟

فيشير إليهم رسول الله أن اسكتوا . إنه – رسول الله – لا يريد قوة لقوة ، ولكنه علم أن أُبَيّاً قد عرف أن رسول الله منهك فجاء في هذا الوقت ، فأخذ رسول الله الحربة ، وضرب أبي بن خلف بها فنالت منه ، فسقط من على فرسه يخور كما يخور الثور ، فقال له أصحابه : " لا بأس عليك يا أُبيّ ، ما أجزعك : إنما هو خدش " .

وهذا الذي قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي اشتد عليه غضب الله تعالى لما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال : " اشتد غضب الله على مَنْ قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده في سبيل الله واشتد غضب الله على قول دَمَوْا وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم " .

ولننظر كيف أن الذين عادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم استكبارا وعنادا ، ولم يعادوه عقيدة قلبية ، إنهم يعتقدون صدقة ، ويعتقدون حُسن بلاغه عن الله ، ويتحقق ذلك من قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

[النمل : 14]

(176/131)

فما هو الاستيقان هنا ؟ لقد قال أصحاب أبيّ له : ما أجزعك إنما هو خدش فقال أبيّ : والذي نفسي بيده لو كان الذي بي بأهل الحجاز لماتوا جميعا . لكن أصحاب أبي قالوا له مرة أخرى : لا بأس عليك يا أبي إنه خدش بسيط . لكنْ أبي يقول :

- لا والله لقد علمت أنه يقتلني ؛ لأنه قال لي بمكة : " أنا قاتلك إن شاء الله " فوالله لو بصق علي لقتلني . فمات وهم قافلون به إلى مكة .

هذا يحدث من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في موقف الضعف والإنهاك ، ويشاء له الله أن يقتل جبارا من جبابرة قريش وهو في هذه الحالة .

إن كان ذلك لأدلة تثبت لهم أن البشرية المادية لا علاقة لها مطلقا بمدد النصر من الله ؛ فالله يُمد رسوله حتى في وقت الضعف . ومدده سبحانه لرسوله وقت ضعف الرسول هو إعلام بقيوميته سبحانه على جنوده ؛ لأنهم لو ظلوا أقوياء لقيل في عرف البشر : أقوياء وغلبوا .

لكن ها هو ذا الرسول يصيب الجبار من قريش في مقتل والرسول ضعيف ، وبعد ذلك يعطي الحق سبحانه لرسول الله أشياء إيمانية تزيده ثقه بأنه هو رسول الله ، وتزيد المؤمنين ثقة بانه رسول الله . لقد خرج إلى المعركة وهو يعلم بما سيكون فيها ؛ لأنه قال : " إني قد رأيت والله خيرا رأيت بقرا تُذبح ورأيت في ذباب سيفي ثُلْمًا ، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة " .

وقال صلى الله عليه وسلم : " لقد رأيتني يوم أحد وما في الأرض قربى مخلوق غير جبريل عن يميني وطلحة عن يساري " .

(177/131)

إذن فالمعركة بكل أحوالها عُرضت عليه ، ومع ذلك أقبل رسول الله على المعركة ليستدل من ذلك على أن الله أعطاه المناعة قبل أن يخوض المعركة . هذا ما يتعلق به صلى الله عليه وسلم ، لقد رأى فأول ، وأما الذي يتعلق بالناس ، فيأتي إلى واحد من قتلى المعركة - وقتلى المعركة ، لا يُغسلون ؛ لأن الذي يغسل هو من يموت في غير معركة - يأتي الرسول إلى واحد من هؤلاء الشهداء فيقول : " إن صاحبكم لتغسله الملائكة " - يعني حنظلة - المؤمنون يرون أنه صلى الله عليه وسلم قد خرج عن القاعدة في الشهداء . كيف ؟ لقد

أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بالخبر بعد ذلك . . ولا يُخرج حنظلة عن قانون الشهداء أنه يُغسّل . . ولكن الذي يغسله هم الملائكة . . إن الملائكة تغسل حنظلة . وبعد أن رجع رسول الله إلى المدينة يسأل أهله ما شأنه . . فيعلم أن حنظلة قد دخل بعروسه . . ثم نودي للمعركة . . فأعجله نداء المعركة . . فذهب إلى المعركة جُنبا . . فذلك غُسْل الملائكة له ، لقد تأكد الخبر من زوجة حنظلة . . إذن فهذه شهادة أخرى أن الله سبحانه وتعالى لم يتخل عنهم في أوقات الضعف ، وأن تلك العملية كانت عملية مقصودة .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطي الرسول صلى الله عليه وسلم أشياء لتؤكد لنفسه أنه رسول الله . ألم نقل سابقاً : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء له صحابته فقالوا يا رسول الله : إن جابر بن عبد الله عليه دين ليهودي وأجل الدين إلى جَزّ التمر وتمره خَاسَ هذا العام أي فسد من آفةٍ مثلاً فنحب يا رسول الله أن تطلب من اليهودي أن يُنظر جابرا – أي ينتظر عليه ويؤخره إلى وقت آخر – فذهب رسول الله إلى اليهودي وطلب منه أن يُنظر جابرا ، فلم يرض اليهودي وقال : لا يا أبا القاسم .

فأعاد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال اليهودي : لا يا أبا القاسم . فأعاد عليه الرسول مرة ثالثة فقال اليهودي : لا يا أبا القاسم . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بثقة الإيمان بالله ما معناه : يا جابر اذهب بي إلى بستانك .

وذهب رسول الله فجاس خلال النخل ، ثم ذهب إلى عريش جابر الذي يجلس فيه ، واضطجع وقال : يا جابر جز واقض . قال جابر : فذهبت فجززت ، فإذا ما جززته يؤدي ما عليّ لليهودي ويبقى لي ما لم يبق لي وأنا غير مدين . فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" أشهد أني رسول الله " . إن الحق سبحانه يعطي رسوله بينات توضح أنه رسول الله ، فاليهودي لم يرض بشفاعة النبي ، فيعطي الله رسوله ما يؤكد أنه رسول الله . وهكذا نرى أن الله يعطي رسوله في وقت الضعف الأدلة التي تؤكد له أنه رسول الله . والذي يدل على ذلك هؤلاء الذين أحبوا أن يؤذوه في اسمه . إنّ اسمه مُحمد كما نعرف ، و " محمد " أي الممدوح من الكل ، وبكثرة ، فيأتي خصومه ويريدون أن يهجوه وأن يلعنوه ، فيصرفهم الله سبحانه وتعالى حتى عن شتم الاسم لا المسمى فقط .

إن الله أراد أن يصعد العصمة ، وأراد – سبحانه – ألا ينالوا بالسباب من اسم رسول الله ، فألهم الله خصوم رسول الله أن يسموا المشتوم عندهم " مذمما بدلا من " محمد " . وعندما يريدون اللعن ، فهم لا يلعنون الاسم محمداً ولكنهم يسبون الاسم الذي اختاروه وهو "

مذمم " ، فيضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ عندما سمع ما قالته أم جميل امرأة أبي لهب .

(179/131)

" مذمما عصينا . . وأمره أبينا . . ودينه قلينا " . وهي تقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد حدث أن حمالة الحطب أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق وفي يدها حجر فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر فقالت : يا أبا بكر أين صاحبك ؟ فقد بلغني أنه يهجوني والله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه أما والله إني لشاعرة وقالت ما قالت .

ويقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " ألا تعجبون لَما يصرف الله عني من أذى قريش يشتمون مُذَمَّماً ويلعنون مذمما وأنا محمد " .

هكذا نرى من أفواه الحاقدين على رسول الله أنه معصوم بإرادة الله ، حتى الاسم أبعده الله عن اللعن ، أما المسمى فلن يلعن ولن يشتم .

إن ما حدث في غزوة أحد كان هو التربية الأولى لصحابة رسول الله ، والتأكيد على صدق

بلاغه عن الله . إن هذه المعركة قد صورت ذلك وجسد ته ، ولذلك حين نلحظ المعارك التي جاءت بعد هذه المعركة فإننا لا نجد للمؤمنين هزيمة أبدا ، لأنهم صُفوا التصفية ورُبوا التربية التي جعلت كل واحد منهم عارفا أن الله يعلم ما يخفيه وإن لم يحسن البلاء والجهاد فسيفضح الله ما في نفسه ، وسيعلن الله عنه ؛ لذلك دخل كل مؤمن منهم المعارك وهو مقبل على الجهاد ، كل المعارك بعد أُحد جاءت نصرا وجاءت سلاما .

وهنا يعلمنا الحق أن البقاء على منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم هو النجاة وهو النصر ، ويحذرنا سبحانه ألا ينقلب المؤمن على عقبيه ، قال لنا : ﴿ أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

(180/131)

﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾ هي صورة حركية مادية مرئية . وقد حدث ذلك من بعض الصحابة في معركة أحُد ، لقد فر البعض وانقلب بعضهم إلى المدينة ، ومعنى " انقلب " أي أعطى ظهره للمعركة بعد أن كان مواجها لعدوه ، وهي مثل قوله : ﴿ وَلَّوُا الأَدْبَارَ ﴾ . ولكن في قوله : ﴿ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ فيه انقلاب حسي أيضا ، وفيها كذلك انقلاب

نفسي ، وهو الانصراف عن أصل الدين ، ولذلك سيعرفنا الحق أن المنافقين بعد حدوث تلك الواقعة وبعد ما فشا وذاع في الناس قتل الرسول كان لهم كلام ، وضعاف الإيمان كان لهم كلام آخر ؛ فالمنافقون الذين هم أكثر شرا من الكفار قالوا : لو كان نبيًا لما قتل ، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم .

أما الذي آمنوا إيمانا ضعيفا فقالوا : سنذهب إلى ابن أُبَيّ ليأخذ لنا أمانا من أبي سفيان .

فيقف أنس بن النضر قائلا : اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء – أي المنافقون – وأعتذر إليك مما يقول هؤلاء – أي ضعاف الإيمان – .

(181/131)

لقد وزعها بالحق ؛ فهو يبرأ إلى الله من قول المنافقين الذين قالوا : إنهم سيعودون إلى دينهم القديم ، ويعتذر ويستغفر عن ضِعاف الإيمان . ويقول سبحانه : ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ﴾ . لماذا ؟ لأن الله أزلاً وقبل أن يخلق شيئًا من خلقه له كل صفات الكمال ، إذن فأي صفة من صفات الكمال لم تطرأ عليه – سبحانه – من خلقه ، إنه – سبحانه – أوجد الكون بما فيه الخلق لأنه قادر ، وأوجده لأنه حكيم ، وأوجده لأنه عالم ، إذن فخلق الخلق لم يزد الله صفة من صفاته ، فحين خلقكم وصنعكم أعطى لكم

المنهج لتكونوا خلقا سويا . إذن فالمصلحة تعود علينا نحن الخلق ، فكان يجب أن تنظروا إلى المناهج التي تأتي من الله على أنه لا نفع فيها لله ، ولكن النفع فيها عائد عليكم . ولذلك جاءت الآية من بعد ذلك لتقول : ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ لأن الشكر إنما يؤديه العبد على نعمة ، نعمة تمحيص وتعليم وبيان مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه .

لقد تعلم المؤمنون أن الله يستحق منهم الشكر على هذه النعم .

وبعد ذلك ينتقل بنا الحق إلى قضية عامة ، القضية العامة للناس جميعا هي : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1787. 1800 ﴾

(182/131)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (145) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان موت الرأس من أنصار الدين لا يصلح أن يكون سبباً للفرار إلا إذا كان موته بغير إذن

صاحب الدين ، وكان الفرار لا يصلح إلا أذا كان يمكن أن يكون سبباً للنجاة ، وأما إذا كان موته لا يكون إلا بإرادة رب الدين ، والفرار لا يكون سبباً في زيادة الأجل ولا نقصه ؛ أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ وما كان لنفس ﴾ أي من الأنفس كائنة من كانت ﴿ أن تموت ﴾ أي بشيء من الأشياء ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي بعلم الملك الأعلى الذي له الإحاطة التامة وإرادته وتمكينه من قبضها "كتب لكل نفس عمرها " ﴿ كتاباً مؤجلاً ﴾ أي أجلاً لا يتقدم عنه بثبات ، ولا يتأخر عنه بفرار أصلاً .

ولما كان المعنى : فمن أقدم شكرته ولم يضره الإقدام ، ومن أحجم ذممته ولم ينفعه الإحجام ، وكان الحامل على الإقدام إيثار ما عند الله ، والحامل على الإحجام إيثار الدنيا ؛ عطف على ذلك قوله : ﴿ ومن يرد ثواب الدنيا ﴾ أي بعمله – كما افهمه التعبير بالثواب ، وهم المقبلون على الغنائم بالنهب والفارون كفراً لنعمة الله ﴿ نؤته منها ﴾ أي ما أراد ، وختام الآية يدل على أن التقدير هنا : وسنردي الكافرين ولكنه طواه رفقاً لهم ﴿ ومن يرد ثواب الآخرة ﴾ أي وهم الثابتون شكراً على إحسانه إليهم من غير أن يشغلهم شاغل عن الجهاد ، ولما كان قصد الجزاء غير قادح في الإخلاص منه من الله تعالى علينا قال : ﴿ نؤته ﴾ ونبه على أن العمل لذات الله من غير نظر إلى ثواب ولا عقاب أعلى فقال : ﴿ منها ﴾ أي وسنجزيه لشكره ، وهو معنى قوله : ﴿ وسنجزي الشاكرين ﴾ لكنه أظهر لتعليق الحكم بالوصف وعمم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 162. 163 ﴾

فصل

قال الفخر :

في كيفية تعلق هذه الآية بما قبله وجوه :

الأول : أن المنافقين أرجفوا أن محمد صلى الله عليه وسلم قد قتل ، فالله تعالى يقول : إنه لا تموت نفس إلا بإذن الله وقضائه وقدره ، فكان قتله مثل موته في أنه لا يحصل إلا في الوقت المقدر المعين ، فكما أنه لو مات في داره لم يدل ذلك على فساد دينه ، فكذا إذا قتل وجب أن لا يؤثر ذلك في فساد دينه ، والمقصود منه إبطال قول المنافقين لضعفة المسلمين أنه لما قتل محمد فارجعوا إلى ما كنتم عليه من الأديان .

الثاني : أن يكون المراد تحريض المسلمين على الجهاد بإعلامهم أن الحذر لا يدفع القدر ، وأن أحداً لا يموت قبل الأجل وإذا جاء الأجل لا يندفع الموت بشيء ، فلا فائدة في الجبن والخوف .

والثالث : أن يكون المراد حفظ الله للرسول صلى الله عليه وسلم وتخليصه من تلك المعركة المخوفة ، فإن تلك الواقعة ما بقي سبب من أسباب الهلاك إلا وقد حصل فيها ، ولكن لما

كان الله تعالى حافظاً وناصراً ما ضره شيء من ذلك وفيه تنبيه على أن أصحابه قصروا في الذب عنه .

والرابع : وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله ، فليس في إرجاف من أرجف بموت النبي صلى الله عليه وسلم ما يحقق ذلك فيه أو يعين في تقوية الكفر ، بل يبقيه الله إلى أن يظهر على الدين كله .

الخامس : أن المقصود منه الجواب عما قاله المنافقون ، فإن الصحابة لما رجعوا وقد قتل منهم من قتل قالوا : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، فاخبر الله تعالى أن الموت والقتل كلاهما لا يكونان إلا بإذن الله وحضور الأجل والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 19 .20 ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في تفسير الإذن على أقوال :

الأول : أن يكون الإذن هو الأمر وهو قول أبي مسلم ، والمعنى أن الله تعالى يأمر ملك الموت بقبض الأرواح فلا يموت أحد إلا بهذا الأمر .

الثاني : أن المراد من هذا الإذن ما هو المراد بقوله : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل : 40] والمراد من هذا الأمر إنما هو التكوين والتخليق والإيجاد ،

لأنه لا يقدر على الموت والحياة أحد إلا الله تعالى ، فإذن المراد : أن نفساً لن تموت إلا بما أماتها الله تعالى .

(184/131)

الثالث : أن يكون الإذن هو التخلية والإطلاق وترك المنع بالقهر والإجبار ، وبه فسر قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [البقرة : 102] أي بتخليته فإنه تعالى قادر على المنع من ذلك بالقهر ، فيكون المعنى : ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله بتخلي الله بين القاتل والمقتول ، ولكنه تعالى يحفظ نبيه ويجعل من بين يديه ومن خلفه رصداً ليتم على يديه بلاغ ما أرسله به ، ولا يخلي بين أحد وبين قتله حتى ينتهي إلى الاجل الذي كتبه الله له ، فلا تنكسروا بعد ذلك في غزواتكم بأن يرجف مرجف أن محمداً قد قتل .

الرابع : أن يكون الإذن بمعنى العلم ومعناه أن نفسا لن تموت إلا في الوقت الذي علم الله موتها فيه ، وإذا جاء ذلك الوقت لزم الموت ، كما قال ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل : 61] الخامس : قال ابن عباس : الإذن هو قضاء الله وقدره ، فإنه لا يحدث شيء إلا بمشيئته وارادته فيجعل ذلك على سبيل التمثيل ، كأنه فعل لا ينبغي لأحد أن يقدم عليه إلا بإذن الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9

﴿ صـ20 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قال الأخفش والزجاج : اللام في ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ ﴾ معناها النفي ، والتقدير وما كانت نفس لتموت إلا بإذن الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 20 ﴾

فصل

قال ابن عاشور :

﴿ وما كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كتابا مُّؤَجَّلاً ﴾ .

جملة معترضة ، والواو اعتراضية .

فإن كانت من تتمة الإنكار على هلعهم عند ظنّ موت الرسول ، فالمقصود عموم الأنفس لا خصوص نفس الرسول عليه السلام ، وتكون الآية لوماً للمسلمين على ذهولهم عن حفظ الله رسولَه من أن يسلّط عليه أعداؤُه ، ومن أن يخترم عمره قبل تبليغ الرسالة .

(185/131)

وفي قوله : ﴿ والله يعصمك عن الناس ﴾ [المائدة : 67] عقب قوله : ﴿ بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ [المائدة : 67] الدالّ على أنّ عصمته من النّاس لأجل تبليغ الشّريعة . فقد ضمن الله له الحياة حتّى يبلّغ شرعه ، ويتمّ مراده ، فكيف يظنّون قتله بيد أعدائه ، على أنّه قبل الإعلان بإتمام شرعه ، ألا ترى أنّه لمّا أنزل قوله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ [المائدة : 3] الآية .

بكى أبو بكر وعلم أنّ أجل النّبيء صلى الله عليه وسلم قد قرب ، وقال : ما كمُل شيء إلاّ نقص .

فالجملة ، على هذا ، في موضع الحال ، والواو واو الحال .

وإن كان هذا إنكاراً مستأنفاً على الّذين فزعوا عند الهزيمة وخافوا الموت ، فالعموم في النفس مقصود أي ما كان ينبغي لكم الخوف وقد علمتم أنّ لكلّ نفس أجلاً .

وجيء في هذا الحكم بصيغة الجحود للمبالغة في انتفاء أن يكون موت قبل الأجل ، فالجملة ، على هذا ، معترضة ، والواو اعتراضية ، ومثل هذه الحقائق تلقى في المقامات الّتي يقصد فيها مداواة النّفوس من عاهات ذميمة ، وإلاّ فإنّ انتهاء الأجل منوط بعلم الله لا يعلم أحد وقته ، ﴿ وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾ [لقمان : 34] ، والمؤمن مأمور بحفظ حياته ، إلاّ في سبيل الله ، فتعيّن عليه في وقت الجهاد أن يرجع إلى الحقيقة وهي أنّ الموت بالأجل ، والمراد ﴿ بإذن الله ﴾ تقديره وقت الموت ، ووضعه العلامات الدالة على بلوغ

ذلك الوقت المقدّر ، وهو ما عبّر عنه مرّة ب (كن) ، ومرة بقدر مقدُور ، ومرّة بالقلم ، ومرّة بالكتاب .

(186/131)

والكتاب في قوله : ﴿ كتاباً مؤجلاً ﴾ يجوز أن يكون اسماً بمعنى الشيء المكتوب ، فيكون حالاً من الإذن ، أو من الموت ، كقوله : ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ [الرعد : 38] و"مؤجّلاً" حالاً ثانية ، ويجوز أن يكون ﴿ كتاباً ﴾ مصدر كاتب المستعمل في كتب للمبالغة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 240 . 241 ﴾

فائدة

قال الفخر :

دلت الآية على أن المقتول ميت بأجله ، وأن تغيير الآجال ممتنع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 20 ﴾

قوله تعالى : ﴿ كتابا مُّؤَجَّلاً ﴾

فائدة

قال الفخر :

قوله : ﴿ كتابا مؤجلا ﴾ منصوب بفعل دل عليه ما قبله فإن قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ قام مقام أن يقال : كتب الله ، فالتقدير كتب الله كتابا مؤجلا ونظيره قوله : ﴿ كتاب الله عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء : 24] لأن في قوله ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أمهاتكم ﴾ [النساء : 23] دلالة على أنه كتب هذا التحريم عليكم ومثله : ﴿ صنع الله ﴾ [النمل : 88] و ﴿ وعد الله ﴾ [الزمر : 20] و ﴿ فطرة الله ﴾ [الروم : 30] ، و ﴿ صبغة الله ﴾ [البقرة : 138] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 20 . 21 ﴾

فصل

قال الفخر :

المراد بالكتاب المؤجل الكتاب المشتمل على الآجال ، ويقال : إنه هو اللوح المحفوظ ، كما ورد في الأحاديث أنه تعالى قال للقلم " اكتب فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 21 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن جميع الحوادث لا بد أن تكون معلومة لله تعالى ، وجميع حوادث هذا العالم من الخلق والرزق والأجل والسعادة والشقاوة لا بد وأن تكون مكتوبة في اللوح المحفوظ ، فلو وقعت

بخلاف علم الله لانقلب علمه جهلا ، ولانقلب ذلك الكتاب كذبا ، وكل ذلك محال ، وإذا كان الأمر كذلك ثبت أن الكل بقضاء الله وقدره .

(187/131)

وقد ذكر بعض العلماء هذا المعنى في تفسير هذه الآية وأكده بحديث الصادق المصدوق ، وبالحديث المشهور من قوله عليه السلام " فحج آدم موسى " قال القاضي : أما الأجل والرزق فهما مضافان إلى الله ، وأما الكفر والفسق والإيمان والطاعة فكل ذلك مضاف إلى العبد ، فإذا كتب تعالى ذلك فإنما يكتب بعلمه من اختيار العبد ، وذلك لا يخرج العبد من أن يكون هو المذموم أو الممدوح .

واعلم أنه ما كان من حق القاضي أن يتغافل عن موضع الإشكال ، وذلك لأنا نقول : إذا علم الله من العبد الكفر وكتب في اللوح المحفوظ منه الكفر ، فلو أتى بالإيمان لكان ذلك جمعا بين المتناقضين ، لأن العلم بالكفر والخبر الصدق عن الكفر مع عدم الكفر جمع بين النقيضين وهو محال ، وإذا كان موضع الإلزام هو هذا فأنى ينفعه الفرار من ذلك إلى الكلمات الأجنبية عن هذا الإلزام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 21 ﴾

فائدة

قال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾ فِيهِ حَضٌّ عَلَى الْجِهَادِ مِنْ حَيْثُ لَا يَمُوتُ أَحَدٌ فِيهِ إلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَفِيهِ التَّسْلِيَةُ عَمَّا يَلْحَقُ النَّفْسَ بِمَوْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لِأَنَّهُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ مَوْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ الْآيَةَ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 2 صـ 325 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخرة نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشاكرين ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن الذين حضروا يوم أحد كانوا فريقين ، منهم من يريد الدنيا ، ومنهم من يريد الآخرة كما ذكره الله تعالى فيما بعد من هذه السورة ، فالذين حضروا القتال للدنيا ، هم الذين حضروا لطلب الغنائم والذكر والثناء ، وهؤلاء لا بد وأن ينهزموا ، والذين حضروا للدين ، فلا بد وأن لا ينهزموا ثم أخبر الله تعالى في هذه الآية أن من طلب الدنيا لا بد وأن يصل إلى بعض مقصوده ومن طلب الآخرة فكذلك ، وتقريره قوله عليه السلام : " إنما الأعمال بالنيات " إلى آخر الحديث .

واعلم أن هذه الآية وإن وردت في الجهاد خاصة ، لكنها عامة في جميع الأعمال ، وذلك لأن المؤثر في جلب الثواب ، والعقاب المقصود والدواعي لا ظواهر الأعمال ، فإن من وضع الجبهة على الأرض في صلاة الظهر والشمس قدامه ، فإن قصد بذلك السجود عبادة الله تعالى كان ذلك من أعظم دعائم الإسلام ، وإن قصد به عبادة الشمس كان ذلك من أعظم دعائم الكفر .

وروى أبو هريرة عنه عليه السلام أن الله تعالى يقول يوم القيامة لمقاتل في سبيل الله " في ماذا قتلت فيقول أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت فيقول تعالى : كذبت بل أردت أن يقال فلان محارب وقد قيل ذلك " ثم إن الله تعالى يأمر به إلى النار . (1) انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 21 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ قال الكلبي : يعني يرد ثواب الدنيا بالعمل الذي افترض الله عليه ﴿ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ يعني أعطاه الله ما يحب ، وما له في الآخرة من نصيب ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخرة نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشاكرين ﴾ في الآخرة .

ومن الناس من قال : إن الرياء يدخل في النوافل ، ولا يدخل في الفرائض ، لأن الفرائض واجبة على جميع الناس .

وقال بعضهم : يدخل في الفرائض ولا يدخل في النوافل ، لأنه لو لم يأتِ بها لا يؤاخذ بها ، فإذا أتى بهذا القدر ليس عليه غير ذلك .

وقال بعضهم : كلاهما سواء ، فالرياء يدخل في الفرائض والنوافل جميعاً .

وهذا القول أصح لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ المنافقين يخادعون الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قاموا إِلَى الصلاة قَامُواْ كسالى يُرَآءُونَ الناس وَلاَ يَذْكُرُونَ الله إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء : 142] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ 279 ﴾

---

(1) نص الحديث (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال قاتلت فيك حتى استشهدت قال كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقال

هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار . ﴿ صحيح مسلم برقم 1905 - باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار ﴾

(189/131)

وقال الماوردى :

﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنيا نُؤْتِهِ مِنها ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : من أراد بجهاده ثواب الدنيا أي ما يصيبه من الغنيمة ، وهذا قول بعض البصريين .

والثاني : من عمل للدنيا لم نحرمه ما قسمنا له فيها من غير حظ في الآخرة ، وهذا قول ابن إسحاق .

والثالث : من أراد ثواب الدنيا بالنهوض لها بعمل النوافل مع مواقعة الكبائر جوزي عليها في الدنيا دون الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 1 صـ 427.428 ﴾

وقال الطبرى :

يعني بذلك جل ثناؤه : من يرد منكم ، أيها المؤمنون ، بعمله جزاءً منه بعضَ أعراض الدنيا ، دون ما عند الله من الكرامة لمن ابتغى بعمله ما عنده "نؤته منها" ، يقول : نعطه منها ، يعني من الدنيا ، يعني أنه يعطيه منها ما قُسم له فيها من رزق أيام حياته ، ثم لا نصيب له في كرامة

الله التي أعدها لمن أطاعه وطلب ما عنده في الآخرة "ومن يرد ثوابَ الآخرة" ، يقول : ومن يرد منكم بعمله جزاءً منه ثواب الآخرة ، يعني : ما عند الله من كرامته التي أعدها للعاملين له في الآخرة "نؤته منها" ، يقول : نعطه منها ، يعني من الآخرة . والمعنى : من كرامة الله التي خصَّ بها أهلَ طاعته في الآخرة . فخرج الكلامُ على الدنيا والآخرة ، والمعنىُّ ما فيهما .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 7 صـ 262 ﴾

قوله تعالى ﴿ وسنجزي الشاكرين ﴾

قال ابن عاشور :

﴿ وسنجزي الشاكرين ﴾ تذييل يعمّ الشاكرين ممّن يريد ثواب الدنيا ومن يريد ثواب الآخرة .

ويعمّ الجزاء كلّ بحسبه ، أي يجزي الشاكرين جزاء الدنيا والآخرة أو جزاء الدنيا فقط .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 241 ﴾

(190/131)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى ﴿ أَنْ تَمُوتَ ﴾ في محل رفع؛ اسماً لـ "كان" ، و"لِنَفْسٍ" خبر مقدَّم فيتعلق بمحذوف ، و﴿ إِلَّا بِإِذْنِ الله ﴾ حال من الضمير في "تَمُوتَ" ، فيتعلق بمحذوف ، وهو استثناء مفرَّغ ، والتقدير : وما كان لها أن تموتَ إلا مأذوناً لها ، والباء للمصاحبة .

وقال أبو البَقَاءِ : ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ الله ﴾ الخبر ، واللام للتبيين ، متعلّقة بـ "كان" .

وقيل : هي متعلقة بمحذوف ، تقديره : الموت لنفس ، و"أَنْ تَمُوتَ" تبيين للمحذوف ، ولا يجوز أن تتعلق اللام بـ "تَمُوتَ" لما فيه من تقديم الصلة على الموصول .

وقال بعضهم : إن "كَانَ" زائدة ، فيكون "أن تموت" مبتدأ ، و"لنفس" خبره .

وقال الزجاج : اللام منقولة ، تقديره وما كانت نفس لتموتَ ثم قدمت اللام ، فجعل ما كان اسماً لـ "كان" – وهو (أن تموتَ) – خبراً لها ، وما كان خبراً – وهو "لِنَفْسٍ" – اسماً لها ، فهذه خمسة أقوال ، أظهرها : الأول .

أما قول أبي البقاء : واللام للتبيين ، فتتعلق بمحذوف ، ففيه نظر من وجهين :

أحدهما : أنَّ "كان" الناقصة لا تعمل في غير اسمها وخبرها ، ولئن سُلِّم ذلك ، فاللام التي للتبيين إنما تتعلق بمحذوف ، وقد نَصُّوا على ذلك في نحو : سَقْياً لك .

وقيل : إن فيه حذف المصدر وإبقاء معموله ، وهو لا يجوز .

أما مَنْ جعل "لِنَفْسٍ" متعلقة بمحذوف – تقديره : الموت لنفس ، ففاسدٌ ، لأنه ادَّعَى حذف شيء لا يجوز ؛ لأنه إن جعل "كَانَ" تامة ، أو ناقصة ، امتنع حذفُ مرفوعها ، لأن

الفاعل لا يُحْذَف. وكذلك قول مَنْ جعل "كان" زائدة.

أما على قول الزجاج فإنه تفسير معنًى، لا تفسير إعراب.

قوله: ﴿ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ﴾ في نصبه ثلاثة أوجه:

(191/131)

أظهرها: أنه مصدر مؤكِّد لمضمون الجملة التي قبله، فعامله مُضْمَر، تقديره: كتب الله ذلك كتاباً، نحو قوله تعالى: ﴿ صُنْعَ اللَّهِ ﴾ [النمل: 88] وقوله: ﴿ وَعَدَ اللَّهِ ﴾ [الروم: 6]، وقوله: ﴿ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء: 24].

الثاني: أنه منصوب على التمييز، ذكره ابن عطية، وهذا غير مستقيم؛ لأن التمييز منقول وغير منقول، وأقسامه محصورة، وليس هذا شيئاً منها، وأيضاً فأين الذات المُبْهَمة التي تحتاج إلى تفسير؟

والثالث: أنه منصوب على الإغراء، والتقدير: الزموا كتاباً مؤجَّلاً، وآمنوا بالقدر، وليس المعنى على ذلك.

وقرأ ورش: "مُوجَّلاً" بالواو بدل الهمزة، وهو قياس تخفيفها.

قوله: ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدنيا ﴾ مبتدأ، وهي شرطية. وفي خبر هذا المبتدأ الخلاف

المشهور. وأدغم أبو عمرو وحمزة والكسائي وابن عامر بخلاف عنه - دال "يُرِد" في الثاء.

والباقون بالإظهار.

وقرأ أبو عمرو بالإسكان في هاء "نؤتِه" في الموضعين وَصْلاً ووقفاً.

وهشام - بخلاف عنه - بالاختلاس وصلاً.

والباقون بالإشباع وَصْلاً.

فأما السكون فقالوا: إن الهاء لما حلت محلّ ذلك المحذوف أعطيت ما كان يستحقه من السكون، وأما الاختلاس، فلاستصحاب ما كانت عليه الهاء قبل حَذْف لام الكلمة؛ فإن الأصل: نؤتيه، فحُذِفَت الياء للجزم، ولم يُعْتَدّ بهذا العارض، فبقيت الهاء على ما كانت عليه.

وأما الإشباع فنظراً إلى اللفظ؛ لأن الهاء بعد متحرِّكٍ في اللفظ، وإن كانت في الأصل بعد ساكن - وهو الياء التي حُذِفَت للجزم - والأَوْلى أنْ يقال: إنَّ الاختلاس والإسكان بعد المتحرك لغة ثابتة عن بني عقيل وبني كلاب.

حكى الكسائي : لَهْ مالٌ ، وبِهْ داء - بسكون الهاء ، واختلاس حركتها - وبهذا يَتَبَيَّن أن مَنْ قال : إسكان الهاء واختلاسها - في هذا النحو - لا يجوز إلا ضرورةً ، ليس بشيءٍ ، أمَّا غير بني عقيل ، وبني كلاب ، فنعم لا يوجد ذلك عندهم ، إلا في ضرورة .

كقوله : [الوافر]

لَهُ زَجَلٌ كَأَنَّهُ صَوْتُ حَادٍ إذَا طَلَبَ الوَسِيقَةَ أَوْ زَمِيرُ

باختلاس هاء (كأنه) .

ومثله قول الآخر : [البسيط]

وَأَشْرَبُ الْمَاءَ مَا بِي نَحْوَهُ عَطَشٌ . . . إلاَّ لأنَّ عُيُونَهْ سَيل وَادِيهَا

بسكونها . وجعل ابن عصفور الضرورة في " البيت الثاني " أحسن منها في " البيت الأول " ، قال : لأنه إذهاب للحركة وصِلَتِها ، فهي جَرْي على الضرورة [إجراءً] كاملاً ، وإنما ذكرنا هذه التعليلات لكثرة ورود هذه المسالة ، نحو : ﴿ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر : 7] ، ونحو : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام : 90] .

وقُرِئ : يُؤتِه - بياء الغيبة - والضمير لله تعالى ، وكذلك : " وسنجزي الشاكرين " بالنون والياء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 574 . 579 ﴾ . بتصرف .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (145) ﴾

الأنفاس محصورة ؛ لا زيادة فيها ، ولا نقصان منها .

﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ : للصالحين العاقبة وللآخرين الغفلة .

﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ : وثواب الآخرة أوله الغفران ثم الجنان ثم الرضوان .

﴿ وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ : وجزاء الشكرِ الشكرُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 282 . 283 ﴾

(193/131)

فصل نفيس

قال صاحب حقائق التأويل :

قوله تعالى : (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها)

الآية مخصوصة ومعناها التبعيض – رجوع هاء التأنيث إلى الثواب – لا تنافي بين ثوابي الدنيا والآخرة – نكتة قرآنية – تعلق بعضهم بآية (كلوا واشربوا) ومن سأل عن معنى قوله تعالى : (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين

- 145) ، فقال : كيف أطلق تعالى هذا القول على العموم ، ونحن نرى كثيرا ممن يريد ثواب الدنيا ويتمناه ويقرع الأبواب توصلا إليه وحرصا عليه ، فلا ينال منه نصيبا ولا يبلغ منه مأمولا !

فالجواب : أن في ذلك أقوالا :

1 - أحدها ، أن يكون المعنى أن من أراد ثواب الدنيا منفردا عن ثواب الآخرة آتيناه ما أراده أو بعضه ، وحرمناه ثواب الآخرة الذي هو الدائم الباقي ، والخالص الصافي ، والمراد بثواب الدنيا ههنا منافع الدنيا ولذاتها ، وإنما سميت ثوابا على طريق المجاز وتشبيها بالثواب ، لما كانت في حكم المستحق عند أمور جعلت أسبابا لذلك .

(194/131)

وتلخيص ما ذكرناه : أن من أقبل على الدنيا بوجهه ونأى عن الآخرة بعطفه وكدح للدنيا جاهدا ولم يعمل للآخرة صالحا ، جاز أن تقول فيه : إنه يريد عاجل الدنيا ومنافعها دون نعيم الآخرة ومنازلها ، لا أنه أراد الدنيا على قصد ، ولم يرد ثواب الآخرة على عمد ، بل لو جمع له الأمران لكان أحب إليه وأجل موقعا عنده ، ولكنه لما تشاغل بعمل الدنيا دون عمل الآخرة ساغ أن نصفه - على طريق الاتساع - بأنه يريد عاجل الدنيا دون آجل الآخرة ،

وهذا كقوله تعالى: (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا. ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا) [1]، وكقوله تعالى: (من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة...) [2]، فظاهر ذلك يدل على أن من أراد ثواب الدنيا أي منافعها فقط، بعمل يعمله وجهاد يمارسه، لا نصيب له في الآخرة، وإنما يفوز بثواب الآخرة من جعل عمله خالصا طلبا للزلفة لديه والقربة إليه.

(195/131)

---

2 - وقال أبو علي: معنى ذلك: من أراد بجهاده الغنيمة نؤته منها، ومن أراد ثواب الآخرة وهو النعيم الدائم نؤته منه، وجعل سبحانه ذلك ترغيبا في طلب ثواب الآخرة وتزهيدا في طلب نعيم الدنيا. قال: وذلك لطف في المحافظة على الجهاد، لأن من قصد بجهاده طلب نعيم الآخرة لم يزل مقدما على الأعداء، صابرا على اللواء، ومن كان مراده الغنيمة العاجلة ضعف صبره، ولم يؤمن فشله، وكان ثباته قليلا، فشله مدخولا. 3 - وقال أبو القاسم البلخي: يجوز أن يكون ذلك خالصا في المنافقين يوم أحد، فخبر سبحانه أنه ينيلهم بعض ما يريدونه من عرض الدنيا، امتحانا لهم لا رضا عنهم، ومما يقوي أن ذلك مخصوص

أنا نرى كثيرا من الكفار يريدون عرض الدنيا ، ولا ينالونه ، ويريدون منها الكثير فينالون القليل ، فدل ذلك على كونه مخصوصا .

ويحتمل أيضا – لما قال سبحانه : (نؤته منها) ، ولم يقل نؤته إياها – أن يكون المراد بذلك إيتاء القليل والبعض ، لا إيتاء الكثير والكل ، لأن (من) للتبعيض ههنا ، وقل أحد إلا وقد أوتي من منافع الدنيا شيئا : كثر أو قل ، ودق أو جل . وليس لقائل أن يقول : (فقد قال سبحانه : (ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها) ، وهذا أيضا يلزمكم أن يكون المؤتى قليلا) ، لأن (من) إذا كانت ههنا للتبعيض ، فهي دالة على الإعطاء من الجنس المذكور ، ويحتمل ذلك الكثرة والقلة ، فيتميز ذلك باستحقاق المعطى ، فإن كان عمله جزيلا كان ثوابه جزيلا ، وإن كان قليلا كان قليلا ، وعلى أنه لابد من ذكر (من) ههنا للدلالة على التبعيض ، لأنه سبحانه على الحقيقة يعطي كل عامل على قدر عمله من ثواب الآخرة ، ولو لم يقل (نؤته منها) وقال : نؤته إياها ، لأوهم أنه يؤتي من يريد

(196/131)

ثواب الآخرة (جميع ثوابها) [1] ، وهذا غير صحيح . والهاء في قوله تعالى : (نؤته منها) في الموضعين راجعة إلى الدنيا والآخرة ، وهي في المعنى راجعة إلى الثواب ، لأنه معروف في

كلام العرب أن يقول القائل : اللهم ارزقني الآخرة ، وهو يريد ثواب الآخرة ، فلما كان ذلك كذلك كان رجوع الهاء على الآخرة كرجوعها على ثواب الآخرة ، ألا ترى أنهم قد يؤنثون فعل الاسم المذكر متقدما عليه لأنه مضاف إلى المؤنث ، وقد جاء ذلك في أشعارهم كثيرا ، فلئن يؤنثوا الضمير الراجع إلى المؤنث الذي أضيف إليه المذكر متأخرا عنه ، أحرى ، فمما أنثوا فيه فعل المذكر المضاف إلى المؤنث متأخرا عنه قول الشاعر : مر الليالي أسرعت في نقضي [2] وإنما ساغ له ذلك لأن مر الليالي في الحقيقة من جملة الليالي ، وهي مؤنثة ، فأنث الفعل حملا على المعنى ، ومما أنثوا فيه فعل المذكر المضاف إلى المؤنث متأخرا عنه (وهو أكثر من الباب الأول) قول ذي الرمة [3] : وتشرق بالقول الذي قد أذعته * كما شرقت صدر القناة من الدم وقول جرير : لما أتى خبر الزبير تواضعت * سور المدينة والجبال الخشع

4 - وقال بعضهم : معنى ذلك أن من طلب بعمله الدنيا أعطي منها ، وكل نعمة على العبد فهي تفضل من الله سبحانه ، وعطاء منه ، ومن كان قصده بعمله الآخر آتاه الله منها مستحقه ، وليس في هذا دليل على أنه يحرمه خير الدنيا مع أعطائه من نعيم الآخرة ، لأنه سبحانه لم يقل : ومن يرد ثواب الآخرة لم نؤته إلا منها .

5 - وقال بعضهم : معنى ذلك ومن يرد ثواب الدنيا متعرضا له بعمل النوافل مع مواقعة الكبائر يجزبها في الدنيا من غير حظ في الآخرة ، لإحباط عمله بفسقه .

6 – وقال بعضهم : معنى ذلك أن من كان يقصد طلب الدنيا فقد أعطاه الله من الدنيا ما إن طلب به ثواب الآخرة آتاه ذلك ، وإن لم يطلب ثواب الآخرة فقد أعطاه تعالى من الدنيا ما امتحنه به وابتلاه فيه ، وكل مكلف فقد أعطي من الدنيا حظا ، إن صرفه إلى معاده نال ما عند الله به ، وإن لم يفعل ذلك فقد نال ما طلب من الدنيا ، وكان وبالا عليه . وقال قاضي القضاة أبو الحسن : الأقرب في ذلك أن يكون معناه : أن من أراد بجهاده طريقة الدنيا نؤته من الدنيا ما هو صلاح له ، لا أن المراد بذلك أن نفس ما يطلبه المرء بعينه يفعله الله تعالى به ، لأن ذلك لا يكاد يتم : لا في الجهاد ولا في غيره ، إذ كان قدر ما يطلبه العبد من غنيمة أو غيرها لا يكاد يجده ، حتى يصير مطلوبه وفقا لمراده غير فاضل عنه ولا قاصر دونه ، وهذه طريقة أبناء الدنيا فيما يريدونه منها .

وقوله تعالى : (ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها) أي : من نعيم الآخرة والثواب المعد لأهلها ، وهذا أيضا لا يدل على أن كل مطلوبه يناله لأنه لو طلب أزيد من مستحقه لم يكن لينال ذلك إلا قدرا ما من التفضل .

فإن قال قائل : فهل يتنافى حصول ثواب الدنيا مع ثواب الآخرة ؟ قيل له : إن ذلك لا يتنافى

، لأن من يريد الآخرة بجهاده قد تحصل له الغنيمة في الدنيا ، فيكون الله سبحانه جامعا له بين الأمرين ، ويدل على ذلك قوله تعالى من بعد : (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين) ،

(198/131)

فأما قوله تعالى : (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب) [1] ، فلا يعترض به على صحة اجتماع ثواب الآخرة ومنافع الدنيا لبعض العباد ، لأن معنى هذه الآية أن من كان يريد حرث الدنيا غير عامل للآخرة نؤته من الدنيا شيئا ونحرمه ثواب الآخرة ، وما ذكرناه في ذلك أولا يدل على أن من أراد الآخرة بجهاده يؤتيه الله سبحانه ثواب منها ، ويرزقه أيضا من فوائد الدنيا ومنافعها ما يكون فضلا على مراده ونيفا على استحقاقه . وقوله تعالى : (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه)

(199/131)

نظير قوله سبحانه : (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له . . .) [1] وقوله تعالى : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها . . .) [2] ، وإنما قال سبحانه ذلك ، ترغيبا في العمل للآخرة ، إذا كان يضاعف الاستحقاق عليه ويتكفل في الزيادة فيه ، تعظيما لقدر ثواب الآخرة ، ألا تراه تعالى كيف وصفه بالحسن ولم يصف ثواب الدنيا بذلك ! لأن حاليهما مختلفان ، فقال سبحانه : (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة) ، وهذا من غوامض القرآن فاستيقظ له ! . ومما ينظر إلى هذا المعنى ويرمي إلى هذا المغزى قوله تعالى لأهل الجنة : (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية) [3] ، فأمرهم بالأكل والشرب مطلقا ، من غير استثناء للإسراف فيه أو الوقوف على حد لا يجوز التجاوز له ، وقال لأهل الدنيا : (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا . . . الآية) [4] ، فاستثنى سبحانه عليهم الإسراف في الأكل والشرب ، علما منه تعالى بأن ذلك مفسدة لهم ومقطعة عن عبادة ربهم ، إلى كثير من مضار الإسراف العائدة عليهم ، ولما كانت هذه الأمور منتفية عن أهل الجنة أطلقهم سبحانه في الأكل والشرب إطلاقا غير مقيد ، وأمرهم به أمرا غير متعقب ، وهذا أيضا من خبايا القرآن وخفايا هذا الكلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿حقائق التأويل فى متشابه التنزيل / للشريف الرضى حـ 1 صـ 258.265﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾

وساعة تسمع " ما كان " أي " ما ينبغي " . فنحن في حياتنا نقول : ما كان لك أن تضرب زيدا ، ونقصد أنه ما ينبغي أن تضرب زيدا . فقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ هذا القول قد يدفع إلى التساؤل : وهل الموت أمر اختياري ؟ لا ، ولكن تعبير الحق سبحانه له إيحاء ؛ لأنك عندما تقول : ما كان لفلان أن يفعل كذا ، فهذا معناه أن لفلان أن يختار أن يفعل ذلك أو لا يفعله ، وفي قدرة فلان أن يفعل أو لا يفعل . أما عن قدرة الله فلا يمكن أن يقول أحد ذلك .

إننا نفهمه على فرض أن النفس تدفع نفسها إلى موارد التهلكة ، فما لها أن تموت إلا أن بأذن الله . فإذا كانت النفس هي التي تدفع نفسها إلى موارد التهلكة ، ومع ذلك لا تملك أن تموت ، فكيف إذا لم تدفع نفسها إلى موارد التهلكة . إذن فالموت إن أرادته النفس فلن يأتي إلا أن يكون الله قد أذن بذلك . وإننا نجد في واقع الحياة صورا شتى من هذه الصور .

نجد من يضيق ذرعا بهذه الحياة ؛ لأن طاقته الإيمانية لا تتسع للبلاء والكد في الدنيا فينتحر ، إنه يريد أن يفر مما لا يقدر على دفع أسبابه . أما الذي يملك الطاقة الإيمانية الرحبة فأي

شقاء أو بلاء يقابله يقول : إن لي ربا ، وما أجراه عليّ ربي فهو المربي الحكيم الذي يعرف مصلحتي أكثر مما أعلم ، ولعل هذا البلاء كفارة لي عن ذنب .

(201/131)

وهذا عكس من يفر مما لا يقدر على دفع أسبابه ، فيحاول أن يقتل نفسه ، وكل منا قد رأى أو سمع عن بعض الذين يريدون ذلك لكن يتم إنقاذهم ويدركهم من ينفذ مشيئة الله في إنقاذهم ، كغسيل المعدة لمن ابتلع أقراصا سامة ، أو إطفاء حريق من أشعل في نفسه النار . فالمنتحر يريد لنفسه الموت ولكن الله إذا لم يأذن ، فلا يبلغه الله هذا ، فقد تجد مُنتحرا يريد أن يطلق على نفسه رصاصة من مسدس فلا تنطلق الرصاصة ، أو تجد منتحرا آخر يريد أن يشنق نفسه بحبل معلق في السقف فينقطع الحبل ، لماذا ؟ لا يقبض الحياة إلا من وَهَب الحياة .

قد يقول قائل : ولكن هناك المقتول الذي يقتله إنسان آخر . وهنا يرد المثل الشعبي : لو صبر القاتل على المقتول لمات بمفرده ، إن اللحظة التي تفارق الروح مادة الجسد موقوتة بأجل محدود ، فمرة تأتي اللحظة بدون سبب ، فيموت الإنسان حتف أنفه ، ويقول أصدقاؤه : لقد كان معنا منذ قليل . إنهم ينسون أنه مات لأنه يموت بكتاب مؤجل .

ولذلك نجد إنسانا يسعى إلى عافية الحياة ، فيذهب إلى إجراء جراحة ما ، وأثناء إجراء الجراحة يموت .

ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقي حين يقول في ذلك : في الموت ما أعيا وفي أسبابه كل امرئ رهن بطيِّ كتابه

أسد لعمرك من يموت بظفره عند اللقاء كمن يموت بنابه

إن نام عنك فكل طب نافع أو لم ينم فالطب من أذنابه

إن الكتاب إذا انطوى فقد انتهى الأمر ، حتى عندما يلتقي الإنسان بأسد ، فيستوي الموت بالناب ، كالموت بظفر الأسد . فإن نام الموت عن الإنسان فقد يشفيه من أمراضه قرص دواء أو جرعة ماء . أما إن استيقظ الموت فالطب والعلاج قد يكون ذنبًا أو أداة للموت ، والقاتل كل ما فعله أنه نقض بنْية المقتول ، وهذا هو ما يعاقب عليه .

(202/131)

إذن فقول الحق : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ﴾ يطلق قضية عامة . والكتاب المؤجل يطلق مرة على زمن العمر كله ، ومرة يطلق على النهاية النهائية منه ، والنهاية النهائية هي الموت الحقيقي . فالقاتل حين ينقض بنية القتيل إنما يوافق الأجل

المكتوب الذي أراده الله. لكن لماذا نعاقب القاتل إذن؟ نحن نعاقبه لأنه نقض بنية إنسان آخر.

والحق يقول: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُّؤَجَّلاً ﴾. ولنلحظ قوله: ﴿ بِإِذْنِ الله ﴾ فهي تدلنا على أن الله هو الذي يطلق الإذن. والإذن يكون للملائكة ليقوموا بهذه المسألة، ولذلك نجد القرآن الكريم حين يتعرض لهذه المسألة يسند مرة هذه العملية لله فيقول سبحانه:

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

[الزمر: 42]

ومرة أخرى يسند القرآن هذه العملية لِملَكٍ واحد:

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾

[السجدة: 11]

ومرة يسندها الحق سبحانه إلى رسل من المعاونين لملك الموت:

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ﴾

[الأنعام: 61]

والحق سبحانه وتعالى صادق في كل بلاغ عنه ؛ لأن كل أمر يحدد الأجل ليس بمراد الموكَّل بإنهاء الأجل ، إنما هو بإذن من الله تعالى الذي يحدد ذلك . وما دام كل أمر قد صدر منه فهو سبحانه الذي يتوفى الأنفس ، وبعد ذلك فالملك الذي يتوفى الأنفس - عزرائيل - له أعوان ؛ فهو عندما يتلقى الأمر من الله فهو ينقل الأوامر إلى أعوانه ليباشر كل واحد مهمته . إذن فصيرورة الأمر بالموت نهائيا إلى الله .

وصيرورة الأمر بالموت إلى الملائكة ببلاغ من الله ، هذا هو الإذن ، والإذن يقتضي مأذونا ، والمأذون هم ملائكة الموت الذين أذن لهم ملك الموت بذلك ، وملك الموت تلقي الإذن من الله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق من بعد ذلك : ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ فالذي يريد جزاء الدنيا وهو الذي يطلب جزاء حركته فيها ، يأخذها ، ولو كان كافرا :

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً ﴾

[الإسراء : 18]

ويقول سبحانه وتعالى في موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾

[الشورى : 20]

وهذا ينهي عملية أن تقول : إن الكفار حالتهم أفضل من حالتنا ، الكفار متقدمون ؛ ونحن متخلفون . وهل لم تأت فترة كان فيها المؤمنون متقدمين جدا ؟ لقد جاءت فترة تقدم فيها المؤمنون ، وكانوا متقدمين لألف سنة ، وهم الدولة الأولى في العالم . وكان الكفار يسمون زمانهم ودولهم بأنها تحيا في عصور الظلمات . لماذا أنكرتم هذه ! ؟ لأن التاريخ جاء لنا من ناحية هؤلاء وقد شوهوه ، ولذلك نقول لهم : نحن كنا متقدمين وأنتم والتاريخ يشهد بذلك .

(204/131)

ولذلك قلنا : يجب على المؤمن بالله أن يكون غيورا على أسباب الله ، فلا يدع أسباب الله للكافر بالله ، أيأخذ الكافر بأسباب الله وأنت يا مؤمن بالله تترك الأسباب ليأخذها هو ! ؟ لا ؛ لأن من يعبد الله أولى بسرِّه في الوجود ، فكوننا نتركهم يأخذون الأسرار العلمية ولا

ننافسهم في هذا المجال هذا تقصير منا .

﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾

ونلحظ أن الحق قد جاء بلفظ ﴿ الشَّاكِرِينَ ﴾ مرتين ، والقرآن يؤكد هذا المعنى . إنه سبحانه أعطاكم أسبابا فإن كانت الأسباب قد جاءت لكم بمسائل الدنيا فهي تستحق الشكر ، وإن كانت ستعطيكم تكليفا مع الأسباب فهذا التكليف سيعطيكم خير الآخرة ، وهو أمر يستحق الشكر أيضا .

وبعد هذا الكلام النظري ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُّؤَجَّلاً ﴾ . . يقول ما يؤكد وجوده في موكب الإيمان الذي سبقكم ؛ لأن فيه فرقا بين الكلام وبين أن يقع مدلول الكلام ، فواقع الكلام سبقكم فيقول : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1801.1805 ﴾

(205/131)

" فصل "

قال السيوطى :

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (145)

أخرج ابن المنذر عن كليب قال : خطبنا عمر فكان يقرأ على المنبر آل عمران ، ويقول : إنها أُحُدِيَّة ، ثم قال : تفرقنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، فصعدت الجبل فسمعت يهودياً يقول : قتل محمد فقلت لا أسمع أحداً يقول : قتل محمد إلا ضربت عنقه ، فنظرت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس يتراجعون إليه ، فنزلت هذه الآية ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ .

وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتزل هو وعصابة معه يومئذ على أكمة والناس يفرون ، ورجل قائم على الطريق يسألهم : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وجعل كلما مروا عليه يسألهم فيقولون : والله ما ندري ما فعل ! فقال : والذي نفسي بيده لئن كان قتل النبي صلى الله عليه وسلم لنعطينهم بأيدينا أنهم لعشائرنا وإخواننا وقالوا : لو أن محمداً كان حياً لم يهزم ، ولكنه قد قتل ، فترخصوا في الفرار حينئذ فأنزل الله ﴿ وما محمد إلا رسول . . . ﴾ الآية كلها .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع في الآية قال: ذلك يوم أحد حين أصابهم ما أصابهم من القتل والقرح، وتداعوا نبي الله. . . ؟ قالوا: قد قتل. وقال أناس منهم: لو كان نبياً ما قتل. وقال أناس من علية أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: قاتلوا على ما قتل عليه نبيكم حتى يفتح الله عليكم أو تلحقوا به، وذكر لنا أن رجلاً من المهاجرين مر على رجل من الأنصار وهو يتخبَّط في دمه فقال: يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم. فأنزل الله ﴿ وما محمد إلا رسول الله قد خلت من قبله الرسل أفإين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ يقول: ارتددتم كفاراً بعد إيمانكم.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه.

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال: نادى مناد يوم أحد حين هزم أصحاب محمد: أن محمداً قد قتل فارجعوا إلى دينكم الأول، فأنزل الله ﴿ وما محمد إلا رسول. . . ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: قال أهل المرض والإرتياب والنفاق حين فر الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم: قد قتل محمد فالحقوا بدينكم الأول. فنزلت هذه الآية ﴿ وما محمد إلا رسول. . . ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن السدي قال : فشا في الناس يوم أحد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل ، فقال بعض أصحاب الصخرة : ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبي ، فيأخذ لنا أماناً من أبي سفيان .

يا قوم إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلونكم . قال أنس بن النضر : يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل ، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد صلى الله عليه وسلم ، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء ، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء . فشد بسيفه فقاتل حتى قتل . فأنزل الله ﴿ وما محمد إلا رسول ﴾ الآية .

(207/131)

وأخرج ابن جرير عن القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أخي بني عدي بن النجار قال : انتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا : قتل محمد رسول الله قال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله . واستقبل القوم فقاتل حتى قتل .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عطية العوفي قال : لما كان يوم أحد وانهزموا قال

بعض الناس : إن كان محمد قد أصيب فأعطوهم بأيديكم إنما هم إخوانكم . وقال بعضهم : إن كان محمد قد أصيب ألا تمضون على ما مضى عليه نبيكم حتى تلحقوا به ؟ فأنزل الله ﴿ وما محمد إلا رسول ﴾ إلى قوله ﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا ﴾ .

وأخرج ابن سعد في الطبقات عن محمد بن شرحبيل العبدري قال : حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أحد فقطعت يده اليمنى ، فأخذ اللواء بيده اليسرى وهو يقول ﴿ وما محمد إلا رسول الله قد خَلَتْ من قبله الرسل أفإين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ ثم قطعت يده اليسرى فجثا على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول ﴿ وما محمد إلا رسول . . . ﴾ الآية . وما نزلت هذه الآية ﴿ وما محمد إلا رسول ﴾ يومئذ حتى نزلت بعد ذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ ومن ينقلب على عقبيه ﴾ قال : يرتد .

(208/131)

وأخرج البخاري والنسائي من طريق الزهري عن أبي سلمة عن عائشة أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكنه بالسخ حتى نزل فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على

عائشة ، فتيمم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مغشى بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبله وبكى ، ثم قال : بأبي أنت وأمي ، والله لا يجمع الله عليك موتتين ، وأما الموتة التي كتبت عليك فقد متها . قال الزهري : وحدثني أبو سلمة عن ابن عباس . أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس فقال : اجلس يا عمر . وقال أبو بكر : أما بعد من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت . قال الله ﴿ وما محمد إلا رسول ﴾ إلى قوله ﴿ الشاكرين ﴾ فقال : فوالله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ، فتلاها الناس منه كلهم .

فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها .

(209/131)

وأخرج ابن المنذر عن أبي هريرة قال : لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم قام عمر بن الخطاب فقال : إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي ، وأن رسول الله والله ما مات ، ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات . والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم مات. فخرج أبو بكر فقال: على رسلك يا عمر انصت. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس أنه من كان يعبد محمداً فان محمد قد مات، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت. ثم تلا هذه الآية ﴿ وما محمد إلا رسول ﴾ الآية. فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ، وأخذ الناس عن أبي بكر فإنما هي في أفواههم. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى وقعت إلى الأرض، ما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات.

وأخرج البيهقي في الدلائل عن عروة قال: لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم قام عمر بن الخطاب فتوعد من قال قد مات بالقتل والقطع، فجاء أبو بكر فقام إلى جانب المنبر وقال: إن الله نعى نبيكم إلى نفسه وهو حي بين أظهركم، ونعاكم إلى أنفسكم، فهو الموت حتى لا يبقى أحد إلا الله. قال الله ﴿ وما محمد إلا رسول ﴾ إلى قوله ﴿ الشاكرين ﴾ فقال عمر: هذه الآية في القرآن؟ والله ما علمت أن هذه الآية أنزلت قبل اليوم وقال: قال الله لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ [الزمر: 30].

وأخرج ابن المنذر والبيهقي من طريق ابن عباس أن عمر بن الخطاب قال : كنت أتأوّل هذه الآية ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ [البقرة : 143] فوالله إن كنت لا أظن أنه سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها ، وأنه هو الذي حملني على أن قلت ما قلت .

وأخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب في قوله ﴿ وسيجزي الله الشاكرين ﴾ قال : الثابتين على دينهم ، أبا بكر وأصحابه ، فكان علي يقول : كان أبو بكر أمين الشاكرين .

وأخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل عن الحسن بن محمد قال " قال عمر : دعني يا رسول الله أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو فلا يقوم خطيباً في قومه أبداً فقال : دعها فلعلها أن تسرك يوماً . فلما مات النبي صلى الله عليه وسلم نفر أهل مكة ، فقام سهيل عند الكعبة فقال : من كان يعبد محمداً فان محمداً مات والله حي لا يموت " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم عن ان عباس . أن علياً كان يقول في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله يقول ﴿ أفإين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ والله لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، والله لئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت .

وأخرج ابن المنذر عن الزهري قال : " لما نزلت هذه الآية ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ [الفتح : 4] قالوا : يا رسول الله قد علمنا أن الإيمان يزداد فهل ينقص ؟ قال : إي والذي

بعثني بالحق إنه لينقص قالوا : يا رسول الله فهل لذلك دلالة في كتاب الله ؟ قال : نعم . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ فالإنقلاب نقصان لا كفر " .

(211/131)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن إسحق ﴿ وما كان لنفس ﴾ الآية أي لمحمد صلى الله عليه وسلم أجل هو بالغه ، فإذا أذن الله في ذلك كان ﴿ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ﴾ أي من كان منكم يريد الدنيا ليست له رغبة في الآخرة نؤته ما قسم له فيها من رزق ولا حظ له في الآخرة ﴿ ومن يرد ثواب الآخرة ﴾ منكم ﴿ نؤته منها ﴾ ما وعده مع يجري عليه من رزقه في دنياه ، وذلك جزاء الشاكرين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر بن عبد العزيز في الآية قال : لا تموت نفس ولها في الدنيا عمر ساعة إلا بلغته .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ وسنجزي الشاكرين ﴾ قال : يعطي الله العبد بنيته الدنيا والآخرة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن إبراهيم قال : قال أبو بكر : لو منعوني ولو عقالاً أعطوا رسول الله

صلى الله عليه وسلم لجاهدتهم . ثم تلا ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ .

وأخرج البغوي في معجمه عن إبراهيم بن حنظلة عن أبيه أن سالماً مولى أبي حذيفة ، كان معه اللواء يوم اليمامة فقطعت يمينه ، فأخذ اللواء بيساره ، فقطعت يساره ، فاعتنق اللواء وهو يقول ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . . . ﴾ الآيتين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 334 . 339 ﴾

(212/131)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الربا أضعافا مضاعفة ﴾ إما إشارة إلى الأمر بالتوكل على الله تعالى في طلب الرزق والانقطاع إليه ، أو رمز إلى الأمر بالإحسان إلى عباد الله المحتاجين من غير طلب نفع منهم ، فقد ورد في بعض الآثار أن القرض أفضل من الصدقة ، أو إيماء إلى عدم طلب الأجر على الأعمال بأن يفعلها محضاً لإظهار العبودية ﴿ واتقوا الله ﴾ من أكل الربا ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : 130] أي تفوزون

بالحق ﴿ واتقوا النار التى أُعِدَّتْ للكافرين ﴾ [آل عمران : 131] أي اتقوني في النار لأن إحراقها وعذابها مني ، وهذا سرّ عين الجمع قالوا : ويرجع في الحقيقة إلى تجلي القهر وهو بظاهره تخويف للعوام والتخويف الأول للخواص ، وقليل ما هم ﴿ وَسَارِعُوا۟ إلى مَغْفِرَةٍ مّن رَّبّكُمْ ﴾ وهي ستر أفعالكم التي هي حجابكم الأعظم عن رؤية الحق ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السموات والأرض ﴾ وهي جنة توحيد الأفعال وهو توحيد عالم الملك ، ولذا ذكر سبحانه السموات والأرض وذكر العرض دون الطول لأن الأفعال باعتبار السلسلة العرضية وهي توقف كل فعل على فعل آخر تنحصر في عالم الملك الذي تصل إليه أفهام الناس ويقدرونه ، وأما باعتبار الطول فلا تنحصر فيه ولا يقدر قدرها إذ الفعل مظهر الوصف ، والوصف مظهر الذات ، والذات لا نهاية لها ولا حد ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الأنعام : 91] فالمحجوبون عن الذات والصفات لا يرون إلا هذه الجنة ، وأما البارزون لله الواحد القهار فعرض جنتهم عين طولها ولا حدّ لطولها فلا يقدر قدرها طولاً وعرضاً ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : 133] حجب أفعالهم وترك نسبة الأفعال إلى غير الحق جل جلاله ، ويحتمل أنه سبحانه دعا خلقه على اختلاف مراتبهم إلى فعل ما يؤدي إلى المغفرة على اختلاف مراتبها فإن الذنب مختلف وذنب المعصوم قلة معرفته بربه بالنظر إلى عظمة

جماله وجلاله في نفس الأمر .

وفي الخبر عن سيد العارفين صلى الله عليه وسلم « سبحانك ما عرفناك حق معرفتك » فما عرفه العارفون من حيث هو وإنما عرفوه من حيث هم وفرق بين المعرفتين ، ولهذا قيل : ما عرف الله تعالى إلا الله تعالى ودعاهم أيضاً إلى ما يجرّهم إلى الجنة ، والخطاب بذلك إن كان للعارفين فهو دعاء إلى عين الجمع ليتجلى لهم بالوسائط لبقائهم في المعرفة وفي الحقيقة معرفته قربته وجنته مشاهدته ، وفي حقيقة الحقيقة هي الذات الجامع التي لا يصل إليها الأغيار ، ومن هنا قيل : ليس في الجنة إلا الله تعالى وإن كان الخطاب بالنظر إلى آحاد المؤمنين فالمراد بها أنواع التجليات الجمالية أو ظاهرها الذي أفصح به لسان الشريعة ودعاؤهم إليه من باب التربية وجلب النفوس البشرية التي لم تفطم بعد من رضع ثدي اللذائذ إلى ما يرغبها في كسب الكمالات الإنسانية والترقي إلى ذروة المعارج الإلهية الذين ينفقون نفائس نفوسهم لمولاهم في السراء والضراء في حالتي الجمال والجلال ، ويحتمل أن يراد الذين لا تمنعهم الأحوال المتضادة عن الإنفاق فيما يرضي الله تعالى لصحة توكلهم عليه سبحانه برؤية جميع الأفعال منه ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ الذي يعرض للإنسان بحسب الطبيعة البشرية وكظمهم له قد يكون بالشدّ عليه بوكاء التسليم والرضا وذلك بالنظر لمن هو في مقام جنة الصفات ، وأما من دونهم فكظمهم دون هذا الكظم ، وسبب الكظم أنهم

يرون الجناية عليهم فعل الله تعالى وليس للخلق مدخل فيها ﴿ والعافين عَنِ الناس ﴾ إما لأنهم في مقام توحيد الأفعال ، أو لأنهم في مقام توحيد الصفات

(214/131)

﴿ والله يُحِبُّ المحسنين ﴾ [آل عمران : 134] حسب مراتبهم في الإحسان ﴿ والذين إِذَا فَعَلُواْ فاحشة ﴾ أي كبيرة من الكبائر وهي رؤية أفعالهم المحرمة عليهم تحريم رؤية الأجنبيات بشهوة ﴿ أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ بنقصهم حقوقها والتثبط عن تكميلها ﴿ ذَكَرُواْ الله ﴾ أي تذكروا عظمته وعلموا أنه لا فاعل في الحقيقة سواه ﴿ فاستغفروا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي طلبوا ستر أفعالهم عنهم بالتبري عن الحول والقوة إلا بالله ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذنوب ﴾ وهي رؤية الأفعال أو النظر إلى سائر الأغيار ﴿ إِلاَّ الله ﴾ وهو الملك العظيم الذي لا يتعاظمه شيء ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ على مَا فَعَلُواْ ﴾ في غفلتهم ونقصوا حق نفوسهم ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : 135] حقيقة الأمر وأن لا فعل لغيره ﴿ أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مّن رَّبّهِمْ ﴾ وهو ستره لوجودهم بوجوده وترقيهم من مقام توحيد الأفعال إلى ما فوقه ﴿ وجنات ﴾ أي أشياء خفية وهي جنات الغيب وبساتين المشاهدة والمداناة التي هي عيون صفات الذات ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ أي تجري منها أنهار

الأوصاف الأزلية ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ بلا مكث ولا قطع ولا خطر الزمان ولا حجب المكان ولا تغير ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ [آل عمران : 136] ومنهم الواقفون بشرط الوفاء في العشق على الحضرة القديمة بلا نقض للعهود ولا سهو في الشهود ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ بطشات ووقائع في الذين كذبوا الأنبياء في دعائهم إلى التوحيد ﴿ فَسِيرُوا ﴾ بأفكاركم ﴿ فِى الأرض فانظروا ﴾ وتأملوا في آثارها لتعلموا ﴿ كَيْفَ كَانَ عاقبة المكذبين ﴾ [آل عمران : 137] أي آخر أمرهم ونهايته التي استدعاها التكذيب ويحتمل أن يكون هذا أمراً للنفوس بأن تنظر إلى آثار القوى النفسانية التي في أرض الطبيعة لتعلم ماذا عراها وكيف انتهى حالها فلعلها ترقى بسبب ذلك عن حضيض اللحوق بها ﴿ هذا ﴾ أي كلام الله تعالى

(215/131)

﴿ بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾ يبين لهم حقائق أمور الكونين ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ ﴾ يتوصل به إلى الحضرة الإلهية

﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : 138] وهم أهل الله تعالى وخاصته .

واختلف الحال لاختلاف استعداد المستمعين للكلام إذ منهم قوم يسمعونه أسماع العقول ،

ومنهم قوم يسمعونه بأسماع الأسرار ، وحظ الأولين منه الامتثال والاعتبار ، وحظ الآخرين مع ذلك الكشف وملاحظة الأنوار وقد تجلى الحق فيه لخواص عباده ومقربي أهل اصطفائه فشاهدوا أنواراً تجلى وصفة قديمة وراء عالم الحروف تتلى ﴿ وَلَا تَهِنُوا ﴾ أي لا تضعفوا في الجهاد ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ على ما فاتكم من الفتح ونالكم من قتل الأخوان ﴿ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾ في الرتبة ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : 139] أي موحدين حيث أن الموحد يرى الكل من مولاه فأقل درجاته الصبر ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القوم قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾ ولم يبالوا مع أنهم دونكم ﴿ وَتِلْكَ الايام ﴾ أي الوقائع ﴿ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ الناس ﴾ فيوم لطائفة وآخر لأخرى ﴿ وَلِيَعْلَمَ الله الذين ءامَنُوا ﴾ أي ليظهر علمه التفصيلي التابع لوقوع المعلوم ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء ﴾ وهم الذين يشهدون الحق فيذهلون عن أنفسهم ﴿ والله لاَ يُحِبُّ الظالمين ﴾ [آل عمران : 140] أي الذين ظلموا أنفسهم وأضاعوا حقها ولم يكملوا نشأتها ﴿ وَلِيُمَحِّصَ الله الذين ءامَنُوا ﴾ أي ليخلصهم من الذنوب والغواشي التي تبعدهم من الله تعالى بالعقوبة والبلية ﴿ وَيَمْحَقَ ﴾ أي يهلك ﴿ الكافرين ﴾ [آل عمران : 141] بنار أنانيتهم ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجنة ﴾ أي تلجوا عالم القدس ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جاهدوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصابرين ﴾ [آل عمران : 142] أي ولم يظهر منكم مجاهدات تورث المشاهدات وصبر على تزكية النفوس وتصفية القلوب على وفق الشريعة وقانون الطريقة ليتجلى للأرواح أنوار الحقيقة ﴿ وَلَقَدْ

كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الموت ﴾ أي موت النفوس عن صفاتها ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ ﴾ بالمجاهدات والرياضات ﴾ ﴿ ﴾ ﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ ﴾ برؤية

(216/131)

أسبابه وهي الحرب مع أعداء الله تعالى ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [آل عمران : 143] أي تعلمون أن ذلك الجهاد أحد أسباب موت النفس عن صفاتها ، ويحتمل أن يقال : إن الموقن إذا لم يكن يقينه ملكة تمنى أموراً وادعى أحوالاً حتى إذا امتحن ظهر منه ما يخالف دعواه وينافي تمنيه ، ومن هنا قيل :

وإذا ما خلا الجبان بأرض . . .

طلب الطعن وحده والنزالا

ومتى رسخ ذلك اليقين وتمكن وصار ملكة ومقاماً ولم يبق حالا لم يختلف الأمر عليه عند الامتحان ، والآية تشير إلى توبيخ المنهزمين بأن يقينهم كان حالا ولم يكن مقاماً ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرسل ﴾ أي أنه بشر كسائر إخوانه من المرسلين فكما خلوا من قبله سيخلو هو من بعدهم ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم ﴾ ورجعتم القهقرى ، والإشارة في ذلك إلى أنه تعالى عاتب من تزلزل لذهاب الواسطة

العظمى عن البين وهو مناف لمشاهدة الحق ومعاينته ، ولهذا قال الصديق الأكبر رضي الله تعالى عنه : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله تعالى فإن الله تعالى حي لا يموت ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ على عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا ﴾ لفنائه الذاتي ﴿ وَسَيَجْزِي اللهُ ﴾ بالإيمان الحقيقي

(217/131)

﴿ الشاكرين ﴾ [آل عمران : 144] بالإيمان التقليدي بأداء حقوقه من الائتمار بأوامر الشرع والانتهاء عن نواهيه ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ ﴾ هذا الموت المعلوم ، أو الموت عن أوصافها الدنية وأخلاقها الردية ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ ومشيئته ، أو جذبه باشراق نوره ﴿ وَمَن يُرِدِ ﴾ بمقتضى استعداده ﴿ ثَوَابَ الدنيا ﴾ جزاءاً لعمله ﴿ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ حسبما تقتضيه الحكمة ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخرة ﴾ جزاءاً لعمله ﴿ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشاكرين ﴾ [آل عمران : 145] ولعلهم الذين لم يريدوا الثوابين ولم يكن لهم غرض سوى العبودية ، وأبهم جزاءهم للاشارة إلى أنه أمر وراء العبارة ولعله تجلى الحق لهم وهذا غاية متمني المحبين ونهاية مطلب السالكين ، نسأل الله تعالى رضاه وتوفيقه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 79 . 81 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه الجمل على هذا الوجه الذي بين فيه العلل ، وأوضح بجال الزلل ، وكان التقدير بعد انقضائها : فكأين من قوم أمرناهم بالجهاد ، فكانوا على هذين القسمين ، فأثبنا الطائع وعذبنا العاصي ، ولم يضرنا ذلك شيئاً ، ولا جرى شيء منه على غير مرادنا ، عطف عليه يؤسيهم بطريق الصالحين من قبلهم ويسيلهم بأحوالهم قوله :

﴿ وكأين ﴾ وهي بمعنى كم ، وفيها لغات كثيرة ، قرىء منها في العشر بثنتين : الجمهور بفتح الهمزة بعد الكاف وتشديد الياء المكسورة ، وابن كثير وأبو جعفر بألف ممدودة بعد الكاف وهمزة مكسورة ، ولعلها أبلغ - لأنه عوض عن الحرف المحذوف - من المشهورة بالمد ، والمد أوقع في النفس وأوقر في القلب ؛ وفيها كلام كثير - في لغاتها ومعناها وقراءاتها المتواترة والشاذة وصلاً ووقفاً ، ورسمها في مصحف الإمام عثمان بن عفان

رضي الله عنه الذي وقع إجماع الصحابة عليه ليكون المرجع عند الاختلاف إليه ، وهل هي بسيطة أو مركبة ومشتقة أو جامدة وفي كيفية التصرف في لغاتها - استوعبته في كتابي الجامع المبين لما قيل في ﴿ كأين ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ من نبي ﴾ لتكون التسلية أعظم بذكر ما هو طبق ما وقع في هذه الغزوة من قتل أصحابه ، واحتمال العبارة لقتله نفسه بقوله : ﴿ قتل ﴾ أي ذلك النبي حال كونه ﴿ معه ﴾ لكن الأرجح إسناد ﴿ قتل ﴾ إلى ﴿ ربيون ﴾ لموافقته قراءة الجماعة - سوى الحرميين وأبي عمرو - : قاتل معه ﴿ ربيون ﴾ أي علماؤهم ورثة الأنبياء ، وعلى منهاجهم ﴿ كثير فما ﴾ أي فما تسبب عن قتل نبيهم وهنهم ، أو يكون المعنى ويؤيده الوصف بالكثرة - : قتل الربيون ، فما تسبب عن قتلهم أن الباقين بعدهم ﴿ وهنوا ﴾ أي ضعفوا عن عملهم ﴿ لما أصابهم في سبيل الله ﴾ أي الملك الأعظم من القتل لنبيهم الذي هو عمادهم ، أو لإخوانهم الذين هم أعضادهم لكونه من الله ﴿ وما

ضعفوا ﴾ أي مطلقاً في العمل ولا في غيره ﴿ وما استكانوا ﴾ أي وما خضعوا لأعدائهم فطلبوا أن يكونوا تحت أيديهم - تعريضاً بمن قال : اذهبوا إلى أبي عامر الراهب ليأخذ لنا

أماناً من أبي سفيان ، بل صبروا ، فأحبهم الله لصبرهم ﴿ والله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ يحب الصابرين ﴾ أي فليفعلن بهم من النصر وإعلاء القدر وجميع أنواع الإكرام فعل من يحبه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 163 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ ابن كثير "وكائن" على وزن كاعن ممدوداً مهموزاً مخففا ، وقرأ الباقون "كأين" مشدوداً بوزن كعين وهي لغة قريش ، ومن اللغة الأولى قول جرير :

وكائن بالأباطح من صديق . . يراني لو أصيب هو المصاب

وأنشد المفضل :

وكائن ترى في الحي من ذي قرابة . . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 22 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

والتكثير المستفاد من ﴿ كأيّن ﴾ واقع على تمييزها وهو لفظ (نبيء) فيحتمل أن يكون تكثيراً بمعنى مطلق العدد ، فلا يتجاوز جمع القلّة ، ويحتمل أن يكون تكثيراً في معنى جمع الكثرة ، فمنهم من علمناه ومنهم من لم نعلمه ، كما قال تعالى : ﴿ ومنهم من لم نقصص

عليك ﴾ ، ويحضرني أسماء ستة مِمَّن قتل من الأنبياء : أرمياء قتلته بنو إسرائيل ، وحزقيال قتلوه أيضاً لأَنَّه وبّخهم على سوء أعمالهم ، وأشعياء قتله منسا بن حزقيال ملك إسرائيل لأَنَّه وبّخه ووعظه على سوء فعله فنشره بمنشار ، وزكرياء ، ويحيى ، قتلتهما بنو إسرائيل لإيمانهما بالمسيح ، وقتل أهل الرسّ من العرب نبيئهم حنظلة بن صفوان في مدّة عدنان ، والحواريّون اعتقدوا أنّ المسيح قُتل ولم يهنوا في إقامة دينه بعده ، وليس مراداً هنا وإنَّما العبرة بثبات أتباعه على دينه مع مفارقته لهم إذ العبرة في خلوّ الرسول وبقاء أتباعه ، سواء كان بقتل أو غيره .

(220/131)

وليس في هؤلاء رسول إلاّ حنظلة بن صفوان ، وليس فيهم أيضاً من قُتِل في جهادٍ ، قال سعيد بن جبير : ما سمعنا بنبيء قتل في القتال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 243 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿ قتل معه ﴾ والباقون ﴿ قاتل معه ﴾ فعلى القراءة الأولى

يكون المعنى أن كثيرا من الأنبياء قتلوا والذين بقوا بعدهم ما وهنوا في دينهم ، بل استمروا على جهاد عدوهم ونصرة دينهم ، فكان ينبغي أن يكون حالكم يا أمة محمد هكذا .

قال القفال رحمه الله : والوقف على هذا التأويل على قوله : (قتل) وقوله : (معه ربيون) حال بمعنى قتل حال ما كان معه ربيون ، أو يكون على معنى التقديم والتأخير ، أي وكأين من نبي معه ربيون كثير قتل فما وهن الربيون على كثرتهم ، وفيه وجه آخر ، وهو أن يكون المعنى وكأين من نبي قتل ممن كان معه وعلى دينه ربيون كثير فما ضعف الباقون ولا استكانو لقتل من قتل من إخوانهم ، بل مضوا على جهاد عدوهم ، فقد كان ينبغي أن يكون حالكم كذلك ، وحجة هذه القراءة أن المقصود من هذه الآية حكاية ما جرى لسائر الأنبياء لتقتدي هذه الأمة بهم ، وقد قال تعالى : ﴿ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ [آل عمران : 144] فيجب أن يكون المذكور قتل سائر الأنبياء لا قتالهم ، ومن قرأ ﴿ قاتل معه ﴾ فالمعنى : وكم من نبي قاتل معه العدد الكثير من أصحابه فأصابهم من عدوهم قرح فما وهنوا ، لأن الذي أصابهم إنما هو في سبيل الله وطاعته وإقامة دينه ونصرة رسوله ، فكذلك كان ينبغي أن تفعلوا مثل ذلك يا أمة محمد .

وحجة هذه القراءة أن المراد من هذه الآية ترغيب الذين كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في القتال ، فوجب أن يكون المذكور هو القتال .

وأيضاً روي عن سعيد بن جبير أنه قال : ما سمعنا بنبي قتل في القتال . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 22 ﴾

قال الطبرى :

وأولى القراءتين في ذلك عندنا بالصواب ، (1) قراءة من قرأ بضم "القاف" : (" قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ ") ، لأن الله عز وجل إنما عاتب بهذه الآية والآيات التي قبلها من قوله : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ) الذين انهزموا يوم أُحُد ، وتركوا القتال ، أو سمعوا الصائح يصيح : "إن محمدًا قد قتل" . فعذلهم الله عز وجل على فرارهم وتركهم القتال فقال : أفائن مات محمد أو قتل ، أيها المؤمنون ، ارتددتم عن دينكم وانقلبتم على أعقابكم ؟ ثم أخبرهم عما كان من فعل كثير من أتباع الأنبياء قبلهم ، وقال لهم : هلا فعلتم كما كان أهل الفضل والعلم من أتباع الأنبياء قبلكم يفعلونه إذا قتل نبيهم من المضي على منهاج نبيهم ، والقتال على دينه أعداءَ دين الله ، على نحو ما كانوا يقاتلون مع نبيهم ولم تهنوا ولم تضعفوا ، كما لم يضعف الذين كانوا قبلكم من أهل العلم والبصائر من أتباع الأنبياء إذا قتل نبيهم ، ولكنهم صبروا لأعدائهم حتى حكم الله بينهم وبينهم ؟ وبذلك من التأويل جاء تأويل المتأوِّلين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 7 صـ 264 .

265 ﴾

(1) القراءتان متواترتان ومن ثم فلا وجه للترجيح بينهما فقد قرأ بهما رسول الله. صلى الله عليه وسلم. والله أعلم .

(222/131)

فصل

قال الفخر :

قال الواحدي رحمه الله : أجمعوا على أن معنى "كأين" كم ، وتأويلها التكثير لعدد الأنبياء الذين هذه صفتهم ، ونظيره قوله : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أهلكناها ﴾ [الحج : 45] ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا ﴾ [الحج : 48] والكافي في "كأين" كاف التشبيه دخلت على "أي" التي هي للاستفهام كما دخلت على "ذا" من "كذا" و"أن" من كأن ، ولا معنى للتشبيه فيه كما لا معنى للتشبيه في كذا ، تقول : لي عليه كذا وكذا : معناه لي عليه عدد ما ، فلا معنى للتشبيه ، إلا أنها زيادة لازمة لا يجوز حذفها ، واعلم أنه لم يقع للتنوين صورة في الخط إلا في هذا الحرف خاصة ، وكذا استعمال هذه الكلمة فصارت كلمة واحدة موضوعة للتكثير. انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 22 ﴾

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى مدح هؤلاء الربيين بنوعين :

أولا بصفات النفي ، وثانيا بصفات الإثبات ، أما المدح بصفات النفي فهو قوله تعالى :

﴿ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا استكانوا ﴾ ولا بد من الفرق بين هذه الأمور الثلاثة ، قال صاحب "الكشاف" : ما وهنوا عند قتل النبي وما ضعفوا عن الجهاد بعده وما استكانوا للعدو ، وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانكسار ، عند الإرجاف بقتل رسولهم ، وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين ، واستكانتهم للكفار حتى أرادوا أن يعتضدوا بالمنافق عبد الله بن أُبَيّ ، وطلب الأمان من أبي سفيان ، ويحتمل أيضا أن يفسر الوهن باستيلاء الخوف عليهم ، ويفسر الضعف بأن يضعف إيمانهم ، وتقع الشكوك والشبهات في قلوبهم ، والاستكانة هي الانتقال من دينهم إلى دين عدوهم ، وفيه وجه ثالث وهو أن الوهن ضعف يلحق القلب .

(223/131)

والضعف المطلق هو اختلال القوة والقدرة بالجسم ، والاستكانة هي إظهار ذلك العجز وذلك الضعف ، وكل هذه الوجوه حسنة محتملة ، قال الواحدي : الاستكانة الخضوع ،

وهو أن يسكن لصاحبه ليفعل به ما يريد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 23 ﴾

فصل

قال القرطبى :

ومعنى الآية تشجيع المؤمنين ، والأمر بالاقتداء بمن تقدّم من خِيار أتباع الأنبياء ؛ أي كثير من الأنبياء قُتِل معه رِبِّيُّون كثير ، أو كثير من الأنبياء قُتِلوا فما ارتد أممهم ؛ قولان : الأوّل للحسن وسعيد بن جبير .

قال الحسن : ما قُتِل نبي في حرب قط .

وقال ابن جبير : ما سمعنا أن نبياً قتل في القتال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 229 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ فما وهنوا ﴾ أي الرّبّيّون إذ من المعلوم أنّ الأنبياء لا يهنون فالقدوة المقصودة هنا ، هي الاقتداء بأتباع الأنبياء ، أي لا ينبغي أن يكون أتباع من مضى من الأنبياء ، أجدر بالعزم من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم

وجمع بين الوهن والضّعف ، وهما متقاربان تقارباً قريباً من الترادف ؛ فالوهن قلَّة القدرة على العمل ، وعلى النّهوض في الأمر ، وفعله كوعَد وورِث وكرُم .

والضّعف بضم الضّاد وفتحها ضدّ القوّة في البدن ، وهما هنا مجازان ، فالأوّل أقرب إلى خور العزيمة ، ودبيب اليأس في النُّفوس والفكر ، والثّاني أقرب إلى الاستسلام والفشل في المقاومة .

وأمّا الاستكانة فهي الخضوع والمذلّة للعدوّ .

ومن اللطائف ترتيبها في الذّكر على حسب ترتيبها في الحصول : فإنّه إذا خارت العزيمة فَشِلت الأعضاء ، وجاء الاستسلام ، فتبعته المذلّة والخضوع للعدوّ .

(224/131)

واعلموا أنّه إذا كان هذا شأن أتباع الأنبياء ، وكانت النُّبوءة هدياً وتعليماً ، فلا بدع أن يكون هذا شأن أهل العلم ، وأتباع الحقّ ، أن لا يوهنهم ، ولا يضعفهم ، ولا يخضعهم ، مقاومة مقاوم ، ولا أذى حاسد ، أو جاهل ، وفي الحديث الصّحيح ، في "البخاري" : أن خبَّاباً قال للنّبيء صلى الله عليه وسلم " لقد لقينا من المشركين شدّة ألَا تدعُو الله " فقعد وهو محمّر وجهه فقال : " لقد كان مَن قبلكم لَيُمشَط بِمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضَع المنشار على مَفْرِق رأسه فيُشَقّ باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه " الحديث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 244

245.﴿

قوله تعالى : ﴿ والله يُحِبُّ الصابرين ﴾

قال الفخر :

المعنى أن من صبر على تحمل الشدائد في طريق الله ولم يظهر الجزع والعجز والهلع فإن الله يحبه ، ومحبة الله تعالى للعبد عبارة عن إرادة إكرامه واعزازه وتعظيمه ، والحكم له بالثواب والجنة ، وذلك نهاية المطلوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 23 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ والله يُحِبُّ الصابرين ﴾ على مقاساة الشدائد ومعاناة المكاره في سبيله فينصرهم ويعظم قدرهم .

والمراد بالصابرين إما الربيون ، والإظهار في موضع الإضمار للتصريح بالثناء عليهم بالصبر الذي هو ملاك الأمر مع الإشعار بعلة الحكم ، وإما ما يعمهم وغيرهم وهم داخلون في ذلك دخولاً أولياً .

والجلمة على التقديرين تذييل لما قبلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 84 ﴾

(225/131)

موعظة

قال الثعالبى :

اعلم (رحمك اللَّه) أنَّ أصلَ الوَهَنِ والضَّعْفِ عن الجِهَادِ ، ومكافحةِ العَدُوِّ هو حُبُّ الدنيا ، وكراهيةُ بَذْلِ النفوسِ لله ، وبَذْلِ مُهَجِهَا لِلقَتْلِ في سَبِيلِ اللَّهِ ؛ ألا ترى إلى حال الصَّحابة (رضي اللَّه عنهم) ، وقِلَّتِهِمْ في صَدْرِ الإسلامِ ، وكيف فتح اللَّه بهم البلاد ، ودان لدِينِهِمُ العباد ، لما بَذَلُوا للَّه أنفسَهُمْ في الجهاد ، وحالِنا اليَوْمَ ، كما ترى ؛ عددُ أهْلِ الإسلام كثيرٌ ، ونكايتهم في الكُفَّار نَزْرٌ يسيرٌ ، وقد روى أبو داود في "سننه" عن ثَوْبَانَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : "يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تتداعى عَلَيْكُمْ ؛ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِهَا ، فَقَالَ قَائِلٌ : ومِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : بَلْ أَنْتُمْ كَثِيرٌ ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ المَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ فِي قُلُوبِكُمُ الوَهَنَ ، فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا الوَهَنُ ؟ قَالَ : حُبُّ الدُّنْيَا ، وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ" اه ، فانظر (رحمك اللَّه) ، فهل هذا الزمانُ إلا زماننا بعَيْنه ، وتأمَّل حال ملوكنا ، إنما هِمَّتهم جَمْعُ المالِ مِنْ حرامٍ وحلالٍ ، وإعراضُهم عَنْ أمْرِ الجهاد ، فإنا للَّه وإنا إليه راجعُونَ على مُصَاب الإسلام .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان جـ 1 صـ 318 ﴾

(226/131)

من فوائد الشيخ الشنقيطى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ الآية .

هذه الآية الكريمة على قراءة من قرأ ﴿ قَاتَلَ ﴾ بالبناء للمفعول يحتمل نائب الفاعل فيها أن يكون لفظة ربيون وعليه فليس في قتل ضمير أصلاً ويحتمل أن يكون نائب الفاعل ضميراً عائداً إلى النّبي ، وعليه فمعه خبر مقدم وربيون مبتدأ مؤخر سوغ الابتداء به اعتماده على الظرف قبله ووصفه بما بعده والجملة حالية والرابط الضمير وسوغ إتيان الحال من النكرة التي هي نبي وصفه بالقتل ظلماً وهذا هو أجود الأعاريب المذكورة في الآية على هذا القول ، وبهذين الاحتمالين في نائب الفاعل المذكور يظهر أن في الآية إجمالاً . والآيات القرآنية مبينة أن النّبي المقاتل غير مغلوب بل هو غالب كما صرح تعالى بذلك في قوله : ﴿ كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي ﴾ [المجادلة : 21] . وقال قبل هذا : ﴿ أولئك فِي الأذلين ﴾ [المجادلة : 20] وقال بعده : ﴿ إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة : 21] .

وأغلب معاني الغلبة في القرآن الغلبة بالسيف والسنان كقوله : ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ مِّئَةٌ يغلبوا أَلْفاً مِّنَ الذين كَفَرُواْ ﴾ [الأنفال : 65] الآية . وقوله : ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُمْ مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يغلبوا أَلْفَيْنِ

﴾ [الأنفال: 66] وقوله: ﴿ الم غُلِبَتِ الرومُ في أَدْنَى الأرض وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ [الروم: 1-4] وقوله: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: 249] وقوله: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ ﴾ [آل عمران: 12] إلى غير ذلك من الآيات.

(227/131)

وبين تعالى أن المقتول ليس بغالب بل هو قسم مقابل للغالب بقوله: ﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ ﴾ [النساء: 74] فاتضح من هذه الآيات أن القتل ليس واقعاً على النّبي المقاتل. لأن الله كتب وقضى له في أزله أنه غالب وصرح بأن المقتول غير غالب.

وقد حقق العلماء أن غلبة الأنبياء على قسمين، غلبة بالحجة والبيان، وهي ثابتة لجميعهم، وغلبة بالسيف والسنان، وهي ثابتة لخصوص الذين أمروا منهم بالقتال في سبيل الله. لأن من لم يؤمر بالقتال ليس بغالب ولا مغلوب. لأنه لم يغالب في شيء وتصريحه تعالى، بأنه كتب أن رسله غالبون شامل لغلبتهم من غالبهم بالسيف، كما بينا أن ذلك هو معنى الغلبة في القرآن، وشامل أيضاً لغلبتهم بالحجة والبيان، فهو مبين أن نصر الرسل المذكور في قوله: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ [غافر: 51] الآية وفي قوله: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا

المرسلين إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون ﴾ [الصافات : 171-172] أنه نصر غلبة بالسيف والسنان للذين أمروا منهم بالجهاد . لأن الغلبة التي بين أنها كتبها لهم أخص من مطلق النصر . لأنها نصر خاص ، والغلبة لغة القهر والنصر لغة إعانة المظلوم ، فيجب بيان هذا الأعم بذلك الأخص .

وبهذا تعلم أن ما قاله الإمام الكبير ابن جرير – رحمه الله – ومن تبعه في تفسير قوله : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ ﴾ الآية .

من أنه لا مانع من قتل الرسول المأمور بالجهاد ، وأن نصره المنصوص في الآية ، حينئذ يحمل على أحد أمرين :

أحدهما : أن الله ينصره بعد الموت ، بأن يسلط على من قتله من ينتقم منه ، كما فعل بالذين قتلوا يحيى وزكريا وشعيا من تسليط بختنصر عليهم ، ونحو ذلك .

(228/131)

الثاني : حمل الرسل في قوله : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ [غافر : 51] على خصوص نبينا صلى الله عليه وسلم وحده ، أنه لا يجوز حمل القرآن عليه لأمرين :

أحدهما : أنه خروج بكتاب الله عن ظاهره المتبادر منه بغير دليل من كتاب ، ولا سنة ولا

إجماع، والحكم بأن المقتول من المتقاتلين هو المنصور بعيد جداً، غير معروف في لسان العرب، فحمل القرآن عليه بلا دليل غلط ظاهر، وكذلك حمل الرسل على نبينا وحده صلى الله عليه وسلم فهو بعيد جداً أيضاً، والآيات الدالة على عموم الوعد بالنصر لجميع الرسل كثيرة، لا نزاع فيها.

(229/131)

الثاني: أن الله لم يقتصر في كتابه على مطلق النصر الذي هو في اللغة إعانة المظلوم، بل صرح بأن ذلك النصر المذكور للرسل نصر غلبة بقوله: ﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي ﴾ [المجادلة: 21] الآية، وقد رأيت معنى الغلبة في القرآن ومر عليك أن الله جعل المقتول قسماً مقابلاً للغالب في قوله: ﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ ﴾ [النساء: 74] وصرح تعالى: بأن ما وعد به رسله لا يمكن تبديله بقوله جل وعلا: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا على مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حتى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِ المرسلين ﴾ [الأنعام: 34] ولا شك أن قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي ﴾ [المجادلة: 21] من كلماته التي صرح بأنها لا مبدل لها وقد نفى جل وعلا: عن المنصور أن يكون مغلوباً نفياً باتاً بقوله: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ

﴿ [آل عمران : 160] وذكر مقاتل أن سبب نزول قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ ﴾ الآية أن بعض الناس قال : أيظن محمد وأصحابه أن يغلبوا الروم ، وفارس ، كما غلبوا العرب زاعماً أن الروم وفارس لا يغلبهم النَّبي صلى الله عليه وسلم لكثرتهم وقوتهم فأنزل الله الآية ، وهو يدل على أن الغلبة المذكورة فيها غلبة بالسيف والسنان . لأن صورة السبب لا يمكن إخراجها ، ويدل له قوله قبله : ﴿ أولئك فِي الأذلين ﴾ [المجادلة : 20] وقوله بعده : ﴿ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة : 21] .

(230/131)

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب ، أننا نستشهد للبيان بالقراءة السبعية بقراءة شاذة ، فيشهد للبيان الذي بيّنّا به ، أن نائب الفاعل ﴿ رِبِّيُّونَ ﴾ [آل عمران : 146] وأن بعض القراء غير السبعة قرأ ﴿ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ ﴾ [آل عمران : 146] بالتشديد . لأن التكثير المدلول عليه بالتشديد يقتضي أن القتل واقع على الربيين .

ولهذه القراءة رجح الزمخشري ، والبيضاوي ، وابن جنى .

أن نائب الفاعل ﴿ رِبِّيُّونَ ﴾ [آل عمران : 146] ومال إلى ذلك الألوسي في تفسيره مبيناً أن دعوى كون التشديد لا ينافي وقوع القتل على النَّبي . لأن ﴿ وَكَأَيِّنْ ﴾ [آل عمران

: 146] إخبار بعدد كثير أي: كثير من أفراد النَّبي قتل خلاف الظاهر ، وهو كما قال ،

فإن قيل قد عرفنا أن نائب الفاعل المذكور محتمل لأمرين ، وقد ادعيتم أن القرآن دل على أنه ﴿ رِبِّيُّونَ ﴾ [آل عمران: 146] لا ضمير النَّبي لتصريحه بأن الرسل غالبون ، والمقتول غير غالب ، ونحن نقول دل القرآن في آيات أخر ، على أن نائب الفاعل ضمير النَّبي ، لتصريحه في آيات كثيرة بقتل بعض الرسل كقوله : ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: 87] وقوله: ﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بالبينات وبالذي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ ﴾ [آل عمران: 183] الآية ، فما وجه ترجيح ما استدللتم به على أن النائب ﴿ رِبِّيُّونَ ﴾ على ما استدللنا به على أن النائب ضمير النَّبي فالجواب من ثلاثة أوجه :

(231/131)

الأول: أن ما استدللنا به أخص مما استدللتم به ، والأخص مقدم على الأعم ، ولا يتعارض عام وخاص ، كما تقرر في الأصول ، وإيضاحه أن دليلنا في خصوص نبي أمر بالمغالبة في شيء ، فنحن نجزم بأنه غالب فيه تصديقاً لربنا في قوله : ﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي ﴾ [المجادلة: 21] سواء أكانت تلك المغالبة في الحجة والبيان ، أم بالسيف والسنان ، ودليلكم فيما هو أعم من هذا . لأن الآيات التي دلت على قتل بعض الرسل ، لم تدل على أنه

في خصوص جهاد ، بل ظاهرها أنه في غير جهاد ، كما يوضحه .

الوجه الثاني : وهو أن جميع الآيات الدالة على أن بعض الرسل قتلهم أعداء الله كلها في قتل بني إسرائيل أنبياءهم ، في غير جهاد ، ومقاتله إلا موضع النزاع وحده .

(232/131)

الوجه الثالث : أن ما رجحناه من أن نائب الفاعل ﴿ رِبِّيُّونَ ﴾ تتفق عليه آيات القرآن اتفاقاً واضحاً ، لا لبس فيه على مقتضى اللسان العربي في أفصح لغاته ، ولم تتصادم منه آيتان ، حيث حملنا الرسول المقتول على الذي لم يؤمر بالجهاد ، فقتله إذن لا غشكال فيه ، ولا يؤدي إلى معارضة آية واحدة من كتاب الله . لأن الله حكم للرسل بالغلبة ، والغلبة لا تكون إلا مع مغالبة ، وهذا لم يؤمر بالمغالبة في شيء ، ولو أمر بها في شيء لغلب فيه ، ولو قلنا بأن نائب الفاعل ضمير النَّبي لصار المعنى أن كثيراً من الأنبياء المقاتلين قتلوا في ميدان الحرب ، كما تدل عليه صيغة ﴿ وَكَأَيِّن ﴾ [آل عمران : 146] المميزة بقوله : ﴿ من نبي ﴾ [المجادلة : 21] وقتل الأعداء هذا العدد الكثير من الأنبياء المقاتلين في ميدان الحرب مناقض مناقضة صريحة لقوله : ﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي ﴾ [المجادلة : 21] وقد عرفت معنى الغلبة في القرآن ، وعرفت أنه تعالى ، بين أن المقتول غير الغالب ،

كما تقدم ، وهذا الكتاب العزيز ما أنزل ليضرب بعضه بعضاً ، ولكن أنزل ليصدق بعضه بعضاً ، فاتضح أن القرآن دل دلالة واضحة على أن نائب الفاعل ﴿ رِبِّيُّونَ ﴾ [آل عمران : 146] وأنه لم يقتل رسول في جهاد ، كما جزم به الحسن البصري وسعيد بن جبير ، والزجاج ، والفراء ، وغير واحد ، وقصدنا في هذا الكتاب البيان بالقرآن ، لا بأقوال العلماء ، ولذا لم ننقل أقوال من رجح ما ذكرنا .

(233/131)

وما رجح به بعض العلماء كون نائب الفاعل ضمير النّبي من أن سبب النزول يدل على ذلك . لأن سبب نزولها "أن الصائح صاح قتل محمد صلى الله عليه وسلم " وأن قوله : ﴿ أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ [آل عمران : 144] يدل على ذلك وأن قوله : ﴿ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ [آل عمران : 146] يدل على أن الربيين لم يقتلوا لأنهم لو قتلوا لما قال عنهم ﴿ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ ﴾ [آل عمران : 146] الآية . فهو كلام كله ساقط وترجيحات لا معول عليها فالترجيح بسبب النزول فيه أن سبب النزول لو كان يقتضي تعيين ذكر قتل النّبي لكانت قراءة الجمهور قاتل بصيغة الماضي من المفاعلة جارية على خلاف المتعين وهو ظاهر السقوط كما ترى والترجيح بقوله : ﴿ أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ

﴾ [آل عمران: 144] ظاهر السقوط. لأنهما معلقان بأداة الشرط والمعلق بها لا يدل على وقوع نسبة أصلاً لا إيجاباً ولا سلباً حتى يرجح بها غيرها.

(234/131)

وإذا نظرنا إلى الواقع في نفس الأمر وجدنا نبيهم صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت لم يقتل ولم يمت والترجيح بقوله: ﴿ فَمَا وَهَنُوا ﴾ [آل عمران: 146] سقوطه كالشمس في رابعة النهار وأعظم دليل قطعي على سقوطه قراءة حمزة والكسائي ﴿ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ المسجد الحرام حتى يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فاقتلوهم ﴾ [البقرة: 191] كل الأفعال من القتل لا من القتال وهذه القراءة السبعية المتواترة فيها. ﴿ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ ﴾ [البقرة: 191] بلا ألف بعد القاف فعل ماض من القتل ﴿ فاقتلوهم ﴾ [البقرة: 191] أفتقولون هذا لا يصح لأن المقتول لا يمكن أن يؤمر بقتل قاتله. بل المعنى قتلوا بعضكم وهو معنى مشهور في اللغة العربية يقولون قتلونا وقتلناهم يعنون وقوع القتل على البعض كما لا يخفى. انتهى. اهـ ﴿أضواء البيان حـ 1 صـ 210.214﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل:

قوله تعالى ﴿ وكأين ﴾ هذه اللفظة ، قيل : هي مركبة من كاف التشبيه ، ومن " أيّ " ، وقد حدث فيهما بعد التركيب معنى التكثير ، المفهوم من "كَمْ" الخبرية ، ومثلُها في التركيب وإفهام التكثير : "كذا " في قولهم : له عندي كذا درهماً ، والأصل : كاف التشبيه و" ذا " الذي هو اسم إشارة ، فلما رُكِّبَا حدَثَ فيهما معنى التكثير ، ف "كم " الخبرية وكأيِّن وكذا كلها بمعنًى واحد ، وقد عهدنا في التركيب إحداث معنى آخر ؛ ألا ترى أن " لولا " حدث لها معنًى جديدٌ ، وكان من حقها - على هذا - أو يُوقَفَ عليها بغير نون ؛ لأن التنوين يُحْذَف وقفاً ، إلا أن الصحابة كتبتها "كأَيِّنْ" - بثبوت النون - ، فمن ثم وقف عليها جمهور القراء بالنون ؛ اتِّبَاعاً لرسم المصحف .

ووقف أبو عمرو وسورة بن المبارك عن الكسائي "كأي " - من غير نون - على القياس .

(235/131)

واعتل الفارسيُّ لوقف النون بأشياء ، منها : أن الكلمة لما رُكِّبَتْ خرجت عن نظائرها ، فجعل التنوين كأنه حرف أصلي من بنية الكلمة .

وفيها لغات خمس .

أحدها : "كَيِّنْ " - وهي الأصل - وبها قرأ الجماعة ، إلاَّ ابن كثير .

وقال الشاعر : [الوافر]

كَأَيِّنْ فِي الْمَعَاشِرِ مِنْ أُنَاسٍ . . . أَخُوهُمْ فَوْقَهُمْ ، وَهُمُ كِرَامُ

الثانية : "كائِنْ" – بزنة كاعِن – وبها قرأ ابن كثير وجماعة ، وهي أكثر استعمالاً من "كأيِّنْ" وإن كانت تلك الأصل – .

قال الشاعر : [الوافر]

وَكَائِنْ بِالأَبَاطِحِ مِنْ صَدِيقٍ . . . يَرَانِي لَوْ أُصِبْتُ هُوَ الْمُصَابَا

وقال الآخر : [الطويل]

وَكَائِنْ رَدَدْنَا عَنْكُمُ مِنْ مُدَجَّجٍ . . . .

وقال آخر : [الطويل]

وَكَائِنْ تَرَى فِي الْحَيِّ مِنْ ذِي قَرَابَةٍ

. . . . أنشده المفضل ممدوداً ، مهموزاً ، مخففاً .

واختلفوا في توجيه هذه القراءة ، فنُقِل عن المبرد أنها اسم فاعل من كان ، يكون ، فهو كائن ، واستبعده مكِّيّ ، قال : لإتيان "مِنْ" بعده ، ولبنائه على السكون . وكذلك أبو البقاء ، قال : " وهو بعيد الصحة ؛ لأنه لو كان كذلك لكان معرباً ، ولم يكن فيه معنى التكثير " .

لا يقال : هذا تحامُل على المبرد ؛ فإن هذا لازم له – أيضاً – فإن البناء ، ومعنى التكثير عارضان – أيضاً – لأن التركيب عُهِد فيه مثل ذلك – كما تقدم في "كذا" ، و" لولا " ،

ونحوهما ، وأما لفظٌ مفردٌ يُنقل غلى معنى ، ويُبْنَى من غير سبب ، فلم يُوجد له نظير .

وقيل : هذه القراءة أصلها "كَأَيِّنْ" - كقراءة الجماعة - إلا أن الكلمة دخلها القلب ،

فصارت "كائن" مثل كاعن - واختلفوا في تصييرها بالقلب كذلك على أربعة أوجه :

(236/131)

أحدها : أنه قُدِّمت الياءُ المشددةُ على الهمزة ، فصار وزنها كَعَلَف ، إلا أنك قدمتَ العينَ

والسلام ، وهما الياء المشددة - ثم حذفت الياء الثانية لثقلها بالحركة والتضعيف ، كما

قالوا في : "أيُّها" ، ثم قلبت الياء الساكنة ألفاً ، كما قلبوها في نحو آية - والأصل : أَيَّة -

وكما قالوا : طائِيّ - والأصل : طَيِئ - فصار اللفظ "كَأَيِنْ" ووزنه كَعْف ، لأن الفاء

أخرت إلى موضع اللام ، واللام قد حُذِفَتْ .

الوجه الثاني : أنه حذفت الياء الساكنة - التي هي عين - وقُدِّمَت المتحركة - التي هي لام

- فتأخرت الهمزة - التي هي فاء - وقلبت الياء ألفاً ؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فصار "

كائن" ووزنه كلف .

الوجه الثالث : ويُعْزَى للخليل - أنه قُدِّمَت إحدى الياءين في موضع الهمزة ، فتحركت

بحركة الهمزة - وهي الفتحة - وصارت الهمزة ساكنة في موضع الياء ، فتحركت الياءُ ،

وانفتح ما قبلها ، فقُلِبَتْ ألفاً ، فالتقى الساكنان – الألف المنقلبة عن الياء ، والهمزة بعدها ساكنة – فكُسِرَت الهمزة على أصل التقاء الساكنين ، وبقيت إحدى الياءين متطرفة ، فأذهبها التنوين – بعد سلب حركتها – كياء قاض وغاز .

الوجه الرابع : أنه قُدِّمَت الياء المتحركةُ ، فانقلبت ألفاً ، وبقيت الأخرى ساكنة ، فحذفها التنوين – مثل قاضٍ – ووزنه على هذين الوجهين أيضاً كلف ؛ لما تقدم من حذف العين ، وتأخير الفاء ، وإنما الأعمال تختلف .

(237/131)

اللغة الثالثة : "كَأْيِنْ" – بياء خفيفة بعد الهمزة – على مثال كَعْين ، وبها قرأ ابن مُحَيْصِن ، والأشهبُ العقيلي ، ووجهها أن الأصل : "كَأَيِّنْ" – كقراءة الجماعة – فحُذِفَت الياءُ الثانية ، استثقالاً ، فالتقى ساكنان – الياء والتنوين – فكُسِر الياء ؛ لالتقاء الساكنين ، ثم سكنت الهمزة تخفيفاً لثقل الكلمة بالتركيب ، فصارت كالكلمة الواحدة كما سكنوا " فهو " و" فهي " .

اللغة الرابعة : "كَيْإن" بياء ساكنة ، بعدها همزة مكسورة ، وهذه مقلوب القراءة التي قبلها ، وقرأ بها بعضهم .

اللغة الخامسة : "كإنْ" – على مثال كَعٍ – ونقلها الداني قراءة عن ابن مُحَيْصِن أيضاً .

وقال الشاعر : [الطويل]

كَئِنْ مِنْ صَدِيقٍ خِلْتُهُ صَادِقَ الإخَا . . . ءِ أبَانَ اخْتِبَارِي أنَّهُ لِي مُدَاهِنُ

وفيها وجهان :

أحدهما : أنه حذف الياءين دُفعَةً واحدةً لامتزاج الكلمتين بالتركيب .

والثاني : أنه حذف إحدى الياءين – على ما تقدم تقريره – ، ثم حذف الأخرى لالتقائها ساكنةً مع التنوين ووزنه – على هذا – كَفٍ ؛ لحذف العين واللام منه .

واختلفوا في "أي" هل هي مصدر في الأصل ، أم لا ؟

فذهب جماعة إلى أنها ليست مصدراً ، وهو قول أبي البقاء ؛ فإنه قال "كَأيِّنْ" الأصل فيه : "أيٌّ" ، التي هي بعض من كل ، أدخلت عليها كافُ التشبيه .

وفي عبارته عن "أيّ" بأنها بعض من كل ، نظر لأنها ليست بمعنى : بعض من كل ، نعم إذا أضيفت إلى معرفة فحُكمها حُكم "بعض" في مطابقة الجُزْء ، وعود الضمير ، نحو : أيُّ الرجلين قائم ولا تقول : قاما ، فليست هي التي "بعض" أصلاً .

وذهب ابنُ جني إلى أنها – في الأصل – مصدر أوَى يأوِي – إذا انضم ، واجتمع – والأصل : أوْيٌ ، نحو طوَى يَطْوي طيًّا – فاجتمعت الياء والواو ، وسبقت إحداهما بالسكون ، فقلبت الواو ياء ، وأدغمت في الياء ، وكأن ابن جنّي ينظر إلى أن معنى المادة من الاجتماع الذي يدل عليه " أي " فإنها للعموم ، والعموم يستلزم الاجتماع .

وهل هذه الكاف الداخلة على " أي " تتعلق بغيرها من حروف الجر ، أم لا ؟

والصحيح أنها لا تتعلق بشيء ؛ لأنها مع " أي " صارتا بمنزلة كلمة واحدة – وهي "كم" – فلم تتعلق بشيء ، ولذلك هُجِر معناه الأصلي – وهو التشبيه – .

وزعم الحوفيّ أنها تتعلق بعامل ، فقال : " أما العامل في الكاف ، فإن جعلناها على حكم الأصل ، فمحمول على المعنى ، والمعنى : إصابتكم كإصابة من تقدَّم من الأنبياء وأصحابهم ، وإن حملنا الحكم على الانتقال إلى معنى "كم " ، كان العامل بتقدير الابتداء ، وكانت في موضع رفع ، و" قاتل " الخبر ، و" مِنْ " متعلقة بمعنى " الاستقرار " ، والتقدير الأول أوضح ؛ لحمل الكلام على اللفظ دون المعنى ، بما يجب من الخفض في " أي " ، وإذا كانت " أي " على بابها من معاملة اللفظ ، ف " من " متعلقة بما تعلقت به الكاف من المعنى المدلول عليه " اه‍ . وهو كلام غريب .

واختار أبو حيان أن "كأين "كلمة بسيطة – غير مركبة – وأن آخرها نون – هي من نفس الكلمة – لا تنوين ؛ لأن هذه الدعاوى المتقدمة لا يقوم عليها دليل ، وهذه طريق سهلة ،

والنحويون ذكروا هذه الأشياء ؛ محافظةً على أصولهم ، مع ما ينضم إلى ذلك من الفوائد ، وتمرين الذهن . هذا ما يتعلق بها من حيث التركيب ، فموضعها رفع بالابتداء ، وفي خبرها أربعة أوجه :

أحدها : أنه " قاتل " فإن فيه ضميراً مرفوعاً به ، يعود على المبتدأ ، والتقدير : كثير من الأنبياء قاتل .

(239/131)

قال أبو البقاء : والجيد أن يعود الضمير على لفظ " كأين " ، كما تقول : مائة نبي قُتِل ، فالضمير للمائة ؛ إذ هي المبتدأ .

فإن قيل : لو كان كذلك لأنث ، فقلت : قُتِلَتْ ؟

قيل : هذا محمول على المعنى ؛ لأن التقدير : كثير من الرجال قُتِل .

كأنه يعني بغير الجيد عوده على لفظ " نَبِيّ " ، فعلى هذا جملة ﴿ مَعَهُ رِبِّيُّونَ ﴾ جملة في محل نصب على الحال من الضمير في " قُتِل " .

ويجوز أن يرتفع " ربيون " على الفاعلية بالظرف ، ويكون الظرف هو الواقع حالاً ، التقدير : استقر معه ربيون .

وهو أولى ؛ لأنه من قبيل المفردات ، وأصل الحال والخبر والصفة أن تكون مفردة .

ويجوز أن يكون " مَعَهُ " - وحده - هو الحال ، و" رِبِّيُّونَ " فاعل به ، ولا يحتاج - هنا - إلى واو الحال ؛ لأن الضمير هو الرابط - أعني : الضمير في " مَعَهُ " .

ويجوز أن يكون حالاً من " نَبِيّ " - وإن كان نكرة - لتخصيصه بالصفة حينئذ ؛ ذكره مكي . وعمل الظرف - هنا - لاعتماده على ذي الحال .

قال أبو حيان : وهي حال محكية ، فلذلك ارتفع " ربيون " بالظرف - وإن كان العامل ماضياً ، لأنه حكى الحال الماضية ، كقوله : ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالوصيد ﴾ [الكهف : 18] ، وذلك على مذهب البصريين ، وأما الكسائي فيعمل اسم الفاعل العاري من " أل " مطلقاً .

وفيه نظر ؛ لأنا لا نسلم أن الظرف يتعلق باسم فاعل ، حتى يلزم عليه ما قال من تأويله اسم الفاعل بحال ماضية ، بل يدعى تعلُّقه بفعل ، تقديره : استقر معه ربيون .

(240/131)

الوجه الثاني : أن يكون " قَاتَلَ " جملة في محل جر ؛ صفة لـ " نَبِيّ " ، و﴿ مَعَهُ رِبِّيُّونَ ﴾ هو الخبر ، لكن الوجهان المتقدمان في جعله حالاً - أعني : إن شئت أن تجعل " مَعَهُ " خبراً

مقدماً، و" رِبِّيُّونَ" مبتدأ مرخراً، والجملة خبر "كأيِّنْ"، وأن تجعل "مَعَهُ" - وحده - هو الخبر، و" رِبِّيُّونَ" فاعل به؛ لاعتماد الظرف على ذي خبر.

الوجه الثالث: أن يكون الخبر محذوفاً، تقديره: في الدنيا، أو مضى، أو: صابر، وعلى هذا، فقوله: "قَاَتَلَ" في محل جر؛ صفة لِ "نَبِيٍّ"، و"مَعَهُ رِبِّيُّونَ" حال من الضمير في "قَاَتَلَ" - على ما تقدم تقريره - ويجوز أن يكون "مَعَهُ رِبِّيُّونَ" صفة ثانية لـ "نَبِيٍّ"، وُصِف بصفتين: بكونه قاتل، وبكونه معه ربيون.

الوجه الرابع: أن يكون "قَاَتَلَ" فارغاً من الضمير، مسنداً إلى "رِبِّيُّونَ" وفي هذه الجملة - حينئذ - احتمالان:

أحدهما: أن تكون خبراً لـ "كأيِّنْ".

الثاني: أن تكون في محل جر لـ "نَبِيٍّ" والخبر محذوف - على ما تقدم - وادِّعَاء حذف الخبر ضعيف لاستقلال الكلام بدونه.

وقال أبو البقاء: ويجوز أن يكون "قَاَتَلَ" مسنداً لِ "رِبِّيُّونَ"، فلا ضمير فيه على هذا، والجملة صفة "نَبِيٍّ".

ويجوز أن يكون خبراً، فيصير في الخبر أربعة أوجه، ويجوز أن يكون صفةً لِ "نَبِيٍّ" والخبر محذوف على ما ذكرنا.

وقوله: صفة لـ "رِبِّيُّونَ" يعني: أن القتل من صفتهم في المعنى، وقوله: "فيصير في الخبر

أربعة أوجه " يعني : ما تقدم له من أوجه ذكرها ، وقوله : فلا ضمير فيه – على هذا – والجملة صفة " نبي " غلط ؛ لأنه يبقى المبتدأ بلا خبرٍ .

فإن قلتَ : إنما يزعم هذا لأنه يقدر خبراً محذوفاً ؟

(241/131)

قلت : قد ذكر أوجهاً أُخَر ؛ حيثُ قال : " ويجوز أن تكون صفة لـ " نَبِيٍّ " والخبرُ محذوفٌ – على ما ذكرنا " .

ورجَّح كونَ قَاتَلَ مسنداً إلى ضمير النبي أن القصة بسبب غزوةِ أحُدٍ ، وتخاذل المؤمنين حين قيل : إن محمداً قد ماتَ مقتولاً ؛ ويؤيدُ هذا الترجيح قوله : ﴿ أَفإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ [آل عمران : 144] وإليه ذهب ابنُ عباسٍ والطبريُّ وجماعة . وعن ابن عباس – في قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ﴾ [آل عمران : 161] – قال : النبي يُقتل فكيف لا يُخَان ؟ وذهب الحسنُ وابن جُبَيرٍ وجماعة إلى أن القتلَ للرِّبِّيِّينَ ، قالوا : لأنه لم يُقْتَل نبيٌّ في حَرْب قط ونصر الزمخشري هذا بقراءة قُتِّل – بالتشديد – يعني أنّ التكثيرَ لا يتأتى في الواحد – وهو النبي – وهذا – الذي ذكره الزمخشريّ – سبقه إليه ابنُ جني – وسيأتي تأويله – .

وقرأ ابن كثيرٍ ، ونافع ، وأبو عمرو : قُتِلَ – مبنياً للمفعول – وقتادة كذلك ، إلا أنه شدد

التاء ، وباقي السبعة : قاتل ، وكل من هذه الأفعال يصلح أن يرفع ضمير " نَبِيّ " وأن يرفع " رِبِّيُّونَ " - كما تقدم تفصيلُهُ - .

وقال ابنُ جني : إنَّ قراءة : قُتِّل - بالتَّشْديد - يتعين أن يسند الفعل فيها إلى الظاهر - أعني : " رِبِّيُّونَ " - قال : لأنَّ الواحدَ لا تكثير فيه .

قال أبو البقاء : " ولا يمتنع أنْ يكونَ فيه ضمير الأول ؛ لأنه في معنى الجماعةِ " .

يعني أن " مِنْ نَبِيٍّ " المراد به الجنس ، فالتكثير بالنسبة لكثرة الأشخاص ؛ لا بالنسبة إلى كل فَرْد ؛ إذ القتل لا يتكثر في كل فردٍ .

وهذا الجوابُ - الذي أجابَ به أبو البقاءِ - استشعر به أبو الفتحِ ، وأجاب عنه ، قَالَ : فإن قيل : فهلاَّ جاز فُعِّل ؛ حَمْلاً على معنى "كَمْ " ؟

(242/131)

فالجواب : أن اللفظ قد مشى على جهة الإفراد في قوله : " مِنْ نَبِيٍّ ﴾ ودلَّ الضمير المفرد " مَعَهُ " على أن المراد إنما هو التمثيلُ بواحدٍ واحدٍ ، فخرج الكلامُ على معنى "كم " . قال : في هذه القراءةِ دلالةٌ على أنَّ من قرأ من السَّبْعَةِ " قُتِلَ " أو " قَاتَل مَعَهُ رِبِّيُّونَ " فإن " رِبِّيُّونَ " مرفوعٌ في قراءته بـ " قُتِل " أو " قَاتَل " وليس مرفوعاً بالابتداء ، ولا بالظرف ، الذي هو "

مَعَه " .

قال أبو حيّان : " وليس بظاهر ؛ لأن " كأين " مثل " كَمْ " وأنتَ خبيرٌ إذا قلتَ : كم من عانٍ فككته ، فأفردت ، راعيت لفظ " كم " ومعناها جمع ، فإذا قلت : فككتهم ، راعيت المعنى ، وليس معنى مراعاة اللفظ إلا أنك أفردت الضمير ، والمراد به الجمع . فلا فرق من حيثُ المعنى – بين فككته وفككتهم ، كذلك لا فرق بين قتل معه ربيون ، وقتل معهم ربيون ، وإنما جاز مراعاة اللفظ تارةً ، ومراعاة المعنى تارة ؛ لأن مدلول " كم " و " كأين " كثير ، والمعنى : جمع كثير ، وإذا أخبرت عن جمع كثيرٍ فتارةً تفرد ؛ مراعاةً للفظ ، وتارة تجمع ؛ مراعاة للمعنى ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنْتَصِرٌ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 44 و45] ، فقال : " مُنْتَصِر " وقال : " وَيُوَلُّونَ " فأفرد في " مُنْتَصِرٌ " وجمع في " يُوَلُّونَ " .

ورجح بعضهم قراءة " قَاتَلَ " لقوله – بعد ذلك – : ﴿ فَمَا وَهَنُواْ ﴾ قال : وإذا قتلوا ، فكيف يوصفون بذلك ؟ إنما يوصف بهذا الأحياء ؟

والجوابُ : أن معناه : قتل بعضهم ، كما تقول : قُتِلَ بنو فلانٍ في وقعة كذا ، ثم انصرفوا .

وقال ابن عطية : قراءة من قَرَأَ " قَاتَلَ " أعم في المدْحِ ؛ لأنه يدخل فيها من قتل ومن بقي ، ويحسن عندي – على هذه القراءة – إسنادُ الفعل إلى الربيين ، وعلى قراءة : قتل – إسناده إلى " نبي " .

قال أبو حيّان : " قتل " يظهر أنها مدح ، وهي أبلغ في مقصود الخطاب ؛ لأنها نَصٌّ في وقوع القتل ، ويستلزم المقاتلة . و" قَاتَلَ " لا تدلُّ على القتل ؛ إذ لا يلزم من المقاتلة وجود القتل ؛ فقد تكون مقاتلة ولا يقع قتل .

قوله : ﴿ مِّن نَّبِيٍّ ﴾ تمييز لـ " كَأَيِّنْ " لأنها مثل " كم " الخبرية .

وزعم بعضهم أنه يلزم جره بـ " من " ولهذا لم يجئ في التنزيل إلا كذلك ، وهذا هو الأكثرُ الغالب . قال وقد جاء تمييزُها منصوباً ، قال الشاعرُ : [الخفيف]

أطْرُدِ الْيَأسَ بِالرَّجَاءِ فَكَائِن . . . آلِماً حُمَّ يُسْرُهُ بَعْدَ عُسْرِ

وقال آخر : [الطويل]

فَكَائِنْ لَنَا فَضْلاً عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةً . . . قَدِيماً ، وَلاَ تَدْرُونَ مَا مَنُّ مُنْعِمِ

وأما جره فممتنع ؛ لأن آخرَها تنوين ، وهو لا يثبت مع الإضافة .

و" ربيون " : جمع رِبِّيّ ، وهو العالم ، منسوب إلى الرَّبّ ، وإنما كُسِرت راؤه ؛ تغييراً في النسب ، نحو : إمْسِيّ – في النسبة إلى أمس – وقيل : كُسِر للإتباع .

وقيل : لا تغيير فيه ، وهو منسوب إلى الرُّبَة – وهي الجماعة – وقرأ الجمهور بكسر الرّاءِ ،

وقرأ عليّ، وابنُ مسعودٍ، وابن عبّاسٍ، والحسنُ "رُبِّيُّونَ" - بضم الراء - وهو من تغيير النسبِ، إذا قلنا: هو منسوب إلى الربِّ، وقيل: لا تغيير، وهو منسوب إلى الربة، وهي الجماعة.

قال القرطبيُّ "واحدهم ربِّيّ - بكسر الراء وضمها".

(244/131)

وقرأ ابنُ عباسٍ - في رواية قتادة - رَبِّيُّونَ، بفتحها على الأصل، إن قلنا: منسوب إلى الرَّبِّ، وإلا فمن تغيير النسب، إن قلنا: إنه منسوب إلى الربة.

قال ابن جني: والفتح لغة تميم.

وقال النقاشُ: "هم المكثرون العلم" من قولهم: رَبَا الشيء يربو - إذا كَثُر - وهذا سَهْوٌ منه؛ لاختلاف المادتين؛ لأن تلك من راء وباء وواو، وهذه من راء وباء مكررة. قال ابن عبَّاسٍ ومجاهدٌ وقتادةُ: الجماعات الكثيرة وقال ابنُ مسعودٍ: والربيون: الألوف.

وقال الكلبيّ: الرِّبِّيَّة الواحدة: عشرة آلاف.

وقال الضَّحَّاك: الرِّبِّيَّة الواحدة ألف، وقال الحسنُ: رِبِّيُّون: فُقَهَاء وعُلَماء.

وقيل: هم الأتباع، فالربانيون: الولاة، والربانيون: الرعية. وحكى الواحديُّ - عن

الفرّاءِ – الربانيون : الألوف .

قوله : "كَثِيرٌ" صفة لِ "رِبِّيُّونَ وإن كان بلفظ الإفرادِ ؛ لأن معناه الجمع .

والجمهورُ على " وَهَنُوا " – بفتح الهاء – والأعمش وأبو السَّمَّال بكسرها ، وهما لغتان :

وَهَنَ يَهِنُ – كَوَعَدَ يَعِدُ – ووَهِنَ يَوْهَنُ – كَوَجِلَ يَوْجَلُ – وروي عن أبي السَّمَّال – أيضاً –

وعِكْرِمة : وهْنوا – بسكون الهاء – وهو من تخفيف فَعَل ؛ لأنه حرف حلق ، نحو نعم

وشَهْد – في نَعِم وشَهِد – .

قال القرطبيُّ : – عن أبي زيد – : "وَهِنَ الشيء يَهِنُ وَهْناً ، وأوْهنته أنا ووهَّنْتُه : ضعَّفته ،

والواهنة : أسفل الأضلاع وقصاراَها ، والوَهْن من الإبل : الكثيف ، والوَهْن : ساعة

تمضي من الليل ، وكذلك الموْهِن ، وأوهنّا : صِرْنا في تلك الساعة " .

و ﴿ لِمَآ أَصَابَهُمْ ﴾ متعلق بـ " وَهَنُوا " و" ما " يجوز أن تكون موصولة اسمية ، أو مصدرية

، أو نكرة موصوفة .

(245/131)

وقرأ الجمهور ﴿ وَمَا ضَعُفُواْ ﴾ – بضم العين – وقرئ : ضَعَفُوا – بفتحها – وحكاها

الكسائي لغة .

قوله : ﴿ وَمَا استكانوا ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ :

أحدها : أنه " استفعل " من الكَوْن - والكَوْن : الذُّلّ - وأصله : استكون ، فنُقِلَتْ حركة الواو على الكافِ ، ثم قُلِبَت الواو ألفاً .

وقال الأزهريُّ وأبو علي : هو من قول العربِ : بَاتَ فُلان بكَيْنَةِ سوء - على وزن جَفْنَة - أي : بحالة سوء ، فألفه - على هذا من ياء ، والأصل : استكْيَن ، ففُعِل بالياء ما فُعِل بأختها . [وهو القول الثاني] .

الثالث : قال الفرّاء : وزنة " افتعل " من السكون ، وإنما أُشْبِعَت الفتحة ، فتولَّد منها ألف .

كقول الشاعر : [الرجز]

أعُوذُ باللهِ مِنَ الْعَقْرَابِ . . . الشَّائِلاتِ عُقَدِ الأذْنَابِ

يريد : العقرب الشائلة .

ورُدَّ على الفرّاء بأن هذه الألف ثابتة في جميع تصاريف الكلمةِ ، نحو : استكان ، يستكين ، فهو مستكينٌ ومُستكان إليه استكانةً . وبأنَّ الإشباعَ لا يكون إلا في ضرورةٍ .

وكلاهما لا يلزمه ؛ أما الإشباع فواقع في القراءات - السبع - كما سيأتي - .

وأما ثبوت الألف في تصاريف الكلمةِ فلا يدلُّ - أيضاً - لأن الزائدَ قد يَلْزَم ؛ ألا ترى أنَّ الميم - في تَمَنْدَل وتَمَدْرَع - زائدة ، ومع ذلك ثابتة في جميع تصاريفِ الكلمة ، قالوا : تَمَنْدَلَ ، يَتَمَنْدَلُ ، تَمَنْدُلاً ، فهو مُتَمَنْدِل ، ومُتَمَنْدَل به . وكذلك تَمَدْرَع ، وهما من الندل والدرع .

وعبارة أبي البقاءِ أحسن في الرَّدّ ؛ فإنه قال : " لأن الكلمة ثبتت عينها في جميع تصاريفها تقول : استكان ، يستكين ، استكانة ، فهو مستكين ، ومُسْتكان له والإشباع لا يكون على هذا الحد " .

(246/131)

ولم يذكر متعلق الاستكانة والضعف - فلم يَقُلْ : فما ضَعُفُوا عن كذا ، وما استكانوا لكذا - للعلم ، أو للاقتصار على الفعلين - نحو ﴿ كُلُوْا واشربوا ﴾ [الحاقة : 24] ليعم كُلَّ ما يصلح لهما .

وقال الزمخشري : ما وَهَنُوا عند قَتْل النبيّ .

وقيل : ما وَهَنُوا لقتل من قتل منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 579 590.﴾ . بتصرف .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) ﴾

إنَّ الذين درجوا على الوفاء ، وقاموا بحق الصفاء ، ولم يرجعوا عن الطريق ، وطالبوا نفوسهم بالتحقيق ، وأخذوا عليها بالتضييق والتدقيق - وجدوا محبةَ الحقِّ سبحانه ميراثَ صبرِهم ، وكان الخَلَف عنهم الحقُّ عند نهاية أمرهم ، فما زاغوا عن شرط الجهد ، ولا زاغوا في حفظ العهد ، وسلّموا تسليماً ، وخرجوا عن الدنيا وكان كلٌّ منهم للعهد مقيماً مستديماً ، وعلى شرط الخدمة والوداد مستقيماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 283 ﴾

(247/131)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

﴿ وَكَأَيِّن ﴾ هذه يقولون : إنها للتكثير ، مثل "كم" ؛ فعندما يقول لك إنسان مثلا : لماذا تجافيني ؟ فتقول له : كم زرتك ؟ إن قولك : "كم زُرتك ! " في ظاهرها أنها استفهام ، وأنت لا تريد أن تقول له مستفهما كم مرة زرته فيها ، بل تقول له : أنت الذي عليك أن تقول - لأنك بقولك ستعترف أني زُرتك كثيرا ، فيكون الجواب موافقا لما فعلت . وأنت لا تقول "

كم زرتك " إلا وأنت واثق أنه إذا أراد أن يجيب فسيقول : " زرتني كثيرا " ولو كنت لا تثق أنه سيقول : زرتني كثيرا ، لَمَا قلتها ، فعندما تقول له : كم زرتك ، كم تفضلت عليك ، كم واسيتك ، كم أكرمتك ؟ فإن "كم " تأتي للتكثير ، وتأتي مثلها "كأين " إنها للتكثير أيضا ، عندما تقول مثلا : " ياما حصل كذا " و " ياما " هذه معناها "كأيِّن " .

وقد يسألك صديق : كيف حدثت هذه الحكاية ؟ فتقول له : كأي رجل يفعل كذا ويحصل له كذا ، اي ان المسأله ليست غريبة ، إن قولك : كأي رجل معناها أنها شاعت كثيرا ، وعندما تقول : كم مرة زرتك ، وكم من مرة زرتك فهذان الاستعمالان صحيحان والمعنى : كثير من نبي قاتل معه مؤمنون برسالته كما حدث وحصل مع رسول الله . وقوله الحق ﴿ رِبِّيُّونَ ﴾ أي ناس فقهاء فاهمون سبل الحرب ، و " ربيون " أيضا تعني أتباعا يقاتلون ، و " ربيون " يمكن أن ينصرف معناها إلى أن منهجهم إلهي مثل " الربانيين " .

(248/131)

وقول الحق : ﴿ فَمَا وَهَنُواْ ﴾ أي ما ضعفوا ، إذن فهو يريد أن يأتي بالأسوة ، وكأنه سبحانه يقول : أنتم لماذا ضعفتم في موقفكم في غزوة أُحُد وأنتم تقاتلون مع رسول الله . لقد كان الأولى بكم أن يكون حماسكم في القتال معه أشد من حماس أي أتباع نبي مع نبيهم ؛ لأنه

النبي الخاتم الذي سيضع المبدأ الذي ستقوم عليه الساعة ، ولن يأتي أحد بعده ، فكان يجب أن تتحمسوا ؛ فأنتم خير أمة أخرجت للناس ، وأنا ادخرتكم لذلك .

إن الحق يعطيهم المثل وفيه تعريض بهم وعتاب لهم ، وفي هذا القول تعليم أيضا ، فيقول : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ ﴾ أي وكثير من الأنبياء ﴿ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ ﴾ ونستوحي من كلمة ﴿ وَهَنُواْ ﴾ أي ما ضعفوا . فكأنه قد حدث في القتال ما يضعف ، ﴿ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ ﴾ أي ما حدثت لهم نكسة مثلما حدثت لكم .

﴿ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ ﴾ . وكل من ﴿ وَهَنُواْ ﴾ و ﴿ ضَعُفُواْ ﴾ و ﴿ اسْتَكَانُواْ ﴾ هذه جاءت في موقعها الصحيح ؛ لأن " الوهن " بداية الضعف ، و " الوهن " محله القلب وهو ينضح على الجوارح ضعفا .

و ﴿ اسْتَكَانُواْ ﴾ ماذا تعني ؟ إنها من " سكن " . والسكون تقابله الحركة . والحرب تحتاج إلى حركة ، والذي يأتي للحرب فهو يحتاج إلى كرّ وفر . أما الذي لا يتحرك فهذا معناه أنه ليس لديه قدرة على أن يتحرك ، وساعة تسمع - الألف والسين والتاء - وتأتي بعدها كلمة ، نعلم أن (الألف والسين والتاء) للطلب ، " فاسْتَفْهَم " أي طلب أن يفهم ، وهي تأتي لطلب المادة التي بعدها . كأن تقول : " استعلم " أي طلب أن يعلم ، أو تقول : " استخبر " أي طلب الخبر ، و " استكان " يعني طلب له كوْناً أي وجوداً ، فكأنهم بلغوا من

الوهن ومن الضعف مبلغاً يطلبون فيه أن يكون لهم مجرد وجود ؛ لأن الوجود مظهره الحركة ، والحركة انتهت ، هذا هو معنى ﴿ اسْتَكَانُواْ ﴾ .

(249/131)

وما دامت مِن الكون يكون وزنها – مثلما يقول الصرفيون – " استفعل " يعني طلب الكون ، وطلب الوجود ، وقد يكون وزنها ليس كذلك ؛ إذا كانت من سكن ، وهي بهذا الاعتبار لا يكون فيها طلب ؛ لأن السين ستكون أصلية ، فوزنها ليس " استفعل " بل هو " افتعل " ف " استكانوا " هل تعني أنهم طلبوا السكون ؟ لا ؛ لأنهم كانوا ساكنين ، إذن فالأولى أن يكون معناها أنهم طلبوا مجرد الوجود ، هذا ما أميل إليه وأرجحه ، وقيل في معناها : فما خضعوا وما ذلوا من الاستكانة : وهي الذلة والخضوع .

﴿ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ فما يصيب العبد ابتلاء من الله ، وفي الحديث : " إذا أحب الله قوما ابتلاهم " . وكل ذلك الوهن والضعف ، لا يشغلهم عن المعركة ، لأنهم لو صبروا على التحمل لأمدهم الله بمدد من عنده ؛ لأنه حين تفرغ أسباب الخلق وتنتهي يأتي إمداد الخالق .

ويلفتنا الحق سبحانه وتعالى بتذييل الآية : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ أي وكفى جزاء

عن الصبر أن تكون محبوبا لله ؛ لأننا قلنا سابقا : قد نحب الله لنعمه التي أنعمها علينا ، ولكن المسألة ليست في أن تحب الله أنت ، وإنما في أن تصير بتطبيق منهجه فيك محبوبا لله . وقد أثر عن بعضهم قوله :

وإلا ألم تر كثيراً أَحَبَّ ولم يُحَبْ ؟ ! !

أنت أحببت للنعم ، ولكنك تريد أن تكون محبوبا من الله ؛ لأن حبك للنعم لا يكفي ، فمثل هذه النعم أخذها الكافر أيضاً ، إذن فهناك حاجة أخرى . هناك مقدم وهناك ومؤخر فالمقدم هو نعم الحياة وكل البشر شركاء فيها مؤمنهم وكافرهم ، ولكن المؤخر هو جزاء الله في الآخرة وهو الأصل .

(250/131)

إذن ، فلو أن الناس فطنوا إلى قول الله : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ لقالوا : كفى بالجزاء عن الصبر أن نكون محبوبين لله ، حين أصابهم ما أصابهم . صحيح أن الإصابة لم تصنع فيهم وهنا أو ضعفا أو استكانة ، وهذا معناه أن فيهم مُسكة اليقين بالله .

ومُسكة اليقين بالله تجعلهم أهلا لإمداد الله . فليس لك إلا أن تصبر على ما أنت فيه لتعرف مدد الله لك . ومدد الله لك لا يتجلى بحق إلا وقت الضعف ؛ لأنك وقت قوتك قد تعمل

مثل الذي قيل فيهم :

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[الزمر : 49]

لكن المؤمنين حين أصابهم ما أصابهم ﴿ فَمَا وَهَنُوا ﴾ ؛ لِأَنَّهم كانوا متيقظين إلى قضية إيمانية : إن الله لا يسلمك لنفسك إلا حين تغيب عنه ، فقالوا : ولماذا حدث لنا هذا ؟ لم يقولوا : ربنا انصرنا كي نخرج من الضعف ، لا . بل فكروا في الأسباب التي أدت بهم إلى هذا : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1805 . 1808 ﴾

(251/131)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أثنى سبحانه وتعالى على فعلهم أتبعه قولهم فقال : ﴿ وما كان ﴾ أي شيء من القول ﴿ قولهم ﴾ أي بسبب ذلك الأمر الذي دهمهم ﴿ إلا أن قالوا ﴾ أي وهم يجتهدون في نصر دين الله ناسبين الخذلان إلى أنفسهم بتعاطي أسبابه ﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا ﴾ أي التي استوجبنا بها الخذلان ﴿ وإسرافنا في أمرنا ﴾ هضماً لأنفسهم ، فمع كونهم ربانيين مجتهدين نسبوا ما أصابهم إلى ذنوبهم ، فافعلوا أنتم فعلهم لتنالوا من الكرامة ما نالوا ، كما أشار لكم سبحانه وتعالى إلى ذلك قبل الأخذ في قص القصة عندما وصف به المتقين من قوله : ﴿ أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾ [آل عمران : 135] .

ولما دعوا بمحو ما أوجب الخذلان دعوا بثمرة المحو فقالوا : ﴿ وثبت أقدامنا ﴾ إشارة إلى أن الرعب من نتائج الذنب ، والثبات من ثمرات الطاعة – إنما تقاتلون الناس بأعمالكم – ثم أشاروا إلى أن قتالهم لهم إنما هو لله ، لا لحظ من حظوظ النفس أصلاً بقوله : ﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 164 ﴾

وقال الآلوسى :

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ ﴾ كالتتميم والمبالغة في صلابتهم في الدين وعدم تطرق الوهن والضعف إليهم بالكلية ، وهو معطوف على ما قبله ، وقيل : كلام مبين لمحاسنهم القولية إثر بيان محاسنهم الفعلية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 84 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ وَثَبّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ يدل على أن فعل العبد خلق الله تعالى ، والمعتزلة يحملونه على فعل الألطاف . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 24 ﴾

(252/131)

فائدة

قال الفخر :

بين تعالى أنهم كانوا مستعدين عند ذلك التصبر والتجلد بالدعاء والتضرع بطلب الأمداد والإعانة من الله ، والغرض منه أن يقتدي بهم في هذه الطريقة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن من عول في تحصيل مهماته على نفسه ذل ، ومن اعتصم بالله فاز بالمطلوب . انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 24 ﴾

فصل

قال ابن عاشور :

وقوله تعالى : ﴿ وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا ﴾ الآية عطف على ﴿ فما وهنوا ﴾ لأنّه لمّا وصفهم برباطة الجأش ، وثبات القلب ، وصفهم بعد ذلك بما يدلّ

على الثبات من أقوال اللِّسان الَّتي تجري عليه عند الاضطراب والجزع ، أي أنّ ما أصابهم لم يخالجهم بسببه تردّد في صدق وعد الله ، ولا بَدَر منهم تذمّر ، بل علموا أنّ ذلك لحكمة يعلمها سبحانه ، أو لعلَّه كان جزاء على تقصير منهم في القيام بواجب نصر دينه ، أو في الوفاء بأمانة التكليف ، فلذلك ابتهلوا إليه عند نزول المصيبة بقولهم : ﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ﴾ خشية أن يكون ما أصابهم جزاء على ما فرط منهم ، ثُمّ سألوه النصر وأسبابه ثانياً فقالوا : ﴿ وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ فلم يصُدّهم ما لحقهم من الهزيمة عن رجاء النَّصر ، وفي "الموطأ" ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " يستجاب لأحدكم ما لم يعجّل يقول : دعوت فلم يُستجب لي " فقصر قولهم في تلك الحالة الَّتي يندر فيها صدور مثل هذا القول ، على قولهم : ﴿ ربنا اغفر لنا ﴾ إلى آخره ، فصيغة القصر في قوله : ﴿ وما كان قولهم إلا أن قالوا ﴾ قصر إضافي لردّ اعتقاد من قد يتوهّم أنَّهم قالوا أقوالاً تنبىء عن الجزع ، أو الهلع ، أو الشكّ في النّصر ، أو الاستسلام للكفار .

وفي هذا القصر تعريض بالّذين جزِعوا من ضعفاء المسلمين أو المنافقين فقال قائلهم : لو كلّمنا عبد الله بن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان .

وقدّم خبر (كان) على اسمها في قوله : ﴿ وما كان قولهم إلا أن قالوا ﴾ لأنَّه خبر عن مبتدأ محصور ، لأنّ المقصود حصر أقوالهم حينئذ في مقالة ﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا ﴾ فالقصر حقيقي لأنَّه قصر لقولهم الصّادر منهم ، حين حصول ما أصابهم في سبيل الله ، فذلك القيد ملاحظ من المقام ، نظير القصر في قوله تعالى : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾ [النور : 51] فهو قصر حقيقي مقيّد بزمان خاص ، تقييداً منطوقاً به ، وهذا أحسن من توجيه تقديم الخبر في الآية بأنّ المصدر المنسبك المؤوّل أعرف من المصدر الصّريح لدلالة المؤوّل على النسبة وزمان الحدث ، بخلاف إضافة المصدر الصّريح ، وذلك جائز في باب (كان) في غير صيغ القصر ، وأمَّا في الحصر فمتعيّن تقديم المحصور .

والمراد من الذنوب جميعها ، وعطف عليه بعض الذنوب وهو المعبّر عنه هنا بالإسراف في الأمر ، والإسراف هو الإفراط وتجاوز الحدّ ، فلعلّه أريد به الكبائر من الذنوب كما نقل عن ابن عبَّاس وجماعة ، وعليه فالمراد بقوله : أمرُنا ، أي ديننا وتكليفنا ، فيكون عطف خاص للاهتمام بطلب غفرانه ، وتمحّض المعطوف عليه حينئذ لبقية الذنوب وهي الصّغائر .

(254/131)

ويجوز عندي أن يكون المراد بالإسْراف في الأمر التقصير في شأنهم ونظامهم فيما يرجع إلى أهبة القتال، والاستعداد له، أو الحذر من العدوّ، وهذا الظاهر من كلمة أمْر، بأن يكونوا شكُّوا أن يكون ما أصابهم من هزيمتهم في الحرب مع عدوّهم ناشئاً عن سببين: باطنٍ وظاهر، فالباطن هو غضب الله عليهم من جهة الذنوب، والظاهرُ هو تقصيرهم في الاستعداد والحذر، وهذا أولى من الوجه الأول. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ 245.246﴾

فصل

قال الفخر:

قال القاضي: إنما قدموا قولهم: ﴿رَبَّنَا اغفر لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا﴾ لأنه تعالى لما ضمن النصرة للمؤمنين، فإذا لم تحصل النصرة وظهر أمارات استيلاء العدو، دل ذلك ظاهراً

(255/131)

على صدور ذنب وتقصير من المؤمنين ؛ فلهذا المعنى يجب عليهم تقديم التوبة والاستغفار على طلب النصرة ، فبين تعالى أنهم بدأوا بالتوبة عن كل المعاصي وهو المراد بقوله : ﴿ رَبَّنَا اغفر لَنَا ذنُوبَنَا ﴾ فدخل فيه كل الذنوب ، سواء كانت من الصغائر أو من الكبائر ، ثم إنهم خصوا الذنوب العظيمة الكبيرة منها بالذكر بعد ذلك لعظمها وعظم عقابها وهو المراد من قوله : ﴿ وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا ﴾ لأن الإسراف في كل شيء هو الإفراط فيه ، قال تعالى : ﴿ قُلْ ياعبادى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ [الزمر : 53] وقال : ﴿ فَلاَ يُسْرِف فّى القتل ﴾ [الإسراء : 33] وقال : ﴿ كُلُواْ واشربوا وَلاَ تُسْرِفُواْ ﴾ [الأعراف : 31] ويقال : فلان مسرف إذا كان مكثرا في النفقة وغيرها ، ثم إنهم لما فرغوا من ذلك سألوا ربهم أن يثبت أقدامهم ، وذلك بإزالة الخوف عن قلوبهم ، وإزالة الخواطر الفاسدة عن صدورهم ، ثم سألوا بعد ذلك أن ينصرهم على القوم الكافرين ، لأن هذه النصرة لا بد فيها من أمور زائدة على ثبات أقدامهم ، وهو كالرعب الذي يلقيه في قلوبهم ، وأحداث أحوال سماوية أو أرضية توجب انهزامهم ، مثل هبوب رياح تثير الغبار في وجوههم ، ومثل جريان سيل في موضع وقوفهم ،

ثم قال القاضي : وهذا تأديب من الله تعالى في كيفية الطلب بالأدعية عند النوائب والمحن سواء كان في الجهاد أو غيره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 24 ﴾

من فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ رَبَّنَا اغفر لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ أي صغائرنا ﴿ وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا ﴾ أي تجاوزنا عن الحد ، والمراد كبائرنا وروي ذلك عن الضحاك ، وقيل : الإسراف تجاوز في فعل ما يجب ، والذنب عام فيه وفي التقصير ، وقيل : إنه يقابل الإسراف وكلاهما مذموم ، وسيأتي في هذه السورة إن شاء الله تعالى إطلاق الذنوب على الكبائر فافهم .

والظرف متعلق بما عنده أو حال منه وإنما أضافوا ذلك إلى أنفسهم مع أن الظاهر أنهم برآء من التفريط في جنب الله تعالى هضماً لأنفسهم واستقصاراً لهممهم وإسناداً لما أصابهم إلى أعمالهم ، على أنه لا يبعد أن يراد بتلك الذنوب وذلك الإسراف ما كان ذنباً وإسرافاً على الحقيقة لكن بالنسبة إليهم ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، وقيل : أرادوا من طلب المغفرة طلب قبول أعمالهم حيث إنه لا يجب على الله تعالى شيء ، وفيه ما لا يخفى ، وقدموا الدعاء بالمغفرة على ما هو الأهم بحسب الحال من الدعاء بقوله سبحانه : ﴿ وَثَبّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ أي عند جهاد أعدائك بتقوية قلوبنا وإمدادنا بالمدد الروحاني من عندك ﴿ وانصرنا عَلَى القوم الكافرين ﴾ تقريباً له إلى حيز القبول فإن الدعاء المقرون بالخضوع الصادر عن زكاء وطهارة أقرب إلى الاستجابة .

ومن الناس من قال : المراد من ثبت أقدامنا ثبتنا على دينك الحق فيكون تقديم طلب المغفرة على هذا التثبيت من باب تقديم التخلية على التحلية وتقديمهما على طلب النصرة لما تقدم ، وقيل : إنهم طلبوا الغفران أولاً ليستحقوا طلب النصر على الكافرين بترجحهم بطهارتهم عن الذنوب عليهم وهم محاطون بالذنوب ، وفي طلبهم النصر مع كثرتهم المفرطة التي دل عليها ما سبق إيذان بأنهم لا ينظرون إلى كثرتهم ولا يعوّلون عليها بل يسندون ثبات أقدامهم إلى الله تعالى ويعتقدون أن النصر منه سبحانه وتعالى ، وفي الإخبار عنهم بأنه ما كان قولهم إلا هذا دون ما فيه شائبة جزع وخور وتزلزل من التعريض بالمنهزمين ما لا يخفى . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 4 صـ 84.85﴾

فائدة

قال ابن عطية :

وقولهم : ﴿ وثبت أقدامنا ﴾ يحتمل أن يجري مع ما قبله من معنى الاستغفار ، فيكون المعنى : اجعلنا دائبين على طاعتك والإيمان بك ، وتثبيت القدم على هذا : استعارة ، ويحتمل أن يكون في معنى ما بعده من قوله :

﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ فيراد ثبوت القدم حقيقة في مواقف الحرب ،

قال ابن فورك : في هذا الدعاء رد على القدرية ، لقولهم : إن الله لا يخلق أفعال العبد ، ولو كان ذلك لم يسغ أن يدعي فيما لا يفعله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 522 ﴾

(258/131)

فصل

قال البيضاوى :

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغفر لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبّتْ أَقْدَامَنَا وانصرنا عَلَى القوم الكافرين ﴾ أي وما كان قولهم مع ثباتهم وقوتهم في الدين وكونهم ربانيين إلا هذا القول ، وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم هضماً لها وإضافة لما أصابهم إلى سوء أعمالها والاستغفار عنها ، ثم طلب التثبيت في مواطن الحرب والنصر على العدو ليكون عن خضوع وطهارة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 101 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

الجمهور على نصب ﴿ قَوْلِهِمْ ﴾ خبراً مقدّماً ، والاسم "أنْ" وما في حيزها ، تقديره : وما كان قولهم [إلا هذا الدعاء ، أي : هو دأبهم وديدنهم] .

وقرأ ابن كثيرٍ وعاصم – في رواية عنهما – برفع "قولُهم" على أنه اسم "كان" والخبر "أن" وما في حيزها . وقراءة الجمهور أَوْلَى ؛ لأنه إذا اجتمع معرفتان فالأولى أن تَجْعَل الأعرف اسماً ، و"أن" وما في حيزها أعْرَفُ ؛ قالوا : لأنها تُشْبِه المُضْمَر من حيثُ إنها لا تُضْمَر ، ولا تُوصَف ، ولا يُوصَف بها ، و"قولهم" مضافٌ لمُضْمَرٍ ، فَهُوَ في رُتْبَةِ العَلَمِ ، فهو أقلُّ تعريفاً .

ورَجَّحَ أبو البقاء قراءة الجمهور بوجهين :

أحدهما : هذا ، والآخر : أن ما بعد "إلاَّ" مُثبَت ، والمعنى : كان قولَهُمْ : ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا دأْبهم في الدعاء ، وهو حَسَنٌ .

والمعنى : وما كان قولهم شيئاً من الأقوالِ إلا هذا القول الخاصّ .

قوله : ﴿ فِي أَمْرِنَا ﴾ يَجُوز فيه وجهان :

الأول : أنه متعلق بالمصدر قبله ، يقال : أسرفتُ في كذا .

الثاني : أن يتعلق بمحذوف على أنَّه حَالٌ منه ، أي : حال كونه مستقراً في أمرنا . والأول أوجهُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 590 . 591 ﴾ . بتصرف يسير .

وقال الآلوسى

وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية عنهما برفع ﴿ قَوْلُهُمْ ﴾ على أنه الاسم والخبر ﴿ إن ﴾ وما في حيزها أي ما كان قولهم شيئاً من الأشياء إلا هذا القول المنبىء عن أحاسن المحاسن ، قال مولانا شيخ الإسلام : "وهذا كما ترى أقعد بحسب المعنى وأوفق بمقتضى المقام لما أن الإخبار بكون قولهم المطلق خصوصية قولهم المحكي عنهم مفصلاً كما تفيده قراءتهما أكثر إفادة للسامع من الإخبار بكون خصوصية قولهم المذكور قولهم لما أن مصب الفائدة وموقع البيان في الجمل الخبرية هو الخبر ، فالأحق بالخبرية ما هو أكثر إفادة وأظهر دلالة على الحدث وأوفر اشتمالاً على نسب خاصة بعيدة من الوقوع في الخارج وفي ذهن السامع ، ولا يخفى أن ذلك ههنا في أن مع ما في حيزها أتم وأكمل ، وأما ما تفيده الإضافة من النسبة المطلقة الإجمالية فحيث كانت سهلة الحصول خارجاً وذهناً كان حقها أن تلاحظ ملاحظة إجمالية وتجعل عنواناً للموضوع لا مقصوداً بالذات في باب البيان ، وإنما اختار الجمهور ما اختار والقاعدة صناعية هي أنه إذا اجتمع معرفتان فالأعرف منهما أحق بالإسمية ، ولا ريب في أعرفية أن قالوا لدلالته على جهة النسبة وزمان الحدث ولأنه

يشبه المضمر من حيث إنه لا يوصف ولا يوصف به ، وقولهم مضاف إلى مضمر وهو بمنزلة العلم فتأمل" انتهى .

(260/131)

وقال أبو البقاء : جعل ما بعد ﴿ إِلا ﴾ اسماً لكان ، والمصدر الصريح خبراً لها أقوى من العكس لوجهين : أحدهما : أن ﴿ أَن قَالُواْ ﴾ يشبه المضمر في أنه لا يوصف وهو أعرف ، والثاني : أن ما بعد ﴿ إِلا ﴾ مثبت ، والمعنى كان قولهم ربنا اغفر لنا ذنوبنا الخ دأبهم في الدعاء ، وقال العلامة الطيبي : كأن المعنى ما صح ولا استقام من الربانيين في ذلك المقام إلا هذا القول وكأن غير هذا القول مناف لحالهم ، وهذه الخاصية يفيدها إيقاع ﴿ إن ﴾ مع الفعل اسما لكان ، وتحقيقه ما ذكره صاحب "الانتصاف" من أن فائدة دخول ﴿ كَانَ ﴾ المبالغة في نفي الفعل الداخل عليه بتعديد جهة فعله عموماً باعتبار الكون وخصوصاً باعتبار خصوصية المقال فهو نفي مرتين ، ثم قال : فعلى هذا لو جعلت رب الجملة أن قالوا واعتمدت عليه وجعلت قولهم كالفضلة حصل لك ما قصدته ولو عكست ركبت التعسف ، ألا ترى إلى أبي البقاء كيف جعل الخبر نسياً منسياً في الوجه الثاني واعتمد على ما بعد إلا انتهى .

ومنه يعلم ما في كلام مولانا شيخ الإسلام فإنه متى أمكن اعتبار جزالة المعنى مع مراعاة القاعدة الصناعية لا يعدل عن ذلك إلى غيره لا سيما وقد صرحوا بأن جعل الاسم غير الاعرف ضعيف ، قال في "المغني" : واعلم أنهم حكموا لأن وإن المقدرتين بمصدر معرف بحكم الضمير لأنه لا يوصف كما أن الضمير أيضاً كذلك فلهذا قرأت السبعة ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ [الجاثية : 25] ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ﴾ [النمل : 56] والرفع ضعيف كضعف الأخبار بالضمير عما دونه في التعريف انتهى ، وعلل بعضهم أعرفية المصدر المؤل بأنه لا ينكر .

(261/131)

وقد اعترضوا على كل من تعليلي ابن هشام والبعض ، أما الاعتراض على الأول فبأن كونه لا يوصف لا يقتضي تنزيله منزلة الضمير فكم اسم لا يوصف بل ولا يوصف به وليس بتلك المنزلة ؟ وأجيب بأنه جاز أن يكون في ذلك الإسم مانع من جعله بمنزلة الضمير لأن عدم المانع ليس جزءاً من المقتضى ولا شرطاً في وجوده ، وأما الاعتراض على الثاني فبأنه غير مسلم لأنه قد ينكر كما في ﴿ وَمَا كَانَ هذا القرءان أَن يفترى ﴾ [يونس : 37] أي افتراءاً قاله الشهاب .

وأجيب بأن مراد من قال: إن المصدر المؤل لا ينكر أنه في مثل هذا الموضع لا ينكر لا أن الحرف المصدري لا يؤل بمصدر منكر أصلاً، ويستأنس لذلك بتقييد المصدر بالمعرف في عبارة "المغني" حيث يفهم منها أن أن وإن تارة يقدران بمصدر معرف وتارة بمصدر منكر وأنهما إذا قدرا بمصدر معرف كان له حكم الضمير، ومن هنا قال صاحب "المطلع" في معنى ذلك التعليل: إن قول المؤمنين إن اختزل عن الإضافة يبقى منكراً بخلاف ﴿ أَن قَالُواْ ﴾ بقي في كلام "المغني" أمور، الأول: أن التقييد بأن وإن هل هو اتفاقي أم احترازي؟ الذي ذهب إليه بعض المحققين الأول: احتجاجاً بأنه أطلق في الجهة السادسة من الباب الخامس أن الحرف المصدري وصلته في نحو ذلك معرفة فلا يقع صفة للنكرة ولم يخص بأن وإن وللذاهب إلى الثاني أن يقول فرق بين مطلق التعريف وكونه في حكم الضمير كما لا يخفى، وابن هشام قد أخذ المطلق في المطلق وقيد المقيد بالمقيد فلا بأس بإبقاء كلا العبارتين على ما يتراءى منهما الثاني: أنه يفهم من ظاهره أن الاداتين لو قدرتا بمصدر منكر لا يكون في حكم الضمير وظاهر هذا أنه يجوز الوصف حينئذ وفيه تردد لأنه قد يقال: لا

يلزم من عدم ثبوت مرتبة الضمير لذلك جواز الوصف لأن امتناع الوصف أعم من مرتبة الضمير ، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم .

(263/131)

الثالث : أنه يفهم من كلامه أن المصدر المقدر المعرف بالإضافة سواء أضيف إلى ضمير أو غيره بمثابة الضمير ولم يصرح أحد من الأئمة بذلك لكن حيث إن ابن هشام ثقة وإمام في الفن ولم ينقل عن أئمته ما يخالفه يقبل منه ما يقول ، الرابع : أن ما حكم به من أن الرفع ضعيف كضعف الإخبار بالضمير عما دونه في التعريف بينه وبين ما ذهب إليه ابن مالك من جواز الإخبار بالمعرفة عن النكرة المحضة في باب النواسخ بون عظيم ، ويؤيد كلام ابن مالك قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ ﴾ [الأنفال : 62] وكأنه لتحقيق هذا المقام ولما أشرنا إليه أولاً في تحقيق معنى الآية قال المولى قدس سره : فتأمل فتأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 85.86 ﴾

فائدة

قال الجصاص :

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ الْآيَةَ .

فِيهِ حِكَايَةُ دُعَاءِ الرِّبِّيِّينَ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَتَعْلِيمٌ لَنَا لِأَنْ نَقُولَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ عِنْدَ حُضُورِ الْقِتَالِ ، فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَدْعُوا بِمِثْلِهِ عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْعَدُوِّ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكَى ذَلِكَ عَنْهُمْ عَلَى وَجْهِ الْمَدْحِ لَهُمْ وَالرِّضَا بِقَوْلِهِمْ لِنَفْعَلَ مِثْلَ فِعْلِهِمْ وَنَسْتَحِقَّ مِنْ الْمَدْحِ كَاسْتِحْقَاقِهِمْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 2 صـ 326 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) ﴾

تحققوا بحقائق المعنى فَخَرِسُوا عن إظهار الدعوى ، ثم نطقوا بلسان الاستغفار ، ووقفوا في موقف الاستحياء ، كما قيل :

يتجنَّبُ الآثامَ ثم يخافها . . . فكأَّنما حسناتهُ آثامُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 283 ﴾

(264/131)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾

فكأن ما حدث نتيجة لذنب تقدم ففطنوا إلى السبب ، كان المفروض أنهم في معركة ، وهذه المعركة أجهدتهم وأنهكتهم ، صحيح أنهم لم يضعفوا ، وكان المفروض أن يقولوا : " يارب انصرنا أولا " لا . بل قالوا : لا بد أن نعرف السبب في النكسة الأولى ، السبب في هذه النكسة أن الله لم يسلمني إلى نفس إلا لأني نسيته .

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُواْ رَبَّنَا ﴾ ، ﴿ رَبَّنَا ﴾ ، وانظر لكلمة النداء في ﴿ رَبَّنَا ﴾ ، كان يمكن أن يقولوا : يا ألله إنما جاءوا بكلمة " ربنا " لماذا ؟ لأن علاقة العبد بالربوبية هي قبل علاقته بالألوهية ، فالألوهية مكلفة ، فمعنى " إله " أي : معبود ، وما دام معبودا فله تكليف يطاع فيه ، وهذا التكليف يأتي بعد ذلك ، هو سبحانه له ربوبيته في الخلق . قبل أن يكلفهم ، وما دام الرب هو الذي يتولى التربية ، فالأولى أن يقولوا : يارب ، إذن قولهم : " ربنا " يعني أنت متولي أمورنا ، أنت الذي تربينا .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ فكأنه لا شيء يصيبنا إلا بذنب من الغفلة ارتكبناه . ونعرف من كلمة " ذنب " أن الذي يفطن إلى معناه لا يفعلها أبدا ، لأن كلمة " ذنب " مأخوذة من

مادة " الذَّنب " . والذَّنبُ سيأتي بعده عقوبة . فاللفظ نفسه يوحي بأن شيئًا سيأتي ، وعندما تتذكر عقاب الذنب فأنت لا تفعله .

(265/131)

﴿ اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ﴾ لأن كل معصية تكون تجاوزا عما أَحَلَّه الله لك ، وزيادة غير مشروعة وإن كانت من نوع ما أحله الله ، ولكنها زيادة عن مقومات حياتك ، فالله شرع لنا الزواج لنأتي بالأولاد ، وعندما نأخذ أكثر من هذا من غير زواج نكون قد أسرفنا ، والله أعطانا مالا بقدر حركتنا ، فإن طمعنا في مال غيرنا فقد أسرفنا . " وأسرفت " يعني أن تأخذ حاجة ليست ضرورية لقوام حياتك ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

[الزمر : 53]

إنه سبحانه يوضح : أنا حللت لك كذا من النساء فما الذي جعل عينيك تزوغ وتميل إلى غير ما أحله الله لك ؟ أنا أحللت لك كسب يدك وإن كنت فقيراً فستأخذ صدقة ، لماذا

أسرفت ؟ إذن فكل أمر زائد على الحد المطلوب لبقاء الحياة اسمه "إسراف" ﴿ وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ . لقد بدأوا يدخلون في الحق، لكنهم في البداية رأَوْا الباطل، والباطل هو من أسباب تخلي الحق عن نصرتنا أولا، لكن عندما يغفر سبحانه الذنب ويغفر الإسراف في الأمر نكون أهلاً للمدد وأهلاً لتثبيت الله.

﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ كيف يقول الحق ذلك والمفهوم في المعركة أن الأقدام لا تثبت ؟ المعركة تطلب من المقاتل أن يكون صوالاً جوالاً متحركا، إذن فما معنى ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ ؟ إن قول الحق : ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ يعني لا تجعلنا نفر من أرض المعركة، ولا نترك أرض المعركة أبدا.

ولذلك قلنا : إن الكفار عندما حدث منهم ما حدث لم يظلوا في ارض المعركة، بل تركوا أرض المعركة وانصرفوا، وهؤلاء المؤمنون ولو أنهم انهزموا إلا أنهم مكثوا في أرض المعركة مدة، وكروا وراء أعدائهم وطاردوهم. وقد اهتدى البشر أخيراً إلى هذا المعنى، ففي فرنسا نيشان يسمونه "نيشان الذبابة" لماذا الذبابة ؟ لأن الذبابة إن طردتها عن مكان لا بد أن تعود إليه، فكذلك المفروض على القائد – ما دام انسحب من منطقة – أن يوطن

نفسه على العودة إليها ، فيعطوه نيشان الذبابة .

فقوله : ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ في أي منطقة ؟ وفي أي معركة ؟ علينا ألا نبرح أماكننا ؛ لأننا ساعة أن نبرحها فهذه أول هزيمة ، وهذا أمر يُجرّئ العدو علينا .

﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ . كلمة ﴿ وانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ هي حيثية ، فما داموا قد قالوا : ﴿ وانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ فهم إذن مؤمنون ومؤمنون بحق ؛ ولذلك فإن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول قولته المشهورة : إنكم تنتصرون على عدوكم بطاعة الله ، فإن استويتم أنتم وهم في المعصية غلبوكم بعُدتهم وعَددهم .

ولذلك فالإيمان يتطلب أن تنتبهوا إلى موطن الضعف فيكم أولا ، والذي استوجب أن يصيبكم ما أصابكم ، حقاً إنكم لم تضعفوا ، ولم تستكينوا وأصابكم من المعركة شيء من التعب والألم . كأن الحق يوضح لنا أنهم قد تنبهوا فأحسنوا البحث في نفوسهم أولا ، لقد تكلموا عن الذنوب وطلبوا المغفرة وتكلموا عن الإسراف على النفس ، وبعد ذلك تكلموا عن المعركة . فماذا كان العطاء من الله ؟

ويأتينا الجواب في قوله الحق : ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ . . . ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1809 . 1811 ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

فلما تم الثناء على فعلهم وقولهم ذكر ما سببه لهم ذلك من الجزاء فقال ﴿ فأتاهم الله ﴾ المحيط علماً وقدرةً ﴿ ثواب الدنيا ﴾ أي بأن قبل دعاءهم بالنصر والغنى بالغنائم وغيرها وحسن الذكر وانشراح الصدر وزوال شبهات الشر .

ولما كان ثواب الدنيا كيف ما كان لا بد أن يكون بالكدر مشوباً وبالبلاء مصحوباً ، لأنها دار الأكدار ؛ أعراه من وصف الحسن ، وخص الآخرة به فقال : ﴿ وحسن ثواب الآخرة ﴾ أي مجازاً بتوفيقهم إلى الأسباب في الدنيا ، وحقيقة في الآخرة ، فإنهم أحسنوا في هذا الفعال والمقال ، لكونهم لم يطلبوا بعبادتهم غير وجه الله ، فأحبهم لإحسانهم ﴿ والله ﴾ المحيط بصفات الكمال ﴿ يحب المحسنين ﴾ كلهم ، فهو جدير بأن يفعل بهم كل جميل ولذلك رفع منزلتهم ولم يجعل ثوابهم بعضاً ، كما فعل بمن عبد لإرادة الثواب فقال : ﴿ نؤته منها ﴾ [آل عمران : 145] فقد بان أن هذه الآية منعطفة على ما أمر به الصحابة رضي الله عنهم على طريقة اللف والنشر المشوش ، فنفي الوهن تعريض بمن

أشير إليه في آية ﴿ ولقد كنتم تمنون الموت ﴾ [آل عمران : 143] ونحو ذلك والثناء لعى قولهم حث عل مثل ما ندبهم إليه في قولهم ﴿ ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾ [آل عمران : 135] وثبات الإقدام إشارة إلى ﴿ وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ [آل عمران : 139] وإلى أن ثبات القدم للنصر على أعداء الله كان شاغلاً لهم عن الالتفات إلى غيره ، وتعريض بمن أقبل على الغنائم وترك طلب العدو لتمام النصر المشار إليهم بآية ﴿ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ﴾ [آل عمران : 145] وإيتاء الثواب ناظر إلى النهي عن الربا وما انتظم في سلكه وداناه ، وإلى الأمر بالمسارعة إلى الجنة وما والاه ، وإيماء إلى أن من فعل فعلهم نال ما نالوا ، ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ، لأن علمه محيط ، وكرمه لا يحد ، وخزائنه لا تنفد ، بل لا تنقص ، ثم ختمها بما ختم به للحث على التخلق بأوصاف المتقين ؛ فقد اتضح بغير لبس أن المراد بهذه الآية - وهي الإخبار عن إيتائهم الثواب - التنبيه على أن أهم الأمور وأحقها بالبداءة التخلق بما

وعظوا به قبل قص القصة ، ولا ريب أن في مدح من سواهم تهييجاً زائداً لانبعاث نفوسهم وتحرك هممهم وتنبيه نشاطهم وثوران عزائمهم غيرة منهم أن يكون أحد - وهم خير أمة

أخرجت للناس – أعلى همة وأقوى عزيمة وأشد شكيمة وأصلب عوداً واثبت عموداً وأربط جاشاً وأذكر لله وأرغب فيما عنده وأزهد فيما أعرض عنه منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 165.164 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما شرح طريقة الربيين في الصبر ، وطريقتهم في الدعاء ذكر أيضا ما ضمن لهم في مقابلة ذلك في الدنيا والآخرة فقال : ﴿ فآتاهم الله ثَوَابَ الدنيا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخرة ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 24 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ فآتاهم الله ﴾ يقتضي أنه تعالى أعطاهم الأمرين ،

أما ثواب الدنيا فهو النصرة والغنيمة وقهر العدو والثناء الجميل ، وانشراح الصدر بنور الإيمان وزوال ظلمات الشبهات وكفارة المعاصي والسيئات ،

وأما ثواب الآخرة فلا شك أنه هو الجنة وما فيها من المنافع واللذات وأنواع السرور والتعظيم ، وذلك غير حاصل في الحال ، فيكون المراد أنه تعالى حكم لهم بحصولها في الآخرة ، فأقام حكم الله بذلك مقام نفس الحصول ، كما أن الكذب في وعد الله والظلم في عدله محال ، أو يحمل قوله : ﴿ فآتاهم ﴾ على أنه سيؤتيهم على قياس قوله : ﴿ أتى أَمْر

الله ﴾ [النحل : 1] أي سيأتي أمر الله .

قال القاضي : ولا يمتنع أن تكون هذه الآية مختصة بالشهداء ، وقد أخبر الله تعالى عن بعضهم أنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، فيكون حال هؤلاء الربيين أيضاً كذلك ، فإنه تعالى في حال إنزال هذه الآية كان قد آتاهم حسن ثواب الآخرة في جنان السماء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 24 ﴾

(269/131)

لطيفة

قال الفخر :

خص تعالى ثواب الآخرة بالحسن تنبيها على جلالة ثوابهم ، وذلك لأن ثواب الآخرة كله في غاية الحسن ، فما خصه الله بأنه حسن من هذا الجنس فانظر كيف يكون حسنه ، ولم يصف ثواب الدنيا بذلك لقلتها وامتزاجها بالمضار وكونها ، منقطعة زائلة ،

قال القفال رحمه الله : يحتمل أن يكون الحسن هو الحسن كقوله : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة : 83] أي حسنا ، والغرض منه المبالغة كأن تلك الأشياء الحسنة لكونها عظيمة في الحسن صارت نفس الحسن ، كما يقال : فلان جود وكرم ، إذا كان في غاية الجود والكرم

، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 24 . 25 ﴾

لطيفة

قال الفخر :

قال فيما تقدم : ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخرة نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ [آل عمران : 145] فذكر لفظة "من" الدالة على التبعيض فقال في الآية : ﴿ فآتاهم الله ثَوَابَ الدنيا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخرة ﴾ ولم يذكر كلمة "من" والفرق : أن الذين يريدون ثواب الآخرة إنما اشتغلوا بالعبودية لطلب الثواب ، فكانت مرتبتهم في العبودية نازلة ، وأما المذكورون في هذه الآية فإنهم لم يذكروا في أنفسهم إلا الذنب والقصور ، وهو المراد من قوله : ﴿ اغفر لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا ﴾ [آل عمران : 147] ولم يروا التدبير والنصرة والإعانة إلا من ربهم ، وهو المراد بقوله : ﴿ وَثَبّتْ أَقْدَامَنَا وانصرنا عَلَى القوم الكافرين ﴾ [آل عمران : 147] فكان مقام هؤلاء في العبودية في غاية الكمال ، فلا جرم أولئك فازوا ببعض الثواب ، وهؤلاء فازوا بالكل ، وأيضاً أولئك أرادوا الثواب ، وهؤلاء ما أرادوا الثواب .

(270/131)

وإنما أرادوا خدمة مولاهم فلا جرم أولئك حرموا وهؤلاء أعطوا ، ليعلم أن كل من أقبل على خدمة الله أقبل على خدمته كل ما سوى الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 25 ﴾

لطيفة

قال أبو حيان :

قال علي : من عمل لدنياه أضرّ بآخرته ، ومن عمل لآخرته أضرّ بدنياه ، وقد يجمعهما الله تعالى لأقوام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 82 ﴾

قوله تعالى : ﴿ والله يُحِبُّ المحسنين ﴾

لطيفة

قال الفخر :

﴿ والله يُحِبُّ المحسنين ﴾ وفيه دقيقة لطيفة وهي أن هؤلاء اعترفوا بكونهم مسيئين حيث قالوا : ﴿ رَبَّنَا اغفر لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا ﴾ فلما اعترفوا بذلك سماهم الله محسنين ، كأن الله تعالى يقول لهم :

إذا اعترفت بإساءتك وعجزك فأنا أصفك بالإحسان وأجعلك حبيبا لنفسي ، حتى تعلم أنه لا سبيل للعبد إلى الوصول إلى حضرة الله إلا بإظهار الذلة والمسكنة والعجز .

وأيضاً : إنهم لما أرادوا الإقدام على الجهاد طلبوا تثبيت أقدامهم في دينه ونصرتهم على

العدو من الله تعالى ، فعند ذلك سماهم بالمحسنين ، وهذا يدل على أن العبد لا يمكنه الإتيان بالفعل الحسن ، إلا إذا أعطاه الله ذلك الفعل الحسن وأعانه عليه ، ثم إنه تعالى قال : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإحسان إِلاَّ الإحسان ﴾ [الرحمن : 60] وقال : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : 26] وكل ذلك يدل على أنه سبحانه هو الذي يعطي الفعل الحسن للعبد ، ثم أنه يثيبه عليه ليعلم العبد أن الكل من الله وبإعانة الله . انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 25 ﴾

(271/131)

من فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فآتاهم الله ﴾ أي بسبب قولهم ذلك كما تؤذن به الفاء ﴿ ثَوَابَ الدنيا ﴾ أي النصر والغنيمة قاله ابن جريج وقال قتادة : الفتح والظهور والتمكن والنصر على عدوهم ، قيل : وتسمية ذلك ثواباً لأنه مترتب على طاعتهم ، وفيه إجلال لهم وتعظيم ، وقيل : تسمية ذلك ثواباً مجاز لأنه يحاكيه .

واستشكل تفسير ابن جريج بأن الغنائم لم تحل لأحد قبل الإسلام بل كانت الأنبياء إذا

غنموا مالاً جاءت نار من السماء فأخذته فكيف تكون الغنيمة ثواباً دنيوياً ولم يصل للغانمين منها شيء ؟! وأجيب بأن المال الذي تأخذه النار غير الحيوان، وأما الحيوان فكان يبقى للغانمين دون الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فكان ذلك هو الثواب الدنيوي ﴿ وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخرة ﴾ أي وثواب الآخرة الحسن، وهو عند ابن جريج رضوان الله تعالى ورحمته، وعند قتادة هي الجنة، وتخصيص الحسن بهذا الثواب للإيذان بفضله ومزيته وأنه المعتد به عنده تعالى، ولعل تقديم ثواب الدنيا عليه مراعاة للترتيب الوقوعي، أو لأنه أنسب بما قبله من الدعاء بالنصر على الكافرين.

﴿ والله يُحِبُّ المحسنين ﴾ تذييل مقرر لما قبله فإن محبة الله سبحانه للعبد مبدأ كل خير وسعادة، واللام إما للعهد ووضع الظاهر موضع المضمر إيذاناً بأن ما حكى عنهم من باب الإحسان، وإما للجنس وهم داخلون فيه دخولاً أولياً وفيه على كلا التقديرين ترغيب للمؤمنين في تحصيل ما حكى من المناقب الجليلة. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 4 صـ 86﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148) ﴾

قوله جلّ ذكره: ﴿ فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴾.

(272/131)

وأقل ذلك القناعة ثم الرضا ثم العيش معه ثم الأُنس في الجلوس بين يديه ثم كمال الفرح بلقائه ، ثم استقلال السرِّ بوجوده .

﴿ وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ﴾ .

يعني دخولهم الجنة محررون عنها ، غير داخلين في أسرها .

ويقال ثوابُ الدنيا والآخرة الغيبةُ عن الدارين برؤية خالقهما .

ولّما قال ﴿ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴾ قال في الآخرة ﴿ وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ﴾ فوجب أن يكون لثواب الآخرة مزية على ثواب الدنيا حيث خصّه بوصف الحسن ، وتلك المزية دوامها وتمامها وثمارها ، وأنها لا يشوبها ما ينافيها ، ويوقع آفةً فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 1 صـ 283.284﴾

(273/131)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾

بَعْدَ هَذَا بَيَّنَ اللهُ - تَعَالَى - حِكْمَةً أُخْرَى مِنْ أَعْظَمِ الْحِكَمِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِغَزْوَةِ أُحُدٍ وَهِيَ إِشَاعَةُ قَتْلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَا كَانَ مِنْ تَأْثِيرِهَا فِي الْمُسْلِمِينَ وَمَا كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا تَفْصِيلَ ذَلِكَ فِي الْقِصَّةِ قَبْلَ الشُّرُوعِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا فَقَالَ :

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟

إِلَخْ .

تَقَدَّمَ أَنَّهُ أُشِيعَ عِنْدَمَا فَرَّقَ خَالِدٌ جَمْعَ الْمُسْلِمِينَ فِي أُحُدٍ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَدْ

(274/131)

قُتِلَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي سَبَبِ ذَلِكَ : إِنَّ عَمْرَو بْنَ قَمِيئَةَ الْحَارِثِيَّ لَمَّا رُمِيَ الرَّسُولُ بِالْحَجَرِ فَشَجَّ رَأْسَهُ وَكَسَرَ سِنَّهُ أَقْبَلَ يُرِيدُ قَتْلَهُ فَذَبَّ عَنْهُ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ صَاحِبُ رَايَةِ الْمُسْلِمِينَ

يَوْمَئِذٍ حَتَّى قُتِلَ فَظَنَّ أَنَّهُ قَتَلَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: قَتَلْتُ مُحَمَّدًا. فَصَرَخَ بِهَا الصَّارِخُ حَتَّى سَمِعَهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَفَشَتْ فِي النَّاسِ، فَوَهَنَ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ وَضَعُفُوا وَاسْتَكَانُوا مِنْ شِدَّةِ الْحُزْنِ، وَقَالَ بَعْضُ الضُّعَفَاءِ: لَيْتَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ يَأْخُذُ لَنَا مِنْ أَبِي سُفْيَانَ أَمَانًا، وَقَالَ قَوْمٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ: لَوْ كَانَ نَبِيًّا لَمَا قُتِلَ، ارْجِعُوا إِلَى إِخْوَانِكُمْ وَإِلَى دِينِكُمْ، وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ جَرِيرٍ عَنِ السُّدِّيِّ: "وَفَشَا فِي النَّاسِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَدْ قُتِلَ، فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِ الصَّخْرَةِ - أَيِ الَّذِينَ فَرُّوا إِلَى الْجَبَلِ فَقَامُوا عَلَى صَخْرَةٍ مِنْهُ - لَيْتَ لَنَا رَسُولًا إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ فَيَأْخُذَ لَنَا أَمَنَةً مِنْ أَبِي سُفْيَانَ، يَا قَوْمِ إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ فَارْجِعُوا إِلَى قَوْمِكُمْ قَبْلَ أَنْ يَأْتُوكُمْ فَيَقْتُلُوكُمْ" وَقَالَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ مَا يَأْتِي عَنْ قَرِيبٍ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ الْمُوقِنُونَ فَمِنْهُمْ مَنْ ثَبَتَ مَعَهُ وَمَنْ كَانَ بَعِيدًا فَرَجَعَ إِلَيْهِ، مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَأَبُو دُجَانَةَ الَّذِي جَعَلَ نَفْسَهُ تُرْسًا دُونَهُ فَكَانَ يَقَعُ عَلَيْهِ النَّبْلُ وَهُوَ لَا

يَتَحَرَّكُ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي بَيَانِ حُكْمِ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ: هَذِهِ الْآيَةُ كَانَتْ مُقَدِّمَةً وَإِرْهَاصًا بَيْنَ يَدَيْ مَوْتِ

رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وَذَكَرَ أَنَّ تَوْبِيخَ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ قَدْ ظَهَرَ أَثَرُهُ يَوْمَ وَفَاةِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَدِ ارْتَدَّ مَنِ ارْتَدَّ عَلَى عَقِبَيْهِ وَثَبَتَ الصَّادِقُونَ عَلَى دِينِهِ حَتَّى كَانَتِ الْعَاقِبَةُ لَهُمْ ، أَقُولُ : وَلَا يُنَافِي هَذِهِ الْحِكْمَةَ كَوْنُ الْوَقْعَةِ كَانَتْ قَبْلَ وَفَاتِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِبِضْعِ سِنِينَ – لِأَنَّ غَزْوَةَ أُحُدٍ كَانَتْ فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ – فَإِنَّ تَوْطِينَ نَفْسِ الْأُمَّةِ الْكَبِيرَةِ عَلَى الشَّيْءِ وَإِعْدَادِهَا لَهُ لَا يَكُونُ قَبْلَ وُقُوعِهِ بِيَوْمٍ أَوْ أَيَّامٍ أَوْ شُهُورٍ بَلْ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ زَمَنٍ يَكْفِي لِتَعْمِيمِهِ فِيهَا وَصَيْرُورَتِهِ مِنَ الْأُمُورِ الْمُسَلَّمَةِ الْمَشْهُورَةِ عِنْدَهَا حَتَّى لَا يَغِيبَ عَنِ الْأَذْهَانِ .

وَحَاصِلُ الْمَعْنَى أَنَّ مُحَمَّدًا لَيْسَ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا قَدْ خَلَتْ وَمَضَتِ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِهِ فَمَاتُوا وَقَدْ قُتِلَ بَعْضُ النَّبِيِّينَ كَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى فَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنْهُمُ الْخُلْدُ وَهُوَ لَا بُدَّ أَنْ تَحْكُمَ عَلَيْهِ سُنَّةُ

(276/131)

اللهِ بِالْمَوْتِ فَيَخْلُو كَمَا خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِ ، إِذْ لَا بَقَاءَ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ ، وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ الْمُوَحِّدِ أَنْ يَعْتَقِدَهُ لِغَيْرِهِ ، أَفَإِنْ مَاتَ كَمَا مَاتَ مُوسَى وَعِيسَى ، أَوْ قُتِلَ كَمَا قُتِلَ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى تَنْقَلِبُونَ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، أَيْ تُوَلُّونَ الدُّبُرَ رَاجِعِينَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ ، يَهْدِيهِمُ اللهُ بِهَذَا إِلَى أَنَّ الرَّسُولَ

لَيْسَ مَقْصُودًا لِذَاتِهِ فَيَبْقَى لِلنَّاسِ ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ مِنْ إِرْسَالِهِ مَا أُرْسِلَ بِهِ مِنَ الْهِدَايَةِ فَيَجِبُ الْعَمَلُ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ ، كَمَا وَجَبَ فِي عَهْدِهِ ، وَلِلَّهِ دَرُّ أَنَسِ بْنِ النَّضْرِ وَرَضِيَ عَنْهُ فَإِنَّهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الَّتِي زَاغَتْ فِيهَا الْأَبْصَارُ وَالْبَصَائِرُ ، وَاشْتَدَّ الْكَرْبُ حَتَّى بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ، وَقَالَ بَعْضُ الضُّعَفَاءِ وَالْمُنَافِقِينَ مَا قَالُوا ، قَدْ قَالَ : "يَا قَوْمِ إِنْ مُحَمَّدٌ قُتِلَ فَإِنَّ رَبَّ مُحَمَّدٍ لَمْ يُقْتَلْ فَقَاتِلُوا عَلَى مَا قَاتَلَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ ، وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ هَؤُلَاءِ " ثُمَّ شَدَّ بِسَيْفِهِ وَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ .

(277/131)

قَالَ فِي الْكَشَّافِ : " وَالِانْقِلَابُ عَلَى الْأَعْقَابِ : الْإِدْبَارُ عَمَّا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُومُ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْجِهَادِ وَغَيْرِهِ ، وَقِيلَ : الِارْتِدَادُ ، وَمَا ارْتَدَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ذَلِكَ الْيَوْمَ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ قَوْمِ الْمُنَافِقِينَ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَلَى وَجْهِ التَّغْلِيظِ عَلَيْهِمْ فِيمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْفِرَارِ وَالِانْكِشَافِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَإِسْلَامِهِ " وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنَّ كَلِمَةَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ مِنْ قَبِيلِ الْمَثَلِ تُضْرَبُ لِمَنْ رَجَعَ عَنِ الشَّيْءِ بَعْدَ الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ ، وَالْأَحْسَنُ أَنْ تَكُونَ عَامَّةً تَشْمَلُ الِارْتِدَادَ عَنِ الدِّينِ الَّذِي جَاهَرَ بِالدَّعْوَةِ

إِلَيْهِ بَعْضُ الْمُنَافِقِينَ ، وَالِارْتِدَادُ عَنِ الْعَمَلِ كَالْجِهَادِ وَمُكَافَحَةِ الْأَعْدَاءِ وَتَأْيِيدِ الْحَقِّ ، وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ .

قَالَ - تَعَالَى - : وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا لِأَنَّهُ وَعْدٌ بِأَنْ يَنْصُرَ مَنْ يَنْصُرُهُ وَيُعِزَّ دِينَهُ وَيَجْعَلَ كَلِمَتَهُ هِيَ الْعُلْيَا وَهُوَ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ لَا يَحُولُ دُونَ إِنْجَازِهِ ارْتِدَادُ بَعْضِ الضُّعَفَاءِ وَالْمُنَافِقِينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ ، فَإِنَّهُ يُثَبِّتُ الْمُؤْمِنِينَ وَيُمَحِّصُهُمْ

(278/131)

حَتَّى يَكُونُوا كَالتِّبْرِ الْخَالِصِ وَبِهِمْ يُقِيمُ دِينَهُ ; وَلِذَلِكَ قَالَ : وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ لَهُ نِعَمَهُ عَلَيْهِمْ بِالْقُوَى الْعَقْلِيَّةِ وَالْجَسَدِيَّةِ وَبِالْإِيمَانِ وَالْهِدَايَةِ ، الْقَائِمِينَ بِحُقُوقِهَا فِي حَيَاةِ رَسُولِهِ وَبَعْدَ مَوْتِهِ عَلَى سَوَاءٍ ، يَأْتُونَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَا يُمْكِنُ الْإِتْيَانُ بِهِ ، لَا يَأْلُونَ جُهْدًا ، وَلَا يُقَصِّرُونَ فِي شَيْءٍ عَمْدًا ، إِذْ لَمْ يَكُنْ عَمَلُهُمْ لِوَجْهِ الرَّسُولِ فَيَبْطُلَ إِذَا غَيَّبَهُ الْمَوْتُ عَنْهُمْ ، وَإِنَّمَا هُوَ لِوَجْهِ اللَّهِ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ وَهُوَ لَا يَمُوتُ وَلَا يَزُولُ .

الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِرْشَادٌ لَنَا إِلَى أَلَّا نَجْعَلَ الْمَصَائِبَ الشَّخْصِيَّةَ دَلِيلًا عَلَى كَوْنِ مَنْ تُصِيبُهُ عَلَى بَاطِلٍ أَوْ عَلَى حَقٍّ ، فَإِنَّ مِنَ الْجَائِزِ عَقْلًا وَالْوَاقِعِ فِعْلًا أَنْ يُبْتَلَى صَاحِبُ الْحَقِّ بِالْمَصَائِبِ وَالرَّزَايَا ، وَأَنْ يُبْتَلَى صَاحِبُ الْبَاطِلِ بِالنِّعَمِ وَالْعَطَايَا ، كَمَا أَنَّ عَكْسَ ذَلِكَ

جَائِزٌ وَوَاقِعٌ، وَتُعَلِّمُنَا أَيْضًا أَلَّا نَعْتَمِدَ فِي مَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ عَلَى وُجُودِ الْمُعَلِّمِ بِحَيْثُ نَتْرُكُهُمَا بَعْدَ ذَهَابِهِ أَوْ مَوْتِهِ، وَإِنَّمَا نَعْتَمِدُ عَلَى مَعْرِفَتِهِمَا وَالتَّحَقُّقِ بِهِمَا وَالسَّيْرِ عَلَى مِنْهَاجِهِمَا فِي حَالِ

(279/131)

وُجُودِ الْمُعَلِّمِ وَبَعْدَهُ، فَكَأَنَّ اللهَ - تَعَالَى - يَقُولُ: عَلَيْكُمْ أَنْ تَسْتَضِيئُوا بِالنُّورِ وَتَتَقَلَّدُوا سَيْفَ الْبُرْهَانِ اللَّذَيْنِ جَاءَكُمْ بِهِمَا مُحَمَّدٌ، وَأَمَّا مَا يُصِيبُ جِسْمَهُ مِنْ جُرْحٍ أَوْ أَلَمٍ، وَمَا يَعْرِضُ لَهُ مِنْ حَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ فَلَا مَدْخَلَ لَهُ فِي صِحَّةِ دَعْوَتِهِ، وَلَا فِي إِضْعَافِ النُّورِ الَّذِي جَاءَ بِهِ، فَلَا مَعْنَى إِذًا لِتَعْلِيقِ إِيمَانِكُمْ بِحَيَاتِهِ أَوْ سَلَامَةِ بَدَنِهِ مِمَّا يَعْرِضُ لَهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، خَاضِعٌ لِسُنَنِ اللهِ كَخُضُوعِكُمْ.

(280/131)

أَقُولُ: قَدْ غَفَلَ عَنْ هَذَا مَنْ أَهْمَلَ هِدَايَةَ الْقُرْآنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (جِنْسِيَّةً لَا إِذْعَانًا وَمَعْرِفَةً) فَتَرَاهُمْ إِذَا سَاءَ اعْتِقَادُهُمْ فِي رَجُلٍ - كَأَنْ خَالَفَ تَقَالِيدَهُمْ أَوْ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ أَهْوَاءَهُمْ -

يَتَرَبَّصُونَ بِهِ الدَّوَائِرَ فَإِذَا أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ زَعَمُوا أَنَّ اللهَ – تَعَالَى – قَدِ انْتَقَمَ مِنْهُ حُبًّا لَهُمْ وَبُغْضًا فِيهِ ! فَإِنْ كَانَ مَعَ ذَلِكَ مُتَّهَمًا بِالْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ يَعْتَقِدُونَ صَلَاحَهُمْ وَوِلَايَتَهُمْ ، قَالُوا إِنَّهُمْ قَدْ تَصَرَّفُوا فِيهِ ! ! وَيَغْفُلُونَ عَمَّا أَصَابَ النَّبِيَّ فِي أُحُدٍ وَمَا أَصَابَ كَثِيرًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ ، بَلْ يَعْمُونَ عَمَّا يُصِيبُ مُعْتَقَدِيهِمْ وَأَوْلِيَاءَهُمْ فِي عَهْدِهِمْ . لَمَّا حُبِسَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي عَاقِبَةِ الثَّوْرَةِ الْعُرَابِيَّةِ قَالَ بَعْضُ هَؤُلَاءِ الْمَغْرُورِينَ : إِنَّهُ حُبِسَ كَرَامَةً لِلشَّيْخِ عِلِيشٍ لِأَنَّهُ – أَيِ الشَّيْخَ عِلِيشٍ – كَانَ يَكْرَهُهُ ، فَبَلَغَهُ ذَلِكَ وَكَانَ الشَّيْخُ عِلِيشٍ مَحْبُوسًا أَيْضًا فَقَالَ : لِمَاذَا أَكُونُ حُبِسْتُ كَرَامَةً لَهُ وَلَمْ يَكُنْ هُوَ الَّذِي حُبِسَ كَرَامَةً لِي ; لِأَنَّهُ أَسَاءَ بِي الظَّنَّ وَقَالَ السُّوءَ لِتَصْدِيقِهِ فِي الْوُشَاةَ النَّمَّامِينَ وَأَنَا لَمْ أَقُلْ فِيهِ شَيْئًا ؟ السَّبَبُ فِي
حَبْسِ كُلٍّ مِنَّا وَاحِدٌ ، فَلِمَاذَا كَانَ كَرَامَةً لِوَاحِدٍ وَانْتِقَامًا مِنَ الْآخَرِ ؟

(281/131)

وَلَا يَخْفَى عَلَى الْمُؤْمِنِ الْعَارِفِ أَنَّ هَذَا الِاعْتِقَادَ يُعَارِضُ التَّوْحِيدَ الْخَالِصَ ; وَلِذَلِكَ كَانَ مِنَ الْمَقَاصِدِ فِي الْآيَةِ وَالْحُكْمِ فِي سَبَبِهَا تَقْرِيرُ التَّوْحِيدِ بِبَيَانِ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ كَسَائِرِ الْبَشَرِ فِي الْخُضُوعِ لِسُنَنِ اللهِ وَنِظَامِ خَلْقِهِ .
قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي بَيَانِ مَزَايَا الْإِسْلَامِ مِنْ رِسَالَةِ التَّوْحِيدِ مَا نَصُّهُ :

(282/131)

"ثُمَّ أَمَاطَ (أَيِ الْإِسْلَامُ) اللِّثَامَ عَنْ حَالِ الْإِنْسَانِ فِي النِّعَمِ الَّتِي يَتَمَتَّعُ بِهَا الْأَشْخَاصُ أَوِ الْأُمَّةُ، وَالْمَصَائِبُ الَّتِي يُرْزَءُونَ بِهِ، فَفَصَلَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فَصْلًا لَا مَجَالَ مَعَهُ لِلْخَلْطِ بَيْنَهُمَا، فَأَمَّا النِّعَمُ الَّتِي يُمَتِّعُ اللَّهُ بِهَا بَعْضَ الْأَشْخَاصِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَالرَّزَايَا الَّتِي يُرْزَأُ بِهَا فِي نَفْسِهِ فَكَثِيرٌ مِنْهَا كَالثَّرْوَةِ وَالْجَاهِ وَالْقُوَّةِ وَالْبَنِينَ أَوِ الْفَقْرِ وَالضَّعَةِ وَالضَّعْفِ وَالْفَقْدِ رُبَّمَا لَا يَكُونُ كَاسِبُهَا أَوْ جَالِبُهَا مَا عَلَيْهِ الشَّخْصُ فِي سِيرَتِهِ مِنِ اسْتِقَامَةٍ وَعِوَجٍ أَوْ طَاعَةٍ وَعِصْيَانٍ، كَثِيرًا مَا أَمْهَلَ اللَّهُ بَعْضَ الطُّغَاةِ الْبُغَاةِ أَوِ الْفَجَرَةِ الْفَسَقَةِ وَتَرَكَ لَهُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِنْظَارًا لَهُمْ حَتَّى يَتَلَقَّاهُمْ مَا أَعَدَّ مِنَ الْعَذَابِ الْمُقِيمِ فِي الْحَيَاةِ الْأُخْرَى وَكَثِيرًا مَا امْتَحَنَ اللَّهُ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ، وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ فِي الِاسْتِسْلَامِ لِحُكْمِهِ، وَهُمُ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ عَبَّرُوا عَنْ إِخْلَاصِهِمْ فِي التَّسْلِيمِ بِقَوْلِهِمْ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ [2 : 156] فَلَا غَضَبُ زَيْدٍ وَلَا رِضَا عَمْرٍو وَلَا إِخْلَاصُ سَرِيرَةٍ وَلَا فَسَادُ عَمَلٍ مِمَّا يَكُونُ لَهُ فِي هَذِهِ الرَّزَايَا، وَلَا فِي تِلْكَ النِّعَمِ الْخَاصَّةِ، اللَّهُمَّ

(283/131)

إِلَّا فِيمَا ارْتِبَاطُهُ بِالْعَمَلِ ارْتِبَاطُ الْمُسَبَّبِ بِالسَّبَبِ عَلَى جَارِي الْعَادَةِ كَارْتِبَاطِ الْفَقْرِ بِالْإِسْرَافِ ، وَالذُّلِّ بِالْجُبْنِ وَضَيَاعِ السُّلْطَانِ بِالظُّلْمِ ، وَكَارْتِبَاطِ الثَّرْوَةِ بِحُسْنِ التَّدْبِيرِ فِي الْأَغْلَبِ ، وَالْمَكَانَةِ عِنْدَ النَّاسِ بِالسَّعْيِ فِي مَصَالِحِهِمْ عَلَى الْأَكْثَرِ ، وَمَا يُشْبِهُ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مُبَيَّنٌ فِي عِلْمٍ آخَرَ .

" أَمَّا شَأْنُ الْأُمَمِ فَلَيْسَ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ الرُّوحَ الَّذِي أَوْدَعَهُ اللهُ جَمِيعَ شَرَائِعِهِ الْإِلَهِيَّةِ مِنْ تَصْحِيحِ الْفِكْرِ وَتَسْدِيدِ النَّظْرَةِ وَتَأْدِيبِ الْأَهْوَاءِ وَتَحْدِيدِ مَطَامِحِ الشَّهَوَاتِ ، وَالدُّخُولِ إِلَى كُلِّ أَمْرٍ مِنْ بَابِهِ ، وَطَلَبِ كُلِّ رَغِيبَةٍ مِنْ أَسْبَابِهَا ، وَحِفْظِ الْأَمَانَةِ ، وَاسْتِشْعَارِ الْأُخُوَّةِ ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ ، وَالتَّنَاصُحِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُصُولِ الْفَضَائِلِ - ذَلِكَ الرُّوحُ هُوَ مَصْدَرُ حَيَاةِ الْأُمَمِ وَمَشْرِقِ سَعَادَتِهَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَلَنْ يَسْلُبَ اللهُ عَنْهَا نِعْمَتَهُ مَا دَامَ هَذَا الرُّوحُ

فِيهَا ، يَزِيدُ اللهُ النِّعَمَ بِقُوَّتِهِ ، وَيُنْقِصُهَا بِضَعْفِهِ حَتَّى إِذَا فَارَقَهَا ذَهَبَتِ السَّعَادَةُ عَلَى أَثَرِهِ وَتَبِعَتْهُ الرَّاحَةُ إِلَى مَقَرِّهِ ، وَغَيَّرَ اللهُ عِزَّةَ الْقَوْمِ بِالذِّلَّةِ ، وَكُثْرَهُمْ بِالْقِلِّ ، وَنَعِيمَهُمْ بِالشَّقَاءِ ، وَرَاحَتَهُمْ بِالْعَنَاءِ ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِمُ الظَّالِمِينَ أَوِ الْعَادِلِينَ فَأَخَذَهُمْ بِهِمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ سَاهُونَ

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا [17 : 16] ، أَمَرْنَاهُمْ بِالْحَقِّ فَفَسَقُوا عَنْهُ إِلَى الْبَاطِلِ ، ثُمَّ لَا يَنْفَعُهُمُ الْأَنِينُ وَلَا يُجْدِيهِمُ الْبُكَاءُ ، وَلَا يُفِيدُهُمْ مَا بَقِيَ مِنْ صُوَرِ الْأَعْمَالِ وَلَا يُسْتَجَابُ مِنْهُمُ الدُّعَاءُ ، وَلَا كَاشِفَ لِمَا نَزَلَ بِهِمْ إِلَّا أَنْ يَلْجَئُوا إِلَى ذَلِكَ الرُّوحِ الْأَكْرَمِ فَيَسْتَنْزِلُوهُ مِنْ سَمَاءِ الرَّحْمَةِ بِرُسُلِ الْفِكْرِ وَالذِّكْرِ وَالصَّبْرِ وَالشُّكْرِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ [13 : 11] سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا [33 : 62] وَمَا أَجَلَّ مَا قَالَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فِي اسْتِسْقَائِهِ : " اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ بَلَاءٌ إِلَّا بِذَنْبٍ وَلَمْ يُرْفَعْ إِلَّا بِتَوْبَةٍ " عَلَى هَذِهِ السُّنَنِ جَرَى سَلَفُ الْأُمَّةِ ، فَبَيْنَمَا كَانَ الْمُسْلِمُ يَرْفَعُ رُوحَهُ بِهَذِهِ الْعَقَائِدِ السَّامِيَةِ وَيَأْخُذُ نَفْسَهُ بِمَا يُتْبِعُهَا مِنَ الْأَعْمَالِ الْجَلِيَّةِ كَانَ غَيْرُهُ يَظُنُّ أَنَّهُ يُزَلْزِلُ الْأَرْضَ بِدُعَائِهِ

وَيَشُقُّ الْفُلْكَ بِبُكَائِهِ ، وَهُوَ وَلِعٌ بِأَهْوَائِهِ مَاضٍ فِي غُلَوَائِهِ ، وَمَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُ ظَنُّهُ مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا اهـ .

أَقُولُ : وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْهِدَايَةِ وَالْإِرْشَادِ أَيْضًا أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ اسْتِمْرَارُ الْحَرْبِ وَعَدَمُهُ مُتَعَلِّقًا بِوُجُودِ الْقَائِدِ بِحَيْثُ إِذَا قُتِلَ يَنْهَزِمُ الْجَيْشُ أَوْ يَسْتَسْلِمُ لِلْأَعْدَاءِ ، بَلْ يَجِبُ أَنْ

تَكُونَ الْأَعْمَالُ وَالْمَصَالِحُ الْعَامَّةُ جَارِيَةً عَلَى نِظَامٍ ثَابِتٍ لَا يُزَلْزِلُهُ فَقْدُ الرُّؤَسَاءِ ، وَهَذَا مَا عَلَيْهِ نِظَامُ الْحُرُوبِ وَالْحُكُومَاتِ فِي هَذَا الْعَصْرِ ، وَقَدْ كَانَ أَكْثَرُ النَّاسِ فِي الْعُصُورِ الْقَدِيمَةِ تَبَعًا لِرُؤَسَائِهِمْ يَحْيَوْنَ لِحَيَاتِهِمْ وَيُخْذَلُونَ بِمَوْتِهِمْ ، حَتَّى إِنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ وُجُودَ الْجَيْشِ الْعَظِيمِ بَعْدَ فَقْدِ الْقَائِدِ كَالْعَدَمِ .

إِنَّ الْأُمَّةَ الَّتِي تُقَدِّرُ هَذِهِ الْهِدَايَةَ حَقَّ قَدْرِهَا تُعِدُّ لِكُلِّ عِلْمٍ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَلِكُلِّ عَمَلٍ تَقُومُ مَصَالِحُهَا بِهِ رِجَالًا كَثِيرِينَ ، فَلَا تَفْقِدُ مُعَلِّمًا وَلَا مُرْشِدًا وَلَا حَاكِمًا وَلَا قَائِدًا وَلَا رَئِيسًا وَلَا زَعِيمًا إِلَّا وَيُوجَدُ فِيهَا مَنْ يَقُومُ مَقَامَهُ وَيُؤَدِّي لَهَا مِنَ الْخِدْمَةِ مَا كَانَ يُؤَدِّيهِ ، فَهِيَ لَا تَحْصُرُ الِاسْتِعْدَادَ لِشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ فِي فَرْدٍ مِنَ الْأَفْرَادِ ، وَلَا تَقْصُرُ الْقِيَامَ بِأَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ عَلَى نَابِغٍ وَاحِدٍ مِنَ النَّابِغِينَ ، وَلَا يَتَجَرَّأُ فِيهَا حَاكِمٌ

(286/131)

وَلَا زَعِيمٌ عَلَى احْتِكَارِ عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ أَوْ عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ ، بَلْ تَتَسَابَقُ فِيهَا الْهِمَمُ إِلَى الِاسْتِعْدَادِ لِكُلِّ شَيْءٍ يُمْكِنُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ كَسْبُ الْبَشَرِ ، وَيَنَالُ مِنْهُ الْعَامِلُ بِقَدْرِ هِمَّتِهِ وَسَعْيِهِ وَتَأْيِيدِ التَّوْفِيقِ لَهُ ، فَأَيْنَ نَحْنُ مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذِهِ الْهِدَايَةِ الْيَوْمَ ؟ .

(287/131)

بَعْدَ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ – قَاعِدَةِ الاعْتِمَادِ عَلَى التَّحَقُّقِ بِالْعُلُومِ وَالنُّهُوضِ بِالْأَعْمَالِ دُونَ الاتِّكَالِ عَلَى أَفْرَادِ الرِّجَالِ – هَدَانَا اللهُ جَلَّ شَأْنُهُ إِلَى قَاعِدَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ فَقَالَ : وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا الْآيَةَ . قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مَا مِثَالُهُ : تِلْكَ قَضِيَّةٌ وَهَذِهِ قَضِيَّةٌ أُخْرَى ، وَوَجْهُ الاتِّصَالِ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْمُرَادَ بِتِلْكَ لَوْمُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا وَقَعَ مِنْهُمْ إِذْ بَلَغَهُمْ قَتْلُ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَالْمُرَادُ بِهَذِهِ بَيَانُ أَنَّهُ لَوْ قُتِلَ لَمَا كَانَ قَتْلُهُ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَشِيئَتِهِ ، فَهُوَ تَوْبِيخٌ لِمَنِ انْدَهَشَ مِنْ خَبَرِ مَوْتِهِ كَأَنَّهُمْ بِسَبَبِ زِلْزَالِهِمْ وَزَعْزَعَةِ عَقَائِدِهِمْ قَدْ جَعَلُوا مَوْتَهُ جِنَايَةً مِنْهُ ، فَأَذَاقَهُمْ – تَعَالَى – بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ مَرَارَةَ خَطَئِهِمْ وَأَرَاهُمْ بِهَا قُبْحَ جَهْلِهِمْ ; كَأَنَّهُ يَقُولُ : إِنَّ مُحَمَّدًا يَدْعُوكُمْ إِلَى اللهِ – أَيْ لَا إِلَى نَفْسِهِ – فَلَوْ كَانَ هَذَا الْمَوْتُ يَقَعُ بِدُونِ إِذْنِ اللهِ لَكَانَ الِانْقِلَابُ صَوَابًا ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ هَذَا الْمَوْتُ لَا يَقَعُ إِلَّا بِإِذْنِهِ – تَعَالَى – إِذْ لَيْسَ لِأَحَدٍ فِي الْعَالَمِ سُلْطَانٌ يَقْهَرُهُ وَيُوقِعُ فِي مُلْكِهِ شَيْئًا بِالْكُرْهِ مِنْهُ ، فَلَا مَعْنَى لِزَلْزَلَةٍ تَقْتَكُمْ عَنِ الْمُضِيِّ فِيمَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ مَعَ النَّبِيِّ فِي حَيَاتِهِ ; لِأَنَّ اللهَ لَمْ يَزَلْ حَيًّا بَاقِيًا عَلِيمًا حَكِيمًا .

قَالَ : وَفِي الْآيَةِ مَعْنًى آخَرَ ، وَهُوَ أَنَّهُ مَا دَامَ مَحْيَانَا وَمَمَاتُنَا بِيَدِ اللهِ فَلَا مَحَلَّ لِلْجُبْنِ وَالْخَوْفِ ، وَلَا عُذْرَ فِي الْوَهَنِ وَالضَّعْفِ ، وَفِيهَا تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا ، وَهُوَ أَنَّ الْمَوْتَ لَا يَدُلُّ عَلَى بُطْلَانِ مَا كَانَ عَلَيْهِ مَنْ يَمُوتُ وَلَا عَلَى حَقِّيَّتِهِ ، وَذَكَرَ أَنَّ صَاحِبَ الْكَشَّافِ جَعَلَ الْجُمْلَةَ تَمْثِيلًا ، فَنَذْكُرُ عِبَارَتَهُ فِي حَلِّهَا قَالَ :

" الْمَعْنَى أَنَّ مَوْتَ الْأَنْفُسِ مُحَالٌ أَنْ يَكُونَ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ فَأَخْرَجَهُ مَخْرَجَ فِعْلٍ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُقْدِمَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لَهُ فِيهِ تَمْثِيلًا ، وَلِأَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ هُوَ الْمُوَكَّلُ بِذَلِكَ ، فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَقْبِضَ نَفْسًا إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ . وَهُوَ عَلَى مَعْنَيَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) تَحْرِيضُهُمْ عَلَى الْجِهَادِ وَتَشْجِيعُهُمْ عَلَى لِقَاءِ الْعَدُوِّ بِإِعْلَامِهِمْ أَنَّ الْحَذَرَ لَا يَنْفَعُ ، وَأَنَّ أَحَدًا لَا يَمُوتُ قَبْلَ بُلُوغِ أَجَلِهِ ، وَإِنْ خَاضَ الْمَهَالِكَ ، وَاقْتَحَمَ الْمَعَارِكَ . (الثَّانِي) ذِكْرُ مَا صَنَعَ اللهُ بِرَسُولِهِ عِنْدَ غَلَبَةِ الْعَدُوِّ وَالْتِفَافِهِمْ عَلَيْهِ وَإِسْلَامِ قَوْمِهِ لَهُ نُهْزَةً لِلْمُخْتَلِسِ مِنَ الْحِفْظِ وَالْكَلَاءَةِ وَتَأْخِيرِ الْأَجَلِ " انْتَهَى قَوْلُ الْكَشَّافِ .

وَقَالَ أَبُو السُّعُودِ : " فِي الْجُمْلَةِ كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ سِيقَ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى خَطَئِهِمْ فِيمَا فَعَلُوا حَذَرًا

مِنْ قَتْلِهِمْ وبِنَاءً عَلَى الْإِرْجَافِ بِقَتْلِهِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ – بِبَيَانِ أَنَّ مَوْتَ كُلِّ نَفْسٍ مَنُوطٌ بِمَشِيئَةِ اللهِ – إِلَى أَنْ قَالَ فِي قَوْلِهِ : إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ – اسْتِثْنَاءٌ مُفَرَّغٌ مِنْ أَعَمِّ الْأَسْبَابِ ، أَيْ وَمَا كَانَ الْمَوْتُ حَاصِلًا لِنَفْسٍ مِنَ النُّفُوسِ بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ تَعَالَى ، وَسَوْقُ الْكَلَامِ مَسَاقَ التَّمْثِيلِ بِتَصْوِيرِ الْمَوْتِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى النُّفُوسِ بِصُورَةِ الْأَفْعَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ الَّتِي لَا يَتَسَنَّى لِلْفَاعِلِ إِيقَاعُهَا وَالْإِقْدَامُ عَلَيْهَا بِدُونِ إِذْنِهِ تَعَالَى ، أَوْ بِتَنْزِيلِ إِقْدَامِهَا عَلَيْهِ أَوْ عَلَى مَبَادِيهِ وَسَعْيِهَا فِي إِيقَاعِهِ مَنْزِلَةَ الْإِقْدَامِ عَلَى نَفْسِهِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي تَحْقِيقِ الْمَرَامِ؛ فَإِنَّ مَوْتَهَا حَيْثُ اسْتَحَالَ وُقُوعُهُ عِنْدَ إِقْدَامِهَا عَلَيْهِ أَوْ عَلَى مَبَادِيهِ وَسَعْيِهَا فِي إِيقَاعِهِ فَلَأَنْ يَسْتَحِيلَ عِنْدَ عَدَمِ ذَلِكَ أَوْلَى وَأَظْهَرُ ، وَفِيهِ مِنَ التَّحْرِيضِ عَلَى الْقِتَالِ مَا لَا يَخْفَى " اهـ .

(290/131)

أَقُولُ : وَقَدْ بَيَّنَ صَاحِبُ الْكَشَّافِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ أَنَّ النَّفْيَ فِي مِثْلِ هَذَا التَّعْبِيرِ لِلشَّأْنِ لَا لِمُجَرَّدِ الْفِعْلِ ، وَهُوَ يُفَسِّرُ مِثْلَ " مَا كَانَ اللهُ لِيَفْعَلَ كَذَا " بِنَحْوِ قَوْلِهِ : مَا صَحَّ مِنْهُ وَمَا اسْتَقَامَ لَهُ ، أَيْ لَيْسَ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِهِ الصَّحِيحِ الْمَعْهُودِ وَلَا مِنْ سُنَنِهِ الْمُسْتَقِيمَةِ الْمُطَّرِدَةِ ، وَلَكِنَّهُ (أَيْ صَاحِبَ الْكَشَّافِ) لَمْ يُبَيِّنْ ذَلِكَ بِقَاعِدَةٍ وَاضِحَةٍ يَجْرِي عَلَيْهَا بِتَعْبِيرٍ يُؤَدِّي الْمَعْنَى بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ . وَأَوْضَحُ مَا يُقَالُ فِي هَذِهِ التَّعْبِيرَاتِ وَأَصَحُّهُ : أَنَّهُ بَيَانٌ لِكَوْنِ

هَذَا الْمَنْفِيِّ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ اللهِ وَلَا مِنْ سُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ ، فَمَعْنَى وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ النُّفُوسِ وَلَا مِنْ سُنَّةِ اللهِ فِيهَا أَنْ تَمُوتَ بِغَيْرِ إِذْنِهِ وَمَشِيئَتِهِ الَّتِي يُجْرِي بِهَا نِظَامَ الْحَيَاةِ وَارْتِبَاطَ الْأَسْبَابِ فِيهَا بِالْمُسَبَّبَاتِ ، وَسَيَأْتِي مِثْلُ هَذَا التَّعْبِيرِ فِي آيَاتٍ أُخْرَى مِنْ هَذَا السِّيَاقِ فَتُؤَكِّدُ أَنَّ هَذَا هُوَ الْمَعْنَى الْعَامُّ فِي مِثْلِهَا .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : كِتَابًا مُؤَجَّلًا فَهُوَ مُؤَكِّدٌ لِمَضْمُونِ مَا قَبْلَهُ ، أَيْ كَتَبَهُ اللهُ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ، أَيْ أَثْبَتَهُ مَقْرُونًا بِأَجَلٍ مُعَيَّنٍ لَا يَتَغَيَّرُ : وَمُؤَقَّتًا بِوَقْتٍ مَعْلُومٍ لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ ، فَالْمُؤَجَّلُ ذُو الْأَجَلِ ، وَالْأَجَلُ الْمُدَّةُ الْمَضْرُوبَةُ لِلشَّيْءِ قَالَ - تَعَالَى - : وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا

(291/131)

الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا [6 : 128] وَمِنْهُ الدَّيْنُ الْمُؤَجَّلُ الَّذِي ضُرِبَ لَهُ أَجَلٌ ، أَيْ مُدَّةٌ يُؤَدَّى فِي نِهَايَتِهَا ، وَقَدْ يَتَوَهَّمُ بَعْضُ أَصْحَابِ الْعُقُولِ الْمُقَيَّدَةِ ، وَالْأَفْهَامِ الضَّيِّقَةِ ، أَنَّ كَوْنَ الْمَوْتِ مُؤَجَّلًا بِأَجَلٍ مَحْدُودٍ فِي عِلْمِ اللهِ يُنَافِي كَوْنَهُ بِأَسْبَابٍ تَجْرِي عَلَى سُنَنِ اللهِ ; وَلَيْسَ لِهَذَا التَّوَهُّمِ أَدْنَى شُبْهَةٍ مِنَ الْعَقْلِ فَيُرَدُّ بِالدَّلَائِلِ النَّظَرِيَّةِ ، وَلَا مِنَ الْوُجُودِ فَيُفَسَّرُ بِالسُّنَنِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ ، إِلَّا أَنَّ كَوْنَ الْمَوْتِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْأَجَلِ أَظْهَرُ مِنْ كَوْنِهِ لَا يَكُونُ إِلَّا مَقْرُونًا بِالسَّبَبِ ، فَإِنَّ النَّاسَ يَتَعَرَّضُونَ لِأَسْبَابِ الْمَنَايَا بِخَوْضِ غَمَرَاتِ الْحُرُوبِ وَالتَّعَرُّضِ لِعَدْوَى الْأَمْرَاضِ ، وَالتَّصَدِّي

لِأَفَاعِيلِ الطَّبِيعَةِ ، ثُمَّ قَدْ يَسْلَمُ فِي الْحَرْبِ الشُّجَاعُ الْمُقَدَّمُ ، وَيُقْتَلُ الْجَبَانُ الْمُخَلَّفُ .

وَيَفْتِكُ الْمَرَضُ بِالشَّابِّ الْقَوِيِّ ، مِنْ حَيْثُ تَعْدُو عَدْوَاهُ الْغُلَامُ الْقَمِيءُ ، وَتَغْتَالُ فَوَاعِلُ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ الْكَهْلَ الْمُسْتَوِي ، وَتَتَجَاوَزُ

عَنِ الشَّيْخِ الضَّعِيفِ ، وَلِكُلِّ عُمْرٍ أَجَلٌ وَلِكُلِّ أَجَلٍ قَدَرٌ ، وَالْأَقْدَارُ هِيَ السُّنَنُ الَّتِي بِهَا يَقُومُ النِّظَامُ ، وَالْحِكَمُ فِيهَا مُرْتَبِطَةٌ بِالْأَحْكَامِ ، وَإِنْ خَفِيَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضِ الْأَفْهَامِ .

(292/131)

هَذِهِ هِيَ الْقَاعِدَةُ الْأُولَى فِي الْآيَةِ . وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَهِيَ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَإِنَّنَا نَذْكُرُ فِي تَفْسِيرِ الْعِبَارَةِ صَفْوَةَ مَا قَالُوهُ ثُمَّ نُبَيِّنُ الْقَاعِدَةَ . قَالُوا : إِنَّهَا تَعْرِيضٌ بِالَّذِينَ شَغَلَتْهُمُ الْغَنَائِمُ يَوْمَ أُحُدٍ فَتَرَكُوا مَوْقِعَهُمُ الَّذِي أَمَرَهُمُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِلُزُومِهِ . وَإِنَّ مَعْنَاهَا أَنَّ مَنْ قَصَدَ بِعَمَلِهِ حَظَّ الدُّنْيَا أَعْطَاهُ اللَّهُ شَيْئًا مِنْ ثَوَابِهَا ، وَمَنْ قَصَدَ الْآخِرَةَ أَعْطَاهُ اللَّهُ حَظًّا مِنْ ثَوَابِهَا . وَصَرَّحَ الرَّازِيُّ بِأَنَّهَا فِي مَعْنَى حَدِيثٍ : إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى " الْحَدِيثَ الْمَشْهُورَ .

(293/131)

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: هَذِهِ قَضِيَّةٌ أُخْرَى وَفِيهَا وَجْهَانِ: (الْوَجْهُ الْأَوَّلُ) أَنَّهَا رَدٌّ لِاسْتِدْلَالِ مَنِ اسْتَدَلَّ بِمَا حَلَّ بِالْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ غَيْرُ الْحَقِّ، فَهِيَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ فَرْعٌ مِنْ فُرُوعِ قَوْلِهِ: قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ [3 : 137] فَهُوَ يَقُولُ: إِنَّ لِنَيْلِ ثَوَابِ الدُّنْيَا سُنَنًا وَلِنَيْلِ ثَوَابِ الْآخِرَةِ سُنَنًا، فَمَنْ سَارَ عَلَى سُنَنٍ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا وَصَلَ إِلَيْهَا ; فَإِذَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ قَدِ اسْتَظْهَرُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ فَلِأَنَّهُمْ طَلَبُوا بِعَمَلِهِمُ الدُّنْيَا وَأَخَذُوا لَهُ أُهْبَتَهُ مِنْ حَيْثُ قَدْ قَصَّرَ الْمُسْلِمُونَ فِي اتِّبَاعِ السُّنَنِ فِي ذَلِكَ بِمُخَالَفَةِ الرَّسُولِ كَمَا تَقَدَّمَ. (وَالْوَجْهُ الثَّانِي) أَنَّهُ يَقُولُ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ ضَعُفُوا وَفَشِلُوا

وَانْقَلَبُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ: مَا الَّذِي تُرِيدُونَهُ بِعَمَلِكُمْ هَذَا؟ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَاللَّهُ لَا يَمْنَعُكُمْ ذَلِكَ، وَمَا عَلَيْكُمْ إِلَّا أَنْ تَسْلُكُوا طَرِيقَهُ، وَلَكِنْ لَيْسَ هَذَا هُوَ الَّذِي يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَإِنَّمَا يَدْعُوكُمْ إِلَى خَيْرٍ تَرَوْنَ حَظًّا مِنْهُ فِي الدُّنْيَا وَالْمُعَوَّلُ فِيهِ عَلَى مَا فِي الْآخِرَةِ. فَالْمَسْأَلَةُ مَعَكُمْ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: إِرَادَةِ الدُّنْيَا وَإِرَادَةِ الْآخِرَةِ، كُلٌّ يُرِيدُ أَمْرًا وَلِكُلِّ أَمْرٍ سُنَنٌ تُتَّبَعُ، وَلِكُلِّ دَارٍ طَرِيقٌ تُسْلَكُ.

أَقُولُ : وَسَيَأْتِي فِي هَذَا السِّيَاقِ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَهُوَ يُؤَيِّدُ الْوَجْهَ الثَّانِي مِمَّا أَوْرَدَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ [42 : 20] . وَقَدْ تَقَدَّمَ لِهَذَا الْبَحْثِ نَظِيرٌ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا [2 : 200] إِلَخْ . وَفِيهِ بَيَانُ أَنَّ مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا وَحْدَهَا وَلَا يَعْمَلُ لِلْآخِرَةِ عَمَلَهَا فَلَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَأَنَّ مِنْ هَدْيِ الْإِسْلَامِ أَنْ يَطْلُبَ الْمَرْءُ خَيْرَ الدُّنْيَا وَخَيْرَ الْآخِرَةِ وَيَقُولُ : رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً فَالْإِنْسَانُ يَطْلُبُ وَيُرِيدُ بِحَسَبِ سَعَةِ مَعْرِفَتِهِ ، وَعُلُوِّ هِمَّتِهِ ، وَدَرَجَةِ إِيمَانِهِ ، وَلَهُ مَا يُرِيدُ كُلُّهُ أَوْ بَعْضُهُ بِحَسَبِ سُنَنِ اللَّهِ وَتَدْبِيرِهِ لِنِظَامِ هَذِهِ الْحَيَاةِ . وَفِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ تَفْصِيلٌ وَتَقْيِيدٌ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ

(295/131)

قَالَ - تَعَالَى - : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا انْظُرْ كَيْفَ

فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا [17 : 18 – 21] ، وَلَا تُنْسِيَنَّ التَّقَالِيدَ الشَّائِعَةَ قَارِئُ هَذِهِ الْآيَاتِ عَنْ سُنَنِ اللهِ الَّتِي أَثْبَتَهَا فِي كِتَابِهِ ، فَيَظُنُّ أَنَّ عَطَاءَهُ – تَعَالَى – وَتَفْضِيلَهُ لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ يَكُونُ جُزَافًا ، بَلِ الْإِرَادَةُ تَجْرِي عَلَى السُّنَنِ الَّتِي اقْتَضَتْهَا الْحِكْمَةُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ [13 : 8] وَلِإِرَادَةِ الْإِنْسَانِ دَخْلٌ فِي تِلْكَ السُّنَنِ وَالْمَقَادِيرِ ; وَلِذَلِكَ قَالَ : مَنْ كَانَ يُرِيدُ وَمَنْ أَرَادَ فَاعْرِفْ قِيمَةَ إِرَادَتِكَ وَاعْرِفْ قَبْلَ ذَلِكَ قِيمَةَ نَفْسِكَ ، فَلَا تَجْعَلْهَا كَنُفُوسِ الْحَشَرَاتِ الَّتِي تَعِيشُ زَمَنًا مَحْدُودًا ، ثُمَّ تَفْنَى كَأَنْ لَمْ تَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا .

(296/131)

إِنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ لِلْبَقَاءِ وَلَكَ فِي الْوُجُودِ طَوْرَانِ : طَوْرٌ عَاجِلٌ قَصِيرٌ وَهُوَ طَوْرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَطَوْرٌ آجِلٌ أَبَدِيٌّ وَهُوَ طَوْرُ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ ، وَسَعَادَتُكَ فِي كُلٍّ مِنَ الطَّوْرَيْنِ تَابِعَةٌ لِإِرَادَتِكَ وَمَا تُوَجِّهُكَ إِلَيْهِ مِنَ الْعَمَلِ فِي حَيَاتِكَ ، فَأَعْمَالُ النَّاسِ مُتَشَابِهَةٌ ، وَمَشَقَّتُهُمْ فِيهَا مُتَقَارِبَةٌ ، وَإِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ بِالْإِرَادَاتِ وَالْمَقَاصِدِ ; لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تَكُونُ تَارَةً عِلَّةً وَتَارَةً مَعْلُولًا لِطَهَارَةِ الرُّوحِ وَعُلُوِّ النَّفْسِ وَسُمُوِّ الْعَقْلِ وَرِقَّةِ الْوِجْدَانِ ، وَهِيَ هِيَ الْمَزَايَا الَّتِي يُفَضَّلُ بِهَا إِنْسَانٌ عَلَى إِنْسَانٍ .

يُحَارِبُ قَوْمٌ حُبًّا فِي الرِّبْحِ وَالْكَسْبِ ، أَوْ ضَرَاوَةً بِالْقَتْلِ وَالْفَتْكِ ; فَإِذَا غَلَبُوا أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ ، وَأَهْلَكُوا الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ، وَيُحَارِبُ آخَرُونَ دِفَاعًا عَنِ الْحَقِّ ، وَإِقَامَةً لِقَوَانِينِ الْعَدْلِ ، فَإِذَا غَلَبُوا عَمَّرُوا الْأَرْضَ ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ فَهَلْ يَسْتَوِي الْفَرِيقَانِ ، إِذَا اسْتَوَى فِي الْبِدَايَةِ الْعَمَلَانِ ! وَهُمَا فِي الْقَصْدِ وَالْإِرَادَةِ مُتَبَايِنَانِ ؟

(297/131)

يَكْسِبُ الرَّجُلُ طَلَبًا لِلَّذَّاتِ ، وَحُبًّا فِي الشَّهَوَاتِ ، فَيَغْلُو فِي الطَّمَعِ ، وَيُوغِلُ فِي الْحِيَلِ ، وَيَأْكُلُ الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ، حَتَّى يَجْمَعَ الْقَنَاطِيرَ الْمُقَنْطَرَةَ ، فَإِذَا هُوَ يَمْنَعُ الْمَاعُونَ ، وَيَدُعُّ الْيَتِيمَ ، وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ، وَلَهُوَ إِذَا سُئِلَ الْبَذْلَ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ أَشَدُّ بُخْلًا ، وَأَكَزُّ يَدًا وَأَقْبَضُ كَفًّا ، وَيَكْسِبُ الرَّجُلُ طَلَبًا لِلتَّجَمُّلِ فِي مَعِيشَتِهِ وَحُبًّا لِلْكَرَامَةِ فِي قَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ ، فَيُجْمِلُ فِي الطَّلَبِ ، وَيَتَحَرَّى الْحَلَالَ مِنَ الرِّبْحِ ، وَيَلْتَزِمُ الصِّدْقَ وَالْأَمَانَةَ ، وَيَتَوَقَّى الْغِشَّ وَالْخِيَانَةَ ، ثُمَّ هُوَ يُنْفِقُ مِنْ سَعَتِهِ فَيُوَاسِي الْبَائِسَ الْفَقِيرَ . وَيُعِينُ الْعَاجِزَ وَالضَّعِيفَ ، وَتَكُونُ لَهُ الْيَدُ فِي بِنَاءِ الْمَدَارِسِ وَالْمَعَابِدِ وَالْمُسْتَشْفَيَاتِ وَالْمَلَاجِئِ ، فَهَلْ يَسْتَوِي الرَّجُلَانِ وَهُمَا فِي الثَّرْوَةِ سِيَّانِ ؟ وَفِي ظَاهِرَةِ الْعَمَلِ مُتَشَابِهَانِ أَنْ يَفْضُلَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ بِحُسْنِ الْإِرَادَةِ ؟

الْإِرَادَةُ تُصَغِّرُ الْكَبِيرَ وَتُكَبِّرُ الصَّغِيرَ . وَتَرْفَعُ الْوَضِيعَ وَتَضَعُ الرَّفِيعَ ، وَبِهَا تَتَّسِعُ دَائِرَةُ وُجُودِ الشَّخْصِ حَتَّى تُحِيطَ بِكُرَةِ الْأَرْضِ ، بَلْ تَكُونُ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ بِمَا يَتَبَوَّأُ مِنْ مَنَازِلِ الْكَرَامَةِ فِي عَالَمِ الْمَعْقُولِ وَالْأَرْوَاحِ ، وَإِذَا كَانَ يُرِيدُ بِعَمَلِهِ دَارَ الْبَقَاءِ فَإِنَّ وُجُودَهُ يَكُونُ كَبِيرًا بِحَسَبِ كِبَرِ إِرَادَتِهِ وَوَاسِعًا بِسَعَةِ مَقْصِدِهِ ; وَبِذَلِكَ

(298/131)

تَعْلُو نَفْسُهُ عَلَى نُفُوسِ مَنْ أَخْلَدُوا إِلَى الشَّهَوَاتِ وَكَأَنَّ حَظَّهُمْ مِنْ عِلْمِهِمْ كَحَظِّ الْحَشَرَاتِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ : أَكْلٌ وَشُرْبٌ وَسِفَادٌ وَبَغْيٌ مِنَ الْقَوِيِّ عَلَى الضَّعِيفِ .

قِسْ عَلَى هَذَا وُجُودَ مَنْ يُرِيدُ بِعَمَلِهِ الْقُرْبَ مِنَ اللهِ وَالتَّخَلُّقَ بِأَخْلَاقِهِ وَالتَّحَقُّقَ بِتَجَلِّيَاتِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، الْقُرْبَ مِنَ الْوَاسِعِ الْعَلِيمِ ، الْخَلَّاقِ الْحَكِيمِ ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بِسَعَةِ الْقَلْبِ ، وَبَسْطَةِ الْعِلْمِ ، وَإِقَامَةِ النِّظَامِ وَالْحِكْمَةِ ، وَنَصْبِ مِيزَانِ الْعَدْلِ وَبَسْطِ بِسَاطِ الرَّحْمَةِ ، أَلَّا تَرَاهُ يَكُونُ أَشْرَفَ وُجُودٍ بَشَرِيٍّ وَأَعْلَاهُ بِحَسَبِ إِرَادَتِهِ وَسُنَنِ اللهِ ؟

لَسْتُ بِهَذَا الرَّمْزِ إِلَى مَكَانَةِ إِرَادَةِ الْبِرِّ مِنْ تَصْرِيفِ أَعْمَالِهِمْ وَتَوْجِيهِهَا إِلَى سَعَادَتِهِمْ أَوْ شَقَائِهِمْ بِخَارِجٍ عَنْ مَوْضُوعِ تَفْسِيرِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ; فَإِنَّ رَبَّ الْعِزَّةِ قَدْ جَعَلَ عَطَاءَهُ لِلنَّاسِ مُعَلَّقًا عَلَى إِرَادَتِهِمْ وَلَا يُقَدِّرُ هَذَا حَقَّ قَدْرِهِ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ، فَهُمْ فِي حَاجَةٍ إِلَى مِثْلِ هَذَا

التَّذْكِيرِ بَلْ إِلَى أَكْثَرَ مِنْهُ .

إِذَا فَقِهْتَ مَعْنَى قَوْلِهِ : وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ أَيِ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِمْ بِقُوَّةِ الْإِرَادَةِ وَيَسْتَعْمِلُونَهَا فِيمَا يُعَرِّجُ بِهِمْ إِلَى مُسْتَوَى الْكَمَالِ ، فَتَكُونُ أَعْمَالُهُمْ صَالِحَةً رَافِعَةً لِنُفُوسِهِمْ وَنَافِعَةً لِغَيْرِهِمْ . وَأَبْهَمَ هَذَا الْجَزَاءَ لِتَعْظِيمِ شَأْنِهِ .

(299/131)

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : كَأَنَسِ بْنِ النَّضْرِ وَأَمْثَالِهِ الَّذِي جَاهَدُوا وَصَبَرُوا مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِحِفْظِهِمْ قُوَّةَ إِرَادَاتِهِمْ ، فَكَانُوا السَّبَبَ فِي انْجِلَاءِ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ . وَخَصَّهُمْ بِالذِّكْرِ الَّذِي يُعَيِّنُهُ الْوَصْفُ تَنْوِيهًا بِهِمْ وَوَعْدًا لَهُمْ بِالْجَزَاءِ ، وَهُوَ مِنَ التَّفْصِيلِ لِإِجْمَالِ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ .

ثُمَّ إِنَّهُ بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ الْمُنَبِّهِ لَهُمْ إِلَى اسْتِعْدَادِهِمْ ضَرَبَ لَهُمْ هَذَا الْمَثَلَ فِي غَيْرِهِمْ كَمَا ضَرَبَ لَهُمُ الْمَثَلَ قَبْلَ ذَلِكَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِتَمَنِّيهِمُ الْمَوْتَ فَقَالَ : وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (كَأَيِّنْ) بِمَعْنَى "كَمْ" الْخَبَرِيَّةِ ، وَمَعْنَاهَا أَنَّمَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ كَثِيرٌ ، وَفِيهَا لُغَتَانِ فَصِيحَتَانِ مَشْهُورَتَانِ "كَائِنٌ" بِوَزْنِ فَاعِلٍ مَبْنِيَّةٌ عَلَى السُّكُونِ ، وَبِهَا قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ ، وَ "كَأَيِّنْ" بِفَتْحِ

الْهَمْزَةِ وَتَشْدِيدِ الْيَاءِ الْمَكْسُورَةِ وَسُكُونِ النُّونِ – الَّتِي قَالُوا : إِنَّ أَصْلَهَا التَّنْوِينُ أُثْبِتَ لَهُ صُورَةٌ فِي الْخَطِّ كَمَا يُنْطَقُ بِهِ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ الْخَاصَّةِ – وَبِهَا قَرَأَ الْبَاقُونَ . وَقَالُوا : إِنَّ أَصْلَهَا " أَيِّ " الِاسْتِفْهَامِيَّةِ دَخَلَتْ عَلَيْهَا كَافُ التَّشْبِيهِ فَصَارَتْ كَلِمَةً مُسْتَقِلَّةً لَا مَعْنَى فِيهَا لِلتَّشْبِيهِ وَلَا لِلِاسْتِفْهَامِ .

(300/131)

وَالرِّبِّيُّونَ قَالَ فِي الْكَشَّافِ : هُمُ الرَّبَّانِيُّونَ " وَقُرِئَ بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ ، فَالْفَتْحُ عَلَى الْقِيَاسِ وَالضَّمُّ وَالْكَسْرُ مِنْ تَغْيِيرَاتِ النَّسَبِ " وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الرَّبَّانِيِّينَ فِي آيَةِ 79 مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ، وَهُوَ جَمْعُ رَبَّانِيٍّ نِسْبَةً إِلَى الرَّبِّ ، وَزِيَادَةُ الْأَلِفِ وَالنُّونِ فِيهَا كَزِيَادَتِهَا فِي جُسْمَانِيٍّ . وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ ، وَقَوْلُ الْكَشَّافِ " مِنْ تَغْيِيرَاتِ النَّسَبِ " مَعْنَاهُ : أَنَّ الْعَرَبَ قَدْ تُغَيِّرُ الِاسْمَ الْمَنْسُوبَ ، كَمَا قَالُوا فِي النِّسْبَةِ إِلَى الْبَصْرَةِ بِصْرِيٌّ بِكَسْرِ الْبَاءِ ، وَإِلَى الدَّهْرِ دُهْرِيٌّ بِضَمِّ الدَّالِ . وَقَالَ الْفَرَّاءُ : الرِّبِّيُّونَ الْأُلُوفُ . وَقَالَ الزَّجَّاجُ : هُمُ الْجَمَاعَاتُ الْكَثِيرَةُ وَأَحَدُهَا رِبِّيٌّ ، قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : أَصْلُهُ مِنَ الرِّبَّةِ وَهِيَ الْجَمَاعَةُ ، وَيُرْوَى مِثْلُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : الرَّبَّانِيُّونَ الْأَئِمَّةُ وَالْوُلَاةُ ، وَالرِّبِّيُّونَ الرَّعِيَّةُ وَهُمُ الْمُنْتَسِبُونَ إِلَى الرَّبِّ ، وَالْأَوَّلُ هُوَ

الظَّاهِرُ الْمُخْتَارُ ، وَتَقَدَّمَ مَعْنَى الْوَهَنِ وَالضَّعْفِ . وَالِاسْتِكَانَةُ : ضَرْبٌ مِنَ الْخُضُوعِ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ سُكُونِ الْإِنْسَانِ لِخَصْمِهِ لِيَفْعَلَ بِهِ مَا يُرِيدُ .

(301/131)

وَالْمَعْنَى : أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّبِيِّينَ الَّذِينَ خَلَوْا قَدْ قَاتَلَ مَعَهُمْ كَثِيرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِمُ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الرَّبِّ تَعَالَى فِي وِجْهَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي أَعْمَالِهِمْ ، الْمُعْتَقِدِينَ أَنَّ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ هُدَاةٌ وَمُعَلِّمُونَ لَا أَرْبَابٌ مَعْبُودُونَ ، فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَيْ مَا ضَعُفَ مَجْمُوعُهُمْ بِمَا أَصَابَ بَعْضَهُمْ مِنَ الْجُرْحِ وَبَعْضَهُمْ مِنَ الْقَتْلِ ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ هُوَ النَّبِيَّ نَفْسَهُ ; لِأَنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَهُوَ رَبُّهُمْ لَا فِي سَبِيلِ شَخْصِ نَبِيِّهِمْ ، وَإِنَّمَا حَظُّهُمْ مِنْ نَبِيِّهِمْ تَبْلِيغُهُ عَنْ رَبِّهِمْ وَبَيَانُهُ لِهِدَايَتِهِ وَأَحْكَامِهِ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ [18 : 56] وَمَا ضَعُفُوا عَنْ جِهَادِهِمْ وَلَا اسْتَكَانُوا وَلَا وَلَّوْا بِالِانْقِلَابِ عَلَى أَعْقَابِهِمْ ، بَلْ ثَبَتُوا بَعْدَ قَتْلِ نَبِيِّهِمْ كَمَا ثَبَتُوا مَعَهُ فِي حَيَاتِهِ ; لِأَنَّ عِلَّةَ الثَّبَاتِ فِي الْحَالَيْنِ وَاحِدَةٌ ، وَهِيَ كَوْنُ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، أَيْ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي يَرْضَاهَا اللهُ كَحِفْظِ الْحَقِّ وَحِمَايَتِهِ وَتَقْرِيرِ الْعَدْلِ وَإِقَامَتِهِ ، وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ وَيَلْزَمُهُ . وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَنَافِعٌ وَأَبُو عَمْرٍو وَيَعْقُوبُ " قُتِلَ مَعَهُ " ; وَلِذَلِكَ رُسِمَتْ

الْكَلِمَةَ فِي الْمُصْحَفِ الْإِمَامِ بِغَيْرِ أَلِفٍ لِتَوَافُقِ الْقِرَاءَتَيْنِ ، أَيِ اسْتُشْهِدُوا فِي الْقِتَالِ مَعَهُ أَوْ قُتِلُوا كَمَا قُتِلَ هُوَ ، وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ لَمْ يُقْتَلْ نَبِيٌّ فِي الْحَرْبِ ، وَهُوَ نَفْيٌ غَيْرُ مُسَلَّمٍ لَا

(302/131)

سِيَّمَا فِي النَّبِيِّينَ غَيْرِ الْمُرْسَلِينَ ، وَمَنْ

ذَا يَتَجَرَّأُ عَلَى الْإِحَاطَةِ بِالرُّسُلِ عِلْمًا وَاللهُ يَقُولُ لِنَبِيِّهِ : وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ [4 : 164] وَمِنَ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ قَوْلُ قَتَادَةَ : فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَمَا عَجَزُوا وَمَا تَضَعْضَعُوا لِقَتْلِ نَبِيِّهِمْ ، وَمَا اسْتَكَانُوا أَيْ مَا ارْتَدُّوا عَنْ نُصْرَتِهِمْ وَلَا عَنْ دِينِهِمْ . وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : فَمَا وَهَنُوا لِقَتْلِ النَّبِيِّ وَمَا ضَعُفُوا عَنْ عَدُوِّهِمْ ، وَمَا اسْتَكَانُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي الْجِهَادِ عَنِ اللهِ لِلنَّاسِ وَعَنْ دِينِهِمْ ، وَذَلِكَ هُوَ الصَّبْرُ وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ اهـ . وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى حُبِّ اللهِ لِلنَّاسِ فِي أَوَائِلِ هَذِهِ السُّورَةِ ، أَيْ وَإِذَا كَانَ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ أَمْثَالَهُمْ فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَعْتَبِرُوا بِحَالِهِمْ ، فَإِنَّ دِينَ اللهِ وَاحِدٌ ، وَسُنَّتَهُ

فِي خَلْقِهِ وَاحِدَةٌ ; وَلِذَلِكَ هُدِيتُمْ إِلَى السُّنَنِ وَأُمِرْتُمْ بِمَعْرِفَةِ عَاقِبَةِ مَنْ سَبَقَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ ، فَاقْتَدُوا بِعَمَلِ الصَّادِقِينَ الصَّابِرِينَ ، وَقُولُوا مِثْلَ قَوْلِ أُولَئِكَ الرِّبِّيِّينَ :

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا أَيْ مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ قَوْلٍ فِي تِلْكَ الْحَالِ الَّتِي اعْتَصَمُوا فِيهَا بِالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ، وَعِزَّةِ النَّفْسِ، وَشِدَّةِ الْبَأْسِ إِلَّا ذَلِكَ الْقَوْلُ الْمُنْبِئُ عَنْ قُوَّةِ إِيمَانِهِمْ، وَصِدْقِ إِرَادَتِهِمْ، وَهُوَ الدُّعَاءُ بِأَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ بِجِهَادِهِمْ مَا كَانُوا أَلَمُّوا بِهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالتَّقْصِيرِ فِي إِقَامَةِ السُّنَنِ، أَوِ الْوُقُوفِ عِنْدَ مَا حَدَّدَتْهُ الشَّرَائِعُ، وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا بِالْغُلُوِّ فِيهِ، وَتَجَاوُزِ الْحُدُودِ الَّتِي حَدَّدَتْهَا السُّنَنُ لَهُ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي هَدَيْتَنَا إِلَيْهِ حَتَّى لَا تُزَحْزِحَنَا عَنْهُ الْفِتَنُ، وَفِي مَوْقِفِ الْقِتَالِ، حَتَّى لَا يَعْرُونَا الْفَشَلُ وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ بِكَ، الْجَاحِدِينَ لِآيَاتِكَ، الْمُعْتَدِينَ عَلَى أَهْلِ دِينِكَ، فَلَا يَشْكُرُونَ لَكَ نِعَمَكَ بِالتَّوْحِيدِ وَالتَّنْزِيهِ، وَلَا بِفِعْلِ الْمَعْرُوفِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرِ، وَلَا يُمَكِّنُونَ أَهْلَ الْحَقِّ مِنْ إِقَامَةِ مِيزَانِ الْقِسْطِ، فَإِنَّ النَّصْرَ بِيَدِكَ، تُؤْتِيهِ مَنْ تَشَاءُ بِمُقْتَضَى سُنَنِكَ، وَمِنْهَا أَنَّ الذُّنُوبَ وَالْإِسْرَافَ فِي الْأُمُورِ مِنْ أَسْبَابِ الْبَلَاءِ وَالْخِذْلَانِ، وَأَنَّ الطَّاعَةَ وَالثَّبَاتَ وَالِاسْتِقَامَةَ مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ وَالْفَلَاحِ؛ وَلِذَلِكَ سَأَلُوا اللَّهَ أَنْ يَمْحُوَ مِنْ نُفُوسِهِمْ أَثَرَ كُلِّ ذَنْبٍ وَإِسْرَافٍ، وَأَنْ يُوَفِّقَهُمْ إِلَى دَوَامِ الثَّبَاتِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الدُّعَاءَ وَالتَّوَجُّهَ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى - فِي مِثْلِ

هَذِهِ الْحَالِ مِمَّا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ الْمُجَاهِدَ قُوَّةً وَعَزِيمَةً وَمُصَابَرَةً لِلشَّدَائِدِ ; وَلِذَلِكَ يَعْتَرِفُ عُلَمَاءُ النَّفْسِ وَالْأَخْلَاقِ

بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ أَشَدُّ صَبْرًا وَثَبَاتًا فِي الْقِتَالِ مِنَ الْجَاحِدِينَ كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ [2 : 250] الْآيَةَ .

فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ بِالْعَدُوِّ ، وَالسِّيَادَةِ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالْعِزَّةِ ، وَحُسْنِ الْأُحْدُوثَةِ وَشَرَفِ الذِّكْرِ وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ بِنَيْلِ رِضْوَانِ اللهِ وَقُرْبِهِ ، وَالنَّعِيمِ بِدَارِ كَرَامَتِهِ ، وَهُوَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ - كَمَا وَرَدَ فِي الْخَبَرِ - أَخْذًا مِنْ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ [32 : 17] وَمَا آتَاهُمْ ذَلِكَ إِلَّا بِحُسْنِ إِرَادَتِهِمْ ، وَمَا كَانَ لَهَا مِنْ حُسْنِ الْأَثَرِ فِي نُفُوسِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ، إِذَا أَتَوُا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ، وَلَبَّوُا الْمَقَاصِدَ بِأَسْبَابِهَا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ لِأَنَّهُمْ خُلَفَاؤُهُ فِي الْأَرْضِ يُقِيمُونَ سُنَنَهُ ، وَيُظْهِرُونَ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ حِكْمَتَهُ ، فَيَكُونُ عَمَلُهُمْ لِلَّهِ بِاللهِ كَمَا وَرَدَ فِي صِفَةِ الْعَبْدِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللهُ " فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ

الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا " أَيْ إِنَّ مَشَاعِرَهُ وَأَعْمَالَهُ لَا تَكُونُ مَشْغُولَةً إِلَّا بِمَا يُرْضِي اللهَ وَيُقِيمُ سُنَنَهُ وَيُظْهِرُ حِكَمَهُ فِي خَلْقِهِ .

(305/131)

وَإِنَّمَا جَمَعَ لَهُمْ بَيْنَ ثَوَابِ الدُّنْيَا وَحُسْنِ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ; لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا بِعَمَلِهِمْ سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنَّمَا الْجَزَاءُ عَلَى حُسْنِ الْإِرَادَةِ ، وَهَذَا هُوَ شَأْنُ الْمُؤْمِنِ كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا (ص138) وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَى الْغَالِينَ فِي الزُّهْدِ ، وَخَصَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ بِالْحُسْنِ لِلْإِيذَانِ بِفَضْلِهِ وَمَزِيَّتِهِ وَأَنَّهُ الْمُعْتَدُّ بِهِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى ، كَذَا قَالُوا . وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : ثَوَابُ هَؤُلَاءِ حَسَنٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، وَلَكِنْ ذِكْرُ الْحُسْنِ فِي ثَوَابِ الْآخِرَةِ مَزِيدٌ فِي تَعْظِيمِ أَمْرِهِ ، وَتَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّهُ ثَوَابٌ لَا يَشُوبُهُ أَذًى ، ؟ فَلَيْسَ مِثْلَ ثَوَابِ الدُّنْيَا عُرْضَةً لِلشَّوَائِبِ وَالْمُنَغِّصَاتِ ، وَلَا يُعْتَرَضُ عَلَى مَا أَثْبَتَتْهُ الْآيَةُ بِمِثْلِ وَقْعَتَيِ الرَّجِيعِ وَبِئْرِ مَعُونَةَ مِنْ حَيْثُ إِنَّ مَنْ قُتِلُوا هُنَالِكَ لَمْ يُؤْتَوْا ثَوَابَ الدُّنْيَا ; فَإِنَّ إِيثَارَ ثَوَابِ الدُّنْيَا
مَشْرُوطٌ بِاتِّبَاعِ السُّنَنِ وَالْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ ، وَفِي وَقْعَةِ الرَّجِيعِ
قَدِ اخْتَلَفُوا فِي النُّزُولِ عَلَى حُكْمِ الْمُشْرِكِينَ ، فَكَانَ ذَلِكَ تَقْصِيرًا مِنْهُمْ ، وَفِي وَقْعَةِ بِئْرِ

مَعُونَةٍ قَدْ قَصَّرُوا فِي الِاحْتِيَاطِ إِذْ أَمِنُوا لِمَنْ لَا يَصِحُّ أَنْ يُؤْمَنَ لَهُمْ ، فَكَانَ ذَلِكَ جَزَاءَ التَّقْصِيرِ وَمَوْعِظَةً لِلْمُؤْمِنِينَ لِيَكُونُوا دَائِمًا حَذِرِينَ مُحْتَاطِينَ غَيْرَ مُقَصِّرِينَ وَلَا مُسْرِفِينَ .

(306/131)

وَقَدْ صُرِّحَ بِمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْمُفَسِّرُونَ مِنْ كَوْنِ الْآيَاتِ تَأْدِيبًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَتَوْبِيخًا لِمَنْ فَرَّطَ مِنْهُمْ مَا فَرَّطَ ، وَالْأَمْرُ ظَاهِرٌ كَالشَّمْسِ فِي الضُّحَى أَوْ أَشَدُّ ظُهُورًا .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ

قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ الْتِفَاتٌ عَنْ خِطَابِ الْمُنَافِقِينَ - الَّذِينَ وَبَّخَهُمْ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ أَنِ انْهَزَمُوا وَقَالُوا مَا قَالُوا - إِلَى خِطَابِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ . وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : الْخِطَابُ لِمَنْ سَمِعَ قَوْلَ أُولَئِكَ الْقَائِلِينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ : ارْجِعُوا إِلَى إِخْوَانِكُمْ وَدِينِكُمْ وَهُوَ أَخَصُّ مِمَّا قَبْلَهُ ، وَالْمُخْتَارُ عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي جَرَيْنَا عَلَيْهَا فِي
تَفْسِيرِ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ أَنَّ الْخِطَابَ فِيهَا عَامٌّ وُجِّهَ إِلَى كُلِّ مَنْ شَهِدَ أُحُدًا لِتَكَافُلِهِمْ ، وَكُلٌّ يَعْتَبِرُ بِهَا بِحَسَبِ حَالِهِ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَاتُ الْآتِيَةُ بَعْدَهَا ، فَإِنَّهَا مِنْ تَتِمَّةِ الْخِطَابِ وَفِيهَا

تَفْصِيلٌ لِأَعْمَالِهِمْ وَنِيَّاتِهِمْ وَعِنَايَةِ اللهِ بِهِمْ ، مَعَ تَقْسِيمِهِمْ إِلَى مُرِيدٍ لِلدُّنْيَا وَمُرِيدٍ لِلْآخِرَةِ كَمَا يَأْتِي قَرِيبًا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 4 صـ 132.144 ﴾

(307/131)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

أي أن الذي يريد الدنيا فالله يعطيه من الدنيا غنائم وأشياء ، ولنا أن نلحظ أن الحق عندما يتكلم هنا عن الدنيا فهو لم يصفها بحُسن أو بشيء ، فقط قال : ﴿ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴾ ، لكن عندما تكلم عن الآخرة فهو يقول : ﴿ وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ﴾ وهذا هو الجمال الذي يجب أن يُعشق ؛ لأن الدنيا مهما طالت فهي متاع وغرور وزخرف زائل ، ومهما كنت منعماً فيها فأنت تنتظر حاجة من اثنتين : إما أن تزول عنك النعمة ، وإما أن تزول أنت عن النعمة .

ويختم الحق الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وقد أحسنوا حين ناجوا ربهم بعدما أصابهم . إنهم سألوا المغفرة ، وسألوا أن يغفر لهم إسرافهم في أمرهم ، وأن يثبت أقدامهم

وأن ينصرهم على القوم الكافرين ؛ لأنهم رأوا أن قوتهم البشرية حين يتخلى عنهم مدد الله تصبح هباءً لا وزن لها .

﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ومثلما قلنا في الصبر : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ كفى بالجزاء على الصبر أن تكون محبوباً لله ، كذلك كفى بالجزاء على الإحسان أن تكون محبوبا لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1812.1811 ﴾

(308/131)

" فصل "

قال السيوطى :

وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148)

أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد من طريق أبي عبيدة عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿

وكأين من نبي قاتل معه ربيون ﴾ ويقول ألا ترى أنه يقول ﴿ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن سعيد بن جبير أنه كان يقول : ما سمعنا قط أن نبياً قتل في القتال .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن الحسن وإبراهيم ، أنهما كانا يقرآن ﴿ قاتل معه ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك أنه قرأ ﴿ وكأين من نبي قتل معه ربيون ﴾ بغير ألف .

وأخرج عن عطية . مثله .

وأخرج من طريق زر عن ابن مسعود مثله . أنه كان يقرأها بغير ألف .

وأخرج عبد بن حميد عن عطية أنه قرأ ﴿ وكأيِّن من نبي قتل معه ربيون ﴾ بغير ألف .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن مسعود في قوله ﴿ ربيون ﴾ قال : ألوف .

وأخرج سعيد بن منصور عن الضحاك في قوله ﴿ ربيون ﴾ قال : الربة الواحدة ألف .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر من طريق علي عن ابن عباس ﴿ ربيون ﴾ يقول : جموع .

وأخرج سعيد بن منصور عن الحسن في قوله ﴿ ربيون ﴾ قال : فقهاء علماء قال : وقال ابن عباس : هي الجموع الكثيرة .

(309/131)

وأخرج ابن الأنباري في الوقف والابتداء والطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ ربيون ﴾ قال : جموع قال : وهل يعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول حسان :

وإذا معشر تجافوا القص . . . د أملنا عليهم ربيّا

وأخرج ابن جرير من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله ﴿ ربيون كثيرٌ ﴾ قال : علماء كثير .

وأخرج من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿ ربيون كثير ﴾ قال ﴿ الربيون ﴾ هم الجموع الكثيرة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ ربيون ﴾ قال : علماء كثير .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال ﴿ الربيون ﴾ الأتباع ، والربانيون الولاة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وكأين من نبي قاتل ﴾ الآية . قال : هم قوم قتل نبيهم ، فلم يضعفوا ولم يستكينوا لقتل نبيهم .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ﴾ لقتل أنبيائهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك ﴿ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ﴾ يعني فما عجزوا عن عدوهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ فما وهنوا . . . ﴾ الآية . يقول : فما عجزوا وما تضعضعوا لقتل نبيهم ﴿ وما استكانوا ﴾ يقول ما ارتدوا عن بصيرتهم ولا عن دينهم ، إن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله حتى لحقوا بالله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وما استكانوا ﴾ قال ﴿ ما استكانوا ﴾ قال : تخشعوا .

وأخرج ابن جرير عن السدي ﴿ وما استكانوا ﴾ يقول : ما ذلوا .

وأخرج عن ابن زيد ﴿ وما استكانوا ﴾ قال : ما استكانوا لعدوهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عن ابن عباس في قوله ﴿ وإسرافنا في أمرنا ﴾ قال : خطايانا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وإسرافنا في أمرنا ﴾ قال : خطايانا وظلمنا أنفسنا .

(310/131)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ وإسرافنا في أمرنا ﴾ يعني الخطايا الكبار.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا ﴾ قال: النصر والغنيمة ﴿ وحسن ثواب الآخرة ﴾ قال: رضوان الله ورحمته.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا ﴾ الفلاح، والظهور، والتمكن، والنصر على عدوهم في الدنيا ﴿ وحسن ثواب الأخرة ﴾ هي الجنة. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المنثور حـ 2 صـ 339. 341﴾

(311/131)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وِيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى .رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والثلاثون بعد المائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثانى والثلاثون بعد المائة

من الآية ﴿ 149 ﴾ من سورة آل عمران

وحتى الآية ﴿ 152 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (149) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (150) ﴾

مناسبة الآيتين لما قبلهما

قال البقاعى :

ولما أمر سبحانه وتعالى بطاعته الموجبة للنصر والأجر وختم بمحبته للمحسنين ، حذر من طاعة الكافرين المقتضية للخذلان رغبة في موالاتهم ومنا صرتهم فقال تعالى واصلاً بالنداء في آية الربا : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي أقروا بالإيمان ﴿ إن تطيعوا ﴾ بخضوع واستئمان أو غيره ﴿ الذين كفروا ﴾ أي هذا الفريق منهم أو غيره ﴿ يردوكم على أعاقبكم ﴾ بتعكيس أحوالكم إلى أن تصيروا مثلهم ظالمين كافرين ﴿ فتنقلبوا خاسرين ﴾ في جميع أموركم في الدارين ، فتكونوا في غاية البعد من أحوال المحسنين ، فتكونوا بمحل السخط من الله صغرة تحت أيدي الأعداء في الدنيا خالدين في العذاب في الأخرى ، وذلك ناظر إلى قوله تعالى أول ما حذر من مكر الكفار

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب ﴾ [آل عمران : 100] ، وموضح أن جميع هذه الآيات شديد اتصال بعضها ببعض - والله الموفق .

ولما كان التقدير : فلا تطيعوهم ، إنهم ليسوا صالحين للولاية مطلقاً ما دمتم مؤمنين ، عطف

عليه قوله : ﴿ بل الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ مولاكم ﴾ مخبراً بأنه ناصرهم وأن نصره لا يساويه نصر أحد سواه بقوله : ﴿ وهو خير الناصرين ﴾ أي لأن من نصره سبب له جميع أسباب النصر وأزال عنه كل أسباب الخذلان فمنع غيره - كائناً من كان - من إذلاله .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 165.166 ﴾

وقال الفخر :

(5/132)

اعلم أن هذه الآية من تمام الكلام الأول ، وذلك لأن الكفار لما أرجفوا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قتل ، ودعا المنافقون بعض ضعفة المسلمين إلى الكفر ، منع الله المسلمين بهذه الآية عن الالتفات إلى كلام أولئك المنافقين .

فقال : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ إِن تُطِيعُواْ الذين كَفَرُواْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 25 ﴾

فصل

قال الفخر :

قيل : ﴿ إِن تُطِيعُواْ الذين كَفَرُواْ ﴾ المراد أبو سفيان ، فإنه كان كبير القوم في ذلك اليوم ، قال

السدي : المراد أبو سفيان لأنه كان شجرة الفتن ، وقال آخرون : المراد عبد الله بن أبي وأتباعه من المنافقين ، وهم الذين ألقوا الشبهات في قلوب الضعفة وقالوا لو كان محمد رسول الله ما وقعت له هذه الواقعة ، وإنما هو رجل كسائر الناس ، يوما له ويوما عليه ، فارجعوا إلى دينكم الذي كنتم فيه ، وقال آخرون : المراد اليهود لأنه كان بالمدينة قوم من اليهود ، وكانوا يلقون الشبهة في قلوب المسلمين ، ولا سيما عند وقوع هذه الواقعة ، والأقرب أنه يتناول كل الكفار ، لأن اللفظ عام وخصوص السبب لا يمنع من عموم اللفظ . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 25. 26 ﴾

قوله : ﴿ إِن تُطِيعُواْ الذين كَفَرُواْ فَتَنقَلِبُواْ خاسرين ﴾

قال الفخر :

قوله : ﴿ إِن تُطِيعُواْ الذين كَفَرُواْ ﴾ لا يمكن حمله على طاعتهم في كل ما يقولونه بل لا بد من التخصيص فقيل : إن تطيعوهم فيما أمروكم به يوم أحد من ترك الإسلام ، وقيل : إن تطيعوهم في كل ما يأمرونكم من الضلال ، وقيل في المشورة ، وقيل في ترك المحاربة وهو قولهم : ﴿ لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ﴾ [آل عمران : 156] .

ثم قال : ﴿ يَرُدُّوكُمْ على أعقابكم ﴾ يعني يردوكم إلى الكفر بعد الإيمان ، لأن قبول قولهم في الدعوة إلى الكفر كفر .

ثم قال : ﴿ فَتَنقَلِبُواْ خاسرين ﴾ .

واعلم أن اللفظ لما كان عاما وجب أن يدخل فيه خسران الدنيا والآخرة ، أما خسران الدنيا فلأن أشق الأشياء على العقلاء في الدنيا الانقياد للعدو والتذلل له وإظهار الحاجة اليه ، وأما خسران الآخرة فالحرمان عن الثواب المؤبد والوقوع في العقاب المخلد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 26 ﴾

فصل

قال أبو حيان :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ﴾

الخطاب عامّ يتناول أهل أحد وغيرهم .

وما زال الكفار مثابرين على رجوع المؤمنين عن دينهم ، ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء .

وودُّوا لو تكفرون ، لن تنفعكم ﴿ ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردُّونكم من بعد إيمانكم كفاراً ﴾ ﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ﴾ وقيل : الخطاب خاص بمن كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المؤمنين يوم أحد .

فعلى الأول علق على مطلق طاعتهم الرد على العقب والانقلاب بالخسران وهذا غاية في التحرز منهم والمجانبة لهم ، فلا يطاعون في شيء ولا يشاورون ، لأن ذلك يستجر إلى موافقتهم ، ويكون الذين كفروا عاماً .

وعلى القول الثاني : يكون الذين كفروا خاصاً .

فقال عليّ وابن عباس : هم المنافقون قالوا للمؤمنين لما رجعوا من أحد : لو كان نبياً ما أصابه الذي أصابه فارجعوا إلى إخوانكم .

وقال ابن جريج : هم اليهود والنصارى وقاله : الحسن .

وعنه : إن تستنصحوا اليهود والنصارى وتقبلوا منهم لأنهم كانوا يستغوونهم ، ويوقعون لهم الشبه ، ويقولون : لو كان لكم نبياً حقاً لما غلب ولما أصابه وأصحابه ما أصابهم ، وإنما هو رجل حاله كحال غيره من الناس ، يوماً له ويوماً عليه .

وقال السدي : هم أبو سفيان وأصحابه من عباد الأوثان .

وقال الحسن أيضاً : هو كعب وأصحابه .

وقال أبو بكر الرّازي : فيها دلالة على النهي عن طاعة الكفار مطلقاً ، لكن أجمع المسلمون على أنه لا يندرج تحته من وثقنا بنصحه منهم ، كالجاسوس والخرّيت الذي يهدي إلى الطريق ، وصاحب الرأي ذي المصلحة الظاهرة ، والزوجة تشير بصواب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 82 ﴾

وقال ابن عجيبة عن هذا الخطاب :

وقيل : عام في مطاوعة الكفرة والنزول على حكمهم ؛ فإنه يجر إلى موافقتهم على دينهم ، لا سيما إن طالت مدة الاستئمان .

قلت : وهذا هو السبب في ارتداد من بقي من المسلمين بالأندلس حتى رجعوا نصارى ، هم وأولادهم ، والعياذ بالله من سوء القضاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 1 صـ 418 ﴾

(8/132)

من فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ إِن تُطِيعُواْ الذين كَفَرُواْ ﴾ شروع في زجر المؤمنين عن متابعة الكفار

ببيان مضارها إثر ترغيبهم في الاقتداء بأنصار الأنبياء عليهم السلام ببيان فضائله ، وتصدير الخطاب بالنداء والتنبيه لإظهار الإعتناء بما في حيزه ، ووصفهم بالإيمان لتذكيرهم بحال ينافي تلك الطاعة فيكون الزجر على أكمل وجه والمراد من الذين كفروا إما المنافقون لأن الآية نزلت كما روي عن علي كرم الله تعالى وجهه حين قالوا للمؤمنين عند الهزيمة : ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم والتعبير عنهم بذلك قصداً إلى مزيد التنفير عنهم والتحذير عن طاعتهم ، وإما أبو سفيان وأصحابه وحينئذ فالمراد بإطاعتهم الإستكانة لهم وطلب الأمان منهم وإلى ذلك ذهب السدي ، وإما اليهود والنصارى فالمراد حينئذ لا تنتصحوا اليهود والنصارى على دينكم ولا تصدقوهم بشيء في ذلك ، وإليه ذهب ابن جريج ، وحكي أنهم كانوا يلقون إليهم الشبه في الدين ويقولون : لو كان محمد صلى الله عليه وسلم نبياً حقاً لما غلب ولَمَا أصابه وأصحابه ما أصابهم وإنما هو رجل حاله كحال غيره من الناس يوماً عليه ويوماً له فنهوا عن الإلتفات إليها ، وإما سائر الكفار . وذهب إلى جواز ذلك بعض المتأخرين ، وأتى بإن للإيذان بأن الإطاعة بعيدة الوقوع من المؤمنين .

﴿ يَرُدُّوكُمْ على أعقابكم ﴾ أي يرجعوكم إلى أول أمركم وهو الشرك بالله تعالى والفعل جواب الشرط .

وصح ذلك بناءاً على المأثور عن علي كرم الله تعالى وجهه من أن الكلام معه في قوة ﴿ إِن تُطِيعُواْ الذين كَفَرُواْ ﴾ في قولهم : ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم يدخلوكم في دينهم ، ويؤول إلى قولك : إن تدخلوا في دينهم تدخلوا في دينهم وفيه اتحاد الشرط والجزاء بناءاً على أن الإرتداد على العقب علم في انتكاس الأمر ومثل في الحور بعد الكور ، وقيل : إن المراد بالإطاعة الهمّ بها والتصميم عليها أي إن تصمموا على إطاعتهم في ذلك تردوا وترجعوا إلى ما كنتم عليه من الكفر وهذا أبلغ في الزجر إلا أنه بعيد عن اللفظ ، وجوز أن تكون جوابيته باعتبار كونه تمهيداً لقوله تعالى : ﴿ فَتَنقَلِبُواْ خاسرين ﴾ أي فترجعوا خاسرين لخير الدنيا وسعادة الآخرة وذلك أعظم الخسران . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 87 ﴾

وقال ابن عاشور :

و﴿ الَّذين كفروا ﴾ شائع في اصطلاح القرآن أن يراد به المشركون ، واللفظ صالح بالوضع لكلّ كافر من مشرك وكتابي ، مظهر أو منافق .

والردّ على الأعقاب : الارتداد ، والانقلاب : الرجوع ، وقد تقدّم القول فيهما عند قوله : ﴿ أفأين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ [آل عمران : 144] فالظاهر أنَّه أراد من هذا الكلام تحذير المؤمنين من أن يُخامرهم خاطر الدخول في صلح المشركين وأمانهم ، لأنّ

في ذلك إظهار الضّعف أمامهم ، والحاجة إليهم ، فإذا مالوا إليهم استدرجوهم رويداً رويداً ، بإظهار عدم كراهية دينهم المخالف لهم ، حتّى يردّوهم عن دينهم لأنّهم لن يرضوا عنهم حتّى يرجعوا إلى ملّتهم ، فالردّ على الأعقاب على هذا يحصل بالإخارة والمآل ، وقد وقعت هذه العبرة في طاعة مسلمي الأندلس لطاغية الجلالقة .

(10/132)

وعلى هذا الوجه تكون الآية مشيرة إلى تسفيهِ رأي من قال : "لو كلّمنا عبد الله بن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان" كما يدلّ عليه قوله : ﴿ بل الله مولاكم ﴾ .

ويحتمل أن يراد من الطاعة طاعة القول والإشارة ، أي الامتثال ، وذلك قول المنافقين لهم : لو كان محمد نبيئاً ما قتل فارجعوا إلى إخوانكم وملّتكم .

ومعنى الردّ على الأعقاب في هذا الوجه أنّه يحصل مباشرة في حال طاعتهم إيّاهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ 247 ﴾

قوله تعالى : ﴿بَلِ الله مولاكم وَهُوَ خَيْرُ الناصرين ﴾

قال الفخر :

والمعنى أنكم إنما تطيعون الكفار لينصروكم ويعينوكم على مطالبكم وهذا جهل ، لأنهم

عاجزون متحيرون ، والعاقل يطلب النصرة من الله تعالى ، لأنه هو الذي ينصركم على العدو ويدفع عنكم كيده ، ثم بين أنه خير الناصرين ، ولو لم يكن المراد بقوله : ﴿ مولاكم وَهُوَ خَيْرُ الناصرين ﴾ النصرة ، لم يصح أن يتبعه بهذا القول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 26 ﴾ .

وقال الآلوسى :

﴿ بَلِ الله مولاكم ﴾ إضراب وترك للكلام الأول من غير إبطال والمعنى ليس الكفار أولياء فيطاعوا في شيء ولا ينصرونكم بل الله ناصركم لا غيره .

﴿ وَهُوَ خَيْرُ الناصرين ﴾ لأنه القوي الذي لا يغلب والناصر في الحقيقة فينبغي أن يخص بالطاعة والاستعانة ، والجملة معطوفة على ما قبلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 87 ﴾ . بتصرف يسير .

فائدة

قال ابن عاشور :

و﴿ خير النّاصرين ﴾ هو أفضل الموصوفين بالوصف ، فيما يراد منه ، وفي موقعه ، وفائدته ، فالنصر يقصد منه دفع الغلب عن المغلوب ، فمتى كان الدفع أقطع للغالب كان النصر أفضل ، ويقصد منه دفع الظلم فمتى كان النصر قاطعاً لظلم الظالم كان موقعه أفضل ، وفائدته أكمل ، فالنصر لا يخلو من مدحة لأنّ فيه ظهور الشّجاعة وإباء الضيم والنجدة .

قال ودّاك بن ُثمَيْل المازني :

إذا استنجدوا لْم يسْألوا من دعاهم

لأية حرب أم بأي مكان . . .

ولكنّه إذا كان تأييداً لظالم أو قاطع طريق ، كان فيه دَخَل ومذمّة ، فإذا كان إظهاراً لحقِ الحقّ وإبطالِ الباطل ، استكمل المحمدة ، ولذلك فَسّر النَّبيء صلى الله عليه وسلم نصر الظالم بما يناسب خُلُق الإسلام لمّا قال : " انصر أخاك ظالماً ومظلوماً " فقال بعض القوم : هذا أنصره إذا كان مظلوماً فكيف أنصره إذا كان ظالماً ؟ فقال : " أنْ تنصره على نفسه فتكفّه عن ظلمه " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 247.248 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وهو خير الناصرين ﴾ لما ذكر أنه مولاهم ، أي ناصرهم ذكر أنّه خير ناصر لا يحتاج معه إلى نصرة أحد ، ولا ولايته .

وفي هذا دلالة على أن من قاتل لنصر دين الله لا يخذل ولا يغلب لأن الله مولاه .

وقال تعالى : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾ ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 83.82 ﴾ .

فائدة

قال الفخر :

وإنما كان تعالى خير الناصرين لوجوه :

الأول : أنه تعالى هو القادر على نصرتك في كل ما تريد ، والعالم الذي لا يخفى عليه دعاؤك وتضرعك ، والكريم الذي لا يبخل في جوده ، ونصرة العبيد بعضهم لبعض بخلاف ذلك في كل هذه الوجوه ،

والثاني : أنه ينصرك في الدنيا والآخرة ، وغيره ليس كذلك ،

والثالث : أنه ينصرك قبل سؤالك ومعرفتك بالحاجة ، كما قال : ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بالليل والنهار ﴾ [الأنبياء : 42] وغيره ليس كذلك .

واعلم أن قوله : ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الناصرين ﴾ ظاهره يقتضي أن يكون من جنس سائر الناصرين وهو منزه عن ذلك ، لكنه ورد الكلام على حسب تعارفهم كقوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : 27] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 26 ﴾

فصل

قال الطبرى :

وإنما قيل : "بل الله مولاكم" ، لأن في قوله : "إن تطيعوا الذين كفروا يردُّوكم على أعقابكم" ، نهيًا لهم عن طاعتهم ، فكأنه قال : يا أيها الذين آمنوا لا تُطيعوا الذين كفروا فيردُّوكم على أعقابكم ، ثم ابتدأ الخبر فقال : "بل الله مولاكم" ، فأطيعوه ، دون الذين كفروا ، فهو خيرُ من نَصَر .

ولذلك رفع اسم "الله" ، ولو كان منصوبًا على معنى : بل أطيعوا الله مولاكم ، دون الذين كفروا كان وجهًا صحيحًا .

ويعني بقوله : "بل الله مولاكم" ، وليّكم وناصركم على أعدائكم الذين كفروا ، "وهو خير الناصرين" ، لا من فررتم إليه من اليهود وأهل الكفر بالله . فبالله الذي هو ناصركم ومولاكم فاعتصموا ، وإياه فاستنصروا ، دون غيره ممن يبغيكم الغوائل ، ويرصدكم بالمكاره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 7 صـ 278 ﴾

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ ﴾ مبتدأ وخبر ، وقرأ الحسنُ بنصب الجلالةِ ؛ على إضمار فِعْل يدل عليه الشرط الأول ، والتقدير : لا تطيعوا الذين كفروا ، بل أطيعوا الله ، و" مَوْلَاكُمْ "

صفة .

وقال مَكّي : " وأجاز الفرّاء : بل اللهَ – بالنصب – "كأنه لم يطلع على أنها قراءة . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 593 ﴾ .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

بل الله مولاكم : ناصركم ومعينكم وسيدكم ومصلح أموركم ، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ : لأنه يعينكم على أنفسكم ليكفيكم شرّها ، ومَنْ سواه يزيد في بلائكم إذا ناصروكم لأنهم يعينون أنفسكم عليكم .

﴿ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ لأن مَنْ سواه يمن عليك بنصرته إياك ، وهو يجازيك على استنصارك به .

ويقال كل من استنصرت به احتجتَ إلى أن تُعْطِيَه شيئاً من كرائمك ثم قد ينصرك وقد لا ينصرك ، فإذا استنصرته – سبحانه – يعطيك كلّ لطيفة ، ولا يرضى بألا ينصرك . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 284 ﴾

(13/132)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآيتين

قال رحمه الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ ﴾

وما دمتم مؤمنين وهم كفار فكيف يتأتي منكم أن تطيعوا الكافرين ؟ إنكم وهم من أول مرحلة مختلفون ؛ أنتم مؤمنون وهم كفار ، والكافر والمنافق سيستغل فرصة الضعف في النفس الإيمانية المسلمة ، ويحاول أن يتسلل إليها ، مثلما قلنا : إن جماعة من المنافقين قالوا : قتل محمد ، ولم يعد فينا رسول فلنلجأ إلى دين آبائنا . والمؤمنون الذين أصابتهم لحظة ضعف قالوا : نذهب إلى ابن أبي – المنافق الأول في المدينة – ونطلب منه أن يتوسط لنا عند أبي سفيان ليأخذ لنا الأمان .

ولذلك يقول الحق : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ ﴾ ، فإن كان الموقف يحتاج إلى ناصر فلا تطلبوا النصير من الكافرين ، ولكن اطلبوه ممن آمنتم به . وينزل القول الحق : ﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ ألم يقل أبو سفيان : " لنا العُزَّى ، ولا عُزَّى لكم " ، فقال لهم النبي قولوا لهم : الله مولانا ولا مولى لكم ، وعندما قال : يوم بيوم ، أي يوم أُحد بيوم بدر ، الحرب سجال . فرد عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال : لا سواء ، أي نحن لسنا مثلكم ؛ قتلانا في الجنة ، وقتلاكم في النار ، فكيف تكون سواء وكيف تكون سجالاً ! ؟

﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ ونفهم قول الحق : ﴿ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ أي يجوز ان يوجد الله بشراً كافرين أو غير كافرين وينصروكم نصراً سطحياً ، لا نقول ان هذا نصر انما النصر الحقيقي هو النصر الذي يا تي من الله ، لماذا ؟ لأن النصر أول ما يأتي من ناحية الله فاطمئن على أنك خالص ومخلص لله والا ما جاءك نصره ، فساعة يأتيك نصر الله فاطمئن على نفسك الايمانية وانك مع الله . وقول الحق : ﴿ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ دليل على أنه من الممكن أن يكون هناك ناصر في عرف البشر . وقد قال المؤمنون : يارب نحن ضعاف الآن وإن لم نذهب لأحد ليحمينا ماذا نضع ؟ فيوضح لهم الحق : كونوا معسكرا إيمانيا أمام معسكر الكفر ، وإياكم أن تلجأوا إلى الكافرين بربكم ؛ لأنهم غير مأمونين عليكم . وإن كنتم تريدون أن تعرفوا ماذا سأفعل : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ . فإذا ألقى الرعب في قلوب الكافرين فماذا يفيدهم من عَدَدِهم ؟ ! عددهم وأموالهم تصير ملكا لكم وتكون في السَلَب والغنيمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1812.1813 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (149) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (150)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا . . . ﴾ الآية . لا تنتصحوا اليهود والنصارى عن دينكم ، ولا تصدقوهم بشيء في دينكم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا . . . ﴾ الآية . يقول : إن تطيعوا أبا سفيان بن حرب يردوكم كفاراً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب . أنه سئل عن هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم ﴾ التعرب ؟ فقال علي : بل هو الزرع .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمرو قال : ألا أخبركم بالمرتد على عقبيه ، الذي يأخذ العطاء ويغزو في سبيل الله ، ثم يدع ذلك ويأخذ الأرض بالجزية والرزق . فذلك الذي يرتد على عقبيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 341 . 342 ﴾

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ
(142) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (143) وَمَا
مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ
يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ
تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا
وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (145) وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ
قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ
(147) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148) يَا
أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (149) بَلِ
اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (150) ﴾

التفسير : إنه سبحانه لما ذكر فوائد مداولة الأيام وحكمها ، أتبعها ما هو السبب الأصلي في ذلك فقال : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ﴾ بدون تحمل المشاق . و "أم" منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار و "لما" بمعنى "لم" مع زيادة التوقع . وليس المراد نفي العلم بالمجاهدين ولكن المراد نفي المعلوم . وإنما حسن إقامة ذلك مقام هذا لأن العلم متعلق بالمعلوم كما هو عليه ، فلما حصلت بينهما هذه المطابقة حسن إقامة أحدها مقام الآخر . تقول : ما علم الله في فلان خيراً أي ما فيه خير حتى يعلمه . فحاصل الكلام لا تحسبوا أن تدخلوا الجنة ولم تجاهدوا بعد . وإنما أنكر هذا الحسبان لأنه تعالى أوجب الجهاد قبل هذه الواقعة وأوجب الصبر على تحمل متاعبها ، وبين وجوه المصالح المنوطة بها في الدين والدنيا . وإذا كان كذلك فمن البعيد أن يصل الإنسان إلى السعادة والجنة مع إهمال مثل هذه الطاعة . والواو في قوله : ﴿ ويعلم الصابرين ﴾ واو الجمع في قولهم : لا تأكل السمك وتشرب اللبن . كأنه قيل : إن دخول الجنة وترك المصابرة على الجهاد مما لا يجتمعان فليس كل من أقر بدين الله كان صادقاً ، ولكن الفيصل فيه تسليط المكروهات ومخالفات النفس فإن الحب هو الذي لا ينقص بالجفاء ولا يزداد بالوفاء . وقيل : التقدير أظننتم أن تدخلوا

الجنة قبل أن يعلم الله المجاهدين وأن يعلم الصابرين ؟ ووجه آخر وهو أن يكون مجزوماً أيضاً لكن الميم لما حركت للساكنين حركت بالفتحة إتباعاً للفتحة قبلها .

وهذا كما قرىء ﴿ ولما يعلم الله ﴾ بفتح الميم إلا أن يراد ولما يعلمن بالنون الخفيفة ثم حذفت . وقرأ الحسن ﴿ ويعلم ﴾ بالجزم على العطف . وروي عن أبي عمرو ﴿ ويعلم ﴾ بالرفع على الحال كأنه قيل : ولما تجاهدوا وأنتم صابرون ﴿ ولقد كنتم تمنون الموت ﴾ الخطاب فيه للذين ألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج إلى المشركين وكان رأيه في الإقامة بالمدينة . ويراد بالموت سببه وهو الجهاد والقتل . قال المحققون : إنه لم يكن تمنيهم للموت تمنياً لأن يقتلوا لأن قتل المشركين لهم كفر . ولا يجوز للمؤمن أن يتمنى الكفر أو يريده أو يرضى به ، بل إنما تمنوا الفوز بدرجات الشهداء والوصول إلى كراماتهم . وشبهوا ذلك بمن شرب دواء الطبيب النصراني فإن غرضه حصول الشفاء . ولا يخطر بباله جر منفعة وإحسان إلى عدو الله وتنفيق صناعته ، قالت الأشاعرة ههنا : من أراد شيئاً أراد ما هو من لوازمه ، وثواب الشهداء لا يحصل إلا بالشهادة ، ولا ريب أنه تعالى أراد إيصال ثواب الشهداء إلى المؤمنين ، ولهذا ورد من

الترغيبات ما ورد فأراد صيرورتهم شهداء ، ولن يصيروا شهداء إلا إذا قتلهم الكفار فلا بد أن يريد أن يقتلهم الكفار وذلك القتل كفر ومعصية ، فثبت أنه تعالى مريد للكفر والإيمان والطاعة والعصيان . ﴿ من قبل أن تلقوه ﴾ من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدته وصعوبة مقاساته . ﴿ فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾ قال الزجاج : أي وأنتم بصراء كقولهم : رأيته بعيني أي رأيتموه معاينين حين قتل بين أيديكم من قتل من إخوانكم وشارفتم أن تقتلوا . ويحتمل أن يراد رأيتم إقدام القوة وشدة حرصهم على قتلكم وعلى قتل الرسول ، ثم بقيتم أنتم تنظرون إليهم من غير جد في دفعهم ولا اجتهاد في مقاتلتهم ، وفيه توبيخ لهم على تمنيهم الجهاد وعلى إلحاحهم في الخروج إليه ، ثم انهزامهم وقلة ثباتهم عنده . قال ابن عباس ومجاهد والضحاك : لما نزل النبي صلى الله عليه وسلم بالشعب أمر الرماة

أن يلزموا أصل الجبل ولا ينتقلوا سواء كان الأمر لهم أو عليهم . فلما وقفوا وحملوا على الكفار هزموهم وقتل علي عليه السلام طلحة بن أبي طلحة صاحب لوائهم ، والزبير والمقداد شدا على المشركين ، ثم حمل الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه فهزموا أبا سفيان . ثم إن بعض القوم لما رأوا انهزام الكفار بادر قوم من الرماة إلى الغنيمة ، وكان خالد

بن الوليد صاحب ميمنة الكفار ، فلما رأى تفرق الرماة حمل على المسلمين فهزمهم وفرق جمعهم ، وكثر القتل في المسلمين ، ورمى عبد الله بن قميئة الحارثي رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر وكسر رباعيته وشج وجهه وأقبل يريد قتله ، فذب عنه مصعب بن عمير وهو صاحب الراية يوم بدر ويوم أحد حتى قتله ابن قميئة .

(20/132)

واحتمل طلحة بن عبيد الله رسول الله ودافع عنه أبو بكر وعلي عليه السلام . وظن ابن قميئة أنه قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : قد قتلت محمداً ، وصرخ صارخاً ألا إن محمداً قد قتل . قيل : وكان الصارخ الشيطان ففشا في الناس خبر قتله صلى الله عليه وسلم فانكفؤا ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو : إليّ عباد الله ، حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على هربهم فقالوا : يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، أتانا خبر قتلك فرعبت قلوبنا فنزلت ﴿ وما محمد إلا رسول ﴾ أي مرسل . قال أبو علي : وقد يكون الرسول في غير هذا الموضع بمعنى الرسالة أي حالة مقصور على الرسالة لا يتخطاها إلى البقاء والدوام ﴿ قد خلت من قبله الرسل ﴾ فسيخلو كما خلوا . وكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوهم فكونوا أنتم كذلك لأن الغرض من

إرسال الرسل التبليغ وإلزام الحجة لا وجودهم بين أممهم أبداً ﴿ أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ الفاء لتسبيب الجملة الشرطية عن الجملة التي قبلها ، والهمزة لإنكار الجزاء لأنه في الحقيقة كأنه دخل عليه . والمعنى : أفتنقلبون على أعقابكم إن مات محمداً أو قتل ؟ وسبب الإنكار ما تقدم من الدليلين : أحدهما أن الحاجة الى الرسول هي التبليغ وبعد ذلك لا حاجة إليه ، فلا يلزم من قتله أو موته الإدبار عما كان هو عليه من الدين وما يلزم كالجهاد . وثانيهما القياس على موت سائر الأنبياء وقتلهم ، فإن موسى عليه السلام مات ولم ترجع أمته عن ذلك الدين . والنصارى زعموا أن عيسى عليه السلام قتل وهم لم يرجعوا عن دينه وإنما ذكر القتل . وقد علم أنه لا يقتل لكونه مجوّزاً عند المخاطبين . وقوله : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ [المائدة : 67] لو سلم أنه متقدم في النزول فإنه مما كان يختص بمعرفته العلماء منهم على أنه ليس نصاً في العصمة عن القتل ، بل يحتمل العصمة من فتنة الناس وإضلالهم . وقوله : ﴿ إنك ميت ﴾ [

الزمر : 30] يراد به المفارقة إلى الآخرة بأي طريق كان بدليل ﴿ وإنهم ميتون ﴾ [الزمر : 30] وكثير منهم قد قتلوا . ويمكن أن يقال : صدق القضية الشرطية لا يتوقف على

صدق جزأيها لصدق قولنا إن كانت الخمسة زوجاً فهي تنقسم بمتساويين مع كذب جزأيها . ومعنى " أو " هو الترديد والتشكيك أي سواء فرض وقوع الموت أو القتل فلا تأثير له في ضعف الدين ووجوب الإدبار أو الارتداد ﴿ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ﴾ بل لا يضر إلا نفسه ، وهذا كما يقول الوالد لولده عند العتاب إن هذا الذي تأتي به من الأفعال لا يضر السماء والأرض . يريد أنه يعود ضرره عليه .

وما ارتد أحد من المسلمين ذلك اليوم إلا ما كان من قول المنافقين . ويجوز أن يكون على وجه التغليظ عليهم فيما كان منهم من الفرار والإنكشاف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . روي أنه لما صرخ الصارخ قال بعض المسلمين : ليت عبد الله بن أبيّ يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان . وقال ناس من المنافقين : لو كان نبياً لما قتل ، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم . فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك : يا قوم إن كان قتل محمد فإن رب محمد حي لا يموت . وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه . ثم قال : اللهم إني اعتذر إليك مما يقول هؤلاء ، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ، ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل . وعن بعض المهاجرين أنه مر بأنصاري يتشحط في دمه

فقال: يا فلان، اشعرت أن محمداً قد قتل؟ فقال: إن كان قتل فقد بلغ قاتلوا على دينكم. ففي أمثالهم قال تعالى: ﴿ وسيجزي الله الشاكرين ﴾ لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا من الصبر والثبات. ثم قال: ﴿ وما كان لنفس أن تموت ﴾ ووجه النظم أن المنافقين أرجفوا أن محمداً قتل فارجعوا إلى ما كنتم عليه من الأديان، فأبطل قولهم بأن القتل مثل الموت في أنه لا يحصل إلا في الوقت المقدر. وكما أنه لو مات في بلده لم يدل ذلك على فساد دينه فكذا لو قتل. وفيه تحريض المؤمنين على الجهاد بإعلامهم أن الحذر لا يغني عن القدر، وأن أحداً لا يموت قبل الأجل وإن خوّض المهالك واقتحم المعارك. أو الغرض بيان حفظة وكلاءته لنبيه فإنه ما بقي في تلك الواقعة سبب من أسباب الهلاك والشر إلا وقد حصل إلا أنه تعالى لما كان حافظاً لنبيه ولم يقدّر في ذلك الوقت أجله لم يضره ذلك. وفيه تقريع لأصحابه أنهم قد قصروا في الذب عنه صلى الله عليه وسلم، وجواب عما قاله المنافقون للصحابة لما رجعوا لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا. قال الأخفش والزجاج: تقدر الكلام وما كانت نفس

لتموت إلا بإذن الله . وقال ابن عباس : الإذن هو قضاء الله وقدره فإنه لا يحدث شيء إلا بمشيئة الله وأرادته ، فأورد الكلام على سبيل التمثيل كأنه فعل لا ينبغي لأحد أن يقدم عليه إلا بإذن الله فيه ، وذلك أن إسناد الموت إلى النفس نسبة الفعل إلى القابل لا إلى الفاعل ، فأقيم القابل مقام الفاعل . وقال أبو مسلم : الإذن هو الأمر . والمعنى أن الله تعالى يأمر ملك الموت بقبض الأرواح فلا يموت أحد إلا بهذا الأمر . وقيل : المراد التكوين والتخليق لأنه لا يقدر على خلق الموت والحياة أحد إلا الله .

وقيل : التخلية والإطلاق وترك المنع بالقهر والإجبار . والمعنى ما كان لنفس أن تموت بالقتل إلا بأن يخلي الله بين القاتل والمقتول . وفيه أنه تعالى لا يخلي بين نبيه وبين أحد ليقتله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه جعل من بين يديه صلى الله عليه وسلم ومن خلفه رصداً ليتم على يديه بلاغ ما أرسله به فلا تهنوا في غزواتكم بعد ذلك بإرجاف مرجف . وقيل : الإذن العلم أي لن تموت نفس إلا في الوقت الذي علم الله موتها فيه . وفي الآية دليل على أن المقتول ميت بأجله ، وأن تغيير الآجال ممتنع ولذا أكد هذا المعنى بقوله : ﴿ كتاباً موجلاً ﴾ وهو مصدر مؤكد لنفسه لدلالة ما قبله عليه أي كتب الموت كتاباً مؤجلاً مؤقتاً له أجل

معلوم لا يتقدم ولا يتأخر . وقيل : الكتاب المؤجل هو المشتمل على الآجال . وقيل : هو اللوح المحفوظ الذي كتب فيه جميع الحوادث من الخلق والرزق والأجل والسعادة والشقاوة . قال القاضي : الأجل والرزق مضافان إلى الله تعالى ، وأما الكفر والفسق والإيمان والطاعة فكل ذلك مضاف إلى العبد . فإذا كتب تعالى ذلك فإنما يكتب ما يعلمه من اختيار العبد وذلك لا يخرج فيه العبد من أن يكون مذموماً أو ممدوحاً . والحق أن هذا تعكيس للقضية فإن الله تعالى إذا علم من العبد الكفر استحال أن يأتي هو بالإيمان وإلا انقلب علم الله جهلاً ، وإذا كان هو غير قادر على الإيمان حينئذٍ فما معنى اختياره ؟ ثم إنه كان في الذين حضروا يوم أحد من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة كما أخبر الله تعالى في هذه السورة فقوله : ﴿ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ﴾ أي من ثوابها تعريض بالفريق الدنيوي وهم الذين شغلتهم الغنائم ، وباقي الآية مدح للفريق الآخر الأخروي ، وإن فضله تعالى وعطيته شامل لكلا الفريقين ، لكن ثواب الفريق الثاني هو المعتد به في الحقيقة ولهذا ختم الكلام بقوله : ﴿ وسنجزي الشاكرين ﴾ فأبهم الجزاء وأضافه إلى نفسه تنبيهاً على جزاء الذين شكروا نعمة

الإسلام فلم يشغلهم عن الجهاد شيء لا يكتنه كنهه وتقصر عنه العبارة ، وأنه كما يليق بعميم فضله وجسيم طوله . وهذه الآية وإن وردت في الجهاد لكنها عامة في جميع الأعمال كما قال صلى الله عليه وسلم : " إنما الأعمال بالنيات " وذلك لأن المؤثر في جانب الثواب والعقاب القصود والدواعي . فمن وضع الجبهة على الأرض والوقت ظهر والشمس أمامه ، فإن قصد بذلك السجود عبادة الله تعالى كان من الإيمان ، وإن قصد تعظيم الشمس كان من الكفر .

﴿ وكأين ﴾ الأكثرون على أنها في الأصل مركبة من كاف التشبيه و " أي " التي هي في غاية الإبهام إذا قطعت عن الإضافة . كما أن " كذا " مركبة من " الكاف " و " ذا " المقصود به الإشارة .

(26/132)

" فكأين " مثل " كذا " في كون المجرورين مبهمين عند السامع إلا أن في " ذا " إشارة في الأصل إلى ما في ذهن المتكلم بخلاف " أي " فإنه للعدد المبهم ومميزها منصوب ومفرد على الأصل . والأكثر إدخال " من " في مميز " كأين " وبه ورد القرآن والتمييز بعد " كذا " و " كأين " في الأصل عن الكاف لا عن " ذا " و " أي " كما في " مثلك رجلاً " لأنك تبين في كذا

رجلاً وكأين رجلاً أن مثل العدد المبهم في أي جنس هو ولم تبين العدد المبهم . فأي في الأصل كان معرباً لكنه انمحى عن الجزأين معناهما الإفرادي وصار المجموع كاسم مفرد بمعنى "كم" الخبرية فصار كأنه اسم مبني على السكون آخره نون ساكنة كما في "من" لا تنوين تمكن فلهذا يكتب بعد الياء نون ، مع أن التنوين لا صورة له خطاً ولأجل التركيب تصرف فيه فقيل : كائن مثل كاعن . وربما ظن بعضهم أنه اسم فاعل من كان ، ولكنه بني لكثرة الاستعمال وهاتان اللغتان فيه مشهورتان ولهذا قرئ بهما . وفيه لغات آخر غير مشهورة تركنا ذكرها لأنه لم يقرأ بها ولعلك تجدها في كتبنا الأدبية ، ومحل ﴿ كأين ﴾ ههنا رفع على الابتداء ، وقوله ﴿ قتل ﴾ أو ﴿ قاتل ﴾ خبره والضمير يعود إلى لفظ ﴿ كأين ﴾ فإنه مفرد اللفظ . وإن كان مجموع المعنى . والربيون معناه الألوف أو الجماعات الكثيرة . الواحد ربي عن الفراء والزجاج . قال ابن قتيبة : أصله من الربة الجماعة ، فحذفت الهاء في النسبة ، ويقال : تربوا أي تجمعوا . وقال ابن زيد : الربانيون الأئمة والولاة ، والربيون الرعية . والكسر فيه من تغييرات النسب كالضم في دهري ، والقياس الفتح ، ثم من قرأ ﴿ قتل ﴾ فمعنى الآية إن كثيراً من الأنبياء قتلوا والذين بقوا بعده ما وهنوا في دينهم بل استمروا على جهاد عدوّهم ونصرة دينهم وكان ينبغي أن يكون لكم فيهم أسوة حسنة . فيكون المقصود من الآية حكاية ما جرى لسائر الأنبياء لتقتدي هذه الأمم بهم . ومن قرأ ﴿ قاتل ﴾ فالمعنى : وكم من

(27/132)

نبي قاتل معه العدد الكثير من أصحابه فأصابهم من عدوّهم قروح فما وهنوا . فعلى هذا يكون الغرض من الآية ترغيب الذين كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في القتال . وربما تؤيد هذه القراءة بما روي عن سعيد بن جبير أنه قال : ما سمعنا بنبي قتل في القتال ، ويحتمل أن تنزل القراءة الأولى على هذه الرواية أيضاً بأن يقال : المعنى وكأين من نبي قتل ممن كان معه وعلى دينه ربيون كثير ، فما ضعف الباقون وما استكانوا لقتل من قتل من إخوانهم ، بل مضوا على جهاد عدّوهم .

(28/132)

ثم إنه تعالى مدح هؤلاء الربيين بصفات وذلك قوله ﴿ فما وهنوا ﴾ إلخ ولا بد من تغايرها فقيل ﴿ فما وهنوا ﴾ عند قتل النبي ﴿ وما ضعفوا ﴾ عن الجهاد بعده ﴿ وما استكانوا ﴾ للعدو أي لم يخضعوا له ، وفيه تعريض بما أصاب المسلمين من الوهن والانكسار عن الإرجاف بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبضعفهم عند ذلك عن

جهاد الكفار واستكانتهم لهم حين أرادوا أن يعتضدوا بالمنافق عبد الله بن أبي في طلب الأمان من أبي سفيان . وقيل : الوهن استيلاء الخوف عليهم ، والضعف ضعف الإيمان واختلاج الشبهات في صدورهم ، والاستكانة الانتقال من دينهم إلى دين عدوهم . وقيل : الوهن ضعف يلحق القلب ، والضعف مطلقاً اختلال القوة الجسمية ، والاستكانة إظهار ذلك العجز والضعف . واستكان قيل " افتعل " من السكون كأنه سكن لصاحبه ليفعل به ما يريد . وعلى هذا فالمد شاذ كقولهم " هو منه بمنتزاح " أي ببعد يراد بمنتزح . والأصح أنه استفعل من " كان " والمد قياسي كأن صاحبه تغير من كون إلى كون أي من حال إلى حال . ﴿ والله يحب الصابرين ﴾ بأن يريد إكرامهم والحكم بالثواب والجنة لهم . ثم أخبر أنهم كانا مستعينين عند ذلك التصبر والتجلد بالدعاء والتضرع وطلب الإمداد والنصر من الله ، والغرض أن تقتدي هذه الأمة بهم . فإن من عول في تحصيل مهماته على نفسه وعدده وعدده ذل ، ومن اعتصم بالله والتجأ إليه فاز بالظفر . وفي إضافتهم الذنوب والإسراف إلى أنفسهم وهم ربانيون هضم للنفس واستصغار لها . قال المحققون : إنما قدموا الاستغفار لعلمهم بأنه تعالى ضمن نصر المؤمنين ، فإذا لم يحصل النصرة وظهرت أمارات واستيلاء الأعداء دل ذلك على صدور ذنب وتقصير من المؤمنين ، فيلزم تقديم التوبة والاستغفار على طلب النصرة ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاة وطهارة أقرب إلى

الاستجابة . إنهم عمموا الذنوب أوّلاً الصغائر والكبائر بقولهم : ﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا ﴾ ثم خصصوا الذنوب الكبائر بقولهم

(29/132)

﴿ وإسرافنا في أمرنا ﴾ لأن الإسراف في كل شيء هو الإفراط فيه . والمراد بتثبيت الأقدام وإزالة الخوف عن قلوبهم وإماطة الخواطر الفاسدة عن صدورهم . والمراد بالنصر الأمور الزائدة على القوة والعدة والشدة كإلقاء الرعب في قلوب الأعداء ، وكإحداث أحوال سماوية أو أرضية توجب انهزامهم كهبوب ريح تثير الغبار في وجوههم ، وإجراء سيل في مواضع وقوفهم . وفي الآية تأديب وإرشاد من الله تعالى في كيفية الطلب عند النوائب جهاداً كان أو غيره ﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا ﴾ من النصرة والغنيمة والعز وطيب الذكر وانشراح الصدر ﴿ وحسن ثواب الآخرة ﴾ وهو الجنة وما فيها من المنافع واللذات وذلك غير حاصل في الحال . والمراد أنه حكم لهم بحصولها في الآخرة ، وحكم الله بالحصول كنفس الحصول . أو المراد أنه سيؤتيهم مثل أتى أمر الله أي سيأتي ، قال القاضي : ولا يمتنع أن تكون الآية مختصة بالشهداء وأنهم في الجنة عند ربهم كما ماتوا

أحياء ، وثواب الآخرة كله حسن ، فما ظنك بحسن ثوابها ؟ وإنما لم يصف ثواب الدنيا بالحسن لقلتها وامتزاجها بالمضار وكدر صفوها بالانقطاع والزوال .

(30/132)

قال القفال : يحتمل أن يكون الحسن هو الحسن كقوله : ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ [البقرة : 83] والغرض منه المبالغة كما يقال : فلان جود وعدل إذا كان غاية في الجود ونهاية في العدل . وههنا نكتة وهي أنه أدخل " من " التبعيضية في الآية المتقدمة في قوله : ﴿ نؤته منها ﴾ في الموضعين ، ولم يذكر في هذه الآية . لأن أولئك اشتغلوا بالثواب عن العبودية فلم ينالوا إلا البعض ، بخلاف هؤلاء فإنهم لم يذكروا أنفسهم إلا بالعيب والقصور ولم يسألوا ربهم إلا ما يوجب إعلاء كلمته ، فلا جرم فازوا بالكل . وفيه تنبيه على أن من أقبل على خدمة الله أقبل على خدمته كل ما سوى الله . ثم قال ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه . وههنا سر وهو أنه تعالى وفقهم للطاعة ثم أثابهم عليها ثم مدحهم على ذلك فسماهم محسنين ، ليعلم العبد أن الكل بعنايته وفضله .

(31/132)

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا ﴾ عن السدي : المراد بالذين كفروا هو أبو سفيان وأصحابه فإنه كان كبير القوم في ذلك اليوم . والمعنى إن تستكينوا لهم وتستأمنوهم . وعن علي عليه السلام : هم المنافقون عبد الله بن أبيّ وأشياعه قالوا للمؤمنين عند الهزيمة : ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم . وعن الحسن : هم اليهود والنصارى يستغوونهم ويوقعون لهم الشبهة في الدين ولا سيما عند هذه الواقعة كانوا يقولون : لو كان نبياً حقاً لما غلب ولما أصابه وأصحابه ما أصابهم وإنما هو رجل حاله كحال غيره من الناس يوم له ويوم عليه . والأقرب أنه عام في جميع الكفار فإن خصوص السبب لا ينافي إرادة العموم ، فعلى المؤمنين أن لا يطيعوهم يف شيء ولا ينزلوا على حكمهم وعلى مشورتهم حتى لا يستجرّوهم إلى موافقتهم وهو المراد بقوله : ﴿ يردوكم على أعقابكم ﴾ أي إلى الكفر بعد الإيمان ﴿ فتنقلبوا خاسرين ﴾ في الدنيا باستبدال ذلة الكفر بعزة الإسلام والانقياد للأعداء الذي هو اشق الأشياء لدى العقلاء ، وفي الآخر بالحرمان عن الثواب المؤبد والوقوع في العقاب المخلد . ﴿ بل الله مولاكم ﴾ ناصركم وهو إضراب عما كانوا بصدده من طاعة الكفار . والمعنى أنكم إنما تطيعون الكفار لينصروكم ويعينوكم على مطالبكم وهذا خطأ وجهالة لأنهم عاجزون مثلكم متحيرون ، وبغير إذن الله لا ينفعون ولا يضرون . ﴿ وهو خير الناصرين ﴾ لو فرض أن لأحد سواه قدرة على النصر

لأنه خبير بمواقع الحاجات، قدير على إنجاز الطلبات، ينصر في الدنيا والآخرة بلا شائبة علة من العلات، ونصرة غيره لو فرض فإنه مخصوص بالدنيا وببعض الأمور وفي بعض الأوقات ولغرض من الإغراض الفاسدات، كيف ولا ناصر بالحقيقة سواه. انتهى ا. هـ ﴿غرائب القرآن حـ 2 صـ 268. 275﴾

(32/132)

قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (151)﴾

فصل

قال البقاعى:

﴿سنلقي﴾ أي بعظمتنا ﴿في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ أي المقتضي لامتثال ما أمر به من الجرأة عليهم وعدم الوهن في أمرهم، كما افتتح القصة بالإيماء إلى ذلك بالأمر بالسير في الأرض والنظر في عاقبة المكذبين، ثم بين سبب ذلك فقال: ﴿بما أشركوا بالله﴾ أي ليعلموا قطعاً أنه لا ولي لعدوه لأنه لا كفوء له، وبين بقوله: ﴿ما لم ينزل﴾ أي في وقت من الأوقات ﴿به سلطاناً﴾ أنه لا حجة لهم في الإشراك، وما لم ينزل به سلطاناً فلا سلطان له

، ومادة سلط ترجع إلى القوة ، ولما كان التقدير : فعليهم الذل في الدنيا لاتباعهم ما لا قوة به ، عطف عليه : ﴿ ومأواهم النار ﴾ ثم هوّل أمرها بقوله : ﴿ وبئس مثوى الظالمين ﴾ أي هي ، وأظهر في موضع الإضمار للتعميم وتعليق الحكم بالوصف . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 166 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أن هذه الآية من تمام ما تقدم ذكره ، فإنه تعالى ذكر وجوها كثيرة في الترغيب في الجهاد وعدم المبالاة بالكفار ، ومن جملتها ما ذكر في هذه الآية أنه تعالى يلقي الخوف في قلوب الكفار ، ولا شك أن ذلك مما يوجب استيلاء المسلمين عليهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 27 ﴾

(33/132)

اللغة :

[سلطانا] حجة وبرهانا وأصله القوة ومنه قيل للوالي سلطان

[مثوى] المثوى : المكان الذي يكون مقر الإنسان ومأواه ، من قولهم ثوى بالمكان إذا أقام فيه

[تحسونهم] تقتلونهم ، قال الزجاج : الحسق الإستئصال بالقتل وأصله الضرب على مكان الحس

[تصعدون] الإصعاد : الذهاب والإبعاد في الأرض ، والفرق بينه وبين الصعود أن الإصعاد يكون في مستوى من الأرض ، والصعود يكون في ارتفاع

[لا تلوون] أى لا تلتفتون إلى أحد كما يفعل المنهزم وأصله من لي العنق للإلتفات

[أخراكم] آخركم

[أثابكم] جازاكم

[أمنة] أمنا واطمئنانا

[يغشى] يستر ويغطي

[وليمحص] التمحيص : التنقية وتخليص الشيء مما فيه من عيب

[استزلهم] أوقعهم في الزلة وهي الخطيئة

[غزى] جمع غاز وهو الخارج في سبيل الله للجهاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 234.235 ﴾

فائدة

قال الآلوسي :

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الذين كَفَرُواْ الرعب ﴾ كالبيان لما قبل ، وعبر بنون العظمة على طريق الالتفات جرياً على سنن الكبرياء لتربية المهابة ، والسين لتأكيد الإلقاء ، و(الرعب) بسكون العين الخوف والفزع أي سنقذف ذلك في قلوبهم ، والمراد من الموصول أبو سفيان وأصحابه ، فقد أخرج ابن جرير عن السدي قال : "لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجهين نحو مكة انطلق أبو سفيان حتى بلغ بعض الطريق ثم إنهم ندموا فقالوا : بئس ما صنعتم إنكم قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلا الشريد تركتموهم ارجعوا فاستأصلوا فقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب فانهزموا فلقوا أعرابياً فجعلوا له جُعْلاً فقالوا له إن لقيت محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه فأخبرهم بما قد جمعنا لهم فأخبر الله تعالى رسول الله صلى الله عليه وسلم فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد فأنزل الله تعالى في ذلك هذه الآية يذكر فيها أمر أبي سفيان وأصحابه ، وقيل : إن الآية نزلت في يوم الأحزاب ، وفي "صحيح مسلم" عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " نصرت بالرعب على العدو " ، وأخرج أحمد وغيره من حديث أبي أمامة " نصرت بالرعب مسيرة شهر يقذف في قلوب أعدائي " ، وقرىء ﴿ سيلقى ﴾ بالياء ، وقرأ أبو جعفر وابن عامر والكسائي ﴿ كَفَرُواْ الرعب ﴾ بضم العين وهي لغة فيه ، وقيل : الضم هو الأصل والسكون

للتخفيف، وقيل: الأصل السكون والضم للإتباع. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 87.88 ﴾

(35/132)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله:

﴿ القراءات ﴾: ﴿ الرعب ﴾ بضمتين حيث كان: ابن عامر وعلي ويزيد وسهل ويعقوب. الباقون: بسكون العين – ﴿ ومأواهم ﴾ وبابه بغير همز: أبو عمرو غير شجاع ويزيد والأعشى والأصفهاني عن ورش وحمزة في الوقف. ﴿ ولقد صدقكم ﴾ وبابه بإدغام الدال في الصاد: حمزة وعلي وخلف وأبو عمرو وهشام وسهل ﴿ وتغشى ﴾ بتاء فوقانية وبالإمالة: حمزة وعلي وخلف. الباقون: بياء الغيبة ﴿ كله ﴾ بالرفع: أبو عمرو وسهل ويعقوب. الباقون: بالنصب ﴿ يعملون بصير ﴾ بياء الغيبة: ابن كثير وعباس وعلي وخلف وحمزة. الباقون: بالخطاب ﴿ متم ﴾ و ﴿ متنا ﴾ بكسر الميم من مات يمات حيث كان: نافع وعلي وحمزة وخلف وافق حفصاً إلاههنا لجوار ﴿ قتلتم

﴿ الباقون : بضم الميم من مات يموت . ﴿ يجمعون ﴾ بياء الغيبة : حفص والمفضل وسائر القراء بتاء الخطاب .

(36/132)

الوقوف : ﴿ سلطاناً ﴾ ج لعطف المختلفتين ﴿ النار ﴾ ط ﴿ الظالمين ﴾ ه ﴿ بإذنه ﴾ ج لأن " حتى " تحتمل انتهاء الحس ، ووجه الابتداء أظهر لاقتران " إذا " مع حذف الجواب أي إذا فعلتم وفعلتم انقلب الأمر ويمنعكم نصره . والوقف على ﴿ تحبون ﴾ ظاهر في الوجهين . ﴿ الآخرة ﴾ ج لأن " ثم " لترتيب الإخبار وقيل لعطف ﴿ صرفكم ﴾ على الجواب المحذوف . ﴿ ليبتليكم ﴾ ج ﴿ عفا عنكم ﴾ ط ﴿ المؤمنين ﴾ ه ﴿ أصابكم ﴾ ط ﴿ تعملون ﴾ ه ﴿ طائفة منكم ﴾ (لا) لأن الواو للحال . ﴿ الجاهلية ﴾ ط ﴿ من شيء ﴾ ط ﴿ لله ﴾ ط ﴿ يبدو لك ﴾ ط ﴿ ههنا ﴾ ط ﴿ مضاجعهم ﴾ ج لأن الواو مقحمة أو عاطفة على محذوف أي لينفذ الحكم فيكم . ﴿ وليبتلي ﴾ ﴿ ما في قلوبكم ﴾ ط ﴿ الصدور ﴾ ه ﴿ الجمعان ﴾ (لا) لأن إنما خبر إن ﴿ كسبوا ﴾ ج لاحتمال الواو حالاً واستئنافاً ﴿ عنهم ﴾ ط ﴿ حليم ﴾ ه ﴿ وما قتلوا ﴾ ج لأن لام ﴿ يجعل ﴾ قد يتعلق بقوله : ﴿ وقالوا لإخوانهم ﴾ أو

بمحذوف أي ذلك ليجعل ﴿ في قلوبهم ﴾ ط ﴿ ويميت ﴾ ط ﴿ بصير ﴾ ه ﴿ تجمعون ﴾ ه ﴿ تحشرون ﴾ ه ﴿ لنت لهم ﴾ ج لأن الواو للعطف و " لو " للشرط ﴿ من حولك ﴾ ص والوصل أولى ليعطف الأمر بالرحمة على النهي عن الغلظة تعريضاً ﴿ الأمر ﴾ ج لفاء التعقيب مع " إذا " الشرطية ﴿ على الله ﴾ ط ﴿ المتوكلين ﴾ ه ﴿ لكم ﴾ ج لابتداء شرط آخر مع الواو ﴿ من بعده ﴾ ط ﴿ المؤمنون ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 2 صـ 277.278 ﴾

(37/132)

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في أن هذا الوعد هل هو مختص بيوم أحد ، أو هو عام في جميع الأوقات ؟

قال كثير من المفسرين : إنه مختص بهذا اليوم ، وذلك لأن جميع الآيات المتقدمة إنما وردت في هذه الواقعة ، ثم القائلون بهذا القول ذكروا في كيفية إلقاء الرعب في قلوب المشركين في هذا اليوم وجهين :

الأول : أن الكفار لما استولوا على المسلمين وهزموهم أوقع الله الرعب في قلوبهم ، فتركوهم

وفروا منهم من غير سبب ، حتى روي أن أبا سفيان صعد الجبل ، وقال : أين ابن أبي كبشة ، وأين ابن أبي قحافة ، وأين ابن الخطاب ، فأجابه عمر ، ودارت بينهما كلمات ، وما تجاسر أبو سفيان على النزول من الجبل والذهاب إليهم ،

والثاني : أن الكفار لما ذهبوا إلى مكة ، فلما كانوا في بعض الطريق قالوا : ما صنعنا شيئاً ، قتلنا الأكثرين منهم ، ثم تركناهم ونحن قاهرون ، ارجعوا حتى نستأصلهم بالكلية ، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب في قلوبهم .

والقول الثاني : أن هذا الوعد غير مختص بيوم أحد ، بل هو عام .

قال القفال رحمه الله : كأنه قيل إنه وإن وقعت لكم هذه الواقعة في يوم أحد إلا أن الله تعالى سيلقي الرعب منكم بعد ذلك في قلوب الكافرين حتى يقهر الكفار ، ويظهر دينكم على سائر الأديان .

وقد فعل الله ذلك حتى صار دين الإسلام قاهراً لجميع الأديان والملل ، ونظير هذه الآية قوله عليه السلام " نصرت بالرعب مسيرة شهر " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 27 ﴾

لطيفة

قال القرطبى :

والإلقاء يستعمل حقيقة في الأجسام ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَأَلْقَى الألواح ﴾ [الأعراف :

150] ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ ﴾ [الشعراء : 44] ﴿ فألقى موسى عَصَاهُ ﴾ [الشعراء : 45] .

قال الشاعر :

فألقَتْ عصاها واستقر بها النّوَى . . .

ثم قد يستعمل مجازاً كما في هذه الآية ، وقوله : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنّي ﴾ .

وألقى عليك مسألة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 232 . 233 ﴾

(38/132)

وقال ابن عاشور :

والإلقاءُ حقيقته رمي شيء على الأرض ﴿ فألقوا حبالهم وعصيّهم ﴾ [الشعراء : 44] ، أو في الماء ﴿ فألقِيه في اليمّ ﴾ [القصص : 7] ويطلق على الإفضاء بالكلام ﴿ يُلقون السمع ﴾ [الشعراء : 223] وعلى حصول الشيء في النفس كأنّ ملقياً ألقاه أي من غير سبق تهيّؤ ﴿ وألقينا بينهم العداوة والبغضاء ﴾ [المائدة : 64] وهو هنا مجاز في الجعل والتّكوين كقوله : ﴿ وقذف في قلوبهم الرعب ﴾ [الأحزاب : 26] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 248 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ ابن عامر والكسائي ﴿ الرعب ﴾ بضم العين ، والباقون بتخفيفها في كل القرآن ، قال الواحدي : هما لغتان ، يقال : رعبته رعبا ورعبا وهو مرعوب ، ويجوز أن يكون الرعب مصدرا ، والرعب اسم منه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 27 ﴾

فائدة

قال الفخر :

الرعب : الخوف الذي يحصل في القلب ، وأصل الرعب الملء ، يقال سيل راعب إذا ملأ الأودية والأنهار ، وإنما سمي الفزع رعبا لأنه يملأ القلب خوفا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 27 ﴾

فصل

قال الفخر :

ظاهر قوله : ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الذين كَفَرُواْ الرعب ﴾ يقتضي وقوع الرعب في جميع الكفار ، فذهب بعض العلماء إلى اجراء هذا العموم على ظاهره ، لأنه لا أحد يخالف دين الإسلام إلا وفي قلبه ضرب من الرعب من المسلمين ، إما في الحرب ، وإما عند المحاجة .

وقوله تعالى : ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الذين كَفَرُواْ الرعب ﴾ لا يقتضي وقوع جميع أنواع

الرعب في قلوب الكفار ، إنما يقتضي وقوع هذه الحقيقة في قلوبهم من بعض الوجوه ، وذهب جمع من المفسرين إلى أنه مخصوص بأولئك الكفار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 27 ﴾

(39/132)

فصل

قال ابن عاشور :

والرعب : الفزع من شدّة خوف ، وفيه لغتان الرعْب بسكون العين والرعُب بضم العين وقرأه الجمهور بسكون العين وقرأه ابن عامر ، والكسائي بضم العين .

والبَاء في قوله : ﴿ بما أشركوا بالله ﴾ للعِوض وتسمّى باء المقابلة مثل قولهم : هذه بتلك ، وقوله تعالى : ﴿ جزاء بما كسبا ﴾ [المائدة : 38] ، وهذا جزاء دنيوي رتّبهُ الله تعالى على الإشراك به ، ومن حكمته تعالى أن رتّب على الأمور الخبيثة آثاراً خبيثة ، فإنّ الشرك لّما كان اعتقاد تأثير من لا تأثير له ، وكان ذلك الاعتقاد يرتكز في نفوس معتقديه على غير دليل ، كان من شأن معتقده أن يكون مضطرِب النَّفس متحيّراً في العاقبة في تغلّب بعض الآلهة على بعض ، فيكون لكلّ قوم صنم هم أخصّ به ، وهم في تلك الحالة يعتقدون أنّ لغيره

من الأصنام مثل ما له من القدرة والغيرة .

فلا تزال آلهتهم في مغالبة ومنافرة .

كمَا لا يزال أتباعهم كذلك ، والَّذين حالهم كما وصفنا لا يستقرّ لهم قرار في الثِّقة بالنَّصر في حروبهم ، إذ هم لا يدرون هل الربح مع آلهتهم أم مع أضدادها ، وعليه فقوله : ﴿ ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ صلة أجريت على المشرك به ليس القصد بها تعريف الشركاء ، ولكن قصد بها الإيماء إلى أنَّه من أسباب إلقاء الرعب في قلوبهم ، إذ هم على غير يَقين فيما أشركوا واعتقدوا ، فقلوبهم وَجِلة متزلزلة ، إذ قد علم كلّ أحد أن الشركاء يَستحيل أن ينزل بهم سلطان .

(40/132)

فإن قلتَ : ما ذكرتَه يقتضي أنّ الشرك سبب في إلقاء الرعب في قلوب أهله ، فيتعيّن أن يكون الرعب نازلاً في قلوبهم من قبل هذه الوقعة ، والله يقول ﴿ سنلقي ﴾ "أي في المستقبل ، قلت : هو كذلك إلاّ أنّ هذه الصّفات تستكنّ في النفوس حتَّى يدعو داعي ظهورها ، فالرعب والشجاعة صفتان لا تظهران إلا عند القتال ، وتقويان وتضعفان ، فالشجاع تزيد شجاعته بتكرّر الانتصار ، وقد ينزوي قليلاً إذا انهزم ثُمّ تعود له صفته

سرعَى .

كما وصفه عمرو بن الإطْنابَةِ في قوله :

وقَوْلِي كُلَّمَا جَشَأَتْ وجاشَتْ . . .

مَكَانَكِ تُحْمَدِي أوْ تَسْتَرِيحِي

وقول الحُصَيْنِ بن الحُمَام :

تَأَخَّرْتُ أسْتَبْقِي الحياة فلم أجِدْ . . .

لِنَفْسِي حيَاة مثل أنْ أتَقدّمَا

وكذلك الرعب والجبن قد يضعف عند حصول بارقة انتصار ، فالمشركون لما انهزموا بادِىء الأمر يومَ أُحُد ، فُلَّت عزيمتهم ، ثمّ لمّا ابتلَى الله المؤمنين بالهزيمة راجعَهم شيء من الشجاعة والازدهاء ، ولكنّهم بعد انصرافِهم عَاوَدَتْهم صفاتهم ، (وتأبى الطِبَاعُ عَلى الناقل) .

فقوله : ﴿ سنُلقي ﴾ أي إلقاءَ إعادةِ الصفة إلى النُّفوس ، ولك أن تجعل السين فيه لمجرّد التّأكيد أي ألقينا ونُلقي ، ويندفع الإشكال .

وكثير من المفسّرين ذكروا أنّ هذا الرعب كانت له مظاهر : منها أنّ المشركين لمَّا انتصروا على المسلمين كان في مكنتهم أن يوغلوا في استئصالهم إلاّ أنّ الرعب صدّهم عن ذلك ، لأنَّهم خافوا أن تعود عليهم الهزيمة ، وتدور عليهم الدائرة ، ومنها أنَّهم لمَّا انصرفوا قاصدين الرجوع إلى مكَّة عنّ لهم في الطريق ندم ، وقالوا : لو رجعنا فاقتفينا آثار محمد وأصحابه ، فإنّا قتلناهم ولم يبق إلاّ الفلّ والطَّريد ، فلْنرجع إليهم حتَّى نستأصلهم ، وبلغ ذلك النَّبيء صلى الله عليه وسلم فندب المسلمين إلى لقائهم ، فانتدبوا ، وكانوا في غاية الضعف ومثقّلين بالجراحة ، حتَّى قيل : إنّ الواحد منهم كان يحمل الآخر ثمّ ينزل المحمول فيحمل الَّذي كان حامله ، فقيّض الله مَعْبَد بنَ أبي مَعْبَد الخُزَاعي وهو كافر فجاء إلى رسول الله فقال : "إنّ خزاعة قد ساءها ما أصابك ولوَدِدْنا أنَّك لم تُرزأ في أصحابك" ثُمّ لحق معبد بقريش فأدركهم بالرّوْحَاء قد أجمعوا الرجعة إلى قتال المسلمين فقال له أبو سفيان : ما وراءك يا معبد ، قال : محمد وأصحابه قد خرجوا يطلبونكم في جمع لم أر مثله قط ، يتحرّقون عليكم ، قد اجتمع معه من كان تخلّف عنه ، فقال : ويلك ، ما تقول ؟ قال : ما أرى أنَّك ترتحلُ حتَّى ترى نواصي الخيل ولقد حملني ما رأيت منه على أن قلتُ فيه :

كَادَت تُهَدّ من الأصوات راحلتي . . .

إذْ سالت الأرض بالجُرْد الأبابيلِ

تَرْدِي بأسْدٍ كرامٍ لا تَنابلَةٍ . . .

عند اللِّقاء ولا مِيلٍ مَعَازِيلِ

فَظَلْتُ أَعْدُو وأَظُنّ الأرض مائلة . . .

لمّا سَمَوا برئيس غير مخذولِ

فوقع الرّعب في قلوب المشركين وقال صفوان بن أميَّة : لا ترجعوا فإنّي أرى أنَّه سيكون للقوم قتال غير الَّذي كان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 248 . 250 ﴾

(42/132)

قوله تعالى : ﴿ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللهِ ﴾

قال الفخر :

اعلم أن "ما" مصدرية ، والمعنى : بسبب إشراكهم بالله .

واعلم أن تقدير هذا بالوجه المعقول هو أن الدعاء إنما يصير في محل الاجابة عند الاضطرار كما قال : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ المضطر إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النحل : 62] ومن اعتقد أن لله شريكا لم يحصل له الاضطرار ، لأنه يقول : إن كان هذا المعبود لا ينصرني ، فذاك الآخر ينصرني ، وإن لم يحصل في قلبه الاضطرار لم تحصل الاجابة ولا النصرة ، وإذا لم يحصل ذلك وجب أن يحصل الرعب والخوف في قلبه ، فثبت أن الإشراك بالله يوجب الرعب . انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 27 . 28 ﴾

قوله : ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سلطانا ﴾

فصل

قال الفخر :

السلطان ههنا هو الحجة والبرهان ، وفي اشتقاقه وجوه : الأول : قال الزجاج : إنه من السليط وهو الذي يضاء به السراج ، وقيل للأمراء سلاطين لأنهم الذين بهم يتوصل الناس إلى تحصيل الحقوق .

الثاني : أن السلطان في اللغة هو الحجة ، وإنما قيل للأمير سلطان ، لأن معناه أنه ذو الحجة .

الثالث : قال الليث : السلطان القدرة ، لأن أصل بنائه من التسليط وعلى هذا سلطان الملك : قوته وقدرته ، ويسمى البرهان سلطاناً لقوته على دفع الباطل .

الرابع : قال ابن دريد : سلطان كل شيء حدته ، وهو مأخوذ من اللسان السليط ، والسلاطة بمعنى الحدة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 28 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ﴾ حجّةً وبياناً ، وعُذْراً وبرهاناً ؛ ومن هذا قيل للوالي سلطان ؛ لأنه حجة الله عزّ وجلّ في الأرض .

ويُقال : إنه مأخوذ من السَّلِيط وهو ما يُضاء به السِّراج ، وهو دُهْنُ السِّمْسِم ؛ قال امرؤ

القيس :

أَمَالَ السَّلِيطَ بالذُّبَالِ المُفَتَّلِ . . .

فالسلطان يُستضاء به في إظهار الحق وقمع الباطل .

(43/132)

وقيل السَّلِيط الحديد .

والسَّلَاطَة الحدّة .

والسلاطة من التسليط وهو القهر ؛ والسلطان من ذلك ، فالنون زائدة .

فأصل السلطان القوّة ، فإنّه يُقهر بها كما يُقهر بالسلطان .

والسَّلِيطَة المرأة الصَّخَّابَة .

والسَّلِيط الرجل الفصيح اللسان .

ومعنى هذا أنه لم تثبت عبادة الأوثان في شيء من المِلَل ، ولم يَدلّ عقلٌ على جواز ذلك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 233 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سلطانا ﴾ يوهم أن فيه سلطانا إلا أن الله تعالى ما أنزله وما أظهره ، إلا أن الجواب عنه أنه لو كان لأنزل الله به سلطانا ، فلما لم ينزل به سلطاناً وجب عدمه ، وحاصل الكلام فيه ما يقوله المتكلمون : أن هذا مما لا دليل عليه فلم يجز إثباته ، ومنهم من يبالغ فيقول : لا دليل عليه فيجب نفيه ، ومنهم من احتج بهذا الحرف على وحدانية الصانع ، فقال : لا سبيل إلى إثبات الصانع إلا باحتياج المحدثات اليه ، ويكفي في دفع هذه الحاجة إثبات الصانع الواحد ، فما زاد عليه لا سبيل إلى إثباته فلم يجز إثباته . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 28 ﴾

(44/132)

وقال الآلوسى :

﴿ بِمَا أَشْرَكُواْ بالله ﴾ أي بسبب إشراكهم بالذات الواجب الوجود المستجمع لجميع صفات الكمال ولإشعار هذا الاسم بالعظمة المنافية للشركة أتى به ، والجار الأول متعلق ب سنلقي دون الرعب ولا يمنع من ذلك تعلق في به لاختلاف المعنى والثاني متعلق بما عنده وكان الاشراك سبباً لالقاء الرعب لأنه من موجبات خذلانهم ونصر المؤمنين عليهم وكلاهما من دواعي الرعب ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ ﴾ أي بإشراكه ، وقيل : بعبادته ، وما نكرة

موصوفة أو موصولة اسمية وليست مصدرية ﴿ سلطانا ﴾ أي حجة ، والإتيان بها للإشارة بأن المتبع في باب التوحيد هو البرهان السماوي دون الآراء والأهواء الباطلة ، وسميت بذلك لأنه بها يتقوى على الخصم ويتسلط عليه ، والنون زائدة ، وقيل : أصلية ، وذكر عدم إنزال الحجة مع استحالة تحققها من باب انتفاء المقيد لانتفاء قيده اللازم أي لا حجة حتى ينزلها ، فهو على حد قوله في وصف مفازة :

لا يفزع الأرنب أهوالها . . .

ولا ترى الضب بها ينجحر

إذ المراد لا ضب بها حتى ينجحر فالمراد نفيهما جميعاً وهذا كقولهم : السالبة لا تقتضي وجود الموضوع ، وما ذكرنا من استحالة تحقق الحجة على الإشراك يكاد يكون معلوماً من الدين بالضرورة

(45/132)

أما في الإشراك بالربوبية فظاهر إذ كيف يأمر الله سبحانه باعتقاد أن خالق العالم اثنان مشتركان في وجوب الوجود والاتصاف بكل كمال ، وأما الإشراك في الألوهية الذي عليه أكثر المشركين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأنه يفضي إلى الأمر باعتقاد

أشياء خلاف الواقع مما كان المشركون يعتقدونه في أصنامهم وقد ردّه عليهم ، فقول عصام الملة : ونحن نقول الحجة على الإشراك تحت قدرته تعالى لو شاء أنزلها إذ لو أمر بإشراك الأصنام به في العبادة لوجبت العبادة لا أراه إلا حلا لعصام الدين لأن لا إله إلا الله المخاطب بها الثنوية والوثنية تأبى إمكان ذلك كما لا يخفى على من اطلع على معنى هذه الكلمة الطيبة رزقنا الله تعالى الموت عليها ولا جعلنا ممن أشركوا بالله تعالى ما لم ينزل به سلطاناً .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 88 ﴾

فائدة

قال الفخر :

هذه الآية دالة على فساد التقليد ، وذلك لأن الآية دالة على أن الشرك لا دليل عليه ، فوجب أن يكون القول به باطلا ، وهذا إنما يصح إذا كان القول باثبات ما لا دليل على ثبوته يكون باطلا ، فيلزم فساد القول بالتقليد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 28 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النار ﴾

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى بين أن أحوال هؤلاء المشركين في الدنيا هو وقوع الخوف في قلوبهم ، وبين أحوالهم في الآخرة ، وهي أن مأواهم ومسكنهم النار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب

حـ 9 صـ 28 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَبِئْسَ مثوى الظالمين ﴾

قال الفخر :

المثوى : المكان الذي يكون مقر الأنسان ومأواه ، من قولهم : ثوى يثوي ثويا ، وجمع المثوى مثاوي. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 28 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَبِئْسَ مثوى الظالمين ﴾ أي مثواهم وإنما وضع الظاهر موضع الضمير للتغليظ والتعليل والإشعار بأنهم في إشراكهم ظالمون واضعون للشيء في غير موضعه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 88 ﴾

لطيفة

قال أبو حيان :

ونبه على الوصف الذي استحقوا به النار وهو الظلم ، ومجاوزة الحد إذ أشركوا بالله غيره .

كما قال : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 84 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾

وألقى الحق في قلوبهم الرعب بالفعل . فساعة قالوا لأبي سفيان : إن محمداً قادم إليك بجيش كثيف من المدينة ، وانضم له مقاتلون لم يحاربوا من قبل ، وقادم إليكم في حمراء الأسد . ماذا صنع أبو سفيان وقومه ؟ ألقى الله الرعب في قلوبهم وفروا .

وكلمة ﴿ سَنُلْقِي ﴾ مأخوذة من " الإلقاء " وهو لا يكون إلا لمادة وعين . ويبين لنا القرآن هذا الأمر حين يقول : " فألقى الألواح " ، هذه حاجة مادية . قال تعالى :

﴿ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي ﴾

[الأعراف : 150]

إنه أمر مادي . . ونحن نقول : ألقى الحجر . والحق سبحانه يقول :

﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾

[الشعراء : 44]

إنها حبال ، أي أمر مادي . وسبحانه وتعالى يقول عن الوحي لأم موسى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا

تَحْزَنِي إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾

[القصص : 7]

(47/132)

فالإلقاء أمر مادي ، كأن الله يريد أن يجعل المعنى وهو الرعب شائعا ، فقال : أنا سأجمع الرعب وأضعه في القلب ، ويكون عمله ماديًّا . فإذا ما استقر الرعب في القلب جاء الخَوَر ، وإذا سكن الخور القلب نضح على جميع الجوارح تخاذلا ، فيقول : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ فكأنه مثل لنا الرعب ، والرعب أمر معنوي وهو التخوف من كل شيء ، فأوضح : بأنه سيأتيهم بالرعب ويلقيه في القلب ، فيبقى به ليصنع الخور والخذلان .

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ انظروا إلى التعابير الصادرة عن الله إنه هنا يأتي بـ " نون العظمة " ، ﴿ سَنُلْقِي ﴾ ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى ساعة يتكلم عن أمر يحتاج إلى فعل فهو سبحانه يأتي بـ " نون العظمة " كقوله :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

[الحجر : 9]

ولأن إنزال الذكر عملية عظيمة ، فنأتي بـ " نون العظمة " . لأننا سننزله بقدرة وسننزله بحكمة ، وننزله بعلم وننزله ببصر ، وننزله بقيومية ، وننزله بقبض, وننزله ببسط ، فقوله :

﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ فكأن نون العظمة تأتي هنا ، لكن ساعة يتكلم سبحانه عن الذات العلية فهو يقول : " إنني أنا الله " . لم يقل إننا ، ولكن في الإنزال يقول :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾

[القدر : 1]

لأن هذه عملية عظيمة جليلة ؛ فـ " نون العظمة " تأتي فيما يكون من شأنه حدث يُفعل ؛ وهذا الحدث الذي يُفعل يحتاج لصفات كثيرة ، ولذلك قلنا ساعة تبتدئ أيّ عمل تقول : " بسم الله الرحمن الرحيم " لماذا ؟ لأن العمل الذي ستعمله يحتاج إلى قدرة عليه ، ويحتاج إلى علم قبل أن تعمله ، ويحتاج إلى حكمة ، أي أنه يحتاج إلى صفات كثيرة ، فأنت تدخل على العمل باسم القادر الذي يُقْدِرُك ؛ وباسم العليم الذي يعلمك ، وباسم الحكيم الذي يحكمك .

وكل هذه الصفات ستتكاتف في إبراز العمل كي يرحمك حتى في الاستعانة ، فلا يقول لك : هات الصفات كلها التي يحتاج إليها فعلك ؛ لأن هناك صفات أنت لا تعرفها ، فيقول لك : هات الاسم الجامع لكل صفات الكمال . قال : " باسم الله " ، وهي تضم كل صفات الكمال .

إذن فأنت تلاحظ انك إذا رأيت " نون العظمة " التي نسميها " نون الجمع " نجد أننا نقول : " نحن " للجماعة . أو للمتكلم الواحد حين يعظم نفسه ، ولذلك نلاحظها حتى في قانون البشر ، ألم يقولوا في الملكية : " نحن الملك " ، وهذه النون بالنسبة لله ليست نون الجماعة . إنما هو " نون العظمة " ، العظمة الجامعة لكل صفات الكمال التي يتطلبها أي فعل من الأفعال ، لذلك قال سبحانه : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ فكل قلب به كفر يحتاج إلى إلقاء الرعب فيه . إذن فتأتي نون العظمة لتستوعب كل هذه القلوب الكافرة ؟ .

وهو سبحانه لا يتجنى عليهم بالقاء الرعب ، ولكن هم الذين استحقوا أن يلقى في قلوبهم الرعب ، لماذا ؟ " بما أشركوا " . إن الإشراك بالله هو الذي جاء لهم بالرعب ؛ لأن الله يفعل ، والشركاء لا يفعلون . ولو أن شركاءهم حق لما تخلوا عنهم . فلماذا لم يأتوا بشركائهم لينصروهم ؟ لقد جاءهم الرعب لأنهم ليس لهم مولى ، ولو كان لهم آلهة قادرة – كما يدعون – لقالوا لتلك الآلهة : رب محمد يعمل معنا هكذا فلماذا لا تقفون له يا أربابنا ؟ لكنهم أشركوا بالله ما لا يضر ولا ينفع ، بل ضره أقرب من نفعه .

﴿ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ﴾ والسلطان هو القوة والحجة والبرهان مأخوذة من مادة " السين واللام والطاء " ونقول : فلان تسلط على فلان ، أي أرغمه بقدرته عليه . ويقولون : فلان سليط اللسان ، أي قادر أن يسب ، إذن فالسلطة هي : القهر ، والقوة التي ترغم على الفعل ، وفي المعنويات هي الحجة والبرهان ، والمؤمنون دائما ذوو سلطان من الله ؛ لأنهم إن انتصروا ماديا فذلك سلطان القهر ، وإن انهزموا ماديا فعندهم سلطان الحق والدليل ؛ ولذلك قلنا سابقا : إن إبليس يأتي يوم القيامة ويقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ ﴾

[إبراهيم : 22]

وقلنا إن السلطان نوعان : إما قوة تقهرنا على أن نفعل المعصية ، وإما برهان ودليل يجعلنا نفعل المعصية .

والفرق بين القوة القاهرة وبين سلطان الدليل هو أن القوة القاهرة تجعلك تفعل وأنت مرغم غير راض عن الفعل . أما سلطان الدليل فيقنعك بأن تفعل ؛ فتكون قد فعلت برضاك ،

فمرة يأتي السلطان بمعنى : قوة تقهرك على أن تفعل الفعل وأنت مرغم .

إنما قوة الدليل تقنعك أن تفعل ، فيأتي الشيطان ليقر على نفسه في الآخرة ويقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ أي ليس معي قوة تقهركم على المعصية وليس معي دليل يقنعكم حتى تفعلوا المعصية ، لا هذا ولا ذاك ، فما الحكاية إذن ؟ قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ . أي إنكم أطعتموني واستجبتم لدعوتي بلا سلطان قوة أقهركم به على شيء ، ولا سلطان دليل أقنعكم به .

(50/132)

ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ أي أن المرجع الذي يأوون إليه هو النار ، والمأوى : هو الموضع الذي ترجع أنت إليه . وكأن في هذا المرجع ذاتية من الكافر تلقيه على النار فهو - أي الكافر - مأواه ومثواه الذي يرجع إليه . ولذلك يجب أن نفطن إلى قوله الحق في بعض الأساليب : " وإليه تَرجعون " وقوله : " وإليه تُرجعون " .

﴿ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ . . أي مثوى لا مفر بعده أبدا ، فكل مثوى من الجائز أننا نرحل عنه ، لكن المثوى الذي سيبقى خلودا للظالمين هو النار وهو بئس المثوى . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ 1814 . 1817 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ سَنُلْقِي ﴾ الجمهور بنون العظمة ، وهو التفات من الغيبة – في قوله : ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الناصرين ﴾ وذلك للتنبيه على عظم ما يلقيه – تعالى – .

وقرأ أيوب السَّخْتِيانيّ " سَيُلْقِي " بالغيبة ؛ جَرْياً على الأصل . وقدم المجرور على المفعول به ؛ اهتماماً بذكر المحلّ قبل ذكر الحَال : والإلقاء – هنا – مجاز ؛ لأن أصلَه في الأجرام ، فاستُعِيرَ هنا ، كقول الشّاعر : [الطويل]

هُمَا نَفَثَا فِي فِيَّ مِنْ فَمَوَيْهِمَا . . . عَلَى النَّابِحِ الْعَاوِي أشَدَّ رِجَامِ

وقرأ ابنُ عامرٍ والكسائيُّ ، وأبو جعفرٍ ، ويعقوبُ : " الرُّعُب " و" رُعُباً " – بضم العين – والباقون بالإسكان فقيل : هما لغتان .

وقيل : الأصل الضم ، وخُفّف ، وهذا قياس مطردٌ .

وقيل : الأصلُ السكون ، وضُمَّ إتباعاً كالصبْح والصبُح ، وهذا عكس المعهود من لغة العربِ .

والرُّعْب : الخوف ، يقال : رعبته ، فهو مرعوب ، وأصله من الامتلاء ، يقال : رَعَبْتُ الحوض ، أي : ملأته وسَيْل راعب ، أي : ملأ الوادي .

(52/132)

قوله : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : 156] متعلق بالإلقاء ، وكذلك ﴿ بِمَا أَشْرَكُوا ﴾ ولا يضر تعلُّق الحرفين ؛ لاختلاف معناهما ، فإن " في " للظرفية ؛ الباء للسببية . و " ما " مصدرية ، و " ما " الثانية مفعول به لِ " أشْرَكُوا " وهي موصولة بمعنى الذي ، أو نكرة موصوفة ، والراجع : الهاء في " به " ولا يجوز أن تكون مصدرية - عند الجمهورِ - لعود الضمير عليها ، وتسلط النفي على الإنزال - لفظاً - والمقصود نفي السلطا ن - أي : الحجة - كأنه قيل : لا سُلطا ن على الإشراك فينزل .

كقول الشاعر : [السريع]

. . . . وَلاَ تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرْ

أي لا ينجحر الضَّبُّ بها ، فيُرَى .

ومثله قول الشاعر : [الطويل]

عَلَى لاَحِبٍ لاَ يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ . . . .

أي : لا منار فيهتدى به ، فالمعنى على نَفْي السلطان والإنزال معاً . و" سُلْطَانًا " مفعول به لِ "يُنَزِّلْ" .

قوله : ﴿ بِمَا أَشْرَكُوا ﴾ "ما" مصدرية ، والمعنى : بسبب إشراكهم بالله ، وتقريره : أن الدعاء إنما يصير في محل الإجابة عند الاضطرار ، كقوله : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ المضطر إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل : 62] ومن اعتقد أن لله شريكاً لم يحصل له الاضطرار ؛ لأنه يقول : إذا كان هذا المعبودُ لا ينصرني ، فالآخر ينصرني ، وإذا لم يحصل في قلبه الاضطرارُ لم تحصل له الإجابةُ ولا النصرة وإذا لم يحصل ذلك وجب أن يحصل الرعبُ والخوفُ في قلبه فثبت أن الشركَ بالله يوجب الرعبَ .

قوله : ﴿ وَبِئْسَ مثوى الظالمين ﴾ المخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ ، أي : مثواهم ، أو النار .

المثوى : مَفْعَل ، من ثَوَيْتُ - أي : أقمت - فلامه ياء وقدم المأوى - وهو المكان الذي يأوي إليه الإنسان - على المَثْوَى - وهو مكان الإقامةِ - لأن الترتيبَ الوجوديَّ أن يأوي ، ثم يثوي ، ولا يلزم المأوى الإقامة ، بخلاف عكسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 594.596 ﴾ . بتصرف يسير .

(53/132)

" فصل "

قال السيوطى :

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (151)

أخرج ابن جرير عن السدي قال : لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجهين نحو مكة ، انطلق أبو سفيان حتى بلغ بعض الطريق . ثم إنهم ندموا فقالوا : بئسما صنعتم إنكم قتلتموهم حتى لم يبق إلا الشريد ، تركتموهم . . . ؟ إرجعوا فاستأصلوا . فقذف الله في قلوبهم الرعب فانهزموا فلقوا أعرابياً فجعلوا له جعلاً فقالوا له : إن لقيت محمداً فأخبرهم بما قد جمعنا لهم . فأخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد . فأنزل الله في ذلك ، فذكر أبا سفيان حين أراد أن يرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وما قذف في قلبه من الرعب فقال ﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في هذه الآية قال " قذف الله في قلب أبي سفيان الرعب فرجع إلى مكة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفاً ، وقد رجع وقذف الله في قلبه الرعب " .

وأخرج مسلم عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " نصرت بالرعب

على العدوّ " .

وأخرج أحمد والترمذي وصححه وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أبي امامة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فضلت على الأنبياء بأربع : أرسلت إلى الناس كافة ، وجعلت لي الأرض كلها ولأمتي مسجداً وطهوراً ، فأينما رجل أدركه من أمتي الصلاة فعنده مسجده وعنده طهوره ، ونُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر يقذفه في قلوب أعدائي ، وأحل لنا الغنائم " . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 2 صـ 342. 343﴾

(54/132)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ﴾ أن تلجوا علام الملكوت ولم تظهر منكم مجاهدات تورث المشاهدات ولا الصبر على تزكية النفوس وتصفية القلوب على وفق الشريعة وقانون الطريقة لتتحلى الأرواح بأنوار الحقيقة ﴿ ولقد كنتم ﴾ يا أرباب الصدق وأصحاب الطلب ﴿ تمنون ﴾ موت النفوس عن صفاتها تزكية لها ﴿ من قبل أن تلقوه

﴾ بالمجاهدات والرياضات في خلاف النفس وقهرها عند لقاء العدو في الجهاد الأصغر ظاهراً وفي الجهاد الأكبر باطناً ﴿ فقد ﴾ رأيتم هذه الأسباب التي كنتم تمنونها عياناً ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ لا تفدون أرواحكم ولا تجاهدون حق الجهاد في الله بأرواحكم وأشباحكم ﴿ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ فيه أن الإيمان التقليدي لا اعتبار له فينقلب المقلد عن إيمانه عند إعدام المقلد من الوالدين أو الاستاذ ، وكذا عند موت المقلد فيعجز عند سؤال الملكين في قولهما له من ربك ؟ فيقول : هاه لا أدري . فيقولون : ما تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : هاه لا أدري كنت أقول فيه ما قال الناس . فيقولان له : لا دريت ولا تليت . ﴿ وسيجزي الله ﴾ بالإيمان الحقيقي ﴿ الشاكرين ﴾ الذين شكروا نعمة الإيمان التقليدي بأداء حقوقه وهو الائتمان بأوامر الشرع والانتهاء عن نواهيه ﴿ وما كان لنفس أن تموت ﴾ عن أوصافها الدنية وأخلاقها الردية وتتخلص عنها بطبعها إلا بتوفيق الله وجذبه وإشراق نوره كما أن ظلمة الليل لا تنتهي إلا بإشراق طلوع الشمس . ثم أثبت للعبد كسباً في طلب الهداية واستجلاب العناية بقوله : ﴿ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ﴾ وهذه رتبة الخواص أي من عمل شوقاً إلى الحق فقد رأى نعمة وجود المنعم ، فثوابه نقد في الدنيا لأنه حاضر لا غيبه له وهو معنى قولهم « الصوفي ابن الوقت » وفيه أنشد :

خليلي هل أبصرتما أو سمعتما . . . بأكرم من مولى تمشى إلى عبد

(55/132)

أتى زائراً من غير وعد وقال لي . . . أصونك عن تعذيب قلبك بالوعد .

ومن عمل شوقاً إلى الجنة فنظره على النعمة فثوابه في الآخرة ﴿ وسجيزي الشاكرين ﴾ أي كلا الفريقين على قدر شكرهما ﴿ وكأين من نبي قاتل ﴾ أعدى العدو الذي بين جنبيه و ﴿ معه ربيون ﴾ متخلقون بأخلاق الرب ﴿ فما وهنوا لما أصابهم ﴾ من تعب المجاهدات ﴿ وما ضعفوا ﴾ في طلب الحق ﴿ وما استكانوا ﴾ باحتمال الذلة والالتفات إلى غير الله . ﴿ إن تطيعوا الذين كفروا ﴾ أي النفوس الكافرة وصفاتها ﴿ يردّوكم ﴾ إلى أسفل سافلين بشريتكم وبهيمتكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 2 صـ 275 ـ 276﴾

(56/132)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ

صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (152) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانت السين في ﴿ سنلقي ﴾ مفهمة للاستقبال كان ذلك ربما أوهم أنه لم يرغبهم فيما مضى ، فنفى هذا الوهم محققاً لهم ذلك بتذكيرهم بما أنجز لهم من وعده في أول هذه الوقعة مدة تلبسهم بما شرط عليهم من الصبر والتقوى بقوله تعالى - عطفاً على قوله : ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ﴾ [آل عمران : 125] ، مصرحاً بما لوح إليه تقديراً قبل ﴿ ولقد نصركم الله ببدر ﴾ [آل عمران : 123] كما مضى - : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده ﴾ أي في قوله ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم ﴾ [آل عمران : 120] ﴿ إذ تحسونهم ﴾ أي تقتلونهم بعضهم بالفعل والباقين بالقوة التي هيأها لكم ﴿ بإذنه ﴾ فإن الحسن بالفتح : القتل والاستئصال - قاله في القاموس .

ثم بين لهم سبب هزيمتهم بعد تمكينه منهم ليكون رادعاً لهم عن المعاودة إلى مثله فقال مبيناً لغاية الحسن : ﴿ حتى إذا فشلتم ﴾ أي ضعفتم وتراخيتم بالميل إلى الغنيمة خلاف ما

تدعو إليه الهمم العوالي ، فكيف بهم إذا كانوا من حزب مولى الموالي ! فلو كانت العرب على حال جاهليتها تتفاخر بالإقبال على الطعن والضرب في مواطن الحرب والإعراض عن الغنائم – كما قال عنترة بن شداد العبسي يفتخر :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك . . .

إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

إذ لا أزال على رحالة سابح . . .

نهد تعاوره الكماة مكلم

طوراً يعرض للطعان وتارة . . .

يأوي إلى حصد القسي عرموم

يخبرك من شهد الوقيعة أنني . . .

أغشى الوغى وأعفّ عند المغنم

وقال يفاخر بقومه كلهم :

إنا إذا حمس الوغى نروي القنا . . .

ونعف عند مقاسم الأنفال

ولما ذكر الفشل عطف عليه ما هو سببه في الغالب فقال : ﴿ وتنازعتم ﴾ أي بالاختلاف ، وأصله من نزع بعض شيئاً من يد بعض ﴿ في الأمر ﴾ أي أمر الثغر المأمور بحفظه

﴿ وعصيتم ﴾ أي وقع العصيان بينكم بتضييع الثغر .

وأثبت الجار تصويراً للمخالفة بأنها كانت عقب رؤية النصر سواء ، وتبشيراً بزوالها فقال :

﴿ من بعد ما أراكم ما تحبون ﴾ أي من حسهم بالسيوف وهزيمتهم .

ولما كان ذلك ربما أفهم أن الجميع عصوا نفي ذلك معللاً للعصيان بقوله : ﴿ منكم من يريد الدنيا ﴾ أي قد أغضى عن معايبها التي أجلاها فناؤها .

ولما كان حكم الباقين غير معين للفهم من هذه الجملة قال : ﴿ ومنكم من يريد الآخرة ﴾ وهم الثابتون في مراكزهم ، لما يعرجوا على الدنيا .

(58/132)

ولما كان التقدير جواباً لإذا : سلطهم عليكم ، عطف عليه قوله : ﴿ ثم صرفكم عنهم ﴾ أي لاندهاشكم إتيانهم إليكم من ورائكم ، وعطفه بثم لاستبعادهم للهزيمة بعد ما رأوا من النصرة ﴿ ليبتليكم ﴾ أي يفعل في ذلك فعل من يريد الاختبار في ثباتكم على الدين في حالي السراء والضراء .

ولما كان اختباره تعالى بعصيانهم شديد الإزعاج للقلوب عطف على قوله ﴿ صرفكم ﴾ ﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ أي تفضلاً عليكم لإيمانكم ﴿ والله ﴾ الذي له الكمال كله ﴿ ذو

فضل على المؤمنين ﴾ أي كافة ، وهو من الإظهار في موضع الإضمار للتعميم وتعليق الحكم بالوصف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 166 . 167 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن اتصال هذه الآية بما قبلها من وجوه :

الأول : أنه لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة وقد أصابهم ما أصابهم بأحد ، قال ناس من أصحابه : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر ! فأنزل الله تعالى هذه الآية .

الثاني : قال بعضهم كان النبي صلى الله عليه وسلم رأى في المنام أنه يذبح كبشا فصدق الله رؤياه بقتل طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين يوم أحد ، وقتل بعده تسعة نفر على اللواء فذاك قوله : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ ﴾ يريد تصديق رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم .

الثالث : يجوز أن يكون هذا الوعد ما ذكره في قوله تعالى : ﴿ بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُمْ مِّن فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ ﴾ [آل عمران : 125] إلا أن هذا كان مشروطاً بشرط الصبر والتقوى .

والرابع : يجوز أن يكون هذا الوعد هو قوله : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ [الحج : 40]

إلا أن هذا أيضاً مشروط بشرط.

والخامس: يجوز أن يكون هذا الوعد هو قوله: ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الذين كَفَرُواْ الرعب ﴾ [آل عمران: 151]

(59/132)

والسادس: قيل: الوعد هو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للرماة: "لا تبرحوا من هذا المكان، فإنا لا نزال غالبين ما دمتم في هذا المكان"

السابع: قال أبو مسلم: لما وعدهم الله في الآية المتقدمة إلقاء الرعب في قلوبهم أكد ذلك بأن ذكرهم ما أنجزهم من الوعد بالنصر في واقعة أحد، فإنه لما وعدهم بالنصرة بشرط أن يتقوا ويصبروا فحين أتوا بذلك الشرط لا جرم، وفى الله تعالى بالمشروط وأعطاهم النصرة، فلما تركوا الشرط لا جرم فاتهم المشروط. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 29﴾

وقال ابن عاشور:

﴿ ولقد صدقكم ﴾ عطف على قوله: ﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ [آل عمران: 151] وهذا عود إلى التّسلية على ما أصابهم، وإظهار لاستمرار عناية الله

تعالى بالمؤمنين ، ورمز إلى الثقة بوعدهم بإلقاء الرعب في قلوب المشركين ، وتبيين لسبب هزيمة المسلمين : تطميناً لهم بذكر نظيره ومماثله السابق ، فإنّ لذلك موقعاً عظيماً في الكلام على حدّ قولهم (التّاريخ يعيد نفسه) وليتوسّل بذلك إلى إلقاء تَبعة الهزيمة عليهم ، وأنّ الله لم يُخلفهم وعده ، ولكن سوء صنيعهم أوقعهم في المصيبة كقوله : ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ [النساء : 79] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 3 صـ 251﴾

فصل

قال القرطبى :

قال محمد بن كعب القرظي : لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد أُحُد وقد أصيبوا قال بعضهم لبعض : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر ! فنزلت هذه الآية .

وذلك أنهم قتلوا صاحب لِوَاء المشركين وسبعة نَفر منهم بعدَه على اللواء ، وكان الظفر ابتداءً للمسلمين غير أنهم اشتغلوا بالغنيمة ، وترك بعضُ الرّماة أيضاً مركزَهم طلباً للغنيمة فكان ذلك سبب الهزيمة .

روى البخاري " عن البَرَاء بن عازب قال : لما كان يوم أحُدٍ ولقينا المشركين أجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم أناساً من الرُّماة وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير وقال لهم : "لا تبرحوا من مكانكم (إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا) وإن رأيتموهم قد ظهروا علينا فلا تُعينونا عليهم" " قال : فلمّا التقى القوم وهزمهم المسلمون حتى نظرنا إلى النساء يَشْتّدِدْن في الجبل ، وقد رفعن عن سُوقِهن قد بدت خلاخِلُهن فجعلوا يقولون : الغنيمةَ الغنيمةَ .

فقال لهم عبد الله : أمهلوا أما عَهِد إليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ألّا تبرحوا ، فانطلقوا فلما أتوهم صرف الله وجوههم وقُتِل من المسلمين سبعون رجلاً .

ثم إنّ أبا سفيان بن حرب أشرف علينا وهو في نَشَزٍ فقال : أفي القوم محمدٌ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تُجيبوه" حتى قالها ثلاثاً .

ثم قال : أفي القوم ابن أبي قُحافة ؟ ثلاثاً ، فقال النبيّ ؛ "لا تُجيبوه" ثم قال : أفي القوم عمر (بن الخطاب) ؟ ثلاثاً ، فقال النبيّ : "لا تُجيبوه" ثم التفت إلى أصحابه فقال : أمّا هؤلاء فقد قتِلوا .

فلم يملك عمر رضي الله عنه نفسه دون أن قال : كذبتَ يا عدوّ اللها قد أبقى الله لك من يُخزيك به .

فقال : أُعْلُ هُبَل ؛ مرتين .

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أجيبوه" فقالوا : ما نقول يا رسول الله ؟ قال "قولوا اللَّهُ أعلى وأجَلّ" .

قال أبو سفيان : لنا العُزَّى ولا عُزّى لكم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أجيبوه" .

ما نقول يا رسول الله ؟ قال : قولوا "الله مولانا ولا مَوْلَى لكم" .

قال أبو سفيان : يومٌ بِيَوْم بَدْرٍ ، والحرب سِجَال ، أمَا إنكم ستجدون في القوم مُثْلة لم آمر بها ولم تسؤني .

(61/132)

وفي البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاصٍ قال : رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن شماله يوم أحُد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشدّ القتال .

وفي رواية عن سعد : عليهما ثياب بيض ما رأيتهما قبل ولا بعدُ .

يعني جبريل ومِيكائيل .

وفي رواية أخرى : يقاتلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشدّ القتال ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده .

وعن مجاهد قال : لم تقاتل الملائكة معهم يومئذ ، ولا قبله ولا بعده إلاّ يوم بدر .

قال البيهقُي ؛ إنما أراد مجاهد أنهم لم يقاتلوا يوم أُحُد عن القوم حين عصوا الرسول ولم يصبروا على ما أمرهم به .

وعن عروة بن الزبير قال : وكان الله عزّ وجلّ وعدهم على الصبر والتقوى أن يُمِدّهم بخمسة آلافٍ من الملائكة مسوّمين : وكان قد فعل : فلما عَصَوْا أمر الرسول وتركوا مَصَافَّهُم وترك الرماةُ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ألاّ يبرحوا من منازلهم ، وأرادوا الدنيا ، رُفع عنهم مددُ الملائكة ، وأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ فصدق الله وعده وأراهم الفتح ، فلما عَصَوْا أعقبهم البلاء .

وعن عمير بن إسحاق قال : لما كان يوم أُحُد انكشفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وسعْدٌ يُرمي بين يديه ، وفتًى يُنَبِّل له ، كلما ذهبت نَبْلَةٌ أتاه بها .

قال : "ارْمِ أبا إسحاق" .

فلما فرغوا نظروا مَن الشابّ ؟ فلم يروه ولم يعرفوه .

وقال محمد بن كعب : ولما قُتِل صاحب لواءِ المشركين وسقط لواؤهم ، رفعته عَمْرَة بنت علقمة الحارِثية ؛ وفي ذلك يقول حسّان :

فَلولاَ لِواءُ الحارِثية أصبحوا . . .

يباعُون في الأسواق بَيْعَ الجلائب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 234 . 235 ﴾

وقال ابن عطية :

وسبب هذه الآية : أنه لما ارتحل أبو سفيان بالكفار بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وقال : انظر القوم ، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وركبوا الإبل فهم متشمرون إلى مكة ، وإن كانوا على الخيل فهم عائدون إلى المدينة ، فمضى علي فرآهم قد جنبوا الخيل فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسر وسر المسلمون ، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فتجهز واتبع المشركين يريهم الجلد ، فبلغ حمراء الأسد وأن أبا سفيان قال له كفار قريش : أحين قتلناهم وهزمناهم ولم يبق إلا الفل والطريد ننصرف عنهم ؟ ارجع بنا إليهم حتى نستأصلهم فعزموا على ذلك ، وكان معبد بن أبي معبد الخزاعي قد جاء إلى رسول الله عليه السلام وهو على كفره ، إلا أن خزاعة كلها كانت تميل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له ، والله يا محمد لقد ساءنا ما أصابك ،

ولوددنا أنك لم ترزأ في أصحابك ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس بما عزمت عليه قريش من الانصراف ، اشتد ذلك عليهم ، فسخر الله ذلك الرجل معبد بن أبي معبد ، وألقى بسببه الرعب في قلوب الكفار ، وذلك أنه لما سمع الخبر ، ركب حتى لحق بأبي سفيان بالروحاء ، وقريش قد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فلما رأى أبو سفيان معبداً قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أرى مثله قط ، يتحرقون عليكم ، قد اجتمع إليه من كان تخلف عنه ، وندموا على ما صنعوا ، قال : ويلك ما تقول ؟ قال والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل ، قال : فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم ، قال : فإني أنهاك عن ذلك ، والله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيه شعراً قال وما قلت ؟ قال قلت : [البسيط]

كادت تهدُّ مِنَ الأَصْواتِ رَاحلتي . . . إذ سالتِ الأرضُ بالجُرْدِ الأَبابيلِ

تَرْدِي بأُسْدٍ كِرامٍ لا تنابلةٍ . . . عندَ اللقاءِ لا ميلٍ معازيلِ

فَظلْتُ عَدْواً أَظُنُّ الأَرْضَ مائلة . . . لمّا سَمَوْا برئيسٍ غَيْرِ مَخْذُولِ

إلى آخر الشعر ، فوقع الرعب في قلوب الكفار ، وقال صفوان بن أمية : لا ترجعوا فإني أرى أنه سيكون للقوم قتال غير الذي كان ، فنزلت هذه الآية في هذا الإلقاء ، وهي بعد متناولة كل كافر ، ويجري معها قول النبي عليه السلام : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، ويظهر أن هذه الفضيلة إنما أعلم عليه السلام بها بعد هذه الأحوال كلها حين امتد ظل الإسلام ، قال بعض أهل العلم : إنه لما أمر الله المؤمن بالصبر ، ووعده النصر ، وأخبره أن الرعب ملقى في قلوب الكفار ، نقص الرعب من كل كافر جزءاً مع زيادة شجاعة المؤمن ، إذ قد وعد النصر فلذلك كلف المؤمن الوقوف للكافرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 1 صـ 523﴾

وقال الفخر :

قد ذكرنا في قصة أحد أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل أحدا خلف ظهره واستقبل المدينة وأقام الرماة عند الجبل ، وأمرهم أن يثبتوا هناك ولا يبرحوا ، سواء كانت النصرة للمسلمين أو عليهم ، فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون نبلهم والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا ، والمسلمون على آثارهم يحسونهم ، قال الليث : الحس : القتل الذريع ، تحسونهم : أي تقتلونهم قتلا كثيرا ،

قال أبو عبيد ، والزجاج ، وابن قتيبة : الحس : الاستئصال بالقتل ، يقال : جراد محسوس . إذا قتله البرد .

وسنة حسوس : إذا أتت على كل شيء ، ومعنى "تحسونهم" أي تستأصلونهم قتلا ، قال أصحاب الاشتقاق : "حسه" إذا قتله لأنه أبطل حسه بالقتل ، كما يقال : بطنه إذا أصاب بطنه ، ورأسه ، إذا أصاب رأسه ، وقوله : ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ أي بعلمه ، ومعنى الكلام أنه تعالى لما وعدكم النصر بشرط التقوى والصبر على الطاعة فما دمتم وافين بهذا الشرط أنجز وعده ونصركم على أعدائكم ، فلما تركتم الشرط وعصيتم أمر ربكم لا جرم زالت تلك النصرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 29 ﴾

(64/132)

(بصيرة فى الإحساس)

قال العلامة الفيروزابادى :

وقد ورد فى القرآن على أَربعة أَوجه :

الأَول : بمعنى الرُّؤية : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ أَى أَبصر ورأَى ، ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ ﴾ ، ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ ﴾ .

الثانى : بمعنى القتل والاستئصال : ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ أَى تستأْصلونهم قتلاً .

الثالث : بمعنى البحث وطلب العلم : ﴿ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ .

الرّابع: بمعنى الصّوت: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ أَى صوتها.

والأَصل فيه راجع إِلى الحاسّة، وهى القوّة الَّتى بها يدرك الأَعراض الجِسمِيّة.

والحواسّ: المشاعر الخمس.

يقال: حَسَسْت، وحَسِسْت، وحسِيت.

وأَحْسَسْت، وأَحَسْت.

فحَسستْ على وجهين.

أَحدهما: أَصبته بِحِسِّى؛ نحو عِنْته.

والثانى: أَصبت حاسّته؛ نحو كَبَدْته.

ولمّا كان ذلك قد يتولَّد منه القتلُ (عُبِر به عن القتل) فقيل: حَسَسْتُه: أَى قتلته: كقَوله تعالى: ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ والحَسِيس: القتيل.

ومنه جَرَاد محسوس: إِذا طُبِخ، وقولهم: البَرْد مَحَسّة للنَّبت.

وانحس أَسنانه: انفعال منه (وأَما حسِست فنحو علمت وفهمت، ولكن لا يقال ذلك إِلاَّ فيما كان من جهة الحاسّة) وأَمّا حسِيت فتقلب إِحدى السّينين ياءً.

وأَمّا أَحسسته فحقيقته: أَدركته.

وأَحَسْتُ مثله؛ لكن حُذف إِحدى السّينين تخفيفاً؛ نحو ظَلْت.

وقوله تعالى: ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ ﴾ أى هل تجد بحاسّتك أَحداً منهم.

وقوله : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ تنبيه أنه ظهر منهم الكفر ظهورا بان للحسّ ، فضلاً عن التفهّم .

والحُساس : عبارة عن سُوءِ الخُلق ، على بناءِ زُكام وسعال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 153. 154 ﴾

(65/132)

قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا فَشِلْتُمْ وتنازعتم فِى الأمر وَعَصَيْتُمْ مّن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ ﴾

فصل

قال الفخر :

لقائل أن يقول ظاهر قوله : ﴿ حتى إِذَا فَشِلْتُمْ ﴾ بمنزلة الشرط ، ولا بد له من الجواب فأين جوابه ؟

واعلم أن للعلماء ههنا طريقين :

الأول : أن هذا ليس بشرط ، بل المعنى ، ولقد صدقكم الله وعده حتى إذا فشلتم ، أي قد نصركم إلى أن كان منكم الفشل والتنازع ، لأنه تعالى كان إنما وعدهم بالنصرة بشرط التقوى والصبر على الطاعة ، فلما فشلوا وعصوا انتهى النصر ، وعلى هذا القول تكون

كلمة "حتى" غاية بمعنى "إلى" فيكون معنى قوله : ﴿ حتى إِذَا ﴾ إلى أن ، أو إلى حين .

الطريق الثاني : أن يساعد على أن قوله : ﴿ حتى إِذَا فَشِلْتُمْ ﴾ شرط ، وعلى هذا القول اختلفوا في الجواب على وجوه :

(66/132)

الأول : وهو قول البصريين أن جوابه محذوف ، والتقدير : حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منعكم الله نصره ، وإنما حسن حذف هذا الجواب لدلالة قوله : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ الله وَعْدَهُ ﴾ عليه ، ونظائره في القرآن كثيرة ، قال تعالى : ﴿ فَإِن استطعت أَن تَبْتَغِىَ نَفَقاً فِى الأرض أَوْ سُلَّمَاً في السماء فتأتيهم بِآيَة ﴾ [الأنعام : 35] والتقدير : فافعل ، ثم أسقط هذا الجواب لدلالة هذا الكلام عليه ، وقال : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاء الليل ﴾ [الزمر : 9] والتقدير : أم من هو قانت كمن لا يكون كذلك ؟

الوجه الثاني : وهو مذهب الكوفيين واختيار الفراء : أن جوابه هو قوله : ﴿ وَعَصَيْتُمْ ﴾ والواو زائدة كما قال : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وناديناه ﴾ [الصافات : 103 104] والمعنى ناديناه ، كذا ههنا ، الفشل والتنازع صار موجباً للعصيان ، فكان التقدير

حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر عصيتم، فالواو زائدة، وبعض من نصر هذا القول زعم أن من مذهب العرب إدخال الواو في جواب "حتى إذا" بدليل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أبوابها وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ [الزمر: 71] والتقدير حتى إذا جاؤها فتحت لهم أبوابها.

فإن قيل: إن فشلتم وتنازعتم معصية، فلو جعلنا الفشل والتنازع علة للمعصية لزم كون الشيء علة لنفسه وذلك فاسد.

قلنا: المراد من العصيان ههنا خروجهم عن ذلك المكان، ولا شك أن الفشل والتنازع هو الذي أوجب خروجهم عن ذلك المكان، فلم يلزم تعليل الشيء بنفسه.

واعلم أن البصريين إنما لم يقبلوا هذا الجواب لأن مذهبهم أنه لا يجوز جعل الواو زائدة.

الوجه الثالث في الجواب: أن يقال تقدير الآية: حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، صرتم فريقين، منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة.

فالجواب: هو قوله: صرتم فريقين، إلا أنه أسقط لأن قوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الاخرة﴾ يفيد فائدته ويؤدي معناه، لأن كلمة "من" للتبعيض فهي تفيد هذا

الانقسام ، وهذا احتمال خطر ببالي .

الوجه الرابع : قال أبو مسلم : جواب قوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ ﴾ هو قوله : ﴿ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ ﴾ والتقدير حتى إذا فشلتم وكذا وكذا صرفكم عنهم ليبتليكم وكلمة "ثم" ههنا كالساقطة وهذا الوجه في غاية البعد . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 29 . 30 ﴾

فصل

قال الفخر :

إنه تعالى ذكر أمورا ثلاثة :

أولها : الفشل وهو الضعف ، وقيل الفشل هو الجبن ، وهذا باطل بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تنازعوا فَتَفۡشَلُواْ ﴾ [الأنفال : 46] أي فتضعفوا ، لأنه لا يليق به أن يكون المعنى فتجبنوا .

ثانيها : التنازع في الأمر وفيه بحثان .

البحث الأول : المراد من التنازع أنه عليه الصلاة والسلام أمر الرماة بأن لا يبرحوا عن مكانهم ألبتة ، وجعل أميرهم عبد الله بن جبير ؛ فلما ظهر المشركون أقبل الرماة عليهم بالرمي الكثير حتى انهزم المشركون ، ثم إن الرماة رأوا نساء المشركين صعدن الجبل وكشفن عن سوقهن بحيث بدت خلاخيلهن ، فقالوا الغنيمة الغنيمة ، فقال عبد الله : عهد

الرسول إلينا أن لا نبرح عن هذا المكان فأبوا عليه وذهبوا إلى طلب الغنيمة ، وبقي عبدالله مع طائفة قليلة دون العشرة إلى أن قتلهم المشركون فهذا هو التنازع .

البحث الثاني : قوله : ﴿ فِى الأمر ﴾ فيه وجهان :

الأول : أن الأمر ههنا بمعنى الشأن والقصة ، أي تنازعتم فيما كنتم فيه من الشأن .

(68/132)

والثاني : أنه الأمر الذي يضاده النهي .

والمعنى : وتنازعتم فيما أمركم الرسول به من ملازمة ذلك المكان .

وثالثها : وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، والمراد عصيتم بترك ملازمة ذلك المكان .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 30 . 31 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

وألفاظ الآية تقتضي التوبيخ لهم ، ووجه التوبيخ لهم أنهم رأوا مبادىء النصر ، فكان الواجب أن يعلموا أن تمام النصر في الثبات لا في الانهزام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 237 ﴾

أسئلة وأجوبة

السؤال الأول : لم قدم ذكر الفشل على ذكر التنازع والمعصية ؟

والجواب : أن القوم لما رأوا هزيمة الكفار وطمعوا في الغنيمة فشلوا في أنفسهم عن الثبات طمعا في الغنيمة ، ثم تنازعوا بطريق القول في أنا : هل نذهب لطلب الغنيمة أم لا ؟ ثم اشتغلوا بطلب الغنيمة .

السؤال الثاني : لما كانت المعصية بمفارقة تلك المواضع خاصة بالبعض فلم جاء هذا العتاب باللفظ العام ؟

والجواب : هذا اللفظ وان كان عاماً إلا أنه جاء المخصص بعده ، وهو قوله : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخرة ﴾ .

السؤال الثالث : ما الفائدة في قوله : ﴿ مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ ﴾ .

والجواب عنه : أن المقصود منه التنبيه على عظم المعصية ، لأنهم لما شاهدوا أن الله تعالى أكرمهم بانجاز الوعد كان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية ، فلما أقدموا عليها لا جرم سلبهم الله ذلك الاكرام وأذاقهم وبال أمرهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 31 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

والعِتاب مع مَن انهزم لا مع مَن ثبت ، فإن من ثبت فاز بالثواب ، وهذا كما أنه إذا حل بقوم عقوبة عامة فأهل الصلاح والصبيان يهلكون ؛ ولكن لا يكون ما حل بهم عقوبة ، بل هو سبب المثوبة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 237 ﴾

(69/132)

موعظة

قال الثعالبى :

واعلم (رحمك الله) أنَّ تيسير أسْبَابِ الدُّنْيا مع إعراضك عن أمر آخرتك ، ليس ذلك من علامات الفَلاَحِ ؛ وقد روى ابنُ المُبَارك في "رقائقه" ، قال : أخبرنا ابْنُ لَهِيعَةَ ، قال : حدَّثني سعيدُ بنُ أَبي سَعِيدٍ ؛ أنَّ رجُلاً قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ كَيْفَ أَنَا ؟ قَالَ : " إذَا رَأَيْتَ كُلَّمَا طَلَبْتَ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ الآخِرَةِ ، وابتغيته ، يُسِّرَ لَكَ ، وَإذَا أَرَدتَّ شَيْئاً مِنَ الدُّنْيَا ، وابتغيته ، عُسِّرَ عَلَيْكَ ، فَأَنْتَ على حَالٍ حَسَنَةٍ ، وَإذَا رَأَيْتَ كُلَّمَا طَلَبْتَ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ الآخِرَةِ ، وابتغيته ، عُسِّرَ عَلَيْكَ ، وَإذَا أَرَدتَّ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا ، وابتغيته ، يُسِّرَ لَكَ ، فَأَنْتَ على حَالٍ قَبِيحَةٍ " انتهى ، فتأمَّله راشداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ 322 ﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾

فصل

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ أي بعد أن استوليتم عليهم ردّكم عنهم بالانهزام .

ودَلّ هذا على أن المعصية مخلوقة لله تعالى .

وقالت المعتزلة : المعنى ثم انصرفتم ؛ فإضافته إلى الله تعالى بإخراجه الرّعب من قلوب الكافرين من المسلمين إبتلاءً لهم .

قال القشيرِي : وهذا لا يغنيهم ؛ لأن إخراج الرّعب من قلوب الكافرين حتى يستخفّوا بالمسلمين قبيحٌ ولا يجوز عندهم ، أن يقع من الله قبيحٌ ، فلا يبقى لقوله : ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ ﴾ معنًى .

وقيل : معنى ﴿ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ ﴾ أي لم يكلفكم طلبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 237 ﴾

وقال الفخر :

وقد اختلف قول أصحابنا وقول المعتزلة في تفسير هذه الآية ، وذلك لأن صرفهم عن الكفار معصية ، فكيف أضافه إلى نفسه ؟

أما أصحابنا فهذا الإشكال غير وارد عليهم ، لأن مذهبهم أن الخير والشر بإرادة الله وتخليقه ، فعلى هذا قالوا معنى هذا الصرف أن الله تعالى رد المسلمين عن الكفار ، وألقى الهزيمة عليهم وسلط الكفار عليهم ، وهذا قول جمهور المفسرين .

قالت المعتزلة : هذا التأويل غير جائز ويدل عليه القرآن والعقل ، أما القرآن فهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ التقى الجمعان إِنَّمَا استزلهم الشيطان بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ﴾ [آل عمران : 155] فأضاف ما كان منهم إلى فعل الشيطان ، فكيف يضيفه بعد هذا إلى نفسه ؟

وأما المعقول فهو أنه تعالى عاتبهم على ذلك الانصراف ، ولو كان ذلك بفعل الله لم يجز معاتبة القوم عليه ، كما لا يجوز معاتبتهم على طولهم وقصرهم وصحتهم ومرضهم ، ثم عند هذا ذكروا وجوها من التأويل :

الأول : قال الجبائي : إن الرماة كانوا فريقين ، بعضهم فارقوا المكان أولا لطلب الغنائم ، وبعضهم بقوا هناك ، ثم هؤلاء الذين بقوا أحاط بهم العدو ، فلو استمروا على المكث هناك لقتلهم العدو من غير فائدة أصلا ، فلهذا السبب جاز لهم أن يتنحوا عن ذلك الموضع

إلى موضع يتحرزون فيه عن العدو ، ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب إلى الجبل في جماعة من أصحابه وتحصنوا به ولم يكونوا عصاة بذلك ، فلما كان ذلك الانصراف جائزا أضافه إلى نفسه بمعنى أنه كان بأمره وإذنه ، ثم قال : ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ والمراد أنه تعالى لما صرفهم إلى ذلك المكان وتحصنوا به أمرهم هناك بالجهاد والذب عن بقية المسلمين ، ولا شك أن الإقدام على الجهاد بعد الانهزام ، وبعد أن شاهدوا في تلك المعركة قتل أقربائهم وأحبائهم هو من أعظم أنواع الابتلاء .

فإن قيل : فعلى هذا التأويل هؤلاء الذين صرفهم الله عن الكفار ما كانوا مذنبين ، فلم قال : ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ .

قلنا : الآية مشتملة على ذكر من كان معذورا في الانصراف ومن لم يكن ، وهم الذين بدؤا بالهزيمة فمضوا وعصوا فقوله : ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ راجع إلى المعذورين ، لأن الآية لما اشتملت على قسمين وعلى حكمين رجع كل حكم إلى القسم الذي يليق به ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ [التوبة : 40] والمراد الذي قال له : ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ وهو أبو بكر ، لأنه

كان خائفاً قبل هذا القول ، فلما سمع هذا سكن ، ثم قال : ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة : 40] وعنى بذلك الرسول دون أبي بكر ، لأنه كان قد جرى ذكرهما جميعا ، فهذا جملة ما ذكره الجبائي في هذا المقام .

والوجه الثاني : ما ذكره أبو مسلم الأصفهاني ، وهو أن المراد من قوله : ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ ﴾ أنه تعالى أزال ما كان في قلوب الكفار من الرعب من المسلمين عقوبة منه على عصيانهم وفشلهم ، ثم قال : ﴿ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ أي ليجعل ذلك الصرف محنة عليكم لتتوبوا إلى الله وترجعوا اليه وتستغفروه فيما خالفتم فيه أمره وملتم فيه إلى الغنيمة ، ثم أعلمهم أنه تعالى قد عفا عنهم .

والوجه الثالث : قال الكعبي : ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ ﴾ بأن لم يأمركم بمعاودتهم من فورهم ﴿ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ بكثرة الانعام عليكم والتخفيف عنكم ، فهذا ما قيل في هذا الموضع ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 32.31 ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ﴾

فصل

قال الفخر :

ظاهره يقتضي تقدم ذنب منهم .

قال القاضي : إن كان ذلك الذنب من الصغائر صح أن يصف نفسه بأنه عفا عنهم من غير توبة ، وإن كان من باب الكبائر ، فلا بد من إضمار توبتهم لقيام الدلالة على أن صاحب الكبيرة إذا لم يتب لم يكن من أهل العفو والمغفرة .

واعلم أن الذنب لا شك أنه كان كبيرة ، لأنهم خالفوا صريح نص الرسول ، وصارت تلك المخالفة سبباً لانهزام المسلمين ، وقتل جمع عظيم من أكابرهم ، ومعلوم أن كل ذلك من باب الكبائر وأيضا : ظاهر قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ ﴾ [الأنفال : 16] يدل على كونه كبيرة ، وقول من قال : إنه خاص في بدر ضعيف ، لأن اللفظ عام ، ولا تفاوت في المقصود ، فكان التخصيص ممتنعا ، ثم إن ظاهر هذه الآية يدل على أنه تعالى عفا عنهم من غير توبة ، لأن التوبة غير مذكورة ، فصار هذا دليلا على أنه تعالى قد يعفو عن أصحاب الكبائر ، وأما دليل المعتزلة في المنع عن ذلك ، فقد تقدم الجواب عنه في سورة البقرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 32 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ﴾ بمحض التفضل أو لما علم من عظيم ندمكم على المخالفة ، وقيل : والمراد بذلك العفو عن الذنب وهو عام لسائر المنصرفين .

ويؤيد ذلك ما أخرجه البخاري عن عثمان بن موهب قال : جاء رجل إلى ابن عمر رضي الله تعالى عنهما فقال : إني سائلك عن شيء فحدثني به أنشدك بحرمة هذا البيت أتعلم أن عثمان بن عفان فرّ يوم أحد ؟ قال : نعم قال : فتعلمه تغيب عن بدر فلم يشهدها ؟ قال : نعم ، قال : فتعلم أنه تخلف عن بيعة الرضوان فلم يشهدها ؟ قال : نعم فكبر فقال ابن عمر : تعال لأخبرك ولأبين لك عما سألتني عنه ، أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله تعالى عفا عنه ، وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحته بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مريضة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه .

وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه فبعث عثمان فكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة فقال النبي صلى الله عليه وسلم بيده اليمنى وضرب بها على يده فقال : هذه يد عثمان اذهب بها الآن معك ، وقال البلخي : إنه عفو عن الاستئصال ، وروي ذلك عن ابن جريج ، وزعم أبو علي الجبائي أنه خاص بمن لم يعص الله تعالى بانصرافه والكل خلاف الظاهر .

وقد يقال : الداعي لقول البلخي : إن العفو عن الذنب سيأتي ما يدل عليه بأصرح وجه ،

والتأسيس خير من التأكيد ، وكلام ابن عمر رضي الله تعالى عنه ليس فيه أكثر من أن تعالى عفا عن ذنب الفارّين وهو صريح الآية الآتية ، وأما أنه يفهم منه ولو بالإشعار أن المراد من العفو هنا العفو عن الذنب فلا أظن منصفاً يدعيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 90 ﴾

(74/132)

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ إعلام بأن الذنب كان يستحق أكثر مما نزل ، وهذا تحذير ، والمعنى " ولقد عفا عنكم " بأن لم يستأصلوكم ، فهو بمنزلة : ولقد أبقى عليكم ، ويحتمل أن يكون إخباراً بأنه عفا عن ذنوبهم في قصة أحد ، فيكون بمنزلة العفو المذكور بعد ، وبالتفسير الأول قال ابن جريج وابن إسحاق وجماعة من المفسرين ، وقال الحسن بن أبي الحسن : قتل منهم سبعون ، وقتل عم النبي عليه السلام وشج في وجهه وكسرت رباعيته وإنما العفو أن لم يستأصلهم ، هؤلاء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي سبيل الله غضاب لله ، يقاتلون أعداء الله ، نهوا عن شيء فضيعوه ، فوالله ما تركوا حتى غموا بهذا الغم ، فأفسق الفاسقين اليوم يجترم كل كبيرة ، ويركب كل داهية ، ويسحب عليها ثيابه ،

ويزعم أن لا بأس عليه فسوف يعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 525 ﴾

قوله تعالى : ﴿ واللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى المؤمنين ﴾

قال الفخر :

﴿ واللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى المؤمنين ﴾ وهو راجع إلى ما تقدم من ذكر نعمه سبحانه وتعالى بالنصر أولا ، ثم بالعفو عن المذنبين ثانياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 32 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ واللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى المؤمنين ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله وفيه إيذان بأن ذلك العفو ولو كان بعد التوبة بطريق التفضل لا الوجوب أي شأنه أن يتفضل عليهم بالعفو أو في جميع الأحوال أديل لهم أو أديل عليهم إذ الابتلاء أيضاً رحمة ، والتنوين للتفخيم ، والمراد بالمؤمنين إما المخاطبون ، والإظهار في مقام الإضمار للتشريف والإشعار بعلة الحكم ، وإما الجنس ويدخلون فيه دخولاً أولياً ولعل التعميم هنا وفيما قبله أولى من التخصيص ، وتخصيص الفضل بالعفو أولى من تخصيصه بعدم الاستئصال كما زعمه البعض . انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 90 ﴾

فصل

قال القرطبى :

وعن ابن عباس قال : ما نُصِر النبيّ صلى الله عليه وسلم في موطن كما نُصِر يوم أُحُد ، قال : وأنكرنا ذلك ، فقال ابن عباس : بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله عز وجلّ ، إن الله عزّ وجلّ يقول في يوم أُحُد : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ يقول ابن عباس : والحَسّ القتل ﴿ حتى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأمر وَعَصَيْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخرة ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ والله ذُو فَضْلٍ عَلَى المؤمنين ﴾ وإنما عنى بهذا الرماة .

وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أقامهم في موضع ثم قال : " احموا ظهورنا فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا وإن رأيتمونا قد غنِمنا فلا تشركونا " فلما غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأباحوا عسكر المشركين انكفأت الرماةُ جميعاً فدخلوا في العسكر ينتهبون ، وقد التقت صفوف أصحابِ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فهم هكذا وشبّك أصابع يديه والتبسوا .

فلما أخَل الرماةُ تلك الخَلّة التي كانوا فيها دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فضرب بعضهم بعضاً والتبسوا ، وقتل من المسلمين ناس

كثير ، وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابِه أوّلُ النهار حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة ، وجال المسلمون نحو الجبل ، ولم يبلغوا حيث يقول الناس : الغار ، إنما كانوا تحت المِهراس وصاح الشيطان : قتل محمد .

فلم يُشَك فيه أنه حق ، فما زلنا كذلك ما نشك أنه قتِل حتى طلع علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين السَعْدَيْن ، نعرفه بتكفِّئِه إذا مشى .

قال : ففرحنا حتى كأنّا لم يصبنا ما أصابنا .

(76/132)

قال : فرقى نحونا وهو يقول : " اشتدّ غضب الله على قوم دَمّوا وجهَ نَبِيهم " وقال كعب بن مالك : أنا كنت أوّل من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسلمين ؛ عرفته بعينيه من تحت المِغْفَر تزهران فناديت بأعلى صوتي : يا معشر المسلمين ! ابشِروا ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقبل : فأشار إليّ أن أسكت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 237 . 238 ﴾

قال ابن كثير :

هذا حديث غريب ، وسياق عجيب ، وهو من مرسلات ابن عباس ، فإنه لم يشهد أحُدًا

ولا أبوه.

وقد أخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي النَّضْر الفقيه، عن عثمان بن سعيد، عن سليمان بن داود بن علي بن عبد الله بن عباس، به. وهكذا رواه ابن أبي حاتم والبيهقي في دلائل النبوة، من حديث سليمان بن داود الهاشمي، به (1) ولبعضه شواهد في الصحاح وغيرها، فقال الإمام أحمد:

حدثنا عفان، حدثنا حماد، حدثنا عطاء بن السائب عن الشعبي، عن ابن مسعود قال: إن النساء كن يوم أحد، خلْف المسلمين، يُجْهزْن على جَرْحى المشركين، فلو حَلَفت يومئذ رجوت أن أبَر: أنه ليس أحد منا يريد الدنيا، حتى أنزل الله عز وجل: ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ فلما خالف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وعَصَوا ما أمروا به، أفرد رسول الله صلى الله عليه وسلم في تسعة: سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش، وهو عاشرهم، فلما رهقُوه [قال: "رَحِمَ اللهُ رجلا رَدَّهُمْ عَنَّا". قال: فقام رجل من الأنصار فقاتل ساعة حتى قتل، فلما رَهقُوه] أيضا قال: "رَحِمَ اللهُ رَجُلا رَدَّهُمْ عَنَّا". فلم يزل يقول ذا حتى قُتِل السبعة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لصاحبه: "مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا".

---

(1) (1) المسند (1/287، 288) والمستدرك (2/296) ودلائل النبوة للبيهقي (3/269، 270).

فجاء أبو سفيان فقال : اعْلُ هُبَلُ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قُولُوا : اللهُ أَعْلَى وأَجَلُّ" . فقالوا : الله أعلى وأجل . فقال أبو سفيان : لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قُولُوا : "اللهُ مَوْلانَا ، وَالْكَافِرُونَ لا مَوْلَى لَهُم" . ثم قال أبو سفيان : يومٌ بيومْ بَدْر ، يومٌ علينا ويوم لنا ويوم نُسَاءُ ويوم نُسَر . حَنْظَلَة بِحَنْظَلَة ، وفلان بفلان ، وفلان بفلان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا سَوَاء . أَمَّا قَتْلانَا فَأَحْيَاءٌ يُرْزَقُونَ ، وقَتْلاكُمْ فِي النَّارِ يُعَذَّبُونَ" . قال أبو سفيان : قد كان في القوم مَثُلَةٌ ، وإنْ كَانَتْ لَعَنْ غير مَلأ منّا ، ما أمرتُ ولا نَهَيْتُ ، ولا أحْبَبْتُ ولا كَرِهتُ ، ولا ساءني ولا سرَّني . قال : فنظروا فإذا حمزةُ قد بُقِرَ بَطْنُه ، وأخذتْ هند كَبِده فلاكَتْها فلم تستطع أن تأكلها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَكَلَتْ شَيْئًا ؟ " قالوا : لا . قال : "مَا كَانَ اللهُ لِيُدْخِلَ شَيْئًا مِنْ حَمْزَةَ فِي النَّار" .

قال : فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزة فَصَلَّى عليه ، وَجِيء برجل من الأنصار فَوُضِع إلى جنبه فصلَّى عليه ، فَرُفِعَ الأنصاري وتُرِكَ حمزة ، ثم جيء بآخر فوضعَه إلى جنب حمزة فصلى [عليه] ثم رُفِعَ وتُرِكَ حمزة ، حتى صلَّى عليه يومئذ سبعين صلاة . (1)

تفرد به أحمد أيضًا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 2 صـ 134.135 ﴾

---

(1) المسند (462/1) .

(78/132)

فائدة

قال الفخر :

وهذه الآية دالة على أن صاحب الكبيرة مؤمن ، لأنا بيّنا أن هذا الذنب كان من الكبائر ، ثم إنه تعالى سماهم المؤمنين ، فهذا يقتضي أن صاحب الكبيرة مؤمن بخلاف ما تقوله المعتزلة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 32.33 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

صَدَقَ يتعدى لاثنين ، أحدهما بنفسه ، والآخر بالحرفِ ، وقد يُحْذَف ، كهذه الآية .

والتقدير : صدقكم في وعده ، كقولهم : صَدقتُه في الحديث وصدقته الحديث و ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ ﴾ معمولٌ لِـ " صَدَقَكُمْ " أي : صدقكم في ذلك الوقتِ ، وهو وقتُ حَسِّهِم ، أي : قَتْلهم .

وأجاز أبو البقاء أن يكون معمولاً للوعد في قوله : " وَعْدَه " – وفيه نظرٌ ؛ لأن الوعد متقدمٌ على هذا الوقت .

يقال : حَسَسْتُه ، أحَسُّه ، وقرأ عُبَيْد بن عُمَير : تُحِسُّونَهُم – رباعياً – أي : أذهبتم حِسَّهم بالقتل .

قال أبو عبيدةَ ، والزَّجَّاجُ : الحَسُّ : الاستئصال بالقَتْل .

قال الشاعر : [الطويل]

حَسَنَاهُمُ بِالسَّيْفِ حَسًّا فأصْبَحَتْ . . . بَقِيَّتُهُمْ قَدْ شُرِّدُوا وَتَبَدَّدُوا

وقال جرير : [الوافر]

تَحُسُّهُمُ السُّيُوفُ كَمَا تَسَامَى . . . حَرِيقُ النَّارِ فِي الأجَمِ الْحَصِيدِ

ويقال : جراد محسوس – إذ قتله البردُ – والبرد محسة للنبت : – أي : محرقة له ، ذاهبته .

وسنة حَسُوسٌ : أي : جدبة ، تأكل كلَّ شيءٍ .

قال رؤبة : [الرجز]

إذَا شَكَوْنَا سَنَةً حَسُوسَا . . . تَأكُلُ بَعْدَ الأخْضَرِ الْيَبِيسَا

وأصله من الحِسّ – الذي هو الإدراك بالحاسة – .

قال أبو عبيدٍ : الحَسُّ : الاستئصال بالقتل واشتقاقه من الحِسّ ، حَسَّه – إذا قتله – لأنه يُبْطل حِسَّه بالقتل ، كما يقال : بَطَنَهُ – إذا أصاب بطنه ، ورَأَسَهُ ، إذا أصاب رأسه .

و " بإِذْنِهِ " متعلق بمحذوف؛ لأنه حالٌ من فاعل " تَحُسُّونَهُمْ " ، أي: تقتلونهم مأذوناً لكم في ذلك.

قال القرطبيُّ: " ومعنى قوله: " بإذْنه " أي: بعلمه، أو بقضائه وأمره " .

وقوله: ﴿ حتى إِذَا فَشِلْتُمْ ﴾ في " حَتَّى " قولان:

أحدهما: أنها حرف جر بمعنى " إلى " وفي متعلقها - حينئذ - ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدها: أنها متعلقة بـ " تَحسُّونَهُمْ " أى: تقتلونهم إلى هذا الوقت.

الثاني: أنها متعلقة بـ " صَدَقَكُمْ " وهو ظاهر قول الزمخشريّ، قال: " ويجوز أن يكونَ المعنى: صدقكم اللهُ وَعْدَهُ إلى وقت فَشَلِكم " .

الثالث: أنّها متعلقة بمحذوف، دَلَّ عليه السياقُ.

قال أبو البقاء: " تقديره: دام لكم ذلك إلى وقتِ فَشَلِكُم " .

القول الثاني: أنَّها حرف ابتداءٍ داخلة على الجملة الشرطية، و" إِذَا " على بابها - من كونها شرطية - وفي جوابها - حينئذٍ - ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدها: قال الفرّاء: جوابها " وَتَنَازَعْتُمْ " وتكون الواو زائدة، كقوله: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا

وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ ﴾ [الصافات : 103-104] والمعنى ناديناه ، كذا - هنا - الفشل والتنازع صار موجباً للعصيان ، فكأنّ التقدير : حتى إذا فَشِلْتُم ، وتنازعتم في الأمر عصيتم .

قال : ومذهب العرب إدخال الواو في جواب " حَتَّى " كقوله : ﴿ حتى إذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ ﴿ الزمر : 73] فإن قيل : قوله : ﴿ فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ ﴾ معصية ، فلو جعلنا الفشل والتنازعَ علةً للمعصية لزم كونُ الشيء علة لنفسه ، وذلك فاسدٌ .

فالجواب : أن المراد من العصيان - هنا - خروجهم عن ذلك المكان ، فلم يلزم تعليلُ الشيء بنفسه . ولم يَقْبَل البصريون هذا الجوابَ ؛ لأن مذهبهمْ أنه لا يجوز جُعْلَ الواو زائدة .

(80/132)

قوله : ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ ﴾ و" ثم " زائدة .

قال أبو علي : ويجوز أن يكون الجواب ﴿ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ ﴾ و" ثُمَّ " زائدة ، والتقدير : حتى إذا فشلتم وتنازعتم وعصيتم صرفكم عنهم . وقد أنشد بعضُ النحويين في زيادتها قول الشاعر : [الطويل]

أرَانِي إذَا مَا بِتُّ بِتُّ عَلَى هَوًى . . . فَثُمَّ إذَا أصْبَحْتُ أصْبَحْتُ غَادِيَا

وجوز الأخفشُ أن تكون زائدةً في قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وظنوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ الله إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : 118] وهذان القولان ضعيفان جداً .

والثالث - وهو الصحيحُ - أنه محذوف ، واختلفت عبارتهم في تقديره ، فقدَّرَه ابنُ عطية : انهزمتم وقدَّره الزمخشريُّ : منعكم نصرَه .

وقدَّره أبو البقاء : بأن أمركم . ودلّ على ذلك قوله تعالى : ﴿ مِّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخرة ﴾ [آل عمران : 152] .

وقدره غيره : امتحنتم .

وقيل فيه تقديمٌ وتأخيرٌ ، وتقديره : حتّى إذا تنازعتم في الأمر وعصيتم فشلتم .

وقدَّره أبو حيان : انقسمتم إلى قسمَيْن ، ويدل عليه ما بعده ، وهو نظيرُ قوله : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ [لقمان : 32]

قال أبو حيان : لا يقال : كيف يقال : انقسمتم إلى مريدِ الدُّنْيَا ، وإلى مريدِ الآخرةِ فيمن فشل وتنازع وعصى ؛ لأن هذه الأفعال لم تصدر من كلِّهم ، بل من بعضِهِمْ .

واختلفوا في " إذا " - هذه - هل هي على بابها أم بمعنى " إذْ " ؟ والصحيح الأول ، سواء قلنا إنها شرطية أم لا .

قوله: ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ ﴾ عطفٌ على ما قبله، والجملتان من قوله: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخرة ﴾ اعتراض بين المتعاطفين، وقال أبو البقاء: ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ ﴾ معطوف على الفعل المحذوف.

يعني الذي قدره جواباً للشرط، ولا حاجة إليه، و"لِيَبْتَلِيَكُمْ" متعلق بـ "صَرَفَكُمْ" و"أن" مضمرة بعد اللام. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 597. 601 ﴾.

بتصرف.

لطيفة

وإنَّما سمّيت مخالفة من خالف أمر الرسول عصياناً، مع أن تلك المخالفة كانت عن اجتهاد لا عن استخفاف، إذ كانوا قالوا: إنّ رسول الله أمرنا بالثبات هنا لحماية ظهور المسلمين، فلمَّا نصر الله المسلمين فما لنا وللوقوف هنا حتّى تفوتنا الغنائم، فكانوا متأوّلين، فإنَّما سمّيت هنا عصياناً لأنّ المقام ليس مقام اجتهاد، فإنّ شأن الحرب الطاعة للقائد من دون تأويل، أو لأنّ التأويل كان بعيداً فلم يعذروا فيه، أو لأنَّه كان تأويلاً لإرضاء حبّ المال، فلم يكن مكافئاً لدليل وجوب طاعة الرّسول. انتهى انتهى. اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 253 ﴾

من فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

وإنَّما قال : ﴿ ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ ليدلّ على أنّ ذلك الصرف بإذن الله وتقديره ، كما كان القتل بإذن الله وأنّ حكمته الابتلاء ، ليظهر للرسول وللنّاس مَن ثبت على الإيمان من غيره ، ولأنّ في الابتلاء أسراراً عظيمة في المحاسبة بين العبد وربِّه سبحانه وقد أجمل هذا الابتلاء هنا وسيبيّنه .

(82/132)

وعُقب هذا الملام بقوله : ﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ تسكيناً لخواطرهم ، وفي ذلك تلطّف معهم على عادة القرآن في تقريع المؤمنين ، وأعظم من ذلك تقديم العفو على الملام في ملام الرسول عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ عفا اللَّه عنك لم أذنت لهم ﴾ [التوبة : 43] ، فتلك رتبة أشرف من رتبة تعقيب الملام بذكر العفو ، وفيه أيضاً دلالة على صدق إيمانهم إذ عجل لهم الإعلام بالعفو لكيلا تطير نفوسهم رهبة وخوفاً من غضب الله تعالى .

وفي تذييله بقوله : ﴿ والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ تأكيد ما اقتضاه قوله : ﴿ ولقد عفا عنكم والظاهر أنَّه عفو لأجل التأويل ، فلا يحتاج إلى التَّوبة ، ويجوز أن يكون عفواً بعدما ظهر منهم من الندم والتَّوبة ، ولأجل هذا الاحتمال لم تكن الآية صالحة للاستدلال على

الخوارج والمعتزلة القائلين بأنّ المعصية تسلب الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 253. 254 ﴾

فوائد بلاغية

قال أبو حيان :

وتضمنت هذه الآيات من البيان والبديع ضروباً : من ذلك الاستفهام الذي معناه الإنكار في : أم حسبتم .

والتجنيس المماثل في : انقلبتم ومن ينقلب ، وفي ثواب الدنيا وحسن ثواب .

والمغاير في قولهم : إلا أن قالوا .

وتسمية الشيء باسم سببه في : تمنون الموت أي الجهاد في سبيل الله ، وفي قوله : وثبت أقدامنا فيمن فسر ذلك بالقلوب ، لأن ثبات الأقدام متسبب عن ثبات القلوب .

والالتفات في : وسنجزي الشاكرين .

والتكرار في : ولما يعلم ويعلم لاختلاف المتعلق .

أو للتنبيه على فضل الصابر .

وفي : أفإن مات أو قتل لأن العرف في الموت خلاف العرف في القتل ، والمعنى : مفارقة الروح الجسد فهو واحد .

ومن في ومن يرد ثواب الجملتين ، وفي : ذنوبنا وإسرافنا في قول من سوى بينهما ، وفي : ثواب

وحسن ثواب .

وفي : لفظ الجلالة ، وفي : منكم من يريد الجملتين .

(83/132)

والتقسيم في : ومن يرد وفي منكم من يريد .

والاختصاص في : الشاكرين ، والصابرين ، والمؤمنين .

والطباق : في آمنوا أن تطيعوا الذين كفروا .

والتشبيه في : يردّوكم على أعقابكم ، شبه الرجوع عن الدين بالراجع القهقري ، والذي حبط عمله بالكفر بالخاسر الذي ضاع ربحه ورأس ماله وبالمنقلب الذي يروح في طريق ويغدو في أخرى ، وفي قوله : سنلقى .

وقيل : هذا كله استعارة .

والحذف في عدة مواضع . انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 3 صـ 86﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قوله جلّ ذكره : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ ﴾ .

قيمة كل أحدٍ إرادته؛ فَمَنْ كانت همتُه الدنيا فقيمتُه خسيسةٌ حقيرة كالدنيا ، ومن كانت همتُه الآخرة فشريفٌ خطره ، ومن كانت همتُه ربانية فهو سيد وقته .

ويقال مَنْ صفا عن إرادته وصل إليه ، ومن وصل إليه أقبل - بلطفه - عليه ، وأزلفه بمحل الخصوصية لديه .

قوله : ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ ﴾ : الإشارة منه أنه صرف قوماً عنه فشغلهم بغيره عنه ، وآخرون صرفهم عن كل غير فأفردهم له؛ فالزاهدون صرفهم عن الدنيا ، والعابدون صرفهم عن اتباع الهوى ، والمريدون صرفهم عن المنى ، والموحِّدون صرفهم عما هو غيرٌ وسوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 1 صـ 286 ﴾

(84/132)

من فوائد العلامة الجصاص فى الآية

قال عليه الرحمة :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ إذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ فِيهِ إخْبَارٌ بِتَقَدُّمِ وَعْدِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ بِالنَّصْرِ عَلَى عَدُوِّهِمْ مَا لَمْ يَتَنَازَعُوا وَيَخْتَلِفُوا ، فَكَانَ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ يَوْمَ أُحُدٍ ظَهَرُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ وَهَزَمُوهُمْ وَقَتَلُوا مِنْهُمْ ، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ الرُّمَاةَ

بِالْمُقَامِ فِي مَوْضِعٍ وَأَنْ لَا يَبْرَحُوا ، فَعَصَوْا وَخَلَّوْا مَوَاضِعَهُمْ حِينَ رَأَوْا هَزِيمَةَ الْمُشْرِكِينَ وَظَنُّوا أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ بَاقِيَةٌ وَاخْتَلَفُوا وَتَنَازَعُوا ، فَحَمَلَ عَلَيْهِمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ مِنْ وَرَائِهِمْ فَقَتَلُوا مِنْ الْمُسْلِمِينَ مَنْ قَتَلُوا بِتَرْكِهِمْ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِصْيَانِهِمْ .

وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لِأَنَّهُمْ وَجَدُوا مَوْعُودَ اللَّهِ كَمَا وَعَدَ قَبْلَ الْعِصْيَانِ ، فَلَمَّا عَصَوْا وُكِلُوا إلَى أَنْفُسِهِمْ .

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النَّصْرَ مِنْ اللَّهِ فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ مَضْمُونٌ بِاتِّبَاعِ أَمْرِهِ وَالِاجْتِهَادِ فِي طَاعَتِهِ ، وَعَلَى هَذَا جَرَتْ عَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُسْلِمِينَ فِي نَصْرِهِمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ .

(85/132)

وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ إنَّمَا يُقَاتِلُونَ الْمُشْرِكِينَ بِالدِّينِ وَيَرْجُونَ النَّصْرَ عَلَيْهِمْ وَغَلَبَتَهُمْ بِهِ لَا بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إنَّمَا اسْتَزَلَّهُمْ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ .

فَأَخْبَرَ أَنَّ هَزِيمَتَهُمْ إنَّمَا كَانَتْ لِتَرْكِهِمْ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْإِخْلَالِ بِمَرَاكِزِهِمْ الَّتِي رُتِّبُوا فِيهَا .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ .

وَإِنَّمَا أُتُوا مِنْ قَبْلُ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الدُّنْيَا مِنْهُمْ؛ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: مَا ظَنَنْتُ أَنَّ أَحَدًا مِمَّنْ قَاتَلَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرِيدُ الدُّنْيَا حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا ﴾.

(86/132)

وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى كَانَ اللَّهُ قَدْ فَرَضَ عَلَى الْعِشْرِينَ أَنْ لَا يَفِرُّوا مِنْ مِائَتَيْنِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ لِأَنَّهُ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ كَانُوا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُخْلِصِينَ لِنِيَّةِ الْجِهَادِ لِلَّهِ تَعَالَى وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا، وَكَانُوا يَوْمَ بَدْرٍ ثَلَاثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا رَجَّالَةً قَلِيلِي الْعُدَّةِ وَالسِّلَاحِ وَعَدُوُّهُمْ أَلْفٌ فُرْسَانٌ وَرَجَّالَةٌ بِالسِّلَاحِ الشَّاكِ، فَمَنَحَهُمُ اللَّهُ أَكْتَافَهُمْ وَنَصَرَهُمْ عَلَيْهِمْ حَتَّى قَتَلُوا كَيْفَ شَاءُوا وَأَسَرُوا كَيْفَ شَاءُوا.

(87/132)

ثُمَّ لَمَّا خَالَطَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِثْلُ بَصَائِرِهِمْ وَخُلُوصُ ضَمَائِرِهِمْ خَفَّفَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ الْجَمِيعِ فَقَالَ: ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ ضَعْفَ قُوَى الْأَبْدَانِ وَلَا عَدَمَ السِّلَاحِ؛ لِأَنَّ قُوَى أَبْدَانِهِمْ كَانَتْ بَاقِيَةً وَعَدَدُهُمْ أَكْثَرُ وَسِلَاحُهُمْ أَوْفَرُ؛ وَإِنَّمَا أَرَادَ بِهِ أَنَّهُ خَالَطَهُمْ مَنْ لَيْسَ لَهُ قُوَّةُ الْبَصِيرَةِ مِثْلُ مَا لِلْأَوَّلِينَ؛ فَالْمُرَادُ بِالضَّعْفِ هَهُنَا ضَعْفُ النِّيَّةِ؛ وَأَجْرَى الْجَمِيعَ مَجْرًى وَاحِدًا فِي التَّخْفِيفِ؛ إذْ لَمْ يَكُنْ مِنْ الْمَصْلَحَةِ تَمْيِيزُ ذَوِي الْبَصَائِرِ مِنْهُمْ بِأَعْيَانِهِمْ وَأَسْمَائِهِمْ مِنْ أَهْلِ ضَعْفِ الْيَقِينِ وَقِلَّةِ الْبَصِيرَةِ، وَلِذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْمِ الْيَمَامَةِ حِينَ انْهَزَمَ النَّاسُ: "أَخْلِصُونَا أَخْلِصُونَا" يَعْنُونَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ. انتهى انتهى. اهـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 2 صـ 326. 327﴾

(88/132)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله:

قَوْلُهُ - تَعَالَى -: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا

مَعْنَاهُ إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ جَحَدُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَمْ يَقْبَلُوا دَعْوَتَهُ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالْخَيْرِ كَأَبِي سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ الَّذِينَ دَعَاكُمْ مَرْضَى الْقُلُوبِ إِلَى الرُّجُوعِ إِلَيْهِمْ، وَتَوْسِيطِ رَئِيسِ الْمُنَافِقِينَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَئِيسِهِمْ (أَبِي سُفْيَانَ) لِيَطْلُبَ لَكُمْ مِنْهُ الْأَمَانَ، أَوِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِقُلُوبِهِمْ وَآمَنُوا بِأَفْوَاهِهِمْ كَعَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ خَذَلُوكُمْ قَبْلَ الشُّرُوعِ فِي الْحَرْبِ، ثُمَّ دَعَوْكُمْ بَعْدَهَا إِلَى الرُّجُوعِ إِلَى دِينِكُمْ، وَقَالُوا: لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا لَمَا أَصَابَهُ مَا أَصَابَهُ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ ابْتِدَاءً أَوِ اسْتِدْرَاجًا. قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: أَيْ

إِنْ طَلَبْتُمُ الْأَمَانَ مِنْهُمْ وَكَانَتْ حَالُكُمْ مَعَهُمْ حَالَ الْمَغْلُوبِ مَعَ الْغَالِبِ يَتَوَلَّوْا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا مَعَهُمْ أَذِلَّاءَ مَقْهُورِينَ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَمَّا الْأَوَّلُ فَيُخْضِعُوكُمْ لِسُلْطَانِهِمْ وَامْتِهَانِكُمْ بَيْنَهُمْ وَحِرْمَانِكُمْ مِمَّا وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنِ اسْتِخْلَافِهِمْ فِي الْأَرْضِ بِالسِّيَادَةِ وَالْمُلْكِ، وَمِنْ تَمْكِينِ دِينِهِمْ وَتَبْدِيلِهِمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا، أَمَّا الْآخَرُ فِيمَا يَمَسُّكُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ عَذَابِ الْمُرْتَدِّينَ مَعَ الْحِرْمَانِ مِمَّا وَعَدَ اللهُ الْمُتَّقِينَ.

وَذِكْرُ بَعْضِهِمْ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ لَا مُنَاسَبَةَ لَهُ ، وَقَدْ تَبِعُوا فِيهِ مَا رُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ وَابْنِ جُرَيْجٍ . وَالْمَرْوِيُّ عَنِ السُّدِّيِّ أَنَّ الْمُرَادَ بِالَّذِينَ كَفَرُوا أَبُو سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَعَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ وَحِزْبُهُ ، وَهُمُ الَّذِينَ دَعَوْا إِلَى الِارْتِدَادِ كَمَا تَقَدَّمَ وَأَشَرْنَا إِلَيْهِ آنِفًا .

بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تُفَكِّرُوا فِي وِلَايَةِ أَبِي سُفْيَانَ وَحِزْبِهِ ، وَلَا عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ وَشِيعَتِهِ ، وَلَا أَنْ تُصْغُوا لِإِغْوَاءِ مَنْ يَدْعُوكُمْ إِلَى مُوَالَاتِهِمْ فَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ لَكُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ، وَإِنَّمَا اللهُ هُوَ الْمَوْلَى الْقَادِرُ عَلَى نَصْرِكُمْ إِذَا هُوَ

(90/132)

تَوَلَّى شُئُونَكُمْ بِعِنَايَتِهِ الْخَاصَّةِ الَّتِي وَعَدَكُمْ بِهَا فِي قَوْلِهِ : فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ [8 : 40] وَبَيَّنَ لَكُمْ أَنَّ سُنَّتَهُ قَدْ مَضَتْ بِأَنَّهُ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ وَيَخْذُلُ مَنْ يُنَاوِئُهُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ [47 : 10 ، 11] وَمِنْ هُنَا أَخَذَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – جَوَابَهُ لِأَبِي سُفْيَانَ حِينَ قَالَ بَعْدَ وَقْعَةِ أُحُدٍ الَّتِي نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِيهَا : " لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ " إِذْ أَمَرَ – صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِأَنْ يُجَابَ اللهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ كَأَنَّهُ - تَعَالَى - يُذَكِّرُ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ هَذَا الْمُنْبِئِ عَنْ سُنَّتِهِ ، وَبِتَذْكِيرِ الرَّسُولِ لَهُمْ بِهِ ، وَإِذَا كَانَ هُوَ مَوْلَاكُمْ وَنَاصِرَكُمْ إِذَا قُمْتُمْ بِمَا شَرَطَهُ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ وَالصَّلَاحِ وَنَصْرِ الْحَقِّ فَهَلْ تَحْتَاجُونَ إِلَى أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ؟ فَإِنَّ مَنْ يُطْلَقُ عَلَيْهِمْ لَفْظُ النَّاصِرِ مِنَ النَّاسِ إِنَّمَا يَنْصُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِمَا أُوتُوا مِنَ الْقُوَى وَمَا تَيَسَّرَ لَهُمْ مِنَ الْأَسْبَابِ .

(91/132)

وَإِنَّمَا اللهُ هُوَ الَّذِي آتَاهُمُ الْقُوَى وَسَخَّرَ لَهُمُ الْأَسْبَابَ ، وَهُوَ الْقَادِرُ بِذَاتِهِ عَلَى نَصْرِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ بِإِيتَائِهِمْ أَفْضَلَ مَا يُؤْتِي غَيْرَهُمْ مِنَ الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ وَالْعَزِيمَةِ وَإِحْكَامِ الرَّأْيِ وَإِقَامَةِ السُّنَنِ وَالتَّوْفِيقِ لِلْأَسْبَابِ ، هَذَا مَا ظَهَرَ لَنَا . وَيَقُولُ الْمُفَسِّرُونَ : فِي مِثْلِ هَذِهِ الْعِبَارَةِ اسْمُ التَّفْضِيلِ (خَيْرُ) فِيهَا عَلَى غَيْرِ بَابِهِ ; لِأَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي أُولَئِكَ النَّاصِرِينَ الَّذِينَ يُعَرِّضُ بِهِمْ ، قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : لَا وَجْهَ لِلِاعْتِرَاضِ بِأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا خَيْرَ فِيهِمْ ، فَإِنَّ التَّفْضِيلَ إِنَّمَا هُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى النَّصْرِ ، يَعْنِي أَنَّ نَصْرَ اللهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ خَيْرٌ مِنْ نَصْرِ الْكَافِرِينَ لِمَنْ يَنْصُرُونَهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِمْ

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا الْمُتَبَادِرُ لَنَا أَنَّ

الْآيَةِ تَعْلِيلٌ أَوْ تَصْوِيرٌ لِكَوْنِهِ - تَعَالَى - خَيْرُ النَّاصِرِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُوَحِّدِينَ، مُبَيِّنَةٌ لِبَعْضِ وُجُوهِهِ تَبْيِينًا يُقَبِّحُ لَهُمُ الشِّرْكَ وَيَزِيدُهُمْ حُبًّا فِي الْإِيمَانِ، وَبَيَانُهُ أَنَّهُ سَيُحَكِّمُ فِي أَعْدَائِهِمُ الْمُشْرِكِينَ سُنَّتَهُ الْعَادِلَةَ، وَهِيَ أَنَّهُ يُلْقِي فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعُبَ - بِضَمِّ الْعَيْنِ - وَبِهِ قَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَالْكِسَائِيُّ وَيَعْقُوبُ وَبِسُكُونِهَا وَبِهِ قَرَأَ الْبَاقُونَ، وَهُوَ شِدَّةُ الْخَوْفِ الَّتِي تَمْلَأُ الْقَلْبَ بِسَبَبِ إِشْرَاكِهِمْ بِاللهِ أَصْنَامًا وَمَعْبُودَاتٍ لَمْ يُنَزِّلْ بِهَا سُلْطَانًا،

(92/132)

أَيْ لَمْ يُقِمْ بُرْهَانًا مِنَ الْعَقْلِ وَلَا مِنَ الْوَحْيِ عَلَى مَا زَعَمُوا مِنْ أُلُوهِيَّتِهَا وَكَوْنِهَا وَاسِطَةً بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، وَإِنَّمَا قَلَّدُوا فِي اتِّخَاذِهَا وَاعْتِقَادِهَا آبَاءَهُمُ الَّذِينَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ غَيْرَ مُطْمَئِنٍّ فِي دِينِهِ، وَلَا مُتَّبِعٍ لِلدَّلِيلِ فِي اعْتِقَادِهِ فَهُوَ دَائِمًا عُرْضَةٌ لِاضْطِرَابِ الْقَلْبِ وَاتِّبَاعِ خَطَرَاتِ الْوَهْمِ، يَعُدُّ الْوَسْوَاسَ أَسْبَابًا وَيَرَى الْهَوَاجِسَ مُؤَثِّرَاتٍ وَعِلَلًا قِيَاسًا عَلَى اتِّخَاذِهِ بَعْضَ الْمَخْلُوقَاتِ أَوْلِيَاءَ وَجَعْلِهِمْ وَسَائِطَ عِنْدَ اللهِ وَشُفَعَاءَ، وَاعْتِيَادِهِ بِذَلِكَ أَنْ يَرْجُوَ مَا لَا يُرْجَى مِنْهُ خَيْرٌ، وَيَخَافُ مَا لَا يُخَافُ مِنْهُ ضَيْرٌ، فَالْإِشْرَاكُ قَدْ يَكُونُ سَبَبًا طَبِيعِيًّا لِوُقُوعِ الرُّعْبِ فِي الْقَلْبِ، وَمَا كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّ اللهَ يُسْنِدُهُ إِلَى نَفْسِهِ وَإِنْ لَمْ يَذْكُرِ السَّبَبَ ; لِأَنَّهُ هُوَ وَاضِعُ الْأَسْبَابِ وَالسُّنَنِ، وَلَكِنَّهُ قَدْ صَرَّحَ بِهِ هُنَا

لِيكُونَ بُرْهَانًا عَلَى بُطْلَانِ الشِّرْكِ وَسُوءِ أَثَرِهِ، وَهَذَا الْوَجْهُ الْمُخْتَارُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ يُوَافِقُ قَوْلَ مَنْ جَعَلَ الْوَعِيدَ فِيهَا عَامًّا وَلَيْسَ كُلُّ الْكُفْرِ يُثِيرُ الرُّعْبَ بِطَبِيعَتِهِ، وَإِنَّمَا تِلْكَ طَبِيعَةُ الشِّرْكِ، وَهُوَ اعْتِقَادُ أَنَّ لِبَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ تَأْثِيرًا غَيْبِيًّا وَرَاءَ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْأَسْبَابِ.

(93/132)

وَصَرَّحَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ بِأَنَّ قَوْلَهُ - تَعَالَى -: سَنُلْقِي وَعْدٌ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْجَزَهُ اللهُ يَوْمَ أُحُدٍ فِي أَوَّلِ الْحَرْبِ، وَلَا يَظْهَرُ هَذَا بِغَيْرِ تَأْوِيلٍ وَلَا تَقْدِيرٍ إِلَّا إِذَا كَانَتِ الْآيَةُ قَدْ نَزَلَتْ قَبْلَ الْقِتَالِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا نَزَلَتْ مَعَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا عَقِبَ الْقِتَالِ وَانْصِرَافِ الْمُشْرِكِينَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْوَعْدَ أُنْجِزَ فِي غَزْوَةِ حَمْرَاءِ الْأَسَدِ، إِذْ أَرَادَ أَبُو سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ بَعْدَ الِانْصِرَافِ مِنْ أُحُدٍ أَنْ يَرْجِعُوا لِاسْتِئْصَالِ الْمُسْلِمِينَ فَأَوْقَعَ اللهُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ لَمَّا قَالَ لَهُمْ مَعْبَدٌ مَا قَالَ (رَاجِعْ ص 88 مِنَ الْجُزْءِ الرَّابِعِ طِ الْهَيْئَةِ).

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: فِي الْآيَةِ وَجْهَانِ:

(الْوَجْهُ الْأَوَّلُ) أَنَّ إِلْقَاءَ الرُّعْبِ خَاصٌّ بِتِلْكَ الْوَاقِعَةِ، وَلَوْ كَانَ عَامًّا لَشَمَلَ غَزْوَةَ حُنَيْنٍ - وَلَمْ يَكُنِ الْكُفَّارُ فِيهَا مَرْعُوبِينَ، بَلْ كَانُوا مُسْتَمِيتِينَ وَكَذَلِكَ نَرَى أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْكَافِرِينَ قَدْ حَارَبُوا وَلَمْ يُصِبْهُمُ الرُّعْبُ، وَهَذَا الْوَجْهُ هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ مُفَسِّرُنَا (الْجَلَالُ) وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ.

(والْوجْهُ الثَّاني) أَنَّ الْآيَةَ بيانٌ لِسُنَّةٍ إِلَهِيَّةٍ عامَّةٍ وهُوَ الْحقُّ، وبَيانُهُ يتَوقَّفُ علَى فهْمِ الْمعْنَى الْمُرادِ مِنْ لفْظِ "الْمؤْمِنِينَ" ولَفْظِ "الْكافِرِينَ" وهُوَ ما كانَ علَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ والْكافِرُونَ فِي الْوقْتِ الَّذي نزَلَتْ فِيهِ هذِهِ الْآياتُ، فَأَمَّا أُولَئِكَ الْمُؤْمِنُونَ فهُمُ

(94/132)

الَّذِينَ كانُوا فِي مرْتَبَةٍ مِنَ الْيقِينِ والْإِذْعانِ قَدْ صدَّقَهَا الْعمَلُ الَّذِي كانَ مِنْهُ بَذْلُ الْأَنْفُسِ والْأَمْوالِ فِي سبِيلِ الْإِيمانِ، الَّذِينَ عاتبَهُمُ اللهُ ووبَّخَهُمْ علَى تلْكَ الْهفْوَةِ الَّتِي وقَعتْ مِنْ بَعْضِهِمْ بِما تقَدَّمَ وما يأْتِي فِي هذَا السِّياقِ مِنَ الْآياتِ، وأَمَّا أُولَئِكَ الْكافِرُونَ فهُمُ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِيمانِ، وأُقِيمَ لَهُمْ علَى الدَّعْوَةِ الدَّلِيلُ والْبُرْهانُ، فَجحَدُوا وعانَدُوا وكابَرُوا الْحقَّ، وآثَرُوا مُقارَعَةَ الدَّاعِي ومَنِ اسْتَجابَ لَهُ بِالسَّيْفِ، وقَعدُوا لَهُ ولَهُمْ كُلَّ مرْصَدٍ، فَإِذَا نظَرْنَا فِي شِرْكِ هؤُلَاءِ الْكافِرِينَ، وفِي حالِهِمْ معَ أُولَئِكَ الْمؤْمِنِينَ نجِدُ أَنَّ شأْنَهُمْ معَهُمْ كَشأْنِ منْ يرَى نُورَ الْحقِّ معَ خصْمِهِ فيَحْمِلُهُ الْبغْيُ والْعُدْوانُ علَى مُجاحَدَتِهِ مِنْ غَيْرِ حُجَّةٍ ولَا دَلِيلٍ، يرْتابُ فِيما هُوَ فِيهِ ويَتَزَلْزَلُ، فَإِذَا شاهَدَ الَّذِينَ دعَوْهُ ثابِتِينَ مطْمَئِنِّينَ يعْظُمُ ارْتِيابُهُ ويَهابُ خصْمَهُ حتَّى يمْتَلِئَ قَلْبُهُ رُعْبًا مِنْهُمْ. هذَا هُوَ شأْنُ الْكافِرِينَ الْمعانِدِينَ معَ الْمُؤْمِنِينَ

الصَّادِقِينَ ، كَأَنَّهُ - تَعَالَى - يَقُولُ : هَذِهِ هِيَ الطَّبِيعَةُ فِي الْمُشْرِكِينَ ، إِذَا قَاوَمُوا الْمُؤْمِنِينَ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَلَا تُبَالُوا بِقَوْلِ مَنْ يَدْعُوكُمْ إِلَى مُوَالَاتِهِمْ وَالِالْتِجَاءِ إِلَيْهِمْ .

(95/132)

قَالَ : بِهَذَا يَنْدَفِعُ قَوْلُ مَنْ يَقُولُ : مَا بَالُنَا نَجِدُ الرُّعْبَ كَثِيرًا مَا يَقَعُ فِي قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا يَقَعُ فِي قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ؟ فَإِنَّ الَّذِينَ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ مُسْلِمِينَ قَدْ يَكُونُونَ عَلَى غَيْرِ مَا كَانَ عَلَيْهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ خُوطِبُوا بِهَذَا الْوَعْدِ مِنْ قُوَّةِ الْيَقِينِ وَالْإِذْعَانِ وَالثَّبَاتِ وَالصَّبْرِ ، وَبَذْلِ النَّفْسِ وَالْمَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَتَمَنِّي الْمَوْتِ فِي الدِّفَاعِ عَنِ الْحَقِّ ، فَمَعْنَى الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ مُتَحَقِّقٍ فِيهِمْ ، وَإِنَّمَا رُعْبُ الْمُشْرِكِينَ مُرْتَبِطٌ بِإِيمَانِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا يَكُونُ لَهُ مِنَ الْآثَارِ ، فَحَالُ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ لَا يَقُومُ حُجَّةً عَلَى الْقُرْآنِ ; لِأَنَّ أَكْثَرَهُمْ قَدِ انْصَرَفُوا عَنِ الِاجْتِمَاعِ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الْإِسْلَامُ مِنَ الْحَقِّ ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالصِّفَاتِ وَالْأَعْمَالِ ، فَالْقُرْآنُ بَاقٍ عَلَى وَعْدِهِ ؟ ، وَلَكِنْ هَاتِ لَنَا الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَنْطِقُ إِيمَانُهُمْ عَلَى آيَاتِهِ وَلَكَ مِنْ إِنْجَازِ وَعْدِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَغَيْرِهَا مَا تَشَاءُ . وَتَلَا قَوْلَهُ - تَعَالَى - : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ [24 : 55] الْآيَةَ . قَالَ : وَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْإِشْرَاكُ سَبَبًا لِلرُّعْبِ كَسَائِرِ الْأَسْبَابِ الْعَادِيَّةِ الَّتِي رَبَطَ اللَّهُ بِهَا الْمُسَبَّبَاتِ

كَالشُّرْبِ لِلرِّيِّ وَالْأَكْلِ لِلشِّبَعِ ، فَمَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ الْحَقُّ تَزَلْزَلَ الْبَاطِلُ فِي نَفْسِهِ لَا مَحَالَةَ .

(96/132)

أَقُولُ : وَمِنْ تَمَامِ التَّشْبِيهِ أَنْ تَكُونَ بَعْضُ الْوَقَائِعِ الَّتِي لَا يَقَعُ فِيهَا الرُّعْبُ فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ ، كَالْوَقَائِعِ الَّتِي يُشْرَبُ فِيهَا الْمَرْءُ وَلَا يَرْوَى لِعَارِضٍ مَرَضِيٍّ ، فَسُنَنُ الِاجْتِمَاعِ كَسُنَنِ الْأَجْسَامِ الطَّبِيعِيَّةِ لَهَا عَوَارِضُ وَشُرُوطٌ وَمَوَانِعُ .

وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ أَيْ هِيَ مَكَانُهُمُ الَّذِي يَأْوُونَ إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ بَعْدَ مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْخِذْلَانِ فِي الدُّنْيَا وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ أَيْ وَالنَّارُ الَّتِي يَأْوُونَ إِلَيْهَا بِئْسَ الْمَثْوَى وَالْمَقَامُ لَهُمْ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ وَالْجُحُودِ وَمُعَانَدَةِ الْحَقِّ وَمُقَاوَمَةِ أَهْلِهِ ، وَظُلْمِ النَّاسِ بِسُوءِ الْمُعَامَلَةِ .

(97/132)

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ
مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ
لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ
وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ
وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ
قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ
إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا
هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي
صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا
مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ
غَفُورٌ حَلِيمٌ

(98/132)

رَوَى الْوَاحِدِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
إِلَى الْمَدِينَةِ - وَقَدْ أُصِيبُوا بِمَا أُصِيبُوا يَوْمَ أُحُدٍ - قَالَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: مِنْ أَيْنَ أَصَابَنَا

هَذَا وَقَدْ وَعَدَنَا اللَّهُ النَّصْرَ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ : وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ الْآيَةَ . وَنَقُولُ : نَعَمْ إِنَّ النَّاسَ قَالُوا ذَلِكَ كَمَا يُعْلَمُ مِنْ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا [3 : 165] وَسَيَأْتِي . وَلَكِنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَيْسَ سَبَبًا لِنُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ وَحْدَهَا ، وَإِنَّمَا نَزَلَتْ مَعَ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ بَعْدَ تِلْكَ الْوَاقِعَةِ وَمَا قِيلَ فِيهَا .

الْوَعْدُ الْمُشَارُ إِلَيْهِ فِي الْآيَةِ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ مَا تَكَرَّرَ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ مِنْ نَصْرِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ وَنَصْرِ مَنْ يَنْصُرُهُ وَذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ الْمُرَادَ بِهِ وَعْدُ النَّبِيِّ لَهُمْ عِنْدَ تَعْبِئَتِهِمْ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَرُوِيَ فِيهِ عَنِ السُّدِّيِّ أَنَّهُ قَالَ : " لَمَّا بَرَزَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى الْمُشْرِكِينَ بِأُحُدٍ أَمَرَ الرُّمَاةَ فَقَامُوا بِأَصْلِ الْجَبَلِ فِي وُجُوهِ خَيْلِ الْمُشْرِكِينَ ، وَقَالَ : لَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ إِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ هَزَمْنَاهُمْ فَإِنَّا لَنْ نَزَالَ غَالِبِينَ مَا ثَبَتُّمْ مَكَانَكُمْ ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُبَيْرٍ أَخَا خَوَّاتِ بْنِ جُبَيْرٍ ، ثُمَّ إِنَّ طَلْحَةَ بْنَ عُثْمَانَ صَاحِبَ لِوَاءِ الْمُشْرِكِينَ قَامَ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ إِنَّكُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ

اللهُ يُعَجِّلُنَا بِسُيُوفِكُمْ إِلَى النَّارِ وَيُعَجِّلُكُمْ بِسُيُوفِنَا إِلَى الْجَنَّةِ، فَهَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ يُعَجِّلُهُ اللهُ بِسَيْفِي إِلَى الْجَنَّةِ أَوْ يُعَجِّلُنِي بِسَيْفِهِ إِلَى النَّارِ؟ فَقَامَ إِلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أُفَارِقُكَ حَتَّى يُعَجِّلَكَ اللهُ بِسَيْفِي إِلَى النَّارِ أَوْ يُعَجِّلَنِي بِسَيْفِكَ إِلَى الْجَنَّةِ، فَضَرَبَهُ عَلِيٌّ فَقَطَعَ رِجْلَهُ فَسَقَطَ فَانْكَشَفَتْ عَوْرَتُهُ فَقَالَ: أُنْشِدُكَ اللهَ وَالرَّحِمَ

يَا ابْنَ عَمٍّ. فَتَرَكَهُ. فَكَبَّرَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَالَ لِعَلِيٍّ أَصْحَابُهُ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تُجْهِزَ عَلَيْهِ؟ قَالَ: إِنَّ ابْنَ عَمِّي نَاشَدَنِي حِينَ انْكَشَفَتْ عَوْرَتُهُ فَاسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ، ثُمَّ شَدَّ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ وَالْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَهَزَمَاهُمْ، وَحَمَلَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَصْحَابُهُ فَهَزَمُوا أَبَا سُفْيَانَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ - وَهُوَ عَلَى خَيْلِ الْمُشْرِكِينَ - حَمَلَ فَرَمَتْهُ الرُّمَاةُ فَانْقَمَعَ، فَلَمَّا نَظَرَ الرُّمَاةُ إِلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَصْحَابِهِ فِي جَوْفِ عَسْكَرِ الْمُشْرِكِينَ يَنْتَهِبُونَهُ بَادَرُوا الْغَنِيمَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نَتْرُكُ أَمْرَ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَانْطَلَقَ عَامَّتُهُمْ فَلَحِقُوا بِالْعَسْكَرِ، فَلَمَّا رَأَى خَالِدٌ قِلَّةَ الرُّمَاةِ صَاحَ فِي خَيْلِهِ ثُمَّ حَمَلَ عَلَى

أَصْحَابِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَلَمَّا رَأَى الْمُشْرِكُونَ أَنَّ خَيْلَهُمْ تُقَاتِلُ تَنَادَوْا فَشَدُّوا

عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَهَزَمُوهُمْ وَقَتَلُوهُمْ " اهـ . أَيْ قَتَلُوا مِنْهُمْ سَبْعِينَ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنَ الرِّوَايَاتِ الْمُفَصَّلَةِ ، وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا هُنَا رِوَايَةَ السُّدِّيِّ بِطُولِهَا لِمَا فِيهَا مِنَ التَّصْرِيحِ بِأَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ لِلرُّمَاةِ : فَإِنَّا لَا نَزَالُ غَالِبِينَ مَا ثَبَتُّمْ مَكَانَكُمْ وَالتَّفْصِيلُ الَّذِي يُعِينُ عَلَى فَهْمِ الْآيَةِ وَغَيْرِهَا ، وَمِنْهَا أَنَّ الرُّمَاةَ لَمْ يَعْصُوا كُلُّهُمْ وَإِنَّمَا أُولَئِكَ بَعْضُ عَامَّتِهِمْ ، وَأَمَّا الْخَاصَّةُ الرَّاسِخُونَ فِي الْإِيمَانِ الْعَارِفُونَ بِالْوَاجِبِ فَقَدْ ثَبَتُوا ، وَالْمُخْتَارُ عِنْدَنَا أَنَّ الْمُرَادَ بِوَعْدِ اللَّهِ هُنَا مَا تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ ، وَإِنَّمَا قَالَ النَّبِيُّ مَا قَالَ لِلرُّمَاةِ عَمَلًا بِالْقُرْآنِ وَتَأْوِيلًا لَهُ ; فَإِنَّهُ - تَعَالَى - قَرَنَ الْوَعْدَ فِيهِ بِشُرُوطٍ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِالطَّاعَةِ وَالثَّبَاتِ .

فَمُلَخَّصُ تَفْسِيرِ الْآيَةِ هَكَذَا وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِيَّاكُمْ بِالنَّصْرِ حَتَّى فِي هَذِهِ الْوَقْعَةِ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ أَيِ الْمُشْرِكِينَ أَيْ تَقْتُلُوهُمْ قَتْلًا ذَرِيعًا بِإِذْنِهِ - تَعَالَى - أَيْ بِعِنَايَتِهِ وَتَأْيِيدِهِ لَكُمْ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ ضَعُفْتُمْ فِي الرَّأْيِ وَالْعَمَلِ، فَلَمْ تَقْوَوْا عَلَى حَبْسِ أَنْفُسِكُمْ عَنِ الْغَنِيمَةِ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ فَقَالَ بَعْضُكُمْ مَا بَقَاؤُنَا هُنَا وَقَدِ انْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ ؟ ، وَقَالَ الْآخَرُونَ : لَا نُخَالِفُ أَمْرَ الرَّسُولِ وَعَصَيْتُمْ رَسُولَكُمْ وَقَائِدَكُمْ بِتَرْكِ أَكْثَرِ الرُّمَاةِ لِلْمَكَانِ الَّذِي أَقَامَهُمْ فِيهِ يَحْمُونَ ظُهُورَكُمْ بِنَضْحِ الْمُشْرِكِينَ بِالنَّبْلِ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ فَصَبَرْتُمْ عَلَى الضَّرَّاءِ وَلَمْ تَصْبِرُوا فِي السَّرَّاءِ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا كَالَّذِينَ تَرَكُوا مَكَانَهُمْ وَذَهَبُوا وَرَاءَ الْغَنِيمَةِ لِيُصِيبُوا مِنْهَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ كَالَّذِينَ ثَبَتُوا مِنَ الرُّمَاةِ مَعَ أَمِيرِهِمْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُبَيْرٍ ، وَهُمْ نَحْوُ عَشَرَةٍ وَكَانَ الرُّمَاةُ خَمْسِينَ رَجُلًا ، وَالَّذِينَ ثَبَتُوا مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُمْ

ثَلَاثُونَ رَجُلًا ، أَيْ صَدَقَكُمْ وَعْدَهُ وَنَصَرَكُمْ عَلَى قِلَّتِكُمْ وَكَثْرَةِ الْمُشْرِكِينَ ، وَاسْتَمَرَّ هَذَا النَّصْرُ إِلَى أَنْ فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ وَعَصَيْتُمْ ، فَعِنْدَمَا وَصَلْتُمْ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ لَمْ تَعُودُوا مُسْتَحِقِّينَ لِهَذِهِ الْعِنَايَةِ لِمُخَالَفَتِكُمْ لِسُنَّتِهِ فِي اسْتِحْقَاقِ النَّصْرِ الَّذِي وَعَدَ بِهِ أَهْلَ الثَّبَاتِ

وَالصَّبْرِ ; فَعَلَى هَذَا تَكُونُ حَتَّى لِلْغَايَةِ وَإِذَا فِي قَوْلِهِ : حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ لَيْسَتْ لِلشَّرْطِ وَإِنَّمَا هِيَ بِمَعْنَى الْحِينِ وَالْوَقْتِ . هَذَا هُوَ الْمُخْتَارُ . وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّهَا لِلشَّرْطِ وَجَوَابُهَا مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ عِنْدَ الْبَصْرِيِّينَ " مَنَعَكُمْ نَصْرَهُ " أَوْ نَحْوُهُ ، وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنَّ الْحِكْمَةَ فِي حَذْفِ الْجَوَابِ هُنَا عَلَى الْقَوْلِ بِهِ هِيَ أَنْ تَذْهَبَ النَّفْسُ فِي تَقْدِيرِهِ كُلَّ مَذْهَبٍ ، وَمِثْلُ هَذَا الْحَذْفِ لَا يَأْتِي فِي الْكَلَامِ الْبَلِيغِ إِلَّا حَيْثُ يُنْتَظَرُ الْجَوَابُ بِكُلِّ شَغَفٍ وَلَهَفٍ ، وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَ تَقْدِيرَهُ : امْتَحَنَكُمْ بِالْإِدَالَةِ مِنْكُمْ لِيُمَحِّصَكُمْ وَيُمَيِّزُ الْمُخْلِصِينَ وَالصَّادِقِينَ مِنْكُمْ . أَقُولُ : وَهَذَا هُوَ صَرِيحُ قَوْلِهِ : ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَأَبُو مُسْلِمٍ قَدْ قَالَ : إِنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ هِيَ جَوَابُ " إِذَا " وَلَكِنَّ اقْتِرَانَ جَوَابِ الشَّرْطِ بِثُمَّ غَيْرُ مَعْرُوفٍ لَنَا فِي كَلَامِ الْعَرَبِ .

(104/132)

وَحَاصِلُ الْمَعْنَى أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ صَدَقَكُمْ وَعْدَهُ فَكُنْتُمْ تَقْتُلُونَهُمْ بِإِذْنِهِ وَمَعُونَتِهِ قَتْلَ حَسٍّ وَاسْتِئْصَالٍ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ بِفَشَلِكُمْ وَتَنَازُعِكُمْ وَعِصْيَانِكُمْ ، وَحَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ تَمَامِ النَّصْرِ لِيَمْتَحِنَكُمْ بِذَلِكَ ، أَيْ لِيُعَامِلَكُمْ مُعَامَلَةَ مَنْ يَمْتَحِنُ وَيَخْتَبِرُ ، أَوْ لِأَجْلِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ ابْتِلَاءً وَاخْتِبَارًا لَكُمْ يُمَحِّصُكُمْ بِهِ وَيُمَيِّزُ بَيْنَ الصَّادِقِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَيُزِيلُ بَيْنَ الْأَقْوِيَاءِ وَالضُّعَفَاءِ ،

كَمَا عُلِمَ مِنَ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ ، وَقَدْ أَسْنَدَ اللهُ - تَعَالَى - صَرْفَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى نَفْسِهِ هُنَا بِاعْتِبَارِ غَايَتِهِ الْحَمِيدَةِ فِي تَرْبِيَتِهِمْ وَتَمْحِيصِهِمُ الَّذِي يُعِدُّهُمْ لِلنَّصْرِ الْكَامِلِ وَالظَّفَرِ الشَّامِلِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَأَضَافَ مَا أَصَابَهُمْ إِلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ الَّذِي سَيَأْتِي فِي السِّيَاقِ : قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ [3 : 165] ، بِاعْتِبَارِ سَبَبِهِ وَهُوَ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْفَشَلِ وَالتَّنَازُعِ وَالْعِصْيَانِ ، وَقَدْ عَدَّ بَعْضُهُمْ إِسْنَادَ الصَّرْفِ إِلَيْهِ هُنَا مُشْكِلًا لَا سِيَّمَا عَلَى مَذْهَبِ الْمُعْتَزِلَةِ الَّذِينَ تَكَلَّفَ عُلَمَاؤُهُمْ فِي تَخْرِيجِهِ تَكَلُّفًا لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ ، إِذْ لَا إِشْكَالَ فِيهِ وَلَكِنَّ الْمَذَاهِبَ وَالِاصْطِلَاحَاتِ هِيَ الَّتِي تُوَلِّدُ لِأَصْحَابِهَا الْمُشْكِلَاتِ .

قَالَ - تَعَالَى - : وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ بِذَلِكَ التَّمْحِيصِ الَّذِي مَحَا أَثَرَ الذَّنْبِ مِنْ نُفُوسِكُمْ

(105/132)

فَصِرْتُمْ كَأَنَّكُمْ لَمْ تَفْشَلُوا وَلَمْ تَتَنَازَعُوا وَلَمْ تَعْصُوا وَقَدْ ظَهَرَ أَثَرُ هَذَا الْعَفْوِ فِي حَمْرَاءِ الْأَسَدِ كَمَا عُلِمَ مِمَّا مَرَّ وَمَا يَأْتِي وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَلَا يَذَرُهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ ضَعْفٍ يُلِمُّ بِبَعْضِهِمْ ، أَوْ تَقْصِيرٍ يَهْبِطُ بِنُفُوسِ غَيْرِ الرَّاسِخِينَ مِنْهُمْ ، حَتَّى يَبْتَلِيَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ، وَيُمَحِّصَ مَا فِي صُدُورِهِمْ ، فَيَكُونُوا مِنَ الْمُخْلِصِينَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار جـ 4 صـ 144.151 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾

ونعرف أن في ﴿ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ نفعولين : الأول هو ضمير المخاطبين في قوله : ﴿ صَدَقَكُمُ ﴾ ، والثاني هو قوله " وَعْدَ " المضاف إلى الضمير العائد على لفظ الجلالة " الله " فهو - سبحانه - قد أحدث وعداً ، والواقع جاء على وفق ما وعد . لقد قال الحق :

﴿ إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

[محمد : 7]

وقال سبحانه :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾

[الصافات : 173]

والآيتان تؤكدان قضية وعدية ، بعد ذلك جاء التطبيق العملي . . فهل وقع الوعد أو لم يقع ؟ لقد وقع ، ومتى ؟ فهل يشير الحق في هذه الآية إلى موقعة بدر ؟

﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ . و ﴿ تَحُسُّونَهُمْ ﴾ أي تذهبون الحس منهم ، والحس : هو الحواس الخمس ، ومعنى أذهبت حسه يعني أفقدته تلك الحواس . ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ ﴾ وقد حدث ، وتمكنتم منهم ؛ تقتلونهم وتأسرونهم ، أو الحس : هو الصوت الذي يخرج من الإنسان ، وما دام فقد الحس يعني انتهى ، ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ فحينما صدقتم لقاءكم لعدوكم على منهج الله صدق الله وعده ؛ هذا في بدر .

(107/132)

أما هنا في أُحد فقد جاء فيكم قوله : ﴿ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ ﴾ أي جبنتم . ﴿ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ ﴾ أمر الرسول ﴿ مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ ﴾ وهي الغنائم ، ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ . كأنه سبحانه يعطينا العبرة من معركتين : معركة فيها صدق وعد الله ، وفعلا انتصرتم ، وأيضا صدق وعد الله حينما تخليتم عن أمر الرسول فحدث لكم ما حدث . إذن فالمسألة مبسوطة أمامكم بالتجربة الواقعية ، ليس بالكلام النظري وليس بالآيات فقط ، بل بالواقع .

أو أن الأمر كله دائر في أُحد ، نقول فرضا : هو يدور في أُحد ودع بدرا هذه ، حينما دخلتم أيها المسلمون أول الأمر انتصرتم أم لم تنتصروا ؟ لقد انتصرتم ، وطلحة بن أبي طلحة

الذي كان يحمل الراية للكفر قتل هو وبضعة وعشرون، الراية الكافرة قد سقطت في أول المعركة، وحامل الراية يقتل وهذا ما وضحه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ فجماعة تقول: لنبق في أرض المعركة، وجماعة تقول: ننسحب. ورأيتم الغنائم فحدث منكم كذا وكذا. فتأتي النكسة، ولو لم يحدث ما حدث لكان من حقكم أن تتشككوا في هذا الدين، إذن فما حدث دليل على صدق هذا الدين، وأنكم إن تخليتم عن منهج من مناهج الله فلا بد أن يكون مآلكم الفشل والخيبة والهزيمة.

(108/132)

﴿ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ ﴾، فجماعة قالوا: نظل كما أمرنا الرسول، وجماعة قالوا: نذهب إلى الغنائم ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾.. وما دمتم قد تنازعتم وقالت جماعة: لنتمسك بمواقعنا، وقالت جماعة أخرى: لنذهب إلى الغنائم، إذن فالذي أراد مواصلة القتال إنما يريد الآخرة ولم تلهه الغنائم، والقسم الذي أراد الدنيا قال: لنذهب إلى الغنائم.

وفي هذه المسألة قال ابن مسعود رضي الله عنه: والله ما كنت أعلم أن أحداً من صحابة

رسول الله يريد الدنيا حتى نزل فينا ما نزل يوم أُحد .

أي أنه لم يكن يتصور أن من بين الصحابة من يريد الدنيا ، بل كان يظن أنهم جميعا يريدون الآخرة ، فلما نزل قول الله : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ عرف ابن مسعود أن من الصحابة من تتقلب به الأغيار . وذلك لا يقدح فيهم ؛ لأنهم رأوا النصر ، فظنوا أن المسألة انتهت ؛ لقد سقطت راية الكفر ، وقتل المؤمنون عددا من صناديد قريش . ولقد عفا الله عن المؤمنين وغفر لهم ما بدر منهم من مخالفة لأمر رسوله – صلى الله عليه وسلم – .

﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ نعم لأنكم كنتم مشغولين بقتالهم قبل أن تنظروا إلى الغنائم ، فلما نظرتم إلى الغنائم اتجه نظركم إلى مطلوب دنياكم ، فانصرفتم عنهم ، ولم تجهزوا عليهم ولم تتم لكم هزيمتهم وقهرهم ، ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ وابتلاؤكم في هذه الغزوة إنما هو رياضة وتدريب على المنهج ، كأنهم غزوة مقصودة للابتلاء ، فترون منها كل ما حدث . وبعد ذلك نجحت التجربة ، فبعد هذه المعركة لم ينهزم المسلمون في معركة قط .

ولذلك يقولون: الدرس الذي يعلم النصر في الكثير لا يعتبر هزيمة في القليل. والمثال على ذلك: لنفرض أن ولداً من الأولاد رسب سنة، ثم حمل ذلة الرسوب، نجده ينال بسبب ذلك مرتبة متميزة بعد ذلك بين العشرة الأوائل، إذن فالرسوب الأول له كان خيرا.

﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ﴾ لأنه كان لكم وجهة نظر أيضا عندما تصورتم أن المعركة انتهت بسقوط راية الكفر ومقتل طلحة بن أبي طلحة ومقتل بعض من الصناديد في معسكر الكفر، فظننتم أن المسألة انتهت، لكن كان يجب أن تذكروا أن الرسول قال لكم: اثبتوا في مراكزكم وأماكنكم حتى لو رأيتمونا نتبع القوم إلى مكة، ولو رأيتموهم يدخلون المدينة. أيوجد تحذير أكثر من ذلك!؟ ﴿ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وسبحانه جل وعلا لم يخرجهم من الحظيرة الإيمانية بهذا القول الحكيم. ويقول الحق من بعد ذلك: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ... ﴾. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 1718. 1720 ﴾

(110/132)

" فصل "

قال السيوطى:

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (152)

أخرج البيهقي في الدلائل عن عروة قال : كان الله وعدهم على الصبر والتقوى أن يمدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين وكان قد فعل ، فلما عصوا أمر الرسول وتركوا مصافهم ، وتركت الرماة عهد الرسول إليهم أن لا يبرحوا منازلهم وأرادوا الدنيا ، رفع عنهم مدد الملائكة ، وأنزل الله ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ﴾ فصدق الله وعده وأراهم الفتح ، فلما عصوا أعقبهم البلاء .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ولقد صدقكم الله وعده . . . ﴾ الآية . قال " إن أبا سفيان أقبل في ثلاث ليال خلون من شوال حتى نزل أحداً ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن في الناس ، فاجتمعوا وأمر على الخيل الزبير بن العوّام ، ومعه يومئذ المقداد بن الأسود الكندي ، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللواء رجلاً من قريش يقال له مصعب بن عمير ، وخرج حمزة بن عبد المطلب بالجيش ، وبعث حمزة يين يديه ، وأقبل خالد بن الوليد على خيل المشركين ومعه عكرمة بن أبي جهل ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير وقال : استقبل خالد بن الوليد فكن بإزائه حتى أوذنك ، وأمر بخيل أخرى فكانوا من جانب آخر فقال : لا تبرحوا حتى أوذنكم ،

وأقبل أبو سفيان يحمل اللات والعزى ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الزبير أن يحمل ، فحمل خالد بن الوليد فهزمه ومن معه فقال ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ﴾ .

(111/132)

وأن الله وعد المؤمنين أن ينصرهم وأنه معهم ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بعضاً من الناس فكانوا من ورائهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كونوا ههنا ، فَرُدّوا وجهه من نَدَّ مِنّا ، وكونوا حرساً لنا قبل ظهورنا . وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هزم القوم هو وأصحابه الذين كانوا ، جعلوا من ورائهم فقال بعضهم لبعض لما رأوا النساء مصعدات في الجبل ، ورأوا الغنائم : انطلقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأدركوا الغنيمة قبل أن تستبقوا إليها وقالت طائفة أخرى : بل نطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنثبت مكاننا ، فذلك قوله ﴿ منكم من يريد الدنيا ﴾ للذين أرادوا الغنيمة ﴿ ومنكم من يريد الآخرة ﴾ للذين قالوا : نطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونثبت مكاننا . فأتوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، فكان فشلاً حين تنازعوا بينهم يقول ﴿ وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ﴾ كانوا قد رأوا الفتح والغنيمة " .

وأخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس أنه قال " ما نصر الله نبيه في موطن كما نصر يوم أحد فانكروا " .

فقال ابن عباس : بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله ، إن الله يقول في يوم أحد ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ﴾ يقول ابن عباس : " والحس " . القتل .

﴿ حتى إذا فشلتم ﴾ إلى قوله ﴿ ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ وإنما عنى هذا الرماة ، وذلك " أن النبي صلى الله عليه وسلم أقامهم في موضع ثم قال : احموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا . فلما غنم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبا عسكر المشركين انكفأت الرماة جميعاً فدخلوا في العسكر ينتهبون ، والتفت صفوف المسلمين فهم هكذا وشبك بين يديه والتبسوا ، فلما أخل الرماة تلك الخلة التي كانوا فيها دخل الخيل من ذلك الموضع على الصحابة ، فضرب بعضهم بعضاً والتبسوا ، وقتل من المسلمين ناس كثير وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أول النهار حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة ، وجال المسلمون جولة نحو الجبل ولم يبلغوا حيث يقول الناس : الغاب . إنما كانوا تحت المهراس ،

وصاح الشيطان قتل محمد فلم يشك فيه أنه حق .

فما زلنا كذلك ما نشك أنه قتل حتى طلع بين السعدين نعرفه بتكفؤه إذا مشى ، ففرحنا حتى كأنه لم يصبنا ما أصبنا فَرَقِيَ نحونا وهو يقول : اشتد غضب الله على قوم دموا وجه نبيهم ، ويقول مرة أخرى . اللهم إنه ليس لهم أن يعلونا حتى انتهى إلينا ، فمكث ساعة فإذا أبو سفيان يصيح في أسفل الجبل : أعل هبل أعل هبل . أين ابن أبي كبشة ؟ أين ابن أبي قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟ فقال عمر : ألا أجيبة يا رسول الله ؟ قال : بلى . فلما قال : أعل هبل . قال عمر : الله أعلى وأجل . فعاد فقال : أين ابن أبي كبشة ؟ أين ابن أبي قحافة ؟ فقال عمر : هذا رسول الله ، وهذا أبو بكر ، وها أنا عمر . فقال : يوم بيوم بدر ، الأيام دول والحرب سجال فقال عمر : لا سواء . . . قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار قال : إنكم لتزعمون ذلك ، لقد خبنا إذن وخسرنا . ثم أدركته حمية الجاهلية فقال : أما انه كان ذلك ولم نكرهه " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن المنذر عن ابن مسعود قال " إن النساء كن يوم أحد خلف المسلمين يجهزن على جرحى المشركين ، فلو حلفت يومئذ رجوت أن أبرّ أنه ليس

أحد منا يريد الدنيا حتى أنزل الله ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ فلما خالف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وعصوا ما أمروا به ، أفرد رسول الله صلى الله عليه وسلم في تسعة . سبعة من الأنصار ، ورجلين من قريش . وهو عاشر ، فلما رهقوه قال : رحم الله رجلاً ردهم عنا . فقام رجل من الأنصار فقاتل ساعة حتى قتل ، فلما رهقوه أيضاً قال : رحم الله رجلاً ردهم عنا ، فلم يزل يقول ذا حتى قتل السبعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لصاحبيه : ما أنصفنا أصحابنا .

فجاء أبو سفيان فقال : أعل هبل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قولوا الله أعلى وأجل . فقالوا : الله أعلى وأجل . فقال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قولوا اللهم مولانا والكافرون لا مولى لهم . ثم قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، يوم لنا ويوم علينا ، ويوم نساء ويوم نسر ، حنظلة بحنظلة وفلان بفلان . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا سواء . أما قتلانا فأحياء يرزقون وقتلاكم في النار يعذبون . قال أبو سفيان : قد كان في القوم مثلة وإن كانت على غير توجيه منا ، ما أمرت ولا نهيت ، ولا أحببت ولا كرهت ، ولا ساءني ولا سرني . قال : فنظروا فإذا حمزة قد بقر بطنه ، وأخذت هند كبده فلاكتها فلم تستطع أن تأكلها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكلت شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : ما كان الله ليدخل شيئاً من حمزة النار .

فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزة فصلى عليه ، وجيء برجل من الأنصار

فوضع إلى جنبه فصلى عليه فرفع الأنصاري وترك حمزة ، ثم جيء بآخر فوضعه إلى جنب حمزة فصلى عليه ، ثم رفع وترك حمزة حتى صلى عليه يومئذ سبعون صلاة " .

(114/132)

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن البراء بن عازب قال " جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرماة يوم أحد وكانوا خمسين رجلاً عبد الله بن جبير ووضعهم موضعاً وقال : ان رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تَبْرَحُوا حتى أرسل إليكم ، فهزموهم قال : فأنا والله رأيت النساء يشتددن على الجبل وقد بدت أسوقهن وخلاخلهن رافعات ثيابهن . فقال أصحاب عبد الله : الغنيمة أي قوم الغنيمة . . . ظهر أصحابكم فما تنتظرون ؟ قال عبد الله بن جبير : أفنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : إنا والله لَنَأْتِيَنَّ الناس فَلْنصِيبَنَّ من الغنيمة . فلما أتوهم صرفت وجوههم فاقبلوا منهزمين ، فذلك الذي يدعوهم الرسول في أخراهم ، فلم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غير اثني عشر رجلاً . فأصابوا منا سبعين ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أصاب من المشركين يوم بدر أربعين ومائة . سبعين أسيراً ، وسبعين قتيلاً .

قال أبو سفيان : أفي القوم محمد ثلاثاً ؟ فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيبوه ثم قال : أفي ابن أبي قحافة مرتين ؟ أفي القوم ابن الخطاب مرتين ؟ ثم أقبل على أصحابه فقال : أما هؤلاء فقد قتلوا وقد كفيتموهم . فما ملك عمر نفسه أن قال : كذبت والله يا عدو الله ، إن الذين عددت أحياء كلهم ، وقد بقي لك ما يسوءك . قال : يوم بيوم بدر والحرب سجال ، إنكم ستجدون في القوم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني . ثم أخذ يرتجز : أعل هبل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا تجيبونه ؟ قالوا : يا رسول الله ما نقول ؟ قال قولوا : الله أعلى وأجل . قال : إن لنا العزى ولا عزى لكم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا تجيبونه ؟ قالوا : يا رسول الله وما نقول ؟ قال : قولوا الله مولانا ولا مولى لكم " .

وأخرج البيهقي في الدلائل عن جابر قال " انهزم الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وبقي معه أحد عشر رجلاً من الأنصار ، وطلحة بن عبيد الله ، وهو يصعد في الجبل ، فلحقهم المشركون فقال : الا أحد لهؤلاء ؟ فقال طلحة : أنا يا رسول الله فقال : كما أنت يا طلحة فقال رجل من الأنصار : فأنا يا رسول الله فقاتل عنه وصعد رسول الله

صلى الله عليه وسلم ومن بقي معه ، ثم قتل الأنصاري فلحقوه فقال : ألا رجل لهؤلاء ؟ فقال طلحة مثل قوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل قوله ، فقال رجل من الأنصار : فأنا يا رسول الله وأصحابه يصعدون ، ثم قتل . فلحقوه فلم يزل يقول مثل قوله الأول ، ويقول طلحة أنا يا رسول الله فيحبسه ، فيستأذنه رجل من الأنصار للقتال فيأذن له ، فيقاتل مثل من كان قبله حتى لم يبق معه إلا طلحة ، فغشوهما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من لهؤلاء ؟ فقال طلحة : أنا . فقاتل مثل قتال جميع من كان قبله وأصيبت أنامله فقال : حس . فقال . لو قلت بسم الله ، أو ذكرت اسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون إليك في جوّ السماء ، ثم صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وهم مجتمعون " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عبد الرحمن بن عوف في قوله ﴿ إذ تحسُّونهم بإذنه ﴾ قال : " الحس " القتل .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس . مثله .

وأخرج ابن جرير من طريق علي عن ابن عباس ﴿ إذ تحسونهم ﴾ قال : تقتلونهم .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ إذ تحسُّونهم ﴾ قال : تقتلونهم قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول الشاعر :

ومنا الذي لاقى بسيف محمد . . . فحس به الأعداء عرض العساكر

وأخرج الطبراني عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قول الله ﴿ إذ تحسونهم بإذنه ﴾ قال : تقتلونهم قال : وهل كانت العرب تعرف ذلك قبل أن ينزل الكتاب على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم .

أما سمعت قول عتبة الليثي :

نحسهم بالبيض حتى كأننا . . . نفلق منهم بالجماجم حنظلا

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ حتى إذا فشلتم ﴾ قال : الفشل الجبن .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع ﴿ حتى إذا فشلتم ﴾ يقول : جبنتم عن عدوكم ﴿ وتنازعتم في الأمر ﴾ يقول اختلفتم وعصيتم ﴿ من بعد ما أراكم ما تحبون ﴾ وذلك يوم أُحُد قال لهم : إنكم ستظهرون فلا أعرِفَنَّ ما أصبتم من غنائمهم شيئاً حتى تفرغوا . فتركوا أمر النبي صلى الله عليه وسلم وعصوا ، ووقعوا في الغنائم ، ونسوا عهدَه الذي عهده إليهم ، وخافوا إلى غير ما أمرهم به فنصر عليهم عدوّهم من بعد ما أراهم فيهم ما يحبون .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سعيد بن عبد الرحمن بن ابزى في قوله ﴿ حتى إذا

فشلتم ﴾ قال : كان وضع خمسين رجلاً من أصحابه عليهم عبيد الله بن خوات ، فجعلهم بإزاء خالد بن الوليد على خيل المشركين ، فلما هزم رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس قال نصف أولئك : نذهب حتى نلحق بالناس ولا تفوتنا الغنائم ، وقال بعضهم : قد عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نريم حتى يحدث إلينا . فلما رأى خالد بن الوليد رقتهم حمل عليهم ، فقاتلوا خالداً حتى ماتوا ربضة ، فأنزل الله فيهم ﴿ ولقد صدقكم الله وعده ﴾ إلى قوله ﴿ وعصيتم ﴾ فجعل أولئك الذين انصرفوا عصاة .

وأخرج ابن المنذر عن البراء بن عازب ﴿ من بعد ما أراكم ما تحبون ﴾ الغنائم ، وهزيمة القوم .

(117/132)

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ من بعد ما أراكم ما تحبون ﴾ قال : نصر الله المؤمنين على المشركين حتى ركب نساء المشركين على كل صعب وذلول ، ثم أديل عليهم المشركون بعصيتهم للنبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : إن نبي الله صلى الله عليه وسلم أمر يوم أحد طائفة من المسلمين فقال : كونوا مسلحة للناس بمنزلة أمرهم أن يثبتوا بها ، وأمرهم أن لا يبرحوا

مكانهم حتى يأذن لهم. فلما لقي نبي الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد أبا سفيان ومن معه من المشركين، هزمهم نبي الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأى المسلحة أن الله هزم المشركين انطلق بعضهم يتنادون الغنية الغنيمة . . . لا تفتكم، وثبت بعضهم مكانهم وقالوا لا نريم موضعنا حتى يأذن لنا نبي الله صلى الله عليه وسلم. ففي ذلك نزل ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ فكان ابن مسعود يقول: ما شعرت أن أحداً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كان يريد الدنيا وعرضها حتى كان يوم أحد .

وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس قال: لما هزم الله المشركين يوم أحد قال الرماة: أدركوا الناس ونبي الله صلى الله عليه وسلم لا يسبقونا إلى الغنائم فتكون لهم دونكم.

وقال بعضهم: لا نريم حتى يأذن لنا النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ قال ابن جريج: قال ابن مسعود: ما علمنا أن أحداً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كان يريد الدنيا وعرضها حتى كان يومئذ .

وأخرج أحمد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والبيهقي بسند صحيح عن ابن مسعود قال: ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا حتى نزلت فينا يوم أحد ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن الحسن في قوله ﴿ ثم صرفكم عنهم ﴾ قال : صرف القوم عنهم ، فقتل من المسلمين بعدة من أسروا يوم بدر ، وقتل عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكسرت رباعيته ، وشج في وجهه فقالوا : أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدنا النصر ؟ فأنزل الله ﴿ ولقد صدقكم الله وعده ﴾ إلى قوله ﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن الحسن في قوله ﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ قال : يقول الله : قد عفوت عنكم إذ عصيتموني أن لا أكون استأصلتكم ، ثم يقول الحسن : هؤلاء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي سبيل الله ، غضاب لله يقاتلون أعداء الله ، نهوا عن شيء فضيعوه ، فوالله ما تركوا حتى غموا بهذا الغم ، قتل منهم سبعون ، وقتل عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكسرت رباعيته ، وشج وجهه ، فأفسق الفاسقين اليوم يتجرأ على كل كبيرة ، ويركب كل داهية ، ويسحب عليها ثيابه ، ويزعم أن لا بأس عليه فسوف يعلم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ قال : إذ لم يستأصلكم .

وأخرج البخاري عن عثمان بن موهب قال : " جاء رجل إلى ابن عمر فقال : إني سائلك عن شيء فحدثني أنشدك بحرمة هذا البيت . أتعلم أن عثمان بن عفان فر يوم أحد ؟ قال : نعم . قال : فتعلمه تغيب عن بدر فلم يشهدها ؟ قال : نعم . قال : فتعلم أنه تخلف عن بيعة الرضوان فلم يشهدها ؟ قال : نعم . فكبر فقال ابن عمر : تعال لأخبرك ، ولأبين لك عما سألتني عنه . أما فراره يوم أحد فاشهد أن الله عفا عنه . وأما تغيبه عن بدر فإنه تحته بنت النبي صلى الله عليه وسلم وكانت مريضة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن لك أجر رجل وسهمه " . وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه ، فبعث عثمان فكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم بيده اليمنى ، فضرب بها على يده فقال " هذه يد عثمان اذهب بها الآن معك " " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 343.350 ﴾

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

[سورة آل عمران (3) : آية 93]

كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلاَّ ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (93)

الإعراب:

(كلّ) مبتدأ مرفوع (الطعام) مضاف إليه مجرور (كان) فعل ماض ناقص واسمه ضمير مستتر تقديره هو (حلّا) خبر كان منصوب (لبني) جارّ ومجرور متعلّق بـ (حلّا) ، وعلامة الجرّ الياء (إسرائيل) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة لامتناعه من الصرف (إلا) أداة استثناء (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب على الاستثناء (حرّم) فعل ماض (إسرائيل) فاعل مرفوع (على نفس) جارّ ومجرور متعلّق بـ (حرّم) و(الهاء) ضمير مضاف إليه (من قبل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (حرّم) ،)

(أن) حرف مصدري ونصب (تنزّل) مضارع منصوب مبنيّ للمجهول (للتوراة) نائب فاعل مرفوع.

والمصدر المؤوّل (أن تنزّل التوراة) في محلّ جرّ مضاف إليه.

(قل) فعل أمر، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (الفاء) رابطة لجواب مقدّر (ائتوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون... والواو فاعل (بالتوراة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ائتوا) ،

(الفاء) عاطفة (اتلوا) مثل ائتوا و(ها) ضمير مفعول به (إن) حرف شرط جازم (كنتم) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . و(تم) ضمير اسم كان (صادقين) خبر كان منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : "كلّ الطعام كان حلّا . . "في محلّ نصب مقول القول لفعل مقدّر "1" .

وجملة : "كان حلّا . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ كلّ .

وجملة : " حرّم إسرائيل . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " قل . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ائتوا . . . "في محلّ جزم جواب شرط مقدّر مقترنة بالفاء "2" .

وجملة : " اتلوها " في محلّ جزم معطوفة على جملة ائتوا .

وجملة : " إن كنتم صادقين "لا محلّ لها تفسيريّة .

الصرف :

(حلّا) ، مصدر سماعي لفعل حلّ يحلّ باب ضرب وزنه

---

(1) أي قالت اليهود : كلّ الطعام . . .

(2) أي : إن كنتم صادقين بقولكم فأتوا بالتوراة فاتلوها . . . وجملة الشرط المقدّر في محلّ نصب مقول القول .)

فعل بكسر فسكون، وهو ممّا يوصف به فيلتقي مع الصفة المشبّهة بالوزن.

الفوائد

1 - كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرائِيلَ.

سبب نزول هذه الآية تعنت اليهود وجدالهم للنبي صلى اللّه عليه وسلّم. فمن الأسئلة التي وجهها اليهود للرسول قولهم "أخبرنا عن الطعام الذي حرمه يعقوب على نفسه فأخبرهم أنه نذر إذا شفاه اللّه من مرضه فلسوف يحرم على نفسه أشهى الطعام لديه، وكان لحم الإبل ولبنها هو المقصود، فحرّم ذلك على نفسه قبل نزول التوراة على موسى عليه السلام.

2 - "أن تنزّل" أن والفعل يؤولان بمصدر في محل جر بإضافته إلى الظرف "قبل" و"قبل" مضاف والمصدر المؤول في محل جر بالإضافة.

[سورة آل عمران (3) : آية 94]

فَمَنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (94)

الإعراب:

(الفاء) عاطفة (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (افترى) فعل ماض مبنيّ

على الفتح المقدّر على الألف في محلّ جزم فعل الشرط (على اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (افترى) ، (الكذب) مفعول به منصوب (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (افترى) " 1 " ، (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه و (اللام) للبعد و (الكاف) للخطاب (الفاء) رابطة لجواب الشرط (أولاء) اسم إشارة مبنيّ على

---

(1) وأجاز أبو البقاء تعليقه بالكذب أي الكذب الواقع بعد ذلك .

(122/132)

الكسر في محلّ رفع مبتدأ (هم) ضمير فصل " 1 " لا محلّ له (الظالمون) خبر المبتدأ أولئك مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " من افترى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قل في السابقة " 2 " .

وجملة : " افترى . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 3 " .

وجملة : " أولئك . . . الظالمون : في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

الصرف :

(افترى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله افتري بالياء ، جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا ، وزنه افتعل .

[سورة آل عمران (3) : آية 95]

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (95)

الإعراب :

(قل) فعل أمر والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت والخطاب موجّه إلى الرسول صلى الله عليه وسلّم (صدق) فعل ماض (الله) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (اتّبعوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون والواو فاعل (ملّة) مفعول به منصوب (إبراهيم) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (حنيفا) حال من إبراهيم منصوبة " 4 "،

---

(1) يجوز أن يكون ضميرا منفصلا مبتدأ خبره الظالمون، والجملة الاسمية خبر المبتدأ أولئك.

(2) أو هي استئنافية لا معطوفة.

(3) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا. [.....]

(4) أو حال من ملّة وهي بمعنى الدين.

(الواو) عاطفة (ما) نافية (كان) فعل ماض ناقص واسمه ضمير مستتر تقديره هو (من المشركين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر كان، وعلامة الجرّ الياء.

جملة: "قل..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "صدق اللّه" في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "اتّبعوا" في محلّ نصب معطوفة على جملة صدق اللّه "1".

وجملة: "ما كان من المشركين" في محلّ نصب معطوفة على الحال (حنيفا).

[سورة آل عمران (3): آية 96]

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ (96)

الإعراب:

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل (أول) اسم إنّ منصوب (وضع) فعل ماض مبنيّ للمجهول، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو (للناس) جارّ ومجرور متعلّق بـ (وضع "2") (اللام) المزحلقة تفيد التوكيد (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع خبر إنّ "3"، (ببكّة) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة الموصول، وعلامة الجرّ الفتحة ممنوع من الصرف (مباركا) حال من نائب الفاعل منصوبة "4"، (هدى) معطوفة بالواو على

---

(1) يجوز أن تكون جوابا لشرط مقدّر أي فان أردتم رضاء اللّه فاتّبعوا ملّة إبراهيم.

(2) وهو اختيار أبي حيّان، ويجوز أن يتعلّق بمحذوف حال من النائب الفاعل أي وضع

متعبّدا للناس.

(3) الذي سوّغ مجيء الخبر اسم موصول معرفة أنّ الاسم جاء نكرة مضافا موصوفا بالجملة . . .

(4) ونائب الفاعل هو لفعل مقدّر لا للفعل المذكور حتّى لا يفصل بين الحال وصاحبها أجنبيّ وهو خبر أنّ ويجوز أن يكون العمل في الحال هو العامل في (ببكة) أي استقرّ أو وجد في حال بركته.

(124/132)

الحال منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (للعالمين) جارّ ومجرور متعلّق بهدى لأنه مصدر.

جملة: "إنّ أول بيت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "وضع للناس" في محلّ نصب نعت لأول . . أو في محل جرّ نعت لبيت.

الصرف:

(بكّة) اسم جامد، والباء منقلبة عن ميم لغة فيها، وقيل سمّيت بكة لأنها تبكّ أعناق الجبابرة أي تدقّها، وفعل بكّ يبكّ من باب نصر.

(مباركا) ، اسم مفعول من بارك الرباعيّ ، وزنه مفاعل بضم الميم وفتح العين .

[سورة آل عمران (3) : آية 97]

فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (97)

الإعراب :

(في) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (آيات) مبتدأ مؤخّر (بينات) نعت لآيات مرفوع مثله (مقام) بدل اشتمال من آيات مرفوع مثله " 1 " ، والرابط مقدّر أي منها (إبراهيم) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة ممنوع من الصرف (الواو) استئنافيّة (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (دخل)

---

(1) يجوز أن يكون مبتدأ مؤخّرا خبره محذوف أي منها مقام . . . والجملة إما حال من آيات أو نعت لها . كما يجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هي .

فعل ماض في محلّ جزم فعل الشرط و(الهاء) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (كان) فعل ماض ناقص في محلّ جزم جواب الشرط ، واسمه ضمير مستتر تقديره

هو (آمنا) خبر كان منصوب.

جملة: " فيه آيات . . . " في محلّ نصب حال من الموصول في الآية السابقة " 1 " .

وجملة: " من دخله كان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " دخله " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 2 " .

وجملة: " كان آمنا " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء.

(الواو) استئنافيّة (للّه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (على الناس) جارّ ومجرور متعلّق بالخبر المحذوف (حجّ) مبتدأ مؤخّر مرفوع (البيت) مضاف إليه مجرور (من) بدل بعض من كلّ وهو الناس، اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ، والرابط مقدّر أي استطاع منهم " 3 "، (إلى) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف حال من (سبيلا) - نعت تقدّم على المنعوت - (سبيلا) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة - أو استئنافيّة - (من كفر) مثل من دخل (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (اللّه) اسم إنّ منصوب (غنيّ) خبر مرفوع (عن العالمين) جارّ ومجرور متعلّق بغنيّ وعلامة الجرّ الياء.

وجملة: " للّه على الناس حجّ " لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) أو لا محلّ لها استئنافيّة.

(2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(3) لا يجوز أن يكون (من) فاعلا للمصدر رحج لفساد المعنى .

(126/132)

وجملة : " استطاع " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " من كفر . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " . .

وجملة : " إنّ اللّه غنيّ . . . " في محلّ جزم جواب الشرط الجازم مقترنة بالفاء أو هي تعليل للجواب المحذوف أي فاللّه مستغن عنه إنّ اللّه غنيّ عن العالمين .

الفوائد

قوله تعالى : " وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً " .

ذكر علماء النحو معان تدل عليها أخوات كان وهي : (آ) - ما يدل على التوقيت :

1 - أصبح وهي للتوقيت الصباحي مثال (أصبح الطير منتشرا في الحقل) .

2 - أضحى - هي للتوقيت بالضحى - مثال (أضحى الجوّ صحوا) 3 - أمسى - هي للتوقيت بالمساء : مثال (أمسى الفلاح عائدا إلى بيته) .

(ب) ما يدل على التحويل ، نحو : صار مثل (صار البرتقال عصيرا) .

(ج) ما يدل على النفي ، نحو : ليس : مثل (ليس الشجر مثمرا) .

(د) - ما يدل على الاستمرار : نحو (ما زال - ما برح - ما فتى - ما انفك) مثال (ما زال القمر منيرا) . (ه) ما يدل على بيان المدة وهي (ما دام) مثل (ينجح الطالب ما دام مجدا) أي (مدة دوامه مجدا) .

[سورة آل عمران (3) : آية 98]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ (98)

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (يا) أداة نداء (أهل) منادى مضاف منصوب (الكتاب) مضاف إليه مجرور (اللام) حرف جرّ و(ما) اسم استفهام مبنيّ على السكون في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (تكفرون) وهو مضارع مرفوع . . والواو فاعل (بآيات) جارّ

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

ومجرور متعلّق بـ (تكفرون) ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) حاليّة - أو استئنافيّة - (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (شهيد) خبر مرفوع (على) حرف جرّ (ما)

اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بشهيد (تعملون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يا أهل الكتاب " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تكفرون " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " اللّه شهيد " في محلّ نصب حال ، أو لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

[سورة آل عمران (3) : آية 99]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَداءُ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (99)

الإعراب :

(قل يا أهل . . . سبيل اللّه) مرّ إعراب نظيرها في الآية السابقة مفردات وجملا . . (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (آمن) فعل ماض ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (تبغون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (ها) ضمير مفعول بـ (عوجا) مصدر في موضع الحال " 1 " ، (الواو) حاليّة (أنتم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (شهداء) خبر مرفوع (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (اللّه)

---

(1) قيل: البغي هنا هو التعدّي أي يتعدّون عليها أو فيها . . . وقال الزّجاج والطبري يبغون: يطلبون لها اعوجاجا . . ف (عوجا) على هذا مفعول به.

(128/132)

لفظ الجلالة اسم ما مرفوع (الباء) حرف جرّ زائد (غافل) مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما (عن) حرف جرّ (ما) اسم موصول "1" مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بغافل (تعملون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل.

جملة: "آمن" لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: "تبغونها . . ." في محلّ نصب حال من فاعل تصدون أو من السبيل أو لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أنتم شهداء" في محلّ نصب حال من فاعل تبغون.

وجملة: "ما اللّه بغافل . . ." في محلّ نصب معطوفة على جملة الحال "2".

وجملة: "تعملون" لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

الصرف:

(عوجا)، مصدر سماعيّ لفعل عاج يعوج باب نصع وزنه فعل بكسر فسكون، وقد يأتي

المصدر مفتوح الفاء ولكنّ العرب فرّقوا بينهما فخصّوا المكسور الفاء بالمعاني والمفتوح الفاء بالأعيان . . تقول في دينه وكلامه عوج بالكسر ، وفي الجدار عوج بالفتح .

الفوائد

1 – قوله تعالى : " وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ " .

هذه " ما " النافية الحجازية . وهي لا تعمل عمل ليس إلا في لغة أهل الحجاز الذين جاء القرآن الكريم بلغتهم ، وبلغة أهل تهامة ونجد ، ولذلك سميت " ما النافية الحجازية " . أما في لغة تميم فهي مهملة وما بعدها مبتدأ وخبر .

---

(1) أو نكرة موصوفة ، والجملة صفة لها . . . ويجوز أن تكون مصدريّة والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ .

(2) أو استئنافيّة لا محلّ لها .

و" ما الحجازية " لا تعمل عمل ليس إلّا بأربعة شروط :

أ – أن لا يتقدم خبرها على اسمها .

ب - أن لا يتقدم معمول خبرها على اسمها .

ج - أن لا تزاد بعدها "إن" .

د - أن لا ينتقض نفيها بـ "إلا" .

فإن فقد شرط من هذه الشروط بطل عملها كقوله تعالى : وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ.

[سورة آل عمران (3) : آية 100]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ (100)

الإعراب :

(يا) أداة نداء (أيّ) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضم في محلّ نصب و(ها) للتنبيه ، (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب - على المحلّ - بدل من أيّ أو نعت له (آمنوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . . والواو فاعل (إن) حرف شرط جازم (تطيعوا) مضارع مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل (فريقا) مفعول به منصوب (من) حرف جرّ (الذين) اسم موصول مبني في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف نعت لـ (فريقا) ، (أوتوا) فعل ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ على الضمّ . . . والواو نائب فاعل (الكتاب) مفعول به منصوب (يردّوا) مثل تطيعوا وهو جواب الشرط (الكاف) ضمير مفعول به (بعد) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يردّوكم) "1" ، (إيمان) مضاف إليه مجرور و(كم) مضاف إليه

(كافرين) حال منصوبة وعلامة النصب الياء " 2 " .

---

(1) أو متعلّق بكافرين . [. . . . . .]

(2) أو هو مفعول به ثان لفعل ردّ إذا كان من أفعال التحويل .

جملة النداء : " يأيّها الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " ان تطيعوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أوتوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " يردّوكم " لا محلّ لها جواب شرط غير مقترنة بالفاء .

[سورة آل عمران (3) : آية 101]

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (101)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (كيف) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب حال " 1 " ، (تكفرون) مضارع

مرفوع والواو فاعل (الواو) حاليّة (أنتم) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (تتلى) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة (على) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تتلى)، (آيات) نائب فاعل مرفوع (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (فيكم) مثل عليكم متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (رسول) مبتدأ مؤخّر مرفوع (الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) استئنافيّة (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يعتصم) مضارع مجزوم فعل الشرط، والفاعل هو (باللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يعتصم) (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قد) حرف تحقيق (هدي) فعل ماض مبنيّ للمجهول، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود إلى

---

(1) والاستفهام جاء للتوبيخ وحمل المؤمنين على التعجّب.

(131/132)

(من)، (إلى صراط) جارّ ومجرور متعلّق بـ (هدي)، (مستقيم) نعت لصراط مجرور مثله.

جملة: "تكفرون" لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء في الآية السابقة.

وجملة: "أنتم تتلى" في محلّ نصب حال.

وجملة: " تتلى . . . آيات " في محلّ رفع خبر المبتدأ أنتم.

وجملة: " فيكم رسوله " في محلّ نصب معطوفة على جملة الحال.

وجملة: " من يعتصم . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " يعتصم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 ".

وجملة: " هدي . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

الفوائد

1 - من تاريخ اليهود.

لا ينفك اليهود - كلما حانت لهم الفرصة - يلقون بذور الفتنة بين أفراد المجتمع، كوسيلة لاضعاف شأن الناس وعلوّ شأن اليهود، وقد كثر هذا النوع من الفساد في عصر الرسول، وقد سعى أحد رجالاتهم في إفساد ذات البين في صفوف الأنصار بين الأوس والخزرج حتى كادوا يقتتلون لولا خروج الرسول إليهم وردهم إلى حظيرة المحبة والألفة ونبذ دعوى الجاهلية وراء ظهورهم.

[سورة آل عمران (3): آية 102]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102)

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا.

الإعراب :

(يأيها الذين آمنوا) مرّ اعرابها " 1 " ، (اتّقوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . . والواو فاعل (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (حقّ) مفعول مطلق منصوب (تقاته) مضاف إليه . . والهاء مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تموتنّ) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل والنون نون التوكيد لا محلّ لها (الّا) أداة حصر (الواو) حاليّة (أنتم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (مسلمون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة النداء : " يأيها الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " اتّقوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " لا تموتنّ " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة : " أنتم مسلمون " في محلّ نصب حال .

[سورة آل عمران (3) : آية 103]

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103)

---

(1) في الآية (100) من هذه السورة.

(133/132)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (اعتصموا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون... والواو فاعل (بحبل) جارّ ومجرور متعلق بـ (اعتصموا)، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (جميعا) حال منصوبة من الفاعل في (اعتصموا) (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تفرّقوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون... والواو فاعل، وحذف من الفعل إحدى التاءين (الواو) عاطفة - أو استئنافيّة - (اذكروا) مثل اعتصموا (نعمة) مفعول به منصوب (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (على) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف حال من نعمة (إذ) ظرف للماضي مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بنعمة - لتضمّنها معنى المصدر - أو بدل من نعمة (كنتم) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون (وتم) ضمير

متّصل اسم كان في محلّ رفع (أعداء) خبر كنتم منصوب، (الفاء) عاطفة (ألّف) فعل ماض، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (بين) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (ألّف) (قلوب) مضاف إليه مجرور و(كم) مضاف إليه (الفاء) عاطفة (أصبحتم) مثل كنتم (بنعمة) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من (إخوانا) " 1 "، و(الهاء) مضاف إليه (إخوانا) خبر أصبح منصوب.

جملة: "اعتصموا . . . "لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء في السابقة.

وجملة: "لا تفرّقوا "لا محلّ لها معطوفة على جملة اعتصموا.

وجملة: "اذكروا "لا محلّ لها معطوفة على جملة اعتصموا أو هي استئنافيّة لا محلّ لها.

---

(1) أجاز العكبريّ أن يكون التعليق بمحذوف خبر أصبح و(إخوانا) حال من ضمير المخاطب، أي أصبحتم متلبّسين بنعمته . . إخوانا . . أما تقريره بأن الفعل (أصبح) يجوز أن يكون تاما فبعيد.

وجملة: "كنتم أعداء "في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة : " ألّف " في محلّ جرّ معطوفة على جملة كنتم .

وجملة : " أصبحتم . . . إخوانا " في محلّ جرّ معطوفة على جملة ألّف .

(الواو) عاطفة – أو استئنافيّة – (كنتم) مثل الأول (على شفا) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر كنتم ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (حفرة) مضاف إليه مجرور (من النار) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لحفرة (الفاء) عاطفة (أنقذ) مثل ألّف و(كم) ضمير مفعول به (من) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنقذ) ، (الكاف) حرف جرّ " 1 " ، (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمفعول مطلق محذوف أي : يبيّن اللّه لكم آياته بيانا كذلك ، و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب ، يبيّن مضارع مرفوع (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (لكم) مثل عليكم متعلّق بـ (يبيّن) ، (آيات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة و(الهاء) ضمير مضاف إليه (لعلّ) حرف مشبّه بالفعل للترجّي و(كم) ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ (تهتدون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

وجملة : "كنتم على شفا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة كنتم الأولى . . . أو لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنقذكم " معطوفة على جملة كنتم على شفا تأخذ محلّها .

وجملة : "يبيّن اللّه . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لعلّكم تهتدون " لا محلّ لها تعليليّة .

---

(1) يجوز أن يكون الكاف اسما بمعنى مثل ، فهو نعت للمفعول المطلق المحذوف في محلّ نصب .

وجملة : " تهتدون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

الصرف :

(تفرّقوا) ، أصله تتفرّقوا ، حيث حذفت من الفعل إحدى التاءين تخفيفا .

(شفا) ، أصل الألف فيه واو ، مثنّاه شفوان ويجمع على أشفاء . . .

وفي المصباح : شفا كلّ شيء حدّه ، وهو اسم من شفا يشفو باب نصر ، وزنه فعل بفتحتين .

(حفرة) ، اسم لما يحفر من الأرض ، وزنه فعلة بضم فسكون ، جمعه حفر بضمّ ففتح .

البلاغة

1 - في الكلام استعارة تمثيلية : بأن شبهت الحالة الحاصلة للمؤمنين في استظهارهم بأحد ما ذكر ، ووثوقهم بحمايته ، بالحالة الحاصلة في تمسك المتدلي من مكان رفيع بحبل وثيق

مأمون الانقطاع من غير اعتبار مجاز في المفردات ، وأستعير ما يستعمل في المشبّه به من الألفاظ للمشبّه .

2 – الطباق : بين أعداء واخوان .

الفوائد

1 – العصام والعصمة : الملاذ والملجأ . وقد ورد في فقه اللغة ، إذا وردت العين والصاد ، فاء وعينا للكلمة فهما تدلان على الشدة والمنعة وما هو على غرار ذلك ، مثل رجل عصامي وذو عصبية قوية ومن العصا والعصيان والعصر والمعصرة ، وعصفت الريح فهي عاصفة . وهذه إحدى أسرار لغتنا الفصحى لغة التنزيل ولغة جوامع الكلم .

2 – حَقَّ تُقاتِهِ ، وردت الصفة مضافة إلى موصوفها لتمكّن الصفة والمبالغة بها من جهة وللجرس الموسيقي من جهة ثانية ، ولا ينكر التعبير بالجرس في آياته

تعالى لأن اللّه أراد أن يكون كتابه مشفوعا بسائر عناصر التأثير في قلب السامع وعقله فجعل الجرس الموسيقي أحد عناصر وعوامل هذا التأثير .

3 - شَفا حُفْرَةٍ" الشفا "يجوز تذكيره وتأنيثه، وقد ورد العائد عليها مؤنثا " فأنقذكم منها

" فإذا اعتبرنا " الشفا " مؤنثا فيكون العائد مطابقا لما عاد عليه وإذا اعتبرنا الشفا مذكرا

فيكون قد اكتسب التأنيث مما أضيف إليه وهو " الحفرة " وهذا وجه مطرد في عالم النحو

واللغة، فقد يكتسب المضاف المذكر التأنيث من المضاف إليه المؤنث كما يكتسب

المضاف المؤنث التذكير من المضاف إليه المذكر، فمن الأول قول الشاعر:

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

[سورة آل عمران (3) : آية 104]

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104)

الإعراب:

(الواو) عاطفة - أو استئنافيّة - (اللام) لام الأمر (تكن) مضارع ناقص مجزوم - أو تام - (من) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف حال من أمة - نعت تقدّم على المنعوت - " 1 "، (أمّة) اسم تكن الناقص - أو فاعل تكن التام - (يدعون) مضارع مرفوع...

والواو فاعل (إلى الخير) جارّ ومجرور متعلّق ب (يدعون)، (الواو) عاطفة (يأمرون) مثل يدعون (بالمعروف) جارّ ومجرور متعلّق ب (يأمرون)، (الواو) عاطفة (ينهون عن المنكر)

مثل يدعون إلى الخير (الواو) استئنافيّة

---

(1) أو متعلّق بـ (تكن) إن كان تامّا . . . وأجاز بعضهم تعليقه بمحذوف خبر مقدّم لفعل تكن الناقص.

(137/132)

أو حاليّة (أولاء) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (هم) ضمير فصل " 1 "، (المفلحون) خبر المبتدأ أولئك مرفوع وعلامة الرفع الواو.

جملة: "لتكن منكم أمّة" لا محلّ لها معطوفة على جملة اعتصموا " 2 " . . . أو لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يدعون" في محلّ نصب خبر تكن الناقص - أو في محلّ رفع نعت لأمة إن أعرب (تكن) تامّا " 3 " .

وجملة: "يأمرون . . . " معطوفة على جملة يدعون تأخذ محلّها.

وجملة: "ينهون . . . " معطوفة على جملة يدعون تأخذ محلّها.

وجملة: "أولئك . . . المفلحون" لا محلّ لها استئنافيّة . . . أو في محلّ نصب حال.

الصرف:

(الخير) ، مصدر سماعيّ لفعل خار يخير باب ضرب وزنه فعل بفتح فسكون وهو ضدّ الشرّ ، جمعه خيور بضمّ الخاء .

(المنكر) ، اسم مفعول من أنكر الرباعي بمعنى عابه ونهاه عنها ، وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين جمعه منكرات ومناكر .

البلاغة

1 - " وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ " العطف في الآية من باب عطف الخاص على العام لإظهار فضلهما على سائر الخيرات كعطف جبريل وميكال على الملائكة عليهم السلام .

---

(1) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره المفلحون ، وجملة هم المفلحون خبر أولئك .

(2) في الآية (103) من هذه السورة .

(3) وكذلك هي نعت لأمة إن جعل الخبر الجارّ والمجرور (منكم) .

وتفصيل ذلك أن الدعوة إلى الخير عامة ، وإردافها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مؤذن باختصاصهما بمزيد من العناية ، وإظهار فضلهما على سواهما من الخيرات .

- المقابلة: فقد طابق بين الأمر والنهي وبين المعروف والمنكر.

الفوائد

1 - " وَلْتَكُنْ " لام الأمر مكسورة في الأصل ولكنها إذا وقعت بعد الواو والفاء فالأكثر تسكينها، نحو " فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي " وقد تسكّن بعد ثمّ وتدخل لام الأمر على الفعل المخصوص به الغائب معلوما ومجهولا وعلى المخاطب غيره، فدخولها عليه أهون وأيسر نحو: " وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ " وذلك لأن الواحد لا يأمر نفسه، فإن كان معه غيره هان الأمر لمشاركة غيره فيما يأمر به، وأقل من ذلك دخول اللام على فعل المخاطب المعلوم لأن له صيغة خاصة وهي " افعل ".

ثمّ طلب الفعل أو تركه إذا كان من الأدنى إلى الأعلى سمي دعاء للتأدب وسميت " اللام أو لا " حرفي دعاء نحو " لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ " ونحو: " لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا " وكذلك الأمر بصيغة الأمر يسمّى فعل " دعاء " نحو: " رَبِّ اغْفِرْ لِي " وهذا الوجه من آداب التحدث وخصوصا مع اللّه.

[سورة آل عمران (3) : آية 105]

وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (105)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تكونوا) مضارع ناقص مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو ضمير اسم كان (الكاف) حرف جرّ " 1 " ، (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلق بمحذوف

---

(1) أو اسم بمعنى مثل في محلّ نصب خبر تكونوا .

(139/132)

خبر تكونوا (تفرّقوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . . والواو فاعل (الواو) عاطفة (اختلفوا) مثل تفرّقوا (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تفرّقوا أو اختلفوا) ، (ما) حرف مصدريّ (جاء) فعل ماض و(هم) ضمير مفعول به (البيّنات) فاعل مرفوع .

والمصدر المؤوّل (ما جاءهم البيّنات) في محلّ جرّ مضاف إليه .

(الواو) استئنافيّة (أولاء) اسم اشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ و(الكاف) حرف خطاب (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (عذاب) مبتدأ مؤخّر مرفوع (عظيم) نعت لعذاب مرفوع مثله .

جملة : " لا تكونوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لتكن منكم أمّة " 1 " .

وجملة : " تفرّقوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: " اختلفوا " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

وجملة: " جاءهم البيّنات " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ.

وجملة: " أولئك لهم عذاب " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " لهم عذاب " في محلّ رفع خبر المبتدأ أولئك.

[سورة آل عمران (3) : آية 106]

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106)

---

(1) في الآية السابقة (104).

(140/132)

الإعراب:

(يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بالخبر المحذوف للعذاب في الآية السابقة (تبيض) مضارع مرفوع (وجوه) فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (تسود وجوه) مثل تبيضّ وجوه (الفاء) تفريعيّة استئنافيّة (أمّا) حرف شرط وتفصيل (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (اسودّت) فعل ماض... والتاء للتأنيث (وجوه) فاعل مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه

. . وخبر المبتدأ محذوف تقديره فيقال لهم . . . (الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (كفرتم) فعل وفاعل (بعد) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (كفرتم)، (إيمان) مضاف إليه مجرور و(كم) ضمير مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (ذوقوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . .

والواو فاعل (العذاب) مفعول به منصوب (الباء) حرف جرّ للسببيّة (ما) حرف مصدريّ (كنتم) فعل ماض ناقص واسمه (تكفرون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

والمصدر المؤوّل (ما كنتم تكفرون) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (ذوقوا) .

وجملة : " تبيضّ وجوه " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تسودّ وجوه " في محلّ جرّ معطوفة على جملة تبيضّ .

وجملة : " الذين اسودّت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اسودّت وجوههم " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أكفرتم . . . " في محلّ نصب مقول القول لمقدّر هو الخبر . . . أي : فيقول الله لهم أو تقول الملائكة أكفرتم .

وجملة : " ذوقوا " جواب شرط مقدّر أي : إن كفرتم فذوقوا .

وجملة : " كنتم تكفرون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة: "تكفرون" في محلّ نصب خبر كنتم.

البلاغة

(141/132)

---

1 - وبياض الوجه وسواده كنايتان عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف فيه، وهذا أيضا فن من فنون البلاغة يدعى فن التدبيج، وهو فن دقيق المسلك، حلو المأخذ، رشيق الدلالة وحده أن يذكر الشاعر أو الناثر لونين أو أكثر، يقصد بذلك الكناية أو التورية عما يريد من أغراض، وقد لا يقصد غير الوصف.

2 - الاستعارة: في "ذوق العذاب" فقد شبهه بالمرمما يؤكل، ثمّ حذف المشبّه به وأبقى شيئًا من لوازمه وهو الذوق. ولا يخفي ما فيه من الشعور بالمرارة، وذلك على طريق الاستعارة التبعية المكنية.

[سورة آل عمران (3): آية 107]

وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (107)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (أمّا الذين ابيضّت وجوههم) مثل أمّا الذين اسودّت وجوههم في الآية

السابقة (الفاء) واقعة في جواب أمّا (في رحمة) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (الذين) " 1 " (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (في) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (خالدون) وهو خبر المبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الواو.

---

(1) أشار بعض المعربين إلى أن الجارّ متعلّق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم ... وهذه الجملة هي خبر المبتدأ (الذين).

(142/132)

جملة: " الذين ابيضّت وجوههم " لا محلّ لها معطوفة على جملة اسودّت ... " 1 ".

وجملة: " ابيضّت وجوههم " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: " هم فيها خالدون " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 ".

البلاغة

1 - " فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ " أي الجنة والنعيم المخلد، عبر عنها بالرحمة تنبيها على أن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة اللّه تعالى فإنه لا يدخل الجنة إلا برحمته تعالى وهذا على سبيل المجاز المرسل والعلاقة فيه الحالية، لأن الرحمة لا يحل فيها الإنسان وإنما يحل في مكانها،

وهو الجنة.

الفوائد

1 - في هاتين الآيتين تتجلّى البلاغة القرآنية بأجلى صورها، فقد اشتملت على عدة فنون من الإعجاز ففيها الطباق المركب، بين البياض والسواد، وفيها التفصيل بعد "أمّا"، وفيها المقابلة بالجزاء، وفيها الإيجاز الذي هو من أصل سمات القرآن الكريم، وأخيرا هذا الوضوح بواسطة تجسيم الأمور المعنوية وتجسيدها وإضفاء الحركة المشفوعة بالألوان عليها.

[سورة آل عمران (3) : آية 108]

تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ (108)

الإعراب:

(تي) اسم إشارة مبنيّ على السكون الظاهر على الياء

---

(1) في الآية السابقة. [.....]

(2) يجوز أن تكون خبرا ثانيا للمبتدأ الذين..

المحذوفة لالتقاء الساكنين في محلّ رفع مبتدأ و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (آيات) خبر مرفوع " 1 " ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (نتلو) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الواو و(ها) ضمير مفعول به والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (على) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نتلوها) ، (بالحقّ) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من فاعل نتلو (الواو) استئنافيّة (ما) نافية عاملة عمل ليس (اللّه) لفظ الجلالة اسم ما (يريد) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (ظلما) مفعول به منصوب (اللام) زائدة للتقوية (العالمين) مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به للمصدر (ظلما) .

جملة : " تلك آيات اللّه " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نتلوها . . . " في محلّ نصب حال من آيات .

وجملة : " ما اللّه يريد . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يريد ظلما " في محلّ نصب خبر ما .

الصرف :

(ظلما) ، مصدر سماعيّ لفعل ظلم يظلم باب ضرب وزنه فعل بضمّ فسكون ، وثمّة مصادر أخرى هي ظلما بفتح أوّله ، ومظلمة بفتح الميم وكسر اللام .

البلاغة

1 - " تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ " اسناد ذلك إليه تعالى مجاز ، إذ التالي جبريل عليه

السلام بأمره سبحانه وتعالى. وفي عدوله عن الحقيقة مع الالتفات إلى التكلم بنون العظمة ما لا يخفي من العناية بالتلاوة والمتلو عليه.

---

(1) يجوز أن تكون بدلا من اسم الإشارة... وجملة تلوها خبر.

---

2 - " وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ " الالتفات إلى الاسم الجليل إشعارا بعلة الحكم بيان لكمال نزاهته عزّ وجلّ عن الظلم بما لا مزيد عليه، أي ما يريد فردا من أفراد الظلم لفرد من أفراد العالمين.

[سورة آل عمران (3) : آية 109]

وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (109)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (للّه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر (في السموات) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة ما الأول (الواو) عاطفة (ما) مثل الأول ومعطوف عليه (في الأرض) مثل في السموات، متعلّق بصلة ما الثاني (الواو) عاطفة (إلى اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ترجع) وهو فعل مضارع مبنيّ

للمجهول مرفوع (الأمور) نائب فاعل مرفوع.

جملة: "للّه ما في السموات... " لا محلّ لها معطوفة على الجملة الاستئنافيّة في الآية السابقة.

وجملة: " ترجع الأمور " لا محلّ لها معطوفة على جملة للّه ما في السموات.

البلاغة

- " وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ " الإظهار في مقام الإضمار لتربية المهابة.

[سورة آل عمران (3) : آية 110]

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ (110)

الإعراب:

(كنتم) فعل ناقص واسمه (خير) خبر كان منصوب (أمّة) مضاف إليه مجرور (أخرجت) فعل ماض مبنيّ للمجهول.. والتاء للتأنيث، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هي (للناس) جارّ ومجرور متعلّق ب (أخرجت) (تأمرون) مضارع مرفوع.. والواو فاعل (بالمعروف) جارّ ومجرور متعلّق ب (تأمرون)، (الواو) عاطفة (تنهون عن المنكر) مثل تأمرون بالمعروف والتعليق ب (تنهون)، (الواو) عاطفة (تؤمنون باللّه) مثل تأمرون بالمعروف، والتعليق ب (تؤمنون). (الواو) استئنافيّة (لو) حرف شرط غير جازم (آمن)

فعل ماض (أهل) فاعل مرفوع (الكتاب) مضاف إليه مجرور (اللام) واقعة في جواب لو (كان) فعل ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر تقديره هو أي الإيمان (خيرا) خبر منصوب (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (خيرا)، (منهم) مثل لهم متعلّق بخبر محذوف (المؤمنون) مبتدأ مؤخّر مرفوع وعلامة الرفع الواو (الواو) عاطفة (أكثر) مبتدأ مرفوع - أو خبر مقدّم - و(هم) ضمير مضاف إليه (الفاسقون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو - أو مبتدأ مؤخّر - جملة: "كنتم خير أمّة" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أخرجت للناس" في محلّ جرّ نعت لأمة "1".

وجملة: "تأمرون بالمعروف" في محلّ نصب خبر ثان للفعل الناقص "2".

وجملة: "تنهون ..." في محلّ نصب معطوفة على جملة تأمرون.

---

(1) أو في محلّ نصب نعت لخير ...، ويجوز أن تكون في محلّ نصب خبرا ثانيا للفعل الناقص.

(145/132)

---

(2) أو في محلّ نصب حال من (خير أمة) - لأن النكرة هنا وصفت بالجملة - أو نعت لـ (خير أمّة) أو استئناف بياني.

وجملة : " تؤمنون . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة تأمرون . . .

وجملة : " آمن أهل الكتاب " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كان خيرا لهم " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " منهم المؤمنون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أكثرهم الفاسقون " لا محلّ لها معطوفة على جملة منهم المؤمنون .

الصرف :

(الفاسقون) ، جمع الفاسق ، اسم فاعل من فسق يفسق من البابين الأول والثاني ، ومن الباب الخامس ، وزنه فاعل .

البلاغة

1 - المقابلة : في الآية فن المقابلة ، فقد تعدّد الطباق بين " تأمرون " و " تنهون " وبين " المعروف " و " المنكر " وبين " المؤمنون " و " الفاسقون " .

الفوائد

1 - " لكان " اللام واقعة في أول جواب شرط " لو " الشرطية ، فكما أن الفاء تقع في جواب أدوات الشرط الجازمة فإن اللام تقع في جواب لو ولو لا غير الجازمتين وهي تفيد التوكيد .

[سورة آل عمران (3) : آية 111]

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَإِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ (111)

الإعراب:

(لن) حرف نفي ونصب (يضرّوا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون...

والواو فاعل و (كم) ضمير مفعول به (إلّا) أداة حصر "1" (أذى) مفعول مطلق منصوب نائب عن المصدر أي إلّا

---

(1) أجاز بعضهم أن (إلّا) أداة استثناء و (أذى) مستثنى من مفعول مطلق مقدّر أي: لن يضرّوكم ضررا الّا ضرر أذى.

ضرر أذى، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (ان) حرف شرط جازم (يقاتلوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون... والواو فاعل و (كم) ضمير مفعول به (يولّوكم) مثل يقاتلوكم، جواب الشرط (الأدبار) مفعول به ثان منصوب (ثمّ) حرف استئناف "1"، (لا) نافية (ينصرون) مضارع مرفوع مبنيّ للمجهول... والواو نائب فاعل.

جملة: "لن يضرّوكم..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " إن يقاتلوكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " يولّوكم الأدبار " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " لا ينصرون " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(الأدبار) جمع دبر بضمّتين ، اسم جامد وزنه فعل بضمّتين أو بضمّ فسكون والفعل من باب نصر .

البلاغة

1 - في هذه الآية فن يقال له " فن الإيضاح " وهو أن يذكر المتكلم كلاما في ظاهره لبس ثمّ يوضحه في بقية كلامه ، والإشكال الذي يحله الإيضاح يكون في معاني البديع من الألفاظ وفي إعرابها ، فإن في ظاهر الآية إشكالين :

أحدهما : من جهة الإعراب ، والآخر من جهة المعنى .

فأما الذي من جهة الإعراب فعطف ما ليس بمجزوم على المجزوم ،

---

(1) ليس بعيدا أن يكون (ثمّ) حرف استئناف ، كما سنرى ذلك في سورة العنكبوت ، لأن الكلام مستأنف . . . أو هي حرذ عطف ، عطفت الجملة بعدها على جملة الشرط والجواب المعطوفة على جملة لن يضرّوكم

والذي من جهة المعنى أن صدر الآية يغني عن فاصلتها ، لأن توليهم عند المقاتلة دليل على الخذلان ، والخذلان والنصر لا يجتمعان ، والجواب أن اللّه سبحانه أخبر المؤمنين بأن عدوهم هذا إن قاتلهم انهزم ، ثمّ أراد تكميل العدة بإخبارهم أنه مع توليه الآن لا ينصر أبدا في الاستقبال فهو مخذول أبدا ما قاتلهم .

2 - ونرى في الآية " فن التعليق " وهو أن يتعلق الكلام إلى حين ، ولذلك اختير لفظ " ثمّ " دون حروف العطف ، لأنه يدل على المهلة الملائمة لدلالة الفعل المضارع على الاستقبال .

3 - فن المطابقة المعنوية بين نصر المؤمنين وخذلان الكافرين .

[سورة آل عمران (3) : آية 112]

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَباؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ (112)

الإعراب :

(ضربت) فعل ماض مبنيّ للمجهول . . والتاء للتأنيث (على) حرف جرّ و(هم) ضمير

في محلّ جرّ متعلّق بـ (ضربت) ، (الذلّة) نائب فاعل مرفوع (أينما) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ نصب على الظرفيّة المكانيّة متعلّق بـ (ثقفوا) أو بالجواب المقدّر (ثقفوا) فعل ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ على الضمّ . . والواو نائب فاعل (إلا) أداة استثناء (بحبل) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من فاعل جواب الشرط ، وهو مستثنى من جميع الأحوال ، أي : ذلّوا في كل الأحوال إلا في حالهم متمسّكين بعهد اللّه (من اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لحبل (الواو) عاطفة (باءوا) فعل ماض مبنيّ على الضم . . والواو فاعل (بغضب) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من الفاعل في (باءوا) أي :

(148/132)

متلبّسين بغضب من اللّه (من اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لغضب (الواو) عاطفة (ضربت عليهم المسكنة) مثل ضربت عليهم الذلّة ، (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (الباء) حرف جرّ (أنّ) حرف مشبّه بالفعل و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (كانوا) فعل ناقص . . . والواو اسم كان (يكفرون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (بآيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يكفرون) ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (يقتلون) مثل يكفرون (الأنبياء) مفعول به

منصوب (بغير) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يقتلون) " 1 " ، (حقّ) مضاف إليه مجرور .

والمصدر المؤوّل (أنّهم كانوا . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ ذلك .

(ذلك) مثل الأول (الباء) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ (عصوا) مثل باءوا (الواو) عاطفة (كانوا) مثل الأول (يعتدون) مثل يكفرون .

والمصدر المؤوّل (ما عصوا) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ ذلك (الثاني) .

جملة : " ضربت عليهم الذلّة " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ثقفوا " لا محلّ لها استئناف بيانيّ . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : أينما ثقفوا ذلّوا .

وجملة : " باءوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ضربت . . .

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من الأنبياء أي ظالمين أو جائرين .

وجملة : " ضربت . . المسكنة " لا محلّ لها معطوفة على جملة ضربت (الأولى) .

وجملة : " كانوا يكفرون . . . " في محلّ رفع خبر أنّ.

وجملة : " يكفرون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

وجملة : " يقتلون . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يكفرون .

وجملة : " ذلك بأنّهم (في المرّتين) " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " عصوا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ .

وجملة : "كانوا يعتدون " لا محلّ لها معطوفة على جملة عصوا .

وجملة : " يعتدون " في محلّ نصب خبر كانوا .

الصرف :

انظر الآية (61) من سورة البقرة ففيها معظم حالات الصرف للكلمات الواردة في هذه الآية .

البلاغة

1 - " ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ " هذا من ضرب الخيام والقباب .

ففيه استعارة مكنية تخييلية وقد يشبه إحاطة الذلة واشتمالها عليهم بذلك على وجه الاستعارة التبعية .

2 - " إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ " أي لا يسلمون من الذلة بحال من الأحوال إلا في حال أن يكونوا معتصمين بالله تعالى أو كتابه الذي أتاهم وذمة المسلمين فإنهم بذلك يسلمون .

فقد شبه التمسك بأسباب السلامة بالتمسك بالحبل الوثيق وقد تدلى من مكان عال .

وهذا على سبيل الاستعارة التمثيلية.

الفوائد

1 - قوله تعالى: إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ لا يستقيم الكلام إلا بواسطة التقدير، إذ لا بد لنا أن نتساءل عن سبب وجود الباء وعلة هذا الاستثناء، ورغم أن علماء النحو قد أكثروا من الكلام في هذا الشأن فإن وجود الباء يستقيم بمجرد هذا التقدير "إلا إذا ثقفوا معصومين بحبل من اللّه أو داخلين في ذمة من المسلمين" ففي هذا الحالة ترفع عنهم الذلة والمسكنة وينجون من غضب اللّه.

[سورة آل عمران (3) : آية 113]

لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113)

الإعراب:

(ليس) فعل ماض ناقص جامد و(الواو) ضمير في محلّ رفع اسم ليس "1"، (سواء) خبر ليس منصوب (من أهل) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (الكتاب) مضاف إليه مجرور (أمّة) مبتدأ مؤخّر مرفوع (قائمة) نعت لأمة مرفوع مثله (يتلون) مضارع مرفوع.. والواو فاعل (آيات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه (آناء) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يتلون)، (الليل) مضاف إليه مجرور، (الواو) حاليّة (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يسجدون) مثل يتلون.

جملة: "ليسوا سواء" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "من أهل الكتاب أمّة" لا محلّ لها استئناف بيانيّ أو تفسيريّة "2".

---

(1) والضمير يعود على أهل الكتاب المتقدّم ذكرهم.

(2) تبيّن كيفيّة عدم تساويهم.

(150/132)

وجملة: "يتلون" في محلّ رفع نعت لأمّة أو في محلّ نصب حال.

وجملة: "هم يسجدون" في محلّ نصب حال من الواو في يتلون.

وجملة: "يسجدون" في محلّ رفع خبر المبتدأ هم.

الصرف:

(قائمة)، مؤنّث قائم، اسم فاعل من قام يقوم باب نصر، وفيه إبدال حرف العلّة همزة بعد ألف فاعل اطرادا. (انظر الآية 18 سورة آل عمران).

(آناء)، جمع أنى بفتح الهمزة والنون، زنة عصا أو إنى بكسر الهمزة وفتح النون زنة معى أو أني بفتح فسكون زنة ظبي أو إني بكسر فسكون زنة حمل أو إنو بكسر والسكون مع الواو زنة جرو... ففي آناء إعلال بالقلب حيث قلبت الياء - أو الواو - همزة لمجيئها متطرّفة

بعد ألف ساكنة ، وهو اسم جامد يدلّ على وقت أو زمن .

البلاغة

1 - المجاز المرسل : في قوله تعالى "أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ" أي : وهم يصلون لأن التلاوة منهي عنها في السجود الحقيقي ، فلا يصح المدح بما نهى عنه فعبّر بالجزء وهو السجود ، وأراد الكل وهو الصلاة . فعلاقة المجاز هنا جزئية .

الفوائد

(151/132)

---

1 - ليسوا سواء : يخبر بـ "سواء" عن الواحد فما فوق ، وهي بمعنى مستو ، وتأتي "سواء" للتسوية وتأتي بعدها همزة التسوية نحو "سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ" ويؤول ما بعد الهمزة بمصدر وتقديره هنا : إنذارك وعدمه سواء عليهم ، فالمصدر مبتدأ وسواء خبر وتكون "سواء" بمعنى مستو إذا وصف بها المكان ، والأفصح بها في هذه الحالة أن تقصر فتقول : فكان "سوى" على وزن "فعل" مثل ماء روى وقوم عدى .

[سورة آل عمران (3) : آية 114]

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ

وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114)

الإعراب:

(يؤمنون) مضارع مرفوع.. والواو فاعل (باللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يؤمنون)، (الواو) عاطفة (اليوم) معطوف على لفظ الجلالة مجرور مثله (الآخر) نعت لليوم مجرور (الواو) في المواضع الثلاثة عاطفة (يأمرون بالمعروف، ينهون عن المنكر، يسارعون في الخيرات) مثل يؤمنون باللّه وحروف الجرّ متعلّقة بالأفعال قبلها. (الواو) استئنافيّة (أولاء) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ و(الكاف) حرف خطاب (من الصّالحين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ أولئك، وعلامة الجرّ الياء.

جملة: "يؤمنون باللّه" في محلّ رفع نعت آخر لأمّة في الآية السابقة، أو في محلّ نصب حال من أمّة...

وجملة: "يأمرون بالمعروف" معطوفة على جملة يؤمنون باللّه تأخذ محلّها.

وجملة: "ينهون عن المنكر" معطوفة على جملة يؤمنون باللّه تأخذ محلّها.

وجملة: "يسارعون في الخيرات" معطوفة على جملة يؤمنون باللّه تأخذ محلّها.

وجملة: "أولئك من الصّالحين" لا محلّ لها استئنافيّة.

[سورة آل عمران (3): آية 115]

وَما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (115)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (ما) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ نصب مفعول به مقدّم (يفعلوا) مضارع مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم حذف النون... والواو فاعل (من خير) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من (ما) ، أو هو تمييز له (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لن) حرف نفي ونصب (يكفروا) مضارع مبنيّ للمجهول منصوب وعلامة النصب حذف النون... والواو ضمير في محلّ رفع نائب فاعل و (الهاء) ضمير مفعول به بتضمين الفعل معنى يحرموا جزاءه. (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (عليم) خبر مرفوع (بالمتّقين) جارّ ومجرور متعلّق بعليم.

جملة: "يفعلوا من خير" لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافية في السابقة.

وجملة: "لن يكفروه" في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

وجملة: "اللّه عليم" لا محلّ لها استئنافيّة.

[سورة آل عمران (3) : آية 116]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (116)

الإعراب :

(إن) حرف مشبّه بالفعل (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب اسم إن (كفروا) فعل ماض مبنيّ على الضم . . . والواو فاعل (لن) حرف نفي ونصب (تغني) مضارع منصوب (عن) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تغني) ، (أموال) فاعل مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (أولاد) معطوف على أموال مرفوع مثله و(هم) مثل السابق (من اللّه) جارّ ومجرور متعلّق

(153/132)

بمحذوف حال من أموال أو أولاد بتقدير مضاف محذوف أي : بديلا من عذاب اللّه (شيئًا) مفعول به منصوب " 1 " ، (الواو) عاطفة (أولاء) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ و(الكاف) حرف خطاب (أصحاب) خبر مرفوع (النّار) مضاف إليه (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (في) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (خالدون) وهو الخبر المرفوع .

جملة : " إنّ الذين كفروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كفروا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: "لن تغني" في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "أولئك أصحاب..." في محلّ رفع معطوفة على جملة لن تغني.

وجملة: "هم فيها خالدون" في محلّ نصب حال من أصحاب، والعامل فيه الإشارة.

[سورة آل عمران (3) : آية 117]

مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (117)

الإعراب:

(مثل) مبتدأ مرفوع (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (ينفقون) مضارع مرفوع.. والواو فاعل (في) حرف جرّ (ها)

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته أي: لن تغني عنهم من اللّه إغناء يسيرا أو كثيرا.

حرف تنبيه (ذه) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق ب (ينفقون)، (الحياة) بدل من ذه أو صفة له مجرور مثله (الدّنيا) نعت للحياة مجرور مثله وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على

الألف (كمثل) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (ريح) مضاف إليه مجرور (في) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (صرّ) مبتدأ مؤخّر مرفوع (أصاب) فعل ماض و(التاء) للتأنيث، والفاعل ضمير مستتر تقديره هي (حرث) مفعول به منصوب (قوم) مضاف إليه مجرور (ظلموا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ.. والواو فاعل (أنفس) مفعول به منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (الفاء) حرف عطف (أهلك) مثل أصاب و(الهاء) مفعول به، والفاعل هي أي الريح (الواو) استئنافيّة - أو حاليّة - (ما) نافية (ظلمهم) فعل ماض ومفعوله (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (لكن) حرف استدراك (أنفس) مفعول به مقدّم و(هم) ضمير مضاف إليه (يظلمون) مثل ينفقون.

جملة: "مثل ما ينفقون" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ينفقون" لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: "فيها صرّ" في محلّ جرّ نعت لريح.

وجملة: "أصابت..." في محلّ جرّ نعت ثان لريح.

وجملة: "ظلموا..." في محلّ جرّ نعت لقوم.

وجملة: "أهلكته" في محلّ جرّ معطوفة على جملة أصابت.

وجملة: "ما ظلمهم اللّه" لا محلّ لها استئنافيّة - أو في محلّ نصب حال من فاعل ظلموا.

وجملة : " يظلمون " معطوفة على جملة ما ظلمهم الله تأخذ محلها من الإعراب .

الصرف :

(صرّ) حرّ شديد محرق أو برد شديد مهلك أو صوت لهيب النار تكون في الريح ، من صرّ الشيء يصرّ باب ضرب ، فهو اسم على وزن فعل بكسر فسكون ، وقد يستعمل استعمال الصفة فيقال ريح صرّ أي ريح باردة .

البلاغة

---

1 - التشبيه التمثيلي : فقد شبه ما أنفقوا في ضياعه وذهابه بالكلية من غير أن يعود إليهم نفع ما بحرث كفار ضربته صر فاستأصلته ولم يبق لهم فيه منفعة ما بوجه من الوجوه وهو من التشبيه المركب .

2 - يها صِرٌّ"

صفة بمعنى بارد إلا أن موصوفه محذوف أي برد بارد فهو من الاسناد المجازي كظل ظليل .

3 - التتميم : وهو أن يأتي المتكلم بكلمة إذا طرحت من الكلام نقص معناه في ذاته أو صفاته ، والتتميم هنا في كلمتِها صِرٌّ"

فإنها أفادت المبالغة كما أفادت التجسيد والتشخيص ، كما تقول برد بارد وليلة ليلاء .

الفوائد

1 - مرّ معنا ذكر التمثيل المشتمل على الحركة والتشخيص ويبدو هنا على أشده في قوله تعالى : ثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ "

وهكذا نجد أن الأسلوب القرآني قد استخدم وسائل كثيرة تخاطب عقول الناس مرة وحواسهم مرة وقد تجمع بين سائر ملكات السامع فذلك أدعى للاقناع وأقوى في التأثير ، وهذا وجه يحسن تخصيصه ببحث ضاف يجلي فضائله ويوضح تأثيره .

[سورة آل عمران (3) : آية 118]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وَما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (118)

الإعراب :

(يا) أداة نداء (أيّ) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب و(ها) حرف تنبيه (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب بدل من أيّ أو نعت له (آمنوا) فعل ماض وفاعله (لا) ناهية جازمة (تتّخذوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل (بطانة) مفعول به منصوب (من دون) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لبطانة و(كم) ضمير مضاف إليه، والمفعول الثاني محذوف، والتقدير أصفياء (لا) نافية (يألون) مضارع مرفوع. والواو فاعل و(كم) ضمير مفعول به بتضمين يألونكم معنى يمنعونكم "1"، (خبالا) مفعول به ثان منصوب بحسب التضمين السابق "2"، (ودّوا) مثل آمنوا (ما) حرف مصدريّ (عنتّم) فعل ماض وفاعله.

والمصدر المؤول (ما عنتّم) في محلّ نصب مفعول به عامله ودّوا.

(قد) حرف تحقيق (بدت) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين والتاء للتأنيث (البغضاء) فاعل مرفوع (من أفواه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (بدت)، و(هم) ضمير مضاف إليه، (الواو) عاطفة أو حالية (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ

---

(1) ألا في الأمر: إذا قصّر فيه، ثمّ استعمل متعدّيا إلى مفعولين في قولهم: لا آلوك نصحا أو جهدا على تضمين الفعل معنى أمنعك أو أنقصك.. (عن الزمخشري).

(2) إذا لم يضمّن الفعل معنى الفعل المتعدّي فضمير الخطاب في يألونكم منصوب على نزع

الخافض، وكذلك (خبالا) ، والتقدير : لا يألون لكم في الخبال . . .

وأجازوا نصب (خبالا) على التمييز أو هو مصدر في موضع الحال، والفعل متعدّ لواحد وهذا اختيار العكبريّ.

(157/132)

(تخفي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة (صدور) فاعل مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه (أكبر) خبر مرفوع (قد) مثل الأول (بيّنا) فعل ماض وفاعله (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (بيّنا) ، (الآيات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (إن) حرف شرط جازم (كنتم) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط، والضمير (تم) اسم كان (تعقلون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل.

جملة النداء : "يأيها الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : "آمنوا" لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : "لا تتّخذوا" لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة : "لا يألونكم خبالا" لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : "ودّوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة : " عنتّم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " بدت البغضاء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 3 " .

وجملة : " ما تخفي صدورهم " أكبر لا محلّ لها معطوفة على جملة بدت . . . " 4 " .

(1 ، 2 ، 3) هذا الإعراب اختيار أبي حيّان . . . وأجازوا في هذه الجمل ومنهم ابن هشام أن تكون نعتا أو حالا بحسب ما يعود عليه الضمير فيها ، ولكنّ أبا حيّان ردّ هذا التخريج فقال : ومن ذهب إلى أنها صفة للبطانة أو حال ممّا تعلّقت به (من) فبعيد عن فهم الكلام الفصيح لأنهم نهوا عن اتّخاذ بطانة كافرة ، والتقييد بالوصف أو الحال يؤذن بجواز الاتخاذ عند انتفاء الأشياء التي نبّه إليها في الجمل .

(4) يجوز أن تكون الواو حالية والجملة في محلّ نصب حال بعدها . [. . . . . .]

وجملة : " تخفي صدورهم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " قد بيّنا لكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة - أو تعليلية - .

وجملة : " كنتم تعقلون " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تعقلون في محلّ نصب خبر كنتم . . . وجواب الشرط محذوف تقديره فلا

توالوهم أو فلا تتّخذوا منهم أصدقاء .

الصرف :

(بطانة) ، الخاصة الذين يباطنهم المرء في الأمور ، مشتقّة من البطن والباطن دون الظاهر وفعله من باب نصر وزنه فعالة بكسر الفاء ، اسم جامد وهو اسم جمع لا مفرد له من لفظه .

(خبالا) ، مصدر بمعنى الفساد ، وأصله ما يلحق الحيوان من مرض وفتور فيورثه فسادا أو اضطرابا ، وفعله خبل يخبل من باب ضرب وهو بالتخفيف على وزن فعال بفتح الفاء أو بالتشديد .

(البغضاء) ، مصدر كالسرّاء والضرّاء من بغض يبغض باب نصر وباب كرم وباب فرح ، وزنه فعلاء بفتح الفاء .

(أفواه) ، جمع فم وأصله فوه فلامه هاء ، يدلّ على ذلك جمعه على ذلك وتصغيره فويه ، وزنه فعل بضمّ فسكون ووزن أفواه أفعال .

(صدور) ، جمع صدر ، اسم ذات جامد ، وزنه فعل بفتح فسكون .

البلاغة

1 - "لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً" بطانة الرجل ووليجته من يعرفه أسراره ثقة به ، شبه ببطانة الثوب كما شبه بالشعار قال صلى اللّه عليه وسلم : الأنصار شعار والناس دثار .

2 – الانفصال : وهو أن يقول المتكلم ما يوهم أنه معلوم ظاهر ، ولكنه ينطوي على أمر وراء ذلك ، وهو أبعد غاية ، وأسمى متناولا وذلك في قوله " مِنْ أَفْوَاهِهِمْ "

فإن المعلوم أن المرء يعبر عما يكنه بفمه ، والانفصال في ذلك التسجيل عليهم بأنهم لا يتمالكون أن تند عن ألسنتهم ألفاظ تنم على الشعور بالبغضاء والموجدة .

3 – الطباق : بين بدت وتخفي .

الفوائد

قوله تعالى : " يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ " .

(159/132)

---

1 – تقدم معنا أنه يتوصل بـ " أي " إلى نداء المعرف بأل والأسماء الموصولة فتصبح أي هي المنادي والاسم الذي يليها يعرب بدلا منها ، وتجوز البدلية على اللفظ كما تجوز على المحل ، وأما فحوى الآية ، فهو التحذير من موالاة اليهود لما كانوا يضمرون من الشر والكيد للمؤمنين ولعلّ هذه الآية تنطبق على حال المؤمنين في كل عصر ، وهم بحاجة للعمل بمضمونها حيال كل معتد أثيم أو مغتصب دخيل . وقليل هم الذين يعملون بفحوى كلام اللّه ويعملون بمقتضاه .

[سورة آل عمران (3) : آية 119]

ها أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ وَإِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (119)

الإعراب:

(ها) حرف تنبيه (أنتم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (أولاء) اسم إشارة منادى معرفة مبنيّ على الضمّ المقدّر على آخره منع ظهوره حركة البناء الأصليّ في محلّ نصب " 1 "، (تحبّون) مضارع

(1) انظر الآية (85) من سورة البقرة، فثمّة أوجه أخرى في إعراب اسم الإشارة والجمل التي تليه.

مرفوع... والواو فاعل و(هم) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (لا) نافية (يحبّونكم) مثل تحبّونهم (الواو) عاطفة (تؤمنون) مثل تحبّون (بالكتاب) جرّ ومجرور متعلّق بـ (تؤمنون)، (كلّ) توكيد معنوي للكتاب مجرور مثله و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب قالوا في محلّ نصب (لقوا) فعل

ماض مبنيّ على الضمّ . . . والواو فاعل و(كم) ضمير مفعول به (قالوا) مثل لقوا (آمنّا) فعل ماض وفاعله (الواو) عاطفة (إذا خلوا) مثل إذا لقوا . . والضمّ مقدّر على الألف المحذوفة قبل الواو لالتقاء الساكنين (عضّوا) مثل لقوا (على) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من فاعل عضوا أي حانقين عليكم (الأنامل) مفعول به منصوب (من الغيظ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (عضّوا) ومن للسببيّة . (قل) فعل أمر والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (موتوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . . والواو فاعل (بغيظ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (موتوا) والباء للسببيّة " 1 " ، (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (عليم) خبر إنّ مرفوع (بذات) جارّ ومجرور متعلّق بعليم (الصّدور) مضاف إليه مجرور .

وجملة : " أنتم . . . تحبّونهم " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة النداء : " أولاء " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " تحبّونهم " في محلّ رفع خبر المبتدأ أنتم .

وجملة : " لا يحبّونكم " في محلّ رفع معطوفة على جملة تحبّونهم .

وجملة : " تؤمنون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة

---

(1) يجوز أن يتعلّق بمحذوف حال تقديره متلبّسين بغيظكم .

تحبّونهم .

وجملة : " لقوكم " في محلّ جرّ مضاف إليه . . وأداة الشرط وفعل الشرط وجوابه في محلّ رفع معطوفة على جملة تحبّونهم .

وجملة : " قالوا " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " آمنّا " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " خلوا " في محلّ جرّ مضاف إليه . . وأداة الشرط وفعل الشرط وجوابه في محلّ رفع معطوفة على جملة تحبّونهم .

وجملة : " عضّوا " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " موتوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّ اللّه عليم " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(الأنامل) ، جمع أنملة ، اسم جامد رأس الأصبع وزنه أفعلة بضمّ الهمزة وضمّ العين أو

بفتحهما أو بكسرهما ، وبضمّ الهمزة وفتح العين أو كسرها ، وبفتح الهمزة وضمّ العين أو كسرها ، وبكسر الهمزة وفتح العين - أي بتثليث الهمزة والعين - ويجوز جمعه على أنملات أيضا بتثليث الحرفين.

(الغيظ) ، مصدر سماعيّ لفعل غاظ يغيظ باب ضرب ، واسم مصدر لفعل غيظ الرباعي المشدّد العين وأغاظ الرباعيّ وغايظ ، وزنه فعل بفتح فسكون.

البلاغة

1 - "عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ" عض الأنامل عادة النادم الأسيف العاجز ، ولهذا أشير به إلى حال هؤلاء وليس المراد أن هناك عضا بالفعل وهذا على سبيل الكناية عن صفة.

(2) وفي الآية خروج الأمر عن معناه الحقيقي إلى معنى الدعاء عليهم بدوام الغيظ وزيادته بتضاعف قوة الإسلام وأهله إلى أن يهلكوا به أو باشتداده إلى أن يهلكهم.

الفوائد

- من غريب الإعراب ما ذهب إليه الكوفيون أن أسماء الإشارة إذا أريد منها التقريب أصبحت من أخوات كان ترفع الاسم وتنصب الخبر فيعربون اسم الإشارة اسما ناقصا والمرفوع اسم التقريب والمنصوب خبر التقريب ، وقد يكون الحق في جانبهم إذ لكل مجتهد نصيب فاختر ما تراه أقرب إلى الحق.

[سورة آل عمران (3) : آية 120]

إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (120)

الإعراب :

(162/132)

(إن) حرف شرط جازم (تمسس) مضارع مجزوم فعل الشرط و (كم) ضمير مفعول به (حسنة) فاعل مرفوع (تسؤ) مضارع مجزوم جواب الشرط و (هم) ضمير متّصل مفعول به والفاعل ضمير مستتر تقديره هي (الواو) عاطفة (تصبكم سيّئة) مثل تمسسكم حسنة (يفرحوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل (الباء) حرف جرّ و (ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يفرحوا) ، (الواو) حرف عطف (إن تصبروا) حرف شرط جازم وفعل الشرط وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل (تتّقوا) مثل تصبروا ومعطوف عليه (لا) نافية

(يضرّ) مضارع مرفوع " 1 " والفاء مقدّرة و (كم) ضمير مفعول به (كيد) فاعل مرفوع و (هم) ضمير مضاف إليه (شيئا) مفعول مطلق نائب عن المصدر منصوب أي شيئا من

الضرر (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول "

مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحيط (يعملون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (محيط) خبر إنّ مرفوع.

جملة : " تمسسكم حسنة " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " تسؤهم " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " تصبكم سيّئة " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة : " يفرحوا بها " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة : " تتّقوا " لا محلّ لها معطوفة على جملة تصبروا .

وجملة : " لا يضرّكم كيدهم " في محلّ جزم جواب الشرط بتقدير الفاء " 3 " .

وجملة : " إنّ اللّه . . . محيط " لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) هذا الإعراب هو خير ما نأخذ به في مثل هذا التعبير حين يأتي المضارع مرفوعا وهو جواب الشرط - وهو قول المبرّد - لأن هذه الفاء قد ترد في مواضع أخرى ، كقوله تعالى : فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً [الجنّ - 13] . أمّا سيبويه فيجعله مرفوعا لأنه دليل جواب الشرط على نيّة التقديم .

(2) أو حرف مصدريّ، المصدر المؤوّل في محلّ جرّ بالباء .

(3) الذي سوّغ جعل الجملة في محلّ جزم لا في محلّ رفع خبرا لمبتدأ محذوف كما هو المألوف - أنّ الجملة مسبوقة بحرف النفي (لا) ، وهذا يقارب سبق الفعل بـ (لن) أو (ما) النافيتين حين اقتران الجملة بالفاء .

وجملة : "يعملون" لا محلّ لها صلة الموصول الاسميّ أو الحرفيّ (ما) .

الصرف :

(كيد) مصدر سماعيّ لفعل كاد يكيد باب ضرب، وزنه فعل بفتح فسكون .

(محيط) ، اسم من أحاط الرباعيّ وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين وسكّن حرف العلّة للثقل، وفي اللفظ إعلال، أصله محوط بسكون الحاء وكسر الواو، استثقلت الكسرة على الواو فنقلت حركتها إلى الحاء فأصبح محوط بكسر الحاء وسكون الواو، ثمّ قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها فأصبح (محيط) (انظر البقرة - 19) .

البلاغة

1 - التعبير هنا بالمسّ مع الحسنة وبالإصابة مع السيئة لمجرد التفنن في التعبير على سبيل

الاستعارة المكنية. وهذا من بديع الكلام الذي تتقطع دونه الأعناق.

الفوائد

1 - قوله تعالى "لا يَضُرُّكُمْ" فهو مجزوم بجواب الشرط وقاعدة الفعل المضعف إذا جزم فلحركته ثلاثة أوجه: الأول أن يحرك حركة موافقة لحركة عين الفعل، الثاني أن يتحرك بالفتح لخفة الفتحة، وهناك قراءة ثالثة للفعل "يضركم" بكسر الضاد وظهور السكون على آخر الفعل. وهذه القراءة على "فك إدغام الفعل المضعف لدى جزمه".

(164/132)

[سورة آل عمران (3) : آية 121]

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (121)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (إذ) اسم ظرفيّ مبنيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر.

(غدوت) فعل ماض مبنيّ على السكون (التاء) فاعل، (من أهل)، جارّ ومجرور متعلّق بـ (غدوت) و(الكاف) ضمير مضاف إليه (تبوّئ) مضارع مرفوع، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (المؤمنين) مفعول به أوّل منصوب "1" (مقاعد) مفعول به ثان منصوب

(للقتال) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تبوّئ) " 2 " ، (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (سميع) خبر مرفوع (عليم) خبر ثان مرفوع.

جملة: " غدوت... " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: " تبوّئ... " في محلّ نصب حال من فاعل غدوت " 3 ".

وجملة: " اللّه سميع " لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(مقاعد)، جمع مقعد وهو اسم مكان من قعد يقعد باب نصر، وزنه مفعل بفتح الميم والعين لأن العين في مضارع مضمومة.

الفوائد

1 - هناك بعض الأفعال يمكن أن تأتي ناقصة فترفع الاسم وتنصب الخبر ويمكن أن تأتي تامة فتكتفي بفاعلها ومنها الفعل " غد " فيمكن أن يستعمل بمعنى الذهاب بالصباح فيكون فعلا تاما. وقد يأتي بمعنى صار كقولك " لقد غدا فلان صديقا " " فيكون فلان اسمها وصديقا خبرها ".

---

(1) أو هو منصوب على نزع الخافض وهو اللام، وقد ورد في قوله تعالى: وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ.

(2) أو بمحذوف نعت لمقاعد.

(3) وهي حال مقدّرة لاختلاف زمني الغدوّ والتبوّء ، وقد تكون مقارنة أي قاصدا تبوّء المؤمنين مقاعد .

(165/132)

[سورة آل عمران (3) : آية 122]

إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُما وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (122)

الإعراب :

(إذ) اسم ظرفيّ في محلّ نصب بدل من إذ الوارد في الآية السابقة " 1 " ، (همّت) فعل ماض ... والتاء للتأنيث (طائفتان) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الألف (من) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف نعت لـ (طائفتان) ، (أن) حرف مصدري ونصب (تفشلا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون ... و(الألف) ضمير مبنيّ في محلّ رفع فاعل .

والمصدر المؤوّل (أن تفشلا) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف هو الباء ، والجارّ متعلّق بـ (همّت) .

(الواو) استئنافيّة أو حاليّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (وليّ) خبر مرفوع و(هما) ضمير

في محلّ جرّ مضاف إليه (الواو) عاطفة (على اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يتوكّل) " 2 " ،

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر " 3 " .

(اللام) لام الأمر (يتوكّل) مضارع مجزوم وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين (المؤمنون) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " همّت طائفتان " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تفشلا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

---

(1) أو هو ظرف للزمن الماضي متعلّق بعليم في الآية السابقة .

(2) قدّم الجارّ هنا للاهتمام به .

(3) والتقدير : إن فشل بعض الناس فليتوكّل المؤمنون على اللّه .

(166/132)

وجملة : " اللّه وليّهما " لا محلّ لها استئنافيّة - أو في محلّ نصب حال - .

وجملة : " يتوكّل المؤمنون " جواب شرط مقدّر " 1 " ، وجملة الشرط المقدّرة معطوفة على جملة اللّه وليّهما .

[سورة آل عمران (3) : آية 123]

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) واقعة في جواب قسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (نصر) فعل ماض و(كم) ضمير مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (ببدر) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نصركم) والباء بمعنى في " 2 " (الواو) حاليّة (أنتم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أذلّة) خبر مرفوع (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اتّقوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . . والواو فاعل (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (لعلّ) حرف مشبّه بالفعل للترجي و(كم) ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ (تشكرون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة : " نصركم اللّه . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة : " أنتم أذلّة " في محلّ نصب حال .

وجملة : " اتّقوا اللّه " جواب شرط مقدّر " 3 " .

---

(1) والتقدير : إن فشل بعض الناس فليتوكّل المؤمنون على اللّه .

(2) يجوز أن يتعلّق الجارّ بمحذوف حال من مفعول نصر أي : نصركم موجودين ببدر .

(3) أي : إن فعل اللّه بكم ذلك فاتّقوه . [. . . . .]

وجملة: "لعلّكم تشكرون" لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "تشكرون" في محلّ رفع خبر لعلّ.

الصرف:

(أذلّة)، جمع ذليل، صفة مشبّهة من ذلّ يذلّ باب ضرب، وزنه فعيل، وثمّة جمعان آخران

له هما: أذلّاء وذلال بكسر الذال.

البلاغة

1 - "وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ" الكلام كناية عن قلة عددهم وعدتهم وما كان بهم من ضعف الحال،

وذلك أنهم خرجوا على النواضح يعتقب النفر منهم على البعير الواحد، وما كان معهم إلا

فرس واحد.

[سورة آل عمران (3): آية 124]

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ (124)

الإعراب:

(إذ) اسم ظرفيّ مبنيّ متعلّق بـ (نصركم) في الآية السابقة "1"، (تقول) مضارع مرفوع،

والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت

---

(1) يجوز أن يكون بدلا من قوله إِذْ هَمَّتْ في الآية (122) لأن القصّة فيهما واحدة على هذا الرأي . . . وثمّة خلاف كبير بين المفسّرين في تفسير هذه الآية أنقل ملخّصا له من البحر المحيط لأبي حيّان ، قال : ظاهر هذه الآية اتصالها بما قبلها لأنّها من قصة بدر وهو قول الجمهور فيكون (إذ) معمولا لـ (نصركم) ، وقيل هذا من تمام قصة أحد فيكون قوله : ولقد نصركم اللّه ببدر معترضا بين الكلامين لما فيه من التحريض على التوكّل والثبات للقتال ، وحجة هذا القول أنّ يوم بدر كان المدد فيه من الملائكة ألفا وهنا بثلاثة آلاف وخمسة آلاف . . . وقال :

يأتوكم من فورهم أي الإمداد - يعني إمداد الكفار - ويوم بدر ذهب المسلمون إليهم .

(168/132)

(للمؤمنين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تقول) وعلامة الجرّ الياء (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (لن) حرف نفي ونصب (يكفي) مضارع منصوب و(كم) ضمير مفعول به (أن) حرف مصدريّ ونصب (يمدّ) مضارع منصوب و(كم) ضمير مفعول به (ربّ) فاعل مرفوع و(كم) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن يمدّكم ربّكم) في محلّ رفع فاعل يكفي .

(بثلاثة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يمدّكم) ، (آلاف) مضاف إليه مجرور " 1 " ، (من الملائكة) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت للتمييز المقدّر وهو ملك (منزلين) حال من الملائكة منصوبة وعلامة النصب الياء " 2 " .

جملة : " تقول . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " لن يكفيكم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يمدّكم ربّكم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

الصرف :

(منزلين) ، جمع منزل - بفتح الزاي - اسم مفعول من أنزل الرباعيّ وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين ، وفي اللفظ حذفت الهمزة من أوله كما حذفت من الفعل .

الفوائد

- قوله تعالى : " أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ " الهمزة للاستفهام الاستنكاري وقد أحالت النفي إلى إيجاب وقد مرّ معنا أن الهمزة تخرج عن معناها الأصلي الذي وضعت له وهو

---

(1) المعروف ان تميز المائة والألف ومضاعفاتهما هو مفرد مجرور بالاضافة ، فلفظ العدد لا يكون منونا الّا بحذف المضاف إليه كهذه الآية ، والتمييز المقدّر في هذه الآية : ثلاثة آلاف

ملك من الملائكة .

(2) أي يمدّكم اللّه بالعون في حال هبوط الملائكة إلى الأرض . . .)

(169/132)

الاستفهام ، ولتمكين ذلك من أذهان القراء نعود لتقرير ذلك بالتفصيل فهي ترد لثمانية معان

:

1 - همزة التسوية : وهي التي تكون ما بعد كلمة سواء أو ما في معناها يقع بعدها جملة يصح حلول المصدر محلها نحو : " سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ " 2 - الإنكار الابطالي : وهي تقضي أن ما بعدها - إذا أزيل الاستفهام - غير واقع كقوله تعالى : أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثاً .

3 - الإنكار التوبيخي وهي التي ما بعدها واقع وفاعله ملوم نحو : " أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ "

.

4 - التقرير : وهو حملك المخاطب على الإقرار الاعترافي بأمر قد استقر عنده ثبوته أو نفيه .

5 - التهكم نحو " قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا " 6 - الأمر نحو : "

أَأَسْلَمْتُمْ " أي أسلموا .

7 - التعجب نحو : أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ؟ 8 - الاستبطاء نحو : أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ؟ !

[سورة آل عمران (3) : آية 125]

بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125)

الإعراب :

(بلى) حرف جواب إيجاب السؤال المنفيّ : ألن يكفيكم . . (إن) حرف شرط جازم (تصبروا) مضارع مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل (الواو) عاطفة (تتّقوا) مثل تصبروا ومعطوف عليه (الواو) عاطفة (يأتوا) مثل تصبروا ومعطوف عليه و(كم) ضمير مفعول به (من فور) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يأتوا) ، و(هم) ضمير مضاف إليه (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جر نعت لفور أو عطف بيان له (يمدد) مضارع مجزوم جواب الشرط و(كم) ضمير مفعول به (ربّ) فاعل مرفوع و(كم) مضاف إليه (بخمسة آلاف من الملائكة) مثلها في الآية السابقة (مسوّمين) حال منصوبة من الملائكة ، وعلامة النصب الياء .

جملة : " إن تصبروا . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: " تتقوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تصبروا .

وجملة: " يأتوكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تصبروا .

وجملة: " يمددكم ربّكم " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء .

الصرف:

(الفور) ، مصدر سماعيّ لفعل فار يفور باب نصر بمعنى أسرع وعجل ومنه فارت القدر أي اشتدّ غليانها وسارع ما فيها إلى الخروج . . أو هو اسم بمعنى الوقت الآنيّ أو الحال التي لا بطء فيها ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(مسوّمين) ، جمع مسوّم - بكسر الواو - اسم فاعل من سوّم الرباعيّ المشدّد العين ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وكسر العين المشدّدة .

الفوائد

1 - بلى حرف جواب مثل نعم وأحرف الجواب هي:

" لا ، نعم ، بلى ، إي ، أجل ، جلل ، جير ، إنّ " .

ولكل من هذه الأحرف خصائص يمكن أن نتعرض لها افراديا كلما حان حين اداة منها .

[سورة آل عمران (3) : آية 126]

وَما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ

الإعراب :

(170/132)

(الواو) عاطفة (ما) نافية (جعل) فعل ماض ، و(الهاء) ضمير مفعول به وهو الإمداد

(اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (إلا) أداة حصر (بشرى) مفعول به ثان منصوب وعلامة

النصب الفتحة المقدّرة على الألف " 1 " ، (اللام) حرف جرّ

و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف نعت لبشرى (الواو) عاطفة (اللام) للتعليل

(تطمئنّ) مضارع منصوب بـ (أن) مضمرة بعد اللام (قلوب) فاعل مرفوع و(كم) ضمير

مضاف إليه (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف حال من

القلوب " 2 " .

والمصدر المؤوّل (أن تطمئنّ قلوبكم) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل محذوف دلّ عليه فعل

جعل المذكور ، أو معطوف على بشرى وقد جرّ باللام لاختلال شرط النصب .

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (النصر) مبتدأ مرفوع (إلّا) أداة حصر (من عند) جارّ

ومجرور متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (العزيز) نعت

للّه مجرور مثله ومثله الحكيم.

جملة: " ما جعله اللّه... " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة في السابقة.

وجملة: " تطمئنّ قلوبكم " لا محل لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: " جعل المقدّرة " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعله الظاهرة.

وجملة: " ما النّصر إلّا " لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) أو مفعوله لأجله إذا كان (جعل) متعدّيا لواحد.

(2) أو متعلّق بـ (تطمئنّ).

(171/132)

[سورة آل عمران (3) : آية 127]

لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ (127)

الإعراب:

(اللام) للتعليل (يقطع) مضارع منصوب بـ (إن) مضمرة بعد اللام، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي اللّه (طرفا) مفعول به منصوب (من) حرف جرّ (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف نعت لـ (طرفا)، (كفروا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ... والواو

فاعل .

والمصدر المؤوّل (أن يقطع) في محلّ جرّ باللام متعلّق بالاستقرار الذي تعلّق به (من عند) في الآية السابقة ، أي النّصر كائن من عند اللّه لقطع طرف من الذين كفروا " 1 " .

(أو) حرف عطف (يكبت) مثل يقطع ومعطوف عليه و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الفاء) عاطفة (ينقلبوا) مضارع منصوب معطوف على (يكبتهم) وعلامة النصب حذف النون . .

والواو فاعل (خائبين) حال منصوبة وعلامة النصب الياء .

جملة : " يقطع . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ المقدّر (أن) .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يكبتهم لا محلّ لها معطوفة على جملة يقطع وجملة : " ينقلبوا لا محلّ لها معطوفة على جملة يكبتهم .

الصرف :

(طرفا) ، اسم بمعنى طائفة أو قسم ، وزنه فعل بفتحتين .

---

(1) يجوز تعليقه بالمصدر (النصر) في الآية السابقة ، أو بفعل مقدّر أي نصركم ليقطع أو أمدّكم أو بالفعل نصركم المذكور في الآية (123) وما بينهما اعتراض .

(خائبين) ، جمع خائب ، اسم فاعل من خاب يخيب باب ضرب وزنه فاعل ، وفيه قلب حرف العلّة همزة بعد ألف فاعل اطّرادا .

البلاغة

" لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا " أي ليهلك طائفة منهم بالقتل والأسر ، فقد شبه من قتل منهم وتفرق بالشيء المقتطع الذي تفرقت أجزاؤه واختل نظامه وهذا من قبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

[سورة آل عمران (3) : آية 128]

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ (128)

الإعراب :

(ليس) فعل ماض ناقص جامد (اللام) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للناقص (من الأمر) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من شيء - نعت تقدّم على المنعوت - (شيء) اسم ليس مؤخّر مرفوع (أو) حرف عطف بمعنى إلى (يتوب) مضارع منصوب بـ (أن) مضمرة بعد أو ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (على)

حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يتوب) ، (أو) عاطفة (يعذّب) مضارع منصوب معطوف على (يتوب) ، و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (الفاء) تعليليّة (إنّ) حرف مشبّه بالفعل و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (ظالمون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو .

والمصدر المؤوّل (أن يتوب . . .) في محلّ رفع معطوف على شيء والتقدير : ليس شيء من أجلهم منك أو توبة عليهم من اللّه .

جملة : " ليس لك من الأمر شيء " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يتوب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ المقدّر (أن) .

وجملة : " يعذّبهم " لا محلّ لها معطوفة على جملة يتوب .

وجملة : " إنّهم ظالمون " لا محلّ لها تعليليّة .

الفوائد

1 - قوله تعالى : " أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ " منصوب بأن مضمرة جوازا بعد " أو " وقد اختصت " أن " من بين نواصب الفعل المضارع بأنها تنصب ظاهرة ومضمرة ونصبها مضمرة على وجهين " جائز وواجب " فأما الجائز فهو في ست مواضع أو بعد ستة أحرف ، الأول لام كي وهي لام التعليل ، والثاني لام العاقبة التي يكون ما بعدها علة لما قبلها ، وتسمى لام الصيرورة ولام النتيجة ، والثالث والرابع والخامس والسادس هي " الواو والفاء وثمّ وأو

العاطفات " وشرط نصبه بعدهن بأن مضمرة : إذا لزم عطفه على اسم محض أي جامد غير مشتق . وأما كونها مضمرة وجوبا فهو بعد خمسة أحرف :

(173/132)

الأول : لام الجحود وسماها بعضهم لام النفي . والثاني فاء السببية . والثالث واو المعية .

والرابع : حتى الجارة التي بمعنى إلى أو لام التعليل . الخامس أو التي يصح في موضعها " إلى أو إلّا " كقول الشاعر :

لاستسهلنّ الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر .

وكان بودّي أن استشهد لكل موضع من مواضع الجواز والوجوب لولا أن ذلك قد يخرجنا عن القصد والاعتدال فيما نحن بصدده .

[سورة آل عمران (3) : آية 129]

وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (129)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (للّه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (ما) اسم موصول مبنيّ في

محلّ رفع مبتدأ مؤخّر (في السموات) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة ما (الواو) عاطفة (ما في الأرض) مثل ما في السّموات ومعطوف عليه (يغفر) مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (اللام) حرف جرّ (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (يغفر) ، (يشاء) مثل يغفر (الواو) عاطفة (يعذّب من يشاء) مثل يغفر لمن يشاء ، ومن مفعول به (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (غفور) خبر مرفوع (رحيم) خبر ثان مرفوع.

جملة: "للّه ما في السّموات" لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة في السابقة.

وجملة: "يغفر... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "يشاء (الأولى) " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول.

وجملة: "يعذّب... " لا محلّ لها معطوفة على جملة يغفر.

وجملة: "يشاء (الثانية) لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني.

وجملة: "اللّه غفور" لا محلّ لها استئنافيّة.

[سورة آل عمران (3) : آية 130]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (130)

الإعراب:

(يا) أداة نداء (أيّها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب . . . وها التنبيه (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب نعت لأي – على المحلّ – أو بدل منه (آمنوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . . والواو فاعل (لا) ناهية جازمة (تأكلوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل (الرّبا) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (أضعافا) مصدر في موضع الحال منصوبة (مضاعفة) نعت لأضعاف منصوب مثله (الواو) عاطفة (اتّقوا) أمر وفاعله (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (لعلّ) حرف مشبّه بالفعل للترجّي و(كم) ضمير اسم لعلّ (تفلحون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : يأيها الذين . . . لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : آمنوا . . . لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لا تأكلوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " اتّقوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تأكلوا .

وجملة : " لعلّكم تفلحون " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " تفلحون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

الصرف :

(مضاعفة) ، مؤنّث مضاعف ، اسم مفعول من ضاعف الرباعيّ وزنه مفاعل بضمّ الميم وفتح العين .

البلاغة

1 - المجاز المرسل : في قوله تعالى : " يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا " .

ومعنى لا تأكلوا الربا : لا تأخذوا الربا فعبّر بالأكل لأنه مسبب عن الأخذ فعلاقة المجاز هنا المسببية .

الفوائد

1 - نبذة تاريخية : كان العرب في الجاهلية يقولون إذا حلّ أجل الدين إما أن تقضي وإما أن تربى فإن قضاه والا زاده في المدة وزاده الآخر في قدر الفائدة ، وهكذا كل عام فربما تضاعف القليل حتى يصبح كثيرا مضاعفا .

وقد حارب الإسلام كل وسيلة تجعل المال دولة بين الأغنياء ، مرة بتحريم الربا ومرة بتشجيع الإحسان والصدقات ، ومرة بتحريم الاحتكار ، إلى آخر ما هنالك من

الوسائل التي تكون سببا للعدل وتحقيق المساواة بين أفراد المجتمع.

[سورة آل عمران (3) : الآيات 131 إلى 133]

وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ (131) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (132)

وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (اتّقوا النار) مثل اتّقوا الله في الآية السابقة (الّتى) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب نعت للنار (أعدّت) فعل ماض مبنيّ للمجهول... والتاء للتأنيث، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هي (للكافرين) جار ومجرور متعلّق بـ (أعدّت) وعلامة الجرّ الياء.

جملة: «اتّقوا النّار» لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تأكلوا الرّبا في الآية السابقة.

وجملة: «أعدّت...» لا محلّ لها صلة الموصول (التي).

(الواو) عاطفة (أطيعوا الله) مثل اتّقوا الله «1»، (الواو) عاطفة (الرّسول) معطوفة على لفظ الجلالة منصوب مثله (لعلّكم ترحمون) مثل لعلّكم تفلحون «2»، والفعل مبنيّ للمجهول... والواو نائب فاعل.

جملة: «أطيعوا الله» لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تأكلوا «3».

وجملة: «لعلّكم ترحمون» لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: «ترحمون» في محلّ رفع خبر لعلّ.

(الواو) عاطفة (سارعوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (إلى مغفرة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (سارعوا) ، (من ربّ) جارّ

(1 ، 2 ، 3) في الآية (130) من هذه السورة.

(176/132)

و مجرور متعلّق بمحذوف نعت لمغفرة و (كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (جنّة) معطوف على مغفرة مجرور مثله (عرض) مبتدأ مرفوع و (ها) ضمير مضاف إليه (السّموات) خبر مرفوع على حذف مضاف أي سعة السموات أو عرض السموات (الواو) عاطفة (الأرض) معطوف على السموات مرفوع مثله (أعدّت للمتّقين) مثل أعدّت للكافرين.

جملة: "سارعوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تأكلوا " 1 " .

جملة: "عرضها السموات . . " في محلّ جرّ نعت لجنّة.

وجملة: "أعدّت . . " في محلّ جرّ نعت ثان لجنّة " 2 " .

الصرف:

(عرضها) اسم ضد الطول أو مقابله وزنه فعل بفتح فسكون . . وانظر الآية (21) من

سورة الحديد .

البلاغة

1 - اشتملت هذه الآية الكريمة على فن جليل القدر وهو التنكيت في التشبيه ، وحدّه أن يقصد المتكلم إلى شيء بالذكر دون غيره مما يسد مسده لأجل نكتة ، وإذا وقع في التشبيه فقد بلغ الغاية ، وهو هنا في قوله تعالى " عَرْضُهَا السَّمَاواتُ وَالْأَرْضُ " والمراد كعرض السموات والأرض والعرض أقصر الامتدادين ، وفي ذكره دون ذكر الطول مبالغة ، وزاد في المبالغة بحذف أداة التشبيه وتقدير المضاف .

الفوائد

(و) الجماعة : واو تتصل بالفعل للدلالة على الجمع . فتكون ضميرا متّصلا مبنيا على السّكون في محلّ رفع . لأنّها إمّا فاعل أو نائب فاعل ، مثل : كتبوا يكتبون .

---

(1) في الآية (130) من هذه السورة .

(2) أو في محلّ نصب حال من جنّة لأنها وصفت . . . أو هي استئنافيّة لا محلّ لها .

اكتبوا . سارعوا . ضربوا . ينصرون .

[سورة آل عمران (3) : آية 134]

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134)

الإعراب :

(الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ نعت للمتّقين " 1 " ، (ينفقون) مضارع مرفوع .
والواو فاعل (في السرّاء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ينفقون) على حذف مضاف أي في حال اليسر (الضرّاء) معطوف على السرّاء بحرف العطف مجرور مثله (الواو) عاطفة (الكاظمين) معطوف على اسم الموصول تبعه في إحدى حالتي الجرّ والنصب والياء علامة لهما (الغيظ) مفعول به لاسم الفاعل الكاظمين منصوب (الواو) عاطفة (العافين) معطوف على الكاظمين - أو على الموصول - مجرور أو منصوب (عن النّاس) جارّ ومجرور متعلّق بالعافين (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (يحبّ) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (المحسنين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : " ينفقون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " اللّه يحبّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يحبّ المحسنين " في محلّ رفع خبر المبتدأ اللّه .

---

(1) يجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف وجوبا تقديره هم لأنه نعت مقطوع للمدح أو في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره أمدح.

(178/132)

الصرف:

(السرّاء)، مصدر سماعيّ بمعنى المسرّة، والهمزة زائدة للتأنيث، وزنه فعلاء، والفعل سرّ يسرّ باب نصر.

(الكاظمين)، جمع الكاظم، اسم فاعل من كظم يكظم باب ضرب، وزنه فاعل.

(العافين)، جمع العافي، اسم فاعل من عفا يعفو باب نصر، وزنه فاعل، وفي الكلمة إعلال، أصلها العافو، جاءت الواو ساكنة - الحركة مقدّرة عليها - مكسور ما قبلها قلبت ياء، وفي لفظ العافين إعلال آخر هو حذف حرف العلّة لالتقاء الساكنين، سكون حرف العلّة الياء وسكون الياء علامة الإعراب.

[سورة آل عمران (3): آية 135]

وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (الذين) معطوف على الموصول في الآية السابقة يأخذ محلّه من الإعراب (إذا) ظرف شرطيّ متعلّق بالجواب ذكروا (فعلوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (فاحشة) مفعول به منصوب (أو) حرف عطف (ظلموا) مثل فعلوا (أنفس) مفعول به منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (ذكروا) مثل فعلوا (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (الفاء) عاطفة (استغفروا) مثل فعلوا (لذنوب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (استغفروا) ، و(هم) مضاف إليه ضمير (الواو) اعتراضيّة أو حاليّة (من) اسم استفهام في معنى النفي في محلّ رفع مبتدأ (يغفر) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الذنوب) مفعول به منصوب (إلا) أداة حصر (اللّه) لفظ الجلالة بدل من الضمير المستتر في (يغفر) مرفوع (الواو) عاطفة (لم) حرف نفي وجزم وقلب (يصرّوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل (على) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (يصرّوا) ، (فعلوا) مثل الأول (الواو) حاليّة (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يعلمون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " الشرط وفعله وجوابه . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " فعلوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة: " ظلموا .. " في محلّ جرّ معطوفة على جملة فعلوا.

وجملة: " ذكروا .. " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: " استغفروا ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة الجواب.

وجملة: " من يغفر .. " لا محلّ لها اعتراضيّة " 1 ".

وجملة: " يغفر ... " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من).

وجملة: " لم يصرّوا " لا محلّ لها معطوفة على جملة الجواب " 2 ".

وجملة: " فعلوا (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: " هم يعلمون " في محلّ نصب حال.

وجملة: " يعلمون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم).

الصرف:

(فاحشة)، مؤنّث الفاحش، وكذلك هي بمعنى الفحشاء ..

وزنها فاعلة.

---

(1) أو في محلّ نصب حال، لأن الاستفهام في معنى النفي فالجملة خبريّة لا إنشائيّة.

(2) يجوز أن تكون هذه الجملة حالا من الواو في (استغفروا)، أي: استغفروا غير مصرّين.

[سورة آل عمران (3) : آية 136]

أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (136)

الإعراب:

(أولاء) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ و(الكاف) حرف خطاب (جزاء) مبتدأ ثان مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه (مغفرة) خبر المبتدأ جزاء (من ربّ) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لمغفرة و(هم) مضاف إليه (الواو) عاطفة (جنّات) معطوف على مغفرة مرفوع مثله (تجري) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة (من تحت) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تجري) ، و(ها) ضمير مضاف إليه (الأنهار) فاعل مرفوع ، (خالدين) حال من الضمير في (جزاؤهم) لأنه المفعول في المعنى ، وعلامة النصب الياء (في) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخالدين (الواو) استئنافيّة (نعم) فعل ماض جامد لإنشاء المدح (أجر) فاعل نعم مرفوع (العاملين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء ، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره الجنّة.

جملة: "أولئك جزاؤهم.. "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "جزاؤهم مغفرة" في محلّ رفع خبر المبتدأ أولئك.

وجملة: "تجري... "الأنهار في محلّ رفع نعت لجنّات.

وجملة: "نعم أجرّ العاملين" لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(العاملين)، جمع العامل، اسم فاعل من عمل يعمل باب فرح، وزنه فاعل.

[سورة آل عمران (3): آية 137]

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137)

الإعراب:

(قد) حرف تحقيق (خلت) فعل ماض.. والتاء للتأنيث (من قبل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (خلت)، و(كم) ضمير مضاف إليه (سنن) فاعل مرفوع (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (سيروا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون.. والواو فاعل (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (سيروا)، (الفاء) عاطفة (انظروا) مثل سيروا (كيف) اسم استفهام مبنيّ في محلّ

نصب خبر مقدّم (كان) فعل ماض ناقص (عاقبة) اسم كان مرفوع (المكذّبين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " خلت سنن . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " سيروا . . " جواب شرط مقدّر أي : إن شككتم فسيروا .

وجملة : " انظروا . . " معطوفة على جملة سيروا . .

وجملة : " كان عاقبة المكذّبين " في محلّ نصب مفعول به لفعل انظروا المعلّق بالاستفهام (كيف) ، وهذا المفعول مقيّد بالجار " 1 " .

الصرف :

(سنن) ، جمع سنّة بمعنى الطريقة والعادة من فعل سنّ يسنّ باب نصر وهو اسم على وزن فعلة بضمّ الفاء وسكون العين .

(عاقبة) ، مؤنّث عاقب بلفظ اسم الفاعل ومعنى المصدر أي الجزاء ، وزنه فاعل من عقب يعقب باب نصر وباب ضرب وهو مصدر سماعيّ للفعل ، وثمّة مصادر أخرى هي عقب بفتح فسكون وعقوبة بضمّ العين .

---

(1) أي أن معنى الجارّ ملاحظ فيها لأنك تقول : فكّرت فيه وسألت عنه ونظرت فيه . . (انظر إعراب الجمل في المغني لابن هشام . .) .

البلاغة

1 - إن الأمر بالسير والنظر وإن كان خاصّا بالمؤمنين لكن العمل بموجبه غير مختص بواحد دون واحد ففيه حمل للمكذبين أيضا على أن ينظروا في عواقب من قبلهم من أهل التكذيب ويعتبروا وهذا من قبيل المجاز والعلاقة في هذا المجاز ما يؤول إليه أمر السير في الأرض.

[سورة آل عمران (3) : آية 138]

هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (138)

الإعراب:

(ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (بيان) خبر مرفوع (للناس) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لبيان " 1 "، (الواو) عاطفة في الموضعين (هدى، موعظة) معطوفان على بيان مرفوعان مثله، وعلامة الرفع في هدى الضمّة المقدّرة على الألف (للمتّقين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (هدى) أو بموعظة فهما مصدران.

والجملة... لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(بيان) مصدر سماعيّ لفعل بان يبين باب ضرب وزنه فعال بفتح الفاء، وثمّة مصادر أخرى هي تبيان بفتح التاء وكسرها.

[سورة آل عمران (3) : آية 139]

وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (لا) ناهية جازمة (تهنوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون.. والواو فاعل (الواو) عاطفة (لا تحزنوا) مثل لا تهنوا (الواو) حاليّة (أنتم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (الأعلون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو (إن) حرف شرط جازم (كنتم) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون في محلّ جزم

---

(1) أو متعلّق ببيان فهو مصدر. [.....]

فعل الشرط... و(تم) ضمير اسم كان (مؤمنين) خبر كان منصوب وعلامة النصب الياء.

جملة: "لا تهنوا" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " لا تحزنوا " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: " أنتم الأعلون " في محلّ نصب حال.

وجملة: "كنتم مؤمنين " لا محلّ لها استئنافيّة... وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله. أي: فلا تهنوا ولا تحزنوا...

الصرف:

(تهنوا)، فيه إعلال بالحذف، أصله توهنوا جرى فيه الحذف مجرى وجد ووصل في المضارع وزنه تعلوا.

(الأعلون)، فيه إعلال بالحذف، حذف حرف العلّة الألف لمجيئه ساكنا قبل الواو الساكنة ثمّ فتح ما قبل الواو دلالة على الألف المحذوفة، وزنه الأفعون بفتح العين.

[سورة آل عمران (3) : آية 140]

إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140)

الإعراب:

(إن) حرف شرط جازم (يمسس) مضارع مجزوم فعل الشرط و(كم) ضمير مفعول به (قرح) فاعل مرفوع (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قد) حرف تحقيق (مسّ) فعل ماض (القوم) مفعول به مقدّم منصوب (قرح) فاعل مرفوع (مثل) نعت لقرح مرفوع و(الهاء) ضمير

مضاف إليه . (الواو) استئنافيّة (تي) اسم اشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (الأيام) بدل من تلك تبعه في حال

(183/132)

الرفع (نداول) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم ، و(ها) ضمير مفعول به (بين) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (نداول) ، (الناس) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (اللام) للتعليل (يعلم) مضارع منصوب بـ (أن) مضمرة بعد اللام (اللّه) فاعل مرفوع (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (آمنوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . . والواو فاعل .

والمصدر المؤوّل (أن يعلم اللّه) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (نداولها) ، وهذا الجارّ معطوف على جارّ مقدّر أي : ليتّعظوا وليعلم اللّه . . .

(الواو) عاطفة (يتّخذ) مضارع منصوب معطوف على فعل يعلم ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (من) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يتّخذ) " 1 " ، (شهداء) مفعول به منصوب (الواو) اعتراضيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (لا) نافية (يحبّ) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الظالمين) مفعول به منصوب وعلامة

النصب الياء .

جملة : " يمسسكم قرح " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قد مسّ القوم قرح " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء " 2 " .

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من شهداء - نعت تقدّم على المنعوت -

(2) قال أبو حيّان في البحر : " جواب الشرط محذوف تقديره فتأسّوا فقد مسّ . . لأن الماضي معنى يمتنع أن يكون جوابا للشرط ، ومن زعم أن جواب الشرط هو فقد مسّ . . فهو ذاهل " أ ه . هذا الاعتراض لا مسوّغ له لأن الجملة قد اقترنت بالفاء وسبق الفعل بقد التي تقرّبه من الحال القريب من الاستقبال .

(184/132)

وجملة : " تلك الأيام نداولها " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نداولها . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ تلك " 1 " .

وجملة : " يعلم اللّه " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " آمنوا " لا محلّ لها صلة الموصول ، (الذين) .

وجملة : " يتّخذ . . . " في محلّ لها معطوفة على جملة يعلم .

وجملة: "اللّه لا يحبّ الظالمين" لا محلّ لها اعتراضيّة.

وجملة: "لا يحبّ الظالمين" في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه).

الصرف:

(قرح)، مصدر سماعيّ لفعل قرحته أقرحه باب فرح، وزنه فعل بفتح فسكون.

الفوائد

1 - وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ.

أجاز بعضهم إعراب "الأيام" خبرا لاسم الاشارة "تلك" التي هي في محلّ رفع مبتدأ.

والخطأ بيّن في هذا الاتجاه، لأن الاسم المعرف بـ "ال" بعد اسم الإشارة لا يعرب إلا عطف

بيان أو بدل وفي ذلك يقول ابن مالك:

وكل اسم معرّف بأل بعد اسم إشارة فعطف أو بدل

وفي هذه الآية إعراب الأيام على البدلية هو الوجه الواضح والصحيح وفيه انسياق المعنى

ووضوحه.

[سورة آل عمران (3): آية 141]

وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكافِرِينَ (141)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (ليمحّص... آمنوا) مثل ليعلم اللّه الذين آمنوا في الآية السابقة.

(1) يجيز بعضهم أن تكون الجملة حالا، وخبر المبتدأ لفظ الأيام.

(185/132)

والمصدر المؤوّل (أن يمحص اللّه) في محلّ جرّ باللام متعلّق بما تعلّق به ليعلم في الآية السابقة فهو معطوف عليه.

(الواو) عاطفة (يمحق) مضارع منصوب معطوف على يمحّص، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الكافرين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء.

جملة: "يمحّص اللّه... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: "آمنوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: " يمحق... " لا محلّ لها معطوفة على جملة يمحّص.

[سورة آل عمران (3) : آية 142]

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142)

الإعراب:

(أم) هي المنقطعة بمعنى بل (حسبتم) فعل ماض مبنيّ على السكون و(تم) ضمير فاعل (أن) حرف مصدريّ ونصب (تدخلوا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون

. . . والواو فاعل (الجنّة) مفعول به منصوب.

والمصدر المؤوّل (أن تدخلوا . . .) في محلّ نصب مفعول به أوّل لفعل حسب " 1 " . أمّا المفعول الثّاني فمحذوف، والتقدير حسبتم دخولكم الجنّة حاصلا.

(الواو) حاليّة (لمّا) حرف نفي وجزم وقلب (يعلم) مضارع مجزوم وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (جاهدوا) فعل ماض مبنيّ

---

(1) أو سدّ مسدّ مفعولي حسب - على رأي سيبويه. -)

على الضمّ . . . والواو فاعل (من) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف حال من الفاعل (الواو) واو المعيّة (يعلم) مضارع منصوب بـ (أن) مضمرة بعد واو المعيّة " 1 " ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الصابرين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء.

والمصدر المؤوّل (أن يعلم) معطوف على مصدر متصيّد من الكلام قبله، أي . . . وليس ثمّة علم بمن جاهد وعلم بمن صبر.

جملة: " حسبتم.. " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " تدخلوا... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: " يعلم اللّه... " في محلّ نصب حال أي أحسبتم أن تدخلوا الجنّة وحالكم هذه الحالة " 2 ".

وجملة: " جاهدوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: " يعلم الصابرين " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المقدّر.

[سورة آل عمران (3): آية 143]

وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (143)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (اللام) واقعة في جواب قسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (كنتم) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون.. وتم ضمير اسم كان (تمنّون) مضارع مرفوع - حذف منه احدى التاءين -

---

(1) شذور الذهب لابن هشام... وخرّج بعضهم الفتحة بقوله: ان الفعل مجزوم - ليس منصوبا - عطفا على يعلم الأول، وحرّك بالفتح لالتقاء الساكنين لأن الفتحة أخفّ الحركات.

(2) انظر شذور الذهب لابن هشام ص 375 طبعة ثالثة.

والواو فاعل (الموت) مفعول به منصوب (من قبل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تمنّون) ، (أن) حرف مصدريّ ونصب (تلقوا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون . . .

والواو فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به .

والمصدر المؤوّل (أن تلقوه) في محلّ جرّ مضاف إليه .

(الفاء) عاطفة (قد) مثل الأول (رأيتم) فعل ماض وفاعله - والرؤية بصريّة أو قلبيّة - " 1 " ، و(الواو) زائدة من إشباع ضمّة الميم و(الهاء) ضمير مفعول به (الواو) حاليّة " 2 " ، (أنتم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (تنظرون) مثل تمنّون .

جملة : كنتم تمنّون . . . لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . . . والقسم معطوف على الاستئنافيّة في الآية السابقة .

وجملة : " تمنّون الموت " في محلّ نصب خبر كنتم .

وجملة : " تلقوه " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " رأيتموه " لا محلّ لها معطوفة على جملة كنتم تمنّون .

وجملة : " أنتم تنظرون " في محلّ نصب حال .

وجملة : " تنظرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ أنتم .

الصرف :

(تمنّون) ، فيه حذف إحدى التاءين تخفيفا وأصله تتمنّون ، وفيه إعلال بالحذف أيضا ، حذف منه لامه وهو الألف لمجيئه ساكنا قبل واو الجماعة الساكن ، وفتح ما قبل الواو دلالة على الألف .

---

(1) قال أبو حيّان : قوله تنظرون بعد قوله رأيتموه أن الرؤية هنا قلبيّة ، والمفعول الثاني محذوف تقديره حاضرا . والرؤية البصريّة للموت تكون برؤية آثاره ، والفعل ينصب مفعولا واحدا .

(2) إن كان المعنى : تنظرون في فعلكم الآن بعد انقضاء الحرب فالواو استئنافيّة والجملة مستأنفة بعده

وزنه تفعّون .

(تلقوه) ، فيه إعلال بالحذف جرى فيه مجرى (تمنّون) (انظر الآية 37 من سورة آل عمران) .

[سورة آل عمران (3) : آية 144]

وَما مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية مهملة (محمّد) مبتدأ مرفوع (إلّا) أداة حصر (رسول) خبر المبتدأ مرفوع (قد) حرف تحقيق (خلت) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين... والتاء للتأنيث (من قبل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (خلت)، و (الهاء) ضمير مضاف إليه (الرسل) فاعل مرفوع (الهمزة) للاستفهام الإنكاري (الفاء) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (مات) فعل ماض مبنيّ على الفتح في محلّ جزم فعل الشرط، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (أو) حرف عطف (قتل) ماض مبنيّ للمجهول في محلّ جزم معطوف على مات، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو (انقلب) فعل ماض مبنيّ على السكون في محلّ جزم جواب الشرط و (تم) ضمير فاعل (على أعقاب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (انقلبتم) و (كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة- أو استئنافيّة- (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (ينقلب) مضارع مجزوم فعل الشرط، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (على عقبي) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ينقلب) وعلامة الجرّ الياء و (الهاء) ضمير مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لن) حرف نفي ونصب

(يضرّ)

مضارع منصوب، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (شيئًا) مفعول مطلق منصوب نائب عن المصدر أي لن يضرّه شيئًا من الضرر. (الواو) استئنافيّة (السين) حرف استقبال (يجزي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الشاكرين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء.

جملة: "ما محمّد إلّا رسول" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "خلت... الرسل" في محلّ رفع نعت لرسول.

وجملة: "إن مات..." لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "قتل..." لا محلّ لها معطوفة على مات.

وجملة: "انقلبتم.." لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء.

(189/132)

وجملة: "من ينقلب..." لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة - أو استئنافيّة.

وجملة: "ينقلب..." في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) "1".

وجملة : " لن يضرّ اللّه " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " سيجزي اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(محمّد) ، اسم علم مشتق من الحمد على وزن اسم المفعول من (حمّد) الرباعي ووزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين المشددة .

البلاغة

1 - في قوله تعالى " وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ " فن القصر وهو في اللغة الحبس ، وفي الاصطلاح تخصيص أحد أمرين على الآخر ونفيه عما عداه وهو يقع للموصوف على الصفة وبالعكس والآية من النوع الأول أي

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا

قد خلت من قبله أمثاله فسيخلو كما خلوا . والقصر قلبي فإنهم لما انقلبوا على أعقابهم فكأنهم اعتقدوا أنه عليه الصلاة والسلام رسول لا كسائر الرسل في أنه يخلو كما خلوا ، ويجب التمسك بدينه بعده كما يجب التمسك بدينهم بعدهم فرد عليهم بأنه ليس إلا رسولا

كسائر الرسل، فسيخلو كما خلوا، ويجب التمسك بدينه كما يجب التمسك بدينهم وقيل هو قصر إفراد فإنهم لما استعظموا عدم بقائه عليه الصلاة والسلام لهم نزلوا منزلة المستبعدين لهلاكه، كأنهم يعتقدون فيه وصفين الرسالة والبعد عن الهلاك، فرد عليهم بأنه مقصور على الرسالة لا يتجاوزها إلى البعد عن الهلاك.

[سورة آل عمران (3) : آية 145]

وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (145)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (ما) نافية (كان) فعل ماض ناقص (لنفس) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر كان مقدم (أن) حرف مصدري ونصب (تموت) مضارع منصوب والفاعل ضمير مستتر تقديره هي.

والمصدر المؤوّل (أن تموت) في محلّ رفع اسم كان.

(الّا) أداة حصر (بإذن) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من فاعل تموت "1"، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (كتابا) مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره كتب ذلك (مؤجلا) نعت منصوب (الواو) عاطفة (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يرد) مضارع مجزوم فعل الشرط، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (ثواب) مفعول به

منصوب

---

(1) أي تموت منتهيا أجلها بإذن اللّه.

(191/132)

(الدنيا) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (نؤت) مضارع مجزوم جواب الشرط وعلامة الجزم حذف حرف العلّة، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (من) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نؤته) (الواو) عاطفة (من يرد... نؤته منها) مثل المتقدّمة (الواو) عاطفة (السين) حرف استقبال (نجزي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء، والفاعل نحن للتعظيم (الشاكرين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء.

جملة: "ما كان لنفس أن تموت" لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة في السابقة.

وجملة: "تموت" لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن).

وجملة: "من يرد" لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "يرد ثواب..." في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) "1".

وجملة: "نؤته منها" لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء.

وجملة: "من يرد (الثانية) "لا محلّ لها معطوفة على جملة من يرد (الأولى).

وجملة: "يرد ثواب (الثانية) "في محلّ رفع خبر (من) "2".

وجملة: "نؤته (الثانية) "لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء.

وجملة: "سنجزي... "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

الصرف:

(كتابا)، مصدر سماعيّ فعله كتب يكتب باب نصر بمعنى فرض وقضى، وزنه فعال بكسر الفاء.

(مؤجلا)، اسم مفعول من فعل أجّل الرباعيّ، وزنه مفعّل بضمّ

(1، 2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا.

(192/132)

الميم وفتح العين المشدّدة.

(ثواب)، اسم مصدر من فعل أثاب أو ثوّب الرباعيين، وزنه فعال بفتح الفاء، أو هو اسم لما يثاب به.

(يرد)، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم وأصله يريد، والياء منقلبة عن واو لأن مجرّده راد

يرود، مضارعه في الرباعيّ أصله يرود بسكون الراء وكسر الواو، استثقلت الحركة على الواو ونقلت إلى الراء، أصبح ما قبل الواو مكسورا فقلبت الواو إلى الياء فقيل يريد.. ووزن يرد يفل بضمّ ياء المضارعة.

(نؤته)، فيه حذف الهمزة من أوّله للتخفيف، جرى فيه مجرى ننفق، وأصله نؤأته كما كان نؤنفق، وفيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم وأصله نؤتيه، وزنه نفعه بضمّ النون وكسر العين (البقرة - 247).

[سورة آل عمران (3): آية 146]

وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَما ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (كأيّ) اسم كناية عن عدد مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (من نبيّ) جارّ ومجرور تمييز (قاتل) فعل ماض (مع) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (قاتل) و(الهاء) ضمير مضاف إليه (ربّيون) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الواو "1"، (كثير) نعت لـ (ربّيون) مرفوع مثله "2"، (الفاء) عاطفة (ما) نافية (وهنوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ.

---

(1) يجوز أن يكون فاعل قاتل ضميرا مستترا تقديره هو يعود على نبيّ، وحينئذ يكون (ربّيون) مبتدأ مؤخّر خبره الظرف معه، والجملة في محلّ نصب حال من الضمير الفاعل في

قاتل .

(2) بقي (كثير) مفردا لأنه صفة على وزن فعيل يستوي فيه الأفراد والجمع .

(193/132)

والواو فاعل (اللام) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (وهنوا) " 1 " ، (أصاب) فعل ماض ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو ، (هم) ضمير في محلّ نصب مفعول به (في سبيل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أصابهم) " 2 " ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (ما ضعفوا) مثل ما وهنوا (الواو) عاطفة (ما استكانوا) مثل ما وهنوا (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (يحبّ) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الصابرين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : "كأيّن من نبيّ قاتل . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قاتل معه ربّيّون " في محلّ رفع خبر المبتدأ كأيّ " 3 " .

وجملة : " ما وهنوا " في محلّ رفع معطوفة على جملة قاتل " 4 " .

وجملة : " أصابهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " ما ضعفوا " في محلّ رفع معطوفة على جملة ما وهنوا .

وجملة : " ما استكانوا " في محلّ رفع معطوفة على جملة ما وهنوا .

وجملة : " اللّه يحبّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) يجوز أن تكون (ما) نكرة موصوفة في محلّ جرّ والجملة بعدها نعت لها . [. . . . . .]

(2) أو متعلّق بمحذوف حال من ضمير الغائب في (أصابهم) ، أي أصابهم مجاهدين في سبيل اللّه .

(3) يجوز أن تكون الجملة نعتا لنبيّ في محلّ جرّ ، وخبر كأيّ جملة معه ربّيون . . . أو الخبر محذوف تقديره مضى أو صبر . . . إلخ وجملة معه ربّيون تصبح نعتا ثانيا لنبيّ .

(4) هذه الجملة تأخذ محلا من الإعراب ، كما تأخذ الجملة المعطوف عليها وهي جملة قاتل في الحالة الأخرى الواردة في الحاشية رقم (5) .

(194/132)

وجملة : " يحبّ الصابرين " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

الصرف :

(كأيّ ، كأيّن) ، من غير نون أو بنون ، كناية عن عدد يرجع إلى أحوالها المختلفة والآراء الكثيرة حولها إلى كتب النحو ومراجع اللغة .

(ربّيون) ، جمع ربّي منسوب إلى الربّ ، وقيل هو منسوب إلى الربة بكسر الراء وهي الجماعة .

(وانظر الآية 79 من هذه السورة) .

(استكانوا) ، فيه إعلال بالقلب أصله استكينوا بفتح الياء ثمّ نقلت حركتها إلى الكاف ثمّ قلبت ألفا لتحركها في الأصل .

الفوائد

1 - "كأي" مثل كم الخبرية معنى ، نحو " وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ " وهي في الأصل مركبة من كاف التشبيه و " أيّ " ولأن التنوين صار جزءا من تركيبها كتبت بالنون ، فهي الآن كلمة واحدة ، ويجوز أن تكتب "كأيّ" بحسب أصلها وفيها لغة اخرى حيث تلفظ "كأين "كقول الشاعر :

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم

وهي بمعنى "كم" وتوافقها في خمسة أمور : الإبهام ، ولافتقار إلى التمييز ، والبناء ، ولزوم التصدير ، وإفادة التكثير وهو الغالب كقوله تعالى : وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ وتخالفها في خمسة أمور :

إحداها : إن كأين مركبة وكم بسيطة . الثاني : أن مميزها مجرور بـ " من " غالبا كما مرّ في الآية وقبلها " وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا " الثالث : أنها لا تقع استفهامية عند الجمهور .

الرابع: أنها لا تقع مجرورة. الخامس: أن خبرها لا يقع مفردا بل جملة كما مرّ في الآيات المذكورة.

[سورة آل عمران (3): آية 147]

(195/132)

وَما كانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَإِسْرافَنا فِي أَمْرِنا وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (147)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (ما) نافية (كان) فعل ماض ناقص (قول) خبر كان مقدم منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (إلّا) أداة حصر (أن) حرف مصدريّ (قالوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ... والواو فاعل.

والمصدر المؤوّل (أن قالوا...) في محلّ رفع اسم كان مؤخّر.

(ربّ) منادى مضاف منصوب و(نا) ضمير مضاف إليه (اغفر) فعل أمر دعائيّ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (اللام) حرف جرّ و(نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (اغفر)

(ذنوب) مفعول به منصوب (نا) مضاف إليه (الواو) عاطفة (إسراف) معطوف على ذنوب

منصوب مثله و(نا) مضاف إليه (الواو) عاطفة (ثبّت أقدامنا) مثل اغفر . . . ذنوبنا

(الواو) عاطفة (انصر) مثل اغفر و(نا) ضمير مفعول به (على القوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (انصرنا) ، (الكافرين) نعت للقوم مجرور مثله وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " ما كان قولهم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة ما وهنوا في الآية السابقة .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " النداء وما في حيّزها " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ثبّت " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " انصرنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

الصرف :

(إسراف) ، مصدر قياسيّ لفعل أسرف الرباعيّ وزنه إفعال بكسر الهمزة .)

الفوائد

1 - وَما كانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا " في إعراب هذه الفقرة قولان :

(196/132)

أحدها : أن " قولهم " خبر كان المقدم . واسم كان هو المصدر المؤول من أن والفعل والثاني : هو العكس ، فقولهم هو المبتدأ " اسم كان " ، والمصدر المؤول من " أن والفعل " في محلّ نصب خبرها ، ولا أدري ما الذي جعل الجمهور باستثناء ابن كثير وعاصم أن يتجهوا إلى الرأي الأول مع لزوم التقديم والتأخير ، مع أن الرأي الثاني في غناء عن التقديم والتأخير ، وعليه يتسق المعنى ويزداد وضوحا .

[سورة آل عمران (3) : آية 148]

فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة تربط السبب بالمسبّب (آتى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف و(هم) ضمير متّصل مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (ثواب) مفعول به ثان منصوب (الدنيا) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (حسن) معطوف على ثواب منصوب مثله (ثواب) مضاف إليه مجرور (الآخرة) مضاف إليه مجرور (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (يحبّ) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (المحسنين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : " آتاهم اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اللّه يحبّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: "يحبّ المحسنين" في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه).

[سورة آل عمران (3) : آية 149]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ (149)

الإعراب:

(يا) أداة نداء (أيّ) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (وها) حرف تنبيه (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب بدل من أيّ- تبعه في المحلّ- أو نعت له (آمنوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ... والواو فاعل (إن) حرف شرط جازم (تطيعوا) مضارع مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم حذف النون... والواو فاعل (الذين) في محلّ نصب مفعول به (كفروا) مثل آمنوا (يردّوا) مضارع مجزوم جواب الشرط، وعلامة الجزم حذف النون... والواو فاعل و(كم) ضمير مفعول به (على أعقاب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يردّوكم)، (كم) مضاف إليه (الفاء) عاطفة (تنقلبوا) مضارع مجزوم معطوف على يردّوا...

والواو فاعل (خاسرين) حال منصوب وعلامة النصب الياء.

جملة: " يأيّها الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " آمنوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: " إن تطيعوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: " كفروا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني.

وجملة: " يردّوكم " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء.

وجملة: " تنقلبوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط.

[سورة آل عمران (3): آية 150]

بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (150)

الإعراب:

(بل) حرف إضراب (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (مولى) خبر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف و(كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ

(خير) خبر مرفوع (الناصرين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء.

وجملة: " اللّه مولاكم " لا محل لها استئنافيّة.

وجملة: " هو خير الناصرين " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

[سورة آل عمران (3): آية 151]

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِما أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَمَأْواهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (151)

الإعراب:

(السين) حرف استقبال (نلقي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ،

والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (في قلوب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نلقي) ،

(الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (كفروا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ

...

والواو فاعل (الرعب) مفعول به منصوب (الباء) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ

(أشركوا) مثل كفروا (بالله) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أشركوا) .

والمصدر المؤوّل (ما أشركوا) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (نلقي) .

(ما) اسم موصول " 1 " مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (لم) حرف نفي وقلب وجزم (ينزّل)

مضارع مجزوم ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في

محلّ جرّ متعلّق بـ (ينزّل) ، (سلطانا) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (مأوى) مبتدأ

مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف و(هم) ضمير مضاف إليه (النار) خبر مرفوع (الواو) استئنافيّة (بئس) فعل ماض جامد لإنشاء الذمّ (مثوى) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (الظالمين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء ، والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره النار .

---

(1) أو نكرة موصوفة ، والجملة في محلّ نصب نعت لها .

(199/132)

جملة : " سنلقي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كفروا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أشركوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " ينزّل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " مأواهم النار " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " بئس مثوى الظالمين " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(الرعب) ، مصدر سماعيّ لفعل رعب يرعب باب فتح وزنه فعل بضمّ الفاء ، وثمّة مصدر

آخر بفتحها .

(سلطان) ، قد جرى مجرى المصدر فلم يجمع فهو اسم بمعنى الحجّة والبرهان ، واشتقاقه من السليط وهو ما يضاء به . . . وكلّ سلطان في القرآن حجّة ، وزنه فعلان بضمّ الفاء .

(مأوى) ، اسم مكان على وزن مفعل بفتح الميم والعين لأنه ناقص ، وفيه إعلال أصله مأوي .

(مثوى) ، اسم مكان على وزن مفعل بفتح الميم والعين لأنه ناقض وفيه إعلال أصله مثوي .

البلاغة

1 - الالتفات : في قوله تعالى " سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا " حيث عبر بنون العظمة على طريق الالتفات من الغيبة إلى التكلم ، جريا على سنن الكبرياء لتربية المهابة .

2 - الاستعارة : في قوله " سنلقي " حيث ألقى اللّه في قلوبهم الرعب يوم أحد فانهزموا إلى مكة من غير سبب ، ولهم القوة والغلبة فاستعير الإلقاء هنا للرعب تجسيدا وتشخيصا بتنزيل المعنوي منزلة المادي .

الفوائد

1 -

ورد في الأثر : عن جابر بن عبد اللّه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي . نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت الأرض لي

مسجدا وطهورا ، وأحلّت لي الغنائم ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة. " رواه الشيخان " البخاري ومسلم .

[سورة آل عمران (3) : آية 152]

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ وَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (152)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) واقعة في جواب قسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (صدق) فعل ماض و(كم) ضمير مفعول به أوّل (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (وعد) مفعول به ثان منصوب والهاء) ضمير مضاف إليه (إذ) ظرف للزمن الماضي مبنيّ في محلّ نصب على الظرفيّة متعلّق بـ (صدقكم) ، (تحسّون) مضارع مرفوع والواو فاعل و(هم) ضمير مفعول به (بإذن) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تحسّون) ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (حتّى) حرف ابتداء " 1 " ، (إذا) ظرف للزمن للزمن المستقبل متضمّن

---

(1) أجازوا أن يكون حرف غاية وجرّ متعلّق بمحذوف تقديره دام، أو بفعل تحسّونهم أي : تحسّونهم إلى وقت فشلكم أو دام لكم ذلك إلى وقت فشلكم . . وإذا في هذه الحال بمعنى إذ .

(201/132)

معنى الشرط " 1 " متعلّق بالجواب " 2 " ، (فشلتم) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(تم) ضمير فاعل (الواو) عاطفة (تنازعتم) مثل فشلتم (في الأمر جارّ ومجرور متعلّق بـ (تنازعتم) ، (الواو) عاطفة (عصيتم) مثل فشلتم (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (عصيتم) (ما حرف مصدريّ (أرى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر و(كم) ضمير مفعول به أوّل والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به ثان (تحبّون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

والمصدر المؤوّل (ما أراكم . . .) في محلّ جرّ مضاف إليه .

(من) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر (يريد) مضارع مرفوع، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو وهو العائد (الدنيا) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (الواو)

عاطفة (منكم من يريد الآخرة) مثل نظيرتها المتقدّمة ، (ثمّ) حرف عطف (صرفكم) مثل صدقكم (عن) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (صرفكم) ، (اللام) للتعليل (يبتلي) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام و (كم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو.

والمصدر المؤوّل (أن يبتليكم) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (صرفكم) .

---

(1) يجوز أن يكون إذا بمعنى إذ ولا جواب حينئذ لها .

(2) في تقدير الجواب أقوال : قيل هو انهزمتم ، وقيل منعكم نصره ، وقيل امتحنتم ، وقيل بان لكم أمركم . . واختار أبو حيّان أن يكون الجواب المحذوف انقسمتم إلى قسمين . . ويدلّ عليه ما بعده.

(الواو) استئنافيّة (لقد) مثل الأول (عفا) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (عنكم) مثل عنهم متعلّق بـ (عفا) ، (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (ذو) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو (فضل) مضاف إليه

مجرور (على المؤمنين) جارّ ومجرور متعلّق بفضل ، وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " صدقكم اللّه . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة : " تحسّونهم " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " فشلتم . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تنازعتم . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة فشلتم .

وجملة : " عصيتم " في محلّ جرّ معطوفة على جملة فشلتم .

وجملة : " أراكم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " تحبّون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " منكم من يريد . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو اعتراضيّة .

(203/132)

وجملة : " يريد الدنيا " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول .

وجملة : " منكم من يريد (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على الجملة الأولى .

وجملة : " يريد الآخرة " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

وجملة : " صرفكم عنهم " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط المقدّرة .

وجملة : " عفا عنكم " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر ، وهذا القسم معطوف على القسم الوارد في مفتتح الآية . . أو مستأنف .

وجملة : اللّه ذو فضل . . لا محلّ لها استئنافيّة فيها معنى التعليل .

الصرف :

(وعد) ، مصدر سماعيّ لفعل وعد يعد باب ضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون .

الفوائد

1 - " حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ " يمكن أن تحمل " حتى " على معنيين ، الأول اعتبارها حرف غاية وجر ، وهو الأقوى ، ولدى أصحاب هذا الرأي يمكن استبدالها بـ " إلى " ولا يتغير المعنى ، أي إلى أن فشلتم وتنازعتم . وعلى هذا الرأي يجوز تعليقها مع مجرورها بفعل تحسونهم ، كما يجوز تعليقهما بفعل " صدقكم " . والوجه الأول أقوى لأن استمرار نصر المسلمين إلى وقت فشلهم ومنازعتهم أقرب للمنطق والعقل من أن نقول إن استمرار وعد اللّه لهم توقف عند فشلهم ونزاعهم فتأمل .

وأما الرأي الثاني في معنى " حتى " : أن تكون ابتدائية تقدمت الجملة الشرطية " إذا فشلتم " . ويبدو أن الرأي الأول أقوى ويغنينا عن الرأي الثاني ولو كان جائزا . .

2 - " لكيلا " ذهب النحاة بشأن " كي " إلى مذهبين :

الأول : انها تنصب الفعل بنفسها ، فهي في قوة " أن " في نصب الفعل المضارع ، الثاني : أن

تكون حرف جرّ بمنزلة اللام ، وينصب الفعل بعدها بـ " أن " مضمرة كما تضمر " أن " بعد اللام وتنصب الفعل المضارع.

(204/132)

ملاحظة هامة : إذا اعتبرناها بمنزلة " أن " جاز دخول اللام عليها نحو " لكيلا تحزنوا على ما فاتكم " وإذا اعتبرناها حرف جرّ جاز دخولها على الأسماء كدخول حرف الجر ، مثال ذلك دخولها على " ما " الاستفهامية نحو " كيمه " ؟ على غرار " لم وبم وعمّ " فتحذف الألف في حالة الاستفهام وتدخل عليها الهاء في حال السكت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 4 صـ 248 . 338 ﴾

(205/132)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرائِيلَ) كلام مستأنف مسوق لتفنيد تخرصات اليهود إذ قالوا للنبي صلى اللّه عليه وسلم : إنك تزعم أنك على ملة إبراهيم ، وكان إبراهيم لا يأكل لحوم

الإبل ولا ألبانها ، وأنت تأكل ذلك وتشربه ، فلست على ملته . وكل مبتدأ وجملة كان حلا خبره وكان فعل ماض واسمها هو وحلا خبرها ولبني إسرائيل جار ومجرور متعلقان بقوله " حلا " وإسرائيل مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف والمانع له العلمية والعجمة (إِلَّا ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ) إلا أداة استثناء وما اسم موصول في محل نصب على الاستثناء من اسم كان المستتر وجملة حرم لا محل لها من الإعراب لأنها صلة الموصول وإسرائيل فاعل وعلى نفسه جار ومجرور متعلقان بحرم والمراد بإسرائيل يعقوب وجملة الاستثناء حالية (مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ) اختلف المعربون في تعليق من قبل والظاهر أنه متعلق ب " حلا " لمناسبة المعنى وأن وما في حيزها في تأويل مصدر مضاف لقبل والتوراة نائب فاعل (قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) الجملة مستأنفة مسوقة لقطع الطريق على جوابهم والفاء الفصيحة لأنها أفصحت عن شرط مقدر أي إذا كنتم واثقين من أقوالكم وأصررتم عليها فأتوا بالتوراة ، وأتوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وبالتوراة متعلقان بأتوا والجملة مقول القول ، فاتلوها الفاء عاطفة واتلوها فعل أمر مبني على حذف النون

والواو فاعل والهاء ضمير متصل في محل نصب مفعول به وإن شرطية وكنتم فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط والتاء اسمها وصادقين خبرها وجواب الشرط محذوف دل عليه " فأتوا بالتوراة " (فَمَنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ)

جملة مستأنفة مسوقة لوصف المفترين بالظالمين والفاء استئنافية ومن اسم شرط غير جازم في محل رفع مبتدأ وافترى فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وفاعله ضمير مستتر يعود على "من" ، وعلى الله جار ومجرور متعلقان بافترى والكذب مفعول به (مِنْ بَعْدِ ذلِكَ)

الجار والمجرور متعلقان بافترى أو بمحذوف حال (فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

الفاء رابطة لجواب الشرط وأولئك اسم إشارة مبتدأ وهم مبتدأ ثان والظالمون خبر "هم" والجملة الاسمية خبر اسم الإشارة وهم ضمير فصل ، والظالمون خبر أولئك وجملة الإشارة وما بعدها في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر "من" .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 95 إلى 97]

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (95) إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ (96) فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (97)

اللغة :

(بكة) لغة في مكة ، وسميت مكة لأنها قليلة الماء تقول العرب :

ملك الفصيل ضرع أمه وأمكه إذا امتص ما فيه من اللبن . وفي القاموس ما يدل على أنها سميت بذلك لأنها تمك الذنوب أي تمحوها وتزيلها . أما بكة فقد سميت بذلك لأنها تبك أعناق الجبابرة ، أي تذلهم وتهلكهم . وقيل : من بكه إذا زحمه ، سميت بذلك لازدحام الناس فيها . قال :

إذا الشريب أخذته الأكه فخله حتى يبك بكه

(207/132)

هذا وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة منها مكة وبكة والبيت العتيق والبيت الحرام والبلد الأمين والمأمون وأم رحيم وأم القرى وصلاح والعرش والقادس لأنها تطهر من الذنوب والمقدسة والناسة بالنون وبالباء أيضا والحاطمة والرأس وكوثاء والبلدة والبنية والكعبة .

الإعراب :

(قُلْ : صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً) كلام مستأنف مسوق للتعريض بكذبهم أي ثبت أن اللّه صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون . وقل فعل أمر مبني على السكون وفاعله

ضمير مستتر تقديره أنت وصدق الله فعل ماض وفاعل والجملة في محل نصب مقول القول

فاتبعوا : الفاء هي الفصيحة أي إذا أردتم النجاة بعد أن ثبت لكم ذلك على الوجه الأكمل

فاتبعوا ، واتبعوا فعل أمر مبني على حذف النون لأن مضارعه من الأفعال الخمسة والواو

ضمير متصل في محل رفع فاعل وملة مفعول به وإبراهيم مضاف إليه وحنيفا حال (وَمَا كَانَ

مِنَ الْمُشْرِكِينَ) الواو حالية وما نافية وكان فعل ماض ناقص واسمها ضمير مستتر تقديره هو

يعود على إبراهيم

(208/132)

و من المشركين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر كان (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي

بِبَكَّةَ) كلام مستأنف مسوق للدلالة على أن أول مسجد وضع للناس هو المسجد الحرام ثم

بيت المقدس وأول من بناه إبراهيم عليه السلام ، وإن واسمها وبيت مضاف إليه ووضع

فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو وللناس جار ومجرور

متعلقان بوضع والجملة صفة لبيت والذي اللام المفتوحة هي المزحلقة والذي اسم موصول

في محل رفع خبر إن وببكة جار ومجرور متعلقان بمحذوف لا محل له لأنه صلة الموصول

(مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ) مباركا حال من اسم الموصول أو من الضمير المستكن في متعلق

الجار والمجرور وهدى عطف على مباركا وللعالمين جار ومجرور متعلقان بهدى أي هاديا لهم (فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر مقدم وآيات مبتدأ مؤخر وبينات صفة لآيات والجملة مستأنفة لبيان بركته وهداه ، ومقام مبتدأ خبره محذوف أي منها مقام إبراهيم أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره أحدها أي أحد تلك الآيات البينات مقام ابراهيم والجملة استئنافية .

وسترى في باب الفوائد مناقشة طريفة وما أوردناه هو الأولى (وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً) الواو استئنافية ومن شرط جازم في محل رفع مبتدأ ويجوز أن تكون موصولية ودخله فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والفاعل هو والهاء مفعول به على السعة أو منصوب بنزع الخافض وقد تقدم إعرابه وكان فعل ماض ناقص في محل جزم جواب الشرط واسمه هو وآمنا خبر كان وفعل الشرط وجوابه خبر من

الشرطية والموصولة (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لفرض الحج والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم وعلى الناس جار ومجرور متعلقان بما تعلق به الخبر وهو "لله" وحج مبتدأ مؤخر والبيت مضاف

إليه ومن اسم موصول في محل جر بدل من الناس بدل بعض من كل أو اشتمال والضمير محذوف أي منهم وأعربها بعضهم فاعلاب "حج" وفيه نظر يأتيك تفصيله الممتع في باب الفوائد ، وجملة استطاع صلة الموصول وإليه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لسبيلا فلما تقدمت عليه أعربت حالا (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ) الواو عاطفة ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ أو اسم موصول وكفر فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وفاعله هو والفاء تعليل لجواب الشرط المقدر أي فلن يضر اللّه فان اللّه عنه غني ، وعلى كل حال فالجملة لا محل لها من الإعراب لأنها صلة الموصول وفعل الشرط وجوابه خبر وإن حرف مشبه بالفعل واللّه اسمها وغني خبرها وعن العالمين جار ومجرور متعلقان بغني .

الفوائد :

1 - للنحاة كلام طويل

اشتجر فيه الخلاف بينهم وشايعهم المفسرون فهاموا في كل واد ، حتى كاد يفوتهم المراد ، ولو أنهم جنحوا إلى السهولة لاختاروا الوجه الذي اخترناه فأراحوا واستراحوا ، ولكنهم خاضوا في القول واستغلوا طاقاتهم النحوية القوية ، فأتوا في مناقشاتهم بالممتع المطرب ، وسنعرض لك هنا خلاصة عن تلك المناقشات لتكون تسجيلا تاريخيا لاشتجار الآراء وشاهدا لموضوعية الفكر .

قال الزمخشري : مقام : عطف بيان من آيات ، ورد عليه النحاة فقالوا : إنه خرق لإجماع النحاة الذين قرروا أن النكرة لا تبين بالمعرفة وجمع المؤنث السالم لا يبين بالمفرد المذكر .

وقالوا : لا يجوز أن يكون بدلا من آيات لأنهم نصوا على أن المبدل منه إذا كان متعددا وكان البدل غير واف بالعدة تعين القطع . ورد عليهم أنصار الزمخشري بأنه أي الزمخشري كان مجتهدا فلا يبالي بمخالفة الإجماع .

وابن جني أجاز خرق الإجماع :

وقال ابن جني : إنه يجوز خرق الإجماع في الفنون الأدبية .

ما يقوله جلال الدين السيوطي :

وقال الجلال السيوطي في حاشيته على البيضاوي ما نصه :

" قوله ، مبتدأ محذوف خبره ، أي أحد الوجوه في " مقام " قال الشهاب الحلبي : وهو المختار . وقال الزمخشري هو عطف بيان ورد عليه بأن " آيات " نكرة و" مقام إبراهيم " معرفة ، ولا يجوز التخالف في عطف البيان بإجماع البصريين والكوفيين . وقال الصفاقسي : يحتمل أن يكون الزمخشري أطلق عطف البيان وأراد به البدل كالجماعة تسمحا ،

وكذلك قال ابن هشام في المغني : قد يكون عبر عن البدل بعطف البيان لتآخيهما . ويؤيده قوله في " أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم " أن " من وجدكم " عطف بيان لقوله : " حيث سكنتم " وهذا سيبويه إمام الصنعة يسمي التوكيد صفة ،

وإنما نقلنا هذا الكلام وهو غيض من فيض - للاستمتاع وترويض الذهن ، وقد أغنانا إعراب " مقام " مبتدأ خبره محذوف أو خبر لمبتدأ محذوف عن كل هذا التطويل .

2- المناقشة الثانية في " من استطاع " :

(211/132)

ما ارتئيناه من إعراب " من " بدلا من " الناس " هو المختار ، وقال بعض النحاة : " من " فاعل حج لأنه مصدر يعمل عمل فعله ، والمصدر مضاف إلى مفعوله . ورد النحاة عليه بأنه يجب على الناس أن يحج مستطيعهم ، وذلك باطل . وأجاب التاج السبكي عن ابن السيد فقال : ولا مانع من أن يكون في الحج شيئان : فرض كفاية على كل الناس أن يحج مستطيعهم فإن لم يحج أثم الخلق كلهم ، وفرض عين على المستطيع . ولا حاجة إلى كل هذا التكلف ، والاخذ والرد . وذلك بإعراب " من " بدلا من الناس ، فتأمل والله يرشدك .

هذا وقد أعرب الكسائي " من " شرطية في محل رفع مبتدأ وجوابها محذوف والتقدير :

من استطاع فليحج أو فعليه أن يباشر الحج بنفسه .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 98 إلى 99]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ (98) قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَداءُ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (99)

اللغة :

(العوج) بكسر العين وفتحها ، معروف ، ولكن العرب فرقوا بينهما جريا على سلائقهم في التصرف بهذه اللغة الشريفة ، فخصوا المكسور بالمعاني ، والمفتوح بالأعيان . تقول : في كلامه عوج بالكسر .

وفي الجدار عوج بالفتح .

(212/132)

الاعراب :

)

قُلْ : يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ) كلام مستأنف مسوق للإنكار على الذين

يكفرون بآيات الله . وقل فعل أمر وفاعله أنت ويا حرف نداء للمتوسط وأهل الكتاب منادى مضاف ولم اللام حرف جر وما اسم استفهام إنكاري في محل جر باللام وحذفت ألف ما الاستفهامية لدخول حرف الجر عليها والجار والمجرور متعلقان بتكفرون وبآيات الله جار ومجرور متعلقان بتكفرون أيضا وجملة النداء استئنافية (وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ) الواو حالية والله مبتدأ وشهيد خبر والجار والمجرور متعلقان بشهيد وجملة تعملون صله وجملة والله شهيد حالية (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) كلام مستأنف لتأكيد الإنكار والتوبيخ وقد تقدم إعراب مثيلها . (مَنْ آمَنَ) من اسم موصول مفعول به لتصدون وجملة آمن لا محل لها لأنها صلة " من " (تَبْغُونَهَا عِوَجاً) الجملة حالية ، وتبغونها فعل مضارع وفاعل ومفعول به وعوجا حال وقع فيها المصدر موضع الاسم المشتق أي معوجة وفي هذا الإعراب من المبالغة أنهم يطلبون أن تكون الطريقة المستقيمة نفس العوج على طريق المبالغة في مثل رجل صوم ، ويكون ذلك أبلغ في ذمهم وتوبيخهم .

وقيل : الهاء في تبغونها ضمير منصوب بنزع الخافض . وعبارة ابن جرير الطبري : " ومعنى قوله " تبغونها عوجا " تبغون لها عوجا " ، وعليه قول سحيم عبد بني الحسحاس :

بغاك وما تبغيه حتى وجدته كأنك قد واعدته أمس موعدا

يعني طلبك وما تطلبه يقال : ابغني كذا ، يراد ابتغه لي ، فإذا أرادوا : أعنّي على طلبه وابتغه معي ، قالوا : أبغني بفتح الهمزة ، وهو قول سليم . (وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ) الواو حالية وأنتم

ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ وشهداء خبر والجملة الاسمية حالية (وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(213/132)

الواو للحال أيضا وما نافية حجازية والله اسمها المرفوع والباء حرف جر زائد وغافل مجرور لفظا منصوب محلا لأنه خبر "ما" وعما جار ومجرور متعلقان بغافل وجملة تعملون صلة ما الموصولية.

[سورة آل عمران (3) : الآيات 100 إلى 101]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ

(100) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ

هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (101)

الاعراب:

)

(214/132)

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ) كلام مستأنف مسوق لإيراد خلة من خلال اليهود مستوحاة من العنصرية التي يتميزون بها ، ويا حرف نداء للمنادى المتوسط وأي منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب والهاء للتنبيه والذين بدل وجملة آمنوا صلة الموصول وإن شرطية وتطيعوا فعل الشرط وعلامة جزمه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة والواو فاعل وفريقا مفعول به ومن الذين جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لقوله فريقا وجملة أوتوا الكتاب صلة والكتاب مفعول به ثان لأوتوا المبني للمجهول (يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ) يردوكم جواب الشرط مجزوم وعلامة جزمه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة والواو فاعل والكاف مفعول به أول ليردوكم وبعد ايمانكم ظرف متعلق بكافرين وكافرين مفعول به ثان (وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ) كلام مستأنف مسوق لتوجيه الإنكار والاستبعاد إلى كيفية الكفر عن طريق المبالغة ، وكيف اسم استفهام إنكاري مبني على الفتح في محل نصب على الحال وتكفرون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل وأنتم الواو حالية وأنتم ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ وتتلى فعل مضارع مبنى للمجهول والجملة خبر وعليكم جار ومجرور متعلقان بتتلى وآيات الله نائب فاعل (وَفِيكُمْ رَسُولُهُ) الواو حالية أو عاطفة وفيكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ورسوله مبتدأ مؤخر (وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ

مُسْتَقِيمٍ) الواو استئنافية ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ويعتصم فعل الشرط وفاعله

ضمير مستتر تقديره هو وبالله جار ومجرور متعلقان بيعتصم فقد :

(215/132)

الفاء رابطة للجواب وقد حرف تحقيق وهدي فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل هو والى صراط جار ومجرور متعلقان بهدي ومستقيم صفة وجملة فقد هدي في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر من .

الفوائد :

لمحة تاريخية :

لليهود أصالة راسخة في إحداث التفرقة بين الأمم والشعوب ليضمنوا لأنفسهم السيادة والاستعلاء المزعومين ، وهي خلة من خلال اليهود مستوحاة من العنصرية التي يتميزون بها ، ويشتدون في الدعاية لها .

وفي معرض نزول هذه الآية يروي التاريخ أن شاسا بن قيس اليهودي ، وكان شيخا طاعنا في السن ، ممعنا في اللجاجة واللدد ، يكره المسلمين ويتربص بهم الدوائر للإيقاع بهم وتفريق

شملهم الملتئم ، مرّ شأس هذا بنفر من الأوس والخزرج وهم في مجلس يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم في الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة والبغضاء في الجاهلية . فقال : واللّه ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار . فأمر شابا من اليهود وكان معه فقال له : اعمد إليهم واجلس معهم وذكرهم يوم بعاث وما كان فيه ، وأنشدهم بعض ما كانوا يتناشدونه من أشعار تستهدف إثارة الحفائظ (و بعاث بضم الباء وهو يوم مشهور اقتتل فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس) ففعل الشاب اليهودي ما أمره به شاس ، فتنازع عند ذلك القوم ، وانبعثت أسباب الخصام من جديد ، وتفاخروا وتغاضبوا وتبادلوا الشتائم ، وتنادوا : السلاح السلاح ، وكادوا يمتشقون السيوف : فبلغ ذلك

(216/132)

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار ، فقال : يا معشر المسلمين ! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع عنكم إصر الجاهلية ، وألف بين قلوبكم ، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا ؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فألقوا السلاح من أيديهم ، وبكوا وعانق بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول اللّه سامعين مطيعين . فما كان يوم أقبح أولا وأحسن

آخرا من ذلك اليوم.

[سورة آل عمران (3) : الآيات 102 إلى 103]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103)

اللغة:

(وَاعْتَصِمُوا) الاعتصام: الالتجاء والتمسك، وأنا معتصم بفلان ومستعصم به ومعتصم بحبله، ونحن في عصمة الله، وكل ما عصم به الشيء- أي: حفظ وصين- فهو عصام. وللعين والصاد- إذا كانتا فاء وعينا للكلمة- خصائص لغوية رائعة، فهما تدلان على الشدة

والمنعة وما هو بمعناهما من الحفظ والتأبي، فيقال: فلان لا تعصب سلماته، أي: لا يقهر، قال الكميت بن زيد:

ولا سمراتي يبتغيهن عاضد ولا سلماتي في بجيلة تعصب

وفلان معصوب الخلق: مطويه مكتنز اللحم. وكانوا إذا سودوا إنسانا عصبوه. وهذا يوم عصيب وعصبصب أي: شديد. وفلان يتعصب لقومه. وعصر معروف، ولا بد من

استعمال شدة في العصر ، وهذا أمر قد تعصرت الشبيبة به وبلغت الأشد عليه .

والمعصرات :

(217/132)

السحب التي تمطر الماء . وعصفت الريح فهي عاصف ومعصفة ، وهي أشد ، وعصف بهم الدهر : أودى بهم وأبادهم ، قال عدي بن زيد :

ثم أضحوا عصف الدهر بهم وكذاك الدهر حالا بعد حال

وجعلهم كعصف مأكول معروف ، ويقال للجائع : صاحت عصافير بطنه ، وهو تعبير عامي فصيح ، أي : صوتت بشدة . وسمي العصفور لأنه لا ينفك عن الزقزقة . ووهب النعمان للنابغة مائة من عصافيره ، وهي نجائب كانت له ، انتهت في يوم دارة مأسل ، قال ذو الرمة :

نجائب من ضرب العصافير ضربها أخذنا أباها يوم دارة مأسل

ولو شئنا الاستقصاء لأسمعناك العجب العجاب فحسبنا ما تقدم .

(شَفَا) الشفا : طرف الحفرة ، بالتذكير والتأنيث . وسيأتي المزيد من الكلام عنها في باب الفوائد .

الاعراب :

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ) كلام مستأنف مسوق

(218/132)

لما فيه تكميل المؤمنين لأنفسهم ، وقد تقدم إعراب النداء فجدد به عهدا . واتقوا فعل أمر والواو فاعل والله مفعول به وحق تقاته مفعول مطلق ، والإضافة هنا من باب إضافة الصفة إلى موصوفها ، والأصل التقاة الحق ، والتقاة مصدر تقدم تحقيقها (وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) الواو حرف عطف ولا ناهية وتموتن فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين ضمير متصل في محل رفع فاعل والنون المشددة للتوكيد ولا محل لها وإلا أداة حصر والواو حالية وأنتم مبتدأ ومسلمون خبر والجملة الاسمية نصب على الحال (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا) الواو عاطفة واعتصموا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وبحبل الله جار ومجرور متعلقان باعتصموا وجميعا حال ولا ناهية وتفرقوا فعل مضارع حذفت إحدى تاءيه جوازا ، وأصله تتفرقوا مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون (وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) الواو حرف عطف واذكروا فعل أمر معطوف على اعتصموا ونعمة الله مفعول

به وعليكم جار ومجرور متعلقان بنعمة (إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ) إذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق باذكروا وجملة كنتم في محل جر بالإضافة إليها وكنتم فعل ماض ناقص واسمها ، وأعداء خبرها والفاء عاطفة وألف فعل ماض وفاعله ضمير مستتر يعود على الله وبين ظرف متعلق بألف وقلوبكم مضاف إليه (فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً) الفاء عاطفة وأصبحتم فعل ماض ناقص والتاء اسمها وبنعمته جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال وإخوانا خبر أصبحتم (وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها) عطف على ما تقدم وكان واسمها وعلى شفا حفرة جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبرها ومن النار جار ومجرور متعلقان

بمحذوف صفة لحفرة فأنقذكم عطف على كنتم ومنها

(219/132)

جار ومجرور متعلقان بأنقذكم (كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف مفعول مطلق أو حال ، وقد تقدم كثيرا ، ويبين الله فعل مضارع وفاعل وآياته مفعول به والجملة مستأنفة ولعل واسمها ، وجملة تهتدون خبرها وجملة الرجاء حالية .

البلاغة :

1- الاستعارة التمثيلية في الاعتصام بحبل الله ، فقد شبه الوثوق بالله والاعتماد على حمايته بحال من يمسك بحبل وثيق ، وقد تدلى من مكان عال ، فهو آمن من انقطاعه وانبتاته . وقد أراد بالحبل هنا القرآن الكريم ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : " القرآن حبل الله المتين ، لا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد . من قال به صدق ، ومن عمل به رشد ، ومن اعتصم به هدي إلى صراط مستقيم " .

2- الطباق بين أعداء وإخوان .

الفوائد :

1- الشفا في الأصل مذكر ، وقد عاد الضمير عليه في الآية مؤنثا لأنه اكتسب التأنيث بإضافته إلى الحفرة . والقاعدة المطردة هي أن المضاف المذكر قد يكتسب من المضاف إليه المؤنث تأنيثه وبالعكس ، وشرط ذلك في الصورتين صلاحية المضاف للاستغناء عنه بالمضاف إليه مع صحة المعنى . فمن الأول قول الأغلب :

طول الليالي أسرعت في نقضي نقضن كلي ونقضن بعضي

فأنث " أسرعت " مع أنه خبر عن مذكر إلا أنه اكتسب التأنيث من " الليالي " . وعليه يفسر قول مجنون ليلى :

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

ومن التصوير الثاني قول الآخر :

إنارة العقل مكسوف بطوع هوى وعقل عاصي الهوى يزداد تنويرا

فذكر " مكسوف " مع أنه خبر عن مؤنث وهو " إنارة " لأنها اكتسبت التذكير من إضافتها إلى العقل وهذا باب هام فتأمل .

2- (أصبح) تستعمل لاتصاف الموصوف بصفة وقت الصباح ، وتستعمل بمعنى صار فلا يلحظ فيها وقت الصباح بل مطلق الانتقال والصيرورة من حال إلى حال ، قال الربيع بن ضبع :

(220/132)

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا

[سورة آل عمران (3) : الآيات 104 إلى 105]

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (105)

الإعراب :

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ) كلام معطوف على ما قبله من عطف الخاص على العام مسوق لبيان رأس الخيرات . والواو حرف

عطف ولك أن تجعلها استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لبيان ما تقدم واللام لام الأمر وهي تسكن بعد الواو والفاء وثم ، وتكن فعل مضارع ناقص مجزوم بلام الأمر ومنكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم لتكن وأمة اسمها المؤخر وجملة يدعون إلى الخير في محل رفع صفة لأمة ويجوز أن تكون جملة يدعون هي الخبر ومنكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة تقدمت على الموصوف فأعربت حالا وإلى الخير جار ومجرور متعلقان بيدعون (وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) الجملتان معطوفتان على جملة يدعون إلى الخير (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) تقدم إعرابها كثيرا (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا) الواو عاطفة ولا ناهية وتكونوا فعل مضارع ناقص مجزوم بلا والواو اسمها وكالذين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبرها ولك أن تجعل الكاف اسما بمعنى مثل فتكون هي الخبر والذين اسم موصول في محل جر بالإضافة وجملة تفرقوا صلة الموصول (وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ) الواو عاطفة واختلفوا عطف على تفرقوا ومن بعد جار ومجرور متعلقان

باختلفوا وما مصدرية مؤولة مع جاءهم البينات بمصدر مضاف لبعد والهاء مفعول به مقدم والبينات فاعل مؤخر (وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ) الواو استئنافية أو عاطفة واسم الإشارة مبتدأ ولهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر وعظيم صفة والجملة الاسمية في محل رفع خبر اسم الإشارة.

البلاغة:

1- في الآية عطف الخاص وهو باب دقيق المسلك يبدو كأخذة السحر فهو يؤذن بمزيد العناية بالخاص، وتفصيل ذلك أن الدعوة

إلى الخير عامة وإردافها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مؤذن باختصاصهما بمزيد من العناية وإظهار فضلهما على سواهما من الخيرات.

2- المقابلة: فقد طابق بين الأمر والنهي وبين المعروف والمنكر.

[سورة آل عمران (3) : الآيات 106 إلى 107]

(222/132)

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيها

خالِدُونَ (107)

الإعراب :

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) الظرف متعلق بمحذوف تقديره :

اذكر ، فتكون الجملة مستأنفة مسوقة لبيا ن حال الفريقين . وجملة تبيض وجوه في محل جر

باضافة الظرف إليها . ووجوه فاعل ، وتسود وجوه عطف على تبيض وجوه (فَأَمَّا الَّذِينَ

اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ) الفاء للتفريع وفيها معنى الاستئناف فتكون الجملة مستأنفة وأما حرف

شرط وتفصيل والذين اسم موصول في محل رفع مبتدأ وجملة اسودت وجوههم صلة

(أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ) الجملة مقول قول محذوف مع الفاء الرابطة لجواب أما ، أي : فيقال لهم

:

أكفرتم ، وجملة " فيقال " خبر الذين وهي جواب " أما " وشرط " أما " لا يذكر صريحا بل

التزموا حذفه . ويظهر عند حل المعنى والتعبير بما

(223/132)

نابت عنه " أما " وهو مهما ، والتقدير : مهما يكن من شيء فأما الذين اسودت يقال لهم

كذا ، فاحفظه وقس عليه ، والهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي وكفرتم فعل وفاعل

وبعد ظرف متعلق بكفرتم وإيمانكم مضاف إليه (فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) الفاء الفصيحة لأنها أفصحت عما هو مقدر أي إذا عرفتم ذلك فذوقوا العذاب، وبما جار ومجرور متعلقان بذوقوا وما مصدرية وهي مع مدخولها في محل جر بالباء أي بسبب كفركم وجملة تكفرون في محل نصب خبر كنتم (وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ) تقدم إعرابها (فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ) الفاء رابطة لجواب أما والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر الذين وهم مبتدأ وفيها جار ومجرور متعلقان بخالدون وخالدون خبرهم وجملة هم فيها خالدون حالية.

البلاغة:

1- في هذه الآية فن التدبيج وهو فن دقيق المسلك، حلو المأخذ، رشيق الدلالة، وحده أن يذكر الشاعر أو الناثر لونين أو أكثر، يقصد بذلك الكناية أو التورية عما يريد من أغراض، وقد لا يقصد غير الوصف. فالبياض والسواد لونان متضادان، والتضاد يعني التطابق، ولكنه كنى بهما عن فريقين من الناس، فمن كان من أهل الحق وسم ببياض اللون ونصاعته، ومن كان من أهل الباطل وسم بسواد الليل وحلكته، ولا يخفى ما في ذلك من التهويل، وتباين المصير المحتوم لكل من الفريقين. ومن طريف التدبيج في الشعر وما ينطوي عليه من كناية قول أبي تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي شهيد الجهاد:

تردى ثياب الموت حمرا فما دجا لها الليل الا وهي من سندس خضر

والتدبيج تفعيل من الدبج وهو النقش والتزيين، وأصل الديباج فارسي معرب. ومن طريفه قول صفي الدين الحلي:

بيض صنائعنا سود وقائعنا خضر مرابعنا حمر مواضينا

(224/132)

2- الاستعارة في "ذوق العذاب" فقد شبهه بالمر مما يؤكل، ثم حذف المشبه به وأبقى شيئا من لوازمه وهو الذوق. ولا يخفى ما فيه من الشعور بالمرارة، وذلك على طريق الاستعارة التبعية المكنية.

3- المجاز المرسل في "رحمة اللّه" والعلاقة فيه الحالية، لأن الرحمة لا يحل فيها الإنسان وإنما يحل في مكانها، وهو الجنة.

[سورة آل عمران (3) : الآيات 108 إلى 109]

تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ (108) وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (109)

الإعراب:

(تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ) كلام مستأنف مسوق لبيان ما اشتمل على نعيم

الأبرار وعذاب الكفار. واسم الإشارة مبتدأ وآيات الله خبره وجملة نتلوها عليك حالية أي متلبسة بالحق، فالجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال أيضا (وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ) الواو استئنافية وما نافية حجازية والله اسمها وجملة يريد في محل نصب خبرها وظلما مفعول به وللعالمين جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة ل " ظلما " والعالمين مجرور بالياء نيابة عن الكسرة لأنه ملحق بجمع المذكر السالم (وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ) الواو استئنافية ولله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم وما اسم موصول مبتدأ مؤخر وفي السموات جار ومجرور متعلقان بمحذوف صلة للموصول لا محل له من الإعراب وما في الأرض عطف على " ما في السموات " (وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) الواو حرف عطف وإلى الله جار ومجرور متعلقان بترجع وترجع فعل مضارع مبني للمجهول والأمور نائب فاعل.

البلاغة:

)

التكرير) في هذه الآية فن التكرير . وقد اختلف أهل العربية في وجه تكرير الله تعالى ذكره اسمه مع قوله " وإلى الله ترجع الأمور " ظاهرا وقد تقدم اسمه ظاهرا في قوله " ولله ما في السموات وما في الأرض " فقال بعض البصريين : ذلك نظير قول العرب : وأما زيد فذهب زيد وكما قال الشاعر :

ألا لا أرى الموت يسبق الموت شيء نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

فأظهر في موضع الإضمار . وقال بعض نحويي الكوفة ليس ذلك نظير هذا البيت لأن موضع الموت في البيت موضع كناية ، أي ضمير ، وليس ذلك كذلك في الآية ، لأن قوله : " ولله ما في السموات وما في الأرض " خبر ، ليس من قوله " وإلى الله ترجع الأمور " في شيء ، وذلك أن كل واحدة من القصتين مفارق معناها معنى الأخرى ، مكتفية كل واحدة منهما بنفسها ، غير محتاجة إلى الأخرى ، وما قال الشاعر

لا أرى الموت ، محتاج إلى تمام الخبر عنه . وهذا القول الثاني عندنا أولى بالأرجحية ، لأن كتاب الله عز وجل لا توجه معانيه ، وما فيه من البيان ، إلى الشواذ من الكلام والمعاني ، وله في الفصيح من المنطق والظاهر من المعاني وجه صحيح موجود .

[سورة آل عمران (3) : آية 110]

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ (110)

الإعراب :

(

(226/132)

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) كلام مستأنف مسوق لبيان حال هذه الأمة في الفضل على غيرها من الأمم ولتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الجنوح إلى الخير والصدوف عن المنكر ، وكان واسمها وخير أمة خبرها وقيل : كان تامة ، أي وجدتم وخلقتم خير أمة ، والأول أرجح وأخرجت فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هي ، وللناس جار ومجرور متعلقان بأخرجت والجملة في محل نصب خبر ثان لكنتم وقيل نصب على الحال وقيل نعت لأمة والأوجه متساوية الرجحان (تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) الجملة خبر ثالث لكنتم أو نصب على الحال ، واختار الزمخشري أن تكون مستأنفة مبينة كونهم خير أمة ، كما تقول : زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم وأرى انها مفسرة لا محل لها ، وتأمرون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل وبالمعروف جار ومجرور متعلقان بتأمرون ومثلها وتنهون عن المنكر (وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) الجملة معطوفة (وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ) الواو استئنافية والجملة

مستأنفة مسوقة لتكون جوابا عن سؤال فحواه: كيف قال ذلك مع أن غير الإيمان لا خير فيه حتى يقال: إن الإيمان خير منه، ولو شرطية وآمن فعل ماض مبني على الفتح وأهل الكتاب فاعل واللام واقعة في جواب لو، وكان فعل ماض ناقص واسمها ضمير مستتر تقديره هو يعود على المصدر وهو الإيمان المدلول عليه بفعله وخيرا خبر كان ولهم جار ومجرور متعلقان ب "خيرا" والجملة واقعة في جواب الشرط (مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ) الجملة مستأنفة مسوقة لتكون جوابا عما ينشأ من لو الشرطية الدالة على انتفاء الإيمان، ومنهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم والمؤمنون مبتدأ مؤخر وأكثرهم مبتدأ والفاسقون خبره.

البلاغة:

)

(227/132)

المقابلة) في الآية فن المقابلة، فقد تعدّد الطباق بين تأمرون وتنهون وبين المعروف والمنكر وبين "المؤمنون" و"الفاسقون"، وقد تقدم الكلام عن المقابلة.

[سورة آل عمران (3): الآيات 111 إلى 112]

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذىً وَإِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ (111) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَباؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ (112)

اللغة :

(ثُقِفُوا) تقدم معناها فيما سبق وهي هنا بمعنى أدركوا وغلبوا وذلوا . ومن أقوالهم : طلبناه فثقفناه في مكان كذا ، أي أدركناه .

وثقفت العلم في أوحى مدة إذا أسرعت في أخذه . وكان أبو تمام ثقفا لقفا (باؤُ) : رجعوا .

الاعراب :

(لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً) كلام مستأنف مسوق لبيان أن ضررهم منقطع يقع في فترات لا يؤبه لها . ولن حرف نفي ونصب واستقبال ويضروكم فعل مضارع منصوب بحذف النون لأنه من الأفعال الخمسة والواو فاعل والكاف مفعول به وإلا أداة حصر وأذى مفعول مطلق أي ضررا مقتصرا على أذى مؤقت لا يلبث أن يزول فالاستثناء مفرغ ، وقيل : الاستثناء هنا منقطع ، وعليه اقتصر ابن جرير الطبري ، قال :

وهذا من الاستثناء المنقطع الذي هو مخالف معنى ما قبله كما قيل : ما اشتكى شيئا إلا خيرا ، وهذه كلمة محكية عن العرب سماعا (وَإِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ) الواو عاطفة وإن

شرطية ويقاتلوكم فعل الشرط مجزوم بحذف النون والواو فاعل والكاف مفعول به أول والأدبار مفعول ثان (ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ) ثم حرف عطف وتراخ وقد أتت هنا لمجرد الاستئناف ولا

(228/132)

نافية وينصرون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل ، وسيأتي في باب البلاغة سر العدول عن العطف على الفعل المجزوم كما يقتضيه سياق الكلام ، كأنه قال : ثم أخبركم أنهم لا ينصرون (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا) الجملة مستأنفة مسوقة لتقرير ضرب الذلة على اليهود وضربت فعل ماض مبني للمجهول والتاء للتأنيث وعليهم جار ومجرور متعلقان بضربت والذلة نائب فاعل وأينما اسم شرط جازم منصوب على الظرفية المكانية متعلق بضربت وثقفوا فعل ماض مبني للمجهول في محل جزم فعل الشرط والواو نائب فاعل والجواب محذوف دل عليه ما قبله أي فقد ضربت عليهم (إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ) إلا أداة استثناء والجار والمجرور في محل نصب على الاستثناء من أعم الأحوال فيكون مستثنى بمعنى الحال أي ضربت عليهم الذلة في أعم أحوالهم إلا في هذه الحالة وهي

اعتصامهم بحبل من الله ومن الله جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة، وعلى هذا فهو استثناء متصل، وقال آخرون: هو منقطع.

(229/132)

وسيأتي مزيد بيان لهذا الإعراب في باب الفوائد (وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ) عطف على قوله بحبل من الله (وَبَاؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ) الواو حرف عطف وباءوا فعل ماض معطوف والواو فاعل والجملة عطف على جملة ضربت وبغضب جار ومجرور متعلقان بباءوا ومن الله جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لغضب (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ) عطف على ما تقدم وعليهم جار ومجرور متعلقان بضربت والمسكنة نائب فاعل ضربت وكرر الجملة تأكيدا للذلة المضروبة على اليهود (ذِلِكَ بِأَنَّهُمْ كانوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ) جملة مستأنفة مسوقة لبيان سبب ضرب الذلة والمسكنة على اليهود واسم الاشارة مبتدأ والاشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة وغضب الله، وبأنهم الباء حرف جر، وأن واسمها والمصدر المؤول من أن وما في حيزها في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان

بمحذوف خبر اسم الإشارة، وكان واسمها، والجملة خبر "أنهم"، وجملة يكفرون في محل نصب خبر كانوا وبآيات الله جار ومجرور متعلقان بيكفرون (وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ

حَقٍّ) عطف على ما تقدم والأنبياء مفعول به وبغير حق جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال (ذِلكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ) كلام مستأنف سيق لبيان تعليل العلة، فعصيانهم سبب لكفرهم وقتلهم الأنبياء، وهما سبب الذلة والمسكنة والغضب، واسم الإشارة مبتدأ والباء حرف جر وما مصدرية أي:

بسبب عصيانهم، فالجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر "ذلك"، وكان واسمها، وجملة يعتدون خبرها.

البلاغة:

(230/132)

اشتملت هاتان الآيتان على ضروب من البلاغة بلغت أسمى حدود الإعجاز ولئن أسهب علماء البلاغة، عليهم رضوان الله، في إظهار أسرارها، وسبر أغوارها واكتناه مخبآتها، فقد أتيح لنا أن نشهد بأم أعيننا مصير فلسطين بسبب اليهود، وبسبب ما نالوه من نجاح خالب مؤقت، وسنوجز القول فيما قاله علماء البلاغة أولا، ثم نعقب عليه بما استنتجناه بأنفسنا وحدسنا به من مآل اليهود الذي لا بد منه.

1- في الآية الأولى فن يقال له: "فن الإيضاح"، وهو أن يذكر المتكلم كلاما في ظاهره لبس

ثم يوضحه في بقية كلامه ، والإشكال الذي يحله الإيضاح يكون في معاني البديع من الألفاظ وفي إعرابها ، فإن في ظاهر هذه الآية إشكالين أحدهما من جهة الإعراب والآخر من جهة المعنى . فأما الذي من جهة الإعراب فعطف ما ليس بمجزوم على

المجزوم ، والذي من جهة المعنى أن صدر الآية يغني عن فاصلتها ، لأن توليهم عند المقاتلة دليل على الخذلان ، والخذلان والنصر لا يجتمعان والجواب أن الله سبحانه أخبر المؤمنين بأن عدوهم هذا إن قاتلهم انهزم ثم أراد تكميل العدة بإخبارهم أنه مع توليه الآن لا ينصر أبدا في الاستقبال فهو مخذول أبدا ما قاتلهم .

(231/132)

ولو وقع الاقتصار على دون الفاصلة لم يوف الكلام بهذا المعنى المراد ، لأنه لا يعطي قوله : " وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار " أنهم متى قاتلوهم كان الأمر كذلك فإن قولك : " إذا جاء زيد أكرمته " لا يلزم منه متى جاء على الدوام والاستمرار كان عليك الإكرام ، وإنما يعطي أنه إن جاءك أكرمته لتلك الجيئة ، ولعلمه سبحانه أن الاقتصار على ما هو دون الفاصلة لا يفهم منه دوام هذه البشارة إلى آخر الأبد ، والمقصود ديمومتها ، قال : " ثم لا ينصرون " ومنع الفعل الجزم وإن عطف على مجزوم ليبقى على المعنى الذي وضعت له صيغة

المضارع من الدلالة على الحال والاستقبال ، ونوى في الفعل الاستئناف لا العطف على ما تقدم ، والله سبحانه يريد إدخال الطمأنينة في روع المؤمنين الذين تعاهدوا على الموت ، لأن الاستشهاد في معمعان الوغى وصحصحان الجهاد هو مستهل حياة قشيبة جديدة هي حياة المجد والخلود على حد قول الشاعر :

إن تسل أين قبور العظما فعلى الأفواه أو في الأنفس

نقول : أراد الله سبحانه أن يؤكد للمؤمنين المجاهدين أن النصر سيكون حليفهم فأعقب الكلام الذي تم بجملة توضح اليقين وهي قوله : " ثم لا ينصرون " ليفيد الديمومة والاستمرار في الجهاد ، وعدم

الاستسلام للعدو ، ويبشرهم بأن عدوهم مخذول أبدا وأن عليهم أن يباشروا قتاله في كل وقت ، وأن لا يهنوا إذا خيل إليهم أن عدوهم قد ظهر عليهم ، فلا بد له أن يخذل في مستقبل الأيام ، فإن تاريخ الأمة لا يحسب بحساب الزمن ، ولا يعد بالسنين القليلة وإن حياة الأمم والشعوب ليست كحياة الافراد .

و الإشكال الثاني أنه عطف الفعل المضارع المرفوع على المضارع المجزوم ، وهو يبدو للوهلة الأولى أو لأصحاب النظر السطحي المجرد أنه خلاف الأولى ، ولكنه عدل عن الجزم إلى الرفع ليعلم أن عدم النصر لهم هو عهد قطعه الله على نفسه ، ومن أصدق من الله حديثا أو عهدا وإن انتفاء النصر عنهم مستمر إلى الأبد ، ولا عبرة في الحالات الطارئة ، والظروف الاستثنائية المؤقتة التي تسنح لهم في الفترات الطويلة المتعاقبة التي ينتصرون فيها فعدل عن الجزم الذي يقتضيه سياق الكلام ، كأنه قال ثم أخبركم مبشرا بأنهم لا ينصرون في المستقبل أبدا . كما أشرنا إلى ذلك في باب الإعراب .

2- والفن الثاني في هذه الآية هو : " فن التعليق " . وهو أن يتعلق الكلام إلى حين ، ولذلك اختير لفظ " ثم " دون حروف العطف ، لأنه يدل على المهلة الملائمة لدلالة الفعل المضارع على الاستقبال ، كأنه قال : ثم ها هنا ما هو أعلى في الامتنان ، وأسمى في مراتب الإحسان ، وهو أن هؤلاء اليهود قوم لا ينصرون البتة مهما وأتهم الامكانيات ، ومهما أغدقت عليهم المساعدات .

3- والفن الثالث في هذه الآية هو فن المطابقة المعنوية بين نصر المؤمنين وخذلان الكافرين .

4- والفن الرابع في هذه الآية هو : " فن الاحتراس " . لأن الكلام لو عطف بالواو مثلا لظن قصار النظر أنهم إنما وعدوا بالنصر في تلك الحالة ليس غير ، فدفع هذا الظن بكلمة " ثم " التي تقطع قطعا لا يرين عليه الشك ، بأن النتيجة الحتمية هي النصر المؤزر للمؤمنين ،

خشية أن يظن بعض الذين لا يحبون المسارعة إلى الموت بأن الوعد بالنصر في تلك الحالة فقط ، وأن الحرب قد تكون سجالا ، وأنه قد يأتي دورهم بالنصر ، فنفى سبحانه هذا الاحتمال ، وقطع على هؤلاء الظانين الطريق لالتماس المعاذير للتخلف عن الجهاد .

(233/132)

5- والفن الخامس : هو الإيغال أي عدم الوقوف عند تولية الأدبار مع تمام الكلام ، فأتم بما يوافق بقية الفواصل مع ما يكمل به المعنى التام .

6- ثم جاءت الآية الثانية مكملة للفنون التي تضمنتها الآيتان وذلك على الوجه التالي :

آ- الكناية التي هي هنا عبارة عن نسبة ، وقد تقدم ذكرها ، وهي في ضرب الذلة والمسكنة عليهم كما يضرب البيت أو القبة على أهلهما على حد قول أبي الطيب المتنبي :

إن في ثوبك الذي المجد فيه لضياء يزري بكل ضياء

ب- الاستعارة التمثيلية في تشبيه التمسك بأسباب السلامة بالتمسك بالحبل الوثيق وقد تدلى من مكان عال ، فهو آمن من مغبة السقوط والخذلان والارتطام .

فإذا أضفنا إلى ما تقدم من فنون ما تميزت به الآيتان من " حسن الافتنان " و" جمال النسق " و" روعة العبارة " و" نصاعة البيان " تبين لك إلى أي مدى وصلتا اليه من إعجاز وسمو

تميز بهما كتاب اللّه العظيم .

الفوائد :

اختلف أهل العربية في المعنى الذي جلب الباء في قوله تعالى : " إلا بحبل من الله وحبل من الناس " فقال بعض نحويي الكوفة وعلى رأسهم الفراء في كتابه " معاني القرآن " : الذي جلب الباء في قوله : بحبل ، فعل مضمر قد ترك ذكره . ومعنى الكلام : ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا أن يعتصموا بحبل من الله ، فأضمر في ذلك . واستشهد الفراء بقول حميد بن ثور الهلالي :

رأتني بحبليها فصدت مخافة وفي الحبل روعاء الفؤاد فروق

وقال : أراد أقبلت بحبليها . وبقول أبي الطمحان القيني :

حنتني حانيات الدهر حتى كأني خاتل أدنو لصيد

قريب الخطو يحسب من رآني ولست مقيدا أني بقيد

يريد مقيدا بقيد فأوجب إعمال فعل محذوف وإظهار صلته وهو متروك ، وذلك في مذاهب العربية ضعيف ، ومن كلام العرب بعيد .

إلى أن يقول : وقال بعض نحويي البصرة : قوله : " إلا نحبل من الله " استثناء خارج من أول الكلام ، قال الفراء : وليس ذلك بأشد

من قوله : " لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما " ، وقال آخرون من نحويي الكوفة : هو استثناء متصل ، والمعنى ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا أي بكل مكان إلا بموضع حبل من اللّه ، كما تقول ضربت عليهم الذلة في الأمكنة إلا في هذا المكان . وهذا أيضا طلب الحق فأخطأ المفصل ، وذلك أنه زعم أنه استثناء متصل ، ولو كان متصلا كما زعم لوجب أن يكون إذا ثقفوا بحبل من الله وحبل من الناس غير مضروبة عليهم المسكنة ، وليس ذلك صفة اليهود لأنهم أينما ثقفوا بحبل من الله وحبل من الناس أو بغير حبل من الله عز وجل وغير حبل من الناس فالذلة مضروبة عليهم ، على ما ذكرنا عن أهل التأويل قبل فلو كان قوله :

الا بحبل من اللّه وحبل من الناس ، استثناء متصلا لوجب أن يكون القوم إذا ثقفوا بعهد وذمة أن لا تكون الذلة مضروبة عليهم ، وذلك خلاف ما وصفهم الله به من صفتهم ، وخلاف ما هم به من الصفة ، فقد تبين بذلك فساد قول هذا القائل أيضا .

تعليق ابن جرير :

وقال أبو جعفر الطبري : ولكن القول عندنا أن الباء في قوله : إلا بحبل من الله ، أدخلت لأن الكلام الذي قبل الاستثناء يقتضي في المعنى الباء ، وذلك أن معنى قوله : ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا : ضربت عليهم الذلة بكل مكان ثقفوا فيه ، ثم قال : إلا بحبل من الله وحبل من الناس ، على غير وجه الاتصال بالأول ، ولكنه على الانقطاع عنه ، ومعناه :

ولكن يثقفون بحبل من الله وحبل من الناس ، كما قيل في :

" وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ " ف " خطأ " وإن كان منصوبا بما عمل فيما قبل الاستثناء فليس قوله باستثناء متصل بالأول ، بمعنى

إلا خطأ فإن له قتله كذلك ، ولكن قد يقتله خطأ ، فكذلك قوله : أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وإن كان الذي جلب الباء التي بعد إلا الفعل الذي يقتضيها قبل إلا فليس الاستثناء بالاستثناء المتصل بالذي قبله ، بمعنى أن القوم إذا لقوا فالذلة زائلة عنهم بل الذلة ثابتة بكل حال ، ولكن معناه ما بيناه آنفا .

وقد آن أن ننتهي من هذا البحث الذي طال بعض الطول ونحمد الله على أنه ألهمنا ما لم يلهم أحدا من قبل . ولعلهم لو امتد بهم العمر إلى أيامنا لأدركوه كما أدركناه ، وسبروا غوره كما سبرناه . ولعل من خير حسن الختام أن ننبه إلى خطأ وقع فيه بعض الأئمة من المتقدمين وجل من تنزه عن الخطأ ، فقد زعم بعض من لا تحصيل له أن المعطوف على جواب الشرط ب " ثم " لا يجوز جزمه البتة قال : لأن المعطوف على الجواب جواب ، وجواب الشرط يقع بعده وعقبه ، و " ثم " تقتضي التراخي فكيف يتصور وقوعه عقب الشرط ؟ فلذلك لم

يجزم مع " ثم " .

وهذا فاسد واضح البطلان ، وليس لنا أن نستشهد على بطلانه إلا بقوله تعالى : " وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم " ف " لا يكونوا " مضارع مجزوم نسقا على " يستبدل " الواقع جوابا للشرط والعاطف ثم . وبهذا يكتمل عقد هذا البحث الذي نزفه إلى العالمين العربي والإسلامي ليستبشروا فالنصر آت ، وزوال هذه الدويلة المسخ وعد تنزلت به الآيات . ونقتبس هذه العبارة للزمخشري فهي خير ما يقال : " وحين رفع كان نفي النصر وعدا مطلقا كأنه قال : ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها ، وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون ، منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعدها بنجاح ولا يستقيم لهم أمر ، وكان كما أخبر من حال بني قريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر " ، والله الموفق للصواب .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 113 إلى 115]

(236/132)

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113)
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ

وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (115)

اللغة :

(الآناء) الساعات ، واحدها أنى بفتح الهمزة والنون ، بوزن عصا ، أو إنى بكسر الهمزة وفتح النون بوزن معى ، أو أني بفتح الهمزة وسكون النون بوزن ظبي ، أو إني بكسر الهمزة وسكون النون بوزن حمل .

الاعراب :

(لَيْسُوا سَوَاءً) كلام مستأنف مسوق لبيان التفاوت بين أهل الكتاب ، وليس واسمها وخبرها ، والوقف تام على سواء (مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ) الجملة مستأنفة أيضا مسوقة لبيان ما أجمله ، ولتعداد محاسن مؤمنى أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وثعلبة بن سعيد وأسيد بن عبيد

(237/132)

وأمثالهم من اليهود الذين أسلموا ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم وأمة مبتدأ مؤخر وقائمة صفة ، واختار الفراء أن تكون أمة مرفوعة على أنها فاعل سواء ، ولا

أدري كيف استقام له ذلك مع ما فيه من توهين نظام الجملة (يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ) جملة يتلون صفة ثانية لأمة والواو فاعل يتلون وآيات الله مفعوله وآناء الليل ظرف زمان متعلق بيتلون وهم الواو للحال وهم مبتدأ وجملة يسجدون في محل رفع خبر (يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) الجملة صفة ثالثة لأمة والجار والمجرور متعلقان بيؤمنون واليوم عطف على الله والآخر صفة لليوم (وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ) جمل ثلاث معطوفة على جملة يؤمنون بالله (وَأُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ) الواو استئنافية واسم الإشارة مبتدأ والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر اسم الإشارة (وَما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ) الواو استئنافية وما شرطية في محل نصب مفعول به مقدم ليفعلوا ويفعلوا فعل الشرط مجزوم والواو فاعل والجار والمجرور في محل نصب على الحال والفاء رابطة ولن حرف نصب ويكفروه فعل مضارع منصوب بلن والواو نائب فاعل والهاء مفعول به ثان وقد نصب فعل كفر مفعولين لأنه تضمن معنى الحرمان والمنع وجملة فلن يكفروه في محل جزم جواب الشرط (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ) الواو استئنافية والله مبتدأ وعليم خبره والجار والمجرور متعلقان بعليم.

[سورة آل عمران (3) : الآيات 116 إلى 117]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (116) مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (117)

اللغة:

(الصر) بكسر الصاد: الريح الباردة، كالصّرصر. قال حاتم الطائي:

أوقد فإن الليل ليل قرّ والريح يا غلام ريح صر

وسيأتي المزيد عنها في باب البلاغة.

الاعراب:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً) كلام مستأنف مسوق لذكر خلة من خلال اليهود، وهي حبهم للمال وشراهتهم إليه، ومعاداتهم من أجله، على أن خصوص الحديث يفيد عمومه، فليس الحديث عن بني قريظة والنضير بمانع من شموله لكل من يجعل ديدنه حب المال والتطويح بكل خلق جميل في سبيله، وإن واسمها، وجملة كفروا صلة ولن حرف نصب وتغني فعل مضارع منصوب بلن وعنهم جار ومجرور متعلقان بتغني وأموالهم فاعل ولا أولادهم عطف على "أموالهم" ومن اللّه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال، لأنه كان في الأصل نعت لقوله شيئا وتقدم عليه، وشيئا مفعول مطلق أو

مفعول به وجملة لن تغني في محل رفع خبر إن

(وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ) الواو عاطفة وأولئك اسم إشارة مبتدأ وأصحاب النار خبره والجملة معطوفة على جملة لن تغني (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) هم مبتدأ وفيها جار ومجرور متعلقان بقوله خالدون وخالدون خبر "هم" والجملة خبر ثان لأولئك. (مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(239/132)

جملة مستأنفة مسوقة لضرب المثل في بيان كيفية عدم إغناء أموالهم التي كانوا يعولون عليها في دفع المضار النازلة بهم، ومثل مبتدأ وما اسم موصول في محل جر بالإضافة وجملة ينفقون صلة وفي هذه جار ومجرور متعلقان بينفقون والحياة بدل من اسم الإشارة والدنيا صفة للحياة (كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ)

الجار والمجرور متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر مثل وريح مضاف اليه وفيها جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم مبتدأ مؤخر والجملة صفة ريح (أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ)

جملة أصابت صفة ثانية لريح، وحرث قوم مفعول به لأصابت وجملة ظلموا في محل جر

صفة لقوم وأنفسهم مفعول به لظلموا فأهلكته عطف على أصابتَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

الواو استئنافية وما نافية وظلمهم الله فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر ولكن مخففة من الثقيلة مهملة لمجرد الاستدراك وأنفسهم مفعول به مقدم ليظلمون ويظلمون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل .

البلاغة :

1- التشبيه التمثيلي فقد شبه سبحانه ما أنفقوه في عدم جدواه وقلة غنائه بالحرث الذي عصفت به الريح الصر ، وأصل الكلام : مثل

ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم فأصابته ريح فيها صرّ ، ولكن خولف النظم في المثل المذكور لفائدة جليلة وهي تقديم ما هو أهم لأن الريح التي هي مثل العذاب ذكرها في سياق الوعيد والتهديد أهم من ذكر الحرث ، فقدمت عناية بذكرها ، واعتمادا على أن الأذواق والفطر المستقيمة تستطيع رد الكلام إلى أصله على أيسر وجه .

وقد استدل الفقهاء بهذه الآية على أن صدقة الكفار لا تنفع أصحابها ، لأن العقيدة هي الأصل ، وعليها الاعتماد ، وهذا أسمى ما يصل إليه البيان .

2- التتميم: وقد تقدم ذكره، وهو أن يأتي المتكلم بكلمة إذا طرحت من الكلام نقص معناه في ذاته أو صفاته، والتتميم هنا في كلمة "فيها صر" فإنها أفادت المبالغة كما أفادت التجسيد والتشخيص، كما تقول: برد بارد وليلة ليلاء ويوم أيوم، ثم قيد الصر بالظرفية، لأن الريح مطلقة ثم قيدها بالظرفية، وكل مقيد ظرف لمطلقه، لأن المطلق بعض المقيد، فحصل التجسيد والتشخيص. وهذه من عيون النكت البلاغية، فاحرص عليها والله يعصمك.

[سورة آل عمران (3) : آية 118]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وَما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (118)

اللغة:

(بِطانَةً) بطانة الرجل بكسر الباء ووليجته من يطلعه على أسراره ثقة به وارتكانا على مودته. وهو مشبه ببطانة الثوب، وهي خلاف ظهارته. وفي مختار الصحاح: "وليجة الرجل خاصته وبطانته" ومنه قول الشاعر:

وهم خلصائي كلهم وبطانتي وهم عيبتي من دون كل قريب

(يَأْلُونَكُمْ) من ألا في الأمر أي قصر فيه . ويتعدى إلى مفعولين ، لأنه يتضمن معنى المنع ، يقال : لا آلوك نصحا ، أي : لا أمنعك نصحا .

وقيل : هو لازم لا ينصب مفعولا . وسيأتي ذلك مفصلا في باب الإعراب .

(خَبالًا) الخبال بفتح الخاء : الفساد ، وأصله ما يلحق الحيوان من مرض وفتور فيورثه فسادا واضطرابا ، يقال : خبله بالتخفيف ، وخبّله بالتشديد ، فهو خابل ومخبّل ، وذاك مجنون ومخبّل .

(عَنِتُّمْ) العنت بفتح العين والنون : شدة الضرر والمشقة .

الاعراب :

)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ) كلام مستأنف مسوق لتحذير المؤمنين من موالاة اليهود ، لما بينهم من أواصر قرابة وصداقة ، والمراد إطلاقه ، فموالاة المستعمر الأثيم لا تجوز مطلقا .

وقد تقدم إعراب النداء ولا ناهية وتتخذوا فعل مضارع مجزوم بلا والواو فاعل وبطانة

مفعول به ومن دونكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لبطانة أي كائنة من غيركم أو من غير أبناء جنسكم ، ويجوز تعليقها بتتخذوا فيكون الجار والمجرور في موضع المفعول به الثاني لتتخذوا ، وعلى الأول مفعول تتخذوا الثاني محذوف إيجازا ، وتقديره أصفياء أو أولياء (لا يَأْلُونَكُمْ خَبالًا) الجملة مستأنفة كأنها بمثابة البيان لحال البطانة الكافرة العدوة ، وقيل هي صفة ثانية لبطانة ، لا نافية ويألونكم فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والكاف مفعول به أول وخبالا مفعول به ثان . وإذا قلنا الفعل لازم فتكون الكاف في محل نصب بنزع الخافض أي : لا يألون لكم ، وخبالا منصوب أيضا بنزع الخافض أي : في الخبال ، ولك أن تنصبه على التمييز أو على أنه مصدر في موضع الحال (وَدُّوا ما عَنِتُّمْ) الجملة مستأنفة كسابقتها ، وقيل :

هي صفة ثالثة لبطانة ، وكلاهما صحيح ، وودوا فعل وفاعل وما مصدرية مؤولة مع ما في حيزها بمصدر هو المفعول به أي ودوا عنتكم وضرركم وسوء تقتكم (قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ) الجملة مستأنفة أيضا أو هي صفة رابعة لبطانة ، وقد حرف تحقيق وبدت فعل ماض مبني على الفتح المقدرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين والبغضاء فاعل

ومن أفواههم جار ومجرور متعلقان ببدت وعلقهما أبو البقاء بمحذوف منصوب على الحال. ومعنى ظهور البغضاء من أفواههم أنهم ينسبون بما ينم على البغضاء المركوزة في سلائقهم وخلالهم (وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ) الواو للحال أو للاستئناف، فالجملة حالية أو مستأنفة وما اسم موصول مبتدأ وجملة تخفي صلة وصدورهم فاعل تخفي وأكبر خبر " ما " (قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) الجملة مستأنفة تفيد

التعليل مسوقة لتقرير أن الآيات المترادفة جديرة بحملكم على موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه، وقد حرف تحقيق وبينا فعل ماض وفاعل ولكم جار ومجرور متعلقان ببينا والآيات مفعول به وإن شرطية وكنتم فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط والتاء اسم كنتم وجملة تعقلون خبر كنتم، والجواب محذوف تقديره فلا توادوهم أبدا.

البلاغة:

1- الاستعارة التصريحية في قوله بطانة إذ هي في الأصل بطانة الثوب المعروفة ثم استعيرت لخصيص الرجل وصفيه الذي يفضي إليه بذات نفسه وخلجات صدره.

2- الانفصال: وهو أن يقول المتكلم ما يوهم أنه معلوم ظاهر، ولكنه ينطوي على أمر وراء ذلك، وهو أبعد غاية وأسمى متناولا، وذلك في قوله " من أفواههم " فإن المعلوم أن المرء يعبر عما يكنه بفمه، والانفصال في ذلك التسجيل عليهم بأنهم لا يتمالكون أن تند عن ألسنتهم ألفاظ تنم على الشعور بالبغضاء والموجدة.

3- الطباق بين بدت وتخفي .

الفوائد :

(243/132)

اختلف علماء النحو والبيان في إعراب الجمل الواقعة بعد بطانة ، وقد أجزنا أن تكون مستأنفات على وجه التعليل للنهي عن اتخاذهم بطانة من دون جنسكم وأبناء قومكم .

وعليه جرى الزمخشري فقال :

" الأحسن والأبلغ أن تكون مستأنفات ، ويجوز أن تكون صفات متعاقبة " . وقد منع الواحدي هذا الوجه لعدم وجود حرف العطف ، وزعم أنه لا يقال : لا تتخذ صاحبا يؤذيك أحب مفارقتكم . على أنه يظهر لي أن الصفة تتعدد بغير عاطف كما يتعدد الخبر نحو " الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان " .

بين ابن هشام والرازي :

تعقب ابن هشام الإمام فخر الدين الرازي بصدد هذه الآية فقال مانصه : " وحصل للإمام فخر الدين في تفسير هذه الآية سهو ، فإنه سأل :

ما الحكمة في تقديم " من دونكم " على " بطانة " ؟ وأجاب بأنّ محط النهي هو " من دونكم

"لا" بطانة" فلذلك قدم الأهم وليست التلاوة كما ذكر.

وأبو حيان وهم وتبعه الصفاقسيّ والحلبيّ:

ومضى ابن هشام في تعقيبه قائلا: ونظير هذا أن أبا حيان فسر في سورة الأنبياء كلمة "زبرا" بعد قوله تعالى: "وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ" وإنما هي في سورة المؤمنون، وترك تفسيرها هناك، وتبعه على هذا السهو رجلان لخصا من تفسيره إعرابا.

قلت: أراد ابن هشام بالرجلين اللذين شاركا أبا حيان في سهوه هما الصفاقسي وشهاب الدين الحلبي المعروف بالسمين.

[سورة آل عمران (3): آية 119]

ها أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ وَإِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (119)

اللغة:

(العض): تحامل الأسنان بعضها على بعض، وعضه بأسنانه:

تناوله ، يقال : عضضت بكسر الضاد أعض عضا وعضيضا ، والعض كله بالضاد إلا مع الزمان أو نحوه في قولهم : عظ الزمان أي اشتد ، وعظت الحرب أي اشتدت ، فإنهما يتبادلان . وللعين والضاد إذا كانتا فاء وعينا للكلمة خاصة غريبة خاصة ، فهما تفيدان معنى الشدة والإيذاء وما يدخل في معناهما ، قال الأخطل :

ضجوا من الحرب إذ عضت غواربهم وقيس عيلان من أخلاقها الضجر

والعضب الشتم والقطع ، ولا يخفى ما فيهما من شدة ومن إيذاء وسيف عضب أي : قاطع ، وشاة عضباء : مكسورة القرن ، وعضده شد أزره وساعده ، والمؤمن معضود بتوفيق الله ، قال تعالى : " سنشد عضدك بأخيك " ، وداء معضل : صعب لا يحل ، وبه مرض عضال ، وقد أعيا الأطباء وأعضلهم ، وأعضل الأمر ، وتزوج ذو الإصبع فأتى حيه يسألهم مهرها فمنعوه فقال :

واحدة أعضلكم أمرها فكيف لو درت على أربع

وفلان عضلة من العضل أي داهية من الدواهي . وهذا من أعجب ما يسمع عن هذه اللغة الشريفة .

(الْأَنامِلَ) : جمع أنملة وهي رأس الإصبع .

الاعراب :

(

(245/132)

ها أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ) جملة مستأنفة مسوقة لتنبيه المؤمنين على خطئهم بموالاة اليهود ، وها للتنبيه وقرع العصا وأنتم مبتدأ وأولاء خبره ، وقد تقدم أن اسم الإشارة لا بد من ذكره لوجود " ها " التي هي للتنبيه وجملة تحبونهم حالية أو مستأنفة كأنها بمثابة البيان لخطئهم وسوء اختيارهم لأصفيائهم وجملة ولا يحبونكم معطوفة على جملة تحبونهم وأعرب الجلال وغيره أولاء منادى أي يا هؤلاء فتكون جملة تحبونهم هي الخبر (وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ) يصح أن تكون الواو عاطفة فالجملة معطوفة على جملة تحبونهم ، ويصح أن تكون الواو حالية فتكون الجملة نصبا على الحال ، وبالكتاب جار ومجرور متعلقان بتؤمنون وكله تأكيد للكتاب ، وفي هذا منتهى التنديد بهم ، لأن مصافاة من لا يحبك أمر يستوجب اللوم والتنديد . هذا وقد منع أبو حيان أن تكون الواو حالية ، لأن المضارع المثبت إذا وقع حالا لا تدخل عليه واو الحال ، تقول : جاء زيد يضحك ، ولا يجوز : ويضحك ، وانتهى إلى القول : لكن الأولى ما ذكرناه من كونها للعطف (وَإِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا) الواو استئنافية وإذا ظرف

(246/132)

لما يستقبل من الزمن متضمن معنى الشرط وجملة لقوكم في محل جر بالإضافة وجملة قالوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وجملة آمنا في محل نصب مقول القول (وَإِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ) الواو عاطفة وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن وجملة خلوا في محل جر بالإضافة وخلا فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل وجملة عضوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وعليكم جار ومجرور متعلقان بعضوا والأنامل مفعول به ومن الغيظ جار ومجرور في محل نصب تمييز أي غيظا ويجوز أن تكون بمعنى اللام فتفيد العلة فيكون الجار والمجرور في محل نصب مفعول لأجله أي من أجل الغيظ (قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ) الجملة مستأنفة وجملة موتوا في محل نصب مقول القول وبغيظكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف نصب على الحال أي متلبسين بغيظكم (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ) الجملة مستأنفة تفيد التعليل للأمر بالموت، والأسهل أن تكون من جملة المقول فتكون في محل نصب بالقول، وإن واسمها وخبرها، وبذات الصدور: جار ومجرور متعلقان بعليم. ومعنى ذات الصدور: المضمرات وخلجات النفوس، فذات تأنيث ذي، بمعنى صاحبة الصدور، وجعلت صاحبة الصدور لأنها لا تنفك عنها.

البلاغة:

1- في هذه الآية فن الكناية، وعض الأنامل كناية عن صفة. وقد جرت عادة العرب على التعبير عن المغتاظ النادم على ما فعل بعضّ الأنامل والبنان، وقد طفحت أشعارهم بهذا التعبير، قال أبو طالب:

وقد صالحوا قوما علينا أشحة يعضون عضا خلفنا بالأباهم

2- وفي الآية خروج الأمر عن معناه الحقيقي إلى معنى الدعاء عليهم بديمومة غيظهم.

الفوائد:

ذهب الكوفيون إلى أن أسماء الإشارة إذا أريد بها التقريب كانت من أخوات كان في احتياجها إلى اسم مرفوع وخبر منصوب، نحو:

كيف أخاف الظلم وهذا الخليفة قادما؟ وكيف أخاف البرد وهذه الشمس طالعة، وكذلك كل ما كان فيه الاسم الواقع بعد أسماء الإشارة لا ثاني له في الوجود نحو هذا ابن صياد أسقى الناس، فيعربون هذا للتقريب اسما ناقصا والمرفوع اسم التقريب والمنصوب خبر التقريب. وهو كلام منطقي، ولذلك أوردناه للاطلاع عليه.

[سورة آل عمران (3): آية 120]

إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (120)

الإعراب :

(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ) كلام مستأنف سيق لبيان تناهي عداوتهم وافتنانهم في أصناف العداوات ، وإن شرطية وتمسسكم فعل الشرط مجزوم والكاف مفعول به مقدم وحسنة فاعل مؤخر وتسؤهم

جواب الشرط المجزوم والهاء مفعول به (وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها) جملة معطوفة على الجملة السابقة مماثلة لها في الإعراب (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً) الجملة معطوفة أيضا وإن شرطية وتصبروا فعل الشرط وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل وتتقوا عطف على تصبروا ولا نافية ويضركم جواب الشرط ، وحرك بالضم لاتباع ضمة الضاد . كما هي القاعدة في الفعل المضعف ، وقد تقدمت .

ويجوز تحريكها بالفتح لخفتها كما في قراءة ثانية ، وهناك قراءة ثالثة ، وهي : يضركم بكسر الضاد وسكون الراء ، من ضاره يضيره ، أي :

يضرّه ، والكاف مفعول به وكيدهم فاعل وشيئا مفعول مطلق أي شيئا من الضرر (إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) جملة مستأنفة تفيد التعليل وإن واسمها ، ومحيط خبرها وبما جار

ومجرور متعلقان بمحيط وجملة يعملون لا محل لها لأنها صلة الموصول.

البلاغة:

(248/132)

في الآية استعارة مكنية جميلة، فقد استعير المس للحسنة، وهي لا تمس الإنسان للدلالة على أنها أقل تمكنا من الإصابة، إشارة إلى أن الكافرين يستاءون مما يصيب المؤمنين من خير، وإن سنح لهم سنوحا أو مر بهم مرورا عارضا. أما إذا تمكنت السيئة منكم واجتاحتكم فلا تسل عن مدى فرحهم وسرورهم وهذا من بديع الكلام الذي تتقطع دونه الأعناق.

[سورة آل عمران (3) : الآيات 121 إلى 122]

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (121) إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُما وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (122)

اللغة:

(غَدَوْتَ) الغدو: الخروج أول النهار يقال: غدا يغدو أي خرج غدوة ويستعمل غدا بمعنى صار فيكون ناقصا يرفع الاسم وينصب الخبر ومثلها راح وعاد ورجع وآض وارتد وقعد

وتحول واستحال وكلها بمعنى صار وملحقة بها في العمل . قال لبيد :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع

فيحور هنا ناقصة بمعنى صار واسمها ضمير مستتر تقديره هو يعود على المرء ورمادا خبرها وفي الحديث الشريف : " لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا " أي تذهب في الصباح جائعة وترجع في المساء وقد شبعت وامتلأت بطونها أما في الآية فهي محتملة للمعنيين كما سيأتي (تُبَوِّئُ) تنزل .

الاعراب :

(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ) الواو استئنافية أو عاطفة على مقدم وعلى كل حال فالجملة مسوقة لبذكر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بيوم أحد ليتذكروا ما وقع في هذا اليوم في هذه الحالات الشاذة من عدم الصبر وكيف غدا النبي إلى أحد من

حجرة عائشة كما سيأتي في باب الفوائد والظرف متعلق بمحذوف أي اذكر وجملة غدوت في محل جر بإضافة الظرف إليها والتاء إما فاعل غدوت وإما اسمها في رأي من أعملها عمل

صار والجار والمجرور متعلقان بغدوت على الأول وبمحذوف حال على الثاني وجملة تبوىء حالية على الأول من فاعل غدوت أو خبر غدوت والمؤمنين مفعول به لتبوىء ومقاعد مفعول به ثان لتبوىء وللقتال جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لمقاعد أي مقاعد مهيأة للقتال (وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) الواو استئنافية والله مبتدأ وسميع عليم خبراه (إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا) إذ ظرف لما مضى من الزمن بدل من إذ الأولى أي اذكر ذلك الوقت وهو يوم أحد وجملة همت في محل جر بالإضافة وطائفتان فاعل همت ومنكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لقوله طائفتان وأن حرف مصدري ونصب وتفشلا فعل مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة وألف الاثنين فاعل وأن وما في حيزها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بهمت لأنه يتعدى بالباء والتقدير بأن تفشلا ولك في محلها وجهان النصب على نزع الخافض والجر ، (وَاللَّهُ وَلِيُّهُما) لك في الواو أن تجعلها حالية فتكون الجملة في محل نصب على الحال ولك أن تجعلها مستأنفة والله مبتدأ ووليهما خبر (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) الواو عاطفة وعلى الله جار ومجرور متعلقان بيتوكل والفاء هي الفصيحة لأنها دخلت لمعنى الشرط والمعنى إذا حزب الأمر وصعب فتوكلوا والمؤمنون فاعل .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 123 إلى 125]

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ (124) بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125)

اللغة:

(بدر) اسم ماء بين مكة والمدينة، وقد كان هذا الماء لرجل اسمه بدر، فسمي به.

وعنده جرت الوقعة الموسومة بهذا الاسم، في السابع عشر من شهر رمضان، في السنة الثانية للهجرة.

(فَوْرِهِمْ): الفور: العجلة والسرعة، وهو مصدر من فارت القدر إذا غلت فاستعير للسرعة، ثم سميت به الحالة التي لا ريث فيها ولا إبطاء ولا تعريج على شيء.

(مُسَوِّمِينَ) معلمين بعلامة واضحة. وقد قرئت بصيغة اسم الفاعل وبصيغة اسم المفعول.

الاعراب:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ) الواو استئنافية واللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق ونصركم الله فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر وببدر جار ومجرور متعلقان بنصركم. والجملة مستأنفة

مسوقة لتسلية المؤمنين عما لحق بهم من ضرر في غزوة أحد ، وتذكيرهم بنعمة الله ، وللإشارة بأن هزيمتهم في أحد كانت بسبب مخالفة النبي في الصمود والثبات وأن الحلاوة قد تعتريها مرارة وأن الجنات حفت بالمكاره (وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ) الواو للحال وأنتم مبتدأ وأذلة خبر والجملة في محل نصب على الحال (فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) الفاء الفصيحة واتقوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والله مفعول به ولعل واسمها ، وجملة تشكرون خبرها وجملة الرجاء في محل نصب حال (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ) إذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق بنصركم أو بدل من " إذ " الأولى ، لأن الكلام هنا في صدد غزوة أحد . وجملة تقول في محل جر بالإضافة وللمؤمنين جار ومجرور متعلقان بتقول (أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ) الجملة الاستفهامية في محل نصب مقول قوله صلى الله عليه وسلم والهمزة للاستفهام الإنكاري كأنهم كانوا كالآيسين من النصر ، ولن حرف ناصب ويكفيكم فعل مضارع منصوب بلن والكاف ضمير متصل في محل نصب مفعول به وأن حرف مصدرية ونصب ويمدكم فعل مضارع منصوب بها وأن وما في حيزها في تأويل مصدر فاعل يكفيكم وربكم فاعل يمدكم (بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ) بثلاثة الجار والمجرور متعلقان بيمدكم ،

والآف مضاف إليه ، ومن الملائكة جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لثلاثة آلاف ومنزلين صفة ثانية (بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا) بلى حرف جواب لإيجاب النفي في قوله : ألن يكفيكم ، والمعنى يكفيكم الإمداد بالملائكة . ولكن ذلك مرهون بشروط لا بد من تأديتها وهي الصبر والتقوى .

وإن شرطية وتصبروا فعل الشرط مجزوم بحذف النون والواو فاعل وتتقوا عطف على تصبروا ويأتوكم عطف أيضا ومن فورهم جار ومجرور متعلقان بيأتوكم وهذا اسم إشارة في محل

(252/132)

جر صفة لفوركم أو بدل منه والجملة كلها مستأنفة مسوقة لتعيين شروط الإمداد (يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) يمددكم جواب الشرط والكاف مفعول به وربكم فاعل ومن الملائكة جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لخمسة آلاف ومسومين صفة ثانية .

البلاغة :

الكناية في قوله تعالى : " وأنتم أذلة " عن ضعف حالتهم وضآلة عددهم وعددهم : ذكر

التاريخ أنهم خرجوا يعتقب النّفر منهم على البعير الواحد ، وما كان معهم إلا فرس واحد يوم بدر .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 126 إلى 127]

وَما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (126) لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ (127)

اللغة :

(طَرَفاً) : أراد به الجانب أو الطائفة منهم .

(يَكْبِتَهُمْ) : يخزيهم ويغيظهم من الكبت وهو الإصابة بالمكروه ، وقيل : هو الصرع للوجه واليدين . وعلى هذين المعنيين تكون التاء أصلية ، وليست بدلا من شيء بل هي مادة مستقلة بذاتها . وقيل التاء بدل من الدال ، وأصله كبده إذا أصابه بمكروه أثر في كبده وجعا ، كقولك رأسته إذا ضربت رأسه . ويدل على ذلك قراءة بعضهم : أو يكبدهم ، بالدال . والعرب قد تبدل التاء من الدال ، ولعل أبا الطيب المتنبي قد رمق هذا الإبدال فلاءم بين لفظين ملاءمة غريبة عند ما قال :

لأكبت حاسدا وأري عدوا كأنهما وداعك والرحيل

فقد لاحظ أبو الطيب إبدال التاء من الدال فتوهمها لأكبد ، وناسب أن يأتي بأري من الوري ، وهو إصابة الرئة يقال : وراه الحب ريا وتورية ، وهو فساد الجوف من حزن أو

صبابة ، قال عبد بني الحسحاس :

وراهن ربي مثلما قد ورنيني وأحمي على أكبادهن المكاويا

(253/132)

و منه الحديث الشريف "لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا حتى يريه" . وهذا من أوابد أبي الطيب التي لا تلحق .

الاعراب :

(وَما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى لَكُمْ) كلام مستأنف مسوق لشرح كيفية النصر والواو استئنافية وما نافية وجعله اللّه فعل ماض ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر وإلا أداة حصر وبشرى مفعول به ثان إذا كان الجعل هنا بمعنى التصيير ، ولك أن تعتبر الجعل هنا بمعنى الخلق فتكون متعدية لواحد ، وبشرى منصوب على أنه استثناء من أعم العلل فهو مفعول لأجله وقد استوفى شروط النصب ولكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لبشرى (وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ) الواو عاطفة واللام للتعليل وتطمئن فعل مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور في محل نصب عطف على

(254/132)

بشرى وجر باللام لاختلال شرط من شروط النصب وهو عدم اتحاد الفاعل فإن فاعل الجعل هو الله تعالى وفاعل الاطمئنان القلوب ، ولك أن تعلق الجار والمجرور بفعل محذوف تقديره : فعل هذا لتطمئن قلوبكم ، وقلوبكم فاعل تطمئن وبه جار ومجرور متعلقان بتطمئن (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) الواو استئنافية وما نافية والنصر مبتدأ وإلا أداة حصر ومن عند الله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر والعزيز الحكيم صفتان لله تعالى (لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) اللام للتعليل ويقطع فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والجار والمجرور متعلقان بنصركم في قوله " ولقد نصركم الله ببدر " ، وقيل بمحذوف تقديره أمدكم ونصركم ، ورجح أبو حيان أن يكونا متعلقين بأقرب مذكور وهو العامل في قوله : " من عند الله " كأن التقدير : وما النصر إلا كائن من عند الله لا من عند غيره ، لأحد أمرين : إما قطع جانب من الكفار بقتل وأسر ، وإما بخزي وانقلاب بخيبة . وطرفا مفعول به ومن الذين جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة وجملة كفروا لا محل لها لأنها صلة الموصول (أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ) أو حرف عطف ويكبتهم فعل مضارع معطوف على يقطع والهاء ضمير متصل في محل نصب مفعول به والفاء حرف عطف وينقلبوا عطف على يكبتهم وخائبين حال وعلامة نصبه الياء لأنه جمع مذكر سالم .

البلاغة :

الاستعارة التصريحية التبعية في قوله : " ليقطع طرفا " فقد شبه من قتل منهم وتفرق بالشيء المقتطع الذي تفرقت أجزاؤه واختل نظامه .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 128 إلى 129]

(255/132)

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ (128) وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (129)

الإعراب :

(لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) كلام مستأنف مسوق لتهوين الأمر على النبي صلى اللّه عليه وسلم بعد ما أصيب به في غزوة أحد وليس فعل ماض ناقص ولك جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ليس المقدم ومن الأمر جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال وشيء اسم ليس المؤخر (أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) أو حرف عطف ويتوب فعل مضارع معطوف على اسم خالص من التقدير بالفعل فهو منصوب بأن مضمرة بعد العاطف وهو أو ، وسيأتي في باب الفوائد ، وعليهم جار ومجرور متعلقان بيتوب (أَوْ يُعَذِّبَهُمْ) عطف على يتوب (فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ) الفاء للتعليل وإن واسمها وخبرها والجملة التعليلية لا محل لها لأنها بمثابة

الاستئنافية (وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ) الواو استئنافية ولله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم وما اسم موصول في محل رفع مبتدأ مؤخر وفي السموات جار ومجرور متعلقان بمحذوف لا محل له لأنه صلة وما في الأرض عطف على ما في السموات (يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ) الجملة الفعلية في محل نصب حال لوقوعها بعد المعرفة ولمن جار ومجرور متعلقان بيغفر ويشاء فعل مضارع مرفوع وفاعله هو والجملة صلة الموصول وجملة يعذب من يشاء عطف عليها ومن اسم موصول في محل نصب مفعول به (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) الواو استئنافية والله مبتدأ وغفور خبره الأول ورحيم خبره الثاني.

الفوائد:

ينصب الفعل المضارع بأن مضمرة جوازا بعد عاطف مسبوق باسم خالص من التقدير بالفعل، وأحرف العطف المختصة بذلك أربعة وهي:

الواو والفاء وأو وثم. ومن ذلك قول ميسون بنت بجدل:

ولبس عباءة وتقر عيني أحب إلي من لبس الشفوف

هذا ويجوز أن تكون "أو" بمعنى "إلى" فيكون الفعل منصوبا بأن مضمرة وجوبا بعد أو.

[سورة آل عمران (3) : الآيات 130 إلى 132]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (130) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ (131) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (132)

الإعراب:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً) كلام مستأنف مسوق للنهي عن الربا والإمعان في تخويف المؤمنين، قال أبو حنيفة رحمه الله: هذه الآيات أخوف آيات القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين. ولا ناهية وتأكلوا فعل مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعل والربا مفعول به وأضعافا حال ومضاعفة صفة وجاءت الصفة لتنفي القلة التي يعبر عنها جمع القلة وهو وزن: أفعال، وقيل:

الصفة إشارة إلى تكرير التضعيف عاما بعد عام. والمبالغة في هذه العبارة تفيد التوبيخ

(وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) الواو عاطفة واتقوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل

والله مفعوله ولعل واسمها ، وجملة تفلحون خبرها وجملة الرجاء حالية (وَاتَّقُوا النّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ) واتقوا عطف على ما تقدم والنار مفعول به والتي اسم موصول في محل نصب صفة وجملة أعدت صلة الموصول وللكافرين جار ومجرور متعلقان بأعدت (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) الواو عاطفة وأطيعوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والله مفعول به والرسول عطف على الله ولعل واسمها ، وترحمون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر لعل ، وجملة الرجاء حالية .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 133 إلى 134]

وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134)

اللغة :

(الْكاظِمِينَ) اسم فاعل من كظم الغيظ وهو أن ينطوي على نفسه ويمسك على ما فيها معتصما بالصبر ، وأصله من كظم القربة إذا ملأها وسد فاها لئلا يندلق ما فيها .

الاعراب :

(وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) الواو عاطفة وسارعوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وإلى مغفرة جار ومجرور متعلقان بسارعوا ومن ربكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لمغفرة (وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ) وجنة عطف على مغفرة وعرضها مبتدأ والسموات خبر والأرض عطف على السموات والجملة الاسمية صفة لجنة (أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) الجملة الفعلية صفة لجنة أيضا وأعدت فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل هي وللمتقين: جار ومجرور متعلقان بأعدت (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ) اسم الموصول نعت للمتقين وجملة ينفقون صلة الموصول وفي السراء جار ومجرور متعلقان بينفقون والضراء عطف على السراء (وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ) عطف على المتقين والغيظ مفعول لاسم الفاعل الكاظمين، والعافين عطف أيضا وعن الناس جار ومجرور متعلقان بالعافين (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) الواو استئنافية والله مبتدأ ويحب فعل مضارع والمحسنين مفعول به والجملة خبر.

البلاغة:

اشتملت هذه الآية على فن جليل القدر وهو التنكيت في التشبيه،

وحده أن يقصد المتكلم إلى شيء بالذكر دون غيره مما يسد مسده لأجل نكتة، وإذا وقع في التشبيه فقد بلغ الغاية، وهو هنا في قوله تعالى: "عرضها السموات والأرض"، فقد أراد

وصفها بالسعة فخص عرضها بالذكر دون الطول ، وإنما عدل عن ذكر الطول لأن المستقر في البداءة والأذهان أن الطول أدل على السعة فإذا كان عرضها مما يسع السموات والأرض فما بالك بطولها !

[سورة آل عمران (3) : الآيات 135 إلى 136]

(259/132)

وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (136)

الإعراب :

(وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً) الواو عاطفة أو استئنافية والذين عطف على المتقين أي أعدت للمتقين والمنفقين وللتائبين . ويجوز أن يكون " الذين " مبتدأ خبره " أولئك " كما سيأتي ، وإذا ظرف مستقبل وجملة فعلوا في محل جر بالإضافة وفاحشة مفعول به (أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ) أو حرف عطف وظلموا عطف على فعلوا وأنفسهم مفعول به وجملة

ذكروا الله لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم (فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ) الفاء عاطفة واستغفروا عطف على ذكروا أي تابوا عنها ،

ولذنوبهم جار ومجرور متعلقان باستغفروا (وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ) الواو استئنافية ومن استفهامية ومعنى الاستفهام هنا النفي وهي في محل رفع مبتدأ وجملة يغفر خبر والذنوب مفعول به وإلا أداة حصر والله بدل من الضمير في يغفر أي من الفاعل المستتر (وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) عطف على استغفروا ، ولم حرف جازم ، ويصروا فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف النون ، على ما فعلوا جار ومجرور متعلقان بيصروا ، وجملة فعلوا صلة ، وهم : الواو حالية وهم مبتدأ وجملة يعلمون خبر ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من ضمير يصروا . (أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ) أولئك اسم إشارة في محل رفع مبتدأ وجزاؤهم مبتدأ ثان ومغفرة خبر جزاؤهم والمبتدأ الثاني وخبره خبر اسم الإشارة . وإذا أعربنا الذين مبتدأ كانت الجملة خبرا للموصول . ومن ربهم صفة لمغفرة (وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا) وجنات عطف على مغفرة وجملة تجري من تحتها الأنهار صفة لجنات وخالدين حال وفيها جار ومجرور متعلقان بخالدين (وَنِعْمَ

أَجْرُ الْعامِلِينَ) الواو استئنافية ونعم فعل ماض جامد لإنشاء المدح وأجر العاملين فاعل نعم مضاف لمقترن بأل والمخصوص بالمدح محذوف تقديره نعم أجر العاملين ذلك، يعني المغفرة في الجنات.

[سورة آل عمران (3) : الآيات 137 إلى 138]

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137)
هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (138)

اللغة:

(سُنَنٌ) طرائق جمع سنة، وهي الطريقة والعادة. ومعنى خلوها

مضيها وأصل الخلو في اللغة الانفراد، والمكان الخالي هو المنفرد عمن فيه، ويستعمل أيضا في الزمان بمعنى المضي، لأن ما مضى انفرد عن الوجود وخلا عنه، وكذلك الأمم الخالية أي الماضية.

الاعراب:

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ) كلام مستأنف مسوق لتسلية المؤمنين عما أصابهم من الحزن

والكآبة ، وتتمة لتفصيل بقية قصة أحد ، فإنه لا ينال أحد الخير حتى يمهره بالتضحية والصبر والجهاد . وقد حرف تحقيق وخلت فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين ومن قبلكم جار ومجرور متعلقان بخلت وسنن فاعل (فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) الفاء الفصيحة وهي التي تقع جوابا لشرط مقدر لأن المعنى مترتب عليه ، أي إذا شككتم فسيروا في الأرض لتعتبروا بما ترون من آثار هلاكهم ، وسيروا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وفي الأرض جار ومجرور متعلقان بسيروا والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط مقدر غير جازم (فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) الفاء حرف عطف وانظروا معطوف على سيروا وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر كان المقدم وكان عاقبة كان واسمها ، والمكذبين مضاف إليه والجملة الاستفهامية في محل نصب مفعول انظروا (هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ) كلام مستأنف والبيان هنا الدلالة التي تفيد إماطة الشبهة الحاصلة ، وهذا مبتدأ وبيان خبره وللناس جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لبيان وهدى معطوف على بيان وكذلك موعظة وهو من عطف الخاص على العام ، وللمتقين جار ومجرور متعلقان بموعظة أو بمحذوف صفة لها .

البلاغة :

المجاز في قوله : " فسيروا في الأرض " والعلاقة في هذا المجاز ما يؤول اليه أمر السير في الأرض

، وتملّي الآثار المعروضة، واستجلاء ما تركه الأولون من مخلفات ينبغي الاستبصار بها.

وقد رمق أبو الطيب سماء هذا المجاز الرفيع بقوله:

(262/132)

تتخلف الآثار عن أصحابها حينا ويدركها الفناء فتتبع

ثم تساءل:

أين الذي الهرمان من بنيانه؟ ما قومه؟ ما يومه؟ ما المصرع

[سورة آل عمران (3) : الآيات 139 إلى 141]

وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكافِرِينَ (141)

اللغة:

(تَهِنُوا) تضعفوا، وأصله توهنوا، فحذفت الواو لوقوعها بين ياء وكسرة في الأصل. لأن الفعل وهن بالفتح في الماضي وبالكسر في المضارع.

(القرح) : بفتح القاف وتضم أيضا، وقيل: هو بالفتح الجراح وبالضم ألمها، وقد قرىء

بهما .

(نُداوِلُها) نصرفها بين الناس نديل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء ، ودالت له الدول ، ودالت الأيام ، وأدال الله بني فلان من عدوهم جعل الكرة لهم عليه .

قال أبو البقاء الرندي يرثي الأندلس :

هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان

(التمحيص) التصفية والتطهير . (يَمْحَقَ) يهلك .

الاعراب :

)

(263/132)

وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ) الواو عاطفة والكلام معطوف على المفهوم من قوله : فسيروا ، ولا ناهية وتهنوا فعل مضارع مجزوم بلا ولا تحزنوا عطف أيضا وأنتم الواو حالية وأنتم ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ والأعلون خبره مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة نصب على الحال (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) إن شرطية وكان فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط والتاء اسمها ومؤمنين خبرها وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أي فلا

تهنوا وجملة الشرط استئنافية (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ) كلام مستأنف مسوق لتسلية المؤمنين أيضا ، وإن شرطية ويمسسكم فعل الشرط والكاف مفعول به وقرح فاعل يمسسكم وجواب الشرط محذوف أي

فتأسوا وتسلوا . ومن أعرب فقد مس القوم هو الجواب غلط لأن الماضي معنى لا يكون جوابا ، والتعليق لا يكون إلا في المستقبل .

(264/132)

فقد الفاء عاطفة وقد حرف تحقيق ومس القوم عطف على الجواب المحذوف ومس فعل ماض والقوم مفعول به مقدم وقرح فاعل مؤخر ومثله نعت . لقرح (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) الواو استئنافية واسم الإشارة مبتدأ والأيام بدل منه وجملة نداولها خبر والهاء مفعول به وبين الناس ظرف مكان متعلق بنداولها . ويجوز إعراب الأيام خبرا لاسم الإشارة وجملة نداولها حالية والعامل فيها معنى اسم الإشارة أي يشير إليها حالة كونها مداولة (وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا) الواو عاطفة على المعلل المحذوف ، والتقدير فعلنا ذلك ليتعظوا ، وليعلم اللام للتعليل ويعلم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة والله فاعل والذين اسم موصول مفعول به وآمنوا فعل ماض مبني على الضم والجملة صلة (وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ

شُهَداءَ) الواو عاطفة ويتخذ فعل مضارع معطوف على يعلم ومنكم جار ومجرور متعلقان بيتخذ أو بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لشهداء وشهداء مفعول به (وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) الواو اعتراضية والجملة معترضة بين هذه العلل المتعاقبة والله مبتدأ وجملة لا يحب الظالمين خبر (وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا) الجملة معطوفة على العلل المتقدمة والله فاعل والذين اسم موصول مفعول به وجملة آمنوا صلة (وَيَمْحَقَ الْكافِرِينَ) عطف على ما سبق من العلل.

[سورة آل عمران (3) : الآيات 142 إلى 143]

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142)

وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (143)

الاعراب:

)

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ) أم عاطفة منقطعة بمعنى بل، وقد تقدم بحثها، والكلام معطوف على ما تقدم على طريق الإضراب عن التسلية إلى طريق التوبيخ، والهمزة التي في

ضمنها للإنكار ، وحسب فعل ماض بمعنى ظن والتاء فاعل وأن وما بعدها سدت مسد مفعوليها ، والمعنى : لا تحسبوا أو لا يدر بخلد أحد منكم أنكم تدخلون الجنة من دون جهاد وصبر ، والجنة مفعول به على السعة أو منصوب بنزع الخافض (وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ) الواو حالية ولما جازمة ويعلم فعل مضارع مجزوم والله فاعل والذين اسم موصول مفعول به وجملة جاهدوا صلة لا محل لها ومنكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال والجملة نصب على الحال (وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) قرأ السبعة بفتح الميم ، فالواو للمعية ويعلم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد واو المعية والفاعل هو والصابرين مفعول به وقد تقدم النفي عليها ونفي العلم بالنسبة إلى الله كناية عن نفي المعلوم وهما الجهاد والصبر .

ومن العجيب أن يتنطع بعض المعربين القدامى فيقول : إن الفتحة فتحة التقاء الساكنين والفعل مجزوم عطفا على "يعلم" الأولى ، فلما وقع بعده ساكن آخر احتيج إلى تحريك آخره فكانت الفتحة أولى لأنها أخف ، إذ لا يجوز حمل القرآن على الوجوه المرجوحة (وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ) الواو استئنافية واللام جواب لقسم محذوف وقد حرف تحقيق وكنتم كان الناقصة واسمها ، وجملة تمنون خبرها وأصل تمنون تتمنون فحذفت إحدى التاءين والموت مفعول به من قبل جار ومجرور متعلقان بتمنون وأن تلقوه أن حرف مصدري ونصب وتلقوه فعل مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون

والواو فاعل والهاء مفعول به والمصدر المؤول مضاف إليه (فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)

الفاء عاطفة وقد حرف تحقيق وأيتموه فعل وفاعل ومفعول به والواو لإشباع الضمة وأنتم

الواو حالية وأنتم مبتدأ وجملة تنظرون خبر ولا بد من تقدير مضاف أي: سبب الموت.

الفوائد:

كان المسلمون في الصدر الأول يتمنون الموت لا ليخلو الجو لعدوهم ولكن لنيل كرامة

الاستشهاد مع ضمان التفوق والغلبة، وهذا تنبيه لا بد منه لئلا يتساءل متنطع: كيف

يجوز تمني الشهادة في تمنيها غلبة للكافر على المسلم، فقد كان ديدن الصحابة رضوان الله

عليهم الاستشهاد في سبيل الله ولا ننسى بكاء خالد بن الوليد عند ما حضره الموت، لأنه

مات على فراشه؟ وقال عبد الله بن رواحة حين نهد إلى حرب مؤتة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا

أو طعنة بيدي حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقولوا إذا مروا على جدثي أرشدك الله من غاز وقد رشدا

ومعنى قوله: ذات فرغ أي: ذات سعة، والفرغ الدلو، أي:

تحدث في جسمي ما يشبه الدلو الممتلئة بالماء. والحران: العطشان الظامئ إلى دمي.

[سورة آل عمران (3): آية 144]

وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144)

اللغة:

(الأعقاب) جمع عقب وهو مؤخر القدم، والانقلاب على الأعقاب: الإدبار والفرار.

الإعراب:

)

(267/132)

(وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ) الواو استئنافية والكلام مستأنف مسوق لبيان أن موت محمد صلى الله عليه وسلم أو قتله لا يوجب ضعفا أو تراخيا في دينه. وما نافية ومحمد مبتدأ وإلا أداة حصر ورسول خبر (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) الجملة صفة لرسول وقد حرف تحقيق وخلت فعل ماض مبني على الفتحة المقدرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين ومن قبله جار ومجرور متعلقان بخلت والرسل فاعل (أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ) الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء للعطف وقد أتت متأخرة ورتبتها التقديم لأن الهمزة لها

الصدارة ، وقد ذكرنا سابقا أن الزمخشري ومن نحا نحوه يقدرون بينهما فعلا محذوفا تعطف عليه الفاء ما بعدها ، والتقدير : أتؤمنون به في غضون حياته فإن مات ارتددتم ، وكلاهما صحيح . وفائدة العطف تعلق الجملة الشرطية بما قبلها على معنى التسبب ، وإن شرطية ومات فعل ماض في محل جزم فعل الشرط أو قتل عطف على مات وانقلبتم فعل ماض في محل جزم جواب الشرط وعلى أعقابكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، وسيأتي المزيد من البحث في باب البلاغة عن هذا القصر (وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا) الواو استئنافية ومن شرطية مبتدأ وينقلب فعل الشرط وعلى عقبيه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال والفاء رابطة لجواب الشرط ويضر فعل مضارع منصوب بلن والله مفعول به وشيئا مفعول مطلق وجملة فلن يضر في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه في محل رفع خبر " من " (وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) الواو استئنافية ويجزي فعل مضارع مرفوع والله فاعل والشاكرين مفعول به .

البلاغة :

في قوله : " وما محمد إلا رسول " فن القصر وهو في اللغة الحبس ، وفي الاصطلاح تخصيص أحد الأمرين على الآخر ونفيه عما عداه وهو يقع للموصوف على الصفة وبالعكس ، والآية من النوع الأول أي أن محمدا صلى اللّه عليه وسلم مقصور على الرسالة لا يتعداها إلى البعد عن الهلاك بناء على استعظام الصحابة أن لا يبقى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم لهم فكأنهم أثبتوا له وصفين : الرسالة وعدم الهلاك ، فخصص بقصره على الرسالة ، فهو من إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر ، وهو قصر إفراد ، ردا على من يدعي أمرين أو أحدهما بلا ترجيح ، وهو على كل حال من باب القصر القلبي ، لأنهم لما انقلبوا على أعقابهم فكأنهم اعتقدوا أنه رسول لا كسائر الرسل في أنه يموت كما ماتوا وأنه يجب عليهم التمسك بدينه بعده كما يجب التمسك بأديانهم بعدهم .

[سورة آل عمران (3) : آية 145]

وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (145)

اللغة :

(مُؤَجَّلًا) مؤقتا لا يتقدم ولا يتأخر ، من أجل الشيء أو أجله بالتشديد والتخفيف ، أي ضرب له أجلا لا محيد عنه .

الاعراب :

(

(269/132)

وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) كلام مستأنف مسوق لتحقيق ما تقدم وهو أن كل نفس لن تموت إلا بمشيئة الله وأن أحدا لا يموت قبل بلوغ أجله وإن طوح بنفسه وخاض المعارك . والواو استئنافية وما نافية وكان فعل ماض ناقص ولنفس جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر كان المقدم وأن تموت المصدر المنسبك من أن وما في حيزها اسمها المؤخر وإلا أداة حصر وبإذن الله جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال والتقدير : وما كان لها أن تموت إلا مأذونا لها (كِتاباً مُؤَجَّلًا) كتابا مصدر منصوب على المفعولية المطلقة المفيدة لتأكيد مضمون الجملة التي قبله لأن المعنى كتب الموت كتابا ومؤجلا صفة واختار ابن عطية أن يكون منصوبا على التمييز ، وقيل : هو منصوب على الإغراء ولا داعي لهذا التكلف

البعيد (وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة للحديث عن الذين تركوا مراكزهم وطلبوا الغنائم ومن شرطية في محل رفع مبتدأ ويرد فعل الشرط

وثواب الدنيا مفعول به ونؤته جواب الشرط وعلامة جزمه حذف حرف العلة والهاء مفعول به وجملة فعل الشرط وجوابه خبر من وقد تقدم تقرير ذلك وفيها جار ومجرور متعلقان بنؤته (وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها) تقدم إعراب هذه الآية (وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ) الواو استئنافية وسنجزي فعل مضارع مرفوع وفاعله نحن والشاكرين مفعول به والجملة استئنافية لا محل لها.

[سورة آل عمران (3) : آية 146]

وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَما ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146)

اللغة:

(

(270/132)

رِبِّيُّونَ) ربانيون نسبة إلى الرب، وقد تقدم بحثها ووردت في اللغة بتثليث الراء والفتح هو القياس والضم والكسر من تغييرات النسب.

(اسْتَكانُوا) : ضعفوا وذلوا والاستكانة الانكسار والوهن وأصل هذا الفعل استكن من

السكون لأن السكون الذل وأصله : (استكون) فنقلت الفتحة إلى الكاف ثم قلبت الواو ألفا .

الاعراب :

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) كأين خبرية بمعنى كم الخبرية وهي في محل رفع مبتدأ ومن نبي تمييز كأين وتنوينه للتكثير أي كثير من الأنبياء وجملة قاتل خبر كأين ومعه ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم وربيون مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية نصب على الحال (فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) الفاء عاطفة وما نافية ووهنوا فعل ماض مبني على الضم والواو فاعل ولما اللام حرف جر وما اسم موصول في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بوهنوا وجمله أصابهم صلة وفي سبيل الله جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ولك أن تجعل ما مصدرية والمصدر المنسبك من ما وما في حيزها مجرور باللام (وَما ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكانُوا) عطف على " ما وهنوا " . (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) الواو استئنافية والله مبتدأ وجملة يحب الصابرين خبر .

الفوائد :

(

كَأَيِّنْ) بمعنى كم في الاستفهام والخبر . وهي مركبة من كاف التشبيه ومن أي الاستفهامية وقد حدث فيها بعد التركيب معنى التكثير المفهوم من كم الخبرية ، ولا تتعلقان بشيء

لأنهما صارتا بمنزلة كلمة واحدة ولذلك رأى أبو حيان أن تكون "كأين" كلمة بسيطة غير مركبة ، ولم أجد من يؤيده وإن كان رأيه جميلا سهلا وهي توافق كم الخبرية في خمسة أمور : 1- الإبهام 2- الافتقار إلى التمييز 3- البناء 4- لزوم التصدير 5- إفادة التكثير أو التكثير تارة والاستفهام تارة أخرى . قال أبي لابن مسعود كأين تقرأ سورة الأحزاب آية ؟ قال :

(271/132)

ثلاثا وسبعين . وتخالف كم في خمسة أمور 1- أنها مركبة وكم بسيطة 2- أن مميزها مجرور بمن غالبا حتى زعم بعضهم لزومه وهو مردود بما رواه سيبويه ويونس أنهما سمعا من يقول كأي رجلا 3- أنها لا

تقع استفهامية عند الجمهور 4- أنها لا تقع مجرورة فلا تقول بكأين تبيع هذا ؟ وأجازه بعضهم 5- أن خبرها لا يقع مفردا ، قال زهير :

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم

وقال الخليل وسيبويه : هي "أي" دخلت عليها كاف التشبيه وثبتت معها فصارت بعد التركيب بمعنى كم وصورت في المصحف نونا لأنها كلمة نقلت عن أصلها فغير لفظها لتغير

معناها ، فتصرفت فيها العرب بالقلب والحذف فصار فيها أربع لغات قرئ بها : احداها "كائن "كقول زهير ، والثانية كأي مثل كعيّن وهو الأصل ، والثالثة كأين مثل كعين ، والرابعة كيئن بياء ساكنة بعدها همزة مكسورة .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 147 إلى 148]

وَما كانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَإِسْرافَنا فِي أَمْرِنا وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (147) فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148)

الإعراب :

)

وَما كانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا) الواو عاطفة والكلام معطوف على ما تقدم لبيان محاسنهم القولية بعد أن أثبتوا محاسنهم الفعلية ، وما نافية وكان فعل ماض ناقص وقولهم خبرها المقدم واسمها أن المصدرية وما في حيزها ، وقرأ ابن كثير وعاصم برفع " قولهم " على أنه اسم كان

والخبر أن وما في حيزها، وإلا أداة حصر والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَإِسْرافَنا فِي أَمْرِنا) ربنا منادى مضاف محذوف منه حرف النداء وجملة اغفر في محل نصب مقول القول ولنا جار ومجرور متعلقان باغفر وذنوبنا مفعول به وإسرافنا عطف عليه، في أمرنا جار ومجرور متعلقان باسرافنا وإنما نسبوا الإسراف إلى أنفسهم هضما لها وقدموا طلب الغفران باعتباره أهم لديهم من كل شيء (وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ) الواو حرف عطف وثبت فعل دعاء وأقدامنا مفعول به وانصرنا عطف أيضا وعلى القوم جار ومجرور متعلقان بانصرنا والكافرين صفة (فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا) الفاء عاطفة أو استئنافية وآتاهم الله فعل ومفعول به وفاعل وثواب الدنيا مفعول به ثان (وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ) الواو حرف عطف وحسن عطف على ثواب، وإنما خص ثواب الآخرة بالحسن تنويها بفضله وأنه أولى ما يعتد به المرء وينشده (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) الواو استئنافية والله مبتدأ وجملة يحب المحسنين خبر.

[سورة آل عمران (3) : الآيات 149 إلى 151]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ (149) بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (150) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِما أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَمَأْواهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (151)

اللغة:

(الرعب) بضم الراء وسكون العين وضمها وقد قرىء بهما :

الخوف ، يقال : رعبته فهو مرعوب ، وأصله الامتلاء ، يقال : رعبت الحوض أي ملأته ،

وسيل راعب أي : ملأ الوادي ، ويتعدى بنفسه وبالهمزة .

الاعراب :

(273/132)

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) تقدم إعرابها (إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا) إن شرطية وتطيعوا فعل الشرط والواو فاعل والذين اسم موصول مفعول به وجملة كفروا صلة والجملة كلها مستأنفة مسوقة لتحذير المؤمنين من الاغترار بأقوال المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة : ارجعوا إلى دينكم وإخوانكم ، ولو كان محمد نبيا لما قتل . وقيل : إن تستكينوا لأبي سفيان وجماعته يردوكم إلى دينهم (يَرُدُّوكُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ) يردوكم جواب الشرط مجزوم والواو فاعل والكاف مفعول به وعلى أعقابكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال (فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ) الفاء عاطفة وتنقلبوا فعل مضارع معطوف على يردوكم وخاسرين حال (بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ) بل حرف إضراب وعطف والله مبتدأ ومولاكم خبر .

والكلام معطوف على ما هو من مضمون الشرط ، كأنه قيل : فليسوا أنصارا لكم حتى

تطيعوهم بل اللّه ، وقرىء اللّه بالنصب على أنه مفعول به لفعل محذوف تقديره : بل أطيعوا اللّه ، ومولاكم بدل منه (وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ) الواو عاطفة وهو مبتدأ وخير الناصرين خبره (سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ) كلام مستأنف مسوق على طريق الالتفات

للتنبيه على هول ما سيلقيه تعالى في قلوبهم ، والسين حرف استقبال ونلقي فعل مضارع مرفوع وفاعله نحن وفي قلوب جار ومجرور متعلقان بنلقي والذين اسم موصول في محل جر بالإضافة وجملة كفروا صلة لا محل لها والرعب مفعول به لنلقي (بِما أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً) بما الباء حرف جر وما مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر مجرور بالباء والجار والمجرور متعلقان بنلقي أي : بسبب اشراكهم أو ما اسم موصول والجملة صلة ، وباللّه جار ومجرور متعلقان بأشركوا وما اسم موصول مفعول أشركوا وجملة لم ينزل به سلطانا صلة الموصول وبه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة ل " سلطانا " وسلطانا مفعول ينزل (وَمَأْواهُمُ النَّارُ) الواو استئنافية والكلام مستأنف مسوق لبيان أحوالهم في الآخرة بعد بيان أحوالهم في الدنيا من الخذلان المبين ، ومأواهم مبتدأ والنار خبره ويجوز العكس ولعله أولى (وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ) الواو استئنافية وبئس فعل

ماض جامد لإنشاء الذم ومثوى فاعل مضاف لمقترن ب " ال " والظالمين مضاف اليه والمخصوص بالذم محذوف تقديره : النار .

البلاغة :

1- الالتفات في قوله تعالى : " سنلقى " فقد التفت من الغيبة إلى التكلم للاهتمام بما يلقيه تعالى في قلوبهم .

2- الاستعارة في قوله تعالى : " سنلقى " لأن الإلقاء لا يكون إلا في الإجرام فاستعير هنا للرعب تجسيدا وتشخيصا بتنزيل المعنوي منزلة المادي .

[سورة آل عمران (3) : الآيات 152 إلى 153]

(275/132)

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ وَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (152) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْراكُمْ فَأَثابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا ما أَصابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (153)

اللغة :

(تَحُسُّونَهُمْ) تقتلونهم قتلا ذريعا وتستأصلونهم ، من حسّه يحسّه ، من باب نصر ، إذا أبطل حسّه . قال جرير :

تحسهم السيوف كما تسامى عريق النار في الأجم الحصيد

(تُصْعِدُونَ) بضم التاء من أصعد أي ذهب بعيدا في الجبل وفي الأرض ، ويقال : صعد في الجبل وأصعد في الأرض .

(تَلْوُونَ) تصرفون وجوهكم ولا تعرجون على أحد .

الاعراب :

(وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ) الواو استئنافية والكلام مستأنف مسوق لتفصيل موقعة أحد كما ذكرتها المطولات واللام جواب القسم محذوف وقد حرف تحقيق وصدقكم اللّه فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر ووعده منصوب بنزع الخافض لأن صدق يتعدى لاثنين أحدهما بنفسه والآخر بحرف الجر أي بوعده (إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ) إذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق بصدقكم وجملة تحسونهم في محل جر بإضافة الظرف إليها وبإذنه جار

ومجرور متعلقان بمحذوف حال من فاعل تحسونهم أي مأذونا لكم (حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ وَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ) يجوز في حتى هنا أن تكون حرف غاية وجر بمعنى إلى ، وتكون مع مدخولها متعلقة بتحسونهم أي : تقتلونهم إلى هذا الوقت ، وعلقها الزمخشري بصدقكم ، أي : صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم .

وكلاهما صحيح ويجوز أن تكون ابتدائية داخلة على الجملة الشرطية إذا ظرف لما يستقبل من الزمن متعلق بجوابه وجملة فشلتم في محل جر بالإضافة وجواب إذا محذوف على الصحيح والتقدير منعكم نصره أو انهزمتم أو بانت لكم الحقيقة جلية واضحة وتنازعتم الواو عاطفة وجملة تنازعتم عطف على جملة فشلتم وفي الأمر جار ومجرور متعلقان بتنازعتم (وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ) عطف على ما تقدم ومن بعد جار ومجرور متعلقان بعصيتم وما مصدرية مؤولة مع الفعل بعدها بمصدر مضاف ل " بعد " وأراكم فعل ماض والفاعل هو والكاف مفعول به أول وما اسم موصول مفعول به ثان وجملة تحبون صلة لا محل لها (مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ) الجملة مفسرة لا محل لها والمعنى : حتى إذا كان ذلك كله وانقسمتم إلى قسمين ، ثم فسر القسمين . ومنكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف

خبر مقدم ومن اسم موصول مبتدأ مؤخر وجملة يريد صلة الموصول والدنيا مفعول به ومنكم من يريد الآخرة عطف على الجملة الأولى وفيها تفسير للقسم الثاني (ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ) ثم حرف عطف وتراخ وجملة وصرفكم عطف على جواب إذا المحذوف أي منعكم نصره ثم صرفكم عنهم أي ردكم عنهم ليمتحن صبركم وثباتكم ، وعنهم جار ومجرور متعلقان بصرف ليبتليكم اللام للتعليل ويبتلي فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بصرف أيضا (وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ) الواو استئنافية واللام جواب لقسم محذوف وقد حرف تحقيق وعفا فعل ماض وعنكم جار ومجرور متعلقان بعفا (وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) الواو استئنافية والله مبتدأ وذو فضل خبر وعلى المؤمنين جار ومجرور متعلقان بفضل أو بمحذوف صفة له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 1 صـ 565 : حـ 2 صـ 74﴾

(278/132)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فِى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والثلاثون بعد المائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثالث والثلاثون بعد المائة

من الآية ﴿ 153 ﴾ من سورة آل عمران

وحتى الآية ﴿ 154 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (153) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر علة الصرف والعفو عنه صوّره فقال : ﴿ إذ ﴾ أي صرفكم وعفا عنكم حين ﴿ تصعدون ﴾ أي تزيلون الصعود فتنحدرون نحو المدينة ، أو تذهبون في الأرض لتبعدوا عن محل الوقعة خوفاً من القتل ﴿ ولا تلوون ﴾ أي تعطفون ﴿ على أحد ﴾ أي من قريب ولا بعيد ﴿ والرسول ﴾ أي الذي أرسل إليكم لتجيبوه إلى كل ما يدعوكم إليه وهو الكامل في الرسلية ﴿ يدعوكم في أخراكم ﴾ أي ساقتكم وجماعتكم الأخرى ، وأنتم مدبرون وهو ثابت في مكانه في نحر العدو في نفر يسير لا يبلغون أربعين نفساً على اختلاف الروايات - وثوقاً بوعد الله ومراقبة له يقول كلما مرت عليه جماعة منهزمة : " إليّ عباد الله ! أنا رسول الله ! إليّ إليّ عباد الله " كما هو اللائق بمنصبه الشريف من الاعتماد على الله والوثوق بما عنده وعد من دونه من ولي وعدو عدماً ؛ وإنما قلت : إن معنى ذلك الانهزام ، لأن الدعاء يراد منه الإقبال على الداعي بعد الانصراف عما يريده ليأمر وينهى ، فعلم بذلك أنهم مولون عن المقصود وهو القتال ، وفي التفسير من البخاري عن البراء رضي الله تعالى عنه قال :

جعل النبي صلى الله عليه وسلم على الرجالة يوم أحد عبد الله بن جبير رضي الله تعالى عنه وأقبلوا منهزمين ، فذلك إذ يدعوهم الرسول في أخراهم ، ولم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم غير اثني عشر رجلاً .

ولما تسبب عن العفو ردهم عن الهزيمة إلى القتال قال تعالى : ﴿ فأثابكم ﴾ أي جعل لكم ربكم ثواباً ﴿ غماً ﴾ أي باعتقادكم قتل الرسول صلى الله عليه وسلم .

(5/133)

وكان اعتقاداً كاذباً مُلتئم به رعباً ﴿ بغم ﴾ أي كان حصل لكم من القتل والجراح والهزيمة ، وسماه - وإن كان في صورة العقاب - باسم الثواب لأنه كان سبباً للسرور حين تبين أنه خبر كاذب ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم سالم حتى كأنهم - كما قال بعضهم - لم تصبهم مصيبة ، فهو من الدواء بالداء ، ثم علله بقوله : ﴿ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ﴾ أي من النصر والغنيمة ﴿ ولا ما أصابكم ﴾ أي من القتل والجراح والهزيمة لاشتغالكم عن ذلك بالسرور بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولما قص سبحانه وتعالى عليهم ما فعلوه ظاهراً وما قصدوه باطناً وما داواهم به قال - عاطفاً على ما تقديره : فالله سبحانه وتعالى خبير بما يصلح أعمالكم ويبرىء أدواءكم - :

﴿ والله ﴾ أي المحيط علماً وقدرة ﴿ خبير بما تعملون ﴾ أي من خير وشر في هذه الحال وغيرها ، وبما يصلح من جزائه ودوائه ، فتارة يداوي الداء بالداء وتارة بالدواء ، لأنه الفاعل القادر المختار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 167.168 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى ﴿ إذ تصعدون ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أنه متعلق بما قبله ، وعلى هذا التقدير ففيه وجوه : أحدها : كأنه قال وعفا عنكم إذ تصعدون ، لأن عفوه عنهم لابد وأن يتعلق بأمر اقترفوه ، وذلك الأمر هو ما بينه بقوله : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ ﴾ والمراد به ما صدر عنهم من مفارقة ذلك المكان والأخذ في الوادي كالمنهزمين لا يلوون على أحد

وثانيها : التقدير : ثم صرفكم عنهم إذ تصعدون .

وثالثها : التقدير : ليبتليكم إذ تصعدون .

والقول الثاني : أنه ابتداء كلام لا تعلق له بما قبله ، والتقدير : اذكر إذ تصعدون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 33 ﴾

وقال الآلوسي :

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ ﴾ متعلق بصرفكم أو بيبتليكم وتعلقه بعفا كما قال الطبرسي : ليس بشيء ، ومثله تعلقه كما قال أبو البقاء ، بعصيتم ؛ أو تنازعتم أو فشلتم ، وقيل : متعلق بمقدر كاذكر ، واستشكل بأنه يصير المعنى اذكر يا محمد إذ تصعدون وفيه خطا بان بدون عطف ، فالصواب اذكروا .

وأجيب بأن المراد باذكر جنس هذا الفعل فيقدر اذكروا لا اذكر ، ويحتمل أنه من قبيل ﴿ يأَيُّهَا النبى إِذَا طَلَّقْتُمُ النساء ﴾ [الطلاق : 1] ولا يخفى أنه خلاف الظاهر ، وأجاب الشهاب بأن أذكر متضمن لمعنى القول ، والمعنى قل لهم يا محمد حين يصعدون الخ ومثله لا منع فيه كما تقول لزيد : أتقول كذا فإن الخطاب المحكي مقصود لفظه فلا ينافي القاعدة المذكورة وهم غفلوا عنه فتأمل ، ولا يخفى أن هذا خلاف الظاهر أيضاً ، والإصعاد الذهاب والإبعاد في الأرض ، وفرق بعضهم بين الإصعاد والصعود بأن الإصعاد في مستوى الأرض والصعود في ارتفاع ، وقيل : لا فرق بين أصعد وصعد سوى أن الهمزة في الأول للدخول نحو أصبح إذا دخل في الصباح والأكثرون على الأول ، وقرأ الحسن فيما أخرجه ابن جرير عنه ﴿ تُصْعِدُونَ ﴾ بفتح التاء والعين ، وحمله بعضهم على صعود الجبل ، وقرأ أبو حيوة ﴿ تُصْعِدُونَ ﴾ بفتح التاء وتشديد العين وهو إما من تصعد في السلم إذا رقى أو

من صعد في الوادي تصعيداً إذا انحدر فيه ، فقد قال الأخفش : أصعد في الأرض إذا مضى وسار وأصعد في الوادي وصعد فيه إذا انحدر ، وأنشد :

فإما تريني اليوم مزجي ظعينتي . . .

(أصعد) طوراً في البلاد وأفرع

وقال الشماخ :

فإن كرهت هجائي فاجتنب سخطي . . .

لا يدهمنك إفراعي (وتصعيدي)

(7/133)

وورد عن غير واحد أن القوم لما امتحنوا ذهبوا فراراً في وادي أحد ، وقال أبو زيد : يقال : صعد في السلم صعوداً وصعد في الجبل أو على الجبل تصعيداً ولم يعرفوا فيه صعد ، وقرأ أبيّ ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ ﴾ في الوادي وهي تؤيد قول من قال : إن الإصعاد الذهاب في مستوى الأرض دون الارتفاع ، وقرىء يصعدون بالياء التحتية وأمر تعلق إذ باذكر عليه ظاهر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 90 . 91 ﴾

فصل

قال الفخر :

ولا تلوون على أحد : أي لا تلتفتون إلى أحد من شدة الهرب ، وأصله أن المعرج على الشيء يلوي إليه عنقه أو عنان دابته ، فإذا مضى ولم يعرج قيل لم يلوه ، ثم استعمل اللي في ترك التعريج على الشيء وترك الالتفات إلى الشيء ، يقال : فلان لا يلوي على شيء ، أي لا يعطف عليه ولا يبالي به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 33 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَلاَ تَلْوُونَ على أَحَدٍ ﴾ أي لا تقيمون على أحد ولا تعرجون وهو من لوى بمعنى عطف وكثيراً ما يستعمل بمعنى وقف وانتظر لأن من شأن المنتظر أن يلوي عنقه ، وفسر أيضاً بلا ترجعون وهو قريب من ذلك ، وذكر الطبرسي أن هذا الفعل لا يذكر إلا في النفي فلا يقال لويت على كذا ، وقرأ الحسن (تلون) بواو واحدة بقلب الواو المضمومة همزة وحذفها تخفيفاً .

وقرىء ﴿ تَلْوُونَ ﴾ بضم التاء على أنه من ألوى لغة في لوى ، ويلوون بالياء كيصعدون ، قال أبو البقاء ويقرأ ﴿ على أَحَدٍ ﴾ بضمتين وهو الجبل والتوبيخ عليه غير ظاهر ، ووجهه بعضهم بأن المراد أصحاب أحد أو مكان الوقعة ، وفيه إشارة إلى إبعادهم في استشعار الخوف وجدهم في الهزيمة حتى لا يلتفتون إلى نفس المكان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 91 ﴾

وقال ابن عاشور :

واللَّيُّ مجاز بمعنى الرّحمة والرفق مثل العطف في حقيقته ومجازه ، فالمعنى ولا يلوي أحد عن أحد فأوجز بالحذف ، والمراد على أحد منكم ، يعني : فررتم لا يرحم أحد أحداً ولا يرفق به ، وهذا تمثيل للجدّ في الهروب حتّى إنّ الواحد ليدوس الآخر لو تعرّض في طريقه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 254 ﴾

قوله تعالى : ﴿ والرسول يَدْعُوكُمْ ﴾

قال الفخر :

﴿ والرسول يَدْعُوكُمْ ﴾ كان يقول : " إليَّ عباد الله أنا رسول الله من كر فله الجنة " فيحتمل أن يكون المراد أنه عليه الصلاة والسلام كان يدعوهم إلى نفسه حتى يجتمعوا عنده ، ولا يتفرقوا ، ويحتمل أن يكون المراد أنه كان يدعوهم إلى المحاربة مع العدو .

ثم قال : ﴿ فِى أُخْرَاكُمْ ﴾ أي آخركم ، يقال : جئت في آخر الناس وأخراهم ، كما يقال : في أولهم وأولاهم ، ويقال : جاء فلان في أخريات الناس ، أي آخرهم ، والمعنى أنه عليه الصلاة والسلام كان يدعوهم وهو واقف في آخرهم ، لأن القوم بسبب الهزيمة قد تقدموه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 33. 34 ﴾

وقال العلامة ابن عطية ولله دره :

قوله تعالى : ﴿ في أخراكم ﴾ مدح للنبي عليه السلام فإن ذلك هو موقف الأبطال في أعقاب الناس ، ومنه قول الزبير بن باطا ما فعل مقدمتنا إذ حملنا وحاميتنا إذ فررنا ، وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشجع الناس ، ومنه قول سلمة بن الأكوع كنا إذا احمر البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 1 صـ 526 ﴾

(9/133)

فائدة

قال الآلوسى :

وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة للإيذان بأن دعوته صلى الله عليه وسلم كانت بطريق الرسالة من جهته تعالى مبالغة في توبيخ المنهزمين ، روي أنه صلى الله عليه وسلم كان ينادي إليّ عباد الله إليّ عباد الله أنا رسول الله من يكر فله الجنة وكان ذلك حين انهزم القوم وجدوا في الفرار قبل أن يصلوا إلى مدى لا يسمع فيه الصوت فلا ينافي ما تقدم عن كعب بن

مالك أنه لما عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ونادى بأعلى صوته يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم أشار إليه رسول الله عليه الصلاة والسلام أن أنصت لأن ذلك كان آخر الأمر حيث أبعد المنهزمون. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 92.91 ﴾

قوله تعالى : ﴿ فأثابكم غَمّاً بِغَمّ ﴾

فصل

قال الفخر :

لفظ الثواب لا يستعمل في الأغلب إلا في الخير، ويجوز أيضا استعماله في الشر، لأنه مأخوذ من قولهم : ثاب إليه عقله، أي رجع اليه، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا البيت مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة : 125] والمرأة تسمى ثيباً لأن الواطىء عائد اليها، وأصل الثواب كل ما يعود إلى الفاعل من جزاء فعله سواء كان خيراً أو شراً، إلا أنه بحسب العرف اختص لفظ الثواب بالخير، فإن حملنا لفظ الثواب ههنا على أصل اللغة استقام الكلام، وإن حملناه على مقتضى العرف كان ذلك وارداً على سبيل التهكم، كما يقال : تحيتك الضرب، وعتابك السيف، أي جعل الغم مكان ما يرجون من الثواب قال تعالى :

﴿ فَبَشّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : 34]. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 34 ﴾

فصل

قال الفخر :

الباء في قوله : ﴿ غَمّاً بِغَمّ ﴾ يحتمل أن تكون بمعنى المعارضة ، كما يقال : هذا بهذا أي هذا عوض عن ذاك ، ويحتمل أن تكون بمعنى "مع" والتقدير : أثابهم غماً مع غم ، أما على التقدير الأول ففيه وجوه :

(10/133)

الأول : وهو قول الزجاج أنكم لما أذقتم الرسول غماً بسبب أن عصيتم أمره ، فالله تعالى أذاقكم هذا الغم ، وهو الغم الذي حصل لهم بسبب الانهزام وقتل الأحباب ، والمعنى جازاكم من ذلك الغم بهذا الغم .

الثاني : قال الحسن : يريد غم يوم أحد للمسلمين بغم يوم بدر للمشركين ، والمقصود منه أن لا يبقى في قلبكم التفات إلى الدنيا ، فلا تفرحوا بإقبالها ولا تحزنوا بإدبارها ، وهو المعنى بقوله : ﴿ لّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ على مَا فَاتَكُمْ ﴾ في واقعة أحد ﴿ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَا ءاتاكم ﴾ [الحديد : 23] في واقعة بدر ،

طعن القاضي في هذا الوجه وقال : إن غمهم يوم أحد إنما كان من جهة استيلاء الكفار ،

وذلك كفر ومعصية ، فكيف يضيفه الله إلى نفسه ؟

ويمكن أن يجاب عنه بأنه لا يبعد أن يعلم الله تعالى أن في تسليط الكفار على المسلمين نوع مصلحة ، وهو أن لا يفرحوا بإقبال الدنيا ولا يحزنوا بإدبارها ، فلا يبقى في قلوبهم اشتغال بغير الله .

الثالث : يجوز أن يكون الضمير في قوله ﴿ فأثابكم ﴾ يعود للرسول ، والمعنى أن الصحابة لما رأوا أن النبي صلى الله عليه وسلم شج وجهه وكسرت رباعيته وقتل عمه ، اغتموا لأجله ، والرسول عليه السلام لما رأى أنهم عصوا ربهم لطلب الغنيمة ثم بقوا محرومين من الغنيمة ، وقتل أقاربهم اغتم لأجلهم ، فكان المراد من قوله ﴿ فأثابكم غَمّاً بِغَمّ ﴾ هو هذا ، أما على التقدير الثاني وهو أن تكون الباء في قوله : ﴿ غَمّاً بِغَمّ ﴾ بمعنى "مع" أي غما مع غم ، أو غما على غم ، فهذا جائز لأن حروف الجر يقام بعضها مقام بعض ، تقول : ما زلت به حتى فعل ، وما زلت معه حتى فعل ، وتقول : نزلت ببني فلان ، وعلى بني فلان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 34 ﴾

(11/133)

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ فأثابكم غما ﴾ إن كان ضمير ﴿ فأثابكم ﴾ ضميرَ اسم الجلالةَ ، وهو الأظهر والموافق لقوله بعده : ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم ﴾ [آل عمران : 154] فهو عطف على ﴿ صَرَفكم ﴾ [آل عمران : 152] أي ترتّب على الصرف إثابتكم .

وأصلُ الإثابة إعطاء الثَّواب وهو شيء يكون جزاء على عطاء أو فعل .

والغمّ ليس بخير ، فيكونُ أثابكم إمّا استعارة تهكمية كقول عمرو بن كلثوم :

قَرَيناكُم فَعَجَّلْنا قِراكم

قبيلَ الصبح مِرداة طحونا . . .

أي جازاكم الله على ذلك الإصعاد المقارن للصرف أن أثابكم غمّاً أي قلقًا لكم في نفوسكم ، والمراد أن عاقبكم بغمّ كقوله : ﴿ فبشّرهم بعذاب أليم ﴾ [آل عمران : 21] وفي هذا الوجه بعد : لأنّ المقام مقام ملام لا توبيخ ، ومقام معذرة لا تنديم .

وإمّا مشاكلةً تقديرية لأنَّهم لما خرجوا للحرب خرجوا طالبين الثَّواب ، فسلكوا مسالك باءوا معها بعقاب فيكون كقول الفرزدق :

أخاف زياداً أن يكون عطاؤه

أداهِم سوداً أو مُحَدْرَجَةً سُمرا . . .

وقول الآخر :

قلتُ : اطبُخوا لي جُبَّةً قميصاً .

ونكتة هذه المشاكلة أن يتوصّل بها إلى الكلام على ما نشأ عن هذا الغمّ من عبرة ، ومن توجّه عناية الله تعالى إليهم بعده .

والباء في قوله : ﴿ بغمّ ﴾ للمصاحبة أي غمّاً مع غمّ ، وهو جملة الغموم الَّتي دخلت عليهم من خيبة الأمل في النَّصر بعد ظهور بَوارقه ، ومن الانهزام ، ومن قتل من قُتل ، وجرح من جرح ، ويجوز كون الباء للعوض ، أي : جازاكم الله غمّاً في نفوسكم عوضاً عن الغمّ الَّذي نسبتم فيه للرسول وإن كان الضّمير في قوله : ﴿ فأثابكم ﴾ عائداً إلى الرسول في قوله : ﴿ والرسول يدعوكم ﴾ ، وفيه بعد ، فالإثابة مجاز في مقابلة فعل الجميل بمثله أي جازاكم بغمّ .

والباء في قوله : ﴿ بغمّ ﴾ باء العوض .

(12/133)

والغمّ الأوّل غمّ نفس الرسول ، والغمّ الثَّاني غمّ المسلمين ، والمعنى أنّ الرسول اغتمّ وحزن لما أصابكم ، كما اغتممتم لما شاع من قتله فكان غمّه لأجلكم جزاءً على غمّكم لأجله .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 254 . 255 ﴾

فصل

قال الفخر :

واعلم أن الغموم هناك كانت كثيرة :

فأحدها : غمهم بما نالهم من العدو في الأنفس والأموال .

وثانيها : غمهم بما لحق سائر المؤمنين من ذلك ،

وثالثها : غمهم بما وصل إلى الرسول من الشجة وكسر الرباعية ،

ورابعها : ما أرجف به من قتل الرسول صلى الله عليه وسلم ،

وخامسها : بما وقع منهم من المعصية وما يخافون من عقابها ،

وسادسها : غمهم بسبب التوبة التي صارت واجبة عليهم ، وذلك لأنهم إذا تابوا عن تلك المعصية لم تتم توبتهم إلا بترك الهزيمة والعود إلى المحاربة بعد الانهزام ، وذلك من أشق الأشياء ، لأن الأنسان بعد صيرورته منهزما يصير ضعيف القلب جباناً ، فإذا أمر بالمعاودة ، فإن فعل خاف القتل ، وإن لم يفعل خاف الكفر أو عقاب الآخرة ، وهذا الغم لا شك أنه أعظم الغموم والأحزان ، وإذا عرفت هذه الجملة فكل واحد من المفسرين فسر هذه الآية بواحد من هذه الوجوه ونحن نعدها :

الوجه الأول : أن الغم الأول ما أصابهم عند الفشل والتنازع ، والغم الثاني ما حصل عند الهزيمة .

الوجه الثاني : أن الغم الأول ما حصل بسبب فوت الغنائم ، والغم الثاني ما حصل بسبب أن أبا سفيان وخالد بن الوليد اطلعا على المسلمين فحملوا عليهم وقتلوا منهم جمعاً عظيما .

الوجه الثالث : أن الغم الأول ما كان عند توجه أبي سفيان وخالد بن الوليد عليهم بالقتل والغم الثاني هو أن المشركين لما رجعوا خاف الباقون من المسلمين من أنهم لو رجعوا لقتلوا الكل فصار هذا الغم بحيث أذهلهم عن الغم الأول .

(13/133)

والوجه الرابع : أن الغم الأول ما وصل إليهم بسبب أنفسهم وأموالهم ، والغم الثاني ما وصل إليهم بسبب الإرجاف بقتل النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي الآية قول ثالث اختاره القفال رحمه الله تعالى قال : وعندنا أن الله تعالى ما أراد بقوله : ﴿ غَمّاً بِغَمّ ﴾ اثنين ، وإنما أراد مواصلة الغموم وطولها ، أي أن الله عاقبكم بغموم كثيرة ، مثل قتل إخوانكم وأقاربكم ، ونزول المشركين من فوق الجبل عليكم بحيث لم تأمنوا أن يهلك أكثركم ، ومثل إقدامكم على المعصية ، فكأنه تعالى قال : أثابكم هذه الغموم المتعاقبة ليصير ذلك زاجرا لكم عن الاقدام على المعصية والاشتغال بما يخالف أمر الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ

9 صـ 34. 35 ﴾

فصل

قال الفخر :

معنى أن الله أثابهم غم بغم : أنه خلق الغم فيهم ، وأما المعتزلة فهذا لا يليق بأصولهم ،

فذكروا في علة هذه الإضافة وجوها :

الأول : قال الكعبي : إن المنافقين لما أرجفوا أن محمداً عليه الصلاة والسلام قد قتل ولم يبين الله تعالى كذب ذلك القائل ، صار كأنه تعالى هو الذي فعل ذلك الغم ، وهذا كالرجل الذي يبلغه الخبر الذي يغمه ويكون معه من يعلم أن ذلك الخبر كذب ، فإذا لم يكشفه له سريعا وتركه يتفكر فيه ثم أعلمه فإنه يقول له : لقد غممتني وأطلت حزني وهو لم يفعل شيئاً من ذلك ، بل سكت وكف عن إعلامه ، فكذا ههنا .

الثاني : أن الغم وإن كان من فعل العبد فسببه فعل الله تعالى ، لأن الله طبع العباد طبعا يغتمون بالمصائب التي تنالهم وهم لا يحمدون على ذلك ولا يذمون .

الثالث : أنه لا يبعد أن يخلق الله تعالى الغم في قلب بعض المكلفين لرعاية بعض المصالح .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 35 ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ ﴾

قال الفخر :

وفيه وجهان :

الأول : أنها متصلة بقوله :

(14/133)

﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ﴾ [آل عمران : 152] كأنه قال : ولقد عفا عنكم لكيلا تحزنوا ، لأن في عفوه تعالى ما يزيل كل غم وحزن ،

والثاني : أن اللام متصلة بقوله : ﴿ فأثابكم ﴾ ثم على هذا القول ذكروا وجوها :

الأول : قال الزجاج : المعنى أثابكم غم الهزيمة من غمكم النبي صلى الله عليه وسلم بسبب مخالفته ، ليكون غمكم بأن خالفتموه فقط ، لا بأن فاتتكم الغنيمة وأصابتكم الهزيمة ، وذلك لأن الغم الحاصل بسبب الإقدام على المعصية ينسي الغم الحاصل بسبب مصائب الدنيا .

الثاني : قال الحسن : جعلكم مغمومين يوم أحد في مقابلة ما جعلتموهم مغمومين يوم بدر ، لأجل أن يسهل أمر الدنيا في أعينكم فلا تحزنوا بفواتها ولا تفرحوا باقبالها ، وهذان الوجهان مفرعان على قولنا الباء في قوله : ﴿ غَمّاً بِغَمّ ﴾ للمجازاة ، أما إذا قلنا انها بمعنى "مع" فالمعنى أنكم قلتم لو بقينا في هذا المكان وامتثلنا أمر الرسول لوقعنا في غم فوات

الغنيمة ، فاعلموا أنكم لما خالفتم أمر الرسول وطلبتم الغنيمة وقعتم في هذه الغموم العظيمة التي كل واحد منها أعظم من ذلك الغم أضعافا مضاعفة ، والعاقل إذا تعارض عنده الضرران ، وجب أن يخص أعظمهما بالدفع ، فصارت إثابة الغم على الغم مانعاً لكم من أن تحزنوا بسبب فوات الغنيمة ، وزاجراً لكم عن ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب جـ 9 صـ 35. 36 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ لّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ على مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أصابكم ﴾ ظاهر إذ المعنى أساءكم بذلك لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من النصر ولا ما أصابكم من الشدائد ، وكذا على ما ذهب إليه المغربي ، وأما على الأوجه الأخر فالمعنى لتتمرنوا على الصبر في الشدائد فلا تحزنوا على نفع ما فات أو ضر آت ، وإنما احتيج إلى هذا التأويل لأن المجازاة بالغم إنما تكون سبباً للحزن لا لعدمه .

(15/133)

وقيل : (لا) زائدة والمعنى لكي تأسفوا على ما فاتكم من الظفر والغنيمة وعلى ما أصابكم من الجراح والهزيمة عقوبة لكم ، فالتعليل حينئذ ظاهر ولا يخفى أن تأكيد (لا)

وتكريرها يبعد القول بزيادتها ، وقيل : التعليل على ظاهره و(لا) ليست زائدة والكلام متعلق بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ﴾ [آل عمران : 152] أي ولقد عفا الله تعالى عنكم لئلا تحزنوا الخ فإن عفو الله تعالى يذهب كل حزن ، ولا يخفى ما فيه ، وربما يقال : إن أمر التعليل ظاهر أيضاً على ما حكي عن السدي من غير حاجة إلى التأويل ولا القول بزيادة لا ويوضح ذلك ما أخرجه ابن جرير عن مجاهد قال : أصاب الناس غم وحزن على ما أصابهم في أصحابهم الذين قتلوا فلما اجتمعوا في الشعب وقف أبو سفيان وأصحابه بباب الشعب فظن المؤمنون أنهم سوف يميلون عليهم فيقتلونهم أيضاً فأصابهم حزن أنساهم حزنهم في أصحابهم فذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمّ ﴾ الخ ، وحديث إن المجازاة بالغم إنما تكون سبباً للحزن لا لعدمه غير مسلم على الإطلاق ، وأي مانع من أن يكون غم مخصوص سبباً لزوال غم آخر مخصوص أيضاً بأن يعظم الثاني فينسى الأول فتدبر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 4 صـ 92. 93 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

قال الفخر :

﴿ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي هو عالم بجميع أعمالكم وقصودكم ودواعيكم ، قادر على مجازاتها ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وذلك من أعظم الزواجر للعبد عن الاقدام على المعصية ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 36 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ والله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ عليم بأعمالكم وبما قصدتم بها ، وفي "المقصد الأسني" الخبير بمعنى العليم لكن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة وسمي صاحبها خبيراً ، وفي ترغيب في الطاعة وترهيب عن المعصية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 93 ﴾

(16/133)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ فأثابكم غمّاً بغمّ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ﴾ الآية قوله تعالى : ﴿ فأثابكم غمّاً بغمّ ﴾ أي غمّا على غمّ, أي حزنا على حزن, أو أثابكم غما بسبب غمكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعصيان أمره, والمناسب لهذا الغم بحسب ما يسبق إلى الذهن أن يقول : لكي تحزنوا, أما قوله : ﴿ لكيلا تحزنوا ﴾ فهو مشكل ؛ لأن الغم سبب للحزن لا لعدمه .

والجواب عن هذا من أوجه :

الأول : أنّ قوله : ﴿ لكيلا تحزنوا ﴾ متعلق بقوله تعالى : ﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ فالمعنى : أنّ الله تعالى عفا عنكم لتكون حلاوة عفوه تزيل عنكم ما نالكم من غم القتل, والجرح. ,وفوت الغنيمة, والظفر, والجزع من إشاعة أن النبي صلى الله عليه وسلم قتله المشركون.

الوجه الثاني : أن معنى الآية : أنه تعالى غمّكم هذا الغم لكي تتمرنوا على نوائب الدهر, فلا يحصل لكم الحزن في المستقبل ؛ لأن من اعتاد الحوادث لا تؤثّر عليه .

الوجه الثالث : أنّ (لا) صلة, وسيأتي الكلام على زيادتها بشواهده العربية إن شاء الله تعالى في الجمع بين قوله تعالى : ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ , وقوله : ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 69. 70 ﴾

(17/133)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ ﴾

هنا جاء لهم بلقطة من المعركة ، حتى إذا سمع كل واحد منهم هذا الكلام يستحضر

الصورة المخزية التي ما كان يصح أن تحدث ، ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ ﴾ ، فيه " تَصْعد " ، وفيه " تُصعِد " وهنا ﴿ تُصْعِدُون ﴾ من " أَصْعَد " ، و " أَصعد " أي ذهب في الصعيد ، والصعيد الأرض المستوية حتى تعينه على سرعة الفِرار . إنما " صَعِدَ " تحتاج إلى أن يكون هناك مكان عالٍ يصعدون إليه . وهم ساعة أرادوا أن يفروا جرَوْا إلى الأرض السهلة ومَشَوا ، فكل منهم لا يريد أن يتعثر هنا أو هناك ، إذن فالمناسب لها ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ ﴾ والفار لا ينظر هنا أو هناك ؛ ليس أمامه إلا الأرض السهلة .

﴿ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ ﴾ أي لا تعرجون على شيء ، والأهم من ذلك أن هناك تنبيها من القائد الأعظم وهو الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يدعوكم " والرسول يدعوكم في أخراكم " أي يناديكم من مؤخرتكم طالبا منكم العودة إلى ميدان القتال " فأثابكم غما بغم " . أنتم غَمَمْتُم الرسول صلى الله عليه وسلم بأنكم خالفتم أوامره ، فوقفكم الله هذا الموقف .

كلمة ﴿ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ ﴾ كأنه يقول : عاقبكم . ولكنه سبحانه يأتي بها مغلفة بحنان الألوهية ﴿ فَأَثَابَكُمْ ﴾ . إذن فهي ثواب . . أي أن الحق سبحانه وتعالى بربوبيته وبألوهيته ؛ يعلم أن هؤلاء مؤمنون فلم يَقْسُ عليهم ، قال : ﴿ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ ﴾ فكأن ما حدث لكم تخليص حق .

﴿ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ ولو لم تحدث مسألة الحزن والخزي والذلة لشغلتكم مسألة أنكم فاتتكم الغنائم والنصر ، ولظل بالكم في الغنائم ؛ لأنها هي السبب في هذا . كأن الغم الذي حدث إنما جاء ليخرج من قلبكم لقطة سيل اللعاب على الغنيمة . وما أصابكم من القتل والهزيمة ، ﴿ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَآ أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي أنه سبحانه يقدر ما الذي استولى عليكم ، لأن من الجائز ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ ﴾ أنهم لم يسمعوا النداء من هول المعركة ، ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وهو سبحانه خبير بكل فعل وإحساس . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 1821.1822 ﴾

(19/133)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

العامل في " إذْ " قيل : مُضْمَر ، أي : اذكروا .

وقال الزمخشريُّ : " صَرَفَكُمْ " أوْ " لِيَبْتَلِيَكُمْ " .

وقال أبو البقاء : ويجوز أن يكون ظرفاً لـ " عَصَيْتُمْ " أَوْ " تَنَازَعْتُمْ " أو فَشِلْتُمْ .

وقيل : هو ظرف لـ " عَفَا عَنْكُمْ " أي : عفا عنكم إذْ تُصْعِدُون هاربين .

وكل هذه الوجوهِ سائغةٌ ، وكونه ظرفاً لـ " صَرَفَكُمْ " جيدٌ من جهةِ المعنى ، ولـ " عَفَا " جيدٌ من جهة القُرْبِ ، وعلى بعض هذه الأقوالِ تكون المسألة من باب التنازعِ ، ويكون على إعمال الأخيرِ منها ، لعدم الإضمارِ في الأول ، ويكون التنازعُ في أكثرِ من عاملين .

والجمهور على ﴿ تُصْعِدُونَ ﴾ - بضم التاء وكسر العين - من : أَصْعَدَ في الأرض ، إذا ذهب فيها . والهمزةُ فيه للدخول ، نحو أصبح زيدٌ ، أي : دخل في الصباح ، فالمعنى : إذ تدخلون في الصعود ، ويُبيِّن ذلك قراءة أُبيٍّ " تصعدون في الوادي " .

وقرأ الحسنُ ، والسُّلمي ، وقتادةُ : " تَصْعَدُونَ " بفتح التاء والعين - من : صعد في الجبل ، أي : رقي ، والجمع بين القراءتين أنهم - أولاً - أصعدوا في الوادي ، ثم لما هزمهم العدو - صعدوا في الجبل ، وهذا على رأي مَنْ يُفَرِّق بين صعد وأصْعد ، وقرأ أبو حَيْوَةَ : " تَصَعَّدُون " بالتشديد - وأصله : تَتَصَعَّدُونَ ، حذفت إحدى التاءين ، إما تاء المضارعة ، أو تاء " تَفَعَّل " والجمع بين قراءِتهِ وقراءة غيره كما تقدم .

والجمهورُ ﴿ تُصْعِدُونَ ﴾ بتاء الخطاب، وابن مُحَيْصن - ويُرْوَى عن ابن كثيرٍ - بياء الغيبة، على الالتفاتِ، وهو حسنٌ.

ويجوز أن يعودَ الضمير على المؤمنين، أي: ﴿ واللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى المؤمنين إِذْ تُصْعِدُونَ ﴾ فالعامل في "إِذْ" "فَضْلٍ" ويقال: أَصْعَدَ: أبعد في الذهاب، قال القُتَبِيُّ أُصعد: إذا أَبْعَد في الذهاب، وأمعن فيه، فكأن الإصعادَ إبعادٌ في الأرض كإبعاد الارتفاعِ.

قال الشاعرُ: [الطويل]

أَلاَ أيُّهذَا السَّائِلي، أَيْنَ أَصْعَدَتْ؟ ... فَإِنَّ لَهَا مِنْ بَطْنِ يَثْرِب مَوْعِدا

وقال آخرُ: [الرجز]

قَدْ كُنْتِ تَبْكِينَ عَلَى الإِصْعَادِ ... فَالْيَوْمَ سُرِّحْتِ، وَصَاحَ الْحَادِي

وقال الفرّاءُ وأبو حاتم: الإصعاد: في ابتداء السفر والمخارج، والصعود: مصدر صَعَدَ: رقي من سُفْلٍ إلى عُلُو، ففرّق هؤلاء بين صَعَد وأَصْعَد.

وقال المفضَّلُ صعد وأصعد بمعنًى واحدٍ، والصعيد: وجْهُ الأرضِ.

قال بعضُ المفسّرين: "وكلتا القراءتين صوابٌ، فقد كان يومئذ من المهزمين مُصْعِد وصاعد".

قوله: ﴿ وَلَا تَلْوُونَ ﴾ الجمهور على ﴿ تَلْوُونَ ﴾ - بواوين - وقُرِئَ بإبدال الأولى همزة؛ كراهية اجتماع واوين، وليس بقياسٍ؛ لكون الضمة عارضة، والواو المضمومة تُبْدَل همزة

بشروط تقدمت في " البقرة " .

منها : ألا تكون الضمة عارضة ، كهذه ، وأن لا تكون مزيدة ، نحو ترهوك .

وألا يمكن تخفيفها ، نحو سُور ونور – جمع سوار ونوار – لأنه يمكن تبكينُها فتقول : سور ونور ، فيخف اللفظ بها .

وألا يُدْغم فيها ، نحو تعوّذ – مصدر تعوذ .

ومعنى ﴿ وَلَا تَلْوُونَ ﴾ ولا ترجعون ، يقال : لَوَى به : ذهب به ، ولَوَى عليه : عطف .

قَالَ الشاعرُ : [الطويل]

(21/133)

. . . . أَخُو الْجَهْدِ لا يَلْوِي عَلَى مَنْ تَعَذَّرَا

وأصله أن المعرِّجَ على الشيءِ يلوي عليه عنقه ، أو عنان دابته ، فإذا مضى – ولم يعرِّج – قيل : لن يلوي ، ثم استعمل في ترك التعريجِ على الشيء وترك الالتفاتِ إليه ، يقال : فلانٌ لا يلوي على كذا أي : لا يلتف إليه ، وأصل ﴿ تَلْوُونَ ﴾ تلويون ، فَأُعِلَّ بحذفِ اللام ، وقد تقدم في قوله : ﴿ يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ ﴾ [آل عمران : 78] وقرأ الأعمشُ ، وأبو بكر بنُ عَيَّاشٍ – ورويت عن عاصم " تُلوون " بضم التاء – من ألوى وهي لغةٌ في لوى .

وقرأ الحسن "تَلُون" بضم التاء – من ألوى وهي لغةٌ في لوى.

وقرأ الحسن "تَلُون" – بواو واحدة – وخرجوها على أنه أبدل الواو همزةً، ثم نقل حركة الهمزة على اللام، ثم حذف الهمزة، على القاعدة، فلم يبق من الكلمة إلا الفاء – وهي اللام – وقال ابنُ عطيةَ: "وحذفت إحدى الواوين للساكنين، وكان قد تقدم أن هذه القراءة هي قراءة مركبةٌ على لغة من يهمز الواوَ، وينقل الحركة".

وهذا عجيبٌ، بعد أن يجعلها من باب نقل حركةِ الهمزةِ، كيف يعودُ ويقول: حذفت إحدى الواوين للساكنين؟ ويُمكن تخريجُ هذه القراءة على وجعين آخرينِ:

أحدهما: أن يقالَ: استُثقلت الضمةُ على الواو؛ لأنها أختها، فكأنه اجتمع ثلاثُ واواتٍ، فنُقِلت الضمةُ إلى اللامِ، فالتقى ساكنانِ – الواو التي هي عينُ الكلمةِ، والواو التي هي ضميرٌ – فحُذفت الأولى؛ لالتقاء الساكنين، ولو قال ابن عطيةَ هكذا لكان أولى.

(22/133)

الثاني: أن يكون "تَلُونَ" مضارع وَلِي – من الولاية – وإنما عُدِّي بـ"على" لأنه ضُمِّن معنى العطف. وقرأ حُميد بن قيس: "على أُحُدٍ" – بضمتين – يريد الجَبَل، والمعنى: ولا تلوون على مَنْ فِي جبل أُحُد، وهو النبي صلى الله عليه وسلم قال ابن عطية: والقراءة

الشهيرة أقْوى ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن على الجبل إلا بعد ما فَرَّ الناسُ عنه ، وهذه الحالُ - من إصعادهم - إنما كانت وهو يدعوهم .

ومعنى الآيةِ : تعرجون ، ولا يلتفت بعضٌ إلى بعضٍ .

قوله : " والرسول يدعوكم " ، مبتدأ وخبر في محل نصب على الحالِ ، العامل فيها " تلوون " .

أي : والرسول يدعوكم في أخراكم ومن ورائكم ، يقول : " إليَّ عِبَادَ الله ؛ فأنا رسولُ اللهِ ، من يكر فله الجنَّةُ " .

ويحتمل أنه كان يدعوكم إلى نفسه ، حتى تجتمعوا عنده ، ولا تتفرقوا . و" أخراهم " آخر الناس كما يقال في أولهم ، ويقال : جاء فلانٌ في أخريات الناس .

قوله : ﴿ فَأَثَابَكُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه معطوف على " تصعدون " و" تلوون " ، ولا يضر كونهما مضارعين ؛ لأنهما ماضيان في المعنى ؛ لأن " إذ " المضافة إليهما صيرتهما ماضيين ، فكأن المعنى إذا صعدتم ، وألويتم .

الثاني : أنه معطوفٌ على " صرفكم " .

قال الزمخشريُّ ﴿ فَأَثَابَكُمْ ﴾ عطف على صرفكم ، وفيه بُعْدٌ ؛ لطول الفصل وفي فاعله قولان :

أحدهما : أنه الباري تعالى.

والثاني : أنه معطوف على "صرفكم".

قال الزمخشريُّ ﴿ فَأَثَابَكُمْ ﴾ عطف على صرفكم، وفيه بُعْدٌ ؛ لطول الفصل وفي فاعله قولان :

أحدهما : أنه الباري تعالى.

والثاني : أنه النبيُّ صلى الله عليه وسلم.

(23/133)

قال الزَّمَخْشَرِيُّ : ويجوز أن يكون الضمير في ﴿ فَأَثَابَكُمْ ﴾ للرسول أي : فآساكم من الاغتمام، وكما غمكم ما نزل به من كسر رباعيته غمه ما نزل بكم من فوت الغنيمة.

و "غماً" مفعول ثان.

وقوله : ﴿ فَأَثَابَكُمْ ﴾ هل هو حقيقة أو مجاز فقيل : مجاز كأنه جعل الغم قائماً مقام الثواب الَّذِي كان يحصل لولا الفرارُ فهو كقوله : [الطويل]

أخَافُ زِيَاداً أنْ يَكُونَ عَطَاؤُهُ... أدَاهِم سُوداً أوْ مُحَدْرَجَةً سُمْرَا

وقول الآخر :

تحية بينهم ضرب وجميع . . . جعل القيود والسياط بمنزلة العطاء ، والضرب بمنزلة التحية .

وقال الفرّاءُ : " الإثابة – هاهنا – بمعنى المعاقبة " وهو يرجع إلى المجاز ؛ لأن الإثابة أصلها في الحسنات .

قوله : ﴿ بِغَمٍّ ﴾ يجوز في الباء أوجهٌ :

أحدها : أن تكون للسببيةِ ، على معنى أن متعلِّق الغَمْ الأول الصحابة ، ومتعلق الغَمِّ الثاني قيل المشركين يوم بدرٍ .

قال الحَسَنُ : يريد غَم يوم أحدٍ للمسلمين بغمّ يوم بدرٍ للمشركينَ ، والمعنى : فأثابكم غماً بالغم الذي أوقعه على أيديكم بالكفار يوم بدرٍ .

وقيل متعلَّق الغَمِّ الرسول ، والمعنى : أذاقكم الله غمًّا بسبب الغَمِّ الذي أدخلتموه على الرسول والمؤمنين بفشلكم ومخالفتكم أمره ، أو فأثابكم الرسول غماً بسبب غغم اغتممتموه لأجله ، والمعنى أن الصحابة لما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم شُجَّ وكُسِرت ربَاعِيَتُه ، وقُتِل عمه ، اغتممتموه لأجله ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم لما رآهم قَد عَصَوْا ربَّهُم لأجل الغنيمة – ثم بَقَوْا محرومينَ من الغنيمةِ – وقتِلَ أقاربُهم ، اغتم لأجلهم .

الثاني : أن تكون الباء للمصاحبة ، أي : غماً مصاحِباً لغم ، ويكون الغمَّان للصحابة ، بمعنى غَمًّا مع غم أو غماً على غم ، فالغم الأولُ : الهزيمة والقتل ، والثاني إشراف خالد بخيل الكفار ، أو بإرجافهم : قتل الرسول صلى الله عليه وسلم فعلى الأول تتعلق الباء بـ ﴿ فَأَثَابَكُمْ ﴾ .

قال أبو البقاء وقيل : المعنى بسبب غم ، فيكون مفعولاً به .

وعلى الثاني يتعلقُ بمحذوفٍ ؛ لأنه صفةٌ لِـ " غَمّ " أي : غماً مصاحباً لغم ، أو ملتبساً بغَمٍّ ، وأجاز أبو البقاء أن تكون الباءُ بمعنى " بعد " أو بمعنى " بدل " وجعلها - في هذين الوجهين - صفة لـ " غماً " .

وكونها بمعنى " بعد " و" بدل " بعيدٌ ، وكأنه يريدُ تفسير المعنى ، وكذا قَالَ الزمخشريُّ غماً بَعْدَ غَمٍّ .

قوله : ﴿ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ ﴾ هذه لام " كي " وهي لام جرٍّ ، والنصب - هنا - بـ " كي " لئلاَّ يلزم دخول حرفِ جرّ على مثله ، وفي متعلَّق هذه اللام قولانِ :

أحدهما : أنه ﴿ فَأَثَابَكُمْ ﴾ وفي " لا " على هذا وجهانِ :

الأول : أنها زائدةٌ ؛ لأنه لا يترتب على الاغتمام انتفاء الحُزْن ، والمعنى : أنه غمهم لِيُحْزِنهم ؛ عقوبةً لهم على تركهم مواقفهم ، قاله أبو البقاء .

الثاني : أنها ليست زائدة ، فقال الزمخشريُّ : معنى ﴿ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ ﴾ لتمرَّنوا على تجرُّع الغمومِ ، وتتضرروا باحتمال الشدائد ، فلا تحزنوا فيما بعدُ على فائتٍ من المنافع ، ولا على مُصِيبٍ من المضارّ .

وقال ابن عطية : " المعنى : لتعلَمُوا أن ما وقع بكم إنما هو بجناياتكم ، فأنتم ورَّطتم أنفسكم ، وعادة البشر أن جاني الذنب يصبر للعقوبة ، وأكْثر قلق المعاقب وحزنه إذا ظن البراءة من نفسه " .

(25/133)

ثانيهما : أن اللام تتعلق بـ " عَفَا " لأن عَفْوه يُذْهِب كُلَّ حُزْن ، وفيه بُعْدٌ ؛ لطول الفَصْلِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 603 . 608 ﴾ . بتصرف يسير .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قوله : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ ﴾ الإشارة من هذه الآية لأقوام تقع لهم فترة ، ودواعي الحق سبحانه - من أنفسهم ، ومن جميع الأقطار حتى كأنّ الأحجارَ من الشوارع واللَّبِنَ من الجدران - تناديه : لا تفعل يا عبد الله ! وهو مُصِرٌّ في لَيِّه ، مقيمٌ على غيِّه ، جاحد لِمَا يعلم أنه هو الأحقُّ والأولى من حاله ، فإذا قضى وطره واستوفى بهمته ، فلا محالة يمسك من

إرسال عنانه ، ويقف عن ركضه في ميدانه ، فلا يحصل إلا على أنفاس متصاعدة ، وحسراتٍ متواترة ؛ فأورثه الحقُّ - سبحانه - وحشةً على وحشة . حتى إذا طال في التحسُّر مقامه تداركه الحق - سبحانه - بجميل لطفه ، وأقبل عليه بحسن عطفه ، وأنقذه من ضيق أسره ، ونقله إلى سعة عفوه وفضله ، وكثيرٌ مِنْ هؤلاء يصلون إلى محل الأكابر ثم يقفون بالله لله (. . . .) ويقومون بالله لله بلا انتظار تقريب ولا ملاحظة ترحيب . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 1 صـ 287﴾

(26/133)

" فصل "

قال السيوطى :

إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (153)

أخرج ابن جرير عن الحسن البصري أنه قرأ ﴿ تصعدون ﴾ بفتح التاء والعين .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ تصعدون ﴾ برفع التاء وكسر العين .

وأخرج ابن جرير عن هرون قال : في قراءة أبي بن كعب " إذ تصعدون في الوادي " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس ﴿ إذ تصعدون ﴾ قال : صعدوا في أحد فراراً يدعوهم في اخراهم " إليّ عباد الله ارجعوا ، إليّ عباد الله ارجعوا " .

وأخرج ابن المنذر عن عطية العوفي قال : لما كان يوم أحد وانهزم الناس ، صعدوا في الجبل والرسول يدعوهم في أخراهم فقال الله ﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه سئل أنه عن قوله ﴿ إذ تصعدون . . . ﴾ الآية . قال : فروا منهزمين في شعب شديد لا يلوون على أحد ، والرسول يدعوهم في أخراهم " إليّ عباد الله ، إليّ عباد الله . ولا يلوي عليه أحد " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ إذ تصعدون ﴾ الآية . قال : ذاكم يوم أحد صعدوا في الوادي فراراً ونبي الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم في أخراهم " إليّ عباد الله ، إليّ عباد الله " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس ﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم ﴾ فرجعوا وقالوا : والله لنأتينهم ثم لنقتلنهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مهلاً فإنما أصابكم الذي أصابكم من أجل أنكم عصيتموني " فبينما هم كذلك إذ أتاهم القوم وقد أيسوا ، وقد اخترطوا سيوفهم ﴿ فأثابكم غماً بغمٍّ ﴾ فكان غمُّ الهزيمة ، وغمُّهم حين أتوهم ﴿ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ﴾ من الغنيمة ﴿ وما أصابكم ﴾ من القتل والجراحة .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف ﴿ فأثابكم غماً بغم ﴾ قال : الغم الأول بسبب الهزيمة ، والثاني حين قيل قتل محمد . وكان ذلك عندهم أعظم من الهزيمة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ فأثابكم غماً بغم ﴾ قال : فرة بعد الفرة الأولى حين سمعوا الصوت أن محمداً قد قتل ، فرجع الكفار فضربوهم مدبرين حتى قتلوا منهم سبعين رجلاً ، ثم انحازوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعلوا يصعدون في الجبل والرسول يدعوهم في أخراهم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ فأثابكم غماً بغم ﴾ قال : الغم الأوّل الجراح والقتل ، والغم الآخر حين سمعوا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قتل . فأنساهم الغم الآخر ما أصابهم من الجراح والقتل ، وما كانوا يرجون من الغنيمة .

وذلك قوله ﴿ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن الربيع . مثله .

(28/133)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : " انطلق النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ يدعو الناس حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة ، فلما رأوه وضع رجل سهماً في قوسه فأراد أن يرميه فقال : أنا رسول الله . ففرحوا بذلك حين وجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حياً ، وفرح رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى أن في أصحابه من يمتنع . فلما اجتمعوا وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذهب عنهم الحزن ، فأقبلوا يذكرون الفتح وما فاتهم منه ، ويذكرون أصحابهم الذين قتلوا ، فأقبل أبو سفيان حتى أشرف عليهم ، فلما نظروا إليه نسوا ذلك الذي كانوا عليه ، وهمهم أبو سفيان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ليس لهم أن يعلونا ، اللهم إن تقتل هذه العصابة لا تعبد . ثم ندب أصحابه فرموهم بالحجارة حتى أنزلوهم " فذلك قوله ﴿ فأثابكم غماً بغم ﴾ الغم الأوّل ما فاتهم من الغنيمة والفتح ، والغم الثاني اشراف العدوّ عليهم ﴿ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ﴾ من الغنيمة ﴾ ولا ما أصابكم ﴾ من القتل حين تذكرون فشغلهم أبو سفيان .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : أصاب الناس حزن وغم على ما أصابهم في أصحابهم الذين قتلوا ، فلما تولجوا في الشعب وقف أبو سفيان وأصحابه بباب الشعب ، فظن المؤمنون أنهم سوف يميلون عليه فيقتلونهم أيضاً ، فأصابهم حزن من ذلك أنساهم حزنهم في أصحابهم . فذلك قوله سبحانه ﴿ فأثابكم غماً بغم ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 350 . 352 ﴾

(29/133)

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (154) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان أمانهم بعد انخلاع قلوبهم بعيداً ، ولا سيما بكونه بالنعاس الذي هو أبعد شيء عن

ذلك المقام الوعر والمحل الضنك عطف بأداة البعد في قوله : ﴿ ثم أنزل عليكم ﴾ ولما أفاد بأداة الاستعلاء عظمة الأمن ، وكان متصلاً بالغم ولم يستغرق زمن ما بعده أثبت الجار فقال : ﴿ من بعد الغم ﴾ أي المذكور وأنتم في نحر العدو ﴿ أمنة ﴾ أي أمناً عظيماً ، ثم ابدل منها تنبيهاً على ما فيها من الغرابة قوله : ﴿ نعاساً ﴾ دليلاً قطعياً فإنه لا يكون إلا من أمن ؛ روي البخاري في التفسير عن أنس رضي الله عنه أن أبا طلحة رضي الله عنه قال : " غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد ، فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه " ولما كان لبعضهم فقط استأنف وصفه بقوله : ﴿ يغشى طائفة منكم ﴾ وهم المؤمنون ، وابتدأ الإخبار عن الباقين بقوله : ﴿ وطائفة ﴾ أي أخرى من المنافقين ﴿ قد أهمتهم أنفسهم ﴾ لا المدافعة عن الدين فهم إنما يطلبون خلاصها ، ولا يجدون إلى ذلك فيما يظنون سبيلاً لاتصال رعبهم وشدة جزعهم ، فعوقبوا على ذلك بأنه لم يحصل لهم الأمن المذكور ، ثم فسر همهم فقال : ﴿ يظنون بالله ﴾ المحيط بصفات الكمال ﴿ غير الحق ﴾ أي من أن نصره بعده هذا لا يمكن ، أو أنهم لو قعدوا في المدينة لم يقتل أحد ، ونحو ذلك من سفساف الكلام وفاسد الظنون التي فتحتها لو والأوهام ﴿ ظن الجاهلية ﴾ أي الذين لا يعلمون - من عظمة الله سبحانه وتعالى بأن ما أراده كان ولا يكون غيره - ما يعلم أتباع الرسل .

ثم فسر الظن بقوله : ﴿ يقولون ﴾ أي منكرين لأنه لم يجعل الرأي رايهم ويعمل بمقتضاه غشباً وتاسفاً على خروجهم في هذا الوجه وعدم رجوعهم مع ابن أبيّ بعد أن خرجوا ﴿ هل لنا من الأمر ﴾ أي المسموع ، ولكون الاستفهام بمعنى النفي ثبتت أداة الاستغراق في قوله : ﴿ من شيء ﴾ فكأنه قيل : فماذا يقال لهم ؟ فقيل : ﴿ قل ﴾ أي لهم رداً عليهم احتقاراً بهم ﴿ إن الأمر ﴾ أي الحكم الذي لا يكون سواه ﴿ كله لله ﴾ أي الذي لا كفوء له ، وليس لكم ولا لغيركم منه شيء ، شئتم أو أبيتم ، غزوتم أو قعدتم ، ثبتم أو فررتم .

ولما قص سبحانه وتعالى عليهم بعض أمرهم في هذه الحرب ، وبين لهم شيئاً من فوائد ما فعل بهم بقوله : ﴿ إن يمسسكم قرح ﴾ [آل عمران : 140] وكان من جملة ذلك ما أظهر من أسرار المنافقين بهذه الوقعة في اتهامهم الله ورسوله ، حتى وصل إلى هنا ، وكان قولهم هذا غير صريح في الاتهام لإمكان حمله على مساق الاستفهام أخبر سبحانه وتعالى بتدليسهم بقوله : ﴿ يخفون ﴾ أي يقولون ذلك مخفين ﴿ في أنفسهم ما لا يبدون لك ﴾ لكونه لا يرضاه اللهز ثم بين ذلك بعد إجماله فقال : ﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر ﴾ أي المسموع ﴿ شيء ما قتلنا ههنا ﴾ لأنا كنا نمكث في المدينة ولا نخرج إلى العدو .

ولما أخبر سبحانه وتعالى عنهم بما أخفوه جهلاً منهم ظناً أن الحذر يغني من القدر أمره سبحانه وتعالى بالرد عليهم بقوله : ﴿ قل لو كنتم في بيوتكم ﴾ أي بعد أن أجمع رأيكم على أن لا يخرج منكم أحد ﴿ لبرز الذين كتب عليهم القتل ﴾ أي في هذه الغزوة ﴿ إلى مضاجعهم ﴾ أي التي هي مضاجعهم بالحقيقة وهي التي قتلوا بها ، لأن ما قدرناه لا يمكن أحداً دفعه بوجه من الوجوه ، ثم عطف على ما علم تقديره ودل عليه السياق قوله :

﴿ ليبتلي ﴾ أي لبرز المذكورون لينفذ قضاؤه ويصدق قوله لكم في غزوة بدر : إن فاديتم الأسارة ولم تقتلوهم قتل منكم في العام المقبل مثلهم ﴿ وليبتلي الله ﴾ أي المحيط بصفات الكمال بهذا الأمر التقديري ﴿ ما في صدوركم ﴾ أي من الإيمان والنفاق بأن يفعل في إظهاره من عالم الغيب إلى عالم الشهادة فعل المختبر كما فعل بما وجد في هذه الغزوة من الأمور التحقيقية ﴿ وليمحص ما في قلوبكم ﴾ اي يطهره ويصفيه من جميع الوساوس الصارفة عن المراقبة من محبة الدنيا من الغنائم التي كانت سبب الهزيمة وغيرها .

وختم بقوله : ﴿ والله ﴾ أي الذي له الإحاطة بكل شيء ﴿ عليم بذات الصدور ﴾ مرغباً ومرهباً ودافعاً لما قد يتوهم من ذكر الابتلاء من عدم العلم بالخفايا .

ولما كانوا في هذه الغزوة قد حصل لهم ضرر عظيم ، لكنه كان بما وقع من بعضهم من الخلل الظاهر فأدبهم بذلك ، عفا عنهم سبحانه وتعالى بعد ذلك التأديب ورحمهم وطيب قلوبهم

بهذه الآية بما فيها من التأمين صريحاً ، وبما فيها من الإشارة بجمع جميع حروف المعجم فيها تلويحاً إلى أن أمرهم لا بد أن يتم كما تمت الحروف في هذه الآية .

(32/133)

لكنه افتتحها بأداة التراخي إشارة إلى أنه لا يكون إلا بعد مدة مديدة حتى تصقل مرائي الصدور التي ختمها بها بخلاف ما في الآية الأخرى الجامعة للحروف في آخر سورة الفتح التي نزلت في الحديبية التي ساءهم رجوعهم منها دون وصولهم إلى قصدهم - كما يأتي إن شاء الله سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 2 صـ 168 . 170 ﴾

فصل

قال الفخر :

في كيفية النظم وجهان :

الأول : أنه تعالى لما وعد نصر المؤمنين على الكافرين ، وهذا النصر لا بد وأن يكون مسبوقا بازالة الخوف عن المؤمنين ، بين في هذه الآية أنه تعالى أزال الخوف عنهم ليصير ذلك كالدلالة على أنه تعالى ينجز وعده في نصر المؤمنين .

الثاني : أنه تعالى بين أنه نصر المؤمنين أولا ، فلما عصى بعضهم سلط الخوف عليهم ، ثم ذكر

أنه أزال ذلك الخوف عن قلب من كان صادقا في إيمانه مستقرا على دينه بحيث غلب النعاس عليه.

(33/133)

واعلم أن الذين كانوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم يوم أحد فريقان: أحدهما: الذين كانوا جازمين بأن محمداً عليه الصلاة والسلام نبي حق من عند الله وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وكانوا قد سمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى ينصر هذا الدين ويظهره على سائر الأديان، فكانوا قاطعين بأن هذه الواقعة لا تؤدي إلى الاستئصال، فلا جرم كانوا آمنين، وبلغ ذلك الأمن إلى حيث غشيهم النعاس، فإن النوم لا يجيء مع الخوف، فمجيء النوم يدل على زوال الخوف بالكلية، فقال ههنا في قصة أحد في هؤلاء ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الغم أَمَنَةً نُّعَاساً﴾ وقال في قصة بدر ﴿إِذْ يُغَشّيكُمُ النعاس أَمَنَةً مّنْهُ﴾ [الأنفال: 11] ففي قصة أحد قدم الأمنة على النعاس، وفي قصة بدر قدم النعاس على الأمنة، وأما الطائفة الثانية وهم المنافقون الذين كانوا شاكين في نبوته عليه الصلاة والسلام، وما حضروا إلا لطلب الغنيمة، فهؤلاء اشتد جزعهم وعظم خوفهم، ثم إنه تعالى وصف حال كل واحدة من هاتين الطائفتين، فقال في صفة المؤمنين:

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الغم أَمَنَةً نُّعَاساً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 36. 37 ﴾

قال الآلوسى :

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُمْ ﴾ عطف على ﴿ فأثابكم ﴾ [آل عمران : 153] والخطاب للمؤمنين حقاً ، والمعنى ثم وهب لكم أيها المؤمنون ﴿ مِّن بَعْدِ الغم ﴾ الذي اعتراكم والتصريح بتأخر الإنزال عنه مع دلالة ثم عليه وعلى تراخيه عنه لزيادة البيان ، وتذكير عظم المنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 93 ﴾

فائدة

قال أبو حيان :

واختلفوا في الوقت الذي غشيهم فيه النعاس .

(34/133)

فقال الجمهور : حين ارتحل أبو سفيان من موضع الحرب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي وكان من المتحيزين إليه : " اذهب فانظر إلى القوم فإنْ كانوا جنبوا الخيل فهم ناهضون إلى مكة ، وإن كانوا على خيلهم فهم عائدون إلى المدينة فاتقوا الله واصبروا "

ووطنهم على القتال ، فمضى علي ثم رجع فأخبر : أنهم جنبوا الخيل ، وقعدوا على أثقالهم عجالاً ، فأمن المؤمنون المصدقون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألقى الله تعالى عليهم النعاس .

وبقي المنافقون الذين في قلوبهم مرض لا يصدقون ، بل كان ظنهم أنّ أبا سفيان يؤم المدينة ، فلم يقع على أحد منهم نوم ، وإنما كان همهم في أحوالهم الدنيوية .

وثبت في البخاري من حديث أبي طلحة قال : غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد ، فجعل يسقط من يدي وآخذه ، ويسقط وآخذه ، وفي طريق رفعت رأسي فجعلت ما أرى أحداً من القوم إلا وهو يميل تحت جحفته .

وهذا يدل على أنهم غشيهم النعاس وهم في المصاف وسياق الآية والحديث الأول يدلان على خلاف ذلك .

قال تعالى ﴿ فأثابكم غماً بغم ﴾ .

والغم كان بعد أن كسروا وتفرقوا عن مصافهم ورحل المشركون عنهم .

والجمع بين هذين القولين : أن المصاف الذي أخبر عنه أبو طلحة كان في الجبل بعد الكسرة ، أشرف عليهم أبو سفيان من علو في الخيل الكثيرة ، فرماهم من كان انحاز إلى الجبل من الصحابة بالحجارة ، وأغنى هناك عمر حتى أنزلوهم ، وما زالوا صافين حتى جاءهم خبر قريش أنهم عزموا على الرّحيل إلى مكة ، فأنزل الله عليهم النعاس في ذلك الموطن ،

فأمنوا ولم يأمن المنافقون.

والفاعل بأنزل ضمير يعود على الله تعالى، وهو معطوف على فأثابكم.

وعليكم يدل على تجلل النعاس واستعلائه وغلبته، ونسبة الإنزال مجاز لأن حقيقته في الأجرام. انتهى انتهى. ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 3 صـ 92﴾

(35/133)

قوله تعالى: ﴿يغشى طَائِفَةً مِّنْكُمْ﴾

قال الآلوسى:

﴿يغشى طَائِفَةً مِّنْكُمْ﴾ قال ابن عباس: هم المهاجرون وعامة الأنصار، وفيه إشعار بأنه لم يغش الكل ولا يقدح ذلك في عموم الإنزال للكل. انتهى انتهى. ا هـ ﴿روح المعانى حـ 4 صـ 94﴾

فصل

قال الفخر:

قد ذكرنا أن هذه الطائفة هم المؤمنون الذين كانوا على البصيرة في إيمانهم قال أبو طلحة، غشينا النعاس ونحن في مصافنا، فكان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه.

ثم يسقط فيأخذه ، وعن الزبير قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف ، فأرسل الله علينا النوم ، وإني لأسمع قول معتب بن قشير : والنعاس يغشاني يقول : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا .

وقال عبد الرحمن بن عوف : ألقى النوم علينا يوم أحد ، وعن ابن مسعود : النعاس في القتال أمنة ، والنعاس في الصلاة من الشيطان ، وذلك لأنه في القتال لا يكون إلا من غاية الوثوق بالله والفراغ عن الدنيا ، ولا يكون في الصلاة إلا من غاية البعد عن الله .

واعلم أن ذلك النعاس فيه فوائد :

أحدها : أنه وقع على كافة المؤمنين لا على الحد المعتاد ، فكان ذلك معجزة ظاهرة للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولا شك أن المؤمنين متى شاهدوا تلك المعجزة الجديدة ازدادوا إيماناً مع إيمانهم ، ومتى صاروا كذلك ازداد جدهم في محاربة العدو ووثوقهم بأن الله منجز وعده ،

وثانيها : أن الأرق والسهر يوجبان الضعف والكلال ، والنوم يفيد عود القوة والنشاط واشتداد القوة والقدرة ،

وثالثها : أن الكفار لما اشتغلوا بقتل المسلمين ألقى الله النوم على عين من بقي منهم لئلا يشاهدوا قتل أعزتهم ، فيشتد الخوف والجبن في قلوبهم ،

ورابعها : أن الأعداء كانوا في غاية الحرص على قتلهم ، فبقاؤهم في النوم مع السلامة في مثل تلك المعركة من أدل الدلائل على أن حفظ الله وعصمته معهم ، وذلك مما يزيل الخوف عن قلوبهم ويورثهم مزيد الوثوق بوعد الله تعالى ، ومن الناس من قال : ذكر النعاس في هذا الموضع كناية عن غاية الامن ، وهذا ضعيف لأن صرف اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز لا يجوز إلا عند قيام الدليل المعارض ، فكيف يجوز ترك حقيقة اللفظ مع اشتمالها على هذه الفوائد والحكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 37 ﴾

لطيفة

قال ابن عاشور :

وسمّي الإغشاء إنزالاً لأنّه لمّا كان نعاساً مقدّراً من الله لحكمة خاصّة ، كان كالنازل من العوالم المشرّفة كما يقال : نزلت السكينة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 256 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ حمزة والكسائي ﴿ تغشى ﴾ بالتاء رداً إلى الأمنة ، والباقون بالياء رداً ، إلى النعاس ، وهو اختيار أبي حاتم وخلف وأبي عبيد .

واعلم أن الأمنة والنعاس كل واحد منهما يدل على الآخر ، فلا جرم يحسن رد الكناية إلى أيهما شئت ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم * طَعَامُ الأثيم * كالمهل يَغْلِى فِى البطون ﴾ [الدخان : 43 45] وتغلي ، إذا عرفت جوازهما فنقول : مما يقوي القراءة بالتاء أن الأصل الأمنة ، والنعاس بدل ، ورد الكناية إلى الأصل أحسن ، وأيضاً الأمنة هي المقصود ، وإذا حصلت الأمنة حصل النعاس لأنها سببه ، فإن الخائف لا يكاد ينعس ، وأما من قرأ بالياء فحجته أن النعاس هو الغاشي ، فإن العرب يقولون غشينا النعاس ، وقلما يقولون غشيني من النعاس أمنة ، وأيضاً فإن النعاس مذكور بالغشيان في قوله : ﴿ إِذْ يُغَشّيكُمُ النعاس أَمَنَةً مّنْهُ ﴾ [الأنفال : 11] وأيضاً : النعاس يلي الفعل ، وهو أقرب في اللفظ إلى ذكر الغشيان من الأمنة فالتذكير أولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 37.38 ﴾

فائدة

قال الطبرى :

والصواب من القول في ذلك عندي ، أنهما قراءتان معروفتان مستفيضتان في قرأة الأمصار

، غير مختلفتين في معنى ولا غيره. لأن "الأمنة" في هذا الموضع هي النعاس، والنعاس هو الأمنة. فسواء ذلك، وبأيتهما قرأ القارئ فهو مصيبٌ الحقَّ في قراءته. (1)

وكذلك جميع ما في القرآن من نظائره من نحو قوله: (إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ كَالْمُهْلِ تَغْلِي فِي الْبُطُونِ) [سورة الدخان: 43-45] و(أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ تُمْنَى) [سورة القيامة: 37]، (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تَسَاقِطْ) [سورة مريم: 25]. انتهى

انتهى. اهـ ﴿تفسير الطبرى حـ 7 صـ 316﴾

---

(1) هذا أصل عظيم فكل قراءة متواترة لا يجوز تضعيفها وليته التزم بهذا الأصل الذى أشار إليه، فكثيرا ما يرجح بين القراءات المتواترة. والله أعلم.

(38/133)

قوله تعالى: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾

هؤلاء هم المنافقون عبد الله بن أبي ومعتب بن قشير وأصحابهما، كان همهم خلاص أنفسهم، يقال: همني الشيء أي كان من همي وقصدي، قال أبو مسلم: من عادة العرب أن يقولوا لمن خاف، قد أهمته نفسه، فهؤلاء المنافقون لشدة خوفهم من القتل طار النوم عنهم، وقيل المؤمنون، كان همهم النبي صلى الله عليه وسلم وإخوانهم من المؤمنين، والمنافقون

كان همهم أنفسهم وتحقيق القول فيه : أن الأنسان إذا اشتد اشتغاله بالشيء واستغراقه فيه ، صار غافلا عما سواه ، فلما كان أحب الأشياء إلى الأنسان نفسه ، فعند الخوف على النفس يصير ذاهلا عن كل ما سواها ، فهذا هو المراد من قوله : ﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ وذلك لأن أسباب الخوف وهي قصد الأعداء كانت حاصلة والدافع لذلك وهو الوثوق بوعد الله ووعد رسوله ما كان معتبراً عندهم ، لأنهم كانوا مكذبين بالرسول في قلوبهم ، فلا جرم عظم الخوف في قلوبهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 38 ﴾

قوله تعالى : ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾

فصل

قال الفخر :

في هذا الظن احتمالان :

أحدهما : وهو الأظهر : هو أن ذلك الظن أنهم كانوا يقولون في أنفسهم لو كان محمد محقا في دعواه لما سلط الكفار عليه وهذا ظن فاسد ، أما على قول أهل السنة والجماعة ، فلأنه سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض لأحد عليه ، فإن النبوة خلعة من الله

سبحانه يشرف عبده بها ، وليس يجب في العقل أن المولى إذا شرف عبده بخلعة أن يشرفه بخلعة أخرى ، بل له الأمر والنهي كيف شاء بحكم الالهية ، وأما على قول من يعتبر المصالح في أفعال الله وأحكامه ، فلا يبعد أن يكون لله تعالى في التخلية بين الكافر والمسلم ، بحيث يقهر الكافر المسلم ، حكم خفية وألطاف مرعية ، فإن الدنيا دار الامتحان والابتلاء ، ووجوه المصالح مستورة عن العقول ، فربما كانت المصلحة في التخلية بين الكافر والمؤمن حتى يقهر الكافر المؤمن ، وربما كانت المصلحة في تسليط الفقر والزمانة على المؤمنين .

قال القفال : لو كان كون المؤمن محقاً يوجب زوال هذه المعاني لوجب أن يضطر الناس إلى معرفة المحق بالجبر ، وذلك ينافي التكليف واستحقاق الثواب والعقاب ، بل الأنسان إنما يعرف كونه محقاً بما معه من الدلائل والبينات ، فأما القهر فقد يكون من المبطل للمحق ، ومن المحق للمبطل ، وهذه جملة كافية في بيان أنه لا يجوز الاستدلال بالدولة والشوكة ووفور القوة على أن صاحبها على الحق .

الثاني : أن ذلك الظن هو أنهم كانوا ينكرون إله العالم بكل المعلومات القادر على كل المقدورات ، وينكرون النبوة والبعث ، فلا جرم ما وثقوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم في أن الله يقويهم وينصرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 38 . 39 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ غَيْرِ الحق ﴾ في حكم المصدر ، ومعناه : يظنون بالله غير الظن الحق الذي يجب أن يظن به (وظن الجاهلية) بدل منه ، والفائدة في هذا الترتيب أن غير الحق : أديان كثيرة ، وأقبحها مقالات أهل الجاهلية ، فذكر أولاً أنهم يظنون بالله غير الظن الحق ، ثم بين أنهم اختاروا من أقسام الأديان التي غير حقة أركها وأكثرها بطلانا ، وهو ظن أهل الجاهلية ، كما يقال : فلان دينه ليس بحق ، دينه دين الملاحدة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 39 ﴾

فائدة

قال ابن عاشور :

وإنَّما كان هذا الظنّ غيرَ الحقّ لأنَّه تخليط في معرفة صفات الله وصفات رسوله وما يجوز وما يستحيل ، فإنّ لله أمراً وهدياً وله قدَر وتيسير ، وكذلك لرسوله الدعوة والتشريع وبذل الجهد في تأييد الدّين وهو في ذلك معصوم ، وليس معصوماً من جريان الأسباب الدنيوية عليه ، ومن أن يكون الحرب بينه وبين عدوّه سجالاً ، قال أبو سفيان لهرقل وقد سأله : كيف كان قتالكم له ؟ فقال أبو سفيان : ينال منّا وننال منه ، فقال هرقل : وكذلك الإيمان

حتّى يتمّ.

فظنّهم ذلك ليس بحقّ.

وقد بيّن الله تعالى أنّه ظنّ الجاهلية الّذين لم يعرفوا الإيمان أصلاً فهؤلاء المتظاهرون بالإيمان لم يدخل الإيمان في قلوبهم فبقيت معارفهم كما هي من عهد الجاهلية، والجاهلية صفة جرت على موصوف محذوف يقدّر بالفئة أو الجماعة، وربما أريد به حالة الجاهلية في قولهم أهل الجاهلية، وقوله تعالى: ﴿ تبرّج الجاهلية الأولى ﴾، والظاهر أنّه نسبة إلى الجاهل أي الّذي لا يعلم الدين والتّوحيد، فإنّ العرب أطلقت الجهل على ما قابل الحلم، قال ابن الرومي

بجهل كجهل السيف والسيف منتضى

وحلم كحلم السيف والسيف مغمد . . .

وأطلقت الجهل على عدم العلم قال السموأل . . . .

فليس سَواء عالم وجَهول

وقال النابغة:

وليس جَاهل شيءٍ مثلَ مَن علما

وأحسب أن لفظ الجاهلية من مبتكرات القرآن ، وصف به أهل الشرك تنفيراً من الجهل ، وترغيباً في العلم ، ولذلك يذكره القرآن في مقامات الذمّ في نحو قوله : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ﴾ [المائدة : 50] ﴿ ولا تَبَرّجْنَ تَبَرّجَ الجاهليّة الأولى ﴾ [الأحزاب : 33] ﴿ إذ جعل الّذين كفروا في قلوبهم الحَمِيَّة حَمِيَّة الجَاهلية ﴾ [الفتح : 26] .

وقال ابن عبّاس : سمعت أبي في الجاهلية يقول : اسقنا كأساً دِهاقاً ، وفي حديث حكيم بن حِزام : أنّه سأل النّبيء صلى الله عليه وسلم عن أشياء كان يتحنّث بها في الجاهلية من صدقة وعتاقة وصلة رحم .

وقالوا : شعر الجاهلية ، وأيّامُ الجاهلية .

ولم يسمع ذلك كُلّه إلاّ بعد نزول القرآن وفي كلام المسلمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 258 . 259 ﴾

فصل

قال الفخر :

في قوله : ﴿ ظَنَّ الجاهلية ﴾ قولان :

أحدهما : أنه كقولك : حاتم الجود ، وعمر العدل ، يريد الظن المختص بالملة الجاهلية ، والثاني : المراد ظن أهل الجاهلية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 39 ﴾

فصل

قال الثعالبى :

وقد وردَتْ أحاديثُ صِحَاحٌ في الترغيبِ في حُسْنِ الظَّنِّ باللَّه عزَّ وجلَّ ، ففي "صحيح مُسْلِم" ، وغيره ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم حاكِياً عن اللَّه عزَّ وجلَّ يقولُ سبْحَانه : " أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي . . . " الحديثَ ، وقال ابْنُ مَسْعود : واللَّه الَّذِي لاَ إله غيره ، لا يُحْسِنُ أَحَدٌ الظنَّ باللَّه عزَّ وجلَّ إلا أعطاه اللَّهُ ظنَّه ، وذلك أنَّ الخَيْر بيده ، وخرَّج أبو بَكْرِ بْنُ الخَطِيب بسنده ، عن أَنَسٍ ؛ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : " مِنْ حُسْنِ عِبَادَةِ المَرْءِ حُسْنُ ظَنِّهِ " . انتهى انتهى . اهـ ﴿الجواهر الحسان حـ 1 صـ 324﴾

(42/133)

قوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأمر مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ الأمر كُلَّهُ لِلَّهِ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن قوله ﴿هَل لَّنَا مِنَ الأمر مِن شَىْءٍ﴾ حكاية للشبهة التي تمسك أهل النفاق بها ، وهو يحتمل وجوها :

الأول : أن عبد الله بن أبي لما شاوره النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الواقعة أشار عليه

بأن لا يخرج من المدينة ، ثم إن الصحابة ألحوا على النبي صلى الله عليه وسلم في أن يخرج إليهم ، فغضب عبد الله بن أبي من ذلك ، فقال عصاني وأطاع الولدان ، ثم لما كثر القتل في بني الخزرج ورجع عبد الله بن أبي قيل له : قتل بنو الخزرج ، فقال : هل لنا من الأمر من شيء ، يعني أن محمداً لم يقبل قولي حين أمرته بأن يسكن في المدينة ولا يخرج منها ، ونظيره ما حكاه الله عنهم أنهم قالوا : ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ [آل عمران : 168] والمعنى : هل لنا من أمر يطاع وهو استفهام على سبيل الانكار .

الوجه الثاني في التأويل : أن من عادة العرب أنه إذا كانت الدولة لعدوه قالوا : عليه الأمر ، فقوله : ﴿ هَل لَّنَا مِنَ الأمر مِن شَىْءٍ ﴾ أي هل لنا من الشيء الذي كان يعدنا به محمد ، وهو النصرة والقوة شيء وهذا استفهام على سبيل الانكار ، وكان غرضهم منه الاستدلال بذلك على أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان كاذباً في ادعاء النصرة والعصمة من الله تعالى لأمته ، وهذا استفهام على سبيل الإنكار .

الثالث : أن يكون التقدير : أنطمع أن تكون لنا الغلبة على هؤلاء ، والغرض منه تصبير المسلمين في التشديد في الجهاد والحرب مع الكفار ، ثم إن الله سبحانه أجاب عن هذه الشبهة بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ الأمر كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 39 ﴾

قال الآلوسي :

﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأمرِ مِن شَيْء ﴾ أي يقول بعضهم لبعض على سبيل الإنكار : هل لنا من النصر والفتح والظفر نصيب أي ليس لنا من ذلك شيء لأن الله سبحانه وتعالى لا ينصر محمداً صلى الله عليه وسلم ، أو يقول الحاضرون منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم على صورة الاسترشاد : هل لنا من أمر الله تعالى ووعده بالنصر شيء ، واختاره بعض المحققين . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعاني حـ 4 صـ 94. 95﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ أبو عمرو (كله) برفع اللام ، والباقون بالنصب ، أما وجه الرفع فهو أن قوله : (كله) مبتدأ وقوله : (لله) خبره ، ثم صارت هذه الجملة خبراً لإن ، وأما النصب فلأن لفظة "كل" للتأكيد ، فكانت كلفظة أجمع ، ولو قيل : إن الأمر أجمع ، لم يكن إلا النصب ، فكذا إذا قال "كله" . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 39﴾

وقال الطبري :

واختلفت القراء في قراءة ذلك .

فقرأته عامة قرأة الحجاز والعراق : (قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ) ، بنصب "الكل" على وجه النعت

لـ"الأمر" والصفة له.

وقرأه بعض قرأة أهل البصرة: (قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلُّهُ لِلَّهِ) برفع "الكل"، على توجيه "الكل" إلى أنه اسم، وقوله "لله" خبره، كقول القائل: "إن الأمر بعضه لعبد الله.

وقد يجوز أن يكون "الكل" في قراءة من قرأه بالنصب، منصوبًا على البدل.

قال أبو جعفر: والقراءة التي هي القراءة عندنا، النصبُ في "الكل" لإجماع أكثر القرأة عليه، من غير أن تكون القراءة الأخرى خطأ في معنى أو عربية. ولو كانت القراءة بالرفع في ذلك مستفيضة في القرأة، لكانت سواءً عندي القراءةُ بأيِّ ذلك قرئ، لاتفاق معاني ذلك بأيَ وجهيه قرئ. انتهى. اهـ ﴿تفسير الطبرى حـ 7 صـ 323.324﴾

قال أبو حيان:

قال ابن عطية: ورجح الناس قراءة الجمهور، لأن التأكيد أملك بلفظة كلّ انتهى.

(44/133)

ولا ترجيح، إذ كل من القراءتين متواتر، والابتداء بكل كثير في لسان العرب. انتهى انتهى.

اهـ ﴿البحر المحيط حـ 3 صـ 96.95﴾

فصل

قال الفخر :

الوجه في تقرير هذا الجواب ما بينا : أنا إذا قلنا بمذهب أهل السنة لم يكن على الله اعتراض في شيء من أفعاله في الإماتة والإحياء ، والفقر والإغناء والسراء والضراء ، وإن قلنا بمذهب القائلين برعاية المصالح ، فوجوه المصالح مخفية لا يعلمها إلا الله تعالى ، فربما كانت المصلحة في إيصال السرور واللذة ، وربما كانت في تسليط الأحزان والآلام ، فقد اندفعت شبهة المنافقين من هذا الوجه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 39 ﴾

فصل

قال الفخر :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أن جميع المحدثات بقضاء الله وقدره ، وذلك لأن المنافقين قالوا : إن محمدا لو قبل منا رأينا ونصحنا ، لما وقع في هذه المحنة ، فأجاب الله عنه بأن الأمر كله لله ، وهذا الجواب : إنما ينتظم لو كانت أفعال العباد بقضاء الله وقدره ومشيئته إذ لو كانت خارجة عن مشيئته لم يكن هذا الجواب دافعا لشبهة المنافقين ، فثبت أن هذه الآية دالة على ما ذكرنا .

وأيضا فظاهر هذه الآية مطابق للبرهان العقلي ، وذلك لأن الموجود ، إما واجب لذاته أو ممكن لذاته ، والممكن لذاته لا يترجح وجوده على عدمه إلا عند الانتهاء إلى الواجب لذاته ، فثبت أن كل ما سوى الله تعالى مستند إلى إيجاده وتكوينه ، وهذه القاعدة لا اختصاص

لها بمحدث دون محدث ، أو ممكن دون ممكن ، فتدخل فيه أفعال العباد وحركاتهم وسكناتهم ، وذلك هو المراد بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ الأمر كُلَّهُ للَّهِ ﴾ وهذا كلام في غاية الظهور لمن وفقه الله للإنصاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 39 . 40 ﴾

قوله تعالى : ﴿ يُخْفُونَ فِى أَنْفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ ﴾

قال الفخر :

(45/133)

اعلم أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا : ﴿ هل لنا من الأمر من شيء ﴾ ، وهذا الكلام محتمل ، فلعل قائله كان من المؤمنين المحقين ، وكان غرضه منه إظهار الشفقة ، وأنه متى يكون الفرج ؟ ومن أين تحصل النصرة ؟ ولعله كان من المنافقين ، وإنما قاله طعنا في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفي الإسلام فبين تعالى في هذه الآية أن غرض هؤلاء من هذا الكلام هذا القسم الثاني ، والفائدة في هذا التنبيه أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم متحرزا عن مكرهم وكيدهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 40 ﴾

قوله تعالى ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾

إشكال وجوابه

قال الفخر :

قولهم : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا .

وفيه إشكال ، وهو أن لقائل أن يقول : ما الفرق بين هذا الكلام وبين ما تقدم من قوله :

﴿ هَل لَّنَا مِنَ الأمر مِن شَىْء ﴾ ويمكن أن يجاب عنه من وجهين :

الأول : أنه تعالى لما حكى عنهم قولهم : ﴿ هَل لَّنَا مِنَ الأمر مِن شَىْء ﴾ فأجاب عنه بقوله : ﴿ الأمر كُلَّهُ للَّهِ ﴾

واحتج المنافقون على الطعن في هذا الجواب بقولهم : لو كان لنا من الأمر شيء لما خرجنا من المدينة وما قتلنا ههنا ، فهذا يدل على أنه ليس الأمر كما قلتم من أن الأمر كله لله ، وهذا هو بعينه المناظرة الدائرة بين أهل السنة وأهل الاعتزال فإن السني يقول : الأمر كله في الطاعة والمعصية والإيمان والكفر بيد الله ، فيقول المعتزلي : ليس الأمر كذلك ، فإن الإنسان مختار مستقل بالفعل ، إن شاء آمن ، وإن شاء كفر ، فعلى هذا الوجه لا يكون هذا الكلام شبهة مستقلة بنفسها ، بل يكون الغرض منه الطعن فيما جعله الله تعالى جوابا عن الشبهة الأولى .

والوجه الثاني : أن يكون المراد من قوله ﴿ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ﴾ هو أنه هل لنا من النصرة التي وعدنا بها محمد شيء ويكون المراد من قوله ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾ هو ما كان يقوله عبد الله بن أبي من أن محمدا لو أطاعني وما خرج من المدينة ما قتلنا ههنا

واعلم أنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة من ثلاثة أوجه

الوجه الأول من الجواب قوله قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ والمعنى أن الحذر لا يدفع القدر والتدبير لا يقاوم التقدير فالذين قدر الله عليهم القتل لا بد وأن يقتلوا على جميع التقديرات لأن الله تعالى لما أخبر أنه يقتل فلو لم يقتل لانقلب علمه جهلا وقد بينا أيضا أنه ممكن فلا بد من انتهائه الى إيجاد الله تعالى فلو لم يجد لانقلبت قدرته عجزا وكل ذلك محال ومما يدل على تحقيق الوجوب كما قررنا قول الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ وهذه الكلمة تفيد الوجوب فان هذه الكلمة في قوله ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ ﴾ (البقرة 178) تفيد وجوب الفعل وههنا لا يمكن حملها على وجوب الفعل فوجب حملها على وجوب الوجود وهذا كلام في غاية الظهور لمن أيده الله بالتوفيق ثم نقول للمفسرين فيه قولان

الأول لو جلستم في بيوتكم لخرج منكم من كتب الله عليهم القتل الى مضاجعهم ومصارعهم حتى يوجد ما علم الله أنه يوجد والثاني كأنه قيل للمنافقين لو جلستم في بيوتكم وتخلفتم

عن الجهاد لخرج المؤمنون الذين كتب عليهم قتال الكفار الى مضاجعهم ولم يتخلفوا عن هذه الطاعة بسبب تخلفكم

(47/133)

الوجه الثاني في الجواب عن تلك الشبهة قوله ﴿ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ ﴾ وذلك لأن القوم زعموا أن الخروج إلى تلك المقاتلة كان مفسدة ولو كان الأمر إليهم لما خرجوا إليها فقال تعالى بل هذه المقاتلة مشتملة على نوعين من المصلحة أن يتميز الموافق من المنافق وفي المثل المشهور لا تكرهوا الفتن فانها حصاد المنافقين ومعنى الابتلاء في حق الله تعالى قد مر تفسيره مرارا كثيرة

فإن قيل لم ذكر الابتلاء وقد سبق ذكره في قوله ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ (آل عمران 152) ﴾ ؟

قلنا لما طال الكلام أعاد ذكره وقيل الابتلاء الأول هزيمة المؤمنين والثاني سائر الأحوال

والوجه الثالث في الجواب قوله ﴿ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ﴾

وفيه وجهان

أحدهما أن هذه الواقعة تمحص قلوبكم عن الوساوس والشبهات

والثاني أنها تصير كفارة لذنوبكم فتمحصكم عن تبعات المعاصي والسيئات وذكر في الابتلاء الصدور وفي التمحيص القلوب. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 41.40﴾

وقال الآلوسى:

﴿ وَلِيَبْتَلِىَ اللهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ ﴾ أي ليختبر الله تعالى ما في صدوركم بأعمالكم فإنه قد علمه غيباً ويريد أن يعلمه شهادة لتقع المجازاة عليه قاله الزجاج، أو ليعاملكم معاملة المبتلي الممتحن قاله غير واحد، وهو خطاب للمؤمنين واللام للتعليل ومدخولها علة لفعل مقدر قبل مطوف على علل أخرى مطوية للإيذان بكثرتها كأنه قيل فعل ما فعل لمصالح جمة وليبتلي الخ أو لفعل مقدر بعد أي وللابتلاء المذكور فعل ما فعل لا لعدم العناية بشأن أوليائه وأنصار نبيه صلى الله عليه وسلم مثلاً.

(48/133)

والعطف على هذا عند بعض المحققين على قوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ عَلَيْكُم ﴾ والفصل بينهما مغتفر لأن الفاصل من متعلقات المعطوف عليه لفظاً أو معنى، وقيل: إنه لا حذف في الكلام وإنما هو معطوف على قوله تعالى: ﴿ لّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ ﴾ [آل عمران: 153]

أي أثابكم بالغم لأمرين عدم الحزن والابتلاء ، واستبعد بأن توسط تلك الأمور محتاج إلى نكتة حينئذٍ ، وهي غير ظاهرة ، وأبعد منه بل لا يكاد يقبل العطف على قوله تعالى : ﴿ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ [آل عمران : 152] أي صرفكم عنهم ليبتليكم وليبتلي ما في صدوركم ، وجعله بعضهم معطوفاً على علة محذوفة وكلتا العلتين ﴿ لَبَرَزَ الذين ﴾ كأنه قيل لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم لنفاذ القضاء أو لمصالح جمة وللابتلاء .

واعترض بأن الذوق السليم يأباه فإن مقتضى المقام بيان حكمة ما وقع يومئذٍ من الشدة والهول لا بيان حكمة البروز المفروض ، وإنما جعل الخطاب للمؤمنين لأنهم المعتدّ بهم ولأن إظهار حالهم مظهر لغيرهم .

وقيل : إنه لهم وللمنافقين أي ليبتلي ما في سرائركم من الإخلاص والنفاق ، وقيل : للمنافقين خاصة لأن سوق الآية لهم .

(49/133)

وظاهر قوله تعالى : ﴿ وَلِيُمَحّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ أي ليخلص ما فيها من الاعتقاد من الوسواس ، يرجح الأول : لأن المنافقين لا اعتقاد لهم ليمحص من الوساوس ويخلص منها ، ولعل القائلين بكون الخطاب للمنافقين فقط أو مع المؤمنين يفسرون التمحيص بالكشف

والتمييز أي ليكشف ما في قلوبكم من مخفيات الأمور أو النفاق ويميزها ، إلا أن حمل التمحيص على هذا المعنى يجعل هذه الجملة كالتأكيد لما قبلها وإنما عبر بالقلوب هنا كما قيل : لأن التمحيص متعلق بالاعتقاد على ما أشرنا إليه وقد شاع استعمال القلب مع ذلك فيقال : اعتقد بقلبه ولا تكاد تسمعهم يقولون اعتقد بصدره أو آمن بصدره ، وفي القرآن ﴿ أُوْلَٰئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإيمان ﴾ [المجادلة : 22] وليس فيه كتب في صدورهم الإيمان ، نعم يذكر الصدر مع الإسلام كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ الله صَدْرَهُ للإسلام ﴾ [الزمر : 22] ومن هنا قال بعض السادات : القلب مقر الإيمان ، والصدر محل الإسلام ، والفؤاد مشرق المشاهدة ، واللب مقام التوحيد الحقيقي ، ولعل الآية على هذا تؤول إلى قولنا ليبتلي إسلامكم وليمحص إيمانكم ، وربما يقال عبر بذلك مع التعبير فيما قبل بالصدور للتفنن بناءاً على أن المراد بالجمعين واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 97.98 ﴾

فائدة

قال القرطبى :

﴿ الذين كُتِبَ ﴾ أي فرض .

﴿ عَلَيْهِمُ القتل ﴾ يعني في اللوح المحفوظ.

﴿ إلى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ أي مصارعهم .

وقيل : ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ ﴾ أي فرض عليهم القتال ، فعبّر عنه بالقتل ؛ لأنه قد يؤول إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 4 صـ 243 ﴾

فصل

قال ابن عاشور :

﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الذين كُتِبَ عَلَيْهِمُ القتل إلى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ .

(50/133)

لقن الله رسوله الجواب عن قولهم : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا .

والجواب إبطال لقولهم ، وتعليم للمؤمنين لدفع ما عسى أن يقع في نفوسهم من الريب ، إذا سمعوا كلام المنافقين ، أو هو جواب للمنافقين ويحصل به علم للمؤمنين .

وفُصلت الجملة جرياً على حكاية المقاولة كما قرّرنا غير مرّة .

وهذا الجواب جار على الحقيقة وهي جريان الأشياء على قَدر من الله والتسليمِ لذلك بعد استفراغ الجهد في مصادفة المأمول ، فليس هذا الجواب ونظائره بمقتض ترك الأسباب ، لأنّ قدر الله تعالى وقضاءه غير معلومَين لنا إلاّ بعد الوقوع ، فنحن مأمورون بالسعي فيما عساه أن يكون كاشفاً عن مصادفة قدر الله لمأمولنا ، فإن استفرغنا جهودنا وحُرمنا

المأمول ، علمنا أنّ قدر الله جرى من قبل على خلاف مرادنا .

فأمّا ترك الأسباب فليس من شأننا ، وهو مخالف لما أراد الله منّا ، وإعراض عمّا أقامنا الله فيه في هذا العالم وهو تحريف لمعنى القدَر .

والمعنى : لو لم تكونوا ههنا وكنتم في بيوتكم لخرج الَّذين كتب الله عليهم أن يموتوا مقتولين فقتلوا في مضاجعهم الَّتي اضطجعوا فيها يوم أُحُد أي مصارعهم فالمراد بقوله : ﴿ كتب ﴾ قدّر ، ومعنى ﴿ برز ﴾ خرج إلى البراز وهو الأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 260 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾ هذا النوع عند علماء البيان يسمى الاحتجاج النظري : وهو أن يذكر المتكلم معنى يستدلّ عليه بضروب من المعقول نحو : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ﴾ ﴿ أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر ﴾ وبعضهم يسميه : المذهب الكلامي .

ومنه قول الشاعر :

جرى القضاء بما فيه فإن تلم . . .

فلا ملام على ما خط بالقلم

وكتب : بمعنى فرض ، أو قضى وحتم ، أو خط في اللوح ، أو كتب ذلك الملك عليهم وهم أجنة ، أقوال .

ومعنى الآية : أنه لو تخلفتم في البيوت لخرج من حتم عليه القتل إلى مكان مصرعه فقتل فيه ، وهذا رد على قول معتب ، ودليل على أن كل امرىء له أجل واحد لا يتعداه .

فإنْ قيل : فهو الأجل الذي سبق له في الأزل وإلاّ مات لذلك الأجل ، ولا فرق بين موته وخروج روحه بالقتل ، أو بأي أسباب المرض ، أو فجاءه من غير مرض هو أجل واحد لكل امرىء وإن تعددت الأسباب .

وقد تكلم الزمخشري هنا بألفاظ مسهبة على عادته .

فقال : لو كنتم في بيوتكم يعني من علم الله أنه يقتل ويصرع في هذه المصارع وكتب ذلك في اللوح المحفوظ ، لم يكن بد من وجوده .

فلو قعدتم في بيوتكم لبرز من بينكم الذين علم الله أنهم يقتلون إلى مضاجعهم وهي مصارعهم ، ليكون ما علم أنه يكون .

والمعنى : أن الله كتب في اللوح قتل من يقتل من المؤمنين ، وكتب مع ذلك أنهم الغالبون لعلمه

أن العاقبة في الغلبة لهم ، وأن دين الإسلام يظهر على الدين كله .

وإنما ينكبون به في بعض الأوقات .

تمحيص لهم ، وترغيب في الشهادة ، وحرصهم على الشهادة مما يحرضهم على الجهاد

فتحصل الغلبة .

انتهى كلامه .

وهو نوع من الخطابة والمعنى في الآية واضح جداً لا يحتاج إلى هذا التطويل . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ البحر المحيط حـ 3 صـ 96. 97 ﴾

سؤال : فإن قيل : قد سبق ذِكْرُ الابتلاء في قوله : ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ [آل

عمران : 152] فلم أعادَه ؟

فالجواب : أنه أعادهُ ؛ لطول الكلام بينهما ، ولأن الابتلاء الأول هزيمة المؤمنين ، والابتلاء

الثاني سائر الأحوال .

فإن قيل : قوله : ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ ﴾ المرادُ منه القلب ؛ لقوله : ﴿ القلوب

التي فِي الصدور ﴾ [الحج : 46] فجعل متعلق الابتلاء ما انطوى عليه الصَّدْرُ – وهو ما

في القلب من النِّيَّةِ – وجعل متعلق التمحيص ما في القلب – وهو النيات والعقائد – فلم خالف بين اللفظين في المتعلِّق ؟

فالجوابُ : أنه لما اختلف المتعلَّقان حسنَ اختلافُ لفظَيْهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 6 صـ 619 ﴾ .

لطيفة

قال ابن عاشور :

والتمحيص تخليص الشيء ممّا يخالطه ممّا فيه عيب له فهو كالتزكية .

والقلوب هنا بمعنى العقائد ، ومعنى تمحيص ما فيه قلوبهم تطهيرها ممَّا يخامرها من الريب حين سماع شُبه المنافقين الّتي يبثُّونها بينهم .

وأطلق الصدور على الضّمائر لأنّ الصدر في كلام العرب يطلق على الإحساس الباطني ، وفي الحديث : " الإثم ما حاك في الصّدر " وأطلق القلب على الاعتقاد لأنّ القلب في لسان العرب هو ما به يحصّل التفكّر والاعتقاد .

وعُدّي إلى الصّدور فعل الابتلاء لأنَّه اختبار الأخلاق والضّمائر : ما فيها من خير وشَرّ ، وليتميّز ما في النفس .

وَعُدّيَ إلى القلوب فعل التمحيص لأنّ الظنون والعقائد محتاجة إلى التمحيص لتكون مصدر كلّ خير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 3 صـ 261 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

قال الفخر :

واعلم أن ذات الصدور هي الأشياء الموجودة في الصدور وهي الأسرار والضمائر وهي ذات الصدور لأنها حالة فيها مصاحبة لها وصاحب الشيء ذوه وصاحبته ذاته وإنما ذكر ذلك ليدل به على أن ابتلاءه لم يكن لأنه يخفي عليه ما في الصدور أو غير ذلك لأنه عالم بجميع المعلومات وإنما ابتلاهم اما لمحض الالهية أو للاستصلاح. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 9 صـ 41 ﴾

(53/133)

وقال الآلوسى :

﴿ والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ أي بما في القلوب التي في الصدور من الضمائر الخفية ووصفت بذلك لأنها لتمكنها من الصدور جعلت كأنها مالكة لها فذات بمعنى صاحبة لا بمعنى ذات الشيء ونفسه، وفي الآية وعد ووعيد أو أحدهما فقط على الخلاف في الخطاب وفيها تنبيه على أن الله تعالى غني عن الابتلاء وإنما يبرز صورة الابتلاء لحكم يعلمها كتمرين المؤمنين أو إظهار حال المنافقين، واختار الصدور ههنا لأن الابتلاء الغني

عنه سبحانه كان متعلقاً بما فيها والتمحيص على المعنى الأول تصفية وتطهير وليس ذلك مما تشعر به هذه الجملة بأنه سبحانه غني عنه وإنما فعله لحكمة ، نعم إذا أريد به الكشف والتمييز يصح أن يقال : إن هذه الجملة مشعرة بأنه تعالى غني أيضاً .

ومن هنا جوّز بعض المحققين كونها حالاً من متعلق الفعلين أي فعل ما فعل للابتلاء والكشف ، والحال أنه تعالى غني عنهما محيط بخفيات الأمور إلا أنه لا يظهر حينئذٍ سر التعبير عن الأسرار والخفيات بذات الصدور دون ذات القلوب مع أن التعبير الثاني أولى بها لأن القلوب محلها بلا واسطة ومحلية الصدور لها بحسب الظاهر بواسطة القلوب اللهم إلا أن يقال : إن ذات الصدور بمعنى الأشياء التي لا تكاد تفارق الصدور لكونها حالة فيها بل تلازمها وتصاحبها أشمل من ذات القلوب لصدق الأولى على الأسرار التي في القلوب وعلى القلوب أنفسها لأن كلاً من هذين الأمرين ملازم للصدور باعتبار كونه حالاً فيها دون الثانية لأنك لا تصدق إلا على الأسرار لأنها الحالة فيها دون الصدور فحينئذٍ يمكن أن يراد من ذات الصدور هذا المعنى الشامل ويكون التعبير بها لذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 4 صـ 98 ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور ﴾ بخفياتها قبل إظهارها ، وفيه وعد ووعيد وتنبيه على

أنه غني عن الابتلاء وإنما فعل ذلك لتمرين المؤمنين وإظهار حال المنافقين . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 106 ﴾

(54/133)

من فوائد أبى السعود فى الآية

قال رحمه الله :

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الأمر كُلَّهُ للَّهِ ﴾ أي إن الغلبةَ بالآخرة لله تعالى ولأوليائه فإن حزبَ الله هم الغالبون أو إن التدبيرَ كلَّه لله فإنه تعالى قد دبر الأمرَ كما جرى في سابق قضائِه فلا مردَّ له وقرىء كلُّه بالرفع على الابتداء وقوله تعالى : ﴿ يُخْفُونَ فِى أَنْفُسِهِم ﴾ أي يُضمرون فيها أو يقولون فيما بينهم بطريق الخُفية ﴿ مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ ﴾ استئنافٌ أو حال من ضمير يقولون وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الأمر ﴾ الخ ، اعتراضٌ بين الحال وصاحبها أي يقولون ما يقولون مُظْهِرين أنهم مسترشِدون طالبون للنصر مُبْطنين الإنكارَ والتكذيبَ ، وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ ﴾ استئنافٌ وقع جواباً عن سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل : أيَّ شيء يخفون ؟ فقيل : يحدثون أنفسَهم أو يقول بعضُهم لبعض فيما بينهم خُفيةً : ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأمر شَىْء ﴾ كما وعد محمد عليه الصلاة والسلام من أن الغلبةَ لله تعالى ولأوليائه وأن

الأمرَ كلَّه لله أو لو كان لنا من التدبير والرأيِّ شيءٌ ﴿ مَّا قُتِلْنَا هاهنا ﴾ أي ما غُلبنا أو ما قُتل مَنْ قُتل منا في هذه المعركةِ على أن النفيَ راجعٌ إلى نفس القتلِ لا إلا وقوعه فيها فقط، ولما برحنا من منازلنا كما رآه ابنُ أُبي ويؤيده تعيينُ مكانِ القتلِ وكذا قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ ﴾ أي لو لم تخرُجوا إلى أُحُد وقعدتم بالمدينة كما تقولون ﴿ لَبَرَزَ الذين كُتِبَ عَلَيْهِمُ القتل ﴾ أي في اللوح المحفوظِ بسبب من الأسباب الداعيةِ إلى البروز ﴿ إلى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ إلى مصارعهم التي قدَّر الله تعالى قتلَهم فيها وقُتلوا هنالك ألبتةَ ولم تنفعِ العزيمةُ على الإقامة بالمدينة قطعاً، فإن قضاءَ الله تعالى لا يُرَدّ وحكمُه لا يُعقَّب، وفيه مبالغةٌ في رد

مقالتِهم الباطلةِ حيث لم يُقتَصرْ على تحقيق نفسِ القتلِ كما في قوله عز وجل: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الموت ﴾ بل عُيِّن مكانُه أيضاً، ولا ريب في تعيُّن زمانِه أيضاً لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

رُوي أن ملك الموتِ حضر مجلسَ سليمانَ عليه الصلاة والسلام فنظر إلى رجل من أهل المجلسِ نَظرةً هائلة فلما قام قال الرجلُ: من هذا ؟ فقال سليمانُ عليه السلام: ملكُ الموتِ

، قال : أرسِلْني مع الريح إلى عالمٍ آخَرَ فإني رأيتُ منه مرأىً هائلاً فأمرها عليه السلام فألقتْه في قُطرٍ سحيقٍ من أقطار العالم فما لبث أن عاد ملكُ الموتِ إلى سليمانَ عليه السلام فقال : كنت أُمِرْتُ بقبض روحِ ذلك الرجلِ في هذه الساعةِ في أرض كذا فلما وجدتُه في مجلسك قلت : متى يصِلُ هذا إليها وقد أرسلتَه بالريح إلى ذلك المكانِ فوجدتُه هناك (1)

---

(1) نص الحديث عن شهر بن حوشب قال دخل ملك الموت على سليمان . عليهما السلام . فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم إليه النظر فلما خرج قال الرجل من هذا ؟ قال : هذا ملك الموت . عليه السلام . قال لقد رأيته ينظر إلي فكأنه يريدني قال فما تريد ؟ قال أريد أن تحملني على الريح فتلقيني بالهند قال فدعا بالريح فحمله عليها فألقته بالهند ثم أتى ملك الموت سليمان . عليه السلام . فقال : إنك كنت تديم النظر إلى رجل من جلسائي قال كنت أعجب منه إني أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حلية الأولياء جـ 4 صـ 118 ﴾

(56/133)

فقُضي أمرُ الله عز وجل في زمانه ومكانِه من غير إخلالٍ بشيء من ذلك ، وقرىء كَتَبَ على البناء للفاعل ونصبِ القتلَ ، وقرىء كُتب عليهم القتالُ وقرىء لُبرِّز بالتشديد على

البناء للمفعول ﴿ وَلِيَبْتَلِىَ اللهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ ﴾ أي ليعاملكم معاملةَ مَنْ يبتلي ما في صدوركم من الإخلاص والنفاقِ ويُظهرَ ما فيها من السرائر ، وهو علةٌ لفعل مقدرٍ قبلها معطوفةٌ على علل لها أخرى مطويةٍ للإيذان بكثرتها ، كأنه قيل : فعلَ ما فعل لمصالحَ جمةٍ وليبتليَ الخ ، وجعلُها عِللاً لبرز يأباه الذوق السليمُ فإن مقتضى المقامِ بيانُ حكمةِ ما وقع يومئذ من الشدة والهولِ لا بيانُ حِكمةِ البروزِ المفروضِ ، أو لفعلٍ مقدرٍ بعدها أي وللابتلاء المذكورِ فعلَ ما فعل ، لا لعدم العنايةِ بأمر المؤمنين ونحو ذلك ، وتقديرُ الفعل مقدماً خالٍ عن هذه المزية .

﴿ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ من مخفيات الأمورِ ويكشِفَها أو يُخلّصَها من الوساوس ﴿ والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ أي السرائر والضمائرِ الخفيةِ التي لا تكاد تفارقُ الصدورَ بل تلازمها وتصاحبُها ، والجملة إما اعتراضٌ للتنبيه على أن الله تعالى غنيٌ عن الابتلاء ، وإنما يُبرِز صورةَ الابتلاءِ لتمرين المؤمنين وإظهارِ حالِ المنافقين ، أو حالٌ من متعلَّق الفعلين أي فَعلَ ما فَعل للابتلاء والتمحيصِ والحال أنه تعالى غنيٌ عنهما مُحيطٌ بخفيات الأمورِ ، وفيه وعدٌ ووعيد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 2 صـ 101 . 102 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

فى نصب أمنةً أربعة أوجه :

الأول : أنها مفعول " أُنْزَلَ " .

الثاني : أها حال من " نُعَاساً " لأنها في الأصل - صفةٌ ، فلما قُدِّمَتْ نُصِبت حالاً .

(57/133)

الثالث : أنها مفعولٌ من أجْله ، وهو فاسدٌ ؛ لاختلال شَرْطِهِ - وهو اتحادُ الفاعلِ - فإنّ فاعل " أُنْزَلَ " غير فاعلِ الأمَنَة .

الرابع : أنه حالٌ من المخاطبين في " عَلَيْكُمْ " وفيه حينئذٍ - تأويلان :

إما على حَذْف مضافٍ - أى ذوى أمَنَةٍ - وإما أن يكون " أمَنَةً " جمع آمن ، نحو بار وبَرَرَة ، وكافر وكَفَرَة .

وأما " نُعَاساً " فإن أعْرَبْنا " أمَنَةً " مفعولاً به كان بدلاً ، وهو بدل اشتمالٍ ؛ لأن كُلاًّ من الأمَنَةِ والنُّعَاسِ يشتمل على الآخر ، أو عطف بيان عند غير الجمهور ؛ فإنهم لا يشترطون جريانه في المعارفِ ، أو مفعولاً من أجلِه ، وهو فاسدٌ ؛ لما تقدم وإن أعربنا " أمَنَةً " حالاً ، كان " نُعَاساً " مفعولاً بـ " أنزلَ " و " أُنْزَلَ " عطف على " فأثَابَكُمْ " وفاعله ضمير الله تعَالى ، و " أل " في " الغَمِّ " للعهد ؛ لتقدُّم ذِكْره ورد أبو حيان على الزمخشريّ كون " أمَنَةً " مفعولاً به بما تقدم ، وفيه نظرٌ ، فإن الزمخشريَّ قال أو مفعولاً له بمعنى نعستم أمنة . فقدر له عاملاً

يتحد فاعله مع فاعل " أَمَنَةً " فكأنه استشعر السؤال ، فلذلك قدرَ عاملاً على أنه قد يُقال : إن الأَمَنَةَ من اللهِ تَعَالَى ، بمعنى أنهُ أوقعها بهم ، كأنه قيل : أنزلَ عليكم النعاس لِيُؤَمِّنَكُمْ به .

و" أَمَنَةً " كما يكون مصدراً لمن وقع به الأمن يكون مصدراً لمن أُوقِع به .

وقرأ الجمهور : أَمَنَةً - بفتح الميم - إما مصدراً بمعنى الأمن ، أو جمع آمن ، على ما تقدم تفصيله . والنَّخَعِيُّ وابن محيصن - بسكون الميم وهو مصدرٌ فقط ، والأَمْن والأَمَنة بمعنًى واحدٍ ، وقيل الأمْنُ يكون مع زوالِ سببِ الخَوفِ ، والأَمَنة مع بقاء سببِ الخوفِ .

(58/133)

قوله : ﴿ يغشى ﴾ قراءة حمزة والكسائي بالتاء من فوق ، والباقون بالياء ؛ ردًّا إلى النُّعَاسِ ، وخرَّجوا قراءة حمزة والكسائي على أنها صفة لـ " امَنَةً " ؛ مراعاة لها ، ولا بُدّ من تفصيل ، وهو إن أعربوا " نُعَاساً " بدلاً ، أو عَطْفَ بيان ، أشكل قولهم من وَجْهَيْن :

الأول : أن النُّحاة نَصُّوا على أنه إذا اجتمع الصفة والبدل أو عَطْفُ البيانِ ، قدّمت الصفة ، وأخر غيرها ، وهنا قد قدَّموا البدلَ ، أو عطف البيانِ عليها .

الثاني : أن المعروفَ في لغة العرب أن يُحدَّث عن البدل ، لا عن المبدَل منه ، تقول : هِنْد

حُسْنُها فاتِنٌ ، ولا يجوز فاتنة – إلا قليلاً – فَجَعْلُهم " نُعَاساً " بدلاً من " أَمَنَةً " يضعف لهذا .

فإن قيل : قد جاء مراعاة المبدَل منه في قول الشاعر : [الكامل]

وكَأَنَّهُ لَهِقُ السَّرَاةِ كَأَنَّهُ . . . مَا حَاجِبَيْهِ مُعَيَّنٌ بِسَوَادِ

فقال : " مُعَيَّنٌ " ؛ مراعاة للهاء في " كأنه " ولم يُرَاعِ البدل – حاجبيه – ومثله قول الآخر : [الكامل]

إنَّ السُّيُوفَ غُدُوَّهَا ورَوَاحهَا . . . تَرَكَتْ هَوَازِنَ مِثْلَ قَرْنِ الأعضَبِ

فقال : تركت ؛ مراعاة للسيوف ، ولو راعى البدل لقال : تركا .

فالجوابُ : أنَّ هذا – وإن كان قد قَالَ به بعضُ النحويينَ ؛ مستنداً إلى هذين البيتين – مُؤوَّلٌ بأن " معين " خبرٌ لـ " حاجبيه " لجريانهما مَجْرَى الشيء الواحدِ في كلام الْعَرَبِ ، وأنَّ نصب " غُدُوَّهَا ورَوَاحهَا " على الظرف ، لا على البدل . وقد تقدم شيء من هذا عند قوله : ﴿ عَلَى الملكين بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ [البقرة : 102] .

وإن أعربوا " نُعَاساً " مفعولاً به و" أمَنَةً " حالٌ يلزم الفصل - أيضاً - وفي جوازه نظر ،

والأحسنُ - حينئذٍ - أن تكون هذه جملة استئنافية جواباً لسؤال مقدَّر ، كأنه قيل : ما

حكم هذه الأَمَنَة ؟ فأخبر بقوله : " تغشى " .

ومن قرأ بالياء أعاد الضمير على " نُعَاساً " وتكون الجملة صفة له ، و" مِنْكُمْ " متعلق

بمحذوف ، صفة لـ " طَائِفَةً " .

قوله : ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ في هذه الواو ثلاثة أوجهٍ :

الأول : أنها واو الحالِ ، وما بعدها في محل نَصْبٍ على الحال ، والعامل فيها "يَغْشَى" .

الثاني : أنها واو الاستئناف ، وهي التي عبر عناه مَكيٌّ بواو الابتداء .

الثالث : أنها بمعنى " إذْ " ذكره مَكي ، وأبو البقاءِ ، وهو ضعيفٌ .

و" طائفة " مبتدأ ، والخبر ﴿ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ وجاز الابتداء بالنكرة لأحدِ شيئين

: إما للاعتمادِ على واو الحالِ ، وقد عده بعضهم مسوغاً - وإن كان الأكثرُ لم يذكره- .

وأنشدوا : [الطويل]

سَرَيْنَا وَنَجْمٌ قَدْ أضَاءَ فَمُذْ بَدَا . . . مُحَيَّاكِ أخْفَى ضَوْءُهُ كُلَّ شَارِقِ

وإما لأن الموضعَ تفصيلٌ ؛ فإن المعنى : يغشى طائفةً ، وطائفة لم يغشهم .

فهو كقوله :

إذَا مَا بَكَى مِنْ خَلْفِهَا انْصَرَفَتْ لَهُ . . . بِشِقٍّ وَشِقٌّ عِنْدَنَا لَمْ يُحَوَّلِ

ولو قُرِئ بنصب " طَائِفَة " – على أن تكون المسألةُ من باب الاشتغالِ – لم يكن ممتنعاً إلا من جهة النقلِ ؛ فإنه لم يُحْفظ قراءة ، وفي خبر هذا المبتدأ أربعة أوجهٍ :

أحدها : أنه ﴿ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ كما تقدم .

الثاني : أنه "يَظُنُّونَ" والجملة قبله صفة لِ " طَائِفَة " .

(60/133)

الثالث : أنه محذوفٌ ، أي : ومنكم طائفة وهذا يُقَوّي أنَّ معناه التفصيل ، والجملتان صفة لِ " طَائِفَةٌ " أو يكون "يَظُنُّونَ" حالاً من مفعول "أَهَمَّتْهُمْ" أو من " طَائِفَةٌ " لتخصُّصه بالوَصْف ، أو خبراً بعد خبر إن قلنا : ﴿ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ ﴾ خر أول . وفيه من الخلاف ما تقدم .

الرابع : أن الخبر ﴿ يَقُولُونَ ﴾ والجملتان قبله على ما تقدّم من كونهما صفتين ، أو خبرين ، أو إحداهما خبر ، والأُخْرَى حالٌ .

ويجوز أن يكون ﴿ يَقُولُونَ ﴾ صفة أو حالاً – أيضاً – إن قلنا : إن الخبرَ هو الجملة التي قبله ، أو قلنا : إن الخبر مُضْمَرٌ .

قوله : ﴿ يَظُنُّونَ ﴾ له مفعولان ، فقال أبو البقاءِ : ﴿ غَيْرَ الحق ﴾ المفعولُ الأول ، أي

أمراً غير الحق ، و" بالله " هو المفعول الثاني .

وقال الزمخشريُّ : ﴿ غَيْرَ الحق ﴾ في حكم المصدر ، ومعناه : يظنون بالله غير الظن الحق الذي يجب أي يُظَنَّ به . و ﴿ ظَنَّ الجاهلية ﴾ بدل منه .

ويجوز أن يكون المعنى : يظنون بالله ظن الجاهلية و ﴿ غَيْرَ الحق ﴾ تأكيداً لِـ ﴿ يَظُنُّونَ ﴾ كقولك : هذا القول غير ما يقول .

فعلى ما قال لا يتعدى " ظن " إلى مفعولين ، بل تكون الباء ظرفية ، كقولك : ظننت بزيد ، أي : جعلته مكان ظني ، وعلى هذا المعنى حمل النحويون قولَ الشاعر : [الطويل]

فَقُلْتُ لَهُمْ : ظُنُّوا بِأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ . . . سَرَاتُهُمُ فِي الْفَارِسِيِّ الْمُسَرَّدِ

أي قلتُ لهم : اجعلوا ظنكم في الفي مُدَجَّجٍ .

ويحصل في نصب ﴿ غَيْرَ الحق ﴾ وجهان :

أحدهما : أنه مفعول أول لِـ "يَظُنُّونَ" .

والثاني : أنه مصدرٌ مؤكّدٌ للجملة التي قبله بالمعنيين اللذين ذكرهما الزمخشريُّ .

وفي نصب ﴿ ظَنَّ الجاهلية ﴾ وجهان – أيضاً – : البدل من ﴿ غَيْرَ الحق ﴾ أو أنه مصدر مؤكد لِـ ﴿ يَظُنُّونَ ﴾ .

و " بالله " إما متعلِّق بمحذوف على جَعله مفعولاً ثانياً ، وإما بفعل الظنِّ – على ما تقدم – وإضافة الظنِّ إلى الجاهلية ، قال الزمخشريُّ : "كقولك : حاتم الجود ، ورجل صدقٍ ، يريد : الظنَّ المختص بالملة الجاهلية ، ويجوز أن يراد ظن أهل الجاهلية " .

وقال غيره : المعنى : المدة الجاهلية ، أي : القديمة قبل الإسلامِ ، نحو ﴿ حَمِيَّةَ الجاهلية ﴾ [الفتح : 26]

قوله : ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأمر مِن شَيْءٍ ﴾ " من " – في ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ – زائدة في المبتدأ ، وفي الخبر وجهان :

أحدهما – وهو الأصحُّ – : أنه " لَنَا " فيكون ﴿ مِنَ الأمر ﴾ في محل نصبٍ على الحالِ من " شَيْءٍ " لأنه نعتُ نكرة ، قدم عليها ، فنصب حالاً ، وتعلق بمحذوفٍ .

الثاني : – أجازه أبو البقاء – أن يكون ﴿ مِنَ الأمر ﴾ هو الخبر ، و" لنا " تبيين ، وبه تتم الفائدةُ كقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 4] .

وهذا ليس بشيء ؛ لأنه إذا جعله للتبيين فحينئذٍ يتعلق بمحذوفٍ ، وإذا كان كذلك فيصير " لَنَا " من جملة أخرى ، فتبقى الجملةُ من المبتدأ والخبر غير مستقلةٍ بالفائدةِ ، وليس نظيراً لقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ فإن " لَهُ " فيها متعلق بنفس "كُفُواً " لا بمحذوفٍ ، وهو نظيرُ قولكَ : لم يكن أحدٌ قائماً لبكرٍ . ف " لبكر " متعلق بنفس الخبر . وهل هنا

الاستفهام عن حقيقته، أم لا ؟ فيه وجهان :

أظهرهما : نَعَمْ، ويعنون بالأمر : النصر والغلبة .

والثاني : أنه بمعنى النفي، كأنهم قالوا : ليس لنا من الأمر - أي النصر - شيء، وإليه ذَهَبَ قتادةُ وابنُ جُرَيْجٍ .

(62/133)

ولكن يضعف هذا بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ الأمر كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ فإن من نَفَى عن نفسه شيئاً لا يجاب بأنه ثبت لغيره ؛ لأنه يُقِرُّ بذلك، اللهم إلاَّ أن يقدر جملة أخرى ثبوتية مع هذه الجملة، فكأنَّهم قالوا : ليس لنا من الأمر شيءٌ، بَلْ لمن أكرهنا على الخروج وحَمَلَنا عليه، فحينئذ يحْسُنُ الجوابُ بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ الأمر كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ لقولهم هذا، وهذه الجملةُ الجوابيةُ اعتراض بين الجُمَل التي جاءت بعد قوله : " وطائفة " فإن قوله : ﴿ يُخْفُونَ في أَنْفُسِهِم ﴾ وكذا ﴿ يَقُولُونَ ﴾ - الثانية - إما خبر عن " طَائِفَةٌ " أو حال مما قبلها .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ الأمر كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ قرأ أبو عمرو " كُلُّهُ " - رفعاً - وفيه وجهان :

الأول : - وهو الأظهر - أنه رفع بالابتداء، و" لله " خبره والجملة خبر " إنَّ " نحو : إن مال زيد كله عنده .

الثاني : أنه توكيد على المحل ، فإن اسمها – في الأصل – مرفوعٌ بالابتداء ، وهذا مذهبُ الزَّجَّاجِ والجَرْمي ، يُجْرُون التوابعَ كلَّها مُجْرَى عطف النسق ، فيكون " لله " خبراً لـ " إنَّ " أيضاً .

وقرأ الباقون بالنصب ، فيكون تأكيداً لاسم " إنَّ " وحَكَى مكي عن الأخفش أنه بدل منه – وليس بواضح – و " لله " خبر " إنَّ " .

وقيل على النعت ؛ لأنَّ لفظة " كُلّ " للتأكيد ، فكانت كلفظة " أجمع " .

قوله : ﴿ يُخْفُونَ ﴾ إما خبر لـ ﴿ طَآئِفَةً ﴾ وإما حال مما قبله – كما تقدم – وقوله : ﴿ يَقُولُونَ ﴾ يحتمل هذين الوجهين ، ويحتمل أن يكون تفسيراً لقوله : ﴿ يُخْفُونَ ﴾ فلا محلَّ له حينئذٍ .

قوله : ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأمر شَيْءٌ ﴾ كقوله : ﴿ هَل لَّنَا مِنَ الأمر مِن شَيْءٍ ﴾ وقد عرف الصحيح من الوجهين .

(63/133)

وقوله : " ما قُتِلْنا ههنا " جواب " لَوْ " وجاء على الأفصح ، فإن جوابها إذا كان منفياً بـ " ما " فالأكثر عدم اللام ، وفي الإيجاب بالعكس ، وقد أعرب الزمخشريُّ هذه الجُمَلَ الواقعة بعد

قوله : " وطائفة " إعراباً أفْضى إلى خروج المبتدأ بلا خبر فقال : " فإن قُلتَ : كيف مواقعُ هذه الجُمَل الواقعة بعد قوله : " وطائفة " .

قُلْتُ : ﴿ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ ﴾ صفة لـ ﴿ طَآئِفَةٌ ﴾ و ﴿ يَظُنُّونَ ﴾ صفة أخرى ، أو حالٌ ، بمعنى : قد أهمتهم أنفسهم ظَانّين ، أو استئنافٌ على وجه البيان للجملة قبلها و ﴿ يَقُولُونَ ﴾ بدلٌ من ﴿ يَظُنُّونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 5 صـ 609 . 617 ﴾ . بتصرف .

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ ﴾ : فأهل التحقيق والتوحيد يصلون بعد فتراتهم إلى القول بتَرْكِ أنفسهم ، وغَسلِ أيديهم منهم ، ورفع قلوبهم عنهم فيعيشون بالله لله ، بلا ملاحظة طمع وطلبة ، بل على عقيدة اليأس عن كل شيء . عليه أكّدُوا العهد ، وبدَّلُوا اللحظ ، وتركوا كل نصيب وحظ ، وهذه صفة مَنْ أنزل عليه الأمَنَة .

فأمّا الطائفة التي أهمتهم أنفسهم - فبقوا في وحشة نفوسهم ، ومِنْ عاجل عقوبتهم سوءُ عقيدتهم في الطريقة بعد إيمانهم بها ؛ قال تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : 110] .

والإشارة في قوله تعالى : ﴿ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ شَىْءٍ ﴾ لهؤلاء أنهم يتحيَّرون في أمرهم فلا إقبال لهم على الصواب بالحقيقة ، ولا إعراض بالكلية ، يحيلون فترتهم على سوء اختيارهم ، ويضيفون صفوة - لو كانت لقلوبهم - إلى اجتهادهم ، وينسَوْن ربَّهم في الحالين ، فلا يبصرون تقدير الحق سبحانه . قال تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ : فَمَنْ عَرَفَ أن المنشئ الله انسلخ عن اختياره وأحواله كانسلاخ الشَّعْرِ عن العجين ، وسَلَّمَ أموره إلى الله بالكلية . وأمارة مَنْ تحقق بذلك أن يستريح من كدّ تدبيره ، ويعيش في سعة شهود تقديره .

وقوله : ﴿ يُخْفُونَ فِى أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ ﴾ : لم يُخلِصُوا في عقائدهم ، وأضمروا خلاف ما أظهروا وأعلنوا غير ما ستروا ، وأحالوا الكائنات على أسباب توهموها .

قال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كُنتُم فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ . أخبر أن التقدير لا يُزاحَم ، والقَدَر لا يُكابَر ، وأن الكائناتِ محتومة ، وأن الله غالب على أمره .

وقوله : ﴿ وَلِيَبْتَلِىَ اللهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ ﴾ : فأمّا أهل الحقائق فإنه تعالى ينتزع من قلوبهم كل آفةٍ وحجبة ، ويستخلص أسرارهم بالإقبال والزلفة ، فتصبح قلوبهم خالصةً من الشوائب ، صافيةً عن العلائق ، منفردةً للحق ، مجرّدةً عن الخلق ، مُحرّرةً عن الحظّ

والنَّفْس ، ظاهرةً عليها آثارُ الإقبال ، غالباً عليها حُسْنُ التَّوَلّي ، باديةً فيها أنوارُ التجلي .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 278.279 ﴾

(65/133)

فائدة

قال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ ﴾ .

قَالَ طَلْحَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَامّ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ : كَانَ ذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ بَعْدَ هَزِيمَةِ مَنْ انْهَزَمَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَتَوَعَّدَهُمْ الْمُشْرِكُونَ بِالرُّجُوعِ ، فَكَانَ مَنْ ثَبَتَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ تَحْتَ الْحُجُفِ مُتَأَهِّبِينَ لِلْقِتَالِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَمَنَةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، فَنَامُوا دُونَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ أَرْعَبَهُمْ الْخَوْفُ لِسُوءِ الظَّنِّ ؛ قَالَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَنِمْنَا حَتَّى اصْطَفَقَتْ الْحُجُفُ مِنْ النُّعَاسِ ، وَلَمْ يُصِبْ الْمُنَافِقِينَ ذَلِكَ بَلْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ، فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : سَمِعْت وَأَنَا بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ مُعَتِّبَ بْنَ قُشَيْرٍ وَنَاسًا مِنْ الْمُنَافِقِينَ يَقُولُونَ : هَلْ لَنَا مِنْ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ؛ وَهَذَا مِنْ

لُطْفِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ وَإِظْهَارِ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالِ الَّتِي الْعَدُوُّ فِيهَا مُطِلٌّ عَلَيْهِمْ.

وَقَدْ انْهَزَمَ عَنْهُمْ كَثِيرٌ مِنْ أَعْوَانِهِمْ وَقَدْ قَتَلُوا مَنْ قَتَلُوا مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَيَنَامُونَ وَهُمْ مُوَاجِهُونَ الْعَدُوَّ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَطِيرُ فِيهِ النُّعَاسُ عَمَّنْ شَاهَدَهُ مِمَّنْ لَا يُقَاتِلُ فَكَيْفَ بِمَنْ حَضَرَ الْقِتَالَ وَالْعَدُوُّ قَدْ أَشْرَعُوا فِيهِمْ الْأَسِنَّةَ وَشَهَرُوا سُيُوفَهُمْ لِقَتْلِهِمْ وَاسْتِيصَالِهِمْ.

وَفِي ذَلِكَ أَعْظَمُ الدَّلَائِلِ وَأَكْبَرُ الْحِجَجِ فِي صِحَّةِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ وُجُوهٍ : أَحَدُهَا : وُقُوعُ الْأَمَنَةِ مَعَ اسْتِعْلَاءِ الْعَدُوِّ مِنْ غَيْرِ مَدَدٍ آتَاهُمْ وَلَا نِكَايَةٍ فِي الْعَدُوِّ وَلَا انْصِرَافِهِمْ عَنْهُمْ وَلَا قِلَّةِ عَدَدِهِمْ ، فَيُنَزِّلُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى قُلُوبِهِمْ الْأَمَنَةَ ، وَذَلِكَ فِي أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ خَاصَّةً.

وَالثَّانِي : وُقُوعُ

النُّعَاسِ عَلَيْهِمْ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالِ الَّتِي يَطِيرُ فِي مِثْلِهَا النُّعَاسُ عَمَّنْ شَاهَدَهَا بَعْدَ الِانْصِرَافِ وَالرُّجُوعِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ الْمُشَاهَدَةِ وَقَصْدُ الْعَدُوِّ نَحْوَهُمْ لِاسْتِيصَالِهِمْ وَقَتْلِهِمْ.

وَالثَّالِثُ : تَمْيِيزُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ الْمُنَافِقِينَ حَتَّى خَصَّ الْمُؤْمِنِينَ بِتِلْكَ الْأَمَنَةِ وَالنُّعَاسِ دُونَ الْمُنَافِقِينَ ، فَكَانَ الْمُؤْمِنُونَ فِي غَايَةِ الْأَمْنِ وَالطُّمَأْنِينَةِ وَالْمُنَافِقُونَ فِي غَايَةِ الْهَلَعِ وَالْخَوْفِ وَالْقَلَقِ وَالِاضْطِرَابِ ؛ فَسُبْحَانَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ الَّذِي لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 2 صـ 328 ﴾

(67/133)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [153]

إذ تصعدون متعلق بصرفكم أو بقوله ليبتليكم , أو بمقدر . والإصعاد : الإبعاد في الأرض . أي : تبعدون في الفرار , وقرئ : تصعَدون ، من الثلاثي , أي : في الجبل : ﴿ وَلَا تَلْوُونَ ﴾ أي : لا تعطفون بالوقوف : ﴿ عَلَى أَحَدٍ ﴾ أي : من قريب ولا بعيد , من الدهش والروعة : ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ ﴾ أي : ساقتكم وجماعتكم الأخرى , إلى ترك الفرار من الأعداء وإلى العود والكرة عليهم . وأنتم مدبرون وهو ثابت في مكانه في نحر

العدو في نفر يسير وثوقاً بوعد الله ومراقبة له .

قال السدي : لما اشتد المشركون على المسلمين بأحد , فهزموهم, دخل بعضهم المدينة, وانطلق بعضهم إلى الجبل فوق الصخرة فقاموا عليها . فجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الناس : < إليّ عبَاّد الله ! إليّ عبَاّد الله ! > فذكر الله صعودهم إلى الجبل - ثم ذكر دعاء النبيَ صلى الله عليه وسلم إياهم فقال : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ ﴾ الخ .

قال ابن كثير : وكذا قال ابن عباس وقتادة والربيع وابن زيد .

(68/133)

وفي حديث البراء رضي الله عنه في مسند الإمام أحمد أنهم لما انهزموا لم يبق مع النبيَ صلى الله عليه وسلم إلا اثنا عشر رجلاً . وروى مسلم عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش : ﴿ فَأَثَابَكُمْ ﴾ أي : جازاكم بهذا الهرب والفرار : ﴿ غُمَّاً بِغَمٍّ ﴾ أي : غماً متصلاً بغم, يعني غم الهزيمة والكسرة, وغم صرخة الشيطان فيهم بأن محمداً قتل . وقيل : الباء بمعنى مع , وقيل : بمعنى على , وهما قريبان من الأول . وقيل : الباء للمقابلة والعوض , أي : أذاقكم غماً بمقابلة غم أذقتموه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو عصيانكم أمره . قاله الزجاج .

وقال الحسن: يريد غم يوم أحد للمسلمين بغم يوم بدر للمشركين, وقيل: المعنى غماً بعد غم أي: غماً مضاعفاً . ثم أشار إلى سر ذلك بقوله: ﴿ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ أي: لتتمرنوا بالصبر على الشدائد, والثبات فيها, وتتعودوا رؤية الغلبة والظفر والغنيمة, وجميع الأشياء من الله لا من أنفسكم, فلا تحزنوا على ما فاتكم من الحظوظ والمنافع .

وقوله: ﴿ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ ﴾ من الغموم والمضار .

قال العلامة ابن القيم في " زاد المعاد ": وقيل جازاكم غماً بما غممتم به رسوله بفراركم عنه, وأسلمتموه إلى عدوه . فالغم الذي حصل لكم جزاءً على الغم الذي أوقعتموه بنبيه . والقول الأول أظهر لوجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ ﴾ تنبيه على حكمة هذا الغم بعد الغم, وهو أن ينسيهم الحزن على ما فاتهم من الظفر, وعلى ما أصابهم من الهزيمة والجراح, فنسوا بذلك السلب, وهذا إنما يحصل بالغم الذي يعقبه غم آخر .

الثاني: أنه مطابق للواقع, فإنه حصل لهم غم فوات الغنيمة, ثم أعقبه غم الهزيمة, ثم غم الجراح الذي أصابهم, ثم غم القتل، ثم غم سماعهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد

قتل، ثم غم ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم . وليس المراد غمين اثنين خاصة، بل غماً متتابعاً لتمام الابتلاء والامتحان .

الثالث : أن قوله بغم من تمام الثواب، لا أنه سبب جزاء الثواب . والمعنى : أثابكم غماً متصلاً بغم، جزاء على ما وقع منكم من الهرب، وإسلامكم نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وترك استجابتكم له وهو يدعوكم، ومخالفتكم له في لزوم مركزكم، وتنازعكم في الأمر وفشلكم . وكل واحد من هذه الأمور يوجب غماً يخصه، فترادفت عليهم الغموم، كما ترادفت منهم أسبابها وموجباتها . ولولا أن تداركهم بعفوه لكان أمراً آخر . ومن لطفه بهم، ورأفته ورحمته، أن هذه الأمور التي صدرت منهم كان من أمور الطباع، وهي من بقايا النفوس التي تمنع من النصرة المستقرة، فقيض لهم بلطفه أسباباً أخرجها من القوة إلى الفعل، فيترتب عليها آثارها المكروهة، فعلموا حينئذ أن التوبة منها، والاحتراز من أمثالها، ودفعها بأضدادها، أمرٌ متعين لا يتم لهم الفلاح والنصرة الدائمة المستقرة إلا به، فكانوا أشد حذراً بعدها ومعرفة بالأبواب التي دخل عليهم منها . وربما صحت الأجسام بالعلل .

لطيفة :

لفظ الثواب لا يستعمل في الأغلب إلا في الخير, ويجوز أيضاً استعماله في الشر, لأنه مأخوذ من قولهم : ثاب إليه عقله, أي : رجع إليه . قال تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة : 125] . والمرأة تسمى ثيباً لأن الواطئ عائد إليها . وأصل الثواب كل ما يعود إلى الفاعل من جزاء فعله, سواء كان خيراً أو شراً, إلا أنه بحسب العرف اختص لفظ الثواب بالخير . فإن حملنا لفظ الثواب ههنا على أصل اللغة استقام الكلام, وإن حملنا على مقتضى العرف كان ذلك وارداً على سبيل التهكم, كما يقال : تحيته الضرب وعتابه السيف, أي : جعل الغم مكان ما يرجون من الثواب على حد : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ ﴾ [آل عِمْرَان : 21] – قاله الرازي – .

تنبيه :

قال المفضل : لا زائدة, والمعنى : لتتأسفوا [في المطبوع : للتأسفوا] على مما فاتكم وعلى ما أصابكم عقوبة لكم, كقوله : ﴿ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ [الأعراف : 12], و : ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ ﴾ [الحديد : 29], أي : أن تسجد وليعلم .

وعندي أنه بعيد, لا سيما مع تكرار لا في المعطوف, واستقامة المعنى الجيد على اعتبارها, فالوجه ما سلف .

﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ خيراً وشراً, قادر على مجازاتكم, وفيه أعظم زاجر عن الإقدام على المعصية. انتهى انتهى. اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 4 صـ 480 .483 ﴾

(71/133)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله:

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةً ﴾

أي: أمناً . والأمنة بتحريك الميم مصدر, يقال: أمن أمناً وأماناً وأمناً وأمنة محركتين وفي حديث نزول عيسى عليه السلام, وتقع الأمنة في الأرض, أي: الأمن . ومثله من المصادر العظمة والغلبة, وهو منصوب على المفعولية . وقوله تعالى: ﴿ نُّعَاسًا ﴾ بدل من: ﴿ أَمَنَةً ﴾ وقيل: هو المفعول, و: ﴿ أَمَنَةً ﴾ حال أو مفعول له: ﴿ يَغۡشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمۡ ﴾ وهم المخلصون, أهل اليقين والثبات والتوكل الصادق, والجازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله وينجز له مأموله . والنعاس في حال الحرب دليل على الأمان, كما قال في سورة الأنفال: ﴿ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنۡهُ ﴾ [الأنفال: 11] الآية .

(72/133)

وروى البخاري في التفسير عن أنس عن أبي طلحة قال : غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد ، قال : فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ، ويسقط وآخذه . ورواه الترمذي والنسائي والحاكم . ولفظ الترمذي : قال أبو طلحة : رفعت رأسي يوم أحد فجعلت أنظر ، وما منهم ويومئذ أحد إلا يميد تحت حجفته من النعاس . فذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً ﴾ . وقد ساق الرازي لذلك النعاس فوائد :

منها : أن الأعداء كانوا في غاية الحرص على قتلهم ، فبقاؤهم في النوم مع السلامة في مثل تلك المعركة من أدل الدلائل على أن حفظ الله وعصمته معهم . وذلك مما يزيل الخوف عن قلوبهم ، ويورثهم مزيد الوثوق بوعد الله تعالى – انتهى – . ثم أخبر تعالى أن من لم يصبه ذلك النعاس فهو ممن أهمته نفسه ، لا دينه ولا نبيه ولا أصحابه ، بقوله : ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ أي : ما بهم إلا هم أنفسهم وقد قصد خلاصها ، فلم يغشهم النعاس من القلق والجزع والخوف : ﴿ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ أي : غير الظن الحق الذي يجب أن يظن به سبحانه : ﴿ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً ﴾ [الفتح : 12] الآية . وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة ، وأن الإسلام قد باد وأهله ، وهذا شأن أهل الريب والشك ، إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة ، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة .

قال الإمام ابن القيم في " زاد المعاد " : وقد فسر هذا الظن الذي لا يليق بالله بأنه سبحانه لا ينصر رسوله ، وأن أمره سيضمحل ، وأنه يسلمه للقتل . وفسر بأن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره ، ولا حكمة له فيه . ففسر بإنكار الحكمة ، وإنكار القدر ، وإنكار أن يتم أمر رسوله ، ويظهره على الدين كله . وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون به سبحانه وتعالى في سورة الفتح ، حيث يقول : ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ [الفتح : 6] . وإنما كان هذا ظن السوء ، وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل ، وظن غير الحق ، لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وذاته المبرأة من كل سوء . بخلاف ما يليق بحكمته وحمده ، وتفرده بالربوبية والإلهية ، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يخلفه ، وكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم ، ولجنده بأنهم هم الغالبون . فمن ظن به أنه لا ينصر رسله ، ولا يتم أمره ، ولا يؤيده ويؤيد جنده ، ويعليهم ويظفرهم بأعدائه ، ويظهرهم عليهم ، وأنه لا ينصر دينه وكتابه ، وأنه يديل الشرك على التوحيد ، والباطل على الحق ، إدالة مستقرة

يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبداً – فقد ظن بالله السوء ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله وصفاته ونعوته . فإن عزته وحكمة إلهيته تأبى ذلك ، ويأبى أن يذل حزبه وجنده ، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به ، العادلين به – فمن ظن به ذلك فما عرفه ولا عرف أسماءه ، ولا عرف صفاته وكماله ، وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره فما عرفه ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته ، وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من

ذلك وغيره لحكمة بالغة ، وغاية محمودة يستحق الحمد عليها ، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة وغاية مطلوبة هي أحب إليه من فوتها ، وأن تلك الأسباب المكروهة المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة لإفضائها إلى ما يحب ، وإن كانت مكروهة له ، فما قدرها سدى ، ولا أنشأها عبثاً ، ولا خلقها باطلاً : ﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص : 27] . وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ، ظن السوء ، فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم . ولا يسلم عن ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته ، وعرف موجب حمده وحكمته . فمن قنط من رحمته ، وأيس

من روحه ، فقد ظن به ظن السوء . ومن جوّز عليه أن يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم ، ويسوي بينهم وبين أعدائه ، فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن به أن يترك خلقه سدى معطلين من الأمر والنهي ولا يرسل إليهم رسله ، ولا ينزل عليهم كتبه ، بل يتركهم هملاً كالأنعام فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازي فيها المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه ، ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله ، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين ، فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصاً لوجهه الكريم على امتثال أمره ويبطله عليه بلا سبب من العبد ، وأنه يعاقبه بما لا صنيع له فيه ، ولا اختيار له ، ولا قدرة ولا إرادة في حصوله ، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به ، أو ظن أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه ورسله ويجريها على أيديهم ، يضلون بها عباده ، وأنه يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته ، فيخلده في الجحيم أسفل السافلين ، وينعم من استنفد عمره في داوته وعداوة رسله ودينه فيرفعه إلى أعلى عليين ، وكلا الأمرين في الحسن

سواء عنده ، ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق ، وإلا فالعقل لا يقتضي بقبح أحدهما وحسن الآخر – فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن به أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل وتشبيه وتمثيل ، وترك الحق لم يخبر به ، وإنما رمز إليه رموزاً بعيدة ، وأشار إليه إشارات ملغزة ، لم يصرح به ، وصرح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل ، ، وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه ، وتأويله على غير تأويله ، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة ، والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي ، أشبه منها بالكشف والبيان ، وأحالهم في معرفة أسمائه ، وصفاته على عقولهم وآرائهم ، لا على كتابه ، بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على ما يعرفون من خطابهم ولغتهم ، مع قدرته أن يصرح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به ، ويريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل ، فلم يفعل ، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان – فقد ظن به ظن السوء . فإنه إن قال إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذي عبر به هو وسلفه ، فقد ظن بقدرته العجز . وإن قال : إنه قادر ولم يبين ، وعدل عن البيان ، وعن التصريح بالحق ، إلى ما يوهم ، بل يوقع في الباطل المحال ، والاعتقاد الفاسد – فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء . وظن أنه هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله ، وإن الهدى والحق في كلامهم وعباراتهم . وأما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه والتمثيل والضلال ، وظاهر كلام المتهوكين الحيارى هو

الهدى والحق ، وهذا من أسوأ الظن بالله . فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء . ومن الظانين به غير الحق ، ظن الجاهلية . ومن ظن به يكون في ملكه ما يشاء ولا يقدر على إيجاده وتكوينه – فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن به أنه كان معطلاً من الأزل إلى الأبد ، عن أن يفعل ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل ، ثم صار

قادراً عليه بعد أن لم يكن قادراً – فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن به أنه ليس فوق سماواته على عرشه ، بائناً من خلقه ، وأن نسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل السافلين ، وإلى الأمكنة التي يرغب عن ذكرها ، وأنه أسفل كما أنه أعلى ، ومن قال سبحان ربي الأسفل ، كمن قال سبحان ربي الأعلى – فقد ظن به أقبح الظن .

ثم قال : وبالجملة فيمن ظن به خلاف ما وصف به نفسه ، ووصفه به ورسله ، أو عطل حقائق ما وصف به نفسه ، ووصفته به رسله – فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه ، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه ، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه ، ويتوسلون بهم إليه ، ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه ، فيدعونهم ، ويخافونهم ، ويرجونهم – فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه .

ثم قال : ومن ظن به أنه إذا صدقه في الرغبة والرهبة وتضرع إليه وسأله واستعان به وتوكل عليه ، أنه يخيبه ولا يعطيه ما سأله – فقد ظن به ظن السوء . وظن به خلاف ما هو أهله .

(77/133)

ثم قال : ومن ظن به أنه إن عصاه أو أسخطه وأوضع في معاصيه ، ثم اتخذ من دونه ولياً ، ودعا من دونه ملكاً أو بشراً حياً أو ميتاً ، يرجوا بذلك أن ينفعه عند ربه ، ويخلصه من عذابه – فقد ظن به ظن السوء . وذلك زيادة في بعده من الله ، وفي عذابه . ومن ظن به أنه يسلط على رسوله محمد أعداءه تسليطاً مستقراً دائماً في حياته وفي مماته ، وابتلاه بهم لا يفارقونه . فلما مات استبدوا بالأمر دون وصيته ، وظلموا أهل بيته ، وسلبوهم حقهم ، وأذلوهم ، وكانت العزة والغلبة والقهر لأعدائه وأعدائهم دائماً من غير جرم ولا ذنب لأوليائه وأهل الحق ، وهو يرى قهرهم لهم ، وغصبهم إياهم حقهم ، وتبديلهم دين نبيهم ، وهو يقدر على نصر أوليائه ، وحزبه وجنده ، ولا ينصرهم ولا يديلهم ، بل يديل أعدائهم عليهم أبداً ، أو أنه لا يقدر على ذلك ، بل حصل هذا بغير قدرته ولا مشيئته ، ثم جعل أعداءه الذين بدلوا دينه مضاجعيه في حضرته ، تسلم أمته عليه وعليهم كل وقت كما تظنه

الرافضة – فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه ، وسواء قالوا : إنه قادر على أن ينصرهم ويجعل لهم الدولة والظفر ، أو أنه غير قادر على ذلك . فهم قادحون في قدرته أو في حكمته وحمده ، وذلك من ظن السوء به . ولا ريب أن الرب الذي فعل هذا بغيض إلى من ظن به ذلك ، غير محمود عندهم ، وكان الواجب أن يفعل خلاف ذلك ، لكن رَفَوا هذا الظن الفاسد بخرق أعظم منه ، واستجاروا من الرمضاء بالنار ، فقالوا : لم يكن هذا بمشيئة الله ، ولا قدرة على دفعه ونصر أوليائه ، فإنه لا يقدر على أفعال عباده ، ولا يدخل تحت قدرته ، فظنوا به ظن إخوانهم المجوس والثنوية بربهم . وكل مبطر وكافر ومبتدع ومقهور مستذل ، فهو يظن بربه هذا الظن ، وإنه أولى بالنصر والظفر والعلو من خصومه ، فأكثر الخلق ، بل كلهم ، إلا من شاء الله ، يظنون بالله غير الحق وظن السوء . فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ، ناقص الحظ ، وأنه يستحق فوق ما

أعطاه الله ، ولسان حاله يقول : ظلمني ربي ومنعني ما أستحقه ، ونفسه تشهد عليه بذلك ، وهو بلسانه ينكره ، ولا يتجاسر على التصريح به . ومن فتش نفسه ، وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها ، رأى ذلك فيها كامناً كمون النار في الزناد ، فاقدح زناد من شئت ينبئك

شراره عما في زناده، ولو فتشت من فتشته، لرأيت عنده تعتباً على القدر، وملامة له، واقتراحاً عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك:

~فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فإني لا أخالك ناجياً

فليعتن اللبيب الناصح نفسه بهذا الموضع، وليتب إلى الله ويستغفره كل وقت، من ظنه بربه ظن السوء. وليظن السوء بنفسه التي هي مادة كل سوء، ومنبع كل شر، المركبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين وأعدل العادلين وأرحم الراحمين، الغني الحميد، الذي له الغنى التام، والحمد التام، والحكمة التامة، المنزه عن كل سوء، في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه. فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك، وأفعاله كذلك، كلها حكمة ومصلحة ورحمة وعدل. وأسماؤه كلها حسنى. والمقصود ما ساقنا إلى هذا الكلام من قوله تعالى: ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ .

ثم أخبر عن الكلام الذي صدر عن ظنهم الباطل بقوله : ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي : هل لنا من أمر التدبير والرأي من شيء ، استفهام على سبيل الإنكار . أي : ما لنا أمر يطاع . ونظيره ما حكاه الله عنهم أنهم قالوا : ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ [آل عِمْرَان : 168] . وذلك أن عبد الله بن أبيّ لما شاوره النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الواقعة ، أشار عليه بأن لا يخرج من المدينة ، ثم إن الصحابة ألحوا على النبي صلى الله عليه وسلم في أن يخرج إليهم ، كما تقدم . ولما رجع عبد الله بن أبيّ بمن معه ، وأخبر بكثرة القتلى من بني الخزرج ، قال : هل لنا من الأمر شيء ؟ يعني أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يقبل قولي حين أمرته بأن يبقى في المدينة ولا يخرج منها : ﴿ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ أي : التدبير كله لله ، فإنه تعالى قد دبر الأمر كما جرى في سابق قضائه فلا مرد له .

(80/133)

قال الإمام ابن القيم قدس الله روحه : ليس مقصودهم بقولهم : ﴿ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ وقولهم : ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾ . إثبات القدر ، ورد الأمر كله إلى الله . ولو كان ذلك مقصودهم بالكلمة الأولى لما ذموا عليه ، لما حسن الرد عليهم بقوله : ﴿ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ ولا كان مصدر هذا الكلام ظن الجاهلية . ولهذا ،

قال غير واحد من المفسرين : إن ظنهم الباطل ههنا هو التكذيب بالقدر ، وظنهم أن الأمر لو كان إليهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه تبعاً لهم ، ويسمعون منهم ؛ لما أصابهم القتل ، ويكون النصر والظفر لهم . فأكذبهم الله عز وجل في هذا الظن الباطل ، الذي هو ظن الجاهلية ، وهو الظن المنسوب إلى أهل الجهل ، الذين يزعمون ، بعد نفاذ القضاء والقدر الذي لم يكن بد من نفاذه ، أنهم كانوا قادرين على دفعه ، أن الأمر لو كان إليهم لما نفذ القضاء ، فأكذبهم الله بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ . فلا يكون إلا ما سبق قضاؤه وقدره ، وجرى به علمه وكتابه السابق ، وما شاء الله كان ولا بد ، شاء الناس أم أبوا . وما لم يشأ لم يكن ، شاء الناس أو لم يشاؤوه . وما جرى عليكم من الهزيمة والقتل ، فبأمره الكوني الذي لا سبيل إلى دفعه ، سواء كان لكم من الأمر شيء أو لم يكن ، وأنكم لو كنتم في بيوتكم وقد كتب القتل على بعضكم ، لخرج الذين كتب عليهم القتل من بيوتهم إلى مضاجعهم ولا بد . سواء أن يكون لهم من الأمر شيء أو لم يكن . وهذا من أظهر الأشياء إبطالاً لقول القدرية النفاة ، الذين يجوّزون أن يقع ما لا يشاؤه الله ، وأن يشاء ما لا يقع – انتهى – .

﴿ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم ﴾ أي: يضمرون فيها، أو يقولون فيما بينهم بطريق الخفية: ﴿ مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ لكونه لا يرضاه الله تعالى. ثم بين ذلك بعد إجماله فقال: ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ ﴾ أي: المسموع: ﴿ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾ أي: ما غلبنا، أو ما قتل من قتل منا، لأنا كنا نمكث في المدينة ولا نخرج إلى العدو. ولما أخبر تعالى بما أخفوه جهلاً منهم، ظناً أن الحذر يغني من القدر، أمره تعالى بالرد عليهم بقوله: ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ أي: أجمع رأيكم على أن لا تبرحوا من منازلكم أنتم والمقتولون: ﴿ لَبَرَزَ ﴾ أي: خرج: ﴿ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ ﴾ في اللوح المحفوظ: ﴿ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ أي: التي قدر الله قتلهم فيها، ولم يثبتوا في ديارهم، لأنه يوقع في قلوبهم الخروج إمضاء لقدره وحكمه المحتوم الذي لا يقع خلافه ولا يرد، لقوله: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: 22]. وفيه مبالغة في رد مقالتهم الباطلة، حيث لم يقتصر على تحقيق نفس القتل، بل عين مكانه أيضاً. وفي التعبير بمضاجعهم من إجلالهم وتكريمهم ما لا يخفى على صاحب الذوق السليم ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ ﴾ أي: ليعاملكم معاملة الممتحن، ليستخرج ما في صدوركم من الإخلاص والنفاق، ليجعله حجة عليكم، فالمؤمن لا يزداد بذلك إلا إيماناً وتسليماً، والمنافق ومن في قلبه مرض لا بد أن يظهر ما في قلبه على جوارحه ولسانه؛ وهو علة لفعل مقدر قبلها معطوفة على علل لها أخرى مطوية، للإيذان بكثرتها. كأنه قيل:

فعل ما فعل لمصالح جمة وليبتلي . . . الخ، أو لفعل مقدر بعدها ، أي : وللابتلاء المذكور فعل ما فعل ، لا لعدم العناية بأمر

(82/133)

المؤمنين . وجعلها عللاً لبرز يأباه الذوق السليم . فإن مقتضى المقام بيان حكمة ما وقع يومئذ من الشدة والهول ، لا بيان حكمة البروز المفروض – أفاده أبو السعود – ثم ذكر تعالى حكمة أخرى بقوله : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أي : يخلصه وينقيه ويهذبه ، فإن القلوب يخالطها بغلبة الطبائع ، وميل النفوس ، وحكم العادة ، وتزيين الشيطان ، واستيلاء الغفلة – ما يضاد ما أودع فيها من الإيمان والإسلام والبر والتقوى . فلو تركت في عافية دائمة مستمرة لم تتخلص من هذه المخالطة ، ولم تتمحص منه ، فاقتضت حكمة العزيز الرحيم أن يقضي لها من المحن والبلاء ، ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء ، إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده ، وإلا خيف عليه منه الفساد والهلاك . فكانت نعمته سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة ، وقتل من قتل منهم ، تعادل نعمته عليهم بنصرهم وتأييدهم وظفرهم بعدوهم . فله عليهم النعمة التامة في هذا وهذا . أفاده ابن القيم .

وقال القاشاني : البلاء سوط من سياط الله ، يسوق به عباده إليهم بتصفيتهم عن صفات نفوسهم ، وإظهار ما فيهم من الكمالات ، وانقطاعهم من الخلق إلى الحق . ولهذا كان متوكلاً بالأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بياناً لفضله : < ما أوذي نبي مثل ما أوذيت > . كأنه قال : ما صفى نبي مثل ما صفيت . ولقد أحسن من قال :

~لله در النائبات فإنها صدأ اللئام وصيقل الأحرار

إذ لا يظهر على كل منهم إلا ما في مكمن استعداده .

﴿ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي : الضمائر الملازمة لها ، وعد ووعيد . انتهى انتهى .

اهـ ﴿محاسن التأويل حـ 4 صـ 483.490 ﴾

(83/133)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾

وكلمة ﴿ أَنزَلَ ﴾ تدل على أن هذا عطاء عُلوي ليس له شأن بالأسباب المادية ولا

بالقوانين البشرية ؛ لأن النوم عرض من الأعراض التي تطرأ على الأحياء ، هذا العرض تستوجبه عمليات كيماوية في نفسك ، وهذه العمليات الكيماوية حتى الآن لا يعرفون ما هي ، وأقصى ما فُهم منه أنه ردع ذاتي لجسم الإنسان . فكأن الجهاز المتحرك المكون من مخ يعمل ، وعين ترى ، وأذن تسمع ، وحواس وحركة هذا الجهاز له طاقة ، ساعة تنتهي منه الطاقة ، لا يقول لك : أنت الذي تترك العمل . لا ، بل يقول لك : أنا لم أعد صالحا للعمل . إنه ردع ذاتي ، مثلما يريدون أن يصلوا إليه الآن في مجال الآلات بمجرد فصل تيار الكهرباء آليا عن تلك الآلات فهي تتوقف .

(84/133)

فالردع الذاتي هو في النوم ويأتيك النعاس . وتبين بالبحث العلمي أن هناك أشياء في الجسم لا تخرج كفضلات . بل تحتاج إلى التعادل والتوازن الكيميائي . ونحن نعلم أن هناك بقايا كنتيجة للحركة ، وهناك احتراق للطاقة ، وكل حركة فيها احتراق ، وبقايا هذا الاحتراق تخرج مرة على هيئة بول ، ومرة يخرج غائطا ومرة يخرج مخاطاً ، وهكذا ، إذن كثير من هذه الفضلات هي نتيجة عمليات الاحتراق ، لكن هناك أشياء لا نريد لها أن تخرج ولكن نريدها أن تتعادل ، فعندما تنام لا يوجد لك حركة وتبتدئ الكيماويات داخل الجسم في

التعادل ، وهذا هو ما يفعله لك النوم الذي تستوجبه أسبابك المادية .

وصاحب الهم والغم لا ينام أبدا ؛ فهو يسهو عن نفسه ويرهق جسمه أكثر وتكون المصيبة كبيرة عليه ، وهنا ينزل الحق فضله عليكم بالنوم لأن أسبابكم لا تساعد أيا منكم على أن ينام .

وأنتم تذكرون قديما أننا قلنا : إن الإمام عليًّا كرم الله وجهه لما اشْتُهِرَ بالفتيا ، وكلما سألوه عن أمر أفتى فيه ، فقالوا : نأتي له بمسألة معقدة ونرى كيف يأتي بالفتيا ، وكأنهم نسوا أنه يُفتى لأنه تربى في حضن النبوة ، فقد جاءت النبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيدنا على مازال صغيرا ، أما الصحابة الآخرون فقد جاءت النبوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهم كبار في السن ، فهناك معلومات دخلت عندهم من أيام الجاهلية ، ولكن سيدنا عليًّا كرم الله وجهه لم تدخل عليه معلومة من معلومات الجاهلية . كل المعلومات التي عنده نبوية ، فكل هذا التفاعل ينشأ عنه فُتيا ؛ لذلك كان سريعا في الإفتاء .

على سبيل المثال ، تأتي له امرأة فتقول : يا ابن أبي طالب كيف يعطوني دينارا من ستمائة ؟ مورثي خَلَّفَ ستمائة دينار فأعطوني دينارا واحدا . فقال لها : لعله مات عن زوجة ،

وعن بنتين ، وعن أم ، الزوجة تأخذ الثُمن (خمس وسبعين دينارا) والبنتان تأخذان الثلثين (أربعمائة دينار) وللأم السدس وهو مائة دينار ، ولعل له اثنى عشر أخا وأختا واحدة ، أشقاء أو لأب ، وأنت هذه الأخت وقد بقي من التركة خمسة وعشرون دينارا توزع على الاثني عشر أخا والأخت ، فيكون نصيبك دينارا .

كيف عرف ذلك ؟ إنها دقة الحساب عند من تعلم في بيت النبوة .

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها نجد أن الحق قد أنزل عليهم نعاسا ليؤمنهم فلم ينشأ النوم هنا من حركة الاختيار ، ولكن الله أنزله ، ومعنى " أنزله " : أنه بعث رحمة جديدة من السماء ليُخرج القوم الذين أصابهم الغم على ما فعلوا مما هم فيه . ولذلك قال أبو طلحة : غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد فكان السيف يسقط من أحدنا فيأخذه ثم يسقط فيأخذه .

إذن فهي عملية قسرية . والنعاس حينما ينزل من الحق سبحانه وتعالى يكون عملية إنقاذ من حركة فاتت فرصتها على النفس البشرية فعوضها الله ، ولكن القوم الذين نافقوا ماذا كان حالهم ؟ لا شك أن الذين جاءوا نفاقا لم يصبهم غم على ما حدث . بل بالعكس ، لا بد أن يكون قد أصابهم فرح أو اطمئنان على ما حدث ، وهؤلاء لا يكونون أهلا لأن ينزل الله عليهم أمنة النعاس . بل يتركهم الله لذواتهم ؛ لأنهم لم يكونوا في حصن الله باتباع منهج الإسلام أو بالاخلاص – على الأقل – لفكرة الإسلام ، هؤلاء يسلمهم الله لذواتهم .

إذن فلن يُنزل عليهم أمنة النعاس . وما دام لن ينزل عليهم أمنة النعاس ، فقد أصبحوا في قلق ، لماذا ؟ لأن نفوسهم قد أهمتهم . والإنسان حين يؤمن ويتقبل الإسلام من ربه يكون قد باع نفسه لربه ، وما دام قد باع نفسه لربه فالصفقة الإيمانية لابد أن تستمر . وإذا استيقظ المسلم مرة لنفسه نقول له : لقد رجعت في عقد الصفقة . وما دمت قد رجعت في عقد الصفقة فالله الذي كان قد اشتراك يتركك لنفسك ، فقوله : ﴿ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ أي خرجوا عن صفقة الإيمان ؛ لأن الذي يعقد صفقة بالإيمان مع ربه ، هو من قال الله فيه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

[التوبة : 111]

وما دام الله قد اشترى من المؤمن نفسه فيجب على المؤمن ألا تهمه نفسه ، فيدخل المعركة بالصفقة الإيمانية ، فإذا أهمته نفسه يبدأ القلق ، والبلبلة ، والاضطراب ، وتوهم الأشياء ، والشيء الواحد يتوهمه على ألف لون . إذن فنفسه تكون غير مطمئنة ، وما دام الإنسان

قد شغله هم نفسه حتى لو كان النعاس استجابة لأمر طبيعي من ذات النفس فلا يأتي النعاس أبدا .

(87/133)

ولذلك نجد أن الإمام عليًا - رضوان الله عنه وكرم الله وجهه - حينما سُئل عن أشد جنود الله ؟ بسط يديه وقال : أشد جنود الله عشرة : الجبال الرواسي ، والحديد يقطع الجبال ، إذن فالحديد أشد من الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفئ النار ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح يقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو الشيء ويمضي لحاجته ، والسُكر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُكر ، والهم يغلب النوم ، فأشد جنود الله " الهم " .

فساعة يدخل الهم على النفس البشرية ، هذا أشد جنود الله ؛ لأن الهم يدخل على النفس البشرية بألوان متعددة للخطب الواحد ، فيتصور أموراً معقدة في أمر واحد ، وواقعة على لون واحد ، ولكن الهم يجول به في كل لون ؛ فهؤلاء قد أهمتهم أنفسهم وما داموا قد أهمتهم أنفسهم فقد خرجوا عن صفقة الإيمان . وما داموا قد خرجوا عن صفقة الإيمان الذي بوساطته اشترى الله من المؤمنين أنفسهم ، فالله يتخلى عنهم . وما دام الله قد

تخلى عنهم فعليهم مواجهة المصير .

إن القلق والاضطراب يستبدان بهم ويصابون بالفزع من كل شيء . لكن حال الصنف الأول والطائفة الأولى يختلف ؛ فالله سبحانه وتعالى يعاملهم معاملة من بقي في الصفقة الإيمانية وإن كانت نفوسهم البشرية قد فسرت الأحداث تفسيرا خاطئا ، فظنوا أن المسألة في المعركة انتهت ، فذهبوا لأخذ الغنيمة, إن هؤلاء قد احترم الله بقاءهم على الإخلاص للإسلام ، وأدبهم على تفسيرهم للأحداث تفسيرا غير حق ، فأثابهم غما لما خالفوا فيه ، وأنزل عليهم أمنه لإخلاصهم في قضية الإسلام .

(88/133)

﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ وإذا سمعت كلمة " طائفة " فاعلم أنها جماعة ، لكن هذه الجماعة لها مواصفات خاصة هي التي تجمعها على فكرة واحدة كأنهم يطوفون حولها ، إنها ليست مطلق جماعة لكنها جماعة تدور حول فكرة واحدة, ويأتي القول الحكيم هنا ليبين لك ما قالوه في نفوسهم ، وما داموا قد قالوا في نفوسهم ، أسمعهم أحد ؟ لا ، ولكن الله أخبر به ، وأخبر بما في نفوسهم جميعا بقول واحد ، مما يدل على أنهم يطوفون حول فكرة واحدة, فالنضح الوجداني يجعلهم يقولون جملة واحدة

هي : ﴿ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ وما داموا سيقولون في نفوسهم فمن الذي سمعهم وهم جماعة ؟ إنه الله – سبحانه – ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

وأنت إذا قلت " طائفة " تجد أنها في عرف اللفظ " مفرد " ، وعندما تجمعها تقول : " طوائف " ، لكن هي لفظ مفرد يدل على جمع ، فمرة يلحظ المفرد ، ومرة يلحظ ما يؤديه المفرد من الجمع . وهذه لا يتنبه إليها إلا البليغ ، فيفرق بينها كلفظ مفرد وبين ما تدل عليه كجمع ، ولذلك تجد هذا في إعجاز القرآن ، فالحق يقول :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُواْ الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

[الحجرات : 9] وحينما يقول : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فهو هنا يأتي بالخبر ، اقتتلتا أو اقتتلوا ؟ إنه سبحانه يقول : ﴿ اقْتَتَلُواْ ﴾ ، اللفظة طائفتان لكن الدقة البلاغية لاحظت أن كل طائفة مكونة من جماعة . ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ ﴾ فماذا نفعل ؟ ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ ، فمرة رجع للجماعة ومرة رجع للاثنين ، ففي ساعة

الاقتتال لا تقف الطائفة بسيف واحد وتضرب ضربة واحدة ، لا ، ففي ساعة القتال كل فرد من الطائفة له عمل ، إذن فالفردية المكونة للطائفة متعددة .

لكن عندما نصلح هل نأتي بكل فرد من هذه الطائفة وبكل فرد من الطائفة الأخرى أو نأخذ هذه الطائفة ممثلة في رؤوسها والطائفة الأخرى ممثلة في رؤسها ونعقد الصلح بين الطائفتين ؟ فدقة القرآن تقول : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ وبعد ذلك يعود الحق للتثنية فيقول : ﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ والصلح يكون بين جماعة ممثلة في قيادة وجماعة أخرى ممثلة في قيادة .

(90/133)

وقوله الحق : ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾ هذا القول يدل على أنها طائفة تدور حول حركة واحدة ، ويدل على أن النفاق نفاق متفق عليه ، وليس كل واحد منهم ينافق في نفسه ، لا إنها طائفة المنافقين ، وقد كوّنوا جماعة ، ولهم سياسة مخصوصة ، ولهم كلام مخصوص ولهم

وحدة قول ، تعرفهم من قول الحق ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ .

ونعرف أن الحق هو الشيء الثابت ، وما دام ثابتا فهو لا يتغير ، وقضية الحق فيه تكون مطردة ، فالله حق ، خلق السماوات والأرض ، وكل الكون بالحق ، أنزل كتابه بالحق ، كله حق ، فهم يظنون بالله غير الحق مع أنه حق ، ونشأ الكون منه بقانون حق ، واستمرت سنن الله في الكون بالحق ، وهو دائما ينصر الحق ، وهم يظنون بالله غير الحق ، يقولون : ربنا لم ينصرنا على الرغم من أنه وعدنا بالنصر ، وتناسوا العناصر التي جعلها الله أسباباً للنصر ، إنها سُنَّة الله وسُنَّة الله تتحقق ولو على أحبابه ، لقد خالفوا أمر الرسول ، فلا بد أن ينهزموا ، فلا مجاملة لأحد ، فالذي يخالف لا بد أن يأخذ جزاءه ؛ لأن هذا هو الحق .

كان يجب أن يقولوا إن الحق واضح لدرجة أن أحبابه ومعهم رسوله حينما خالفوا عن أمر الله الذي قاله الرسول صلى الله عليه وسلم طبق الله عليهم سُنته إذن فهي سنة بالحق ، لكنهم ظنوا بالله ظن الجاهلية ، والمقصود به إما ظن أهل الجاهلية ؛ وإمَّا أن تكون الجاهلية عَلَماً على السَّفه كله ، وهذا الظن له نضح سلوكي .

﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي هل انتصرنا أو ظفرنا أو غلبنا أو أخذنا غنائم ؟ أو يكون قولهم : ﴿ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ مقصودا به : أننا خرجنا إلى المعركة بدون رأينا ؛ فقد كان من رأينا ألا نخرج وأن نظل في المدينة وعندما يدخلونها علينا نحاربهم . ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ هم لم يمتلكوا البصيرة الإيمانية ولم يعرفوا لماذا لم ينصرهم الله ، هم فهموا أنهم لم ينتصروا ؛ لكن في عرف الحق أنه انتصار ؛ لماذا ؟ لأن المعركة أثبتت أن المبدأ إن خولف فلا نصر ، إذن فالإسلام قد انتصر ، ولكن الذي انهزم هم المتخاذلون عن منهج الإسلام ، وهذا نصر للإسلام في ذاته . ولذلك يجب أن نفرق دائما بين المبدأ الإسلامي والمنسوبين للمبدأ .

إياك أن تأخذ الحكم على المبدأ من المنسوبين للمبدأ ، فلا يكون المنسوبون للمبدأ حُجَّة على الحكم في ذاته إلا إذا كانوا ملتزمين به ؛ لأن الله حينما شرع ديناً سمّاه الإسلام ليحكم حركة الحياة في الناس فهو قد قنّن وحرّم فيه أفعالاً ، وما دام قد قنن وحرم فيه أفعالاً فمعناه أن المؤمنين المسلمين الذين انتسبوا له من الممكن أن يخالفوا بأفعالهم تلك الأحكام ، فعندما يقرر الإسلام جلد أو رجم الزاني والزانية ، وحينما يشرع الإسلام قطع يد السارق أو السارقة, وحين يشرع الإسلام تلك العقوبات للجرائم ، فمعنى ذلك أنه من الجائز أن تحدث تلك الجرائم ، فإذا ما حدثت فأنت لا تأخذها من واقع مُجرَّمٍ لتحكم به على الإسلام ، لا

تقل إن الإسلام أباح السرقة بل قل : سرق مسلم ووضع الإسلام عقوبة صارمة عليه وهي قطع يده .

(92/133)

﴿ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾

وهذه هي الفضيحة لهم ، فماذا كانوا يريدون أن يكون لهم ؟ كانوا يريدون ألا يخرجوا للمعركة فقالوا : لو كان لنا من الأمر شيء واتبعنا منطقنا ، لما جئنا الموقعة هنا وحصل لنا ما حصل ، هذه واحدة ، أو لو كان لنا شيء من الظفر الذي وعد الله به محمداً وأصحابه ما قتلنا ها هنا ، فعلى الرأيين يصح المعنى ، فكأنهم أرادوا أن يعللوا القتل أو الموت بأسباب ، ومن الذي قال : إن القتل أو الموت يتعلق بأسباب ؟ إن الموت قضية تطرأ لإعدام الحياة ، وهي مجهولة السبب ومجهولة الزمان ومجهولة المكان ومجهولة العمر .

إذن فما دامت المسألة مجهولة فلماذا ربطتم بين القتل والموقعة ؟ وهل لم تروا إنساناً مات وليس في موقعة ؟ ألم تروا إنساناً قد قُتل وليس في موقعة ؟ لو أن القتل لا ينشأ إلا في مواقع قتال الحرب لكان لكم أن تقولوا هذا ، إنما القتل والموت قضية عامة لها واقع في حياتكم .

هذا الواقع لم يرتبط بأرض ، ولم يرتبط بزمان ، ولم يرتبط بسن ، ولم يرتبط بسبب ، وإنما الموت يأتي لأنك تموت ، انتهت المسألة .

(93/133)

إذن فهم عندما ربطوا القتل والموت بالموقعة فهم قد خرجوا عن القضية الإيمانية . ولذلك يأتي الرد من الحق بأمر واضح للرسول صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ . فكأنك أيها الميت قد تكون أَحْرَص على لقاء الموت من حِرْص الموت عليك . بدليل أننا قلنا : إن الإنسان يكون مريضاً ، ويلح على أن تُجرى له عملية جراحية فيعتذر الطبيب قائلا : عندي عدد كبير من الجراحات فانتظر شهراً ، فيأتي له المريض بوساطة لكي يقبل الطبيب إجراء العملية الجراحية ويلح عليه . ويعلى أجر الطبيب وقد يموت المريض . إذن فهو يلح على الموت أو لا ؟ إنه يلح على الموت .

يقول الحق : ﴿ لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ وكلمة " بَرَزَ " تدل على اندفاع حركي ، فمعنى : بَرَزَ من الصف ؛ يعني أن الصّف له التّئام واقعي ، والذي يبرُز إنما يقوم بحركة مخالفة للصف ، هذه حركة .

﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ والذي يبرز إلى المضجع هو من يخرج من مكان الاستقرار ، وإلاّ فكيف يكون الابتلاء لمن يقدر الله سبحانه أن يحملوا معركة الإسلام إلى أن تقوم الساعة إذا لم تكن هذه المسائل ؟ لا بد أن يكونوا قوماً قد عركتهم التجربة ، مُمحصين بالأحداث حتى لا يكون مأموناً على حمل السلاح في الإسلام إلا هؤلاء الصفوة المختارة .

(94/133)

فساعة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم بالخروج ، وينتهي إلى أن يخرج إلى أُحُد ، نجد جماعة يتخاذلون بوساطة ابن أبي ، هذه أول تصفية ، وبعد ذلك ينقسم الرُماة ، وهذه تصفية أخرى ، فريق يظل وفريق ينزل للغنائم ، وبعد ذلك يُشاع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قُتل ، هذه تصفية ثالثة .

﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

وكلمة " ذات الصدور " معناها صاحبة الصدور . وفي الصدر يحرص الإنسان على إخفاء الأمر الذي يحب أن يحتفظ به لنفسه بِحرْص كحرص الصاحب على صاحبه ،

كأن الصدر حريص على ألا يسلم ما فيه ، ولكن الله سبحانه وتعالى يفضحهم أمام الناس ، ويفضحهم أمام نفوسهم ؛ فقد يجوز أن يكونوا مغشوشين في نفوسهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ 1822.1830 ﴾

(95/133)

" فصل "

قال السيوطى :

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (154)

أخرج ابن جرير عن السدي . " أن المشركين انصرفوا يوم أحد بعد الذي كان من أمرهم وأمر المسلمين ، فواعدوا النبي صلى الله عليه وسلم بدراً من قابل فقال لهم : نعم .

فتخوّف المسلمون أن ينزلوا المدينة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً فقال :

انظر فإن رأيتهم قد قعدوا على أثقالهم ، وجنبوا خيولهم ، فإن القوم ذاهبون . وإن رأيتهم قد قعدوا على خيولهم ، وجنبوا على أثقالهم ، فإن القوم ينزلون المدينة . فاتقوا الله واصبروا ، ووطنهم على القتال . فلما أبصرهم الرسول قعدوا على الأثقال سراعاً عجالاً نادى بأعلى صوته بذهابهم ، فلما رأى المؤمنون ذلك صدقوا نبي الله صلى الله عليه وسلم فناموا ، وبقي الناس من المنافقين يظنون أن القوم يأتونهم فقال الله يذكر حين أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ﴾ " .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال : أمنهم الله يومئذ بنعاس غشاهم ، وإنما ينعس من يأمن .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في الدلائل عن المسور بن مخرمة قال : سألت عبد الرحمن بن عوف عن قول الله ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً ﴾ قال : ألقي علينا النوم يوم أحد .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري والترمذي والنسائي وابن جرير وابن

المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن أنس أن أبا طلحة قال: غشينا ونحن في مصافنا يوم أحد، حدث أنه كان ممن غشيه النعاس يومئذ، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، وسقط وآخذه. فذلك قوله ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم ﴾ والطائفة الأخرى؛ المنافقون ليس لهم هم إلا أنفسهم، أجبن قوم وأرعبه وأخذ له للحق يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية كذبهم إنما هم أهل شك وريبة في الله.

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وصححه والحاكم وصححه وابن مردويه وابن جرير والطبراني وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن الزبير بن العوّام قال: رفعت رأسي يوم أحد فجعلت أنظر وما منهم أحد إلا وهو يميد تحت حجفته من النعاس. فذلك قوله ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً وتلا هذه الآية ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً.

وأخرج الترمذي وصححه وابن جرير وأبو الشيخ والبيهقي في الدلائل عن الزبير بن العوّام قال: رفعت رأسي يوم أحد فجعلت أنظر وما منهم أحد إلا وهو يميد تحت حجفته من النعاس.

وتلا هذه الآية ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً... ﴾ الآية.

وأخرج ابن إسحاق وابن راهويه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن الزبير قال : لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف علينا ، أرسل الله علينا النوم فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره ، فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾ فحفظتها منه ، وفي ذلك أنزل الله ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً ﴾ إلى قوله ﴿ ما قتلنا ههنا ﴾ لقول معتب بن قشير .

وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم أنه قرأ في آل عمران ﴿ أمنة نعاساً تغشى ﴾ بالتاء .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن مسعود قال " النعاس " عند القتال أمنة من الله ، والنعاس في الصلاة من الشيطان .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال : إن المنافقين قالوا لعبد الله بن أبي وكان سيد المنافقين في أنفسهم قتل اليوم بنو الخزرج . فقال : وهل لنا من الأمر شيء ؟ أما والله ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ [المنافقون : 8] وقال ﴿ لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن قتادة والربيع في قوله ﴿ ظن الجاهلية ﴾ قالا : ظن أهل الشرك .

وأخرج ابن إسحق وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال معتب : الذي قال يوم أحد ﴿ لو كان

لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾ فأنزل الله في ذلك من قولهم ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله ﴾ إلى آخر القصة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في قوله ﴿ يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ﴾ كان مما أخفوا في أنفسهم أن قالوا ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه سئل عن هذه الآية فقال : لما قتل من قتل من أصحاب محمد أتوا عبد الله بن أبي فقالوا له : ما ترى ؟ فقال : إنا والله ما نؤامر ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾ .

(98/133)

وأخرج ابن جرير عن الحسن أنه سئل عن قوله ﴿ قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾ قال : كتب الله على المؤمنين أن يقاتلوا في سبيله ، وليس كل من يقاتل يقتل ، ولكن يقتل من كتب الله عليه القتل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 2 صـ 352 . 354 ﴾

(99/133)

"فصل"

قال الإمام نظام الدين النيسابوري في الآيات السابقة :

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (151) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (152) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (153) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (154) ﴾

التفسير : إنه تعالى يذكر في هذه الآيات وجوهاً كثيرة في باب الترغيب في الجهاد وعدم المبالاة بالكفار . من جملتها الوعد بإلقاء الرعب في قلوب الكفرة ، ولا شك أن هذا من معاظم أسباب الاستيلاء ، ثم إن هذا الوعد مخصوص بيوم أحد أو هو عام في جميع الأوقات . الأظهر الثاني كأنه قيل : إنه وإن وقعت لكم هذه الواقعة في يوم أحد إلا أنا سنلقي الرعب في قلوب الكفار بعد ذلك حتى يظهر هذا الدين على سائر الأديان ، ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم

" نصرت بالرعب مسيرة شهر " وذهب كثير من المفسرين إلى أنه مختص بيوم أحد لوروده في مساق تلك القصة . قال السدي : لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجهين إلى مكة ، انطلقوا حتى بلغوا بعض الطريق . ثم إنهم ندموا وقالوا بئسما صنعنا . قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشريد تركناهم ، ارجعوا فاستأصلوهم . فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب في قلوبهم حتى رجعوا عما هموا به ففي ذلك نزلت الآية . وقيل : إن الكفار لما استولوا على المسلمين وهزموهم أوقع الله الرعب في قلوبهم فتركوهم وفروا منهم

من غير سبب حتى روي أن أبا سفيان صعد الجبل من الخوف وقال : أين ابن أبي كبشة - يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم - أين ابن أبي قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟ فأجابه عمر وجرى بينهم من الكلمات ما جرى . والرعب الخوف الذي يملأ القلب فزعاً ومنه سيل راعب إذا ملأ الأودية والأنهار . وإلقاء الرعب في قلوبهم لا يقتضي إلقاء جميع أنواعه فيها وإنما يقتضي وقوع هذه الحقيقة فيها من بعض الوجوه . ولكن ظاهر قوله : ﴿ في قلوب الذين كفروا ﴾ يقتضي وقوع الرعب في قلوب جميع الكفرة وهكذا هو في الواقع لأنه لا أحد يخالف دين الإسلام إلا وفي قلبه خوف المسلمين وهيبتهم . إما في الحرب وإما في المحاجة . وقيل : إنه مخصوص بأولئك الكفار . ﴿ بما أشركوا ﴾ أي بسبب إشراكهم بالله . وفيه وجه معقول وهو أن الدعاء إنما يصير في محل الإجابة عند الاضطرار كما قال : ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ﴾ [النمل : 62] ومن اعتقد أن لله شريكاً لم يحصل له الاضطرار لأنه يقول : إذا كان هذا المعبود لا ينصرني فذاك الآخر ينصرني فلا يحصل له الإجابة . فيلزم الرعب والخوف هذا على تقدير أن معبوديهم يصح منهم الإجابة . كيف وإنهم لا يملكون نفعاً ولا ضراً ؟ ﴿ ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ الهة لم ينزل الله بإشراكها حجة . والتركيب يدل على القدرة والشدة والحدة ومنه يقال للوالي سلطان ، ومنه سلاطة

اللسان ، والسليط الزيت كأنه استخراج بالقهر . قال الجوهري : السلطان بمعنى الحجة والبرهان لا يجمع لأن مجراه مجرى المصدر . وليس المراد أن هناك حجة إلا أنها لم تنزل لأن الشرك لن يقوم عليه حجة ، ولكن المراد نفي الحجة ونزولها جميعاً كقوله :

ولا ترى الضب بها ينجحر . . . قال المتكلمون : التقليد باطل لأن كل ما لا دليل عليه لم يجز إثباته . ومنهم من يبالغ فيقول : ما لا دليل عليه فيجب نفيه . ومنهم من احتج بهذا الحرف على وحدانية الصانع فقال لا سبيل إلى إثبات الصانع إلا باحتياج المحدثات إليه . ويكفي في رفع هذه الحاجة إثبات الصانع الواحد فما زاد لا سبيل إلى إثباته فلم يجز إثباته . أقول : هذا إذا استدللنا بعدم الدليل على وجود الشريك على نفيه ، أما إذا استدللنا بوجود الدليل على نفيه فلا شريك لأجل الدليل ، ولا دليل على الاشتراك لوجود الدليل على نفي الشريك .

(103/133)

ولما ذكر حال الكفرة في الدنيا وهو استيلاء الرعب عليهم أتبعه حالهم في الآخرة فقال :

﴿ ومأواهم ﴾ أي والمكان الذي يأوون إليه ﴿ النار وبئس مثوى الظالمين ﴾ مقام

المشركين من ثوى بالمكان يثوي إذا أقام به ثم أكد وعد إلقاء الرعب بقوله : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم ﴾ تستأصلونهم قتلاً . قال أصحاب الاشتقاق : حَسَّه أي قتله لأنه أبطل حسه بالقتل كما يقال : بطنه إذا أصاب بطنه ، ورأسه إذا أصاب رأسه ﴿ بإذنه ﴾ بعلمه . وقيل : المراد بهذا الوعد أنه صلى الله عليه وسلم رأى في المنام أنه يذبح كبشاً فصدق الله رؤياه بقتل طلحة صاحب لواء المشركين يوم أحد ، وقتل تسعة نفر بعده على اللواء . وقيل : هو ما ذكره من قوله ﴿ إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم ﴾ [آل عمران : 125] إلا أن هذا كان مشروطاً بشرط هو الصبر والتقوى . وقيل : المراد هو أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال للرماة : لا تبرحوا هذا المكان فإنا لا نزال غالبين مادمتم فيه . فلما أقبل المشركون جعل الرماة : يرشقون خليهم والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم يقتلونهم . وقيل : لما رجعوا إلى المدينة قال ناس من المؤمنين : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر فنزلت ﴿ حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم ﴾ قال بعض العلماء : هذا ليس بشرط فلهذا لم يقتض الجواب . والمعنى قد نصركم الله إلى حين كان منكم الفشل لأن وعدهم بالنصر كان مشروطاً بالصبر . وقال آخرون : إنه للمجازاة . ثم اختلفوا في الجزاء على وجوه : أحدها قال البصريون : إنه محذوف كما مر في الوقوف وذلك لدلالة سياق الكلام عليه . وثانيها قال الكوفيون : جوابه وعصيتم ، والواو زائدة . والمراد بالعصيان

خروجهم من ذلك المكان فإن الفشل والتنازع أخرجهم من المكان الذي وقفهم في رسول الله صلى الله عليه وسلم وثالثها قال أبو مسلم : جوابه ثم صرفكم . و " ثم " ههنا كالساقطة .

وقيل : جوابه ما يدل عليه قوله : ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ والتقدير : حتى إذا فشلتم صرتم فريقين . والمراد بالفشل الجبن والخور ، وبالتنازع أن الرماة لما هزم المشركون ونساؤهم يصعدن الجبل وكشفن عن سوقهن بحيث بدت خلاخلهن قالوا : الغنيمة . فقال عبد الله بن جبير أمير الرماة : عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نبرح هذا المكان . فأبوا عليه وذهبوا إلى طلب الغنيمة ، وبقي عبد الله مع طائفة دون العشرة إلى أن قتلهم المشركون . وقوله : ﴿ في الأمر ﴾ إما أن يكون بمعنى الشأن والقصة أي تنازعتم فيما كنتم فيه من الشأن ، أو بمعنى الأمر الذي يضاد النهي أي تنازعتم فيما أمركم الرسول به وعصيتم بترك ملازمة ذلك المكان .

وإنما قدم ذكر الفشل على التنازع والمعصية كأنهم فشلوا في أنفسهم عن الثبات طمعاً في الغنيمة ، ثم تنازعوا من طريق القول في أنا هل نذهب في طلب الغنيمة أم لا ، ثم اشتغل بعضهم بطلب الغنيمة وإنما ورد الخطاب عاماً وإن كانت المعصية بمفارقة ذلك الموضع خاصة بالبعض اعتماداً على المخصص بعده وهو قوله ﴿ ومنك من يريد الآخرة ﴾ وفائدة قوله : ﴿ من بعد ما أراكم ما تحبون ﴾ التنبيه على عظم شأن المعصية لأنهم لما شاهدوا أن الله أكرمهم بإنجاز الوعد كان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية ، فلما أقدموا عليها سلبهم الله ذلك الإكرام وأذاقهم وبال أمرهم . قوله : ﴿ ثم صرفكم عنهم ﴾ قالت الأشاعرة : معنى هذا الصرف أنه تعالى رد المسلمين عن الكفار وحالت الريح دبوراً وكانت صباً حتى وقعت الهزيمة على المسلمين وقتل منهم من قتل واستولى الكفرة . ولا يتوجه عليهم إشكال أن من مذهبهم أن الخير والشر بإرادة الله وتخليقه . وأما المعتزلة فلم يرضوا بهذا التفسير وقالوا : كيف يضيف الصرف بهذا المعنى إلى نفسه والصرف عن الكفار معصية وقد أضافها إلى الشيطان في قوله ﴿ إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ﴾ وأيضاً إنه تعالى عاتبهم على ذلك الانصراف ، ولو كان بفعل الله لم يجز معاتبة القوم عليه كما لا يجوز المعاتبة على طولهم وقصرهم وصحتهم ومرضهم ؟ فعند ذلك ذكروا في تأويل الآية وجوهاً . قال الجبائي : إن الرماة كانوا فريقين : بعضهم فارقوا المكان

أوّلاً لطلب الغنائم ، وبعضهم بقوا هناك إلى أن أحاط بهم العدو ، وعلموا أنهم لو استمروا على المكث هناك لقتلهم العدو من غير فائدة أصلاً ، فلهذا السبب جاز لهم أن يتنحوا عن ذلك الموضع إلى موضع يتحرزون فيه عن العدو . ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب إلى الجبل في جماعة من أصحابه فتحصنوا به ، فلما كان ذلك الانصراف جائزاً أضافة الله إلى نفسه بمعنى أنه كان بأمره وبإذانه . ثم قال ﴿ ليبتليكم ﴾ والمراد أنه

تعالى لما صرفهم إلى ذلك المكان وتحصنوا فيه أمرهم هناك بالجهاد والذب عن بقية المسلمين . ولا شك أن الإقدام على الجهاد بعد الانهزام وبعد أن شاهدوا في تلك المعركة قتل أقاربهم وأحبائهم ، من أعظم أنواع الابتلاء ، فإذن الآية مشتلمة على المعذورين ، في الانصراف وعلى غير المعذورين . فقوله : ﴿ ثم صرفكم عنهم ﴾ يرجع إلى المعذورين ، وقوله ﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ يرجع إلى غير المعذورين . وسبب العفو ما علم من ندمهم على ما فرط منهم من عصيان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الكعبي : ﴿ ثم صرفكم عنهم ﴾ بأن لم يأمركم بمعاودتهم من فورهم ﴿ ليبتليكم ﴾ بكثرة الأنعام عليكم والتخفيف عنكم . وقال أبو مسلم الأصفهاني : المعنى من الصرف نه تعالى أزال ما كان في

قلوب الكفار من الرعب من المسلمين عقوبة لهم على عصيانهم وفشلهم ، ومعنى الابتلاء أنه جعل ذلك الصرف محنة عليهم ليتوبوا عما خالفوا فيه أمره ، ثم أعلمهم أنه قد عفا عنهم .

قال القاضي : ظاهر قوله : ﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ يقتضي تقدم ذنب منهم . فإن كان ذلك الذنب من الصغائر صح أن يصف نفسه بالعفو عنهم من غير توبة ، وإن كان من باب الكبائر فلا بد من إضمار توبتهم لقيام الدلالة على أن صاحب الكبيرة إذا لم يتب لم يكن من أهل العفو . وقالت الأشاعرة : لا شك أن ذلك الذنب كان من الكبائر لأنهم خالفوا صريح نص الرسول ، وصارت تلك المخالفة سبباً لانهزام عسكر الإسلام ولقتل جم غفير من الصحابة . ثم إن ظاهر الآية دل على أنه تعالى قد عفا عنهم من غير توبة لأنها غير مذكورة فصارت الآية دليلاً على أنه قد يعفو عن أصحاب الكبائر . ﴿ والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ يتفضل عليهم بالعفو أو هو متفضل عليهم في جميع الأحوال ، سواء كانت الدولة لهم أو عليهم ، لأن الابتلاء رحمة كما أن النصرة رحمة وقد يستدل بالآية على أن صاحب الكبيرة مؤمن لأنه سماهم مؤمنين خلاف ما يقوله المعتزلة من أنه لا مؤمن ولا كافر .

قوله سبحانه : ﴿ إذ تصعدون ﴾ إما مستأنف بإضمار " واذكر " وإما أن يتعلق بما قبله أي عفا عنكم إذ تصعدون ، لأن ما صدر عنهم من فارقة ذلك الماكن والأخذ في الوادي كالمنهزمين ذنب اقترفوه . أو المعنى ليبتليكم إذ تصعدون ، أو ثم صرفكم حين إصعادكم ، والإصعاد الذهاب في الأرض والإبعاد فيها . قال أبو معاذ النحوي : كل شيء له أسفل وأعلى كالوادي والنهر والأزقة فيقال فيه أصعد إذا أخذ من أسفله إلى اعلاه ، وأما ما ارتفع كالسلم واحبل فإنه يقال صعد ﴿ ولا تلوون على أحد ﴾ لا تلتفتون إليه ، وأصله أن المعرّج على لاشيء يلوي إليه عنقه أو عنان دابته . ﴿ والرسول يدعوكم ﴾ كان يقول : إليّ عباد الله ، أنا رسول الله من كرَّ فله الجنة . فيحتمل أنه كان يدعوهم إلى نفسه حتى يجتمعوا عنده ولا يتفرقوا ، ويحتمل أنه كان يدعوهم إلى محاربة العدو . ﴿ في أخراكم ﴾ في ساقتكم وجماعتكم الأخرى ، لأن القوم بسبب الهزيمة قد تقدموه صلى الله عليه وسلم وبقي هو في الجماعة المتأخرة . يقال : جئت في آخر الناس وأخراهم كما تقول في أوّلهم وأولاهم بتأويل مقدمتهم وجماعتهم الأولى . ﴿ فأثابكم ﴾ قال في الكشاف : إنه عطف على صرفكم . وأقول : لا يبعد أن يعطف على ﴿ تصعدون ﴾ لأنه بمعنى أصعدتم بدليل أن يقال : ثاب إليه أي رجع . والمرأة تسمى ثيباً لأن واطئها عائداً إليها . فأصل الثواب كل ما يعود إلى الفاعل من جزاء فعله خيراً كان أو شراً إلا أن العرف خصه بالخير .

فإن حملنا لفظ الآية على أصل اللغة استقام بلا تأويل ، وإن حملناه على مقتضى العرف كان واردا ً على سبيل التهكم كقولهم : عتابك السيف وتحيتك الضرب . أي جعل مكان ما يرجون من الثواب الغم وهو في الصل التعطية ومنه الغمام ، فكأن الغم يستر وجه اللذة والسرور . والباء في ﴿ بغم ﴾ يحتمل أن تكون بمعنى المعاوضة نحو : بعت هذا بذاك ، ويحتمل أن تكون بمعنى المصاحبة . أما الاحتمال الأول ففيه وجوه : قال الزجاج : إنكم لما أذقتم الرسول غما ً بسبب عصيان أمره ، أذاقكم الله غم الانهزام . وقيل : المجازاة والمعنى جازاكم من ذلك الغم بهذا الغم . وقال الحسن : يريد غم يوم أحد للمسلمين بغم يوم بدر للمشركين . وفي الكشاف : يجوز أن يكون الضمير في ﴿ فأثابكم ﴾ للرسول أي فآساكم في الاغتنام . فكما غمكم ما نزل به من كسر رباعيته وشج وجهه وقتل عمه وغيره ، غمه ما نزل بكم من قتل الأعزة ومن الانضمام في سلك العصاة لطلب الغنيمة ثم الحرمان عنها .

وأما الاحتمال الثاني ففيه وجهان : أحدهما أن يكون هناك غمان : الأوّل ما أصابهم عند الفشل والتنازع ، والثاني ما حصل عند الهزيمة . أو الأول غم فوت الغنائم ، والثاني أن أبا سفيان وخالد بن الوليد اطلعا على المسلمين فحملوا عليهم وقتلوا منهم جمعا ً عظيما ً . أو الأول هذا والثاني خوفهم من رجوع المشركين واستئصال المسلمين . أو الأول ما أصابهم في أنفسهم وأموالهم ، والثاني غم الإرجاف بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم . أو الأول

خوف عقاب المعصية ، والثاني غم التوبة فإنها لا تتم إلا بالعود إلى المحاربة ، وإذا أمر بالمعاودة بعد القلة والذلة فإن فعل غلب على ظنه القتل ، وإن لم يفعل خاف الكفر وعقوبة الآخرة . وثانيهما أن يراد بغم مع مواصلة الغموم وتتابعها وكثرتها ، فيشمل جميع الغموم المعدودة وما ينخرط في سلكها . ثم اللام في قوله : ﴿ لكيلا تحزنوا ﴾ يحتمل أن يتعلق بقوله : ﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ لأن في عفوه تعالى

ما يزيل كل هم وحزن ، وإما أن يتعلق بقوله : ﴿ فأثابكم ﴾ فيكون المعنى على قول الزجاج : إنه عاقبهم بغم الهزيمة ليتمرنوا على تجرع الغموم واحتمال الشدائد فلا يحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ولا على مصيب من المضار ، وليصير ذلك زاجراً لهم عن الإقدام على المعصية والاشتغال بما يخالف أمر الله . وعلى قول الحسن : جعلكم مغمومين يوم أحد في مقابلة ما جعلهم مغمومين يوم بدر لكيلا تحزنوا بإدبار الدنيا ومصائبها ، ولا تفرحوا بإقبالها وعوائده . قالت الأشاعرة : معنى إثابة الغم من الله تعالى خلق الغم فيهم ولا يقبح منه شيء . وأما المعتزلة فإنهم يقولون : الغم فعل العبد لكنه أسند إليه تعالى لأنه طبع العباد طبعاً يغتمون بالمصائب وهم لا يحمدون على ذلك ولا يذمون .

وإن سلم أنه بخلق الله فلرعاية المصالح ، وليس الغرض تسليط الكفار على المسلمين فإن ذلك كفر ومعصية ، ولكن الغرض أن لا يبقى في قلوب المؤمنين اشتغال بغير الله ، ولا يحزنوا بالإدبار ولا يفرحوا بالإقبال . وإن جعل الإثابة مسنداً إلى الرسول فإنما فعل ذلك ليسليهم وينفس عنهم لئلا يحزنوا على ما فاتهم من نصر الله ولا على ما أصابهم من غلبة العدوّ . وإن جعلت الباء بمعنى " مع " فالمعنى كما في قول الزجاج : أو المراد أنكم قلتم لو بقينا في هذا المكان وامتثلنا وقعنا في غم فوت الغنيمة ، فاعلموا أنكم لما خالفتم أمر الرسول وطلبتم الغنيمة وقعتم في غموم أخر كل واحد منها أعظم من ذلك ، فيصير هذا مانعاً لهم من أن يحزنوا على فوات الغنيمة في وقعة أخرى . ثم كما زجرهم على تلك المعصية بزاجر دنيوي زجرهم بزاجر أخروي فقال : ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ عالم بجميع أعمالكم وقصودكم ودواعيكم فيجازيكم بحسب ذلك . ثم أخبر أن الذين كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد فريقان : أحدهما الجازمون بحقية هذا الدين وأن هذه الواقعة لا تؤدي إلى الاستئصال لإخبار الصادق أن هذا الدين سيظهر على سائر لأديان ، فخاطب الجماعة بقوله : ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً ﴾ وأراد هؤلاء بقوله : ﴿

يغشى طائفة منكم ﴾ والأمنة مصدر كالأمن ومثله من المصادر العظمة والغلبة .

والنعاس فتور في أوائل النوم . وانتصاب ﴿ أمنة ﴾ على أنها حال متقدمة من ﴿ نعاساً ﴾ مثل : رأيت راكباً رجلاً ، أو مفعول له بمعنى نعستم أمنة ، أو على أنه حال من المخاطبين بمعنى ذوي أمنة ، أو على أنه جمع آمن كبارّ وبررة ، أو على أنه مفعول ﴿ أنزل ﴾ و ﴿ نعاساً ﴾ بدل منه . قال أبو طلحة : غشانا النعاس ونحن في مصافنا ، فكان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه ثم يسقط فيأخذه وما أحد إلاّ ويميل تحت حجفته . وعن الزبير : كنت مع الرسول صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف فأرسل الله علينا

(111/133)

النوم . والله إني لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني يقول : ﴿ ولو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾ وعن ابن مسعود : النعاس في القتال أمنة ، والنعاس في الصلاة من الشيطان . وذلك أنه في القتال لا يكون إلا من غاية الوثوق بالله والفراغ عن الدنيا ، ولا يكون في الصلاة إلا من غاية البعد عن الله . وكان في ذلك النعاس فوائد منها : أن شموله للمؤمنين كلهم لا في الوقت المعتاد معجزة ظاهرة جديدة له صلى الله عليه وسلم موجبة لزيادة وثوقهم بأن الله ينجز وعده وينصرهم ، فيزداد جدهم واجتهادهم في الجهاد . ومنها أن

الأرق والسهر يوجبان الفتور والكلال ، والنعاس يجدد القوة والنشاط . ومنها شغلهم عن مشاهدة قتل الأعزة والأحبة .

(112/133)

ومنها أن الأعداء كانوا حراصاً متهالكين في قتلهم . فبقاؤهم سالمين في تلك المعركة وهم في النوم من أدل الدلائل على أن حفظ الله ولكلاءته معهم . ومن الناس من زعم أن ذكر النعاس ههنا كناية عن غاية الأمن وهذا صرف للفظ عن ظاهره من غير ضرورة مع أن فيه إبطال الفوائد والحكم المذكورة . واعلم أن من قرأ ﴿ تغشى ﴾ بالتاء فللعود إلى الأمنة ويؤيده أن الأمنة مقصودة بالذات ، والنعاس مقصود بالعرض ، ولأنها متبوع وأنه تابع . ومن قرأ بالياء فللعود إلى النعاس ، وينصره كونه أقرب ، وكون المبدل منه في حكم النحي ، وموافقته لقوله في قصة بدر ﴿ إذ يغشيكم النعاس ﴾ [الأنفال : 11] ولأن العرب تقول : غشية النعاس ، وقلما يقولون غشية الأمن ، ولأن النعاس والأمنة لما كانا شيئاً واحداً كان التذكر أولى . وأما الفريق الثاني فهم المنافقون الذين كانوا في شك من نبوته صلى الله عليه وسلم وما حضروا إلا لطلب الغنيمة كعبد الله بن أبي ومعتب بن قشير ونظرائهم ، فأخبر عنهم بقوله : ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ﴾ ما بهم إلا هَمُّ أنفسهم لا همَّ الدين ولا

همَّ النبي ولا المسلمين . والهمّ الأمر الشديد . ويقال : أهمه ذلك الأمر أي أقلقه وأحزنه . فالمعنى أوقعتهم أنفسهم وما حل بهم في الهموم والأشجان منهم بسبب التشكك وعدم الثبات . والتحقيق فيه أن الإنسان إذا اشتد اشتغاله بالشيء واستغراقه فيه صار غافلاً عما سواه ، فلما كان أحب الأشياء عندهم هو النفس ، وكانت أسباب لاخوف على النفس هناك موجودة والدافع لذلك وهو الوثوق بنصر الله ووعده غير حاصل لهم فلم يكن لهم هناك إلا هَمُّ أنفسهم . ﴿ يظنون بالله غير الحق ﴾ وهو في حكم المصدر أي غير الظن الحق الذي يجب أن يظن به . و ﴿ ظن الجاهلية ﴾ بدل منه . والفائدة في هذا الترتيب أن غير الحق أديان كثيرة ، وأرداها مقالات أهل الجاهلية فذكر أولاً أنهم يظنون بالله ظناً باطلاً ، ثم بين أنهم اختاروا من الأديان أرذلها

(113/133)

كما يقال : فلان دينه ليس بحق دينه دين الملاحدة . أو ﴿ ظن الجاهلية ﴾ مصدر و ﴿ غير الحق ﴾ تأكيد ل ﴿ يظنون ﴾ كقولك : هذا القول غير ما تقول . و ﴿ ظن الجاهلية ﴾ كقولك : حاتم الجود ورجل صدق . مما أضيق للملابسة أي الظن المختص بالملة الجاهلية وهي زمان الفترة قبل الإسلام . أو أريد ظن أهل الجاهلية وهم أهل الشرك

الجاهلون بالله . فالجاهلية مصدر كالعالمية القادرية . قيل : إن ذلك الظن هو أنهم كانوا ينكرون الإله العالم بكل المعلومات القادر على كل المقدورات ، وينكرون النبوة والمعاد ، فلا جرم ما وثقوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم إن الله يقوّيهم وينصرهم . وقيل : الظن هو أنهم كانوا يقولون : لو كان محمد نبياً حقاً لم يسلط الله الكفار عليه ، وهذا ظن فاسد . أما عند أهل السنة فلأنه تعالى فاعل لما يشاء ولا اعتراض لأحد عليه ، وإذا شرف المولى عبده بخلقة لم يجب أن يشرفه بأخرى .

وأما عند من يعتبر المصالح في أفعاله وأحكامه فلا يبعد أن يكون في التخلية بين الكافر والمسلم وغير ذلك من المصائب حكم خفية . ولو كان كون المؤمن محقاً يوجب زوال المصائب عنه اضطر الناس إلى معرفة الحق ، وكان ينافي التكاليف واستحقاق الثواب والعقاب . وإنما يعرف كون الإنسان محقاً بالدلائل والبينات ، ولا يجوز الاستدلال بالدولة والشوكة ووفور القوة والمال والجاه على حقية صاحبها والله أعلم . ﴿ يقولون هل لنا من الأمر من شيء ﴾ حكاية شبهة تمسك بها أهل النفاق فاستفهموا عنها على سبيل الإنكار . وإنما يحتمل وجوها : أحدها هل لنا من التدبير من شيء يعنون رأي عبد الله بن أبي وأن

النبي صلى الله عليه وسلم لم يقبل قوله حين أمره أن يسكن في المدينة ولا يخرج منها . ونظيره ما حكى عنه ﴿ لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ [آل عمران : 168] وثانيها من عادة العرب أنه إذا كانت الدولة لأحد قالوا له الأمر ، وإذا كانت لعدوّه قالوا عليه الأمر . أي هل لنا من الأمر الذي كان يعدنا به محمد وهو النصر والقدرة شيء ؟ وثالثها أنطمع أن يكون لنا الغلبة على هؤلاء ؟ والغرض منه تعيير المسلمين على التسديد في الجهاد ، فأمره الله تعالى أن يجيب عنها بقوله : ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾ والحوادث بأسرها مستندة إلى قضائه وقدره . فإذا كان قدر الخروج إلى الكفار واختصاص جمع من الصحابة بالشهادة فلا مفر من ذلك ، وإذا أراد إعلاء كلمة الإسلام وإظهار هذا الدين على الأديان وقع لا محالة . ﴿ يخفون في أنفسهم ﴾ في ضمائرهم أو فيما بينهم ﴿ ما لا يبدون لك ﴾ وذلك المخفي قولهم : ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾ أي لو كان هذا الدين حقاً لما سلط الله الكفار على من يذب عنه ، ولما قتل من المسلمين من قتل في هذه المعركة ، فأمر الله تعالى نبيه أن يجيبهم بقوله : ﴿ قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾ وهي مصارعهم التي قتلوا فيها ، لأن ما كتب

الله في اللوح لم يكن بد من وجوده . فلو قعدتم في بيوتكم لخرج منكم من كتب الله عليهم أن يقتلوا في المصارع المعلومة حتى يوجد ما علم الله وجوده . وقيل : معناه لو تخلفتم أيها المنافقون عن الجهاد ، لخرج المؤمنون الذين كتب الله عليهم قتال الكفار إلى مصارعهم ولم يتخلفوا عن هذه الطاعة بسبب تخلفكم ، على أن البروز إلى هذه المصارع لا يخلو عن الفوائد وذلك قوله : ﴿ وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم ﴾ خص الابتلاء بما في الصدور والتمحيص بما في القلوب إما لاختلاف العبارة ، وإما لأن الابتلاء محله القلب الذي في الصدر .

(116/133)

والتمحيص مورده الهيئات والعقائد التي في القلب . واعلم أن نسق هذه الآية أنيق ونظمه عجيب . أما نسقه فقوله : ﴿ وطائفة ﴾ مبتدأ و ﴿ أهمتهم ﴾ صفته و ﴿ يظنون ﴾ خبره . ويحتمل أن يكون خبره محذوفاً أي وثمة ، أو ومنهم طائفة أهمتهم ، و ﴿ يظنون ﴾ صفة أخرى ، أو حال بمعنى أهمتهم أنفسهم ظانين ، أو استئناف على وجه البيان للجملة قبلها ، و ﴿ يقولون ﴾ بدل من ﴿ يظنون ﴾ أو بيان له . وإنما صح وقوع القول الذي مقوله إنشاء بدلاً من الإخبار بالظن لأن سؤالهم كان صادراً عن الظن و ﴿ يخفون ﴾

حال من ﴿ يقولون ﴾ و ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾ اعتراض بين الحال وذي الحال ، فمن قرأ ﴿ كله ﴾ بالرفع فلأنه مبتدأ و ﴿ لله ﴾ خبره ، والجملة خبر " إن " . ومن قرأ بالنصب فلكونه تأكيداً للأمر و ﴿ لله ﴾ خبر " إن " كما لو قلت : إن الإمر أجمع لله .

وقوله : ﴿ يقولون ﴾ استئناف ، وقوله : و ﴿ وليبتلي ﴾ تقدم ذكره في الوقوف . وأما نظمه فإنه لما أخبر عن هذه الطائفة بأنهم يظنون ظن الجاهلية ، فسر ذلك الظن بأنهم يقولون هل لنا من الأمر من شيء ، لأن هذا القول لا يصدر إلا عمن كان ظاناً بل شاكاً في حقية هذا الدين وفي المبدأ والمعاد وفي القضاء والقدر ، فأزال ذلك الظن بقوله : ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾ بيده الإماتة والإحياء والفقر والإغناء والسراء والضراء . ثم لما كان سؤالهم ذلك مظنة أن يكون سؤال المؤمنين المسترشدين لا المعاندين المنكرين ، أراد أن يشكف عن حالهم ويبين مقالهم كيلا يغتربه المؤمنون فقال : ﴿ يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ﴾ أي ذلك القول إنما صدر عنهم في هذه الحالة ، فكان لسائل أن يسأل ما الذي يخفونه في أنفسهم ؟ فقيل ﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾ وقد مر تفسيره .

ويحتمل أن يراد : لو كان لنا رأي مطاع لم نخرج من المدينة فلم نقتل ههنا ؟ فيكون كالطعن في قوله : ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾ قال في التفسير الكبير : هذا بعينه هو

المناظرة الدائرة بين السني والمعتزلي . فذاك يقول : الطاعة والعصيان والكفر والإيمان من الله . وهذا يقول : الإنسان مختار مستقل إن شاء آمن وإن شاء كفر . فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يجيب عن هذا الاعتقاد بأن ما قضى الله فهو كائن ، والحذر لا يرد القدر ، والتدبير لا يبطل التقدير . وإن شئتم المصالح ففائدته الابتلاء وهو أن يتميز الموافق عن المنافق ما في المثل : لا تكرهوا الفتن فإنها حصاد المنافقين وتطهير القلوب عن وساوس الشبهات وتبعات المعاصي والسيئات . ثم قال : ﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ صاحبتها وهي الأسرار والضمائر ليعلم أن ابتلاءه ليس لأنه لا يخفى عليه شيء ، وإنما ذلك لمحض الإلهية أو للاستصلاح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 2 صـ 278 . 287 ﴾

(118/133)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (121) ﴾

إلى قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (154) ﴾

من معركة الجدل والمناظرة، والبيان والتنوير، والتوجيه والتحذير - فيما سبق من السورة - ينتقل السياق إلى المعركة في الميدان.. معركة أحد..

وغزوة أحد لم تكن معركة في الميدان وحده؛ إنما كانت معركة كذلك في الضمير.. كانت معركة ميدانها أوسع الميادين. لأن ميدان القتال فيها لم يكن إلا جانباً واحداً من ميدانها الهائل الذي دارت فيه.. ميدان النفس البشرية، وتصوراتها ومشاعرها، وأطماعها وشهواتها، ودوافعها وكوابحها، على العموم.. وكان القرآن هناك. يعالج هذه النفس بألطف وأعمق، وبأفعل وأشمل ما يعالج المحاربون أقرانهم في النزال!

وكان النصر أولاً ، وكانت الهزيمة ثانياً وكان الانتصار الكبير فيها بعد النصر والهزيمة . . انتصار المعرفة الواضحة والرؤية المستنيرة للحقائق التي جلاها القرآن ؛ واستقرار المشاعر على هذه الحقائق استقرار اليقين . وتمحيص النفوس ، وتمييز الصفوف ، وانطلاق الجماعة المسلمة – بعد ذلك – متحررة من كثير من غبش التصور ، وتميع القيم ، وتأرجح المشاعر ، في الصف المسلم . وذلك بتميز المنافقين في الصف إلى حد كبير ، ووضوح سمات النفاق وسمات الصدق ، في القول والفعل ، وفي الشعور والسلوك . ووضوح تكاليف الإيمان ، وتكاليف الدعوة إليه والحركة به ، ومقتضيات ذلك كله من الاستعداد بالمعرفة ، والاستعداد بالتجرد ، والاستعداد بالتنظيم ، والتزام الطاعة والاتباع بعد هذا كله ، والتوكل على الله وحده ، في كل خطوة من خطوات الطريق ، ورد الأمر إلى الله وحده في النصر والهزيمة ، وفي الموت والحياة ، وفي كل أمر وفي كل اتجاه .

وكانت هذه الحصيلة الضخمة التي استقرت في الجماعة المسلمة من وراء الأحداث ، ومن وراء التوجيهات القرآنية بعد الأحداث ، أكبر وأخطر – بما لا يقاس – من حصيلة النصر

والغنيمة . . لو عاد المسلمون من الغزوة بالنصر والغنيمة . . وقد كانت الجماعة المسلمة إذ ذاك أحوج ما تكون لهذه الحصيلة الضخمة . . كانت أحوج إليها ألف مرة من حصيلة النصر والغنيمة . وكان الرصيد الباقي منها للأمة المسلمة في كل جيل أهم وأبقى كذلك من حصيلة النصر والغنيمة . وكان تدبير الله العلوي من وراء ما بدا في الموقعة من ظواهر النقص والضعف والتميع والغبش في الصف المسلم ، ومن وراء الهزيمة التي نشأت عن هذه الظواهر . . كان تدبير الله العلوي من وراء هذا الذي وقع وفق سنة الله الجارية ، حسب أسبابه الطبيعية الظاهرة ، تدبيراً كله الخير للجماعة المسلمة في ذلك الحين ، لتنال هذه الحصيلة الضخمة من العبرة والتربية ، والوعي والنضج ، والتمحيص والتميز ، والتنسيق والتنظيم . وليبقى للأمة المسلمة في أجيالها المتعاقبة هذا الرصيد من التجارب والحقائق والتوجيهات التي لا تقدر بثمن . ولو كان هذا الثمن هو النصر والغنيمة !

لقد انتهت المعركة في ميدان الأرض ، ليبدأها القرآن في ميدانها الأكبر : ميدان النفس ، وميدان الحياة الشاملة للجماعة المسلمة .

وصنع بهذه الجماعة ما تصنعه يد الله ، عن علم وعن حكمة ، وعن خبرة ، وعن بصيرة . وكان ما شاءه الله وما دبره . وكان فيه الخير العظيم ، من وراء الضر والأذى والابتلاء الشاق المرير .

ولعل مما يلفت النظر في التعقيب القرآني على أحداث المعركة هو ذلك الازدواج العجيب

بين استعراض مشاهدها ووقائعها ، والتوجيهات المباشرة على هذه المشاهد والوقائع . . وبين التوجيهات الأخرى المتعلقة بتصفية النفوس ، وتخليصها من غبش التصور ، وتحريرها من ربقة الشهوات ، وثقلة المطامع ، وظلام الأحقاد ، وظلمة الخطيئة ، وضعف الحرص والشح . والرغبات الدفينة .

(121/133)

ولعل مما يلفت النظر أكثر ، الكلام – في صدد التعقيب على معركة حربية – عن الربا والنهي عنه ، وعن الشورى والأخذ بها ، على الرغم مما كان للشورى من معقبات ظاهرية في النتائج السيئة للمعركة !

ثم . . سعة المساحة التي يعمل فيها المنهج القرآني في النفس البشرية ، وفي الحياة الإنسانية ، وتعدد نقط الحركة فيها ، وتداخلها ، وتكاملها العجيب . .

ولكن الذين يدركون طبيعة هذا المنهج الرباني لا يعجبون لشيء من ذلك الازدواج وهذه السعة ، وهذا التداخل ، وهذا التكامل . فالمعركة الحربية في الحركة الإسلامية ليست معركة أسلحة وخيل ورجال وعدة وعتاد ، وتدبير حربي فحسب . . فهذه المعركة الجزئية ليست منعزلة عن المعركة الكبرى في عالم الضمير ، وعالم التنظيم الاجتماعي

للجماعة المسلمة . . إنها ذات ارتباط وثيق بصفاء ذلك الضمير ، وخلوصه ، وتجرده ، وتحرره من الأوهاق والقيود التي تطمس على شفافيته ، وتقعد به دون الفرار إلى الله !

وكذلك هي ذات ارتباط وثيق بالأوضاع التنظيمية التي تقوم عليها حياة الجماعة المسلمة ، وفق منهج الله القويم . المنهج الذي يقوم على الشورى في الحياة كلها - لا في نظام الحكم وحده - وعلى النظام التعاوني لا النظام الربوي . والتعاون والربا لا يجتمعان في نظام !

(122/133)

والقرآن كان يعالج الجماعة المسلمة ، على إثر معركة لم تكن - كما قلنا - معركة في ميدان القتال وحده . إنما كانت معركة في الميدان الأكبر . ميدان النفس البشرية ، وميدان الحياة الواقعية . . ومن ثم عرج على الربا فنهى عنه ؛ وعرج على الإنفاق في السراء والضراء فحض عليه ؛ وعرج على طاعة الله ورسوله فجعلها مناط الرحمة ؛ وعرج على كظم الغيظ والعفو عن الناس ، وعلى الإحسان والتطهر من الخطيئة بالاستغفار ، والتوبة وعدم الإصرار ؛ فجعلها كلها مناط الرضوان . كما عرج على رحمة الله المتمثلة في رحمة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولين قلبه للناس . وعلى مبدأ الشورى وتقريره في أحرج الأوقات . وعلى الأمانة التي تمنع الغلول . وعلى البذل والتحذير من البخل في نهاية ما نزل في

التعقيب على الغزوة من آيات . .

عرج على هذا كله . لأنه مادة إعداد الجماعة المسلمة للمعركة في نطاقها الواسع ؛ الذي يتضمن المعركة الحربية في إطاره ولا يقتصر عليها . معركة التعبئة الكاملة للانتصار الكبير . الانتصار على النفس والشهوات والمطامع والأحقاد ، والانتصار في تقرير القيم والأوضاع السليمة لحياة الجماعة الشاملة .

وعرج على هذا كله ليشير إلى وحدة هذه العقيدة في مواجهة الكينونة البشرية ونشاطها كله . ورده كله إلى محور واحد : محور العبادة لله ، والعبودية له ، والتوجه إليه في حساسية وتقوى . وإلى وحدة منهج الله في الهيمنة على الكينونة البشرية كلها ، في كل حال من أحوالها . وإلى الترابط بين جميع هذه الأحوال في ظل هذا المنهج . وإلى وحدة النتائج النهائية للنشاط الإنساني كله ، وتأثير كل حركة من حركات النفس ، وكل جزئية من جزئيات التنظيم في هذه النتائج النهائية .

وإذن فهذه التوجيهات الشاملة ليست بمعزل عن المعركة . فالنفس لا تنتصر في المعركة الحربية إلا حين تنتصر في المعارك الشعورية والأخلاقية والنظامية ، والذين تولوا يوم التقى

الجمعان في " أحد " إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا من الذنوب . والذين انتصروا في معارك العقيدة وراء أنبيائهم هم الذين بدأوا المعركة بالاستغفار من الذنوب ، والالتجاء إلى الله ، والالتصاق بركنه الركين . والتطهر من الذنوب إذن والالتصاق بالله ، والرجوع إلى كنفه من عدة النصر ، وليست بمعزل عن الميدان ! واطراح النظام الربوي . إلى النظام التعاوني من عدة النصر ؛ والمجتمع التعاوني أقرب إلى النصر من المجتمع الربوي . وكظم الغيظ والعفو عن الناس من عدة النصر ، فالسيطرة على النفس قوة من قوى المعركة ، والتضامن والتواد في المجتمع المتسامح قوة ذات فاعلية كذلك .

كذلك كان من الحقائق التي اتكأ عليها السياق من بدئه إلى نهايته . . حقيقة قدر الله . ورد الأمر إليه جملة . وتصحيح التصور في هذه النقطة تصحيحاً حاسماً جازماً وفي الوقت ذاته تقرير سنة الله في ترتيب العواقب التي تحل بالبشر على ما يصدر من سعيهم ونشاطهم ، وخطئهم وإصابتهم ، وطاعتهم ومعصيتهم ، وتمسكهم بالمنهج وتفريطهم فيه . واعتبارهم بعد هذا كله ستاراً للقدرة ، وأداة للمشيئة ، وقدراً من قدر الله يحقق به ما يشاء سبحانه .

ثم . . في النهاية . . إشعار الجماعة المسلمة أن ليس لها من أمر النصر شيء . إنما هو تدبير الله لتنفيذ قدره ، من خلال جهادها . وأجرها هي على الله . وليس لها من ثمار النصر شيء من أشياء هذه الأرض . ولا لحسابها الخاص يؤتيها الله النصر إذ يشاء . إنما لحساب الأهداف العليا التي يشاؤها الله . وكذلك الهزيمة . فإنها حين تقع بناء على جريان سنة الله ، وفق ما يقع من الجماعة المسلمة من تقصير وتفريط ، إنما تقع لتحقيق غايات يقدرها الله بحكمته وعلمه ؛ لتمحيص النفوس وتمييز الصفوف ، وتجلية الحقائق ، وإقرار القيم ، وإقامة الموازين ، وجلاء السنن للمستبصرين . .

ولا قيمة ولا وزن في نظر الإسلام للانتصار العسكري أو السياسي أو الاقتصادي ؛ ما لم يقم هذا كله على أساس المنهج الرباني ، في الانتصار على النفس ، والغلبة على الهوى ، والفوز على الشهوة .

وتقرير الحق الذي أراده الله في حياة الناس . ليكون كل نصر نصراً لله ولمنهج الله . وليكون كل جهد في سبيل الله ومنهج الله . وإلا فهي جاهلية تنتصر على جاهلية . ولا خير فيها للحياة ولا للبشرية . إنما الخير أن ترتفع راية الحق لذات الحق . والحق واحد لا يتعدد . إنه

منهج الله وحده . ولا حق في هذا الكون غيره . وانتصاره لا يتم حتى يتم أولاً في ميدان النفس البشرية . وفي نظام الحياة الواقعية . وحين تخلص النفس من حظ ذاتها في ذاتها ، ومن مطامعها وشهواتها ، ومن أدرانها وأحقادها ، ومن قيودها وأصفادها . وحين تفر إلى الله متحررة من هذه الأثقال والأوهاق . وحين تنسلخ من قوتها ومن وسائلها ومن أسبابها ، لتكل الأمر كله إلى الله ، بعد الوفاء بواجبها من الجهد والحركة . وحين تحكم منهج الله في الأمر كله ، وتعد هذا التحكيم هو غاية جهادها وانتصارها . حين يتم هذا كله يحتسب الانتصار في المعركة الحربية أو السياسية أو الاقتصادية انتصاراً في ميزان الله . وإلا فهو انتصار الجاهلية على الجاهلية ، الذي لا وزن له عند الله ولا قيمة !

ومن ثم كان ذلك الازدواج ، وكان ذلك الشمول ، في التعقيب على المعركة التي دارت يوم أحد ، في ذلك الميدان الفسيح ، الذي يعد ميدان القتال جانباً واحداً من جوانبه الكثيرة . وقبل أن نأخذ في استعراض ذلك التعقيب القرآني على أحداث المعركة يحسن أن نلخص وقائعها كما وردت في روايات السيرة ؛ لندرك مواضع التعقيب والتوجيه حق الإدراك ، ولنراقب طريقة التربية الإلهية بالقرآن الكريم ، في تناول الوقائع والأحداث :

كان المسلمون قد انتصروا في بدر ، ذلك الانتصار الكامل ، الذي تبدو فيه – في ظل الظروف التي وقع فيها – رائحة المعجزة . وقد قتل الله بأيديهم أئمة الكفر ورءوسه من قريش . فرأس في قريش أبو سفيان بن حرب – بعد ذهاب أشرافهم في بدر – فأخذ يؤلب على المسلمين لأخذ الثأر . وكانت القافلة التي تحمل متاجر قريش قد نجت فلم تقع في أيدي المسلمين ؛ فتآمر المشركون على رصد ما فيها من أموال لحرب المسلمين .

وقد جمع أبو سفيان قريبا من ثلاثة آلاف من قريش وأحلافهم والأحابيش وخرج بهم في شوال من السنة الثالثة للهجرة ؛ وجاءوا معهم بنسائهم ليحاموا عنهن ولا يفروا . ثم أقبل بهم نحو المدينة ، فنزل قريباً من جبل أحد .

" واستشار رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أصحابه : أيخرج إليهم ، أم يمكث في المدينة ؟ وكان رأيه ألاَّ يخرجوا من المدينة ، وأن يتحصنوا بها ؛ فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة ، والنساء من فوق البيوت . ووافقه على هذا الرأي عبد الله بن أبي (رأس المنافقين) فبادرت جماعة كبيرة من الصحابة – ومعظمهم من الشبان ممن فاتهم يوم بدر – فأشاروا عليه بالخروج وألحوا عليه في ذلك . حتى بدا أن هذا هو الرأي السائد في الجماعة . فنهض – صلى الله عليه وسلم – ودخل بيته – بيت عائشة – رضي الله عنها – ولبس لأمته ، وخرج عليهم ، وقد انثنى عزم أولئك . وقالوا : أكرهنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على الخروج ! فقالوا : يا رسول الله ، إن أحببت أن تمكث في

المدينة فافعل . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه "

. وألقى عليهم بذلك درسا نبويا عاليا ؛ فللشورى وقتها حتى إذا انتهت جاء وقت العزم والمضي والتوكل على الله . ولم يعد هناك مجال للتردد ، وإعادة الشورى والتأرجح بين الآراء . . إنما تمضي الأمور لغاياتها ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء . .

(127/133)

وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد رأى في منامه : أن في سيفه ثلمة ، ورأى أن بقراً تذبح ، وأنه أدخل يده في درع حصينة . . فتأول الثلمة في سيفه برجل يصاب من أهل بيته . وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون . وتأول الدرع بالمدينة . . وكان إذن يرى عاقبة المعركة . ولكنه في الوقت ذاته كان يمضي نظام الشورى ، ونظام الحركة بعد الشورى . .

لقد كان يربي أمة . والأمم تربى بالأحداث ، وبرصيد التجارب الذي تتمخض عنه الأحداث . . ثم لقد كان يُمضي قدر الله ، الذي تستقر عليه مشاعره ، ويستقر عليه قلبه ، فيمضي وفق مواقع هذا القدر ، كما يحسها في قلبه الموصول . .

وخرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في ألف من أصحابه ، واستعمل ابن أم مكتوم

على الصلاة بمن بقي في المدينة ، فلما صار بين المدينة وأحد ، انعزل رأس النفاق : عبد الله بن أبي بنحو ثلث العسكر . وقال : يخالفني ويسمع للفتية ! فتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام – والد جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – يوبخهم ويحضهم على الرجوع . ويقول : تعالوا قاتلوا في سبيل الله ، أو ادفعوا . قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع ! فرجع عنهم وسبهم .

وسأله قوم من الأنصار أن يستعينوا بحلفائهم من يهود . . فأبى – صلى الله عليه وسلم – فالمعركة هي معركة الإيمان والكفر فما ليهود بها ؟ والنصر من عند الله – حين يصح التوكل عليه وتتجرد القلوب له – وقال : " من رجل يخرج بنا على القوم من كثب ؟ " فخرج به بعض الأنصار حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي ، وجعل ظهره إلى أحد ، ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم .

فلما أصبح تعبأ للقتال في سبعمائة ، فيهم خمسون فارساً ، واستعمل على الرماة – وكانوا خمسين – عبد الله ابن جبير ، وأمره وأصحابه أن يلزموا مركزهم ، وألا يفارقوه ولو رأوا الطير تتخطف العسكر .

وكانوا خلف الجيش . وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم .

وظاهر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بين درعين. وأعطى اللواء مصعب بن عمير. وجعل على إحدى المجنبتين الزبير بن العوام، وعلى الأخرى المنذر بن عمرو.

واستعرض الشبان يومئذ، فرد من استصغره عن القتال. وكان منهم عبد الله بن عمرو، وأسامة بن زيد، وأسيد بن ظهير، والبراء بن عازب، وزيد ابن أرقم، وزيد بن ثابت، وعرابة بن أوس، وعمرو بن حزام. وأجاز من رآه مطيقاً. وكان منهم سمرة بن جندب، ورافع بن خديج، ولهما خمس عشرة سنة!

وتعبأت قريش للقتال وهم في ثلاثة آلاف. وفيهم مائتا فارس. فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل.

ودفع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سيفه إلى أبي دجانة سماك بن خرشة. وكان شجاعاً بطلاً يختال عند الحرب.

وكان أول من بدر من المشركين أبو عامر الفاسق. وكان يسمى "الراهب" فسماه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – "الفاسق". وكان رأس الأوس في الجاهلية. فلما جاء الإسلام شرق به، وجاهر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالعداوة، فخرج من المدينة، وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ويحضهم على قتاله. ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ومالوا معه. فكان أول من لقي المسلمين.

فنادى قومه ، وتعرف إليهم . فقالوا له : لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق ! فقال : لقد أصاب قومي بعدي شر ! ثم قاتل المسلمين قتالاً شديداً .

ولما نشب القتال أبلى أبو دجانة الأنصاري بلاء حسناً . هو وطلحة بن عبيد الله ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعلي بن أبي طالب ، والنضر بن أنس ، وسعد بن الربيع . .

وكانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار ؛ حيث قتل من هؤلاء سبعون من صناديدهم . وانهزم أعداء الله وولوا مدبرين . حتى انتهوا إلى نسائهم . وحتى شمرت النساء ثيابهن عن أرجلهن هاربات !

فلم رأى الرماة هزيمة المشركين وانكشافهم ، تركوا مراكزهم التي أمرهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ألا يبرحوها وقالوا : يا قوم ، الغنيمة ! الغنيمة ! فذكرهم أميرهم عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فلم يسمعوا ، وظنوا أن ليس للمشركين رجعة ! فذهبوا في طلب الغنيمة ، وأخلوا الثغر في أحد !

عندئذ أدركها خالد ، فكّر في خيل المشركين ، فوجدوا الثغر خالياً فاحتلوه من خلف ظهور المسلمين . وأقبل المنهزمون من المشركين حين رأوا خالداً والفرسان قد علوا

المسلمين ، فأحاطوا بهم !

وانقلبت المعركة ، فدارت الدائرة على المسلمين ، ووقع الهرج والمرج في الصف ، واستولى الاضطراب والذعر ، لهول المفاجأة التي لم يتوقعها أحد .

وكثر القتل واستشهد من المسلمين من كتب الله له الشهادة . وخلص المشركون إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقد أفرد إلا من نفر يعدون على الأصابع قاتلوا عنه حتى قتلوا . وقد جرح وجهه – صلى الله عليه وسلم – وكسرت سنه الرباعية اليمنى في الفك الأسفل . وهشمت البيضة على رأسه . ورماه المشركون بالحجارة حتى وقع لجنبه ، وسقط في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق قد حفرها وغطاها ! يكيد بها المسلمين . وغاصت حلقتان من حلق المغفر في وجنته .

وفي وسط هذا الهول المحيط بالمسلمين صاح صائح : أن محمداً قتل . . فكانت الطامة التي هدت ما بقي من قواهم ، فانقلبوا على أعقابهم مهزومين هزيمة منكرة لا يحاولون قتالاً ، مما أصابهم من اليأس والكلال !

ولما انهزم الناس لم ينهزم أنس بن النضر – رضي الله عنه – وقد انتهى إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا بأيديهم ! فقال : ما يجلسكم ؟ فقالوا : قتل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ فقوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثم استقبل المشركين ولقي سعد بن معاذ فقال : يا سعد واها لريح الجنة إني أجدها من دون أحد ! فقاتل حتى قتل . . ووجد به بضع وسبعون ضربة . ولم تعرفه إلا أخته . عرفته ببنانه . . وأقبل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نحو المسلمين . وكان أول من عرفه تحت المغفر ، كعب بن مالك . فصاح بأعلى صوته : يا معشر المسلمين . أبشروا . هذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " فأشار بيده : أن اسكت " واجتمع إليه المسلمون . ونهضوا معه إلى الشعب . وفيهم أبو بكر وعمر والحارث بن الصمة الأنصاري وغيرهم . . فلما امتدوا صعوداً في الجبل أدرك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أبي بن خلف على جواد له اسمه العود . كان يطعمه في مكة ويقول : أقتل عليه محمداً . فلما سمع بذلك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " بل أنا أقتله إن شاء الله . . فلما أدركه تناول – صلى الله عليه وسلم – الحربة من الحارث وطعن بها عدو الله في ترقوته " فذهب يخور كالثور . وقد أيقن أنه مقتول . كما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من قبل ! ومات بالفعل في طريق عودته !

وأشرف أبو سفيان على الجبل فنادى : أفيكم محمد ؟ " فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا تجيبوه " فقال : أفيكم ابن أبي قحافة ؟ فلم يجيبوه . فقال : أفيكم عمر بن الخطاب ؟ فلم يجيبوه . ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة .

(131/133)

فقال : مخاطباً قومه : أما هؤلاء فقد كفيتموهم . فلم يملك عمر – رضي الله عنه – نفسه أن قال : يا عدو الله . إن الذين ذكرتهم أحياء . وقد أبقى الله لك ما يسوؤك ! فقال : قد كان في القوم مثلة ، لم آمر بها ولم تسؤني ! (يشير بذلك إلى ما صنعته زوجه هند بجثمان حمزة – رضي الله عنه – بعد أن قتله وحشي . حين بقرت بطنه ، واستخرجت كبده . فلاكتها ثمّ لفظتها !)

ثم قال : اعل هُبل ! فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " ألا تجيبونه ؟ قالوا : بماذا نجيبه ؟ قال : قولوا : الله أعلى وأجل . قال : لنا العزى ولا عزى لكم ! قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ألا تجيبونه ؟ قالوا : بماذا نجيبه ؟ قال : قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم " . قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر والحرب سجال . فقال عمر – رضي الله عنه – : لا سواء . قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار .

ولما انقضت المعركة انصرف المشركون ، فظن المسلمون أنهم قصدوا المدينة لسبي الذراري وإحراز الأموال . فشق ذلك عليهم . فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – لعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه – " أخرج في آثار القوم ، فانظر ماذا يصنعون ، وماذا يريدون . فإن هم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة . وإن كانوا ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة . فوالذي نفسي بيده لو أرادوها لأسيرن إليهم ثم لأناجزهم فيها " .

قال علي : فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون . فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل ، ووجهوا مكة .

(132/133)

فلما كانوا في بعض الطريق تلاوموا فيما بينهم ، وقال بعضهم : لم تصنعوا شيئاً ، أصبتم شوكتهم وحدهم ، ثم تركتموهم وقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم . فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم . . فبلغ ذلك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فنادى في الناس ، وندبهم إلى المسير إلى لقاء عدوهم وقال : " لا يخرج معنا إلا من شهد القتال . " فقال له عبد الله بن أبي : أركب معك . قال : " لا " فاستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح

الشديد والخوف ؛ وقالوا : سمعاً وطاعة . وأستأذنه جابر بن عبد الله . وقال : يا رسول الله إني أحب ألا تشهد مشهداً إلا كنت معك ، وإنما خلفني أبي على بناته يوم أحد ، فأذن لي أسير معك ، فأذن له ، فسار رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والمسلمون معه حتى بلغوا حمراء الأسد ؛ وأقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأمره أن يلحق بأبي سفيان فيخذّله ، فلحقه بالروحاء ، ولم يعلم بإسلامه ، فقال : وما وراءك يا معبد ؟ فقال : محمد وأصحابه قد تحرقوا عليكم ، وخرجوا في جمع لم يخرجوا في مثله ، وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم .

فقال : ما تقول ؟ فقال : ما أرى أن ترتحل حتى يطلع الجيش وراء هذه الأكمة ! فقال أبو سفيان : والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم . قال : فلا تفعل فإني لك ناصح ! فرجعوا على أعقابهم إلى مكة .

ولقي أبو سفيان بعض المشركين يريدون المدينة ؛ فقال : هل لك أن تبلغ محمداً رسالة ، وأوقر لك راحلتك زبيباً إذا أتيت إلى مكة ؟ قال : نعم . قال : أبلغ محمداً أنا قد جمعنا الكرة لنستأصله ونستأصل أصحابه . فلما بلغهم قوله قالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . ولم يفت ذلك في عضدهم . وأقاموا ثلاثة أيام ينتظرون . ثم عرفوا أن المشركين أبعدوا في طريقهم إلى مكة منصرفين فعادوا إلى المدينة . .

وبعد فإن هذا الملخص لأحداث الغزوة لا يصور كل جوانبها ، ولا يسجل كل ما وقع فيها ، مما هو موضع المثل والعبرة . . ومن ثم نذكر بعض الوقائع الموحية ، تكملة لرسم الجو واستحيائه :

كان عمرو ابن قميئة من المشركين الذين خلصوا إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين أفرد في فترة اضطراب المعركة ، عقب تخلي الرماة عن أماكنهم ، وإحاطة الكفار بالمسلمين ، والصيحة بأن محمداً قتل ، وما صنعته في صفوف المسلمين وعزائمهم .

وفي هذه الغمرة التي يطيش فيها الحليم كانت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية تقاتل عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قتالاً شديداً . وقد ضربت عمر بن قميئة بسيفها ضربات عدة ، ولكن وقته درعان كانتا عليه . وضربها هو بالسيف فجرحها جرحاً شديداً على عاتقها . .

وكان أبو دجانة يترّس بظهره على النبي – صلى الله عليه وسلم – والنبل يقع فيه ، وهو لا يتحرك ، ولا يكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان طلحة بن عبيد الله يثوب سريعاً إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ويقف دونه وحده ، حتى يصرع . . في صحيح ابن حبان عن عائشة قالت : " قال أبو بكر الصديق : لما كان يوم أحد ، انصرف الناس كلهم عن النبي – صلى الله عليه وسلم – فكنت أول من فاء إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فرأيت بين يديه رجلاً يقاتل عنه ويحميه . قلت : كن طلحة ! فداك أبي وأمي ! كن طلحة ! فداك أبي وأمي ! فلم أنشب أن أدركني أبو عبيدة بن الجراح . وإذا هو يشتد كأنه طير ، حتى لحقني ، فدفعنا إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فإذا طلحة بين يديه صريعاً . فقال صلى الله عليه وسلم : " دونكم أخاكم فقد أوجب " وقد رُمي النبي – صلى الله عليه وسلم – في وجنته ، حتى غابت حلقة من حلق المغفر في وجنته . فذهبت لأنزعها عن النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال أبو عبيدة : نشدتك الله يا أبا بكر إلا تركتني ! قال : فأخذ أبو عبيدة السهم بفيه ، فجعل ينضنضه كراهة أن يؤذي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثم استل السهم بفيه ، فندرت ثنية أبي عبيدة . قال أبو بكر : ثم ذهبت لآخذ الآخر ، فقال أبو عبيدة : نشدتك الله يا أبا بكر إلا تركتني ! قال : فأخذه ، فجعل ينضنضه حتى استله ، فندرت ثنية أبي عبيدة الأخرى . . ثم قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " دونكم أخاكم فقد أوجب " قال : فأقبلنا على طلحة نعالجه . وقد أصابته بضع عشرة ضربة .

وجاء علي – كرم الله وجهه – بالماء لغسل جرح رسول الله – صلى الله عليه وسلم –

فكان يصب الماء على الجرح، وفاطمة – رضي الله عنها – تغسله . فلما رأت أن الدم لا يكف، أخذت قطعة من حصير، فأحرقتها ، فألصقتها بالجرح فاستمسك الدم .

(135/133)

وقد مصّ مالك والد أبي سعيد الخدري جرح رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى أنقاه . فقال له : " مجه " فقال : والله لا أمجه أبداً ! ثم ذهب ، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا " .

وفي صحيح مسلم " أنه – صلى الله عليه وسلم – أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش . فلما رهقوه قال : من يردهم عني وله الجنة ؟ فتقدم رجل من الأنصار ، فقاتل حتى قتل . ثم رهقوه فقال : من يردهم ني فله الجنة وهو رفيقي في الجنة . . فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما انصفنا أصحابنا . . ثم جالدهم طلحة حتى أجهضهم عنه " وترس عليه أبو دجانة بظهره كما أسلفنا ، حتى انجلت الكربة . . وقد بلغ الإعياء برسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه وهو يصعد الجبل والمشركون يتبعونه أراد أن يعلو صخرة فلم يستطع لما به ، فجلس طلحة تحته حتى صعدها . وحانت الصلاة . فصلى بهم جالساً .

ومن أحداث هذا اليوم كذلك :

إن حنظلة الأنصاري (الملقب بحنظلة الغسيل) شد على أبي سفيان ، فلما تمكن منه حمل على حنظلة شداد ابن الأسود فقتله . وكان جنباً . فإنه لما سمع صيحة الحرب وهو مع امرأته ، قام من فوره إلى الجهاد . فأخبر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أصحابه أن الملائكة تغسله . ثم قال : سلوا أهله ما شأنه ؟ فسألوا امرأته ، فأخبرتهم الخبر !

وقال زيد بن ثابت : بعثني رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوم أحد أطلب سعد بن الربيع . قال : فجعلت أطوف بين القتلى ، فأتيته وهو بآخر رمق ، وبه سبعون ضربة ، ما بين طعنة برمح ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم .

فقلت : " يا سعد . إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : أخبرني كيف تجدك ؟ فقال : وعلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – السلام . قل له : يا رسول الله أجد ريح الجنة . وقل لقومي الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن خُلص إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفيكم عين تطرف " . وفاضت نفسه من وقته .

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار ، وهو يتشحط في دمه ، فقال : يا فلان .

أشعرت أن محمداً قد قتل ؟ فقال الأنصاري : إن كان محمد قد قتل فقد بلغ ، فقاتلوا عن دينكم .

" وقال عبد الله بن عمرو بن حرام : رأيت في النوم ، قبل أُحد ، مبشر بن عبد المنذر يقول لي : أنت قادم علينا في أيام . فقلت . وأين أنت ؟ فقال : في الجنة ، نسرح فيها حيث نشاء . قلت له ألم تقتل يوم بدر ؟ فقال : بلى . ثم أحييت . فذكرت ذلك لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : هذه الشهادة يا أبا جابر " .

وقال خيثمة – وكان ابنه قد استشهد مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوم بدر : لقد أخطأتني وقعة بدر ، وكنت والله عليها حريصاً ، حتى ساهمت إبني في الخروج ، فخرج سهمه ، فرزق الشهادة . وقد رأيت البارحة ابني في النوم في أحسن صورة ، يسرح في ثمار الجنة وأنهارها يقول : الحق بنا ترافقنا في الجنة ، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً . وقد – والله يا رسول الله – أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة . وقد كبرت سني ، ورق عظمي ، وأحببت لقاء ربي . فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ، ومرافقة سعد في الجنة . فدعا له رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بذلك . فقتل بأحد شهيداً .

وقال عبد الله بن جحش في ذلك اليوم : اللهم إني أقسم عليك أن ألقى العدو غداً فيقتلوني ثم يبقروا بطني ويجدعوا أنفي وأذني . ثم تسألني فيم ذلك ؟ فأقول : فيك !

وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا غزا . فلما توجه إلى أحد أراد أن يتوجه معه فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت ونحن نكفيك ! وقد وضع الله عنك الجهاد . فأتى عمرو بن الجموح رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : يا رسول الله . إن بنيّ هؤلاء يمنعوني أن أخرج معك . والله إني لأرجو أن استشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنة . فقال له رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد " .

وقال لبنيه : " وما عليكم أن تدعوه ؟ لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة ؟ " . فخرج مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقتل يوم أحد شهيداً .

وفي مضطرب المعركة نظر حذيفة بن اليمان إلى أبيه والمسلمون يريدون قتله لا يعرفونه وهم يظنونه من المشركين . فقال حذيفة : أي عباد الله أبي . فلم يفهموا قوله حتى قتلوه . فقال : يغفر الله لكم . فأراد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يؤدي ديته . فقال حذيفة : قد تصدقت بديته على المسلمين . فزاد ذلك حذيفة خيراً عند رسول الله .

وقال وحشي غلام جبير بن مطعم يصف مصرع حمزة سيد الشهداء في هذه الغزوة : قال

لي جبير : إن قتلت حمزة عم محمد فأنت عتيق . قال : فخرجت مع الناس . وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة قلما أخطئ بها شيئاً . فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته كأنه الجمل الأورق يهد الناس بسيفه هدا ما يقوم له شيء . فوالله إني لأتهيأ له أريده وأستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو مني . إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى فلما رآه حمزة ضربه ضربة كأنما اختطف رأسه فهززت حربتي حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه فوقعت في ثنته (أحشائه) حتى خرجت من بين رجليه . وذهب لينوء نحوي فغلب . وتركته وإياها حتى مات . ثم أتيته فأخذت حربتي ورجعت إلى المعسكر فقعدت فيه . إذ لم تكن لي بغيره حاجة . إنما قتلت لأعتق . .

(138/133)

وقد جاءت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان ، فبقرت بطن حمزة ، وأخرجت كبده ، ولاكتها فلم تقدر عليها . فألقتها . .

ولما وقف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد المعركة على جثمان حمزة – رضي الله عنه – تأثر تأثراً شديداً . وقال – صلى الله عليه وسلم – : " لن أصاب بمثلك أبداً . وما وقفت قط موقفاً أغيظ إلي من هذا " . ثم قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :

"أكلت شيئاً ؟ " قالوا : لا . قال : " ما كان الله ليدخل شيئاً من حمزة في النار " .

وقد أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يدفن شهداء أحد في مصارعهم ولا ينقلوا إلى مقابر المدينة . وكان بعض الصحابة قد نقلوا قتلاهم . فنادى منادي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – برد القتلى إلى مصارعهم فردوا . ووقف – صلوات الله وسلامه عليه – يدفن الرجلين والثلاثة في اللحد الواحد . وكان يسأل : أيهم أكثر أخذاً في القرآن ؟ فإذا أشاروا إلى رجلَ قدمه في اللحد . ودفن عبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح في قبر واحد لما كان بينهما من المحبة .

فقال : " ادفنوا هذين المتحابين في الدنيا في قبر واحد " .

هذه بعض اللقطات من المعركة التي تجاور فيها النصر والهزيمة لا تفرق بينهما إلا لحظة من الزمان وإلا مخالفة عن الأمر وإلا حركة من الهوى وإلا لفتة من الشهوة ! والتي تجاورت فيها القيم العالية والسفوح الهابطة ! والنماذج الفريدة في تاريخ الإيمان والبطولة وفي تاريخ النفاق والهزيمة !

وهي مجموعة تكشف عن حالة من عدم التناسق في الصف حينذاك كما تكشف عن حالة من الغبش في تصورات بعض المسلمين . . وهذه وتلك أنشأت – وفق سنة الله وقدره – هذه النتائج التي ذاقها المسلمون ; وهذه التضحيات الجسام التي تتراءى على قمتها تلك التي أصابت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والتي لا شك أن الصحابة حين ذاك كانوا يحسونها بعمق وعنف ويرونها أشد ما نالهم من الآلام . وقد دفعوا الثمن غالياً ليتلقوا الدرس عالياً وليمحص الله القلوب ويميز الصفوف وليعد الجماعة المسلمة للمهمة العظمى التي ناطها بها : مهمة القيادة الراشدة للبشرية وإقرار منهج الله في الأرض في صورته المثالية الواقعية . .

فلننظر إذن كيف عالج القرآن الكريم الموقف بطريقة القرآن .

إن النص القرآني لا يتتبع أحداث المعركة للرواية والعرض ; ولكنه يتتبع دخائل النفوس وخوالج القلوب ; ويتخذ من الأحداث مادة تنبيه وتنوير وتوجيه . .

وهو لا يعرض الحوادث عرضاً تاريخياً مسلسلاً بقصد التسجيل ; إنما هو يعرضها للعبرة والتربية واستخلاص القيم الكامنة وراء الحوادث ; ورسم سمات النفوس وخلجات القلوب وتصوير الجو الذي صاحبها ; والسنن الكونية التي تحكمها ; والمبادىء الباقية التي تقررها . وبذلك تستحيل الحادثة محوراً أو نقطة ارتكاز لثروة ضخمة من المشاعر والسمات والنتائج والاستدلالات . يبدأ السياق منها ; ثم يستطرد حولها ; ثم يعود إليها ;

ثم يجول في أعماق الضمائر وفي أغوار الحياة ; ويكرر هذا مرة بعد مرة حتى ينتهي برواية الحادث إلى نهايتها وقد ضم جناحيه على حفل من المعاني والدلائل والقيم والمبادىء لم تكن رواية الحادث إلا وسيلة إليها ونقطة ارتكاز تتجمع حواليها . وحتى يكون قد تناول ملابسات الحادث وعقابيله في الضمائر فجلاها . ونقاها وأراحها في مواضعها فلا تجد النفس منها حيرة ولا قلقاً ولا تحس فيها لبساً ولا دخلاً . .

(140/133)

وينظر الإنسان في رقعة المعركة وما وقع فيها - على سعته وتنوعه - ثم ينظر إلى رقعه التعقيب القرآني وما تناوله من جوانب ; فإذا هذه الرقعة أوسع من تلك وأبقى على الزمن وألصق بالقلوب وأعمق في النفوس وأقدر على تلبية حاجات النفس البشرية وحاجات الجماعة الإسلامية في كل موقف تتعرض له في هذا المجال على تتابع الأجيال . فهي تتضمن الحقائق الباقية من وراء الأحداث الزائلة والمبادئ المطلقة من وراء الحوادث المفردة والقيم الأصيلة من وراء الظواهر العارضة والرصيد الصالح للتزود بغض النظر عن اعتبارات الزمان والمكان .

.

وهذه الحصيلة الباقية تدخرها النصوص القرآنية لكل قلب يتفتح بالإيمان في أي زمان وفي أي مكان . . وسنعرض لها متجمعة - إن شاء الله - بعد استعراضها متفرقة في النصوص . .

﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال ، والله سميع عليم . إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ . .

هكذا يبدأ باستعادة المشهد الأول للمعركة واستحضاره - وقد كان قريباً من نفوس المخاطبين الأولين بهذا القرآن ومن ذاكرتهم . ولكن ابتداء الحديث على هذا النحو واستحضار المشهد الأول بهذا النص من شأنه أن يعيد المشهد بكل حرارته وبكل حيويته ؛ وأن يضيف إليه ما وراء المشهد المنظور - الذي يعرفونه - من حقائق أخرى لا يتضمنها المشهد المنظور . وأولها حقيقة حضور الله - سبحانه - معهم وسمعه وعلمه بكل ما كان وما دار بينهم . وهي الحقيقة التي تحرص التربية القرآنية على استحضارها وتقريرها وتوكيدها وتعميقها في التصور الإسلامي . وهي هي الحقيقة الأساسية الكبيرة التي أقام عليها الإسلام منهجه التربوي . والتي لا يستقيم ضمير على المنهج الإسلامي بكل تكاليفه إلا أن تستقر فيه هذه الحقيقة بكل قوتها وبكل حيويتها كذلك :

﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال . . والله سميع عليم . . ﴾ . .

والإشارة هنا إلى غدو النبي - صلى الله عليه وسلم - من بيت عائشة - رضي الله عنها وقد لبس لأمته ودرعه ; بعد التشاور في الأمر وما انتهى إليه من عزم على الخروج من المدينة للقاء المشركين خارجها . . وما أعقب هذا من تنظيم الرسول - صلى الله عليه وسلم - للصفوف ومن أمر للرماة باتخاذ موقفهم على الجبل . . وهو مشهد يعرفونه وموقف يتذكرونه . . ولكن الحقيقة الجديدة فيه هي هذه :

﴿ والله سميع عليم ﴾ . .

ويا له من مشهد الله حاضره ! ويا له من موقف الله شاهده ! ويا لها من رهبة إذن ومن روعة تحف به وتخالط كل ما دار فيه من تشاور . والسرائر مكشوفة فيه لله . وهو يسمع ما تقوله الألسنة ويعلم ما تهمس به الضمائر .

واللمسة الثانية في هذا المشهد الأول هي حركة الضعف والفشل التي راودت قلوب طائفتين من المسلمين ; بعد تلك الحركة الخائنة التي قام بها رأس النفاق " عبد الله بن أبي بن سلول " حين انفصل بثلث الجيش مغضباً أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يأخذ برأيه واستمع إلى شباب أهل المدينة ! وقال : ﴿ لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ! ﴾ فدل بهذا على أن قلبه لم يخلص للعقيدة ; وأن شخصه ما يزال يملأ قلبه ويطغى في ذلك القلب على العقيدة . . العقيدة التي لا تحتمل شركة في قلب صاحبها ولا تطيق لها فيه شريكاً ! فإما

أن يخلص لها وحدها وإما أن تجانبه هي وتجتويه !

﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

.

وهاتان الطائفتان - كما ورد في الصحيح - من حديث سفيان بن عيينة - هما بنو حارثة وبنو سلمة . أثرت فيهما حركة عبد الله بن أبيّ ، وما أحدثته من رجة في الصف المسلم من أول خطوة في المعركة . فكادتا تفشلان وتضعفان . لولا أن أدركتهما ولاية الله وتثبيته كما أخبر هذا النص القرآني :

﴿ والله وليهما ﴾ . .

(142/133)

قال عمر - رضي الله عنه - سمعت جابر بن عبد الله يقول : فينا نزلت : ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ . . قال : نحن الطائفتان . . بنو حارثة وبنو سلمة . . وما نحب (أو وما يسرني) أنها لم تنزل ، لقوله تعالى : ﴿ والله وليهما ﴾ . . (رواه البخاري ومسلم) . .

وهكذا يكشف الله المخبوء في مكنونات الضمائر ; والذي لم يعلمه إلا أهله ، حين حاك في

صدورهم لحظة ؛ ثم وقاهم الله إياه وصرفه عنهم وأيدهم بولايته فمضوا في الصف . .

يكشفه لاستعادة أحداث المعركة واستحياء وقائعها ومشاهدها . ثم . . لتصوير خلجات النفوس وإشعار أهلها حضور الله معهم وعلمه بمكنونات ضمائرهم - كما قال لهم : ﴿ والله سميع عليم ﴾ - لتوكيد هذه الحقيقة وتعميقها في حسهم . ثم لتعريفهم كيف كانت النجاة ؛ وإشعارهم عون الله وولايته ورعايته حين يدركهم الضعف ويدب فيهم الفشل ليعرفوا أين يتوجهون حين يستشعرون شيئاً من هذا وأين يلتجئون . ومن ثم يوجههم هذا الوجه الذي لا وجه غيره للمؤمنين :

﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ . .

على وجه القصر والحصر . . على الله وحده فليتوكل المؤمنون . فليس لهم - إن كانوا مؤمنين - إلا هذا السند المتين .

وهكذا نجد في الآيتين الأوليين ، اللتين يستحضر بهما القرآن مشهد المعركة وجوها هذين التوجيهين الكبيرين الأساسيين في التصور الإسلامي وفي التربية الإسلامية :

﴿ والله سميع عليم ﴾ . .

﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ . .

نجدهما في أوانهما المناسب وفي جوهما المناسب ; حيث يلقيان كل إيقاعاتهما وكل إيحاءاتهما في الموعد المناسب ; وقد تهيأت القلوب للتلقي والاستجابة والانطباع . .

ويتبين - من هذين النصين التمهيديين - كيف يتولى القرآن استحياء القلوب وتوجيهها وتربيتها ; بالتعقيب على الأحداث وهي ساخنة ! ويتبين الفرق بين رواية القرآن للأحداث وتوجيهها وبين سائر المصادر التي قد تروي الأحداث بتفصيل أكثر ; ولكنها لا تستهدف القلب البشري والحياة البشرية بالإحياء والاستجاشة وبالتربية والتوجيه . كما يستهدفها القرآن الكريم بمنهجه القويم .

هكذا يبدأ الحديث عن المعركة التي لم ينتصر فيها المسلمون - وقد كادوا - وهي قد بدأت بتغليب الاعتبارات الشخصية على العقيدة عند المنافق عبد الله بن أبي ; وتابعه في حركته أتباعه الذين غلبوا اعتباره الشخصي على عقيدتهم . وبالضعف الذي كاد يدرك طائفتين صالحتين من المسلمين .

ثم انتهت بالمخالفة عن الخطة العسكرية تحت مطارق الطمع في الغنيمة ! فلم تغن النماذج العالية التي تجلت في المعركة عن المصير الذي انتهت إليه بسبب ذلك الخلل في الصف وبسبب ذلك الغبش في التصور . .

وقبل أن يمضي في الاستعراض والتعقيب على أحداث المعركة التي انتهت بالهزيمة يذكرهم

بالمعركة التي انتهت بالنصر – معركة بدر – لتكون هذه أمام تلك . مجالاً للموازنة وتأمل الأسباب والنتائج ; ومعرفة مواطن الضعف ومواطن القوة وأسباب النصر وأسباب الهزيمة . ثم – بعد ذلك – ليكون اليقين من أن النصر والهزيمة كليهما قدر من أقدار الله ; لحكمة تتحقق من وراء النصر كما تتحقق من وراء الهزيمة سواء . وأن مرد الأمر في النهاية إلى الله على كلا الحالين وفي جميع الأحوال :

(144/133)

﴿ ولقد نصركم الله ببدر – وأنتم أذلة – فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ؟ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به . وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين – ليس لك من الأمر شيء – أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون . ولله ما في السماوات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم ﴾ . .

والنصر في بدر كان فيه رائحة المعجزة – كما أسلفنا – فقد تم بغير أداة من الأدوات المادية

المألوفة للنصر . لم تكن الكفتان فيها – بين المؤمنين والمشركين – متوازنتين ولا قريبتين من التوازن . كان المشركون حوالي ألف خرجوا نفيراً لاستغاثة أبي سفيان لحماية القافلة التي كانت معه مزودين بالعدة والعتاد والحرص على الأموال والحمية للكرامة . وكان المسلمون حوالي ثلاثمائة لم يخرجوا لقتال هذه الطائفة ذات الشوكة إنما خرجوا لرحلة هينة . لمقابلة القافلة العزلاء وأخذ الطريق عليها ; فلم يكن معهم – على قلة العدد – إلا القليل من العدة – وكان وراءهم في المدينة مشركون لا تزال لهم قوتهم ومنافقون لهم مكانتهم ، ويهود يتربصون بهم . . وكانوا هم بعد ذلك كله قلة مسلمة في وسط خضم من الكفر والشرك في الجزيرة . ولم تكن قد زالت عنهم بعد صفة أنهم مهاجرون مطاردون من مكة وأنصار آووا هؤلاء المهاجرين ولكنهم ما يزالون نبتة غير مستقرة في هذه البيئة !

فبهذا كله يذكرهم الله – سبحانه – ويرد ذلك النصر إلى سببه الأول في وسط هذه الظروف :

﴿ ولقد نصركم الله ببدر . وأنتم أذلة . فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ . .

إن الله هو الذي نصرهم ; ونصرهم لحكمة نص عليها في مجموعة هذه الآيات .

وهم لا ناصر لهم من أنفسهم ولا من سواهم . فإذا اتقوا وخافوا فليتقوا وليخافوا الله ، الذي يملك النصر والهزيمة ; والذي يملك القوة وحده والسلطان . فلعل التقوى أن تقودهم إلى الشكر ; وأن تجعله شكراً وافياً لائقاً بنعمة الله عليهم على كل حال .

هذه هي اللمسة الأولى في تذكيرهم بالنصر في بدر . . ثم يستحضر مشهدها ويستحيي صورتها في حسهم ، كأنهم اللحظة فيها :

﴿ إذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ؟ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾ . .

وكانت هذه كلمات رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوم بدر للقلة المسلمة التي خرجت معه ; والتي رأت نفير المشركين وهي خرجت لتلقى طائفة العير الموقرة بالمتاجر لا لتلقى طائفة النفير الموقرة بالسلاح ! وقد أبلغهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – ما بلغه يومها ربه لتثبيت قلوبهم وأقدامهم وهم بشر يحتاجون إلى العون في صورة قريبة من مشاعرهم وتصوراتهم ومألوفاتهم . . وأبلغهم كذلك شرط هذا المدد . . إنه الصبر والتقوى ; الصبر على تلقي صدمة الهجوم والتقوى التي تربط القلب بالله في النصر والهزيمة :

﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة

مسومين ﴾ . .

فالآن يعلمهم الله أن مرد الأمر كله إليه وأن الفاعلية كلها منه - سبحانه - وأن نزول الملائكة ليس إلا بشرى لقلوبهم ; لتأنس بهذا وتستبشر وتطمئن به وتثبت . أما النصر فمنه مباشرة ومتعلق بقدره وإرادته بلا واسطة ولا سبب ولا وسيلة :

﴿ وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ . .

(146/133)

وهكذا يحرص السياق القرآني على رد الأمر كله إلى الله كي لا يعلق بتصور المسلم ما يشوب هذه القاعدة الأصيلة : قاعدة رد الأمر جملة إلى مشيئة الله الطليقة ، وإرادته الفاعلة وقدره المباشر . وتنحية الأسباب والوسائل عن أن تكون هي الفاعلة . وإنما هي أداة تحركها المشيئة . وتحقق بها ما تريده .

﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ . .

وقد حرص القرآن الكريم على تقرير هذه القاعدة في التصور الإسلامي وعلى تنقيتها من كل شائبة وعلى تنحيه الأسباب الظاهرة والوسائل والأدوات عن أن تكون هي

الفاعلة . . لتبقى الصلة المباشرة بين العبد والرب . بين قلب المؤمن وقدر الله . بلا حواجز ولا عوائق ولا وسائل ولا وسائط . كما هي في عالم الحقيقة . .

وبمثل هذه التوجيهات المكررة في القرآن المؤكدة بشتى أساليب التوكيد استقرت هذه الحقيقة في أخلاد المسلمين على نحو بديع هادئ عميق مستنير .

عرفوا أن الله هو الفاعل - وحده - وعرفوا كذلك أنهم مأمورون من قبل الله باتخاذ الوسائل والأسباب وبذل الجهد والوفاء بالتكاليف .

. فاستيقنوا الحقيقة وأطاعوا الأمر في توازن شعوري وحركي عجيب ! ولكن هذا إنما جاء مع الزمن ومع الأحداث ومع التربية بالأحداث والتربية بالتعقيب على الأحداث . . كهذا التعقيب ونظائره الكثيرة في هذه السورة . .

وفي هذه الآيات يستحضر مشهد بدر والرسول - صلى الله عليه وسلم - يعدهم الملائكة مدداً من عند الله ; إذا هم استمسكوا بالصبر والتقوى والثبات في المعركة - حين يطلع المشركون عليهم من وجههم هذا . . ثم يخبرهم بحقيقة المصدر الفاعل - من وراء نزول الملائكة - وهو الله . الذي تتعلق الأمور كلها بإرادته ويتحقق النصر بفعله وإذنه .

﴿ الله العزيز الحكيم ﴾ . .

فهو ﴿ العزيز ﴾ القوي ذو السلطان القادر على تحقيق النصر . وهو ﴿ الحكيم ﴾ الذي يجري قدره وفق حكمته والذي يحقق هذا النصر ليحقق من ورائه حكمة . .

ثم يبين حكمة هذا النصر . . أي نصر . . وغاياته التي ليس لأحد من البشر منها شيء :

﴿ ليقطع طرفاً من الذين كفروا . أو يكبتهم فينقلبوا خائبين – ليس لك من الأمر شيء – أو يتوب عليهم . أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ . .

إن النصر من عند الله . لتحقيق قدر الله . وليس للرسول – صلى الله عليه وسلم – ولا للمجاهدين معه في النصر من غاية ذاتية ولا نصيب شخصي . كما أنه ليس له ولا لهم دخل في تحقيقه وإن هم إلا ستار القدرة تحقق بهم ما تشاء ! فلا هم أسباب هذا النصر وصانعوه ; ولا هم أصحاب هذا النصر ومستغلوه ! إنما هو قدر الله يتحقق بحركة رجاله وبالتأييد من عنده . لتحقيق حكمة الله من ورائه وقصده :

﴿ ليقطع طرفاً من الذين كفروا ﴾ . .

فينقص من عددهم بالقتل أو ينقص من أرضهم بالفتح أو ينقص من سلطانهم بالقهر أو ينقص من أموالهم بالغنيمة أو ينقص من فاعليتهم في الأرض بالهزيمة !

﴿ أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ﴾ . .

أي يصرفهم مهزومين أذلاء فيعودوا خائبين مقهورين .

﴿ أو يتوب عليهم ﴾ . .

فإن انتصار المسلمين قد يكون للكافرين عظة وعبرة وقد يقودهم إلى الإيمان والتسليم فيتوب الله عليهم من كفرهم ويختم لهم بالإسلام والهداية . .

﴿ أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ . .

يعذبهم بنصر المسلمين عليهم . أو بأسرهم . أو بموتهم على الكفر الذي ينتهي بهم إلى العذاب . . جزاء لهم على ظلمهم بالكفر وظلمهم بفتنة المسلمين وظلمهم بالفساد في الأرض وظلمهم بمقاومة الصلاح الذي يمثله منهج الإسلام للحياة وشريعته ونظامه . . إلى آخر صنوف الظلم الكامنة في الكفر والصد عن سبيل الله .

وعلى أية حال فهي حكمة الله ، وليس لبشر منها شيء . . حتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يخرجه النص من مجال هذا الأمر ليجرده لله وحده – سبحانه – فهو شأن الألوهية المتفردة بلا شريك .

بذلك ينسلخ المسلمون بأشخاصهم من هذا النصر : من أسبابه ومن نتائجه ! وبذلك يطامنون من الكبر الذي يثيره النصر في نفوس المنتصرين ومن البطر والعجب والزهو الذي

تنتفخ به أرواحهم وأوداجهم ! وبذلك يشعرون أن ليس لهم من الأمر شيء إنما الأمر كله لله أولاً وأخيراً .

وبذلك يرد أمر الناس - طائعهم وعاصيهم - إلى الله . فهذا الشأن شأن الله وحده - سبحانه . شأن هذه الدعوة وشأن هؤلاء الناس معها : طائعهم وعاصيهم سواء . . وليس للنبي - صلى الله عليه وسلم - وليس للمؤمنين معه إلا أن يؤدوا دورهم ثم ينفضوا أيديهم من النتائج وأجرهم من الله على الوفاء وعلى الولاء وعلى الأداء .

وملابسة أخرى في السياق اقتضت هذا التنصيص : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ فسيرد في السياق قول بعضهم : ﴿ هل لنا من الأمر من شيء ؟ ﴾ . . وقولهم : ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا . ﴾ . . ليقول لهم : إن أحداً ليس له من الأمر من شيء . لا في نصر ولا في هزيمة . إنما الطاعة والوفاء والأداء هي المطلوبة من الناس . وأما الأمر بعد ذلك فكله لله . ليس لأحد منه شيء . ولا حتى لرسول الله . . فهي الحقيقة الأصيلة في التصور الإسلامي . وإقرارها في النفوس أكبر من الأشخاص وأكبر من الأحداث وأكبر من شتى الاعتبارات . .

ويختم هذا التذكير ببدر ، وهذا التقرير للحقائق الأصيلة في التصور بالحقيقة الشاملة التي ترجع إليها حقيقة أن أمر النصر والهزيمة مرده إلى حكمة الله وقدره . . يختم هذا التقرير بتقرير أصله الكبير : وهو أن الأمر لله في الكون كله ، ومن ثم يغفر لمن يشاء ويعذب من

يشاء وفق ما يشاء :

﴿ ولله ما في السماوات وما في الأرض . يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم ﴾ . .

فهي المشيئة المطلقة المستندة إلى الملكية المطلقة وهو التصرف المطلق في شأن العباد بحكم هذه الملكية لما في السماوات وما في الأرض . وليس هنالك ظلم ولا محاباة للعباد في المغفرة أو في العذاب . إنما يقضي الأمر في هذا الشأن بالحكمة والعدل وبالرحمة والمغفرة . فشأنه - سبحانه - الرحمة والمغفرة :

﴿ والله غفور رحيم ﴾ . .

والباب مفتوح أمام العباد لينالوا مغفرته ورحمته بالعودة إليه ورد الأمر كله له وأداء الواجب المفروض وترك ما وراء ذلك لحكمته وقدره ومشيئته المطلقة من وراء الوسائل والأسباب .

وقبل أن يدخل السياق في صميم الاستعراض للمعركة - معركة أحد - والتعقيبات على وقائعها وأحداثها . . تجيء التوجيهات المتعلقة بالمعركة الكبرى ، التي ألمعنا في مقدمة

الحديث إليها . المعركة في أعماق النفس وفي محيط الحياة . . يجيء الحديث عن الربا والمعاملات الربوية وعن تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله . وعن الإنفاق في السراء والضراء والنظام التعاوني الكريم المقابل للنظام الربوي الملعون . وعن كظم الغيظ والعفو عن الناس وإشاعة الحسنى في الجماعة . وعن الاستغفار من الذنب والرجوع إلى الله وعدم الإصرار على الخطيئة :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون . واتقوا النار التي أعدت للكافرين . وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون . وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين : الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس . والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم – ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ – ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . ونعم أجر العاملين ﴾ . .

تجيء هذه التوجيهات كلها قبل الدخول في سياق المعركة الحربية ; لتشير إلى خاصية من خواص هذه العقيدة :

الوحدة والشمول في مواجهة هذه العقيدة للكينونة البشرية ونشاطها كله ; ورده كله إلى محور واحد : محور العبادة لله والعبودية له والتوجه إليه بالأمر كله . والوحدة والشمول في منهج الله وهيمنته على الكينونة البشرية في كل حال من أحوالها وفي كل شأن من شؤونها وفي كل جانب من جوانب نشاطها . ثم تشير تلك التوجيهات بتجمعها هذا إلى الترابط بين كل ألوان النشاط الإنساني ; وتأثير هذا الترابط في النتائج الأخيرة لسعي الإنسان كله كما أسلفنا .

والمنهج الإسلامي يأخذ النفس من أقطارها وينظم حياة الجماعة جملة لا تفاريق . ومن ثم هذا الجمع بين الإعداد والاستعداد للمعركة الحربية ; وبين تطهير النفوس ونظافة القلوب والسيطرة على الأهواء والشهوات وإشاعة الود والسماحة في الجماعة . . فكلها قريب من قريب . . وحين نستعرض بالتفصيل كل سمة من هذه السمات وكل توجيه من هذه التوجيهات يتبين لنا ارتباطها الوثيق بحياة الجماعة المسلمة وبكل مقدراتها في ميدان المعركة وفي سائر ميادين الحياة !

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون . واتقوا النار التي أعدت للكافرين . وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴾ . .

ولقد سبق الحديث عن الربا والنظام الربوي بالتفصيل في الجزء الثالث من هذه الظلال فلا

نكرر الحديث عنه هنا . . ولكن نقف عند الأضعاف المضاعفة . فإن قوماً يريدون في هذا الزمان أن يتواروا خلف هذا النص ويتداروا به ليقولوا : إن المحرم هو الأضعاف المضاعفة . أما الأربعة في المائة والخمسة في المائة والسبعة والتسعة . . فليست أضعافاً مضاعفة . وليست داخلة في نطاق التحريم !

ونبدأ فنحسم القول بأن الأضعاف المضاعفة وصف لواقع ، وليست شرطاً يتعلق به الحكم . والنص الذي في سورة البقرة قاطع في حرمة أصل الربا – بلا تحديد ولا تقييد : ﴿ وذروا ما بقي من الربا ﴾ أياً كان !

(151/133)

فإذا انتهينا من تقرير المبدأ فرغنا لهذا الوصف لنقول : إنه في الحقيقة ليس وصفاً تاريخياً فقط للعمليات الربوية التي كانت واقعة في الجزيرة والتي قصد إليها النهي هنا بالذات . إنما هو وصف ملازم للنظام الربوي المقيت أياً كان سعر الفائدة .

إن النظام الربوي معناه إقامة دورة المال كلها على هذه القاعدة . ومعنى هذا أن العمليات الربوية ليست عمليات مفردة ولا بسيطة . فهي عمليات متكررة من ناحية ، ومركبة من ناحية أخرى . فهي تنشئ مع الزمن والتكرار والتركيب أضعافاً مضاعفة بلا جدال .

إن النظام الربوي يحقق بطبيعته دائماً هذا الوصف . فليس هو مقصوراً على العمليات التي كانت متبعة في جزيرة العرب . إنما هو وصف ملازم للنظام في كل زمان .

ومن شأن هذا النظام أن يفسد الحياة النفسية والخلقية - كما فصلنا ذلك في الجزء الثالث - كما أن من شأنه أن يفسد الحياة الاقتصادية والسياسية - كما فصلنا ذلك أيضاً - ومن ثم تتبين علاقته بحياة الأمة كلها وتأثيره في مصائرها جميعاً .

والإسلام - وهو ينشئ الأمة المسلمة - كان يريد لها نظافة الحياة النفسية والخلقية ، كما كان يريد لها سلامة الحياة الاقتصادية والسياسية . وأثر هذا وذاك في نتائج المعارك التي تخوضها الأمة معروف . فالنهي عن أكل الربا في سياق التعقيب على المعركة الحربية أمر يبدو إذن مفهوماً في هذا المنهج الشامل البصير . .

أما التعقيب على هذا النهي بالأمر بتقوى الله رجاء الفلاح ; واتقاء النار التي أعدت للكافرين . . أما التعقيب بهاتين اللمستين فمفهوم كذلك ; وهو أنسب تعقيب :

إنه لا يأكل الربا إنسان يتقي الله ويخاف النار التي أعدت للكافرين . . ولا يأكل الربا إنسان يؤمن بالله ، ويعزل نفسه من صفوف الكافرين . . والإيمان ليس كلمة تقال باللسان ; إنما هو اتباع للمنهج الذي جعله الله ترجمة عملية واقعية لهذا الإيمان . وجعل الإيمان مقدمة لتحقيقه في الحياة الواقعية وتكييف حياة المجتمع وفق مقتضياته .

ومحال أن يجتمع إيمان ونظام ربوي في مكان. وحيثما قام النظام الربوي فهناك الخروج من هذا الدين جملة; وهناك النار التي أعدت للكافرين! والمماحكة في هذا الأمر لا تخرج عن كونها مماحكة.. والجمع في هذه الآيات بين النهي عن أكل الربا والدعوة إلى تقوى الله وإلى اتقاء النار التي أعدت للكافرين ليس عبثاً ولا مصادفة. إنما هو لتقرير هذه الحقيقة وتعميقها في تصورات المسلمين.

وكذلك رجاء الفلاح بترك الربا وبتقوى الله.. فالفلاح هو الثمرة الطبيعية للتقوى ولتحقيق منهج الله في حياة الناس.. ولقد سبق الحديث في الجزء الثالث عن فعل الربا بالمجتمعات البشرية وويلاته البشعة في حياة الإنسانية. فلنرجع إلى هذا البيان هناك لندرك معنى الفلاح هنا واقترانه بترك النظام الربوي المقيت!

ثم يجيء التوكيد الأخير:

﴿ وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴾..

وهو أمر عام بالطاعة لله والرسول، وتعليق الرحمة بهذه الطاعة العامة. ولكن للتعقيب به على النهي عن الربا دلالة خاصة. هي أنه لا طاعة لله وللرسول في مجتمع يقوم على النظام الربوي; ولا طاعة لله وللرسول في قلب يأكل الربا في صورة من صوره.

. وهكذا يكون ذلك التعقيب توكيداً بعد توكيد..

وذلك فوق العلاقة الخاصة بين أحداث المعركة التي خولف فيها أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبين الأمر بالطاعة لله وللرسول ، بوصفها وسيلة الفلاح وموضع الرجاء فيه . .

ثم لقد سبق في سورة البقرة – في الجزء الثالث – أن رأينا السياق هناك يجمع بين الحديث عن الربا والحديث عن الصدقة . بوصفهما الوجهين المتقابلين للعلاقات الاجتماعية في النظام الاقتصادي ; وبوصفهما السمتين البارزتين لنوعين متباينين من النظم : النظام الربوي . والنظام التعاوني . . فهنا كذلك نجد هذا الجمع في الحديث عن الربا والحديث عن الإنفاق في السراء والضراء . .

(153/133)

فبعد النهي عن أكل الربا والتحذير من النار التي أعدت للكافرين ، والدعوة إلى التقوى رجاء الرحمة والفلاح . . بعد هذا يجيء الأمر بالمسارعة إلى المغفرة ; وإلى جنة عرضها السماوات والأرض (أعدت للمتقين) . . ثم يكون الوصف الأول للمتقين هو : ﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء ﴾ – فهم الفريق المقابل للذين يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة – ثم تجيء بقية الصفات والسمات :

﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين : الذين ينفقون في السراء والضراء . والكاظمين الغيظ . والعافين عن الناس . والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم – ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ – ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . . ﴾

والتعبير هنا يصور أداء هذه الطاعات في صورة حسية حركية . . يصوره سباقاً إلى هدف أو جائزة تنال : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ . . ﴿ وجنة عرضها السماوات والأرض ﴾ . . سارعوا فهي هناك : المغفرة والجنة . . ﴿ أعدت للمتقين ﴾ . .

ثم يأخذ في بيان صفات المتقين :

﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء ﴾ . .

فهم ثابتون على البذل ، ماضون على النهج ، لا تغيرهم السراء ولا تغيرهم الضراء . السراء لا تبطرهم فتلهيهم . والضراء لا تضجرهم فتنسيهم . إنما هو الشعور بالواجب في كل حال ؛ والتحرر من الشح والحرص ؛ ومراقبة الله وتقواه . . وما يدفع النفس الشحيحة بطبعها المحبة للمال بفطرتها . . ما يدفع النفس إلى الإنفاق في كل حال إلا دافع أقوى من شهوة المال وربقة الحرص وثقلة الشح . . دافع التقوى . ذلك الشعور اللطيف العميق الذي تشف به الروح وتخلص وتنطلق من القيود والأغلال . .

ولعل للتنويه بهذه الصفة مناسبة خاصة كذلك في جو هذه المعركة . فنحن نرى الحديث عن الإنفاق يتكرر فيها كما نرى التنديد بالممتنعين والمانعين للبذل - كما سيأتي في السياق القرآني - مكرراً كذلك . مما يشير إلى ملابسات خاصة في جو الغزوة وموقف بعض الفئات من الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله .

﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ . .

كذلك تعمل التقوى في هذا الحقل ، بنفس البواعث ونفس المؤثرات .

فالغيظ انفعال بشري تصاحبه أو تلاحقه فورة في الدم ; فهو إحدى دفعات التكوين البشري وإحدى ضروراته . وما يغلبه الإنسان إلا بتلك الشفافية اللطيفة المنبعثة من إشراق التقوى ; وإلا بتلك القوة الروحية المنبثقة من التطلع إلى أفق أعلى وأوسع من آفاق الذات والضرورات .

وكظم الغيظ هو المرحلة الأولى . وهي وحدها لا تكفي . فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضطغن ; فيتحول الغيظ الفائر إلى إحنة غائرة ; ويتحول الغضب الظاهر إلى حقد دفين . . وإن الغيظ والغضب لأنظف وأطهر من الحقد والضغن . . لذلك يستمر النص

ليقرر النهاية الطليقة لذلك الغيظ الكظيم في نفوس المتقين . . إنها العفو والسماحة والانطلاق . .

إن الغيظ وقر على النفس حين تكظمه ; وشواظ يلفح القلب ; ودخان يغشى الضمير . . فأما حين تصفح النفس ويعفو القلب فهو الانطلاق من ذلك الوقر والرفرفة في آفاق النور والبرد في القلب والسلام في الضمير .

﴿ والله يحب المحسنين ﴾ . .

والذين يجودون بالمال في السراء والضراء محسنون . والذين يجودون بالعفو والسماحة بعد الغيظ والكظم محسنون . . والله ﴿ يحب ﴾ المحسنين . . والحب هنا هو التعبير الودود الحاني المشرق المنير الذي يتناسق مع ذلك الجو اللطيف الوضيء الكريم . .

ومن حب الله للإحسان وللمحسنين ، ينطلق حب الإحسان في قلوب أحبائه . وتنبثق الرغبة الدافعة في هذه القلوب . . فليس هو مجرد التعبير الموحي ، ولكنها الحقيقة كذلك وراء التعبير !

والجماعة التي يحبها الله وتحب الله . . والتي تشيع فيها السماحة واليسر والطلاقة من الإحن والأضغان . . هي جماعة متضامة وجماعة متآخية وجماعة قوية . ومن ثم علاقة هذا التوجيه بالمعركة في الميدان والمعركة في الحياة على السواء في هذا السياق !

ثم ننتقل إلى صفة أخرى من صفات المتقين :

﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم – ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ – ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ . .

يا لسماحة هذا الدين ! إن الله – سبحانه – لا يدعو الناس إلى السماحة فيما بينهم حتى يطلعهم على جانب من سماحته – سبحانه وتعالى – معهم . ليتذوقوا ويتعلموا ويقتبسوا : إن المتقين في أعلى مراتب المؤمنين . . ولكن سماحة هذا الدين ورحمته بالبشر تسلك في عداد المتقين ﴿ الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾ . . والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها . ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد من يهوون إليها من رحمة الله . ولا تجعلهم في ذيل القافلة . . قافلة المؤمنين . . إنما ترتفع بهم إلى أعلى مرتبة . . مرتبة ﴿ المتقين ﴾ . . على شرط واحد . شرط يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته . . أن يذكروا الله فيستغفروا لذنوبهم وألا يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أنه الخطيئة وألا يتبجحوا بالمعصية في غير تحرج ولا حياء . . وبعبارة أخرى أن يكونوا في

إطار العبودية لله والاستسلام له في النهاية .

فيظلوا في كنف الله وفي محيط عفوه ورحمته وفضله .

(156/133)

إن هذا الدين ليدرك ضعف هذا المخلوق البشري الذي تهبط به ثقلة الجسد أحياناً إلى درك الفاحشة وتهيج به فورة اللحم والدم فينزو نزوة الحيوان في حمى الشهوة وتدفعه نزواته وشهواته وأطماعه ورغباته إلى المخالفة عن أمر الله في حمى الاندفاع . يدرك ضعفه هذا فلا يقسو عليه ولا يبادر إلى طرده من رحمة الله حين يظلم نفسه . حين يرتكب الفاحشة . . المعصية الكبيرة . . وحسبه أن شعلة الإيمان ما تزال في روحه لم تنطفئ وأن نداوة الإيمان ما تزال في قلبه لم تجف وأن صلته بالله ما تزال حية لم تذبل وأنه يعرف أنه عبد يخطئ وأن له رباً يغفر . . وإذن فما يزال هذا المخلوق الضعيف الخاطئ المذنب بخير . . إنه سائر في الدرب لم ينقطع به الطريق ممسك بالعروة لم ينقطع به الحبل فليعثر ما شاء له ضعفه أن يعثر . فهو واصل في النهاية ما دامت الشعلة معه والحبل في يده . ما دام يذكر الله ولا ينساه ويستغفره ويقر بالعبودية له ولا يتبجح بمعصيته .

إنه لا يغلق في وجه هذا المخلوق الضعيف الضال باب التوبة ولا يلقيه منبوذاً حائراً في التيه !

ولا يدعه مطروداً خائفاً من المآب . . إنه يطمعه في المغفرة ويدله على الطريق ويأخذ بيده المرتعشة ويسند خطوته المتعثرة وينير له الطريق ليفيء إلى الحمى الآمن ويثوب إلى الكنف الأمين .

شيء واحد يتطلبه : ألا يجف قلبه وتظلم روحه فينسى الله . . وما دام يذكر الله . ما دام في روحه ذلك المشعل الهادي . ما دام في ضميره ذلك الهاتف الحادي . ما دام في قلبه ذلك الندى البليل . . فسيطلع النور في روحه من جديد وسيؤوب إلى الحمى الآمن من جديد وستنبت البذرة الهامدة من جديد .

إن طفلك الذي يخطئ ويعرف أن السوط - لا سواه - في الدار . . سيروح آبقاً شارداً لا يثوب إلى الدار أبداً . فأما إذا كان يعلم أن إلى جانب السوط يداً حانية تربت على ضعفه حين يعتذر من الذنب وتقبل عذره حين يستغفر من الخطيئة . . فإنه سيعود !

(157/133)

وهكذا يأخذ الإسلام هذا المخلوق البشري الضعيف في لحظات ضعفه . . فإنه يعلم أن فيه بجانب الضعف قوة وبجانب الثقلة رفرفة وبجانب النزوة الحيوانية أشواقاً ربانية . . فهو يعطف عليه في لحظة الضعف ليأخذ بيده إلى مراقي الصعود ويربت عليه في لحظة العثرة

ليحلق به إلى الأفق من جديد . ما دام يذكر الله ولا ينساه ولا يصر على الخطيئة وهو يعلم أنها الخطيئة ! والرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول : " ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة "

والإسلام لا يدعو - بهذا - إلى الترخص ولا يمجد العاثر الهابط ولا يهتف له بجمال المستنقع ! كما تهتف " الواقعية " ! إنما هو يقيل عثرة الضعف ليستجيش في النفس الإنسانية الرجاء كما يستجيش فيها الحياء ! فالمغفرة من الله - ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ - تخجل ولا تطمع وتثير الاستغفار ولا تثير الاستهتار .

فأما الذين يستهترون ويصرون فهم هنالك خارج الأسوار موصدة في وجوههم الأسوار !

وهكذا يجمع الإسلام بين الهتاف للبشرية إلى الآفاق العلى والرحمة بهذه البشرية التي يعلم طاقتها . ويفتح أمامها باب الرجاء أبداً ويأخذ بيدها إلى أقصى طاقتها .

. . . هؤلاء المتقون ما لهم ؟

﴿ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . ونعم أجر العاملين ﴾ . .

فهم ليسوا سلبيين بالاستغفار من المعصية . كما أنهم ليسوا سلبيين بالإنفاق في السراء والضراء وكظم الغيظ والعفو عن الناس . . إنما هم عاملون . ﴿ ونعم أجر العاملين ﴾ . .

المغفرة من ربهم ، والجنة تجري من تحتها الأنهار بعد المغفرة وحب الله . . فهنالك عمل في أغوار النفس وهنالك عمل في ظاهر الحياة . وكلاهما عمل وكلاهما حركة وكلاهما نماء .

(158/133)

وهنالك الصلة بين هذه السمات كلها وبين معركة الميدان التي يتعقبها السياق . . وكما أن للنظام الربوي – أو النظام التعاوني – أثره في حياة الجماعة المسلمة وعلاقته بالمعركة في الميدان ، فكذلك لهذه السمات النفسية والجماعية أثرها الذي أشرنا إليه في مطلع الحديث . . فالانتصار على الشح والانتصار على الغيظ والانتصار على الخطيئة والرجعة إلى الله وطلب مغفرته ورضاه . . كلها ضرورية للانتصار على الأعداء في المعركة . وهم إنما كانوا أعداء لأنهم يمثلون الشح والهوى والخطيئة والتبجح ! وهم إنما كانوا أعداء لأنهم لا يُخضعون ذواتهم وشهواتهم ونظام حياتهم لله ومنهجه وشريعته . ففي هذا تكون العداوة وفي هذا تكون المعركة وفي هذا يكون الجهاد . وليس هنالك أسباب أخرى يعادي فيها المسلم ويعارك ويجاهد . فهو إنما يعادي لله ويعارك لله ويجاهد لله ! فالصلة وثيقة بين هذه التوجيهات كلها وبين استعراض المعركة في هذا السياق . . كما أن الصلة وثيقة بينها وبين الملابسات الخاصة التي صاحبت هذه المعركة . من مخالفة عن أمر رسول الله – صلى

الله عليه وسلم - ومن طمع في الغنيمة نشأت عنه المخالفة . ومن اعتزاز بالذات والهوى نشأ عنه تخلف عبد الله ابن أبيّ ومن معه . ومن ضعف بالذنب نشأ عنه تولي من تولى - كما سيرد في السياق - ومن غبش في التصور نشأ عنه عدم رد الأمور إلى الله ، وسؤال بعضهم : ﴿ هل لنا من الأمر من شيء ﴾ ؟ وقول بعضهم : ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا ﴾ . .

والقرآن يتناول هذه الملابسات كلها ، واحدة واحدة ، فيجلوها ، ويقرر الحقائق فيها ، ويلمس النفوس لمسات موحية تستجيشها وتحييها . . على هذا النحو الفريد الذي نرى نماذج منه في هذا السياق .

بعد ذلك يبدأ السياق في الفقرة الثالثة من الاستعراض فيلمس أحداث المعركة ذاتها ولكنه ما يزال يتوخى تقرير الحقائق الأساسية الأصيلة في التصور الإسلامي ويجعل الأحداث مجرد محور ترتكز إليه هذه الحقائق .

وفي هذه الفقرة يبدأ بالإشارة إلى سنة الله الجارية في المكذبين ليقول للمسلمين إن انتصار المشركين في هذه المعركة ليس هو السنة الثابتة ، إنما هو حادث عابر وراءه حكمة

خاصة . . ثم يدعوهم إلى الصبر والاستعلاء بالإيمان . فإن يكن أصابتهم جراح وآلام فقد أصاب المشركين مثلها في المعركة ذاتها . وإنما هنالك حكمة وراء ما وقع يكشف لهم عنها : حكمة تمييز الصفوف ، وتمحيص القلوب واتخاذ الشهداء الذين يموتون دون عقيدتهم ; ووقف المسلمين أمام الموت وجهاً لوجه وقد كانوا يتمنونه ليزنوا وعودهم وأمانيهم بميزان واقعي ! ثم في النهاية محق الكافرين بإعداد الجماعة المسلمة ذلك الإعداد المتين . . وإذن فهي الحكمة العليا من وراء الأحداث كلها سواء كانت هي النصر أو هي الهزيمة .

﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين . . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون - إن كنتم مؤمنين - أن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ؟ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾ .

لقد أصاب المسلمين القرح في هذه الغزوة وأصابهم القتل والهزيمة . أصيبوا في أرواحهم وأصيبوا في أبدانهم بأذى كثير . قتل منهم سبعون صحابياً وكسرت رباعية الرسول - صلى الله عليه وسلم - وشج وجهه وأرهقه المشركون وأثخن أصحابه بالجراح . . وكان من نتائج هذا كله هزة في النفوس ، وصدمة لعلها لم تكن متوقعة بعد النصر العجيب في بدر

حتى لقال المسلمون حين أصابهم ما أصابهم : " أنى هذا ؟ " وكيف تجري الأمور معنا هكذا ونحن المسلمون ؟ !

(160/133)

والقرآن الكريم يرد المسلمين هنا إلى سنن الله في الأرض . يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور . فهم ليسوا بدعاً في الحياة ; فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف والأمور لا تمضي جزافاً ، إنما هي تتبع هذه النواميس ، فإذا هم درسوها ، وأدركوا مغازيها ، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث ، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع ، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث ، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام . واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق . ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين ، لينالوا النصر والتمكين ; بدون الأخذ بأسباب النصر ، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول .

والسنن التي يشير إليها السياق هنا ويوجه أبصارهم إليها هي :

عاقبة المكذبين على مدار التاريخ . ومداولة الأيام بين الناس . والابتلاء لتمحيص السرائر ، وامتحان قوة الصبر على الشدائد واستحقاق النصر للصابرين والمحق للمكذبين .

وفي خلال استعراض تلك السنن تحفل الآيات بالتشجيع على الاحتمال والمواساة في الشدة والتأسية على القرح الذي لم يصبهم وحدهم إنما أصاب أعداءهم كذلك وهم أعلى من أعدائهم عقيدة وهدفاً وأهدى منهم طريقاً ومنهجاً ، والعاقبة بعد لهم والدائرة على الكافرين .

﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ . .

إن القرآن ليربط ماضي البشرية بحاضرها وحاضرها بماضيها فيشير من خلال ذلك كله إلى مستقبلها . وهؤلاء العرب الذين وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم ولم تكن معارفهم ولم تكن تجاربهم - قبل الإسلام - لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة . لولا هذا الإسلام - وكتابه القرآن - الذي أنشأهم به الله نشأة أخرى وخلق به منهم أمة تقود الدنيا . .

إن النظام القبلي الذي كانوا يعيشون في ظله ما كان ليقود تفكيرهم إلى الربط بين سكان الجزيرة وماجريات حياتهم ; فضلاً على الربط بين سكان هذه الأرض وأحداثها فضلاً

على الربط بين الأحداث العالمية والسنن الكونية التي تجري وفقها الحياة جميعاً . . وهي نقلة بعيدة لم تنبع من البيئة ولم تنشأ من مقتضيات الحياة في ذلك الزمان ! إنما حملتها إليهم هذه العقيدة . بل حملتهم إليها ! وارتقت بهم إلى مستواها في ربع قرن من الزمان . على حين أن غيرهم من معاصريهم لم يرتفعوا إلى هذا الأفق من التفكير العالي إلا بعد قرون وقرون ; ولم يهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس الكونية إلا بعد أجيال وأجيال . . فلما اهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس نسوا أن معها كذلك طلاقة المشيئة الإلهية وأنه إلى الله تصير الأمور . . فأما هذه الأمة المختارة فقد استيقنت هذا كله واتسع له تصورها ووقع في حسها التوازن بين ثبات السنن وطلاقة المشيئة فاستقامت حياتها على التعامل مع سنن الله الثابتة والاطمئنان - بعد هذا - إلى مشيئته الطليقة !

﴿ قد خلت من قبلكم سنن ﴾ . .

وهي هي التي تحكم الحياة . وهي هي التي قررتها المشيئة الطليقة . فما وقع منها في غير زمانكم فسيقع مثله - بمشيئة الله - في زمانكم وما انطبق منها على مثل حالكم فهو كذلك سينطبق على حالكم .

﴿ فسيروا في الأرض ﴾ . .

فالأرض كلها وحدة . والأرض كلها مسرح للحياة البشرية . والأرض والحياة فيها كتاب مفتوح تتملاه الأبصار والبصائر .

﴿ فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ . .

وهي عاقبة تشهد بها آثارهم في الأرض وتشهد بها سيرهم التي يتناقلها خلفهم هناك . .

ولقد ذكر القرآن الكريم كثيراً من هذه السير ومن هذه الآثار في مواضع منه متفرقة .

(162/133)

بعضها حدد مكانه وزمانه وشخوصه . وبعضها أشار إليه بدون تحديد ولا تفصيل . .

وهنا يشير هذه الإشارة المجملة ليصل منها إلى نتيجة مجملة : إن ما جرى للمكذبين بالأمس سيجري مثله للمكذبين اليوم وغداً . ذلك كي تطمئن قلوب الجماعة المسلمة إلى العاقبة من جهة . وكي تحذر الانزلاق مع المكذبين من جهة أخرى . وقد كان هنالك ما يدعو إلى الطمأنينة وما يدعو إلى التحذير . وفي السياق سيرد من هذه الدواعي الكثير .

وعلى إثر بيان هذه السنة يتجاوب النداء للعظة والعبرة بهذا البيان :

﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ . .

هذا بيان للناس كافة . فهو نقلة بشرية بعيدة ما كان الناس ببالغيها لولا هذا البيان الهادي . ولكن طائفة خاصة هي التي تجد فيه الهدى ، وتجد فيه الموعظة وتنتفع به وتصل على هداه . . طائفة ﴿ المتقين ﴾ . .

إن الكلمة الهادية لا يستشرفها إلا القلب المؤمن المفتوح للهدى . والعظة البالغة لا ينتفع بها إلا القلب التقي الذي يخفق لها ويتحرك بها . . والناس قلما ينقصهم العلم بالحق والباطل ، وبالهدى والضلال . . إن الحق بطبيعته من الوضوح والظهور بحيث لا يحتاج إلى بيان طويل . إنما تنقص الناس الرغبة في الحق ، والقدرة على اختيار طريقه والرغبة في الحق والقدرة على اختيار طريقه . . لا ينشئهما إلا الإيمان ، ولا يحفظهما إلا التقوى . . ومن ثم تكرر في القرآن أمثال هذه التقريرات . تنص على أن ما في هذا الكتاب من حق ومن هدى ومن نور ومن موعظة ومن عبرة . . . إنما هي للمؤمنين وللمتقين . فالإيمان والتقوى هما اللذان يشرحان القلب للهدى والنور والموعظة والعبرة . وهما اللذان يزينان للقلب اختيار الهدى والنور والانتفاع بالموعظة والعبرة . . واحتمال مشقات الطريق . . وهذا هو الأمر وهذا هو لب المسألة . . لا مجرد العلم والمعرفة . . فكم ممن يعلمون ويعرفون وهم في حمأة الباطل يتمرغون . إما خضوعاً لشهوة لا يجدي معها العلم والمعرفة وإما خوفاً من أذى ينتظر حملة الحق وأصحاب الدعوة !

وبعد هذا البيان العريض يتجه إلى المسلمين بالتقوية والتأسية والتثبيت :

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون . إن كنتم مؤمنين ﴾ . .

(164/133)

لا تهنوا - من الوهن والضعف - ولا تحزنوا - لما أصابكم ولما فاتكم - وأنتم الأعلون . . عقيدتكم أعلى فأنتم تسجدون لله وحده وهم يسجدون لشيء من خلقه أو لبعض من خلقه ! ومنهجكم أعلى . فأنتم تسيرون على منهج من صنع الله وهم يسيرون على منهج من صنع خلق الله ! ودوركم أعلى . فأنتم الأوصياء على هذه البشرية كلها الهداة لهذه البشرية كلها وهم شاردون عن النهج ضالون عن الطريق . ومكانكم في الأرض أعلى فلكم وراثة الأرض التي وعدكم الله بها وهم إلى الفناء والنسيان صائرون . . فإن كنتم مؤمنين حقاً فأنتم الأعلون . وإن كنتم مؤمنين حقاً فلا تهنوا ولا تحزنوا . فإنما هي سنة الله أن تصابوا وتصيبوا على أن تكون لكم العقبى بعد الجهاد والابتلاء والتمحيص :

﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله .

وتلك الأيام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء . والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ . .

وذكر القرح الذي أصابهم وأصاب المكذبين قرح مثله قد يكون إشارة إلى غزوة بدر . وقد مس القرح فيها المشركين وسلم المسلمون . وقد يكون إشارة إلى غزوة أحد . وقد انتصر فيها المسلمون في أول الأمر . حتى هزم المشركون وقتل منهم سبعون وتابعهم المسلمون يضربون أقفيتهم حتى لقد سقط علم المشركين في ثنايا المعركة فلم يتقدم إليه منهم أحد . حتى رفعته لهم امرأة فلاثوا بها وتجمعوا عليها . . ثم كانت الدولة للمشركين حينما خرج الرماة على أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – واختلفوا فيما بينهم . فأصاب المسلمين ما أصابهم في نهاية المعركة . جزاء وفاقاً لهذا الاختلاف وذلك الخروج وتحقيقاً لسنة من سنن الله التي لا تتخلف إذ كان اختلاف الرماة وخروجهم ناشئين من الطمع في الغنيمة . والله قد كتب النصر في معارك الجهاد لمن يجاهدون في سبيله لا ينظرون إلى شيء من عرض هذه الدنيا الزهيد . وتحقيقاً كذلك لسنة أخرى من سنن الله في الأرض وهي مداولة الأيام بين الناس – وفقاً لما يبدو من عمل الناس ونيتهم – فتكون لهؤلاء يوماً ولأولئك يوماً . ومن ثم يتبين المؤمنون ويتبين المنافقون . كما تتكشف الأخطاء . وينجلي الغبش .

﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس . . وليعلم الله

الذين آمنوا ﴾ . .

إن الشدة بعد الرخاء والرخاء بعد الشدة هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس وطبائع القلوب ودرجة الغبش فيها والصفاء ودرجة الهلع فيها والصبر ودرجة الثقة فيها بالله أو القنوط ودرجة الاستسلام فيها لقدر الله أو البرم به والجموح !

عندئذ يتميز الصف ويتكشف عن : مؤمنين ومنافقين ويظهر هؤلاء وهؤلاء على حقيقتهم وتتكشف في دنيا الناس دخائل نفوسهم . ويزول عن الصف ذلك الدخل وتلك الخلخلة التي تنشأ من قلة التناسق بين أعضائه وأفراده وهم مختلطون مبهمون !

(166/133)

والله سبحانه يعلم المؤمنين والمنافقين . والله سبحانه يعلم ما تنطوي عليه الصدور . ولكن الأحداث ومداولة الأيام بين الناس تكشف المخبوء وتجعله واقعاً في حياة الناس وتحول الإيمان إلى عمل ظاهر ، وتحول النفاق كذلك إلى تصرف ظاهر ، ومن ثم يتعلق به الحساب والجزاء . فالله سبحانه لا يحاسب الناس على ما يعلمه من أمرهم ولكن يحاسبهم على وقوعه منهم .

ومداولة الأيام وتعاقب الشدة والرخاء ، محك لا يخطىء وميزان لا يظلم . والرخاء في هذا

كالشدة. وكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك ولكنها تتراخى بالرخاء وتنحل. والنفس المؤمنة هي التي تصبر للضراء ولا تستخفها السراء وتتجه إلى الله في الحالين وتوقن أن ما أصابها من الخير والشر فبإذن الله.

وقد كان الله يربي هذه الجماعة - وهي في مطالع خطواتها لقيادة البشرية - فرباها بهذا الابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء والابتلاء بالهزيمة المريرة بعد الابتلاء بالنصر العجيب - وإن يكن هذا وهذه قد وقعا وفق أسبابهما ووفق سنن الله الجارية في النصر والهزيمة. لتتعلم هذه الجماعة أسباب النصر والهزيمة. ولتزيد طاعة لله وتوكلاً عليه والتصاقاً بركنه. ولتعرف طبيعة هذا المنهج وتكاليفه معرفة اليقين.

ويمضي السياق يكشف للأمة المسلمة عن جوانب من حكمة الله فيما وقع من أحداث المعركة وفيما وراء مداولة الأيام بين الناس وفيما بعد تمييز الصفوف وعلم الله للمؤمنين:

﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾ ..

وهو تعبير عجيب عن معنى عميق - إن الشهداء لمختارون. يختارهم الله من بين المجاهدين ويتخذهم لنفسه - سبحانه - فما هي رزية إذن ولا خسارة أن يستشهد في سبيل الله من يستشهد. إنما هو اختيار وانتقاء وتكريم واختصاص.. إن هؤلاء هم الذين اختصهم الله ورزقهم الشهادة ليستخلصهم لنفسه - سبحانه - ويخصهم بقربه.

ثم هم شهداء يتخذهم الله ويستشهدهم على هذا الحق الذي بعث به للناس .

يستشهدهم فيؤدون الشهادة . يؤدونها أداء لا شبهة فيه ولا مطعن عليه ولا جدال حوله . يؤدونها بجهادهم حتى الموت في سبيل إحقاق هذا الحق وتقريره في دنيا الناس . يطلب الله – سبحانه – منهم أداء هذه الشهادة ، على أن ما جاءهم من عنده الحق ؛ وعلى أنهم آمنوا به وتجردوا له وأعزوه حتى أرخصوا كل شيء دونه ؛ وعلى أن حياة الناس لا تصلح ولا تستقيم إلا بهذا الحق ؛ وعلى أنهم هم استيقنوا هذا فلم يألوا جهداً في كفاح الباطل وطرده من حياة الناس وإقرار هذا الحق في عالمهم وتحقيق منهج الله في حكم الناس . . يستشهدهم الله على هذا كله فيشهدون . وتكون شهادتهم هي هذا الجهاد حتى الموت . وهي شهادة لا تقبل الجدال والمحال !

وكل من ينطق بالشهادتين : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . لا يقال له إنه شهد إلا أن يؤدي مدلول هذه الشهادة ومقتضاها . ومدلولها هو ألا يتخذ إلا الله إلها . ومن ثم لا يتلقى الشريعة إلا من الله . فأخص خصائص الألوهية التشريع للعباد ؛ وأخص خصائص العبودية التلقي من الله . . ومدلولها كذلك ألا يتلقى من الله إلا عن محمد بما أنه رسول الله . ولا يعتمد مصدراً آخر للتلقي إلا هذا المصدر . .

ومقتضى هذه الشهادة أن يجاهد إذن لتصبح الألوهية لله وحده في الأرض كما بلغها محمد

- صلى الله عليه وسلم - فيصبح المنهج الذي أراده الله للناس والذي بلغه عنه محمد - صلى الله عليه وسلم - هو المنهج السائد والغالب والمطاع، وهو النظام الذي يصرّف حياة الناس كلها بلا استثناء.

فإذا اقتضى هذا الأمر أن يموت في سبيله فهو إذن شهيد. أي شاهد طلب الله إليه أداء هذه الشهادة فأداها. واتخذه الله شهيداً.. ورزقه هذا المقام.

هذا فقه ذلك التعبير العجيب:

﴿ ويتخذ منكم شهداء.. ﴾..

(168/133)

وهو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ومقتضاه.. لا ما انتهى إليه مدلول هذه الشهادة من الرخص والتفاهة والضياع!

﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾..

والظلم كثيراً ما يذكر في القرآن ويراد به الشرك. بوصفه أظلم الظلم وأقبحه. وفي القرآن: ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ وفي الصحيحين "عن ابن مسعود: أنه قال: قلت: يا رسول الله. أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك...".

وقد أشار السياق من قبل إلى سنة الله في المكذبين؛ فالآن يقرر أن الله لا يحب الظالمين. فهو توكيد في صورة أخرى لحقيقة ما ينتظر المكذبين الظالمين الذين لا يحبهم الله. والتعبير بأن الله لا يحب الظالمين يثير في نفس المؤمن بغض الظلم وبغض الظالمين. وهذه الإثارة في معرض الحديث عن الجهاد والاستشهاد لها مناسبتها الحاضرة. فالمؤمن إنما يبذل نفسه في مكافحة ما يكرهه الله ومن يكرهه. وهذا هو مقام الاستشهاد وفي هذا تكون الشهادة؛ ومن هؤلاء يتخذ الله الشهداء..

ثم يمضي السياق القرآني يكشف عن الحكمة الكامنة وراء الأحداث، في تربية الأمة المسلمة وتمحيصها وإعدادها لدورها الأعلى ولتكون أداة من أدوات قدره في محق الكافرين وستاراً لقدرته في هلاك المكذبين:

﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾..

والتمحيص درجة بعد الفرز والتمييز. التمحيص عملية تتم في داخل النفس، وفي مكنون الضمير.. إنها عملية كشف لمكنونات الشخصية وتسليط الضوء على هذه المكنونات. تمهيداً لإخراج الدخل والدغل والأوشاب وتركها نقية واضحة مستقرة على الحق بلا غبش ولا ضباب..

وكثيراً ما يجهل الإنسان نفسه ومخابئها ودروبها ومنحنياتها. وكثيراً ما يجهل حقيقة ضعفها وقوتها وحقيقة ما استكن فيها من رواسب لا تظهر إلا بمثير!

وفي هذا التمحيص الذي يتولاه الله – سبحانه – بمداولة الأيام بين الناس بين الشدة والرخاء ، يعلم المؤمنون من أنفسهم ما لم يكونوا يعلمونه قبل هذا المحك المرير : محك الأحداث والتجارب والمواقف العملية الواقعية .

ولقد يظن الإنسان في نفسه القدرة والشجاعة والتجرد والخلاص من الشح والحرص . . ثم إذا هو يكشف – على ضوء التجربة العملية وفي مواجهة الأحداث الواقعية – إن في نفسه عقابيل لم تمحص . وأنه لم يتهيأ لمثل هذا المستوى من الضغوط ! ومن الخير أن يعلم هذا من نفسه ليعاود المحاولة في سبكها من جديد على مستوى الضغوط التي تقتضيها طبيعة هذه الدعوة وعلى مستوى التكاليف التي تقتضيها هذه العقيدة !

والله – سبحانه – كان يربي هذه الجماعة المختارة لقيادة البشرية وكان يريد بها أمراً في هذه الأرض .

فمحصها هذا التمحيص الذي تكشفت عنه الأحداث في أحد لترتفع إلى مستوى الدور المقدر لها وليتحقق على يديها قدر الله الذي ناطه بها :

﴿ ويمحق الكافرين ﴾ . .

تحقيقاً لسنته في دمغ الباطل بالحق متى استعلن الحق ، وخلص من الشوائب بالتمحيص . .

وفي سؤال استنكاري يصحح القرآن تصورات المسلمين عن سنة الله في الدعوات ، وفي النصر والهزيمة وفي العمل والجزاء . ويبين لهم أن طريق الجنة محفوف بالمكاره وزاده الصبر على مشاق الطريق وليس زاده التمني والأماني الطائرة التي لا تثبت على المعاناة والتمحيص :

﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين . ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه . فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾ . .

إن صيغة السؤال الاستنكارية يقصد بها إلى التنبيه بشدة إلى خطأ هذا التصور : تصور أنه يكفي الإنسان أن يقولها كلمة باللسان : أسلمت وأنا على استعداد للموت . فيبلغ بهذه الكلمة أن يؤدي تكاليف الإيمان وأن ينتهي إلى الجنة والرضوان !

إنما هي التجربة الواقعية والامتحان العملي . وإنما هو الجهاد وملاقاة البلاء ثم الصبر على تكاليف الجهاد وعلى معاناة البلاء .

وفي النص القرآني لفتة ذات مغزى :

﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ﴾ . . ﴿ ويعلم الصابرين ﴾ . .

فلا يكفي أن يجاهد المؤمنون . إنما هو الصبر على تكاليف هذه الدعوة أيضاً . التكاليف المستمرة المتنوعة التي لا تقف عند الجهاد في الميدان . فربما كان الجهاد في الميدان أخف تكاليف هذه الدعوة التي يُطلب لها الصبر ويختبر بها الإيمان . إنما هنالك المعاناة اليومية التي لا تنتهي : معاناة الاستقامة على أفق الإيمان . والاستقرار على مقتضياته في الشعور والسلوك والصبر في أثناء ذلك على الضعف الإنساني : في النفس وفي الغير ممن يتعامل معهم المؤمن في حياته اليومية . والصبر على الفترات التي يستعلي فيها الباطل وينتفش ويبدو كالمنتصر ! والصبر على طول الطريق وبعد الشقة وكثرة العقبات . والصبر على وسوسة الراحة وهفوة النفس لها في زحمة الجهد والكرب والنضال والصبر على أشياء كثيرة ليس الجهاد في الميدان إلا واحداً منها في الطريق المحفوف بالمكاره . طريق الجنة التي لا تنال بالأمانيّ وبكلمات اللسان !

﴿ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه . فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾ . .

وهكذا يقفهم السياق وجهاً لوجه مرة أخرى أمام الموت الذي واجهوه في المعركة وقد كانوا من قبل يتمنون لقاءه . ليوازنوا في حسهم بين وزن الكلمة يقولها اللسان ووزن الحقيقة يواجهها في العيان . فيعلمهم بهذا أن يحسبوا حساباً لكل كلمة تطلقها ألسنتهم ، ويزنوا حقيقة رصيدها الواقعي في نفوسهم على ضوء ما واجهوه من حقيقتها حين واجههم !

وبذلك يقدرون قيمة الكلمة وقيمة الأمنية وقيمة الوعد في ضوء الواقع الثقيل ! ثم يعلمهم أن ليست الكلمات الطائرة والأماني المرفرفة هي التي تبلغهم الجنة إنما هو تحقيق الكلمة وتجسيم الأمنية والجهاد الحقيقي والصبر على المعاناة .

(171/133)

حتى يعلم الله منهم ذلك كله واقعاً كائناً في دنيا الناس !

ولقد كان الله - سبحانه - قادراً على أن يمنح النصر لنبيه ولدعوته ولدينه ولمنهجه منذ اللحظة الأولى وبلا كد من المؤمنين ولا عناء . وكان قادراً أن ينزل الملائكة تقاتل معهم - أو بدونهم - وتدمر على المشركين كما دمرت على عاد وثمود وقوم لوط . .

ولكن المسألة ليست هي النصر . . إنما هي تربية الجماعة المسلمة التي تعد لتتسلم قيادة البشرية . . البشرية بكل ضعفها ونقصها ; وبكل شهواتها ونزواتها ; وبكل جاهليتها وانحرافها . . وقيادتها قيادة راشدة تقتضي استعداداً عالياً من القادة . وأول ما تقتضيه صلابة في الخلق وثبات على الحق وصبر على المعاناة ومعرفة بمواطن الضعف ومواطن القوة في النفس البشرية وخبرة بمواطن الزلل ودواعي الانحراف ووسائل العلاج . . ثم صبر على الرخاء كالصبر على الشدة . وصبر على الشدة بعد الرخاء . وطعمها يومئذ لاذع

مرير ! . .

وهذه التربية هي التي يأخذ الله بها الجماعة المسلمة حين يأذن بتسليمها مقاليد القيادة ليعدها بهذه التربية للدور العظيم الهائل الشاق الذي ينوطه بها في هذه الأرض . وقد شاء - سبحانه - أن يجعل هذا الدور من نصيب " الإنسان " الذي استخلفه في هذا الملك العريض !

(172/133)

وقدر الله في إعداد الجماعة المسلمة للقيادة يمضي في طريقه بشتى الأسباب والوسائل وشتى الملابسات والوقائع . . يمضي أحياناً عن طريق النصر الحاسم للجماعة المسلمة فتستبشر وترتفع ثقتها بنفسها - في ظل العون الإلهي - وتجرب لذة النصر وتصبر على نشوته وتجرب مقدرتها على مغالبة البطر والزهو والخيلاء وعلى التزام التواضع والشكر لله . . ويمضي أحياناً عن طريق الهزيمة والكرب والشدة . فتلجأ إلى الله . وتعرف حقيقة قوتها الذاتية وضعفها حين تنحرف أدنى انحراف عن منهج الله . وتجرب مرارة الهزيمة; وتستعلي مع ذلك على الباطل بما عندها من الحق المجرد; وتعرف مواضع نقصها وضعفها ومداخل شهواتها ومزالق أقدامها; فتحاول أن تصلح من هذا كله في الجولة القادمة . .

وتخرج من النصر ومن الهزيمة بالزاد والرصيد . . ويمضي قدر الله وفق سنته لا يتخلف ولا يحيد . .

وقد كان هذا كله طرفاً من رصيد معركة أحد ; الذي يحشده السياق القرآني للجماعة المسلمة - على نحو ما نرى في هذه الآيات - وهو رصيد مدخر لكل جماعة مسلمة ولكل جيل من أجيال المسلمين .

ثم يمضي السياق في تقرير حقائق التصور الإسلامي الكبيرة; وفي تربية الجماعة المسلمة بهذه الحقائق; متخذاً من أحداث المعركة محوراً لتقرير تلك الحقائق ; ووسيلة لتربية الجماعة المسلمة بها على طريقة المنهج القرآني الفريد :

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ; وسيجزي الله الشاكرين .

(173/133)

وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً; ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ; وسنجزي الشاكرين . وكأي من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا

أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ . .

إن الآية الأولى في هذه الفقرة تشير إلى واقعة معينة حدثت في غزوة أحد . ذلك حين انكشف ظهر المسلمين بعد أن ترك الرماة أماكنهم من الجبل فركبه المشركون وأوقعوا بالمسلمين وكسرت رباعية الرسول - صلى الله عليه وسلم - وشج وجهه ونزفت جراحه ; وحين اختلطت الأمور وتفرق المسلمون لا يدري أحدهم مكان الآخر . . حينئذ نادى مناد : إن محمداً قد قتل . . وكان لهذه الصيحة وقعها الشديد على المسلمين . فانقلب الكثيرون منهم عائدين إلى المدينة مصعدين في الجبل منهزمين تاركين المعركة يائسين . . لولا أن ثبت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في تلك القلة من الرجال ; وجعل ينادي المسلمين وهم منقلبون حتى فاءوا إليه وثبت الله قلوبهم وأنزل عليهم النعاس أمنة منه وطمأنينة . . كما سيجيء . .

فهذه الحادثة التي أذهلتهم هذا الذهول . يتخذها القرآن هنا مادة للتوجيه ومناسبة لتقرير حقائق التصور الإسلامي ; ويجعلها محوراً لإشارات موحية في حقيقة الموت وحقيقة الحياة وفي تاريخ الإيمان ومواكب المؤمنين :

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً . وسيجزي الله الشاكرين ﴾ . .

إن محمداً ليس إلا رسولاً . سبقته الرسل . وقد مات الرسل . ومحمد سيموت كما مات الرسل قبله . . هذه حقيقة أولية بسيطة . فما بالكم غفلتم عنها حينما واجهتكم في المعركة ؟

(174/133)

إن محمداً رسول من عند الله جاء ليبلغ كلمة الله . والله باق لا يموت وكلمته باقية لا تموت . . وما ينبغي أن يرتد المؤمنون على أعقابهم إذا مات النبي الذي جاء ليبلغهم هذه الكلمة أو قتل . . وهذه كذلك حقيقة أولية بسيطة غفلوا عنها في زحمة الهول . وما ينبغي للمؤمنين أن يغفلوا عن هذه الحقيقة الأولية البسيطة !

إن البشر إلى فناء والعقيدة إلى بقاء ، ومنهج الله للحياة مستقل في ذاته عن الذين يحملونه ويؤدونه إلى الناس من الرسل والدعاة على مدار التاريخ . . والمسلم الذي يحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد كان أصحابه يحبونه الحب الذي لم تعرف له النفس البشرية في تاريخها كله نظيراً . الحب الذي يفدونه معه بحياتهم أن تشوكه شوكة .

وقد رأينا أبا دجانة يترس عليه بظهره والنبل يقع فيه ولا يتحرك ! ورأينا التسعة الذين أفرد فيهم ينافحون عنه ويستشهدون واحداً إثر واحد . . وما يزال الكثيرون في كل زمان وفي

كل مكان يحبونه ذلك الحب العجيب بكل كيانهم وبكل مشاعرهم حتى ليأخذهم الوجد من مجرد ذكره - صلى الله عليه وسلم - . . هذا المسلم الذي يحب محمداً ذلك الحب مطلوب منه أن يفرق بين شخص محمد - صلى الله عليه وسلم - والعقيدة التي أبلغها وتركها للناس من بعده باقية ممتدة موصولة بالله الذي لا يموت .

إن الدعوة أقدم من الداعية :

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ . .

قد خلت من قبله الرسل يحملون هذه الدعوة الضاربة في جذور الزمن العميقة في منابت التاريخ المبتدئة مع البشرية تحدو لها بالهدى والسلام من مطالع الطريق .

وهي أكبر من الداعية وأبقى من الداعية . فدعاتها يجيئون ويذهبون وتبقى هي على الأجيال والقرون ويبقى أتباعها موصولين بمصدرها الأول الذي أرسل بها الرسل وهو باق - سبحانه - يتوجه إليه المؤمنون . . وما يجوز أن ينقلب أحد منهم على عقبيه ويرتد عن هدى الله . والله حي لا يموت :

ومن ثم هذا الاستنكار وهذا التهديد وهذا البيان المنير :

﴿ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً . وسيجزي الله الشاكرين ﴾ . .

وفي التعبير تصوير حي للارتداد : ﴿ انقلبتم على أعقابكم ﴾ . . ﴿ ومن ينقلب على عقبيه ﴾ . فهذه الحركة الحسية في الانقلاب تجسم معنى الارتداد عن هذه العقيدة كأنه منظر مشهود . والمقصود أصلاً ليس حركة الارتداد الحسية بالهزيمة في المعركة ولكن حركة الارتداد النفسية التي صاحبتها حينما هتف الهاتف : إن محمداً قد قتل فأحس بعض المسلمين أن لا جدوى إذن من قتال المشركين وبموت محمد انتهى أمر هذا الدين وانتهى أمر الجهاد للمشركين ! فهذه الحركة النفسية يجسمها التعبير هنا فيصورها حركة ارتداد على الأعقاب كارتدادهم في المعركة على الأعقاب ! وهذا هو الذي حذرهم إياه النضر بن أنس - رضي الله عنه - فقال لهم حين وجدهم قد ألقوا بأيديهم وقالوا له : إن محمداً قد مات : "فما تصنعون بالحياة من بعده ؟ فقوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم" .

﴿ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ﴾ . .

فإنما هو الخاسر الذي يؤذي نفسه فيتنكب الطريق . . وانقلابه لن يضر الله شيئاً . فالله غني عن الناس وعن إيمانهم . ولكنه - رحمة منه بالعباد - شرع لهم هذا المنهج لسعادتهم هم ولخيرهم هم . وما يتنكبه متنكب حتى يلاقي جزاءه من الشقوة والحيرة في ذات نفسه

وفيمن حوله . وحتى يفسد النظام وتفسد الحياة ويفسد الخلق وتعوج الأمور كلها ويذوق الناس وبال أمرهم في تنكبهم للمنهج الوحيد الذي تستقيم في ظله الحياة وتستقيم في ظله النفوس وتجد الفطرة في ظله السلام مع ذاتها والسلام مع الكون الذي تعيش فيه .

﴿ وسيجزي الله الشاكرين ﴾ . .

(176/133)

الذين يعرفون مقدار النعمة التي منحها الله لعباده في إعطائهم هذا المنهج فيشكرونها باتباع المنهج ويشكرونها بالثناء على الله ومن ثم يسعدون بالمنهج فيكون هذا جزاءً طيباً على شكرهم ثم يسعدون بجزاء الله لهم في الآخرة وهو أكبر وأبقى . .

وكأنما أراد الله – سبحانه – بهذه الحادثة وبهذه الآية أن يفطم المسلمين عن تعلقهم الشديد بشخص النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو حي بينهم . وأن يصلهم مباشرة بالنبع . النبع الذي لم يفجره محمد – صلى الله عليه وسلم – ولكن جاء فقط ليومىء إليه ويدعو البشر إلى فيضه المتدفق كما أومأ إليه من قبله من الرسل ودعوا القافلة إلى الارتواء منه !

وكأنما أراد الله – سبحانه – أن يأخذ بأيديهم فيصلها مباشرة بالعروة الوثقى . العروة التي لم يعقدها محمد – صلى الله عليه وسلم – إنما جاء ليعقد بها أيدي البشر ثم يدعهم عليها

ويمضي وهم بها مستمسكون!

وكأنما أراد الله - سبحانه - أن يجعل ارتباط المسلمين بالإسلام مباشرة وأن يجعل عهدهم مع الله مباشرة وأن يجعل مسؤوليتهم في هذا العهد أمام الله بلا وسيط. حتى يستشعروا تبعتهم المباشرة التي لا يخليهم منها أن يموت الرسول - صلى الله عليه وسلم - أو يقتل فهم إنما بايعوا الله. وهم أمام الله مسؤولون!

وكأنما كان الله - سبحانه - يعدّ الجماعة المسلمة لتلقي هذه الصدمة الكبرى - حين تقع - وهو - سبحانه - يعلم أن وقعها عليهم يكاد يتجاوز طاقتهم. فشاء أن يدربهم عليها هذا التدريب وأن يصلهم به هو وبدعوته الباقية قبل أن يستبد بهم الدهش والذهول.

ولقد أصيبوا - حين وقعت بالفعل - بالدهش والذهول. حتى لقد وقف عمر - رضي الله عنه - شاهراً سيفه يهدد به من يقول: إن محمداً قد مات!

ولم يثبت إلا أبو بكر الموصول القلب بصاحبه وبقدر الله فيه الاتصال المباشر الوثيق.

وكانت هذه الآية - حين ذكرها وذكر بها المدهوشين الذاهلين - هي النداء الإلهي المسموع فإذا هم يثوبون ويرجعون!

ثم يلمس السياق القرآني مكمن الخوف من الموت في النفس البشرية لمسة موحية تطرد ذلك الخوف عن طريق بيان الحقيقة الثابتة في شأن الموت وشأن الحياة وما بعد الحياة والموت من حكمة لله وتدبير ومن ابتلاء للعباد وجزاء :

﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً . ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ; ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها .

وسنجزي الشاكرين ﴾ . .

إن لكل نفس كتاباً مؤجلاً إلى أجل مرسوم . ولن تموت نفس حتى تستوفي هذا الأجل المرسوم . فالخوف والهلع والحرص والتخلف لا تطيل أجلاً . والشجاعة والثبات والإقدام والوفاء لا تقصر عمراً . فلا كان الجبن ولا نامت أعين الجبناء . والأجل المكتوب لا ينقص منه يوم ولا يزيد !

بذلك تستقر حقيقة الأجل في النفس ، فتترك الاشتغال به ولا تجعله في الحساب وهي تفكر في الأداء والوفاء بالالتزامات والتكاليف الإيمانية . وبذلك تنطلق من عقال الشح والحرص كما ترتفع على وهلة الخوف والفزع . وبذلك تستقيم على الطريق بكل تكاليفه وبكل التزاماته في صبر وطمأنينة وتوكل على الله الذي يملك الآجال وحده .

ثم ينتقل بالنفس خطوة وراء هذه القضية التي حسم فيها القول . . فإنه إذا كان العمر مكتوباً والأجل مرسوماً . . فلتنظر نفس ما قدمت لغد ; ولتنظر نفس ماذا تريد . . أتريد

أن تقعد عن تكاليف الإيمان وأن تحصر همها كله في هذه الأرض وأن تعيش لهذه الدنيا وحدها ؟ أم تريد أن تتطلع إلى أفق أعلى وإلى اهتمامات أرفع وإلى حياة أكبر من هذه الحياة؟ . . مع تساوي هذا الهم وذاك فيما يختص بالعمر والحياة؟ !

﴿ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها . ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ﴾ .

(178/133)

وشتان بين حياة وحياة ! وشتان بين اهتمام واهتمام ! - مع اتحاد النتيجة بالقياس إلى العمر والأجل - والذي يعيش لهذه الأرض وحدها ويريد ثواب الدنيا وحدها . . إنما يحيا حياة الديدان والدواب والأنعام ! ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب . والذي يتطلع إلى الأفق الآخر . . إنما يحيا حياة "الإنسان" الذي كرمه الله واستخلفه وأفرده بهذا المكان ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب . . ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ﴾ . .

﴿ وسنجزي الشاكرين ﴾ . .

الذين يدركون نعمة التكريم الإلهي للإنسان فيرتفعون عن مدارج الحيوان ; ويشكرون الله على تلك النعمة فينهضون بتبعات الإيمان . .

وهكذا يقرر القرآن حقيقة الموت والحياة وحقيقة الغاية التي ينتهي إليها الأحياء وفق ما يريدونه لأنفسهم من اهتمام قريب كاهتمام الدود أو اهتمام بعيد كاهتمام الإنسان ! وبذلك ينقل النفس من الإنشغال بالخوف من الموت والجزع من التكاليف - وهي لا تملك شيئاً في شأن الموت والحياة - إلى الإنشغال بما هو أنفع للنفس في الحقل الذي تملكه وتملك فيه الاختيار . فتختار الدنيا أو تختار الآخرة . وتنال من جزاء الله ما تختار !

ثم يضرب الله للمسلمين المثل من إخوانهم المؤمنين قبلهم . من موكب الإيمان اللاحب الممتد على طول الطريق ، الضارب في جذور الزمان . . من أولئك الذين صدقوا في إيمانهم ، وقاتلوا مع أنبيائهم ، فلم يجزعوا عند الابتلاء ; وتأدبوا - وهم مقدمون على الموت - بالأدب الإيماني في هذا المقام . . مقام الجهاد . . فلم يزيدوا على أن يستغفروا ربهم ; وأن يجسموا أخطاءهم فيروها " إسرافاً " في أمرهم .

وأن يطلبوا من ربهم الثبات والنصر على الكفار . . وبذلك نالوا ثواب الدارين جزاء إحسانهم في أدب الدعاء وإحسانهم في موقف الجهاد . وكانوا مثلاً يضربه الله للمسلمين :

﴿ وكأي من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا . والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ; وثبت أقدامنا ; وانصرنا على القوم الكافرين . فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . والله يحب المحسنين ﴾ . .

لقد كانت الهزيمة في " أحد " ، هي أول هزيمة تصدم المسلمين ، الذين نصرهم الله ببدر وهم ضعاف قليل; فكأنما وقر في نفوسهم أن النصر في كل موقعة هو السنة الكونية . فلما أن صدمتهم أحد ، فوجئوا بالابتلاء كأنهم لا ينتظرونه !

ولعله لهذا طال الحديث حول هذه الواقعة في القرآن الكريم . واستطرد السياق يأخذ المسلمين بالتأسية تارة ، وبالاستنكار تارة وبالتقرير تارة وبالمثل تارة تربية لنفوسهم وتصحيحاً لتصورهم ، وإعداداً لهم . فالطريق أمامهم طويل والتجارب أمامهم شاقة والتكاليف عليهم باهظة والأمر الذي يندبون له عظيم .

والمثل الذي يضربه لهم هنا مثل عام ، لا يحدد فيه نبياً ولا يحدد فيه قوماً . إنما يربطهم بموكب الإيمان; ويعلمهم أدب المؤمنين; ويصور لهم الابتلاء كأنه الأمر المطرد في كل دعوة وفي كل دين; ويربطهم بأسلافهم من اتباع الأنبياء ; ليقرر في حسهم قرابة المؤمنين للمؤمنين; ويقر في أخلادهم أن أمر العقيدة كله واحد . وإنهم كتيبة في الجيش الإيماني الكبير :

﴿ وكأي من نبي قاتل معه ربيون كثير . فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما

استكانوا ﴾ . .

. . وكم من نبي قاتلت معه جماعات كثيرة . فما ضعفت نفوسهم لما أصابهم من البلاء والكرب والشدة والجراح . وما ضعفت قواهم عن الاستمرار في الكفاح ، وما استسلموا للجزع ولا للأعداء . . فهذا هو شأن المؤمنين المنافحين عن عقيدة ودين . .

﴿ والله يحب الصابرين ﴾ . .

(180/133)

الذين لا تضعف نفوسهم ولا تتضعضع قواهم ولا تلين عزائمهم ولا يستكينون أو يستسلمون . . والتعبير بالحب من الله للصابرين . له وقعه . وله إيحاؤه . فهو الحب الذي يأسو الجراح ويمسح على القرح ويعوض ويربو عن الضر والقرح والكفاح المرير !

وإلى هنا كان السياق قد رسم الصورة الظاهرة لهؤلاء المؤمنين في موقفهم من الشدة والابتلاء . فهو يمضي بعدها ليرسم الصورة الباطنة لنفوسهم ومشاعرهم . صورة الأدب في حق الله وهم يواجهون الهول الذي يذهل النفوس ويقيدها بالخطر الراهق لا تتعداه . ولكنه لا يذهل نفوس المؤمنين عن التوجه إلى الله . . لا لتطلب النصر أول ما تطلب – وهو ما يتبادر عادة إلى النفوس – ولكن لتطلب العفو والمغفرة ، ولتعترف بالذنب والخطيئة قبل

أن تطلب الثبات والنصر على الأعداء :

﴿ وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

.

إنهم لم يطلبوا نعمة ولا ثراء . بل لم يطلبوا ثواباً ولا جزاء . . لم يطلبوا ثواب الدنيا ولا ثواب الآخرة . لقد كانوا أكثر أدباً مع الله وهم يتوجهون إليه بينما هم يقاتلون في سبيله . فلم يطلبوا منه – سبحانه – إلا غفران الذنوب وتثبيت الأقدام . . والنصر على الكفار . فحتى النصر لا يطلبونه لأنفسهم إنما يطلبونه هزيمة للكفر وعقوبة للكفار . . إنه الأدب اللائق بالمؤمنين في حق الله الكريم .

وهؤلاء الذين لم يطلبوا لأنفسهم شيئاً أعطاهم الله من عنده كل شيء . أعطاهم من عنده كل ما يتمناه طلاب الدنيا وزيادة . وأعطاهم كذلك كل ما يتمناه طلاب الآخرة ويرجونه :

﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ﴾ . .

وشهد لهم – سبحانه – بالإحسان . فقد أحسنوا الأدب وأحسنوا الجهاد وأعلن حبه لهم وهو أكبر من النعمة وأكبر من الثواب :

﴿ والله يحب المحسنين ﴾ . .

وهكذا تنتهي هذه الفقرة في الاستعراض ; وقد تضمنت تلك الحقائق الكبيرة في التصور الإسلامي . وقد أدت هذا الدور في تربية الجماعة المسلمة . وقد ادخرت هذا الرصيد للأمة المسلمة في كل جيل . .

ثم يمضي السياق خطوة أخرى في استعراض أحداث المعركة ; واتخاذها محوراً للتعقيبات يتوخى بها تصحيح التصور وتربية الضمائر والتحذير من مزالق الطريق والتنبيه إلى ما يحيط بالجماعة المسلمة من الكيد وما يبيته لها أعداؤها المتربصون :

ولقد كانت الهزيمة في أحد مجالاً لدسائس الكفار والمنافقين واليهود في المدينة . وكانت المدينة لم تخلص بعد للإسلام ; بل لا يزال المسلمون فيها نبتة غريبة إلى حد كبير . نبتة غريبة أحاطتها " بدر " بسياج من الرهبة بما كان فيها من النصر الأبلج . فلما كانت الهزيمة في أحد تغير الموقف إلى حد كبير ; وسنحت الفرصة لهؤلاء الأعداء المتربصين أن يظهروا أحقادهم وأن ينفثوا سمومهم ; وأن يجدوا في جو الفجائع التي دخلت كل بيت من بيوت المسلمين - وبخاصة بيوت الشهداء ومن أصابتهم الجراح المثخنة - ما يساعد على ترويج الكيد والدس والبلبلة في الأفكار والصفوف .

وفي هذه الفقرة التالية من الاستعراض القرآني الموجه - وهي تمثل جسم المعركة وأضخم مشاهدها - نسمع الله سبحانه يدعو الذين آمنوا ليحذرهم من طاعة الذين كفروا ;

ونسمعه - سبحانه - يعدهم النصر على عدوهم وإلقاء الرعب في قلبه ; ويذكرهم بالنصر الذي حققه لهم في أول المعركة حسب وعده لهم ; والذي إنما أضاعوه هم بضعفهم ونزاعهم وخلافهم عن أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم يستحضر مشهد المعركة بشطريه في صورة فائضة بالحيوية والحركة . ثم ما أعقب الهزيمة والفزع من إنزال الطمأنينة في قلوب المؤمنين منهم ; بينما القلق والحيرة والحسرة تأكل قلوب المنافقين الذين ساء ظنهم بالله سبحانه .

(182/133)

ويكشف لهم كذلك عن جانب من حكمته الخفية وتدبيره اللطيف في سير الأحداث سيرتها تلك مع تقرير حقيقة قدر الله في آجال العباد . ويحذرهم في نهاية هذه الفقرة من ضلال التصورات التي يشيعها الكفار في قضية الموت والاستشهاد . ويردهم إلى حقيقة البعث التي ينتهي إليها الناس . . ماتوا أو قتلوا . . وإلى أنهم مرجوعون إلى الله على كل حال :

(183/133)

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . . بل الله مولاكم وهو خير الناصرين . سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ; ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين ! ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون : منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين . إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم ; فأثابكم غماً بغم لكي لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون : هل لنا من الأمر من شيء ؟ قل : إن الأمر كله لله . يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك . يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا . قل : لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم . وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم ; والله عليم بذات الصدور . إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ; ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم . يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم - إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزًّى - : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم . والله

يحيي ويميت والله بما تعملون بصير . ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ﴾ . .

(184/133)

وحين ننظر في هذه المجموعة من الآيات نظرة فاحصة نجدها قد ضمت جوانحها على حشد ضخم من المشاهد الفائضة بالحيوية ومن الحقائق الكبيرة الأصيلة في التصور الإسلامي وفي الحياة الإنسانية . وفي السنن الكونية . . نجدها تصور المعركة كلها بلمسات سريعة حية متحركة عميقة فلا تدع منها جانباً إلا سجلته تسجيلاً يستجيش المشاعر والخواطر; وهي بدون شك أشد حيوية وأشد استحضاراً للمعركة بجوها وملابساتها ووقائعها وبكل الخلجات النفسية والحركات الشعورية المصاحبة لها .

. من كل تصوير آخر ورد في روايات السيرة - على طولها وتشعبها - ثم نجدها تضم جوانحها على ذلك الحشد من الحقائق في صورتها الحية الفاعلة في النفوس البانية للتصور الصحيح .

وما من شك أن احتشاد هذه المشاهد كلها وهذه الحقائق كلها في هذا القدر من الألفاظ والعبارات - مع حيويتها وحركتها وإيحائها على هذا النحو - أمر غير معهود في التعبير

البشري . يدرك ذلك من يدركون أسرار الأساليب وطاقات الأداء وبخاصة من يعالجون منهم التعبير ويعانون أسرار الأداء !

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ . .

لقد انتهز الكفار والمنافقون واليهود في المدينة ما أصاب المسلمين من الهزيمة والقتل والقرح ليثبطوا عزائمهم ويخوفوهم عاقبة السير مع محمد ويصوروا لهم مخاوف القتال وعواقب الاشتباك مع مشركي قريش وحلفائهم . . وجو الهزيمة هو أصلح الأجواء لبلبلة القلوب وخلخلة الصفوف وإشاعة عدم الثقة في القيادة; والتشكيك في جدوى الإصرار على المعركة مع الأقوياء; وتزيين الانسحاب منها ومسالمة المنتصرين فيها ! مع إثارة المواجع الشخصية والآلام الفردية; وتحويلها كلها لهدم كيان الجماعة ثم لهدم كيان العقيدة ثم للاستسلام للأقوياء الغالبين !

(185/133)

ومن ثم يحذر الله الذين آمنوا أن يطيعوا الذين كفروا . فطاعة الذين كفروا عاقبتها الخسارة المؤكدة وليس فيها ربح ولا منفعة . فيها الانقلاب على الأعقاب إلى الكفر . فالمؤمن إما أن

يمضي في طريقه يجاهد الكفر والكفار ويكافح الباطل والمبطلين وإما أن يرتد على عقبيه كافراً – والعياذ بالله – ومحال أن يقف سلبياً بين بين محافظاً على موقفه ومحتفظاً بدينه . . إنه قد يخيل إليه هذا . . يخيل إليه في أعقاب الهزيمة وتحت وطأة الجرح والقرح أنه مستطيع أن ينسحب من المعركة مع الأقوياء الغالبين وأن يسالمهم ويطيعهم وهو مع هذا محتفظ بدينه وعقيدته وإيمانه وكيانه ! وهو وهم كبير . فالذي لا يتحرك إلى الأمام في هذا المجال لا بد أن يرتد إلى الوراء والذي لا يكافح الكفر والشر والضلال والباطل والطغيان لا بد أن يتخاذل ويتقهقر ويرتد على عقبيه إلى الكفر والشر والضلال والباطل والطغيان ! والذي لا تعصمه عقيدته ولا يعصمه إيمانه من طاعة الكافرين والاستماع إليهم والثقة بهم يتنازل – في الحقيقة – عن عقيدته وإيمانه منذ اللحظة الأولى . . إنها الهزيمة الروحية أن يركن صاحب العقيدة إلى أعداء عقيدته وأن يستمع إلى وسوستهم وأن يطيع توجيهاتهم . . الهزيمة بادىء ذي بدء . فلا عاصم له من الهزيمة في النهاية والارتداد على عقبيه إلى الكفر ولو لم يحس في خطواته الأولى أنه في طريقه إلى هذا المصير البائس . . إن المؤمن يجد في عقيدته وفي قيادته غناء عن مشورة أعداء دينه وأعداء قيادته .

فإذا استمع إلى هؤلاء مرة فقد سار في طريق الارتداد على الأعقاب . . حقيقة فطرية وحقيقة واقعية ينبه الله المؤمنين لها ويحذرهم إياها وهو يناديهم باسم الإيمان :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين

﴾ . .

وأية خسارة بعد خسارة الارتداد على الأعقاب من الإيمان إلى الكفر ؟ وأي ربح يتحقق بعد خسارة الإيمان ؟

(186/133)

وإذا كان مبعث الميل إلى طاعة الذين كفروا هو رجاء الحماية والنصرة عندهم فهو وهم يضرب السياق صفحا عنه ليذكرهم بحقيقة النصرة والحماية :

﴿ بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ .

فهذه هي الجهة التي يطلب المؤمنون عندها الولاية ويطلبون عندها النصرة . ومن كان الله مولاه فما حاجته بولاية أحد من خلقه ؟ ومن كان الله ناصره فما حاجته بنصرة أحد من العبيد ؟

ثم يمضي السياق يثبت قلوب المسلمين ويبشرهم بإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم بسبب إشراكهم بالله ما لم ينزل به سلطاناً ولم يجعل له قوة وقدرة . وذلك فوق عذاب الآخرة المهيأ للظالمين :

﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً . ومأواهم

النار وبئس مثوى الظالمين ﴾ . .

والوعد من الله الجليل القادر القاهر بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا كفيل بنهاية المعركة وضمان لهزيمة أعدائه ونصر أوليائه . .

وهو وعد قائم في كل معركة يلتقي فيها الكفر بالإيمان . فما يلقى الذين كفروا الذين آمنوا حتى يخافوهم ويتحرك الرعب الملقى من الله في قلوبهم . ولكن المهم أن توجد حقيقة الإيمان في قلوب المؤمنين . حقيقة الشعور بولاية الله وحده والثقة المطلقة بهذه الولاية والتجرد من كل شائبة من شك في أن جند الله هم الغالبون وأن الله غالب على أمره وأن الذين كفروا غير معجزين في الأرض ولا سابقين لله سبحانه ! والتعامل مع وعد الله هذا مهما تكن ظواهر الأمور تخالفه فوعد الله أصدق مما تراه عيون البشر وتقدره عقولهم !

إنه الرعب لأن قلوبهم خاوية من السند الصحيح . لأنهم لا يستندون إلى قوة ولا إلى ذي قوة . إنهم أشركوا بالله آلهة لا سلطان لها لأن الله لم يمنحها سلطاناً .

والتعبير : ﴿ ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ ذو معنى عميق وهو يصادفنا في القرآن كثيراً . مرة توصف به الآلهة المدعاة ، ومرة توصف به العقائد الزائفة . . وهو يشير إلى حقيقة أساسية عميقة :

إن أية فكرة أو عقيدة أو شخصية أو منظمة . . إنما تحيا وتعمل وتؤثر بمقدار ما تحمل من قوة كامنة وسلطان قاهر . هذه القوة تتوقف على مقدار ما فيها من "الحق" أي بمقدار ما فيها من توافق مع القاعدة التي أقام الله عليها الكون ومع سنن الله التي تعمل في هذا الكون . وعندئذ يمنحها الله القوة والسلطان الحقيقيين الفاعلين المؤثرين في هذا الوجود . وإلا فهي زائفة باطلة ضعيفة واهية مهما بدا فيها من قوة والتماع وانتفاش !

والمشركون يشركون مع الله آلهة أخرى - في صور شتى - ويقوم الشرك ابتداء على إعطاء غير الله - سبحانه - شيئاً ما من خصائص الألوهية ومظاهرها وفي مقدمة هذه الخصائص حق التشريع للعباد في شؤون حياتهم كلها ; وحق وضع القيم التي يتحاكم إليها العباد في سلوكهم وفي مجتمعاتهم; وحق الاستعلاء على العباد وإلزامهم بالطاعة لتلك التشريعات والاعتبار لهذه القيم .

. ثم تأتي مسألة العبادة الشعائرية ضمن إعطاء هذه الخصائص لغير الله سبحانه وواحدة منها !

فماذا تحمل هذه الآلهة من الحق الذي أقام الله عليه الكون ؟ إن الله الواحد خلق هذا الكون لينتسب إلى خالقه الواحد ; وخلق هذه الخلائق لتقر له بالعبودية وحده بلا شريك ; ولتتلقى منه الشريعة والقيم بلا منازع; ولتعبده وحده حق عبادته بلا أنداد . . فكل ما

يخرج على قاعدة التوحيد في معناها الشامل فهو زائف باطل مناقض للحق الكامن في بنية الكون. ومن ثم فهو واهٍ هزيل لا يحمل قوة ولا سلطاناً ولا يملك أن يؤثر في مجرى الحياة; بل لا يملك عناصر الحياة ولا حق الحياة!

وما دام أولئك المشركون يشركون بالله ما لم ينزل به سلطاناً; من الآلهة والعقائد والتصورات فهم يرتكنون إلى ضعف وخواء وهم أبداً خوارون ضعفاء; وهم أبداً في رعب حيثما التقوا بالمؤمنين المرتكنين إلى الحق ذي السلطان..

(188/133)

وإننا لنجد مصداق هذا الوعد كلما التقى الحق والباطل.. وكم من مرة وقف الباطل مدججاً بالسلاح أمام الحق الأعزل. ومع ذلك كان الباطل يحتشد احتشاد المرعوب ويرتجف من كل حركة وكل صوت - وهو في حشده المسلح المحشود! فأما إذا أقدم الحق وهاجم فهو الذعر والفزع والشتات والاضطراب في صفوف الباطل; ولو كانت له الحشود وكان للحق القلة تصديقاً لوعد الله الصادق:

﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾..

ذلك في الدنيا. فأما في الآخرة.. فهناك المصير الحزن البائس الذي يليق بالظالمين.

﴿ ومأواهم النار . وبئس مثوى الظالمين ! ﴾ . .

وهنا يردهم السياق إلى مصداق وعد الله هذا في غزوة أحد ذاتها . فقد كان لهم النصر الساحق في أوائلها . ولقد استحر القتل في المشركين حتى ولوا الأدبار وتركوا وراءهم الغنائم وسقط لواؤهم فلم تمتد يد لرفعه حتى رفعته لهم امرأة . . ولم ينقلب النصر هزيمة للمسلمين إلا حين ضعفت نفوس الرماة أمام إغراء الغنائم; وتنازعوا فيما بينهم وخالفوا عن أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نبيهم وقائدهم . . وهنا يردهم السياق إلى صميم المعركة ومشاهدها ومواقفها وأحداثها وملابساتها في حيوية عجيبة :

﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم – من بعد ما أراكم ما تحبون : منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة .

(189/133)

ثم صرفكم عنهم ليبتليكم . ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين . إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غماً بغم لكي لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم . والله خبير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم امنة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون :

هل لنا من الأمر من شيء ؟ قل : إن الأمر كله لله . يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك . يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا . قل : لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم . وليبتلي الله ما في صدوركم . وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور . إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا . ولقد عفا الله عنهم . إن الله غفور حليم ﴾ . .

إن التعبير القرآني هنا ليرسم مشهداً كاملاً لمسرح المعركة ولتداول النصر والهزيمة . مشهداً لا يترك حركة في الميدان ولا خاطرة في النفوس ولا سمة في الوجوه ولا خالجة في الضمائر إلا ويثبتها . . وكأن العبارات شريط مصور يمر بالبصر ويحمل في كل حركة صوراً جديدة نابضة . وبخاصة حين يصور حركة الإصعاد في الجبل والهروب في دهش وذعر ودعاء الرسول – صلى الله عليه وسلم – للفارين المرتدين عن المعركة المصعدين للهرب . يصحب ذلك كله حركة النفوس وما يدور فيها من خوالج وخواطر وانفعالات ومطامع . . ومع هذا الحشد من الصور الحية المتحركة النابضة تلك التوجيهات والتقريرات التي يتميز بها أسلوب القرآن ومنهج القرآن التربوي العجيب :

﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ﴾ . .

وكان ذلك في مطالع المعركة حيث بدأ المسلمون يحسون المشركين أي يحصدون حسهم أو

يستأصلون شأفتهم . قبل أن يلهيهم الطمع في الغنيمة . وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد قال لهم : " لكم النصر ما صبرتم " فصدقهم الله وعده على لسان نبيه .

(190/133)

﴿ حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون : منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ . .

وهو تقرير لحال الرماة . وقد ضعف فريق منهم أمام إغراء الغنيمة ; ووقع النزاع بينهم وبين من يرون الطاعة المطلقة لأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وانتهى الأمر إلى العصيان . بعد ما رأوا بأعينهم طلائع النصر الذي يحبونه . فكانوا فريقين : فريقاً يريد غنيمة الدنيا وفريقاً يريد ثواب الآخرة . وتوزعت القلوب فلم يعد الصف وحدة ولم يعد الهدف واحداً . وشابت المطامع جلاء الإخلاص والتجرد الذي لا بد منه في معركة العقيدة . فمعركة العقيدة ليست ككل معركة .

إنها معركة في الميدان ومعركة في الضمير . ولا انتصار في معركة الميدان دون الانتصار في معركة الضمير . إنها معركة لله فلا ينصر الله فيها إلا من خلصت نفوسهم له .

وما داموا يرفعون راية الله وينتسبون إليها فإن الله لا يمنحهم النصر إلا إذا محصهم ومحضهم

للراية التي رفعوها ; كي لا يكون هناك غش ولا دخل ولا تمويه بالراية . ولقد يغلب المبطلون الذين يرفعون راية الباطل صريحة في بعض المعارك - لحكمة يعلمها الله - أما الذين يرفعون راية العقيدة ولا يخلصون لها إخلاص التجرد فلا يمنحهم الله النصر أبداً حتى يبتليهم فيتمحصوا ويتمحضوا . . وهذا ما يريد القرآن أن يجلوه للجماعة المسلمة بهذه الإشارة إلى موقفهم في المعركة وهذا ما أراد الله - سبحانه - أن يعلمه للجماعة المسلمة وهي تتلقى الهزيمة المريرة والقرح الأليم ثمرة لهذا الموقف المضطرب المتأرجح !

﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ . .

(191/133)

والقرآن يسلط الأضواء على خفايا القلوب التي ما كان المسلمون أنفسهم يعرفون وجودها في قلوبهم . . عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يريد الدنيا ، حتى نزل فينا يوم أحد : ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ . . وبذلك يضع قلوبهم أمامهم مكشوفة بما فيها ; ويعرفهم من أين جاءتهم الهزيمة ليتقوها !

وفي الوقت ذاته يكشف لهم عن طرف من حكمة الله وتدبيره ، وراء هذه الآلام التي

تعرضوا لها ; ووراء هذه الأحداث التي وقعت بأسبابها الظاهرة :

﴿ ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ . .

لقد كان هناك قدر الله وراء أفعال البشر . فلما أن ضعفوا وتنازعوا وعصوا صرف الله قوتهم وبأسهم وانتباههم عن المشركين وصرف الرماة عن ثغرة الجبل وصرف المقاتلين عن الميدان فلاذوا بالفرار . . وقع كل هذا مرتباً على ما صدر منهم ; ولكن مدبراً من الله ليبتليهم . . ليبتليهم بالشدة والخوف والهزيمة والقتل والقرح ; وما يتكشف عنه هذا كله من كشف مكنونات القلوب ومن تمحيص النفوس وتمييز الصفوف - كما سيجيء .

وهكذا تقع الأحداث مرتبة على أسبابها وهي في الوقت ذاته مدبرة بحسابها . بلا تعارض بين هذا وذاك . فلكل حادث سبب ووراء كل سبب تدبير . . من اللطيف الخبير . .

﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ . .

عفا عما وقع منكم من ضعف ومن نزاع ومن عصيان ; وعفا كذلك عما وقع منكم من فرار وانقلاب وارتداد . . عفا عنكم فضلاً منه ومنة وتجاوزاً عن ضعفكم البشري الذي لم تصاحبه نية سيئة ولا إصرار على الخطيئة . . عفا عنكم لأنكم تخطئون وتضعفون في دائرة الإيمان بالله والاستسلام له وتسليم قيادكم لمشيئته :

﴿ والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ . .

ومن فضله عليهم أن يعفو عنهم ما داموا سائرين على منهجه مقرين بعبوديتهم له ; لا يدعون

من خصائص الألوهية شيئاً لأنفسهم ولا يتلقون نهجهم ولا شريعتهم ولا قيمهم ولا موازينهم إلا منه .

(192/133)

. فإذا وقعت منهم الخطيئة وقعت عن ضعف وعجز أو عن طيش ودفعة . . فيتلقاهم عفو الله بعد الابتلاء والتمحيص والخلاص . .

ويستحضر صورة الهزيمة حية متحركة :

﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم في أخراكم ﴾ . .

كي يعمق وقع المشهد في حسهم ; ويثير الخجل والحياء من الفعل ومقدماته التي نشأ عنها من الضعف والتنازع والعصيان . . والعبارة ترسم صورة حركتهم الحسية وحركتهم النفسية في ألفاظ قلائل . . فهم مصعدون في الجبل هرباً في اضطراب ورعب ودهش لا يلتفت أحد منهم إلى أحد ! ولا يجيب أحد منهم داعي أحد ! والرسول - صلى الله عليه وسلم - يدعوهم ، ليطمئنهم على حياته بعد ما صاح صائح : إن محمداً قد قتل فزلزل ذلك قلوبهم وأقدامهم . . إنه مشهد كامل في ألفاظ قلائل . .

وكانت النهاية أن يجزيهم الله على الغم الذي تركوه في نفس الرسول - صلى الله عليه وسلم

- بفرارهم غماً يملأ نفوسهم على ما كان منهم ، وعلى تركهم رسولهم الحبيب يصيبه ما أصابه - وهو ثابت دونهم وهم عنه فارون - ذلك كي لا يحفلوا شيئاً فاتهم ولا أذى أصابهم . فهذه التجربة التي مرت بهم وهذا الألم الذي أصاب نبيهم - وهو أشق عليهم من كل ما نزل بهم - وذلك الندم الذي ساور نفوسهم وذلك الغم الذي أصابهم . . كل ذلك سيصغر في نفوسهم كلّ ما يفوتهم من عرض وكل ما يصيبهم من مشقة :

﴿ فأثابكم غماً بغم لكي لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ﴾ . .

والله المطلع على الخفايا يعلم حقيقة أعمالكم ودوافع حركاتكم :

﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ . .

ولقد أعقب هول الهزيمة وذعرها وهرجها ومرجها سكون عجيب . سكون في نفوس المؤمنين الذين ثابوا إلى ربهم وثابوا إلى نبيهم . لقد شملهم نعاس لطيف يستسلمون إليه مطمئنين !

والتعبير عن هذه الظاهرة العجيبة يشف ويرق وينعم حتى ليصور بجرسه وظله ذلك الجو المطمئن الوديع :

﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم ﴾ . .

وهي ظاهرة عجيبة تشي برحمة الله التي تحف بعباده المؤمنين ; فالنعاس حين يلم بالمجهدين المرهقين المفزعين ولو لحظة واحدة يفعل في كيانهم فعل السحر ويردهم خلقاً جديداً ويسكب في قلوبهم الطمأنينة كما يسكب في كيانهم الراحة . بطريقة مجهولة الكنه والكيف ! أقول هذا وقد جربته في لحظة كرب وشدة . فأحسست فيه رحمة الله الندية العميقة بصورة تعجز عن وصفها العبارة البشرية القاصرة !

روى الترمذي والنسائي والحاكم من حديث حماد ابن سلمة عن ثابت عن أنس عن أبي طلحة قال : " رفعت رأسي يوم أحد وجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد إلا يميل تحت جحفته من النعاس " .

وفي رواية أخرى عن أبي طلحة : " غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه " . .

أما الطائفة الأخرى; فهم ذوو الإيمان المزعزع الذين شغلتهم أنفسهم وأهمتهم والذين لم يتخلصوا من تصورات الجاهلية ولم يسلموا أنفسهم كلها لله خالصة ولم يستسلموا بكليتهم لقدره ولم تطمئن قلوبهم إلى أن ما أصابهم إنما هو ابتلاء للتمحيص وليس تخلياً من الله عن أوليائه لأعدائه ولا قضاء منه – سبحانه – للكفر والشر والباطل بالغلبة الأخيرة والنصر الكامل :

﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية . يقولون : هل لنا من الأمر من شيء ؟ ﴾ . .

إن هذه العقيدة تعلم أصحابها – فيما تعلم – أن ليس لهم في أنفسهم شيء فهم كلهم لله ; وأنهم حين يخرجون للجهاد في سبيله يخرجون له ويتحركون له ويقاتلون له بلا هدف آخر لذواتهم في هذا الجهاد وأنهم يسلمون أنفسهم لقدره فيتلقون ما يأتيهم به هذا القدر في رضى وفي تسليم كائناً هذا القدر ما يكون .

(194/133)

فأما الذين تهمهم أنفسهم وتصبح محور تفكيرهم وتقديرهم ومحور اهتمامهم وانشغالهم . . فهؤلاء لم تكتمل في نفوسهم حقيقة الإيمان . ومن هؤلاء كانت تلك الطائفة الأخرى التي يتحدث عنها القرآن في هذا الموضع . طائفة الذين شغلتهم أنفسهم وأهمتهم فهم في قلق وفي أرجحة يحسون أنهم مضيعون في أمر غير واضح في تصورهم ويرون أنهم دفعوا إلى المعركة دفعاً ولا إرادة لهم فيها ; وهم مع ذلك يتعرضون للبلاء المرير ويؤدون الثمن فادحاً من القتل والقرح والألم . . وهم لا يعرفون الله على حقيقته فهم يظنون بالله غير الحق كما تظن الجاهلية . ومن الظن غير الحق بالله أن يتصوروا أنه – سبحانه – مضيعهم في هذه المعركة

التي ليس لهم من أمرها شيء وإنما دفعوا إليها دفعاً ليموتوا ويجرحوا والله لا ينصرهم ولا ينقذهم ; إنما يدعهم فريسة لأعدائهم ويتساءلون :

﴿ هل لنا من الأمر من شيء ؟ ﴾ .

وتتضمن قولتهم هذه الاعتراض على خطة القيادة والمعركة . . ولعلهم ممن كان رأيهم عدم الخروج من المدينة ; ممن لم يرجعوا مع عبد الله بن أبي . . ولكن قلوبهم لم تكن قد استقرت واطمأنت . .

وقبل أن يكمل السياق عرض وساوسهم وظنونهم ، يبادر بتصحيح الأمر وتقرير الحقيقة فيما يتساءلون فيه ويرد على قولتهم : ﴿ هل لنا من الأمر من شيء ؟ ﴾ .

﴿ قل : إن الأمر كله لله ﴾ . .

فلا أمر لأحد . لا لهم ولا لغيرهم . ومن قبل قال الله لنبيه – صلى الله عليه وسلم – ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ . فأمر هذا الدين والجهاد لإقامته وتقرير نظامه في الأرض وهداية القلوب له . . كلها من أمر الله وليس للبشر فيها من شيء إلا أن يؤدوا واجبهم ويفوا ببيعتهم ثم يكون ما يشاؤه الله كيف يكون !

ويكشف كذلك خبيئة نفوسهم قبل أن يكمل عرض وساوسهم وظنونهم :

﴿ يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ﴾ .

فنفوسهم ملأى بالوساوس والهواجس حافلة بالاعتراضات والاحتجاجات ; وسؤالهم :

﴿ هل لنا من الأمر من شيء ﴾ . . يخفي وراءه شعورهم بأنهم دفعوا إلى مصير لم يختاروه ! وأنهم ضحية سوء القيادة وأنهم لو كانوا هم الذين يديرون المعركة ما لاقوا هذا المصير .

﴿ يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا ﴾ . .

وهو الهاجس الذي يجيش في النفوس التي لم تخلص للعقيدة حينما تصطدم في موقعة بالهزيمة وحينما تعاني آلام الهزيمة ! حين ترى الثمن أفدح مما كانت تظن ; وأن الثمرة أشد مرارة مما كانت تتوقع ; وحين تفتش في ضمائرها فلا ترى الأمر واضحاً ولا مستقراً ; وحين تتخيل أن تصرف القيادة هو الذي ألقى بها في هذه المهلكة وكانت في نجوة من الأمر لو كان أمرها في يدها ! وهي لا يمكن - بهذا الغبش في التصور - أن ترى يد الله وراء الأحداث ولا حكمته في الابتلاء . إنما المسألة كلها - في اعتبارها - خسارة في خسارة ! وضياع في ضياع !

هنا يجيئهم التصحيح العميق للأمر كله . لأمر الحياة والموت . ولأمر الحكمة الكامنة وراء

الابتلاء :

﴿ قل : لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم . وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور ﴾ . .

قل لو كنتم في بيوتكم ; ولم تخرجوا للمعركة تلبية لنداء القيادة وكان أمركم كله لتقديركم . . لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم . . إن هنالك أجلاً مكتوباً لا يستقدم ولا يستأخر . وإن هنالك مضجعاً مقسوماً لا بد أن يجيء إليه صاحبه فيضجع فيه ! فإذا حم الأجل سعى صاحبه بقدميه إليه وجاء إلى مضجعه برجليه لا يسوقه أحد إلى أجله المرسوم ولا يدفعه أحد إلى مضجعه المقسوم !

(196/133)

ويا للتعبير العجيب . . ﴿ إلى مضاجعهم ﴾ . . فهو مضجع إذن ذلك الرمس الذي تستريح فيه الجنوب ، وتسكن فيه الخطى ، وينتهي إليه الضاربون في الأرض . . مضجع يأتون إليه بدافع خفي لا يدركونه ولا يملكونه ، إنما هو يدركهم ويملكهم ; ويتصرف في أمرهم كما يشاء . والاستسلام له أروح للقلب وأهدأ للنفس وأريح للضمير !

إنه قدر الله . ووراءه حكمته :

﴿ وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم ﴾ . .

فليس كالمحنة محك يكشف ما في الصدور ويصهر ما في القلوب فينفي عنها الزيف والرياء ويكشفها على حقيقتها بلا طلاء . . فهو الابتلاء والاختبار لما في الصدور ليظهر على حقيقته وهو التطهير والتصفية للقلوب فلا يبقى فيها دخل ولا زيف . وهو التصحيح والتجلية للتصور ; فلا يبقى فيه غبش ولا خلل :

﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ .

وذات الصدور هي الأسرار الخفية الملازمة للصدور المختبئة فيها المصاحبة لها التي لا تبارحها ولا تتكشف في النور ! والله عليم بذات الصدور هذه . ولكنه - سبحانه - يريد أن يكشفها للناس ويكشفها لأصحابها أنفسهم فقد لا يعلمونها من أنفسهم حتى تنفضها الأحداث وتكشفها لهم ! . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 1 صـ 457.497 ﴾

(197/133)

AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman
Bin Mohammed
AL-QAMMASH

7